الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 8 - Issue 85 - February 2006

مجلة شهرية . العدد الخامس والثمانون . السنة الثامنة . فبراير ٢٠٠٦ . الثمن عشرة جنيهات

إفساد الفقراء

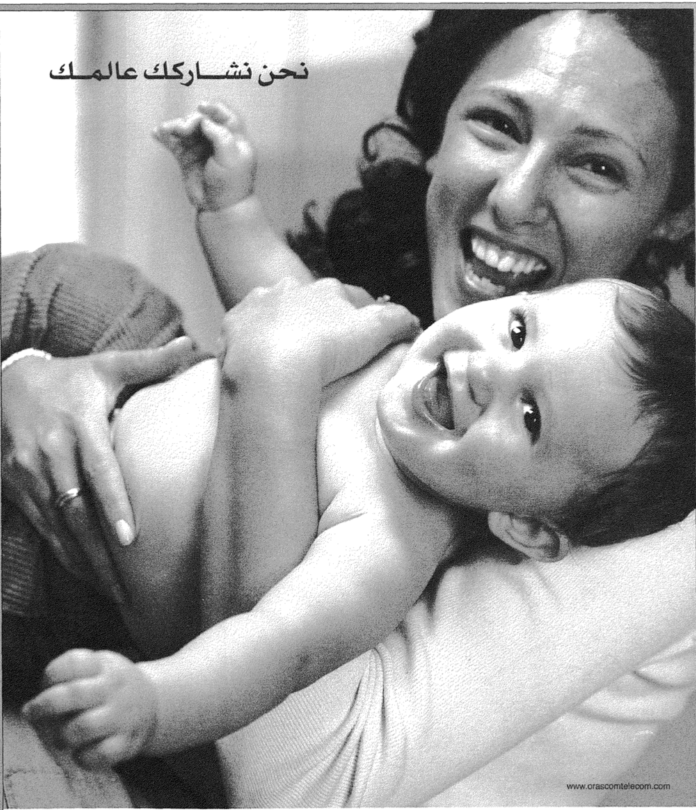
أمينة شفيق

شهادات حول " أولاد حارتنا " /كمال أبوالمجد ■ جنود الإمام الغائب! /تيموثي جارتون آش ■ حوار الطرشان بين سوريا ولبنان /سلامة أحمد سلامة ■ بحثاً عن الهارموني /يحيى الرخاوي

وجهات نظر.. هيكل .. مصر /خيري منصور، أيمن الصياد




دار الشروق
توفيق الحكيم
الأعمال الكاملة
تطلب من مكتبات الشروق وأجنحتها بمعرض القاهرة الدولى للكتاب
القاهرة : ١ ميدان طلعت حرب - وسط البلد ت: ٣٩٣٠٦٤٣ - ٣٩١٢٤٨٠
مدينة نصر: ٨ سيبويه المصرى - رابعة العدوية ت: ٤٠٢٣٣٩٩
الجيزة: مبنى فرست مول - ٣٥ شارع الجيزة أمام حديقة الحيوان ت: ٥٧٣٥٠٣٥ - ٥٦٨٥١٨٧
الاسكندرية: مركز سيتى سنتر التجارى ت: ٣٩٧٠١٤٦ - ٠١٠/١٦٣٣٧٠٨
www.shorouk.com e-mail: bookstores@shorouk.com



نحن نشـــاركك عالمــك
www.orascomtelecom.com

السنة الثامنة
العدد الخامس والثمانون
فبراير ٢٠٠٦

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد صقر عاشور.. أستاذ الإدارة - جامعة الإسكندرية
- أحمد كمال أبوالمجد... أستاذ القانون الدستورى بجامعة القاهرة.
- أحمد مستجير.. أستاذ بكلية الزراعة جامعة القاهرة.
- أمينة شفيق.. صحفية.
- أندرو هاكر.. مدرس العلوم السياسية بكلية كوينز بالولايات المتحدة.
- أيمن الصياد.. صحفى.
- تيموثى جارتون أش.. أستاذ الدراسات الأوروبية بجامعة أكسفورد
- روبرت سكيدلسكى.. أستاذ الاقتصاد السياسى بجامعة ووريك بإنجلترا
- جوناثان سبنس.. أستاذ التاريخ الصينى الحديث بجامعة ييل الأمريكية.
- خيرى منصور.. كاتب عربى.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى.
- محمد صالح الجابرى.. مدير موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين.
- مصطفى الرزاز.. فنان تشكيلى وكاتب.
- يحيى الرخاوى.. أستاذ الطب النفسى بجامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجى - سعد الدين شحاته - أحمد اللباد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما. مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٢٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦. subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

نوه

سلامة أحمد سلامة

حوار الطرشان بين سوريا ولبنان

احتلت سوريا نقطة مفصلية فريدة في العالم العربي على مر التاريخ الحديث. فلم تنفتح أبواب الأطماع والمؤامرات الخارجية على الشرق الأوسط، إلا وكانت سوريا في القلب منها. ولم تتشكل جذور المقاومة والصمود أمام الجيوش والغزوات الاستعمارية، إلا وكانت سوريا في المقدمة منها. ولم تترعرع فكرة القومية العربية ورؤاها الواقعية والحالمة إلا في ربوعها وعلى لسان روادها من المفكرين والسياسيين والأدباء. وعلى ضفافها قامت أول إمبراطورية إسلامية في الشام على يد دولة الأمويين. وربما لهذه الأسباب كلها تحمل الشعب السوري على اختلاف طوائفه وولاءاته وعناصره البشرية طموحات الأحلام القومية وأوهام الوحدة العربية.. تلك التي أفضت في النهاية إلى التضحية بكثير من الآمال التي تعلقها الشعوب على التطور الطبيعي في نزوعها الدائب إلى الحرية والديمقراطية.

ويبدو الموقف الراهن في سوريا عند مفترق طرق. إذ تتجمع غيوم داكنة لإعصار سياسي في سماء المنطقة، يتجه بكل قوته واندفاعه إلى بلاد الشام التاريخية، التي جمعت سوريا ولبنان في محيط واحد، ربطت بينهما علاقة خاصة وإن لم تنتقص من سيادة كل منهما. وربما بسبب هذه العلاقة الخاصة التي ظلت على الدوام مصدر قوة قادرة على الوقوف في وجه الصراعات والضغوط الدولية التي نجمت عن التوسع الاستيطاني الإسرائيلي.. أن أصبحت هذه الخصوصية هدفًا تسعى قوى كثيرة لكسرها وإضعافها والقضاء عليها، تمهيدًا لعودة نفوذ القوى ذات المصلحة في الشرق الأوسط.

ولا يمكن في هذا الإطار أن نغفل حقيقة تاريخية، وهي أن هذه المنطقة عاشت تاريخًا حافلاً بالصراع والدسائس والمؤامرات سواء قبل أن تنقض جيوش الصليبيين عليها، أو في عصر الإمبراطورية الإسلامية التي شهدت اقتتال ملوك وأمراء وعائلات وطوائف. ثم جاء قيام إسرائيل ليحدث في المنطقة زلزالاً، كانت سوريا ولبنان هي الأقرب إلى مركزه والأكثر تأثرًا بتداعياته، بالطبع بعد فلسطين. وظلت منطقة الشام نتيجة لكل هذه التراكمات هدفًا لصراعات الشرق الأوسط وأكثرها عرضة لسباق النفوذ. وسوف نكتشف بعد ذلك مدى انعكاس هذه الظروف التاريخية على نظم الحكم التي قامت في كل من سوريا ولبنان، واتسمت بعدم الاستقرار نتيجة مزيج من عوامل مختلفة، لعبت فيها الممارسات الطائفية دورًا رئيسيًا، وبالأخص في الظروف التي قادت وتلت التدخل العسكري السوري في الحرب الأهلية اللبنانية.

ليس في قصدنا هنا أن نعود إلى الظروف الإقليمية والدولية التي أعقبت حرب أكتوبر ٧٣، ودخول الصراع العربي - الإسرائيلي مرحلة البحث عن تسوية سلمية مع إسرائيل، قادتها مصر. وهو ما اعتبره البعض بداية الوهن والقلاقل التي توالت على العالم العربي بسبب تغير التوازنات الدولية، وظهور معادلات جديدة، ومصالح وعلاقات بين الأطراف المحلية والدولية استهدفت الضغط بكل الوسائل الممكنة للوصول إلى تسوية سلمية. ولكننا لا ينبغي أن نغفل في هذا السياق أن نظم الحكم العربية كلها وبدون استثناء أخفقت. ربما متذرعة بهذا الصراع أو بسببه. في إقامة بناء سياسي حديث للدولة العصرية. وقد طغت في كثير من الأحيان هشاشة الأوضاع الداخلية على أساليب مقاومة الصراع مع إسرائيل، مما أدى إلى وقوع كوارث وهزائم عديدة على مستوى الداخل والخارج. سرعان ما ظهرت آثارها في التطورات العاصفة التي شهدتها المنطقة في السنوات العشر الأخيرة، وعلى وجه التحديد في الأزمة الراهنة التي تطبق على أنفاس سوريا ولبنان، وتوشك أن تشعل حربًا أهلية جديدة، وتفتح الباب إن لم تكن قد فتحته أمام تدخلات دولية خطيرة.

على أن من أهم هذه الآثار، أن بقيت مشكلة الاحتلال الإسرائيلي لأراضي الجولان السورية معلقة دون حل، بل ودون نية في حلها من جانب إسرائيل والولايات المتحدة، على أساس أن الأسبقية البديهية هي لتسوية فلسطينية إسرائيلية، ثم يكون بعدها ما يكون بحيث تصبح قضية الجولان أيسر في التناول وأدعى للتنازل.. وهو ما خلق حالة من الضيق والغضب المعلن والمكتوم، سممت أجواء العلاقات بين سوريا وأمريكا، وأضفت أجواء من الشكوك لم تسلم منها علاقات سوريا بجيرانها من الدول العربية، بل ازدادت تفاقمًا. وحين اقتضت حاجة القوة الأمريكية العظمى أن تشارك سوريا في الجهود الحربية التي واكبت غزو العراق للكويت، لم تحصل سوريا على ما كانت تتوقعه من وعود أمريكية لتسوية عادلة لمشكلة الجولان ولو على نمط التسويات التي تمت مع مصر والأردن. واكتفت أمريكا بأن غضت الطرف. في المقابل. عن انفراد سوريا بالنفوذ في لبنان. حيث تصدت القوات السورية لإطفاء نيران الحرب الأهلية التي أنهكت لبنان ودمرت اقتصادياته. ولعبت دورًا مهمًا في إقامة التوازنات الطائفية التي استمرت سائدة تحت إشراف وجود عسكري سوري نافذ على الحياة السياسية اللبنانية، خرجت فيه الطائفة الشيعية منتصرة بزعامة «حزب الله» لتستعيد حقوقها المهضومة في التركيبة الطائفية اللبنانية.

ومع تغير التوازنات الدولية ووقوع هجمات سبتمبر ٢٠٠١ في واشنطن ونيويورك، واعتلاء اليمين الأمريكي المحافظ السلطة، كانت الاستعدادات التي مهدت لغزو العراق نذير شؤم على كافة الأوضاع في الشرق الأوسط، وعلى سوريا بالذات. فقد كان الوجود العسكري الأمريكي في العراق يشكل تهديدًا مباشرًا لسوريا التي وضعتها الإدارة الأمريكية الداعمة لإسرائيل على قائمة الدول المارقة المتهمة بالإرهاب، أو بدعم الإرهاب، والمرشحة لضربات استباقية هي وإيران. ومرة أخرى لم يشفع لسوريا حين تعاونت مع المخابرات الأمريكية في الحرب على الإرهاب، وملاحقة المشتبه فيهم من تنظيم القاعدة وأتباع بن لادن، لكي تعيد أمريكا النظر في علاقاتها معها. بل حاولت واشنطن ممارسة المزيد من الضغوط لإجبارها على التخلي عن دعم حزب الله اللبناني والمنظمات الفلسطينية التي تتخذ من دمشق مقرًا لها وتعارض شروط التسوية الإسرائيلية. ولم تتوقف أيضًا عن اتهام دمشق بتسهيل دخول المقاومة وتدفق الأسلحة عبر الحدود السورية للقيام بعمليات إرهابية وهجمات على قوات الاحتلال في العراق. ومازالت أمريكا تكرر هذه الاتهامات حتى الآن، مدعية أن سوريا وقد انسحبت من لبنان، أخذت تدعم بالمال والسلاح ميليشيات حزب الله والكتائب الفلسطينية في لبنان.

ولا جدال في أن هذه الغيوم التي تجمعت في سماء العلاقات السورية الأمريكية، هي التي ضغطت على أعصاب النظام السوري، فدفعته إلى ارتكاب خطأ جسيم في لبنان، حين استخدمت دمشق نفوذها من الوعد والوعيد لتعديل الدستور اللبناني والتمديد للرئيس لحود حليفها، على غير رغبة من القوى السياسية اللبنانية ومعارضة فرنسية شديدة. وكان هدف سوريا هو تأمين جبهتها اللبنانية وبالأخص في الجنوب اللبناني الذي نجحت قوات حزب الله في تطهيره من الاحتلال الإسرائيلي. على أن لبنان. رغم شعوره بالجميل للدور السوري في إنهاء الحرب الأهلية. كان يتوق إلى الوضع الذي يستعيد فيه شعبه كامل سيادته، ويحقق طموحاته في أداء دور إنساني وثقافي واقتصادي، يعيد صياغة العلاقات بين سوريا ولبنان على أسس متكافئة مقبولة من جميع الأطراف بإرادة حرة.

ثم إن النظام السوري نفسه بحكم بقائه في السلطة أكثر من ثلاثين عامًا تحت قيادة الرئيس حافظ الأسد، ثم انتقالها إلى نجله بشار بصورة وراثية لم تخل من لمسة طائفية مهما بدا عكس

ذلك، وبينما كانت رياح الإصلاح تهب على دول عربية أخرى. بضغوط داخلية أحيانًا وخارجية أحيانًا أخرى. فقد بقى النظام فى سوريا تحت قيادة رئيسه الشاب، محبوسًا فى إطار حلقة ضيقة من الرءوس القديمة فى حزب البعث، والأجهزة الأمنية، وشبكة من المصالح العائلية والانتماءات الحزبية الطائفية، غافلاً عن إيقاع الزمن الجديد الذى أسقط معظم الأنظمة الشمولية والشعبوية فى أوروبا وآسيا وزحف إلى أرجاء العالم.

> **الشارع العربى فقد قدرته على التعاطف مع أنظمة تحكمها نخب منحطة وفاسدة سياسيًا وثقافيًا واقتصاديًا. لا يهمها لو تعلقت بآخر قشة أملاً فى النجاة حتى ولو أدى الأمر إلى السقوط بالأمة كلها فى هاوية لا قرار لها**

فى هذه الظروف الملتبسة وقع حادث اغتيال الحريرى، ليطلق سلسلة من ردود الفعل العنيفة والدامية التى لم تتوقف حتى الآن. والتى امتدت آثارها من لبنان إلى سوريا وبالعكس. ثم التقطتها القوى المتربعة الساعية إلى إعادة رسم وصياغة المنطقة، لتستثمرها على أفضل وجه يخدم مصلحتها. وكان طبيعيًا، سواء بالافتراض أم بتسلسل الوقائع، أن يوضع اغتيال الحريرى الذى تم بحرفية عالية لا تنجزها سوى أجهزة مخابراتية مدربة. فى سياق عدد من حوادث الاغتيال الغامضة التى سبقته وجرى التخلص فيها من ثلاثين شخصية مرموقة ممن اعتبروا خصومًا سياسيين لسوريا. من بينهم الرئيسان بشير الجميل ورينيه معوض والزعيم الدرزى كمال جنبلاط. وتلت جريمة اغتيال الحريرى سلسلة اغتيالات لشخصيات صنفت أيضًا ضد الوجود السورى فى لبنان، من أمثال جبران توينى والصحفى سمير قصير وجورج حاوى.

جرت هذه التطورات على المستوى الداخلى، فى ظل الضغوط الأمريكية التى كانت قد نجحت فى استصدار قرار مجلس الأمن (١٥٥٩) يطالب سوريا بسحب قواتها من لبنان ويدعو إلى تصفية الميليشيات والمنظمات الإرهابية، بما يعنى حزب الله والفصائل الفلسطينية. فلما وقع حادث الحريرى ذهبت الاتهامات إلى أنه كان وراء التحريض الدولى الذى خططت له ونفذته فرنسا وأمريكا. وأن مقتله كان عقابًا ورسالة للقوى اللبنانية التى تسانده، والتى أخذت تتجمع لتشكل معسكرًا مناهضًا وناقمًا على سوريا.

والحاصل هو أن المشهد اللبنانى دخل مرحلة فرز عنيفة، أيقظت المخاوف من العودة إلى حرب أهلية، بين معسكر معارض لسوريا تستغله قوى خارجية، ومعسكر موال لسوريا يدعو لعلاقات تقوم على وحدة الهدف والمصير المشترك. وجاء القرار الثانى لمجلس الأمن بإرسال لجنة تحقيق دولية فى اغتيال الحريرى بناء على طلب الحكومة اللبنانية، لتتعمق الخلافات وتثور الأحقاد وتُبعث الضغائن التى ظن الجميع أنها ماتت ودفنت مع الحرب الأهلية.

وساعد على ذلك أن الانتخابات اللبنانية التى جرت فى أجواء التوتر والشكوك المتبادلة، أسفرت عن مجلس نيابى تميعت فيه القوى والولاءات. فتشكلت حكومة ضمت أطيافًا متنافرة تعكس حالة الانقسام العميق التى لم يبرأ لبنان منها تمامًا. مما أتاح الفرصة للقوى الخارجية. أمريكية وفرنسية. للتأثير على قرارات الحكومة. فالرئيس لحود معزول أو منعزل داخل قصره، يطالب معسكر المعارضة باستقالته لأنه حليف سوريا. ويحجم كبار المسئولين الدوليين عن طلب مقابلته كما جرت العادة. ووزارة السنيورة التى تشكلت بعد صعوبات وعقبات هائلة، لا تكاد تأتلف حتى تختلف.. فالوزراء الخمسة من حزب الله وأمل المحسوبون على سوريا يقاطعون اجتماعات مجلس الوزراء. والحوارات الدائرة بين الأحزاب والأطياف حوارات طرشان. والشارع اللبنانى يتصارع فى مظاهرات حاشدة بين المعسكرين.

والذى لا شك فيه أن التحقيقات التى أجراها المحقق الدولى ديتليف ميليس، واستمع فيها إلى أقوال عدد من كبار المسئولين اللبنانيين والسوريين من بينهم رؤساء الأجهزة الأمنية الأربعة الذين وقع الحادث تحت مسئوليتهم، وكذلك القيادات الأمنية السورية الوثيقة الصلة بقمة النظام السورى، خلقت أجواء ضبابية من الشكوك والهواجس والأدلة غير القاطعة، التى لم ترق فى أى وقت من الأوقات إلى توجيه اتهام واضح صريح إلى أشخاص بعينهم، ولم تحدد على وجه القطع أدوار الضالعين فى العملية والمنفذين والمحرضين عليها. فجاء تقريره ثم تصريحاته محملة بإشارات وتنبيهات وتلميحات يمكن تفسيرها على وجوه متعددة، تمس أسرة الرئيس بشار الأسد و«الحلقة الضيقة» المحيطة به.

وقد ظهر نائب الرئيس السابق عبد الحليم خدام والقيادى البارز فى حزب البعث، فى هذه الظروف الحرجة التى تتعرض فيها سوريا لحصار سياسى دولى، ليرفع الستار عن أسوأ فصول الدراما السورية اللبنانية، ويحولها من مأساة ملطخة بدماء الضحايا الذين فقدوا أرواحهم أو حريتهم أو إنسانيتهم على مذبح الصعود إلى السلطة والاحتفاظ بها. إلى ملهاة يلعب فيها الفساد والرشوة وتجارة المخدرات وغسيل الأموال أدوارًا عديدة، يكاد لا يبرأ منها سياسى سورى أو لبنانى، الأحياء منهم والأموات، كبار اللاعبين وصغارهم، الأبطال والكومبارس، الجواسيس والعملاء.. وهو ما عكسته بوضوح صورة عبد الحليم خدام فى قصره بباريس. يدلى بتصريحاته ويكيل التهم للنظام الذى كان أحد سدنته أربعين عامًا من عمره السبعينى!

وبينما لم يختلف الغرب. أمريكا وفرنسا. على ضرورة استغلال الأزمة السورية اللبنانية لتنفيذ أجندة متفق عليها، مع توزيع بارع للأدوار بين واشنطن وباريس، اختلفت وتناقضت المواقف العربية. ففرنسا يهمها استعادة نفوذها التاريخى فى لبنان، والعودة إلى الشام عن طريق بيروت. بينما كان هم أمريكا هو اعتصار النظام السورى وإرغامه على التعاون لضرب المقاومة العراقية من ناحية، وتجفيف مساعداته لحزب الله والأنشطة الفلسطينية المعارضة للتسوية.. أى تقليم أظافر النظام السورى استجابة لمقتضيات الأمن الإسرائيلية. من ناحية أخرى. فضلاً عن إضعاف أو كسر القوس الشيعى الممتد بين دمشق وحزب الله وطهران.

أما العالم العربى فقد وقع بين شقى الرحى: الالتزام بالتجاوب مع المجتمع الدولى الذى يصر على محاسبة المسئولين عن اغتيال الحريرى، ولو أدى ذلك إلى النيل من النظام السورى من قمة رأسه إلى قاعدته من ناحية. ومن ناحية أخرى الخوف من استغلال التحقيق لأغراض سياسية تعصف بالنظام السورى. ولا تقف عند حدود دمشق بل تمتد إلى ما وراء ذلك فى اتجاه مصر والسعودية.

ولا يمكن فى هذا الإطار إغفال بعد ثالث من أبعاد الأزمة. فقد دخلت إيران على الخط. وفى يدها اليمنى ملف برامجها النووية الذى يوشك أن يكتمل بالحصول على دورة الوقود النووى لتكون قوة مناوئة للغرب. وفى يدها اليسرى قدرتها على تصعيد المواجهة مع الغرب، عن طريق ملء الفراغ السياسى الذى أخلاه العرب بالتخلى عن سوريا، وترك الفلسطينيين لقمة سائغة لإسرائيل، وخروج العرب السنة من المعادلة العراقية. وهكذا تتحقق لإيران زعامة العالم الإسلامى، وهو ما ألهمته الزيارة التى قام بها محمود أحمدى نجاد لدمشق.

فى ضوء هذه التطورات، تبدو صورة الوضع العربى قاتمة تبعث على القلق. فالوساطات العربية (مصر والسعودية والجامعة العربية) لتحسين العلاقات بين سوريا ولبنان، عن طريق وقف الحملات الإعلامية والاستعداد لترسيم الحدود بين البلدين الشقيقين، بهدف إخراج التحقيق الدولى من متاهة التسييس.. لقيت معارضة شديدة واتهامات بالتواطؤ من جانب قوى لبنانية تسعى إلى إسقاط النظام السورى بأى ثمن. فى نفس الوقت الذى توشك أن تنقطع فيه خيوط الحوار الداخلى بين المعسكرات المتناحرة فى لبنان. وفى سوريا يقف النظام عاجزًا عن التقدم بمبادرات داخلية إصلاحية، أو مبادرات خارجية تسحب الريح من قلوع سفينة تبحر فى مهب الإعصار.

أما الشارع العربى فقد فقد قدرته على التعاطف مع أنظمة عربية تحكمها نخب منحطة وفاسدة سياسيًا وثقافيًا واقتصاديًا. لا يهمها لو تعلقت بآخر قشة أملاً فى النجاة حتى ولو أدى الأمر إلى السقوط بالأمة كلها فى هاوية لا قرار لها. وفى كثير من الأحيان يقفز المنقذ إلى اليم لإنقاذ غريق على شفا الهلاك فيغرق معه. وهى نتيجة طبيعية لتراكم الأخطاء وغياب المحاسبة والرقابة التى تفرضها الديمقراطية على نظم حكم لم تعرف غير السلطة المطلقة. وليس من المتوقع أن تشهد الأزمة انفراجًا حين تنعقد القمة العربية فى مارس القادم.. هذا إن لم تؤد التداعيات والتعقيدات إلى نسفها. ■

جنــــود الإمــــام



الغـــــــــــائب!!

تـيـمـوثـى جـارتــون أش



في الصخرة الشاهقة في نقش إروستوم تماثيل منحوتة بشكل رائع، تحدق بعيدا عبر الصحراء، قبور الأباطرة الفرس العظماء من ٢٥٠٠ عام مضت: داريوس، زيركسيس، أرتازيركسيس. تنخفض لأسفل وجه المنحدر الصخرى الشاهق لهذا الجبل الإمبراطورى رشمور لترى صخرة منحوتة بشكل بارز، تومض في الصيف. إنها تشير إلى الشاه الأخير لكل الشاهات، شابور الاول، الذى قبل استسلام فاليريان الإمبراطور الرومانى، فى عام ٢٦٠ بعد الميلاد طبقا للتقويم المسيحى. الفاتح المنتصر، على ظهر الفرس ومجهز بشكل مجيد، يتفوق على فارس بدون سيف، ويقهر قيصر.

سألت رفيقى الإيرانى «ماذا حدث لفاليريان؟».

«لقد قتل بالطبع».

في وقت مبكر من هذا الخريف، كما تحدى حكام إيران اليوم روما الجديدة بالاستمرار فى برنامجهم النووى، سافرت لأسبوعين إلى ما تسمى اليوم بالجمهورية الإسلامية الإيرانية. فى سنة ١٣٨٤ حسب التقويم الإيرانى، تكلمت مع الملالى المسلحين بالحاسوبات النقالة، ومع مؤيدى النظام فى مدينة قم، ومع فلاسفة إسلاميين معارضين للنظام إلى حدٍ كبير. وقابلت مثقفين من كل الأنواع والمشارب، فنانون، مزارعون، سياسيون، ورجال أعمال. الجدير بالذكر، أنى قضيت مدة طويلة، فى محادثات حادة مع بعض

عن مجلة:
New York review of Books
أكتوبر ٢٠٠٥.
ترجمة: جمال عمر

الشباب الإيرانيين الذين يكونون الأغلبية من سكان البلاد. أرى وجوههم الجادة تجاهى بينما أكتب، خاصة من النساء، اللاتى يلبسن وشاح الرأس الإسلامى الإلزامى، الحجاب، والذى يستطعن تحويله بطريقة ما إلى ملمح للحسن والجمال الهادئ.

فى الطابق الأعلى لمطعم فى مدينة أصفهان المدهشة، شاهدت استمرارية الثقافة الفارسية، مع مغنٍ ينشد قصائد لأحد شعراء القرن الرابع عشر بينما الرواد المحليون يحدقون عاليا فى القبة ذات الألوان الزرقاء، والبيضاء، والتركوازية لمسجد الشيخ لطف الله، المضاءة بعكس السماء المظلمة. (أنت فى أغلب الأحيان لا تسمع الأشعار المغناة فى الحانات الإنجليزية).

وبشكل أكثر نموذجية، كنت أندفع بسبب الحرارة، والغبار، والتلوث اللاسع للعين، والمرور الانتحارى فى طهران، تلك المدينة الفوضوية التى تؤوى ١٢ مليون شخص، التى يتعامل سائقوها مع كل دائرة مرور كدعوة للعب لعبة الدجاج الأمريكية، الانحراف فقط لتفادى حواجز الاصطدام بالسائقين الآخرين. أو أحياناً لا ينحرف.

تذوقت أيضا طعم الحياة خلف أسوار الحدائق العالية لبيوت الطبقات العالية والمتوسطة، حيث يخلع الحجاب فوراً وتقال آراء تحتقر بشكل قاس الحماس الإسلامى الثورى لرئيس البلاد الجديد، محمود أحمدى نجاد. خلال دقائق من وصولى لواحد من هذه البيوت، عدد من النساء يرتدين البيكينى كن يدعوننى بشكل مثير للذهاب عاريا معهن إلى حمام السباحة، بينما قدم الرجال لى شراباً من زجاجة مكتوب عليها «٩٨٪ كحول ايثيلى».

هذه اللقاءات وضحت سمة، على ما يبدو لها تاريخ طويل، وهى التى لفت محدثى الإيرانى انتباهى باستمرار إليها: التباين بين ما يقوله الإيرانيون فى الخارج وما يقولونه داخل تلك الجدران العالية. الحديث الخادع كطريقة للحياة. لم يسبق لى أن كنت فى بلد أخبرنى فيه العديد من الناس أنه لا يجب أن أصدق ما يقوله الناس. أشاروا مراراً وتكراراً إلى العادة الشيعية للتقية،التى وفقاً لها يكون للمؤمنين الحق فى الكذب دفاعا عن إيمانهم. اليوم غير المؤمنين لديهم التقية الخاصة بهم.

الإيرانيون حذرونى أيضاً بأن بلدهم غنى بالخرافة - المنقولة أحياناً بالوسائل الحديثة جداً. فى وسط مرور طهران المزدحم، سائقى استلم رسالة نصية على هاتفه الخلوى. تطلب منه العودة بسرعة للصلاة من أجل عودة الإمام الغائب، إمام الشيعة الثانى عشر أو المهدى، الذى من المفترض أنه اختفى قبل حوالى ١١٢٧ سنة. مثقف علمانى تعجب بصوت عال قائلاً: إن أى مجتمع موبوء بالكذب والخرافة هو على أية حال قابل للفهم والإدراك عن طريق البحث عن السبب والتفسير.

وسط هذا المزيج البرى من القديم والحديث، بحثت عن أجوبة لسؤال واحد حاسم: كيف يمكن أن يتحول النظام الإسلامى الثورى إلى نظام مختلف، سواء بشكل تدريجى أو فجائى، بقوى اجتماعية وسياسية من داخل تلك البلاد؟ وأضفت ثانية: كيف يمكن لسياسات أوروبا والولايات المتحدة، التى لحسن الحظ لا تتضمن فى الوقت الحاضر نموذج العراق لمحاولة فرض «تغيير النظام» بالاحتلال العسكرى، أن يؤثر على تلك القوى الداخلية؟

إن النظام السياسى للجمهورية الإسلامية الإيرانية معقد جدا وبسيط لأبعد الحدود فى نفس الوقت. أغلب الإيرانيين الذين التقيت بهم فضلوا تشديد التعقيد. البلاد لها على الأقل حكومتان الأمر الذى يشكل سابقة: هيكل دولة نصف ديمقراطية رسمى، الآن برئاسة الرئيس محمود أحمدى نجاد، وقيادة دينية أيديولوجية برئاسة المرشد الأعلى، آية الله على خامنئى.

هناك عدة مراكز قوى رسمية وغير رسمية متحركة، تشمل الأحزاب السياسية فى البرلمان، الوزارات، المؤسسات الدينية الغنية، الحرس الثورى، وميليشيات الباسيج التى يصل عددها بالملايين، التى ساعدت على انتخاب أحمدى نجاد. هناك أيضاً جماعات المافيا العرقية أو الإقليمية العرقية أو الإقليمية، وأجهزة الاستخبارات العديدة المتنافسة، ووكالات الأمن، والشرطة - ثمانى عشرة منها طبقا لإحصاء أخير. فلا عجب أن يصل علماء السياسة الإيرانيون إلى مصطلحات مثل «الحكم التعددى» و«حكم القلة الانتخابى»، و«شبه الديمقراطى»، أو «الوراثى الجديد».

مع ذلك، فقد شعرت بقوة أن جوهر هذا النظام يبقى بسيطًا جداً. فى جوهره، الجمهورية الإسلامية ما زالت دكتاتورية أيديولوجية. المبدأ التنظيمى المركزى لهذا النظام يمكن أن يلخص فى أربع جمل: (١) هناك إله واحد ومحمد رسوله.(٢) الله أعلم بالأفضل والأصلح للرجال والنساء.(٣) رجال الدين الإسلاميون، وخصوصاً الأكثر تعلماً منهم،هم الخبراء المؤهلون لتفسير القانون الإسلامى (الشريعة)، وهم يعرفون أفضل ما يريده الله.(٤) فى حالة النزاع بين الخبراء المتعلمين، فإن المرشد الأعلى هو الذى يقرر.

هذا النظام الذى ابتكره، آية الله العظمى روح الله الخمينى، تم تبريره بأنه إعادة تفسير متشدد للمفهوم الإسلامى ولاية الفقيه،الذى يفسر بشكل معتاد بأنه وصاية رجال الدين. هذا النظام ليس هو الإسلام؛ هو الخومينية. هذا النظام لم يكن ليوجد بدون ذلك الرجل العجوز، الذى ما زالت صورته المتجهمة تحدق فيك فى كل مكان فى إيران، مع ذلك الآن توضع إلى جانبه عادة صورة وريثه، المرشد الأعلى الحالى، آية الله على خامنئى. إذا شككت فى أهمية دور الفرد فى التاريخ، فتذكر قصة الخمينى.



زرت البيت الذى قضى فيه طفولته فى مدينة السوق الريفية خمين - آيات الله يأخذون عموما لقبهم من اسم مدينتهم، لذلك فإن الخمينى تعنى أنه من خمين. وهو منزل كبير وجميل ومبنى من الطوب الأصفر، بالساحات الداخلية والخارجية التقليدية، ونقش مكتوب يحتفل بـ «مسقط رأس شمس خمين». أبوه قتل وكان عمره أربعة أشهر، وماتت أمه وهو فى الخامسة عشرة من عمره، وأعطى إلى المدارس الدينية التى دربته ليكون رجل دين. إذا كان حتى أحد أبويه قد عاش، هل كان يمكن أن يكون الخمينى قصة مختلفة؟ فى الخارج لوحة إعلانات تصفه، بأنه «باعث الحكومة الدينية فى العالم المعاصر».

الخمينى كان كلا من لينين وستالين بالنسبة للثورة الإيرانية الإسلامية. النظام الذى ابتكره يتشابه فى بعض الأشياء مع حالة الحزب الشيوعى. فى الخومينية، ولاية الفقيه هى المبدأ السياسى الذى يساوى وظيفيا الدور القائد للحزب الشيوعى. هنا، أيضاً، توجد تراتبية متوازية من القوة الأيديولوجية والرسمية، والأخير يفوز بلعب الورقة الرابحة فى النهاية. إن نصف أيديولوجيا الجمهورية الإسلامية تقريبا غير ديمقراطية كلياً: إن المرشد الأعلى معين من قبل مجلس الوصاية، والسلطة القضائية الإسلامية، وجمعية الخبراء.

كل هذه الهيئات يسيطر عليها رجال الدين المحافظون. إن المؤسسات الرسمية أكثر ديموقراطية، مع منافسة حقيقية على الرغم من محدودية السلطة. على أية حال، مجلس الوصاية بشكل اعتباطى يحرم الآلاف ممن يريدون أن يترشحوا للبرلمان، يسيطر النظام على كل القنوات التليفزيونية الحكومية المهمة جداً، وقوات الأمن مثل ميليشيا الباسيج تستطيع أن تعبئ وتخيف الناخبين، لذا لا يوجد أحد يستطيع الكلام عن الانتخابات الحرة والعادلة بجدية.

كما فى حالات الأحزاب الشيوعية، هناك صراع حزبى حاد وهو ما يعتبره بعض الخبراء الغربيين خطأ بالتعددية لكنه على خلاف حالات الأحزاب الشيوعية، فإن الفصائل الحزبية المتنافسة تناشد الناخبين فى الحقيقة لتعزيز موقعها. هكذا قدم أحمدى نجاد نفسه بنجاح إلى الناخبين كرجل بسيط متطهر غريب إلى النظام، رغم أنه أصبح الآن جزءا منه، يعمل مباشرة مع خامنئى ومجلس الوصاية. منافسه فى الجولة الرئاسية الثانية، هو الرئيس السابق هاشمى رفسنجانى، الذى كان قد كُذب بشأن استياء جزء كبير من مجموعة الملالى المسيطرة منه: «أى شخص كان سيربح ضد رفسنجانى»، كما أخبرنى سياسى إيرانى. رفسنجانى ينتقد الآن أسلوب خطاب أحمدى نجاد الإسلامى الثورى إلى الأمم المتحدة كونه غير دبلوماسى.

على الرغم من انه رئيس مجلس تشخيص مصلحة النظام القوى، الذى يتوسط التدرج الأيديولوجى غير الديموقراطى والبرلمان نصف الديمقراطى. كان هو رافسنجانى الذى أعلن هذا الصيف «بأن النظام قرر استئناف إعادة معالجة اليورانيوم». وعندما يستعمل الزعماء ذلك التعبير «النظام» فإن كل شخص يعرف بأنهم يعنون تدرج القيادة الأيديولوجى حتى المرشد الأعلى.

فى حالة الحزب الشيوعى، خط الحزب كان يوجد فى صفحات صحيفة البرافدا. أما فى حالة الملالى الإسلاميين، فإن «خط الإمام» يسلم خلال صلاة الجمعة، جلستان حضرتهما، الأولى فى المسجد العالمى ذى النمط الرائع فى أصفهان، والأسبوع التالى، فى جلسة سياسية ضيقة فى جامعة طهران. فى جلسة طهران، ألقى رجل دين إسلامى كبير - رئيس مجلس الوصاية، محاضرة دينية سياسية عنيفة، يشجب فيها بشكل خاص أمريكا وبريطانيا. الرسالة السياسية يتم إقحامها بين الصلوات الإسلامية التقليدية. فى طهران، الصلاة تنتهى بأنشودة للمصلين: «تسقط أمريكا! تسقط إسرائيل! يسقط أعداء ولاية الفقيه».

كيف يمكن تحويل مثل هذا النظام، أو كما يفضل الكثيرون أن يقولوا، إصلاحه؟ لقد سمعت كثيرا جدا كلمة «إصلاح» فى كل مكان ذهبت إليه فى إيران. وبشكل سريع أدركت بأنها تعنى عدة أشياء مختلفة. أولاً، هناك حوار أيديولوجى بين المثقفين الإسلاميين، يدور حول ما كان يطلق عليه فى العالم الشيوعى «التصحيحية» الذى يحاول مراجعة الأيديولوجية التى بنيت على أساسها الدولة. كما يقول التصحيحيون أنه فى الخمسينيات بولندا كانت أيضاً جزءاً من حوار أوسع حول الشيوعية الدولية، لذا فإن وجهات نظر التصحيحيين الإيرانيين ستكون لها نتائج هامة على الإسلام الدولى.

لقد كنت معجباً بحيوية هذا الحوار. بينما العديد من الإيرانيين مستاءون بشكل واضح من إقحام الإسلام كدين للدولة، أنا لم أجد أى إحساس بأن الأيديولوجية الإسلامية قضية ميتة، بينما، على سبيل المثال، الأيديولوجية الشيوعية كانت قد أصبحت قضية ميتة فى وسط أوربا فى الثمانينيات. بعيداً عن هذا. فى مدينة قم عاصمة الخمينى اللاهوتية، الآن هى مقر لحوالى مائتين من مجالس الخبراء الإسلامية ومؤسسات التعليم العالى، لقد التقيت مع مجموعة بحثية فى الفلسفة السياسية الإسلامية. وسألت لماذا لا يتوافق الإسلام مع حالة الديمقراطية الليبرالية العلمانية، كما هو الحال على نحو متزايد فى تركيا؟ «تركيا ليست قم»، قال محسن ريزفانى الفيلسوف الشاب الذى يلبس العباءة وعمامة الملالى، وهو يضحك حول المنضدة. الإسلام كما يقول ريزفانى «أنثروبولوجياً، ودينياً ومعرفياً غير متوافق مع الديمقراطية الليبرالية. أنثروبولوجياً، لأن الديمقراطية الليبرالية مرتكزة على الحرية الفردية. ودينياً لأنها تستبعد الله من الفضاء العام. ومعرفياً، لأنها مرتكزة على السبب وليس الإيمان. ثم أعطانى نسخة من فصلية علم السياسة، ليست المجلة الأمريكية وإنما الطبعة الخاصة بهم فى قم. قرأت فيها ملخصاً باللغة الإنجليزية لمقالة رائعة كتبها ريزفانى حول ليو شتراوس.

حاولت إثارته وقلت «لذا أنت من المحافظين الجدد».

رد قائلاً: لا، وأضاف: إن المحافظين الجدد الأمريكيين لا يفهمون شتراوس بشكل صحيح.

أنا يمكن أن أتصور الآن، حتى قبل ترجمة المقالة كاملة لى، ما سيجده الملا الإيرانى المحافظ جديرا بالاحترام فى شتراوس: الإصرار على أن هناك حقيقة وحيدة فى النَص الكلاسيكى، وأن ما يعنيه المؤلف (مثال على ذلك، الله، فى حالة القرآن) أفضل التفسيرات من قبل طليعة العقلانية الأفلاطونية الجديدة (بالنسبة للقرآن، وللخبراء الإسلاميين الذين يتطلع ريزفانى للانضمام إليهم). رغم ذلك، فإن الآخرين الجالسين على الطاولة قد اعترضوا على ما يقوله هذا «الوولفويتز» من قم، مستشهدين بالحداثيين الإسلاميين أمثال عبد الكريم سوروش الذى يؤكد على أن الإسلام يتوافق مع الدولة العلمانية.

فى طهران، التقيت مع أكثر الإسلاميين التصحيحيين إثارة للجدل، البروفيسور محسن كاديفار، وهو فقيه مبتسم، ومتعلم، وشجاع. أحد أسباب الحوار الإسلامى الإيرانى النشيط جداً هو أن التقليد الشيعى ليس فقط يجيز ولكنه يشجع الاختلافات القوية بين أتباع آيات الله الكبار المتنافسين للمرتبة الأعلى، أولئك الذين فازوا بلقب مرجعية التقليد. «البروفيسور كاديفار هو مؤيد لآية الله العظمى حسين على منتظرى، الذى كان من المفترض أن يكون وريث الخمينى كزعيم أعلى حتى حرمه أبو الثورة ووضعه تحت الإقامة الإجبارية فى قم.

قبل سنوات قليلة، أخذ كاديفار الخطوة الجريئة بالقول بأن ولاية الفقيه ليس لها قاعدة صحيحة فى القرآن أو فى الفكر الإسلامى السائد، وغير متوافقة مع جوهر الجمهورية الحقيقية. تساءل أيضا عن صحة الحكم الإسلامى فى الحكم على الناس (ومثال ذلك: سلمان رشدى) بالموت فى غيابهم، وصرح فى مقابلة صحفية بأن إيران اليوم تعيد إنتاج خصائص حكم الشاه الملكى: «الناس صنعوا الثورة ليتمكنوا من اتخاذ القرارات، وليس لكى تتخذ القرارات لهم» وقد دفع ثمن أمانته الفكرية ثمانية عشر شهراً فى السجن.

اقتبست إلى كاديفار تعليق الفيلسوف البولندى ليسزك كول/ اكوفيسكى، الذى كان تصحيحياً شيوعياً سابقًا، الذى يقول فيه إن فكرة الشيوعية الديمقراطية مثل قلى كرات الثلج. «بالضبط» صاح كاديفار: الديمقراطية الخومينية مثل قلى كرات الثلج.

إن هذا ما ترفضه تماما المجموعة الأخرى، المعروفة أيضا باسم «الإصلاحيين الإسلاميين»، الذين كانوا رفاق كاديفار فى الثورة. وهم ما يمكن أن نقول عنهم بأنهم إصلاحيون «من داخل النظام» كانوا فى الحكومة فى السنوات الثمانى الماضية، فى ظل رئاسة محمد خاتمى. وكان أملهم أن يتمكنوا جزئيا من إصلاح ودمقرطة الجمهورية الإسلامية، بينما تترك الأعمدة المركزية للخومينية بدون اعتراض. لكنهم فشلوا. العديد من



الناس الذين أيدوا الرئيس خاتمى وزملاءه الإصلاحيين فى أواخر التسعينيات أخبرونى بأنهم محبطون.

تحدثت مع واحد من أشهر مصلحى النظام وأكثرهم تأثيرا، سعيد هاجريان الرئيس السابق لجهاز مكافحة التجسس الذى أصيب فى عام ٢٠٠٠ بطلق نارى فى الرقبة، من المحتمل أن يكون قد أطلقه قاتل ينتمى لجهاز أمن منافس مرتبط بالحرس الثورى. اجتمعنا فى مكتبه البسيط المتقشف، فى بناية غير مرقمة. على حائط مكتبه كانت هناك صورة لآية الله خمينى. على المنضدة كانت هناك كومة كبيرة من المقالات المنسوخة من المجلات الأكاديمية الغربية، تحلل طرق الانتقال إلى الديمقراطية.

ربما فقط فى إيران يمكن أن تجلس داخل بناية جهاز أمن مع صورة لآية الله خمينى تحدق على كومة المقالات الغربية حول طرق الانتقال إلى الديمقراطية. لكن كيف تجمع هذه العناصر؟ كنتيجة لمحاولة الاغتيال، فإن هاجريان شخص ضعيف البنية أصفر الوجه يرتدى زيًا رياضيًا، يحرك جسمه بصعوبة وكلامه غير واضح. رغم ذلك فإن إجاباته القوية تنم عن عقل سياسى حاد. تكلم، حتى تعب، عن الكيفية التى بها يتمكن الإصلاحيون من استعادة عافيتهم، وإعادة بناء الدعم الشعبى من خلال أكبر عدد من المنظمات المحترفة والاستخدام الأفضل للصحافة والتليفزيون. واقترح، أنهم يجب أن يجمعوا أموالاً أكثر من العمل وأن يناشدوا الهموم المادية اليومية للناس العاديين، مثلما فعل أحمدى نجاد بنجاح فى حملته الانتخابية. لكننى عدت من هذا اللقاء بشعور بأن فرص الشفاء الكامل للنظام الإسلامى لإصلاحيى أقل من تلك التى يأملها هاجريان من داخله.

إن هذا الشك مشترك مع الصحفى الجرىء عماد الدين باغى، الإصلاحى الإسلامى السابق الذى سجن لأكثر من سنتين بسبب كتاباته الناقدة. الجلسة كانت فى المكتب الحديث واللطيف للمنظمة غير الحكومية التى أسسها للدفاع عن حقوق السجناء، باغى رجل مهذب وملتح ومتوسط العمر، أخبرنى بأن ما هو مطلوب الآن ليس إصلاحاً من فوق، من دولة الفقهاء - كما يدافع هاجريان - لكن إصلاحا عن طريق المنظمات من أسفل، فى المجتمع المدنى. المنشقون من أوروبا الوسطى بعد ربيع براج كانوا قد ذكرونى بفشل «الاشتراكية بوجه إنسانى» مثلهم، يعتقد باجى بأن الطريق الصحيح ليس فى التصحيحية الأيديولوجية أو الإصلاح من داخل النظام - الرئيس السابق خاتمى فشل فى أن يجعل الخومينية بوجه إنسانى - لكن الطريق الصحيح يكون من خلال تنظيم الناس لأنفسهم فى مجتمع مستقل عن الدولة.

بالرغم من أننى وجدت حجته العامة مقنعة، فإن ما استوقفنى هو أن باغى، الذى ما زال عليه حكم معلق بالسجن لسنة واحدة يخيم على رأسه، كان يتحدث عن محاولات بسيطة جداً فى التنظيم الاجتماعى. قال بوضوح بأن مثل هذه الجهود يجب أن تنحصر فى الذين لا يجد فيهم الفقهاء تهديدا سياسيا. فهو يعرف جيداً أن النشطاء البارزين مثله وزملاءه الحميميين أمثال شيرين عبادى الفائزة بجائزة نوبل للسلام يمكن أن تغلق منظماتهم فى أية لحظة. وهو يعرف بأن المجلات والصحف الناقدة تغلق فى أغلب الأحيان ببساطة، مثلما حدث لصحيفته الخاصة.

تقريباً كل شخص أشرت إليه بداية من المسئولين الكبار فى النظام الحالى مثل الرئيس أحمدى نجاد، ومن الناقدين للنظام مثل هاجريان وكاديفار وباغى، إلى السجناء السياسيين مثل أكبر جانجى كانوا مشاركين نشطاء فى الثورة الإسلامية. هم أبناء الثورة. ومع ذلك، فهناك أيضاً العديد من اليساريين والليبراليين العلمانيين الذين عارضوا الشاه لكنهم لم يشاركوا فى الثورة الإسلامية، ويعملون الآن فى المنظمات غير الحكومية، وفى النشر، وفى الجامعات، أو فى الحياة الثقافية، مثل صناع أغلب الأفلام الصادمة فى البلاد. ليبرالى علمانى واحد مشهور جدا خصوصاً فى الغرب هو الدكتور رامين جاهانبيجلو، مؤلف كتاب المحادثات مع أشعيا برلين، الذى جلب مفكرين أمثال يورجين هابرماس وريتشارد رورتى وانطونيو نيجرى، لإلقاء محاضرات على جمهور متعاطف ومهتم بلغ حوالى ألفى شخص فى طهران.

رغم ذلك سواء أكان علمانيًا أو إسلاميًا، فإن مجال المناورة لهؤلاء الذين يعملون فى «المجتمع المدنى» محدود تماماً. كل المنظمات غير الحكومية، على سبيل المثال، يجب أن يتم تسجيلها رسمياً، وتجدد رخصتها كل سنة. بروفات الكتب يجب أن تقدم لجهاز الرقابة التابع لوزارة للثقافة والتوجيه الإسلامى، والصفحات التى تمت مراقبتها يجب إعادة طباعتها ثانية حتى لا يسأل القراء عن أى شىء أنفقت الضرائب. الجامعات تحت السيطرة تماما. المناقشات النظرية لاستحقاقات الديمقراطية محتملة؛ لكن النقد العملى لوصاية الخبراء غير ممكن بالتأكيد.

حقيقة أن النظام له عدة مراكز للقوة تضيف عنصراً إضافيًا لعدم اليقين. على سبيل المثال، تكلمت مع طالب معارض كان قد أطلق سراحه من جهاز أمن الدولة الرسمى لكى يعتقل ثانية بعد شهور قليلة من قبل الحرس الثورى. لا أحد يعرف بالضبط أين الحدود. نتيجة لذلك، فهناك كلتا الحالتين الحرية اللافتة للنظر من الحوار الثقافى وتيار الخوف الدائم.

بالنسبة للشخص الذى درس حالات ما بعد الشمولية أو الديكتاتوريات الاستبدادية، سواء فى أوروبا، وأمريكا اللاتينية، أو جنوب أفريقيا، فإنها تدريجيا أصبحت دولا أقل استبدادا، وفى النهاية أصبحت ديمقراطيات، بناء على ذلك، فإن السؤال الرئيسى بالنسبة لإيران هو: ما هى القوى المجتمعية الداخلية التى يمكن أن تساعد فى زيادة الضغط الاجتماعى السلمى لتغيير النظام تدريجيا؟

عمال الصناعة فى إيران لم يظهروا حتى الآن أى إشارات لقدرتهم على تنظيم أنفسهم، مثلما فعلت حركة تضامن البولندية قبل خمسة وعشرين عاما. بين المزارعين هناك بطالة ريفية كبيرة وبعض السخط. فى إحدى القرى الجبلية، تكلمت مع الرعاة الذين أخبرونى بأن نصف زملائهم القرويين كانوا عاطلين. الكثيرون يخرجون إلى الحقول فى الليل لتعاطى المخدرات. رغم ذلك، فإن رد الفعل الرئيسى على البؤس الريفى هو الهجرة إلى المدن. وهناك تتضخم أعداد فقراء الحضر الذين، بدلاً من أن يساهموا فى المعارضة السياسية، فإنهم على الأرجح يتم تجنيدهم كقطاع طرق أو تعبئتهم فى الشوارع من قبل ميليشيا الباسيج التابعة للنظام.



ماذا عن كبار رجال الأعمال الأغنياء المتغربين؟ أحد رجال الأعمال الذين تحدثت معهم تحدث عن النظام بازدراء ناقد فى السر، لكنه يعتمد عليه فى أعماله التجارية. البعض منهم كون شراكات تجارية مع قيادات الملالى. ومن المحتمل أن يكونوا راغبين فى دعم حركة المعارضة عند لحظة التغيير الحاسم، مثل الاوليجاركية فى صربيا وأوكرانيا، لكن ليس قبل ذلك. على أية حال، هم أنفسهم يشيرون إلى أن أغلب الاقتصاد الإيرانى ما زال فى أيدى التجار التقليديين من البازار. فى إيران، تجار البازار كانوا تقليدياً حلفاء لرجال الدين الإسلاميين، العلماء، والآن هناك بعض إشارات التغيير.

في هذه الأثناء، النظام يمتلك مصادر قوة رئيسية لتعزيز قوته. مع النفط الذي وصل سعره في الوقت الذي اكتب فيه إلى أكثر من ٦٠ دولاراً للبرميل، فإن إيراداته النفطية خلال ستة شهور غطت كامل ميزانية الدولة للسنة الحالية. الحكومة يمكن أن تدعم بسخاء المواد الغذائية الاساسية مثل الخبز، والشاي، والسكر، والأرز وتبقى على سعر الوقود المنخفض جداً. ربع القوة العاملة موظفون لدى الدولة، يعتمدون على سلطات الدولة بالنسبة لوظائفهم. إن أجهزة الأمن العديدة احتاطت لذلك جيدا. بعد أقل من ثلاثين سنة من الثورة السلمية التي تحولت إلى عنف واستبداد، معظم الناس المتقدمين في السن يمتلكون شهية قليلة لثورة أخرى. وإذا حاولت الولايات المتحدة وبريطانيا، زيادة الضغط من الخارج، فإن إيران يمكن أن تجعل الحياة أكثر صعوبة للاحتلال الأجنبي في الأجزاء الشيعية للعراق، حيث ينمو نفوذ الجمهورية الإسلامية.

وبعد ذلك، مم يخاف هذا النظام؟ شيء واحد فقط، استنتجته، لكنه شيء كبير جدا: إنهم شباب النظام، أحفاد الثورة.

إيران دولة قديمة جداً، حوالي ٢٥٠٠ سنة من التاريخ المستمر. هي أيضاً دولة شابة جداً. ثلثا عدد سكانها البالغ ٧٠ مليوناً يقع تحت سن الثلاثين. هذه جزئيا على الأقل نتيجة السياسات المتعمدة: في الثمانينيات، العقد الأول بعد الثورة، الملالي شجعوا زيادة النسل، بشكل يشجب التطبيق الغربي لتحديد النسل والدعوة إلى كثرة الإنجاب لاستبدال شهداء البلاد في الحرب العراقية الإيرانية. الأزواج الوطنيون الذين أنجبوا خمسة أو اكثر من الأطفال كانوا قد منحوا قطعة أرض مجانية للبناء.. دعاية النظام أطلقت على هؤلاء الأطفال لقب «جنود الإمام الغائب».

لتحويل هؤلاء الشباب إلى مواطنين إسلاميين صالحين، افتتح الملالي شبكة من الجامعات الجديدة في أرجاء البلد كلها، أسمتها الجامعة الإسلامية المجانية. طبقاً للكتاب السنوي للإحصاء الإيراني لعام ١٣٨٢ (٢٠٠٣- ٢٠٠٤)، هناك حوالي مليوني طالب مسجلين حالياً في التعليم العالي في إيران، نصفهم تقريباً من النساء.

لذلك الآن تراهم في كل مكان، هؤلاء «جنود الإمام الغائب» يتكلمون على هواتفهم الخلوية أو يتغازلون في المتنزهات، حجاب البنات شفاف وردي أو أخضر، يملن للخلف لكشف بعض ضفائر الشعر الفاتنة، بينما يعري الجينز الملفوف بتعمد الكواحل فوق الأحذية الجلدية. في المدن، الجواكت السوداء الطويلة التي من المفترض أن تخفي شخصية البنت التي كانت مطلوبة سابقا استبدلت بجواكت قصيرة، بيضاء أو وردية.

في كافيتريا لتناول الشاي تحت أقواس الجسر الحجري المبني من القرن السابع عشر في أصفهان، التقيت بشابة جميلة، تضع الماكياج وترتدي الملابس المعطرة، وكانت تتباهى بالملابس القصيرة لدرجة أن هناك أربع بوصات كاملة من الجلد عارية فوق الكاحلين ومزينة بأساور من اللؤلؤ. ضحكت، وقالت إن هناك إشاعة أن الحكومة الجديدة ستفرض غرامة ٢٥٠٠٠ تومان حوالي ٢٧ دولاراً لكل سنتيمتر من اللحم المكشوف لكنها لم تهتم. حتى في مسقط راس الخميني، الشابات كن يلبسن جينز وأحذية غربية الطراز تحت سترهم الضيقة.

الملابس التي يرتديها الرجال لها دلالة رمزية مألوفة بشكل أقل. فقد جاء طالب يدرس القانون لرؤيتي وكان يرتدي بدلة سوداء وربطة عنق. في بادئ الأمر، اعتقدت بأنه يجب أن يكون شاباً مملاً؛ لكنني كنت مخطئ. لأن الرداء العادي لرجال النظام هو ربطة عنق أقل صرامة (كما كان الرئيس أحمدي نجاد عندما تكلم في الأمم المتحدة)، أن تلبس بدلة وربطة عنق فهي علامة على الاستقلال الشجاع عن النظام. الطالب الآخر، الذي كان قد سجن عدة مرات لنشاطه المعارض، أخبرني أن «ربطة العنق هي إشارة الاحتجاج».

في أغلب الأحيان، يأخذ احتجاجهم أشكال غير سياسية. الكثير يريدون الهجرة والانضمام إلى ملايين الإيرانيين الذين يعيشون في الخارج. أنا كنت قد قلت مراراً وتكراراً إن متعة هذا الجيل؛ المجموعات البرية وراء الأسوار العالية للعمارات السكنية في شمال طهران الثرى، هي مع موسيقى البوب الغربية، الكحول، والمخدرات، والأفلام الجنسية. اكتشفت في سوق طهران قميصاً كتب عليه «مطلوب: العلاقة الليلية بلا معنى» إذا كان هؤلاء يمكن أن يتحملوا، فإنهم ينسلون إلى دبي لبضعة أيام، حيث يمكن للشابات أن يمزقن الحجاب ويرقصن كما يردن.

ورغم ذلك فقد التقيت واجتمعت لساعات طويلة بالعديد من الشباب الرائع المهتم بشكل جدي، ومعظمهم حسن الاطلاع بشئون بلده ومتحمس بشكل جاد لتحسينها. هؤلاء يمكن أن يعرفوا الكثير من الصحافة المحلية، إذا قرأوا بعناية. ويستمعون إلى محطات الإذاعة الغربية (البي بي سي الفارسية أو الإذاعة الموجهة من الولايات المتحدة «فاردا»)، وهم يشاهدون الفضائيات، الممنوعة رسميا، ومع ذلك فالوصول إليها سهل. كما انهم يستعملون الإنترنت بشكل خلاق.

بعض مواقع الإنترنت المشتبه بها سياسياً أو أخلاقيا مغلقة في إيران- كذلك موقع المعارض آية الله حسين على منتظري (منتظري دوت كوم)، على سبيل المثال، أو بغرابة اكثر، موقع جامعة فرجينيا. (متصفح الويب الإيراني المطبق الذي نبهني إلى هذا اقترح على بأن أدوات بحث الرقباء الإسلاميين الآلية لا بد أنها اكتشفت كلمة «عذراء» virgin في فرجينيا). لكن هؤلاء الشباب لديهم طرق للتحايل على المعوقات.

إيران أيضا لديها على الأقل ٥٠٠٠٠ مشارك blogger في صفحات المدونات على الإنترنت. وقد وضح لي أحد الطلاب بأنه نظراً لأن هذه المدونات مجهولة الاسم أو المصدر في أغلب الأحيان، فان الناس يمكن أن يتكلموا بحرية، بشكل لا يتجاسرون على اتباعه حتى في دوائر الطلبة الأصدقاء، فقد يكون بين هؤلاء الأصدقاء من هو جاسوس للنظام. التلميح إلى وصف النظام اللطيف لوكالات استخباراته بأنهم «الجنود المجهولون للإمام الغائب» فإن الطلبة يطلقون عليهم، بسخرية ثقيلة، «جنود الإمام المختفي» الذين يفترض بالطبع بأنهم (أي الطلبة) هم جنود الإمام الغائب.

صرف النظام خمساً وعشرين سنة يحاول أن يجعل هؤلاء الشباب موالين تماما للإسلام ومعادين للأمريكان وللغرب ولإسرائيل. كانت النتيجة، أن معظم هؤلاء الشباب مستاءون من الإسلام في شكله الإيراني المفروض حالياً، وبالأحرى مؤيد للأمريكان، ومطلع بشكل وثيق لأحوال إسرائيل. أحد العلماء، الذي يعتبر نفسه إصلاحي إسلامي، يقول بأن إيران الآن - تحت حكم الحجاب،كما يقول- معظم المجتمع المدني في العالم الإسلامي. يحلم الكثيرون أيضا بالحياة في أمريكا. عدد كبير نسبياً من الشباب الإيرانيين رحبوا حتى باحتلال العراق، ويتمنون أن يجلب الحرية والديمقراطية إلى البلد الأقرب لهم. ويدركون كيف أن الغزو الأمريكي قد أفاد الشيعة في جنوب العراق، ويسخرون من أن الرئيس



كتـــاب الـزاويـــة

السودان وأهل السودان

يوسف الشريف

حب عميق للسودان وأهل السودان يشى به هذا الكتاب وهو كما يقول الدكتور حيدر إبراهيم على رئيس مركز الدراسات السودانية بالقاهرة يأتى ليكسر الصمت والإهمال الذى لازم تاريخ الكتابة المصرية عن السودان والمؤلف وهو الكاتب والصحفى البارز يوسف الشريف معروف بحبه للسودان وبمعرفته ودراميته فى شئونه ليس فقط من النواحى السياسية والاقتصادية بل فى أعماق السودانيين عواطفهم وأحاسيسهم وتفكيرهم ورغم أن علاقات مصر والسودان فى شتى المجالات متشعبة لدرجة قد يصعب حصرها إلا أن قليلاً من الكتاب المصريين هم الذين تخصصوا فى الشأن السودانى وأقل القليل هم الذين عرفوا السودانيين عن قرب وتمعنوا فى واقعهم وتاريخهم. ولذلك فإن كتاب «السودان وأهل السودان» يسد فراغًا كبيرًا فى المكتبة المصرية ليس لأنه تناول مجريات الأحداث خلال السنوات القليلة الماضية بل لأنه تجاوز السياسى المباشر ليغوص فى الأعماق وبشكل خاص الحس الفنى والذوق لدى السودانيين وجانب الفكاهة والهزل لديهم. إنه ـ أى الكتاب ـ وصف ثقافى للجوانب الفنية لدى السودانى ـ وهو أيضًا باقة حب يهديها يوسف الشريف إلى محبوبته السودان وإلى أحبائه السودانيين.

وقد صدر الكتاب عن «دار الشروق» ثم صدرت منه طبعة خاصة أصدرتها الدار ضمن مشروع مكتبة الأسرة ٢٠٠٤.



جورج دبليو بوش هو «الإمام الثالث عشر».

الأمل الأفضل لـ ٤٥ مليون شاب هو التغيير السلمى لنظام الجمهورية الإسلامية الإيرانية. «قوتهم الناعمة» يمكن أن تكون أكثر فعالية من خمس وأربعين فرقة عسكرية من جنود المارينز. التراث الإيجابى الوحيد فى سنوات حكم الرئيس الإصلاحى محمد خاتمى هو أن هذا الجيل كبر مع خوف أقل من أسلافه. الطلاب فى جامعة طهران كانوا قد انطلقوا فى مظاهرات احتجاج واسعة النطاق فى صيف ١٩٩٩.

وهؤلاء لن يغفروا لخاتمى سماحه بقمع هذه الاحتجاجات. فى كل عام منذ ١٩٩٩، كان عدد صغير منهم يحاول إحياء الذكرى بالمظاهرات، فكانت قوات الشرطة تفرقهم. كان القمع عنيفًا: هكذا كتب، قائد طلابى شهير ما زال يقضى العقوبة بالسجن لمدة ست سنوات. رغم ذلك الانطباع فقد عرفت من أولئك الذين تكلمت معهم بأنهم ينوون الاستمرار فى الكفاح، ربما بأشكال احتجاجية أكثر براعة وإبداعاً.

إمكانيات هؤلاء الشباب كما أعتقد كبيرة للغاية فهم متعلمون وغاضبون ومحبطون وطموحون. وعندما يتركون الجامعة فإن معظمهم لن يجد وظائف ملائمة لتخصصاتهم. وإذا ما توافر لهم الوقت والظروف السليمة فإنهم سيأخذون مركز الصدارة فى ممارسة الضغط الاجتماعى المنظم الذى سيسمح للمدافعين عن الإصلاح، وحتى دعاة التغيير، بان تكون لهم اليد العليا داخل الدولة الثنائية.

الولايات المتحدة، مع ذلك، سترتكب خطأ ضخمًا إذا اعتقدت أن هؤلاء الشباب الإيرانيين حلفاء آليون للغرب. فمواقفهم السياسية تجاه الغرب معقدة، ومشوشة جداً فى أغلب الأحيان، وقلقة. على خلاف ما هو حادث فى تركيا المجاورة، حتى أن معظم المتحدثين يصرحون بأنها ستصبح أكثر ديمقراطية ولكنهم لا يتصورون أن بلادهم ستصبح جزءاً من الغرب. فهم يريدون نسخة إيرانية محددة من المجتمع الحديث. إذا رأى هؤلاء أن حضارتهم القديمة فى محيط إقليمى أوسع، يدعونه الشرق الأوسط أو آسيا، فسيقولون كما قال أحد النشطاء فى أوساط الطلبة «نحن ناس شرقيون». علاوة على ذلك، فإنهم قليلون الإطلاع حول السياسات الغربية بينما هم حسنو الاطلاع حول إيران.

ماذا بشأن برنامج إيران النووى؟ لم تكن هذه القضية هامة بالنسبة للشباب الذين التقيت بهم. لم يثر أحد منهم القضية فى الحديث معى. عندما سألتهم حولها، انقسموا إلى مجموعتين. المجموعة الأولى شعرت بأن إيران أمة محترمة لكنها غير آمنة محاطة بجيران يمتلكون أسلحة نووية، ولذلك فهى لها الحق ليس فقط فى امتلاك الطاقة النووية المدنية لكن أيضاً الأسلحة النووية. أما المجموعة الثانية فقد شعرت بأن إيران الديمقراطية يجب أن يكون لديها مثل هذه الحق بلا شك، لكنهم يفضلون أن لا يحصل هذا النظام القمعى على الأسلحة النووية. رغم ذلك فإن كلتا المجموعتين أصرت بحماس متساوٍ بأن القصف الأمريكى أو الإسرائيلى للتجهيزات النووية، ناهيك عن احتلال من طراز العراق، سيكون له رد فعل غير مقبول إطلاقا بالنسبة لطموحات إيران النووية.

بينما كنا نجلس فى مطعم كنتاكى فى طهران، قالت شابة حسنة التعليم «أحب جورج بوش»، «لكن أنا سأكرهه إذا قصف بلادى». وقالت إنها ستقاوم حتى أى مستوى من العقوبات الاقتصادية على هذه الأرضية. المحلل المحلى المتبصر عزز هذه النقطة فقال: إن هذا الأمر يمكن أن يعطى لهذا النظام الفرصة لاستعادة الدعم الشعبى، خصوصاً بين الشباب الصغار.

مع ذلك، إذا استطاعت أوروبا والولايات المتحدة تفادى ذلك الفخ؛ وأيا كان ما سنفعله نحن لإبطاء بروز إيران النووية لن يبطئ دمقرطة إيران؛ وإذا، فى نفس الوقت، تمكنا من أن نجد السياسات التى تساعد على الإعتاق الاجتماعى التدريجى والتحرر الذاتى لبلاد فارس، إذن فإن التوقعات على المدى الطويل ستكون جيدة. الثورة الإسلامية، مثل الثورات الفرنسية والروسية، انشغلت بالتهام أطفالها. فى يوم ما، الأحفاد سيلتهمون الثورة. ■


النساجون الشرقيون
OrientalWeavers
LAVA
The Collection Features Bold Designs & Colours
Corporate Office : 8 El Shaheed Zakaria Khalil Street.Heliopolis.Cairo.Egypt
tel . : 02 - 2672121 fax : 02 - 2672241 e-mail ows@orientalweavers.com

إفساد

أمينة شفيق

إن أحد المواطنين لم يجد اسمه فى الكشف التصويتى للصندوق الذى يشرف عليه القاضى فاتجه إليه قائلا: «ممكن أحط صباعى فى الحبر.. لأنى أخدت ٥٠٠ جنيه من... ولو خرجت من غير العلامة الحمرة على صباعى حاضطر أرد الفلوس!»

لاشك أن انتخابات مجلس الشعب المصرى لعام ٢٠٠٥ شهدت حالة غير مسبوقة من الإفساد والفساد العامين. لا يمكن مقارنة هذه الحالة من الإفساد والفساد بكل ما سبقتها من حالات سابقة، سواء قارناها بنظيراتها التى تمت قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ أو بكل الحالات التى لحقت بقيام الثورة بدءا من أول انتخابات جرت بعد إقرار دستور عام ١٩٥٦ حتى آخرها التى تمت عام ٢٠٠٠. بالفعل كانت انتخابات مجلس الشعب للدورة البرلمانية ٢٠٠٥/ ٢٠١٠ حالة دراماتيكية غير مسبوقة فى تاريخ الحياة السياسية فى مصر.

ولكن الذى «يميز» هذه الانتخابات النيابية، وهى «ميزة» تدخل ضمن الوصف الدراماتيكى، وإذا كنا سنصفها تجاوزا بـ «الميزة»، أنها حالة من الإفساد والفساد التى تمت على المكشوف أو كما يقال على ألسنة البسطاء من أولاد البلد «على عينك يا تاجر». وفى قول آخر «خلعوا برقع الحياء». لم يلجأ أى جانب من صناعها أو صائغيها إلى التستر أو المواربة أو الخفاء. لم يعرف هؤلاء الصناع قيمة «الحياء السياسى» كما أنهم لم يضعوا هذا «الحياء السياسى» فى اعتبارهم وهم يتعاملون مع بعضهم البعض أو مع الناخبين. أو ربما لم ترد قيمة «الحياء» فى قاموسهم السياسى. لم يخف أحد من أحد. كما أنهم لم يخافوا، جميعا، من عواقب خرق القوانين والضوابط الإجرائية أو التنظيمية التى مهدت للانتخابات.

بالإضافة إلى أن هذه الحالة حدثت فى تصادم مع كل التطلعات والأمنيات والطموحات العامة التى أحاطت بمقدمات هذه الانتخابات والتى تمثلت فى حصول القضاة على حق الإشراف على العملية التصويتية بمراحلها المتتالية، (وليس على العملية الانتخابية). بدأ إشراف القضاء على صناديق التصويت ثم على إجراءات نقلها إلى مقار الفرز ثم على عملية فرز الأصوات وأخيرا إعلان النتائج. كذلك، امتدت هذه المقدمات إلى إقرار مبدأ التصويت فى صندوق زجاجى وبصدور قوانين تحدد السقف المالى للإنفاق على الدعاية الانتخابية بـ سبعين ألف جنيه وبصدور تشريع خاص يؤكد على تجريم البلطجة والعنف. وفى النهاية تأكدت الطموحات وعلت بإقرار دور المنظمات غير الحكومية المصرية فى متابعة ومراقبة العملية الانتخابية.

والمدهش أن الدوائر الانتخابية فى المراحل الثلاث شهدت كماً غير مسبوق من المتابعة الأجنبية التى لم يعلن بشكل



الفقــــراء!!

واضح عن وجودها. فرق تتلوها فرق من بلدان الاتحاد الأوروبى، وحتى من بعض العاملين فى السفارات الغربية فى مصر الذين ظهروا بكل بساطة على شاشات الفضائيات وهم يتجولون بكل حرية فى الدوائر. ومع كل هذه «الضوابط» و«القوانين» و«الرقابة» المصرية وغير المصرية، فقد حدث ما حدث من الإفساد والفساد.

فى هذا المقال، لن أتناول من حالة الإفساد والفساد العامة هذه إلا جانبها المالى. لن أدخل فى تفاصيل التزوير أو عمليات القيد الجماعى أو كشوف الانتخابات المستهلكة أو استخدام الأسلحة البيضاء لتخويف وترويع الناخبين أو الهجوم على المقار الانتخابية وطرد الناخبين أو كسر صناديق التصويت أو الاعتداء على القضاة أثناء قيامهم بواجبهم الوطنى أو استحداث فكرة البطاقة الدوارة أو منع الناخبين والناخبات من الوصول إلى صناديقهم أو استخدام أجهزة المحمول فى تصوير بطاقة التصويت ضمانا لتنفيذ الاتفاق أو التدخل الخفى المتستر، الإيجابى أو السلبى، والمهذب جدا فى أحيان أو العنيف جدا فى أحيان أخرى، لجهاز الشرطة المصرية. لن أدخل فى كل هذه الأمور التى قتلت «نشرا صريحا وتعليقا واضحا».

سوف أتباعد عن كل هذا الفساد الذى اتسم بمحاولة خديعة المواطنين والإيقاع بهم فى مصيدة تحولهم إلى «فرائس» ضعيفة، يسهل «قنص» أصواتهم لتحقيق كسب برلمانى.

سوف أقترب فقط من الجانب المالى للإفساد والفساد. لأنه الجانب الذى يمس ذمم وطبيعة وهوية أوسع الجماهير المصرية انتشارا، والذين خرجوا من المعركة الانتخابية بعد أن بدوا وكأنهم باتوا فصيلا وجزءا من «مؤسسة الفساد المصرية». وهى الجماهير التى قيل أنها حولت صوتها الانتخابى إلى سلعة تتداول فى السوق السياسية المصرية. كما أنها الجماهير التى تعيش حالة معاناة اقتصادية واجتماعية خانقة، كان من المفروض أن تأتى أصواتها فى انتخابات مجلس الشعب لعام ٢٠٠٥ بنواب شعب يحاولون التخطيط ويتابعون السياسات العامة التى تسعى وتهدف إلى انتشال هذه الجماهير من هذه الأزمة الخانقة. بدلاً من ذلك، خرجت هذه الجماهير من هذه المعركة الانتخابية وقد وضعت أمامها عدة علامات وأسئلة استفسار واستفهام. لأنها وصفت بأنها لا تملك القدرة أو الرغبة فى التغيير طالما باتت جزءا من دائرة الإفساد والفساد. كما أتهمت بأنها كانت الجانب «المتلقى» الذى رحب بالإفساد واستفاد منه ماليا مقابل بيع أصواته الانتخابية. واتهمت بقبول وبتلقى الرشى السياسية. فى النهاية أتهمت بأنها غير قابلة أو مستعدة لإحداث تغيير سياسى مصرى شامل.

والغريب أن هذا الاتهام أحاط بالمرأة أكثر مما أحاط بالرجل. فى حين أحاط اتهام البلطجة بالرجل أكثر مما أحاط بالمرأة. وفى تقديرى أن الإفساد، المالى تحديدا، كسر حاجز النوع الاجتماعى بحيث لا نستطيع أن نميز الرجل عن المرأة فى تناولنا لدائرة تأثيره السلبى. أثر فى الاثنين بنفس القوة ولكن بأعداد مختلفة وربما بصور متنوعة. وعندما أشير إلى «القوة» فإننى أعنى درجة تغيير القناعات الأساسية والإنسانية للفرد أو للجماعة. كما أحاط اتهام البلطجة بالاثنين معا ولكن بأعداد كثيرة التباين.

وقبل الدخول فى التفاصيل، أرى واجبا أن أتناول، ولو بإبداء الرأى الشخصى، قاعدة الساحة الاقتصادية والاجتماعية التى جرت فيها الانتخابات لعام ٢٠٠٥ والتى رصدنا فيها هذه الحالة غير المسبوقة من الإفساد والفساد. كما أود توضيح أننى لم أتابع كل الدوائر الانتخابية المصرية الـ ٢٢٢ ولكنى حصلت على الكثير من المعلومات من «أصدقاء غير حزبيين» تابعوا البعض منها ونقلوها إلى.

فى البداية، فإنى أفصل بشكل قطعى بين الحضر والريف. هنا، فى هذا المقال ألقى الضوء على ما تناقلته وسائل الإعلام المصرية وغير المصرية مما حدث بكثافة فى الحضر المصرى وخاصة فى القاهرة والإسكندرية وبور سعيد، حيث إنها المواقع الأقرب فى الاتصال عن المواقع الريفية النائية. بعد ذلك، سأوضح بعض ما وصلت إليه من حقائق نتيجة لعدد من الزيارات التى قمت بها إلى عدد من القرى المصرية بعد انتهاء المعركة الانتخابية.

رأيى أن ما حدث فى الحضر اختلف عما حدث فى الريف بالرغم من تجانس بعض المشاكل الاقتصادية والاجتماعية فى الاثنين. كذلك، بالرغم من أن الريف يعانى من مشاكل أخرى غير التى يشترك فيها مع الحضر وخاصة الحضر الفقير والمتوسط.

فكيف كانت قاعدة الساحة السياسية المصرية عشية انتخابات ٢٠٠٥؟ وما هو العنصر الحاسم الذى ساعد على إقامة شراكة فساد بين المرشحين الأثرياء والناخبين الفقراء؟

جرت هذه الانتخابات فى إطار اجتماعى تتعاظم فيه مشكلة البطالة فى صفوف الشباب من المصريين والمصريات. كما تمر سوق العمل المصرية بحالة من الخلل وعدم الانسجام أو عدم التوافق فى علاقاتها وظروفها وشروطها وكذلك فى أجورها ورواتبها. وتتباين معدلات البطالة بين ما تطرحه الحكومة وبين ما تطرحه المنظمات الدولية وبين ما يطرحه الاقتصاديون غير الحكوميين. ولكن فى حدود البيانات التى تتوافر فى المجلس القومى للمرأة، ترتفع بطالة الإناث إلى حوالى أربعة أضعاف بطالة الذكور. فى أوراق اللجنة الاقتصادية للمجلس، يذكر أن نسبة البطالة فى صفوف الذكور تصل إلى حوالى ٦٪ فى حين ترتفع فى صفوف الإناث إلى ٢٠٪. لن أتناول هذه النسب تناول الباحثين أو القائمين على عمليات التخطيط كما أنى لن أطرح أيًا من المعدلات الأخرى، بسبب انعدام وجود قياسات علمية حقيقية لأى منها، ولكنى سأشير إلى حقيقة واضحة لا يمكن الاختلاف عليها، وهى تزايد أعداد الشباب من خريجى الشهادات الجامعية والمتوسطة، الذين نراهم بالعين المجردة، على أرصفة شوارع العواصم، سواء القاهرة أو عواصم المحافظات الأخرى، وقد انخرطوا فى القطاع الاقتصادى غير الرسمى. مئات الآلاف من الشباب الأشداء المؤهلين، دفعتهم البطالة إلى الوقوف على الأرصفة لتسويق منتجات صينية متنوعة استوردها تاجر أو مجموعة تجار، وذلك مقابل عمولة أو نسبة على المتحقق من البيع. هؤلاء الباعة من حاملى الشهادات الجامعية والمتوسطة، كانوا من سعداء الحظ، الذين تمكنوا من التعرف على هؤلاء التجار المستوردين. أما هؤلاء التعساء من المتعطلين فقد استمروا فى حالة بحث عن العمل أو أى عمل.

أما المتعطلات من خريجات الجامعات والمراحل المتوسطة، فقد التحقن بالأعمال ذات العلاقات غير القانونية أى فى القطاع الاقتصادى الرسمى الصغير أو المتوسط، الذى يمارس نشاطه الاقتصادى، مثلا، فى المحال التجارية الصغيرة والكثيرة العدد والمنتشرة فى شوارع عواصم المحافظات. التحقن، مرة أخرى فى حالة توافر الحظ السعيد، للعمل فى هذه المحال التجارية الخاصة أو الورش الصغيرة، بلا عقود عمل وبلا أجر ثابت. اضطررن للعمل فى إطار علاقات، يسميها خبراء العمل، بعلاقات السخرة أو ما يشابهها أو ما يقترب منها. وهى العلاقات التى تسمح لصاحب العمل فى تحديد ساعات العمل ونوعه ثم بحجز أو بـ «حبس» جانب من الأجر اليومى بحيث يتراكم لديه مبلغ كبير نسبيا لا تستطيع العاملة الحصول عليه فى حالة امتناعها عن العمل. وبالتالى يضمن صاحب العمل استمرارها، أو اضطرارها للاستمرار فى الانتظام والدوام، بالرغم من تدهور ظروف وعلاقات العمل الذى تؤديه.

وربما يأخذ البعض منا تعطل النساء بدرجة من البساطة. ولكن علينا أن نضع هذه الحقائق الاقتصادية فى إطار تزايد معدلات إعالة النساء لأسرهن سواء كان المعالون أبناءهن أو أشقاءهن أو آباءهن أو، فى أحيان كثيرة، أزواجهن. فى إطار الأزمة الاقتصادية الاجتماعية الخانقة لم يعد العمل اختيارا للمرأة، بل بات حتمية وضرورة.

فالمعروف أن ٢٢٪ من

تبلورت حالات الإفساد والفساد، بشكل حاد، حيث وجد المهمشون اقتصاديا والمحبطون اجتماعيا فى الحضر وليس فى كل الريف

الأسر المصرية تعولها نساء. ولكن الذى لم يغطه إحصاء عام ١٩٩٦ هو علاقة المعالين بالمعيلة.

الهام، فى هذا الشأن، أن هذا القطاع الاقتصادى غير الرسمى الذى ينخرط فيه الشباب المتعطل أو ذلك الآخر الرسمى الصغير والمتوسط والذى لا يلتزم بقوانين العمل والذى تلتحق به الشابات المتعطلات، نشرا وسيدا طبيعة ونسق ونمط علاقاتهما فى سوق العمل المصرية بدرجة جعلت هذه العلاقات هى العلاقات السائدة فى هذا السوق. فاليوم نجد قطاع الأعمال، العام والخاص، وحتى القطاع الحكومى يتبعان ذات الأسلوب من حيث تشغيل العاملين بدون عقود عمل وبالتالى بلا حقوق عمل ينص عليها قانونا العمل والتأمينات.

هذه الأوضاع، وإن بدت اقتصادية بحتة، إلا أنها ذات مردود اجتماعى وثقافى شديد الأهمية. قد أسميها بعلاقات العمل «العشوائية» التى لا تسهم فى بناء مجرى حياة عملى أو إنتاجى للمنخرطين فيها.

ولنا أن نقارن بين عامل ملتحق بوحدة صناعية رسمية. يحدد عقد العمل العلاقات التى تربطه بوحدة العمل وهى العلاقات المؤسسة والمبنية على قوانين العمل وضوابطها التى يلتزم بها طرفا العقد. يقف العامل على خط إنتاج يرتبط بخطوط إنتاج أخرى يعمل عليها زملاؤه. ينخرط فى عضوية ونشاط نقابة وينتخب قياداتها. يعلم أن له إجازات قانونية، مرضية وسنوية واعتيادية. كما أن له حقوقًا ترتبط بالعلاوات والحوافز. يعلم أنه شريك فى نظام للضمان الاجتماعى وأن مستقبله ومستقبل أسرته مؤمنان، وبين شخص آخر من هؤلاء النشطين اقتصاديا فى سوق العمل هذه التى لم يتوفر له فيها



إلا مكان على رصيف فى أحد الشوارع المزدحمة بالمارة، قد تهدده شرطة المرافق فى أى لحظة وتقتلعه منها وتقوده إلى أقرب نقطة شرطة بعد أن تكون قد استولت على البضاعة التى تسلمها من التاجر فى الصباح. تشكل علاقات وظروف العمل المستقرة والواضحة، ثقافة العامل الأول وتصوغ توجهاته نحو الأحداث العامة كالانتخابات مثلا. أما الإنسان الثانى الذى يمارس نشاطه ويحقق دخله من على مساحة على رصيف أحد شوارع القاهرة، فإنه يتأثر ثقافيا وسلوكيا بهذه الظروف التى تحيط به وتضعه فى الحالة «العشوائية» التى يعيشها والتى تسلب منه حقه فى الاستقرار والأمن الاجتماعيين.

ينطبق ذات الشىء على الإناث. فهناك فرق بين المفاهيم الثقافية التى تحملها عاملة أو موظفة فى القطاع الرسمى الصناعى أو التجارى، الخاص أو العام، أو الحكومى الذى يضمن لها كل الحقوق بدءا من المرتب وصولا إلى المعاش، وبين تلك المفاهيم الثقافية التى تحملها عاملة تخضع لعلاقات عمل تقترب من علاقات السخرة بكل ما تحمله لها هذه العلاقات من أضرار اجتماعية واقتصادية ونفسية. بالرغم من أن الاثنتين، العاملة فى القطاع الرسمى والأخرى العاملة فى القطاع الصغير، قد تكونان خريجتين لجامعة واحدة ولكلية واحدة وربما لقسم دراسى واحد بالإضافة إلى أنهما قد تكونان من دفعة دراسية واحدة..

وهنا تبرز شريحة ثالثة من الإناث وهن اللاتى يعشن فى العشوائيات المحيطة بالحضر الكبير. تمثل هذه الشريحة أعدادا كبيرة جاءت من الريف سعيا للرزق فى الحضر. فتجمعن مع عائلاتهن فى أحزمة المدن بحيث يتحركن إلى قلب هذه المدن، للعمل اليومى الخدمى المنزلى، ويعدن فى المساء لأسرهن بالقليل الذى يسد رمق الأفواه الكثيرة العدد. ونحن نركز هنا على نساء العشوائيات ليس بهدف تجاهل الذكور وإنما لأن هذه المرأة القاطنة للعشوائية تحديدا، حصلت على عناية إعلامية وسياسية خاصة خلال الفترة الماضية.

وقد يتصور البعض منا أن هذا الكم من الإناث المصريات ذوات المشاكل الاقتصادية الحادة، بشرائحن المختلفة، لا يملكن بطاقات انتخاب. هو فى الحقيقة تصور خاطئ. لأن الفترة الماضية والتى تعود إلى حوالى خمس سنوات مضت نشطت حركة مجتمعية عامة لزيادة نسبة مشاركة المرأة فى جداول الناخبين. وحدث بالفعل أن ارتفع نصيب المرأة فى الجداول من حوالى ٣٣٪ من مجمل إعداد الناخبين إلى حوالى ٤٤٪. فالمرأة الناخبة، خلال السنوات الخمس الماضية، لم تكن موضع الاهتمام السياسى للمجلس القومى للمرأة ولا للجمعيات العاملة فى مجال تنمية المرأة فحسب، وإنما وضح من حركة المعركة الانتخابية لعام ٢٠٠٥ أنها كانت مرمى وهدفًا لبعض رجال الأعمال الذين أرادوا منذ البداية التخطيط للوصول إلى أصواتها فى العشوائيات ومناطق وأحياء الحضر الفقير، لقنصها. وبادروا بحركتهم هذه فى سباق محموم منذ نهاية انتخابات عام ٢٠٠٠. أى فى توازٍ مع حركة المجلس القومى للمرأة وحركة كل الجمعيات والمنظمات النسوية المصرية.

ولتوضيح هذا الحجم من العمل السياسى العام الذى قام به المجلس القومى للمرأة والجمعيات النسوية فى مجالى استخراج الرقم القومى وبطاقات الانتخابات يمكن التأكيد أن المجلس قدم خدماته هذه لمليون ونصف مليون امرأة مصرية من ساكنات القرى والمناطق العشوائية. هذا غير الأعداد التى استوعبتها خدمات الجمعيات النسوية.

وحدث ذات الشىء مع المتعطلين من الشباب ولكن بطريقة مزدوجة، لقد التقطهم تجار ومستوردو السلع الصينية إلى القطاع غير الرسمى، ليروجوا البضائع التى يأتون بها من هذا البلد الأسيوى البعيد، وفى ذات الوقت التقطهم هذا البعض الآخر من رجال الأعمال الزاحفين على الحياة السياسية. أخذهم الفريق الأول للعمل اقتصاديا، فى حين أخذهم الفريق الثانى للزج بهم إلى جداول الناخبين ثم إلى ساحة البلطجة.

وبذلك بات لدينا فى جداول الناخبين الملايين من المهمشين اقتصاديا والمحبطين اجتماعيا، ذكورا وإناثا، الذين لم يجدوا لهم مكانا فى القطاع الاقتصادى الرسمى ذى العلاقات القانونية والذى يساهم على بناء مجرى للحياة للعاملين فيه ويساعدهم على الحراك الاجتماعى المستند على العمل المنظم سواء كان صناعيا أو تجاريا أو خدميا أو حتى فى القطاع الحكومى.

من وجهة نظرى، تلك كانت أهم ملامح قاعدة الساحة الاقتصادية الاجتماعية وفى ذات الوقت الثقافية التى وجدها البعض من رجال الأعمال فى متناول ملايينهم المتجمعة. وجدوا الساحة جاهزة للصعود على أكتاف عناصرها البشرية المهمشة والمحبطة إلى مقاعد مجلس الشعب. فكان الإفساد والفساد عملية تلقائية سهلة ويسيرة.

أين حدث هذا الإفساد والفساد؟.. فى كل الدوائر؟.. فى كل محافظات مصر المحروسة؟

فى تقديرى.. لا.

تبلورت حالات الإفساد والفساد، بشكل حاد، حيث وجد المهمشون اقتصاديا والمحبطون اجتماعيا فى الحضر وليس فى كل الريف.

شهد الريف المصرى، فى الدلتا والصعيد، حوادث عنف وفى حالات كثيرة وقائع بلطجة ولكنها حوادث ووقائع مرتبطة بالتراث القبلى والأسرى الذى لايزال يسيطر على ريف مصر. حدث إنفاق مالى كبير. كما وقعت حوادث قتل وإصابات. ولكن من الصعب أن نشير إلى أن كل الريف المصرى شهد هذه الحالة الدراماتيكية الحادة من شراء وبيع الأصوات الانتخابية. إتجه الإنفاق فى محافظات بحرية وصعيدية إلى تقديم العينيات من الاحتياجات ولكن بشكل أقل حدة وبصور مختلفة.

شاءت الظروف أن أزور قرية صعيدية أم تتبعها عدة قرى وعشرات النجوع فى محافظة سوهاج. قرية نيدة مركز أخميم. يتجاوز تعدادها الـ ١٣٠ ألف نسمة. خلال السنوات الخمس الماضية تم تسجيل ١٦ ألف صوت انتخابى للنساء. وقد سجل هذا الرقم الكبير المجلس القومى للمرأة بالتعاون مع محافظة سوهاج.

فى زيارتى سألت رئيس المجلس المحلى لمركز أخميم:

لمن صوتت النساء فى الانتخابات الفائتة؟

ضحك قائلا:

لغير الحزب الوطنى. كل الأصوات التى تعبنا فى تسجيلها مع المجلس القومى ومع الجمعيات، راحت للمستقلين.

وكان سؤالى الثانى:

هل تم شراء أصوات النساء؟

أجاب بحزم:

لا.. ولا حتى الرجالة.

ثم طلبت التحادث مع بعض نساء القرية. وحدث.

سألتهن:

هل أخذتم فلوس مقابل الإدلاء الأصوات؟

أجابت النسوة بشكل قاطع:

يا دى العار.. فلوس؟

ثم قالت إحداهن إنها انتخبت المرشح المستقل لأنها زهقت وتعبت من وجود أربعة أبناء متعطلين فى البيت. تصورت أن التغيير فى الانتخابات قد يأتى بنتيجة مغايرة للواقع الاقتصادى الخانق. ثم أضافت أنها تشاورت فى قرار

التصويت مع هؤلاء الأبناء المتعطلين. كما تشاورت مع نساء أخريات فى القرية.

كان هذا فى مركز أخميم وهو مركز حرفى هام من مراكز محافظة سوهاج. يبعد المركز عن عاصمة المحافظة بحوالى خمسة كيلومترات. وتأتى قرية نيدة كأكبر قراه.

ثم نأتى لمحافظة المنيا.

فى بعض قرى المنيا لجأ عدد من المرشحين إلى الأسلوب التقليدى للاقتراب من الناخبين ومن الناخبات تحديدا. وهو أسلوب تم ابتداعه من قبل عدد من مرشحى الحزب الوطنى فى القاهرة والإسكندرية فى الانتخابات السابقة. فى المنيا لم تشتر الأصوات وإنما تم توزيع المال بشكل عينى. وزع البعض من المرشحين البطاطين والأقمشة والأرز والمكرونة والزيت والسمن.. إلى آخر تلك السلع التموينية التى يتم توزيعها بمناسبة شهر رمضان الكريم.

والملاحظة هنا هى أنها سلع تتجه إلى احتياجات ربات البيوت الفقيرات وخاصة أن الانتخابات صاحبت شهر رمضان. بجانب أنها جرت فى نهاية فصل الصيف وفى مقدمات فصل الشتاء. وتنتمى هذه الشريحة الفقيرة من النساء إلى نفس الشريحة النسائية التى اتجه إليها المجلس القومى للمرأة لمساندتها لاستخراج الرقم القومى.. لقد اشترط المجلس أن تكون المرأة الفقيرة المعدمة فى الريف والحضر العشوائى، وحدها ودون غيرها، الهدف من المشروع. لأنها غير قادرة على مواجهة جهاز الإدارة المحلية لاستخراج شهادة أو مستخرج الميلاد أو إقرارات التسنين، بالإضافة إلى أنها لا تستطيع توفير تكلفة استخراج الرقم القومى.

فى محافظة الوادى الجديد، تنعدم ظاهرة شراء الأصوات. لأنها محافظة تتمايز بوضع خاص. فهى محافظة تتلاشى فيها الأمية وظاهرة ختان الإناث وترتفع فيها نسبة الحاملين والحاملات للشهادات المتوسطة وخاصة التجارية وكذلك العاملين فى المشروعات الصغيرة وتسود فيها العلاقات القبلية التى تتحكم فى عمليات التصويت.

سألت صديقة تسكن مدينة الخارجة عاصمة المحافظة:

هل تم شراء أصوات فى دائرتى المحافظة؟

أجابت ضاحكة:

طبعا لا.. الكلام ده عندكم فى القاهرة «الملوثة».

ضحكت، لأنها كانت تعنى التلوث البيئى والآخر التلوث السياسى.

فى قرى الدلتا تكررت ظاهرة توزيع السلع الغذائية والبطاطين. وكان لهذه الظاهرة مفعول «السحر السياسى التصويتى». فى دائرة شهيرة فى محافظة كفر الشيخ ارتفعت نسبة تصويت النساء عن نسبة تصويت الرجال. لم تحصل النساء على مبالغ مالية سائلة ولكنهن استطعن مواجهة شهر رمضان باحتياجاته الغذائية ثم الاستعداد لمواجهة الشتاء الممطر فى المحافظة.

> **جرت هذه الانتخابات فى إطار اجتماعى تتعاظم فيه مشكلة البطالة فى صفوف الشباب من المصريين والمصريات. كما تمر سوق العمل المصرية بحالة من الخلل وعدم الانسجام أو عدم التوافق فى علاقاتها وظروفها وشروطها وكذلك فى أجورها ورواتبها**

الذى يمكن أن نشير إليه، أن ظاهر الإفساد والفساد المالى المباشر، فى انتخابات عام ٢٠٠٥ ،كانت واضحة فى المراكز الحضرية الفقيرة لتتراجع فى دوائر ريف الدلتا ثم تزداد تراجعا فى ريف الصعيد. وأعتقد أنها لم تلعب دورا تصويتيا يذكر فى دوائر محافظات الحدود حيث تحدد القبيلة اتجاه صوت الفرد. أما الإفساد العينى السلعى فقد اتسعت دائرته لتستوعب الحضر الفقير وأعداداً من قرى الوجهين البحرى والقبلى. هذا جغرافيا.

أما بالنسبة للنوع الاجتماعى، فقد اتجه الإفساد المالى المباشر لكافة المهمشين من النساء والرجال وخاصة من كان منهم فى سن العمل. بينما اتجه الإفساد العينى السلعى للإناث أكثر من اتجاهه للذكور.

وللحق، يلجأ الكثيرون من أصحاب الأعمال إلى توزيع السلع الغذائية فى شهر رمضان وفى عيد الأضحى كنوع من الزكاة وكمظهر من التضامن الاجتماعى. ولكننا هنا نتحدث عن هؤلاء الأغنياء الذين ربطوا، بعمد ومع سبق الإصرار، بين هذه العملية التضامنية وبين «قنص» الأصوات فى العملية الانتخابية.

وقد نقل عن القضاة الذين راقبوا عملية التصويت عدد من المفارقات التى قد تساعد على فهم حقيقة الذى حدث من الإفساد والتضليل. قال أحد القضاة إن سيدة عجوزاً فقيرة جاءته بعد أن أدلت بصوتها فى الصندوق تطالبه بالبطانية الموعودة. قالت:

«قالوا لى خدى البطانية من القاضى بعد ما ترمى الورقة فى الصندوق!».

وقال آخر إن أحد المواطنين لم يجد اسمه فى الكشف التصويتى للصندوق الذى يشرف عليه القاضى فاتجه إليه قائلا:

«ممكن أحط صباعى فى الحبر.. لأنى أخدت ٥٠٠ جنيه من... ولو خرجت من غير العلامة الحمرة على صباعى حاضطر أرد الفلوس!».

مما سبق «يمكن القول» أن مؤسسة الإفساد والفساد السياسيين طالت الجميع، الأغنياء والفقراء معا. دفع الفريق الأول وتسلم الفريق الثانى. ووضعت السلعة فى الصندوق الزجاجى النزيه. وفى النهاية لم نخرج من المعركة الانتخابية بنتيجة سياسية مائة فى المائة. وإنما خرجنا فى جانب من هذه الانتخابات بنتيجة لمعادلة حسابية، فاز فيها بالمقعد البرلمانى، المرشح الذى استطاع أن يدفع أكثر.

والأخطر هى النتيجة الثانية التى «يمكن الوصول» أو «الاستناد» عليها وهى أن الفساد شمل المجتمع من قاعدته الاجتماعية الواسعة إلى قمته الأقل اتساعا. فباتت مناطحته فى غاية الصعوبة.

رأيى أن الخلاصتين فى غير محلهما .أرى أن الفساد فى هذه القاعدة الجماهيرية الواسعة يتواجد، حيث يوجد الإفساد.

أرى أن هذه الجماهير العريضة من النساء والرجال المهمشين والمحبطين ليست فاسدة بالطبيعة وإنما تخضع للفساد إذا جاءها المفسدون من أعلى لاستخدامها فى أوقات محددة مثل فترة «قنص» الأصوات الانتخابية.

ولإثبات رأيى هذا ألقى الضوء على ثلاثة مواقع اجتماعية، ومتباعدة جغرافيا وقطاعيا، تتعامل مع نفس هذه الشريحة من الفقراء والفقيرات، ولكن على أرضية الشفافية والنقاء المتبادلين. فجاءت النتيجة عكسية ومغايرة.

الموقع الأول هو قرية رأس الحكمة مركز مدينة مرسى مطروح فى محافظة مطروح. وهى قرية متواضعة من حيث مصادر دخلها واقتصادها. يعتمد أهلها فى معيشتهم فى الأساس على زراعة وإنتاج التين والزيتون ثم رعى الرؤوس الصغيرة من ماعز وخراف. والمحصولان الزراعيان موسميان وتتقارب فترات حصادهما. خلال السنوات الثلاث الماضية اتجهت وزارة الشئون الاجتماعية (الاسم السابق للوزارة) إلى الوحدة المحلية ونظمت معها عملية صرف عدد من القروض الصغيرة بأنواعها، الدوارة والفردية والتضامنية، للنساء الفقيرات والمعيلات لأسر. بلغ عدد الإقراض ٢٥٠ حالة ووصل المبلغ الجارى إقراضه ثم إعادة إقراضه ٠٣٨. ٢٧٠ جنيه مصرى. اتجه الإقراض إلى تربية ورعى الماعز والخراف.

فى زيارة للقرية سألت رئيس الوحدة المحلية عن ظروف سداد أقساط القروض. أجاب:

«مائة فى المائة.. تسدد الأقساط فى مواعيدها. ولا توجد لدينا حالة تعثر واحدة».

الموقع الثانى هو مجموعة من قرى محافظات الصعيد، الفيوم وبنى سويف وأسيوط وسوهاج وقنا وأسوان ومركز الأقصر. وكان المقرض فى هذه الحالة هو المجلس القومى للمرأة. واتجه الإقراض إلى ذات الشريحة من النساء، الفقيرات والمعيلات لأسر. استفادت من الإقراض ستة آلاف ريفية عائلة لأسرتها. ولا تزال عملية إعادة الإقراض جارية. المهم أن حالة واحدة من الستة آلاف حالة هى التى تعثرت لفترة



كتاب الزاوية

يوسف الشريف

الصاغ الراقص

ظلمت الصحافة المصرية والسودانية والبريطانية الصاغ صلاح سالم ظلم الحسن والحسين. الصحافة المصرية اتهمته بأنه ضيع نضال شعبى وادى النيل وفصم عرى الوحدة بين مصر والسودان، وصحف التيار الاستقلالى فى السودان عمدت إلى الترويج لشتى ألوان الأخطاء التى ارتكبها بالحق وبالباطل بدعوى تزييف إرادة الناخبين حين صوتوا فى أول انتخابات نيابية إلى جانب الوحدة مع مصر، وصحافة الاستعمار البريطانى هالها فى البداية نجاحه الساحق عندما أجمعت فصائل الحركة الوطنية السودانية فى الشمال والجنوب على تفويض مصر للحديث مع الإنجليز فى مفاوضات الجلاء عن وادى النيل بشأن المسألة السودانية وأطلقوا عليه وصف «الدانسنج ميجر»، أى الصاغ الراقص فى محاولة للسخرية من انخراطه فى حلبة الرقص عارى الصدر وسط شباب وشابات قبيلة الدينكا أكبر قبائل الجنوب وكأنه بهذه البساطة يمكنه هزيمة الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس فى معركتها المحتومة مع مصر فى السودان.

وأحسب أنه لم يعشق أحد السودان من المسئولين والقيادات والزعامات المصرية مثل عشق صلاح سالم عضو مجلس ثورة ٢٣ يوليو، فهو قد عمل فترة من حياته ضابطًا فى القوة العسكرية المصرية بالسودان، وعندما أسندت إليه مهمة إدارة السياسة المصرية فى السودان كان عليه أن يواجه كثيرًا من القوى السياسية الداخلية فى السودان التى تطمح إلى الانضواء فى منظومة الكومنولث بديلاً عن الوحدة مع مصر.

ثم سددت الأقساط. أما باقى الحالات فوصلت نسبة السداد فيها إلى المائة فى المائة.

جاءت التجربتان من قرى مصر. قام بهما جهاز الدولة، الأول هو وزارة الشئون الاجتماعية والثانى هو المجلس القومى للمرأة.

ثم نختبر تجربة ثالثة ولكن من الحضر. تقوم بها منظمة غير حكومية.

الموقع الثالث هو إدارة القروض فى الهيئة القبطية الإنجيلية للخدمات الاجتماعية حيث يصل إجمالى المال الدائر إلى عشرين مليون جنيه مصرى. وتتجه القروض الصغيرة والمتناهية الصغر إلى فقيرات وفقراء الحضر القاهرى والجيزاوى مثل حى بولاق الدكرور وحى السيدة زينب. فى هذه الحالة، يدخل الذكور كمستفيدين من القروض. وفى هذا الموقع الثالث ترتفع نسبة التسديد المنتظم إلى ما يقترب من ٩٩.٩٪ من الحجم الكلى للأقساط.

تشير المواقع الثلاثة إلى أن فقراء مصر منضبطون فى التعامل مع القروض. لا يسرقونها ولا يهربون بها من محافظة إلى أخرى.

هؤلاء الفقراء من النساء ومن الرجال، هم ذات فقراء الانتخابات بشحمهم ولحمهم. فما الذى غير موقفهم وحوّل انضباطهم وشفافيتهم المعهودين فى حالة القروض إلى حالة فساد سياسى وارتشاء مالى وعينى فى حالة صناديق التصويت؟

من المرجح أن هؤلاء الفقراء الذين يتواجدون هنا وهناك أى فى الحالتين، حالة الانتخابات ثم فى حال القروض، وجدوا أنفسهم فى انتخابات عام ٢٠٠٥ أمام مرشح يملك المال الوفير ويسعى إلى الحصانة البرلمانية بأى ثمن وبأية وسيلة. ولذلك اخترق الصفوف وأغدق المال. فكان طبيعيا أن يلتقط هؤلاء الفقراء المهمشون والمحبطون هذا المال.

فعندما طال الفاسدون الفقراء، أفسدوهم.

ولنتذكر أن كلاما كثيرا صرح به مسئولون حكوميون فى خطبهم السياسية العامة، كما تناقله سياسيون حزبيون عبر مكبرات الصوت، ينصح هذا الكلام الفقراء بأخذ وتسلم هذه الرشى المالية والعينية السلعية ثم بالتصويت للمرشح الذى يرونه أكثر ملاءمة سياسية لإصلاح حياتهم اليومية وللمساهمة فى توفير مستقبل أفضل لأبنائهم. قيل هذا الكلام الذى التقطه رجال الأعمال الساعون للحصانة، وفهموه، ثم لجأوا إلى إبداعاتهم الجديدة فى السيطرة على أصوات الفقراء، فكانت فكرة البطاقة الدوارة أو استخدام أجهزة المحمول فى رصد عملية التصويت والتيقن منها.

وقد استعد أصحاب الثروات الراغبون فى التقدم إلى الترشيح لمجلس الشعب، لاختراق صفوف الفقراء منذ فترة تسبق كثيرا مرحلة الإعداد المباشر للانتخابات أى قبل عام ٢٠٠٥. صنعوا شبكاتهم القادرة على الاتصال المباشر، من النساء والرجال، وأغدقوا عليها. وكانت دائما من العناصر القوية القادرة على التصدى والمجازفة. ولأن المجتمع يعج بالمتعطلين والمهمشين والمحبطين، فقد استطاع أصحاب الثروات الساعون إلى الحصانة، التقاط أعداد وأعداد من هذه العناصر التى ظهرت جليا فى أشكال البلطجة التى رأيناها فى الجولات الانتخابية الثلاثة.

وبعد أن كانت أعمال البلطجة قد بدأت فى الجولة الأولى فى دوائر دون غيرها، تعاظم ظهورها واتسع فى الانتشار فى الجولتين الثانية والثالثة. بحيث باتت ظاهرة تتساوى فى تأثيرها مع ظاهرة الإفساد.

فى رؤيتنا المستقبلية، لا يجب علينا التهوين من أحداث الإفساد والفساد والبلطجة التى تتحول، بوتائر ملحوظة، إلى إحدى الظواهر المتكررة فى معاركنا السياسية، خاصة بعد أن ازداد ظهورها العلنى وانتشارها فى انتخابات ٢٠٠٥. قد نأخذها كشىء عارض، إذا كنا بالفعل نطبق سياسات اقتصادية واجتماعية وثقافية مخططة تحد من نمو واتساع قاعدة المتعطلين والمهمشين والمحبطين من المصريين. وترسم لنا جميعا، هذه السياسات، مستقبلا واضحا آمنا. ولكننا إلى الآن لم نتحرك تجاه هذا الهدف. أو على الأصح نتحرك بطيئا بطيئا وبخطى غير مستقيمة.

وأخشى أن يسبقنا الزمن الردىء. فنجد أنفسنا أمام ما هو أخطر وأكثر جسامة.

فخطورة هذه الظاهرة لا تنصب أو تنحصر فقط على نتائج الانتخابات البرلمانية أو غيرها، ولكنها قد تتعداها إلى ما هو الأسوأ، كما حدث فى تجارب بلدان أخرى.

تأتينى أقرب هذه التجارب من أبغض ما شهدته الإنسانية من أحداث سياسية فى القرن العشرين عندما قفزت كل من النازية فى ألمانيا والفاشية فى إيطاليا إلى الحكم بأصوات كل المتعطلين والمهمشين والمحبطين نتيجة للأزمة الاقتصادية الطاحنة التى مرت ببلدان أوربا فى العقد العشرينى من القرن الفائت.

فى النهاية، الفقراء المهمشون اجتماعيا وثقافيا، ليسوا فاسدين بإجماعهم ولكنهم قد يتحولون إلى جيش هائل للفاشية. ■



أعـــــــراض صـيـنـيـــــــة

تبدو الصين - هذه الأيام - فى عجلة من أمرها، تسابق الزمن لتلحق بركب قيادة العالم وهي لا تألو جهدًا فى هذا السياق. والإحصاءات خير دليل على ذلك، فمعدل النمو يزيد على ١٠٪ منذ ١٠ سنوات والمشروعات العملاقة تظهر كل يوم والصادرات الصينية تغزو العالم، كما أن الفائض التجارى للصين مع كل الاقتصاديات الكبرى يمثل مشكلة تحاول الدول معالجتها مع بكين.

إلا أن هناك فاتورة أخرى لم تدفعها الصين بعد.. وتتعلق بنظامها السياسى القائم منذ انتصار الثورة الشيوعية عام ١٩٤٩.. هل يصلح هذا النظام للأخذ بيد البلاد وفي مرحلتها الجديدة؟ بل هل يستطيع البقاء من الأساس.. وجزء من النقاش حول هذه القضية نظرة الصينيين إلى زعيمهم الأكبر ماوتسى تونج فبعد سنوات طويلة من التقديس بدأت تظهر مراجعات أخرى لتاريخ الزعيم وتراثه..«وجهات نظر» تنشر هذين المقالين حول الصين وماوتسى تونج.

المحـــــرر

أصبح «صعود» الصين فجأة الشغل الشاغل لمن تفرض عليهم مهنهم الاهتمام بمستقبل هذا الكوكب. هل سيصبح القرن الحادى والعشرون القرن الصينى، وإذا كان الأمر كذلك، فبأى منطق؟ هل سيكون صعود الصين سلميًا أم سيتسم بالعنف؟ وكيف سيكون تأثير ذلك على الولايات المتحدة، تلك «القوة الفائقة» الحالية؟ الواقع أن الصين «فى صعود» منذ فترة (بعد مئات السنين من «الهبوط»)، غير أنه لسنوات عديدة كان هناك من الأحداث الأكثر إثارة ما غطى على حقها فى أن تحظى بالاهتمام. فقد تركز الاهتمام فى تسعينيات القرن العشرين على سقوط الشيوعية السوفيتية و«العولمة»، ونشر الديمقراطية، وثورة التكنولوجيا الفائقة. وبدا أن تلك التطورات، التى جعلت الولايات المتحدة القوة العظمى الاقتصادية والسياسة الوحيدة فى العام، تكذّب تنبؤ بول كنيدى فى عام ١٩٨٧ بانهيار الولايات المتحدة و«المزيد من النظام متعدد الأقطاب»[1].

كشف الهجوم على مركز التجارة العالمى فى عام ٢٠٠١، إلى جانب انهيار فقاعة التكنولوجيا الفائقة الذى تزامن معه، عن هشاشة أمريكا، غير أن ذلك كان يحجبه نشاط إدارة بوش المفرط. فقد زرعت «الحرب على الإرهاب» الجيوش الأمريكية فى أفغانستان والعراق؛ ولكن ما إن فشلت المغامرة الطائشة فى العراق وتضخم العجز، حتى فرض الإحساس بالانهيار النسبى نفسه من جديد. وعلى عكس ما حدث فى عام ١٩٨٧، كان هناك مرشح واضح للخلافة، وهو الصين. وكان الحال كذلك على نحو خاص حين أصبح الاقتصاد الأمريكى معتمداً على تمويل الصين للعجز التجارى الضخم. لقد تراجع حلم «القرن الأمريكى» ليحل محله كابوس «القرن الصينى».

جاء التركيز على الصين متأخراً عن موعده. فطوال ربع القرن المنصرم كان اقتصادها ينمو بمعدل يزيد على ٩ بالمائة سنويًا، حيث زاد بمقدار ثمانية أضعاف. ومع ذلك، فليس هذا النمو المفرط الذى طال أمد استمراره والحفاظ عليه هو وحده ما يدعو للدهشة ويرعب المراقبين. بل إنه الاقتصاد الآخذ فى النمو. ويقدر تعداد الصين رسميًا بمليار وثلاثمائة ألف نسمة، إلا أنه قد يكون أكثر من ذلك؛ وهو يمثل خُمس سكان العالم. ويجعل هذا صعودها أكثر أهمية من صعود اليابان فى الستينيات، على سبيل المثال. فمن الناحية الاقتصادية تعد عمالتها الرخيصة أكثر وفرة، وبذلك لن تفقد أفضلية رخص التكلفة بسرعة. ومن الواضح أن حجم الاقتصاد له أهميته كذلك فى قياس القوة. فالاقتصاد الصينى يساوى حوالى ثلثى حجم الاقتصاد الأمريكى، من حيث القوة الشرائية للشعب الصينى[2]. وإذا ظل ينمو بمعدل ٩ بالمائة سنويًا، فسوف يتجاوز الولايات المتحدة بحلول عام ٢٠١٤. ويعتقد لى كوان يو زعيم سنغافورة المخضرم أن صعود الصين سوف يغير ميزان القوى ويعيده إلى الشرق لأول مرة منذ وصول

عن: The New York Of Books

ترجمة: أحمد محمود

الظـــــــــــــل



السفن البرتغالية فى القرن السادس عشر.
من المؤكد أن النمو الصينى سوف يخلق، بسبب حجمه، مشاكل لنفسه وللآخرين. فالمشكلة الأساسية، من وجهة نظر القيادة الصينية، هى كيفية الحفاظ على التماسك الاجتماعى وسط تلك الاضطرابات الاجتماعية الاقتصادية الجارية. وبالإضافة إلى الانحطاط البيئى والفوضى المتفشية، يربك نمو الصين الاقتصادى المتسم بالسرعة والاضطراب، ولا يمكن السيطرة عليه، استقرارها الداخلى على نحو كبير جداً؛ فهناك هجرة ضخمة من الريف إلى المدن دون أن تكون هناك وظائف مستقرة أو مساكن. وهناك نمو وفجوة فى الدخل بين المناطق الساحلية والمناطق الداخلية كالفجوة التى بين الولايات المتحدة وشمال أفريقيا. وطبقاً لأحد التقديرات فإن ٣٠ بالمائة من القوى العاملة الحضرية فى الصين، أو ٢٠٠ مليون نسمة، عاطلة أو عاطلة جزئياً فى الوقت الراهن. كما أن سبل عيش ١٠٠ مليون آخرين من العمال الزراعيين مهددة، حيث تزيد قوانين منظمة التجارة العالمية من اعتماد الصين على الواردات الغذائية من الخارج. وبذلك فإن شبح الفوضى هو ما يخيف الحكام فى بكين.

الأمر المهم فى العلاقات الدولية هو ما إذا كان أثر الصين على العالم سيكون سلمياً أم سيتسم بالعنف. وفى هذه النقطة يتخذ النقاش مسارات علمية.

يقول أحد المعلقين: «يميل الذين يركزون على الاقتصاد إلى رؤية الشراكة والتعاون على أنهما سببان للتفاؤل برغم التوترات، بينما يتوقع خبراء الأمن الأكثر تشاؤماً حدوث صراع إستراتيجى، باعتبار أن ذلك هو المستقبل المحتمل لنظامين سياسيين على هذا القدر الشديد من الاختلاف»[٣]. يمكن لكل من الرأيين ادعاء امتلاكه للأدلة المؤيدة لما يقول. فمن ناحية، تدل الامتيازات التى قدمتها الصين للمستثمرين الأجانب والشركات الأجنبية من أجل دخول منظمة التجارة العالمية على استعدادها للّعب طبقاً لقواعد اللعبة المتعارف عليها. فقد بدأت حملة دعائية مستندة على «الصعود السلمى». ومن ناحية أخرى، تفتح شهية الصين النهمة للنفط والمواد الخام الباب أمام الصراع الجيوبوليتيكى المألوف من أجل السيطرة على مخزون تلك السلع. وكان لابد من سحب عرضها شراء Uncoal تاسع أكبر شركة نفط فى الولايات المتحدة فى مواجهة معارضة الكونجرس. وباعتبار الصين الدولة الوحيدة المحتمل أن تحدث توازناً مقابل ثقل الولايات المتحدة الاقتصادى والسياسى، فهى تحظى بود من يرغبون فى وجود ضمان ضد الهيمنة الأمريكية. كما أنها تستضيف فى المقابل شخصيات منفرة مثل روبرت موجابى رئيس زيمبابوى، وإسلام كريموف رئيس أوزبكستان الذى يتسم بالقسوة. ويعترض القوميون الصينيون فى وزارة الخارجية والمؤسسة العسكرية والباحثون الموالون لهم على شعار «الصعود السلمى»، إذ يقولون إنه يشجع تايوان على المطالبة

بالاستقلال. ومع ذلك فالنظرية القائلة بأن العلاقات الاقتصادية هى الشكل السلمى للعلاقات الدولية، وأن الجيوبوليتيكا هى شكلها الحربى، نظرية على قدر كبير جداً من السذاجة. فنمو قدرة الصين التصديرية، حيث زادت صادراتها إلى الولايات المتحدة خلال عشر سنوات من ٣٥ مليار دولار إلى ٢٠٠ مليار دولار، أدت بالفعل إلى «حرب الملابس» bra war مع أوروبا وإلى توترات بشأن العملة مع الولايات المتحدة. (لم تسكت إعادة تقويم اليوان مؤخراً بنسبة ١ و٢ بالمائة الاتهامات الأمريكية بتعمد الصين خفض قيمة عملتها لاكتساب أفضلية التصدير) وعلاوة على ذلك فليس من السهل فصل السياسة عن الاقتصاد. فالصين أحد محركات العولمة وقوة عسكرية صاعدة، وهى «وال مارت ذات جيش»[*]. وما يزعج الولايات المتحدة هو أن توسع الوجود الاقتصادى الصينى سوف يصاحبه التوسع فى وجودها العسكرى. ومن المؤكد أنه سيكون للتغييرات التى تطرأ على التوزيع العالمى للثروة آثارها على توزيع القوة العالمية، حتى وإن تحققت تلك التغييرات بالطرق السلمية. وإذا صعدت الصين اقتصادياً، فسوف تهبط أمريكا سياسياً. ويتذكر أصحاب التوجه التاريخى تلك السنوات من التنافس الأنجلو ألمانى التى سبقت الحرب العالمية الأولى. يتأثر الاهتمام بأثر الصين على العالم تأثراً شديداً بطبيعة نظامها. فالهند التى حققت مؤخراً نمواً يتساوى فى سرعته مع النمو الصينى، وسيكون عدد سكانها عما قريب أكثر من سكان الصين، لا تجعل الغرب

الشيوعى دنج جياوبينج إستراتيجية مختلفة. إذ أدرك أنه لكى ينقذ الدكتاتورية الشيوعية لابد له من خلق نظام اقتصادى ناجح. وبدأ اعتباراً من عام ١٩٧٨ فى إلغاء جماعية الاقتصاد. وبينما قضى ميخائيل جورباتشوف على حكم الحزب الشيوعى فى روسيا فى مسعى فاشل لتحقيق الشيوعية «الإنسانية»، أنقذ دنج الحكم الشيوعى فى الصين بقبوله الرأسمالية.
وحتى الآن مازالت الصيغة التى وضعها دنج تحقق النجاح. ولم يحدث أن أثرى عشرات الملايين، كما طلب منهم دنج، فحسب، بل انخفض معدل الفقر المطلق، الذى يحدد بدخل يومى قدره دولار واحد أو أقل، من ٦٤ بالمائة إلى ١٧ بالمائة من عدد السكان. أما فى السياسة، فالمعلومات مراقبة وموجهة، والمعارضة تُقمع بلا رحمة، مع تأكيد الاستيلاء على السلطة الذى جرى فى عام ١٩٤٩. إن الشعار السائد هو: «سوف نمنحكم حرية جمع المال، أما السياسة فمحظور عليكم الخوض فيها». ومازال ماو تسى تونج، الذى عرضته يونج تشانج وجون هاليداى فى كتابهما «ماو: القصة التى لا يعرفها أحد» على أنه مسئول بصورة وحشية وبلا مبالاة عن موت الملايين، معبود الصين الرئيسى. فصورته العملاقة تطل على ميدان تيانن من (السلام السماوى)، ومازال وجهه يظهر على أوراق العملة الصينية. بل لقد أعيد تشكيله ليخدم الاحتياجات التجارية فيما يمكن أن يكون الكولونيل ساندرز الصينى[**]، حيث يعلن عن المنتجات الغذائية خارج المطاعم فى مقاطعة هونان، مسقط رأسه. وليس

الصينى

روبرت سكيدلسكي

على عكس ما حدث فى عام ١٩٨٧، كان هناك مرشح واضح للخلافة، وهو الصين. وكان الحال كذلك على نحو خاص حين أصبح الاقتصاد الأمريكى معتمداً على تمويل الصين للعجز التجارى الضخم. لقد تراجع حلم «القرن الأمريكى» ليحل محله كابوس «القرن الصينى»

على ذلك القدر من التوجس بالشر الذى يشعر به حيال الصين، وذلك لأنها ديمقراطية، و«الديمقراطيات لا تدخل فى حروب مع بعضها»، كما يقال لنا باستمرار.
وقد حد نجاح الحزب الشيوعى الصينى فى الاحتفاظ بالسيطرة السياسية على الصين من الشعور الغربى بالتفوق الذى أحدثه انهيار الإمبراطورية السوفيتية. وكانت شيوعية القرن العشرين تعد، على عكس شيوعية القرن التاسع عشر، بالنمو الاقتصادى على حساب الحرية السياسية؛ أو «سلطة المجالس وكهربة البلاد» كما جاء فى عبارة لينين المعبرة. وحيثما كانت الشيوعية تحقق انتصاراً كانت تقيم دولة ذات حزب واحد، وكان الاقتصاد يتخذ السمة الجماعية ويخطط تخطيطاً مركزياً. وحين فشل الاقتصاد الشيوعى، جرى تفكيك النظام الشيوعى؛ على نحو كامل فى روسيا وأوروبا الشرقية. أما فى الصين، فقد تبنى الزعيم الأعلى للحزب

هناك إنكار رسمى لميراث ماو، أو حتى ما يشبه الإنكار المحدود للستالينية الذى صدر عن خروشوف فى عام ١٩٥٦.
سوف يستغرب الإنسان الغربى استمرار تلك الثنائية التى تجمع بين دكتاتورية الحزب والحرية الاقتصادية. فمع استمرار احتكار الحزب للمجال العام، بات التحكم فى الميزانية لا مركزياً على مستوى المقاطعات والبلديات. ويقول المتفائلون إن الديمقراطية سوف تأتى تدريجياً، بدءاً بالانتخابات البلدية، مع تنامى الطبقة الوسطى. وقد يحدث التنازل عن السلطة المالية صدعاً فى تلك الكتلة الضخمة. ويقول المتشائمون إن فقدان السيطرة المصاحب للنمو الاقتصادى المستعر وتضاؤل عائدات الدولة قد يؤديان إما إلى نوبة جديدة من «نزعة أمراء الحرب» أو يجبران النظام المصاب بجنون الارتياب إلى الدخول فى نوبة جديدة من القمع السياسى الذى سوف يجعل ما حدث فى ميدان تيانن من يبدو وكأنه

حفل شاى برىء. ومهما كانت الاختيارات التى سوف تُتاح فى انتخابات المقاطعات، فلن يُسمح لحزب جديد بعرض قضيته. ولو كان نمو الصين أبطأ مما كان، لكان من الممكن أن تصبح توقعاتها السياسية أكثر اعتدالاً.

كل المطلوب للحصول على خبرة فورية عن الصين هو «تدفق سريع للإحصاءات، والتفاتة من حين إلى آخر للتاريخ، وقول كونفوشيوسى مأثور أو اثنان، وسرعان ما يمكننا جميعاً إدراك المعنى الواسع لظهور المملكة الوسطى من جديد باعتبارها قوة كونية»[4]. ومن المؤكد أن هذا هو الانطباع الذى نقله كلايد پريستوفيتس، مسئول التجارة الخارجية السابق فى إدارة ريجان. ومع أن عنوان كتابه «ثلاثة مليارات رأسمالى جدد: انتقال الثورة والقوة الضخم إلى الشرق» يوحى بالتركيز على آسيا، فالواقع أنه «مكالمة إيقاظ»، أو جرس إنذار لأمريكا. وفرضيته، التى جرى التعبير عنها بعذوبة إن لم يكن بمهارة، هى أن عرض العمالة الذى لا ينتهى بالفعل فى الصين والهند، مقرونًا بإبطال الإنترنت والتسليم الجوى الكونى لأثر الوقت والمسافة، ينذر بالقضاء على التصنيع الأمريكى والانهيار طويل المدى لمستويات المعيشة الأمريكية. فأمريكا تعيش الآن بما يفوق ما لديها من ثروة.

يروى پريستوفيتس فى المقام الأول الحكاية المألوفة الخاصة باستثمار رءوس الأموال الغربية فى الخارج لتخفيف الهوامش المضغوطة فى الداخل. وكان تصنيع المكونات فى الخارج، والتعاقدات، وأخيراً نقل الصناعات إلى أماكن العمالة الرخيصة، طرقًا لتقليل تكلفة الشركات الأمريكية وزيادة المبيعات فى مواجهة المنافسة اليابانية وضغط النزعة الاستهلاكية. وقد ولَّد تكليف الغير بتصنيع مكونات المصنوعات التصنيع فى الخارج. ففى الثمانينيات بدأت موتورولا وإنتل وتكساس إنسترومنتس فى نقل الجانب كثيف العمالة فى تصنيعها إلى ماليزيا وسنغافورة وتايوان. وتعاقدت سيرز روباك مع مصانع النسيج فى اليابان للحصول على أفضل الصفقات لعملائها. وأصبح شرق آسيا مركز شراء بالنسبة لتجار التجزئة الأمريكيين وخط تجميع للمصانع الأمريكية.

ويقول پريستوفيتس إن الصين مثيرة للاهتمام لسببين: «العمالة الرخيصة التى لا حد لها لإنتاج المنتجات منخفضة التكلفة للتصدير، (و)...احتمال أن تصبح أكبر سوق فى العالم». لقد اتجه المصنعون وتجار التجزئة إلى الصين لرخص أسعارها. فبناء المصانع وتزويدها بالمعدات هو الأمر الأقل تكلفة، والعمالة الرخيصة يمكن أن تحل محل الآلات. واليوم تنتج الصين ثلثى ما ينتجه العالم من ماكينات التصوير والأحذية ولعب الأطفال وأفران الميكروويف، ونصف ما ينتجه العالم من أجهزة الدى فى دى والكاميرات الرقمية والإسمنت والمنسوجات، و٤٠ بالمائة من الجوارب، وثلث مشغلات الدى فى دى روم وأجهزة الكمبيوتر المكتبية، وربع أجهزة التليفون المحمول وأجهزة التلفزيون والصلب وستيريو السيارات وغيرها. وهى تصدر ٣٠ بالمائة من منتجات العالم الإلكترونية. ونجد الولايات المتحدة فى تخيل پريستوفيتس المحموم الدكتور هى فرانكنشتاين الذى أيقظ المسخ المقدر له أن يفترسه.

بدأت الهند كذلك فى وقت متأخر جداً تتحدى الصين فى التصنيع، غير أن برامج الكمبيوتر وخدمات تكنولوجيا المعلومات والطب كانت ميادين بكر. وكان الأصل الأساسى الذى اعتمدت عليه الهند هو ذلك الحشد الهائل من العمالة الرخيصة ولكنها على قدر كبير من التدريب وناطقة بالإنجليزية. وفى عام ١٩٨٤ قرر راچيف غاندى أنه لابد للهند من تطوير صناعة تصدير برامج الكمبيوتر، وتصادف أن بدأت شركة تكساس إنسترومنتس خدمات ربط معلومات الأقمار الصناعية من بنجالور، مما ممهد السبيل للوصول إلى العملاء الكونيين على التليفون. وعند إنشاء شبكة الإنترنت، ومن بعدها الموجة العريضة، فى التسعينيات، زادت نسبة أعمال برامج الكمبيوتر، التى عُهد إلى الهند القيام بها، زيادة هائلة. وأدركت شركة چنرال إلكتريك أن عمليات مراكز الاتصال الخاصة بها وجزءاً كبيراً من العمل المكتبى يمكن نقلها إلى الهند حيث تُنجز بجزء من التكلفة التى تحتاجها فى أى مكان آخر. ويمكن لشركات الخطوط الجوية تعويض زيادة أسعار الوقود بنقل أعمال حجز التذاكر وأعمال الإصلاح إلى الخارج.

يصف پريستوفيتس كيف أنه يجرى فى ويپرو سپكترامايند، وهى خدمة اتصالات تعمل طوال الأربع والعشرين ساعة خارج دلهى، تعليم «تحييد اللهجة» لإعطاء المتصلين إحساساً بأن مكالماتهم يُرد عليها من كانساس سيتى. ووفر انهيار فقاعة التكنولوجيا الفائقة فى عام ٢٠٠١ المزيد من المبادرات التى تحد من التكلفة. وتزدهر «السياحة الطبية» حيث تتيح المستشفيات الخاصة فى الهند إجراء عمليات استبدال مفصل الفخذ وجراحة القلب والعيون بجزء مما تتكلفه فى الغرب. (على سبيل المثال يجرى مستشفى أپولو فى تشيناى. مدراس سابقاً. جراحة القلب بأربعة آلاف دولار مقابل ٣٠ ألف دولار فى الولايات المتحدة.)

ساعدت الحكومة الأمريكية صعود آسيا بتبنيها أيديولوجيا عدم التدخل وتعويم الدولار. ويقول أحد مستشارى البيت الأبيض الاقتصاديين: «رقائق البطاطس ورقائق الكمبيوتر، ما الفرق بينها؟ إنها جميعًا رقائق». ويزعم پريستوفيتس أن واضعى السياسة الأمريكيين، وقد سحرتهم أصولية السوق، أساءوا فهم مصادر الابتكارات الأمريكية. فريادة الولايات المتحدة التكنولوجية لم تُبنَ على قوى السوق، بل على التعاون غير الطبيعى بين الدفاع والحكومة فى «المجمع الصناعى العسكرى»، وهو نتاج حربين عالميتين. فعلى سبيل المثال، قامت شركة آى بى إم على أساس من المنح الحكومية لأجل جهاز توجيه الطائرة B-٥٢. وأدى التحول إلى سياسة عدم التدخل فى الثمانينيات، التى أعقبها انتهاء الحرب الباردة، إلى حل هذا «النظام البيئوى للشركات والجامعات والمؤسسات الحكومية والبنوك والمحامين. نعم المحامين. المتداخلة». وبعد عام ١٩٧٣ لم يعد الأمريكان مشغولين بالتجارة العالمية، حيث يمكنهم طبع أية كمية يرغبون فيها من الدولارات من أجل الواردات. وقال پريستوفيتس فى مقابلة أجريت معه مؤخراً: «لقد سلمنا الصين المال الذى تستخدمه فى محاولة لشراء أنكول». وما يريد پريستوفيتس بيانه هو أنه «لا أحد يهتم بصحة الهيكل الاقتصادى طويل المدى للبلاد، لأن أيديولوجيا أمريكا تقول إنه من الخطأ فعل ذلك».

فما هو العمل إذن؟ يقول پريستوفيتس إن على الولايات المتحدة التخلى عن سياسة عدم التدخل. ولابد لها من التخلى عن الطموح المجنون لإغراق العالم بالدولارات، وعليها أن توجد بدلاً من ذلك مجالاً أكثر محدودية للدولار يتكون من منطقة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية بالإضافة إلى تجارتها مع اليابان. «ترى الولايات المتحدة أن هذه الصفقة سوف تزوِّج فائض اليابان لعجز الولايات المتحدة وتخلق منطقة دولار داخل الفلك الأمريكى وتمنعها من الانزلاق إلى فلك الصين». من الناحية الداخلية لابد للولايات المتحدة من استعادة النظام المالى عن طريق خفض نفقات الدفاع وزيادة الضرائب على الاستهلاك. وهى بحاجة إلى سياسة للطاقة تجعلها مستقلة عن نفط الشرق الأوسط («سوف يقلل مجرد تطبيق لوائح إجمالى عدد الأميال المقطوعة على السيارات الرياضية تبعية الولايات المتحدة النفطية إلى حد كبير»). ولابد لها كذلك من تحديث بنيتها التحتية الفيزيقية، وتعزيز تصنيع «الأنظمة البيئوية، مثل وادى السيلكون، وإصلاح الضمان الاجتماعى لتشجيع مرونة العمل، وتحسين الأداء التعليمى بإعادة النظام لحجرة الدراسة والتمويل الكامل للطلاب الذين يدرسون العلوم والهندسة. باختصار، لابد لها من سياسة «منافَسة» فعالة. ويرفض پريستوفيتس نموذج التجارة الحرة الخاص بالعولمة باعتباره ضاراً بالمصالح الأمريكية. وهو من أتباع النزعة التجارية المحدثين، حيث تقول القاعدة: تاجر بحرية مع أصدقائك، وعلى نحو إستراتيجى مع أى شخص آخر. وليست هذه بالقاعدة السيئة فى عالم من الدول ذات السيادة.



باعتبار الصين الدولة الوحيدة المحتمل أن تحدث توازنًا مقابل ثقل الولايات المتحدة الاقتصادى والسياسى، فهى تحظى بود من يرغبون فى وجود ضمان ضد الهيمنة الأمريكية

يغطى تيد فيشمان، الصحفى والمتعامل السابق فى السلع، جزءاً كبيراً من الموضوع نفسه فى كتاب: China, Inc.: How the Rise of the Next Superpower Challenges America and the World. وهنا نجد النكهة السياحية ذاتها؛ إذ تكشف رحلة على نهر هوانجبو فى شنغهاى عن ناطحات السحاب والحياة الليلية المبتذلة للمدن الكبيرة الثرية، حيث «يمكن للمهندسين الغربيين السذج العثور على فتيات من الحرارة بالقدر الذى يجعل أصدقاءهم فى الوطن يضحكون». والفرق الأساسى هو أن فيشمان يؤكد على الوسائل المحلية لصعود الصين. فبدون قرار دنج «فتح» الصين، ما كان لمديرى الشركات التنفيذيين الأمريكيين أن يحلوا مشاكلهم بنقل إنتاجهم إليها.

سوف يعرف القراء معلومات عن الطريقة التى يعمل بها نظام «هوكو»، أو دفتر الحساب المصرفى، الذى استطاع به ماوتسى تونج الإبقاء على العامل الريفى على أرضه وخارج المدن، وعن أصول «نظام المسئولية المنزلية» الخاص بدنج جياوبنج لعام ١٩٨٠ الذى أحدث ثورة فى الإنتاجية الزراعية من خلال الاستعاضة عن المزارع الجماعية بنظام قطع الأراضى العائلية، وعن الطريقة التى نمت بها «المشروعات الحضرية والريفية» بحيث شغلت المساحة الرمادية أيدولوجياً بين المشروع العام والمشروع الخاص، وعن الهجرة الواسعة من الريف إلى المدن حيث وُلِد الاقتصاد الخاص «بإشارة من الحكومة المركزية»، وعن شن جن التى تعد أول منطقة اقتصادية خاصة فى الصين تتحول من قرية صيادين تكثر فيها المستنقعات إلى مدينة يعيش فيها عشرة ملايين نسمة خلال خمسة وعشرين عاماً. ويقول فيشمان إن الصين «خليط لا نهائى من الأعمال التجارية الهجين» التى «تدمج القطاعات فى أغلب الأحيان بطرق على قدر غير معقول من التعقيد والإبهام». فالأعمال التجارية جميعها تقريباً «تديرها الكلمات والمصافحات، وفى بعض الأحيان العقود المكتوبة ولكنها غير قانونية». ويحكى فيشمان عن ذلك النشاط المفرط فى بناء المدن، وعن أعمال الإزالة ونزع الملكية الجبرية لإفساح الطريق أمام المبانى الجديدة والمشروعات الكهروهيدروليكية، وعن العاملات المستغَلات فى مصانع النسيج والإلكترونيات اللائى يحلمن بالعودة إلى قراهن، وعن زحف الصحراء، وعن التلوث الذى على قدر من الكثافة يجعل «السحابة البنية الأسيوية» تحلق فوق ساحل المحيط الهادى فى الولايات المتحدة، وعن البرنامج الصينى الضخم لإنشاء الطرق والسكك الحديدية، وعن انتشار فيروس نقص المناعة، الإيدز، والإجهاض للتخلص من الفتيات غير المرغوب فى ولادتهن، والكثير غير ذلك. ولكن موضوعه الأساسى هو موضوع پريستو?يتس نفسه، أى أن ما لا يُحصى من الأعمال التجارية يعرضه «السعر الصينى» المنخفض للضرر، وهو الأمر الذى يتضمن الغش والقرصنة. وسوف تختفى فرص العمل المتاحة لملايين آخرين من العمال الأمريكيين. كما يعتقد أن شيئاً لن يوقف القوة الساحقة الصينية، ذلك أن الصين تبنى بالفعل «الكتل الحاسمة من الشركات المحفزة للخميرة الخلاقة التى تقود إلى التجديد السريع». ويتنبأ فيشمان بتزايد المنافسة الصينية الأمريكية قائلاً: «إنها لعبة قوة تمضى بطيئة، ولكنها تأخذ مجراها». ■

الهوامش

(١) Paul Kennedy, The Rise and Fall of the Great Powers (Random House, 1987), p ٥٣٤.

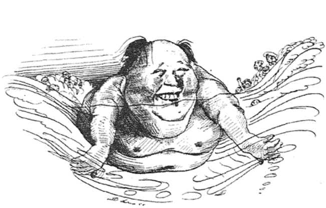
(٢) لابد من تحويل نتيجة المعلومات التى بالعملة الوطنية إلى عملة مشتركة لمقارنة حجم الاقتصادات. وإذا جرى التحويل بسعر صرف السوق يكون الاقتصاد الصينى هو ثامن أكبر اقتصاد فى العالم، أى عشر الاقتصاد الأمريكى، وليس من المحتمل أن يلحق به قبل الفترة ما بين ٢٠٤٠ و٢٠٥٠. إلا أن تحويل المعلومات طبقاً لأسعار صرف السوق ليس إجراء جيداً بالنسبة للحجم النسبى للاقتصادات لأنه يأخذ فى اعتباره السلع والخدمات التى يجرى التعامل فيها على المستوى العالمى وتشوهها تقلبات أسعار العملات قصيرة الأجل فحسب. وهذا هو سبب استخدام الاقتصاديين لمحولات تساوى القوة الشرائية بصورة كبيرة، وهو ما يقيس القوة الشرائية النسبية لعملات الدول المختلفة فيما يتعلق بدسلة، السلع نفسها فى كل منها. ويمكن أن يكون ذلك أعلى بكثير من الناتج المحلى الإجمالى بالنسبة للدول النامية. وعلى تساوى القوة الشرائية يكون إجمال الناتج المحلى الصينى ٨٨٧٧ مليار دولار؛ بينما يكون ٢١٧٢ مليار دولار على أساس سعر صرف السوق.

(٣) Steve Lohr, "Who's Afraid of China Inc." New York Times, July ٢٤، ٢٠٠٥.

• تعد وال مارت أكبر سلسلة متاجر للتجزئة فى الولايات المتحدة والمكسيك وكندا، وبلغت أرباحها فى العام المالى الحالى ٣,١٠ مليار دولار عن مبيعات بلغت ٢٨٥ مليار دولار، ولو كانت اقتصاداً مستقلاً لاحتلت المرتبة الثالثة والعشرين بين دول العالم، بين النمسا والمملكة العربية السعودية. (المترجم)

(••) كولونيل ساندرز هو مؤسس سلسلة «كنتاكى فرايد تشيكن، وتظهر صوره على واجهات محالها. (المترجم)

(٤) Philip Stephens, Fainancial Times, July ١، ٢٠٠٥.



ماو.. صورة قاسية!

جوناثان سبنس

Mao: The Unknown Story
(ماو: القصة غير المعروفة)

Jon Halliday, Tung Chang
Jonathan Cape, 2005, 832PP., 25.00

باتفاق مع:
The New York Reviv of Books

ترجمة: جمال إسماعيل

[١]

■ قبل ما يقرب من ٧٠ عاماً، وعقب اتصالات بينه وبين الحزب الشيوعى الصينى، تلقى Edgar Snow، الصحفى الأمريكى الشاب (وقتها)، دعوة لزيارة قاعدة الحزب فى منطقة Bao-an، شمال غرب الصين، فقصدها تارة مرتحلاً بقطار، وشاحنة، وتارة أخرى سيراً على الأقدام، أو فوق صهوة جواد، ووصل إلي القاعدة مصحوباً بعشرين رجلاً من قوات الجيش الأحمر الصينى. هناك، تمكن Snow من إجراء عدة مقابلات صحفية مسائية طويلة مع Mao «الزعيم الصينى»، داخل كهفه المضاء بالمصابيح، قام خلالها سكرتير Mao، بدور المترجم، ثم تولى Huang Hoa، وكان طالباً صينياً، ترجمة محصلة اللقاء (٢٠ ألف كلمة) من الإنجليزية إلي الصينية لعرضها على Mao، الذى أجرى بعض تعديلات واختصارات، وأعاد Huang ترجمة النص المعدل إلي الإنجليزية وقدمه إلي Snow الذى عمل على إضافة تعليقات وحواشى تفسيرية وقرائن تاريخية. وكانت المحصلة هى كتاب: «نجمة حمراء فوق الصين Red Star over China»، الذى نشر فى كل من الولايات المتحدة وبريطانيا عام ١٩٣٨، وظهرت عنه، فى الصين، نسخة مختصرة باللغة الصينية وتم توزيعها على نطاق واسع، بعد قليل من عودة Snow إلى بكين، وخاصة فى منطقة القاعدة الشيوعية. فيما بعد علق Snow على كتابه بهذه الكلمات:

ذهبت إلى الشمال الغربى للصين قبل أى أجنبى، وفى لحظة حالكة من تاريخ الشيوعيين الصينيين وكل الصين. ووجدت أن أمل هذه الأمة يكمن داخل هذه المجموعة الصغيرة من الناجين من «المسيرة»



الطويلة. لقد كونت انطباعًا جيدًا عنهم، وعن سياساتهم، وأعجبت بشجاعتهم، وغيرتهم وإصرارهم على إنقاذ الصين (تحت قيادتهم) إلى جانب قدراتهم المتميزة، و إدراكهم السياسي العملي، والنزاهة الشخصية لقياداتهم العليا.

كان كتاب Snow - حقًا - مديحًا خالصًا لكل من زعماء الصين الشيوعية وأتباعهم: في «نجمة حمراء» يصف ماو، البالغ من العمر - وقتها - ٣٤ عامًا بأنه كان شخصًا نحيلاً، لينكوليني المظهر[١]. اشتهرت منزلته، وسجله، سواء في عمله أو خلال المسيرة، لتصبح أنشودة على ألسنة الناس. ولاحظ Snow في يومياته أن الشيوعيين الصينيين الذين التقاهم «كانوا يتعاملون مع إعادة صياغة العالم وكأنهم صبية مدرسة في مباراة لكرة القدم، وأن Mao، الذى وصفه، كان عمليًا، جادًا، شعبيًا، خفيف الظل، وحالمًا.

ورغم أن مبيعات «نجمة حمراء»، في الولايات المتحدة، جاءت مخيبة للآمال (لم تتجاوز ٢٣,٥٠٠ نسخة، وهي ربع المبيعات في بريطانيا)، إلا أن الكتاب كان له تأثير كبير على رؤية الأمريكيين للصين. كما أن شهادة Snow المفصلة عن حياة Mao المبكرة، تعليمه، وخبراته الأولية كثوري، وعن المسيرة الطويلة، أصبحت مصدرًا لما كتب عن حياة Mao، ولا تزال أجزاء منها مقبولة إلى اليوم.

ولقد استمر هذا «التراث المدحي» منذ اليوم الأول لصدور «نجمة حمراء» وعبر كتابات من سافروا إلى منطقة القاعدة في إقليم Yenan خلال الحرب العالمية الثانية، أو في كتابات من راقبوا - بتوجس - الهزيمة التي ألحقها الشيوعيون بـ Chiang Kai-Shek، في الحرب الأهلية ما بين ١٩٤٥ و١٩٤٩، ثم حاربوا، فيما بعد، من أجل تأسيس دولة جديدة. هذا التعاطف أخذ يتلاشى بصعوبة. ومنذ وفاته في عام ١٩٧٦، بدأ مديح «الراحل ماو» يجف بشكل واضح مع ظهور أدلة قاطعة حول مأسى «القفزة التقدمية الكبرى» وما تلاها من مجاعة ما بين ١٩٥٩ و١٩٦٢، ثم الثورة الثقافية ما بين ١٩٦٦ و١٩٧٦، لكن أسطورة ماو القوى لم تتلاش على أية حال.

في «ماو: القصة غير المعروفة Mao: The Unknown Story»، يشن المؤلفان Ton Halliday & Jung Chang، هجومًا مطولاً على مجمل الرؤية المنحازة إلى تقدير دور «ماو» في بزوغ الحركة الشيوعية الصينية ونجاحها، قبل وبعد عام ١٩٤٩. وقد أقدما على «مشروعهما» اعتمادًا على ما حققته Chang من صيت عالمي بكتابها Wild Swans: Three Daughters of China، وهو الكتاب الذى نشر للمرة الأولى في عام ١٩٩١، وفيه قدمت خبراتها الحياتية التي عاشتها في «جمهورية الشعب»، وعلى معرفة Halliday بالمصادر واللغات الشرق - أوروبية والروسية. قدم المؤلفان، إلى القراء، ٨٥ صفحة من المراجع والحواشي الشاملة والمصنفة من مقتنيات الأرشيف الصيني، وكتابات صينية أخرى استعان بها (٢٦ صفحة)، و٢٣ صفحة بالمراجع من لغات شرقية (بما في ذلك الروسية، الألبانية، والبلغارية)، وترجمات باللغة الإنجليزية عن مصادر صينية، إضافة إلى ٤٠ صفحة تحتوى أسماء هؤلاء الذين أجريا معهم لقاءات صحفية في الصين، روسيا، وبقية أنحاء العالم. ويبدو من ملاحظاتهما أنهما باشرا في إجراء أول تلك المقابلات في عام ١٩٩٣، لهذا يمكن الظن بأنهما عكفا على إعداد كتابهما عقدًا من الزمان. ومن هذا الكم الهائل (من المصادر والمراجع والمقابلات) توصلا إلى تكوين صورة «خاصة بهما» عن «ماو».

السمات الأساسية لهذه «الصورة» هي: أن ماو الذى ولد لأسرة تعمل بالفلاحة لم يكن يعرف شيئًا عن الفلاحة الجادة. وأقصى ما كان يستطيع فعله، وهو صبي، تقديم الطعام إلى الخنازير أو اصطحاب الماشية في نزهة. وعندما ترك الزراعة والتحق بالمدرسة المحلية، كان تلميذًا مزعجًا. وفي عام ١٩١١، عام الثورة التي أطاحت بآخر أسرة حاكمة في الصين، «قال وداعًا، وإلى الأبد، لحياة الفلاحة»، التي لم يخرج منها بدروس مستفادة ولم يشكل من خلال تجربته، وجذوره الريفية، رؤية اجتماعية. كما أن مشهد ضحايا المجاعة لم يحرك فيه ساكنًا، ولم يجعله قادرًا على استيعاب حاجة المزارعين الأساسية إلى التخطيط والإحصاء، «فقد كان في معظم حياته كارهًا للأرقام وميئوسًا منه فيما يتعلق بالاقتصاد».

وخلال السنوات العشر التالية، من القرن العشرين، التحق Mao بمدرسة لتدريب المعلمين: هنا يخبرنا المؤلفان أن «ماو» تأثر في بداياته بفكرة رئيسية واحدة «جسدت دوره في تدمير الثقافة الصينية»، عندما قرأ في الفصل ترجمة صينية لكتاب «منظومة الأخلاقيات A System of ethics»، الذى نشر في عام ١٨٩٩ للفيلسوف الألماني Friedrich Paulsen، وتشرب منها إدراك شخصي مفاده أن الذات هي التي تسيطر على المجموع، وأن التقويض يحكم التفوق، وأن «الفضيلة لا يجب تعريفها في ضوء علاقتها بالآخرين». مثل هذه الأفكار كانت أبعد من كونها مجرد فقرات منتقاة من مؤلف قديم، تشير إلى مرحلة من وعى في بداية اكتمال النمو، مثلما قد يظن العديد من القراء، بل كانت بالنسبة للكاتبين، آراء و«عناصر مركزية»، في شخصية «ماو»، و«ظلت متوافقة وحددت دوره طوال العقود الستة التي عاشها».

هناك عنصر آخر شكل شخصيته، ويكمن في بلادته في الحياة، ومنذ صباه الريفي أو التعليمي. ويرى المؤلفان أن السبب الذى دفع «ماو» إلى الانضمام إلى الحزب الشيوعي، وهو ما حدث نهاية عام ١٩٢٠، أوائل عام ١٩٢١، لم يكن له علاقة بوعيه الاجتماعي «لأنه لم يشعر بتعاطف لا مع العمال ولا مع الفلاحين». ولأن ضعفه في تحصيل اللغات منعه من الذهاب إلى روسيا أو فرنسا للدراسة في المعاهد اليسارية، أسوة بأقرانه في إقليم Hunan، وجد «ماو» أن أفضل وسيلة لكسب العيش، وكان غير بارع في التدريس، هي الحصول على نقود تخصصها «حركة الشيوعية الدولية» وقبول وظيفة مريحة كثوري محترف وله مخصصات دعم. ولأنه كان نهازًا للفرص، و«مشوشًا فكريًا»، لم يجد مشقة كبيرة في التوافق مع العالم المتعرج للجبهة الموحدة للشيوعية الدولية التي أوجدت تحالفًا ما بين الشيوعيين والطبقتين البورجوازية والمتوسطة، إضافة إلى الحزبين من أصحاب الاتجاهات اليمينية، تحت مسمى حماية الاتحاد السوفيتي ومستقبل الثورة العالمية: «وراح ماو يتحول تبعًا لاتجاه الريح السائدة».

يبدو أن «المطلوب» كان إيجاد حالة يستطيع فيها الجانب السادي الكامن في «ماو» أن يتطور إلى مداه. وقد لاحت الفرصة، كما قيل لنا، في الصراع المرير الذى تفجر في الصين، في منتصف العشرينيات، عندما تحللت الجبهة الموحدة من تناقضاتها الداخلية الحادة والضغائن السياسية. ويرى المؤلفان أن «ماو»، وخلال الأشهر الأخيرة من عام ١٩٢٦، والشهرين الأولين من عام ١٩٢٧، التزم بتعليمات رؤسائه لكي يدرس (وينشر) الثورة الريفية عبر المؤسسات الفلاحية التي تشكلت في أنحاء متفرقة من الصين. ولقد عشق «ماو» ما شاهده من إهانات لحقت بملاك الأراضي وقسوة انتقام الجماهير، وكان يحتفل بأبناء الانتفاضات في إقليم Hunan، مسقط رأسه. واعتبر العديد من المحللين المحليين ذلك علامة على عمق إدراكه للمشاكل الرهيبة التي تطارد الصينيين في الأرياف. وهذا أدى بالمؤلفين إلى تكوين رؤية مختلفة:

ما حدث، في الواقع، هو أن «ماو» اكتشف في نفسه عشقًا لسفك الدماء. وهذه المتعة الباطنة، والتي تجاوز السادية، تناغمت مع، بل فاقت، انجذابه إلى العنف اللينيني[٢]. لم يعتنق «ماو» العنف بناء على نظرية، بل نبع نزوعه إليه من داخله. وقدر أن يكون للعنف تأثيره العميق على طرق حكمه في المستقبل.

هذا التعطش إلى الدماء صاحب «ماو» عندما لجأ إلى القاعدة الثورية في جبال

منذ وفاته في عام ١٩٧٦، بدأ مديح «الراحل ماو» يجف بشكل واضح مع ظهور أدلة قاطعة حول مأسى «القفزة التقدمية الكبرى»، ثم الثورة الثقافية، لكن أسطورة ماو القوى لم تتلاش



Jinggang في عام ١٩٢٨. وقتها. وكما يرى المؤلفان، أثبت ماو «ولعه الشديد بالموت البطيء». ويضيف المؤلفان في حاشية، أن ماو لم يخترع الإعدام العلني لكنه أضاف إلى هذا التقليد الرهيب بعداً حديثاً هو «الحشود المنظمة». وبهذه الطريقة أصبح الموت مشهداً إجبارياً لجزء كبير من السكان، كان يجبر على الانخراط في زحام لرؤية الناس وهم يعدمون بهذه الطريقة الدموية المؤلمة التي تزرع الخوف داخل القلوب.

مع هذا التحليل «القارس» الوارد في أول ٥٤ صفحة من متن الكتاب، يكون القارئ قد «تناغم» مع الأفكار الرئيسية لحياة «ماو» التي يكشف عنها المؤلفان وهما يتتبعان نشاطاته خلال سيطرة الشيوعيين على إقليم Jiangxi الصيني، بداية ثلاثينيات (القرن الماضي)؛ وما أعقب ذلك من تأسيس لقاعدة Yenan للمقاومة ضد اليابانيين، وفترة الحرب الأهلية وهزيمة الوطنيين من أتباع «شيانج كاي شك»، والسنوات الطويلة المؤلمة لـ «الجمهورية الشعبية»، والمجاعة والثورة الثقافية التي أودت بحياة الملايين من الصينيين.

ومن بين الأفكار الرئيسية التي يقدمها المؤلفان في بداية عملهما الذي لم يصل إلى قمة ازدهاره إلا في رؤيتهما لسنوات ماو اللاحقة، يمكن للمرء حصر الكثير من «السمات»، ومنها: قسوة «ماو» إزاء زوجاته (أربع زوجات في حياته) ونحو أبنائه، عشقه المتنامي للترف، وخاصة للقصور الفخمة المحاطة بالحدائق الشاسعة والمطلة على المشاهد الخلابة، حمامات السباحة والقطارات الخاصة، شدة ارتيابه وهوسه الأمني، عاداته الشخصية غير النظيفة، انغماسه في الشهوات، شراهته، نزوعه إلى الاستغراق في الملذات الجنسية، اعتماده - منذ بدايات الثورة - على كميات متزايدة من الحبوب المنومة، واستمتاعه بإهانة الآخرين وإيلامهم، وخاصة القيادات التي تعمل معه. وخلال الثورة الثقافية كان «ماو» حريصاً على أن يتأكد بنفسه «من حجم العنف الذي يمارس علناً، وأن يجعل ضحاياه يخضعون للإهانة والتعذيب بواسطة اتباعهم ومرؤوسيهم المباشرين».

وكل «هذا» بلغ ذروته في طموحه من أجل السيطرة على العالم، عبر امتلاك القنابل النووية، بعد أن ألحق الهزيمة بكل ركن من أركان بلاده.

[٢]

توجد مداخل عديدة عمل خلالها المؤلفان علي إحكام نقطة التقاء كل تلك السمات السلبية في ذات مدركة لامرئ واحد متكامل، وهذا المرء، في دنيا «ماو» في عام ١٩٦٤، يستطيع أن يصمد أمام تصويرهما لـ «ماو» في ذلك الوقت، وفي أي من المراحل إلى وفاته في عام ١٩٧٦:

كان «ماو» قد رسم في ذهنه صورة لمجتمع مجدب بمعنى الكلمة، مجرد من المشاعر الإنسانية، يسكنه قطيع بلا إدراك، ويطيع أوامره بتلقائية. لقد أراد أمة بلا عقل، كي تحقق له الخلاص من الأعداء غير المرغوب فيهم، وتعيش هذه الحالة بشكل دائم. وكان «ماو» في ذلك، أكثر تطرفاً من هتلر أو ستالين.

حول هذه الصورة لوجه إنسان بغيض، شيد المؤلفان نظاماً-نموذجياً متشابكاً ومركباً لتاريخ قومي سعى فيه «ماو» إلي توظيف كل مواجهة رئيسية لصالحه، لكي تتلاءم مع رغبته غير المحدودة للسيطرة علي الحزب الشيوعي الصيني، الحركة الشيوعية الدولية، والعالم على اتساعه. يوجد، حسب ما أحصيت، ما يقرب من ٢٢ «لحظة» أو أكثر، من تلك اللحظات الحرجة، مذكورة عبر صفحات الكتاب (٦٣١ صفحة)، كل «لحظة» منها صممها المؤلفان للطعن في بعض ما يعتقدان أنه معرفة زائفة شائعة عن صفات «ماو» في مسيرته إلي السلطة، حاول المؤرخون والمحللون تأكيدها على مدار ما يقرب من ٦٠ عاماً.

ينقسم الكتاب إلى ٥٨ فصلاً، من الحجم الصغير (الفصل حوالى عشر صفحات). وكل فصل، من معظم الفصول، يركز على مخطط، أو فعل واحد استطاع «ماو»، الذي يزعمانه، وبحصافة، أن يوظفه في خدمة مصالحه الشخصية. هكذا نرى «ماو» وهو يستخدم Wang Ching، زعيم الحزب الوطني، لدعم دوره داخل الجبهة الموحدة: يؤدي دور التابع للشيوعية الدولية، ويخون ثقة رفاقه في Wuhan، عام ١٩٢٧، ويفكك قاعدة رجال حرب العصابات في جبال Jinggang، ويخرب الإنجازات العسكرية لزميليه الثوريين Zhu De & Peng Dehuai، ويقنن لموجة من التعذيب والقتل في مجالس Jiangxi المحلية، ويستغل «المسيرة الطويلة» لتدعيم منافسه الحزبي الرئيسي Chang Kuo-T'ao، وينتقص من شأن Chou En-lai ويحوله إلى خانع تابع. يتآمر مع «ستالين» لكي يدفع باليابانيين إلى حرب في Shanghai، في الوقت الذي يرفض فيه محاربتهم بالقرب من إقليم قاعدته في الشمال الغربي، ويعذب منافسه Wang Ming، وكان من صفوة الحزب، عقلياً، ويحاول تسميمه، ويكون «دولة بوليسية» في قاعدة الإقليم ذاته، ويخون رفاقه من الشيوعيين، في وسط الصين، ويمكن Chiang Kai-Shek من سحقهم، ويطور عقيدة «ماو» داخل القاعدة، كما يصر على سياسة عسكرية مميتة خلال الحرب الأهلية في «منشوريا» أدت إلى وقوع ضحايا فاق عددها في بعض المدن هناك، إجمالي عدد ضحايا الغزو الياباني في Nanjing، ويخون الصين كلها بترك «ستالين» يحتفظ بمناطق شاسعة من الأراضي الصينية في الشمال والغرب، إلى جانب إرغام كبار رفاقه على دخول الحرب الكورية دون دعم جوى سوفيتي، كما كان يحتال على المثقفين بوعود زائفة وشعارات مثل شعار «دع مائة زهرة تتفتح»، ويصادر الغلال من الفلاحين دون ما حاجة، خلال المجاعات الرهيبة التي أعقبت «القفزة الكبرى»، إضافة إلى تدميره للموارد الصينية لمواجهة أعباء طموحاته العالمية، وتعمده تدمير زملائه النابهين في «تطهيرات» الثورة الثقافية، وفي بعض الحالات بعد معاملتهم بفظاعة شديدة، في وقت نجح فيه أيضاً في «إزالة» الثقافة من داخل البيوت الصينية «حيث أقدم المواطنون الخائفون على إحراق ما لديهم من كتب». وقرب النهاية أمر برفض علاج Chou En-Lai من مرض سرطان المثانة «خشية أن يطول به العمر من بعده ويحاول تغيير سياساته».

جاءت سلسلة الأحداث هذه في نصوص محكمة بصيغة ما، أو أخرى، قدمها المؤلفان تحت عناوين لافتة للنظر. خذ - على سبيل المثال - عنوان الفصل التاسع عشر: «عامل في الظلام يشعل الحرب الصينية - اليابانية». خلاصة هذا الفصل، من الكتاب، أن الجنرال الوطني Zhang Zhi-Zhong، قائد إقليم Nanjin في شنغهاي، كان في حقيقة الأمر عميلاً شيوعياً، ولوقت طويل، وأن «ستالين» قام بتنشيطه في شهر أغسطس، من عام ١٩٣٧، لكي يوسع رقعة الحرب مع اليابان. ويرى المؤلفان أن نجاح الجنرال Zhang في دفع اليابانيين إلى الحرب على اتساع مسرح العمليات في شنغهاي أدى، في النتيجة، إلى إعطاء شرعية للحزب الشيوعي الصيني كحليف للوطنيين الذين يحاربون اليابانيين. ولا يعنى ذلك أن ما حدث ليس من أهم الضربات التي وجهها «ستالين» فحسب، بل يعنى أيضاً أن Zhang هو أهم العملاء في كل العصور. وهذه مزاعم مبالغ فيها وتحتاج بعض تأمل.

ولا ريب أن المؤرخ للصين، في القرن العشرين، لا يستطيع إنكار وجود عملاء «نائمين» عملوا في العديد من المواقع داخل الجيش الوطني الصيني وأجهزة الاستخبارات. وهؤلاء «الجواسيس» تم زرعهم، إما بواسطة الحزب الوطني، أو الحزب الشيوعي، أو أنصار اليابان. وقد استطاعوا التأثير - في أوقات - على مجرى الأحداث.

«ماو» اكتشف في نفسه عشقاً لسفك الدماء. وهذه المتعة الباطنة، والتي تجاوز السادية، تناغمت مع، بل فاقت، انجذابه إلى العنف اللينيني. لم يعتنق «ماو» العنف بناء على نظرية، بل نبع نزوعه إليه من داخله



وبطرق فاعلة. كان هناك أيضًا عملاء مزدوجون في كل جانب. وكل جانب كانت له فرق اغتيالات خاصة به.

وقد ظهر هذا الوضع بسبب طبيعة الجبهة الموحدة التي سمحت لكل من الشيوعيين والوطنيين بحضور تدريبات عسكرية أكاديمية في Whampoa، بالقرب من Canton، في بداية العشرينيات، حيث نشط عملاء الشيوعية الدولية بشكل مكثف. وقد خدم Chiang Kai-Shek كقائد لأكاديمية Whampoa، التي كان Chou En-Lai مديرها السياسي. وكان الأول قد زار الاتحاد السوفيتي لدراسة طرق التدريب الأكاديمي، أما الثاني فقد جاء من عائلة مثقفة وعاش لبعض الوقت في فرنسا. ومثلهما مثل آلاف الشباب الصيني الطموح درس Chiang & Chou أيضًا في اليابان. ولقد بدأ Zhang Zhi-Zhong يسطع بسرعة داخل الجيش الوطني. ويقول المؤلفان إنه كان من المفضلين - بوضوح - عند Chiang، وإن كان Zhang فضل أن يستسلم أمام الشيوعيين، في عام ١٩٤٩، بدلاً من الانسحاب إلى تايوان مع Ching.

وتظل هناك العديد من الجوانب، في المزاعم الدرامية التي يطرحها المؤلفان، التي تحتاج إلى توضيح: كيف تمكن «ستالين»، على سبيل المثال، من «تنشيط» الجنرال Zhang، من أجل توسيع رقعة الحرب مع اليابان؟ هل كان يوجد، في شنغهاي، قاعدة لعملاء الشيوعية الدولية لاتزال على اتصال مع موسكو عبر قنوات لاسلكية سرية، وفي وضع يسمح بإعطاء التوجيهات إلى الجنرال Zhang؟. وما هي - على وجه الدقة - طبيعة عمل ومهام الجنرال قبل «تنشيطه».

في مذكراته التي نشرت في بكين عام ١٩٨٥، يقول الجنرال Zhang إنه كُلف من قبل Chiang، وفي وقت مبكر، في فبراير عام ١٩٣٦، بوضع خطط سرية مع كبار ضباطه في الأكاديمية العسكرية الوطنية، وكان هو عميدها، للدفاع عن إقليم Suzhou-Shanghai ضد اليابانيين. وقد استمر هذا التكليف إلى عام ١٩٣٧، عندما توجه Zhang إلى مدينة Oingdao الشمالية بهدف العلاج، لكنه، وفي التاسع من شهر يوليو في العام نفسه، وبعد سماعه أنباء الهجمات اليابانية في شمال الصين، سارع بالعودة إلى Shanghai & Nanjing، لتنسيق الدفاعات هناك. ولا يوجد في ذلك ما يشير إلى «جاسوس يعمل في الظلام». والحقيقة التي كتبها Zhang أيضًا في مذكراته هي أنه كان ناشطًا في الحرب ضد اليابانيين في شنغهاي، منذ وقت مبكر في عام ١٩٣٢. وعند عودته إلى مطار Nanjing، قادمًا من جبهة القتال، استقبل Chiang بحرس شرف ومراسم عسكرية. ويبدو أن Chiang كان عارفًا بتوجهات نظر Zhang، الذي كان موضع ثقته بشكل دائم.

نقطة أخرى، لها صلة بالموضوع وتستحق الانتباه: يقول المؤلفان إن الجنرال Zhang، وبسبب موقفه العدائي المناهض لليابان، قد «دفع إلى الاستقالة» في شهر سبتمبر (١٩٣٧) من قبل Chiang الغاضب، خائب الأمل، والمرتاب فيه. وعلى أية حالة فقد أوضح Zhang، وأكدت مصادر أخرى ما أوضحه، أنه، وعقب الانتصار الياباني الأولي في إقليم شنغهاي، تم نقله وأصبح حاكمًا لإقليم Hunan. ولا يبدو في ذلك إهانة له لأن الخطة التي أقرها Chiang للانسحاب العام، كانت تقضي باعتبار أراضي إقليم Hunan، جنوب نهر Yangtze، مع روافده الرئيسية إلى الجنوب الغربي، الإقليم الرئيسي لمستقبل الصين. ويضيف Zhang في مذكراته أنه، وبعد عشر سنوات، التقى مجددًا مع بعض الشيوعيين، ومنهم Chou En-lai، الذين عرفهم في الأيام الخوالي في Whampoa. لقد استعان المؤلفان بمذكرات الجنرال Zhang كمصدر من بين مصادر كتابهما، ولا يوجد - بطبيعة الحال - سبب يجبرهما على الاتفاق معه في كل التفاصيل. لكن هنا، وكما في العديد من «السيناريوهات» الجريئة في: «ماو: القصة غير المعروفة» كان من شأن المحتوى التاريخي الأكثر إحكامًا أن يكون أكثر فائدة للقارئ.

[٣]

من الطبيعي أن تتأثر المعالجات التاريخية بظروف وملابسات زمان ومكان إنجازها. ولم تكن «رؤية» Edgar Snow، لأهداف «ماو» وأساليبه الثورية، منزهة عن النقد في يوم من الأيام. بدأ هذا النقد عقب انسحاب Chiang إلى تايوان في عام ١٩٤٩. وفي العام التالي أخذ نقد رؤية Snow يزداد حدة في ضوء ما تبين من حقائق مروعة عن الحرب الكورية، والرعب المتنامي بشأن ما كان يجري داخل الاتحاد السوفيتي، في عصر «ستالين». ولم يكن الجدل الدائر داخل أمريكا حول ما سمى بـ «فقدان الصين» سوى أحد جوانب القصة. وعندما أصبحت «هونج كونج»، تحت الحكم البريطاني، قبلة لهاربين من الصين الماوية، توافد علماء الاجتماع إلى هناك لإجراء المقابلات مع الهاربين، والتوصل إلى تحليل يرسم طبيعة عمليات «غسل الأدمغة»، والدعائم التأسيسية والمعنوية للدولة والمجتمع في الصين.

في تايوان، حيث تجمع الوطنيون وحاولوا الحفاظ على أمل العودة إلى الوطن الأم، بدأت شواهد التجاوزات والفظائع تتجمع وتسجل وتصبح في متناول الباحثين. واقترنت عمليات التطهير، داخل «جمهورية الشعب»، بعمليات تصنيف، خارجها، في ملفات عن هؤلاء الذين قاموا بها، أو تورطوا فيها. أصبح «دليل الجرائم» هذا، جزءًا من سجل سري متجدد ودائم. وفي اليابان، ورغم التقاعس الذي شاب البحث المتعمق حول طبيعة الاحتلال الياباني «للصين»، كانت هناك عمليات فحص شاملة، وإعادة نسخ، للدراسات التي قام بها باحثون يابانيون عاشوا، وعملوا، في منشوريا وشمال الصين. يضاف إلى ذلك أن الصدع الذي أصاب العلاقات الصينية - اليابانية، بعد العام ١٩٥٦، أدى إلى قيام الباحثين بإعادة دراسة الاختلافات ما بين العقيدة، و«التكتيكات» الثورية في كل من الاتحاد السوفيتي والصين.

ومع توفر «مادة»، و«مصادر» جديدة، أخذ اتجاه التأريخ يتغير، وأصبح أكثر عمقًا. ويستند القسم الأكبر من المصادر المتعلقة بحياة «ماو»، وإليه استند، أيضًا، المؤلفان في كتابهما «ماو: القصة غير المعروفة»، إلى فيضان المذكرات والذكريات التي تدفقت من المطابع الصينية في كل من «تايوان» و«هونج كونج»، في البداية، ثم من داخل الصين ذاتها، وعلى نطاق واسع اليوم. مذكرات الجنرال Zhang يمكن اعتبارها مثالاً لهذه النوعية من المصادر. لكن المذكرات التي لفتت انتباه «الغرب» بشكل أوسع، كانت مذكرات Li Zhisui• طبيب «ماو» التي نشرت في «تايوان» في عام ١٩٩٤، وصدرت ترجمتها الإنجليزية، في العام نفسه، عن دار Random، بعنوان «الحياة الخاصة للرئيس ماو The Privat Life of Chairman Mao».

لقد سلط هذا الكتاب الضوء، وبشكل حاد، على المعضلة الأكبر في تقييم «أدب المذكرات» الذي يتناول حياة «ماو»: هل هذه المذكرات صادقة وحقيقية أم لا؟ وضرورة أن تكون الإجابة هي «نعم»، لا تعد عاملاً رئيسيًا في التقييم، خاصة إذا ما جاءت جذاذات المذكرات متناسقة وفي سياق محدد. هنا يصبح السؤال هو: هل يمكن أن تظل الأحداث حقيقية صادقة إذا ما وضعناها في سياق بديل مختلف؟ لقد وضع Li Shisui طبيب «ماو» مذكراته في سياق محكم وقوى، الأمر الذي جعلها مقبولة بشكل متزايد، مع مرور الوقت، حيث قدم «ماو» في هذه المذكرات، باعتباره شخصًا منشغلاً بذاته، غريب الأطوار، متسلطًا، غير موهوب، مولعًا بالشعارات الجوفاء، حسيًا، عاشقًا للرفاهية، وقسوته تبدو نابعة من أهواء عشوائية، في بعض الأوقات، أو نتيجة لحسابات باردة، في أوقات أخرى. ويشجع أسلوب «طبيب ماو» المحكم، والمعياري، نسبيًا، على قبول مزاعمه الرئيسية. لكن الأمر نفسه لا ينطبق على الكثير من الروايات المعادية الواردة في كتاب «ماو: القصة غير المعروفة»، رغم الاعتماد على مذكرات لشخصيات صينية ولقاءات مع عدد كبير من الشخصيات الأخرى، من بينها صديقات سابقات «لماو»، وأفراد من «السكرتارية» الخاصة، إلى جانب بعض حراسه، ابنته، وزوجات بعض كبار زملائه.

كان «ماو» قد رسم في ذهنه صورة لمجتمع مجدب بمعنى الكلمة، مجرد من المشاعر الإنسانية، يسكنه قطيع بلا إدراك، ويطيع أوامره بتلقائية. لقد أراد أمة بلا عقل



يضاف إلي ذلك وجود صعوبة خاصة في تقييم كل ما يسند إلي مصادر صينية ارتبطت بسيل المحاكمات التي جرت لشخصيات سياسية رئيسية، مثل الرئيس السابق Liu Shaoqi وزوجته Wang Guangmei، أو Lin Biao وزوجته Ye Qun، والأخيران حاولا اغتيال «ماو» في عام ١٩٧١، ولقيا حتفهما عند تحطم طائرتهما خلال محاولة الفرار إلي الاتحاد السوفيتي، بعد وقت قصير من فشل محاولة الاغتيال. وكان ماو قد قام خلال ما بين ١٩٧٣ و ١٩٧٥، بتعبئة شاملة في الصين لانتقاد Lin Biao، القائد السابق للجيش، وعائلته. وكما هو الحال، دائمًا، مع من يسقط من «الزعماء»، يسارع «الشعب» إلي توفير وثيقة الإدانة المناسبة لكل ضحية جديدة. وقد كان من نصيب زوجة «لين بياو» وثيقة تستند إلي جزء من محادثة هاتفية سجلت خلسة، وكانت قد دارت بينها وبين Huang yong-Sheng، رئيس هيئة عمليات الجيش، الذي عينه «بياو» في منصبه عام ١٩٦٨، وقت أن كان هو و«ماو» على علاقة جيدة. وحسب تفسير المؤلفين، فإن «هوانج» كان «زير نساء معروف»، وسرعان ما أصبح عشيقًا لزوجة «بياو» التي كانت، وقتها، شخصية قوية وسرعان ما أصبحت عضوًا في المكتب السياسي. يقول المؤلفان:

كانت Ye امرأة شهوانية وكانت علاقتها بزوجها سيئة، وبخاصة أن عجزه الجنسي كان واضحًا، وكانت «يي» تصفه بأنه «جثة جامدة». وقد تكشفت العلاقة بينها وبين عشيقها في محادثة هاتفية مدتها ثلاث ساعات.

نقل المؤلفان نص هذه المحادثة الهاتفية(*) عن كتاب صيني نشر في عام ١٩٩٣، تحت عنوان ترجماه إلي «المحاكمة الكبرى Super Trial». ويعد هذا الكتاب اتهامًا صارخًا لعصابة الأربعة بقيادة زوجة «ماو» Jiang Qing، ومعها «بياو» وزوجته «يي» وابنهما، الذين تآمرت معهم. جاء الكتاب خاليًا من المراجع، وفيه ورد نص المحادثة الهاتفية دون إسناد. وبما أن «بياو»، وزوجته، وابنهما، قد تورطوا في محاولة الاغتيال، وقتلوا عند تحطم طائرتهم فوق «منغوليا»، فقد كان من الضروري إعمال التدقيق، خاصة أن نص المحادثة الهاتفية اقتُبس من سجلات «المحاكمة الكبرى» باعتباره نصًا أصيلاً وإن كان يظل، في اعتقادي، أقرب إلي الحكايات الصينية الشعبية الإباحية، أكثر من كونه نص محادثة هاتفية جرت بين اثنين في قمة السلطة السياسية، وتم التنصت عليها خلسة. وفي زمن الثورة الثقافية في مجتمع يحفل بالجواسيس و«المخبرين» في كل ركن من أركانه، حيث التحفظ، والحذر، كانا من ضرورات البقاء. ورغم أننا اعتدنا مثل تلك النزوات الجنسية في مجتمعاتنا «الغربية»، وبشكل متفاوت، فإن الوضع في الصين كان مختلفًا. وفي استطاعتنا تخيل إمكانية استخدام مثل هذه السبل، في وقت معين، لتحفيز Ye وزوجها. ولكن علينا معرفة المزيد عن «الأصل» و«المصدر» قبل القبول بالنص كما هو.

ويتضمن كتاب «ماو: القصة غير المعروفة» العديد من النماذج الأخرى لمثل تلك «المحادثات السرية» بين زعماء في أعلى السلطة في الصين. وجدت طريقها إلى «أدب المذكرات» وأصبحت من «المصادر». ونادرًا ما بذل المؤلفان جهدًا مثل الجهد الذي بذلاه في مناسبة واحدة، عندما رصدا بعض ملاحظات حول عادات جنسية لشخصيات غير صينية، وردت في الكتاب، وأبدتها زوجة زعيم حرب العصابات Zhu De. فقد علق المؤلفان بقولهما إن «معلوماتها تعكس شائعات سرت في ذلك الوقت».

رغم ضخامة حجمه، تجنب كتاب «ماو: القصة غير المعروفة» التعرض بجدية إلي عوامل أخرى معينة جعلت من القرن العشرين قرنًا بغيضًا لعشرات الملايين من الصينيين، بغض النظر عن كل ما فعله «ماو». من بين هذه العوامل عمق ووحشية الهجمة اليابانية على الصين، طبيعة الحركة العمالية الصينية وحقائق فقر الريف، انهيار نظام الأمن الداخلي وانتشار قطاع الطرق وعصابات الجريمة المنظمة، وخطورة افتقاد Chiang Kai-Skek إلى المهارات العسكرية والسياسية، إضافة إلي الاختلافات الطبقية والإقليمية والاجتماعية.

وقد أدت شدة التركيز على «دناءة» ماو، وإغفال العوامل «الإيجابية» الأخرى، إلي أن يفقد الكتاب الكثير من القوة التي كان يمكن أن يكون عليها. كما أن السعي الدءوب إلى إثبات أن «ماو» بدأ شريرًا واستمر هكذا طوال حياته، لم يترك مساحة لتغير حتى يطرأ على الشخصية سواء بحكم النمو والتطور، أو بحكم الانتكاس والنكوص، أو نتيجة لاستخدام المكر والدهاء، أو احتمالات النزوع إلي إصلاح. لم يكن للأعداد غير المحدودة من الصينيين، الذين كافحوا من أجل التغيير، أية أدوار في الكتاب. تحولت، هذه الأعداد، إلي أصفار عاشت وماتت دون ما هدف، مع بعض استثناءات من بينها الجنرال Peng Dehuai، الذي تصدى لماو في مواقف عديدة، وعُذب وقُتل. لقد تم تقديم كبار زملاء «ماو» ورفاقه، في الكتاب، كشخصيات مثيرة للشفقة، يسهل التلاعب بها، وغير قادرة - كما يبدو - على فهم خدع وألاعيب «ماو» المفضوحة منها، والمستترة المجهولة. وبدا الشعب الصيني كله محبوسًا داخل بؤسه، بلا حول أو قوة، بفعل طغيان شخصية رجل واحد هو «ماو» الذي بدا، بدوره، وكأنه غير قادر علي الاستيعاب والتطور. فكيف يكون على «ماو» أن يسقط إلي القاع وهو لم يغادر القاع أصلاً؟

كنت أسأل نفسي، وأنا أقرأ الكتاب: لماذا يجب على المؤرخين التزام العدل مع الوحوش المريضة، إذا كان «ماو» - حقًا - وحشًا مريضًا؟ الإجابة الأكثر وضوحًا ربما تكون بنائية، بقدر ما هي مفاهيمية. وبدون بعض جهد، من أجل العدل، يمكن القول إنه لا يوجد ذلك الاختلاف الدقيق. لا يوجد شعور بالضوء أو الظلمة. الوحش، صارم ومميت، يسير بتثاقل عبر مسار وحشي يصنعه لنفسه. وإذا ما افتقد الضمير لا تكون لديه رؤية ذات معنى، لعالم مختلف سوى العالم الذي يكون هو فيه الأكثر تميزًا. بينما «الأعداء» في حالة إهانة دائمة، و«الشعب» في حالة جوع مميت. وهل في إمكاننا أن نتعلم شيئًا من مثل هذا الرجل؟ هذا السؤال هو «بيت القصيد» الذي حاول المؤرخون - دائمًا - عدم مواجهته على مر العصور. ■

رغم ضخامة حجمه، تجنب كتاب «ماو: القصة غير المعروفة» التعرض بجدية إلى عوامل أخرى معينة جعلت من القرن العشرين قرنًا بغيضًا لعشرات الملايين من الصينيين، بغض النظر عن كل ما فعله «ماو»

(*) نص المحادثة الهاتفية الوارد في «ماو: القصة غير المعروفة»:

Ye: إنني أشعر بقلق من احتمال أن يوقعك إصرارك، على إشباع رغباتك، في مأزق. أستطيع أن أقول لك إن حياتي ارتبطت بحياتك سياسيًا وشخصيًا. هل تعرف ما يفعله «١٥١» (الاسم الحركى للين بياو) في البيت. إنني أعيش معه حالة من الإيذاء الجسدي. وأقدر لك مشاعرك القيمة. بلادنا واسعة وبها مجال لمزيد من الأطفال. وكل طفل يستطيع أن يحظى بموقع رئيسي فيها.

Huang: نعم. معك كل الحق.

Ye: أريد أن أنجب منك خمسة أطفال، يصبحون خمسة جنرالات. كل جنرال منهم يتولى منصبًا رفيعًا. ويمكن أن يعملوا كمساعدين لك.

Huang: ياه. أنا ممتن جدًا لك.

Ye: لقد أخذت قياسه (إشارة جنسية)، فقد يفيدنى ذلك إذا ما أردت الخلاص «منه» (إشارة إلى جنين محتمل). لماذا لا تأتى لزيارتى مرة.. (صوت بكاء ونشيج).

Huang: سوف أحضر. سوف أحضر. لا تكوني هكذا. هذا يجعلني أشعر بحزن شديد.

Ye: أمر آخر.. ليس من الواجب عليك أن تكون لي وحدي. يمكنك أن تفعل ما تشاء فلست ضيقة الأفق. وبإمكانك أن تحظى بعشيقات غيري وتكون ساخنًا معهن. لا تقلق بشأني.

هوامش للمترجم

(١) نسبة إلي إبراهام لينكولن (١٨٠٩ -١٨٦٥)، الرئيس الأمريكي السادس عشر، مؤسس الحزب الجمهوري، والذي اشتهر بعصاميته ورفض العبودية وتحرير الأمريكيين السادس عشر.

(٢) نسبة إلي فلاديمير لينين (١٨٧٠ - ١٩٢٤) قائد الثورة البلشفية وأول رئيس للاتحاد السوفيتي بعد ثورة ١٩١٧.

أسباب تعثر الأداء التنموى فى العقود الثلاثة الأخيرة تكمن فى نوعية السياسات التنموية التى طبقت خلال تلك الفترة، وتخلف وتراجع أوضاع المؤسسات التى يتعامل أفراد المجتمع من خلالها

أزمة المؤسسات فى مصر

أحمد صقر عاشور

■■ خلال العقود الثلاثة الأخيرة، شهدت مصر تحولات كبرى فى نطاقها الاقتصادى والاجتماعى، وفى هيكلها الإنتاجى، وفى عدد سكانها، وفى البنية التحتية لمرافقها. فقد تحول اقتصادها من الاقتصاد الاشتراكى المخطط والموجه من الدولة إلى اقتصاد رأسمالى حر. وتحول هيكل الطبقات الاجتماعية فيها، فبرزت ونمت طبقة من أصحاب الأعمال والمستثمرين، قابلها هبوط نسبة أكبر من أفراد الطبقة الوسطى إلى الطبقة الدنيا. وأصبح بذلك هيكلها الطبقى يحوى قمة ضيقة نسبياً، وشريحة تتآكل باستمرار من الطبقة الوسطى، وقاعدة شديدة الاتساع من الطبقة الدنيا. وتحول هيكلها الإنتاجى والاقتصادى، فتضخم فيه القطاع الحكومى، وزاد نصيب التجارة والخدمات. وتحول جزء كبير من القطاعات الإنتاجية (الصناعة والزراعة والسياحة) فى اتجاه مزيد من الاعتماد على مستلزمات إنتاج من الخارج، دون أن يقابل هذا زيادة موازية أو أكبر فى التصدير. وقد تضاعف عدد سكان مصر بأكثر من مرة خلال تلك الفترة، لكن هذه الزيادة مثلت طاقات استهلاك بأكثر مما شكلت زيادة فى القدرات والطاقات الإنتاجية. وقد شهدت مصر خلال العقود الأخيرة أكبر توسع فى تاريخها المعاصر فى مرافقها العامة (المادية)، جاء نتيجة استثمارات كثيفة ضختها الدولة فى هذه المرافق. كما حدث توسع كبير فى التعليم فى كافة مراحله.

لكن المثير للاهتمام أن هذه التحولات الكبرى لم تنتج آثاراً تنموية كبرى، ولا حققت تحسناً تراكمياً منتظماً فى أحوال أغلبية المصريين، على النحو الذى حدث لبلدان كان وضعها مناظراً لمصر (وربما أسوأ) منذ ثلاثة عقود مثل كوريا الجنوبية وماليزيا. ويؤكد على هذا تعثر معدلات النمو فى متوسط الناتج القومى الإجمالى، وتراجع ترتيب مصر فى المؤشر العالمى للتنمية البشرية. كما يؤكده أيضا التفاوت الشديد والمتزايد فى توزيع الثروة والدخل، واتساع قاعدة الفقر، وارتفاع معدلات البطالة، وتواضع نصيب مصر من النمو فى الاستثمار الخارجى المباشر، والعجز شبه المزمن فى الميزان التجارى، وتفاقم حجم الدين العام الداخلى والخارجى. ويتواكب مع هذا مؤشرات سياسية واجتماعية مثل تراجع نسبة المشاركة السياسية، وزيادة مشاعر الإحباط التى تسيطر على قطاع كبير من الشباب، وتراجع الشعور بالانتماء والاعتزاز بالمواطنة لدى نسبة متزايدة من المصريين.

هناك لا شك أسباب لتعثر الأداء التنموى فى العقود الثلاثة الأخيرة تكمن فى نوعية السياسات التنموية التى طبقت خلال تلك الفترة، وتخلف وتراجع أوضاع المؤسسات التى يتعامل أفراد المجتمع من خلالها. بل إن نوعية السياسات التنموية وكفاءة تطبيقها تتوقف على المؤسسات التى تصاغ وتدار وتوجه وتتفاعل التنمية من خلالها. ومن الواضح أن تأخر وإرجاء وتردد وعدم اتساق أو توازن الإصلاح فى هذه الأوضاع والعوامل المؤسسية يمثل الشق الأكبر من أسباب ضعف وتعثر الأداء التنموى خلال تلك الفترة.

شواهد الأزمة

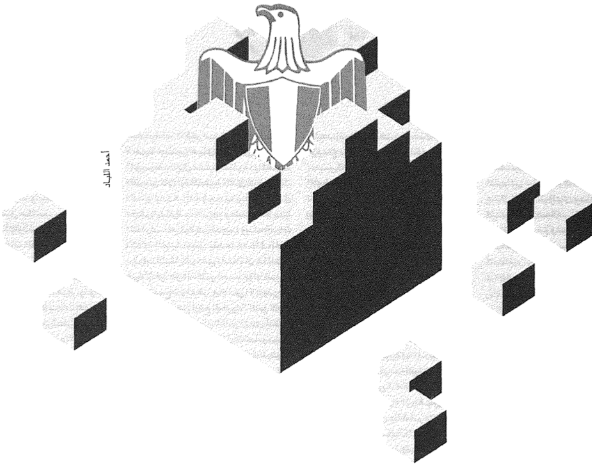
هناك شواهد عديدة للضعف المؤسسى أو الأزمة المؤسسية تتبدى فى مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى مصر. وقد تزايدت وتكاثرت هذه الشواهد بصورة ملحوظة خلال العقود الثلاثة الأخيرة. وفيما يلى تحليل لهذه الشواهد والمؤشرات:

أولا: تزايد حجم وكثافة التعاملات والمبادلات الاقتصادية التى تتم خارج الأطر المؤسسية الرسمية.

كثير من التعاملات والمبادلات تتم دون قواعد وآليات ضبط معينة، لتوفير الحماية المطلوبة للحقوق والالتزامات التى تتمخض عنها. ويمثل الحجم المتزايد للاقتصاد غير الرسمى الذى يقدره البنك الدولى فى تقرير أخير بحوالى ٣٥٪ من الاقتصاد الكلى فى مصر، أحد أهم شواهد تزايد خروج المعاملات الاقتصادية من نطاق الاقتصاد الرسمى الذى يعمل فى إطار المؤسسات الرسمية. وتعنى هذه الظاهرة تراجع الثقة فى الأطر القانونية والقضاء والجهاز الحكومى فى مجال التعاملات الاقتصادية.

ثانياً: انخفاض كفاءة المؤسسات

هناك تزايد فى معدلات الجريمة (بصرف النظر عما تسجله وترصده الأجهزة الرسمية)، وتزايد حالات الفساد الاقتصادى والإدارى والاعتداء على المال العام، وتزايد حالات الغش الجماعى والفردى للطلبة فى الامتحانات إلى الدرجة التى أصبحت معها محاولات الغش جزءا مستقرا من السلوك الطلابى خلال الامتحانات، وتزايد ظواهر التلاعب والغش فى مواصفات السلع والخدمات فى الأسواق، والتلاعب بقواعد ونتائج الاستفتاءات والانتخابات العامة، والانهيار فى جودة الخدمات التعليمية الذى يقترن بانتشار الدروس الخاصة، وشيوع عدم الالتزام بالقواعد المرورية من قبل قائدى السيارات، هى مجرد أمثلة لتراجع قدرة المؤسسات فى مختلف المجالات على تحقيق الضبط الاجتماعى، ولشيوع ثقافة عدم الاحترام أو الاعتداد (أو الالتزام الطوعى) بالضوابط المؤسسية القائمة. ولا يقتصر الأمر على تزايد حالات التجاوز وتراجع الضبط الاجتماعى بل يمتد إلى عجز



مزمن للقانون وأجهزة التنفيذ فى القضاء على ظواهر اجتماعية مرضية مثل عادات الثأر فى صعيد مصر. فالقانون والشرطة والقضاء تقف عاجزة لعقود طويلة أمام شيوع وتغلغل هذه الظاهرة لدى عائلات وعشائر صعيد مصر. وقد وصل ضعف هذه المؤسسات إلى الحد الذى نمت معه حالات انتهاك القانون، واغتصاب الحقوق، وكذلك حالات استقضاء الأفراد لحقوقهم المغتصبة بأيديهم مباشرة، لعدم الثقة فى جدوى اللجوء لمؤسسات الدولة.

ثالثاً: ضعف جدوى المؤسسات

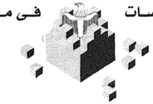
لا يتعلق هذا بالمؤسسات الحكومية والسياسية، بل يمتد ليشمل مختلف الأنظمة والمؤسسات الرسمية سواء كانت تابعة للدولة، أو تابعة للقطاع الخاص أو القطاع الأهلى. فلا شك أن دور الدولة فى إنفاذ القوانين قد أصابه وهن شديد، سواء كان ذلك راجعا لتراجع الثقة فى عدالة القوانين ومعقوليتها، أم كان نتيجة ضعف أجهزة التنفيذ. وتتبدى ذات الظاهرة فى تضاؤل وانحسار قاعدة المشاركة الجماهيرية فى العمل السياسى، وضيق القواعد الجماهيرية للأحزاب التى تكاثرت على الساحة دون أن يكون لأى منها وجود حقيقى فاعل أو مؤثر. وهناك تراجع خطير فى إقبال أفراد المجتمع على التعامل الرسمى فى مسائل تتطلب الرسمية بطبيعتها مثل بيع وشراء السيارات، والعقارات من خلال التسجيل فى جهاز الشهر العقارى. فكثير من عمليات بيع وشراء السيارات تتم بتوكيلات كبديل لنقل الملكية. وكثير من عمليات بيع وشراء العقارات تتم بعقود ابتدائية - غير مسجلة - تحاشيا للرسوم الباهظة للتسجيل وإجراءاته المعقدة. والكثير من عمليات البيع والشراء لكثير من المنشآت حتى بالنسبة لمؤسسات رسمية ضخمة مثل المؤسسات الصحفية القومية يتم بتعاملات نقدية مباشرة مع أفراد الجمهور لا تستخدم فيها وسائل الدفع الحديثة مثل الشيكات أو بطاقات الائتمان (مثل الإعلانات أو منافذ بيع الكتب والمطبوعات). هذا التراجع فى التعامل الرسمى، يقابله تواجد ذو كثافة عالية للمؤسسات الرسمية (وهو ما يمثل فى حد ذاته مفارقة)، مما يعنى تراجع الفاعلية والمردود الذى تحققه هذه المؤسسات.

رابعاً: التنافر والاغتراب

كثير من المبادئ مثل الحرية والديمقراطية وعدالة القانون ونزاهة القضاء وتكافؤ الفرص وغيرها من المبادئ والشعارات التى ترفعها الأجهزة والمؤسسات الرسمية للدولة، لا توجد قناعات حقيقية لدى جماهير المواطنين بها. فأغلب الناس ينظر إلى هذه المبادئ والشعارات باعتبارها واجهة معلنة، لا تقابلها ممارسات توفر لها المصداقية، ولا قناعات جماهيرية بحقيقة وجودها. فمبادئ تكافؤ الفرص والعدالة والأمانة والصدق التى تقوم عليها نظم الامتحانات التعليمية، يقابلها ثقافة لدى أعداد متزايدة من الطلاب وأولياء أمورهم تقوم على عكس هذه المثل والمبادئ والأمانة والشرف والمصداقية وخدمة العملاء وتجنب تعارض المصالح والوفاء بالوعود والعهود التى تتطلبها تعاملات السوق وتعلنها المؤسسات المتعاملة فى الأسواق (بورصة الأوراق المالية مثلا)، يقابلها فى الواقع الفعلى قيم تقوم على تبرير الوسائل بالغايات والانتهازية واقتناص الفرص والسعى المحموم للربح بكل الوسائل. وكذلك فإن بعض أجهزة الحكومة حين تعلن عن التزامها بالشفافية والمصداقية، لا تألو جهدا فى التلاعب بالإحصاءات والمؤشرات وفى التعتيم على حقيقة المشكلات والعقبات التى يعانى منها أداؤها خاصة والأداء التنموى عامة. ولم يعد لبيان الحكومة أو تصريحاتها خلال السنوات السبع الأخيرة، أو للمناقشات التى تجرى فى المجالس البرلمانية، صدى حقيقى لدى الجمهور. حيث يعيش الأخير فى دوائر وحلقات بينها وبين الخطاب الرسمى المعلن مسافات شاسعة.

خامساً: اختلال القواعد الحاكمة

كثير من القواعد القانونية الحاكمة لتعاملات المجتمع بها ثغرات وجوانب نقص نتيجة ضعف عملية صناعة التشريع Law Making. وقد ظهرت هذه الجوانب بوضوح فى التعديلات التشريعية التى تمت خلال العقود الثلاثة الأخيرة. فالتعديلات المتعاقبة التى أدخلت مثلا على قوانين الإيجار للعقارات المبنية خلال هذه الفترة أظهرت ثغرات فى كل تعديل وعكست عدم العدالة بين فئات ملاك العقارات القديمة، والحديثة إلى الدرجة التى أدت بالتضافر مع قصور سياسات الإسكان، إلى اقتصار الإيجار على العقارات المبنية حديثا، مع بقاء مستويات الإيجار القديمة على حالها، مما أدى إلى قصور الصيانة والتجديد للثروة العقارية القديمة رغم ما تحويه الكثير من مبانيها فى المناطق الحضرية من ملامح جمالية وتاريخية أصابها التشوه نتيجة الإهمال فى صيانتها والحفاظ عليها. وتحوى التعديلات التشريعية والقواعد المؤسسية والنظم المعمول بها، فرصاً واسعة للتكسب الريعى لبعض أفراد النخب ذوى النفوذ السياسى أو الإدارى والاقتصادى من خلال عمليات تخصيص الأراضى المملوكة للدولة، وتسعير العقارات المبنية بواسطة أجهزتها ومؤسساتها. بل إن بعض التعديلات فى القواعد الحاكمة لتشريعات



الجمارك والإعفاءات الضريبية أو تلك المنظمة للتعامل فى النقد الأجنبى وتشريعات الاستثمار، نتيجة لغياب الشفافية والمشاركة فيها، خلقت فرصا فريدة وفتحت أبوابا واسعة لنمو الفئات الساعية لتحقيق مكاسب ريعية Rent Seeking Group هائلة ودون جهد أو تكلفة أو تضحيات اللهم إلا من تكلفة استرضاء من يحتكرون المعلومة أو السلطة المتعلقة بالتعديل التشريعى أو السياسات والقواعد الحكومية. وتوجد نفس الظواهر فى تنظيمات القطاع الخاص. فالنخب المسيطرة على مجالس إدارات الغرف التجارية والاتحادات الصناعية تحظى نتيجة نفوذها واتصالاتها بمزايا تفضيلية تمكنها من تحقيق مكاسب ريعية من التعاملات مع الحكومة والبنوك. ونتيجة لهذه المعاملة التمييز يه، صار شائعا لعدد متزايد من أعضاء المجلسين النيابيين، أن يحصلوا على حصص من هذه المزايا الريعية ليوزعوها بأنفسهم (مثل تراخيص الحج) أو ليستفيدوا هم مباشرة بها مثل الحصص السلعية، أو التخصيص العقارى لأراضى الدولة أو تراخيص المشروعات التى تتمتع بمزايا ضريبية. وبلغ الأمر مدى أفدح نتيجة تأثير المال على الانتخابات النيابية، بعد أن زاد عدد رجال الأعمال فى المجلس النيابى، وزاد معه تأثيرهم وتوجيههم للتشريعات التى يصدرها المجلس (حتى لا تتعارض مع مصالحهم) أو تلك التى لا يصدرها المجلس أو يتباطأ فى نظرها وإقرارها (مثل تشريع حماية المنافسة ومنع الاحتكار).

سادساً: شخصانية العمل المؤسسى

هناك شواهد وفيرة تؤكد أن تقاليد وممارسات المؤسسات فى مصر يتوقف على شخصية ونمط إدارة وقيادة الرئيس الأعلى للمؤسسة. فالسد العالى مثل نموذجا للإنجاز الرائع لأن من اختير لتولى مهمته فى الستينيات كان شخصية قيادية ذات قدرات تنظيمية فذه مثل المهندس صدقى سليمان. وإعادة بناء القوات الجوية من خلال نظام جديد ومنضبط لإعداد طلبة الطيران وإعادة بناء القوات الجوية جميعها بعد ذلك، اختير له فى نهاية الستينيات وأوائل السبعينيات اللواء طيار محمد حسنى مبارك. والتحول الاستراتيجى فى مؤسسة الأهرام الصحفية خلال الستينيات والسبعينيات باجتذابها أعلام الفكر والأدب والفن تم لأن مفكرا وكاتبا صحفيا فذا ذا فكر استراتيجى من نوعية محمد حسنين هيكل كان على رأس هذه المؤسسة خلال تلك الفترة. والمعهد القومى للإدارة العليا الذى كان خلال الستينيات كيانا مؤسسيا واعدا يعمل بفكر استراتيجى ويوظف خلاصة الخبرات العالمية فى تدريب وبناء قدرات الإدارة العليا، حقق تقدما مذهلا خلال سنوات قليلة لأن على رأسه كان عالما فذا فى الإدارة هو الدكتور أحمد فؤاد شريف الذى جمع حوله فى مجلس الإدارة وفى المعهد نخبة من أرفع الخبرات التى كانت متاحة وقتها. ومركز الكلى الذى أنشئ فى جامعة المنصورة خلال الثمانينيات وتكون له رصيد وافر من الخبرات الرفيعة والإمكانيات غير المعتادة، حقق ذلك لأن رائده ومنشئه ومديره لسنوات ممتدة كان طبيبا وعالما ومديرا نابغة هو الدكتور محمد غنيم. لقد قامت جزر النجاح المؤسسى المشار إليها فى الأمثلة السابقة رغم البيئة المعاكسة والمقوضة للنجاح والإنجاز المحيطة بها، لأن أشخاصا يملكون قدرات فذه كانوا على رأس هذه المؤسسات. لكن أغلب هذه المؤسسات لا تلبث بعد غياب هذه القيادات أن تتراجع جذوة طموحها وحماسها وتتراخى أنظمتها ويتضخم كيانها ويتواضع إنجازها وتتحول إن بقيت إلى جهاز بيروقراطى يخدم من فيه أكثر مما يخدم المجتمع. المغزى المستخلص هنا أن النجاح المؤسسى محصلة لنوعية القيادة العليا التى تمسك بزمام السلطة والمبادرة على قمة المؤسسة. ونتيجة لأن النجاح الفائق والإبداع المؤسسى ظاهرة استثنائية لا يوجد ما يضمن استمرارها أو تجددها ذاتياً لأنه لا يوجد نظام لاختيار القيادات على أسس من الكفاءة والجدارة والقدرة على استنهاض قوى الإبداع المؤسسى وإدارة التغيير، فإن احتمالات النكوص أو الارتداد إلى الأوضاع المؤسسية المعتادة المريضة الشائعة التى يعج بها المجتمع تكون عالية بعد غياب أو خروج هذه القيادة. وليت الأمر يقتصر على ذلك. فهناك ظواهر عديدة تفسر تفشى الفساد فى الأجهزة الإدارية فى كل القطاعات، تتمثل فى شخصانية العمل المؤسسى. فالجمهور المتعامل مع المؤسسات لا ينظر للقواعد أو اللوائح أو السلطات التى يطبقها الموظف العام باعتبارها نظما موضوعية وإنما باعتبارها غنائم أو عطايا أو منحا يوزعها الموظف وفق أهوائه وأنه يتعلل بهذه القواعد واللوائح فقط عندما لا يريد منحها لشخص بعينه. وأغلبية أفراد الجمهور الذين يشيع بينهم الجهل والفقر والتخلف، يظنون أن الاستمالة الشخصية أو الوساطة وربما الرشوة وتبادل المنافع مع الموظف العام هى الوسيلة الناجعة فى أغلب الحالات للحصول على الخدمة وتنمية وتذليل عقبات القواعد واللوائح والنظم التى يتعلل بها الموظفون العامون. وكثيرا ما تكون هذه المدركات والقناعات نتاجا لخبرات فعلية استقاها أفراد الجمهور مباشرة أو من خلال مصادر غير مباشرة. ويعززها على الجانب الآخر، أن الموظف العام أو المسئول فى المؤسسة، ينظر إلى منصبه وسلطاته وصلاحياته باعتبارها لصيقة بشخصه، أكثر من كونها دورا ووظيفة محكومة بأهداف (خدمة أفراد الجمهور) ومرتبطة بنظم وقواعد مؤسسية. وبحكم الخبرة كثيرا ما يكتشف الموظف أو المسئول أن هذه الصلاحيات والسلطات، مع غياب الحوافز والروادع على حسن استخدامها، يمكن أن تكون وسيلة للتكسب المادى أو التكسب المعنوى (من خلال المبالغة فى التعالى على أفراد الجمهور). لاحظ مثلا التعنت الذى يعامل به الفئات الدنيا من عساكر المرور أو الشرطة، الفئات المعدمة وشبه المعدمة من أفراد المجتمع، وسائقى سيارات الأجرة، والباعة الجائلين، كوسيلة لتأكيد تمايز المكانة بينهم وبين هؤلاء.

سابعاً: فجوة بين المؤسسات والمجتمع

هناك شواهد عديدة على تراجع ثقة أفراد المجتمع وتجمعاته فى المؤسسات الرسمية. ومن هذه الشواهد ضعف الثقة فى التشريعات والقوانين والتجاء بعض الأفراد إلى اقتضاء حقوقهم مباشرة بأنفسهم، والشعور المتزايد بعدم جدوى الالتجاء للشرطة لطلب الحماية من تهديدات أو اعتداءات أو جرائم سرقة عادية، وعدم جدوى اللجوء للقضاء لفض منازعات تطول آماد البت فيها وقد تستهلك من الوقت والمال ما يمثل تكلفة إضافية لا قبل للأفراد بتحملها. ومن هذه الشواهد أيضا تراجع الثقة فى المعاملات بصورة عامة، وتضخم الحلقة الجهنمية للضمانات الرسمية المطلوبة فى كل معاملة وتعددها تعدداً مخيفا، نتيجة ضعف الثقة فى فاعلية أو قوة أو مصداقية أى منها. ولقد أدت الأزمة الاقتصادية الراهنة (التى امتدت الآن إلى ما يزيد على سبع سنوات) إلى تضخم واستفحال هذه الحلقة الجهنمية. فبعد أن تكشف للبنوك مثلا ضعف المصداقية والثقة لدى عدد كبير من كبار المقترضين، صارت الضمانات المطلوبة للقروض من كبار وصغار المقترضين تفترض أن جميع المتقدمين لطلب قروض «نصابين ومحتالين»، ينبغى التحوط الكامل لمواجهة نواياهم هذه بالتزيد فى توفير ضمانات مالية ومادية، واتخاذ إجراءات معقدة ومطولة لمنحهم القروض. لقد أوضح فرانسيس فوكوياما (Fukoyama, ١٩٩٧)، كيف أن تعاملات الاقتصاد الرأسمالى ونموه وازدهاره تعتمد على توافر أرضية الثقة بين أفراد المجتمع وبينه وبين مؤسساته. هناك إذن تراجع خطير فى عوامل الثقة فى المجتمع المصرى خلال العقود الثلاثة الأخيرة، لا مجال لبحث أسبابها فى هذه الدراسة، أدت إلى تعقيد التعاملات، وإلى إفراط فى التحوط، وزيادة كبيرة فى تكلفة المعاملات.

هناك شواهد وفيرة تؤكد أن تقاليد وممارسات المؤسسات فى مصر تتوقف على شخصية ونمط إدارة وقيادة الرئيس الأعلى للمؤسسة

ثامناً: ارتفاع تكلفة المعاملات.

تتضافر العوامل السابقة جميعها في خلق مناخ يؤدى إلى تعقيد المعاملات والمبادلات، وزيادة العقبات التى تواجهها، وزيادة فرصة تعثرها، وازدياد الحاجة إلى توفير ضمانات لحماية حقوق الملكية وضمان الوفاء بالالتزامات. وتشير تقارير ودراسات البنك الدولى وكذلك الدراسات الصادرة عن المركز المصرى للدراسات الاقتصادية، إلى أن الضعف والاختلالات المؤسسية التى تختص بتعاملات الأسواق وتشكل بيئة الاستثمار فى مصر، تؤدى إلى ارتفاع تكلفة المعاملات Transaction Costs، ارتفاعا كفيلا بالقضاء على تفوق عناصر المزايا النسبية التى تتمتع بها مصر، وعلى إمكانية تنمية مزايا تنافسية تعتمد على التطوير وتركيم الخبرات وزيادة الكفاءات المحورية Core Competences. فهذه المزايا يلتهمها اضطرار المنشآت إلى تحمل أعباء كان يمكن أن تكون فى غنى عنها لو أن البيئة المؤسسية كانت توفر حماية الحقوق والممتلكات، وتيسر دورة التقاضى، وتيسر التعامل مع الأجهزة الحكومية (التراخيص، الجمارك، الضرائب، وأجهزة الرقابة المختلفة)، وتوفر المعلومات، والخدمات الداعمة لنشاط الأعمال، وتوفر مصادر التمويل بتكلفة معقولة غير مبالغ فيها، وتوفر العمالة الماهرة الكفة المنضبطة، وتوفر الشفافية وتكافؤ الفرص، وتوفر الاستقرار التشريعى. وهذه العوامل وغيرها يشوبها الكثير من القصور، بما يعيق الاستفادة بالمزايا النسبية وتنمية قدرات ومزايا تنافسية. وهى معيقة لجذب وتنمية الاستثمارات المباشرة، ومعيقة لإمكانيات تنمية التصدير وتوسيع حصة مصر فى التعامل مع الأسواق العالمية استيرادا أو تصديرا، حيث أنها ترفع تكلفة المعاملات لكليهما.

وتوضح المؤشرات المقارنة التى يحتويها الجدول التالى المستقى من دراسة حديثة للبنك الدولى (٢٠٠٣)، المدى الذى تمثله كثافة التنظيم والضبط اللائحى Regulations المؤسسى الصورى فى مصر، والآثار العكسية التى تحدثها على تكلفة المعاملات وعلى تراجع الحافز لدى المنشآت للانضواء تحت الاقتصاد الرسمى، والاستثمار والتوسع والنمو، بالمقارنة مع مؤشرات المنطقة والدول المتقدمة فى منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية (OECD) وأفضل المؤشرات العالمية.

ومن الجدول السابق يتضح أن الهوة بين مصر وأفضل الممارسات كبير للغاية. فوفق المسح الذى تم فى ٢٠٠٣ فى مصر (Stern, ٢٠٠٣) فإن عدد إجراءات تسجيل منشأة تبلغ ١٣ إجراء وتستغرق ٥٢ يوما بينما لا تزيد فى أفضل الممارسات (كندا) عن ٢ إجراء ويومين، وهى تتم فيها إلكترونيا بالكامل (أى دون عناء الانتقال والتعامل المباشر مع الجهات الرسمية). وبينما تبلغ تكلفة تسجيل منشأة جديدة ما نسبته ٦١٪ من متوسط الدخل الفردى فى مصر، فهى مجانية بالكامل فى الدانمارك. ويقارب عدد الإجراءات والأيام لإنفاذ العقود ١٧ إجراء تستغرق ٢٠٢ يوم فى مصر تلك المتعلقة بمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وتلك الخاصة بدول منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية. لكن الملفت للنظر أن الرقم القياسى للتعقد البيروقراطى عبر الدول، الذى يعكس صعوبة تحقيق العدالة، وضعف القدرة على إنفاذ التعاقدات، وزيادة الفساد فى المحاكم يعتبر عاليا نسبيا فى مصر بالمقارنة بدول منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية، وبالمقارنة بتونس التى تمثل أفضل الممارسات عالميا فى هذا المجال. ومن المثير أن تبرز تونس وهى إحدى الدول العربية كأفضل الممارسات والمؤشرات عالمياً فى مجال حل المنازعات وإنفاذ العقود، حيث لا تستغرق سوى ٧ أيام وعشرة إجراءات. ولدى مصر أكثر تشريعات العمل والتوظف والعلاقات الصناعية والنقابية جمودا، بما يفسر الحجم الكبير نسبيا للاقتصاد غير الرسمى فيها. لكن الكبر النسبى لحجم الاقتصاد غير الرسمى بالمقارنة بالدول الأخرى فى المنطقة أو بالدول الصناعية المتقدمة، هو دالة لمجموعة عوامل مؤسسية ضاغطة ومنفرة لمنشآت ومشروعات القطاع الخاص، تتعلق بالبيئة المؤسسية عامة والسياسات والممارسات الضريبية وقوانين العمل خاصة.

جذور الأزمة

نتناول فى هذا الجزء من الدراسة تحليلاً للعوامل والأسباب التى تمثل جذور الأزمة Root Causes. وتمثل هذه الجذور أو الأسباب العوامل الأعمق فى البنية المؤسسية للمجتمع المصرى وفى علاقته بهذه المؤسسات.

أولاً: علاقة الناس بالمؤسسات

تلعب المؤسسات دوراً هاماً فى ربط الناس ببعضهم البعض، وتيسير وتضافر جهودهم وتشكيل سلوكهم، باتجاه احترام القوانين والنظم والقواعد، والانضباط واحترام الوقت واحترام حقوق الغير. لكن المؤسسات لكى يكون لها هذه الآثار العميقة على حياة الناس لابد أن يكون لقواعدها وأنظمتها قبول عام ومشروعية وأن تتغلغل هذه المؤسسات فى نواحى حياتهم المختلفة، وأن يكون لهذا التغلغل منفعة وعائداً يستشعرونه.

ويصبح الأمر مختلف تماماً إذا كانت المؤسسات بعيدة عن حياتهم أو إذا فقدت القبول والمشروعية لديهم، أو إذا كان الناتج الصافى للتعامل معها يمثل عبئاً وتكلفة عليهم. وتتمكن المؤسسات من فرض نظمها طواعية عندما تتيح هذه النظم إمكانيات وفرص معقولة للالتزام بالنظم دون تكبد تضحية أو مشقة عالية من قبل الأفراد.

لقد قطعت مصر شوطاً بعيدا خلال القرن العشرين فى دمج المجتمع المصرى داخل أطر من النظم والقوانين والتعاملات المنتظمة مع المؤسسات فى مجالات التعليم والتعاملات الاقتصادية والعمل والتوظف وفى مجالات الاستهلاك وإشباع الحاجات. لكن التحولات التى أحدثها التطور المؤسسى تفاوتت حصيلتها من الضبط والانتظام من قطاع مؤسسى إلى آخر، حسب قدرة كل قطاع على توفير شروط القبول والمشروعية المشار إليها. ونجحت منظمات القطاع الاقتصادى الكبير نسبياً التى استخدمت نظم وأساليب متطورة فى التعامل مع العاملين فيها ومع عملائها. لكن قطاع الدولة بمختلف عناصره لم ينجح إلا جزئياً فى التغلغل إلى أعماق حياة المجتمع. ويرجع هذا إلى عجز هذا القطاع عن التغلغل فى كثير من جوانب حياة الناس على النحو الذى يؤثر فيهم على أسس طوعيه وعميقة. ومازالت حياة قطاعات واسعة من المواطنين فى الريف وفى المناطق الفقيرة فى الحضر والمدن تقع خارج الأطر المؤسسية. فالمواطنين فى هذه المناطق لا ينتظمون أو يشاركون فى النظام السياسى سواء

المؤشر	مصر	متوسط دول منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا	دول منظمة OECD	الأفضل
عدد الإجراءات لتسجيل منشأة أعمال	١٣	١١	٧	٢ (كندا)
عدد الأيام لتسجيل منشأة أعمال	٥٢	٦٠	٣٣	٢ (كندا)
تكلفة تسجيل منشأة أعمال (كنسبة إلى متوسط الدخل للفرد)	٦١,٠	٦٢,٤	٩,١٠	صفر الدانمارك
عدد الأيام لإنفاذ التعاقدات	٢٠٢	٣٠٢	٢٠٥	٧ (تونس)
تكلفة إنفاذ التعاقدات (كنسبة إلى متوسط الدخل للفرد)	١٧	٢٣	١٦	١٠
الرقم القياسى للتعقيد البيروقراطى فى المحاكم	٣,٧٩	٤,١١	٣,٠٨	٧٣,٠
الرقم القياسى لجمود Rigidity قوانين التوظف	١,٨١	١,٤٥	١,٣٥	٧٧,٠
الرقم القياسى لجمود قوانين العلاقات الصناعية والنقابية	١,٧٤	١,١٠	١,٢٤	٢٥,٠
نصيب الاقتصاد غير الرسمى من الناتج القومى الإجمالى (٪)	٣٥,١٠	٢٧,٤٨	١٧,٤٠	٨٠,٨

المصدر: دراسة البنك الدولى (٢٠٠٣) مشار إليها فى (Stern, ٢٠٠٣)

بالمشاركة فى الانتخابات والاستفتاءات ولا فى العمل الحزبى. وهم نتيجة لما يمثله التعامل مع مؤسسات الدولة من أعباء لديهم، ولعدم ثقتهم فى هذه المؤسسات يتجنبون التعامل معها قدر استطاعتهم. وهم إن اضطروا للتعامل معها، فهم يتعاملون من خلال الوسطاء (نظرا لتفشى الأمية بينهم) لتسهيل معاملاتهم. ويلقى هؤلاء بحكم عجزهم وفقرهم وعدم وعيهم بحقوقهم معاملة من أجهزة الدولة وممثليها وموظفيها تقوم على التعنت والاستعلاء وأحياناً القهر والابتزاز. ويعزز هذا أن الخدمات التى تقدمها الدولة لهم فى مجالات التعليم والصحة وغيرها من المرافق هى الأردأ والأسوأ.

ثانياً: أوضاع الثقة الاجتماعية

تمثل الثقة فى العلاقات والتعاملات ركيزة أساسية لعمل المؤسسات بكافة أنواعها وأشكالها. ومن الخطأ تصور أن المؤسسات الرسمية يمكن أن تعوض ضعف الثقة فى مجتمع ما. فعمل المؤسسات الرسمية يستند إلى قاعدة من الثقة لا بد أن يتوافر حد أدنى منها لكى يمكن للمؤسسات أن تحقق فعالية. وتتمثل الثقة فى الاطمئنان من قبل الفرد إلى أن الآخرين، أو توقعه Expectation أنهم لن يقوموا بتصرف يترتب عليه ضرر له، بمبادرة أو بمباغتة من هؤلاء الآخرين، مقابل التصرف الإيجابى الذى قام به هذا الفرد تجاههم. وتزداد الثقة فى المجتمع عندما تكون معممة Generalized، أى عندما لا تقتصر على الأخرين من الأفراد الذين سبق التعامل معهم، أو على الأقرباء والمحيطين بالفرد فى الدوائر الاجتماعية القريبة من تعاملاته (الزملاء، الجيران، الأصدقاء). ويشمل التعميم الأفراد الغرباء. فالمجتمعات ذات الثقة الاجتماعية الأعلى، هى المجتمعات التى تمتد الثقة فيها إلى الغرباء. ويبرز السؤال هنا، لماذا يعتبر المجتمع المصرى فى أوضاعه الحالية، مجتمعا متدنى الثقة Low Trust Society، حيث لا يتعلق الأمر بانخفاض الثقة فى المؤسسات، وإنما بتدنيها فى العلاقات الاجتماعية الأولية (العلاقات العائلية، وعلاقات الجوار، والزمالة والصداقة)، وتجاه الغرباء. ويصدق هذا بصورة كبيرة، على مختلف شرائح المجتمع وتجمعاته، وإن اختلفت بعض التفاصيل. وبعبارة أبسط، ما هى أسباب ضعف الثقة فى المجتمع المصرى؟ وتفسر إجابة هذا السؤال - جزئيا - الصعوبات والعقبات التى تعترض عمل وفاعلية المؤسسات فى مصر.

يعود انخفاض الثقة إلى طبيعة حياة النسبة الغالبة من أفراد المجتمع المصرى وتجمعاته. فالمجتمع المصرى غالبيته التى كانت تقطن الريف وتعمل بالزراعة من الفلاحين المعدمين أو شبه المعدمين. ويعيش الفلاح وأسرته خلال العمل الذى يباشره فى الحقل، فى تجمعات تتكون من أفراد الأسرة المباشرين، يفصلها مسافات متباعدة بين الحقول. وقد اعتمدت نسبة كبيرة من حياة الفلاحين تاريخيا على الاكتفاء الذاتى، بما يعنى الانعزال النسبى عن الآخرين. وقد شكلت أوضاع الفقر الشديد والمزمن الذى عاشه أغلبية الفلاحين، والمصريين عامة، ظروفا اتسمت بمحدودية شديدة فى الموارد، وتنافسية عالية، وجهاد يومى لكسب الرزق، وقهرا من قبل الدولة وأعوانها المباشرين، وقهرا آخر من أصحاب الثروة أو الأرض أو السلطة. وفى وضع كهذا، تصبح فرص تحسين الحال شبه مستحيلة. ويصبح التنافس على الموارد والفرص الشحيحة المحدودة على أشده. وفى هذه الأوضاع تتوارى وتتضاءل علاقات التعاون والتضافر، ويحل محلها الشك والريبة فى تحركات وتصرفات ونوايا الآخرين. وبدلا من الثقة، يحل النفاق، والكذب، ومداراة الحقيقة، والتحايل، والخداع، والتخابث، بل وأحيانا التشفى فى الأضرار التى تصيب الآخرين والارتياح لها (على اعتبار أن عدم إصابة الفرد بها هو نوع من الفوز القدرى)، نمطا مستقرا من السلوك، وعادات حياتيه يتم توارثها من جيل لآخر. وحينما ينتقل الفلاحون إلى الحضر، ليستقروا فيه، هربا من شظف العيش فى الريف، فإنهم يواجهون ظروفا أشد ضراوة تستنفر كل الطاقات النفسية والاجتماعية التى تشكلت لديهم فى حياتهم الريفية، وتجعلهم ينقلون إلى تجمعاتهم فى العشوائيات، والمناطق شديدة الفقر فى الحضر ثقافتهم المشوبة بالشك والارتياب والتحايل والنفاق والخداع أى الثقافة متدنية الثقة. هناك أدلة ونتائج أدبيات بحثية عديدة فى العالم عن المجتمعات الفقيرة متدنية الثقة تتفق مع الأوضاع التاريخية والاجتماعية للمجتمع المصرى وأصوله الفلاحية المشار إليها. لكن التفسير التاريخى وحده ليس كافيا، لسبب بسيط أن هناك تغيرات اقتصادية واجتماعية فى المجتمع المصرى غيرت من نمط حياة الفلاح إلى اتجاه جعلته أكثر تنافسية وأكثر ارتيابا. وهناك استثناءات فى بعض المناطق الحضرية (الأحياء الشعبية فى المدن الكبرى مثل القاهرة والإسكندرية) حيث لا زالت المجتمعات المحلية رغم طوفان التغيير الذى أصاب مصر خلال العقود الثلاثة الأخيرة، محتفظة بعناصر ثقة أكبر كثيرا من نظائرها فى بقية شرائح وتجمعات المجتمع، ولكنها تقع فى دائرة الأهل والجيران والأصدقاء، ولا تتعداها إلى الغرباء.

هناك أيضاً تغيرات عميقة وواسعة فى حياة المصريين بكافة طبقاتهم وفئاتهم، نتجت عن هيمنة الدولة والسلطة المركزية فيها خلال الخمسينيات والستينيات على مختلف جوانب الحياة فى المجتمع، على النحو الذى قلص أواصر التعامل خارج نطاق الدولة، وقلص أواصر الثقة الاجتماعية وعطل تطورها الطبيعى. وقد أصاب الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مصر زلزال كبير خلال العقود الثلاثة الأخيرة، نتيجة سياسات الانفتاح، والتضخم، والهجرة إلى دول الخليج، خلقت فجوة واسعة بين الإمكانيات والموارد والدخول الحقيقية (المتناقصة لقطاعات كبيرة من الطبقة المتوسطة والفقيرة فى مصر) وبين التطلعات المتزايدة وأنماط الاستهلاك المقتبسة عن مجتمعات أخرى. ونشأ نتاجا لذلك صراع محموم على الكسب المادى وعلى البقاء، وتحول الكثير من مفردات الحياة الاجتماعية إلى منتجات (أو خدمات) يتم شراؤها من الأسواق. وأدت هذه التغيرات إلى تآكل إضافى فى عناصر الثقة المتدنية أصلا فى بنية المجتمع المصرى، نتيجة شيوع الأنانية والفردية والانتهازية والتحايل وتراجع قيم التعاون والتكافل والتعفف والصدق والأمانة بدرجة ملحوظة فى الكثير من طبقات وشرائح المجتمع. وساهمت الطبقة الجديدة (الأثرياء الجدد) التى أصبح أفرادها يشكلون نماذج القدوة فى القيم والسلوك الانتهازى المادى فى التعجيل والإسراع بانهيار منظومة الثقة فى قطاعات واسعة من المجتمع المصرى.

ثالثا: هيمنة الدولة

تعتبر حضارة المجتمع المصرى واستمراريته عبر آلاف السنين، مدينة لنظام الدولة المركزية القوية المهيمنة. ويعود ذلك إلى أن نشاط الزراعة المعتمد على الرى النهرى وهو المورد والنشاط الاقتصادى الأساسى للمجتمع المصرى، الذى أعتمد على ضبط النهر وإدارة موارد المياه من خلال إنشاء شبكات للرى والصرف وإقامة السدود، وحماية الأرض سنويا من الفيضان. وقد تطلب هذا كله قيام دولة مركزية قوية تستطيع فرض سطوتها على نهر النيل الذى يجرى فيها، وعلى المجتمع، وصد الغزوات وحماية مصر من المخاطر الخارجية. مصر كمجتمع هى نتاج تاريخى لنظام الزراعة وللشريان المائى المتمثل فى نهر النيل وللدولة المركزية. وتمثل هيمنة الدولة المركزية وتسلطها وفرض سيطرتها على المجتمع ظاهرة جغرافية وتاريخية، مرتبطة بنشاط الزراعة النهرية. وقد كان تأثير هذه الظاهرة من العمق والشمول تاريخيا على أوضاع المجتمع، حتى فى تاريخه المعاصر خلال القرنين الماضيين، إلى الدرجة التى صارت مركزية وهيمنة

يعتبر المجتمع المصرى مجتمعا متدنى الثقة، حيث لا يتعلق الأمر بانخفاض الثقة فى المؤسسات، وإنما بتدنيها فى العلاقات الاجتماعية الأولية (العلاقات العائلية، وعلاقات الجوار، والزمالة والصداقة)

الدولة جزءا من بنية المجتمع ذاته. ولم يبدأ التغيير خلال النصف الأول من القرن العشرين، باتجاه نشأة تجمعات ومؤسسات سياسية ونقابية وأهلية إلا بنمو طبقة من الرأسماليين وطبقة عاملة، وبزوغ نخب من المثقفين، خارج النطاق الزراعي التقليدي. لكن غلبة الزراعة على النشاط الاقتصادي جعل بعض النخب والمؤسسات السياسية البازغة مثل حزب الوفد يعتمد أساسا على ملاك الأراضي على التجمعات الريفية، في مواجهة تحالف الدولة مع التجمعات أو النخب الأخرى. وجاءت ثورة ١٩٥٢، لتكرس مركزية الدولة وهيمنتها، ولتلغى التطور الذي كان قد بدأ في التنظيمات السياسية، والنقابية، والمنظمات الأهلية، والشركات الخاصة الكبرى، المستقلة عن جهاز الدولة. وصار هناك توحد بين جهاز الدولة، والتنظيم السياسى الوحيد (هيئة التحرير، ثم الاتحاد القومى، ثم الاتحاد الاشتراكى) والتنظيمات النقابية والصحافة وأجهزة الإعلام. وتجمدت في ظل هذا المبادرات السياسية والأهلية والاقتصادية المستقلة. وتأكدت للدولة صلاحيات وسلطات لم تكن تتمتع بها في أى مرحلة من التاريخ القديم أو المعاصر. وبذلك تجمد التطوير الذي كان قد بدأ في المجتمع المدنى في مصر منذ قرن مضى. ونتاجا للإجراءات التى اتخذت من قبل نظام يوليو تجاه النظام الإقطاعى، والرأسمالية البازغة، وتجاه النظام الحزبى والنقابى الموروث من المرحلة السابقة، واحتكار الدولة للعمل السياسى والاقتصادى، كان من الطبيعى أن يكون للنظام الجديد أعداء كثيرون من النخب السياسية والاقتصادية والثقافية القديمة. وقد أمن النظام نفسه في مواجهة هذه التجمعات والنخب، بأن أقام شبكات من الاستخبارات تعمل لصالحه تتغلغل داخل كل التجمعات والمؤسسات وجهازا أمنيا قويا، ليكونا معا ما نظاما للإنذار السياسى المبكر للحفاظ على أمن النظام الجديد والدولة المركزية. وتمركزت في القاهرة العاصمة أصناف شتى من المؤسسات التابعة للدولة والعاملة في نطاقها أو تحت وصايتها. كما تركزت فيها وحولها أغلبية الأنشطة الاقتصادية والصناعية الجديدة وتأكد وصف جمال حمدان للقاهرة أنها «رأس كاسح على جسم كسيح»، أكثر من أى وقت مضى.

وفى هذا المناخ العام يصبح العمل السياسى الموالى للدولة وللنظام الحاكم هو الوسيلة المؤكدة للصعود الاجتماعى والنفوذ وكذلك الثروة، وهو يقترن دوما بالنفاق والتملق والمداهنة. وكل هذه صور تحوى مشاعر عميقة من الشك والريبة لدى الجموع الغالبة من أفراد المجتمع. وتمثل سيطرة وهيمنة الدولة قوة كاسحة لإمكانية نشأة تنظيمات سياسية قوية لها جذور وقواعد جماهيرية، أو نشأة مجتمع مدنى قوى أو إمكانية نشأة مؤسسات تعتمد على تفاعل قوى السوق. لهذا لم يحدث تطور كبير على هيمنة الدولة حتى بعد إعلان سياسة الانفتاح الاقتصادى قبيل منتصف السبعينيات ولا تأثرت هذه الهيمنة بالسماح بنشأة الأحزاب السياسية بعد سنوات قليلة من إعلان هذه السياسة حيث ظلت الدولة ممسكة بخيوط الحوافز والتراخيص والمزايا، وكذلك الفرص المنتقاة التى تتيحها الدولة للمؤسسات الاقتصادية الخاصة. كما ظلت ممسكة كذلك بأدوات المنح والمنع للأحزاب السياسية والدور الإعلامية والصحفية التى تعمل خارج السيطرة المباشرة للدولة. كذلك لم تنته سياسة التحرر الاقتصادى التى تم تبنيها أواخر الثمانينيات وسياسة خصخصة المشروعات العامة التى تم تبنيها في التسعينيات إلى تغيير نوعى أو جوهرى قد حدث في علاقة الدولة بالمجتمع.

ورغم أن المجتمع المصرى لم يشهد في تاريخه المعاصر ما شهده خلال العشرين سنة الأخيرة من حرية القول والتعبير والتفكير نتاجاً لروح التسامح التى تتمتع بها القيادة السياسية إلا أن هذا لم يؤثر في مجمل هيمنة الدولة، وضعف المجتمع المدنى، وكذلك ضعف العمل السياسى الحزبى، حيث ظلت علاقة الدولة بالمجتمع تدور «بشكل إجمالى» في ذات منظومة الهيمنة والسيطرة. وهناك بعض أوجه الشبه بين هشاشة المؤسسات الاقتصادية والتجمعات الحزبية ومؤسسات المجتمع المدنى في السنوات القليلة التى أعقبت سقوط الأنظمة الاشتراكية والشمولية في دول الاتحاد السوفيتى (بعد تفككه) وفى المجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وبعض جوانب الحالة المصرية. لكن أوضاع مصر بالجذور الجغرافية والتاريخية وهيمنة الدول تجعل خلخلة أو تقليص هذه الهيمنة مرهونا بتغيرات شاملة وعميقة في هيكل الأنشطة الاقتصادية. تقلص من نشاط الزراعة التقليدى المرتبط بالوادى والتوظف في جهاز الدولة ويفسح المجال لتوسع قطاعات الصناعة والخدمات. وقد بدأت هذه التحولات باستزراع الصحراء وإنشاء مدن ومناطق صناعية عديدة (وإن كانت لازالت تحت هيمنة جهاز مركزى هو هيئة المجتمعات العمرانية الجديدة) منتشرة في أرجاء القطر لكن على مقربة من مناطق التكدس السكانى في الوادى. ويمكن القول إن إحداث تغيير جوهرى في هذا المجال سيتطلب رؤية تنموية إستراتيجية بعيده النظر تعيد رسم الخريطة الاقتصادية وتعيد توزيع الكثافة السكانية والأنشطة الاقتصادية على نحو متوازن يمكن معه نقل سلطات تنموية وحرية حركة اجتماعية وسياسية لمناطق القطر.

رابعاً: النظام السياسى

يرجع عزوف جماهير المواطنين في مصر عن المشاركة السياسية، والحزبية، إلى ظاهرة التمركز السياسى. فالأحزاب السياسية القائمة، نشأ أهمها بقرار فوقى مركزى من قبل الرئيس السادات. وما تكاثر منها على الساحة السياسية فيما بعد جاء، ليس نتيجة تراكم وتصاعد لتيار شعبى جماهيرى، وإنما بقرار إدارى من لجنة الأحزاب التى يسيطر عليها الحزب الحاكم. وتفتقر كل الأحزاب بما في ذلك الحزب الحاكم إلى الانتشار والتغلغل في تجمعات وقطاعات المجتمع وتكاد أنشطتها تتركز في العاصمة، وبعض المدن والمناطق الحضارية الأخرى. وقد أدت الأساليب المستخدمة في الدعاية والتصويت وفرز نتائج الانتخابات، عبر ما يزيد على ثلاثة عقود، ومنذ فترة التنظيم السياسى الواحد قبل ذلك، وما حوته من تحيز صارخ لأجهزة الدولة، واستخدام أساليب غير نزيهة والتلاعب بأصوات الناخبين وعدم توفير فرص متكافئة للأحزاب وللمرشحين في الانتخابات، أدى هذا كله إلى فقدان المواطنين للثقة في المؤسسات السياسية القائمة وفى جدوى المشاركة في العمليات السياسية. وفى مجتمع تضطر فيه أجهزة الإدارة إلى استخدام الرموز المصورة (الهلال، الجمل، النخلة، المفتاح.... الخ) كبديل لكتابة أسماء المرشحين نظراً لاستمرار انتشار الأمية، ومع تزايد قناعة الناس بعدم جدوى المشاركة السياسية، يصعب تصور أن نظام كهذا قادر على توسيع رقعة المشاركة الديمقراطية، أو التأثير في حياة الناس.

خامساً: الفقر وتوابعه

يمثل الفقر أحد الجذور العميقة للأزمة المؤسسية في مصر فهو يسهم في تهميش شرائح واسعة من المجتمع خارج نطاق النظم المؤسسية الرسمية، سواء في الأسواق أو في العمل السياسى والمشاركة السياسية، أو في الاستفادة من الخدمات الحكومية. ويمثل الفقر المدقع حالة أشد ضراوة في التهميش تقترن بحلقة مفرغة من العجز والتخلف الذى يؤدى إلى عدم القدرة على تنمية الدخل أو الادخار مما يؤدى إلى استمرار حالة العجز والتخلف، وهكذا. بل إن أوضاع الفقر المدقع لدى الأسر التى تعانى منه وفقدانها معنى الاستقرار والأمان يؤدى إلى تفكك هذه الأسر وإلى توريث الفقر والضياع والتخلف إلى الأبناء. ولأن أوضاع الطبقات الفقيرة على هذا النحو الذى يجعلها تعيش خارج نطاق المظلة المؤسسية للمجتمع، فهى تشكل في مجملها مجتمعاً آخر غير هذا الذى تسن له القوانين وتتنافس على جذبه (فقط في موسم

لم تنته سياسة التحرر الاقتصادى التى تم تبنيها أواخر الثمانينيات وسياسة خصخصة المشروعات العامة التى تم تبنيها فى التسعينيات إلى تغيير نوعى أو جوهرى فى علاقة الدولة بالمجتمع

كتاب الزاوية

يوسف الشريف

في سوق «دراو»

عبر درب الأربعين الذى يصل مصر بالسودان على امتداد الصحراء الغربية نهضت بين الشعبين مصالح تاريخية ومبادلات تجارية وأواصر اجتماعية وصلات روحية وثقافية وكلها علاقات طبيعية يسودها الانسجام بعيدًا عن سياسات الأنظمة وتعاقب الحكام هنا وهناك.

فى بلدة «دراو» تحط قوافل الإبل رحالها بعد رحلتها الشاقة من السودان حيث تجد التجار بانتظارها لفحصها وتثمينها، وبعدها تجرى المساومات على شرائها. وقد زرت «دراو» ثلاث مرات، وهى تقع شمالى محافظة أسوان بنحو ٥٠ كيلو مترًا، وهناك كانت دهشتى للسمات والقواسم المشتركة بين المشتغلين بتجارة الإبل من الصعايدة المصريين والسودانيين: الملامح متشابهة والبشرة متدرجة السُّمرة واللهجات متباينة ومفهومة تكشف عن موطن صاحبها ومن أى مكان فى مصر أو شرقى السودان أو غربيه أو وسطه.. حتى الجلاليب والعمائم لا تكاد تميز السودانى عن المصرى!

لكن أنواع الجمال مختلفة وإن تشابهت على الغرباء والمتطفلين على السوق. والخبير المحنك هو وحده القادر على الفرز والتمييز: هذا جمل بشارى أو عبادى نسبة لقبائل البشارية والعبابدة، كريم الأصل وذو أنفة وكبرياء نحيف طويل القامة، سريع الخطو فى خيلاء.. وربما يصل ثمنه إلى ٥٠ ألفًا أو مائة ألف جنيه.

الانتخابات) الأحزاب السياسية. فهذا المجتمع لا يعنيه ما يجرى فى الساحة السياسية ولا ما يجرى فى الأسواق الرسمية أو ساحة الاستثمار والبنوك، لأنه لا يملك إلا قوت يومه. وهو غير معنى بما تبثه الصحف ونشرات الأخبار فى وسائل الإعلام. وتمثل هذه المجتمعات التى تعيش فى أفقر العشوائيات وعلى أطراف المدن والقرى الفقيرة والتى لا تعرف معنى الأمان الاقتصادى، ولا تعرف معنى الأمل (الكاذب) فى حياة أفضل إلا من خلال ما تنقله لها مسلسلات التليفزيون، تمثل بيئة صالحة لانتشار الجريمة والتطرف الدينى، وكذلك الإرهاب.

سادساً: فشل النظام القانونى

يمثل انتشار أو اتساع المعاملات الاقتصادية غير الرسمية بما فيها الملكيات العقارية وملكيات الأصول المادية، وعزوف أغلب الناس عن التعامل مع المؤسسات الاقتصادية الخدمية مثل البنوك نوعا من الفشل للنظام القانونى / المؤسسى فى مجال الاقتصاد. كما يمثل عزوف أغلب المواطنين عن المشاركة السياسية، وعدم اعتداد من يشاركون فى قلب حلبة العمل السياسى، بالقواعد القانونية القائمة (انتشار ظواهر التلاعب بنتائج الانتخابات، وتحيز أجهزة الدولة لصالح الحزب الحاكم، وعدم تكافؤ الفرص فى التنافس السياسى) فشلا للنظام القانونى فى المجال السياسى. كما يمثل التزايد الكبير فى النزاعات التجارية والمدنية، وتضخم عدد القضايا المعروضة على المحاكم، مؤشرا إضافيا على الفشل القانونى فى مجال النظام الاقتصادى الاجتماعى. وكذلك فإن تسيير الناس لشئونهم عامة بعيدا عن نطاق القواعد القانونية الرسمية، وباستقلال عنها، يعنى فشل النظام القانونى فى أن يوفر مظلة لتعاملات الناس، وفى أن يتغلغل فى مختلف جوانب حياتهم.

ليست المشكلة فى نقص القواعد القانونية، فمصر بها ثلاثة وستين ألف تشريع تنظم مختلف أوجه الحياة والتعامل والنشاط، وبها ما يزيد على إثنتى عشرة كلية للحقوق، تخرج سنويا عشرات الآلاف من الكوادر القانونية. وعلى العكس تماما، فالمشكلة الحقيقية تكمن فى الأثر السلبى للتضخم التشريعى (بما فى ذلك تضخم الكوادر القانونية) من ناحية، وفى المنهج أو الفلسفة التى يصنع ويدار بها ويوظف فيها القانون فى مصر من ناحية ثانية.

الإصلاح المؤسسى المنشود

يمثل تشخيص الأسباب والعوامل المؤسسية لركود التنمية نصف الطريق فى التعامل معها. لكن تجاوز الأزمة المؤسسية، ودفع المؤسسات لكى تقوم بدور داعم لتقدم وتطور المجتمع المصرى، فى مختلف جبهات حياته، يتطلب منهجا فى الإصلاح وإعادة البناء، يتسق مع عوامل القصور أو الأزمة، وأسبابها الجذرية، بحيث يوفر فرصة لإحداث تحولات مبدئية صحيحة، تمكن من استقاء الخبرة منها لتصويب مسار الإصلاح والتحول أو لتعزيزه، وتوسيع نطاق أو دائرة التغيير.

وينبغى التأكيد على أن الإصلاح المؤسسى المطلوب فى مصر، يستهدف فى النهاية تصويب غايات ومسارات التنمية، على نحو يعظم من إنجازاتها ونتائجها، ويوسع من قاعدة مشاركة واستفادة الطبقات المختلفة منها على نحو عادل. ويتحقق هذا بإعادة بناء المؤسسات الرسمية وغير الرسمية فى مختلف القطاعات لكى تنتظم من خلالها على نحو أكفأ وأفضل أنشطة وجهود الناس فى مختلف جوانب الحياة: فى الإنتاج والتبادل والحكم والمشاركة السياسية والعمل الاجتماعى. وهو يعنى إصلاح منظومة إدارة الحكم Governance فى المجتمع على نحو يوفر مشاركة فاعلة ومتوازنة للقوى المستفيدة من الإصلاح بكل فئاتها، وهى مختلف القوى المجتمعية والأطراف المعنية Stakeholders بالتقدم والتنمية بمختلف أبعادها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. ■

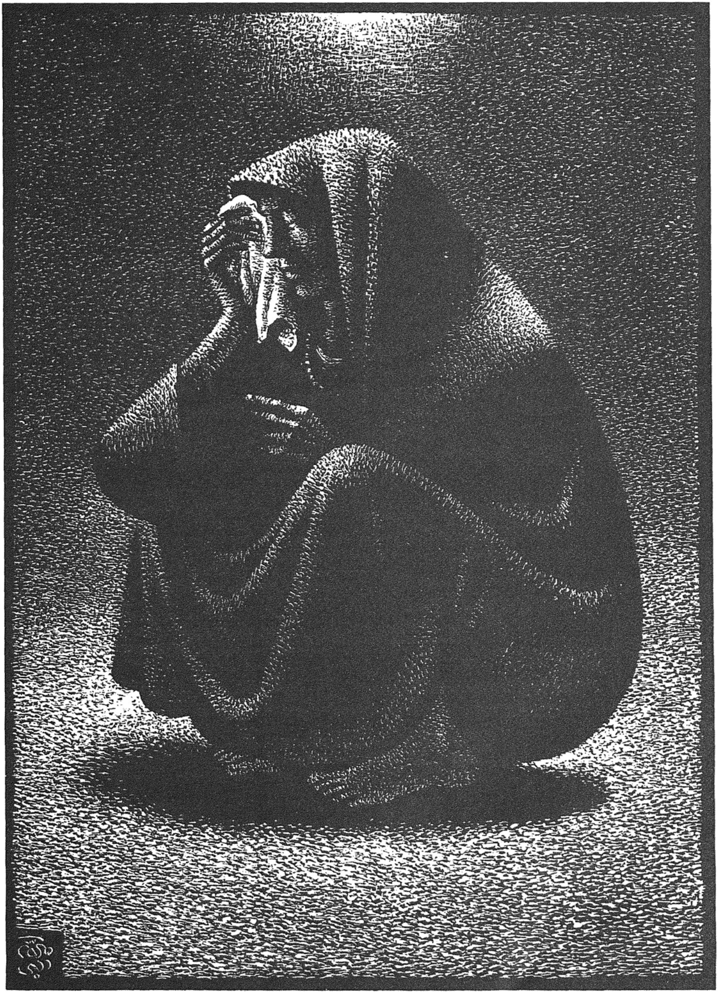
المراجع

Datta, Samar k. & Nugent, Jeffery B. (1986), " Adversary Activities and Per Capita Income Growth", World Development, Vol. 14, No. 12, pp. 1457-1462.

De Soto, Hernando (1997), Mystery of Capital , New York: Basic Book.
Fukoyama, Francis (1997), Trust, New York : Free Press
Stern, Nicholas. (2003)." Investment Climate: Lessons and Challenges", Distinguished Lecture Series 19, The Egyptian Center for Economic Studies, Egypt.



مصر للتأمين
الحاصلة على شهادة الأيزو ٩٠٠١ / ٢٠٠٠
ISO 9001
وثيقة المختلط مع الاشتراك فى الأرباح
ادخار وتأمين
لو عمرك ٤٠ سنة أو أقل
ومدة التأمين
والقسط الشهرى
يستحق لك فى نهاية مدة التأمين
مبلغ التأمين
+
الأرباح المتوقع تحقيقها
٢٠ سنة
١٠٠ جنيه
٢٤٠٠٠ جنيه
٤٦٠٠٠ جنيه
وذلك طبقاً لآخر معدل معتمد لتوزيع الأرباح
وفى حالة الوفاة لاقدر الله يستحق مبلغ التأمين بالإضافة إلى ما يخص الوثيقة من أرباح حتى تاريخ الوفاة
لدينا وثائق تناسب كافة - الاعمار والدخول حتى سن ٦٠ سنة
الإدارات المركزية ٤٤ أ ش الدقى - الجيزة ت: ٠٢/٣٣٥٥٣٥٠ - ٠٢/٧٤٩٦٨٨٤
منطقتنا القاهرة ٧ ش طلعت حرب - القاهرة ت: ٠٢/ ٣٩٢٢٩٠٠
الإسكندرية ٦٦ طريق الحرية ت: ٠٣/٤٨٤٧٢٥٠
القناة ميدان عرابى - الإسماعيلية ت: ٠٦٤/٣٩١٥١٥٧
شرق الدلتا ٨ ش الجيش - برج المحافظة - المنصورة ت: ٠٥٠ / ٢٣١٠٩٦٣
وسط وغرب الدلتا ٢٥٥ ش الجلاء - طنطا ت: ٠٤٠ / ٣٣٢٦٢٠٨
شمال ووسط قبلى أرض سلطان - ش طه حسين - المنيا ت: ٠٨٦/٢٣٦٦٢٢
جنوب قبلى ١٤ عمارة مصر للتأمين طريق أسيوط /سوهاج ت: ٠٩٣/٢٣٢٢٢٧٤
Email: misr_ins@misrins.com
w.site: www.misrins.com



بين الفلسفة والطب والنقد الأدبى، تجمع هذه الدراسة التى تنشرها «وجهات نظر» فى حلقتين. والتى تضع الإبداع الأدبى فى مكانه الحقيقى مؤكدة على أنه قد يكون مسموحا بأن تواكب المعرفة معرفة أخرى من منظومة أخرى تدعمها أو تعارضها أو تجادلها. ولكن أن تقف منظومة معرفية وحيدة على منظومة أخرى تقيسها بأدوات من خارجها «فهذا اختزال غير مقبول».

وفى حين لا يدعو هذا المقال إلى حل قد يبدو (بالمخالفة) بديلاً عن الطب المعاصر، يشير إلى معنى آخر. قد لا يكون من الحكمة إغفاله. لما يسمى «الصحة». مؤكداً أن الطب الرسمى إذ ينكر أهمية استعادة الهارمونى بين مستويات التوازن الداخلى المتصل بالتوازن الخارجى، إنما يفوت على نفسه فرصاً ليست هينة مهما بدت له غامضة. محذراً من أن أفكار الطبيب المعاصر لدور الطبيعة فى استعادة الهارمونى هو الذى يخلق ما يسمى «الطب البديل» بخيره وشره، ثم إن التمادى فى هذه الأفكار هو الذى جعل الخرافة تصبح هى الغالبة والأكثر ضرراً.

حين نقرأ هذا المقال نتذكر كيف أن الزيت (حين انفصل عن النور) فى «قنديل أم هاشم»، لم يأت بعلاج مطلوب. وأصبح خرافة مضللة بعد أن انقلب نشازاً عن سياقه مثلما هى النيازك الساقطة نافرة عن الإيقاع الحيوى الكونى بهارمونيته السحرية.

المحـــــرر

نيازك الخرافة.. والإيقاع الحيوى

بحثـــا عـــن الهـــارمونى

يحيـــــى الرخـــــاوى

■■ حين يواجه ناقد ما، له منظومته الأيديولوجية، ومرجعيته العلمية، وأرضيته المعرفيه، ما يقدمه مبدع جيد جاد من رؤية تخالف ما ثبت لدى هذا الناقد «بالضرورة» (علما، أو تاريخا، أو أيديولوجية، أو حتى دينا)، أين يضعها؟ هل يحكم عليها بالصحة والخطأ؟ هل يقيسها بمقاييس ما وصل إليه من علم حتى لو كان متخصصا فيه بجوار اهتماماته النقدية؟ هل يضمها إلى نوع من الخيال البعيد، ومن ثم غير القابل للقياس بمحكات الواقع ومعطياته الحالية؟ هل يستلهمها بدهشة مسئولة باعتبارها مصدرا مختلفا للمعرفة، فيضع لقراءتها ما يلوح له من فروض جديدة محتملة، تتحقق أو لا تتحقق بإضافة من مبدعين آخرين، أو من مصادر أخرى للمعرفة: آنية، أو آتية؟

متى كان المبدع مبدعا، فعلينا أن ننحنى لما أبدع، لا أقول نستسلم له، ولكن نحترمه، ونشتغل فيه بما هو، لكى لا نحكم عليه من خارجه. لعل هذا هو ما دعانى إلى رفض، أو على الأقل التحذير من أغلب مناهج النقد النفسية، وخاصة منهج التحليل النفسى التقليدى. (فصول ١٩٨٣) مسموح بأن تواكب المعرفة معرفة أخرى من منظومة أخرى تدعم بعضها بعضاً، أو تعارض بعضها بعضا، لعلها تجادل بعضها بعضا، لكن أن تقف منظومة معرفية، مهما كان إحكامها أو رواجها، وصية على منظومة أخرى تقيسها بأدوات من خارجها، فهذا اختزال غير مقبول.

حين قرأت لحس العتب لخيرى شلبى، وعشت جزئية التداوى الفاشل القاتل بلحس قاذورات ما تبقى من أحذية الداخلين إلى مقامات الأولياء فى مركز دسوق، جزعت، وحين مات خالد (الأخ الأصغر) نتيجة لذلك حزنت، لكننى اطمأننت للرسالة التى وصلتنى، ثم فوجئت أن شقيقه (فخرى: الراوى) المصاب بنفس المرض تقريبا قد شفى تماما، وبسرعة غير متوقعة، من وصفة أخرى لضاربة ودع أشارت على أمه ببعض الطقوس والرقى، شفى إذ تجرع من الحياة الخميرة النابتة فى الخل التى تلقت قطر الندى، على نغمات الإيقاع الحيوى الكونى المنتظم. فوضعت ما حدث بين قوسين. لم أرفضه برغم مخالفته لأبسط قواعد الطب، ولم أضعه فى نفس موضع لحس العتب باعتبارهما تطبيبا شعبيا معاً، بل رحت أحاول أن أفهم حدس هذا المبدع الذى جعلهما عكس بعضهما تماماً، فطفقت أقرأ المرة تلو الأخرى دون حل قريب.

يبدو أن هذه الجزئية من الرواية، هى التى ذكرتنى برواية يحيى حقى الشهيرة: قنديل أم هاشم، لم تسعفنى الذاكرة بالتفاصيل، فرجعت للرواية، فحضرنى بوضوح غامض أن قطر العين المريضة بزيت القنديل قد فشل حتى قاربت فاطمة العمى، وأن استعمال جزئيات العلم حتى الوارد منها من «بلاد بره» قد فشل أيضا وأوصل الحالة إلى نفس المصير. لكنَّ تصالُحا ما قد تم أخيرا بين إيقاع وعى المعالج والمريضة والكون فى لحن متكامل، جعل تلقى المريضة لما سبق فشله، ينجح، وبلا دهشة (أنظر بعد)

لم أجد تفسيرا علميا لما حدث هنا وهناك. رفضت التفسير بالإيحاء السطحى، كما لم أقبل تلفيقا مختزلا يصفق لشعار يجمع لفظى «العلم والإيمان» معا، بشكل شعرت معه بالاستسهال حتى خشيت أن يصل هذا الكلام إلى المتلقى بتلفيق مصطنع لم تقصده الرواية. على الناقد وهو ينفى هذا التلفيق الذى لم يرد فى النص أن يثبت عكس ذلك أو غير ذلك، الرفض هنا للتسطيح والتلفيق أو حتى للتسوية، لكنه لا يشمل رفض أى جدل حيوى محتمل. فهى دعوة غامضة مثيرة: أن نعيد النظر فى مفهوم أعمق لما هو علم وما هو إيمان وما هو طب وما هو خرافة. وهذا ما تحاوله هذه المداخلة.

أثناء مراجعتى لقنديل أم هاشم[1]، وكنت متحفظا على ما شاع عنها، وبالذات على ما وصلنى من الفيلم بنفس الاسم، (قبل أن اشاهده) فوجئت بمنظر تم حذفه فى الفيلم وربما أغفل فى كثير من النقد، ولقد تبينت أننى لم أنتبه إليه من قبل بالقدر الكافى:

منظر إسماعيل، (الدكتور

إسماعيل فى نهاية الرواية) وهو كائن ضخم الجثة، أكرش، مدمن للتدخين وربما للنساء الجميلات، مصدور، يستعمل امرأته، بأقل احترام، فيُنسلها ما شاء من نسل دون حساب (وربما دون مسئولية)، وفى نفس الوقت يعالج الفقراء بقروش، فى مكان قذر، ويشفون.

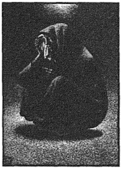
تساءلت: ما علاقة هذه النهاية (أقل من صفحتين قطع صغير) بكل ما جاء فى الرواية من صراع بين العلم والمعتقدات الشعبية؟ بين الغرب والشرق؟ بين الشمال والجنوب؟ بين الانتماء والخلع؟.

تأكدت أن وقفة أمام هذه النهاية التى حذفتها السينما، وربما تجاوزها أغلب النقاد، هى ضرورية لإعادة النظر فى النقد المتاح، ثم تأكدت أن قراءة حالة إسماعيل كنص بشرى نقدا، قد تكون لازمة لتفسير بعض أبعاد الصورة الكاملة دون الغاء صفحتىُ النهاية فأجلت ذلك لأتناوله فى دراسة لاحقة مكتفيا أن أركز فى هذه الأطروحة على مستويين نقيضين للتطبيب الشعبى.

لحس العتب مقابل

حدس الإيقاع الحيوى

بالعودة إلى رواية لحس العتب لخيرى شلبى (٢) نتذكر كيف تسربت الحياة من أسرة طفلنا الراوى على أكثر من مستوى، المال تسرب بخيبة الوالد التجارية، ولم تنفعه أحلامه حالة كونه جالسا ينتظر عكس ما يجرى أمامه واقعا، هذه الأحلام كانت محل نقد أو رفض أو سخرية هامسة أو معلنة من معظم رواد المندرة، سواء وهم جلوس يتغامزون، أو بعد الانصراف، ويبدو أن بعد الوالد عن الواقع اضطره أن يفرض خياله الأمل بقسوة جازمة، وربما هذا هو ما وصل للأولاد كنوع من القسوة حتى رفضوه: «...لقد كان يساورنا الشك فى أن يكون أبى- هذا الجلف الخشن الغليظ الصوت والرقبة - كان ذات يوم من الأيام ابن عز» (ص٧). المسألة لم تعد تدور حول ما إذا كان رب الأسرة ابن عز أم ابن فقر، بقدر ما أنها تعلن أن هذه الأسرة لم يعد يربطها تاريخ أو أمل. وحين أعلن المرض حلوله فى فخرى وأخيه بهذه الصورة التى تنبعج فيها البطن ويذوى الجسم، كان ذلك بمثابة الإعلان الأقسى لتسرب الأشياء والحياة. كل شىء يتسرب إلا الترابيزة التى أعلن الراوى إحياءها لتقاوم حتى النهاية، لم يستطع أى من الولدين أن يقاوم المرض مقاومة الترابيزة للإزاحة، تراجعا أمام ضربات المرض المتلاحقة. الترابيزة فعلت العكس، إذ ظلت تمتنع أن تضحى بوجودها فى سبيل توفير نفقات علاجهم، المرض الخطير المتسحب بهذه الصورة كان بمثابة إعلان هزيمة الحياة تدريجيا وباضطراد.



لم ينفع التطبيب الاجتهادى العشوائى، ولم تتيسر مصاريف علاج الطب التقليدى، فما العمل؟

هنا، كما فى القنديل، مستويان من التطبيب الشعبى، الأول فيه من التفسخ والاغتراب ما تجسد فى قذارة منفصلة متجمدة لفضلات بشرية ساقطة كنيازك بشعة متنافرة عفنة، فالعتب الذى لحسه الطفلان لم يكن له علاقة لا بالأولياء الذى هو على بابهم، ولا بالطبيعة المحيطة النابضة ذات الإيقاع الحيوى، وحين أُفرغ العتب (بالمسح قبل اللحس) مما عليه من قاذورات أصبح خاويا حتى من قذائفة الشاردة المتنافرة. تبين الشيخ على بقوس (الشيخ كعبلها)، وهو الذى أشار على الأم بالوصفة ابتداء، تبين هذا الخطأ الذى حدث نتيجة مسح العتب وتنظيفه قبل اللحس، وأفتى بأن ذلك هو الذى جرح شعور ولىَ الله، فصحح الوضع ونصح الأم أن يكون اللحس دون غسيل، ففعلتْ، ولحس الطفلان بقايا وشظايا ونتن القذارة والعفن: انغرست بقايا التفسخ البشرى كأنها النيازك الساقطة نافرة من لحن الحياة، انغرست فى قلب الأخ الأصغر (خالد) فقضت عليه فى ليلته. فشلت محاولة الاستعانة بالأولياء لأنهم لم يكونوا هناك أصلا فى وعى طالب عونهم. حلت محلهم بقايا قاذورات أحذية ونعال وأقدام الداخلين إلى المقام، كان التبرك ببقايا نشاز قذرة منفصلة متفسخة وثنية، فهى الخرافة القاتلة.

البديل التقليدى بعد هزيمة الحياة فى الأخ الأصغر «خالد»، كان زيارة الطبيب فى البندر لعله ينقذ ما تبقى أو من تبقى، لكن الإمكانيات لم تسمح إلا بزيارة واحدة للدكتور ألبير فهمى فى بندر دسوق حين أمكن توفير أجرة السفر والكشف من بيع نحاس الأم المرّة تلو الأخرى، فأمكن توفير قيمة الكشف ومصاريف السفر، لكن المبلغ لم يغطُ ثمن الدواء، كذلك لم تنفع استضافة الجدة الصبية وزوجها الفحل للطفل المريض إلا بقدر ما أتاحت استشارة عابرة لمستشفى حكومى ثبت أنها كانت مثل قلّتها، ثم سرعان ما تخلصت الجدة وزوجها من الطفل الدخيل الذى كاد يفسد عليهما شغل الليل الصاخب.

فى قنديل أم هاشم لم ينفع الزيت كجسم متعين غريب عن الوعى والإيقاع، كما لم تنفع المعلومة العلمية الجزئية المنفصلة هى أيضا كجسم غريب، لكن الذى يبدو أنه نفع هو التصالح مع أنغام الوعى البشرى ضمن لحن النغم الأكبر للإيقاع الحيوى مستعملين كل آلات عزف التوازن معا: علما، وإخلاصا، ومشاركةَ وعىٍ لوعى، تحت مظلة وعى ممتد أكبر.

فى لحس العتب: ضاربة الودع قدمت بحدسها الفطرى حلا آخر له معالم أخرى، هو الذى نجح إذ تميز بشكل ما بمواكبة الإيقاع الحيوى وصلًا بين الوعى البشرى والوعى الكونى (الإيمانى) الممتد، وذلك كما ذكرنا: سواء من خلال الخميرة - فى الخل- المخلّقة للحياة، أو من مواكبة الإيقاع اليومى، فى مجال ثلاثة أذانات: المغرب والعشاء حتى الفجر، ثم مواكبة ظهور القمر أول كل شهر لثلاثة أيام، كل ذلك ليس شافيا بذاته، لكنه قد يحمل حدسا شعبيا يقول بأن الحياة التى تسربت بالانفصال والاغتراب والتفسخ والقذارة يمكن أن تعود بالاتساق والهارمونى والصحوة التوازنية فى حضن الطبيعة.

الفرق بين لحس العتب، وبين التناغم مع الطبيعة فى مواكبة الإيقاع الحيوى (الإيمانى): العارف هو الله- شفاه على الله وعلىّ - ص٦٤)، هو الفرق بين نشاز الخرافة والتناغم مع لحن الطبيعة الممتد. ضاربة الودع ليست عمياء البصيرة، ولا هى صاحبة حسم اغترابى، هى قد تكون مجرد وسيط فطرى يستوعب إيقاع الكون، وإيقاع البشر فى آن، فينصح كيف يصحح النشاز بالعودة إلى التكامل مع اللحن الأساسى الممتد.

وعى هذا الحدس الفطرى قد يكون قادرا على أن يلتقط النغمة النشاز مثل أى أذن من التى نسميها «الأذن الموسيقية» التى تلتقط أى نغمة نشاز تتداخل فى لحن تعرفه جيدا: ربما هكذا تبين لفطرة ضاربة الودع كيف تتسرب الحياة من الآلة المنفردة (فخرى) حين انفصلت - لأى سبب كان - عن اللحن الأساسى (المرض) فأشارت ضاربة الودع بما أشارت به مما يمكن أن يسهل طريق التصالح بين إيقاع وإيقاع، فى لحن ممتد أكبر. ربما يكون مثل هذا التصالح المحتمل قادرًا على أن يساهم فى إعادة التوازن حتى التغلب على أمراض عضوية فعلا وليس فقط أمراضاً نفسية وظيفية، إن ذلك لا يعنى أن يكون هذا الحل بديلا عن الطب المعاصر، وإنما هو يشير إلى بعد آخر لما يسمى «الصحة».

قلنا فى المقدمة، نحن لا نستطيع أن ننكر حدس المبدع لمجرد أنه يخالف معلومات جزئية فيما وصل إلينا من طب وتطبيب، إن الطب الرسمى إذ ينكر أهمية

كل ذلك ليس شافيا بذاته، لكنه قد يحمل حدسا شعبيا يقول بأن الحياة التى تسربت بالانفصال والاغتراب والتفسخ والقذارة يمكن أن تعود بالاتساق والهارمونى والصحوة التوازنية فى حضن الطبيعة

استعادة الهارمونى بين مستويات التوازن الداخلى المتصل بالتوازن الخارجى، إنما يفوت على نفسه فرصا ليست هينة مهما بدت غامضة له فى الوقت الحالى. المفروض أن الطبيب الحقيقى هو وسيط حقيقى لاستعادة التناغم الإيقاعى الحيوى المنطلق = الصحة. المطلوب هو أن يستعمل الطبيب كل وسائله العلمية التى تساعد على استعادة هذا التوازن (بعد التخلص من أسبابه إن وجدت)، لكن ليس هذا هو الحادث فى عالم الطب الحديث، فالاعتماد كله أو أغلبه هو على الأدوات والفحوص والمضادات والتسكين، إن إنكار الطبيب المعاصر لدور الطبيعة فى استعادة الهارمونى هو الذى يخلّق ما يسمى «الطب البديل» بخيره وشره، ثم إن التمادى فى هذا الإنكار هو الذى جعل الخرافة تصبح هى الغالبة والأكثر ضررا.

عودة الحياة إلى الطفل فخرى، من خلال احتمال استعادة التوازن مع بقية دوائرها، صاحبها حادث الاضطرار للتخلص من الترابيزة بعد أن انهزمت تحت سقوط السقف فوقها حتى تهشمت. كأن انهيار السقف على الترابيزة هكذا هو إعلان إمكان كسر الجمود حولها، بعد أن أصبحت لا تمثل الحياة، لقد بدا بمثابة «إعدام العدم» الذى أصبحت تمثله الترابيزة بعد أن كانت تمثل الحياة. إن تسليم الوالد بنزوحها كما انزاح الملك فاروق هو اعتراف بأن عز الحياة لا يعود لمجرد تمسكنا برموزه القديمة، وإنما هو يتخلق من جديد إذا تصالحنا مع أنغام الحياة المتجددة الممتدة القادرة على استعادة التوازن بين دوائر الوعى ودوائر الكون.

هذا عن الخطوط العريضة للمرض/التسرب/ النشاز/ التوقف،

فى مقابل التناغم/ التوازن/ التجدد/البعث،

مجرد فرض، وفى هذا إعلان أيضا عن التناقض بين التسليم النشازى المتطاير، فى مقابل استعادة مواكبة الطبيعة بيقين جديد (وليس بإيحاء مسطح)، ثم لعله تنبيه إلى موقع الطب الميكنى الحديث الذى ينبغى أن يعود ليحترم إمكانيات المريض إذ يطلب النصح، وأن ينصت إلى البدائل من واقع الحال، ويميز منها ما يعاونه، فلا يعمم الرفض ويعتبر أن كل ما ليس فى نطاق معلوماته، هو خرافة محض وفى نفس الوقت عليه ألا يقزّم دوره حين تصبح عطاياه الجزئية منفصلة عن «تناغم الوعى الفردى فى الطبيعة»: أصل ما يمكن أن يسمى «صحة».



الإيقاع الحيوى: نور على نور

حين حضرت لى رواية قنديل أم هاشم فارضة نفسها فرضا وأنا أقرأ لحس العتب لم أستطع أن أتبين معنى ذلك بدرجة جاهزة من البداية؟ تقارب زمن الروايتين ليس كافيا، كما أن ممارسة التطبيب الشعبى (بشقيه السلبى والإيجابى) ليس متوازيا بما يسمح بالمقارنة، إلا أن نظرة لاحقة جعلتنى أربط بين هذه الممارسات النقيضية فى كلا العملين، بما قد يضيف إلى الفروض المطروحة بعض الانارة.

ليس الزيت، لكنه النور

من البداية والشيخ درديرى ينبهنا أنه «يشفى بالزيت المبارك من كانت بصيرته وضاءة بالإيمان» (ص ٧٢)، فلا بصر مع فقد البصيرة، ومن لم يُشف فليس لهوان الزيت بل لأن أم هاشم لم يسعها بعد أن تشمله برضاها، أم هاشم كما وردت فى الرواية، وفى وعى غالب فى الشعب المصرى، لها حضور حيوى نابض. هى ليست مجرد فكرة إيحائية. حين استنقذت نعيمة بأم هاشم طالبة التوبة، شك إسماعيل أنها (السيدة زينب) بادلتها القبلة تعبيرا عن قبول شفاعتها «.. ومن ذا الذى يجزم بأن أم هاشم لم تسع إلى السور وقد هيأت شفتيها من ورائه لتبادلها قبلة بقبلة» (ص٨٠).

القنديل لم يكن أبدا «فانوسا» يضىء، مساحة محدودة بجدران فحسب، هكذا أوضح الأمر الشيخ درديرى منذ البداية (ص٦٦) قال: «هيهات للجدران أن تحجب نوره». ثم يمضى الوصف بحيث لا يدع مجالا للشك أنه ليس قنديلا: «...وانتبه (إسماعيل) لوصف الشيخ.. هذا القنديل الصغير.. يكاد لا يشع له ضوء، ينبعث منه عندئذ لألاء يخطف الأبصار، إننى ساعتها لا أطيق أرفع عينى إليه «ثم يردف الشيخ درديرى وهو يشير بإصبعه إلى القنديل: وسنان كالعين المطمئنة رأت، وأدركت، واستقرت، يضفو ضوؤه الخافت على المقام كإشعاع وجه وسيم من أم تلقم رضيعها ثديها فينام فى أحضانها، ومضات الذبالة خفقات قلبها حنانا او وقفات تسبيحها همسا. يطفو (القنديل) فوق المقام كالحارس مبتعدا تبجيلا، أما السلسلة فوهم وتعلة. كل نور يفيد اصطداما بين ظلام يجثم، وضوء يدافع، إلا هذا القنديل، فإنه يضيئ بغير صراع! لا شرق هنا ولاغرب، ما النهار هنا ولا الليل، لا أمس ولا غد»، «وانتفض إسماعيل، لا يدرى ما هذا الذى مس قلبه»! (ص ٧٤)

نور القنديل يحضر كائنا يَرى، يُدرك، ويُرضع ويحنو من البداية (ص ٦٦) حتى قرب النهاية (١٧) «.. ورفع إسماعيل بصره، فإذا القنديل فى مكانه يضىء كالعين المطمئنة رأت، وأدركت، واستقرت، خيل إليه أن القنديل وهو يضىء إليه ويبتسم (لاحظ تكرار نفس الألفاظ رأت، وأدركت، واستقرت!! (ص٧٤).

هذه القصيدة تفرق بين النور الحانى، وبين الضوء المقتحم، وتجعل الواقع السلسلة التى تحمل القنديل (ص ٧٤) هو الوهم (أما السلسلة فوهم وتعلة).

حين يصل الأمر إلى الإشارة، ولو دون قصد، إلى القنديل وكأنه يستمد نوره من زيت شجرة زيتونة لا شرقية ولا غربية، حيث لا نهار ولا ليل، حيث السرمدية الحانية، فنحن أمام قبس يرمز إلى، إن لم يعرض، النور الذى هو على نور، وبالتالى لا يكون الزيت زيتا عاديا يقطر فى العين لمرضى البصر، وإنما هو الزيت الذى هو النور الذى يكاد يضىء ولم تمسسه نار، هو النور الذى ينير البصائر إيقاعا حيويا متسقا. الفرق بين الزيت حين يوضع كزيت، مادة لزجة لها قوام، فى عين رمداء، وبين النور الذى يعيد النغمة الشاردة النشاز (المرض) إلى موقعها فى اللحن الممتد من الإيقاع الحيوى الذاتى إلى الإيقاع الحيوى الكونى، هو الفرق بين زحف العمى إلى عيون فاطمة النبوية نتيجة التداوى بالزيت المتعين، وبين إبصارها نتيجة للتناغم مع إيقاع النور الممتزج بالعلم الصحيح. أما جزئيات العلم وهى منفصلة عن هارمونية النور الإيمانى المسئول، فهى لا تقل اغترابا عن الزيت الجسم الغريب قبحا ونشازا. هذا الفرق فى رواية حقى يكاد يكون موازيا للفرق بين لحس العتب وبين حدس ضاربة الودع وسيطا إلى استعادة التوازن مع النبض الحيوى فى رواية شلبى.

قد يكون من السهل نسبيا أن نفهم الفرق الأول بين الزيت كزيت، وبين الزيت كنور السماوات والأرض، من خلال فرض عن علاقة الصحة بالتوازن الحيوى الممتد. الأصعب هو أن نتصور أن المؤسسة المعلوماتية الطبية المفترية عن هارمونية الوجود الأشمل، يمكن أن تكون أحيانا لها هذا الإضرار حتى العمى. ربما يفسر بعض ذلك - فرضا - هو تلك الكلمة التى أطلقها إسماعيل وهو يهوى بعصاه على القنديل ص ١٩٤: «وأهوى بعصاه على القنديل فحطمه حتى تناثر زجاجه، وهو يصرخ «أنا... أنا... أنا». كتب المؤلف هامشا مضافا إلى الطبعة التى بين يدى ص ١٠٤ مؤرخا

وعى هذا الحدس الفطرى قد يكون قادرا على أن يلتقط النغمة النشاز مثل أى أذن من التى نسميها «الأذن الموسيقية» التى تلتقط أى نغمة نشاز تتداخل فى لحن تعرفه جيدا

سنة ١٩٧٤ يعلق فيه على هذا الموقف: من النادر أن يرصد كاتب نفسه كل هذه المدة (أكثر من أسبوع) وهو يحاول أن ينتقى لفظة بذاتها لموقف بذاته، ومن النادر أن يأتى بهذا اللفظ الغاضب المنقطع «أنا..أنا» مبتدأ بلا خبر، ليفيد به (بنص هامش اعتراف الكاتب بعد ثلث قرن) أن «...هذه هى الكلمة التى كنت أبحث عنها، لأنها تجسد كل المعانى التى طلبتها». ما هى تلك المعانى التى طلبها المؤلف حتى تحتويها هذه الكلمة فيفرح بها ثم يفرضها وكأنه يطالبنا أن نلتقط كل المعانى التى طلبها، فجسدها فى كلمة نستعملها نحن فى معنى واحد. يضيف المؤلف إلى الهامش تفسيرا (مرفوضا منى على الأقل) لذلك: مرة بحجة أنها الكلمة التى قالها نيتشه هابطا من بيته حين أصيب بالجنون، ومرة وهو ينتبه إلى أن حرف النون به نغمة الأنين. بصراحة لقد تعجبت من هذا الهامش ورفضته بقدر ما فرحت به، رفضت محتواه التفسيرى أو التبريرى، فالمبدع يكتب ما يعن له وهو لا يحدد «كل المعانى التى طلبها»، ثم تأتى الكلمات لتحتوى ما تشاء من معان حتى لو لم تكن تحتويها قبلا، صحيح أنه بين كتابة النص وكتابة الهامش أكثر من ثلاثين سنة، لكن هذا فى ذاته يجعلنا نحترم الكلمة بقدر ما نتحفظ تجاه تبريرها. ثم إن حكاية النون والأنين هى أبعد ما تكون عن موقف الصراخ المجنون، وحتى حكاية نيتشة ليست كافية لتعلن أن مَسًا من الجنون قد أصاب إسماعيل. إلا أننى فرحت به للتأكيد على أهمية هذا الانتقاء ولكن من وجهة نظر أخرى.

لقد استقبلت صيحة «أنا.. أنا.. أنا..» باعتبارها إعلان انفصال الكيان الفردى عن النبض البشرى الجماعى، وعن النبض الكونى الكلى، هذا الانفصال الذى يلغى فاعلية الإيقاع الحيوى فى استعادة التوازن، فينقلب العلم الجيد والمعلومات المفيدة من آلات تشارك فى عزف لحن الإيقاع الكلى، إلى جسم غريب قد لا ينفع وقد يضر، فتكون بمثابة الزيت المنفصل عن النور. المعنى الذى جاء بعد ذلك فى إعلان إسماعيل أنه «لا علم بلا إيمان (ص ١١٧)»، أو أنه: وعاد من جديد إلى علمه وطبه يسنده الإيمان (ص ١١٩) هو معنى له موقعه الدال فى عمق مضمونه، لكنه إذا أخذ بظاهره يصبح تلفيقا مسطحا من كلمات متجاورة تكاد تضيف إلى الاغتراب مزيدا من الاختزال والتجزىء على الجانبين. هذا التلفيق شائع بين الدين والعلم، وأيضا فى السياسة والإيمان (أنظر بعد). التلفيق يفقد شقيه فاعليتهما معا، بل وفاعلية كل على حدة، أما الجدل الذى أرجح هنا إمكانية أن يجرى بين الأداة الجزئية، وبين الوجود الشمولى، فهو يخلِق مستوى جديدا من التوازن المتناغم فى تصعيد ضام.

الرسالة التى تصل من الفيلم، دون الرواية، لها قيمة من حيث أنها تنبهنا أن القائمين عليه قد وصلتهم من العمل ما قد يصل العامة أو المتدينين المهزوزين من مثل هذه الأعمال الرائعة إذ يختزلونها إلى ما ليست هى، وكأن كل المراد من مثل هذا الإبداع هو إعلان انتصار ما يسمى علما على ما يسمى خرافة. ليكن، ولكن هذا ليس هو كل ما يقوله النص، ولا هو يستأهل أن يكون نصا إبداعيا ليوصل لنا هذه النصيحة الإرشادية البديهية. إن مثل هذا الاختزال والتسطيح جدير بأن يفرغ النص من مضمونه، بل وأن يشوه جماله.

إذن ماذا؟ هل ثَمّ تفسير بديل؟

إن إسماعيل لم يصبح فى النهاية متدينا أفضل، كما أنه لم ينته مشايعا للعشوائية المتفسخة (الخرافة)، وبالتالى طبيبا أبله يتبرّك بما شاع كيفما اتفق. إن ما بلغنى هو أن إسماعيل قد استعاد توازنه الإيمانى الإبداعى الموضوعى القادر على تدعيم وعى الطبيب، إن تفسير أسلوب هذا العلاج لا يمكن أن يطرح إلى فرضا يشير إلى احترام مستويات وعى المريض مع مستويات وعى الطبيب فى علاقتها بمستويات وعى الكون، لقد اكتشف وعى فاطمة من خلال هذا الحدس الفطرى أن معالجها - برغم أنها تحبه - فردا - حتى التقديس فالاستسلام - منفصل عن الإيقاع الجماعى. إنه جسم غريب عن الوعى الجمعى والوعى الكونى (أنا.. أنا.. أنا..) وحين عاد مؤمنا بمعنى التناسق مع من حوله وما حوله، ناسا وطبيعة، ونورا على نور، استجاب وعى فاطمة لعودته، وشفيت بنفس الوسائل التى سبق أن فشلت. النص الإبداعى الذى بين أيدينا يعلن أن فاعلية العلاج تتأتى بوضع كل الوسائل المفيدة: علما وإيقاعا حيويا،

«الفيلم.. والرواية»

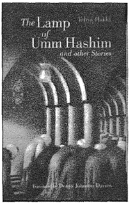
▪▪ كنت قد أشرت بتفصيل نسبى إلى ما بلغنى من تفسير الفيلم للرواية بأن الشفاء الأخير تم بطريقة العلاج بالإيحاء، ورفضت أن نفسر المسألة بهذا الاختزال شبه العلمى.

لكننى لما أتيحت لى فرصة مشاهدة الفيلم بعد ذلك - الفضل لابنتى «نهى يحيى حقى» - تبينت إن ما جاء فى الفيلم ليس مجرد خطأ أو تسطيح، لكنه تشويه للنص وتوظيف له فى عكس ما يمكن أن يصل منه.

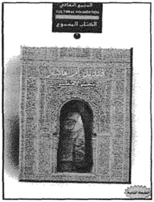
لكل من الفن والطب والإيمان.

ثم إنى شعرت أن ثمة أمانة فى عنقى أن أحرر النص نقدا مما يمكن أن يكون قد لحقه بما اقترفه الفيلم فى حقه، هذه الأمانة ربما هى التى حملها لى المؤلف عفوا دون أن أتيقن ساعتها كيف أحملها، أو متى.

عرفت يحيى حقى وأنا فى الخامسة عشرة (١٩٤٨) طالبا فى الثانوى فى منزل أستاذنا وصديقه الحميم الأستاذ محمود شاكر، ثم التقيته فى أوائل الثمانينيات عند أستاذنا أيضا، وإذا به يعلق على بعض ما أكتب نقدا أو رأيا، ويسألنى: ألا تستحق أعماله أن أدلى فيها بدلوى، خجلت بحق (بقدر ما



مترجما: طبعة الجامعة الأمريكية



مسموعا: المجمع الثقافى بأبو ظبى

فرحت طبعا) ولم أف بوعدى حتى الآن. بعد ستة عقود من لقاءاتنا الأولى وربع قرن من لقائنا الثانى أجد نفسى أشرف بأن أستجيب لما حملنى من أمانة وأحاول أن أصحح ما أفسده الفن والجهل والمؤسسات المغلقة الفهم، فلتغفر لى يا سيدى تأخرى، ولأحمد الله على أنى فعلتها بما يستاهل، فلعلك سيدى تقبلنى.

يقول الفيلم شيئا ينفصل تماما عن عمق المتن، بل يشوهه، الفيلم يفسد ما دعا إليه النص من إيمان بمعنى التناغم الصحى مع الإيقاع الحيوى المتصاعد، وهو يضع محله تلفيقات وتسويات ليس بها إضافة، وحتى يتم له ذلك يضيف ويحذف ويبدل ويلفق مايشاء. مثلا: لم تجر فى النص أية عمليات لفاطمة، فى الفيلم عمليتان، وتبدو الثانية وكأنها عملية وهمية للإيحاء، وهذه جريمة فى ذاتها، يقوم بها الهواة من الأطباء كأنها مشروعة،ويفرحون بنتائجها التافهة التى يمكن أن نحصل عليها بأى إيحاء أخيب. كذلك لا يوجد فى الرواية تشخيص لما ألمّ بالعين لكن الفيلم تبرع أن يحدد التشخيص على أنه «عمى هستيرى»، كما لا يوجد فى المتن إيهام وخداع باستبدال الزيت بدواء حقيقى، هذا أسلوب سطحى قد ينفع فى حالات عابرة لا تمت من قريب أو بعيد لحالة فاطمة النبوية. أضف إلى ذلك أن ما عرضه الفيلم هو تقابل بين دروشة عشوائية زائطة، وبين مجموعة أطباء رسميين تقليديين مما أدى إلى تشويه رسالة النور من القنديل، وتشويه معنى التصوف النابض بإيقاع الحياة، القادر على تغير حتى النشاز البيولوجى. لم أعرج عن الفيلم فى متن النقد، مع التنبيه ألا يحكم على النص من الفيلم وإنما من أصوله. ▪

وإيمانا وتواصلا إنسانيا، لاستعادة التوازن الذاتى فى علاقته بالتوازن الأكمل المفتوح النهاية الذى «ليس كمثله شىء».

النص الذى يقول: «وعاد من جديد إلى علمه وطبه يشده الإيمان..» (ص ١١٩) لا يشير إلى أية تسوية مائعة تجمع بين لفظين لهما سمعة طيبة، لكنهما إذا ضُمّا إلى بعضهما تعسفا ضاعا فيما ليس هما. تماما مثل نفس الشعار «العلم والإيمان» حين يستعمل فى السياسة لغرض مناوراتى تسوياتى مخادع، أو حين يسوّق فى سوق التفسير العلمى للنصوص المقدسة. كل هذا هو نوع من الاستسهال والاختزال لكل من العلم والإيمان على حد سواء.

فروض متصاعدة

ليس من حق الطب والأطباء أن ينكروا - لأى سبب علمى أو شخصى أو شبه علمى أو تجارى - ما جاء فى عمل إبداعى ظهر نتيجة لحدس مبدع له خبرته ووعيه ورؤيته وأدواته، قد يكون من حق المؤسسة الطبية أن ترفض الممارسات الطبية الفعلية خارج نطاق قوانينها ولوائحها، وأن تسن لذلك القوانين بالحق أو بالباطل، لكن أن ترفض أحداثا جاءت فى عمل إبداعى جاد جيد، فهذا ليس من اختصاص المؤسسة الطبية، ولا من سلطتها. أيضا لا يمكن أن نسائل المبدع لماذا كتب هذا الحدث هكذا، أو لماذا رجح أن هذا العلاج نجح وذاك العلاج فشل، يحدث مثل هذا أحيانا فى مقابلات صحفية أو ثقافية عابرة، بعد ظهور العمل، وهو خطأ منهجى حتى لو أجاب المبدع على أسئلة السائل إجابات مساعدة، كما قد يأتى التفسير أيضا من عالم أو طبيب حين يسأل نفس الأسئلة فيفتى من واقع منظومة تخصصه دون الالتزام بالسياق الإبداعى واختلافات اللغة والأدوات. إن مهمة النقد الإبداعى هى قراءة النص لتفكيك أبجديته لإعادة تشكيله عبر كل منظومات الناقد المعرفية وحدسه الإبداعى وأدواته، يضع الناقد لذلك الفروض، ويعيد تشكيل النص، انتظارا لنقد النقد وهكذا، إلى غير نهاية.

وأخيرا فإنه ليس من حق فن لاحق (السينما أو المسرح أو المسلسل) أن يسطح إبداعا غائرا بمثل ذلك التشويه الذى طرحه الفيلم بنفس الاسم.

الخلاصة: (الفرض)

إنه ينبغى علينا أن نقوم بمهمة النقد ونحن نحترم كل حرف ورد فى النص، نحترمه ونجادله ونتعلم منه، ونعيد تشكيله فى إبداع ناقد مستكشف. إن كلا من «لحس العتب» و«قنديل أم هاشم» يمكن أن يحمل دعوة لتعميق فهم الوعى والوجدان ليصبح إسهامهما فى استعادة التوازن نحو الصحة فعلا بيولوجيا إيجابيا إيمانيا يكمل عمق العلم و يسهل وظيفته.

إن هذا، وليس الإيحاء السطحى، هو الذى يعيد الصحة بمعنى التوازن الإيقاعى من خلال استعمال آليات العلم بالضرورة.

الإيقاع الحيوى الكونى هو اللحن الأساسى الذى يحتاج إلى آلات تعزفه، وما الآلات البشرية إلا أدوات لعزف هذا اللحن الأعظم، تفاصيل أوتار الآلات البشرية تشمل كل شىء: من مفردات العلم إلى حدس الفطرة، إلى انتظام فحوى العبادات، كل ذلك يتكامل مع وعى من يستعملها من خلال إيقاعه الحيوى الخاص، وبالتالى يصبح قادراً على أن يتلاحم مع إيقاع وعى مريضه الناشز، فى حضن وعى الكون المحيط الممتد بغير نهاية، فينتظم فى لحن الوجود الأكبر إلى غيب يقينى ليس كمثله شىء.

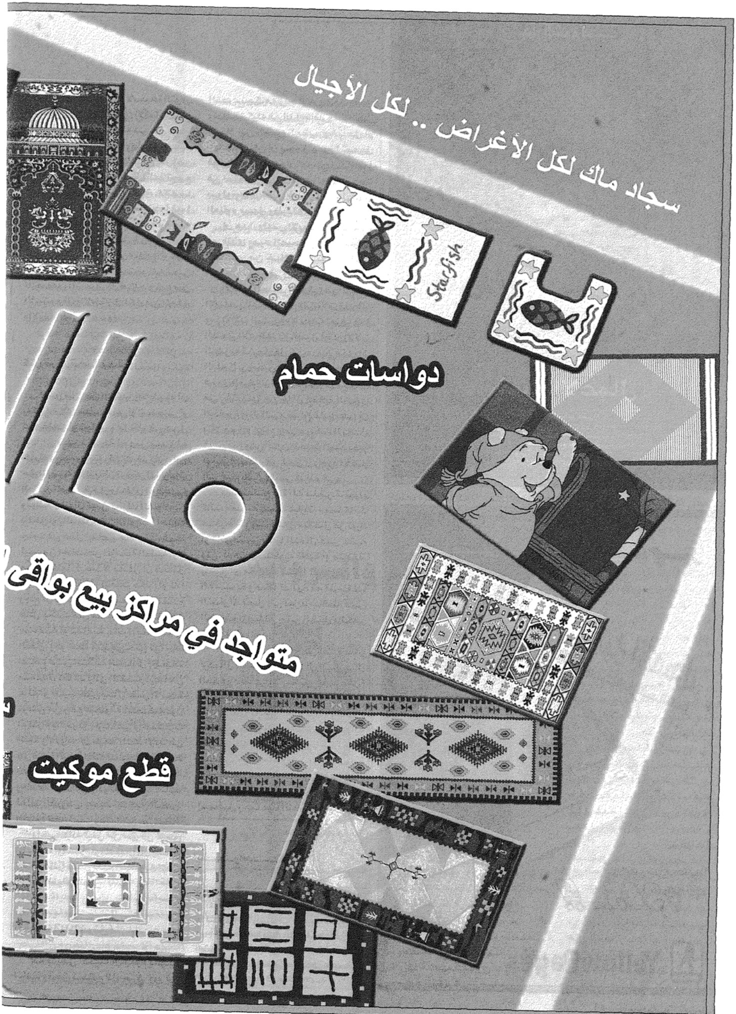
بهذا تصبح أية آلة منفردة، سواء كانت معلومة علمية شاردة، مهما كانت صحيحة، أو زيت قنديل منفصل عن نوره، أو قاذورات من بقايا النعال على عتبة ولى. أو فتوى سلطوية تافهة أو منافقة، يصبح أى من ذلك نشازا لو عزفت أية آلة منفردة وحدها لذاتها، ثم قد ينقلب النشاز المنفصل إلى نيزك ساقط، فهى الخرافة المضللة حتى القتل والكفر والشقاء أو الخدر الميت.

الأمر الذى يحتاج إلى إعادة نظر لإكمال الصورة هو ما آل إليه حال الدكتور إسماعيل (الدكتور إسماعيل) بعد شفاء فاطمة، فى نهاية الرواية، الجزء الذى تجاوزه أغلب النقاد (غالبا)، وما كان بمقدور الفيلم الذى قدم الرواية بكل تلك السطحية أن يقترب منه أصلاً. هذه النهاية تحتاج إلى قراءة نقدية خاصة، وهو ما يمثل الجزء الثانى من هذه الدراسة، الذى أسميته «نص إسماعيل رجب عبد الله». ■

هوامش:

(١) كتبت رواية قنديل أم هاشم فيما بين (١٩٣٩ - ١٩٤٠) ونشرت لأول مرة فى سلسلة اقرأ العدد ١٨ سنة ١٩٤٤... ونشرت فى مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٥ وهى النسخة المشار إلى صفحاتها فى هذا العمل

(٢) صدرت رواية «لحس العتب» فى طبعتها الأولى ١٩٩١ ونشرت فى مكتبة الأسرة ٢٠٠٥.



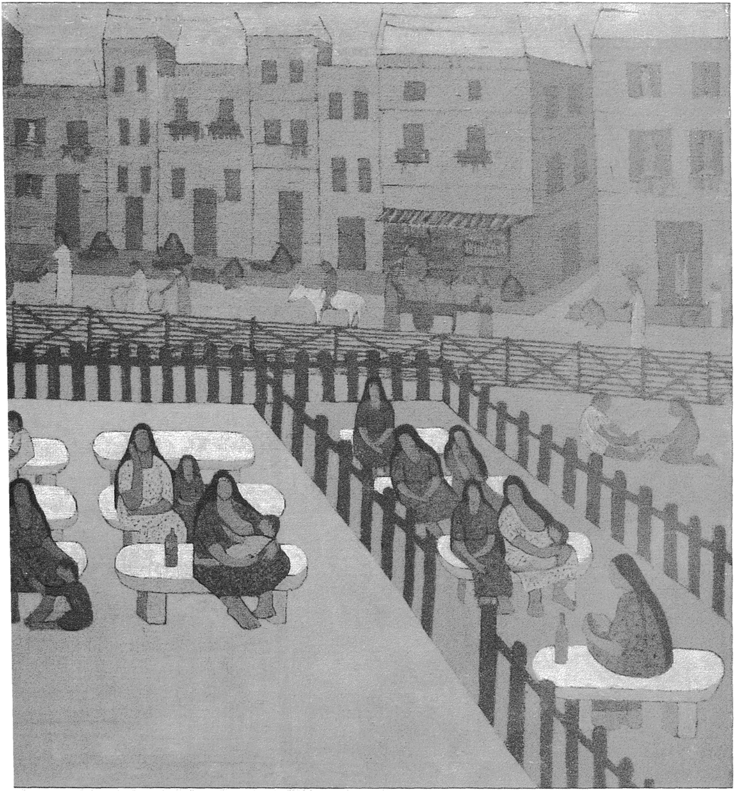
سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقي
قطع موكيت


BIENVENUS
سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
صدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com

فنانة من

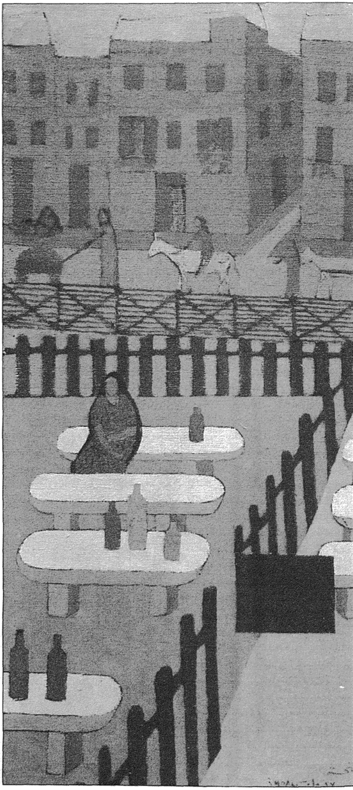
منحة الله حلمي
والريادة الجرافيكية

•العيادة الخارجية• تصوير زيتي



عصر "الإتقان"

مصطفى الرزاز



تميزت الحركة الفنية في مصر منذ أوائل القرن العشرين بدور نشط للفنانات اللاتى سبقن الرجال فى الاشتغال بالفن قبل تأسيس مدرسة الفنون الجميلة عام ١٩٠٨ بالقاهرة، فقد كان المستشرقون الفنانون يترددون على منازل العائلات لتدريس الرسم لبناتها، وكان من بين السيدات رعاة مهمون للحركة الفنية منذ نشأتها الأولى في العشرينيات من القرن الماضى، غير أن ندرة منهن قد مارسن فن الجرافيك. الطباعة اليدوية للوحات بالقوالب المحفورة.

وذلك منذ الخمسينيات من القرن الماضى فقط، بينما نشط الفنانون الرجال في التعبير بتلك الوسائط منذ ثلاثينيات القرن.

ومن بين أكثر الفنانات تميزاً في فن الجرافيك المصرى الفنانة الراحلة منحة الله حلمى، وبالرغم من مكانتها الرفيعة تلك، فقد لاحظت تجاهل اسمها في العديد من مناسبات تصنيف الكتابة عن الفنانات المصريات، أو إقامة المعارض التي تخصهن.

وفي ديسمبر ٢٠٠٥ قدم قطاع الفنون التشكيلية معرضاً استعادياً لإبداعات هذه الفنانة بقاعة أفق «١» لأول مرة بهذا التكامل الذى يضم أعمالها في الرسم والتصوير والجرافيك فجاء العرض كمفاجأة سارة، وتصحيحًا لتصنيف رواد فن الجرافيك المصريين المعاصرين.

كانت الفنانة الأستاذة منحة الله حلمى آية للرقة والتأدب، لم تفارقها تلك الابتسامة الصادقة الهادئة. كانت تنتمى لطبقات النغمات الخافتة الزاهدة ولم تعبر تلك الطبقات النبيلة ولم تتخطها أبداً حتى في مواجهة أسوأ المواقف والأزمات، وودة تولى زملاءها وتلاميذها جل عنايتها مجاملة وتقديراً وتشجيعاً، كانت ملاكًا بشريًا بمعنى الكلمة، حينما انتقل رفيق حياتها الدكتور عبدالغفار خلاف وبعد أن شاطرناها الأحزان والمواساة. طلت علينا في اليوم التالى متشحة بالبياض الروحانى وبهدوئها وابتسامتها مكسورة بعض الشيء. ومن أصدق ما قيل عن شخصيتها النبيلة ما قاله الفنان حسين بكار: صاحب قلب صاف، ونفس نقية، وروح شفافة. ولدت الفنانة منحة الله حلمى بالقاهرة في ١١ يوليو ١٩٢٥ ودرست الفن في المعهد العالى للفنون الجميلة حتى عام ١٩٤٩. مع شقيقتها رعاية الله حلمى حيث تتلمذتا على يد فنانات مثل مرجريت نخلة، إيماكالى عياد، كوكب يوسف. عدالت كمال ومدام «راينر» ثم بعثت لاستكمال دراستها في لندن حيث التحقت بكلية «سليد» التابعة لجامعة لندن من عام ١٩٥٢ إلى ١٩٥٥ ثم فى كلية «مورلى» بلندن لمدة ٦ سنوات إضافية أثناء إقامتها من عام ١٩٧٣ إلى عام ١٩٧٩ بلندن حيث تفرغت للتعمق في دراسة فنون الحفر الجرافيكى، ثم عادت إلى القاهرة لتمارس معها تدريس فن التصوير لطالبات معهد الفنون الجميلة ببولاق ثم المعهد العالى للتربية الفنية بالزمالك ثم أستاذًا بكلية التربية الفنية جامعة حلوان. بالرغم من دراستها للتصوير إلي جانب الجرافيك، إلا أن الجرافيك قد غلب على توجهها الفنى منذ أوائل الخمسينيات، في المعرض الذى أقيم بقاعة أفق واحد بمجمع محمد محمود خليل بالجزيرة شاهدنا مختارات مميزة من أعمال الفنانة منحة الله حلمى لم يتح لدارسى ومحبى الفنون رؤيتها مجمعة من قبل، فضلاً عن أن بعضها لم يعرض قط في قاعات العرض بمصر، بعضها لم يعرض منذ أكثر من أربعين عاماً، وغابت عن ذاكرة الجيل المخضرم ولم تدخل أصلاً في دائرة معارف أجيال متتابعة من الفنانين والنقاد والذواقة، إذ قدم المعرض صورة بانورامية للمشوار الإبداعى للفنانة اعتباراً من تاريخ تخرجها في المعهد العالى للفنون الجميلة للمعلمات عام ١٩٤٩ عبر نشاطها الحيوى فى فترة الشباب، والسفر إلى إنجلترا حيث درست فنون الرسم والتصوير والجرافيك ثلاث سنوات، ثم زيارتها الثانية إلي لندن بصحبة زوجها الدكتور عبدالغفار خلاف عندما كان مستشاراً طبيًا في

من مجموعة رسوم السد العالى

العاصمة البريطانية. حيث التحقت بكلية مورلي لتكرس جل وقتها لبحوث فن الجرافيك. وتقنيات الحفر الغائر الملون على وجه الخصوص. ثم فترة العودة إلى مصر والنشاط في المشاركة في المعارض والبيناليات وتمثيل الفن المصرى فى المحافل الدولية والبيناليات المتخصصة في فنون الجرافيك في اليابان وألمانيا وإيطاليا والنرويج ويوغسلافيا ومصر.

حيث أثبتت تفوقها وتميزها وحصلت على عدد وفير من الجوائز المرموقة في مصر وفي البيناليات الدولية، كما حصلت على زمالة فخرية من أكاديمية الفنون بفلورنسا بمناسبة مرور ٤٠٠ سنة على تأسيسها حيث أضيف اسمها إلى قائمة الخالدين من نجوم الأكاديمية.

كما أقامت الفنانة الراحلة منحة الله حلمى معارض خاصة لأعمالها في لندن ١٩٧٨ وبرمنجهام وفي معهد جوتة بالقاهرة ١٩٦٦. كما حازت جوائز في صالون القاهرة و«بينالى لوبليانا الدولى» بيوغوسلافيا عام ١٩٦١. حيث حصلت على جائزة الشرف عن لوحتها ببولاق، وبعدها حصلت على جائزة التكريم من لجنة التحكيم من نفس البينالى على أعمالها وعلى جائزة الحفر بمعهد «سليد» بلندن ضمن جوائز عديدة.

البـدايـات:

فى أعقاب تخرج منحة الله حلمى من المعهد العالى للفنون الجميلة للمعلمات ومنذ عام ١٩٥٦ وفي أوج ثورة يوليو اتجهت منحة الله حلمى إلي موضوعات التعبير البيئية والوطنية، وموضوع الطبيعة الصامتة، والموضوعات القومية. في الموضوعات البيئية أنتجت رسوماً عديدة بعضها من الواقع الحى، وبعضها تصورى خيالى، والبعض الآخر توليف لما بين هذا وذلك.

في الموضوعات البيئية القاهرية غلب عليها تصوير الأحياء الشعبية ببولاق. البيئة المحيطة بالمعهد الذى درست فيه آنذاك. حيث كانت تتوقف عند جامع سنان باشا، وتصور الحوارى فى الصباح الباكر، وتسجل تراكم النوافذ على الجدران المتلاصقة والأسطح المزدحمة وتصور مولد سيدى سلامة، وحارة السيد عامر. وجامع سنان باشا، عربات الترمس الخشبية الملونة، وعروسة المولد. وكانت الجيزة بمثابة المكان المختار لدراسة المشاهد الخارجية لدى أساتذة المعهد حيث رسمت منحة الله حلمى شاطئ النيل من هناك، وقرية من الجيزة، مصنع الطوب على شاطئ الجيزة وملعب الكرة، والمسرح الشعبى وتجمعات المراكب.

وبين الزمالك والجيزة صورت منحة الله حلمى العوامات، بيوت خشبية مقامة على سطح النيل بالقرب من الشاطئ، والكازينو الذى كان يتخذ من تلك العوامات موقعاً، وهى التى صورها الأديب نجيب محفوظ في رواية (ثرثرة على النيل وفي الثلاثية) كملتقى للأحداث.

وخارج القاهرة رسمت الفنانة الراحلة منحة الله حلمى قرية التمساحة وشاطئ المنتزه، وميامى، موضوع صيد السمك والسد العالى. من الواضح من هذا السياق أن منحة الله حلمى كانت فتاة محافظة وارتباطها الأسرى قوى جداً، وحركتها محدودة في إطار تحركات العائلة أو فى الطريق إلي المعهد ومناطق الزيارة العلمية للمناطق الشعبية. ومن قراءة موضوعات التعبير وأماكنها في هذه الفترة يمكننا أن نستشعر شخصية الفنانة وارتباطاتها العائلية المحافظة، وعندما نعرف أنها عاشت هذه الفترة في ضاحية حلوان بعيداً عن حراك المدينة وصخبها، وفي عائلة كبيرة متماسكة تحترم التقاليد الأسرية العريقة، والالتزام الشديد بأدبها وسلوكياتها، يتبين لنا أن موضوعات التعبير كما سبق الإشارة محصورة في خط سيرها الدراسى وتحركاتها مع الأساتذة للرسم الخارجى، وعندما تعود إلي المنزل تسدل الستار عن مشاهدتها حتى أنها لم تخرج في مدينة حلوان لترسم معالمها كالحديقة اليابانية والسوق أو ما شابه، وتنشغل باستكمال ما رسمت من الذاكرة، ومن ثم لم تخالط الفنانة الحركة الفنية إلا فى أضيق الحدود وفي إطار الحرص على المجاملة وحب المعرفة في حضور المعارض التى كانت تفضل أن تراها مع شقيقتها رعاية في غير أيام الافتتاح ليتجنبا الجلبة والمخالطة، وبالطبع تباعدت عن المشاركة في الجماعات الفنية التجريدية والثورية، أو في الحوارات المتوهجة التي شهدتها الحركة الفنية في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، كانت تكتفى بالقراءة والإحاطة المعلوماتية حول نشاطات تلك الجماعات ودون الدخول فى انفعالاتها، قانعة بالمراقبة عن بعد للحركة الفنية المصرية، وراسلت جمعية الحفر الدولية بأمريكا وجمعية الحفر البريطانية لتنضم إلي عضويتها. ومع الروح التى شاعت في البلاد أثناء ثورة يوليو تناولت منحة الله حلمى موضوعات تعبير واقعية اشتراكية مثل السد العالى، والعمل بالسد العالى، وتراشق النيران، والإنتاج الزراعى، الانتخابات في حي شعبى، وسجلت انطباعاتها على العيادة الطبية التي كانت مواجهة تماماً بمبنى المعهد الذى درست فيه ببولاق، والناس تمرح في الحديقة ومع الأرجوحات. ومثلها مثل عبدالهادى الجزار التفتت إلي موضوعات غزو الكواكب والفضاء فصورت لوحات جرافيكية بعناوين الكواكب. وأبحاث الفضاء. في مجال الطبيعة الصامتة صورت الفنانة مجموعة صغيرة من المحفورات الخشبية المطبوعة بلون واحد أو لونين ذات عناصر شعبية كلمبة الغاز والقلل والأوانى والثمار في محيط مبتكر من الأرضيات ذات البلاطات الشطرنجية، ونوافذ مميزة الطابع، وذلك في النصف الثانى من الخمسينيات.

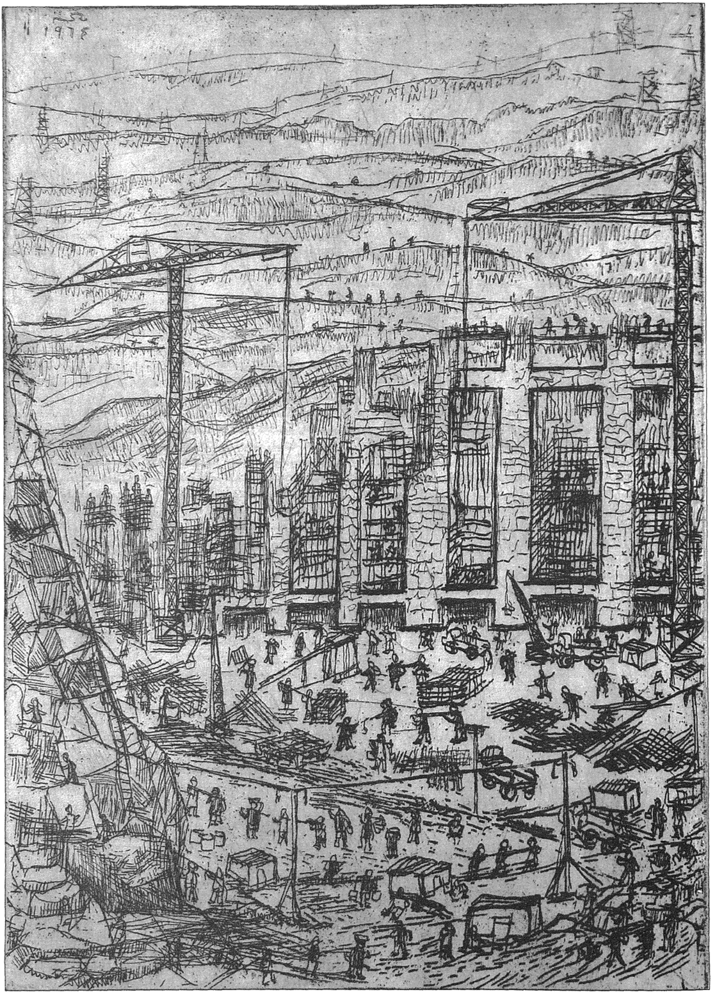
من مجموعة لوحات الحياة الشعبية



الرسم والتصوير:

في مراحل الدراسة بالقاهرة ولندن رسمت الفنانة دراسات خطية في مجالات رسم الموديل العارى، والبورتريه، وفروع النباتات والمناظر الخلوية. ثم صورت لوحات زيتية ذات طابع أكاديمي لشخصيات لطبيعة صامتة وللموديل العاري. وفي مرحلة لاحقة أنتجت الفنانة عدداً محدوداً من اللوحات الزيتية ذات الخصوصية المتحررة من الأكاديمية ومن قواعد المنظور والنسب التشريحية، اعتمدت في تكويناتها على رصيد الرسوم الخطية التي رسمتها في الأحياء الشعبية القاهرية، وقد تميزت هذه اللوحات بالتصرف الابتكارى في البحث الأسلوبى، وبرقة المجموعات اللونية والحس الإيقاعى الظاهر.

كان هذا هو إسهام الفنانة في مضمار فن التصوير حيث توقفت عن ممارساته بصورة قطعية منذ ذلك الحين، بينما واصلت تدريس التصوير بكلية التربية الفنية طوال حياتها، أما على المستوى الإبداعى فقد تفرغت لتجاربها العميقة في مجال الحفر الغائر الملون الذي حققت فيه ذروة غير مسبوقة في فن الجرافيك المصرى المعاصر. ولذا فإن مشاهدة أعمالها التصويرية خاصة



ذات الطبيعة الأسلوبية الخصوصية يعد بمثابة اكتشاف لأنها لم تعرضها بقاعات الفنون في مصر من قبل. ولم تقدم نفسها أبداً بوصفها مصورة في الوسط الفني.

المحفورات القاهرية الصغيرة:

تعد هذه المجموعة ضمن العلامات المميزة والمبتكرة للرصيد الإبداعي للفنانة وقد حفرتها حفراً حمضياً على ألواح الزنك وطبعتها على الورق، سجلت فيها تدويناتها البصرية المرسومة في بولاق والجيزة، والإسكندرية، وقد حملت هذه اللوحات عناوين مثل: الحديقة والمراجيح والعيادة الداخلية وجامع سنان باشا وبائع الترمس، والانتخابات، وحارة السيد عامر، ومولد سيدى سلامة ببولاق وعروسة المولد والشبابيك في بولاق، وفوق السطوح، وبولاق في الصباح، العوامات الكازينو، عوامة نهرية، والمسرح الشعبى، ملعب الكرة، وتصليح المراكب وصيد السمك، وسوق الحيوانات بإمبابة، ومصنع الطوب، قرية بالجيزة، شاطئ النيل، وفي القرية فوق السطح والإنتاج الزراعى والسطوح، وقرية التمساحة، وشاطئ المنتزه وتوضح تلك العناوين فضلاً عن اللوحات نفسها نوعية التوجه الاجتماعى الذى ساد البلاد في هذه الفترة، كما نلاحظ تنقل الفنانة بين الاستعانة بملاحظتها التي رسمتها من الواقع وبين التأليف الخيالى الذى تتذكر فيه بقية العناصر والشخوص ومن الناحية الأسلوبية استفادت الفنانة من منهج تكوين المنمنمات الإيرانية التي تحتشد بأحوال الناس داخل وخارج المبانى وعلى الأسطح وفي الشرفات يمارسون طقوسهم الحياتية في المرح وفي العمل، مع العناية بالتفاصيل المعمارية. تقاسيم الطوب والحجر في الجدران، مع إضافة العبارات الكتابية من آن إلي آخر، بالإضافة إلي استخدامها التسطيح والمناظير المائلة في التعبير عن المجسمات والجدران والمبانى، ولجأت الفنانة إلي شغل المساحات بالتنقيط أو بالتهشير للتعبير عن النجيلة والمياه ذات الأقواس الثعبانية اعتماداً على الخطوط دون اللجوء إلي التأثيرات الظليلة لتقنية (الأكواتنت) أو التقنيات الأكثر حرفية (كالمتزوتنت والشجرلفت) وما إلى ذلك.

عين الطائر وروح بهزاد:

رسمت الفنانة أساسًا لهذه اللوحات الخطية الصغيرة أحيانًا من منظور عين الطائر، حيث تنظر من دور مرتفع على مجريات الأمور أسفل مستوى النظر. كما اهتمت كثيراً بعناصر التأطير كالأسوار والجدران العازلة، والبوابات، وأيضاً بالنوافذ والشرفات والأسطح والأرصفة وفي النهر، عوامات، وفلوكات تقف أمام عمارات حى بولاق حيث قامت برسمها من ناحية كورنيش الزمالك عن بعد، شماسى مطوية وأخرى مفتوحة. وموضوعات كالمسرح الشعبى. والبهلوان الذى يلف جسده كالقوس على سجادة. الرجل الكاوتشوك. وفرقة الموسيقى والطبول والدفوف. ورسمت لعب الكرة وصيد السمك بصورة تأليفية خيالية، بينما رسمت سوق الحيوانات بإمبابة. الجمال والجاموس والأبقار من الواقع، وحيث اتسمت بحيوية إيقاعية ظاهرة. وفي مثال لوحة مصنع الطوب على شاطئ النهر يتضح أنها صنعت تخطيطها من الواقع بينما استكملت باقى تفاصيل المشهد من خيالها. مشاهد السطوح والسلالم والجدران والمصاطب، وغية الحمام والمساجد والمآذن والقباب والطرق والمبانى بزياداتها العشوائية.

وفي الطرقات والأزقة تسعى عربات الكارو والبطاطا والترمس والكيروسين (الجاز)، وسيارات ودراجات تحوم حول حنفية المياه العمومية، وفي الحقول تسعى الأبقار والحمير والجمال والقطط والدواجن. تعمدت الفنانة تحريف المنظور البصرى لتكشف عن دخائل الكتل المعمارية حيث تشخص أحوال الناس اليومية في حجرات النوم والطعام والجلوس. وفي الشرفات وبجوار الأسوار وعلى الأسطح وأمام البوابات، وفي الشارع وفي المناطق المحاطة بأسوار، حيث تظهر من تغسل على الطشت. ومن تخبز، والجالسون حول طبلية الطعام وعلى سور السطوح للمراقبة، المرضعة والغسالة تنشر الغسيل. والأم تصفف شعر ابنتها، وإطعام الدواجن ومتابعة غية الحمام، حبال الغسيل وحبال اللمبات الكهربائية، والقلل والقباقيب والقطط وأشجار ونخيل وحقول مقسمة إلي أحواض، كبائن الشواطئ ذات الدورين فى ميامى والسور الحجرى الملتف حول الشاطئ والمستحمات يلهون بالعوامات والأطفال بالجرادل، السلالم والشماسى والمصطافون، في لوحات السد العالى، ترسم الأوناش واللوريات العملاقة أمام الخلفية الجبلية، وتستكمل من خيالها خاصة في رسم العمال بصورة اصطلاحية.

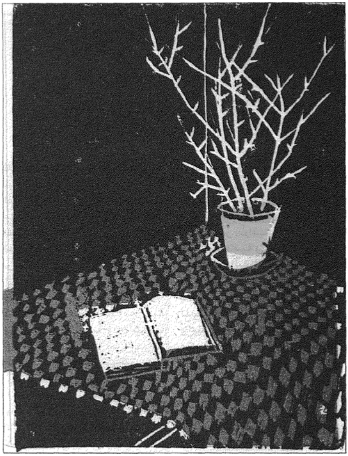
في هذه الأعمال الصغيرة استهدفت الفنانة ترجمة الواقع والمتخيل إلى مشاهد مسرحية الطابع، تحدد فيها العناصر في مواقعها من العمق المنظورى بصورة اصطلاحية، وتطلق شخوصها وحيواناتها ومركباتها وكأنها فريق التمثيل. وإمعانًا في تلك النزعة التوضيحية تستخدم الفنانة أحيانًا عبارات مكتوبة وإرشادية كما يفعل الفنان في المنمنمات الإيرانية تمثل هذه المجموعة من الأعمال مرحلة مبكرة من أعمال الفنانة اتسمت بالواقعية والإيضاح التمثيلى الخيالى، سبقتها تكوينات أولية نفذتها بالحفر الطباعى على الخشب وهي قطع صغيرة موضوعاتها الطبيعة الصامتة في الخمسينيات وفي المرحلة التالية حينما رسمت موضوعات، تراشق النيران، والكواكب وأبحاث الفضاء، تحولت الفنانة إلى النزعة التجريدية الإيقاعية، حيث دخلت التقاسيم الهندسية المتداخلة والخطوط المشعة من مراكز أو أكثر، والدوائر والأقواس والخطوط الدوامية الثائرة.

لندن:

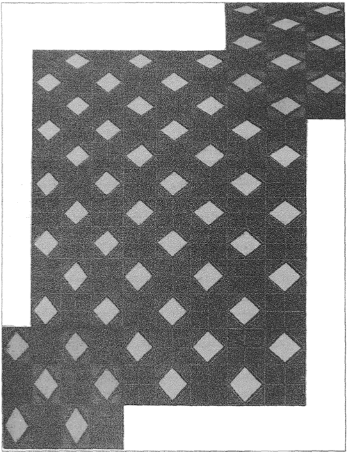
ذهبت منحة الله حلمى إلي لندن مرتين، الأولى: عندما بعثت عاماً للدراسة حيث التحقت بمعهد «سليد» Slade لدراسة التصوير والحفر، والمرة الثانية: فيما بين ١٩٧٣ و ١٩٧٩ حينما ذهبت برفقة زوجها الدكتور عبدالغفار خلاف حين أصبح مستشاراً طبياً في سفارتنا هناك، وحيث التحقت بكلية «مورلى» Morly لتتلمذ على أساتذة الحفر الكبار هناك ولتستخدم إمكانيات الكلية، وحيث اشترت مطبعة يدوية للحفر الغائر ومستلزماتها لتواصل العمل في المنزل.

فى المرحلة الأولى: إبان البعثة درست منحة الرسم والتصوير إلي جانب الحفر. حيث رسمت رسوماً ناضجة بالقلم الرصاص من حدائق بريطانية وقرى وجزر، استخدمت فيها تهشيرات أكثر جرأة في التعبير عن العمق المنظورى والظلال رسمت «ريجنت بارك» و«كامبل هوك» وحدائق وشواطئ وقلاعاً، ومارست طريقة «الكياروسكورو» في التظليل بالقلم الرصاص حيث تحقق الأضواء بالمحو بالأستيكة من مساحات سوداء وتمويه تدريجى للأضواء. كما رسمت دراسات متمكنة لفروع وسيقان الأشجار ولزهرة الأوركيد، ومجموعة رائعة من التخطيطات السريعة والقوية للموديل العارى باستخدام الريشة والحبر الشينى، خطوط دقيقة بدرجة مخففة من الحبر ثم خطوط واثقة من تهشيرات إيقاعية بالحبر الأسود.

كان ذلك في النصف الثانى من الخمسينيات وفي هذه الفترة بدأت منحة الله حلمى في استخدام تقنية «الاكواتنت» لتحقيق الظلال بدرجاتها، فكانت تجرى تجارب على نفس القالب بمستويات مختلفة من الراقات الظلية، اتسمت هذه المرحلة بغياب النزعة المسرحية واستخدام العناصر الاصطلاحية أصبحت الشخوص أكثر تأملية وعمقًا واتزانًا وأصبحت التهشيرات أكثر تمكنًا ورقياً، اتسمت بالتحكم الناعم في الظلال والأضواء ومن إبداع الرسوم في هذه المرحلة

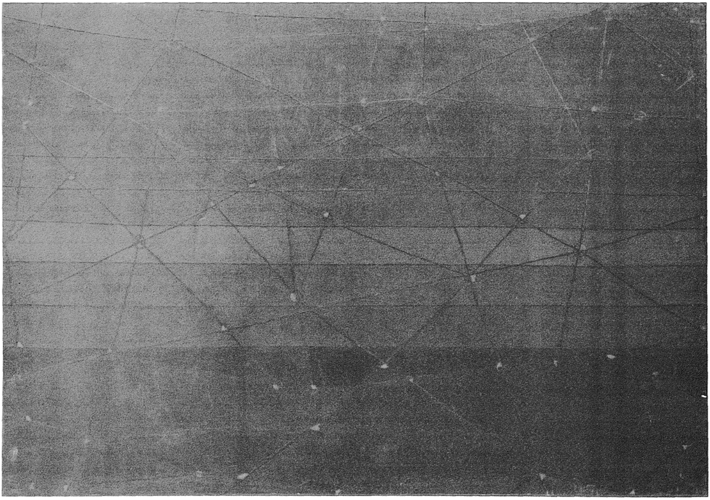


طبيعة صامتة ـ حفر على الخشب



تجـريـد . حفـر

تراشـق النيـران . حـرب الاسـتنزاف . المدفعيـة عبـر القنـاة . تصـوير زيتـي



وأكثرها تعبيراً الموديل العارى، رسم عازف على آلة وترية صغيرة تنبض بالتعبير الهادئ وخطوطها تتسم بالرقة والشاعرية. وقد حولت هذا الرسم إلى مطبوعة فيما بعد.

وفي الزيارة الثانية للندن ولمدة خمس سنوات متصلة تفجرت ملكات الفنانة الحقيقية بعد أن استهلكت في المراحل السابقة تدريباتها في الرسم والحفر والتصوير من الواقع ومن الخيال ومزاوجة هذا بذاك. تخلت في هذه المرحلة بصورة كلية ونهائية عن الرسم التمثيلي الواقعي وأبحرت في عالم التجريد الذى مهدت له في محفوراتها عن الفضاء والكواكب وفي اللوحات التصويرية التجريدية الهندسية. في هذه المجموعة النادرة من أعمال الحفر الغائر الملون قدمت الفنانة أعمالاً فنية فريدة من نوعها في مدرسة الجرافيك المصرى الحديث. ومن اليسير تقسيم مرحلة اكتمال النضج والأستاذية للفنانة منحة الله حلمي إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: تمثل حالة تحول من المشاهد المرئية إلي التجريد على خطوات، إلي أن تحولت الأعمال إلى ما يشبه المعادلات الهندسية لأسس التصميم في التكرارات وتبادل الألوان واللعب بالبدائل الطباعية لنفس القالب المعدنى المحفور، والتحرر من الصفة المربعة أو المستطيلة لمساحة اللوحة المطبوعة، واستخدام قوالب متعددة لتطبيق ألوان متراكمة ومتداخلة. تعمقت في إيقاع التكوين واتجاهات الخطوط والأشكال. واكتسبت تحكماً مدهشاً في ضبط راقات اللون المتراكمة كل في مكانه، وجمعت بين المساحات والخطوط، والتي يغلب عليها الخطوط المتعامدة والمتقاطعة والمائلة. ومع ذلك فإن هذه المجموعة الأولى من الأعمال تعد بمثابة تجارب استكشافية في اللغة الجرافيكية.

المرحلة التجريبية:

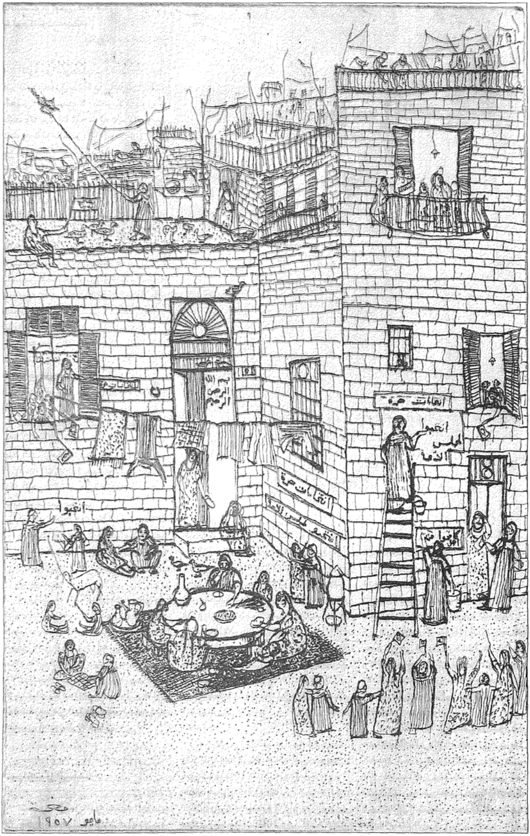
اتسمت بتصاعد الخبرة التقنية، وصفاء التكوينات الإشعاعية بالغة التركيب، والتحكم في التدريجات الظلية الناعمة والمتعددة، بسيطرة مدهشة حقاً كما اتصفت تلك المرحلة بصفاء وتقشف المجموعات اللونية المخلوطة والشفافيات فيما يشبه مذهب إحكام العلاقات الهندسية في Hard edge فى هذه المجموعة نستشعر أن هناك طاقة مغناطيسية وهمية جبارة تلتقى عندها الخطوط وتنتشر منها كما في الأطباق النجمية في الفن الإسلامى ولكن بأسلوب نقائى خالص، واعتمدت على التقابل الثنائي والمتعدد المحاور، وتعدد الاتجاهات برصانة واستقرار، واستثمرت انكسارات الخطوط الإشعاعية لتكشف التعبير المنظورى المجرد. وفي هذه المجموعة الديناميكية اتجهت الفنانة إلي قطع القوالب الطباعية على أشكال مبتكرة منها المعين، ومتعدد الأضلاع والاتجاهات وكروس السهام التي تلتقى في نقطة عند بؤرة الجذب الوهمية، ومتعامدات تؤكد حدة التلاقى وحيوية التوازن. وفي هذه المرحلة أيضاً كانت الفنانة تجرى دراسات وافية على تحليل اتجاهات الخطوط وحركة التكوين وأوزان الطاقات الظلية واللونية. وكانت تخطط لتلك الدراسات بعناية كاملة بنفس المقاس قبل التعامل مع قوالب الزنك والحفر والأحماض. وأصبحت تسيطر باقتدار ويسر على استخدام «الإكواتنت». رذاذ القلفونية، والحفر الحمضى والحفر الجاف معاً لتحقيق ذلك الإحكام الهندسي والضوئى في لوحاتها. وكانت تطبع كل مجموعة من الزنكات المحفورة. قد تصل في بعض اللوحات إلى اثني عشر قالباً للوحة الواحدة، تطبعها ببدائل تلوينية أو بتحريفات في اتجاهاتها لتحقق تنوعات بصرية من نفس القوالب.

مرحلة الذروة:

وهي مرحلة الأستاذية و الإبداع، حيث زهدت الفنانة فى منهج الإحكام الهندسى والتقابل والتشعع والتمسك والتدرج اللونى والناعم والمنضبط، ولجأت إلى قدر أوسع من التحرر في اتجاهات الخطوط وتشبيكاتها، والجمع بين الدائرة وبين محيط هلامى من نسيج متطاير تربطهما شبكة خطوط متقاطعة، حيث تُقطع القالب الصناعى إلى مساحات معينة قبل الطباعة. استخدمت الفنانة في هذه المرحلة الأخيرة تقنية الشمع اللين Soft Ground لتحقق بصمات من ملامس من الشاش الناعم المجعد والخيوط المتقاطعة لتضيف نبضًا حركيًا ولمسة حيوية لتكويناتها المدهشة، وتجمع أحيانًا بين هذا التأثير المفعم بالحيوية، وبين أشكالها الهندسية المحكمة من الدوائر والمساحات الإشعاعية التي تلتقى عند مركز الدائرة مع تدرج الظلال بتمكن مدهش حقًا فى هذه المجموعة الرائعة تعاود فيها الفنانة الالتحام بالطبيعة ولكنها الطبيعة الكونية وليست الأرضية فهي أشكال ذات طبيعة عضوية، ولكنها سديم لا نعرف له أشباهاً. ثم أضافت الفنانة بعداً جديداً لأعمالها حيث لجأت إلي طبع القوالب المحفورة حفراً شديد الغور بدون تحبير لتحدث تأثيرات ملمسية كالحجر والجدران البيضاء وفي المناطق الملونة تعطى انطباعاً بالأجرام الكوكبية السابحة فى سماء لا نهائية تدور في فلك حول قرص مركزى، وأحياناً تضيف خيوطًا على القالب الطباعى لتحقق بصمتها على الورق بينما تحجب الحبر الطباعى عن المناطق شديدة الاقتراب من تلك الخطوط فتصبح كالضوء الذى يجف ويتوازى مع الخطوط المطبوعة ونتيجة لتعاشق تلك الخطوط تشعر بالبعد الثالث والتضفير. وتعكس هذه الأعمال التجريدية الخالصة عن حس صوفى ظاهر.

في السبعينيات حين نشطت منحة الله حلمي أثناء إقامتها الثانية بلندن كانت تيارات «المانيريزم Manarism» والفورماليزم Formalism قوية النفوذ عندئذ ظهرت الاتجاهات «السيبرانية Cybernitic» التي تعتمد على نظريات الإدراك البصرى والأفكار العلمية المتقدمة أكثر من اعتمادها على الفلسفة وعلى الفطرة وبدأت برامج الكمبيوتر جرافيك في تحقيق صياغات بنائية مبرمجة تلعب بالوحدات والأنظمة وبداخلها التركيبية واللونية من خلال متغيرات تجريبية محددة وموجهة وبينما واجه الكمبيوتر جرافيك مقاومة كبيرة لأسباب عاطفية ولأنه لا يتوافق مع الأطر الجمالية القائمة. ولأن برامج الكمبيوتر لم تكن مهيأة بعد للوفاء بالمتطلبات الجمالية والتشكيلية للفنانة، إلا أن المرجعية الرياضية والهندسية لبرامج الكمبيوتر التي كانت متاحة حينئذ قد فتحت أبواباً للفنانين للعمل حتى دون الاستعانة بالكمبيوتر، مستفيدين بالبدائل المتعددة التي تتيحها برامج الكمبيوتر جرافيك. وقد تأثر فنانو الجرافيك في هذه الآونة بذلك التيار البرنامجى العقلانى وكذلك فعلت منحة الله حلمى، إذ حرصت على وضع مخططات بالغة الدقة لكل عمل قبل الشروع فى تنفيذه بصورة مادية على ألواح الزنك، وقد تركت الفنانة وراءها كنزًا من تلك المخططات المدهشة تضم عناصر وتكوينات كل لوحة من لوحاتها، ودونت عليها في أماكن ذات مغزى رموزًا كودية، و إشارات كتابية، وعلامات وأرقاماً تعبر كلها عن خطوات تنفيذ العمل، وعدد الألواح المطلوب إعدادها لتنفيذه، وعدد مرات الغمر في الحمض، ودرجات تركيز الحمض وتوقيتات الغمر، ومراحل العمل، وتجارب على التراكيب اللونية وخطوات الطباعة ومرات التحجيز لعزل مناطق موضعية من القالب لحمايتها من الحفر الحمضى ومنهج التلوين، وراقات الألوان. ومناطق قطع محيط القالب أو تفريغ مواقع فيه، وإشارات دالة على طريقة الطباعة للقالب المعدنى بالغائر أحياناً Intagelo وبالبارز أحياناً أخرى، ومناطق المعالجة برذاذ القلفونية Aquatint أو المعالجات الأخرى للحصول على الملامس كالشمع اللين Soft ground أو الرفع السكر Suger Left، وغير ذلك من التأثيرات المحكمة لإخراج الطبعة النهائية متكاملة واحترافية. وتركت فضلاً عن ذلك عدداً من الكراسات الصغيرة دونت فيها بدقة تامة كل عمل من أعمالها في المرحلة اللندنية الثانية ١٩٧٣ . ١٩٧٩ وبيانات دقيقة عن مواصفاته وتقنياته ومغزاه الرمزى والتعبيرى. كما دونت بياناً

الحياة الشعبية . الانتخابات



بالخامات والأدوات التي اشترتها لهذا العمل بدءاً من ماكينة الطبع، إلى القرص الساخن، إلى صندوق الاكواتنت واللباد والأحبار والورق.

إن التطلع إلى هذا التراث المدون للفنانة يجلى الكثير من أسرار منهجها في التفكير وفي التعامل مع الوسائط، ومع الحسابات الدقيقة للوصول إلى نتائج مختمرة صورتها في الذهن، مرورا بجهد شاق في التجهيز والتخطيط والبروفات، إلى الطبعة التي قد تتطلب أكثر من اثنى عشر لوحا من الزنك لتنفيذها على مدى أسابيع وربما شهور عديدة. غير أن القوة الحقيقية في أعمال منحة الله حلمى الأخيرة تكمن في قدرتها على التملص من حرفية النظم المبرمجة لتدوير العناصر والأشكال في تكوينات منطقية حسابية، كما أفلتت بوعى كبير من فخ ابتكارات الخداع البصرى optical illmsion التى ميزت فن الـ opart وآثرت أن تعتمد على عقلها وأناملها في تخطيط برامجها التكوينية الخاصة خطوة بخطوة، وتجنبت بثقة كاملة الوقوع في المؤثرات الخداعية البصرية. واحتفظت بذلك بحريتها وسجيتها، وعبأت تكويناتها بحس روحانى أثيرى نادر. وهي بذات القدر من الثقة تجنبت الانجذاب للتراث الإسلامى الهندسى بالرغم من توازى العديد من أعمالها مع آيات هذا الفن، واستبعدت تماماً الذوق الفطرى والفلكلورى الذى تركته وراءها في الخمسينيات والستينيات، ومعه التعبير التمثيلى لتنحاز بصورة كلية تجاه التجريد الخالص التوازنات البنائية والإشعاعات المنظورية والتفاعل الهندسى مع العضوى في تآلف نادر المثال وبذلك حققت الفنانة بهدوئها ورزانتها قمة رفعت عليها رايتها دون أي مشابهة مع غيرها. فنانة ذات رسالة حققتها بجدارة غير مسبوقة وبفرادة وأصالة موضع التقدير والإعجاب حققت بها مكانة وطنية مرموقة من خلال تجربة متصاعدة عميقة ومبدعة. ■

النوم
ذلك الموت الصغير

أحـمـــــــد مســـتجـيـر

وَجْهُ حبيبتكَ الجميل يصبح أجملَ إذا تأمَّلْتَـه وهى نائمـة، يغدو طفلاً، يَبِيـنُ منه الجوهر، وجوهرُ الإنسان هو الجمـال. فى النـوم تتـوارى أدران الحياة ويتألّق الجوهر

■■ «إلىَّ يا أيُّها النومُ الرحيبُ العذبُ!
إلىَّ! أبعدنى، ابعدنى عن نفسى المغرورة،
وعن كلِّ ما هو عقيم يتحكمُ فى روحى
فأبتســمُ أو أبكى. فإذا ما وَفَدْتَ، فَلْتَكُنْ
يا نومُ كالموت عميقًا!

باتريك ب. الكزاندر

النومُ هو أكثرُ عمليات الجسم غموضاً. فى النوم العميق ينقطعُ النائمُ عن العالم الحسِّى: لا يسمعُ، لا يشعرُ، لا يتذوق، لا يشمّ، ولا يَرى إذا فُتِحَت له عيناه! نقضى ثُلُثَ حياتنا نائمين: إذا بَلَغْتَ من العمر ستِّين عاماً، فستكون وقد نمتَ منها عشرين عاما! ورغم ذلك فلم يَحْظَ النوم من العلماء بالاهتمام الحقيقى إلا مؤخراً. كلُّ ما نعرفه عن النوم عرفناه خلال الخمس وعشرين سنة الماضية.

النوم ليس شيئاً نملأ به فراغَ الوقت بالخمول. إنه عمليةٌ ديناميةٌ، هو نشاطٌ نحتاجه ليس لنا أن نَرفُضَه، عملية نشطةٌ تتضمن عملياتٍ فسيولوجيةً بالجسم ضرورية. بعد النوم نُدرِكُ أنَّ تغيرات قد حدثت لنا بالفعل، نشعر بالراحة وأننا قد غدونا أنشطَ. النومُ مطلوبٌ لبقائنا.

وَجْهُ حبيبتكَ الجميل يصبح أجملَ إذا تأمَّلْتَه وهى نائمة، يغدو طفلاً، يَبِينُ منه الجوهر، وجوهرُ الإنسان هو الجمال. فى النوم تتوارى أدرانُ الحياة ويتألّق الجوهر.

تناوله الكُتّابُ كثيراً هذا النوم، والشعراءُ منهم بخاصة. هو الموت الصغير عند الكثير منهم! هذا هنرى لونجفيلو Longfellow. W.H يقول: «أواه! لَكَمْ أكره تلك الجرعاتِ الصغيرةَ من الموت». وهذا إيليا أبوماضى يكتب:

إنْ يكُ الموتُ هجوعاً يملأ النفس سلاما
وانعتاقاً لا اعتقالاً، وابتداءً لا ختاما
فلماذا أعشقُ النومَ ولا أهوى الحمَامَا
ولماذا تجزعُ الأرواح منْهُ
لست أدرى!

يرى علماءُ التطور أن دورات مراحل النوم قد وُجِدَتْ لأنَّ النوم قد يصبح خطراً بالنسبة للحيوان غافياً عمَّا يجرى حولَه، ومن الضرورى له أن يتأكدَ من سلامة موقعه ما بين آونةٍ وأخرى. والأغلبُ أن نجـدَ فى الحيـوانات الاجتماعية فرداً أو آخر يبقى طول الوقت قريباً من اليقظة حتى يمكنَه عند الضرورة أو يوقظ الآخرين.

مَـراحـلُ الـنّــوم

لتحديد مراحلِ النوم يعتمد العلماءُ الآن على مقاييس ثلاثة: الأولُ هو النشاطُ الموجىُّ الكلىُّ للمخ كما تقيسه آلة تسجيل مُخَطّط كهربائية المخ (EEG) electroencephalogram، وهذه الآلة توفر ملخصاً للنشاط الكهربائى لأى منطقة من المخ. أما الثانى فهو درجة قوام العضلات، وتقيسه آلة تسجيل مُخَطّط كهربائية العضلات (EMG) electromyogram. والثالث هو نتائج آلة رَصْد حركات العين بمخطّط كهربائية العيـن (EOG) electro-oculogram. ومُخَطّط كهربائية المخ هو أهم هذه المقاييس فى التمييز بين مراحل النوم المختلفة.

من الممكن أن تُقَسَّمَ أنماطُ موجات المخ المختلفة فى اليقظة إلى ضربَيْن: موجات بيتا beta، وترددها يبلغ ١٣ - ١٧ حلقة فى الثانية (ح/ث)، وموجات ألفا alpha وترددها يبلغ ٨ - ١٢ ح/ث. موجات بيتا ترتبط بالنشاط اليومى للمخ، وهى الأعلى تردداً والأدنى فى السعة، كما أن درجة اللا توافق بينها هى الأعلى مقارنة بغيرها من موجات المخ: موجات بيتا ليست متناغمةً تماماً، لأن النشاطَ اليومى للمخ يتضمن الكثير من الخبرات المعرفية والحسية والحركيّة المختلفة.

فى فترات الاسترخاء أثناء اليقظة يبدأ المخ فى توليد موجات ألفا الأبطأ والأكثر سعةً والأكثر تناغماً. الواضح أن الأنشطة التى تُعَزِّزُ نشاط موجات ألفا (كالتأمل) لها مردودها الطيب على الصحة.

يبدأ نشاط المخ أثناء النوم فى منطقة الجسر pons بجذع المخ. يرسل الجسم إشارات إلى الثالامص وإلى قشرة المخ المسئولة عن عمليات التفكير، كما يرسل إشارات لكى تغلق نيورونات الحركة فى الحبل الشوكى، مما يسبب شللاً مؤقتاً يمنع الحركة.

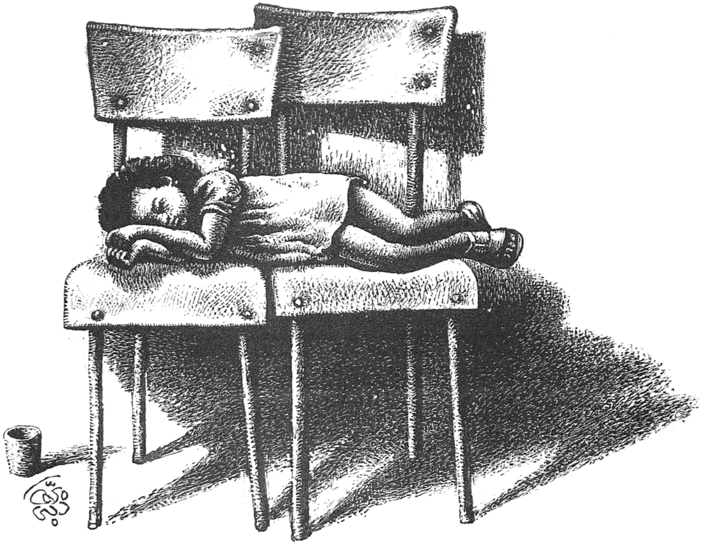
عندما تَدْخُلُ أولى مراحل النوم المسماةَ بمرحلة الوَسَن drowsiness، تبدأ الموجاتُ فى الابطاء فتتحول إلى موجات تسمى موجات ثيتا theta، وتَرَدُّدُها هو ٤ - ٧ ح/ث، وهى أكثرُ بُطئاً من ألفا وأكثرُ سعةً. هذه المرحلةُ الأولى من مراحل النوم هى مرحلةٌ تمهيديةٌ بين اليقظة والنوم، وتستمر عادةً ما بين دقيقة وخمس دقائق، وقد تطولُ كثيراً فى حالة الأرَق، وفيها يستعدُ الجسمُ للنوم، وتترهلُ عضلاتُه. يحدث كثيراً مع التحول نحو ترهل العضلات أن يشعرَ الفردُ بتقلُّصٍ مفاجئٍ فى عضلة الرِّجْل ويحس بأنه يسقطُ فى هاوية.

مع تحول النائم إلى المرحلة الثانية، المرحلة التى تستغرق ٤٥ - ٦٠٪ من وقت النوم، تَظَلُّ موجاتُ ثيتا نشطةً، وإنما تتخللها ظاهرتان تحدثان كلَّ دقيقة أو نحوها وتحددان خصائصَ المرحلة: مِغْزَلُ النوم sleep spindle ويتألّفُ من اضطرامات من موجات سريعة جداً (١٢ - ١٦ح/ث)، ومُعَقَّدات ك complexes k، وهذه ازديادٌ مفاجئٌ فى تردد وسعةِ الموجات.

المرحلتان الأولى والثانية هما مرحلتا النوم الخفيف، والواقع أنك إذا أُوقِظْتَ خلالهما فلن تتذكَّر أنك كنت نائماً.

يتحول النائمُ بعد ذلك إلى المرحلة الثالثة والرابعة من النوم، مرحلتَىْ موجات دلتا delta البطيئة (٣ح/ث)، أو مرحلتَىْ نوم الموجة البطيئة، أو النوم العميقِ الذى يستمر ١٠ - ٢٠ دقيقة، وقد يمتد إلى ٣٠ دقيقة. والواقع أنَّ ليس ثمةَ فاصلٌ حقيقىٌّ بين هاتين المرحلتين سوى أن نسبةَ موجاتِ دلتا فى المرحلة الثالثة تشكّل ٢٠ - ٥٠٪ من مجموع الموجات، بينما تزيد النسبةُ عن ٥٠٪ فى المرحلة الرابعة. وأعمقُ النوم هو نومُ دلتا، ففيه تكون موجاتُ المخ أبعد ما تكون عن موجاته أثناء اليقظة، ومن ثَمَّ يصعبُ إيقاظُ النائم. فإذا ما أُوقِظ فقد يتطلب الأمرُ بضعَ دقائق قبل أن يدرك ما يجرى حولَه! والعجيبُ أن نومَ دلتا هذا هو الوقتُ الذى يحدث به عادةُ المشىِ أثناءَ النوم، ورعبُ النوم، والكلامُ أثناء النوم. يشغلُ نومُ دلتا ما يصل إلى ٤٠ - ٥٠٪ من فترة نوم الأطفال، الأمرُ الذى يُفَسِّر صعوبةَ إيقاظ الطفل.

بعد المرورِ فى هذه المراحل الأساسية الأربعة للنوم، والتى تُعرف باسم النوم اللاَّريمى، تأتى المرحلةُ الخامسة والأخيرةُ فى الدورة، وهى مرحلةٌ متفردةٌ تسمى مرحلةَ نوم الحركات العَيْنيَّة السريعة Rapid Eye Movement



(REM) أو نوم الرِّيم، وفيه تتحرك العينُ باندفاعٍ يمكنُ رصدُهُ. هى لا تتحرك على الدوام، وإنما تندفع إلى الخلف وإلى الأمام، أو إلى أعلى وأسفل، ثم أنها تتوقفُ فجأةً لتنطلقَ ثانيةً إلى الخلف وإلى الأمام. تتحرك العينان سوياً فى نفس الاتجاه كما يحدث أثناءَ اليقظة. يعتقد بعضُ العلماء أن حركةَ العينين هذه إنما تتعلق بِصُوَرٍ يراها النائمُ فى حُلْمِه، لكن السببَ فى حدوثها أو وظيفتَها، إن كانت لها وظيفةٌ، لا يزال مجهولاً.

تستغرقُ مرحلةُ الريم نحو ٢٠٪ من فترة النوم الطبيعى أثناء الليل، وتتميز أيضاً بِفَقْدٍ فجائىٍّ لِقَوَامِ العضلات. والواقعُ أن العضلاتِ الهيكليةَ التى تُحَرِّكُ أجسادَنا (كعضلات الذراعين والرِّجْلَيْن) تكون مشلولةً فى نوم الريم (ولا هكذا يكون الوضع فى النوم اللاريمى). ينشأ هذا الشللُ عن افراز حامض الجلايسين الأمينى glycine من جذع المخ على النيورونات الحركية. لكن هناك بالطبع عضلاتٍ هامةً أخرى تستمر فى عملها، مثل عضلاتِ القلب والحجاب الحاجز وعضلات العين، والعضلات الملساء كتلك الخاصة بالأمعاء والأوعية الدموية.

أهم ما يميز مرحلةَ نوم الرِّيم هذه هو أنها الأكثرُ ارتباطاً بالأحلام. عندما أيقظَ الباحثون البعضَ أثناء نوم الريم، وسألوهم عن أحلامِهِم وجدوا أن الغالبيةَ العظمى منهم يتذكرون الحُلْمَ، أما إذا أُوقظ الفردُ فى مرحلةِ نوم اللاريم فالعادة ألاَّ يتذكرَ أحلامَهُ. مرحلةُ نوم الريم مرحلةٌ تتميز بمخٍّ نشطٍ فى جسمٍ مشلول. أنت تَحْلَمُ وجِسْمك لا يَنَفِّذ أحلامَك، وإلا آذيتَ نفسَك أو آذيتَ غيرَك.

تستمر هذه المرحلةُ من النوم ١٠ . ٢٠ دقيقة، بعدها يعود النائمُ ثانيةً إلى المرحلة الثانية، وتكون دورةُ النوم قد انتهت. قد يمر الشخصُ بأربع أو خمسٍ أو ست دوراتِ نوم فى الليلة، يستغرق كلٌ منها نحو ٩٠ دقيقة (وتكون ٥٠ دقيقة فقط فى المواليد). يكون النومُ العميق، نومُ دلتا، فى كل دورة أقلَّ منه فى الدورة التى تسبقه، حتى ينتهى بعد بضع دورات. بذا يقع معظمُ النومِ العميقِ فى النصفِ الأول من النوم، ويتزايد طولُ نوم الريم فى كل دورةٍ فى النصف الثانى.

من المثير أن نذكر أن مرحلةَ نوم الريم المتفردةَ هذه، التى ترتبط بالأحلام، لم تُكْتَشَفْ إلا فى عام ١٩٥٣، على يَدَى يوجين أسيرينسكى Eugene Aserinsky وأستاذه ناثانيل كلايتمان Nathaniel Kleitman. وقد فتح اكتشافُهما هذا عالماً جديداً لدراسة النوم، فقد كان العلماءُ قَبْلَهُ يظنون أن النومَ مجردُ رحلةِ نعاسٍ وسكونٍ وخمود، يصمتُ فيها الجسم، رحلة لا تُهِم كثيراً.

أولى دوراتِ النوم إذن تتميز بفتراتِ ريمٍ قصيرة، وفتراتِ طويلةٍ من النوم العميق. ثم ينقلب الأمرُ مع التوغلِ فى الليل، فتصبحُ الدوراتُ الأخيرةُ طويلةَ الريمِ قصيرةَ النومِ العميق، حتى إذا ما اقترب الصباحُ كان معظمُ النوم فى المرحلتين الأولى والثانية ونومِ الريم، وتصبحِ المرحلتان الثالثةُ والرابعةُ قصيرتين جداً. لكنَّ ما يجعلُك تستيقظُ فى الصباحِ منتعشاً هو عددُ دوراتِ النوم التى مررتَ بها.

يحتاج المواليدُ إلى ١٦

ساعة نوم يومياً. وفى عمر ٦ شهور.٣ سنوات يقل وقت النوم ليصبح فى المتوسط نحو١٤ ساعة. المراهقون يحتاجون إلى ٩ ساعات من النوم أثناء الليل، والنوم بالنسبة لهم مهم جداً، حيث أثناءه يفرز هرمون النمو بكميات كبيرة من الغدة النخامية. تصل الكمية إلى أقصاها بعد ساعة من النوم، ثم تبدأ بالتدريج فى الانخفاض. المراهق يحتاج النوم لينضج جنسياً.

ومع تقدم العمر يقل طول فترة النوم بالليل. يحتاج الإنسان الناضج إلى ما بين ٧ و٨ ساعات من النوم فى الليلة. وتقول مذكرات بعض من كتبوا فى العصر الفيكتورى، قبل استخدام الإضاءة الكهربائية، إن البالغين كانوا ينامون ٩. ١٠ ساعات فى الليلة!

صحيح أن هناك من يكفيه ٥ أو ١٠ ساعات من النوم، لكن دراسة حديثة تقول إن مرض السكر يكون أكثر انتشاراً بين من ينامون أقل من ٦ ساعات أو أكثر من ٩ ساعات، مقارنة بمن ينامون ٨.٧ ساعات. قلة النوم قد تكون نذيراً بمرض السكر. ثم إن هناك أبحاثاً كثيرة تشير إلى وجود ارتباط معنوى بين السمنة وقلة ساعات النوم: احتمال السمنة بين من ينامون ٤ ساعات فى الليلة تكون أكثر بنسبة ٧٣٪ مقارنة بمن ينامون ٨.٧ ساعات، أما من ينامون روتينياً ٦.٥ ساعات فيكون احتمال الزيادة ٢٣. ٥٠٪. ثمة علاقة بين قلة النوم ومستويات هرمون اللبتين leptin، الهرمون الذى ينظم الشهية. من ينامون روتينياً أقل من ٥ ساعات تفرز أجسادهم من اللبتين قدراً أقل بنسبة ١٥٪، يترجم إلى زيادة الاحساس بالجوع، ومن ثم النهم فى الأكل.

يتغير نمط النوم مع تقدم العمر كما قلنا، إذ ينخفض الوقت الذى يقضيه الفرد فى أعمق مراحل النوم (المرحلتين الثالثة والرابعة من النوم اللاريمى). المولود يقضى نصف وقت نومه الكلى فى نوم ريمى، بل الحقيقة أنه يدلف مباشرة إلى نوم الريم عندما ينعس. وعلى عمر سنتين يشكل النوم الريمى ٢٠. ٢٥٪ من وقت النوم الكلى، ليظل الأمر هكذا بقية الحياة. هناك أمراض، كالألزهايمر والباركنسون، تتسبب فى تقليل طول فترة نوم الريم.

النوم والتغيرات الفسيولوجية

لكى يغلبنا النعاس لابد أن تنخفض حرارة الجسم. فالواقع أن حرارة الجسم ودورة النوم/ اليقظة مرتبطتان بإحكام، وهذا هو السبب فى اضطراب النوم فى ليالى الصيف الحارة. آلية تدفق الدم التى تنقل الحرارة فى الجسم، تعمل كأفضل ما يكون فيما بين ١٨° و٣٠° م، ولكن مع التقدم فى العمر يصبح المجال أضيق (٢٣ . ٢٥° م)، وهذا هو السبب فى أن تنتشر أمراض النوم بشكل أوسع فى كبار السن.

فى النوم اللاريمى ينخفض نشاط المخ، ويبطؤ النبض، وينخفض ضغط الدم. ويبقى تدفق الدم إلى المخ كحالته فى اليقظة، كما يبقى معدل التنفس على حاله بينما تنخفض حرارة الجسم. أما فى النوم الريمى فيتزايد نشاط مناطق الحركة والإحساس بالمخ، ويزداد معدل النبض عنه فى النوم اللاريمى بنسبة قد تصل إلى ٣٠٪، ويزداد تدفق الدم إلى المخ بما يزيد عنه فى النوم اللاريمى بنسبة تتراوح ما بين ٥٠ و٢٠٠٪ (حسب مناطق المخ المختلفة)، ويرتفع معدل التنفس. ولكن قد يتخلله انقطاع النفس. كما تكتم الكحة. أما بالنسبة لحرارة الجسم فتقترب من حرارة الجو المحيط: فلا ارتجاف ولا عرق!

طول فترة النوم فى الحيوانات

يختلف طول فترة النوم الطبيعية بين أنواع الحيوانات اختلافاً بيناً: فهو فى القطة والفأر ١٢ ساعة، وفى الأرنب ١١.٤ساعة، وفى الكلب ١٠.٦ ساعة، والشمبانزى ٩.٧ ساعة (كإنسان العصر الفيكتورى!)، وفى البقرة ٤ ساعات، وفى الأغنام ٣.٨ ساعة (تستطيع الماشية والأغنام والفيلة أن تنام واقفة، لكنها فى هذا الوضع لا تدخل إلى نوم الريم، ولكى يحدث هذا لابد للحيوان أن يرقد. النوم والحيوان واقف ليس نوماً كاملاً)، وفى الفيل ٣.٥ ساعة، وفى الحمار٣.١ ساعة، وفى الحصان ٢.٩ ساعة وفى الزرافة ١.٩ ساعة!

النوم... لماذا؟

تشير التجارب على الحيوانات إلى أن النوم أمر أساسى للبقاء. خذ التجارب التى أجريت على الجرذان. تعيش هذه الحيوانات عادة سنتين أو ثلاثة، فإذا حرمت من نوم الريم فإنها تحيا خمسة أشهر فقط، أما إذا حرمت من النوم كلية فلن تعيش إلا ثلاثة أسابيع. وحرمان الإنسان طويلاً من النوم يؤدى إلى البارانويا والهلوسة. ما هى وظيفة النوم حقاً؟

هل هى ترميم وتجديد أجهزة الجسم بعد ما بذلته فى استهلاك الطاقة أثناء اليقظة؟ يبقى المخ نشطاً أثناء النوم، لكن معدل الأيض يقل. سوى أننا لا نمتلك قرائن علمية تقول إن ما يجرى فى النوم من ترميم وتجديد يزيد عما يتم فى أوقات الراحة فى اليقظة. ففيم يختلف النوم عن أوقات راحتنا والاسترخاء فى النهار؟ نعم، ينخفض تخليق البروتين فى الجسم كله، لكن هذا يرجع إلى أن فترة النوم هى فترة نصوم فيها عن الأكل.

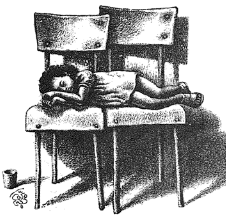
أيكون النوم وسيلة للحفاظ على الطاقة؟ ترتكز هذه الفكرة على حقيقة أن الأيض ينخفض أثناء النوم. تصيبنا الأمراض المعدية بالنعاس. وقد يكون ذلك لأن ثمة جزيئات تسمى السيتوكينات cytokines تنظم عمل الجهاز المناعى (وهى من أقوى المواد التى تجلب النوم). ربما سمح النوم للجسم بأن يحفظ الطاقة وموارد الجسم الأخرى، ليستخدمها الجهاز المناعى فى مقاومة العدوى، إن كان ثمة.

أم يكون النوم لترسيخ الذاكرة؟ الفكرة هنا تقول إن النوم يعزز التعلم والذاكرة، ويساعد فى نفس الوقت فى محو الذكريات غير المطلوبة ونسيانها (نام لننسى!). تغمرنا الخبرات والأفكار أثناء النهار، البعض منها يستحق أن يحفظ لنذكره، والبعض لا يلزم أن يحفظ. ربما ساعدنا النوم فى إعادة ترتيب كل الخبرات والأفكار ليخزن منها ما يلزم ويهمل ما لا يهم. ثمة دراسة أجريت على الطيور المغردة ظهرت مؤخراً تقول إن النوم قد يلعب دوراً هاماً فى التعلم. اتضح أن الطيور التى تستمع وهى نائمة إلى تسجيل لأغنياتها تضطرم نيوروناتها بنمط قد يكون مطابقاً لنمط الغناء، وإن لم تصدر صوتاً. يعتقد الباحثون أن الطائر يحلم بالغناء، فيعيد الأغنيات ويكررها، ويقوى النمط العصبى المطلوب ليصدح بالأغنية. يبدو أن النوم مهم لتعلم الإنسان أيضاً. إن من ينعم بالنوم اللاريمى العميق فى النصف الأول من الليل، وبالنوم الريمى فى النصف الثانى تتحسن قدرته على التذكر، وهذا يقترح أن نوم الليل الكامل يلعب دوراً فى التعلم:

تتزايد بالفعل الشواهد من الأبحاث على أن المخ يستخدم وقت النوم فى توطيد الذكريات التى اكتسبت أثناء النهار. اختبر ١٢ متطوعاً فى تجربة استمعوا فيها إلى كلمات تعمد الباحثون أن تكون صعبة الفهم. رأى المتطوعون الكلمات مكتوبة فى البداية، ثم طلب منهم فيما بعد أن يتعرفوا عليها بالسماع فقط. اتضح أن القدرة على تذكر الكلمات الصحيحة تقل رويداً رويداً حتى نهاية اليوم. ثم أعيد اختبار المتطوعين عقب ليلة نوم جيد، فتذكروا بعض الكلمات التى كانوا قد «نسوها» فى المساء السابق. «النوم يوطد الذكريات، ويحميها من التآكل». النوم على ما يبدو «يسترجع» الذكريات. إذا انخفض الأداء بالتآكل، فبالنوم نستعيد ما فقد. النوم يساعد فى «انضاج» بعض الذكريات، كما أنه «يشذب» أيضاً الذكريات غير المهمة. فى النوم اللاريمى يستعيد المخ الذكريات بل وقد يضخمها، وفى النوم الريمى يقدح زناد تعبير جينات معينة فتخزن وتوطد ما عولج فى النوم اللاريمى.

إذا انهمكت تتدرب على ممارسة ما، ثم وجدت أنك بعد التدريب لا تتقنها بالصورة التى ترضيك، فستنسى القضية، ثم تتعجب إذ تجد بعد فترة أنك تتقنها! شئ ما حدث وجعلك تتقنها. الغريب أن الأداء لا يتحسن مباشرة بعد التدريب، وإنما بعد بضع ساعات أو حتى بعد بضعة أيام. وجد الباحثون أن النوم ضرورى بعد التدريب، لتحسين الأداء. مرور الوقت فى حد ذاته لا يكفى. النوم فى الليلة التالية للتدريب هو الذى يحسن الأداء. النوم هو الأمر المهم. النوم بعد التعلم مباشرة يكون تأثيره. كما تقول الأبحاث. أفضل من النوم فى أى وقت آخر. «أجل عمل اليوم إلى الغد» فيتحسن أداؤك!!

هل كان النوم يحمى إنسان الغابة من الافتراس؟ السكون أثناء النوم يقلل من تعرض الفرد للمفترسات، سوى أنه يقلل فى نفس الوقت من الاحساس بالعالم



الخارجي، ومن ثمَّ يزيد من احتمال السقوط ضحية للمفترسات!

هل يساعد النوم في تنامي المخ؟ يبدو أن هذا التنامي يرتبط بنوم الريم الذي يكون طويلاً في الجنين وفي الوليد، ومرحلة النوم هذه قد تتدخل كثيراً في تكوين الاقترانات (التشابكات) العصبية بالمخ.

هل يسهم النوم في تفريغ العواطف؟ ربما كان نوم الريم هو الذي يوفر التنفيس الآمن للعواطف، يحميه الشلل العضلي الذي يحدث أثناءه، فلا يسمح بتنفيذ ما نحلم به. ثم ان مناطق المخ التي تتحكم في العواطف واتخاذ القرارات والتفاعلات الاجتماعية، يقل عملها أثناء النوم، الأمر الذي يحررنا من الضغوط التي تحدث في اليقظة.

الساعة البيولوجية

هناك في جسم الإنسان ساعة بيولوجية biological clock تنظم توقيت نومه، تجعلنا ننام في الليل ونستيقظ في النهار. تدور هذه الساعة فترة تبلغ نحو ٢٤ ساعة يومياً (تزيد نحو ٢٠،١٠ دقيقة) لذا تسمى الساعة النحويومية circadian، وهي توجد في النواة فوق التصالبية superchiasmatic nucleus المستقرة في الهيبوثالامس hypothalamus بالمخ. الساعة تركيب دقيق للغاية يتألف من عنقودين في حجم رأس الدبوس، كلٌ يحتوي على نحو عشرة آلاف خلية عصبية (نيورون neuron) (من بين مائة بليون نيورون تؤلف المخ).

الساعة البيولوجية جهاز فسيولوجي مبرمج وراثياً يسمح للكائن الحي بأن يحيا متناغماً مع الإيقاعات الطبيعية المنتظمة، مثل دورة النهار/الليل، أو تغير فصول السنة. وأهم وظائفها هي تنظيم الجسم ليتوافق مع الايقاعات البيولوجية مثل دورة النوم/اليقظة. تتحكم الساعة أيضاً في الدورات التناسلية لبعض الحيوانات، لقدرتها على تعقب التغيرات في طول ضوء النهار وظلمة الليل، كما تلعب أيضاً دوراً في البيات الشتوي لبعض الحيوانات وفي هجرة الطيور.

هناك نوعان من الايقاعات الطبيعية: نوع خارجي المنشأ، ويأتي مباشرة عن ايقاع خارجي بالبيئة، يولّد ايقاعات في الكائن ذاته. إذا أزيل المؤثر الخارجي توقفت. أما الايقاعات داخلية المنشأ فتأتي عن ساعة بيولوجية مكتفية بذاتها لا تعتمد على شئ خارج الجسم: التذبذب في حرارة الجسم ايقاع داخلي يبقى حتى لو تغيرت الظروف الخارجية.

ولما كان للساعة النحويومية في معظم الناس طول يوم طبيعي، فلابد أن يُعاد ضبطها لتتوافق مع دورة الليل/النهار، أي الضوء/الظلام. الضوء هو الذي يُزامن الساعة البيولوجية الداخلية مع الدورة البيئية. مستقبلات الضوء بالشبكية تنقل إلى النواة فوق التصالبية إشارات معينة، وهناك تتفاعل الإشارات مع بضعة جينات تعمل كضابط ايقاع.

تكتشف العين الضوء عن طريق عُصَيّات الشبكية وخلاياها المخروطية التي تقوم بصياغة الصور المرئية. ظل العلماء لسنين طويلة يعتقدون أن الساعة النحويومية تُضبط بمساعدة الرودوبسين rhodopsin. وهذا بروتين يكشف الضوء موجود في العصيات والمخاريط بالشبكية، لكنهم عثروا مؤخراً على شواهد تشير إلى وجود جهاز خاص بالعين لكشف الضوء، ويعتقدون أن هذا الجهاز يقوم بتقدير الاشراق brightness للمساعدة في ضبط ساعتنا الداخلية.

هناك بروتين يسمى ميلانوبسين melanopsin يعتبر أساسياً لهذا الجهاز، ويرى العلماء أن نسبة محدودة من الخلايا الحساسة للضوء بالكتلة العصبية بالشبكية تحتوي على الميلانوبسين وتنقل الإشارات إلى الساعة الحاكمة بالمخ.

اقترحت إحدى الدراسات منذ بضع سنين أن تعريض ظهر الركبة إلى الضوء قد يُعيد ضبط دورة النوم/ اليقظة، لكن دراسة حديثة بيّنت أن هذا غير صحيح وأكدت أن الضوء لابد أن يمر خلال العين حتى يؤثر على ساعتنا الداخلية.

تتحكم الساعة النحويومية بالنواة فوق التصالبية في إفراز الميلاتونين melatonin من الغدة الصنوبرية pineal: يرتفع مستوى الميلاتونين أثناء الليل وينخفض في الفجر في الأنواع الليلية والنهارية من الحيوانات، لذا يُطلق عليه اسم «هرمون الظلام». تتحكم النواة هذه في توقيت إفراز الميلاتونين، الذي يعود بدوره إلى النواة وينظم نشاطها. في الثدييات مثلاً سنجد أن مستقبلات الميلاتونين بالمخ موجودة بالنواة فوق التصالبية، وقد أوضحت التجارب أن الحقن بالميلاتونين يتسبب في تحولات بالإيقاعات النحويومية في عدد من الأنواع الحيوانية مثل الجرذان والأغنام والطيور والبشر، وتكون الآثار أوضح إذا ما أعطي الميلاتونين في غياب موجات الضوء. وعلى هذا سنجد أن حقن الأعمى بالميلاتونين يساعد في ضبط ساعته البيولوجية.

عُرف عن الساعة البيولوجية عام ١٩٥٠، عندما لاحظ العلماء أن طائر الزرزور يستخدم الشمس في الهجرة، فثمة ساعة بيولوجية توجّه الطائر مع تغير الشمس. وكان أول جين يُكتشف لهذه الساعة هو الجين بيريود (بير period (per) في ذبابة الفاكهة (الدروسوفيلا)، وذلك في عام ١٩٧١ (حُدّد التتابع الدناوي لهذا الجين عام ١٩٨٤). والحق أن الكثير مما نعرفه عن تنظيم الساعة البيولوجية قد جاء عن دراسات على هذه الذبابة. وبعد جين بير اكتُشف جين تيمليس (تيم) timeless (tim)، واتضح أن الجينين يدوران مع الايقاع النحويومي. ينشط الجينان مبكراً في الليل وينتجان الرنا المرسال m RNA الذي يرحل خارج نواة الخلية إلى السيتوبلازم حيث يترجم إلى بروتينين هما TIM و PER. يتراكم البروتينان في السيتوبلازم، وعندما يصل تركيزهما إلى حد معين، يرتبطان سوياً ليتشكل مركب جديد يدخل إلى نواة الخلية. في النواة يرتبط هذا المركب بالجينين بير وتيم، ليكبت النسخ منهما، فيتعطل نشاطهما ويوقف إنتاج البروتينين. هي إذن أنشوطة تغذية مرتدة سلبية. بعد فترة يتحلل المركب البروتيني ويبدأ الجينان في النسخ مرة أخرى.

اكتُشفت في ذبابة الفاكهة جينات تُسرع من ايقاعات الساعة النحويومية أو تبطئ منها أو تمحوها. كُشف عن ثلاث طفرات في جين اسمه كلوك clock: طفرة تُنتج حشرات تختفي فيها الايقاعات النحويومية، وطفرة تكون فيها الدورة ١٩ ساعة، وطفرة يصل فيها طول الدورة إلى ٢٩ ساعة، بدلاً من الأربع وعشرين ساعة الطبيعية.

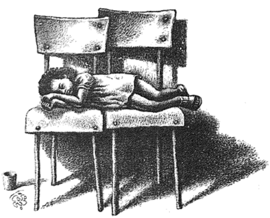
من المثير أن نذكر أن جينات شبيهة قد عثر عليها في الثدييات، وتقول الدراسات إن الساعة بالثدييات تعمل تقريباً بنفس طريقتها في ذبابة الفاكهة. عثر العلماء على أول جين في الثدييات عام ١٩٨٨، بعد أن اكتشفوا حيوانات هامة لها دورة نحويومية طولها ٢٠ ساعة. وفي عام ١٩٩٧ اكتُشف جين كلوك في الفأر، وحُدّد موقعه وتمت سلسلة دناه. وفي عام ٢٠٠١ اكتشف العلماء أول جين بشري للساعة البيولوجية أثناء دراستهم لمرض بشري يغلب فيه النوم المريض مبكراً جداً ليستيقظ تلقائياً قبل الفجر بساعات.

الجين البشري الطافر hPer2 مسئول عن نمط وراثي من النوم يُسمى «متلازمة طور النوم المبكر العائلي» (FASPS). من تظهر به هذه المتلازمة يُسمى «قُبَّرة الصباح»، إذ يبدأ النعاس في السابعة مساء ويستيقظ في الثانية صباحاً. هناك طفرة أخرى هي hPer3 يصبح بها الفرد «بومة المساء»، إذ ينام متأخراً جداً في الليل، ويجد صعوبة بالغة في الاستيقاظ في الصباح.

عندما تُزال الساعة الحاكمة من الجرذان تفسد الدورة اليومية للنشاط والنوم، والمعتقد أنها تُزامن الساعات «المحلية» في الأعضاء والأنسجة المختلفة من الجسم، إما عن طريق الهرمونات أو بتغيير حرارة الجسم. ولقد عُثر بالفعل على ساعات تشغلها الجينات مستقلة عن الساعة الحاكمة، في الكبد والرئة والخصية والأنسجة الضامة والعضلات، ومثل هذه الساعات «المحلية» المستقلة توجد بذبابة الفاكهة في قرون الاستشعار، فلهذه ايقاع نحويومي مستقل عن ساعة المخ الحاكمة. ذبذبة قرون الاستشعار ترتبط بحاسة الشم التي تكون أكثر حساسية في الليل عنها في النهار.

الشيخوخة قد تُفسد تَزامُن الساعات «المحلية» عبر الجسم، وتزامنها مع ساعة المخ الحاكمة. تقول نتائج البحوث إن النشاط الكهربائي بالساعات البيولوجية الداخلية لكبار السن من الجرذان، لا يكون في نفس انتظامه في صغارها، وعلى هذا سنجد أن الجرذ العجوز يفعل ما يفعله كبار السن منا: يُقيّل أثناء النهار!

ربما ساعدت جينات



الساعة البيولوجية يوماً في علاج السرطان. هناك ٨ جينات على الأقل من هذه الجينات تُنَسِّق الوظائف الطبيعية في الجسم، مثل تضاعف الخلايا (غير المحكوم في السرطان) وانتحار الخلايا (الذي يُعطَّل في خلايا الورم السرطاني). ظهر من البحوث أن إزالة الجين mPer2 من خلايا الفأر يجعلها سرطانية، ولا تنتحر. فإذا كانت جينات الساعة البيولوجية تلعب بالفعل دوراً في السرطان، فمن الممكن أن تُستهدف لإنتاج أدوية جديدة توقف هذا المرض.

شلل النوم

يحدث أحياناً أن تستيقظ فجأة في أعماق الليل يخالجك الشعور بأن شراً ما يحيط بك. لا تستطيع التنفس. تحس بأن هناك من يضغط على صدرك ويحاول أن يخنقك. تُصاب بالذعر عندما تكتشف أنك لا تستطيع أن تتحرك.

تحس بشلل النوم هذا إذا استيقظت لسبب أو لآخر في مرحلة نوم الريم، يستيقظ مخك في حالة نصف ريم، بينما جسدك لا يزال مسترخياً نصف مشلول. تقع فريسة ما بين عالم الواقع وعالم هلوسة الأحلام. ثم لا تستطيع أن تصل إلى هذا ولا ذاك. «تكافح» كي تتحرر فلا تستطيع. يزداد خوفك وتشعر وكأن عجوزاً شمطاء تجلس على صدرك. وفي الوقت الحرج، وقبل أن تتمكن منك الشمطاء، يفرز جسمك دفقة من الأدرينالين تخرجه من الشلل.

تصيب هذه الحالة نحو ٢٥٪ من الناس، ويخبر الغالبية العظمى من هؤلاء رعباً هائلاً قلّما يتحدثون عنه إذ لا يحبون مناقشته حتى لا يعتقد السامع أنهم قد أصيبوا بخلل عقلي!

تقول الأبحاث الطبية إن شلل النوم ليس على وجه العموم مؤذياً، إنه لا يستغرق سوى بضع ثوان، وقد يطول ليصبح بضع دقائق، لكن من يخبره سيعتقد أنه قد استمر ساعات. تشير نتائج التجارب إلى أن احتمال حلول هذا الشلل بين من ينامون على ظهورهم يبلغ خمسة أضعاف احتمال ظهوره بين من ينامون في أي وضع آخر. إذا تجنّبت النوم على ظهرك قلّ شلل النوم كثيراً. فإذا ما وقعت فريسة له فما عليك إلا أن تحرك جزءاً من جسدك، رأسك مثلاً أو إصبعك أو أحد أصابع قدمك، أو حتى أن «تبربش» بعينيك. هذا يكفي «كعلاج». طيب في الحقيقة، بل ويمكنك أن تقوم بهذا في عقلك إذا لم تستطع أن تحرك رأسك أو إصبعك. حاول فقط أن تتخيل أنك تحرك رأسك أو إصبعك لتبقي عقلك نشطاً بما يكفي كي يدرك جسدك الأمر فيتحرك لإيقاظك وينتهي الشلل.

هناك عائلات يجري فيها شلل النوم هذا، الأمر الذي قد يشير إلى أنه وراثي، لكن الكثيرين يعتقدون أنه يأتي نتيجة لمشاكل سيكولوجية أو بيئية.

الأحلام

في الليلة التي ينام فيها جيداً، يقضي الفرد نحو ساعتين وهو يحلم. قد تتذكر بعض الأحلام عندما تستيقظ إذا كانت ذات طبيعة استثنائية شاذة، لكن هناك من الأحلام ما يعكس خبرات واقعية. ورغم ذلك فإن أحلام نوم الريم عادة ما تكون خبرات جديدة إبداعية، كالأعمال الروائية كلّها كلمات وأحداث وأفكار وإحساسات خيالية، وليست مجرد سرد لأحداث واقعية. لا يبدو أن لمؤثرات ما قبل النوم أثراً كبيراً على محتوى الحلم. لكن المصدر الذي يُستقى منه الحلم لا يزال مجهولاً.

يعتقد معظم العلماء أن الأحلام تحدث لكل البشر بنفس التكرار تقريباً: وعلى هذا فإذا اعتقد البعض أنهم لا يحلمون أو أنهم قد حلموا مرة واحدة فقط في ليلة معينة، فإنما يكون هذا لأن تذكّرهم للأحلام قد خفَت أو تلاشى من الذاكرة.

يُفتح نوم الريم ويُغلق عن طريق منطقة الجسر Pons بالمخ. أما ما ينظم الأحلام فمنطقتان بعيدتان عن الجسر (وتتحكمان في وظائف عليا بالمخ)، من هنا يمكن أن يُفصل النوم عن الحلم، كما يحدث أحياناً عند تعاطي مخدرات معينة، أو عندما يحدث عطب ما في الجسر، فيفقد الفرد نوم الريم ولا يفقد الحلم، أو عندما يحدث عطب في مناطق أمامية من المخ فيفقد الفرد الحلم ولا يتأثر نوم الريم. أمكن باستخدام تقنيات التفريس scanning تحديد مناطق المخ التي تنشط أثناء أحلام الريم، أما المناطق التي تكون خاملة أثناء الحلم فتشمل تلك التي تنظم الذكاء والوعي والاستدلال المنطقي. لا تزال أهمية الأحلام لصحة النائم مجهولة، وكذا معنى الأحلام.

الجيت لاج

من بين النتائج السلبية للساعة البيولوجية هناك ما يصيب المسافرين عبر مناطق زمنية مختلفة، والذي نعرفه باسم الجيت لاج jet lag، والذي يتسبب في الإفراط في النوم، وفقدان التركيز، وضعف التحكم الحركي، والاستجابة البطيئة للأحداث، والغثيان، وضيق الصدر. تحدث الجيت لاج عندما تعجز ساعتنا النحويومية عن التكيف مع التغير في إماعات الضوء التي يمر بها الشخص عندما يعبر بسرعة مناطق زمنية مختلفة. يقع الجسم عندئذ في «لخبطة». الساعة البيولوجية تحمل الإيقاع المهيأ لمنطقة الزمن الأصلية، وهذا يختلف عن إماعات الضوء في المنطقة الزمنية الجديدة. هذا اللاتزامن يؤثر في دورة النوم/اليقظة، وغيرها من الدورات: تخرج كل دورات الجسم عن التوافق، ويتطلب الأمر بضعة أيام حتى يتم ضبط الساعة حسب المنطقة الزمنية الجديدة. الاختلاف في ساعات ضوء النهار سيعيد ضبط الساعة الداخلية.

السفر نحو الشرق يتسبب عادة في جيت لاج أقسى من السفر نحو الغرب، لأن السفر شرقاً يتطلب أن نقصر يومنا، ويتطلب إشارات وقت تحدث أبكر مما تعودت عليه ساعتنا البيولوجية. ساعتنا النحويومية على ما يبدو تكون أقدر على التكيف مع يوم أطول منها على التكيف مع يوم أقصر. ربما وجدنا هذا واضحاً عند بدء التحول إلى التوقيت الشتوي (في بداية الخريف)، عندما يصبح طول اليوم الأول ٢٥ ساعة، ففيه يجد الجسم أن التحول أسهل منه عند التحول إلى التوقيت الصيفي (في بداية الربيع) عندما يصبح طول اليوم الأول ٢٣ ساعة.

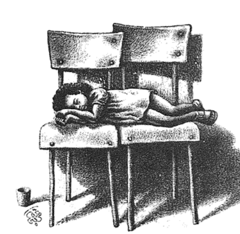
التثاؤب

نتثاءب عندما نصحو من النوم ونحتاج إلى الحركة، ونتثاءب عندما نستعد للنوم. يتثاءب الجنين في بطن أمه وعمره ١١ أسبوعاً. يبدأ الوليد في التثاؤب بعد ولادته ببضع دقائق. الرياضيون يتثاءبون عند بداية المباراة، المظليون يتثاءبون قبل القفز من الطائرة، الطلبة يتثاءبون قبل الامتحان، الموسيقيون يتثاءبون قبل بداية العزف. لكن مرضى الشيزوفرانيا نادراً ما يتثاءبون. التثاؤب، كالابتسام والضحك يُعدي. لكن الأطفال قبل سن الثانية لا يتثاءبون بالعدوى. الشمبانزي والقردة العليا تتثاءب مثلنا، والقطط أيضاً.

كانت الفكرة الشائعة هي أننا نتثاءب لحاجة الجسم إلى الأكسجين أو بسبب زيادة نسبة ثاني أكسيد الكربون في الدم. أما السبب في أن التثاؤب يُعدي فهو أن الموجودين في نفس المكان يحتاجون هم أيضاً إلى الأكسجين. لكن بروفاين Provine سنة ١٩٨٧ أثبت أن هذا خطأ. إن صورة شخص يتثاءب قد تدفعك إلى التثاؤب، بل ويكفي حتى صوت شخص يتثاءب. يبدأ نحو نصف الكبار (٤٢ . ٥٠٪ منهم) في التثاؤب مباشرة عند مشاهدة أفلام فيديو عن التثاؤب. ولقد تتثاءب وأنت تقرأ هذا!!

التثاؤب عملية لا إرادية. وجد الباحثون سنة ٢٠٠٥ أن ثمة تعطيلاً واضحاً لمنطقة بالمخ حول الأميجدالة يزداد مع تهيؤ الفرد للتثاؤب بعد رؤية آخر يتثاءب. هذه المنطقة من المخ ترتبط بالتحليل اللاشعوري للتعبيرات العاطفية في الوجه. لكن لا أحد يعرف لماذا يتعطل نشاطها مع عدوى التثاؤب.

يأتي التثاؤب استجابة لمجال واسع من المسببات: الاقتراب من النعاس، الاستيقاظ من النوم، الجوع، الضجر، الهلع، التعب، الإجهاد، ويكون أشد وأقوى في الصباح الباكر عنه في الليل. يستمر التثاؤب فترة تتراوح ما بين ٥ و١٠ ثوان، وهو في الذكور أقوى منه في الإناث وأطول. عند التثاؤب يتسع الصدر، ويهبط الحجاب الحاجز والحنجرة، ويرتفع جناحا الأنف ولهاة الحلق، ويسحب اللسان إلى أسفل إلى الخلف، وتُبعد الأوتار الصوتية، ويُفتح الفم على



اتساعه للشهيق العميق، وتُغلق الغددُ الدمعية للعين، ويزداد ضغطُ الدم ومعدلُ النبض. فإذا أطبقت فكّيك ولم تفتح فمك، فلن تجد التثاؤب مُشبعاً! بَسطُ عضلات الفك والوجه أمر ضرورى للتمتع بالتثاؤب! فى التثاؤب مُتعة؟!

يرى بعضُ العلماء أن عدوى التثاؤب قد نشأت فى وقت ما من تاريخنا التطورى، لأنه يخدم فى تنسيق السلوك الاجتماعى للجماعة. مواعيد النوم والاستيقاظ على وجه الخصوص. ربما كان هذا جزءاً من ظاهرة عامة للإشارات اللاشعورية التى تُستخدم فى توقيت السلوك الجماعى. عندما يتثاءبُ فردٌ فإنه ينقل إشارة إلى الآخرين، فيتثاءبون ويستعد الجميعُ للنوم. مثل هذا التواقت قد يكون أساسياً لبقاء النوع، مثلما يبدأ سربُ الطيور فى الطيران بمجرد أن يرتفع طيرٌ واحدٌ منطلقاً فى الهواء، لأنه فَرَضاً. قد لاحظَ خطراً يقترب! إننا نتثاءب كى نَبقى معاً، ونُواقتَ نشاطاتنا. نتثاءب كى يُخبر بعضُنا بعضاً بأن موعد النوم قد أزف، أو أن الوقت قد حان للاستيقاظ والبحث عن الطعام!

السائرون نياماً

السيرُ أثناء النوم somnambulism أو السَرنَمة، حالةٌ يختلط فيها النومُ باليقظة، يصحو فيها الفرد جزئياً ليمشى. يحدث هذا أساساً فى الثُلث الأول من الليل، بعد ساعة أو ساعتين من النوم، والطفلُ فى مرحلة النوم العميق اللاريمى. ولا يحدث فى مرحلة النوم الريمى. يبدو الطفلُ يقظان مرتبكاً عاجزاً عن معرفة ما يفعل: عيناه مفتوحتان بهما نظرةٌ زجاجيةٌ وعلى وجهه تعبيرٌ مشدوه، يتجول بلا هدف فى المنزل، ليقوم بأفعالٍ تبدو مقصودة، فلقد يتوجه إلى حجرة أخرى بالمنزل لينامَ فيها، أو يمضى إلى المطبخ ليأكل، أو قد يخرج إلى الشارع، بل وربما تَوجّهَ إلى النافذة وفَتَحها وسَقَطَ منها! ولقد يدخلُ فى حديث مع الآخرين، إنما بكلام مشوش لا يُفهَم له معنى. تستمر هذه الحالة ٥ ـ ٢٠ دقيقة، والعادةُ ألاّ يتذكرها الطفلُ عندما يستيقظ، ولا يجب فى الحقيقة أن نُذكّره بها وإلا خاف من النوم فيما بعد، بل ولا يجب أيضاً أن نوقظه وهو فى هذه الحالة ولا أن نتحدث معه بصوت مرتفع، يكفى أن نصطحبه بهدوء إلى فراشه، إذا سَمَحَ هو بذلك.

لا أحدَ يعرفُ السببَ الحقيقى لسلوك الأطفال هذا، وإن كان فى العادة «صفةً تجرى فى العائلة»، بمعنى أنه على الأغلب وراثى. تقول الدراساتُ على التوائم المتطابقة أنه إذا كان أحدُ التوأمين يسير نائماً، فالأغلبُ أن يكون الآخرُ كذلك أيضاً. هى صفةٌ يقدحُ زنادَها نومُ الطفل فى مكان غريب، وتراكم فترات قلة النوم، والحُمى، ولكن يَندُر أن يرتبط هذا السلوك بالحالة السيكولوجية. ولقد رُصد معامل تلازم مرتفع (+٠.٧٣) فى الأطفال بين السَرنَمة وبين التكلم أثناء النوم (بلَغ هذا المعامل +٠.٥٦ فى كبار السن).

تصيبُ هذه الحالةُ الأطفالَ بخاصة، لاسيما بين عمرى ٨ و١٢ عاماً. عندما تصلُ نسبةُ مَنْ يعانى منها، مرةً واحدة على الأقل، إلى نحو ١٧٪، لكنها تختفى قبل البلوغ فى معظم الحالات، وإن كانت قد تَحلُ بالبعض بعد البلوغ. هناك نحو ٤٪ من البالغين يسيرون نياماً. أما السببُ فى معظم حالات الأطفال فوراثى. إذا كنت مُسرنَماً فثمة احتمالٌ يبلغ ٤٥٪ فى أن يُولدَ لك طفلٌ مثلُك، وإذا كنت وزوجتُك سوياً مُسرنَميْن فقد يرتفع الاحتمالُ إلى ٦٠٪!

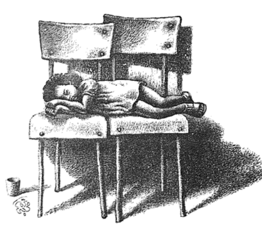
أما ما يُسبِّبُ السرنمةَ فى الكبار، فهناك بجانب الوراثة أحوالٌ تزيد من احتمال ظهورها، منها: الإجهادُ الجسدى والعاطفى، وانخفاضُ افراز الغدة الدرقية، والصداعُ النصفى، وإصاباتُ الرأس، والتهابُ الدماغ، والحمى، وانقطاعُ النَفَس أثناء النوم، وتعاطى بعض أدوية علاج الأمراض النفسية (كالليثيوم) أو أدوية علاج مرض باركنسون، ونقص المغنسيوم، وأيضاً السفرُ عبر مناطق زمنية مختلفة، أو النومُ فى مكان غير مألوف. وقد اتضح أن نسبةً كبيرةً ممن يسيرون أثناء النوم من الكبار قد خَبَروا السرنمةَ وهم أطفال، نسبةٌ تبلغ ٢٥٪ فى الرجال و١٨٪ فى النساء. وتَأخُرُ ظهور السرنمة فى الكبار عادةً ما يعنى أن وراءها سبباً عضوياً.

فى دراسة نُشرت سنة ٢٠٠٢ شملت ٧٤ «مريضاً» بالغاً ممن يسيرون نائمين (٥٨٪ منهم كانت الصفةُ قد ظهرت بهم وهم أطفال، وكان لنسبة ٢٤٪ من هؤلاء أقاربُ يسيرون نوَماً) اتضح أن أكثر من نصفهم يحمل صيغةً من جين (هو DQB1)، لا يوجد إلا فى رُبع عينةٍ من الأصحاء استُخدمت للمقارنة. هذا الجينُ هو واحدٌ من عائلة من الجينات تُنتج بروتينات اسمها هلا HLA تختص بتنظيم الجهاز المناعى. وقد اتضح أيضاً أن هذا الجين يرتبط بمرض آخر من أمراض النوم، هو الخَدَر.

التَعْسِيلة (القَيْلولة)

التَعْسيلةُ (أو ضجعة الظهيرة) هى فترةٌ قصيرةٌ من النوم يأخذها الفرد بعد وجبة منتصف اليوم، وتُعتبر فترةً وجيزةً من الراحة الخفيفة أكثر منها نوماً جادا. لا يعرفها الأطفالُ عادةً ولكنهم يتعلمونها فى نهاية المطاف. يحدث فى منتصف النهار أن يقل نشاطُ الجسم وتنخفض حرارتُه (فى الرجال أوضح كثيراً من النساء)، الأمرُ الذى يتسبب فى حالة وَسَن تشبه ما يحدث لنا ليلاً فى المرحلة الأولى من مراحل النوم. فيغلبنا النعاس. واشباعُ هذه الرغبة فى النعاس يجعلنا نصحو ونحن نشعر بالراحة والنشاط.

التعسيلةُ تُعزّزُ التعلمَ والذاكرة. أجريتْ تجربةٌ قورنت فيها مهاراتُ التعلم والذاكرة لمجموعتين من الناس خلال يوم واحد ومعه صباح اليوم التالى. حُرمتْ مجموعةٌ من النوم تماماً طولَ النهار، فأخذ أداؤهم يتناقص حتى العصر والمساء. سُمح للمجموعة الأخرى أن يعسّلوا لمدة ٦٠ ـ ٩٠ دقيقة فى الساعة الثانية ظهراً، ثم فُحصت موجاتُ المخ فى مرحلتى نوم الموجة البطيئة ونوم الريم. تقول النتائج إن مَنْ كان نومُهم يتضمن المرحلتين كانوا أفضلَ أداءً ممن لم يناموا. عندما اختُبروا فى نهاية النهار، أما مَنْ لم يَصل منهم إلى نوم الريم فكان أداؤهم أقل ممن مَرّ بمرحلتى النوم. كان أداءُ مَنْ تَمكّن من تعسيلة جيدة على نفس جودة أداء متطوعين فى دراسات أخرى اختُبروا بعد نَوْم ليلتين نوماً جيداً. انتهى الباحثون إلى القول بأن التعسيلة تعادل نوم ليلة كاملة بالنسبة للتعلم. إنها وسيلةٌ لتسديد جزء من «دين النوم»، وكلنا مدين!



دَيْـنُ النوم

دَيْنُ النوم هو القَدْرُ من النوم الذى كان يلزم أن تأخذه، ولم تأخذه. الحرمانُ من النوم يسبب الشعور بالارهاق بالنهار، والخمول والقلقَ والكآبةَ وضيقَ الصدر وانخفاض قدرة المخ على التركيز أو التذكر، وضَعْفاً جسمانياً يصعب معه القيامُ بالمهام البسيطة. أما المهامُ الأصعبُ فتبدو لك مستحيلةً. استرح. فإذا بدأتَ تشعر بأنك تَعِب، أو أصابك الوَسَن وشعرتَ بالرغبة فى النوم، فستكون هذه إشارةً بأن عليك دَيْناً!!

يمكن تقدير دَيْن النوم إذن بالسرعة التى يغلبك فيها النوم أثناء النهار. العطشُ الشديد يجعلك تشربُ كوبَ الماء، إذا توَفّر، فى لمحة. مَنْ يحمل دَيْناً من النوم ثقيلاً ينعس على الفور إذا أتيحت الفرصةُ أثناء النهار. ٩٠٪ من الناس يعتقدون أن وجبةَ الغذاء الثقيلة ظهراً هى السببُ فى الوَسَن الذى يستحث النعاسَ فى الظهيرة. وهذا خطأٌ فادح. إذا لم يكن لديك مِنْ دَيْن النوم الكثير فلن تُحس بالحاجة إلى النوم بعد الوجبة فى منتصف النهار. البعضُ يتصور أن الرتابةَ ودفءَ الحجرة والكحوليات كلها تسبب النعاسَ، وهذا أيضاً خطأ بَيّن. هذه العواملُ جميعاً لا تسبب النعاسَ، إنما هو حجمُ دَيْن النوم! يحاول البعضُ منا، جَهْلاً، أن يجدوا فى شُرب القهوة بديلاً عن النوم نهاراً. وهذا أمرٌ لا طائل وراءه، ولا يُسدِّدُ دَيْنَ النوم. لا سبيل إلى تسديد الدين إلا بساعات نوم إضافية.

الأرَقُ (السُهَاد)

الأرَقُ هو ألاّ تتمكنَ من أن تنالَ ما تحتاجه من النوم المريح أثناء الليل، أن تَجِدَ صعوبةً فى الولوج إلى النوم، أو أن تستيقظَ كثيراً أثناء النوم ثم يصعبُ عليك أن تنامَ ثانية، أو أن تستيقظ مبكراً جداً فى الصباح.

الكثيرون منا يعانون كلَّ ليلة من الأرق على مستوى ما: فى كل ليلة يعانى من الأرق ١٠

١٥٪ من الناس. الأرقُ يُصيب النساء أكثر مما يصيب الرجال، لا سيما الحوامل منهن. ربما بسبب التغيرات التى تحدث فى الهرمونات والحاجة إلى التبول وحركة الجنين داخل البطن، بل وشكل الجسم الذى قد يُغيِّر من وضعة النوم.

والحصول على ما يكفى من النوم أمرٌ أساسى للصحة والسلامة، فللأرق آثاره السلبية على المزاج، ويسبب زيادة دَيْن النوم، مما يتدخل سلبياً فى النشاط اليومى للشخص وفى علاقاته مع الآخرين وأدائه فى العمل، ولقد يتسبب أيضاً فى مخاطر جسدية، ربما كان أخطرها النعاس أثناء قيادة السيارة.

يحدث «الأرق العابر» بين الفينة والفينة، وهو قصير لا يستمر طويلاً. بضع ليالٍ متقطعة فقط خلال أقل من أربعة أسابيع، وعادة ما يكون السببُ ظرفاً طارئاً مؤقتاً، مشكلة عاطفية مثلاً أو واقعة مؤلمة، أو يوماً مرهقاً فى العمل، أو ضجة حدثت أثناء النوم، أو خطأ حلّ بالساعة البيولوجية بسبب الجيت لاج، أو أثراً جانبياً لتعاطى أدوية الكحة أو البرد.

أما «الأرق المزمن» فيستمر ثلاث أو أربع ليالٍ فى الأسبوع، لمدة شهر أو أكثر، والعادة أن يكون نتيجةً لعوامل مركّبة، فأسبابُه فى الواقع متعددةٌ منها الإصابة بالربو والتهاب المفاصل، والاكتئاب العميق، وتعاطى أدوية ضغط الدم والكافايين (فى الشاى والقهوة والكاكاو والكولا) والنيكوتين والكحول، والقلق الشديد، وانقطاع النَّفَس، وانقطاع الطمث فى النساء. وقد لُوحظت فى أصحاب الأرق المزمن مستوياتٌ غير طبيعية من بعض كيماويات الجسم، مثل الميلاتونين الذى تنخفضُ نسبته فى الكثير من الحالات، ومثل الكورتيزول cortisol، هرمون الاجهاد، الذى ترتفع نسبتُه وهو المعروف بتقليله لنوم الريم.

هناك أيضاً حالةٌ وراثية نادرةٌ من الأرق يمكن أن تغدُو فى النهاية قاتلةً، تُسمى الأرق العائلى المميت.

الغطيط (الشَّخير)

ليس ثمة ما هو أسوأ من صوت شخص يغط فى نومه بجوارك وأنت تحاول أن تنام! الغطيطُ مشكلةٌ شائعة للغاية، «تصيب» الصغير كما الكبير: ٢٠٪ من الرجال فى عمر ٣٠-٣٥ عاماً يغطون أثناء النوم بضعَ ليالٍ فى الأسبوع، مقابل ٥٪ من النساء فى هذا العمر. وعلى عُمر ٦٠ سنة تصبح النسبة ٦٠٪ بين الرجال و٤٠٪ بين النساء. يقولون إن الغطيط كان مفيداً لأجدادنا القدامى، إذ كان يخيفُ المفترسات أثناء الليل ويُبعدها عن أسلافنا وهم نيام. ولكنه أصبح اليوم سبباً من بين أسباب الطلاق! من بين كبار المشهورين بالغطيط سنجد أبراهام لينكولن، فرانكلين روزفلت، ونستون تشرشل وبنيتوموسولينى. ومثلنا يغط فى النوم الكلبُ والقطةُ والفيلُ والغوريلا والخنزير.

يحدث الشخيرُ عندما لا يستطيع النائمُ أن يمرر الهواء بحرية خلال أنفه وفمه. يَصدُر الصوتُ عن أوركسترا من ذبذبات كثيفة للَّهاة وسقف الحلق إذ الهواءُ يندفع خلال مَسلك هوائى ضيّق ليصل إلى الرئتين. يشترك فى العزف أيضاً اللسانُ واللوزُ والزوائد الأنفية إن كانت متضخمة. فى اليقظة تُبقى العضلاتُ الحلقَ مفتوحاً، فإذا ما نام الفردُ ارتخت عضلاتُ الحلق واسترخت إلى الداخل فيضيق الحلقُ، ومع ازدياد ضيق مسلك الهواء تزداد حدةُ الغطيط.

ومع التنفس يبدأ الحلق فى التذبذب، وتسبب الذبذباتُ صوتَ الشخير. فإذا كان ثمة انسدادٌ بالأنف، تَنَفَّس النائمُ عن طريق الفم، وفَتْحُ الفم يدفع اللسانَ إلى الخلف، وهذا يضغط على مؤخرة الحلق لينطلق أيضاً عزفُ الغطيط.

بجانب انسداد المسالك الأنفية الهوائية هناك أسباب عديدة أخرى للغطيط منها الحساسيةُ الفصلية، واحتقانُ الأنف المزمن، والتواء الحاجز الأنفى، وتضخم اللوزتين والزوائد الأنفية، والسمنةُ، والتدخينُ وشربُ الكحوليات قبل النوم. والعادة ألاّ يكتشف الشخصُ أنه يغط فى النوم، وإنما يخبره بذلك الآخرون ممّن أزعجهم شخيرُه وقضّ نوْمهم. قد يغطُ البعضُ وهم جلوس إذا ناموا. كنتُ مرةً فى جلسة نام رئيسُها البدينُ وبدأ فى غطيط غريب مزعج، أيقظتُه، فصحا وأكد لى أنه لم يكن نائماً، فقلت إنها أول مرة أرى فيها شخصاً يشخّر وهو مستيقظ!!

قد يتسبب الشخير فى الاجهاد والتعب أثناء النهار، ويبدو أنه يسهمُ فى خطر ازدياد ضغط الدم، والسكتة الدماغية.

من بين طرق معالجة الغطيط أن تنام ورأسك على مخدة مرتفعة، أو ترفع رأس السرير بضع بوصات وأن تُغيِّر وضعتَك فى النوم فلا تنام على ظهرك، وأن تتجنب الوجبات الثقيلة قبل النوم، وأن تتأكد من عدم تضخم اللوزتين والزوائد الأنفية واللهاة، وأن يعمل السُّمانُ على تخفيض وزن أجسامهم.

انقطاع النَّفَس

من بين الأمراض التى قد يتسبب فيها الشخيرُ، مرضٌ خطيرٌ من أمراض النوم هو انقطاع النَّفَس apnea الذى يصيب نحو ٤٪ من البشر، وفيه يتوقف النائم بالفعل عن التنفس لفترة قصيرة (١٠-٣٠ ثانية) لعدد من المرات يتراوح بين ٣٠ و٣٠٠ مرة فى الليلة الواحدة. عندئذ يستيقظ النائم لاهثاً يطلب الهواء، ثم ينام ثانية. فإذا ما استيقظ فى الصباح لم يتذكّر ما حدث له، لكنه يحس بصداع مؤلم يلازمه طول اليوم فيبدو مرهقاً منهكاً، بل ولقد يجد صعوبةً فى أن يبقى مستيقظاً حتى أثناء محادثاته مع الآخرين. اكتُشف مؤخراً أن لدى مرضى القلب الذين يعانون من انقطاع النفس مستوياتٍ مرتفعة للغاية من حامض الهوموسيستاين الأمينى الذى يفرزه الجسم. مثل هذه المستويات المرتفعة قد تثير الأوعية الدموية وتؤدى إلى انسداد الشرايين. اتضح أيضاً أن مَنْ يعانون من انخفاض إفرازات الغدة الدرقية مُعرَّضُون أكثر للشخير وانقطاع النفس، فالعادة أن يكون هؤلاء من السُّمان، ولأنَّ اللسانَ لديهم عادةً ما يكون ضخماً، ومع احتمال أن تصطحبه أيضاً ترسيباتٌ دهنية فى الممر الهوائى الأعلى، فإن احتمالَ حدوث انقطاع النفس عادةً ما يكون فيهم كبيراً.

ثمة علّةٌ أخرى من علل النوم نادرةٌ للغاية، هى الخُدار narcolepsy، تصيب نحو نصف فى المائة من الناس، وفيها يسقط الفردُ فجأةً نائماً فى أوقات غريبة وبشكل متكرر عبر النهار. هذه أيضاً علةٌ خطرةٌ مُوهنةٌ.

الكوابيس ورعب الليل

الكابوس nightmare حُلْمٌ يحدث فى النوم الريمى يحس فيه الشخص بخوف وفزع رهيب، وكرب وقلق فظيع فيستيقظ هلعاً - جزئياً على الأقل. تحدث هذه الظاهرةُ نمطياً فى الجزء الأخير من الليل، فى الصباح الباكر، وعادةً ما تُوقظ النائمَ الذى يمكنه دائماً أن يتذكر فحْوى الحلم. قد تكون معظمُ الكوابيس مجردَ ردِّ فعلٍ لضغوط الحياة. فإذا تكرر نفسُ الكابوس عدداً من المرات أصبح مَرَضاً قد يُفسد حياة الفرد الاجتماعية والوظيفية. تبدأ الكوابيسُ عادةً قبل عمر ١٠ سنوات، وتعتبر أمراً طبيعياً فى الطفولة، وهى أكثر شيوعاً فى البنات عنها فى الصبيان. وقد تستمر الكوابيسُ حتى سنّ البلوغ وعندئذ فكثيراً ما تكون مرتبطةً بمشاكل خارجية ونفسية. ورغم ذلك فإن ٥٪ من الكبار يخبرون الكوابيس بين الفينة والفينة، النساءُ أكثر من الرجال. تعاطى وجبات الطعام الثقيلة مباشرةً قبل النوم قد يرفع أيض الجسم والمخ، ويسبب الكوابيس. على أن هناك نسبةً تبلغ ١٪ من الكبار يعانون من الكوابيس المتكررة. يبدو أن الوقوعَ فريسةَ الكوابيس أمرٌ يجرى فى العائلات.

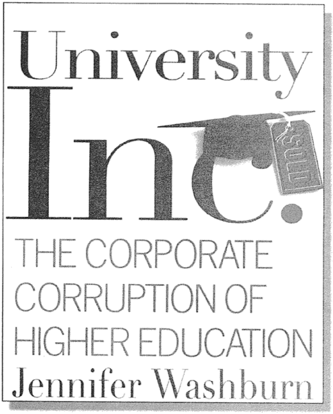
أما رُعبُ الليل night terror فيحدثُ أكثر ما يحدث فى الصبيان قبل البلوغ، وإن كان يُصيب البنات والبالغين أيضاً. هو ظاهرةٌ شائعة فى الأطفال بين عمر ٣ و٥ سنوات، وأقل كثيراً بعد ذلك. يحدث رعب الليل والطفل لا يزال فى مرحلة النوم العميق اللاريمى فى الثلث الأول من الليل بعد ساعة أو ساعتين من نومه. يجلس الطفلُ فى سريره ويبدأ وهو نائم فى صراخ مذعور لمدة دقيقة أو دقيقتين، وقد يستمر خمس دقائق، جسدُه يتصبب عرقاً ونَبْضُه قد تزايد وعيناه مفتوحتان. لكنه لا يصل إلى اليقظة الكاملة، كما يصعبُ تهدئته، ثم يعودُ إلى النوم ثانيةً ولا يتذكر الواقعة عندما يستيقظ فى الصباح. ■



أندرو هاكر

■■ لم يعد التعليم العالي الأمريكي كما كان «محمية الصفوة ذات الامتياز» مع وجود أكثر من سبعة ملايين طالب جامعي ملحقين الآن بحوالي ٢٦٠٠ كلية تمنح درجات البكالوريوس ودرجات عليا. في عام ٢٠٠٢ ـ آخر السنوات المتاحة للإحصاء نال ١،٢٩١،٩٠٠ طالب دبلومات و٦٠٦،٩٥٨ أتموا برامج التخرج الجامعي. العدد الأخير يستحق الانتباه حيث إنه يخبرنا أن نصف من أتموا الجامعة تقريباً يؤمنون أن درجة واحدة لم تعد كافية لما يريدون أن يفعلوه أو يكونوه.

دراسة أخرى وجدت أنه بين الكبار من عمر ٣٠ إلى ٣٤، فإن ٤١٪ فقط التحقوا بالمرحلة الثانوية دون أن يذهبوا للجامعة. وفوق ذلك فإن هؤلاء المتخرجين من المرحلة الثانوية يمثلون جزءاً متضائلاً من تعداد الطلاب. وهناك نسبة٣٢٪ أخرى حصلوا علي درجة البكالوريوس على الأقل، بينما أمضى ٢٧٪ وقتهم في الحرم الجامعي دون إتمام الدراسة.



الناس يرسلون أبنائهم إلى هارفارد. قبل كل شيء. لأنهم يريدونهم أن «ينجحوا». والإشارة المبكرة إلى نجاحهم سوف تكون الكلية التي سيلتحقون بها

ورغم ذلك فإن الادعاء الذي يقول إن تقريباً ستة من كل عشرة أمريكيين في بداية الثلاثينيات لديهم نوع ما من الخبرة الجامعية، هذا الادعاء يحتاج إلى إمعان أكثر للنظر. وهذه الخبرة يمكن أن تتراوح من السيمنارات المصغرة في الفلسفة بجامعة «كولجيت» إلى محاضرات إدارة الفنادق بولاية ميسوري. بعض الكليات بها مناهج مركزية صارمة: الطلاب في كل الأقسام لابد أن يختاروا مقررات من قائمة ضخمة من أجل تجميع الـ ١٢٨ نقطة (Credit) المطلوبة للبكالوريوس. وجامعة «ريد» تحدد عدد قبولها عند ١٣١٢ طالباً، بينما جامعة ولاية متشيجان يكون عدد الطلاب المتحققين ٣٤،٦١٧ طالباً.

[١]

في الواقع، هناك أماكن مفتوحة لأي شخص يريد أن يحصل علي درجة بكالوريوس ويمكنه تحمل تكاليفها، والكثير من الكليات تعمل بجهد لجذب الطلاب. في دراسة نشرت هذا العام استنتج جيمس فالوز أن: «بالنسبة لكل الجامعات ماعدا الاثني عشر الأكثر ثراء» من الأجزاء المهمة لأقسام القبول هو ببساطة التأكد من أن عدداً كافياً من الزبائن الدافعين سيتقدمون كل خريف».

مجلة برنستون. منظمة تجارية ليس لها روابط بالجامعة ـ تقوم بتجميع معلومات عما تسميه «أفضل ٣٥٧ كلية» في الولايات المتحدة. وهي تقرر أن هناك كليات حسنة السمعة رغم أنها أقل شهرة مثل Crachoin, Duquesn تقبل على الأقل ٨٥٪ من الذين يملأون الاستمارات. ولكن بالنسبة للأسر الأمريكية لا يهم أن يكون هناك الكثير من الفرص. فالواقع أن أعداداً متزايدة من الآباء يستثمرون المال والجهد لضمان أن أبناءهم يتم قبولهم في كلية معروفة ومرغوبة.

كتب «روس دوثات» بصراحة عن هذه الجهود في يومياته كطالب في هارفارد في كتابه: «حقوق الامتياز: هارفارد وتعليم الطبقة الحاكمة». ويقول: الناس يرسلون أبناءهم إلى هارفارد. قبل كل شيء. لأنهم يريدونهم أن «ينجحوا». والإشارة المبكرة إلي نجاحهم سوف تكون الكلية التي سيلتحقون بها. وعندما يسأل الأصدقاء عن المكان الذى يذهب إليه الأبناء، يريد الآباء أن يعطوا إجابة تجلب ابتسامة مهنئة؛ ومع ذلك فإن عدد المدارس التي تستحضر رد الفعل هذا صغير نسبياً. وحقيقي أن الناس قد يتذكرون سماعهم عن. مثلاً. جامعات Carleton, Grinnell؟ ولكن لايبدو أنهم يرونها بين جامعات الطبقة الاولي. وكما كتب «دوثات»، فإن الآباء الطموحين لا يرغبون في أن ينظر إليهم على أن لديهم أبناء إنجازهم أقل من الأفضل.

ومن ملاحظاتي الشخصية، ربما يكون هناك ١٥ كلية تقع في قوائم الآباء الطموحين. وهناك بعض المؤشرات التي يتم استخدامها عن طريق الآباء بصورة مشتركة لتبرير تصنيفاتهم. الأولى. بدون غرابة. هي مدى صعوبة الحصول على إذن بالقبول Acceptance Letter. على هذا المقياس، تبدأ القائمة عند هارفارد وبرنستون، واللتين تقبلان فقط ١٠٪ من المتقدمين، ثم تهبط إلى «ديوك Duke» والتي تغلق عند ربع المتقدمين. وبجمعهما معاً استقبل موظفو الالتحاق بهذه الكليات ١٧١،٨٢٤ متقدماً العام

---

1 - Privilege: Harvard and the Education of the Ruling Class
by Ross Gregory Douthat
Hyperion, 288 pp., $24.95

1 - the Teacher, You're the m I Student: A Semester in the University Classroom
by Patrick Allitt
University of Pennsylvania Press, 244 pp., $19.95 (paper)

3 - What the Best College Teachers Do
by Ken Bain
Harvard University Press, 207 pp., $21.95

4 - University, Inc.: The Corporate Corruption of American Higher Education
by Jennifer Washburn
Basic Books, 326 pp., $26.00

5 - The Best 357 Colleges: 2005 Edition
by the Princeton Review
Random House, 802 pp., $21.95 (paper)

6 - Profiles of American Colleges: 2005
Barron's Educational Series, 1,669 pp., $26.95 (paper)

ترجمة: أحمد إسماعيل

الجامعات

الماضي، وكانت نسبة القبول الكلية حوالى ١٥٪. وفي الواقع فإن أرقاماً مثل هذه تكون معارف عامة، يتم تسجيلها في الأدلة المعروفة في الكثير من المدارس الثانوية. وعلي ذلك فإن الـ ١٨,٦٢٨ طالباً الذين يملأون استمارات جامعة ستانفورد يعرفون مقدماً أن واحداً من كل ثمانية طلاب سيتم قبوله. وحتى مع إعطاء هذه المعلومات فإن الآلاف يرغبون في المحاولة. ومن جانبها فإن الكليات لا تعوق عمليات ملء الاستمارات، حيث إن معدلات الرفض المرتفعة ترفع من ترتيبها في قائمة us News & world Report وغيره من التصنيفات.

وبالتأكيد فإن مجموع ١٧١,٨٢٤ يحتوي علي التكرارات الفرعية. ففي هذه السن المليئة باللهفة، من غير الغريب بالنسبة لخريج المرحلة الثانوية أن يتقدم إلي عشر كليات أو أكثر. هذا التكرار يكون مضيعة للوقت ومكلفاً بالنسبة لكل من الطلاب ومكاتب التنسيق. علي سبيل المثال الكثير من الكليات تطلب كتابة مقالات في استماراتها علي أمل أنها سوف تكشف عن وضوح التفكير أو الابتكارية أو بعض الصفات الأخرى؟ كلها لابد أن يتم كتابتها وقراءتها. (من الموضوعات الدائمة: «اذكر أسماء خمسة كتب سوف تختارها لتقضى معك ستة أشهر على جزيرة معزولة»). وكل عام يكون هناك ١٠,٠٠٠ استمارة مقدمة إلي أعلى ١٢ كلية تنال أكثر من إذن بالقبول.

وهذا ينتج مقياساً آخراً للهيبة لمكانة الكلية: كم عدد هؤلاء الذين تقوم الكليات بدعوتهم ويلتحقون بها فعلاً. هنا تربع هارفارد المقدمة، مع ٧٨٪ يختارون الالتحاق بها. والمثير هنا أنه حتى في كليات Amherst, Duke, Williams، فإن أقل من نصف من يتم دعوتهم يقبلون الالتحاق، مما يعني أن هذه الكليات لابد أن تقبل ما يساوى فصلين لتملأ فصلاً واحداً. (الكثير غيرها يعتبرون أنفسهم محظوظين إذا ما قبل ثلث من يختارونهم الالتحاق بها).

هناك طريق ثالثة لتصنيف الكليات هي عن طريق أداء الطالب علي اختبار SAT المثير للجدل لأعلى عشر كليات، هناك في الواقع فروقاً صغيرة نسبياً، من ١٥٩٠ في هارفارد إلى ١٥٠٠ في «براون Brawn». هذه الأرقام يتم أيضاً عرضها على نحو منتشر وتخدم كمعايير للكليات الأخرى. مثل «نورث ويسترن North western» (١٩٨٠) و«ايموري Emory» (١٤٦٠) و«فاندربلت Vanderbilt» (١٤٣٠)، والتي تطمح للوصول إلى شهرة على النطاق القومي. وعلى أمل الوصول إلي عتبة ١٥٠٠ الفارقة، تقوم تلك الكليات بمحاولة ضم الطلاب ذوى الدرجات المرتفعة، وعرض منحاً دراسية حتى عندما لا يطلبها الطالب. قامت «فاندر بلت» بإرسال متطوعين إلي المدارس الثانوية التي بها عدد كبير من الطلاب اليهود.

إن وضع الكثير من التركيز على أرقام SAT قد يبدو غير منطقى وغير عادل، حيث إن اختبارات SAT تعتمد أساساً على التفكير السريع للاختيار من إجابات متعددة والذى قد يتجاهل الصفات الأخرى للذكاء، وبعد كل شيء يطلب من المتقدم تقديم سجلات دراسية وشهادات وقوائم أنشطة، ذلك بجانب المقال. ومع ذلك لنأخذ مثلاً ما لابد أن يحدث في كلية مثل «ييل Yale»، حيث جاءت ١٧,٧٣٥ استمارة العام السابق. بعد أن تم فتحها كلها ووضعها في ملفات مع درجات الطالب في اختبار SAT مكتوبة علي الغلاف، يتم قراءتها بترتيب تنازلي. ومن الواضح أن العوامل الأخرى سوف يتم أخذها في الاعتبار، وبعض المتقدمين ذوى الدرجات المرتفعة في اختبار SAT لن يتم تضمينهم في الاختبار النهائي، ولكن تنظيم عملية القبول بناءً علي القدرة علي تحصيل درجات اختبارات SAT يعنى أن الكثير من الصفات الأخرى للمتقدمين قد يتم تجاهلها. ومع ذلك إذا كان الفرد يواجه ١٧,٧٣٥ ملفاً، فأى الطرق ستكون أفضل للبدء بها؟

تكاليف الكلية هي أيضاً أمر يرتبط بموضوعنا هنا. أعلى ١٢ كلية لديها مصروفات متشابهة رغم الفروق في المنح وأجور العمالة المحلية. وحتى إذا لم يكن هناك اتفاق صريح، يبدو أن هناك نوعاً من الإجماع علي عدم التنافس في السعر. إن حقيبة سندات هارفارد البالغة ٢٣ مليون دولار يمكن أن تسمح لها بأن تفرض رسوماً أقل بكثير من بقية الجامعات، ولكن هارفارد يمكن أن ترد بأنها تريد أن تأخذ الرسم كاملاً من الأباء الذين يستطيعون الدفع، وبعد ذلك تستخدم جزءاً من الفائض لمساعدة الطلاب الأقل من قدرة الدفع بقليل. وحسب الإحصاء الأخير فإن حوالى نصف طلاب هارفارد ينالون مساعدة. ولكن نجد في الواقع أن العوز ينظر إليه بكرم زائد والآن يتم منح المساعدة لطلاب من أسر دخلها من ستة أرقام. ومع ذلك فإن الميزانيات في كل الكليات الاثنى عشر ما عدا MIT تتوقع أن يتم دفع رسم التعليم كاملاً عن طريق «نصف المتقدمين على الأقل». والنتيجة هي أن الطلاب الذين يستطيع آباؤهم دفع الرسم كاملاً سيكون لديهم ميزات إضافية.

وما يقوله «دوثات» عن هارفارد ينطبق على معظم الكليات الأخرى في هذه القائمة. ويقول إن زملاءه في فصل ٢٠٠٢ كانوا «مجموعة ذات امتيازات ظاهرة، مختارين من طبقات المجتمع الصاعدة لأعلى وتباركهم محافظهم المالية العميقة التي يمولها آباؤهم». وهو يقدر أن ٧٠٪ من رفاقه أتوا من أسر دخلها يفوق ١٠٠,٠٠٠ دولار سنوياً، والكثير منها أكبر من ذلك بكثير. والقصة التقليدية تقول إن: «تعليم طبقة الجامعة» مفتوح للشباب ذوى القدرة والموهبة بغض النظر عن الدخل أو الأصل. ويقول «دوثات» إن هذا نادراً ما يحدث في الواقع. «الاستحقاق الموضوعي هو القشرة الأيديولوجية، ولكن التطابق الاجتماعي والاقتصادى هو الواقع الأيديولوجي».

والعنوان الرئيسي لكتاب «دوثات» يفسر كيف وصل معظم زملائه بالفصل إلى قمة المقبولين. والمدارس التحضيرية التي أرسلها إليهم آباؤهم علمتهم كيف يخدعون اختبارات القبول وأعطتهم إحساساً واعياً بكيفية عمل التنسيق الجامعى. ويخبرنا «دوثات» أنهم عندما يدخلون الكلية يقومون بتطبيق تلك المهارات «لتجنب العمل الأكاديمي» و«المناورة للحصول على الحد الأقصى من GPA (متوسط الدرجات) مقابل الحد الأدنى من الجهد». هذه اللهجة تقول عن «دوثات» وأصدقائه أكثر مما تقول عن طلاب هارفارد ككل. فكل الذين قابلتهم ذكروا مقررات وجدوا أنها تتحداهم عقلياً، والتي جعلتهم يقومون بعمل أكثر مما كان مطلوباً.

لقد شهدت العقود القليلة الأخيرة تغيرات في الالتحاق بالكليات الاثنى عشرة العليا. والأكثر وضوحاً كان وصول طلاب من أصل آسيوى. وبينما يشكلون أقل من ٤٪ من تعداد الطلاب في سن الجامعة، فإنهم يحتلون الآن ٣٥٪ من الطلاب في MIT ويليها ٢٧٪ في «ستانفورد Stanford»، و٢٠٪ في كولومبيا Columbia وبن Bnn، بجانب ١٨٪ في هارفارد Harfard. ومعظم هؤلاء الطلاب تم قبولهم عن جدارة، ونسبة كبيرة منهم تخصصوا في العلوم أو الرياضيات. وفوق ذلك فإن القليلين منهم يستفيدون من وجودهم في مجموعة «الوصايا iegaly» أو تم قبولهم لمكانهم في فرق الاسكواش وكرة الماء.

[٢]

كل الكتب المعروضة هنا تعبر عن مأساة مشابهة: عدد أكبر من اللازم من الأساتذة. ربما معظمهم. يقومون بعمل ضعيف الجودة داخل قاعة التدريس. ويميل الطلاب إلي الموافقة على ذلك. وقد قدمت مجلة برنستون إلي عدد من الطلاب في ٣٥٧ جامعة جملة: «أساتذتى ينفخون الحياة في المادة»، وسألتهم تقدير أساتذتهم على ما إذا كانوا كذلك أم لا. وقد كانت



أعلى نسبة رضا في الكليات التي تبقى على عدد الملتحقين صغيراً، وليس بها برامج تخرج، وليست بالضرورة معروفة ومشهورة. وأقل الدرجات في الدراسة ذهبت إلي التعليم الجامعي بالجامعات البحثية الكبيرة المشهورة. والجامعات التي حصلت على الدرجات المرتفعة احتوت كلها على ١٢.٣٨٨ طالباً فقط، بينما الدرجات المنخفضة عبرت عن شعور ١٥٠،٥٣٢ طالباً جامعياً.

قام باتريك اليف، أستاذ التاريخ الأمريكي بجامعة ايموري Emory بنشر مذكرات يومية عن كيف قام بتدريس مقررة في التاريخ الأمريكي. الجزء الأكبر من كتاب «أنا المعلم، أنت الطالب» يصف المواد التي يقوم بتدريسها وكيف يقوم بتقديمها. («اليوم سألقي محاضرة عن الزراعة»). وبينما كان لديه ٣٩ طالباً فقط، فإن صوته هو ما كان يسمعه غالباً. وعندما يسأل أسئلة، فإنه غالباً ما يحصل علي إجابات مقتضبة، والتي يصنفها بصورة عامة على أنها ضعيفة، إن لم تكن تافهة. ولقد حصلنا على بعض الأفكار عن حساسيته العقلية من امتحانه النهائي، والذي اقتصر لدرجة كبيرة علي التواريخ والمواقع والأسماء، زائد سؤال يطلب إجابة من فقرة واحدة. وبعد ذلك قام بذكر بعض الأخطاء الشنيعة لطلابه في التاريخ. ورغم ذلك فإنه في النهاية أعطى الجميع في الفصل تقديرات B أو أعلى.

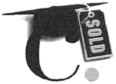
وفي فصل ختامي اشتكى «اليت» من أن ربع طلابه على الأقل ليس لديهم استعداد لدراسة التاريخ، ولا تقدير للروابط بين الأحداث، ولا شعور بكيف يتغير موقف تاريخي ما عبر الوقت، وهم لا يريدون القيام بالعمل الشاق الضروري، إنهم يتعجلون في القراءة، ولا يمكنهم الكتابة حتى لحماية أرواحهم.

هذا. إذا ما كنا سنصدق «اليت». هو الموقف في «ايموري Emory»، والتي تم تصنيفها العشرين بين «أفضل ١٢٩ جامعة وطنية»، فوق «بيركيلي وجورج تاون George Tawn, Berkeley وNYU». وطلابها يحصلون علي درجات قوية في اختبار SAT، ومن المفترض أنهم عملوا بجهد في المرحلة الثانوية. ولكن اليت رغم ذلك يتساءل عن كيف يستطيع استثارة طلابه للاهتمام أكثر بالمواد التي كان يقوم بتدريسها. وما يجعل المعلم يستنتج أن طلابه «ليس لديهم استعداداً» لتعلم التاريخ يبدو أنه يخنق فرصهم لتعليم الماضي الذى أنتجهم.

«كين باين Ken Bain». الذى أدار مركز NYU لتعليم التفوق. يقدم لنا ٣٣ أستاذاً والذين نالوا عاماً بعد عام تقديرات مرتفعة من طلابهم. كل الرجال والنساء الذين قابلهم. في جامعات تتراوح من ستانفورد Stanford إلي نورس وسترن Norhwestern إلى «كلية صغيرة في أوكلاهوما» بدون اسم. مخلصين بعمق للتعليم الجامعي. وفي معظم كتاب «ما الذي يفعله أفضل أساتذة الجامعة» يقوم الأساتذة بوصف المداخل والأساليب التي يستخدمونها في قاعات المحاضرات. بعضهم لديه أهداف مرتفعة: «أريد أن يشعر الطلاب كما لو أنهم اخترعوا حساب المثلثات». وغيرهم يتحدثون عن معتقداتهم الأساسية: (ليس هناك شيء يسمى «أسئلة غبية» في محاضرة». ومع أنني سمعت عدداً من الأكاديميين يتحدثون عن عملهم، وأنني التقيت بالكثير من طلابهم، فإنني أميل إلي الحذر من مدح الذات. وقد وجدت دراسة حديثة أن ٢٤٪ فقط من الأساتذة الذين تم انتخابهم اعترفوا أن مقرراتهم تطلبت الكثير من الحفظ، بينما ٦٤٪ من طلابهم شعروا أن الوضع كان كذلك.

وعرض «باين» كان سيتحسن إذا ما صاحبه فيلم مصور على اسطوانة كمبيوتر، ولو حتى فقط لإثبات الادعاء أن هناك أساتذة غير عاديين. وسيكون من المفيد رؤيتهم أثناء الممارسة، وما إذا كانوا يدرسون لمجموعات كبيرة، أو مجموعات متوسطة الحجم، أم يشرفون علي سيمنار ما. علي سبيل المثال تذكرنا أحد أساتذة «باين» أن: «الطلاب لديهم مستويات مختلفة ولن يفهموا في نفس الوقت». وهي تقترح أنه من الممكن داخل محاضرة واحدة إعطاء هؤلاء الطلاب الذين يقعون في الربع الأدنى مجموعة من الأفكار ليتفكروا فيها، وفي نفس الوقت التوضيح لطلاب الربع الأعلى أن هناك ألغازاً أكثر تعقيداً يمكن حلها. وعندما يحدث ذلك، فإن كلاً من طلاب تقديرات A و C سيكون عندهم القدرة علي تعلم شيئاً ما، وربما حتى يتفقون أن المقرر كان يستحق الدراسة. ومن وجهة النظر هذه، لا يمكننا حقاً معرفة ما الذى تعلمه الطلاب، ولكن هذا -المعلمة تبدو أكثر خيالية من معظم الأساتذة الآخرين.

ونتيجة لذلك فإن عدداً قليلاً من الجامعات تقوم بتصميم مناهج محورية رئيسية من أجل طلابها. إن هناك استثناءات مثل كولومبيا وشيكاجو Columbia, Chicago والتي تشجع علي المنافسة المستمرة لأعضاء هيئة التدريس عما يجب أن يتعلمه الشخص المثقف. الكليات الأخرى أقل اشتراطاً. علي سبيل المثال هارفارد تشترط أن يلتحق كل الطلاب بمقرر في «الاستدلال الكمى Quantitahive Rleasonins». وللوهلة الأولى يبدو ذلك مبشراً، ومن المهام. مثلاً . معرفة كيف يتم استخدام النماذج الحسابية للتنبؤ. مثلاً . بارتفاع درجة حرارة الكرة الأرضية أو تكاليف الرعاية الصحية المستقبلية، ومع ذلك فمن الممكن تحقيق شرط هارفارد بأخذ أياً من المقررات القياسية التسعة عشر الموجودة بالفعل في القائمة، والتي تتضمن ثوابت مثل حساب المثلثات متعدد المتغيرات والجبر الخطى Maltivariable Colculus, Linear alaebra.



والجامعات البحثية تبذل هي أيضاً القليل من الجهد لحث أساتذتها الكبار للتدريس لطلاب السنوات الأولى والثانية. وإذا لم يرغبوا في ذلك. كما يحدث غالباً. فمن غير المحتمل أنهم سيجيدون القيام بالأمر.

[٣]

إن غلاف كتاب جينيفر واشبورن Jennifer Washborn: «الفساد الجامعى للتعليم العالى الأمريكى» يعرض قلنسوة جامعية عليها علامة «تم بيعه Sold». وكتابها قيم لكثرة تفاصيله، ولكن الصورة العامة مألوفة. الشركات الصيدلانية تقوم بتمويل أبحاث كليات الصيدلة، ويمكنها منع انتشار النتائج التي تزيد مبيعاتها. والفرق الرياضية بالكليات لهم الآن نفس قيمة الامتيازات العلمية، مع تشجيع اللاعبين علي أخذ مقررات قليلة المطالب يقوم بتدريسها أساتذة متساهلون. وتقوم الكليات بتسويق نفسها عن طريق الشعارات الصاخبة الألوان، وتحاول إغواء الطلاب بتقديم حمامات جاكوزى ضخمة الأحجام وحوائط تسلق شاهقة. وانا أوافق بالتأكيد أن هناك فساداً واتجاراً في الحياة الجامعية. ولكنى لست شديد التأكد من أن الجامعات لو كانت تبيع نفسها. أو يتم بيعها. فإنها تفعل ذلك للأسباب التي تعرضها.

على سبيل المثال هي تقول إن اعتناق الممارسات المالية «يقوم أيضاً بتغيير ما يتم تعليمه»، مستشهدة بجامعة حكومية تم فيها إلغاء برامج تخرج غير مربحة فى «الأدب الإغريقي واللغة الألمانية واللغة الفرنسية والعديد من الفروع الإنسانية الأخرى». وقد أخبرها رئيس هذه الجامعة أن مواد مثل هذه هي «حشو لا تحتاجينه». عند سماع هذا الرد لأول وهلة، فإنه يبدو صادماً. وللإنصاف فإن الكتاب ربما يكون قد أشار إلي أن أعضاء هيئة التدريس في هذه المجالات يستمرون في التدريس؛ في الواقع تستمر جامعة «جورج ماسون George Mason» في عرض ٢٩ مقرراً في هذه المجالات، تتضمن «عصر جوته» و«الأدب الفرنسى في العصور الوسطى» و«المسرح الهزلي الإغريقي والروماني». وفي نفس الوقت فإنها ربما قد تساءلت لماذا قام. مع عدد طلاب ١٧.١٠٢ . عدد قليل جداً باختيار التخصص في العلوم الإنسانية. الإجابة التقليدية هي أن الطلاب الآن يريدون أوراق اعتماد عملية، مثل شهادة في الأعمال أو علوم الحاسب. ومع ذلك فمن الممكن أيضاً أنه لم يحاول عدد كاف من الأساتذة جعل موادهم مثيرة لمدى أوسع من الطلاب. وهذا يمكن فعله بدون خيانة الأخلاق التربوية، أو تضخيم الصفوف، أو اللجوء إلي الاستعراضات المسرحية. والمطلوب هو تعهد جاد بالتعليم الجامعي، وهي سمة لا توجد دائماً في الجامعات البحثية والجامعات التي تطمح لتلك المكانة.

والأنشطة التجارية التي تصفها «واشبورن» تشتق غالباً من الحقيقة التي تقول إن الجامعات أصبحت

إمبراطوريات بحثية هائلة تحتاج إلى ضخ مستمر للسيولة المالية لاحتمال نفقات موظفيها ومكانتها العالية. والإحصائيات الجديدة من «المركز الوطني للإحصائيات التربوية»، توضح أن الموظفين الذين ليسوا أساتذة مدرسين يشكلون ٧١٪ من الإنفاق الكلى بجامعة ستانفورد، و٧٣٪ في كولومبيا و٨٣٪ في هارفارد. الكثير من هؤلاء الأفراد يقومون بالبحث. ولكن هناك أيضًا استشاريين أو رافعي الميزانية أو حراسًا أو محامين أو أفراد أمن أو موظفي القبول أو مدربين.

وكليات الطب بهذه الجامعات توفر أدلة ناطقة. وباعتبارها ببساطة كليات لتدريب الأطباء، فإن معظمها تكون حقًا صغيرة جدًا. على سبيل المثال كلية الطب في «جونز هوبكنز John HopKins» بها ٤٨٢ طالبًا فقط، أقل من عدد الطلاب بالصف الأول بكلية الطب في جامعة ويليامز. ورغم هذا الرقم الضئيل فإن جامعتها تنال ٣٦٤ مليون دولار في الميزانية الحكومية للبحث، حتى لو كانت هذه النفقات تمتلك علاقة هامشية فقط بالتعليم الطبي، وبالإضافة إلى الأموال الحكومية، فإن الكلية تنال منحًا من شركات ومؤسسات وجمعيات خيرية. وعلى مستوى الدولة فإن كليات الطب والمستشفيات الجامعية بها ١١٢،٠٠٠ طالب ومقيم. ورغم ذلك هناك ١٣٧،٠٠٠ أستاذًا في هذه الكلية، أي أستاذ على الأقل لكل طالب. إن معظم هؤلاء الأساتذة يقومون بالقليل أو لا شيء من التدريس، ولكن العمل على الأبحاث ينفق عليها المنح والعقود التي تمولها الحكومة أو شركات ومؤسسات خاصة.

«موراي سبربر Muray Sperber»، أستاذ اللغة الإنجليزية بجامعة أنديانا ومؤلف العديد من الكتب عن الألعاب الرياضية بالجامعات. افترض أن الجامعات توسع من تيسيراتها البحثية، وتسمح لها بأن تكون كيانات كاملة الاستقلال، مع إداراتها وميزانياتها وأسمائها الجديدة الخاصة. شركة Rand ومؤسسة Brookings، وSRI الدولية تقوم بكل الأبحاث المختصة بدون روابط أكاديمية مباشرة. وفي الواقع بدأت SRI كفرع من جامعة ستانفورد، ولكنها استقلت منذ عام ١٩٧٠. ورأى «سبربر» هو أن منظمات مثل تلك المنظمات يمكن أن تتعاقد مع شركات الأعمال والجيش وحتى الوكالات السرية بدون القلق بخصوص أي تأثيرات على القيم الأكاديمية.

إن نقص الاهتمام بالتعليم ينشأ داخل المؤسسات نفسها. ومنذ عام ١٩٨٠ فإن متوسط رسوم التعليم في الكليات الخاصة زادت أكثر من الضعف، وارتفعت من ١٠،٩٥٤ دولارًا إلى ٢٣،٥٠٥ بدولارات، وحيث إن المتقدمين يبدون راغبين في الدفع، فإن نسب الالتحاق لم تنخفض. وتطلب جامعة بوسطن ٢٣،٩٠٦ دولار وجامعة سوثرن كاليفورنيا ٢٨،٨٢٧ دولار. مثلها مثل أكثر الكليات شهرة. ولكن كم من هذه الأموال يتم صرفها على التدريس الجامعي؟ هل سيكون كل طالب قادرًا على المشاركة في سيمنار ما كل فصل دراسي؟

وما يمكن عرضه هو أن الكثير من أموال رسوم الالتحاق يتم تخصيصها لتوسيع الطبقات العليا من أعضاء هيئة التدريس، سواء في الإعداد وفي الراتب الذي ينالونه. وخلال السنوات العشرين الأخيرة، قائمة هارفارد من الأساتذة الدائمين زادت من ٥٣٣ إلى ٧٧٧، وكولومبيا من ٤٦٢ إلى ٥٨٩ وديوك من ٢٨٤ إلى ٣٩٩، بينما أعداد الطلاب الملتحقين ظلت كما هي بصورة أساسية ولقد تزايدت أجور الأساتذة الدائمين بصورة واضحة. على مستوى الدولة. في ١١٥ جامعة. يأخذ الأساتذة الدائمون متوسط أكثر من ١٠٠،٠٠٠ دولار سنويًا، بما فيها كليات صغيرة مثل هاميلتون وكولبى. وفي الواقع هناك ٤١ مؤسسة حكومية تدفع للأساتذة الدائمين ١٠٠،٠٠٠ دولار، رغم التخفيضات في التمويل الحكومي. وبينما تتزايد الأجور في بعض الكليات الحكومية التي تقع تحت قسم الكليات العليا في التصنيف، فإن الأساتذة الدائمين فيها ما يزالون ينالون الحصة الأكبر من ميزانيات مؤسساتهم.

كما تفرض الأمور فهناك مقياس لمكانة الجامعة هو مدى صغر حجم التدريس الذي يطلب من أساتذتها. ورغم أن هناك المزيد من المقاعد المدفوعة توجد عند القمة، فهناك عدد أكبر من طلاب الجامعة يتم الآن تعليمهم عن طريق مساعدين خريجين وملحقين وهيئة تدريس مؤقتين والذين لن يتم أبدًا ترقيتهم. والبعض يمكن أيضًا أن يتحملوا أعباء كاملة مقابل ثلث مرتب الأساتذة الذين لا يقومون حتى بالتدريس. ولسوء الحظ فإن هذا التوفير هو ما يجعل الأجور ذات الأرقام الستة ممكنة.

قسم الرياضيات في برنستون قد يكون مثالاً شديد الوضوح، ولكنه يعطي لمحة عن الأولويات الأكاديمية. إن به هيئة تدريس من ٥٦ ضمن فئة الأساتذة، والذين يشرفون على ٥٥ خريجًا و٣٠ طالبًا متخصصين في الرياضيات. وبحسبة رياضية بسيطة نعرف أنه حتى إذا ما تم إضافة هذه المقررات إلى الطلاب الذين لا يتخصصون في الرياضيات، فإن بعض الأساتذة لن يدخلوا قاعة محاضرات لمدة فصل دراسي كامل. وبلا شك فإنهم سيقولون إنهم مشغولون في البحث. ولكن حتى الكليات القديرة



بها أعضاء قاموا بصورة واضحة بوقف النشر منذ استقبالهم الأوقاف المالية.

وبينما تملك المنظمات الأخرى مثل الشركات عددًا أقل من الأشخاص عند قمة التنظيم الهرمي، فإن فئات الكبار في الجامعات تفوق في عددها تلك الموجودة في الطبقات الأدنى، غالبًا بفارق كبير، ويحصلون على نسبة كبيرة من الإنفاق الكلى. وفي مجموعة الكليات الأخيرة المذكورة يزيد الأساتذة الدائمون عن الأساتذة المساعدين بنسب أكبر مما كانوا عليه منذ عشرين سنة. وقانونيًا يستطيع الأساتذة الدائمون عندما يرغبون البقاء بأجور كاملة طالما يريدون ذلك. في عام ١٩٨٣ سجلت كلية جامعة فورت كارولينا أن ٣٤٪ فقط من أعضاء هيئة التدريس المنتظمين بها كانوا تحت سن الأربعين. وعام ٢٠٠٣ انخفضت النسبة إلى ١٨٪ ومن بين ٢٢ أستاذًا في أحد أقسام الاقتصاد، واحد فقط كان تحت الأربعين. هذا التيار يبدو مسببًا للقلق على الأقل مثل عقود الشراكة في كليات الطب.

إن عددًا صغيرًا جدًا من طلابنا الجامعيين يحصلون على التعليم الذي يريدونه ويستحقونه. وأسهل رد هو أنهم ليس لديهم من يلومونه إلا أنفسهم، حيث إننا نسمع عادة عن توجهاتهم المهنية وميلهم إلى الحفلات، وإلى إشارات مثل قول دوثات Diwthat إنهم يكرسون أقل كم من الجهد لدراساتهم. أو في شكاوى الأساتذة من تبلد الطالب، والحضور المتراخي، واللامبالاة تجاه الواجبات.

ومع ذلك فإن ملاحظتي الخاصة هي أن شباب سن الجامعة يمتلكون مخزونًا من الفضول العقلي، وسوف يستجيبون عندما يتم استثارة عقولهم. وهذا في الواقع يحدث في الكثير من كليات الفنون الحرة المستقلة Liberal Asts، حيث يكون التعهد الأول لأساتذتها هو تعليم الطلاب. ولقد قمت بزيارة العديد من تلك الكليات ورأيت كيف يتم تشجيع الطلاب لاستخدام عقولهم، بما فيهم هؤلاء الطلاب الذين ربما قد التحقوا في البداية للألعاب الرياضية أو الأنشطة الأخرى الأكاديمية. وبينما قد لا يكون أعضاء هيئة التدريس منهمكين في الكثير من الأبحاث، فإنهم يعملون معًا للوصول إلى منهج كامل. وفوق ذلك ليس عندي شك أن الطلاب الـ ٣٢٢،٧٩١ الموجودين الآن بهذه الكليات لا يختلفون في القدرة الكامنة عن الملايين الذين يتم تجاهلهم في الجامعات العظمى. وأنا مقتنع أيضًا أنه رغم الفروق في المصروفات وأجور الأساتذة، فإن التعليم الجيد يمكن تقديمه في كلية مثل «كو Coe» في ايوا، و«واتيمان Whitman» في واشنطن، و«فوكس Knox» في اليونز تمامًا كما يوجد كليات عريضة السمعة مثل ويليامز وسوارثمور Williams, Swarthmore.

إن الطالب الذى يتخصص الآن بصورة أساسية في المشروبات الخالية من الكحول بجامعة اريزونا يمكن أن يقدم رسالته عن موليير في كلية «لويس وكلارك Lewis and Clark College»، بجامعة اوريجون. وعدد كبير من الأساتذة يعرفون كيف يقدمون أفضل تعليم جامعي. والسؤال هو ما إذا كانوا سيقومون أبدًا بالوصول إلى العدد الأكبر من الطلاب الذين يجب أن يتعلموا منهم. التيارات الحديثة في التعليم العالي تقترح أن بشائر حدوث هذا الأمر ليست جيدة. ■

بـــــل هـكـــــــــذا

د. محمـــد صـــالح الجـــابـرى

بأكثر من كونها ـ بحكم طبيعتها ـ نافذة لوجهات النظر، نود أن نؤكد أن «وجهات نظر» ليست طرفاً في هذا الجدل الدائر ـ في حقيقة الأمر ـ بين أطراف مشاركة أو ذات علاقة مباشرة بموسوعة لها من الأهمية ما نقدره. وما نعتقد معه أن طرح رؤى مختلفة وإن تباينت زاوية النظر قد يكون له فائدة عند من يعنيه الأمر مشاركًا أو باحثًا أو قارئًا.

ونأمل أن نكون بنشر هذا المقال (الرد) الثانى، قد أتحنا الفرصة كاملة ـ وكافية ـ أمام كل أولئك (مشاركين أو باحثين أو قراء) فى الاطلاع على وجهات النظر المختلفة بشأن الطريقة التى تم بها إعداد الموسوعة المهمة التى تشرف على إصدارها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

المحـــرر



■ تحت عنوان «ما هكذا تورد الموسوعات» نشرت مجلة «وجهات نظر» مشكورة فى عددها الصادر فى شهر ديسمبر ٢٠٠٥ مقالاً للأستاذ محمد فؤاد الذاكرى، وهو باحث فى تاريخ الطب العربى من مدينة حلب، ومن محررى (موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين) إن لم نقل من بين أبرز محرريها، قياسا لما حرر من مداخل فى مجال تخصصه.

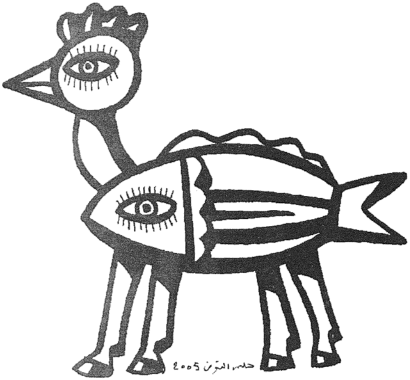
ولئن استأثر نصف مقاله المشار إليه بتذكير القارئ بالتراث العربى المخطوط، وأهميته ومميزاته، ومظان وجوده، وما نشر من مصادر ومراجع وأعمال ببليوغرافية حول هذا التراث، والدراسات العربية والأجنبية التى يمكن للقارئ الاستفادة منها لإدراك مكانة هذا التراث، مستنداً فى هذه المعلومات بصورة أساسية إلى كتيِّب قامت بتحريره اللجنة العلمية للموسوعة، وضمنته القواعد الفنية للكتابة للموسوعة، وقائمة أوليَّة بالمصادر والمراجع التى يمكن لأى باحث أن يرجع إليها للإفادة منها فى بحثه، متوخيِّة من ذلك تيسير عمل الخبراء، ورسم منهجية متكاملة تساعد فى وحدة التحرير والتنميط المطلوب فى إعداد الموسوعات، وقد عمِّمت هذا الكتيِّب على جميع الباحثين ومن ضمنهم الدكتور الذاكرى، فإنَ الكاتب لم ينسب هذا الجزء من مقاله إلى المصدر الذى استلهم منه تلكم الفقرة الاستعراضية التى لو لم يكن الغرض من إيرادها تضخيم معارفه لَمَا كان المقال بحد ذاته بحاجة إليها، لأن الإفاضة فى إيراد المصادر والمراجع وكتب الأعلام والطبقات والفهارس، وتذكير اللجنة العلمية بذلك مما يصدق عليه المثل القائل «كجالب التمر إلى هَجَر»، ولا أخال إلاّ أن الكاتب الدكتور الذاكرى يعلم علم اليقين أنّ بعض أعضاء اللجنة العلمية للموسوعة هم من قام بترجمة بعض هذه المراجع مثل بروكلمان وفؤاد سزكين عن أصولهما الألمانية، حيث قام بتعريب المرجعين السالف ذكرهما الأستاذ الدكتور محمود فهمى حجازى، الباحث المصرى المعروف، كما قام الأستاذ الدكتور أكمل الدين بن إحسان أوغلى - الذى قبل أن ينتخب أمينا عاما لمنظمة المؤتمر الإسلامى- كان مديرا عاما لمركز اسطمبول للتاريخ والأبحاث والفنون الإسلامية، بالإشراف والتقديم لمعظم فهارس المخطوطات والدراسات التراثية التى صدرت عن ذلكم المركز، والتى كشفت عن جل المخطوطات العلمية فى مكتبات تركيا، وتعدّ هذه المكتبات من أغنى مكتبات العالم فى مجال التراث العلمى العربى الإسلامى.

ولإزالة اللبس الذى يُشتمّ من مقال الدكتور فؤاد الذاكرى واشتباهه فى أن أعضاء اللجنة العلمية للموسوعة جلُّهم بعيد عن ملامسة التراث العلمى العربى، ومعرفتهم المباشرة به، والاطلاع عليه فإن الموقف يقتضى تذكير سيادته وطمأنة قراء الموسوعة بأن اللجنة العلمية التى تشرف على إصدار الموسوعة ومتابعة إنجازها - وهى بالمناسبة تقوم بذلك تطوعًا محضًا وتفضلاً اختياريا- إنّما هم نخبة من العلماء الأفاضل من الأقطار العربية والبلاد الإسلامية، أُورِد أسماءهم للإحاطة والعلم دونما ترتيب أو تراتب، ومن بينهم الأستاذ الدكتور هشام نشابة أحد أعمدة جمعية المقاصد الإسلامية اللبنانية، ورئيس مركز الدراسات الفلسطينية ببيروت، ومن كبار رجال التربية والعلم فى لبنان، ومحاضر فى مجال التراث الحضارى العربى الإسلامى فى جلّ جامعات أمريكا. والأستاذ الدكتور الناقد الشهير صلاح فضل أحد الأساتذة المرموقين فى الجامعات المصرية، وهو يرأس اللجنة العلمية لهذه الموسوعة. على أن هذه اللجنة العلمية تضم فى عضويتها بالإضافة لمن سبق ذكرهم الأستاذ الدكتور عبد الرحمان الطيب الأنصارى عالم التاريخ والآثارى المعروف والأستاذ بجامعة الملك عبد العزيز؛ ورئيس تحرير الكتاب الضخم الذى يصدر حاليا عن المنظمة العربية تحت مسمّى (المرجع فى تاريخ الأمة العربية)؛ والأستاذ الدكتور على عقلة عرسان الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب وهو كاتب وشاعر ومسرحى فضلاً عن المنصب القومى الذى يحتلّه، والأستاذ الدكتور إبراهيم بن مراد أحد أساتذة جامعة تونس، ورئيس الجمعية العربية المعجمية، وصاحب التآليف المتعددة فى مصطلحات علم الطب عند العرب وغيرهم.

وإضافة إلى هؤلاء من البلاد العربية تضم اللجنة فى عضويتها العالم الهندى المعروف محمد أسلم إصلاحى، رئيس الدائرة الثقافية لأفريقيا والعالم العربى فى جامعة جواهرلال نهرو بالهند، والأستاذ الدكتور محمد على آذرشب الأستاذ بجامعة طهران، ومترجم العديد من الإبداعات العربية إلى اللغة الفارسية. فإذا كان الأستاذ محمد فؤاد الذاكرى قد طالع هذه الأسماء المرموقة فى الصفحة الأولى من الموسوعة، وفاته أن يدرك أهمية كلّ عضو من هؤلاء الأعضاء وتخصصه وتضلعه فى مجاله، فضلاً عن تضلّع الجميع بقدر مشترك فى معرفة تراث الأمة العربية الإسلامية فقد يكون هذا التوضيح وهذا التعريف بتخصّص كل منهم كفيلاً بتصويب ما انتابه من وهم، وما ورد فى مقاله من تشكيك فى صلة أعضاء اللجنة العلمية بالتراث الحضارى العربى الإسلامى.

والأنكى من كل ما سبق ذكره هو

تـــــــورد «المـــــوســـــوعــــــات»!





توخَّى النزعة الهجومية، الاتهامية، الانفعالية للكاتب الذى سمح لقلمه بأن تفرط منه على سبيل المثال هذه الجملة تجاه السادة أعضاء اللجنة العلمية: «ولكن لأمرٍ ما دُبِّر بليلٍ حصل تعديل خطير مفاجئ فى توجه الموسوعة، فقد قررت اللجنة العلمية المشرفة إضافةَ طائفة الأدباء (شعراء.. كتاب) إلى الموسوعة، وهذا القرار لم يكن له ما يبرره، وأدخل الموسوعة فى متاهات فى غنى عنها».

والتعديل «الخطير» الذى يعنيه الكاتب هو أن اللجنة العلمية (المتآمرة) حسب رأيه قررت إضافة أعلام الأدباء إلى أعلام العلماء، أى أنها فى نظره صبت الزيت على النار، وارتكبت جريمة علمية قد تتطلب لجنة تحقيق دولية فى رأيه، فالعلم والأدب لديه نقيضان لبعضهما وعدوان لَدُودان قد يؤدى اقتراب أحدهما من الآخر إلى انفجار كونى أو حرب عالمية!.

ولعلم سيادته فإن اللجنة العلمية لا تجتمع فى الليل على الإطلاق مثلما توهم، وكل اجتماعاتها تحصل فى رابعة النهار وفى أماكن عامة، ولا أحد من أعضائها معروف عنه المشاركة فى أية مؤامرة أو أى انقلاب على الإطلاق. وكل ما فى الأمر أن اللجنة اتخذت هذا القرار فى كامل وعيها وبإرادتها الذاتية المحضة. وكان القرار بالإجماع وفى غاية البساطة. فالعلماء والأدباء فى رأى اللجنة يكمل كلَ منهما الآخر، والفارق بين العالم والأديب كالفارق بين أغصان الشجرة الواحدة المسماة شجرة المعرفة، وأن العالم يكتب فى مجال العلوم الذى يتخصص فيه، والأديب يكتب فى الميدان الذى يتخصص فيه. وبينهما قاعدة مشتركة هى أن كلاً منهما يبدع ويصنع الفكر والحضارة، وكان رأى اللجنة أن مفهوم العالم فى الحضارة العربية الإسلامية هو الذى يلم بمعظم معارف عصره، وأنَّ ما من عالم قديم إلاَ وله جوانب متعددة من علوم عصره، فالطبيب: نحوى وشاعر ومؤرخ أحيانا. وعالم الفلك: مفسر، ومترسل، وطبيب وموسيقار وغير ذلك، فالنزعة الشمولية كانت سمة علماء الحضارة العربية الإسلامية، ولو أخذنا بخاطر الدكتور الذاكرى وفصلنا موسوعة الأعلام إلى موسوعات صغيرة لتكرر ذكر العلَم الواحد فى أكثر من موسوعة واحدة من هذه الموسوعات الصغيرة، مرة باعتباره طبيبا، وثانية باعتباره شاعراً وثالثة باعتباره مفسراَ ورابعة باعتباره فيلسوفًا وموسيقاراَ إلى ما هنالك.

وكان من رأى اللجنة كذلك وهو ما لم يرق للدكتور فؤاد أن اقتصار الموسوعة على التعريف بأعلام العلماء فى مرحلة من المراحل قد يوحى بأن هناك انقطاعاَ وضموراَ وتوقفا فى الحضارة العربية الإسلامية، بينما الواقع يؤكد تواصل هذه الحضارة واطراد عطائها، جيلاً فجيلاً وعصراَ فعصراَ فى حالات مد وجزر كشأن الحضارات جميعها.

إن من الأهداف الأساسية لـ(موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين) هو وضع سجل متكامل حافل بمختلف أوجه الإبداع فى الحضارة العربية الإسلامية ورجالاتها وأعلامها منذ فجر التاريخ وحتى نهاية القرن العشرين، يكون دليلاَ ساطعاَ لأبنائنا فى التعرف على إسهام أجدادهم وآبائهم فى إغناء التراث الإنسانى. أفهل كان من السداد لو توخينا رأى الدكتور الذاكرى على سبيل المثال الآخر وعمدنا إلى فصل علماء كل إقليم على حدة، أو أمعنا فى العسف، وصنفت اللجنة أعلام العلماء والأدباء بحسب كل قومية من القوميات أو مذهب من المذاهب، أو طائفة من الطوائف، أو دين من الأديان، وهكذا دواليك، تطبيقاَ لنظرية الفصل بين الأدب والعلم، وما ينجز عنها من سلسلة من الفواصل اللاحقة.

لقد كان منطلق اللجنة العلمية - وهو منطلق مستوحى من أهداف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التى تتولى الإشراف على إعداد وإصدار الموسوعة بتوجيه من مراجعها الدستورية القومية- أن تكون هذه الموسوعة موسوعة شاملة جامعة لكلَ المنتسبين والمنضوين تحت لواء الحضارة العربية الإسلامية من كل الملل والنحل والطوائف والأديان والأقاليم شريطة أن يكونوا قد كتبوا باللغة العربية التى كانت لقرون عدة، لغة الفكر والحضارة والتعبير والكتابة والإبداع فى عدة أصقاع من المعمورة، مما يدل على سماحة هذه الحضارة ورحابة صدرها وبُعد نظرها وشُموليتها.

المؤاخذة الأخرى التى أخذ بها الدكتور محمد فؤاد الذاكرى فى مقاله الموسوعة قوله بأنه كان من المفترض صدورها فى خمسة مجلدات فقط، وإذا بها قد تصل إلى خمسين مجلداً، وهذا فى رأيه تضخم نجم عن تسلل الأدباء والشعراء إلى الموسوعة، وعما أسماه «مؤامرة» على العلماء لأن خمسة مجلدات كانت كفيلة باستيعاب تراجم العلماء وحدهم. وطبقاً لما جاء فى مقاله فإنَ هذه الزيادة فى عدد المجلدات من شأنها أن تُربك القارئ، وتشتت ذهنه، وتقطع حبل تفكيره فى المتابعة والمواصلة. ولو أمعن

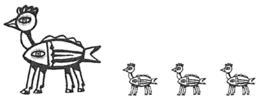
كتاب الزاوية

يوسف الشريف

أم كلثوم فى السودان

حين عايشت السيدة أم كلثوم عن قرب على مدى أسبوع كامل عندما دعتنى إلى رفقتها خلال رحلتها الغنائية فى السودان فى إطار مشروعها القومى لجمع الأموال العربية الخاصة بإعادة بناء الجيش المصرى إثر نكسة ١٩٦٧ قلت لها ونحن فى طريقنا جوًا إلى الخرطوم: إن أهل السودان لا يحبون أغانى الهجر والصد والفراق ولا يطيقون الاستسلام طويلاً للأحزان والنكد والخصام، لأنهم يعشقون المرح والغناء والرقص وأفراح الحب ونشوة اللقاء.

وقلت للسيدة أم كلثوم كذلك إن أهلنا فى السودان ينتشون طرباً للغناء، وغالبًا ما يمارسون أسلوب «الشيل» أى ترديد الغناء والتصفيق وراء المطرب وأن وجدانهم مزيج بين العربية والأفريقية.. و.. وهكذا حين وقفت أم كلثوم على المسرح القومى فى أم درمان اعتمدت أسلوبًا جديدًا وغير مسبوق فى غنائها، إذ برغم أن أغنياتها طويلة زمنيًا وبطيئة الإيقاع إلا أنها نجحت بذكائها وحضورها الطاغى وحسها المرهف فى السيطرة على مشاعر المستمعين وجذبهم إلى تذوق أنغام سلم الموسيقى العربية الخماسى البطىء، وأعفت السودانيين من ممارسة عادة «الشيل» عبر ترديد كوبليهات أغانيها وراءها، وقنعوا باستعادة إيقاعاتها السريعة الراقصة.. بل إنها كانت غاية فى السعادة والترحيب بجمهور المستمعين فى الترسو عندما اهتزت أجسامهم طربًا ونشوة ورقصًا.



الأستاذ الذاكرى النظر مليا لكان أحرى به أن يشيد بهذا الانفتاح الواعى وهذا الاستيعاب المبارك، وأن يطلب إلى اللجنة أن تشرع قدر الإمكان هذا السجل الحضارى على مصراعيه ليكون فرصة مناسبة لإنصاف آلاف العلماء والأدباء والكتّاب ممن لم تسنح الظروف بوضع تراجم لهم، والتعريف بجهودهم وإبداعاتهم، وإدراجهم فى موسوعة واحدة تتيح للباحثين والعلماء والطلبة وسائر القراء بمختلف مستوياتهم معلّمة تُغنى عن المراجع والمصادر المتناثرة والمشتتة فى جهات مختلفة، بعضها لا يزال مخطوطا بعيدا عن التناول، وبعضها الآخر مطبوعا فى دور نشر قد لا تصل إليها اليد بيسر وسهولة، وأكثرها تجاوزه الزمن وعفى عليه الدهر، وتقادم به العهد.

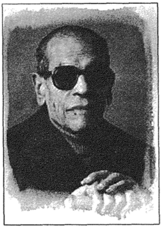
ولإفادة الأستاذ الذاكرى ولعلمه، فإن هذه الموسوعة التى تُعد أول موسوعة متخصصة فى الأعلام فى مجالى العلوم والآداب دون المجالات الأخرى تكتب من أول حرف فيها وحتى آخر حرف من قبل العلماء والأساتذة والخبراء العرب والمسلمين من الجامعيين المتخصصين فى جميع مجالات العلوم بأسلوب عصرى، يضاهى الموسوعات العالمية المعروفة، ويشترك فى تحريرها نحو ألفى أستاذ، ٩٩٪ منهم من الجامعيين، وتتعاون فى التوجيه والترشيح والمتابعة أكثر من ١٠٠ جامعة فى الدول العربية والدول الإسلامية. كما تعد هذه الموسوعة أسرع موسوعة من حيث الإنجاز، فقد شُرع فى الإعداد الفعلى لها سنة ٢٠٠٢، وأعطيت إشارة تنفيذ طباعة أولى مجلداتها أواخر سنة ٢٠٠٤. وفى غضون سنة واحدة صدر منها إلى اليوم ١١ مجلدا فى نحو ١٠٠٠٠ صفحة، ستتبعها سائر المجلدات الأخرى وفق الطريقة الألفبائية فى تتابع مطّرد، يسمح للقارئ باقتنائها منجّمة، المجلد تلو المجلد تيسيراً لحصوله عليها خلال مراحل مما يتيح إمكانية انتشارها على أوسع نطاق، سيما أن كل مجلد من المجلدات يختص بحرف من الحروف على حدة، وتفضلت الدار التى تتولى نشرها بأن جعلت أثمانها أكثر من ميسورة، بالتفاهم مع المنظمة العربية التى تسعى إلى أن تجد هذه الموسوعة طريقها إلى كل مكتبة خاصة أو عامة، وبأثمان معقولة للغاية، نشراً للمعرفة، وتأكيداً لأهداف المنظمة فى توفير مراجع قومية، مما لا تتمكن الدول العربية بحكم ظروفها من القيام به.

ما يسوء فى المقال المذكور أن كاتبه حاول الاستنقاص من مداخل بعض زملائه، وبعض تلك المداخل مما كان كتبه هو نفسه، لكن لأمر مَا ارتأت اللجنة العلمية إدراج مدخل غيره مما قد يكون أثار «حفيظته»، فى حين يعلم الدكتور الذاكرى أن اللجنة أجازت العشرات مما كتب، وكان لها رأى إيجابى فيما يتولى تحريره من مداخل. والحقيقة أن اللجنة وأسرة تحرير الموسوعة تحاولان قدر الإمكان عدم التدخل فيما يكتبه الأساتذة المختصون وهم مسؤولون مسؤولية كاملة عما يكتبون، إلا عند الضرورة القصوى لمواءمة الصيغ التحريرية، واستبعاد ما لا يكون من صميم المداخل، واللجنة تعلم أن كل مدخل من المداخل مهما حاول التكثيف والضغط إنما يبقى مشروعا للإضافة والإثراء والتوسع، وقابلية التعليق عليه ونقده مثلما فعل الدكتور الذاكرى مع بعض النماذج التى أوردها وعلق عليها بالإضافات التى أوردها فى مقاله والتى لم تكن غائبة عن أصحاب المدخل ولا على اللجنة التى لم تر ضرورة لإدخال الإضافات التى لا تعد من صميم العمل المطلوب.

والخلاصة أن ما من عمل فى حجم (موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين) التى كان صدورها حدثا ثقافيا عربيا وإسلاميًا أشادت به الأوساط الثقافية والعلمية، والصحافة والجامعات، والمكتبات الدولية فى عدد من العواصم العالمية، إلا وهو عمل لا يخلو من الهنات والملاحظات، بل إن اللجنة العلمية المشرفة، والمسؤولين فى الإدارة العامة للمنظمة وفى مقدمتهم مديرها العام وهو المشرف بنفسه على الموسوعة كانت تتحسب لمثل هذه الملاحظة، فوجهت نداء حارا فى المقدمة التى قدمت بها لهذا العمل إلى كل العلماء فى هذه الأمة لإثراء هذه الموسوعة بآرائهم وتوجيهاتهم، وتصويب ما يحتاج فى مداخلها إلى تصويب، شريطة أن لا يكون الهدف من ذلك استنقاص جهود الناس، والتشكيك فى علمهم وعملهم، وتسقط أخطائهم، فالكمال لله وحده، «وفوق كل ذى علم عليم». ■

حول «أولاد حارتنا»

أحمد كمال أبو المجد



متى تجد «أولاد حارتنا»؛ رواية نجيب محفوظ الأكثر إثارة للجدل، طريقها إلى أيدى القراء؟
كما أن للسؤال - ربما - أكثر من إجابة، فللسائلين أيضًا - على اختلاف مواقعهم، وربما حساباتهم أو زوايا رؤيتهم - أكثر من غرض.
وأيًا ما كان أمر تباين الإجابات أو مواقع السائلين، تبقى الرواية «النوبلية» هى الأكثر إثارة للجدل فى تاريخ الرواية العربية الحديثة. كما تبقى «مواسم» الجدل حولها جديرة بالملاحظة.
قبل أحد عشر عامًا، وبالتحديد فى ١٩٩٤ عندما تعرض الأديب الكبير لاعتداء لم يكن يتوقعه أحد، زاره دكتور كمال أبو المجد. ويومها دار حوار بين الحاضرين اقترح فيه محفوظ بعد أن أكد «حرصه على أن تقع كتاباته فى الموقع الصحيح لدى الناس، حتى وإن اختلف بعضهم معه فى الرأى..» أن يكتب أبو المجد شهادة عما دار من حوار.. وعن الرواية. وهنا نص الشهادة التى ستصبح مقدمة للرواية حين تصدرها «دار الشروق».

وجهات نظر

الشهادة التي توشك - أيها القارئ - أن تتابع سطورها القليلة، سبق نشرها «مقالة» في «الأهرام» يوم ٢٩ديسمبر ١٩٩٤، أي منذ أكثر من عشر سنوات، طرأت فيها على حياتنا الثقافية والسياسية أمور جسام، ازدادت فيها تجاربنا الفردية والجماعية ثراء وتنوعاً، وأحاطت بنا على مر شهورها وأيامها، أحداث وتطورات كبرى، داخل مصر، وعلى امتداد عالمنا العربي وامتداد الدنيا كلها.. تغيرت بسببها نظرتنا إلى كثير من أمورنا الخاصة وأوضاعنا العامة.. ووقف بسببها كثير منا من نفسه وأمته موقف المراجعة والتأمل، والمجاهرة بالنقد لما يستحق النقد من أوضاعنا، كما ارتفعت نبرة المطالبة بالإصلاح السياسي والاجتماعي والثقافي، وانقدحت - بسبب ذلك كله - شرارة حوار بدأ ثم تصاعد، ولا يزال دائراً بين جماعات الكتاب والمفكرين والباحثين ممن يطلق الناس عليهم «النخبة المثقفة» التي تفكر للمجتمع كله، وتطرح بين يديه قضاياه وهمومه، وتشتغل معه بطموحاته وتطلعاته وآماله في الغد القريب والمستقبل البعيد..

لذلك، حين عَرضت على دار الشروق أن تجعل «هذه الشهادة» مقدمة لرواية «أولاد حارتنا» لكاتبنا الفذ الكبير «نجيب محفوظ» لم أتردد في قبول هذا الاقتراح ولكنى رأيت من الضروري أن أعيد قراءة هذه الشهادة، وأن أعيد قراءة «أولاد حارتنا» مرة أخرى، حتى أستوثق من أن ما سطره القلم عام ١٩٩٤ لا يزال - عند صاحبه على الأقل - صالحا عام ٢٠٠٦.. وأن ما شهدت به في شأن هذه الرواية التي أحدثت في حياتنا الثقافية دوياً ظلت أصداؤه تتردد سنوات طويلة لازال موضع إيماني واقتناعي.. فلما فعلت ذلك، بدا لي أن ليس عندي ما أضيفه أو أغيره من سطور هذه الشهادة.. إذ الأمر - في نهايته - يدور حول قضيتين لم يتحول فكرى ولم يتغير في شأنهما:

أولاهما : أن من أصول النقد الأدبي التمييز الواجب بين الكتاب الذي يعرض فيه الكاتب فكرته ويحدد مواقفه، ملتزماً - في ذلك - بالحقائق التاريخية، والوقائع الثابتة، دون افتئات عليها، ودون مداراة لما يراه في شأنها.. وبين الرواية التي قد يلجأ صاحبها إلى الرمز والاشارة، وقد يدخل فيها الخيال إلى جانب الحقيقة العلمية، ولا بأس عليه في شيء من ذلك، فقد كانت الرواية - قديما وحديثاً - صيغة من صيغ التعبير الأدبي، تختلف عن «الكتاب» والالتزام الصارم الذي يفرضه على مؤلفه.. وفى إطار «أولاد حارتنا» فإنني فهمت شخصية «عرفة» بأنها رمز للعلم المجرد.. وليست رمزاً لعالم بعينه، كما فهمت شخصية «الجبلاوي» على أنها تعبير رمزي عن «الدين» وليست بحال من الأحوال تشخيصا رمزيا للخالق سبحانه وهو أمر يتنزه عنه الأستاذ «نجيب محفوظ» ولا يقتضيه أي اعتبار أدبي فضلا عن أن يستسيغه أو يقبله.

القضية الثانية: حرية التعبير والموقف منها، ذلك أنه مع التسليم بأن الحريات جميعها إنما تمارس في جماعة منظمة، ولذلك لا يتأبى منها على التنظيم والتعبير إلا حرية واحدة هي حرية «الفكر والاعتقاد» بحسبانهما أمراً داخلياً يسأل عنه صاحبه أمام خالقه، دون تدخل من أحد، حاكماً كان ذلك الأحد أو محكوما.. أما حين يتحول الفكر إلى تعبير يذيعه صاحبه وينشره في الجماعة، فإن المجتمع يسترد حقه في تنظيم ذلك التعبير دون أن يصل ذلك التنظيم إلى حد إهدار أصل الحق ومصادرة جوهر الحرية، ذلك أن الهدف من إجازة هذا التنظيم إنما هو حماية حقوق وحريات أخرى فردية أو جماعية قد يمسها ويعتدي عليها إطلاق حرية الفرد في التعبير، وتمنعها على التنظيم والتقييد، ويبقى مع ذلك صحيحاً أن الأصل هو الحرية، وأن التقييد استثناء تمليه الضرورة، والضرورة إنما تقدر بقدرها، ومن شأن الاستثناء ألا يقاس عليه أو يتوسع فيه.

وأهم من هذا كله.. أن الشهادة التي قدمتها ليست رأياً لي، وإنما هي تفسير كاتب «أولاد حارتنا» لما كتبه، وبيان واضح لا يحتمل التأويل لموقفه من القضايا الكبرى التي أثارتها تلك الرواية.. وهى - على كل حال - آخر ما صدر عن نجيب محفوظ، أمد الله في عمره، حول القراءة الصحيحة «لأولاد حارتنا» باعتبارها «رواية» للخيال والرمز فيها دور كبير.. وليست «كتاباً» يقرأ قراءة حرفية للتعرف على موقف مؤلفه من القضايا التي يطرحها بعيداً عن الرمز والخيال..

وأدعو الله تعالى أن تتسع عقولنا وقلوبنا لمزيد من حرية الكتاب والأدباء وسائر المفكرين في التعبير عن آرائهم، وإطلاق مواهبهم، بالصيغ الأدبية التي يختارونها، دون حجر أو وصاية أو مسارعة إلى الاتهام وإساءة الظن.. حتى لا «تكتم الشهادة» بيننا وتموت، وحتى لا تتجمد الأفكار على أطراف الألسنة والأقلام.. فتحرم الجماعة من زاد ثقافي وعلمي تحتاج إليه، وهى تشق طريقها للانبعاث والنهضة وسط زحام حضاري وثقافي لا سابقة له في التاريخ. ■

فــى زيـــارة نجـــيب محفـــوظ

حين وقع الاعتداء الغادر على أديب مصر وكاتبها الكبير نجيب محفوظ، كنت خارج مصر.. وحين عدت إليها طلبت من الصديق الأستاذ محمد سلماوى، وهو من تلامذته المقربين، أن يصحبنى إليه لنؤدى واجب الاطمئنان عليه.. ولكنه. وسط شواغله الثقافية. تأخر فى ترتيب تلك الزيارة حتى عاد الأستاذ نجيب محفوظ إلى بيته قبل أيام من عيد ميلاده الذى شاركه فى الاحتفال به كثيرون من محبيه ومقدريه.. وإذا بالأستاذ سلماوى يتصل بى ليخبرنى أنه رتب للزيارة موعداً فى الخامسة من مساء اليوم التالى، وأننا سنذهب فى صحبته ومعنا المهندس إبراهيم المعلم، الذى تربطه ووالده بالأستاذ نجيب محفوظ علاقات ود قديمة وموصولة، ومعنا كذلك الإذاعى والإعلامى المخضرم أحمد فراج.

وعلى باب نجيب محفوظ استقبلتنا بالحفاوة المصرية المعهودة السيدة الفاضلة زوجته.. ثم جاء الأستاذ نجيب محفوظ فى خطوات ثابتة طمأنتنا على قرب اكتمال شفائه، وأخذ يرحب بنا فى ود شديد، ثم جلس بيننا.. وسادت فترة من صمت قصير، لأن أحدا منا لم يعد لهذا اللقاء أكثر من كلمات السؤال عن الصحة والتهنئة بعيد الميلاد.. ثم بدا لى. على غير ترتيب ولا إعداد. أن أقطع هذا الصمت.. فوجدتنى أقول: يا أستاذ نجيب، الجالسون معك الليلة كلهم من قرائك، جيلنا كان يجد فى كتاباتك ورواياتك شيئا بين فن الأدب وفن التصوير، وذلك بما نسجته فى وصف القاهرة وحياة أهلها، ونماذجهم المختلفة من وشى دقيق عامر بالألوان ملىء بالتفاصيل، حتى ليكاد القارئ يسمع فيه أصوات الناس ويرى وجوههم، ويتابع حركتهم فى شوارع القاهرة وأزقتها ومساجدها ومقاهيها، ويكاد. دون أن يشعر. يدخل طرفا فى علاقات بعضهم ببعض.. وكم من مرة تعرف بعضنا على أحياء القاهرة وشوارعها بما كان قراه عنك فى وصفها وتصوير حياة أهلها.. وأضفت: ثم إنك يا أستاذ نجيب تظل. فى خواطرنا. قبل كل شىء وبعد كل شىء كاتبا وأديبا مصريا خالصا، لم تدجن كتاباته وآراؤه بتأثيرات غربية تنال من نكهتها المصرية ومذاقها العربى الأصيل..

وبدا من قسمات وجه الأستاذ نجيب محفوظ وحركة يديه أنه يقبل هذا الوصف له ولكتاباته وأنه يرتاح إليه.. فشجعنى ذلك على أن أتقدم فى الحوار خطوة أخرى، فقلت: ويبقى أن نسألك عن رأى عبرت عنه منذ أسابيع قليلة حين بعثت برسالة وجيزة إلى الندوة التى نظمتها الأهرام تحت عنوان «نحو مشروع حضارى عربى»، فقد قلت للمشاركين فى الندوة: إن أى مشروع حضارى عربى لابد أن يقوم على الإسلام، وعلى العلم.. ولقد وصلت رسالتك. على قصرها. واضحة وصريحة ومستقيمة ولا تحتمل التأويل، ولكن يبقى. ونحن معك نسمع لك وننقل عنك. أن تزيد هذا الأمر تفصيلا، نحتاج جميعا إليه وسط المبارزات الكلامية التى يجرى فيها. ما يستحق الحزن والأسف. من ألوان تحريف الكلام وتزييف الآراء والافتئات على أصحابها..

وفى حماسة شديدة، وصوت جهير ونبرة قاطعة، انطلق نجيب محفوظ يقول: وهل فى تلك الرسالة جديد؟.. إن أهل مصر الذين أدركناهم، وعشنا معهم، والذين تحدثت عنهم فى كتاباتى كانوا يعيشون بالإسلام، ويمارسون قيمه العليا.. دون ضجيج ولا كلام كثير.. وكانت أصالتهم تعنى هذا كله.. ولقد كانت السماحة وصدق الكلمة وشجاعة الرأى وأمانة الموقف ودفء العلاقات بين الناس، هى تعبير أهل مصر الواضح عن إسلامهم.. ولكنى فى كلمتى إلى الندوة أضفت ضرورة الأخذ بالعلم، لأن أى شعب لا يأخذ بالعلم ولا يدير أموره كلها على أساسه لا يمكن أن يكون له مستقبل بين الشعوب.. إن كتاباتى كلها، القديم منها والجديد، تتمسك بهذين المحورين: الإسلام الذى هو منبع قيم الخير فى أمتنا، والعلم الذى هو أداة التقدم والنهضة فى حاضرنا ومستقبلنا.

وأحب أن أقول: إنه حتى رواية «أولاد حارتنا» التى أساء البعض فهمها لم تخرج عن هذه الرؤية. ولقد كان المغزى الكبير الذى توجت به أحداثها.. أن الناس حين تخلوا عن الدين ممثلاً فى «الجبلاوى»، وتصوروا أنهم يستطيعون بالعلم وحده ممثلا فى «عرفة» أن يديروا حياتهم على أرضهم (التى هى حارتنا).. اكتشفوا أن العلم بغير الدين قد تحول إلى أداة شر، وأنه قد أسلمهم إلى استبداد الحاكم وسلبهم حريتهم.. فعادوا من جديد يبحثون عن «الجبلاوى».

وأضاف: إن مشكلة «أولاد حارتنا» منذ البداية أننى كتبتها «رواية»، وقرأها بعض الناس «كتابا»، والرواية تركيب أدبى فيه الحقيقة وفيه الرمز، وفيه الواقع وفيه الخيال.. ولا بأس بهذا أبدا.. ولا يجوز أن تحاكم «الرواية» إلى حقائق التاريخ التى يؤمن الكاتب بها، لأن كاتبها باختيار هذه الصيغة الأدبية لم يلزم نفسه بهذا أصلا وهو يعبر عن رأيه فى رواية..

وفى ثقافتنا أمثلة كثيرة لهذا اللون من الكتابة، ويكفى أن نذكر منها كتاب «كليلة ودمنة»، فهو مثلا يتحدث عن الحاكم، ويطلق عليه وصف «الأسد»، ولكنه بعد ذلك يدير كتابته كلها داخل إطار مملكة الغابة وأشخاصها المستمدة من دنيا الحيوان.. منتهيا بالقارئ فى آخر المطاف إلى العبرة أو الحكمة التى يجريها على ألسنة الطير والحيوان.. وهذا هو الهدف الحقيقى الذى يتوجه إليه كل كاتب صاحب رأى.. أيا كانت الصيغة التى يمارس بها كتاباته..

قلت: الواقع أننى قرأت «أولاد حارتنا» منذ عدة سنوات، وأذكر أننى تعاملت معها حينذاك على أنها رواية وليست كتابا، ولذلك تفهمت ما امتلأت به من رموز تداخل فى صياغتها الخيال، ولم أتصور أبدا أن كاتبها كان بهذا التداخل يحاول رسم صور تعبر عن موقفه من الحقائق التى يتناولها ذلك الخيال أو تشير إليها تلك الرموز. ولكن الذى استقر فى خاطرى على أى حال ويبقى فى ذاكرتى منها إلى يومنا هذا، والذى رأيته. معبراً عن موقف كاتبها الذى يريد إيصاله إلى قرائه. هو تتويج حلقات روايته الرمزية بإعلان واضح عن حاجة «الحارة»، التى ترمز للمجتمع الإنسانى، إلى الدين وقيمه التى عبر عنها الرمز المجرد (الجبلاوى) حتى وإن تصور أهل الحارة غير ذلك وهم معجبون ومفتونون «بعرفة» الذى يرمز إلى سلطان العلم المجرد والمنفصل عن القيم الهادية والموجهة لأهل الحارة.

وتابع الأستاذ نجيب حديثه الأول قائلاً:

إننى حريص دائمًا على أن تقع كتاباتى فى الموقع الصحيح لدى الناس، حتى وإن اختلف بعضهم معى فى الرأى، ولذلك لما تبينت أن الخلط بين «الرواية» و«الكتاب» قد وقع فعلا عند بعض الناس، وأنه أحدث ما أحدث من سوء فهم، اشترطت ألا يعاد نشرها إلا بعد أن يوافق الأزهر على هذا النشر، (ولا يزال هذا موقفى إلى الآن).

قلت: إننى أتمنى. يا أستاذ نجيب. أن يسمع الناس منك هذا الكلام الواضح الذى لا يحتمل التأويل، ليعرفوه منك بدلا من أن يعرفوه من خلال شروح الآخرين، وائذن لى أن أقول إنى كنت واحدا من الذين يجدون هذه المعانى التى حدثتنا بها الآن حاضرة فى ثنايا كثير من كتاباتك القديمة والجديدة، وكانت تعبيرا دقيقًا عن منهج جيلنا وجيل آبائنا فى فهم الإسلام، فقد كانوا. وكنا معهم. نتنفس الإسلام تنفسا ونحيا به فى هدوء واطمئنان، دون أن نملأ مجالسنا ومجالس الآخرين بالكلام الكثير عنه.

وحين أوشكت الزيارة أن تتحول بهذا الحوار العفوى إلى ندوة، تدخل الأستاذ أحمد فراج قائلاً فى حماسة: كم كنت أتمنى أن يسمع الناس. كل الناس. هذا الحوار الهادئ حول هذه القضايا الساخنة. وأرجو أن يأذن لى الأستاذ نجيب محفوظ بتسجيل هذا الكلام كله مرة أخرى فى ندوة تليفزيونية قصيرة لا تتجاوز الدقائق العشر.. توضع بها النقاط على الحروف، ويعرف الناس، الموافق منهم والمخالف، حقيقة رأى الأستاذ نجيب محفوظ الذى عبر عنه الآن، كما عبرت عنه رسالته الوجيزة إلى ندوة الأهرام.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: إنى شاكر ومقدر هذا الاهتمام، ولكنى أشفق على نفسى من فتح باب الأحاديث التليفزيونية.. وأنا لا أزال فى نقاهة لا تحتمل مثل هذا المجهود.. ولكنى. بدلا من هذا. أقترح أن يكتب الدكتور كمال أبو المجد هذا الحوار الذى دار كما دار.. وسأكون راضيًا عن ذلك كل الرضا..

وفى إطار هذه الرغبة الموثقة بإذن صريح من الأستاذ نجيب محفوظ وبشهادة ثلاثة من ضيوفه الكرام.. ولدت فكرة هذا المقال.. الذى هو عندى شهادة أرجو أن أدرأ بها عن كتابات نجيب محفوظ سوء فهم الذين يتعجلون الأحكام ويتسرعون فى الاتهام، وينسون أن الإسلام نفسه قد أدرج كثيراً من الظنون السيئة فيما دعا إلى اجتنابه من آثام.. كما أدرأ عن تلك الكتابات الصنيع القبيح الذى يصر به بعض الكتاب على أن يقرءوا فى أدب نجيب محفوظ ما يدور فى رءوسهم هم من أفكار، وما يتمنون أن يجدوه فى تلك الكتابات، مانحين أنفسهم قوامة لا يملكها أحد على أحد، فضلاً عن أن يملكها أحد منهم على كاتب له فى دنيا الكتابة والأدب ما لنجيب محفوظ من القدم الثابتة، والتجربة الغنية، والموهبة الفذة النادرة التى أنعم بها عليه الله.

أدعو الله أن يتم على أديبنا الكبير نعمة العافية حتى يمسك القلم من جديد مواصلاً عطاءه الأدبى الذى يغنى العقل والوجدان، وواهبًا ما بقى من عمره المديد. بإذن الله. لتجلية الأمرين العظيمين اللذين أشار إليهما فى رسالته إلى ندوة الأهرام: الدين، الذى به هداية الناس وراحة النفوس، والذى يفىء ألوانا من المحبة والسماحة ودفء العلاقات والتسابق إلى الخير، على حارتنا الكبيرة مصر.. والعلم، الذى تحيا به العقول، والذى هو مفتاح أمتنا، وكل أمة، إلى أبواب المستقبل التى تتزاحم اليوم أمامها شعوب الدنيا كلها لتكون لها مكانة فى ساحته التى تتشكل معالمها الجديدة يوما بعد يوم. ■

نشر بجريدة الأهرام
فى ٢٩ ديسمبر ١٩٩٤.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

خرافة التقدم والتأخر

جلال أمين

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ١٧٥صفحة



هل يمكن وصف بلد ما بأنه متقدم، ونعت آخر بأنه متخلف استنادا إلى معايير النمو الاقتصادي وحدها؟ هذا هو الطرح الذي يرفضه المؤلف مؤكداً على أن فكرة التقدم والتخلف في حد ذاتها حديثة نسبيًا، وأنها تنطوي على قدر من المراوغة شأن كثير من الأفكار التي شاعت في العصر الحديث مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان والإرهاب. يؤكد المؤلف في هذا الإطار على الخطأ القاتل الذي يقع فيه الاقتصاديون في عصر «التكنولوجيا» حين يتناولون الثقافة الوطنية لأمة من الأمم، والتي قد توصف بمعايير التنمية الاقتصادية بأنها متخلفة، إذ هم يسحبون الوصف ذاته على ثقافة تلك الأمة لتصبح هي أيضًا متخلفة. وتتالت «النعوت» والهجمات من نوع تحرير الاقتصاد وإعادة الهيكلة والخصخصة وتمكين المجتمع المدني، وجميعها يصب في هدف واحد هو إضعاف الدولة، وإنهاء دورها في الحفاظ على الثقافة الوطنية، وفي الوقت الذي اجتهد الاقتصاديون في البرهنة على ما تحقق في دول العالم النامي بفعل هذه السياسات من تقدم، وتجاهلوا تماماً عملية مسخ الهوية الثقافية والحضارية لتلك الشعوب، والتي تمت على نطاق واسع.

وفي التسعينيات برز مفهوم «التنمية البشرية»، الذي استند إلى ثلاثة مؤشرات هي متوسط الدخل والعمر المتوقع وحالة التعليم، وعلى الرغم من أن هذا التصنيف جاء أوسع وأرحب في التعامل مع التنمية بمعناها الشامل، إلا أنه ظل اقتصادياً بحتًا لا يتعامل مع الجوانب الثقافية والحضارية، وفي العام ٢٠٠٢، ظهر عن الهيئة نفسها «برنامج الأمم المتحدة للإنماء» تقرير يحمل مسمى أكثر دهشة هو «التنمية العربية الإنسانية»، وقدم لنا ثلاثة مؤشرات أخرى هي الحرية أو الديمقراطية، والمعرفة، وتمكين المرأة، وبدا التقرير يقيس مدى تقدم الدول العربية قياساً ببعضها البعض وبدول غربية أخرى وفقًا لهذه المؤشرات وهي مؤشرات لا تصلح معايير للحكم كونها فضفاضة ومراوغة، كما أنها ليست متلازمة بالضرورة، أي أنك قد تحصل على الحرية لكنك لن تحصل على المعرفة، إذا أدت هذه الحرية مثلاً إلى سيطرة الدهماء على مقاليد الأمور، وقد ينتعش الإنتاج الأدبي والفكري في ظل قيود سياسية وأجواء تسلطية، بما يعني أن الديمقراطية والمعرفة ليسا متلازمين بالضرورة، فضلاً عن أن الدول التي تبدو ديمقراطية تمارس أقصى حالات الاستبداد خارج حدودها، وحين تدعي أنها تحارب التطرف، فإنها تشايعه وتؤازره تحقيقًا لمآرب سياسية محددة، بالإضافة إلى ما تمثله المصالح التجارية من تهديدات للحرية وللأنساق المعرفية معاً. بهذه الرؤية النقدية يناقش المؤلف إشكالية التقدم والتخلف، ويبرهن على فسادها.

■

أصداء عربية وإسلامية في الفكر الأوروبي الوسيط

الطاهر أحمد مكي

القاهرة: دار الهاني للنشر، ٢٠٠٥، ٣٨٦صفحة



يطوف الدكتور الطاهر أحمد مكي في الفكر الأوروبي الوسيط، وينقب في إبداعاته كاشفًا عن الأثر العربي والإسلامي في هذا الفكر. أول لقاء بين المسلمين والفكر اليوناني يراه المؤلف مع فتح المسلمين لمصر، إذ كانت مدرسة الإسكندرية قائمة، وربما كانت هي المدرسة الوحيدة التي كان يجري التعليم فيها باللغة اليونانية في البلاد التي فتحها المسلمون، وفي هذا الإطار يدرس المؤلف ما أنجزه عالم في الفلسفة هو أبو الوفاء مبشر بن فاتك، وهو دمشقي الأصل، استوطن مصر حتى صار من أعيانها وأفاضل علمائها، وقد ألف كتبًا كثيرة في المنطق والطب والوصايا والأمثال والتاريخ، وقد ضاعت كلها ولم يبق منها سوى كتابه «مختار الحكم ومحاسن الكلم» وقد عرض له المؤلف.

وفي دراسة أخرى يتناول المؤلف قصة الترجمة من العربية إلى اللغات الأجنبية في المجالات الأدبية والإنسانية. ويشير إلى نشأة مدرسة المترجمين، وهي ليست مدرسة بالمعنى الكامل وإنما هي مجموعة من الدارسين واصلوا في طليطلة وفي عديد من مكتباتها عملهم في مجال الترجمة من التراث العربي.

وفي فصل تال، يدرس المؤلف الأصول العربية لفلسفة رايموند ولوليو ويستعرض في هذا الإطار دراسة للمستشرق الإسباني خوليان ريبيرا.

يتضمن الكتاب أيضًا دراسات عن ألفاظ موسيقية ذات أصل عربي والأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية، ودراسة عن حي بن يقظان وفلاسفة الإسلام.

■

البرنامج النووي الإيراني

أحمد إبراهيم محمود

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٥، ٢٩٥صفحة



حظي البرنامج النووي الإيراني دائمًا باهتمام واسع من جانب الحكومات الإيرانية المتعاقبة، في العهدين الإمبراطوري والجمهوري، وخصصت له موارد مالية ضخمة وجهود سياسية كبيرة، كما وجه البرنامج بضغوط خارجية حادة لمنع إيران من مواصلة هذا النشاط، ومع ذلك استمرت الحكومات الإيرانية في دعم هذا المشروع، وقاومت بإصرار الضغوط الدولية لتنفيذ أهداف البرنامج وعددت مصادر تمويله ماديًا وفنيًا، وهو ما عزز الشكوك في الأهداف العسكرية لهذا البرنامج، وانتقلت هذه الشكوك إلى مرحلة الاتهامات العملية بدءاً من العام ٢٠٠٢ حين تم اكتشاف قيام إيران سرًا بإنشاء محطتين، إحداهما لتخصيب اليورانيوم والثانية لإنتاج الماء الثقيل، وهو ما سبب أزمة عنيفة بين إيران والعديد من القوى الغربية وخصوصاً الولايات المتحدة التي استخدمت ما فعلته إيران للضغط عليها وعرقلة برنامجها النووي، وعلى الرغم من أن اتفاق باريس كان يمثل محاولة جيدة لتسوية الأزمة بموجب صفقة توقف إيران بمقتضاها أنشطتها النووية مقابل حصولها على امتيازات اقتصادية وتكنولوجية وتجارية، إلا أن إيران رفضت المقايضة وعادت بالأزمة من جديد إلى نقطة الصفر خصوصًا مع تولي الرئيس أحمدي نجاد مقاليد الحكم في أغسطس ٢٠٠٥، وتبدو احتمالات التصعيد والتسوية فيما يتعلق بهذه الأزمة مفتوحة في كافة الاتجاهات، بما في ذلك نقل الملف النووي الإيراني إلى مجلس الأمن بما يعنيه ذلك من فرض عقوبات دولية على إيران، وربما ضرب الولايات المتحدة لمنشآت إيران النووية. والكتاب يتناول المسألة النووية الإيرانية منذ البدايات وحتى تداعياتها الأخيرة المنذرة بالخطر على إيران والعالم.

■

تاريخ نظريات الاتصال

أرمان وميشال ماتلار

ترجمة: نصر الدين العياض والصادق رابح

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٥، ٢٥٤صفحة



يعرض الكتاب بتكثيف ودقة للنظريات الكبرى التي تناولت الاتصال الاجتماعي، وهذا الاتصال متعدد الأبعاد هو موضوع اختصاصات مختلفة ومساهمات متعددة في التاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس والاقتصاد والانثروبولوجيا وغيرها من العلوم، والمؤلفان أكاديميان وباحثان في علوم الاتصال لهما دراسات مهمة في هذا المجال، وميزة هذه النوعية من الدراسات في عالم اليوم، ينبه إليها المترجمان حيث يؤكدان على أن نظريات الاتصال تشكل المدخل الصحيح لمناقشة الثقافة العربية، لأنها تسلح كل دارس بأدوات لإعادة النظر فيما يظنه مسلمات ويوجه النظر إلى المسكوت عنه في الثقافة العربية والواقع العربي إجمالاً. يشتمل الكتاب على سبعة فصول وخاتمة وثبت بالمصطلحات العلمية المستخدمة فيه.

■

البحث عن مصر

مختار شعيب

القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٥، ٣١٠صفحات



هذا اجتهاد آخر في مسألة التغيير والإصلاح المنشودين في مصر، ويتضمن

عدداً كبيراً من الدراسات موزعة على عدة فصول، أولها يتضمن رؤى حول التغيير والإصلاح ومعايير نجاح هذا التغيير، ورؤى التيارات السياسية المختلفة لكيفية تحقيقه وسيناريوهات المستقبل وفق هذه الرؤى. ثم يطرح المؤلف فى الفصل الثانى التحديات المطروحة على مائدة الإصلاح ومنها الإصلاح السياسى والديمقراطى والإصلاح الاقتصادى، وحل مشكلات تهميش الشباب، ثم تحديات التعليم والبحث والتحديث، وكذلك مواجهة العشوائيات والمشكلة السكانية وتفشى الفساد فى مؤسسات الدولة، بالإضافة إلى التحديات الخارجية وأهمها العولمة والهيمنة الأمريكية والإرهاب والخطر الإسرائيلى. والمسألة الأساسية التى يلح عليها المؤلف فى كتابه هى ضرورة أن تتاح الفرصة للشباب كى يقدم تصوراته وأفكاره لمواجهة تلك التحديات، لأنها تصيب أول ما تصيب هذا الجيل صاحب المصلحة الأكيدة فى التغيير.

■

بوتين.. من الشيشان إلى الكرملين

سامى عمارة

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٩٥صفحة



كان فلاديمير بوتين يردد دوماً أنه لم يحلم طوال حياته بأن يكون رئيساً للدولة الروسية، وحين استدعاه يلتسن، لم يفاجأ بوتين باستقالته من منصب رئيس روسيا، على الرغم من أن أحداً لم يرغمه عليها، لكنه كان فى حالة من الوجوم حين اختاره يلتسن ليكون خليفته، وهو الذى كان منتهى حلمه الالتحاق بجهاز المخابرات الروسى KGB.

عاش بوتين طفولة صعبة، لكنها متشابهة مع كثير من أقرانه فى تلك المرحلة، وبسبب حجمه الضئيل، كان عليه أن يختار رياضة تساعده على عراكه مع الصبية من سنه، بدأ بالملاكمة، لكنه سرعان ما عدل عنها إلى الجودو، ولم يتجه إلى الكاراتيه لأن تعليمها كان يتم على أساس تجارى، أى أن ممارسيها كانوا يدفعون مقابل تعليمها، وهو ما لم تكن تقدر عليه عائلته.

لايتوقف المؤلف كثيراً عند مرحلة الطفولة التى لم يكن فيها الكثير مما يحكى، وانتقل إلى رفيقة حياة بوتين، لودميلا التى تروى كثيراً عن بداية تعارفهما، الذى جاء صدفة فى مدينة لينينجراد، وكيف أنها لم تعرف بطبيعة عمله فى جهاز المخابرات إلا بعد عام ونصف من بدء علاقتهما، وبالصدفة أيضاً، وهى تصفه بأنه صموت وانطوائى، وعزت ذلك إلى طبيعة مدينة لينينجراد المناخية.

تواصلت مسيرة بوتين بعد ذلك وجاءته الفرصة حين عمل على حشد كبار رجال الدولة وراء رغبته فى المواجهة المسلحة فى الشيشان، وبعدها كان عليه أن يثبت جدارته فى مواجهة «الأوليجاركيا»، أو أصحاب الحظوة والثروة الجدد فى روسيا، والتى بدأت باكرا حين تولى رئاسة الحكومة، ودخل فى مواجهات حاسمة مع بعض هذه المؤسسات وهؤلاء الرجال الذين كان يعرف الكثير عن مواطن ضعفهم وثرواتهم وخصوماتهم استناداً إلى خبرته السابقة كرجل مخابرات، وبدا تحالف المال والإعلام هو الأخطر فى مواجهة بوتين، وخصوصاً أن بعض تلك الدوائر يسيطر عليها رجال مال يهود من أمثال الملياردير جوسينسكى، والذى استخدم القبض عليه من قبل السلطات الروسية استخداماً سياسياً، ووجدتها أمريكا فرصة للضغط على روسيا، ولم تكن المعركة مع المليونير اليهودى سوى جزء من صراع أوسع وأبعد تأثيراً مع دوائر المال والنفوذ الساطعة حديثاً فى سماء روسيا والتى تربطها علاقات وثيقة بالمافيا العالمية، وقد صرح الرئيس بوتين مرة بأن حجم ما يتسرب من أموال إلى خارج روسيا (عمليات غسيل) يبلغ نحو مليارى دولار شهرياً!

ولم تكن هذه معركة بوتين الوحيدة، ثمة معركة أخرى لا تقل ضراوة مع المحافظين ورؤساء الجمهوريات ذات الحكم الذاتى، وكذا مواجهة مشاعر المهانة التى اجتاحت الروس واجتاحته شخصياً بعدما انسحبت بلاده من الساحة الدولية وتقوقعت داخل حدودها مسيرة بوتين والتحديات التى واجهها ومازال، لا يسردها المؤلف من كتابات آخرين فحسب، وإنما أيضاً من مقابلات شخصية مع مسئولين روس فى أجهزة الدولة.

■

طرق متقاطعة

سيد البحراوى

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠٥، ٩١صفحة



أكثر من ٤٠ نصاً بعضها بالغ القصر، حتى أن بعض القصص لا تزيد عدد كلماتها على ٥٠ كلمة. وهى فى مجملها تقتنص لحظات إنسانية وشعورية بالغة الرهافة، يعبر عنها المؤلف بتكثيف واقتصاد لغوى شديدين، وعادية، بعض المواقف قد توحى بأنها ليس ثمة ما يغرى فى التعاطى معها إبداعياً، لكن المؤلف يخدش بذكاء هذا الاعتياد السلبى على التلقى.. ويذكرنا بأن ثمة ما يستحق التوقف عنده حتى فيما نظن أنه مألوف وآنى.

من أجواء المجموعة: (رمانتان) فى حديقتى شجرة رمان.. أحيانًا تثمر رمانات صغيرة. انتظر نضجها، لكن فى اللحظة الأخيرة أجد آخرين قد قطفوها.

فى المرة الأخيرة تابعت ثمرتيها الصغيرتين بشغف وعناية. استمرتا أكثر من شهر قبل أن تنضجا.. وذات ليلة زارتنى حبيبتى.. بعد غياب طويل.. قطفت واحدة وقدمتها لها. قالت: لم تنضج بعد.. لكنها جميلة.. سآخذها. انتظرت عدة أيام حتى تلونت الثانية ببعض الحمرة فقطفتها وفتحتها لآكلها. كانت صغيرة وكذلك حباتها، كانت ما تزال نيئة. لكنها كانت مزًا فاستطعمت نصفها، وألقيت بالنصف الباقى إلى أرض الحديقة. قلت تستفيد منها سماداً.

■

أحمد الشقيرى.. بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لرحيله

عدد من الباحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ٤٠٤صفحات



بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين على رحيل أحمد الشقيرى عقد مركز دراسات الوحدة العربية، بالتعاون مع لجنة تخليد ذكرى أحمد الشقيرى ومعهد البحوث والدراسات العربية، ندوة فى القاهرة خلال الفترة من ١٤ ـ ١٥ مايو ٢٠٠٥ فى محاولة لتسليط الضوء على واحد من كبار السياسيين العرب الذين لعبوا دوراً كبيراً عبر عقود من الزمن.

يضم الكتاب بين دفتيه وقائع هذه الندوة فى محاورها الأربعة:

يتناول المحور الأول «أحمد الشقيرى الإنسان والمفكر والمناضل السياسى»، كاشفاً الأبعاد الإنسانية والفكرية والنضالية لشخصيته، وعلى دور أحمد الشقيرى المفكر والمناضل مع بدايات خروجه إلى العمل السياسى النضالى على الساحة الفلسطينية.

ويركز المحور الثانى «أحمد الشقيرى القومى العربى الوحدوى» على الجوانب النظرية من فكره وآرائه فى القضية القومية ومركزية الوحدة العربية، كما يتطرق إلى الجانب التطبيقى من إسهاماته فى قضية الوحدة وحركة التحرر العربية.

وفى المحور الثالث: «جدل الوطنى الفلسطينى والقومى العربى عند أحمد الشقيرى». أما المحور الرابع فيلقى الضوء على التطورات التى تلت انسحابه من المسرح السياسى للقضية الفلسطينية، وكذلك على ما آلت إليه هذه القضية بعد انقضاء ربع قرن على رحيله، مقدماً التصورات الممكنة لمستقبلها فى ورقة عمل.

■

الشهيد فؤاد الركابى

هارون محمد

القاهرة: المركز العربى الدولى للإعلام، ٢٠٠٥، ٥٨٥ صفحة



يعد فؤاد الركابى واحداً من رموز العمل القومى والناصرى، الذين امتد تأثيرهم خارج حدود القطرية ولأجيال عديدة لاحقة. والركابى الذى ولد بمدينة الناصرية الواقعة على نهر الفرات بالعراق عام ١٩٣١، كان منذ دراسته بكلية الهندسة واحداً من الوجوه السياسية الشابة حيث انخرط فى العمل السياسى مبكراً وأدى أدواراً مهمة فى قيادة التيار القومى الوحدوى فى الخمسينيات والستينيات من خلال انتمائه لحزب البعث، وقد اختير وهو فى السابعة والعشرين من عمره وزيراً للإعمار فى العراق فى العام ٥٨، وعلى الرغم من أنه أمضى شهوراً قليلة فى عمله، إلا أنه ترك بصمات واضحة مازالت شواهدها قائمة إلى اليوم، وقد استقال فى فبراير ١٩٥٩ حين وجد أن عبد الكريم قاسم يحيد عن أهداف الثورة العراقية، وبعدها بقليل صدرت أوامر بإلقاء القبض عليه، فاضطر إلى الفرار إلى سوريا إلى أن صدر ضده حكم غيابى بالإعدام فى مارس ١٩٦٠، لكنه عاد إلى بلاده من جديد فى أعقاب حركة ١٨ نوفمبر ١٩٦٣، ليتولى من أكتوبر ١٩٦٤ إلى يوليو ١٩٦٥ مسئولية وزارة البلديات ليواصل عطاءه لبلاده، دون أن ينسى دوره السياسى، حيث نشط فى توحيد التيار القومى الناصرى، وخاض معارك سياسية ضد السلطة الحاكمة فى السنوات ١٩٦٥ ـ ١٩٦٨، وعندما حدث انقلاب يوليو ١٩٦٨، كان الركابى أول من استهدفه الانقلابيون، وطلب منه صدام حسين أن يتوقف عن أنشطته السياسية ولما فشل فى مسعاه أوعز إلى رجاله باختطافه، ولما انكشفت الخطة اعتقل بعدها بشهور وأودع سجن بعقوبة، وأمضى عاماً كاملاً فى زنازين معتقل قصر النهاية، إلى أن قتله أحد أعوان صدام بسكين فى السجن عام ١٩٧١.

والكتاب يحكى سيرة الركابى منذ الميلاد وحتى النهاية.

■

مصر التى فى خاطرى

صلاح الدين إبراهيم

القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٥، ١٦٨صفحة



مجموعة من الدراسات والمقالات لمؤلف عمل لفترة طويلة فى الدبلوماسية المصرية سفيراً لمصر فى عدة دول، وتتضمن حصيلة رؤيته لهموم الواقع المصرى وآماله على مدى السنوات العشر الماضية، وقد قسمها إلى ثلاث مجموعات: أولاها الأمال والأحلام، وثانيتها: وقفة مع النفس والضمير فى مواجهة مشاكلنا، وثالثها: مقترحات ووسائل التغلب على هذه المشكلات. والدراسات تنطلق فى مجملها من إيمان راسخ بأهمية الدور المصرى وضرورة تفعيله ليس فى المنطقة العربية أو منطقة الشرق الأوسط فحسب وإنما فى العالم كله، لاستعادة التأثير الحضارى المصرى والتفاعل مع ما يجرى فى العالم، يطرح المؤلف تساؤلات من نوع: كيف أصبحنا فقراء، لماذا تخلفنا عن غيرنا، ماذا نفعل فى محنة التربية والتعليم، أين مصر من النظام الدولى الجديد. مستقبل الوطن بين الاستقرار والإصلاح، ماذا بعد خطوة تعديل الدستور، حتى نواجه أنفسنا.

وهو إذ يطرح تساؤلاته يؤكد على ضرورة الإسراع برسم خريطة المستقبل، فلم تعد الأوضاع الدولية قادرة على مساعدة من لا يتحرك فى سبيل مسايرة العصر ومسايرة التقدم العلمى والتكنولوجى الذى يميز واقعنا المعاصر.

■

المسلمون فى الصين

عبدالعزيز حمدى

القاهرة: كتاب اليوم، ٢٠٠٥، ١٨٠صفحة



أبرز حقيقة عن الصين هى أنها سكان قبل أن تكون أى شىء آخر، أرضاً أو تاريخاً أو حتى جنساً أو أيديولوجية. هذا ما قاله عنها الدكتور جمال حمدان، فهذه المنطقة من العالم تضم أكبر تجمع سكانى على وجه الكرة الأرضية، أكثر من مليار و٢٠٠ مليون نسمة يعيشون فى ربوعها، ينتظمون فى أكثر من ٥٦ قومية. وبين هذه الكتلة السكانية الضخمة يدين نحو ١٠٠ مليون شخص بالإسلام وهم بدورهم موزعون بين ١٠ قوميات.

والكتاب الذى يبدأ بالحديث عن تاريخ العبادات والديانات فى الصين، ينصب بشكل رئيسى على هذه الكتلة المسلمة وقومياتها المختلفة، بادئاً بأواسط القرن السابع الميلادى الذى يؤرخ به لدخول الإسلام إلى الصين فى عهد الخليفة عثمان بن عفان، الذى أرسل مبعوثاً إلى إمبراطور الصين ليحيطه علماً بالإسلام والمسلمين فى الجزيرة العربية، غير أن أسطورة أخرى تذهب إلى أن الإسلام دخل الصين على عهد سيدنا محمد الذى أرسل سعد بن أبى وقاص إلى هناك ليعرف أهل الصين بالإسلام، إلا أنه يكاد أن يكون هناك اتفاق على أن دخول الإسلام إلى الصين مر بمرحلتين: المرحلة الأولى كانت مرحلة تعريف وامتدت من عام ٦١٨ وحتى ١٢٧٩ ميلادية، ثم مرحلة انتشار الإسلام على نطاق واسع وكان ذلك فى عهد أسرة يوان (١٢٧١ - ١٣٦٨).

والمؤلف الذى عمل لأكثر من سبعة عشر عاماً باحثاً ومترجماً فى الصين للقوميات العشر الرئيسية التى تنتشر بينها الإسلام، وهو إذ يتعرض لها يتوقف كثيراً عند ثقافاتها وأساطيرها وعاداتها وأزيائها، كما يكشف فى مواضع أخرى عن المخاطر التى واجهها ويواجهها الإسلام هناك، وخصوصاً فى مرحلة الثورة الثقافية التى قادها ماوتسى تونغ.

■

فى نقد الحاجة إلى الإصلاح

محمد عابد الجابرى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ٢٤٨صفحة



يركز هذا الكتاب على قضية الإصلاح من حيث هى قضية الساعة فى الفكر العربى بمختلف تياراته، بما فى ذلك «الفكر الرسمى» فى الوطن العربى، فيجدد فيها النظر على ضوء الظروف والملابسات التى تطرح بها اليوم.

فمن المضامين الثورية للحقيقة القائمة اليوم، والتى تعجز أقلام وألسنة كثيرين عن التعبير عنها، كون الإصلاح الذى تريد الإدارة الأمريكية إقامته فى الشرق الأوسط أو قيامه فيه - لا فرق - قد بدأ بالإفساد، ليس فقط إفساد ما كان موجوداً من صلاح قائم أو منتظر، بل أيضاً بإرباك وطمس الطريق إلى الإصلاح الحقيقى، من ثم تعتيم الرؤية التى تنشد الإصلاح. وهذا يطرح ليس اتخاذ موقف مبتسر إشهارى «مع» أو «ضد» قضية الإصلاح، كما هو الشأن حالياً، بل القيام بما ندعوه هنا: «نقد الحاجة إلى الإصلاح».

وعبارة «نقد الحاجة إلى الإصلاح» تعنى برأى المؤلف النظر إلى الإصلاح لا من حيث هو دعوة آتية من خارج، ولا من حيث هو شعار بادرت إلى رفعه قوى داخلية، بل من حيث هو «حاجة». فإذا حددنا أولاً الحاجة أو الحاجات التى تبرر جعل الإصلاح مطلباً فى العالم العربى والإسلامى، أمكن حينئذ تحديد الأهداف منه، ثم تعيين الوسائل القمينة بتحقيق هذه الأهداف. وبما أن الأمر يتعلق بـ «مفهوم» يحدد الرؤية والمنهج، كما يتحددان به، فإنه لابد من الاتفاق أولاً على مضمون هذا المفهوم، سواء فى مرجعيتنا العربية الإسلامية أو فى المرجعية الأوروبية. إن تحديد مضمون مفهوم «الإصلاح» فى المرجعيتين سيمكننا من معرفة ما إذا كنا نعنى شيئاً واحداً عندما نتكلم عن «الإصلاح»، أو أن الرافضين للمبادرة الأمريكية يفهمون من الإصلاح غير ما يفهمه منه أنصارها والداعون إلى نوع من التعامل معها.

■

مؤسسات المجتمع المدنى

أمانى قنديل

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٥، ١٥٠صفحة



تتزايد أهمية الدراسات عن مؤسسات المجتمع المدنى فى ظل الدور الذى صارت تلعبه هذه المؤسسات فى السنوات الأخيرة فى دول العالم النامى، وقد شهدت المنطقة العربية فى عقد التسعينيات والسنوات الأولى من القرن الحادى والعشرين اهتماماً بهذه المؤسسات، وإن كان فقر المعلومات عن هذه المؤسسات بحكم تركيبة السلطة فى المجتمعات العربية يؤثر على إنجاز دراسات موضوعية يمكن الاعتماد على نتائجها فى البلاد العربية.

وهذه الدراسة تتناول فعالية مؤسسة المجتمع المدنى فى البلاد العربية فى ضوء المتاح من المعلومات حولها، وتلاحظ المؤلفة بعد تحليل لفاعلية مؤسسات المجتمع المدنى فى مصر مثلاً، أن هناك تطورات مهمة لحقت بأدوار الجمعيات الأهلية بعضها إيجابى، لكن بشكل عام، فإن أغلبية أدوار هذه الجمعيات قد اتجهت نحو التسكين والتدخل اللاحق فى الأزمات والقضايا، وهى أدوار وإن كانت مهمة إلا أنها لا تسهم فى عملية التغيير والإصلاح المنشودة، وفى إطار التطلع للمستقبل تقترح المؤلفة ضرورة أن تتبنى هذه الجمعيات توجهاً تنموياً شاملاً من شأنه أن يأخذ فى الاعتبار القيم والثقافة السائدة، بما يؤكد مفهوم التمكين ويوفر القدرات للمواطن ليتحول إلى مواطن منتج، ويحقق الالتحام بين الجمعيات الأهلية والسياسة العامة فى المجتمع. وترى الدراسة أيضاً ضرورة توفير ضمانات بيئة سياسية وقانونية مهيأة لدور أكثر فعالية لهذه المؤسسات، وأن تتوفر بيئة ثقافية واجتماعية تحترم المبادرات التطوعية التى تنطلق من الأفراد والجماعات.

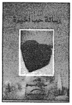
الكتاب الذى يتألف من ٦ فصول هى: هل يمكن قياس فعالية المجتمع المدنى، فاعلية المنظمات الأهلية فى إطار السياسات العامة، الفاعلية فى تمكين المرأة، فاعلية التطوع، فاعلية الشراكة فى مواجهة تحديات التنمية البشرية، فاعلية المنظمات الدفاعية والحقوقية، يقوم أيضاً بدراسات تطبيقية على عدد من مؤسسات المجتمع المدنى التى تعنى بعضها بالمرأة وتمكينها اقتصادياً وحقوقياً فى عدة دول عربية مثل مصر والجزائر وسوريا والسودان والمغرب ولبنان، وكذلك تلك المعنية بمجالات حقوق الإنسان فى غير بلد عربى.

■

رسالة حب أخيرة

سوسن بسيسو

القاهرة: دار البستان، ٢٠٠٥، ٩٦صفحة



أكثر من ٢٦ قصة قصيرة، بعضها يقترب بتكثيفه وومضاته السريعة من لغة الشعر، لكنها جميعاً ترسم عالماً نفسياً وعاطفياً بالغ الرهافة، وتختصر لحظات إنسانية رائعة فى كلمات قليلة.. من أجواء المجموعة:

ليس كل ضاحك مبتهجاً، وليس كل دامع حزيناً، وليس حكيماً دائماً من يرتدى ثوب الواعظ، ففى داخل كل إنسان جانب خفى لا يراه أحد، وصادق مع نفسه من يراه، وقمة الصدق أن يراه الآخرون، ولكن يظل الغموض دائماً القشرة الخارجية التى تحمى الإنسان أحياناً من ضعف النفوس البشرية والقناع الذى يرتديه حتى لا يعرف أحد حقيقته، وبعض الناس يلبس هذا القناع أمام نفسه.

■

أول النهـــــار

سعد القرش

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٥، ٣٠٣ صفحات



على مدى نحو ١٠٠ عام وفى أجواء يمتزج فيها التاريخ بالأساطير تدور أحداث الرواية، التى يسعى المؤلف من خلالها إلى إبراز قوة المصرى على النهوض من كبواته والصمود أمام المصائب.

تبدأ الرواية باستعادة الحاج عمران لنبوءة عمرها خمسون عاماً قالتها غجرية لحليمة التى كانت دون العاشرة وقتها وتحرص على حمل الصغير عمران تتعهده وتلعب به فى حوارى «أوزير» دون أن -تعرف أنها ابنة خادم فى الدار وأن عمران هو سيدها القادم وهى مكلفة بمهمة إنقاذه قبل أن يتم عامه الأول.

قالت لها غجرية وهى تقرأ طالع الولد.. أنت أهله يا حليمة. لم تفهم البنت ولم ترد كما لم تستوعب خبر هلاك أهل الدار جميعاً، قالت الغجرية: إن هذا الولد من عائلة مشئومة تحل بها كارثة كل خمسين عاماً.

على هذا النحو من التمازج بين الأسطورى والواقعى والتاريخى تدور أحداث الرواية التى تستحضر أزمنة المماليك وصراع أمرائهم على السلطة وضحايا هذا الصراع من المصريين وصولاً إلى زمن الحملة الفرنسية، غير أن التاريخ يبقى فى الخلفية البعيدة للرواية التى عنيت أكثر بالبشر فى تفاصيل حياتهم اليومية والأساطير والحقائق التى توجه حركتهم.

■

الفكر السياسى الإسلامى

محمود أيوب الشناوى

القاهرة: مركز الكتاب، ٢٠٠٥، ٤٤٥صفحة



تأصيل لأفكار عديدة فى مجالات الفكر السياسى الإسلامى، إذ لم يكتف المؤلف بالمقارنة بين الفكر السياسى العربى والفكر السياسى عند اليونان، بل أضاف إلى ذلك الحديث عن الفكر السياسى السابق على ظهور الإسلام عند العرب.

ويلاحظ المؤلف أن الفكر السياسى العربى جاء مختلفاً تماماً عن النماذج السياسية الحضارية السابقة عليه، فبينما كانت الأطر التى تربط شعوب هذه الحضارات تتصل بشخص الحاكم كما هو الحال فى نموذج دولة الإسكندر، فإنها فى الإسلام هى القناة الدينية والتماسك المعنوى.

ويلاحظ المؤلف أن الفكر السياسى الإسلامى لم يحقق ازدهاره إلا فى وقت الأزمات السياسية، أى المراحل التى امتازت بضعف وعدم فاعلية النظم السياسية، بما يعنى أن الفكر السياسى الإسلامى فى تقاليده العربية، يقوم على أساس ربط الفكر بالواقع.

ويشير المؤلف كذلك إلى العلاقة الوثيقة بين النقل والعقل فى هذا الفكر، وهما علاقة ترتفع فى كثير من الأحيان لتصير علاقة ديالكتية -ثابتة، بين الدين بوصفه تنظيماً لعلاقة غيبية على أساس الالتزام المعنوى، والسياسة بوصفها تنظيماً لعلاقة مدنية، ومن ناحية ثانية يؤكد المؤلف على أن الفكر السياسى الإسلامى يتمركز حول ظاهرة القيادة أو السلطة، ويجعل من مفهوم الخلافة منطلقه الوحيد فى بناء وتصور الحقيقة السياسية.

هذه هى بعض نتائج الدراسة المهمة التى قدمها المؤلف بادئاً بالفكر السياسى السابق على ظهور الإسلام، ثم الصورة التاريخية للواقع السياسى للقرنين الثامن والتاسع الهجرى، مروراً بالقرون التالية، قبل أن يناقش أسس الفكر السياسى فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين وموقع العقل والنقل فيه، وكذلك ماهية هذا الفكر، والنموذج التاريخى لمفهوم السلطة بعد رسول الله، ثم دراسة لمفاهيم السلطة ومصدرها لدى مفكرى السياسة الإسلاميين، وأخيراً الإجابة عن سؤال: هل هناك سلطة دينية وسلطة زمنية فى الفكر السياسى الإسلامى؟

■

رهان الحداثة ومابعد الحداثة

عصام عبد الله

القاهرة: الدار المصرية السعودية ٢٠٠٦، ١١٩صفحة



يتتبع المؤلف مسيرة الفيلسوف الألمانى هابرماس انطلاقا من أهميته بوصفه أكبر الفلاسفة الألمان المعاصرين، وبوصفه كما يراه المؤلف «أهم فيلسوف فى أوروبا والغرب كله»، وانطلاقا كذلك مما تمثله ألمانيا فى الفكر الأوروبى المعاصر، وخصوصا مع التحولات السياسية الكبرى التى شهدتها أوروبا وتحقيق ألمانيا لوحدتها السياسية وتزعمها صدارة الصورة فى أوروبا.

ويشير المؤلف إلى ثلاث مراحل مرت بها الفلسفة النقدية لهابرماس، بدأت الأولى بنقد شامل للفكر الوضعى الذى ساد فى الغرب مع تطور النظام الرأسمالى والإنجازات التى تحققت فى العلوم الطبيعية والتكنولوجيا، وفى المرحلة الثانية سعى إلى بناء نظرية اجتماعية تؤسس لحركة تنوير جديدة تستفيد من هذه المنجزات لتحقيق قيم العدل والحرية والمساواة، وتبدأ المرحلة الثالثة منذ العام ١٩٨٥ بنقد الحداثة التاريخية، وتأكيده على اختلال التوازن بين القيم المعنوية والقيم المادية، وهو الاختلال الذى أدى إلى تحويل عقلانية التنوير إلى حالة مرضية.

ويلخص المؤلف أهم الأفكار الفلسفية عند هابرماس عبر ترتيبه للأشياء ترتيبا ثلاثيا من أشكال المعرفة إلى مراحل التطور الاجتماعى وتمييزه بين ثلاثة أشكال للنظرية يراها جميعا ضرورية للتطور البشرى، وهى تقوم بدورها على ثلاث مصالح معرفية، أى تطوير المعرفة لتحقيق مصلحة معينة، وهو يتجاوز الأفكار القائلة بأن العمل هو ما يميز البشر عن الحيوانات، ويؤكد على أن اللغة بوصفها وعاء للتواصل مسألة ذات أهمية كبرى، وإلى جانب هاتين القدرتين، أى العمل الذى يؤدى إلى ظهور المصلحة التقنية المتمثلة فى السيطرة على الطبيعة واستغلالها لمصلحتنا، واللغة التى تؤدى إلى ظهور ما يسميه هابرماس بـ «المصلحة العملية» وهى المسئولة عن التفاعل البشرى، يبرز نوع ثالث من المصلحة يسميه «الانعتاق والتحرر» وهى التى تخلص عملية التفاعل والتواصل من العناصر التى تشوهها.

وهذا النوع الأخير من المصالح هو الذى يؤدى إلى ظهور العلوم النقدية التى تعنى بالقدرة على التفكير والإدراك الواعى للفعل، وغايتها هى الكشف عن التشويه القائم فى التفاعل والتواصل وإصلاحه، وهو ما يسهم فى دعم ما يسميه بالفعل التواصلى الذى يرمى إلى الوصول إلى الفهم والتفاهم عبر المشاركين فى عملية التواصل.

وقد تصدى هابرماس لواحدة من أعقد المشكلات ذات التأثير على حرية الإنسان واختياراته فى العصر الحديث وهى تلك المتعلقة بالهندسة الوراثية وخريطة الجينات، وهو يرى أنه حين يتم تطبيق التكنولوجيا الحيوية على طبيعتنا الجينية وتتحكم فى الأساس الذى يعمل من خلاله العقل البشرى، فإن رؤيتنا لأنفسنا سوف تتغير تغيرا كاملا وسيتأثر بالضرورة الإدراك الباطنى المميز لكل شخص القائم على الاقتناع التام بأن الفرد هو وهو الذى يبنى أفكاره على أساس من المنطق، فإذا تهدم هذا المعنى وتم التحكم فيه عن بعد، فإن المؤسسات الديمقراطية سوف تنهار أيضاً ... «فمنذ عهد جان جاك روسو، يتميز المواطن الديمقراطى عن الآخرين بأنه قادر على إدراك أنه ليس فقط المستهدف من القوانين، ولكنه أيضا مصدر هذه القوانين».

فالطفل الذى سيتشكل جنينيا قبل مولده حسب رغبة الأهل، سوف يحمل مسئولية أفعاله حين يكبر لأنه من الأساس تم تحديد حريته وتوجيه اختياراته.

على هذا النحو تمضى مناقشة المؤلف لفلسفة هابرماس ومتابعة آرائه فى العديد من القضايا المعاصرة.

■

القضية الفلسطينية.. إلى أين؟

زكريا حسين

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٥، ٣٢٨صفحة



يستهدف هذا الكتاب إعداد تسجيل وثائقى للصراع العربى الإسرائيلى فى الفترة من ١٩١٧ وحتى ٢٠٠٤، ويطرح سؤال الحاضر والمستقبل: هل تريد إسرائيل السلام؟ ويجد فى المؤتمر الإسرائيلى الثالث للأمن القومى (ديسمبر ٢٠٠٢) ومؤتمر دور القوات البرية فى القرن الحادى والعشرين (نوفمبر ٢٠٠٢) إجابة للسؤال، إذ خرج المؤتمران بنتيجة مؤداها أن إسرائيل تحاصرها ثلاثة احتمالات، أولها احتمال تجدد القتال بين إسرائيل وجيرانها القريبين، وثانيها أن دولاً مثل باكستان وإيران ربما تطلق على إسرائيل أسلحة الدمار الشامل، وثالثها حدوث انتفاضة أو مقاومة مسلحة داخلية، وانتهى المؤتمران بعد تحليل عناصر القوة والضعف لدى إسرائيل والقوى المحيطة بها، إلى أن أقصى ما يمكن أن تقدمه إسرائيل هو مشروع أمنى، وأن احتمالات تفاوضها مع الجانب الفلسطينى أو السورى غير واردة فى الفكر الإسرائيلى، وأن أقصى ما يمكن أن تقدمه هو الأمن مقابل الأمن، ويرجح المؤلف أن العقد القادم سيشهد ترسيخًا للاحتلال الإسرائيلى فى هضبة الجولان وتصفية كاملة للقضية الفلسطينية وحصرها فى المشروع الأمنى المقترح المسمى الانسحاب أحادى الجانب.

■

كتابات فى النقد

عبداللطيف عبد الحليم
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٥،
٣٥٥ صفحة



يرى المؤلف أن الشعر مازال ديوان العرب، وأن أزمته تتفاقم لأن البعض يريد لها ذلك، وأن علاج هذه الأزمة لن يكون إلا بالتعليم الجيد والوقوف على التراث الحقيقى للأمة، ومواجهة عملية المحاربة الشرسة التى يواجهها الشعر، والتى تستهدف ـ كما يقول ـ اللغة العربية وتطعنها فى الصميم.

بين أسئلة الكتاب أيضًا الجامعة المصرية إلى أين؟ ويبدو من إجابة المؤلف أنه لا يراها فى أحسن حال.. «إذ فرغت الجامعة من رسالتها إلى حد بعيد، وغدا القائمون عليها أو أغلبهم من أهل الثقة لا الكفاءة، وأصبحت الوظائف القيادية بالتعيين لمن يرضى عنهم، وأغلبهم يريق ماء وجهه فى سبيل الحصول على المنصب».

ولا يخفى المؤلف شماتته فى الحداثة ونقادها فى دراسته عن شعر الحداثة فى مصر، ويرى أن السحر انقلب على الساحر، وكما أدان دعاة الشعر الحر أصحاب الشعر الكلاسيكى، ووجهوا بإدانة دامغة من دعاة قصيدة النثر، ونقادهم الآن فى حيرة بالغة.. «كانوا يسبحون بآلاء أصحاب الشعر الحر ويقولون دعوهم فترة من الزمن حتى تنضج تجربتهم، وها قد نضجت وولدت نسلاً غير شرعى لا يعترف بها(...) المستقبل القريب هو للشعر الأصيل».

يتضمن الكتاب أيضًا دراسات مهمة فى النقد التطبيقى عن ابن الرومى والمعرى والجارم وطه حسين والعقاد (والمؤلف من تلامذته الأصفياء) وتوفيق الحكيم وفاروق شوشة ومحمود شاكر (المحقق الذى اشتهر بأبى فهر)، وقراءات فاحصة أيضًا فى الدراسات الإسبانية وترجمات القرآن الكريم إلى هذه اللغة، ودراسة عن الشعراء العمانيين، ومقالات فى السرقات الأدبية ومدرسة العقاد فى الأدب المقارن والنحو الواضح وشفافية الشعر وأخلاقيات العمل الإعلامى.

■

مقـــام عــــراق

تميم البرغوثى
القاهرة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى،
٢٠٠٥ ، ٨٠ صفحة



كتب المؤلف هذه القصائد فى الأردن التى غادر إليها مضطرًا من مصر، وفى عمان كان عليه أن يرقب سقوط بغداد، المدوى فى أيدى الأمريكان وقوات التحالف.. «فكانت هذه القصيدة محاولة لأخذ صورة فوتوغرافية مكثفة لتاريخ كامل أحسست به يسحب من تحت قدمى يوم سقطت بغداد».

وهذا الديوان القصيدة، يتضمن مقاطع بالفصحى وأخرى بالعامية العراقية، كما أن فيها مقاطع نثرية كاملة وأخرى من «الأبوذيات» وهى مواويل منتشرة فى العراق والشام.

من أجواء القصيدة: مأتم فى البلاد/ سرادقه الليل/ فيه النجوم تحاول مرهقة أن تنام/ والظلام/ مثل عنقاء سوداء فى عشها تستضيف الحمام/ مأتم فى البلاد سرادقه الليل/ والذكر يتلى على الحاضرين/ حسينية ليس تبكى الإمام/ النبى على بابها والحسين وباقى الأئمة/ يستقبلون المعزين دون سلام/ وتحسبهم فى سرادقها ولدوا واقفين.

■

دوريـــات

المستقبل العربى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،
ديسمبر ٢٠٠٥



يستهل العدد بافتتاحية بعنوان: «أى سلام؟» كتبها سليم الحص.

ثم «مبادرة لتحرير العراق» كما شرحها خير الدين حسيب فى مقابلة على إحدى الفضائيات والتى تناولت بنود المبادرة التى حددت رؤية القوى الوطنية العراقية للخطوات الواقعية والعملية لتحقيق هدفين: هدف تسعى لتحقيقه المقاومة والقوى الرافضة للاحتلال، وهو الانسحاب الكلى الشامل لقوات الاحتلال، وهدف تسعى لتحقيقه الولايات المتحدة وهو هدف الخروج من مستنقع العجز وتجنب كارثة هزيمة نهائية فى العراق.

وفى العدد أيضًا «الأمن العالمى فى عام ٢٠٠٥ ودروس العراق» لأليسون بايلز، مديرة معهد ستوكهولم لأبحاث السلام الدولى.

وفى هذا العدد حوار مع محمود أمين العالم بعنوان «تجربتى السياسية قدمت لى معنى آخر لوجودى» أجراه معه عبد الإله بلقزيز، ومراجعة نقدية لكتاب روبرت فيسك الأخير، وهى بعنوان «سيرة حياة الشرق الأوسط واغتياله المتكرر من أجل الحضارة» كتبها سمير كرم.

■

صوت داهش

مجلة ثقافية فصلية تصدر من نيويورك
بالإنجليزية والعربية منذ أحد عشر عاماً



فى هذا العدد مقالة لرئيس التحرير غازى براكس يعالج فيها مفهوم القدر ويوضح أن الشعوب كما الأفراد يصنعون أقدارهم بأعمالهم. وفى مقاله أخرى يكتب علاء الأعرجى مقالة عن موقف المسلمين من القدر وكيف استغل الحكام العرب فكرة الجبرية لإخضاع المسلمين وتوطيد ملكهم. ومقالة أخرى من سميرة ماضى عن الديمقراطية فى الإسلام فى مؤلفات خالد محمد خالد وتعرض نقده لمفهوم المستبد العادل. أما مقالة سهيل بشروئى فتتناول قضية وحدة الأديان وان العصبية الطائفية من العقبات التى تحول دون ارتقاء المجتمعات العربية دون أن يعنى ذلك التخلى عن الدين بل جعل الدين صلة حية بين الإنسان وربه.

أما فى القسم الإنجليزى فيركز عاكف أبادير على العوامل البيئية المختلفة التى تضافرت لبناء شخصية نجيب محفوظ الأدبية وتوجيه أسلوبه وموضوعاته.

■

Middle East Report & Information Project

www.merip.org
(تقرير الشرق الاوسط)
مجلة أمريكية ربع سنوية تصدر باللغة الإنجليزية



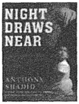
هذا العدد يهتم بحالة التمزق الموجودة فى بعض بلاد الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. افتتاحية المجلة كتبها المحرر عما يحدث فى الشرق الأوسط الآن والدور الذى تلعبه أمريكا فى محاولة حصار سوريا بتضخيم حادث اغتيال الحريرى إلى ما يحدث فى العراق من كذب أمريكى وتزوير للحقائق. بالمجلة العديد من المقالات التحليلية والموثقة. مقالة عن التجارب الديمقراطية التى تحدث فى المنطقة فى وجود اختلافات عرقية ودينية ويذكر كاتب المقالة أن حكم الأغلبية مقبول طالما لا توجد تفرقة فى حقوق الإنسان وفى حريته الدينية. مقالة أخرى عن تأثير ما يحدث فى العراق على السعودية العربية والتى بها ما يقرب من اثنين مليون نسمة شيعة يشعرون بعداء وعدم ثقة الأغلبية السنية بهم. ولكنهم فى نفس الوقت حريصون على أن يكونوا بعيدين عن الحكم فى إيران. ومقالة أخرى عن تأثير خروج سوريا من لبنان على حزب الله والتى مازالت تحتفظ بقوتها المسلحة رغم الضغوط الشديدة للتخلى عنها. مقالة أخرى عن الجريمة والعقاب فى إسرائيل ومدى اختلافها تبعا لمرتكب الجريمة أكان فلسطينياً أم يهودياً. يحلل كاتب المقال حادثة ناثان دارا العسكرى الإسرائيلى الذى هرب من التجنيد وقتل بعض العرب والدروز فى عربة نقل أفراد فى أغسطس الماضى كاعتراض على جلاء المستعمرات من غزة..

■

Night Draws Near : Iraq's People in the Shadow of America's War

(الليل يقترب)

Anthony Shadid
Henry Holt, 2005, 448PP, 26.00L



لا أحد يعرف ما الذى يحدث بالعراق على وجه الدقة، و لا يستطيع أى احد كان أن يجزم أن هناك سيناريو متوقعًا لنهاية تلك الحرب البشعة، الصورة غير كاملة لدى الجميع، حتى من هم بأرض الحدث، يعايشون الواقع المرير يوميا.

«أنطونى شديد» الصحفى الأمريكى ذو الأصول اللبنانية، و مراسل الواشنطون بوست بالعراق، يحكى لنا عن تجربته العراقية، الانفجارات اليومية، الصراع الدائر، وشعب أمضى ثلاثة عقود فى حروب مستمرة.

Disinformation : 22 Media Myths That Undermine the War on Terror

(التشويش: ٢٢ أسطورة إعلامية قوضت الحرب ضد الإرهاب)

Richard Miniter
Regnery Publishing, 2005, 256PP, 27.95$



يواجه هذا الكتاب اثنتين وعشرين أسطورة حول الحرب علي الإرهاب، تلك الأساطير روجتها وسائل الإعلام ويساعد الكثير من الناس في نشرها، المؤلف لم ينسب ترويج هذه الأساطير إلي النوايا السيئة كلها ولكنه يري انه يجب نسيان كل شيء عن تلك الأساطير وتنحيتها جانبا إذا ما أراد الشعب الأمريكي معرفة حقيقة ما يواجهه في تلك الحرب.

تعرض الكاتب لـلأساطير جاء مثيرا للجدل في بعض الاحيان، فهو يري أن هناك صلة بين صدام والقاعدة كما يري أن العراق كان يمتلك أسلحة الدمار الشامل ويدحض قوله ببعض الأدلة التي جمعها بنفسه من مصادر مختلفة.

يبدأ الكتاب بأربع أساطير عن بن لادن موضحا أن بن لادن لم يدرب من قبل المخابرات الأمريكية ولا مول منها، كما انه لا يملك هذا الكم من الثروة التي يعتقدها البعض.

بالإضافة إلى أنه كان معروفا قبل أحداث سبتمبر وتحدثت عنه وسائل الإعلام قبلها.

ينتقل الكاتب إلي ثلاث أساطير حول أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي تقول أن الحكومة كانت عندها تحذيرات عدة حول بن لادن ونواياه.

وبأن الموساد كان علي علم بما سيحدث فحذر اليهود من الذهاب إلي أعمالهم في ذلك اليوم.

يتعرض الكاتب للعديد من الأســاطير الأخرى حول العراق وأسـلحة الدمار الشامل قائلا أن العراق كان يحتوي علي أسلحة دمار شامل.

كما يتعرض لاساطير حول مخاوف بيع السلاح النووي من قبل بعض دول الاتحاد السوفيتي السابق ويتعرض كذلك إلي الإرهاب بوجه عام.

The Assassins' Gate : America in Iraq

(بوابة القتلة)

George Packer
Farrar, Straus and Giroux, 2005, 450PP, 26.00L



بينما تتصاعد الخسائر الأمريكية فى الأرواح بالعراق، و تزيد الفوضى، تواجه إدارة «بوش» انتقادات عنيفة حول السياسة الأمريكية بالعراق خاصة، والشرق الأوسط عامة، «جورج بيكير» ينضم إلي فريق المنتقدين لإدارة «بوش»، على الرغم من كونه مؤيدا للحرب فى العراق، على حسب قوله.

و لكنه لم يكن مقتنعا بأن الحرب من أجل أسلحة الدمار الشامل المزعم وجودها لدى صدام.

ولكن كان سبب تأييده للحرب هو وجوب التخلص من «صدام حسين» ونشر الديمقراطية فى العراق، على غرار البوسنة وهايتى.

لماذا خرجت الحرب عن الطريق المحدد لها؟

وكيف وقعت الولايات المتحدة فى مستنقع الشرق الأوسط؟

أسئلة يحاول «بيكير» حلها بتتبع التغير الذى انتاب السياسة الأمريكية بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، فالولايات المتحدة لم تعد مغوقة بالتعددية، ووجوب العمل تحت منظمة الأمم المتحدة، و إنما فوضت نفسها للتصرف من جانب واحد، بعيدا عن الشرعية الدولية.

الانقسام داخل إدارة «بوش»، حول الحرب على العراق، والصراع بين وزارتى الخارجية و الدفاع الذى سبب فوضى مريكة، العراق بعد الحرب والدمار الذى آل إليه، هو ما يدور حوله هذا الكتاب.

The FairTax Book

(الضرائب العادلة)

Neal Boortz, John Linder
Regan Books, 2005, 208PP, 24.95$



كتاب يعرض خطة شاملة لتطوير نظام الضرائب الأمريكي.

تلك الخطة المدعومة من أعداد كبيرة من الاقتصاديين ومن حركات ضخمة، تتلخص في إلغاء ضريبة الدخل الاتحادية ورفع ضرائب المبيعات.

الفكرة الرئيسية للخطة، التي وضعت لرفع الأعباء عن المواطن الأمريكي، هي فرض الضرائب علي الإنفاق والاستهلاك، بدلا عن الدخل، مما يزيد من معدلات الادخار لدي الطبقات الفقيرة والوسطي.

وعلي صعيد أخر يزيد من حصيلة الضرائب ككل في الدولة.

فالطبقات الأرستقراطية تصرف الكثير من المال علي منتجات ترفيهية، مثل الملابس، والمجوهرات، واليخوت، بينما يقتصر معظم استهلاك الطبقات المتوسطة والفقيرة علي السلع والخدمات الأساسية (المعفاة من الضرائب).

أيضا يري الكاتبان أن الخطة ستنعش من سوق العقارات، كما ستؤدي إلي زيادة الاستثمارات الأجنبية بالولايات المتحدة، كما أنها ستقضي علي النظام البيروقراطي البطيء، مستبدلة إياه بنظام أكثر عدلا وبساطة وشفافية.

The Demise of the Dollar... and Why It's Great For Your Investments

(هبوط الدولار.. ولماذا هو مفيد لاستثماراتك)

Addison Wiggin
Wiley, 2005, 218PP, 16.95$



بانخفاض الدولار المستمر أمام العملات الأخرى، يتضح مدي تأثير هذا الانخفاض علي المستثمرين والمستهلكين عبر العالم بأسره.

فالدولار (العملة الاحتياطية العالمية) أصبح مثقلا بالديون.

ويعاني من اختلال توازن هيكلي رهيب، وهذا ما لم يحدث من قبل لأي عملة احتياطية عالمية في التاريخ المالي العالمي.

«اديسون ويجين» - مدير تحرير، وناشر لنشرة (المحاسبة اليومية)، التي يصل عدد قرائها إلي ما يزيد علي ٥٠٠.٠٠٠ قارئ يوميا، بالولايات المتحدة، وبريطانيا، والتي تترجم إلي الفرنسية والألمانية والأسبانية.

يحاول في هذا الكتاب تبيين حقيقة انخفاض سعر صرف الدولار، وأسبابه، وتأثير ذلك علي الاقتصاد العالمي.

ويتطرق المؤلف فى كتابه إلي مواضيع مثل العجز التاريخي للدولار، اليورو، عادات الإنفاق الحكومي، العولمة، والعديد من العوامل الاقتصادية العالمية الأخرى.

كما يحاول تقديم نظرة مقربة لمحاولات الاحتياطيات الفيدرالية لإدارة قيمة الدولار.

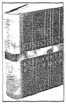
أعطي الكاتب أيضا الاستثمارات الصغيرة وحقائب الاستثمار الشخصية مساحة من التحليل.

كما يقدم نظرة عميقة دارسة لتأثير انخفاض الدولار عليها، واضعا العديد من النصائح المفيدة للمستثمرين.

The Historian

(المـــــؤرخ)

Elizabeth Kostova
Little, Brown, 2005, 656PP, 25.95$



تبدأ أحداث القصة بأمستردام عام ١٩٧٢، عندما تجد فتاة أمريكية، ذات ستة عشر ربيعا، كتابا قديما في مكتبة أبيها الدبلوماسي، الكتاب فارغ من الكتابة إلا من نقوش خشبية لتنين وكلمة «دراكولا»، كما تجد بداخل الكتاب رسالة مؤرخة بتاريخ عام ١٩٣٠، ومعنونة إلي (وريثي العزيز السيئ الحظ)، أثارت هذه العبارات فضولها، مما دفعها إلي مواجهة أبيها، الذي جاء رده مقلقا ومترددا، فقد حمل في طياته قصة مخيفة جدا.

أحداث القصة تعكس الكثير من الأبعاد التاريخية المختلفة، والأحداث السياسية من تراجع وتقدم، وهزائم وانتصارات، التي شكلت وطن دراكولا، فتارة ما تجده وسط البيزنطيين، وتارة مع العثمانيين، وسط القبائل المحلية، أو الكنيسة الأرثوذكسية، وأحيانا في مجتمع جديد كالاتحاد السوفيتي.

■

Resonant Leadership

(القيادة الرنانة)

Richard E. Boyatzis, Annie McKee
Harvard Business School Press, 2005, 240PP, 25.95$



ليس معامل الذكاء (IQ) وحده من يحدد قدرة الشخص علي القيادة، وإنما أيضا يتدخل الذكاء العاطفي (EQ) بقوة في تحديدها، في هذا الكتاب الجذاب اهتم الكاتبان «ريتشارد بويتزس» و«أني مكي» بالجوانب الإنسانية للقادة، فاهتما بتحليل العوامل النفسية والعاطفية والطبيعية التي تضعف الإنسان - رجلاً كان أو أنثي - أو تقويه.

يبدأ الكاتبان بوصف جو العمل المرهق جدا الذي يواجهه القادة يوميا، موضحين كيف أن الكثير من القادة حسني النية يسقطون في فخ عدم الانسجام الذي يحدث كنتيجة طبيعية للإرهاق، ثم ينتقلان إلي المشاكل الأخرى التي يواجهها القادة عاطفيا، مما يجعل أساليب قيادتهم غير ذات تأثير.

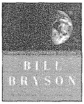
بعد شرحهما الأولي للمشاكل التي تواجه القادة ينتقل الكاتبان إلي عرض للحلول مباشرة، حائمين حول ثلاث نقط رئيسية، يعتقدون أهمية وجودها دوما من أجل الوصول إلي القيادة الرنانة (الحرص والأمل والشفقة)، موضحين أن تلك ليست مجرد مفاهيم عابرة، وإنما تلك المفاهيم هي ما تشكل محك القيادة الرنانة، فهي السبيل الوحيد إلي القدرة علي القيادة تحت ضغط العمل المستمر، والهروب من فخ عدم الانسجام، مؤكدين علي أن الراحة والاسترخاء ليسا كافيين أبدا لإعادة المرونة العاطفية للقائد.

■

A Short History of Nearly Everything

(المختصر عن كل شيء)

Bill Bryson
Broadway, 2005, 624PP, 35.00$



كل الأسئلة التي خشيت أن تسألها في المدرسة وأنت صغير، تجدها هنا، في كتاب مدعم بالرسومات التوضيحية غني بالمعلومات العلمية المفيدة والمثيرة.

الأسئلة الأقدم والأكبر عن الكون وعن الإنسان، التي طالما سألناها لأنفسنا، «بيل بريسون» يحاول هنا مساعدتك في فهم هذا، بل ومساعدتك أحيانا علي الإجابة بنفسك، بدءاً من الانفجار الكبير حتي الحياة الحضرية التي نعيشها الآن، في محاولة لفهم كيف تحول الإنسان من لا شيء إلي ما هو عليه الآن.

الإجابات ليست دائما جادة بقدر ما هي عميقة، مضحكة أحيانا، الكتاب يأخذك في رحلة مشوقة ومسلية إلي عالم المعرفة الإنسانية، لتعرف بنفسك كيف أصبحنا هنا.

■

The Empty Tank : Oil, Gas, Hot Air, and the Coming Global Financial Catastrophe

(الصهريج الفارغ: النفط، الغاز، الهواء الحار، والكارثة المالية العالمية القادمة)

Jeremy Leggett
Random House, 2005, 256PP, 24.95$



لا يخفي علي احد أن النفط أصبح شيئا حيويا للحياة، يدخل بطريقة أو بأخري في كل ما نقوم به، فتسعون بالمائة من وسائل النقل في العالم يتغذي بالنفط، وخمس وتسعون بالمائة من المنتجات الغذائية تطلب استعمال النفط في احدي مراحل إنتاجها، حتي تربية بقرة واحدة لحين وصولها إلي السوق يتطلب ستة براميل من النفط. يصل حجم الاستهلاك العالمي للنفط هذه الأيام إلي ٨٠ مليون برميل يوميا، يتوقع أن يصل إلي ١٢٠ مليون برميل يوميا بحلول عام ٢٠٢٥.

«جيرمي ليجيت» الجيولوجي ومسئول السلام الأخضر السابق، والمدير التنفيذي لإحدى شركات الطاقة المتجددة، يحذر من كارثة ستجتاح العالم قريبا نظرا لبلوغ استهلاك النفط ذروته، فاحتراق الوقود يؤدي إلي ارتفاع نسبة ثاني أكسيد الكربون، وبالتالي درجة حرارة الجو، مما سيؤدي إلي اختلال مناخي تام، يؤثر علي مستوي المياه في البحار والمحيطات بسبب انصهار الجليد في المنطقة القطبية، الذي - بالطبع - سيؤدي إلى مجاعات تجتاح بقاعاً كثيرة من العالم، ناهيك عن الحروب التي ستقوم بسبب النفط.

يلفت «ليجيت» النظر إلي التواؤم الذي حدث بين أسعار الجازولين وكارثة إعصار «كاترينا»، كما يلفت النظر إلي أزمة عام ١٩٧٣ التي حدثت بسبب ارتفاع أسعار النفط، موضحا آثار ذلك علي السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط التي تهتم الآن بالمقام الأول بتأمين النفط.

يري «ليجيت» أن الحل المثالي لما يمكن أن يحدثه انتهاء النفط أو زيادة معدلاته من كوارث بيئية واقتصادية، هو الاتجاه الجدي للاعتماد علي الطاقة المتجددة مثل الطاقة الشمسية وطاقة الرياح، والطاقة الهيدروجينية، حفاظا علي عالمنا من الحروب والكوارث البيئية.

■

Bag the Elephant : How to Win and Keep Big Customers

(كيس الفيل: كيفية الوصول والحفاظ علي العملاء الكبار)

Steve Kaplan Bard Press, 2005, 208PP, 19.95$



كتاب جديد، أكثر من مجرد كتاب يتعلق باستراتيجيات العمل داخل مؤسستك، كتاب مكتظ بتعليمات، وأمثلة، قصص حقيقية، وأدوات وأساليب وضع استراتيجيات عملية.

في الفصل الأول (فيلك ينتظر) يصف الكاتب الاستراتيجيات المختلفة للحصول علي الأفيال ولترتيب العمل معها، كما يقدم عدة وسائل لقياس معدل نجاحك في الحصول علي عملاء كبار والحفاظ عليهم. في الفصل الثاني (ما تعرفه عن الفيلة) يقارن «كابلان» فيه بين الأعمال الصغيرة والكبيرة، ويصف تحديات تقليل الفجوة بين الاثنين إذا ما اشتركا في عمل أو مشروع واحد.

وصولك إلي العميل الكبير والوصول إلي توقيع أول عقد أو صفقة سويا، جاء شرحه بطريقة إجرائية في الفصل الثالث (مغازلة فيلك)، أما الفصل الرابع (حافظ علي فيلك) ففيه يعرض «كابلان» خطة للإبقاء علي ما كسبته، وهو ما يراه أصعب ما بالموضوع.

في آخر فصوله يستعرض «كابلان» خمسة أخطاء قاتلة، قد يكون من شأنها - إذا ما ارتكبتها - ضياع كل عملائك المهمين.

■

The Art Book For Children

(الفن للأطفال)

Editors of Phaidon Press

Phaidon Press, 2005, 80PP, 19.95$



مجموعة من أعظم الأعمال الفنية العالمية، مقدمة للأطفال في طريقة جديدة وممتعة، تشجعهم علي النظر في عناية إلي الأعمال المختارة ومحاولة استخدام خيالهم في فهم مكونات العمل الفني وإدراك محاولات الفنان في إيجاد العمل وكيفية قيامه بهذا.

ثلاثون عملاً فنيًا اختيرت لهذا الكتاب، نظرا لأهميتها الفنية التاريخية، ونظرا لطبيعتها التي تستهوي الأطفال.

«ليوناردو دافنشي»، «فان جوخ»، «ماتيسس»، «ريمبراندت»، «ترنر وفيل» والكثير من عمالقة الفن حاضرون في الكتاب، كما توجد أيضا مساحة لبعض الفنانين الحاليين أمثال «سيندي شيرمان» و«دونالد جود». الكتاب (الفن للأطفال) ليس للأطفال فقط، وإنما سيكون ممتعا وجديرا بالاهتمام إلي القراء من جميع الأعمار.

■

Japanese Women Don't Get Old or Fat : Secrets of My Mother's Tokyo Kitchen

(النساء اليابانيات لا يشخن ولا يسمن: أسرار مطبخ أمي بطوكيو)

Naomi Moriyama, William Doyle

Delacorte Press, 2005, 288PP, 22.00$



من المعروف أن ٣٪ فقط من نساء اليابان يكتسبن وزنا إضافيا، وهي النسبة الأقل بين الدول الصناعية، كما يصل متوسط أعمارهن إلي ٨٥ عاما، الكاتبة «نعومي موريما» اليابانية الأصل وزوجها «وليام دويل» يعزيان ذلك إلي العادات الصحية في الطعام للشعب الياباني.

من هذا المنطلق يعرض لنا الكاتبان أسرار المطبخ الياباني في هذا الكتاب، عن طريق تقديم وصفات والدة «نعومي» «تشيزوكو» للطعام الياباني، ووصف مكونات مطبخها من أدوات ومكونات للطعام.

أغلب الوصفات في الكتاب مبنية علي أحد الأعمدة السبعة للمطبخ الياباني (السمك والخضار والأرز والصويا والمعكرونة والشاي والفاكهة).

الكتاب يأتي بعد كتاب «مريلا جوليانو» (النساء الفرنسيات لا يكتسبن سمنة أبدا)، مما يعطي مؤشرا عن ظهور العديد من الكتب التي تتناول عادات الشعوب في الطعام والوصفات الخاصة بكل شعب علي حدة.

■

The Rise of American Democracy: Jefferson to Lincoln

(صعود الديمقراطية الأمريكية: من جيفيرسن إلي لنكولن)

Sean Wilentz

W. W. Norton, 2005, 992PP, 35.00$



«ويلينز» أستاذ التاريخ بجامعة برينسيتون، يحاول أن يستكشف في كتابه (صعود الديمقراطية الأمريكية) العوامل التي ساهمت في بناء السمة الديمقراطية للمجتمع الأمريكي.

ويستخدم المؤلف الوسائل التقليدية في التركيز علي الأحداث السياسية الهامة التي مر بها المجتمع الأمريكي بالإضافة إلي استخدام نزعات حديثة لبحث دور المجتمع والفرد العادي في تشكيل الأحداث التاريخية.

ويكشف الكتاب عن جذور الراديكالية الديمقراطية في حملات الإصلاح الشعبي للدستور أثناء الثورة وأثناء عهد «جاكسونيان».

يتتبع «ويلينز» تطور الديمقراطية منذ عهد «توماس جيفيرسن» الذي لعب دورا رئيسيا في بناء قواعد الديمقراطية الأمريكية، حتي «أبراهام لنكولن» الذي مثل التغيير الفكري للديمقراطية في فترة حرجة من تاريخ الأمة الأمريكية.

ويعترف المؤلف بأن الديمقراطية الأمريكية في بدايتها لم تكن تساوي بين كل المواطنين كما لم يشارك معظمهم في إرساء قواعدها، خاصة السود والنساء، بل وأحيانا الرجل الأبيض الذي ينقصه الثروة والقوة.

في كتابه يستعرض «ويلينز» القوى الشعبية التي أثرت علي نمو مبادئ الديموقراطية الأمريكية منذ عهد الثورة وحتي الحرب الأهلية، التي يراها حربا علي معني الديمقراطية بين نعرة الجنس المتفوق والقومية العادلة لجمهورية «لنكولن».

■

Team of Rivals : The Political Genius of Abraham Lincoln

(فريق المتنافسين: العبقرية السياسة لأبراهام لينكولن)

Doris Kearns Goodwin

Simon & Schuster, 2005, 994PP, 35.00$



هل فعلا يحتاج عهد لينكولن المزيد من التأريخ؟ علي الرغم من صدور العديد من الكتب في هذا الشأن، المؤرخة «دوريس كيرنس غوودوين» في كتابها (فريق المتنافسين) أثبتت انه لا يزال هناك ما لم يتعرض له أي كتاب سابق.

في كتابها، اهتمت «غوودوين» بالنظر بعمق إلي أسلوب «لينكولن» في القيادة ومدي قدرته علي فهم السلوك الإنساني ودوافعه.

كان هذا من خلال إلقاء الضوء علي علاقة «لينكولن» بأربعة رجال من المنافسين له في انتخابات الجمهورية عام ١٨٦٠. والذي اختار «لينكولن» منهم فيما بعد ثلاثة لوزارته، علي الرغم من معارضتهم له الدائمة. «سيوارد» أصبح وزيرا للخارجية. «سلمون» وزيرا للخزانة. و«بيتس» شغل منصب المدعي العام.

كيف استطاع «لينكولن» ضم الرجال إلي صفه، محولا التنافس المحتدم فيما بينهم إلي تحالف قوي. وكيف كسب احترامهم، ناهيك عن إعجابهم.

وكيف تعامل «لينكولن» مع باقي التحديات التي واجهت إدارته.

وكيف قاد الأمة الأمريكية خلال أكثر فتراتها ظلاما. هذا ما يدور حوله كتاب «غوودوين» فريق المتنافسين.

■

From So Simple a Beginning: Darwin's Four Great Books

(من البساطة بداية: كتب داروين الأربعة العظيمة)

Charles Darwin

Edward O. Wilson

Norton; Slipcase edition. W.W. 2005, 1706PP,



«داروين» صاحب نظرية النشوء والتطور، النظرية الأكثر جدلا علي مر العصور، يجمع له «ادوارد ويلسون» أربعة نصوص من أهم ما كتب بين دفتي كتاب واحد، ملحقة بمقالة تمهيدية مبدعة، ومقدمات تتميز بوجهة نظر جديدة ومفصلة لكل نص علي حدة.

بالإضافة إلي كلمة ختامية توضح مصير نظرية النشوء والتطور في عصر شهدت فيه مقاومة دينية، بالإضافة إلي هذا قدم لنا «ويلسون» دليلاً جديداً يربط المفاهيم الداروينية من القرن التاسع عشر بالفكر الحيوي المعاصر، موضحا تعارضها مع الفكر الديني التوحيدي.

الأربعة نصوص التي يتضمنها الكتاب هي: رحلة الـ (S.M.H) بيجل (١٨٤٥)، أصل الأنواع (١٨٥٩)، هبوط الإنسان (١٨٧١)، أسلوب التعبير عن المشاعر في الإنسان والحيوان (١٨٧٢).

■

رسائل

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات، وتحرص على نشرها، مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

المسلمون والأقباط والمساواة مبدأ المواطنة

الملف الذى نشرته «وجهات نظر» فى العدد الماضى حول إشكالية المواطنة يثير إشكاليات أخرى يتضمنها ولا يشير إليها. تنصب المناقشة على المساواة بين المسلمين وغير المسلمين، وهى إشكالية قديمة لا تنتظر أن يثيرها قيام حكم دينى، بل هى مثارة الآن بالفعل. وإذا كان المسلم غير مكلف بمحاسبة غير المسلمين كما يقول الشيخ القرضاوى فإن هذه الإشكالية تعتبر منتهية كما أوضح الكاتب. ثمة إشكاليات أخرى ليست منتهية وتحتاج إلى نظر، ترتبط أولاها بوجود مسلمين خارج ما يسمى الإسلام السياسى. هل لهؤلاء حق المساواة طبقاً لمبدأ المواطنة أيضاً؟ الإجابة هنا ليست بديهية، فالفرض الأساسى هو وجود أكثرية مسلمة وأقليات غير مسلمة، وهذا ينطوى ضمنياً على أن ممثلى الإسلام السياسى يمثلون الأكثرية المسلمة، ولا تبقى بهذا سوى إشكالية مرتبطة بالأقليات غير المسلمة، فهل هذا صحيح؟

والفرض الرئيسى نفسه لا يحتوى على وجود أغلبية سياسية وأقليات سياسية، فأين الجامعة السياسية، بل أين مبدأ المواطنة فى الأساس؟ هذه إشكالية ثانية. وينبنى على هذا إشكالية ثالثة تتعلق بالفروق القومية. وفقاً للفرض المشار إليه لا توجد أمة بل يوجد مسلمون وغير مسلمين، والكل يعتبرون طوائف، هكذا تتفتت الأمة الواحدة إلى طوائف بينما يتساوى المسلمون من مختلف الأمم، فهل نعود إلى عصر تستبد فيه أمة مسلمة بأمم مسلمة أخرى تحت راية الإسلام وبحجة أن فى تلك الأمة خليفة المسلمين؟

وهل هذه التركيبة لأن المصالح الدنيوية هى ما ينتج عنها أغلبية وأقليات سياسية؟ وهل هذا سبب كاف لتجاهل المصالح الدنيوية؟ هل تنتفى الفروق بين أفراد كل طائفة وتتساوى مصالحهم لمجرد اتفاق دينهم أو لمجرد قيام حكومة دينية؟ لا يمكن أن نفترض أن تماثل الدين بين الأفراد يجعلهم جميعاً متفقين فى كل شىء، فمن أين ينبعث ما يوجد الآن من اختلاف المصالح بينهم وكيف يختفى؟

ومع ذلك سوف يتعين على ما يسمى الطوائف الدينية أن تتفق على قاسم مشترك يجمعها، فهل يكون دينياً أم غير دينى؟ ولو كان دينياً فهل يتم تفتيش القلوب لاكتشاف وعقاب من لا يؤمن بدين؟ ولو كان غير دينى فلماذا الاعتراف بقاسم مشترك فقط عند اختلاف الدين؟ وحينئذ هل لكل من يختلف مع طائفته أو أحد أفرادها أن يغير دينه لينال حقاً لا يناله بطريقة أخرى؟ أيتحول كل خلاف فردى إلى نزاع بين الطوائف، أو إلى نزاع دينى؟

وما المرجع لحل مثل تلك الخلافات الفردية؟ أيكون الفكر الدينى وحده مرجع حل كل خلاف فى ظل الحكومة الدينية؟ هذا يطرح إشكالية المساواة بين المذاهب الإسلامية، لدينا عشرات المذاهب لا يمكن أن تصادر كلها لحساب فصيل يختار نفسه ليكون وحده صاحب حق التحدث باسم الله. أم أن الناس سوف تختار بالانتخاب فصيلاً يكون هو ذلك المتحدث وتكون أولى مهامه قمع كل الفصائل الأخرى؟

وكيف ينتخب الناس متحدثاً باسم الله؟ وإذا لم يكن الانتخاب جائزاً فكيف عندئذ يثبت المتحدث باسم الله أن الله اختاره متحدثاً باسمه؟ أفهم أن يتحدث باسم الله رسول من عنده، وقد آمنا بأن محمداً عليه الصلاة والسلام خاتم الرسل؟ ولو قلنا إن العلماء ورثة الأنبياء فمن أى مذهب يكون العلماء؟ أم ينقسم العالم الإسلامى إلى أمم بعدد ما يوجد من مذاهب؟

هذه الإشكالية الأخيرة بالذات يحلها فصيل أو مذهب بنفى جميع المذاهب دفعة واحدة ودون مناقشة حين يقول إنه لا يوجد الآن إسلام؟ لا يوجد بالتالى مسلمون غيرهم وهم يقررون ذلك لأنفسهم. لا أقول إن كل فصيل يستطيع أن يقرر لنفسه ذات الصفة. أهذا إعلان أو بشارة حرب دينية قادمة؟

د. حمدى الحناوى

الفساد الأكبر والأصغر

لقد قرأت وبإمعان مقال الأستاذ سلامة أحمد سلامة والمعنون من الفساد الأصغر إلى الفساد الأكبر وذلك فى عدد نوفمبر ٢٠٠٥ من وجهات نظر وقد استوقفنى المقال كثيراً وقرأت بتروِ ما يعنيه الكاتب من بين السطور وبعد قراءة المقال الذى أثلج صدرى أيقنت أن الكاتب قد وضع يده على مكمن الداء وأوضح لنا أهم أسباب تخلفنا ومعاناتنا تكمن فى الفساد الذى استشرى فى جميع أوصال عالمنا العربى، فقد صال وجال وحلل الأوضاع المتردية كمبضع الجراح الماهر. سوف أسرد واقعتين حدثتا عندنا فى مصر المحروسة وأرجو التعليق عليهم:

الواقعة الأولى: اشترى أحد الأشخاص من بلدنا فى الصعيد سيارة من أحد الأشخاص فى الوجه البحرى واستعملها فترة وعندما جاء موعد تجديد الرخصة قالوا له اذهب وأحضر شهادة مخالفات من الجهة التى اشتريت منها السيارة، فذهب لإحضار الشهادة من مرور هذه المحافظة، فقالت له الموظفة فتح مخك. فقال لها يعنى إيه.

قالت له: عشرين جنيهاً أى رشوة، فقال لها أنا ضد الرشوة وذهب على الفور إلى مكتب مدير المرور.

وكان للأسف رتبة كبيرة وقص عليه ما حدث فرد عليه باستهتار وبلامبالاة يا شيخ اجرى وفتح مخك فرجع إلى الموظفة وأعطاها العشرين التى طلبتها فرفضت وقالت أنا عايزة ٤٠ جنيهاً فقال لها: لماذا؟ قالت: عشرين لى وعشرين لمن ذهبت إليه!!

الواقعة الثانية: موظف مرض مرضاً شديداً فى القاهرة فذهبت به أخته إلى مستشفى (....... .....) للتأمين الصحى فأهملوه إهمالاً جسيماً فكتبت أخته إلى بريد القراء فى إحدى الصحف وأشارت إلى مدى الإهمال الذى قوبل به أخوها فى المستشفى وذكرت اسم أخيها وذيلت كلامها بتوقيعها وتاريخ دخول المستشفى.

ثم بعد ذلك رد الدكتور عميد المستشفى بعدها بفترة طويلة أى أكثر من شهر بأن المريض الآن فى تحسن ويسير فى طرقات المستشفى ثم رد عليه محرر البريد فى الصحيفة بأن المريض توفى من ٢٥ يوماً وعجبى.

صابر محمد عبدالواحد

مدرس بمدرسة أبو القاسم

أخميم - سوهاج

هل نحن نوبليون؟

الأستاذ أيمن الصياد.. مقالكم العميق والقوى (هل نحن حقاً نوبليون؟) بعدد نوفمبر ٢٠٠٥ أثار الكثير من الشجون..

ويشغلنى من زمن بعيد قضية الوجدان العام، أو عقلية العامة.. الخلل والإيجاب. وهل هناك دراسات ميدانية (وافية) شافية تستطيع أن تفسر؟

القضية تطرح بالتداعى التلقائى مسألة الديمقراطية..

الديمقراطية حتى تتحقق بصورة شبه مبتغاة (حيث لا يوجد عالم من اليوتوبيا أو المدن الفاضلة تقتضى قاعدة واعية.

والوعى لا يتحقق بفطرة سليمة فقط، ولكن بعلم مصحوب بوعى، وهى مفتقدات فى عالمنا المسمى الثالث. هناك خلل كما أشرت وأكدت فى System.

والنتيجة هذه الظواهر المحزنة التى تسوق إلينا فى كل لحظة دراميات دامية مؤسية.

هل من الممكن طرح التساؤل الآتى: (هل من بدائل للديمقراطية تتفق وظروف العالم الثالث؟) توقظ وتضبط قاعدته وبالتالى تحقق آليات جديدة تحاسب القادة، ولا تعطيهم كما يحدث الآن من مبررات للتلاعب، واستمرار لحكم الفرد وبطانته..

قصة مكررة منذ زمن، وعبرة منسية يسعد بها السادة لأنها تعطيهم صكوكاً جديدة للانتفاع والاستمرار.

محمد المهدى

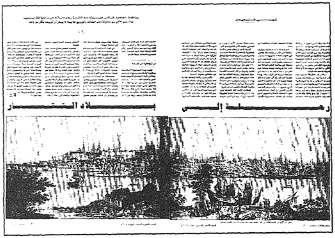
هولاكو تترى لا علاقة له بتتار روسيا المعاصرين.. وهذه هى الأسباب!

بحكم التاريخ والجغرافيا خلت انه قد يكون مناسبا ان اسمح لنفسى بالتعليق على بعض مما سجله الأستاذ فهمى هويدى فى مقاله المهم بـ«وجهات نظر» عدد نوفمبر ٢٠٠٥ فى أعقاب زيارة قام بها إلى تتارستان أى بلد التتار المعاصرة. فالتاريخ يعود إلى أزمان قديمة اقتربت فيها من هذه المنطقة منذ قدمت إلى الاتحاد السوفيتى للحصول على درجة الدكتوراة فى نهاية ستينيات القرن الماضى، اما عن الجغرافيا فتفسيرها نجده فى السياق نفسه.

فى تحقيقه الذى اختار له عنوان «رحلة إلى بلاد التتار» تناول الأستاذ هويدى تاريخ هذه المنطقة من منظور أخاله جديرا بالتوقف عنده ولا سيما انه يعيدنى إلى فترة قريبة مضت شهدت اول زيارة لمسئول تتارى رفيع المستوى للقاهرة فى تسعينيات القرن الماضى. كان ذلك يوم وصل الرئيس منتيمير شايمييف ضيفا رسميا على الرئيس مبارك على رأس وفد، بدا اهتمامه كبيرا بتوقيع اتفاقية تآخ مع محافظة المنوفية مسقط رأس الرئيس مبارك.

آنذاك تساءل الكثيرون عما يدفعنا إلى توطيد أواصر صداقة مع أحفاد من سبق ومارسوا معنا أقسى أوجه التعامل البربرى يوم غزت جحافلهم بغداد فى عام ١٢٥٨ .

وكان الضيوف مطالبين بتفسير أبعاد انتمائهم إلى ذلك الشعب التتارى الذى يظل التاريخ يربطهم بهولاكو وما اقترفته يداه من جرائم. آنذاك ردد الضيوف بعضا مما سجله الأستاذ فهمى هويدى حول أن تتار اليوم بولغاريو الأصل نزحوا من الجنوب الغربى واستوطنوا حوض نهر الفولجا بما يعنى انهم ليسوا أولئك الذين ارتكبوا الكثير من جرائم ذلك الزمان، وهو ما يبدو فى غير وفاق مع وقائع تاريخية تقول بأن التتار أمة واحدة استنادا إلى معلومات تاريخية ننقلها عن أحد المؤرخين المعاصرين من أبناء التتار الذين منهم من يقول انهم بولغاريو الأصل ولا علاقة لهم بتتار المغول.



يقول البروفيسور أورزامانوف رئيس قسم الأنثولوجيا بمعهد التاريخ التابع لأكاديمية العلوم التتارية أن التتار أحد الشعوب الناطقة بالتركية من سلالة الأقوام الرحل التى طالما جابت المناطق من آسيا الوسطى إلى حوض الفولجا وبلاد البولغار. قال اورزامانوف أن التاريخ لم يكشف حتى النهاية الأصول التاريخية وأبعاد العلاقات المتشابكة بين المجموعات التتارية التى طالما انتشرت فى سيبيريا بين بحيرة بايكال وجبال الطاى ومناطق الاورال وما جوار بحر الخزر الذى يسمى اليوم بحر قزوين. وقال أيضا إن الاتصالات تدعمت بين تتار استراخان وتتار سيبيريا مع تتار الفولجا والاورال فى النصف الثانى من القرن التاسع ومطلع القرن العاشر ما أسفر عن نتائج اثنية هامة ومنها ظهور المجموعة الاثنية التى تشكل أساس ظهور الأمة التترية. وبغض النظر عن مدى دقة هذه المعلومات أو تضاربها مع تلك التى تبدو محاولة لدفع الاتهامات عن التتار والتى تقول بأنهم من أحفاد هولاكو والمغول ممن ارتكبوا مجازر ذلك الزمان، فإن أغلب الظن انهم ائتمروا بأمرتهم وشكلوا القوة الضاربة لجيوش جنكيز خان وأحفاده من هولاكو إلى تيمور لنك أو تيمور الأعرج الذى فتح خوارزم وفارس وسوريا ومصر ودمر بغداد فى عام ١٣٨٦ . ويذكر التاريخ أن هذه القبائل والشعوب الرحل حكمت الإمبراطورية الروسية لما يزيد عن قرنين من الزمان، حتى استطاع ايفان الرهيب كسر شوكتهم والاستيلاء على قازان العاصمة فى ١٥٥٢ وإخضاعها إلى الإمبراطورية الروسية. أما عن قازان وما استعرضه الأستاذ فهمى هويدى من تفسيرات لمعانى هذا الاسم التاريخى ومنها إنها تعنى كلمة «قدر» تشابها مع التضاريس الجغرافية لموقعها وانها مستمدة من كلمتى «قا» و«شان» أى بداية الحدود بوصفه ركيزة الحصون الشمالية للملكة البولغار فإننا نضيف أيضا تفسيرات أخرى ساقها المؤرخون على مدى تاريخ هذه المدينة. ومنها ما يردده البعض أنها مستمدة من اسم نهر «قازانكا» شأن موسكو التى تستمد اسمها من نهر موسكو وكابول التى اتخذت اسمها من نهر كابول وسمولينسك الروسية من نهر سمولكا.. إلخ. لكن هناك من يرتكز إلى علم الاشتقاق ويقول إن هناك ما يجمعها مع اسم القازاخ أى «قاز» و«ساخ» وتعنى شعوب البرارى او الشعوب الرحل الحرة. بل وهناك من يردها إلى الاسم العربى «حسن» أو كما ينطقها الروس والتتار «خاسان».

وليسمح لى الأستاذ هويدى بالاجتهاد فى تصحيح المعنى الذى أورده تفسيرا للكنية المقترنة بأسماء كبار رجال الدين مثل اسم مفتى تتارستان «عثمان حضرت»، و«حضرت» ينطقونها هنا «خازرات» لغياب حرفى الحاء والضاد عن الأبجدية الكيريلية التى تحول إليها التتار. كما ان «خازرات» هذه كلمة تركية اعتقد أنها تعنى «المحترم» وهو النداء الذى يُخاطب به علية القوم من رجال الدين التتار.

وفى محاولة لتهدئة روع اشقائنا فى العقيدة نقول إن اضطرار بعض قدامى التتار إلى الانضمام إلى جيوش جنكيز خان وهولاكو لا يمكن أن يكون نقيصة لأحفادهم ممن كانوا أول من رفع رايات الإسلام فى هذه البقاع منذ زيارة احمد بن فضلان مبعوث الخليفة العباسى المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة أى السلافيين فى مطلع القرن العاشر الميلادى. ولست اعتقد أن الأمر فى حاجة إلى تنصل أبناء الحاضر من وقائع تاريخية سعيا وراء «تبييض» كل تاريخ الماضى. فلكم من الشعوب تورطت على أيدى قادتها فى المشاركة فى حروب لا ناقة لها فيها ولا جمل! ولكم من البلدان تشوهت وتعرجت مسارات تاريخها عبر القرون والأزمان!.

سامى عمارة
موسكو

.. هيكل

.. مصر



خيري منصور

▪ ما يهدد الكتابة في حضرة هذا الثالوث.. «وجهات نظر . هيكل . مصر»، هو ارتهانها للتاريخ، بحيث تبدو أقرب إلى المراجعة منها إلى الاستقراء الحُر، وقد يبدو الترتيب للوهلة الأولى معكوساً بحيث تتقدم وجهات نظر ذات الأعوام السبعة على مصر بألفياتها السبع وهيكل بعقوده الستة المفعمة عملاً، وشهادة، واقتراناً بأهم أحداث النصف الثاني من القرن العشرين.

لكنه ترتيب مقصود بعكسيته، لأن المجلة حين تكون منبراً ذا طموح، ونزعة اجتراحية للمسكوت عنه، تصبح مطالبة بأن يتقطر فيها ومن خلالها الماضي برمته، خصوصاً ذلك الماضي الذي لم يغرب تماماً والذي مايزال يواصل نفوذه عبر تجليات عديدة في حياتنا.

وحين صدر العدد الأول من «وجهات نظر»، لم يكن بمجمل أطروحاته ومساجلاته ورصده مجرد مجال حيوي لمانفستو، لأن المانفستو في مقام كهذا مبثوث في تضاعيف المطبوع، وثمة إيقاع أشبه بالموسيقى الخفية التي تحدث عنها لورنس تشكل مزاجاً عاماً للمقتربات على اختلافها أو تضادها في بعض الأحيان.

وكانت أحوال المنبر الشهري أو الفصلي في حياتنا الثقافية لا تسر أحداً غير أنصاف الأميين ممن يبحثون عن مبررات لانصرافهم عن القراءة والمتابعة غير الكسل الذهني والإركان إلى الثقافة الشفوية وأدبيات النميمة!

فمن تلك المجلات ما شاخ أو تقاعد أو وئد حياً، ومنها ما بقى يراوح زمناً وهو في حالة احتضار، والأسباب كثيرة.. منها على الأقل ذلك المقال الوداعي. لا الافتتاحي الذي ودع فيه القائمون على مجلة دراسات عربية عددها الأخير، ومنها بيان النعي ذو النبرة الرواقية الذي ودع به أدونيس مجلة مواقف.. ومنها أيضاً ما أدركه الهجران فصار المستعاد منه إلى الموزع أضعاف المباع!

لهذا كان صدور مجلة فكرية «وجهات نظر» في خريف المنابر الشهرية والدورية بمثابة مغامرة لكنها ليست مجازفة على أية حال.. مادام هيكل هو ضيف أعدادها الأولى، ومادامت قد وعدت القارئ الجاد بإنصافه، وتلبية هواجسه، ونقل أسئلته إلى مستوى المساءلة ببعديها التاريخي والأخلاقي!

ومنذ العدد الأول تنافست عدة صحف عربية على نشر مقالات «وجهات نظر»، ثم تغير المشهد بعد قرار هيكل بالانصراف عن الكتابة في مقال وداعي أثار الأسى لدى الكثيرين وإن كانوا قد عادوا إليه عبر الكلام المتلفز ومؤلفاته ذات الطبعات المتكررة!

هناك ثلاث قضايا طرحها اقتران اسم هيكل بغلاف وجهات نظر، هي على التوالي:

أولاً: الشخصنة في الثقافة العربية وانعكاساتها في كل ميدان، بحيث يصبح منبر ما لصيقاً، بل مشروطاً بوجود كاتب ذي نفوذ واسع وينتظره ملايين القراء العرب.

فهيكل من الكتاب الندرة الذين يمكن وصفهم بأنهم عابرون للطبقات وللأجيال معاً.. يقرأه من استبد به الحنين، وغمرته النوستالجيا ليواصل قراءة «بصراحة» في زمن مغاير، شحت فيه الصراحة وغاب عنه الصرحاء، مثلما يقرأه أحفاده من جيل ثالث لديهم إحساس مبهم بأن الزمن الذهبي قد ولّى في العالم العربي.

ويقرأه رجل المال والناشط الفكري والنقابي ومن تحول اسمه بالنسبة إليهم إلى عنوان حقبة تحرروا من أدبياتها وما يتصورون أنه القيود التي حالت دون حراكهم فاستنقعوا!

ثانياً: اختار هيكل منذ العدد الأول لـ «وجهات نظر»، مُقترباً منهجياً مغايراً إلى حد ما لما كان يقدمه في كتبه المقروءة على نطاق واسع، فهو أصبح يلامس باليد المجردة اللحم الحي لوقائع طازجة، ويدير مفاتيحه في أقفال كانت موصدة لزمن طويل، ونبش المسكوت عنه واستنطق قبوراً دارسة، وقد فعل كل هذا وهو يلوح بوثائقه ومنها ما هو نادر، وأهم تلك الوثائق ذاكرة يقظة تسمى الأشياء بأسمائها والشخوص بغير ألقابهم لهذا كان يشحذ فضول القارئ العربي حتى أقصاه وهو يتوقف عند نقطة إشكالية قابلة لعدة تأويلات سياسية.

ثالثاً: عندما انصرف هيكل عن الكتابة مسوغاً صمته بأسباب منها ما هو معلن في السطور ومنها ما هو مضمر بينها، لم يأخذ معه جيرانه من صفحات «وجهات نظر»، ومنهم ذوو باع طويل في حقولهم، لكن نفوذ اسمه، ورصيده غير المحدود لدى القراء، ومجمل القرائن والأسباب التي أضافت إلى منجزه الواقعي في الكتابة بعداً رمزياً، كان متوقعاً له أن يترك هذا الفراغ، فالغياب أحياناً ساطع الحضور.

وحقيقة الأمر أن غياب هيكل عن «وجهات نظر» لم يكن كاملاً، فثمة أنفاس ماتزال.. وحفيف يمكن الإصغاء إليه في هذه الصفحة أو تلك، وفي هذه الإشارة أو تلك، إضافة إلى فصول تستقرئ ما كتب، لا على سبيل الاستذكار بل على سبيل الإضاءة ودرء الالتباس!

وسأعترف بلا مواربة، بأنني لا أكتب عن مجلة في ذكرى صدورها أو بأية مناسبة تخصها بمعزل عن أنانيتي الشخصية كقارئ أولاً وككاتب ثانياً، فهي منبر يتعلم منه حتى المساهم في الكتابة فيه.

وقد لاحظت في أكثر من عاصمة عربية جملة من الملاحظات تستحق التدوين لدلالاتها أولاً.. منها أن رجال أعمال وناشطين يكرسون عدة أيام من مطلع كل شهر لمناقشة أطروحات ترد فيها.. وكان يقلقني أمران.. أولهما أن المجلة تصدر في القاهرة التي صنفها هيكل بعبارة مكثفة وغزيرة الدلالة، هي القوة الناعمة، وأن معظم من يقرأ المجلة من هؤلاء الناشطين العرب هم عرضة لاعتمادها مرجعية ذات صدقية ونفوذ، لأنها محاولة جادة لاستعادة دور اعتراه الشحوب لبعض الوقت.

لقد شاهدت بعض هؤلاء يُجلِّدونها بأناقة ومنهم من يزهو باقتنائها، سواء تعلق الأمر بما أسميته نوستالجيا الزمن الذهبي أو ما يسميه النفسانيون «السنوبية»!

وكلا السببين قابل للفهم.

وثمة لحظات تساءلت فيها ماذا لو أن منبراً كهذا صدر في عاصمة عربية غير القاهرة؟ وهل كان له أن يصدر أساساً بهذه الحمولة؟ ولم يكن تساؤلي استخفافاً بعواصمنا أو تقليلاً من شأنها، لكن من كانوا طلاباً في الجامعات خلال العقد الستيني الفريد من القرن الماضي حملوا في الذاكرة والوجدان عرفاناً خاصاً للقاهرة بمجلاتها ومثقفيها وما توهج في فضاءاتها من وعود بالحرية.

لهذا كانت «وجهات نظر» محظوظة

بالولادة وربما ولدت وفي فمها ملعقة حبر أثمن من الذهب وأبقى منه، هي اقترانها بالمكان وبما يثير الحنين إلى زمان ما، وليس معنى ذلك أننا نتحدث عن لحظة طللية، أو عن كائنات هجعت في المتحف، فأحيانًا تكون الأطلال صالحة للسكنى كملاذ، ونحن نتحدث عن مكان، اقتسم فيه الأحياء مع الموتى وهم رميم مصباحًا ورغيفًا وزغرودة ودمعة، لقد ودع المثقفون العرب مجلات كانت تستحق البقاء.. مثلما ودعوا قضايا احتازت شرف الأبدية، لأنهم وجدوا أنفسهم على قارعة التاريخ، مهددين بالنزوح عنه هذه المرة، لكن ما من خيام أو وكالات إغاثة.

وكما أن موت شجرة قد يؤدي إلى ولادة غابة.. فما من منبر هو نبت شيطاني، لأن الماضي لا يمضي تمامًا، ويبقى على الدوام ما يكفي من الرحيق!

وسيصدر العدد الجديد من «وجهات نظر» دون أن يكون هيكل خارجه، فهو قارئ وراصد وشاهد، ولم أستطع الكتابة عن «وجهات نظر» بمعزل عن مصر وعنه، وهذا ليس احتفاء طقسيًا، أو إطفاء شمعة سابعة، لأن الأمر لو كان كذلك لبدأنا من مستهل آخر، له أعرافه.

والهاجس الذي يدفعنا إلى هذه الكتابة منه ما هو احترازي ومنه ما هو رغائبي أيضًا، فحين يكون المنبر موثوقًا به ومقروءًا يكون عبء المسئولية مضاعفًا إزاء كل جملة ترد فيه، لأن الموثوقية تفضي إلى تبني المكتوب كمرجعية، لا بالمعنى الأكاديمي المحدد، بل بالمعنى الآخر الذي يرتبط بالصدقية.

والمجلة حتى عندما تكون من هذا الطراز فهي لا تنشر ما ترغب فيه، بل ما هو متوفر في الحياة الفكرية والسياسية، لهذا قد يكون من صميم رسالتها افتضاح الراهن، وإن كان ذلك بأسلوب الإيحاء لا التصريح، كما فعلت مثلاً في نشرها لحصيلة استفتاء حول أهم الكتب التي صدرت خلال عام ٢٠٠٥.

وقد بدد الصديق أيمن الصياد مدير تحرير المجلة التباسًا أوشكت على الوقوع فيه، عندما تحاورت معه مطولاً حول هذا الاستفتاء، وكان ومايزال مندهشًا من واقع ثقافي بهذه الهشاشة ومن متابعات سلحفائية لما يصدر في الوطن العربي وكأن الناس لا يقرأون.. أو على الأقل هؤلاء الذين تُناط بهم مهمة القراءة والاستقراء ليكونوا عونًا للقارئ العادي ويدلوه على الينابيع!

ولولا خشيتنا من تسليم الوعي لتداعيات قد تأخذنا خارج هذا السياق، لأتحنا للذاكرة حتى لو كانت نصف مضاءة أن تتوقف عند محطات عديدة أغفى الناس فيها على مقاعدهم، فيما توقفت القطارات وترجل منها سائقوها ومن معهم.

تلك المحطات مجلات ومطبوعات منها الشهري والدوري والحولي أيضًا، ومعظمها وعدت القارئ العربي في افتتاحيات متحمسة كي تدله على أول الطريق، لكنها لأسباب باتت محفوظة أصابها الإعياء في أول المسافة، وليس السبب المادي هو الوحيد الذي أجهض بعضها في المهد، بل غياب التناغم أيضًا بين من يعزفون سواء كان العزف منفردًا أو من خلال أوركسترا، فالصلة توشك أن تكون معدومة بين ما ينشر في الصحافة اليومية والأسبوعية وما ينشر في المجلات المتخصصة، وغالبًا ما يكون التدني في نشر المعالجات حتى لو كانت تتنطع لقضايا فكرية إشكالية في الصحافة اليومية والأسبوعية، عائدًا إلى ذلك التعريف بل التحريف لدور الصحفي، ومجاله المهني، لهذا كان ومايزال إصرار كاتب بوزن هيكل ومكانته وتاريخه على أن ينعت نفسه بالصحفي فقط، محاولة لإعادة الاعتبار المسلوب من هذه المهنة التي أوشكت أن تصبح مهنة العاطلين ومن لا حرفة لهم غير النميمة أو الهتاف!

والسؤال الذي يفرض نفسه في هذه المناسبة وكل ما يماثلها أو يذكر بها هو: أين تجليات الشجون العربية والإنسانية فيما يكتب ويُنشر في المجلات؟ وهل العناوين وحدها تكفي؟ عندما تتحول إلى مظلات مليئة بالثقوب تحت الشمس أو المطر؟

وهل الحضور اللغوي المحض لبعض الظواهر يكفي بديلاً عن غيابها الجوهري؟

إن هذه الشجون مهددة بمصيرين فاجعين أو بأحدهما على الأقل.. وهو التهريب أو التسطيح وحذف أشد الأبعاد حيوية، بهذا المقياس تلعب مجلة ما دور المرشد لا الواعظ في حقبة تنعطب فيها البوصلة.

وإذا كان لمجلة من طراز «الرسالة» أو «الهلال» أو «الكاتب» أجيال من المثقفين والكتاب لم تنقطع عن جذورها، فهل تطمح مجلات عربية في زمن الإنترنت والكتاب ذي التقنية العالية والعولمة لأن تكون أمهات رءومات لأجيال؟؟

الأرجح أن من أهم واجبات مجلة جذرية وغير متواطئة مع المعطى أو المقرر سواء كان سياسيًا أو اجتماعيًا أو أيديولوجيًا هو الافتضاح بمعناه المعرفي.. لا الأخلاقي.. والكشف عن المستتر رغمًا عنه، واجتراح طريق في الغابة بحيث لا يكون الفارق بين الحفيف والفحيح مجرد خطأ مطبعي!



إن مجتمعات ماتزال تعيش حقبة ما قبل الدولة وما قبل التمدن وما قبل الاستحقاقات الآدمية ثم تزعم بأنها تعيش حقبة ما بعد الحداثة.. والبعديات كلها بما فيها ما بعد القومية وما بعد الوطنية وما بعد التاريخ هي مجتمعات بحاجة إلى نقد جراحي حتى لو تم بلا تخدير، كي تصحو من سبات مزمن وغيبوبة استطالت حتى بدأت تقضم المستقبل وتستدين من طاقة ونصيب أجياله!

أخيرًا.. قد تكون هذه الكتابة متعددة الشجون والشعاب أيضًا.. وقد تبدو كما لو أنها تتفلت على نحو زئبقي من عنوانها.. لكنها تبقى مؤطرة بالحدود الإقليمية لبشر وليس لتضاريس، بشر يشتبكون مع هوياتهم وكأنها تُطرق أو تصاغ للتو من صلصال التاريخ الساخن!

لقد علقت «وجهات نظر» أكثر من جرس في أكثر من عنق، لكن المواء لم ينقطع ولن ينقطع، وذلك هو عقب أخيل في حكاية لامارتين الشهيرة التي مجدت بسالة الفئران وهي تحاول الجهر بعدائها التاريخي للقطط آكلة لحومها. وحين يفتح منبر ما أبوابه على مصاريعها لاستنطاق المسكوت به، والتحريض على «اللا مفكر به» بعد، فالكرة تصبح في ملاعب مثقفين. منهم من ترهل وفقد مهارته ورشاقته بسبب تخمة ما ومنهم من قضى لأسباب تخصنا جميعًا ومنهم من ينتظر لأسباب تخصه، ولعلها مناسبة للاستذكار بأن «وجهات نظر» نشرت قبيل الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠١ مقالات عن صورة العربي في الوعي الأمريكي، وكان لي شرف المساهمة بواحد من تلك المقالات عن الاستشراق المعكوس، أو ما أسميته تجليات الوعي السالب في العدد الذي تزامن مع أحداث أيلول تلك.. فالمجلات لا تنتظر لكي تؤرخ، إن لها حدسها واستشرافها للقادم، لأن المستقبل هو بأبسط تعريفاته حاصل جمع الممكنات، ما ترسب منها في الماضي ومايزال محتقنًا في الراهن.

والمجلات الأكثر شهرة في الولايات المتحدة مثلاً لم تكن تنتظر وقوع الأحداث كي تحلق عاليًا لرصد الأطلال التي تشهد عليها، وقد قرأنا مرارًا في «الفورين أفيرز» على سبيل المثال لا الحصر مقالات تنتمي إلى ما بعد الاستراتيجية أو الميتا.. استراتيجية، فكان بعضها أشبه بالنبوءة، لكنه في الحقيقة وعي بالممكنات، فالخيال ليس خارج المدار الرؤيوي لصحافة تعي دورها وتستكمل نصاب عدتها لكي تبرر جدارتها بسلطة قد لا تكون الرابعة على الدوام، ففي المرات التي أسقطت فيها مقالة واحدة حكومة، أو أقالت صانع قرار كانت الأولى بامتياز وخارج مدار التراتبية الكلاسيكية للسلطات بمعناها الإجرائي!

والمجلة خصوصًا في هذا المثال الاستثنائي الذي تقدمه «وجهات نظر» وترشحه لأن يتحول إلى أمثولة بالمعنى الإيجابي ليست حلقة وسطى.. بين صحيفة وكتاب، لأن التدرج الإيقاعي في مواعيد الصدور لا يصلح لأن نحتكم إليه في هذا السياق، فقد تصبح مجلة ما عصارة لرف من الكتب، وقد تتردى أخرى لتكون جريدة بقطع مغاير وعدد غزير من الصفحات.

وقد لا نبالغ إذا قلنا بأن المجلة التي تلتزم بتعريف مهني ومعرفي دقيقين أوشكت أن تصبح في ثقافتنا العربية خلال العقود الأخيرة العجاف بكل المقاييس حلقة مفقودة.. تحتاج إلى أنثروبولوجست ضليع في فقه التطور الثقافي كي يحددها!

لهذا فالواقع بمجمل طياته وتعقيداته وعوالمه السفلية شبه مهجور والقراءات ترتهن للسطوح أو ما نتأ من جبال الجليد، وإذا لم نعترف بدءًا بأن للتخلف قوانين نموه وأن لثلاثي الفقر والجهل والمرض تنمياته، المضادة فإن مبتدأ الجملة سيكون محذوفًا.

تحية لـ «وجهات نظر».. وجهة.. وجهة، وصفحة صفحة وهي تدلف إلى عامها وعامنا الجديد بلا عكازات، وتحية لمهد عريق ولدت فيه، ولرحم أعرق منه أنجبها، ولصحفي كان توأمها متشبثًا باللقب الوحيد والعاري لمهنة أصبحت بحاجة إلى تحرير وتبرئة من جملة نعوت!! ■

قراءة

هذه المجلة..

أيمن الصياد

■ «وجهات نظر».. في المسافة بين قرنين. إذا ما كانت هناك تلك المسافة ـ ظهرت تلك المطبوعة. تطل على ما فات ـ وهو قائم.. أو أثره ـ بحكم أنه جرى. وتستشرف ما هو آت ـ وهو قادم.. أو توابعه ـ بحكم طبائع الأمور. وكلاهما مطلوب لنفهم، وضروري «لنقدر» للقدم قبل الخطو موضعها.

فبراير ١٩٩٩.. تاريخ ولادة تلك المجلة التي استقبلها قراء العربية على تنوعهم، استقبالاً تفاوت بين الترحيب والقلق.

رحب بها من كانوا ينتظرون ـ ولا نقول يفتقدون ـ مطبوعة عربية تدقق اللفظ والمعنى.. واختيار الموضوع، وتفضل النظر من مسافة مناسبة تسمح برؤية أعمق.. تنظر «في» المشهد، ولا تكتفي بالنظر «إليه». ولا تضطر إلى اللهاث خلف تدافع الأحداث، متأثرة بالضرورة بلفح توهجها الآني، فتدفع ثمنا حتميا من تحر لدقة مطلوبة، والتزام بموضوعية واجبة.

وأشفق عليها ـ مبديا قلقه الطبيعي المشروع ـ أصدقاء ظنوا أن الأصوات «الهادئة» قد لا تجد صدى في ساحة امتلأت بالصخب والأصوات العالية.

وكان أن توسط «عقد» كتابنا الكرام؛ محمد حسنين هيكل عميد كتاب الصحافة العربية المعاصرة، صديقا «دائما» للمجلة، وقلما يتصدر أقلامها. وفي حين رأى البعض في ذلك حسما حتميا ومبكرا لمنافسة مفترضة مع مطبوعة جديدة، رآه القائمون على تلك المطبوعة تحديا يفرض عليهم صرامة الالتزام بمستوى مهني «يليق».



ويبقى أن «المقال المستطرد» وهو نوع من المقال جديد على الصحافة العربية، قدمته «وجهات نظر» على الدوام في مقالها الرئيس، وفي بعض مقالاتها الأخرى. وفكرته الأساسية أنه يقف في مكان وسط بين المقال الصحفي المقيد بحجمه المعتاد وبين الكتاب اللا محدود بطبيعته. وفكرة تقديم نموذج «المقال المستطرد» للقارئ العربي تعود إلى الأستاذ هيكل الذي رأى منذ البداية ـ ورأينا معه ـ «أن الومضة السريعة الآن للصورة وليست للكلمة، ذلك أن أي مهتم بالشأن العام سوف يتابع الخبر صورا متلاحقة على الشاشات المضيئة، لكنه يريد من الكلمة أن تذهب إلى ما وراء الصور. وأن تقول له على مهل ما الذي يجرى؟ ولماذا؟ وكيف؟ ومن؟ ومتى؟ وأن تروى ذلك على مهل..».

ورغم أن «وجهات نظر» تحرص ـ وكذا كتابها ـ على أن تمتد «قراءتهم» لتشمل «واقعا معاشا» لا يمكن إغفال أهميته وتأثيره، إلا أنه ـ ويبقى للاستدراك هنا أهميته الخاصة ـ فبحكم طبيعتها أولاً، وبحكم دوريتها «الشهرية» ثانيا، تستميح المجلة قراءها عذرا حين لا تعد أن من واجبها تقديم ما يجرى أو حتى التعليق الآني عليه «والذي ربما كان متعجلاً بحكم عوامل توقيت حاكمة، أو متأثرا بهوى مشاعر قرب غالبة»، وإنما تحاول تلك المجلة أن تقف ـ كلما كان ذلك ممكنا ـ على مسافة مناسبة من الحدث تسمح لها برؤية أوسع وأعمق.. وبالتالي أكثر وضوحا.

وكمصدر لا ينضب للمعرفة الإنسانية والأصول والمنابع والمرجعيات تُعنى «وجهات نظر» بشكل رئيس بالكتب، والتي تمثل جزءا عزيزا من اسمها، إلا أنها لم تقصد ـ ولم تحاول ـ أن تكون مجرد نافذة تقليدية لـ «عروض الكتب» بالمفهوم أو المعنى الذي استقر طويلاً في صحافتنا العربية. فتلك حالة قد تغنى فيها مطالعة الكتاب ذاته عن قراءة عرضه. «فوجهات نظر» ـ وهي بحكم الاسم و«الهدف» ساحة لـ «الرؤى المتمعنة» ـ عندما تعرض لكتاب أو «لوثيقة»، فإنما تقدم «قراءة» للأوراق تتضمن بالضرورة رؤية القارئ (الكاتب)، والتي يتصور القائمون على تلك المجلة أن لها خصوصيتها بالضرورة، بحكم تباين طبيعي في الخبرة، واختلاف وارد في زاوية النظر.

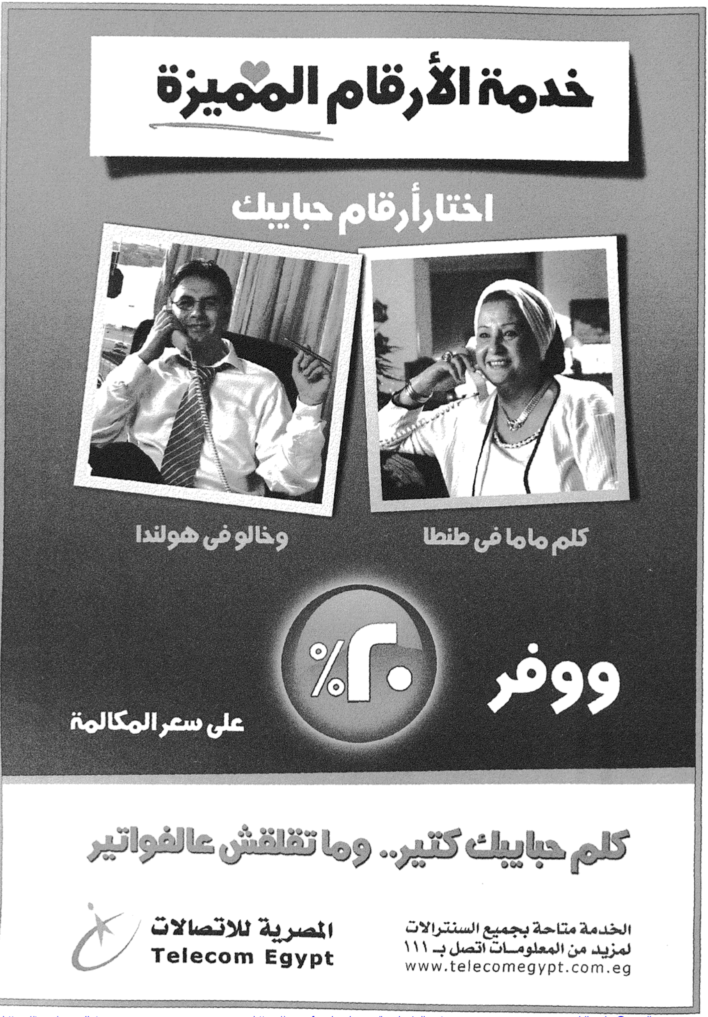
يفترض القائمون على تلك المجلة إذن أن «القراءة» التي تسعى إلى تقديمها هي في التحليل النهائي «خلاصة» لمزيج متفاعل حي بين الكاتب والكتاب.. أو لعلنا قائلون بين فكر «الكاتب» وأفكار «الكتاب».

و«الكتاب» لدى هذه المجلة هو كل ما كان مخطوطا بحبر على ورق، أو ومضات تلمع على شاشة، سواء طبعه الناشرون، أو بثته الشبكات، أو كان وثائق في ملفات تحمل أختاما حمراء، وترقد ـ إلى حين ـ خلف أبواب مغلقة.

و«الكاتب» عند تلك المجلة، لا ننتظر منه عادة أن يقدم لنا «ما في» الكتاب، بل نتوقع دائما أن يقدم لنا «قراءته» هو لذلك الكتاب.

في «وجهات نظر» كان قرارنا المبدئي أيضا ـ بحكم الاسم والهدف مرة أخرى ـ أن ندلل على الموقف الثابت من أن الاختلاف في الرأي لا يتطلب غير «الحوار». وأن الحوار يعني في تفسيره الوحيد: تبادلاً لـ «وجهات نظر». فالمتابع للمجلة من عددها الأول لابد أن يلاحظ أنه ما من «رؤية» ضلت طريقها للنشر، في حال توافر شروط «مهنية» لا ننكر صرامتها. إذ يعتقد القائمون على تلك المجلة صادقين بأن «للنظر زوايا مختلفة» وأن رؤية مكتملة للمشهد ـ مع افتراض إمكان ذلك ـ لا تتأتى أبدا إلا بمطالعته من مختلف الزوايا.

ففي مواجهة ما بدا مرة ـ أو مرات ـ في المشهد الثقافي والفكري العربي، من أن الحوار «الحقيقي» يترك مكانه عادة لصخب الخلط والصياح والضجيج والشجار، كان ضروريا أن تكون هناك «محاولة» لإزاحة غبار كثيف تراكم على تقاليد الحوار في ثقافة سبقت فجعلت «للكلام» علما خاصا قبل عدة قرون. ولعله كان ضروريا أيضا أن تؤكد «وجهات نظر» أن للحوار آلياته. حيث يحدد الناس ـ بداية ـ حول ماذا يتحاورون، وما هي نقاط الاتفاق. وما هي تلك التي مازالت محلا للخلاف، ومن ثم للحوار. ثم ما هي المرجعيات المتفق عليها، وما هي التعريفات المحددة لما سيستخدمونه من مصطلحات... هنا ـ وهنا فقط ـ يبدأ تبادل «حقيقي» لوجهات النظر بين أطراف تعلم بالضرورة أن هناك «رأيا آخر» ليس لنا بالتالي أن نتبرم من الإنصات إليه، بعقل يدقق، وقلب يسمح.. واستعداد لأن نقبل منه كما نرفض. ■


خدمة الأرقام المميزة
اختار أرقام حبايبك
كلم ماما فى طنطا
وخالو فى هولندا
ووفر
٢٠٪
على سعر المكالمة
كلم حبايبك كتير.. وما تقلقش عالفواتير
المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
الخدمة متاحة بجميع السنترالات
لمزيد من المعلومات اتصل بـ ١١١
www.telecomegypt.com.eg

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 7 - Issue 87 - April 2006

مجلة شهرية . العدد السابع والثمانون . السنة السابعة . إبريل ٢٠٠٦ . الثمن عشرة جنيهات

على ضفاف الحوار / محمد حسنين هيكل

ظلمات المسلمين الحالكة

الأفغانى يرد على رينان / مجدى عبدالحافظ

إيران على مفترق طرق / سلامة أحمد سلامة

١٧ مارس: ربيع القلق / أيمن الصياد



السـنـة الـثـامـنـة
العدد السابع والثمانون
أبريل ٢٠٠٦

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحـمـد الـزيـادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أحمد فؤاد سليم.. فنان وناقد تشكيلى.
- أمل الخير.. كاتبة سورية راحلة.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- جمال محمد غيطاس.. محرر تكنولوجيا المعلومات بالاهرام ورئيس تحرير مجلة لغة العصر
- جهاد فاضل.. كاتب وناقد لبنانى.
- حمدى عزام .. دبلوماسى مصرى سابق.
- خيرى منصور .. كاتب عربى.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- سلمى حسين.. صحفية.
- عماد الغزالى.. صحفى.
- مايكل فرانسيس جيبسون.. ناقد فنى بصحيفة هيرالد تريبون الدولية.
- مجدى عبد الحافظ.. أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة بجامعة حلوان.
- محمد عدنان سالم.. ناشر سورى.
- محيى الدين اللاذقانى.. كاتب سورى.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجى ـ سعد الدين شحاته ـ أحمد اللباد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٩٣٠٤٩٠/ ٢٩٣٠٤٩٢/ ٢٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص.ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٢٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

نــون

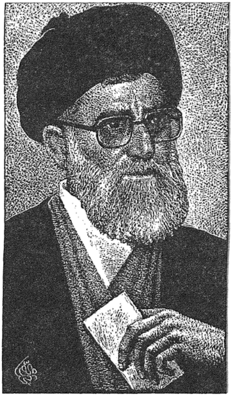
ســــلامة أحمـــد ســــلامة

رحــــلة إلـى طهـــران

إيـــران عـــلى مفتـــرق طـــرق..



نجـــاد



خـــامنئى

■ أول ما يقع عليه بصرك لدى الخروج من مطار الإمام الخمينى بمعماره الحديث، ذلك المجمع الضخم الذى يضم ضريح الإمام وملحقاته، تتلألأ قبابه الذهبية تحت أشعة الشمس من بعيد، وترتفع مآذنه الأربع إلى عنان السماء.. علامة لا تخطئها العين على الطابع الدينى الذى ينتظرك فى هذا البلد. وحين تمر فى طريقك بالميدان الكبير الذى يضم نصب الشهداء تخليداً لذكرى عشرات الألوف الذين ضحوا بأرواحهم دفاعاً عن الثورة الإسلامية فى الحرب العراقية الإيرانية، فلابد أن تدرك عمق مشاعر الحزن والمرارة والحذر التى اختزنها الشعب الإيرانى فى أعماقه، تجاه العالم الخارجى وتجاه القوة العظمى التى حرضت ومولت وسلحت نظام صدام حسين ليشن حربه ضد إيران عام ١٩٨٠، حين وجدت الثورة الإسلامية نفسها وجهاً لوجه مع الشيطان الأكبر، فى أعقاب احتجاز الدبلوماسيين كرهائن فى السفارة الأمريكية فى طهران لفترة طالت حتى بلغت ٤٤٤ يوماً.

غير بعيد فى الأفق القريب المحيط بالعاصمة المكتظة بالناس والسيارات والتيارات والحياة الصاخبة، تتحلق سلاسل الجبال الملتحفة قممها بثلوج بيضاء، لم تكن قد ذابت قبل أيام قليلة من عيد النوروز، الذى يحتفل فيه الشعب الإيرانى بالربيع والنور. عيد شعبى ورسمى. لم تستطع سطوة النفوذ الدينى أن تطفئ بهجته الزاعقة فوق سائر الأعياد الإسلامية. وحين يهبط المساء تتناثر على سفح الجبل سلاسل لامعة من الأضواء المنبعثة من القصور والفيلات والبيوت. فلا يذهب بك الخيال إلا إلى سويسرا ومناظرها الخلابة. ولكن لو أتيح لك أن ترتقى الطريق صاعداً إلى السفح، حيث تتناثر المقاهى والمطاعم، فسوف تشهد الوجه الآخر من إيران: أرتال من الشباب فتياناً وفتيات، يغطين رءوسهن بالكاد، وتتشابك الأيدى منهن والأجساد، يرتقون سفح الجبل عبر المسالك الضيقة فى نزهة آخر الأسبوع.

لا يستطيع المرء أن يجمع بين المشهدين فى لقطة واحدة. ولكنك تحار أمام الوجوه المتعددة للمشهد الإيرانى على إطلاقه، تلك التى تصنع هذه التركيبة المعقدة لنسيج الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى إيران. أشبه بالألوان والرسوم الدقيقة التى تميز السجاد الإيرانى الفاخر فى اصفهان وشيراز. أو أشبه بتلك التصاوير والمنمنمات الملينة بالزخارف النباتية والزهور المتشابكة مرسومة فوق القباب والجدران فى القصور والمساجد العريقة، التى تزخر

يحتل المشروع النووى الإيرانى مكانة خاصة فى مشروع النهضة، تلتقى فيها الثوابت، مع المشروعات السياسية والاقتصادية والعسكرية، التى تستهدف امتلاك التقنية النووية المتقدمة بكل الوسائل

بها الساحات والميادين والأزقة فى أركان المدن الإيرانية، تعبيراً عن تراث فارسى عريق موغل فى القدم.

[١]

من الواضح أن إيران الحاضر مع بدايات الألفية الثالثة، قد اختلفت كثيراً عن إيران التى شهدت بدايات الثورة الإسلامية ونظام ولاية الفقيه فى الثمانينيات من القرن الماضى. وأن الفورة التى صاحبت حكم الإمام الخمينى حين كانت البلاد مازالت تتحسس طريقها لإقامة دولة تصطبغ بصبغة الإسلام وأحكامه وتقاليده على أنقاض حكم الشاه، وتتخلص من خصومها بدون رحمة، وتواجه حصاراً سياسياً وإعلامياً من جانب الغرب، قد تجاوزت الآن مرحلة المراهقة الفكرية والاندفاع المذهبى، وشقت طريقها عبر سلسلة طويلة من التجارب المريرة.. التى تراوحت بين التشدد الإسلامى الكامل والانفتاح النسبى على نظام دستورى إسلامى، بين مناخ يسمح بقدر معقول من حرية الرأى والمعارضة، وأجواء تميزت بالصراع بين تيارات مختلفة.. حاول الفقهاء ورجال الدين أن تكون لهم فيها دائماً اليد العليا، وألا تفلت من أيديهم مقاليد السلطة.

وفى هذه الأثناء أجريت انتخابات عديدة طبقاً للتقاليد الديمقراطية البرلمانية لا تنقصها النزاهة، وتوالدت تيارات مختلفة داخل النظام وعلى أطرافه. اتسعت لجبهات وروافد متباينة.. ما بين الإصلاحيين، والمعتدلين، والديمقراطيين، والأصوليين المتشددين من أتباع خط الإمام. وكان المفترض والمنطقى أن تتجه إيران بعد مرحلة الإصلاح التى قادها محمد خاتمى ثمانى سنوات، تقلصت خلالها الطبيعة الثورية للنظام الإسلامى الحاكم، ودخلت البلاد مرحلة الإعمار بعد سنوات الحرب المدمرة مع العراق.. إلى مزيد من الديمقراطية والليبرالية وتفعيل المجتمع المدنى ومن ثم الانفتاح على الغرب.. ولكن المفاجأة التى أذهلت الجميع أن يفوز فى الانتخابات الأخيرة لرياسة الجمهورية مرشح الجناح الأصولى من التيار المحافظ محمود أحمدى نجاد بأغلبية كاسحة.

وقد اختلفت التفسيرات فى تحليل هذه الردة، أو بالأصح ما يعتبره الغرب نكسة إلى الوراء فى النظام الإيرانى. ولكن المؤكد أن التطور السياسى شهد تشكل مجتمع سياسى جديد، مازال يتحرى طريقه بين مفهومين - كما أشار إلى ذلك المحلل السياسى الإيرانى محمد قوجانى - هما «الإسلامية» و«الجمهورية». ويأتى مفهوم «الإسلامية» تعبيراً عن القوى التى تؤمن «بالجبر» بمفهومه الإسلامى القديم، وتجد فيه هذه القوى ملاذاً من التأثيرات الغربية وسيطرة قوانين العولمة. بينما يعبر مفهوم «الجمهورية» عن توجهات الإصلاحيين الذين يتبنون الفكر الجمهورى أو مذهب «الاختيار»، الذى يسعى إلى استيعاب إنجازات الحضارة الغربية. ويذهب هذا التحليل إلى أن فوز أحمدى نجاد جاء نتيجة لانفصال النخبة الإصلاحية عن القواعد الشعبية التى تؤمن بالجبر والتى تعلقت بولاية الفقيه. ومن ثم فإن إصرار أحمدى نجاد على تجرع الدواء الذى قدمته ولاية الفقيه، سوف يلقى - طبقاً لهذه التوقعات - رفضاً سريعاً من مجتمع إيرانى تعرض لتقلبات وتغيرات نقلته إلى مرحلة جديدة ذات خصائص مختلفة، تحتاج إلى معالجة حديثة لمعضلات الفكر الإسلامى وتطبيقاته.

[٢]

هناك فى إيران تواجه بعشرات الأسئلة المطروحة حول الطريق الذى يسلكه أحمدى نجاد، وما إذا كان يسلك مساراً مغايراً للتسلسل الطبيعى لتطور نظام الحكم. وهل سينجح فى مواجهة المشاكل الداخلية والتعقيدات الخارجية التى تهدد بعزل إيران، أم تنتهى سنوات حكمه بانفجار كبير يطيح بالنظام الإسلامى وإنجازاته؟

لقد أصبح أحمدى نجاد ظاهرة مثيرة، وخاصة بعد خطابه الحاد الذى ألقاه فى مؤتمر العالم بدون صهيونية ودعا فيه إلى محو إسرائيل من الوجود. ثم أعقب ذلك بتصريحاته عن المحرقة اليهودية وتشكيكه فيها. والتى أثارت ضده قوى كثيرة فى الغرب، وأزعجت بعض العناصر المعتدلة داخل إيران نفسها. ويبدو أن وصول أحمدى نجاد إلى الرياسة بتأييد شعبى من الفقراء والضعفاء والمهمشين، جعله يعتقد بإمكان المضى فى سياسته لإحياء الأفكار التى دعا إليها الإمام الخمينى، بالسعى إلى إقامة حكومة عالمية إسلامية. وهو يستند فى ذلك إلى أساسين: أحدهما عقائدى يتمثل فى الخطاب الشيعى التقليدى. والآخر وطنى قومى يتمثل فى القيم التراثية وإحياء المشاعر القومية، عن طريق امتلاك القوة الكفيلة بالدفاع عن النظام الإسلامى، والأخذ بأساليب التقدم والعلم والوسائل التكنولوجية الحديثة.

ولا يمكن فى خضم هذه الأمواج المتلاطمة إغفال دور عنصرين بارزين وصاعدين فى المجتمع الإيرانى، سوف يتوقف حسم معركة المستقبل عليهما: دور الشباب الذى خرج من عباءة النظام الإسلامى المتشدد بتنظيماته الثورية الحديدية إلى آفاق أرحب. يتطلع فيها إلى الحرية والشفافية والمشاركة السياسية وممارسة الديمقراطية. ويتزاحم على مقاهى الإنترنت، ويتمنى أن تنفتح أمامه أبواب التواصل مع الغرب. ودور المرأة الإيرانية التى لم تستسلم للقيود والتقاليد الصارمة التى فرضها النظام عليها فى بداياته. بل استطاعت بعد سنوات التكيف أن تشق طريقاً وسطاً. استعادت فيه كثيراً من حقوقها وحرياتها، دون أن تصطدم بالأوامر والنواهى التى تتشبث بها المرجعيات المحافظة. ففى مجالات العمل، وفى وسائل الإعلام والسينما والفن، وفى كثير من الفعاليات السياسية وبالأخص فى الانتخابات، تمثل المرأة ثقلاً يرجح تياراً على آخر. وهى حاضرة بقوة فى المجتمع وفى الشارع، مزيجاً متعايشاً بين الشادور الأسود وأحدث أزياء الموضة ومساحيق التجميل المتناغمة مع بلد إسلامى، لا يخفى الاحتشام فى الملبس والمظهر شيئاً من جمالها. وإن كانت للأسف مازالت عاجزة عن الوصول إلى مكانتها المناسبة فى قوانين الأحوال الشخصية والمدنية.

ولعل هذه التركيبة المعقدة هى التى تعكس فى شخصية أحمدى نجاد ذلك التداخل المحير بين ما هو عقائدى ثورى وما هو استراتيجى تنموى. بين الإيمان بالعدالة والتنمية وإنتاج العلم الوطنى، وبين الجهاد المقدس ضد الاستكبار، والدفاع عن الحقوق الطبيعية والقانونية لإيران. وإذا كانت أمريكا تدعو إلى إقامة «الشرق الأوسط الكبير»، فإن طهران. التى ظلت مدرجة على القائمة الأمريكية لمحور الشر - تدعو إلى إقامة «شرق أوسط إسلامى» يدعم الثورة ضمن وجودها فى محيط تكتل إسلامى.

[٣]

ومن هنا يحتل المشروع النووى الإيرانى مكانة خاصة فى مشروع النهضة، تلتقى فيها الثوابت العقائدية والاستراتيجية، مع المشروعات السياسية والاقتصادية والعسكرية، التى تستهدف امتلاك التقنية النووية المتقدمة بكل الوسائل الممكنة. وفى القلب منها الإصرار على تخصيب اليورانيوم فى المنشآت الإيرانية.

وتستند إيران فى إصرارها على استكمال مشروعها النووى إلى أسباب عديدة:

❖ أولاً: أن إيران وقعت على معاهدة حظر الانتشار النووى التى تكفل لها الحق فى تطوير برنامجها النووى. ثم وقعت طواعية على البروتوكول الإضافى لهذه المعاهدة الذى يعطى لمفتشى الوكالة الدولية للطاقة النووية حق التفتيش المباغت على أى منشأة نووية إيرانية. وحتى عندما أخطأت بالشروع فى تجارب التخصيب دون إخطار مسبق للوكالة، فإن اكتشاف الأمر أتاح لمفتشى الوكالة التأكد

من أن عمليات التخصيب لم تتجاوز الحدود المسموح بها ضمن إطار التطبيق فى الأغراض السلمية. ومع ذلك فقد استجابت إيران بعد ذلك لطلب الترويكا الأوروبية (فرنسا وبريطانيا وألمانيا) بضغوط أمريكية، وعلقت عملية التخصيب لفترة مؤقتة، كشرط لمفاوضات سرعان ما أخفقت، تستهدف إيجاد حلول دبلوماسية تحصل إيران من خلالها على التعاون النووى فى مجالات الاستخدامات السلمية.

❖ ثانيًا: أن إيران تنظر إلى دول عديدة تجرى عمليات التخصيب المتطورة لليورانيوم، دون إثارة أزمة معها من جانب أمريكا أو الوكالة. ومن هذه الدول البرازيل واليابان وهولندا وألمانيا، فضلاً عن دول أخرى تجاوزت التخصيب السلمى لليورانيوم وأنتجت أسلحة نووية، أبرزها إسرائيل والهند وباكستان. وثلاثتها لم توقع على معاهدة حظر الانتشار النووى. ومع ذلك فقد وقعت واشنطن أخيرًا اتفاقًا للتعاون النووى مع الهند، يعتبر من وجهة النظر الدولية تقويضًا كاملاً لاتفاقيات منع الانتشار النووى، لأنه ينطوى على مفارقة صارخة، تكافئ الدول غير الملتزمة وتعاقب الدول الملتزمة وتضيق الخناق عليها.

❖ ثالثًا: أن الموقف المتشدد مع إيران ينطلق من الصراع المستمر بينها وبين أمريكا، منذ سقوط الشاه، لأسباب سياسية. ومنذ أحداث سبتمبر ٢٠٠١ أعادت أمريكا - طبقًا لوجهة النظر الإيرانية التى عبر عنها لاريجانى الأمين العام للمجلس الأعلى للأمن القومى - صياغة مشروعها الأمنى. وطرحت نظامًا أمنيًا جديدًا يغطى العالم بأسره. حاولت من خلاله تغيير الجغرافيا السياسية للمنطقة، من خلال مشروع الشرق الأوسط الموسع، الذى وضعت فيه سوريا وإيران على قائمة الدول المارقة التى تهدد المصالح الأمريكية وأمن إسرائيل.. وذلك فى الوقت الذى تعارض فيه أى جهود لإخلاء الشرق الأوسط من أسلحة الدمار الشامل.

❖ رابعًا: أن لدى القيادات الإيرانية اعتقادًا راسخًا بأن الولايات المتحدة الأمريكية قد انتهجت منذ أحداث سبتمبر موقفًا مشوبًا بالحذر والتوجس إزاء العالم الإسلامى، وأنها لن تدخر وسعًا فى الحيلولة دون حصول أى دولة إسلامية على مثل هذا الإنجاز العملى المتفوق فى مجال الطاقة النووية. حيث يراد لهذه الدول أن تظل مستودعًا للنفط يجرى استغلاله واستنزافه لحساب الغرب والدول الصناعية، وألا تقوم فيها صناعات متقدمة يمكن أن تغريها بالتمرد والخروج على الهيمنة الأمريكية. ولم تكن الحرب على العراق غير جزء من هذا المخطط، أعقبه تجريد ليبيا مما كانت قد تحصلت عليه من مواد نووية بالشراء من السوق السوداء. وبعبارة أخرى فإن وصول التقنية النووية إلى العالم الإسلامى - بهذا المنطق الأمريكى - لا يقل خطورة عن وقوع أسلحة نووية فى أيدى القاعدة أو بن لادن. ويؤيد هذه الحجة أن الرئيس بوش لم يتردد فى توقيع اتفاق للتعاون النووى مع الهند، بينما تجاهل باكستان على الرغم مما بين الدولتين من تنافس وبرغم الدور الذى يلعبه نظام برويز مشرف فى مطاردة طالبان وملاحقة بن لادن والتعاون مع آلة الحرب الأمريكية.

[٤]

لا يخفى الإيرانيون مخاوفهم من المخططات الأمريكية، ولديهم أسباب قوية لذلك، لا تقتصر فقط على المشروعات الأمريكية للشرق الأوسط الكبير، ولكنها تتعلق بمجمل الأوضاع المتشابكة فى المنطقة والتى تحكمها تطورات الصراع العربى الإسرائيلى، والدور الذى تلعبه إيران فى علاقاتها الداعمة لسوريا وحزب الله فى لبنان والفصائل الفلسطينية وعلى رأسها حماس. وهو دور تعتقد واشنطن أنه يعرقل التسوية السلمية ويشجع الإرهاب. فضلاً عن تغلغل النفوذ الإيرانى فى العراق بحكم سيطرة الشيعة على الأوضاع الراهنة هناك، وارتباطه بالمصالح الإيرانية القائمة على خصوصيات ديموجرافية واقتصادية ومذهبية قوية بمعظم الشعوب الخليجية.

وفى الوثيقة التى صدرت أخيرًا عن «استراتيجية الأمن القومى» والسياسة الدفاعية الأمريكية، التى أعادت تحديث عقيدة الضربات الوقائية أو الاستباقية، اختص بوش التهديد النووى الإيرانى باعتباره التحدى الأكبر الذى يهدد الولايات المتحدة فى المستقبل. واتهمت إيران بدعم المنظمات الإرهابية، وتهديد إسرائيل، وتخريب العملية الديمقراطية فى العراق. وقالت الوثيقة ما نصه: «إن الولايات المتحدة مازالت فى بدايات مرحلة طويلة من النضال، يشبه النضال الذى واجهته فى بواكير الحرب الباردة. وقد شهد القرن العشرون انتصار الحرية على تهديدات الفاشية والشيوعية. غير أننا نواجه الآن بزوغ عقيدة شمولية جديدة تهددنا.. عقيدة لا تستند إلى فلسفة علمانية، ولكن إلى تحريفات دين فخور بمبادئه «يعنى الإسلام»!!

ولا يعول الإيرانيون كثيرًا على الأمم المتحدة والمواثيق الدولية للدفاع عن أنفسهم، فى ضوء التهديدات الأمريكية التى أعلنت بصراحة أنها لن تسمح لإيران بإجراء عمليات التخصيب النووى، كما أن إسرائيل لم تخف استعدادها - من خلال ترتيبات عسكرية واستخباراتية وإعلامية - لاستخدام القوة العسكرية ضد المنشآت النووية الإيرانية، إذا فشلت الجهود الدبلوماسية! فقد بدأ الصدام السياسى بين إيران وإسرائيل منذ اللحظات الأولى للثورة عام ١٩٧٩ حين طردت البعثة الدبلوماسية الإسرائيلية من طهران وحولتها الثورة إلى مقر لمنظمة التحرير الفلسطينية.

وقد وصف على خامنئى المرشد الأعلى للجمهورية الأمم المتحدة فى هذا السياق، بأنها مصنع لإنتاج ورق يحمل قرارات لا قيمة لها. ولا ينسى الإيرانيون كيف وقفت الأمم المتحدة ساكنة لا تبدى حراكًا حين شن صدام حسين هجومه المفاجئ على إيران عام ١٩٨٠ بتحريض أمريكى. ومن ثم فإن القيادات الإيرانية تدرك أنها لو تراجعت خطوة واحدة عن التمسك بحقها فى التقنية النووية، فسوف تخسر كل شىء كما قال أحمدى نجاد.

[٥]

غير أن هناك مؤشرات كثيرة لا يمكن إغفالها، على أن إيران لم تتوقف طوال السنوات الأخيرة عن تحسين قدراتها العسكرية فى مجال تطوير الصواريخ الدفاعية، ثم جاء البرنامج النووى الإيرانى ليضاعف من إمكانياتها للرد على أى محاولة للردع، باعتباره حجر الزاوية لمشروع النهضة الذى رسم طريقه الإمام.

وفى تصريحات نشرها روحانى المسئول السابق عن الملف النووى الإيرانى فى جريدة Rahbord الإيرانية، يدافع فيها عن سياسته خلال فترة التفاوض مع الترويكا الأوروبية ووكالة الطاقة النووية الدولية، ألح إلى أن السياسة الإيرانية فى ذلك الوقت قامت على أساس إخفاء نشاطها النووى، وأن هذه المفاوضات كانت للتعمية على الأوروبيين. فبينما كانت المفاوضات مستمرة كانت إيران قد نجحت فى إنجاز مرحلة مهمة فى عملية الوقود النووى، وهى تحويل الكعكة الصفراء إلى غاز اليورانيوم وهى المرحلة السابقة على التخصيب فى معاملها بأصفهان. وعندما سمحت السلطات الإيرانية لمفتشى الوكالة بزيارة منشآتها فى نتانز وآراك، عثر المفتشون فى نتانز على عدة مئات من

ما هو موقف الدول العربية من هذا الصراع؟ وهل تنحاز إلى الخيار الأمريكى ممثلا فى «مشروع الشرق الأوسط الكبير» الذى تريد أمريكا من خلاله تمزيق المنطقة؟

إيـــران عـلـــى مـفـــتـــرق طــرق..

أجهزة الطرد المركزى التى تستخدم فى إنتاج الوقود النووى مخبأة فى باطن الأرض، مما اعتبر دليلاً عن أن إيران قطعت شوطًا طويلاً فى تطوير أجهزة الطرد المركزى.

ومن الطبيعى والمنطقى أن تؤدى الأزمة الراهنة حول الملف النووى الإيرانى، والتشدد الذى أبدته دول الغرب بزعامة أمريكا فى التعامل مع إيران، عندما رفضت واشنطن الاقتراح الروسى بإجراء عمليات التخصيب الرئيسية فى روسيا، وبكميات محدودة فى إيران تحت إشراف الوكالة، ثم ما أعقب ذلك وصاحبه من تهديدات بالعقوبات وبإجراءات عسكرية إذا لم تخضع إيران للمطالب الدولية بوقف عمليات التخصيب.. أن يزداد تصميم إيران على ألا تواجه نفس المصير الذى واجهه العراق بدعوى حيازته لأسلحة الدمار الشامل، وأن تتخذ ما تراه ضروريًا للدفاع عن نفسها ضد هذه التهديدات. وهو ما انعكس فى التصريحات المتحدية للمسئولين الإيرانيين. ورفضهم لأى قرارات تصدر من مجلس الأمن، والاستهانة بأى عقوبات تفرض عليها.

والواقع أن إيران تشعر بأنها تملك أوراقًا كافية لمقاومة الضغوط الدولية، فالوجود الإيرانى فى العراق، سواء بالتحالف مع الائتلاف الشيعى الذى آوته إيران واحتضنته فى عهد صدام، أو بحكم ما تملكه من مفاتيح وأدوات نافذة فى كل ركن من أركان العراق، أصبح يهدد باحتمال وقوع العراق كلية فى أحضان النظام الإسلامى الإيرانى، لتصبح القوات الأمريكية والمتحالفة فى العراق رهينة فى أيدى الإيرانيين.

ولابد من الاعتراف بأن السياسات الأمريكية الخاطئة والجاهلة بحقائق الأوضاع فى العراق وفى الشرق الأوسط، وإصرارها على تمكين التفوق الإسرائيلى العسكرى والاحتكار النووى، هى التى جعلت ميزان القوى الإقليمى يعمل لصالح إيران. الأمر الذى أكسب إيران فى العالم العربى والإسلامى شعبية كبيرة، باعتبارها القوة الوحيدة التى تملك القدرات النووية الكفيلة بالتصدى لإسرائيل، والتى يمكنها مناطحة الهيمنة الأمريكية، وبالأخص فى ظل الوهن الشديد الذى أصاب الأنظمة العربية وجعلها عرضة للضغوط الأمريكية.

وعلى الرغم من إنكار الإيرانيين لعزمهم أو رغبتهم فى إنتاج أسلحة نووية، إلا أن الخبراء البريطانيين يتفقون على أن نجاح إيران فى إنتاج الوقود النووى لن يستغرق أكثر من سنتين، لتتمكن خلالها من إنتاج قنبلة نووية فى غضون خمس سنوات. بينما يقدر الإسرائيليون أن إيران قد وصلت بالفعل إلى «نقطة اللا عودة» فى إكمال دورة الوقود النووى خلال عام واحد.

[٦]

تتعدد الصور والتيارات فى إيران، كما تتعدد الاتجاهات والآراء حول الأخطار والعقوبات الدولية التى قد تتعرض لها إذا أصرت على الوقوف فى وجه الغرب وواصلت تخصيب اليورانيوم. وثمة إجماع داخلى وتوافق شعبى - حتى وإن كانت إيران تقف فى مفترق طرق - على التمسك بحقها فى امتلاك التقنية النووية. وتلعب المشاعر القومية والعرقية والبعد التاريخى والحضارى لأبناء فارس دورًا فى تعبئة الشعور الشعبى والحس الوطنى لدعم الإرادة السياسية الصلبة للقيادات الإسلامية، التى يحسب لها أنها نجحت - على مدى ٢٧ عامًا وبعكس أنظمة عربية أخرى - فى أن تجعل من إيران قوة إقليمية يعتد بها وبما أنجزته على طريق النهضة والمنعة.

وعلى الرغم مما أبدته الإدارة الأمريكية من تجاوب، بالاستعداد لإجراء محادثات مع إيران حول الوضع فى العراق وكلفت سفيرها فى بغداد زلماى خليلزاد بإجراء الاتصالات اللازمة - بعيدًا عن الملف النووى - إلا أن ثمة مصلحة للطرفين فى تهدئة الأوضاع داخل العراق، إذا كانت أمريكا عازمة على الانسحاب من العراق خلال عامين أو ثلاثة كما يدعى الرئيس بوش. وهناك تجارب سابقة للتعاون بين الطرفين فى مواجهة تمرد الفلوجة، وقبل ذلك فى مطاردة فلول طالبان عند الحدود أثناء الغزو الأمريكى لأفغانستان. ومن ثم فإن مثل هذا التعاون لن يتأتى ما لم يكن لإيران مصلحة فيه، وما لم يتم التطرق إلى حل لقضية الملف النووى، وبالتالى لعديد من المشاكل الصراعية المعلقة بين الطرفين.. فهل يؤدى ذلك إلى بدء مرحلة جديدة من التعاون بين إيران والولايات المتحدة؟ كل الحسابات والتوقعات تخالف ذلك، وبالأخص بالنسبة لإدارة يحكمها المحافظون الجدد، وهو ما قد يلقى على كاهل شعوب الشرق الأوسط عبء صراعات مفتوحة يصعب التنبؤ بأبعادها.

ما هو موقف الدول العربية من هذا الصراع؟ وهل تنحاز إلى الخيار الأمريكى ممثلاً فى «مشروع الشرق الأوسط الكبير» الذى تريد أمريكا من خلاله تمزيق المنطقة كما فعلت بالعراق، وإعادة تركيبها من جديد إن استطاعت؟ أم تتوافق مع «المشروع الإيرانى الإسلامى» الذى تتهمه بعض الدوائر بأنه يستهدف تقويض العالم العربى من الداخل عن طريق تشجيع ودعم قوى إسلامية متطرفة؟

أنصار المشروع الأمريكى ينتصرون للمخطط الأمريكى لإعادة صياغة الخريطة العربية والشرق أوسطية، بكل مقدماته ونتائجه اعتمادًا على أنظمة حكم سنية لا تثق بالشيعة. ولا يأبهون كثيرًا للثمن الباهظ الذى يتحتم على العرب أن يدفعوه، ليس فقط بوضع ثرواتهم النفطية فى خدمة الهيمنة الأمريكية، ولا بالتسليم لإسرائيل بكل مطالبها وخرائطها وتفوقها النووى، ولكن أيضًا بتطويع نظمهم السياسية والاقتصادية ومناهجهم وطرائق تفكيرهم وثقافتهم، للنماذج التى يجرى تصميمها فى معاهد البحوث الأمريكية والغربية.. وهم يرون أن البديل الآخر الذى تقوده إيران لن تفضى نتائجه إلا إلى الإطاحة بالنظم العربية، وتسليمها على طبق من الثروة النفطية لنظام إسلامى متخلف أو لحركات أصولية تعيش - مازالت - فى القرن الخامس عشر.

ومثل هذا الطرح ينطوى على دعوة للقنوط واليأس من قدرة الشعوب العربية على اختيار طريقها، أى طريق آخر يتفق مع عناصر النهضة والتقدم وتفاعلات التغيير التى تضطرم فى أحشاء الشعوب العربية. وقد أخذوا يروجون لهذه المقولات بقوة للتأكيد على أن الديمقراطية ليست هى كل شىء وأن الانتخابات النزيهة ليست وحدها السبيل إلى قيام نظم سياسية إصلاحية، بعد أن أسفرت الانتخابات فى مصر وفلسطين عن نتائج لا تروق لهم.. الأمر الذى دعا واشنطن إلى التراجع عن مشروعها لنشر الديمقراطية فى الشرق الأوسط، وعن فكرة تغيير الأنظمة الحاكمة فى المنطقة، خوفًا من نظم معادية للولايات المتحدة.. وقد يدفعها ذلك إلى قلب مخططاتها رأسًا على عقب لترتد على أعقابها من الترويج للديمقراطية، إلى القبول بديكتاتورية عسكرية، كما كان الحال من قبل.

فهل يمكن أن يكون الطريق الثالث هو إصلاح العلاقات العربية الإيرانية، والتغلب على الشكوك المتبادلة، والتنسيق بين المصالح العربية والإيرانية، والتسليم بأن إيران جزء من نسيج المنطقة. لن يتحقق أمنها بدون إيران - التى غدت قوة إقليمية؟ هذا هو السؤال الذى تطرحه تطورات اللحظة الراهنة؟ ■

لدى القيادات الإيرانية اعتقاد راسخ بأن الولايات المتحدة لن تدخر وسعًا فى الحيلولة دون حصول أى دولة إسلامية على مثل هذا الإنجاز المتفوق فى مجال الطاقة النووية

الجواهري.. قراءات



عــــراقيــة طــائفيــة!

الانقسام الطائفي في العراق
ليس دينيا أو سياسيا فقط
بل ثقافيا وأدبيا أيضا.. والضحية الأكبر
كان الشاعر العظيم
محمد مهدى الجواهرى

جهـاد فاضـل

■■ يخطئ من يظن أن المسألة الطائفية أو المذهبية فى العراق مسألة حديثة طارئة على العراق، وأنها استشرت فقط فى السنوات الأخيرة. فالواقع أنها مسألة قديمة، وإن عبارات مثل «العرب السنة» و«العرب الشيعة» كانت موجودة وفعالة. وإنها مستقرة. منذ ولادة العراق الحديث على يد الملك فيصل الأول في بداية العشرينيات من القرن الماضى. وليس أدل على ذلك من سيرة الشاعر العراقى الكبير محمد مهدى الجواهرى وموقف الباحثين العراقيين منه. فالباحث العراقي المنحدر من العرب السنة يعتبر الجواهرى شاعراً شيعياً، أو رمزاً شيعياً، طرده مدير المعارف العراقى ساطع الحصرى من وظيفته كمدرس ابتدائى بسبب قصيدة شعرية تغزل فيها بإيران وذم فيها العراق.. ولكن الملك فيصل الأول عاد وعينه فى وقت لاحق موظفاً في البلاط الملكى مراعاة منه لأصوله الشيعية والنجفية والأسرية. ومن يقرأ مذكرات ساطع الحصرى فى العراق، وقد صدرت فى الستينيات من القرن الماضى عن دار الطليعة في بيروت، يجد مادة دسمة لتلك المعركة الضارية التي نشبت بين مدير المعارف، ساطع الحصرى، ووزير المعارف الشيعى عبدالمهدى النفتكي حول الجواهرى وجنسيته (أى هل هو عراقى أم إيرانى؟) وقصيدته التى مدح بها إيران وهجا العراق.. ولم يعدم الجواهرى بالطبع من يدافع عنه ويتهم خصومه بذات التهمة التى يتهمه بها هؤلاء الخصوم، وهي الطائفية.. فبنظر الكثيرين من الباحثين العراقيين الشيعة، ساطع الحصرى نفسه متهم بالطائفية والمذهبية، كما أنه امتداد للمدرسة التركية ـ البريطانية فى العراق بعد الاستقلال، بل إن بعض هؤلاء الباحثين يُرجع استشراء الطائفية فى العراق إلى الدور السلبى الذى لعبه الحصرى (يراجع حسن العلوى فى كتابيه: «التأثيرات التركية فى المشروع القومى العربى»، لندن ١٩٨٨، و«دولة الاستعارة القومية»، دار الزوراء، لندن ١٩٩٣) يومذاك. فقد استقدم الحصرى أساتذة سنة من لبنان وسوريا أثار بعضهم فضائح مثل (أنيس النصولى الذى نشر كتاباً فى التاريخ انحاز فيه إلى معاوية والأمويين وحمل على خصومهم)، وأبعد الأساتذة الشيعة، وهو ما حمل الملك فيصل الأول على التدخل لاسترضاء النجف والطائفة الشيعية.

على يد الباحثين العراقيين يُقرأ الجواهرى قراءة طائفية أو لنقل أن الباحث السنى لا يترك عورة أو معرة فى سيرة الجواهرى إلا ويبرزها، سواء في مسألة الطائفية أو في سواها. في حين أن الباحث الشيعى يتعامل مع الجواهرى بتقدير عال جداً، فهو بنظره، أقرب إلى أن يكون «أشبه بظاهرة نادرة من الظواهر الكونية التي قد لا تتكرر إلا بعد مئات السنين». فالدكتور عبداللطيف أطميش يقول إنه بعد مرور أكثر من ألف عام على ظهور المتنبى كظاهرة فريدة ملأت الدنيا وشغلت الناس، لم نلاحظ تكرار هذه الظاهرة إلا بظهور الجواهرى في عصرنا الراهن. أما عبد الحسين شعبان فيرى أن الجواهرى «جالس على قمة الشعر، وماسك بحلقته الذهبية بجدارة». إنه شاعر خارج حدود التصنيف التقليدية لكونه شاعراً تجاوز زمانه ومكانه بنزعته الإنسانية وإبداعه المتميز.

وللتدليل على أن الجواهرى يقرأ مثل هذه القراءة العراقية الطائفية، وأنه أسير هوى من يحبونه من جهة، وأسير كراهية من يكرهونه من جهة ثانية، سنعرض لعدة دراسات عراقية تناولته حباً وغراماً، أو كرهاً وانتقاماً.. ونبدأ بقراءة سليم طه التكريتى الذى يدل اسمه على انتمائه المذهبى والجهوى. فهو في تكريت إحدى عواصم «المثلث السنى» الذى يُطلق اليوم على المناطق التي تقيم فيها أكثرية سنية. والطريف أن سليم طه التكريتى الذى يتخذ من الجواهرى موقفاً شديد السلبية، سبق له أن عمل مع الجواهرى فى صحف ومنها «الرأى العام» و«الانقلاب» و«الفرات». وقد ذكره الجواهرى بالاسم في مذكراته كواحد من المحررين الممتازين والصفوة المختارة الذين عملوا معه. ولكن ما أن صدرت مذكرات الجواهرى، حتى نشر سليم طه التكريتى كتابه في بيروت الذى جرد فيه الجواهرى من كل مكرمة، بل حتى من ورقة التوت!

فالجواهرى بنظر التكريتى أحد صنائع نورى السعيد. نفحه نورى السعيد أربعمائة روبية مُقَدَّمًا لكي يصدر جريدة «الفرات». وعندما لم يسدد لاحقاً لا أجور الطبع ولا ثمن الورق، ذهب صاحب المطبعة إلى نورى السعيد شاكياً أمره، فدفع له نورى السعيد، وكان رئيساً للحكومة العراقية، نفقات الأعداد التي كانت صدرت من «الفرات»، وطلب منه أن يراجعه فى موضوع نفقات الأعداد القادمة بدلاً من مطالبة الجواهرى بذلك.

بل إن الجواهرى الصحفى كان يأكل حقوق المحررين عنده: «كان الجواهرى لا يسلمنى راتبى، على ضآلته مرة واحدة بل يسدده لى ديناراً دينارا، ثم لا يلبث أن يستعيره منى بعد دقائق.. ولم أحصل منه مرة على ربع دينار إلا بشق النفس، وإذ ذاك وضعت ربع الدينار فى جيب سترتى وعلقتها في مسمار في الحائط إذ كان الوقت صيفاً، وانهمكت في عملى. وما إن أدرت وجهى على حين غرة، حتى وجدت الجواهرى قد مد يده إلى جيب سترتى واقتنص منه ربع الدينار بخفة. وحينئذ هتفت به صائحاً: ماذا تفعل؟ فأجاب مغمغماً: لقد استرجعت منك ربع الدينار.. فسألته: وماذا أنت فاعل به يا ترى؟ فأجاب: «أريد أن أعبر النهر بالزورق إلى بيتى وليس عندى حتى ولا فلس واحد». كان الجواهرى آنذاك يسكن بيتاً بالإيجار على الضفة اليمنى من نهر دجلة، في جانب الكوخ من بغداد.. عندئذ قلت له: إن أجرة العبور بالزورق درهم واحد وليس ربع دينار.. أعطني ربع الدينار لكي أصرفه إلى خمسة دراهم أُعطيك منها واحداً لعبور النهر. فرد يقول: «الدرهم لا يكفى لأن «البلاّم» (أى صاحب الزورق) دائن لى بأربعة دراهم».

ويقدم التكريتى الجواهرى بصورة الشاعر أو الكاتب المأجور عند نورى السعيد. كان نورى السعيد يعد العدة فى عام ١٩٢٩ لعقد معاهدة جديدة مع بريطانيا تربط العراق ربطاً محكماً بها. ولكن تمهيداً لعقد تلك المعاهدة أراد تجنيد بعض الصحفيين والكتاب والشعراء لتأييد فكرة عقد المعاهدة. وكان من هؤلاء صديقه المقرب منه محمد مهدى الجواهرى. فقد منحه امتيازاً لإصدار صحيفة تنطق باسمه وينفق عليها نورى إنفاقاً تاماً. ومع أن ياسين الهاشمى، وهو زعيم عراقى وطنى بارز حذر الجواهرى من الوقوع في حبائل نورى السعيد، إلا أن الجواهرى لم يرد عليه، ولا على سواه لأنه كان يمنى النفس بالوصول إلي مجلس النواب. وقد منحه نورى السعيد ٤٠٠ روبية دفعة أولى للإنفاق على الجريدة. ولكن الجواهرى ما إن قبض على المبلغ حتى حوله إلى قناني من البيرة الهولندية الشهيرة في تلك الأيام.

وفى صحيفته راح الجواهرى يحرض نورى السعيد على الفتك بخصومه. ولم يتورع عن دعوته إلي «الإرهاب» سلوكاً مع هؤلاء الخصوم على نحو ما ردد بعض أبيات قصيدته التالية:

على اسم الثورة الحمراء جرِّبْ
نشاطك أيها البطل الجري
وَهَبْ أن الدماء تريد تجرى
فشق لها ليندفع الأتى
فإن لم يرق بالتلطيف شعب
فبالإرهاب فيلكن الرقي

ويقول التكريتى إن بعض شعراء العراق فى تلك الفترة عارضوا قصيدة الجواهرى هذه بقصائد ساخرة لاذعة.

ويضيف إنه فى السنة التي نظم فيها الجواهرى قصيدته «ستالينجراد» طلب منه نورى السعيد أن ينظم قصيدة في مونتجمرى ومعركة العلمين وانتصارات الحلفاء. وقد فعل فحيا في القصيدة الجنرال مونتجمرى وقارنه بالقائد البريطانى ولنجتون الذى انتصر فى معركة الطرف الأغر:

ويا منتجمرى لو سقى القول فاتحاً
سقتك القوافى صفوها السلسل العذبا
ولو كان ذوب العاطفات نثارة
نثرنا لك الإعجاب والشكر والحبا
حللت على رومل كربا وقبلها
أحل بأدهى منه «ونغتنى» كربا
ودحرجته من مصر وهو ممرس
بأحلامه يحصى الجراح الذى يجبى



وقد ذكر الباحث العراقى عبدالكريم الدجيلى أن نورى السعيد التقى بالجواهرى في حفل أقيم ببهو أمانة العاصمة، فقال له «إن جيوش الحلفاء فى العلمين.. ألا تستحق قصيدة مثل ستالينجراد»؟

ومن أجل كسبه، أعطاه نورى السعيد أرضًا زراعية في منطقة «على الغربى» وزوده بالآلات والمواد اللازمة لزراعتها. وهكذا تحول الجواهرى من صحفى مفلس إلى واحد من طبقة ملاك الأراضى. وفي «على الغربى» عقد الجواهرى قرانه على فتاة ريفية تُدعى «نعيمة» وكانت في عمر الورد، لكنه عاد وطلقها لاحقًا كما ذكر مرة في حوار له مع الصحفى المصرى غالى شكرى.

وفي كتاب سليم طه التكريتى حديث عن مبلغ ألف دينار قدمته حكومة محمد الصدر إلي الجواهرى دية عن دم أخيه جعفر الذى سقط في مذبحة «الجسر» عندما كان قادمًا ليعبر الجسر إلى جانب الرصافة، فأصيب بطلق نارى من أفراد الشرطة خر على أثره صريعًا. كان الجواهرى على خلاف مع أخيه جعفر وكان لا يهتم أبداً بأمره، ولكنها كانت فرصة ليستعيد سمعته الوطنية التي فقدها بجلوسه على كرسي النيابة.

كان ذلك في عهد وزارة صالح جبر، إلا أن هذه الوزارة سرعان ما سقطت لتتألف وزارة برئاسة محمد الصدر راحت تحاول تضميد الجراح. هنا انبرى أحد أعضاء حزب الاستقلال، فيصل حسون، الذى كان يصدر صحيفة أسبوعية باسم «اللواء الجديد» إلي التحرش بالجواهرى وفضحه. ومما كتبه أن الجواهرى قبض من حكومة الصدر، المرتبطة طبعًا بنورى السعيد، مبلغ ألف دينار دية عن دم أخيه جعفر!

يعلق التكريتى على هذه الحادثة قائلاً: «ليس في مقدورى أن أعطى رأيًا قاطعًا فيما نشره فيصل حسون عن قضية الألف دينار، ولكن لابد أن يكون لهذه القضية أساس. وفي اعتقادى الجازم أن الجواهرى ما كان ليعفف عن استلام ذلك المبلغ الكبير في تلك الأيام لو عُرض عليه، سواء كان في شكل دية عن دم أخيه، أو ترضية له من حكومة الصدر لقاء فقده النيابة التي لم يستمتع ببركاتها طويلاً (١٤ يومًا)، أو عطفًا عليه من السيد محمد الصدر نفسه»!

أما بعض صفاته المميزة جدًا، فمنها عدم اعترافه بالوفاء لأى إنسان كان، فكلمة الوفاء لا وجود لها في قاموسه، مثل كلمة «العفة»، و«الانضباط النفسى». فهو لم يدم على صداقته لأقرب المقربين إليه من أصدقائه، ولم يكن وفيًا لأحد مهما أسبغ عليه من نعمة وعون، كما أنه لا يمكث على ولائه لأى حاكم.

ولا شك أن التكريتى يبالغ في ذلك. فصحيح أن الجواهرى والى نورى السعيد فى مراحل مختلفة، وأنه كان ينقلب عليه، إلا أنه عاد وأنصفه في مذكراته وترحم على أيامه التى كانت بنظره أفضل بما لا يُقاس في أيام عبدالكريم قاسم وعبدالسلام عارف وصدام حسين.

مما يشير إليه التكريتى في كتابه أن الجواهرى لم يؤيد ثورة رشيد عالى الكيلانى، ذات الاتجاه القومى العربى، كما لم يؤيد أية مرحلة عراقية، أو أية شخصية سياسية عراقية، ذات اتجاه قومى عربى، فمثل هذا الاتجاه كان الجواهرى ينفر منه ويعتبره رجعيًا. وعندما أصدر أنيس النصولى مدرس التاريخ في الإعدادية المركزية ببغداد كتابيه عن «معاوية بن أبى سفيان» و«الدولة الأموية فى الشام»، ثارت ثائرة الشيعة ضد هذين الكتابين. عندما أقدم وزير المعارف الشيعى عبد المهدى المنتفكى على فصل النصولى وبعض رفاقه اللبنانيين والسوريين وأخرجهم من العراق. وقد اغتنم الجواهرى هذه المناسبة فنظم قصيدة مدح بها المنتفكى وأثنى فيها على ما فعله، وقذف النصولى ومناصريه من الأساتذة بأقبح الشتائم.

وعندما قامت ثورة رشيد عالى الكيلانى استغرب الناس عدم مناصرة الجواهرى لها مثلما فعل إزاء انقلاب بكر صدقى ويقول التكريتى إن هذا الموقف الذى وقفه الجواهرى كان نابعًا من انتهازيته وطائفيته لا من بعد نظره. ذلك أنه كان يتوقع انهيار الثورة والحكم في بضعة أيام، إن لم يكن فى ساعات. ولكنه وجد نفسه، عندما استمرت الثورة، في وضع من شأنه أن يسيء ظن زعماء الثورة فيه من ناحية، وانقلاب الجمهور ضده من ناحية أخرى. ومن أجل أن يتوقى ذلك، قصد دار الإذاعة العراقية وألقى قصيدة. لم تكن هذه القصيدة قصيدة جديدة خاصة بثورة الكيلانى، وإنما كانت قصيدته التي نظمها فى ثورة عام ١٩٢٠ والتى نشرها وألقاها عدة مرات من قبل.. ومع ذلك فقد أراد أن يضفى على نفسه صفة المناصر للثورة، إضافة إلى ما كان بداخله من خوف، ولذلك هرب إثر فشل الثورة مباشرة إلي إيران، ولم يعد منها إلا بعد مرور بضعة أشهر. وقد أرادت حكومة جميل المدفعى التى تولت الحكم إثر هزيمة الثورة، أن تعتقل الجواهرى بدعوى أنه كان من مناصريها ومن الذين مدحوها.. وعندما أحس الجواهرى بما يدبر له، التجأ إلى محمد الصدر الذى شفع له عند حكومة المدفعى، قائلاً: إن القصيدة التي ألقاها الجواهرى من الإذاعة كانت عن ثورة العشرين وليس عن ثورة رشيد عالى الكيلانى.

حكايات كثيرة في كتاب سليم طه التكريتى تجعل من الجواهرى شاعراً انتهازيًا أو مأجوراً، أو طائفياً، أو مذهبيًا. إن ذلك لا يؤلف بنظرنا سوى قراءة فئوية، أو قراءة واحدة لا أكثر لأن للجواهرى قراءات أخرى منها قراءة شيعته أو طائفته أو بنى عشيرته الأقربين. والواقع أن للجواهرى عشاقًا كثيرين من الظلم حصرهم بفئة أو طائفة، أو حتى بقطر من الأقطار. هؤلاء العشاق لا ينكرون أن لمعشوقهم هنات وهفوات لا تُحصى، سواء في سيرته أو في شعره. ولكن من هو الذى تخلو سيرته من الهنات والهفوات؟

وإذا كان الباحث العراقى السنى وقف بوجه عام موقفًا سلبيًا فى «ظاهرة» الجواهرى الذى تحدى نفوذ السنة الآخذ بالاتساع منذ نشوء العراق الحديث، انطلاقًا من شعور بالغبن كان يعانيه الشيعة، فإن الباحث العراقى الشيعى وقف موقفًا إيجابيًا شديد الإيجابية من هذا الشاعر الجرىء المقدام الذى تحول عندهم مع الوقت إلى رمز من رموز المواجهة والتحدى.

والواقع أن الجواهرى لم يكن مجرد شاعر عراقى كبير وإنما كان أيضًا رمزًا من رموز مواجهة الطائفة الشيعية للمد العراقى السنى الذى استفحل إثر ثورة العشرين الشيعية بدلاً من أن يتعقلن، ويبحث عن صيغة تسوية بين جناحى العراق الكبيرين. ومن يقرأ سيرة الجواهرى الشعرية والنضالية يجدها حافلة بالمواقف الاحتجاجية العاصفة لا يوجد الاستعمار الخارجى وحده، بل أيضًا بوجه «خصومه» الذين قبضوا على زمام العراق وهمشوا بنى عشيرته. ولا شك أن مثل هذه السيرة النضالية للجواهرى هى وراء هذا الإعجاب الفائق الحد به، إن لم نقل الانبهار الذى يبديه نحوه الباحثون العراقيون الشيعة، وفى طليعتهم باحثان سنعرض لأحكامهما فى الجواهرى فى الصفحات التالية، أولهما عبدالحسين شعبان، وثانيهما محمد جواد رضا.

بداية، لا يوافق عبدالحسين شعبان على تصنيف الجواهرى «كشاعر شيعى». فهذا التصنيف كان، كما يقول، من صنع الطائفيين وكان وراءه الحسد والغيرة. بل إن كل دعوات الجواهرى الوحدوية، وقصائده وآرائه ومواقفه القومية العربية منذ ثورة العشرين وإلى الآن لم تفلح فى أن تمحو محاولات الإساءة إليه ذات البعد الطائفى منذ أواخر العشرينيات وإلى الآن فكانت تنام وتستيقظ حسب الظروف والأجواء السياسية بحيث يصبح التهديد بنزع الجنسية أو التعريض بالانتماء الفارسى شيئًا جاهزًا لمهاجمة شاعر ليس من المبالغة القول إنه فضله كبير ليس على العراق وحده، بل على الأمة العربية كلها. وإذا كان ساطع الحصرى قد فصله من وظيفته فى التعليم بسبب البيتين التاليين اللذين نظمهما وهو فى إيران:

لى فى العراق عصابة لولاهم
ما كان محبوبًا إلى عراقُ
لا دجلة لولاهم، وهى التى عذبت
تروق، ولا الفرات يراقُ

فإن له قصائد نظمها فى إيران أيضًا تنضح بحب العراق والشوق إليه:

يكفيكم من لوعتى أننى
فى فارس أشتاق قطر العراق

عبد الحسين شعبان يرى أن الجواهرى «جالس على قمة الشعر، وماسك بحلقته الذهبية بجدارة». إنه شاعر خارج حدود التصنيف التقليدية لكونه شاعرًا تجاوز زمانه ومكانه بنزعته الإنسانية وإبداعه المتميز



لا سوحها وهى جنان زهت
بكل مـا رق جمــــالاً وراق
تنال من شوقى وهل سلوة
لمن قضى الله له أن يشتاق..

وهو إذن ليس شعوبيًا كما يحلو «لخصومه» أن يصفوه! إذا كان البعض اعتبر قصيدته «آمنت بالحسين» التى يقول فيها:

فدى لمثواك من مضجـع
تنـــور بالأبلـــج الأروع
بأعبق من نفحات الجنان
روحاً، ومن مسكها أضوع

فإن شخصية الحسين لا تخص طائفة أو مذهبًا، وإنما هى ببعدها الملحمى لكل المسلمين، بل هى ملك للإنسانية جمعاء. فكل طالب عدل ورافض ظلم يجد فى الحسين مثله الأعلى. وهو ما عبر عنه الجواهرى بقصيدته التى ألقاها فى كربلاء فى ٢٦ نوفمبر ١٩٤٧.

وعلى ذلك لا يمكن اعتبار الجواهرى شخصية طائفية. فهو الذى عانى من التمييز الطائفى، مع أن رده فعلاً لم يكن طائفيًا طيلة حياته، ولم تعرف الطائفية سبيلاً إلى قلبه. وقد وقف الملك فيصل الأول إلى جانبه يوم استعرت الحملة الطائفية العنصرية بوجهه فى عام ١٩٢٧ ثم فى عام ١٩٢٩ عندما نشر قصيدته «الرجعيون» وفيها يتبنى مواقف تقدمية مبكرة بخصوص تعليم المرأة:

ستبقى طويلاً هذه الأزمـات
إذا لم تقصر عمرها الصدمات
غدا يُمنع الفتيان أن يتعلموا
كما اليوم ظلما تمنع الفتيات
تحكم باسم الدين كل مذمم
ومرتكب حفـت به الشـبهات
وما الدين إلا آلة يشـهرونها
إلى غـرض يقضــونه وأداة

وقد حاربه «الرجعيون» لأنه كان عبارة عن فكر منفتح فى مجتمع منغلق، بل كان عبارة عن «سلطة ثقافية» بوجه «سلطة سياسية». وقد أطل على مجتمعه بلغة تفتح التاريخ لتستشرف المستقبل بعيداً وهو يتطلع نحو الحداثة رغم ارثه من الثقافة العربية الإسلامية بامتداد وأصول تعود إلى المدرسة العباسية حيث يستمر التعليم فى النجف على الطريقة العباسية زمن المأمون ودار الحكمة. وقد وظف الجواهرى كل ذلك المخزون الثقافى والموروث الأدبى بفكرة تجديدية ملونة بالحداثة ومستجيبة لروح العصر رغم احتفاظها بشكلها التاريخى.

وفى حين كان الجواهرى يحظى بالترحيب المنقطع النظير أينما ذهب وحيثما حل، وكانت المشاعر الجياشة والعفوية تعبيراً عن عطف خاص عليه ورمزًا لتبلوره كرمز عراقى للثقافة والإبداع، كان معسكر «الخصوم» أو معسكر «الرجعية»، يتمادى فى التعريض به ومهاجمته شخصيًا مما زاده مكانة وارتفاع شأن، فوق ما هو عليه من علو مقام وارتفاع منزلة حتى إن الزعيم عبدالكريم قاسم، فى محاولة منه لمراعاة المزاج الشعبى، وبقراءة ذكية له، وبخاصة فى الأيام الأولى للثورة، وقبل أن يركبه الغرور، زار منزل الجواهرى، وهو المنزل الوحيد الذى زاره بعد الثورة مباشرة. لكن علاقة الشاعر بالجنرال أخذت بالفتور مما اضطره بعد ذلك إلى مغادرة الوطن والاغتراب.

لا ينكر عبد الحسين شعبان أن الجواهرى ارتكب أخطاء. فكل الناس تخطئ، ومن يريد من الجواهرى، أو المبدع عموماً، أن يعلو على البشر وأن يكون خط حياته مستقيماً بلا اعوجاج أو تعرج، فهو يطلب أمراً مناقضاً لطبيعة الإنسان. والجواهرى نفسه تنبه إلى ذلك عندما جمع بين «المجد والخطأ» فى قصيدته المهداة إلى عبدالناصر، والتى يقول فى مطلعها:

أكبرت يومك أن يكون رثاءَ
الخالدون عهدتهم أحياء
لا يعصم المجد الرجال، وإنما
كان العظيم المجد والأخطاء
تُحصى عليه العاثرات، وحسبه
ما كان من وثباته الإحصاء

ومن «وثبات» الجواهرى قصيدته التى يتحدث عنها الباحث بإكبار وتوقير. فقصيدة الجواهرى، رغم كلاسيكيتها، ليست من ذلك النوع المفخم المتصعر التخديرى الذى يصل إلى نوع من الإدمان، فهى شامخة دون تعال، وأبية دون تعجرف، سلسة مطواعة ومتدفقة لكنها جديرة بالتأمل. لا تمنح نفسها بسهولة، وقد يصح فيها أنها من السهل الممتنع. فحين تقرأها تشعر أن حرارتها بدأت تنتقل إليك، أو أنك فى أتونها، بل إنها لا تستدير لتتركك وحدك بعد أن أوقعتك فى شباكها. إنها تظل عالقة بذهنك وتسمع موسيقاها شجية ملء أذنيك. ومع ذلك فإنها تحتاج إلى جهد ومعرفة وقدرة على الإحاطة بجوانبها. ورغم أنها تمتد إلى أعماق التاريخ. فهى تطل بطلعة بهية تتناسب وظروف الحاضر، بل تنعجن معه بشكل يؤهلها للعيش فى كنفه. ولا تبدو غريبة وإن كانت تتصل بالماضى السحيق.

صلاح عبدالصبور يقول: إن الجواهرى يمثل المرحلة الذهبية الأخيرة فى الشعر العمودى الكلاسيكى.

أما سعدى يوسف فيقول: إن الجواهرى هو الحلقة الذهبية فى سلسلة الشعر العمودى، وهو ما قال به أيضا عبدالوهاب البياتى.

وقد عمد الجواهرى إلى استنهاض شعبه وصدمه كى يفيق ويرى معه ما يرغب أن يشاهد: عوالم وبحوراً وفضاءات أخرى، أى عملية تبصير وتنوير وأحياناً أقرب إلى الاستفزاز. فمن يصدق مثلاً أن الجواهرى فى العشرينيات، وهو فى البلاط الملكى، يقول:

أنا ضد الجمهور فى العيش
والتفكير طراً، وضده فى الدين

وإذا كان الجواهرى ظاهرة أدبية متميزة ذات أبعاد فكرية تنويرية. فهى تحمل فى طياتها الكثير من التناقض المقترن بالأصالة والتفرد. والمتتبع لحياته سرعان ما يدرك من القراءات الأولى أنه ليس أمام شاعر فحسب، بل هو أمام «حالة شعر» بكل معنى الكلمة، بطقوسها وفضاءاتها وعبق شذاها، حتى تكاد القصيدة تسيح طازجة شهية. فتدل قارئها على مملكة الشعر أو صومعة الشاعر حيث يمارس عملية الخلق بجو أقرب إلى التبجيل والاحتفاء، وبمعاناة فائقة. فتأتى شفيفة ومعافاة. تدخل القلب وتحتل مكانها فى العقل. «وإذا كان من نبرته الأولى يُعرف الشاعر، فما بالك ونحن أمام واحة شعرية تحفل بكل الألوان والأصناف. ولكل المناسبات. قوامها نحو عشرين ألف بيت، متوزعة على أكثر من سبعة عقود ونصف فى الإبداع. فوراء كل شىء يقف الشعر شاخصاً بأدواته المطواعة التى يستخدمها الشاعر بدقة وانسيابية وخلف لهجته الجميلة ووجهه الحاد الملامح، المتغضن بأنفاس الشعر، وأصابعه الممدودة يستحضر عملاق الشعر فى داخله لينطلق مثل شلال هادر، ثم ليسير بعذوبة دجلة والفرات، راسماً أو معيداً رسم حياتنا لا بصورتها المتخيلة أو وهمها فحسب، بل بتفاصيلها وشخوصها وألوانها، مع نكهة حب ومذاق تحد كانا السمة الأبرز للشاعر الكبير. هو الجواهرى بتناقضه المحبب وجمعه الأضداد بهرمونية وتناسق باهر، بصعوده ونزوله، بجوانبه المشرقة والمضيئة، ونقاط ضعفه الإنسانية، فى شبابه وشيخوخته.

ويتحدث عبد الحسين شعبان عن صفة جواهرية أصلية فى الشاعر هى قدرته العجيبة على التحدى. يقول فى قصيدة تكريم هاشم الوترى التى قادته إلى السجن:

حشدوا علىَّ المغريات مسيلة
صغرا لعاب الأرذلين رغائبا
بالكأس يقرعها نديم مالئا
بالوعد منها الحافتين وقاطبا
وبتلكم الخلوات تمسخ عندها
تُلع الرقاب فى انصباء تغالبا
وبأن أروح غداً «وزيراً» مثلما
أصبحت عن أمر بليل «نائبا»
ظناً بأن يدى تمد لتشترى
سقط المتاع، وإن أبيع مواهبا

ويهاجم ويتحدى:

أنا حتفهم ألج البيوت عليهم
أغرى الوليد بشتمهم والحاجبا
خسئوا فلم تزل الرجولة حرة
تأبى لها غير الأماثل خاطبا
اعرفت مملكة «يباح» شهيدها
للخائنين الخادمين أجانبا

وفى قصيدته فى رثاء عبدالحميد كرامى التى ألقاها فى بيروت سنة ١٩٥٠ يتجلى تحدى الجواهرى فيقول فى مطلعها:

باق وأعمار الطغاة قصار
من سفر مجدك عاطر موار

الجواهرى بنظر التكريتى أحد صنائع نورى السعيد. الذى نفحه أربعمائة روبية لكى يصدر جريدة «الفرات». وعندما لم يسدد أجور الطبع أو ثمن الورق، ذهب صاحب المطبعة إلى نورى السعيد شاكياً أمره، فدفع له



وفى قصيدة ألقاها فى مؤتمر المحامين فى بغداد سنة ١٩٥١، يقول:

سلام على جاعلين الحقوق
جسرًا إلى الموكب العابر
سلام على مثقل بالحديد
ويشمخ كالقائد الظافر
كأن القيود على معصميه
مفـاتيح مستقبل زاهر

وهكذا يبدو الشعر هو عالم الجواهرى وجدل حياته، وهو عالم صاحب متمرد طموح مليء بالتناقض، حاد المنعطفات بالصعود والنزول على حد تعبيره. وهو عالم علنى لا يعرف التخفى ولا يمارس العمل السرى. فهو مكشوف للجمهور، بل ملاحق منه أيضًا وواقع تحت مجهره: شخصيته، معاركه، صوره، انفعالاته، غضبه، ظروف إبداعه. تأثره بالمحيط، وتأثيره فيه خصوصًا محيطه العربى والإسلامى. فللجواهرى صداقاته وخصوماته وأعداؤه، تراه يثور أحيانًا لأبسط الأشياء كما هى فى الظاهرة، ولكن ثمة أمورًا كثيرة تعتمل فى الداخل لتختمر بعدها ظروف ولادة القصيدة، لتأتى حارة طازجة، مفاجئة بل مدهشة.

وفى أطراف ما يكشف عنه الكتاب جوانب من مجون الجواهرى شابًا وكهلاً وشيخًا:

يا نديمى وصب لى قدحا
المس الحزن فيه والفرحا
جربينى من قبل أن تزدرينى
وإذا ما ذممتنى فاهجرينى
ويقينا ستندمين على أنك
من قبل كنت لم تعرفينى
اسمحى لى بقبلة تملكينى
ودعى لى الخيام فى التعيين
قربينى من اللذاذة المسها
أرينى بداعة التكوين
الطمينى إذا مجنت فعمدًا
اتحرى المجون كى تلطمينى..
أنت تدرين أننى ذو لبانة
الهـوى يستثير فى المجانة
وقوافى مثل حسنك لما
تتعرين حرة عريانة
وإذا الحب ثار فىَّ فلا يمنع
أى احتشامة ثورانه

على أن الكتاب بمجمله يؤلف دفاعًا حادًا فى شاعر كبير كان باستمرار فى منطقة الأخطار، أو فى عينى الإعصار.. ولا يعيب هذا الدفاع أن يكون صادرًا عن أحد «ذوى القربى». فذوو القربى أدرى من سواهم فى الأعم الأغلب بما يعرضون له من شئون أهل البيت. وقديمًا قيل أن أهل مكة أدرى بشعابها. وحسنًا فعل الباحث عندما جلا بعض الالتباسات فى سيرة الجواهرى الوطنية والقومية، وجعله ترجمان أشواق العراقيين إلى التغيير، إن لم يكن قلب العراق وصوته. أليس الجواهرى هو القائل:

أنا العراق، لسانى صوته، ودمى
فراتُهُ، وفؤادى منه أشطارُ

يمهد الباحث العراقى الدكتور محمد جواد رضا للحديث عن الجواهرى بالحديث عن «البيئة» التى خرج منها الجواهرى، وهى بيئة الكوفة والنجف الأشرف. وفى حديثه عن هذه البيئة ما يفيد أن الجواهرى ولد وفى جنباته. إن جاز التعبير. الثورة والرفض. وفى هذا الحديث ما يفيد أيضًا وصراحة أن الكوفة شيء والمدن السنية شيء آخر.. «فالكوفة. كما يقول. هى أرض الرفض المتعقلن»، على حين أن المدن العربية الأخرى هى أراض للتسليم الأبكم لما يريده السلاطين ووعاظ السلاطين.. ومن الكوفة خرجت أوائل فيالق الثوار على عثمان (رضى الله عنه)، وإليها نقل مركز الخلافة من مدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لتوضع على ما يبدو تحت رقابة الثائرين، وكأن الكوفة لم ترض أن تُنافس مدينة الرسول (يقصد مكة) على السلطان السياسى وحده، فراحت تنافس على مرجعيتها الفكرية، ولكن باستلاب تلك المرجعية من غريمتها، وبخلق مرجعية فكرية مستقلة عنها ومناقضة لها. وإذا كانت قد تولدت فى مدينة الرسول «مدرسة الحديث» فى الفقه، فإن الكوفة أبدعت «مدرسة الرأى» فى الفقه.

وعلى ذلك يكون الجواهرى بنظر الباحث خلاصة هذا الميراث الثقافى الشيعى، ميراث القيد والتمرد الذى استغرق ولم يزل يستغرق الشعور الجمعى للعراق، وسيكون فى قدر الجواهرى. كما يضيف، أن يكون التجسيد الحى لهذا الميراث على مدى قرن كامل من الزمان، فالجواهرى إذن «بدأ شيعيًا واعيًا لميراثه ولمآسى هذا التاريخ، وأمينًا لهذا الميراث، وبخاصة ذلك الميراث المشترك بينه وبين المتنبى فاكتشفه فرحًا مستهامًا بما يعطيه له من تفسير لقلقه وتوتراته وتناقضاته:

أبا محسد دنيا رحت تمخضها
فما تلقف إلا ما نفى الزبد
اشرف عليها تجدها مثلما تُركت
كأنها من رسوخ ثقل أحد
تبنى وتهدم ما تبنى كما انتقضت
خرقاء يعكس ما خاطت ويطرد
مشت بها جاهليات وعنجهة
ولات منها النفوس الثأر والقود

وهكذا لم يكتف الباحث بإلحاق الجواهرى وحده بتراث الكوفة، وإنما ألحق المتنبى نفسه بهذا التراث. وفى هذا الكثير من التعسف، لأنه إذا كان من الممكن بسهولة ضبط الجواهرى فى مشاهد ومواقع طائفية، لا ينكرها أحد، فإن من غير الممكن ضبط المتنبى فى مثل هذه المشاهد والمواقع، إما لأن المتنبى ـ بصريح سيرته ـ نأى عن مثل هذا الحديث الطائفى أو المذهبى، وإما لأن المتنبى كان له «مذهبه» الخاص، إن لم يكن «دينه» الخاص. وتبقى إشارة الباحث واضحة إلى ما يسميه «بمدن التسليم» أو «مدن الحديث»، فهو يقصد بهذه المدن، مدن السنة التى عندما ولد الجواهرى وجد نفسه فى مواجهتها، وهو ما لم يكن خافيًا عن ملاحظة أبناء هذه المدن الذين كانوا يسخرون أو يغرقون فى الضحك، وهم يشاهدون دون كيشوت فى حربه الدهرية ضد الطواحين!

ولأن الباحث السنى ركز فى حديثه عن الجواهرى على سقطات سيرته، ومنها مدائحه لنورى السعيد وعبدالإله، فإن الباحث الشيعى يركز على هجاءاته لهما. ففى قصيدته «المقصورة» يصور الجواهرى نورى السعيد عميلاً مأجورًا للإنجليز، ويسخر منه سخرية قاسية:

يجد بغيض بها عهده
إذا قيل عهد بغيض مضى
وتسمن منها عجاف مشت
إلى الأجنبى تجر الخصى

هذا «البغيض» الذى يمشى إلى الإنجليز يجر الخصى هو نفسه الذى زكاه فى (ذكرياته) تزكية قاطعة من التبعية للإنجليز، واعترف بأن سياسته الخارجية التى كانت مبنية على التعاون معهم، كانت مجرد براعة سياسية تتوخى مصلحة العراق ليس إلا.

وتتناقض مواقفه من الهاشميين، فهو يقول إن القصيدة التى نظمها يوم تتويج الملك فيصل الثانى ومطلعها: «تِه يا ربيع بعطرك العبق الندى» سببت له بعد ذلك أزمة ضمير لم تفارقه حتى توفى. أى أنه خان نفسه عندما كتبها. وقد حقد طويلاً على البيت الهاشمى مع أن كبير أهله أى الملك فيصل الأول رفعه من معلم مغمور فى مدرسة ابتدائية إلى وهج التشريفات فى البلاط الملكى ليصبح فى مسقط الأضواء السياسية والاجتماعية. فالبيت الذى وصفه هو نفسه ذات يوم:

الناصبين بيوتهم وقبورهم
للسائلين عن الكرام دليلا
والطامسين من الجهالة غيهبا
والمطلعين من النهى قنديلا

والبيت الذى خاطب رأسه الأخير، الوصى على عرش العراق الأمير عبدالإله، خطاب النبوة رسالة ومحتدا:

عبدالإله وليس عابا أن أرى
عظم المقام مطولاً فأطيلا
يا ابن الذين تنزلت ببيوتهم
سور الكتاب ورتلت ترتيلا
يا ابن النبى وللملوك رسالة
فى حقها بالعدل كان رسولا

هذا البيت النبوى أصبح مصيره الحزين عنده موضع شماتة وتشف عند التحامه بالثورة التى لم يكن يؤمن بها:

ابت الرعية أن تقلد أمرها
متهتكا أو أحمقا أو مدمنا
أو رائة والسوط ينظم عقدها
ليشد خيط العنكبوت وأوهنا

ولم تكفه الشماتة والتشفى بالبيت الهاشمى وبمن كان يسميهم البورجوازيين، فراح يحض زعيم الثورة عبدالكريم قاسم على تشديد النكال بهم فوق ما نزل بهم من نكال القتل وسحل جثث القتلى فى شوارع بغداد:

الجواهرى لم يكن مجرد شاعر عراقى كبير وإنما كان أيضًا رمزًا من رموز مواجهة الطائفة الشيعية للمد العراقى السنى الذى استفحل إثر ثورة العشرين الشيعية



عبد الكريم وفى المراء جبانة
تزرى وصنو شجاعة أصراح
لا تأخذنك رحمة فى موقف
جـد، فجد الراحمين مزاح
ولقد تكون فى القساوة رحمة
ومـن النكال مبـرة وصلاح
ناحت بيوت المستباح ذمارهم
فليعل فى بيت المبيح نواح!

هل كان الجواهرى بكل هذا الشر الذى تشى به شطحاته فى مواقف البطش وغليان المواقف العمياء، أم هو حكم اللحظة الذى يمون فكره وأحاسيسه. وهو لو بقى فى على الغربى (المزرعة التى أقطعه إياها نورى السعيد وعبدالإله)، ولم يلتحق بالثورة، هل كان سيرضيه الضيم الذى لحق بآل البيت الملكى وأشياعهم من الساسة ومن أسماهم البورجوازيين؟ أو ليس هذا هو (الوزر) الذى ظل يلاحقه ويبهظ ضميره بالندم والإحساس بالذنب حتى آخر أيامه؟

لم يكن الجواهرى ساهيًا فى تناقضاته، كما لم يكن مكابرًا فيها. كان سباقًا إلى الاعتراف بها، والضيق بأمرها، وكان كثير التساؤل فى أسبابها ومسبباتها:

واها لنفسى من جمع النقيض بها
نقيضه جمع تحريك وتسكين
جنبا إلى جنب آلام اقطفها
قطف الجياع جنى اللذات يزهونى
واركب الهول فى ريعان مأمنة
حب الحياة بحب الموت يغرينى

لقد كان هذا الإحساس بالتناقض يحكم حياته كلها يؤرق عليه نومه إذا نام، ويفسد عليه صحوه إذا صحا فيلتمس له تفسيرًا فيرده إلى الثقافة المتناقضة التى ولد وعاش فيها: ثقافة العبقرية والطغيان، ثقافة القيد والتمرد، يلتمس فيها تفسيرًا لسلوكه المتناقض ولا يلتمس فيه عذرًا عن ذلك السلوك:

ولست أول مأخوذ بمجتمع
يمشى الضلال به والإفك والحوب
ولست أول ركاض مشى رهقا
فجاوز العدو مشى منه تقريب

لقد كان موتورًا أبدًا بثقافة الازدواج التى كان يحاول صادقًا أن يتطهر منها، فكانت تكيد له كيدًا، وتأتمر به ائتمارًا تريد قيده، وهو يريد التمرد على القيد، فلنسمعه يتحدث عن خصومه، أو أعدائه:

عدى على كما يستكلب الذيب
خلق ببغداد أنماط أعاجيب
خلق ببغداد ممسوخ يفيض به
تاريخ بغداد لا عرب ولا نوب
لا الأريحى الذى ضمت ملاعبها
ولا التقى الذى ضمت محاريب
ولا الكريم يمينا جودها رفة
ولا الكريم ضميرًا جوده طيب

يرى الباحث أن الجواهرى كان دائمًا فريسة سهلة لحكم اللحظة الانفعالية التى هو فيها. وسيكون حكم اللحظة هذا واحدًا من الأروقة الأكثر عتمًا التى تجب إنارتها عند الولوج إلى دنيا الجواهرى الخفية. وقد كان هو نفسه مدركًا أن وجوده الحقيقى، أن كينونته الفعلية ليست تلك التى يكشفها، أو يتكشف عنها للناس، وإنما هى ما كان يثوى من ذاته فى تلك الأغوار النفسية السحيقة التى كانت معاناته وإبداعاته ونزواته تتخلق فيها، وقد سماها «مطاوى النفس» التى لا ينفذ إليها البصر العابر فيرتد عنها وهو حسير:

قبلك اغتر معشر قراونى
من جبين مكلل بالغضون
وفريق من وجنتين شحوبين
وقد فاتت الجميع عيونى
اقراينى منها ففيها مطاوى
النفس طرًا وكل سر دفين
فيهما رغبة تفيض وإخلاص
وشك مخامر لليقين
فيهما شهوة تثور وعقل
خاذلى حينا وطورًا معينى

مطاوى النفس.. إنها بنظر الباحث «صندوق بندورا» المخيف ولكن لابد من فتحه والرضا بكل ما سينبعث من جوفه من رعود المطاوى السحيقة وبروقها، وبكل ما سيفلت مع هذه الرعود والبروق من هيجانات النفس الجواهرية وتطامنها، لأن هذا الذى سينبعث ليس إلا الثمر المر الذى أفرزته حياة مأزومة بمجتمع لم يتحرر من عقد التاريخ ولا اكتشف إنسانيته بعد مجتمع كان ولم يزل يعيش فى كهوف تاريخية معتمة تزمجر فى جنباتها زعقات الشياطين وينعق بها البوم:

أنا من أشلاء مجتمع
يجلد العقبان بالرخم
يضرب الشاكى ببلطته
ثم يضفى بزة الحكم
ويقاضى غير متهم
ويزكى شر متهم
تسحق الواعين نقمته
ويسمى سيد النعم

فى أروقة الدنيا الجواهرية: رواق القيد، رواق الغربة، رواق العشق، رواق الحزن، رواق الحكمة. عصفت. كما يقول الباحث. حياة إنسانية كاملة مدة قرن من الزمان حفل بالحروب الكبار وما جلبت من بؤس وما أفرزت من تقدم إنسانى، قرن تبدلت فيه الدنيا أحوالاً أحوالاً، وكتب على الجواهرى أن يشهد تلك التحولات العظام:

أرى أفقًا بنجيع الدماء
تنور واختفت الأنجم
وجيلاً يروح وجيلاً يجىء
ونارًا إزاءهما تضرم
وكذا نمد وراء الحجاب
فترسم فى الأفق ما ترسم

فى هذه الدنيا الجواهرية الخفية عصفت رياح الغضب والحقد، وفيها هبت نسائم الحب والشوق، وفيها اصطرع الخوف والأمل، وتعاقب اليأس والرجاء، وتصادمت الحكمة والتهور، لتبدع حياة محمد مهدى الجواهرى بضعفه وقوته بغروره وانكساره بفنائه وخلوده الذى خرج من الدنيا وهو سعيد به:

وبشرى لا تحس بها
بأنك تزحم الأبدا

يضم كتاب محمد جواد رضا عن الجواهرى صفحات يحسن قراءتها أكثر من مرة. فى هذه الصفحات صفحة إنصاف نورى السعيد والعهد الملكى الذى سبق ثورة ١٤ تموز لعام ١٩٥٨. فإلى يوم ١٣ تموز ١٩٥٨ كان العراق يوفى لأبنائه بنظر محمد مهدى الجواهرى أعلى معدل دخل فردى بالقياس إلى مداخيل أهل الشرق الأوسط الآخرين، وإلى ذاك اليوم، كان للعراق تجربة اجتماعية فريدة بتأسيس بنية تحتية متينة لاقتصاد دولة عصرية ديمقراطية. وعلى الرغم من سيئات ذلك العهد، فقد كانت هناك حرية صحافة وتأليف نقابات وجمعيات وأحزاب. وقد تحمل الحاكمون الكثير والشديد من الجراة عليهم.

أما نورى السعيد بنظر الجواهرى، «فقد كان يحتقر من يتملق السفارة البريطانية ببغداد، أو يعرض نفسه للاستئجار.. وقد كانت السفارة البريطانية ببغداد هى التى تتملق نورى السعيد وليس العكس، لأنه لا يوجد ثمة بديل عنه فى إدارة دفة الدولة».

صفحة أخرى من صفحات الكتاب، فيها يتحدث الجواهرى حديثًا شعريًا، ولكن حزينًا عن العراق، وكأنه حديث آنى معاصر لنا:

متى ترعوى أمة فى العراق
تساق إلى حتفها بالعصا
تذرى على الضيم ذرو الهشيم
ويعرقها الذل عرق اللحا
وتنزو بها شهوة المشتهين
كما دحرجت كرة ترتمى
متى تستفيق وفحم الدجى
عليها مشت فيها نار الضحى
وقد نفض الكهف عن أهله
غبار السنين وعث البلى

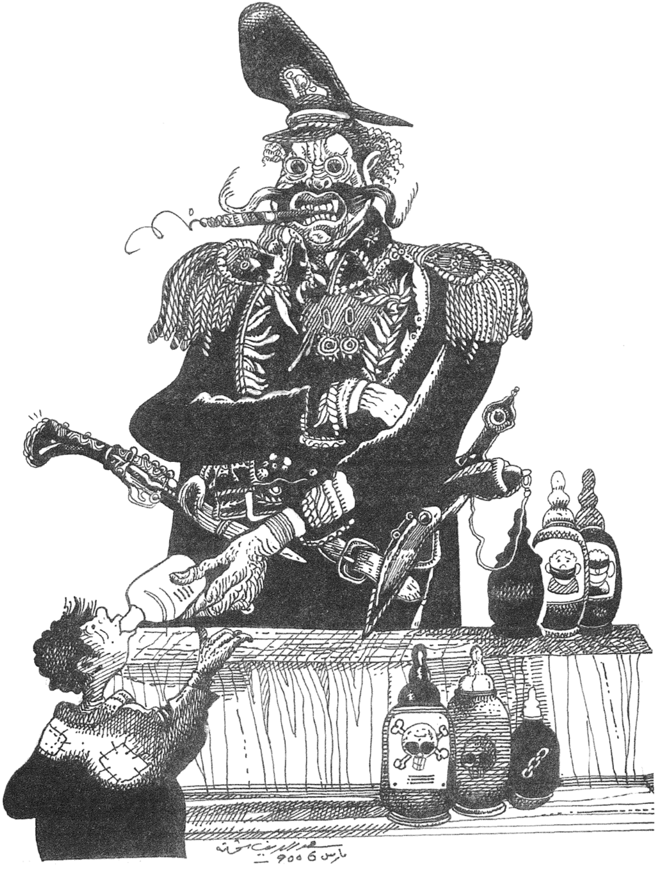
ويحمل الكتاب حبًا كبيرًا للجواهرى الذى حمل معه فى النعش مأساة العراق الحديث. وكان نيزكًا ظل يشع طويلاً فى الدنيا العراقية الكابية. وقد صح فيه قول عبدالوهاب البياتى:

شعرك كان الزاد والماء
فى عراقنا الطاعن فى الحبس
تعاقب الطغاة فى نفيه
بين الغد المجهول والأمس

وماذا بعد أن تغيب الأقمار وتسرق الشموس؟ والجواب عند سعدى يوسف: «بغداد بعيدة يا أبا فرات. بغداد بعيدة عن بغداد، وماؤها لم يعد خير ماء، إنه يجرى تحت جسورها أجاجًا. ها أنت فى مقبرة الغرباء تلملمنا حولك. التربة ستكون بستانًا، روضة أباة ومساكين وشعراء مهاجرين على الوثقى وأنصار. ترى كيف لنا أن نكون مثلك معارضين قرنًا كاملاً. من فيصل الأول حتى (موبوتو) الثانى. وأنت المعارض. أنت الشعر المعارض. ونحن؟ نحن المهيئين للفساد فى كل لحظة. نحن الملولين، مقلبى السنوات، ذوى المسافات القصيرة كأنفاسنا. كيف لنا أن ننسب إليك. ولو ولاء، أيها الشاعر المعارض لمائة سنة؟» ■

يبدو الشعر هو عالم الجواهرى وجدل حياته، وهو عالم صاحب متمرد طموح ملىء بالتناقض، حاد المنعطفات بالصعود والنزول على حد تعبيره. وهو عالم علنى لا يعرف التخفى ولا يمارس العمل السرى

البطرياركية العربية



والفطـــــــام المحـــــــرم!

خيـــــرى منصـــــور

البطرياركيـة بالتجليـات المعاصـرة لها، فى نماذجهـا العربيـة هى المعادل العضوى للوصاية، وتأجيل سن الرشد، وهى ربوية بامتياز، لأنها تضاعف المديونيات قدر تعلقها بالوعى وبالمسكوت عنه

فى رواية شهيرة لماركيز بعنوان: البطريارك فى خريفه، ثمة مشهدان، أحدهما بمثابة الأبيض الذى يتيح للمرء أن يتعرف على حدود التساؤل، وبتعبير آخر يليق برواية كتلك، فإن الربيع العابر الذى يمهد للخريف يدفع الراوى إلى التساؤل باندهاش عن المكان الذى تعشش فيه غربان السلطة بين ممرات الرخام والخدم المتأنقين ذوى القفازات البيضاء، والروائح الحريفة لأشربة وأطعمة فاخرة.. لكن المشهد الآخر الذى يعج بجثث الأسود والأبقار والغزلان النافقة، وبكل ما يحول الصروح الشاهقة إلى مقابر وأطلال.. يترك القارئ وقد أفعمت روحه روائح العطن والزوال.. ولسبب ما أزال أجهله، تقمص البطريارك فى خريفه صورة إمبراطور أفريقى. ـ هو هيلاسى لاسى، وحين سخرت من مخيلتى التى ارتهنت لطفولة مزمنة، أنبأنى صديق فلسطينى وهو أحد مؤسسى وقادة منظمة التحرير عن زيارة قام بها إلى بلاط الإمبراطور.. فقد اعترته القشعريرة عندما وجد نفسه محاطاً بنمور وفهود.. منها ما كان يجثو تحت قدم الإمبراطور.. وأول ما خطر ببالى بعد السماع برحيل هيلاسى لاسى هو مصير تلك الحيوانات المدللة التى كان يعلفها بيديه مثلما خطر ببال جونترا جراس عن مصير كلاب الفوهرر.

تلك مقدمة لابد منها لبث مناخ روائى فى بحث لا ينزع نحو التجريد، لأنه متعلق بظاهرة تاريخية استحقت على الدوام أضعاف المقاربات التى كرست لها فهى سيكولوجيا.. حسب الاستقراء الفرويدى لها جريمة رمزية مزاوجة يتبادل فيها الآباء والأبناء القتل والإقصاء، وهى اقتصادياً من صميم ثقافة ريعية يفرزها نمط إنتاج من طراز بدائى، وهى سياسياً أقرب إلى ما سماه الأنثروبولوجست بير كلاستر مجتمعات ما قبل الدولة.. ولو كان لهذا الأنثربولوجست عناية بالسياسة لقال إنها مجتمعات ما قبل الماجناكرتا.. وما قبل العقد الاجتماعى لجان جاك روسو!

البطرياركية بالتجليات المعاصرة لها، فى نماذجها العربية هى المعادل العضوى للوصاية، وتأجيل سن الرشد، وهى ربوية بامتياز، لأنها تضاعف المديونيات قدر تعلقها بالوعى وبالمسكوت عنه، لهذا فهى إذ تحرم الفطام، تنزع أيضاً بالضرورة إلى ما أسميه ختان العقل، فالماضى حسب رياضياتها قادم من المستقبل، وما من سبيل للخلاص حسب أدبياتها غير النسج على غراره!

إن أعقاب أخيل التى عانت منها معظم المقاربات حول البطرياركية عديدة.. فالسيكولوجى أقصى الاقتصاد وأنماط الإنتاج كما فى المثال الفرويدى والسوسيولوجى فعل ذلك أيضاً كما نرى فى معالجات الراحل د. هشام شرابى، والثقافى النظرى اقتصر على ما نتأ من جبل الجليد الغاطس فى المحيط وإن كان الاقتصاد قد انتهى به المطاف إلى تحديد اكتشاف البرونز شهادة ميلاد للبطرياركية بعد هزيمة الأمومة الكبرى كما يقول مالينوفسكى مثلاً!

إن ما يضاعف من إحساسنا بخطر الديمومة للبطرياركية العربية هو إدمانها شعبياً، وتأقلم الأجيال معها، فقد باتت وشيكة التحول إلى قدر، لهذا فالبداية من الخواتيم لا معنى لها، كما أن الإفراط فى التوصيف هو تبديد للوقت والجهد معاً، وما سنقدمه فى هذه المقاربة الأولية لظاهرة متعددة الأبعاد يهدف أساساً إلى تحريرها من الاختزال الذى يحذف الأبعاد كلها لصالح بعد واحد قد تمليه الأيديولوجيا، وقد يفضى إليه سؤال يحتاج إلى تنوير وإعادة صياغة بالمعنى الذى حدده لوى التوسير عندما قال إن تقويم الأسئلة هو نصف الأجوبة! وما من رجاء لإجابة صحيحة على سؤال مبتور!

الفـــطـــام المحـــرم:

لنبدأ من الغريزى والأدنى، قبل أن نصل إلى الفطام بمعناه غير العضوى، فالطفل الذى يفطم قبل الأوان، يستبدل ثدى أمه بأصبعه، وهو يشعر بالتأكيد أن الحليب لن يتدفق من هذا الأصبع، فيكتفى أخيراً بمضغه، والتلهى به، مما يدفع الأبوين إلى أحد الأسلوبين للحد من هذه العادة الرديئة، فهم إما أن يربطوا يده بحيث لا يستطيع استخدامها، أو يضعوا على الأصبع مادة ذات مذاق مر أو لاذع، والشعوب بالطبع ليسوا أطفالاً، ولا يتم إرضاعهم بالطريقة البدائية ذاتها. لكن النظم الأبوية (البطرياركية) التى تعيدهم كلما شبوا عن الطوق إلى المهد، ومضغ الأصبع كبديل للثدى، هى التى تمنع الفطام، وتحول بشتى السبل دون الوصول إلى سن الرشد، أو البلوغ العقلى.

حليب البطرياركية، ثقافة، ومرجعيات، و أنماط تفكير يعتبر الخارج عنها مارقاً، وتتعدد أشكال عقابه بدءاً من النبذ والإقصاء إلى القتل أو الحرق، لأن الفطام عن تلك الأدبيات، وما تفرزه من مواعظ، معناه أن الابن قد أصبح نداً وأنه سيصبح قادراً على التفكير بمفرده، وعلى الحلم أيضاً دون أن ينوب عنه أحد، ونستطيع دونما قسر للتاريخ أو لى لعنقه أن ندرج مراحل التحول الكبرى فى حياة الأمم ضمن ما نسميه «الفطام»، فالثورة الفرنسية إعلان لفطام لم يكن مبكراً على الإطلاق، وما تلاها من انقلابات كونية هو فطام أيضاً، لكن الشعوب لا تفارق عاداتها وما درجت عليه بيسر، وللماضى نفوذ يلاحقها، وقد يقضم الكثير من حاضرها ومستقبلها أيضاً وهى لا تدرى.

ومن يرصد نقاط التحول والانقلابات التى أحدثتها الثورة الصناعية وما اقترن بها من مفاهيم مغايرة للسائد والموروث الزراعى يجد أن كثيراً من الاختراعات قد غيرت من عادات الناس اليومية، لكنها لم تتوغل فى العقل والذاكرة بحيث تغير من عادات التفكير بالديناميية ذاتها.. فبعد عقود عديدة من اختراع الكهرباء التى أحالت الليل نهاراً، مايزال الناس يفكرون بعادات ما قبل الكهرباء، فالليل ليل، وله أول ومنتصف وهزيع أخير، وما تكون ممارسته مشروعة فى النهار يصبح محرماً فى الليل، كخروج النساء مثلاً إلى الشارع أو حتى اشتغالهن بوظائف ليلية!

ثقافياً وبالتحديد شعرياً يأخذ الفطام منحى آخر، وقد جسده الشاعر الروسى «بيريلوك» عندما أمسك رأس أحد زملائه من الشعراء التقليديين، وهزه عدة مرات، وهو يقول له: تقيأ الكلاسيكية، واقذف بوشكين كله من فمك!

ما كان يعنيه «بيريلوك» هو إعلان الفطام عن الكلاسيكية الروسية، وبالتالى بلوغ سن الرشد بحيث ينفصل الابن عن مدار الأب، ويجتهد على طريقته باكتشاف ما يليق بزمانه، وما يلبى هواجسه، وبهذا المعنى فإن الصراع الذى يدور أحياناً بين مبدعين من جيل واحد، هو بمثابة صراع آخر يكون موازياً على صعيد فلسفة الفطام، فثمة من يعود إلى أصبعه مستبدلاً به ثدى الأم لأنه لا يطيق البطالة عن الرضاعة، وثمة من يتنامى لديه الشعور بمفارقة الأب والاستقلال عنه، بحيث يحلم بقتله، وتلك موضوعة أثيرة لدى سيجموند فرويد، أطلق عليها جريمة قتل الأب، وهى على الأغلب جريمة رمزية، أو إعدام مع وقف التنفيذ، وفى ثقافتنا العربية ـ الإسلامية، هناك عقاب مثير، ويستحق التأمل، هذا العقاب يلحق بالابن الذى يتعجل بالميراث، بحيث لو فعل ذلك يحرم من هذا الميراث.

إذن هناك شرط خالد، وهو الامتثال، والقبول بمواصلة الرضاعة حتى فى الشيخوخة، وبالتالى تحريم الفطام!

وما من شىء يتجسد معه مفهوم الرضاعة والفطام كالأيديولوجيا، عندما تكون فى ذروة الهيمنة، وتتحول إلى بديل للحياة برمتها، فالمؤدلجون يولدون فى حضن تلك الأم، وأحياناً الأب الذى ينوب عنها، وعليهم أن يتأبطوا المنظار المقرر عليهم حيثما ذهبوا، فالاقتصاد كالنفس والمجتمع وسائر عناصر هذا الكون والتاريخ يحب أن تكون قراءتها من خلال المنهج ذاته، وكل خروج هو مروق وعصيان، بل هو الفطام الممنوع الذى يعاقب بشتى صنوف العذاب!

فى كتابه «المسألة كلها» يروى روجيه جارودى حكاية انتسابه وفصله من الحزب الشيوعى الفرنسى وبالتالى محاكمته أيديولوجياً، وقد يكون كتابه الذى شكل نقطة انعطاف فى مساره النقدى (واقعية بلا ضفاف) هو شارة الفطام الأولى، فقد رأى بكل من بيكاسو وسان جون بيرس وحتى فرانز كافكا واقعيين من طراز آخر، وخارج الأطر الأيديولوجية الخانقة للواقعية الاشتراكية، وقد لا نبالغ إذا أطلقنا على مسألة جارودى تلك، اسم الصراع من أجل الفطام، وهذا ما حدث من قبل لبيكاسو الذى أصاب الحزب الشيوعى الذى كان عضواً فيه بالغثيان، لهذا كتب سارتر مقالته الشهيرة عن بيكاسو وأفعى البوا العملاقة، ليس فقط دفاعاً عن بيكاسو بل دفاعاً عن نفسه أيضاً، وعن

آخرين أصابوا أحزابهم بالاختناق، فاضطرت كأفعى البوا إما إلى لفظهم وإدانتهم ووصفهم بأنهم كريهو الرائحة وعسيرو الهضم، أو إلى الاختناق بهم، وقد تكون حكاية الانتساب والاستقالة أو الانفصال التى عاشها مثقفون وفنانون بارزون فى عصرنا، هى حكاية الفطام أيضاً، كأن العودة إلى رضاعة الأصبع الجاف وغير الواعد بقطرة حليب واحدة هى إحدى حالات التردد، وعدم الحسم، والتى يقع فيها أفراد يتوقفون فى منتصف الطريق بين القيد والحرية، وبين الإجابة الجاهزة والمعلبة، وبين السؤال الطليق، لهذا، نجد من فطموا نصف فطام يعودون بين وقت وآخر، ليمسكوا العصا من منتصفها، فهم هنا بقدر ما هم هناك، وهم أنفسهم بقدر ما هم «سواهم» أيضاً، لهذا قد يقولون كل شىء كى لا يقولوا شيئًا محدداً على الإطلاق!

المثال العربى، قدر تعلقه بالفطام الثقافى والذى يتكرر دائماً، هو ما اعتقده شعراء تقليديون، من أقطار الشعر قد يفوتهم إذا راوحوا عند الشكل الكلاسيكى للقصيدة، لهذا قفزوا إلى الحداثة بلا رؤى وبلا عدة، وبلا مهارة أيضاً، فأعادوا إنتاج العمودى مبعثراً، لكن بالحساسية ذاتها، وما أن تأزف مناسبة تستدعى العودة إلى الرضاعة سواء من ثدى أو من أصبع حتى يسرعوا إلى هذه العادة، وبالطبع لديهم ما يبررون به كل شىء، مادامت الفنون تتعايش كما يقولون، وكذلك أنماط الشعر، ولا يحذف بعضها البعض الآخر.

وهنا يأتى السؤال الذى طالما تواطأنا جميعاً على إرجائه، وهو لماذا تقتصر العودة الشعرية إلى الثدى أو الأصبع بمناسبات المديح، أو الاحتفالات الوطنية ذات المنحى النشيدى؟

لماذا يكتب المفطوم عن الشجرة والمرأة والمدنية بأشكال حداثوية لكنه يعتذر عن الفطام إذا ما كتب فى شأن عام، أو استجابة لما يطلب منه؟

إن نظرة فاحصة، وبأثر رجعى، لأهم ما ميز الحداثة العربية فى مختلف المجالات، قد ترسخ لدينا الاعتقاد بأن تلك الحداثة لم تكن ذات جذور، وأنها على الأغلب تتراوح بين التماهى والتقمص، لهذا فهى لم تكن فطاماً أصيلاً، بقدر ما كانت استبدالاً للثدى بالزجاجة أو «الرضاعة الصناعية»!

وقد يبدو هذا تعميماً، لكن ما انتهينا إليه بعد قرن على الأقل من التبشير بالحداثة يفتضح عجزاً عضوياً عن بلوغها، فهى ليست قائمة تشمل عناصر معينة، وليست أيضاً وصفة، إنها حراك شامل وفاعل، لا تكون فيه القصيدة فى منأى عن الرؤية للمرأة والدين، والوظيفة، والعقيدة، والحياة والموت.

وإذا اعتبرنا الحداثة فطاماً من نوع ما، فإن مراوغة الطفل المفطوم الذى يتسلل ليلاً إلى ثدى الأم أو من ينوب عنها من الآباء تجزم بأن ما يسمى حرق المراحل قد يليق بالصناعة، ومنجزات التكنولوجيا، لكنه لا يليق على الإطلاق بالتكوين النفسى للبشر، وهذا ما يوضح السرعة التى ينبثق فيها البدوى من العربى إذا ما خدش سطحه.

لقد كان الروس يقولون إذا ما كشط الروسى فإن السلافى يظهر على الفور، وهذا ما يحدث لنا الآن كعرب، ففى ذروة الحداثة، أو ما بعدها، تمارس منظومة القيم الرعوية نفوذها، وإليها وحدها يكون الاحتكام فى اللحظة الحاسمة.

نشعر جميعاً بأننا بلغنا سن الفطام منذ زمن بعيد، ونتصرف فى ضوء هذا المعطى الذى هو أقرب إلى الوهم، وما نشهده من مضغ الأصابع، والعودة الموسمية إلى حاضنات فقدت صلاحيتها يثير لدينا سؤالاً محرماً حول سيكولوجيا الرضاعة والفطام!

ختان العقل!

لسنا بحاجة إلى نبش الملف السيكولوجى المتعلق بالإخصاء، كى نقول بأن الطريقة البدائية التى كان يمارس بها الختان، لها أعراض نفسية غير جانبية على الإطلاق، والمشهد الذى عاشه الكثير منا، خصوصاً فى الريف العربى، يتلخص فى الآتى:

رجلان قويان، يبدوان عملاقين بالنسبة للطفل المختون، يقبضان على جسده الصغير، فيما يتقدم حلاق القرية شاهراً السكين المشحوذ، وفى اللحظة الحاسمة، عندما يباعد الرجلان القويان بين فخذى الطفل، يتدفق الدم كما لو أن بكارة ذكورية قد افتضت للتو، وقد يكون معظم أبناء هذا الجيل قد نسوا تلك اللحظة أو تناسوها، لكن من تورط بذلك الطقس وهو فى الثالثة أو الرابعة من العمر، يتذكر كل شىء، وقد يتجلى كابوس الإخصاء بالسكين عبر مظاهر شتى، والمفارقة هنا، هى أن المجتمعات الذكورية التى جعلت الأنوثة مقترنة بكل ما هو سلبى ومفعول به، ومنفعل أيضاً، ابتكرت من صلب الذكورة تأنيثاً رمزياً، ولا نريد الاستطراد فى هذا المقام حول الختان بمعناه العضوى، وحتى ببعده العقائدى والطقسى، فتلك حكاية أخرى، ولها مقام آخر.

ما يعنينا من الختان، هو الوجه الآخر للفطام حسب ما رأينا فى مقالة سابقة، فالفطام محرم فى مجتمعات باطريركية، وإن حدث فله بدائل غالباً ما تكون «فيتيشية» بالمعنى الجنسوى.. وما أعنيه بختان العقل، هو شىء يشبه الإخصاء والتدجين، بحيث يتعرف العقل المختون مبكراً على حدوده الإقليمية، ومجاله الحيوى المسموح له بالتجول فيه، فالإخصاء الذهنى مطلب اجتماعى بامتياز، تكرس له أعراف وعادات وشعائر، لأن المعرفة أكثر مما يجب هى أول المروق، وبالتالى هى شروع فى اقتراف المساءلة، والخروج من جنة اليقين!

مجتمعات ختان العقل، تواطأ أفرادها منذ البداية حول المسكوت عنه والمسموح به، وحول ما يجب التفكير به وما يجب الإقلاع حتى عن ملامسته، لأنها مجتمعات الإجابات الناجزة والمعلبة، والتى لا تنتهى صلاحيتها على الإطلاق حتى لو فسدت وأصابها العطن، لأن هناك على الدوام من يتولون تجديد هذه الصلاحية، لكن بأسلوب تلعب فيه الحليلة دور البطولة، تماماً كما يفعل بعض تجار السوق السوداء وباعة الأرصفة حين يغيرون مدة صلاحية المعلبات، من خلال تزوير التواريخ المكتوبة على أغلفتها!



لقد عرف ويلسون مثلاً من سماهم اللامنتمين بأنهم أناس يرون أبعد مما ينبغى، ويفكرون أكثر مما يجب، لهذا فهم يتحولون إلى بثور على جلد حضارة تحتضر، ويتم نبذهم ثم يعاد لهم الاعتبار بعد حين، وقد تقام لهم التماثيل والأنصاب.

اللامنتمى، حسب تعريفات أولية، هو عدو الامتثال والرافض أن يشرب من نهر الجنون، وهو البعير الأجرب أو الشاة السوداء فى القطيع، ولا سبيل للتعامل معه إلا بالإقصاء، والأفراد كى لا تنتقل منه العدوى إلى القطيع كله!

وما من مثال يوضح هذه الحالة، كذلك الذى تداوله اللامنتمون الإنجليز فى أواخر خمسينيات القرن الماضى، وهو «لورنس» الذى اقترن اسمه بالعرب بعد تجربته الشهيرة فى الجزيرة العربية والدور السياسى الذى لعبه أثناء الاحتلال البريطانى، يقال إن «لورنس» شاهد جندياً يداعب كلباً تحت سماء صافية مشمسة، فأحس بالغيرة والحسد، عندما شاهد الجندى مستغرقاً فى مداعبة الكلب، وهو المحروم من أى استغراق وفى أى شىء، لأنه ثانى نفسه وأحياناً ثالثها إذا استعرنا عنوان قصيدة للورنس داريل.

اللامنتمى العربى بدأ حياته صعلوكاً جاهلياً، ومن ثم صعلوكاً أموياً، سحبت الصحراء من تحت قدميه، بحيث أصبح من كان يقسم جسمه فى جسوم كثيرة ويحسو قراح الماء وهو بارد، ملفوظاً على هامش الدولة، ولم تعد الصحراء ملكوته، ومداه.. ومجال حريته!!

وبالرغم من وفرة الدراسات الأكاديمية حول ظاهرتى الشعراء الصعاليك فى العصرين الجاهلى والأموى، والشعراء المجان فى العصر العباسى بعد أن استكملت المدينة أقانيمها، إلا أن معظم تلك الدراسات بقى فى نطاق التوصيف، وقلما كان التفكيك لظواهر بالغة التعقيد والكرافة كهذه هاجساً أصيلاً لدى من اقتصر شغفهم البحثى على الأفقية، وما يسمى (العنعنة)، بمعنى النقل عن المتون، وتركيب القول على القول ومشى الحافر على الحافر!

اللامنتمى العربى سواء حمل اسم الصعلوك أو العاق، أو الأجرب المنبوذ، هو من كان عقله عصياً على ختان القبيلة، مثلما أصبح فيما بعد عصياً على ختان الدولة، لأن من يتعهدون ختان العقل فى عصرنا، ليسوا حلاقى القرى، بل أخصائيون فى الجراحة الدقيقة، بحيث يحذفون من كل نتوء يحول دون تحول الناس جميعاً إلى أسنان مشط، أو طبق من البيض المتشابه الرتيب وعديم الأبعاد!

وقد مر زمن ليس بالبعيد، كان فيه المثقف العربى المستقل أو غير «المؤدلج» مشجباً لتعليق صفات يتشكل من حاصل جمعها الصعلوك أو اللامنتمى، ليكتشف بعد ذلك حتى المؤدلجون أنفسهم أنهم كانوا ضحايا ختان عقلى، وأن الدوغمائية أصابتهم بالعمى، الذى عم الألوان والجهات، وكل شىء!

إن الثقافة، مايزال الناس يرددون فيها عبارات مثل (لا يختلف اثنان، ومما لا شك فيه) هى ثقافة مبتلاة بختان جذرى، أخطأ فيه الجراح فأصاب الجسد كله بالعنة.. إذ كيف يتجاسر إنسان على حذف الشك من عقله بعد قرون من ابن خلدون والمعرى والجاحظ وكل تراث المعتزلة، وأخيراً ديكارت؟

إن تراجع طه حسين مثلاً عن النص الأصلى لكتابه «فى الشعر الجاهلى» هو استجابة قسرية لختان ما.

وخلال العقدين الأخيرين تراجع واعتذر عشرات المثقفين العرب تحت وطأة التهديد بالتكفير والرجم، فقبلوا رغماً عنهم هذا الختان حتى فى سن البلوغ.

وهناك مسافة مرنة ومطاطة على ما يبدو بين التأويل والتقويل فى ثقافة كان معظم تاريخها ممهوراً بفن الوشاية والاستعداء، ولأن لغتنا العربية من أثرى لغات العالم بالمترادفات والمجازية، فإن الإفلات متاح لمن يعثرون على تأويل مناسب، يصبح معه الهرب من الباب الخلفى ممكناً!

وإذا كان أى خطأ فى الختان العضوى قد يفضى إلى العنة والإخصاء، فإن جراحة ختان الدماغ أشد خطورة، فالزجر

المبكر للأطفال وعقابهم على أسئلة محرمة، هو الجرح الأول فى الدماغ المختون، وقد يتسع هذا الجرح بفضل التأقلم مع تربويات الزجر بحيث يشمل العقل كله، وهنا نستطيع أن نفهم ما الذى يعنيه المثل الشعبى الخالد (ضع رأسك بين الرؤوس وقل يا قاطع الرؤوس)!

الامتثال هو الهدف الأخير من ختان العقل، لأن الاختلاف رذيلة، والائتلاف فضيلة، مادامت القبيلة هى الاسم الحركى الموزع بالتساوى على أفرادها، وما من شىء يوضح هذا كعادة الثأر التى لم تنقطع فى الألفية الثالثة عن جذورها فى الجاهلية، فالمقتول ثأراً هو مجرد رقم فى سلالة أو قطيع، بمعزل عن اسمه وصفاته ومجمل تكوينه، وقد تطال فلسفة الثأر الخرقاء أكاديمياً بارزاً أو طبيباً مقابل فرد عادى، لمجرد أن هذه الضحية تنتمى إلى قبيلة القاتل أو أحد أفخاذها!

وما أعنيه بالثأر وفلسفته البدائية يشمل الدولة العربية أيضاً، لأنها قبيلة معاد إنتاجها ومطلية بمساحيق مضللة.

فحين تشتبك دولتان، يتم طرد وإقصاء آلاف المواطنين من كلتا الدولتين دون أن يكون أحد منهم قد اقترف ذنباً، فهم عمال أو مهندسون أو موظفون لا حول لهم ولا قوة، وليسوا وزراء خارجية أو ضباط مخابرات، لكن العقاب الثأرى يشملهم بمعزل عن أسمائهم، وتكويناتهم، وصفاتهم الإنسانية.

لهذا سيبدو الفارق لفظياً بين دولتين مشتبكتين وقبيلتين متناحرتين!

كل ما فى الأمر أن الحصان داحس قد يصبح دبابة أو مخفرا حدوديا، مثلما تتحول الغبراء إلى سيارة أو سفارة أو معمل ورق!

العقل المختون هو المطلب النموذجى لمجتمعات تنفر بالفطرة من الاختلاف، وتتقمص ثنائية «مانويه» حاسمة، لا تعترف بالبعد الثالث أو حتى اللون الرمادى والظلال بين مطلق السواد ومطلق البياض.

وقد مر زمن كانت فيه العلاقة بين قومى وشيوعى، أو بعثى وماركسى أشبه بالعلاقة بين الأوس والخزرج أو قيس ويمن، ولا تختلف قصائد ومقالات كتبت فى الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى ضمن أدبيات السجال السياسى والتنابذ الأيديولوجى عن النقائض الأموية التى شارك فيها الثالوث الهجائى المعروف.

ختان العقل، هو الطريق المعبد للوصول إلى هذه المنطقة التى ينعدم فيها الوزن، ويصبح فيها العمى وباء، لهذا لم يكن مفاجئا أن يقترن التفكير بالتكفير ضمن أدبيات الحوار الذى لم يكن فى حقيقته إلا حواراً بين طرشان، مادام هناك مختونون لا يسمعون إلا صدى أصواتهم ولا يبصرون إلا ما يريدون وفق تربويات رعوية ورغائبية، لا تفرق بين الناى والعصا، وبين الحبل والثعبان!!

شيخوخات متزامنة

ما أعنيه بالشيخوخة درءاً لأى التباس محتمل، ليس القدر الزمنى، بل الاستنفاد المبكر للممكنات، أو ما يسمى حرق المراحل الوهمى، الذى يشبه إحراق جلد الدجاجة، بينما يرشح الدم من أنساغ نسيجها!

والشيخوخات المتزامنة، أربع على الأقل هى على التوالى:

شيخوخة سياسية، تتجسد فى نظام سياسى عربى غير متجانس إلا فى شىء واحد، هو ما سماه د. طيب التزينى الاستبداد الرباعى، الذى يشمل احتكار الحقيقة والإعلام والثروة والحكم غير المتداول!

هذه الشيخوخة، سوست فيها الصولجانات، ولم تتساقط بعد كعصا النبى الذى مكث ميتاً زمناً طويلاً قبل أن يموت بالنسبة للآخرين، ولو شئنا الخروج قليلاً من التجريد وترجلنا إلى الشارع والمعمل والجامعة والثكنة، فإن كل عناصر هذا النظام شاخت قبل أوانها وترهلت، وفقدت حيويتها وفاعليتها، فالشارع وتر اشتد تحت الأقدام حتى انقطع، بسبب اليأس من التغيير حتى لو خرجت الملايين وسال الدم من شفاهها وهى تعض اللجام.

والمعمل أعلن الطلاق البائن بينونة كبرى منذ زمن طويل بينه وبين العاملين فيه، لأنهم غرباء فى عقر وطنهم، وأجراء مذعورون، لا هاجس لديهم سوى إدامة الوظيفة، حتى لو تطلب ذلك المراوحة فى تلك الحلقة التى عثر عليها (موريس) فى كتابه (القرد العارى)، فالموظف والعامل العربيان على اختلاف المستوى والمهنة، والجدوى، يقدم ثلاثة أرباع طاقته فى استرضاء أولياء النعم أو من أوهموه بأنهم كذلك، وإذا اتفقنا بشكل أولى، وجدلى أيضاً على أن الفساد متعدد الرؤوس ولا ذيل أو دابر له، فإن أكثر رؤوسه شراسة، وأحد أنيابه هو ذلك الذى يمتد إلى الوظيفة، فقلما نجد مواطناً مناسباً فى موقع مناسب، وذلك فى ضوء نظرية عربية تستحق براءة اختراع هى نظرية الولاء.. وقلما يفصح منظرو هذه الفلسفة عن أى ولاء يتحدثون، هل هو الولاء لوطن أو لزعيم أو لقبيلة أو لأيديولوجيا؟

نعرف مثلاً، أن النظم العربية شبه الشمولية. لأنها أعجز من أن تكون شمولية أو توتاليتارية والتى يحكمها حزب واحد، على اختلاف صيغه لا تقيم وزناً للكفاءة، لأنها تبحث عن الخدم المطيعين، والموثوق بهم، رغم أن تلك الأحزاب برهنت مجدداً على صدقية المثل العربى القائل: من مأمنه يؤتى الحذر، ولا أظن أن النظام العراقى خطر بباله من قبل أن يلدغ من الجحور التى ربى فيها الأعشاش وعلفها، وانتظر بلوغها سن الرشد.. فبلغت سن الجنون والخيانة، ولدغته حتى أسقطته مضرجاً بغبار أعلامه قبل دمائه!!

ولو عدنا الآن إلى بواكير الكتابات العربية عن فقه السياسة ونظم الحكم، فإن النظام الشائخ الذى سوست صولجاناته وهو آخر من يعلم لن يصمد حتى أمام تعريف «السخاوى» أو ابن خلدون لنظام الحكم، والأقانيم الضرورية التى يجب توفرها فى الحاكم!

وللشيخوخة السياسية تجليات. يمكن تلمسها باليد المجردة، ورصدها بالعين المجردة أيضاً، منها أن هذا النظام يسير بقوة العادة، وكأنه حجر سقط من مجرة ما.. ومايزال يتسارع فى سقوط محتم، وكان لكل ما يقال عن الفساد أن يجد مثل هذا المجال الحيوى لانتعاشه لولا التهرؤ، وحالة العطن التى أصابت النسيج السلطوى برمته.



وقد يكون الإرباك الرسمى والشعبى الآن حول أطروحة الفساد والفاسدين متأتياً من كون الفساد مبثوثاً فى كل شىء، وكأنه طبيعة ثانية، مضادة للأولى، فهو أشبه بقميص أبيض أغرق فى محبرة كبيرة، وليس مبقعاً فقط ببعض رذاذها، لهذا تتجلى المفارقة فى إدانة الفساد المجرد، وتبرئة الفاسدين، بل التزلف إليهم، والاحتكام إلى منظومة معاييرهم، ومادامو هم السلطة النافذة، التى ترفع وتخفض، ومن تجليات الشيخوخة السياسية أيضاً، هذا «الخرف»، الذى تقدم فيه الجملة السياسية بمبتدأ بلا خبر، فهى شبه جملة بالمعنى النحوى الدقيق، وهذا ما يفسر لنا ما نراه أحياناً أشبه بالأحاجى، فمن يعقدون الندوات عن الفساد ويجهرون بضرورة قطع دابره.. هم دابره بامتياز، ولكنهم قلما يسألون أنفسهم ما الذى أتى بهم إلى هذه المواقع، وهذه المرتفعات؟

وقد لا نحتاج إلى جسارة فائقة للقول بأن من رمونا بدائهم وانسلوا، هم من الفيروسات المبثوثة فى مناخاتنا كلها، خصوصاً أن المناصب الرفيعة فى النظام العربى الهرم مدفوعة الثمن مسبقاً، من مواقف أخلاقية وتخصص مهنى فى التسويغات والدفاع عن عبقرية الأخطاء.

الشيخوخة الثانية ثقافية وفكرية وإعلامية، فهذه أبعاد لذهنية واحدة. تفرز الكثيف والأقل كثافة والشفاف كاللعاب، وإذا أضفنا الشيخوخة الأكاديمية المبكرة لهذا الثالوث الشائخ نكون قد حققنا المستحيل وهو تربيع الدائرة وليس المثلث فقط، فبالرغم من أن أقدم جامعاتنا تأسس فى الربع الأول من القرن العشرين إلا أن الشيخوخة المبكرة أصابتها بالشلل، إذ يندر أن تغامر جامعة أو جامعى فى إضافة منجز إبداعى حديث إلى المقبرة المقدسة.

وأحياناً تبدو أسوار الجامعات كسور الصين العظيم بمقياس ما.. لكنها أقرب إلى مفهوم الجدار الواقى بمقياس آخر، سياسى فى جوهره، فالحمولة الطلابية أو الشبابية فى الجامعات هى أكثر ما يثقل على كاهل النظام العربى. لهذا فهو يحاصرها احترازاً، ويحولها إلى مستوطنات عقاب بالمعنى الكافكاوى إذا اندلعت فيها شرارة واحدة، وكأنها محيط كله من الهشيم!!

أليست الرقابة الجدتنوفية، والجوبلزية أحياناً فى زمن التواصل والإنترنت تعبيراً عن نزعة مزمنة لتجبيس العقل؟

فالرقيب يدرك أن عمله لا طائل من ورائه وأنه مجرد امتداد فولكلورى لمهنة كمهنة النساج أو الحوذى لكنه يواصل عمله بإتقان شديد، وأحياناً يمنع عشرة كتب دفعة واحدة من باب التحوط، فمنعها لا يلحق به أذى أما إذا تسرب أحدها من قلمه فالأذى قد يلحقه حتى القيامة!!

ما الشيخوخة الفكرية إن لم تكن هذه الموانع والمصدات التى تقام ضد كل ما هو جديد وصارم لذائقة صيغت فى زمن أعمى؟ إن معظم المناهج والرؤى السائدة الآن والتى تسير آلة الإعلام، وترسم للثقافة تضاريسها واستراتيجيتها هى من رواسب زمن ولى، تغيرت فيه ذائقات وحساسيات ومفاهيم، وقد يظن الشائخون فى هذا الحقل أن الأفكار المحنطة هى كواكب ومجرات تضىء لنا الأرض، رغم أنها انقرضت منذ آلاف وربما ملايين السنين!

وهناك مناسبات قد تكون عابرة بالنسبة لسوانا لكنها بالنسبة إلينا تختبر منسوب الوعى الجمعى وجدية الخطاب الثقافى الرسمى الأشبه بعربة مذهبة تتدلى عليها وشاحات ملونة لكنها فاقدة الحول والقوة، لأن خيول الإعلام العمياء هى التى تقتادها.

رفض كاتب لجائزة يقيم الدنيا ويهدد عروشاً ومقالة حرة تجترح طريقاً فى الجبل تستدعى تراث الصلب ومحاكم التفتيش، فأية هشاشة هى؟ وأية شيخوخة ضمر فيها اللحم حول العظم وأوشك النخاع على الجفاف، بحيث تصبح كالبيضة التى لا تحتمل أن تخدش؟

البطرياركية العربية والفطام المحرم!

فإذا كان الوهن من قرائن الشيخوخة فها هو يتجلى يومياً في بيانات وخطابات وما يشبه التظاهرات بسبب مقطع في قصيدة أو عبارة في مقالة، وقد تكون الشيخوخة الثقافية أشد خطراً من أية شيخوخة أخرى، لأنها إن أصابت العقل شلته، وإن تسربت إلى الوعي حولته إلى فخ، بحيث يصبح سالباً وزائفاً ومطابقاً للواقع لا مفارقاً له شأن الحيوان.

كنت أتمنى أن أخلي هذا الحيز للحديث عن شيخوخة اقتصادية لمن هم أدرى بشعاب هذا الرصيف الذي تحول إلى اقتصاد الصدقات واقتصاد افتراضي، ويبدو أن ما سماه ماركس نمط الإنتاج الآسيوي في زمن ما، أصبح الآن بحاجة إلى إعادة نظر جذرية، فالقسم الأكبر من الوطن العربي يقع ضمن قارة الأسى هذه، لكنه يفارقها في أنماط إنتاجه التي أملت على أفراده أنماط تفكير وسلوك، تستحق تقصياً حفرياً، وإذا كان للأرقام أن تنوب عن الكلمات في تقديم صورة دقيقة عن شيخوخة اقتصادية فلتكن شيئاً يسيراً مما نشر وينشر موسمياً، عن حجم المديونيات، والإنفاق السفيه، وتبديد ثروات فلكية على تسليح غامض، بعد أن أصبحت القوات المسلحة العربية «مشلحة» بالمعنى الدقيق والشعبي!!

إن أفضل تصوير لشيخوخة الاقتصاد العربي وهو سياسي بقدر ما هو (ربوي)، هو الاستعانة بأسطورة ميداس اليوناني الذي كان يحول ما يلمسه إلى ذهب حتى مات جوعاً، إذ تحول الخبز والماء أيضاً إلى ذهب.

لكن ميداس العربي في نهايات القرن الماضي وبواكير الألفية الثالثة هو ميداس معكوس شأن كل الديناميات الممسوخة، فهو إذ يلمس الذهب يحوله إلى قصدير، وإذ يلمس الكثرة يحولها إلى ندرة، والفائض إلى فقر مدقع ونقصان.. وبفضله، تحول العربي الأغنى إلى الأفقر والأكثر عدداً من الناحية الديموجرافية إلى مجرد أثنية عزلاء في هذا الكوكب، وكأن الجغرافيا تحولت بفضل هذا الميداس إلى عبء على التاريخ!!

الثقافة الربوية!!

في المجتمعات النيئة والطاعنة في التخلف والتي تعيش حقبة ما قبل الدولة، ويسود فيها نمط إنتاج ريعي، تكون البطرياركية قد استكملت نصابها التاريخي، بحيث يبدو عنوان مثير من طراز «شعوب للإيجار» من تأليف «شميل» مثالاً بالغ الحيوية لاستقراء ظاهرة مسكوت عنها عربياً.

وما يعنينا في هذا المقام هو البعد «الربوي» لثقافة تفرزها مجتمعات من هذا الطراز، فالربا ليس حكراً على الاقتصاد باعتباره فائض المقايضة لصالح الدائن ضد المدين، إنه مبثوث في نسيج الواقع برمته، وهناك ربا سياسي وجنسي وثقافي، لأن المديونيات في مجتمعات عانت وتعاني من فائض المكبوت موزعة في كل مجالات الحياة، ولم يكن للسادية أو القسوة بشكل أعم أن تنتج عن مجتمعات متوازنة، وغير مختلة نفسياً واجتماعياً وطبقياً، لأن الإفراط في الإشباع هو رد الفعل المتوقع لفائض الكبت، وأول ما نلاحظه في الثقافة الربوية هو العقد غير المدون بين المثقف والسلطة من جهة، وبينه وبين الناس من جهة أخرى، وليست مقايضة الموقف السياسي بوظيفة أو أجر أو أي مكسب معنوي سوى موقف ربوي، يطالب فيه الدائن المدين بنسبة من المال، أو الجاه أو الامتياز مقابل صمته عن الحقيقة، وأحياناً تتضاعف نسبة الربا إذا تحول هذا الصمت إلى شهادة زور!

والمشاهد التي تقدم تجليات للظاهرة الربوية في ثقافتنا عديدة، ومنها ما هو في متناول العين المجردة، كالمهرجانات الثقافية والفنية التي تخصص لها الحكومات ميزانيات خاصة، غالباً ما تكون هامشية، ومضافة إلى مصاريف الجهة المسئولة عن العلاقات العامة، والبروباجاندا غير المستترة، فالمهرجانات التي لا تحظى برصد دقيق من الممول السياسي تتيح لمن يديرونها أو يتولون شئونها فرصة واسعة في عقد مقايضات ربوية مع أطراف أخرى، سواء كانت تلك الأطراف من الضيوف أو من المشرفين على مهرجانات مرادفة في دول أخرى، ومن أتيح له أن يساهم ولو لمرة واحدة وبوازع الفضول في لجان المهرجانات الثقافية والفنية يضع أصبعه على الجرح وعلى نحو مباشر، إذ غالباً ما تخضع قوائم المدعوين لاعتبارات ومعايير لا علاقة لها بالثقافة ومنظومة قيمها، وما سمعته وشاهدته عن كثب في إحدى المرات التي دفعني الفضول للقبول بالمشاركة فيها يقدم صورة مضادة لما هو معلن، وما يجري تسويقه صحفياً وعبر زبائن محترمين لن يتقنون أدبيات الحديث السياسي عن «بلدهم الثاني»! وهؤلاء غالباً ما يتركون بلدهم الأول في أوضاع بالغة التردي لكنهم عندما يقدمون شهادات الزور عن الديمقراطية والحرية والتمدن والجمال والإبداع في البلد المضيف يمارسون الربا المزدوج، فهم أولاً يضيفون إلى ثمن التذكرة وأجرة الفندق، إضعافهما طمعاً في تكرار الدعوة، وحذراً من إدراج أسمائهم في القوائم السوداء إذا جازفوا بكلمة حق واحدة تخص زملاءهم المحاصرين والمنبوذين.

والدولة العربية الدائلة والتي فقدت آخر حرف من سيادتها هي التي شرعت ثقافة الربا عبر إعلام ربوي يتلخص في استئجار أنصاف مثقفين معروضين في الواجهات وعلى بعد مقالة واحدة من هذه السفارة أو تلك، وأحياناً يكون لشاعر أو كاتب مقرب من السلطة لأسباب سياسية أو دسائسية مكانة تتيح له التدخل في برامج الندوات والمهرجانات فيدني من هم على شاكلته أو من يشعر بأنه يدين لهم بعرض كتاب في صحيفة أو أي موقف استرضائي يدلك نرجسيته، ويقصي من يتصور أنهم غير صالحين للاستخدام، وقد لاحظت أن التعامل الرسمي وشبه الرسمي مع المثقفين المعروضين للإيجار هو على طريقة ما يسمى «ديسبوزيبيل» أي الاستخدام لمرة واحدة، وذلك لأن من يستخدم لمرة واحدة ويدلي بشهادة الزور لا يستطيع التراجع أو الاعتذار وكأنه فقد عذريته حسب أدبيات الشرف الجنسي والكرامة الرعوية!

لا تنفصل ثقافة ما، كإفراز تاريخي عن أنماط الإنتاج السائدة في المجتمعات البشرية، لهذا لم يكن غريباً



أن يكرس المشتغلون في علمي النفس والاجتماع فصولاً لدراسة سيكولوجيا منتجي هذا المحصول أو ذاك من المحاصيل، فالقطن له سيكولوجيا خاصة تفرزها شروط زراعته ومقاومة دودته، وكذلك الكاكاو.. والزيتون، وأستطيع كعربي ولد على بعد أميال قليلة من الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط أن أتحدث عن سيكولوجيا زارعي الزيتون وقاطفيه، فهم يتمتعون ببطالة تدوم ثلاثة أرباع السنة.

لهذا فثمة من الفراغ ما يكفي لتحويل الألسنة المشلولة أو المغلولة إلى ألسنة ذربة وسليطة، وقد يزدهر الربا في مجتمعات كهذه بسبب التباعد الزمني بين محصولين، لأن شجرة الزيتون لا تعطي ثمرها إلا مرة واحدة في العام.

وإذا كان أحد أسباب ولادة الربا في تاريخ الاقتصاد هو دفاع الدائن عن حقه في الحصول على نسبة من الربح بسبب تعطيل رأس المال لفترة من الوقت، فإن المعادل الثقافي لهذا الربا الاقتصادي هو إصرار المثقف الذي يستثمر قراءته على التكسب بما قرأ وكأنه بائع آخر للكتاب.

وقد سمعت ذات يوم من زميل يعمل في الصحافة الثقافية عبارة مثيرة تتضاعف آثارها حتى الغثيان إذا وضعت تحت المجهر النفسي، قال إنه يشتري الكتاب بدينار مثلاً، ثم يعرضه في صحيفة بعشرة دنانير، وكأنه يترجم المعادلة المتعلقة بالحسنة التي تكسب عشرة أمثالها إلى لغة أخرى، وإلى مفردات هي من صميم معجم اقتصاديات المعرفة في أشد أبعادها فجاجة.

المرابون بالمال واضحون لأنهم يتعاملون مع الأرقام، ويدركون أن ما يجازفون به يعرضهم للعقاب على المستوى العقائدي، لكن المرابين في الكلام مضللون ومجازيون ويصل ما يسمى الانزياح في أدائهم اللغوي إلى حد المزاوجة القسرية بين الماء والنار وبين الثعبان والفراشة! ونحن نسمع في معظم المناسبات ذات الصلة بالنفاق السياسي أو الاجتماعي عبارات تقول: إن ما يحس به المتحدث من عواطف يفوق قدرته على الوصف، لهذا فهو يشك في قدرة الكلمات على تجسيد مشاعره، لكنه يقول ذلك بواسطة الكلمات أيضاً، وقلما يشعر بالتناقض أو يضبطه المستمعون متلبساً به!

والحط من شأن الكلام يعتبر ظاهرة لافتة في ثقافتنا العربية الحديثة، -أو التي تتقمص الحداثة وتزعمها، وقد يجد راصد هذه الظاهرة مئات القصائد التي تهجو الكلام، وتضعه نقيضاً للفعل، وكأن هؤلاء الشعراء الذين يشكون بجدوى الكلام يقرن مع النص الديني بأنهم يقولون ما لا يفعلون، ونادراً ما نعثر على نص حديث يعيد للكلام اعتباره المسلوب باعتباره فعلاً آخر، بل فعل الفعل لأنه شحنته، وجذره القابل للتأويل.

الكلام القاصر عن نقل حمولة العاطفة هو في الصميم من الربا الثقافي، إذ لابد من تكثيره ومضاعفته، ومعاودة الإلحاح عليه بالترادف كي يرقى إلى ما هو مطلوب منه، وهو أن يطيق حمولة العاطفة!

إن النقيض الفعلي لعبارة النفري التي تبناها كثير من الثرثارين هو اتساع العبارة وضيق الرؤية، وليس العكس، ولو صدقنا ما قاله النفري، فإن أول ما يمكن أن نجهر به على الملأ، هو أن الرؤى ضاقت وانحسرت، ثم تلاشت لصالح العبارة التي استطالت وارتخت فلم تعد وتراً مشدوداً قابلاً للعزف، لهذا يكون تكرارها المجاني هو البديل لإعادة شدها وضفر انساغها! إن واحدة من أهم المعالجات لما يسمى نفوذ الكلام، هي تلك التي قام بها «كلاستر» الأنثربولوجست الذي تخصص في مجتمعات يحكمها نظام ما قبل الدولة، فالكلام كما يقول: يستمد نفوذه من المصدر الذي ينسب إليه وليس من منطقه الداخلي، لهذا فما يصدر عن شيخ القبيلة هو الصواب والنافذ وما يحتكم إليه، لكن هذا الكلام المؤيقن (من الأيقونة) لو نسب إلى فرد عادي من القبيلة لما استوقف أحداً، هكذا يصبح القليل الدال تبعاً لمقولة ما قل ودل هو من حصة الأقوى والأشد نفوذاً على العقول ونفاذاً إلى الوجدان.

إن الثقافة الربوية هى الابنة البكر للبطرياركية، وقد تكون توأم الريعية بالمفهوم الإنتاجى، وإننا لنعجب كيف يتغاضى المشرع عن هذا المستوى من الربا، فهو محلل ومبشر به، وقد يصنف ذات يوم بالربا الحميد مقابل الربا الخبيث، رغم أن الورمين من الجسد ذاته، ومن إفراز دورته الدموية!

الدولة العربية الدائلة هى التى شرعت الربا الثقافى، بفضل فائض ريعيتها، والبطرياركية التى تحرم الفطام السياسى لدى شعوب محكوم عليها بالمكوث فى مرحلة الرضاعة، والدولة التى تقايض مثقفاً، وظيفة بقصيدة مديح، أو شقة مقابل وشاية، هى دولة الربا بامتياز، لأنها إذ تقترح نفسها مدينا فى البداية، تحول نفسها إلى دائن فى النهاية، وعلى من تصدقت عليه بالقليل أن يقضى العمر وهو يسدد المديونية التى يتراكم عليها الربا ببعديه السياسى والأخلاقى!!

الثقافة البديلة!

يحتاج المثقف إلى درجة ما من العزلة عن الحراك الثقافى ومفاعيله ذات الشحنة السجالية كى يبتعد عن اللوحة قليلاً، ولا يتفلطح أنفه على نقطة واحدة منها كما يحدث لطفل يقتاده الفضول إلى أن يغرز أنفه فى واجهة زجاجية لحانوت الحلوى! ذلك ببساطة لأن الاستغراق فى المشهد يستدرج المثقف من شاهد إلى لاعب، ومن راصد إلى مرصود، وتفرض أطروحة الثقافة البديلة كما أفهمها على من يتنطع لها أن يكون على دراية بالثقافة الأصيلة، كى تتسنى له المقاربة وأخيراً الفرز، وفى مجتمعات كهذه التى نموتها أكثر مما نعيشها، تزدهر البدائل على حساب الأصول، وتوشك الأشباه أن تحل مكان كل ما أفرز عضوياً واستكمل نصابه من الحمل، دون أن يتعرض لولادة قيصرية، قد تودى بالأم والجنين معاً!

وثمة ثلاثة عوامل على الأقل غذت الثقافة البديلة، وعمقتها على حساب الثقافة الأصيلة، هى.. ما يشعر به المثقفون العرب من إهمال مزدوج، من السلطة والناس معاً، وما تفرضه الأعراف الاجتماعية الصارمة من تأقلم وتنازلات من أجل تفادى النبذ والإقصاء، وبالتالى تحقيق شرط الانتساب إلى النادى الاجتماعى، والعامل الثالث، هو الطلاق البائن بين ثقافة ضالة فى شعاب عالم متخيل وبين واقع يتم التواطؤ على تهريبه، ويتحول أخيراً إلى ما يشبه الكمين الذى لا ينجو منه حتى من ساهموا فى نسجه وبنائه!

وأول ما يلفت الانتباه إلى الثقافة البديلة هو الميل الشديد لدى المشتغلين فى هذا الحقل نحو الاختزال وفق التعريف الذى أورده د. مصطفى حجازى فى كتابه سيكولوجيا الإنسان المقهور، فالاختزال تبسيط وتسطيح، بقدر ما هو إعفاء للذات وتبرئة لها من حصتها فى الديناميات السالبة لحراك معكوس!

لهذا حلت النميمة مكان النقد، والشخصنة مكان المفاهيم والظواهر، وأصبح من السهل تسفيه أى شىء أو تهميشه لأسباب لا صلة لها بالثقافة، إذ يكفى أحياناً تصنيف مثقف ما طبقياً أو أيديولوجياً بحيث تصبح قراءاته «بروكوستية» تعذب نصوصه كى تعترف بما لم تقترف.

وهكذا يحل التقويل بأردأ تجلياته مكان التأويل، وتنعطب البوصلات كلها، ويسقط الحد الأدنى من المشترك العقلى الذى هو بمثابة جدول ضرب أو سلم موسيقى، ويتوهم من يكتبون أنهم أول من كتب، أو أنهم آدم الخليقة والمعرفة.

الثقافة البديلة، تحذف النص لصالح المؤلف ثم تحذف المؤلف ذاته لصالح إحدى صفاته، وقد تستمر متوالية الحذف الخرقاء هذه حتى تنتهى بالحصان إلى شعرة واحدة من ذيله وليس من عُرفه!



والمجتمعات التى تعانى من شحة كارثية فى حق التعبير، ومن أنيميا حادة فى الدورة الديموقراطية، غالباً ما تسعى نخبها إلى تهجير الأدوار من صعيد إلى آخر، فتصبح حروبها بديلة، وكذلك أسئلتها، وقد تنقلب حتى هواجسها بعد أن تتقن لعبة التقمص وتصبح سواها!

ومن قالوا ذات زمن كهذا أن من لا يستطيع عض الحمار يعض البردعة، كانوا يعبرون عن ظاهرة مزمنة فى تاريخنا الذى يحتقن بمكبوتات لا حصر لها، والثقافة الخائفة، المهمشة، والتى تحول بعض المشتغلين فيها إلى استكمال نصاب شكلى لدولة رخوة وقيد الإنجاز، تنقل عدتها ومجمل أدواتها إلى ملعب آخر، فتصبح الإدانة والتجريم ونفى الآخر المختلف دفاعاً عن ائتلاف وهمى، لا يتجاوز نشيداً رومانسياً بلا أى رصيد حتى عاطفى، وقد يشعر المثقف المفروز بأنبوب ما.. سواء كان حزبياً أو حكومياً أو حتى من أوهام الذات أن مهمته تبدأ من الدفاع عن حقه فى موقع على التضاريس الاجتماعية أو السياسية فى بلاده، لهذا يغلب عليه هاجس الاسترضاء، والاحتراز من عقوبة البعير الأجرب أو العنزة السوداء، حسب أدبيات القصاص القطيعى التى غالباً ما تحولت إلى زجر بطرياركى لأبناء ممنوعين من إعلان الفطام والبلوغ!

وما ينافس الاختزال فى سيكولوجيا المقهورين هو المصادرة بالمعنى الذى حدده المناطقة قبل ألفى عام، فالمصادرة إعدام رمزى، لأنها تحشر ضحيتها بين قوسين من خلال تعريف مبكر، لا يقبل المراجعة أو التطوير، لهذا يبقى الشاعر أسير التعريف النقدى الأول لديوانه البكر، وكذلك الروائى والرسام، ولا ينجو حتى النقاد من هذه المصادرة، وما كان لهذا الإعلام الرمزى - الاستباقى - أن يصبح فى الصميم من أعراف ثقافية بديلة، لولا أن المجتمع برمته أدمن مثل هذه المصادرة من خلال تربويات رعوية، تبدل الزمن لكنها لم تتبدل وبقيت محروسة ومسيجة، يمنع الاقتراب من أسوارها الحصينة، فمن ولد من عائلة غنية وذات نفوذ، قد يكتفى بهذا التعريف الذى جهزه له المجتمع قبل أن تستله القابلة من بطن أمه، وهذا هو بالتحديد ما يسمى تحقق الذات الكاذب، وفى مجتمعات نصف حديثة ونصف تقليدية، تتحرك كالبندول بين القرن التاسع عشر والقرن الحادى والعشرين، فإن الامتياز الموروث يهجع كاحتياطى، يشهره صاحبه عندما يحتاج إلى الدفاع عن جهله أو هامشيته، وكونه فرداً عاطلاً عن كل شىء حتى عن ذاته!

لهذا لم تنضج مهنة المثقف إلى القدر الذى تظفر به باعتراف كامل، بجدواها وجديتها، فهى ما تزال أقرب إلى الهواية، أو النشاط الإضافى، وعلينا هنا أن نستبعد العمل فى الصحافة لأنه ليس اعترافاً بمهنة المثقف بقدر ما هو تهجير للمهنة من مجالها التاريخى إلى مجال إجرائى يلبى حاجات يومية وعملية!

من هو المثقف العربى الذى جازف بافتضاح ما يحاصر مهنته من تسفيه، وعدم اعتراف إلا بالقدر الذى تتمظهر فيه هذه المهنة اجتماعياً ومادياً؟

وإذا سلمنا بأن معظم المثقفين العرب قادمون من الريف، ومن سياقات اجتماعية وطبقية يشعرون بالاغتراب عنها، فإن أول ما يثير دهشتنا هو خجل هذا المثقف من سرد حكايته، فلا أمه تقرأ ما يكتب، ولا إخوانه أو ذووه تصلهم رسالته، وأحياناً تغترب حتى زوجته عن كل ما يكتب ويقرأ، فهو آثر السلامة، ورضى بهذه الشيزوفرينيا التى شطرته إلى كائن يعيش وكائن يكتب وكأن الوعى قبعة أو حذاء، يخلعه وقتما يشاء، ويلبسه عندما يشاء!

وقد يتردد المثقف الذى تشبث بالرهان حتى النهاية فى خوض أية معركة سجالية مع آخرين لا يرون من الجمل إلا أذنه، ومن الطرف الذى يحاورهم إلا حذاءه أو ربطة عنقه أو لون بشرته وقامته!

وثمة أكثر من امتحان اختبر صدقية الأطروحات المتأنقة حول الحرية والاستقلال قدر تعلقهما بمهنة الكتابة، فقد انتهى الأمر فى العديد من المرات إلى تكذيب هذه الأطروحات، بحيث لا يظفر المثقف المستقل والحر والذى استعصى على التدجين السلطوى بغير الغيرة السلبية، والتحاسد الطفولى، بدلاً من الإقرار بما أنجزه كأمثولة جديرة بالاحتذاء!

إن هذا بحد ذاته يفتضح جملة مزاعم ثقافية، ويوضح بأن الجميع ليسوا آباء الصبى حسب الحكاية السليمانية المعروفة عن احتكام نساء متنازعات على طفل إلى أحد القضاة الحصيفين، الذى طلب تشطير الطفل، ثم يتعرف على أمه الحقيقية لأنها وحدها التى ترفض هذا التشطير وتتنازل عن الطفل كى يعيش!

تقتضى أدبيات الثقافة البديلة التى تنهمك فى النميمة، والتلاعب بضمير الغائب، من ضحايا أن يقطعوا آخر آصرة من المرجعيات المعرفية، وأن يستبدلوا الحوار حول المفاهيم بسجال لا يتجاوز «الشخصنة» وهو ما نسميه الانحياز للقاص ضد القصة، وللشاعر ضد القصيدة، وأخيراً للمثقف ضد الثقافة، هذا الاستبدال ييسر العسير، ويريح الحسى والغريزى من عبء التجريد، باعتباره مرحلة عليا من مراحل العقل والحضارات، فهو شارة بلوغ، لهذا يصعب على الذهنية الأفقية والغنائية أن تتعامل مع الموسيقى بلا كلمات، كما أنها لابد أن تترجم اللوحة إلى نص لغوى بعد تدمير وتفكيك كل عناصرها كى تستطيع التعامل معها، هذه الذهنية غير المدربة، والتى تقتادها الخلايا الزواحفية من الدماغ نحو ردود أفعال غريزية، لن تفهم على الإطلاق ما قاله موسيقى لمن أبلغوه بعجزهم عن استيعاب موسيقاه، وطلبوا منه شرحاً يعينهم على الفهم، لقد أجابهم بأن خير وسيلة لشرح قطعته الموسيقية هى إعادة عزفها!

لكى لا نذهب بعيداً ونوغل فى تداعيات لا نهاية لها، علينا أن نقر بدءاً بأن مهنة الكتابة ماتزال تكابد شتى صنوف الزجر والشقاء، باحثة عن اعتراف غير طقسى وغير بروتوكولى بها، وقد عشت ذات سفر تجربة بالغة المرارة على هذا الصعيد، لأننى طلبت تحديد مهنتى فى جواز السفر، ولم أتنبه إلى ما كتب فيه عن تصنيف مهنتى ككاتب، واكتشفت فى مطار أورلى وأنا أقدم أوراقى لموظف المطار أن مهنتى «كلارك».. وهى تعنى الكاتب فى مخزن أو كنيسة، وضحكت حتى البكاء، متذكراً مسرحية موليير الكوميدية الذى اكتشف بأن ما يقوله هو «النثر» كمقابل للشعر!

ولم أصدق أن مثل هذا الخطأ قد يحدث إلا حين سألنى أحدهم ذات يوم عن مهنتى،

فقلت له كاتب، وسألنى على الفور: فى أية محكمة؟!

إن ما اصطلح على تسميته بالانتلجنسيا فى معظم مجتمعات العالم، مايزال لدينا غامضاً، فالطبيب مثقف والمهندس كذلك، لأن كلمة المثقف ماتزال مرادفاً لكلمة متعلم فى مجتمعات لم تغادرها تربويات العثمنة، والتراث الشفوى لثقافتها، فالتدوين بحد ذاته قيمة لمن عانوا طويلاً من الحرمان منه، لهذا نسمع الناس حتى أيامنا يقولون: إن ما سمعناه يبدو صحيحاً لأنه منشور فى جريدة!

الثقافة البديلة ليست مستوى آخر للثقافة، إنها منفاها.. وأحياناً جنازتها المدونة!

أمصال من نخاع الفريسة

لفرط ما كتب حول ثنائية الثقافة والسلطة، أصبحت هذه المصطلحات مهددة بالتفريغ من محتواها، وصار من حق القارئ العربى أن يطالب المثقفين الذين يتنطعون لهذه الإشكالية، أن يكونوا من طرفين فقط، الأول مثقف تورط بالسلطة وتحول إلى مخلب لها زمناً ثم تاب وتراجع، وكتب يومياته، كى تتحول إلى أمصال يتلقح بها القادمون، والثانى مثقف مستقل، ومشهود له بالاستقلال خصوصاً أنه اختير، وتمت مساومته لكن المحاولات فشلت لأنه مسلح بالمناعة، أما هؤلاء الذين يتدافعون بالمناكب فى منطقة «اللمبو» بين جحيم الناس ونعيم السلطة فهم قد فقدوا منذ زمن صدقيتهم، خصوصاً بعد أن اتضح أن الكثير منهم رسب فى الاختبار الأول وسال لعابه على وظيفة متواضعة، أتاحت له التنكيل بزملائه، ولو من خلال الرقابة والترصد والاستعداء!

إن فساد الثقافة، والشهود، هو فساد الملح بالفعل، بحيث ينتهى آخر رجاء لدى المقهورين الذين ابتلعوا ألسنتهم بسبب الصمت المزمن، ولدينا الآن فى ثقافتنا الزاجلة، والعنكبوتية من الالتباس الجذرى فى المفاهيم ما يتيح للأضداد أن تتواطأ وتتزاوج على هذا النحو السفاحى!

فنحن نقرأ موسمياً كتابات لمثقفين استخدمتهم السلطات ملاقط وقفازات وأحياناً «كندم» ثم ألقت بهم إلى سلال القمامة، هؤلاء لم يبرهنوا لحظة واحدة على صدقيتهم عندما كانت أشلاء الفريسة تقطر دماً فى أفواههم وعلى لحاهم، ويبدو أن إهمال الثقافة وتهميش المثقفين أتاح لنا أن نقول ما نشاء وأن نخلط بين الناى والعصا، والحبل والثعبان، فالناس غائبون أو مغيبون، والمعيار تدنى حتى لامس الأرض، والبوصلات انعطبت فأصبح الشمال جنوباً والغرب شرقاً.

وقد تكون صلة المثقف العربى الذى ارتهن للسلطة منذ لثغ بالحرف الأول، بأدبيات هذه الظاهرة من طراز بالغ الفرادة، فنحن حتى وقت قريب كنا نتعامل مع جوبلز وجدانوف والمكارثية كأمثولات وافدة من خارج هذا المدار، ونحن الذين شهدنا فى الحقبة العسكرتارية الصفراء مثقفين لم يكتبوا شيئاً غير التقارير والوشايات، لأنهم كما سماهم الراحل خليل حاوى والذى تاب الله عليه بالرحيل (الزحفطونيين)، أى الزاحفون على بطونهم!

إن أسوأ تركة ستتورط بها أجيالنا القادمة لمثقفى السلطة، هى أنهم كرسوا أدبيات النميمة والمديح، وأفرزوا شعراً ونثراً فرضتهما على الناس مجلات معسكرة، ومدججة بأموال الدولة، وشهود الزور، ولكى لا نستخف بهذا علينا أن نتذكر كيف تصدرت نصوص داجنة، وبالغة الرداءة قائمة الأدب العربى المترجم خصوصاً إلى الروسية وشقيقاتها فى حقبة الهيمنة الأيديولوجية، وتحويل الأحزاب إلى حاضنات لتفقيس الشعراء والروائيين والنقاد!

إن المثقف قرر منذ البداية أن يتحول إلى هراوة بيد شرطى سيكولوجياً لم يعد صعباً علينا أن نحدد أهم ملامحها.. فهو يصطنع التوازن، والتماسك، ويفتعل المجون أحياناً كى يستر عورته الثقافية بالسخرية، وقد يسخو ببعض ما تكسب به



الاسترضاء صعاليك الثقافة، وأحياناً يستخدم نفوذه البوليسى لتسهيل تنقل مثقفين مرصودين وممنوعين من السفر!

ولا يعدم هذا المثقف الحيلة كى يبحث عن أنداده وأمثاله فى التراث، خصوصاً هؤلاء الشعراء الذين اقترنت أسماؤهم بسلاطين انتصروا فى معارك كسيف الدولة مثلاً، ولدى هذه السلالة عبقرية فريدة فى التبرير والتسويغ، بحيث يتعذر الحوار معهم، لأنهم سرعان ما يندفعون نحو سجال عقيم، وإن أعوزتهم الحيلة، فإنهم يستدعون على الفور احتياطيهم السلطوى، هذا إن لم يكونوا يخفون مسدسات فى جيوبهم أو حقائبهم المليئة بالكتب والتقارير.

ولا يشبه هؤلاء.. إلا عدد من البغايا يسكن فى عمارة، قاد سوء الطالع فتاة بريئة إلى السكن فى إحدى شققها، إذ تتحول هذه الفتاة بمرور الوقت إلى الشاهد النقيض الذى لابد من إقصائه أو دمجه فى القطيع، لأنها البياض الذى يرسم حدود السواد، والنقيض الذى يذكر بالنقيض، مثقفو السلطان، شغوفون كالعناكب باصطياد المزيد من الذباب إذا عثروا عليه، فهم يستمدون شرعيتهم من الكثرة، والتماثل، والتحول إلى منحى شبه عام يخفف من وصفهم بالشواذ أو المنبوذين!

خمسة عقود من تاريخنا بالحديث تعج بهؤلاء، فقد نحتوا تماثيل وأصناماً من الورق، وامتدحوا أجنحة السلاحف، وبرهنوا على أن الأرض لا تدور، لأنهم يكرهون التغيير، ويتغذون من الثبات، وبالرغم من كل ما يصطنعون من تماسك وتوازن كاذب، فإنهم مصابون بالهلع، لأن استبدالهم سهل كمناديل الورق، لا كمناديل الحرير.. فالطابور طويل.. والتنافس محموم وعلى أشده لاسترضاء السلطان وتدليك عواطفه قبل عضلاته وأعضائه، وقد سمعت من أحدهم ذات يوم، وكان يرأس تحرير مجلة رسمية، أن الوزير استدعاه ليوبخه على خطأ اقترفه فى المجلة، وما أن انتهت حفلة التوبيخ، حتى قال له الوزير مهدداً.. إن ثلاثين مثقفاً من أمثاله ينتظرون الدور.. وإنهم جاهزون للحلول مكانه لحظة الطرد!!

الأرجح أن السلطات رغم جهلها بعلم النفس وعلم الاجتماع، لأنها ضليعة فى علم العسف والتنكيل.. ولا وقت لديها للقراءة.. تحزر بالغريزة فريستها، سواء من الرائحة التى تفرزها أو من خلال اللعاب الذى يبلل لحيتها إذا شمت رائحة الطعم.

وأول درس تعلمته السلطات فى مجال السيكولوجيا الفطرية هو درس الصياد الماهر، لكنها أفاضت إليه من فائض خبرتها شيئاً آخر.. وهو إدامة هاجس الرعب لدى الفريسة، لأنها قابلة للاستبدال، وما من بوليصة تأمين على الإطلاق لبقائها فى نعيم الاسطبل، حيث العلف الوافر، والرفاه، وقد يكون هذا هو السبب المتكرر فى حذف الكوابح ومحو الخجل، وإذا كان لابد من استنباتهم فى أصص، وعلى شرفات السلطة المحرومة من الشمس.

فمن كتب ذات يوم عن رئيس جمهورية بأنه كثافة الجمال والحق والعدالة، لم يبق لشاعر يعقبه ما يقول.. سوى أن يجازف بتهجير صفات الرب إلى الزعيم.. حدث هذا مراراً، وما أن توارى الممدوح لسبب أو لآخر حتى استبدل بممدوح جديد، ذلك لأن السلاطين الجدد غالباً ما يبقون على فئتين من فلول النظام الغارب، فئة الخدم، وفئة المداحين!

وإذا كان لابد من استطراد حول سيكولوجيا مثقف السلطة أو «الكندم»، فهو يبدأ على استحياء، ويشعر بكثير من النقص والخجل إذا ما استبدت به المقارنة بين ما هو عليه وما كان يمكن له أن يبلغه، لكنه بمرور الوقت يتأقلم مع الوضع الذى كان شاذاً ثم تحول إلى مألوف، ولديه بالطبع استعداد كبير لتصديق من يكيلون له المديح، وهم كثر، لهم مطامع وظيفية، أو حسابات صفرى، ولأن المجتمعات العربية على وجه الخصوص، نبذت الثقافة منذ زمن، واستغرقت فى شجون حياتية عديمة الصلة بالحلم، فإنها لا تعاقب من يتواطأ مع الطاغوت على شقائها، لأنها أيضاً لا تلتفت إلى من دفعوا ثمن حريتهم وشهادتهم من أجلها.

إن هذه اللامبالاة، التى تفرزها الأمية الثقافية واغتراب المجتمعات عن نفسها وواقعها تضاعف من جراة مثقف السلطة على المضى بعيداً فى مهنته العسسية، ولو وجد من يقاطعه ومن يعيره بمواقفه، لربما راجع نفسه قليلاً، لكن المجتمعات المبتلاة بأمية من طراز آخر غير أكاديمى، لا ترى ممن يطفون على سطوح البرك الراكدة والأسنة غير الامتياز الاجتماعى، والجاه الذى لا صلة له بالثقافة ومعاييرها!

كم هو عدد هؤلاء المثقفين الذى اختبرت السلطة مناعتهم فى الوطن العربى؟ قياساً إلى العدد الذى لا تراه السلطة ومؤسساتها بالعين المجردة؟

إن من حق من اختبر وأعلن المناعة والعصيان أن يرفع يده.. ويشهر قلمه كى يعيد إلى الناس بعض الرجاء، فاليأس من النخب بلغ حد القنوط، ويخطئ من يظن أن عزوف العرب عن القراءة متأت من الجهل فقط، أو من الفقر، فهم جربوا مراراً وعادوا خائبين، لأن وفرة العدد ممن يشهدون زوراً على شقائهم خلقت لديهم صدوداً عن القراءة.

لقد رأوا بأنفسهم كيف يحول مثقفو الاسطبلات الهزائم الساحقة إلى انتصارات، والفقر المدقع إلى رفاه.. والاستبداد إلى عدالة، لهذا فقدوا الثقة بالكلمة المطبوعة، وازدهر فى الألفية الثالثة الأدب الشفوى، فالهمس لا ينقطع بين الناس الذين يسخرون حتى من أنفسهم، ويلعنون التاريخ كله الذى ورطهم بالعصر الذى يكابدون فيه ما يكابدون!

هذه مناسبة، للتذكير بأن من تمضغ السلطة لحمه وتقذف عظمه إلى الرصيف، ومن تنتهى صلاحيته لا يحق له أن يتقمص نقيضه، وذلك الخصم القديم الذى طالما طارده، واستعدى عليه السلطان، فهذا المثقف مكره وكريه، وليس بطلاً بأى مقياس!

إن ما بلغناه حتى الآن من تسوس أصاب المهود والتوابيت والصولجانات وأسرة النوم والأقلام، يجب أن يستوقفنا قليلاً لإبطال العجب بالكشف عن السبب، وأى إرجاء لهذه المهمة، هو تواطؤ آخر وادخار أنانى للذات لعلها تعثر على الفتات أو ما تم امتصاص نخاعه من عظم!

وقد لا نحتاج إلى قدر استثنائى من الشجاعة كى نقول: بأن ندرة الناجين من هذه المجزرة، أتاحت الفرصة للفار كى يزأر، وكتمت على أنفاس الفهد بحيث لم يعد قادراً حتى على المواء!! ■

رد الأفغانى على رينان

الترجمة الأولى الكاملة

كيف انطفأت الحضارة العربية فجأة؟ ولماذا يبقى العالم العربى دائما قابعا فى هذه الظلمات الحالكة؟

جمال الدين الأفغانى

بين الشرق والغرب

مجدى عبدالحافظ

ما من مسألة أثارت لغطًا وتعليقات ونقاشات حادة فى العالم الإسلامى بقدر ما أثارت تلك المناظرة التى قامت بين رينان والأفغانى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، لم تكن المشكلة ما عبر عنه رينان فحسب، وهو يسىء للإسلام وللعرب والمسلمين، وذلك على الرغم من محاولة بعض الدراسات الحديثة التماس العذر لأطروحاته تلك، باعتباره رجلاً من عصر ماض، وبحجة أنه لا يمكن رفض أرسطو بسبب أنه قد برر العبودية، ولا ديكارت لأنه اعتقد أنه قطة ما جميلة ليست إلا آلة. وأوجه المقارنة هنا ظالمة، حيث ارتبطت أفكار كل من أرسطو وديكارت بمعايير عصرهما العلمية، بينما فى عهد رينان كان العلم ومعاييره قد تغيرا. وبدلاً من الاستفادة بذلك، ألبس رينان عنوة أيديولوجيته العنصرية ثبات العلم، محاولاً بالباطل تسويغها وتسويقها فى محراب علم. هذا وقد أثار الرد الذى نشره الأفغانى أيضًا على هذه المحاضرة من الانقسامات ما أضيف لحساب تلك المناظرة ولعل رد الأفغانى يظل مثيرًا للتساؤل والقلق، بحيث إنه أثار فى معسكر المسلمين انقساماً حاداً حول تفسيره أو فهمه أو تأويله، واستنتج كل دارس منه ما أراد، وأخذ البعض يبرز، أو يشرح، والبعض الآخر بحث عن الدوافع التى ترفض أو تؤكد خروج الأفغانى عن الإجماع، ونسى الجميع فى غمار ذلك أن تتم أولاً ترجمة الرد كاملاً حتى يتسنى للنص أن يكشف بنفسه أولاً عن دوافعه وآلياته، وثانيًا أن تتم دراسة النص دراسة متأنية تضع النص فى سياقه وسياق الأحداث التاريخية التى كان شاهداً عليها. حتى هؤلاء الذين فكروا فى مثل هذا الأمر، ومنهم الشيخ محمد عبده نفسه تراجعوا عن الترجمة خوفًا مما رأوه تعميقًا للانقسام وإشاعة لروح الفرقة وسوء الفهم بين مواطنيهم من العامة، مضيعين بذلك فرصة التعامل النقدى مع النص نفسه، مغلبين ما استنتجوه من قراءتهم الأولى المتعجلة له والتى خلت من أية تحليلات أو دراسات متأنية. وهكذا بقى النص كاملاً حتى اليوم غير معروف فى اللغة العربية إلا من بعض المقتطفات المجتزأة المقطوعة عن سياقاتها والتى اختبرت تبعًا لأهواء ورغبات كل طرف مما لم يساعد على الوصول إلى إجلاء حقيقة هذا الرد، ولا حقيقة تلك المناظرة المهمة.

إن أهمية نص الأفغانى، تعود إلى ما جاء به من موضوعات ربما تتناقض (ولو ظاهريًا) مع الأفكار المعروفة عن الأفغانى نفسه وهو ما يجعلنا نفترض بداية، وبشكل إجرائى أنه نص غير صحيح أو مدسوس عليه، أو أنه نص مختلق خاصة أن الأصل العربى لهذا النص لم يُعثر عليه البتة، وظل النص فى صورته الفرنسية المنقولة من جريدة Débats الفرنسية. هذا وقد نشرته فى ملحق ترجمتها لرسالة الأفغانى فى الرد على الدهريين الآنسة جواشان، بادئة نشرها للنص بعبارة تقول فيها إن المستشرق ماسينيون هو الذى وافاها بالنص. وإذا أضفنا أن الأفغانى لم يكن يجيد الفرنسية التى كان يتكلمها بصعوبة شديدة، وبالتالى عدم مقدرته على كتابة مثل هذا الرد البليغ الذى كتب بلغة فرنسية رفيعة المستوى، نقول إن خطورة النص تدفعنا لافتراض إجرائى سوف نختبره الآن بأن النص لم يكتبه الأفغانى، أو على الأقل تقدير لم يفهم محتواه إذا كان قد أملاه على أحد المستعربين آنذاك.

من جهة أخرى لا أحد ينكر أن الأفغانى قد كتب بالفعل نصًا للرد على رينان فى أثناء إقامته فى باريس، فهذا الحدث معروف من مناصريه كما هو معروف لدى خصومه، ومن ثم فلا خلاف على واقعة الرد. الخلاف ينحصر إذن فى صدقية النص الذى كتبه بالفعل.

من جهة أخرى فمعروف من بيوجرافيا الأفغانى أنه كان بالفعل مقيماً حتى سنة ١٨٨٥ وهى مرحلة العروة الوثقى فى باريس منذ يناير سنة ١٨٨٣ وتتفق أغلب المصادر على مقابلته لرينان قبل أن يلقى رينان بمحاضرته عن الإسلام والعلم فى السوربون فى ٢٩ مارس سنة ١٨٨٣، بل إن هذا اللقاء نفسه بينهما هو ما حفز رينان على تخصيص محاضرة من محاضراته فى هذا الموضوع. يمكن الجزم إذن بأن الأفغانى كان فى باريس بالفعل حال إلقاء تلك المحاضرة وحال خروج رده عليها فى جريدة Débats فى ١٨ مايو سنة ١٨٨٢. أكثر من ذلك فإن الأفغانى لابد من أنه قد اطلع على نص محاضرة رينان، حيث قام بترجمتها عند ظهورها إلى العربية أحد طلاب البعثة المصرية فى ثمانينيات القرن التاسع عشر ويدعى حسن عاصم (حسن باشا عاصم فيما بعد)، ولعله قد أومأ إلى هذا فى رده نفسه حينما قال «بيد أنى لا أملك سوى ترجمة لا أدرى مقدار تطابقها مع المقال الأصلى. فلو كان قد أتيح لى قراءة المقال فى نصه الفرنسى لكان بوسعى أن أمسك بشكل أفضل بأفكار هذا الفيلسوف الكبير. وهنا يمكن الزعم أن الأفغانى كان يجهل اللغة الفرنسية، فإذا كان يتقنها وهو موجود فى باريس بالفعل فما كان عليه سوى أن يطلب نسخة من الجريدة التى ظهر بها المقال، وكان يفصل رده عنها عشرون يوماً، إلا أنه لم يفعل. وكان الأجدر به لو أنه يتقن الفرنسية أن يقرأ المقال الأصلى، غير أن عبارته التى تقول: «.. فلو كان قد أتيح لى قراءة المقال فى نصه الفرنسى..» لا تفيد إذن إتقانه للغة، بل على العكس يمكن أن تفهم بمعنى أنه «لو قدر لى أن أعرف اللغة الفرنسية، لكنت قد قرأت المقال فى نصه الفرنسى». وإذا اتفقنا على





ظلمات المسلمين الحالكة

جمال الدين الأفغانى

أن الأفغانى كان مقيماً بباريس فى هذا الوقت، ونُشر مقال فى جريدة Débats على لسانه فما الذى منعه من أن يطلب من أحد ترجمته له، حتى يقارن ما قاله فى رده وما جاء فى هذا الرد المترجم على لسانه؟ وإذا لم يكن هو الذى كتب الرد، فلماذا لم يرسل بتكذيب على الفور لما قيل على لسانه ولم يقله؟

الرأى إذن أن هذا الرد كان رده بالفعل لعديد من الأمور الأخرى الكثيرة، أولها أن معظم دارسى الأفغانى قد أثبتوا فى دراساتهم حول أنه بالفعل قد رد على رينان، وإن كان أغلبهم لم يقم بترجمة هذا الرد إلى اللغة العربية إلى الدرجة التى تجعلنا نقول إن نص رد الأفغانى لم ينشر قط كاملاً فى العربية وحتى اليوم. إلا أن السؤال المهم «لماذا؟» يمكن أن يقدم لنا صورة قريبة ربما للحقيقة؛ حيث كان الرد كما أسلفنا خطيراً لأنه اشتمل على أمور تتعارض مع صحيح الدين كما يفهمه فقهاؤه، وهذا ما جعل مناصريه يبتعدون منذ اللحظة الأولى عن ترجمته، مع أنهم قد قاموا بترجمات انتقائية حاولت التركيز على النقاط التى كان يدافع فيها الأفغانى عن الإسلام والعرب، وبالتالى أُسقطت استراتيجية الأفغانى العامة فى الرد على رينان، وساهمت فى إدخال عبارات الأفغانى المنتقاة فى سياق البلاغة العامة فى الدفاع عن الإسلام ضد منتقديه، عندما غيبت من حسابها استراتيجية وتكتيك الأفغانى من خلال رده.

ونحن نعرف أيضاً أن رد الأفغانى فى حينه قد أثار ضجة فى صفوف المبعوثين المصريين أولاً لهدوئه وملاينته لرينان، وثانياً لما احتوى عليه من أمور وجدوها تسلم ببعض ما قاله رينان ولا تساير صحيح الدين كما يفهمونه؛ وهذا ما جعلهم يهملون رد الأفغانى، ولا يحرصون على ترجمته. ومع ذلك فليس لدينا على وجه التحديد ما يؤكد أن هؤلاء المبعوثين قد اهتموا اهتماماً شديداً بالرد، أو بين ردود الأفعال التى قاموا بها ضد الرد. إلا أن اهتمامهم بترجمة رد المسيو مسمر رئيس البعثة المصرية فى فرنسا آنذاك على محاضرة رينان وتكليف أحدهم (حسن عاصم) بترجمتها، بل وأكثر من ذلك محاضرة أخرى ذكرها مسمر فى معرض رده على رينان لأحد العلماء الفرنسيين تتحدث عن مكتشفات العرب فى علم الحياة، وقام بترجمتها أحد طلاب البعثة المصرية فى العلوم الطبية (محمد مختار). اهتموا برد مسمر وترجمته، وترجمة ما ذكره، وقد توقفوا عن ترجمة رد الأفغانى ولم يتحمسوا له وكان الأولى بهم الاحتفاء به والحماسة له، لدواعى أنه مسلم وتاريخه حافل بالوطنية والشعور الدينى الغامر، إلا أنهم لم يروا فى الرد ما كانوا ينتظرونه ويأملونه، فقد خيب ظنهم لما احتوى عليه من آراء صادمة لهم، وأسلوب خلت منه الخشونة والتصدى الحاسم لآراء رينان، فكان مما لم يرق لهم وهم الشباب المتحمسون. وإذا أضفنا ما يعرفه الباحثون مع أن الشيخ محمد عبده الذى كان منفياً وقتئذ ببيروت اهتم اهتماماً شديداً بترجمة رد الأفغانى من الفرنسية للعربية، إلا أنه قد تراجع على الفور عندما قرأ فحوى الرد واطلع عليه، وأبلغ الأفغانى برسالة فى حينه بأن هذا النص مما لا يمكن توجيهه إلى العامة إذ «لا تُقطع رأس الدين إلا بسيف الدين» إذا أضفنا ذلك فسنخرج بنتيجة مفادها أنه بالفعل قد اشتمل رد الأفغانى على ما جعل الجميع يرى فيه خروجاً عن المتعارف عليه من وجهة نظرهم من أمور الدين والإيمان، فمن هنا نحن لا نرجح ولكن نجزم كون هذا الرد هو بالفعل الرد نفسه الذى كتبه وأملاه الأفغانى، هذا وقد ظهر منذ شهور قليلة كتاب بالفرنسية جمع بين المحاضرة الرد نفسه الذى قمنا هنا بترجمته. خاصة عندما نتابع تلك الشذرات التى جاءت مجتزأة لتلخيص ذلك الرد فى كتابات عديدة، وإن كانت هذه الشذرات انتقائية فإن الرد فى صورته الكلية اشتمل عليها بالفعل داخل سياقه المكتمل.

وفيما يلى أول ترجمة كاملة باللغة العربية قمت بها لرد الأفغانى على رينان وستنشر هذه المقدمة والرد فى كتاب يصدر قريباً عن المجلس الأعلى للثقافة فى مصر. ■

رد الأفغاني على رينان

الترجمة الأولى الكاملة

سيدى، قرأت فى جريدتكم الغراء يوم ٢٩ مارس الماضى ١٨٨٣ مقالاً حول الإسلام والعلم كان قد ألقاه على شكل محاضرة بالسوربون أمام جمع متميز فيلسوف عصرنا الكبير، والشهير السيد رينان، الذى طبقت شهرته الغرب كله، بل وغزت هذه الشهرة أبعد بلدان الشرق؛ وبما أن هذا المقال قد أوحى إلىَّ ببعض الملاحظات، فسمحت لنفسى بأن أصوغها فى تلك الرسالة التى يشرفنى بأن أتوجه بها إليكم آملاً أن تفسحوا لها مجالاً بأعمدة جريدتكم.

أراد السيد رينان توضيح نقطة من تاريخ العرب ظلت حتى الآن معتمة، وأن يلقى بناصع الضوء على تاريخهم، ذلك الضوء الذى ربما كان محيراً لمن دانوا بديانات مختلفة عن هذا الشعب، والذى لا يمكننا مع ذلك أن نقول إنه قد اغتصب المكانة والمنزلة التى احتلها قديماً فى العالم. لم يسع السيد رينان قط ولتصدقونى إلى هدم مجد العرب التليد بل التزم بالكشف عن الحقيقة التاريخية، والتعريف بها لمن يجهلونها ممن يتعقبون آثار الديانات فى تاريخ الأمم وخاصة تاريخ الحضارة. وأبادر إلى الاعتراف بأن السيد رينان قد أوفى بشكل رائع حق هذه المهمة شديدة الصعوبة عندما ذكّر ببعض الأحداث التى مرت مرور الكرام إلى يومنا هذا. إننى أجد فى مقالته ملاحظات رائعة، ولمحات جديدة وسحراً يعز عن الوصف. بيد أنى لا أملك سوى ترجمة لا أدرى مقدار تطابقها مع المقال الأصلى. فلو كان قد أتيح لى قراءة المقال فى نصه الفرنسى لكان بوسعى أن أمسك بشكل أفضل بأفكار هذا الفيلسوف الكبير. فليتقبل منى تحية متواضعة هى بمثابة تعبير عن الاحترام الواجب له والإعجاب الصادق به. وأخيراً سأقول له فى هذا المقام ما قاله المتنبى، الشاعر الذى أحب الفلسفة وكان قد كتب منذ بضعة قرون لشخصية عظيمة محتفياً بأفعالها قائلاً:

لا خيل عندك تهديها ولا مال
فليسعف النطق إن لم تسعف الحال

اشتمل مقال السيد رينان على نقطتين رئيسيتين. انكب الفيلسوف اللامع على التدليل على أن الدين الإسلامى كان فى جوهره ذاته معارضاً لتقدم العلم، وأن الشعب العربى بطبيعته لا يحب العلوم الميتافيزيقية ولا الفلسفة. يبدو كما لو كان السيد رينان يقول بأن هذه النبتة الثمينة تجف بين يديه محترقة كما لو احترقت بهبوب ريح السموم. إلا أنه وبعد قراءة هذا المقال لا يمكن أن يمنع المرء نفسه عن التساؤل إذا ما كانت هذه العقبات تأتى باعتبارها نتيجة فحسب للدين الإسلامى نفسه، أو من الطريقة التى انتشر بها فى العالم، أى من سجية وأعراف، ومواهب الشعوب التى اعتنقت هذه الديانة، أو من سجية وأعراف ومواهب الأمم التى فرض عليها هذا الدين فرضاً.

لا شك أن قلة الوقت هى التى منعت السيد رينان من توضيح هذه النقاط، إلا أن الداء موجود مع ذلك، وإذا كان من الصعب تحديد الأسباب على نحو دقيق وبحجج غير قابلة للدحض فإنه من الصعب أيضاً الإشارة إلى الدواء.

فيما يتصل بالنقطة الأولى فسأقول إنه ليست هناك أمة فى منشئها بقادرة على الانقياد بالعقل المحض. مهمومة بالذعر الذى لا يمكنها التملص منه، غير قادرة على تمييز الخير من الشر، أو معرفة ما يمكن أن يعمل على سعادتها من هذا الذى يمكن أن يكون المنبع الذى لا ينضب لتعاستها ونكباتها.

وباختصار فهى عاجزة عن العودة إلى الأسباب وتبين النتائج. هذه الثغرة تجعلنا عاجزين عن اقتيادها سواء بالقوة أو بالإقناع لممارسة الأعمال المفيدة لها أو عن صدها عن الأعمال الضارة بها.

كان إذن على الإنسانية أن تبحث خارج ذاتها عن ملاذ، عن ركن آمن حيث يستطيع ضميرها المعذب أن يجد راحته، وعندئذ ظهر معلم ما. وأقول بصوت عال. ليس لديه القدرة الضرورية لكى يرغمها على اتباع صوت العقل، فألقى بها فى المجهول وفتح لها الآفاق العريضة حيث يرخى الخيال لنفسه العنان وحيث عثرت إن لم يكن على التلبية الكاملة لرغباتها فعلى الأقل على مجال لا محدود لآمالها.

وبما أن الإنسانية فى منشئها كانت تجهل أسباب الأحداث التى كانت تمر أمام عينيها، وأسرار الكائنات، وهكذا وجدت نفسها منقادة لاتباع نصائح مربيها وأوامرهم التى كانوا يأمرونها بها. فرضت هذه الطاعة عليها باسم الكائن الأعلى الذى يعزو إليه مربوها كل الأحداث دون السماح لها بمناقشة منافعها وأضرارها.

دون شك أعرف بأن ذلك مثّل بالنسبة للإنسان نيرا شديد الوطأة، والإذلال، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر أنه بهذا التعليم الدينى سواء كان إسلامياً أو مسيحياً أو وثنياً خرجت كل الأمم من حالة البربرية واتجهت نحو الحضارة المتقدمة.

إذا كان صحيحاً أن الدين الإسلامى عقبة فى وجه تطور العلوم، فهل يمكننا القول بأن هذه العقبة لن تختفى ذات يوم؟ وفى ماذا تختلف الديانة الإسلامية فى هذه النقطة عن الأديان الأخرى؟ فكل الأديان متعصبة، كل منها على طريقته. الديانة المسيحية، أقصد المجتمع الذى اتبع إرشاداتها وتعاليمها والذى شكلها على صورته، خرج من العصر الأول الذى ألمحت إليه تواً، ومنذ ذلك الحين بات حراً مستقلاً، ويبدو أنه يتقدم بسرعة عن طريق التقدم والعلوم بينما لم يتحرر المجتمع الإسلامى بعد من وصاية الدين. بيد أنى وأنا أعى أن الديانة المسيحية قد سبقت الديانة الإسلامية بعدة قرون، فلا يسعنى إلا أن آمل فى أن يصل المجتمع المحمدى ذات يوم إلى أن يحطم قيوده ويتقدم بتصميم على طريق الحضارة على غرار المجتمع الغربى والذى لم تكن لديه العقيدة المسيحية بالرغم من تزمتها وتعصبها عقبة لا تقهر. لا ولا أستطيع التسليم بأن هذا الأمل بعيد المنال بالنسبة للإسلام. وأدافع هنا لدى السيد رينان بأنه ليس بسبب الدين الإسلامى لكن بسبب عديد المئات من ملايين الرجال الذين حُكم عليهم بالعيش فى البربرية والجهل.

فى الحقيقة، فقد حاولت الديانة الإسلامية خنق العلم وإيقاف التقدم. كذلك قد نجحت فى عرقلة الحركة الفكرية أو الفلسفية وفى تحويل العقول من البحث فى الحقيقة العلمية. نفس المحاولة. إن لم أخطئ. كانت قد قامت بها الديانة المسيحية، ومازال الرؤساء الأجلاء للكنيسة الكاثوليكية على حد علمى لم يردعوا بعد عن ذلك.

فما زالوا يناضلون بصرامة ضد ما يدعونه روح الضلال والتضليل. أعرف كل الصعوبات التى على المسلمين أن يتخطوها لكى يصلوا لنفس الدرجة من الحضارة، نظراً لأن المدخل إلى الحقيقة بفضل المناهج الفلسفية والعلمية قد سد دونهم. على المؤمن الحقيقى بالفعل الانصراف إلى طريق الدراسات العلمية، التى تتبعها جميع الحقائق، تبعاً لرأى يتفق عليه البعض على الأقل فى أوروبا. وهو مشدود إلى عقيدته التى استرقته كالثور إلى المحراث أن يمشى أبداً فى نفس الخط الذى رسمه له سلفاً شرّاح الشريعة. وقد اقتنع فضلاً عن ذلك بأن دينه يشتمل على كل الأخلاق وكل العلوم، فيرتبط به بتصميم ولا يقوم بأقل جهد للذهاب لأبعد من ذلك. لماذا يهدر جهوده فى مثل هذه المحاولات الفاشلة؟ ما يجديه البحث عن الحقيقة مادام يعتقد بأنه يمتلكها كاملة؟

تُرى هل سيكون سعيداً فى اليوم الذى يتخلى فيه عن إيمانه، فى اليوم الذى سيتوقف فيه عن الإيمان بأن كل الكمالات توجد فى الدين الذى يمارسه وليس فى دين آخر؟ عندئذ يحتقر العلم. أعرف كل هذا، إلا أنى أعرف أيضاً أن هذا الطفل المسلم والعربى الذى يرسم السيد رينان لكم صورته بتعبيرات صارمة وهو الذى سيغدو فى عمر أكثر تقدماً «متعصباً مفعماً بعزة بلهاء أوقعت فى روعه أنه يمتلك ما ظنه الحقيقة المطلقة»، ينتمى لجنس قد رسم طريقه فى العالم، ليس فحسب بالنار والدم، بل أيضاً بأعمال باهرة وخصبة تبرهن على ميله للعلم، ولكل العلوم، بما فيها الفلسفية، والحق يقال بأنه لم يستطع أن يتعايش معها طويلاً.

أصل هنا للحديث عن النقطة الثانية التى عالجها السيد رينان فى محاضرته باقتدار لا شك فيه. لا أحد يجهل أن الشعب العربى انطلق من الجاهلية إلى طريق التقدم الفكرى والعلمى بسرعة لا تماثلها إلا سرعة فتوحاته لأنه خلال قرن اكتسب وتمثل تقريباً كل العلوم الإغريقية والفارسية التى تطورت ببطء على أرض ميلادها خلال قرون عدة، كما أنه قد بسط هيمنته من شبه الجزيرة العربية وحتى جبال الهمالايا وقمة جبال البرانس.

وعلى امتداد مجمل هذه الفترة، يمكن القول إن العلوم قد حققت تقدماً مذهلاً لدى العرب وفى كل البلدان التى خضعت لهيمنتهم. كانت روما وبيزنطة فى هذه الأثناء معقل العلوم اللاهوتية والفلسفية وأيضاً المركز المضىء، كما لو كانتا منارة لجميع العلوم الإنسانية. انخرط اليونان

الأفغــــانى



■■ جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ . ١٣١٥هـ، ١٨٣٨ . ١٨٩٧م). محمد بن صفدر (صفدر أو صفتر وهى كلمة فارسية معناها: مخترق الصفوف) الحسينى، جمال الدين. مفكر إسلامى، وأحد رجال عصره الأفذاذ الذين ساهموا فى إحياء حضارة الشرق. وُلد فى أسعد أباد بأفغانستان، ونشأ بكابل. وتلقى العلوم الدينية والعربية وبرع فى الرياضيات. وكان يجيد اللغات العربية والأفغانية والفارسية والسنسكريتية والتركية. وله إلمام باللغات الإنجليزية والفرنسية والروسية.

كان كثير الرحلة؛ فقد سافر إلى الهند، وحج سنة ١٢٧٣هـ، ١٨٥٦م وعاد إلى أفغانستان وأقام بكابل، وشارك فى حكومة محمد خان. ثم رحل إلى الأستانة (اسطنبول) سنة ١٢٨٥هـ، ١٨٦٨م وانضم إلى أعضاء مجلس المعارف. ونفى من تركيا إلى مصر سنة ١٢٨٨هـ، ١٨٧١م، فاستقر هناك وعمل على نشر الإصلاح الدينى والسياسى، وتتلمذ له كثيرون منهم الشيخ محمد عبده. ولما نفته الحكومة المصرية سنة ١٢٩٦هـ، ١٨٧٩م رحل إلى حيدر أباد ثم إلى باريس التى أنشأ فيها مع تلميذه الشيخ محمد عبده جريدة «العروة الوثقى». كما أقام نحو أربع سنوات فى روسيا، ومكث قليلاً فى ألمانيا، فالتقى بشاه إيران ناصر الدين الذى دعاه إلى بلاده، فسافر إليها ثم رحل عنها إلى لندن بعد أن ضيق عليه الشاه. وسافر من لندن إلى الأستانة بدعوة من السلطان عبدالحميد الذى طلب منه الكف عن التعرض لشاه إيران، فترك التحريض على خلعه والكتابة عنه فى الصحف.

كان يكتب بتوقيع مستعار فى بعض الصحف مثل صحيفة «مصر» التى كان يصدرها أديب إسحاق. أحد مريدى الأفغانى. انظر: أديب إسحاق. وكان الأفغانى واسع الاطلاع، كريم الأخلاق، كبير العقل. ولم يكن يكثر من التصنيف لانصرافه إلى الدعوة فى السر والعلن.

من مصنفاته: تاريخ الأفغان، وهو مطبوع؛ رسالة الرد على الدهريين، مطبوع بترجمة تلميذه الشيخ محمد عبده. وجمع محمد باشا المخزومى بعض آرائه فى كتاب «خاطرات جمال الدين الأفغانى». ولمحمد سلام مدكور كتاب «جمال الدين الأفغانى باعث النهضة الفكرية فى الشرق».

مرض أخيراً بالسرطان فى فكه، ويقال: دُس له السم. وتوفى بالأستانة ونقل رفاته . فيما بعد . إلى أفغانستان سنة ١٣٦٣هـ، ١٩٤٣م. ■

والرومان منذ قرون عديدة فى طريق الحضارة يجوبون بخطى واثقة فى الحقل الواسع للعلم وللفلسفة.

ثم جاء زمن دالت فيه دولتهم فأُهملت فيه أبحاثهم وانقطعت دراساتهم وانهارت المعالم التى أقاموها للعلم وطوت يد النسيان مؤلفاتهم الثمينة.

واستأنف العرب رغم جهلهم وجاهليتهم قبل الإسلام مشعل الحضارة فأحيوا ما أهملته الأمم المتحضرة وأعادوا الحياة للعلوم الهامدة فطوروها وأعطوها وهجاً لم يكن لها قط.

أليس هذا مؤشراً ودليلاً على حبهم الطبيعى للعلوم؟ صحيح أن العرب قد أخذوا عن اليونانيين فلسفتهم كما سلبوا من الفرس سر شهرتهم فى سابق الزمان. إلا أن هذه العلوم التى اغتصبوها بحق الفتح قاموا بتطويرها، ونشرها، وشرحها، والوصول بها إلى الكمال، وسد ثغراتها، وتصنيفها بعذوبة لا مزيد عليها، وبتحديد ودقة نادرين.

مع أن الفرنسيين والألمان والإنجليز ما كانوا بعيدين أيضاً عن روما وبيزنطة مقارنة بالعرب الذين كانت عاصمتهم بغداد.

إذن كان من السهل عليهم استغلال الكنوز العلمية التى كانت مدفونة فى تلكما المدينتين العظيمتين. إلا أنهم لم يحاولوا بأى جهد فى هذا الاتجاه إلى اليوم الذى جاءت فيه الحضارة العربية لتضىء بأشعتها قمم البرانس وتصب أنوارها وثرواتها على الغرب. استقبل الأوروبيون بحرارة أرسطو المهاجر الذى أصبح عربياً، إلا أنهم لم يفكروا فيه بالمرة عندما كان إغريقياً وجاراً لهم. أليس هنا برهان آخر ليس أقل بداهة من التفوق العقلى للعرب وارتباطهم الطبيعى بالفلسفة؟

صحيح أنه عقب سقوط الخلافة العربية فى الشرق كما فى الغرب، فإن البلدان التى كانت قد أصبحت معاقل كبرى للعلم، مثل العراق والأندلس قد سقطت مرة أخرى فى الجهل وأصبحت مركزاً للتعصب الدينى؛ إلا أننا لا نستطيع الاستنتاج من هذا المشهد الحزين أن التقدم العلمى والفلسفى فى العصور الوسطى لا يمكن أن يعزى إلى الشعب العربى الذى ساد آنذاك. ولعل السيد رينان قد رد إليه هذا الحق. فهو يعترف أن العرب قد حفظوا ورعوا لقرون معقل العلم. أى مهمة أنبل من تلك لشعب من الشعوب! كل هذا مع الاعتراف أنه من عام ٧٧٥ تقريباً من التقويم المسيحى وحتى نحو منتصف القرن الثالث عشر، أى خلال خمسمائة عام تقريباً، كان بالدول الإسلامية ثمة علماء ومفكرون شديدو التميز، وأنه أثناء هذا العصر كان العالم الإسلامى هو الأرقى فى الثقافة العقلية مقارنة بالعالم المسيحى، ولقد قال السيد رينان أن فلاسفة القرون الأولى للعقيدة الإسلامية وحتى رجال الدولة من المشاهير فى هذا العصر كانوا فى أغلبهم من حران، والأندلس ومن فارس. كان بينهم أيضاً آخرون من مناطق غرب آسيا (بلخ وبخارى) وقساوسة من سوريا؛ ولا أود إنكار الخصال العظيمة للعلماء الفرس ولا الدور الذى لعبوه فى العالم العربى؛ فليسمح لى بالقول بأن الحرانيين كانوا عرباً، وأن العرب عندما احتلوا إسبانيا والأندلس لم يفقدوا جنسيتهم، إذ بقوا عرباً. فلقد كانت اللغة العربية ومن قرون عديدة قبل الإسلام هى لغة الحرانيين.

وواقعة أنهم قد احتفظوا بديانتهم القديمة الصابئة لا يجعلنا نعتبرهم أجانب عن الجنسية العربية. والقساوسة السوريون كانوا أيضاً فى أغلبهم من العرب الغساسنة الذين تحولوا للمسيحية.

أما بالنسبة لابن باجة، وابن رشد وابن طفيل، فلا يمكننا القول بأنهم ليسوا بعرب بنفس القدر الذى للكندى لأنهم لم يولدوا فى الجزيرة العربية ذاتها، خاصة إذا ما أردنا اعتبار أن الأجناس البشرية لا تتميز سوى بلغاتها، وإذا ما كانت هذه الميزة فى طريقها للزوال، فإن الأمم لن تتأخر فى نسيان أصولها المتنوعة، إن العرب الذين وضعوا أسلحتهم فى خدمة الديانة المحمدية، والذين كانوا محاربين ودعاة فى نفس الوقت لم يفرضوا لغتهم على المهزومين وفى كل مكان أقاموا فيه حفظوا لغتهم لأنفسهم بعناية فائقة.

بدون شك فإن العقيدة الإسلامية فى تغلغلها للبلاد التى فتحت بالعنف الذى نعرفه قد نقلت إليها لغتها، وعاداتها، ومذهبها وأن هذه البلدان لم تستطع منذ ذلك الحين أن تتملص من تأثيرها.

وتعتبر فارس هنا نموذجاً، إلا أنه ربما عندما نعود إلى القرون التى سبقت ظهور العقيدة الإسلامية، سنجد أن اللغة العربية لم تكن مجهولة لدى علماء الفرس. إن انتشار العقيدة الإسلامية قد أعطى اللغة العربية - وهذا بحق - انطلاقة جديدة وأن علماء الفرس الذين تحولوا إلى العقيدة المحمدية كان يشرفهم كتابة مؤلفاتهم بلغة القرآن.

لم يكن العرب يعرفون - لا شك فى ذلك - التغنى بالمجد الذى يشهر هؤلاء الكتاب، إلا أننا نعتقد بأنهم ليسوا فى حاجة لهذا التغنى، إذ كان بين ظهرانيهم عدد كاف من العلماء والكتاب المشاهير. ما الذى يمكن أن يحدث إذا عدنا إلى العصور الأولى للهيمنة العربية، نتتبع خطوة خطوة الفريق الأول الذى كون هذا الشعب الغازى الذى بسط سلطانه على العالم، وإذا ما نحينا كل ما هو أجنبى عن هذا الفريق أو عن سلالته، غير آخذين بعين الاعتبار لا التأثير الذى مارسه على العقول، ولا الدفعة التى أعطاها للعلوم؟

ألن نكون منقادين هنا وبهذا الشكل إلى التوقف عن الاعتراف للشعوب الفاتحة بمزايا وفضائل أخرى من تلك التى تنجم عن واقعة الغزو المادية؟ ستستعيد كل الشعوب المهزومة إذن استقلالها المعنوى، وسوف تنسب لذاتها كل المجد والذى لن يكون أى طرف من أطرافه مدعياً به شرعاً من قبل السلطة التى أنتجت وطورت هذه المبادئ. وهكذا سيمكن لإيطاليا أن تعلن لفرنسا أن مازاران، وبونابرت لا ينتميان إليها؛ وستطالب ألمانيا أو إنجلترا بدورهما بالعلماء الذين جاءوا لفرنسا فشرفوا منابرها، وأعلوا من عظمة سمعتها العلمية. ومن جهتهم سيطالب الفرنسيون أنفسهم بمجد سلالات هذه العائلات الشهيرة التى هاجرت فى سائر أوروبا عقب مرسوم نانت.

إذا ما كان كل الأوروبيين ينتمون لنفس الأرومة، فيمكننا الادعاء، وبحق أن الحرانيين والسوريين والذين هم ساميون ينتمون أيضاً إلى العائلة العربية الكبرى.

مع ذلك، فالتساؤل مسموح حول: كيف أن الحضارة العربية، بعد أن ألقت وهجاً حياً كهذا على العالم، انطفأت فجأة، وكيف أن هذه الشعلة لم تُعدْ إضاءتها منذ ذلك الحين، ولماذا يبقى العالم العربى دائماً قابعاً فى هذه الظلمات الحالكة؟

تبدو مسئولية العقيدة الإسلامية هنا مسئولية كاملة. إنه لمن الواضح أنه فى أى مكان استقرت فيه هذه العقيدة حاولت خنق العلوم واستخدمت بشكل رائع فى مقاصدها عن طريق الاستبداد.

ويحكى السيوطى أن الخليفة الهادى قد أباد فى بغداد خمسة آلاف من الفلاسفة حتى يصل لهدم مبدأ العلوم فى البلدان الإسلامية. ومع افتراض أن هذا المؤرخ قد بالغ فى عدد الضحايا، فلن يبقى مؤكداً على الأقل من هذا سوى أن هذا الاضطهاد قد وقع، ويا لها من مهمة دموية لتاريخ ديانة ما مثلما هى لتاريخ شعب. سيمكننى أن أجد فى ماضى الديانة المسيحية وقائع مماثلة. فالديانات من بعض ما أشرنا إليه، تتشابه جميعها. فلا يمكن أن يكون هناك اتفاق أو مصالحة بين هذه الأديان والفلسفة. إذ يفرض الدين عقيدته وإيمانه على الإنسان، بينما تعمل الفلسفة على أن يتجاوز ذلك كله أو بعضه. فكيف نريد بعدئذ أن يتفاهما فيما بينهما؟

عندما دخلت الديانة المسيحية فى أشكالها الأكثر تواضعاً والأكثر جاذبية إلى أثينا والإسكندرية واللتين كانتا - كما يعرف الجميع - المعقلين الرئيسيين للعلم والفلسفة، كان الاهتمام الأول للديانة المسيحية بعد أن استقرت تماماً فى هاتين المدينتين أن تضع جانباً العلم والفلسفة، محاولة خنقهما معاً بأشواك النقاشات اللاهوتية، لكى تشرح ما هو عصى على الشرح؛ أسرار التثليث، والتجسد وتحول القربان. وظلت دائماً على هذه الوتيرة.

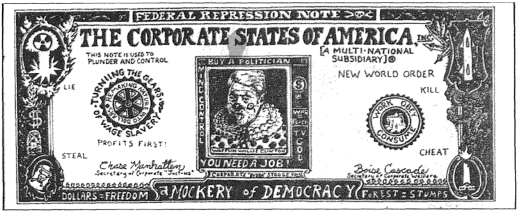
كل إيمان يكون خلفه الدين سوف يمحو الفلسفة، ويحدث العكس عندما تحكم الفلسفة وتكون السيدة الحاكمة.

وطالما وجدت الإنسانية فإن الصراع لن يتوقف بين المبدأ الدوغمائى والاختيار الحر، بين الدين والفلسفة، صراع ضار أخشى منه، فالانتصار لن يكون للفكر الحر، لأن العقل يزعج الجمهور، ولأن تعاليمه لا يفهمها سوى قلة من أذكياء الخاصة، ولأن العلم أيضاً - بكل جماله المعهود - لا يرضى تماماً الإنسانية تلك العطشى للمثال، والتى تحب الزراعة فى المناطق المعتمة والبعيدة والتى لا يستطيع الفلاسفة ولا العلماء إدراكها أو اكتشافها. ■

رينـــــــان



■ أرنست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) ولد فى بلدة ترجويه treguier بفرنسا، وتوفى والده ولم يبلغ بعد الخامسة، فأرسل به إلى التعليم الدينى بهدف أن يصير رجل دين. ويتابع دراسته الدينية بسيمنار القديس نيقولا دى شاردونيه، ثم ينتقل لسيمنار إيسى. وعندما بلغ الثانية والعشرين بدأ فى قراءة الفلسفة وعقب قراءته لهيجل وقع فى أزمة روحية عبر عنها فى ١٨٨٣ فى كتابه «مذكرات الطفولة والشباب». وفى إطار البحث عن يقين خارج إطار الدين يكتب عن «مستقبل العلم»، حيث أراد أن يحل الشعر وعلم الإنسانية مكان الدين. وإلى جانب دراساته فى تاريخ الأديان والفلسفة اهتم بالدراسات واللغات السامية، وكاد أن يحتل كرسى اللغات السامية الذى كان يحتله كاتر مير Quatremere فى الكوليج دى فرانس لولا رفض الكاثوليكيين الذين اتهموه بالهرطقة والإلحاد. يرسل فى الفترة من ١٨٦٠ - ١٨٦١ لمهمة إلى لبنان وفلسطين وهو ما جعله يهتم بكتابة «تاريخ أصول المسيحية»، حيث كان يود إرساء مسيحية عقلية ونقدية. وبموت أخته التى كانت تصحبه فى رحلته يعود إلى فرنسا. يعين أستاذاً للغات السامية إلا أن سرعان ما أوقف عن التدريس بسبب آرائه الدينية الحرة، وإيمانه العميق بالعلم. وعندما عين مسئولاً عن المكتبة الوطنية بباريس يرفض وظيفته الجديدة ويتفرغ للبحث والكتابة والنشر مما كان له أثره فى أن يصبح شخصية عامة يملك نفوذاً أدبياً كبيراً على قرائه، خاصة الشباب منهم، وهو ما ساهم أيضاً فى أن يتم انتخابه عضواً بأهم مؤسستين علميتين: الكوليج دى فرانس، والمجمع العلمى الفرنسى، وأن تكافئه فرنسا بوسام الشرف. ويتسم أسلوب رينان فى الكتابة بالشاعرية، وهو ما جذب المعجبين إليه بأسلوبه هذا الذى لم يكن ينقصه مع ذلك التأمل العميق والكتابة الملحمية والتأثير المتتابع على القارئ والمستمع ودون أن يفقد أسلوبه رقته المعهودة. ومنذ رسالة رينان عن فلسفة ابن رشد والتى حصل بها على الدكتوراة ونشرت فى ١٨٥٢، لم يتوقف رينان عن الكتابة والنشر. فمن مؤلفاته: نشر «تاريخ أصول المسيحية» بادئاً بنشر الجزء الأول منه «حياة المسيح» فى ١٨٦٣، وأنهى نشره فى ١٨٨٣، و«الإصلاح العقلى والأخلاقى» فى ١٨٧١، و«مذكرات الطفولة والشباب» فى ١٨٨٣، و«تاريخ الشعب الإسرائيلى» (١٨٨٧ - ١٨٩٣)، و«مستقبل العلم» فى ١٨٩٠، وأيضاً «الإسلام والعلم» ونشر هذا الكتيب فى ١٨٨٣، وهو أصل محاضرته بالسوربون تحت الاسم نفسه، وهى أصل المناظرة بينه وبين الأفغانى. ■



البشر قبل الأرباح

المأزق "العولمى" لمنظمة التجارة

سلمى حسين

■■ على مدار عمرها القصير، لم تنجح منظمة التجارة العالمية فى إقرار قواعد عادلة للتجارة. أصبحت تلك حقيقة يعترف بها أقطاب الفكر الليبرالى، على طريقة «وشهد شاهد من أهلها»، كما يعانى منها ملايين ممن يعيشون تحت وطأة آثار اتفاقاتها.

ومن المفترض أن تنعقد قمة منظمة التجارة العالمية القادمة خلال شهر أبريل الحالى وسط تكهنات بعدم التوصل إلى اتفاقيات مرضية فى الملفات المختلفة. حيث تدور المفاوضات منذ ثلاث سنوات لإقرار مزيد من الإجراءات التى من شأنها الدفع قدما بتحرير تجارة السلع الزراعية والصناعية والخدمات. كان آخرها هو ما يسمى بالمؤتمر الوزارى السادس، بهونج كونج فى ديسمبر ٢٠٠٥. ويعتبر المؤتمر القادم بمثابة مؤتمر تكميلى لذلك الأخير.

قامت تلك المنظمة عام ١٩٩٥، بديلا عن الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة، والمعروفة اختصارا بالجات. وصار مدير الجات وقتئذ، بيتر ساذر لاند (وهو الآن رئيس عملاقة البترول بريتش بتروليم)، هو نفسه المدير المؤسس لمنظمة التجارة العالمية. وبالرغم من أن المنظمة تقوم على مبدأ حرية التجارة المطلقة، وأن هذا المبدأ هو السبيل إلى تحقيق النمو والتنمية والقضاء على الفقر والبطالة، كما يوضح موقعها على الإنترنت، إلا أن الواقع يقول بغير ذلك. الواقع يقول بأن أهلا بفتح الأسواق طالما كان ذلك فى صالح الشركات «أ» العملاقة، المتمركز معظمها فى دول غنية. ولا أهلا به ولا سهلا إذا كان ذلك فى غير صالحها.

ويبرز هذا التناقض بين المبادئ المعلنة والاتفاقيات المبرمة، أشد ما يبرز فى اثنتين من الاتفاقيات، تمسان بشكل مباشر ليس فقط رفاه الإنسان بل حياته ذاتها. وهما اتفاقية الزراعة واتفاقية حماية الملكية الفكرية، خاصة ما يتصل منها بصناعة الدواء.

كما تعزز آلية صنع القرار من وضع، تكون الغلبة فيه لصالح الأطراف الأقوى، وهى الدول التجارية الكبرى ومن ورائها الشركات متعددة الجنسيات. والنتيجة حتى الآن، كما تشير الأرقام، هى تنمية غائبة، أو مغيبة. وفى المقابل، حركة صاعدة مناهضة للعولمة، بحثا عن «عالم أفضل ممكن»، «حيث البشر قبل الأرباح»، كما تقول شعاراتهم.

إفقار صغار المزارعين

يعيش أغلبية سكان العالم النامى على الزراعة بشكل مباشر أو غير مباشر. ويوجه ٩٠٪ من الناتج الزراعى فى العالم للاستهلاك المحلى، فلا يدخل فى التجارة العالمية سوى ١٠٪ فقط من ذلك الناتج. ومن ثم يدفع العديد من المنظمات الفلاحية فى العالم بأن تخرج الزراعة من مفاوضات منظمة التجارة العالمية، حيث إن الزراعة ليست مجرد قطاع إنتاجى، بل هى نمط حياة متكامل ينبغى الحفاظ عليه.

من ناحية أخرى، ازداد عدد من يعانون من سوء التغذية بـ ٢٦ مليون نسمة ليبلغوا ٨٥٢ مليونًا خلال الفترة ١٩٩٧- ٢٠٠٢. يعيش ثلاثة أرباعهم فى المناطق الريفية، ومعظمهم من الفلاحين. تؤوى أفريقيا جنوب الصحراء وحدها ما يقرب من ربعهم.

تلك القارة المغبونة، توالى انخفاض نصيبها من التجارة العالمية وذلك بسبب انخفاض الأسعار العالمية للمواد الزراعية التى تستطيع أن تصدرها. فقد بلغ ١.٦٪ فى ٢٠٠٤، مقابل ٢٪ عام ١٩٩٠. و ٣.٥٪ فى الثمانينيات. وذلك على الرغم من زيادة الصادرات الزراعية فى مجموع الدول الأفريقية من ٤ إلى ٦.١ مليار دولار، خلال الفترة من ١٩٩٥-٢٠٠٣. كما زادت بشكل عام معاملاتها التجارية مع العالم الخارجى، حيث مثلت المبادلات التجارية أكثر من نصف الناتج المحلى الإجمالى الأفريقى فى عام ٢٠٠٣، فى حين كان المتوسط العالمى لهذه النسبة ٤١.٥٪، وكانت النسبة فى الولايات المتحدة ١٩٪ وفى الاتحاد الأوروبى ١٦٪ فقط.

ورغم ما سبق، إلا أن الفجوة الغذائية فى الدول الأفريقية (أى الفرق بين ما تستهلكه وما تنتجه) قد زادت أيضا من ٢.٩ مليار إلى ٤.٣ مليار دولار، خلال الفترة ١٩٩٥-٢٠٠٣.

إلام يعزى هذا الوضع البائس والمغلوط؟ فى الحقيقة، لا يمكن تبرئة اتفاقات منظمة التجارة العالمية الخاصة بالزراعة. والتى صاغتها فى الحقيقة مجموعات الضغط من كبار المزارعين فى دول الشمال. ويحكى آرفيند باناجاريا، المفكر الاقتصادى الليبرالى، قصة «اتفاقية الزراعة» والتى دخلت حيز التطبيق فى ١٩٩٥. ففى البداية، لم تكن التجارة العالمية فى المنتجات الزراعية تدخل ضمن دائرة اهتمام الاتفاقية العامة للتجارة والتعريفات (الجات). وذلك حتى بداية جولة مفاوضات أورجواى والتى انتهت فى ١٩٩٤ بحزمة من الاتفاقات، من بينها «اتفاقية الزراعة». استطاعت حتى ذلك الوقت، عبر السنوات، مجموعات الضغط الزراعية فى الدول الغنية أن تنتزع، من حكومات الشمال، الدعم لمنتجاتها كما ضغطت على تلك الحكومات أن تحمى السوق الداخلية من السلع المنافسة. ونجح مفاوضو تلك الدول بتثبيت هذا الوضع فى

ازداد عدد من يعانون من سوء التغذية بـ ٢٦ مليون نسمة ليبلغوا ٨٥٢ مليونًا خلال الفترة ١٩٩٧- ٢٠٠٢ . يعيش ثلاثة أرباعهم فى المناطق الريفية، ومعظمهم من الفلاحين. تُؤوى أفريقيا جنوب الصحراء وحدها ما يقرب من ربعهم

إطارالجات. ولم تعارض الدول النامية وقتها هذا الوضع، ظنا منها أن الأهم من النفاذ إلى الأسواق الزراعية، هو أن يتحصل الدول النامية على نفاذ للأسواق الصناعية الغنية. حيث يقال أن التنمية وليدة التصنيع.

وورثت منظمة التجارة العالمية عن الجات اتفاقية الزراعة المعمول بها حتى الآن، والتى تسمح للدول الغنية باستمرار الدعم الديناصورى الحجم (وليس المآل) للقطاع الزراعى رغم أن هذا الأخير لا يمثل إلا ٢٪ فقط من الناتج المحلى الإجمالى لديها. ينقسم هذا الدعم وفق تعريف المنظمة إلى دعم «حميد»، فيما يسمى بالصندوق الأخضر، وآخر «يحسن تخفيضه» فيما يسمى بالصندوق الأزرق وثالث «خبيث»، وهو الصندوق الأصفر. وتقضى الاتفاقية بإلغاء الدعم الخبيث وتخفيض الدعم المقدم فى الصندوق الأزرق. ولكنها رغم ذلك لم تفرض على الدول أية جداول زمنية أو مواعيد نهائية للتخفيض، ولا أى نسب لتلك التخفيضات.

هذا، وتقدر دراسة أعدتها الإدارة الأمريكية للزراعة أن إلغاء الدول الغنية لدعمها الزراعى سوف يؤدى فى حد ذاته إلى زيادة قيمة الصادرات الزراعية للدول الفقيرة بـ٢٤٪، ناهيك عما يؤدى إليه ذلك من آثار إيجابية على التصنيع وخلق فرص العمل.

ولكن تجدر الإشارة إلى أن الدول الغنية تتحايل على تخفيض الدعم، وذلك عن طريق تخفيض الدعم الذى يصب فى الصندوق الأزرق، وتقوم بالتوازى بزيادة ذلك الدعم الذى يصب فى الصندوق الأخضر. وعلى هذا فقد انتهى مؤتمر هونج كونج بتعهدات أوروبية وأمريكية بتقليص هزيل لدعمهما التصديرى (يقع معظمه فى الصندوق الأزرق). سوف يدفع الاتحاد الأوروبى على أثره لكبار مزارعيه ٥٥ مليار دولار فقط(!!) فى العام القادم.

ويأتى على رأس تلك الدول الداعمة للزراعة: الولايات المتحدة وأوروبا واليابان. ويتميز الدعم الذى يقدمونه للقطاع الزراعى - والذى تقره وتباركه منظمة التجارة العالمية- فضلا عن ضخامته، بأنه مشوه للتجارة العالمية. إذ ينصب الدعم أو أغلبه، على المحاصيل الموجهة للتصدير، مما يمكن تلك الدول من بيعها فى الأسواق العالمية بأسعار زهيدة، دافعة السعر العالمى إلى الانخفاض.

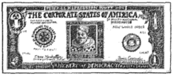
ويثير هذا الدعم أكثر من مشكلة: فهو من جانب، يضع الدول النامية والفقيرة عموما، صاحبة ميزة نسبية فى الحاصلات الزراعية، فى منافسة غير شريفة، كما أن السعر العالمى غالبا ما يصبح غير اقتصادى بالنسبة لتلك الدول النامية، مما يدفعها باستمرار لتقليص إنتاجها.

كما تسمح «اتفاقية الزراعة» بمعدلات حماية مرتفعة جدا لأسواق الدول الغنية، وذلك عن طريق فرض وتطبيق معدلات تعريفة جمركية عالية، تماثل خمسة أضعاف التعريفات الجمركية التى تفرضها على السلع الصناعية. وأخيرا، تخصص الدول الغنية حصصا كمية ضئيلة لدخول المنتجات الزراعية إلى أراضيها، مما يحول دون الدخول الحر لسلع الدول النامية الزراعية إلى أسواق تلك الدول الغنية. وفى هذا الإطار، تفرض اتفاقية الزراعة «حدا أدنى» من كميات المنتجات الزراعية يجب السماح بدخوله إلى الدول الغنية. واختارت الدول الغنية، طريقة ملتوية لتنفيذ هذا البند. وذلك بأن تسمح بدخول هذا الحد الأدنى من المنتجات الزراعية، على أن ترتفع التعريفة تلقائيا على أى كمية تتجاوز هذا الحد الأدنى، بما يمنع عمليا دخول أى حصص إضافية.

وحاليا ينادى الاتحاد الأوروبى منظمة التجارة بالسماح لـ ٩٧٪ من المنتجات القادمة من الدول الأقل نموا بالدخول إلى الأسواق الغنية، «بدون أى حصص كمية وبدون جمارك Duty free - Quota free». ويبقى من حق كل دولة استثناء ما تراه من منتجات، من تطبيق هذا الاقتراح، وذلك فى حدود الـ ٣٪ الباقية. وهو اقتراح ظاهره الرحمة باطنه العذاب، كما يشرح جوزيه بوفيه الفرنسى القيادى بالحركة الفلاحية العالمية فيا كامباسينا. إذ أن رغم كل المساوئ السابق ذكرها، فإن نظام الحصص يتيح للدول الفقيرة حدا أدنى من التصدير إلى الدول الغنية. فإذا ألغيت الحصص، مع استمرار الدعم المشوه للتجارة، (والذى من شأنه الإبقاء على أسعار دول الشمال منخفضة)، وعليه فلن تتمكن تلك الدول من التصدير إلى الشمال.

الهجوم المضاد

ولكى تكتمل الصورة، فتجدر ملاحظة أن الدول النامية قد دُفعت، خلال العشر سنوات الماضية، إلى تحرير القطاع الزراعى وفتح أسواقها وذلك من خلال برامج التكيف الهيكلى تحت إشراف البنك الدولى. وهكذا، استطاعت الدول الغنية اقتحام تلك الأسواق بمنتجاتها بالغة الرخص. مهددة بذلك الزراعة المحلية فى عقر دارها. ولعل المثال فى مصر بارز، فيما يتعلق بالقمح، حيث آثر صانعو السياسة الزراعية تخفيض الكميات المزروعة قمحا، نظرا لارتفاع تكاليف إنتاجه عن الأسعار العالمية، وشراءه من الخارج، وخاصة القمح الأمريكى الذى يحظى بدعم تصديرى ضخم، مما يجعله الأرخص ثمنا.



وفى دراسة عن الملف الزراعى، أعدتها منظمة أوكسفام العالمية، غير الحكومية، جاء الأرز مثالا للغبن الذى تخلفه اتفاقية الزراعة. فهو الطعام الرئيس لملايين البشر، و يزرع ٩٠٪ من إنتاجه بالدول النامية. وعلى الجانب الآخر من العالم، تمنح الدول الغنية (الاتحاد الأوروبى والولايات المتحدة واليابان) دعما لمزارعى الأرز، بلغت قيمته فى عام ٢٠٠٢وحده، ١٦ مليار دولار، مما مكن دولة مثل الولايات المتحدة، ثالث مصدر عالمى أن يبيع الطن بـ٢٧٤ دولارًا، فى حين أن تكلفة إنتاجه الحقيقية ٤١٥ دولارًا.

وعليه، دخل الأرز الأمريكى دولة مثل غانا، منافسا للزراعة الرئيسية بها، مهددا بذلك حياة شعبها الفقير، حيث يحصد الفلاح التقليدى، فى السنة ٢٥ جوالا من الأرز، تكفل حصيلة بيع ٩ منهم سداد مصاريف مدرسة أبنائه، ويستطيع أن يعالج أصغرهم ببيع جوال إضافى.

إلا أن الأهم، والذى نادرا ما يثار، هو أن ذلك الدعم لا يذهب إلى عموم الفلاحين الأوروبيين والأمريكان، بل يذهب جله إلى الشركات العملاقة ذات القدرات العملاقة على الإنتاج والتصدير. ففى الولايات المتحدة مثلا، كانت دائما شركة Riceland Food، صاحبة أكبر مصنع أرز فى العالم هى المستفيد الأول من دعم الأرز. وبالمثل، يستغيث جورج نايلور، رئيس التحالف الوطنى للزراعة العائلية بالولايات المتحدة، بسبب تلك الممارسات. حيث يحصل عدد ضئيل من الشركات الكبرى المنتجة للمحصول الأول للبلاد وهو الذرة، على نصيب الأسد من الدعم، مما يمكنها من بيع إنتاجها الغزير بسعر هو فى الحقيقة ربع السعر الذى كان سائدا فى السبعينيات. مما يدفع بصغار المنتجين، حيث يسود النمط العائلى للزراعة، إلى مضاعفة إنتاجهم للحفاظ على نفس مستوى دخولهم من ثلاثين عاماً. وذلك عن طريق الوقوع فى دائرة مفرغة من الاستدانة من البنوك، التى عادة ما تؤدى بهم إلى الإفلاس والخروج من حلبة المنافسة الشرسة. ولا يختلف الوضع فى أوروبا، حيث يذهب ٨٠٪ من الدعم الزراعى إلى الأغنياء وكبار المزارعين.

ويضرب القطن مثالا آخر، حيث تنخفض أسعاره العالمية عاما وراء عام، مما يلقى بالملايين من المزارعين فى الدول الأقل نموا، فى بحار لا نهائية من الفاقة والجوع. ففى أفريقيا وحدها يعيش من ١٥ إلى ٢٠ مليون نسمة على زراعة القطن. وتصل عوائد تصديره إلى ٩٠٪ من دخول ٤ دول أفريقية، هى من أفقر الدول فى العالم، وهى بنين، مالى، تشاد وبوركينا فاسو. حيث تجعله نوعيته المتميزة أحد القطاعات القليلة القادرة على المنافسة العالمية. ولكن مع الأسف، تتعرض تلك الزراعة إلى القتل العمد، على يد الولايات المتحدة الأمريكية، التى تدفع إلى ١٥ ألف منتج من عمالقة إنتاج القطن بها ما قيمته ٥ مليارات دولار سنويا، تمثل نصف مجموع الدعم الممنوح للقطن عالميا. هذا الدعم ومن ورائه الدعم الأوروبى، يساعد على إغراق الأسواق العالمية بفائض إنتاج، دافعا السعر العالمى إلى أسفل.

فقدت مالى وحدها - وهى



البشــر قبــل الأرباح

واحدة من الدول الأشد فقرا فى العالم- دخلا يقدر بـ ٤٣ مليون دولار عام ٢٠٠٤ جراء هذا الوضع.

وعلى الرغم من أن تلك الدول الأربع قد نجحت فى فرض ملف القطن كملف مستقل عن ملف الزراعة فى منظمة التجارة العالمية منذ مؤتمر كانكون، نظرا للطابع الإنسانى الذى يميزه، إلا أنه خلال العامين الماضيين لم يتم تقديم أى جديد لهم. وإذا صح ما قالته مفوضة الزراعة الأوروبية كريستين لاجارد، من أن «ملف القطن الأفريقى هو اختبار مصداقية لما تنادى به المنظمة من دور تنموى»، فقد فشلت المنظمة بامتياز فى هذا الاختبار، خاصة أن المؤتمر الوزارى الأخير الذى انعقد من ١٣-١٨ ديسمبر ٢٠٠٥، فى هونج كونج، قد رفع شعار «الأولوية لحزمة تنمية للدول الأقل نموا»، إلا أنه انتهى بدون أن تلتزم الولايات المتحدة بإنهاء دعمها للقطن، ولا دفع تعويضات عن الخسائر الأفريقية. ثانيا: اتفاقية التجارة المتعلقة بحماية الملكية الفكرية: هنا أيضا تأتى كلمة «حماية» لتناقض مبدأ «التحرير» الذى تقوم عليه المنظمة. فالاتفاقية المشهورة بالـ«تريبس» وهى منطوق حروف اختصارها بالإنجليزية، تقوم على فرض حماية على براءات الاختراع تمتد إلى عشرين عاما. تمنع خلالها شركات الدواء العملاقة أى شركة أخرى من إنتاج دواء مشابه لما ابتكرته. وتحتفظ بسرية بيانات «دوائها»، مما يسمح لها بفرض السعر الذى تريده. حاصدة بذلك مليارات الدولارات من الأرباح.

الشركات العملاقة تعترض الطريق

وقد بات من المعروف أن صيغة هذا الاتفاق قد وضعتها، فى الستينيات من القرن العشرين، مجموعة من عمالقة الدواء الأمريكية، وقدمتها للممثل التجارى الأمريكى، الذى نجح بدوره فى إقرارها ضمن اتفاقات الجات.

ويعتبر وباء الإيدز الذى منيت به القارة الأفريقية، حالة نموذجية للمستتبعات اللا إنسانية لاتفاقية التريبس. ففى الوقت الذى كانت الأمم المتحدة وغيرها تعمل مع حكومات أفريقية وآسيوية والبرازيل لوقف انتشار المرض، لنر ما الذى سعى إليه عمالقة الأدوية. يذكر والدن بللو أستاذ الاقتصاد بجامعة الفلبين، وصاحب مؤلفات عديدة عن عولمة الشركات العملاقة، Corporate globalization فى خطابه أمام الأمم المتحدة فى يوليو ٢٠٠٤، أن شركات الأدوية سعت لدى الحكومة الأمريكية حتى تضغط هذه الأخيرة على جنوب أفريقيا، باستخدام أدوات مثل تخفيض المساعدات والمنح، وذلك حتى ترغمها على أن تتراجع عن فرض قانون جديد يقضى بالترخيص الإجبارى (الذى يلزم الشركات الكبرى بإعطاء ترخيص بتصنيع بدائل رخيصة للأدوية للدول التى تعانى من انتشار أوبئة، مثل حالة الإيدز فى جنوب أفريقيا). كما هددت تلك الشركات نفسها حكومة جنوب أفريقيا أن تقاضيها بتهمة التعدى على حقوق الملكية الخاصة بها.

وفى ٢٠٠١، فى خطوة ساهمت فى إنجاح مؤتمر الدوحة، تبنت منظمة التجارة العالمية بيانا تؤيد فيه أن هموم الصحة العامة ينبغى أن تجب حقوق الملكية الفكرية. عندها أنفقت الشركات العملاقة العامين التاليين فى محاولة إضعاف هذه الاتفاقية. وذلك عن طريق الضغط على مختلف الدول أعضاء المنظمة، للموافقة على تضمين الاتفاقية شروطا تصعب عملية بيع أدوية الإيدز البديلة التى تنتجها الدول النامية القادرة على صناعتها، إلى تلك الدول التى لا تستطيع إنتاجها. وقد كان، فقد صدرت الاتفاقية، قبل مؤتمر هونج كونج بأسبوع واحد، بذات الشروط التعجيزية، التى أرادتها الشركات العملاقة، مع تعديلات طفيفة، ذرا للرماد فى العيون..

المنطق الذى يقدمه كبار منتجى الأدوية، هو أنه بدون الحماية الكبيرة التى يفرضونها على إنتاجهم من الأدوية، وبدون الأرباح المهولة التى يحصدونها نتيجة هذه الحماية، لما استطاعت الشركات الإنفاق على البحوث والتطوير. وتعليقا على ذلك، يقول والدن بللو: «عندما تسمع من منظمة الصحة العالمية أن معظم الأدوية الخاضعة لحقوق الملكية الفكرية تتداول بأسعار تفوق من ٢٠ إلى ١٠٠ مرة تكلفة تصنيعها، فلا تدع عقلك يجن. فقط تذكر أننا لسنا بصدد أسعار تتحدد وفقا لظروف السوق، وإنما هى أسعار ناتجة عن احتكار الشركات، حتى تستطيع توفير نفقات البحث والتطوير».

والنتيجة أن مرض الإيدز قد حصد أكثر من ٢٠ مليون نسمة. ويعتبر المسبب الأول للموت فى أفريقيا جنوب الصحراء، كما يعتبر رابع مسبب للموت على مستوى العالم. حيث يعيش ٩٥٪ من حاملى فيروسه القاتل، فى دول ذات دخل منخفض أو متوسط. ولهذا الوباء عواقب كارثية ليس فقط على المستوى الإنسانى، بل والاقتصادى أيضا، إذ يقضى على الأيدى العاملة، مخلفا وراءه الفقر وعدم العدالة فى توزيع الدخول، خاصة بسبب تكلفة العلاج الباهظة. فالعلاج يعادل من ضعفين إلى ثلاثة أضعاف متوسط دخل الفرد فى الدول الفقيرة.

وفى النهاية، إذا تساءل أحدهم: وكيف يتم تمرير تلك الاتفاقيات فى منظمة تضم الآن ١٥٠ عضوا، ويملك جميع أعضائه أصواتا متماثلة، بل ويملك كل عضو حق الفيتو على أى قرار قد يراه ضد مصلحته؟ يكون السؤال مشروعا ومنطقيا.

تكمن الإجابة فى الحقيقة فى آلية صنع القرارات فى المنظمة، وهى آلية عديمة الشفافية وغير ديمقراطية، كما تؤكد الشواهد التالية.

الإصرار على لغة الألغاز

أولا، الاجتماعات الفنية فى مقر المنظمة: وهى اجتماعات يحضرها خبراء فنيون اختصاصيون، ونادرا ما يحضرها وزراء التجارة. حيث يلتقون فى جنيف لمناقشة مشروعات تتعلق بالتجارة، مقدمة فى مختلف القطاعات من زراعة وصناعة وخدمات. وفيها يتم تعديل الصيغات المختلفة لتحرير هذا القطاع أو ذاك (أو لحماية هذا القطاع أو ذاك وفقا لمصالح الدول الغنية وبالذات الشركات العملاقة).

وهنا تجدر الإشارة إلى أن تلك الصيغ هى أشبه بلوغاريتمات، أو شفرات ورموز تذكرك بتلك التى تراها فى مسلسلات المخابرات. فلا يكون فى مقدور أى أستاذ اقتصاد غير متخصص فك طلاسمها، فما بالك بصحفى أو عضو مجلس شعب أو مواطن عادى من حقه متابعة سيرورة المفاوضات المتعلقة باتفاقيات تمس انعكاساتها حياته بشكل مباشر.

ثانيا، المؤتمرات الوزارية: وهى أعلى آلية لاتخاذ القرار. يقر وزراء التجارة فيها ما تم التفاوض بشأنه خلال عامين من صيغ مختلفة لفتح الأسواق أو تخفيض التعريفات الجمركية. وتمتد المفاوضات خلال خمسة إلى ستة أيام، تحدث على أثرها أكبر التنازلات وتمارس خلالها أشد الضغوط على الأعضاء المختلفين، ولكن بطبيعة الحال، تشتد الضغوط أكثر على الأطراف الأضعف. وهناك نوعان من الاجتماعات خلال المؤتمرات الوزارية:

- الجلسات العلنية:

تلتقى خلالها الدول الأعضاء بالمنظمة خطابات تمثل مواقف عامة، كل دولة فى دقيقتين، تبدأ فى أثناء الجلسة الافتتاحية، وتتوالى تلك الجلسات على مدى أيام المؤتمر الوزارى. وبينما تُلقى الخطب فى القاعات تحت سمع وبصر أجهزة الإعلام، تدور المفاوضات الحقيقية خلف أبواب مغلقة، فيما يعرف بالغرفة الخضراء. ولا يلتقى الأعضاء المائة والخمسون معا إلا أثناء الجلستين الافتتاحية والختامية للمؤتمر الوزارى.

الدعــم لا يذهــب إلى عمــوم الفلاحــين الأوروبيــين والأمريكـــان، بــل يذهــب جلــه إلــى الشــركات العــملاقــة ذات القــدرات العمـــلاقة علــى الإنتـــاج والتصـــديـر

- الغرفة الخضراء:

هو اسم مجازى، يطلق على المفاوضات التى يدعو إليها رئيس القمة، وهو عادة وزير تجارة الدولة المضيفة. يدعو فيها من عشرة إلى خمسة عشر وزيرا، للتفاوض حول واحد أو أكثر من الملفات الشائكة التى يراد التوصل إلى اتفاق بشأنها. وهى بالفعل المطبخ الحقيقى لقرارات القمة. ولهذا تلجأ مختلف الدول إلى الانضمام إلى تكتل أو مجموعة تقاربها فى المصالح، أو تبادلها المصالح. ويكون لكل مجموعة متحدث باسمها. لعل وعسى أن يدخل هذا المتحدث إلى الغرفة الخضراء، فيوصل صوتها بالنيابة عنها إلى أكابر الأعضاء، راسمى السياسات.

وهنا يجب التوقف عند أكثر من ملاحظة:

١ - على عكس جلسات الجمعية العمومية للأمم المتحدة حيث يكون من حق أى عضو الحضور والمشاركة، لا يحضر مفاوضات الغرفة الخضراء إلا مجموعة مختارة من الدول المعروف أنها ذات تأثير على هذه المجموعة أو تلك من الدول، وفى كل الأحوال لا يغيب عنها أى من القوى التجارية العظمى، وعلى رأسها الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى واليابان.

٢ - لا يستطيع أى عضو من خارج الغرفة الخضراء الاطلاع على مسار المفاوضات. فجميع الأعضاء الذين لا يدخلون الغرفة الخضراء محرومون من الاطلاع على مختلف الآراء والمقترحات والتعديلات فى الصيغ التى يتم التفاوض بشأنها، والتى تصبح فى نهاية الأمر الصيغ النهائية التى يقرها المؤتمر الوزارى. وذلك أيضا بعكس ما يحدث فى الجمعية العمومية للأمم المتحدة، حيث تنشر مواقف كل الدول، وكل التعديلات المقترحة ومن اقترحها وكل ذلك على لوحة مخصصة لهذا الغرض.

وأما عن حق الفيتو، فلم تستطع أى دولة استخدامه حتى الآن، إذ يبدو أن الدول الضعيفة، تخاف أن تتحمل وحدها وزر فشل المؤتمر الوزارى. إذ أن كل فشل ينتقص من سمعة المنظمة، ويهدد وجودها.

مصير جولة الدوحة

وأخيرا، ما زال القائمون على المنظمة يدافعون عن مبادئها، دافعين إلى الأمام عجلة تحرير. فقط - القطاعات التى تدعو إلى فتحها الشركات العملاقة. والدور الآن على الخدمات، مثل مياه الشرب والرى، والتى يعتبرونها سلعة يجب أن تباع بسعر مجز، حتى تستطيع تلك الشركات الاستمرار فى تقديم تلك «الخدمة». وأيضا السلع الصناعية، حيث مطلوب من الدول النامية والفقيرة، المزيد من فتح الأسواق، كى تستعر المنافسة بين السلع المحلية والمستوردة، فالمنافسة ترفع الجودة المحلية. ويستحسن ألا تقربوا الزراعة، وأنتم تتكلمون عن المنافسة. فهل تنصاع الدول النامية فتتنازل عن مطالبها فى الزراعة، أم توقف دولاب المفاوضات فى المجالات الأخرى طالما لم يواكبها تحرير القطاع الزراعى؟ يظل السؤال مطروحا ما بقيت رحى المفاوضات دائرة. ففى الشهور القادمة، وحتى نهاية العام ٢٠٠٦، يفترض أن يتوصل الأعضاء المائة والخمسون فى منظمة التجارة العالمية إلى حزمة جديدة من الاتفاقات فى المجالات الزراعية، الصناعية والخدمية، فيما يسمى بـ «جولة الدوحة للتنمية». وبرغم كل الأوضاع الظالمة التى ترتبت على الاتفاقيات المعمول بها منذ ١٩٩٥، إلا أنه من المستبعد تماما التوصل إلى اتفاق عادل، يرد لدول الجنوب بعضا من حقوقها، وخاصة فى الملف الزراعى. وذلك، طالما بقيت تلك المنظمة خاضعة لعلاقات القوى التى تفرضها الشركات العملاقة. ■

لقراءة المزيد حول الموضوع:

(١) Foreign Affairs, Special edition on WTO "Freer Trade?", <<New York>>, , December ٢٠٠٥.

(2) Le Monde Diplomatique, Paris, December 2005.

(3) The Economist, 5-11 November 2005.

(٤) والدن بللو، خطاب فى يوم الإيدز أمام الأمم المتحدة، يوليو ٢٠٠٤ .

(٥) مقابلات شخصية مع جوزيه بوفيه، فلاح فرنسى من حركة فيا كامباسينا. ومارتن كور، مدير المنظمة غير الحكومية «شبكة العالم الثالث»، ومقرها ماليزيا.

(٦) أوراق وبيانات مختلفة صادرة عن منظمات أوكسفام و Focus on Global South، أثناء انعقاد المؤتمر الوزارى السادس، هونج كونج، ١٣-١٨ديسمبر ٢٠٠٥ .

(٧) فضح التريبس، المجموعة المصرية لمناهضة العولمة، القاهرة، ٢٠٠٥ .



مصر في رسائل فلوبير

عماد الغزالي

إدوارد سعيد اعتبر علاقة فلوبير بـ «كوشك هانم» نموذجًا صارخًا لعلاقة الغرب المسيطر بالشرق المغلوب على أمره

■■ قد يبدو مدهشًا إلى حد الاستنكار، أن تحظى «كوشك هانم» بهذا القدر من الاهتمام فيما يرويه «فلوبير عن مصر»، إلى حد الوصف الدقيق للزى والرقصة وأركان المنزل، وللساعات الحميمة التى أمضاها فى ضيافتها، فيما يمر عابراً فى أحيان كثيرة، فوق تفاصيل اجتماعية وسياسية أخرى، وكأنها تجرى بعيداً عن مرمى بصره. لكن بالنظر إلى طبيعة الرجل النزقة، وشراهته الجنسية البادية فى كتاباته، ومزاجه الفنى المغاير بالتأكيد لمزاج باحث أو انثروبولوجى أو أثرى من هؤلاء الذين زاروا مصر قبل فلوبير وبعده، فإن الاهتمام بـ «السيدة الصغيرة» كما يعنى اسمها بالتركية يبدو منطقياً، فقد عرف «فلوبير» الذى كان فى الثامنة والعشرين حين غادر فرنسا إلى مصر (١٨٤٩) للقيام برحلة طويلة حول الشرق، بانغماسه فى الشهوات، واعتاد منذ سنوات مراهقته الأولى أن يهيم بسيدات أكبر سنًا منه، كما كان كثير التردد على بيوت الدعارة وبنات الهوى، يقول هو نفسه: قد يكون هذا ذوقًا منحرفًا، لكننى أحب الدعارة ولذاتها، يشرع قلبى فى الخفقان كلما رأيت النسوة يسرن تحت ضوء المصابيح فى المطر فى ثيابهن المكشوفة. فكرة الدعارة هى موضع التقاء العديد من العناصر: الشهوة، المرارة، الغياب التام للتواصل الإنسانى، يتعلم الإنسان كثيراً فى بيت الدعارة، ويشعر بذلك الحزن، ويحلم بالحب بتوحد عظيم.

وكوشك هانم سيدة سورية الأصل، راقصة من أشهر بنات الهوى فى زمنها، قيل أنها كانت عشيقة عباس باشا (عباس الأول) حين كان محافظًا للقاهرة، وحين اكتشف خيانتها لفظها، بعد أن أوسعها ضرباً بالسياط لأيام متتالية، بعدها، أثثت بيتًا، كان مقصداً لمحبى الغناء والموسيقى والمتعة وخصوصاً بين الرحالة الأوروبيين، وقد التقاها فلوبير وصديقه «مكسيم» فى إسنا التى أجبرت على الرحيل إليها بعد أن أصدر محمد على باشا فرمانًا فى العام ١٨٣٤، بطرد العاهرات من العاصمة، وتهجيرهن إلى إسنا وقنا وأسوان، وهو أمر أسف له «فلوبير» كثيراً فى واحدة من رسائله إلى «لوى بويى»، صديقه الذى اعتاد أن يرسل له عن رحلته إلى الشرق: لم نر للآن أياً من الراقصات هنا، كلهن منفيات فى الوجه القبلى، لم يعد هناك وجود لبيوت دعارة جيدة فى القاهرة، الحفلة التى كان مقرراً أن نقيمها فى النيل أخفقت، غير أننا شاهدنا راقصين من الرجال: آه.. آه.. آه (...) تصور وغدين فى غاية البشاعة، لكنهما فاتنان فى فسادهما، فى نظراتهما الشذراء وحركاتهما الأنثوية، يرتديان ملابس النساء وعيونهما مكحلة، ومن حين لآخر كان قائد الفرقة أو القواد الذى جلبهما يقوم بالعزف حولهما، يقبلهما على البطن، المؤخرة، فى الظهر، ويقوم بحركات بذيئة محاولاً وضع توابل إضافية إلى شىء واضح فى حد ذاته، أشك فى أننا سنجد النساء بمثل جودة الرجال، سأطلب من هذا الرائع «حسن البلبيسى» أن يعود ثانية، سيرقص النحلة على وجه الخصوص.

رقصة النحلة كما سماها «فلوبير» كان لها مذاق مختلف حين أدتها كوشك هانم أمامه وقد تخففت تقريباً من كل ملابسها، كما يصف رقصة أخرى أدتها كوشك بأنها قاسية، إذ تعتصر بسترتها نهديها العاريين، وتنهض على قدم واحدة وقد أطلقت الثانية فى الهواء لتتحرك فى كل الاتجاهات.

وبكثير من التفصيل، يصف كوشك فى موضع آخر: طويلة، مخلوقة رائعة، لون بشرتها أكثر بياضًا من أى عربية، بشرتها، خاصة جسمها، بلون القهوة قليلاً، حين تنحنى يتموج لحمها فى سلسلة برونزية، عيناها سوداوان واسعتان، جبينها أسود، فتحتا أنفها مفتوحتان واسعتان، كتفان ثقيلان مليئان، ولها نهدان مثل التفاح، كانت تعتمر طربوشًا كبيراً، مزينًا من أعلاه بقرص ذهبى محدب، فى وسطه حجر أخضر صغير، سألتنا إن كنا نريد بعض الترفيه، ماكسى (مكسيم رفيقه) قال إنه يريد أن يسلى نفسه معها أولاً وحده، هبطا إلى الطابق الأرضى، بعد أن ينتهى سأذهب وأقلده. وبرأى «إدوارد سعيد» فإن علاقة فلوبير بكوشك هانم تعد نموذجاً للعلاقة بين الشرق والغرب والتى هى بحسب صاحب «الاستشراق» علاقة القوى المسيطر بالضعيف المغلوب على أمره وفقًا للمفهوم السائد بين الأوروبيين فى القرن التاسع عشر، وهى علاقة سيد بمسود ليست ثمة مساواة بينهما، فقد أشاع فلوبير فى أوروبا بعد لقائه بالغانية المصرية نموذجاً صارخاً لامرأة شرقية لم يتح لها التعبير عن مشاعرها والإفصاح عن شخصيتها أو التحدث عن ماضيها وحاضرها، بل إن فلوبير هو الذى تحدث عنها من موقع السيطرة والهيمنة بوصفه رجلاً أوروبياً ميسور الحال، ولم يكن مركز القوة الذى تمتع به فلوبير إزاء كوشك هانم مجرد لحظات عابرة، بل كان تعبيراً عن المفهوم الشائع فى علاقة القوة النسبية بين الغرب والشرق، وعن الأسلوب الذى يتناول به كل غربى كل ما هو شرقى.

جاء «فلوبير» إلى مصر موفداً من وزارة الزراعة والتجارة لجمع معلومات لصالح الغرفة التجارية الفرنسية، وسرعان ما حلق رأسه أسوة بالمصريين الذين أطلقوا عليه «أبو شنب» بسبب شاربه الكثيف الذى كان يغطى ثغره، وقال فلوبير نفسه إن نساء كثيرات ممن قابلهن فى مصر طلبن منه أن يحلق شاربه ليكشف عن ثغره!

وقبل أن يأتى إلى مصر كان درس القانون لعدة سنوات فى باريس قبل أن يترك الدراسة

- فلوبير فى مصر
ترجمة: صلاح صلاح
أبو ظبى: دار السويدى للنشر، ٢٠٠٥
- مصر فى عيون الغرباء
ثروت عكاشة
القاهرة: دار الشروق، ط ٢، ٢٠٠٣
- رؤية الرحالة الأوروبيين لمصر
إلهام ذهنى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥
- حريم محمد على باشا
صوفيا لين بول
ترجمة: عزة كرارة
القاهرة: دار سطور، ط٢، ٢٠٠٠



لإصابته بنوبات صرع متتالية حالت بينه وبين استكمال دراسته، فهجر الدراسة وكمُن في منزله يكتب الرسائل والقصص القصيرة، وبينها قصة القديس أنطوان، التي تحكي عن قديس معتزل في كهف بالصحراء المصرية، وبسبب هذه القصة، قرأ فلوبير كثيرًا في الكلاسيكيات والعقائد القديمة.

وتكشف أعماله المبكرة كما يقول الدكتور ثروت عكاشة «عن مزاملته الوجدانية لكُتّاب في الرومانسية لهم فيها قدم راسخة»، فاقتدى بهم في الشوق إلى كل ما هو غريب ناء، لا سيما بعد أن قرأ أشعار بايرون ومشرقيات فيكتور هوجو وحكايات ألف ليلة وليلة.

ولعل مقولته تلك «كم أرجو أن أهجر نساء العالم جميعًا مقابل أن أضم إلى صدري مومياء كليوباترا» تعكس هذا الولع الرومانسي بالشرق الساحر، الذي كتب عنه فلوبير قبل أن يراه: انظر وسترى مدنًا من قباب ذهبية، مآذن من الخزف الصيني، قصورًا شيدت من الحمم على قواعد أعمدة مرمرية، أحواض سباحة مؤطرة بالرخام تأتيها السلطانات لغسل أجسادهن ساعة يجعل القمر ظل البساتين أعمق زرقة وماء النوافير الفضي أكثر صفاء وشفافية(...) ثمة أغاني حب في أكواخ القصب هذه، وفي هذه القبور القديمة يخلد ملوك الأزمان الغابرة المتوجون الساكنون، يمكنك سماع النسر يصرخ في السحب، وفي البعيد تقرع أجراس الأديرة، ترى القوافل تشرع في رحلاتها، الأصداف طافية على النهر، الغابات تزداد مساحة والبحر اتساعًا، والأفق ينأى بعيدًا لامسًا السماء ممسيًا واحدًا وإياها، أيها المفكر، تنساب حياتك مثل حلم لشعورك برحيل روحك صوب الضوء وتحليقها في المطلق.

وحين جاء إلى مصر كتب رسالة إلى أمه يقول فيها:

تسألينني عما إذا كان الشرق يرقى إلى الصورة التي تخيلتها له، نعم إنه لكذلك، بل أكثر من ذلك، فالشرق يتجاوز بكثير الفكرة الضيقة التي حملتها عنه، لقد وجدت كل ما كان ضبابيًا في ذهني محددًا تحديدًا واضحًا، واحتلت الحقائق محل الافتراضات إلى درجة هي من الامتياز بحيث إنني غالبًا ما أشعر وكأنني أعثر فجأة على أحلام منسية.

غير أن ما كتبه «فلوبير» عن مصر بعد ذلك يناقض - فيما أرى - هذه المقولة تمامًا، والأرجح أنه حين كتب هذه الرسالة إلى أمه كان واقعًا - مازال - تحت تأثير نزعته ا لرومانسية وأفكار من سبقوه من الرومانسيين إلى الشرق وأسرفوا في الحديث عن سحره، وغموضه وكنوزه، دون أن يلتفتوا إلى واقع الناس وأحوالهم، وهو ما حاوله «فلوبير» الذي لم يسع إلى تسجيل آثار أو اكتشاف حفريات أو التقاط صور فوتوغرافية، كما فعل رفيقه مكسيم مثلاً، وإنما خالط الناس ومشى في الأسواق وتناول طعامه في مطاعم شعبية بالميادين العامة، ومن ثم تبدلت رؤاه واكتسبت مسحة واقعية، ربما كانت عدائية أو محايدة في أحسن الأحوال، حتى إن أحد النقاد قال إن رحلة فلوبير خلعت عنه ثوب الرومانسية وأيقظت فيه روح الأديب الواقعي المعني بالجماهير في حركتها النشطة وضجيجها وصخبها وتفاعلها مع الواقع بكل قسوته وسطوته.

لم يصل «فلوبير» أبدًا إلى المدى الذي وصل إليه الرحالة الإنجليزي «إدوارد لين» صاحب الكتاب الأشهر «المصريون المعاصرون عاداتهم وتقاليدهم»، وقد قرأه فلوبير قبل قدومه إلى مصر، وفي واحدة من رسائله إلى أمه، أوصاها بقراءته كي يمكنها أن تتعرف على البيئة التي يعيش فيها المصريون، وتتخيل حياة ابنها بينهم.

وقد لا يكون من المبالغة اعتبار كتاب لين هو «العمدة» بين كتب الرحالة الذين وفدوا إلى مصر، فالرجل الذي قصد مصر لأول مرة في العام ١٨٢٥، تناول بالتفصيل كل شيء عن حياة المصريين: عاداتهم وتقاليدهم وأسواقهم وعلاقتهم بحكامهم ومناسباتهم الاحتفالية وفنونهم وصناعاتهم وأساطيرهم، وقد جمع كل هذا في ٨ مجلدات بينها ٥ مجلدات تتضمن رسومًا إيضاحية، وقد أدهش لين بني جلدته حين عاد إلى إنجلترا، حيث فوجئوا به يأكل بيديه دون شوكة وسكين، ويخلع حذاءه قبل أن يطأ السجادة التي سيجلس فوقها، ولا يبدأ فعل شيء قبل البسملة، وقد امتنع تمامًا عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير وسمى نفسه منصور أفندي، وفي الوقت الذي تجمع الرحالة الأوروبيون والمستشرقون في حي أكثر نظافة وتنظيمًا وأوفر خدمات من بقية أحياء القاهرة سمي الحي الأوروبي، آثر هو أن يقيم في حي شعبي كي يتسنى له الاختلاط بالناس والتعرف عن قرب على طرائق معيشتهم وعاداتهم.

وقد أفاد «لين» من دراسته للغة العربية قبل قدومه إلى مصر، وحين جاءها تتلمذ على أستاذين درّساه اللغة العربية وأحكام الشريعة، وقد عاد إلى لندن بعد ثلاث سنوات من رحلته تلك (١٨٢٨) دون أن يجد ناشرًا لمؤلفه، ثم جاء مرة ثانية في العام ١٨٣٣ لتحسين كتابه، ثم جاء للمرة الثالثة في العام ١٨٤٢ وكان بصحبته هذه المرة شقيقته صوفيا بول التي أمضت في مصر ٧ أعوام ونشرت رسائلها امرأة إنجليزية في مصر و أبدت فيها قدرًا هائلاً من التعاطف مع النساء المصريات، وقد ساعدت لين في تدوين بعض الملاحظات وساعدها هو بأن وضع تحت تصرفها مجموعة ضخمة من مذكراته اقتبست منها الكثير، ولقي مؤلفها هذا قبولاً كبيرًا في لندن آنذاك، ونشر في مصر تحت عنوان «حريم محمد علي» بترجمة للدكتورة عزة كرارة، وهكذا أكملت شقيقته نقصًا لم يكن متاحًا له أن يستوفيه بوصفه رجلاً محظورًا عليه أن يتغلغل في مجتمع حريم الشرق، على الرغم من أنه أفرد فصلاً كاملاً في كتابه عن حياة المرأة، وتناول بالتفصيل أزياءها وأدوات زينتها وغيرها مما يخص النساء في الشرق.

كان ما ساعد لين على إنجاز مهمته تلك هو تصوراته عن مهمته في مصر.. «زياراتي لمصر ليست للتسلية وزيارة الأهرام والمعابد والإشباع فضول عابر، ولكن لكي ألقي بنفسي بين شعب سمعت عنه روايات متناقضة، أريد أن أتبنى لغتهم وعاداتهم وملابسهم لكي أتمكن من دراسة أدبهم، إن رغبتي هي أن أرتبط ارتباطًا كليًا بسكان مصر من المسلمين».

ولهذا، يحتشد كتاب لين بتفاصيل باهرة عن مساحة القاهرة وسكانها وشوارعها وحاراتها ودكاكينها ودور السكن فيها وأزياء الأثرياء وميسوري الحال وكذلك ما اعتادت الطبقات الشعبية ارتداءه نساءً ورجالاً من ملابس، وهو لا يغفل الحمامات العامة وحوانيت الحلاقة والمقاهي والراقصات.

وبرأي الدكتور ثروت عكاشة فإن ما قام به لين كان عملاً جبارًا يتطلب من الكاتب قدرة فذة على تحرير نفسه من الأفكار المسبقة وذهنًا مؤهلاً للتمييز بين الشكل والجوهر في موضوعات مفرطة التعقيد، ثم القدرة على التعبير عن ذلك كله بحيث يصوره تصويرًا دقيقًا في نفس الوقت الذي ينقل فيه إلى القارئ رؤية جديدة لحقائق مختلفة الأبعاد.

ويضيف عكاشة: وإن كان بين الفينة والفينة يدس بعض التفاصيل الغريبة المتسمة بالعنف والقسوة مثل بقر أحد الدراويش لبطنه عارضًا أحشاءه على صينية متصدرًا موكب زفاف السيد عمر أفندي نقيب الأشراف إعرابًا عن ولائه واحتفاءً بعرسه، ومثل المبالغات الجنسية وليدة إيمانه بأن حرارة الجو خلال موسم الصيف تؤجج طاقة المصريين الجنسية فتدفعهم إلى الإفراط في إشباع شهوتهم والنهل العارم من الملذات الحسية.

و«فلوبير» نفسه يصف في رسائله مشاهد غريبة يصعب تمامًا تصور حدوثها، كأن يضاجع أحد المهرجين امرأة في أحد أسواق القاهرة على مرأى ومسمع من الناس، حيث يمددها على دكة أحد الدكاكين ويبدأ في تعريتها ومضاجعتها لتسلية الجمهور، فيما يواصل صاحب الدكان تدخين غليونه بهدوء.

وعلى سبيل التسلية أيضًا، ترك شاب قردًا كبيرًا يلوطه علنًا ليضحك الناس، يحكي فلوبير أيضًا عن ناسك جاءته النساء من كل حدب وصوب ليحلبن عضوه على سبيل البركة، وأخيرًا مات الرجل إعياء.. «فمنذ الصباح حتى المساء كان الأمر خطا لا ينقطع». ويحدثنا فلوبير أيضًا عن صوفي اعتاد أن يسير عاريًا تمامًا في شوارع القاهرة، وكان يضع طاقية على عضوه، وكلما رفع الطاقية ليبول تجري النساء العاقرات فيضعن أنفسهن تحت قوس بوله ويدلكن أنفسهن به اعتقادًا منهن أن بوله المبروك سيمكنهن من الإنجاب.

كما نرى فإن حكايات «فلوبير» تنطوي على مبالغة ساذجة، وتبرهن أنه - على عكس لين - لم يكن يعرف كثيرًا عن طبائع المصريين وتقاليدهم المحافظة،

فلوبير قرأ ما كتبه إدوارد لين عن عادات المصريين وتقاليدهم، لكنه فشل في محاكاته أو الانغماس في حياة الناس مثله

وأنه ربما أراد أن يسرى عمن يراسله بهذه الأكاذيب التى تؤكد غرائبية الشرق وسحره وكنوز أسراره التى لا تصدق.

بين الإحاطة الشاملة والملاحظات التفصيلية والانشغال المثمر لإدوارد لين بالمجتمع المصرى سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، والرسائل التلغرافية التى تلخص رحلة «فلوبير» إلى مصر فضلاً عن مدوناته العاجلة فى دفتر الجيب، ثمة اجتهادات ورؤى أخرى لرحالة ومستشرقين عديدين، يشى بعضها بميل عاطفى وإنسانى حقيقى، كما ينضح بعض آخر بكراهية واستعلاء عنصرى وعقائدى بغيض، جرى هذا فى مصر كما فى غيرها من بلدان الشرق الذى زاره فى الفترة من ١٨٠٠ وحتى ١٩٥٠ أكثر من ٦٠ ألف مستشرق بحسب ما ذكره إدوارد سعيد.

بين المتعاطفين يمكن الإشارة إلى «جيرار ده نرفال» الذى كان مولعًا بالشرق وبالقاهرة على وجه الخصوص، وقد جاء إليها طلبًا للاستشفاء من اضطراب نفسى شديد ألم به لفرط طبيعته الرومانسية الحالمة، ويعد كتابه «رحلة إلى الشرق» من أهم الكتب الأدبية فى القرن التاسع عشر، والذى على الرغم من رومانسيته، يعد تسجيلاً واقعيًا أمينًا لما رآه وسمعه فى مصر ولبنان وتركيا، وقد كان جيرار متأثرًا بقوة بصاحب «الديوان الشرقى»، جوته، داعيًا إلى تواصل حميم بين روحانية الشرق وعلمانية الغرب، ومدافعًا عن نظام تعدد الزوجات، ورأى أن للمرأة فى الإسلام مكانة لم تحظ بها فى الحضارة الغربية ولا فى أى ديانة أو حضارة أخرى.

آمن جيرار بأن الأديان كلها متشابهة متكاملة وبالإمكان التوفيق بينها تحت راية وحدة الوجود.

وبالنسبة إليه كانت مصر هى أم المعارف وأصل الحضارات، ورأى فى الدين الإسلامى دينًا واقعيًا وإيجابيًا، يتميز بالبساطة والتجرد من الزخارف الطقوسية، ولمس بنفسه حالة من الوفاق بين الإسلام والمسيحية على أرض مصر، ودرجة من التسامح الدينى ندر أن يوجد مثلها فى أوروبا، كما لاحظ أن كل حفلات المصريين وشعائرهم هى مزيج من البهجة المقترنة بالشجن، وأن هذه السمة هى التى صبغت حياة المصريين منذ الأزل، وقد كانت صدمته بالقاهرة للوهلة الأولى فادحة، إذ بدت الصورة مخالفة تمامًا للأجواء التى قرأها فى «ألف ليلة وليلة»، لكنه سرعان ما هام بها، خصوصًا أنه كان مولعًا بالناس وأحوالهم، أكثر من اهتمامه بالآثار والمقابر والمومياوات، وبسرعة خلع رداءه الأفرنجى، وارتدى سروالاً فضفاضًا من القطن الأزرق وصديرية حمراء مطرزة بالقصب الفضى، وتدثر بعباءة واعتمر طاقية بيضاء تحت الطربوش، وقص شعره كله باستثناء شعرة واحدة فى المنتصف، حتى يمكن لملك الموت أن يمسكه منها كما قال له العامة، وعلى طريقة المصريين فى السخرية تندر من هذه المسألة بقوله: إن الخبثاء من الحلاقين المسلمين يزيلون للأقباط شعرهم كله فلا يتركوا ولا شعرة واحدة ليمسكهم منها ملك الموت، وقد أوشك أن يتزوج من عروس مصرية مسيحية، لكنه حين علم أن العريس فى الشرق هو الذى يدفع المهر تراجع عن الفكرة واشترى جارية اسمها «زينب» أحبها كثيرًا وأثرت فيه كثيرًا.

وقد اعتاد جيرار أن يصور حياة الناس العاديين ومناظر المقاهى وسوق النخاسة وحفلات الختان والزفاف، كما انتقد كثيرًا من العادات والسلوكيات السيئة، لكن بروح فيها من المحبة والتعاطف بأكثر مما فيها من التهكم والاستعلاء.

والى الفصيل نفسه ينتمى «بيير لوتى» الذى زار مصر فى العام ١٩٠٧ وكتب



مصـــر.. في رسائل فلوبير



«موت فيلة»، وقد طاف بها واستشعر أن طابعها مزيج من الفرعونية والإسلام والمسيحية، وكتب بمحبة عن شعبها وقد أهدى كتابه «إلى صديقي النبيل مصطفى كامل الذي قضى نحبه عام ١٩٠٨ وهو يؤدي واجبه العظيم نحو بعث العزة الوطنية والإسلام في مصر».

وبين هؤلاء الرحالة من أفزعته حالة البؤس الاجتماعي والاستبداد السياسي الذي ترزح تحته مصر، ولم يمنع استقبال محمد على لجان فرانسوا شمبليون في الإسكندرية عام ١٨٣٠ ولا إهداؤه إياه سيفاً ذهبياً من انتقاده. فكتب يقول: ما إن ترامى إلى محمد على أن المصريين القدماء كانوا يرمزون لبلدهم بالبقرة حتى انكب عليها يحلبها ويرهقها ويستنزفها آناء الليل وأطراف النهار، ولعل هذا المسلك منه لم يكن إلا ثمرة للنصائح الغالية التي أسداها إليه القناصل الأجانب ممن لبسوا مسوح رعاة هذا الشعب المنكوب.

وكذلك فعل جان جاك أمبير الذي زار مصر عام ١٨٤٤ والتقى محمد على في القلعة وعاب عليه فيما كتبه استبداده وقهره للشعب وإفقاره للدولة واستغلاله مواردها لصالحه.

أما الأكثرية فقد كانوا من الانتهازيين والجواسيس والباحثين عن الثراء.. منهم بريسي دافن الذي جاء إلى مصر في العام ١٨٢٩ ليعمل مهندساً مدنياً في خدمة إبراهيم باشا ثم أستاذاً للطبوغرافيا في مدرسة أركان الحرب ومربياً لأولاد الباشا، لكنه بعد فترة تحول إلى مستشرق وعالم مصريات، وتظاهر باعتناق الإسلام وسمى نفسه إدريس أفندي وارتدى زي الفلاحين، وقد ساعده ذلك على نهب الكثير من العاديات المصرية من مقابر وادي الملوك ومعابد طيبة.

وكان «شاتوبريان» من أكثر المتعصبين ضد الإسلام، وقد سمى القرآن كتاب محمد، ووصفه بأنه خال من أي مبدأ حضاري أو أية قاعدة تسمو بالأخلاق أو تندد بالاستبداد وتدعو للحرية، ووصف المسلمين بأنهم يجهلون الحرية ويفتقرون إلى آداب المجتمع، وأنهم إذا لم يكبحهم غاز يبذر بينهم بذور العدالة الإلهية ينقلبون إلى جنود بلا قائد ومواطنين بلا مشرع وعائلة دون أب، وقال قبيل مغادرته مصر: كيف أمكن لهذه الطغمة المنحلة من المسلمين أن يعيشوا على نفس الرقعة التي عاش فوقها قوم مختلفون تركوا في ذاكرة هيرودوت وديودور الصقلي أثراً لا يمحى.

أما «أرنست رينان» الذي زار مصر في ١٨٦١ ثم ١٨٦٤، فلم يقدر في مصر سوى آثارها وقيمتها التاريخية، أما المصريون فهم «مجردون من الشاعرية والقدرة على الخلق بل ومن التقوى والوعي الميتافيزيقي لأنهم شعب سطحي النظرة مغلق الفكر فقير الحال محافظ، جاهل ببلادة.

وربما كان ما كتبه «فولني» الذي جاء إلى مصر في نهاية عام ١٧٨٢ وأمضى بها نحو سبعة شهور حافزاً لنابليون على غزو مصر، فقد رسم صورة لحكومتها المتجردة من النزاهة التي لا تتمتع بثقة أي مواطن، وانتقد العسكر المماليك، وحرض حكومة فرنسا على غزو مصر التي تخلو حدودها من أية دفاعات.

أما عن المصريين، فقد كتب يصف الدلتا: بيوت القرى مبنية من اللبن وكأنها أطلال متداعية، والدلتا سهل لا نهاية له، يتبدل شكله حسب المواسم(...) وعلى مدى البصر من كل ناحية أفق ناء مشبع بالضباب يصيب العيون بالكلل والملل، وأشجار مصر خشنة فظة تواكب بؤس الأكواخ التي تحجبها ولا توحي بغير الإهمال والفقر.

ويرسم صورة لبؤس المصريين بعد الوباء الذي حل بالبلاد في العام ١٧٨٣، يقول: رأيت تحت جدران الإسكندرية القديمة بعض التعساء ملتفين بجثة ميت يتناهشون مع الكلاب بقاياه العفنة.

وبين الفريقين فريق ثالث، جاء لأهداف علمية بحتة فلم يلتفت إلى سواها، ويمثل «السان سيمونيين» حالة خاصة بين الرحالة والمستشرقين الذين وفدوا إلى مصر، وهم أتباع سان سيمون الذي يعد - بحسب ثروت عكاشة - أول داعية لعلم الاجتماع الحديث، وقد بث زعيمهم «أنفانتان» في أتباعه روحاً صوفية خالصة، ومثلت مصر بالنسبة له سحر الشرق كله، واستقرت في أعماقهم فكرة غريبة مفادها تلقيح الجنس الأسمر الأنثوي بالفضائل المذكرة العلمية للجنس الأبيض، واتخذوا شعارهم كلمة نابليون المشهورة: عن طريق مصر وحدها يمكن أن تتلقى شعوب وسط أفريقيا النور والرفاهية، وكانوا يعتقدون أن شق قناة السويس إشارة أكيدة للسلام والوئام بين قارات العالم وهمزة وصل بين جميع البشر.

وقد زاروا مصر في وفد يضم ٥٥ رجلاً يمثلون كافة الحرف والفنون، بالإضافة إلى عدد من الصحفيين والأدباء في العام ١٨٣٣، وكانت عنايتهم الأكبر بالقناطر وشق الترع والقنوات، وقد سلم «أنفانتان» جميع الرسائل والرسوم الخاصة بشق قناة السويس لفرديناند ديليسبس الذي عرضها على صديقه الخديوي سعيد، ناسباً المشروع كله لنفسه.

وقد تغلغل السان سيمونيون بين الناس ببساطتهم حتى إن الفلاحين في الصعيد أطلقوا على «أنفانتان» لقب «أبو الدنيا».

.. وإلى صديقه الشاعر «بوييه»: يلعب الضرب هنا دوراً كبيراً.. كل من يرتدي ملابس نظيفة يضرب كل من يلبس ملابس قذرة

أين يمكن وضع رسائل «فلوبير» المختصرة وسط هذا الزخم من كتابات الرحالة؟

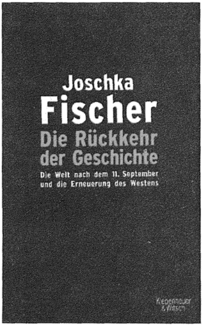
الحق أنها لا يمكن أن ترقى إلى ما كتبه «إدوارد لين» وأشرنا إلى بعضه في السطور السابقة، كما يستحيل القول إنه كان صاحب مشروع من نوع ما، كما هي حالة شمبليون أو السان سيمونيين مثلاً، الأرجح أن دوافعه كانت ذاتية تماماً برغم كونه موفداً من قبل حكومة بلاده، جاء الرجل للاستشفاء من داء الصرع واستلهام تجارب حياتية تعينه على الكتابة الإبداعية، بما فيها المغامرات النسائية التي لا يمكن استبعادها بين هواجسه، لكن بعض ملاحظاته تفيد في دراسة الواقع الاجتماعي للمصريين في هذه الحقبة، فما إن وقفت سفينته على رصيف ميناء الإسكندرية حتى شد انتباهه ما يتعرض له نفر من الناس من ضرب مبرح، كتب إلى صديقه مدهوشاً: يلعب الضرب هنا دوراً كبيراً، كل من يرتدي ملابس نظيفة يضرب كل من يلبس ملابس قذرة، أو بالأحرى بلا ملابس بتاتاً، وحين أقول ملابس فإنني أعني بنطال خيش قصيراً، حيث ترى عديداً من السادة يمشون ببطء في الشوارع عراة، اللهم إلا من قميص وغليون طويل(...) كل النساء باستثناء الطبقات الدنيا محجبات ويضعن في أنوفهن زينة تتدلى وتتأرجح من جهة لأخرى مثل قرط وجه حصان، ومن جهة أخرى إذا لم تر وجوههن، فإنك ترى صدورهن كلها.

ويضيف في موضع آخر: ما يلفت الانتباه بشكل غريب هو الاحترام، أو بالأحرى الرعب الذي يبديه الجميع في حضور الإفرنج كما يسمى الأوروبيون هنا(...) معاملتنا شيء لا يصدق كما لو أننا أمراء، عشرة عبيد كانوا في خدمتي، واحد منهم لكش الذباب.

واستناداً إلى مشاهداته، تنبأ «فلوبير» باحتلال إنجلترا لمصر، بل وضع خطة أولية للغزوة المتوقعة، يقول: يبدو لي من المستحيل ألا تصبح إنجلترا في غضون وقت قصير سيدة مصر، عدن مملوءة بقواتها، وعبور السويس يجعل وصول المعاطف الحمراء (الجنود الإنجليز) إلى القاهرة في صباح يوم جميل في منتهى اليسر(...) عند أول بادرة مشاكل في أوروبا ستستولي إنجلترا على مصر(...) ليس هنا ما يمنع الاجتياح، يكفي عشرة آلاف رجل(...) سينقلب الموظفون الأوروبيون ضد الحكومة هنا وينتهي كل شيء، أما بالنسبة لعامة العرب (المصريين) فلا فائدة من معرفة من سيتبعون، سيبقون دوماً على حالهم مهما اختلفت الأسماء، ولن يجنوا شيئاً لأنهم لا يملكون ما يخسرونه، عباس باشا مغفل، مريض عقلياً إلى حد ما، وغير قادر على فهم أي شيء، يحطم كل يوم ما قام به محمد علي، والقليل الباقي لا يساوي شيئاً، الخنوع العام المهيمن هنا يبعث على الغثيان.

وربما كانت حسرة فلوبير الموجعة، أن نبوءته تحققت بعد وفاته بعامين فقط، فقد احتلت إنجلترا مصر في ١٨٨٢، ولم يكن هناك فعلاً ما يمنع الاجتياح. ■

الشرق الأوسط بعد ١١ سبتمبر توقعات فيشر



حمدى عزام

وزير خارجية ألمانيا السابق يوشكا فيشر شخصية وظاهرة غير تقليدية فى الحياة السياسية الألمانية. وقد يرجع ذلك إلى بداية تجربته وتكوينه السياسى فى حضن الحركات الشبابية المتمردة على مؤسسات الحكم ونظمها الاقتصادية والاجتماعية فى أواخر الستينيات، التى تميزت باهتمام بالعالم الثالث وتعاطفت مع آمال شعوبها وحركاتها التحريرية، ثم اتجهت غالبية عناصرها للتأسيس والعمل فى نطاق أحزاب الخضر التى نجحت بأساليب ديمقراطية وباستقطاب الشباب فى فرض وجودها على الساحة السياسية وانتخب فيشر المولود عام ١٩٤٨ كنائب فى البرلمان الفيدرالى عام ١٩٨٤ حتى اختير عام ١٩٩٨ نائبًا للمستشار الألمانى شرويدر ووزيرًا لخارجية الائتلاف الحاكم من الاشتراكيين والخضر، وبعد خروجه من الوزارة أواخر ٢٠٠٥ وهو فى سن السابعة والخمسين احتفظ بمقعده فى البرلمان، وإن رفض تولى زعامة حزب الخضر أو كتلته النيابية ليفتح المجال أمام العناصر الشابة لتولى المسئولية السياسية ورئاسة الحزب. واتجه على غرار ما سبقه إليه المستشار هيلموت شميت إلى تأليف الكتب ونشر المقالات ليطرح من خلال تجاربه السياسية تحليلاً للأوضاع والتطورات من بداية القرن الواحد والعشرين. وبجانب مواقفه إبان توليه السلطة من رفضه لغزو العراق، ولأفكار الإدارة الأمريكية حول محور الشر والدول المارقة والحرب الوقائية وإضعاف المنظمات الدولية، فلقد أبدى اهتمامًا خاصًا بالشرق الأوسط والعالم العربى، أملته تطورات المرحلة المعاصرة وهموم الأمن الأوروبى ورواسب تكوينه السياسى المبكر وصلاته بمنظمات طلابية وشبابية أفروآسيوية وعربية.

ولقد لقى كتابه الصادر بالألمانية فى ٣٠ صفحة فى نهاية ٢٠٠٥، بعنوان «عودة التاريخ» اهتمامًا كبيرًا من الأوساط السياسية والثقافية الألمانية والأوروبية لاختلافه أسلوبًا ومضمونًا عن الصور المعتادة لمذكرات الشخصيات السياسية التى أغرقت أسواق النشر فى العام المنصرم. فلم يركز على الذكريات وأقوال كبار الشخصيات العالمية التى تعامل معها بل قدم تحليلاً برجماتيًا يأخذ حقائق العصر وتوقعات المستقبل بعين الاعتبار. يهتم بالأمن والمصالح الأوروبية المرتبطة بأمن ومصالح الشرق الأوسط وشعوبه، داعيًا إلى تجديد النظرة والمقاربات الغربية، وإلى استراتيجية أوروبية هدفها تعاون وشراكة بعيدة عن شبهة الإمبريالية أو فرض ثقافات أجنبية غير مطلوبة، وتعتمد بالضرورة وكأولوية العمل على تقديم المساندة لتطورات ليبرالية ديمقراطية شاملة، تكسر الجمود المفروض والمعرقل لإصلاح وتحديث الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لشعوب المنطقة وهو يقرر بحسم أن الاقتصار على تبنى النموذج الغربى من اقتصاديات السوق والتقنيات الحديثة لتحقيق التقدم، محكوم عليه بالفشل ما لم يستند إلى تحول جذرى يؤدى إلى مجتمعات مفتوحة قائمة على مؤسسات وحكم ديمقراطى، يحترم حقوق الإنسان ويتيح للمواطنين إمكانيات خلاقة مبدعة ومنتجة، تتطلبها مستجدات العصر لكى تلحق الشعوب والمجتمعات بركب التقدم والتنمية.

إن نهاية التاريخ كما يراها الفيلسوف هيجل تتحقق عند إقامة مجتمع عالمى موحد ولم يتحقق ذلك فى عالم القطب الواحد، بل شاهدنا بداية وعودة التاريخ من جديد، وتذكرنا كلمات الكاتب الألمانى توماس مان بأن السيطرة على العالم حلم قديم ترغب فيه كل عقيدة وهو ما ينطوى على خطورة استغلالها كمجرد أداة للسيطرة على العالم.

وإذا كان سقوط حائط برلين فى نوفمبر ١٩٨٩ قد أعلن نهاية قرن من الزمان، فإن تفجير مركز التجارة العالمى كان بداية القرن الواحد والعشرين لتأثيره القوى على نفسية وسياسة دولة أصبحت القوة العظمى الوحيدة فى العالم، لقد كان القرن العشرون هو قرن التطرف، فلم يشهد العالم فى مثل هذه المدة القصيرة نسبيًا كل هذا القدر من العنف والوحشية والجنون وضحايا الحروب والقتل الجماعى ومذابح الشعوب والتسلط والديكتاتورية، وفى نفس الوقت لم يحدث فى أى قرن من الزمان مثل هذا التقدم السريع والطفرة الهائلة فى العلوم والتكنولوجيا.

وبعد حربين عالميتين سادت الديمقراطية غرب أوروبا منذ عام ١٩٤٥ وانتشرت فى باقى القارة الأوروبية منذ ١٩٨٩ وأعلن المفكر الأمريكى فرانسيس فوكوياما نهاية التاريخ، واستعدت أوروبا وأمريكا للاستمتاع بحياة ناعمة بعيدة عن المشاكل والأزمات فى بحبوحة من العيش. وبعد انتهاء الحرب الباردة وسباق التسلح اتجهت شعوبها للاستمتاع بالسلام والرفاهية بعيدًا عن السياسة، فى ظل رأسمالية بلا أزمات فى ظل سيطرة للاقتصاد على السياسة وانحسار دور الدولة. ثم ثبت خطأ ذلك

Die Ruckkehr der Geschichte
Die Welt nach dem 11
September und die Erneuerung des Westens

(التاريخ يعيد نفسه: العالم بعد سبتمبر وتجديد الغرب)

Joschka Fiscer
Kiepenheuer & Witsch, 2005

على خلفية النزاعات المسلحة والساخنة فى الخليج وشرق أفريقيا والبلقان وأفغانستان وحرب العراق وتداعياتها فى تطورات قضت على الأحلام وأصبحت الحروب تطل برأسها من جديد، وتصنع التاريخ مؤثرة فى بنوك الاستثمار وتقلبات البورصات وأسعار الطاقة لتذكرنا بمقولة هيرا كليت بأن «الحرب أم كل الأشياء».

لقد أثبتت تغيرات العصر نجاح رأسمالية السوق تجاه الاقتصاد الموجه وأرجعت انطلاق العولمة إلى ثورة وتكنولوجيا المعلومات التى وضعت الأسس التقنية والسياسية لعولمة الاقتصاد بشكل نهائى وحاسم، انعكس على أسواق المال والبورصات وأصبح يمهد لثورة أعنف وأسرع فى تكنولوجيا الجينات، وأصبحت صلاحية وأهمية الدولة وأهلية مجتمعاتها فى مجال الاستثمار أهم من شكل الحكومة الوطنية أو نوع الانتخابات، وبالتالى تغيرت النظرة لسيادة وحرية الدولة وخصائصها القومية فى عصر العولمة التى أصبحت تعنى تطبيق النموذج الغربى للاقتصاد والاستهلاك، وهو موضوع اقتصادى وثقافى ذو نتائج سياسية إيجابية وسلبية، حيث أدت العولمة إلى رغبة ملايين البشر فى المشاركة والاستفادة منها بأى ثمن والالتحاق بعالم الاستهلاك الغربى الذى شجع على خلق وزيادة الرغبة فى الحصول عليها، وأدى ذلك إلى اتجاه لتوحيد المتطلبات اليومية للبشر، وبالتالى التأثير والتقليل من حدة الاختلافات الثقافية أو للانعكاسات التى تتجه للتمسك بالعادات والثقافات التقليدية.

على أن حادث ١١ سبتمبر، الذى لم يلحق أضرارًا استراتيجية مهمة بإمكانيات الولايات المتحدة، أصابها مع ذلك بهزة نفسية عنيفة، ترتب عليها رد فعل سياسى وعسكرى عنيف يذكرنا بقصة الفيل والبعوضة التى أدت لدغتها إلى انطلاقه فى هياج لتحطيم كل ما فى طريقه وما حوله ليفتح الطريق أمام تصوير صراع بين العالم الإسلامى العربى والغرب، والاهتمام بآراء هنتنجتون عن صدام الثقافات والحضارات، تلقفته قلة من العنصريين الحمقى فى الغرب وسعدت به الجماعات الإرهابية المتطرفة فى الشرق ولا يقبله عقلاء الغرب والمسلمون المعتدلون.

لقد بلغت الولايات المتحدة قدرات استراتيجية وعسكرية كبيرة لا يستطيع الإرهاب النيل منها حتى ولو التحف بغطاء إسلامى جهادى غير حقيقى وأصبح يتجه للنيل مما يسمى بالأهداف الطرية، أى إلحاق الضرر بالمدنيين، وقد تطول فترة مقاومته وملاحقته فى الشرق الأوسط، ويعتمد ذلك أيضًا على قدرة الدول والمجتمعات الإسلامية على عزل هذا التيار الذى لا تكفى مجابهته عسكريًا وبوليسيًا، بل

أجندة الغرب بالنسبة للشرق الأوسط مع بداية القرن الواحد والعشرين هى دعم الاتجاه لإنهاء النزاع العربى الإسرائيلى ومكافحة الإرهاب

من الضرورى تجفيف منابعه والقواعد المساندة له بإنهاء وإصلاح النظم السلطوية والديكتاتورية ومنح المزيد من الحرية والديمقراطية، وتحسين الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى الشرق الأوسط، وعلى الغرب اتباع سياسات حكيمة بعيدة النظر تضمن عدم الاندفاع أو الاستفزاز مؤدية إلى مواقف حمقاء عنيفة، قد تدفع العناصر القومية الوطنية والمستفزة للالتقاء مع التيار الدينى المتطرف. ورغم كل ذلك فإن الأيديولوجيات الدينية المتطرفة والإرهابية تحمل فى دعوتها الثيوقراطية الشمولية عناصر إفناء وتحطيم الذات على غرار زوال الأيديولوجيات الفاشية والتطبيقات الشمولية فى أوروبا الشرقية بعد أن ألحقت أضرارًا جسيمة وتضحيات جمة بشعوبها حتى سقطت.

غياب نظام عالمى جديد

مع بزوغ عصر جديد هيمنت عليه قوة عظمى أحادية لم يتكرر ما حدث فيما بعد حروب القرن التاسع عشر والعشرين فى فيينا وفرساى ومالطا وما ترتب عليها من مجابهات بين نظم وأيديولوجيات سياسية واقتصادية وعسكرية متباينة شملت العالم وقسمته إلى مناطق نفوذ. وبانتهاء الحرب الباردة وانهيار قدر كبير من النظم السابقة لم ينتج عن ذلك نظام عالمى جديد يعالج مشكلة إيجاد توازن وتوفيق بين أوضاع تقليدية قائمة وأفكار موروثة وبين فكر وتطبيق ثورى جديد ليحد من انفجار المشاكل والنزاعات فى مختلف أنحاء العالم؛ وقد أتاح هذا الفراغ مناخًا مناسبًا لظهور عوامل التطرف والإرهاب خاصة بين الشعوب التى عانت طويلاً من التأخر والفقر والقهر فى الحقبة الاستعمارية وما تبعها من نظم حكم سلطوية ومناطق نفوذ. وهو ما قابله الغرب بأسلوب النعامة فى إخفاء رأسها فى الرمال أمام عودة التاريخ مرة أخرى.

لقد أثبتت أزمات التنمية فيما يسمى بالأسواق الواعدة أن ثبات واستقرار اقتصاديات السوق لا تكفى ولا تضمن استمرار النجاح دون نظم حكم عادلة، ومجتمعات ديمقراطية منفتحة، وأن تبنى الدول الصاعدة لاقتصاد السوق وديناميكية التكنولوجيا والعلوم، وتطبيق الجانب التقنى والمالى والاقتصادى من النموذج الغربى محكوم عليه بالفشل إذا أغفل العامل الأساسى والضرورى فى تحقيق التقدم، وهو المجتمع المبنى على مؤسسات ديمقراطية



وسيادة القانون، ليتيح للملايين من مواطنيه الأحرار إمكانيات خلاقة مبدعة ومنتجة فى عصر جديد من العولمة، تخطى التمييز بين دول نامية وأخرى صناعية كبرى، واتجه بقوة إلى تقسيم جديد للعالم ما بين مجتمعات متأخرة وأخرى متقدمة تترك خلفها بلا رحمة من فاته قطار التقدم والتنمية.. ففى القرن الواحد والعشرين ستصبح الديمقراطية والدولة القانونية العادلة والأخذ بالإنجازات العلمية والمعلوماتية هى الحد الفاصل بين الدول المتطورة المتقدمة والدول النامية المتخلفة، وبالتالى الأساس فى توزيع موازين القوى وحجم الناتج القومى لكل منها مستقبلاً.

وقد تميزت القوة الأعظم مع بداية القرن بإنتاج أفكار وسياسات انفرادية، من منطلق مصالحها الذاتية ومنهجية القوة. صبغتها ردود فعل غير حكيمة وغير متروية تحمل فى جوانبها أخطارا جمة. ورغم تحقيق أوروبا قدرًا من النجاح الاقتصادى فإنها لم تستكمل وحدتها السياسية ونظامها الأمنى ورغم قدراتها العسكرية يتيح لها اهتماماً ومشاركة فعالة بجانب الولايات المتحدة فى معالجة المشاكل التى تهدد أمنها والسلم العالمى. أما روسيا التى لم تستطع نسيان أنها كانت قوة عظمى على نفس مستوى الولايات المتحدة، فقد انشغلت بتحديث اقتصادها ومجتمعاتها لاستعادة عافيتها، واتجهت إلى انتفاع اقتصادى وسياسى مع الولايات المتحدة وأوروبا والاعتماد على إنتاجها من الثروة البترولية والغاز وتأمين طرق تصديره التى تتأثر بأفكار الولايات المتحدة عن اللعبة الكبيرة New great deal، مما قد يؤثر سلباً على استقرار مناطق جنوب القوقاز ووسط آسيا ووصول الطاقة لأوروبا.

وفى آسيا التى يرى هنرى كيسنجر أنها مازالت تعيش فى نطاق أفكار عالم التوازنات الأوروبية فى القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين فمازالت تسودها نزاعات قومية موروثة، ورغبات فى السيطرة وسباق التسلح. ورغم ما تشهده من تجديد وحداثة اقتصادية فمازالت تشوبها تناقضات اجتماعية، ونظم سياسية لم تثبت على تحول إصلاحى وديمقراطى كامل، ولم تتوصل إلى نظام آمن جماعى، وتعاون فعال فى شرق وجنوب آسيا، ومازالت الخلافات العرقية والأصولية الدينية والإرهاب والمخدرات وتجارة الأسلحة وسباق الحصول على أسلحة الدمار الشامل، تشكل خليطاً من الأخطار التى تمتد من الباسيفيكى إلى الأطلس لتشمل وتنعكس على مناطق الحضارة الإسلامية التى أصبحت تضم معظم نزاعات العالم.

وفى أفريقيا جنوب الصحراء يتزايد الفقر واحتمال سقوطها من الذاكرة فى القرن الواحد والعشرين. فهى تضم ٢٥ مليون مريض بالإيدز وتسعة من أفقر عشر دول فى العالم. لقد قسمها الاستثمار وفقًا لمصالحه إلى مناطق غير متجانسة ووضع بذلك بذورًا مسمومة لنزاعات عرقية ودينية وقبلية، زادها حدة باستيلائه على موادها الأولية، كالبترول والماس والمعادن الاستراتيجية، وبضغوطه المستمرة لخفض أسعار وعرقلة تصدير سلعها الأساسية كالبن والقطن وغيرها. ولا أمل لها فى التقدم ما لم تحقق لدولها حكومات وإدارة جيدة تقوم بالحد من الفساد ووضع سياسة اقتصادية لتحسين استخدام مصادر الدخل والمعونات الأجنبية، والكف عن تدخل الدول والشركات الأجنبية الناهبة لثرواتها فى شئونها الداخلية، والوصول إلى

توقعات فيشر

توافق قومى يحد من الحروب والنزاعات الداخلية، ولن تجدى زيادة ميزانيات الجيوش وأجهزة الأمن للتغلب على مشاكلها، بل قيام حكم صالح وتطور ديمقراطى واقتصادى. وستظل مشاكل أمريكا اللاتينية قائمة ما لم يتحقق تكوين وتثبيت المؤسسات والحياة الديمقراطية والاستقرار الاقتصادى، الذى مازال مهدداً بالفقر والبطالة ونهب الثروات. إضافة إلى مشاكل الإرهاب والمخدرات والرقيق الأبيض وأيضاً الجريمة المنظمة التى انتقلت عدواها إلى الشرق الأوسط الكبير. ومع ذلك فمازال أمام بعض دولها فرص الاستفادة من التعاون الإقليمى، ومناطق التجارة الحرة وقيام سوق بينية تتيح الاستفادة من العولمة والتقدم العلمى والتكنولوجى.

الشرق الأوسط والعالم العربى

يضم الشرق الأوسط أكبر قدر من مخزون الطاقة من البترول والغاز فى العالم، وفى نفس الوقت قدراً متزايداً من عدم الاستقرار السياسى الذى يؤدى إلى تجميد أو عرقلة التطور الاجتماعى والاقتصادى.. هذه العوامل مرتبطة بانفجار سكانى جل عناصره من الشباب صغار السن، ونزاعات إقليمية قديمة وخطيرة، وأيديولوجيات شمولية ذات مضمون دينى، وحركات إرهابية، ونظم حكم سلطوية مستبدة، وطموحات نووية، يجعله خليطاً سياسياً متفجراً، إما أن يصب فى معالجة سلمية لتغيير وتحديث المنطقة، أو يترك ليتصاعد مؤدياً إلى انفجارات مبنية على العنف، تؤدى إلى كارثة محققة للمنطقة ولمصالح الغرب خاصة جارته الأوروبية. أما الاحتمال الثالث الذى قد يراه البعض فى تثبيت الأوضاع المتردية القائمة، فلم يعد وارداً ولن يستطيع الصمود أمام الأوضاع الدراماتيكية المتغيرة بسرعة وعنف والتى تحمل من وجهة نظر الغرب مخاطر جسيمة لا يمكن التنبؤ بما ستؤدى إليه من مشاكل مستقبلية.

ولا شك أن القضية الفلسطينية تتصدر كل المشاكل، وبدون حلها لن يتحقق الاستقرار بالمنطقة، ولا يمكن النظر إلى المشكلة على أنها مجرد نزاع قومى بين الإسرائيليين والفلسطينيين على السلطة والأرض، فهو فى نفس الوقت نزاع إقليمى عربى إسرائيلى ونزاع ذو جانب دينى بحكم تواجد مقدسات الأديان فى نطاقه.

ويرى الإسرائيليون فى دولتهم الضمان لعدم تكرار ما لاقاه اليهود لمئات السنين عبر التاريخ من اضطهاد وتنكيل بلغ قمته فى العهد النازى، فارتكزت سياستهم دائماً على ضمان تفوقهم العسكرى خاصة على جيرانهم.

وأدى رفض العرب لقرار الأمم المتحدة بالتقسيم وخسارتهم لحروب لم تتمكن من إزالة الدولة اليهودية إلى تقليص حجم الدولة الفلسطينية التى اقترحتها المنظمة الدولية إلى دولة من حدود ١٩٦٧.

لقد استفادت إسرائيل من تطورات إضافية، منها انهيار الاتحاد السوفيتى، وغزو العراق، ومن رد الفعل الأمريكى على ١١ سبتمبر وحملتها لمقاومة الإرهاب، إضافة إلى عدم التوافق والتنسيق بين الفصائل الفلسطينية وتعاطف بعضها مع العراق فى حرب الخليج وغزو الكويت.

ولكن مع تزايد قلق الغرب على مصالحه فى المنطقة من استمرار وتصاعد النزاع إضافة إلى المشاكل الديموغرافية بتزايد سريع للفلسطينيين فى المناطق المحتلة، واستمرار المقاومة والعمليات الإرهابية، أدى إلى تخلى إسرائيل وأحزابها عن الأفكار والتطلعات لإقامة «إسرائيل الكبرى» والاتجاه إلى التخلى عن بعض المناطق المحتلة لتفادى الخلل الديموغرافى الذى قد يؤدى إليه حكم أقلية إسرائيلية لأغلبية عربية، وجاء القرار الأحادى بالتخلى عن غزة والذى شابته بعض الشكوك، باعتباره أخر المطاف أو اتباعه بخطوات انفرادية أخرى تتيح لإسرائيل رسم الوضع النهائى مما يعنى إقامة دولة فلسطينية غير مستقرة وغير قابلة للحياة، مما يشكل تهديداً وأخطاراً لإسرائيل والمنطقة وأمن ومصالح أوروبا والغرب.

ولا مناص من تكثيف الجهود للوصول إلى حل سلمى مقبول من الأطراف بإقامة دولة فلسطينية فى حدود ١٩٦٧ مع ضمان أمن وكيان الدولتين، وفى ظل نظام أمنى إقليمى تتيحه التغييرات فى الشرق الأوسط.

أما بالنسبة لإيران فهناك تكهنات حول اتجاهها للتحول إلى قوة نووية، مما لا يعتبر تهديداً لإسرائيل فحسب، بل وربما الأهم تهديد وتغيير الوضع الاستراتيجى للدول غير النووية فى المنطقة، مما يؤدى إلى تغير الوزن الاستراتيجى لصالح إسرائيل.

لقد ربحت إيران من سقوط نظام طالبان ونظام صدام حسين على حدودها كما ربح من ذلك ضحايا صدام من الشيعة والأكراد مما سيؤدى إلى حكم أغلبية شيعية فى العراق، وهو ما قد يدفع إيران إلى حسابات خاطئة فى اتجاه خليجى والتطلع إلى هلال شيعى عبر سوريا ولبنان والعراق وربما فلسطين مع الاتجاه لتسلح نووى لتصبح القوة المهيمنة على المنطقة خاصة على ضوء ضعف وتشتت الدول العربية إلا أن هذا الخطأ فى التقدير سيؤدى بالضرورة إلى صدام مع القوة الجديدة فى المنطقة أى الولايات المتحدة التى تحيط بإيران فى أفغانستان والعراق وأذربيجان وجمهوريات وسط آسيا والخليج أرضاً وبحراً. ولن تنسحب القوة العالمية الأعظم من المنطقة على ضوء مصالحها فى الخليج والجزيرة وتحالفها مع إسرائيل مما يربطها بشكل دائم بالشرق الأوسط ومشاكله ولا صحة لمقولة أن انشغال القطب الأعظم فى العراق سيمنع اشتباكه مع أى قوة أخرى تنافسه فى المنطقة وتهدد مصالحه ومصالح الغرب.

وبالرغم من النزاعات والأزمات الإقليمية الحادة وخطر التصعيد النووى والتهديدات الإرهابية يظل التحدى الأساسى لغالبية الدول وللأمن فى منطقة الشرق الأوسط هو الاستمرار فى تجميد وعرقلة التطور والتحديث فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

لقد فشل الاقتصاد القومى العربى رغم مدخولاته الضخمة من البترول والغاز فى دخول ساحة المنافسة الدولية، ولم يستفد بقدر كاف من التقدم الهائل فى العلوم والتقنيات الحديثة كما فشل فى التوصل إلى نظام تعاون وتكامل اقتصادى إقليمى والانفتاح على مرحلة العولمة ومتغيراتها، وعندما ننظر إلى هذه المنطقة المليئة بالأخطار نفاجأ بفشل أيضاً فى التوصل إلى نظام أمن جماعى عربى، ورغم أن النزاع العربى الإسرائيلى قد يشكل عقبة فى سبيل ذلك فمن الملاحظ استغلال هذا النزاع وغيره من العوامل الخارجية لتحويل الأنظار عن الأسباب الحقيقية لعرقلة التطور والحداثة.. وأن النظرة السريعة لنظم الحكم فى المنطقة لا تطرح صورة إيجابية. فمجتمعاتها تحكم بأسلوب سلطوى، بل وديكتاتورى أحياناً ولا نجد فى العديد من الدول تطبيقاً جاداً وشاملاً للديمقراطية واحترام حقوق الإنسان واستقلالية السلطة القضائية ومساواة المرأة أو نظم تعليم حديثة وفعالة.

يضاف إلى هذا أن انتقال رؤوس الأموال الضخمة للدول العربية للاستثمار إلى الدول الصناعية الكبرى يحرم شعوبها من الاستفادة منها، كما أن تركيز الثروة فى أيد قليلة، أضعف الاستفادة من التقدم العلمى والتقنى فى الإنتاج والتقدم الاقتصادى والصناعى وفى مجال الخدمات.

إن أى اتجاه للتطوير والتنمية البشرية للإنسان العربى ليحتل مكانه اللائق فى العالم يتطلب ثلاثة مبادئ مهمة: أولا: حياة ديمقراطية واحترام كامل لحقوق الإنسان وحريته تطبقه الحكومات بشكل مطلق، مما يتيح تطويراً إيجابياً خلاقاً للإنسان العربى ومجتمعه. والثانى: هو مساواة المرأة فى الحقوق والواجبات ومساهمتها فى التطور السياسى والاجتماعى والاقتصادى والتعليم والعلوم. والثالث: هو التركيز على تحصيل العلم والمعرفة والاستفادة من ذلك فى كل جوانب وأنشطة المجتمع.

لقد اتجهت محاولات التحديث فى العالم العربى بعد المرحلة الاستعمارية إلى نموذجين أحدهما قومى عسكرى، والثانى دينى سلطوى. نتج الأول عن التلاقى بين عناصر وأحزاب علمانية مع عناصر عسكرية وطنية. واصطبغت بأفكار الوحدة العربية وقد رصد العداء للغرب بسبب ماضيه الاستعمارى وهو ما أدى إلى تفاهم نسبى مع الاتحاد السوفيتى والحصول على الأسلحة وبعض المعونات المالية والتقنية، واتجهت

للتصنيع الوطنى، واعتمدت المضمون القومى العربى أكثر من الاتجاه لمفهوم دينى سلفى واستخدمت فى معظم الحالات أسلوب الحزب الواحد لتوفير غطاء سياسى للحكم العسكرى وتطبيق نظام اقتصادى مبنى على احتكار الدولة باسم الاشتراكية العربية.

أما النموذج الثانى فيمكن وصفه بأنه نظام سلطوى يعتمد على سلطة مطلقة أساسها ملكى وراثى، يعتمد على المفهوم الدينى بمشاركة علماء الدين. واتجه فى عملية التحديث إلى الانفتاح على الغرب فى معادلة تحاول ربط التقاليد الدينية بانفتاح تكنولوجى استهلاكى على الغرب.

هذه التجربة اعتمدت وارتبطت بشكل كامل بعائدات البترول لاستيراد التحديث والتقدم مستعينة بالخبراء الأجانب والتقنيات المستوردة والإفراط فى ضخ السلع الاستهلاكية فى مجتمعاتها وسهل ذلك زيادة أسعار البترول بعد ١٩٧٣ الذى ضخ مداخيل هائلة إلى الدول المنتجة للبترول وخزائن نخبها الحاكمة. وكان من الطبيعى والمنطقى استحالة التوفيق بين المفاهيم والتقنيات والسلع الاستهلاكية الغربية من جهة والاحتفاظ بالمفاهيم الإسلامية السلفية من جهة أخرى خاصة لترسيخ القيم التقليدية والدينية فى التعليم على الاستزادة من العلوم الحديثة والمعرفة. ولم يكن من المستغرب أن يؤدى ذلك التضارب إلى النظر للتحديث على أنه أمر مفروض من الخارج على المجتمعات الإسلامية للنيل من قيمها التقليدية السلفية، وهو ما أدى إلى ردود فعل وظهور أفكار وجماعات التطرف الدينى.

إن كلا النموذجين العربيين للتحديث قد استهلكا واستنفدا إمكانياتهما ووصلا إلى نهاية المطاف ولم ينجح أى منهما فى فتح طريق ذى خصوصية عربية للتحديث والتقدم والولوج إلى عالم ديناميكى جديد ومتغير. وانتهى بهم الأمر إلى تسليم بالفشل، أو إغراق فى اليأس والإحباط، وهو ما أدى خاصة بعد انتهاء النزاع بين الشرق والغرب إلى زيادة الاتجاه لتجميد وعرقلة تحديث وتقدم العالم العربى، وعزله عن العالم الجديد فى ظل العولمة وديناميكية الاقتصاد الدولى. وأدى فشل وتجمد النظم والنماذج السابق الإشارة إليها إلى شعور بمزيد من سيطرة الثقافة الأجنبية الخارجية مع ضعف متزايد للعالم العربى والتخبط وفوضى فى الاتجاهات، وحنين للعودة إلى ماض عربى إسلامى مجيد مفتقد وإلى ظهور التطرف والحركات الإرهابية، التى لا يمكن اعتبارها طريقاً ثالثاً أو بديلاً للتحديث والتقدم فى ظل حرية وديمقراطية بعيداً عن أى نظم سلطوية شمولية وإن اتخذت رداءً دينياً.

إن مجابهة الأخطار الشمولية والتخلف فى العالم العربى لن تتأتى إلا باتباع طريق ثالث للتحديث والتقدم، وهو بكل بساطة ووضوح طريق التطور الليبرالى. ولكن طريق الليبرالية والديمقراطية والتحديث قد يكون طويلاً وليس سهلاً، فهذا الطريق يعتمد على الحرية والديمقراطية ومساواة الجنسين وإصلاح التعليم وتأمين العدالة الاجتماعية والانفتاح على العولمة.. هذا الطريق العالمى الذى لا بديل عنه، لن يصطدم فقط بمقاومة عنيفة من الجماعات الإرهابية، بل إنه لن يجد ترحيباً من عدد من النخب الحاكمة التى تجد فى ذلك تهديداً لكيانها ومصالحها.

ويجب أن يكون دور الغرب فى هذا التحول هو دور واضح لشراكة وتعاون من أجل إصلاح ديمقراطى ليبرالى لا تشوبه شبه الإمبريالية الجديدة.

إن أجندة الغرب بالنسبة للشرق الأوسط مع بداية القرن الواحد والعشرين هى دعم الاتجاه لإنهاء النزاع العربى الإسرائيلى والعمل على استقرار العراق وأفغانستان، ومكافحة الإرهاب وانتشار الأسلحة النووية، وانضمام تركيا للاتحاد الأوروبى، ومنع تسلل عدم الاستقرار إلى الجزيرة العربية، وضرورة دعم القوى الديمقراطية الليبرالية فى المنطقة وتشجيع الانفتاح والتكامل الاقتصادى والتحديث العلمى، وتشجيع إقامة نظام أمن جماعى للمنطقة. وليس أمام الغرب أية بدائل أخرى لبرنامج طويل المدى للتعاون من أجل تحديث الشرق الأوسط فى إطار ليبرالى ديمقراطى بعد أن فشلت نماذج التحديث التقليدية العربية وأصبحت سياسة الأمر الواقع وتجميد الأوضاع تشكل أخطاراً على المنطقة نفسها وعلى أوروبا. ■

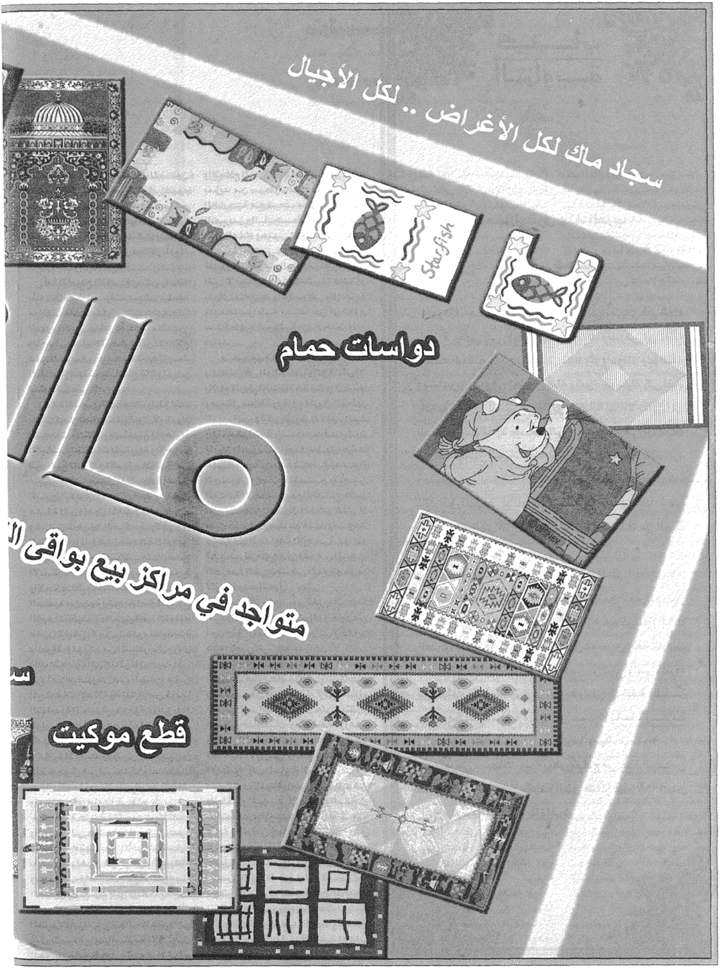
الحب العذرى عند العرب

شوقى ضيف

«وما المحب العذرى إلا صوفى خالص، صوفى فى ظمئه الذى لا ينتهى إلى رؤية الحبيب ولقائه، وصوفى فى تغنيه بعشقه الجامح الذى يملك كل قلبه وكل أهوائه وعواطفه ومشاعره، وصوفى تعييه الحيلة وتعوزه الوسيلة إلى لقاء بالمحبوب، وإنه ليسير فى طريق لا نهاية لها ولا سبيل إلى الدنو من غايتها إلا بإسلام الروح، وصوفى فى ارتفاعه عن كل صغائر الحياة، لعله يقترب من قدس الأقداس، وصوفى فى ابتهاله وذله وضراعته، وما أشبه شعره بالتراتيل الدينية. لذلك كله لا نغلو إذا قلنا إن هذا الحب العذرى هو الذى أتاح لنا هذه الثروة البديعة من الحب الصوفى السامى».

ما سبق اقتباس من مقدمة لكتاب الحب العذرى عند العرب للدكتور شوقى ضيف رئيس مجمع اللغة العربية وأستاذ الأدب العربى الراحل والذى أرخ فيه لموضوع الحب العذرى عند العرب مع مختارات من قصصه ذائعة الصيت مثل مجنون ليلى وجميل وبثينة وقيس بن ذريح ولبنى وعروة بن حزام وعفراء وكثير وعزة وتوبة وليلى الأخيلية والصمة وريا ومالك وظريفة وابن أبى عمار الناسك وسلاّمة والعباس بن الأحنف وفوز وذوالرمة ومية.

وتعرض «وجهات نظر» بعض نماذج من هذا الحب من كتاب الدكتور شوقى ضيف الذى صدر عام ١٩٩٩ عن الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة.



سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى ال
قطع موكيت


سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
صلى
www.maccarpet.com

جدارية يوم الحساب - في كنيسة السيستين انجزها سنة ١٥٣٥/ ١٥٤١ بناء على طلب البابا بولس الثالث والتى غيرت أحوال الناس فى إيطاليا ١٦متر × ١٢متر

الصورة

أيقـــونة الحيـــــاة والمــــــوت!

أحمـــــــد فـــؤاد ســــليـم

«لا نتعرض فى هذا المبحث للعقيدة، فذلك أمر فوق طاقتنا، فضلاً على أنه ليس هدفنا ومبتغانا.

وإنما نحن نقف أمام الصورة «وحدها»، كونها تغير «المكوَّن» المخزون فى وعى الجنس البشرى. ولكون زمان «الصورة» سابقًا على زمان الكلمة حتى أنه يفلقنا إلى اثنين، ولأن الصورة أيضاً تدخل إلينا دون وسيط، وتأخذ سبيلها دون عائق فتنال، أو تجرح، أوتغيِّر، أو تضيف، أو تزيح.

ذلك أن الصورة التى تعنينا فى هذا المبحث،هى تلك التى تصنع الخيال والمتخيل».

الجنين صورة والموت صورة

■■ يجرنا ما جرى فى حكاية الرسوم الدنماركية[1]، إلى مهمة أو مسألة كنا قد أخذنا نتحدث فيها لحقب عديدة مضت. وهى قوة الصورة على التأثير والتغيير. ويومذاك ما كان أحد يحفَل بنا ولا بقولنا حول الصورة كأيقونة، والصورة كمفهوم، والصورة كسجل يسبق زمان الكلمة.

كنا نتحدث عن الصورة وقدرتها على تبديد معالم الحقيقة والواقع، أو على مطابقة الواقع أو الالتباس معه، أو تأكيده، بل وعن خاصيتها فى خلق طبيعة ثانية غير تلك التى نحسها.

وكنا قد تحدثنا عن الصورة وعن قدرتها على تكريس الحب فى مجتمع بحاله، أو حشد البغضاء، أو بث الغضب فى عروق مشاهديها، أو إشاعة الازدراء لمفاهيم بعينها، أو إشهارها بجلال واحترام، أو حتى بقدرة الصورة على التحريض علناً على التمرد والثورة.

فلا الشعر، ولا الفلسفة، ولا الرواية أو المسرح والسينما أو الموسيقى وغيرها بقادر أى منها على حفز مشاعر مجتمع بحاله بمثل تلك «الحاكمية» التى تملكها الصورة من تأثير على مشاهديها.

لـــماذا ؟!

لأن الصورة تنسخ السائد أو تؤكده أو تغيره أو تنفيه، أو تعيد خلقه. وهى حين تدخل إليك فإنها تتسرب إلى «العقل الفاعل»، ذلك أن الصورة هى بذاتها «علامة» - أى تصور سيميائى- قادرة على اختراق الخيال بدون لغة الصوت واللسان.

إن الإنسان حين يخضع لعالم الصورة لا يكون متماثلاً مع ذاك الذى اعتاد معاركة المعانى فى الكلمات، فالأول يسبق الثانى كلما أمعنَّا النظر فى قيمة الزمن. ذلك أن الصورة هى وحدها القادرة على استعادة وإثارة المخزون، والمكبوت معاً . ومن هنا فهى التى تُحَوِّل ذاتها إلى فعل، ثم إلى حركة قد ترضينا أو تغضبنا، قبل أن تبدأ الكلمة التى تكوِّن إطار الصورة.

إن «الجنين» هو صورة دون لغة، والميلاد صورة، والموت لا يكون موتاً سوى بالصورة، كما أن تخليد الإنسان فى حياته ومماته تتولاه الصورة بأكثر مما تتولاه الكلمة، حتى أن «الديجيتال» جعلنا نرى الصورة رقماً، أو عَبْر رقم كلما عبثت أصابعنا بالمبرمجات المغنطة.

وقديماً كان المصريون يقومون بتحطيم الصورة الجدارية والتماثيل والنصب، أو يقومون بدفنها تحت الأرض، أو داخل حوائط حجرية لبعض من سبقوهم من الحكام - إذ كان الحاكم الجديد -الفرعون- يخشى من إثارة «المكبوت» حين تقع الصورة على أعين مشاهديها فيستحيل المخزون المكبوت إلى حركة فاعلة، ومن ثم ربما إلى تمرد يعصف بالحاكم.

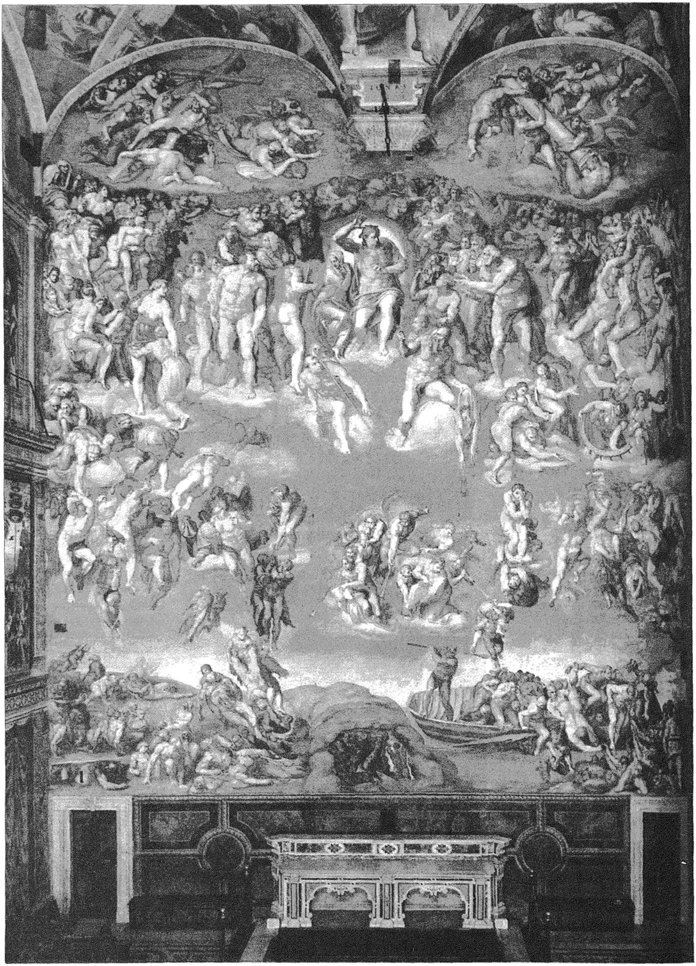
ونحن لو تأملنا جميع الجداريات الصرحية منها وغير الصرحية بما فى ذلك التماثيل التى تصور الملك الفرعون فى مصر القديمة فى حياته اليومية، أو اللاهوتية، أو الخاصة، أو فى حروبه وانتصاراته ، وهزائمه - لما وجدنا فرعوناً واحداً يتعدى عمره الثلاثين، وهو العمر الكفيل بشحن الوعى الجماعى بصفات عن الحاكم من بينها قوة الحاكم، وبقدرته على الإمساك بدفة الأمور، وحل الأزمات، واقتحام المشاكل دون خشية أو خوف. إذ يبدو الحاكم «الفرعون» فى تلك السن من عمره قوياً، صلباً صحيح البدن، مستقيم النظرة، متطلعاً للغد، مرهوب الجانب، ومتبدِّياً بذكائه وسطوته لجميع الناظرين، فهو فى صورته تلك لا يعرف المداورة، أو المداهنة، أو المراوغة، أو الاستكانة،، بل هو فرعون على الدوام، يتلقى وحيه اللاهوتى من تلك القوة العظمى التى تقف وراء الشمس الزاهرة.

إن الصورة هنا تقوم بترسيخ الوعى بالملك. وهذه الصورة التى يتلقاها المشاهد أينما ارتحل، تظل تتردد على مكوناته المخزونة حتى تزيح ماعداها، وتصنع لذاتها «أيقونوغرافية» من القناعات الجديدة، أو المخالفة. فلا الشعر، ولا الفلسفة، ولا الموسيقى أو الرواية تملك أيها مثل تلك القدرة البصرية التى من شأنها أن تعيد الخلق، وتزيح الكامن والمكوِّن معاً.

فليس من شك إذن أن المصريين كانوا يدركون تمام الإدراك مغزى الصورة ومبناها فى العقل، ولذلك فقد كانت كتاباتهم هى بذاتها «صورة» جاءت إلى العلن من أصل «تصويرى» خالص -، بل إن الصورة كانت عندهم من القوة حتى أنها تتجلى فى أقداس البعث، وتتجسد للحياة الأبدية. ولهذا أيضاً فإن قبراً واحداً لم يخل من الصورة على نفس ذلك القدر الذى عرفناه فى المعابد والقصور، وفى بيوت العمال والكهنة.

تراث تأليه الحاكم، والصورة!

كما أنه ليس من شك أيضاً فى أن الإغريق والرومان والبيزنطيين وغيرهم كانوا قد أخذوا يدركون - فى زمانهم - أن «الصورة» هى خلاصهم وهى نجاتهم، وهى التى تملى على المحكومين الممتثلين بفعل الإملاءات شبه اللاهوتية، تعاليم وأقدار الحاكم الفرد. وربما كان «قسطنطين الأول» هو أول حاكم فرد جعل من صورته كحاكم قدساً متجلياً، وذاتاً عليا لا تمس. ثم هو اعتبر ذاته المتنَبئةَ فى أوائل اعترافه بالمسيحية فى



أيقـونة الحيـــاة والمـــوت

القرن الرابع الميلادى، «صورة» ينبغى أن يراها الناس أينما حلّوا، بل إن الغلاة فى عهده كانوا قد وجدوا الفرصة متاحة لنفاق الحاكم فجعلوا صورته إلى جانب صورة السيد المسيح، ثم بمرور الوقت أزاحوا صورة السيد المسيح - تحت ذريعة إمكان عبادة الصورة ذاتها - ووضعوا صورة قسطنطين مكانها، وهكذا انتقل تراث الجنس البشرى المخزَن فى صورة السيد المسيح، إلى صورة قسطنطين فصار بذلك حاكماً وحاكمياً فى وقت واحد.

ولنتأمل ذلك التراث الذى يعمل على تأسيس فكرة الألوهية لدى الضمير العام عند مجموع المتلقين، وبالتالى رهان السيطرة والهيمنة الذى تتطلبه الشروط الزمنية لتماثل المكوَّن فى عقيدة الناس، وكقربان لسلطة الحاكم المؤله.

إن الصورة رهينة بوظيفة الإزاحة والتنميط معاً، ولذلك فقد ظهرت التعاليم لوضع صورة الحاكم أينما ارتحل الناس من الكنيسة وحتى الميادين، والحوائط الخارجية فى الشوارع، وفى المكاتب البلدية، وداخل بيوت السكان ذاتها ابتداء من بدايات القرن الرابع، ثم انتقل ذلك التراث ليصير سلوكاً معترفاً به فى نظم الحكم عامة، كما لو أنه جزء من الطبيعة ذاتها. ذلك أن الصورة - بخلاف جميع أنواع الميديا - هى المؤهلة لتجسيد الصورة فى العقل.

فلنتأمل إذن ذلك التراث «الحاكمى» الذى يعمل على تأسيس وتكريس فكرة تأليه الحاكم لدى الضمير العام فى مختلف جماعات الجنس البشرى. وبالتالى ضمان الهيمنة والسيطرة اللتين تتطلبهما الشروط الزمنية لكل حقبة فى التاريخ على جماعات بعينها، منذ مجتمع القبيلة، عبوراً بالديكتاتوريات الأيديولوجية، والنظم الليبرالية، وحتى الدولة المدنية التى تسمى نفسها بالديموقراطيات الليبرالية.

إن أى ملك أو رئيس يتم وضع صورته فى حجرات جميع المكاتب الحكومية كبيرها وصغيرها، أى من البلديات الصغيرة وحتى مقر مكتب رئيس الوزراء. إن المقصود بذلك هو ممارسة فعل التقديس للحاكم، أى «الخضوع» و«الطاعة»، أى «الامتثال».

إن الآليات الجهنمية عملت كل ما فى وسعها ليس فقط لوضعية الصورة وتمجيدها - باعتبارها معادلاً لجسد الحاكم - وإنما هى التعاليم أيضاً التى اشترطت مكاناً بعينه على الحائط وفوق رأس الموظف العمومى مباشرة. بل إن هذه الآليات نفسها قامت بدورها بكل تقنيات التجميل اللازمة لتمثيل صفات ذات طابع لاهوتى على صورة الحاكم. فهو قوى، ذو عيون ذكية نفاذه، متوسط العمر دائماً حتى يكون رهيناً بمكوث طويل، ويبدو بشكل عام شخصية صالحة لقيادة شعبه. سوف يتذكر الموظف العمومى دائماً أن صورة الحاكم تأخذ وضعةً فوق رأسه، وعلى ارتفاع محسوب بواسطة مختصين سيكلوجيين، وسوسيولوجيين يعرفون تماماً مكمن الإيحاء، ومناطق التبديل والإحلال فى المخ البشرى. ذلك أن الصورة هى تجسيد لتعليمات لا سبيل إلى التمرد عليها، مادام أن استمرار الصورة على هذا النحو سوف يكون كفيلاً بتكثيف المخزون المكوَّن لدى الأفراد الذين يشكلون خلايا المجتمع المدنى، بما فى ذلك أفراد وجماعات النظم العسكرية فى الجيش وفى الأمن العام.

إن اللوائح والقوانين التى تنشرها مجلة «الوقائع» الحكومية، تلزم الموظف العمومى بوضع صورة الحاكم فوق رأسه وإلا اعتبر متمرداً على النظام، واستحق عقوبة تبدأ من التوبيخ وقد تنتهى بالتصفية.

الخوف من الصورة

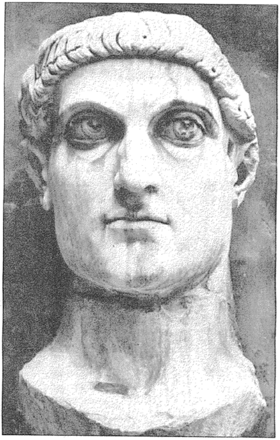
إن الصورة هى «محسوس» يتفاعل مع الكون، ثم هى تتغذّى من مصادر طاقة هى بحكم طبيعة الواقع أقل خضوعاً للمراقبة. فالإبداع كونه «متخيلاً» يملك فى صميم بنْياته قوةً تبشيرية تجعله أكثر «الميديات» خرقاً للحواجز.

إن الصورة هى «العلامة» التى نراها حجة وبرهاناً على وجودنا. وثمة من يرون فى الصورة برمتها مجرد بهجة تكميلية للبيوت وساكنيها، ولكنهم سوف يصطدمون فى النهاية بالحقيقة. هذه الحقيقة التى تشى بتشيؤ الموجودات فى «العقل الفاعل». هذا العقل الذى هو مخزن الصُور بكافة عصورها على امتداد زمان الجنس البشرى.

ومع ذلك فإن أستاذاً بالجامعة، أو عميداً، أو عالماً، أو طبيباً، أو حتى موسيقياً وشاعراً، إلى غير ذلك من علامات الثقافة ورموزها، لا يولون أدنى اهتمام لـ «ثقافة الصورة» تلك الثقافة التى تملك وحدها مزيةَ تحويل المكونات والبنيات لدى كافة الأطياف وتدعوهم إلى التصرف طبقاً لأثرها.

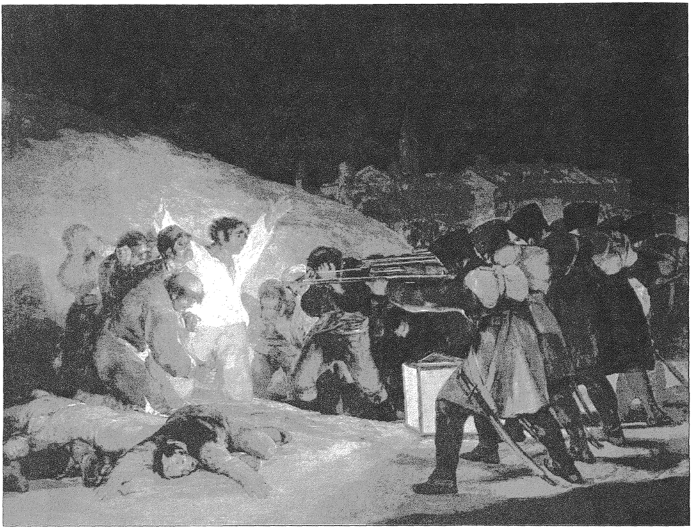
فالشاعر مثلاً لا يرى فى الصورة سوى خدمة تزيينية لأشعاره، وكذلك الروائى، والاقتصادى، والسياسى، والدينى، وناشرو الكتب عموماً على اختلاف مصادرهم، وهو حال يجعل الصورة بمنجاة من أية رقابة، ويدعوها إلى تسريب دلالاتها حتى تلحق بروح الأشياء ذاتها، وتُصنِّف مكوناتها فى العقل البشرى على أساس «كمى»، وليس على أساس «كيفى».

تمثال يمثل وجه قسطنطين أوائل القرن الرابع الميلادى (رخام) فلنتأمل قوة الحضور والسطوة القاهرة فى عينيه. ارتفاع ٢,٤ متر



لنتذكر جدارية «يوم الحساب» ١٦م × ١٢م لميكلانجلو التى تعد بمثابة محطة فارقة فى عصر النهضة الإيطالية. إن «السيد المسيح» رسمه ميكلانجلو، وهو يعتلى مملكة الله محاطاً بالملائكة وبحشد من الشهداء بينهم مجموعات تحمل صليب السيد المسيح، الذى يتجلى لنا وهو فى حالة عرى كامل. ولكن هذا العرى الذى يقدمه لنا ميكلانجلو هو عري مقدس. عرى يجعل الجسد صوفياً ويُنجّيه من المحسوس إلى السماوى. فها نحن نرى المواقع الدامية فى جسد المسيح، وها هو ينظر إلى العصاة، والخاشعين ويكشف لكليهما عن وعد الحساب الربانى، وهنا يقول ثروت عكاشة فى كتابه القيم عن عصر النهضة(كان أثر هذه اللوحة فى نفس البابا شديداً، فما كاد يلقى عليها أول نظرة حتى جمدت قواه أمام المشهد المذهل وانخرط فى الصلاة مردداً: «ربنا لا تؤاخذنا بما ارتكبنا من آثام ساعة العرض عليك يوم الحساب»).

وبرغم ذلك الفيض الروحى فى جدارية ميكلانجلو إلا أن «الصورة» التى تجلى فيها السيد المسيح وهو فى ذلك العرى الذى يمثل الباكورة البدائية فى الفضاء السماوى، جرحت عديداً من الناس يومئذ. لقد جلبت الصورة ذلك الخوف الجارف حيال المقدس كجوهر. خوف مشقوق إلى ثلاثة أصناف -



الآليات الجهنمية عملت كل ما فى وسعها ليس فقط لوضعية الصورة وتمجيدها - باعتبارها معادلاً لجسد الحاكم - وإنما هى التعاليم أيضاً التى اشترطت مكاناً بعينه على الحائط وفوق رأس الموظف العمومى مباشرة

أحدهما أن السيد المسيح ينبغى أن يجلَّ عن العُرْى البشرى فى المخزون اليقينى لدى الكافة، وثانيها أن السيد المسيح لا ينبغى أن يكون هو ذلك الجسد الذى نعرفه كشرط فى الحالة البشرية، وثالثهما أن الصورة قد تَنْحت المكون فى العقل، ثم قد تزيح هذا المكوِّن صورة أخرى، الأمر الذى لا ينبغى أن يصيب الرصيد الإيمانى لمكونات العقل المسيحى.

وهكذا قام تلميذ ميكلانجلو «دانييل دافولتيرا» برسم الثياب فوق جسد السيد المسيح حتى يتعطل بث الصورة فى العقل، وحتى تستحيل إلى علاقة كمية تضاف للمخزون الكمىِّ فى العقل.

ومع ذلك فإن التاريخ لم يرحم «دافولتيرا» تلميذ ميكلانجلو فقد أطلقوا عليه وصف «الخيَّاط» للتنديد بجريمته الشنعاء نظراً لرضوخه وجسارته فى مواجهة أحد أهم معالم تاريخ الفن، وهى جدارية «يوم الحساب».

ثم لنتذكر «ليدا وطائر البجع» التى انجزها كل من ليوناردو دافينشى، وميكلانجلو، فى زمانين متباعدين، وهما عملان يفيضان بإبداع مكين، حيث يروى التاريخ أسطورة «زيوس» الذى نسخ نفسه فى صورة طائر البجع حتى يتبادل الحب مع معشوقته ليدا بعيداً عن عينى زوجها - وهما العملان اللذان واجها مصيراً أشد بؤساً مما أصاب جدارية «يوم الحساب»، لقد نقلت اللوحتان إلى باريس حيث تم تدميرهما تماماً على يد مليكها المبتذل يومئذ لويس الثالث عشر ١٦٤٣-١٧١٥ ، ومن حسن المصادفات أن نُسخاً لهاتين اللوحتين قد تم تهريبها.

كان لويس الثالث عشر قد أدرك أن الصورة يمكن أن تعمل على جرح الأخلاق، أو بالأصح على إعادة صياغة الوعى لدى الكافة، وهو حال قد يفسد سطوة الملك، وصورته العالية لدى الشعب.

وكانت ليدا وطائر البجع عند ليوناردو موحية، وربما أيضاً موجعة، فهاهى ليدا تمسك - بطريقة ذات مغزى - برقبة الطائر وترفعه ليلثمها فى دماغها -، وأما لوحة ميكلانجلو فقد بدا طائر البجع الذى هو «زيوس» يعارك الحب مع ليدا، ويضمها بجناحيه القويين محاولاً الاتحاد بجسدها. هل لو كان ذلك مكتوباً ومدوناً على الورق، أكان هناك من يحفل بمغزى الخطاب المدوَّن على مثل ماجرى فى مغزى الصورة ومعناها ؟!

إن ما نرمى إليه هنا هو «الصورة».

يعنى قدرة هذه الصورة على اختراق الحواجز، والزمن والكوامن فى ضمير الجنس البشرى. قدرة هذه الصورة على أن تحتل مرتبة تماثل المرتبة اللاهوتية، بحيث تتجسد للمشاهد من خلال الإيقونوغرافيا المتزمنة فيها (Iconography) فتصير بذلك رمزاً معبوداً فى ذاتها ولذاتها نظراً لرسوخ الإملاءات التَّصوريَّة فيها.

ثم لنتذكر نموذجين هامين آخرين أحدهما فى مجموعة الرسوم الطباعية على الزنك «إتشنج» التى أنجزها فرانشيسكو جويا[٢] (١٧٤٦-١٨٦٣)، يعلن جويا من خلالها احتجاجه ضد الظلم الاجتماعى،



فرانشيسكو دى جويا ٣ مايو (١٨٠٨/١٨١٤) إعدام الثوار . زيت على توال ٢٦٠×٣٤٥سم . متحف البرادو . مدريد

الصـــــــورة

وضد أساليب الامتهان البشرى - ثم لنتذكر لوحتيه الشهيرتين اللتين يندد فيهما بالاحتلال الفرنسى، وقد أطلق على أولهما «الثانى من مايو»، وعلى ثانيهما «الثالث من مايو»، ثم كيف طوردت أعماله الطباعية أينما استقرت وأينما رحلت، ثم كيف ظلت تلك الأعمال حبيسة الجدران لأربع حقب كاملة بعد وفاته إلى أن أفرج عنها.

كانت السلطات بمختلف أشكالها تخاف الصورة.

وهى تخافها على نفس القدر الذى كان يتبدى من فيض «الجورنيكا» لبيكاسو- إذ كان بيكاسو[٣] فى تلك الصورة العملاقة يلقى بيانه على العقل العالمى منددا بالتدمير وبالحرب، وكانت الصورة آخذة فى نحت المكون المتمرد فى عقول المتمثلين بعد أن كشفت النقاب عن معنى الذبح، وعن معنى صراخ المتألم.

هل كانت وصية بطريرك القسطنطينية فى القرن الثامن الميلادى وثيقة تمنح البركة للبشرية أم تمنح اللعنة، حين قال: (الرؤية أوثق للإيمان من السمع)، فاعتبروه وقد ارتكب كبائر الحمق فى دينه وإيمانه، وعقدوا مجمعهم عام ٧٥٣ حيث انتهى بإلصاق تهمة الجهل بالبطريرك العظيم، وذلك (لعبثه بالمقدسات)، ولـ(تصويره مالا يجوز تصويره مما مكانه القلب).

ولنأخذ نموذجاً ثالثاً فيما رأيناه من حال «الطالبان»، وكيف راحوا يحطمون التماثيل البوذية التى شهدت القرن الأول قبل ميلاد السيد المسيح، حتى أنهم دسوا المتفجرات أطناناً لإزالتها برمتها من فوق سطح الأرض.

ثمة ولا شك رعبٌ أخذ يرعش البدن لدى «الطالبان»، رعبٌ أخذ يهزّ من عقيدتهم هزًا. فإن التماثيل «البوذية» قد استحالت «صورة مجسدة» لأيقونة التاريخ. صورةٌ قد تعمل على إزاحة أطوار الهيمنة، ومن ثم إعتاق الناس من الماضى الحاكمى -، هذه الهيمنة التى كانت المرأة وهى تحت فضائها، قد اعتبروها مع جذر وجودها عورة على الأرض، وقاموا بدفنها حيَّةً فى «هلاهيل» أطلقوا عليها «الحجاب الإسلامى».

فليس من استعواض أو بديل سوى التحطيم والتسوية بالأرض.

ولو كان المتربصون يريدون بنا شراً فليس إذن أشَر مما فعل الطالبان بإسلامنا -، فهؤلاء وأمثالهم فى مختلف بقاع الأرض حاربوا التماثيل والصُوَر من شدة الخوف على العقيدة، ولهُشَاشٍ فى اليقين والتأسيس، ومن فرط هوانهم من ملاقاة الآخر، ولم يأبهوا لأثر الصورة، ولا لأطوارها فى إدراك العقل، وصاروا بذلك الأيدى الآثمة لجلاديهم أينما حلوا.

والخوف ذاته فى الرسوم الدنماركية.

مع كل ذلك فإن معارض الفن تفتح يومياً ولا يزورها أحد. لقد اكتفى الناس بعصر الصورة - عصر الشاشة المبرمجة والأقراص المدمجة - وأعطوا ظهورهم لعصر الخطاب الصنمى - أى عصر المقدس-، ولعصر المطبعة. يتساوى فى ذلك أساتذة الجامعات وعمداؤها وعلماؤها ومثقفوها، وشعراؤها، وفلاسفتها وتلامذتهم، بما فى ذلك أطياف الناس جميعاً -، وكأنَّ هذا الفن ماهو إلا نَبْتَةٌ شيطانيةٌ مضافةٌ دون إرادة أو رغبة من أو إلى الطبيعة ذاتها.

وبرغم «عصر الشاشة» هذا، وبرغم الميديا التى تخترق الحواجز والعلل، فإن رسماً هزلياً نشرته صحيفة مجهولة فى بلاد «الفايكنج» (١) الأوائل بالدنمارك، حركت واحدة من أكبر العقائد فوق الكرة الأرضية.

على أنه ليس موضع اعتبارنا فى بحثنا هذا أن نفنِّد الصواب من الخطأ أو العكس.

وانما مركز اهتمامنا هو «الصورة»، والناس الذين تقع عيونهم على الصورة، والأثر الذى سوف تقوم الصورة بطبعه فى الدماغ، والزمن الذى سوف يتبقى من زمن الصورة، قبل أن تنشأ الكلمة التى تتغذى على المدرك المصور.

ولنسأل أنفسنا، ما الذى جرى؟

لماذا ضجت الملايين فى أصقاع الأرض وقد جرحتها الآلام مما رأته فى بعض الرسوم الهزلية ضد الرسول الكريم.

لماذا هى «الصورة»، وليست الكلمة.

لماذا حين ندد «فولتير» بالرسول الكريم فى القرن الثامن عشر تنديداً مهيناً بحال المسلمين وإسلامهم تَرَكْنا الأمر ولم نبالِ.

هل لم يكن هنالك يومئذ مسلمون على مثل أولئك الذين حرَّكتهم الآلام اليوم؟!

فلو قلنا أن ذلك جرى فى القرن الثامن عشر حيث كانت الميديا عاجزة، والتكنولوجيا المتقدمة فى علم الغيب، فضلاً على الهيمنة الاستعمارية التى كانت تمتص الدماء والثروة، وتجعل الناس يمارسون حياتهم بحقوق الحيوان وحده!

لو كان الأمر كذلك، فلماذا سكت الناس حين تم التنديد بالعقيدة الإسلامية وبالقرآن الكريم مؤخراً فى مقالات البعض فى الغرب، وشروحهم حول الإسلام، حتى أن بعضهم اعتدى على صفحات من القرآن الكريم على نحو رخيص، فلما زاد الكيل أخذ كثير من الناس يساورهم الشك فى مغزى وجوهر الحضارة الغربية ذاته، وعما إذا كانت الحضارة هى طور من أطوار التاريخ، أم أنها ردة فعل مشوبة بصدفة الغراب.

جرى ذلك لعدة مرات فى الأعوام الأخيرة، ونشرت الصحف أخبار ما جرى للقرآن الكريم وكأنها من بين أخبار الحوادث «للمتعة»، وللترفُّع المصطنع.

ولكن لماذا لم يثر أحد؟! مع أن الميديا وهى فى عصب أجيجها كانت تُطيِّر الأنباء ونصوص الخطاب تباعاً فوق الكوكب بسرعة الضوء.

لماذا لم تحركنا الكلمة!

ولماذا الصورة هى التى حرَّكَتْنا.

أليس لأن هناك هزالاً فى الآليات البالية للاعتقاد. الآليات المتزمِّنة فى قديمها، والقديم المتزمِّن فى المرجعيات الأولية.

ألم يحن الوقت لنبدأ التأويل الحق؟!

ألم يحن الوقت لكى نتحرر من الوقوف على الحافة بين الأيقونى والحداثى، فنحمل «الموبايل» المزود بكاميرا الفيديو، والبث الإذاعى، والتنميط الإليكترونى، بينما نرتدى ملابس الصحراء فى المغارات الجبلية، وننخرط فى خطاب اليأس! ■

هوامش:

(١) راجع كتاب «أكلة الموتى» الصادر عن دار الهلال عام ١٩٨٥ مترجمة عن الباحث الأمريكى ميشال كريتشون عن مخطوطة الرحالة العراقى أحمد ابن فضلان التى دونها خلال رحلته إلى دول الشمال وبين قبائل الفايكنج (الدنماركيين والسويديين والنرويجيين) عام ٩٢١ ميلادية بتكليف من الخليفة العباسى المقتدر وقد ترجمها عن الإنجليزية تيسير كامل - وفيها يقرر ابن فضلان - عن ترجمة كريتشون - قوله بالنص فى صفحة ٣٠ مشيراً لقبائل الشمال هذه (إنهم أقذر خلق الله، فهم لا ينظفون أنفسهم بعد الذهاب إلى المرحاض ولا يغسلون أنفسهم بعد الجنابة أكثر مما تفعل الحمر الشاردة....) ويواصل ابن فضلان قوله من خلال ترجمة كريتشون(فى كل صباح تأتى جارية وتحضر معها طشت من الماء وتضعه أمام سيدها. ويبدأ السيد بغسل وجهه ويديه ثم شعره وبعدها ينظف أنفه ثم يبصق فى الطشت، وعندما ينتهى تحمل الفتاة الطشت إلى الرجل الذى يليه والذى يقوم بنفس العمل، وهكذا تستمر بنقل الطشت من رجل إلى آخر حتى يكون كل من فى البيت قد مخط وبصق فى الطشت وغسل وجهه وشعره)!!

(٢) فرانشيسكو دى جويا ١٧٤٦ / ١٨٢٨ أنجز مجموعاته الطباعية على الزنك (اتشنج) سنة ١٧٩٩ وأنجز لوحتيه الثانى من مايو والثالث من مايو عن مأساة الإعدام سنة ١٨٠٨، ١٨١٤ على التوالى، وهى اللوحات التى تأثر بها «مانيه» تأثراً واضحاً عندما أعاد صياغة اللوحتين المشار إليهما بريشته.

(٣) بابلو بيكاسو ١٨٨١ / ١٩٧٣ أنجز بيكاسو لوحة الجورنيكا احتجاجاً على الحرب الأهلية الأسبانية سنة ١٩٣٧، وهى تكشف مدى القسوة البشرية التى يمارسها أشرار السلطة على المدنيين. أما اسم الجورنيكا فهو لمدينة مسحت من فوق الأرض تحمل نفس الاسم فى أسبانيا، ومن ثم جاء اسمها الذى يوازى فى نفس الوقت كلمة «الحرب».

كتاب الزاوية

الحب العذرى عند العرب

ليلة مع بثينة

رصد جميل بثينة ذات ليلة، حتى إذا صادف منها خلوة تنكر ودنا منها، وذلك فى ليلة ظلماء ذات غيم ورعد وريح، فحذفها بحصاة فأصابت بعض صواحبها ففزعت صاحبتها وقالت: والله ما حذفنى فى هذا الوقت بحصاة إلا الجن فقالت لها بثينة وقد فطنت: إن جميلاً فعل ذلك، فانصرفى يا أختى إلى خبائك حتى ننام، فانصرفت، وبقيت مع بثينة العجوز أم منظور وابنة خالتها أم الجسير. فقامت معهما إلى جميل، فأدخلته الخباء، وكان زوجها غائبًا، فدخل وتحدثا طويلاً حتى أخذهما النوم.

وجاء غلام زوجها بصبوح من اللبن، فرآها نائمة وبالقرب منها جميل، فمضى لوجهه يخبر أهلها ولقيته أختها ليلى والصبوح معه، وقد عرفت خبر جميل وبثينة، فجاءت الجارية فنبهتهما، فلما تبينت بثينة الصبح قد أضاء والناس منتشرين ارتاعت، وقالت: يا جميل نفسك نفسك قد جاء غلام زوجى بصبوح من اللبن فرآنا نائمين.

فقام وودعها وهو يبكى قائلاً:

ألا أيها البيت الذى حيل دونه
بنا أنت من بيت وأهلك من أهلِ
ثلاثة أبيات فبيت أحبه
وبيتان ليسا من هواى ولا شكلى
كلانا بكى أو كاد يبكى صبابة
إلى إلفه واستعجلت عبرة قبلى
خليلى فيما عشتما هل رأيتما
قتيلاً بكى من حب قاتله قبلى

القـــديم جديدا..!

مايكل فرانسيس جيبسون

أقيم منذ أسابيع، وصدر فى نفس الوقت، معرض وكتاب يحكيان سيرة وتجربة فنان مصرى، أكاد أن أغامر وأعتبره واحدا من طارقى باب النهضة، مثل النحات المصرى محمود مختار.. والمصور المصرى محمود سعيد، فهذه نوعية نادرة من الفنانين يسيرون حاملين مشروعهم النهضوى.. عيونهم تنظر إلى الأمام.. إلى المستقبل.. إلى الحديث، ولهم عيون أخرى تنظر فى نفس الوقت إلى الخلف.. إلى التاريخ.. إلى الميراث.. إلى الأصل.. وهذه زيارة قصيرة إلى المعرض والكتاب.

حلمى التونى

■■ عندما هممتُ بكتابة هذا الكتاب، وضعتُ فوق مكتبي صورة فوتوغرافية لآدم حنين وزوجته عفاف. ثمّة صور أخرى (التقطها كلها صديقهما نبيل بطرس)، تكشف عن ملامح متنوعة لشخصية الفنّان (فكاهته مثلاً، أو طريقته في العمل على الجص أو الحجر) على أنّ الصورة المذكورة هذه (المأخوذة في ايطاليا في عام ١٩٨٩) يبدو لي أنها تجعلني أفكّر بطريقة لا تقاوم بتلك الصور الموجودة بكثرة في متحف الآثار المصرية القديمة في القاهرة (وفي متاحف أخرى كثيرة في العالم)، وهي تمثّل رجلاً وامرأة واقفين جنباً إلى جنب، في هيئة ثابتة ومستقيمة أو يخطوان خطوة ثابتة للمثول أمام الآلهة.

في هذه الصورة يظهر آدم، بعينيه السوداوين الكبيرتين، الدامعتين والمتسائلتين، وهو ينظر مباشرة إلى عدسة التصوير. يبدو جدّياً، هشّاً، يكاد يكون احتفالياً (رجل متحفظ، ذو هيئة متواضعة وذو كرامة جذّابة). أما زوجته، فهي تبدي حركة تراجع إلى الخلف، وتدير رأسها بعض الشيء، وتنمّ عن الاحتفاظ بقدر من الفتنة المتيقّظة، فيما تحدّق في الشخص الناظر إليهما.

هذه المقارنة مع المنحوتات الموجودة في المتحف لا ينبغي لها أن تفاجىء أحداً بالفعل، لأنّ آدم حنين هو بالذات الابن الأصيل لبناة الاهرامات ولأوائل نحّاتي صور الآلهة والملوك. على أنّ مثل هذا النسب لا يعني شيئاً كثيراً لو لم يكن فنّه يقدّم علامات البنوّة الجمالية والروحية.

سأعود لاحقاً إلى هذه المسألة، وحينذاك ستصبح مناسبتها للغرض ظاهرة بائنة. ولكن لنعد قبل ذلك إلى هذا المتحف الذي يخيم على هذه الحكاية كأنه حضور يتمتّع بالوصاية...

لقد كبر حنين في القاهرة حيث كان والده يعمل صائغاً، وكانت التجربة الأولى والقوية الأثر التي عرفها في حداثة سنّه عبارة عن زيارة إلى متحف الآثار المصرية حيث اقتيد إلى هناك وهو في الثامنة من العمر مع الأولاد الآخرين في صفّه المدرسي، وحيث خامره أول شعور بالتنبؤ بأنّه سيصير نحّاتاً.

هذه الزيارة حملت إليه بالفعل إلهاماً ذا كثافة استثنائية بحيث ما يزال أثره راسخاً في ذاكرته حتى اليوم، علماً بأنّه لم يتحدث عن الأمر للمرّة الأولى إلا بعد مرور أكثر من أربعين سنة، وذلك بعد أن سألته عن أصول فنّه. وسأنقل روايته كاملة في الوقت المناسب، لكنّني أجد من المناسب الإشارة إليها منذ الآن، لأنّ هذه التجربة لم تكشف له فحسب عن فنّ النحت، بل كشفت له كذلك عن بضعة أعمال رفيعة المستوى في هذا المضمار الفنّي، حتى أنّها حثّته على محاولة القيام بذلك على الفور، بدون أن يتصوّر بأنّ هذا سيكون مدار حياته.

بعد انقضاء عشر سنوات، وعندما كان يرتاد مكتبة أكاديمية الفنون الجميلة في القاهرة، أتيحت له الفرصة للإطّلاع على عدّة مجلات فنّية جعلته يكتشف أعمال كبار النحّاتين الغربيين المعاصرين: قسطنطين برانكوزي، هنري مور، أرستيد مايول، شارل دبيو، مارينو ماريني، أرتورو مارتيني وآخرين. ويفضل هؤلاء الفنّانين ألمّ بالجوهر النقي للنحت في لغته الحديثة التي تشكّل سمة مميزة لأعماله.

يمكننا إذاً أن نؤكّد بأنّ عمل حنين النحتي يحمل البصمة المزدوجة لأرقى تقاليد الزمن القديم ولحداثة اختصّت بها سنوات الأربعينات والخمسينات، وهي السنوات التي بدأ فيها بشقّ طريقه الفنّي الخاص.

مع ذلك لم يكن لأيّ واحد من هذين التأثيرين الهائلين أن يقوده إلى إنتاج أعمال متفرّعة:

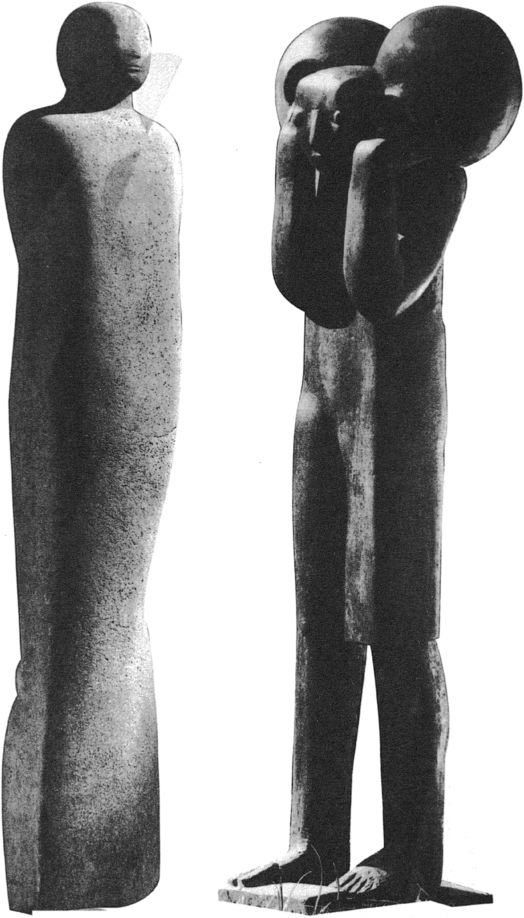
«لم أكن أجهل ما كان يحدث خارجاً في العالم»، كان يقول لي في وقت غير بعيد، «وكان هذا يعطيني نوعاً من الحرية. لكنّني في الوقت ذاته كنت أحسب بأنّ ذلك لا يعنيني في صورة تفوق الحدّ. كنت أقيس كلّ ما أراه على ضوء النحت المصري القديم الذي كان قد أصبح بمثابة حجر الزاوية لحكمي على الأشياء. ولذا لم أشعر قطّ بأنني منجذب حقاً إلى السريالية أو إلى التكعيبية أو أي حركة أخرى».

بدايات صغيرة

إنّ أفضل منفذ إلى نتاج فنّان يكمن، بحسب اعتقادي، في مقاربة يمكنني أن أصفها بأنّها انتروبولوجية (إناسية). فكلّ عمل ذي أثر ما إنّما هو، بطريقة أم بأخرى، جواب على السؤال الوجودي، أي على السؤال الذي يطرحه الوجود على كل فرد «ماذا أتيت تفعل ها هنا؟»، والذي يمكن اعتبار كل حياة إنسانية وجملة إنتاجها بمثابة جواب عليه. كلّ محاولة للإجابة على هذا السؤال ستكون، لا محالة، من صنع الخيال الذي يتيح لكلّ شخص أن يتوصّل إلى تحقيق مزيّة إنسانية بامتياز. ويمكننا القول بأنّ الأمر يكون على هذا النحو بقدر ما أنّ البشر لا يصيرون إنسانيين بالفعل إلا لدى تشبّثهم بهذا السؤال. «فالبشر يتأنسنون حين يرتقون إلى مستوى الخيال»، بحسب المعادلة التي صاغها بيار لوجندر.

إنّ تناول العمل الفنّي بوصفه جواباً خيالياً (وإبداعياً بالتالي) على السؤال الوجودي يسمح لنا بمعاينة الطريقة التي بموجبها

من كتاب:
آدم حنين
إعداد: منى خزندار
المنصورية ودار الشروق
٣٤٢ صفحة من القطع الكبير - ٢٠٠٦



يعقد هذا العمل أو ذاك الصلة بين المبدع وبين الواقع الملغز الذي يواجهه (كما هي حال كلّ واحد منّا)، والتي تشتمل على سائر وجوه حياة بعينها: الأصول، النسب، الحبّ، اللوعة، الحضور والانفصال، الألم، الحزن والموت.

كلّ عمل فنّي جدير بهذه الصفة يستحق أن يكون تناوله على هذا المستوى. ومثل هذه المقاربة جديرة كذلك بأن تعفينا من الأسئلة الخارجة عن الموضوع، بما في ذلك، على سبيل المثال، معرفة إذا كان الفنّان ونتاجه هما (أو كانا في السابق) «على الموضة»، «مهمّان»، «تقدميان»، «رجعيان»، «غرائبيان»، «ذو صفة اتنية»، وهلمّ جراً، ذلك أنّ السؤال الوحيد المناسب يبقى السؤال التالي: «هل يتوجّه حقاً إلى المسألة، مخاطباً نفسه بنفسه، كما يجدر به أن يفعل؟» لقد صوّر آدم حنين ونحت، طوال حياته كلّها، عدداً من القطع الكبيرة نسبياً (وبعضها كبير جداً)، على أنّني أودّ أن أبدأ بتقديم بضع قطع من بين الأصغر حجماً والأكثر حميمية.

كنت قد أتيت لزيارة حنين في ربيع سنة ٢٠٠٤، قبل أن يحلّ الصيف ويغمر مصر بقيظه. البيت الجميل المصنوع من الطين والذي كان شيّده له رمسيس ويصا واصف في سنوات الخمسينيات والمحترف المبني منذ وقت أقرب بكثير، كانا يقعان جنباً إلى جنب على تخوم حيّ الحرانية، وهو حيّ كان يعتبر في السابق مثالياً في محيط مدينة القاهرة وكان ما يزال حتى وقت قريب يتيح للناظر، في ما وراء الحديقة، أن يلمح الهندسة اللازمنية للأهرامات وهي تبرز بوضوح قبالة أفق غروب الشمس.

هناك، داخل محترف عالٍ بعض الشيء، وفيما كنّا نتصفح رزمة من الأعمال المصنوعة على ورق البردي (لم تكن موضوعة في إطار) والتي كان قد صفّفها داخل قطعة أثاث كبيرة ذات جوارير قليلة العمق، اكتشفنا عدداً لا بأس به من الرسومات الصغيرة جداً وضعناها على حدة لإعادة تقديمها في هذا الكتاب.

أثناء معاينتي اليوم لنسخة مصوّرة لواحدة منها، شعرت مجدّداً بالذهول أمام السطوة التي تشترك فيها أعمال حنين، بما في ذلك الأعمال الأصغر حجماً من بينها، مع الرسومات السحيقة القدم العائدة إلى أزمنة غابرة، إلى حدّ أنّه يمكن لبعضها أن يظهر وكأنّه أجزاء من رسومات جدارية قديمة. هذا الانطباع ليس جديداً بالنسبة إليّ (فأنا أتابع عمله بعناية منذ عقود من السنين)، على أنّه يظلّ يفاجئني.

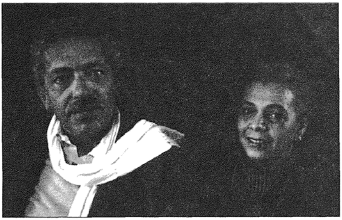
إذا كنّا نصرّ على معرفة السبب الملموس لهذا الانطباع، فإنّه من الممكن أن يكون الأثر عائداً بدون شك، جزئياً على الأقلّ، إلى ورق البردي الذي أخذ يستخدمه الفنّان في صورة حصرية منذ فترة معيّنة. فالمساحة المحبّبة (ذات الحبوب) للمادّة يمكنها بالطبع أن تجعلنا نفكّر في الجدارية، كما هي الحال مع الألوان الحارّة المتأتّية من الأصبغة الطبيعية المخلوطة مع الصمغ العربي (مع الاشتباه بإضافة الكلس، يقول الفنان) التي استخدمها عدد لا يحصى من الفنّانين على مرّ العصور. على أنّ الاعتماد على مثل هذه الأسباب ذات الطابع المحسوس ببساطة لا يكفي للإحاطة ولتبيان نوعية العمل. ففي أيّامنا هذه، ثمة بالفعل كمّية مهمّة من الرسم الفنّي المخصّص للمطارات وهي أيضاً مصوّرة على ورق البردي في مصر... وعليه فإنّ الأسباب الأشدّ قوّة وحسماً ينبغي أن تكون غير مادّية وينبغي بالتالي البحث عنها في الشخصية الفنّية الاستثنائية لحنين وكذلك، بطبيعة الحال، في الشخصية الحميمة التي تسمح للشخصية الأولى (الفنّية) بالوجود.

يخامرنا الشعور ذاته أيضاً أمام منحوتات حنين الأصغر حجماً. ففي هذه الأعمال تجتمع سويّاً معالم حرفة مرهفة، وحكمة لا ادّعاء فيها، وخليط لذيذ من الرصانة الغنائية والدعابة الماكرة. ونحن نجدها، مثلاً، في منحوتة صغيرة من البرونز تمثّل أباً وطفليه الإثنين، جالسين بطريقة مستقيمة جداً على قاعدة مستطيلة (صورة ص ٢٦).

إنّ البساطة الظاهرة والمستوى المتواضع للأعمال الثلاثة يدعوان إلى تقديم تفسير وشرح. الرسم الأوّل والملوّن جرى تصوّره بدون شكّ كعمل تجريدي، علماً بأنّه يمكنه كذلك أن يمثّل كتابين اثنين موضوعين فوق طاولة. وأيّاً يكن الأمر، فإنّ هذا الرسم يتلألأ بحرارة ناعمة ونفاذة وينوع من السكينة الميتافيزيقية.. ويمثّل الرسم الثاني ثلاثة عصافير سوداء وسمراء على خلفيّة زرقاء. قطع ورق البردي الصغيرة التي رُسم عليها هذان العملان تبدو متهرّئة بعض الشيء عند أطرافها، ممّا يعزّز الانطباع بعودتها إلى زمن قديم. على أنّ هذا الانطباع يتأتّى خصوصاً من الطابع اللازمني للصنعة نفسها («لا جديد في الأمر»، يؤكّد آدم حنين، «إذ ليس هناك زمن في الفنّ»)، ومن البساطة الفائقة للرسم الأوّل، ومن المعاينة المستأنسة وغير المجرّدة من الدعابة التي يمنحها الفنّان للعصافير في الرسم الثاني. وفي كلا العملين ثمّة استحضار للجوهر اللازمني للفنّ التشكيلي بحيث يتبدّى أمام أنظارنا في براءته وحكمته المفعمة بالتواضع.

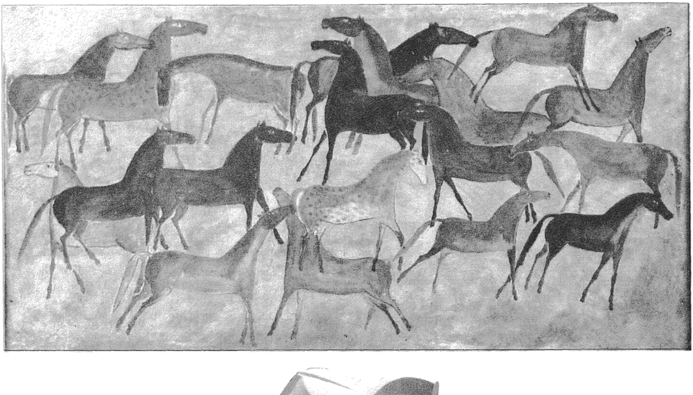
المنحوتة الصغيرة هي أيضاً ذات شكل بسيط. فالشخصيات مع

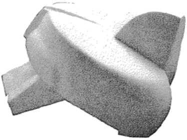
آدم حنين وعفاف السديب

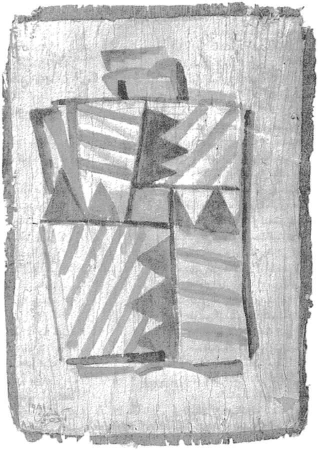


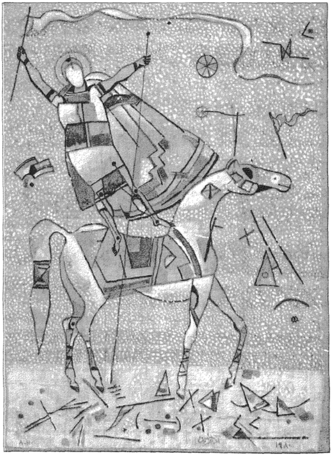
مرتكزها تتألّف من قطعة واحدة، وهنا يروح المرء يفكّر من بعد، ورغماً عنه، بمنحوتات معيّنة تعود إلى مصر القديمة، أي الشكل الفنّي الأوّل الذي قيّض لحنين أن يراه في طفولته. فها هنا، نجد مرّة أخرى نوعاً من الفكاهة الناعمة والمرهفة يتبدّى في سلوك الشخصيات الثلاث. فنحن نرى الأب، وهو أكبر حجماً، وطفليه الاثنين وهما ذوا قامة أصغر حجماً ولكن غير متساوية، جالسين جنباً إلى جنب باحتفالية صارمة؛ ذقونهم منتصبة باعتزاز، وأكتافهم عريضة بطريقة مغالية بعض الشيء، وظهورهم مقوّسة وذلك استجابة منهم لمتطلّبات الكرامة الدنيا التي تسكنهم. العلاقة بين الثلاثة تنمّ عن الرهافة، وتتفسّر بطرق مختلفة، وأنا أترك هذا للقارىء.

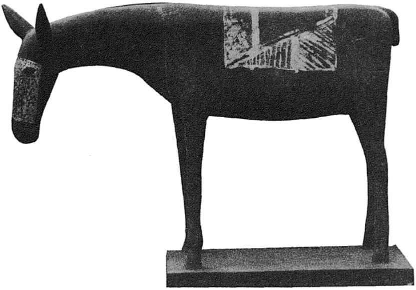
في الأعمال الثلاثة المذكورة، ثمّة اقتصاد شكلي واستثنائي يرجح انعقاد ألفة معيّنة وتواطؤ ضمني بين الفنّان والمتفرّج، وهو تواطؤ يجدر الاعتقاد بأنّه يحيل إلى العهود الأولى للطفولة حيث يروي المرء سيرته مباشرة لكلّ شخص يلتقي به، سواء أكان شيئاً ماثلاً أم كائناً مخلوقاً. من الصحيح أنّ هناك خاصّية فريدة متعلّقة بالطفولة تمثّل في معظم الأحيان في عمل حنين. ولا يمتّ هذا بأي صلة لا مع العفوية البسيطة (أو النزوة المرتجلة)، ولا مع البراءة القليلة المهارة لعمل سريع الخربشة، ولا حتى مع أي فضيلة أخرى ننسبها، بدون كبير تفكير، إلى الطفولة على وجه العموم، ذلك أنّ الأطفال، وبالرغم من وجود استعدادات فوضوية بالتأكيد لديهم، يفصحون عن تصميم لا هوادة فيه للعثور على صورتهم، وعلى مبرّراتهم وبنيتهم بالذات. على أنّ هناك ملمحاً معيّناً للطفولة يظهر ويمثل في عمل حنين: الحاجة إلى معالجة عدد من المسائل الفائقة الأهمّية من خلال عمل خيالي رائق الصياغة. هذه الخاصّية البسيطة واللازمنية في الظاهر والتي نقع عليها أحياناً في نتاجه، تكشف عن مقاربة مباشرة للمعيوش (تتوسّطها وتذيعها في ما بعد صنعة الفنّان)، وبفضل هذه المقاربة يروح كلّ لقاء يعقده وفق النمط الجمالي يصدر دائماً عن رعشة غريبة، وعن افتتان











إلهي يشعر بهما كلّ طفل صغير حينما يلمس، للمرّة الأولى في حياته، بسبّابته المتردّدة القرون الحسّاسة جداً لحلزون. هذه الحال المعنوية، أي حال الاستكشاف واللعب التي تبقى ناشطةً داخل شخصية الفنّان الراشدة، لهي سمة مميّزة للطريقة التي يتناول حنين من خلالها تجربة نضوجه عموماً، حتى على المستوى الحاضر. ذلك أنّ هذا النوع من الخيال يكون، في عالم البالغين، مرادفاً للشكل الرمزي الذي يعتبر، كما يقال، موطن الآلهة.

النور أم الظلام، أيّهما الأسبق؟

دقّة الحقيقة تلتمع بطريقة غير مفهومة داخل ظلمات جهلنا.

متحف الآثار المصرية

وماذا عن هذه الزيارة إلى متحف الآثار المصرية ؟

أطلعني حنين، قبل نيف وثلاثين سنة، على تجربة عرفها ولم يتحدث عنها قطّ في السابق. وهي تعود إلى زمن كان فيه في الثامنة من عمره، إذ أخذه أستاذ المدرسة حينذاك، هو وتلامذة صفّه، لزيارة متحف الآثار بالقاهرة.

كنت قد دوّنت آنذاك حكايته بالعبارات التالية :

ما إن أصبح ابن الثماني سنوات، بحسب ما قال حنين حرفياً، داخل المتحف، «حتى دخل في حالٍ من صدمة الذهول». فغاب عن نظره الأستاذ والتلامذة الآخرون وذهب بمفرده يتجوّل هائماً على وجهه داخل المتحف، كما لو أنّه ضلّ طريقه داخل غابة مسحورة.

كانت تجربة لا توصف. «لا أعلم بالضبط ماذا حصل»، يقول حنين، «على أنه انتابني الانطباع بأنّ شيئاً ما راح يتبدّل داخلي». ويضيف ملمّحاً إلى التجليّات والرؤى والإلهامات عموماً : «كان ذلك تقريباً أشبه ببعض التجارب التي ورد ذكرها في التوراة».

راح الأستاذ يحدثّهم عن الحياة في زمن الفراعنة، وإذ رفع آدم نظره نحو هذه الرؤوس الكبيرة وهذه الصور الكثيرة جداً والشديدة الوطأة للآلهة والملوك، بدا له، على ما يقول، كما لو أنّ الملوك الأسياد المجموعين في هذه القاعات، والناظرين إليه برفق كانوا أسلافه هو بالذات، أي أجداده.

«هذه التجربة زعزعت كياني بعمق، وأنا أجهد نفسي على الدوام لاستعادتها مجدداً، ولعيش هذه اللحظة المحدّدة مرّة أخرى، حتى في يومي هذا، فأنا أحتاج للعثور عليها من جديد وكلّ يوم، وحينما أستيقظ، أراني متلهّفاً للوصول بسرعة إلى محترفي يحدوني هذا الأمل. وأنا أعرف جيّداً ما ينطوي عليه هذا الأمر، وإن كنت لا أقدر على صياغته بواسطة الكلمات. في عملي الفنّي فقط يتسنّى لهذا المكنون أن يتبدّى حقّاً».

«في تلك الفترة لم أكن، بطبيعة الحال، سوى ولد صغير ولم أكن أفكّر في الفنّ. بل حتى أنني لم أكن أتفطّن إلى أنّ كلمة «نحّات» تعني بالتحديد مهنة يمكن أن أختارها لنفسي ذات يوم. إذ لم يكن أي واحد من أصدقاء أبويّ فنّاناً تشكيلياً أو نحّاتاً. مع ذلك بقيت أشعر بهذه الحاجة، وعلى النحو هذا توصّلت إلى تنفيذ عملي النحتي الأول».

بعد مرور بضعة أيّام وضع الولد في جيبه قطعة من الطين الصلصالي كان قد التقطها في محترف المدرسة، ولدى عودته إلى البيت، شرع في إعداد صورة (بورتريه) لأخناتون ناسخاً صورة تمثال رآه في المتحف إضافة إلى أنّها كانت موجودة أيضاً في كتابه المتعلّق بالتاريخ. فقولبه ولوّنه ثم عرضه على أبيه الذي كان يعمل صائغاً في القاهرة القديمة وسرّ الأب بالعمل سروراً كبيراً. فوضعه في واجهة محلّه وراح يظهره للزائرين القادمين لتبادل الأحاديث وهم يشربون فنجان شاي[٢].

يقودنا هذا إلى مسألة البنوّة أو النسب. إذ يبدو أنّ شعور الفتى آدم بوجود صلة نسب تربطه بملوك مصر القدماء ونحّاتيهم، قد ساعد في تطوّره اللاحق كفنّان. ويسعنا اليوم أن ندعم الفكرة القائلة بأنّ تمتّع حنين بامتياز اللقاء مع أسلافه في مثل تلك الظروف هو ما يجعله يتمتّع بوضعية مختلفة جداً عن وضعية عدد غير قليل من الفنّانين الغربيين، الذين راحوا ينزعون، جارين مجرى الانقلابات الثورية الصاخبة في القرن العشرين، إلى التموقع بوصفهم أبناءً لا أب لهم وروّاداً ولّدوا أنفسهم بأنفسهم من عالم مجرّد من ماضيه.

وفي هذا كان هؤلاء يصادقون، حتى بدون أن يفكّروا في الأمر، على فلسفة لا تاريخية خاصّة بزمننا (وهي تعتبر الماضي عديم الأهمّية)، ويمحون معالم صلتهم بأيّ مصدر من شأنه أن يتضمّن أشياء أساسية : بالواقع الوجودي للزمن، بتتابع الأجيال، بضرورة الولادة والموت، بقصر مدّة وجودنا وغناها، بوجوب أن ننقل ونحرص على إدامة أشياء أو بالأحرى بأن نشعر بالحاجة إلى ذلك، وعلى النحو هذا كانت أعمالهم، الفاقدة الأب، تطالب بالرغم من كل هذا بالاعتراف (المتعلّق بمزاياهم المعتبرة حاملة للتجديد) وتطالب، فوق هذا، بنوع من النسب راح مؤرّخو الفنّ يمنحونه إيّاهم بلطف، على طريقة الأنساب التوراتية: «وارول أوجد فلاناً، وفلان ولّد فلاناً آخر، وهذا ولّد بدوره فلاناً ثالثاً».

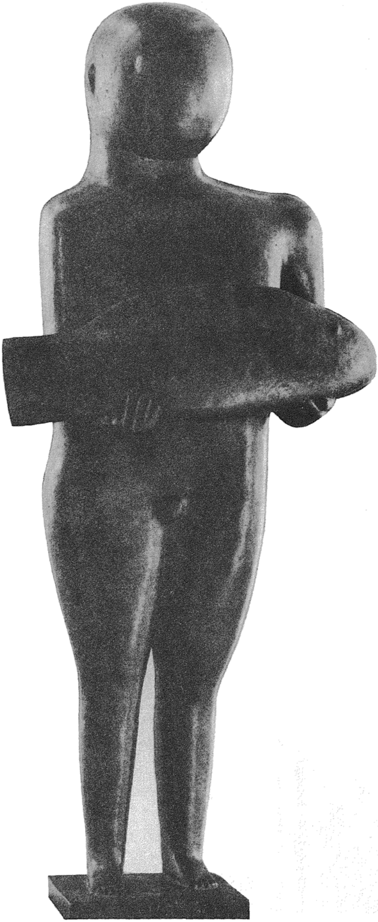
في مقدور حنين، بالاستناد إلى شعوره بالتواصل اللازمني للفنّ، أن يؤكّد بصفاء بال بأنّه «ليس هناك أي جديد» وبأنّه «ليس هناك زمن في الفنّ». وهو يقول هذا علماً بأنّ نتاجه يحمل بالفعل، وفي معنى ما، صفة الجديد. على أنّه من الجائز أيضاً القول بأنّ نتاجه يمثّل مشاركة فنّان مبدع، من بين مبدعين آخرين، في هذا الحوار المتّصل واللازمني الذي تمثّله المحادثة المقدّسة للفنّ، وهي محادثة تشمل كلّ الأجيال وكلّ الحقبات. وهذا ما يجعله قادراً على أن ينسب لنفسه العبارات التالية :

... أن أكسو بالجديد الكلمات القديمة، تلك هي موهبتي الفضلى

إذ أنّها تبذل بعدُ ما جرى بذله من ذي قبل :

وعلى غرار ما هي الشمس تماماً، جديدة وقديمة كلّ يوم، يعاود عشقي قول ما كان قد قيل من قبل. ■







من أشهر الأعمال الفنية حول عالم القطط.. المشهد الختامى للمسرحية الموسيقية «القطط» المأخوذة عن قصيدة للشاعر تى إس إليوت

رغم المرض والموت "زبــدة" تبحث عن الجمال

■■ قد يقال غداً في تاريخ الأدب إن الكاتبة السورية أمل الخير خسرت معركتها مع مرض السرطان وغادرت دنيانا أوائل ديسمبر. كانون الأول ٢٠٠٥ أي قبل أسبوعين من عيد ميلادها الثامن والخمسين لكن هل خسرت الكاتبة التي أسعدت الكبار والصغار معركتها فعلاً؟

مجموعتها القصصية الجديدة التي صدرت بعد وفاتها تقول شيئًا مختلفاً عن ذلك الحكم التاريخي الجامد فمن يصر على نشر الجمال ويشجع على البحث عنه لا يمكن أن يقال إنه خسر معركته حتى وإن غيبه التراب.

عنوان مجموعة الأديبة الراحلة أمل الخير (زبدة والبحث عن الجمال) وهي آخر ما أبدعت من قصص للأطفال الذين سبق أن كتبت لهم (زبدة بين أوغاريت والإنترنت) وهي مجموعة مغامرات تقوم بها قطة ذكية من اللاذقية تسوح عبر العالم على البساط السحري وترحل في الزمان والمكان من مرشدها ومعلمها سندباد لتنقل للأطفال كل ما يشجع على التفكير ويثير الدهشة وحب المعرفة.

على سرير مرضها وفي أيامها الأخيرة وحين أخبرها الأطباء أن أيامها صارت معدودة بالشهور إن لم يكن بالأسابيع وبدلاً من المرارة والاكتئاب اختارت الأديبة الراحلة أن تنحاز للجمال والمحبة حتى آخر لحظة في حياتها فأرسلت قطتها السورية الذكية مع مرشدها لتبحث عن مواطن الجمال في الكون وكتبت على لسانها ولسان سندباد بلغة مبسطة صافية عن جمال المسرح وجمال الرسم وجمال الموسيقى وجمال الشعر وجمال الطبيعة وجمال المكتبات.

إن من يقدم كل هذه الإبداعات هو الأجمل حسب رأي الكاتبة التي ختمت مجموعتها بالحديث عن جمال الإنسان فقدمت للأطفال عدة نماذج مشرفة من الجنس البشري كنيلسون مانديلا والمهاتما غاندي وتشيكوف ونجيب محفوظ ومن النساء الأم تيريزا التي كانت تعتقد أن الجنة الحقيقية هي مساعدة الضعفاء والمساكين.

وأكثر ما يميز هذه المجموعة بعد بساطتها وسحر لغتها هو غزارة المعلومات المتعلقة في كل حقل من الحقول التي تطرقت إليها رحلة البحث عن الجمال ففي مجال الموسيقى مثلاً وهي من الفنون التي كانت مهملة عربياً يتعرف الأطفال بعد الموسيقار العربي زرياب على أعمال موتسارت والأماكن التي أبدع فيها ويرحلون إلى بحيرة البجع مع هواجس تشايكوفسكي وخيالاته ثم يتعرفون على إيطاليا وفن الباروك من خلال فيفالدي والفصول الأربعة والمرحلة التي أنتجت كل تلك الفنون الرائعة.

إن العرب الذين يغيبون جزئيًا عن المسرح والموسيقى يظهرون ظهوراً قوياً في رحلة البحث عن جمال الشعر حيث تظهر ثقافة الكاتبة وميولها، فمن بين ألوف الشعراء العرب تمر مروراً عابراً على المتنبي وولادة وابن زيدون ثم تقف مع قطتها وأطفالها لتحتفي حفاوة خاصة بشاعر المعلقات زهير بن أبي سلمى لأنه وقف مع نزعات السلم والتسامح في وسط جاهلي مليء بالعنف والعنصرية أما حفاوتها بالشعر العالمي فقد انصبت حول بضعة أسماء مؤثرة حيث عرفت الأطفال العرب على شعراء كبار كناظم حكمت وبابلونيرودا واليوت وطاغور عاشق الطبيعة التي أفردت لها الكاتبة فصلاً خاصًا هو الخامس من مجموعتها الصادرة بعد رحيلها.

في رحلة القطة زبدة للبحث عن مكامن الجمال في الطبيعة يأخذها البساط مع سندباد إلى شلالات نياجرا حيث تتأملها مع الطرفين الأمريكي والكندي ثم تعود إلى سحر بلاد الرافدين مع دجلة والفرات ومنهما إلى منابع النيل قبل أن تحط الرحال عند الدانوب الأزرق الذي خلده شتراوس بإحدى أشهر مقطوعاته الموسيقية.

غزارة الثقافة تظهر في فصل المكتبات أيضاً من خلال ثلاث زيارات لمكتبة الإسكندرية برموزها وعراقتها وانفتاحها على الفكر البشري منذ قرون ما قبل الميلاد ومكتبة الكونجرس الأمريكي التي تضم تراث جيفرسون الرئيس الثالث للولايات المتحدة الأمريكية الذي قال (لا أستطيع أن أعيش من غير كتب) ثم زيارة لمكتبة المتحف البريطاني التي تضم صورة من وثيقة (الماجنا كارتا) أول وثيقة سياسية واضحة عن حقوق الإنسان والمواطن منذ القرن الثاني عشر الميلادي وهناك تعريجة على مركز بومبيدو في باريس لإنصاف الفرنسيين الذين قال كاتبهم فلوبير: اقرأ لأعيش.

وتظهر ثقافة أمل الخير الشاملة ليس من خلال كتاباتها فحسب، بل من خلال تأثيرها فيمن حولها. فالكاتبة بالمناسبة هي والدة الشاعرة بالإنجليزية (عيوش اللاذقاني) التي نشرت ديوانين من الشعر قبل أن تبلغ الثامنة عشرة من عمرها فقد غرست الكاتبة الراحلة والمربية الكبيرة ميولها الفنية في أطفالها فابنتها الكبرى (بيسان اللاذقاني) بالإضافة إلى كونها عالمة في الهندسة الوراثية في أكبر المختبرات الدولية رسامة ممتازة فهي التي قدمت رسوم المجموعتين لذا نالت مع أختها عيوش اللاذقاني الشكر في المقدمة، أما الإهداء فكان لجمعية الخير الشقيقة الكبرى للكاتبة الراحلة والتي كانت بمثابة أم حقيقة لها.

لقد اختارت أمل الخير أن تكون مربية حتى آخر لحظة في حياتها وكان حبها للأطفال هو الذي دفعها لتكتب لهم بأسلوب سهل مبسط لتعلمهم بأسلوب غير مباشر حب الجمال واحترام القوانين التي نحافظ بها على تماسك المجتمع البشري.

ومع أن المسرح أول رحلة جمالية تقوم بها القطة الذكية في مجموعة (زبدة والبحث عن الجمال) فقد تأخر الحديث عنه لكثافته وعلاقة الكاتبة الوثيقة به، فرسالتها للماجستير في كلية لندن للدراسات الشرقية والأفريقية كانت عن المرأة في المسرح السياسي لسعد الله ونوس صاحب عبارة (محكومون بالأمل) والذي تذكرنا محنته في مواجهة السرطان بمحنة الكاتبة ومحنة الشاعر والمسرحي السوري ممدوح عدوان فقد ابتلى الثلاثة بذلك المرض الخطير وواجهوه جميعاً بشجاعة وبإصرار على نشر الحب والجمال من خلال الفن والإنسان.

في رحلة البحث عن جمال المسرح مع هؤلاء وغيرهم تقف القطة الذكية مع معلمها سندباد عند (جلوب) مسرح كبير في لندن وتعود في رحلة عبر الزمان إلى اسخيلوس الإغريقي الذي كان يكتب المسرحيات في القرن الخامس قبل الميلاد وعبر العصور نمر في مغامرة اكتشاف المسرح على خيال الظل و(البانتومايم) ثم يظهر البراعة الفنية عند الوقوف عند مسرحية موسيقية عن القطط لاليوت، فالكاتبة ذات الأسلوب المشوق تعرف أن قطتها الذكية سوف تقف وقفة خاصة عند مسرحية تخص جنسها.

ماذا أرادت الكاتبة الراحلة أن تقول للكبار والصغار في هذه المجموعة القصصية التي كانت آخر ما أبدعت؟

الجواب في الصفحة الأولى التي سبقت الإهداء، فقد اختارت أمل الخير أن تقدم لمجموعتها بقول جبران خليل جبران: هيموا وراء الجمال، اتبعوه، أجل اتبعوه، ولو كان ذا جناح وأنتم لا جناح لكم، اتبعوه، اتبعوه، فإن افتقدتم الجمال، افتقدتم كل شيء. ■

محيي الدين اللاذقاني



جمال المكتبات

أمل الخير

الشمس رمز مركزى عند قدماء المصريين، أما مواجهة المكتبة للبحر فمعناه الانفتاح غير المحدود على المعرفة

قال سندباد: زبدة.. هل تعلمين.. سنبحث الآن عن أهم مصادر الجمال.

ضحكت زبدة وأرادت أن تتشاقى؛ فقالت:

- لقد تعبت من البحث عن الجمال، ألا يمكننا أن نبحث مرة عن القبح؟ لكن سندباد لم يفهم شقاوتها، فقال:

- القبح يحيط بنا، ولا يحتاج إلى البحث عنه. الحروب قبح، المجاعة قبح، العنصرية قبح، وانعدام العدالة الاجتماعية قبح.

وضعت زبدة يدها الصغيرة على فمه وقالت: كفى.. كفى.. كنت أمزح فقط والآن.. قل لى ما أهم مصادر الجمال؟

قال سندباد: اقرأ.

رددت زبدة: اقرأ؟

- نعم يا زبدة.. كلمة (اقرأ) هى أجمل شىء فى الوجود، لقد كانت أول كلمة فى القرآن الكريم. وهناك قول جميل لأديب فرنسى اسمه (غوستاف فلوبير) يقول: اقرأ لتعش.

شخرت زبدة، وقالت: هذا غير صحيح. نحن نأكل لنعيش.

قال سندباد: لا يا زبدة.. الحيوانات فقط تأكل لتعيش، أما الإنسان فالمعرفة هى حياته.

شخرت زبدة وأدارت وجهها.

استدرك سندباد، وقال: لم أقصد القطط، القطط أذكى المخلوقات.

ابتسمت زبدة وقالت: حسن.. سامحتك.. لكن القراءة فى كل مكان فأين نبحث عنها؟

- فى المكتبات.. سنزور ثلاث مكتبات فى ثلاث قارات.

راحت زبدة تقفز فرحة، وتقول: هيه.. أنا أحب السفر كثيرًا، ولكن ما هى هذه المكتبات؟ وبأيها نبدأ؟

قال سندباد: ما رأيك أن نلعب لعبة؟ أن أقول اسم المكتبة، وأنت تقولين اسم القارة.

فرحت زبدة، وقالت: هذا رائع أنا أحب اللعب كثيرًا. هيا نبدأ.

قال سندباد: مكتبة الإسكندرية فى مصر.

قالت زبدة: هذا سهل قارة أفريقيا؛ لأن مصر فى أفريقيا.

- أحسنت، المكتبة الثانية، مكتبة الكونجرس فى واشنطن.

هزت زبدة ذيلها، وقالت: وهذا سهل أيضًا. قارة أمريكا؛ لأن واشنطن عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية. وهذه فى قارة أمريكا.

قال سندباد: أحسنت مرة أخرى، أما المكتبة الثالثة، فهى المكتبة البريطانية فى لندن.

وضعت زبدة يدها الصغيرة على فمها، وفكرت طويلاً، ثم قالت: لا أعرف.

قال سندباد بتعجب: زبدة.. ألا تعرفين؟! لندن عاصمة بريطانيا، وبريطانيا دولة أوروبية، فما هى القارة؟

- آه.. الآن عرفت. قارة أوروبا.

- نبيهة..

قالت زبدة: ما علينا.. بأيها نبدأ؟

- نبدأ بمكتبة الإسكندرية.

جلس سندباد وزبدة على البساط السحرى، وقالا: إلى الإسكندرية، بينما كان البساط يحلق فوق القاهرة، راحت زبدة تهتف وتقول: هيه إننى أرى النيل.. إننى أرى الأهرامات.. حط البساط عند قلعة صلاح الدين فى الإسكندرية. الإسكندرية مدينة جميلة، تتهادى على شاطئ البحر المتوسط. شواطئها بديعة، وآثارها غنية، وقصورها رائعة وخاصة قصر المنتزه. ولكن زبدة كانت مشغولة عن هذا كله بمكتبة الإسكندرية.

عند المكتبة وقف سندباد وزبدة مشدوهين. بناؤها غريب ومدهش. شكله دائرى، نصفه غارق فى الأرض، وواجهته إلى البحر؛ لتعكس شروق الشمس يحيط به جدول من الماء، فيما تتناثر من حوله أشجار الزيتون.

قالت زبدة: إن هذا البناء غريب جداً.

قال سندباد: دعينا نسأل الدليل عن معنى كل ما رأيناه.

قال الدليل: الشمس رمز مركزى عند قدماء المصريين، أما مواجهة المكتبة للبحر فمعناه الانفتاح غير المحدود على المعرفة.

سألت زبدة: ولماذا أحطتم البناء بهذا الجدول من الماء؟

قال: لأن الماء رمز التواصل بين الأمم والشعوب. تابع: أما أشجار الزيتون، فكما تعرفون هى رمز السلام.

وكان هناك جدار ضخم من حجر الجرانيت نقشت عليه الحروف الأبجدية بكل لغات العالم.

قالت زبدة: دعنا نرها من الداخل.

فى الداخل، كانت المكتبة تتألف من سبعة طوابق. فى الطابق الأرضى، أو كما يسمى الطابق الأساسى كانت كتب الدين والفلسفة والتاريخ.

أبدت زبدة اهتمامًا كبيرًا، وراحت تسأل الدليل عن محتويات المكتبة. أعجب الدليل بأسئلة زبدة، فيما راح زوار المكتبة يتابعونها متناسين كل شىء، ومعجبين بهذه القطة المثقفة.

سألت زبدة: لماذا خصص الطابق الأرضى لكتب الفلسفة والدين والتاريخ فقط؟

ابتسم الدليل، ومسح على رأسها، وقال: سؤالك ذكى جداً يا زبدة. هذا لأن هذه المواد هى جذور المعرفة الإنسانية. وأساسها؛ لذلك وضعت كتبها فى الطابق الأساسى.

هزت زبدة رأسها؛ كدليل على فهمها وإعجابها، ثم تابعت التجول مع سندباد. شاهدا قاعات للكتب، وأخرى للمخطوطات، وقاعات للمعارض، ودورًا للعروض السينمائية، والكمبيوترات، وقاعات للمحاضرات وغير ذلك، ثم همَّا بالمغادرة، لكنهما توقفا عند لوحة تحكى تاريخ مكتبة الإسكندرية.

قالت زبدة: سندباد.. لقد أحببت مكتبة الإسكندرية كثيراً. وأريد أن أعرف عنها كل شىء. من فضلك اقرأ لى تاريخها.

قال سندباد: مكتبة الإسكندرية أول جامعة فى العالم، فيها حُسب محيط الأرض بشكل دقيق لأول مرة وفيها تُرجم أقدم نص من العبرية إلى اليونانية.

وقد دمرت مرتين: مرة بالحريق، ومرة بالغرق فى البحر. لكن بناءها عاد بهذا الشكل الجميل؛ لتكون منارة الإسكندرية الثانية.

قالت زبدة: وهل هناك منارة أولى؟

ضحك سندباد وقال: ألا تعلمين أن هناك منارة الإسكندرية إحدى عجائب الدنيا السبع؟

هزت زبدة رأسها بإعجاب، وقالت: حقاً.. إن مصر أم الدنيا.

قال سندباد: والآن، وبعد أن استمتعنا بجمال مكتبة الإسكندرية، هيا بنا إلى واشنطن، لنرى أكبر مكتبة فى العالم.

قالت زبدة: لقد نسيت اسمها، خاصة بعد أن رأيت أجمل مكتبة فى العالم.

زبدة والبحث عن الجمال
أمل الخير
لندن: دار الرافد، ٢٠٠٦، ٨٦ صفحة

فى مكتبة الكونجرس ٥٣٠ ميلاً من أرفف الكتب، وفيها من الكتب فقط ١٨ مليون كتاب، هذا غير ملايين المخطوطات والخرائط والصور والأشرطة المسجلة وغير ذلك الكثير مما سنراه عند زيارتنا لها

قال سندباد: لا تحكمى قبل أن ترى المكتبات الأخرى.

- أراك متحمسًا لزيارتها!

- اسمعى هذه الأرقام؛ وسوف تعرفين سر حماسى.

- هيا أسمعنى.

- فى مكتبة الكونجرس ٥٣٠ ميلاً من أرفف الكتب، وفيها من الكتب فقط ١٨ مليون كتاب، هذا غير ملايين المخطوطات والخرائط والصور والأشرطة المسجلة وغير ذلك الكثير مما سنراه عند زيارتنا لها.

جلسا على البساط، وقالا: إلى واشنطن.

قالت زيدة: أنا جائعة.

قال سندباد: هناك مثل يقول: من لا يعمل لا يأكل.

شخرت زيدة، قالت: لا أحب هذا المثل.

ثم، كيف أعمل وأنا فى الجو؟

- العمل ليس باليدين فقط، بل هو بالعقل أيضًا.

- وماذا أعمل بعقلى؟

فتح سندباد حقيبته، وأخرج منها علبة سردين وقال: سنلعب لعبة. أوجه لك أسئلة وكل إجابة صحيحة تأخذين عليها سمكة.

فرحت زيدة.. قالت: لعبة مسلية أنا أحب اللعب كثيرًا. لكن، لا تسألنى أسئلة صعبة.

- حسن.. هيا نبدأ..

- ما هى عاصمة أمريكا؟

هزت رأسها وقالت: هذا سؤال سهل، واشنطن.

- أحسنت.. خذى سمكة.. لم سميت بهذا الاسم؟

- أعرف هذا أيضًا، على اسم أول رئيس لأمريكا جورج واشنطن.

- أحسنت خذى سمكة ثانية، لكن من هو أول رئيس لأمريكا؟

شخرت زيدة وراحت تخربشه وتقول: تسخر منى.. أعطنى سمكة.

ضحك سندباد كثيرًا، وأعطاها سمكة، ثم قال: ومن هو الرئيس الثالث لأمريكا.

- أوف. لا أعرف، ولا يهمنى.

قال سندباد: إنه مهم لرحلتنا، لكن لا عليك الآن.. سأعطيك سمكة وعند عودتنا سأسألك عن اسمه، وعن عمل مهم قام به وجملة جميلة قالها.

- كل هذا بسمكة واحدة؟

- لا تخافى.. كل سؤال بسمكة. ثم همس: فجعانة.

قالت وهى تتلمظ: سمعتك.

حط البساط أمام البيت الأبيض فى واشنطن.

سألت زيدة: ما هذا البناء الجميل المسور بالحدائق؟

- هذا مقر الرئيس الأمريكى.

- لا تقلقى، سوف نراه، ونرى كل المعالم الرئيسية فى واشنطن، ولكن بعد مكتبة الكونجرس.

- سندباد.. أنت تكرر كلمة «الكونجرس» كثيراً ما معنى كونجرس؟

- الكونجرس هو البرلمان الأمريكى، أو ما نسميه نحن مجلس النواب.

بناء مكتبة الكونجرس بناء عريق وجميل.

قالت زيدة: هو بناء جميل، لكن مكتبة الإسكندرية أجمل.

شاهد لوحة كتب عليها: «لا أستطيع أن أعيش من غير كتب، بتوقيع (جيفرسون).

سألت زيدة: من هو جيفرسون؟

- هو الرئيس الثالث للولايات المتحدة الأمريكية. الأمريكان يحبونه كثيراً؛ لأنه كان يحمل أفكاراً ومبادئ عظيمة. حاول تطبيقها ومنها إيمانه بالمعرفة فبنى هذه المكتبة؛ وحاول أن يجمع فيها أكبر قدر من الكتب فى شتى مجالات المعرفة وأسماها (مكتبة الكونجرس)، ليتمكن أعضاء الكونجرس والشعب الأمريكى من البحث والمعرفة. راح سندباد وزيدة يتجولان فى طوابق وقاعات المكتبة، ويطلعان على الكتب والمخطوطات حتى وصلا قاعة كبيرة مليئة بالكتب القديمة ومغطاة بالزجاج. كانت قاعة مختلفة. قرأ سندباد: مكتبة جيفرسون. قالت زيدة: لم أفهم.

- إنها مكتبة جيفرسون الخاصة يعنى كتبه هو، نقلت إلى هنا، لكن لا يسمح بتداولها؛ لأنها قطع نادرة.

بدا الملل على وجه زيدة، قالت: سندباد.. أريد أن أتفرج على واشنطن.

- سنذهب، ولكن بعد أن نشترى بعض التذكارات.

اشترى سندباد بطاقة وكأسًا وقلم رصاص، وجميعها كتب عليها: «لا أستطيع أن أعيش من غير كتب». ثم أخذ زيدة وراحا يتجولان فى واشنطن.

قالت زيدة: هذه المدينة صغيرة وهائلة، مع أنها عاصمة أكبر دول العالم.

قال سندباد: عندك حق. ربما تكون لهم وجهة نظرهم. دعينا من هذا، وهيا بنا إلى المكتبة الثالثة.

- نسيت.. ما هى؟

- المكتبة البريطانية فى لندن.

- لندن.. أف. أنا لا أحب لندن.

حملها سندباد على ذراعه اليسرى، وراح يمسح على رأسها بيده اليمنى.

قال: عندما ترين المكتبة ستحبينها.

فى طريقهما إلى لندن، راح سندباد يسأل زيدة. قال: والآن.. أخبرينى، من هو الرئيس الثالث لأمريكا؟

- وتعطينى سمكة؟

- بالتأكيد.

- حسن أعطنى سمكة. أعرفه. توماس جيفرسون

أعطى سندباد زيدة سمكة وقال: اذكرى عملاً مهماً قام به.

- سمكة أخرى. مكتبة الكونجرس.

تبسم لها سندباد، وقال وهو يناولها سمكة: أنت ذكية ودقيقة الملاحظة يا زيدة. تابع: والآن إلى السؤال الأخير.

- اذكرى قولاً مهماً له؟

حاولت تذكر قول له فلم تعرف، فأرادت أن تتشاقى، قالت: قال جيفرسون: على المرء أن يعطى قطته سمكًا باستمرار ودونما أسئلة. ضحك سندباد وأعطاها سمكة وقال: قطة شقية، سأعيد عليك ما قال وسترينه مكتوبًا على كل الأشياء التى اشتريناها «لا أستطيع أن أعيش من غير كتب».

قالت زيدة: وأنا لا أستطيع أن أعيش من غير سمك.

همس سندباد: جاهلة.. تعيش لتأكل.

شخرت زيدة وراحت تخربشه وتقول: سمعتك.. سمعتك، فيما حط البساط فى حديقة ريجنت.. فى لندن.

قال سندباد: زيدة.. لا تستطيعين أن تقولى إن حدائق لندن غير جميلة.

- أنا أقول الحقيقة.. حدائقها كبيرة وجميلة.

تناول سندباد وزيدة غداءهما فى مطعم الحديقة، ثم تجولا فيها قليلاً وبعد ذلك توجها إلى المكتبة.

أمام المكتبة وقفت زيدة تتأمل تمثالاً ضخماً، قالت: من هو؟

قرأ سندباد: اسحق نيوتن.

- ومن هو اسحق نيوتن.

- هو عالم بريطانى اكتشف قانون الجاذبية الأرضية، ألا تعرفين حكايته الشهيرة مع التفاحة.

- لا.. احكها لى سندباد.. أنا أحب الحكايات.

- حسن.. سأحكيها لك بشرط أن تبقى هادئة داخل المكتبة، وأن تجيبى عن كافة الأسئلة التى سأسألك إياها.

- موافقة.. لكن لا تسأل أسئلة صعبة.

- سأسألك عن محتويات المكتبة.

فى المكتبة راح الدليل يشرح لهما، قال: هذا أكبر بناء عام فى بريطانيا، يتألف من أربعة عشر طابقًا، تسعة طوابق فوق الأرض، وخمسة تحتها. أضاف: ما يميز المكتبة البريطانية أن فيها نسخة من كل مطبوعة تصدر فى بريطانيا وأيرلندا.

شاهد سندباد وزيدة الكتب والمخطوطات والخرائط والمجلات والصحف وأرشيف الموسيقا لكن زيدة أعجبت بالطوابع خاصة.

قال الدليل: فى المكتبة أكثر من ثمانية ملايين طابع. أضاف: لكنى سأصحبكما إلى الكنوز الحقيقية للمكتبة.

فى قاعة المعارض وقف الدليل وقال وهو يشير بيده: هنا أهم كنوز المكتبة. هذه الـ (Magna Carta) حجر الزاوية للحرية وحقوق الإنسان.

شخرت زيدة، أشار لها سندباد بالصمت. همست: وماذا عن حقوق الحيوان؟

ابتسم الدليل لها وقال: لا تقلقى هناك أيضًا قوانين لحماية الحيوان.





قال سندباد: من فضلك، أريد أن أعرف المزيد عن ذلك.

قال الدليل: هذه الوثيقة، صاغها الملك جونز عام ١٢١٥. وفيها وضعت القوانين الأولى لحرية الإنسان وحماية حقوقه، التى للأسف مازالت تنتهك حتى الآن.

تابع: وهذا دفتر ملاحظات ليوناردو دافنشى.

هتفت زيدة: هيه.. أعرفه، صاحب الموناليزا.

وضع سندباد أصبعه على فمها و همس: صمت أو همس.

- ثم همس قائلا: أحسنت.. أنت قطة ذكية حقًا.

تابع الدليل قائلاً: وهذه مخطوطات الخنافس (The Beatles) إضافة إلى مخطوطات (جين أوستن) و(جيمس جويس) و(هاندل) وغيرهم، وهذه مخطوطة كتاب (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) لرائد النهضة العربية رفاعة الطهطاوى.

همست زيدة: ولماذا هنا وليس فى مكتبة الإسكندرية؟! ثم أشارت بيدها وما هذه؟

كان همسها جميلاً جداً.

علق الدليل: هذه أول مرة أسمع فيها همس قطة، تابع مجيبًا زيدة: هذه تسجيلات لخطب (نيلسون مانديلا).

قال سندباد: إنها مكتبة غنية جداً بالمعرفة، حقًا إن المكتبة هى مستودع الثروة الحقيقية للبشرية.

- سألت زيدة سندباد وهما يغادران المكتبة: هل اكتفينا من جمال القراءة؟

- قال: ليس قبل أن نزور مدينة شيكسبير.

- ما اسمها؟

- ستراتفورد.

- ولماذا نزورها، هى ليست مكتبة.

- لاحظى يا زيدة أن ستراتفورد هى مكتبة شيكسبير، هناك بيته ومخطوطاته وأشياؤه. بالإضافة إلى أنها مدينة جميلة.

- سندباد.. من أين تعرف هذا كله؟

- من القراءة.

جلس سندباد وزيدة على البساط السحرى، الذى حط على شاطئ نهر (آفون) فى مدينة ستراتفورد.

قال سندباد هذا نهر آفون؛ ولذلك سمى شيكسبير (بجعة الآفون) (The Swan of Avon) سار سندباد وزيدة على ضفة النهر باتجاه بيته الذى نشأ فيه.

قالت زيدة: لقد وعدتنى أن تحكى لى حكاية نيوتن والتفاحة.

- نعم، ولكن بعد أن أسألك عن أهم شىء فى المكتبة البريطانية.

- أعرف أى جواب تريد (ماجنا كارتا).

حسن.. هيا احك لى الحكاية.

قال سندباد: كان هناك سؤال يحير (نيوتن) وهو: لماذا لا يسقط القمر على الأرض. وفى يوم كان يجلس نيوتن فى حديقة منزله، وفجأة سقطت تفاحة على رأسه، فراح يصرخ فرحًا (وجدتها.. وجدتها) وهو يعنى الجاذبية الأرضية.. لكن، هل تعرفين ما هو أجمل شىء فى الموضوع؟

- ما هو؟

- إن أم نيوتن غضبت منه؛ لأنه تأخر عن طعام الغداء، الذى برد ورمته إلى الخنزير، لتعاقب نيوتن على تأخره.

ضحكت زيدة حتى استلقت على ظهرها وقالت: أم جاهلة.

وصل سندباد وزيدة إلى بيت شيكسبير؛ كان البيت صغيراً فى حجمه، لكنه كبير بمحتوياته، هناك أشياؤه وكتبه وصوره والأهم من هذا مخطوطاته، بعد ذلك توجها إلى البيت الذى سكن فيه مع زوجته (آن هاثاوى).

أعجبت زيدة بحديقة البيت الكبيرة المليئة بأشجار التفاح. وبجدول الماء المتدفق قريباً منها واشترت صحنًا خشبيًا كالذى كان يأكل فيه شيكسبير؟

قالت البائعة: يجب عليك يا زيدة أن تنظفى الصحن بطريقة شيكسبير.

- وكيف كان ينظفه؟

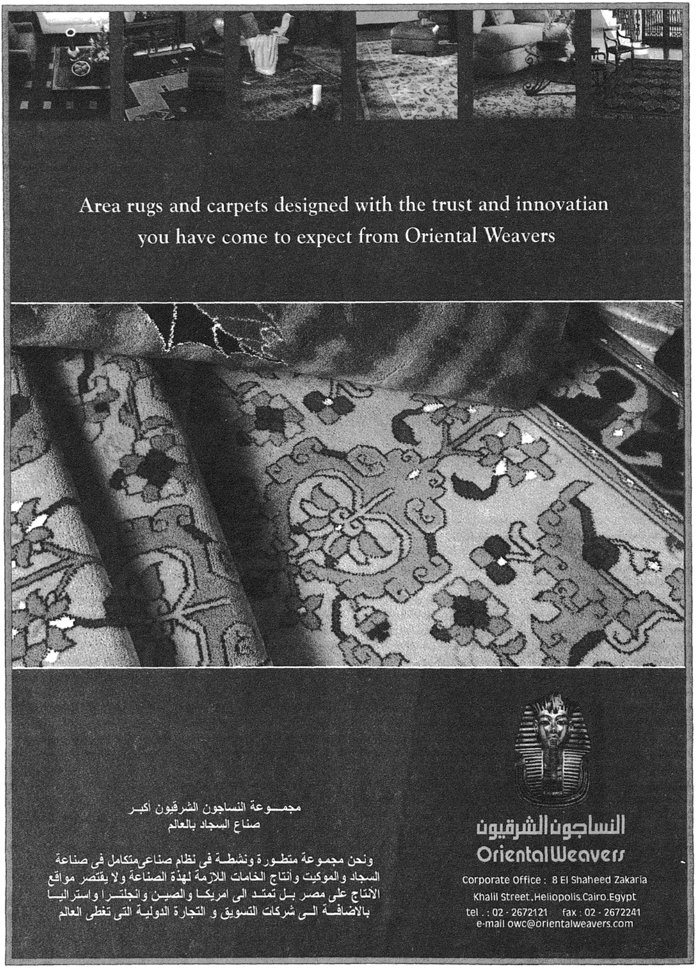
- كان الناس فى ذلك الوقت وضمنهم شيكسبير ينظفون الصحون بعد استعمالها بلعقها بألسنتهم، وأظنك يا زيدة ستتفوقين فى ذلك.

- يخ.. هيه.. لقد كان شيكسبير يقلدنى.

كل شىء فى ستراتفورد يعبق برائحة شيكسبير. كنيسة المدينة فيها قبره، ومسرحها مسرح شيكسبير، وهناك مزرعة أمه، وبيت ابنته والمدرسة التى درس فيها.

قال سندباد: هذه المدينة تعيش على ذكرى شيكسبير، إنه شاعر عظيم، لكن المتنبى ليس أقل منه، ومع ذلك لا نجد له أو لغيره من شعرائنا أى مكان.

قالت زيدة: لا تحزن سندباد، حين نعود سنبحث عن أماكنهم ومخطوطاتهم وآثارهم، ونبنيها من جديد؛ لأنها من ثروتنا الحقيقية. ■


Area rugs and carpets designed with the trust and innovatian
you have come to expect from Oriental Weavers
مجمــوعة النساجون الشرقيون أكبـر
صناع السجاد بالعالم
ونحن مجموعة متطـورة ونشطـة فى نظام صناعىمتكامل فى صناعة
السجاد والموكيت وأنتاج الخامات اللازمة لهذة الصناعة ولا يقتصر مواقع
الأنتاج على مصر بـل تمتـد الى امريكـا والصيـن وانجلتـرا واستراليـا
بالاضافــة الــى شركات التسويق و التجارة الدولية التى تغطى العالم
النساجون الشرقيون
Oriental Weavers
Corporate Office : 8 El Shaheed Zakaria
Khalil Street.Heliopolis.Cairo.Egypt
tel . : 02 - 2672121 fax : 02 - 2672241
e-mail owc@orientalweavers.com

هل يعرف العرب مجتمع المعلومات؟

جمال محمد غيطاس

لا يمكن الحديث عن مجتمع المعلومات دون الأخذ فى الاعتبار أن هذه الأنشطة والأشكال الجديدة لا تولد أو تنمو فى فراغ بل تنشأ وتتطور فى بيئة اجتماعية قائمة لها ثوابتها ومتغيراتها وطموحاتها وتفضيلاتها وتوازناتها المختلفة

طوعا أو كرها... غادر العرب نقطة البداية فى تعاملهم مع عصر المعلومات، وبدأوا يسعون حثيثا، منذ مطلع الألفية على الأقل، للحاق بهذه الثورة العاتية وشاركوا فى القمة العالمية لمجتمع المعلومات بدورتيها (جنيف ٢٠٠٣ وتونس ٢٠٠٥) رافعين شعار بناء مجتمع المعلومات، لكن هم عالميا فى مراتب غير مؤثرة ومحليا يعيشون أوضاعا غير ناضجة بما يكفى، وبين اللهاث نحو المكانة العالمية والرغبة فى النضج المحلى قطعوا أشواطا مختلفة الطول والعمق،وفى غمار ذلك كله كان على الدوام هناك سؤال: هل لمجتمع المعلومات مستقبل بالبلدان العربية؟ ومعظم من تصدوا للإجابة تناولوا الأمر من جوانبه الاقتصادية والتقنية لكنهم نادرا ما تناولوا لب القضية الأساسى المتمثل فى مدى استعداد (العقل العربى) لفهم وتقبل ودعم وإنجاح جهود التحول لمجتمع المعلومات، وهو الجانب الذى تركز عليه هذه المقالة التحليلية حيث تحاول رصد (فجوة العقل المعلوماتى العربى) وتأثيراتها على فرص بناء مجتمع المعلومات.

لا شك أنه من غير الممكن الحديث عن مجتمع المعلومات دون الأخذ فى الاعتبار ما أفرزته ثورة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات من أنشطة وأشكال مبدعة وجديدة تماما وغير مألوفة بالنسبة للمجتمع التقليدى، وفى الوقت نفسه لا يمكن الحديث عن مجتمع المعلومات دون الأخذ فى الاعتبار أن هذه الأنشطة والأشكال الجديدة لا تولد أو تنمو فى فراغ بل تنشأ وتتطور فى بيئة اجتماعية قائمة لها ثوابتها ومتغيراتها وطموحاتها وتفضيلاتها وتوازناتها المختلفة.

هذه الحقيقة، التى نعتقد أنه لا يمانع فيها أحد، تعنى أول ما تعنى أن مجتمع المعلومات ليس حالة تكنولوجية محضة، بل هو بالدرجة الأولى حالة مجتمعية تتطلب إعادة تهيئة لعقل ووعى المجتمع نفسه، بمعنى آخر: لكى ينبت مجتمع المعلومات فى مجتمع ما ثم يتطور وينضج مع الوقت لابد له من (عقل مجتمعى معلوماتى) جديد، يعمل وفق منظومة تهيئ الفرصة كاملة للتفاعل الخلاق المستمر بين قوة إتاحة وتداول المعلومات من جهة وميكانيزمات إدارة المجتمع ومفاصله وأطرافه المختلفة من جهة أخرى.

من هنا فإن مركز الصدارة فى قائمة الآليات أو الشروط المطلوبة لتطور ونجاح ونضج مجتمع المعلومات يحتله دون منازع (منظومة العقل المعلوماتى) السائدة بالمجتمع، وهل هى داعمة لهذا الشكل الجديد من المجتمع أم معوقة له.

والسؤال الآن: ما المقصود بالعقل المعلوماتى المجتمعى؟

العقل المعلوماتى المجتمعى هو مجموعة الأفكار والقناعات والسلوكيات التى تسود مجتمعاً ما وتحكم توجهاته وتعاملاته مع قضايا المعلوماتية والمعرفة من جميع نواحيها، أو هو الخلفية والذهنية المتراكمة لدى مجتمع ما، تحكم وتتحرك فوقها ومن خلالها جميع أشكال التعامل مع المعلومات والمعارف والتكنولوجيات والأدوات المرتبطة بها، ويمكننا وصفه كذلك بالإطار الثقافى والسلوكى الذى يشكل الواقع الاجتماعى ككل، ويتعامل المجتمع من خلاله مع قضايا المعلوماتية والمعرفة المختلفة، كالوعى بقيمة المعلومات والمعارف وأهميتها وكيفية إنتاج المعلومة وكيفية استخدامها وكيفية تأمينها وكيفية المشاركة فيها مع الآخرين أخذا وعطاء، وصولا إلى كيفية توظيفها بفعالية كأداة لتحسين الإنتاجية والإبداع والتطوير وصولا إلى نوعية حياة أفضل فى شتى المجالات.

ولعل نقطة الضعف الأساسية التى تواجه نشوء وتطور ونضج واستقرار مجتمع المعلومات بالوطن العربى تتمثل فى أن تكنوقراطيى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات اندفعوا فى طريق بناء مجتمع المعلومات غير مبالين او واعين بما يكفى بأن ما يفعلونه إنما يتم فى النهاية داخل بناء مجتمعى له (عقله الخاص) المستقر والموروث الذى يتعامل به مع قضية المعلومات والمعرفة، وبعضهم اعتبر انه يبنى مجتمعا جديدا فى محيط اجتماعى خال من الشوائب والعقبات التى يمكن أن تتقاطع مع جهود بناء هذا المجتمع وتعوقها وربما تفرغها من مضمونها أحيانا، وبالتالى نشأت فجوة واضحة بين ما هو متاح من خطط وقدرات لبناء مجتمع المعلومات، سواء كانت ضئيلة أو وفيرة، وبين قدرة المجتمعات العربية على استيعابها والإفادة منها كما ينبغى، وهو ما يمكننا أن نطلق عليه (فجوة العقل المعلوماتى العربى) التى أصبح مستقبل مجتمع المعلومات العربى رهينة لها، وهو ما يفرض التوقف عند هذه الفجوة بالتحليل والملاحظة.

منظومة الوضع المعلوماتى العام

تتمثل نقطة البداية فى تحليل هذه الفجوة فى التعرف على منظومة الوضع المعلوماتى العام بأى مجتمع كما أفرزتها وفرضتها التحديات والتطورات الحالية، وموقع العقل المعلوماتى المجتمعى فى هذه المنظومة ودوره ومسئولياته، ويمكننا تصور منظومة الوضع المعلوماتى العام داخل أى مجتمع كمثلث بثلاث زوايا وقلب أو محور فى المنطقة الوسط بين الزوايا الثلاث، وكل زاوية من زوايا المثلث يحتلها طرف يتأثر ويؤثر فى الزاويتين الأخريين كما يتفاعل فى الوقت نفسه مع من يحتل منطقة القلب أو الوسط.

والأطراف التى تحتل زوايا المثلث هى ثلاث ثورات: (الثورة المعلوماتية. ثورة التغيير داخل المجتمعات. ثورة العقل المجتمعى)، أما من يحتل منطقة القلب أو الوسط بين الزوايا الثلاث فهو (العقل المعلوماتى المجتمعى) المضطر للتعامل مع كل منها بمنهج وفكر خاص، وفيما يلى سنحاول تفكيك العناصر الثلاثة الأساسية لهذه المنظومة والتعرف عليها، ثم نتناول طبيعة العقل المعلوماتى المجتمعى العربى من منظور علاقته بالثورات الثلاث وانعكاس ذلك على مستقبل مجتمع المعلومات.

الزاوية الأولى: ثورة المعلومات

ينظر الكثيرون إلى التطورات المتلاحقة والسريعة فى أجهزة وأدوات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، من حاسبات ومعالجات وبرمجيات ونظم وخطوط اتصالات وشبكات معلومات وشرائح الكترونية، على أنها أهم ملامح ثورة المعلومات الحديثة، بيد أننا عندما نتناول ثورة المعلومات من منظور التأثير الاجتماعى سنجد الواقع يخالف ذلك، فهذه الملامح تتدفق وتتلاحق بصورة مجزأة متباعدة مفتتة، وبهذه الصورة لا تقوى على ممارسة ثورة اجتماعية مجتمعية معلوماتية معرفية شاملة، ولذلك كان لابد لها من عامل يمنحها هذه القدرة ويمدها بقوتها وعنفوانها وثوريتها الطاغية، وهذا العامل هو ما يطلق عليه مفهوم (التمازج والتلاحم) الذى صهر الأشياء السابقة جميعا فى منظومة هائلة ذات تأثير متعدد الأوجه، تتحرك فى جميع الاتجاهات وتعصف بكل المجتمعات والدول، وتقتلع طرق التفكير وصور الحياة القديمة وتفرض حقائق جديدة، تجمع بين المنجزات غير المسبوقة والمشكلات غير المسبوقة فى تحد لا يمكن تفاديه.

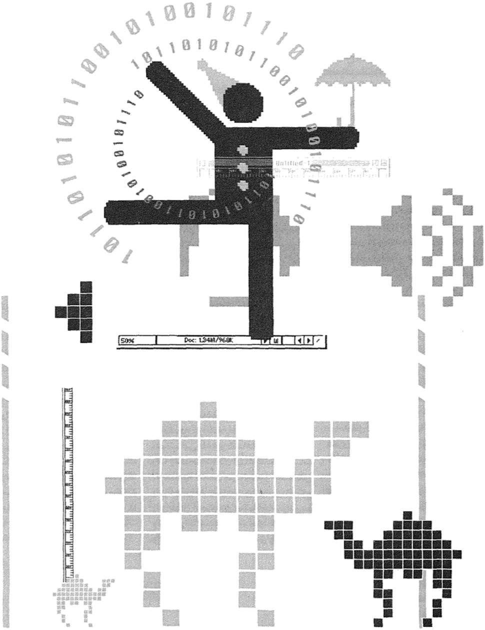
بشكل أكثر وضوحا فإن النبع

الأساسى للتأثير الاجتماعى والمجتمعى العريض لثورة المعلومات يتمثل فى إسقاط الفواصل بين جميع أدوات وأجهزة ونظم وشبكات توليد ومعالجة وتداول وحفظ واسترجاع المعلومات فى كيان واحد، يعمل كنهر عظيم الاتساع سريع الجريان يجعل المعلومات متاحة لأى شخص فى أى مكان وفى أى وقت، وتتدفق فيه المعلومات بين أى نقطتين على الكرة الأرضية بمنتهى السهولة والسرعة وعبر عدد غير محدود من الأجهزة، وعمليا تتنوع المعلومات التى يحملها هذا النهر من مجرد إجراء الاتصال العادى الصوتى مع أى شخص على وجه الكرة الأرضية بسعر رخيص وسهولة شديدة، إلى أكثر عمليات التجارة والأعمال الإلكترونية تعقيدا على مستوى الأفراد والشركات والدول، إضافة للعديد من الخدمات التى لن تنتهى وتشمل خدمات صحية وتعليمية وثقافية وتدريبية واقتصادية وسياحية وإعلامية وغيرها.

وبفعل هذا التمازج تغلغلت ثورة المعلومات إلى مستويات عميقة فى كل المجالات، وغيرت الكثير مما يجرى داخل المجتمعات وجعلتها تعيش حياة فوارة، تتغير فيها الطريقة التى يحيا بها البشر ويمارسون بها أعمالهم ويشكلون بها أفكارهم، فظهرت فى الأفق بيوت تتحدث للحاسبات ومجلات تتحدث للتليفونات اللاسلكية وسيارات تتحدث للإنترنت وشركات وبورصات تنشأ وتمارس نشاطها كلية عبر الانترنت أو شبكات المعلومات الأخرى، وأنشطة واسعة للتعليم الالكترونى والرعاية الصحية الالكترونية والتجارة الالكترونية وثورة المحتوى العلمى والثقافى والإعلامى وغيرها، حتى شبه البعض الدور الذى تلعبه ثورة المعلومات حاليا بالدور الذى لعبته الآلات فى الثورة الصناعية مع الفارق فى سرعة التأثير.

الزاوية الثانية: ثورة التغيير

أدى اندلاع ثورة المعلومات على النحو السابق إلى توليد تحولات هائلة فى نشر المعرفة والتفاعل الاجتماعى والممارسات الاقتصادية ومجال الأعمال والنظم السياسية والتعليم ووسائل الإعلام الجماهيرية والصحة والترفيه وتمضية أوقات الفراغ، مما قاد الإنسان إلى أكبر ثورة تغيير عاشها طوال تاريخه، لكونها ثورة تغيير متعددة المستويات والمسارات، ففى المجال الاقتصادى ظهرت موجات تحول وتغيير غاية فى العمق والتأثير، على رأسها الانتصار الكاسح والانتشار الواسع لأفكار الاقتصاد الحر وسياسات السوق والمنافسة المفتوحة محليا وإقليميا ودوليا والانتقال من مفهوم الإنتاج النمطى إلى مفهوم



أحمد اللباد

هل يعرف العرب مجتمع المعلومات؟



الخدمات، بل إن الاقتصاد نفسه من حيث البنية وآليات العمل والإنتاج شهد عمليات تحول عميقة،ولو حاولنا تلخيص ثورة التغيير فى الواقع الاقتصادى سنجدها تتمثل فى:

.تراجع المنافسة بالسعر والجودة أمام المنافسة فى الوقت والجودة والسعر.

. تراجع عوامل الإضافة والتجديد أمام سرعة الاستجابة لرد فعل السوق.

. ظهور قوى ومطرد للمنافسة بين المؤسسات التخيلية التى ليس لها وجود واقعى مادى من ناحية وبين المؤسسات والكيانات التقليدية من ناحية أخرى.

. تراجع التكرار والنمطية أمام الابتكار والاختلاف.

. تراجع وفرة الإنتاج وضخامته أمام سرعة الإنتاج وتميزه وتركيزه على فئات معينة.

. تراجع كثافة العمالة أمام كثافة المعلومات.

.تراجع الوزن النسبى للسلع والآلات أمام الوزن النسبى للخدمات والبرامج.

. تراجع دورات الإنتاج الطويلة أمام دورات الإنتاج القصيرة.

وطالت ثورة التغيير المجال الاجتماعى والمجتمعى، حيث بدأنا نلاحظ موجة التغيير والانتقال من القيم المحلية الموروثة والراسخة والمستقرة إلى القيم العالمية غربية المنشأ بالأساس، وهناك مئات الدراسات التى ترصد هذه الموجة على مستوى السلوك والطموحات والآمال والعلاقات الأسرية والعائلية وداخل محيط السكن والعمل والدراسة، ووسائل وأدوات الترفيه والمحتوى التعليمى والمحتوى الثقافى والمحتوى العلمى، وأنماط شراء واستهلاك السلع والمنتجات وكيفية التعاطى مع الإعلام والفن والثقافة وهموم الوطن والأمة ككل.

وأصبح هناك من يتحدث عن طبقات وشرائح اجتماعية عريضة بالمجتمع الغربى اندفعت لأبعد مدى باتجاه تحويل قيمها الخاصة إلى قيم عالمية، وتنشط بدأب فى تبنى ونشر امتدادات مؤثرة لها داخل الشرائح الاجتماعية الفاعلة بالمجتمعات النامية حول العالم، وراحت هذه الامتدادات تعمل كرأس حربة تتولى نشر القيم (العالمية) غربية المنشأ داخل مجتمعاتها سواء بقصد أو بغير قصد.

ولعل مجال البحوث العلمية والتطوير من أبرز المجالات التى تعيش ثورة تغيير شاملة بفعل ثورة المعلومات، فالمعلومات العلمية البشرية تتضاعف حاليا بسرعة غير مسبوقة (مرة كل ١٨ شهرا)، وهناك دلائل عديدة تشير إلى أن ثورة المعلومات سوف تشطر مسار تطور العلم إلى شطرين: ما قبل عصر المعلومات وما بعده، بعدما أطاحت هذه التكنولوجيا الساحقة بكثير من الأسس التى قامت عليها الصروح العلمية والفلسفية، وأعملت معول الهدم فى الحواجز التى أدت فيما مضى إلى تشرذم النسق الشامل للمعرفة الإنسانية، وأحالت خريطتها إلى جزر علمية منعزلة وفصائل معرفية متفرقة ومتباينة.

وعلى مستوى العلاقات الدولية صنعت هذه الثورة تغييرا جسيما غنيا بالمتناقضات غير المسبوقة، فمن ناحية أصبحت هناك درجة عالية من الترابط والاعتماد والتأثير المتبادل والسريع بين الدول، حتى غدا الحدث الذى يقع فى نيويورك تنتقل آثاره سلبا أو إيجابا لحظيا إلى بكين وطوكيو وباريس ولندن والقاهرة، ومن ناحية ثانية تعمقت واتسعت الهوة بين الشمال المالك للمعلومات والمعرفة والجنوب الذى لا يملك منها سوى الفتات فظهرت مشكلة (الفجوة الرقمية) كتجسيد صارخ لما أحدثته ثورة التغيير فى نمط العلاقات الدولية المعاصرة.

الزاوية الثالثة:ثورة العقل المجتمعى

بالتتابع المنطقى للأشياء كان لابد أن تقود ثورة التغيير إلى الزاوية الثالثة فى هذا المثلث وهى الثورة المطلوبة فى عقل المجتمع المعاصر وذهنه العام، لأنه من غير المقبول نظريا وعمليا أن يستخدم المجتمع الإنسانى عقله التقليدى بأدواته القاصرة ومنطلقاته المجزأة فى إدارة التعامل مع تفاعلات ونتائج ثورة المعلومات وثورة التغيير بما تطرحانه من منطلقات وتصورات كلية وأدوات تكنولوجية متمازجة متلاحمة وتحولات عريضة النطاق عميقة التأثير.

بعبارة أخرى نحن أمام وضع يتكرر فيه السيناريو الذى شهدته المجتمعات الإنسانية إبان انتقالها من العصر الزراعى إلى العصر الصناعى، حيث لم يكن ممكنا للعقل المجتمعى السائد فى العصر الزراعى أن يظل كما هو بمنطلقاته وتصوراته بينما المجتمع برمته ينتقل إلى العصر الصناعى المغاير تماما فى كل شىء، وما يحدث الآن أن المجتمعات الإنسانية تنتقل من العصر الصناعى إلى عصر المعلومات، ومن ثم فهى تحتاج إلى عقل مجتمعى بمنطلقات جديدة وتصورات جديدة للحياة والفكر والفلسفة والثقافة والفن والسياسة والسلوك والطموح وأدوات العمل والإنتاج.

وعند محاولتنا لتقصى الملامح الثورية المطلوبة فى العقل المجتمعى لم نجد أفضل مما كتبه الدكتور نبيل على فى مقال مطول بعدد يناير ٢٠٠٥ بمجلة العربى حول فجوة العقل العربى المتخصص لكى نستخلص منه هذه الملامح الثورية، فقد قدم نبيل على نقدا عميقا مميزا للعقل العربى فى عصر المعلومات، ونستطيع القول أن إعادة قراءة هذا النقد قراءة معاكسة تضع بين أيدينا تلقائيا أهم الملامح الثورية التى يتعين أن تتميز بها العقل المجتمعى العام فى عصر المعلومات، وهذا بالفعل ما قمنا به وجاءت ملامح هذا العقل كما يلى:

. أنه عقل غير خامد لديه دوما ما يستحثه على البحث والمبادرة والإبداع ومخاصمة الخرافة

. عقل له استقلاليته وحصانته ضد التبعية بجميع صنوفها الفكرية والعلمية والتكنولوجية والتعليمية والإعلامية والإبداعية، ومن ثم لا يستورد رؤاه واستراتيجياته ومناهج تعليمه وبرامج إعلامه وحلول مشكلاته، بل قادر على الإبداع فى التعامل معها ليس فقط بما يضيفه ولكن أيضا بالإبداع فى الاختيار والاستفادة من فكر وعقل الآخرين، وهنا فهو عقل غير ناقل ولا يحتاج لوسيط معرفى ينقل عنه.

. عقل لا يستسلم لما لديه من تراث فكرى وفلسفى وعلمى واجتماعى، بل لديه احترام التراث وفى الوقت نفسه جراة الانتفاض عليه إذا ما دعت الحاجة دون أن يخسر ثوابته أو تتعطل قدرته على هضم واستيعاب ثورات التغيير.

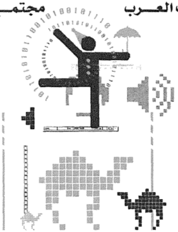
. عقل ذو ماهية متغيرة قابلة للتعديل والتطوير، لا ينحاز على طول الخط إلى القاطع والمحدد والمحكم والثابت بل يعطى مساحة مناسبة وضرورية للمتغير والمتجدد، ويقبل بمبدأ التمرد على السائد وانتهاكه بحثا عن أفق جديد، وهو عقل لا يعقل أصحابه بل يحثهم على التجديد والإبداع فى ملاحقة ما يجرى من تغييرات واستيعابها وهضمها.

. عقل يعتمد ويقبل ويعى أهمية الاختلاف والتنوع جنبا إلى جنب مع الإجماع والنمطية والتوحد.

. عقل لا يرتعد من اللايقين، وقادر على استئناس المشوش وغير الدقيق وغير المكتمل واستيعاب اللامحدود واللانهائى

يحدث الآن أن المجتمعات الإنسانية تنتقل من العصر الصناعى إلى عصر المعلومات، ومن ثم فهى تحتاج إلى عقل مجتمعى بمنطلقات جديدة وتصورات جديدة للحياة والفكر والفلسفة والثقافة والفن والسياسة

هل يعرف العرب مجتمع المعلومات؟



وعلى القبول بأن للفوضى علماً وللتعقد نظريات وللغموض سحراً.

. عقل يعتبر العلم منفصلا عن الحقيقة المطلقة، وانه . أى العلم . معنى بالحقيقة الموضوعية اللايقينية المرتبطة بالاحتمال والترجيح، وأن المعرفة ليست واقعة نهائية، بل عرضة . دوما . للخطأ، وأن العلم لا يكتسب جدارته العلمية إلا من خلال قابليته للتفنيد.

. عقل يدفع بنفسه دوما إلى أعماق التداخل بين المجالات المعرفية وتعددها، ويصنع رابطا قويا بين علوم الطبيعيات وعلوم الإنسانيات، وبين المعرفة العلمية بشقيها عن المعرفة الكامنة وراء الفنون.

. عقل يبتنى التوجه المنظومى الذى يضمن الاكتمال والاشتمال، ولا ينشغل بالأمور الفنية دون سواها بل يقتحم دائما المتاهات المتعددة الأبعاد لكل ما يعيشه ويواجهه من القضايا الاجتماعية والثقافية، ومن ثم يصعب عليه الوقوع فى فخ التفاصيل أو الضياع فى تهويمات التعميم، أو الاستسلام للنظرة التجريبية التى ترى الجزئى قائما مستقلا بذاته أو استسهال إيجاد التفسيرات والنصوص والشواهد المؤيدة لأطروحاته وإخفاء الجوانب الأخرى التى من شأنها أن تدحض أطروحاته أو تظهر تناقض أقواله وتعسف أحكامه.

. عقل علمى بطبيعته، أى ينتج العلم ولا يكتفى بالتبشير به، ويعى أن الاعتراف بالأخطاء مهما كانت كبرى هو الذى يجعل منه مجتمعا علميا قادرا على الصمود فى وجه موجات التغيير وأنواء التحولات العاصفة.

. عقل ذو بنية علاقية، أى قادر وقائم على إدراك وتوظيف واستيعاب العلاقات فيما يواجهه ويتعامل فيه من قضايا، فعلى سبيل المثال إدراك العلاقة بين اللغة والفلسفة والفكر، واللغة بالرياضيات وعلم النفس والبيولوجى، وعلاقة اللغة بالفنون والهندسة والتكنولوجيا.

. عقل قادر على أن يعلو فوق مقتضيات ومتطلبات وأعباء وتناقضات السياسة، ومن ثم يكون خطابه دائما غنيا بالإبداع والخيال الاجتماعى وبعيدا عن الضحالة والتوفيقية والمقايضة.

. عقل شديد الارتباط بواقعه، فيرى الواقع احتمالا ومن ثم يحاول أن يخضع ما لديه من مفاهيم وأفكار لحقائق هذا الواقع: عقل يخضع القول للفعل كما يخضع العقل النظرى المطلق للعقل الواقعى.

منطقة الوسط: العقل المعلوماتى المجتمعى السائد

بعد ان استعرضنا زوايا المثلث الذى يشكل منظومة الوضع المجتمعى العام فى عصر المعلومات والتى تضم (ثورة المعلومات. ثورة التغيير. ثورة العقل المجتمعى)، نصل الآن إلى قلب المثلث أو الهدف الأساسى الذى نسعى للتعرف عليه فى معرض حديثنا عن ضمانات تطور ونضج وانطلاقة مجتمع المعلومات مستقبلا، ألا وهو (العقل المعلوماتى السائد بالمجتمع العربى) الذى يعتبر شريحة من العقل المجتمعى العام تقوم بدور جسر التواصل بين العقل المجتمعى العام من جهة وثورة المعلوماتية من جهة ثانية وثورة التغيير من جهة ثالثة، وبشكل أكثر وضوحا يمكننا تصور مهام العقل المعلوماتى المجتمعى على النحو التالى:

. صناعة ثقافة معلوماتية مجتمعية تناسب ثورة المعلومات وتستطيع استيعابها وإعادة توجيهها.

. الاستشعار المبكر لمواطن الخطر فى ثورة المعلومات وثورة التغيير والمبادأة والإبداع فى مواجهتها والتصدى لها.

. الرصد المبكر والمستمر لمكامن القيمة والقوة والفائدة فيها واقتناصها وتعظيمها وسرعة توظيفها وتفعيلها فى أماكنها الصحيحة داخل مفاصل المجتمع وأطرافه المختلفة لجنى أقصى ما يمكن من فوائدها.

. السعى الدائم إلى نشر توجهات ورؤى وثقافات وأفكار واستراتيجيات داخل المجتمع مهمتها أن تجعل ثورة المعلومات وثورة التغيير تتدفقان وتسريان داخل المجتمع وفق سلوك منضبط يروضهما ويحتوى عنفوانهما ويحيل ما تحملانه من هوجائية وفجائية إلى منفعة.

. إفراز طرق مبدعة تستخلص من التدفق اللامنتظم لثورة المعلومات وثورة التغيير طاقة جيدة الإدارة عالية المنفعة للمجتمع.

.رصد مناطق ونقاط التيبس والعجز بالمجتمع وتوجيه حالة الطزاجة والحداثة والعنفوان الموجود بثورة المعلومات وثورة التغيير إلى هذه النقاط لتستعيد حيويتها وتوازنها وكفاءتها من جديد، بما يساهم فى استعادة المجتمع لحيويته.

العقل المعلوماتى العربى والتناقضات السبعة

والسؤال الآن: كيف يبدو العقل المعلوماتى السائد بالمجتمعات العربية؟ وإلى أى مدى هو قادر على لعب دوره الحيوى فى قلب منظومة الوضع المعلوماتى العام بزواياها وثوراتها الثلاث؟

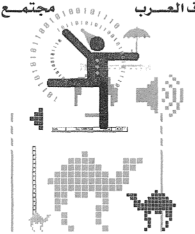
حقيقة الأمر أن العقل المعلوماتى العربى السائد حاليا يتشكل من حزمة تناقضات جوهرية تضم سبعة عناصر تقف وراء الفجوة الموجودة بين ما يحتاجه مجتمع المعلومات لكى ينمو وينطلق، وبين ما يقدمه أو يوفره أو ربما يسمح به هذا العقل المعلوماتى من ناحية أخرى، ويمكننا استعراض هذه العناصر كالتالى:

التناقض الأول: الاحتياج للرؤى الكلية مقابل تبنى الغرق فى التفاصيل: داخل الغالبية الساحقة من المجتمعات العربية هناك برامج وخطط وأفكار شديدة التشعب والانتشار، وجميعها يرفع شعار المعلوماتية بشكل أو بآخر، وتخصص له مئات الملايين من الدولارات، لكن بقدر قليل من الملاحظة تكتشف أن العقل المعلوماتى العربى. على مستوى النخبة وصنع القرار بوجه خاص . مهموم بنشر منتجات المعلوماتية لكنه ليس مهموما بالدرجة نفسها بالرؤية التى تقف وراء ذلك كله، وغير مكترث بأهمية بناء حالة معرفية ذهنية تجعل (عقل المجتمع) يستوعب المعلوماتية ويسهم فيها ويهضم تعقيداتها، ومن هنا يندر. إن لم يكن غير موجود على الإطلاق . أن تجد عقلا معلوماتيا عربيا تخلص من فيض التفاصيل وبدأ يستنشق هواء الفكر الرحب والرؤى الواسعة، ولذلك طفت آثار هذه الحالة فى مناح عدة، منها مثلا أن مجموعة النخبة المعلوماتية فى بلد ما تضع خطة طموحاً للتنمية المعلوماتية، لكن سرعان ما تتقوقع الخطة فى دائرة من صنعوها، ويفاجأون بأن (روحها) لم تغادر حدودهم الضيقة ولم تسر فى المجتمع من حولهم، وأنها قوبلت أحيانا بالبرود وأحيانا بعدم الفهم، وفى أحيان ثالثة بعدم الوعى بها من الأصل، وذلك لأنها بنات أفكار عقل غارق فى التفاصيل وفاقد للرؤى.

التناقض الثانى: الاحتياج للاتساق مع الواقع الاجتماعى مقابل تبنى القفز على هذا الواقع:

إن بناء مجتمع المعلومات بأى مجتمع يتطلب نشر المعلوماتية فى نسيج هذا المجتمع، ونشر المعلوماتية يعنى بدوره تغيير العديد من القواعد السائدة بهذه المجتمعات، لكى ينتقل من الورقة والقلم وتخزين المعلومات فى الدواليب والدوسيهات، إلى العصر الرقمى وقواعد

العقل المعلوماتى العربى حاليا يتشكل من حزمة تناقضات تقف وراء الفجوة الموجودة بين ما يحتاجه مجتمع المعلومات لكى ينمو وينطلق، وبين ما يقدمه أو يوفره هذا العقل المعلوماتى



البيانات وشبكات المعلومات المفتوحة، وهذا بدوره يحتم تغييرا فيما يوجد بالمجتمع من تراث حضارى وسلوكيات وطرق فى التفكير وثقافة سائدة وأساليب فى العمل وتوازنات للقوى نشأت فى كنفها مصالح ومكتسبات للبعض، وصراع بين أياد قوية تكبح حركة وانسياب المعلومات لأسباب متعددة، ولديها رؤاها الخاصة لكيفية إحداث تنمية معلوماتية، وفى المجتمعات العربية يضاف لذلك تشابك الفقر مع الغنى والجهل مع العلم والفهلوة مع النظام، وهنا ينشأ ما يمكن أن نطلق عليه العقبة (التكنو اجتماعية)، أو المشكلات التى تبرز عندما يحدث التماس بين ما هو تكنولوجى من جهة وما هو اجتماعى وسلوكى ومجتمعى.

وهذه العقبة على وجه التحديد تتطلب وجود عقل معلوماتى لا يقفز فوق الواقع الاجتماعى ولا يتجاهله، ولا يفرض المعلوماتية من قبل النخبة وصناع القرار ويهبط بها على الجماهير العريضة وفئات المجتمع المختلفة قسرا وقهرا كوصفات ملزمة للتقدم، مفترضا أن المجتمع وأفراده عبارة عن مجموعات من (الصناديق) التى يمكن تفكيكها وإعادة ترتيبها وفقا لأولويات المعلوماتية ومقتضياتها، ومن أسف.. أن العقل المعلوماتى العربى لا يلقى بالا للعقبة (التكنو اجتماعية) ويعمد فى كثير من الأحيان للقفز على واقعه المجتمعى والاجتماعى حاملا لواء تفكيك وإعادة ترتيب الصناديق والهبوط القسرى بالمعلوماتية من أعلى لأسفل دونما اعتبار لإرادة وردود أفعال المجتمع ومدى تهيئته أو تقبله للمعلوماتية وأشكالها المختلفة.

التناقض الثالث: الاحتياج لحرية تبادل المعلومات مقابل تبنى كبتها واعتقالها:

يحرص الكثير من دعاة بناء مجتمع المعلومات العرب، من المفكرين والرسميين والعاملين بالقطاع الأكاديمى والخاص، على الترويج للمعلوماتية بشدة داخل مجتمعاتهم، لكنهم فى العادة لا يقتربون من قضية (حرية تداول وتدفق المعلومات) فى هذه المجتمعات، على الرغم من كونها (مطلبا حيويا) لا يستقيم الحديث عن مجتمع المعلومات بدونه، فحرية تداول المعلومات هى (روح وقلب) المعلوماتية ومشروعاتها، وهذه العلاقة الملتبسة بين دعاة المعلوماتية وقضية حرية تداول المعلومات تعد واحدة من أبرز وجوه التناقض فى حالة العقل المعلوماتى العربى، فهى تحمل فى طياتها قدرا من الانتهازية (الفكرية) التى تعلى من شأن ما هو مأمون ومضمون وتبتعد عما هو شائك ومأمول، وإن شئنا الدقة هنا لقلنا أن العقل المعلوماتى العربى يأنس للدعوة إلى نشر تكنولوجيا المعلومات التى هى فى النهاية الأدوات أو الأوعية التى يمكن من خلالها جمع وتخزين ومعالجة وتحليل وإدارة المعلومات وتنظيمها وتدويرها، لكنه يأنف من الدعوة إلى نشر المعلومات التى هى المحتوى الذى تملأ به هذه الأدوات والأوعية لكونها تتطلب قيم الحرية فى التداول والتفكير والتعبير وتشكل العصب الأساسى لمجتمع المعلومات، ويضعنا التباس العلاقة بين المعلوماتية وحرية تبادل المعلومات داخل العقل المعلوماتى العربى فى منزلق خطر، فحينما لا تتوافر البيئة المجتمعية والقانونية والاقتصادية التى تسمح بالتدفق السريع والسهل للمعلومات ثم يقبل العقل المعلوماتى بذلك بانتهازية واضحة، تكون النتيجة هزالا شديدا يصيب جميع مشروعات المعلوماتية ودعواتها فى جميع المجالات من اقتصاد وزراعة وتجارة وغيرها، ويحولها مع الوقت إلى بنادق فارغة من الطلقات.

التناقض الرابع: الاحتياج للإبداع الذاتى المستقل مقابل تبنى التبعية والتقليد:

يحتاج مجتمع المعلومات إلى قدر كبير من الإبداع فى كل شىء، والاحتياج للإبداع يحتاج بدوره إلى عقل معلوماتى مبدع، لكن العقل المعلوماتى العربى حتى الآن هو عقل تابع لا مبدع، يرتاح للنقل عن الأجنبى، ويأنف من بذل الجهد فى الإبداع المحلى، عقل مسود لا سيد، يعيش رد الفعل ولا يبادر بالفعل، والأمر لا يحتاج جهدا كبيرا لإثباته، فالمؤشرات الدالة على ذلك بلا حصر ومنها على سبيل المثال:

. أن عدد براءات الاختراع الأصيلة والجادة التى خرجت من المنطقة العربية ومن باحثين وعلماء عرب فى مجال المعلوماتية تكاد تعد على الأصابع وأصحابها يكادون يكونون معروفين بالاسم.

. أن الغالبية الساحقة من الشركات والمؤسسات العربية التى تعمل فى مجال المعلوماتية بأفرعه المختلفة وتدعى أنها تشكل قطاعات لتكنولوجيا المعلومات بالبلدان العربية، هى فى الأغلب الأعم تتاجر فى التكنولوجيا لا فى تصنيعها وابتكارها، ويسيطر عليها عقل معلوماتى استيرادى، أقصى ما يفعله أن يدع الشركات العربية تغرق فى توريد وتهيئة وتعديل حزم البرمجيات والأجهزة والحلول التى تنتجها شركات البرمجيات العالمية الكبرى لتناسب احتياجات الأطراف المحلية التى تحتاج إلى تكنولوجيا المعلومات أو يقوم (بالتخديم) على هذه البرمجيات والمنتجات بعد بيعها.

التناقض الخامس: الاحتياج لثقافة تخطيط معلوماتية مقابل تبنى الفوضى التنموية:

طلقة البداية فى ماراثون التعامل مع المعلوماتية هى أن يكون لديك خطة مسبقة واضحة لما تريد ان تفعله، سواء كانت الخطة متعلقة بشراء حاسب شخصى منزلى أو إرساء القواعد اللازمة لبناء مجتمع معلومات أو عدة مجتمعات تجمعها قومية واحدة كما هو الحال فى العالم العربى، وهذا المنهج فى التعامل مع المعلوماتية هو شىء أقرب إلى الثقافة داخل العقل المعلوماتى العام، تعمل كأرضية أو خلفية يتحرك فوقها نوع من الوعى التخطيطى بين الجميع، وتلقى بظلالها على كل سلوك أو قرار يتعلق بالاقتراب من عالم تكنولوجيا المعلومات وكيفية توظيفه عمليا فى بناء مجتمع المعلومات.

والحقيقة أن العقل المعلوماتى العربى يعانى من حالة فقر واضحة فى ثقافة التخطيط للمعلومات، سواء على مستوى الأفراد والمنشآت والوزارات والهيئات الحكومية والدول العربية ككل، وليس من قبيل المبالغة القول بأن العديد من الجهات تنعدم لديها هذه الثقافة من الأساس مما يدفعها للفشل الذريع السريع فى توظيف المعلوماتية، ومن ثم لا يمكن القول بأنها تملك ثقافة تخطيط داعمة لبناء مجتمع المعلومات.

التناقض السادس: الاحتياج لمهارات التقييم التكنولوجى مقابل تبنى الأرخص والأغلى:

تلعب المعلوماتية دور الجهاز العصبى المركزى داخل مجتمع المعلومات، ولكى نبنى جهازا عصبيا مركزيا يتناسب مع متطلبات مجتمع المعلومات فلابد أن يكون لدى المجتمع بمؤسساته المختلفة عقل معلوماتى يمتلك معارف ومهارات التقييم التكنولوجى، بعبارة أخرى عقل قادر دوما على فرز وتصنيف وتقييم ما يعرض عليه من رؤى وتكنولوجيات ومنتجات معلوماتية وفق قواعد ومعايير واضحة وبها من الكفاءة ما يضمن الاختيار السليم والمناسب لمتطلبات مجتمع المعلومات.

والشائع أن بعض هذه المعايير يعلى من قيمة الجودة والأصالة فى السلعة ويعتبرها الأساس عند التخطيط والتصميم والبناء والإنتاج والبيع والشراء ولا يلتفت كثيرا لقضية التكلفة، وبعضها الآخر يحاول الجمع ما بين الجودة والسعر الرخيص، فيما توجد معايير ثالثة تعلى من قيمة السعر الرخيص ولا تلقى بالا للجودة، وتراهن على فكرة (الاسترخاص) فى كل شىء. والحاصل أن العقل المعلوماتى العربى

عدد براءات الاختراع الأصيلة والجادة التى خرجت من المنطقة العربية ومن باحثين وعلماء عرب فى مجال المعلوماتية تكاد تعد على الأصابع وأصحابها يكادون يكونون معروفين بالاسم

يبدو كسولا بعض الشىء فى هذا الصدد، فهو أكثر ميلا إلى حسم مسألة الاختيار وفقا للمعيار المادى، ففى المجتمعات العربية الفقيرة نرى عقلا يعلى من قيمة معيار (الأرخص هو الأفضل) من باب تسيير الحال، وفى المجتمعات العربية الغنية نرى عقلا يعلى من معيار (الأغلى هو الأفضل) من باب الوجاهة لا الكفاءة، وكلا الحلين سهل لا يتطلب جهدا فى الاختيار، لكن هذا العقل قليلا ما يحتفى بمعيار (الأجود هو الأفضل) الذى لا يرتبط بالندرة والوفرة المادية، ولكنه يتطلب دأبا وجهدا وإبداعا وجدية حتى فى مجرد الاختيار، ويدفع هذا العقل المعلوماتى - الذى يفتقر لمعارف التقييم التكنولوجى - المجتمعات العربية إلى مربع الخسارة، فهو يجعل غالبية المنتجين يقدمون منتجات وخدمات وبرمجيات مهترئة الجودة مليئة بالعيوب، وبعيدة عن المعايير الفنية السائدة عالميا، ومن ثم تصبح غير قادرة على المنافسة مع المنتجات الأجنبية، أو التحول للتصدير خارجيا، وغير قادرة على الوفاء بدورها المنتظر فى تغيير آليات وبيئات العمل التقليدية السائدة لدى الجهات التى تشتريها، أما الأسواق العربية فأصبحت - بسبب هذا العقل الكسول - فناء خلفيا تلقى به الكثير من السلع الرديئة الجودة من مختلف أنحاء العالم.

التناقض السابع: الاحتياج للمزاوجة بين العمل الجماعى والإبداع الفردى مقابل إهمال العمل الجماعى وتجاهل الإبداع الفردى:

تفرض الطبيعة الشبكية لمجتمع المعلومات مستويات غير مسبوقة من المشاركة والاعتماد والتأثير المتبادل بين أطراف عديدة بشكل متزامن، وهذا بدوره يتطلب قدرا عاليا من العمل الجماعى والإبداع الفردى معا، لكن الحاصل أن العقل المعلوماتى العربى يجمع فى وقت واحد بين ظاهرتى ضعف القدرة على العمل الجماعى وتجاهل المبادرات الفردية، ويترك الساحة مفتوحة لعلاقات عمل بين المجموعات والأفراد يمكن وصفها بأنها هلامية غير ثابتة الملامح، لا تخضع لقواعد بعينها ولا تؤسس عملا جماعيا يجمع القدرات المتفرقة ويوحد الجهود المتكررة فى الجهات المختلفة وصولا لأهداف مشتركة، ولا تصنع بيئة مناسبة لانطلاق المبادرات الفردية والقدرات الإبداعية الخلاقة ورعايتها حتى تؤتى ثمارها، مما أشاع ظاهرة الجهود المتكررة والمشروعات المتشابهة بين المجتمعات العربية المختلفة، كما أصاب العديد من شركات البرمجيات وخدمات المعلومات والاتصالات العربية فى مقتل، وجعلها غير قادرة على تنفيذ المشروعات أو تقديم المنتجات التى تتطلب مشاركة أكثر من تخصص، ودفعها لأن تنجرف بلا وعى فى تنفيذ مشروعات وإنتاج برمجيات متشابهة الوظائف والأهداف، والعمل وفق معايير تقنية غير موحدة.

أما تجاهل المبادرات الفردية - بل ومحاربتها فى كثير من الأحيان - فقد فوت على المجتمعات العربية وعلى الشركات أيضا، الكثير من فرص الإنجاز الحقيقية، القائمة على الإبداع الفردى، والمبادرة الشخصية، كما أشاع الإحباط فى دائرة أكبر، لأن كل تجربة أو مبادرة فردية تسقط تحت مطارق التجاهل وعدم الاهتمام، تقطع الطريق على عشرات من التجارب والمبادرات الأخرى التى كان يفكر أصحابها فى التقدم بها والمضى فى تنفيذها، بفعل عدوى الإحباط، وانكسار الروح وإيثار السلامة.

الخلاصة

من خلال استعراض وتحليل منظومة الوضع المعلوماتى العام بالمجتمعات المختلفة بثوراته الثلاث، ومن خلال استعراض حالة العقل المعلوماتى العربى بتناقضاته السبعة نخلص إلى أن العقل المعلوماتى العربى السائد حاليا لم - وربما لن - يساعد المجتمعات العربية على فهم ثورة المعلومات جيدا واستيعاب أبعادها وتحدياتها وفرصها واستشراف مستقبلها، ولن يساعدها كما ينبغى على استيعاب واحتواء وهضم ثورة التغيير وجعلها عامل دفع للأمام دون أن تزلزل ثوابت العقل المجتمعى العام أو تفكك أركانه أو فقد بوصلته واتزانه، ولن يبدع كما ينبغى فى بناء ثورته الخاصة داخل عقل المجتمع العام ليحوله إلى عقل يناسب عصر المعلومات، فيستطيع ممارسة قدر من الضبط والترشيد فيما تأتى به ثورة المعلومات وما يترتب عليها من ثورة فى التحولات والتغيير، ولذلك فإن مستقبل مجتمع المعلومات بالمنطقة العربية يحتاج بشدة لإعادة بناء العقل المعلوماتى العربى وفق عملية طويلة النفس عميقة التأثير، حتى يتسنى له تحقيق انطلاقة محسوسة وواضحة الأثر فى مستقبل مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية بالمنطقة العربية. ■

كتاب الزاوية

الحب العذرى عند العرب

وفاة جميل

لقى عبدالعزيز بن مروان والى مصر جميلاً لقاء كريمًا. ولكن القدر كان له بالمرصاد. فلم يلبث أن مرض مرضًا قضى فيه نحبه. ولما ثقل عليه المرض عاده رجل من عشيرته، فلما دخل عليه نظر إليه وقال: يا ابن سعد ما تقول فى رجل لم يشرب خمرًا قط ولم يأت محرمًا قط يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله منذ خمسين سنة؟ فقال: من الرجل؟ إنى أظن والله أنه ناج لأن الله تعالى يقول: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تُنْهَوْنَ عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريمًا﴾. قال جميل: أنا هو هذا الرجل، فقال له صاحبه: أتزعم ذلك وأنت تشبب ببثينة منذ عشرين سنة. فقال: أنا فى آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة فلا نالتنى شفاعة محمد إن كنت وضعت يدى عليها لريبة قط وإن كان أكثر ما كان منى إليها أنى كنت آخذ يدها أضعها على قلبى فأستريح إليها. ثم أغمى على جميل، وأفاق، فأقبل على صاحبه. فقال له: هل لك فى أن أعطيك كل ما أخلفه على أن تفعل شيئًا أعهده إليك. فقال ابن سعد: حبا وكرامة. قال: إذا أنا مت فخذ ثوبى هذا فاعزله جانبًا، وكل شىء سواه لك، وارحل إلى رهط بثينة، فإذا صرت بمنازلهم، فاركب ناقتى هذه، ثم البس ثوبى ذاك، واشققه عليك، وصح بهذه الأبيات:

صرخَ النعىُ وماكنى، بجميل
وثوى بمصر ثواء غير قفول
صرخ النعىُ ذى همة
حلو الشمائل للرجال قتول
قومى بثينة فاندبى بعويل
وابكى خليلك دون كل خليل

وجهات نظر - رسائل وآراء

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

الأسـئلة الدنمـاركيـة

الخيار الشعبى هو الطريق

.. بداية أتقدم لكم بالشكر الواجب والعميق عن التغطية الجامعة الرشيدة لموضوع المسألة الدنماركية الشائكة الملتهبة. كان عدد مارس ٢٠٠٦ من مجلتكم الموقرة متميزًا بعروضه المتنوعة. فالتحليل للمشكلة رائع كما بدأ أستاذنا سلامة أحمد سلامة رئيس التحرير.. وعرض الأسئلة الواجبة الساخنة كان جريئًا كما كتب الأستاذ أيمن الصياد مدير التحرير الذى أتقدم له بالسؤال من الذى يقول كلمة سواء يراعى فيها ضميره الإنسانى وقيمه الدينية ويقبله الناس المفجوعون المستفزون.. إذا كان سوق القلم وشاشات الإعلام يحتكره فى معظمه رواد مقدسون ثابتون للفيديو كليب الدينى والسياسى والثقافى.. فأين هذه البضاعة النزيهة العاقلة ذات الضمير الحر التى يمكن أن يسمعها الناس. لقد ذهب عمرو خالد والحبيب الجعفرى وطارق سويدان فى العاشر من مارس ٢٠٠٦ للدنمارك لعقد جلسة حوار حول الإسلام وأباطيل خصومه مصحوبين بالهمز.. باللمز.. بالكره الشديد.. وبرغم هذا نجح هذا الثلاثى المسلم المتفتح فى عقد جلسة حوار إيجابية مطلوبة بشكل مدروس ومنظم.. لنبدأ حقًا تجسير الفجوات وإنتاج فكر إسلامى باللغة والخطاب الأوروبى كما يفعل طارق رمضان وكما كتب فى مقاله الرائع بنفس العدد من المجلة.. وأخيرًا فإن الخيار الشعبى تعبيرًا عن الضمير الإسلامى الحى المؤمن هو الطريق الوحيد المفتوح لكى نوصل للعالم القيم الإسلامية الحقة.

د. سمير عنتر

استشارى حميات - الطالبية - الهرم

عداء الغرب للإسلام

فى مقال جيد وواقعى ويمس آلام الأمة سرد لنا الأستاذ سلامة أحمد سلامة فى مجلة «وجهات نظر» عدد مارس ٢٠٠٦ فى مقاله المعنون «حرب الكاريكاتيرات وتحول الثقافات» ويعرج بنا الكاتب إلى واقعة الرسوم المسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم وبين لنا كيف أنها جاءت نتاجًا لبيئة ثقافية متغيرة وفجرت صدامًا حضاريًا وثقافيًا. المقال شيق وواقعى وصور لنا الماضى وذكر الحاضر وأوضح بأن المستقبل مليء بالمفاجآت ضد المسلمين ما لم يبتكر الطرفان أساليب جديدة للتفاهم والحوار وتمكين الأقليات فى المجتمعات الغربية.

وفى النهاية لى رأى بعد كل هذا ألستم معى بأن عداء الغرب للإسلام والمسلمين من قديم الأزل وأن الترسبات النفسية للمسلمين كانت من أيام محاكم التفتيش فى الأندلس والحروب الصليبية وحديثًا حتى قبل ١١ سبتمبر، وفى نفس العدد قرأت مقال الأستاذ أيمن الصياد حيث يوجه سؤالاً مهمًا لكل هؤلاء المتظاهرين حكامًا ومحكومين أن يتبنوا موقفهم من قضية حماس التى أصبح يحاربها الغرب وأمريكا ثم يذكرهم بمؤتمر بيروت الذى رصد ٦٠٠ مليون دولار للفلسطينيين فى عام ٢٠٠٢ لم يصلهم إلى الآن سوى ٢٠٠ مليون دولار. وقد ذكر الكاتب أن الغرب وأمريكا بعد هذه الأحداث وقبلها أحداث ١١ سبتمبر بدأ ينقب ويتفهم الإسلام وأنا أقول له ما قاله أحد القدماء:

إذا أراد الله نشر فضيلة طويت
أتاح لها لسان حسود

صابر محمد عبدالواحد

عضو اتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين

المقدس بين المواجهة والحوار

فى الـ ٣٠ من شهر سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٥ قامت جريدة «اليولاندس- بوستن» اليمينية إحدى أوسع الجرائد مبيعا بنشر أحد عشر رسما كاريكاتوريا للنبى محمد. الجريدة فسرت هذه البادرة على أنها رد على إعلان إحدى دور النشر الدنماركية بأنها ستصدر كتابا مدرسيا عن حياة النبى محمد مرفقا برسوم للنبى ولكن من غير التعريف بالفنان «لخوفه من ردود الفعل من متطرفين إسلاميين». الجريدة اعتبرت هذا الخوف نوعا من الرقابة الذاتية التى تهدد حرية التعبير، الركيزة الأساس لأى نظام ديمقراطى. فقامت بدعوة ٤٠ راسماً وخطاطًا كاريكاتوريًا ليؤكدوا بالقلم والصورة أن حرية التعبير لا تصادر ولا تعرف حدود الرادع الدينى. فقط ١١ من المدعوين بعثوا رسوما.

كما كان متوقعا - أو بالأحرى كما يقول البعض مقصودا - تصاعدت أصوات التنديد ليس فقط فى أوساط الجاليتين العربية والإسلامية ولكن من بعض المثقفين والسياسيين الدنماركيين معتبرين المبادرة إما تصرفا صبيانيا غير مسئول أو إهانة متعمدة لمشاعر المسلمين، ليس لأنه يقوم بتصوير النبى، وهو شيء غير مرحب به لدى معظم المسلمين، ولكن من خلال تعمد تصويره بطريقة ساخرة. تمحورت معظم ردود الفعل العربية والإسلامية - باستثناء بعض التهديدات المجهولة المصدر- على التنديد السلمى من خلال التظاهر (٣٥٠٠ متظاهر يوم ١٤ أكتوبر) أو من خلال كتابة المقالات المستنكرة أو عبر رفع العرائض الاحتجاجية إلى السلطات الدنماركية. بعض هذه الاعتراضات طالبت الحكومة بالتنديد بما قامت به الجريدة وبمنع تكراره. أبرز هذه العرائض قدم من قبل السفراء العرب والمسلمين المعتمدين لدى المملكة الدنماركية. إذ قام أحد عشر منهم بكتابة رسالة مفتوحة لرئيس الوزراء «أندرس فوغ رسموسين» (من حزب «الفنستر» الليبرالى المحافظ) يحثونه على التنديد بتصرف الجريدة ويطلبون مقابلته لمناقشة الموضوع. لم يأت رد رئيس الحكومة بما يرغب به السفراء وبقية المعترضين، إذ أكد السيد «أندرس فوغ رسموسين» على أن الحكومة الدنماركية لا سلطة ضبطية لها على وسائل الإعلام وأن الجهة المختصة هى المحاكم. فهى الوحيدة المخولة - وفقا لمبدأ الفصل بين السلطات الدستورية - مراقبة الإعلام وتقرير ما هو المسموح به فى إطار حرية التعبير وما هو إهانة وتعرض للمقدسات وللمشاعر الدينية الذى يعاقب عليه قانون القذف. علما انه لم ينزل أى حكم قضائى بموجب هذا القانون منذ عام ١٩٣٢ بالرغم من تعرض الكثيرين بالنقد والسخرية للمقدسات المسيحية. و لذا لم يجد رئيس الحكومة من ضرورة لمقابلة السفراء. ردة فعل السفراء كانت انتقاد رئيس الحكومة لتهربه من إدانة الصحيفة والتلويح باللجوء إلى القضاء. هذا التصعيد قوبل بتصعيد مواز إذ انبرى رئيس الوزراء للدفاع عن «حرية التعبير التى لا تعرف حدودا»، بينما قام العديد من الشخصيات الدنماركية بانتقاد السفراء لعدم إلمامهم ببديهيات النظام السياسى الديمقراطى الدنماركى.

بين الاستقطاب الحقانى والحوار البناء

الظاهرة الأساسية التى تميز فيها النقاش المطول حول رسوم النبى محمد لم تكن التهديدات بالعنف ولكن انتفاء فسحة الحوار بين الأطراف المتواجهة. فكل من أنصار الرأيين الأساسيين المتواجهين - حرية الرأى اللامحدودة وقدسية النبى من أى تعرض - لازموا الخيار السهل: قراءة أسوأ النوايا عند أصحاب الرأى الآخر والاستقواء بحق الهى أو دستورى منزه عن أى إرادة توافقية يلعب الحوار الملتزم دورا فى الوصول إليها. مرة أخرى تظهر مسألة شائكة متعددة الأوجه تتواجه فيها الحقوق وتنتفى فيها إمكانيات الحل من خلال المنع الإلهى للذى تعرض للمقدس أو من جهة أخرى التشكيك بقدرة المعترضين الالتزام بقيم الديمقراطية كونها مسألة تستدعى السماع إلى الرأى الآخر وتتطلب عدم الانزلاق فى فخ الاستقطاب الحقانى المطلق الذى فى البدء قد يبدو سهل الاستغلال ولكن سرعان ما يلزم صاحبه بموقف متصلب يجعل من أى حوار تبادلاً للاتهامات أو عرضاً للقوى والمظالم.

إنه لمن دواعى الأمل فى هذا المشهد المحزن الذى تسيطر عليه حالات متكررة من سوء الفهم الحضارى المتكررة أن تنبرى أصوات موثوق من ليبراليتها والتزامها المطلق بحرية التعبير، كوزير الخارجية الدنماركى السابق «أوفة إيليمن»، لتنتقد المعسكرين وتدعو إلى وقف الانزلاق إلى الخنادق الفكرية الموحلة فى تبسيطاتها.

من هنا تبرز- إن أمكن الآن أكثر من أى وقت مضى - ضرورة وجود مؤسسات تعمل لخلق آلية للحوار يبنى على معرفة الآخر ويؤسس لنقاش يكون فيه رأى الآخر من حيث المبدأ صحيحًا وإن كان مختلفا أو متعارضا.

حنـــا زيـــادة

المستشار السابق للحكومة الدنماركية لحقوق المهاجرين

اعتذار وتصويب

تعتذر «وجهات نظر» عن خطأ مطبعى لحق الإشارة على غلاف بعض نسخ عددها الماضى إلى اسم الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى والذى كان قد خص المجلة بمحاضرته القيمة عن «الإسلام والآخر».

كل المسلمين قضاة .. فمن المتهم؟

إذا قُدِّر لك ودخلت محكمة فوجدت كل من فى قاعاتها وردهاتها واستراحتها ومكاتبها ومنصاتها وحماماتها وعلى سلالمها وفى مصعدها قضاة فقط، فتبحث بمشقة بالغة عن متهم أو محام أو حاجب أو حارس فلا تعثر عليه أو على أثر له.

هذا المشهد الخيالى هو بعينه حال المسلمين اليوم، فأينما وليت وجهك عثرت عليهم دعاة وقضاة.

فى فترة قصيرة من الزمان اكتشف المسلمون طريقة مخدِّرة ومغيِّبة للهروب من واقعهم المؤلم والمؤسف، ومن تخلف أمة تكالبت عليها الأمم الأخرى من المسجد الأقصى إلى نفط العراق، ومن أموال المسلمين فى مصارف الغرب إلى تحديد ما ينبغى أن يصنعوه فى بلادهم أو يطوروه من قدرات عسكرية أو يصدروه من صناعات محلية أو أدوية أو تفسيرات لدينهم.

الآن قطع المسلم عليك كل طرق الحديث والمعلوماتية والتفكير الحر والاجتهاد واختيار مصادر معرفتك وعلومك ومنهج حياتك وهواياتك، فلديه مسبقا أحكام على فكرك بالسجن مدى الحياة، وهو منشغل ومهموم بجمع حسنات الآخرة ولو ضرب بالأولى عرض الحائط ناسيا أو متناسيا بأن الأصل فى الحياة هى الخلافة فى الأرض، وأن تعميرها وتطورها وسعادته فى طيبات ما فيها تشكل الهدف الرئيس والواضح والصريح لذلك الزمن الذى يفصل ما بين المهد واللحد.

يشاهد المسلم لسنوات طويلة ظلما شديدا، ويعرف أن فى أقبية سجون وطنه آلاف الأبرياء، ويقرأ بأم عينيه عن مئات من حالات الاغتصاب وانتهاك الحرمات فلا تتحرك نخوته، ولا يهتز ضميره، ولا يبحث عن ثواب الآخرة فى الانضمام لمظاهرة ضد طاغية أو فى التكاتف مع غيره لرفع الظلم عن المعتقلين، ولا يكترث لآلام وأوجاع ملايين من أهلهم وذويهم، فيمارس حياته العادية كأنه جزء منفصل تماما عن واقع لا يتغير.

لكن هذا المسلم تنفجر شرايين جسده غضبا، ويشتعل لسانه شجبا، وتُلوِّح قبضته فى الهواء بالتهديد لأناس فى الجزء الآخر من عالمه لأن إحدى المدارس رفضت دخول تلميذتين مسلمتين بغطاء الرأس!



يراك تمارس حقك الطبيعى غير القابل للنقاش أو الجدال أو استئذان الآخرين، فتسمع موسيقى، وتشاهد فيلما، وتقرأ ما تراه أنت ضروريا لفكرك وعقلك وحاجاتك الثقافية، فيدخل على عالمك مهرولا، وصائحا، ومنذرا بكل عذابات القبر وجحيم سَعَر، فيضع لك فى دقائق معدودة خطوطا تفصيلية يراها هو الطريق المستقيم الذى يجنبك به الثعبان الأقرع، ويضمن لك أكثر من سبعين من الحور العين.

والمسلم يمارس دعوته التى لا تكلفه شيئا، فالحديث عن الحجاب والنقاب والفصل بين الجنسين وأهمية الدعاء عند الفجر وصب اللعنات على الكفار وحفظ كتاب الأدعية والاستماع لشرائط عمرو خالد ووجدى غنيم والتخلص مما لديك من شرائط موسيقى أو صور لكائنات فيها روح أمور يشترك فيها الجاهل والمتعلم، والفقير والغنى، والأمى والقارئ.

أما الجهاد الآخر المكلف فمعاذ الله أن يقترب منه هؤلاء القضاة والدعاة الذين تراهم فى البيت والشارع والمدرسة والمصنع والجامعة والمسجد والأسواق والمقاهى.

هل يستطيع المسلم أن يقوم بحملة ضد الغش والفساد والرشوة، وأن يذهب مع مجموعة دعوية شجاعة إلى قسم الشرطة وينصحون المأمور الباشا أن يحترم آدمية وكرامة المواطنين؟

هل تستطيع قوة من أشد مسلمى النهى عن المنكر الدخول إلى غرزة مخدرات وتوجيه النصائح الدينية اللطيفة للغائبين داخلها وأباطرة التهريب؟

قطعا لا، فالثمن يعرفونه سلفا، وثواب الآخرة غير مضمون، وشيوخ الفتاوى لم يتطرقوا إلى تلك الصغائر والتفاهات، فهى لن تزيد حسناتهم سبعين ضعفا، وستنتهى بمطواة قرن غزال فى بطن أحدهم.

هل يفتى أحدهم بأن الدروس الخصوصية حرام، وأن على المسلم مقاطعة المدرسين والمعلمين الذين يتكاسلون فى مدارسهم ويهملون تعليم تلاميذهم؟

هل سمعت عن مسلم يقابلك فيحدثك عن أهمية الكتاب والمنطق والفكر وعلوم البحار والتسامح مع غير المسلمين وحقوق المرأة فى أجر متساو مع الرجل، وفى تقاسم أعمال البيت المرهقة إن كانت الزوجة تعمل؟

هل قابلك مسلم وسألك عن عدد الساعات التى تقضيها مع أولادك، وعن أهمية تربيتهم على المعرفة والقراءة واحترام الكتاب وتنوع مصادر العلوم؟

كل هذه الأشياء لا يكترث لها المسلمون (إلا قليل منهم) فهى تحتاج لمناقشة وجدال وفكر وقوة اقناع واهتمامات بشئون الدنيا وهموم الوطن وعالم الآلام والمواجع والاصطدام مع السلطة!

شباب صغار يمارسون هواية الدعوة وإصدار الأحكام وتفخيخ كلماتهم كأنها سيارة تحصد أرواح الآخرين بدون حساب، فيتجولون فى المنتديات والمواقع على الانترنت، ويقرأون عناوين مقالات، ويمارسون سادية متخلفة فى الرد على من لم ترق لهم عناوين كتاباته.

إنهم يبغضون إعمال العقل، وليس لديهم وقت لقراءة فحوى مقال أو دراسة، واللغة لا تسعفهم، والمعلومات المتوافرة لديهم من بعض المحاضرات الدينية أو الفتاوى الجاهزة لا تنهض بنقاش أو حوار جدى ومثمر. يمارسون الطائفية وتكفير الآخرين وتحليل الدماء، ويصدرون أحكاما خارجة من أعمق نقطة فى الفكر الصفرى الكاره للحياة والكرامة والحرية والظلم.

دعاة وقضاة أينما رأيتهم تجدهم يمارسون معك تغييب العقل، ويهبطون بخاتمة الرسالات السماوية إلى أكثر مساحات العقل سطحية، ويتهمونك فى إيمانك وقلبك وعلومك وخبراتك وقدرتك على التحليل والاجتهاد.

عنصريون وطائفيون ومنفرون من رسالة سماوية مكتملة أركانها، نزل بها الروح الأمين على قلب نبى الرحمة، صلوات الله وسلامه عليه.

يكرهون الطائفة الأخرى وأصحاب الدين الآخر، والفكر الآخر.

يمارسون السباب والتكفير والتهديد والوعيد، ويفسرون حديثك بغير ظاهره وباطنه، وقد تمكنوا من توحيد خصوم الإسلام بغبائهم وتخلفهم. عندما يصمت المسلمون تعود إليهم حضارتهم الرائعة التى أثرت العالم ردحا طويلاً من الزمن.

محمد عبدالمجيد
رئيس تحرير طائر الشمال
عضو اتحاد الصحفيين
النرويجيين

الترجمة
فعـــــــل حضـــــــارى

محمــــد عــدنان ســـالم

■■ «إن التبادل الثقافى ليس علاقة أحادية الجانب، ويجب ألا يكون كذلك.. إنه شرط أساسى لكى يفهم بعضنا البعض فهماً أفضل ولكى نتعلم من بعضنا البعض فى عالم يتقارب أكثر فأكثر».

كان هذا نصاً مقتطفاً من كلمة المستشار الألمانى شرودر فى افتتاح معرض الكتاب فى فرانكفورت ٢٠٠٤، فهل العلاقة بين الثقافتين الغربية والعربية تسير وفقاً لما أراد لها السيد شرودر؟!

على مرٍ التاريخ: لم يكن ثمة تبادل. إنما هو مد من جانب واحد: تسيل فيه المعرفة وتهب رياحها من الجانب الأغنى والأعلى حضارياً إلى الجانب الأفقر والأضعف المتعطش إليها.

فقد سبق للثقافة العربية ـ التى انطلقت على وقع صيحة (اقرأ) عندما دوّت فى غار حراء وترددت أصداؤها فى جنبات مكة ـ أن قامت بدور المتلقى وراحت تجوب الآفاق بحثاً عن المعرفة، تجلب كتبها من كل صوب، وأقامت لها بيت الحكمة لتعكف على ترجمتها من كل لغة، ثم لتضعها فى أيدى الباحثين لتحليلها وصهرها ثم لإعادة تركيبها وإنتاجها طبقاً لمعاييرها ومناهجها. وقد وقعت فى الغرب على صيد ثمين من كتب الفلسفة اليونانية وعلومها، فلم تتردد فى أن تنهل منها.

ومن طريف ما وقع للمأمون العباسى فى القرن التاسع الميلادى، عندما فتح جزيرة قبرص، وكان يعلم أنها ذاخرة بالكتب التى حرمت الكنيسة تداولها، وجمعتها فى مستودع أحكمت إقفاله، خشية أن تفوح منها روائح الكفر والضلال، فطلب من الملك أن يرسلها إليه، فكان الملك وأساقفته سعداء بتلبية طلبه، ورأوا فيه ربحاً مزدوجاً يخلصهم من عبء تخزينها ويرمون بضلالاتها الفاتحين، وكان المأمون أكثر سعادة: فما إن وصلته أحمال الكتب حتى دفع بها إلى مترجميه فى بيت الحكمة، ويروى الحنين بن إسحاق أن المأمون كان يعطى المترجمين وزن الكتاب المترجم ذهباً، وأنهم لذلك كانوا يختارون لكتبهم ورقاً سميكاً، ويكتبونها بالخط الكوفى بقلم غليظ، ويباعدون بين أسطرها ليزيدوا فى وزنها ويستزيدوا من الذهب، وأن المأمون كان يعرف ذلك منهم ويغض الطرف تشجيعاً لهم.

ثم لم تلبث ـ بعد أن اعتلت صهوة الحضارة وأمسكت بزمامها ـ أن تحولت إلى دور المرسل:

وعلى الرغم من قول السيد بيتر ريبكن أنه: «كانت هنالك فى الماضى عصور يتسم فيها التلاقى بين آداب أوروبا والعالم العربى بالتقدير والاحترام المتبادل: فالأندلس، وطليطلة، وابن رشد، وابن بطوطة كانت رموزاً لتلاقح الحضارات» بما يشعر بأنه كان ثمة تبادل وأخذ وعطاء، غير أن النص التالى الذى أنقله من كتاب الاستذكار لابن عبد البر يؤكد ما أذهب إليه من سير الثقافة فى اتجاه واحد من المتقدم حضارياً إلى من أبطأت به حضارته:

فقد كتب الملك جورج ملك بريطانيا إلى هشام بن الحكم الخليفة الأندلسى ما نصه:

صاحب العظمة هشام الجليل المقام

بعد التعظيم والتوقير، فقد سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم والصناعات فى بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل لتكون بداية حسنة فى اقتفاء آثاركم، لنشر أنوار العلم فى بلادنا التى يجتاحها الجهل من أركانها الأربعة.

وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة (دوبانت) على رأس بعثة بنات الإنجليز للتشرف بلثم أهداب العرش، والتماس العطف، لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة، وحدب من لدن اللواتى يشرفن على تعليمهن، وقد أرفقتُ الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل، أرجو التكرم بقبولها.

مع التعظيم والحب الخالص
خادمكم جورج ملك بريطانيا

ومع عالمية الحضارة التى فرضتها ثورتا المعلومات والاتصالات: انهارت الحواجز الفاصلة بين الأمم، وزالت الحدود، وتهدمت الجدران، وانفتحت الثقافات على بعضها، وبات من المتعذر التقوقع والانكفاء على الذات، مما خلق وضعاً جديداً للعلاقات بين الأمم والشعوب، أراد له البعض ـ ممن لا يزال يحمل أفكار مدرسة الهيمنة والإمبراطوريات العتيقة ـ أن يكون صراع حضارات يقوم على التنافى والتصفية والقهر، ويريد له آخرون ـ على شاكلة السيد شرودر ـ أن يكون حوار ثقافات يقوم على التفاهم والتفاعل والتكامل، وهذا الخيار الأخير هو ما ينسجم مع اتجاه التطور البشرى وجهود الإنسان للتخلص من رذيلتى الفساد وسفك الدماء، ومن أوزار الحروب وويلاتها: ذلك الاتجاه الذى تجلى فى الاتحاد الذى بنته أوروبا بعد حروب طاحنة أوقدتها فيما بينها عبر القرون، كان آخرها حربان عالميتان مدمرتان أشعلتهما خلال قرن واحد، أدركت بعدهما أن الحروب لا تحل المشكلات، إنما يحلها صبر جميل على طاولة المفاوضات.

ولعل من أهم وأول ضرورات التحول إلى هذا العصر المتعولم: تذليل صعوبات التبادل والتفاهم، وفى مقدمتها الحاجز اللغوى، وقد لاحظت ثورتا المعلومات والاتصالات هذه الضرورة فعمدتا إلى تذليلها عن طريق الترجمة، وعولمة المصطلحات الفنية والتقنية.

فبعد أن كان انتقال الأفكار من بلد لآخر يستغرق عقوداً من الزمن ريثما تتاح الفرص لترجمتها، تنامت فرص التبادل الفورى للأفكار عبر الترجمة الفورية التى سمحت للمستمع باختيار اللغة التى يفضل أن يسمع بها أياً كانت لغة قائلها، وقطعت الترجمة الآلية أشواطاً واسعة: سيكون لها أثر كبير فى كسر الحاجز اللغوى أمام المتلقى، والسماح له باختيار اللغة التى يجب أن يقرأ بها: أياً كانت لغة كاتبها.

وإلى أن تبلغ الترجمة الآلية مداها، وتستوى على سوقها لابد من تحسين أداء الترجمة التقليدية، ورفع مستوى التأهيل للمترجمين. وهو ما يطرح بدوره صعوبة تمويل الترجمات بين اللغات، التى تشكل عبئاً على الناشر فى البلدان النامية، لا يستطيع أن يُحَمِّله للقارئ لأسباب: يأتى فى مقدمتها انخفاض مستوى الدخل وضعف القوة الشرائية لديه، وحالة العزوف القرائى التى لا ترتقى بالكتاب عنده إلى مستوى الحاجة.

واقع التبادل الثقافى

يبدو أن العلاقة بين الثقافتين العربية والغربية، لم تدخل عصر الحضارة الكونية بعد، فلا يزال التبادل بينهما يسير على خط واحد بين مرسل لا يستقبل إلا نادراً، ومستقبل لا يرسل إلا نادراً، والمرسل هنا حتماً هو الغرب.

ومع ذلك فإن هذه الترجمة ذات الاتجاه الواحد لا تزال تعانى من مشكلات عديدة تحد من فاعليتها وأثرها الثقافى.. فهى تعانى:

- ضآلةً فى الكم: فما يترجم للعالم العربى مجتمعاً لم يتجاوز ٣٠٠ كتاب سنوياً بمعدل كتاب لكل مليون عربى مقابل ٥٠٠ فى المجر و ٩٠٠ فى إسبانيا لكل مليون من السكان.
- وضعفاً فى الكيف: ناجماً عن ندرة عدد المترجمين المتخصصين والمؤهلين، وقلة الخبرة والتجربة لديهم.
- وعشوائيةً فى الاختيار لما يترجم؛ تعتمد على المصادفة من دون رصد دقيق للإنتاج الثقافى العالمى ولا معايير للانتقاء.
- واستباحةً لحق المؤلف: لا تشعر المترجم معها بأدنى حاجة للحصول على إذن بالترجمة من مالك هذا الحق.

بل إن ذلك من غير المفكر فيه فى المجتمع العربى، بحيث إن المترجم غالباً

محاضرة القيت فى معرض القاهرة الدولى للكتاب من ورشة عمل مع معهد «جوته»

ما يحل محل المؤلف فى المطالبة بحق الترجمة، ويستغرب جداً أن يطالبه الناشر بالإذن بالترجمة مما أغرق سوق الترجمة فى فوضى عارمة؛ تتعدد فيها ترجمات بعض الكتب إلى ما يزيد على عشر ترجمات مختلفة للكتاب الواحد أحياناً.

-وقلة فى الجدوى فما لم تتوفر إرادة التحضر لدى المتلقى فلن تغنى وفرة الترجمات لديه شيئاً مهما تعاظمت. ولا بد أن نتذكر هنا أن الوطن العربى يعانى من حالة وهن حضارى مزمن طال أمده لن تنفع معه الترجمة قبل تعميق إرادة الخروج من هذا الوهن، لتوظيف ما يترجم فى استئناف السير فى ركب الحضارة.

ومن دون هذه الإرادة لن تضيف الترجمة إلى الفعل الحضارى شيئاً، ولن تفعل أكثر من تكرار الأفكار محاكاة وتقليداً؛ يُلحق المترجَم له بالمصدر إلحاق تبعية، تغيب معها شخصيته، وتزول عنها بصمته، ويبقى الأصل أكثر ألقاً، وبالتالى فإنه لن يستطيع أن يثرى الحضارة المتقدمة بأى رؤية جديدة خارج منظومتها الفكرية، ولن يتحقق ما أراده شرودر من الارتقاء بالعلاقة الثقافية من حالة الأحادية والإملاء، إلى حالة التبادل والتفاعل والإغناء.

هل لدى الثقافة العربية ما تـقـدمـه؟

من بين ٦٠٠٠٠ كتاب أدبى مترجم مطروح بين يدى القارئ الألمانى، لا يوجد أكثر من ٥٠٠ كتاب قصصى مترجم لكتّاب عرب بنسبة لا تبلغ ١٪ معظمها ترجم من الفرنسية لكتّاب عرب مقيمين فى فرنسا، وليس حال الترجمة من العربية إلى الإنجليزية بأفضل حالاً.

والكتّاب العرب عامة لا يتم التعرف عليهم فى الغرب إلا بعد نجاحهم فى بلدان اللغات الأوربية، أو حصولهم على جوائز مهمة، ولا يُنشر من أعمالهم إلا ما كان مكتوباً بأساليب القص الغربية، ومواتياً لذوق القارئ الغربى، وحتى هذه لا يتلقفها من دور النشر الغربية إلا صغارها.

وبهذه المعايير تمت ترجمة بعض أعمال نجيب محفوظ وجمال الغيطانى وحنان الشيخ وأدونيس واميل حبيبى وإدوار الخراط وإبراهيم الكونى وإلياس خورى وجبران خليل جبران ومحمود درويش وعبد الرحمن منيف وصنع الله إبراهيم، وآخرين على شاكلتهم من المنبهرين بثقافة الغرب السائرين فى ركبها.

وبالمعايير ذاتها عاد الناشرون العرب من معرض فرانكفورت للكتاب - الذى استضاف الثقافة العربية الإسلامية ضيف شرف عليه عام ٢٠٠٤ - بخفى حنين، كانوا مجرد زبائن اشتروا حقوق ترجمة بضعة كتب إلى العربية، ولم يبيعوا من حقوق ترجمة كتبهم العربية شيئاً يذكر.

إن إقدام الناشر العربى على شراء حقوق الترجمة إلى العربية يعد مغامرة تجارية غير مأمونة؛ فهو فضلاً عن الشروط القاسية والجعالات المرتفعة التى تطلب منه من دون مراعاة لظروف النشر الصعبة عنده، فإنه كثيراً ما يفاجأ بالكتاب الذى تعاقد عليه قد ترجمه القراصنة وأغرقوا الأسواق به؛ إما وهو لا يزال فى مرحلة التفاوض، أو وهو فى مرحلة الترجمة، بعد أن يكون قد أدى الجعالة المقدمة للناشر الأصلى.

أما طموحه إلى بيع حقوق ترجمة كتبه العربية، فإنه لا يزال مرهوناً - لكى يستطيع أن يثير الرغبة المعدومة لدى الناشر الغربى بشراء حقوق ترجمة شىء من إصداراته - بأن يحقق شروطاً تعجيزية متعذرة.

- كأن يكون العمل من النوع الأدبى (رواية، قصة، شعر، مسرح).
- وأن يكون مكتوباً بحسب أساليب القص ومعايير الكتابة الغربية.
- وأن يكون حائزاً على جائزة عالمية مشهورة كجائزة نوبل.
- وأن يكون موافقاً لذوق القارئ الغربى وقيمه ومسلماته.
- وأن يحمل عنواناً مثيراً لفضول القارئ الغربى عن المنطقة العربية ومشاكلها.
- وألا يكون موضوعه قد تم إشباعه بأقلام أوروبية تناولته بالأفكار والتصورات الذهنية المسبقة عن الإسلام والمرأة والحجاب والديمقراطية والإرهاب.

فأين الرغبة بالتعرف على الأخر المختلف،وعلى القيم المكنونة فى ثقافات أخرى؟!

وأين الحوار بين الثقافات الذى يؤججه عصر الحضارة الكونية ليلبى بواسطته احتياجات تطوره المتسارع وصفته العالمية؟!

وما جدوى الحوار إذا كان مع آخر مؤتلف: مساير أو مقلد أو متماه، يدفع عنه ويستبعد منه الآخر المختلف؟! وما عسى أن يفيد الغرب من الحوار مع الآخر المؤتلف، بعد صدمة ١١ أيلول (سبتمبر)، وشعوره بفقر معلوماته عن الآخر المختلف التى أمدته بها معاهده للاستشراق ومراكزه للأبحاث؟!

وعلى الرغم من الوهن الحضارى المزمن الذى تعانى منه الثقافة العربية الإسلامية، وردود الأفعال المنفلتة خارج منظومتها الفكرية، فإن لديها من مخزونها الفكرى ما تقدمه للثقافة الغربية التى تعانى بدورها - راهناً - من أزمة فلسفية خرجت بها من الحداثة التى أسست نهضتها عليها إلى ما بعد الحداثة التى لم تتضح معالمها بعد، وأزمة سياسية أفقدتها توازنها بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وتفردها بإدارة شئون العالم وفق نظام دولى جديد أعرج، وأزمة أخلاقية تجلت فى غوانتانامو وأبى غريب والسجون الأمريكية السرية، وكشفت عن هشاشة منظومتها الفكرية حول العدالة والمساواة والحرية وحقوق الإنسان، التى لم تقوَ على مواجهة الصدمة.

إن لدى الثقافة العربية الإسلامية من المخزون الفكرى الأخلاقى المستقر فى ضميرها ووجدانها:

مالا يسمح لها بأى تمييز بسبب العرق أو اللون أو الجنس أو اللسان أو الدين فـ «كلكم لأدم وأدم من تراب، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى».

ومالا يسمح لها بأى إكراه فى الدين أو المذهب أو الرأى، فـ (لا إكراه فى الدين) (البقرة ٢/ ٢٥٦) و (من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (الكهف ١٨/ ٢٩) وهى بذلك تحمل على أكتافها أربعة عشر قرناً من التعايش والتسامح بين مختلف الأديان والأعراق.

ومالا يسمح لها بازدواج المعايير؛ فالعدالة حق للجميع (ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى) (المائدة٥/٨).

إن علينا أن نقوم بجهد مشترك من أجل تعارف أعمق بين ثقافتنا العربية الإسلامية والثقافة الغربية. ومن أجل شق طريق أعرض وأسرع للتبادل بينهما يسمح بالسير فيه بالاتجاهين، ومن أجل إدماج الناشر العربى، الذى يعانى من العزلة. فى خصم النشر الدولى.

ثمة مبادرات من الجانب الغربى كمبادرة (مداد) التى يشرف عليها معهد جوته فى القاهرة للتعريف بالأدباء العرب الشباب فى موقع على الإنترنت، ومبادرة (كاتب المدينة) التى يتم بموجبها دعوة كاتب من كل من الجانبين للإقامة فى بلد الآخر مدة تمكنه من الكتابة عن تجربته فيها، ومبادرة (الديوان الغربى - الشرقى) التى يقوم أصحابها بدعوة أدباء عرب إلى ألمانيا لتقديم قراءات أدبية فى مراكزها الثقافية، ومبادرة من دار الفكر دمشق فى مشروعها (حوارات لقرن جديد) الذى وسعت نطاقه ليكون حواراً بين كاتبين عربى وغربى.. علينا أن ندعم هذه المبادرات، وأن ننميها بابتكار مبادرات ومشاريع جديدة.

ثمة صعوبات تحول دون التعرف على الأدب العربى والثقافة العربية بكل أنواعها التى قد لا ترتدى ثوب القص والروى، وأخرى تعيق الترجمة بين اللغات، وفى مقدمتها تمويل الترجمات وتعقيدات الإذن بها، وثالثة ترفع الحواجز بين الناشرين من الطرفين وتعزل كلاً منهما عن الآخر.. علينا أن نتعاون جميعاً على تذليلها.

ثمة اقتراحات عملية ثمينة قدمها المعنيون بتنشيط التبادل الثقافى بين ألمانيا والعالم العربى أمثال عبود عبود، تنتظر من يتبناها وينفذها.

يراهن الكثيرون على الجهد الحكومى والمؤسسات الرسمية وأراهن على مد الجسور وإقامة العلاقات المباشرة بين المؤسسات الثقافية الأهلية من الجمعيات والروابط والاتحادات المهنية للكتّاب والأدباء والمترجمين والإعلاميين والناشرين. فالثقافة بطبيعتها إنما هى ثقافة الشعوب؛ المستقرة فى ضمائرها لتحكم تصرفاتها وردود أفعالها، وتفقد الثقافة هويتها وتخرج عن طبيعتها عندما ترتدى الزى الرسمى، وتتقمص شخصية السلطان.

هذا إذا أردنا أن نعمل معاً من أجل تحقيق حلم شرودر فى «أن يفهم بعضنا بعضاً فهماً أفضل، ونتعلم من بعضنا البعض فى عالم يتقارب أكثر فأكثر».

إصــــــــدارات جــــــديــــدة

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

قضايا عصرية: رؤية معلوماتية

نبيل على
القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٦، ٢٢٠صفحة



يواجه الكاتب الذى ينشد خطابًا للثقافة العلمية يتناول إشكاليات عصرنا الراهن ظاهرتين رئيسيتين هما الانفجار المعرفى والتعقد العلمى، وتتطلب الأولى كتابة قادرة على الانتقاء والإيجاز والتكشف المعلوماتى، وأما ظاهرة التعقد العلمى التى تعنى تداخل المجالات العلمية والوسائل التكنولوجية، فهى تتطلب كتابة عبر تخصصية، قادرة على اختراق حواجز المتخصص واكتساب المعارف بالقدر الذى يكفى لتناول مجالات التداخل العلمى بصورة متوازنة، وهى كتابة تركز على المفاهيم وتتحاشى التفاصيل والانغلاق المصطلحى.

وتختلف الكتابة عبر التخصصية عن كتابة التخصص أو التبسيط العلمى، وهى ليست مجرد كولاج لتجميع شذرات معرفية من مجالات علمية متنوعة، بل هى كتابة تصهر عناصر الجوهر المعرفى والأفكار التى تتم من خلالها عملية التلاقح العلمى، من أهم شروطها استخدام لغة محكمة، قادرة على مخاطبة المتخصصين دون الوقوع فى فخ الضحالة.

والمؤلف متخصص فى مجالين معرفيين أساسيين هما تكنولوجيا المعلومات واللغة، وكلاهما يفرض الخوض فى مجالات معرفية متعددة.

وتضمن الكتاب ٦ دراسات: العولمة والعولمة المضادة، وفيها يتناول الجوانب الاقتصادية والثقافية والتكنولوجية لظاهرة العولمة والعولمة المضادة، الهوية العربية وهى دراسة تتناول علاقة تكنولوجيا المعلومات بالمقومات الأربعة لمنظومة الهوية وهى اللغة والمعتقدات والتراث والإنتاج الفكرى والإبداعى، ورؤية معلوماتية لمعاداة السامية، ويخصص القسم الثانى لدراسات ثلاث هى وراثة اللغة ولغة الوراثة كمجال معرفى يجمع بين البيولوجيا واللغة، وآلة الفكر وفكر الآلة وهو مجال يجمع بين علوم المخ والكمبيوتر وهندسة الذكاء الاصطناعى، وأخيرًا الصفر والواحد، وهى دراسة تتناول نشأة الثنائية فى الفكر الإنسانى.

■

الديمقراطية الرقمية

جمال محمد غيطاس
القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦، ٢٥٠ صفحة



فى انطلاقتها السريعة والمتواصلة.. اقتلعت ثورة المعلومات المفاهيم القديمة المتبعة فى مؤسسات العمل والإنتاج، ثم سرعان ما تغيرت جذريًا من طرق التفكير والعلاقات السائدة بين البشر، مبشرة بحياة جديدة أكثر سهولة وأقل تكلفة، ثم اشتد عنفوانها واتسع نطاق تأثيرها ليعصف بمجالات ومناح حياتية لم يطرأ على ذهن أحد أنها ستكون يومًا ما فى مرمى تأثيرات ثورة المعلومات المتواصلة.

ومن أحدث هذه التأثيرات وأشدها عنفوانًا وقوة ما حدث فى مجال الديمقراطية، فقد استطاعت ثورة المعلومات أن تجعل من سيول النبضات المتدفقة عبر شبكات المعلومات والاتصالات فعلاً سياسيًا فى الاتجاهين ما بين الحكومات وشعوبها، فالحكومات توظف هذه الثورة لتحقيق أغراضها، والشعوب تستغلها فى فعل ديمقراطى أو سياسى تدافع بها عن مصالحها وتطلعاتها وأمانيها أمام الحكومات، وشيئًا فشيئًا تبلور هذا الفعل السياسى للتكنولوجيا وحمل أسماء متعددة: كالحكومات الإلكترونية والانتخابات الإلكترونية والديمقراطية الإلكترونية وأخيرًا الديمقراطية الرقمية، ومع كثرة التفاصيل والسيولة فى التطورات، لاتزال صورة المشهد ككل غائمة إلى حد لا يسمح للكثيرين بالنظر لهذه الظاهرة الفائقة الأهمية والخطورة نظرة كلية تستجمع شتاتها وتحيط قدر الإمكان بتفاصيلها المبعثرة والمتشظية فى اتجاهات شتى، وهذا الكتاب ما هو إلا محاولة للتعامل مع ظاهرة الديمقراطية الرقمية بنظرة تركز على لملمة التفاصيل المبعثرة والمتشظية وتوصيف الظاهرة من خلال إطار محدد ومتكامل يساعد القارئ على تكوين فهم كلى لأبعادها المختلفة، بدءًا من التعبير عن الرأى عبر الإنترنت وانتهاءً بالتصويت الإلكترونى من المنزل أو حتى عبر جهاز التليفزيون.

■

التحالف ضد بابل

جون كولى
ترجمة: ناصر عفيفى
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦، ٣٥٥صفحة



تبدو قصة بابل القديمة وثيقة الصلة بالصراع فى منطقة الشرق الأوسط، الذى يختلط فيه الدينى بالسياسى بطريقة مدهشة، بحيث يصعب فصل العربة فيهما عن الحصان.

المؤلف يتتبع هذه القصة منذ تراث بابل وحتى نهاية اللعبة بتقطيع أوصال العراق، وبينهما عشرات المراحل التى تدخل فيها أطراف عديدة عربية ودولية، دون أن تغيب طبعًا القضية الفلسطينية ودون أن يغيب صدام حسين بشخصه، وكيف تم التلاعب به من قبل المخابرات المركزية الأمريكية، حيث التقطه وليام ليكلاند الذى كان يختفى تحت مسمى الملحق العسكرى فى السفارة الأمريكية فى القاهرة، والذى كان يتولى - حسب المؤلف - تنسيق الجهود المناوئة لعبد الكريم قاسم مع المخابرات المصرية، وكذلك جيمس كريتشفيلد الذى لعب دورًا مهمًا فى الانقلاب البعثى ١٩٦٣، وما إن سمع صدام بالانقلاب من إذاعة القاهرة حتى سارع إلى بغداد ليشارك فى عمليات التعذيب ضد اليساريين المناهضين للبعث، وكانت هذه البداية التى أظهرت النزعة التسلطية لصدام حسين وتقلباته الحادة، وفى نفس الوقت بدأ شهر عسل بين صدام والشركات الأمريكية مثل بارسون ويكتيل وموبيل أويل، التى حصلت على عقود مهمة وامتيازات من البعثيين وبدأت رحلة صعود صدام الصاروخية نحو قمة هرم السلطة، وتزامن مع هذه العلاقة الخاصة مع المخابرات المركزية الأمريكية، اشتراك العراق فى كل الحروب التى جرت ضد إسرائيل، ولم يمنع ذلك أمريكا من دعم الانقلاب البعثى فى ٦٨، والذى هندسه روبرت أندرسون الذى كان يعمل فى مجال النفط بتكساس، الذى كان عليه أن يناقش قضايا النفط التى باتت تحتل أهمية كبيرة فى الصراع حول الشرق الأوسط مع صدام حسين والبعثيين، ومن خلال سيطرته على قوات الأمن الداخلى، بدأ صدام يلعب دورًا بارزًا، وتسابق إليه الغربيون، وفى نوفمبر ١٩٦٩، أرسل السفير البريطانى فى بغداد إلى وزارة الخارجية فى لندن ما يفيد ضرورة النظر بعين الاعتبار إلى الديكتاتور الصاعد الذى صار فى دائرة الضوء وكأنه الوريث الشرعى للرئيس البكر. غير أن طرفًا ثالثًا، إسرائيل، كان ينظر بعين الريبة لهذا الصعود، وما يمثله من تهديد لوجود الدولة اليهودية، ومن هنا كان هجومها على المفاعل النووى العراقى فى ١٩٨١، وتلا ذلك مغامرة صدام فى إيران واستمرت العلاقة بين صدام والمخابرات المركزية الأمريكية على هذا النحو مع دخول إسرائيل على الخط حتى وضع احتلال العراق من قبل قوات التحالف نهاية مأساوية للديكتاتور الصغير.

■

الذات عينها كآخر

بول ريكور
ترجمة: جورج زيناتى
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٥، ٧١٩ صفحة



يمثل الكتاب تتويجًا لكل فلسفة بول ريكور، أحد كبار فلاسفة النصف الثانى من القرن العشرين. وهو يطرح فيه السؤال المتعدد، الأخير والأبقى فى كل الفكر البشرى: من أنا؟ من أكون؟ ما هى هويتى؟ وما هو الوجود؟

لقد حطمت العلوم المعاصرة وهم الأنا الواعية لذاتها والمتيقنة من إدراكها لشفافيتها المباشرة، غير أن الممارسة، تفتح باب المقدرة أمام ذات متجذرة فى الحياة اليومية.

تكتشف هذه الذات بعدًا مهمًا هو القدرة على السرد: السرد الذى هو الصيغة اللغوية التى نتعامل فيها مع الزمان المعيش، إذ العلاقة الأصلية مع الزمان هى علاقة سردية. إن زمن الكلام أو زمن العمل هما زمنان سرديان.

تقوم فلسفة ريكور على تأويلية لمعنى الوجود وتأخذ بعين الاعتبار كل ما أتى به فلاسفة الريبة وكل الإشارات التى تأتى الفلسفة من مختلف العلوم الإنسانية، وعلى رأسها التحليل النفسى والتاريخ والألسنية. وإذا كانت مسألة الأنا/ الآخر مطروحة بقوة فإن الرجوع إليها عند هذا الفيلسوف يُكسبها عمقًا نادرًا ويوسع من أبعاد تناولها.

■

هل نحن بلا نظير؟

جيمس تريفل
ترجمة: ليلى الموسوى
الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٦، ٢٢٠صفحة



لماذا نحن، بنى الإنسان، متفردون عن بقية الكائنات. يمكن أن يقال الكثير فى الإجابة عن هذا السؤال، استناداً إلى رؤى فلسفية وميتافيزيقية، لكن المؤلف يتبع نهجاً مغايراً، إنه يسعى لإثبات هذا التفرد علمياً، بدراسة الدماغ البشرى ومقارنته بأدمغة الحيوانات من جهة، وبالكمبيوتر من جهة ثانية، ليبرهن على أن العقل هو السمة المميزة للبشرية، وأنه مختلف عن بقية الحيوانات، ليس فى الدرجة بل فى النوع، كما أن هذا العقل هو الذى صنع أجهزة الذكاء الاصطناعى الحديثة.

فكرة تفرد الإنسان كما يقول المؤلف متسقة تماماً مع البيولوجيا التطورية الحديثة، وهو ما يعنى أنه لن يأتى يوم يتمكن فيه شمبانزى من حل مسألة فى الرياضيات مهما تلقى من تدريبات، لكن التحدى الحقيقى الذى يواجهه تفرد الإنسان، ربما يكمن فى إمكانية أن يقوم جهاز الكمبيوتر مكان عقل الإنسان، وهى مسألة بعيدة عن التصور خصوصاً إزاء تلك الأنشطة التى يمكن وصفها بالإبداعية أو القدرة على الذكاء التجريدى، فالكمبيوتر لن يكون بوسعه أن يرسم الموناليزا أو يكتب هاملت أو ينتج نظرية النسبية.

الأدلة يقدمها المؤلف من تاريخ التطور العضوى وعلم النفس وعلوم الكمبيوتر والفلسفة، ودراسة الدماغ من النواحى التركيبية والوظيفية.

■

المتاهــــة

محمد عبدالسلام
القاهرة: مؤسسة الأهرام، ٢٠٠٦، ٣٥٢ صفحة



يبحث الكتاب فى المشكلات التى تواجه إقامة منطقة خالية من السلاح النووى فى الشرق الأوسط، خصوصاً مع التهديدات التى تمثلها الترسانة النووية الإسرائيلية للأمن المصرى والعربى، وسعى بعض دول المنطقة إلى حيازة هذا النوع من الأسلحة. ويعدد المؤلف فى البداية مداخل التعاطى مع هذه المشكلة عالمياً وإقليمياً، مشيراً إلى معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية فى منطقة الشرق الأوسط وانتهاك العراق لها ورفض إسرائيل التوقيع عليها وانتقادات معدلها، وكذلك لكيفية تعامل السياسة الأمريكية مع قضية التسلح النووى فى المنطقة، وفيما يتصل بالمدخل الإقليمى يعرض المؤلف لمشروع إقامة منطقة خالية من السلاح النووى فى الشرق الأوسط ويفند الموقفين المصرى والإسرائيلى من المعاهدة، ثم يعرض فى الباب الثانى للأشكاليات التى تواجه إقامة منطقة خالية من الأسلحة النووية فى الشرق الأوسط، وهى إشكاليات خاصة بالنطاق الجغرافى وأخرى متصلة بالصراعات القائمة فى المنطقة وثالثة تشير إلى الأوضاع النووية فى الشرق الأوسط، ورابعاً الإشكاليات الخاصة بمواقف الدول النووية من هذا الاتجاه.

واستناداً إلى هذه الإشكاليات جميعاً، يشير المؤلف إلى ملمحين أساسيين، أولهما أن هذه العملية ستكون ممتدة متعددة المراحل، قد تستغرق من ١٠ إلى ٣٠ سنة، وأن أى محاولات لدفع تلك العملية بالضغط فى ظل غياب الشروط الضرورية لها سيكون نوعاً من «هزيمة الذات» بحسب تعبير أحد الخبراء.

والملمح الثانى أنها سوف تتم فى إطار ترتيبات إقليمية أكثر شمولية، أو كجزء من ترتيبات ضبط تسلح إقليمية عامة، تتعامل مع معظم مجالات التسلح التقليدية وغير التقليدية فى المنطقة. ويشير المؤلف إلى أن مشروع إقامة منطقة خالية من الأسلحة النووية فى الشرق الأوسط رغم كل هذه التعقيدات والتداخلات، يبقى مشروعاً واقعياً، وسيبقى كذلك مادامت هناك مشكلة نووية لا يوجد مدخل دولى ملائم للتعامل معها فى الشرق الأوسط، وفى كل الأحوال يرى المؤلف أن لمصر دوراً سواء فى صيغة إقامة منطقة خالية من الأسلحة النووية أو منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل.

■

مفهوم القتل وإشكالياته الطبية

جوخة الريامى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٦، ٢٢١ صفحة



تقدم الطب والبحوث العلاجية بدرجة كبيرة فى العقود الأخيرة، وهو ما جعل قتل المريض أو ما كان يعرف بالقتل الرحيم لمريض ميئوس من شفائه، مسألة غير مقبولة. فالطب يقدم كل يوم جديداً يعطى أملاً للمرضى فى إمكانية شفائهم من أمراض كانوا يظنون أن لا أمل فى الشفاء منها، ولذلك فلا مبرر للرأى الذى ينادى بقتل الأطفال المشوهين والمتخلفين عقلياً بحجة اليأس من شفائهم. والشرع والأخلاق والقانون لا يشترطون فى الإنسان الذى تتوافر له أسباب الحماية سوى أن يكون على قيد الحياة، بصرف النظر عن عيوبه الجسمانية أو مكانته الاجتماعية، وأى اعتداء على هذا الإنسان يشكل جريمة قتل للإنسانية بشكل عام.

وإذا كانت الأجنة مهمة لحل كثير من المشكلات الصحية المستعصية، فإن ثمة إشكالية أخلاقية يثيرها استغلال أنسجة الأجنة فى نقل وزراعة الأعضاء، خصوصاً أن ذلك يفتح الباب واسعاً أمام عملية تجارة الأجنة، وزيادة حالات الإجهاض مع وجود إغراءات مادية كبيرة، وترى المؤلفة أن الأبحاث التى جرت على الأجنة وتؤدى إلى هلاكها هى من أعظم أنواع الفساد والدمار، وهى جرائم فى ميزان الشرع.

والإجهاض ذاته جريمة فى حق الشرع والقانون يشبه جريمة الوأد التى كانت ترتكب فى الجاهلية.

وفى هذا الإطار تطرح المؤلفة عدداً من التوصيات تتفاوت بين التوعية ومراقبة المستشفيات والصيدليات لضمان عدم ارتكاب هذه الجرائم إلى سن القوانين وتغليظ العقوبات على المخالفين، وإنشاء مؤسسات لرعاية المشوهين والأقل نمواً والمتخلفين ذهنياً وتدريبهم وإعدادهم لمواجهة الحياة.

■

الفلسطينيون فى أوروبا

إشكاليات الهوية والتكيف
تحرير: عباس شبلاق
رام الله - القدس: شمل، مؤسسة الدراسات المقدسية، ٢٠٠٥، ٢٨٠صفحة



يتضمن الكتاب دراسات قدمت فى ورشة عمل عقدت بمركز دراسات الشرق الأوسط التابع لكلية سانت أنتونى فى جامعة أكسفورد قبل ٥ سنوات، وتتناول حالة الفلسطينيين فى عدة دول أوروبية: ألمانيا واسكتلندا وبريطانيا واليونان وإيبريا والسويد وفرنسا وغيرها. باستثناء بريطانيا التى شهدت موجات متتالية من الهجرة الفلسطينية فى أعقاب قيام دولة إسرائيل، فإن الهجرات الفلسطينية إلى باقى دول أوروبا تعتبر حديثة نسبياً، وتشكلت الجاليات فى تلك الدول أساساً من طلاب استقروا بعد نهاية دراستهم فى أوروبا. وفى بداية الثمانينيات هاجر آلاف الفلسطينيين الذين قدموا أساساً من لبنان فى أعقاب مجزرة صابرا وشاتيلا إلى الدول الاسكندنافية، ومعظم هؤلاء اللاجئين كانوا لا يملكون قدرات علمية، أو مهنية مميزة مما يجعلهم يعيشون حتى اليوم على الإعانات الحكومية أو ينخرطون فى أعمال هامشية. وفى أعقاب حرب الخليج الأولى والثانية هاجر آلاف من الفلسطينيين إلى أوروبا، وكان هؤلاء أسعد حالاً لأن كثيرين منهم امتلك أموالاً مكنتهم من ممارسة أعمال حرة، وفى بريطانيا مثلاً فإن عدداً كبيراً من رجال الأعمال الفلسطينيين وجدوا بيئة مناسبة للتجارة والعمل هناك، ونحو ٢٥٪ من هؤلاء يعمل فى قطاع الخدمات و٢٥٪ آخرين يعملون فى مجالات الصناعة والتجارة، وهؤلاء استفادوا من دراستهم هناك وانغماسهم فى البيئة العلمية الإنجليزية فأسسوا مؤسسات صناعية وتسويقية، ويعمل نحو ٢٠٪ فى القطاع المالى والمصرفى. والملاحظة المهمة أن هؤلاء حققوا نجاحاتهم بجهود فردية بعيداً عن دعم الجالية، وبرغم أن هؤلاء لا يعانون مشكلات ثقافية أو اجتماعية مع المجتمع الإنجليزى، فإنهم لم يتمكنوا من الاندماج وتكوين علاقات مستقرة فى أوطانهم البديلة، وعلى العكس من ذلك، انصهر أغلب الفلسطينيين فى المجتمع الفرنسى وأسسوا لعلاقات دائمة ومستقرة، تجعل روابطهم بالجالية الفلسطينية ضعيفة جداً، وعلى العكس من دول أوروبا، فإن روابط الجالية الفلسطينية فى الولايات المتحدة هى الأمتن مقارنة بكل دول أوروبا، ربما لأن أغلب المهاجرين إلى أمريكا هم من أصول ريفية.

■

ثلاث شخصيات بين الثقافة والسياسة

السيد أمين شلبى
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٦، ١٣٥ صفحة



يلقى هذا الكتاب أضواء على حياة وفكر ثلاثة من الشخصيات التى تركت بصمات واضحة فى مسيرة القرن المنقضى، أندريه مالرو وزير الثقافة الفرنسى فى حكومة ديجول، وهنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى الأشهر،

وفاتسلاف هافيل رئيس تشيكوسوفاكيا المعتزل، كاشفًا عن جوانب خفية فى حياتهم.

الجانب الأكثر سطوعًا وتأثيرًا فى مسيرة مالرو مثلاً، ليس كونه وزيرًا لثقافة فرنسا الديجولية، فربما كان هذا المنصب هو الذى جر عليه من الخلافات والمعارك أكثر من أى شىء آخر، وإنما مواقفه المبدئية التى دفعته إلى النضال فى صفوف الأحرار من أبناء وطنه، ومناصرته للشيوعيين برغم كونه ليس منهم، وآرائه المستقلة التى استقت دومًا مع مواقفه، والتى جعلته عصيًا على الانضواء تحت لواء أى جماعة، وقد كانت الجولات التى قام بها مالرو فى الهند الصينية واليابان وغيرها من دول جنوب شرق آسيا هى التى أثرت على حياته وتفكيره.

فقد كان تأثره بثقافات وحضارات هذه البلدان سببًا رئيسيًا فى تحقيق هذا القدر من الصفاء الروحى والسكينة، وتحديد اختياراته على نحو صحيح، وقد بدا هذا التأثير فى كتاباته وبالأخص «إغواء الغرب» و«أصوات الصمت».

أما الرئيس التشيكى هافيل فهو مفكر ومثقف ربما أكثر من كونه سياسيًا، وهو الذى قاد ما بات يعرف بـ «الثورة المخملية»، إشارة إلى سلميتها وابتعادها عن العنف، ثم قيادته للتحول فى بلاده بدءًا من العام ١٩٨٩، دون أن يسعى لتصفية حسابات من أى نوع مع خصومه. وفيما كتبه، انطلق دائمًا - وكان شغوفًا بالمسرح على وجه الخصوص - من تجارب ذاتية وخبرات عما يعرف وما يثير قلقه واهتمامه، مستخدمًا خبرته تلك ليقول شيئًا عن الوجود بوجه عام للناس، وكانت أزمة الإنسان المعاصر حاضرة بقوة فى كل ما كتبه، خصوصًا بعد ما صار يكتب المقال بشكل منتظم، ومثلت مقالاته بوصلة للحركة السياسية والفكرية لبلاده فى سعيها نحو التطور والتخلص من أعباء إرثها الأيديولوجى السابق.

وكما يتابع المؤلف، فإن هافيل يعطى قيمة كبرى للأخلاق وحقوق الإنسان، ويعظم قيم التعايش والتضافر بين الثقافات والحضارات، ويرى أن الضمير الإنسانى وحده، قادر على إنقاذ البشرية من مصير مظلم إذا صارت فى اتجاه القوة الغاشمة.

أما هنرى كيسنجر، فربما كان الأخطر بين الشخصيات الثلاثة، إذ أنه لم يكتف بكونه منظرًا وخبيرًا سياسيًا من طراز فريد، وإنما كان صانعًا لعديد من الأحداث والتوازنات التى غيرت وجه العالم فى القرن المنقضى.

فهو الذى فتح الطريق بزيارته للصين عام ١٩٧١ نحو مصالحة تاريخية بين أكبر كتلة بشرية فى العالم وبلاده، بعد سنوات طويلة من العداء منذ مجىء الحكم الشيوعى للصين فى العام ١٩٤٩، وهو الذى توصل إلى عقد اتفاقية سلام مع فيتنام الشمالية عام ١٩٧٣، وبرحلاته المكوكية، كان صاحب تأثير كبير فى عقد معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل فى أعقاب حرب ١٩٧٣.

هنرى كيسنجر من أتباع منهج الواقعية السياسية، والتى لا تضع اعتبارًا كبيرًا للأخلاق فى الممارسة السياسية، وربما كان هذا أهم ملمح يفسر مواقفه واختياراته التى يشير المؤلف إلى العديد منها.

■

الفينغ - شوى طاقة المكان

نانسيلى وايدرا
ترجمة: رفيقة العبدالله
مراجعة: فاطمة أمين
سوريا: دار الطليعة الجديدة، ٢٠٠٥، ٢٧٧ صفحة



يوضح فن الفينغ - شوى معنى الحوار، هذا الحوار اليومى بيننا وبين الأماكن التى نسكن أو نعمل فيها. كما أنه يبين بأن أسلوب البناء والديكور الداخلى شيئان مرتبطان بعلم الجمال، ولذا يركز فن الفينغ - شوى على مسألة إدراك الإنسان للوسط المحيط به. إن تناغم الإنسان فى الوسط الذى يحيا ضمنه، يجعل الحياة أكثر فرحًا وسعادة؛ وهو شرط أساسى من شروط الفينغ - شوى.

يمكن أن تكونوا قد سمعتم بهذا الفن، ويمكن أن تكونوا قد اطلعتم على عشرات المقالات فى الصحف التى كتبت عن هذا الفن، ولكن لا يوجد للآن لديكم صورة واضحة حول كيفية تطبيقه فى الظروف المحيطة بكم، وكيف تسخرونه لصالحكم وصالح الناس المقربين منكم.

فإذا كان هذا الفن يستدعى اهتمامكم فإن هذا الكتاب مخصص لكم، للوصول إلى أفضل تناغم بينكم وبين محيطكم، ولتحسين طاقة بيتكم ومكتبكم.

ويمكن استخدام كتاب الفينغ - شوى كموسوعة مرجعية تسترشدون به، من أجل اختيار الحل الأفضل لتنظيم منزلكم أو مكتبكم الذى تعملون فيه، وسوف تلاحظون لاحقًا بأن تصحيح وتبديل الظروف السيئة المحيطة بكم، هى عملية بسيطة وزهيدة الثمن.

الفينغ - شوى إلى جانب كونه مجموعة من العادات والطقوس التى عمرها أكثر من ستة آلاف عام فهو منظومة هامة وضرورية للتجربة الإنسانية، وأهميته تضاهى أهمية الجمع والطرح فى الحسابات الرياضية.

■

دروب المنفى.. الوطن فى الذاكرة

فيصل حورانى
فلسطين: رام الله، شمل - مركز اللاجئين والشتات الفلسطينى، ٢٠٠٤، ٢٥٧صفحة



هذا الكتاب هو المجلد الأول من خماسية «دروب المنفى»، شهادات فيصل حورانى التى رسمت بلغة الأدب بانوراما الحياة الفلسطينية من أواخر ثلاثينيات القرن العشرين حتى أواخر سبعينياته.

وقد صدر هذا المجلد أول مرة فى العام ١٩٩٤، فى طبعة حصر توزيعها فى بلد الناشر فلم يقدر له أن يصل إلى جمهور القراء الواسع.

يجدر التنويه بأن هذا المجلد تبعه أربعة مجلدات هى «الصعود إلى الصفر» و«زمن الأسئلة» و«الجرى إلى الهزيمة» و«أين بقية الحكاية»، وقد نشرت جميعها تباعًا بين ١٩٩٦ و٢٠٠٣ فى عمان ورام الله وبيروت.

■

صفحة جديدة

تحرير: سيد محمود
القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠٦، ٢٠٦ صفحات



يضم الكتاب حصيلة اللقاء الإبداعى السنوى الذى تنظمه مؤسسة المورد الثقافى والذى عقد بالقاهرة فى يوليو ٢٠٠٤، واستهدف أدباء شبانًا تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٣٠ سنة، تلاقت أفكارهم الإبداعية والنقدية على مدى أيام اللقاء الذى قاده وأشرف عليه الشاعر الليبى خالد المطاوع والروائية المصرية سحر الموجى والروائى السورى خليل صويلح، بهدف الأخذ بين مواهب جديدة لديها ميل للكتابة الأدبية لكنها تحتاج إلى من يرشدها إلى بداية الطريق.

تناول اللقاء ثلاثة موضوعات أساسية هى: الشخصى والعام فى الكتابة الأدبية والمكانة كموضوع أدبى، وحرفية الكتابة الأدبية، وشارك فيه ١٦ أديبًا وأديبة من ستة بلاد عربية، وإلى جانب الأوراق والملخصات التى يضمها الكتاب عن اللقاء، فإنه يتضمن نصوصًا إبداعية للمشاركين.

■

نقد ملكة الحكم

إمانويل كَنْت
ترجمة: غانم هنا
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٥، ٤٧٨ صفحة



بإمكانك أن تكون مع كَنْت أو أن تكون ضده ولكنك لا تستطيع أن تتفلسف بدونه، ومهما يكن، فهذا الكتاب أو النقد الثالث هو بمثابة حجر الغلق فى المنظومة الفلسفية الكنتية. إنه يثير القضايا التى بقيت موضوع ملكة العقل الثالثة: ملكة الحكم، وذلك بعد أن تأسست المعرفة النظرية بالطبيعة (نقد العقل المحض) وأقيم يقين الفعل الأخلاقى (نقد العقل العملى). ولهذه الملكة مبدأ قبلى، هو الاستقلالية الذاتية، ولها حقول أيضًا، ليست موضوع النقدين السابقين واعتبرت فى الماضى خارج تأثير الفلسفة، لكنها فى صلب اهتمام النقد الترانسندنتالى:

الجميل والسامى، الشعور باللذة والألم، الرغبة والغائية، بصفتها نتاج الفعل الإنسانى، أكانت فنًا أو غاية أو إيمانًا. من هنا كان لابد من البحث فى الفنون والعبقرية واللذة والبراهين عن وجود الله.. فجاء هذا النقد كحلقة بين فلسفة الطبيعة وفلسفة الحرية، تتوق فيه صفة فلسفة كَنْت الرئيسية، أى مدنيتها.

■

خدعة الديون

إريك توسان - داميان ميبه
ترجمة: مختار بن حفصة
مراجعة: رندة بعث
سوريا: دار الطليعة الجديدة، ٢٠٠٥، ٢٥٢ صفحة



.. ألا يخشى أن تقع البلدان مجددًا، وقد تحررت من دينها الخارجى، فى فخ مديونية لا تحتمل؟ ألن تستفيد الأنظمة الديكتاتورية والفاسدة من رمق آخر بفضل إلغاء الديون؟

ألن يتحمل دافعو الضرائب فى بلدان الشمال مصاريف الإلغاء؟ يظهر الكتابان أن إلغاء الدين شرط ضرورى ولكنه غير كاف، إذ يجب أن يكون مصاحبًا بإجراءات أخرى مثل استرجاع الخيرات التى جرى

الاستيلاء عليها بصورة غير مشروعة. والتنازل عنها لصالح الشعوب التى سلبت منها. ويقترحان دروبا بديلة للتمويل سواء على الصعيد المحلى أو الدولى. كما يثيران أيضا السؤال التالى: من الدائن ومن المدين؟ ويساندان مطلب الإصلاحات الذى قدمته الحركات الاجتماعية فى الجنوب.

عبر خمسين سؤالاً وخمسين جواباً. يشرح هذا الكتاب على نحو بسيط ودقيق كيف ولماذا وصلنا إلى مأزق الدين. ويشير بوضوح عن طريق رسوم بيانية وخرائط وجداول إلى مسئولية حماة الليبرالية الجديدة والمؤسسات المالية الدولية والبلدان المصنعة. لكنه يبرز كذلك مسئولية حكام الجنوب.

إنه كتاب يفصل دور مختلف الفاعلين والدوامة التى وضعت فيها البلدان النامية. والسيناريوهات الممكنة للخروج من المأزق. وبدائل المديونية.. ويعرض مختلف الحجج الأخلاقية والسياسية والاقتصادية والقانونية والبيئية التى يرتكز عليها مطلب الإلغاء التام وغير المشروط للدين الخارجى العام للبلدان النامية.

■

مرايا الهوية

الأدب المسكون بالفلسفة
جان ـ فرانسوا ماركيه
ترجمة: أ. كميل داغر
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٥،
٤٦٢ صفحة



فى بحثه عن مرآة لهويته المتشظية، يحاول الإنسان أن يجد انعكاس ذاته فى اللغة وفى شكلين أساسيين من أشكالها: الفلسفة والأدب. على أن الفلسفة والأدب يبقى كل منهما مسكوناً بالآخر عندما يكون فى أرقى تجلياته.

فى هذا الكتاب سبرٌ عميقٌ للنص الفلسفى والأدبى يقوم على حس مرهف بالجمال وبالإبداع وعلى عمق كبير من التحليل. ويتضمن قدرة واسعة على تفكيك صور الذات المنعكسة فى الأدب والفلسفة وعلى إعادة بنائها وعلى الربط والمقارنة بينها من خلال التعابير وأنسجة الرموز التى تحملها.

ولقد جعل هذا من الأدب والفلسفة وجهاً وقفا للكلام.. كما جعل من «المرآة» التى نرى الذات فيها مرآة شفافة ومركبة فى آن واحد: إن النظر فيها بحثاً عن الذات، يتطلب تنويع الزوايا، بدءاً بتنويع المعارف والمقاربات.

■

ذيل خطط المقريزى

عبدالحميد بك نافع
تحقيق: خالد عزب ـ محمد السيد حمدى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٦،
٢٣٨صفحة



يعتبر المقريزى عمدة مؤرخى الخطط، ورائعته «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» المعروفة بالخطط المقريزية هى أشهر كتب الخطط، ولذا حظى باهتمام كبير من المستشرقين والباحثين، وإليه ينسب هذا الكتاب.

وقد كانت القاهرة دائما مادة خصبة للتأليف والإبداع، وحظيت باهتمام كبير من المؤرخين المصريين وغير المصريين، وبينهم مؤلف الكتاب وهو من كبار أثرياء القاهرة.

وكان مولعاً باقتناء الكتب وشرائها مهما كانت أثمانها، حتى صارت خزائن كتبه مضرباً للأمثال.

كما اشتغل بالموسيقى وأتقن العزف على آلة القانون وألف فى الموسيقى رسالة، وأكثر أيضاً من المطالعة فى كتب الأدب ودواوين الشعر حتى صارت له ملكة أدبية يعتد بها، وقد ترك إلى جانب كتابه هذا ورسالته فى الموسيقى كتاباً بعنوان: «أعيان القرن الثالث عشر وبعض الثانى عشر»، وقد توفى شاباً فى عهد محمد سعيد باشا أواسط القرن التاسع عشر.

وقد قسم المؤلف كتابه إلى عدة فصول، يدور الأول منها حول القاهرة وأجناس أهلها ودياناتهم، والثانى حول ما بها من شوارع ودروب وحارات، والثالث عن الجوامع والمساجد والزوايا والتكايا والأضرحة والأسبلة.

ويتناول الرابع مدارس القاهرة ومستشفياتها ومصانعها، ويختص الخامس بالورش الحرفية، والسادس بدور القاهرة العظيمة المسماة بالسرايات والقصور، ويعدد الفصل السابع متنزهاتها وبركها وغيطانها.

ويركز المؤلف على النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى، التاسع عشر الميلادى، أو ما اصطلح على تسميته بعصر النهضة فى مصر، والذى بدأ مع محمد على باشا وبلغ ذروته فى عهد الخديو إسماعيل، وهى النهضة التى انعكست آثارها على مدينة القاهرة فتطورت خططها وأحياؤها. وهو ما أفاض المؤلف فى ذكره كاشفاً عن بعض المعلومات الجديدة التى تخص قصوراً وبنايات نسبها البعض إلى ولاة وأعاد هو نسبها إلى ولاة آخرين.

■

مقـــــــدمـــات

الدبلوماسية فى زمن الهيمنة الأمريكية

محمد عبدالهادى
القاهرة ـ نهضة مصر ـ ٢٠٠٦



يشيع فى السياسة والعلاقات الدولية استخدام مصطلحات ومفاهيم وتعبيرات وأدوات بعضها موجود منذ زمن بعيد، ومنها ما ارتبط بالتطورات والأحداث التاريخية. لكن قسماً كبيراً منها نتاج الحربين العالميتين الأولى والثانية، وانهيار الاتحاد السوفيتى والذى انهارت معه موازين القوى. وقيم أخلاقية حيث تشيع فى عصر العولمة الأمريكية دولياً والهيمنة الإسرائيلية إقليمياً ممارسات غير أخلاقية فى السياسة والعلاقات الدولية ابتعدت بالدبلوماسية كثيراً عن قيم العدالة واحترام القانون.

وقد شهدت أدوات الدبلوماسية ـ فى السنوات الأخيرة أيضا ـ تطوراً ملحوظاً، وظهرت فى ممارستها مجموعة من المفاهيم. يبدو بعضها طريفاً وبعضها يثير الاشمئزاز ـ تدخل فى صلب العمل السياسى على مستوى التخطيط والتنفيذ فقد كانت استخدامات الكذب مثلاً فى السياسة هى: المراوغة والتهرب من الاستحقاقات. أما الآن فقد بات الكذب أداة أو مظلة وسياسة لشن عدوان واحتلال بلدان، مثلما فى حالة العراق.

أصبح الكذب إذن أداة من أدوات السياسة الخارجية لدول كبرى، وارتبط به قلب الحقيقة، ولعل أشهر الأكاذيب فى التاريخ الحديث كذبة الصهيونية: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» التى أسست لقيام دولة إسرائيل، وفى التاريخ المعاصر كذبة الولايات المتحدة «حيازة العراق أسلحة دمار شامل» التى أسست لشن عدوان غير شرعى على العراق. فقد أصبحت ممارسة الكذب شائعة فى السياسة والعلاقات الدولية بدرجة غير مسبوقة، فيما بات الاعتذار فريضة غائبة.

وبسبب اختلال موازين القوى شاعت مصطلحات ومفاهيم فى السياسة الدولية مثل: الإهانة والإذلال، وأنتجت النظم الديكتاتورية والقمعية الجرائم الدولية.

ولدواعى التبرير والتنصل من مواقف وسياسات، عرف العالم ـ على نحو واسع ـ اتهامات وسائل الإعلام بالتدليس، والقائمين بأعمال الترجمة بالتحريف، كما صكت هذه الدواعى مصطلح «زلة اللسان» فى السياسة الدولية، وتقدمت إلى المواجهة ممارسات فساد ولصوصية تورطت فيها دول ومؤسسات، وشاعت لذلك اتهامات بسرقة ثروات الشعوب سواء من جانب رؤساء أو منظمات دولية.

وبينما تزخر السياسة الدولية بالعديد من التعبيرات التى تعكس مضامين أخلاقية مثل «رد الجميل» أو نكرانه، و«الاعتراف بالخطأ»، إلا أنه قد دخلت إليها تعبيرات تعكس تردياً فى السياسة وموازين القوى والأخلاق واللغة مثل «الحلاقة»، و«التوسل» أو بلطجة مثل «قطع الأصابع»، و«تشويه السمعة»، و«التحريض على الاغتيال» أو لتصفية حسابات سياسية مثل «النبش فى الماضى»، و«الطعن فى الظهر».

وبرغم أن مفهوم «التسامح» بات الأكثر شيوعاً فى إطار الناشئ حول حوار الثقافات والحضارات: إلا أنه الأقل استخداماً وممارسة. أما مفهوم «الاعتذار» عن الأخطاء فقد بات نادراً ندرة اعتذار الحكومات العربية عن أخطائها لشعوبها. وارتبط الاعتذار بموازين القوى، فالولايات المتحدة ـ على سبيل المثال ـ لا تعتذر إلا فى حالات شديدة الندرة.

ووضع التطور التكنولوجى بصمته على السياسة والعلاقات الدولية: فأصبح هناك منا يعرف الآن بـ «دبلوماسية الهاتف»، واستخدام التسجيلات ـ صوتاً، وصورة وصوتاً (فيديو) ـ على نطاق واسع لإرسال رسائل سياسية. كما ساهمت مظاهر سيادة الدولة فى ظهور مصطلحات مثل «تأشيرة الدخول» التى باتت بدوها ـ منحاً أو منعاً ـ أداة من أدوات السياسة الخارجية للتعبير عن موقف ـ فى الغالب ـ سلبى، تجاه دولة أو شخص.

ومن أكثر التعبيرات والمصطلحات طرافة فى السياسة الدولية والتى باتت تستخدم على نطاق واسع ما يعرف بـ «دبلوماسية الشفايف» أو القبلات، والتى استخدمها مسئولون فى دول كبرى للاستعاضة بها عن الكلام: للدلالة على العلاقات الحميمة أو باستخدامها كمنشط دبلوماسى ولتليين المواقف.

وقد حاولت من خلال عملى محرراً للشئون الدبلوماسية بجريدة الأهرام رصد هذه المفاهيم والأدوات والمصطلحات والممارسات، وجمع العديد من النماذج الدالة التى تعكس ممارسات فى العلاقات والسياسة الدولية، تبدو صادمة من بلوغ تلك العلاقات والممارسات السياسية مستوى غير مسبوق من التواضع من استخدام الدبلوماسية أدوات غير معقولة، والاستخفاف بين أطرافها. كما تعكس فى نفس الوقت المستوى الذى بلغته تلك العلاقات فى ظل نظام دولى أحادى القطبية يسمى بعصر الهيمنة الأمريكية.

محمد عبدالهادى

نجمة ماركيز

عبدالإله عبدالقادر

القاهرة: دار العين. ٢٠٠٦. ١٢١ صفحة



مجموعة من النصوص القصصية لا يغيب عنها النفس الشعرى بإيجازه ورمزيته وإيحاءاته المكثفة خصوصاً النصوص الأولى: رحيل، طلاق، حب، البلبل مات، هى الشيطان، رثاء. وهى إلى كونها بالغة القصر، عميقة الدلالات وبعضها ذا نزعة فلسفية، يأتى مثلاً «البلبل مات» على هذا النحو: مات البلبل فى قفصه/ كان الأب قد نشر مقالاً عن الحرية تزامن مع موت البلبل/ حزن الولد لموت البلبل/ قرأ مقال والده/ دفن البلبل فى حديقة المنزل/ ومسح دموعه/ قال لأبيه: لماذا تكتب عن الحرية؟

وترسم لنا «العار» صورة للمأساة التى عانتها آلاف العذراوات من العراقيات اللاتى ألقى بهن فى غياهب السجون واعتدى عليهن واغتصبن وواجهن الاختيار الصعب بين الموت والعار، فاخترن الموت وبقى السجانون ينعمون بحياتهم، أما من بقى منهم محتفظاً بقدر ضئيل من ضمير فقد استسلم للجنون أو الانتحار كما جرى لسجان بطلة قصتنا «صوت المغنى» تدور أيضاً فى زنزانة بالعراق، وضعوا بها مغنياً لا يعرف أحد تهمته، كان يصدح من داخل زنزانته بأغانى التراث والفلكلور، لكنه فجأة انقطع عن الغناء وغاب صوته «منذ تلك اللحظة لم أسمع بأخبار خالد ابن الرافدين، الإشاعة التى عبرت جدران الزنازين أنهم قتلوه، وأطعموا لحمه لتماسيح القصر الجمهورى، إلا أن صدى صوته وهو يؤذن، بقينا نسمعه كل فجر فى انتظار الفجر الآتى».

مداخلات حول الحقوق الجماعية والدولة القومية

تحرير: د. أمل جمال

حيفا: مدى الكرمل ـ المركز العربى للدراسات الاجتماعية التطبيقية، ٢٠٠٥، ٢٠٣ صفحات



أدى الاهتمام المتزايد بالاختلافات الثقافية والاثنية واللغوية والقومية، فى أواخر القرن العشرين، إلى تحولات مهمة فى النظرية السياسية، وفرض عليها أجندة فكرية جديدة، منذ الستينيات، أخذت بالظهور فى الدول الغربية بوادر لتجديد الحديث عن الحاجة إلى الاهتمام بالحقوق الجماعية كمنظومة فكرية، بغية مواجهة الصراعات السياسية والقانونية القائمة، والتى يعود منبعها إلى الاعتراف بالاختلاف فى الانتماءات القومية والثقافية واللغوية فى العديد من الدول الغربية.

يأتى هذا الكتاب للإسهام فى النقاش القائم حول مسألة الحقوق الجماعية فى النظرية السياسية، وهو من البواكير فى السياق الإسرائيلى. ويتميز بكونه الأول من نوعه الذى يطرق أصلانية الفلسطينيين فى إسرائيل، كمحور مركزى فى نضالهم السياسى لإحقاق حقوقهم فى الدولة التى طالما أجحفت فى حقهم، وهمشت دورهم، وتغاضت عن كينونتهم.

ويخلص إلى أن ثمة حاجة ماسة ومصداقية تامة لشرعنة الحقوق الجماعية للأقلية الفلسطينية، كأقلية قومية وأصلانية، منتقداً الخطاب الليبرالى الصهيونى الذى اختزل حقوق الأقلية فى مستوياتها الفردية والطائفية فقط.

دوريـات

العـــربى

الكويت. وزارة الإعلام

عـدد ابريل ٢٠٠٦



يحاور الدكتور سليمان العسكرى الشيخ ناصر صباح الأحمد وزير الديوان الأميرى الكويتى فى مواجهة العدد كاشفا عن الجوانب الثقافية ـ إلى جانب السياسة ـ فى شخصيته.

وتحت عنوان همزة الوصل الجميلة تكتب الشاعرة سعدية مفرح عن جبران خليل جبران.

وفى الملفات يكتب محمد حافظ دياب عن تأثير جماعة السان سيمونيه على المشروع النهضوى لمحمد على، ويكتب الدكتور حامد عمار عن العرب والثقافة العلمية وعبدالله التركمانى عن حاجة العرب إلى التحديث السياسى. أما الاستطلاع فعن الجزائر. وفى الأدب ابداعات شعرية وقصصية ومقال للدكتور جابر عصفور، ودراسات فى الفن التشكيلى والخط العربى.

المحيـــــط

القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة



يتابع عدد مارس ملف الأحزاب والانتخابات عبر دراسات عن أداء أحزاب المعارضة والإخوان المسلمين فى الانتخابات البرلمانية الأخيرة وموقف الشارع المصرى منها، وعن حرية التعبير يكتب رئيس التحرير فتحى عبد الفتاح بمناسبة ما أثير حول الرسوم الكاريكاتيرية التى نشرت فى عدة صحف أوروبية وتضمنت إساءة إلى الرسول الكريم.

بالعدد أيضا متابعات للأحداث الثقافية فى مصر والوطن العربى وجولات فى المعارض التشكيلية التى أقيمت على مدار الشهر، ومقالات نقدية فى المسرح والسينما والدراما التليفزيونية، واحتفاء خاص بإعادة عرض أهلا يابكوات للينين الرملى على المسرح القومى، إضافة إلى متابعات نقدية لأعمال قصصية وروائية صدرت حديثا ونصوص شعرية وقصصية وتنويهات عن إصدارات حديثة.

حوليات القدس

القدس : مؤسسة الدراسات المقدسية



تعنى هذه الدورية بتاريخ وثقافة مدينة القدس .

وفى العدد دراسة لبيتر لاجركويست وهو باحث مقيم بإسرائيل وفلسطين عن جدار الفصل العنصرى الإسرائيلى والأهداف التى يتوخاها منه شارون.

يكتب أيضا واصف جوهرية عن القدس فى أعقاب صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ ، ويقدم زكريا محمد دراسة فى نص الجغرافى المقدسى «أحسن التقاسيم فى معرفة فلسطين» وهو نص يثبت أن الهوية الفلسطينية كانت قائمة قبل ١٠٠٠ سنة. بالعدد أيضا دراسة لوليد الخالدى عن المكتبة الخالدية فى القدس ، وأخرى عن البلدة القديمة فى القدس لسامى خضر ونجوى رزق ، ويكتب يوسف سعيد النتشة «ذكرياتى مع مجمع خاصكى سلطان المعمارى» ، ورووشيل ديفيس «روايات الفلاحين لتاريخ وقرى نابلس» .

عراجـــــين

أوراق فى الثقافة الليبية



يطمح هذا الإصدار الفكرى الإبداعى المستقل أن يساهم فى تأسيس فضاء للتنوع والاختلاف والتعدد وتعميق ثقافة الحوار والتفكير النقدى بين المبدعين الليبيين على وجه الخصوص . وينقب عن هذه المعانى عبر دراسات فى الفن التشكيلى والشعر والرواية وحوارات ذات طابع فكرى ، وتحت عنوان بصائر التشكيل يحلل خليفة الفاخرى لوحات محمود الحاسى ، وفى الدراسات تكتب آمال سليمان عن القبيلة والقبلية كبديل للمجتمع المدنى. ويكتب محمد المفتى عن جذور الدولة الوطنية فى ليبيا ، أما الملف فهو عن الجامعة الليبية.

بالإضافة إلى نصوص شعرية وقصصية لمبدعين ليبيين من أجيال مختلفة ومراجعات لكتب صدرت حديثا وحوار مع الشاعر الأمريكى الليبى الأصل خالد مطاوع محوره العيش فى ثقافتين مختلفتين .

المـاركيـــــزدى ســـــاد

«ب س ٢٥ ب ٢٢»، تلك علامة الرف الموجودة على قصة «جوليت» فى المكتبة البريطانية، وهى رواية بقلم الماركيزدى ساد. وتشير علامة الرف إلى أن الكتاب ينتمى إلى فئة خاصة، فعندما تطلب الكتاب، فلن يسمح لك أن تجلس وتقرأه حيثما شئت، لكن سوف يعين لك مقعد خاص تحت أعين موظفى المكتبة. ومن الواضح أن ذلك يعنى أن الكتاب الذى تمسك به كتاب مادته خطرة!

وعندما تضع المكتبة البريطانية كتب الماركيزدى ساد فى فئة خاصة، فإن ذلك يشكل تقليدا دائما استمر أكثر من مائة سنة يستبعد مؤلفاته على أنها من الأدب المكشوف أو الإباحى، ولم تكن المكتبة البريطانية فريدة فى ذلك الموقف، بل إن دائرة المعارف البريطانية، طبعة عام ١٩١١ م، بدأت بتدوينة قصيرة تصفه فيها بأنه «كاتب فرنسى اباحى». ومع ذلك فقد أشادت شخصيات أدبية عظيمة، وفلاسفة، وباحثون من أوروبا وغير أوروبا بأهمية الماركيزدى ساد كمفكر متحرر، بل وأخلاقى فما هى الحقيقة بشأن الماركيزدى ساد؟.

بهذه المقدمة بدأ كل من ستوارت هود وجراهام كردى، هذا الكتاب «الماركيزدى ساد». ينحدر دونتيان ألفونس . فانسوا، ماركيزدى ساد من نبالة برفانسيه فى العصور الوسطى من أصول إيطالية.

لم يستمر تعليم «ساد» الرسمى أكثر من أربع سنوات، وكان فى ليسيه «لويس لوجراند» الأرستقراطية فى باريس التى كان يديرها اليسوعيون، فقد تلقى فى هذا المعهد أساسا تقليديا فى الآداب الكلاسيكية. وكان اليسوعيون مجددين فى التربية والتعليم فقاموا بتشجيع التجارب المسرحية ولقد استمر تعاطف دى ساد مع المسرح طوال حياته.

فى سن الرابعة عشرة التحق «دى ساد» بمدرسة لتدريب الفرسان هى مدرسه حصان الملك الأبيض، ولما كان من طبقة النبلاء، وقد أصبح تلقائيا ملازما ثانيا وشاهد الخدمة الفعالة فى الأرض المنخفضة إبان حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣)، قضى «دى ساد» سبعة عشر عاما فى الجيش انتهت بأن أصبح نقيبا فى سلاح الفرسان وقائدا لعسكر فى عام ١٧٦٤.

لقد كتب دى ساد إلى زوجته رينيه عام ١٧٨٣ يصف نفسه بأنه: . متعجرف، ومندفع بتهور، سريع الغضب، متطرف فى كل شىء، مع ثراء متمرد من الخيال حول السلوك البشرى لم تشهد له الحياة مثيلا، وقد تجدينى باختصار شيئا زائدا، فإما أن تقتلينى أو تأخذينى كما أنا، لأننى لن أتغيرا.

الماركيزدى ساد
تأليف: ستوارت هود وجراهام كر ولى
ترجمه: إمام عبد الفتاح إمام
الناشر: المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٥م

كما بدأ دى ساد أيضاً فى كتابة الرواية، وعنده أن الرواية هى أى عمل للخيال يصاغ من مغامرات غير مألوفة يعبر عنها الرجال فى مجرى حياتهم.



«الرذيلة والهوى» هما بلا شك، غذاء «دى ساد» الروائى، وما اسماه «بالطبيعة»، حتى ولو كان غريبا عما صوره الأخلاقيون لنا . فى عام ١٧٨٤ أغلق حصن «فينسن» ونقل «دى ساد» إلى سجن الباستيل الشهير فى باريس.

كان دى ساد فى السنوات الخمس التى قضاها فى الباستيل يكتب بسرعة جنونية، وعندما وضع عام ١٧٨٨ قائمة بمؤلفاته فقد ضمت حوالى خمسة عشر مجلداً من قطع الثمن OCTAVO «من ورق الطباعة». ولا يشمل ذلك المؤلفات التى كان يخفيها من حراس السجن لاسيما كتابه «١٢٠ يوماً فى سادوم» وهو التحفة التى عرفها بأنها «خيال مستهتر لم ير له مثيلاً من قبل». ولما كان معرضاً لأن يخنق فى إحدى الجولات التفتيشية الروتينية فقد صنع نسخة من قطع رقيقة من الورق عرضها ما بين عشرة واثنى عشر سنتيمتراً ألصقها بعضاً إلى بعض لتشكل لفافة طولها أكثر من ١٢ متراً. واستغرق هذا العمل منه ٣٧ يوماً لإعداد مثل هذه النسخة كتبت بيد ميكروسكوبية على جانبى اللفافة.

عندما وقعت أضطرابات الثورة فى باريس عام ١٧٨٩م، ووصلت إلى الشوارع حول سجن الباستيل ازداد حرس الأمن، وضعت التمرينات الرياضية على المساجين. وفى لحظة غضب جنونية صاح «دى ساد» على الجماهير خارج السجن من خلال بوق مضخم للصوت صنعه سريعاً من صفيح مواسير الصرف الصحى التى تستخدم لمياه المجارى فى زنزانته، وجده فى خندق مائى أسفل الزنزانة.

وكانت هذه بمثابة القشة الأخيرة فى قيادة الوحدة العسكرية فى سجن الباستيل، قبض على «دى ساد» فى عتمة الليل، ونقل إلى مصحة «شارنتون» للأمراض العقلية التى كانت تستخدمها الأسر الأرستقراطية ليحجز فيها أشخاص سلوكهم مضطرب اجتماعياً مع حالات أصيلة من الجنون، ولم يسمح له أن يأخذ معه شيئاً، لا كتبه ولا مخطوطاته. عندما هجمت جموع الناس كالعاصفة على الباستيل فى ١٤ يوليو ١٧٨٩م قتلوا قائد الحامية العسكرية، وقطعوا رأسه، ومشوا بها فى موكب فى شوارع باريس. فضلاً عن أنهم نهبوا المكان. حتى أن حاجات «دى ساد» الخاصة نهبت، فقد تأخرت زوجته فى جمعها نظراً للمضايقات والاضطرابات العنيفة. وعندما سمع الأنباء وتحقق من أن أعماله لاسيما «١٢٠ يوماً فى سادوم» قد دمرت «بكى دموعاً من الدم» لكن بقيت لفافة الورق بطريقة ما وعثر عليها بعد ذلك فى زنزانته. ونشرت أخيراً فى عام ١٩٠٤ بواسطة طبيب نفسى فى برلين هو «ايفان بلوخ» تحت اسم مستعار هو «بوجين درم».

رواية «١٢٠ يوماً» هى فن أدبى قوطى ظهر فى البداية فى انجلترا فى حياة «دى ساد» وكان مؤثراً للغاية فى فرنسا وألمانيا. ولقد أعطانا هذا الفن بعد ذلك «فرانكشتين» عام ١٨١٨، و «دراكولا» عام ١٨٩٧م، وقصص «أدجار ألان جو» الفظيعة التى كتبها فى أربعينيات القرن التاسع عشر «١٨٤٠»، وقد نشر عدد كبير منها بعد ذلك تحت عنوان «حكايات من الأسرار الغامضة والخيال» وانحدرت عنه حديثاً أفلام الرعب. ولقد امتدحت الحركة السيريالية بإعجاب شديد فى عام ١٩٢٠ الرواية القوطية وأعمال الماركيز دى ساد بصفة خاصة.

أيمكن أن يحكم على كتاب «١٢٠ يوماً» بأنه مجرد عمل من أعمال الخيال؟ أن أوصاف دى ساد المتطرفة يبررها أول ناشر لكتبه الطبيب العقلى الألمانى «ايفان بلوخ» على أسس من الأهمية العلمية لدى الأطباء، والمحللين، والأنثروبولوجيين، وهو كتاب يوضع فى مصاف كتاب «كرافت اينيج».

خرج دى ساد من حصن شارنتون يوم الجمعة الحزينة ٢ أبريل ١٧٩٠م. ولقد قررت الجمعية الوطنية الجديدة أن جميع المسجونين الذين قبض عليهم بأمر ملكى يفرج عنهم ما لم يكونوا قد حكم عليهم بالموت أو كانوا مجانين.

فى ١٥ نوفمبر ١٧٩٣ ترأس «دى ساد» وفداً إلى المؤتمر القومى لقراءة عريضة أو التماس يقترح إلغاء العبادة المسيحية فى الكنائس وإحلال عبادة العقل والفضيلة محلها. قال فيه «إن الطغيان والخرافة الدينية ترعرعتا فى مهد واحد، فهما معاً بنتان للتعصب وهما معاً استفاد منهما مخلوقات لاغناء فيها تسمى قسيس المعبد، والملك الجالس على العرش. ولما كان لهما أساس واحد فكان لابد لكل منهما أن يحمى الآخر».

لقد كانت نهاية حياة الماركيز دى ساد مأسوية. حيث أنحدر إلى أعمال تافهة مثل ملقن فى مسرح فرساى. وابتهج قليلاً عندما دبت الحياة فى إحدى مسرحياته. ولعب فيها دورا رئيسياً . وانتهت حياته فى مستشفى فرساى العام. حيث مات فى يوم كان الجو بارداً لدرجة أن الحبر تجمد فى المحبرة.

لقد كان الماركيز دى ساد الشخصية الملهمة الكامنة فى الظل خلف كثير من المذاهب الفرنسية فى القرن التاسع عشر كالرومانسية والمذهب الطبيعى.

فيكتور هوجو (١٨٠٢ ـ ١٨٨٥)، والكسندر ديماس (١٨٠٢ . ١٨٨٧) أطلق عليهما اسم «أقرباء دى ساد الذى ألقى بكسرات من فحشه فى إنتاجهما». لوحات يوجين دى لا كروا (١٧٩٨ . ١٨٦٣). وولعها بالمذبحة. هى تراث دى ساد . ولقد وصف جوستان فلوبير «١٨٢١ . ١٨٨٠» بأنه عقل يسكنه دى ساد. الذى كان يعجب به بشدة.

يمتد الماركيز دى ساد إلى «السيرياليه» من خلال سلسلة من مؤلفى القرن التاسع عشر من أمثال، الكونت لوتر مون. وأرتر ريمبو، وفردريك نيتشه، وألفرد جارى وغيرهم. واقترنت فى نهاية القرن بالاهتمام بالطب العقلى. وظهور التحليل النفسى عند فرويد . ويمثل الفن السيريالى والكتابة السيريالية تياراً قوياً من الحداثة الذى يريد أن يصل إلى أعماق اللاشعور ويبرز إلى السطح صوراً تقبل بلا تردد مهما كانت غرابتها والصدمة التى تحدث، ولقد كتب أندريه بريتون «١٨٩٦ . ١٩٦٦» فى البيان السريالى الثانى لعام ١٩٣٠م، «كان ساد سيريالى فى ساديته»

بسول ادوارد «١٨٩٥ . ١٩٥٢» أحد الشعراء الفرنسيين وشخصية رائدة رأى فى الماركيز دى ساد شخصية ايجابية كتب يقول:-

اينبغى علينا ان ندفن ساد؟!. هذا هو عنوان كتاب عن الماركيز دى ساد عام ١٩٥٥م بقلم سيمون دى بوفوار. قبل ان تصدر المحكمة فى باريس بجمع وتدمير أربعة كتب رئيسية من كتب الماركيز دى ساد المنشورة.

فهل ينبغى ان توضع الرقابة على خيالات كتاب «١٢٠ يوماً» خوفا من دعوتها إلى التقليب؟ ام ان الحقيقة التى تحتاج إليها الموجودات البشرية هى ألا تنغمس فى اغتصاب فاحش أو تعذيب وقتل؟ ■

محمد صلاح غازى

حوارات على



محمد
حسنين
هيكل

■ قبل المجازفة بإبداء بعض الملاحظات السريعة عن موضوع صراع الحضارات. أو حوارها كما يريد بعض ذوى النوايا الطيبة أو يأملون - فإنى أريد الإشارة إلى تمهيد ملخصه أن تاريخ الفعل الإنسانى يعرف ثلاثة مسارات رئيسية:

- مسار الفكر. الثقافة. الحضارة.
- مسار الإنتاج. التراكم. الثروة.
- مسار السيطرة. الصراع. السلاح.

ومع أن هناك وصلات ظاهرة وغير ظاهرة بين المسارات الثلاثة فإنه يمكن التمييز بينها، ويمكن التركيز ولو للحظة على أحدها بالتخصيص، وذلك ما أفعله الآن.

ومن هذا المنطلق فإننى سوف أقصر ملاحظاتى هنا على المسار الأول وهو موضوع ثار الجدل حوله وطال. ولا يزال.

١. إننى قريب من مدرسة ترجح أنه ليس هناك ما يمكن أن نسميه صراع حضارات. أو حوار حضارات. والسبب أن هناك حضارة إنسانية واحدة صبت فيها شعوب وأمم وأقاليم الدنيا، على طول التاريخ أفضل ما توصلت له من رقى وتقدم.

وإذا اعتبرت - بقصد مزيد من التحديد - أن ثقافة أى مجتمع هى مجمل ما تحصل عليه - فى ظروف موقعه، وعلى مسار تاريخه، من خبرات ومعارف وفنون - فإننا بنفس المقدار نستطيع القول بأن الحضارة هى أرفع وأنفع ما وضعته ثقافات الشعوب والأمم والأقاليم فى المجمع العالمى للثقافات المتنوعة، والذى هو محيط الحضارة الإنسانية.

والذى حدث على طول التاريخ أن ما حققته المجتمعات المتعددة من ثقافات متنوعة انتقل بالاختيار المفتوح وبالطلب الحر - عندما بان نفعه وتأكدت قيمته - إلى الأقاليم المحيطة بموطنه، وهناك تفاعل مع ما وجد، ثم راح ما تجمع فى الأقاليم ينتشر - بثبوت نفعه وصلاحيته - إلى أفق أوسع وأبعد، ومرة ثانية فعل وتفاعل، ثم تحول مجمع الثقافات إلى محيط حضارى لا يحتاج إلى إلحاح أو إلى سلاح، لأن شراكة الجميع فيه، وحاجة الكل إليه، تجعله ثروة بالمشاع بينهم وادخارا لطموحاتهم عندما تحركها هممهم.

٢ - والمعنى أن المجتمعات الإنسانية - كل منها حيث هى - أنتجت ثقافة حوت مجمل خبراتها ومعارفها وفنونها، ثم إن ما كان صالحا، مقبولا، ونافعا من هذه الثقافة، انتقل منها إلى غيرها، أى من البلدان إلى الأقاليم - ومن الأقاليم إلى الدنيا المفتوحة.

وإذا حاولنا أن نبحث عن نموذج من التاريخ الطويل للإنسانية، فإن الزراعة قد تكون النموذج الأول والأوضح.

فعندما توصلت بعض المجتمعات فى الشرق الأدنى إلى تجربة ومعرفة وكشف أسرار الزراعة وأساليبها، فقد تكونت فى هذه المجتمعات ثقافة خصبة، وعندما عرفت مجتمعات أخرى شرقا وغربا - ورأت بالاتصال - وجربت واستوعبت. فإن ثقافة الزراعة أصبحت حضارة إنسانية مفتوحة، لا تحتاج إلى صراع ولا إقناع.

فحضارة الزراعة على طول العالم وعرضه، وعلى امتداد التاريخ وتدفقه، تعرفت على بناء البيت والمخزن، واستعملت الفأس والمحراث، واكتشفت الطنبور والساقية، وحفظت البذور وقوتها، وسمدت الأرض وأثرتها، وأتقنت هندسة شق القنوات، ومنها إلى وسائل رفع المياه وتخزينها من سد مأرب فى اليمن إلى سد أسوان العالى فى مصر.

٣ - وما فعلته ثقافات - وحضارة - عصر الزراعة فى البلدان والأقاليم وما وراءها تكرر فى مجالات أخرى، أولها التجارة وبعدها التفكير الحر والتعبير الخلاق بالكلمة واللون والصوت، حتى جاء أكبر المجالات وأخطرها وهو مجال الصناعة، ومجال الاتصال والمواصلات، وبه تحققت إمكانيات تكنولوجية عالمية بازغة يبرز فيها من يقدر عليها، خصوصا أولئك الذين يستطيعون الربط الخلاق بين النظرية والتطبيق. إن تلك الحركة شملت بالتوازى تنظيم الحقوق وإدارة شئون المجتمعات، حتى استقرت وترسخت فكرة وروح وحكم القانون، وتوالت عصور الانتشار الفكرى من الكلمة المطبوعة إلى الصورة المرئية، ومن السماوات المفتوحة إلى المعلومات المتاحة، وكل ذلك بالتواصل والتفاعل دون حاجة إلى إلحاح يقنع أو سلاح يفرض، طالما أن المجتمعات البشرية لديها ذلك التشوق والتسابق نحو مطالب الرقى والتقدم.

وكذلك راح تدفق الثقافات المتنوعة يفيض على المجمع الحضارى يملؤه ويحركه وينشط فعله وتفاعلاته.

٤ - وإذا جرى تشبيه هذه الحركة الإنسانية بواقع ما جرى ويجرى فى الطبيعة ذاتها، فربما أمكن القول إن الثقافات كانت بمثابة ينابيع وجداول وأنهار جرت فيها المياه وتدفقت وفاضت على جوارها الإقليمى - ثم إن هذا الجوار أخذ من هذا الفيض ما كانت مجتمعاته مستعدة لاستعماله لزيادة منافعها وتحقيق

ضفـــــاف «الحـــــوار»

من اقترب من الأستاذ هيكل مهنيا أو إنسانيا، يعرف أنه اعتاد أن يدون أفكاره وخواطره ووقائع يومه على ورق «يعود» إليه.. «فيستعيد» تفاصيل ما كان.. وأجواءه.. وحضوره.

ولعل للأفكار الواردة فى هذه الورقة ـ التى طلبنا فى «وجهات نظر» كما فى جريدة «العربى» نشرها ـ قصة ذات صلة. فقد تصادفت زيارة خاصة قام بها الأستاذ للعاصمة القطرية «الدوحة» قبل أسابيع مع انعقاد مؤتمر دولى تحت لافتة «تحالف الحضارات» شاركت فيه نخبة من الشخصيات الدولية المرموقة من بينها «كوفى عنان» الأمين العام للأمم المتحدة، و«عمرو موسى» الأمين العام للجامعة العربية، و«إحسان أوغلو» الأمين العام للمؤتمر الإسلامى، و«عبد الله غول» وزير خارجية تركيا، والقس الجنوب أفريقى والحائز على جائزة نوبل للسلام «ديزموند توتو»، و«فريديريكو مايور» الأمين العام السابق لليونسكو، ومعهم الرئيس الإيرانى السابق «محمد خاتمى» وهو صاحب مشروع فكرى يتبنى حوار الحضارات. وكان أن دعا راعى المؤتمر أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثانى الأستاذ هيكل للمشاركة فى الجلسة الافتتاحية. وكان أن جرى حوار ـ أو حوارات ـ حول فكرة المؤتمر وقضاياه. وكعادته، كانت تلك الورقة التى كتبها هيكل ـ محددا فيها فكرته ـ بقصد تبادل الرأى حول رؤية ربما بدت للبعض مختلفة فى موضوع اختزل مبكرا فى شعار صار هو الأكثر رواجا فى المنتديات الفكرية المختلفة، شمالا وجنوبا.. ونحن ندلف إلى قرن جديد.

باعتبارها «وثيقة».. وبإذن من صاحبها.. تضع «وجهات نظر» هذه الورقة أمام قرائها، وتدعو الكتاب وأصحاب الفكر لتبادل الرأى حولها.

المحـــرر

أقصى الممكن من مطالبها ـ ثم إن هذا البحر الذى تلاقى فيه الفيض الإنسانى للثقافات المحلية والإقليمية أكمل زحفه وانتشاره حتى وصل إلى المحيط المفتوح أمام كل شراع وأمام أى ملاح لديه الجسارة ومعه خريطة وبوصلة.

(وأليس صحيحا أن الجغرافيا هى أم التاريخ وحاضنته ومدرسته وكتابه ومعمله؟!).

معنى ذلك أن ينابيع الثقافات الوطنية التى تدفقت فى جداول وأفرع وأنهار، وتلاقت فى أقاليمها، وصنعت ما يمكن تسميته ببحار أو أحواض حضارية اندفعت كما تفعل البحار حين ترتفع مناسيبها وحين تجد معابرها ـ إلى المحيط الأعظم الذى يحيط بالقارات كلها، وذلك فعل طبيعى. يقول للجميع بالجغرافيا إنه عالم واحد، كما يقول للجميع بالتاريخ إنها تجربة مشتركة لا يحق لطرف أن يحتكر فضاءها، كما لا يجوز لطرف أن يتنازل عن نصيبه فيها.

(على أن ذلك لم يمنع بعض البحار أن تبقى مغلقة على نفسها، وقد تعطل بعضها ضحلا أو راكدا فى مكانه. كما أن بعضها الآخر بإتمام انغلاقه عن غيره تحول ـ مثل البحر الميت ـ إلى بؤرة مملوحة أو مرارة، معزولة فى موقعها، محكوم عليها بالانزواء والفناء).

٥ ـ وإذا أردنا دليلا على شراكة الحضارة فى مجال آخر لا يحتمل كثرة الظنون فأمامنا مجال العلم، فالعلم سياق واحد ملأته ينابيع وموارد ومصادر متعددة ـ خطوة موصولة بخطوة موصولة ـ دون علم وطنى يرتفع أو جواز سفر يسمح أو يحجز ـ بمعنى أنه ليست هناك مثلا فيزياء أو كيمياء أو فلك أو رياضيات أوروبية صرف ـ أو صينية صرف ـ أو هندية صرف ـ أو عربية إسلامية صرف، وإنما هناك علم واحد صب فيه الجميع من كل نبع ومن كل نهر ومن كل بحر حتى وصل الفيض إلى المحيط المشترك الأكبر، وهناك حافظت على عالميته وفتحتها لكل من يرغب ويستطيع ـ أدوات للاقتراب والتناول تنظمها شروط متعالية على كل الأجناس وفوق كل الأقاليم.

(أليس لافتا للنظر أن ما جرى فى حضارة الزراعة ـ وحضارة العلوم ـ وحضارة الصناعة من تأثيرات تحولت بسرعة إلى أساليب حياة كل يوم وحتى إلى مذاقها.

فعندما وضع كبير خدم اللورد ساندويتش الاسكتلندى شريحة لحم بين طبقتين من الخبز اختصارا لوقت سيده أثناء رحلة مفاجئة ـ عرف العالم كله وجبة الساندويتش، ولم يتبق للتاريخ من النبيل الاسكتلندى وكبير خدمه سوى اسمه واصلا إلى العصور الحديثة، حتى دون معرفة بأصل الحكاية.

وعندما عثر الرحالة الإيطالى ماركو بولو على عجائن المكرونة وعاد بها إلى إيطاليا، تحولت بسرعة إلى فن إيطالى ثم إلى مطبخ عالمي.

ثم تكرر نفس الشيء مع الوجبات الأمريكية المشهورة التى هى الآن أشهر طعام فى العصر الأمريكي).

٦ـ وإذا اعتمدنا هذه الصور، فنحن أمام حضارة إنسانية واحدة شاركت فى صنعها وفى فيضها وفى حركتها ثقافات متعددة المنابع والموارد والمصادر، فكلها أعطت وزودت، وكلها أضافت وزادت، وكلها أغنت وأثرت، وبالتالى فإنها من العمق إلى السطح شراكة إنسانية حقيقية وكاملة.

لكن المحاولات الإمبراطورية للاستيلاء على الحضارة الإنسانية ونسبتها إلى قوة بعينها ـ ظاهرة معروفة وليست جديدة، فمن قبل ادعت إمبراطوريات أوروبا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أنها تقوم باستعمار آسيا وأفريقيا تحملا لعبء الرجل الأبيض The white man's burden. فهذا الرجل الأبيض ـ على حد ادعاء كيبلنج ـ مكلف برسالة اقتياد للشعوب السوداء والسمراء ولو بالقيود والسلاسل من صحارى وغابات التخلف إلى شواطئ المحيط الحضارى الإنسانى الجامع.

وكان القول فى زمانه ادعاء تبشيريا يتفق مع مناخ عصره.

لكن الإمبراطورية الأمريكية عندما جاء عصرها بالغت وتجاوزت بكثير، خصوصا بعد أن تحولت إلى قوة فائقة Hyper Power غداة نشوة النصر المشهود فى الحرب الباردة.

وقد خطر لها فى هذا السياق أن مطالب السيطرة والصراع والسلاح تسمح لها بادعاء ملكية الحضارة ووراثتها على نحو قطعى ـ ونهائي.

(وليس مصادفة ـ دون أن يكون بالضرورة مؤامرة ـ أن حكاية صراع الحضارات ـ وحكاية نهاية التاريخ ـ توافق ظهورها مع الغلبة الإمبراطورية فى الحرب الباردة، دون تنبه كاف ـ عندهم كثيرا ـ وعند غيرهم أحيانا ـ إلى أن وهم القوة لا يعطى أصحابه احتكارا، ولا يسلب غيرهم حقا، فى الشراكة الإنسانية الأوسع، لأن هذه الشراكة فى الحضارة أقوى من السلاح ومن الإلحاح، حتى إذا اجتمعا معا فى

حـــوارات عـــلى ضفـــاف «الحـــوار»

مشروع إمبراطورى يملك أكبر ترسانة نووية جنبا إلى جنب مع أوسع شبكة للمعلومات «الإنترنت».

والواقع أنه عندما خرجت الإمبراطورية الأمريكية غالبة فى صراع الحرب الباردة - وكان ذلك قبل مفاجأة ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بكثير - فإنها رسمت لاستراتيجية زمانها الجديد عدة خطوط - فهي:

- تريد أن تحتفظ بتقدمها وتمنع ظهور منافس خطر عليها - كما حدث مع كل الإمبراطوريات ـ وذلك بالاستيلاء على الحضارة الإنسانية (نهاية التاريخ).

- وتريد أن تخفف من مسئوليتها تجاه الأقاليم التى تعثر فيضها وجفت منابعها، فهذه بالتخلف أصبحت عبئا على المحيط الحضاري، تريد أن تأخذ منه إلى الأبد بينما عطاؤها توقف من زمن (صراع الحضارات).

- ثم إن الإمبراطورية تريد أن تؤكد سطوتها الأبدية بإظهار تفوقها وخصوصا السلاح، وهكذا وقعت استعراضات التفرد الأمريكي فى كل الميادين ابتداء من استثناء كل أمريكي من أى مساءلة دولية مهما فعل - وإلى تميز التجارة الأمريكية فى كل الأسواق بصرف النظر عن حرية السوق - وإلى استئثار بحقوق الملكية العلمية والفنية فى كثير مما كان متاحا فى مجمع الحضارة الأكبر قبل أن تظهر الدولة الأمريكية من الأصل ـ ثم إنها لا تقبل أن تردع نفسها عن تلويث البيئة تملصا من قيود تفرض على غيرها حرصا على كوكب الأرض نفسه - كما أنها تطلب احتكار موارد الطاقة وليس مجرد النهم فى استهلاكها ـ ثم زاد أن الإمبراطورية الأمريكية تريد الآن أن تستولى بوضع اليد على الحضارة الإنسانية بأسرها لتختم طابعها على المحيط بأسره تأكيدا نهائيا وتقنينا شرعيا لتفوق أبدى (خطط المحافظين الجدد).

ـ وضمن هذه المحاولة لجأت الإمبراطورية إلى حروب رخيصة تستغل بطش الصدمة والرعب Shock &Awe فى مناطق ضعيفة ورخوة بأقل التكاليف، كى تظهر هول الجحيم الذى أعدته لمن يعصي، وكذلك تحولت أفغانستان وتحول العراق إلى ساحات دم ولهب - مأساتها أنها لا تعرف فى معظم الأحيان هدفا واضحا أو خطة إستراتيجية مدروسة (وعلى أى حال فقد جاءت النتائج الواقعة مغايرة للمطامع والغزوات).

٧ - وإذا عدت الآن إلى مقولة صراع الحضارات أو حوارها، فربما تكون النقطة الجوهرية أنه يتحتم التفرقة باستمرار بين شراكة الحضارة وبين صراعات القـــوة، فالقوة ميدان تصويب وضرب نار، والحضارة شراكة ومحيط أنوار.

اكتشـــفوا وجـــربوا
كيـــف يحـــركون مـــن
ردود الفعـــل مـــا يســـتثيره
الضعـــف ولا تـــأبه
بـــه القـــوة

وهنا فإن حقائق الحضارة تمنع الاستيلاء عليها لحساب أى طرف، كما ترفض التنازل عن الحق فيها تحت أى وصف.

٨ - يترتب على التمسك بالحق الحضارى ورفض أى استدراج إلى الإزاحة أو العزل بمقولات الصراع أو الحوار ـ لابد أن يصاحبه إدراك وتصميم يصونون هذا الحق عن التورط فى صدام أعمى أو فى جدل عقيم - وذلك وضع يشبه إلى حد ما وضع من يتمسك بحقه فى أرضه.

- إذا أراد سندا لهذا الحق بوسائل الصراع، فلابد له من القدرة تعزز الحق.

- وإذا أراد سندا لهذا الحق ببلاغة الإقناع، فإن سحر الكلمة لا يغنى عن كفاءة الفعل، والقدرة على الفعل هنا ليست السلاح، بل لعل السلاح آخر وسائلها، وإنما وسائل القدرة هى بذاتها وسائل العصر.

وقد يكون السياق فى هذا الموضع مناسبا لإشارة نحو ما تستطيع القدرة أن تحققه حتى فى مواجهة التحيزات الصارخة، وفيها ما نسميه ازدواجية المعايير فى السياسة الدولية.

(قبل سنوات، وحين كان لهذا الإقليم العربى الإسلامى بعض القدرة - فإنه تمكن من استصدار قرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة يعتبر الصهيونية نوعا من أنواع العنصرية - لكنه بعد سنوات، وعندما حل العجز محل القدرة، سقط ذلك القرار، وكان العرب المسلمون بين الذين صوتوا لإسقاطه، ثم صدر بدلا منه قرار يعتبر مناقشة المحرقة اليهودية سواء فى وقائعها أو فى أعداد ضحاياها جريمة إنسانية تستوجب العقاب.

ولم يكن القرار الأول مجرد ازدواجية معايير لصالح طرف، ولا كان القرار الثانى مجرد ازدواجية معايير لصالح الطرف الآخر، لكنه فى الحالتين كان حركة موازين ترجح أو تخف وفق ما يسندها من إرادة الفعل - وقدرة الفعل!).

ويستلفت النظر أن الثقافات الصينية والهندوكية لم تهدر وقتا غاليا فى حكاية صراع أو حوار الحضارات، ففى هذه الثقافات الآسيوية كانوا على يقين من أنهم شركاء بثقافاتهم فى المحيط الواسع، وبهذا اليقين أدركوا أن وسيلتهم الرئيسية لتحقيق أهليتهم فى حق الشراكة - أن يبنوا من وسائل القدرة على الفعل ما يمنع مهانة الظلم، أو استعلاء الاحتكار، أو الاجتراء على نفى شراكة الآخرين.

ومن المدهش أن ثقافات الصين والهند والتى كانت الأبعد بالمسافات عن البحار المركزية الأولى للتدفق الثقافى إلى المنبع وإلى البحر وإلى المحيط ـ أظهرت تمسكا وثيقا بحقها، بينما تخبطت ووهنت ثقافات الشرق الأدنى وهى الأقرب والأكثر إسهاما فى الكل الحضارى المشترك، فهى التى أعطته الأديان السماوية كلها - وبالذات المسيحية - التى نسمع منهم الآن أنها الدعوى الحضارية الأولى لمراكز الغلبة الراهنة.

(أليس لافتا للنظر مرة ثانية أن مذاق طعام حوض الحضارة الصينى وجد طريقه ليصبح انتشارا عالميا واسعا، وأخرج تنويعات مختلفة على مذاقه الأصلى (يابانية وتايلاندية وفيتنامية).

كما أخرج حوض الحضارة الهندى بدوره مذاقه ولكن بأسلوب آخر - فإذا كانت إنجلترا قد احتلت الهند بجيوشها قرنين من الزمان، فإن المذاق الهندى يحتل بريطانيا إلى آخر الزمان بمشروب الشاى ومسحوق الكارى).

٩ - ومن سوء الحظ أن الثقافة العربية - الإسلامية المعاصرة بتأثير ما ترسب فيها من شوائب وعوائق، وما أصابها من ضعف ووهن، وما لحق أصحابها من عقد بسبب طول مقاساة غلبة الفاتحين وسيطرة المستبدين - كانت مهيأة على نحو ما لمحاولة الإقصاء والاستبعاد من شراكة الحضارة.

وحين قلنا بصراع الحضارات - فقد اعترفنا بالعزلة.

وحين دعينا - أو دعونا - للحوار، فقد ذهبنا لما يشبه طلب إذن باللجوء

من متظلم إلى متحكم، ولم ندرك أن الحقوق ملكية أصحابها إذا استطاعوا إثبات جدارتهم بها، وليس تواضع الآخرين للسماح لهم ببعضها، ثم إن كل حوار على الحوار بينهم وبين غيرهم لا نهاية له، خصوصا إذا وقع. وهو يوشك أن يقع الآن. وانزلقت العلاقات بين الأطراف إلى صراعات سياسية تتحول بسرعة إلى حروب هويات دينية وعرقية، فعند هذه الدرجة أى كلام يكون بين غرباء أو بين أعداء، عداوة لا تحتمل غير انتصار طرف وهزيمة آخر!. وهنا يموت الحوار أو ينتحر مهما قلنا ومهما قالوا.

(أليس لافتا للنظر مرة ثالثة أن الحوض الحضارى لثقافات الشرق الأدنى لم يستطع أن ينشر مذاقا مميزا له خارج إقليمه، ولعل ما عنده تعرض لتلبك غذائي، كما تعطلت صلته بالحضارة بسبب نوع آخر من التلبك الناشئ من تخمة التيارات المتضاربة التى أصابت المنطقة ولوثتها!).

١٠. والغريب أننا حين قبلنا فكرة صراع الحضارات أو حتى حوار الحضارات بالمنطق الذى قُدم لنا - فإننا سلمنا بالقسمة، أى أننا تنازلنا عن الشراكة من أول لحظة، ودخلنا فى حوزة الآخرين وعلى جدول أعمالهم.

ربما كان الأولى أن نبدأ حوارا مع النفس نعرف فيه بالضبط من نحن؟ - وأين نحن؟ - وماذا نريد؟

وكان مثل ذلك الحوار مع النفس كفيلا بتأكيد عدة مسائل:

. أولها: الوعى بالحق فى شراكة الحضارة دون إقصاء أو استبعاد.

. وثانيها: الجدارة بهذا الحق عن طريق دعمه بقيم العصر وأولها روح الحرية والعلم والقانون، دون العودة إلى الماضى والبحث فى كهوف التراث المهجورة وليس فى حدائقه الزاهرة عن سبب للتقوقع بعيدا عن قيم العصر بدعوى الخصوصية، وهو نوع من الهرب مقصود إذ ليس هناك تصادم بين التنوع المحلى للثقافات وبين المشترك فى الحضارة الإنسانية - بل هناك تفاعل وتدفق مساير بالطبيعة لحركة التاريخ.

. وثالثها: أننا فى حاجة إلى فهم ودرس واستيعاب وحوار متواصل مع الدنيا كلها - ولكن فى قضايا ومعضلات الرقى والتقدم، فهناك طلبنا وهو أولى من تحرير عريضة لطلب عضوية فى نادٍ لابد أن يقبل بنا مجلس إدارته (عن طريق قبول التماسنا أو التحفظ عليه بكرات بيضاء أو كرات سوداء)، فنحن هناك فى ذلك النادى الحضارى من لحظة تأسيسه وضمن أوائل المؤسسين، لكنها عضوية غير عاملة - خاملة (إذا جاز التعبير).

. ورابعها: تجنب فخاخ الاستدراج والاستنزاف بسبب ما يفعله آخرون من أصحاب الغرض فى الإقصاء والاستبعاد، هؤلاء الذين تنبهوا بسرعة إلى ما لحق بالعقلية العربية الإسلامية جراء عصور القهر والظلام، فإذا هم يحاولون تثبيت الانكسار وتعميقه فى العقل وفى الإرادة لدى العرب والمسلمين، والسبيل إلى ذلك استثارتهم بين الحين والآخر بما يدفعهم أكثر وأكثر إلى عزلة البحر الميت وملوحة مياهه (ومرارتها).

لقد اكتشفوا أنه يكفيهم أن يلمسوا الثقافة العربية الإسلامية فى عزيز عليها، فإذا هى تستثار وتغضب - ثم تتراجع وتتباعد بحيث تعزل نفسها وتتنازل أكثر وأكثر عن نصيبها فى شراكة الحضارة.

والمحزن أن هناك من اعتدى على المقدسات العربية عملا - وليس لمسا - حين سيطر على المسجد الأقصى فى القدس. وفى نفس الاتجاه فإن ذات الطرف رسم خنزيرا وكتب عليه اسم الرسول الأعز الأكرم.

وهناك - غيره - قام بتوظيف الدين الإسلامى - قديمه وجديده - فى حرب باردة عليه - ساخنة على شباب عربى ومسلم فى أفغانستان - ثم أمسك فى النهاية بمن حاربوا لحسابه ووضعهم وراء القضبان فى جوانتانامو، ثم داس بالأقدام على كتابهم الكريم ومزق صفحاته ورماها فى المرحاض أمام عيون الجميع فى المعسكرات وخارجها.

وفى هذا كله لم يغضب أحد - بل تستر كثيرون.

ولكننا مع ذلك رحنا - نحن الذين لم نغضب من الفعل - نثور باللمس كأننا كنا نبحث عن أهداف سهلة رخيصة.

حدث ذلك سابقا فى تجربة قريبة. هى رواية «آيات شيطانية».

(نتيجة الثورة والغضب - زادت شهرة كاتبها).

وتكرر على نطاق أوسع فى تجربة أخيرة. هى الرسوم الدنماركية.

(نتيجة الثورة والغضب. تكرر نشر الرسوم فى عدد من عواصم الدنيا، وكذلك سمع الناس عن رساميها وناشريها لأول مرة فى حياتهم).

أنا من مدرسة ترجح أنه ليس هناك ما يمكن أن نسميه صراع حضارات، أو حوار حضارات

كأن كاتبا - حتى لو كان اسمه سلمان رشدى - يستطيع أن يعتدى على الإسلام، أو كأن رسام خطوط لا يكاد الناس يعرفون اسمه فى صحيفة مجهولة يستطيع إهانة الرسول الأعز والأكرم - أو كأن وزيرا إيطاليا شديد الحمق يستطيع أن يشتم الإسلام لأنه ارتدى قميصا عليه رسوم بالغة الانحطاط عديمة القيمة!

لكنهم اكتشفوا وجربوا كيف يحركون من ردود الفعل ما يستثيره الضعف ولا تأبه به القوة.

وفى المحصلة فإننا نجد أنفسنا بالواقع وبسهولة شديدة - محزنة فى نفس الوقت - نساعد على تحويل صراعات سياسية إلى حروب هويات حضارية تخرج غاضبة منسحبة من شراكة التقدم الإنسانى الجامع والشامل مع أى استفزاز - يتحول بالإثارة إلى فتنة، ويتحول بالفتنة إلى حرب، ويتحول بالحرب إلى قطيعة، ويتحول بالقطيعة إلى حصار للذات. ومن سوء الحظ أن حكومات عربية إسلامية - بوعى أو بغير وعى - تصرفت حيال الفتنة بقدر كبير من قصر النظر فى إدارة الأزمات إن لم يكن بقدر كبير من سوء النية بمحاولة استغلال الفتنة للإلهاء والتغييب.

وقد أضيف لاستكمال الرؤية والرأى - أن رغبة الاستغلال لم تقتصر على الحكومات، وإنما تعدتها إلى مؤسسات وأفراد، بادعاء أن الترياق الشافى من الفتن يتحقق بالوفود تذهب والوفود تجيء، وبالمؤتمرات تُعقد والمؤتمرات تنفض، وبالأوراق تُقرأ ثم بالأوراق تُنسى لكى يجرى تدويرها وتعود إلى إنتاج نفسها من جديد.

تلك كلها باختصار وساوس تجمح بأصحابها إلى حيث لا يريدون ولا يقصدون، فإذا هى عودة من شواطئ المحيط الإنسانى الواسع وحيويته الخلاقة إلى دروب وعرة موحلة تؤدى إلى البحر الميت وموجه الراكد وأملاحه الزائدة!! ■

قـــــراءة

١٧ مــــارس

حبــــوب اللقـــــاح.. وعواصف الخماسين



■■ عصر الجمعة ١٧ مارس ٢٠٠٦ التقط مصور AFP هذه الصورة لقضاة مصر أمام ناديهم في وقفتهم «الاحتجاجية». وفي مساء اليوم نفسه، سألني محدثي جزعاً - وهو من شيوخهم الأجلاء - إن كان هناك من بين من يعنيهم الأمر من «قرأ» الصورة جيداً. ورأى ما يجب أن يراه فيها من ظلال قاتمة، رغم لمعان الأوسمة ووميض فلاشات المصورين؟!

كان السؤال مهماً.. وكان على بعد خطوات من المشهد/ الصورة اجتماعٌ حاشد للصحفيين في نقابتهم «محتجين» على عدم الوفاء بوعد «رئاسي» بدا أنهم حصلوا عليه في ظروفٍ تغيرت. أو اعتقد القائمون على الأمر أنها كذلك.

بعد أن شاهدت - مع الملايين - عبر الفضائيات جلسة نادي القضاة بتفاصيل وقائعها كاملة، وقد أقلقني أن بعضاً من سمت القضاء ومهابته ربما غاب عن المشهد، بعد أن تسنى لجمهور المشاهدين من «السابلة» والعامة أن يقتربوا متفرجين ومراقبين من غرف «مداولة» اعتدناها مغلقة دون «أصحاب الأوشحة». وبعدما كان من صخبٍ وصوت عالٍ ليس فيه ماألفناه من وقارِ صوت يظل هادئا مهما كان «منطوق الحكم» باتراً أو «قاطعاً». نبهني محدثي (القاضي الجليل) أن القاعدة الشرعية تقضي بأن من الضرورات ما يبيح المحظورات. وأنه لابدَّ مما ليس منه بد - كما يقول المناطقة - مهما كان ذلك صعباً على النفس قاسياً عليها. وأنه ليس من الحكمة أو «العدل» أن ننظر إلى النتائج بمعزل عن مقدماتها. وأن على كل حكم أن ينظر في «ظروف الواقعة وملابساتها».

بلغ السيل الزبى، يفصل محدثي: في أرشيف الصحف الرسمية تصريحاتٌ «رسمية» بأن أحكام قضاءٍ صدرت عشية الانتخابات البرلمانية الأخيرة «لن يعتد بها».. هكذا(!) رغم قرارات ملزمة للمحكمة الدستورية. وفي ملفات المحاكم المصرية آلافٌ من الأحكام أهدرتها السلطة التنفيذية وامتنعت عن تنفيذها أو التفت عليها كما قال أحد القضاة الذين تحدثوا في جلسة ١٧ مارس مشيراً إلى الأحكام المتكررة بقبول الطعن في قرارات الاعتقال. (هناك من حصل على ١٧ حكماً بالإفراج ولم يزل خلف القضبان).

وفضلاً عن شهادات موثقة لقضاةٍ أريد لهم أن «يحكموا زوراً في نتائج الانتخابات، هناك في المكتبات كتابٌ لشيخ القضاة المستشار يحيي الرفاعي يتضمن دراسة «وثائقية» للإشراف القضائي على الانتخابات (صدر عام ٢٠٠٠) ويورد بياناً مفصلاً بوقائع جنائية خطيرة - وما اقترن بها من أحكام المحاكم، بما فيها محكمة النقض - تثبتُ كيف كافأت وزارة العدل من كان يزور الانتخابات تحت إشرافها، كما تثبت كيف حاول المزور محاكمة المجني عليه.

«سيف المعز وذهبه» إذن. يقول محدثي، مذكراً بسطور جاءت في هذه الصفحة ذاتها (يونيه ٢٠٠٥) تنبه إلى أن «في مصر الآن: محاولة لشق صف القضاة. وهو أمر لو تم لكانت «الدولة» ومفهومها ذاته الذي يستند بالتعريف إلى «النظام» ومن ثم إلى «مهابة القانون وأصحابه» أول الضحايا».

هل هي «الفوضى».. تلوح في أفق قريب أو بعيد؟

رغم أن التعابير «سابقة التجهيز»، ورغم جاذبيتها قد لا تكونُ دائماً دقيقة؛ «جامعة مانعة» إلا أن علماءَ اللغة يعرفون أن لا وصف يناقض الموصوف، حتى لو افترضنا شيئاً من المبالغة. كما يعرفون أن «الوصف» قد يُكسب «الموصوفَ» بحكم التكرار والتواتر شيئاً من المعنى، وكثيراً من الأثر على الأرض.

■ ■ ■

في حديثه المهم لجريدة «الدستور» يصف الأستاذ هيكل لحظة مصر الراهنة «باللحظة الحرجة» معتبراً أننا وصلنا لأول مرة إلى حالة توازن بين قوة المجتمع وقوة السلطة.. وهو - في سياقه - «توازنٌ قلقٌ».. وخطر.

أتذكر حديث هيكل وأنا أضع صورة السابع عشر من مارس في مكانها من هذه الصفحة، وأطالع الصراخ القلق في منتديات الإنترنت، وأقرأ في الصحف عن مؤتمر عُقد في القاهرة تحت عنوان: «هل تصبح النوبة جنوب سودان مصرية؟»، وعن مؤتمر للأقباط في جنيف. وأرى من يخرج - بغض النظر عن الأسباب أو السياق - متحدياً قواعد عقيدية للأقباط «هم أدرى بشعابها» مدافعاً عن حق المسيحي في الزواج أكثر من مرة. وأتذكر تقرير التنمية الإنسانية العربية الذي يحذر من «الخراب الآتي» كنتيجة منطقية للتلازم العضوي بين «الفساد والقمع».

هل كان حتمياً أن نصل إلى هنا؟!

أرى اصطفافَ القضاء شامخاً. وأتفق مع المتفائلين بأن ١٧ مارس يحمل كثيراً من الآمال - أو بالأحرى - الآمالَ الوحيدة الممكنة. ولكنه ككل أيام الربيع في بلادنا؛ كما أن رياحها حبلى بحبوب اللقاح، مسكونة هي أيضاً بعواصف خماسينية. ■

أيمــــن الصيــــاد

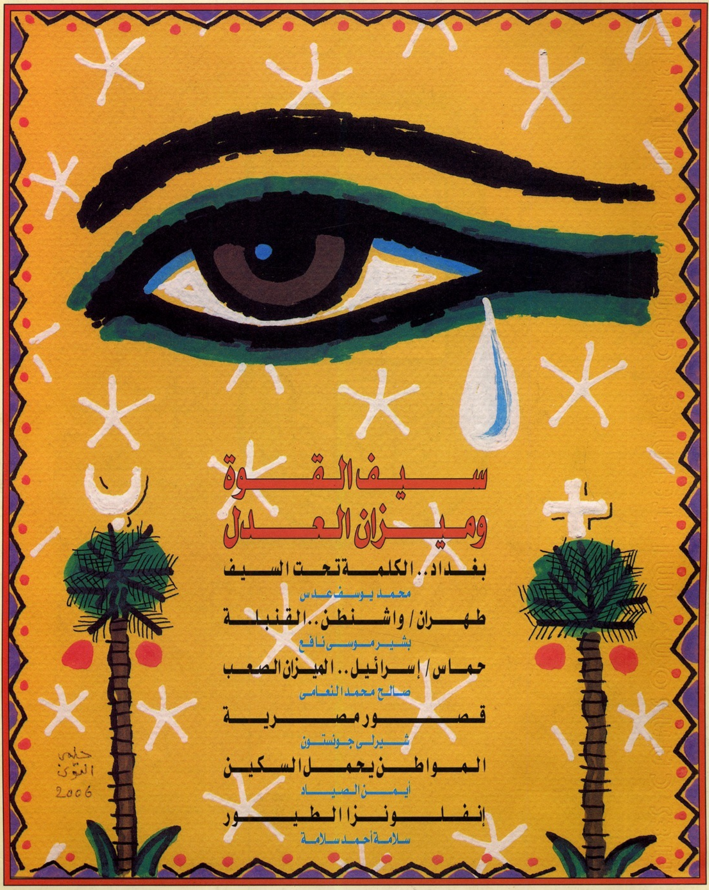


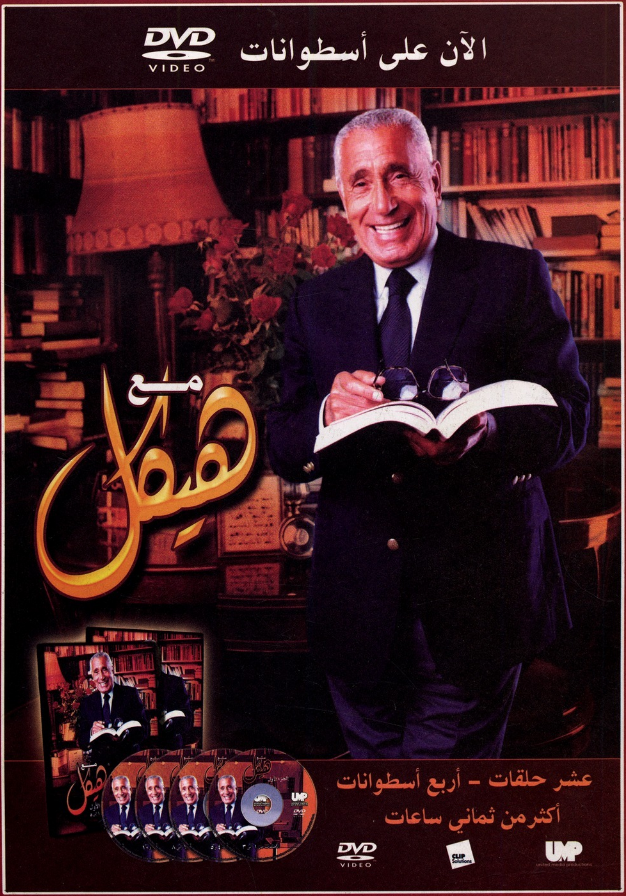
خدمة الأرقام المميزة
اختار أرقام حبايبك
كلم ماما فى طنطا
وخالو فى هولندا
ووفر
٢٠٪
على سعر المكالمة
كلم حبايبك كتير.. وما تقلقش عالفواتير
الخدمة متاحة بجميع السنترالات
لمزيد من المعلومات اتصل بـ ١١١
www.telecomegypt.com.eg
المصرية للاتصالات
Telecom Egypt

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

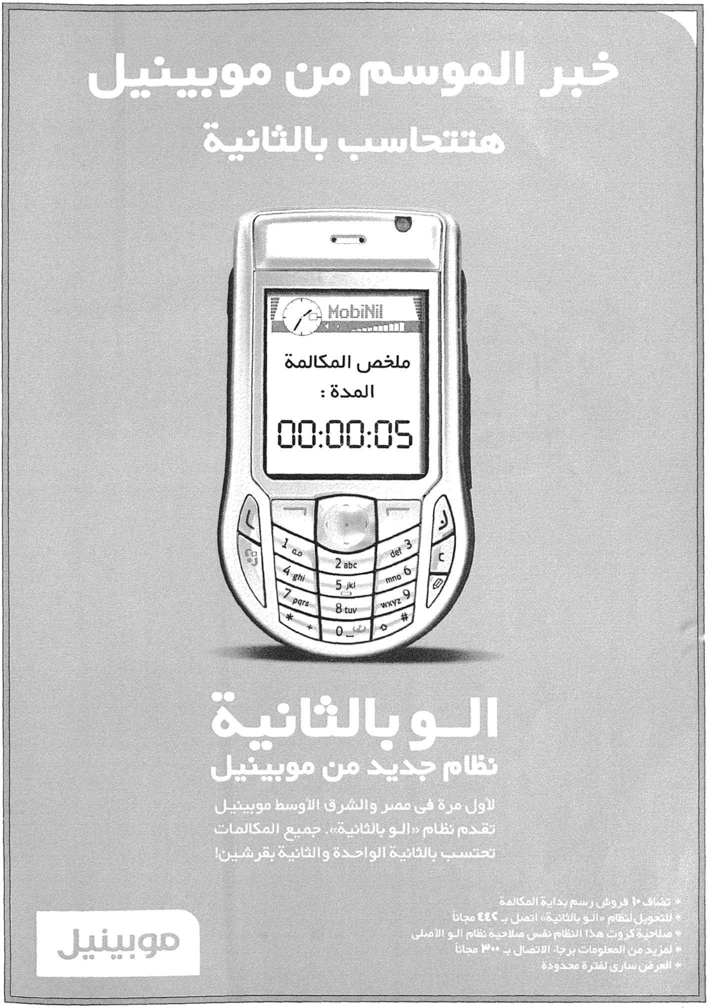
مجلة شهرية . العدد الثامن والثمانون . السنة السابعة . مايو ٢٠٠٦ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 7 - Issue 88 - May 2006





الآن على أسطوانات
DVD VIDEO
مع هيكل
عشر حلقات - أربع أسطوانات
أكثر من ثماني ساعات
DVD VIDEO


خبر الموسم من موبينيل
هتتحاسب بالثانية
MobiNil
ملخص المكالمة
المدة :
00:00:05
الـو بالثانية
نظام جديد من موبينيل
لأول مرة في مصر والشرق الأوسط موبينيـل
تقدم نظام «الـو بالثانية». جميع المكالمات
تحتسب بالثانية الواحدة والثانية بقرشين!
* تضاف ١٠ قروش رسم بداية المكالمة
* للتحويل لنظام «الـو بالثانية» اتصل بـ ٤٤٢ مجاناً
* صلاحية كروت هذا النظام نفس صلاحية نظام الـو الأصلي
* لمزيد من المعلومات برجاء الاتصال بـ ٣٠٠ مجاناً
* العرض ساري لفترة محدودة
موبينيل

السنة الثامنة
العدد الثامن والثمانون
مايو ٢٠٠٦

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفني
حلمي التوني
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتَّاب العدد:

- إلياس سحاب.. ناقد موسيقي.
- أميمة أبو بكر.. أستاذة الأدب الإنجليزي المقارن بجامعة القاهرة.
- أورفيل شيل.. صحفي - عميد كلية الصحافة بجامعة كاليفورنيا - بيركلي.
- أيمن الصياد .. صحفي.
- بشير موسى نافع.. محاضر في التاريخ الإسلامي وتاريخ الشرق الأوسط - لندن.
- حلمي محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفي.
- سيف الدين عبدالفتاح.. أستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة.
- شيرلي جونستون.. كاتبة أمريكية.
- صالح محمد النعامي.. صحفي من فلسطين.
- كريستوفر دو بيلاجيو.. صحفي بريطاني.
- محمد يوسف عدس .. باحث في التاريخ والشئون السياسية مقيم في إنجلترا.
- محيى الدين اللاذقاني.. كاتب سوري.
- هنري سيجمان.. الرئيس السابق للمؤتمر اليهودي الأمريكي وزميل بارز في مجلس العلاقات الخارجية الأمريكي.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجي - أمية جحا - Petar Pismestrovic

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري. ص. ب: ٣٣ البانوراما. مدينة نصر هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩. فاكس ٤٠٤٨٥٤٦. subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

نـــون

سلامة أحمد سلامة

أنفلونزا الطيور.. تحدى الإنسان والعلم والزمن

■■ الطيورُ الطيور
تحتوى الأرض جثمانها.. فى السقوط الأخير
والطيور التى لا تطير
طوت الريش واستسلمت
هل ترى علمت
أن عمر الجناح قصير؟

الجناح حياة
والجناح ردى
والجناح نجاة
والجناح سدى

أمل دنقل

ولكن هل ترى علم الشاعر أى نوع من الردى ذلك الذى تحمله أجنحة الطير من بعيد، فتقضى على تلك التى تحلق فى السماء، أو تلك التى تطوى ريشها فى المزارع، أو على ضفاف الأنهار والبحيرات، أو فوق أسطح المنازل وباحات الدور فى الريف.. حبيسة الأقفاص والعشش والبيوت؟ أجنحة الخيال والعلم مثل أجنحة الطير قد تصنع الحياة وتنجى أصحابها من المهالك، وقد تطوى على الجهل والتخلف والمرض فيذهب كل شىء سدى..

وهذا ما يحدث حاليًا فى بلادنا، حيث يجتاح وباء أنفلونزا الطيور بكل عنفوانه أرجاء العالم بما فى ذلك مصر وبعض دول عربية، حاملاً معه الهلاك لملايين الطيور من الثروة الداجنة، والدمار الاقتصادى لاستثمارات تقدر بعشرات المليارات، وما يترتب على ذلك من بطالة وجوع ونقص فى الأموال والأنفس والثمرات ومصادر الغذاء، التى يعتمد عليها الناس من مختلف الشرائح الاجتماعية، وبالأخص من بين الطبقات الفقيرة التى تسد رمقها ورمق أطفالها من الطير السابح فى ملكوت الله.

ولا يقتصر الأمر على هلاك الطيور. فالفيروس القاتل تنتقل عدواه إلى الحيوانات وإلى الإنسان الذى يخالط هذه الطيور ويقتات عليها، بعد أن يتحور الفيروس الشرس ليتخذ خواص وجينات أكثر قدرة على اختراق المناعة عند الإنسان. وأخشى ما يخشاه العلماء أن ينطلق هذا الفيروس فى تحولاته الجديدة، بعد أن يبدل أقنعته وأسلحته، ليهاجم التجمعات الإنسانية على نطاق واسع. ينذر بهلاك مئات الألوف أو الملايين من بنى البشر فى أنحاء المعمورة.

لم يكن هذا الهجوم مفاجأة لأحد. فمنذ عشر سنوات تقريبًا ظهرت طلائع الفيروس القاتل وإن ظل محصورًا فى الصين وبعض دول آسيوية. ثم لم يلبث مع شهور الصيف الماضى أن انطلق بسرعة جنونية فائقة عبر الجبال والأنهار دون أن يعبأ بالحدود والقارات والمحيطات.. يحاصر ويقتل ويهلك كل ما يلقاه فى طريقه من طيور بريئة مسالمة.. دجاجات ريفية بلهاء، أو أسراب بط وبجع يسبح فى دعة فوق سطح البحيرات، مهاجرًا بحثًا عن الدفء فى مواسم التكاثر من الشمال إلى الجنوب أو من الجنوب إلى الشمال. ليعبر إلى تركيا ودول البلقان ثم أوروبا الغربية، ويهاجم بشراسة مزارع إنتاج الدجاج الضخمة، التى تحقق الأمن الغذائى فى معظم دول العالم.

يطلق العلماء على هذا السفاح العالمى H5 N1. وهو واحد من ١٥ سلالة مختلفة من فيروس أنفلونزا الطيور، مثل H5 و H7. ويقال إن العلماء حين يحارون فى تحديد مرض ما ينسبونه إلى فيروس مجهول. فالفيروسات مسئولة عن طائفة واسعة من الأمراض المعدية، ابتداء من نزلات البرد العادية إلى الإيدز (نقص المناعة المكتسبة). ومن بين ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠ نوع من الفيروسات يوجد ٢٥٠ نوعًا تسبب الأمراض للإنسان.

ومنذ أخذت أنباء أنفلونزا الطيور H5 N1 تنتشر حول العالم، وتثير قلق منظمة الصحة العالمية والدول من احتمال وقوع كارثة إنسانية على نطاق واسع، أصيب بأنفلونزا الطيور أكثر من مائتى شخص فى أنحاء العالم، توفى منهم ١٠٥ نتيجة الاتصال المباشر بالطيور المصابة أو النافقة التى تفرز الفيروس فى مخلفاتها التى تجف وتتحول إلى غبار يستنشقه الإنسان. والأمل الوحيد فى ألا يتحول الوباء القاتل للطيور إلى وباء قاتل ينتقل بالعدوى من الإنسان إلى الإنسان، هو ألا يطرأ تحور على الفيروس H5 N1 يجعله مصدرًا لعدوى البشر. وهو ما يضع العلماء ومعامل الأبحاث فى حالة طوارئ مستمرة، تحسبًا لوقوع هذا «التحور» المخيف، الذى يمكن أن يطلق جائحة عالمية يصعب السيطرة عليها، يقدر العلماء ضحاياها لو حدثت بأكثر من ١٥٠ مليون نسمة. ويكفى أن نعرف لخطورة هذا الاحتمال أن وزارة الصحة البريطانية ذكرت فى وثيقة أذيعت مؤخرًا أنها تعاقدت بالفعل على توريد ٢٠٠ ألف كيس لنقل الجثث تحسبًا لأسوأ السيناريوهات، وذلك بعد أن عثر على بجعة واحدة ميتة قرب أدنبرة. قدر معها المسئولون احتمال انتقال العدوى منها إلى الطيور والدجاج فى المزارع المحيطة، وما يمكن أن يترتب على ذلك من تداعيات تعرض حياة الإنسان للخطر.

ومثل هذه الظواهر الوبائية التى تواجه الإنسان، لابد أن تثير نوازعه العلمية لتقصى أسبابها والبحث عن الشروط التى يتحور بها الفيروس.. ولا يجد العلماء أمامهم هنا غير اللجوء إلى النظرية الداروينية فى الانتخاب الطبيعى، حيث تؤدى الأخطاء العشوائية فى تسلسل أو تكاثر الأنواع إلى ظهور أجيال أكثر قدرة على التلاؤم مع بيئتها. وتبدو الفيروسات وكأنها نموذج مثالى للتطور المتسارع، إذ تتم عملياته تحت أعين الخبراء فى زمن قصير نسبيًا.

وقد اكتشف فيروس الأنفلونزا عام ١٩٣٣ على يد علماء مجلس الأبحاث الطبية فى بريطانيا. ومازال هذا المجلس يلعب دورًا جوهريًا فى مكافحة الأنفلونزا على مستوى العالم، حيث يواصل العلماء أبحاثهم فى «مركز الأنفلونزا العالمى» التابع لمنظمة الصحة العالمية ويجرى فى معاملها تحليل العينات القادمة من أنحاء العالم وتحديد سلالاتها من الفيروس. ويتم بناء على نصائح هذا المركز تطوير وإنتاج اللقاحات المضادة.

وتذكر الأدبيات الخاصة بأبحاث الأنفلونزا أنها ظهرت فى شكل وبائى فى إسبانيا عام ١٩١٨، حيث أصابت الأنفلونزا الإسبانية نحو ألف مليون شخص، أى نصف تعداد سكان العالم فى ذلك الوقت، ومات منهم نحو ٥٠ مليون شخص. وتوصل العالم البريطانى سير جون سكيل مدير معهد أبحاث الأنفلونزا بعد تحليل فيروس ١٩١٨ إلى أنه ينتمى إلى سلالة الأنفلونزا التى تصيب الطيور، ثم طرأت عليه تغيرات جينية سمحت بانتقاله من إنسان إلى إنسان.

وتتم الخطوة الحاسمة فى تحول الفيروس إلى صورته الوبائية، من خلال عملية تعرف بإعادة الفرز أو الترتيب reassortment التى يمكن أن تحدث فى حيوان أصيب بنوعين مختلفين من فيروسات الأنفلونزا، تأتلفان جينيًا لتوليد فيروس جديد. ومثل هذه العملية يمكن أن تحدث فى الإنسان أو فى كائن آخر يصاب بالنوعين معًا: فيروس الطيور وفيروس الإنسان معًا، أو أى فيروس آخر ينتقل من القطط أو الخنازير. وحينئذ يتوالد الفيروس الجديد وينتشر بسهولة بين الناس.

ويعتقد العلماء أن فيروس H5 N1 المتداول حاليًا بدأ نشاطه منذ عشر سنوات تقريبًا دون أن يطرأ تغيير جذرى مهم. وهو مازال بتركيبته الحالية حتى الآن يقتصر على الانتشار بين الطيور. صحيح أن بعض من أصيبوا به. أى نحو ٢٠٠ شخص كما ذكرناه آنفًا فى جنوبى آسيا وتركيا، مات بعضهم. كما شهدت مصر وفاة أربعة ممن أصيبوا به حتى الآن. ولكن المحقق أن جميع هذه الحالات كانت لأشخاص على احتكاك لصيق بالدواجن المصابة. كما قدر عدد

أخشى ما يخشاه العلماء أن ينطلق هذا الفيروس فى تحولاته الجديدة، بعد أن يبدل أقنعته وأسلحته، ليهاجم التجمعات الإنسانية على نطاق واسع. ينذر بهلاك مئات الألوف أو الملايين من بنى البشر فى أنحاء المعمورة

الدواجن التى نفقت بسبب الفيروس حتى الآن بنحو ٢٠٠ مليون طائر فى آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط وأوروبا.

ويلعب البط البرى دورًا تآمريًا فى تطوير ونقل فيروس H5 N1، حيث يمكن أن يصاب به وينقله إلى طيور أخرى دون أن تظهر عليه أعراض المرض أو ينفق. وهو ما يحمل على الاعتقاد بين العلماء بأن هذا الفيروس قد يستمر لسنوات طويلة قادمة قبل أن يختفى تمامًا.

وطبقًا للتقارير العلمية، فمازالت الأبحاث الطبية تحاول فك شفرة هذا الفيروس وكيف يتسلل إلى الجسم وينتقل من نوع إلى نوع ومن كائن إلى آخر، سواء بالنسبة للطيور الداجنة أو بالنسبة للإنسان، وكيف يمكن تطوير العقاقير واللقاحات المضادة للإنسان والطيور. وهذا هو التحدى الحقيقى للإنسان والعلم والزمن.

يكاد يكون من المستحيل لأى بلد من البلاد أن تتفادى خطر التعرض لمثل هذا العدو الخفى، الذى يهبط من السماء أو يخرج من الأرض دون سابق إنذار. اللهم إلا باتخاذ إجراءات وقائية حاسمة يجرى تطبيقها بكل صرامة مع ظهور أول بادرة. ومثل هذه الإجراءات الوقائية يجرى الإعداد لها قبلها بوقت كاف وحساب كل تفصيلة من تفاصيلها دون أن يترك شىء للصدفة. مع إنذار وتوعية كافة شرائح المجتمع باحتمالاتها.. حتى إذا وقعت الواقعة بالعثور على أول دجاجة أو بطة أو بجعة نافقة، وتأكد من نتائج التحليل أنها نفقت نتيجة الإصابة بالفيروس المخيف، جرى على الفور تطبيق الخطط التى تتكاتف جميع الأجهزة على تنفيذها.

ومعيار الكفاءة فى مواجهة الوباء هو معيار التقدم فى إدارة الأزمة، على نحو يحد من وقوع الخسائر فى عدد الطيور النافقة والمصابة، والحيلولة دون إصابة البشر بالفيروس إصابة قاتلة. فقد يؤدى الإهمال مصحوبًا بالفوضى والتقاعس والرعب إلى ضياع ثروة تقدر بالمليارات فى صناعة الدواجن. والأدهى لو اشتدت شراسة الفيروس وتحورت جيناته ليصبح مصدرًا للعدوى التى تنتقل من الإنسان للإنسان. حينئذ سوف يواجه العالم أفظع السيناريوهات الافتراضية التى تفوق الخيال العلمى فى بشاعتها.

ومن هنا فإن التحدى الحقيقى الذى يواجه العلماء والخبراء والسلطات المسئولة عن الصحة العامة، والتى يهمها المحافظة على الثروة القومية من الهدر، يتركز - أولاً - على كيفية وقف انتشار الفيروس اللعين وتقليل الخسائر فى الثروة الداجنة. وكيف يمكن - ثانيًا - تحصين الإنسان من انتقال العدوى إليه وعلاجه بسرعة فى حالة الإصابة أو تحور الفيروس.

وفيما يتعلق بالطيور، يتم اللجوء إلى إجراءين متلازمين للسيطرة على إصابتها بالفيروس H5 N1: الأول هو استئصال البؤر المصابة بإبادة الطيور المخالطة فيها إبادة كاملة، وحرق مخلفاتها، بعد حصار المنطقة ومنع الانتقال منها وإليها. والثانى هو تحصين القطعان التى لم تظهر الإصابات فيها باستخدام لقاحات معتمدة عالميًا وسبق تجربتها فى دول أوروبية.

ولأسباب تبدو مجهولة وإن تكن متوقعة، تباطأت الإدارة المصرية عن إهمال أو جهل فى تطبيق الإجراء الثانى وهو استخدام اللقاحات المعتمدة عالميًا، ولم تطبق الإجراء الأول فى استئصال وإبادة البؤر المصابة تطبيقًا صارمًا. فلم يهتم أحد بفرض حصار أو طوق أمنى صحى حول المزارع المصابة. وهو ما كان ينبغى أن يحدث لمنع الحركة والانتقال للبشر والدواب ووسائل النقل التى تحمل الفيروس من قرية إلى قرية ومن مزرعة إلى مزرعة ومن طير نافق إلى ربة منزل جاهلة. وفرض الفساد منطقه ونظامه على اختيار اللقاحات المطلوبة للتحصين، فوقع الاختيار على لقاح صينى لم تثبت فاعليته، ليتم استيراده بالأمر المباشر بعد أكثر من ثلاثة أسابيع من ظهور الوباء، فلم ينجح إلا فى زيادة الخسائر وإطلاق حالة من الفزع.

وكانت النتيجة كارثة محققة. أوقعت خسائر بالمليارات فى بلد فقير مثل مصر. وجرى التخلص دون ضرورة ملحة من ملايين الدواجن التى تم إعدامها بغير التحقق من إصابتها. ودفعت الأسر الفقيرة التى تتعيش على تربية الدجاج وبيعه فى الريف ثمنًا باهظًا.. إما بذبح ثروتها من الطيور خوفًا من الغرامة، أو احتجازها وإخفائها فى العشش أو فى غرف النوم، لتصبح مصدرًا للعدوى كما حدث فى الحالات الأربع التى قضيت فى مصر. ولم يسعفها العقار الوحيد الذى أمكن التوصل إليه لعلاج الإنسان من أنفلونزا الطيور وهو العقار المعروف باسم تاميفلو Tamiflu، والذى لم تنتج مصانع الأدوية كميات كافية منه لمواجهة الوباء فى حالة انتشاره على نطاق واسع.

وهنا تبدو الأهمية الحقيقية لوجود قاعدة علمية قومية قادرة على مواجهة الخطر واستباقه والقضاء عليه فى مهده.. والقاعدة العلمية هنا بمعناها الواسع، تشتمل على المعامل المتطورة لاكتشاف الفيروس وتحديد سلالته ودرجته، والخبراء المدربون الأكفاء الذين تتوافر لديهم أعلى درجات المعرفة العلمية المتقدمة فى تخصصات دقيقة، والعناصر البشرية المساعدة من فرق المكافحة والتمريض والتفتيش، والأجهزة والمعدات اللازمة للتعامل مع فيروس متوحش قادر على شن هجومه من أضعف الثغرات فى جسم الإنسان وفى جسم المجتمع، حيث تحتضن الطبقات الفقيرة فى الريف والأحياء الشعبية فى المدن أفراخها وتتعايش معها ليل نهار. فضلاً عن توافر أفضل وأسرع أساليب التخلص من نفايات الطيور النافقة ومخلفاتها وأعشاشها. والأكثر أهمية من ذلك وضع الخطط التفصيلية وإدارة المعركة ضد انتشار الوباء والعمل على احتوائه وحصره فى أضيق نطاق ممكن، والتنسيق بين عدد كبير من أجهزة الدولة، وهيئات المجتمع المدنى ووسائل الإعلام ومنظمة الصحة العالمية ومكاتبها.

وتبدو العملية شديدة التعقيد والارتباك فى الدول المتخلفة التى تفتقر إلى القاعدة العلمية لاكتشاف الفيروس والقاعدة الصناعية لإنتاج الأمصال والعقاقير المضادة. فضلاً عن الافتقار إلى الانضباط والالتزام وتحديد الاختصاصات والمسئوليات. والأكثر تعقيدًا وصعوبة إذا اقترنت عشوائية التنظيم والأداء، بمستويات اجتماعية متدنية يتفشى فيها الجهل والفقر، والفساد الذى يتغذى على هشاشة الأوضاع الاقتصادية المتردية.

فإذا انتفت هذه الشروط كلها أو بعضها، فلابد أن تتجاوز الخسائر الاقتصادية والبشرية حدود الكارثة التى يصعب إصلاح نتائجها إلا على مدى زمنى ليس بالقصير. وأخطر جانب فيها هو احتمال توطن الوباء لسنوات وسنوات، بحيث يعيد إنتاج الفيروس فى موجات متلاحقة وبالأخص فى البيئات الريفية الفقيرة المتخلفة. وهذا ما حدث فى بعض دول آسيوية مثل فيتنام وبعض الأقاليم فى الصين. وما حذر الخبراء من احتمال حدوثه فى مصر ونيجيريا وبعض دول أوروبية.

لقد جاءت أزمة أنفلونزا الطيور، لتكشف عن نقاط ضعف جوهرية فى تشكيل بنية الأمن القومى المصرى وقدرته على مواجهة الكوارث والتفاعل معها، بدرجة من الكفاءة التى تحول دون إنزال خسائر فادحة فى الأموال والأنفس. ولم تستفد الإدارة المصرية من التجارب السابقة التى مرت بها فى عدد من الكوارث الأليمة، لتنشئ جهازًا إداريًا قادرًا على إدارة الكارثة حين تقع. فالتفسخ الشديد والتضارب بين الوزارات والإدارات المختلفة أدى إلى تضارب فى القرارات والإجراءات وإلى عشوائية فى التطبيق. فضلاً عن عدم كفاية الأدوات والوسائل العلمية والتكنولوجية الضرورية.

ولذلك لم يكن غريبًا أن تقرر منظمة الصحة العالمية أن دولاً مثل تايلاند التى تعرضت لدمار شديد بفعل أمواج المد الملاحقة «تسونامى»، أدركت أهمية الاستعداد لمواجهة الطوارئ المدمرة، وحشدت عشرات الآلاف من عمال الصحة المدربين لتحصين الدواجن ضد الفيروس، وأشركت السلطات المحلية فى حشد الجماعات المحلية ووسائل الإعلام والتوعية. بينما كانت مصر هى الاستثناء الوحيد من لائحة الدول التى أعدت نفسها جيدًا لمواجهة وباء أنفلونزا الطيور، بسبب سوء مستوى الرعاية الصحية والبيطرية. ولم تستبعد المنظمة احتمال انتشار الفيروس بسهولة قد تؤدى إلى توطنه فى مصر وانتقال عدواه إلى البشر على نطاق واسع. فالمشكلة ليست فى إدارة الأزمة ولكن فى أزمة الإدارة المصرية. ■

حماس:

هنري سيجمان

لن تتخلى حماس عن إيمانها بأن فلسطين هي وقف ديني منحه الله للمسلمين إلى الأبد. ومع ذلك، فإن ذلك الإيمان العقائدي لا يستبعد التكيف مع الحقائق المؤقتة والقانون الدولي، بما في ذلك الوضع الراهن لإسرائيل

■■ وفرت فورة الغضب الإسلامي تجاه الولايات المتحدة والغرب - والتي رصدها «استطلاع بيو Pew Poll» وغيره من استطلاعات الرأي - والمكاسب الأخيرة للإسلام السياسي لدى العديد من الإسرائيليين إحساسا طارئا جديدا بأنهم تحت الحصار. ومؤخرا، كتب «سيفر بلوتزكر Sever Plotzker»، وهو معلق صحفي إسرائيلي شهير، في «يديعوت أحرونوت Yedioth Ahronoth»، أكثر الصحف الإسرائيلية انتشارا، أن الانتخابات الفلسطينية وثيقة الصلة بالظواهر المثيرة للقلق التي تنتشر الآن في العالم العربي ويتردد صداها داخل كل بيت في إسرائيل، وأن إسرائيل تجد نفسها الآن على بعد بوصة واحدة من بركان ناشط على خط القتال الأمامي لـ «تصادم الحضارات».

في العراق لم تتغلب الأحزاب الشيعية فقط على المسلمين السنة بل أيضا على الأحزاب السياسية العلمانية. وفي مصر زاد تمثيل الإخوان المسلمين في البرلمان إلى خمسة أضعافه. وفي فلسطين اكتسحت حركة حماس الانتخابات التشريعية. كما ضاعفت تصريحات الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد المتبجحة المعادية للسامية وتصميم حكومته على تطوير أسلحة نووية من المخاوف الإسرائيلية.

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: عادل فتحي

إن إسرائيل لا تواجه فقط تهديدات حماس. وهي المنظمة التي أكدت على حق المقاومة المسلحة للاحتلال الإسرائيلي وأنكرت حق إسرائيل في الوجود - وإنما أيضا تواجه تزايد الغضب العام في العالم الإسلامي الكبير تجاه الغرب. عادة ما ينظر إلى تهديدات حماس وغضب العالم الإسلامي كشيء واحد. ولكن هذا الدمج مضلل بصورة خطيرة، فهو يقدم رؤية مشوشة لكل من المخاطر والفرص التي أفرزها فوز حماس في الانتخابات مهما بدت تلك الفرص ضئيلة.

إن غضب مسلمي العالم تجاه الغرب تؤججه مهانة إخوانهم المسلمين الذين يعيشون تحت الاحتلال الإسرائيلي، وما يعتبره المسلمون اغتصابا - بالتواطؤ مع الغرب - لفلسطين كجزء من دار الإسلام يعتبرونه حقا أبديا لهم، وكذلك الحرب في العراق وعواقبها، والفظائع التي جرت وما زالت في السجون العسكرية الأمريكية، والخطط الأمريكية الزائفة لإدخال الديمقراطية إلى مناطق مختلفة من العالم. إن هذا العداء يعد دليلا على المواجهة الدينية والثقافية بين الإسلام والغرب المسيحي والتي جادل «صامويل هانتنجتون Samuel Huntington» كثيرا بأنها قد أصبحت الصدع العالمي الجديد الذي حل محل الحرب الباردة. ومن المفارقة أن الصراع الإسرائيلي العربي هو أقل التهديدين خطورة لأنه صراع سياسي في الأساس وليس صراعا دينيا، كما أن المجتمع الفلسطيني يعد من بين المجتمعات الأكثر علمانية في العالم العربي.

وحتى بالنسبة لحماس، فإن الشق القومي لكفاحها - والذي يتناقض مع «عالمية» الإسلام التقليدي الذي لا يعترف بحدود إقليمية داخل دار الإسلام - عادة ما ينتصر على الثوابت الدينية عندما يصطدم الاثنان. وليس ذلك فقط لأن معظم الفلسطينيين يعارضون توجهات حماس الدينية وخاصة جهودها لضبط سلوكياتهم الشخصية دينيا، وإنما - وهو الأهم - لأن حماس نفسها حركة قومية فلسطينية بقدر ما هي حركة دينية.

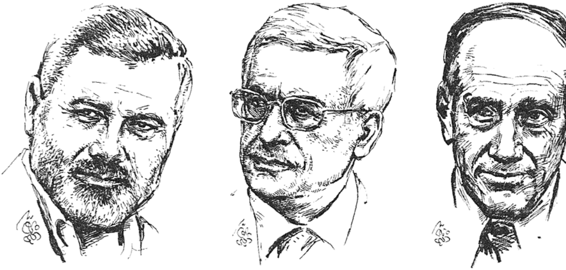
وردا على دعوة أيمن الظواهري - الرجل الثاني في القاعدة - لحماس لمواصلة الجهاد المسلح لاستعادة «كل ذرة من تراب فلسطين التي كانت أرضا إسلامية احتلها أهل الكفر»، صرح أحد مسئولي حماس بحدة أن «حماس تؤمن بأن الإسلام يختلف تماما عن أفكار الظواهري». وأضاف: «إن معركتنا هي ضد الاحتلال الإسرائيلي وهدفنا الوحيد هو استعادة حقوقنا وحماية شعبنا». والآن بعد أن سيطرت حماس على المجلس التشريعي الفلسطيني ومنصب رئيس الوزراء، فإن الاختلاف بين حماس والإسلام السياسي خارج فلسطين يشكل ما قد يكون فرصة لا تستطيع تقديمها لإسرائيل سوى حكومة ترأسها حماس.

وأثناء اختيار المرشحين للمجلس التشريعي الفلسطيني، تفوق - بوضوح - مرشحو حماس «الواقعيون» بقيادة إسماعيل هنية رئيس الوزراء الجديد وعبد العزيز دويق المتحدث الجديد باسم المجلس، على أولئك المعروفين بتشددهم في حماس. بل إن العديد من المتشددين أنفسهم انتهجوا خطا أكثر اعتدالا. ويعلم الكثير من المتشددين أن حماس فازت بالانتخابات ليس بسبب تمسكها الشديد بالثوابت وإنما لأنها دخلت الانتخابات ببرنامج معتدل يتضمن حكومة نزيهة وخدمات أفضل. وفي استطلاع للرأي أجري بعد الانتخابات، ذكر ١٪ فقط من المشاركين أن الأولوية الأولى لحماس يجب أن توجه لتطبيق الشريعة الإسلامية في فلسطين، بينما ذكر ٧٣٪ أنهم يؤيدون اتفاق سلام مع إسرائيل وتسوية تتضمن إقامة دولتين.

وإذا ما رجحت كفة المنادين بالاعتدال في حماس، وتحقق تعايش طويل المدى بين سلطة فلسطينية تتزعمها حماس وبين إسرائيل، فإن مغزى تلك التسوية سيكون بالفعل بعيد الأثر في علاقات إسرائيل ليس فقط مع الفلسطينيين بل أيضا مع العالم الإسلامي الكبير. وسوف توفر موافقة حماس على مثل هذه الترتيبات «بوليصة تأمين» لإسرائيل لا تستطيع «فتح» أن تقدم مثيلا لها.

في كتابه الأخير «ندوب الحرب وجراح السلام Scars of War, Wounds of Peace» كتب «شلومو بن عامي»، وزير الخارجية الإسرائيلي الأسبق، عن رحيل عرفات من المشهد السياسي باعتباره «كارثة» لأنه كان «الرجل الوحيد الذي يمكن لتوقيعه على اتفاق للتسوية والمصالحة يتضمن التخلي عن أحلام لا

الفرصة الأخيرة



يمكن تحقيقها، أن يحقق شرعية في نظر شعبه»، وأنه أخذ شرعيته معه إلى القبر.

وربما شكل دخول حماس إلى الحياة السياسية الفلسطينية إحياء لإمكانية التوصل لاتفاق إسرائيلي فلسطيني يتمتع بشرعية تقارب بالفعل - أو ربما تزيد على - الشرعية التي كان يمكن لعرفات أن يحققها.

هل من الممكن على الإطلاق أن تتحقق مثل هذه النتيجة المتفائلة؟ من المبكر جدا - على الأقل - استبعاد ذلك الاحتمال قبل أن يتضح الخط السياسي والفكري لحكومة حماس الجديدة. لقد تلقيت مؤخرا من أحد كبار الأعضاء البارزين في اللجنة السياسية لحماس شرحا للاتجاه المرجح لذلك الخط يتلخص في النقاط التالية:

● هناك أعضاء في الإدارة السياسية لحماس لا يستبعدون إجراء تغييرات جوهرية متدرجة في سياساتهم تجاه إسرائيل وفي ميثاق تأسيس الحركة، بما في ذلك الاعتراف بإسرائيل، بل وبإجراء تعديلات حدودية ثانوية مشتركة. وتتوقف تلك التغييرات على اعتراف إسرائيل بالحقوق الفلسطينية. ولن تقبل حماس بأقل من المعاملة بالمثل.

● لا تعترض حماس على إجراء مفاوضات مع إسرائيل، بشرط أن ترتكز تلك المفاوضات على اتفاق الطرفين على عدم قيام أي منهما بصورة منفردة بتغيير الموقف الذي كان سائدا قبل حرب ١٩٦٧، وأن المفاوضات - حين تستأنف - ستتخذ من حدود ما قبل ١٩٦٧ نقطة بداية.

● لن تتخلى حماس عن إيمانها بأن فلسطين هي وقف ديني منحه الله للمسلمين إلى الأبد. ومع ذلك، فإن ذلك الإيمان العقائدي لا يستبعد التكيف مع الحقائق المؤقتة والقانون الدولي، بما في ذلك الوضع الراهن لإسرائيل (كل من المشكلة والحل يتوازيان مع الموقف على الجانب الإسرائيلي. فاليهود المتدينون يؤمنون أن الله وعد الشعب اليهودي بكل أرض فلسطين على مر العصور. وهم لن يقبلوا بالتخلي عن ذلك المطلب الديني. ومع ذلك فهم مستعدون لإرجاء تحقيقه إلى عهد مسيحي يعلمه الله).

● حماس على استعداد للالتزام بهدنة طويلة تنهي كافة أشكال العنف. وهنا - أيضا - يجب أن تسود المعاملة بالمثل بالكامل، فيجب على إسرائيل أن توقف كافة الهجمات على الفلسطينيين. وإذا ما وافقت إسرائيل على الهدنة، فسوف تتحمل حماس مسئولية منع العنف الفلسطيني ومعاقبته، سواء كان مصدره الجهاد الإسلامي أو انتفاضة الأقصى أو عناصر من حماس نفسها. وتدرك حماس أنه ليس بإمكانها أن تطالب بالاعتراف بها كحكومة شرعية لفلسطين إذا لم تكن مستعدة للحفاظ على تلك الهدنة في سياق مسئوليتها عن القانون والنظام.

● تقوم حماس - كأولوية قصوى - بإعادة إحياء المجتمع الفلسطيني عن طريق دعم سيادة القانون، واستقلال السلطة القضائية، والفصل بين سلطات مختلف أفرع الحكومة، وتأهيل ومصداقية قوى الأمن. وسوف تستهدف القضاء على الفساد الحكومي وإطلاق مبادرات اقتصادية واجتماعية جديدة تتفق مع الظروف الفلسطينية الحالية (أخبرني مسئول حماس أن الحركة قد شكلت - قبل الانتخابات التشريعية الأخيرة - فرقًا من الخبراء لإعداد خطط تفصيلية لإعادة بناء المجتمع الفلسطيني اقتصاديا واجتماعيا. وقد ذكر أن وضع تلك الخطط موضع التنفيذ ستكون له الأولوية القصوى لدى حماس، ولكنه لم يصرح بمحتوى تلك الخطط).

● لن تسعى حماس لفرض معايير للسلوك الديني والتقوى على الشعب الفلسطيني مثل ارتداء الحجاب أو العباءة، رغم أنها تؤمن أن هناك معايير معينة للاحتشام العام - وإن كانت لا تخضع لرقابة دينية - يجب على الجميع الالتزام بها.

تعد تلك الآراء استثنائية فقط إذا نظر إليها بصورة شاملة. ولبعض الوقت، عبر بعض معتدلي حماس الآخرين عن آراء مشابهة. وقد صرح إسماعيل أبو شنب - الذي اغتالته إسرائيل فيما بعد - أن حماس ستوقف كفاحها المسلح إذا ما كانت إسرائيل مستعدة للانسحاب الكامل من المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ وأعلنت عن جدول زمني لذلك.

وفي العام الماضي، ذكر محمد غزال أحد قياديي حماس أن دستور حماس ليس القرآن. وقد صرح بأن «فلسطين - من الناحية التاريخية - ملك للفلسطينيين، ولكننا نتحدث الآن عن الواقع والحلول السياسية. لا أعتقد أن هناك مشكلة في التفاوض مع الإسرائيليين». وقد ردد حسن يوسف - قيادي بحماس في الضفة الغربية يقبع الآن في أحد السجون الإسرائيلية - قوله: «لقد قبلنا مبدأ القبول بدولة فلسطينية داخل حدود ١٩٦٧».

وفي تصريح حديث بالغ الأهمية، ذكر إسماعيل هنية رئيس الوزراء أنه لم يوافق فقط على عقد لقاء بين الرئيس الفلسطيني محمود عباس وإيهود أولمرت، بل أضاف أنه لو استعاد محمود عباس شيئا بموافقة الشعب الفلسطيني فإن حماس سوف تغير من موقفها.

إن تلك الأفكار تتناقض تماما مع بشاعة ميثاق تأسيس حماس (في ١٨ أغسطس ١٩٨٨) والذي يعتمد على تفسير متطرف للتعاليم الدينية الإسلامية معاد لليهود، وعلى افتراءات معادية للسامية مثل «بروتوكولات حكماء صهيون». ولم تكن نفس لغة الكراهية تلك غائبة تماما في وثائق وتصريحات منظمة التحرير الفلسطينية في فترة ما قبل «أوسلو». وفي المقابل، يمكن ملاحظة التشهير بالفلسطينيين الذي تقوم به بعض الجماعات اليهودية بما في ذلك الأحزاب السياسية الإسرائيلية التي تنادي بالتطهير العرقي للسكان الفلسطينيين في الضفة الغربية. وكما جاء في مقال منشور لـ «هنري كيسنجر Henry Kissinger»، فإن الرفض والتشهير سمة شائعة في الصراع العرقي والسياسي. وكذلك الاعتدال المفاجيء للمتطرفين السابقين عند

حماس ... الفرصة الأخيرة



دخولهم العملية السياسية وتحملهم مسئولية الحفاظ على مصالح من أتوا بهم إلى السلطة.

يدعى زعماء الحكومة الإسرائيلية الحالية أنه لا يمكن تحقيق السلام فى ظل حكومة فلسطينية تقودها حماس. ولكن بعض المراقبين المطلعين جيدا على تفاصيل الصراع الإسرائيلى الفلسطينى يعتقدون أنه لا يمكن تحقيق سلام دائم بين إسرائيل والفلسطينيين بدون مشاركة حماس. ومنذ ثلاث سنوات تقريبا، وقبل أن يتوقع أحد أن حماس يمكن أن تترأس السلطة الفلسطينية، كتب «إفرايم هاليفى Ephraim Halevy» الرئيس السابق للمخابرات الإسرائيلية (الموساد) يقول:

«إن حماس تمثل ٢٠٪ من المجتمع الفلسطينى. وهى تتمتع بثقل سياسى كبير لأنها جماعة فعالة ونشطة وواعية. ولذلك فإن أى شخص يعتقد أنه من الممكن تجاهل عنصر محورى فى المجتمع الفلسطينى مثل حماس هو - ببساطة - على خطأ. وكذلك فإن أى شخص يعتقد أن حماس يمكن أن تختفى بين ليلة وضحاها هو - أيضا - على خطأ. إن الرئيس محمود عباس (أبو مازن) لن يقتل الآلاف الفلسطينيين كى يقهر الحركات الإسلامية. أرى أن إستراتيجيتنا نحو حماس يجب أن تتسم بالقسوة الشديدة تجاه جناحها الإرهابى، بينما - فى الوقت نفسه - نرسل بإشارات إلى قيادتها السياسية والدينية بأنهم لو انتهجوا خطا معتدلا والتحموا فى نسيج المؤسسة الفلسطينية، فإننا لن نعتبر ذلك تطورا سلبيا. وأعتقد أنه فى النهاية لن يكون هناك مفر من القبول بحماس كشريك فى الحكومة الفلسطينية. وإذا ما حدث ذلك فأعتقد أنه ستكون هناك فرصة لترويضها وإضعاف قوتها التدميرية».

ومهما تعددت التفسيرات لنوايا حماس بعد توليها قيادة السلطة الفلسطينية فإن الإيحاء بأن فوزها الكاسح فى الانتخابات يعنى «نهاية لعملية السلام» هو محض هراء. لقد ماتت عملية السلام عند انتخاب «شارون» رئيسا للوزراء عام ٢٠٠١. وبالأحرى، فإنها قتلت بمكر مبيت أحادى الجانب عندما نفذ شارون انسحابا من غزة وفر بالمقابل غطاء لكل إجراءاته المنفردة. وقد ساعد قيامه بالانسحاب ضد رغبة المستوطنين على تحويل الانتباه عن رفضه إجراء أية مفاوضات مع الفلسطينيين.

وتستمر الإجراءات أحادية الجانب فى تحويل الانتباه عن السياسات الإسرائيلية التى صادرت نصف ما كان يعرف دائما بدولة فلسطين وتقوم بحشر السكان الفلسطينيين - الذين سيزيد عددهم قريبا على عدد السكان اليهود - فى مناطق محاصرة منفصلة إقليميا تقف شاهدا على الاستخفاف بالتعهد بإقامة دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة كما جاء فى خارطة الطريق عام ٢٠٠٣ التى أعلنت رباعيا بواسطة الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى والأمم المتحدة وروسيا.

وقد استمرت الإجراءات أحادية الجانب كسياسة لحزب «كاديما Kadima» الجديد الذى أسسه «إرييل شارون» ويرأسه «إيهود أولمرت» القائم بأعمال رئيس الوزراء والذى يقوم الآن بتشكيل الحكومة الإسرائيلية القادمة. وفى الحقيقة فإن أهداف «كاديما» قد تحققت إلى حد كبير. ووفقا لصحيفة «هآرتس Haaretz»، فإن الحكومة الإسرائيلية قامت عبر السنوات القليلة الماضية بفصل الضفة الغربية بصورة شبه كاملة عن وادى الأردن الذى حولته إلى منطقة يهودية. فبعد توسع مستعمرة «محلة أدوميم» الإسرائيلية الكبيرة شرقا، وتوسع تجمعات وادى الأردن غربا، وتوسع الكتل الاستيطانية تجاه الخط الأخضر، أصبح الفلسطينيون بدون منطقة يقيمون عليها دولة.

وقد قام أولمرت ووزيرة الخارجية «تسيبى ليفنى» بقيادة الحملة الإسرائيلية الدولية لعزل وإذلال حماس ما لم تتنصل تماما من حق المقاومة المسلحة للاحتلال الإسرائيلى وتعترف بحق إسرائيل فى الوجود. ومن المفارقة أن مشروعية هذين المطلبين تكون محل شك عندما يأتيان من «أولمرت» و«ليفنى» بالذات، حيث إنهما «أمراء» من حزب الليكود». ويشير ذلك المصطلح إلى الناشطين سياسيا من أبناء وبنات مؤسسى جماعة الـ «إرجون Irgun» منظمة إرهابية يهودية كان يقودها رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق مناحيم بيجين إبان قيام دولة إسرائيل وارتكبت العديد من المذابح ضد السكان العرب» والذين يدينون - إلى حد كبير - بمراكزهم القيادية إلى تلك البنوة. وقد تميزت الـ «إرجون» بلجوئها للإرهاب فى سبيل الكفاح اليهودى لإقامة دولة إسرائيل ورفضها التام للمطالبات الفلسطينية بأى جزء من فلسطين. ومن هاتين الناحيتين - على الأقل - فإن الـ «إرجون» تشبه «حماس» إلى حد كبير.

وفى الحقيقة، فإن الـ «إرجون» - وفقا للمؤرخ «بينى موريس Benny Morris» - هى التى أرست سابقة استهداف المدنيين بصورة منهجية. وقد كتب «موريس» فى كتابه «ضحايا صالحون Righteous Victims» أن «فورة الإرهاب العربى عام ١٩٣٧ أطلقت موجة من تفجيرات الـ «إرجون» ضد تجمعات العرب وحافلاتهم، مما شكل بعدا جديدا للصراع». فبينما كان العرب فى السابق يطلقون الرصاص بصورة متفرقة على السيارات والمارة وأحيانا يلقون بقنبلة يدوية مما يؤدى عادة إلى مقتل أو جرح عدد قليل من المتفرجين أو الركاب، غير أنه الآن - وللمرة الأولى - بدأ زرع قنابل كبيرة فى مراكز تجمع العرب وجرى قتل العشرات بلا تمييز والتمثيل بجثثهم». ويلاحظ «موريس» أن «ذلك الابتكار سرعان ما وجد من يقلده من بين العرب».

بقدر علمى، لم ينتقد «أولمرت» أو «ليفنى» أنشطة الـ «إرجون» الإرهابية أو يتنصلا منها، مما يضفى على إدانتهم لحماس لمسة نفاق. وليس المقصود من ذلك أن تفجيرات حماس الانتحارية ليست بأى حال من الأحوال أقل من همجية، بالضبط كما كان استهداف الـ «إرجون» للمدنيين العرب. وإذا لم تتوقف تلك الأعمال الإرهابية فسيكون ذلك سببا كافيا لعزل حكومة حماس وإذلالها. ويعنى ذلك أن تاريخ الليكود نفسه يؤكد أن الإرهابيين يمكن أن يغيروا سياستهم لو توفر لديهم سبب للاعتقاد أن الأهداف القومية الشرعية يمكن تحقيقها بالوسائل السياسية.

لقد عوضت الحكومات الإسرائيلية افتقارها لمهارة صنع السلام بمهارة لا تبارى فى ابتكار أساليب لتحويل الانتباه بهدف خداع مواطنيها وكثيرين غيرهم بشأن نواياها الحقيقية. ومن أحدث تلك الأساليب «تحويل الكتل الاستيطانية الكبيرة»، وهى عملية لضم المستوطنات الكبيرة لإسرائيل رسميا، مع الانسحاب - فى الوقت نفسه - من مستوطنات أخرى. ومن المفترض أن يؤدى ذلك فى النهاية إلى حدود إسرائيلية دائمة مع تطبيق الحل الذى اقترحه الرئيس «بوش» بإقامة دولتين.

إن «أولمرت» القائم بأعمال رئيس الوزراء وأعضاء من وزارته يتحدثون الآن كثيرا عن هذا «التحول». إن المعلقين الإسرائيليين يعلنون الآن هزيمة المستوطنين ونهاية حلمهم فى «أرض إسرائيل الكبرى». وتعود إمكانية تحقيق كل ذلك بصورة أحادية من جانب إسرائيل إلى قيادة «أولمرت» البارعة وصعود نجم حماس، حيث لا يستطيع أحد بالتأكيد أن يدعى بأنها شريك محتمل للسلام. وكما أشار جدعون ليفى المعلق بـ «هآرتس»، فـ «بينما يشير النقاد واستطلاعات الرأى إلى تحول لليسار تؤيد فيه الغالبية إقامة دولة فلسطينية وإخلاء المستوطنات، إلا أن الخريطة السياسية الحقيقية قد اتخذت منحى حادا نحو اليمين». إن «الإجماع الجديد» بشأن إبقاء الكتل الاستيطانية الكبيرة على الجانب الإسرائيلى من الحدود يقوم على أساس إجماع سابق مزعوم على عدم السماح بمنفذ للفلسطينيين إلى أى جزء من القدس الشرقية. والنتيجة هى المطالبة بحتمية احتفاظ إسرائيل بمناطق فلسطينية تصل إلى نصف الضفة الغربية. ويعلق «ليفى» بأن ذلك يعد فى إسرائيل هزيمة للمستوطنين وتحولاً نحو اليسار. يقول «ليفى»: «إن من يقولون أن «حلم إسرائيل الكبرى» قد تنازل لـ «تقسيم الأرض» إنما يخدعون الوطن. وينطبق الشىء نفسه على من يؤكدون أن الإسرائيليين الآن يعترفون بالحاجة إلى إنهاء الاحتلال. إن الحقيقة

أى شخص يعتقد أنه من الممكن تجاهل عنصر محورى فى المجتمع الفلسطينى مثل حماس هو - ببساطة - على خطأ. وكذلك فإن أى شخص يعتقد أن حماس يمكن أن تختفى بين ليلة وضحاها هو - أيضا - على خطأ



أسوأ من ذلك بكثير، فالخطاب الإسرائيلى مستمر فى تبنى الحلم القومى الإسرائيلى الأكبر، ألا وهو الحصول على الكعكة والتهامها».

لا يوحى أى مما سبق بأنه لن يكون حتى لدى أى حكومة إسرائيلية تسعى للسلام بإخلاص المبرر للتوجس من أى سلطة فلسطينية تقودها حماس، على ضوء معارضتها الرسمية لوجود الدولة اليهودية ولجوئها ـ حتى وقت قريب ـ إلى التفجيرات الانتحارية الهمجية. ولكن وجود حكومة إسرائيلية تقدر السلام أكثر من الاستيلاء على مزيد من الأراضى لم يكن ليمهد الطريق لانتصار حماس فى الانتخابات، وهو بالضبط ما فعلته حكومة «شارون» بلجوئها للإجراءات أحادية الجانب. وكذلك فإن مثل تلك الحكومة لم تكن لتتعامل مع تلك المخاوف باللجوء للتهديد بـ «تجويع» الفلسطينيين. كان هذا الاقتراح المهين من بنات أفكار «دوف فايسجلاس» كبير مستشارى «أولمرت» وكبير مستشارى «شارون» سابقا، الذى شرح لزملائه ـ ساخرا ـ أنه إنما أراد مساعدة الفلسطينيين على إنقاص وزنهم.

وتقارن «هاآرتس» ـ فى مقال نشرته ـ بين هذا السلوك الساخر المستخف وبين سلوك حماس الذى تصفه بأنه «أكثر مسئولية» من سلوك الحكومة الإسرائيلية. يقول المقال: «يتحدث مندوبو حماس عن عهد جديد وعن التحول من الإرهاب إلى السياسة وعن استمرار مقاومة الاحتلال بوسائل أخرى وعن التطلع إلى هدنة طويلة الأمد».

وكما لو أن هناك تصميماً على تأكيد اتهامات «هاآرتس»، أعلن «آفى ديختر» الرئيس الأسبق لجهاز الأمن الإسرائيلى (الشين بيت) والنجم الحالى فى حزب «كاديما» ـ والمفترض أنه حزب وسطى ـ أنه عندما يقع العمل الإرهابى التالى فسيكون إسماعيل هنية نفسه على قائمة الأهداف المرشحة للاغتيال بواسطة قوات الدفاع الإسرائيلية. وقد زايد «شاؤول موفاز» وزير الدفاع الإسرائيلى على ذلك فأعلن بعد ذلك أن جميع عناصر حماس الأعضاء فى المجلس التشريعى الفلسطينى ـ وعددهم أربعة وسبعون ـ سيكونون أيضا مرشحين للاغتيال المستهدف.

ويعتقد الإسرائيليون ـ باستثناء القليل منهم ـ أنه إذا ما تم قبول حماس كـ «شريك للسلام» فإنها يجب أولا أن تعترف بدولة إسرائيل، حيث أقرت إسرائيل منذ وقت طويل بحق الفلسطينيين فى إقامة دولة لهم فى الضفة الغربية وغزة. ولكن ذلك غير صحيح. بل إن صحفيا واسع الإطلاع مثل «سيفر بلوتزكر» يعتقد أن هذه الكذبة تشير إلى مدى سيطرتها على خيال الإسرائيليين. ذكر «بلوتزكر» فى المقال المشار إليه أن الافتراض الأساسى الذى سيطر على الإسرائيليين منذ تفاهمات أوسلو أنه بينما قد يضطرون للتفاوض مع الشعب الفلسطينى حول الحدود والقدس، فإنهم لن يتطرقوا لحق إسرائيل الأساسى فى الوجود كدولة يهودية وحق الفلسطينيين فى الوجود كدولة فلسطينية. وطبقا لـ «بلوتزكر» فإن هذا الافتراض الأساسى قد «تزعزع تماما» الآن بعد فوز حماس.

من الواضح أنه لم يتبادر لذهن «بلوتزكر» أن التفاوض بشأن الحدود والقدس ليس مجرد مناورة بلاغية بالنسبة للفلسطينيين الذين رأوا بأنفسهم الأرض تسحب ـ حرفيا ـ من تحت أقدامهم، حيث تضيف إجراءات «شارون» الأحادية لإسرائيل مساحات واسعة مما كان مقدرا أن يكون دولة فلسطين. يؤكد «بلوتزكر» أن الشعب الفلسطينى قد سلم مقاليد الحكم ـ من خلال انتخابات ديمقراطية ـ إلى حركة تتبنى إقامة مملكة إسلامية من البحر الأبيض المتوسط وحتى نهر الأردن، يسمح فيها لليهود بالبقاء كأقلية دينية لها حقوق محدودة. ولا يعود ذلك بنا للخلف أربعة عشر عاما وإنما مائة وأربعين عاما.

الوقع أن حماس لا تطالب بمملكة إسلامية أو خلافة وفقا لرؤية «القاعدة» التى تنصلت منها حماس بكل حسم. بل أن الفلسطينيين يمكن ـ من واقع خبرتهم العملية منذ حرب ١٩٦٧ ـ أن يتبنوا رأى «بلوتزكر» استنادا إلى مبررات أقوى كثيرا مما ذكر.

لقد سلم الشعب اليهودى مقاليد الحكم ـ من خلال انتخابات ديمقراطية ـ إلى حركة تتبنى إقامة مملكة يهودية من البحر الأبيض المتوسط وحتى نهر الأردن، يسمح فيها للفلسطينيين بالبقاء كأقلية دينية لها حقوق محدودة. ولا يعود ذلك بنا للخلف أربعة عشر عاما وإنما ألف عام.

الواقع أن دولة إسرائيل قامت بتوسيع حدودها إلى أكثر من ٥٠٪ فوق ما خصصته الأمم المتحدة للدولة اليهودية عام ١٩٤٧، بينما تقلصت بالفعل المساحة المخصصة للفلسطينيين بمقدار ٦٠٪ تقريبا، بخلاف جميع المستوطنات والأراضى الأخرى التى صادرتها إسرائيل فى الضفة الغربية.

لو أعلنت حماس اعترافها بشرعية إسرائيل فقط على نصف المناطق التى شكلت الدولة اليهودية قبل حرب ١٩٦٧، فإن ذلك الإعلان لن يؤخذ بالتأكيد على محمل الجد من قبل أى جهة فى إسرائيل كاعتراف بحق إسرائيل فى الوجود. ومع ذلك، فهذا تماما هو ما وجده الإسرائيليون إعلانا مقبولا من قبل حكومتهم تجاه شرعية قيام دولة فلسطينية، والذى يلزم الفلسطينيين بالاعتراف بدولة إسرائيل فى حدود ما قبل ١٩٦٧ وليس نصفها فقط، بل وأكثر من ذلك بكثير. ولذلك فقد صرح إسماعيل هنية أن الاعتراف الفلسطينى بإسرائيل سوف يتوقف على «أى إسرائيل» تتطلب الاعتراف. هل هى إسرائيل فى حدود ما قبل ١٩٦٧؟ أم هى إسرائيل التى ضمت أكثر من نصف المناطق الفلسطينية الباقية؟ وإذا كانت إسرائيل الأخيرة هى المقصودة فإن حماس لن تعترف بها. وأضاف أنه إلى أن يعرف الفلسطينيون أى الدولتين هى التى تتطلب اعترافا فلسطينيا، فليس على الفلسطينيين الاستجابة لذلك الطلب.

ما الذى هو غير منطقى فى هذا الموقف لحماس؟ ما هو الأساس الذى يستند إليه النقد الإسرائيلى والأمريكى لسياسة حماس التى تطابق تماما سياسة إسرائيل تجاه دولة فلسطينية؟ إن طرح تلك الأسئلة هو إقرار بالمبدأ الرئيسى المنظم لحكومة ترأسها حماس، وهو ليس القضاء على الدولة اليهودية. حيث ردد العديد من قادة حماس بالفعل أن تلك ليست سياسة قائمة لحماس ـ وهى فى جميع الأحوال فوق مقدرة حماس على تنفيذها، لأن السياسات الإسرائيلية الانتحارية هى فقط القادرة على تحقيق ذلك ـ وإنما سياسة حماس هى طلبها المتصلب بمبدأ المعاملة بالمثل.

إن المطالبة بالمعاملة بالمثل هو أيضا رد حماس على الشرطين الآخرين المطروحين من قبل إسرائيل للتعامل مع سلطة فلسطينية تتزعمها حماس، ألا وهما قبول كافة الاتفاقيات السابقة ونبذ العنف. ولكن من المؤكد أن الإسرائيليين لا يستطيعون تصديق أن حماس لا تدرى أن إسرائيل لم تحترم اتفاقياتها السابقة مع الفلسطينيين. وعند الحديث عن قبول إسرائيل المزعوم أمام الرئيس «بوش» وزعماء عالم آخرين لخارطة الطريق، نجد أن «شارون» أضاف دائما الشرط المقيد «وفقا لقبول الحكومة الإسرائيلية» والتى أضافت عند قبول خارطة الطريق أربعة عشر شرطا أفرغتها من نصوصها الرئيسية. فعلى سبيل المثال، تطالب خارطة الطريق بوضوح أن يبدأ كلا الطرفين فورا فى تنفيذ التزاماتهما. وهى ـ فى حالة إسرائيل ـ إنهاء الإنشاءات الاستيطانية وإزالة النقط الحدودية غير الشرعية، وهى ـ فى حالة السلطة الفلسطينية ـ القضاء على الإرهاب، بغض النظر عن قيام الطرف الآخر بتنفيذ التزاماته من عدمه. وقد تعهدت الحكومة الإسرائيلية بأنها لن تنفذ أيًا من التزاماتها حتى يوقف الفلسطينيون كل أشكال العنف والتحريض ضد إسرائيل ويقوموا بـ «تفكيك البنية التحتية للإرهاب».

لقد صرح الاتحاد الأوروبى ـ بل والولايات المتحدة ـ علنا بأن مصادرة إسرائيل لمساحات واسعة من الضفة الغربية هو انتهاك للقانون الدولى وخارطة الطريق وقرارات الأمم المتحدة. لقد كانت «كوندوليزا رايس» ـ وليس متحدثًا باسم حماس ـ هى التى صرحت فى مؤتمر

مهمـــا تعـــددت التفسيرات لنـوايـا حمـاس بعـد توليهـا قيـادة السلطة الفلسطينيـة فإن الإيحـاء بأن فوزهـا الكاسـح فى الانتخـابات يعنى «نهاية لعملية السلام» هو محض هراء



صحفى عقب لقائها الأخير فى واشنطون مع وزيرة الخارجية الإسرائيلية «تسيبى ليفنى»، بأن «موقف الولايات المتحدة تجاه الإجراءات الأحادية الإسرائيلية واضح تماما ولم يتغير. فلا يجوز لأى طرف أن يحاول مسبقا وبصورة أحادية تحديد نتيجة اتفاق وضع نهائى. ويجب ترك ذلك للوضع النهائى». وأضافت «رايس» أن خطاب الرئيس «بوش» إلى رئيس الوزراء «إرييل شارون» الذى يؤكد الحاجة إلى مراعاة «المراكز السكانية الجديدة» فى الضفة الغربية لا يمنح ترخيصا لأى طرف كى «يسعى لتغيير تلك المراكز مسبقا بوضع اليد أو بالشفعة، حيث تترك تلك القضايا لمفاوضات الوضع النهائى».

وبالنسبة لمسألة العنف، أعلنت حماس «التهدئة» منذ عام مضى، وحافظت عليها إلى حد كبير رغم استئناف إسرائيل للاغتيالات المستهدفة التى كانت قد أوقفتها استجابة لمبادرة حماس. وقد عرضت حماس الآن التقيد بهدنة طويلة الأمد، وما زالت تنتظر الرد الإسرائيلى. وسواء سرحت حماس جناحها «الإرهابى» كتائب عز الدين القسام، أو لم تفعل، فمن المرجح أن حماس المسئولة عن حكم ورفاهية الشعب الفلسطينى ستكون كيانا مختلفا تماما عن حماس التى تعمل ضد حكومة فلسطينية. حماس الآن هى الحكومة، وهى تدرك أنها لا تستطيع الجمع بين الحكم والعمل كقوة إرهابية فى الوقت نفسه.

والحقيقة أنه لو اعترفت حماس غدا بدولة إسرائيل وفككت «بنيتها التحتية للإرهاب» فلن يكون هناك أدنى احتمال لاستئناف عملية السلام بدون ممارسة الولايات المتحدة ضغط كبير على إسرائيل، ولا يوجد احتمال يذكر لأن تمارس الولايات المتحدة مثل هذا الضغط. لقد ذهبت إسرائيل بعيدا فى قراراتها أحادية الجانب بحيث أصبح من الصعب عليها إعادة الدخول فجأة فى عملية سلمية تتطلب موافقة فلسطينية على أى وجود إسرائيلى مستمر فى الضفة الغربية. ولن توافق حماس على عملية سلمية تتخلى عن مبدأ الموافقة الفلسطينية المنصوص عليها فى الاتفاقيات السابقة والتى أعاد الرئيس «بوش» والمجلس الأوروبى التأكيد عليها ومع ذلك، فللمفارقة، ونتيجة لفوز حماس بالانتخابات، فربما زاد - بدلا من أن ينقص - احتمال التوصل لتسوية مؤقتة تتحول فى النهاية إلى اتفاق بين الإسرائيليين والفلسطينيين. إن كلا من حماس والحكومة الإسرائيلية يعتقد أن مصالحهم تقتضى فترة طويلة من التعايش الصامت غير المعلن، وليس عودة متعجلة إلى عملية السلام. إن التحرر من ضغوط استئناف عملية سلام سوف يسمح لإسرائيل بمواصلة نواياها المبيتة للقيام بالمزيد من عمليات فك الارتباط الأحادية من بعض مناطق الضفة الغربية الواقعة تحت سيطرة إسرائيل، لضمان أغلبية سكانية يهودية على الجانب الإسرائيلى من الحدود. أما بالنسبة لحماس، فإن المزيد من الانسحاب الإسرائيلى سيوفر متنفسا تحتاجه حماس لاستئناف بناء المؤسسات الفلسطينية وإعادة تأهيل المجتمع الفلسطينى والحياة الاقتصادية التى دمرها الاحتلال الإسرائيلى.

بالنسبة للإسرائيليين، فإن وقفا مطولاً لإطلاق النار سيكون متسقا مع إصرار «شارون» على أن مفاوضات الوضع النهائى يجب أن تسبقها ترتيبات مؤقتة طويلة الأمد. وبالنسبة لحماس، فإن وقف إطلاق النار سيتوافق مع وضعها باعتبارها ليست بعد مستعدة لأن تقدم لإسرائيل ما هو أكثر من هدنة طويلة الأمد. وكما علق مؤخرا «رامى خورى»، وهو صحفى لبنانى بارز، يبدو من الممكن أنه سيكون هناك «تفاهم بين إسرائيل وحماس لا يجرؤ أحد على الحديث عنه» كما جاء فى عنوان لأحد مقالاته الأخيرة.

وإذا ما صمدت تلك الترتيبات غير الرسمية، فمن الممكن أن تؤدى بمرور الوقت إلى مفاوضات ثنائية واتفاقيات أكثر علانية وربما حتى معاهدة سلام.

ولكن ذلك لن يتحقق إلا بالتزام الطرفين بشروط عديدة. فيجب على حماس أن تطبق الهدنة التى عرضتها وأن تمنع الإرهاب ليس فقط من قبل مقاتليها ولكن أيضا من قبل الجهاد الإسلامى وكتائب الأقصى والجماعات الإرهابية الأخرى. ولكن لكى تفلح حماس فى تحقيق ذلك، فعلى إسرائيل أن توقف اغتيالاتها المستهدفة وغاراتها على المناطق الفلسطينية. والأهم من ذلك، على إسرائيل أن تعلن صراحة أن الخطوط التى تنسحب إليها نتيجة لعمليات فك الارتباط أحادية الجانب التى تقوم بها ليست حدودا نهائية، وأن الحدود النهائية لن تتقرر إلا أثناء المفاوضات مع الفلسطينيين. ولو كانت لمثل هذا الإعلان أية مصداقية، فعلى إسرائيل التوقف عن توسيع وجودها فى الضفة الغربية كى تؤكد أن الخطوط «المؤقتة» لا يمكن التراجع عنها.

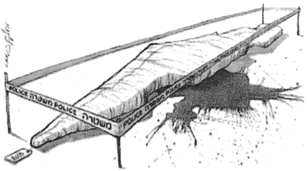
ومن المفارقة أن مثل هذه الترتيبات التى ستترك الباب مفتوحا - بعد بضع سنوات - لقرار أكثر رسمية، لن تكون - على الأرجح - ممكنة إلا فى ظل سلطة فلسطينية تقودها حماس، لأن مصداقية حماس تسمح لها بتفسير قبولها لفترة تحول تتسق مع رفضها تقديم تنازلات رسمية لإسرائيل دون اعتراف الأخيرة بالحقوق الفلسطينية وبمبدأ المعاملة بالمثل. وفى الوقت نفسه، يمكن لحماس اثناء فترة التحول أن تركز على تطهير البيت الفلسطينى الذى لطخه فساد «فتح». وعلى النقيض مباشرة من إصرار «فتح» أن إصلاح مؤسسات السلطة الفلسطينية يجب أن ينتظر قيام الدولة الفلسطينية أولا، فقد أكدت حماس دائما - وكذلك الإصلاحيون الفلسطينيون غير الإسلاميين - أن وجود حكم فلسطينى نزيه ناجح هو شرط مسبق لتحقيق الأهداف القومية الفلسطينية.

ربما يتضح أن التوقعات باعتدال حماس كانت على خطأ. وإذا ما حدث ذلك فسيكون هناك من الوقت ما يكفى أمام إسرائيل والأمم الأخرى لفرض العقوبات التى - عندئذ - ستستحق تماما على حماس والسلطة الفلسطينية. ولكن التصريحات الأخيرة للعديد من قادة حماس حول أولوياتهم الجديدة تشير بقوة إلى أن هناك بالفعل تغيرات فى فكرهم. فعلى سبيل المثال، صرح الدكتور نصر الدين شاعر، نائب رئيس الوزراء الفلسطينى إسماعيل هنية، لـ «هآرتس» فى ٢٧ مارس ٢٠٠٦ قائلا: «إن الحكومة الجديدة لا ترفض التنسيق والتعاون مع أى طرف - بما فى ذلك إسرائيل - لحل المشاكل الروتينية». إن تسرع الحكومة الإسرائيلية فى سعيها للتشكيك بمصداقية حماس وإسقاطها يقوض إمكانية معرفة الحقيقة. كما يهدد ذلك أيضا بالقضاء على أية إمكانية محتملة لتبنى حماس خطا معتدلا.

وقد حذر الجنرال الإسرائيلى «شلومو بروم» الذى عمل حتى وقت قريب كنائب لمستشار الأمن القومى للتخطيط الإستراتيجى فى قوات الدفاع الإسرائيلية، أنه إذا ما فشلت حكومة حماس بسبب سياسة إسرائيل لعزلها وإسقاطها، فإن الإخفاقات والصعوبات التى يعانيها السكان الفلسطينيون لن تنسب عندئذ إلى حماس بل إلى إسرائيل والغرب. والمقصود من ذلك، على الأرجح، توسيع الصدع بين الولايات المتحدة وكل من الفلسطينيين والعالم الإسلامى. ومن جهة أخرى، فإن وجود سياسة إسرائيلية وغربية للاتصال والتفاوض مع حماس قد يشجع على مزيد من التغييرات الأساسية فى سياساتها و، فى النهاية - فى عقيدتها. وهناك ميزة كبيرة تتفوق فيها إستراتيجية الاتصال بحماس على استراتيجية عزلها وتقويض سلطتها، ألا وهى أن إسرائيل سيكون بمقدورها - إذا ما اتضح أن سياسة الاتصال قد فشلت - أن تتحول عن تلك السياسة إلى سياسة المواجهة. أما التحرك فى الاتجاه المعاكس فلن يكون ممكنا. ومن المرجح أن يكون ثمن الفشل هو القضاء على مشروع الدولتين لحل للصراع، بكل ما يحمله ذلك لمستقبل الدولة اليهودية التى تقع ضمن منطقة ربما يقع فيها «صدام للحضارات». ■

لقد عوضت الحكومات الإسرائيلية افتقارها لمهارة صنع السلام بمهارة لا تبارى فى ابتكار أساليب لتحويل الانتباه بهدف خداع مواطنيها وكثيرين غيرهم بشأن نواياها الحقيقية





إسرائيل: خطة "الانطواء"!

صالح محمد النعامى

على الرغم من أن نتائج الانتخابات البرلمانية الإسرائيلية الأخيرة قد أفضت إلى تغيير الخارطة الحزبية فى الدولة العبرية بشكل واضح، إلا أن هذه النتائج لم تمنح تفويضاً واضحاً وجازماً لحزب بعينه لتطبيق برنامجه السياسى، الأمر الذى ينذر بمحدودية هامش المناورة أمام أى حكومة ستشكل فى الدولة العبرية. لقد أدت هذه الانتخابات إلى دخول أحزاب لأول مرة البرلمان، فى حين تهاوت أحزاب كبيرة لتصبح أحزاباً هامشية، فى الوقت التى لم تنجح أحزاب ذات ثقل فى تجاوز نسبة الحسم. ونحن هنا سنحاول الإجابة على عدد من الأسئلة المحورية المتعلقة بنتائج هذه الانتخابات. فما الذى أدى إلى هذه الانقلابات فى الخارطة الحزبية الإسرائيلية، وما هى سيناريوهات تشكيل الحكومة القادمة فى ظل نتائج الانتخابات، وما مدى استقرار مثل هذه الحكومة؟ وكيف ستؤثر نتائج الانتخابات على مستقبل التسوية، وعلاقات إسرائيل مع الشعب الفلسطينى ومحيطها العربى والدولى؟ وكيف عكست نتائج الانتخابات الاستقطاب الاثنى فى المجتمع الإسرائيلى؟

الانقلابات الحزبية وأسبابها

من الأخطاء الشائعة التى يقع فيها عادة معظم الذين يتناولون الشأن الحزبى الإسرائيلى أنهم يصنفون هذه الأحزاب كأحزاب يمين ووسط ويسار دون أن تعكس منطلقات هذه الأحزاب دلالات هذه المصطلحات المتعارف عليها فى العالم. فمثلاً، من ناحية البرامج الاقتصادية الاجتماعية نجد أن برامج أحزاب اليسار فى إسرائيل وبخلاف ما هو عليه الحال فى أحزاب اليسار فى أرجاء العالم تنادى باقتصاد السوق وغيرها من السياسات الاقتصادية الليبرالية. ومن ناحية سياسية، نجد أن أحزاب يسار الوسط واليسار تتبنى مواقف متطرفة فى تصورها للتسوية مع الشعب الفلسطينى، فحزب العمل الذى يمثل يسار الوسط ينادى بضم التجمعات الاستيطانية الكبرى فى الضفة الغربية للدولة العبرية، فى حين أن حركة «ياحد»، التى تمثل أقصى اليسار الصهيونى تنادى بالإبقاء على القدس المحتلة كعاصمة «موحدة وأبدية» للدولة العبرية. هذه المقدمة ضرورية قبل الخوض فى قراءة نتائج الانتخابات لاستيعاب دلالاتها وتداعياتها.

لقد حل حزب «كاديما» بزعامة رئيس الوزراء إيهود أولمرت فى المرتبة الأولى بين الأحزاب من حيث عدد المقاعد وحصل على (٢٩ مقعداً)، وهو عدد متدن مقارنة بما قد توقعته له استطلاعات الرأى قبل شهر من الانتخابات، حيث توقعت هذه الاستطلاعات أن يحصل هذا الحزب على ٤٠ مقعداً على الأقل. لقد خاض «كاديما» هذه الانتخابات لأول مرة بعد أن قام رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق أرئيل شارون بالانشقاق عن حزب «الليكود»، بعد أن تبين له أن معظم نواب الحزب يرفضون خطة «فك الارتباط»، وبعدما شعر أن هناك من يسعى للإطاحة به من زعامة الحزب ورئاسة الوزراء، وشكل هذا الحزب، الذى انضم له فيما بعد عدد من قادة حزب العمل أبرزهم زعيم الحزب السابق شمعون بيريس وحاييم رامون وداليا اتسيك، وعدد من الساسة المنتمين للأحزاب الأخرى. وإن كان فى حكم المؤكد أن أولمرت هو الذى سيشكل الحكومة القادمة، إلا أن مهمته ستكون شاقة وقاسية جداً، إذ أن حصول الحكومة على ثقة البرلمان يوجب أن يدعمها ٦١ نائباً على الأقل، وهذا يعنى أن «كاديما» سيحتاج للائتلاف مع عدد كبير من الأحزاب ذات الأجندة المتعارضة والمتناقضة من أجل أن تحظى الحكومة القادمة بتأييد أغلبية مستقرة فى البرلمان، الأمر الذى يعنى أن هامش المناورة أمام أولمرت سيكون محدداً للغاية.

انهيار «الليكود» بهذا الشكل المدوى، عجل بنشوب حرب وراثة، هدفها الإطاحة بنتنياهو، إذ اتفق معظم قادة الحزب على أنه يتوجب عزل نتنياهو الذين اعتبروه المسؤول عن خسارة الحزب

فى نفس الوقت فإن ضمان استقرار هذه الحكومة وبقائها لمدة أربع سنوات أخرى سيكون محل شك كبير بغض النظر عن الأحزاب التى ستنضم إليها، وذلك بسبب التباينات الكبيرة بين هذه الأحزاب. وواضح تماماً أن حصول حزب «كاديما» على العدد الأكبر من المقاعد يدل على تأييد قطاع كبير من الإسرائيليين للخطوات أحادية الجانب التى وعد بها الحزب على صعيد العلاقة مع الشعب الفلسطينى، سيما خطة «الانطواء» التى أعلن عنها أولمرت، لكن هذا التأييد لم يكن كبيراً كما كان يراهن أولمرت، الأمر الذى سيضطره للتحالف مع أحزاب تعارض أو تتحفظ على هذه الخطة، وهذا ما سيعقد فرص تطبيق هذه الخطة. وهناك من يعزى عدم حصول حزب «كاديما» على عدد أكبر من المقاعد، إلى قضايا الفساد التى أثيرت ضد زعيم الحزب أولمرت وعدد من قادته، سيما الوزير تساحى هنغبى.

١- من ناحية ثانية لا خلاف على أن الخاسر الأكبر فى هذه الانتخابات كان حزب «الليكود»، فهذا الحزب الذى كان الحزب الأكبر فى البرلمان السابق، ويهيمن على أربعين مقعداً (ثلث عدد مقاعد الكنيست)، تراجع ليحصل على ١١ مقعداً فقط.

ومن المؤكد أن انهيار «الليكود» بهذا الشكل المدوى، عجل بنشوب حرب وراثة، هدفها الإطاحة بنتنياهو، إذ اتفق معظم قادة الحزب على أنه يتوجب عزل نتنياهو الذين اعتبروه المسؤول عن خسارة الحزب، وقد تشكل حلف مكون من الوزراء السابقين، أبرزهم: سيلفان شالوم وليمور ليفنات ودانى نافيه ويسرائيل كاتس للعمل بشكل واضح وعلنى للاطاحة

التجربة دلت أن شاس عندما تقع ساعة الاختبار فى كل ما يتعلق بالاتفاقيات السياسية أو الخطط أحادية الجانب، فإنها تترك الحكومة بسرعة. فقد عارضت «شاس» اتفاقيات أوسلو، كما أن شاس كانت معارضة قوية لخطة «فك الارتباط»

بنتيناهو وإقصائه من زعامة الحزب. النتيجة ذات الدلالة أن جمهور حزب الليكود وجمهور الناخبين الإسرائيليين بشكل عام عاقب نواب الليكود الذين عارضوا خطة «فك الارتباط»، وتحدوا زعامة شارون، وهم الذين أطلق عليه «المتمردون»، حيث أن معظم هؤلاء النواب لم ينجحوا فى الاحتفاظ بمقاعدهم فى البرلمان الجديد.

من ناحية ثانية تراجع تحالف لأحزاب اليمين المتطرف المكونة من حزب الاتحاد الوطنى وحزب «المفدال»، من عشرة مقاعد إلى تسعة مقاعد. مع العلم أن جمهور هذا التحالف محسوب عموماً على التيار الدينى الصهيونى، الذى ينتمى إليه معظم المستوطنين فى الضفة الغربية. وهذا يعنى أن المستوطنين وقيادتهم السياسية تلقوا ضربة قوية وقاسية ومحرجة، إذ أن هذه النتيجة دلت على البون الشاسع الذى يفصل قيادة المستوطنين عن أغلبية الإسرائيليين. دلت هذه النتائج على أن اليمين الإسرائيلى الكلاسيكى الذى يمثله الليكود وتحالف المفدال و«الاتحاد الوطنى»، والقائم على الرفض المطلق لإخلاء أى مستوطنة فى الضفة الغربية فشل فى إقناع الجمهور الإسرائيلى بوجهة نظره هذه فشلاً ذريعاً. وبات فى حكم المؤكد أن هناك جمهوراً إسرائيلياً واسعاً وعريضاً يؤيد القيام بخطوات أحادية الجانب تقوم على إخلاء بعض المستوطنات من أجل الاحتفاظ بأغلبية هذه المستوطنات، كما ينادى بذلك حزب «كاديما»، ويتساوق معه فى ذلك حزب «العمل»، وإن كان هذا التأييد ليس حاسماً، كما عبرت عن ذلك نتائج الانتخابات. ومقابل انخفاض قوة التيار الدينى الصهيونى، فقد عزز التيار الدينى الأرثوذكسى الذى يتكون من حركتى «شاس» و«يهدوت هتوراة» من قوته فى البرلمان الجديد، حيث زاد تمثيل هذا التيار بنائبين. من ناحية ثانية حافظ حزب العمل على تمثيله فى البرلمان، ومع ذلك فإن هذه النتيجة تعتبر إنجازا لزعيم الحزب عمير بيريتس، حيث إن الحزب حقق هذه النتيجة على الرغم من انسحاب أحد ابرز مؤسسيه وزعيمه السابق شمعون بيريس ومعه عدد من أبرز قادته. ولا شك أن النتيجة التى حصل عليها حزب «المتقاعدين» الذى سيمثل لأول مرة فى الكنيست قد مثلت مفاجأة كبيرة ومدوية، بعد أن فاز الحزب بسبعة مقاعد. ولا يختلف اثنان من علماء الاجتماع السياسى على أن النتيجة التى حصل عليها هذا الحزب تمثل احتجاجاً على السياسات الاقتصادية الاجتماعية التى اتبعتها الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة فى العقدين الأخيرين والتى عمدت إلى تقليص مخصصات الضمان الاجتماعى للطبقات الضعيفة، وضمنها المتقاعدين، مع العلم أن مستوى الحياة المرتفع فى الدولة العبرية زاد من متوسط عمر الإسرائيليين، الأمر الذى أوجد عدداً كبيراً من المتقاعدين، حيث يصل عددهم إلى ٧٥٠ ألف متقاعد، وهذا عدد كبير جداً مقارنة بالعدد الإجمالى للإسرائيليين. وإن كان هذا الحزب قد حقق مفاجأة بدخوله بهذه الزخم إلى البرلمان الجديد، فإن حزب «شينوى» الذى يمثل التيار العلمانى الليبرالى، والذى كان يعتبر ثالث أكبر حزب فى البرلمان السابق وكان ممثلاً بخمسة عشر نائباً، قد فشل فى تجاوز نسبة الحسم، ولم يعد ممثلاً بأى نائب فى البرلمان الجديد.

أما أقصى اليسار الصهيونى الذى يمثله حزب «ياحد» فقد تقلص من خمسة مقاعد إلى أربعة، وهذه تمثل ضربة قوية لزعيم الحزب يوسى بيلين. وهذا يعنى أن يسار الوسط واليسار الصهيونى ممثل فقط بـ ٢٣ نائباً فقط فى البرلمان، وهذا عدد نواب حزبى «العمل» و«ياحد»، الأمر الذى يعنى أن هذا اليسار لم يعد بديلاً جدياً فى التنافس على السلطة فى الدولة العبرية. بالنسبة للأحزاب العربية, فقد زادت من قوتها بشكل واضح، وارتفعت من ثمانية مقاعد إلى عشرة، وجاءت هذه النتيجة بعكس كل التوقعات، وهذا يدل على أن الأحزاب الصهيونية فشلت عملياً فى إقناع فلسطينيى ٤٨ بالتصويت لها كما كان يحدث فى الانتخابات السابقة. ومما لا شك فيه أنه كان بإمكان هذه الأحزاب أن تحصل على عدد أكبر من المقاعد لو اتحدت.

سيناريو تشكيل الحكومة

على الرغم من أن حزب «كاديما» الذى وجد من العدم قد فاز بأكبر عدد من المقاعد فى الانتخابات الأخيرة، إلا أن هذا العدد (٢٩ مقعداً) لم يكن كافياً لمساعدة زعيم الحزب إيهود أولمرت لتشكيل حكومة مستقرة، حيث إن هامش المناورة أمامه بات محدوداً جداً. فلو تحقق ما كانت تتوقع استطلاعات الرأى من حصوله على ٤٠ مقعداً لكان بالإمكان القول أن أولمرت عندها سيشكل الحكومة التى يرى أنها الأنسب لتنفيذ مخططاته السياسية ذات البعد الاستراتيجى، وبالظروف الائتلافية التى يراها مناسبة. ومع ذلك، فإن الاعتبار الأهم من بين اعتبارات هامة أخرى، الذى على أساسه يمكن لأى حزب أن يشارك فى الحكومة، هو القبول بخطة «الانطواء»، التى سنناقشها لاحقاً.

يعى أولمرت أن الشريك الطبيعى له فى تنفيذ خطة الانطواء هو حزب العمل، وهنا يتوجب أن نذكر أن الشروط التى وضعها زعيم حزب العمل عمير بيريتس قبل الانتخابات لانضمامه لحكومة بزعامة أولمرت لا تتضمن أى شرط سياسى، بل يتضمن شروطاً ذات علاقة بما يزعم بيريتس أنه «ثورة اجتماعية»، ولعل أبرز هذه الشروط رفع مستوى الحد الأدنى للأجور إلى ألف دولار، وغيرها من الشروط الاقتصادية الاجتماعية. ويعتبر حزب المتقاعدين أيضاً شريكاً طبيعياً فى حكومة أولمرت القادمة، لأن هذا الحزب لا يضع أى شروط سياسية لمشاركته فى الائتلاف، وتنحصر مطالبه فى المجال الاقتصادى الاجتماعى، وتحديداً حرصه على تضمين السياسة الاقتصادية للحكومة بنوداً لضمان حقوق للمتقاعدين. وواضح تماماً أن أولمرت سيكون مجبراً للاستعانة بالأحزاب الأرثوذكسية الممثلة فى البرلمان، وهى حركة «شاس» ١٢ مقعدا، وحزب «يهدوت هتوراة»(٦ مقاعد)، أو على الأقل أحدها. مع العلم أن حركة «شاس»، و«يهدوت هتوراه»، ذوات توجهات يمينية متطرفة فى كل ما يتعلق بالتسوية مع الفلسطينيين. ولكن هذين الحزبين لهما مصالح خاصة، حيث إنهما بشكل تقليدى استغلا وجودهما فى الحكومات الإسرائيلية من أجل تحويل الدعم المالى لمؤسساتهما التعليمية والدينية. فى حال انضمام هذين الحزبين إلى ائتلاف يضم كاديما والعمل والمتقاعدين و«ياحد» يصبح عدد النواب الذين يدعمون الحكومة القادمة ٧٧ نائباً، وهذا من ناحية نظرية ائتلاف مستقر. لكن هناك مشكلتين ستواجهان مثل هذا الائتلاف. فأولاً: بسبب الاختلاف على طبيعة العلاقة بين الدين والدولة بين الأحزاب الأرثوذكسية من جهة وبين حزب «ياحد»، فإنه سيكون من الصعب جداً على «ياحد» أن يسلم بعدم تضمين برنامج الحكومة بنوداً تكسر «الوضع القائم» (statuse que)، فى العلاقة بين الدين والدولة. وهذا ما لم يمكن أن تقبله الأحزاب الأرثوذكسية. الأمر الذى يعنى أنه سيكون من الصعب أن نتصور أن يكون حزب «ياحد» شريكاً فى ائتلاف مع الأحزاب الأرثوذكسية. المشكلة الثانية تكمن فى أن حزب العمل وبسبب الفارق البسيط فى عدد المقاعد بينه وبين حزب كاديما (١٠ مقاعد)، فانه سيطالب بحقيبتين سياديتين كبيرتين من الثلاث الهامة (الخارجية، المالية، الدفاع). لكن لما كان حزب كاديما يصر على الاحتفاظ بحقيبة المالية، فإن الحقيبة الكبيرة التى يبدى أولمرت استعداده لتسليمها لحزب العمل ستكون وزارة الدفاع. وفى حال قبول حزب العمل تولى وزارة الدفاع، فإنها ستكون من نصيب زعيم الحزب عمير بيريتس، وهذا يعنى أنه ستكون هذه المرة الأولى التى تتولى شخصية مدنية منصب وزير المالية. وحتى لو اكتفى حزب العمل بوزارة كبيرة واحدة، فإن هذا يعنى أن أولمرت سيجد نفسه فى مشكلة مع قادة حزبه، الذين يتطلعون إلى تبوؤ مناصب هامة فى الحكومة الجديدة..

وتبقى هناك مشكلة أمام أولمرت فى ضم حزب شاس، إذ أن التجربة دلت أن شاس عندما تقع ساعة الاختبار فى كل ما يتعلق بالاتفاقيات السياسية أو الخطط أحادية

المتحمسون لخطة «الانطواء» يرون أن فوز حماس يمثل حدثا إيجابيا لإسرائيل لأن الدولة العبرية أصبحت حرة فى أن تحدد حدودها وحدها، كما فعلت فى قطاع غزة



إسرائيل: خطة "انطواء"!

الجانب، فإنها تترك الحكومة بسرعة، فقد عارضت «شاس» اتفاقيات أوسلو، كما أن شاس كانت معارضة قوية لخطة «فك الارتباط»، من هنا فإن العديد من مقربي أولمرت يحذرون من ضمها للحكومة، ويوصون بدلاً منها بضم حزب «إسرائيل بيتنا»، بقيادة افيجدور ليبرمان. لكن أولمرت من ناحيته لا يريد المجازفة بالاستغناء عن أى حزب سياسى وذلك من أجل ضمان استقرار ائتلافه الحاكم. من هنا فإنه أصبح فى شبه المؤكد أن حكومة أولمرت ستضم أيضاً حزب «إسرائيل بيتنا»، الذى يعتبر أكثر الأحزاب اليمينية تطرفاً، وهو الذى يطالب بالتخلص من فلسطينيى ٤٨ عن طريق مبادلة الأراضى التى يعيشون عليها فى إسرائيل بالتجمعات الاستيطانية، بحيث تحول الأراضى التى يعيشون عليها إلى الكيان الفلسطينى المستقبلى، مقابل ضم التجمعات الاستيطانية فى الضفة لإسرائيل. صحيح أن هذا الحزب يعارض خطة «الانطواء»، لكن بسبب توجهات هذا الحزب الاثنية فإنه سيقبل بالتعايش مع هذه الخطة، فى حال منح زعيمه ليبرمان ما يمكن أن يقدمه لليهود الروس كإنجاز.

خطوات أحادية

وواضح تماماً أن أى ائتلاف حاكم بزعامة إيهود أولمرت سيكون ملزماً بتنفيذ خطة «الانطواء»، التى أعلن عنها أولمرت عشية الانتخابات. وتنص الخطة على ضم معظم المستوطنات اليهودية التى أقيمت بعد العام ١٩٦٧، والتى تنتظم فيما يعرف بالتجمعات الاستيطانية الكبرى رسمياً للدولة العبرية، وإسدال الستار على أى فرصة للتباحث حولها فى أى تسوية سياسية مستقبلية. إلى جانب ضم منطقة «غور الأردن» التى تمثل حوالى ٢٥٪ من مساحة الضفة الغربية، وضم المناطق التى تحتوى على مصادر المياه العذبة، سيما فى جنوب الضفة الغربية، ناهيك عن استكمال تهويد القدس المحتلة ومضاعفة مساحتها عبر ربطها بالمستوطنات اليهودية المجاورة، سيما مستوطنة «معاليه أدوميم» التى تعتبر أكبر مستوطنة فى الضفة الغربية. وقد وعد أولمرت بأن تكون أول مرحلة من مراحل هذه الخطة بناء ٣٥٠٠ وحدة سكنية فى المنطقة التى تفصل القدس المحتلة عن «معاليه أدوميم». الأمر الأكثر خطورة فى هذه الخطة هو أن أولمرت لا يكتفى بالأراضى الفلسطينية الشاسعة التى التهمها جدار الفصل العنصرى، بل يؤكد أن هناك حاجة لزحزحة مساره نحو الشرق ليضم المزيد من الأراضى الفلسطينية، وجنوباً ليضم ما تبقى من مناطق تحتوى على مصادر المياه العذبة. أولمرت أعد ما يعتبره مسوغات منطقية لتنفيذ هذه الخطة. فهو يدعى أنه يقدم على تنفيذ هذه الخطة لأنه بعد فوز حركة حماس لم يعد هناك ثمة شريك فلسطينى يمكن التوصل معه إلى تسوية سياسية. وهذا الزعم يثير سخرية حتى جميع المعلقين فى الدولة العبرية، الذين يؤكدون أن خطة «الانطواء» كانت جزءاً من الخطوات أحادية الجانب التى اتفق عليها كل من أولمرت وسلفه أرئيل شارون فى منتصف العام ٢٠٠٣، حتى قبل أن يخطر على بال أحد فى الساحة الفلسطينية تنظيم انتخابات تشريعية. وأعلن أولمرت بشكل لا يقبل التأويل أن انضمام الأحزاب الأخرى للحكومة سيعتمد على موقفها من خطة «الانطواء». أولمرت وبمعزل عن المتغيرات فى الساحة الفلسطينية توصل إلى قناعة مفادها أن على الدولة العبرية أن تستعيض عن التسوية الثنائية مع السلطة الفلسطينية بخطوات أحادية الجانب لضمان تحقيق خارطة مصالحها الإستراتيجية، وكان هذا المنطق وراء قيام اولمرت بحث ارئيل شارون على تنفيذ خطة «فك الارتباط»، فى قطاع غزة، وشمال الضفة الغربية.

إن هذه الخطة قد أحدثت انقسامات داخل النخب الحاكمة فى الدولة العبرية. فهناك من أثنى على توجهات أولمرت وحثه على المزيد من الخطوات أحادية الجانب، وهناك من اعتبرها تضر بإسرائيل. فالمتحمسون لخطة «الانطواء» يرون أن فوز حماس يمثل حدثاً إيجابيا لإسرائيل لأن الدولة العبرية أصبحت حرة فى أن تحدد حدودها وحدها، كما فعلت فى قطاع غزة، من غير أن تعالج قضية اللاجئين، أو القدس أو قضايا أخرى، لأن أحداً فى العالم لا يمكن أن يعتقد أن إسرائيل بإمكانها مناقشة هذه القضايا مع حكومة بقيادة حركة حماس. ويحث هؤلاء أولمرت على تسريع وتيرة الفصل الديموغرافى بين الفلسطينيين واليهود، كما تنص خطة «الانطواء»، حيث إن الدولة العبرية ستكون قادرة على إغلاق حدودها إغلاقا تاماً، أمام العمال الفلسطينيين. لكن هناك من الدوائر المرتبطة بصنع القرار من يتحفظ على هذه الخطة، على اعتبار أن الخطوات أحادية الجانب تعنى أن مستقبل الصراع سيظل مفتوحاً على كل الاحتمالات. وينصح هؤلاء ومن ضمنهم متان شتينبرغ كبير المستشرقين فى جهاز المخابرات الإسرائيلية العامة، الذى يرى أن إسرائيل بدلاً من الخطوات أحادية الجانب بإمكانها القيام بخطوة كبيرة تمثل دق إسفين بين حركة حماس والشعب الفلسطينى. وحسب رأيه فإن إسرائيل بإمكانها وضع الحكومة والمجتمع الفلسطينى أمام اختبار صعب فى حال قامت ببلورة خطة إسرائيلية للتسوية تقوم على خطة الرئيس الأمريكى السابق بيل كلينتون. ويرى أن مثل هذه الخطوة ستسمح بدق إسفين بين حماس وفتح وبين حماس وبين الشعب الفلسطينى. ويضيف أن مثل هذه الخطة ستدفع أزمة انتصار حماس إلى السطح. ويشدد شتينبرغ على أن إسرائيل مطالبة بالعمل على توضيح الفوارق والتباينات فى المجتمع الفلسطينى وليس طمسها، منوهاً إلى أن ذلك سيتيح لأبو مازن إبداء المرونة ويوفر الشروط لإحداث تغيير فى نتائج الانتخابات القادمة الفلسطينية القادمة. بالطبع واضح تماماً أن الخطة التى تنوى الحكومة القادمة تطبيقها تهدف إلى تصفية القضية الوطنية الفلسطينية بكل ما تعنى هذه الكلمة، وإصرار أولمرت على جعل خطة «الانطواء» الهدف الرئيسى لحكومته القادمة يعنى أن إسرائيل تسارع إلى حسم الحقائق بزعم غياب الشريك الفلسطينى.

مناورات إسرائيلية

واضح تماماً أن الائتلاف الحاكم القادم فى إسرائيل سيستفيد فى المناورة أمام الفلسطينيين من الآتى:

١- فوز حركة حماس فى الانتخابات التشريعية، وتشكيل الحركة للحكومة الفلسطينية سيساعد الحكومة الإسرائيلية القادمة فى القيام بمناوراتها السياسية وعملياتها العسكرية ضد الفلسطينيين. فالحكومة الإسرائيلية القادمة، وكما تفعل الحكومة الحالية، ستدعى أنه بفوز حماس وتشكيلها الحكومة لم يعد هناك شريك لإسرائيل فى الجانب الفلسطينى، الأمر الذى يعتبر مسوغاً لتنفيذ المزيد من الخطوات أحادية الجانب، وعلى رأسها خطة «الانطواء». مع العلم أن الدولة العبرية شرعت فى الخطوات أحادية الجانب قبل فوز حماس. لكن الذى يساعد إسرائيل فى استغلال فوز حماس، هو الحساسية الكبيرة التى قابلت بها معظم دول العالم فوز حماس، ومن ضمنها العديد من الدول العربية ذات الدور المحورى فى المنطقة. والشروط التعجيزية التى تضعها حكومة أولمرت على حكومة حماس مقبولة حتى على العديد من الدول العربية. لكن أكثر من ذلك فأنها مقبولة على العديد من الأطراف الفلسطينية، وضمنها الرئيس محمود عباس، الأمر الذى يعى أن قدرة الحكومة القادمة على المناورة فى العلاقة مع الفلسطينيين ستكون سهلة.

٢- ستصعد الحكومة الجديدة من قمعها للشعب الفلسطينى، وذلك بفعل طبيعة الأحزاب المشاركة فيها، إلى جانب وجود مناخ دولى متعاطف ومؤيد لإسرائيل فى ردها على عمليات المقاومة المنطلقة من قطاع غزة، حيث إن العمل المقاوم انطلاقا من غزة لا يحظى بالتفهم الدولى بعد تنفيذ خطة «فك الارتباط»، وتفكيك المستوطنات هناك.

٣- لا شك أن انضمام حزب العمل لحكومة أولمرت ووجود شمعون بيريس فى هذه الحكومة تحديداً سيساعدها فى إحداث المزيد من الاختراقات فى الساحتين الدولية والعربية، فى ظل تشتت المواقف الفلسطينية والعربية والإسلامية. وليس من المستبعد أن تشهد عملية التطبيع بين دولة الاحتلال والعديد من الدول العربية انطلاقة، بفعل وجود حزب العمل وبيريس.

ستُصعّد الحكومة الجديدة من قمعها للشعب الفلسطينى، وذلك بفعل طبيعة الأحزاب المشاركة فيها، إلى جانب وجود مناخ دولى عاطف ومؤيد لإسرائيل فى ردها على عمليات المقاومة المنطلقة من قطاع غزة

مجرمو الحرب فى الكنيست

تميزت الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة بشكل خاص بنجاح عدد من أشهر الجنرالات فى مجال قمع الشعب الفلسطينى فى دخول البرلمان الجديد. ولعل ابرز هؤلاء كان بلا شك افى دختر الذى حل فى المكانة الرابعة فى قائمة حزب «كاديما»، وهو رئيس جهاز المخابرات الإسرائيلية «الشاباك» السابق، وهو مرشح لتولى منصب وزير الأمن الداخلى فى الحكومة الإسرائيلية القادمة. ديختر لا يفوت فرصة دون التباهى بما يعتبره أهم «إنجازاته» وهو تكريس عمليات الاغتيال لتكون أهم مركب فى الجهد الأمنى الصهيونى فى مواجهة حركات المقاومة. بل إن ديختر يحرص على تذكير كل من يستمع إليه بدوره فى تطوير الوسائل المعتمدة فى تنفيذ عمليات الاغتيال، سيما توظيف الطائرات بدون طيار فى تنفيذ عمليات الاغتيال. ليس هذا فحسب، بل إن ديختر لا يتردد فى الاعتراف بأنه يتلذذ برؤية الأطفال الفلسطينيين وهم يعانون من القمع الإسرائيلى. وكان شارون قبل مرضه قد «طمأن جمهوره إلى أن ديختر هذا سيكون وزير الدفاع فى الحكومة التى سيشكلها بعد الانتخابات. ويذكر أن محكمة أمريكية تدرس طلباً لإلقاء القبض على ديختر بسبب سجله فى عمليات القتل والإعدام بدون محاكمة. وإلى جانب ديختر، نجح جدعون عيزرا النائب الأسبق لرئيس «الشاباك»، والذى شغل فى حكومة اولمرت السابقة منصب وزير الأمن الداخلى، فى دخول البرلمان. وكان يطلق على عيزرا هذا فى إسرائيل «رئيس محكمة العالم السفلى»، بسبب ارتباطه بعمليات الإعدام الميدانى التى قامت بها المخابرات الإسرائيلية ضد نشطاء حركات المقاومة الفلسطينية بعد وقوعهم فى الأسر. وعيزرا هو الذى نادى بقتل ذوى منفذى العمليات الاستشهادية على اعتبار أن هذا عامل ردع يمكن أن يساهم فى وقف العمليات الاستشهادية. وسيضم الكنيست الجديد شاؤول موفاز وزير الحرب الذى يؤكد للجمهور الإسرائيلى أنه بإمكانه أن يركن إليه فى «تأديب» الفلسطينيين والعرب، وهو متحمس كبير لعمليات القمع، ومن المتوقع أن يواصل الإمساك بحقيبة الدفاع فى الحكومة الجديدة. ويعتبر الجنرال رافى ايتان رئيس حزب المتقاعدين الذى فاز بسبعة مقاعد فى الانتخابات الأخيرة أحد أبرز مهندسى عمليات الاغتيال فى تاريخ الدولة العبرية. فقد شغل فى السابق منصب رئيس شعبة العمليات فى جهاز «الموساد»، وهو مسئول عن معظم عمليات التصفية التى قام بها الموساد ضد قادة منظمة التحرير، وهو الذى شارك فى اختطاف ادولف رايخمان مساعد هتلر من الأرجنتين فى العام ١٩٦٤، وهو الذى جند الجاسوس الأمريكى اليهودى جونثان بولارد لصالح إسرائيل. وفى حزب العمل هناك الجنرال عامى ايالون القائد السابق لكل من جهاز المخابرات الداخلية «الشاباك»، وسلاح البحرية فى جيش الاحتلال، وهو من قادة حزب العمل، الذى تباهى مؤخراً بأنه قتل بيده من الفلسطينيين أكثر مما قتلت حركة حماس من اليهود منذ انطلاقتها وحتى الآن. وإلى جانب ايالون، هناك الجنرال دانى ياتوم، من نواب حزب العمل، وهو الرئيس الأسبق لجهاز «الموساد»، الذى فى عهده تمت محاولة اغتيال خالد مشعل رئيس المكتب السياسى لحركة حماس فى العام ١٩٩٧، إلى جانب المئات من الجرائم التى قام بها «الموساد»، مع العلم أن دانى ياتوم كان يشغل قبل ترؤسه «الموساد» منصب قائد المنطقة الوسطى فى جيش الاحتلال. وبحكم موقعه هذا قام ياتوم فى العام ١٩٩٤ بالرد على مجزرة الحرم الإبراهيمى الشريف التى نفذها المجرم باروخ جولدشتاين وراح ضحيتها ٢٩ فلسطينياً أثناء أدائهم صلاة الفجر فى الحرم، بسجن عشرات الآلاف من المواطنين الفلسطينيين فى المدينة فى منازلهم لأكثر من أربعين يوماً، فى حين ترك سوائب المستوطنين يعيثون فسادا فى شوارعها، وكأنه يكافئهم على المجزرة. وهناك الجنرالان بنيامين بن اليعاز وافرايم سنيه، من قادة حزب العمل، وهما من الذين تعاقبوا على قيادة قوات الاحتلال فى الضفة الغربية، وهما يتباهيان بأنهما كانا صاحبى الدور الأكبر فى تدمير بيوت المواطنين الفلسطينيين، ويقران أنهما كانا يتواطآن مع المستوطنين فى مصادرة أراضى الفلسطينيين لبناء المستوطنات فى أرجاء الضفة الغربية. وفى حزب «إسرائيل بيتنا»، هناك الجنرال يسرائيل حسون، وهو نائب سابق لرئيس جهاز «الشاباك»، وأشار الحزب إلى دور حسون هذا فى تنفيذ مئات العمليات الخاصة ضد الفلسطينيين والعرب والتى قتل فيها الكثيرون. إلى جانب الجنرال ايفى ايتام نائب عن حزب «الاتحاد الوطنى»، و كان قائداً للواء المشاة «جفعاتى» خلال الانتفاضة الأولى، وأدين فى محكمة عسكرية بتحطيم أطراف شابين من مخيم «البريج» للاجئين وسط قطاع غزة بالحجارة. ■

كتاب الزاوية

مجلة الأستاذ

عبدالله النديم

فى ١٠ أكتوبر من عام ١٨٩٦ رحل عن عالمنا عبدالله النديم خطيب الثورة العرابية وأحد أبرز الكتاب والصحفيين والخطباء فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

ولد النديم عام ١٨٤٢ لأسرة فقيرة ودرس فى الكُتّاب ثم المسجد ولم يستمر فى دراسته لعدم موافقتها لطبعه فبدأ يتردد على مجالس الأدباء يسمع شعرًا وزجلاً ونوادر. وكان لهذه المجالس أثر كبير فى حياته الأدبية.

تنقل فى عدة أعمال وعندما اشتدت المقاومة ضد الخديو إسماعيل انضم إلى جمعية مصر الفتاة السرية ثم تفرغ للصحافة فأنشأ جريدة التبكيت وصار ينشر مقالات اجتماعية نقدية هزلية، ولما قامت الثورة العرابية انخرط فى صفوفها وأصبح الناطق باسمها وداعيتها وقد غير اسم جريدته إلى الطائف بناء على طلب من أحمد عرابى. وحينما فشلت الثورة اختفى النديم ٩ سنوات وبعد أن ألقى القبض عليه عفا عنه الخديو توفيق ونفاه إلى يافا ثم عاد إلى مصر بعد وفاة توفيق ١٨٩٢ وأنشأ جريدة الأستاذ وجعلها منبرًا وطنيًا يناهض الإنجليز ثم انتقل إلى تركيا حيث مكث حتى توفى بمرض الدرن عن ٥٤ عامًا.

وتنشر «وجهات نظر» مقتطفات مما نشرته مجلة الأستاذ واعتمدنا فيها على كتاب الأعداد الكاملة لمجلة الأستاذ «الجزء الثانى» الصادر عن مكتبة الأسرة بمصر عام ٢٠٠٥.

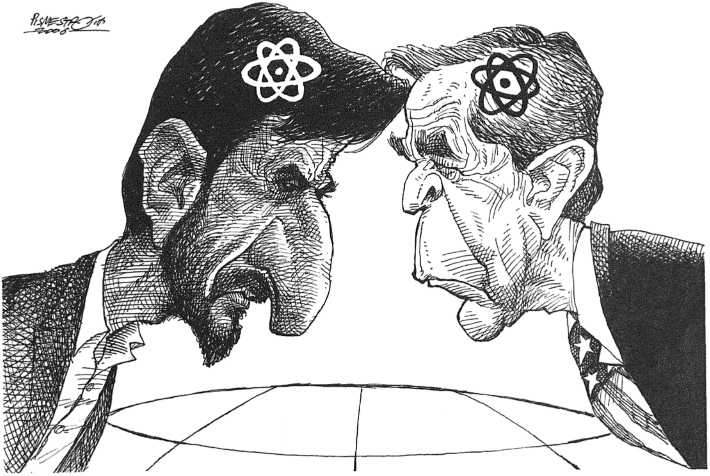
الزمان: مساء الثلاثاء ١١ أبريل ٢٠٠٦.
المكان: مدينة قم المقدسة
المناسبة: خطاب للرئيس الإيرانى محمود أحمدى نجاد جرى التنويه عنه طيلة نهار ذلك اليوم، وقد بشر التليفزيون الرسمى المواطنين الإيرانيين بأن نجاد سيعلن فيه عن «نبأ سار».

لم يخيب نجاد ظن الإيرانيين وأعلن فى خطابه ما كان متوقعًا على نطاق واسع وما كان الإيرانيون ينتظرون سماعه. فقد أكد نجاد انضمام بلاده للنادى النووى بعد تمكنها من تخصيب كمية من اليورانيوم لأول مرة. لقد كانت المعادلة بشأن البرنامج النووى الإيرانى كالتالى: طهران تسابق الزمن لخلق حقائق على الأرض متمثلة فى تمكنها من التخصيب بحيث يتركز الحديث مع الدول الغربية والوكالة الدولية للطاقة الذرية حول الضمانات المحيطة بعملية التخصيب وليس حول التخصيب ذاته.. أما الطرف الآخر وعلى رأسه الولايات المتحدة فكان يضغط بشتى السبل لعدم وصول إيران إلى عتبة التخصيب. ولذلك جاء إعلان نجاد ليكون بمثابة مرحلة جديدة فى تلك الأزمة النووية ليس معروفًا بالضبط كيف ستتعامل الأطراف الفاعلة معها.. وهل ستكون بمثابة محفز لواشنطن حتى تسارع بضرب إيران قبل أن تقترب من مرحلة التفجير النووى أم أن الحقائق الجديدة ستفرض عليها تعاملاً أكثر واقعية مع إيران؟

المقال التالى الذى كتبه كريستوفر دوبيلايجو الصحفى البريطانى المقيم معظم الوقت فى إيران يقدم خلفية موثقة للملابسات والأحداث التى سبقت الإعلان الإيرانى.. ويجتهد فى تقديم قراءة للسيناريوهات المستقبلية المحتملة للأزمة.

«**وجهات نظر**»

إيـــران القنبـلة



كريستوفر دوبيلايجو

ميز الإجماع مواقف الكثير من الدول، خلال الأشهر القليلة الماضية، إزاء التهديد الذى يمثله برنامج إيران النووى للأمن الدولى. وقبل ثلاث سنوات جنب هذا الإجماع الدول نفسها عند بحث قضية «غزو عراق صدام حسين». وفى الثامن من مارس (الماضى) أحالت الوكالة الدولية للطاقة الذرية (IAEA) فى فيينا، الملف الإيرانى إلى مجلس الأمن الدولى. وفى السر كما فى العلن، والعلن أكثر، وفى العديد من الدول، بما فى ذلك الولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوروبى التى شهدت معارضة قوية لغزو العراق، إضافة إلى الهند واليابان، يتحدث كبار المسئولين هناك عن سعى إيران الظاهرى وراء الأسلحة النووية حديث إدانة يوحى وكأنهم يعتبرونه حقيقة مسلماً بها. وبرصد سلسلة من التصريحات المؤسفة المعادية لإسرائيل، والتى أدلى بها الرئيس الإيرانى محمود أحمدى نجاد، يعرب بعض المسئولين، فى الدول ذاتها، عن تخوفه من أن إيران، إذا ما امتلكت القنابل التى يفترض أنها تسعى إلى امتلاكها، سوف تهدد إسرائيل بقوة مغامرة جديدة.

إجماع أقل يحظى به زعم الولايات المتحدة بأن مواطنى الجمهورية الإسلامية هم أسرى النخبة الدينية الحاكمة فى إيران، وإن على دول العالم مساندة المنظمات الإيرانية الديمقراطية وتمكين شعب إيران من التمتع، وحسب كلمات جورج بوش بـ «حق اختيار مستقبلهم». يبدو أن هذه الرؤية تنتشر حيث أعلن جاك سترو، وزير خارجية بريطانيا عن مساندته لطموحات الإيرانيين «إلى مستقبل أكثر حرية وأكثر ديمقراطية».

فى الوقت الذى يعقد فيه مجلس الأمن جلسات سرية مغلقة، خلال الأشهر المقبلة، لبحث ما يجب اتخاذه بشأن إيران، سوف تزداد العلاقات سوءاً ما بين العديد من الدول وإيران ما لم تستجب قيادات (الأخيرة) إلى الضغوط الدولية وتعطل خطط تحولها إلى منتج للوقود النووى عبر تخصيب اليورانيوم، الذى يمكن استخدامه فى صناعة قنابل «نووية». وما بين ٢٣ أكتوبر ٢٠٠٤، ويناير من هذا العام، أوقفت إيران النشاط الهادف إلى إنجاز دورة وقود نووى باستخدام اليورانيوم المخصب. ثم عادت وبدأت من جديد فى عمليات التخصيب، وردت على الإدانة القوية التى وجهتها إليها الوكالة الدولية للطاقة الذرية بأن أعلنت رفضها التفتيش، من قبل الوكالة، إلا على المواقع التى تحددها «طهران» كمواقع نشاط نووى. وفى ٢٩ مارس أصدر مجلس الأمن قراراً يطالب بما طالبت به «الوكالة»، وهو أن على إيران وقف العمل فى تخصيب اليورانيوم والسماح للوكالة بالتفتيش فى المواقع المشكوك فى استخدامها فى أنشطة نووية.

ومن المرجح أن ترفض إيران الاستجابة إلى هذه المطالب وتستمر فى برنامج التخصيب الذى بدأته فى شهر يناير الماضى. ويتوقع مسئول بريطانى مرموق أن تتمكن إيران مع نهاية هذا العام، من التوصل إلى التقنية التى تمكنها من تطوير سلاح نووى. وما لم تتراجع طهران، ينتظر أن تقوم الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بإقناع روسيا والصين بمساندة قرار يصدر عن مجلس الأمن ويعلن انتهاك إيران للقانون الدولى.

ورغم موافقتهما على إحالة الملف الإيرانى إلى مجلس الأمن، تعارض روسيا والصين ممارسة ضغوط دبلوماسية «ثقيلة» على الإيرانيين. ومن المتوقع أن تصرا على ضرورة أن تكون للوكالة الدولية للطاقة المسئولية الأكبر فى التعامل مع البرنامج الإيرانى، وتطالبان بتأجيل ما قد يصدر عن الأمم المتحدة من قرارات. ولروسيا والصين مصالح كبيرة فى إيران. وقد وافقت الصين، فى وقت لاحق، على شراء شحنات كبيرة من النفط والغاز الإيرانيين خلال العقود الثلاثة المقبلة. وتنظر روسيا إلى إيران كحليف لها فى مقاومة النفوذ الأمريكى فى الشرق الأوسط. وباعت موسكو إلى طهران تقنية نووية للاستخدامات المدنية، نظام دفاع جوى، وطائرات مدنية.

ولا شك أن السياسة الإيرانية المراوغة لاقتراح روسيا نقل نشاطات التخصيب الإيرانية إلى الأراضى الروسية قد أزعجت موسكو، لكن روسيا ورغم ذلك لا تزال متمسكة بأن الضغوط على إيران قد تدفعها إلى الانسحاب من اتفاقية حظر انتشار الأسلحة النووية، وإغلاق الطريق - المواربة - أمام عمليات التفتيش الدولية للمواقع الإيرانية. ولا يستبعد الإيرانيون مثل هذه التوقعات. ومن الوارد انضمام روسيا والصين إلى سياسة فرض عقوبات تأمل الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا تبنيها من قبل تحالف من الدول، إذا ما رفضت إيران الاستجابة إلى قرار مفترض يطالبها بوقف برنامج تخصيب اليورانيوم والقبول بالتفتيش الدولى المفاجئ.

يبدو محمد البرادعى، المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية، متعاطفاً مع الموقفين الروسى والصينى، وذلك من خلال تعليقاته فى مؤتمره الصحفى الذى عقده فى الثامن من مارس (الماضى)، والذى دعا فيه الأطراف إلى تجنب التصعيد والدخول فى مزيد من المحادثات.

ومن الدبلوماسيين من يرى أن البرادعى يشعر بإحباط شديد لأنه، وبعد ثلاث سنوات من التفتيش الدقيق، والمراسلات مع السلطات الإيرانية، لا يستطيع القول بأن البرنامج الإيرانى هو برنامج سلمى. وكان اعترف فى أحدث تقاريره يوم ٢٧ فبراير الماضى، بأن «الوكالة» لم تلحظ فى إيران ما يشير إلى نشاط تحويل لمادة اليورانيوم إلى أسلحة نووية. لكن ما أزعج البرادعى هو أن إيران قدمت معلومات ناقصة حول برنامجها الخاص بتطوير آليات طاردة لتخصيب اليورانيوم. وقال إنه يبدى اهتماماً بالدور العسكرى الغامض فى البرنامج. وقد أشار إلى وثيقة أرسلت إلى الإيرانيين من مصدر أمدهم بتقنية نووية وصفت بأنها «ملائمة لتصنيع مكونات الأسلحة النووية». لكن الإيرانيين قالوا إنه هذه الوثيقة غير مدققة. ولدى «الوكالة» التى يديرها البرادعى الكثير الذى تفقده إذا ما حققت إيران دورة وقود تمكنها من تصنيع قنبلة «نووية» فى فترة قصيرة. كما أن اتفاقية حظر الانتشار النووى الموقعة من ١٨٨ دولة، تم تقويضها من قبل دول مثل الهند وباكستان وإسرائيل التى رفضت التوقيع عليها وتمتلك مفجرات نووية. كذلك انسحبت كوريا الشمالية من الاتفاقية فى عام ٢٠٠٣، ثم أعلنت امتلاكها لمفجرات نووية. وسوف تفقد الاتفاقية ما تبقى لها من مصداقية ضئيلة إذا ما انسحبت إيران أو سمح لها بالبقاء كعضو بين الأعضاء الموقعين عليها، مع استمرارها فى المراوغة بشأن برنامجها النووى. وإذا ما انهارت اتفاقية حظر الانتشار النووى، سوف يدخل الشرق الأوسط فى سباق تسلح نووى تشارك فيه المملكة العربية السعودية ودول أخرى. ويبدو أن المفاوضات التى خاضها البرادعى مع مسئولين إيرانيين يرجعون إلى مرشدهم الأعلى آية الله على خامنئى، يبدو أنها أقنعته بأن الحل الوحيد هو التوصل إلى اتفاق مع الإيرانيين، وبمشاركة الولايات المتحدة. وكان البرادعى قد دعا الولايات المتحدة، فى الثامن من مارس الماضى، إلى التفاوض مع الإيرانيين، مؤكداً الحاجة إلى «تسوية سياسية شاملة تضع فى اعتبارها كل القضايا المطروحة».

و«القضية المطروحة»، فى رأى إدارة بوش، هى أن النظام الإيرانى المتشدد وغير المحبوب يحاول سراً تصنيع قنبلة من شأنها تهديد إسرائيل ودول أخرى، وأن السبيل الوحيد لحل هذه القضية هو تأكيد احتمال فرض العقوبات، أو الحرب المانعة، لكى تتمكن الولايات المتحدة والدول المؤثرة الأخرى من وقف ما يحدث. هذه القراءة لموقف الجمهورية الإسلامية تعد قراءة مضللة لسببين: الأول أنها تسبغ على دولة مشتتة وكتومة ما لا تملكه من شفافية فى القصد وصرامة فى العقيدة. والثانى هذه القراءة تعفى الولايات المتحدة من مسئوليتها عن رفض إيران التخلى عن طموحاتها فى التوصل إلى دورة وقود نووى، وتجعلها فى حل من الالتزام باستخدام الوسائل الدبلوماسية لإقناع قادة إيران بتغيير مواقفهم.

ويملك الإيرانيون قدرة على التعامل ببراجماتية مذهلة تبدت أول مرة خلال فضيحة إيران. كونترا فى عام ١٩٨٦، عندما انكشف تعاونهم مع أعدائهم الأمريكيين لشراء أسلحة من إسرائيل التى يرفضون حقها فى الوجود. وبعد ثلاث سنوات من وفاة آية الله الخمينى، طورت إيران علاقاتها مع السعودية التى كان الخمينى نفسه يمقتها وأعلنت إيران أيضاً أنها لن تسعى أو تطالب بتنفيذ حكم الإعدام الذى أقره الخمينى ضد سلمان رشدى «الكاتب البريطانى من أصل هندى صاحب كتاب آيات شيطانية». وبعد اعتداءات الحادى عشر من سبتمبر قدمت إيران إلى الولايات المتحدة دعماً حيوياً عند غزوها لأفغانستان وإقامة حكومة أفغانية جديدة.

للعداوة الإيرانية تجاه إسرائيل من المعانى ما هو أكثر دقة من تلك التى توحى بها تصريحات أحمدى نجاد التى طالب فيها بـ «محوها من على الخريطة»، وقوله: إن الهولوكوست مجرد «أسطورة»، والتى أثارت مخاوف - مفهومة - من احتمال تفكير إيران فى

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: جمال إسماعيل

إيران القنبلة

مهاجمة إسرائيل. لكن كبار المسئولين المدنيين والعسكريين فى إيران أكدوا أن مثل هذا الهجوم لن يحدث إلا إذا بدأت إسرائيل به. والأكثر دلالة، فى هذا السياق، أن الرئيس الإيرانى، والقيادة العليا فى طهران، كررا المطلب الإيرانى الدائم باستفتاء شعبى فى إسرائيل حول حق عودة اللاجئين الفلسطينيين. ومثل هذا المطلب، أو الموقف الرسمى لا يبدو متسقاً مع «طموحات تدمير إسرائيل» بالقوة أو باستخدام أسلحة نووية من شأنها أن تحميهم. لم يخف العديد من كبار المسئولين الإيرانيين انزعاجهم من تصريحات رئيسهم «نجاد»، بما فى ذلك أكبر هاشمى رفسنجانى، الرئيس السابق الذى يرأس مجلس تشخيص مصلحة النظام فى إيران. لكن أحمدى نجاد استفاد من «الغضب» الذى قوى من صورته بين المتشددين فى العالم الإسلامى فى مواجهة معارضيه داخل إيران، وفى مقدمتهم رفسنجانى.

وتتمركز أزمة إيران النووية حول مخاوف وطموحات الجمهورية الإسلامية، والتى من الصعوبة بمكان تعريفها عندما نضع فى الاعتبار خفايا عمليات صنع القرار المتضخمة فى إيران حيث الرئيس والبرلمان، المنتخبين، يتبعان قيادة عليا غير منتخبة، -وهيئات أخرى تشكل بالتعيين، والجميع فى حالة تنافس يصعب معها معرفة كيفية صناعة القرار.

وإذا ما بحثنا عن مفاتيح ما، يمكن للمرء أن يفعل ما هو أسوأ من استعراض مسلسل تدهور العلاقات بين إيران والولايات المتحدة، منذ بداية عام ٢٠٠٢، عندما وضع بوش الجمهورية الإسلامية ضمن ما أسماه بـ «محور الشر». وقتها أخبرنى إيرانيون على علاقة وثيقة بالنخبة الدينية أن هذا الخطاب أقنع القيادة الإيرانية بأن بوش يعتزم إسقاط الجمهورية الإسلامية. وزادت حدة المخاوف الإيرانية مع الغزو الأمريكى للعراق، رغم خلاصها من أسوأ أعدائها «صدام حسين»، زادت المخاوف حدة أيضاً بسبب الطموح المعلن للولايات المتحدة حول «دمقرطة» الشرق الأوسط.

لم يكن فى إعاقة إيران، لدعوة جورج بوش للتغيير فى الإقليم، ما يثير الدهشة. أخذت إيران تؤكد نفوذها داخل جارها العراق، ولا تفعل شيئاً يساعد الولايات المتحدة فى مأزقها هناك. سهلت إيران مرور الأموال والسلاح إلى شيعة العراق، وشجعت عمل المدنيين الإيرانيين فى التجارة والأعمال الخيرية فى العراق. ورغم الضغوط الغربية لم تغير إيران من دعمها للمعارضين الإقليميين للولايات المتحدة، بما فى ذلك سوريا وجماعات مثل حزب الله، الذى أسسته بالتعاون مع سوريا، وحماس. كما سعى بعض الإيرانيين إلى تأجيج الغضب الدينى ضد الغرب خلال أزمة الرسوم الدنماركية.

«الهدف الإيرانى»، وكما يحدده محلل سياسى فى طهران، هو ضمان بقاء الولايات المتحدة فى حالة انزعاج لا تمكنها من تهديد إيران. والتوصل إلى دورة وقود و قدرة على تصنيع قنبلة نووية يعطى قادة إيران درجة مختلفة من الحماية تكون معها فى وضع يسمح لها بصد هجمات معادية. لكن هذا المشروع محفوف بالمخاطر. وفى خطاب ألقاه أمام عدد من كبار المسئولين، فى نهاية عام ٢٠٠٤ وكشف النقاب عن محتواه فيما بعد، تحدث حسن روحانى وكان وقتها رئيس المفاوضين النوويين عن الضغوط الدبلوماسية المكثفة التى تتعرض لها إيران وقال: «إن الموقف سيتغير لو أننا استطعنا، فى يوم ما، إكمال دورة تخصيب اليورانيوم ووضعنا العالم أمام أمر واقع.. إن العالم لم يكن يريد لباكستان أو البرازيل التوصل إلى دورة الوقود. لكن البرازيل فعلتها وأصبح لباكستان قنبلة. وتأقلم العالم مع الوضع، لكننا لم نحقق بعد دورة الوقود. وهذا هو الحاصل، وهو لب المشكلة».

ليس وارداً إلغاء إيران لخططها الخاصة بدورة الوقود النووى ما لم يقر فى وجدان قادتها أن المستقبل أكثر أمناً بدون هذه الخطط. وفى الخامس عشر من فبراير الماضى، وبعد أن طالبت كوندوليزا رايس، وزيرة الخارجية الأمريكية، الكونجرس بتخصيص ٧٥ مليون دولار لتشجيع الديمقراطية فى إيران، تنبأ مسئول أمريكى كبير لم يشأ ذكر اسمه للصحفيين، أن هذه الأموال «لمساعدة الإيرانيين الراغبين فى رؤية نموذج آخر لإيران»، وأشار مسئول آخر إلى «رغبة الإيرانيين للعيش فى ظل نظام مختلف». وبالنسبة للقادة الإيرانيين هناك قضيتان رئيسيتان هما: أمن إيران، واستعداد أمريكا للتعايش مع حكومة دينية إسلامية تراها ثقيلة الظل خبيثة. ويبدو واضحاً أن إدارة بوش تبنت سياسة «تغيير النظام» رغم صعوبة تحقيق ذلك بالقوة العسكرية. وفى الوقت نفسه لا تزال الإدارة الأمريكية تتحدث عن لقاءات محتملة مع الإيرانيين لبحث استقرار العراق. ولا يبدو أن الإدارة الأمريكية تملك فكرة متناسقة إزاء ما يجب فعله إذا ما تعلق الأمر بإيران.

[٢]

خصص الكونجرس ١٩ مليون دولار، أقل مما طلبته رايس، من أجل تشجيع الديمقراطية فى إيران. وإذا ما وضعنا فى الحسبان ١٥ مليون دولار، كانت - بالفعل - من ميزانية هذا العام ولم تصرف بعد، يكون لدى الإدارة الأمريكية ٣٦ مليون دولار لتحسين وتكثيف الدعاية الموجهة إلى إيران، و٢٠ مليوناً لصالح منظمات حقوق الإنسان، المنظمات غير الحكومية، واتحادات العمال، ومساعدة من يرغب من الإيرانيين فى الدراسة بالولايات المتحدة. وتعنى هذه المخصصات زيادة كبيرة بالمقارنة مع ٣,٥ مليون دولار كانت ميزانية العام الماضى للصرف على الأهداف ذاتها. كما أن وزارة الخارجية زادت أيضاً من أعداد موظفيها العاملين فى إيران. ولأول مرة فى عمر إدارته، خص الرئيس بوش الجماعات الإيرانية المعارضة فى المنفى، والعديد منها يتخذ الولايات المتحدة مقراً، بمزيد من الاهتمام، حسب ما جاء فى التقرير الشامل حول هذه الجماعات ونشرته connie Bruck فى مجلة The New Yorker فى الثانى من مارس الماضى. ويعد رضا بهلوى، نجل الشاه الراحل والبالغ من العمر ٤٥ عاماً، متلقياً رئيسياً للأموال.

وهو من الذين يرون أن استفتاء شعبياً لو جرى يمكن أن يؤدى إلى إقامة عرش دستورى يجلس هو عليه باعتباره الشاه. ولا يمانع فى إقامة جمهورية علمانية. وهناك ٢٥ محطة إذاعة تليفزيونية تستفيد من أموال الحكومة الأمريكية وتوجه بثها إلى إيران فى لوس أنجلوس، موطن ٦٠٠ ألف إيرانى فى المنفى. ويمارس أنصار جماعة أخرى، هى منظمة «مجاهدى خلق إيران»، ضغوطهم على الخارجية الأمريكية لرفع اسم المنظمة من قائمة المنظمات الإرهابية الأجنبية. وهى خطوة - لو حدثت - تجعل إدارة بوش حرة فى منحها المساعدات المالية.

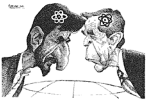
وتجد المنظمات الأمريكية، بما فى ذلك المنظمات الخاصة، صعوبة جمة فى إقامة علاقات مباشرة مع الإيرانيين داخل إيران. وقد تجلت هذه الصعوبة خلال محاكمة «عباس عبدى» الإصلاحى البارز فى طهران عام ٢٠٠٢، بتهمة الجاسوسية. وكانت «جريمة» عبدى هى تنظيم استطلاعات رأى لحساب منظمة «جالوب».

أشار أحدها إلى أن ٧٤ بالمائة من المقيمين فى طهران يرغبون فى أن تبدأ إيران حواراً رسمياً مع الولايات المتحدة. فى المحاكمة، ونتيجة تهديدات ذكر فيما بعد أنها وجهت إلى زوجته، اعترف «عبدى» بذنبه وحكم عليه بالسجن.

وورد فى حديث لمسئول إيرانى، فى ١٢ مارس الماضى، أن إدارة بوش تعتزم توظيف المنظمات غير الحكومية، وغيرها، كبدائل ووسائط. وهذا القول الصريح من شأنه أن يصعب حياة وأعمال المنظمات الأهلية غير الإيرانية التى لها روابط فى إيران، ويزيد من المخاطر التى يواجهها الإيرانيون الذين على اتصال معها.

قبل الغزو الأمريكى للعراق ضللت بعض جماعات المعارضة العراقية وأنصارها من الأمريكيين العديد من المسئولين الحكوميين الأمريكيين الذين اعتقدوا أن تلك الجماعات تحظى بدعم شعبى داخل العراق ولديها معلومات جيدة عن أحوال الداخل. التضليل نفسه هو الحاصل الآن بالنسبة لجماعات المعارضة الإيرانية فى المنفى. وفى تقريرها المنشور The New Yorker، تحدثت Raymond Tanter العضو السابق فى مجلس الأمن القومى

القضية، فى رأى إدارة بوش، هى أن النظام الإيرانى المتشدد وغير المحبوب يحاول سراً تصنيع قنبلة من شأنها تهديد إسرائيل ودول أخرى



إيران القنبلة

للولايات المتحدة، والأستاذ الزائر فى جامعة جورج تاون، والذى يتولى الآن عملية إقناع الإدارة الأمريكية برفع اسم جماعة «المجاهدين» من قائمة المنظمات الإرهابية ويؤمن الرجل، كما تقول Bruck أن هذه الجماعة هى «الوحيدة القادرة على الإطاحة بالنظام». هذا خبر جديد. لقد فقد «المجاهدون» مصداقيتهم كقوة عسكرية عندما اتخذوا من العراق مركزاً لشن هجمات انتحارية على إيران فى نهاية حربها مع العراق فى عام ١٩٨٨. توقع «المجاهدون» أن تثير هجماتهم تمرداً شعبياً لكن القوات الإيرانية سحقتهم، ونزعت الولايات المتحدة سلاح من تبقى من أعضائهم (٣٥٠٠ عضو) اسكنتهم معسكراً قرب الحدود الإيرانية. ولا شك أن تحالف هذه الجماعة مع صدام حسين قد أدى إلى انقلاب الإيرانيين ضدهم. وخلال أكثر من ٥ سنوات عشتها فى إيران لم أسمع إيرانياً واحداً يتحدث مادحاً هذه الجماعة.

استبعاد رضا بهلوى يبدو أقل سهولة من استبعاد جماعة «مجاهدين». وقد يشعر بعض الإيرانيين بحنين إلى عصر الشاه ينعكس فى صورة ولاء لنجله. لكن هذا الحنين لا ينتشر بين الأجيال الشابة التى تمثل أغلبية السكان، والعديد من الذين التقيتهم من الشباب يفضل جمهورية علمانية. هناك قلة تريد عودة الملكية لكن ارتباط رضا بهلوى بأكثر حلفاء والده بشاعة، واعتماده على السخاء الأمريكى، أساءا إلى سمعته. كما أن عجزه الرئيسى، وهو عجز المعارضة الخارجية ككل، يتمثل فى أنه لم ير إيران لما يقرب من ٢٧ عاماً، وهى فترة شهدت فيها إيران الكثير من التغيرات.

يشوب الكثير من الوهم فهم الكثير من الإيرانيين المنفيين لبلادهم. مثال ذلك أن رئيس مستشارى رضا بهلوى، وهو رجل أعمال إيرانى يدعى شاهريار آهى، يخطط الآن لعقد مؤتمر لجماعات المعارضة، صيف هذا العام، فى الولايات المتحدة. وينتظر أن يتعاون الجميع من أجل إسقاط النظام. وقد أبلغ Bruck أنهم سيكون لديهم خمس أو ست أو سبع خلايا فى الداخل من أجل توحيد الأداء والبدء فى حملة عصيان مدنى حيث يقوم عمال النفط بإعلان إضراب، ويقوم الأكراد بالفعل نفسه، فيتوقف الذئاب عن الجرى وراء الحمير الوحشية المخططة المختلفة.

يرسم خيال «آهى» الفجوة الواسعة ما بين الواقع فى إيران، ومفاهيم الإيرانيين المقيمين فى الولايات المتحدة ويعتقد الكثير منهم أن شروط تغيير النظام متوفرة الآن أكثر من أى وقت مضى.

ويقول أديب منشق بارز فى طهران إن إيران، ولأول مرة فى تاريخها منذ عام ١٩٤١، خالية من أى معارضة مؤثرة، شرعية أو غير شرعية.

اليوم، وبعد ثمانية أشهر من خروج خاتمى كرئيس، ووصول حركته الإصلاحية إلى نقطة النهاية، لا توجد حركة سياسية تقدمية تحل محلها. وهذا أمر لا يثير الدهشة لأن الحركة الإسلامية جذبت إليها شخصيات عامة متميزة من الرسميين الذين عملوا مع خاتمى، ومن الكتاب والصحفيين وقادة الطلبة وجميعهم يلتزم الصمت إلى اليوم بعد أن سجن أو طرد إلى المنافى. والحركة الطلابية التى كانت نشطة أصبحت تحتضر. وقد ساهم بوش فى السبات والتشاؤم اللذين أصابا العديد من السياسيين الإيرانيين البارعين عندما وضع إيران ضمن «محور الشر» وراح يكيل المديح للنشطاء الداعين إلى الديمقراطية خلال الأحداث التى شهدتها إيران «أيام خاتمى» وأعطى الذريعة للقضاة المحافظين وأنصارهم المتشددين فى الصحف والتليفزيون لوصم الإصلاحيين بأنهم خونة وأتباع لأمريكا. وتعد محاكمة «عباس عبدى» نموذجاً واحداً من بين نماذج كثيرة. ولقد قال خاتمى وبوضوح، إنه يعتبر بوش مسئولاً إلى حد كبير عن فشله فى إصلاح إيران. ومنذ انتخاب أحمدى نجاد والتدهور اللاحق لعلاقات إيران الدبلوماسية مع العديد من الدول ازدادت صعوبة تعبير الإيرانيين عن وجهات نظر مؤيدة لمزيد من حرية التعبير. رسمت الإدارة الأمريكية صوراً متعارضة للجمهورية الإسلامية ومواطنيها. ومرة أخرى هذه الرؤية غير صحيحة. لقد عبر قادة إيران عن رفضهم وقف برنامج التوصل إلى دورة وقود نووى كفعل مقاومة مضادة للجهود الخارجية الرامية إلى سلب حقوق إيران. وكان نجاح هذا الرفض واضحاً فى الحادى عشر من فبراير الماضى عندما خاطب الرئيس أحمدى نجاد حشداً قدرته وكالات الأنباء الأجنبية بمئات الآلاف من الإيرانيين الذين تجمعوا للاحتفال بذكرى الثورة فى أكبر حشد شهدته إيران منذ سنوات. والمشاعر المؤيدة للنظام، والمعارضة بقوة للولايات المتحدة تزداد الآن قوة عن أى وقت مضى منذ زيارتى إلى إيران فى عام ١٩٩٩.

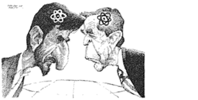
[٣]

من المرجح أن تفرض بعض الدول، بما فى ذلك دول الاتحاد الأوروبى، عقوبات على الجمهورية الإسلامية مالم يغير قادة إيران من خططهم النووية. هدف هذه العقوبات، والمنتظرة فى وقت لاحق من هذا العام، هو، فى البداية، ضمان وقف المساعدة الخارجية لبرنامج إيران النووى المدنى وخاصة فى المفاعل الذرى الوحيد الذى بنته روسيا وكذلك منع المسئولين الإيرانيين من السفر إلى خارج إيران. وقد يتبع ذلك وضع قيود أوروبية على الاستثمار داخل إيران. وكان التهديد بفرض العقوبات قد بدأ يقلص بالفعل من حركة الاستثمار فى إيران، وخاصة فى صناعتى النفط والغاز، العمود الفقرى للاقتصاد الإيرانى. أجلت بعض شركات الطاقة الأجنبية خططها لتطوير صناعة الغاز الطبيعى السائل فى إيران. ويخشى المسئولون فى وزارة النفط أن يحد انخفاض الاستثمار فى هذا القطاع من فرص وفاء إيران بالتزاماتها تجاه منظمة الدول المصدرة للنفط «أوبيك»، وتخطط للبدء قريباً فى مشروع للحد من استهلاك الوقود. لقد طمأنت السلطات الإيرانية الرأى العام فى إيران بأن العقوبات لن تهدد معدلات النمو التى يشهدها الاقتصاد منذ الزيادة الملحوظة فى أسعار النفط عام ١٩٩٩. وقد صادق البرلمان الإيرانى فى الرابع عشر من مارس «الماضى» على ميزانية أحمدى نجاد للعام الإيرانى المقبل وهى ميزانية تعرضت لانتقادات فيما يتعلق بما تقدمه للفقراء، وخاصة فى الأقاليم. وذكر خامنئى الإيرانيين بأن العقوبات التى فرضت من قبل على إيران، وشملت مقاطعة النفط، قد حفزت البلاد على تحقيق اكتفاء ذاتى فى العديد من المجالات. وإذا ما تكررت هذه المقاطعة قد يهدد الانهيار المحتمل للعائدات بقاء الجمهورية الإسلامية. وارتفاع أسعار النفط والمحتمل أيضاً، وبشكل ملحوظ، سوف يهدد العديد من اقتصاديات العالم. وقد ألمحت إيران إلى أنها ربما تعيق الملاحة فى خليج هرمز، على ساحلها الجنوبى، كرد فعل للعقوبات، وتتسبب بذلك المزيد من عدم الاستقرار للاقتصاد العالمى.

معارضة بعض الدول، بما فى ذلك روسيا والصين، لفرض مثل هذه المقاطعة للنفط الإيرانى، واستمرار تطوير إيران لقدراتها النووية، قد يؤديان إلى احتمال توجيه ضربات عسكرية أمريكية أو إسرائيلية إلى المواقع الإيرانية المعروفة والمشكوك فى وجود نشاط نووى يمارس فيها. وتتوقع «مجموعة الأزمات الدولية» ICG أن حملة جوية رئيسية، تتجنب وقوع العديد من الخسائر بين المدنيين، يمكنها إحداث تدمير دائم للمواقع النووية الإيرانية. وقد ترد إيران باستخدام صواريخ يمكن أن تطال إسرائيل. وسوف تشجع - بالتأكيد - حلفاءها الإقليميين، بما فى ذلك زعماء الشيعة فى العراق، أصدقاؤها فى سوريا ولبنان، لإحداث قلاقل فى العراق وإسرائيل. (حزب الله وحماس طالب بالرد نيابة عن إيران حال تعرضها لهجوم). وإذا شعر قادة إيران أن الولايات المتحدة مصرة على تحطيم الجمهورية الإسلامية لن يترددوا فى إحداث الاضطرابات.

التوصل إلى حل مبتكر للورطة الدبلوماسية الراهنة ليس مستبعداً. وتقترح مجموعة الأزمات - على سبيل المثال - أن يسمح لإيران بتسهيلات محدودة، لتخصيب اليورانيوم، تخضع لرقابة مشددة، ولكن بعد سنوات من إعادة بناء الثقة ما بين إيران والوكالة الدولية للطاقة الذرية ودول الاتحاد الأوروبى. وهذا الحل ربما يعد من الأنباء السارة المحتملة. لكن القضية الأساسية تبقى فى حاجة إلى بحث: ما الذى يجب على قادة إيران المحافظين أن يفعلوه كى ينأوا بأنفسهم بعيداً عن تسلط إدارة جورج بوش، التى لا يوجد فى خطتها الخاصة بالتغيير فى الشرق الأوسط مكان لآيات الله غير الديمقراطيين؟ ■

وضع بوش إيران ضمن «محور الشر» وأقنع النخبة الدينية أن الإدارة الأمريكية تعتزم إسقاط الجمهورية الإسلامية



السنة والشيعة
محاولة تقريب «أزهرية»

بشير موسى نافع

منذ أدارت تركيا مصطفى كمال ظهرها للعالم الإسلامى، برزت مصر باعتبارها أكثر الدول الإسلامية تأثيراً، سواء فى الحقل الثقافى أو السياسى

Islamic Ecumenism in the 20Th Century: The Azhar and Shiism between Rapprochement and Restraint
(التقريب المذهبى الإسلامى فى القرن العشرين: الأزهر والتشيع بين التفاهم والتحفظ)
Rainer Brunner
Translated from German by Joseph Greenman. Revised and Updated by the Author (Leiden: Brill, 2004), 423 pp.

يعالج هذا الكتاب، بالغ الأهمية، موضوعاً لم يلق عناية كافية من قبل، لا من الباحثين المسلمين ولا غير المسلمين، لا فى اللغة العربية ولا فى غيرها. فبالرغم من المحاولات السنية - الشيعية المستمرة طوال القرن العشرين للتقارب وإيجاد أرضية مشتركة، ليس هناك عمل واحد كرس لدراسة هذه المحاولات والنتائج التى نجمت عنها. لهذا، فإن كتاب برونر يملأ فراغاً طال أمده فى حقل دراسة الإسلام الحديث. ولكن هذا الكتاب لا يعالج العلاقات السنية مع كل الطوائف الشيعية، بل يقتصر على الطائفة الشيعية الإثنى عشرية، التى تشكل أغلبية المسلمين الشيعة.

يستند كتاب برونر، الذى هو فى الأصل دراسة أكاديمية لنيل درجة الدكتوراة، إلى عمل بحثى مكثف وواسع. وقد تمت مراجعة النص الألمانى الأساسى وتحديثه قبل ترجمته إلى الإنجليزية. ينقسم الكتاب إلى مقدمة، عشرة فصول، خاتمة، وينتهى بقائمة شاملة ومفيدة للمصادر الأولية والثانوية. وبالرغم من أن الجزء الأكبر من الكتاب قد كرس لدراسة تاريخ جمعية التقريب الإسلامية، التى أسست فى القاهرة على يد مجموعة من العلماء وأهل الرأى السنة والشيعة فى الأربعينيات، فإنه لا يقتصر على تتبع جمعية التقريب.

كما كل المواريث الدينية، تمتد جذور العلاقات السنية - الشيعية إلى التصور الجمعى للتاريخ. ومن هنا، فإن كتاب برونر يبدأ بفصل تقديمى طويل، يعيد بناء تاريخ الحقبة المبكرة للإسلام وسياق الاختلاف السنى - الشيعى. ويبدو واضحاً فى معالجة برونر، أن هذا الخلاف لم يبدأ (كما هو حال الانقسامات الطائفية المسيحية، مثلاً) من نزاع حول التصور الصحيح للأنظمة العقدية، بل من نزاع حول أحداث معينة، هى فى جوهرها ذات طبيعة سياسية، وحول التصور الصحيح للماضى. ولذا، ففيما يتعلق بالمسائل العقدية، بالعبادات والطقوس، والمفاهيم... إلخ، فإن الخلافات السنية - الشيعية وليدة عملية إنشاء تاريخى لاحقة.

بيد أن ما تتجاهله معالجة برونر للسياق التاريخى للخلافات السنية - الشيعية هو الفارق بين رؤيتى السنة والشيعة وتصورهم لأنفسهم. منذ القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، وما أسماه مارشال هدجسون بـ«انتصار العالمية السنية»، أخذ الشيعة يسلكون مسلك الطائفة، مسلك المجموعة الخاصة، بينما رأى السنة أنفسهم كجسم جامع للإسلام، الأمة الإسلامية. وقد وصل التطور الطائفى للشيعة اكتماله فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، فى أعقاب الغزو المغولى للمشرق والعراق وتدمير بغداد والخلافة العباسية. فى الفترة التكوينية للتشيع، كانت الرواية الشيعية الاثنى عشرية فى جلها موجهة ضد الفرق الشيعية الأخرى. ولكن مع بروز الصفويين فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، اكتسب التشيع نزعة مناهضة للسنة بالغة التطرف والعنف، عززتها مصالح الدولة الصفوية وقادها الحكام الصفويون والعلماء الاثنا عشريين المرتبطون بهم. تعهد الصفويون سلسلة من الإجراءات البشعة للقضاء على التسنن فى البلاد الواقعة تحت سيطرتهم، استمرت حتى بعد سقوط السلالة الصفوية فى ١٧٢٢ ميلادية. ولكن نجاح الصفويين فى القضاء على السنة اقتصر على المنطقة المركزية من الإمبراطورية، المنطقة التى يقطنها الفرس والتركمان - الآذريون؛ أما فى أطراف الدولة، فى مناطق الأكراد والبلوش والأفغان، فقد استمر الوجود السنى مهيمناً.

كانت هذه الخلفية هى ما أطلق المحاولة الأولى لتحقيق مصالحة وتقارب سنى - شيعى. فخلال العقود القليلة التالية لانهيار الصفويين، نجح نادر خان الأفشارى (الذى عرف بعد ذلك بنادر شاه)، الزعيم القبلى بالغ الشراسة والعنف، فى توحيد الإمبراطورية الصفوية المتناحرة، بما فى ذلك المناطق ذات الأكثرية الشيعية والسنية. ولوعيه بالعداء الطائفى العميق بين الشعوب الواقعة تحت حكمه وعواقب هذا العداء على الاستقرار الداخلى، إضافة إلى إدراكه للارتباط الأسطورى بين التشيع وشرعية السلالة الصفوية، وسعيه إلى منع الصفويين استعادة الحكم، عمل نادر شاه على وضع نهاية للانقسام السنى - الشيعى. فى ١٧٤٣، عسكر نادر شاه بقواته قرب مقام الإمام على فى النجف، حيث استدعى عدداً من العلماء السنة والشيعة الممثلين لمختلف الشعوب الواقعة فى نطاق سيطرته. كما أرسل للوالى العثمانى فى بغداد يطلب إرسال أحد كبار علماء الولاية كى يشهد الاجتماع التاريخى. ولأن نادر شاه كان يأمل فى أن ينعكس مشروعه التقريبى على التوتر المزمن فى العلاقات الفارسية - العثمانية، فإن دعوته لأحد علماء بغداد لم تكن دعوة بريئة. وقد أوفدت بغداد بالفعل الشيخ عبدالله السويدى، القاضى الحنفى للولاية، وهو الذى ترك لنا فى مذكرات قصيرة لرحلته المصدر الرئيس لأحداث ومناقشات لقاء النجف.

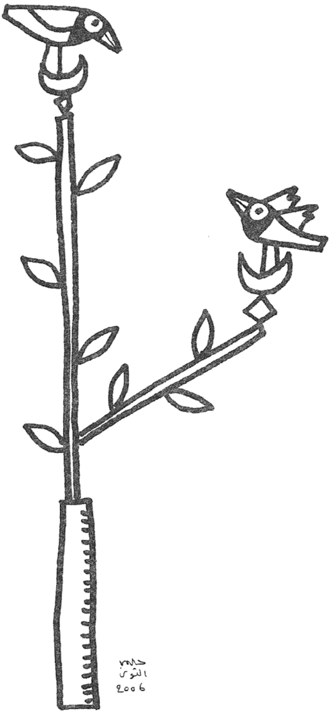
كان نادر شاه حاكماً مخيفاً، ولم يجرؤ أحد من العلماء المتواجدين فى اللقاء على مخالفته. ولكن مشروع نادر شاه كان أبعد طموحاً مما يمكن تحقيقه. إذ بدلاً من أن يحاول التقريب بين السنة والشيعة بالتعامل مع القضايا محل الخلاف، قضية قضية، استهدف نادر شاه توحيد أتباع الطائفتين مرة واحدة. شهد اللقاء بالفعل بعض المبادرات الإيجابية من علماء كلا الطرفين، كما انتهى إلى اتفاق مكتوب. ولكن اغتيال نادر شاه اللاحق، وعودة الفوضى إلى ملكه، ترك مشروعه التوحيدى فى سجلات التاريخ. لا السلطات العثمانية كانت على استعداد لأخذ مساعى نادر شاه مأخذ الجد، ولا العلماء الذين جمعهم فى لقاء النجف كانوا ممثلين كافين للطائفتين، لا على مستوى العدد ولا على مستوى الموقع العلمى، أو حتى أنهم أظهروا من الصدقية ما يكفى للاتفاق مع الطرف الآخر. الخلافات الطائفية المتجذرة فى التاريخ ما كان يمكن حلها بإرادة حاكم طاغية. ولكن القضية الرئيسية التى تمحورت حولها مساعى الاتفاق فى لقاء النجف، والتى يمكن تلخيصها فى توقف الشيعة عن ممارسة الطقوس والتقاليد التى يراها السنة منافية للشرائع الإسلامية، بينما يقبل السنة الشيعة باعتبارهم مذهباً خامساً من المذاهب الإسلامية، أصبحت الهدف الرئيس لجهود التقريب الإسلامى فى القرن العشرين.

لم تسجل أية محاولة جادة للتقريب خلال القرن ونصف القرن التالى لنادر شاه. ولكن برونر يخطئ فى تقديره لأثر التهديد الإمبريالى الذى أخذ العالم الإسلامى فى مواجهته فى القرن التاسع عشر ومطلع العشرين. فعلى خلاف ما يسجله برونر، شهدت تلك الحقبة تقارباً ملموساً بين السنة والشيعة، بما فى ذلك التفاف المسلمين السنة والشيعة فى البلاد العثمانية حول الدولة ومعاركها ضد القوى الغربية، سواء فى البلقان أو فى ليبيا والعراق. وقد ساهم صعود حركة الجامعة الإسلامية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى إحداث تقارب مطرد فى العلاقات العثمانية - القاجارية. وكلما اشتدت وتيرة الاختراقات الغربية الإمبريالية لبلاد المسلمين، تصاعد الإحساس لدى السنة والشيعة بالتهديد الغربى للدين ونمط الحياة. هذا الشعور المشترك بالخطر وحد بين العراقيين، سنة وشيعة، فى مواجهة الغزو البريطانى للعراق

العثمانى فى الحرب العالمية الأولى، كما فى الثورة العراقية الكبرى ضد الاحتلال البريطانى فى ١٩٢٠. بعد انتهاء الحرب الأولى، وانهيار السلطنة العثمانية، ومن ثم قيام الحاكم التركى الجديد مصطفى كمال أتاتورك بإلغاء الخلافة، تنافس عدد من الحكام المسلمين على الخلافة. وقد شهد عقد العشرينيات من القرن الماضى تدافعاً حاداً لإحياء الخلافة فى هذا البلد الإسلامى أو ذاك؛ وأصبح كسب تأييد المسلمين الشيعة جزءاً من استراتيجيات المتنافسين الرئيسيين على المكانة التاريخية والقوة الرمزية المرتبطة بمقعد الخلافة. ولكن حتى عقد الثلاثينيات لم تكن بدأت بالفعل جهود ملموسة للتقريب.

قبل التطرق إلى مناقشة هذه الجهود، يكرس برونر فصلاً كاملاً لمناقشة واحد من أكثر الكتب إشكالاً فى تاريخ العلاقة بين السنة والشيعة فى العصر الحديث: «المراجعات». احتل هذا الكتاب، ولا يزال، حيزاً هاماً فى الجدل السنى - الشيعى؛ فمن ناحية، يتكون «المراجعات» من نص جدلى يستهدف الانتصار للرؤية الشيعية لتاريخ الإسلام، ومن ناحية أخرى، شكك كثير من المسلمين السنة بمصداقية الإطار الذى وضع فيه الكتاب. صاحب «المراجعات» هو المرجع الشيعى اللبنانى عبد الحسين شرف الدين (١٨٧٣ - ١٩٥٧)، الذى نشر كتابه للمرة الأولى فى ١٩٣٦. ويظهر الكتاب فى شكل أجوبة توضيحية، كتبها شرف الدين رداً على أسئلة وجهت إليه من عالم سنى كبير. ومن المفترض أن كلاً من الأسئلة والأجوبة حملتها رسائل متبادلة بين العالمين، السنى والشيعى. وبالرغم من أن الإصدار الأول للكتاب لم يوضح هوية العالم السنى، فقد شاع فى الأوساط الشيعية اللبنانية القريبة من شرف الدين أن المقصود هو شيخ الأزهر فى مطلع القرن العشرين الشيخ سليم البشرى (١٨٣٢ - ١٩١٧). ثم عاد شرف الدين فى كتابه «النص والاجتهاد»، الصادر فى ١٩٥٦، ليسجل صراحة أن العالم السنى فى «المراجعات» هو بالفعل سليم البشرى.

يميل برونر إلى وجهة النظر المشككة فى حقيقة بناء «المراجعات» على أساس أسئلة من البشرى وإجابات من شرف الدين، وذلك بعد تحليل تاريخى تفصيلى لحياة الأخير وتحليل نصى لكتابه. الزيارة التى يفترض أن شرف الدين قام بها إلى مصر وقابل أثناءها سليم البشرى جرت بين أكتوبر/ تشرين أول ١٩١١ وأبريل/نيسان ١٩١٢. وطبقاً لكتاب شرف الدين، شهدت هذه الشهور الستة ١١٢ رسالة بين الطرفين، كان آخرها قبل قليل من عودة شرف الدين



إلى بلاده. وما يعكسه «المراجعات» ليس فى الحقيقة حواراً بين الطرفين، بل أسئلة قصيرة موجهة من السنى، كتبت بصيغة خضوع كامل واستعداد للتلقى من «المعلم» الشيعى، وتقبل مقولاته. بل إن الكتاب ينتهى، بدون جدل فعلى، بموافقة العالم السنى على الرواية التاريخية التى يقدمها شرف الدين للإسلام بأكملها. المشكلة أن سليم البشرى يعتبر واحداً من أكثر شيوخ الأزهر محافظة فى القرن العشرين. وكان قد تولى المشيخة للمرة الأولى بين ١٨٩٩ و١٩٠٣، وتركها لاعتراضه على الإصلاحات التى كان معسكر محمد عبده يريد إدخالها على الأزهر. ثم عاد البشرى لتولى المشيخة فى ١٩٠٩، بعد أن خفت الجدل حول قضية الإصلاح. فى ١٩١١، عندما جرت المراسلات التعليمية المفترضة بينه وبين شرف الدين، كان البشرى فى الثمانين من عمره. فكيف يعقل لهذا العالم السنى، التقليدى، المحافظ، أن يقبل الوقوف موقف المتلقى من عالم شيعى شاب نسبياً (كان شرف الدين عندها فى الثلاثينيات من عمره وغير معروف بعد)، ثم ينتهى إلى الموافقة على مقولاته كلها؟

بيد أن هنالك ما هو أكثر إشكالية. فبالإضافة إلى أن أسرة البشرى أعلنت مراراً أنها لم تجد فى أوراق الشيخ سليم ما يشير إلى مراسلات بينه وبين شرف الدين، فإن سيرة الأخير تثير أسئلة حول الأصل الذى ارتكز إليه نص «المراجعات». إذ إن بيت شرف الدين ومكتبته بمدينة صور تعرضا للنهب والتدمير على يد الجنود الفرنسيين فى ١٩٢٠، عقاباً له على معارضته الاحتلال الفرنسى، وذلك فى وقت كان شرف الدين قد فر إلى دمشق (قبل معركة ميسلون). وطبقاً لشرف الدين، فإن عشرين كتاباً مخطوطاً من كتبه قد أحرقت فى تلك الحادثة. وبالرغم من أن مصادر حياة شرف الدين لم تشر قبل الثلاثينيات إلى وجود مخطوط باسم «المراجعات» بين أعماله، فالواضح أن «المراجعات» لم يستند إلى أصل مكتوب (لا فى شكل رسائل أو نسخة مخطوطة) بل إلى ذاكرة مؤلفه، وهو ما اعترف به شرف الدين. إعادة البناء المفترضة هذه جاءت بعد مرور ربع قرن على زيارة شرف الدين للقاهرة، وعقدين كاملين على وفاة الشيخ البشرى. كل هذا بالطبع يثير شكوكاً قوية حول مصداقية رواية شرف الدين للسياق الذى ولد فيه الكتاب؛ وما يزيد هذه الشكوك أن «المراجعات» كتب فى صيغة مشابهة تماماً لكتاب العالم الشيعى المعاصر لسقوط بغداد فى يد المغول، على بن موسى بن طاووس (ت ١٢٦٦)، «كشف المحجة»، ولذات الهدف.

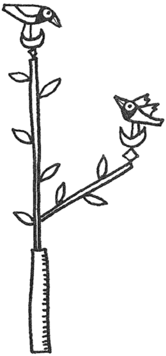
فى ١٩٣١، دعا الزعيم الفلسطينى (الدينى والسياسى) الحاج أمين الحسينى، مفتى القدس، إلى عقد مؤتمر إسلامى

السنّة والشيعة

جامع لمناقشة القضية الفلسطينية والصراع المتصاعد على فلسطين. وقد التأم المؤتمر، الذى يعتبر الأول من نوعه فى تاريخ الجامعة الإسلامية، فى نهاية العام نفسه بمدينة القدس، حيث التحق به ما يزيد على مائة من العلماء وقادة الرأى من أنحاء العالم الإسلامى كافة. وقد شهد المؤتمر تمثيلاً شيعياً قوياً بحضور المرجع الشيعى العراقى محمد حسين آل كاشف الغطاء، ورئيس وزراء إيران السابق ضياء الدين طباطبائى. وفى استعراض قوى ومؤثر للوحدة دعى كاشف الغطاء لقيادة صلاة الجمعة الحاشدة فى المسجد الأقصى، حيث ألقى المرجع الشيعى خطبة الصلاة الجامعة.

بيد أن القاهرة، لا مؤتمر القدس، هى التى ستشهد انطلاق حركة التقريب. فمنذ أدارت تركيا مصطفى كمال ظهرها للعالم الإسلامى، برزت مصر باعتبارها أكثر الدول الإسلامية تأثيراً، سواء فى الحقل الثقافى أو السياسى. فى أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٦، وصل إلى القاهرة فى زيارة قصيرة عبد الكريم زنجانى، العالم الشيعى من أصل إيرانى المقيم فى مدينة النجف العراقية. حظى الزنجانى بلقاء شيخ الأزهر فى ذلك الوقت، الشيخ محمد مصطفى المراغى، أحد تلاميذ عبده وأكثر علماء الأزهر نفوذاً وتأثيراً منذ فترة طويلة من الزمن. كان زنجانى مهتماً باستكشاف طرق ووسائل للتقريب بين السنة والشيعة، بينما كان المراغى، طبقاً لبرونر، يحاول من جديد توسيع نفوذ مصر العربى والإسلامى وإحياء مؤسسة الخلافة فى القاهرة. ولكن بالرغم من أن مراسلات زنجانى والمراغى استمرت بعد عودة الأول إلى النجف، لم يسفر هذا الجهد المبكر عن نتائج ملموسة. لم يكن زنجانى يعتبر من العلماء الكبار فى المؤسسة العلمائية الشيعية، وليس ثمة من مؤشر على أن نشاطه فى حقل التقريب كان مدعوماً من أى من المراجع الرئيسيين آنذاك.

بعد سنوات قليلة، فى ١٩٣٩، حضر إلى القاهرة عالم إيرانى آخر هو الشيخ محمد تقى القمى، ضمن عداد الوفد الإيرانى الكبير المرافق لولى عهد إيران محمد رضا بهلوى. وقد جاءت زيارة ولى العهد بمناسبة زواجه من الأميرة فوزية، شقيقة ملك مصر، فاروق الأول. خلال وجوده فى القاهرة، سعى القمى أيضاً لمقابلة الشيخ المراغى، كما قابل عدداً آخر من علماء الجناح الإصلاحى فى الأزهر. وحتى بعد وفاة الشيخ المراغى، حافظ القمى على صلاته بمجموعة من العلماء المصريين الكبار، مثل عبد المجيد سليم، محمود شلتوت، وعبد المتعال الصعيدى، باحثاً معهم فكرة التقريب بين السنة والشيعة. أخيراً، وفى يناير/ كانون الثانى ١٩٤٧، أثناء ولاية الشيخ مصطفى عبد الرازق لمشيخة الأزهر، أسست جمعية التقريب الإسلامية بمدينة القاهرة، وأعلن الشيخ القمى رئيساً للجمعية. كان مفهوماً ضمنياً أن القمى تلقى التأييد والدعم من آية الله حسين بروجردى، المرجع الإيرانى الشيعى الكبير آنذاك. ومع تأسيس الجمعية، أصبحت لمساعى التقريب مؤسسة دائمة للمرة الأولى، مؤيدة ليس فقط من عالم كـ «بروجردى» بل أيضاً من أهم وأكثر مراكز الإسلام السنى احتراماً، الأزهر الشريف، ممثلاً بشيخه مصطفى عبد الرازق وآخرين من كبار علمائه.



ليس هناك من عالم سنى، ناهيك أن يكون هذا العالم شيخا للأزهر، قد ذهب إلى الحد الذى ذهبه شلتوت فى اعترافه بالشيعة الاثنى عشرية

استهدفت جمعية التقريب تشجيع تبادل الأفكار بين العلماء السنة والشيعة، ودعم تدريس الفقه الجعفرى فى أقسام جامعة الأزهر، وتطوير مناخ من التعارف والمصالحة بين السنة والشيعة فى عمومهم. وبالرغم من أن الجمعية وضعت فى حسبانها توظيف وسائل متعددة لتحقيق غاياتها، كانت مجلة «رسالة الإسلام» هى أهم هذه الوسائل. فى الحقيقة، ارتبط تاريخ الجمعية ومسارها، إلى حد كبير، بتاريخ المجلة ومصيرها. أقامت الجمعية علاقات متفاوتة القوة مع عدد من العلماء والكتاب وأهل الرأى، السنة منهم والشيعة، لاسيما فى مصر ولبنان والعراق، وقد ساهم أغلب هؤلاء فى الكتابة لمجلة «رسالة الإسلام». ولكن ما إن تولى مشيخة الأزهر الشيخ المحافظ محمد الخضر حسين حتى فترت علاقة الجمعية بالأزهر. قام الشيخ محمد الخضر حسين بتعيين الكاتب والصحافى محب الدين الخطيب، المعروف بتوجهاته السلفية وعدائه للشيعة، رئيساً لتحرير مجلة الأزهر الرسمية، الذى سرعان ما حول المجلة إلى منبر مناهض ومعارض لمشروع جمعية التقريب كله.

فى ١٩٥٨، أصبح الشيخ محمود شلتوت، أحد العلماء المرتبطين بفكرة التقريب منذ انطلاقها، شيخاً للأزهر. وقد بادر شلتوت مباشرة إلى استبدال أحمد حسن الزيات بمحب الدين الخطيب فى تحرير مجلة الأزهر؛ وكان الزيات معروفاً بتأييده فكرة التقريب. وهكذا، ومرة أخرى، تغيرت حظوظ الجمعية إلى الأفضل. وقد استطاعت الجمعية، عبر الشيخ شلتوت، تحقيق واحد من أهم إنجازاتها على الإطلاق. ففى عدد من المقابلات الصحفية التى أجريت مع شيخ الأزهر فى النصف الأول من ١٩٥٩، أكد الشيخ شلتوت على وجهة النظر التقريبية بين السنة والشيعة. ولكن الخطوة الهامة أخذت فى مقابلة أعطاها شلتوت لصحيفة «الحياة» اللبنانية، نشرت فى ٧ يوليو/ تموز ١٩٥٩. وقد تناولت الفقرة الأبرز من حديث الشيخ شلتوت: ١- أن الإسلام لا يجبر مسلماً على الالتزام بمذهب معين. فلكل مسلم الحق فى اتباع أى من المذاهب الفقهية التى انتقلت إلى المسلمين بالطرق الصحيحة، والتى سجلت قواعدها الفقهية كتابة. ويمكن للمسلم الذى يتبع أياً من هذه المذاهب الانتقال إلى اتباع مذهب آخر، بدون أن يتعرض للوم. ٢- فيما يتعلق بشئون الشريعة الإسلامية، يجوز للمسلم التعبد طبقاً للمذهب الجعفرى، المعروف بالمذهب الشيعى الإمامى، تماماً كما يتعبد طبقاً لأى من المذاهب السنية.

استبطن موقف شلتوت مؤشرات سلفية-إصلاحية وقناعة عميقة بمشروع التقريب. والحقيقة أن الأغلبية العظمى من العلماء السنة المؤيدين لفكرة التقريب، من المراغى إلى مصطفى عبد الرازق، كانوا علماء سلفيين-إصلاحيين. ومن جهة أخرى، فإن أشد الأصوات المناهضة للتقريب، مثل محب الدين الخطيب، كانت هى الأخرى أصواتاً ذات خلفية سلفية. وتدلل هذه الظاهرة على التعقيد والتعدد المتزايد فى الساحة

الإسلامية السلفية الحديثة. فكما يلاحظ برونر، محقاً، أن ليس هناك من عالم سنى، ناهيك أن يكون هذا العالم شيخاً للأزهر، قد ذهب إلى الحد الذى ذهبه شلتوت فى اعترافه بالشيعة الاثنى عشرية. كان واحداً من الأهداف الأساسية لجمعية التقريب العمل على نقل التشيع من وضع الطائفة إلى وضع المذهب الفقهى الإسلامى. وقد بدا شلتوت وكأنه يمد يد عون قوية ومؤثرة لتحقيق هذا الهدف الكبير. ولكن الأزهر ليس فاتيكان، كما أن الإسلام السنى لا يعترف بسلطة دينية واحدة. وهكذا، فبالرغم من أن موقف شلتوت استقبل بحماس واسع فى أوساط العلماء الشيعة، لم يكن هذا الموقف ملزماً لكل السنة. ولم يكن لهذا الموقف، بالتالى، أن يبدد شكوك العديد من الدوائر السنية تجاه الشيعة الاثنى عشرية.

يضع برونر تركيزاً فائضاً على السياق السياسى (والدوافع السياسية للشخصيات الرئيسية) لحركة التقريب. بالنسبة لبرونر، ارتبطت مبادرات المراغى التقريبية بسعيه لتأمين مقعد الخلافة لمصر؛ وكان جهد القمى التقريبى فى أربعينيات القرن العشرين نتيجة للتطور السريع فى العلاقات بين الأسرتين المالكتين فى مصر وإيران. أما موقف شلتوت غير المسبوق فى تاريخ العلاقات السنية - الشيعية فيقرأه برونر فى سياق الصراع المتصاعد بين مصر الجمهورية (الناصرية) ونظام عبد الكريم قاسم فى العراق، ومحاولة الرئيس عبد الناصر جلب شيعة العراق إلى دائرة التأثير والنفوذ المصرى. وعندما تدهورت العلاقات بين القاهرة وطهران على خلفية من اعتراف شاه إيران بالدولة العبرية فى ١٩٦٠، انهارت جمعية التقريب، كما انهارت مجلتها، وتوقف نشاط الجمعية كلياً تقريباً طوال العامين التاليين. استأنفت الجمعية عملها بعد ذلك، ولكن فى شكل متقطع. ثم بذلت بعض الجهود لإحياء الجمعية من جديد فى مطلع السبعينيات، فى ظل العلاقات الدافئة التى ربطت الرئيس السادات بشاه إيران.

الحقيقة أن تحليل برونر لا يمكن اعتباره صحيحاً إلا فى شكل جزئى؛ إذ أن السياق السياسى لا يوفر تفسيراً لانحدار علاقات جمعية التقريب بالأزهر طوال معظم الخمسينيات، بالرغم من أن الضباط الحاكمين فى القاهرة كانوا (ولأسباب عديدة) مؤيدين لفكرة التقريب. والسؤال الهام الذى كان على برونر أن يسأله هو ما إن كان عبد الناصر سيتمكن من دفع شيخ الأزهر إلى إصدار تصريح يتعلق بالعلاقات السنية - الشيعية، كذلك الذى أصدره شلتوت، لو أن شيخ الأزهر لم يكن مؤيداً لجهود التقريب وعلى اقتناع عميق وحقيقى بها. ليس هناك من شك فى أن السياسة كانت عاملاً مؤثراً فى تاريخ التقريب كله (كما كانت فى عهد نادر شاه)، ولكن المؤكد أن السياسة لم تكن العامل الوحيد؛ بل إنها فى كثير من المناسبات لم تكن العامل الرئيس. عندما لم يتوفر المؤيدون للتقريب لم تستطع السياسة التقدم بالمشروع أو حتى المحافظة عليه.

مع نهاية السبعينيات، وصلت جمعية التقريب إلى آخر الطريق، ولم يعد أحد يسمع بها أو يكترث لتلاشى نشاطاتها. وقد ارتبط معظم الجهد المتعلق بالتقريب بالنظام الإسلامى الشيعى الثورى فى إيران، الذى لم يستطع التقدم بفكرة التقريب، فى شقها الدينى على الأقل، أية خطوات ملموسة، حتى بالمقارنة بإنجازات جمعية التقريب المتواضعة. فى الواقع، أصبحت العلاقات السنية - الشيعية مشروطة، إلى حد كبير، بالكيفية التى رؤيت بها الجمهورية الإسلامية الإيرانية من قبل الدوائر المختلفة فى العالم الإسلامى. ولكن المهم أنه وبالرغم من النكهة الساخرة التى تصبغ تقييم برونر لمسعى التقريب، فالحقيقة أن التقريب الإسلامى لم يكن ليحقق أكثر مما حققته جهود التقريب المشابهة بين الكنائس المسيحية، أو المشاريع المتعددة للحوار الإسلامى - المسيحى. فرضية برونر الأولية هى، ربما، الأكثر فائدة فى مجال تقييم فكرة التقريب: أن الميراث التاريخى للسرديات الدينية أثقل بكثير مما يمكن للمتحدثين باسم الدين التفاوض عليه. وربما كانت التجارب والآمال المشتركة فى الواقع والحياة المعاشة أكثر تأثيراً وأمضى فعالية من جدل العلماء المتخصصين، فى قدرتها على تقريب الطوائف من بعضها البعض. ■

كتاب الزاوية

مجلة الأستاذ

المسلمون والأقباط

هم أبناء مصر الذين ينسبون إليها وتنسب إليهم لا يعرفون غير بلدهم ولا يرحلون لغيرها إلا زيارة. قلبتهم الأيام على جمر التقلبات الدولية وقامت الدنيا وقعدت وهم هم إخوان الوطنية يعضد بعضهم بعضاً ويشد أزره فى مهماته. يتزاورون تزاور أهل البيت ويشارك الجار جاره فى أفراحه وأتراحه علماً منهم أن البلاد تطالبهم بصرف حياتهم فى أحيائها، بالمحافظة على وحدة الاجتماع الوطنى الذى يشمله اسم مصرى من غير نظر إلى الاختلاف الدينى، وقد كانوا كذلك أيام الجهالة والهمجية وأيام التقدم الأول وهم الآن أحوج للالتئام وتوحيد السير من أيام الجهالة. فقد عمتهم المعارف وتحلوا بالآداب ووجد فى الفريقين أعداد كثيرة من الفضلاء وأرباب الأقلام والملاعب الدولية تشخص أمامهم أدواراً توجب عليهم مجاراة الأمم فى البحث عن حوافظ الوطنية والتمسك بما يؤيد سيرهم المصرى تحت رعاية وعناية أميرهم المفخم السالك بهم سبل الخير والإصلاح وإنا وإن رأينا الألفة والمحبة على ما كانتا عليه من عهد دخول الإسلام فى مصر إلى الآن ونعلم أن ذكاء نبهاء الفريقين يبعثهم على التمسك بحبل الارتباط الوطنى ولكننا نحب أن تزداد علاقات الوطنية بعقد جمعية مصرية موضوعها البحث فى الوطن وخصائصه وواجباته وضروريات حياته ولا تخرج فى هذا كله عن الأدبيات والمحافظة على ما بين المصريين وغيرهم من روابط المحبة فقد رأينا كل جنس له جمعيات وطنية ونحن لا جمعية لنا تبحث فى الوطنية.

أطوار بهجت:
التقرير الأخير





بغداد: صحفيون تحت الحصار

أورفيل شيل

«سيداتي وسادتي» أعلن الطيار الجنوب افريقي بنبرة واقعية من خلال الانتركم «إننا نبدأ هبوطنا اللولبي في بغداد حيث الحرارة ١٩ درجة مئوية». لقد انتهى عند نهر دجلة ذلك الامتداد الشاسع والذي يأخذ بالألباب للصحراء الممتدة مثل ورق الزجاج تحت الطائرة. ومن اجل تفادي هبوط عادي خطر فوق منطقة معادية والصواريخ ونيران الأسلحة الآلية، انحدرت الطائرة بشدة ثم وكما لو كانت قد وقعت في سورة مائية، غطست وهي تحوم باتجاه الأرض في حركة لولبية مثل فتاحة الفلين.

عند الوصول إلى عمان وهي البوابة المدنية الرئيسية إلى بغداد ينتاب المرء شعور من يقترب نحو مفاعل نووي في حالة انصهار. حتى في الأردن هناك إحساس واضح كأنك في آخر دائرة آمنة في منطقة إشعاع ينشر موجات تلوث لا يمكن التحكم بها.

وتقريبا لم يحدث في عالمنا المتجانس أن يقذف عبور حدود دولية بالمسافر إلى ارض متفردة حقا. ولكن على أية حال، هل هناك مكان مثل العراق؟ وحتى في مطار الملكة عالية الدولي في عمان، يجد المرء تلميحات حول تلك البلاد المرعبة القادمة. على الجدار فوق سير الحقائب إعلان ملصق عن «شركة أي اس بيك، بون، ألمانيا: سيارات مدرعة مرخصة» وشعار الشركة عبارة عن سيارة سيدان مثبت على حاجز الريح الزجاجي بجانب السائق منظار بندقية قناص، ويقول الإعلان بمرح: «عند الذهاب إلى العراق، تأكد أن تكون السيارة مدرعة». وعند بوابة المغادرة هناك لافتة قرمزية تحذر من حمل مواد ممنوعة: «بارود ومضارب جولف وقنابل يدوية وفؤوس جليد ومناخس أغنام وعصي هوكي وسواطير لحوم وبنادق كبيرة» مما يجعل المرء يتساءل ما إذا كانت البنادق الصغيرة مقبولة.

كانت الطائرة الأردنية الملكية الصغيرة من نوع فوكر اف ٢٨-٢٤٠٠، التي تقوم برحلات يومية إلى بغداد، تقف على الاسفلت بعيدا عن طريق النفاثات وكان بعض مسئولي المطار كانوا يخشون أن تكون عبوة ناسفة بدائية محمولة جوا (عبوة ناسفة بدائية هو مصطلح عسكري أمريكي). وهؤلاء الذين يقومون برحلة الحج هذه إلى مركز الصراع المناهض للغرب والإسلامي الطائفي هم خليط غريب من حراس أمنيين أهليين ومقاولين عسكريين وموظفين امريكان ورجال أعمال عراقيين وصحفيين، وشاب يرتدي قميصا أعلن انه من «فريق الشرطة العسكرية K-9».

مطار بغداد الدولي يمتلئ بالحراس المسلحين وتحيطه مركبات مدرعة. لم أر حافلات أو سيارات أجرة تنتظر وصول المسافرين. فكل مسافر تقريبا يجد في انتظاره أحداً ما. وكان في انتظاري رئيس أمن صحيفة نيويورك تايمز البريطاني والذي يعمل طوال الوقت والذي جاء بموكب مصغر من السيارات (المصفحة) أي ضد الرصاص ويرافقه عدد من الحراس العراقيين المسلحين يتصلون ببعضهم البعض بأجهزة الراديو.

وبحلول الذكرى الثالثة لتورط أمريكا في العراق، ذهبت إلى العراق ليس لملاحظة الحرب ذاتها وإنما لمراقبة كيف تغطى إعلاميا. ولكن بطبيعة الحال لا يمكن تفادي الحرب. فليس هناك خطوط قتال أو جبهات أو حتى فاصل بين القروي والحضري مما كان يميز حروب العصابات دائما. بدلا من ذلك تجد القتال في كل مكان ولا مكان في نفس الوقت.

بدأت الحرب بالنسبة لي في الطريق إلى بغداد، وهو الطريق الذي يبلغ طوله ٧ أميال وصار يسمى الطريق الايرلندي على اسم اللواء ٦٩ الايرلندي من الحرس الوطني لنيويورك والذي كان يسيِّر دورياته فيه بعد الغزو. والبعض يسميه أيضا طريق الموت لأن الكثير من الهجمات حدثت على امتداده. والآن تشارك القوات العراقية في حراسته ولم يعد الطريق ميدانا للقتال كما السابق ولكن مازالت الرحلة من المطار هي الأكثر تلفا لأعصاب أي مسافر.

ورغم أن عراق ما قبل الحرب كان لديه نظام طرق خارجية حديث نوعا ما. حيث الطرق مقسمة إلى حارات ومعابر علوية وتقاطعات وحتى لافتات دولية خضراء وبيضاء باللغتين العربية والإنجليزية. ولكن كل ذلك محي بالإهمال والقتال والتفجيرات ووطأة الدبابات التي لها شكائم ومقسمات وسطية. ففي كل مكان تجد الشارع مقلوبا تملأه مخلفات وقمامة وأسلاك شائكة تتعلق بها أكياس بلاستيكية قذرة وأشجار نخيل مقطوعة الرؤوس ومعدات مدمرة ومصابيح شوارع مكسورة وقطيع من الكلاب الصفراء الضالة تتشمم أكوام القمامة وهي أماكن مثالية لإخفاء العبوات الناسفة التي تفجر بواسطة الهواتف النقالة لتحية ارتال القوات الأمريكية التي تحرس الطريق. يبدو العديد من جوانب الطريق وكأنها مناطق قتال حتى لو لم تكن قد تعرضت لهجوم.

وقد اصبح الكثير من طرق بغداد الرئيسية كابوسا للمرور المختنق. وحين تظهر على الطريق دوريات أمريكية أو عراقية في مركبات الهمفي المزودة بالرشاشات ذات عيار ٥٠ ودبابات ابرامز ام-١ ومركبات برادلي المقاتلة، تتباطأ حركة كل شيء إلى درجة الزحف. فهناك لافتات مربوطة على نهايات المركبات تحذر باللغتين العربية والإنجليزية (خطر: ابق بعيدا) وكل سائق يفهم الرسالة. فالفشل في الاحتفاظ بمسافة يمكن أن يتسبب في إطلاق النار (١) وهكذا مثل قطيع من الحيوانات الباردة والجائعة والخائفة من الاقتراب إلى نار المعسكر، تنكمش السيارات خلف مثل هذه الدوريات وفي حين يضطر سائقوها الغاضبون إلى الانتظار.. يتنفسون عادم السيارات وهم يلعنون الاحتلال.

ورغم انه بعد الاحتلال توقفت تقريبا كل أنشطة الحكومة العادية - مثل تسجيل السيارات وإصدار رخص القيادة - فقد تدفقت على أسواق العراق آلاف المركبات من دول أخرى. والإشارات الضوئية نادرا ما تعمل الآن بسبب انقطاع الكهرباء لساعات كثيرة. والسيطرة الوحيدة تأتي من بضعة رجال شرطة مرور وضعوا في التقاطعات المهمة من أجل توجيه تدفق المركبات الذي لا ينتهي. ومما زاد الطين بلة، انه بعد عدة هجمات أو تفجيرات، يرفع الجيش الامريكي او الحكومة العراقية لافتة في وسط شريان رئيسي للتحذير «شارع حيفا خطر. لا تستخدمه». واكثر من ذلك، فإنه مع ازدياد العنف والفوضى في المدينة، بدأ الناس يغلقون شوارعهم بمحض إرادتهم من اجل خلق مناطق آمنة وطالما لاوجود لسلطة القانون فلا أحد يمنع هذا التعديل الخاص لفضاء عام.

في البداية وبعد الاحتلال، تدبر الناس أمنهم بوضع أكياس الرمل على طول الشوارع أو أمام بيوتهم ومكاتبهم. ولكن حين انتشرت التفجيرات (الانتحارية) وصارت الشحنات الناسفة اكبر واكثر تدميرا وتأثيرا، أصبحت جهود الدفاع الذاتي اكثر تطورا. وبدخول (الجدران المضادة للانفجار) تغيرت خارطة بغداد.

وكان الإسرائيليون قد استخدموا هذه الجدران من اجل وضع حاجز نفسي بينهم وبين الفلسطينيين. ولكن نسخة العراق من هذه الجدران العازلة تتكون من آلاف قطع الكونكريت المسلح المتنقلة والتي يبلغ ارتفاعها ١٢ قدماً. وهذه (الجدران ذات الشكل T) تبدو مثل شواهد قبور عملاقة أو ربما طواطم معدلة من الإرث الثقافي المنقرض في ايستر ايسلاند Easter Island (جزيرة في جنوب الباسيفيك تبعد ٢٠٠٠ ميل عن تاهيتي وتتميز بتماثيل ضخمة منحوتة حولها ولا احد يعرف تاريخها أو اصلها- المترجمة). وحين يوضع أحدها إلى جانب الآخر كجدران مضادة للانفجار فهي تشكل تموجات رمادية هي الملمح الأكثر شهرة الآن لبغداد. ولأنها انتشرت

بترتيب مع مجلة
New York Review of Books

ترجمة: بثينة الناصري

بغداد

صحفيون تحت الحصار

خلال إدارة بول بريمر الثالث. فقد أصبحت تسمى (حيطان بريمر).

على سبيل المثال. حين ازداد قلق مؤسسة صحفية رئيسية من تدهور الوضع الأمنى فى المدينة وكان مقرها فى جزء من أبو نواس وهو الشارع الرئيسى المحاذى لنهر دجلة وضع الجيش الأمريكى حواجز أمام الفندقين المجاورين بشكل متاهة من الجدران المضادة للانفجار وأبراج حراسة ومرافق أخرى. وهكذا ففى حين كان هذا فى السابق شارعا رئيسيا تظلله الأشجار الممتدة فى وسطه اصبح الآن مثل ساحة تشبه الحديقة لإيواء سيارات وتحيطها جدران كونكريتية حامية بارتفاع ١٢ قدماً.

ومع ازدياد البحث عن أمن خاص اكثر فاعلية، نما شعور عام جديد وغير متوقع من عدم الأمان. فمع تغيير مسار المرور إلى شوارع مفتوحة تتناقص باستمرار، اصبح ازدحام المرور اكثر حدوثا معرضا الأجانب والبغداديين الأغنياء وأى شخص لا يتفق مع هذه الجماعة أو تلك من (المتمردين) إلى أخطار الاختطاف أو إطلاق النار أو التفجير. ومما يثير الأعصاب (وهو اقل ما يمكن قوله) أن تحشر فى زحمة مرور. محصورا فى خضم سيارات خاصة ونصف نقل وشاحنات وعراقيين مسلحين بأسلحة ثقيلة يحدقون بصفاقة من خلال نوافذ سيارتك المصفحة فى حين يجلس حراسك الامنيون إلى جوارك يحتضنون رشاشاتهم. وبانعدام أى فرصة للهرب فلا يسعك إلا التساؤل متى تأتى لحظتك المنحوسة. وحين يتوقف المرور كليا ويبدأ السائقون يخرجون عن الخط، أو يصعدون على الرصيف أو يعبرون الفاصل الوسطى للشارع أو يندفعون إلى الحارة العكسية للطريق، فمن الصعب البقاء هادئا.

أسوأ المخالفين هم الحراس الأمنيون الخصوصيون الملتزمون بحماية من فى مسئوليتهم بأى طريقة ممكنة، وأفراد الشرطة العراقية الذين يركبون الآن أسطولا جديدا من سيارات كروزر الخضراء والبيضاء ذات الصفارات الصاخبة التى تسمح لهم بشق طريقهم خلال الشوارع المقفلة بالمرور وكأنهم أطفال فى سيارات مدينة الملاهى.

ومما يزيد من العربدة الشاملة والإحساس العام بالقلق حقيقة انه من الصعب أن تعرف إذا كانت أصوات الصفارات التى لا تتوقف ودفقات أسلحة الرشاشات المتقطعة أو الانفجارات بين حين وآخر والتى تسمع طوال اليوم تعنى شيئا أو لا أهمية لها. فهناك ميادين تدريب الشرطة داخل المدينة وأحيانا يقوم حارس ضجر باطلاق عدة عيارات نارية على سبيل التحذير. وكما أوضح بورزو دراجاهى من لوس انجليس تايمز: «إن إطلاق عدة أعيرة نارية من الأسلحة الآلية هنا فى بغداد مرادف لاستخدام بوق سيارتك فى أمريكا».

وهكذا ما لم يكن صوت الانفجار قويا فإن الناس عادة لا يرمشون جفنا. وأقصى ما يمكن للصحفى عمله إذا كان الصوت قويا جدا، هو أن يصعد إلى سطح المكتب ليرى من أين يأتى الدخان.

بدون شك هناك شيء مثل بليد رانر Blade Runner فى هذه المدينة (بليد رانر هو اسم فيلم من الخيال العلمى انتج عام ١٩٨٢ وأصبح من أشهر الأفلام فى هذا المضمار وهى يقدم رؤية قاتمة للمستقبل - المترجمة). فالعنف مبهم وغير مفهوم حتى انك تتساءل: ما الذى يظن الناس انهم يموتون من اجله. ومع ذلك ورغم حقيقة أن العنف اليومى رهيب فالأمر لا يأخذ الكثير من الوقت قبل أن تصبح الأصوات القاتلة والدمار فى كل مكان جزءا من المشهد العادى. وسرعان ما تجد، بشكل يفاجئك تماما انك لم تعد تولى اهتماما لأصوات الرصاص اكثر مما يفعل ساكن نيويورك تجاه أبواق السيارات التى تنطلق كل ليلة.. اقصد، إلى أن يفجر شخص تعرفه، أو جار أو مجرد شخص سمعت به أو تطلق عليه دورية النار أو يخطفه المتمردون [٢].

بعد أيام قليلة من مغادرتى بغداد نشرت صحيفة عراقية خبرا صغيرا يقول إن مصرفيا عراقيا غنيا هو غالب عبد الحسين قد اختطف من منزله المحصن، من قبل مسلحين يرتدون ملابس الجيش العراقى. خمسة من حراسه الشخصيين قتلوا بطريقة الإعدام. هذه واحدة من آلاف الحوادث المشابهة. ولكن ماعدا خضوعك لأوامر حراسك الأمنيين المسئولين عنك (إذا كان لديك مثلهم) فليس هناك الكثير الذى تستطيع أن تفعله.

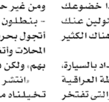
عند التجول فى شوارع بغداد بالسيارة، تستطيع أن ترى رجال الشرطة العراقية الجديدة ذوى الملابس الزرقاء والتى تفتخر بها إدارة بوش على أنها مؤشر واعد عن (العرقنة). ولكن لأن محطات تجنيد الشرطة ومدارس التدريب ومراكزها هى أهداف مفضلة للمتمردين، فإن الكثير من هؤلاء الشرطة الجديدة يخافون من التعرف عليهم بصفتهم متعاونين مع الأمريكان أو مع الحكومة العراقية الجديدة. وعلاجهم لهذا هو وضع أقنعة سوداء فيها فتحات للعينين والأنف والفم وهكذا يماثلون فى الشكل الكثير من لصوص البنوك. والمرء يرى حماة السلام هؤلاء بهذا الشكل المخيف فى تقاطع المرور أو يلوحون بأسلحة آلية فى خلفية سيارات نصف نقل اشتراها لهم الأمريكان، مما يجعل منظرهم مهددا وليس مطمئنا.

المكاتب الجديدة

زيارة أى من المكاتب الجديدة تعطيك انطباعا فوريا عن كيفية تحصن الصحفيين الأجانب الآن وكيف اصبح من العسير عليهم القيام بواجباتهم. وكل من تحدثت معه اشتكى من أن الحالة الأمنية المتدهورة قد حولتهم إلى سجناء فى مكاتبهم.

كتبت فرناز فصيحى مراسلة وول ستريت جورنال فى فبراير هذا العام تقريرا فى الصفحة الأولى حول الأوضاع فى بداية وصولها عام ٢٠٠٣: «كنا نستطيع أن نذهب الى أى مكان فى العراق بسيارة عادية ومن غير حماية. كنت وأنا بملابس غربية - بنطلون وتى شيرت وحذاء مفتوح - أتجول بحرية فى بغداد أثرثر مع أصحاب المحلات وأتغدى أو أتعشى مع أناس التقى بهم، ولكن فى ربيع ٢٠٠٤ كتبت:

«انتشر (التمرد) وازداد قوة أسرع مما تخيلناه ممكنا. ولأول مرة استأجرت حراسا مسلحين وبدأت أتنقل بسيارات مصفحة. وكان الخروج محددا ومقيدا وكانت الرحلات البرية قليلة ومتباعدة.. وكلما ازداد التدهور الأمنى فى أنحاء البلاد تتقلص المناطق التى يمكن لنا العمل فيها بأمان».



زيارة أى من المكاتب الجديدة تعطيك انطباعا فوريا عن كيفية تحصن الصحفيين الأجانب الآن وكيف اصبح من العسير عليهم القيام بواجباتهم

مكاتب الأخبار الأجنبية إما فى أو قرب بعض الفنادق العاملة مثل الحمراء والرشيد وفلسطين. ومثل سفن حربية متضررة ولكنها مازالت فى البحر، نجت هذه الفنادق من هجمات القنابل المتكررة ولكنها استطاعت أن تظل مفتوحة. وأصبحت قلة من الفنادق مثل الرشيد، حيث كان هناك صورة لجورج بوش الأب من الموزاييك على عتبة الفندق، داخل حمى المنطقة الخضراء. وهناك مكاتب أخرى قليلة لها مقراتها المستقلة وهى عادة فيلات متهالكة ميزتها أنها داخل محيط الدفاع الجماعى الذى جعل من الجوار مثل مدينة من القرون الوسطى محاطة بالأسوار.

وحيثما تكون مكاتب الأخبار فى المدينة تصبح هى أيضا مناطق محصنة بحراسها الخاصين قليلى العدد والذين يعملون أربعا وعشرين ساعة فى اليوم عند البوابات وأبراج الحراسة وحول المحيط. وللوصول إلى هذه المكاتب يجب أن يمر المرء بمتاهة من نقاط التفتيش والحراس المسلحين وتحصينات الجدران المضادة للانفجار والأسوار التى تحيط بأرض الأخطار هذه حيث يتكرر تفتيش كل الزوار وسياراتهم.

الحقيقة المرة هى ان القيام بأى مهمة خارج هذه المناطق المحمية من الامريكان اصبح من الخطورة للأجانب الى حد اعتبارها انتحارا. ويتصاعد عدد الصحفيين الذين يجدون أنفسهم محجوزين داخل أى فقاعة ملاذ خلقوها لعزل انفسهم من الخارج المارق. (فى ملحق صدر فى يناير من USAID خاصا بتطبيق عقود الحكومة يحذر من ان «غياب سيطرة الدولة وعدم وجود قوة شرطة مؤثرة اطلق العنان للعناصر الاجرامية داخل المجتمع العراقى).

وقد شعرت كل مجموعة أجنبية تعمل فى العراق انه من الضرورى أن تستأجر عنصر أمن شخصى PSD من اكثر من ستين شركة عسكرية خاصة PMF - وهكذا فإن شركات تريبل كانوبى، وايرنيز انترناشينال لمتد، وبلاكووتر - تجنى أرباحا طائلة من العراق. وفى الواقع يقال الآن إن هناك على الأقل ٢٥ ألف رجل مسلح من هذه الشركات الخاصة يعملون فى العراق اليوم. وتحت قيادة بريطانية وافريقية جنوبية وأمريكية يشكل عناصر الأمن شبه العسكريين الخفيون عالما موازيا لقوات الاحتلال الأمريكية وحتى

بغداد

صحفيون تحت الحصار

انهم يملكون منظمتهم الخاصة بهم وهى رابطة شركات الأمن الخاصة فى العراق.

ولم يغب عن أذهان احتياط الحرس الوطنى الأمريكيين وجنود الجيش النظاميين والمارينز بأن نظراءهم المرتزقة يحصلون أربع أو خمس مرات ضعف ما يحصلون هم عليه وأحيانا يصل الأجر إلى ١٠٠٠ دولار فى اليوم. ولابد أن هناك الكثير من السخط بسبب اللامساواة هذه والكثير من الجنود الأمريكان يطمحون إلى الاستقالة من وظائفهم العسكرية ذات الأجور المنخفضة للانضمام إلى إحدى هذه الشركات.

وقد اخبرنى مارينز شاب سابق: «انا انظر اليها من هذه الزاوية. ان الوحدة العسكرية كانت بالنسبة لى مثل دورة تدريبية مدفوعة التكاليف تؤهلنى للانضمام الى القطاع الخاص».

ولكن عمل الحارس الخاص محفوف بالمخاطر كما أدرك الحراس الأربعة من شركة بلاكووتر الذين كانوا فى مهمة عام ٢٠٠٤ لنقل بعض معدات المطابخ من قاعدة الفرقة ٨٢ المحمولة جوا فى الفلوجة وقد هوجمت مركباتهم واحرقت وقتل الأربعة ومثل بهم حيث علقوا على جسر على نهر الفرات. (وفى الوقت الذى دفعت بهذا التقرير الى النشر أذيع خبر اختطاف ٥٠ موظفا من شركة عراقية أمنية خاصة فى بغداد).

وقد انتهت الحكومة الأمريكية إلى استئجار آلاف من الحراس الخاصين لحماية مقاوليها وموظفيها الكبار مثل بول بريمر. فى الواقع تبين من مراجعة حسابات الحكومة الأمريكية فى ٢٠٠٥ انه بين ١٦ و٢٢٪ من ميزانية مشاريع إعادة الإعمار فى العراق يذهب الآن إلى نفقات الأمن وهو تقريبا ١٠٪ اكثر مما كان متوقعا. وكما قال حارس شركة خاصة لمراسل برنامج (الجبهة الأمامية) فى البى بى س PBS مارتن سمث «نحن شركة تأجير سيارات ونحن مجهزون للدفاع عن أنفسنا إذا هوجمنا».

إن الأمن عمل مكلف جدا، مما يعنى أن المراسلين والصحفيين الذين يعملون بشكل حر والذين لا يقدرون على تكاليف مثل هذه الحماية، قد اضطروا لمغادرة بغداد. أما مكاتب الصحف الكبيرة مثل نيويورك تايمز والتى تستطيع دفع تكاليف الأمن والتى مازالت فى بغداد فهى تملك وثائق تأمين مكلفة تتطلب أن تكون كل رحلات الذهاب والإياب - وكل نواحى الحياة خارج المجمع بضمنها الرحلات إلى المطار - تحت سيطرة رئيس الأمن الذى يعمل بدوام كامل ويقوم فى المكتب بدور شبيه بما يقوم به الموجه الأرضى للمرور الجوى. ومهمته هو اختيار الأوقات والطرق لرحلات الصحفيين ثم الحفاظ على اتصال مستمر بسياراتهم حتى يرجعوا سالمين. إذا كنت تريد القيام بحوار خارج المكتب فهناك احتمال كبير أن يلغى أو يؤخر لأسباب أمنية. ورؤساء الأمن مسئولون أيضا عن عناصر الأمن المسلحين الذين يحمون المكتب ليلا ونهارا. ولا أحد يخاطر بالخروج بدون خطة مرسومة مقدما ثم يفضل ان تستخدم سيارة مصفحة تتبعها سيارة (مطاردة) فيها عدد من الحراس العراقيين الموثوق بهم والجاهزين لإطلاق النار إذا تطلب الأمر.

حتى إذا أراد صحفى أن يجرى لقاء فى منطقة محمية أخرى فقد أصبح من الغباء عدم تنسيق المقابلة مسبقا. إذا كان المصور خارجا لتغطية تفجير انتحارى أو صحفى يحاور عراقيا مثلا فهو ينصح /او هى تنصح بعدم إطالة اللقاء اكثر من دقائق لأن ذلك قد يغرى أى شخص بالاتصال بجماعة جهادية لابلاغهم مقابل اجر.

وقد كتب روبرت فيسك مراسل الاندبيندنت اللندنية حول كيفية تحول الصحفيين الغربيين إلى «صحافة الفنادق» أو ما يصفها رئيس مكتب واشنطن بوست السابق راجيف تشادرسكاران «صحافة الريموت كونترول» اما مراسلة الجارديان الحربية ماجى اوكين فقد كانت اكثر تأكيدا «اننا لا نعلم ماذا يجرى ولكننا نتظاهر بأننا نعلم».

والواشنطن بوست التى اضطرت لأسباب أمنية إلى تغيير مقرها اكثر من مرة تقيم الآن فى منزل كبير يجاور فندق الحمراء. وحين توقفت هناك للغداء مع مجموعة من صحفيين اخرين اخبرنى جوناثان فاينر مراسل البوست ان القلق على حياة الصحفيين «غير تماما طريقة التحرك فى ارجاء المدينة».

وقال لى بورزو دراجاهى مراسل لوس انجيليس تايمز ومكتبه فى الحمراء انه فى صيف ٢٠٠٣ كنت تستطيع ان تخرج خارج الفندق و«توقف سيارة اجرة او تقود بنفسك الى الفلوجة لتناول العشاء هناك أوتستنشق الهواء او تذهب الى محل لبيع السيديهات. اما الان فإن الاسوشيتد برس تمنع موظفيها حتى من مغادرة المدينة».

«من المدهش الآن عندما أفكر فى نوفمبر ٢٠٠٣ حين بدأ (التمرد) يستجمع قواه وكل ماكان لدينا هو بضعة أكياس رمل أمام منزلنا وبضعة حراس» والحديث لأيد وونج الذى يعمل الان للمرة السابعة فى مكتب نيويورك تايمز ببغداد» فى ذلك الحين كنت تصادف بضعة اشخاص غاضبين ولكنك لم تكن تشعر بالخوف على حياتك. ثم بدأت الأمور تتغير. فى البداية اصبح بعض المدنيين أهدافا ولكن ليس الصحفيون. ثم فى ربيع ٢٠٠٤ بدأنا نغير أنظمة الأمن باستخدام موكب من سيارتين وحراس. وكان شعورى رهيبا. فلأول مرة أواجه حاجزا بينى وبين الناس الذين يفترض ان انقل اخبارهم».

وابلغنى ديكستر فلكنز من نيويورك تايمز والذى كان فى أفغانستان قبل العراق:

«حين جئت لأول مرة هنا فى مارس ٢٠٠٣ كانت مثل أى منطقة حرب غطيتها: خطرة ولكن الخطوط كانت واضحة. كنا نتجول فى كل المثلث السنى فى الليل. وذهبت الى جنازة عدى وقصى (ابنى صدام حسين). حملقت عائلة صدام بنا ولكنى لم اشعر بأى ذعر. الان لايفعل شيئا من ذلك إلا مجنون!».

لقد بدأت الامور فى التغير فى خريف ٢٠٠٣ حين بدأنا كلنا نواجه تهديدات. لقد اطلق علىّ الرصاص وهاجمنى حشد من الناس ورميت احجار على سيارتى واطلق الرصاص على سيارة من سياراتنا.

ثم تغير كل شيئا تماما بعد ابريل ٢٠٠٤ والفلوجة وانتفاضة جيش المهدى (الميليشيا التى يقودها مقتدى الصدر). احتجز جون برنز وربطت عيناه ودفع للسير فى حقل. لقد تصور فى حينها انه ميت لامحالة. ثم فى اواخر ٢٠٠٤ بدأ قطع الرؤوس. وطبقا لفلكنز «لقد اصاب الوضع جوهر كونك صحفيا ولكننا مانزال نستطيع ان نتحدث للعراقيين ونقوم بمهامنا الصحفية ولكن الاوضاع خطرة ولا يمكن التكهن بها». وكما يقول لارى كابلو من صحف كوكس: «من المحبط عدم التمكن من الحديث للمتمردين» وكذلك عدم التمكن من معرفة مايحدث فى اجزاء اخرى من بغداد. إن ثمن البقاء فى بغداد هو ان تتخذ بدلاء عراقيين لانجاز المزيد والمزيد من المهام من قيادة السيارات الى التبضع الى الحصول على تأشيرات مغادرة وبطاقات السفر و.. كتابة التقارير الصحفية. وهذا الوضع يحبط الصحفيين الاجانب تماما وهم الذى يفخرون باستقلاليتهم. ولكنهم يدركون كما ذكرت لجنة حماية الصحفيين ان ٦١ صحفيا (العديد منهم عراقيون) قتلوا هنا وكثيرا آخرين اصيبوا منذ غزو ٢٠٠٣. وتقول سابرينا تافيرنيس مراسلة نيويورك تايمز والتى قضت عدة سنوات كمراسلة فى روسيا ثم زارت بغداد عدة مرات قبل استبدالها الاخير:

احيانا اعتقد ان كل ما اعرفه هو قطع متناهية الصغر من لغز كبير. اذا كنت تستطيع ان تدخل منزل احدهم فإنك تستطيع ان تنقل الوجه الاخر من القصة ولكن العقبات امامك هائلة، حتى لو كانت مجرد زيارة الى مستشفى بعد قصف. اثناء عيد للمسلمين صادف مؤخرا، ذهبت الى منتزه للحديث مع الاشخاص والاطفال ولكن كان معى مترجم ومصور وثلاثة حراس وسائقان. وتضيف «كان منظرنا مخيفا» فى التاريخ الحديث لم يكن هناك الكثير من الحروب اصعب فى التغطية من الحرب على العراق اليوم. حين كنت اغطى الحرب فى الهند الصينية، كان المراسلون يخرجون الى الميدان وحتى فى داخل مناطق القتال عالمين بأننا فى النهاية سوف نستطيع الرجوع الى سايغون او فنوم بنة او فين تيان حيث نستطيع ملاقاة اصدقائنا المحليين او نذهب للعشاء فى مطعم مع رفاقنا. ومع انه كان يحدث بين حين وآخر ان يرمى واحد من الفيت كونج قنبلة يدوية على حانة ما ولكن الحرب كانت اساسا تدور خارج المدينة.

لقد وصلت هنا فى بغداد وانا اتوقع بسذاجة انه كرد



إن الأمن عمل مكلف جدا، مما يعنى أن المراسلين والصحفيين الذين يعملون بشكل حر والذين لا يقدرون على تكاليف مثل هذه الحماية، قد اضطروا لمغادرة بغداد

بغداد

صحفيون تحت الحصار

فعل لعزلتهم من المجتمع العراقى فإن الصحفيين قد يكونون شكلوا نوعا من التآخى بينهم.ولكن ما اكتشفته هو انه حتى اقل التعاملات الاجتماعية بينهم قد أصبحت عسيرة. والحق يقال ان بعض المكاتب الجديدة الاكبر والاكثر امكانية (مع مطابخ وطهاة) قد حاولوا تنظيم امسيات عشاء غير رسمية مع زملائهم ولكن فى حين ان الضيوف كانوا قادرين على الوصول الى دعوة عشاء مبكرة كانت هناك مشاكل فى العودة ثانية الى مساكنهم او فنادقهم حين يحل الظلام حيث تزداد احتمالات الهجمات. البديل الوحيد كان قضاء الليلة لدى المضيف وهذا يسبب مشاكل للجميع خاصة للسواقين والحراس العراقيين.

كانت النتيجة أن يجد المراسلون أنفسهم يعيشون حياة متخلفة حيث تنتهى أيامهم قبل غروب الشمس. وانهم يسحبون إلى مكاتبهم للعشاء مثل عائلة أمريكية فى الخمسينيات من القرن الماضى. ولهذا لا عجب أن وجد العديد منهم السلوى فى الطبخ بأنفسهم.

فى مساء أحد الأيام حين كنت فى بغداد ذكر حارس امن بريطانى ان فوكس للانباء تقيم «حفلة» فى فندق فلسطين القريب الذى كان سابقا فندق مريديان فلسطين الراقى ذا الخمسة نجوم والذى يقع على ضفة نهر دجلة.

وكان يحدونى الفضول لرؤية مآل اليه هذا الفندق الاسطورى وكذلك كيف هو شكل اللقاء الاجتماعى بين الصحفيين الاجانب هنا الان. وهكذا فعند المغيب وبصحبة حارسين مسلحين تمشيت الى فندق فلسطين عابرا متاهة الجدران العازلة.

اول شىء لاحظته هو ان الفندق الذى اصبح اسما يعرفه كل بيت فى امريكا حين فتحت الدبابات الامريكية النار عليه فى ابريل ٢٠٠٣ وقتلت ثلاثة صحفيين، كان مظلما تقريبا الان. ومن بين المكاتب الرئيسية لم يعد هنا غير مكاتب فوكس للاخبار واى بى تى ان YPTN. ان فندق فلسطين وتوأمه فى الشهرة عشتار شيراتون واللذين يسميان (مغناطيس الصواريخ) هما اعلى مبنيين فى بغداد. وهما يقعان مجاورين لمحيط ساحة الفردوس التى شهرها تمثال صدام حسين حين اسقطته دبابة أمريكية فى ٢٠٠٣. ورغم ان علاقة فندق عشتار بسلسلة فنادق شيراتون العالمية كانت قد قطعت منذ زمن طويل ولكن الفندق مايزال يسمى نفسه شيراتون مثل مطلقة عجوز لا تستطيع ان تتحمل فكرة التخلى عن لقب زوجها السابق.

فى اكتوبر ٢٠٠٥ كان كلا الفندقين هدفا لهجمات ثلاث سيارات مفخخة يقودها (انتحاريون). آخرها كانت خلاطة أسمنت محملة بالمتفجرات واخترقت ثقبا هائلا سببته مفخخة اخرى، وكان يمكن أن يدمر الفندقان لو لم يشتبك محور الخلاطة بحاجز من الأسلاك الشائكة وهنا فتح القناصون فوق سطح فندق فلسطين نيرانهم على الشاحنة مما فجرها بشكل اطاح - من بين اشياء اخرى- بنوافذ مكاتب رويترز ونيويورك تايمز وبى بى سى الى مسافة بعيدة جدا. وقد تضرر عشتار شيراتون الى حد انه لم يفتتح مرة اخرى فى حين ان فندق فلسطين الذى دمرت ردهة الاستقبال فيه، استطاع بشكل ما ان يستمر فى حالة من الحركة المؤجلة.

فى داخل ردهته المظلمة كان هناك عراقى وحيد يغفو على مكتب خشبى متهالك تحت سقف محفور تتدلى منه الاسلاك وتثبيتات الكهرباء والسباكة. ولافتة باهتة مازالت معلقة على مطعم قطار الشرق السريع المغلق والذى كان يوما مكان لقاء كل المراسلين الذين اقاموا هنا.

فى بحثنا عن حفلة فوكس المزعومة، سألنا الحاجب فى الردهة عن كيفية الوصول اليها، فقال لى ولحراسى ان نذهب الى الطابق الخامس ولكنه اضاف انه من اجل الوصول إلى فوق يجب اولا ان ننزل إلى تحت وهى كما يبدو استراتيجية لمنع (الانتحاريين) من الوصول مباشرة إلى اهدافهم. فى السرداب وبين صفوف من الصناديق الكارتونية المهملة واكوام زجاج النوافذ المكسور، وجدنا عراقيا يركع على سجادة امام جدار عازل اسمنتى، ويفترض بالمصلى ان يتوجه فى قبلته نحو مكة.

حين وصلنا اخيرا الى الطابق الخامس كان علينا ان نترك حراسنا فى نقطة تفتيش محصنة بباب من الفولاذ. فى الداخل يستقبلنا هواء ثقيل معبأ برائحة مطهر حشرات وكارى ودخان سجائر. وفى نهاية ممر تغطيه سجادة مزيتة وجدت غرفة صغيرة مفروشة بأثاث رث وتلفزيون يعرض لعبة كرة قدم. وكان السرور ظاهرا على موظفى فوكس الذين كانوا يدخنون ويشربون، لرؤية أى شخص. والمشهد يذكرنى بمجموعة من العجائز المتقاعدين يتشبثون بمبنى سكنى تقرر هدمه.

سألت احدهم وهو يلقى فى يدى زجاجة بيرة، «اين الضيوف الآخرون؟». يسحب زوران كوسوفاك رئيس مكتب فوكس، وهو ضخم الجسم وغير حليق الذقن، نفسا عميقا من سيجارته ويوضح بلهجته الكرواتية وهو يضحك: «الكل عاد الى بيته. اليوم السبت. وقد اردنا ان نمرح قليلا. اعتدنا من قبل ان نقيم حفلات الى وقت متأخر بالليل. ولكن الان جماعة الامن يقولون لنا اذا اردتم اقامة حفلة، فيجب ان تنتهى قبل الساعة ٦ مساء حتى يستطيع كل شخص العودة قبل الظلام. وقد بدأنا فى الساعة الثالثة».

وقال اخر: «الحال مثل تلاميذ السنة الثالثة حيث الكل يعود قبل الظلام» وضحك الجميع.

وحين سألت كوسوفاك كيف تعمل فوكس فى تغطية الأخبار قال إن التليفزيون يعنى ان تكون قريبا من الحدث «لأنه يجب ان نلتقط الصور وهذا شىء ضرورى. لو كنت صحفيا فى مطبوعة وخرجت فى مركبة همفى فأنت تستطيع ان تنظر من خلال النافذة ولكن كمراسل تليفزيون يجب عليك ان تخرج وتلتقط فيلما». كان الجميع يهزون رؤوسهم تصديقا لكلامه وهم يفكرون بلا شك بمراسل الاى بى سى، بوب وودرف ومصوره دوج فوكت اللذين اصيبا حين كانا فى دورية. قال كوسوفاك «لكنا نعتمد على بدائلنا العراقيين الذين تعلمنا ان نثق بهم. انهم «نسخنا الاصلية» ولكن مع ذلك فهم فلترات (مرشحات)».

يقع مكتب بغداد لهيئة الاذاعة البريطانية بى بى سى فى الجوار فى فيلا قديمة كانت فى ثلاثينيات القرن الماضى مدرسة يهودية ومازالت نجمة داود فى تشكيلات بلاط الارضية وفى سور الشرفة الحديدى. ويقول رئيس المكتب الكندى المولد اوين لويد: «التحدى الذى نواجهه هنا هو كيفية الذهاب لتغطية الاخبار، ثم حين نذهب لانستطيع البقاء اكثر من ١٥ الى ٣٠ دقيقة. وفى النهاية يكون محور اهتمامنا على أمننا بقدر اهتمامنا بالحدث».

وسألت لويد كيف تتعامل البى بى سى مع هذه المشاكل فقال: «عندنا موظفون فى غرفة الأخبار مع أربعة عراقيين يسهلون عملنا. انهم من مذاهب إسلامية مختلفة ويعطوننا فكرة عما يجول بخاطر الناس فى مناطقهم. اننا لانستطيع ان نعمل بدونهم».

لقد مضت الأيام التى كان فيها الصحفيون يستطيعون التجول فى أنحاء العراق بعدم جلب الانتباه إليهم كأن يتنقلون بسيارات قديمة أو يطلقون شاربا مثل العراقيين أو يصبغون شعورهم الشقراء أو حين كانت الصحفيات ينشدن السلامة بارتداء عباءات سوداء وحجاب. حين ارادت جيل كارول مراسلة كريستيان ساينس مونيتور اتباع هذه التكتيكات فى يناير اختطفت بينما كانت تحاول ان تجرى حوارا مع السياسى السنى عدنان الدليمى.

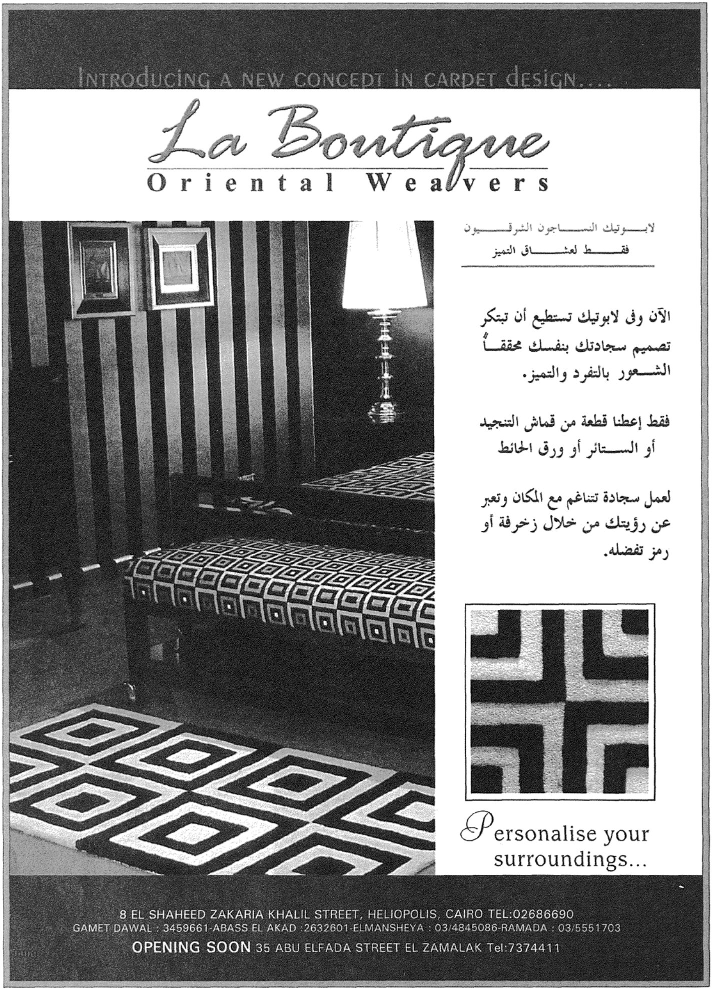
الدرس الذى تعلمه الصحفيون فى هذه الاوضاع غير المسبوقة هو الاعتماد بشكل متزايد على الموظفين العراقيين - لقراءة الصحف العربية وقيادة السيارات وتسهيل الامور والبحث والترجمة وكتابة التقارير الصحفية وقد عينتهم المكاتب الكبرى فى انحاء البلاد او فى الوزارات الحكومية المهمة.

كتبت فرناز فصيحى كيف انها فى وول ستريت جورنال بدأت «الاعتماد بشدة على موظفينا لاجراء المقابلات وتغطية الاحداث فى الشارع والقيام بدور عيوننا وآذاننا فى بغداد».

فى المناسبات استطاع الفريق المحلى للواشنطن بوست «اقناع العراقيين للمجىء الى الفندق واجراء الحوارات مما يعطينى فرصة للتفاعل الشخصى مع المصادر، كان هذا ماكتبته جاكى سبنر رئيسة مكتب بغداد للواشنطن بوست السابقة فى كتابها الذى سينشر قريبا بعنوان (قل لهم اننى لم ابك) وقد روت كيف انها «قضت ليالى تكتب تقارير ملفقة من اخبار جمعها الفريق العراقى، سبيلى الوحيد للحرب.. خارج نافذتى». ■



ثمن البقاء فى بغداد هو ان تتخذ بدلاء عراقيين لانجاز المزيد من المهام من قيادة السيارات الى التبضع الى الحصول على تأشيرات مغادرة وبطاقات السفر و.. كتابة التقارير الصحفية


INTRODUCING A NEW CONCEPT IN CARPET DESIGN....
La Boutique
Oriental Weavers
لابـــوتيك النســـاجون الشرقـــيون
فقـــط لعشـــاق التميز
الآن وفى لابوتيك تستطيع أن تبتكر
تصميم سجادتك بنفسك محققــاً
الشـــعور بالتفرد والتميز.
فقط إعطنا قطعة من قماش التنجيد
أو الســـتائر أو ورق الحائط
لعمل سجادة تتناغم مع المكان وتعبر
عن رؤيتك من خلال زخرفة أو
رمز تفضله.
Personalise your
surroundings...
8 EL SHAHEED ZAKARIA KHALIL STREET, HELIOPOLIS, CAIRO TEL:02686690
GAMET DAWAL : 3459661-ABASS EL AKAD :2632601-ELMANSHEYA : 03/4845086-RAMADA : 03/5551703
OPENING SOON 35 ABU ELFADA STREET EL ZAMALAK Tel:7374411

قناة تحدّت العالم

■■ آخر ما كنت أظن أن أفعله هو أن أكتب عن الإعلام أو الفضائيات العربية بصفة خاصة، فقد أسقطت هذا الموضوع من دائرة اهتمامى بعد أن سقط من دائرة احترامى منذ فترة طويلة. كنت فى نفس الوقت أحسد أو بالأحرى أغبط قطاعا من الصحافة والإعلام الغربى خصوصا الـ «بى بى سى».. وكنت فى فترة من الزمن حريصا على متابعة ما تبثه القناة وما تنشره الصحف عن حرب البوسنة ثم حرب كوسوفا.

لطالما كنت معجبا بجرأة بعض الصحفيين الإنجليز والأمريكيين الذين غامروا بحياتهم فى حرب البوسنة بحثا عن الحقيقة ونشرها فى العالم. ولازلت أذكر اسم الصحفى الأمريكى «جوتمان» الذى تمكن من الكشف عن معسكرات الإبادة الصربية للمسلمين وصور ضحاياهم، ورأينا هياكل آدمية جلدا على عظم، تتحرك خلف الأسلاك الشائكة كأنها أشباح من عالم آخر.. ولولا هؤلاء الصحفيين والمصورين الشجعان ما عرفنا حقيقة ما يدور فى أعماق البوسنة المنكوبة.

فى نفس الوقت كنت أتحسر على أنه لا يوجد صحفى عربى واحد لديه من الشجاعة والدربة والرجولة لكى يذهب إلى البوسنة وينقل إلينا أخبارها، ولا توجد مؤسسة صحفية أو إعلامية عربية واحدة لديها الجرأة والمبادرة ولا حتى الرغبة فى معرفة حقيقة ما يجرى هناك بنفسها.

من أجل ذلك اقتنعت أو أقنعت نفسى بأنه لا شىء فى هذا الإعلام العربى جدير بالاهتمام أو الاحترام.. وأنه لا أمل هناك. حتى جاء الغزو الأمريكى لأفغانستان وهبط علينا شىء اسمه «الجزيرة» من حيث لا ندرى. فقد كانت كل صور الحرب تظهر على شاشة الـ «بى بى سى» والـ «سى إن إن» وعليها شعار عربى فى ركنها الأسفل باسم «الجزيرة».. فما معنى هذا؟.. معناه أولا أن الفضائيتين البريطانية والأمريكية على شهرتهما وضخامتهما ليس لهما مراسلون فى الحرب الأفغانية، وأن مصدرهما الوحيد للأخبار هو فضائية جديدة تصادف أنها عربية واسمها الجزيرة، وأنها سبقت وانفردت دون فضائيات العالم كله بتصوير وبث أخبار هذه الحرب، والمعنى الثانى هو أن هذه الجزيرة موضع ثقة ملحوظة من الفضائيتين العالميتين المذكورتين وإلا ما بثتا عنها صورها وأخبارها.

تعزز هذا الموقف عندى بعد لقاء جمعنى بالصدفة مع أحد الوزراء المخضرمين، كنت قد عرفته والتقيت به كثيرا فى جامعة قطر خلال عقد الثمانينيات. أما المناسبة فكانت حفل عشاء فى فرح ابن صديق آخر كان أستاذا فى كلية الهندسة بنفس الجامعة هو الدكتور شاهين، ثم أصبح اللورد شاهين بعد ذلك، ولهذا قصة أخرى.. كنا ثمانية جمعنا لورد شاهين على مائدة واحدة لعلنا نسترجع ذكريات طيبة في جامعة قطر.. كانوا أساتذة فى كلية الهندسة فيما عدا واحد أصبح وزيرا، وكنت فى ذلك الوقت منتدبا من منظمة اليونسكو للمساهمة فى تصميم وتجهيز مكتبات جديدة لجامعة قطر ثم إدارتها بعد ذلك..

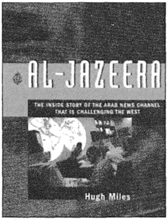
عهدى بالسيد الوزير أنه كان أكاديميا متميزا له مؤلفات مرموقة ويتمتع بسمعة جيدة.. تطرقنا فى الحديث إلى موضوعات شتى حتى طفت على السطح سيرة قناة الجزيرة، فإذا به يشكك في نوايا القناة ومصادر تمويلها.

فى الحقيقة كان هذا اللقاء نقطة تحول فى اهتمامى بالجزيرة فبدأت أجمع عنها معلومات وأتابع فى نفس الوقت برامجها وأساليب صحفييها فى الحوار واختيار الشخصيات والموضوعات.

وعدت أبحث عن أمر «قناة الجزيرة» فى كل ما هو متاح من مصادر المعرفة.. وكانت حصيلتى المبدئية ١٤٠ مقالة فى صحف أوروبية وأمريكية وثلاثة كتب باللغة الإنجليزية.. عجيب هذا الاهتمام العالمى بأمر قناة عربية فى بلد لا يزيد عدد سكانه على نصف مليون نسمة! هل يستطيع أحد أن يدلنى على مقالة واحدة ذات قيمة عن قنواتنا الفضائية الأخرى.

لقد عشت فى بلاد كثيرة مثل بريطانيا واستراليا وبلاد أخرى مثل الفلبين و«الواق واق» فلم أر تليفزيوناتهم تهتم فى نشراتها الإخبارية بصاحبة الجلالة ولا صاحب المعالى رئيس الوزراء وهم يمارسون أنشطتهم الروتينية، لأن هذه لا تشكل خبرا يستحق الاهتمام، اللهم إلا فى حالتين؛ أن يكون لقاء بعد خصومة وقطيعة، أو ما يسمونه فى مجلس العموم البريطانى «ساعة الأسئلة».. وما تشاهده فى هذه الساعة عملية جلد حقيقية لرئيس الوزراء ومحاسبته من قبل المعارضة على كل صغيرة وكبيرة.

الجزيرة إذن ظاهرة فريدة فى الإعلام العربى ولم أشعر بندم أو خيبة أمل أننى قضيت بضعة أشهر أقرأ وأقلب فى الوثائق والكتب والمقالات بحثا عن سر قوة هذه القناة.





Al Gazeera: How Arab TV News Challenges The West

(الجزيرة: كيف تحدى تليفزيون عربى الغرب؟)

Hugh Miles

Grove Press, 448PP, $15.60, 2005

محمد يوسف عدس

ربما أفضل ما قرأت فى هذا المجال هو كتاب بعنوان: «الجزيرة - كيف تحدت قناة إخبارية عربية الغرب» مؤلفه «هيو مايلز» نشر سنة ٢٠٠٥م ويحتوى على ٤٣٨ صفحة.. والمؤلف صحفى إنجليزى يكتب مقالاً أسبوعياً لإحدى المجلات المتخصصة فى بريطانيا، ولكنه يعمل فى نفس الوقت فى شبكة «سكاى نيوز» الإخبارية بلندن.. يقول عن وظيفته إنه كان يشاهد ويراقب القنوات المنافسة الأخرى، ويرصد كل صورة تنطوى على خبر مهم، ويتأكد أن سكاى نيوز لم تهمل أو تفتقد الحصول على هذه الصورة الهامة.

عندما بدأت الحرب الأمريكية على العراق تغيرت نوبته فى المراقبة فأصبحت ١٢ ساعة تبدأ الساعة السابعة مساء وتنتهى الساعة السابعة صباحاً، يسجل فيها صور الجزيرة لبثها فى نشرات أخبار قناة «سكاى نيوز».. يقول مايلز: كانت مشاهدة هذه الصور على مدار ١٢ ساعة متواصلة كل ليلة حتى الصباح عملية مرهقة خلفت طنيناً دائماً فى رأسى واستغرقت جهازى العصبى استغراقاً كاملاً، لدرجة أننى لم أعد قادراً على متابعة واجباتى الأخرى فى الكتابة للصحيفة التى كنت مرتبطاً بها.. فقد كان على أن أكتب مقالاً أسبوعياً لمجلة «لندن ريفيو أوف بوكس» ولكننى كلما جلست للكتابة لا أرى أمامى سوى صور الحرب فى العراق.. كنت كمن يدور حول نفسه.. حتى النوم أصبح متعذراً على رغم طول السهر.. فإذا حل فجأة استلقيت كالمغشى عليه.. وعندئذ تهاجمنى أحلام كالكوابيس منسوجة بصور ومشاهد الحرب التى رأيتها فى الليلة السابقة. فلما علم رئيس التحرير بحالى اقترح على أن أطرح الموضوع الأصلى وأن أكتب عن تجربتى فى مشاهدة الحرب على قناة الجزيرة.

يقول مايلز: «هكذا بدأ اهتمامى ومنطلق بحثى حول هذه القناة.. انحصرت مقالتى الأولى عن الجزيرة فى كيفية تغطية هذه القناة للحرب فى العراق وعندما انتهيت من كتابة المقالة وجدت نفسى أمام أسئلة أكثر من الإجابات: من الذى بدأ هذه القناة؟ ولم ظهرت الآن بالذات؟ كيف يتم تمويلها؟ ما هى حقيقة علاقة الجزيرة بأسامة بن لادن؟ ما هى علاقتها بالمقاومة العراقية؟.. كثير من الصحفيين فى الغرب اعتبروا ظهور الجزيرة وما تقوم به فى المجتمعات العربية والإسلامية مثل ظهور كتاب جورباتشوف فى الاتحاد السوفيتى بعنوان «المصارحة» ولذلك أطلقوا عليها «المصارحة العربية» فهل هذا صحيح؟.. وماذا يعتقد العرب أنفسهم فى وضع الجزيرة عندهم؟.. هل حقيقة تحرك هذه الفضائية البلاد العربية نحو الديمقراطية كما يزعم البعض؟..أم أنها مجرد تنفيس بديل عن الديمقراطية؟

أسئلة تبدو سهلة ولكن من يعرف طبيعة البلاد العربية وإمكاناتها الإعلامية يدرك أن المسألة ليست بهذه السهولة.. ففى العالم الغربى تستطيع وأنت جالس أمام جهاز الحاسب الآلى أن تحصل - بضغط بعض المفاتيح - على معلومات وإحصاءات عن أى موضوع تريد بحثه، أما فى العالم العربى فليس هناك دراسات ولا إحصاءات عن أى جانب من جوانب الإعلام.. مثلاً هل تستطيع أن تجد أى دراسة أو أرقام عن بدو سيناء فيما يتعلق بمشاهداتهم التليفزيونية؟ أى قنوات يفضلون.. وكم ساعة يقضونها أمام برامج فضائية معينة؟ وما رأيهم فيها؟.. لا شىء!

يقول هيو مايلز: إن توجيه مثل هذه الأسئلة إلى الناس فى العالم العربى تعتبرها السلطات جريمة يمكن أن تؤدى بك إلى السجن.. فالمجتمعات العربية مجتمعات غير شفافة والإحصاءات والدراسات السكانية كالأسرار ليست جزءاً من الحياة العادية.. والطريقة الوحيدة لكى أعرف كيف تُستقبل الجزيرة وما تأثيرها على الناس؟ هو أن أذهب بنفسى إلى العالم العربى.. ومن هنا بدأت مهمتى الاستطلاعية حول العالم التقيت فيها إلى جانب موظفى الجزيرة بعشرات من الشخصيات من مختلف المهن من المثقفين والسياسيين.. والصحفيين والإعلاميين.. ومن الناس العاديين فى أماكن تجمعاتهم وأنشطتهم الاجتماعية مؤيدين ومعارضين ولا مبالين.

فماذا وصل إليه مايلز فى دراسته وبحثه من حقائق عن قناة الجزيرة؟

فى مارس سنة ١٩٨٨ ألغى أمير قطر وزارة الإعلام وألغى الرقابة نهائياً على الإذاعة والتليفزيون والصحافة والنشر.. فبين عشية وضحاها لم تعد ملكاً خاصاً للدولة وإنما مؤسسات حرة مستقلة من حقها تعيين من تشاء وتفعل ما تريد دون الحصول على إذن من السلطات الحكومية.

منح الأمير قناة الجزيرة الناشئة ١٣٧ مليون دولار على شكل سلفة تنفق منها خلال خمس سنوات.. بدون فوائد.. على أمل أن تستطيع الجزيرة بعد هذه المدة أن تقوم بتمويل نفسها بنفسها من الإعلانات ومن عوائد بيع منتجاتها الإعلامية.

ولكى يحسم شبهة التمويل من البداية يقول هيو مايلز: إن قناة الـ «بى بى سى» تعتمد فى جزء كبير من ميزانيتها على منحة من الحكومة البريطانية ولكن لا سلطان لهذه الحكومة على المؤسسة إطلاقاً.. بل فى واقع الأمر هناك خلافات سياسية وإدارية كثيرة بين المؤسسة وبين الحكومة.. ويمكن أن تصبح العلاقة بين الجزيرة وبين حكومة قطر على غرار العلاقة بين الـ «بى بى سى» والحكومة البريطانية.

كنت أتحسر على أنه لا يوجد صحفى عربى واحد لديه من الشجاعة والدربة والرجولة لكى يذهب إلى البوسنة وينقل إلينا أخبارها

ولكن هناك.. فى نشأة الجزيرة وقصة تشكيلها شق غير معروف بدأ فى زمن آخر ومكان آخر.

أما الزمن فهو مارس ١٩٩٤م وأما المكان فهو لندن. فى هذا التاريخ تم التوقيع على عقد اتفاق بين أمير سعودى وإدارة الـ «بى بى سى» على إنشاء قناة فضائية ناطقة باللغة العربية يمولها هو ممثلاً عن شركة أوربيت.. تبث من مكاتب الـ «بى بى سى» فى لندن، وتكون على نفس المستوى من الأداء المهنى بشرط مراعاة الحساسية الثقافية للمنطقة العربية.. ومن هنا بدأ الخلاف يدب حول من تكون له السيطرة على تحرير المواد.. و انطلقت أولى شرارات هذا الخلاف مع ظهور أستاذ جامعى سعودى اسمه «محمد المسعرى» كان يرأس لجنة حقوق الإنسان.. قامت السلطات السعودية بإلغائها فلجأ إلى لندن ليتخذها مقراً للجنته.. كان يصدر بيانات معادية للأسرة الحاكمة فى السعودية، مطالباً بحكم إسلامى حقيقى.. فى أثناء حواره فى القناة حدث إظلام تام وانقطع الاتصال.. فغضبت الـ «بى بى سى».. وازداد الخلاف حول التحرير وتفجرت الخلافات بين الحكومتين السعودية والبريطانية حيث طالب السفير السعودى بطرد الدكتور المسعرى من بريطانيا فوراً وإلا ستقوم حكومته بإلغاء عقود أسلحة بمليارات الجنيهات الاسترلينية.. استطاعت الحكومة البريطانية احتواء الموضوع.. ثم جاءت الضربة القاضية بعد ذلك ببضعة شهور، عندما أذاعت قناة «أوربيت» فيلماً وثائقياً بعنوان «موت مبدأ»: ظهرت فيه امرأة فلبينية تحكى قصة جلدها فى السعودية لخروجها مع أصدقاء من الرجال.. ثم ظهر رجل على وشك أن ينفذ فيه حكم الإعدام بقطع الرأس.. وقبل هبوط السيف على رقبة الرجل قُطع الإرسال مرة أخرى وماتت القناة بالسكتة الدماغية بعد ثمانية عشر شهراً فقط من بداية إرسالها.. وحل محلها قناة دزنى.

فى ذلك الوقت كانت قطر تبحث عن إعلاميين على مستوى متميز لفضائية جديدة تحت الإنشاء اسمها «الجزيرة».. وهكذا وقع ١٢٠ إعلامياً من هؤلاء عقوداً مع الجزيرة.. بدأ إرسالها فى يناير ١٩٩٧ لمدة ست ساعات يومياً واليوم أصبحت الجزيرة تبث ٢٤ ساعة فى اليوم، وصاحب ذلك انتشار هائل لأطباق الاستقبال فى العالم العربى ولم تعد الجزيرة وحدها هى الفضائية العربية على الساحة بل صحبها ولحق بها فضائيات عربية كثيرة.. ولكن تبقى الجزيرة شيئاً متميزاً بين كل هذه الفضائيات.

هيو مايلز يتحدث تفصيلاً عن برامج الجزيرة ومذيعيها الذين صاروا نجوماً. ثم يتوقف طويلاً عند برنامج «الاتجاه المعاكس» الذى أحدث هزة عنيفة فى الأوساط الفكرية والسياسية، وتسبب فى قطع العلاقات الدبلوماسية بين قطر ودول الجوار.. فالبرنامج شديد التطرف شديد الصراحة بدرجة غير مألوفة فى بلاد العرب.. ولذلك استقبله الناس بمزيج من الدهشة والصدمة.

لم تمض إلا فترة قصيرة على البرنامج حتى اعتاده الناس.. وإن كان البعض يفضل الحوار الأكاديمى الهادئ على هذا الصدام الهائج. وكان طبيعياً أن يختلف المشاهدون حول البرنامج، فمنهم من رأى أن ما يحدث فى هذا البرنامج إفراز طبيعى لمجتمعات فكرية عاشت قروناً يرفض

بعضها البعض الآخر.. وظاهرة لنوع من المثقفين لم يعتادوا على الحوار الديمقراطى، كل واحد يعتقد أنه يملك الحقيقة المطلقة وأن خصمه ليس على شىء.. فريق من المشاهدين يرى أنها خطوة نحو الديمقراطية.. وفريق آخر لا يرى فى هذا البرنامج إلا «ماتش» شتائم ومهاترات بلا هدف.

الآن وقد أصبح لهذا البرنامج شعبية كاسحة بدأت بعض الفضائيات العربية تقلده على استحياء.

يقول هيو مايلز: فى الحقيقة إن ما يقال فى البرنامج كان يدور بين العرب خلف الأبواب المغلقة لسنوات عديدة.. والجديد الذى حدث فى الجزيرة هو أن ما كان يدور خلف الأبواب أصبح يقال بصراحة على شاشات التليفزيون، وهذا ما لم يكن معتادًا فى حياة العرب السياسية التى تحفل بقدر كبير من المحرمات والمقدسات التى لا تمس.. بقدوم الجزيرة لم يعد هناك - فى هذا المجال - شىء مقدس.. كل شىء أصبح قابلاً للنقاش والأخذ والرد فيه على الملأ.. فقد ناقش ضيوف الاتجاه المعاكس: هل الكويت فعلاً جزء من العراق؟.. هل إنشاء دولة الأردن كان جزءًا من المشروع الصهيوني في المنطقة؟ هل تعانى الأسرة الحاكمة السعودية من فساد؟ هل يصح أن تمنح الدول العربية قواعد عسكرية للأجانب على أراضيها؟.. هل هناك نظم ديمقراطية فى العالم العربى أم أن كل الحكومات فيه مستبدة بدرجات متفاوتة؟

ويلاحظ الكاتب البريطانى أن سجل القنوات العربية رسمية كانت أو مستقلة جميعها بلا استثناء لم تعر الشيخ أحمد ياسين - رغم مكانته فى النضال الفلسطينى - أى اهتمام حتى جاءت الجزيرة فظهر فيها لأول مرة فى عدة برامج. ارتفع فى الجزيرة صوت الأقليات المسكوت عنها.. وظهر أصلان مسخادوف رئيس جمهورية الشيشان الذى أهملته كل الفضائيات العربية وأصدر نداء للأمم المتحدة وأمريكا للتدخل لدى روسيا لإنقاذ الشعب الشيشانى من العدوان الروسى..

الغرب يستمع:

مع مرور الوقت واتساع شهرة الجزيرة بدا لبعض القيادات العربية أن الظهور على شاشتها يكسبهم ثقة الجماهير.

وفى سنة ١٩٩٧ بدأت الجزيرة علاقاتها مع شعب العراق المحاصر الذى أهمله العرب إهمالاً تامًا وأسقطوه من حسابهم، بينما كان يعانى ويلات الحصار الاقتصادى والقصف المتواصل والأمراض المتفشية بسبب التلوث وسوء التغذية.

وفى ١٦ ديسمبر سنة ١٩٩٨ وفى بداية شهر رمضان الكريم شنت أمريكا غارة مكثفة باسم «ثعلب الصحراء».. وكانت الجزيرة هى القناة الفضائية الوحيدة فى قلب بغداد شاهدة على موجات لصواريخ كروز الموجهة بأشعة الليزر إلى مئات الأهداف فى العاصمة العربية.. وفى غضون ١٥ دقيقة فقط من بدء الهجوم الأمريكى كانت صور الجزيرة تبث على شاشات التلفزة العالمية، ولم تلبث التايمز اللندنية أن نشرت فى ١٨ ديسمبر على صفحتها الأولى صور الجزيرة.. وكان هذا السبق الصحفى أول خطوة نحو الشهرة العالمية.

قبل ذلك لم يكن الغرب يسمع عن هذه الجزيرة شيئًا، فلما ظهر فيها صدام حسين فى خطاب موجه إلى العالم فى يناير سنة ٢٠٠٠ اعتبرها الغرب محطة صدام ثم بعد ذلك محطة بن لادن عندما بدأت تبث بياناته ورسائله.

وحقيقة الأمر أن «الجزيرة» لم تكن أول محطة تلتقى مع بن لادن وإنما سبقتها الـ ABC الأمريكية فى يناير ١٩٩٩، ولكن لم ينتقدها أحد أو يلتفت إليها، فلما أعلنت الجزيرة أنها سجلت مقابلة خاصة مع أسامة بن لادن وسوف تبثها اعتبر العالم أن هذه جريمة منكرة.

ثم جاء اليوم الموعود لبث تسجيل بن لادن فى الجزيرة واحتشد ملايين المشاهدين أمام شاشات التليفزيون لسماع خطاب بن لادن كان بن لادن معارضًا قويًا للوجود العسكرى فى أراضى الجزيرة العربية ومن ثم أعلن فى خطابه الجهاد ضد أمريكا واستشاطت الكويت والسعودية غضبًا، واعتبرت أن خطاب بن لادن جريمة لا تغتفر.

كان الإعلام القطرى محرمًا عليه دخول السعودية إلا فى حالتين: عند زيارة أميرها إلى السعودية أو فى موسم الحج لبث شعائره.. ولكن بعد إذاعة الشريط المشئوم أصبح دخول الجزيرة إلى السعودية محرمًا قطعيًا.

لم تكن إذاعة شرائط بن لادن وحدها هى السبب فى القطيعة بل هناك أسباب أخرى.. فقد استنكر وزير الإعلام السعودى أيامها ظهور صدام حسين فى الجزيرة وقال إن هذه القناة تقدم السم على طبق من فضة.. ثم حاول التشكيك فى نشأتها ومقاصدها فقال: إننا نعلم أن هذه المحطة وليدة الإذاعة البريطانية.. ونعلم من يقف وراءها ويمولها.. وفى مايو ١٩٩٩ ظهرت مقالات صحفية فى السعودية تتهم الجزيرة بأنها تفبرك الأخبار وتتدخل فى الشئون الداخلية للدول.. وشن أئمة المساجد حملة على الجزيرة لأنها تفسد أخلاق العرب! وأصدروا فتوى بتحريم ظهور السعوديين فى هذه القناة.

وأبدًا لم يكن بين الحكومات العربية من هو على استعداد لأن يصدق الموقف القطرى الدائم والمعلن «أن هذه مؤسسة حرة وهى مسئولة عن أفعالها ولا نتدخل فى شئونها» والسبب على الأرجح هو أن الأنظمة العربية تسيطر على الإعلام فيها وتتدخل فى شئون القنوات المستقلة وتمنع ظهور شخصيات بعينها فى هذه القنوات.

ومن هذا المنطلق لم يصدق أحد حكومة قطر واعتبروها مسئولة عن كل كلمة تبث فى الجزيرة.. وبدا أن جميع القادة العرب قد شعروا بخطورة هذه القناة وبهذا القدر الهائل من الحرية والصراحة التى يتحدث بها الناس عن استبدادهم وفسادهم.. لذلك حمل على الجزيرة قادة العرب وأشاروا إليها بأصابع الشك واتهموها بتبنى أيديولوجيات مختلفة فتارة هى بعثية صدامية وتارة أخرى هى إسلامية متطرفة عميلة لابن لادن.. وتارة ثالثة هى إسرائيلية صهيونية.. وظلت الشكاوى تنهال على الجزيرة بشكل متواصل من الحكومات العربية.. وبلغ الغضب من الرئيس القذافى أن سحب سفيره من قطر بعد أن اتهمه أحد الليبيين الضيوف بأنه ديكتاتور!

من الذى بدأ هذه القناة؟
ولم ظهرت الآن بالذات؟ كيف يتم تمويلها؟
ما هى حقيقة علاقة الجزيرة بأسامة بن لادن؟
ما هى علاقتها
بالمقاومة العراقية؟

يقول هيو مايلز: الحقيقة أن كل هذه الاتهامات على فداحتها لا يوجد دليل واحد عند أصحابها يؤكدها.. ولكن المشكلة الحقيقية فى عقول هؤلاء لأنهم لم يتصوروا ولا يريدون أن يتصوروا أنه من الممكن أن توجد قناة عربية أو مؤسسة إخبارية مهنية على أى مستوى من الحرية الحقيقية والاستقلال فى العالم العربى.

لقد حاولت الحكومات العربية تكتيف الجزيرة ومحاصرتها وإعاقة الإرسال فيها إلى حد دفع بعضها إلى اللجوء إلى إجراءات شديدة التطرف شديدة الغرابة..

ففى يناير ١٩٩٩ كان برنامج الاتجاه المعاكس يستضيف صحفيًا جزائريًا منفيًا وكان الموضوع يدور حول الحرب الأهلية فى الجزائر التى ذهب ضحيتها مائة ألف إنسان.. وكان معروفًا مسبقًا أن هذا الصحفى يتهم الحكومة الجزائرية وجنرالات جيشها بانتهاك حقوق الإنسان فى الجزائر على نطاق واسع، وأن معظم القتلى ضحايا لإرهاب الدولة وأن رجال الأمن هم المسئولون عن هذه الجرائم البشعة.. وخوفًا من أن يتطرق البرنامج فى مناقشاته إلى تفاصيل وحقائق تراها الحكومة الجزائرية مسائل حساسة قامت بقطع التيار الكهربائى عن العاصمة وعن مدن الجزائر الأخرى(!)

كذلك كانت الجزيرة تأمل فى الحصول على شطر من كعكة الإعلانات العربية التى بلغت مئات الملايين من الدولارات لتغطى نفقاتها وتستغنى بذلك نهائيًا عن أى مساعدات مالية تأتيها من أمير قطر.. ولكن الدول العربية قاطعتها لعلها تضطر فى النهاية إلى إغلاق أبوابها وتصفية نفسها.

الانتفاضة الفلسطينية

من بين صور الجزيرة التى أثارت الشارع فى البلاد العربية وانتشرت على كل شاشات التلفزة العالمية وعلى الصفحات الأولى للصحف. صورة مقتل الطفل محمد الدرة الذى كان يتحصن فى صدر أبيه عندما أطلق عليه جندى إسرائيلى رصاصة أردته قتيلاً فى حجر أبيه المصاب.

شعر الإسرائيليون بأنهم يواجهون لأول مرة معركة إعلامية حقيقية من قناة تليفزيونية مقتدرة، لديها صحفيون على مستوى عال من الاحتراف المهنى والشجاعة فى اقتحام المخاطر بحثًا عن الحقائق.. وهو شىء لم تعتد عليه من الإعلام العربى العاجز المدجن.. ومن ثم بدأت إسرائيل تتربص بالجزيرة وتحاصرها.

يقول هيو مايلز: لا شك أن حملة الجزيرة وصورها لم تحرك الشارع العربى

فقط ولكنها حركت القادة فعقدوا قمة عربية وقرروا دعم الفلسطينيين بمليار دولار وسحبت مصر سفيرها من إسرائيل.. وفي هذا يقول مايلز: إن الرئيس مبارك قال لمستشاريه إنه لا يستطيع أن يتحمل صور الأطفال الفلسطينيين يقتلون وهم يواجهون الجنود الإسرائيليين بسلاح الحجارة.. لابد أن أفعل شيئًا.

ويشير مايلز إلى أن صور الجزيرة اخترقت الحواجز والمسافات ووصلت رسالتها إلى المواطنين العاديين في أعماق القرى من إندونيسيا إلى المغرب العربي كأقوى ما تكون.. «لقد أحدثت الجزيرة ثورة في العالم العربي وأصبح بفضلها كل شيء مكشوفًا فلم يعد في الإمكان إخفاء أي شيء عن الجماهير».

كان يمكن في الماضي أن يدك نظام دكتاتوري مدينة يعتبرها متمردة مثل مدينة حلب ويقتل من أبناء شعبه عشرات الألوف ولا تجد حسًا ولا خبرًا في الإعلام العربي.

والسؤال هو: هل يمكن أن يحدث ما وقع لحلب الآن في وجود الجزيرة دون أن يعرف به العالم وفي حين وقوعه؟ أظن أن هذا أصبح مستحيلاً.. إنها ثورة في الإعلام العربي كما يقول هيو مايلز.

.. أمـــريـــكـــا

استطاعت الولايات المتحدة أن تحشد تأييدًا عالميًا هائلاً على خلفية الهجوم على برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك في ١١ سبتمبر ٢٠٠١م ولكن سرعان ما فقدت هذا التعاطف العالمي.. وذلك.. فيما يؤكد هيو مايلز.. بسبب الصور التي بثتها الجزيرة على العالم عن الغزو الأمريكي لأفغانستان.. فقد كانت الجزيرة هي القناة الوحيدة الموجودة في أفغانستان منذ حكم طالبان، واستطاعت أن تتابع أحداث الحرب وتصور الضربات الهائلة والتفجيرات المروعة التي لا مبرر لها على المناطق الآهلة بالسكان المدنيين، وقد أظهرت هذه الصور أعدادًا كبيرة من القتلى والأشلاء لأطفال ونساء في مناطق بعيدة عن معسكرات وقوات طالبان، وأعطى هذا انطباعًا للعالم الخارجي أنها حرب هوجاء على شعب أعزل وليست على الإرهاب والإرهابيين كما زعمت أمريكا.

يقول هيو مايلز: كان القصف الأمريكي لمكتب الجزيرة في كابل رسالة واضحة للجزيرة أن ترحل من أفغانستان على الفور.. وبالفعل شرع فريق مراسلي الجزيرة وعلى رأسهم تيسير علوني يغادرون أفغانستان عبر ممرات جبلية وعرة نحو الحدود الباكستانية ليستقر بعد ذلك في العراق.. وليبث منها ملحمة أخرى يفضح فيها العدوان الأمريكي على العراق.. وكان يكفي تيسير علوني ما فعله في أفغانستان ليكتسب اللعنة الأمريكية التي لاحقته حتى استقر في سجون إسبانيا كما استقر زميله سامي الحاج رهينة في سجن جوانتانامو.

ذكريات عراقية:

بدأ الغزو الأمريكي للعراق في ١٩ مارس ٢٠٠٣ وسبق هذا بطبيعة الحال استعدادات عسكرية ضخمة وحشد قوات حول العراق وقواعد عسكرية في دول الجوار ومع كل هذه الاستعدادات العسكرية كان هناك استعدادات أخرى هائلة لحرب إعلامية شرسة، كان هناك إذاعة أمريكية تعمل بالفعل وتنطق باللغة العربية هي إذاعة «سوا» كما كان تجهيز قناة تليفزيونية أمريكية ناطقة باللغة العربية قائمًا على قدم وساق.. وهي قناة «الحرة».. ولكن البنتاجون لم يكتف بذلك وإنما جاء بترسانته الإعلامية الخاصة، فقد أحضر الجنرال فرانكس معه آخر ما في جعبة أمريكا من تكنولوجيا إلكترونية في البث والرسم والخرائط ليشرح للعالم تفاصيل الحرب الإمبريالية على العراق.

أما بالنسبة لتغطية أخبار الحرب وتصوير المعارك كان هناك الصحفيون «المرافقون»، كما دعا الرئيس بوش جميع رؤساء تحرير الصحف إلى البيت الأبيض حيث أوصاهم ألا ينشروا شيئًا يثبط من همم الجنود الأمريكيين الذين يؤدون واجبًا وطنيًا في العراق، وأن يمتنعوا عن نشر أي خبر يسيء إلى سمعة الجيش الأمريكي.

ولكي ينفرد رامسفيلد بالساحة الإعلامية أمر بوش جميع الصحفيين والمراسلين الأجانب قبل بدء الحرب بساعات بمغادرة العراق فخرجوا جميعًا.. وبقي فريق الجزيرة وحده يواجه مخاطر الحرب وينقل صورها إلى العالم الخارجي تحت عنوان: «العراق يحترق». وتنقل من العراق أخبار بلدة صغيرة اسمها أم القصر تعدادها لا يزيد على خمسة آلاف نسمة.. تصمد أمام قوات التحالف أربعة أيام متواصلة. وفي قلب البصرة أثناء حصارها تكشف الجزيرة بالصور الحية فظائع القصف العشوائي على المدنيين.. صورة لطفل في المستشفى مقطوع الرأس.

كان مراسلو الجزيرة يقيمون بفندق شيراتون في البصرة وكان هذا معلوما لدى القوات الأمريكية، ومع ذلك قصفت الفندق بأربعة صواريخ لإجبارهم على الرحيل من المدينة. ولم يمض وقت طويل حتى راح طارق أيوب مراسل الجزيرة في ٨ أبريل ٢٠٠٣ ضحية قصف أمريكي طال فندق فلسطين في قلب بغداد.

كان من أنجح أعمال الجزيرة في الفلوجة تصوير قناص أمريكي يقف على سطح أحد المنازل وهو يصوب بندقيته إلى نساء وأطفال ويمطرهم بالرصاص وهم يسيرون في الشارع.. ولم تمض إلا بضعة أيام حتى راح صحفي آخر من الجزيرة هو «رشيد حامد والي» كان يقف على سطح فندق بكربلاء للتصوير ضحية رصاصة اخترقت عينه وفجرت جمجمته.

هل تصنع الجزيرة ديمقراطية العالم العربي؟

يرى هيو مايلز أننا لابد من تحرير مسألة هامة قبل الخوض في الإجابة على هذا السؤال.. لأن هذا السؤال ينطوي على افتراض أن ما كان ينقص الشعوب العربية لتصنع ديمقراطيتها هو المعلومات.. ومادامت الجزيرة وغيرها من الفضائيات الأخرى الجديدة قد وفرت هذه المعلومات إذن فنحن نحقق لهم الديمقراطية.. وهذا كلام غير صحيح على إطلاقه.. فالواقع يقول إن السلطة.. بعد ظهور الجزيرة.. لاتزال مركزة في أيدي نفس الشخصيات والنخب القديمة التي لاتزال تسيطر على الأوضاع منذ عقود.

ربما كان السؤال الأنسب هو: هل تؤثر الجزيرة في عملية التحول إلى مجتمعات ديمقراطية في العالم العربي؟ هنا يمكن القول بأن الجزيرة لها تأثير كبير على العمليات والتوجهات الديمقراطية.. فالصحافة الحرة والإعلام الحر هما ركيزتان لا يمكن الاستغناء عنهما في التركيبة الديمقراطية. من هذا المنطلق دعنا نبحث ونحلل مع هيو مايلز التغييرات التي أحدثتها الجزيرة في وسط البركة العربية الآسنة.. يقول هيو مايلز: جرت عادة أصحاب السلطان عندما تستجد تكنولوجيا جديدة أن ينظروا فيها ليروا: هل هذه التكنولوجيا تضعف أو تقوي قبضتهم على الأوضاع؟

وقد نُظر إلى الفضائيات في أول الأمر نظرة مريبة ومن ثم قاومتها الحكومات في البداية ثم تراخت مقاومتها لعدم وجود وسيلة سهلة لكبح جماحها.. وهكذا بدأت تفكر في معالجات أخرى لاحتوائها.

وفي هذا يقول هيو مايلز: لا ينبغي أن تتوقع تغييرًا حقيقيًا في هذه الفضائيات طالما وُجد وزراء إعلام في السلطة لأن وجود وزير على رأس وسائل الإعلام معناه الرقابة والتدخل والقيود.

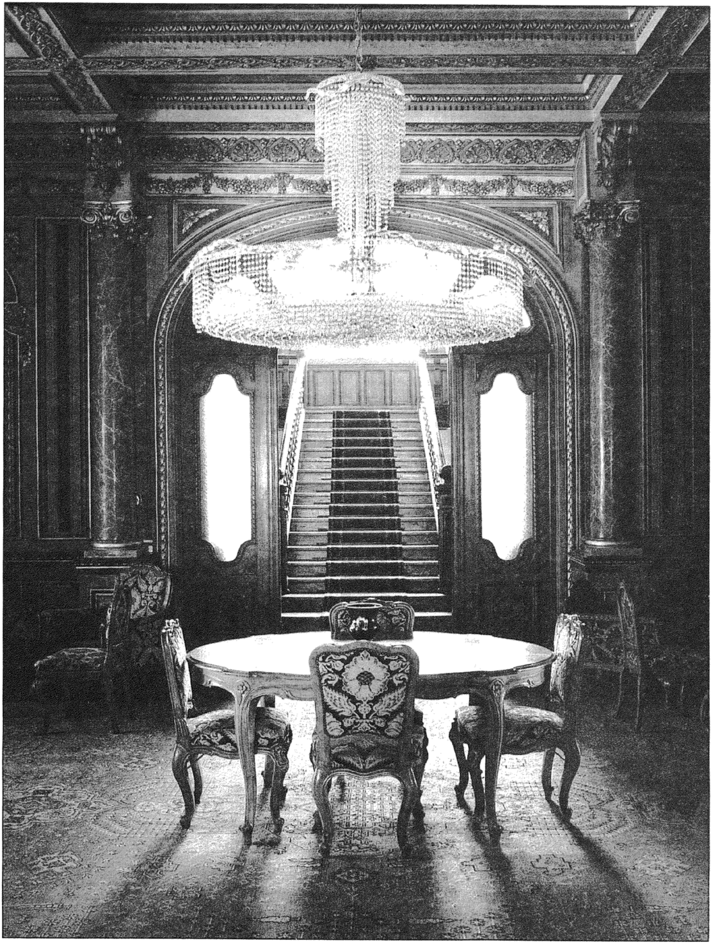
وكما ذكرنا رأت بعض الحكومات العربية الأخرى أن تنشئ قنوات تليفزيونية كاملة تنحو نفس منحى الجزيرة حتى لا تبقى وحدها متمتعة بخصوصية متميزة عن القنوات الأخرى..

ومما استجد أيضًا في المجال الإعلامي بفضل الجزيرة أنها أتاحت للناس العاديين أن يتحدثوا في السياسة بحرية ويعبروا عن همومهم وتطلعاتهم وغضبهم أحيانًا وذلك خلال الهاتف أو عبر الفاكس وشبكة الإنترنت.

الجزيرة تتحدى العالم

تاريخ الجزيرة حافل بالاتهامات الموجهة إليها من كل جانب.. وفي هذا يقول هيو مايلز: «لقد عبر لي المسئولون العرب عن استيائهم لأن الجزيرة تستهدف الإساءة إليهم وتنحاز لإسرائيل.. وسمعت من المسئولين في الغرب أن الجزيرة تنشر الكراهية ضد أمريكا وضد إسرائيل! وتقول الجزيرة دفاعًا عن نفسها: إنها مجرد قناة إخبارية تقوم بواجبها وتعرف وظيفتها.. والاتهام بالتحيز مع أو ضد أي جهة هو مجرد هراء.. اتهام باطل لا دليل عليه.. إن ما نحاول عمله دائمًا هو بث أخبار دقيقة قدر ما نستطيع، وننقل صورة الأحداث كاملة بكل أبعادها بقدر ما نستطيع.. ولكن يبدو أن أحدًا لا يصدقنا». ■

هل حقيقة تحرك هذه الفضائية البلاد العربية نحو الديمقراطية كما يزعم البعض؟.. أم أنها مجرد تنفيس بديل عن الديمقراطية؟



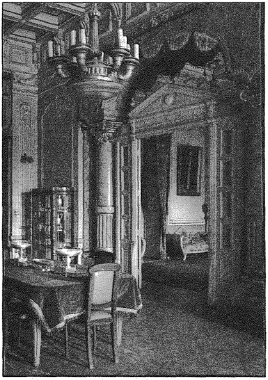


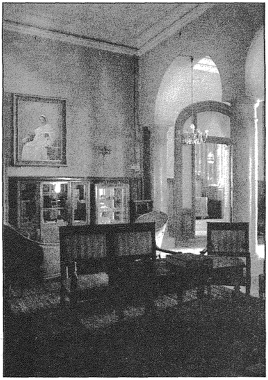


< على الصفحتين السابقتين:
منزل الشناوى
أضاف الحرفيون الإيطاليون إلى القاعة الرئيسة أكاليل الجص وألواحاً وتيجاناً وحوامل جدارية لمصابيح من البلّور فيما أشرفت القاعة على سلالم من الأبنوس أتت رأساً من إيطاليا.

سلالم قصر الزعفران
صمم أنطونيو لاسكياك السلالم بخطوط رشيقة على غرار أسلوب «الاستايل ليبرتى» فاحتلت السلالم الحديدية المزخرفة مكانة الأجمل بين مثيلاتها فى الشرق الأوسط.

جناح السلاملك بقصر المنتزه
تماشى السلاملك مع أحدث الطرز، إذ ضم أشغالاً من الزجاج الملون على غرار الأسلوب الإيطالى «ستايل ليبرتى».





سلاملك المصرى باشا
تتصدر القاعة الرئيسة ذات الأعمدة لوحة لسعيد باشا رسمها فنان إيطالى عام ١٨٩٥.

قصر جريس
سقف تحليه زخارف غائرة وقوصرة منقوشة تحيط بالمداخل وأرضيات من الباركيه تستدعى كلها حجرة الطعام المهيبة بقصر عابدين.

قصور مصرية

شيرلى جونستون
الصور: شريف سنبل

■■ عرض التليفزيون الرسمى المصرى منذ وقت ليس بالطويل مسلسلاً يدور حول قاهرة الأيام الخوالى فى العقد الأول من القرن العشرين، مسلسل زمن عماد الدين. كان شارع عماد الدين مقصداً وجيهاً على ذيوع صيته بين العامة يرتاده الفنانون والموسيقيون وتصطف على جانبيه المسارح والملاهى والمقاهى. إليه يختلف العامة والنخبة على السواء وغايتهم الاستماع إلى سيد درويش، ذلك المطرب الشاب الموهوب والعازف على العود الذى لا ينفك يقدره المصريون حتى يومنا هذا. قبلها بعدة سنوات لا غير، كان الشارع الرملى يقدم لمحة بسيطة عما ينتظره من مستقبل، خلا «قصر» أوروبى واحد وحيد ونادى الأمراء تنمقه الألواح الخشبية.

لكن ما هى إلا سنوات قلائل حتى شرع إرنيستو دى فارو فى العمل فى سد أسوان مع بداية القرن الجديد. كان يتخصص فى البناء بالأسمنت ويمتلك عدة مكاتب فى لندن وأعمالاً تجارية بالشرق الأوسط. وقد اصطحب معه نظاماً جديداً لتشييد المبانى بحيث تضم طوابق متعددة وترتكز على أرض لا تعرف الاستقرار، أمر لا يجب التقليل من أهميته فى مصر. غدت القاهرة على حين بغتة تتنامى شطر السماء، وبحلول عام ١٩١١، بات عماد الدين مَعلماً من معالم المدينة: يؤوى زوجاً من المبانى المشيدة على طراز مثيلاتها من حقبة إدوارد السابع لتتماثل مع فندق نجراسكو فى نيس!

مقدمة كتاب:
Egyptian Palaces and Villas 1808-1960
(قصور وفيلات مصرية ١٨٠٨ - ١٩٦٠)
Shirley Johnston with Sherif Sonbol
Harry N. Abrams inc. New york 2006
The American University in Cairo 2006
ترجمة: هالة صلاح الدين حسين

كان الخديو الحاكم عباس حلمى الثانى، وقتئذ شاباً فى الثلاثين من عمره، متقد الحماسة لمبانيه الجديدة بشارع عماد الدين حتى إنه كان يتفحص مجرى العمل تقريباً كل يوم، فكان يصعد السقالات ويتخطى ما عمق من فجوات ويخطو بكل ثقة فوق الألواح المتذبذبة. فقد مثلت مبانى الخديو تلك لعباس حلمى ولمهندسه المعمارى أنطونيو لاسكياك انبعاثاً ثانياً لعصر النهضة الثقافية.

بنى جد عباس حلمى، الخديو إسماعيل، القاهرة الحديثة. إذ مكنه ازدهار تجارة القطن بداية الستينيات من القرن التاسع عشر من تحقيق بعض الأحلام الشامخة الخاصة بجده، محمد على باشا. صعد محمد على إلى السلطة بعد غزو نابليون بونابرت القصير لمصر، أقبلت تلك الشخصية المؤثرة ذات القوة والدهاء الشرقى، الألبانى القادم من كافالا بشمال اليونان، أقبل ليحكم مصر العثمانية بوصفه الوالى عليها عام ١٨٠٥، فكان يدفع للسلطان جزية سنوية فى مقابل أن تمتد هيمنته حتى السودان. وبعد أن وطد سلطته المستقلة جاعلاً نفسه وسلالته أسياداً بحق على الأرض، سيطر محمد على فى وقت من الأوقات على الجزيرة العربية وكريت وسوريا. ولسوف تستمر ما أسسه من سلالة حاكمة إلى أن يتنازل الملك فاروق، حفيد حفيده، عن العرش عام ١٩٥٢.

تخيل إسماعيل نفسه بوصفه «إمبراطوراً على إفريقيا، » حارس الطريق الرئيس المؤدى إلى الهند والشرق. وعلى الرغم من ذلك، شغلت أوروبا تفكيره أغلب الوقت وذلك بعد أن أرسله جده إلى فرنسا فى الرابعة عشرة فى «بعثة دراسية». وقد خلفت تلك الإقامة المؤقتة انطباعاً لا يزول لديه. ذهب فى رحلة تالية عام ١٨٦٧ إلى المعرض العالمى بباريس حيث كان هاوسمان قد أضفى تعديلاته المعمارية، فأوقدت الرحلة «هوسه بالبناء» كما أعلن بنفسه. وكانت النتيجة، مثلما صرح المعمارى محمد عوض، مدير مركز دراسات الإسكندرية والبحر المتوسط بمكتبة الإسكندرية، «الازدهار الأول لسلسلة من الازدهارات».

لم يكتف الخديوى إسماعيل بالاندفاع إلى إنشاء مشروعات عامة ضخمة وتطوير مدنى بغية خلق قاهرة فخيمة تتجاوز حدود ما تبقى من مدن قديمة ترجع لأيام الفاطميين والمماليك والعثمانيين. إذ استهل كذلك مشروعات صناعية وزراعية شاملة: خطوط السكك الحديدية والطرق وخطوط التلغراف، الخدمات البريدية: السدود والقنوات؛ والمدارس. وقد رافقت تلك الخطوات حاجة ملحة إلى القصور. إذ كان إسماعيل آخر حاكم مصرى يحتفظ بحريم! فكانت سيداته فى حاجة إلى قصور شتوية وأخرى صيفية - تزينها شرفات وأروقة تسندها الأعمدة، وأفنية مفتوحة، هذا فضلاً عن المتنزهات والحدائق ذوات الأكشاك، والممرات والبرك والجداول، والجسور والكهوف الصناعية والشلالات. احتاجت السيدات أيضاً إلى إسطبلات ومطابخ وأبنية تابعة لينتفعن بها. كانت القصور ضرورية أيضاً لإقامة الحفلات والعروض المسرحية بغرض تكريم الصفوة الأوروبيين الذين شهدوا الحدث الرئيس فى القرن التاسع عشر - ألا وهو افتتاح إسماعيل المبهر لقناة السويس عام ١٨٦٩. وقد أتت القصور بثمارها. «لم أر مثل ما رأيت فى حياتى قط»، كتبت الإمبراطورة أوجين لزوجها نابليون الثالث فى فرنسا عقب زيارتها.

استجاب تيار متواصل من المعماريين والرسامين والمصممين وصانعى الأثاث من الساحل الشمالى للبحر المتوسط لدعوات زعيم حسن الضيافة والتباهى العثمانى المبجل. أتى الوافدون الجدد بالأثاث من أكاديميات إيطاليا وتفوقوا على فنانى وحرفيى محمد على الأوروبيين القدامى القادمين من الشطر الأوروبى لتركيا وجزر إيجه وساحل آسيا الصغرى والبلقان.

لا شك أن مهمة إيواء الخديو إسماعيل والأربع عشرة زوجة وأطفالهن لم تكن لتتحقق على خير وجه سوى من خلال السراى التركى - وهو مجمع سكنى يضم حجرات منفصلة لاستقبال الضيوف تسمى السلاملك، وأخرى للعائلة معروفة باسم الحرملك، وتعنى حرفياً «المنطقة المحظورة»، وشأنهم شأن زملائهم العاملين فى اسطنبول، جلب المعماريون والحرفيون إلى مصر الأفكار الكلاسيكية بما تتضمنه من استخدام رخام مدينة كرارا لتزيين السلالم والمدافىء - فليالى الشتاء بأفريقيا تتميز هى الأخرى بالبرودة - وصالونات من الخشب الفرنسى المرصع والأرائك والكراسى عمودية الأظهر.

لكن هل كانت تلك حقاً مصر؟ ما هى إلا وقد اقتبست القاهرة كل ما هو حديث من باريس. غدت القناطر ذوات الفتحات أحدث صيحة، نفس الأمر جرى مع تطعيم الأسقف والأبواب بالخشب ذى الأشكال الهندسية والأسطح بما يتدلى منها من هوابط والأفاريز والأرابسك والفسيفساء الرخامى والقراميد الخزفية. كانت الموهبة الكامنة وراء ما تجدد من فوران شرقى الملامح هى موهبة الفنان الإيطالى جيوسيبى بارفيس. فمن داخل ورشه الكائنة بالقاهرة، تمكن من أن يحول الخشب والعاج وعرق اللؤلؤ والنحاس والبرونز والفضة والذهب لتصير أخونة وأصونة وكراس باهرة الجمال وصناديق نفيسة. إن ما نسى من فن الفراعنة والبطالمة والخلفاء والمماليك قد مهد الطريق لنهضة حديثة تشى بالمجد. «إن هذا الرجل بمفرده لنهضة فى حد ذاته»، تعجب المؤرخ ل. أ. بالبونى فى بداية القرن العشرين. كان بارفيس ينقش على المواد الصلبة ويصيغ البرونز وينحت المنحوتات ويصنع الخزائن ويبدع تصاميم تغطى أساليبها شتى الأساليب، من الإسلامى والمصرى إلى تراث بومباى وعصر النهضة بل والأسلوب اليابانى. ولم يكتف بالعمل عند إسماعيل وحسب، إنما اشتغل مع جميع الولاة الجدد الكبار والمالكين الأجانب للفنادق الضخمة الجديدة. لا مجال للعجب إذن حين يفوز بارفيس بميدالية ذهبية فى معرض باريس عام ١٨٦٧ - لتلحق بها أوسمة فى ميلان وفيينا وأنتويرب وأمستردام وموطنه تورين وفيلادلفيا.

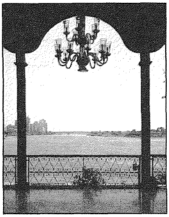
قصور مصرية

أنتج بارفيس وأبناؤه ومعهم الأخوان جاكوفيللى من مدينة بارى «تنويعات مختلفة من الأثاث العربى الواجب تواجده داخل صالونات كل قصر أو صرح له حظوته»، كما لاحظ المعمارى ومؤرخ الفن الفرنسى مرسيديس فوليه. بل إن اللورد كرومر - عندما تولى القيادة بمجرد أن جاء البريطانيون لفرض «الحماية» على مصر - فتش عن الأخوين جاكوفيللى حتى يعيدا تصميم قنصليته تحسباً لزيارة مرتقبة من أمير ويلز. كما أضاف الأخوان جاكوفيللى لمساتهما السحرية على نادى الأمراء بشارع عماد الدين.

لا يزال ما رصع من صناديق هائلة الحجم يصطف بالممرات الطويلة العريضة فى قصر إسماعيل القائم بجزيرة الجزيرة على النيل. خُطط القصر على غرار قصر الحمرا وصممه خريج آخر من خريجى كلية الفنون التطبيقية بفيينا وأول رئيس لهيئة حفظ الآثار العربية فى مصر، المعمارى الألمانى يوليوس فرانز. كذلك لا تزال الشرفات الأندلسية المصنوعة من حديد الزهر، التى أبدعها كارل فون ديبيتش من برلين، على حالها وإن أصابها تغيير بفعل الزمن. وطبقاً لنيشا سورسوك، حفيد أحد الملاك الراحلين، كانت خضراء اللون بلون الحديد، ولم تكن تتلون بذلك اللون الذهبى المصطنع».

الحق أن بعضاً من «قصور» إسماعيل عابها التسرع، إذ شُيدت من تراكيب مكونة من شرائح خشبية كُسيت جصاً، تراكيب اختفت منذ وقتها اختفاء كلياً أو جزئياً. قرر ابن إسماعيل وخليفته، توفيق، ألا ينتقل للعيش فى سراى الجزيرة وذلك عقب اكتشاف معمارى القصر فابريشيس باشا مدى ضعف الأسس. هدم نفس المعمارى، فابريشيس، كل هذه القصور عدا اثنين منها حتى يفسح المكان لمنشأة مترفة امتلكها بعض السويسريين، فندق بهلر. واليوم تدير مؤسسة ماريوت القصر.

تخلى إسماعيل عن العرش فى النهاية. لكن قبل تنازله، كان قد حوّل مصر وثقافتها المعمارية تحويلاً شاملاً. «خالج المصريين منذ ذلك الوقت الفضول إلى الأوروبيين، فأمضوا قرناً ونصف قرن فى سبر هذا الفضول»، علق البروفيسور عوض المنتمى هو نفسه إلى عائلة أنشأت قديماً الإسكندرية. وتُرجع كلماته صدى كلمات المؤرخ روبرت إلبرت فى فترة ما قبل العقد الثانى من القرن العشرين، عندما «سادت الانتقائية الأوروبية جميع المناهج».

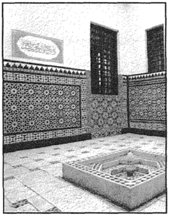


سلاملك المانسترلى

سلاملك قصر المانسترلى يطل على منظر للنيل، جزيرة الروضة، القاهرة

إن ما لاحظه إلبرت من «تفوق للأساليب الإيطالية» يتضح كل الاتضاح فى الإسكندرية حيث لا تزال ماركة فيات هى الشائعة بين سيارات الأجرة. وقد ظهر هذا الولع بالملامح الإيطالية فيما «لاح من ذوق فخم، ولاسيما فى المساكن المهيبة الخاصة بالطبقة البورجوازية المحلية وفى مبان الشركات والبنوك الكبرى». لأن هؤلاء الزبائن «اتصفوا بالحساسية الشديدة تجاه ما تخلفه الموضة من تأثيرات بحكم كونهم أوروبيين، ليس بسبب أصلهم إنما بسبب أسلوبهم فى العيش».

إن «العصر الذهبى» الذى منحنا شارع عماد الدين بمهرجان الواجهات المصنوعة من الجبس وزخارف الجص والرخام كان أيضاً عصراً لأصحاب الملايين الكبار الذين تفوقوا بسهولة على أصحاب المصانع الجديدة فى فرنسا! وقد تواصلت حماستهم إلى فترة ما بين الحربين العالميتين التى كانت، حسبما قال البروفيسور عوض، أكبر ازدهار على الإطلاق. «فبالنسبة لإلبرت كان ما بُنى من منازل فى تلك الفترة أول الأعمال الحديثة العظيمة». إذ عكست «نشوة رائعة» بما قدمت من أسلوب الزخرفة الكثيفة الظاهرة فى الأعمال القديمة. شكلت تلك أيضاً تجديداً راديكالياً: فالمناهج والأذواق الجديدة المستمدة من النظام الفرنسى الذى ابتدره المهندس هينيبيك، أو نظام البناء بالأسمنت المسلح، أتاحت عام ١٩٢٧ لجوستاف



منزل طوسون أبو جبل

صمم حسن فتحى مساحة لا يمكن استكشافها إلا بعد هبوط السلالم. مَن بوسعه أن يتوقع أن يلقى طابقاً ثانياً بجانب حجرات النوم يحوى فناء أندلسياً مفتوحاً تعبده القراميد وتتوسطه نافورة؟

بيريه، مصمم مسرح الشانزليزيه فى باريس، أن يصمم منزلاً فى الإسكندرية لزميله المعمارى جوستاف أجيون مستخدماً أسمنت خام بسيطاً وإن تحلى بالجمال.

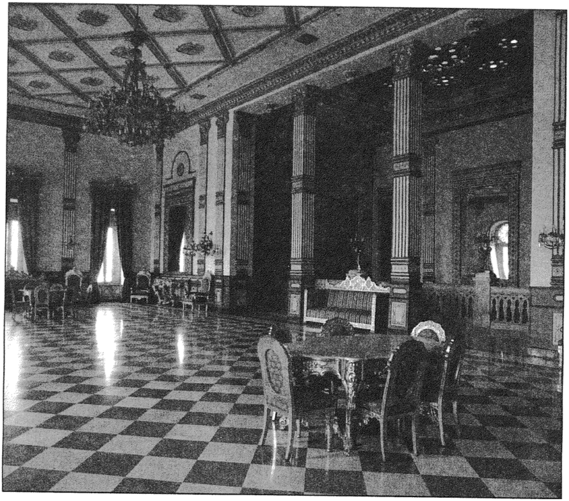
وأين ذهب الأسلوب العربى؟ «هُدمت الكثير من هذه القصور والمنازل لإفساح المكان للعمارات الشاهقة»، كتب إلبرت. «بيد أن ذلك الأسلوب ظل عاملاً أساسياً عند إقامة المبانى العامة الكبرى حتى الثلاثينيات». واليوم نرى فى الصور الأبيض والأسود القديمة تلك الزخارف الشرقية المبهرة المميزة للمنزل المشيد على الطراز المملوكى بمدينة الإسماعيلية، المنزل الذى صممه المعمارى هيرتز باى من أجل الكونت أنطوان دو زوغيب فى بداية القرن. كان باى خريجاً لمعهد فيينا للفنون التطبيقية وخليفة فرانز باشا فى رئاسة الآثار العربية ومديراً للمتحف القومى للفن العربى. اشترى المنزل شخص ساع إلى التطوير وهدمه فألفى الأرض لا تحتمل ما عقد العزم عليه من بناء مرتفع. انتهى الحال بالمكان إلى أن أصبح الآن موقفاً ضخماً لانتظار السيارات.

إن غرضى من تقديم هذا الكتاب ليس التفجع على خسائر الماضى. فثمة العديد من الجواهر لا تزال قائمة: كنوز مثل قصر المنيل الخاص بالأمير محمد على توفيق، المكرس لعرض الفنون الإسلامية، وهو الآن متحف. هناك أيضاً الحضور الدائم لصاحب المصانع البلجيكى البارون إمبان ومدينة «الشمس» خاصته، هليوبوليس، صُممت فى بروكسل على غرار أحد التصاميم الأوروبية غير أنها زُخرفت لتتماشى مع هوى من أهواء سلطان شرقى ما فى ألف وليلة وليلة. ولا ننسى ابن البلد حسن فتحى ومنزله الإسلامى الحديث على ضفاف النيل بالجيزة.

ثمة كذلك بقايا عديدة «لانتقائية إلبرت الكلية»، الجامعة بين التصميم الأوروبى وكل زخارف الفن الإسلامى التقليدية. بوسعنا أن نشاهدها فى المبنى المشيد على الطراز التوسكانى الذى بناه المعمارى أنطونيو لاسكياك - مصمم قصر عباس حلمى - من أجل الأمير يوسف كمال، فالمبنى يحوى صالونات تعبدها القراميد. بل إننا سنجد فى المنيا زعيماً للبدو أسس منزلاً به صالونات صممها الأخوة جاكوفيللى! اليوم يداخل المصريين فضول لا يقل عن فضول أسلافهم. لك أن تطالع الدليل فى كل مكان. فقد برزت مجتمعات تحدق بها البوابات لتضم فيلات منتشرة على البحر المتوسط وحمامات سباحة وحدائق، كلها تمتد حول ملاعب للجولف فى رمال الصحراء بالقرب من الإسكندرية، فيما يدور الحديث حول إقامة ريفييرا مصرية جديدة وراء «سان تروبيه» مصر الملقبة بالعجمى ذات القلاع المخصصة للحراسة وأشجار التين القريبة من البحر. تلوح فى طول القاهرة وعرضها أطباق الفضائيات الجديدة التى جعلت كلاً من الحرس القديم والجديد يتدبران الانتقال من أماكن مقصورة عليهما كالزمالك والجيزة وجاردن سيتى ليعكسا اتجاه بدأ منذ خمسين عاماً عندما جاءت ثورة ناصر بكل الناس من الأقاليم إلى المدن الكبرى.

الواقع أن اقتفاء أثر ما لا عد له ولا حصر من التغييرات لمن الصعوبة بمكان. صرخت جريدة الأهرام إبدو ذات يوم بالفرنسية: «الذوق الردىء يهيمن على كل الأرجاء»؛ بعدها صرحت جريدة الإيجيبشيان جازيت برأيها بلغة إنجليزية عريضة: «مصر تفتقر إلى الانسجام المعمارى». وعلى حد قول البروفيسور عوض، مصر تعانى من «انهيار الحضارات وليس صدامها».

تسرد إحدى حلقات مسلسل عماد الدين حكاية فلاح من الريف انضم إلى زملائه ليطالعوا لأول مرة فى حياتهم ما بداخل أحد القصور «الحديثة». بالنسبة لهؤلاء الفلاحين القرويين، لم يلحق بالعالم أى تغيير منذ أيام الفراعنة. فقد كانت المصطبة الطينية منذ قديم الأزل مكان جلوسهم. غير أن الدهشة



قصر الجزيرة
هل كان الخديو إسماعيل يؤثر اللون الأخضر لما يرمز إليه من عناية إلهية؟ والذهبى لارتباطه بالحكم الملكى؟ أم كانت تلك محاولة من الإيطاليين للتفوق على الألمان الذين كانوا يفرضون تصاميمهم لقصر الجزيرة؟



قصر الجزيرة
أبدع كارل فون ديبيتش الأروقة المعمدة بعد سنوات من تصميمه سلالم من حديد الزهر وقاعة ضخمة لشريف باشا استحق عليها الثناء من كبرى المجلات الألمانية.

قصور مصرية

تعتريهم عندما يكتشفون فى عماد الدين طقماً من الأرائك الفرنسية والكراسى ذوات الأظهر العمودية. «انظروا» وجّه أحدهم حديثه إلى الآخرين فى لهجة دالة على التعجب. «إنها مصطبة».

إن حياكة الفكاهة هنا مقصودة تماماً. غير أنه من الواجب أن أشير إلى أن الحكام المصريين كانوا يجلسون لقرون طويلة متربعى السيقان على وسائد يزينها هداب توضع على الأرض أو متكآت فسيحة على الطراز العثمانى تعلوها أنوار خافتة. لذا فالتحول إلى الصالونات المضيئة بأرائكها وكراسيها المصممة على طراز الملوك الفرنسيين – لويس السادس عشر ولويس الخامس عشر ولويس الثالث عشر – جاء متأخراً وعلى بغتة، حتى ولو بدا وكأنه جاء على نحو نهائى. الحق أن الفرنسيين قد أعادوا المتكآت إلى الموضة فى العقد الثانى من القرن العشرين بتقديمهم للكرسى الطويل من خلال أسلوب التصميم المسمى بالآرت ديكو!

إلا أن مصر لا تعرف شيئاً اسمه العودة إلى الماضى. فكل تصاميم لويس جاءت لتبقى، ولن تُستبدل إلا بأثاث «لويس فاروق»، ذلك الذوق المبهرج لملك البلاد السابق. إذ يمكن للمرء أن يلفى اليوم تلك الصالونات الضخمة المطلية بالذهب «فى كل منزل عند كل طبقات المجتمع»، يصرح لوى كروك، جامع للأثاث الشرقى يقيم بالقاهرة منذ فترة طويلة». بل ومتكآت تصطف على الجدران مثلها فى ذلك مثل المتكآت القديمة! أتصدق؟».

تتابعت الكوميديا التليفزيونية لمّا واجه الفلاحون ثريا تتسلح بمصابيح إضاءة تتخذ شكل اللهاب. «وما تلك؟» تأملوا. فجاءتهم الإجابة: «شمعة داخل زجاج!». وبينما يحتاج الجميع إلى أن يضحكوا من أنفسهم من آن لآخر، الواضح أن المؤلفين نسوا أن مثل تلك المصابيح كانت فى مثل قدم مصر نفسها، وأن العرب أخذوا المصابيح الزجاجية من الكهنة القبطيين، المسيحيين الأوائل الذين، حسبما قالوا، ينحدرون من الفراعنة.

بعد أن تم عرض المسلسل، جعل مستشار حكومى كبير يتفكر فى كيفية الحفاظ على قصور القرون الماضية. فقبل كل شىء، أين سيجتهد الناس فى التفكير فى العمارة سوى فى مصر، موطن البناة الأوائل، الفراعنة؟ أليست كلمة الفرعون تعنى حرفياً «البيت العظيم»؟

ولقياس ما قطعه ذلك المسؤول من مسافة، ليس علينا سوى تذكر تعليقات فرانك لويد رايت خلال زيارة له للقاهرة فى يونيو ١٩٥٧. كان قد عرج على بعض تلاميذه السابقين، ولم يسره ما شاهد: «أنتم يا سادة، أنتم المهندسون أصبحتم مسؤولين. إن ما شاهدته لهو عقيم كل العقم، فالإنشاءات الحالية تخلو من أى روح أو حياة، عاطلة عن الاحترام والفخار الذى يُسبغ على الإنسان وكل ما هو إنسانى... أنا أصدقكم القول... أنا لم أر فى كل أعمالكم أى تعاون بين المعمارى والمهندس... مما يثبت أنكم استوعبتم هذه الأعمال بعقولكم ليس إلا، فطبقتم القواعد ونظريات الجامعات بيد أنكم لم تضفوا عليها شيئاً من قلوبكم. العلم وحده ليس بالكافى يا سادة».

لقد حضرت إلى مصر منقباً عما أسماه رايت «القلب» و«الروح» الذى يخلق المعمار الجميل. ولسوف تخامره السعادة عندما يعلم أنى قد وقعت على ما لم يمتد إليه بصره. بدءاً من الإسكندرية ووصولاً حتى أسوان، هناك القصور والفيلات والمنازل المشربة بما يتحدث عنه من قلب وروح. العديد منها مخصص لسكن السفراء الأجانب والشخصيات الرفيعة والدبلوماسيين الآخرين؛ البعض الآخر تحول إلى منشآت عالمية؛ والقليل منها عبارة عن فنادق. أما الباقى فملكية خاصة. إلا أن العديد منها، إن لم تكن كلها، بالغة الروعة.

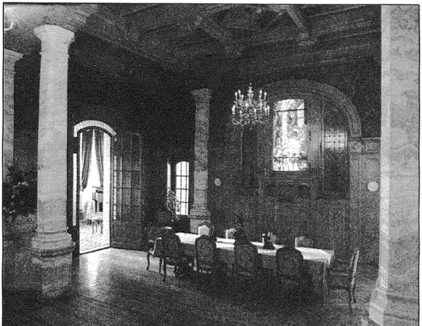
مَن يتوقع أن يصادف المرء إبداعاً أندلسياً يبلغ قمة البهاء على ضفاف النيل بسوهاج؟ مَن يصدق أن جرجا تحتضن قصراً شامخاً على الطراز الفيكتورى على ضفة النيل؟ أو أن استراحة إسماعيل فى أرمنت قد تحملنا على الحلم بالسكر؟

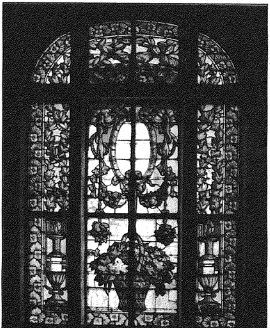
لا توجد مساحة فى هذا الكتاب لمناقشة كل مبنى ذى بال أو كل بانٍ بارز فى هذه الأرض العظيمة. لكن أملى أن يمنحكم فكرة عما تحدث عنه رايت حينما خاطب تلاميذه السابقين قائلاً «أن تسبغوا من مشاعركم، أن تجعلوا القلب يهتز بالعاطفة، أن تجعلوا من تلك المشاعر القوة المحركة الكهربائية لأى عمل». هذا هو ما حاولت أن أسره بسردى «لقصص» هذه المساكن الرائعة كل من اتصل بها من معماريين وبناة ومصممين وملاك. ■

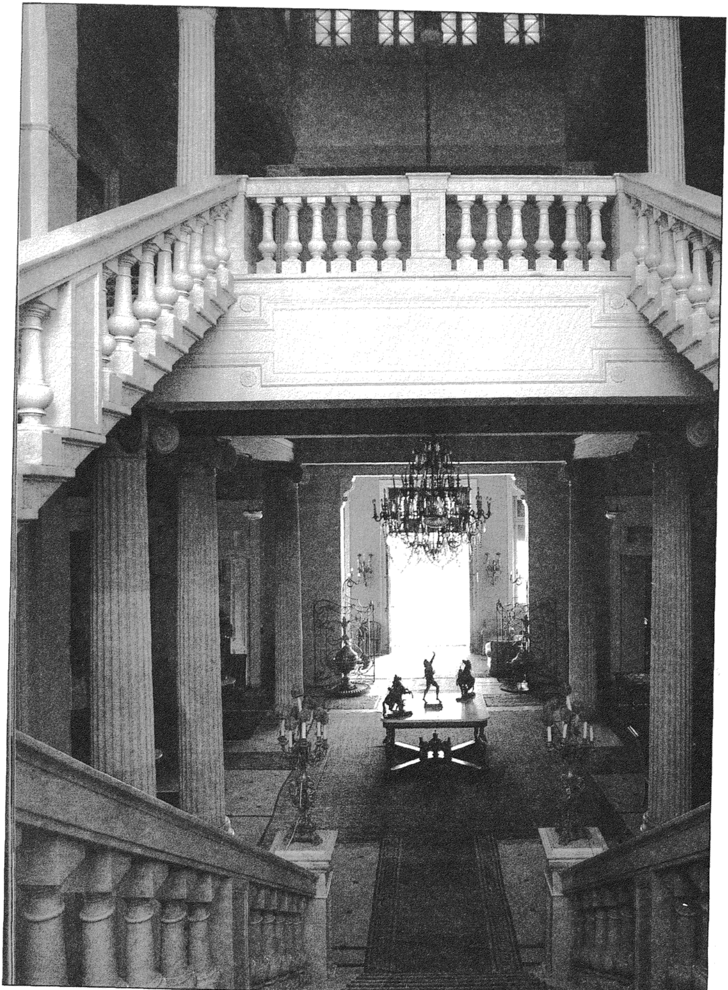
قصر المنتزه
استخدم عباس حلمى الثانى هذه الحجرة بألواحها الخشبية وأعمدتها المرمرية لعقد الاجتماعات بغية مراجعة خططه الرامية إلى زخرفه المنتزه.

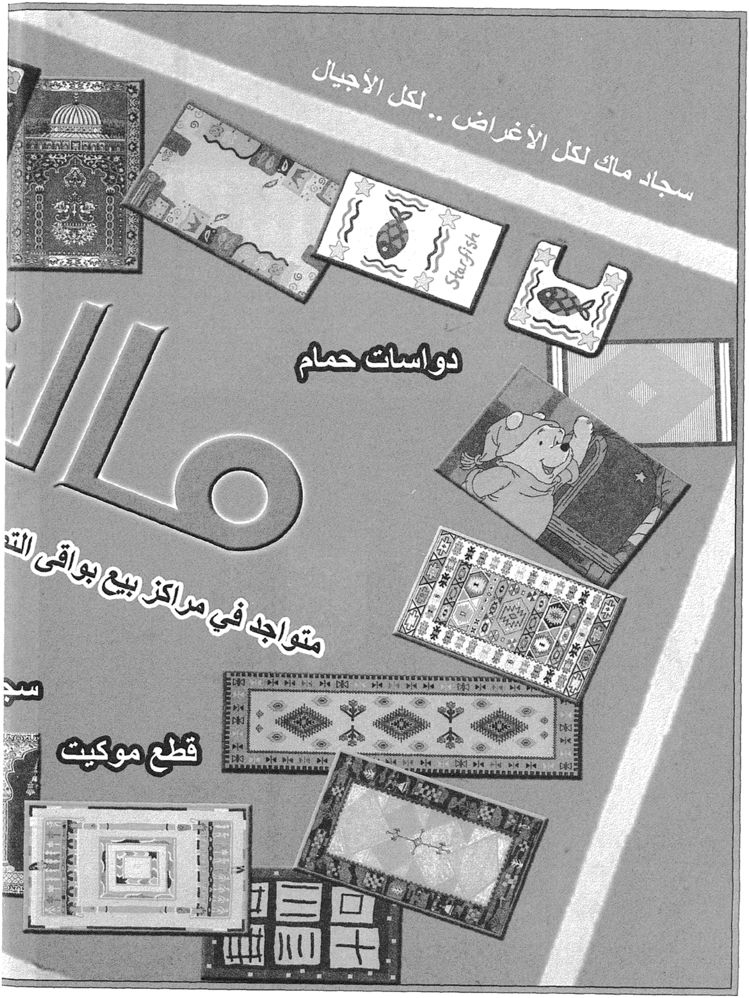
فيللا الدكتور على إبراهيم باشا
أضفت النوافذ ذات الزجاج الملون دفئاً بصرياً على حجرة الطعام حيث استقرت مدفأة على الطراز القوطى الفرنسى.

فيللا الألمانى بيندرناجل
«تنامت ثروة السيد بيندرناجل فأحاط نفسه بفخامة ملكية».








سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى الت
قطع موكيت



سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
صلى
www.maccarpet.com



طارق البشرى

المشروع والمنهج

سيف الدين عبد الفتاح

■■ يمثل «طارق البشرى» ظاهرة كبيرة وغنية ومتعددة الأبعاد فى نماذج الفكر المعاصر فى مصر والأمة، يبدو «البشرى» نموذجًا مهمًا لتقاطع المجالات وتلاقى المقامات بين: القانون والشريعة، والفقه والفكر، وفلسفات التشريع ونظم القضاء، والتاريخ والسياسة، والاجتماع والمعرفة، ورؤى العالم ومناهج النظر، وطرائق الفعل والتفعيل، والتأسيس والتدبير والتسيير والتغيير والتأثير..

مساحات واسعة تتداخل وتتكامل فى مشروع البشرى، تظللها مظلة محكمة من الحكمة وفصل الخطاب؛ من هنا رأينا أننا أمام «حكيم» من حكماء الزمان الذين عزّ مثالهم وصعب منالهم.

أردت بهذه الورقة أن أذكّر فقط أن كل من ارتبط عمله بالبحث -أيًا كانت أشكاله أو تجلياته- فحرىّ به أن يتتلمذ على بعض من كتابات البشرى كمدرسة فى المنهج.

هذه القراءة الأولية يمكن ترتيبها فى ستة محاور لا تغطى المكنات المنهجية فى مشروع البشرى، بقدر ما تشير إلى مناطق مهمة من ذلك:

أولاً - التأصيل والمرجعية

من أهم الإسهامات الكبرى للبشرى فى المسألة المنهاجية، قدرته على تحديد النسب والعلاقات، والوظائف والأدوار لدوائر التعامل التى تحيط بالباحث المسلم بالأساس، فوضوح النظرة التى تتضمن هذه الدوائر ضمن بناء متكامل ومنظومة.

ففى إطار مرجعية التأسيس المتمثلة فى العقيدة الدافعة، والدين الجامع، ومصادر المرجعية: نتلمس هذه الرؤى ضمن أصول مناهج النظر. فالدين.. هو وضع إلهى يرشد إلى الحق فى الاعتقادات وإلى الخير فى السلوك والمعاملات.. الدين بهذا الاعتبار، جامع كبير لأنه قابل لأن يسع الخلق أجمعين رغم كل ما يفرق هؤلاء الخلق من صفات فردية وجمعية، ورغم ما يندرجون فيه من تصنيفات وفئات وشعوب وطبقات وألوان وألسن ولهجات وأزمان وأصقاع.

إن الدين بهذا يأتى من المطلق ليحكم النسبى، ويرد من الثابت ليحكم المتحرك، والثبات فى هذا السياق لا يعنى السكون، ولكنه يعنى الدوام، أى الوجود والبقاء المستمر ومن ثم فالدين دائم يحكم المؤقت والمتغيّر.

ونحن فى عبوديتنا لله الواحد نفهم كيف يتنوع البشر أفرادًا وجماعات، وكيف يتغيرون أحوالاً وأوضاعًا عبر الزمان، فى إطار أصول الدين وأسسه، وتحت هذا الإطار علينا أن نتحلى بالحرص على التحمل وعلى حسن التقبل.

فالإسلام فى إطاره العقيدى المتماسك يضم أنساقًا فكرية فرعية تعمل فى داخله، ويكتسب من حركتها حيوية وتجددًا فى عقول المؤمنين به وقلوبهم. ومن خلال حركة هذه النظم الفكرية الفرعية بداخل الإطار الإسلامى يجرى التأكيد على العنصر أو العناصر التى تلائم متطلبات الظرف الذى تمر به جماعة الإسلام، فالإسلام هو الدين الخاتم لأنه الدين الجامع.

العقيدة فى الإسلام -وفق هذا التصور- هى أصل الأصول، وهى المسلمة الأولى التى تتفرع منها بعد ذلك كل الأمور، سواء فى ذلك النظم والشرائع التى تنظم شئون الحياة أو الآداب والسلوك والأخلاقيات. فالعقيدة هى المصدر والمشرع لبناء نظام المجتمع وإقامة هياكله التنظيمية ولتربية الأفراد والجماعات، فضلاً عن كونها تحدد الأحكام التى يقوم عليها البناء العقيدى.

والعقيدة الإسلامية عندما تمثل النبع الرئيسى لأحكام القانون وقواعد الأخلاق، إنما تخلق تناسقًا وانسجامًا بين هاتين الوسيلتين فى تكاتفهما على إقامة نظام الحياة فى المجتمع. وهما تتبادلان تنظيم الجماعة وأفرادها كل فى مجاله وفيما يصلح له من ميادين النفوذ والفاعلية، وبوجه عام فإننا نلاحظ أنه كلما اتسع حجم الجماعة المعنية بالتنظيم كلما كان حكم القانون لنظمها وعلاقاتها أوجب، وكلما صغر حجم الجماعة المعنية كلما كان إرشاد الأخلاق لها أنسب.

ثم نجد أن واحدية المصدر العقيدى الدينى لكل من الأحكام الشرعية والقواعد الأخلاقية، هذه الواحدية تجعل القانون والأخلاق، وإن اختلفت أدواتهما، فإنهما يظلان ذوى طبيعة واحدة، ومتجانسين فيما ينشدانه وتنشده العقيدة للبشر فى حياتهم من صلاح؛ لأن كلاً منهما فى مجال فاعلية يتمم عمل الآخر، هما يتبادلان معًا تنظيم الجماعة المعنية بالقدر الذى يتيح لها ولأفرادها الفاعلية المرجوة، وذلك حسب حجم هذه الجماعة ومدى تعقد أواصرها أو بساطتها.

ومن ثم يمكن أن يتفرع عن الأصول العامة للنظر الإسلامى أكثر من تصور للنظام الاجتماعى، تختلف بعضها عن بعض فى الفروع وتتباين حسب ظروف الزمان والمكان، وإن جمَعها -دائمًا- اتصالها بأصول العقيدة الإسلامية والتزامها بها، ومنها أن يظل النظر الإيمانى الإسلامى وتصوراته العقيدية ومصادر شريعة الإسلام، يظل النظر كل ذلك، يشكل الإطار العام للنظام الاجتماعى، يشكل المرجعية الأساسية والمصدر الأساسى للشرعية العليا المهيمنة فى المجتمع؛ على أفراده وسلوكهم ومعاملاتهم.

هذه أصول مرجعية التأسيس التى تخرج أنظمة متنوعة، ولكن من مشكاتها وبصبغتها، وإن اختلفت فى أشكالها وأساليب أدائها، اعتبارًا لجهات الاختلاف المتعددة، التى ترتبط بالعوالم المختلفة، ومجالات الفاعلية ومستويات التعامل والتناول. هذه الأصول تخرج أنظمة متنوعة فى المجالات المختلفة، ومنها المجال المتعلق بأنساق المعرفة ومسارات الفكر، وأنماط الحركة والممارسة، ومسالك التفكير وطرائق التدبير، وإجراءات التسيير، وإمكانات التأثير، وقدرات التغيير، كل تلك مناهج يجب أن تراعى أصول التنوع وقواعد الاختلاف والتعدد، وسنة التكامل والتكافل فى الرؤية، وفى الأنظمة، وفى الحركة.

من هنا علينا أن نرى الخبرات التراثية والتعامل معها، خبرات التراث فى عالم المسلمين وخبرات تراث الأقدمين، وخبرات تراث الغير، إنها خبرات متعددة ومتكاملة يقف منها الإنسان المسلم موقف (التعارف) المتضمن لأصول ثلاثة محكمة: التعارف معرفة، والتعارف عملية، والتعارف اعتراف، وهو فى النهاية اتصال واعٍ فى الزمان والمكان، اتصال هادف فى

الممارسات والعلاقات، اتصال فاعل يبتغى الترقية والتزكية والعمران، اتصال عادل يحقق أصول العلم الكونى والبشرى وفق السنن القاضية التى لا تحابى أحداً.

إذن علينا أن نميز التمييز الواضح بين أصول المرجعية الجامعة والحاكمة -المتمثلة فى أحكام القرآن والسُّنَّة- والتى لها وضع إلهى، وهى لا يطرأ عليها تغيير ولا تبديل، وهذه الأحكام هى المقصودة بالشريعة الإسلامية، وهى تشكل جملة ما يتضمنه الإسلام من أصول حاكمة للعقيدة الإسلامية، وللعبادات، ولمعاملات البشر. أما التراث الإسلامى ومنه الفقه، فهو اجتهادات البشر فى تفاعلهم مع تلك المرجعية، وفى إدراك أحكام الشريعة، وفى استخلاص المعانى المقصودة ووصل تلك الأحكام بأحوال البشر فى كل بيئة.

هذا فارق منهجى يتعين أن نلحظه، بدقة عند نظرنا لجملة الاجتهادات وعندما نتدبر عنصر الثبات فيها ووجوه التغير والاختلاف فيها، بين أصول المرجعية ونواتج التفاعل معها وبها وفيها.

أما الخبرات فإنها خبرات التراث الإنسانى فى صفحته الكلية العامة فى تضميناته التاريخية، وتجلياته المعاصرة، بل ومحاولة إبداع نماذج ابتكارية تتوافق مع كيان الجماعة وحركتها وأطوارها وأهدافها المرحلية، وتنوع قدراتها وإمكاناتها.

فلقد عرفت مجتمعاتنا أنواعاً شديدة التعقيد من التنوع مع التداخل والتشابك؛ لأنه تنوع يقوم على تعدد معايير التصنيف الاجتماعى، فالوحدات السياسية كبيرة ممتدة، وتنشأ بداخلها الوحدات الاجتماعية بمعايير شتى، منها ما يقوم على التصنيف القرابى أو الأسرى كالقبائل والعشائر، ومنها ما يقوم على التصنيف الإقليمى كالقرية والناحية والحى؛ مما يفيد قدراً من التميز دون إمكانية الانفصال، ومنها ما يقوم على التصنيف الحرفى والمهنى وعلى التصنيف المذهبى أو الملى أو الطُّرقى...إلخ.

وليس فى هذه الوحدات ما يقوم به أساس للمواجهات بين بعضها البعض، ولا ما يقوم به كل منها مستقلاً بنفسه..وإن تزاوج هذه الوحدات الاجتماعية مع التكوينات الفكرية الدينية سواء الوحدات الملّية أو الطائفية أو الطريقة الصوفية كان يمنحها يسراً فى شعور ذويها بالانتماء لها. وإدراكاً للجانب المعنوى لنشاطهم وجماعتهم، أى نوعاً من القداسة يُصبغ به العمل العام والشأن الجماعى، ويسوغ به فناء الفرد فى الجماعة... ولا يعنى ذلك أن تجارب كل مجتمع تنفى تجارب الآخر.

ولكل مجتمع فى الظروف التاريخية التى تجد عليه وتستدعى تغييراً أو تطويراً لأنظمته، أن يعيد بناء نماذجه التنظيمية ويعيد تشكيل العلاقات بين بعضها البعض، ويمكن أن يضيف إليها وأن يطور نماذجها وأن يستفيد من النماذج التنظيمية الموجودة لدى الآخرين فى المجتمعات الأخرى، وأن يجرى تطعيماً وتهجيناً لهذه النماذج مع غيرها من خرج تجربته التاريخية، ولكن كل ذلك لا يعنى -من ناحية أخرى- الهدم والإزالة لكل ما هو موجود، ولا النقل والإحلال لأصل النظم السياسية التى تفتقت عنها البيئة الخارجية ونماذجها وأجهزتها. فإن ذلك فيه من التدمير والتشويه ما لا يعوضه قيام الأبنية الجديدة، على صورة ما حدث فى الخارج التجربة الاجتماعية.

وقد كان الخطر الخارجى الحال ذو الوقائع الممتدة عبر سنى القرن التاسع عشر، هو ما به توقفت حركة الإصلاح الفكرى والفقهى، لأن مجال التجديد فى الفكر والفقه كان يجرى مكافحة بالمؤسسات الحافظة، ولأن قيام الخطر الخارجى المهدد لأمن الجماعة كلها من شأنه أن ينحى المشاكل الداخلية ويبعدها عن بؤرة الاهتمام، ومن شأنه أن يلقى على سلطات الحكم والمؤسسات الحاكمة مهام الدفاع عن الجماعة وحماية الحوزة؛ مما يستدعى من الكافة المساندة والالتفاف، وإرجاء خلافات الداخل، وهذا ما حدث.

وهو ذاته الخطر الخارجى، الذى استدعى أسلوباً عاجلاً سريعاً عملياً للإصلاح، اعتمد على بناء مؤسسات جديدة موازية للقديم بدلاً من أن تتطور هى من داخلها، ودون أن يصاحب هذا الإصلاح حركة فكرية، أو حركة إحياء للقديم تواكبها، وتنتقل بالمجتمع كله من حال قديم إلى حال جديد ناهض: تنسجم هياكله وأبنيته وتتكامل فى أداء وظيفى واحد. وهو ذاته الخطر الخارجى الذى احتل بنفوذه سائر المؤسسات المستحدثة وغيَّر من وظائفها ليجعلها باسم الحداثة قواعد تثبت التبعية له فى المجتمعات المغزوة.

لذلك كان من نتائج هذه الفترة حدوث نوع من الانفصام بين حركة الإصلاح المؤسسى وحركة الإصلاح الفكرى، ونوع من الازدواج بين الأبنية التقليدية نظماً وفكراً، وبين الأبنية الحديثة نظماً وفكراً، وبين الأبنية الحديثة نظماً وفكراً. فصار القديم أبتر مقطوعاً؛ لم يفض إلى جديد من نوعه أو من مادته ومائه، وصار الجديد أجنبياً لقيطاً، وفد من نسق عقيدى آخر ومن أوضاع اجتماعية وتاريخية مختلفة.

وما إن حل القرن العشرون حتى كانت البيئة الاجتماعية والفكرية قد انصدعت بين قرن أبتر وقرن لقيط أعقبه. وهذا ما ورثناه حتى اليوم وما تواجهه مجتمعاتنا فى نظمها السياسية والاجتماعية بمجتمع مصدوع عليها أن تلأم صدعه، وأن تجدد قديمه وتؤصل حديثه.

وفى إطار أصول المرجعية وخبرات تراثية إسلامية وغير إسلامية، برزت لدى البشرى أصول منهاجية للتعامل مع الواقع، وصفاً وتصنيفاً، تعريفاً وتوظيفاً، والبحث فى عناصره ومآلاته، وإمكانات التعامل العلمى مع كل مشتملاته، ومع كل مفرداته برؤية بعيدة ونظرة حكيمة لا تقف عند سطوح الظواهر، أو الظاهر منها دون النفاذ إلى أعماقها، والبحث فى مكنوناتها، والبحث فى عناصر ذاكرتها الحضارية والتراثية وعناصر تواصلها المعيشى فى الواقع بكل امتداداته.

مفهوم الأمة كوحدة تحليل فى التعامل الخارجى لم يمنعه من رؤية الواقع الإقليمى وواقع الدولة القوميــة وواقع النظـام الدولى بتشـكلاته

ثانياً - مناهج النظر

إن البشرى فى إطار المقولة الذهبية التى تنص على أن: «إدراك الشىء فرع من تصوره»، قد لفت النظر إلى ضرورة التركيز على مناهج النظر بما تحيل إليه من مناطق بحثية ممتدة، ومن قضايا مهمة تعتبر من المستلزمات المنهجية السابقة للتعامل مع الظاهرة أو تناولها. فكأن البشرى أراد أن يحدد للمنهج مستويات متعددة ومتفاعلة ومترتبة يجب أن نتحرى أدوارها وتراتبها وأوزانها، وشبكة العلاقات فيما بينها، بحيث ترسخ أصول التعامل المنهجى مع الظواهر المختلفة.

فهناك الأصول الكلية: أصول التأسيس والتكوين والمرجعية، وهى الرؤية الكلية التى تشكل إطار المرجع وأصول النظام المعرفى. إطار المرجع هنا يشتمل على عناصر خمسة:

- الأصول المرجعية وما تشكله من مرجعية التأسيس.
- الواقع كمرجعية، وما يشكله ذلك من آثار منهجية فى التعامل مع الظواهر المختلفة ضمن سياقاتها.
- الجماعة المرجعية بما تشكله من محضن الشورى الجماعية، وما تشكله من أصول التفاعل والحوار البنائى: بما تعبر عنه من جماعة متخصصة، مهمومة بذات القضايا، تملك عناصر مرجعية منسجمة، ولغة مشتركة، ومنهجاً يشكل أرضية للتفكير، وعلاقة تسودها الثقة عن علم.
- أصول اللغة البحثية والمنهجية، التى تشكلها الجماعة العلمية، فتعرف للموضوع حقه من البحث، وللعلم حقه من المنهج، وللظاهر حقها من التقصى، لغة علمية تعرف للاستقامة العلمية أصولاً، ولقواعد العدل البحثى إمكانات تفعيل وتطبيق.
- تقع فى النهاية شبكة الإسنادات المرجعية، بما تشكله من ذاكرة وخبرة ومصادر ومراجع، وواقعاً ووقائع، بحيث تنتظم فيما بينها.

هذه المستويات الخمسة على اختلاف أدوارها ووظائفها تشكل أصول التعامل مع إطار المرجع ضمن معانيه الواسعة والممتدة، إن كل مستوى يعد مرجعاً بمقدار ما يضع من لبنات فى صرح المرجعية الكلية حتى نتمكن من تفعيلها وتشغيلها ضمن القضايا المختلفة والأعمال البحثية المتنوعة.

ومن هذه الرؤية الكلية المتضمنة لإطار المرجع تُشتق مناهج النظر- إن منهج النظر هنا يحول عناصر الإطار المرجعى إلى قضية بعينها فيفعل مقولاته ويُشغلها. ومنهج النظر -هنا- تتوافر له الكفاءة والقدرة على نفى كل مصادر النظر الأعشى، أو العليل أو القصير أو الأحول و المزدوج، أو الحاجب، أو الأعور القاصر، أو مناهج اختلاس النظر أو التغاضى.

إن ضبط مناهج النظر للظواهر والقضايا يُعد أمرًا لا محيد عنه إذ إن هذه المناهج هى من أهم مستلزمات الفهم الصحيح لتلك الظواهر، فمنها وعلى أساس من قواعدها تتحرك أصول التناول والتعامل بحيث تؤصل عناصر التكامل بين شطرى المنهج «شطر فى النظر وشطر فى التطبيق». فإذا كانت مناهج النظر تحدد القواعد العامة بصدد قضية كلية موضوعة للبحث والفحص، فإن مناهج التناول والتعامل هى المسالك والطرائق والأدوات والمعلومات وأساليب نظمها وتفعيلها ضمن الدوائر المختلفة.

فى هذا السياق سنجد أن معظم ما ألفه الحكيم -البشرى يمكن أن نسكنه بصورة أو بأخرى ضمن ما عناه من مناهج النظر- وهى أكثر اتساعًا من المعنى المصطلح عليه حول المنهج فى العلوم الاجتماعية والإنسانية، إلا أن هذه السعة كانت من أهم إسهامات المستشار البشرى فى منظومة المنهاجية، والإشارة إلى كتابات سُميت بمناهج النظر وأخرى سُميت بغير ذلك؛ إلا أن محتواها دار حول المعنى بمناهج النظر، وتنوعت الموضوعات والقضايا، وتنوعت البحوث والكتابات إلا أن «توجه مناهج النظر» ظل هو الربط فيما بينها جميعًا، سواء تعلق ذلك بقضايا بحثية، أو مجالات دراسية، أو مفردات منهاجية مثل المفاهيم، والخرائط الفكرية، ووحدات التحليل، وعناصر الأجندة البحثية.

ثالثًا - المفاهيم والمنهاجية

ماذا نتعلم من آليات التعامل مع عالم المفاهيم فى إطار المشروع الفكرى للمستشار طارق البشرى؟

المفاهيم ليست وحدات معلقة بالهواء، المفاهيم يحيط بها وسط تتفاعل معه وتتحرك فيه، المفاهيم وافدة وموروثة لابد أن تتحرك ضمن ما يمكن تسميته بمفاهيم الموقف، إننا أمام منظومة مفاهيم من الواجب فى إطار السياقات المعرفية والمرجعية أن نتعرف على الموقف منها. إن الوعى المفاهيمى يجب أن نتعامل معه بوعى ذاكر لما تعنيه دائرة «مفاهيم الذات الحضارية»، ومفاهيم الغير التى بدأت تتداخل مع عالم مفاهيمنا، ومفاهيم الموقف الذى تفرضه بحكم الواقع الذى نعيشه.

إن أهم آليات التعامل مع المفاهيم كما نفهمها فى إطار المشروع الفكرى لأستاذنا البشرى، ما يلى:

١ - تسكين المفهوم فى وسطه ومناخه العام (السياق التاريخى العام).

٢ - استخراج المسكوت عنه ضمن ثنائيات التعامل الفكرى (الوافد والموروث).

٣ - إعادة طرح الأسئلة الصحيحة فى إطار منظومة الأسئلة المتوافقة.. ماذا تأخذ من التراث؟



٤ - إشكالية التراث والمعاصرة: أصول الفهم الصحيح، والانتباه إلى الشراك المنهجية.

٥ - خريطة المفهوم مدخل لعرض خرائط الأفكار.

٦ - المفهوم عائلة: ومن ذلك مثلا: العصرية، المعاصرة، عصر الإصلاح، عصر النهضة، العصر الحديث.

٧ - المفاهيم: سيرة، ومسيرة: ذاكرة المفاهيم عملية مهمة، ثم سيرورة.

٨ - التصنيفات ليست عملية شكلية بل هى مفاهيم معبأة تتضمن رؤى؛ ومن هنا علينا أن نبحث فى قواعد يكون معها التصنيف أقرب ما يكون إلى الدقة فى ذاته، والفاعلية فى استخدامه، والمصداقية فى تطبيقاته.

٩ - الإشكالات المتوالدة عن إشكالية «مفاهيم الموقف»، وهى عديدة.

منهجية الموقف تؤكد أن المنهج هو لأصل، بما يعنى أن المعالجة المفاهيمية فى إطار أصول التعامل المنهجى هى التى تولد عناصر المواقف الواعية المتجددة إزاء مفاهيم متنوعة، تبدو تلك المفاهيم -فى كل وقت- تحت أسماء جديدة، وتتزيا بأثواب مختلفة، حتى أن البعض أشار إلى الانفجار فى عالم المفاهيم كأنه عصر الانفجار المعرفى، والتراكم المعرفى الحادث والذى يجد فى عالم المفاهيم بعض أدلته. الموقف المنهجى هو الموقف التأسيسى القادر على مواجهة عالم المفاهيم بعيدًا عن موقفى القبول المقلد بلا بينة، أو الرفض المطلق بلا بينة، أنه يحرك المفهوم كوحدة أساسية فى التحليل المنهجى الذى يقوم على أمرين هما:

١ - الرد الجميل للمفهوم إلى أصوله الفكرية والمدنية والثقافية والحضارية.

٢ - التعرف على المفهوم وطبيعته، ووسطه وعلاقاته، وقدراته وتأثيراته ومآلاته.

إن التعامل المنهجى مع عالم المفاهيم يقترن -عند البشرى- بالمجالات الحيوية ذات الاتصال؛ وأهمها عوالم الخطاب؛ وهى من أهم التوابع التى يجب فرزها. ففى مجال الخطاب يحلل البشرى جملاً متكررة، صارت بتكرارها جملاً مفتاحية وعبارات مرجعية تستحق التحفظ والمراجعة؛ من قبيل مقولة: «حال الاستثناء التاريخى»، ومقولة: «مرحلة الانتقال المستمرة إلى أبد الآبدين»: إن كل مرحلة هى عنق زجاجة، أيام عصيبة، منعطف تاريخى، استثناء، ونحن لهذا فى رحلة انتقال (من المرحلة الاستعمارية، إلى الاستقلال، ومن التوحد إلى التعدد، ومن التخلف إلى التنمية...) وباسم الانتقال بدت مجتمعاتنا - على حد تعبير الدكتور المسيرى- مجتمعات الترانسفير، أو ما أسماه المستشار طارق البشرى: «التطور المعوَّق».

رابعًا - خرائط الأفكار ودراسة الواقع

الاهتمام بعالم الأفكار من أهم القسمات المنهاجية فى تعامل المستشار البشرى مع الموضوعات والقضايا التى يطرحها، إنه بهذا المعنى وبذلك التعامل قادر على أن يحوِّل العوالم الخرى إلى عالم أفكار، وذلك دون اعتساف أو افتعال.

فعالم الأحداث عنده هو عالم أفكار، تتحرك فيه الأفكار، وتديره أفكار، وتتحكم به أفكار، وربما تتنافس وتتصارع، وربما تتراحم وتتكافل، الحدث -الفكرة، هو وحدة تحليل قائمة بذاتها.

وعالم الأشخاص عنده هو عالم أفكار، الشخص لم يكن مجال اهتمامه إلا بمقدار ما يؤثر فى عالم الأفكار، الشخص- الفكرة، وحدة تحليل أساسية ومركبة، إلا أنها تتحرك ضمن فعاليات، الشخص هنا ليس مجرد كيان فردى انقضى، فحينما يتحول إلى فكرة فإنه يمتد عبر الزمن تأثيرًا وفعالية.

وعالم الأشياء والنظم هو عالم أفكار، بما يحمله من تأثيرات فى واقعنا المعاش ومناهجنا فى التعامل معها، النظام - الفكرة، الشىء-الفكرة، الرمز-الفكرة، كلها وحدات تحليل يجب رصد تأثيراتها وبنياتها ضمن خرائطنا الفكرية بكل تضاريسها.

إن معرفة طبوغرافيا الأفكار، والتعليم من معانى جغرافيا الكلمات والأفكار من أهم إسهامات منهج البشرى. وليس ذلك فى منهجه مجرد كلمات تقال، أو إرشادات تُزجى، ولكن الأمر أبعد من ذلك إذ هو ممارسة بحثية فى معامل الفكر السياسى الإسلامى فى التاريخ المعاصر، إنه يتجه بكل عدته المنهجية، وببوصلته الفكرية، وبخرائطه المتعددة؛ليتعرف بيسر وسهولة على عالم الأفكار بكل تنوعاته، وليعلم شيوخ الباحثين قبل شبابهم أن «خرائط الأفكار» هى من أهم المستلزمات المنهجية للتعامل مع «عالم الواقع» الذى نعيشه.

والواقع -ضمن تصوراته الفكرية والمنهجية- ليس تلك النقطة الزمنية المتغيرة بمرور الزمن فتسمى الواقع تارة، والحاضر تارة أخرى، بل هى حدث كلى ممتد للحاضر، لابد له من ذاكرة تاريخية وتراثية، ولابد له من امتدادات مستقبلية، والتفاعل بين حلقات الزمن مؤكد، وبين مجالاته: الفكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية لا مفر منه، والتداخل بين حركة الداخل والخارج وضبط النسب فيما بينها عمليات مهمة مؤثرة على الواقع، وفى طرائق التعامل معه.

وفى تصويره لتلك الخرائط فى إطار حديثه عن الفكر الإسلامى الحديث يقول:

«.. تكوَّن الفكر الإسلامى الحديث عبر عشرات السنين الماضية، ومن عدد غير محصور من المفكرين والقادة والمصلحين، وتبلورت بعض قضاياه بتجارب عديدة. وهو فكر يتشيد وتتراص لبناته تحت خط النار، كما لو كنت تبنى قلاعك وسط قصف مدافع الخصم عليك، ووسط ما يمطرك به من صواعق الصواريخ ونيران القنابل والطائرات، ولا تزال اللبنات تتراص والبناء يشيد. ونحن نعرض هنا لمجموعة من الأفكار من خلال مفكريها، وهى تترابط مع بعضها لنتمكن من تكوين بناء فكرى رصين..».

ورجوعًا لمالك بن نبى فإنه البشرى يرى أن «لواقعنا التاريخى الحاضر جانبين: الاستعمار، والقابلية للاستعمار. الاستعمار، وهو العدوان الآتى إلينا من الخارج، عسكريًا كان أو سياسيًا أو اقتصاديًا أو فكريًا، أى هو أثر

الخارج فينا، ذلك الأثر الذى يجرى بغير رضائنا وبغير صالحنا. والقابلية للاستعمار، هى هذا الوضع الذى نكون عليه والذى يمكّن من غلبة الغير لنا، هى ما نتصف به من الضعف والتردى، والجمود ووهن العزيمة، واضطراب القيم، والجهل، وغير ذلك مما يكون سبباً لغلبة الطامعين فينا على أمرنا...».

إن تقييم عالم الأفكار يجب الا يكون من مقاعد الراحة الوثيرة، بل لابد من ملاحظة حركتها ضمن الواقعية المتشابكة «.. هو فكر يتشيد وتتراص لبناته تحت خط النار...» على حد تعبيره. هذه الرؤية يرجع لها الفضل فى الدعوة إلى أن تتحول مقولة مالك بن نبى «الاستعمار والقابلية للاستعمار»، إلى مقولة منهجية فى التعامل مع الواقع بما تعنيه من:

● ضرورة التعرف على الظاهرة وعناصر رصدها ووصفها والبحث فى سياقات تحليها وتفسيرها، وعناصر التعميم المتعلقة بها.

● ضرورة البحث فى أصول القابلية للظاهرة فى الداخل، إن التفسير الخارجى للظاهرة لا يكفى وحده.

● ضبط عناصر التأثير والتأثر بين الداخل والخارج ضمن حجم التفاعلات وكثافتها وتبادل تأثيراتها.

● من الضرورى البحث عن السنن القاضية والحاكمة لعالم الأفكار، يؤكد البشرى أن لكل عالم من تلك العوالم سننه القاضية التى يجب أن نتعرف عليها من خلال النظر الفاحص وحركة الأفكار وتاريخها.

● الطريق التاريخى، واختيار البشرى له يوضح أن كثيراً مما نعتبره خلافاً فى الرأى -فنقف إزاءه متواجهين متقابلين- كان أساسه اختلاف الزمان أو المكان، ولم يكن اختلاف حجة وبرهان.

● إن الفكر -كشأن أى كائن حى- لن نحميه بأن نضعه فى المعازل، والسبيل الأمثل للدفاع عن الوجود، هو بالتجديد وبالتفاعل مع أوضاع الواقع المعيش.

● نعرف فى تاريخنا جدلاً كان يثور كل حين حول موضوع مقاومة الاستعمار وإجلائه وموضوع الأخذ بأسباب النهوض ومعالجة أسباب الضعف، بأى هذين الموضوعين نبدأ وأيهما تكون الألوية فى اهتمامنا؟ والواقع أن هذا الجدل يقوم على خيار خاطئ، لأنه يجرى تفرقة بين أمرين كلاهما لازم، فهما معاً شرط النهوض والتقدم والاستقلال، وكل منهما يقوى الآخر ويتقوى به.

● كان الظرف التاريخى وأوضاع التحدى التى تقوم أمام الجماعة وأمام الإسلامى هى التى تولد أسلوب المواجهة للدفاع عن الإسلام بوصفه كياناً حياً، وهى التى تحدد وسائل الدفاع وأدواته.

● إن التطرف والاعتدال دائماً مستويان لوضع معين أو لظرف خاص، وإن ذات الفكرة يتغير مفادها ومؤداها من حيث التطرف والاعتدال، وذلك بتغير الظرف الذى تعمل فيه.

● الضجيج لا يمثل أغلبية... قد يرى البعض بأن الاتجاه المتطرف هو من له الغلبة والحاصل غير ذلك.

● سيبقى الغلو ما بقى التغريب.

● إن المغالاة لا تقاس بمعيار مطلق، إنما تنسب إلى التيارات الأخرى القائمة ومقياسها يتغير بتغير الحال.

● إن الوظائف المنوطة بمن جعل منطقة بحثه الإسلام لابد أن تقوم على واجبات ثلاثة:

أولاً- أن تُحفظ للعقيدة الأوضاع الاجتماعية التى تناسب رسوخها وبقاءها.

ثانياً- أن تدرك الأوضاع الاجتماعية والتاريخية التى لابست اجتهادات الفقهاء السابقين، وتنبه إلى أثر الزمن فى آرائهم والدلالات الواقعية للحكم المفتى به منهم.

ثالثاً- أن يدرك الفقه الحديث وجوه التحديات الحقيقية التى تواجه الجماعة، ويعمل اجتهاداته بما يحقق الاستجابة السليمة لهذه التحديات بما يتجه إلى نفع الأمة.

● إن الحاسم فى الحكم لا يتعلق فقط باستخلاص الأحكام من النصوص واستنباطها من مصادرها الأولية ولكنه يتعلق أيضاً بكيفية النظر للواقع الذى تحياه الأمة وكيفية توصيفه.

خامساً- دوائر الانتماء ووحدات التحليل

يحسن فى هذا المقام أن نشير إلى أن البشرى- الحكيم، جعل من المنهج معنى متسعاً يستغرق كل المعانى التى يؤديها الجذر اللغوى «نهج»، ومن أهم تعلقات ذلك أن يكون المنهج هو الطريق الموصل، ومن ثَم كان ارتباطه بالواقع والقصد معاً. المنهج -بهذا المعنى- ليس مجرد عمل نظرى أو تنظيرى، ولكن المنهج تعبير عن رؤية كلية ووسائط بحثية وأدوات وأساليب. ومن هنا كان من أهم معانى المنهج لدى المستشار البشرى أن المنهج للواقع، وكان حديثه عن وحدات الانتماء مدخلاً للحديث عن وحدات التحليل المنهجى فى معظم دراساته وفى جل بحوثه.

فهو إن جعل من الأمة وحدة تحليله التأسيسية، ومن الجماعة الوطنية وحدة تحليله الواقعية، فإنما أراد أن يبحث عن معنى الأمة فى الجماعة الوطنية، وهو عمل لا يفقد الأمة كوحدة تحليل مرجعية ولكنه فى ذات الوقت لا يفقد الواقع، ولا يتركه نهباً لوحدات تحليل تضر بالظاهرة وإمكانات فهمها والتعامل معها وتقويمها.

وهو من أجل هذا يذكر أن علم السياسة وعلم الاجتماع لا يكتفى أحدهما بالنظر الذى يركز على وحدة الانتماء العامة أو وحدة الانتماء الاساسية التى تقوم عليها الدولة، ويتعلق بها نظام الحكم أو السلطات الثلاث، لا يكتفى بذلك لفهم أوضاع نظم الحكم وطبيعتها، وهو ينفتح على العديد من الهيئات والجماعات والتكوينات، ولا يرى المواطنين محض أفراد تجمعهم الأحزاب ومؤسسات الدولة فقط.



إن المجتمع يتكون من وحدات انتماء لا حصر لها، وهى تتنوع من حيث معيار التصنيف: فيكون أساسها الدين أو المذهب أو الطريقة الصوفية أو الملة أو المشرب الثقافى أو الطائفية، أو يكون أساسها اللغة أو اللهجة، أو يكون أساسها نوع التعليم أو المهنة أو الحرفة، أو يكون أساسها وحدة العمل الوظيفى لجيش أو جامعة أو شركة كبرى أو وسط عمل معين، أو يكون أساسها الإقليم أو الحى أو القرية أو الحارة، أو يكون أساسها القبيلة أو العشيرة أو الأسرة، أو غير ذلك مما لا يقع تحت حصر من حيث العدد أو من حيث النوع أو من حيث معيار التصنيف.

وبسبب تنوع معيار التصنيف فهى تعتبر وحدات انتماء جامعة ولكنها ليست بالضرورة وحدات مانعة، والفرد الذى ينتمى لإحداها قد يمتنع عليه الانتماء لغيرها من جنسها وبذات معيار التصنيف، ولكن لا يمتنع عليه الانتماء لغيرها وفقاً لمعيار آخر للتصنيف. وبسبب تعدد هذه الوحدات، وتنوع معايير التصنيف لها فهى لا تقف على قدم المساواة فى علاقاتها بعضها ببعض، ولا تختلف اختلاف تعدد وتنوع فقط، إما أيضاً اختلاف عموم وخصوص، أو اختلاف أجناس وأنواع من كل جنس منها أو اختلاف أصل وفروع.

من هذه الوحدات تظهر فى كل مرحلة تاريخية وحدة الانتماء العامة التى تعتبر الحلقة الكبرى والأساسية التى يتشكل المجتمع وفقاً لما تفيده، والتى تعتبر الحلقة الحاكمة لغيرها أو الوحدة الحاكمة لغيرها، وما بعدها يمكن الإشارة إليه بحسبانه وحدات الانتماء الفرعية. ومن الجلى أن وحدة الانتماء العامة يكون لها قدر من الثبات النسبى، ولكنها تقبل التأثر والتأثير من داخلها بواسطة الوحدات النوعية، ومن خارجها بواسطة الأوضاع العامة المحيطة. ومن الجلى أن كل مجتمع حى يتضمن صيغة ما من صيغ الوحدة مع التعدد، أى وحدة الانتماء العامة التى يكون لها الغلبة فى المجتمع وفى وعى الناس فى هذا المجتمع، وتستجيب لما يلاقى من تحديات، وتحقق الحد الأقصى من الصوالح، وترعى القاسم المشترك الأعظم منها بالنسبة للجماعات المختلفة فى المجتمع، التى تتعدد بتعدد الجماعات وبتعدد معايير التصنيف القائمة فى المجتمع؛ وهى بالضرورة متداخلة ومتشابكة، وهى تلتف حول الوحدة العامة بقدر إدراكها أن هذه الوحدة العامة تكفل لها الحد الأدنى من تحقيق الوجود ومن البقاء ومن المصالح المرجوة. وبكفالة هذا الحد الأدنى تقوم وعلاقات الدعم المتبادلة والتغذية المتبادلة بين العام والفرعى، فإذا لم يتكفل هذا الحد الأدنى قام نوع من الصراع ينحسم بالغلبة لصالح الوحدة العامة من أى من الوحدات الفرعية أو لصالح الوحدات الفرعية إذا تكاثرت واتحدت ضد ما يعتبر وحدة عامة فى مرحلة معينة.

يحاول البشرى توضيح الأهمية الاجتماعية والحضارية القصوى لوجود هذه الوحدات جميعاً، لأن وجود الوحدات الفرعية يغذى الوحدات العامة ويتغذى منها. الجماعات الفرعية هى مولدات الحركة للجماعة كلها فى صورها الشاملة، ونحن نخطئ أيما خطأ -ولقد أخطأنا- عندما نظرنا إلى وحدات الانتماء العامة بوصفها نوعاً من أنواع أجولة الحبوب تحمل حبات منفصلاً كل منها عن الأخرى، وتضم وحدات متماثلة على غير تنوع ولا تدرج ولا تفاعل بين بعضها البعض. إن القومية لا تضم أفراداً، وإن الوحدة الإسلامية لا تضم أفراداً، وإن المصرية أو العراقية أو المغربية لا تضم أيضاً أفراداً، إنما تضم جماعات تمثل وحدات

كتاب الزاوية

مجلة الأستاذ

الطرق وما فيها من البدع

لا تزال هذه الطوائف تبتدع أمورًا تضحك السفهاء وتبكى العقلاء وتحتال لمطامعها البهيمية بما جلب العار على الأمة وسلط علينا الأجنبى يهزأ بديننا ويقبح أعمالنا ظنًا منه أن ما يجريه هؤلاء الجهلة من الدين. فقد كتب جون بول صهر عبدالله كليم مسلم ليفربول كتابًا يرد به على صهره وجعل الرد وسيلة للطعن فى الدين الإسلامى بأقبح ما يقال واستدل على بطلانه بأعمال هؤلاء الجهلة، فقال: ورأيت فى مصر درويشًا كان معتقدًا وله مقام يجتمع عنده الناس فى مولده حتى الخديو وهناك يرى الإنسان المسلمين يرقصون ويطبلون ويزمرون ويفعلون أمورًا فظيعة يزعمون أنها كرامات لهم وهى أمور تياترية إلخ ما قال، فهلا اتخذ الناس طريقة للموالد والمجالس غير هذه الطريقة وهلا رجع هؤلاء الجهلة عن بدعهم والتزموا طرق أشياخهم الذين يدعون أنهم على آثارهم وما هم إلا فى أيدى الشياطين يلعبون بهم كيف يشاءون.. أين تصفية الباطن التى هى مدار الطريق وأين الخمول مع هذا الظهور وأين التواضع مع ركوب الخيل والبغال يقدمها الطبل والمزمار كأن الخليفة مأمور مركز أو ضابط بلد، وأين البعد عن الناس مع هذه المزاحمة الدنيوية وأين البعد عن الرياء مع الوقوف بين مئات الألوف نتمايل ونتلوى وأين الإرشاد مع هذه البدع وأين الأشياخ إذا أردنا السلوك ومن نراهم رجال اتخذوا الطريق وسيلة معاشية. أما آن لهذه البدع أن تموت ولهؤلاء الجهلة أن يتنبهوا ويعلموا أنهم بين أمم ينظرون أعمالهم وينتقدون أحوالهم ويكتبون عنهم ما يكتب عن الهمج وسكان البوادى.

انتماء تقدر كل منها على الانبعاث الذاتى وتدفق الحركة من داخلها وبالمولدات الذاتية الخاصة بها. ونحن نخطئ.. عندما ننظر إلى مجتمعاتنا بذات الرؤية والتصور الذى ساد لدينا عن مجتمعات الغرب عمومًا.

ومتى صار الشعب أفرادًا فقد صار الحاكم فردًا لزوال التكوينات الضاغطة، ولأنه لا توجد وقتها إلا وحدة الانتماء الأعم التى تشخص فيه بذاته منفردًا عما عداه.

إنها رؤية لوحدات التحليل تتحرك من الواقع وصوبه، وهى تعبر عن معنى الجامعية والقصد الكامن فى مفهوم الأمة. وإذا كانت تلك وحدات تحليل داخل المجتمع السياسى فإن وحدات التحليل ضمن التعامل الخارجى شهدت اهتمامًا منهجيًا عند البشرى على نفس المستوى الذى يحاول وضع قواعد منهج نظر لوحدات التحليل وتفعيل العمل من خلالها ليس فقط بحثيًا ولكن واقعيًا.

إن مفهوم الأمة كوحدة تحليل فى التعامل الخارجى لم يمنعه من رؤية الواقع الإقليمى وواقع الدولة القومية وواقع النظام الدولى بتشكلاته وملاحظة عناصر القسمة الجديدة فى ذلك الواقع. إن المستشار البشرى استطاع أن يحلل أهم معضلات المنهج فى وحدات التحليل وجمع فيها بين وحدات التحليل للتقويم، ووحدات التحليل للوصف فى الواقع، وجمع بينها فى إطار فقه تكامل فيه وحدات التحليل ولا تتعارض ولا تتنافى.

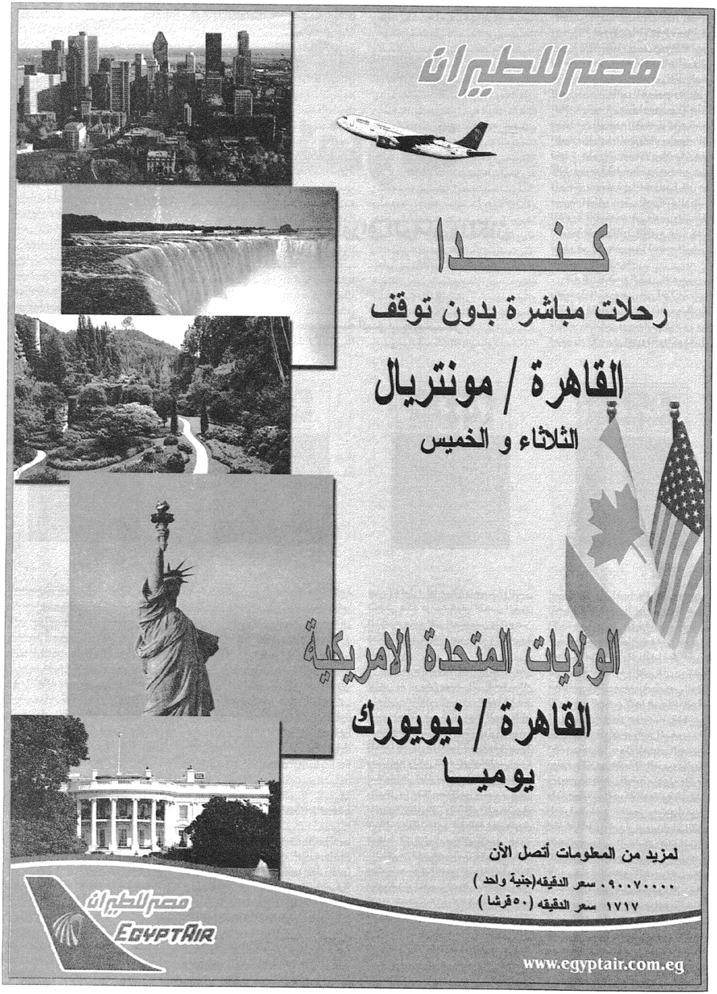
سادسًا: الأجندة البحثية للبشرى والنموذج المقاصدى

وأخيرًا وتأسيسًا على كل ما سبق يتحرك الحكيم البشرى صوب أجندة بحثية تتمثل قواعد النموذج المقاصدى؛ كما انتهت صياغته لدى الشاطبى فى موافقاته، ولو تفحصت أصول أجندته لوجدتها من غير عناء كبير تتحرك صوب حفظ كيان الأمة وأصول بقائها، وشروط استمرارها، وسنن ترقيتها وعمرانها؛ ضمن الاهتمام بمناهج التفكير والتدبير والتسيير والتأثير والتغيير، والأمة وفق عناصر اختصاصها وتمايزها تحمل ذلك وتحفظه بالحفاظ على دينها وشرعتها، وعلى أصول مرجعيتها وسنن فاعليتها، وحفظ نفوس الأفراد وكيانات الأمة وشخصيتها، وحفظ نسلها الذى يشكل أصول مادتها العمرانية وتنميتها البشرية.

البشر فى أجندة البشرى أهم عناصر المعادلة الحضارية، ثم ترد عناصر حفظ العقل الفردى والجمعى، عقل أفراد الأمة، وعقل الأمة ورشدها فيخاطب كل عناصر الرشد على مستوى الفرد والأمة؛ لبناء الأمة على أسس فكرية وحضارية وثقافية، وبنيان عقلى سوى وفعّال، ثم ترد فى النهاية عناصر الحفظ المادى (حفظ المال) كرمز لأصول العمران المادى بكل تجلياته وتكويناته، والتى تعتبر فى النهاية من أهم محصلات تفاعل عناصر الحفظ الأخرى وتكاملها، وتكامل الفعاليات المتنوعة للأمة وتكافل عناصرها.

الحفظ بدفع الضرر عن الأمة وابتغاء المصالح لترقيتها وعمرانها هو مقصود أجندة البشرى البحثية، وهو أمر قد يحتاج دراسة مستقلة. وهو على ما يرى من أولويات بناء وتأسيس الأمة الجامعة، ويمثل رؤيته لتحديات وأخطار تحدق بالأمة تهدد كيانها ووجودها، بقاءها واستمرارها، ترقيتها وعمرانها. يهتم بدائرة الضرورى فى البحث والمنهج، يتحرك صوب تأصيل المرجعية الجامعة، والمنهج الضابط، يجعل ذلك الضرورى محط اهتمامه وضبط سلم أولويات أجندته البحثية، فيقف فى طليعة جيش الأمة الفكرى يذود عن بيضة الإسلام وحصون الأمة الفكرية والحضارية، إنه دائمًا يتحرك صوب أعلى درجات فقه السفينة، ويشيع عناصر ثقافة السفينة وفق أصول علمية وفكرية ومنهجية فى إطار منظور حضارى شامل.

فهو دائمًا ما يحذر من «أن يلقى أى من بلادنا مصير الأندلس»، ويدعو الله وقانا الله شر ذلك المصير، ومن دعائه بوقاية الأمة من ذلك المصير تتولد دعوته إلى الحفاظ على الأمة من الوقوع أو السير إلى ذلك المصير، وبين دعائه المخلص ودعوته تقع أجندته البحثية ليكون بحق من العلماء الذين هم من ورثة الأنبياء، وفى كل مقالة أو بحث يقول بلسان الحال ألا هل بلغت اللهم فاشهد. ■


مصر للطيران
كندا
رحلات مباشرة بدون توقف
القاهرة / مونتريال
الثلاثاء و الخميس
الولايات المتحدة الامريكية
القاهرة / نيويورك
يوميا
لمزيد من المعلومات أتصل الأن
٠٩٠٠٧٠٠٠٠ سعر الدقيقه(جنية واحد)
١٧١٧ سعر الدقيقه (٥٠ قرشا)
مصر للطيران
EGYPTAIR
www.egyptair.com.eg

عصر المقاومة

إعادة ترتيب أوراق الزمان والمكان

أميمة أبو بكر

تمثل السلسلة التى أعادت طباعتها «دار الشروق» للأستاذ المستشار طارق البشرى فى طبعة أنيقة تحت العنوان المشترك (فى المسألة الإسلامية المعاصرة)، والتى تتكون من ست مجموعات هى فى الأصل مقالات تم نشرها فى صحف ودوريات أو أوراق بحثية ألقيت فى ندوات ومؤتمرات منذ بداية التسعينيات حتى الآن - تمثل مشروعاً فكرياً نهضوياً لا يخص فى الحقيقة موضوعات إسلامية بمعناها الخصوصى المحدود ولكن «المسألة الإسلامية» كشأن حضارى تاريخى يعم مصر والمنطقة العربية: أوطان عانت ولاتزال تعانى من نفس الأزمات والقضايا.

يعيد الأستاذ طارق البشرى قراءة وتحليل ماضى وحاضر الأمة، كما يعرفنا كيف نستبدل العدسة التحليلية المعتادة فى النظر والتقييم. السلسلة إذاً فى جمعها بين الطرح المنهجى المنظم وأهمية المحتوى، بين التنظير والتطبيق، هى جديرة حقاً بأن تُدرّس أكاديمياً

اقتباس العلوم الطبيعية وفنون الصنائع ومحاكاة لنماذج وأطر ومؤسسات فى الإدارة والاقتصاد وبين محاكاة لفكر وعقائد وهوية، فقد ظل الوالى والياً عثمانياً مسلماً يتحرك فى إطار الوعاء السياسى والثقافى الفسيح وعارفاً أن البلاد تستمد شرعيتها ومعايير الاحتكام فيها من الوجود الشامل للعقيدة الإسلامية. أما «المصرية السياسية» التى تكونت على أثر هذه الإصلاحات فقد كانت بسبب فشل مشروع محمد على وليست بسبب نجاحه ولم تكن من صنيعه المباشر. حتى الحركات الوطنية المقاومة للاستعمار فى مصر والمنطقة العربية طوال القرن التاسع عشر كانت تصدر فى الأساس عما أسماه البشرى «الفكرية الإسلامية».

ثم كان تقدم القرن العشرين والتحول التدريجى من أخذ أساليب التنظيم فقط إلى أخذ مذاهب ونظريات وأساس عقلى ووجدانى كامل، من استيراد الأشياء الموزونة والمكيلة إلى









للمضمون القيم وكذلك لأسلوب التناول والتحاجج: فالأستاذ البشرى يهتم بالجانب التنظيمى للأطروحات التى يقدمها إذ يشعر القارئ أنه يرسم له خريطة واضحة المعالم والشعاب لما يجب أن يسير عليه تسلسل استيعابه لمنطق هذه الأفكار. ندهش حين نلحظ أن البشرى كان سباقاً منذ ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضى فى التعرض لقضايا وإشكاليات أساسية مما نعده استشرافاً فى حينها لمأزقنا الحضارى اليوم فى بداية القرن ٢١ وما آلت إليه أحوالنا على الصعيدين الداخلى والخارجى، فكانت رؤية ثاقبة لكثير مما لم يُحسم حتى الآن أو يظل يتجدد ويعيد إنتاج نفسه، فالطرح ومنهج النظر لا يزالان يفسران أحداثاً نعايشها الآن من الهيمنة العولمية والأزمة الدنمركية فى الخارج حتى الفتنة الطائفية وتصاعد التيار الإسلامى السياسى أو التخلف الاقتصادى والتنموى والسياسى فى الداخل.

وهذان هما المجالان اللذان تدرسهما كتب السلسلة بموضوعاتها المتنوعة: علاقة الأمة العربية والإسلامية بالعالم الخارجى وتداعيات تلك العلاقة على مدى التاريخ ثم قضايا وأزمات الأمة الداخلية، وهما فى الغالب مرتبطان. كما يكاد ينقسم كل كتاب إلى ثلاثة محاور فى معالجة الشأن تحت النظر:

(أ) تشخيص دقيق لجذور المشكلة فى التاريخ وكيف تطورت وتشكلت وتشعبت، (ب) ماذا أفرزت وما آلت إليه فى حاضرنا، (جـ) ما السبيل إلى العلاج والإصلاح - فى مزج وتفاعل بين التاريخ والجغرافيا، بين تجارب الحقب السابقة بتداعياتها الحاضرة وأوطاننا التى نعيش داخل حدودها، بين الزمان والمكان.

١- معضلة الازدواجيات وأصلها

حتى فى كتاب (الحوار الإسلامى العلمانى) لا يقدم طارق البشرى طرحاً دينياً بالمعنى السطحى الفج حول المؤمن وغير المؤمن أو المتدين وغير المتدين ولا يكيل اتهامات واستفزازات، ولكنه يتعامل مع الإسلامية والعلمانية كمنهجين: نهج وافد ونهج أصيل موروث ليحلل - ولو منطقياً - أى المنهجين أحرى بالشرعية الوطنية والإطار المرجعى فى النظم السياسية والاجتماعية وأنماط السلوك.

هذه إذاً أول ازدواجية تواجهنا والتى تتجلى عند دراسة كيف أفضى القرن التاسع عشر إلى العشرين ونتج عن ثنائية الإقليمية الانفصالية والجامعة السياسية.

إن القراءة البديلة لمشروع محمد على تُظهر أنه لم يكن يهدف إلى إقامة نظام علمانى - بالمعنى السابق - لأنه أخذ من أوروبا (مثله فى ذلك مثل السلطان محمود الثانى فى استنبول) علوماً ونظماً عسكرية ونظماً إدارية ومؤسسية وصناعية ولكن لتخدم كياناً سياسياً إسلامياً فى إطار مشروع إحيائى عثمانى رغم كل ما يقال حول دور محمد على الثورى الانفصالى وإنشائه «للمصرية» السياسية بالتحديد كخطوة على طريق إسقاط فكرة الجامعة الإسلامية. جدير بالذكر أن تاريخ محمد على بالذات ومشروعه - وكذلك دور الدولة العثمانية - قد خضع لتفسيرات وقراءات شتى من قبل المؤرخين على كافة توجهاتهم للتدليل على نظريات ونظريات مضادة، والأستاذ البشرى هنا يقدم بالأدلة التاريخية وقراءة الأحداث والوقائع (مما ليس له مجال فى هذا العرض) خلاصة مقنعة أن مشروع محمد على فرّق بين

استيراد الميزان نفسه والمكيال، ونجمت المحاكاة للفكر الغربى والنموذج الاستعمارى عن مفارقة كبيرة: فقد «صرنا ننتج ما نتضارب معه». ومع نهاية الحرب العالمية الأولى انفلتت الحركة الوطنية المصرية (التى كان يمثلها مصطفى كامل ومحمد فريد) من العقال الإسلامى الجامع لأنها فى ذلك الوقت لم تجد كيانات أو مؤسسات تقليدية ترتبط بها، بل أن عناصر التغريب قد اختمرت وبدأ جيل المدارس الحديثة يغترف أكثر من فلسفات الغرب ونظرياته ويرسم خصائص نهضة منقولة وتابعة. ولذا انطبعت الحركة الوطنية فى تلك الفترة بالطابع الإقليمى وابتعدت عن أى إطار إسلامى جامع أو عروبى أو أى انتماء أشمل، ويسمى البشرى هذا التيار السياسى - الفكرى «الوطنية العلمانية»، لأنه يحارب الوجود الغربى فى بلاده وينشد التحرر من سيطرة الاحتلال ولكنه يستلهم من الغرب أيضا تصوره لنهضته المستقبلية. وهكذا تدريجياً منذ العشرينيات والثلاثينيات قويت شوكة هذا الجيل الذى لم يكن معارضاً للإسلام ولكنه تبنى معايير الاحتكام الغربية وصار ينفذ الأنساق الاجتماعية الغربية

ولم يعد دعاة العلمانية حتى من أمثال شبلى شميل وفرح أنطون وآل نمر، بل صاروا أمثال طه حسين وعلى عبد الرازق ومحمود عزمى.

والأخطر من ذلك أنه جرى ضرب المؤسسات التقليدية واستبدلت بنظم وأنساق ومؤسسات آخذة من الغرب فى كل مجال سواء فى القضاء والقوانين أو فى نظم النقابات والحرف والطوائف أو نظم الوقف أو نظم الأسرة الممتدة.... الخ ويضرب البشرى أمثالاً أكثر تفصيلية ولكن المساحة هنا محدودة، إلا أننى أحب أن أوضح فى سياق هذه النقطة بالذات: ليس معنى ذلك أن الأستاذ طارق البشرى من المعارضين للتطور والإصلاح المؤسسى والتنظيمى فى حد ذاته أو من الداعين إلى الانغلاق والتقوقع وسذاجة الاستقطاب الحاسم بين شرق وغرب (كما يتهم ناقدو هذه الرؤية)؛ ولكنه يهتم بأمرين: أولاً، أن تكون العبرة دائماً بكيفية توظيف التطور والتغير لصلاح الجماعة وبمدى كفاءة الصيغة المتخذة لهذا انحسار، واستجابة لكل ما حدث فى الواقع السياسى والاجتماعى عندما اتجهت حركة المجتمع إلى «إضمار الإسلام وحصره فى نطاق العلاقة الباطنية بين الفرد وربه». وهذا تفسير فى غاية الأهمية. (وقد أشرنا سابقاً فى مواضع أخرى إلى المفارقة المثيرة فى أن حتى بعض الدارسين والمحللين الأجانب من ذوى المكانة العلمية المحترمة قد فطنوا إلى عنصر السياق التاريخى الأشمل لبلادنا ودور الاستعمار فى إحداث القطيعة المعرفية، بدلاً من الحديث المسطح حول التديين والتسييس وكأن الأشياء تنبثق من فراغ). نعود مرة أخرى إلى أهمية هذه النقطة فى إطار طرح الأستاذ البشرى حول الازدواجيات التى شطرت الأمة وكان لها تداعياتها التى لا نزال نرزح تحتها حتى الآن بين الوافد والموروث، بين التابع والمستقل، بين التشرذم والجماعية. إن الحركات الإسلامية الحديثة قامت بسبب عمليات الإقصاء التاريخى للإسلامية والمؤسسات التقليدية وتحول «الجامعية السياسية» الأحوال أمدت الوسائل العسكرية والإدارية الأوروبية الحاكم بأسلحة جديدة يعزز بها سلطانه وبطشه.

ما حدث إذاً هو أن الإصلاحات والاستحداثات الناقل من الغرب أدى إلى انهيار «التعددية» بالمعنى التقليدى فى المجتمع بينما عزز وأطلق سلطة الحاكم التقليدى. والمحك الرئيسى هو مدى الصالح الأجنبى أو الصالح الوطنى فى ضياع التعددية التقليدية وتعزيز «الواحدية التقليدية»، ذلك أن الأولى خسرت لحساب سلطة الحاكم الفرد سواء كان السلطان محمود الثانى أو عبد العزيز فى استنبول أو محمد على والخديو إسماعيل فى مصر. وفى نفس الوقت فإن «التعددية السياسية» التى سادت خلال القرنين الأخيرين كانت تعددية فوقية فى أعلى السلطة وفى النطاق المركزى لها المتمثل فى الأحزاب والسلطات الدستورية الثلاث بهدف إيجاد المنافذ للسلطة الفعلية البريطانية للوصول إلى مراكز إصدار ونهضتها الحقيقية يوم أن وطأ المستعمر بأقدامه أراضيها لينظمها وينورها. (انظر دراسات رءوف عباس ونيللى حنا وتيموثى ميتشل).

والغريب أن يتوازى هذا المنظور ذاته مع دراسات أجنبية للتاريخ الأوروبى نفسه عن تغيير النظرة النمطية تجاه المعالم التاريخية الشهيرة لديهم مثل عصر النهضة والتنوير والثورة الصناعية والحداثة وقيام الدول القومية. ودراسة التداعيات السلبية لهذه التطورات مقارنة بالعصور قبلها وتبديل النظرة حتى إلى القرون المعروفة «بالعصور المظلمة» (dark ages) وإعادة اكتشافها واكتشاف مزاياها قبيل الثورة الصناعية وصعود الطبقة المتوسطة وسيادة قيم السوق ورأس المال..... إلخ. يحدث هذا بينما لازالت أقلام عربية تنادى بالحداثة على إطلاقها استمراء للوضع الذى يشرحه الأستاذ البشرى: وضع الانفصام أو الانشطار الطولى بين أبنية تقليدية مبتورة لا تفضى إلى جديد وأبنية أجنبية





البشرى كان سباقاً منذ ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضى فى التعرض لقضايا وإشكاليات أساسية مما نعده استشرافاً فى حينها لمأزقنا الحضارى اليوم فى بداية القرن ٢١

التوظيف. ثانياً: الانفصام الذى حدث بين حركتى الإصلاح المؤسسى والفكرى بسبب خلل فى التسلسل الطبيعى والمنطقى لدى نمو أى حضارة، ففى العادة تتحدد أولاً الأسس والتصورات والمشاريع الفكرية المطلوبة ثم «تتمأسس» حركة الإصلاح الفكرى هذه، أى تتحول إلى تكوين مؤسسى تنظيمى، وليس العكس: أن تقوم الدول مثلما حدث فى القاهرة واستنبول بتغيرات وإصلاحات فى التكوينات العسكرية والإدارية قبل أى شىء آخر، بل بالمحاربة مع الثقافة القائمة. هذا مظهر آخر من مظاهر الازدواجية والانفصام فى تاريخنا رغم أن كلتا الحركتين مطلوبة حتى لا تفتقد عمليات التجديد التنظيمى والمؤسسى وعمليات التحديث التصورات الفكرية المرجعية وتقوم فى الفراغ فتصير «فاقدة المناعة تجاه ما تلبس بنماذج التنظيم الآتية من الغرب من مرجعيات وثقافات وضعية غريبة»....

فى هذا السياق إذاً وعلى أثر توسيع إطار الرؤية يعد صعود التيار الإسلامى فى العصر الحديث الذى بدأ يتجسد أيضاً خلال القرن العشرين فى جمعيات الشبان المسلمين فى مصر (١٩٢٧)، ثم الإخوان المسلمين (١٩٢٨)... يعد «معاودة بعد القومية والشاملة إلى تفتيت الانتماء الأعم».

وللأستاذ البشرى كلام هام أيضاً حول العلاقة بين «الصيغ التقليدية والصيغ الحديثة للتعددية السياسية» محاولاً فك الارتباط (لدى بعض القناعات الحداثية) بين ثنائية النظام التقليدى والصبغة الاستبدادية والمركزية، ثم بين التغيرات المستحدثة فى القرنين الأخيرين والتعددية السياسية. إن تفكيك هاتين الفكرتين النمطيتين عن «التقليدى، الأحادى فى مقابل الحديث، الغربى المتعدد» يظهر مثلاً أن التنظيم الحكومى الديوانى والنظام الإدارى المحكم الذى شيده محمد على رغم مكاسبه قضى على تكتل المصريين فى طوائف وهيئات لها كيانها وحريتها، ونتج عن ممارسة الشعب قدر من الحكم الذاتى فى مواجهة الكثير من العسف واستبداد السلطة الأحادى، ونفس الشىء حدث مع عهد «التنظيمات» الشهير فى التاريخ العثمانى (١٨٢٦ - ١٨٧٦) الذى رمى إلى استحداث مؤسسات ونظم جديدة أطلقت العنان للسلطة المطلقة للسلطان العثمانى حينئذ أكثر من أى وقت مضى بسبب إبادة الإنكشارية وإضعاف طائفة «العلماء». وفى كل القرار فى الأجهزة المصرية. أما المستويات التحتية من قواعد المجتمع ومؤسساته فكانت تزداد ضعفاً والتحاقاً بمدار الدولة المركزية المهيمنة. ويتفق مع هذه الرؤية كذلك العديد من الباحثين والدارسين خاصة من المدرسة التاريخية التى كونت على مدار العقود الثلاثة الأخيرة تياراً يعرف باسم «نقد الحداثة» ومن موضوعاته الأساسية إعادة النظر فى نشأة وتاريخ تكون «الدولة القومية المركزية الحديثة» (-modern nation state) كنسق: بمؤسساتها وأجهزتها المهيمنة وتبنيها لأيديولوجية تمركز القوى فى السلطة الحاكمة - الراعية والحامية الوحيدة. وقد أثبتت هذه الدراسات التاريخية لمصر والمجتمعات العربية والإسلامية وجود مجتمعات مدنية ومؤسسات وحراك اجتماعى وتعددية ومرونة فى العلاقات الاجتماعية قبل العصر الحديث وحتى فى الفترة العثمانية، وأن التطورات الحديثة لم تجلب بالضرورة إيجابيات مائة فى المائة بل كانت أحياناً كثيرة بتراً وضياعاً لشخصية المجتمع وتكريساً للفلسفة الاستشراقية الاستعمارية أن هذه شعوب بلا ماض ولا حضارة، بل بدأت حضارتها لقيطة. بينما الأصلح مثلاً أن «تبنى الصياغات التعددية الحديثة على ترابط مع الصياغات التقليدية، وليس على حسابها، وليس على أنقاضها». وارتباطاً بذلك، للأستاذ البشرى كلام محدد حول نوعية «التجدد الحضارى» المنشود وحول الرؤية المستقبلية للمشروع الوطنى ثم ماذا تعنى الوسطية الإسلامية كحركة للإصلاح - سنصل إليه بعد قليل، حيث ننتقل قبل ذلك من الأصول التاريخية للمسألة إلى تشخيص الحاضر ورسم لخريطته الفكرية والسياسية.

٢ ـ الظاهرة الإسلامية المعاصرة وعلاقتها بالمحيط الفكرى والسياسى

يتعرض الأستاذ طارق البشرى لبضعة تساؤلات مهمة حول علاقة «الإسلامية» الحديثة والمعاصرة بقضايا أو كيانات موازية موجودة على الساحة ودائماً مايثار الجدل حول هذه العلاقة الشائكة وحول

تضارب «الفكرية الإسلامية» (بتعبير الأستاذ البشرى) مثلاً مع كل من: الآخر العلمانى أو المنهج الوضعى ثم مع جمهور الأقباط والقضية الطائفية فى مصر ثم مع فكرة الحق فى التعبير ثم مع «جامعة العروبة» والقومية العربية. وهى كما نرى سلسلة موضوعات جديرة بالدراسة والتحليل المتعمق ولن يسعفنا المجال هنا أن نعرض بالتفصيل كل الأدلة التى يسوقها البشرى لإثبات مشروعية تواجد التيار/ المشروع الإسلامى بل ووطنيته لارتباطه بالتربة الحضارية للأمة و«الجامعية» المنشودة. لذا فسنكتفى بإشارات إلى أهم هذه الحجج والأفكار.

بالنسبة لمسألة «الحوار الإسلامى العلمانى» (وهو عنوان أحد الكتب فى السلسلة) نكتشف قصوراً فى منهج النظر أصلاً من الجانبين على حد السواء تجاه النظام الإسلامى: هناك تصور مغلوط يضع هذا النظام كما لو كان ضداً لكل النظم الغربية ولكن فى الحقيقة لا تستقيم المقارنة بين الإسلام وبين أى من الرأسمالية والإشتراكية أو الديمقراطية مثلاً حيث يمكن أن يتفرع عن الأصول العامة ومسلمات المرجعية الإسلامية أكثر من تصور لنظام سياسى أو اجتماعى واقتصادى واحد ويمكن أن يختلف بعضها عن بعض فى الفروع بتباين ظروف الزمان والمكان وأوضاع الواقع. وتكون النتيجة لتلك المقارنة المغلوطة ترسيخ فكرة عزل الإطار الإيمانى الإسلامى وتصوراته العقيدية فى صياغة مشروعات الإصلاح السياسى والاجتماعى والمؤسسى والقانونى، وانفصال علوم الدين عن علوم الدنيا والإنسانيات مثل الآداب والاقتصاد وعلوم الاجتماع....الخ، بينما المطلوب وصل «الأصول العقدية بفروع علوم الإنسان على النحو الذى نراه عند ابن خلدون.... وكتابات المؤرخين المسلمين، بمعنى أن نرى الواقع المعيشى بنظر إسلامى يربط الموقف العقدى العقلانى بمنهج رؤية الواقع واستخراج الدلالات العلمية لهذا الصنيع». وهكذا ينتقل البشرى إلى مجال النقد الذاتى حين لا يتردد فى بيان أوجه قصور الحركات الإسلامية المعاصرة فى تركيز دعوتها فى أربعة مجالات فقط: (أ) استعادة ما كان للإسلام من سيادة على الشرعية الاجتماعية والسياسية، (ب) الاستقلال الوطنى وتجييش الشباب من أجل التحرير، (حـ) صون سلوك الأفراد والجماعات والأخلاق، (د) تطبيق الشريعة الإسلامية. بينما لم نجد جهوداً كافية فى مجال(١) الديمقراطية(٢) والاقتصاد(٣) ومجال المؤسسات الاجتماعية(٤) والسياسة الدولية. ويصل من ذلك إلى خلاصة مؤداها أن قصر النظر والتحدى الإسلامى على مجال الدعوة وتطبيق الشريعة والتحقق من إسلامية سلوك الفرد فقط دون النظر العلمى فى شئون المجتمع وربط فقه الشريعة بعلومه يؤدى إلى تكريس تلك القسمة السابق ذكرها فى وعى الناس «وتعميق التناقض فى نفس الفرد بين نظام الفروض والمحرمات وأساسه الدينى، وبين الممارسة الواقعية التى تتجاذبها حركة المجتمع والتى تخضع فى توجهها للنظر العلمانى الوضعى».

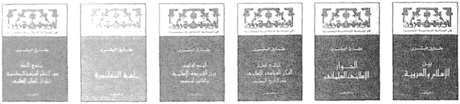
وقبل الانتهاء من هذه الجزئية يتساءل الأستاذ البشرى إذا كانت القوى الإسلامية تستطيع تجاوز الاستقطاب الفكرى الحاصل لبناء تيار سياسى حضارى غالب يمثل الأمة فى عموميتها ويستوعب القاسم المشترك الأعظم للعمل الوطنى العام؛ (فيما عدا فئتين محددتين من العلمانيين: (أ) الذين يعتنقون التفكير المادى الذى ينكر الغيب تماماً، (ب) والفئة المغربة قلباً وقالباً التى تدور فى فلك المرجعية الأوروبية الأمريكية كنموذج أوحد للتقدم والعصرية قطعاً لأى جذور حضارية أو ثقافية)، «أتصور أن الوطنية الإسلامية قادرة على جذب فئات عديدة بالمعيار السياسى للوطنية، وبالمعيار الاقتصادى للعدالة الاجتماعية والنهوض الحر المستقل، وبالمعيار الديمقراطى، فضلا عن المعيار الفكرى العقدى».

وعن علاقة الحركات الإسلامية بالقضية الطائفية، أى بالأقباط المسيحيين فى مصر مثلاً، يغيِّر البشرى من النموذج التحليلى المعتاد والنمطى فى وضع «الإسلامية» فى علاقة ضدية تجاه الأقباط ويضع الفريقين فى سلة واحدة باعتبار أنهما الفئتان اللتان تعانيان مما أسماه «فقدان الأمن الاجتماعى»، ويؤكد أن الحصار والنكران يولدان التعصب والغلو والتطرف بصفة عامة وليس الفكر فى حد ذاته. وهذه ملاحظة فى غاية الأهمية ولطالما جرى التنبيه أن الأزمة برمتها تعود إلى قضية السياق التاريخى والسياسى وما يفرضه من رد فعل أو مواجهة، وليس إلى جوهر فكر أو اعتقاد دينى، فإن أصل المطالبة بالنظام الإسلامى قام فى مواجهة حركة التغريب فى المجتمع، وليس فى مواجهة الأقباط قط، بل إن الأقباط كمواطنين مصريين وككنيسة ومذهب عانوا أيضاً من هذه الهجمة التغريبية. هذا يعنى أن إضعاف الإسلام فى مصر لن يتم لحساب الأقباط ولكن لحساب الحضارة الغربية المكتسحة، أى أنه هناك فريق ثالث من أهل التغريب والعلمانيين يثير مخاوف الأقباط من ناحية ثم يثير مخاوف الإسلاميين من ناحية أخرى، «ويحتمى بالقبط وبمبدأ المساواة فى صراعه مع التيار الإسلامى... ولا يدافع عن القبط ولكنه يدافع عن نفسه بالأقباط.... يستخدمهم سلاحاً يرمى به خصومه هو» (!) وإذا كنا نقول إن على الإسلاميين المطالبين بتطبيق الشريعة طمأنة الأقباط على أوضاعهم، فنحن سوف نعود مرة أخرى إلى البداية حين طرح ملحوظة أن الخائف على وجوده والمحاصر لا يستطيع طمأنة غيره أصلاً: «يصعب على غير الآمن أن يضمن الأمن لغيره» ولا يجب أن يتصور القبطى فى رأى البشرى أن الشيوع الإسلامى يهدد أمنه لذا يجب تقليل الإسلام، أو أن يتصور الإسلامى أن وجود القبطى هو ما يعوق تحقق دينه فى المجتمع. وهذه هى العقدة التى يكشفها البشرى ويطرح أفكاراً واجتهادات لحلها.

قضية أخرى تتقاطع مع الظاهرة الإسلامية ويدهشنا كيف أنها أيضاً وثيقة الصلة بأحداث اليوم والأمس القريب: مسألة «الحق فى التعبير» و«الثوابت الدينية». تقوم المشكلة بين مرجعيتين فكريتين: مرجعية ثوابت الدين، والمرجعية الوضعية التى تستخدم «حق التعبير» بوصفه مقدساً أوجده البشر فى مرحلة ما من التاريخ ليحل محل المرجعية الدينية ويزيح ثوابتها. ثم هناك العلاقة بين حق وحرية الفرد من ناحية وحق الجماعة من ناحية أخرى؛ يجب أولاً محاولة التوفيق بينهما ولكن إذا لم يمكن كان حق الجماعة أولى بالمراعاة، وحتى استناداً إلى الفكر الوضعى فيما أوردته الاتفاقية الدولية بشأن الحقوق المدنية والسياسية يستشهد البشرى بالفقرتين الأولى والثانية من المادة ١٨ التى تؤكد على مفاهيم «السلامة العامة أو النظام العام أو الصحة العامة أو الأخلاق» كمعايير تخضع لها فى النهاية حرية الفرد. والنقطة الأخيرة فى هذا الصدد أن النسبى من الحقوق والحريات والرخص مما هو شئون البشر يقف عند حدود المطلق من ثوابت الدين والتصورات الإيمانية: مثلاً فى الإسلام الإيمان بوجود الذات الإلهية وان الله سبحانه مطلق الوجود، مطلق القدرة، مطلق التنزيه، فضلاً عن الرسالة النبوية وأن القرآن هو كلام الله أنزله الروح الأمين على محمد (صلى الله عليه وسلم)، وبالنسبة للمسيحية ما يؤمن به المسيحيون فيما يتعلق بالوجود الإلهى وصفات السيد المسيح.

ثم نصل إلى العلاقة بين الإسلام والعروبة والسؤال المطروح هو: هل يمكن إيجاد صيغة للتقبل المتبادل بين العروبة والإسلام من حيث الجامعة السياسية، صيغة تمكن الجامعة الإسلامية من أن تحتضن الكيان العربى كواحد من مكوناتها، وتمكن العروبة من أن تستشرف آفاق الجماعة الإسلامية؟ بعد ذكر العديد من الأمثلة المحددة من تاريخ مصر والشام والهند فى القرن العشرين كدراسات حالة، ينتهى الأستاذ البشرى إلى أن كلا من الحركة العربية فى النموذج الشامى والحركة الإسلامية فى النموذج الهندى غلب عليهما «الوظيفة الانسلاخية» عن أى جامعية توفيقية بين

يغيِّر البشرى من النموذج التحليلى المعتاد والنمطى فى وضع «الإسلامية» فى علاقة ضدية تجاه الأقباط ويضع الفريقين فى سلة واحدة باعتبار أنهما الفئتان اللتان تعانيان مما أسماه «فقدان الأمن الاجتماعى»



التيارين القومى والدينى الإسلامى، بينما تميزت الحركات الإسلامية فى مصر وشمال أفريقيا بعدم المواجهة مع التوجه العروبى. المهم فى الأمر عند الحديث حول التقارب بين هذين التيارين أن نركز على «الآثار التوظيفية» الإيجابية لهما: أى «الترابط والتداخل الحادث بين العروبة والإسلام والأهداف المطروحة والغايات المرجوة». كعادته دوماً ما يعنيه الأستاذ البشرى والمعيار الذى يحتكم إليه فى التقييم والقراءة هو كيفية توظيف الشىء للصالح الوطنى العام أو كيفية توظيفه للصالح الأجنبى الطامع، وهذه الأداة التحليلية تقوده إلى إحدى الازدواجيات التى ذُكرت فى بداية المقال بين «التفتت» والشرذمة من ناحية وبين «التوحيد» والجامعية من ناحية أخرى. فعلى مستوى الخطاب والدعوة فى مجال العروبة والإسلام تقوم إثارة التناقض وإفساد عوامل التوحيد بل وضربها ببعض حتى تؤدى إلى تفتيت مضاعف: فعندما تكون الجامعة الإسلامية قائمة على أساس الدين (مثل الدولة العثمانية مثلاً وضمها للعرب والترك) يثار العنصر القومى كعنصر مفتت (مثل حركة التتريك والحركة العربية كانسلاخين قوميين)، وعندما يؤتى ثماره، يثور من جديد عنصر الدين لشرذمة الكيانات المنقسمة من قبل. وإذا توجه الإسلام ضد الاستعمار أثيرت النزعة القومية لتشتيت حركته والعكس صحيح. وهو ما يشار إليه باللفظ الرائج فى التعبيرات السياسية: «الفَتْنَمة» - أى بدلاً من أن يقاتل الأمريكيون الفيتناميين مباشرة، يثيرونهم ليقاتل بعضهم بعضاً. (ألا ينطبق ما سبق على المشهد المأساوى الآن بالعراق؟).

يجب أن نسعى إذاً إلى «العنصر الجمعى» بحيث نقيم الأوجه والعوامل إزاء بعضها فى وضع التكامل وليس التنافى، فأهم وجوه الاتفاق مثلا يظهر فى الجانب التوحيدى والتحريرى، أما وجوه الاختلاف فيتمثل فى أن الجامعة الإسلامية تشمل العرب وغيرهم والجامعة العربية تضم المسلمين وغير المسلمين، فالدائرتان لا تتطابقان ولكن تتداخلان، ويقتضى الأمر جهداً توفيقياً حول أوضاع غير المسلمين من العرب وغير العرب من المسلمين. وهكذا يمضى الأستاذ البشرى فى الكشف عن أبعاد هذه القضية بموضوعات عن الاختلاف بين النخبة والجماهير حول العلاقة بين القومية العربية والإسلامية، ثم عن الأقباط والوحدة العربية، وكذلك مناقشة لدراسة باحث عربى آخر عن «الإسلام والمسيحية العربية والقومية العربية والعلمانية».

لايفوتنا أن نذكر أن الأستاذ البشرى قد ناقش أيضاً الظاهرة الإسلامية الحديثة والمعاصرة فى علاقتها بالفكر السياسى والحركى بالتحديد: أى أنه قام بعمل قراءة تقويمية مقارنة لرواد فكر الإسلام السياسى فى القرن العشرين راسماً خريطة واضحة للخطابات المتباينة ونشأتها داخل التيار العام. سنكتفى هنا بالإشارة إلى عناصر وتفريعات هذه الخريطة حيث لا يسمح المجال بالخوض فى التفاصيل. يبدأ التاريخ المعاصر للمنطقة بحركتين للإصلاح إحداهما حركة تجديد فقهى وفكرى وهى حركة محمد بن عبد الوهاب فى نجد فى القرن الثامن عشر (١٧٠٣ - ١٧٩١) وحركات أخرى على غرارها فى بلاد عربية وإسلامية أخرى، والثانية حركة الإصلاح المؤسسى على امتداد القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بين استنبول والقاهرة على يد السلطان سليم الثالث ومحمد على. ثم تمتد مسيرة الفكر الإسلامى المعاصر وتتراكم لكن على موجتين: (أ) المد الأول يتمثل فى جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومحمد إقبال وحسن البنا. (ب) والموجة الثانية يمثلها سيد قطب وأبو الأعلى المودودى (وباختلاف فى الأسلوب: سعيد النورسى فى تركيا وجماعة التبليغ فى الهند). (أ): وضع الأفغانى اللبنات الأولى فى الفكر الإسلامى الحديث المقاوم للاستعمار ولتبعية القوى الأوروبية الكبرى الحاصلة ؛ وقدم محمد عبده فكرة التجديد فى الفقه الإسلامى والتفسير أى أنه الوجه المجدد المقاوم للجمود ؛ ثم محمد اقبال فى ربطه بين الروح والمادة، بين العبادة والعمل، بين المبادئ المثالية للدين والقوى المكانية والزمانية قدم الوجه الذى يربط العقيدة بالحياد على المستوى الفلسفى والوجدانى الروحى ؛ ثم حسن البنا الذى قدم فكرة شمول الإسلام وربط العقيدة بالحياة العملية فى صورتها التطبيقية والتنظيمية - أى شمول العقيدة من حيث هى حركة وتنظيم وسياسة. (ب): أما الموجة الثانية فهى تتميز بالحدة والعنف لأنها تعتبر «استجابات مرحلية متغيرة لحالات طارئة» وليست فى ثبات وعمق الأوجه الأربعة السابقة. توصف الدعوة الأخيرة بالغلو لما تفضى إليه من الابتعاد عن المجتمع وفكر المصادمة بالمقارنة بفكر الانتشار والذيوع الذى يمثله حسن البنا. عند تقييمه لقطب وعقد المقارنات التحليلية لا تغيب عينا الأستاذ البشرى عن السياق والظرف التاريخى الذى يظهر فيه كل مفكر ولا يجانب أسلوب الموضوعية والعلمية فى النقد واستخدام الألفاظ، إذ أن الهدف هو «الفرز» وإعادة الترتيب والتمحيص، وليس التهجم أو إهالة التراب بسبب مواقف معروفة مسبقة. لا يفوته أن يذكرنا أن الحصار والتضييق يولدان العنف وأن الغلو ليس لصيقا بالفكرة الإسلامية السياسية فهى لا تنتج عنفاً بطبيعتها، وأن «كل تيار فكرى سياسى فيه إمكانات اعتدال وإمكانات تطرف: وجدنا ذلك فى الحركة الوطنية، ووجدناه فى الحركة القومية. وفى الحركة الاشتراكية». لا يصدر الغلو عن جمود أو تحجر فكرى، ولكن بسبب رؤية الواقع - الإحساس بالحصار والاغتراب وأن إمكانات التحقق لما ينادى به مسدود. كما أن «الوعاء العام للسببية» هو هيمنة التغريب والغزو الاستعمارى لبلادنا. وباختصار شديد «سيبقى الغلو ما بقى التغريب».

بعد مناقشة القضايا والمجالات السابقة نورد هنا على سبيل الخلاصة لهذا الجزء استخلاص عناصر الظرف التاريخى الحاضر كما يراه البشرى: والتى تستوجب المواجهة العامة: الملاحظة الأولى - نحن الآن فى وضع التبعية للقوى الغربية المهيمنة، نحن بوصفنا عرباً أو مسلمين أو أفريقيين أو أسيويين. ثانياً - نحن فى وضع تجزئة وكل عنصر من عناصر وجودنا يمثل الآن فى تشرذمه عنصر إضعاف وليس عامل قوة. ثالثاً - نحن نعانى حالة صدع فى حياتنا الفكرية ورؤانا الحضارية يشطر المجتمع بل ويفصلنا كأفراد وجدانياً ويجعل الأمة أمتين.

مفهوم «العصرية»

قبل الانتقال إلى مجال استشراف المستقبل حيث يقدم الأستاذ البشرى رؤاه عن المشروع الوطنى والتجدد الحضارى وكيفية النهوض ثم عن مفهوم الوسطية الإسلامية، يجدر التوقف قليلاً عند أطروحاته حول المعاصرة ومفهوم «وحدة العصر». والأخيرة تشير إلى خلاصة منهج فى التفكير وفى التقييم الحضارى والتاريخى يبدأ باعتبار أن تاريخ الإنسانية يسير فى خط مستقيم تصاعدى يحمل معه البشرية بالضرورة إلى درجات أعلى من التقدم والرقى والتنوير، ومن مستلزمات هذا الخط التطورى القطيعة المعرفية والثقافية مع الماضى وقيمه التقليدية فهذا جزء من نظرية «التحديث والعلمنة» الغربية أو «الحداثة» والمعاصرة التى تشطر المجتمعات البشرية بناء على هذا المقياس إلى شعوب «تقليدية متخلفة» عن الركب والسباق وشعوب «عصرية أو متقدمة». (نتذكر هنا فى المقابل نظرية ابن خلدون عن «النمط الدورى» لمسيرة التاريخ وتصويره كحلقة أو جملة حلقات تمثل كل حلقة حضارة وكل حضارة لها بداية ونهاية...إلخ) . إلا أن ذلك الفهم الخطى للتاريخ وكيفية تحول مفهوم «العصر» من عنصر زمانى حيادى إلى معيار للحكم الحضارى والثقافى قد تم فرضه عالمياً وعلى شعوبنا رغم اختلاف الأنساق والسياقات والتجارب التاريخية: فكيف يتبنى أفريقيو جنوب أفريقيا معايير موحدة للتقويم التاريخى والحضارى تضمهم مع المستوطنين الأوروبيين فى

هل يمكن إيجاد صيغة تمكّن الجامعة الإسلامية من أن تحتضن الكيان العربى كواحد من مكوناتها. وتمكّن العروبة من أن تستشرف آفاق الجماعة الإسلامية؟

عصر المقاومة

بلادهم؟ وكيف يشارك مسلمو الجزائر عرباً وبربر الفرنسيين فى خريطة تاريخية واحدة، وكيف نتخذ نحن العرب معايير تقويم تضمنا مع الصهاينة؟ إن الإدراك أن العالم كله يقف على سلم صعود واحد وأن الحكم على درجة رقى مجتمعاته يتم من منظور شمولى يفرضه من قرر أنه الأعلى هو نوع من العنصرية ؛ «وحدة العصر» هذه إنما هى فى حقيقتها «المركزية الأوروبية» التى فطن إليها عدد غير قليل من الباحثين الأجانب (مثلاً بيتر جران فى كتابه المشهور) وقام بنقدها تيار «نقد الحداثة» (الذى ذكرناه من قبل) وبتمحيص مدلولاتها العنصرية. أما الطامة الكبرى بلاشك فهى استيعاب أو استبطان شعوبنا لهذا المنظور الاستعمارى العنصرى لوحدة العصر ووحدة التقدم فتصبح العقول هى المستعمَرة رغم تحرر الأرض، «وصرنا نصدق من أمر أنفسنا أننا فى بلادنا نحيا فى عصرهم».

ثم يشرح المستشار البشرى أهمية إعادة تقويم وتسمية مراحل تاريخنا وتغيير منهاج النظر، فلا نقسم تاريخنا وفقاً لأقسام التاريخ الأوربى بظن أن هذه التقسيمات هى تقسيمات لتاريخ العالم، وهذا جزء أساسى من عملية التخلص من التبعية ومن عملية التحرر الثقافى والفكرى والوجدانى الذى يستلزم وقتاً أطول من تحرير الأرض من الاستعمار، (وقد توسعت دراسات «ما بعد الكولونيالية» فى شرح هذه المراحل de-colonization وناقشت الوقوع فى فخ الوعى المستعمَر colonized mind وأن تمارس الشعوب العنصرية ضد نفسها). يجب أن نحذر من محاولات إخضاع تاريخنا الماضى لمعايير التاريخ الغربى وإعادة كتابته وفقاً لذلك التصور: «وليسِم الغرب حاضره بعصر الذرة، أو عصر الثورة الصناعية الأولى أو الثانية، أو ثورة المعلومات والاتصالات. أما نحن، فلا أظن اسماً يصدق على عصرنا منذ مائتى سنة حتى اليوم إلا اسم عصر التبعية ومقاومتها». ويضرب البشرى الأمثلة ليدلل على اختلاف المنظور التاريخى: حقبة «العصور المظلمة» الأوروبية التى لا تنطبق على تاريخ الحضارة الإسلامية، ثم المفهوم الأوروبى عن «الدين» المستقى من تجربة أوروبا المريرة مع بابوية الكنيسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى - هذا المفهوم الذى يراد له أن يكون النموذج لأى دين فى أى مكان وأى ثقافة. أما الاكتشافات الجغرافية الأوروبية لجنوب أفريقيا والطرق البحرية إلى الشرق وأعماق آسيا وأعالى نهر النيل، فقد كان البحارة العرب يجوبون تلك البحار القريبة منهم وينشئ الرحالة العرب طرق التجارة وقوافلها فى آسيا وأفريقيا، «ومن الخزى إذاً أن نعتبر أنفسنا كإفريقيين قد وجدنا يوم رآنا الرجل الأوروبى، كأننا بذلك موضوع مُدرَك ولسنا أنفساً واعية مدركة». والمفارقة العظمى أن هذه «الوحدة التاريخية» التى أجرت إلحاقنا بالتاريخ الأوروبى قد واكبها ولازمها تفتيت وتقسيم لجماعاتنا السياسية بأقطارها وجغرافيتها. فى نهاية الأمر علينا ألا ننسى أن العنصر الحاكم فى ظروفنا دائماً هو عنصر المواجهة والغزو الذى لا يظهر له وجود ولا أثر فى نشأة «الحداثة» الغربية.

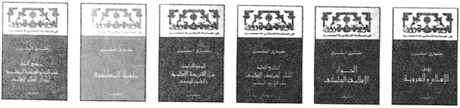
٣ - ماذا عن المستقبل؟

بعد محاولات فهم الماضى والحاضر وتمحيص التاريخ والجغرافيا، هل لنا أن نتحدث عن مشروع وطنى يضم الجماعة العامة؟ نعم. إن الجماعة الوطنية تشتمل على وحدة انتماء أصلى حاكمة لغيرها من الوحدات، فبينما نقر بوجود وحدات الانتماء الفرعية إلا أن الانتماء للوطن السياسى العام هو الانتماء الحاكم والمصلحة السياسية المشتركة هى المصلحة الحاكمة، وهذا هو أساس شمولية المشروع الوطنى الذى يضم تحت لوائه مصالح أو مواقف متعددة. ومن هنا ننتقل منطقياً إلى سؤال آخر: هل هناك سبيل إلى «التجدد الحضارى» كمشروع حضارى عربى للنهوض؟ وهنا يقدم البشرى تعريفه لمفهوم «التجدد الحضارى» بأنه يفترض أن حضارة معينة تستبدل جديداً بقديم وتستعيض بمناسب عما لم يعد مناسباً. فالأمر منسوب لحضارة معينة والتجدد لايعنى طرحها كلها وإيجاد حضارة أخرى بديلة (وهو المنظور الحداثى الذى أشرنا إليه والذى يدعم القطيعة مع كل ماهو ماضوى بدون تمحيص)، وإنما هو إدخال تعديلات فى تكويناتها الفرعية واستيعاب عدد من المستجدات الجزئية فى كيانها الكلى، حتى يتحقق الاستقلال الحضارى. ويجب فى هذه العملية التمييز بين «الثوابت والمتغيرات الحضارية». ويقدم البشرى أمثلة سريعة مثل احتياجنا إلى منتجات الغرب فى العلوم الطبيعية والتكنولوجية وإلى النماذج التنظيمية وعلوم الإدارة، إلا أنه معنىٌ فى الأساس بمشاكل الهوية والانتماء ومخاطر أنماط علاقات السيادة والتبعية وقوة الآثار السلبية للاحتكاك الحضارى - الثقافى بالغرب، ويتخوف من النمط السائد فى تطور هذه العلاقة من «الاحتكاك إلى الاقتحام حتى الاستمالة حتى الإقناع ثم أخيراً حتى التربية والتعليم ومختلف العلوم الإنسانية والاجتماعية....» يركز البشرى على تكوين ما أطلق عليه «وطن فكرى» يضمنا جميعاً بمرجعية شرعية واحدة تجمع المجتمع كله بما يفيد تماسك الجماعة مهما اختلفت وجهات نظرنا ومصالح جماعاتنا الفرعية: هذه الجماعة السياسية لابد لها من «اتصال جغرافى وامتداد تاريخى» وهوية تعتمد ليس على الأغلبية العددية ولكن على «العناصر الفعالة» بهذه الهوية. وهنا قد تبرز ملحوظة انتقادية على هذا الطرح: أن تناقضاً يظهر بين نقد البشرى لمفهوم الشمولية التاريخية (وحدة العصر) من ناحية وتشجيعه لشمولية الجماعة السياسية والمرجعية الفكرية الحضارية الواحدة من ناحية أخرى، وهو ما يؤدى إلى طمس أو التقليل من شأن مصالح وحقوق المجموعات الفرعية وإلى سحب بساط الشرعية من هذه المطالب، وإلى إسكات أصوات فردية لصالح رؤى شمولية جامعة لا تأخذ فى الاعتبار الاختلاف. كما قد يشعر القارئ بعدم التأكيد الكافى أيضاً على وجوب النهوض العلمى لبلادنا - وهو مجال يزداد فيه تقاعسنا بدرجة مخيفة ومحزنة ربما على أثر تخبط السياسات الاقتصادية والتجارية والتنظيمية - بسبب تخوف البشرى الأكبر من دمج ما أطلق عليه «النماذج التنظيمية» بالأسس أو الأطر المرجعية الثقافية والتاريخية.

وفى موضع آخر يناقش البشرى بالتفصيل أسباب التطور المعوق فى بلادنا، منها السبب الرئيسى المتعلق بعدم الاستمرار فى أى من الدروب التى سلكناها: «على مدى المائة عام الأخيرة، عشنا مرحلة الانتقال إلى التحرر، وقبل أن تتحقق (كاملاً) دخلنا فى الانتقال إلى نظم التنمية الاقتصادية والعدالة الاجتماعية، وقبل أن تتحقق دخلنا فى مرحلة الانتقال إلى التعددية». وهكذا صارت عندنا أجزاء ممزقة من أنظمة مختلفة تتعايش حيناً وتتضارب أحياناً أخرى، وصرنا نتعامل دوماً مع واقع ليس متسقاً أو منسجماً. ثم حين نشرع فى التنمية «لا نعدّل القديم ونجدده ونغيره، إنما نستبدل به غيره ونحطمه ونلغيه ونقيم بدلاً منه هيئات ليست (نابعة) منه ولا مصنوعة من مادته... فلم يجئ (التطور) بالإحياء والبعث وإعادة التوظيف، إنما جاء بالهدم والبتر والإقصاء».

وللمستشار البشرى كلام مهم حول دور الوسطية الإسلامية فى الإصلاح المنشود، وهو يعرِّف ويحلل أصولها ليس فقط كقيمة إرشادية ولكن أيضاً كظاهرة تاريخية فى تاريخ الفكر الإسلامى على مدى القرون الخمسة الأولى تثبت قدرته على استيعاب التعدد وعلى سيادة «وسطيته» على أطرافه وعلى المرونة فى استيعاب الاختلاف؛ مثلاً الاختلافات التاريخية المعروفة حول النص والرأى، الشريعة والحقيقة أى العقل والوجدان، السنة والشيعة....الخ. أما حركة الفكر الإسلامى فى النصف الثانى من القرن العشرين خاصةً فهناك جهود تحاول الوصول إلى نقطة التعادل بين المحافظة والتجديد، ومن العلامات المضيئة لهذا الجيل فضيلة الشيخ المرحوم محمد الغزالى وفضيلة الشيخ يوسف القرضاوى. ويقدم البشرى مقترحات محددة لتحقيق هذه الوسطية: (أ) أن نقيم الوسطية لا بالمصالحة الفجة أو التلفيق الفكرى ولكن بوضع القواعد والمناهج أولاً. (ب) أن ندخل المصالح فى إطار النصوص وندخل النصوص فى قلب المصالح والمقاصد، فلا يحصل تعارض وتواجه بل تداخل عن طريق وجود معان مشتركة. (جـ) أن نوجب على الجميع

الفهم الخطى للتاريخ وكيفية تحول مفهوم «العصر» من عنصر زمانى حيادى إلى معيار للحكم الحضارى والثقافى قد تم فرضه عالمياً وعلى شعوبنا رغم اختلاف الأنساق والسياقات والتجارب التاريخية



الالتزام بالمرجعية الإسلامية ثم نترك لكل التحرك بين الآراء والمذاهب والاجتهادات فى إطار ما تسعه هذه المرجعية وأوامر الدين ونواهيه. (د)تحويل الخلاف والانقسام إلى تنوع وإلى بدائل. (هـ) أن نترابط بعلاقات الحوار الهادئ البناء الذى يتغذى من الآراء المتباينة.

استكمالا لمنهج استشراف المستقبل وتشخيص الحاضر تشخيصاً دقيقاً، ينتقل البشرى إلى موضوعات أكثر تحديداً مثل العلاقة بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعى وقضية تطبيق الشريعة الإسلامية وماذا تعنى بالضبط. وهذا جزء متعمق من السلسلة معنى فى الأساس بالقانون لا يستطيع أى عرض مختصر أن يوفيه حقه أو يخوض فى تفاصيله، ويكفى التنويه هنا إلى فروقات يشرحها البشرى بين الشريعة والتشريع، بين الشريعة والفقه الإسلامى (أى عناصر الثبات والتغير)، وإلى الملامح العامة لأساليب التطوير فى التشريع الإسلامى فى القرن العشرين، مشيراً إلى القدرة الهائلة للشريعة الإسلامية على التجدد فى فروعها مع المحافظة على أصولها. كما يوضح أن المقصود من حركة العودة للشريعة الإسلامية هو العودة إلى الإطار المرجعى والمنهجى (الاجتهادى) وليس إلى أحكام تفصيلية بعينها، ويعتقد أن الخطأ فى الجدل حول هذا الموضوع هو أن نُستدرَج إلى الحديث عن الأحكام الفرعية فقط فى حين أن الهدف الأسمى هو إثبات قدرة الشريعة الإسلامية على البقاء والتجدد وتنظيم حياتنا المعاصرة ووجوه النفع الاجتماعى من تطبيقها، ولكن أدى غلو هذا المسعى إلى الغرق فى الفروع فى حد ذاتها، مع أن المطلوب هو المرجعية: «هو المورد والمشرع وعين الماء، المطلوب ليس الموزون مجرداً بل الميزان فى الأصل والأساس. ونحن نطلبها كإطار فسيح يسع العديد من الاجتهادات وتنويعات الأحكام واختلافاتها وتغيرها...».

كما ينتقل فى آخر كتاب من السلسلة (منهج النظر فى النظم السياسية المعاصرة لبلدان العالم الإسلامى) بطبعته الأولى (٢٠٠٥) من الرحلة الفكرية التاريخية والمفاهيمية (التجريدية فى بعض الأحيان) إلى واقع التطبيق السياسى والقانونى مباشرة كما نعايشه الآن. يناقش البشرى بالتفصيل مؤسسات الدولة والإدارة فى النظام الإسلامى وأدوارها الوظيفية فى مبحث خاص يمثل إجابة علمية مدعمة بتفاصيل فقهية وقانونية على السؤال الأزلى: كيف يكون الإسلام ديناً ودولة، أو ديناً ونظاماً للحياة، أو ديناً ومؤسسات تنظيمية؟ وفى مبحث آخر يتناول البشرى قضايا الديمقراطية والتعددية والمشاركة السياسية، وهى القضايا الأكثر ارتباطاً بما أصبح الجميع يتطلع إليه فى مستقبلنا القريب. ولكن مقاربة البشرى لا تتناول شرحاً للديمقراطية وضرورتها بقدر ماهى تحليل لأسس «البناء الديمقراطى وهل نمتلك هذه الأسس أم لا، كما يقدم تحليلاً ونقداً «للدولة المركزية الحديثة، ويقارن بين مسوغات ولادتها وشرعيتها وتوظيفها فى الغرب وبين ما آلت إليه نظم الدولة المركزية الحديثة عندنا: فهى وردت أولاً ليس كامتداد لأصول حضارية ولخلاصات تجارب وأفكار متبلورة عبر العقود (مثلما حدث فى الغرب)، ولكن وفدت بغرض القطيعة مع الأصول الفكرية والتراثية السائدة؛ وثانياً: نشأت هذه الدولة الحديثة على أساس «قطرى» إقليمى وتحددت بالحدود الجغرافية التى فرضتها السيطرة الأجنبية على حسب احتياجاتها، فلم تعد الدولة تعكس جامعة تستند إلى أساس انتماء معين من روابط قومية أو دينية أو عرقية...، بل صارت «الدولة» هى أساس رابطة الولاء والانتماء والدولة تحدد شعبها وليس الشعب هو الذى يحدد دولته، أى أن مؤسسات المجتمع الحديثة وعلى رأسها الدولة الحديثة تقوم بأداء وظيفى لا يسير فى طريق تكوين البنية الأساسية التحتية لتشييد الهيكل الديمقراطى.

وهنا نتذكر «فرانز فانون» (Fanon) - أحد أساطين ومنظرى دراسات مابعد الكولونيالية الأوائل (فى ستينيات القرن الماضى) - عندما نبه إلى سهولة تحول الدولة القومية بعد تحقيق استقلالها المباشر من الاستعمار إلى وجه آخر من وجوه الاستغلال والقمع وفرض هيمنتها بدلاً من المستعمر الأجنبى، وتحدث عن أن الأيديولوجية القومية (nationalism) الناتجة عن التحرر قد تسقط بسهولة فى براثن «القطرية» (regionalism) ومن ثم تتكرر الصراعات الإقليمية والانقسامات والتنافسات ورغبات فرض السيطرة التى زرعها الاستعمار فى الأساس، والحل عند «فانون» أن يتبع التحرر القومى والاستقلال تحرير الوعى السياسى والاجتماعى، وأن تنشأ تحالفات وتجمعات موسعة بين شعوب فرقها الاستعمار (مثلاً تجمعات أفريقية أو عربية أو إسلامية).. عندئذ يتحقق التحرر الكامل الذى يبدأ عند نقطة محددة عندما يقرر الشعب المستعمَر بنفسه أن على الاستعمار أن ينتهى: هى «ثورة معرفية» تنتقل بالشعوب ومفكريها إلى «المجال التنظيرى للتحرر» كما وصفها ادوارد سعيد. ومن المؤكد أن المستشار طارق البشرى يقوم بهذا الدور ويفطن إلى تلك المفارقات التاريخية عندما يذكرنا أن حركات التحرر الوطنى فى العالم العربى وان استطاعت أن تزيح الاحتلال الأجنبى عن أراضيها داخل أقطارها وتحقق قدراً من إرادتها الوطنية فى فترة مابعد الاستقلال مباشرة، إلا إنها لم تستطع أن تستجيب لموجبات توحيد الجماعات السياسية الأشمل، لأن الإرادة الذاتية لمؤسسات الاستقلال الوطنى فى ظل الدولة المركزية الحديثة صارت معوقاً للتوحيد، واستمرت فى خضوعها لموازين القوى الدولية المهيمنة عن بُعد. وهنا نصل إلى النتيجة أو الخلاصة المنطقية لكل ماسبق من تحليلات ودراسات فى هذه السلسلة فنختتم بهذه الفقرة الجامعة: «ما بقيت الدولة الحديثة - فى غالب البلاد حديثة الاستقلال - على حالها المتعارض مع.... جماعات سياسية متبلورة ومتكاملة، وما بقيت الجماعات السياسية مجزأة ومنقسمة وموزعة أشلاء، ومابقى الصدع بين أجهزة الدولة... والجماعة السياسية المحكومة بهذه الدولة،.... فلا أظن أن الدول تكون قادرة... على حفظ الأمن القومى للجماعة وحراسة قوى التماسك الداخلى لها. ولا أظنها تكون دولاً قادرة على تحقيق ما يتعين أن نصبو إليه من توحيد أو من استقلال أو من تحقيق لنظام ديمقراطى».

يركز البشرى على تكوين ما أطلق عليه «وطن فكرى» يضمنا جميعاً بمرجعية شرعية واحدة تجمع المجتمع كله بما يفيد تماسك الجماعة مهما اختلفت وجهات نظرنا ومصالح جماعاتنا الفرعية

«إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون»

هذا أساس لمشروع إسلامى معاصر ناضج يعتمد التفكير التحليلى والاجتهاد والاعتبار بدروس الزمان (كما توحى بذلك الآية الكريمة المكتوبة على الكتب الستة)، وهى قراءة تراعى أكثر ما تراعى: (أ) الصالح الوطنى، (ب) العنصر الجمعى، (حـ) النظر إلى السياق دائماً تجنباً للاجتزاء والابتسار، (د) مسألة التوظيف - توظيف الأنساق والأنماط عند انتقالها من بيئة إلى أخرى والالتفات إلى الآثار الناجمة عن تلك العملية.

قد تنقص بعض الأجزاء أمثلة حالية من الوقت الراهن ومما يجرى على الساحة لتوازن كثرة الأمثلة التاريخية من القرون السابقة على أهميتها. وقد نعتب على اللجوء فى بعض المناقشات إلى طرح موضوع المرأة وتكراره أكثر من مرة كمثال على انحدار الخطاب الوطنى إلى الانشغال بقضايا فارغة وافدة من شأنها التفريق وتشتيت الجهود. (مع الاعتراف أن ملف قضايا المرأة ملف شائك وله تاريخ طويل ومعقد يتراوح بين استغلاله والمزايدة عليه، لا نحبذ تهميشه كلية والتقليل من شأنه بل التعامل معه بنفس المنهج التحليلى الذى بُنيت عليه السلسلة). فى النهاية من الصعب بل ومن المستحيل أن يوفى أى عرض هذه الدراسات المتعمقة، ولكن نأمل أن يتبنى الباحثون المتخصصون التوسع والبناء الدراسى. البحثى على كل من هذه الكتب حتى يتم الانتقال بها من مستوى التنظير والفكر والمنهج إلى مزيد من رسم الاستراتيجيات والمقترحات التطبيقية لتعميم الفائدة أو لخلق التراكم العلمى المنشود وتأسيس تيارات ومدارس تدفع بنا إلى النهوض. ■



كما يرويه محمد الماغوط

تاريخ القمع السياسى

محيى الدين اللاذقانى

الأجيال العربية التى حلمت بالحرية لم تحصد غير تكثيف الحضور الأمنى والتطور التقنى فى الرقابة

حلمت ذات ليلة بالربيع
وعندما استيقظت
كانت الزهور تغطى وسادتى
وحلمت مرة بالبحر
وفى الصباح
كان فراشى مليئا بالأصداف وزعانف السمك
ولكن عندما حلمت بالحرية
كانت الحراب
تطوق عنقى كهالة الصباح

من السلمية خرج عاشق الحرية على قدميه حين كانت سورية تموج بالاضطرابات والانقلابات العسكرية مطلع خمسينيات القرن العشرين وإليها عاد محمولا الشهر الماضى ليترك فى فضائها وفضاء سورية علامة استفهام كبرى رهيبة عن تاريخ القمع السياسى السورى الذى شل جيلا بكامله وعطل مسيرة بلد وأمة، فالشاعر السورى محمد الماغوط لم يكن مبالغا حين قال فى آخر حديث له عن أدب السجون أن التجربة الأولى والهروب المستمر من أجهزة القمع كسر شيئا جوهريا داخله وأن كل ما كتبه من نثر وشعر ومسرحيات وروايات ومقالات لم يكن إلا محاولة لترميم ما تركه ذلك الجرح الذى زرع فى داخله خوفا دائما مفجعا ونزع من نفسه كل ذرة أمان.

قبل هذا الاعتراف النثرى بعشرات السنين سجل الماغوط سيرة القمع السياسى شعرا ولم يكن فردا ولا استثناء فى تلبس حالة الخوف من السلطة ورموزها, فالحالة التى يحكى عنها منذ قصائده المبكرة كانت شبه عامة إلى درجة عطلت معها الحراك السياسى فى مجتمع بأكمله وكيف لا تشله وتعطله ومعظم السوريين الذين عاشوا فى ظل أنظمة قمعية متتالية يعرفون جيدا ما تعنيه تلك الحالة التى يحكى عنها شاعر فرد بلسان المجموع الذى صار يدرك مع عدم دراسته للتجريد الفنى أن الشرطى ليس وجودا جسديا فى الشارع فحسب لكنه فكرة كابوسية ومع بعض المبالغات الشعرية خلية تجرى فى الشرايين:

ما إن أرى ورقة رسمية على عتبة
أو قبعة من فرجة باب
حتى تصطك عظامى ودموعى ببعضها
ويفر دمى مذعورا فى كل اتجاه
كأن مفرزة أبدية من شرطة السلالات
تطارده من شريان إلى شريان

ولأن الجراح وأحزانها لا بد أن تقترن بالسخرية المرة فى أدب الماغوط وحياته لا بد من ملاحظة أولية قبل أن ندخل فى دهاليز القمع السياسى السورى الذى أنتج ظاهرة الماغوط فقد ساعدت الأقدار على إكمال سيرة المقموع (المضحك المبكى) بخلق صدفة واقعية لا يمكن أن تحصل إلا فى مسرح الماغوط العبثى ففى اليوم المقرر لإعادة بث آخر حديث مع الماغوط على قناة الجزيرة على الساعة الخامسة وخمس دقائق بتوقيت جرينتش مساء الثلاثاء الواقع فى الحادى عشر من أبريل. نيسان الماضى حصلت الصدفة الماغوطية - العبثية، ففى ذاك التوقيت الدقيق بالضبط كانت جميع الكاميرات فى مختلف أنحاء العالم ومنها كاميرات القناة التى ستعيد بث اعترافاته تنتقل بقدرة قادر إلى ضريح الإمام الرضا فى مشهد بإيران لتنقل على الهواء مباشرة كلمة الرئيس الإيرانى أحمدى نجاد التى يزف فيها البشرى للشعب الإيرانى بنجاح تخصيب اليورانيوم.

وهكذا ألغيت إعادة حلقة اعترافات الماغوط وضاع صداها لينشغل الناس أثناء توقيتها بتصريحات البرادعى ولافروف ولاريجانى ورايس وكأن الواقع العبثى يقول للشاعر ما سبق ان قاله الماغوط فى قصيدة للسياب يحذره فيها من العودة للحياة فما من شيء يتغير فى بلاد ضائعة الملامح بين سوط المستبد المحلى ومهماز العدو الخارجى، وقد كانت خلاصة نصيحة الماغوط لزميل سنوات التسكع والحرمان فى بيروت قصيرة ومكثفة ملخصها:

تشبث بموتك أيها الشاعر

لقد كان الماغوط كاتبا مشاغبا فى فترة سياسية قلقة وكان التاريخ السياسى السورى قلقا على الدوام منذ خمسينيات القرن العشرين حين لمع الماغوط وإلى يوم رحيله ولمن لا يعرف التاريخ السياسى السورى جيدا يكفى أن نذكر أنه كان فى سورية عدة سجناء سياسيين عاشوا داخل الزنازين اكثر مما عاش نيلسون منديلا وهم كثر، منهم على سبيل المثال عماد شيحا (٢٩ سنة سجنًا) وفارس مراد (٢٨ سنة) وهيثم نعال(٢٧ سنة) وعادل نعيسة وكامل حسين (ربع قرن لكل منهما) ناهيك عن رياض الترك والعشرات من مجايلى الماغوط فى تلك الحقب القاسية التى شهدت عشرات الانقلابات العسكرية التى كانت تعد جميعها بالديمقراطية والعودة إلى الشعب لكن شيئا من تلك الوعود لم يتحقق منذ طفولة الشاعر إلى شيخوخته.

إن تلك الملابسات مجتمعة تجعل من الماغوط نموذجا ممتازا لدراسة تجليات ذلك القمع السياسى وآثاره على أجيال كاملة حلمت بالحرية وناضلت من أجلها فلم تحصد غير التطور التقنى فى أجهزة الأمن والرقابة والزيادة المطردة فى عدد المعتقلات والسجون.

إن أكثر التجارب تأثيرا فى الماغوط كما فهمنا من حديثه من فراش الموت هى تجربة الهروب المستمر من الشرطة والاختباء فى الجحور والأقبية ثم الهرب من سورية بكل من فيها وما فيها خوفا من الاعتقال وكل جريمته انه انتمى دون تدقيق إلى الحزب القومى السورى الاجتماعى فى المرحلة التى غضبت فيها الدولة السورية على ذلك الحزب وحملته مسئولية اغتيال الضابط عدنان المالكى، وهى مرحلة مفصلية فى التاريخ السورى الحديث لأن اغتيال المالكى أوائل الخمسينيات وما أعقبه من تطورات دموية وانقلابات هو الذى مهد بعد سنوات قليلة من ذلك الاغتيال إلى استفراد البعث بالسلطة وفرض قوانين الطوارئ التى ما تزال مستمرة إلى اليوم.

عن ذلك الانتساب الذى جر عليه الويلات يقول الشاعر ساخرا انه كان شابا مقرورا وجائعا هرب من الريف إلى المدينة مفلسا، وقد انتسب إلى القوميين السوريين لان مكتبهم القريب من بيته كانت فيه مدفأة يستطيع اللجوء إليها فى أيام البرد وكانوا يقدمون الطعام مجانا لأعضائهم فى بعض الأمسيات.

لقد وصل الماغوط إلى دمشق فى عز احتدام الصراع بين القوميين السوريين الاجتماعيين والبعثيين وبقية القوى القومية وقد



فى مجتمعات تفتقر إلى التسامح عموما والتسامح السياسى على وجه الخصوص يدفع المهزومون ثمنا باهظا يتجلى فى السجن والتعذيب والفصل من الوظيفة والمطاردة الدائمة. وقد شاء حظ الفتى الريفى أن تكون تجربة الهروب من وجه أجهزة الأمن هى التجربة السياسية الأولى

انتمى دون تدقيق ودون قناعة ربما إلى الجانب المرشح للهزيمة وفى مجتمعات تفتقر إلى التسامح عموما والتسامح السياسى على وجه الخصوص يدفع المهزومون ثمنا باهظا يتجلى فى السجن والتعذيب والفصل من الوظيفة والمطاردة الدائمة. وقد شاء حظ الفتى الريفى أن تكون تجربة الهروب من وجه أجهزة الأمن هى التجربة السياسية الأولى فقبل أن يتمرس فى العمل السياسى صدرت الأوامر باعتقال القوميين السوريين واختفى الماغوط قبل أن يهرب إلى بيروت التى صنعت مجده الأدبى فى غرفة حقيرة سيئة الإضاءة والتهوية عدة أشهر، فكانت تلك الغرفة زنزانته الاختيارية التى ولدت فيها معظم قصائده المبكرة التى تحكى عن جوع مزمن إلى الحرية وهى القصائد التى قربته من قلوب ملايين العرب الذين كانوا يعيشون قمعا سياسيا مماثلا ويجدون فى الماغوط الصوت المعبر عن أحاسيس المقهورين والمقموعين سياسيا واجتماعيا لا فى سورية وحدها بل فى مختلف أنحاء العالم العربى فالقمع السياسى السورى لا يختلف عن القمع العربى العام إلا فى الدرجة والتفاصيل وأسماء المساجين والسجون وهذا ما يعطى للحلم بالحريات وهجه الدائم ويجعل منه إدمانا فنيا محببا:

آه يا أمى
لو كانت الحرية ثلجا
لنمت طوال حياتى بلا مأوى

إن الطريق إلى الحرية ودفع الثمن الصعب لها يجبر حتى الأعداء على احترام المطالبين بها. فمن خلال مقطوعة قصيرة كتبها الشاعر لبلدته سلمية التى دفن فيها، نحس بكثافة ذلك الإحساس المركزى فى تجربة الماغوط الفنية والحياتية:

سلمية الدمعة التى ذرفها الرومان
على أول أسير فك قيوده بأسنانه
ومات حنينا إليها

وكما يليق بحفيد مخلص لسبارتاكوس سار الماغوط طويلا على دروب المطالبة بالحريات لنفسه وشعبه فأصبح فى بداياته وقبل أن يشتهر كشاعر وكاتب ساخر مطاردا وقد كان الهروب من وجه السلطة الرسمية وممثلى النظام يمتد عنده عدة اشهر وعند غيره سنوات. وفى واحدة من تلك المرات الكثيرة التى لم يحصها الشاعر اضطر للعيش كالحشرة فى غرفة عجيبة نجد من حسن حظ تاريخ الأدب وصفا دقيقا لها عند زوجته الشاعرة سنية صالح الوحيدة التى كانت تزوره فى غرفة بملايين الجدران وملايين الأحاسيس المروعة والأحلام المحبطة.

عن تلك الغرفة تقول المرأة التى كانت تعيش حينها قصة حب مع شاعرها:

(غرفة صغيرة ذات سقف واطئ حشرت حشرا فى خاصرة إحدى المبانى بحيث كان على من يعبر عتبته أن ينحنى وكأنه يعبر بوابة الزمن، سرير قديم، ملاءات صفراء، كنبة زرقاء طويلة سرعان ما هبط مقعدها، ستارة حمراء من مخلفات مسرح قديم فى هذا المناخ عاش الماغوط أشهرا عديدة...)

ذلك الوصف النثرى نجد صداه فى نص مبكر للماغوط يعكس ألم إنسان أسير ومحاصر حاله حال ملايين حرمتها حقب القمع السياسى من مجرد الحلم بغد أفضل:

بلا أمل
وبقلبى الذى يخفق كوردة حمراء
سأودع أشيائى الحزينة فى ليلة ما
بقع الحبر
وآثار الخمرة الباردة على المشمع اللزج
وصمت الشهور الطويلة
والناموس الذى يمص دمى

فى تلك الغرفة وفى مثل ذلك الجو الكئيب لا يستطيع الشاعر كائنا من كان أن يتحاشى المحنة الشخصية لذا تصبح معظم صور شعره ونثره مشتقة من الحرية والعبودية وحتى الحب نفسه يصبح له نكهة تلك التجربة. ففى نص معتق الرومانسية لا يجد الشاعر ما يشبه به أهداب حبيبته إلا صورة عبيد يجدفون بتناسق فى مراكب عبوديتهم:

هكذا أودك يا حبيبتى
زهرة برية أو يمامة فى عنق الريح
ولكننى يائس حتى الموت
اتقهقر بلا روية على تلال الحبر
وأهدابك الجميلة
تنحنى على صفحاتى كعبيد فى المراكب

ذلك الحزن المخلوط بذعر جلى والذى يطالعنا بغزارة فى النصوص الماغوطية لم ينشأ من فراغ ولا بين عشية وضحاها, بل تراكم خلال سنوات طويلة من المواجهة مع سلطات قمعية بوليسية تحاول أن تمنع حتى الأشجار من التنفس. وتحت ظل هكذا ظروف لا يحس المقموع بحصار الجسد وحده, فالروح محاصرة والشعر محاصر والكلمات لها جلادها الخاص ومع طول التدقيق فى ذلك الوضع المخزى يبدأ الشاعر بالبحث عن جذور خوفه ويأسه ويهجر دور البطولة الفردية الذى يمنح تلقائيا فى التراث العربى للشاعر الفرد المقاوم وهو دور تخلى عنه الماغوط شعريا بطيبة خاطر لإدراكه أنه أمام ماكينة قمعية جبارة لا ينفع معها تمثيل ادوار الصمود والشجاعة.

ولأن القمع العربى له فعلا جذوره الممتدة عميقا فى تراب المجتمعات البطريركية ـ الأبوية كان الاعتراف الماغوطى بالجذر التاريخى للقمع العربى مفهوما بمجرد التلميح إليه بصورة موحية:

آه يا حبيبتى
عبثا استرد شجاعتى وبأسى
المأساة ليست هنا
فى السوط أو المكتب أو صفارات الإنذار
إنها هناك
فى المهد....فى الرحم
فأنا قطعا
ما كنت مربوطا إلى رحمى بحبل سرة
بل بحبل مشنقة

ولنستمع إلى سنية صالح مرة أخرى وهى تصف تجربة الاختفاء فى تلك الغرفة وسوف نرى كيف تحولت لعبة البطولة الفردية إلى كابوس،لان الإنسان ومهما كان صلبا له احتياجاته الخاصة ولا بد له من هواء وشمس وبشر يحتك بهم فى الشارع حتى لا يضمر ويتحول الى ورقة خريفية تستفرد بها الريح وتسقطها بعد شحوب واصفرار.

تقول سنية صالح فى مقدمة مجموعة (حزن فى ضوء القمر):

(بدت الأيام الأولى كاللعبة البطولية لنا نحن الاثنين ولكن لما شحب لونه ومال إلى الاصفرار المرضى وبدأ مزاجه يحتد, بدت لى خطورة اللعبة، كان همى الكبير أن يتلاشى الإعصار دون أن يخنق غباره النسر).

ولم يتلاش الإعصار فقد كانت كل حكومة مستبدة تخسر السلطة لأخرى اكثر استبدادا منها وحين لمع نجم الماغوط فى بيروت وصار شاعرا مشهورا فى أجواء حلقة مجلة شعر, لم يعد هدفا سهلا وجرت بعد سنوات عدة محاولات لاسترضائه بلغت قمة العبثية حين أسندت إليه وظيفة رئيس تحرير مجلة الشرطة التى تصدرها وزارة الداخلية السورية. وهى مهمة لم يمارسها إلا على الورق فالذين عينوه فيها كانوا يدركون استحالة لجم الشاعر الذى لم تمنعه القيود الخارجية المفروضة على الحريات من ممارسة حرية داخلية شاسعة ساعدته على مواصلة الإبداع فالحرية الداخلية وكما نفهم من هيجل القائل: (إن النفس المحرومة من الحرية الداخلية لا تعرف الإفصاح عن ذاتها) هى من الشروط الأساسية للإبداع فالشعراء المطاردون يستعيضون عادة عن ظروف القمع الخارجى بحريتهم الداخلية التى لا يمكن أن تطالها أجهزة القمع مهما بلغت تقنياتها, لذا عوض الماغوط كما اعتقد عن الحرمان من الحريات الخارجية بحرية داخلية بالغة البذخ مكنته من تحويل تجاربه المريرة إلى نصوص كتبها فرد واحد لكنها حملت

معاناة المجموع فالحرية التى هى مطلب الجميع فى سورية والشاعر أولهم تتحول من جراء القمع المباشر والمستتر إلى نقيضها:

ما دامت كلمة الحرية فى لغتى
على هيئة كرسى صغير للإعدام

تحت ظل الأحكام العرفية والمحاكم الاستثنائية وقوانين الطوارئ التى تحولت إلى قوانين (دوائم) عاش الماغوط هاجسه الكبير وحلم بوطن حر يعيش فيه السوريون موفورو الكرامة والكبرياء لكنه وبعد كدر طويل لم يفز بكبرياء الحر ولا بطمأنينة العبد الموهومة فضاق ذرعا بتلك الحالة من الحرية الشكلية وتمنى على سبيل المجاز أن يكون عبدا حقيقيا ليعرف نفسه وشكل طمأنينته فى ذلك المجتمع الذى ضاعت تحت سلطة قمعه الهويات جميعها:

آه كم أود أن أكون عبدا حقيقيا
بلا حب ولا وطن
لى ضفيرة فى مؤخرة الرأس
وأقراط لامعة فى أذنى
أعد وراء القوافل
وأسرج الجياد فى الليالى المطرة

وهنا أتمنى ألا يلجأ المتحذلقون إلى التفسير الرمزى فى تحليل هذه الأمنية الخارجة عن نطاق عشاق الحريات بكليشيهاتهم المعروفة فالقمع المتواصل برعبه المزمن هو الذى قاد الشاعر والناثر إلى ذلك الإحساس العميق بلا جدوى ومن جراء تلك التجربة الوجودية المتشابكة صارت نصوصه حقول حزن مقطر فتحت كل آهة فيها نهر من الدموع وتحت كل حرف ألف سوط ومهماز يذكر أن القارئ بما ذهب إليه الشاعر الفرنسى فرلين حين قال:(عندما أبكى أعلم حق العلم أن ذلك ليس رمزا).

لقد عاش الشاعر التجربة الجماعية بكل زخمها وكانت مرارته جزءا أصيلا من مرارة المجموع ومن الإحباط العام، فهل هى صدفة أن يكون الحراك السياسى فى سورية التى اشتهرت تاريخيا بنضالاتها هو اليوم الأضعف والابطأ فى العالم الثالث..؟

ذاك الواقع المر الذى عاشه الماغوط وأحس به مبكرا هو الذى دفعه إلى التأكيد على استحالة قيام أوطان قوية بلا حريات حقيقية وهو الذى جعل من حزنه علامة فارقة حتى لا أقول يائسة:

حزنى لا حسب له ولا نسب
كالأرصفة
كجنين ولد فى مبغى

تلك الحالة المصفاة من الحزن لازمت الشاعر دهرا فقد حملها معه فى الوطن وفى الهجرات القصيرة القليلة التى قام بها إلى لبنان والإمارات وحين عاد ليعيش كهولته المبكرة على ناصية مقهى دمشقى وجدها تلاحقه كلعنة كافافيس عن المدينة الأولى التى تضيع فيه عمرك الأول. فتلاحقك نكباتها أنى ذهبت وهكذا وجد الشاعر أن الزمن يمر والدنيا لا تتغير فالقمع السياسى الذى عاشه شابا، لاحقه كهلا وشيخا يتحرك بصعوبة على كرسى بعجلات لم يفته ان يسخر منه ومن نفسه حين قال إن الذين يتحركون على كراس بعجلات لهم ميزة هامة عن غيرهم فهم لا يضطرون للوقوف أثناء عزف النشيد الوطنى.

صحيح أنه قد أصبح لاحقا بعد الشهرة والعمر صاحب حصانة معنوية لكن هذا لم يمنعه من ملاحظة أن لا حصانة لأحد فى ظل الديكتاتوريات ومن جراء هذا الإدراك ربما يمكن فهم حزنه المترسخ فى الروح:

فليذهب القادة إلى الحروب
والعشاق إلى الغابات
والعلماء إلى المختبرات
أما أنا
فسأبحث عن مسبحة وكرسى عتيق
لأعود كما كنت
حاجبا قديما على باب الحزن
ما دامت كل الكتب والدساتير والاديان
تؤكد اننى لن أموت
إلا جائعا أو سجينا

فى مجتمعات القمع السياسى المكثف ليس مسموحا للفرد بأى حق بما فى ذلك حقه فى أن يمارس حزنه النبيل بكبرياء يليق بروحه الحرة ولعل تجربة الماغوط وهى وجودية وسياسية معا تعكس حجم المحنة السورية سياسيا وابداعيا فحين يعيش شاعر الى ان يتجاوز السبعين ويجد امامه احلامه واحلام جيله لم يتحقق منها شىء من يستطيع ان يلومه على ذلك الكم من السوداوية..؟

لقد كان الماغوط عند العرب كتشيخوف عند الروس لا يبيع وصفات الأمل فى صيدليات متنقلة لكنه يشير بمهارة الجراح الى موضع الألم والفساد والورم فى الجسد العربى ثم يمضى وهو على ثقة بأن الناس يوما ما سيقومون بما يجب فعله لدحر أنظمة الاستبداد والقمع والتأسيس لأوطان حرة مستقلة تلجم توحش أجهزتها وتحفظ لمواطنيها حقهم فى الاحساس بالكبرياء والكرامة. ■

كتاب الزاوية

مجلة الأستاذ

يا بنى الإنسان أدركوا إخوانكم

تنفطر الأكباد وتنقبض النفوس عندما تسمع خبر القحط الواقع فى بلاد الجزائر فقد تناقلت الجرائد والرواة خبر هذا الخطب المحزن ووقوع إخواننا فى شرك الفاقة ووهدة الاحتياج لما تحفظ به الحياة بعد أن كانوا فى أعلى ذروة الرفاهة وسعة العيش وليس لما قضاه الله تعالى مرد.

وقد تحركت همم ذوى المكارم والغيرة الإنسانية شرقًا وغربًا فافتتحوا قوائم الاكتتاب فى المجامع والمحافل تداركًا لبلاد عربية وقبائل إنسانية فاستحقوا الثناء على هذه النجدة والإغاثة خصوصًا ما كان من المحافل المصرية التى عقدت الاجتماعات المتتالية وفتحت أبواب الاكتتاب ووزعت جوابات الطلب والحث على الإعانة والإغاثة وعينت وجوها من ذوى الفضل لجمع تلك الإعانات حتى إذا توفر لديها من النقود ما يقوم بالمساعدة مع المساعدات الشرقية والغربية قدمت ذلك لجهة الحاجة.

ولقد أثرت حالة هذه المجاعة فى جميع النفوس فتسابق النساء مع الرجال وبرزت الستات فى ميدان المساعدة والدعاء إليها.

فعلى رجال الهمم أن لا يتأخروا حتى يسبقهن ربات الحجال فى مضمار هم أحق بالركض فيه.

قبلة الحياة

قراءة في رواية

حلمي محمد القاعود



■ يمثل «فؤاد قنديل» نمطًا خاصًا من الكتاب القصصيين في فترتنا الراهنة، فهو ينطلق من رؤية مستقلة بعيدة عن الرؤى الحزبية والأيديولوجية، وهو خارج «التصنيفات» السائدة في المجتمع الأدبي التي ينشغل أصحابها بالدفاع عن قبائلهم إن حقًا وإن باطلاً، هو منشغل بالدفاع عن أفكاره وآرائه وتصوراته التي تتعلق بالوطن البائس التعيس، وقد يدفعه هذا الانشغال إلى نوع من الإهمال من جانب السادة المعنيين بالتقويم الفني والإعلام الأدبي، لتغريده خارج سربهم وغنائه بعيدًا عن قوالبهم وأنماطهم. لقد كان أحد موظفي المؤسسة الثقافية، ولكنه بدا متمردًا عليها في أكثر من مناسبة، مما تسبب في إهماله نوعًا ما، بيد أنه في كل الأحوال سجل لنفسه موقفًا، وأحرز هدفًا في مرمى السلطة.

كتبت عن روايتيه القصيرتين «السقف» و«الناب الأزرق» مقالة مختصرة، فرأيت انشغاله بالهم العام من خلال المزج بين الرمز والواقع، وتابعت بعض رواياته وقصصه الأخرى؛ فوجدت الانشغال ذاته مستمرًا ومتوهجًا.

وها أنا ذا أقرأ روايته «قبلة الحياة»، أحدث ما أخرجه من إبداع، فأجده يواصل حمل الوطن على رأسه بهمومه وأشجانه ومتاعبه، ويحاول مخلصًا أن يبشر بالأمل القادم، الذي تحقق بعضه على أرض الواقع، من خلال النبوءة التي لا تخيب.. لقد تنبأ بالحراك السياسي في الجسد المصري المجهد والمكدود و«الدائخ».. في وقت كان فيه اليأس من إعادة الحياة إلى هذا الجسد هو القاعدة، أو الحقيقة التي لا يختلف عليها اثنان، ولكن «فؤاد قنديل» تنبأ بدبيب الروح في الهيكل الجامد عام ٢٠٠٤م، وهو العام الذي كتب فيه الرواية، كما تنبأ بإجهاض هذا الأمل ومحاولة الالتفاف عليه وخداع الناس، وهو ما تحقق بالفعل في عام ٢٠٠٥م، وإن كانت «قبلة الحياة» لما تزل تشير إلى إمكانية مواجهة الإجهاض والالتفاف والخداع جميعًا، فحين تتحرك عقارب الساعة إلى الأمام، فمن الصعب تحويل مسارها إلى الخلف مرة أخرى، ما لم يكن هذا الوطن بلا تاريخ ولا حضارة ولا عبقرية.

«قبلة الحياة» عنوان هذه الرواية الجديدة يشي بالأمل، مع كل المعوقات والصعوبات، وتركيبة العنوان من لفظة «قبلة» ودلالتها الناطقة بالرغبة والعذوبة والإحساس، ولفظة «الحياة» بما فيها من حركة موارة معادية للصمت والسكون والجمود والبرودة، هذه التركيبة تعطي مدلولاً يشير إلى مغزى الرواية وغايتها، وهو ما تعززه عبارة المقدمة المكونة من فقرة قصيرة تقول:

«مهما كان الماضي عريقًا وسماؤه عالية وتأثيره بالغًا ورجاله أفذاذًا، فأنا أردت أم لم أرد لابد أن أنظر أمامي، وأغذ السير صوب المستقبل المجهول».

ويكاد يكون هذا التقديم مطابقًا لعنوان الرواية في تشكيله لمغزاها وغايتها، بالاتجاه نحو المستقبل، الذي يعني استمرار الحياة وتوهجها، مهما كانت الظروف غير مواتية أو غير فعالة.

إن العلاقة بين الماضي والحاضر، تبدو في هذه الفترة علاقة ملتبسة، ولكن الكاتب يفصح عن رؤيته من خلال حديثه عن السير صوب المستقبل (المجهول)، وهو يجعله مستقبلاً مجهولاً، لأنه لا يعرف ماذا ينتظره هناك بالضبط، ولكنه يعرف أن الحركة هي المطلوبة، أن الحياة هي القضية التي يجب أن يحتشد لها، لأنها المستقبل، ولأن الماضي مهما كان عريقًا، فلن يغني عن غد السير إلى الأمام.. بالطبع لم يذكر كلمة تشير إلى الحاضر أو الواقع، ولعله اعتمد على ما يسطره في روايته، فهو يرصد فيها الواقع بكل أبعاده وعلاماته ومعطياته، وهي أمور أو أسباب تقدم حيثيات النظر إلى الأمام وضرورة الاتجاه نحو المستقبل.

ولعل الكاتب من هذا المنطلق آثر أن تكون روايته «تسجيلية»، تسجل الواقع وترصده بدقة، وعين ناقدة. إن التسجيل هنا يأخذ صورة مزدوجة، فهو يسجل الواقع الحي المباشر الذي نراه كل يوم في كل مكان، لدى عامة الناس الذي يمثلون الطبقة الدنيا، وخاصة الذين يمثلون الطبقة العليا (تم القضاء على الطبقة المتوسطة في خلال نصف القرن الماضي)، ويتوازى مع تسجيل الواقع الحي المباشر، تسجيل التاريخ الحي المباشر أيضًا.. وتسجيل الواقع مع تسجيل التاريخ، يقدمان نمطًا جديدًا من الرواية التسجيلية، التي تتجاوز الكتابة الباردة الجافة، إلى ما يمكن تسميته بالتسجيلية الفنية التي يصنعها عنصر التشويق والبناء المحكم، فهو في تسجيله للواقع لا يقف عند نقل الحوادث كما وردت في الصحف أو عناوينها، أو ينقل قصاصات صحفية يضعها متجاورة غير مترابطة، ولكنه يصوغ الحوادث صياغة فنية بأسماء رمزية من خلال بناء روائي يجعلها في سياقها الطبيعي، فلا تبدو غريبة أو مفتعلة.. وإن لم يمنعه ذلك من ذكر أسماء حقيقية لشخصيات حقيقية تعيش على مسرح الواقع، ومنهم على سبيل المثال شخصيات معروفة مثل رئيس مجلس الشعب ووزيره ورئيس مجلس الشورى الحالي وغيرهم، وهناك شخصيات أخرى معروفة في الواقع الثقافي والاجتماعي يقدمها بملامحها الكاملة ويأتي باسمها الأول مع الاسم الأول من شخصية أخرى معروفة، أو يغير قليلاً في الاسم، والقارئ لا تخفى عليه الأسماء الحقيقية في كل الأحوال..

«وهذه ميزة» التسجيلية الفنية. إن صح التعبير. حيث تعطي انطباعًا بالتلقائية والعفوية، على العكس من التسجيلية «الباردة» التي تكتفي بالتجميع الصحفي «إن جاز التعبير»؛ الذي لا ينهض بالتعبير الروائي في صورته الفنية القائمة على الإقناع والتشويق.

ولأن التسجيلية الفنية في «قبلة الحياة» تقوم على منطق الفن، فقد جاءت في فصول مرقمة تبلغ ثلاثة وثلاثين فصلاً، كل منها يعالج جانبًا من جوانب الحركة أو الشخصية أو الحدث.

يقوم القص في «قبلة الحياة» على التناظر، فالأبطال الأساسيون، وخاصة الشخصية الرجالية الأولى «رءوف» والشخصية النسائية الأولى «ندى»، يروون الأحداث من وجهات نظرهم، وهي عمومًا ليست وجهات متعارضة، ولكنها متكاملة، تضيء الأحداث وتكمل الوقائع وتكشف جوانب أخرى لم تكن معلومة من قبل القارئ في حياة الشخصية الراوية، أو الشخصيات الأخرى.

ويحكي بطل الرواية قصة حياته أو واقعه بمعنى أدق، فهو من شباب الفترة الراهنة يعد لدرجة الماجستير في التاريخ، ويلتقي بـ «ندى» تلك الفتاة الحزينة التي لا تبوح بأسرارها أو أسرار أسرتها، وتتوازى مشكلات «رءوف» مع مشكلات «ندى»، فهما من الطبقة المتوسطة التي تحطمت، وكلاهما يعاني مع أسرته من شظف العيش، وأخلاق الزحام، ومتاعب الإخوة والأخوات.

وتعرض الرواية من خلال الأسرتين واقع البطالة الذي يعيشه الشباب بما فيه من فراغ وغيبوبة وسكر وسرقة وفساد وبحث عن المال والرغبة في السفر إلى الخارج التي تكلف أصحابها أحيانًا الموت غرقًا أو قتلاً في مياه المتوسط، كما تعرض للفجوة التي يعيشها هؤلاء الشباب بين أفكارهم وأفكار آبائهم، وتقدم نماذج للصوص المال العام والسماسرة والقوادين والنهابين الذين يعملون في مناصب مرموقة، ولا تنسى عرض نماذج من مثقفي السلطة المنافقين والصحفيين المرتزقة، وهؤلاء وأولئك يغيرون آراءهم بزاوية قدرها ١٨٠ ويعادون الجهاد الفلسطيني واستقلال الوطن.

وفي الرواية صورة مأساوية للموظف المصري الذي يدفعه الفقر والحاجة للبحث في القمامة عما يأكله هو وأولاده، في مقابل فجور الطبقة الجديدة الحاكمة وهيمنتها على كل شيء بدءًا من الشرطة حتى الصحافة لدرجة أن الشباب الذين يحاولون مقاومة فسادها، لا يستطيعون نشر شيء عنه في الصحف الكبرى، لأن هذه الطبقة تتمتع بأموال الدولة وسطوة السلطة، وتستبيح كل شيء، ولا يتوقف فسادها عند حد.

ومن خلال عرض الواقع، تعرض الرواية للتاريخ بطريقة موازية، ومن خلال منطق روائي مقنع، تستحضر التاريخ الذي يشير إلى بؤس الشعب على مدى التاريخ، خاصة تحت حكم المماليك

قبلة الحياة (رواية)
فؤاد قنديل
القاهرة: القاصد للطباعة والنشر، ٢٠٠٤

والعثمانيين والغزاة الفرنسيين والإنجليز، فعلى سبيل المثال، نجد «رءوف» يستعرض الإنترنت ومحتوياته من فضائح وغصب ودعارة، بمناسبة بحثه عن كلمة «فلاح» أساس رسالته للماجستير، فينقلنا إلى ما جرى في حفر قناة السويس، وموت ١٢٠ ألف مصري في «السخرة» وهم يعملون لشقها، كما نرى إسهابًا في وصف اضطهاد الفلاح المصري تحت الحكم التركي على مدى القرون من السادس عشر إلى العشرين، الميلادية، بالإضافة إلى تقديم مآسي الظلم التي عاشها أيضًا تحت حكم الفراعنة والولاة المماليك ومحمد علي، والفرنسيين والإنجليز؛ وهؤلاء كانوا يتصارعون على قطف ثمار مصر وخيراتها.

يكاد المكان الذي اختاره الكاتب مسرحًا لروايته يشمل مصر كلها. قديمًا وحديثًا. فعبر استدعاء التاريخ المصري القديم والوسيط نرى مصر حاضرة بملامحها وآثارها، وأهلها يعملون في السخرة أو يعذبون أو يعانون من الحكام الظالمين، مصر كلها موجودة في الرواية منذ عهد مينا موحد القطرين، مرورًا بحكم المماليك والعثمانيين، حتى المستعمرين الغزاة القادمين من فرنسا وإنجلترا، وقناة السويس التي هلك فيها الألوف من الفلاحين البسطاء وهم يحفرونها لتصل ما بين البحرين حاضرة، وقائمة أمام عين القارئ الذي يطالع أحداث بلاده القديمة والجديدة.

وفي رصد الرواية لأحداث الواقع الراهن، فإنها تنطلق من الإسكندرية لتقف في القاهرة، وتقدم ألوانًا من الأماكن الخاصة التي يعيش فيها الأبطال، ويتحركون من خلالها، فنرى المدينة من قاعها إلى قمتها، والإلحاح بالطبع على الأماكن الفقيرة والمتواضعة التي تحيا فيها جموع الشعب البائس المسكين.

القاهرة بصفة عامة مدينة الضجيج والضوضاء لا تساعد على الهدوء والسكينة.. مدينة مزدحمة بكل شيء.

والإسكندرية في الرواية تبدو فندقًا ومطعمًا وشاطئًا وبحرًا ونورسًا ومقهى.. وحسب، ولا نراها في أعماقها وعشوائياتها ومعالمها الأخرى، وذلك لأن البطل والبطلة، يمران بها لبعض الوقت، أو هما عابرا سبيل يقضيان ليلة أو ليلتين، مع أن فيها بعض الأصدقاء أو الأقارب لكل منهما.. ومع أنها تبدو خارج سياق المحنة العامة التي يعيشها المجتمع، إلا أنها تبدو مثل ورق التصوير الحساس الذي يسجل أو يتفاعل مع ما يجري في أرجاء الوطن بالتعليق أو الرأي أو النكتة، وتأمل مثلاً هذه النكتة التي ترويها صاحبة المقهى:

«رئيس الحكومة جعل الدورة



في الرواية صورة مأساوية للموظف المصري الذي يدفعه الفقر والحاجة للبحث في القمامة عما يأكله هو وأولاده، في مقابل فجور الطبقة الجديدة الحاكمة وهيمنتها على كل شيء بدءًا من الشرطة حتى الصحافة

الشهرية للنساء مرتين في الشهر.. لأن ابنه سيفتح مصنعًا لحفاضات النساء» (ص٩).

وهي نكتة دالة على تطويع الواقع والقانون لرغبة المسئولين الذين يريدون جمع الثروات بكل السبل الممكنة، ولو جاء ذلك على حساب تغيير الطبيعة البشرية للناس.

الإسكندرية على كل حال، رمز للنقاء والصفاء بصورة ما، والصباح فيها له بهاء ونسيمه البارد المنعش يصنع حالة من الفرح والابتهاج، حتى لو كانت صحف الصباح تحمل تناقضًا يفسد هذه الحالة مثل العنوان الذي يقول: «رئيس الوزراء يلتقي براقصة مصر الأولى، ويطلب إليها العمل بقوة لدعم مسيرة التنمية».

أما القاهرة التي لا يستطيع فيها الناس أن يتفاهموا، فالرواية تقدمها لنا من خلال «البراجيل» و«إمبابة» و«الوراق» و«شاطئ النيل» والأحياء الشعبية، ثم بعض القصور الباذخة التي يملكها أثرياء الطبقة الجديدة على الأطراف.

وواضح أن الغلبة هنا للأماكن البائسة التي يعاني أهلها قصورًا شديدًا في الخدمات، فلا الطرق مرصوفة، ولا المياه النقية متوفرة، ولا البيوت اللائقة قائمة، بل إن بعض الناس اتخذوا من قوارب الصيد على شاطئ النيل مساكن لهم، يعيشون فيها ويتناسلون!! وكثيرًا ما تجد الشقق التي تسكنها عائلات الرواية ضيقة، ورطبة، ومتواضعة الأثاث.

وتصف الرواية حي البراجيل بأنه «حي قذر»(ص١٩)، ويتكلم عنه البطل (رءوف) فيقول: «ولكي نصل إلى بيتنا نتقلب فوق أحجار، ونغوص في طين، ونخوض في مياه غسيل، ثم نصعد جبال قمامة، ونتجنب الاصطدام بالبط والدجاج الذي أطلقه أصحابه حتى يجد مالا يجده في البيوت»(ص١٩).

أما قصور السادة الجدد في الرواية، فحدث ولا حرج عن البذخ والفخامة وحمامات السباحة والحدائق والأضواء والتنظيم والتنسيق والتحف والتماثيل والألوان والرخام واللوحات، ناهيك عمن يسكنها أو حفلاتها المتلألئة ورجالها ونسائها اللاتي حولتهن الأضواء إلى ملكات جمال يبرق على صدورهن العارية الذهب والماس واللؤلؤ، و...

إن المكان في الرواية يرصد عالمين مختلفين تمامًا ولا ثالث لهما: عالم المتعبين المحرومين المقهورين وعالم السعداء الأثرياء المترفين.

أما الزمان التاريخي، فهو زماننا الذي نعيشه ونعاصره، وإن كانت الرواية تستدعي بطرق مختلفة الزمان القديم في عصور متعددة لتقيم عملية الموازنة بينها وبين عصرنا من حيث الاتفاق في السوء والشر والظلم.

إن الرواية تشير إلى أحداث الانتفاضة الفلسطينية الأخيرة مما يعني أن الأحداث الروائية قائمة في أيامنا، أو أيام نشر الرواية (عام ٢٠٠٤) بالتحديد، مما يعني أنها رواية معاصرة للغاية، بل إن الزمن الروائي نفسه يجري فيها على مساحة غير ممتدة، تشكل أقل من عام أو أكثر منه قليلا، لأنها لم تحدد وقتًا معينًا، ولكنها تتسع بالتذكر وتيار الوعي والرجوع (الفلاش باك)، بيد أنها في كل الأحوال تريد بل تقول لنا بصوت عال إن المقصود هو الزمن الراهن، الذي تسعى إلى الاحتجاج على ما يقع فيه، وتطمح إلى الخروج من أزماته ومنعطفاته الشائكة، وتحلم بمستقبل آخر أكثر عدلا وأمنًا وحرية.

ومهما يكن من أمر، فإن المكان والزمان يصنعان معًا سيمفونية حزينة الإيقاع لشعب عريق، كان قدره أن يواجه الأحزان على امتداد تاريخه بفعل بعض أبنائه، أو بفعل الغزاة الطغاة!

تغص «قبلة الحياة» بالشخصيات، وهذا أمر طبيعي، فهي تعالج قضية شعب بأكمله، وتطرح واقع مجتمع بأسره، فلا غرو أن نجد تمثيلاً يكاد يكون شاملاً لنوعيات الناس المختلفة التي تسكن الوطن، وتتحرك على أرضه، وتصنع حاضره البائس وربما مستقبله الملغوم.

لدينا، على الأقل، نوعان من الشخصيات، أولهما الشخصيات العادية المنتمية إلى الطبقة الشعبية البائسة بكل ما فيها من خير وشر، وأمل وألم، ورغبة ويأس، وآخرهما الشخصيات الاستثنائية التي تمثل الطبقة الجديدة بكل ما فيها من عبث واستهتار، وتدنٍ وانحطاط، ووصولية وانتهازية.. والطبقتان تخوضان صراعًا مكتومًا يقبع في دائرة المشاعر والحركة المحدودة، كل طبقة تتربص بالأخرى، ولكن ميزان القوى يبدو دائمًا في صالح الطبقة الجديدة التي تملك النفوذ والجاه والسلطان، وتفتقد الأخلاق والضمير والرحمة!

قد نجد بينهما من يمثل منطقة وسطى، ولكنه لا حضور له ولا وجود فعال، فقد سلب المكان والمكانة وأضحى أقرب إلى الطبقة الشعبية البائسة.

في الطبقة الأولى نجد «رءوف» وأسرته، و«ندى» وأسرتها، ونادر، ومزاج، ورجب وزوجته، وياسر وابتهال، ورزق الشامي وأسرته.. وهؤلاء جميعًا يشكلون قاعدة الحركة والانطلاق، كل في مكانه وموضعه، ولهم مشكلاتهم الراسخة المزمنة، وأحلامهم التي لا تنطفئ مع قسوة هذه المشكلات وصعوبتها.

«رءوف» شاب مثقف، تخرج، وتوظف، وله طموح علمي واضح، يسعى إلى الحصول على درجة الدكتوراة في التاريخ المصري الوسيط تحت إشراف مثقف السلطة «جابر عبد العظيم» الذي يعامله بفظاظة وازدراء ويفرض عليه ما يريد! يحب فتاة اسمها «ندى». لاحظ دلالة الاسم، لم يستطيعا الزواج مع طول فترة التعارف، وتهرب من التصريح له بما يعتمل في

نفسها أو بما تعانيه من ظروف، وتقف مأساة «رءوف» مع الجامعة التي لم تعينه معيداً، مع إحباطه أمام ندى وتعسف المشرف على الماجستير، والأزمات الأسرية وخاصة طلاق أخته نوال ذات الأولاد، لتصنع سداً أمام طموحه ورغبته العارمة في الحياة، ولكنه مع ذلك يقاوم، ويقوم مع زملائه وأصدقائه بمحاولات لتجاوز المحن والأزمات.

و«رءوف» المثقف يتأمل الحياة من حوله، وقد يتغلب عليها أحياناً بالنكتة، كما هي عادة كثير من المصريين، أو بتحليل الأمور تحليلاً فلسفياً، يعود به إلى ما يمكن تسميته بفلسفة الصبر والتعايش مع الواقع كما هو، حتى لو لم نقدر على تغييره!!

ومن خلال دراسته عبر الشبكة الإلكترونية أو المراجع التاريخية حول موضوعه عن الفلاح نطالع المزيد من صور القهر التي عاشها المصريون على مدى حقب عديدة، وبمقارنتها بالواقع المعيش الذي يسجله هو، أو تسجله الرواية بشكل عام نجد أن المقارنة ليست في صالح زماننا، فنحن نعيش أسوأ العصور طراً، ولعل ذلك يرجع إلى فقدان الروح أو ما تسميه الرواية «الروحانية»، وسعي الناس إلى المال بكل الوسائل حتى صار المال المعبود الأعظم لدى الأغلبية الساحقة من الناس، وهو ما تعبر عنه معظم شخصيات الرواية رجالاً ونساء على السواء.

أما «ندى» فهي شخصية تمثل الحلم بالأمن والاستقرار وانتعاش الروح، ولكنها تعيش مع أسرتها عناءً كبيراً، فلها أخ اسمه «خضر» كان ضمن الجماعات الإسلامية، وهرب إلى أفغانستان ولها أخ آخر اسمه «سمير» يمثل نموذجاً للانحراف الشبابي السائد بسبب الفقر والبطالة، ويطوح به الانحراف مع صحبة السوء إلى ممارسات غير خلقية وضد القانون، ويلقى حتفه غرقاً، وهو يسعى لعبور المتوسط مع آخرين (ثمانية وثلاثين شاباً) في طريقهم إلى إيطاليا. ووالداها أضناهما الحزن والقهر والآلام، وإن كان الابن الأصغر الذي في الثانوية العامة يخفف من حزنهما وقهرهما وآلامهما إلى حد ما.

على المستوى الشخصي، تتوق ندى إلى «رءوف»، ولكن «صادق» رمز الطبقة الانتهازية الجديدة، يسعى إلى الزواج منها ويصبر على معاملتها له، ويحاول أن يقيم معها قبل الزواج علاقة آثمة وهما في زورقه المجهز للفسحة والمتعة، وتكاد تقع، لولا هروبها في اللحظة الأخيرة.. مما يهيئ لعودتها إلى رءوف في نهاية المطاف وزواجها منه.

هناك شخصية «نادر» صديق «رءوف»،



الإسكندرية في الرواية تبدو فندقاً ومطعماً وشاطئاً وبحراً ونورساً ومقهى.. وحسب، ولا نراها في أعماقها وعشوائياتها ومعالمها الأخرى

وهو شاب سكندري مسالم دائماً، تعرف عليه في دار الكتب، ويعد رسالة ماجستير عن الشعر المصري في العصر الوسيط. زمن رسالتيهما واحد. هو عن الشعر و«رءوف» عن الفلاح، وفي كل الأحوال هو شاب جاد نقي، يتحمس أيضاً لرسالة الدكتوراة بسبب ساقه الصناعية، ويعمل مراقباً للجودة في مصنع مبارك للورق، ويتعرف على «نوال» أخت «رءوف» المطلقة ويتزوجها بعد مناقشة رسالته وحصوله على الدكتوراة.

أيضاً، هناك شخصية «ياسر» شقيق رءوف، الذي تدفعه مثاليته، مع بعض زملائه إلى محاولة نشر صور الفساد الذي يمثله «كامل سركيس» أحد رموز الطبقة الانتهازية الجديدة، ومع صعوبة النشر في الصحف الكبرى بسبب قوة الفساد وفجوره وتمتعه بأموال الدولة وسطوة السلطة، فإن ياسر ينجح في النشر في بعض الصحف الأخرى، ولكنه يدفع ضريبة قاسية، هي حياته، حيث اختطفه كامل، ويموت ياسر من التعذيب في أحد أقسام الشرطة بمحافظة المنيا.

وإذا كانت الشخصيات السابقة من الشباب المعاصر الذي يعيش المحن والآلام والآمال، فإن شخصية «منصور الشامي» رب الأسرة الذي يبلغ الخامسة والستين، تمثل الطيبة والالتزام بالصلاة والدعاء، ويقوده خوفه على ابنه الشارد «سمير» إلى الوكر السري الذي يعيش فيه هذا الابن سعياً لانتشاله من المأساة أو الكارثة التي كانت تحدق به. الرجل العجوز لا يعرف غير المسجد والمقهى ومكانه البعيد جداً في طابور الخبز، وهو صابر غير متوتر يحلم بخمسة عشر رغيفاً نصفها محروق. وللأسف فإن ابنه سمير يعايره بأن زملاءه سبقوه: مهران يركب سيارة (نيسان)، وجلال بنى عمارة، وزميله لديه شاليه في الساحل الشمالي، أقل واحد من أبنائه مصروفه اليومي لا يقل عن ثلاثين جنيهاً، ويركبون التاكسي ويدخلون المحلات الكبيرة ويستوردون المستورد الغالي. ويرد الأب على معايرة ابنه قائلاً: «أعوذ بالله.. اخص عليه.. تريدني أن أكون.. هذه آخرتها؟!»(ص٦٤).

شخصية «منصور الشامي» لديها رصيد إيماني يعصمها من الانحراف، وهذا الرصيد يجعل قناعتها ورضاها بما قسم الله سلاحاً في مواجهة سعار جمع المال بالطرق المشروعة أو غير المشروعة.

على الجانب الآخر، نجد شخصيات معاكسة تماماً، لا أثر لديها للإيمان أو الخوف من الله، لا تعرف باب المسجد إلا رياء، وهي في كل الأحوال تنهب وتسرق بالقانون كل ما تستطيع سرقته ونهبه، والنماذج كثيرة، ونكتفي ببعضها..

«كامل سركيس» رئيس مجلس إدارة شركة الحديد، يحث عماله على الإنتاج، ويستخدم القرآن الكريم لبث الدعاية من أجل زيادة الإنتاج القومي، ولكنه يبذل أقصى جهده لسحب أكبر قدر من الإمكانيات والأموال والمزايا التي تتمتع بها الشركة لتصب في شركته الخاصة التي أنشأها في ديسمبر ١٩٩١. لقد استنزفت الشركة الخاصة الشركة القومية حتى تبادلتا المواقع، فأصبح إنتاج الشركة الأم ٢٩٪ من إنتاج الحديد في مصر، وشركة «كامل سركيس» تنتج ٥١٪ وباقي الشركات ٢٠٪. لقد تم بناء جدران الشركة الجديدة بأسمنت الشركة الأم، وتسليحها بحديد الشركة الأم، وبعض آلاتها من جسم الشركة الأم وعنابرها.

ومثل «كامل سركيس» شخصية «فادي شوقي راسخ»، الابن البكر المدلل لأحد كبار رجال الأعمال، لا شيء يستعصي عليه أو يعز.. أي شيء في الدنيا يستطيع بالتليفون. مهما غلا. أن يشتريه.. وأن يأمر فيحضر في الحال، من أي مكان بالعالم. وله علاقة براقصة شهيرة اسمها «مايسة»، حققت له توازناً نفسياً وجسدياً غير عادي.. لا يريد شيئاً من الدنيا.

ويلحق بهذين النموذجين، نموذج آخر للسمسرة التي لا تعبأ بأخلاق أو دين أو قانون أيضاً. إنه نموذج «زكريا» السمسار، الذي يجمع البنات لتزويجهن من عجائز الخليج، بل يعرض زوجته الثانية في المزاد، ويظل يجمع الأموال من المتاجرة في البنات الصغيرات، حتى ينتهي به الأمر إلى مستشفى الأمراض العقلية بعد أن انكشف انحرافه وإجرامه.

وهناك نموذج آخر لمثقف السلطة، الذي يمثله «جابر عبد العظيم» أستاذ الجامعة، المشرف على رسالة «رءوف»، فللرجل مناصب كثيرة في الثقافة ومجلس الشورى، والمجلس القومي للمرأة والمجالس القومية المتخصصة، وتأهيل الشباب، ونادي مصر الجديدة، والتعليم العالي، واتحاد الإذاعة والتليفزيون والجمعية التاريخية، وأكاديمية مبارك، بالإضافة إلى كونه أستاذاً منتدباً بكليات حكومية وخاصة عديدة، وعضواً بلجنة إعادة كتابة التاريخ، وله أكثر من مقالة أسبوعية في صحف مصرية وعربية، وهو ضيف دائم على جميع القنوات المصرية والعربية والأجنبية، الأرضية والفضائية. وهو بالطبع يدافع عن النظام بكل ما أوتي من قوة!

ترصد الرواية نماذج أخرى عديدة تمثل الانتهازية والفساد والنهب والانحراف، ومنها شخصية المقاول الذي كان في الأصل بائع بليلة وفشار، وبنى مواسير صرف فانفجرت، وبدأ مشروعه للنهب بمدرسة مبارك الإعدادية بحي البراجيل، وثنى بالمساكن الشعبية والمسجد القديم والسوق والحي القديم والشونة وحارة الحدادين وورش النجارة والدباغين ومخازن الخشب وورش الفخار.. ووصل إلى شركة مبارك للصباغة والتجهيز، ومعسكر قوات الأمن المركزي الخاصة بالمنطقة الغربية.. وصار من أعلام الأثرياء وذوي النفوذ والسطوة!

وهناك فريق ثالث من الشخصيات يبدو في دور الشخصيات المساعدة، لكشف الواقع أو التعليق عليه، ويمكن أن نأخذ شخصية «رزق الشامي». شقيق منصور الشامي الأصغر. هذا الموظف الذي اهتدى إلى التنقيب في القمامة واكتشاف خباياها، ليواجه واقعاً صعباً، وقد صار. كما صورته الرواية «أستاذ كرسي القمامة» في جامعة الشوارع، وخبرة تتجاوز عشرين عاماً، والقمامة في خبرته كلها صالحة والرجل مرتبه لا يكفي أسرته الإفطار، أما الغداء والعشاء والملابس ومصروفات المدارس والانتقالات وأجرة الشقة والعلاج والأدوية والكهرباء أو أي طوارئ فلا يوجد ما يواجهها.

وهناك شخصية «مزاج» التي سبقت الإشارة إليها، ومع أنها بائعة هوى، وصاحبة مقهى بالإضافة إلى أنها سوداء ضخمة الجثة، فإنها تعشق النكت، وتنكت على الحكومة، وقد وضعها الكاتب لتشير إلى واقع آسن، وفي الوقت ذاته تتيح التعليق على منطلقات السلطة.

لا ريب أن الرواية اجتهدت في تصوير الشخصيات لتقدم واقعًا يغص بنوعيات مختلفة من البشر وقد رسمت بعض هذه الشخصيات من الخارج، فأعطتها ملامح جسمانية ولونية وسلوكية لإقناع القارئ بمنطقها وفعلها.. وإن كانت ركزت. وهو المهم. على الشخصيات الأساسية من الداخل، فأظهرت ما تفكر فيه هذه الشخصيات وما تحلم به، وما تسعى إلى تحقيقه، فضلاً عما يشغلها ويؤرقها.

تنتظم سرد الرواية لغة سهلة بسيطة أقرب إلى لغة الصحافة. قد تسقط أدوات الربط أحيانًا، ولكنها تسعى إلى تقديم الدلالة من أقصر طريق وبأسرع الوسائل. وقد يمزج الفصحى بالعامية أحيانًا، وقد يسعى إلى تفصيح بعض المفردات العامية ذات الأصل الفصيح، فهو مثلاً يستخدم الفعل «دفس» بمعنى دفن أو أخفى فيقول «ودفست رقبتي في الياقة»(ص٥) أو يقول: «الخبر مدفوس تحت إعلان عن أجهزة التخسيس»(ص١٠) وذلك بمناسبة فوز أحد المفكرين بأرفع وسام فرنسي تقديرًا لإسهاماته الفكرية.

وإذا كانت لغة الرواية تفضل البساطة والوضوح بصفة عامة، فإنها لا تخلو من المجاز، في صوره الجزئية من تشبيه واستعارة وكناية، وهذه الصور لها دلالة خاصة حيث تمثل نوعًا من الطرافة إذ تعتمد مثلاً في بعضها على استخدام أنواع الأوعية (البرطمان. الصفيحة. البرميل) ولنقرأ هذه الأمثلة:

«إذا لم تصب في مجرى برطمان أسرارها المخللة فلن تتقدم نحوي خطوة» (ص١٤).

«أنا إنسان.. صفيحة فارغة مع الصباح تود أن يملأها من يعرفون حالها وحاجاتها..»(ص١٨).

«بحاجة أنا إلى رؤية رءوف.. روحي مغمورة في برميل المواقف التعسة، وأبدو كالخرقة المبتلة.. مشتتة وضعيفة وعاجزة ووحيدة.. بحاجة ماسة إلى رجل يحبني ويشد أزري»(ص٢٣).

وفي المثال الأخير يمكن أن نرى صورة كلية تصور حال البطلة (ندى). وهي تصور حرمانها وضعفها وحاجتها إلى رجل، من خلال الصورة الجزئية المتعددة في الفقرات السابقة على المثال، وهي صور تتلاقى وتتجمع لترسم لوحة كبيرة للوحدة والضياع.

ويلعب التضمين والاقتباسات دورًا مهمًا في إثراء لغة الرواية وتلوينها



ترصد الرواية نماذج أخرى عديدة تمثل الانتهازية والفساد والنهب والانحراف، ومنها شخصية المقاول الذي كان في الأصل بائع بليلة وفشار

بألوان مختلفة تقطع الملل والرتابة أو تنفيهما إذا شئنا تعبيرًا أدق.

هناك التضمين بما يسمى «شعر العامية». وهو غير الزجل الموزون المقفى. والنكت الشعبية، والمذكرات أو الرسائل أو كتب التاريخ القديم والوسيط والحديث.

ودور التضمين أو الاقتباسات يصب في اتجاهات عديدة أبرزها، صناعة واقع قديم مواز لواقع حديث أو راهن، يتشابهان ويتماثلان.. بل يتطابقان في بعض الأحيان، وخاصة في الملامح والأبعاد التي تؤكد على مظلومية الإنسان المصري ووقوعه ضحية للطغاة والجلادين والمستعمرين.

شعر العامية الذي تستخدمه الرواية، يحمل شحنات حزن وأسى تعبر عن واقع مرير يعيشه المصريون على امتداد تاريخهم، وللأسف بدا لي معظم هذا الشعر غير موزون وغير مقفى، مع أن معانيه جيدة أو لا بأس بها وكان أمام الكاتب فرصة لاقتباس شعراء أكثر قوة وأكثر حضورًا في الوجدان المصري بدءًا من بيرم التونسي حتى فؤاد حداد.

أما النكت، فتمثل تضمينًا موفقًا، وخاصة أن بعضها يعالج الأحداث الراهنة، ويتسم بالجرأة في التنكيت على الحكومة، كما رأينا من قبل، وهناك نكت ذات دلالة عميقة وتشي بالحزن والانكسار مع ما قد تثيره من ضحك وابتسام.

«استشهد فلسطيني، وصعد إلى السماء، وذهب إلى الجنة، ووقف يسأل عم رضوان عن السكة، وكان يوزع الموتى حسب الجنسية، قال له: أنا فلسطيني شهيد.

قال رضوان: الفلسطينيون في المخيم هناك، آخر الجنة على الشمال!» (ص٤٨).

ويأخذ التضمين بالمذكرات أو الرسائل مع التاريخ مساحة كبيرة من صفحات الرواية، وجميعها تصب في إثبات القهر الذي عاشه أو يعيشه المصريون.

تضمن الرواية صفحاتها ببعض رسائل لوسي الإنجليزية إلى زوجها الكسندر جوردون إبان عهد الخديو إسماعيل، فتشير إلى أحوال المصريين التعيسة: الأجنبي يهاجمهم وينهبهم، والحكام يظلمونهم ويقتلونهم وهم صابرون على البؤس والذل!

ويقوم الحوار بدور مهم في السرد الروائي، لأنه يكشف أعماق الشخصيات المختلفة، ويفضح الواقع، ويقدم لنا الطبقة الجديدة من الداخل، وأيضًا مأساة الشباب.

يقدم لنا الحوار صورة وصفية لقصور رجال الطبقة الجديدة التي يسمونها «رجال الأعمال». إنها قصور باذخة، وتقام فيها حفلات أسطورية، وأعراس خيالية.. والزواج زواج مصالح!

«تصوروا معظم الحاضرين أقارب.

قلت باندفاع:

. مستحيل!

قال: نحن فقط الأغراب.. على مدى العشرين سنة الماضية تزوج رجال الأعمال وأبناؤهم من الوزراء وأعضاء مجلس الشعب.. الكبار تصاهروا مع بعض، وكونوا طبقة الكريمة التي تحكم البلد.. لم يعد هناك اختلاط في الأنساب أو الطبقات وكل طموحاتهم لن تخرج عن الشعارين.. الكرسي رمز لكبار المسئولين، والخزينة رمز لرجال الأعمال..».

وإذا كان الحوار يكشف ويفضح ويضيء، فإن المفارقة والسخرية تفعل الشيء نفسه بل أكثر، حيث تتحول أحيانًا إلى نوع من السياط تجلد الظواهر السلبية المشوهة والمنحرفة.

تأمل مثلاً هذه السخرية المريرة من الأمن المركزي:

«أول مرة أشوف عربيات الأمن المركزي تنتشر بالليل فتصورت أن النهار طلع» (ص٤٥).

أو السخرية من القمع الذي تمارسه أجهزة الشرطة:

«رجال الشرطة تعبوا من القبض على الناس (يقصد السياسيين وأشباههم)».

أو يشير إليهم بأنهم «مضطرون للقبض تقريبًا على كل الشعب» (ص٥٣).

ثم تأمل هذه المفارقة التي تلجأ إليها الرواية في أحيان كثيرة، وتخفي سخرية ما، وانتقادًا ما، بسبب ما آلت إليه أحوال الناس والدولة:

«جاءني صوت شادية اللذيذ تغني بمناسبة ٢٥ أبريل «سينا رجعت كاملة لينا.. ومصر اليوم في عيد».. عجبت لأن محطة السكة الحديد كانت محاطة بعدد كبير من سيارات الأمن المركزي، معبأة صناديقها الضخمة بأكداس الجنود في أزيائهم السوداء ووجوههم الجهمة. بينما العيون زائغة وآذانهم مشرعة في انتظار الأوامر. لم أستطع أن أمنع نفسي من الدهشة من حال القيادات وتفكيرها. هؤلاء الجنود يعيشون في الأغلب تحت خط الفقر، وتستخدمهم الحكومة في ضرب الشعب الذي يعاني من الغلاء وسوء الخدمات ووحشية التجار وغياب العدل على كل المستويات.. الشعب يضرب الشعب.. الفقير يضرب الأكثر فقرًا..» (ص٢٥).

إن الرواية من خلال استخدامها السرد والمفارقة وبقية عناصر البناء الأخرى تطرح العديد من الأسئلة التي قد لا تقدم لها جوابًا مباشرًا، أو تقدم جوابًا ضمنيًا ولكنها في كل الأحوال تشد القارئ إلى طرح سؤال: ما الحل؟ لأن الحل يبدو صعبًا ومعقدًا. فبلادنا لن تتحرك فيها الجيوش للانقلاب بسبب استئناسها والتحكم فيها وإغراقها بالمغريات والمزايا.. ثم إنه ليست هناك قيادات كافية ومخلصة للتحرك بالآلة الشعبية والزحف لفرض التغيير.. وثالثًا ليست هناك أية مؤسسات ديمقراطية ولا مناخ يسمح بتداول السلطة من خلال الحوار السلمي والصراع الحزبي.. لذا.. فإن الرواية تتصور الحل عن طريق «الفانتازيا»، وهو قيامة الموتى، وخروجهم من الأجداث، وتلاقيهم في مظاهرات من أجل الوطن ومنحه «قبلة الحياة»، وإعادة بناء المجتمع على أساس النظام والنزاهة والعدل.. بيد أنه يتم الالتفاف حول هذه المظاهرات وصرف الموتى، لتبدأ مرحلة أخرى!

ولكن البطل «رءوف» يستشعر في النهاية حالة متأرجحة بين اليأس والأمل كما سبقت الإشارة وقد عقد العزم على ألا يترك الفرصة كاملة لليأس.. سوف يحاربه ويكافح أسبابه بكل ما يملك، على ثقة أن «ندى» أصبحت إنسانة أخرى، وتدرك إلى حد كبير ما يتعين عليها عمله.. غير مستبعد أن تكون له.. قبلة الحياة!!

هل يمكن أن تكون «ندى» رمزًا لندى الكبرى.. مصر؟ لعلها.. ■

صديقي صلاح

إليـــــاس ســـــحــاب

■■ لو ألقينا نظرة استعادية على المسيرة العامة للعرب المعاصرين في القرن العشرين، فإني ممن يرجحون أن تاريخ الحراك الثقافي للعرب في كل اقطارهم، كان أغنى من تاريخ حراكهم السياسي. ومع ذلك، فإن مدونات العرب عن تاريخهم السياسي (قديمه وحديثه) أكثر عددا وأوسع تفصيلا بما لا يقاس، من مدوناتهم التي تهتم بتأريخ نشاطهم الثقافي. وهذه ملاحظة أبداها الكاتب الفنان محفوظ عبد الرحمن في سياق حديثه معي عن موسوعة أم كلثوم.

ولو طبقنا هذه الملاحظة العامة على القرن العشرين بالذات، فسرعان ما نكتشف أن تقصير العرب في تدوين نشاطهم الثقافي، بكل ما فيه من محطات وتيارات وتفاعلات، وبكل من صنع كل ذلك من أسماء لامعة في شتى ميادين الثقافة من فكر وأدب وموسيقى وغناء وسينما ومسرح ونحت ورسم وصحافة وتربية وعلوم، يمكن أن ينعت (بلا مبالغة) بأنه تقصير فادح وفاضح.

انطلاقا من هذه الملاحظة انتابني وأنا أمام الذكرى العشرين لرحيل صلاح جاهين، شعور جارف بضرورة تدوين شهادتي عن صلاح جاهين، لعلها تكون ذات فائدة ولو محدودة، في اي جهد يمكن أن يبذله أبناء الأجيال العربية الصاعدة، في التأريخ للرموز المؤثرة في تكوين ملامح الثقافة العربية في القرن العشرين.

وأبدأ من هذه النقطة بالذات فأقول إن رموز الثقافة في بلادنا (وربما في كل بلاد العالم الأخرى) ينقسمون الى فصيلين رئيسيين:

• فصيل من المشاهير الذين لا وجود لأي تطابق بين ما يتمتعون به من شهرة، وبين القيمة الحقيقية العامة لرصيدهم في التأثير على الوجدان العام لشعبهم وأمتهم، وفي صناعة ثقافة بلادهم وأمتهم.

• وفصيل آخر من المشاهير الذين لا ريب في أنهم ينتمون إلى قائمة صناع ثقافة وحضارة شعوبهم وأمتهم، في عصر من العصور، ومن المؤثرين الأساسيين في تكوين ملامح الوجدان الإنساني والثقافي للأفراد والجماعات من معاصريهم.

ولو لم يكن صلاح جاهين واحدا من طليعة رموز الفصيل الثاني، لما شعرت بهذا الإلحاح في الإدلاء بشهادتي، خاصة أن صلاح جاهين كان بين أكثر صناع الثقافة العربية في النصف الثاني من القرن العشرين، الذين اتاحت لي الظروف، وكيمياء الأمزجة الشخصية والنفسية، فرصة عقد علاقة صداقة حميمة معه، لعلها كانت بين الأكثر حميمية وعمقا في شبكة علاقاتي الشخصية بكثير من المثقفين العرب اللامعين في النصف الثاني من القرن العشرين.

والحقيقة أن علاقتي الوجدانية والمعرفية بصناعة الثقافة العربية قد ابتدأت من أيام طفولتي الأولى في يافا (وأنا من مواليد ١٩٣٧)، حيث كانت إذاعة القاهرة، ببرامجها العامة والثقافية والسياسية، وتلال أسطوانات سلامة حجازي وسيد درويش وعبد الوهاب وأم كلثوم، ومجلات الأطفال القادمة من القاهرة، هي حبل السرة الذي يشدني بينابيع الثقافة العربية المعاصرة، وهو حبل ظل مشدودا حتى انتقلنا إلى بيروت في أواخر عقد الأربعينيات (عبر إقامة قصيرة في عمان). ولكن تلك كانت كلها تعبيرا عن تجليات الثقافة العربية في القاهرة في أواخر العهد الملكي.

وبعد سنوات قليلة من الانتقال الى بيروت، استمرت علاقتي بالقاهرة، لكن بعد أن أصبحت قاهرة ثورة ٢٣ يوليو وجمال عبد الناصر، فكنت اقطع في كل يوم كيلو مترات عديدة بين منزلي في ضواحي بيروت والمكتبة المتخصصة في استيراد الكتب والمجلات المصرية، أقضي أحيانا ساعات في انتظار وصول عدد من أعداد مجلات دار الهلال ومجلات دار روز اليوسف، استكمالا لتواصلي الأول مع الثقافة الواردة من القاهرة، الذي كنت قد بدأته في يافا.

بعد ذلك، وعندما وضعت قدمي في أرض الكنانة للمرة الأولى في حياتي، في العام ١٩٦٥ (وكنت في الثامنة والعشرين من عمري) تعرضت لأحد أغرب المواقف في حياتي العامة، عندما اكتشفت أن كل الوجوه التي ألتقيها للمرة الأولى في حياتي هي نجوم الصحافة والثقافة والفن في القاهرة الذين كنت من جهتي على معرفة كاملة بهم، كأنهم من أفراد أسرتي، من أحمد بهاء الدين وكامل زهيري ومحمد عودة ورجاء النقاش وإبراهيم عامر، (في الصحافة) إلى صلاح جاهين وبهجت عثمان وحلمي التوني واللباد وحجازي (في الفن) إلى محمد عبد الوهاب ومحمود الشريف ومحمد الموجي وكمال الطويل وسيد مكاوي (في الموسيقى والغناء). إلى كثير سواهم في شتى حقول الثقافة والمعرفة.

ومن المؤكد أنني بين هذه العلاقات الثقافية التي تحولت بمعظمها إلى صداقات ضاعفت في رصيد مكاسبي الإنسانية والثقافية والسياسية، لم أخطط للتطور الذي طرأ على العلاقة مع صلاح جاهين، لتتحول إلى صداقة حميمة، كأننا تربينا في كنف أسرة واحدة.

وأستطيع أن أزعم أنني بشكل دقيق ومؤكد، أتيح لي خاصة بين منتصف الستينيات ومنتصف السبعينيات، أن أعايش صلاح جاهين (بين القاهرة وبيروت) معايشة دائمة مستمرة، على خطين متوازيين:

• خط كل ما ينتجه من شعر مكتوب، وشعر مغنى، ورسم كاريكاتوري، وإنتاج مسرحي وإذاعي وسينمائي.

• وخط حياته الشخصية بكل ما فيها من انفعالات وأحزان وأفراح، ومن تداخل كثيف جدا بين العام والخاص فيها.

سأتجاوز طبعا المنهج الاكاديمي في عرض أعمال صلاح جاهين في حقول إبداعه المتشعبة، فهذا عمل لا يحتاج إلى شهادة شخصية مبنية على علاقة شخصية، ومن السهل القيام به وفقا لمناهج التاريخ الاكاديمية جمعا وتصنيفا ودراسة لإنتاج صلاح جاهين في كل هذه الحقول، سأتجاوز كل ذلك إلى عرض شهادتي عن الملامح الإنسانية لشخصية هذا العبقري الذي أعتبره بين أبرز صناع الثقافة العربية والوجدان العربي في القرن العشرين.

أبدأ بانطباعاتي الخاصة عن ملامح الانتماء العربي كما عايشتها بشكل عفوي وحميم في علاقتي بصلاح جاهين، وليس من خلال حوارات فكرية نظرية، كما كان الحال مع آخرين.

كنت ألاحظ دائما، خلافا لما كنت أسمعه من بعض البحاثة الأكاديميين في علوم الاجتماع والأنثربولوجيا عن نزعة الإنسان المصري للانكفاء عن محيطه العربي والاكتفاء بمصر، باعتبارها بلدا عربيا مركزيا ومتكاملا بذاته، كنت ألاحظ شغفا غير عادي عند صلاح جاهين بالتعرف إلى مختلف اللهجات العربية المحكية، من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق. وهو شغف كان يتجاوز مجرد التعرف السطحي إلى أشهر الكلمات الشائعة في كل لهجة، إلى تشرب الروح العميقة الخاصة بكل لهجة، حتى كان يخيل إلي أحيانا أن هذا الشغف كان يدفع صلاح جاهين للتعرف إلى الأسرار الكامنة في بعض اللهجات العربية المحكية، أكثر من أهل تلك اللهجة، الذين يمارسون لهجتهم بالسليقة، دون حاجة للتأمل فيها وفي اسرارها. وكان من حصيلة هذا الشغف لدى صلاح جاهين، أنه كان مسئولا عن تعريفي بكنوز الزجل اللبناني، مع أني كنت على تماس لا بأس به بالرئيسي من هذه الكنوز.

كان من أشد ما لاحظته عند صلاح جاهين أيضا شغفه بالاطلاع على تفاصيل الحياة اليومية للمصريين في أيام الفراعنة، إلى درجة أن استغراقه في هذا الحديث أمامي، كان يحيطني أحيانا بشعور غريب كأنني وصلاح، انتقلنا فعلا للعيش في العصر الفرعوني. وقد قال لي وهو يتأمل قطه الشهير «مشمش»

كنت ألاحظ شغفا غير عادي عند صلاح جاهين بالتعرف إلى مختلف اللهجات العربية المحكية، وكان يتجاوز مجرد التعرف السطحي إلى أشهر الكلمات الشائعة في كل لهجة



تمثال صلاح جاهين
للفنان آدم حنين

الذى أهدانى اللوحة المائية التى رسمه فيها مسترخيا على مقعد فى بيته الصغير بشارع محمد مظهر فى الزمالك (بين زواجه الاول وزواجه الثانى)، قال لى إن هذا القط حتما من سلالة القطط فى العصر الفرعونى، واغرقنى فى حديث شيق عن تفاصيل هذا الموضوع.

علاقة صلاح جاهين الوجدانية والعاطفية والسياسية بجمال عبد الناصر، كانت أيضاً بين المواضيع التى أذكرها فى نسيج العلاقة بيننا، وإن كان يفضل ردا على أسئلتى فى هذا الموضوع، اجوبة قصيرة مختزلة مضمخة بكثير من العاطفة والحياء. وعندما سألته عن مشاعره عندما تسلم جائزة من عبد الناصر فى عيد العلم (وكنا نشاهد صورة فوتوغرافية عن ذلك اليوم). فأكد لى أنه كان بالغ التأثر لدرجة أنه لم يسمع كلمة واحدة مما قيل أمامه، ولا يتذكر أى تفصيل من تفاصيل ذلك اليوم.

شغف صلاح جاهين بالموسيقى كان لا يعترف معه بأى حواجز بين عيون الموسيقى العربية وعيون الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية. وذات حوار بيننا كنت أعرض له فيه شغفى اللا محدود بمؤلفات بتهوفن من سمفونيات وكونشرتات وسوناتات، فأجابنى بقوله: «أحبها، لكنى أفضل موسيقى باخ».

فلما سألته عن السبب قال: أنا بطبيعتى إنسان فوضوى «ملخبط» وقلق، وأشعر بمزيد من الاضطراب والقلق عندما أستمع إلى موسيقى بتهوفن بصخبها الدرامى، أما موسيقى باخ فإنها تنظمنى من الداخل وتمنحنى الهدوء والسكينة النفسية.

كان يعرف تماما، وبكل موضوعية. من هو اقدر منه فى فن الرسم، ومن هو أقل قدرة منه. وفى حديث طويل بهذا الشأن، كان يبدى افتتانا بليونة عجيبة (على حد تعبيره) فى خطوط الفنان جورج البهجورى، ويقول لى: ربما اتفوق على البهجورى بالمحتوى الفكرى لرسومى، لكنه بلا شك أقدر منى فنيا.

كانت زياراته المتكررة لبيروت تحوله طفلا يحب الاستمتاع بكل شىء، من الثقافة الفنية والفكرية الرفيعة، الى المأكولات اللبنانية التى كان يعشقها، حتى أنه رفع يديه إلى السماء أمام طبق ملىء بعظام الدجاج المشوى الذى التهمه: «ليه ياربى مش قادر آكل كمان».

كان فى لقاءاتنا اللبنانية. يحرص على أن يطلعنى على كل تفاصيل ما لم أطلع عليه بعد من أعماله الفنية الجديدة فى القاهرة، ومن المؤكد أن من بين أكثر الأعمال التى كان معتزا بها عمله مع المخرج الفنان سعد أردش ومخرج ألمانى (لا أذكر اسمه)، والفنان سيد مكاوى، فى أغنيات مسرحيتى «بريشت»: الإنسان الطيب، ودائرة الطباشير القوقازية.

وكنت أكتشف من خلال شروحه المطولة والمعمقة لعمله هذا، كيف يصل هؤلاء العباقرة، إلى إنتاج نصوص غنائية عربية خالصة، تجسيدا لترجمات من ثقافة شديدة الاختلاف بكل تفاصيلها.

وكان من بين ما اكتشفته أن عبقرية صلاح جاهين لم تكن كافية وحدها لذلك، بل اجتهاده فى عمله

صديقى صلاح جاهين



إلى درجة التفانى. فقد كان يضع أمامه كلام الأغانى المسرحية مترجما إلى العربية نثرا. ثم يضع إلى جانب ذلك الترجمة الإنجليزية والترجمة الفرنسية، ويستمع الى نص الأغنية بالألمانية (لحنا وكلاما). ثم يحول كل هذه المعرفة وهذا الاطلاع، إلى مخزونه العربى من الشعر الكلاسيكى ومن اللهجات العامية، ويستخرج من كل ذلك، كلام أغنيات النص العربى لمسرحيات «بريشت».

لعل شغفه بالحياة العامة فى مصر وسائر البلاد العربية، بل ربما سائر بلاد العالم، دفعه إلى توسيع دائرة إنتاجه الفنى ليس إلى السينما فحسب، بل إلى كتابة المسرحيات الإذاعية لإذاعة صوت العرب، التى كان يضع فكرتها ونصها الإذاعى، ونصوص أغانيها.

لقد فاض هذا الشغف الإبداعى لدى العبقرى صلاح جاهين، إلى درجة أنه كان يمارس سخريته العربية المصرية، باللغة الإنجليزية رسما ونظما شعريا.

فقد حدث أن وجهت إليه الدعوة لزيارة واشنطن لستة شهور أيام المرحلة الناصرية. وعندما سألوه فى مقابلة صحفية هناك: لماذا تعتقد أنك دعيت لواشنطن (Washington)، استعار المقطعين الأولين من اسم العاصمة الأمريكية، ليطلق جوابه الساخر فى تورية سياسية واضحة:

For a brain washing

ما ترجمته بالعربية: لعملية غسيل دماغ.

وعندما سألوه فى المقابلة نفسها: هل لك أن تصف الشعب المصرى بعبارة واحدة، استعار العبارة الإنجليزية التى تعنى «الجنس البشرى» (هيومان ريس) ليحرفها فى تورية ساخرة:

(We are the humor race نحن الجنس الفكاهى).

ومن ألمع سخرياته الشعرية باللغة الانجليزية والروح المصرية، رسم كاريكاتورى لم يأخذ طريقه إلى النشر، أتيحت لى فرصة الاطلاع عليه فى مكتب صلاح جاهين. فقد كلفته جريدة «تايمز» اللندنية اليومية الشهيرة، أن يزودها بعدد من الرسوم الكاريكاتورية لعدد خاص أصدرته عن مصر بمناسبة ٢٣ يوليو فى إحدى السنوات. فلبى الطلب وقدم للجريدة عدة رسوم، على أن تتولى رئاسة التحرير اختيار ثلاثة منها. وكانت أروع تلك الرسوم نقدا لاذعا لإسرائيل، مما دفع الجريدة الإنجليزية لاستبعاده طبعا.

كان الرسم يمثل قصاصات عديدة من الورق مكتوب على كل قصاصة منها كلمة فلسطين، باللغة الانجليزية طبعا، ثم تضمن الرسم «ممحاة» على شكل رأس موشيه دايان، تمر الممحاة على كل قصاصة لتمحو كلمة فلسطين. فكانت النتيجة أن بقيت كلمة «فلسطين» واضحة على كل القصاصات، فيما ظلت الممحاة تتضاءل فى حجمها من قصاصة لأخرى حتى تلاشت، ونظم تحت الرسم بيتين من الشعر:

There was a foolish rubber
Once upon a day
That rubbed and rubbed and rubbed
And rubbed itself away

ومعناها بالعربية: ذات يوم، كانت هناك ممحاة مجنونة، ظلت تمحو.. وتمحو... وتمحو، حتى محت نفسها.

مع أن صلاح جاهين كان يبدو مدنيا قاهريا فى كثير من سلوكه وتصرفاته، إلا أن روحه كانت مغروسة حتما فى جذور طين مصر من أقصى جنوبها النوبى، إلى شواطئ المتوسط فى شمالها، المنفتحة على أوروبا والعالم.

ومع أنه نظم الرباعيات ذات المنحى الفنى الفلسفى العميق، فقد قرأ لى ذات يوم مقطعا من الشعر العامى فيه خلاصة الروح الشعبية المصرية فى الغزل على لسان صياد سمك، وروى لى قصة غريبة عن ذلك المقطع الذى كتبه للإيقاع بالنقاد الذين كانوا يعتقدون أنه بعيد عن الروح الشعبية المصرية بأعماقها الحقيقية. فى بداية الأمر، عرض صلاح جاهين المقطع على النقاد باعتباره تراثا فولكلوريا اكتشفه فى بطون الكتب القديمة. وبعد أن كتب هؤلاء النقاد مقالات مطولة تغزلا بعبقرية الفولكلور الشعبى، كشف صلاح السر، وأعلن أنه مؤلف هذه الأبيات.

وفى رأيى أن صلاح جاهين لم يكن بحاجة إلى هذه الألعوبة الثقافية. أليس هو صاحب «الليلة الكبيرة» التى لم يرتق شاعر شعبى مصرى إلى ذروتها فى وصف «الموالد» فى أعياد مصر الشعبية؟.

كان، من هذه الزاوية بالذات، يشرح لى بعبارات بالغة الغرابة، إعجابه بعظمة تمازج الروح الشعبية والآفاق الراقية فى موسيقى عبد الوهاب، فيعلق بعبارات مدهشة فى بساطتها عندما ينتقل عبد الوهاب من مقطع رومانسى حالم فى أغنية «اسمح وقلى يا نور العين»، إلى مقطع ذى نفس شعبى خالص: «تزيد فى وجدى/ واشتاق إليك/ وتفوتنى وحدى/ وأهون عليك»: انظر كيف خلع عبد الوهاب البدلة السموكنج، وحزم وسطه ليرقص بلدى.

ولعل من أبلغ نظرياته فى النقد الثقافى والسياسى تعبيره عن ضيقه الشديد بإصرار بعض الأدباء اليساريين على اعتبار «تمجيد الفقر واحتقار الترف» أرقى مؤشرات الانتماء اليسارى. كان يرد على هذا المنطق ببساطة شديدة فيقول: ليس صحيحا أن الفقر جميل، وليس صحيحا أن الترف قبيح. انظر إلى الأدب الشعبى كيف يتوق إلى جماليات الترف فيقول: «العتبة قزاز/والسلم نايلون نايلون». القبح يكمن فى غياب العدالة الاجتماعية، وليس فى جماليات الحياة المرفهة أو المترفة.

ولكم راودنى فى فترات متباعدة أن أجمع بين عشقى لشعر صلاح جاهين وعشقى لموسيقى محمد عبد الوهاب، فحاولت مرات عديدة من خلال لقاءاتى المتعددة بعبد الوهاب، بأساليب مباشرة وغير مباشرة، أن أقنعه بأن تجديده الذى لا يتوقف فى الموسيقى، سيكون رائعا لو التقى بتجديد صلاح جاهين فى الشعر، وكنت أستقوى بإقدام أم كلثوم، ذات النزعة المحافظة، على مغامرة غناء ثلاث قصائد لصلاح جاهين: والله زمان يا سلاحى (لحنها كمال الطويل)، محلاك يا مصرى (لحنها محمد الموجى)، ثوار ثوار (لحنها رياض السنباطى). كنت أقوم بكل هذه المحاولات بينى وبين الموسيقار محمد عبد الوهاب دون مفاتحة صلاح جاهين. ولعلى أحسنت بكتمان ذلك عن صلاح، لأن المحاولات باءت جميعها بالفشل، ولعل تفسيرى المرجح لهذه النتيجة، هو حذر عبد الوهاب من «يسارية» صلاح جاهين.

غير أنه لا يمكننى اختتام هذه الشهادة فى ذكرى صلاح جاهين، وفى تلمس ملامح شخصيته الثقافية والإنسانية، دون كلام صريح ومباشر عن التفسير الظالم لنتاجه الشعرى العظيم الذى لحن معظمه كمال الطويل وغنى معظمه عبد الحليم حافظ، فى ما يشبه تدوين يوميات إنجازات ثورة يوليو، وهو التفسير الذى بلغ من الظلم (والشطط برأيى) لدى البعض فوصفه بالانتهازية.

وقائع حياة صلاح جاهين بعد هزيمة ١٩٦٧، وخاصة بعد رحيل عبد الناصر، خير دليل على ذلك الظلم وذلك الشطط. فالانتهازيون عادة لا يمكن أن يصابوا بالاكتئاب عند الانتقال من حال إلى حال، بل يزداد فرحهم، ويزداد إقبالهم على اقتناص الفرص الجديدة المتاحة، بمجرد نقل البندقية من كتف إلى كتف.

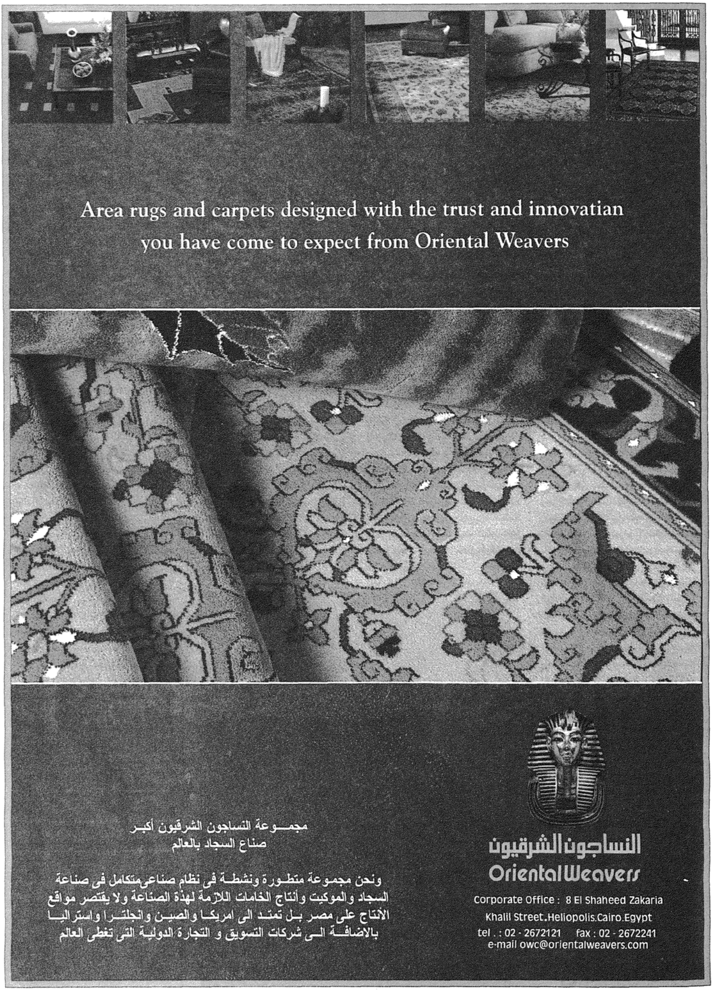
لقد توقف تدفق نبع الفرح أول ما توقف فى حياة صلاح جاهين، عندما جاءت هزيمة ١٩٦٧، سقوطا شاهقا من علياء الأحلام القومية التى كان إيمانه بها يجعله يرى صورها فى المستقبل كأروع ما يكون:

تماثيل رخام عالترعة وأوبرا
فى كل قرية عربية.

كان ذلك حلما حقيقيا لدى صلاح جاهين حلق به وبنا عاليا، فكانت سقطة ١٩٦٧ شديدة الوجع. ثم جفت ينابيع الفرح نهائيا فى حياة صلاح جاهين بعد رحيل بطله جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠. ولم تكن الرسوم الكاريكاتورية التى حملت بعد ذلك ما بدا تأييدا لخط سياسى مناقض لخط عبد الناصر، لم تكن برأيى خوفا من عقاب أو طمعا فى ثواب بل كانت استكمالا لدائرة اليأس والاكتئاب التى دخل فيها صلاح جاهين، منذ النكسة وحتى رحيله فى منتصف عقد الثمانينيات.

لا شك أخيرا، بأن قائمة العظماء والعباقرة من صناع الثقافة العربية والوجدان العربى فى القرن العشرين، فى نصفه الأول ونصفه الثانى، تضم عشرات الأسماء التى تستحق من الأجيال العربية الصاعدة فى مطلع القرن الحادى والعشرين جهودا حقيقية لتأريخها، وتدوين وحفظ نتاجها، كما تفعل شعوب أوروبا مع عباقرة ثقافتها، ولا شك أيضا بأن اسم صلاح جاهين سيكون فى الصفوف الأولى من هذه الأسماء، عندما يمسك العرب المعاصرون بكل أسباب دخول العصور الحديثة. ■

فى ربيع العام ١٩٨٦، نعى الناعى الفنان الشامل صلاح جاهين عن ستين ربيعا، رحل قبل أشهر قليلة من اكتمالها


Area rugs and carpets designed with the trust and innovatian
you have come to expect from Oriental Weavers
مجمـــوعة النساجون الشرقيون أكبـر
صناع السجاد بالعالم
ونحن مجموعة متطـورة ونشطـة فى نظام صناعىمتكامل فى صناعة
السجاد والموكيت وأنتاج الخامات اللازمة لهذة الصناعة ولا يقتصر مواقع
الأنتاج على مصر بـل تمتـد الى امريكـا والصيـن وانجلتـرا واستراليـا
بالاضافــة الــى شركات التسويق و التجارة الدولية التى تغطى العالم
النساجون الشرقيون
OrientalWeavers
Corporate Office : 8 El Shaheed Zakaria
Khalil Street.Heliopolis.Cairo.Egypt
tel . : 02 - 2672121 fax : 02 - 2672241
e-mail owc@orientalweavers.com

التوحّد فى الإيمان

الأمير تشارلز

[١]

لقد تأثرت بالغ التأثر عندما علمت أنكم قررتم دعوتى لأتحدث إليكم فى هذا الصرح الدينى والعلمى العتيد والتليد. ولقد أكرمتمونى بالغ الإكرام بدعوتكم هذه، كما أننى يشرفنى بصورة خاصة أن أزور جامعة الأزهر الشريف، وفى الحقيقة، أن أزور مصر التى أكن لها محبة خاصة، وهى البلد الذى يعتبره الكثيرون بلداً ذا قداسة خاصة إذ كان ملاذاً لجأ إليه السيد المسيح فى بواكير طفولته.

اسمحوا لى أن أبدأ حديثى بذكر محامد الرجل الذى كان أول من شجعنى على أن أقبل الدعوة لأتحدث فى هذا المكان. إنه صديق عزيز وأحد الذين تخرجوا فى هذه الجامعة العريقة، ألا وهو فضيلة الشيخ زكى بدوى، الذى كانت وفاته فجأة فى شهر يناير الماضى صدمة هائلة أحزنت العديد من الناس فى العالم حزناً عميقاً، فقد كان الشيخ زكى بدوى حقاً يتصف بالحكمة والمعرفة وبالتواضع الذى هو من شيم العالم الأصيل أدخل - رحمه الله - الآخرين فى رحاب علمه الواسع، وكان فى كل ذلك يأسر محدثه بما يتمتع به من روح الفكاهة وحضور البديهة.

أنا لا أدعى أننى من أولى العلم، اللهم إلا أننى درست التاريخ فى جامعة كمبريدج ولى اهتمام خاص بالتراث الذى ولدت فيه، وهو تراث إبراهيم الحنيف الذى يجمع اليهود والمسيحيين والمسلمين، فقد كان لهذا التراث الفضل فى تشكيل شخصيتى وتكوين ذاتى. واليوم أقف بينكم واحداً من أولئك الذين ينتمون إلى تلك الأسرة من الأديان التى يربط بينها تراث إبراهيم.

[٢]

إن جذور الإيمان فى أدياننا جذور مشتركة، فكلنا نؤمن بما آمن به إبراهيم بأن الله إله واحد، وهذا ما يسبغ علينا جميعاً قيماً ومُثلاً لا تبلى ولا تزول. علينا أن نتحلى بالشجاعة لنعبر عن هذه القيم ونؤكدها مرة بعد أخرى فى عالم مضطرب بما يشهده من التغيرات والاختلافات. وقبل أى شىء آخر، فإن هذا هو ما أود أن أتركه لكم من حديثى إليكم اليوم. أولاً: وقبل ما عداه، لنتذكر أسمى القيم فى تراثنا المشترك النابعة عن محبة الله، وهى الاحترام الذى يكنه بعضنا لبعض ولكل ما خلقه الله سبحانه وتعالى. فما الاحترام الذى نكنه للخليقة وللبيئة التى نعيش فيها إلا تعبير عن الاحترام الذى نكنه للخالق العظيم الذى أوحى بالوجود كله.

ثانياً: وتباعاً لما سبق، إن معتقداتنا والمبادئ والمُثل التى نؤمن بها تدعو إلى إقامة السلام لا إلى الحرب والخصام، فالإنسان مدفوع بحكم طبيعته إلى أن ينتقد أخاه الإنسان ويتنافس معه، ولكن ما يربط بيننا كمؤمنين بالله يدعونا جميعاً أن نسمو بأنفسنا إلى تبادل الاحترام والتفاهم.

وثالثاً: فإن تراث إبراهيم العظيم يعتبر أن مرسى الأديان هو القلب، وهو خارج حدود إدراكات العقل وأحكامه، فمهما كانت مكانتنا فى المجتمع الإنسانى ومهما كانت الامتيازات أو العوائق التى نجدها فى قدراتنا ومعارفنا فإننا ننظر إلى حقيقة الإيمان بتلك العين البصيرة، أى «عين القلب»، ويذكرنا النبى موسى عليه السلام بأن القلب هو عرش الإيمان إذ يقول: «فتحب الرب إلهك من كل قلبك» (تثنية ٤/٦). وإنى على يقين بأن الأديان السماوية العظمى تخاطب عبر نصوصها المقدسة القلب، فالإيمان بحد ذاته شعور نابع من القلب.

وعلى الرغم من أننى أقدر حق التقدير الروابط التاريخية التى تجمع بين الأديان التى تعود جذورها إلى رسالة النبى إبراهيم عليه السلام، فأنا لا أريدكم أن تظنوا، ولو للحظة واحدة، بأننى أعتبر تلك الأديان كلها متساوية ومتشابهة فى كل الأمور، فهناك فوارق علينا أن نعتز بها ونجلها، ولكن لأدياننا فى الأمور ذات الأهمية القصوى جذوراً مشتركة، وفى نظرى أن غاية الله فى خلقه لا شك فيها ولا ريب، فقد أراد الله لنا أن نتعارف ونتآلف، متحدين رغم تنوع أدياننا واختلاف مذاهبنا. وكم هى مؤثرة فى النفس حقاً تلك الآية القرآنية الكريمة حيث يقول الله تعالى «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير» (سورة الحجرات الآية ١٣).



[٣]

كانت المرة الأولى التى عبرت فيها علنا عن رأيى بالنسبة للعلاقات بين الإسلام والغرب فى عام ١٩٩٣ فى كلمة ألقيتها فى جامعة عظيمة أخرى هى جامعة أكسفورد. وذكرت فى حديثى آنذاك أمراً سبب لى منذ تلك اللحظة كثيراً من القلق والتحسب. فقد قلت فى كلمتى:

محاضرة ألقاها الأمير تشارلز فى جامعة الأزهر فى ٢١ مارس ٢٠٠٦

> **إنى على يقين تام بأن على المسئولين رجالاً ونساءً أن يعملوا على إعادة الاحترام المتبادل بين الأديان وأن نجتهد ما وسعنا للقضاء على عوامل سوء الظن وعدم الثقة اللذين يسممان حياة العديد من الناس**

«... رغم ما تحقق من تقدم فى التكنولوجيا وفى انتشار الاتصال الجماهيرى فى النصف الثانى من القرن العشرين، ورغم قيام جماهير غفيرة من الناس بالسفر والترحال واختلاط الأجناس والأعراق، فإن سوء التفاهم بين الإسلام والغرب مازال قائمًا، والواقع أنه فى تزايد» (محاضرة «الإسلام والغرب» فى مسرح شيلدونيان، أكسفورد، ٢٧ أكتوبر ١٩٩٣).

والمأساة هى أن السنوات الاثنتى عشرة التى مضت منذ إلقائى ذلك الحديث برهنت على مخاوفى، فقد كانت تلك السنوات فى معظمها مظلمة ظلامًا حالكًا وكئيبًا بالنسبة للكثير من الناس، ولا أخفيكم أن قلبى موجع يمتلئ حزنًا وأسى لمشاهد الموت والدمار التى لا نهاية لها، فأنا أدرك تمامًا ما يعنيه القتل والدمار، فقد لمست بنفسى فداحة الخطب عندما فقدت خال والدى الحبيب اللورد مونتباتن الذى اغتيل فى العام ١٩٧٩ على يد إرهابيين استخدموا المتفجرات لقتله، فكم هى ملوعة تلك الصور الدامية لمجتمعات تمزقها الصراعات الدينية، من البوسنة إلى بغداد، ومن الشيشان إلى فلسطين، وكل هذه ما هى إلا شواهد على استفحال الخلافات القائمة وتفاقمها، فالعنف الذى كثيرًا ما يرتكب غالبًا باسم الدين ويبرر به له آثار رهيبة تحجر القلوب وتزيدها قساوة. فما الفائدة التى يمكن أن تجنى من كل ذلك؟

وتناولت فى حديثى تاريخ أوروبا والعالم الإسلامى وكيف ارتبطت أوروبا بالعالم الإسلامى ارتباطًا وثيقًا وكيف جرى التعاطى بين الطرفين عبر القرون المتعاقبة، وتحدثت عن تبادل المنافع بين الطرفين وإسهامهما الكبير فى تشكيل عالم اليوم، وقد أظهر لنا التاريخ الطفرات الهائلة لموهبة الابتكار والإبداع فى مجال المعارف، كالعلوم والآداب والفنون، التى يمكن للبشرية تحقيقها عندما تتضافر قوى أعضاء الأسرة التى رفع قواعدها إبراهيم عليه السلام، وتتعاون فيما بينها، فهل لنا أن نستدر الإلهام من ذلك التفاهم والتفجر الهائل فى العلوم والمعارف إبان عهد العباسيين بين القرنين التاسع والثالث عشر عندما كانت حاضرتهم بغداد مركزًا عالميًا للمعرفة والعلوم، أو نستدر الإلهام من الأندلس فى عصرها الإسلامى بين القرنين العاشر والرابع عشر حين شهدت مدنها من أمثال قرطبة وطليطلة كيف تآزر العلماء المسيحيون والمسلمون واليهود فقادت نشاطاتهم إلى ازدهار عصر النهضة فى أوروبا. وعلينا نحن الذين نعيش فى الغرب أن نتذكر أننا ندين بالكثير لعلماء المسلمين، فقد كان الفضل لهم فى أنهم حافظوا فى العصور المظلمة فى أوروبا على كنوز العلوم والمعارف الرومانية واليونانية القديمة.

ولكننى قلت أيضًا فى حديثى ذاك الذى أشرت إليه، إنه من المؤسف رغم هذا التبادل الغنى فى الآراء والأفكار، أن نجد أناسًا عديدين فى الشرق والغرب مافتئوا يكنون تعصبًا لا هوادة فيه ولا لين تجاه ثقافة بعضهم البعض، وانعدام الثقة المتبادلة بينقلطقين مايزال قائمًا يتمخض عن نتائج رهيبة. وأفكر فى التجربة التى يمر بها المسلمون الذين يعيشون فى أوروبا ويعانون من مظاهر متعددة مستمرة من هوس العداء ضد الإسلام والمسلمين من قبل مواطنيهم من الأوروبيين. وأفكر أيضًا فى المسيحيين الذين يعيشون فى بعض الأمم الإسلامية والذين يجدون أنفسهم وقد كبلتهم قيود صارمة ومهينة، أو قد يتعرضون للإساءة والأذى من قبل بعض إخوانهم من المواطنين، وأفكر أيضًا فى أعمال العنف والإرهاب التى ترتكب فى العالم بصورة تشوه اسم الدين.

إنى على يقين تام بأن على المسئولين رجالاً ونساءً أن يعملوا على إعادة الاحترام المتبادل بين الأديان وأن نجتهد ما وسعنا للقضاء على عوامل سوء الظن وعدم الثقة اللذين يسممان حياة العديد من الناس، ومما يجعل هذا الأمر أكثر صعوبة فى الصور المشوهة للطرف الآخر والسخافات التى تنشرها بعض وسائل الإعلام. وقد حاولت أنا شخصيًا وبصورة متواضعة جدًا أن أجد الوسائل التى يمكن بها دمج الجماعات المختلفة والاعتزاز بقيم ومثل الثقافة الإسلامية فى المملكة المتحدة، وسعيت إلى تحقيق ذلك عن طريق نشاطات صندوق الأمير ومؤسستى المعروفة بالبيئة المعمرة ومدرستى الخاصة بالفنون التقليدية، وآمل أن تصبح هذه البرامج مع نموها وتطورها عبر بلاد أخرى نماذج تحتذى من قبل مجتمعات فى أماكن أخرى. فحتى من خلال أصغر المشاريع والنماذج يمكن إعادة وضع أسس الاحترام المتبادل ومراعاة شعور الغير والتحلى بالآداب والأخلاق. ومن الممكن أحيانًا إعادة وضع هذه الأسس من خلال بناء المسكن والمحيط المادى والبيئة الخاصة بالناس. فالمحيط المطلوب هو الذى يساعد على زيادة شعورنا بإنسانيتنا المشتركة عوضًا عن إحساسنا بأننا ملحقات تكنولوجية فيما يحيط بنا من عالم يزداد آلية.

[٤]

لقد كان للتركة التى خلفتها صراعات الأديان وسوء التفاهم فيما بينها دور رئيسى فى التاريخ الفظيع للحرب والعنف. وما أشد انطباق هذا بالطبع على ما خلفه أيضًا «المذهبان العلمانيان» اللذان انتحلا صفة دينية خلت من كل تقديس وهما الشيوعية والفاشية بكل ما تأتى عنهما من دمار وبطش وحشى فعلى مما ينذر بعظيم الويلات والكوارث.

وفى مقدورنا الآن التعرف على رد فعل المجتمعات الإنسانية مع تطورها عبر القرون تجاه هذه التركة. فنجد أن رد الفعل هذا كان من نوعين متميزين: الأول منهما يتمثل فى تمسك البعض بدينه تمسكًا شديدًا كمصدر للاستقرار فى حياته، ولا يرى فى الأديان الأخرى عند أى صراع سوى أخطار تهدد وجوده. وأما الثانى فيتمثل فى فقدان الناس هيبتهم للدين وما له من نفوذ غيبى وبعد يتخطى حدود ذواتنا. إنه التخلى عن كل إيمان بالله وتبن للاعتقاد القائل بأن الدين مظهر من مظاهر «التخلف» و«البدائية» و«الزلل». إن عدم احترام الناس للدين يشكل خطرًا على إرثنا الدينى وعلى قيمنا الإنسانية العامة وتراثنا الحى. وإذا اقترن هذا الوضع بهوس التشبث بالماديات وبالأمور الدنيوية التافهة، فإن ذلك لا يشكل خطرًا على التراث الثقافى لديننا المسيحى وحسب، بل وعلى العالم بأسره.

ففى أوروبا فكر بعض المخلصين من الناس مدفوعين برد فعلهم تجاه الحروب التى بدت لا نهاية لها بين الطوائف المسيحية المختلفة، بأنه لو تم تكوين مجتمعات علمانية حقًا يختفى فيها ما ينسبه الناس إلى الدين من تعصب وعنف وتنطع، وتزول منها الأسباب الكامنة فى أساس الصراعات الدينية، فإن ذلك يعود علينا جميعًا بالخير ويمكننا من التعايش على نحو أفضل. وكان أملهم أن يحل محل النظام الدينى القائم برنامج لتحسين الأوضاع المادية للناس وضمان أمنهم وسلامتهم عن طريق الاكتشافات

التوحـد فى الإيمـان

العلمية. وأن يساعد ذلك مسيرة التآلف والتقدم والرفاهية الإنسانية فى المضى قدماً عندئذ دون عراقيل.

وكان من المحتوم ألا تسير الأمور بهذه السهولة، فقد اتضح أن المعرفة العلمية التى جلبت لنا وأغدقت علينا الكثير مما نقدره حق التقدير ونسلم بأنه نعمة من النعم ليست بمثابة الحكمة ذاتها، لأن الحكمة وحدها هى القادرة على أن تكشف لنا تلك الحقائق الشاملة الدائمة التى تكمن فى صميم كل الأديان الكبرى. لكن هذه الحقائق التى وفرت لأسلافنا هيكلاً آمناً لوجودهم وأمدتهم بمجموعة واضحة المعالم من القيم الأخلاقية قد انحجبت اليوم عن كثير من الناس وتلاشت كليًا من حياتهم، وهذه ظاهرة لا تخص الغرب وحده، بل نراها فى كل عرق ينتمى إلى أسرة إبراهيم الروحية.

فلقد كان لما فقدناه آثار عميقة الجذور، فأنا أومن بأن الاعتدال مصدره الحكمة التى انحدرت إلينا من التراث، وأما التطرف فهو استغلال لوضع فقد فيه احترام التراث. ففقدان اليقين المبنى على الإيمان يدفع بالعديد من الناس إلى اللجوء إلى المنطلقات الجديدة التى تأتى كأى معتقد بدائى، لا تتقبل أن تكون موضع السؤال أو التحفظ ولكنها تؤدى إلى أشكال مختلفة من أشكال التطرف.

علينا أن نعود إلى إحياء ما تمتع به العالم الإسلامى فى عصوره الذهبية من عمق وحس مرهف، ورحابة صدر فى التفكر والرؤية واحترام وإجلال للحكمة، فلقد كرم الإسلام اليهود والمسيحيين بأن أطلق عليهم اسم «أهل الكتاب» لأنهم كالمسلمين يجتمعون على دين كُتب سماوية: القرآن والتوراة والإنجيل. ولعل ما يميز تلك العصور العظيمة من عصور الإيمان كان الإدراك السائد بأنه بالإضافة إلى الكتاب هناك حاجة إلى تفسيره وتبيانه فى علم خاص به يتسم البحث فيه بالدقة والصعوبة، فأدى ذلك إلى وضع أسس علم التفسير وقيام المدارس الكبرى لتدارس الفقه والشريعة.

فبين النص وتفسيره، أى بين معنى كلمة الله الباقية لكل زمان، وما تعنيه لنا فى هذا الزمان، يأتى التفسير، ولقد كان من عظمة الإسلام أن أدرك المؤمنون به هذه الحقيقة إدراكًا عميقًا كما أدركوا ما يواجهونه من تحديات، وأنتم أيها الأفاضل فى هذا الصرح العريق يمكنكم أن تسهموا بمثل هذا ليس بالنسبة للعالم الإسلامى فحسب، بل عن طريق المثل الذى تضربونه بالنسبة لكل الآخرين من أسرة إبراهيم.

فاليوم، وفى أغلب الأحيان، هناك اتجاه بأن النصوص المقدسة يمكن قراءتها دون أن يحتاج ذلك إلى تفسير وتبيين، وكأنما المفروض أن نقرا تلك النصوص قراءة سطحية، إن مثل هذه القراءة تسىء إلى حقيقة كلمة الله، والإساءة فى فهم كلمة الله تقود فى مآل الأمر إلى الإساءة إلى الإنسان والإساءة إلى العالم.

إذا كنا لا نسمع فى النصوص المقدسة سوى حقائق قاطعة مبسطة، وإذا كنا لا نرى فى رحاب الله الواسعة ذات الألوان سوى الأبيض والأسود، نكون عندئذ قد شطرنا الإنسانية إلى شطرين مبسطين مضادين هما: أهل الخير، وأهل الشر، أهل التقى وأهل الشطط، ونحن وأعداؤنا. وهذا ما يقود إلى الحقد والكراهية والعنف. وبهذا نفقد المبدأ الوحيد الذى لا يعلى عليه والذى يجمع الأديان التى تكون أسرة إبراهيم الروحية، وهو المبدأ الذى عبرت عنه التوراة بالقول: «.. بل تُحب قريبك كنفسك» (اللاويين ١٩/١٨)، ثم الإنجيل بقوله: «فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضًا بهم» (إنجيل متى، إصحاح ٧/١) وفى الحديث الشريف «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (حديث شريف).

[٥]

إذا كان لنا أن نلتزم بطاعة هذه التعاليم لضمان الاستمرار فى إسماع صوت الاعتدال والعمل على مجابهة التطرف والتصدى له، فماذا يمكن لمفاهيمنا عن الله سبحانه وتعالى، وهى المفاهيم الكامنة فى صميم دياناتنا، لتساعدنا وتمدنا بالعون لتحقيق هذا الغرض؟ إنه أولاً: لا شك فى أن الله تعالى لا يريد لنا أن يقتل بعضنا بعضًا، وهذا ما تأمر به أدياننا جميعها. ثانيًا: فى هذا العالم التجريدى المادى الذى يضيع فيه المعنى الروحانى، ألا ينبغى أن يتحد الذين يتشاطرون الإيمان ويتخطون الذات ويسمون على الأنانية والشهوات ويترفعون عن عبادة العلم للعلم ذاته، أولئك الذين يؤمنون بوجود كون شامل متكامل يوازن بين العقل والجسد والروح، أى بين الفكر والضمير عبر إدراك شامل لذلك النظام الذى أراده الرحمن للعالم هبة مستورة من لدنه ومحبة من عنده ليكرم به خليقته؟ ألم يعد مؤكدًا أن علينا أن نتحد معًا بناء على ما يجمعنا من المبادئ المشتركة فى أدياننا؟ أفلا ينبغى للحكمة التى سبق وأشرت إليها أن تنبهنا إلى أنه يجب علينا أن نعمل متحدين على أساس معتقداتنا المشتركة للتصدى لأعظم أزمة بيئية يمكن تصورها والتى تهدد العالم بأسره، وأن نفعل ذلك دون أن نقاتل بعضنا بعضًا أو نتجادل فى أمور تافهة لا طائل تحتها؟ ثم ما الذى يمكن أن نتعلمه من الإسلام ليساعدنا على العودة إلى الاندماج اندماجًا سليمًا مع الطبيعة التى أبدعها الخالق العظيم؟ أفلا نستطيع أن نتبين الحاجة الملحة لدمج عبقرية الشرق البدهية وعبقرية الغرب الواقعية قبل فوات الأوان؟

إن التشديد على احترام بعضنا البعض هو فى صميم تعاليم أدياننا كلها. وهذه المسألة أهم شأنًا من أن تكون مسألة جدل سياسى حول حقوق الأقليات، فالمسلمون والمسيحيون واليهود متفقون فى الإيمان بكرامة الإنسان وقيمته. فكل إنسان منا فريد بذاته وذو قدر فريد عند الله. ونحن عندما نتعرف على أنفسنا وندرك وهننا ونقاط ضعفنا نستطيع أن نتبين أهمية تفهمنا للآخرين ورؤية وجهة نظر الغير.

إن احترام الغير، واحترام ما يعتز به الآخرون، بمعنى آخر، إن السلوك الحميد والأدب ودماثة الخلق وحسن الاستماع إلى الرأى الآخر، كل هذه المزايا تضمن وتؤمن احترام القيم والمبادئ. وقد برهنت الأزمة الرهيبة مؤخرًا وما صاحب ذلك من انفجار الغضب العارم بسبب الصور الكاريكاتورية الدنماركية على مدى الخطر الذى يتأتى عن إخفاقنا فى الاستماع إلى الآخرين وفى احترام ما هو عزيز على الغير ومقدس عنده. فالسمة المميزة لأى مجتمع متحضر، فى رأيى، هى ما تجزيه من احترام للأقليات والغرباء. وإكرام الضيف وحسن استقبال الغرباء وعابرى السبيل من مسافرين عنصر يُعتز به حقًا فى الحضارة العربية. ونحن فى بريطانيا بذلنا جهداً كبيراً للترحيب باتباع الديانات الأخرى وفى تمكينهم من المحافظة على هوياتهم الفريدة وتكيفهم فى الوقت ذاته مع الثقافة البريطانية، وهناك الآن أكثر من مليون ونصف المليون مسلم بريطانى، يُثرون المجتمع البريطانى ويغنونه بطرق عديدة، كما أننى على يقين بأن الأقليات المسيحية هى أيضاً تُثرى مجتمعاتها الإسلامية وتغنيها بأساليب شتى.

ونحن كأهل الإيمان نعلم أيضاً أن روح الإنسان تعود إلى بارئها، إلى أفق الحياة الخالدة، وندرك بالحدس والبديهة أننا كثيراً ما نركز اهتمامنا على العالم الظاهرى الذى غالباً ما يستبعد ما لا يمكن قياسه ووزنه. ولذا يسقط من الحسبان ما لا يقاس أو يكال ويوزن. ولكن كيف يتسنى لنا أن نقيس ونزن الإيمان أو الجمال أو الولاء أو الفرح، أو حتى كيف يكون لنا أن نقيس المحبة ونكيلها، وكل الأمور التى تجعل الحياة جديرة بالعيش وتساعد على تحديد جوهر إنسانيتنا؟ ألا تشكل هذه السجايا حقيقة روحية داخل نفوسنا؟ وعندما نتحدث عن الحقيقة الكامنة فى داخل الإنسان فإن ما نقصده فى الواقع هو ذلك

البعد الذى وراء المادة ويتخطى حدودها. وبمعنى آخر نتحدث مرة أخرى عن القلب. نتحدث مجازًا عن الفؤاد كمنبع للرحمة والتراحم، أى «المحبة» التى وردت على لسان القديس بولس فى إحدى تراجم الإنجيل (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح ١٣)، والمحبة عند المسيحيين غاية الفضيلة.

وعندما تواجهنا مشكلات التفاهم بين الأديان والثقافات، أليس ما نفتقده بالذات هو ذلك الشعور القلبى المتسم بالاعتدال والتسامح؟ إنه ذلك الإحساس الذى يمكننا جميعًا أن نتقاسمه. ويذكرنا به أدباؤنا العظام من أهل الرؤية والفكر فيما كتبوه وفى المثل الذى ضربوه. ألم ينصحنا هؤلاء العظام من أصحاب الحكمة الخالدة، رجالاً ونساءً، من أمثال جوليانا راهبة نوريتش والحَبْر اسحاق لوريا والإمام محمد إدريس الشافعى - ألم ينصحنا هؤلاء بضرورة أن نعادل تصرفاتنا العدوانية السطحية بسلوك لطيف تأملى، أى التحول عن منطقة الرأس والعقل إلى مجال القلب حيث توجد طيبة إنسانيتنا المشتركة وخيرتها؟

واسمحوا لى بأن أوضح أن ما أعنيه ليس الانكفاء إلى التأمل الانطوائى، وإنما هو وصفة لتفاهم ناشط فعال فى تعاملنا مع الآخرين. ونحن فوق كل هذا نشترك فى الإرث التقليدى القائم على الوحى الذى شكل أساس أدياننا. ولعل ما يدعو إلى الاهتمام أن العلم بدأ يكتشف النظام والانسجام المتأصلين فى الطبيعة، وهو أمر تكشف للقدامى منذ آلاف السنين. وهذا لا شك مؤشر ينم عن حقيقة أساسية تتعلق بنمط الحياة فى داخل نفوسنا، إنه نمط سر الله الغامض للعالم الظاهر.

[٦]

اعتقد أن علينا واجبًا مشتركًا بالنسبة للتعبير عن المبادئ التى تقوم عليها معتقداتنا الدينية، كما أعتقد أن علينا أن نحافظ على سلامة كل دين من أدياننا الإسلامية والمسيحية واليهودية، ونعترف بتنوعنا الغنى ونحترمه فهو فى نهاية المطاف ضماننا الوحيد ضد سيطرة ثقافة عالمية موحدة أحادية الثقافة سواء دينية كانت أو علمانية.

ولكى ندافع عن عالم الروح ضد المادية الدنيوية وعن الكرامة الرفيعة لكل منا ضد التطرف وعبادة الذات، يجب علينا أن نرعى ونشجع ونفعل كل ما يترجم الصفات الإلهية المتمثلة فى التراحم والتعاطف.

وهذا بحد ذاته يدعو إلى الروية والهدوء وضبط النفس، وهو، إن جاز لى القول، يتطلب من كل ذوى النفوذ فى أدياننا المختلفة إسداء الموعظة وإيضاح قيمة تلك الصفات والمزايا الإلهية للآخرين.

قال الملك سليمان بن داود قبل نحو ثلاثة آلاف سنة: «بلا رؤية يجمح الشعب» (أمثال ١٨/٢٩) وإننى لأتطلع بشوق إلى عالم نشترك فيه برؤية تعترف بما بيننا من فوارق وتحترمها وتتفهمها، عالم نرى فيه أنه لا يمكن، ولا ينبغى لنا، أن نسىء إلى أدياننا العظيمة وتعاليمها باتخاذها سلاحًا نخدم به مصالح أية سلطة دنيوية تتسم بالأنانية وحب الذات.

لا يخالجنى أى وهم بالنسبة لصعوبة أداء هذه المهمة، لكننى أعتقد أنها مهمة يتحتم علينا أن نضطلع بها، ونأخذها معًا على عواتقنا وننجزها اليوم قبل أى وقت آخر. فليس هناك من سبيل آخر للحفاظ على روح القيم والمبادئ التى نعتز بها فى أدياننا أيما الاعتزاز.

ولذا فإن علينا أن نتعاون فى إيجاد عالم تُثرى فيه ثمار الإيمان، بما توحيه من تفاهم وتسامح وتعاطف، عالم أبنائنا وأبناء أبنائنا ونحافظ على أمنه وسلامته.

ويجب ألا ندع هذه الفرصة تفوتنا دون أن نلبى هذا النداء فى عصر يتطلب منا بذل جهود مخلصة للعيش معًا فى سلام. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتَّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

بالعربى الجريح

محمود عوض

القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٦، ٢٦٨صفحة



عشرات المقالات، من الحب إلى الحرب إلى السياسة إلى العنف وأحوال المجتمع والناس، هى بعض ما كتبه المؤلف لمجلة الشباب الشهرية على مدى سنوات، فهو مرة يعلق على هذا الاهتمام الشعبى الجارف ـ بفعل الإلحاح الإعلامى وبقوة التليفزيون ـ بمسلسل «الجرىء والجميلات»، وهو مسلسل أمريكى شغل المصريين لشهور طوال بحلقاته المتتابعة وفتياته الحسناوات وعلاقاته المحرمة وإعلانه المقصود لقيم الفردية والسيطرة والقوة بصرف النظر عن الوسائل، وفى الوقت ذاته كان التليفزيون المصرى يعرض المسلسل اليابانى «أوشين»، الذى كان على النقيض، يعرض حالة من الفقر المدقع والسعى الكادح لتحصيل الرزق وتحقيق الثروة وإنما فى إطار عمل جماعى وارتباط بالمجتمع. منظومتان من القيم جد مختلفتين تابعهما الناس وعلق المؤلف على تأثيراتهما معًا.

يكتب أيضًا عن عبدالحليم حافظ والصداقة التى جمعت بين الاثنين، وكيف ولد من بين أصابعه وداخل عقله، المسلسل الإذاعى الوحيد الذى مثله عبدالحليم حافظ وأذيع فى الإذاعة المصرية «أرجوك لا تفهمنى بسرعة»، وكيف كان عبدالحليم يواصل أداء دوره فى الوقت الذى كان ينفعل ويتفاعل مع ما يجرى فى حرب أكتوبر ورغبته فى أن يقدم عملاً يليق بالمناسبة.

يكتب عن أمريكا التى منذ البداية عرفت ما تريده من المنطقة، ويحلل حوارًا دار بين الملك السعودى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية والرئيس الأمريكى، إنه البترول. أما إسرائيل ووجودها والصراع حول الأرض فتلك مسألة أخرى مهمة بقدر ما تحافظ على سير ناقلات البترول عبر المحيط إلى أمريكا.

مقالات أخرى عن عبد الوهاب وسعاد حسنى اللذين اقترب منهما المؤلف بدرجة كافية سمحت بكشف كثير من الخبايا والسمات الشخصية التى تغيب عن متابعى إبداعهما على الشاشة أو عبر الأثير، كيف يعانيان، ما الذى يؤلمهما، ساعات الأرق الطوال حتى يصل المنتج الإبداعى فى نهاية المطاف إلى المشاهد أو المستمع.

هناك أيضًا حديث عن أحمد زويل والطريق إلى نوبل، وتعدد اهتماماته بالرغم من جهوده العلمية التى استغرقت سنوات طوالا حتى حصوله على أرفع جائزة علمية فى العالم، وعشقه لصوت أم كلثوم والموسيقى العربية رغم اغترابه وعيشه فى بلاد الجاز والصخب الذى لا ينتهى.

مقالات عن حرب أكتوبر وحرب الاستنزاف والنكسة والسلام المستحيل، وأخرى يمكن تصنيفها ضمن أدب الرحلات الرفيع، وثالثة تناقش هموما مصرية ضاغطة كظاهرة الدروس الخصوصية وتأثيرها على كل بيت.

سياحة ثقافية وفكرية ضمتها عشرات المقالات تغطى نحو ٦ سنوات من عمر المجلة الشابة.

■

نحو إقامة مجتمع المعرفة

إبراهيم قويدر

بنغازى: دار الكتب الوطنية، ٢٠٠٦، ٢٥٦صفحة



لا يبدو مجتمع المعرفة خيارًا يمكن التعاطى معه بالقبول أو بالرفض فى المجتمع العربى، المسألة صارت أعقد كثيرًا، مجتمع المعرفة بالنسبة للعرب قضية حياة أو موت. والحقيقة أن الدراسات المتاحة بينت كيف أن ما تنفقه إسرائيل مثلاً على البحث العلمى يتجاوز ما تنفقه الدول العربية جميعها، وكيف أن عدد علمائها فى تخصصات علمية معينة يتجاوز ـ قياسًا بعدد السكان ـ ما تفرزه الدول العربية كلها، هذا فضلاً عن حالة الأكاديميات العلمية هنا وهناك، ومقارنات أخرى جميعها لا تصب فى مصلحة العرب.

هذا الكتاب يطلق صيحة تحذير، وهو يبدأ من المخاطر التى ينبه إليها تقرير التنمية البشرية الذى اعتبر أن التعليم وإقامة مجتمع المعرفة فى الوطن العربى لهما أولوية قصوى، خصوصًا مع ارتفاع نسبة الأمية وتردى مستوى التعليم بدرجة لافتة فى مستوياته المختلفة. ولأن المؤلف هو المدير العام لمنظمة العمل العربية، فقد جاءت دراساته وثيقة الصلة بسوق العمل العربى أو سعى هو إلى تطبيقها على هذا الواقع لتكتسب درجة أعلى من المصداقية.

يقع الكتاب فى ستة فصول وكتب التقديم له الأمين العام لجامعة الدول العربية عمرو موسى.

■

الجماعات العربية فى أفريقيا

عبدالسلام بغدادى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ٨٠٨ صفحات



موضوع الكتاب مركب وثنائى، فهو لا يبحث فى الجاليات والأقليات العربية فى أفريقيا ـ جنوب الصحراء، وحصرًا فى الدول الأفريقية غير الأعضاء فى جامعة الدول العربية.

وعلى الرغم من أن الوجود الاغترابى العربى قد حقق حضورًا اقتصاديًا وتميزًا ثقافيًا، وساهم فى تكوين تاريخ أفريقيا وحاضرها الراهن، إلا أن هذا الحضور قد عانى فى الماضى، ويعانى اليوم فى أفريقيا مشكلات وأخطارًا وتحديات جمة، بعضها يرتبط بالبيئة المحلية الأفريقية، فيما يرتبط بعضها الآخر بالبيئة الدولية.

ويقدم الكتاب معلومات موثقة عن هذه الجماعات تقدم للمرة الأولى فى كتاب جامع، يبحث عن مشكلات الاندماج فى المجتمع المحلى الجديد، كما يحلل علاقات هذه الجماعات بالوطن الأم.

■

السيميائية وفلسفة اللغة

امبرتو ايكو

ترجمة: أحمد الصمعى

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٦، ٥١٠ صفحات



صدر هذا الكتاب لأول مرة سنة ١٩٨٤ متناولاً جملة من التصورات المهمة التى شغلت بال المفكرين فى فلسفة اللغة وفى السيميائية: العلامة والاستعارة والرمز والسنن والمقابلة بين القاموس والموسوعة، وهى مقابلة مركزية فى الكثير من النقاشات بخصوص علم الدلالة والمعجمية والذكاء الاصطناعى والأنظمة السيميائية.

وقد مثلت هذه الإشكاليات الناتجة عنها موضوع فلسفة اللغة، انطلاقًا من أفلاطون وأرسطو، وصولاً إلى مفكرى القرن العشرين. ويقوم المؤلف فى كل باب من الأبواب الخمسة التى يتكون منها هذا الكتاب برحلة فى تاريخ هذه الإشكاليات، بحثًا عن المحطات المهمة التى مر بها الفكر الإنسانى فى فلسفة اللغة عبر القرون.

والنظرة التاريخية التى تتخلل هذا الكتاب ليست مجرد سرد لما قاله القدامى كما أنها ليست مكملة لخطاب يريد متابعة الأبحاث فى هذه المسائل، بل إن المراد بها هو حل الكثير من المعضلات بالرجوع إلى اللحظة التى نشأ فيها هذا التصور أو ذاك.

هذه النظرة التاريخية تلخص أهم ما قيل بخصوص العلاقة والرمز والسنن والقاموس والموسوعة، إضافة إلى الإسهامات المهمة التى قدمها إيكو قبل ذلك فى كتابيه «دراسة فى السيميائية» و«القارئ فى الحكاية».

■

مواجهة المستحيل

إدوار الخراط

القاهرة: دار البستانى للنشر، ٢٠٠٥



مثلت تجربة «جاليرى ٦٨» انعطافة مهمة فى مسيرة إدوار الخراط الفكرية والأدبية، كان أصدر كتابه الأول قبلها بـ ٨ سنوات تقريبًا، غير أن هذه المجلة الطليعية والتى استمرت ثلاث سنوات ولم يصدر منها سوى ٨ أعداد فقط، كان لها أثر كبير فى تطور الحياة الثقافية، وانتشرت مجلات مشابهة فى عدة دول عربية تنمو فى الاتجاه ذاته، لكن تجارب إدوار الخراط وبين أيدينا جزؤها الثانى «مواجهة المستحيل» بعد الأول «مجالدة المستحيل» يتداخل فيها إلى حد الاستحالة، الذاتى بالموضوعى، دخوله السجن فى أيام الملكية عام ١٩٤٨، وترجمته لمسرحية «فى الحضيض» لجوركى التى تم تمثيلها داخل السجن، وعلاقته بالأدب الروسى والفرنسى والإنجليزى فى الوقت

ذاته الذى كان يستعد لإصدار كتابه الأول حيطان عالية.

انشغاله بالأفكار الاشتراكية وأحوال الفقراء والطبقة العاملة. وهى الأفكار التى كانت سائدة فى الخمسينيات والستينيات، وانشغاله كذلك بما كان يعرف آنذاك بالنقد الواقعى، واعتباره النقد تجربة إبداعية وليس مجرد دراسة أكاديمية تتلفع برداء الموضوعية.

فى مجالدة المستحيل يبدو البحر والإسكندرية والفصول والميلاد فى الصعيد وتجارب الكتابة الأولى وعشق السفر والمغامرة عناوين كبرى للسيرة الذاتية، إضافة طبعاً إلى آراء فى الفن والحياة، فيما تغلب فى مواجهة المستحيل، الهموم العامة فى الكون وفى الواقع الاقتصادى والسياسى والثقافى المصرى والعربى، وهى فى معظمها تستند إلى حوارات صحفية أجريت مع المؤلف على مدى سنوات، تأملات فى الأصالة الثقافية والهوية الوطنية والتنوير والالتزام فى الأدب والقيم الجمالية فى الفن والحداثة فى الرواية العربية والتجريب والتجديد فى التراث، ثمة تساؤلات أخرى عن الشبقية وكتابة الجسد وعن كتابة التسعينيات ودور الكنيسة الوطنى، وغيرها كثير، فضلاً عن شهادات عن الراحلين على الراعى وعبدالحكيم قاسم ويحيى الطاهر عبدالله، وكذلك عن أدونيس، مقاطع الخراط من سيرته الذاتية هى فى جانب منها سيرة للإبداع الفكرى والزخم الثقافى والسياسى المصرى والعربى لأكثر من ستين عاماً خلت.

■

أحبك حتى البكاء

فاروق شوشة

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٦، ١١٢ صفحة



بعد ثلاث عشرة مجموعة، هذه هى المجموعة الشعرية الرابعة عشرة لشاعر من حراس اللغة العربية، فصاحب البرنامج الإذاعى الأشهر فى الإذاعة المصرية «لغتنا الجميلة»، مع حرصه على لغة الضاد وجهوده فى هذا الإطار مثقفاً وإذاعياً وباحثاً وشاعراً، لم يتخل أبداً عن التجريب فى اللغة وإيقاعاتها، ولم يرفض تياراً جديداً، بل تجاوب مع كل آتٍ دون أن تشطح به المغامرة إلى حد التجديف.

وهذا الديوان إلى ما فيه من قصائد عاطفية، رومانسية الطابع واللغة (يتم - أحبك حتى البكاء - ثلاثة وجوه لثلاث نساء) يحاور اللغة فى قصيدة (لغة)، ويشتبك مع الواقع بتحولاته الاجتماعية الصادمة الإحساس شاعر يراقب ويحلم بغد آخر (وحيد كحبة رمل - شجون عام جديد) وقصائد أخرى ذات طبيعة سياسية وفكرية (خَدَم - شبيه زماننا - رهان - كلهم يعرف نفسه).

من أجواء الديوان (قصيدة خدم):

خدم/ خدم/ وإن تبهنسوا/ وصَعّروا الخدود كلما مشوا/ وغَلّظوا الصوتَ/ فزلزلوا الأرض/ وطرقعوا القدم/ خدم/ وإن تباهوا أنهم/ أهل الكتاب والقلم/ وأنهم - فى حلكة الليل البهيم/ صانعو النور/ وكاشفو الظُّلَم/ وأنهم - بدونهم -/ لا تصلح الدنيا/ ولا تفاخر الأمم/ ولا يعاد خلق الكون كله/ من العدم/ لكنهم خدم/ بإصبع واحدة/ يستنفرون مثل قطعان الغنم/ ويهطعون علهم يلقون/ من بعض الهبات والنعم/ لهم، إذا تحركوا/ فى كل موقع صنم/ يكبرون أو يهللون حوله/ يسبحون باسمه، ويقسمون/ يسجدون/ يركعون/ يمضون فى رياء زائف/ وفى ولاء متهم.

■

دور النخبة القانونية فى تأسيس الدولة العراقية

عبدالحسين الرفيعى

بيروت: دار الرافدين، ٢٠٠٥، ٣٧٧صفحة



شهد العراق فى العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين تبدلات حادة عميقة، بدأت فى العام ١٩٠٨ بحركة الاتحاديين ومحاولاتهم تغيير اتجاهات ومسارات الدولة العثمانية، وحين قامت الحرب العالمية الأولى، دخلت الدولة العثمانية طرفاً إلى جانب دول الوسط ما فتح الطريق أمام الأطماع الاستعمارية فى الدول الخاضعة للإمبراطورية الآفلة، وبدأ صراع بين إنجلترا وفرنسا على العراق، ونزلت القوات البريطانية إلى العراق واحتلته وفرضت عليه حكماً عسكرياً، واستنفر الاحتلال قدرات الشعب العراقى وبقية النخب، وفى مقدمتها النخب الدينية تطلعاً نحو الاستقلال.

وفى إطار هذه التطورات زاد الوعى السياسى والفكرى، وكان لمدرسة الحقوق فى بغداد دور بارز فى تدعيم فكرة الوطنية والنزوع نحو الاستقلال، وقد حاول الإنجليز غلقها بأساليب شتى للقضاء على دورها الوطنى، كما حاول ذلك الملك فيصل الأول لإجهاض تمرد طلاب الحقوق بين عامى ١٩٢٤ و١٩٢٧، خصوصاً وقد بدأوا يتحركون داخل أروقة السلطة التشريعية لحملها على رفض المعاهدات الاستعمارية.

وكثيرون من أبناء مدرسة الحقوق تبوأوا مناصب مهمة فى الدولة تحت الانتداب، وكان منهم الوزراء ورؤساء الحكومات فى الكيان العراقى الجديد، وكانت لهم مساهمات بارزة فى مجال التشريع والقضاء وترسيخ فكرة النظام والقانون، دون أن ينفى ذلك وجود آخرين عملوا لأهدافهم الشخصية وكسروا رقبة القانون نزولاً على رغبة قادتهم السياسيين وطموحاتهم فى النفوذ والسلطة.

ويشير المؤلف فى إطار تتبعه لمسارات النخبة القانونية فى العراق إلى ملاحظة مهمة، وهى أن مدرسة الحقوق ظلت فى بغداد، وبقى لهذه المحافظة الحصة الكبيرة من خريجيها، وبقى قليلون من أبناء المحافظات غير قادرين على الدراسة فيها، وهو ما خلق فراغاً عانى منه الكيان العدلى بعد تأسيسه.

هذه الدراسة - وهى فى الأصل رسالة ماجستير - تحفل بالدور الذى لعبته النخبة القانونية فى تأسيس الدولة العراقية من ١٩٠٨ وحتى ١٩٣٢.

■

العلاج النفسى بين الشرق والغرب

آلان واطس

ترجمة: ثائر أديب

دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٥، ٢٠٨صفحات



لم يحاول أحد حتى الآن أن يكشف على نحو شامل عن مخطط أساسى مشترك بين طرائق العلاج النفسى وغاياته وبين تعاليم البوذية واليوجا وغيرهما، وعلى الرغم من أن هذه التعاليم قد لا تكون علاجات نفسية بالمعنى الدقيق، إلا أنها متضمنة فى هذه العلاجات أو بعضها مستند إليها حتى وإن دون وعى، وبدأ علماء النفس الغربيون يبحثون عن حرية الروح فى حكمة الشرق ودياناته، وشهدت العقود الأخيرة اهتماماً غربياً بطرائق الحياة الشرقية، غير أن ذلك لا يعنى أن العلاج النفسى الحديث يستند فحسب على ما يرد من الشرق، وإنما من هذا التلاقح المثمر بين حكمة الشرق وحكمة الغرب، ومن ثم فالفلسفة التى يستنبطها هذا الكتاب تنظر إلى الكون بوصفه كوناً عضوياً ومترابطاً، ولهذا فهو يقيم وزناً كبيراً لصلة التعاليم الشرقية بأشكال العلاج النفسى ذات الفلسفة الاجتماعية الخاصة بالعلاقات الاجتماعية والاتصالية، وقد أضحت هذه الفلسفة بقعة خلفية للطب النفسى الغربى.

وقد استفاد المؤلف فى تحليله هنا من نقاشاته مع أشخاص منخرطين فى العلاج النفسى على نحو فاعل ونشيط، وإقامة ملفات دراسية حول موضوع الكتاب، ومحاضراته فى كليات الطب ومعاهد الطب النفسى. وقد مثلت كل هذه المصادر حصيلة الاستنتاجات التى انتهى إليها المؤلف.

■

وردة أم قنبلة؟

إعادة تكوين سوريا

محمد كامل الخطيب

دمشق: المؤلف، ٢٠٠٦، ١٠٠ صفحة



تقوم المجتمعات على روابط معينة تتغير بتغير الظروف والأحوال، هذه الروابط قد تكون قبلية أو طائفية أو عقائدية، والروابط هى هويات واقعية بقدر ما هى متخيلة ومؤقتة بقدر ما هى قديمة، وبعض الهويات يختارها الفرد وبعضها يكون مفروضاً عليه، وبقدر ما، وفى عالمنا المعاصر، يزداد الميل نحو الهويات المختارة على حساب الهويات المفروضة، وهكذا تخترع الهويات القومية بديلاً عن الدينية، أو الشيوعية بديلاً عن القومية، أو الرأسمالية بديلاً عن الشيوعية وهكذا. وحينما يتصل بسوريا، فقد قام الكيان السورى بعد تكوين عدة دول من بقايا التركة العثمانية على أساس الرابط القومى العربى وليس الرابط الدينى، وهو ما أتاح إدماج التعدد الطائفى والدينى فى هذا الكيان الجديد، ولهذا بقى الفكر القومى قوياً ونشيطاً فى سوريا، برغم عدم حماس البعض للفكرة، وبهذا المنطق يرى المؤلف أن الدعوة إلى برنامج سياسى يقوم أساساً على رابط دينى إسلامى، هو عودة إلى ما قبل العقد القومى الوطنى الثقافى، وهو التوافق الذى قام عليه الكيان السورى، بما يهدد بتفتيت هذا الكيان فى حالة توظيف الدين فى السياسة.

وبرأى المؤلف فإن الاستبداد الدينى أو القومى أو الطائفى أكثر خطراً من الاستبداد العسكرى الحزبى، فالنوع الأخير لا يتدخل فى شئون الإنسان الحياتية اليومية، ويكاد يكون مرهوناً برحيل الطغمة العسكرية أو الحزبية الحاكمة، وهى المخاوف التى يبررها ما جرى فى سوريا الثمانينيات، حين تحولت المعارضة السياسية إلى معارضة دينية،

وتشكيل جمعيات ومجتمعات طائفية، بما يؤدى إلى مزيد من التوترات والتعقيدات وربما الفوضى والحرب الأهلية والإقليمية.

لهذا كله يقف المؤلف فى الخندق الرافض لخيار الدولة الدينية ومشروعها، ويدعو إلى مقاومة هذا الخيار فى سوريا فى إطار إعادة تكوين الدولة والذى يطالب بأن يجرى على أساس عقلانى علمانى ديمقراطى مدنى.

■

محرقة اليهود

معسكر اعتقال أو شوتيز - بيركينو
رمسيس عوض
القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٥، ٢٣٣صفحة



ليس أكثر من محرقة اليهود إثارة للجدل بين وقائع التاريخ المعاصر، وما أن يقترب منها مفكر أو مؤرخ أيًا كان موقعه ومهما كانت قيمته، حتى تقوم الدنيا ولا تقعد، وفى كثير من دول أوروبا وأمريكا طبعا، ثمة قوانين تجرم التشكيك فى الواقعة وعدد ضحاياها كما يرويها اليهود أنفسهم، ولعلنا نذكر ما أصاب المفكر والفيلسوف الفرنسى روجيه جارودى، حين تجرأ أو هبط بالضحايا من ستة ملايين إلى أقل من مليون يهودى، وحين قال إن كثيرين فى أوروبا كانوا ضحايا للنازى وواجهوا عمليات تصفية أقسى وأشرس من تلك التى واجهها اليهود كالبولنديين مثلاً، على الرغم من أنه لم يشكك فى الواقعة تاريخيًا إنما سعى إلى تشذيبها وتخليصها من المبالغات فحسب.

المؤلف الذى سبق له أن أصدر كتابًا فى الموضوع تحت عنوان «الهولوكوست بين الإنكار والتأييد»، يتناول هنا معسكر الاعتقال الشهير فى بولندا والمعروف باسم «أوشوتيز»، والذى كان مجرد ثكنات للجيش الألمانى، ثم تم تحويله إلى معسكر للاعتقال، كان معسكرًا للاستعباد والسخرية فى الفترات التى اشتدت فيها حاجة النازيين إلى عمال، وتنازعت النازى رغبتان مع وصول أعداد كبيرة من اليهود إلى المعسكر والرغبة فى إبادتهم نهائيًا والرغبة فى تسخيرهم لإنجاز أعمال معينة.

وقد بدئ فى إنشاء هذا المعسكر فى العام ١٩٤٠، وحررته القوات السوفيتية بعد دخولها بولندا فى يناير ١٩٤٥، وبلغ عدد المعتقلين به آنذاك ٤٠٥ آلاف سجين من جميع الجنسيات، إضافة إلى ٢٠٠ ألف لقوا حتفهم دون وجود أية وثائق تثبت هوياتهم، ضم هذا المعسكر نحو ٤٠ معسكرًا عملت فى أنشطة اقتصادية عديدة.

ولم يكن هذا المعسكر يتميز عن سواه بالوحشية، بل ترجع وحشيته أساسًا إلى قيام النازيين فى معسكر بيركنو القريب منه باستحداث آلية للقتل الجماعى، واختاره هتلر كى يكون مركزًا للإبادة الجماعية.

يحكى هذا الكتاب عن واحدة من تجارب الحياة القاسية التى عاشها معتقلون من السياسيين والمثقفين والمعارضين للنازى، وأيضًا من معتادى الإجرام ومن اليهود وكيف كانت الحياة بداخله، كيف تعامل المعتقلون مع ظروف اعتقالهم، كيف كانوا يقضون أيامهم فى هذه المعسكرات الرهيبة، معاناة ضمت بشرًا من جميع الجنسيات والأديان. ولم تقتصر على اليهود وحدهم.

■

موسكو ١٩٣٧

ليون فيختْفانجر
ترجمة: عدنان جاموس
دمشق: دار الطليعة، ٢٠٠٥، ١٢٧صفحة



فى عام ١٩٣٣ صنف النازيون المؤلف بوصفه العدو الأسوأ للشعب الألمانى، نزعوا عنه جنسيته وصودرت ممتلكاته فى برلين فلجأ إلى سنارى جنوب فرنسا. بعدها بسنوات أربع سافر إلى موسكو بهدف الدفاع عن المتهمين فى المحاكمات ضد النازى وظهر عمله هذا فى أمستردام، وكان ليون مقربًا من ستالين وناصر موقفه فى مواجهة أعدائه خصوصًا من التروتسكيين، وفى ضوء هذه الاعتبارات يمكن فهم كتابه هذا الذى رأى فى الاتحاد السوفيتى وجهين: وجها فى ميدان النضال، صارما وقاسيًا يكتسح أى عارض، وآخر فى مجال البناء تتجلى فيه - بحسب قوله - الديمقراطية وينتقد ليون سلوك كثير من المثقفين الغربيين تجاه الاتحاد السوفيتى ويتهمه بقصر النظر وعدم اللياقة، وعدم القدرة على «رؤية النجاحات التاريخية ذات الأبعاد العالمية التى أحرزها الاتحاد السوفيتى».

وفى سعيه لتجميل صورة الاتحاد السوفيتى، رأى ليون استحالة بناء الاقتصاد الاشتراكى دون إدخال تعديلات على الديمقراطية، ويضع المعادلة على هذا النحو: إما أن تقل كميات اللحم والخبز والزبدة المتاحة للجماهير ويتاح قدر أكبر من حرية الكلام، أو أن يقل القدر المتاح من الكلام وتزيد كميات اللحم والخبز والزبدة المتاحة للجماهير، ويعيب على الحضارة الغربية «هذا الجو الخانق الذى تشيعه الديمقراطية الكاذبة»، فى مقابل ما يعتبره أجواء الهواء النقى فى الاتحاد السوفيتى حيث تسود مبادئ السلوك الأخلاقى العقلانية، ووفق هذه العقلانية الأخلاقية يبنى الاتحاد السوفيتى.

على هذا النحو يرى المؤلف موسكو قبل عامين اثنين من الحرب العالمية الثانية التى خرج منها الاتحاد السوفيتى قوة عظمى، وهو إجمالاً عمل دعائى لا يخفى انبهارًا بدولة كانت قبل عقدين عظمى، وقد كتب فى سياق تاريخى ونفسى قد يبرر ما ذهب إليه المؤلف.

■

عبد ربه التائه وقصائد أخرى

إبراهيم راشد
القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٦، ٢٥٣ صفحة



قصائد من الشعر الحر ومن الشعر العمودى، بينها واحدة فى نحو ثمانين بيتًا هى تلك التى يحمل الديوان اسمها، وهى تحية لنجيب محفوظ عنوانها حرفوش الأكبر عبد ربه التائه، والتائه هو إحدى شخصيات نجيب محفوظ فى «أصداء السيرة الذاتية»، ويضم الديوان عشرات القصائد فى عدة أقسام: غيبيات، الجاذبية الأرضية، روما والقياصرة، غناء الكروان، تكديات، فروسيات، عدوانيات.

والملاحظة الأساسية على قصائد الديوان هى هذه الأخلاط التى يجمعها صاحبه بين الجدى والهزلى، والغيبى والمغرق فى الواقعية، وهى مسألة يعزوها المؤلف فى كلمة ختامية إلى تنوع الموهبة الإبداعية.

■

نحن وأمريكا بين الحضارة والهيمنة

صلاح الدين إبراهيم
القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٦، ٢٣١ صفحة



يتضمن الكتاب مجموعة من الدراسات والمقالات المتعلقة بالعلاقات بين أمريكا ومصر فى أعقاب أحداث سبتمبر ٢٠٠١، حيث يبدأ المؤلف وهو دبلوماسى مصرى سابق من عملية خلط الأوراق التى صاحبت اعتداءات سبتمبر حتى ألصقت التهمة فى نهاية المطاف بالعرب والمسلمين كما أراد مخططو العملية والأجهزة التى تقف وراءها، وما تلى ذلك من تحولات داخل المجتمع الأمريكى ذاته والتغييرات والتعديلات التى طالت قوانين السفر والهجرة وأتاحت قدرًا كبيرًا من اختراق خصوصية الأشخاص وحقوقهم الإنسانية. وقد بدا للجميع أن أمريكا ما قبل اعتداءات سبتمبر ليست هى أمريكا بعدها، ليس فقط على صعيد القوانين الداخلية، وإنما - هذا هو الأهم - فى إطار علاقاتها الخارجية وتوازناتها ومصالحها، حتى إنها تبرأت تمامًا من كل دعاوى الحرية التى طالما تشدقت بها ورفعتها فى مواجهة من أسمتهم بالدول المارقة. ولعل هذا بالذات هو ما يركز عليه المؤلف فى القسمين التاليين من الكتاب، إذ بدأت أمريكا محاولات جادة ومنظمة لفرض سطوتها وسيطرتها على العالم، وبسط غطاء من الهيمنة والقوة الباطشة بزعم الرغبة فى تحقيق الديمقراطية فى دول العالم التى تفتقدها، وهو ما سمح لها بتجاوز القانون الدولى وخرق مواثيق الأمم المتحدة فى عدة مناسبات، وقد مهدت مواقف المحافظين الجدد الذين بدا أنهم يلعبون دورًا متناميًا فى الولايات المتحدة فى الاتجاه بقوة نحو هذه المواقف دون كابح، وهو ما يتناوله المؤلف بالتفصيل فى عدد من المقالات.

ويكشف المؤلف فى عدد آخر من المقالات، النوايا الحقيقية لهذه الطغمة التى تحكم الولايات المتحدة الآن وتتحكم فى توجيه سياستها الخارجية، وتتحكم بالتالى فى مصير العالم، بوصفها القوة العظمى الوحيدة فى عالم اليوم.

■

أساطير الصهيونية

جون روز
ترجمة: قاسم عبده قاسم
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦، ٢٨٣ صفحة



على العكس من حياتهم فى أوروبا والتى عانوا فيها من الرفض والحصار والاضطهاد، عاش اليهود فى المجتمع الإسلامى جزءًا من نسيجه دون ضغوط من أى نوع، ولم تبدأ المشكلة معهم إلا حين ظهرت الصهيونية إلى الوجود، بوصفها تعبيرًا سياسيًا عن أساطير

دينية يأتى على قمتها: أرض الميعاد وشعب الله المختار، استهدفت زرع الكيان الصهيونى فى المنطقة العربية وهو ما وجدت فيه أوروبا حلاً مثاليًا لمشكلة اليهود بداخلها.

ثمانية عشر قرنًا من المعاناة هى أولى هذه الأساطير التى دفعت المؤسسين الأوائل إلى القول بأنه حان وقت نهاية المعاناة بإقامة وطننا على أرضنا الموعودة، والحقيقة أن جزءًا من هذا الاضطهاد صنعه اليهود بأنفسهم، فالصيارفة والمرابون اليهود كانوا جزءًا من أزمة البارونات وملاك الأراضى وكانت خزانتهم قسمًا من الخزانة الكبرى للمملكة البريطانية على سبيل المثال، ولذا عمد الصيارفة المسيحيون إلى استئصال شأفة المرابين اليهود حين حلوا مكانهم، كما أن محاكم التفتيش الإسبانية عند نهاية القرن الخامس عشر الميلادى، كانت أكبر رمز دموى عنيف فى عمليات طرد اليهود وحتى حين انفجرت حركة الإصلاح الدينى بقيادة مارتن لوثر كينج، تحول قائدها غاضبًا على اليهود بعد أن كان متعاطفًا معهم حين وجد أنهم لا يأبهون لمجادلاته.

أما أسطورة «أرض بلا شعب» التى يطلقها اليهود على فلسطين، فيكذبها ساسة اليهود أنفسهم حين يقررون أنه كانت هناك أرض جدباء مليئة بالمستنقعات لم يرعها أصحابها أو يزرعوها أو يعتنوا بها، وهو ما يعنى أن لهذه الأرض أصحاب تم استئصالهم منها حتى لو لم يكونوا مهتمين بأرضهم كما ينبغى، ومع ذلك فقد كان لصابون نابلسى وبرتقال يافا وزيتون المزارع شهرة كبيرة، وتم توزيعه على نطاق واسع فى العالم كله، وهو ما يدل على وجود اقتصاديات نشطة وراءها شعب يعمل فى الزراعة والتصنيع بعكس الادعاءات اليهودية، أما حكاية شعب إسرائيل الذى هو بلا أرض فهى بقية الأسطورة لأن اليهود الذين عاشوا فى أوروبا الغربية والشرقية وفى الولايات المتحدة لم يهللوا فرحًا حين استولت العصابات الصهيونية على فلسطين، ويقرروا الرحيل إلى «الوطن» بحسب الزعم اليهودى، بل بقى أكثرهم فى «مواطنهم» التى عملوا واستقروا بها، وكان لابد من وعود إسرائيلية بمساندة السياسات الغربية - الأمريكية خصوصًا - فى حالة مساعدة إسرائيل على تهجير أكبر عدد ممكن من اليهود إليها.

أما الهولوكوست اليهودى الذى لا يمكن إنكاره تاريخيًا وإن رفضت المبالغات حوله واستخدامه فى عمليات ابتزاز مستمرة حتى اليوم، فإنه ليس أبشع من عمليات الإبادة والطرد والسحق التى يلاقيها الفلسطينيون يوميًا على أيدى قوات الاحتلال الإسرائيلى.

هذه نوعية من الأساطير الصهيونية التى يناقشها المؤلف فى هذا الكتاب المهم.

■

سوسيولوجيا الثقافة

عبد الغنى عماد

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. ٣٦٣صفحة

صدر حديثًا عن مركز دراسات الوحدة العربية كتاب «سوسيولوجيا الثقافة: المفاهيم والإشكاليات.. من الحداثة إلى العولمة» للدكتور عبدالغنى عماد.

سؤال الثقافة شغل السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين ولا يزال. وهم لطالما رددوا أن الثقافة هى لحظة ما بعد الطبيعة. ولأنها كذلك فهى طريقة فى معرفة الأشياء وفى إدراكها. والمعرفة والإدراك يتمان من خلال إنتاج صور ذهنية تسبغ المعنى على الأشياء والظواهر، وتؤسس معايير لفهمها من خلال ترتيب العلاقة بين عناصرها بحيث تتضح الغاية منها.

يهدف هذا الكتاب إلى طرح إشكالية الثقافة. ويستعرض أبرز المقاربات الأنثروبولوجية والأيديولوجية والسوسيولوجية التى تناولتها بالنظر والتحليل.

إنه يتوقف عند تأثرها بظاهرة العولمة والتفاعلات الحادثة والمصاحبة لها بفعل التطور الهائل على صعيد تقنيات الإعلام والاتصال عمومًا، والذى ازدادت أهميته مع مطلع هذا القرن الجديد بما لا يقارن مع ما كانت عليه الحال فى القرن الماضى، ما يستوجب إعادة تحليل ظاهرة الثقافة، ودراسة كيفية اشتغال العناصر الثقافية وتفاعلها بعضها مع بعض.

■

الملاك يواجه العاصفة

مايكل نور ثكوت

ترجمة: عبدالرحمن الشيخ

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية. ٢٠٠٦. ١٤٥صفحة



على الرغم من الإجماع غير المسبوق الذى أبداه الزعماء الدينيون المسيحيون لرفض الحرب الأمريكية على العراق، فقد وجدت هذه الحرب بين الزعماء الدينيين من يؤيدها، خصوصًا فى الكنائس المحافظة التى ازدهرت ازدهارًا سريعًا وفى الكنائس العملاقة فى الضواحى والأرياف. كان تأييد ملايين المسيحيين الذين رفعوا أعلام أمريكا وألصقوها على نوافذ سياراتهم داعمًا لنشوب هذه الحرب القذرة برغم كل الاعتراضات. وقد استغلت إدارة بوش هذا الدعم لبيع مزاعمها الكاذبة عن العراق ورئيسه «الذى يدعم تنظيم القاعدة ويملك أسلحة دمار شامل ينوى تسريبها للإرهابيين الذين يعدون لهجوم كاسح على الساحل الشرقى لأمريكا».

ولذا لم يكن مستغربًا أن تستأجر إدارة بوش كارولين بيرز خبيرة الدعاية المسئولة عن بيع الشامبو المزيل للقشرة هير آند شولدرز لتبيع الحرب ضد العراق للشعب الأمريكى، وهى الحرب التى تم التخطيط لها منذ أول يوم لإدارة بوش فى البيت الأبيض. وقد كان البحث يجرى على «علامة تجارية» لتسويق هذه الحرب، وقد وجدوها فى هذا العنوان الذى ضمن لهم دعم الشعب الأمريكى «الحرب على الإرهاب». لقد حظى بوش بدعم حقيقى من اليمين المسيحى بوصفه زعيمهم المختار، الأخلاقى الذى يقاوم الإجهاض ويدعم القيم الأخلاقية والأسرية وأيضًا.. إسرائيل. وحين تم انتخابه، كان عليه أن يدعم أجندة اليمين المسيحى المحافظ بكل قوة. وفى الوقت الذى منع فيه التمويل الحكومى الموجه للتعليم والخدمات الاجتماعية، فقد حوله كليًا لمنظمات الخدمات الاجتماعية القائمة على أساس دينى. وهو ما يترجمه اعتقاده بأن الله اختاره ليكون رئيسًا لبلاده فى هذه اللحظات الفارقة.

يكشف المؤلف فى ثلاثة فصول تحمل عناوين: سفر الرؤيا الأمريكى، ضياع الحلم، الإمبراطورية تكشف عن وجهها، عن هذا الامتزاج بين الدينى والسياسى والاقتصادى لتحقيق الحلم الإمبراطورى الأمريكى، وكيف يتم استدعاء الرؤيا لتبرير العنف المقدس وإضفاء القدسية على الإمبريالية الأمريكية الجديدة.

■

الرقابة المركزية الأمريكية على الإنترنت فى الوطن العربى

مصطفى عبدالغنى

القاهرة: العين. ٢٠٠٦. ١٧١صفحة



تراقب الولايات المتحدة كل شىء فى العالم عبر الشبكة الدولية (الإنترنت)، وسلمت شركة مايكروسوفت السلطات الأمريكية الكود الخاص بكل جهاز كمبيوتر تبيعه، مما يسهل على هذه السلطات مراقبة واعتراض الاتصالات الهاتفية العادية والجوال عبر برامج تجسس وتقنيات عالية.

وتتعدد صور الرقابة الأمريكية من تدمير المواقع التى لا تريدها بنشر الفيروسات فيها، واستخدام برامج تجسس خفية وحجب الرسائل المهمة ومحركات البحث التى لا تريدها، وكذلك السيطرة المعلوماتية الكاملة من خلال أجهزة تكنولوجية متقدمة وأدوات تنصت بالغة الدقة، وانتهاك الخصوصية بالبرامج التجسسية على الشركات والأفراد، فضلاً عن أجهزة كمبيوتر مزودة بتكنولوجيا الباب السحرى بيعت لشركات فى عدة دول، وتتيح هذه التكنولوجيا للفنيين العاملين فى أجهزة المخابرات الأمريكية اختراق شبكة المعلومات على تلك الأجهزة.

هذه بعض المخاطر التى يرصدها المؤلف فى تنبهه للرقابة الأمريكية على الإنترنت فى العالم كما فى الوطن العربى من خلال فصول ستة.

■

منطق البحث العلمى

كارل بوبر

ترجمة: محمد البغدادى

بيروت: المنظمة العربية للترجمة. ٢٠٠٦. ٦٠٧ صفحات



ترجمة للطبعة الألمانية العاشرة لكتاب بوبر الشهير الذى واصل التعديل والإضافة إليه خلال ستين عامًا. وهى الترجمة الوحيدة الكاملة لهذا الكتاب لأن الترجمات الأخرى - بما فيها الإنجليزية الصادرة سنة ٢٠٠٢ - لم تشمل الملحقات والكثير من الإضافات والهوامش.

وربما تلخص مقدمة بوبر للطبعة الإنجليزية الأولى الصادرة عام ١٩٥٩ مغزى الكتاب، يقول بوبر: «إن اهتمامى بالعلم وبالفلسفة آت من رغبتى بالتعلم والدراسة لأسرار العالم الذى نعيش فيه واحاجيه وكذلك لأسرار المعرفة الإنسانية لهذا العالم. إن إحياء الاهتمام بهذه الأسرار هو وحده الكفيل بتحرير العلم والفلسفة، من حكم المتخصصين ومن إيمانهم الخرافى والخطير بسلطة معرفة المتخصص الشخصية. إنه هو الذى يحرر من الوهم الذى يليق جيداً. ويا للأسف، بعصرنا بعد العقلانى وبعد النقدى الذى وضع على عاتقه باعتزاز تهديم الفلسفة العقلانية ومعها تقاليد الفكر».

■

أين نحن وإلى أين نتجه؟

صبرى قنديل

المنصورة: أدب الجماهير. ٢٠٠٦، ٣٢٨صفحة



نحو ٧٠ مقالاً ودراسة تمثل رؤية للواقع المصرى والعربى فى العقد الأخير من القرن الماضى. وهى فى مجملها لا تجيب عن سؤال العنوان: إلى أين نتجه؟. لكنها تفتح آفاقًا للتفكير وسبلاً للنقد الذاتى كى يمكن مواجهة رياح الاستبداد والسلطوية والعشوائية والنفاق والانهيار الإدارى والأخلاقى الذى لا تخطئه عين، وهو ما تشير إليه قراءات المؤلف فى الواقع المصرى معلقًا على توجهات حكومية وسياسات هدفها تكريس الأمر الواقع وتحقيق مصالح فئات بعينها، وهو حين يتساءل فى مقالته: ماذا تريدون بمصر؟ يرصد هذا التناقض الفاضح بين تصريحات المسئولين عن تعمير الصحراء وزيادة المساحات الخضراء، والسلوك الحكومى الرسمى الذى أصر على طرد المهندسين الذين صدقوا المسئولين واجتهدوا وثابروا فى استزراع مئات الأفدنة وكان مصيرهم هو الطرد منها، هذا مجرد نموذج يتكرر فى حالات كثيرة يرصدها المؤلف وجميعها يؤكد حالة الانفصال الحاد بين الرسمى والشعبى. وأن ما يتحقق من إنجازات ليس فى حقيقته سوى دعايات كاذبة، يجرى هذا على صعيد الإصلاح السياسى والديمقراطى والتعليمى والإدارى وكافة مناحى الحياة. ولا يبدو الواقع العربى أفضل حالاً، فحالة الانفصال بين الشارع العربى والقيادات الحاكمة جلية فى مناسبات عديدة، كانت فيها ردود أفعال الشارع أكثر صدقية وتأثيرًا من استجابات الحكام المقيدة بمصالح وعلاقات وتوازنات، ليس من بينها دائمًا الصالح العام، وإن حضرت بقوة مصالح وأطماع السلطات الحاكمة.

تعليم الفلسطينى فى إسرائيل بين الضبط وثقافة الصمت

ماجد الحاج

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦ ، ٣٣٥ صفحة



تعتبر قضية التعليم لدى الشعب الفلسطينى بشكل عام، ولدى المجتمع الفلسطينى فى إسرائيل بشكل خاص، من أهم القضايا وأكثرها حساسية، فعلى الرغم من أن الفلسطينيين فى إسرائيل تحولوا إلى أشلاء مجتمع، وعلى الرغم من حالة الضياع والتشرد بعد النكبة، بقيت فسحة من الأمل بإعادة بناء نسيج هذا المجتمع من خلال الاستثمار فى الإنسان.

يعرض هذا الكتاب محاولة نقدية وشمولية لفهم الدور الذى يمثله التعليم الرسمى لدى المجتمع الفلسطينى فى إسرائيل الذى تحول إلى أقلية قسرية فى دولة إثنوقراطية. والسؤال المركزى الذى تتناوله الدراسة هو: هل يشكل التعليم آلية للتغير الاجتماعى بالنسبة إلى الأقلية، أم أنه على العكس آلية للضبط الاجتماعى والسياسى تستخدمها المجموعة المهيمنة؟ وفى محاولة للإجابة عن هذا السؤال بشكل علمى يرصد الكتاب التعليم لدى الفلسطينيين على مدى قرن واحد، أى من العهد العثمانى إلى العهد الإسرائيلى مرورًا بالانتداب البريطانى.

دوريات

الحركات النسائية العالمية

القاهرة: مؤسسة المرأة الجديدة



هذا هو العدد السادس من تلك المجلة غير الدورية التى تصدرها واحدة من المنظمات النسوية التطوعية التى بدأت عملها منذ عام ١٩٨٤، والتى تسعى إلى إقامة مجتمع ديمقراطى تختص فيه كافة أشكال التمييز ضد المرأة. يتضمن العدد دراسات بينها تعريفات مختارة للحركة الاجتماعية، وتأثير الحركة النسائية العالمية على العلاقات الدولية، والحركة النسوية فى فلسطين المعاصرة، واتحاد المرأة السودانية. يتضمن العدد أيضًا عروض كتب ذات علاقة بالحركات النسائية. وهذا العدد كما قال المسئولون عن المجلة فى التقديم، مقدمة لعدد جديد سيصدر عن الحركات النسائية فى مصر.

دبى الثقافية

دبى: دار الصدى للنشر



بانوراما العدد عن مدينة دبى، تلك المدينة الساحرة التى استحقت عن جدارة لقب «لؤلؤة الخليج».

أما رجاء النقاش فيكتب عن نزار قبانى فى الذكرى الثامنة لرحيله عن الأزمات الثلاث التى عصفت بحياته.

يتضمن العدد أيضًا تحقيقًا عن ترجمة الأدب العربى الإشكاليات والحلول وآخر عن مصطلح الإبداع النسوى، وحوار مع الشاعر العمانى حسن المطروش يقر فيه بأن ثمة مافيا تهيمن على الثقافة العربية، وآخر من بيروت مع الشاعر جودت فخر الدين يطمئننا: لا خوف على مستقبل الشعر، وثالث مع المستشرق الفرنسى جان لامبرت، يبرئ فيه الاستشراق الجديد.

بالعدد أيضًا تحقيق عن السينما فى الأردن.

العربى

الكويت: وزارة الإعلام، مايو ٢٠٠٦



كاسترو كما يراه ماركيز عنوان المقالة التى يكتبها محمد كامل حسين، وفيها يحلل الأديب الكولومبى الأشهر شخصية كاسترو، وفى القسم نفسه تراث وأشخاص يكتب يوسف الشارونى عن الفريد فرج.

وفى القسم الخاص بالفنون يكتب أشرف أبو اليزيد عن وجوه رمبرانت، ويزور يحيى سويلم لوحات غادة الكتورى، كما يكتب بشار إبراهيم عن السينما العراقية وأسئلتها المعاصرة وتكتب زينات بيطار عن فن العمارة الإسلامية فى أفغانستان.

فى المستقبليات دراسة للدكتور أحمد أبو زيد تحت عنوان المدينة هى المستقبل ولكن أى مدينة.

وفى حديث الشهر يتناول سليمان العسكرى فكرة العنصرية وازدواجية المعايير انطلاقة من أزمة الرسوم المسيئة للرسول الكريم.

عالم السينما

القاهرة: جمعية نقاد السينما المصرية



العدد الأول من هذه الدورية الفصلية التى تصدر عن جمعية نقاد السينما المصرية، يتضمن حوارًا مطولاً مع المخرج داوود عبدالسيد يتضمن رؤاه عن السينما وغيرها من القضايا وكتابات عن أعماله.

كما يتضمن عروضا لإصدارات سينمائية حديثة.

وفى العدد أيضا ترجمة لكتابات عن المخرج بيرناردو بيرتولوتشى صاحب التانجو الأخير فى باريس والإمبراطور الأخير وغيرها من العلامات السينمائية الكبيرة.

بالعدد دراسات عن الجدل بين السينما والفنون التشكيلية وكذلك بين السينما النسوية، وأخرى عن السينما الكوميدية والنقد الاجتماعى وكذلك عن السينما السياسية.

A History of Modern Libya

(تاريخ ليبيا الحديث)

Dirk Vandewalle

Cambridge University Press,

260PP, $23.99, 2005



يبدأ التاريخ بهذا الكتاب فى أوائل القرن الماضى، حيث يبدأ الكاتب بوصف تضاريس الصحراء الليبية، والشخصيات التى ساهمت وشكلت الشخصية الليبية، ثم يستطرد الكاتب ليغطى فترة الاستعمار الإيطالى لليبيا (١٩١١-١٩٤٣)، ثم الحكم الملكى بين عامى ١٩٥١ و١٩٦٩، وصولا إلى ثورة الفاتح بقيادة العقيد «معمر القذافى»، مستمرا فى نقاش النظام اللاحق للثورة والتطورات الأيدلوجية والسياسية والاقتصادية التى حلت بليبيا، مرورا بحالة العزلة التى مرت بها ليبيا والتى خرجت منها مؤخرا.

ليس هذا الكتاب الأول لديرك فانديوال المتعلق بالشأن الليبى، فقد كان قد ألف فى وقت سابق كتاب (ليبيا منذ الاستقلال: النفط وبناء الحالة - ١٩٩٨).

■

Impostor: How George W. Bush Bankrupted America and Betrayed the Reagan Legacy

(المحتال: كيف أفلس جورج بوش أمريكا وخان تراث ريجان)

Bruce Bartlett

Doubleday, 320PP, $26.00, 2005



المعلقون الليبراليون دائبون على التذمر دوما من ادارة بوش الحالية ولكن عندما يقول «بروس بارتليت»، أحد مسئولى إدارة ريجان السابقة، أن جورج بوش قد خان الحركة المحافظة، فان هذا يثير الاهتمام نظرا لانتمائه المحافظ.

هجوم «بارتليت» على بوش ينتهى إلى مسلمة واحدة، أن بوش شخصية انتهازية، أهمل مبادئ ثورة ريجان من أجل مكاسب سياسية قصيرة الأمد ستؤدى إلى إيذاء الاقتصاد الأمريكى كما تأذى - وربما بصورة أكبر - من قبل جراء سياسات نيكسون.

يستعرض «بارتليت» فاتورة الرعاية الطبية لعام ٢٠٠٣ التى يعتبرها ناتجة عن أسوأ تشريع يمكن أن يسن فى العالم، وهى تعتبر مثالا فاضحا لارتفاع الإنفاق الحكومى والذى يجعل من ارتفاع الضرائب أمرا محتوما.

أيضا يرى «بارتليت» أن بوش أضعف من الحزب الجمهورى بإخفاقه فى تقديم وريث يستطيع المنافسة فى الانتخابات الرئاسية القادمة، كما ينتقد «بارتليت» الإدارة الأمريكية نظرا لحالة الفساد التى تؤدى إلى انتهاك مبدأ الاختلاف الذى أعلنه الحزب الجمهورى خلال الحملة الانتخابية ضد الديمقراطى «كلينتون».

الكتاب والنقد اللاذع الذى يحمله، لن تستطيع الإدارة الأمريكية تجاهله.

■

The War for Muslim Minds

(الحرب من أجل العقول الإسلامية)

Gilles Kepel

Translated by Pascale Ghazaleh

AUC Press, 336PP, $24.95, 2006



كان لتعطل عملية السلام الفلسطينية الإسرائيلية عام ٢٠٠٠ دور كبير فى بداية دوامة العنف والدموية التى كان أحد شواهدها أحداث الحادى عشر من سبتمبر، وخاصة مع بداية الثورة المحافظة فى الولايات المتحدة التى أدت إلى زعزعة السياسة الأمريكية الشرق أوسطية، التى اهتمت فى تلك الفترة بالأمن الإسرائيلى، ونفط الخليج فقط.

كان لهذا أثره على الراديكاليين الإسلاميين الذين رأوا أن السياسة الأمريكية وصلت إلى الحد الذى يستوجب معه نقل ميدان العمل الإرهابى من الأراضى الإسلامية إلى الغرب فأعلن «بن لادن» ورفاقه الجهاد ضد أعدائهم عالميا.

«كيبيل» يتحرى، فى هذا الكتاب، تأثير الإرهاب العالمى والعمليات العسكرية التى تتبعه، ويشكك بقدرة الولايات المتحدة على مواجهة هذا التحدى على طريقة خطابات الحرب الباردة، كما يقترح مخرجا لمستنقع الشرق الأوسط يخدم مصالح أطراف النزاع، الإسلاميين والغرب والنخبة العربية والإسلامية الحاكمة، محددا شروطا لقبول إسرائيل، ولتطبيق الديمقراطية فى المجتمعات العربية والإسلامية، موصيا الغرب بمحاولة الفوز بقلوب وعقول المسلمين.

■

Precious Egypt

(مصر النفيسة)

Matthias Seidel And Regine Schulz

AUC press, 608PP, 34.95$,2006



دليل شامل عن مصر، يركز على التاريخ المصرى والآثار القديمة، مليئا بالرسوم التوضيحية، والنصوص المطعمة بالمعلومات المفيدة.

الكتاب يجلب المواقع الأثرية بين يديك، يظهر جمالها وأهميتها، محتويا على ما يقرب من ٦٠٠ رسم توضيحى و٦٠ خريطة، بالإضافة إلى مخططات مختلفة، وملحق شامل يزودك بكل المعلومات المساعدة، مقسم جغرافيا من الإسكندرية إلى أبو سمبل.

يحتوى أيضا الكتاب على مقالات عديدة عن مواضيع ثقافية وتاريخية، بالإضافة إلى حسابات الوزن والمقاييس، وحسابات التقويم، وملحق عن الآلهة المصرية القديمة.

■

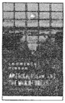
America, Islam, and the War of Ideas

Reflections in a Bloodshot Len

(أمريكا، الإسلام وحرب الأفكار)

Awrence Pintak

AUC Press, 394PP, $29.95, 2006



الصحفى المخضرم ومراسل أخبار السى بى إس السابق «لورانس بينتاك» يتعرض فى هذا الكتاب للاختلاف الأساسى فى الفهم بين الأمريكان من جانب والمسلمين من جانب آخر، الذى يعتبره نتيجة طبيعية للانقسام الدائم منذ قرون والعلاقة التضادية السائدة.

يرى «بينتاك» أيضا أن الإعلام المسيطر عليه من قبل أجهزة الدولة على الجانبين، كان سببا فى تفاقم المشكلة، فالقادة والزعماء على الجانبين على السواء لا يعرفون أو لا يفهمون كيف تؤثر كلماتهم على مصير العالم بشكل عام على المدى الطويل.

الكتاب يستكشف كيف يصور الإسلام بوسائل الإعلام الأمريكية، وكيف تتعرض وسائل الإعلام العربية والإسلامية لأمريكا وسياستها، وكيف يؤثر سوء الفهم والتحريف الذى تقوم به وسائل إعلام الجانبين إلى كوارث كبرى.

■

Disciples of Passion

(توابع الانفعال)

Hoda Barakat

Translated by Marilyn Booth

AUC Press, 148PP, $17.95, 2006



العواطف المتاخمة والتالية للحرب الأهلية اللبنانية التى تطارد كل لبنانى عاش وعايش الحرب، تظهر فى رواية «هدى بركات» التى تدور أحداثها حول شاب لبنانى مر بتغيرات جذرية بشخصيته كنتيجة طبيعية للحرب، مشاعره المختلفة، التى نتجت عن مروره بتجربة الاختطاف، ثم تم إبداله فى عملية تبادل الرهائن، تعرضه لإصابة أدت إلى احتجازه بالمستشفى، أماكن ما عادت كما يعرفها وتعود عليها، إعادة حسابات علاقته بامرأة على دين آخر يحبها.

الحرب الأهلية اللبنانية، وكيف شكل الدمار والعنف شكلا مختلفا لحياة شعب همش فى نزاع ليس له معنى، هو ما تتعرض له «هدى بركات» فى رواياتها.

رواية عربية لهدى بركات ترجمتها «ماريين بوث» إلى الجمهور القارئ بالإنجليزية.

■

Software Security : Building Security In

(أمن البرمجيات: بناء الحماية)

Gary McGraw

Addison-Wesley Professional,

448PP, $49.00, 2005



«عندما يأتى الأمر لأمن البرمجيات، فالشياطين تسكن فى التفاصيل، وهذا الكتاب يعالج التفاصيل» هكذا علق «بروس شنيير» رئيس مجلس إدارة شركة (Counterpane) لأمن الانترنت، على هذا الكتاب، الذى يأتى مليئا

كتـــاب الــزاويــة

مجلة الأستاذ

حنفى ونديم

«ح» أنت يا سيدنا عملت كدا ليه كل جمعة نقول إياك يفتكرنا بكلمتين ويتحفنا بعبارتين نلاقيك ماسك فى العضمة الخشنة ونازل على عيون الخاينين والمنافقين، بقى ما فيش لنا خاطر عندك والا الفقرا يروحوا فى داهية. «ن» أنت يا معلم حنفى لم تزل على جهلك. أرى حنيفة تكلمنى بكلام طيب موزون وأنت تقول ما فيش وليه وتتكلم بالكلام العامى مع أنك صاحبتنى من مدة أذهنك أضعف من ذهن حنيفة؟ يمكنك أن تتكلم بالكلام البلدى فى عبارة لطيفة تعجب الجاهل والعالم ولا يعيبك فيها أحد. فجاهد نفسك وقلدنى فى الكلام تكن من صف اللطفاء. «ح» أنا وحياتك يا سيد أقدر أكلمك بكلام مليح يعجب السلطان وإنما الإنسان أخذ على الكلام مع الجهلة فغلب عليه كلامهم. وإلا أنا دائمًا أسمع الجرائد وأفهم عبارتها. «ن» ومن أين تأتيك الجرائد؟ «ح» أنا والمعلم عفيفى والمعلم بيومى والحاج يوسف والحاج دسوقى عملنا جمعية واشتركنا فى جملة من الجرائد واستأجرنا كاتبًا يقرأها لنا. «ن» حيث إنك تقرأ الجرائد فقل لى على ما رأيته فيها وأخبرنى عن الجريدة الطيبة والجريدة الرديئة لأتحقق انتفاعكم بها من عدمه. «ح» أول ما اشتركنا اشتركنا فى الأستاذ لكون كلامه على قدر عقولنا ولما اتسع فهمنا رأينا المؤيد ماسكاً على الجد وماشيًا مع الأستاذ فى طريق واحد فاشتركنا فيه ورأيناه يخدم الوطن بنية خالصة ويكتب الفصول العجيبة ويدافع عن حقوقنا بقوة قلب. وبعدها التفتنا لقينا النيل ينادى بصوت رقيق فاشتركنا فيه فوجدناه من المجتهدين فى خدمة الوطن الساعين فى تهذيب الناس وحفظ الحقوق العثمانية.

بالتفاصيل ومعالجا لكل دقائق أمن البرمجيات.

مؤلف الكتاب يعمل كاستشارى لأمن البرمجيات لعدة شركات عالمية، كما يعمل مستشارا لقسم البرمجيات وتكنولوجيا المعلومات لأربع جامعات أمريكية، مما يجعله مؤهلا للخوض فى تفاصيل أمنية لم يخض فيها أحد من قبل.

لست بحاجة إلى تعديل نظام عملك جذريا كى تحافظ على أمن برمجياتك، الكاتب يعطيك النقاط التى يجب عندها وضع عوامل الأمن والحماية فى الاعتبار، كما يعطى إطارا كاملا وآلية العمل على إدارة المخاطر التى تجابه أمن البرمجيات، كما يوضح العديد من نقاط الاختبار والتحليل لدى كفاءة البرمجيات لمواجهة المخاطر التى تهددها.

■

Crazy

(المجنـــــون)

Pete Earley
Putnam Adult, 384PP, $25.95, 2006



«بيت ايرلى» الصحفى المخضرم، يحقق فى هذا الكتاب عن جرائم المرضى النفسيين، متناولا حالة ابنه «مايك» المريض عقليا والذى ينفذ حكما بالسجن إثر اقتحامه شقة احدهم لأخذ حمام فقاعات، ونتجت عن هذا الاقتحام أضرار واسعة بالشقة، وتمت محاكمته كمجرم وليس كمريض بمرض عقلى وذهنى يستوجب العلاج، مما أدى إلى معاقبته بالسجن. يمضى «ايرلى» فى كتابه مضطربا اضطرابا واضحًا بين كونه أبا للحالة التى يدرسها وكونه صحفيًا مخضرماً يتناول الموضوع بواقعية مجردة من المشاعر.

ساعد «ايرلى» على السير فى رحلته، استطاعته الدخول إلى سجن مقاطعة ميامى الامريكية لما يقرب من عام كامل مؤديا لعمل روتينى، فسنحت له فرصة مقابلة العديد من السجناء والتحدث معهم، كما تحدث مع عائلاتهم وأطبائهم، ومحاميهم.

جمع «ايرلى» المعلومات التى توصل اليها جميعا، ثم حلل أسباب جرائم المساجين والأمراض النفسية والعقلية التى يعانون منها، إلى أن وصل إلى النتيجة النهائية، ليوضح كيف تحولت سجون الولايات المتحدة إلى مستشفيات نفسية جديدة.

■

The Wealth of Networks

(ثروة الشبكات)

Yochai Benkler
Yale University Press 528PP, $40.00, 2006



«مع التغيير الجذرى فى منتجات المعلومات الذى أدى إليه ظهور الإنترنت، فنحن نقف عند نقطة تحول مهمة». هكذا قال «يوتشى بنكلر» فى هذا الكتاب المثير للفكر. فمع تطور تكنولوجيا الشبكات وتطبيقها فى العديد من المجالات، ظهرت نقلة واضحة فى الأداء والفاعلية للمجالات التى تتعامل مع تطبيقات تكنولوجيا الشبكات.

يصف الكاتب أنماط المعلومات، والمعرفة، والتغيرات الثقافية المواكبة للتطور الشبكى، ومدى تأثير ذلك على التطور فى منتجات تكنولوجيا المعلومات ككل، كما يرى إن ما يحدث حاليا من نتاج ربما يعيد تشكيل شكل السوق، كما يرى أن الفرصة سانحة لتحسين أمور مثل الحرية الفردية والتنوع الثقافى والحديث السياسى والعدالة كنتيجة لتطور الشبكات.

■

Overthrow : America's Century of Regime Change from Hawaii to Iraq

(الإسقاط)

Stephen Kinzer
Times Books, 400PP, $27.50, 2006



للإدارة الأمريكية سوابق كثيرة على مدار القرن الماضى فى تغيير أنظمة الحكم وإسقاطها حول العالم، بدأت تلك السياسة بهاواى عام ١٨٩٣ عندما تآمر البيت الأبيض مع الأقلية البيضاء بهاواى من أجل إسقاط حكم المملكة «ليليووكالانى»، كخطوة لضم الجزر وجعلها جزءا من الولايات المتحدة الأمريكية.

تلا هاواى العديد من الدول الأخرى، فالولايات المتحدة أحبطت حركة الاستقلال فى كوبا، بورتيريكو، الفلبين

ونيكاراجوا، كما قامت بإخراج العديد من الحركات السرية والانقلابات فى إيران، غواتيمالا، جنوب فيتنام، وتشيلى، كما غزت جرينادا، بنما، وبالطبع افغانستان والعراق. على مدى العقود الأحد عشر الماضية نشرت الولايات المتحدة قواتها فى جميع أنحاء العالم، لتضع يدها على الموارد الطبيعية فى العالم.

■

Dongola
A Novel of Nubia
(دنقلة «رواية نوبية»)
Idris Ali
Translated by Peter Theoroux
AUC Press, 126PP, $16.95, 2006



«إدريس على» الكاتب النوبى المثير للجدل، وروايته «دنقلة» المثيرة للجدل بدورها، التى صاحب صدورها عام ١٩٩٣ موجة من الغضب لدى العديد من المثقفين المصريين الذين رأوا فيها دعوى انفصالية لإقليم النوبة الواقع فى الجنوب المصرى، كما أثارت الرواية، على الجانب الأخر، سخط العديد من النوبيين الذين رأوا فيها تطاولا على تقاليدهم الاجتماعية، وهذا الغضب والسخط والجدل هو الذى دفع مؤلفها إلى محاولة انتحار لم تشأ الأقدار نجاحها.

الرواية تدور حول «عواد شالالى» العامل النوبى البسيط، الذى يحلم بعودة دنقلة، عاصمة النوبة فى القرون الوسطى، التى تستقر الآن فى قاع بحيرة ناصر الناتجة عن السد العالى، فأيام دنقلة كان النوبيون فى قمة مجدهم، كانت لهم السيطرة على صعيد مصر بأكمله، واشتهر رماة الرمح فى جيشهم بدقتهم الشديدة فى المعارك، وكان يطلق عليهم «اللماحون».

«حليمة» زوجته تتعامل مع حقيقة النوبة هذه الايام، الفقر المدقع، فرجال مثل عواد يأتون إلى القاهرة هذه الأيام من أجل فرص عمل بأجر ضئيل، بينما تبقى نساؤهم فى البيت لا يجدن شيئا يفعلنه.

الأرض المفقودة، والأحلام المستحيلة، آلام عواد وحليمة ومعاناتهم، ذكاء «ادريس على» وإحساسه وأصله النوبى، ساعده فى صياغة هذه الرواية بحرفية عالية وإحساس صادق.

■

The Lost Oases
(الواحات المفقودة)
Hassnein Bey .M .A
Introduced by Michael Haag
AUC Press, 2006, 330PP, 29.95$



أحمد حسنين الدبلوماسى المصرى، الذى قام برحلة استكشافية (١٩٢٣) على ظهر جمل منطلقا من ساحل البحر المتوسط غرب (مرسى مطروح) باتجاه واحة (سيوه) متوغلا جنوبا فى الصحراء المصرية الليبية، متخذا بحر الرمال الأعظم كحد شرقى له، رحلته التى استمرت ثمانية أشهر وصولا إلى (العبيد) بالسودان التى تبعد عن نقطة البداية بـ ٢٢٠٠ ميل، قادته إلى اكتشاف واحات لم يكن أحد يعرف عنها شيئا، مثل واحة (العوينات). أصيب «حسنين» بالدهشة حينما وجد بالعوينات نقشا على الصخور يتضمن رسوما لحيوانات مثل الأسود والزرافات والنعام والغزلان، فى دليل واضح على وجود إنسانى مزدهر قبل عشرة آلاف سنة فى تلك المنطقة من الصحراء الجرداء، كما تؤكد أن تلك الصحارى كانت يوما ما خضراء.

■

Fiscal Sustainability in Emerging Markets
(الثبات المالى فى الأسواق الناشئة)
Ahmed Galal And Nadeen Ulhaque
AUC Press, 304PP,$24.50, 2006



تعودت حكومات الدول النامية على الاقتراض من أجل إنجاز أهداف مرغوبة اقتصاديا واجتماعيا، ولكن مشاكل الاقتراض تبدأ فى الظهور ما أن يبدأ معدل سداد الديون فى التناقص، ويزداد معدل الاقتراض، وذلك ينتج عن إنفاق سيئ فى غير محله، أو عن تصلب فى دائرة المدفوعات والأرباح الحكومية.

الكتاب يعير انتباها خاصا إلى السياسة المالية المصرية، وعلى قضايا مثل إدارة الدين، وخدمة الدين، الإنفاق العام.

■

كتـــــاب الــزاويـــة

مجلة الأستاذ

التشخيص العربى

سرّنا تقدم هذا الفن الجليل فى هذه الأيام وارتقاؤه إلى درجة لا تنحط عن درجة التشخيص الغربى وسرّنا أيضًا ما رأيناه من إقبال الجمهور عليه وارتياحهم إلى تقدمه ونجاحه فقد كان تياترو شارع عبدالعزيز فى ليلة الجمعة الماضية غاصًا بالناس على اختلاف طبقاتهم لحضور تمثيل رواية محاسن الصدف. وهى رواية بديعة نالت من القبول أوفر نصيب من تأليف صديقنا الفاضل «محمود أفندى واصف» ولقد أجاد المشخصون كل الإجادة وأبدعوا غاية الإبداع ولا سيما حضرة المتفنن البارع الشيخ سلامة حجازى فقد خلب القلوب بحسن تشخيصه وشنف الأسماع بدرر أنغامه.

وقد قام فى وسط هذه الحفلة حضرة الخطيب البليغ الفاضل إسماعيل بك عاصم وخطب فى موضوع هذا الفن وشهد لهذا الجوق الوطنى المصرى بالتقدم والبراعة وحض الناس على مؤازرته والإقبال عليه ثم دعا صديقنا مؤلف الرواية للكلام فقام وارتجل خطابًا فى فضل التشخيص ومنفعته للهيئة الاجتماعية وحرض الناس على الأخذ بما فيه تقدمه وارتفاع شأنه.

ولقد تكرمت الحضرة الفخيمة الخديوية بتياترو الأوبرا الأعظم على جناب النبيه سليمان أفندى حداد ليشخص فيه خمس روايات. فباشر العمل وانتهى إلى الآن من تشخيص ثلاث منها قام المشخصون فى كل واحدة منها بما استلفت الأعين وأجرى الألسن بامتداح اقتدارهم والثناء على رئيس الجوق فنسأل الله تعالى أن يوفق الجميع ويمن عليهم بنعمة الإقبال.

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها.
مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

الإرهاب الأمنى

لقد قرأنا بمزيد من الحزن والحسرة على حرية الفكر والرأى ما نشرتموه بمجلتكم الموقرة فى عددها الصادر مارس ٢٠٠٦ تحت عنوان «الإسلام والآخر» وهى المحاضرة التى كان من المقرر أن يلقيها الأستاذ الدكتور محمد سعيد البوطى الأستاذ بجامعة دمشق فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة فى يناير ٢٠٠٦.

وأسباب الحزن والحسرة هو أننا علمنا أن هذه المحاضرة لم تر النور لأن جهات أمنية طلبت إلغاءها وقلتم أن هذا المنع ليس هو المرة الأولى من الجهات الأمنية وإنما سبق أن منعت هذه الجهات إلقاء محاضرة للكاتب الأمريكى «نورمان فنكلشتين» أحد المثقفين اليهود والمعروف بعدائه الشديد للصهيونية.

ولقد قرأنا نص المحاضرة واستمتعنا بما فيها من معلومات قيمة وحزنا على ما يحلو لنا تسميته «الإرهاب الأمنى»، هذا الإرهاب الذى لا يميز بين الغث والسمين فى الفكر والرأى. وقد جاءت المحاضرة رسالة عملية لكل متعصب أو متطرف فى الديانات السماوية الثلاث وفى وقت نعانى فيه من بذور فتنة طائفية كفانا الله شرها وقد عشنا فى إحدى قرى الأقصر «حادثة العديسات» بين طرفى الأمة وعرفنا منها كم نعانى من إرهاب أمنى حسب قول البعض وعايشنا أحداث الكشح من سنوات سابقة.

ونحن من جانبنا نطمع فى أن يكون لهذه الجهات المانعة فكر راق وثقافة عالية. فهذه المحاضرة - وليس دفاعًا عن صاحبها فضلاً عن أننا لا نملك ولا نستطيع بمعلوماتنا الضعيفة - أن نقيمها - إلا أنها وبحق مفخرة وسرد موثق لسماحة الإسلام مع الآخر ويكفى ما جاء فيها بالحرف الواحد «أن وجود التآلف والتقرب بين الديانتين هدف مقدس ترمى إليه الشريعة الإسلامية وتوظف لذلك كثيراً من الأحكام الفقهية التى يعرفها الفقهاء.. وفى موضع آخر يقول صاحبها:

«فلما استجاب عمر بن الخطاب لرغبة أهل إيليا ودخل القدس وكتب كتاب الصلح المعروف أقبل إلى الأتربة يزيحها بردائه فأقبل من حوله المسلمون وغيرهم يسابقونه إلى ذلك ثم اتجه إلى القمامة المتراكمة بفعل اليهود وبوحى من الرومان فوق مكان كنيسة القيامة فباشر إزاحة القمامة عنها بنفسه وما هو إلا أن أقبل كل من كانوا حوله يسابقونه على العمل ذاته».

ونحن نسأل هل مثل هذا القول يمنع بحجة أسباب أمنية لا يعلمها إلا الله وهى الشماعة التى تعلق عليها كل أسباب الكوارث. إن ما تحدث عنه القرآن الكريم عن قصة سيدنا سليمان عليه السلام وملكة سبأ هو القول الفصل وليس لنا بعده قول عندما سألت ملكة سبأ قادة الأمن عندها عن رأيهم فى خطاب سيدنا سليمان عليه السلام الذى يدعوها للإسلام فكان ردهم «نحن أولو قوة وأولو بأس شديد» عند هذا الحد ينتهى دور هؤلاء القادة، أما أن يطلب منهم أكثر من ذلك فلا نلوم إلا أنفسنا.

بدوى أبو شنب
محام. الأقصر

■ ■ ■

كل الشكر والتحية للجهات الأمنية التى طلبت إلغاء محاضرة د. محمد سعيد البوطى. الإسلام والآخر - والتى كان من المقرر إلقاؤها بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة - لأنه لولا إلغاؤها من قبل الجهات الأمنية - لما تيسر لنا كقراء مجلة «وجهات نظر» الاطلاع على نص المحاضرة بعدد مارس ٢٠٠٦ - حيث كان سيقتصر سماعها على نخبة من الأكاديميين والباحثين - وكما قال كاتبها د. البوطى «لا ريب أن الخيرة كلها فيما اختاره الله».. ولا أدرى وآلاف غيرى من القراء لماذا المصادرة المسبقة على الفكر؟ هل لأن المحاضر أكاديمى ومفكر إسلامى؟ أم ماذا؟ - يكفينا - كقراء - أكثر من دلالة فى سياق المحاضرة التى نشرت من قبلكم للكاتب - تؤكد أن التاريخ شاهد كيف استخدم الدين لتحقيق أغراض ومصالح سياسية من قبل فئة معينة؟ ويكفى أن الإسلام كمنهج حافظ على حرية المعتقد وحمايته للشعوب التى خضعت للحكم الإسلامى - كما استشهد د. البوطى بما قاله د. إدمون رباط.

وأعود للسؤال المطروح فى البداية: إلى متى سيظل الهاجس الأمنى مسيطراً على عقلية الأنظمة العربية؟ والفضاء الواسع. الآن. يعج بكل صنوف المعرفة الطيب منها والخبيث.

سعيد الرفاعى
العمار الكبرى - قليوبية

تبسيط مجتمع المعلومات

لقد استمتعت بمقالة الأستاذ سلامة أحمد سلامة «نون» «رحلة إلى طهران»، ورغم معرفتى أننى لست فى مقام التقييم لتلك المقالة إلا أننى لا أتحرج مع ذلك أن أقول إنها خلابة بكل المقاييس، فيها الفكرة والرؤية الثاقبة مغلفة بالحس الأدبى مما يجعلها قادرة على انتزاع عقل القارئ من أى أمر آخر اللهم إلا من قراءتها ثم إعادة قراءتها.

وبالنسبة لمقالة الأستاذ جمال محمد غيطاس بعنوان: «هل يعرف العرب مجتمع المعلومات؟» العدد السابع والثمانون - السنة السابعة - أبريل ٢٠٠٦ الصفحة ٦٢ يقرر الكاتب أن العرب غادروا نقطة البداية فى تعاملهم مع عصر المعلومات.. ورغم قسوة إعلان هذه الحقيقة إلا أنها الواقع الحقيقى لنا بالفعل والتمام ولقد قرأت المقالة مرتين على يومين وأنا فى قمة الاستمتاع، أحمد الله عز وجل على أنه يوجد بيننا من يرشدنا إلى حقيقة وضعنا حتى ننتبه ونفيق..

وقد كان أسلوب الصفحة الأولى مفهومًا واضحًا بل ومريحًا ولكن للأسف بدءاً من الكلام عن الثلاث ثورات (الثورة المعلوماتية، ثورة التغيير داخل المجتمعات، وثورة العقل الجمعى) والعقل المعلوماتى الجمعى إلى فكرة التناقضات السبع.. لقد كان الكلام والمعنى يحتاج إلى تبسيط يأتى عن طريق الشرح الواسع وأنا أعرف ضرورات مساحة النشر.. ولهذا جاءت المقالة تؤكد أن من يحسها ويستمتع بها لابد أن تكون لديه فكرة لا بأس بها عن التعامل مع المعلومات واسترجاعها والاحتفاظ بها.

مرة أخرى أكتفى بأن أقول إن الفرد المصرى أو المواطن العربى فى حاجة - هى بالتحديد - أن يتناول الأستاذ الكاتب جمال محمد غيطاس كل عنوان فرعى بدءاً من الزاوية الأولى صـ ٦٢ إلى التناقضات السبع بكل متناقض فيها ويكتب فى كل عنوان مقالة شارحة.. هذا أملى لأننى شديدة الإيمان وعظيمة الرغبة فى أن أتعلم وأفهم ما المقصود والأكثر حتى أكون على دراية عند جلوسى أمام الكمبيوتر بفهم وتفسير كثير من الكلمات والمصطلحات التى أقرأها أو يصبها فى أذنى من يتولى توجيهى على أساس إننى التى طلبت منه ذلك.. إن مقالة واحدة مكثفة لن تكفى أى فرد للحاق بثورة عصر المعلومات العاتية.

أشكركم مرتين الأولى لما تكتبون فى «وجهات نظر» مجلتى الحبيبة والمحبوبة، لأنى أحس من خلال سطورها أننى أعيش وأننى على دراية ومعرفة بما حولى والمرة الثانية لأنى استبحت من وقتكم فترة ليست بالقليلة فى قراءة سطورى المتواضعة. وأؤكد أخيراً على ضرورة أن تولى «وجهات نظر» اهتماماً دائماً وشهرياً للكتابة عن هذه الإشكالية وهى مجتمع المعلومات.. وفجوة العقل على ألا تزيد المقالة على صفحتين فقط.

د. جيلان حمزة
٤ أ ش ١٦ المعادى - السرايات

ذكريات عن آدم حنين

طالعت بشغف واهتمام مجلة «وجهات نظر» التى نجحت فى تبوؤ مكان متميز لدى القارئ والمثقف العربى وملأت فراغًا طالما عانى منه بافتقاده للمعالجات العميقة المتروية فى خضم وزحمة الأخبار وردود الفعل الإعلامية اليومية التى تصاعدت وتعقدت نتيجة التطورات السريعة والأخطار المحيطة بمنطقتنا العربية وأدت خدمة جيدة فى طرحها لمضامين كتب ودراسات أجنبية وعربية فى مرحلة تستوجب الانفتاح على العالم ومتابعة اتجاهات مفكريه التى تؤثر وتتأثر بمجريات الأمور فى بلادنا. وكان لإبراهيم المعلم رئيس اتحاد الناشرين العرب دور يستحق التنويه فى صدور هذه المجلة وتخفيف الاعتماد الكلى للمثقف العربى على المجلات الأجنبية استكمله بجهد طيب لإنجاح التواجد العربى بمعرض الكتاب الدولى بفرانكفورت والانفتاح على سوق النشر العالمية وتشجيع الترجمة والنشر.

ولقد أتاحت المجلة الفرصة لكبار المفكرين العرب لطرح أفكارهم ورؤيتهم استنادًا إلى كتبهم ودراساتهم وفتحت أبواب «نون» لسلامة أحمد سلامة و«قراءة» لأيمن الصياد المجال لمناقشات سياسية واجتماعية أكثر شمولاً وعمقًا وزادها ثراء الاهتمام بكتب ومقالات تعرف بالمبدعين العرب المعاصرين فى مجال الفن والثقافة كان من بينها التعريف بالفنان المبدع آدم حنين من خلال كتاب أصدرته «دار الشروق» عنه أثار فى نفسى موجة من الذكريات قد تتعلق ببداية تكوينه الفنى وانطلاقه نحو العالمية التى استحقها بجدارة، إذ سمحت لى ظروف دراستى للقانون الدولى بجامعة ميونخ ورئاسة اتحاد الطلاب العرب بألمانيا بالتعرف على الفنان الذى وصل إلى عاصمة الفن والثقافة الألمانية «ميونخ» فى نهاية الخمسينيات فى بعثة لاستكمال مشواره الفنى بدراسة فى أكاديمية الفنون الجميلة بها وتذكرته شابًا هادئًا دمثًا تعلو وجهه ابتسامة، ألقاه أحيانًا فى مطعم الجامعة لنأكل سويًا الوجبة الطلابية الألمانية التقليدية المكونة من البطاطس والسلطة والشوربة ونسعد بإضافة قطعة دجاج إليها أيام الثلاثاء وشريحة سمك يوم الجمعة ونعانى من قلة الخبز وماء الشرب الذى تعودنا على مساندته للوجبات فى مصر، وكان يحضر معنا أحيانًا اجتماعات اتحاد الطلبة العرب لنناقش مساندة الثورة الجزائرية ودعم كفاح الشعب الفلسطينى وكان حديثه دائمًا من منطلق إنسانى يتألم لما يلاقيه البشر من ظلم وقهر وآلام فى ظل الاستعمار ويعتز بجذوره وارتباطه بحضارة وتاريخ بلاده وبنتاج وأعمال الفنان والنحات المصرى القديم التى اعتبرها تعبيرًا عن إنسانيته بعد أن وصل مجتمعه إلى قمة الحضارة.

وازداد إعجابى واهتمامى به عندما علمت أن أكاديمية الفنون الألمانية كاستثناء وخلافًا للمعتاد قد خصصت مرسمًا خاصًا للفنان المصرى ضمن قاعاتها تقديرًا لأعماله وطلبت أن أزوره فى منزله لتهنئته على هذا التكريم المشرف للطلبة العرب فقابل طلبى بتردد وحرج وإن لم يستطع بدماثته رد طلبى وتوجهت فى اليوم التالى مع زميل من رئاسة اتحاد الطلبة إلى مقر إقامته فى حى الفنانين بمدينة ميونخ المسمى «شفابينج» لنصل إلى منزل تقليدى قديم يقيم فناننا الموهوب فى غرفة طلابية على السطح لم نستطع دخولها لصغر حجمها الذى لا يضم سوى سرير ودولاب وطاولة صغيرة ولا يستطيع أحد الولوج إليها إلا بالقفز فوق السرير أولاً وهو المكان الذى يرتدى أو يخلع فيه الفنان ملابسه عند ذهابه أو عودته من المرسم وضحكنا واكتفينا بشرب الشاى فى قهوة طلابية بأسفل المنزل.

وفوجئت بعد شهور قليلة بمقال مطول فى صحيفة «سود دويتشه تسايتونج» أهم صحف الولاية عن معرض للفنان المصرى آدم حنين فى واحد من أهم دور العرض بالحديقة الملكية Hofgarten لمعروضات متميزة من النحت مشكلة من الطين وتذكر بشكل قوى بالخطوط الأساسية للنحت والتماثيل الفرعونية الخالدة وشاهدنا المعرض المكون من تماثيل صغيرة نسبيًا من الطين أو الصلصال لا تعكس زخارف وبهرجة وألوانًا صاخبة ولا تكوينات من مدارس الفن الحديث التكعيبية أو السريالية، بل وحدات متكاملة لاصقة بالأرض فى ثبات لافت للنظر وانطلاق للتكوين فى شموخ معبر يذكر فعلاً بكتل النحت الفرعونية المتماسكة لتطرح فكرة واحدة جذرية مبسطة هى الإنسان والتصاقه بالأرض والطين الذى خلق منها.

قد لا يعلم الكثيرون أن آدم حنين لم يكن اسمه الحقيقى المسجل فى شهادة ميلاده، بل هو اسم اختاره الفنان فى فترة نضوجه الفنى واختياره هذا الاسم لنفسه هو فى حد ذاته دلالة على فلسفته وفكره ونتاجه الفنى الذى انعكس فى جل أعماله فاختياره لاسم آدم (أبو البشر) مفهوم فلسفى وجودى يعنى أنه لا قيمة لأى اختلافات عرقية أو لغوية أو مادية أو فى الشكل والمظهر بين البشر فكلهم آدم وصفتهم الأساسية هى الإنسانية فاختار اسمه الأول ليعلن أنه مجرد إنسان وواحد من البشر. واختياره لاسم «حنين» كالاسم الثانى له أيضًا دلالة فلسفية وجودية بمعنى اعتقاده أن الصفة الإنسانية الأساسية هى الحنان بمعناه الواسع الذى يشمل الحب والسلام وقبول الآخر والإخاء. وكل ما تعارض مع ذلك فهو مخالف للطبيعة الإنسانية التى خلق عليها البشر. ولا شك أن هذه النظرة والفلسفة كانت ذات تأثير قوى فى نتاجه فى النحت والتصوير معبرة عن إنسانية مطلقة يترجمها خياله وحسه المرهف إلى أعمال فنية لا ترتبط بالزمن والاختلافات بين البشر. ولم يكن من المستغرب على آدم حنين بعد النجاحات المتتابعة لمعارضه فى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وتقدير النقاد لإبداعاته وعالمية فنه أن يعود إلى القاهرة ليعيش فى منزل بناه من الطين فى منطقة الحرانية المطلة على أهرامات الجيزة وسقارة كسليل وامتداد لأجداده الفراعنة وفنانيهم ونحاتيهم من أبناء الفلاح المصرى الذى طالما ارتبط بالأرض وطينها الذى خلقه منه الإله وعاش من خيراته وانتهى إليه مشواره بعد انتهاء دوره فى الحياة.

ولفت نظرى اهتمام آدم حنين والجداريات المصرية القديمة وروايته أنه بدأ حياته الفنية فى مرحلة الطفولة بتشكيل تمثال من الصلصال لأخناتون بعد زيارة مدرسية للمتحف المصرى، اختار الطفل الموهوب أخناتون من بين المئات من تماثيل الآلهة والفراعنة بالمعرض.. الفرعون الذى قضى حياته فى البحث عن أصل الوجود وحقيقة الكون وجوهر الإنسان حتى انتهى إلى فكرة التوحيد وتميز عصره فى مجال الفن والنحت والتصوير بثورية رفعت القيود عن الفنان المصرى لينطلق فى واقعية وتجريد يعكس الجوهر الإنسانى بعد أن كان مقيدًا بمعايير تطالبه بأن يعكس الكمال والسلطة والجمال فى تصويره لتماثيل الفراعنة والآلهة، وهو ما نشاهده فى الجداريات والتماثيل بالمتاحف التى تصور إخناتون مع زوجته وأبنائه وفى عباداته بشكل واقعى وإنسانى، وما نلمسه فى نشيد اخناتون الذى يتناول مظاهر الخلق والمفعم بالحب والحنان.

لقد درس آدم حنين وتمكن من تقنيات النحت والتصوير واستوعب مدارسها الحديثة واستفاد من ذلك دون أن يؤثر أو يغير ذلك من نظرته الأساسية لفنه كتعبير عن ثبات الصفة الإنسانية كأولوية لاحقة بالأرض واعتبر فنه امتدادًا للفنان المصرى القديم الذى مازالت أعماله تبهر العالم بلا منافس.

فتحية إلى فناننا الإنسان الكبير الذى يستحق فى بلده ووطنه كل تقدير واعتزاز بعد اعتراف العالم الخارجى بعبقريته وقدراته ومكانته الفنية وقبل كل شىء إنسانيته المبدعة والخلاقة.

السفير حمدى عزام

قـــراءة

أيمن الصياد

سيف القوة.. وميزان العدل

«المواطن».. يحمل السكين

■■ لا يهم أبداً إن كان هذا «المواطن» الذي يبدو في الصورة يحمل السكين أمام كنيسة سكندرية مسلماً أو قبطياً. كما لا يهم أبداً اسمه الثلاثي أو محل سكنه أو رقم بطاقته «القومية». إذ يظل هذا كله من باب التفاصيل التي قد تهتم بها جهات التحقيق الجنائي أو القضائي أو في «ضمائر البشر».

المهم أن هذا «المواطن» الذي خرج إلى الشارع مستنفراً يحمل سكيناً ليس عضواً في تنظيم متطرف يستهدف أتباع الدين الآخر، كما كان الحال - أحياناً - قبل ١٩٩٩.

وإنما هو «مواطن» عادي استقر في يقينه (وهذا لب المشكلة) أنه لن يتسنى له دفاعاً عن نفسه، أو وصولاً إلى حق «يتصوره» إلا بالقوة والعنف.. والسكين.

كيف وصلنا إلى هنا؟!

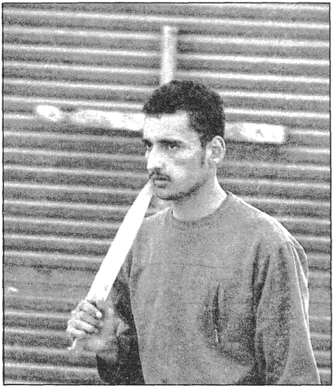
لابد أن نعرف - أولاً - أننا نعيش حالة من التوتر (المجتمعي لا الطائفي فقط) لن تهدئه هراوات الأمن المركزي، كما لن تخفيه - مهما تكاثفت - غازاته المسيلة للدموع.

ولابد أن نعترف - ثانياً - أن هناك احتقانات. وإن أنكرنا - تحت كل جلد. وهناك سيف صار - وإن غفلنا - قريباً من كل يد.

ولابد أن نقلق - ثالثاً - حين نلحظ أن هناك من لم يدرك، أو لعله لا يريد أن يصدق أن عود الثقاب أصبح أقرب:

١ - مما نظن.

٢ - من أي وقت مضى.



© «المصري اليوم». تصوير: عمرو عبد الله

وتر التخويف وإثارة الفزع، والذي بدا في تصاعد نشاز أصدائه وكأن هناك من يدعو كل «مواطن» إلى أن يضع سكيناً تحت وسادته.. تحسباً.. وترقباً.

ويومها - وأيضاً لحسابات أمنية قصيرة النظر - أجهض «أصحاب القرار» أكثر من محاولة (بعضها بالمصادفة سكندري) لتفاهم إسلامي مسيحي أساسه «المواطنة». كان قد بادر بها أولئك الذين أزعج البعض وصولهم للبرلمان، وكان من شأنها - لو اكتملت - أن توجد مناخاً «أفضل» من ذلك الذي امتلأت في أجوائه الخانقة والضاغطة شوارع المدينة الساحلية الهادئة بالمتحفزين والغاضبين.. و«السكاكين».

■ ■ ■

لماذا صرنا هاهنا؟

يخطئ من يعتقد أن ما جرى في الاسكندرية «محض شأن طائفي»، كما يخطئ من ينظر إلى صورة «السكاكين» المشرعة أمام كنيسة القديسين بمعزل عن المشهد السياسي العام المسكون بالعنف و«اليأس».

ربما كلنا مسؤولٌ بشكل أو بآخر عن مناخ السكاكين المشرعة. ولكن.. نكرر: تبقى الدولةُ - بحكم التعريف - إذا تورطت أو تواطأت أو غضت الطرف «اعتداداً» بالسلطة، أو عزة بالاثم».. المسؤول الأول. والا بماذا نسمي هذه المعارك الرسمية «الخشنة» مع

كان لا أحد يريد أن يرى النار تحت الرماد. رغم أن تمرد الأمن المركزي (١٩٨٦) إذا ما كنا نذكر - ويجب أن نذكر - لم تسبقه إشارة، كما لم يكن بحاجة إلى تنظيم وكوادر و«البيان الأول». ولكنه في نهاية المطاف، أو في نهاية «المفاجأة»، جاء بالدبابات إلى الشوارع.. وبالقلق إلى النفوس.

■ ■ ■

كيف وصلنا إلى هنا؟!

ألا تذكركم هذه الصورة. وهذا السكين اللامع بصورة مشابهة نشرت هنا قبل أشهر (ديسمبر الماضي) لما جرى على أبواب اللجان الانتخابية من بلطجة سافرة غير مسبوقة؟

يومها مارس الجميعُ العنف.. ربما. ولكن تبقى الدولةُ إذا مارست، أو تواطأت أو غضت الطرف.. (وقد فعلت)، المسؤول الأول.

يومها لم يدرك أصحاب قرار اللجوء إلى «الهراوة والسكين» لضمان الأغلبية خطورة أن يشيع في المجتمع مفهوم: أن القوة / العنف هي السبيل «الوحيد» لكي تصل إلى هدفك (حقاً كان أو باطلاً).

ويومها لم يفكر بعضهم كثيراً قبل أن يصرح في الصحف «الرسمية» بأن أحكام القضاء التي صدرت عشية الانتخابات «لن يعتد بها».. هكذا(!) غير مدرك خطورة أن يتعمق لدى المواطن العادي شعورٌ باليأس من اللجوء إلى التقاضي «سبيلاً» سلمياً لحل المنازعات، وغير مدرك أنه عندما تغل يد القضاء في رد المظالم لأصحابها يصبح الأمن الاجتماعي مهدداً. كما يصبح مفهوم الدولة ذاته في خطر.

وأيضاً يومها - ولحسابات انتخابية ضيقة - لم يتورع البعض في الترويج لحالة من «الفزع» لدى أقباط هذا الوطن، بعد أن نجح عدد من الإسلاميين في الوصول عبر صناديق الاقتراع إلى البرلمان. حتى حزب الدولة المفترض أنه المسؤول «بأغلبيته» عن لحمتها الشعبية، بدا يومها وكأنه أوكل مهمة «إثارة الفزع» المقدسة إلى بعض إعلامييه المفضلين.

يومها حذرنا من الزج بالأقباط في مزايدات السياسة، ومن العزف المستمر على

القضاة والصحفيين والطلاب والمهنيين على اختلاف نقاباتهم. و بماذا نسمي ما ورد في تقرير المجلس «الرسمي» لحقوق الإنسان عن اعتقالات واحتجاز لمواطنين دون سند من القانون، وعن حالات مؤكدة للتعذيب، وعن أحكام للقضاء تجاهلتها السلطات واعتبرتها «محض حبر على ورق».

و بماذا نسمي إغلاق نادي أعضاء هيئة التدريس بجامعة الإسكندرية «بالجنازير» لمنعهم من عقد جمعيتهم العمومية، رغم حكم القضاء بقانونية الاجتماع؟ أليس في ذلك بلطجة و«سكيناً» ترفعه سلطة الدولة أو بعض دوائرها في وجه أكاديميين جامعيين.

ثم بعد كل ذلك - أو بالأحرى في القلب منه - بماذا نسمي إحالة قضاة «كبار» للتحقيق، لا بتهمة الرشوة أو التربح أو استغلال النفوذ، وإنما - لكونهم طالبوا بكشف حقيقة ماجرى في الانتخابات البرلمانية الأخيرة. وهل مهمة القضاء «تعريفاً» غير كشف الحقيقة.؟!

لماذا في مصرنا التي عرفت «الدولة» قبل آلاف السنين، علا سيف القوة على ميزان العدل؟

هانحن نرفع «سكين» الترهيب في وجه القضاة. وهو أمر مهما فرح بعضنا بنتائجه الآنية ستكون «الدولة» ومفهومها ذاته الذي يستند بالتعريف إلى «النظام»، ومن ثم إلى «مهابة القانون وأصحابه» أول الضحايا.

■ ■ ■

وبعد.. فقد ينتصر «سيف القوة»؛ وهي معقودة للدولة بما لديها من سلطة مطلقة على «ميزان العدل»؛ ولا شيء غيره في يد القضاء. ولكن النتيجة النهائية ستبقى أخطر كثيراً مما يراه قصيرو النظر: «جميعاً سنخرج خاسرين». فعندما يتأكد للجميع أن «القوة فوق العدل» سيبحث الناس عن حقوقهم وعن أمانهم في السكاكين والخناجر والسيوف.

أرجوكم تأملوا الصورة جيداً. ■



خدمة الأرقام المميزة
اختار أرقام حبايبك
كلم ماما فى طنطا
وخالو فى هولندا
ووفر
٢٠٪
على سعر المكالمة
كلم حبايبك كتير.. وما تقلقش عالفواتير
المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
الخدمة متاحة بجميع السنترالات
لمزيد من المعلومات اتصل بـ ١١١
www.telecomegypt.com.eg

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 7 - Issue 89 - June 2006

مجلة شهرية. العدد التاسع والثمانون . السنة السابعة . يونيه ٢٠٠٦ . الثمن عشرة جنيهات



لماذا نعيش ١٠٠٠ سنة؟
رامز نام

كيف صرنا نأكل ونلبس ونحب؟
عبد الوهاب المسيرى

هل هو حقا «عالم» رحيم؟
جون جراى

ما بين «عتب» «شلبى».. و«قنديل» حقى..
يحيى الرخاوى

الحوار منهجا للالتفاف والهروب
سلامة أحمد سلامة

القضاة .. والقضاء .. والقضية
أيمن الصياد

السنة الثامنة
العدد التاسع والثمانون
يونية ٢٠٠٦

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أمين ألبرت الريحانى.. كاتب لبنانى ونائب رئيس جامعة اللويزة فى لبنان.
- أيمن الصياد.. صحفى.
- جون جراى.. أستاذ الفكر الأوروبى بكلية لندن للاقتصاد.
- رامز نام.. باحث تكنولوجى أمريكى وصاحب شركة لتطوير البرمجيات.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى.
- سيمسون نايوفتس.. صحفى وكاتب كندى متخصص فى المعتقدات الدينية.
- عبدالمحسن محمود فرحات.. أستاذ عمارة البيئة كلية تصاميم البيئة.
- عبد الوهاب المسيرى.. أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة.
- محمد بن راشد آل مكتوم.. نائب رئيس دولة الإمارات ـ حاكم دبى.
- مصطفى الرزاز.. فنان تشكيلى وكاتب.
- مصطفى لبيب عبدالغنى.. أستاذ الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة.
- يحيى الرخاوى.. أستاذ الطب النفسى بجامعة القاهرة.
- يوسف الشريف.. صحفى.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجى ـ سعد الدين شحاته ـ عماد حجاج

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٢٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١,٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١,٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

سلامة أحمد سلامة

الحوار.. منهجا للالتفاف والهروب

دخلت كلمة «الحوار» قاموس الحياة المعاصرة على نحو لم يسبق له مثيل، لتتحول إلى مصطلح ثقافى وسياسى واجتماعى، بل ومصطلح استراتيجى فى بعض الأحيان، يتجاوز معناها اللغوى والفلسفى منذ أطلقها أفلاطون فى محاوراته، التى أجراها على لسان أستاذه ومعلمه سقراط، مع حوارييه فى فجر الحضارة اليونانية، ليستخلص منها أولى اللبنات فى سؤال العقل وإنتاج المعرفة.. عندما كانت الثقافة مرادفة لامتلاك الوقت والفراغ والانصراف إلى التأمل..

لم يكن هدف أفلاطون فى تصويره لأستاذه الباحث عن الحقيقة عن طريق الشك والسؤال والحوار، غير إطلاق عملية تعليمية تنبع من الداخل، وتدير البصر فى اتجاه الضوء الذى ينير ما حوله فى عملية تحول بطيئة، تغير شخصية الإنسان وتعيد تركيب تجاربه وخبراته.. تقدم قراءة جديدة للواقع، أشبه بأوراق جافة عصفت بها هبة ريح منعشة فأعادت تنسيق أوضاعها.. أقرب لما يسمى الآن بالعصف العقلى brain storming، أو توليد الأفكار الذى يستهدف إعادة تقييم المؤسسات والحقائق والنظريات ومنظومة القيم، سعيًا إلى تجسير هوة الخلاف والصراع فى إطار تصور شامل متكامل لقضايا ومشكلات بعينها.. تحقق السعادة للإنسان والمجتمع.

وإذا كانت محاورات سقراط مع تلاميذه قد أفضت به إلى تجرع السم محكوماً عليه بالإعدام بعد أن رفض تقديم الالتماس إلى قضاته بالعفو عنه، بتهمة سب الآلهة والتشكيك فى المعتقدات والقوانين العامة، فإن ما يجرى من حوارات فى العصر الحديث، يراد بها حل الخلافات السياسية والاحتقانات الاجتماعية التى تؤدى فى النهاية إلى تفكك المجتمعات وانهيار النظم السياسية ونشوب الحروب الثقافية والمعارك الكلامية. ثم لا تلبث أن تفجر صدامات دامية تزعزع الاستقرار وتدمر فرص السلام بين الشعوب والجماعات.

ولأسباب تبدو بحاجة إلى كثير من البحث والتعليل، تظهر الثقافة العربية الراهنة بعيدة عن الأخذ بثقافة الحوار التى تعتمد على التسليم باختلاف وجهات النظر، والاعتراف بأن أحداً لا يملك الحقيقة المطلقة، باعتبارها منطلقًا إلى الاتفاق والتوافق والتقارب، والاحتكام إلى قواعد ثابتة للتعايش والتعاون والعمل المشترك. إذ تسود فى ثقافتنا العربية نماذج ورموز وثوابت وآليات، تدمر منابع الحيوية، وتعطل القدرة على الشك والتساؤل والإبداع. وذلك على الرغم من أن منابع الدعوة الإسلامية قامت على مبدأ «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة» و«جادلهم بالتى هى أحسن». على أساس أن الجدل بالحسنى والحوار بالمنطق هما الطريق إلى استبيان الحقيقة، وامتلاك الحرية، وتحقيق العدل. إلا أن هذه الحرية الفكرية لم تلبث - على مر حقب تاريخية مختلفة - أن توارت خلف ادعاءات نرجسية، تهدف إلى إلغاء الآخر وتكفيره وإدانته لمجرد الاختلاف فى الرأى أو المذهب أو الحزب. ولعبت السياسة دوراً فى إذكاء روح التعصب والجمود والتحزب، فتحولت جدلية الحوار إلى منهج للالتفاف والهروب والانعزالية. وغلب منطق الربح والخسارة على مفهوم الحوار، بحيث بدا وكأن من الضرورى فى أى منبر للحوار أن يكون هناك رابحون وخاسرون، ولو على حساب الحقيقة.

ويعزو بعض المفكرين هذا التدهور الفكرى إلى تراجع المشروع الحضارى الذى شهدت الثقافة العربية بداياته فى القرن العشرين، سواء على الجانب التراثى أو على الجانب الحداثى.

فعلى الجانب التراثى تراجع العقل فى مقابل النقل، وغلبت النزعة إلى تحكيم النص بل وعبادته، على تحكيم العقل واستشارته. وها نحن نرى ونسمع حولنا كل يوم صوراً من حوارات عامة تنشأ من فتاوى دينية حول مشكلات عصرية، يتجاوزها الزمن ويغلب عليها التقليد الأعمى، الذى لا يراعى تغير الزمان والمكان، واختلاف العصر والمصر، استناداً إلى نصوص فقهية من اجتهادات رجال سابقين فى قرون مضت.

أو فى نموذج آخر من النماذج المتفشية حتى بين المثقفين والمتعلمين، الذين يتنازلون عن أوراقهم العقلية طواعية لشيخ أو إمام، يمنحهم البركة والهداية، فيصبحون طوع بنانه ورهن إشارته، باعتباره يملك مفاتيح الجنة وعلامات الطريق.

أو فى نموذج ثالث من نماذج الأصولية المتعصبة التى تصنع عقلية الإرهابى وتضع على عينيه غشاوة تمنعه من رؤية ما حوله، فيمضى فى طريق التخريب والتدمير يزرع الرعب والموت.

وفى مثل هذه الحالات لابد أن تتعطل لغة الحوار والجدل وتختفى تماماً باعتبارها رذيلة من الرذائل ومصدراً للتعاسة والشقاء، بل وطريقًا إلى الكفر والضلال والخروج على الدين.

أما على الجانب الحداثى فإن الجمود العقلى ورفض الآخر وعدم القبول بالاختلاف والخلاف، يتخذ أشكالاً مركبة أكثر تعقيداً، حيث تتسع الفجوة بين الظاهر والباطن، بين المعلن والمستتر، بين الأقوال والأفعال، بين الأهداف العلنية والمخططات السرية.

وفى هذه الحالات يصبح استخدام أحدث مخترعات العصر وتقنياته المتقدمة، من أنجع الوسائل لقمع الحريات الفكرية والاجتماعية، والتضليل الإعلامى لقطاعات واسعة من النخب المثقفة، والترويج لآليات ومنتجات استهلاكية. وتوظف قوانين العولمة لخدمة أغراض محددة فى إحكام السيطرة والهيمنة، ونهب الثروات، وتجنيد الشعوب تحت سطوة احتكارات عالمية، وإشاعة وهم الحرية والديمقراطية.

هنا أيضاً يتحول الحوار إلى أداة من أدوات الخداع والتضليل، والإيهام والتمويه.. حيث لا يكون الهدف منه الكشف عن الحقيقة، أو بلوغ نقطة التوافق، والتفاهم والتراضى عند حد الوسطية المعتدلة، بل يكون الهدف هو تأجيج الصراع، وإثبات الغلبة، وهزيمة الخصم أو إذلاله، وإخراجه من حلبة النقاش مذموماً مدحوراً.

وتستطيع أن ترى وتسمع حولك عشرات بل مئات من برامج الحواريات والتوك شو والدردشات التليفزيونية، والبلوجرز على الإنترنت، والندوات والمؤتمرات التى تتخذ من الحوار والنقاش أداة لطرح الأفكار وتصفيتها وتنقيتها أو ترويجها والدعوة إليها.. فلا تجد غير القليل منها الذى تنطبق عليه قواعد الحوار وأساسياته، والذى لا يتحول فى النهاية إلى مراشقات كلامية، واستفزازات لفظية، ومقاطعات سطحية لا تفيد المشاهد فى شىء، ولا تضيف إليه معرفة أو إلماماً بجوانب القضية ولا تمكنه من تكوين رأى أو حكم سليم يقتنع به، بل غالباً ما ينصرف عنها مصاباً بالتوتر والغثيان والصداع.

ولكن ما هو الحوار، وما هو تعريفه؟

الحوار فن من فنون التخاطب، يتم لغوياً أو بتعبيرات الجسد عن طريق الإشارة والإيماءة، أو حتى بالصمت والتجاهل. ولم يعد الحوار مقصوراً على شكل من أشكال اللقاء بين أطراف، مختلفين أو متفقين، للنقاش والجدل حول موضوع بعينه، ولكنه اتسع لأساليب وأشكال مختلفة متنوعة، بهدف التأثير على الآخر وكسب ثقته أو دحض معتقداته وآرائه، أو إزالة بواعث النفور والكراهية، وإيجاد أرضية مشتركة للتقارب.

ويكاد الحوار الإعلامى أن يكون أبسط أشكال الحوار وأكثرها مباشرة واتصالاً بين أطرافه.. لأنه يفترض منذ البداية أن يكون أطراف الحوار على استعداد نفسى لسماع وجهة نظر مغايرة، وأن يكونوا ملتزمين بقواعد وأساسيات لا يسمح بالخروج عليها، مثل توجيه الاتهامات بالخيانة أو الكفر أو الانحراف، أو اللجوء إلى تجريح الآخر والطعن فى سلوكياته الشخصية وحياته الخاصة، مع التسليم بأنه من المستبعد أن يسارع كل طرف إلى الاعتراف بخطئه أو الانتقال من الرأى إلى نقيضه، دون أن يقدم الطرف الآخر ما يشير إلى قبوله لبعض جوانب الرؤية المغايرة.

وقد أدى انتشار البرامج الحوارية فى الفضائيات على نطاق جماهيرى واسع إلى إدخال جمهور المشاهدين والمستمعين طرفًا فى الحوار، بتوجيه أسئلتهم واستفساراتهم إلى مجموعة الضيوف الذين يشاركون فى حلقات الحوار، وهو

لم يكن غريباً أن ينقلب الحوار إلى شجار، وأن تتصدع الحياة الحزبية والسياسية فى مصر وتتوه معالم الطريق، وتتفجر المشكلات والقضايا بحيث أصبح من الصعب اتخاذ الحوار أداة للوصول إلى اتفاقات أو حلول وسط

ما يخرج بالحوار عادة عن قيود السجال الضيقة التى تفرضها مناقشات الغرف المغلقة، ويفتح الباب أمام أجيال جديدة، تتدرب على احترام الرأى الآخر والإنصات له، وعدم الخلط بين الشخصى والموضوعى، وتجنب المقاطعة وأساليب الاستخفاف والسخرية والتهوين، والإدراك العملى بأن الصواب له وجوه متعددة وأن التسليم بالرأى الآخر لا يعنى مساساً بالكرامة الشخصية، كما أنه لا يعنى فى نفس الوقت فساداً فى الرأى أو خللاً فى التفكير، بقدر ما يعنى أن هناك رؤية أخرى تكمله أو تناقضه، تستند إلى معطيات وتجارب مختلفة.

وهذه فى الحقيقة هى الأسس التى تقوم بها وعليها الديمقراطية. فالحوار الحر المنظم، والنقاش المفتوح على كل الاتجاهات والاجتهادات، هو الذى يؤسس لنظام ديمقراطى يقبل بالتعددية والتداول، واحترام الحق فى الخلاف والاختلاف.. فإذا غابت هذه الأسس، فى الحياة الفكرية أو السياسية، انعدمت احتمالات الديمقراطية، واختنقت الحريات، وساد الاستبداد. وأصبح الحوار بكل أشكاله وحلقاته ومنابره مجرد وسيلة للتنفيس عن الكبت، وإطلاق البخار المكتوم تحت ثقل الحصار وأساليب القمع، ثم لا يفضى ذلك كله إلى شىء من التقدم أو التغيير. بل يفضى إلى تكريس أنظمة الاستبداد وتقييد الحريات، بحجة مقاومة الأخطار الخارجية، أو الدفاع عن الوطن، أو محاربة الاستعمار والإمبريالية، أو مقاومة الإرهاب!!

ويبدو للوهلة الأولى أن العالم العربى لا تنقصه لغة الحوار، ودعوات الحوار، وأطراف الحوار، وأشكال الحوار، ولكن المؤكد أنه تنقصه روح الحوار بمعناها الإيجابى: الحوار الذى لا تنقصه المصارحة، والتخلى عن النرجسية والمكابرة، والاتفاق على أساليب وآليات عملية لحلول وطنية أو قومية دون مزايدة. أما ما يجرى فى الوطن العربى الآن فهو مجرد سجال سفسطائى وجدال بيزنطى لا غناء فيه..

ففى مصر على سبيل المثال، ركبت جميع الأحزاب السياسية موجة الحوار للاتفاق على برنامج عمل وطنى مشترك، يحقق أهداف الإصلاح السياسى ويضع نهاية لمرحلة من الجمود واحتكار السلطة السياسية من جانب حزب واحد، هو الحزب الحاكم. واستغرقت جلسات الحوار شهوراً عديدة، استنفدت كثيراً من الوقت والطاقة، ومعها أيضاً كثيراً من النيات الحسنة وعوامل الثقة، التى سرعان ما ذهبت هباء عندما تجاهل الحزب الحاكم معظم المبادئ والقواعد التى تم الاتفاق عليها، وانفرد باتخاذ القرارات ووضع السياسات والبرامج التى تحمل شبهة الإصلاح، ولكنها تفتقر إلى الإصلاح الحقيقى وإلى الإرادة السياسية للنهوض بتكاليفه وتبعاته.

ومن ثم لم يكن غريباً أن ينقلب الحوار إلى شجار، وأن تتصدع الحياة الحزبية والسياسية فى مصر وتتوه معالم الطريق، وتتفجر المشكلات والقضايا من كل اتجاه.. بحيث أصبح من الصعب اتخاذ الحوار بين الأطراف المتنافسة مرة أخرى أداة للوصول إلى اتفاقات أو حلول وسط إلا بعد تغييرات جذرية فى الأشخاص والمفاهيم وموازين القوى.

صورة أخرى من صور الحوار العقيم المجدب، ذلك الذى يجرى بين الفرقاء والأحزاب فى لبنان.. والذى قادت إليه التطورات السياسية العنيفة التى أعقبت اغتيال الحريرى، فوضعت لبنان على شفير الهاوية وعرضت سوريا لضغوط وتهديدات دولية..

فيما بين سوريا ولبنان، انقطع الحديث ولم يرتفع حتى هذه اللحظة إلى مرتبة الحوار المباشر، بين شعبين ارتبطا تاريخياً وسياسياً وعائلياً، وتحول الحوار عبر أطراف ثالثة ورابعة إلى علاقة ملتبسة، أتاحت للأصابع الأجنبية أن تعبث بها لغير مصلحة البلدين. وحيث تغيب ثقافة الحوار وتغلب نوازع السيطرة والاستبداد وحسابات الربح والخسارة، يصبح الخوف المتبادل وانعدام الثقة هما سيدا الموقف، وتستيقظ العداوات القديمة والفتن النائمة. وقد انعكست هذه الأجواء على اللبنانيين أنفسهم، فلم يعد الانقسام مقصوراً على أنصار الموالاة وأنصار تيار المستقبل، بل تضاعف الانقسام والتشرذم داخل هذه المعسكرات ذاتها. ورغم الحوارات واللقاءات شبه اليومية بين زعماء الكتل والأحزاب السياسية، إلا أنها ما تكاد تتفق حتى تختلف، وما تكاد تتوحد حتى تتفرق، وما تكاد تجمع على حل أو خطة فى يوم حتى تنقضها فى اليوم التالى.

وكان طبيعياً نتيجة لذلك أن تتحول الساحة السورية اللبنانية إلى أرض رخوة، يسهل اختراقها وتوظيفها واستغلالها لحساب الدول الكبرى ولحساب إسرائيل ولحساب الذين يريدون إعادة رسم خريطة المنطقة على هواهم.

ويكاد يكون الهدف من كل أشكال الحوار التى بدأت وأخفقت، هو الاتفاق على «البديهيات». ولكن ما يحدث على الجبهة الفلسطينية بين القوى التى خاضت معارك النضال والتحرر كتفاً إلى كتف ورأساً برأس، لابد أن يثير غضب الحليم، ويفجر منابع الإحباط، ويقضى على الأمل فى أى نهوض للأمة العربية.

وحين تعجز فتح وحماس عن إقامة حوار وطنى حول المشاكل المستعصية والتحديات القادمة من جانب عدو قرر بحكم قوته واستعلائه أن يضع الحدود والحلول النهائية بمفرده دون تفاوض، ودون أدنى اعتبار للحقوق الفلسطينية حتى ولو أدى الأمر إلى سحق الشعب ونهب أراضيه، فلا مفر من الاعتراف بأن تضحيات خمسين عاماً من النضال يمكن - بمحض الغرور والجهل والعناد - أن تذروها الريح. والسبب واضح يصعب تجاهله وهو غلبة الميل إلى الاستئثار بالسلطة، والعصبية التى تتغلغل فى ثقافة القبيلة والعشيرة، لتنهدم «البديهيات» على رؤوس الجميع، بديهيات التكاتف والوحدة فى وجه العدو. وهى بديهيات فطرية فى تاريخ الشعوب، إذا فقدتها اضمحلت وبادت.

وربما كان السبب فى ذلك أن الدائرة العربية الأوسع فى إطار الجامعة العربية، لم تتصارح أو تتحاور بما فيه الكفاية حتى قبل مجىء حماس إلى السلطة، ولم تتفق على منهاج عمل موحد إزاء ما يسمى تسوية أو خريطة طريق أو عملية سلام: سواء بالنسبة للدور الذى يتعين على المجتمع الدولى أن يقوم به، أو بالنسبة للعلاقات العربية الإسرائيلية التى قدمت باسم السلام من التنازلات ما هيأ لإسرائيل وضعاً متميزاً متفوقاً فى كل المجالات.

أما أسوأ صورة من صور الحوار العدمى الذى يفضى إلى التهلكة، فهى ذلك الذى يجرى بين أطياف الشعب العراقى ومذاهبه وأعراقه، والذى نجح الاحتلال فى تعميقه وتكريسه بعد الغزو وإسقاط الطاغية.. هناك بين الرافدين تجرى معارك دموية، حوار بالقنابل والأحزمة الناسفة والسيارات المفخخة، لا يستثنى منها شيخ أو امرأة أو طفل، ولا مسجد ولا بيعة ولا كنيسة.. فى انتظار أن يخرج من تحت ركام الموت والدمار من يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً.. ولكن هيهات!!

هل يمكن فى مثل هذه البيئة الملوثة، فى هذه الأرض اليباب، أن ينشأ حوار عقلانى، تتراجع فيه عوامل الأثرة والسيطرة وتتغلب فيه المصلحة الوطنية والأهداف القومية؟ وهل يمكن فى ظل سيادة الغوغائية والديماجوجية السياسية والتعصب الدينى أن نقف نداً فى حوار الثقافات والحضارات على المستوى العالمى؟ ولماذا لم يسفر الحوار كأداة من أدوات التغلب على الاستقطاب والتطرف والخلاف، عن نتائج إيجابية، على أى مستوى من المستويات فى مجتمعاتنا العربية وفى علاقاتنا مع العالم؟

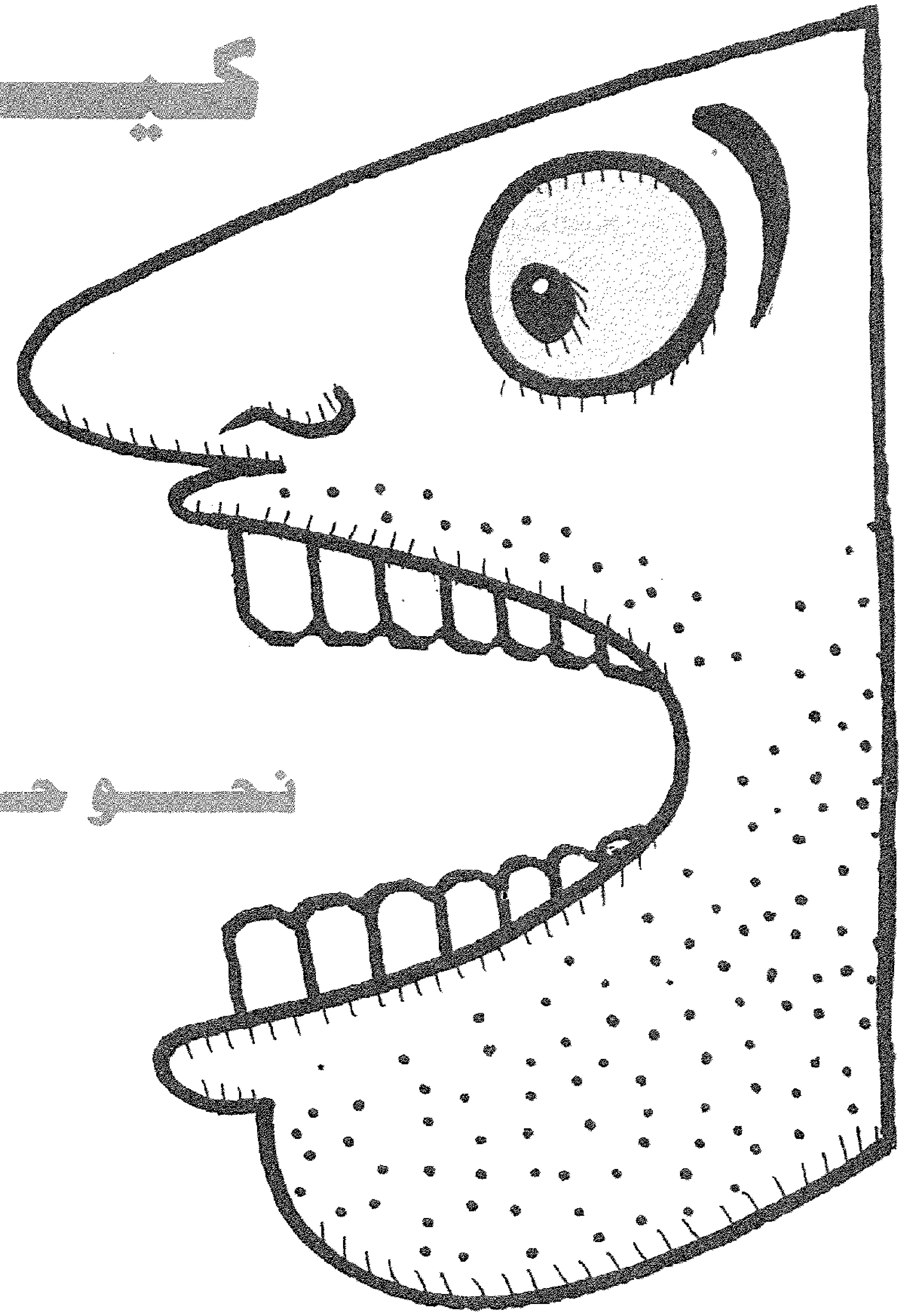
أغلب الظن أن مفهوم «الحوار» فى الثقافة العربية لم يخرج عن مفهوم «المناظرة» التى تنبع عن روح المفاخرة والحديث عن النفس والمباهاة بمآثر الآباء والأجداد، وإثبات التفوق والغلبة على الطرف الآخر، وهى صفات تعمق روح التعصب ولا تساعد على الانفتاح على أفكار الغير ومنجزاته، والتهيؤ لقبول العالم والتعامل معه بكل ما يعنيه ذلك من تداول وتعدد وشراكة وتبادل..

«المناظرة» التى نتعلمها فى مدارسنا، تختلف عن «الحوار» الذى ينبت وينمو فى بيئة ديمقراطية، تحترم حرية الرأى والاختلاف. المناظرة هى البيئة التى احتضنت وأفرخت شعر الفخر والمديح الذى جعل المتنبى يهتف أمام سيف الدولة:

ودع كل صوت غير صوتى فإننى
أنا الصائح المحكى والآخر الصدى
وما الدهر إلا من رواة قصائدى
إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

وأما الحوار فهو البيئة التى احتضنت قول القائل: «رأيى صواب يحتمل الخطأ، ورأيك خطأ يحتمل الصواب». فلا أحد يملك الحقيقة المطلقة. والحوار هو السبيل للوصول إلى الحقيقة، إلى الوسط الذى اعتبره فلاسفة اليونان هو الفضيلة التى هى الحد بين إفراط وتفريط، وهى التى تجعل الديمقراطية مرتبطة بسقف شرعى يحترم القانون وتلجأ إليه الأطراف المتنازعة.. وتجعل التسامح والتعايش مع المذاهب والأجناس والملل الأخرى أساساً من أسس السلام العالمى بالمعنى المعاصر. ومن ثم فلا يصبح «الحوار» مع الآخر تعبيراً عن كراهية الآخر، ولكن سبيلاً إلى مقاربته والاعتراف بإيجابياته والعمل على تقويم سلبياته، وتبادل الخبرات معه من أجل خير الجميع. ■

كيف نأكل



نحو حداثة إنسانية

عبد الوهاب المسيرى

■ عُرفت الحداثة بأنها منظومة تذهب إلى أن الإنسان لا يحتاج إلا إلى عقله سواء فى دراسة الواقع أو إدارة المجتمع أو للتمييز بين الصالح والطالح، فهو الآلية الوحيدة للوصول إلى المعرفة، وأن العلم والتكنولوجيا هما الآلية الأساسية وربما الوحيدة فى محاولة تسخير الطبيعة وإعادة صياغتها ليحقق الإنسان سعادته ومنفعته.

الحداثة المنفصلة عن القيمة

هذا التعريف قد يبدو للبعض تعريفاً جامعاً مانعاً أو على الأقل كافياً، ولكننا لو فحصنا الأمر بدقة أكبر لوجدنا أن الحداثة ليست مجرد استخدام العقل والعلم والتكنولوجيا، بل هى استخدام العقل والعلم والتكنولوجيا المنفصلة عن القيمة، أو كما يقولون بالإنجليزية: «فاليو - فرى Value - free »، وهذا البعد هو بعد مهم لمنظومة الحداثة الغربية، فالعالم المتجرد من القيمة المنفصل عنها هو عالم منفصل عن الإنسان، عالم الصيرورة المادية، حيث يخضع الإنسان لقوانين المادة. ولعله لهذا السبب عُرِّف الإنسان الحديث أنه الإنسان القادر على تغيير قيمة أولوياته بعد إشعار قصير وأنه فى عالم منفصل عن القيمة تصبح كل الأمور متساوية، ومن ثم تصبح كل الأمور نسبية. وحين يحدث ذلك فإنه يصعب الحكم على أى شىء، ويصبح من المستحيل التمييز بين الخير والشر، والعدل والظلم، بل وبين الجوهرى والنسبى، وأخيراً بين الإنسان والطبيعة أو الإنسان والمادة. وهنا يطرح السؤال نفسه كيف يمكن أن تحسم النزاعات والصراعات، وكيف يمكن أن نسوى الخلافات، وهى كلها من صميم الوجود الإنسانى؟ فى غياب قيم مطلقة، يمكن الاحتكام إليها، يصبح الإنسان الفرد أو الجماعة العرقية مرجعية ذاتها، ويصبح ما تراه فى صالحها هو الصالح والخير كل الخير، وما ليس فى صالحها هو الطالح والشر كل الشر. وقد أدى هذا إلى ظهور القوة والإرادة الفردية آليةً واحدة لحسم الصراعات وحل الخلافات.

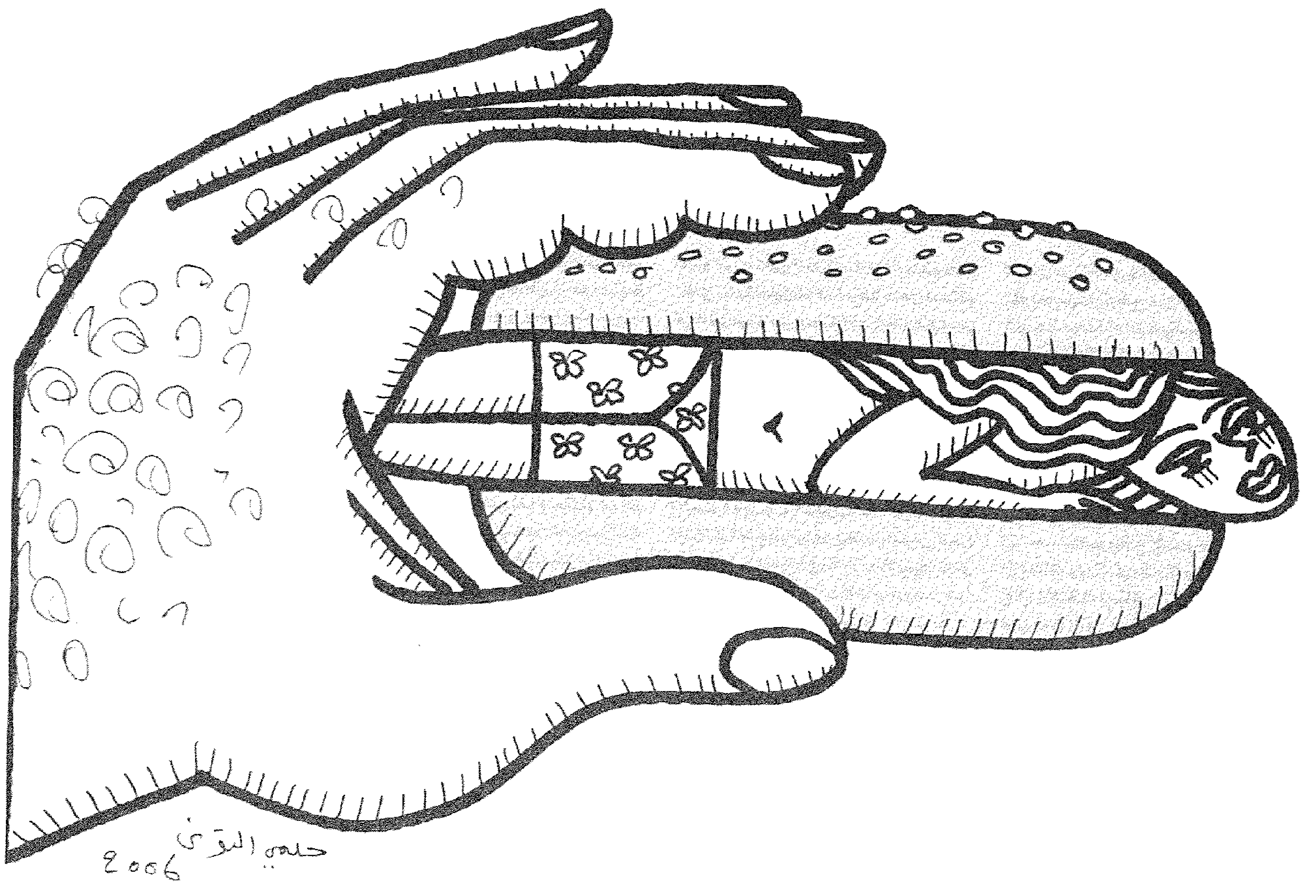
هذه هى الحداثة التى تبناها العالم الغربى والتى تجعله ينظر إلى نفسه على اعتبار أنه هو (وليس الإنسان أو الإنسانية) مركز العالم، وأن ينظر إلى العالم على أنه مادة استعمالية يوظفها لصالحه باعتباره الأكثر تقدماً وقوة، ولذا فإن منظومة الحداثة الغربية هى فى واقع الأمر منظومة إمبريالية داروينية. هذا هو التعريف الحقيقى للحداثة كما تحققت تاريخياً، وليس كما عُرفت معجمياً، وهذا هو التعريف الذى يمكننا من قراءة كثير من الظواهر الحديثة.

كانت الظاهرة الغربية الحديثة تؤكد أنها حضارة إنسانية (هيومانية) جعلت من الإنسان مركز الكون، وكانت المجتمعات الغربية مجتمعات لا تزال متماسكة من الناحية الاجتماعية والأسرية، ولم يكن كثير من الظواهر السلبية التى نلاحظها بأنفسنا، ونقرأ عنها فى صحفهم ومجلاتهم، والتى أصبحت نمطاً ثابتاً وظاهرة محددة قد تأصلت، بل كانت مجرد حوادث متفرقة لا ظواهر دالة، ومن ثم كان من السهل تهميشها. ومن هنا كان دعاة الإصلاح (من الليبراليين والماركسيين والإسلاميين) كلهم ينادون بضرورة اللحاق بالغرب (أى أن نتبنى منظومة الحداثة الغربية). ولم يكن هناك أى أصوات تعارض الحداثة الغربية أو تنتقدها، بل كان الجميع يسبِّح بحمدها، وقد كانوا محقين إلى حد كبير فى هذا، فشكل الحداثة الذى أدركوه آنذاك كان أمراً يثلج القلوب.

ولكن تدريجياً تكشف الوجه الداروينى حين أرسلت الحداثة الغربية لنا جيوشها الاستعمارية لتهلك الأخضر واليابس، وتحول بلادنا إلى مادة استعمالية، ومصدر للمواد الخام، والعمالة الرخيصة، وسوق مفتوحة بشكل دائم للسلع الغربية. ويبدو

للاستزادة:
دراسات معرفية فى الحداثة الغربية
عبدالوهاب المسيرى
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية ـ ٢٠٠٦ ـ ٤٠٠ صفحة ـ ٣٠ جنيها

ونلبس ونمارس الجنس؟



أن المفكرين الإصلاحيين الأول لم يربطوا بين الحداثة والإمبريالية الغربية، فقد ذهبوا إلى العواصم الغربية ولم يروا سوى النور والاستنارة، فى الوقت الذى كانت المدافع الغربية تدك بلادنا دكاً، أما هؤلاء الذين بقوا فى بلادهم فى آسيا وأفريقيا فقد رأوا ألسنة النيران المندلعة، وسمعوا قعقعة القنابل، وشموا رائحة البارود. يقول أحد كتب التاريخ: إنه قيل لأحد الشيوخ الجزائريين: إن القوات الفرنسية إنما جاءت لنشر الحضارة الغربية الحديثة فى ربوع الجزائر، فجاء رده جافاً ومقتضباً ودالاً، إذ قال: لم أحضروا كل هذا البارود إذن؟

ويمكن القول أن المشروع التحديثى الغربى مشروع عقلانى مادى، فكان هناك الأمل المادى البطولى فى أن تقوم الذات الإنسانية (الغربية) بالاستقلال عن الإله وتغيير الواقع والهيمنة على الطبيعة، وهو أمل يفترض أسبقية الإنسان على الطبيعة أو توازيها معه. وحاولت الفلسفة الغربية فى عصر التحديث قصارى جهدها لتأسيس نظم معرفية وأخلاقية تحتفظ بهذا التوازن بين الذات الإنسانية والموضوع الطبيعى/ المادى. وكان التصور أن العقل المادى قادر على استخلاص الكليات من التفاصيل المادية المتناثرة، وأن هذه الكليات تتسم بقدر كبير من الثبات ولذا فهى غير خاضعة للصيرورة المادية، متجاوزة لها، على الرغم من أنها مستخلصة من التفاصيل المادية ولا تشير إلى أى شىء متجاوز للمادة، ولذا فنحن نشير إليها بأنها «الكل المادى المتجاوز». هذا التصور أصبح نقطة ثبات وارتكاز ومركزا للمنظومة المادية فى عصر التحديث.

ولكن إذا كان الإنسان الحديث إنسانا عقلانيا ماديا، أليس عليه أن يتبنى رؤية علمية موضوعية مادية؟ وهنا تبدأ عملية تفكيك الإنسان، فالمعرفة العلمية المادية معرفة موضوعية ترفض الغائيات الإنسانية والخلقية، والحقيقة العلمية المادية منفصلة تماماً عن القيمة، والعقل المادى الذى يقوم بعملية مراكمة المعلومات لا يحترم الخصوصيات والأسرار ولا يهتم إلا بالتشابه والتجانس والنفع. وهذه المعرفة العلمية المادية (رغم تجاوزها للإنسان وعدم اكتراثها به) ستطبق على الإنسان لترشيده وترشيد حياته. وهذا يعنى أمرين:

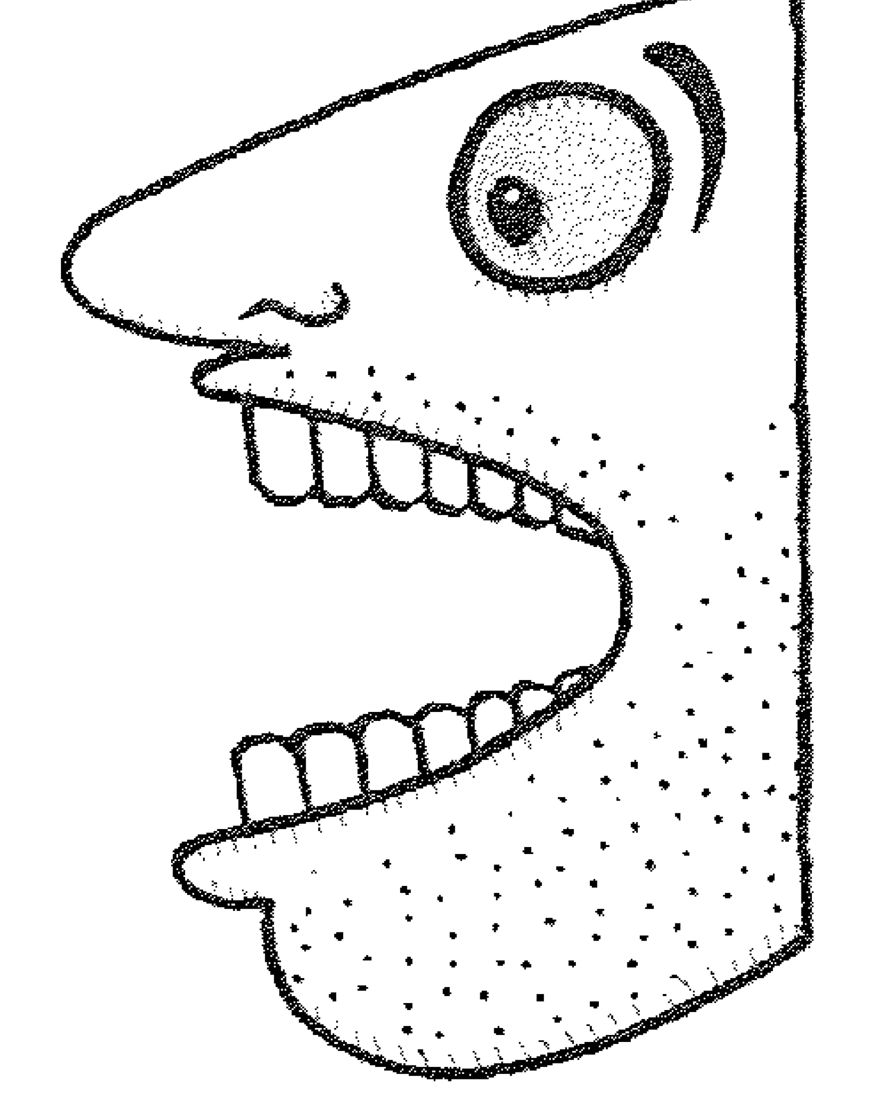
١- صياغة حياته وبيئته المادية والاجتماعية فى ضوء قيم وأنماط علمية غير شخصية ولا إنسانية.

٢- تسيير حياة الإنسان فى إطار مكوناته المادية.

كل هذا يعنى فى واقع الأمر اختفاء الحدود بين الإنسان والطبيعة/ المادة، وإزاحة الإنسان من مركز الكون، ونزع القداسة عنه تماماً. وبدلاً من ثنائية الطبيعة/ الإنسان، يظهر الإنسان الطبيعى الذى هو الإنسان الطبيعى/ المادى، أى جزءا لا يتجزأ من عالم الطبيعة / المادة، وهو أيضاً الإنسان الوظيفى الذى يعرف فى إطار وظائفه البيولوجية التى تحكم وجوده ووظيفته الاجتماعية الموكولة إليه. كما تظهر التنويعات المختلفة عليه (الإنسان الاقتصادى - الإنسان الجسمانى).

نزع القداسة عن الإنسان والطبيعة

وقد درس ماكس فيبر ظاهرة الترشيد فى الإطار المادى، أى المنفصل عن القيمة. فأشار إلى أن الترشيد سيزيد من فعالية المجتمع ويعظم إنتاجيته من خلال الإدارة البيروقراطية الرشيدة ومن خلال توظيف الوسائل والآليات فى خدمة الأهداف، أى أهداف. ولكنه أدرك أيضا جوانبه المظلمة فوصف عملية الترشيد بأنها «ديس إنتشامنت أوف ذا ورلد disenchantment of The world» («نزع السحر عن العالم»). وفعل «ديس إنتشانت disenchant» باللغة الإنجليزية فعل مبهم، فهو يعنى «إزالة الغشاوة»، وهو معنى إيجابى بمعنى أن يرى الإنسان الأمور على ما هى عليه. ولكنها تعنى أيضا «خيبة الأمل والظن»، وهو معنى سلبى بمعنى أن الإنسان حينما يعرف حقيقة شخص ما، فإن الصورة المثالية الضيقة تسقط لتحل



تدريجياً تكشف الوجه الدارويني حين أرسلت الحداثة الغربية لنا جيوشها الاستعمارية لتهلك الأخضر واليابس، وتحول بلادنا إلى مادة استعمالية، ومصدر للمواد الخام، والعمالة الرخيصة، وسوق مفتوحة بشكل دائم للسلع الغربية

محلها صورة واقعية مظلمة. وإبهام المصطلح -في تصوري- يناسب الغاية، فهو يصف المشروع التحديثي الغربي الذي بدأ بأوهام الاستنارة المضيئة: أن يعتمد الإنسان على عقله (المادي) وحسب، فيزيل كل الغشاوات التي تراكمت عليه عبر عصور الظلام السابقة ويرفض أية غيبيات أو مثاليات أو مطلقات ليصل إلى الجوهر (المادي الحقيقي) للأشياء. وكان المفروض أن هذا سيؤدي إلى سعادة الإنسان وسيطرته على نفسه وعلى العالم. ولكن ما حدث هو العكس، إذ إن الإنسان عندما فعل ذلك وجد أن ما يهيمن هو الواحدية المادية، وأن ما فعله هو تفكيك الإنسان حين رده إلى عناصره المادية، ففقد العالم (الإنسان والطبيعة) سحره وجلاله وجميع عناصر القداسة والسر فيه وأصبح مادة محضة. وأصبح كل شيء فيه محسوبا. ويمكن السيطرة عليه وحوسلته (أي تحويله إلى وسيلة). ولذا، فإن المصطلح يترجم أحيانا بعبارة «خيبة العالم» و«تشيؤ العالم».

وقد أدرك فيبر أيضا أن الترشيد يحد الحرية الفردية فهو يؤدي إلى التنميط ويحول المجتمع إلى قفص حديدي، خصوصا أن الفرد في المجتمع الحديث هو فرد مفتقد المعنى، ومن ثم فهو شخصية هشة من الداخل لا تشعر بالأمن ولا بالمقدرة على التجاوز فهي لا تقف على أرضية صلبة من المعنى. وقد وردت تنويعات على عبارة «القفص الحديدي» في كتابات جورج لوكاتش وجورج زيميل. كما أن صورة العالم كقفص حديدي صورة متواترة في الأدب الحداثي.

كما بين فيبر أن الترشيد في الإطار المادي لم يكترث بالأهداف فهو ترشيد منفصل عن القيمة value-free، ولذا ترك الأهداف بلا تحديد، بحيث أصبحت الوسائل هي الغاية وأصبح المهم هو كيف تنشق طريقاً، ولايهم إن كان هذا الطريق يؤدي إلى حديقة غناء أو أحد معسكرات الاعتقال والإبادة.

وقد وصف فيبر هذا المجتمع الحديث المنفصل عن القيمة الذي تم ترشيده في الإطار المادي، في عبارات تنم عن تشاؤمه الشديد فالترشيد في تصوره سيفرغ المجتمع من أي دلالة أو معنى ويحوله إلى مجموعة من المعادلات الرياضية، وبذا يسود المجتمع ككل ظروف المصنع، بمعنى أنه سيصبح منظما كفؤا يشبه الآلة التي تجبر الأفراد على أن يشغلوا أماكن محددة لهم ومقررة مسبقا ويقوموا بأدوار مرسومة، بحيث «يصبح كل إنسان ترسا صغيرا في الآلة، ولأنه يدرك ذلك، سيكون همه الأوحد هو أن يصبح ترسا أكبر». ثم يضيف فيبر: «لا أحد يعرف من سيعيش في هذا القفص في المستقبل، أو لعله في نهاية هذا التطور الرهيب سيظهر أنبياء جدد تماما. أو قد تُبعث الأفكار والمثاليات القديمة. أو إن لم يحدث شيء كهذا، سيسود تحجر آلي، موشى بنوع من إحساس متشنج بأهمية الذات. عن هذه المرحلة الأخيرة لهذا التطور الحضاري يمكن أن نقول عن حق: «متخصصون لا روح لهم، حسيون لا قلب لهم. وهذا اللاشيء سيتصور أنه وصل إلى مستوى من الحضارة لم يصل إليه أحد من قبل».

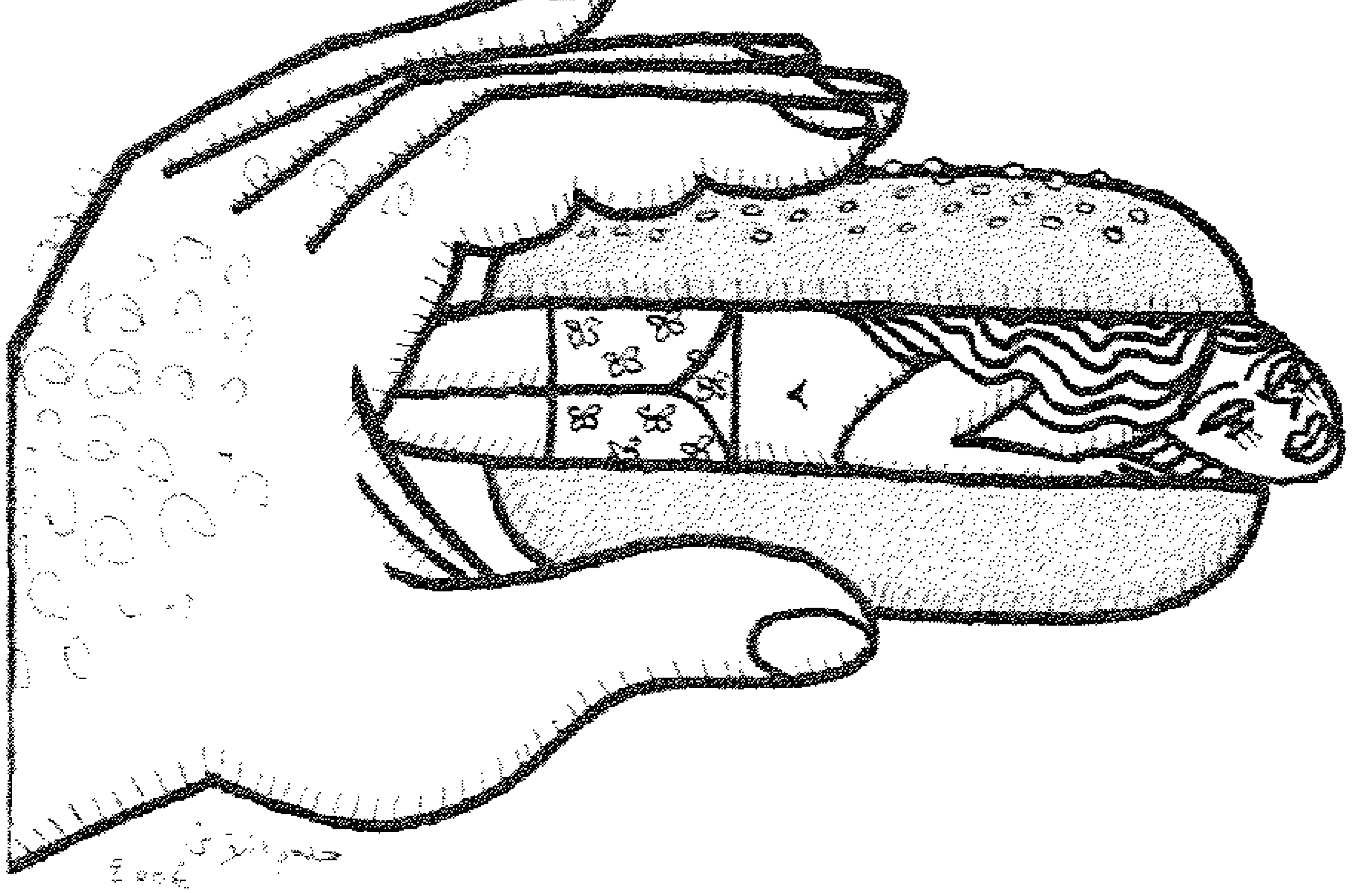
ونزع السحر عن العالم ودخول العالم القفص الحديدي ليس سوى النتائج الأولى السلبية من منظور فيبر، إذ توجد نتائج أخرى من أهمها أزمة المعنى (والقيمة). فالإنسان الحديث بعد أن يقوم بترشيد عالمه وبعد أن تهيمن عليه القوانين العلمية سيكتشف أن عالميه العام والخاص قد أصبحا لا معنى لهما. فصياغة القوانين العلمية بدقة بالغة والمعرفة العلمية والتنظيم الرشيد قد تساعد كلها على التوصل إلى الطرق المناسبة لإنجاز الأهداف الاجتماعية ولكنها لا تساعدنا على الاختيار بين قيم مطلقة أو أهداف متناقضة أو على اتخاذ قرارات أخلاقية. فالعلم في نهاية الأمر لا علاقة له بقضية اختيار الحياة الفاضلة، فثمة هوة شاسعة بين المعرفة العقلانية والحكم الأخلاقي. «ولذا كل ما يمسك به الإنسان دائما مؤقت وليس محددا ونهائيا».

وإذا كان فيبر قد عبر عن تشاؤمه بخصوص عمليات التحديث والترشيد في الاطار المادي، فإن رورتي يرصد هذه العملية ذاتها ولكن بحياد شديد بل ويرحب بها فيقول إن التحديث مشروع نزع الألوهية عن العالم (بالإنجليزية: دي ديفينايزيشن بروجكت dedivinization project) وهو يعني ألا يعبد الإنسان شيئاً ولا حتى ذاته، ولا أن يجد في الكون أي شيء مقدس أو رباني أو حتى نصف رباني. ومن ثم، لا يوجد مقدسات أو محرمات من أي نوع، فلا حاجة لتجاوز المعطى المادي (الزماني المكاني). فالإنسان يوجد في عالمه المادي لا يتجاوزه، وهذا العالم هو مستقر كل القوانين التي يحتاج لمعرفتها. ثم يبين لنا رورتي النتائج المنطقية لهذا الموقف بقوله إن الحضارة العلمانية الحديثة لن تكتفي باستبعاد فكرة القداسة أو بإعادة تفسيرها بشكل جذري، وإنما ستهاجم الذات الإنسانية نفسها كمصدر الحقيقة. فهي ستهاجم فكرة «تكريس الذات للحق (الحقيقة)» أو «تحقيق الحاجات العميقة للذات». كما ستبين أن مصدر المعنى ليس كلاً متجاوزاً وإنما هو إنسان، والإنسان كائن حادث زمني متناه، أي أنه ليس مصدراً جيداً للحقيقة.

ويبين لنا رورتي بعض النتائج المنطقية الأخرى للتحديث في الإطار المادي. فالتحديث هو إيمان عقلاني مادي بالتقدم وإيمان بالمستقبل الذي سيتحقق فيه التقدم، الذي أصبح المعيار الواحد والوحيد. ولكن التقدم مجرد حركة مستمرة لا متناهية، وهو ما يعني سقوط الثبات. وانطلاقاً من أرضيتنا الحديثة العقلانية المادية، فإن العقل سيقوم بعملية نقدية صارمة لمسلماتنا العقلية وموروثاتنا الثقافية ولن نقبل من التاريخ إلا ما يتفق مع نماذجنا العقلية والمادية. والرؤية التحديثية المادية تُعرِّف «الزمان» و«المكان» و«الآن وهنا» كمقولات مجردة، كصيرورة لا معنى لها، كعلامة على ماديتنا، ولكنها لا تقبل التاريخ أو الذات ولا تعرفهما لأنهما يحتويان مخزوناً لقيم تغاير ما في واقعنا المادي وما في نماذجنا العقلانية المادية وتتحداها. وعلى هذا، فإن التحديث (بالنسبة لرورتي وآخرين) هو نسيان نشط للتاريخ والذات، أي أنه تجريد للإنسان من ذاكرته التاريخية بعد أن جرد من مكانته الأنطولوجية. وهكذا، تم ضرب الذات الإنسانية، ولم يبق من الإنسان شيء، لا مقدرته على الإدراك المبدع للواقع ولا الذاكرة التاريخية. ولذا، لا غرو أن المشروع التحديثي قد حوّل الإنسان من غاية إلى وسيلة. وهناك كثير من آليات التحديث، مثل الدولة المركزية أو السوق القومية أو الترشيد، تستقل عن الأهداف الإنسانية، مثل إشباع حاجات الإنسان وتحقيق الكفاية والأمن له... إلخ، لتصبح غايات وتهيمن على الإنسان وعليه أن يذعن لها.

ولكن الأمر لم يتوقف عند هذه النقطة، إذ تم ضرب فكرة الكل الثابت المتجاوز المادي الذي تم تجريده من الواقع المادي الموضوعي. فالواقع، من المنظور التحديثي، في حالة حركة دائمة وتغير دائم، فالتغير هو الصفة الثابتة الواحدة لعالمنا. سجن الزمان والمكان. بل إن هدف الفكر التحديثي هو تحرير الإنسان من الثبات ومن آثار المطلقات ومن الإيمان بأنه يوجد حق في نفسه ولنفسه، وأنه توجد حقيقة تتسم بقدر من الثبات. فكل الأمور نسبية لا قداسة لها لأنها في حالة حركة. والواقع الموضوعي المتحرك هو واقع لا يمكن رصده ولا الإمساك به، لا ثوابت ولا مطلقات معرفية أو أخلاقية فيه، فالمرء لا يمكن أن يستحم في نفس النهر مرتين.

وفي فلسفات دعاة ما يسمى الاستنارة المظلمة الذين رفضوا مثل الاستنارة المضيئة، نلاحظ نفس هذا الهجوم الشرس على كلٍ من الذات الثابتة المتماسكة أو على الموضوع الثابت المتماسك، أو على أي محاولة للوصول إلى كليات ثابتة متجاوزة. ومنذ البداية، قال هوبز أن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان وأن الواقع هو حلبة صراع للجميع ضد الجميع، أي أنه اكتشف منذ البداية جرثومة التفكيك داخل المشروع التحديثي، وتبعه كثير من الفلاسفة الماديين الذين يفككون إما الذات أو الموضوع أو كليهما، مثل إسبينوزا والفلاسفة الماديين في فرنسا الذين يفككون الذات الإنسانية تماماً، ومثل الفلاسفة التجريبيين والمثاليين (هيوم وبركلي) الذين يفككون الموضوع، وبنتام الذي ذهب إلى أنه لا توجد مطلقات أخلاقية وأن سلوكنا الأخلاقي يمكن تفسيره مادياً في إطار المنفعة واللذة، ثم داروين الذي ذهب إلى أن العالم في حالة حركة وتطور وصراع وإلى أن عالم الإنسان هو الآخر عالم حركة وصراع، وماركس الذي قال أنه لا ثبات إلا لقوانين الحركة وأنه يمكن رد وعي الإنسان إلى الواقع المادي وإلى العنصر الاقتصادي على وجه التحديد، وفرويد الذي قال أن إدراكنا للواقع يحكمه لا وعينا وأن لا وعينا تحكمه قوى مظلمة مثل الجنس، والذي ذهب أيضاً إلى أننا لا ندرك الحقيقة فما ندركه هو ما يتراءى لنا أنه الحقيقة، ويونج الذي قال إن لا وعينا هو لا وعي جمعي. ثم جاءت ثورة العلوم الطبيعية التي أكدت استحالة رصد الواقع الموضوعي واستحالة تجاوزه. وهكذا، تم ضرب الإنسان أنطولوجياً (فالإنسان إن هو إلا مجموعة



إن الحضارة العلمانية الحديثة لن تكتفي باستبعاد فكرة القداسة أو بإعادة تفسيرها بشكل جذري، وإنما ستهاجم الذات الإنسانية نفسها كمصدر الحقيقة

من الدوافع المادية والاقتصادية والجنسية لا يختلف فى سلوكه عن سلوك أى حيوان أعجم) وابستمولوجياً (فإدراك الإنسان للواقع ليس عقلانياً وإنما تحكمه مصالحه الاقتصادية وأهواؤه الجسمية). وتم تسديد ضربة لفكرة الواقع الموضوعى والمطلقية المعرفية والأخلاقية إذ لا ثبات فى الطبيعة أو المجتمع أو الذات الإنسانية، وإنما هو تغير مستمر وصراع دائم، أى اختفاء كل من الطبيعة الإنسانية والمادية.

ولكن مع هذا، فإن المشروع التحديثى فى الاطار المادى - كما أسلفنا- يفترض وجوده معنى لمسار التاريخ، كما يفترض وجود ذات عاقلة وعقل قادر على التمييز وعلى إدراك سنن الطبيعة، وقوانينها، وأن ثمة ثنائية تكاملية بين الإنسان والطبيعة وأن ثمة لغة رشيدة يمكننا من خلالها التواصل والحوار من أجل الوصول إلى حقيقة كلية. ويفترض المشروع التحديثى وجود منظومات معرفية وأخلاقية ثابتة ودرجة عالية من اليقين ومعيارية ما وإيماناً بأن التاريخ يزودنا بمعرفة تزيد من وعى الإنسان وتساعده على التقدم.

ولكن كل هذا يعنى ظهور المطلقات والثبات والتجاوز والمقدسات، وبلغة ما بعد الحداثة فإن هذا يعنى أن ثمة حقيقة كلية وقصة إنسانية عظمى ومرجعية نهائية، وهذا يعنى أن الحداثة لاتزال متمركزة حول اللوجوس logo-centric، أى ترى أن العالم له مركز ومن ثم فهى ملوثة بالميتافيزيقا. وقد أدرك نيتشه تماماً أن الحقيقة الكلية مرتبطة بالتجاوز والميتافيزيقا، وبعودة الثابت والمقدس والربانى مرة أخرى، مما يعنى أن الإله الذى أعلن وفاته لاتزال ظلاله معنا، متمثلة فى وجود كليات وأخلاقيات وأهداف متجاوزة للصيرورة. ولكن هذا أمر غير مقبول داخل إطار مادى، ففى داخل هذا الإطار لا مناص من قبول أطروحات الاستنارة المظلمة التى تحاول أن تمحو ظلال الإله، فهذا هو مصير الإنسان الموجود فى الزمان والمكان بعد موت الإله، ولا داعى للتمحك فى ظلاله. والأمل التحديثى هو هذا التمحك، وهو أمل جبان غير قادر على قبول وضع الإنسان فى عالم الصيرورة المادية. وهذه المنظومات المعرفية والأخلاقية العقلانية هى مؤامرة الضعفاء على الأقوياء من أبناء الطبيعة. لكل هذا، أعلن نيتشه فلسفة القوة الشجاعة التى لا تعرف الضحك أو البكاء ولا تكترث بالضعفاء، لأنه لا يوجد لا ذات ولا موضوع، ولا داخل ولا خارج، ولا ظاهر ولا باطن، ولا دال ولا مدلول، ولا مقدس ولا مدنس، ولا حلال ولا حرام، ولا حقائق ولا حق ولا حقيقة، وإنما صراع بين قوى مظلمة ظالمة يحسم بطريقة مادية طبيعية. وفى إطار فلسفة القوة، لا توجد لغة تواصلية إذ أن إرادة القوة هى التى تربط السبب بالنتيجة والدال بالمدلول وتصبح هى مبدأ التماسك أو السيولة فى العالم ومصدر المعنى أو اللامعنى. وهذه هى فلسفة الواحدية المادية لا يتجاوزها أحد، والتى تؤكد تناهى الإنسان داخل الزمان والمكان والتى تؤدى إلى اختفاء لا المرجعية الإنسانية وحسب بل المرجعية الموضوعية ذاتها (أى كل المرجعيات وأى مركزية وأى كل مادية متجاوز). فالمادة حركة والحركة لا تعرف التمييز بين مركز وهامش وبين معنى ولا معنى وبين القيمة والعدم. وكان نيتشه يدرك تماماً أن دعوته لإزالة ظلال الإله هذه، والتخلص من الكل المادى المتجاوز ومن كل من الذات والموضوع، أساس الأنطولوجيا الغربية، لم تكن من بنات أفكاره وإنما كانت كامنة فى الجذور الفلسفية للمشروع التحديثى العقلانى المادى.

إن التحديث العقلانى المادى يصدر عن تأكيد زمنية ومكانية ومادية كل شىء، وإخضاع كل شىء، بما فى ذلك الإنسان، لعمليات الترشيد العقلانى المادى فى إطار معايير عقلانية صارمة. وعملية التحديث متتالية تحققت تدريجياً. وتحققها التدريجى هذا يعنى التصاعد التدريجى والمستمر للواحدية المادية إلى أن تسيطر تماماً. ولذا، فإن ثمة تراجعاً مستمراً عن الفلسفة الإنسانية (الهيومانية) وعن ثنائية الإنسان والطبيعة وعن الإيمان بالثبات والتجاوز، وهو فى واقع الأمر تصاعد مطرد للواحدية المادية وتصفية لكل الثنائيات والخصوصيات والهويات والثبات. ولعل ما يسمى التلاقى (بين النظم الرأسمالية والاشتراكية)، وهيمنة النماذج البيروقراطية والكمية، وإزاحة الإنسان عن المركز، والتسلع، والتحييد، والتشيؤ، والاغتراب، ونزع القداسة عن العالم، وإنكار الجوهر الإنسانى، والهجوم على الطبيعة البشرية، والنظام العالمى الجديد... إلخ هو تعبير عن نفس الظاهرة وليس مجرد انحرافات عن مسار التحديث وعن جوهره.

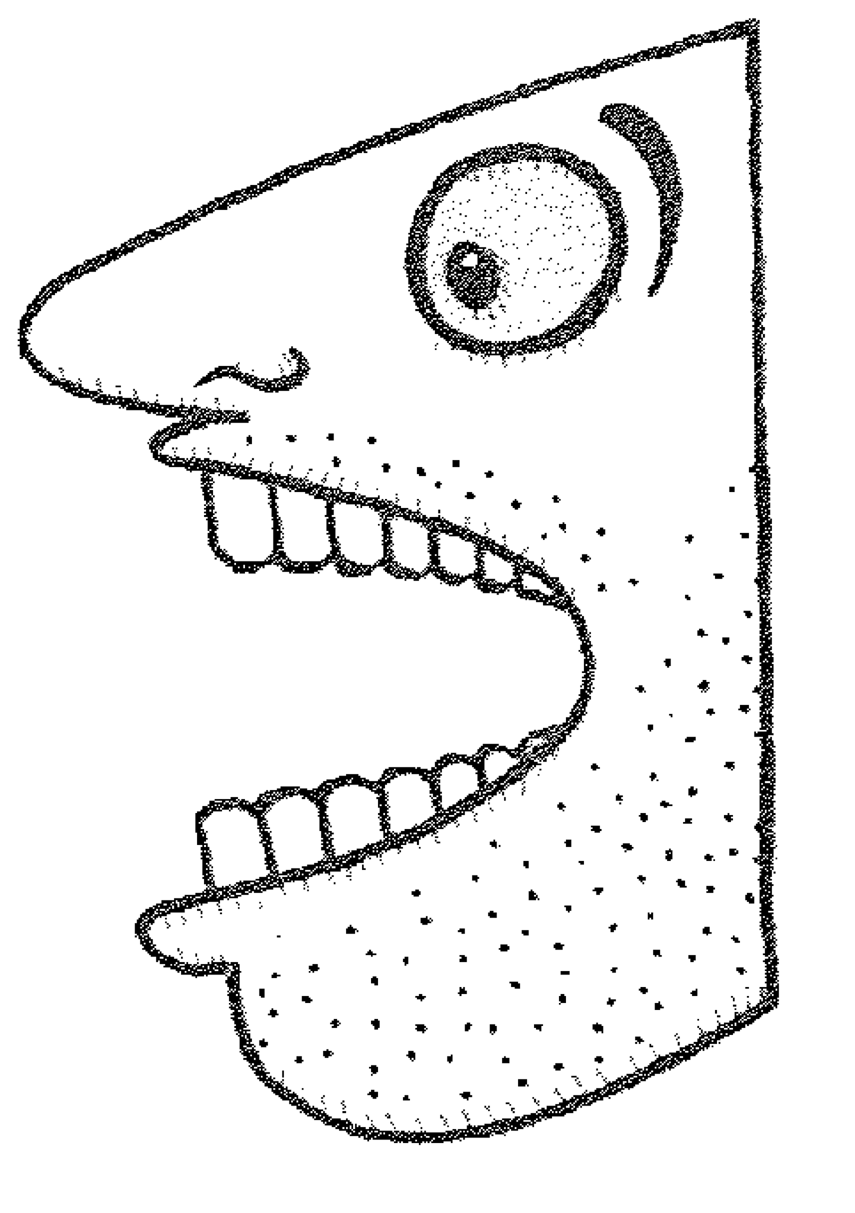
الصهيونية والنازية والحداثة المنفصلة عن القيمة

أشرنا من قبل إلى أن الحداثة هى استخدام العلم والتكنولوجيا والعقل المنفصلين عن القيمة اليات للتعامل مع الواقع، مما يعنى أن العالم فى حالة صيرورة دائمة، وتغير مستمر ولا غاية لهما. فلا ثبات لأى شىء، لا الواقع، ولا القيم، ولا الطبيعة البشرية ذاتها. وقد عرف الإنسان الحديث بأنه إنسان قادر على تغيير قيمه وأولوياته بعد إشعار قصير، فهو تبد واضح وتبلور صريح للصيرورة المادية. إن عالم هذه الحداثة لا تحكمه سوى إجراءات منفصلة عن القيمة، وهذا يؤدى بدوره إلى أن ما يسود العالم هو النسبية المطلقة. ولكن حينما تسود النسبية ويتحرر العالم من القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية، تظهر قيمة واحدة قادرة على حسم الأمور، وهى القوة! ولذا فنحن تسمى الحداثة المنفصلة عن القيمة بأنها الحداثة الداروينية. ونحن نذهب إلى أن كلا من الصهيونية والنازية هما تعبير عن هذه الحداثة. فالصهيونية حركة استعمارية استيطانية إحلالية استخدمت مجموعة من الأساطير لتجنيد الجماهير اليهودية. وتتسم هذه الأساطير بأنها منفصلة عن الواقع الإنسانى والتاريخى وعن أية منظومة قيمية وأية معايير إنسانية هيومانية أو دينية يمكن الاحتكام إليها، ومع هذا لاقت من التعاطف فى العالم الغربى ما لم تلقه حركة سياسية أخرى. وهذا يعود - دون شك - لأسباب عديدة من بينها ومن أهمها حاجة الغرب لقاعدة عسكرية ضخمة تخدم مصالحه. والكيان الاستيطانى يقوم بهذه المهمة على أكمل وجه. ولكن من الأسباب الأخرى أن الأيديولوجية الصهيونية لا تتعارض مع قيم حضارة الإجراءات المنفصلة عن القيمة وحضارة الصيرورة الدائمة والنسبية المطلقة. والصهيونية، أيديولوجية الإجراءات بالدرجة الأولى، بدأت نشاطها بأن أنكرت التاريخ العربى فى فلسطين - أى العنصر الأساسى الثابت من مكونات الواقع الفلسطينى، فاكتسحت الصيرورة فلسطين وأصبحت مجرد أرض. ولكن رغم هذه النسبية المطلقة إلا أننا نجد أنها موجهة نحو الفلسطينيين وحسب، فإحساس الفلسطينى نحو فلسطين وطنه، أمر يجب عدم الاكتراث به. أما إحساس اليهودى نحو نفس المكان، حتى ولو كان هذا اليهودى مواطنا فى الولايات المتحدة. فهو أمر يجب احترامه (لأنه يخدم المصالح الغربية وهو جوهر المشروع الصهيونى). أى أن النسبية المطلقة تمتد لتبتلع العرب ولكنها لا تطال الصهاينة بأية حال. لأنهم فى الاطار المادى أصحاب المدفع الداروينى الأمريكى الضخم.

وقد كتب لود فيج جومبلوفيتش، عالم الاجتماع النمساوى اليهودى، إلى تيودور هرتزل، مؤسس الحركة الصهيونية، يسأله مستنكرا: هل تريد أن تؤسس دولة بدون أن تسفك دماء، بدون عنف أو مكر؟ ويوميات هرتزل زاخرة بتأملاته فى الإجراءات (المتحررة من القيمة) اللازمة للتخلص من الفلسطينيين. وقد اقترح ماكس نوردو، صديق هرتزل وأحد مؤسسى الحركة الصهيونية، بعض إجراءات المنفصلة عن القيمة لتحقيق الحلم الصهيونى مثل تكوين جيش قوامه ١٠٠ ألف يهودى لغزو أرض الميعاد «وتحريرها» من سكانها الأصليين. وقام حاييم وايزمان، أول رئيس للدولة الصهيونية، بوضع المخططات الدقيقة (أى اتخذ الإجراءات اللازمة المنفصلة عن القيمة) لطرد العرب و«تنظيف» فلسطين من سكانها (على حد قوله).

هذا إذن هو الجزء المكمل للنسبية المطلقة، أن يقوم أحد الأطراف باستخدام الإجراءات المنفصلة عن القيمة بحيث يخلق «أمرا واقعا أو حقائق جديدة» (على حد قول موشيه ديان)، أى أن ما يحسم الأمور فى نهاية الأمر هو العنف الصريح والقوة الغاشمة (وفى هذا عودة للأصول الوثنية لأخلاق الصيرورة، وعودة لمكيافلى الذى نطالع وجهه الكئيب فى كل الكتابات الصهيونية). وكما قالت جولدا مائير إن رصاصة واحدة أكثر فاعلية من كل قرارات مجلس الأمن، وكما قال شارون مالم يؤخذ بالقوة يؤخذ بمزيد من القوة! ولا يمكن فهم الكثير من «الحلول» الإسرائيلية للمشاكل إلا فى إطار هذا الموقف المعرفى الحداثة الداروينية المنفصلة عن القيمة.

ويمكن أن تجد نفس النمط فى الهولوكوست فمن المعروف أن أفران الغاز لم تشيد فى بداية الأمر من أجل اليهود وإنما من أجل العجزة



أعلن نيتشه فلسفة القوة الشجاعة التى لا تعرف الضحك أو البكاء ولا تكترث بالضعفاء، لأنه لا يوجد لا ذات ولا موضوع، ولا داخل ولا خارج، ولا ظاهر ولا باطن، ولا دال ولا مدلول، ولا مقدس ولا مدنس، ولا حلال ولا حرام

وضعاف العقول وغيرهم من الناس عديمى الجدوى وعديمى الفائدة الذين كان يطلق عليهم اصطلاح «أفواه تأكل ولا تنتج» «useless eaters»، ولا يمكن الاعتراض من منظور مادى إجرائى منفصل عن القيمة، على أفران الغاز فهى لن تقضى على شىء نافع من منظور مادى، وإنما ستقضى على شىء لا نفع من ورائه بعد اتخاذ الإجراءات اللازمة، أى دراسات الجدوى العلمية المادية المحايدة المنفصلة عن القيمة. ثم استخدمت أفران الغاز بعد ذلك للقضاء على الجنود الألمان الذين كانوا يسقطون جرحى فى المعارك، لأن عملية تمريضهم وإطعامهم كانت تمثل عبئا على الاقتصاد الوطنى.

ثم طبق هذا المنطق العلمى المادى بعد ذلك على اليهود باعتبارهم أقلية عديمة الفائدة. فيهود شرق أوروبا، الذين تدفقوا على ألمانيا، كانوا يمثلون عبئا على الاقتصاد الوطنى الألمانى: فأعداد كبيرة منهم كانت لا تمتلك المهارات التى يتطلبها الاقتصاد الألمانى، كما أنهم كان بينهم نسبة كبيرة من المشتغلين بالمهن الهامشية مثل الدعارة وتهريب المخدرات. ولكن هذا كله لا يهم، فمربط الفرس هو رؤية ذهبت إلى أن اليهود لا يصلحون أن يكونوا جزءا من المشروع النازى لإعادة بناء ألمانيا. وقد ساند موقفهم هذا ودعمه مجموعة من البحوث العلمية التى أنجزها مجموعة هائلة من العلماء النازيين «العباقرة». وقد حاول النظام النازى جاهدا، فى بداية الأمر، التخلص من يهود شرق أوروبا (خاصة بولندا) بإرسالهم إلى بلادهم، لكنها أوصدت أبوابها دونهم، (مثلما فعلت الولايات المتحدة من قبل ومن بعد).

بعد دراسة الجدوى وبعد محاولة التخلص منهم بالوسائل العادية أصبح من الضرورى اتخاذ إجراءات أخرى ضد اليهود وغيرهم من العناصر التى لا تتسم بالكفاءة مثل الغجر وأبطال المقاومة فى فرنسا. كانت معسكرات الاعتقال النازية قمة (أو هوة) من قمم انتصار الكفاءة والإجراءات المنفصلين عن القيمة. فالمعسكرات كانت تقع على مقربة من بعض المدن وليس داخلها، ربما لتحاشى تعطيل المرور وحتى يتم نقل المعتقلين بسهولة ويسر. ولعل العناصر الأمنية لعبت هى الأخرى دورها. وحينما كان يصل المعتقلون هناك فالإجراءات كانت فى غاية الدقة والرشد، إذ كان يقسم اليهود إلى أطفال وعجائز ونساء وغير قادرين على العمل، ثم رجال ونساء قادرين على العمل. وكان كل معتقل يعطى رقما حتى يسهل تصنيفه والاستفادة منه على أكمل وجه. وكان المعتقلون يقفون صفوفا حتى تتم عملية فرزهم لتقرير الصالح من الطالح والنافع من عديم الجدوى، بل وكان يفرض عليهم القيام ببعض التمرينات الرياضية حتى يحتفظوا بمستوى عال من اللياقة البدنية.

وكان مدير المعسكر يحاول أن يعظم الربح بكل الوسائل الممكنة مثل أعمال السخرة بالنسبة للقادرين على العمل. أما العناصر عديمة الفائدة، فكان يتم تصفيتها، ولكن ما تبقى منها، أى الجسد الإنسانى، فإنه كان يتم توظيفه بطرق مختلفة: حشو الأسنان الذهبى يرسل للخزانة الألمانية ليساعد على ازدهار الاقتصاد الوطنى، أما الشعر البشرى فيصنع منه فرش أحذية من أجود الأصناف، ويقال أن الشحم البشرى كان يستخدم فى صناعة بعض أنواع الصابون.

وكما أشرنا من قبل كان الأمر كله يتم فى هدوء وموضوعية شديدة، فمدير المعتقل كان يجلس فى غرفته مع أسرته يستمع إلى موسيقى فاجنر ويتمتع بمنتجات الحضارة، لكن دون أن يشعر بأية أعباء أخلاقية تجاه الذين يحرقون فى أفران الغاز، فموسيقى فاجنر يجب ألا تفضى به إلى التسامى والحكم على ما حوله وإنما هى جزء من الصيرورة وحسب - هى متعة وتوتر وتجربة عميقة، تماما مثل دراسة الأطباق الطائرة أو مشاهدة فيلم من أفلام الخيال العلمى. كل شىء كان يتم فى جو علمى معملى رهيب. ويقال، على سبيل المثال، إنه بينما كانت صفوف الضحايا مصطفة مرة فى طريقها لتلاقى حتفها، ضرب أحد الجنود الألمان واحدا منهم، فعنفه رئيسه لأن الإجراءات يجب أن تتم حسب القواعد المرعية ولا يوجد فيها مجال للعاطفة، فالعاطفة شىء خطر للغاية خارج عن الصيرورة.

إن الحضارة النازية هى الحضارة الحديثة التى عبرت عن الحداثة المنفصلة عن القيمة حق التعبير وهى الحضارة التى نجحت فى نزع القداسة عن الإنسان ومحت ظلال الإله تماماً، وحكمت على الواقع بمقاييس مادية متحررة من القيمة. ولم يستثن أحد من المقصلة العلمية الإجرائية الباردة - لا العجائز ولا الأطفال ولا حتى الجنود الجرحى. ويا لها من حيادية علمية تستحق الإعجاب والتقدير، تماما مثل إعجاب الغرب بالدولة الصهيونية التى تستند صيرورتها إلى مقصلة علمية كفء صنعت فى الولايات المتحدة!

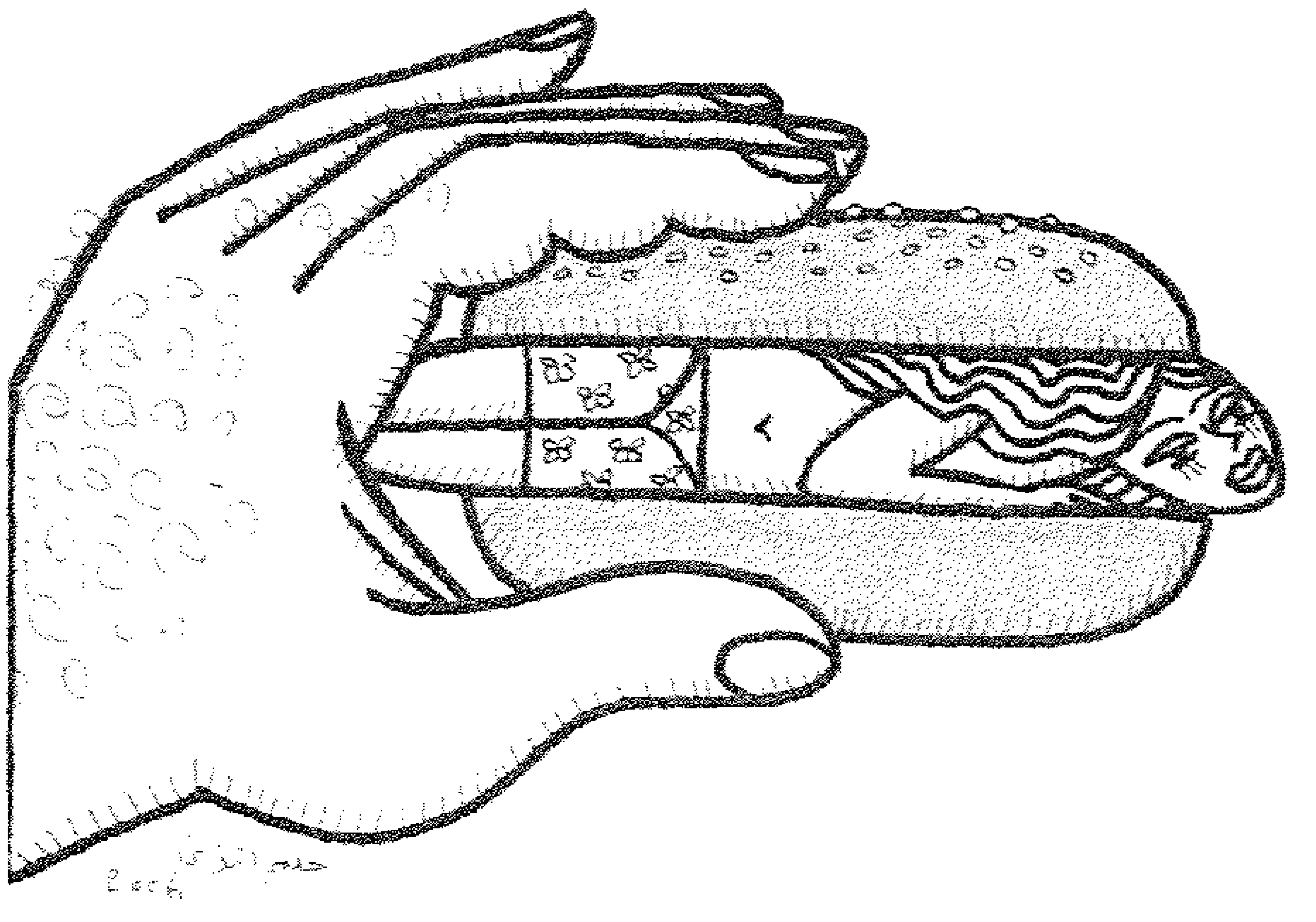
الإمبريالية والاستهلاكية

من المفاهيم المحورية فى الحداثة المنفصلة عن القيمة الليبرالية الاقتصادية، والإيمان الكامل باقتصاديات السوق الحر، الذى تتحكم فيها قوانين العرض والطلب المنفصلة عن القيمة وعن أى غائية إنسانية. وقد أدى هذا إلى تحول الإنتاج من وسيلة إلى غاية. ولنلاحظ كيف تتحول الوسائل فى سياق الحداثة المنفصلة عن القيمة إلى غايات، فبدلا من التقدم كوسيلة للوصول إلى شىء ما يصبح التقدم غاية فى حد ذاته، وبدلا من النمو حتى نصل إلى نقطة ما، يصبح النمو غاية فى حد ذاته، وبدلا من التغير كوسيلة لتحقيق هدف ما يصبح التغير هدفا فى حد ذاته. وبدلاً من الصيرورة التى تؤدى إلى كينونة أصبحت الصيرورة هدفا فى حد ذاتها وهكذا، وأعتقد أن هذه السمة تشكل البنية الكامنة للحضارة الغربية الحديثة ومنتجاتها الثقافية ابتداء من سيل الأغانى الذى لا ينتهى وانتهاء بالفن المجرد ومسرح العبث والبنيوية، فهى كلها - إن دققنا النظر - فنون الصيرورة والإجراءات التى انفصلت عن الكينونة والأهداف والقيمة.

وحين يصبح الإنتاج هدفاً فى حد ذاته فإن هذا سينجم عنه سيل من السلع تتطلب أسواقا، وقد ترجمت هذه الصيرورة نفسها إلى التوسع الرأسمالى الصناعى ثم التوسع الرأسمالى الإمبريالى الذى تطلب تسخير العالم بأسره لخدمة الآلة الصناعية فى الغرب. ولم يحدث من قبل أن حضارة ما أدخلت العالم فى حربين عالميتين متتاليتين، وأبادت شعوب قارة بأكملها (هنود أمريكا الشمالية) واستعبدت شعوب قارة أخرى «(أفريقيا) واسترقت الملايين منهم ونقلتهم ليعملوا فى ظروف غير إنسانية ثم تحولت قارة ضخمة ذات حضارة عريقة (مثل آسيا) إلى سوق لسلعها مثل المنسوجات القطنية الإنجليزية فى الهند والأفيون فى الصين، وحاولت تحطيم تقاليد هذه القارة وتراثها، ثم تحولت هذه الحضارة الآن إلى أكبر مصدر لأسلحة الفتك والدمار، وخلقت نمطا اقتصادياً أهم منتجاته هى السلاح وأدوات الفتك.

فالأسلحة الحديثة تتميز بأنها سلعة تُستهلك دون استخدامها وبالتالى يمكن إنتاجها بوفرة وبلا حدود، بل إنها كثيرا ما تفقد فاعليتها أثناء عملية إنتاجها ذاتها. وكثيرا ما يعرف المشتغلون بعملية الإنتاج هذه الحقيقة. وبالتالى لو أردنا تجسدا لصيرورة كاملة ولإجراءات لا غاية لها ولا نتاج كنهاية فى حد ذاته فإن صناعة السلاح فى الغرب تقترب من هذه الحالة الفلسفية أو النفسية المستحيلة: إذ تحشد كل الإمكانات وتوضع أدق الخطط لإنتاج سلعة من المعروف مسبقا أنها قد لا تنتج، وأنها لو أنتجت قد لا تستخدم، وإن استخدمت فستكون المرة الأولى والأخيرة!

وإذا كانت الشعوب التى يقال لها بدائية تنتج لتستهلك، وإذا كانت الشعوب التى يقال لها متقدمة تنتج وحسب، فإن الشعوب التى يقال إنها بلغت قمة التقدم تستهلك لتنتج، بل وتشجع الاستهلاك لتصريف المنتجات ثم تنتج المزيد من السلع لإشباع الاستهلاك وهكذا. وهذه الدائرية الكاملة، الصيرورة المغلقة المطلقة، هى ولا شك شكل من أشكال جهنم وتسمى الاستهلاكية العالمية global consumerism أعلى مراحل المادية الرأسمالية والاشتراكية، والنقطة التى يحدث عندها اللقاء بين النظامين، فكلاهما قد دخل فى سباق لاهث من أجل زيادة الإنتاج والاستهلاك. وكان من المحتم أن ترتطم الإمبريالية بحدود المكان، فهى فى نهاية الأمر تمدد جغرافى، يصل منتهاه بالاستيلاء على كل أسواق العالم كما حدث مع بداية القرن العشرين. ولذا كان لابد للآلة الجهنمية أن تجد لنفسها مخرجا فى الاستهلاكية التى تشارك الإمبريالية كثيرا من سماتها، ولكنها تختلف عنها فى أنها لا حدود لها. فالاستهلاكية توسعية تماماً مثل الإمبريالية، إذ أنها تحول الإنسان ذاته إلى سوق بلا قرار يمكن أن تلقى فيه بالسلع، وكلما زادت عجلة الإنتاج فى الدوران وقف الإنسان، لا فى مركز الكون كما هو الحال مع الفلسفات الإنسانية، وإنما مثل الثقوب السوداء فى الفضاء التى تمتص كل شىء وينعدم فيها المكان والزمان. ولكن الاستهلاكية تمتاز عن الإمبريالية فى أن مجالها هو النفس البشرية، إذ أن فلاسفة



الصهيونية والنازية هما تعبير عن هذه الحداثة. فالصهيونية حركة استعمارية استيطانية إحلالية استخدمت مجموعة من الأساطير لتجنيد الجماهير اليهودية

هذه النزعة اكتشفوا حقيقة أساسية اكتشفها آخرون من قبل (فقهاء وعلماء اجتماع أو شعراء) وهى أن النفس البشرية لا تشبع قط، وأنها فى غياب الحدود يمكنها أن تتمدد دون توقف إلى أن تفنى نفسها فيما حولها وفيما تشتهى. ولكن بالنسبة للفقهاء والعلماء والشعراء كانت هذه الحقيقة هى مصدر النكبة، أما بالنسبة لفلاسفة الاستهلاكية فهى تمثل نقطة ثبات تصلح أساساً فكريا ونفسيا لفلسفتهم. ولذا بدلا من إرسال الجيوش الإمبريالية لآسيا وأفريقيا لفتح الأسواق، تنطلق أدوات الترويض المختلفة مثل البرامج التليفزيونية، والأفلام، والموضة (أو جماليات الصيرورة) لفتح الإنسان ولغزوه وقهره. وبدلا من النظرية العنصرية والتفاوت بين الأجناس التى استخدمتها الإمبريالية العسكرية لفتح الأراضى والقارات، تستند الاستهلاكية (أو الإمبريالية النفسية) إلى نظريتها فى الطبيعة البشرية فهى تنكر عليها أى ثبات وترى أنها فى حالة صيرورة دائمة ولا تفرق بين أبيض وأسود أو أصفر، فكلهم مجرد مادة نزعت عنها القداسة تصلح للطاحونة التى تدور والتى لا تبقى ولا تذر - كلهم مادة خام محايدة صالحة: التمدد الدائم والانتشار الثابت، أو الانتشار كنقطة ثبات وحيدة، تماما كما أن النسبية هى المطلق الوحيد.

الحداثة المنفصلة عن القيمة والحياة اليومية

من الملحوظ أن نموذج الحداثة المنفصلة عن القيم خاصة بعد عام ١٩٦٥ هيمن على كل مجالات الحياة المهم منها وغير المهم، المركزى منها والهامشى، وأحكم قبضته وأصبح هو أساس الخريطة الإدراكية للإنسان الغربى الحديث، وكثير من شعوب العالم الثالث خاصة النخب الحاكمة. وصورة الإنسان الكامنة فى الحداثة المنفصلة عن القيمة هو الفرد صاحب السيادة الكاملة، مرجعية ذاته، والهدف من الوجود بالنسبة له تحقيق النفع الشخصى وتعظيم المتعة وزيادة اللذة. فهو إما إنسان اقتصادى أو إنسان جسمانى أو خليط منهما، وهو فى جميع الأحوال إنسان طبيعى/ مادى لا علاقة له بالخير أو بالشر أو بأى قيم تقع خارج نطاق الحواس الخمس! وهنا تكمن المفارقة، فهذا الإنسان الذى يرى أنه مرجعية ذاته يذعن تماما للقانون الطبيعى المادى الذى يقع خارجه! وثمة تبديات عديدة.

نموذج الحداثة المنفصلة عن القيمة فى حياتنا اليومية.

انظر على سبيل المثال إلى الموقف الحديث من الجسد. يتحول جسد المرأة إلى شىء محايد منفصل تماماً عن القيمة value-free لاقداسة له ولا علاقة له بأى زمان أو مكان. ويتطور هذا ليصبح ملكات الإغراء الجنسى (بالإنجليزية: سكس كوينز sex queens)، وهن إناث يصبحن جسدا محضا (تماما مثل رامبو، فهو أيضا جسد محض لا علاقة له بالخير أو الشر) ومن أهم ملكات الإغراء: مارلين مونرو، وبرجيت باردو، ومادونا - التى تصرح فى إحدى أغانيها أنها تعيش فى عالم مادى، ولذا، فهى فتاة مادية. وبطبيعة الحال يتطور هذا لتصبح العاهرة التى يتحول جسدها حرفيا إلى سلعة.

ولعل ما يسمى «الجنس العَرَضى» (بالإنجليزية: كاجيوال سيكى Casual sex) والذى أشير إليه أحيانا بأنه «الجنس الفورى» (بالإنجليزية إنستانت سيكس instant sex) تعبير عن انفصال الجنس عن القيمة. فالجنس العَرَضى (ابن اللحظة التى يتحقق فيها ولا يتجاوزها) يعبر عن رغبة الإنسان فى أن يشبع رغباته الجنسية فى أى وقت ومع أى شخص، خارج إطار أية تركيبية إنسانية خاصة بالعواطف والطمأنينة والفردية، وخارج إطار القيم والمثاليات الأخلاقية والاجتماعية. وهو يأخذ شكل علاقة جسدية مؤقتة تهدف إلى الإشباع (الجسدى المادى) المباشر دون إرجاء أو تأجيل. ولكن الجنس العَرَضى يعبر أيضا عن عدم الاكتراث بأية قيم جوانية إنسانية أو خصوصية فردية، (وهو فى هذا يشبه الطعام التيك أواى). فاللقاء الجنسى يتم دون اهتمام بعواطف الآخر أو بأى هدف يتجاوز اللذة الجسدية المباشرة الطارئة. ومصدر الشرعية (أو القيمة إن شئت) فى هذا الضرب من الجنس مدى كفاءة الشخص فى الأداء الجسمانى ومدى نجاحه فى تحقيق اللذة لنفسه وللآخر، أو للآخر بمقدار ما يحققه لنفسه. وفى إطار انفصال الجنس عن القيمة يعتبر البغاء على سبيل المثال مجرد نشاط اقتصادى، وتسمى البغى «عاملة جنس» (بالإنجليزية: سكس وركر sex worker)، فهى إنسان يقوم بكسب لقمة العيش لقاء جهد عضلى يبذله.

وكان الهدف من الرداء فى الماضى هو تغطية الجسد، ولكنه انفصل هو الآخر عن القيمة، وأصبح هدفه جذب الأنظار إلى الجسد وتعميق الإحساس باللذة والتسخين الجنسى. ومن هنا ظهور المينى سكيرت التى تقترب من حالة الطبيعة، و«الميكروسكيرت» التى تعلن نهاية التاريخ والحضارة والملابس. كما ظهرت مؤخرا أشكال أكثر عريا من الملابس النسائية فى الغرب مثل ما يسمى «فوق البطن» (بالفرنسية: دمى فانتر demi-ventre) التى أخذت تنتشر فى بلاد العالم الثالث وأصبحت علامة على سعة الأفق والتفتح ومواكبة التطور!.

ومن أهم تبديات الحداثة المنفصلة عن القيمة التقاليع (أى الموضة) التى تعنى الرغبة الدائمة فى تغيير الزى مرتين على الأقل كل عام. فهى تجسد رؤية العالم كمادة متحركة، وأن الهدف من الوجود الإنسانى هو الاستهلاك المستمر. ويلاحظ أن كثيرا من مصممى الأزياء من الشواذ جنسيا (ومن أشهرهم فرساتشى الذى قتله صديقه عام ١٩٩٧). ويقال إن حوالى خمسة منهم ماتوا بالإيدز فى عام واحد، ولكن القائمين على صناعة الأزياء نجحوا فى حجب الخبر حتى لا تُضار الصناعة وحتى لا تتأثر الأسعار. ودلالة كل هذا هو انفصال هذه الصناعة عن المعايير الأخلاقية والدينية والإنسانية.

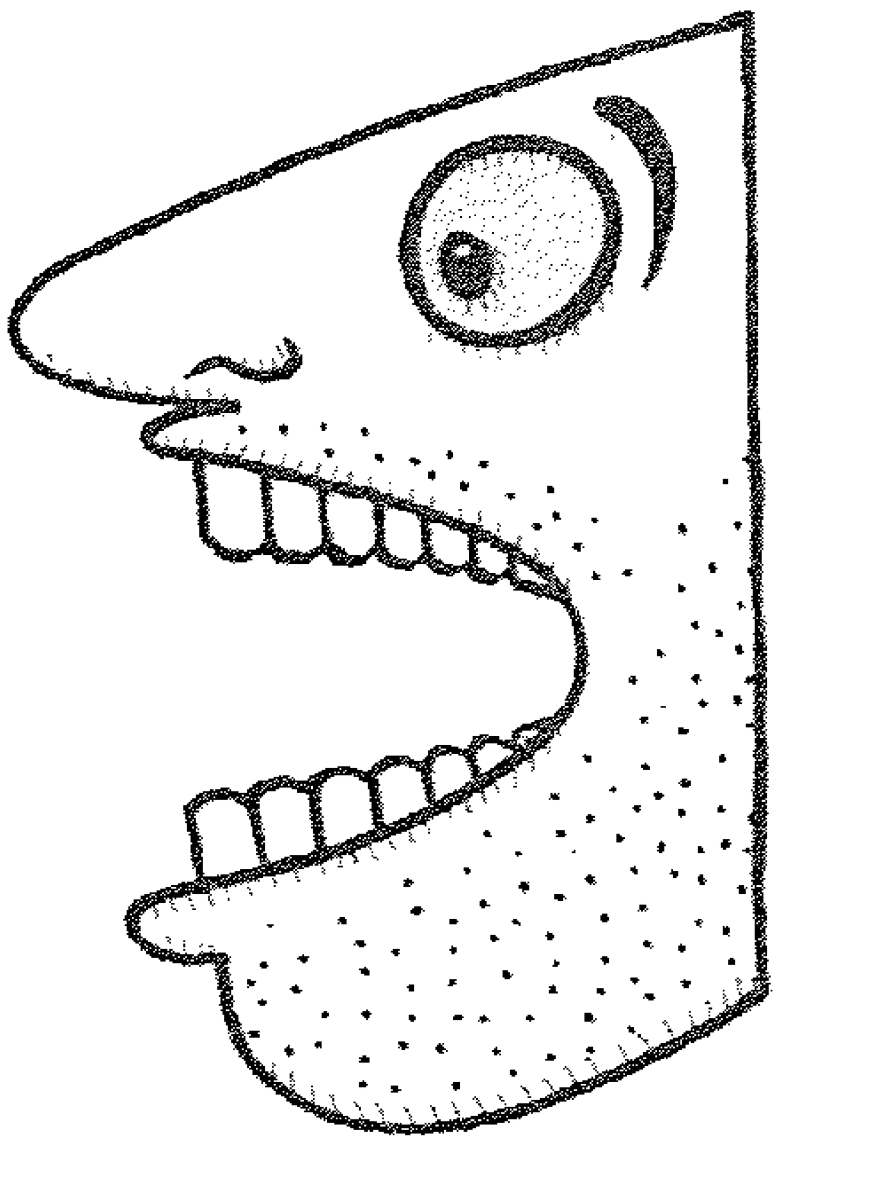
ولا شك أن تناول الطعام عملية فيزيقية، فهل يمكن القول إنه هو الآخر تم فصله عن القيمة؟ فلنحاول تطبيق نموذجنا التحليلى. الوجبة التى تعدها الأم بطريقة خاصة وفريدة يأكلها أفراد الأسرة فى جو تراحمى يقوى أواصر الصلة بينهم ويزيد المجتمع تماسكا والفرد انتماء. فى مقابل ذلك يظهر ما يمكن تسميته «الطعام البرانى» أو «التيك أواى»، وهو طعام منفصل عن قيم التراحم والأسرة ويحكم عليه من منظور السرعة والسهولة والنمطية، وهو طعام يُعد بطريقة نمطية جمعية، ولا شخصية له، يشتريه الإنسان عادة من أنثى (البديل الحديث للأم) تبتسم له بطريقة نمطية بلاستيكية معقمة. وهو عادة ما يلتهم طعامه وهو يلهث من عمله إلى منزله (أو العكس)، بل قد يبتلعه وهو أمام التليفزيون. ويمكن القول بأن الهامبورجر (من هذا المنظور) هو قمة الانفصال عن القيمة بالنسبة للطعام، فهو يشبه الوقود الذى يضعه الإنسان فى سيارته حتى يستمر فى العدو. فالهامبورجر مادة استعمالية عامة، لا طعم لها ولا لون ولا رائحة. فهو ظاهر دون باطن، شىء عام لا خصوصية له، لا يختلف كثيرا عن الإنسان الطبيعى/ المادى الذى يقذفه فى جوفه.

وتظهر أشكال الطعام الفورية (بالإنجليزية: إنستانت فود instant food)، مثل القهوة النسكافية (بالإنجليزية: إنستانت كوفى instant coffee) وما يسمى عشاء التليفزيون (بالإنجليزية: تى. فى. دينر dinner. V.T) وهو طعام له طعم البلاستيك، يُخزن فى فريزر الثلاجة وتقذفه ربة الأسرة فى فرن الميكرويف، فيتم إعداده فى دقائق ثم يقذفه أعضاء الأسرة فى أفواههم وهم متراصون جنبا إلى جنب أمام التليفزيون (لا ملتفين حول المائدة)، ولا ينظر الواحد منهم فى عيون الآخرين. وهم لا يتحدثون سويا، ولا يأكلون من الأطباق نفسها، فكل عشاء وحدة مستقلة.

الإنسان الحديث والإنسان البدائى

يذهب كثير من الدارسين إلى أن المشروع التحديثى (العقلانى المادى) هو مشروع غربى بالدرجة الأولى ومن ثم يرون أن من يريد التحديث عليه استيراد النماذج الغربية. كما أن هناك من يذهب إلى القول أنه إذا كان المشروع التحديثى العقلانى المادى غربياً، فنحن إذن «بروحانياتنا وإسلامنا» محصنون (والحمد لله) ضده. والنموذج التفسيرى الكامن فى كلتا الرؤيتين هو نموذج تراكمى وليس توليدياً. يرى أن المعرفة كلها مكتسبة من الخارج (وأن المعرفة الحديثة مكتسبة من الغرب) وينكر أن بعض جوانب المعرفة الأساسية (حديثة أم قديمة) تولد من داخل عقل الإنسان نفسه.

ونحن نفضل استخدام نموذج توليدى فى تحليل الظواهر الإنسانية، فهو نموذج يرى تماثل بنية العقل الإنسانى بغض النظر عن الزمان والمكان وأن ثمة أفكاراً أساسية مفطورة فيه دون أن نرفض بطبيعة الحال النماذج التحليلية التراكمية التى ترى أن كل



إذا كانت الشعوب التى يقال لها بدائية تنتج لتستهلك، وإذا كانت الشعوب التى يقال لها متقدمة تنتج وحسب، فإن الشعوب التى يقال إنها بلغت قمة التقدم تستهلك لتنتج، بل وتشجع الاستهلاك لتصريف المنتجات ثم تنتج المزيد من السلع لإشباع الاستهلاك وهكذا

المعرفة مكتسبة. وعلى الرغم من أنه لا يمكن إنكار أن النموذج التحديثى العقلانى المادي له جذور غربية واضحة. وأنه وصل أول تحقق تاريخى له فى الحضارة الغربية من خلال ظروف (سياسية واقتصادية وحضارية) خاصة به، وأنه انتقل من العالم الغربى إلى بقية العالم بل واكتسحه اكتساحاً بسبب نجاحه المادى فى المجتمع الغربى (وهو نجاح يستند إلى نجاح عمليات النهب الإمبريالى)، إلا أن تفسير جاذبية النموذج التحديثى على أساس تراكمى لا يكفى لتفسير ظاهرة الاكتساح هذه. ونحن نرى أن أحد أهم أسباب نجاحه على المستوى العالمى هو أن جذوره كامنة فى النفس البشرية ذاتها، فيما سميناه النزعة الرحمية وهى رغبة الجزء فى الذوبان فى الكل حتى يهرب المرء من أى حدود ومن ثم عبء المسئولية الخلقية والإنسانية ليصبح مثل الجنين فى رحم أمه، أو مثل الطفل الرضيع فى علاقته بثدى أمه.

هذه النزعة الرحمية والرغبة فى السيولة والذوبان فى كل أكبر عبرت عن نفسها دائماً من خلال المنظومات الحلولية الكمونية الواحدية سواء كانت روحية (وحدة الوجود الروحية) أم مادية (وحدة الوجود المادية) فى إنكارها الشرس للكليات المفارقة لعالم الصيرورة وفى دمجها بين الإله والطبيعة والإنسان، بحيث يصبح العالم جوهراً واحداً لا اختلاف فيه ولا تمايز. ومن بين المنظومات الحلولية الروحية، يمكن أن نذكر الغنوصية والقبالاه اليهودية وغلاة المتصوفة وكثير من الهرطقات الدينية والحركات الشعبوية الشيوعية، ذات الطابع المشيحانى. ومن بين المنظومات المادية، يمكن أن نشير إلى كل الفلسفات المادية خاصة الفلسفات المادية العدمية مثل السفسطائيين الذين لا يجدون فى العالم سوى حركة. وكل هذه الفلسفات الواحدية لا تتمرد على فكرة الإله المفارق وحسب وإنما ترفض كل الكليات والتجاوز والحدود، بما فى ذلك الحدود التى تحدد الإنسان كإنسان وتفصله عن الكائنات الطبيعية. ولذا فهى تذيب الإنسان كمقولة مستقلة وككائن متجاوز للطبيعة/ المادة.

وقد عادت النزعة الحلولية الكمونية الواحدية وأكدت نفسها وبحدة فى عصر النهضة فى الغرب، فالمشروع التحديثى الغربى هو مشروع يدور فى إطار المادية الكامنة، فى إطار الإنسان الطبيعى الذى يعيش فى الطبيعة وعلى الطبيعة، إنسان ذو بعد واحد. ولكن المشروع التحديثى - كما أسلفنا - كان يدور فى مراحله الأولى فى إطار كل مادى متجاوز، ولذلك فقد أنتج فلسفات عقلانية مادية تؤله الكون - تارة تغلب الذات على الموضوع وتعلن أسبقية الإنسان على الطبيعة (تأليه الإنسان) وتارة أخرى تغلب الموضوع على الذات وتعلن أسبقية الطبيعة على الإنسان (تأليه الطبيعة) - إلا أنها فى تأرجحها هذا ظلت فلسفة عقلانية تشبه ما يسميه فيبر «الديانة العالمية»، وهى ديانة يرى فيبر أنها تستند إلى رؤية كوزومولوجية عالمية شاملة، تتفرع عن نظم معرفية وأخلاقية شاملة، وتجيب عن كل أو معظم الأسئلة الكلية والنهائية التى تواجه الإنسان بطريقة معقولة تتسم بالاتساق، ولذا فهى تدخل على قلوب المؤمنين بها الطمأنينة والأمن وقدراً عالياً من التفاؤل. وتفى بالاحتياجات النفسية للإنسان فى فهم العالم وفى التوازن مع ذاته ومع عالمه وتحل له مشكلة المعنى. ويمكن القول أن المنظومة التحديثية المادية فى مرحلة التحديث والصلابة حاولت أن تجيب عن الأسئلة الكلية والنهائية والتقليدية وأن تزود الإنسان بمنظومات معرفية وقيمية، ونجحت فى هذا بأن أخذت المنظومات المعرفية والأخلاقية المسيحية والإجابات المسيحية عن الأسئلة النهائية وقامت بعلمنتها بأشكال مختلفة، فحل محل الإله مطلقات علمانية مختلفة مثل «العقل الكلى» أو «روح التطور» أو «المجتمع» أو «الطبقة العاملة»، وحل محل «تجسد الإله فى العالم» مسميات أخرى مثل «تحقق العقل الكلى فى التاريخ» أو «حتمية التقدم» أو «مسار التاريخ». وحل محل «الآخرة والبعث ويوم الحساب» مفاهيم مثل «حكم التاريخ» و«نهاية التاريخ» و«اليوتوبيا التكنوقراطية». وتغيرت المطلقات العلمانية وتغيرت تجسداتها ولكن ظل هناك دائماً مطلق ما يمكن من خلاله إدراك الكليات والمطلقات والثوابت، ويمكن استناداً إليه ترتيب الواقع ترتيباً هرمياً وتحديد ما هو حلال وما هو حرام وما هو كلى وما هو جزئى وهكذا، ويمكن من خلاله ترويض الإنسان الطبيعى ووضعه داخل حدود حضارية، بحيث يمكنه تجاوز ذاته الطبيعية/ المادية.

وكما أسلفنا أخذت معدلات الترشيد المادى والعلمنة المادية والحلولية الكمونية المادية فى التزايد، فزادت معدلات النسبية إلى أن سيطرت تماماً وسقط الكل المادى المتجاوز ووقع كل شيء فى قبضة الصيرورة، وظهر الإنسان الطبيعى، الذى لا يعرف الحدود، بكل وحشيته وسذاجته وانطلاقه. وبدأت الحضارة الغربية تنتج فلسفات معادية للعقل تنكر الكون والكليات والمطلقات والحدود وتنكر وجود الذات والموضوع وتنكر وجود أى مركز، وتعلن استحالة قيام نظم معرفية وأخلاقية عالمية. هذه الفلسفات المادية اللاعقلانية لا تقف ضد الديانات العالمية التقليدية وحسب وإنما ضد العقلانية المادية الصلبة ذاتها. ولا تقف ضد الميتافيزيقا الإيمانية وحسب وإنما ضد الميتافيزيقا المادية أيضاً، أى ضد أى ميتافيزيقا. والحضارة المعاصرة هى نتاج هذه النسبية الكاملة وهذه السيولة الفلسفية الشاملة، نتاج هذا النزوع الرحمى نحو إنكار الحدود والهوية والكليات. وهذه السيولة هى نمط سائد فى كل الأنساق الحلولية الكمونية المادية فى كل الحضارات. هذه المنظومات عادة ما تظهر قدراً من التماسك فى العصر البطولى ولكنها تنحل دائماً إلى مادة محضة غير مشكلة لا مركز لها ولا قوام، ولا تسمح بقيام أى كليات، كما نبهنا السوفسطائيون فى بداية تاريخ الفلسفة الغربية، وكما نبهنا نيتشه فى نهاية القرن الماضى، وكما يبين لنا أنصار ما بعد الحداثة.

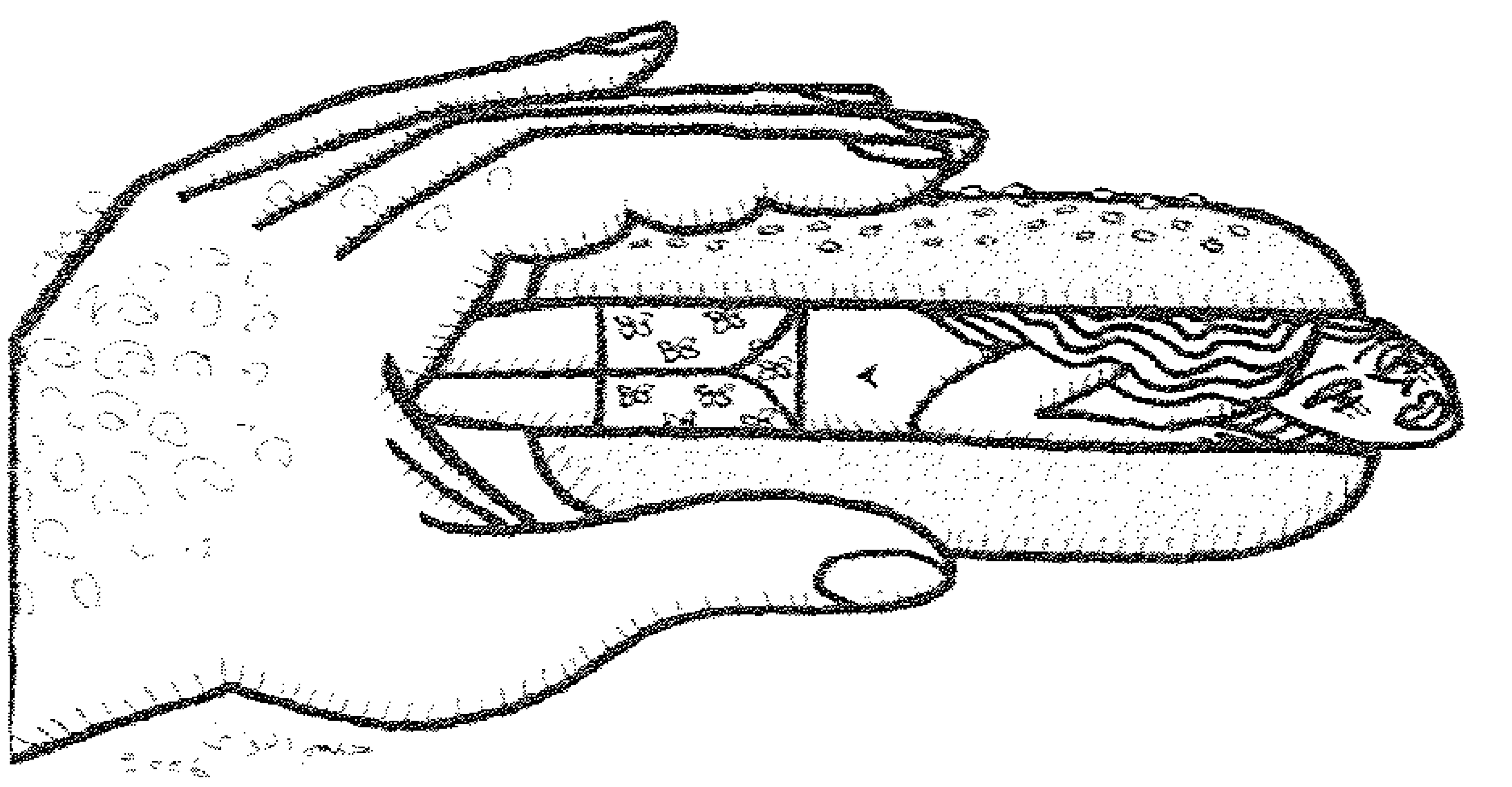
هذه الحضارة السائلة قد تحققت بشكل كامل فى الحضارة الغربية إلا أنه لا يمكن أن نراها متجذرة فى هذه الحضارة وحسب، ولا يمكن أن نراها مقصورة عليها، ولا يمكن أن تعتبر الحضارة الغربية هى مصدرها الوحيد، بل هى تعبير عن نزوع بشرى عميق وعن نمط يسم كل المنظومات الحلولية المادية. فالحضارة الغربية الحديثة هى تعبير عن نمط متكرر ونزوع إنسانى كونى، وهو النزوع الرحمى. ويجب أن ندركها فى إطارها هذا، ولا نراها مقصورة على الزمان والمكان الغربيين.

وقد لاحظ فيبر وجود عناصر مشتركة بين الحضارة الغربية الحديثة والحضارات الوثنية البدائية ذات النزعة الرحمية الواضحة، والتى ترى الإنسان باعتباره جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة. والمنظومة الوثنية لم تظهر فيها منظومات أخلاقية، وهى تظل ملتصقة تماماً بعالم المادة والجسد وتدور فى إطار النسبية المعرفية والأخلاقية، أى أن فيبر يربط بين الحضارة الغربية الحديثة وبين نموذج أكثر عالمية وشمولاً وإنسانية، وهو النموذج الوثنى البدائى الرحمى، أى أنه لا يراها حضارة ذات جذور غربية ولكن حضارة ذات جذور إنسانية كونية. ولنحاول أن نعرض لأطروحة فيبر مع تطويرها بعض الشيء (مثل ربطنا الديانات الوثنية بالنزعة الرحمية) لتصبح أكثر اتساعاً وشمولاً وخصوبة. ولكن تطويرنا وتعديلنا للأطروحة لا يخل على الإطلاق بأساسياتها.

يرى فيبر أن ثمة تشابهاً عميقاً بين الإنسان البدائى والإنسان الحديث، ويمكن أن نعدل كلمة «بدائى» لتصبح «الوثنى» الذى يؤمن بديانة حلولية وثنية، حتى نفهم المقارنة التى يعقدها. وبالفعل، نلاحظ أنه يتحدث أحياناً عن «الإنسان البدائى» وأحياناً أخرى عن «اليونانى القديم»، واليونانى القديم أبعد ما يكون عن البدائية. ولذا فلنستبدل كلمة «بدائى» بكلمة «وثنى»، لنحاول فهم أطروحة فيبر.

يرى فيبر أن أهم نقط التشابه بين الإنسان الوثنى القديم والإنسان الحديث هو أن كليهما يفتقر إلى إطار مرجعى معرفى وأخلاقى متكامل متماسك يكتسب تكامله وتماسكه من خلال عقيدة دينية أو ميتافيزيقية، أى أن كليهما لا يؤمن بـ«ديانة عالمية». فكل من الإنسان الوثنى والإنسان الحديث يعيش فى عالم يفتقد إلى المركز ويتسم بتعدد العقائد والنظم المعرفية والأخلاقية (أى أنه لا يوجد «قصة عظمى» وإنما هى «قصص صغرى»، إن أردنا استخدام المصطلح ما بعد الحداثى). ولذا، فإن الإنسان الوثنى البدائى يعيش فى عالم مخيف يتهدده من كل جانب، فهو لا يؤمن بعالم آخر ويعيش فى هذا الدنيا محاطاً بآلهة وشياطين متصارعة لصيقة بعالمه المادى المباشر غير مفارقة له إلا بمسافة صغيرة. وعقيدته الدينية (قصته الصغرى) لا تجيب عن أى أسئلة كلية، فهى لا تقدم رؤية كونية شاملة (قصة عظمى). ولذا، فهى قادرة على أن تهدئ من روعه قليلاً وبشكل مؤقت شريطة أن يذهب إلى الساحر ليزوده بالتعويذة اللازمة لهذه المناسبة. وبعد أن

بدلاً من إرسال الجيوش الإمبريالية لآسيا وأفريقيا لفتح الأسواق، تطلق أدوات الترويض المختلفة مثل البرامج التليفزيونية، والأفلام، والموضة (أو جماليات الصيرورة) لفتح الإنسان ولغزوه وقهره



يقدم القرابين لإلهه الخاص أو لإله الجماعة أو لإله المكان (دون الآلهة الأخرى) فى مذبح معين، وبعد أن يقوم بالشعائر المطلوبة بكل دقة، دون وجود منطق كلى واضح وراء كل هذا. وعلاقة الوثنى بالآلهة وبالساحر علاقة مادية تعاقدية مباشرة، محددة بنظام المناسبة المباشرة: إتقاء شر إله المكان، أو طلب مساعدة فى مهمة معينة، دون وجود منظومة كونية عالمية شاملة.

ويبين فيبر أن العلم الحديث همش الشرعية الدينية إن لم يكن قد ألغاها تماماً. ولكن العلم لا يجيب عن الأسئلة الكلية والنهائية، فهو يتعامل مع الجزئيات التى تشبه آلهة المكان والجماعة ولا يتناول الكليات. وإجابات العلم على القلق الميتافيزيقى هو مثل تقديم القرابين لآلهة محلية للحصول على طمأنينة مؤقتة، تأخذ فى بعض الأحيان شكل مسكنات أو طبيب نفسى. كما أن العلم بسبب افتقاده للرؤية الكلية يسمح بظهور عقائد مختلفة متصارعة، ليس لأى منها مركزية، تشبه آلهة وشياطين الإنسان الوثنى البدائى القديم.

بل إن مشكلة المعنى بالنسبة للإنسان الحديث تزداد حدة، إذ أنه عليه أن يتعامل مع أكثر من عالم. فالوجود الإنسانى فى المجتمع الحديث قد تم تقسيمه إلى عوالم ومجالات مختلفة منفصلة يسميها فيبر «نظم الحياة» (بالإنجليزية: لايف اوردرز life orders)، فهناك النظم أو المجالات العامة مثل المجال الاقتصادى والمجال السياسى، وهناك المجالات الخاصة مثل المجال الجماعى والمجال الجنسى والمجال الفكرى. ولكل نظام إجابته الخاصة عن الأسئلة الكلية دون وجود إطار كلى ينتظمها جميعاً. ومثل هذا التشظى لا يمكنه أن يزود الإنسان بإجابة عن الأسئلة النهائية. ولذا يظل عالم المعنى فارغاً ويظل كذلك عالم الأخلاق فارغاً، فمع غياب المعنى ونسبية المعرفية تسيطر النسبية الأخلاقية والنفعية المادية التى لا تختلف كثيراً عن أخلاقيات الوثنى البدائى النسبية النفعية. ونحن نضيف إلى هذا أن كثيراً من المجالات التى يشير إليها فيبر قد أسقطت تماماً الأسئلة الكلية والنهائية ولم تترها أساساً، أى أنها حلت مشكلة المعنى عن طريق إلغائها واكتفت بالترشيد الإجرائى وأخلاقيات الصيرورة، أى الالتزام بقواعد اللعبة وبالإجراءات دون أى بحث عن معنى كلى أو نهائى.

إن هذه النسبية المعرفية والأخلاقية فى حالة الإنسان الوثنى البدائى والإنسان الحديث تؤدى إلى غياب إطار متكامل للوفاء باحتياجاتهما النفسية، ولذا يعود كل منهما إلى مصادره الشخصية. وإذا كان البدائى يعود للقبيلة والآلهة المحلية ويفقد ذاته فيهما، فإن الإنسان الحديث قد فقد إيمانه بالكل المادى ولم يبق أمامه سوى المؤسسات الرشيدة التى ترشد حياته وتنمطها وتضع له سيناريوهات عديدة بديلة، ولكنها كلها تنويعات رياضية فارغة من المعنى. وحينما يتمرد الإنسان على حياته، تظهر الحركات الشمولية والقوميات العضوية التى تزود حياته بالمعنى بأن تحوله إلى إنسان ذى بعد واحد لا يسأل أى أسئلة نهائية أو كلية ولا يشعر بأى قلق ميتافيزيقى ولا يلتزم بأى منظومات أخلاقية متجاوزة لذاته الضيقة وتذيب الذات المركبة المتعينة فى كل أكبر ملون هو الشعب القومى العضوى والأرض المختارة (التى تشبه آلهة المكان المحلية)، أو الدولة والفوهرر فى النازية، والوطن والدوتشى فى الفاشية، ودكتاتورية البروليتاريا والزعيم الفرد فى الشيوعية، والشعب اليهودى المختار وأرض الميعاد فى الصهيونية. ولعل ظهور العبادات الجديدة والنزعات البيئية المتطرفة وعبادة جايا: أى الأرض، هو تعبير عن هذه الرغبة الوثنية البدائية/ الحديثة/ الجنينية فى العودة إلى كل أكبر تُفقد فيه الذات وتهبط فى القاع وتستقر فيه هادئة قانعة خانعة.

ولعل ظهور الجسد والجنس (والصورة المجازية الأخرى فى النظم الحلولية الكمونية) كصور مجازية أساسية هو تعبير آخر عن النزعة الجنينية (الوثنية/ الحديثة) ومحاولة حل مشكلة المعنى بإلغائها، إذ أنه حينما يصبح الجسد والجنس هو المعنى، فقد عدنا مرة أخرى لإله المكان وإله اللحظة وإلى القرابين المباشرة النفعية، دون منطق واضح ودون معنى كلى.

تجاوز فيبر حدود المكان ولاحظ التشابه العميق بين رؤية الكون التى تسود فى الحضارة الغربية الحديثة والحضارات الوثنية البدائية (فى كثير من الأمكنة)، ولاحظ السيولة الفلسفية التى تسم هذه الرؤى وعجزها عن النهوض إلى عالم الكليات بكل ما يحمل من مسئولية. ولعل أطروحة فيبر لم تنل ما تستحقه من تقدير ودراسة لأنه ذكرها بشكل عرضى فى كتاباته. ولكن الأهم من هذا هو سقوط فيبر فى التعميم المخل. فقد أدرك بثاقب نظره أننا على عتبات السيولة والنسبية وما بعد الحداثة. ولكن، بدلاً من أن يرى السيولة باعتبارها إمكانية كانت كامنة وبدأت فى التحقق فى المرحلة المقبلة، عمم من إدراكه وأسقطه بشكل مطلق على الحضارة الغربية الحديثة بأسرها. ومن الواضح أن التعميم لا يصدُق إلا على المراحل الأخيرة للحضارة الغربية الحديثة حيث يسقط كل شىء فى قبضة الصيرورة.

ولعله، بإخفاقه هذا، لم ينجح فى تفسير كيف أن رؤية هذه الحضارة الغربية الحديثة فى الوقت الحاضر (فى مرحلة ما بعد الحداثة) تقف على طرف النقيض من كل ما تعلمناه منها من قبل. فهى حضارة لم تعد تبحث عن الحقيقة الكلية والقصة العظمى، وإنما أصبحت قانعة راضية بالنسبية. وهى حضارة كانت تنتج أشكالاً فنية متماسكة ذات معنى فانغمست فى التجريب وأدمنت البدايات الجديدة بشكل دائم وغاصت فى التشظى الفلسفى والفنى. وكيف أنها بعد أن كانت تؤمن بالمحاكاة والمقدرة على التواصل تنكر هذا الآن، وأخيراً كيف أن هذه الحضارة العقلانية المادية أصبحت حضارة لا عقلانية مادية. ونموذجنا التفسيرى قادر على الإحاطة بهذا التناقض، فبرغم أن السيولة الفلسفية كانت كامنة فى المشروع التحديثى فى ماديته وتفكيكيته، إلا أنها كانت فى حالة كمون وحسب، ولم تبدأ فى التحقق إلا مع نهايات القرن التاسع عشر ثم اكتسحت أوروبا مع منتصف القرن العشرين، وها هى ذى تكتسح العالم بأسره على هيئة فكر ما بعد الحداثة والنظام العالمى الجديد.

ومنتجات الحضارة الغربية الحديثة فى مرحلة السيولة (المتجذرة فى النزعة الرحمية عند الإنسان) ليست معادية للحضارة الشرقية أو الإسلامية وحسب، وإنما هى معادية لكل الحضارات بما فى ذلك الحضارة الغربية ذاتها (تماماً كما أنها ليست معادية للميتافيزيقا الدينية وحسب ولكنها معادية للمتافيزيقا المادية كذلك). ولذا فإن منتجات هذه الحضارة لا تقوض خصوصيتنا وهويتنا وتماسكنا وحدنا وحسب، وإنما تقوض خصوصية وهوية وتماسك المجتمعات الغربية ذاتها. فالهامبورجر هو طعام طبيعى مادى أقرب إلى قطعة الغيار لا علاقة له بالأطعمة الغربية (من مطبخ فرنسى إلى مطبخ إيطالى إلى مطبخ إسبانى إلى حتى مطبخ أمريكى سواء كان جنوبيا أم شماليا، إلى مطبخ الكريول فى لويزيانا). وهو يحل محلها كلها بالتدريج، وهو طعام وظيفى محض لا طعم ولا لون ولا رائحة له، بروتين حيوانى، يمكن أن تحل محله حبوب البروتين حينما يتم اختراعها فى عصر اليوتوبيا التكنوقراطية. وقل نفس الشىء عن موسيقى الديسكو، فهذه ليست لها علاقة كبيرة بموتسارت أو بيتهوفن أو باخ أو تليمان أو موسيقى الباروك، ومع هذا فهى تقوضها كلها وتحل محلها. ونفس الشىء بالنسبة للطرز المعمارية، فما يسمى «الطراز الدولى» هو طراز وظيفى وعبارة عن حوائط تشكل حيزاً محايداً يمكن لأى إنسان وظيفى أن يمارس فيه وظائفه البيولوجية الأساسية، دون خصوصية أو هوية أو آلام أو أحلام خاصة.

إن النزعة الواحدية المادية بدأت تكتسح الجميع، لتسقط كل الحدود بحيث يتحول العالم إلى كيان ذى بعد واحد يتحرك فيه البشر فى إطار حتميات مادية، تعفيهم من مسئولية الاختيار، وحيث الأمل هو أن تقوم الهندسة الوراثية الداروينية بتحسين النسل وأخلاق الإنسان وسلوكه من خلال تغيير الجينات والتحكم فيها، وحيث يوجد عالم من شاشات التليفزيون والكومبيوتر تعفى الإنسان من مسئولية الحركة بين الآخرين، فيجلس فى منزله ليعمل ويبيع ويشترى ويتسلى ويستمنى دون أن يرى بشراً، تماماً مثل الجنين فى رحم أمه أو الطفل فى علاقته بثديها. والقضية الآن هى: كيف يمكن أن نستمر فى هذا العالم الحديث دون أن نسقط فى العالم الرحمى السائل اللزج ودون أن ننسى نزعات التجاوز الربانية داخلنا؟ وكيف يمكن أن نؤسس حضارة إنسانية حديثة لا تؤدى بالضرورة إلى تقويض الإنسان، حداثة تؤدى إلى حوار بين البشر، لا إلى صراع دائم وحروب مستمرة؟

والله أعلم ▩

لماذا لا نعيش

رامز نعام

لاحظ بنيامين فرانكلين أن لا شيء يقيني في الحياة غير الموت والضرائب. هذا لم يمنع الناس من محاولة تجنبهما. وبينما بقيت الضرائب معنا، فإننا قد تقدمنا بشكل ما ضد الموت. الطفل المولود عام ٢٠٠٠، في أي مكان بالعالم سيحيا في المتوسط إلى عمر ٦٦، تقريباً ضعف ما كان متوقعاً لطفل وُلد عام ١٩٠٠، وثلاثة أضعاف مَن وُلد منذ ألف عام.

البشر، في المتوسط، يعيشون الآن أطول من أي وقت مضى. لكن هذا التقدم، وحتى عهد قريب، لم يحدث نتيجة مقاتلة الشيخوخة، وإنما بحماية أنفسنا مما يقتلنا صغاراً. لم يقدم الطب إلا القليل لإطالة حياة من تمكن بالفعل من حياة طويلة. في عام ١٩٠٠ كان للرجل الأمريكي الذي تمكن من البقاء حتى عمر السبعين أن يتوقع أن يحيا حتى عمر ٧٩، أما الآن، فإن للأمريكي في الثمانين، أن يتوقع أن يحيا في المتوسط حتى عمر ٨٢ سنة، بإضافة أعوام ثلاثة لا أكثر فوق الأجل المتوقع منذ مائة عام، وهذا قدر ضئيل مقارنة بما يضاف للمواليد.

ولقد أنجزنا مثل هذا التقدم الضئيل في زيادة الأجل المتوقع للأعمار المتقدمة، لأن التركيز في الطب قد انصب أساساً على الأمراض لا على عملية الشيخوخة ذاتها. المضادات الحيوية أطالت متوسط عمر الإنسان، لكنها لم تغير حقيقة أن أجهزتنا المناعية تضعف مع تقدم العمر. لجراحة القلب أن تصلح من التلف الشديد في القلب، لكنها لا تعيد للقلب صحته أيام الشباب. ليس بين كل ما قمنا به حتى الآن، عمل واجه القضية الرئيسية: كلما تقدمنا في السن قلت قدراتنا وازداد احتمال تعرضنا للمشاكل الصحية. فإذا كنا نحيا أطول فليس من سبب سوى أن عدداً منا أكبر يحيا ليصبح عجوزاً، بينما ما نطلبه حقاً هو أن نظل شباباً.

يحيط قانون اسمه قانون جومبيرتز بقضية أن يصبح الإنسان عرضة للمشاكل الصحية مع تقدم عمره. كان بنيامين جومبيرتز رجلاً من لندن، علم نفسه، عاش عند تحول القرن التاسع عشر. يقول قانونه إن خطر الموت في أي نوع حي يتصاعد أسياً مع العمر. فإذا طبقنا هذا على البشر فإنه يعني أن خطر الموت لأي سبب يتضاعف كل ٨ سنوات تقريباً. فالزمن، من حيث الجوهر، يُنهك عقولنا وأجسادنا. الأمراض التي تقتلنا في الشيخوخة، كالنوبات القلبية والسرطان، هي، وإلى حد بعيد، أعراض شيخوخة أجسادنا. في كل مرة يعالج الطب مرضاً فيطيل الحياة، يصطدم الإنسان بمرض آخر. وفي مرض الزهايمر مثال على ذلك. فمع ازدياد فترة حياة الفرد في الدول المتقدمة، ازداد عدد من يعاني من هذا المرض.

هذا نموذج واضح أمام الديموغرافي جيي أولشانسكي بجامعة شيكاغو عندما قال: «إذا كان لنا حقاً أن نجد علاجاً للسرطان، فإن الأجل المتوقع عند الولادة سيرتفع بنحو ثلاث سنوات ونصف.... وإذا قضينا على أمراض القلب الوعائية ومرض السكر وصور السرطان جميعاً، فسيرتفع الأجل المتوقع عند الولادة ليصبح ٩٠ عاماً، أي ما يعادل نحو عشر سنوات زيادة في الأجل المتوقع. تقدم هائل، لكنه لا يزال أقل مما أحرزته البشرية في القرن العشرين.

في رواية «رحلات جليفر»، لجوناثان سويفت، مشهد يضع تقدمنا في إطالة حياة الإنسان بشكل يفرج عنا بعض التفريج. هي قصة عن سلالة اسمها اللاجناجيون، وعن الخالدين بينهم الذين يسمون باسم الاسترالدبراجيون. معظم اللاجناجيون كائنات عادية تموت عندما يحين الأجل، أما الاسترالدبراجيون منهم فقد وهبوا، أو ابتلوا، بالخلود. هم يهرمون، ولكنهم لا يموتون. ومع مرور الزمن يصبحون أضعف وأضعف، وأوهن، وأكثر بؤساً، لكنهم لا يحررون من حياتهم.

هذه الفكرة عن عمر متقدم واهن تغلبه الأمراض تعضد مخاوفنا من آخر سنوات عمرنا، أن نقضيها مربوطين بخراطيم آلات إنقاذ الحياة، أجسادنا تقاسي من عشرات الأمراض، وقد تشوشت أذهاننا حتى لنحتاج إلى الملاحظة المستمرة. إننا جميعاً نريد أن نحيا، لكن ليس بهذه الطريقة.

من ينتقدون تقنيات إطالة فترة حياة الإنسان، كثيراً ما يرسمون صورة استرالدبراجية لمستقبلنا. في هذه السيناريوهات، سنجد مجتمعاً كبيراً مسناً تحفظ حياته عن طريق تقنيات طبية غالية السعر يدفع الشباب تكاليفها. والحق أن الاتجاهات الحالية في الرعاية الصحية والأجل المتوقع توفر بعض التبريرات لهذه السيناريوهات. مع شيخوخة عشيرة العالم، ستقع برامج المعاشات تحت ضغوط، سترتفع كثيراً التكاليف الطبية، وستتضاءل، كنسبة من العشيرة، أعداد الموجود من الشباب القادرين جسدياً والقادرين ذهنياً الذين سيدفعون هذه التكاليف. وهذا يؤكد النقطة المحورية، بأننا إذا أردنا أن نحيا حياة أطول، فعلينا أن نبدأ في مواجهة ليس فقط أعراض الشيخوخة وإنما ظاهرة الشيخوخة ذاتها.

والحق أن إبطاء الشيخوخة، أو إطالة الشباب، سيقدم للمجتمع ربحاً سخياً. سيقلل من حدوث الأمراض المرتبطة بالعمر، التي تفسر اليوم نصف عدد الوفيات تقريباً، سيقلل تكاليف الرعاية الصحية في العالم كله ببلايين الدولارات، لأن الشباب على وجه العموم يستهلك من الرعاية الصحية أقل من كبار السن. وسيحفظ الناس في صحة وعافية لفترة أطول فيتجنبون الدين ولا يستنزفون دخل الأجيال الأصغر. باختصار إن إطالة الشباب ستعالج نفس المشاكل التي تسببها الحياة الأطول.

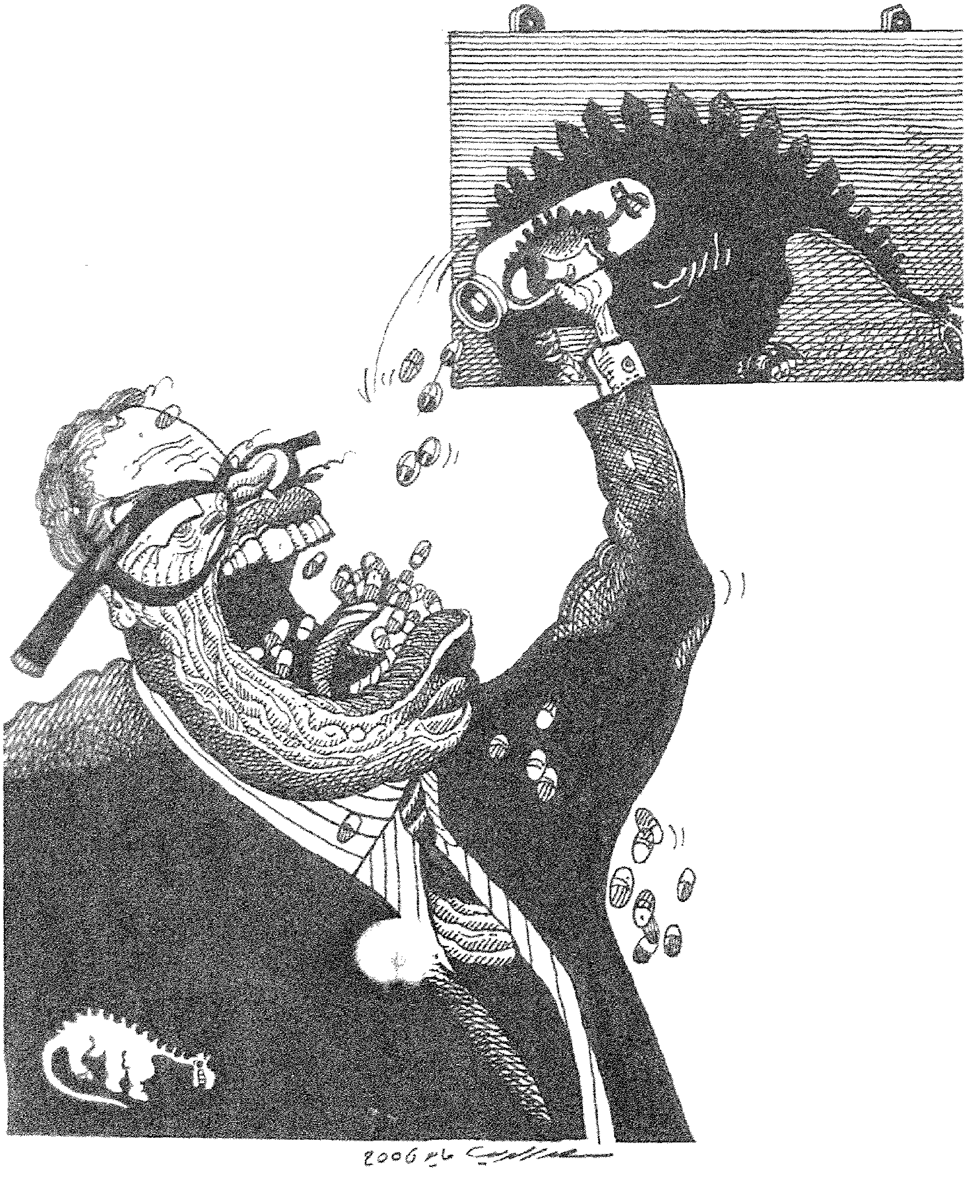
إن حبة أو حقنة تطيل الشباب ستلقى أيضاً رواجاً مذهلاً. أنفق الأمريكيون وحدهم، عام ٢٠٠٢، ما يقدر بـ ٣.٦ بليون دولار على منتجات يزعم أنها «مضادة للشيخوخة»، بدءاً من مضادات الأكسدة وحتى حقن هرمون النمو، على الرغم من حقيقة أن ليس بينها منتج ثبت أنه يبطئ الشيخوخة أو يعطلها. البعض من هذه المنتجات يبيعها من يعتقد حقاً بمفعولها، ولكنها كثيراً ما تأتي عن تجار عديمي الضمير لا يؤمنون إلا بما يكسبونه من بيع علاجات للشيخوخة مشكوك في أمرها لمستهلكين سذج علمياً.

سوق المنتجات المضادة للشيخوخة، غير المختبرة علمياً، أقلق العلماء الحقيقيين في حقل علم الشيخوخة حتى ليوقع واحد وخمسون منهم عام ٢٠٠٢ بلاغاً رسمياً مشتركاً تحت عنوان «بيان عن وضع شيخوخة الإنسان». قال هذا البيان بوضوح أنه لا يوجد اليوم شيء يسمى: تدخل ضد الشيخوخة في البشر.

من ينتقدون تقنيات إطالة فترة حياة الإنسان، كثيراً ما يرسمون صورة استرالدبراجية لمستقبلنا

فصل من كتاب:
More than human
تأليف:
Ramez Naam (2005)
Pub: Broadway Books
ترجمة الدكتور أحمد مستجير. صدر عن دار «سطور»
بعنوان: الطريق إلى السوبرمان (٢٠٠٦)

عمر نوح؟



مستقبل الجنس البشرى

يقول البيولوجى جوردون ليثجو، من معهد باك لأبحاث الشيخوخة فى نوفاتو، كاليفورنيا،: «فى السنين القليلة الماضية نسف عددٌ من الأبحاث النظرية القائلة إن الشيخوخة لا يمكن إبطاؤها». ليثجو هو من يعرف. إنه واحد من أوائل العلماء الذين اكتشفوا تقنيات تستطيع بالفعل أن تبطئ الشيخوخة فى الحيوانات، وقد تفعل نفس الشىء، يوماً ما، فى البشر.

أ. بارتكه، أحد من وقّعوا بيان ٢٠٠٢، يعرف أيضاً وبشكل مباشر إمكانات العلم فى إبطاء الشيخوخة وإطالة الحياة. شاهدها فى الفئران التى يعمل عليها بمعمله فى جامعة جنوب إلينوى. فى ٨ يناير ٢٠٠٣ مات واحد من فئرانه المهندسة وراثياً قبل أسبوع واحد من بلوغه عيد ميلاده الخامس. الفئران غير المعزّزة تحيا نصف هذه الفترة: أطول عمر لفأر بالمعمل هو ثلاث سنوات. كانت فترة حياة فأر بارتكه تزيد ٦٦٪ عن أقصى عمر لفأر غير معزّز من نوعه. هو يشبه إنساناً عاش حتى عمر ٢٠٠ سنة. وعلاوة على ذلك، فإن الفأر ظل فى صحة جيدة حتى النهاية، لم يُصب بالضعف أو الأمراض التى تصيب معظم الفئران الهرمة.

فى أواخر ثمانينيات القرن الماضى، فتحت أبحاث عالم الوراثة توم جونسون بجامعة كلورادو، فتحت مجال التدخل الوراثى فى العمر. بدأ جونسون فى العمل على وراثة الشيخوخة عام ١٩٧٩. فى ذلك الوقت كان، مثل غيره من الباحثين، يعتقد أن الشيخوخة عملية معقدة حتى لتحتاج إطالة فترة حياة الكائن إلى تغيرات فى المئات، بل وحتى الآلاف، من الجينات المفردة. ثم، وفى عام ١٩٨٣، وجد زميله مايك كلاس بضع سلالات طافرة من النماتودا (وهذه شعبة من الديدان الطفيلية) لها فترة حياة

هاجم كاتبو البيان بشدة المنتجات المضادة للشيخوخة الموجودة فى السوق. كان الهدف هو تعريف الجمهور بأنهم يُخدعون بالدعاية الكاذبة. وبعد أن فضح الكُتّاب الزيف فى منتجات اليوم، انتهوا بملاحظة متفائلة تقول: «إن المعارف العلمية المتسارعة التزايد تحمل الأمل بأنّا قد نتوصل فى نهاية الأمر إلى اكتشاف وسائل تبطئ من معدل الشيخوخة». فى الصفحات التالية سنتحدث عن بعض هذه الاكتشافات الواعدة.

طويلة للغاية، تبلغ ضعف الطبيعىّ فى نوعها (سى. إليجانس).

بعد أن ترك كلاس الجامعة إلى الصناعة، اضطلع جونسون بعمله. افترض بادئ ذى بدء أنه لكى يتضاعف طول عمر الدودة، لابد من طفور عدد كبير من الجينات. سلّم جونسون المشروع إلى دافيد فريدمان. وهذا طالب دراسات عليا كان يعمل تحت إشرافه. أما ما وجده فريدمان فكان شيئاً يخالف ما يتوقعه الجميع. فمن بين التسعة عشر ألف جين التى يحملها جينوم هذه الدودة، كانت الديدان طويلة العمر تحمل طفرةً فى جين واحد فقط (أطلق عليه فيما بعد اسم «إيدج ١»). فى ورقتين نشرتا عامى ١٩٨٨ و١٩٩٠ بمجلة جينيتكس ومجلة ساينس الرفيعة المستوى قدم جونسون وفريدمان نتائجهما المذهلة: تغيير جين واحد يمكن أن يضاعف طول العمر فى النيماتودا. أظهرت النتائج فيما بعد أن طفور جينين سوياً يمكن حتى أن يطيل فترة الحياة ثلاث مرات.

يشرح باحث آخر فى مجال الشيخوخة، هو ستيفن أوستاد بيولوجى التطور بجامعة إيداهو، مدى ضآلة هذا التغير الوراثى فيقول: «للديدان نحو مائة مليون نوتيدة فى جينومها. إذا غيّرت واحدة من هذه، حرفاً من الحروف، حرفاً واحداً من بين المائة مليون حرف بالأبجدية الوراثية، تضاعف طول العمر. إذا غيّرت حرفين، حرفاً من جين وحرفاً من جين آخر فسيطول العمر ثلاث مرات».

فتح بحث جونسون وفريدمان الطريق أمام الكثير فى مجال إطالة الحياة. لكنه لم



يُستَقبَل الاستقبال الطيب. يقول جونسون: «أنكر الكثيرون نتائجي الأولى... شعرتُ حقاً بأنني منبوذ. أذكر جيداً تعليقاً لزميل وجّهه إلى واحد من طلبتي قال فيه ما معناه... إنك ذكي، ماذا تفعل مع هذا المُشَعْوِذ؟ سيكتشف العالَم يوماً أنه كان يُزَوِّر البيانات».

وفي النهاية، تَغَلَّب المنهجُ العلمي على العقيدة المُسَلَّم بها، فبعد خمس سنوات من نَشْر نتائج جونسون، اكتشفت الباحثةُ المُتَمَكِّنَة سينثيا كينيون، بجامعة كاليفورنيا في سان دييجو، أن هنالك جيناً آخر يطيل حياةَ هذه الديدان. لدينا الآن معملان أعطيا نتائج متشابهة عن جينين مختلفين. أصبح من الصعب الادعاء أن إطالة الحياة كانت خطأً أو تزويراً. بدأ كبار العلماء يهتمون بفكرة أن تغيرات ضئيلة قد تُطيل الحياة، وشرعوا يبحثون بأنفسهم عن مثل هذه الجينات. وُلِدَ مجالُ إطالة الحياة وراثياً.

ومنذ ذلك الحين، اكتشف العلماء العشرات من الجينات التي يمكن أن تطيل الحياة في تنويعة عريضة من الكائنات، البعض منها يطيل الحياة بزيادة ضئيلة، والبعض الآخر يضاعف طول الحياة. يعرف العلماء الآن عن أكثر من مائة جين يمكنها أن تبطئ عملية الشيخوخة في النيماتودا وذبابة الفاكهة، والديدان، والفئران، وتُكْتَشَفُ جيناتٌ أخرى كل يوم. هذه الجينات التي يغيرها الباحثون لا توجد فقط في الحيوانات. إنها توجد أيضاً في البشر. هذا يقترح إن إجراء نفس هذه التحويرات الوراثية في الرجال والنساء قد يبطئ من شيخوخة الإنسان. ثمة زمرةٌ من الباحثين في الجامعات وفي القطاع الخاص تعمل الآن على طُرُقٍ استخدام هذه المعارف الوراثية في تصميم عقاقير تطيل حياتَنا عقوداً أو أكثر.

تقع جينات إطالة الحياة في حفْنة من العائلات الجينية. جيناتُ أقدمِ ما اكتُشِف من عائلات، لها صِيَغٌ تقلل من حساسية الجسم للإنسولين أو لمادة كيماوية أخرى قريبةٍ تسمى عامل النمو الشبيه بالإنسولين. هناك عائلة ثانية اكتُشِفَت مؤخراً تعمل جيناتها بأن تحمي الخلايا من أن تُتْلِفَها الشوارد الحرة. تلك الكيماويات الشديدة التفاعل التي تتقافز وتُفْسِد كلَّ ما تمسُّه.

الجين إيدج ـ ١، الذي اكتشفه جونسون، ينتمي إلى مجموعة تنظيم الإنسولين، وهي العائلة التي دُرِسَت أكثر من غيرها. ظهرت جيناتُ هذه العائلة في كل كائنٍ حيٍ درِس. تقريباً. أطال العلماءُ حياةَ النيماتودا وذبابة الفاكهة والفئران بإجراء تعديلاتٍ في هذه الجينات.

الإنسولين وقريبُه عاملُ النمو الشبيه بالإنسولين IGF I هما رسولان يستخدمهما الجسمُ لإرسال إشاراتٍ من جزء إلى آخر. فعلى سبيل المثال، إذا اتصلتْ خليةٌ عضليةٌ بجزيءٍ إنسولين، فإنها تستجيب بأن تمتص من تيار الدم قدراً من السكر أكبر وتخزنه بعيداً في صورة مادة كيماوية تسمى جليكوجين، تُسْتَخْدَمُ فيما بعد كوقود. أطال جونسون وكينيون وباحثون غيرهما من حياة النيماتودا بتقليل عمل الجين إيدج ـ١ والجينات ذات القرابة، الأمر الذي يؤدي إلى أن يصبح الحيوانُ أقلَّ حساسية للإنسولين.

هذه التغييرات الوراثية لم تَقُمْ فقط بإطالة فترة حياة الديدان، وإنما جعلتها أيضاً أكثرَ مقاومة للضغوط من كل ضرب. وفيما بين عامي ١٩٩٣ و١٩٩٥ أجرى البيولوجيان سيمسون ميلوف وجوردون ليثجو، في معهد باك لأبحاث الشيخوخة، سلسلةً من تجارب الاجهاد على النيماتودا مستخدمين الجينين إيدج-١ و داف-٢. وضعا الديدان تحت حرارة مرتفعة تقتل الكائنات الطبيعية، وعرَّضاها إلى توكسينات (سموم) قاتلة. وجدا في كلتا الحالتين أن الديدان التي حُوِّرت وراثياً لإطالة العمر، كانت أيضاً أكثر تَحَمُّلاً للضغوط الخارجية القاسية. مما يجعل الجينين أكثرَ إغراءً للعلماء كهدفين للعقاقير التي تطيل العمر في البشر. وعلى أية حال، فليس ثمة مَنْ يريد أن يصبح عجوزاً واهناً. إن معاملةً واحدةً يمكنها أن تحفظ شبابك ثم تحميك أيضاً من السموم ومن غيرها من الضغوط الخارجية، تبدو أمراً يستهوينا كثيراً.

أما كيف ولماذا بالضبط يمكن للطفرات في سبيل الإنسولين أن تبطئ الشيخوخة، فهذا أمر لا يزال لغزاً، ولكن ذلك قد يرجع إلى الحماية من الاجهاد التي اكتشفها ميلوف وليثجو. في عرضٍ نُشر في مجلة نيتشر، أشار الباحثان تورين فينكل ونيقي هولبروك، من المعاهد القومية للصحة، إلى أن: التغييرات الوراثية التي اكتُشِفَت حتى الآن في مجال إبطاء الشيخوخة، تكاد كلها تُضْفي مقاومةً مضافةً للضغوط التي تُدَمِّر الدنا في الأحوال العادية. كالحرارة والتوكسينات. في مقابل هذا تكاد كل الطفرات الوراثية التي تُسرع من الشيخوخة، تجعل الكائنات أكثر عرضةً للحرارة والضوء فوق البنفسجي والتوكسينات وأي ضغوط بيئية يمكن أن تدمِّر الدنا. لو كانت نظريةُ فينكل وهولبروك صحيحةً، فإن سبيل شبيه الإنسولين في الجسم يلعب دوراً في حماية خلايانا من التدمير الوراثي، كما أن التحوير في هذا السبيل الذي يبطئ من الشيخوخة يرفع عملها الحمائي.

على أن بعض الكائنات التي أُطيلت حياتُها عانَتْ من آثار جانبية. طافرات داف-٢ عند كاتيون خبرت انخفاضاً في الخصب ومشاكل آخرى تبدو مرتبطة بتناميها المبكر. عندما أخذ كانيون نيماتودا طبيعيةً غير محورةٍ وراثياً، وأَضْعَفَ فيها عمل الجين داف-٢، إنما بعد البلوغ، تمكن من أن يُضيفَ إليها مزايا إطالة الحياة، إنما دون الآثار الجانبية البغيضة.

جميل أن نُطيل عمر النيماتودا. لكن، ألهذا علاقة بنا نحن البشر؟ إن الأهم من الطريقة التي تعمل بها هذه الجينات في النيماتودا، هي طريقة عملها في الفئران. الفئران من الثدييات، بيولوجيتها تشبه بيولوجيتنا أكثر من الحشرات أو الديدان، وعلى هذا فدراستها ستعرِّفُنا عن توقعاتِ إطالةِ عُمْرِ الإنسان أكثر بكثير مما نتعلمه من دراسة النيماتودا وذبابة الفاكهة. كان البحثُ لإطالة حياة الفئران، بتقليل الحساسية للإنسولين ولـ IGF I بحثاً مراوغاً. في عامي ٢٠٠٠ و ٢٠٠١ أوضح عددٌ من البحوث أن هذا أمْرٌ ممكن، إنما بثمنٍ جسيم. أنتجت أربعةُ معامل مختلفة سلالات «قزمة» من الفئران، ينقصها إما هرمونُ النمو، أو القدرةُ على الاستجابة لهرمون النمو. وهذا يؤثر في الكائن، جزئياً بِقَدْحِ زناد عامل النمو رقم ١ الشبيه بالإنسولين. تمكن الباحثون بإعاقة آثار هرمون النمو، أو. وبطريق غير مباشر، بإعاقة آثار عامل النمو هذا. عاشت سلالات الفئران المُحَوَّرة فترةً أطول من الفئران العادية بـ ٣٠. ٦٠٪، لكنها للأسف عانَتْ من آثارٍ جانبية خطيرة. هرمونُ النمو أساسيٌ للتنامي، وبغيابه توقفتْ الفئرانُ عن النمو. كان حجمُها نصفَ حجم غيرها. وظَهَرَ بينها سلالتان تكاد أن تكونان عقيمتين تماماً.

صحيح أن الآثارَ الجانبية لتقليل عمل هُرمون النمو كانت لطمةً لدراسة التقنيات المضادة للشيخوخة في الفئران، بالإنسولين وبالعامل IGF I، لكنها لم تقتل فكرةَ تحوير الجينات ذات العلاقة بالإنسولين وا IGF I، لإطالة الحياة. الدراساتُ الأربعةُ الأولى جميعاً أَجْرَتْ تغييرات في جينات الفأر أكثر من المطلوب، كان الهدفُ هو ألاَّ نوقفَ هرمون النمو عن العمل. تخفيض هرمونِ النمو كان مجرد طريقة سريعة لتقليل عمل IGF I. أمِنَ الممكن إذن أن نُجرى تغييراً أكثر دقةً في الفئران؟ أمِنَ الممكن أن يقللَ الباحثون من عمل مستقبِل العامل IGF I دون تعطيل جزءٍ آخر مهم من بيولوجيا الفأر؟ وإذا كان هذا ممكناً، فهل يؤدي هذا التغيير الموجَّه بشدة، إلى إطالة الحياة؟ وهل ستكون لذلك آثارٌ جانبية كبرى؟

هناك حلاَّن جُزَيئيَّان ظهرا قرب نهاية عام ٢٠٠٢ وبداية عام ٢٠٠٣. في نهاية عام ٢٠٠٢ أعلن عالمُ وراثة فرنسي اسمه مارتين هولزينبيرجر أن فريقَه. بالمعهد القومي للصحة والدواء في باريس. قد خلَّق فئراناً تحمل نسخةً واحدةً فقط من جين مستقبِل العامل IFG I لا نسختين كالفئران الطبيعية. حتى ذلك التاريخ لم يكن ثمة من نجح في إنجاز شيء كهذا. فئران هولزينبيرجر تعيش حياةً أطولَ من حياة مجموعة المقارَنَة. أطول بمقدار ١٦٪ في الذكور و٣٣٪ في الإناث. ولها أيضاً حجم الجسم الكامل، وتأكل نفس القدر من الطعام وتبدو بنفس النشاط. وهي أكثر مقاومة للضغوط. تبقى حية لساعاتٍ أطول من فئران المقارَنَة إذا تعرضتْ لتوكسين اسمه باراكوات.

على أن دراسةَ هذا العالم الفرنسي واجهتْ بضعَ مشاكل. سلالة الفئران التي ابتدأ بها، قبل التحويرات الوراثية، لم

يتجذر انتصار الديموقراطية فى ظاهرتين بسيطتين. الأفراد بعامة يريدون تحسين أوضاعهم. يريدون أن يعيشوا حياة أطول، أن تظل صحتهم جيدة، أن يرفعوا من قدراتهم، أن يوسعوا خياراتهم، أن يزيدوا من رفاهة أبنائهم

تكن طويلة العمر، لاسيما تحت ظروف الازدحام التى ربيت فيها بتجربته. نتيجة لذلك ماتت الفئران الطافرة التى أطيلت حياتها، والتى عاشت فترة أطول من السلالة التى ابتدأ بها، ماتت ، فى المتوسط . قبل غيرها من سلالات فئران ربيت فى بيئات أفضل. لكن هولزينبيرجر أوضح بجلاء أن تحوير جين IFG I قد مكنه من إطالة عمر إحدى السلالات تحت مجموعة واحدة من الظروف. فإذا جمعنا هذه النتائج مع الشواهد من النيماتودا ومن سلالات أخرى من الفئران، فإن ذلك يقترح أن IGF I سيطيل أيضاً حياة الفئران التى تحيا فى ظروف أفضل.

أوضحت دراسة مرتبطة بهذه، أن الفئران التى كان ينقصها مستقبل للإنسولين فى خلاياها الدهنية عاشت أطول. رفع الباحثون فى هارفارد متوسط عمر الفئران بمقدار ١٨٪. كانت هيئة الفئران طبيعية وكذلك كان نشاطها. أجسامها كانت تحمل دهناً أقل. لكنها كانت فيما عدا ذلك طبيعية. كانت تأكل مرة ونصف قدر ما تأكله فئران لها نفس الحجم، ولكنها ظلت نحيلة وفى صحة جيدة. ومع ذلك كانت حياتها أطول من حياة الفئران غير المحورة وراثياً.

حكينا عن البحوث جمعاً وعداً. التغييرات فى عائلة الجينات التى تتحكم فى مستقبلات الإنسولين وشبيهات الإنسولين قد أطالت حياة كل نوع جربت عليه. بل لقد وجد الباحثون أنها تطيل حياة الخميرة. والآن، إن ما يتطلب كل شخص أن يعرفه هو: هل تنجح مثل هذه التغيرات فى البشر؟

هناك سببان يجعلاننا نعتقد أنه من الممكن أن تستخدم هذه الجينات فى إطالة حياة الإنسان أيضاً. أولاً: الجين إيدج-١ والجين داف-٢ وغيرهما مما لم نتحدث عنه من جينات إطالة الحياة، كلها تشبه كثيراً الجينات التى يحملها الإنسان لمستقبلات الإنسولين و IGF I. وعلى هذا فإن المفاتيح الجزيئية التى عرفناها فى النيماتودا والذباب والفئران موجودة بالفعل أيضاً فى جينومنا.

ثانياً: إن ما حكيناه يقول إن التغييرات المرتبطة بالعامل IGF I قد أطالت فترة الحياة فى الفئران وفى ذباب الفاكهة وفى النيماتودا وفى الخميرة. وهذه أنواع مختلفة بشكل لا يصدق. بيننا وبين الفئران قرابة قوية نسبياً، فقد انشعبت بعيداً عنا فى شجرة التطور منذ نحو ٧٥ مليون عام. النيماتودا وذباب الفاكهة والخميرة، من ناحية أخرى، انشعبت عنا منذ مئات الملايين من السنين. أكثر من بليون سنة فى حالة الخميرة. ورغم ذلك فإن نفس تقنيات إطالة الحياة تعمل على ما يبدو فيها جميعا.

هذا كشف هائل هائل. نفس التقنيات تطيل حياة كائنات ذات دم حار، وكائنات ذات دم بارد، وكائنات بلا دم على الإطلاق. هى تعمل على أنواع تتكاثر بالتبرعم، وأنواع كالنيماتودا كل فرد منها خنثى، وفى أنواع تتكاثر بوضع البيض وأنواع تمارس الجنس وتحمل أجنتها فى الرحم مثلنا. نفس التقنيات تطيل حياة النيماتودا التى تحمل أقل من ألف خلية، وحياة الفئران التى تتألف من أكثر من ألف مليون خلية. هى تبطئ من شيخوخة كائنات انشعبت عنا منذ بليون عام، وكائنات انشعبت حديثاً منذ ٧٥ مليون عام. هى تطيل شباب حيوانات لها مخاخ تحمل بلايين النيورونات، وحياة كائنات بلا مخ على الإطلاق. مع كل هذا التباين بين الأنواع، لابد أن التغيرات فى جين IGF I تؤثر فى الشيخوخة على مستوى قاعدى للغاية.

من جهتها تعتقد سينثيا كينون أن هذا الطيف العريض من الأنواع يقدم دليلاً رائعاً على إمكانية استخدام الجين IGF I فى إطالة عمر الإنسان أيضاً. تقول إن أبحاث هولزينبيرجر على الفئران «أبحاث رائعة. إنها تبين بكل وضوح أن (سبيل طول العمر ذى الصلة بالإنسولين) محفوظ فى الثدييات، وأنه فعال حقاً. إذا كان صحيحاً فى الديدان والذباب والفئران، فإن احتمال ألا يكون صحيحاً فى البشر احتمال ضئيل».

واثقة كانت كينيون بما يكفى حتى لتراهن بذلك على وقتها ووظيفتها. فى عام ١٩٩٩ تسببت هى وباحث بارز فى علم الشيخوخة اسمه لينى جارانت، فى أن ترتبك شركة إليكسير فارماسوتيكالز. فقبل بضع سنين كان جارانت قد اكتشف أن جيناً اسمه سير٢ SIR 2 يمكنه أن يطيل الحياة فى الخميرة والنيماتودا، وذلك على ما يبدو بإعاقته لنشاط جينات ضارة داخل الجسم. يحمل الإنسان وغيره من الثدييات سلالن هذه الجينات واسمها سيرتوين. يقوم الباحثون حالياً بمحاولة لإطالة حياة الفئران بتحوير هذه الجينات.

لجارانت وكينيون، فيما بينهما، أكثر من ٢٥٠ بحثاً منشوراً باسميهما. يعتبر الاثنان ومعهما توم جونسون أعلى الباحثين منزلة فى مجال التحوير الوراثى للحيوانات من أجل إطالة العمر.

فى أواخر عام ٢٠٠٢ اندمجت شركة إليكسير بشركة سينتا جينيتيكس، وهذه شركة تبحث عن جينات فى بشر عاشوا حياة ذات طول استثنائى، بهدف العثور على أهداف للعقاقير لعلاج أمراض الشيخوخة. جمعت الشركتان ٢٠ . ٣٠ مليون دولار لتمويل الأبحاث. كانت استراتيجية إليكسير للعثور على عقاقير إطالة الحياة بسيطة. فلما كان جعل الخلايا أقل حساسية للعامل IGF I يطيل الحياة فى الكثير من الحيوانات، فإن الشركة ستبحث عن عقاقير يمكنها أن تؤدى نفس المهمة اصطناعياً.

المستقبل IGF I، مثل كل المستقبلات غيره، يشبه قطعة أحجية ثلاثية الأبعاد. يتوافق جزئ IGF I فى دفء فى جيب المستقبل IGF I. هذا يخبر المستقبل أن إشارة ما قد وصلت، ليقوم المستقبل بدوره بإخطار بقية الخلية. من بين طرق تقليل حساسية المستقبل أن نجد جزئياً يجعل من الصعب على جزئ IGF I أن يتوافق فى دفء فى المكان الصحيح. تخيل إيلاج قطعة غريبة الشكل من الورق المقوى داخل جيب، هو المستقبل IGF I. قطعة الكرتون الغريبة الشكل ستجعل الأمر أصعب بالنسبة للقطعة الأخرى من الأحجية (جزىء IGF I) كى ترسو فى الموقع الصحيح. يسمى الجزىء الذى يتدخل بهذا الشكل باسم «العامل المضاد» لأنه يعمل ضد وظيفة المستقبل.

تقوم شركة إليكسير الآن بالبحث عن مركبات قد تعمل بهذه الطريقة. فإذا وجدت ما ترومه، فستختبره على حيوانات المعمل. فإذا أطال العقار العمر، فستتحرك الشركة فى بطء إلى الاختبار على البشر. والعملية بأسرها، إذا نجحت، قد تستغرق عشر سنين أو أكثر. طبيعى أن مصلحة الغذاء والدواء وغيرها من الإدارات التنظيمية لا تجيز العقاقير إلا لعلاج الأمراض، وهى (حتى الآن) لا تعتبر الشيخوخة مرضاً. وعلى هذا فإن استراتيجية الشركة على أغلب الظن هى أن تقول إن العقار يساعد فى تفادى بعض أمراض الشيخوخة، كالسرطان أو السكر أو مرض القلب. فإذا اتخذنا من التاريخ دليلاً، فستجد الشركة من الأطباء من يصف العقار، تماماً مثل ما يسهل على بعض المرضى الحصول على الفياجرا ومضادات الاكتئاب وغيرها من الأدوية التى تتطلب الوصفة الطبية (الروشتة)، من أطبائهم للاستعمال خارج نطاق الدواء.

لحماية المرضى من الأذى، لابد أن تصر الجهات التنظيمية على اختبار هذه العقاقير باختبارات تصمم لتبين كيف تؤثر على الأصحاء الذين لا يقاسون من السرطان أو السكر أو مرض القلب. لكن مجتمعات العلماء ورجال الأعمال لا يهتمون كثيراً فى الوقت الحالى بقضية التشريع. إذا أمكن الوصول إلى أدوية تبطئ الشيخوخة فى البشر، فستجد لها بلاشك سوقاً هائلة: وحتى لو لم تكن إليكسير هى الشركة التى ستجد مثل هذا العقار، فإن البحث عنه سيمضى قدماً. يعرف الباحثون فى مجال الشيخوخة الآن أن صوراً من جينات تنتسب إلى IGF I تطيل الحياة فى تنويعة من الكائنات. تمكنت معامل أخرى من تحديد هوية جينات إضافية بهذه العائلة، والشركات الصيدلية تراقب هذا المجال الآن بعناية.

الشوارد الحرة

العائلة الأخرى الكبيرة المتنامية من الجينات التى تطيل الحياة هى تلك التى تحمى الخلايا من الشوارد الحرة. الشوارد الحرة جزيئات توجد داخل كل خلية من جسمك، مشحونة كهربائياً بطريقة تمكنها بسهولة من أن تتفاعل كيميائياً مع أجزاء أخرى من الخلية. ولها على وجه الخصوص ألفة بالإلكترونات. تتصادم كثيراً بجزىء آخر وتسرق منه إلكتروناً. ولقد تتصادم مع جديلة دنا وتنزع منها إلكتروناً، فتسبب طفرة. ومع الزمن تتراكم هذه الطفرات فتعجز عن القيام بعملها، بطرق خفية تصبح بالتدريج أقل خفاء. تقوم خلاياك بمهمة مذهلة لإصلاح التدمير الذى تسببه الشوارد الحرة، لكن يحدث أحياناً أن تفلت بعض الأخطاء من آلية الإصلاح الذاتى. يتجمع الكثير من التدمير الذى تسببه الشوارد الحرة فى محطة توليد الطاقة داخل الخلية، التى تسمى السبحيات

البحث



(الميتوكوندريا). ولما كانت السبحيات هى التى تزود باقى الخلية بالطاقة، فإنها تخلق عددا كبيراً من الشوارد الحرة كمنتجات ثانوية، وتقوم هذه فى أحوال كثيرة بتدمير القدر الضئيل من الدنا الموجود بالسبحيات ذاتها. ومع تراكم التدمير فى المحطات الخلوية لتوفير الطاقة. تصبح أقل قدرة على إنتاج الطاقة لبقية الخلية؛ فتضعف قوتها. وقوة الخلية. على العمل. تصبح العضلات أضعف. تصبح خلايا المخ أبطأ. وتتوقف بعض الخلايا تماماً عن العمل.

كشف الباحثون عن آثار الشوارد الحرة وفساد دنا السبحيات فى تجارب بعد تجارب. الأنواع المختلفة من الحيوانات تنتج مقادير مختلفة من الشوارد الحرة. الأنواع الأطول بقاء تنتج مقادير أقل من الشوارد. والأنواع الأقصر عمرا تنتج مقادير أكبر. ابتكر العلماء أيضاً اختبارات لقياس حجم التدمير الذى تسببه الشوارد الحرة. فى الكائنات ذات العمر القصير وجدوا الكثير من البروتينات الطافية وغيرها من الجزيئات التى أفسدتها الشوارد الحرة. وفى الأنواع الطويلة العمر كان تركيز الجزيئات التى دمرتها الشوارد أقل كثيراً.

وجد العلماء من دارسى النيماتودا أيضاً أن الديدان الأكبر عمرا تحمل من دنا السبحيات المدمر قدرا أكبر مما تحمله الصغار منها. جينات إطالة العمر، مثل إيدج-١، تبطئ من معدل هذا التدمير. والواقع أن معظم جينات إطالة العمر التى تحدثنا عنها تقوم على ما يبدو بإبطاء معدل التدمير الذى تسببه الشوارد الحرة، وتجعل الكائنات أكثر مقاومة للسموم التى تولدها هذه الشوارد.

الأهم من ذلك أن الجينات التى تقاوم آثار الشوارد الحرة يمكنها أيضاً أن تبطئ الشيخوخة. مضادات الأكسدة تثبت الشوارد الحرة وتجعلها غير ضارة. فيتامين ج واحد من بين مضادات الأكسدة المعروفة. لكن للأسف أن التجارب لم تبين أن تغذية الحيوانات بالفيتامينات تفيد فى إطالة الحياة، غير أن التجارب التى رفعت متونة الجسم مما ينتجه هو ذاته من مضادات الأكسدة قد فعلت العجائب.

هناك بداخل الجسم اثنان من أهم مضادات الأكسدة، هما سوبر اكسيد دايميوتيز (س و د SOD) والكاتاليز. خلق العلماء فى عام ٢٠٠٢ سلالتين من ذباب الفاكهة تنتجان من س و د أكثر. تعيش هاتان السلالتان فترة أطول من الذباب الطبيعى بـ٤٠٪. هناك بجانب هذه سلالة أخرى محورة وراثياً لتنتج قدراً إضافياً من مضاد للأكسدة آخر بالجسم، هو مثيونين سلفوكسايد ريداكتيز، وهى تحيا فترة أطول كثيرا من الذبابات الطبيعية. ثمة سلالة رابعة من ذبابة الفاكهة تحمل جيناً أطلق عليه اسم متوشالح (وهذا اسم أحد آباء الجنس البشرى المذكورين فى التوراة، وكان طويل العمر). هذا الجين يضفى حماية إضافية ضد الشوارد الحرة. تعيش هذه الذبابة حياة يزيد طولها ٣٣٪ عن الطبيعى وهى على الخصوص تقاوم الحرارة والإجهاد والجوع.

يبدو أن إزالة جين اسمه P 66 shc يجعل خلايا الفئران أكثر مقاومة للشوارد الحرة، كما تطيل فترة الحياة بنحو ٣٠٪ دون ما آثار جانبية. يتعاون ستيف أوستاد، بجامعة إيداهو، مع معمل تمكن من إطالة عمر سلالة أخرى من الفئران بهندستها وراثياً لإنتاج قدر من كاتاليز مضاد للأكسدة أكثر. فى السبحيات على وجه الخصوص.

المهم أن قد ظهر عقاران على الأقل يطيلان حياة الحيوانات، ويبدو أن لهما خصائص مضادة للأكسدة. وجد سيمون ميلوف وجوردون ليثجو أن عقارين يحاكيان آثار مضادات الأكسدة داخل الجسم، يمكن بهما إطالة حياة النيماتودا. العقاران EUK 8 و EUK 134 اللذان أنتجتهما شركة قطاع خاص اسمها يوكاريون، يعملان داخل الخلايا مثلما يعمل س و د والكاتاليز. عندما تعاطت نيماتودا ليثجو وميلوف هذين العقارين، طالت حياتها لتزيد ٤٤٪ عن طول حياة ديدان المقارنة. يجرب ليثجو وميلوف هذين العقارين الآن على الفئران أيضاً. هناك عقار آخر (٤. فينايل بوتيريت) يحمى ذباب الفاكهة من آثار الشوارد الحرة، ويطيل أيضاً عمرها.

الخلاصة: هناك قدر كبير متنام من الشواهد يشير إلى أن دفاعات الجسم ضد الشوارد الحرة يمكن أن تطيل الحياة. فبعد بضع السنين التى انقضت منذ ظهر أول شاهد على أن طول الحياة يمكن أن يمتد بهذه الطريقة (وكان ذلك عام ١٩٩٩) أحرز الباحثون تقدماً مشهوداً. لاشك أن نجاحاتهم ستوجه نظر الآخرين ليرتادوا هذا المجال. إذا استمر تقدم الكشف بهذه السرعة، فقد نشهد علاجات لزيادة طول عمر الإنسان تدخل إلى مرحلة التجريب على البشر فى العقد القادم.

تشرف كلية الطب لجامعة جنوب إلينوى، من عل، على حقول الذرة التى تحيط بسبرنجفيلد عاصمة الولاية، على مبعدة ثلاث ساعات جنوب شيكاغو. فى الريف تحيا كلاب البرارى وفئران الحقل وغيرها من الحيوانات. وفى أحد المعامل بمبنى يصعب تصنيفه بحرم الجامعة، كان هناك رجل نحيل دائم الابتسام، غزا الصلع رأسه، اسمه أندريه بارتكه. انشغل بتفحص أسباب الشيخوخة. كان هدفه هو الوصول إلى الطريقة التى يمكن بها تأخير حلول مرض القلب والسرطان والهشاشة وغيرها من المشاكل التى تجئ مع العمر. أن يطيل فترة احتفاظ الإنسان بصحته، كما يقول.

يبتسم بارتكه وفى يديه فأران: واحد منهما قريب لصيق للفأر الذى يعربد فى الحقول، والذى ينتمى إلى سلالة يحيا أفرادها فى المتوسط سنتين ونصف قبل أن تستسلم للشيخوخة. أما الآخر فهو من سلالة هندست وراثياً لتعيش فترة أطول، سلالة مات أطولها عمراً قبل عيد ميلاده الخامس بأسبوع. أى ما يعادل مائتى عام لو كان بشراً. كان الاختلاف بين السلالتين هو مجرد تغيير فى جين واحد لا أكثر، جين نجده فى كل شىء، من الخميرة حتى الفئران وحتى الرجال والنساء. فى بحثه عن الوقاية من الأمراض، فتح بارتكه وزملاؤه احتمال مضاعفة طول عمر الإنسان.

تكررت نفس هذه القصة عشرات المرات فى العقد الماضى. فى المجال الجديد للبيوتكنولوجيا، وقع الباحثون عن العلاجات، عن طرق شفاء المرضى أو المصابين، عن طرق الحفاظ على الصحة فى الكهولة، وقعوا على تقنيات قد تعزز قدرات الإنسان. فى جامعة برينستون، قام العلماء فى بحثهم عن طرق لدرء مرض الألزهايمر بتخليق فئران يمكنها أن تتعلم المهارات بسرعة تبلغ أكثر من ضعف السرعة التى يتعلم بها أندادها وراثياً من الفئران الطبيعية. تشير نتائج بحوثهم إلى تقنيات يمكن أن تحسن تعلم الإنسان أيضاً.

فى معمل بجامعة بنسلفانيا، قام الباحثون. فى محاولاتهم للوصول إلى علاج لمرض الضمور العضلى. بإنتاج فئران غاية فى القوة: يمكنها أن تتسلق أشياء وترفع أشياء لا يستطيع أشقاؤها القيام بها. حقن كل من هذه الفئران فى مرحلة ما من تاريخ حياته، بنسخ إضافية من جين يؤثر فى بناء العضلات. نفس هذا الجين يلعب دوراً هاماً فى بناء عضلات البشر.

وفى جامعة ديوك، قام العلماء. وهم يبحثون عن طرق لمساعدة المجدوعين المشلولين. بزراعة إلكترودات فى مخاخ مجموعة من القردة، أمكن للقردة أن تحرك أذرع ميكانيكية بمجرد التفكير فى ذلك، كما لو كانت هذه الأذرع أجزاء من أجسادها.

هناك فى لشبونة بالبرتغال مجموعة من الرجال والنساء العميان وقد أمكنهم أن يروا. هم يلبسون بدلاً من النظارات كاميرات مرتبطة بالكترودات زرعت فى المنطقة البصرية من مخاخهم. كان البعض منهم أعمى قبل الجراحة بعشرين عاماً أو أكثر. التكنولوجيا التى منحتهم البصر يمكنها أن ترسل الصور من عقل الواحد منهم إلى الآخر.

ثمة هدف شائع بين العلماء الذين يجرون هذه البحوث، وهو أن يشفوا المرضى والمصابين من الرجال والنساء. وهم يكتشفون على طول الطريق أن شفاء عقولنا وأجسادنا يحتاج منا أن نفهمها. وعندما نفهمها فستتمكن من القدرة على تحسينها. هذه القدرة يمكنها أن تمنحنا تعلماً أفضل، وذاكرة أفضل، وعضلات أفضل، وحياة أفضل. إذا اكتشفنا كيف تعمل عقولنا وأجسادنا فمن الممكن للبيوتكنولوجيا أن تمنحنا القدرة على أن نصوغ أياً من نواحى حياتنا. كيف نفكر، كيف نبدو، كيف نتواصل مع بعضنا بعضاً.

لا تلاقى فكرة أن ثمة مصلحة للمجتمع ستأتى عن قدرتنا هذه على تغيير أنفسنا. هناك من يعارض بعنف معابثة عقل الإنسان وجسده. ذاعت هذه المخاوف بين السياسيين. فى عام ٢٠٠٠ أنشأ الرئيس جورج دبليو بوش المجلس القومى للأخلاقيات البيولوجية (البيوأخلاقيات) ليقدم المشورة حول قضايا البيوتكنولوجيا، ووضع على رأسه ليون كاس، أستاذ البيوأخلاقيات بجامعة شيكاغو، وهو سياسى محافظ وراءه خبرة ٢٥ سنة فى معارضة علاجات العقم، وجراحات التجميل، ونقل الأعضاء، وغير هذه من التكنولوجيات التى يرى أنها تنتهك حرمة النظام الطبيعى للأشياء. نشر المجلس تحت رئاسة كاس تقريراً وراء تقرير يشجب استخدام البيوتكنولوجيات الجديدة فى تحوير عقل الإنسان أو جسده.

نشر للمجلس سنة ٢٠٠٤ تقرير عنوانه «ما بعد العلاج» يقول إن التكنولوجيات الوراثية والإنجابية تقوض معنى الحياة، وتفسد العلاقة بين الآباء والأبناء؛ وأن إبطاء حلول الشيخوخة سيتسبب فى ركود المجتمع، لأن الشيوخ سيتمسكون فى عناد بالسلطة؛ وأن المعززات الفورية للأداء ستقلل من الدافع

عن السوبرمان!!

البشرى والعمل اليدوى؛ وأن تكنولوجيات تشكيل العقل البشرى ستهدد إحساسنا بالهوية؛ وأن تقنيات تعزيز قدرات الإنسان قد توسع الفجوة بين الأغنياء والفقراء؛ وأن أمان هذه التقنيات لا يمكن أن نضمنه؛ وأن أصحاب السلطة قد يستخدمونها فى إخضاع الضعفاء أو السيطرة عليهم أو استغلالهم.

وفى نهاية التقرير جادل المجلس بأن علينا أن نحترم الطبيعة كما هى، وأن محاولة تحسين ما هو موجود ليس سوى غطرسة، وأن التحوير البيوتكنولوجى لعقولنا وأجسادنا إنما يهدد كرامتنا البشرية المتفردة.

فى كتابه «نهاية الإنسان» ردد فرانسيس فوكوياما، عضو مجلس البيوأخلاقيات، هذه الفكرة العاطفية. قال «هناك أسباب عقلانية وجيهة للإذعان للنظام الطبيعى للأشياء؛ ولئلا نتصور أنه من السهولة بمكان أن ننتج أفضل منها».

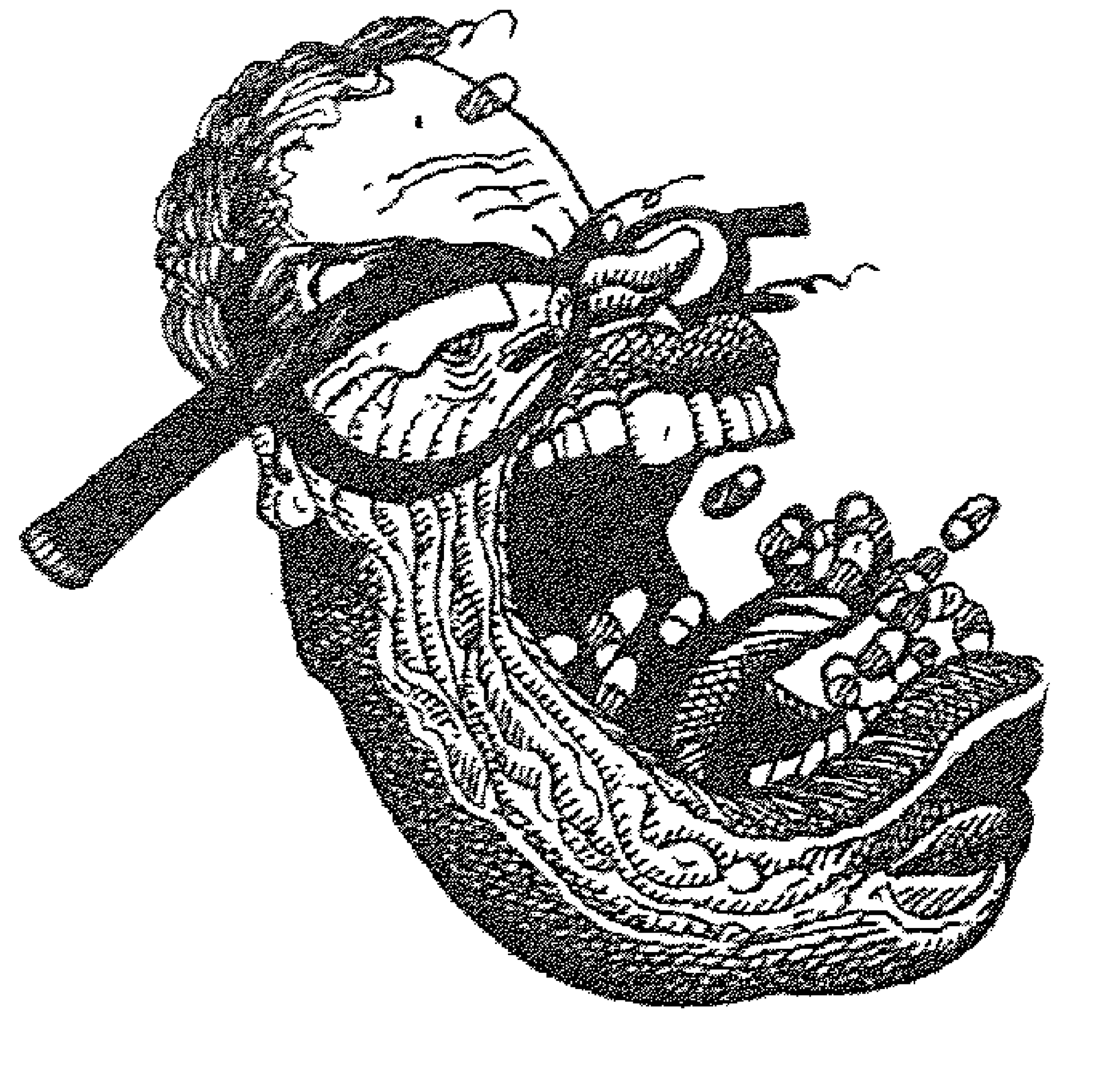
مع وجود كل هذه المخاوف، كيف ستكون استجابة المجتمع؟ يعتقد فوكوياما أن «هناك أشياء يلزم أن تحظر دون تحفظ، من بينها الاستنساخ التكاثرى.... فإذا تعودنا على الاستنساخ فى الأجل القريب، فسيصعب فيما بعد هندسة الخط الجرثومى (وراثيا) بهدف التحسين». يود فوكوياما أن يقيد أكثر من مجرد تكنولوجيات هندسة الجينات، ويجادل بأن على الحكومات أن «ترسم خطوطاً حمراء» حول التكنولوجيات على وجه العموم، «وذلك بالتمييز بين العلاج وبين التعزيز، لتوجه البحوث نحو العلاج، وتضع القيود حول التعزيز».

جورج أناس، الفيلسوف الليبرالى وعالم البيوأخلاقيات، وصف الهندسة الوراثية بأنها «جريمة فى حق الإنسانية»، وطالب بمعاهدة دولية تحظرها. وهذا ويليام كريستول، الناشر، ومحرر مجلة «ويكلى استاندرد» المحافظة، يقر بأن تحريم الاستنساخ سيكون بمثابة خطوة أولى على طريق المسئولية والتحكم فى ضبط النفس، ولكنه سيكون خطوة ذات شأن عظيم».

أما بيل ماكيبين، البيئى والمؤلف، فقد مضى لأبعد من ذلك، ودعا إلى التوقف عن البحوث العلمية التى قد تقود إلى تقنيات تعزز قدرات الإنسان. قال: «علينا أن نقوم بشىء بغيض: علينا أن نمسح هذا العالم الذى نقطنه الآن ونعلن أنه صالح. صالح بما يكفى... ذكاء كاف، قدرات كافية. كفى».

باختصار، هناك الآن جوقة من الأصوات مستعدة لأن تناضل كى تبقى الوضع ثابتاً على ما هو عليه، وتقول إن علينا أن نختار الاستقرار لا التغيير، المعروف لا المجهول. ولكى نمنع أى تغيير غير مرغوب، يقول فوكوياما، «علينا أن نستخدم سلطة الدولة» للحد من إتاحة التكنولوجيات التى تقوض مفهومنا الحالى عن الإنسانية، التى تسمح للأفراد بأن يتخطوا الحدود الذهنية والجسدية كما نعرفها الآن.

يرتكز الكتاب الذى بين يديك على فرضية مختلفة تماماً: فبدلاً من أن نخاف من التغيير، علينا أن نحتضنه، بدلاً من أن نحرم البحث عن تكنولوجيات جديدة، على المجتمع أن يركز على أن يعرف الجميع بأننا قادرون على تغيير عقولنا وأجسادنا، بدلاً من فرض نظرة ضيقة جامدة عن أثر ما نعنيه بالإنسانية،



على البشرية، علينا أن نثق فى قدرة الملايين على أن يقرروا بأنفسهم. لشرح هذه القضية، سأعرض أربعة أشياء.

أولاً، هناك أسباب واقعية وجيهة لقبول فكرة تعزيز الإنسان. لا يستطيع العلماء أن يرسموا خطاً واضحاً يفصل بين الشفاء والتعزيز، فهما متكاملان. الأبحاث التى تجرى لعلاج مرض آلزهايمر، أو لتقليل حالات مرض القلب والسرطان، أو لإعادة النظر للأعمى والحركة للمشلول، هى نفس الأبحاث التى يمكن أن تؤدى إلى احتفاظنا بالشباب، وإلى تحسين ذاكرتنا، وإلى تعزيز عقولنا، أو تحسين أنفسنا بأية طريقة أخرى. إننا لا نستطيع أن نوقف البحوث فى تعزيز أنفسنا دون أن نوقف البحوث التى تهدف إلى شفاء المرضى والمصابين. إذا كان لنا أن نمنع مثل هذه التحسينات فى نوعية حياتنا، فلابد أن تكون بين أيدينا شواهد على أن فى البحوث من المخاطر على المجتمع ما يفوق الفوائد الطبية التى تأتى عنها.

وحتى لو نسينا علاج الأمراض، فإن ما سنجنيه من البيوتكنولوجيا من فوائد سيكون ملموساً ومن الممكن قياسه. إن الاحتفاظ بالشباب لفترة أطول سيقلل من زيادة ما ينفق على الصحة فى العالم بأسره، ويجنبنا الصوت الديموغرافى المزعج لعشيرة بشرية على الأرض تشيخ. وتحسين الذاكرة والانتباه والقدرة على التواصل، سيرفع الإنتاجية، مما سيؤدى إلى كشوف علمية جديدة وإبداعات أسرع، ونمو اقتصادى، وفتوح علمية لا يمكن أن نتوقعها اليوم.

ثانياً، إن حظر البحوث البيوتكنولوجية لن يحل أية مشكلة، إنما سيجعل الأمور أسوأ. قال ستيفن هيمان، المدير السابق للمعهد القومى للصحة العقلية، أمام المجلس الرئاسى للبيوأخلاقيات: «إن القوانين التى تقف فى وجه الواقع... تقلل من احترامنا للقوانين، وتفشل.... إذا أمكن أن نجد علاجات تعزز كفاءتنا، وتطيل حياتنا، وتقلل من ضغوط الحياة علينا.. فلن يستطيع أى قانون فى العالم أن يمنعنا من استخدامها».

إن تحريم تكنولوجيا التعزيز لن يمنع الناس من البحث عنها لاستخدامها، إلا بقدر ما منعت «الحرب ضد المخدرات» الناس من البحث عن كيماويات «منعشة» بديلة. التحريم سيجعل إجراءات التعزيز أكثر كلفة بأن يخلق سوقاً سوداء أسعارها مرتفعة مفتعلة، تزيد من حجم الفجوة بين الأغنياء والفقراء. كما أنه سيضيف أيضاً إلى المخاطر بالنسبة لمن يبحث عن التعزيز، فلن يكون ثمة احتمال لإصدار تشريعات للأمان. أضف إلى ذلك أن مثل هذا التحريم سيعوق التقدم العلمى، إذ ستصبح الدراسات طويلة المدى عن أثر هذه التكنولوجيات مستحيلة. سيدفع بالبيوتكنولوجيا إلى أن تجرى سراً، ليبقى الناس غير عارفين بما يجرى من بحوث.

ثالثاً: إن الجدل حول التعزيز موجود فى القلب من الجدل حول حرية الإنسان. هل للأفراد والعائلات الحق فى تغيير عقولهم وأجسادهم، أم يبقى هذا الحق فى قبضة الدولة؟

لكل رجل وامرأة فى المجتمع الديموقراطى الحق فى اتخاذ القرار بهذا الشأن. هذه ليست مهمة الدولة. بنيت الديموقراطيات الغربية على المبدأ القائل إن الحكومات إنما توجد لحماية حرية الأفراد، أو هكذا يطالب «إعلان الاستقلال»:

إننا نعتقد أن هذه الحقائق بدهية، أن الناس جميعاً قد خلقوا سواء، وأن الخالق قد حباهم بحقوق لا تقبل أن تحول إلى الآخرين، وأن من بين هذه: الحياة والحرية والسعى وراء السعادة، وأنه لضمان هذه الحقوق تأسست الحكومات بين الناس...

لكن، تحت جدل المحافظين البيولوجيين، أنصار بقاء البيولوجيا على ما هى عليه، هناك الافتراض المستتر بأن ثمة كادراً صغيراً من الصفوة، مشرعين، منسقين، أخلاقيين محترفين، يعرفون ما هو الأفضل، يعرفون أن باستطاعتهم، لمصلحة الملايين أو البلايين من الناس، أن يتخذوا قرارات أفضل مما يتخذها هؤلاء.

فعلى سبيل المثال، فى مقالة عن أخطار إطالة حياة الإنسان، كتب ليون كاس، أرفع مستشارى الرئيس بوش فى الأخلاقيات، يقول: «إن محدودية الحياة نعمة لكل فرد، عرف ذلك أم لم يعرف». هل هذا أمر يقرره البروفسور كاس؟

تؤلف الحكومات لضمان حقوق الفرد، لا لتقييدها. إن هذا قضية مبدأ وحكومة صالحة: يقترح التاريخ الحديث أن الأمم التى تقبل حريات الأفراد، تزدهر، أما الأمم التى تقيد حقوق الفرد فتتخلف وتسقط، وبطرق بشعة فى أحوال كثيرة.

فى عام ١٩٩٢، وقبل أن ينشر فرانسيس فوكوياما كتابه «نهاية الإنسان»، كتب الرجل كتاباً عنوانه «نهاية التاريخ». جادل فوكوياما، كغيره من المؤرخين، بأن القرن العشرين قد شهد انتصار الديموقراطية الليبرالية على صور الحكومات الاستبدادية.

فى بدايات القرن العشرين، تشكلت نظم، مثل الشيوعية، حول الاعتقاد بأن الحكومة

كتاب الزاوية

رسالة فى التسامح

جون لوك

وُلد جون لوك فى سمرست بإنجلترا عام ١٦٣٢ ومات فى اسكس عام ١٧٠٤. ولما بلغ العشرين دخل جامعة أكسفورد وقضى بها ست سنوات يتابع الدراسات التى تفضى إلى الكهنوت. وفى عام ١٦٦٦ اتصل باللورد شافتسبرى وهو رجل دولة. كان مهمومًا بالشقاق الدينى الذى كان سائدًا فى أوروبا على الإطلاق وفى إنجلترا على التخصيص، وكان مؤثرًا فى بلاط تشارلس الثانى، وكان كل منهما ملتزمًا بالتسامح مع تباين الغاية من هذا الالتزام. الأول من أجل الكاثوليك والثانى من أجل البروتستانت. ومن هنا، نشأت العداوة بينهما إلى الحد الذى فيه حاول شافتسبرى منع الكاثوليكى جيمس الثانى من خلافة تشارلس الثانى. وبسبب هذه المحاولة توقع شافتسبرى الاعتقال ففر إلى هولندا عام ١٦٨٢. وحيث كان لوك ملازمًا لشافتسبرى فقد فر بعده إلى هولندا. وفى منفاه كتب لوك «رسالة فى التسامح» بتحريض من صديقه شافتسبرى. حررها باللاتينية ونشرها خلوًا من اسمه فى عام ١٦٨٩. وكان يقصد التسامح الدينى بمعنى «أنه ليس من حق أحد أن يقتحم، باسم الدين، الحقوق المدنية والأمور الدنيوية». ولهذا، فإن «فن الحكم ينبغى ألا يحمل فى طياته أية معرفة عن الدين الحق»؛ ومعنى ذلك أن التسامح الدينى يستلزم ألا يكون للدولة دين لأن «خلاص النفوس من شأن الله وحده» وبسبب هذه الأفكار هوجم لوك فألف رسالة ثانية عن التسامح فى يونيو ١٦٩٠، ورسالة ثالثة فى يونيو ١٦٩٢. وقد نشرت مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٥ هذه الرسالة وقامت بالترجمة منى أنيس وقدم لها الدكتور مراد وهبة.

تستطيع أن تتخذ قرارات للناس أفضل مما يتخذه الناس لأنفسهم. ولقد تأسست الديموقراطيات، تقريباً، على المبدأ النقيض. أن اتخاذ الأفراد قراراتهم بأنفسهم يعطى على وجه العموم نتائج أفضل من التحكم المركزى.

وفى نهاية القرن العشرين. كما كتب فوكوياما. أصبح من الواضح أن الديموقراطية الليبرالية قد انتصرت. لم يعد هناك أدنى شك فى أن المجتمعات الحرة، المجتمعات التى يتخذ فيها الأفراد معظم القرارات بأنفسهم، يمكنها أن تتفوق على المجتمعات التى تخضع للتحكم المركزى. اقتصادياً وعلمياً وتكنولوجياً. وعلى نفس القدر من الأهمية، لم يعد هناك أيضاً أدنى شك فى أن من يحيا فى المجتمعات الحرة كانوا أسعد وأفضل حالاً ممن يحيا فى أى مكان آخر بالعالم.

يتجذر انتصار الديموقراطية فى ظاهرتين بسيطتين. الأفراد بعامة يريدون تحسين أوضاعهم. يريدون أن يعيشوا حياة أطول، أن تظل صحتهم جيدة، أن يرفعوا من قدراتهم، أن يوسعوا خياراتهم، أن يزيدوا من رفاهة أبنائهم... وهلم جرا. إذا توفرت الفرصة فسيسعون فى هذا الاتجاه. بجانب ذلك، سنجد أن لدى ملايين الأفراد ممن يتفكرون، ذكاء ورأياً جماعياً يفضل ما يأتى عن مجموعة صغيرة من المنظمين والمتحكمين المركزيين. ليس الأشخاص الفرادى هم من يتخذ القرارات المثالية، إطلاقاً. الأفراد يرتكبون من الأخطاء ما لا يعد ولا يحصى. لكنا سنجد على العموم أن قدرة الجماهير على اتخاذ القرار هى الأكثر فعالية فى تحريك المجتمع نحو رفاهة أكبر، مقارنة بالقرارات التى يتخذها عدد محدود من الصفوة.

فى هاتين الحقيقتين البسيطتين ما يفسر السبب فى أن يتفوق اقتصاد السوق، فى المنافسة والإبداع، وهو الذى تدفعه رغبات زبائن كثيراً ما تكون ضحلة، على اقتصاد يخضع للتحكم المركزى. الحقيقتان تفسران السبب فى أن النظم السياسية التى تعتمد على أصوات ناخبين تتباين بينهم وجهات النظر تبايناً واسعاً، تكون على الرغم من كل شىء أكثر ثباتاً وفعالية فى الحفاظ على حقوق المواطنين مقارنة بالنظم الملكية والدكتاتورية.

إذا ظلت دروس القرن العشرين سارية فى القرن الواحد والعشرين، فستتخلف الأمم التى تحاول أن تبقى السيطرة على عقول شعوبها وأجسادهم، وستزدهر الأمم التى تتقبل الحرية البشرية لتغيير عقولنا وأجسادنا.

وأخيراً، فإن الدافع إلى تغيير أنفسنا وتحسين ذواتنا. وهذا أمر طبيعى للغاية. هو جزء أساسى فى كوننا بشراً. كنا كجنس نبحث دائماً عن طرق لكى نصبح أسرع وأقوى وأذكى وأطول عمراً. إن الكثير من التعزيزات القديمة التى نأخذها الآن أموراً مسلماً بها. من نقل الدم إلى التطعيم ضد الأمراض إلى تحديد النسل. كانت تعتبر أموراً غير طبيعية أو لاأخلاقية عندما ظهرت لأول مرة، لكننا مع مرور الزمن تعودنا على هذه المستويات الجديدة للتحكم فى عقولنا وأجسادنا، واستخدمناها لإصلاح أنفسنا وعائلاتنا وعالمنا.

فى حينها، تسببت بعض المكتشفات الجديدة فى ثوران فى فكرة من نكون وماذا تعنى حياتنا. نظرية جاليليو التى تقول إن الأرض ليست هى مركز الكون، عارضت تصور القرن السابع عشر لمكاننا فى الكون. نظرية داروين عن التطور عارضت تصور القرن التاسع عشر عن موقع البشرية فى الطبيعة. وها هو العلم يعارض الآن فكرة أن قوالبنا العقلية والجسدية ثابتة. يمكننا أن نغير منها إذا رأينا.

ورغم ذلك، فحياتنا اليوم ليست بأقل معنى ولا أقل تحدياً مما كانته منذ قرون مضت. فإذا كان ثمة ما حدث فهو أن حياتنا قد ازدادت ثراء، بمعارف أكثر، وقدرات لنا أكثر على أنفسنا وعلى عالمنا. التكنولوجيات التى رفعت قدراتنا. التليفونات، العربات، الكتب، الأدوية. قد أزادت من فرصتنا على أن نتواصل مع بعضنا، وأن نعرف عن عالمنا، وأن يعاون بعضنا بعضاً، لنحيا حياة ذات معنى أعمق.

أما السبب فى أننا نحيا اليوم حياة مريحة للغاية مليئة بالإمكانات، فهو أن قد كان هناك على طول التاريخ رجال ونساء رفضوا أن يقبلوا الوضع الطبيعى للأشياء. فمنذ أن اكتشف الإنسان النار وتحكم فيها، مروراً بالزراعة إلى اللغة المكتوبة إلى النظارات إلى المضادات الحيوية، دأبت الأجيال على تحسين عالمهم وعقولهم وأجسادهم وهم يبحثون عن حياة أفضل لأنفسهم ولعائلاتهم. ولقد وصلتنا ثمار هذا البحث الدءوب لتحسين الوضع البشرى. ربما لم يكن هؤلاء الرجال والنساء يتصورون وهم يكافحون من أجل حياة أفضل أن آثار مجهوداتهم سيصلنا بعد عقود أو قرون أو آلاف السنين. فأياً ما كانت الجهود التى نبذلها لتحسين حياتنا وحياة أبنائنا من بعدنا، فإنها ستفيد الأجيال التالية بطرق لا يمكننا أن نتوقعها.

وفى النهاية، فإن البحث عن طرق لتحسين أنفسنا هو جزء طبيعى منا نحن البشر. كان الدافع لتغيير أنفسنا قوة فى التاريخ، إلى المدى الذى يمكننا رؤيته. لقد انتخب له عبر الملايين من سنى التطور. لقد أودع عميقاً فى جيناتنا. إنه ثمرة من ثمار الذكاء البشرى وفضوله ودوافعه. إن تجاهل هذه القوة إنما يعنى تجاهل طبيعتنا الحقة. إن المضى قدماً فى البحث عن تفهم أنفسنا والتحسين لا يشكك فى إنسانيتنا، إنه يؤكدها. ■



أكثر من ٤٠ عاماً من الالتزام والمشاركة نحو تنمية المجتمع المصرى.

التزام حقيقى لمستقبل أفضل.

بى بى ...أكثر من اربعين عاماً من الانجازات فى مصر

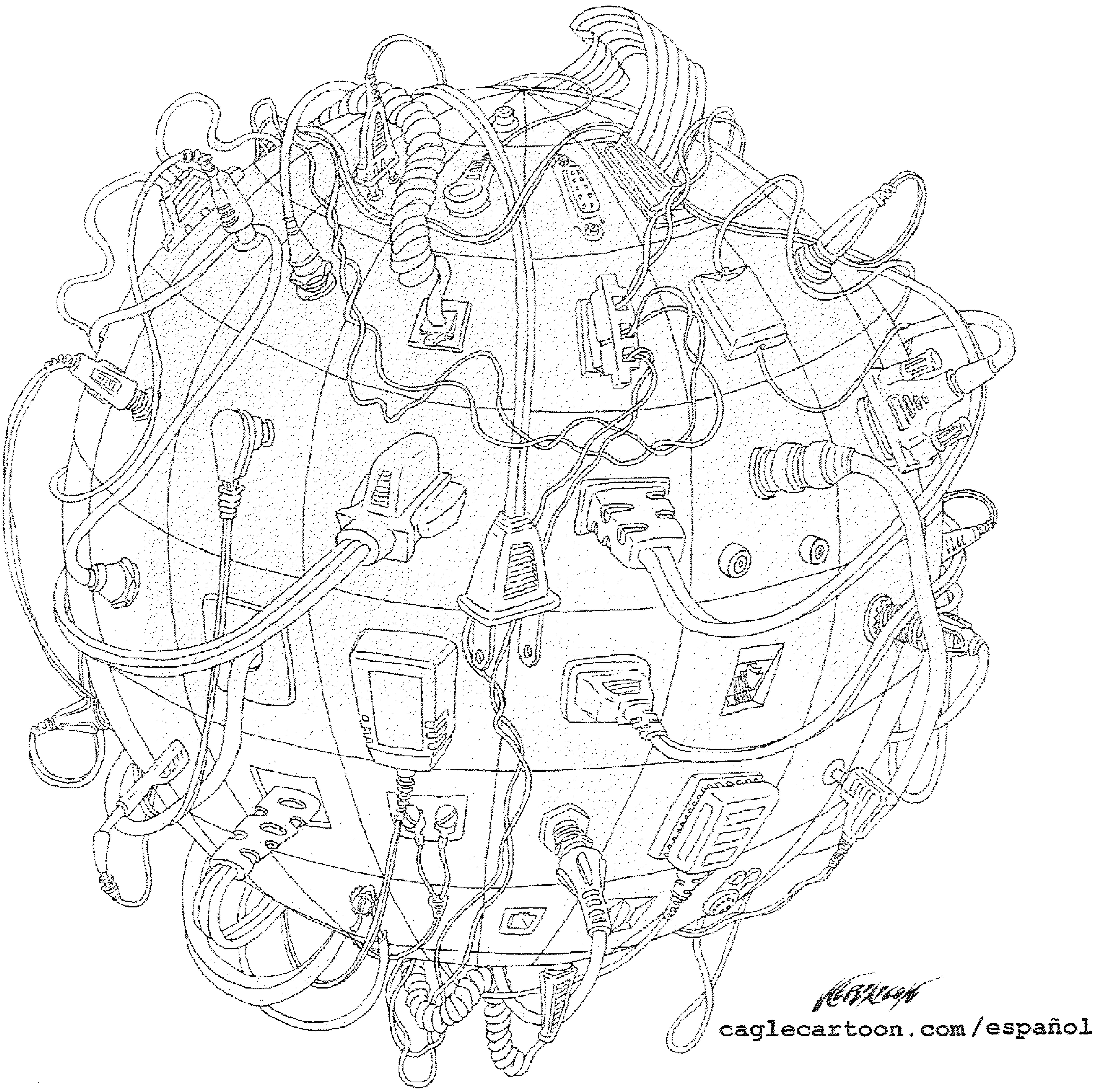
خلال الأربعين عاما التى شهدت نشاطنا فى مصر، بذلت بى بى أقصى جهدها لتكون قوة إيجابية مؤثرة فى المجتمع، وسعياً لتحقيق هذا الهدف عملنا بالتعاون مع العديد من الجمعيات المحلية والدولية في مجالات مختلفة كالتعليم، الصحة، الأمان والبيئة بالإضافة إلى المساهمة فى الأعمال الخيرية والثقافية. وفى السنوات القليلة الماضية تم تركيز برامجنا على التعليم، التدريب وتطوير المهارات من خلال التعاون مع هيئة فولبرايت، جمعية جيل المستقبل، المكتبات والجامعات المصرية ومنحة شيفننج للجامعات البريطانية. كما نقوم بإرسال نخبة من ألمع الطلاب المصريين المتميزين للدراسة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وجامعة كامبريدج بالمملكة المتحدة.

هذه مجرد أمثلة لالتزام الشركة بالمساهمة فى تحقيق تطوير حقيقى للمجتمع المصرى.

لمزيد من المعلومات برجاء زيارة موقع الشركة على الإنترنت www.bp.com

bp

أكثر من ٤٠ عاماً فى مصر



الوهم

طوال القرنين الماضيين كان المنظرون الاجتماعيون البارزون يعتقدون أن التنمية الحديثة ليس لها سوى نتيجة واحدة. وفى القرن التاسع عشر أكد كارل ماركس وهربرت سبنسر وأوجست كونت أن تقدم العلوم والتكنولوچيا يؤدى إلى نوع واحد من التنظيم الاجتماعى، وأنه ما لم تخفق المجتمعات الحديثة وترتد إلى البربرية فإنه مقضى عليها بالالتقاء فى نظام

بترتيب مع:
New York review of Books

ترجمة: أحمد محمود

كونى. وكان هناك خلاف واسع حول طبيعة النظام الذى كان فى سبيله إلى الوجود. وطبقًا لما قاله كونت، فقد كان ذلك ضربًا من حكم رجال الدين، بينما كان ماركس يعتقد أنه سوف يكون شيوعية مساواتية، أما عند سبنسر فكان الرأسمالية القائمة على عدم التدخل. وفى كل حالة من الحالات كانت صورة المجتمع الصناعى هى ما مكّن الندرة فى ضروريات الحياة من أن تكون لها الغلبة. ورغم اختلاف الرؤى السياسية لهؤلاء المفكرين، فقد اتفقوا فى افتراضهم على أنه مع ظهور التصنيع تكون الرفاهية مضمونة للجميع. وما إن يتحقق ذلك، سوف تتوقف الحرب وسوف يحل النظام الاقتصادى الكونى محل أنظمة الماضى المختلفة والمتصارعة.

شكلت معتقدات مشابهة تفكير الكثير من المنظرين الاجتماعيين فى القرن العشرين. ففى الثلاثينيات أحيا ف. أ. هايك نسخة من نظرية سبنسر الخاصة بالسوق الحرة باعتبارها منتهى التطور الاجتماعى، بينما اعتقد سيدنى وبياتريس وب أن نسخة قديمة للمجتمع الكونى فى المستقبل قد جُسِّدت فى الاتحاد السوفيتى. وفى أواخر الستينيات توقع منظرو «نهاية الأيديولوچيا» مثل دانييل بيل أن تتلاقى الاقتصادات المخططة مركزيًا والمجتمعات الغربية الغنية القائمة على السوق داخل اقتصاد مختلط إدارى. ومع نهاية القرن أصبحت الفكرة الشائعة هى اعتناق المجتمعات فى كل مكان «الرأسمالية الديمقراطية».

لم تثبت الأحداث أيًا من تلك التوقعات. فالتصنيع ينتشر فى كل مكان، ولكن بدرجات متفاوتة من السرعة وبنتائج متباينة. وكما حدث فى الماضى، فإن المجتمعات تتطور فى اتجاهات مختلفة اختلافًا كبيرًا. فقد أخفقت الدولة فى أجزاء من العالم وحلت محلها الفوضى، وفى أجزاء أخرى ظلت الأنظمة السلطوية راسخة رسوخًا قويًا. وتلاقى الاتحاد السوفيتى مع العالم الثالث بدلاً من الغرب الغنى، ولم تحل محله الديمقراطية الليبرالية، بل كانت هناك نسخة

الاعتقاد بأن العولمة المالية تشجع التنمية الاقتصادية فى الدول الفقيرة اعتقاد واهم. وقد يكون من المفيد إدخال الكمبيوتر فى محل للبقالة بنيويورك. ولكن المستهلكين فى لاجوس أفقر من أن يتحملوا التكلفة التى يتطلبها مثل هذا الاستثمار

مفرطة الحداثة من السلطوية الروسية التقليدية.

انتشرت نسخ من الديمقراطية الليبرالية فى أجزاء من الكتلة السوفيتية السابقة، بينما تنتج الديمقراطية فى العراق نمطًا من حكم رجال الدين لا يختلف عن ذلك الموجود فى إيران. وتخلت الصين عن التخطيط الاقتصادى المركزى مقابل نمط من رأسمالية الدولة المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالنزعة القومية. وتتحرك بعض البلاد فى اتجاه إصلاح السوق، فى حين تتحرك بلاد أخرى فى الاتجاه المعاكس. وقد اختارت أوروبا توليفة من الديمقراطية الاجتماعية والنظام الاقتصادى الليبرالى الجديد، بينما مالت الولايات المتحدة فى ظل إدارة بوش إلى خليط من الحمائية، والعجز الفدرالى غير المستدام، والرأسمالية الحميمة.

ورغم التفاعل المستمر لمجتمعات العالم المختلفة، فإن العملية تفرز نوعًا من النظام الهجين وليس تلاقيًا على البيروقراط والساسة والجيش نحو وضع الصناعات الآفلة.[1]

يجسد كتاب أوماى ما قد نسميه النموذج الطوباوى التجارى للعولمة. ولكن فكرة أن نظم الحكم القومية آخذة فى التحول إلى نظم هامشية يشاركه فيها منظرو الحكمانية الكوزموبوليتانية cosmopolitan governance الذين يعتقدون أن مؤسسات قوية جديدة متعدية للقوميات فى سبيلها للظهور: وهو الرأى غير الواقعى إلى حد كبير. وبالمثل تقوم الحركات المناهضة للرأسمالية على فرضية أن أنماط التنمية المتباينة الخاصة بالماضى قد استعيض عنها بنظام كونى قمعى جديد. ويفترض مؤيدو العولمة والكثيرون من منتقديها أنها تخلق ظروفًا متشابهة حيثما انتشرت. وسواء أكانوا مرحبين بهذا الاحتمال أم مقاومين له، فكل من الفريقين يقبل أن السوق الكونية تجبر المجتمعات على السير فى طريق التنمية نفسه.

فى كتاب Globalization and its Enemies، يقدم دانييل كوهن أستاذ الاقتصاد فى Ecole Normale Dupérieure بباريس ترياقًا منعشًا لبعض ملامح هذا الإجماع المضلِّلة. والنقطة التى ينطلق منها هى الادعاء الذى يبدو متناقضًا بأن معظم الناس فى العالم يرون أن ذلك الإجماع ليس واقعًا بل سراب. والأمر فى رأى كوهن هو أن موجة العولمة الحالية. وهى الثالثة فى تلك السلسلة التى بدأت فى القرن السادس عشر بالفاتحين الإسبان واستمرت فى القرن التاسع عشر مع التجارة الحربية البريطانية. تحدث إلى حد كبير داخل مجال الواقع الافتراضى ولا تمس جزءًا كبيرًا من الحياة اليومية. وشملت عولمة القرن التاسع عشر انتقالات واسعة النطاق للسكان إلى الأراضى الجديدة، بينما تنطوى المرحلة الحالية فى المقام الأول على السلع والصور.

وهو يشير إلى أن «عولمة الوقت الراهن غير متحركة». فالسلع تُنتج وتسوَّق على نطاق الكرة الأرضية ولكن من يعيشون فى البلاد الغنية يواجهون المجتمعات الأخرى بشكل أساسى من خلال التليفزيون والإجازات فى المناطق الغريبة. وهناك هجرات مثيرة للجدل من الناحية السياسية يقوم بها الفقراء من الشرق الأوسط وأفريقيا إلى أوروبا، ومن المكسيك إلى الولايات المتحدة. ولكن المهاجرين فى الوقت الراهن مازالوا يشكلون حوالى ٣ بالمائة من سكان العالم، بينما كانوا فى عام ١٩١٣ حوالى ١٠ بالمائة. كما أن التجارة اتسعت اتساعًا كبيرًا فى الثلاثين سنة الماضية، غير أن جزءًا كبيرًا منها يجرى بين الدول الغنية. ويمثل أعضاء الاتحاد الأوروبى الخمسة عشر القدامى حوالى ٤٠ بالمائة من التجارة الكونية، بينما يجرى التعامل فى ثلثى وارداتهم وصادراتهم داخل أوروبا نفسها. ويقول كوهن إن «العولمة فى الدول الغنية أمر خيالى إلى حد بعيد».

والاعتقاد بأن العولمة المالية تشجع التنمية الاقتصادية فى الدول الفقيرة اعتقاد واهم كذلك. فالأسواق المالية العالمية بها القليل من الحوافز التى تؤهل الدول الفقيرة كى تكون منتجة على المستوى الكونى. وقد يكون من المفيد إدخال الكمبيوتر فى محل للبقالة بنيويورك، ولكن المستهلكين فى لاجوس أفقر من أن يتحملوا التكلفة التى يتطلبها مثل هذا الاستثمار. والنتيجة هى انتشار التكنولوجيا بينما يظل الفقراء على فقرهم.

ومع ذلك فليس السبب هو أن الدول الغنية تضحى بالدول الفقيرة. ففقر

الكـــــونى!!

جـــــون جـــــراى

نموذج واحد. ومع ذلك مازال الاعتقاد بأن نمطًا مقبولاً على المستوى العالمى للمجتمع آخذ فى الظهور يشكل طريقة تفكير علماء الاجتماع والمعلقين العامين بشأن الظرف المعاصر. وهناك تسليم بأن التصنيع يمكِّن من إنتاج شىء كأسلوب حياة الدول الغنية فى كل مكان.

افتراض الالتقاء واضح فى نظريات العولمة. ففى كتاب Borderless World (١٩٩٠) أعلن منظِّر الإدارة المؤثر كينيتشى أومايا:

يزداد (الاقتصاد الكونى) قوة بالقدر الذى جعله يبتلع معظم المستهلكين والشركات، وجعل الحدود التقليدية تختفى تقريبًا، ودفع

إن الاحترار الكونى الذى نعيشه الآن نتاج فرعى للعولمة، وكذلك التنافس بين الدول للسيطرة على الموارد الطبيعية. ويعنى التصنيع وجود الانبعاثات المتزايدة من محطات الطاقة والسيارات

الدول النامية هو ما يُلقى عليه اللوم فى كثير من الأحيان فيما يتعلق بشروط التجارة الجائرة، ويمكن أن يكون هناك قليل من الشك فى أن الممارسات الحمائية فى الزراعة داخل كل من الاتحاد الأوروبى والولايات المتحدة، على سبيل المثال، أعاقت الدول الفقيرة؛ غير أن كوهن يقول إن التجارة بصورة عامة ليست غير متكافئة على النحو الذى يُظن على نطاق واسع. فالسبب الرئيسى لبقاء الدول الفقيرة على فقرها هو أن لديها القليل مما تريده الدول الغنية أو تحتاجه.

وهو يشير بجفاف إلى أن «فهم عولمة فى الوقت الراهن يتطلب استنكار فكرة أن العولمة

تعوق نمو الفقراء أو تستغلهم». ففقراء العالم ليسوا مستغلين بقدر ماهم مهملون ومنسيون. وفى الوقت ذاته تمطرهم الصحافة والتليفزيون بصور الثراء التى يفتقرون إليها. ويرى الفقراء أن العولمة ليست حقيقة منجزة، بل هى ظرف يظل بحاجة إلى إنجاز. ومفارقة مرحلة العولمة الحالية هى أنها تعولم الحاجة إلى حياة أفضل بدون توفير وسيلة تلبية تلك الحاجة.

كـتـــاب Globalization and its Enemies واحد من أكثر الأبحاث التى رأيتها عن هذا الموضوع أصالة وحسماً. وكل من يقرؤه ويفهمه لا يمكن ألا يؤمن بأن المرحلة الحالية من هذه العملية المعقدة وغير المنتظمة سوف تؤدى إلى السوق الكونية السلمية الخاصة بالطوباويين التجاريين، أو إلى قبول الرواية البسيطة الخاصة بالحركات المناهضة للرأسمالية التى ترى أن التخلف نتيجة لثروة البلدان المتقدمة. وهناك قدر من الحكمة فى كتاب كوهن القصير يزيد على ما فى عشرات الكتب الأكثر وزناً: غير أن هناك بعض الفجوات المقلقة فى التحليل.

ونجد أن كوهن أكثر وعياً من معظم الاقتصاديين الآخرين بالبيئة المادية التى يجرى فيها الإنتاج الصناعى. ويتضمن كتابه Globalization and its Enemies مناقشة رائعة للظروف الجغرافية والمناخية المشجعة للتنمية الاقتصادية أو المعيقة لها والأهمية المستمرة للزيادة السكانية. فعلى سبيل المثال، يشير كوهن إلى العلاقة التى تسوء بين أعداد البشر المتزايدة بسرعة والأراضى القابلة للزراعة المتاحة. ففى عام ١٩١٣ كانت مصر بها ١٣ مليون نسمة فحسب، واليوم بها ٧٠ مليوناً، ومن المتوقع أن يكون بها فى عام ٢٠٢٥ أكثر من ١٠٠ مليون؛ بينما ٤ بالمائة فقط من أرض مصر قابلة للزراعة.

فى عام ١٩١٣ كانت مصر بها ١٣ مليون نسمة فحسب، واليوم بها ٧٠ مليونًا، ومن المتوقع أن يكون بها فى عام ٢٠٢٥ أكثر من ١٠٠ مليون؛ بينما ٤ بالمائة فقط من أرض مصر قابلة للزراعة

الأمر الأكثر دهشة من أى شىء آخر هو أن كوهن يولى اهتماماً قليلاً جداً للحدود البيئية للعولمة. وهو يعترف فى عدد من العبارات الجانبية بأن المرحلة الحالية قد تعرض التوازن الإيكولوچى للأرض للخطر. فهو يشير إلى أنه «لا يمكن الاستمرار طويلاً فى ترك مسألة الاحترار الكونى، أو ثقب الأوزون، أو اختفاء الأنواع للتنظيم الخاص». ومع ذلك يبدو أن كوهن لا يرى بوضوح أن عدم الاستقرار الإيكولوچى جزء أصيل من التغير الاقتصادى الواسع الذى يجرى حالياً. وكمثال لذلك، تعيش الصين فى الوقت الراهن أكبر وأسرع حركة تصنيع فى التاريخ. وهى تعانى فى الوقت نفسه من مستويات غير مسبوقة من التلوث. والأزمة البيئية والمرحلة الحالية من العولمة وجهان مختلفان للعملية نفسها.

يقول كوهن إن المرحلة الحالية من الاقتصاد العالمى تنطوى على تحول من الاقتصاد الصناعى إلى الاقتصاد ما بعد الصناعى: فبينما نجد أن ٨٠ بالمائة من التجارة الكونية الحالية فى المنتجات الصناعية والزراعية، فإن الصناعة والزراعة لا تمثلان سوى ٢٠ بالمائة فقط من العمالة فى الدول الغنية، حيث يمثل قطاع الخدمات حوالى ٨٠ بالمائة. وترى الدول النامية الموجة الحالية مجرد مرحلة أخرى ضمن العملية العالمية للتصنيع التى بدأت قبل بضعة قرون. وما نشهده فى الوقت الراهن من اضطراب فى بيئة الأرض نتيجة ثانوية لهذه العملية، سواء فى البلدان الغنية أو البلدان الفقيرة.

لم يعد هناك أى شك معقول فى أن الاحترار الكونى الذى يعيشه العالم حالياً أثر جانبى لاستخدام الوقود الأحفورى. فقد كان استخراج الهيدروكربونات واستهلاكها وما زال جزءاً أصيلاً من التصنيع؛ ولكنه كذلك السبب البشرى الرئيسى لارتفاع درجة حرارة الأرض. ويوجد ارتباط واضح بين التصنيع خلال ما يزيد على ١٥٠ سنة مضت وغازات الصوبة الزجاجية المتزايدة. وهناك شك فى التقديرات الخاصة بمتى سوف يبدأ التغير المناخى فى تمزيق الحضارة الصناعية التى انتشرت بأشكال مختلفة فى جزء كبير من العالم. غير أن ملاحظة الذوبان السريع فى القلنسوة الثلجية للقارة القطبية الجنوبية وتكهن اللجنة البيحكومية الذى يزداد سوءاً بشأن التغير المناخى يشيران إلى أن تغيراً مناخياً كبيراً فى سبيله للحدوث سيكون له أثر شديد على الطريقة التى نحيا بها. ومن السهل رفض التنبؤات الخاصة بوقوع كارثة بيئية وشيكة باعتبارها ترويجاً تنبؤياً للفزع والاستمرار فى العمل كالمعتاد. إلا أن الأدلة المتصاعدة تشير إلى احتمال متزايد لحدوث تغير مناخى مفاجئ سوف تغرق فيه مناسيب البحر المرتفعة الكثير من مدن العالم الساحلية وتلحق الضرر بمناطق كبيرة قابلة للزراعة. وفى تلك الظروف سوف تكون هناك صراعات خطيرة على موارد الغذاء والماء وواردات الطاقة المتدنية، مع انتقالات على نطاق واسع للسكان، حيث ستفر الملايين من المناطق التى لن تكون صالحة لسكنى البشر.

حتى وقت قريب جداً كانت تلك هى أكثر السيناريوهات سوءاً. وعندما تسرب تحليل نتائج التغير المناخى المفاجئ الذى كلف البنتاجون من قام به واستُكمل فى أكتوبر من عام ٢٠٠٣ إلى الصحافة البريطانية فى فبراير من عام ٢٠٠٤، ووجه بالانتقاد باعتبار أنه يقوم على افتراضات متشائمة بشكل غير معقول فيما يتعلق بنطاق التغير المناخى الجارى حالياً.[٢] وأشار التقرير إلى أن التغير المناخى الوشيك يهدد بتقليل قدرة الأرض على إعالة ما عليها من سكان فى الوقت الراهن ويتسبب فى وقوع حروب خطيرة على الموارد، وأوصى بمعاملة التحدى الذى يمثله ذلك على أنه أمر يخص الأمن القومى الأمريكى. وأهملت إدارة بوش التحليل والتوصية. إلا أنه بعد سنوات معدودة فحسب تجعل الأبحاث العلمية المتراكمة التوقعات الخاصة بالاضطراب واسع المدى الذى يصيب النشاط الاقتصادى والصراع الچيوبوليتكى الذى يزداد حدة من ذلك النوع الذى تصوره تقرير البنتاجون تبدو واقعية إلى حد كبير.[٣]

إن الاحترار الكونى الذى نعيشه الآن نتاج فرعى للعولمة، وكذلك التنافس بين الدول للسيطرة على الموارد الطبيعية. ويعنى التصنيع وجود الانبعاثات المتزايدة من محطات الطاقة والسيارات. كما يعنى التنافس المتزايد على أنواع الوقود الأحفورى التى تجعل التصنيع ممكناً. ويذكر كوهن أنه حتى الحرب العالمية الأولى كانت الدول الصناعية نفسها تنتج معظم المواد الخام التى تحتاجها، وكان لديها حتى ثلاثينيات القرن العشرين اكتفاء ذاتى فى الطاقة بصورة أو بأخرى. وهو يقول إن «الخطة نقضت بسبب الدور الذى قام به نفط الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الثانية فحسب». وهذا تحذير حاسم. فقد أظهرت حرب الخليج فى ١٩٩٠-١٩٩١ على نحو لا لبس فيه الدور المحورى المستمر لنفط الشرق الأوسط فى الاقتصاد الكونى. ورغم الخطوات التى اتُخذت فى بعض البلدان لإيجاد مزيج أكثر اتساعاً من واردات الطاقة، فإن المجتمعات الصناعية فى كل مكان تعتمد مخزون النفط والغاز الطبيعى المستنفد.

وعلاوة على ذلك فإن الطلب يتزايد بإصرار مع ما تحرزه العولمة من تقدم فى الصين والهند وأماكن أخرى. وتتنافس الشركات على الموارد المتدنية، والنتيجة هى أن الچيوبوليتيكا الكلاسيكية صارت مرة أخرى ذات أهمية فى العلاقات الدولية. وفى القرنين

التاسع عشر والعشرين، كان المنظرون الاجتماعيون والاقتصاديون يعتقدون أن التصنيع جعل بالإمكان وجود نظام كوني جديد لن يكون فيه وجود لندرة متطلبات الحياة الأساسية. وبدلاً من ذلك يعيد التصنيع العالمي إنتاج صراعات الماضي على الموارد على نطاق أوسع.

ارتباط الندرة المتزايدة في واردات الطاقة بالتغير المناخي المتسارع هو الوجه الآخر للعولمة. وهو يمثل علامة استفهام كبيرة بشأن اعتقاد كوهن بأن مشكلة العولمة الأساسية هي أنها غير مكتملة، ذلك أنه يوحي بأن استكمالها قد لا يكون ممكناً. فالمرحلة الحالية مجرد امتداد لعالم الثورة الصناعية الأوسع الذي بدأ في إنجلترا قبل قرنين، ولكنها تزعزع بالفعل النظم البيئية التي تعتمد عليها المجتمعات الصناعية كافة. وسوف يكون أثر توسيع مجال أسلوب الحياة كثيف الطاقة الخاص بالدول الغنية ليشمل سائر البشرية أثر أكبر في القضاء على الاستقرار البيئي.

في الوقت نفسه، وعلى عكس بعض النظريات المضادة للعولمة، ليس هناك تكهن خاص باختيار البشرية بالعودة إلى أسلوب الحياة ما قبل الصناعي. فمثل هذا الاختيار سوف يكون عكس طموحات المليارات من الناس، والتصنيع في الصين والهند له قوة الدفع الخاصة به التي لا يمكن لأية حكومة مقاومتها. وفي أي الأحوال فإن من المشكوك فيه أنه يمكن إعالة عدد من البشر قوامه حوالي تسعة مليارات نسمة، وهو الرقم الذي يشيع التكهن به بالنسبة لمنتصف القرن الحالي، بالأساليب ما قبل الصناعية. وحتى إذا كان بالإمكان دعم العدد الحالي من البشر لبعض الوقت بتلك الوسائل، فسوف يكون ذلك عن طريق التهام ما يتبقى من الحياة البرية في العالم والمزيد من الأنظمة المناخية الكونية غير المستقرة.

وباعتبار أن الأزمة البيئية هي الجانب المضاد للعولمة، فهي قد تخرجها عن مسارها إلى حد بعيد. وإذا كانت هناك طريقة للمضي قدماً فهي موجودة في الاستخدام الذكي للعلم والتكنولوجيا من أجل إيجاد موارد أقل خطراً للطاقة. غير أنه من الخطأ أن نظن أن تغيراً كبيراً في الطريقة التي نحيا بها يمكن تجنبه الآن. فما من سبيل لمنع التغير المناخي، ولا يمكن إلا التخفيف منه فحسب. ومهما كان ما يجري عمله للتعامل مع آثاره، فمن المؤكد أن هناك تصدعاً وصراعاً على نطاق واسع. والملمح المحدد للحضارة الصناعية المنتشر في كل مكان هو النمو الأُسي؛ غير أن هذا النمو يكون محدوداً في النهاية.

إن تحليل كوهن بعيد عن المعتقدات الراسخة بشكل يبعث على الانتعاش، ولكنه كشأن الاقتصاديين كافة يقاوم هذه النتيجة. فهو يفرق بين نوعين من النمو الاقتصادي، وهما النوع «السميثي» Smithian الذي يعكس رؤية آدم سميث في كتاب The Wealth of Nations الذي يتحقق فيه النمو عن طريق الانتفاع من فوائد تقسيم العمل، والنوع «الشومبيتري» Schumpeterian الذي يحركه التجديد التكنولوجي المستمر. وفي وقوع غير متوقع في المعتقدات الاقتصادية التقليدية، يؤكد كوهن أنه بينما ينتهي النمو من النوع الأول باستنفاد نفسه، فإن «النمو الشومبيتري مسلّم به بلا حدود».

إلا أنه رغم اختلاف نوعي النمو هذين من نواح مهمة، فهما متشابهان في اشتراطهما مُدْخَلات كبيرة من الطاقة لا يمكن أن تأتي في الوقت الراهن إلا من البترول ومشتقاته؛ وهي الموارد التي لا تتسم بالمحدودية فحسب، بل إن لاستخدامها على نطاق واسع أثراً في تأجيج غازات الصوبة الزجاجية. (سوف يتحاشى استخدام الاندماج النووي لتوفير الطاقة تلك النتيجة، ولكن يبدو أنه لن يمنع التغير المناخي الذي بدأ بالفعل.) ويمكن للاقتصاد القائم على التجديد التكنولوجي الرد على تلك التحديات أفضل من غيره، ولكن لا يمكنه الانفصال عن البيئة المادية للأرض. ويعتمد كل من نوعي النمو على الموارد سريعة النفاد ومواجهة رد الفعل الإيكولوجي المضاد الخاص بالتغير المناخي. ومفارقة العولمة أعمق مما أدركه كوهن. فهي في الوقت الراهن ليست خيالية أكثر منها واقعية فحسب، بل إنه لا يمكن تحقيقها تحقيقاً تاماً.

جوهر العولمة

أحد الملامح القيّمة لكتاب سوزان بيرجيه How We Compete هو النزوع الصحي إلى الشك فيما يتعلق بادعاء التقاء نماذج النمو الاقتصادي المختلفة في النهاية. وكما تقول بيرجيه، فإن هناك اتفاقاً عريضاً على القوى الأساسية التي تحرك العولمة: تحرير كبير لتدفقات التجارة ورأس المال، ورفع القيود، وتقليل تكلفة الاتصالات والنقل، وثورة (تكنولوجيا المعلومات) التي تجعل بالإمكان تحويل المعلومات الخاصة بالحدود بين التصميم والتصنيع والتسويق إلى النظام الرقمي والكشف عن تلك الوظائف في الأماكن المختلفة، وتوفر أعداد كبيرة من العمال والمهندسين في البلاد منخفضة الأجور.

تفترض نماذج الحكمانية أنه ما إن توجد العولمة حتى تكون الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تتكيف بها الشركات هي تبني نفس الممارسات التجارية. والعولمة في هذه الرؤية تفرض نفسها بنفسها. ولكن هذه الرؤية، كما تشير بيرجيه، لا يدعمها التاريخ. ذلك أن الاقتصاد الكوني الذي وُجد قبل الحرب العالمية الأولى كان أكثر انفتاحاً وبلا حدود أكثر من ذلك الموجود حالياً. ورغم ذلك فقد انهار في عملية بلغت ذروتها في الولايات المتحدة عندما استعيض عن قانون سموت-هولي للتعريفة الجمركية لعام ١٩٣٠ باقتصادات فترة ما بين الحربين المغلقة الأشبه بالاكتفاء الذاتي. ومهما كان ما يبدو عليه إنشاء العولمة من إحكام، فهي ليست غير قابلة للنقض. فالواقع أن آثار العولمة التمزيقية غالباً ما تؤدي عبر الزمن إلى نقضها.

كان المنظرون الاجتماعيون والاقتصاديون يعتقدون أن التصنيع سينهي الندرة في متطلبات الحياة لكنه أعاد إنتاج صراعات الماضي على الموارد على نطاق أوسع

تفترض النماذج المعيارية أن العولمة معناها فرض طريقة واحدة لأداء الأعمال على الجميع. ولكن هذا لا يدعمه بحث سوزان بيرجيه الذي أجرته على شركات كثيرة في أنحاء مختلفة من العالم. فهي تقول إن الاعتقاد الشائع هو أن «العولمة تجبر الجميع على السير في الطريق ذاته. غير أن هذا ليس هو ما وجده فريقنا». وبناء على دراسة استمرت خمس سنوات قام بها مركز الأداء الصناعي بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، تقدم سوزان بيرجيه قدراً كبيراً من الأدلة الخاصة بالإستراتيجيات المختلفة التي تبنتها خمسمائة شركة دولية للبقاء والازدهار في السوق الكونية. ونتيجة ذلك تحليل حافل بالمعلومات على نحو موثوق به يستكشف الطرق الكثيرة المختلفة التي ترد بها الشركات بنجاح على المنافسة الكونية. فشركة ديل للكمبيوتر تركز بقوة على التوزيع وتتعاقد مع شركات في الخارج. في الهند على سبيل المثال. للقيام بعمليات تصنيع المكونات كلها، بينما تصنع سامسونج كل شيء تقريباً بنفسها. إلا أن كلتيهما شركة ناجحة تنمو بسرعة. وتجد جنرال موتورز صعوبة في التكيف مع العمالة مرتفعة الأجر، بينما تحقق تويوتا، التي تقوم بالإنتاج داخل اليابان أو في الدول المتقدمة الأخرى،

نجاحاً كبيراً. وهذا معناه أنه عندما تواجه الشركات تحديات مشابهة فإنها يمكن أن تنجح أو تفشل بطرق مختلفة.

بعد أن تكرس سوزان بيرچيه جزءاً كبيراً من تحليلها للمآزق المحيطة بالتعاقد على إنتاج المكونات فى الخارج، تنتهى إلى أن خطر ضياع فرص العمل المستمر فى الولايات المتحدة حقيقى بشكل جزئى على الأقل. فالكثير من الاقتصاديين يصرون على أن فرص العمل القديمة مفقودة، بينما سوف تظهر التكنولوچيات والصناعات الجديدة لتحل محلها. ولا ترفض سوزان بيرچيه هذا الرأى رفضاً تاماً، بل إنها تشير إلى أن تجربة من استُغنى عنهم ولا يمكنهم العثور على فرص عمل بدون قبول خفض كبير فى الأجر قد تشير إلى اتجاه فات على اقتصاد الاتجاه العام: «بعد الكثير من الإنذارات الكاذبة، ربما يكون المتشائمون بشأن التقدم التكنولوچى والعمالة قد اكتشفوا إنذاراً حقيقياً هذه المرة». فالتعاقد على إنتاج المكونات فى الخارج يمثل خطراً حقيقياً على العاملين؛ غير أن سوزان بيرچيه تعتقد أن بالإمكان تحاشى «السباق نحو القاع» إذا قبلت الشركات بأن توظيف العمالة الرخيصة ليس هو الطريقة الأكثر فاعلية للرد على المنافسة الكونية. والأنشطة التى تنجح على مر الزمن تنطوى على ظروف لا يمكن لشركات أصولها الأساسية هى العمالة الرخيصة أن تجاريها؛ مثل علاقات العمل طويلة المدى مع العملاء والموردين والمهارات المتخصصة. فليست سياسة الشركات الخاصة بخفض الأجور هى الوصفة المناسبة لنجاح الشركات طويل المدى.

تقول سوزان بيرچيه بوضوح إن الشركات لا يمكن أن تقوم بمفردها بكل التعديلات اللازمة. فالحكومات لها دور كبير فى خلق البيئة التى تخطط فيها الأعمال للمستقبل، ولكن طريقة تحقيق الحكومات لذلك سوف تعتمد على نوع الرأسمالية التى لابد لها من التعامل معها. وكما تعترف هى فى مناقشة واضحة وجلية، تتخذ الرأسمالية أشكالاً شتى تعكس تقاليد ثقافية ونظماً سياسية مختلفة. ويمكن داخل هذا التنوع الكبير تمييز نوعين مختلفين من اقتصاد السوق:

اقتصادات السوق الحرة، مثل اقتصاد بريطانيا والولايات المتحدة، التى يتم فيها تخصيص الموارد وتنسيقها فى المقام الأول من خلال الأسواق، واقتصادات السوق المنسقة، مثل اقتصاد ألمانيا واليابان، التى يُستخدم فيها التفاوض، والعلاقات طويلة المدى، وغير ذلك من ميكانيزمات اللاسوق لحل القضايا الأساسية.

تتنافس هذه الرأسماليات المتباينة وتتعلم من بعضها البعض، ولكن النتيجة هى التلاقح، وليس التطور فى اتجاه نموذج موحد. وما ينجح لا يختلف من شركة إلى أخرى فحسب، بل من بلد إلى آخر كذلك. فليست مجموعة واحدة من السياسات أو المؤسسات هى التى توفر الرفاهية فى المجتمعات كافة؛ أو للشركات جميعها. وليس الاعتقاد بأن العولمة تعنى انتصار طريقة واحدة للقيام بالأعمال خاطئا من الناحية التاريخية فحسب، بل إنه أساس خاطئ على نحو خطير لاستراتيچية الشركات. وتقول سوزان بيرچيه، ملخصة نتائج سنوات من الأبحاث التى أجراها فريقها:

النجاح فى عالم من المنافسة الكونية مسألة اختيارات، وليست مسألة البحث عن الطريقة الأفضل: فنحن لم نكتشف اعتقاداً خاطئاً بشأن العولمة أكثر خطورة من ذلك الوهم الخاص باليقين الذى لا ريب فيه.

الاعتقاد بأن الدول القومية مازالت محورية فى المجتمع الكونى إحدى الفرضيات الأساسية لجدل بارى لين فى كتابه End of the Line. ففى جدل واسع المدى خضع لبحث دقيق، يتحدى لين الاعتقاد بأنه من خلال زيادة الاعتماد المتبادل بين اقتصادات العالم تُزيد العولمة بالتالى استقرار تلك الاقتصادات. ذلك أن أثرها على العكس من ذلك يقلل الاستقرار؛ ولا تُستثنى من ذلك الولايات المتحدة. ويعلن لين أن «خمسين عاماً من «عولمة» الصناعة المنطلقة بأقصى سرعة، لا تقيدها أية إستراتيچية أو رؤية أمريكية رسمية، أدت إلى جعل الشعب الأمريكى يعتمد على «مشاع» صناعى كونى لا سيطرة له عليه إلى حد بعيد وتمزقه العيوب الهيكلية الأساسية».

يرى لين أن جوهر العولمة ليس السوق الكونية الموجودة منذ زمن بعيد فى الكثير من السلع. بل هو التنظيم الكونى للإنتاج الذى يجرى حالياً فى الشبكات الشاسعة التى لا يسيطر عليها أحد أو يفهمها فهماً فعلياً. وحققت شركة مثل وال مارت قدراً كبيراً من النجاح عن طريق التعاقد على تصنيع ما تريده فى الخارج، حيث تشترى سلعا بمليارات الدولارات من الصين، على سبيل المثال. وهى «لا ترى حاجة حتى إلى فهم عملية التوريد وعملية الإنتاج، ناهيك عن إدارتهما بحرص على المدى الطويل». فعندما يجرى التعاقد على الإنتاج على المستوى الكونى، يزداد عدد الشركات التى تصبح أدوات للتجارة والتجزئة، مع عدم وجود الرغبة أو الاهتمام اللازمين لإدارة عملية الإنتاج. وليس الإنتاج وحده هو الذى تطور، بل تطورت الإدارة كذلك، بحيث لم يعد هناك أحد لديه رؤية شاملة. وهذا هو ملمح الاقتصاد الكونى الذى يراه لين الأكثر إثارة للفزع، بينما يمتدحه من يقدرون السوق لاستطاعتها تحقيق النتائج التى لم يخططها أحد. ولأن نظام الإنتاج الكونى يتعدى الحدود القومية، فليس هناك من هو مسئول عن ضمان كونه نظاماً مأموناً: «لا أحد يبحث عن احتمال الخطر فى النظام... (و) لا يقبل أحد تحمل أية مسئولية عن احتمال الخطر فى النظام».

جوهر العولمة ليس السوق الكونيــة الموجـودة منـذ زمن بعيـد فى الكثير من السلع. بل هو التنظيم الكونى للإنتاج الذى يجرى حالياً فى الشبكات الشاسعة التى لا يسيطر عليها أحد

كما يشير لين، فإن عدم مواجهة أخطار الإنتاج الكونى يرجع إلى حد ما إلى الإحياء الذى ينطوى على مفارقة تاريخية للأيديولوچيات الليبرالية الكلاسيكية التى يعتقد أن التجارة الحرة فيها تعزز السلام. وفى كتابه الشهير The Great Illusion يقول نورما أنجل إن الاعتماد المتبادل الاقتصادى المتزايد جعل الحرب غير مجدية وغير محتملة؛ وهو الرأى الذى روِّج له فى القرن التاسع عشر المتحمسون للتجارة الحرة مثل ريتشارد كوبدن. وقد نُشرت كراسة أنجل فى عام ١٩٠٩ وثبت عدم صحة مقولته بعد خمس سنوات عندما اندلعت أكثر الحروب تدميراً فى التاريخ. ولكن مازال هناك اعتقاد بأنه حين تصبح اقتصادات الدول المختلفة أكثر تكاملاً مع بعضها البعض تصبح أنظمتها السياسية أكثر ديمقراطية، والنتيجة هى أن يصبح العالم أكثر سلاماً.

من الناحية العملية، غالباً ما ينجح التكامل الاقتصادى الكونى المتزايد بطريقة أخرى. ويلاحظ لين أنه بسبب الروابط الاقتصادية القوية بين البلدين يصبح الجَيَشان الديمقراطى فى الصين أمراً يزعزع الاقتصاد الأمريكى إلى حد كبير. وإذا أُغلقت الموانئ الصينية أو أُوقف العمل فى مصانع الإنتاج، بواسطة الحكومة الصينية أو نتيجة للاستياء الشعبى، فسوف ينقطع تدفق السلع إلى الاقتصاد الأمريكى على نحو كبير جداً. وفى تلك الظروف سوف تجد الولايات المتحدة نفسها تساند النظام الحالى فى بكين: «ورغم ذلك فقد نجد أنفسنا متعاونين مع المتشددين فى بكين لقمع إرادة الشعب الصينى، لكى نحمى خطوط إمدادنا».

تمتد خطوط الإمداد الطويلة لشبكة الإنتاج الكونى إلى داخل بلدان

كثيرة تحكمها أنظمة مستبدة. وأى تهديد خطير لتلك الأنظمة سوف تكون له أصداء كونية. ولن يكون من السهل على الدول الديمقراطية الوقوف إلى جانب المنشقين. فالتجارة الحرة تحتاج إلى الاستقرار أكثر من احتياجها إلى الديمقراطية. ويصدق هذا بشكل خاص عند توزيع الإنتاج على المستوى الكونى. ونجد فى الوقت نفسه أن الاستقرار ليس مضمونًا فى حالة الشئون الدولية الراهنة. ذلك أنه كما كان الحال فى الماضى، فإن للدول أهدافًا استراتيجية مختلفة؛ وهى تقدر أمنها تقديرًا كبيرًا وسوف تسعى إلى تعويق قوى السوق الكونية إذا ما بدا أنها تهدد ما تراه هى مصالح قومية حيوية. والمعقول فقط هو توقع أن تؤدى هذه الاختلافات أحيانًا إلى الصراع.

مادام كتاب End of the Line وصفة للسياسة، فهو دعوة إلى إعادة تأكيد المصالح القومية الأمريكية. وعلى عكس الكثير من المحللين فى أمريكا والدول الأخرى، يعترف لين، الزميل البارز فى مؤسسة أمريكا الجديدة، بأن النظام الاقتصادى الكونى الحالى ليس نموًا عفويًا. إنه إلى حد كبير من صنع النفوذ الأمريكى، حيث جرى تشكيله من منطلق الاعتقاد بأنه سوف يخدم المصالح الأمريكية. غير أن النظام الذى وضع لا يعمل باستمرار لمصلحة أمريكا، كما أنه لا يخلق استقراره بنفسه:

الاقتصاد الكونى من خلق الدولة الأمريكية. ولو غاب الجهد المتعمد الذى تقوم به الولايات المتحدة لإدارة هذا النظام، بطرق تتكيف مع الغالبية العظمى من الشعوب فى أنحاء العالم التى تعتمد عليه الآن، لانفرط عقده رويدًا رويدًا.

يتسع نطاق مقترحات لين الخاصة بالتغير السياسى اتساعًا كبيرًا. ولكن الملمح الذى تشترك فيه جميعًا هو أنها تمثل تحولاً واضحًا عن الإيمان الساذج بالآثار الحميدة لقوى السوق الكونية الذى شكل السياسة الأمريكية منذ نهاية الحرب الباردة. وهنا نجد أن تحليله يدل على التحول الجارى فى الرأى. فالوضع المتدهور باطراد فى العراق والأثر السلبى للتعاقد على الإنتاج فى الخارج يقوضان الإيمان العام بأن أعمال العولمة بصورة عامة فى مصلحة أمريكا. وفيما يتصل بتكلفة الحرب المتزايدة، قد يحدث هذا التغير فى المزاج كذلك تحولاً فى السياسات الأمريكية فى اتجاه أكثر اهتمامًا بالداخل. وبعد أن قادت الولايات المتحدة العالم إلى العولمة، فهى قد لا تكون بعيدة عن اتخاذ الخطوة الأولى نحو التراجع عنها.

لنماذج النمو الاقتصادى التى تتوقع التقاء المجتمعات فى نظام عالمى منسجم جذور عميقة فى التفكير الغربى. وليس مستغربًا إحياؤها فى نظريات العولمة فى أعقاب الحرب الباردة؛ إلا أنها تعكس ظروف القرن التاسع عشر، عندما لم يكن هناك شك فى الحدود البيئية للتوسع الصناعى. وهى لا تأخذ فى اعتبارها حقيقة أن التصنيع على المستوى الكونى يكشف ندرة الموارد الطبيعية بينما يثير رد فعل إيكولوجيًا عنيفًا. وسوف تحدد هذه التطورات، التى تشكل الجانب الآخر من العولمة، مسارها المقبل. ■

الـــهـــوامـــش

(١) The Borderless World: Power and Strategy in the International Economy (HarperBusiness, 1990), p. xi.

(٢) ظهر قدر من محتويات التقرير فى The Observer, London, February ٢٢، ٢٠٠٤. والتقرير «An Abrupt Climate Change Scenario and Its Implications for United States Security»، الذى كتبه بيتر شوارتز ودوج راندل متاح بشكل كبير على الإنترنت.

(٣) انظر Jonathan T. Overpeck and Bette L. Otto-Bliesner et al., "Paleoclimatic Evidence for Future Ice-Sheet Stability and Rapid Sea-Level Rise," Science, Vol. 311, No. 5768 (March 24, 2006), pp. ١٧٤٧-١٧٥٠. يلخص المؤلفان ما توصلا إليه من نتائج بقولهما: «تشير آخر الأبحاث إلى أن ارتفاع درجة حرارة القطبين بحلول عام ٢١٠٠ قد يصل إلى مستويات مشابهة للمستويات التى كانت عليها قبل ١٣٠ إلى ١٢٧ ألف سنة وارتبطت بمناسيب البحر التى كانت ترتفع عدة أمتار عن المستويات الحديثة». وباستخدام نموذج على الكمبيوتر، وجد المؤلفان أن التغير المناخى قد يجعل العالم أكثر دفئًا بمقدار ٣ إلى ٥ درجات مئوية فى وقت لاحق من هذا القرن. وذكر البروفيسور أوفربك مدير معهد دراسة كوكب الأرض بجامعة أريزونا أنه عند ارتفاع منسوب البحر بمقدار متر واحد سوف تختفى جزر المالديف، وسيكون معظم بنجلاديش غير صالح للسُكنى، وستكون مدن مثل نيو أورليانز «خارج العمل». وقد جاء ذلك فى صحيفة «الجارديان»، فى ٢٥ مارس ٢٠٠٦.

كتـــاب الـزاويـــة

رسالة فى التسامح

اختلاف الدين

أولاً: أعتقد أن أية كنيسة ليست مكلفة، بحكم واجب التسامح، بالاحتفاظ بأى إنسان فى حضنها، يصر - رغم التنبيهات - على الخروج على قوانين المجتمع، لأن هذه القوانين هى أساس الرباط الاجتماعى. فإذا سمح بانتهاكها من غير عقاب فإن المجتمع سرعان ما يتفكك. ومع ذلك فإنه فى مثل هذه الحالة يجب ألا يضاف إلى الحرم (الطرد من الكنيسة) أى خدش سواء بالكلمة أو بالفعل مما يترتب عليه إحداث ضرر فى بدنه أو فى ممتلكاته، لأن استخدام القوة من اختصاص الحاكم وحده. كما أنه لا يحق لأى إنسان، فى أى وقت، استخدام القوة إلا للدفاع عن النفس ضد أى عنف غير مشروع. إن الحرم لا ينتزع، ولا يمكن أن ينتزع من المحروم أيًا من خيراته المدنية التى يمتلكها، لأن هذه الخيرات تستند إلى حماية القانون المدنى والحاكم المدنى. ثانيًا: ليس من حق أى شخص، بأى حال من الأحوال، أن يحقد على شخص آخر فى شأن متعه المدنية لا لسبب إلا لأنه ينتمى إلى كنيسة أخرى أو يؤمن بدين آخر. فكل الحقوق والامتيازات التى تخص هذا الشخص من حيث هو إنسان أو من حيث هو مواطن من اللازم أن تكون محفوظة له ودون أن تنتهك. ذلك أن هذه الحقوق والامتيازات لا علاقة لها بالدين. ومن ثم يجب ألا يلحق هذا الشخص أى عنف أو ضرر سواء كان مسيحيًا أو وثنيًا. نعم، يجب ألا نقنع بوضع معايير ضيقة للعدالة والمحبة والإحسان، بل يجب أن نضيف أيضًا السماحة.

ما بين «عتب» شلبى

يحيى الرخاوى

لا أعرف ما الذى جعل قنديل أم هاشم يقفز إلى وعيى وأنا أقرأ رواية «لحس العتب» لخيرى شلبى. أهو التعمق فى حضور «المكان» برغم الاختلاف الشديد بينهما؟ أهو التباين بين الوصف المتناهى الدقة لخارج الداخل، وبين الحدس المتناهى الكشف لداخل الخارج؟ أهو المسافة الزمنية الواقعة بين كتابة العملين (١٩٣٩-١٩٩١)[1] برغم قرب زمن الأحداث نسبيا؟ أهو تميز الكاتبين تميزا إبداعيا ومصريا، كلٌ بطريقته؟ أهو المقابلة بين ريفنا القديم، وقاهرتنا القديمة، بما يحمل من دلالات؟ أهو تناول كلا العملين لما يسمى التطبيب الشعبى على مستويين متناقضين تماما؟

لعله كل ذلك.

صدرت الطبعة الأولى لرواية «لحس العتب» سنة ١٩٩١. يقول عنها مؤلفها: «إنها لم تقرأ جيدا»، وهو يقر، على وفرة إبداعه وتميزه، أنها «هى الرواية الأحب إليه». وها نحن نحاول يا عم خيرى، أن نقرأها معا لنرى لم هى «الأحب» إليك، فربما هى ليست كذلك عندنا، فنحب أغلب رواياتك دون تفضيل غالبا.



خيرى شلبى من أبدع من كتب عن الريف المصرى. استطاع أن يحضر القارئ معه فى هذا العمل داخل المندرة والخزنة، وحتى تحت الترابيزة، سواء فى حركة مواكبة، أو من خلال دعوة مباشرة مثل وصفه لداخل المكان وكأنها دعوة للقارئ أن «اتفضل» مثلما يدعو الفلاح الجالس على باب داره المارة للدخول: «...ويجد كرسيا عباسيا بصينية نحاسية تضع فوقها صينية الشاى الذى سيجىء له بعد دخوله بدقائق». نجح الكاتب مصادفة، لكن نادرا، فى أن يمد الداخل إلى الخارج، ولكن فى لقطة عابرة لم تغص بدرجة كافية فى حضن الطبيعة وأنغامها (الذى اعتبرناه أنه قسم العناية المركزة لشفاء الطفل الراوى «فخرى» فيما بعد). نستمع له ص ٩.. فإذا انفتح النصف العلوى من الشباك.... حينئذ يندهن شكل الضحى بلون السماء الصافية، (ثم الحركة) وما أسرع ما تفوت الشمس غارقة فى خجل الحياء تاركة فوق الحائط المواجه بقعة من دمائها كالكرة الحمراء، تظل تضيق وتضيق إلى أن تمحوها ظلال المغيب، هذه الظلال التى ظلت تسكن المندرة منذ سنوات طويلة، منذ أن كفت مندرتنا عن استقبال الضيوف المهمين..إلخ». خيل إلىّ أنه حين أطلّت الطبيعة بكل هذا الصفاء، إنما حضرت للتعزية فى إفلاس الحياة بإعلان المرض والعجز والجمود». (ص ٩).، «بات منظرنا مألوفا كأنه جزء من الكنبة» (ص١٥).... ثمّ جلستنا القرفصاء، معا لا نفعل شيئا ولا نتكلم ولا نبتسم ولا نبكى كأنها فى انتظار حكم سيصدر علينا «وصار ضيوف أبى يسموننا المتهمين»(ص ١٤).

بدت الرواية كأنها مسرحية ذات فصل واحد، برغم سفرة فخرى للعلاج، حيث بدا هذا السفر كحدث مكمل فى خلفية نفس الفصل من المسرحية التى دارت أحداثها بين المندرة والخزنة، فوق وتحت وحول الترابيزة طول الوقت. كانت المناظرالخارجية أقرب إلى الحكى منها إلى التصوير الخارجى مثل وصف منظر الشيخ كعبلها الكفيف وهو «يمشى بجنبه جنب الحائط.. يعرف جيدا وبحنكة - متى يحود فيحود..»(ص ٢٨).

يكتمل حضور المكان بما يجرى فيه، وحوله. لو تصورنا جلسة ضيوف عبد الودود أفندى والد فخرى فى أى مكان آخر غير المندرة بعيدا عن الترابيزة، لوصلتنا رسائل أخرى. صوّر شلبى مجالس السياسة فى الريف المصرى القديم بحيوية يفتقدها الجميع الآن،

و«قنـــــــديل» حـــــقى

نبـض المكــان فى الوعــى البشــرى

وحين عينوا والد الراوى «عبد الودود أفندى» رئيسا للوزراء ولم يفعل سوى أن هتف لوزارته باسم عائلته «تحيا الوزارة الزعلوكية» لم يرد أحد هتافه. فأقسم بالطلاق أنهم يكرهونه (بما فى ذلك من دلالات) وانتهى الموقف تقريبا بقول محمود جميل «قدر يا أخى أننا لقيناك ما تصلحشى للوزارة هنسيبك ولا نرفدك»؟ كان للكفيفين الشيخ محمد بقوش (كعبلها) والشيخ زيدان زيدان (حامل عالمية الأزهر) دورهما المألوف فى مثل تلك الأيام، بما فى ذلك أن يسحب الأول الاخير يرشده للطريق، كذلك قدم خيرى خفة ظل الفلاحين الساخرة غالبا، جنبا إلى جنب مع قوت يومهم من الحقد الطبيعى، والشماتة الصعب إخفاؤها (الترابيزة مطمع الجميع). كذلك رسم شلبى الاهتمام السياسى الريفى البسيط، الذى يتجاوز الشأن المحلى إلى السياسة الخارجية (الحديث عن الحاج هتلر) كل ذلك كان من ملامح الريف المصرى فى ذلك الزمان.

من فرط دقة الوصف، حضرنى المكان بروائحه ودرجات إضاءته، وملمسه وريحه جميعا: وصلنى شعور حسى بالظلام أحيانا، وبرائحة الرطوبة أحيانا. كما سمعت فحيح الوحدة، وغثيان العشوائية المتناثرة عفنا، خاصة وأنا أبحث معهم تحت الترابيزة عما تدحرج منّى وأنا أقرأ.

هذا الجزء من الدراسة يتناول المكان كما جاء فى لحس العتب، مقابلة بالمكان فى قنديل أم هاشم، حضورا فى، وجدلا مع : الوعى البشرى الفردى والجمعى.

التـــرابيـــزة

أتيحت لى فرصة عابرة لمشاهدة فيلم قصير من إستونيا باسم «المنضدة» عرض فى مهرجان الاسماعيلية التاسع (٢٠٠٥) من إخراج «جلينا جرلين» و«مارى ليس» و«أورماس جويميس»، حاولت أن أجد أية إشارة مباشرة لما هو منضدة، أو مائدة (أو ترابيزة) ففشلت، وتصورت أن القائمين عليه تعمدوا ذلك ليتيحوا للمشاهد والناقد فرص أن يرى ما يرى: ربما مثلما فعلت ناقدة حاذقة (أمل زكى) حين اعتبرت«أن المائدة فى الفيلم.... هى المكان و الزمان والرمز والأسطورة، هى أستونيا، هى مخاض الولادة ومقبرة الموت وباعثة الحياة.......... هى تلك الأرض القوية الصلبة التى يقف عليها المدافعون عنها يطالبون بالغناء سوياً و الصمت سوياً والتنفس سوياً والغناء سويا....إلخ. شعرت أن رواية خيرى هى أولى بهذا الاسم «الترابيزة» (وليس المائدة أو المنضدة)، ليس فقط لأنها تبدأ بها وتنتهى بها، ولكن لأن وجودها المحورى بدا لى أنه هو ما يميز هذه الرواية أكثر من ظاهرة التطبيب الشعبى سلبا وإيجابا، حيث يمثل «لحس العتب» الجانب السلبى من ذلك.

تبدأ رواية «لحس العتب» حول ترابيزة فى وسط المندرة، وتنتهى وقد نزعت الترابيزة من الدار نزعا بعد أن انهار عليها جدار الممر الذى سحبت إليه قسرا فى فترة من تاريخ حياتها. تدور جميع الأحداث تقريبا حول هذه الترابيزة، أو فوقها، أو بجوارها أو تحتها أو بالقرب منها، أو حتى بعيدا عنها. حتى حين سافر «فخرى» إلى البندر للعلاج، تصورت أن هذه الترابيزة ظلت تمثل خلفية متنقلة وراءه خشية أن يتغير (ولو إلى الشفاء) بعيدا عنها. وسرعان ما استعادته (الترابيزة) كما هو. بدأ الرواية هكذا:





وصلنى أن الراوى فخرى، فى مسح العتب، قد تمحور حول تلك الترابيزة مثلما فعل أبوه وأسرته، كل بطريقته، وأيضا: بما تعنيه مختلفا عند كل منهم

«ليست هذه الترابيزة العجيبة هى كل ما تبقى...» (ص ٥). كما كانت آخر كلمات الرواية عن الترابيزة حين قال الوالد: «..... وحين كانت الذكريات تجرهم إلى الحديث عن الترابيزة الشهيرة كان أبى يبتسم قائلا: الملك فارق نفسه انزاح عن عرشه! سبحان من له الدوام». (ص ٦٦). انتهت الرواية إذن بنزول هذه الملكة، الترابيزة، عن عرشها: الناس والذاكرة.

التمحور حول مركز ما

لكل منا محور أساسى يدوّر حوله حياته. يجرى ذلك فى مستوى ما من الوعى، حتى لو لم ندركه. يتجلى أثر ذلك فى الشعور، أو يظل كامنا فى مستوى ما من الوعى طول العمر، أحيانا يكون لهذا المحور اسم نظرية أو أيديولوجى: بلغة سيلفانوا أريتى يمكن أن يكون «الفكرة المركزية». وبلغة الأساطير: الأيقونة ذات السحر الغامض، وبلغة الإسلام الحقيقى: أنه «لا إله إلا الله»، وهكذا. إلا أنه لا يتحتم دائما أن يعرف أى منا تحديدا حول أى محور يدور. ولا هذا ممكن معظم الوقت. ثم إن أى محور هو ليس ثابتا بالضرورة، هو قابل للتغير والتعديل مع كل ولادة جديدة على مسار النمو. كذلك فإن أى واحد منا عادة ما يُسقط (و/أو يزيح) موضوع تمحوره خارجه على رمز أو حدث، بوعى أو بغير وعى.

وصلنى أن الراوى فخرى، فى مسح العتب، قد تمحور حول تلك الترابيزة مثلما فعل أبوه وأسرته، كل بطريقته، وأيضا: بما تعنيه مختلفا عند كل منهم. فخرى زحف على سطحها طفلا، ودار حول أثرها صبيا، وبحث تحتها تلميذا مستكشفا، وحادث أشلاءها وأشياءها أخيرا، لكنه فى النهاية قفز بعيدا عنها و كأنه وُلد من رحمها بالرغم منها حين انطلق إلى الخارج (الشارع/الطبيعة) بعد أن شفى بتناغم وعيه مع وعى حقيقى آخر فى رحاب الوعى الإيقاع الحيوى الطليق.

حضور المكان فى الوعى

لست متأكدا إن كنا نعرف حقيقة معنى: «استحالة وجودنا إلا فى مكان ما»، إن أى شىء حى، أو غير حى، لا يوجد منفصلا عن المكان الذى هو فيه، لكن الإنسان يتميز، بالإضافة، بقدرته على الوعى بالمكان، بدرجات مختلفة. من ضمن خداعنا لأنفسنا رحنا نتصور أننا نعرف ما هو المكان، وأننا نعايش علاقتنا به بوضوح أكثر من الزمن، وبالتالى حاولنا أن نفهم إشكالة الزمن من منطلق المكان، تصورنا أننا كما يمكننا أن نتجول فى المكان ذهابا وجيئة، شرقا وغربا، يمكننا أن نتجول فى الزمن بنفس الطريقة، وبهذا نكسر سجن الزمن التتبعى، الذى لكى ندركه، علينا أن ننفصل عنه لنتبعه أو نقيس خطواتنا به. المكان ليس بهذه البساطة التى تصورناها لنفهم الزمن من خلاله. المكان ليس مساحة للتجوال ولا هو تعيين للزمن. المكان والوعى به وبما فيه هو الذى يموضع العلاقات بيننا وبعضنا، وبين الأشياء وبعضها، وبيننا وبين الأشياء. العلاقة بالموضوع، هى «علاقة بالآخر فى مكانه»، العلاقة بالموضوع تشمل: العلاقة بالأشياء فى حضورها وغيابها وتغيرها، فى جدلها المتجدد بوعى يتشكل، فى حركية كل ذلك، فى إيقاع حيوى نام ينطلق من كل ذلك إلى الممكن المجهول: إذ يتشكل باستمرار مع حركية الجدل المتصاعد عبر دورات الإيقاع الحيوى.

إن تغير المسافة باستمرار فيما بيننا وبين الموضوع هو أمر جوهرى بالنسبة للوعى بالمكان. يختلف الوعى بالمكان بحسب درجة إدراك العلاقات، أو إدراك الحركية، وكيفية تغير المسافات.

حين حضرنى المكان هكذا، بالإضافة إلى حضور تشكيلات التطبيب الشعبى، الإيجابية والسلبية، تصورت أن قراءة ثنائية مع قنديل أم هاشم قد تكشف الاثنين أجمل وأبدع. فى رواية «لحس العتب» كان وصف المكان من خلال العلاقات السلوكية والرمزية والموضوعاتية هو الحاضر غالبا، فى حين أنه فى قنديل أم هاشم كان التناول يتم من خلال امتدادات المكان والناس فى الوعى، وبالعكس، طول الوقت، فضلا عن الامتداد فى غيب «المابعد».

المكان عند كل من شلبى وحقى فى هذين العملين كان حاضرا طول الوقت بكل التفاصيل، سواء ضاق عند شلبى حتى كاد ينزوى تحت الترابيزة، أو حولها، أو اتسع عند حقى حتى تخطى مقام السيدة وميدانها إلى المطلق المتناهى. أين المكان هنا وهناك من الوعى البشرى، وما العلاقة بينهما؟

فى مرحلة سابقة كنت أشبِّه الوعى بالوساد اللازم لكى تنزرع فيه سائر الوظائف النفسية الأخرى؛ وكأنه الأرضية الضرورية لأشكال حادثة، ثم تبينت أن هذه التفرقة بها من التعسف والاختزال ما يخل بتقديم الوعى الإنسانى بحضوره الجوهرى فى كل الحياة العقلية والنفسية، فى كل الوجود. الوعى عندى الآن هو عمق أى سلوك يتبدى لنا، هو البعد المشتمل لما يصلنا ظاهرا، وهو متعدد بعدد الظواهر، أو حتى بعدد جزيئات الظواهر، بقدر ما هو مشتمل لها جميعا على مستويات مختلفة، من هنا لم يعد يصلح أن نختزل الوعى إلى ما يشبه «السطح الجاهز»، كما يوحى لفظ «الوساد» أو «الأرضية»، الوعى البشرى هو الأقدر على أن يكون المقابل الحيوى داخلنا للمكان الخارجى. العلاقة بين حركية الوعى كمكان حيوى داخلى، وحركية المكان كحضور موضوعى خارجى، هى علاقة جدلية مستمرة.

نتابع حضور الترابيزة فى الوعى بما حولها من مندرة وما جاورها من خزنة، وما ملأها من حركة ناس وأزمنة، يحتلون هذا الحيز من الأرض، يدخلون ويخرجون على فترات، لكن يبقى المكان هو الأصل، هو الحى الباقى. والترابيزة فى مركزه.

يقع هذا المكان فى دار متآكلة فى قرية من قرى بندر دسوق، لكنه يقع أكثر فى «الذاكرة الوعى»، وليس الذاكرة شريط التسجيل.. «هناك هناك فى أبعد ركن من ذاكرتى أرانى طفلا فى حوالى الثالثة من العمر أرتع زحفا على سطح هذه الترابيزة رائحا غاديا» (ص ٩) الذاكرة هنا مكان يُزار، لا معلومة تستعاد، والترابيزة هى مجال محيط، وليست أداة تُستعمل. حجم الترابيزة (أكثر من مترين فى متر ونصف)، وموقعها (ترابيزة الوسط) يدلان على أنها مجال محورى أكثر منها شيئا للاستعمال. المتابع لزحف الأحياء والأشياء (وقد صيَّرها الراوى أحياء) فوق وتحت الترابيزة وحولها، لا بد أن يشعر أنها أصبحت وكأنها الأرض الكروية، وأحيانا المجموعة الشمسية. أرجل الترابيزة النحاسية تقول أيضا إنها كائن حى «... شغل يدوى، بأرجل مخروطية عليها نقوش وانبعاجات وتكورات تنتهى فوق الأرض بأقدام على شكل حوافر من النحاس إن تأملتها قليلا تبينت أنها على شكل سباع كثيفة الشعر غليظة الظافر...» (ص ٨). ها هى الترابيزة تعلن عن رسوخها من جهة، وأصل قوتها وتوحشها وسيطرتها من جهة أخرى، فإذا أضفنا إلى ذلك كيف كان الناس والأطفال خاصة يحسبون أن هذه الأرجل النحاسية هى من الذهب، شعرنا كم كانت هذه الترابيزة «قيمة» فى ذاتها من أكثر من ناحية.

قيمة الترابيزة المعلنة كانت فى اتجاه آخر: إنها دليل على العز والأصل، وبالتالى لا يمكن الاستغناء عنها مهما كان الثمن، بدا التنازل عنها لأى سبب وبأى مقابل بمثابة تسليم لواقع مرفوض، يتمنى المصاب به، رب الدار (وأهل الدار)، أن يكون واقعا مؤقتا، وإن كان الأب يعرف من داخل داخله، ومن همس وتصريح مَنْ حوله، أن ذلك محال، وأن ما آل إليه الحال من حاجة وحرمان هو واقع دائم راسخ لا حل له، لكن ظلت الترابيزة تمثل قيمة أهم فى موقعها المحورى الذى تدور حوله الحياة وتتشكل، دون أن تنفصل عنه.

المكان «يمتد» فى قنديل أم هاشم

فى المقابل: تتمحور أحداث رواية قنديل أم هاشم حول مكان محورى أيضا له حضوره ودلالاته، هو مقام السيدة زينب، بما حوله وما يدور بهم ويدورونه، الميدان والناس كتلة واحدة. المكان، هنا، بما فيه من ناس وأحوال، هو جاهز للمقابلة بالغرب بكل ما يعنيه ذلك.. «هل فى أوربا كلها ميدان كالسيدة زينب؟». ثم يلحق الراوى أو الكاتب فورا نقدا لمبانيهم (أماكنهم) وكأنها إعلان طرائقهم فى الوجود والعلاقات»... قتالهم،



حضر «المكان» فى القنديل مع وصول اسماعيل إلى مصر، من صياد كهل يركب البحر، مرورا بالمكان المتحرك الحى (الباخرة) متجها إلى الحضور الدوائرى فى الميدان إلى المقام، حتى القنديل يتدلى فوقه

ولطعنهم بعضهم البعض من الخلف، ثم هو يحدد «أين» يقع تعاطفهم وتحابهم من ذلك «....... مكان الشفقة والمحبة عندهم بعد العمل وإنهاء النهار يروحون بها عن أنفسهم كما يروحون عنها بالسينما والتياترو» (ص ١١٣). الراوى أو إسماعيل أو الكاتب سرعان ما يستدرك (مثلما فعل كثيرا طول الرواية قائلا): «.. ولكن. لا. لا .... من يستطيع أن ينكر حضارة أوربا وتقدمها وذل الشرق وجهله ومرضه».

حين حضر ميدان السيدة فالمسجد فالمقام فالقنديل فى الرواية حضروا معا فى كتلة واحدة، لا تستطيع أن تميز مفرداتها من ناس وأشياء بعيدا عن بعضهم البعض، لكن لم يظهر ما يقابل هذا التلاحم فى خبرة إسماعيل حين سافر (بما فى ذلك علاقته بمارى، حتى حين منحته نفسها برغم انفصالهما، كتحية للوداع) ولا حين ترك بيت الأسرة ليسكن فى بنسيون مدام إفتاليا. لن أتمادى فى هذا الجزء من الأطروحة بعرض مزيد من المقارنة بينهم وبيننا، لأن ذلك البعد قد استهلك نقدا فى هذه الرواية مثلها مثل أعمال أخرى للطيب صالح وطه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهم، الذى يعنينى هنا الآن هو تجليات حضور المكان فى الواقع والوعى وبالعكس.

حضر «المكان» عند يحيى حقى فى القنديل بشكل دال مع وصول اسماعيل إلى مصر، حضر بكل امتداداته من صياد كهل يركب البحر إلى أرض مصر الممتدة، مرورا بالمكان المتحرك الحى (الباخرة) متجها إلى الحضور الدوائرى فى الميدان إلى المقام، حتى القنديل يتدلى فوقه.

تعامل حقى فى الرواية مع المكان ككائن حى معظم الوقت، نقرأ هذا التعبير المباشر ص٨٥: «... ورن جرس إيذانا «بموت» الباخرة، فأصبحت جثتها فريسة لجيش من النمل البشرى يهاجمها..إلخ»، هذا التعبير يصور كيف أن الباخرة (كمكان متحرك أو قابل للحركة المجسدة) تظل حية طالما هى تموج بمن عليها يتوجهون حيث تتوجه، لكنها تموت بمجرد أن ينتشر الجميع فوقها كأنها جماد ساكن لا قدرة له على الحركة من جديد، يمكن أن نقيس موت السفينة هكذا باحتمال موت ميدان السيدة أيضا حين يصبح فريسة لجيوش النمل الدائرة حوله فى المحل وكأنها تتحرك فى تداخل حتى السكون (ص ٧٩): «فى الميدان حركة النمل تتعارض تتحاذى وتضرب فى كل اتجاه.. قادته قدماه إلى المقام فوجده ساكنا على غير عادته». هذا السكون الغالب الذى يجمد المكان بالناس، ويجمد الناس فى المكان،

كان من دواعى محاولات إسماعيل المتذبذبة المتراجعة طول الوقت للتخلص من حبه لمصر الذى كان لا يتناسب مع ضجره من المصريين وكلما قوى حبه لمصر، زاد ضجره من المصريين..».. ترى هل ينكص الآن عن لمس هذه الكتلة البشرية». حين يلتحم الناس ببعض هكذا حتى الشلل، يموت المكان فيهم وبهم.

فى موقف موت السفينة السالف الذكر يقول الراوى منطلقا الناحية الأخرى: «أول من لقيه من وطنه مخلوقٌ الكون كله وطنه، طائر أبيض منفرد يحوم حول السفينة، طليق متعال نظيف وحيد. (ص٨٤) لكنه يضيف بعدا آخر (فى نفس الموقف) حين يرصد صيادا كهلا فى قاربه المتحرك فى البحر، فتتجسد فيه - أيضا- هكذا «مصر ص ٨٥»..وقعت نظرة إسماعيل على سيدة مصرية وقفت بجواره، فرآها مطلة على الصياد مغرورقة عيناها بالدموع وسمعها تتمتم: مصر! مصر».

حين تكون السفينة مكاناً قابلا للموت والإحياء، ويكون وطن الطائر هو الكون كله، وتتجسد مصر فى صياد كهل فى قاربه الصغير فى البحر، نصبح أمام رؤية للمكان تتجاوز الوطن والأرض والميدان والمقام والقنديل، وفى نفس الوقت نجد أن للمكان فى القنديل حضوراً شديد التحديد واضح المعالم ثابت الأركان مهما امتد إلى غايته وما بعده، خذ مثلا مصر المكان الأرض وهو يخاطبها قبل فقرة الكهل الصياد، وبعد فقرة الطائر المنفرد بالكون وطنا، يقول: «..... أنت يا مصر واحة ممدودة إلى البحر لا تفخر إلا بانبساطها، ليس أمامك حواجز من شعاب خائنة، ولا جبال تصد، أنت دار كل ما فيها يوحى بالأمان» (ص ٨٤/٨٥). مصر أيضا هى المكان الذى يضم حبات البشر ليتماسكوا

فى سلسلة ممتدة إلى التواصل المفتوح النهاية.....كان إسماعيل لا يشعر بمصر إلا شعورا مبهما، هو كذرة الرمل اندمجت فى الرمال واندست بينها، فلا تمييز لها، ولو أنها منفصلة عن كل ذرة أخرى، أما الآن فهو قد بدأ يشعر بنفسه كحلقة فى سلسلة طويلة تشده وتربطه ربطا إلى وطنه (كان هذا بعد أن أفاق من حبه لمارى فى الخارج: ص (٩١)، لكن كل ذلك الحب لم يمنعه حين يتذبذب إلى الناحية الأخرى من إعلان موقفه الرافض لكل ما هو مصرى يمثل السلبية والذل والخنوع والتجمد والجبن والضياع.

ليس فى المسألة تناقض يزعج، هى رؤى متعددة الأحوال من زوايا مختلفة بحق، حضر «المكان» فى قنديل أم هاشم محدد المعالم بكل حيويته وحركيته وكأنه البطل فعلا، وفى نفس الوقت اتسع إلى ما لا حدود له. مصر- بهذا الاتساع المكانى الممتد - كانت المكان الواعد، لكنها كما سترى لم تكن نهاية المكان، بل رحابة الأمان الممتد إلى ما بعده.

أمام هذه الخلفية نتبين كيف يأتى حى السيدة الذى يتوسطه ميدان السيدة الذى يتوسطه بدوره مسجد السيدة، الذى يتوسطه بالتالى مقام السيدة، الذى يعلوه القنديل. هذا الترتيب بهذه الدوائرية المتمركزة الممتدة فى إيقاع النبض الحيوى البشرى هى «المكان» الذى دارت فيه وحوله أحداث قنديل ام هاشم، حتى حين كان بطلها فى أوربا.

تعالوا نقارن هذا «المكان» المتحرك المفتوح فى القنديل، بالمسرح المغلق الدائر فى محله فى لحس العتب: فى حين اختنق المكان عند شلبى واقتصر على الدار والمندرة والمخزن حول الترابيزة وتحتها وقليل فوقها حتى كاد يصيب هذا الاختناق قرص الشمس حين أطلت من النافذة، نجد أن المكان قد امتد بإسماعيل حول مقام السيدة ليشمل الميدان كله

بجماع ناسه و تاريخه (الخاص بالراوى على الأقل)، ثم هو لم يتوقف عند حدود المقام، فامتد إلى الميدان بكل زخمه وحيويته ونداءات البيع والشراء والحركة والحب والشجار، ثم امتد أكثر عبر إشعاعات القنديل إلى النور غير المحدود. لم يتحرك المكان فى لحس العتب إلا بعد حدس التطبيب الشعبى الداعى لتواكب الإيقاع الحيوى البشرى مع دورات الليل والنهار والأذان، وتنبيت الحياة تخمرا تحت قطر الندى، الأمر الذى صحح النغمة الناشز (مرض فخرى) حتى عاد إلى رحابة الدنيا وحركيتها الطليقة : إلى الشارع يلعب وكأنه قد تم الافراج عنه من سجن مؤبد، سجن قضبانه من المرض، والإعاقة، والخزنة الزنزانة، والفاقة الحرمان، يحدث ذلك الانطلاق بعد رحيل الترابيزة بانتهاء عمرها الافتراضى، ليحل محلها محور إيقاعى حركى جديد لم نتبين ملامحه تحديدا.

المكان فى القنديل له حضوره الحركى القادر على التلقائية والاختيار: «إذا أقبل المساء وزالت حدة الشمس وانقلبت الخطوط والانعكاسات إلى انحناءات وأوهام، أفاق الميدان إلى نفسه وتخلص من الزوار والغرباء (ص ٦٦)». المكان الميدان كائن حى مستقل (تذكر موت الباخرة) وهويتخلص من الزوار والغرباء لا لينغلق على نفسه ولكن ليسبح فى النور، لأنك....إذا أصخت السمع وكنت نقى الضمير فطنت إلى تنفس خفى عميق يجوب الميدان (ص ٦٦).

قنديل أم هاشم كان معلقا فى مكان ما، لكن ذلك لم يكن إلا تمويها لأنه حضر فى الرواية ومنذ البداية باعتباره مكانا متجاوزا باستمرار إلى نور المطلق. ترابيزة قرية بندر دكرنس ظلت ثابتة فى مكان عيانى محدد، حتى وقع عليها السقف فتهشمت.

النهاية فى لحس الخشب كادت تربط رحيل الترابيزة بانفتاح الطفل المريض على الطبيعة مستعيدا نبض إيقاعه الحيوى فى انطلاقه إلى الشارع لاستئناف حركية النمو صحة وجريا ولعبا ومشاركة، بعيدا عن المندرة متخلصا من دوائر الأثار المنغلقة فى الترابيزة وحولها على ذواتها، حيث لم تعد تصلح إلا للوقوف على أطلالها.

النهاية فى القنديل كانت مختلفة، هى لم تنفصل عن الميدان وما يحوى وما يمتد إليه من حيث المبدأ، ولا هى ابتعدت عن الناس، لكن ما وصلنى أنها تحددت فى تلك العيادة الشعبية التى توحدت مع المآل غير المتوقع ولا المتناسب مع تاريخ الدكتور إسماعيل رجب عبد الله، مما سنعود اليه فى دراسة لاحقة. ■

زينة وفخر وإرهاب وثأر

السلاح فى اليمن

يوسف الشريف

على الرغم من نجاح ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢ فى تقويض أركان حكم أئمة بيت حميد الدين الكهنوتى المتخلف وإعلان الجمهورية فى شمال اليمن، ثم تبعها اندلاع ثورة ١٤ أكتوبر عام ١٩٦٣ فى جنوب اليمن وجلاء القوات البريطانية من قاعدة عدن. ورغم إنجاز الوحدة بين شطرى اليمن يوم ٢٢ مايو عام ١٩٩٠ عبر صيغة متقدمة للديمقراطية والتعددية السياسية وإجراء الانتخابات النيابية والرئاسية التى شهد لها المراقبون بالنزاهة والحياد. حيث لم يسقط قتيل ولا نقطة دم واحدة. ورغم اكتشاف الثروة النفطية وترسيم الحدود مع سلطنة عمان والسعودية. وكذا انتشار التعليم بشكل جارف لم يتوقعه أى من المراقبين.

رغم كل هذه المتغيرات والتطورات الإيجابية على كل صعيد والسعى الحثيث لسد هوة التخلف واللحاق بركب العصر، تظل هناك إشكاليات اجتماعية وأمنية وسياسية موروثة صعبة المراس. ولعلها تحتاج إلى اعتماد الصبر والتخطيط العلمى السليم وابتكار الحلول الخلاقة للتغلب عليها. وفى مقدمتها ظاهرة انتشار وحمل واستخدام السلاح، خاصة بعدما باتت على خلاف ما كانت عليه فى الماضى مظهرًا للرجولة والزينة أو الفخر، حيث أصبحت اليوم هاجسًا خطيرًا يهدد الاستقرار والتنمية والسياحة، وعاملاً ذاتيًا يسىء إلى سمعة اليمن ويشوه ما يزخر به من تراث حضارى وفضائل وجماليات!

التى يوجهها الإمام ضد القبائل المتمردة أو المشكوك فى ولائها وفقًا للمعادلة المعروفة «فرق تسد»!

فلما اندلعت ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢، وبدأ الدعم من وراء الحدود للقبائل الموالية للإمام البدر بالسلاح والذهب، كان لا مفر من توسيع دائرة حيازة السلاح لتشمل القبائل الموالية للجمهورية فى المقابل، وخاصة كان الجيش النظامى ضعيفًا قليل العدد، ثم كان من رابع المستحيلات أن تتحمل القوات المصرية عبء الدفاع وحدها على اتساع رقعة اليمن (٢٠٠٠٠٠) كيلو متر مربع تتخللها سلاسل الجبال العاتية.

ثم لأن حدود اليمن البرية والبحرية ظلت مفتوحة أمام تهريب السلاح. ولأن القبائل الملكية عادت من السعودية إلى اليمن بأسلحتها بعد المصالحة الوطنية فى السبعينيات، ولأن القوات الموالية لرئيس اليمن الديمقراطى على ناصر محمد نزحت إلى الشمال بسلاحها فى أعقاب أحداث ١٣ يناير ١٩٨٦ الدامية، ولأن تهريب السلاح إلى اليمن تسارعت وتيرة تهريبه إلى اليمن منذ احتدام الحرب القبلية فى الصومال وبأسعار كانت فى متناول المواطن البسيط. ولأن كمًا هائلاً من السلاح تسرب من قاعدة «العند» فى عدن إبان الحرب ضد الانفصال عام ١٩٩٤ وأثرت من ورائه أسماء معروفة للجميع.

لكل هذه العوامل راجت تجارة السلاح، حتى إننى رأيته بأم عينى وهو السلاح من مواطن، ولذلك تلجأ الجهات الأمنية بين الحين والآخر وبشكل موسمى لتنظيم حملة تفتيشية لهذا الغرض، بينما تتحاشى إلقاء نفسها فى التهلكة لفض النزاعات المسلحة بين القبائل، وتؤكد البيانات الرسمية أن ضحايا قوات الأمن فى تقرير صادر عام ٢٠٠٠ نحو ٥٢٠ قتيلاً، ولذلك تواضع دورها فى فض الاشتباكات المسلحة بين القبائل واكتفت بمجرد الوساطة بين المتصارعين فحسب.

المرافقون المسلحون

ويؤكد التقرير الأمنى الصادر عن وزارة الداخلية اليمنية عام ١٩٩٩ حول أسباب ودوافع استخدام السلاح النارى، عدم وجود رابطة عضوية أو سببية بين السلاح النارى والجريمة. وأن معظم ضحاياه عبر حوادث الثأر، واستخدامه عشوائيًا فى الأعراس والحفلات، وكذا الحال فى عمليات الاغتيال السياسى واختطاف الأجانب عبر الاشتباك المسلح مع قوات الأمن، حتى أصبحت تلك الظاهرة تجارة رائجة وابتزازًا للدولة، إضافة إلى الممارسات الإرهابية لجماعات التطرف الأصولى.

وإذا كانت معظم الاتهامات حول سوء استخدام السلاح تقع مسئوليتها على القبائل والجهلة وأنصاف المتعلمين، فكيف الحال بالمتعلمين والصفوة

وإذا كان تعداد اليمن يربو الآن على ما بين ١٨ إلى ١٩ مليون مواطن. تجمع المصادر والإحصائيات الرسمية على أن حجم المتداول والمتكنز من السلاح ثلاثة أضعاف عدد السكان، ولا تقتصر نوعياته على البنادق «الجيرمان» القديمة الموروثة من الحرب العالمية الأولى، بل ومختلف أنواع السلاح الحديث.. من الكلاشينكوف الروسى والبنادق الأمريكية الأوتوماتيكية «إف إم جى» وحتى الـ «آر بى جى» المضاد للدروع والمدافع الهاون والمورتر، وكذا القنابل اليدوية والألغام الأرضية. ومن المضحك والمبكى معًا أن يقود يمنى دبابة إلى بيته ويدعى أنها من حقه كغنيمة مقابل مشاركته فى الحرب ضد المؤامرة الانفصالية عام ١٩٩٤!

إبان حكم أئمة بيت حميد الدين كانت «الجنبية» وحدها هى - الخنجر اليمنى التقليدى - المظهر الوحيد المسموح به رمزًا للرجولة والزينة والدفاع عن النفس فحسب، بينما كان السلاح النارى وقفًا على القبائل الموالية للإمام بكميات ضئيلة ونوعيات متخلفة وهى كانت الأداة القتالية فى حرب «الخطاط»

> أحصى تحقيق صحفى يمنى تعداد سلاح المرافقين فى حدود ١١٢٠ من البنادق الآلية. وتبلغ ذخيرتها بنحو ١٠٨٠٠ طلقة رصاص، و١١١٤٠ مسدسًا، و٣٣٦٠ قنبلة يدوية

يباع فى أسواق مفتوحة كما فى سوق الطلح بمحافظة صعدة المتاخمة للسعودية، وكذا الحال فى مأرب وخولان وخمر، والأدهى والأمر أن تجد بائع جائل ينوء بحمله من الأسلحة فى شوارع العواصم اليمنية. كما لو أنه يبيع الفاكهة والخضروات، حتى صدر قانون تنظيم حمل السلاح عام ١٩٩٢ الذى أباح حيازة البنادق الآلية وبنادق الصيد والمسدسات وقدرًا من الذخيرة للاستخدام الشخصى، مع حظر الدخول بالسلاح أو حمله فى صنعاء وبقية عواصم المحافظات إلا بترخيص من الأجهزة المختصة، ولا يجوز منح الترخيص لمن هم دون الثامنة عشرة، أو سبق ضلوعهم فى جريمة جسيمة أو كان مختلاً عقليًا، كذلك ينظم القانون الإتجار بالسلاح والذخيرة، وتوقيع عقوبة السجن ودفع غرامة لا تتجاوز عشرة آلاف ريال على المخالفين.

ورغم أن القانون أحاط بمشكلة حمل واستخدام والتجارة فى السلاح، إلا أن المشكلة بعد ذلك ظلت تكمن فى تطبيق القانون، فمن النادر على سبيل المثال، أن يخاطر رجل الشرطة بمفرده بانتزاع

السياسية الذين طالهم الاتهام بظاهرة المرافقين المسلحين، حيث لكل نائب فى مجلس النواب أربعة منهم فى المتوسط، يتبعونه كظله أينما ذهب فى سيارة خاصة أو أكثر، وهم مدججون بالبنادق الآلية، بما يقارب مجموعهم قوة لواء مشاة، هذا فى حالة إذا ما وضعنا فى الحسبان أن نصف النواب لا يتبعهم مرافقون.

وأحصى تحقيق صحفى يمنى تعداد سلاح المرافقين فى حدود ١١٢٠ من البنادق الآلية، وتبلغ ذخيرتها بنحو ١٠٨٠٠ طلقة رصاص، و١١١٤٠ مسدسًا، و٣٣٦٠ قنبلة يدوية، ويصل عدد سيارات النواب ومرافقيهم ٤٥١ سيارة معظمها ماركة «لاندروفر» و«لاندكروز» ذات الدفع الرباعى، حيث تستهلك السيارة فى اليوم الواحد ٤٠ لتر بنزين، ثم يأتى السؤال بعد ذلك عن أجور المرافقين وكلفة الحراسة الباهظة التى تشير إلى ثراء النواب المشروع وغير المشروع.

وأشد ما أدهشنى أن الصديق المسالم عبدالرحمن نعمان ابن الزعيم التاريخى أحمد نعمان، ما إن تزعم حزبًا سياسيًا بعد الوحدة



اليمنية. حتى كان يتبعه جمع من المرافقين المسلحين يتكفل بإعالتهم وأجورهم حتى توفير احتياجاتهم اليومية من القات.

نفس المشهد تكرر حين دخل الدكتور عبدالرحمن البيضانى - نائب رئيس الجمهورية الأسبق - صنعاء بعد الوحدة اليمنية، حيث أضاف أولاً إلى اسمه كلمة «المرادى» تأكيداً على نسبه إلى قبيلة «مراد»، ولأنه اكترى ثانية مجموعة من المرافقين المسلحين.

العجيب حقاً أن عسكريين تابعين لوحدات القوات المسلحة جرى تفرغهم رسمياً لمرافقة بعض أعضاء مجلس النواب مع صرف رواتبهم ومكافاتهم الإضافية من خزانة الدولة، والأكثر عجباً أن يحاول بعض النواب استدعاء مرافقيه إلى قاعة المجلس أو ممارسة إرهاب الوزراء خارج المجلس على نحو ما جرى لرئيس الوزراء عبدالقادر باجمال عندما طرح خطة حكومته الاقتصادية التى استدعت رفع أسعار بعض السلع الضرورية كالمحروقات.

وإذا كانت للسلاح ضروراته فى الماضى عبر حراسة الماشية والزراعات والقوافل التجارية وقتل الوحوش الضارية، إضافة إلى التفاخر والهيبة والزينة، إلا أن هذه الظاهرة لم تختف بل تفاقمت حتى بعد ارتفاع مستويات التقدم والتحديث والتعليم والثقافة التى أحرزها اليمن تباعاً منذ اندلاع الثورة ثم نهوض الوحدة اليمنية، الأمر الذى يشى بالعجز عن مواجهة الظاهرة خاصة مع ولوج العالم من حول اليمن إلى القرن الواحد والعشرين.

ومن المؤسف حقاً أن تنتقل ظاهرة حمل السلاح إلى المدارس والجامعات، ومع صغر السن والافتقار إلى القدوة أو النصح الثقافى والروحى. كثيراً ما يحتكم التلاميذ والطلبة إلى السلاح لفض ما بينهم من خلاف أو سوء تفاهم، فيما تجمع المصادر الطبية فى المستشفيات اليمنية، أن معظم المصابين الذين يتم استقبالهم فى أقسام الحوادث نتيجة إطلاق الرصاص عشوائياً أو بسبب الخلافات أو حوادث الثأر وأن معظم الضحايا من رجال الأمن.. وفى معظم الأحوال يصعب إنقاذهم من الموت المحتوم.

على أننى حين استطلعت رأى الشيخ عبدالله الأحمر شيخ مشايخ قبيلة حاشد ورئيس مجلس النواب حول ظاهرة حمل السلاح، قال لى: إن هذا الكم الهائل من السلاح لو كان فى دولة أخرى غير اليمن لسقط نظام الحكم عندما يتعرض لسخط الجماهير، وقال: إن العرف القبلى أقوى من القانون فيما يتعلق باستخدام القبائل للسلاح.. والمطلوب إذن ليس منع السلاح بالقانون وإنما ترخيص حمل السلاح وتعظيم هيبة السلطة المركزية، وإثارة الوعى بالتداعيات السلبية للظاهرة، وحبذا تخفيض عدد المرافقين المسلحين للنواب إلى اثنين فقط، ومنع دخولهم إلى قاعة المجلس باعتباره مظهراً غير حضارى بالمرة!

ثم نشير إلى مقال هام للكاتب اليمنى الكبير عبدالبارى طاهر تحت عنوان «الجهل المسلح سيد الموقف باليمن» يقول فيه:

لم يكتشف اليمنيون بشكل كبير بعد، أن اللجوء إلى حمل السلاح لا يحل مشكلة، بل إن الاحتكام للسلاح وحمله فى الحل والترحال، فى اليقظة والمنام، لا يحمى الأمن ولا يوطد السلام، ولا يحقق الطمأنينة. فحمل السلاح والاحتكام إليه بسهولة ورعونة غير معهودة لا يحل المشاكل، وإنما يعقدها. فقد حاول الآباء «الأحرار» تجنب استخدام السلاح، ولكن البيئة المحيطة ومحاولات أسلمة انقلاب ١٩٤٨ قد فرض الحرب.

لعله أقل فأدل حول واحد من أهم الأسباب السياسية والدينية الدالة فى تاريخ اليمن على الظروف الموضوعية التى حتمت الاحتكام للسلاح فى تفجير الثورة السبتمبرية، حيث كان من رابع المستحيلات أن يفل الحديد سوى الحديد فى تقويض أركان حكم بيت حميد الدين، ولعله كشف فى الوقت نفسه عن فقدان هيبة السلطة المركزية وقصورها المعيب فى وضع الخطط العلمية الكفيلة ببناء دولة المؤسسات واجتثاث ظاهرة شيوع حمل السلاح من الجذور، خاصة بعدما وضعت الحرب أوزارها.

السلاح والإسلام السياسى

على أن ظاهرة شيوع وسهولة حمل السلاح النارى فى اليمن كانت لها تداعياتها السلبية العديدة والخطيرة، إذ رغم المناخ الديمقراطى واعتماد التعددية السياسية، إلا أن من بين جماعات الإسلام السياسى الحديثة من يحتكم إلى السلاح فى ممارسة أساليب العنف والإرهاب لفرض عقيدته أو موقفه السياسى بديلاً عن الحوار السلمى المتاح.

ومن حيث التوقيت فقد ابتلى اليمن بهذه الكارثة إثر عودة المجاهدين اليمنيين بمجرد انتهاء الحرب فى أفغانستان ضد الوجود السوفيتى، وصادفت نهوض دولة الوحدة اليمنية، حيث اقترنت ظاهرة استخدام السلاح النارى كذلك بتكفير الدولة والخصوم السياسيين حتى الإسلاميين المعتدلين، على أن الساحة السياسية فى اليمن وخيارها الديمقراطى ليست مقصورة على التيار الإسلامى الذى يتزعمه الشيخ عبدالمجيد الزندانى فى حزب الإصلاح، فهناك العديد من التيارات الإسلامية المنافسة له بتوجهاتها ومذاهبها وانتماءاتها الخارجية.



ويلاحظ أن التيارات والقوى الإسلامية فى اليمن على تنوع مفاهيمها ومذاهبها وولاءاتها تعرضت منذ الوحدة اليمنية إلى عملية جذب واستقطاب شديد، وتتنافس على ممارسته، أى من المذهب الشيعى فى إيران أو المذهب الوهابى السائد فى الجزيرة العربية، عبر التمويل المالى والمساندة الإعلامية فى الخارج، ويبدو أن الاستقطاب الخارجى، إضافة إلى بروز قيادات ورموز كانت محسوبة فى الماضى على قوى الثورة المضادة.. من هنا ثارت الشبهات والشكوك فى البداية واتهمت بعض هذه التيارات الإسلامية بارتكاب حادث التفجيرات والاغتيالات السياسية، بدعوى إعادة الثورة والوحدة والديمقراطية إلى عهود الإمامة والطائفية، والعمل على إضعاف فاعلية وجماهيرية الحزب الاشتراكى تحديده واتهامه بالماركسية والعمالة ضمناً.. ويلاحظ أن مسلسل العنف والإرهاب الذى استهدف عدد من قياداته فى بداية الوحدة، كان بأكثر من استهدافه قيادات وكوادر حزب المؤتمر، ولذلك كان من ضمن أسباب الأزمة السياسية التى أفضت إلى المؤامرة الانفصالية عام ١٩٩٤، إضافة إلى الظواهر الدينية المستهجنة التى وفدت على اليمن، عبر الاعتداء والهدم للمساجد التى تضم رفات أولياء الله الصالحين وبينها مسجد العيدروس فى عدن وضريح الملكة أروى بنت أحمد فى جبلة بمحافظة إب.

انقلب السحر على الساحر

ومن إشكاليات حمل السلاح فى اليمن تلك الظاهرة المعروفة باختطاف السياح، إذ بعد اتهام الحكومة البريطانية لليمن بمسئولياتها عن قتل ثلاثة من مواطنيها ضمن ١٦ سائحاً أجنبياً كانت قد اختطفتهم جماعة «الجهاد» خلال تجوالهم بأسواق محافظة أبين يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٩٩، وإلى حد استدعاء الخارجية البريطانية حسين العمرى سفير اليمن فى لندن ثلاث مرات للإعراب عن استيائها، إذا بالتحقيقات التى قامت بها السلطات اليمنية حول الحادث، تؤكد على أن المسئولية تقع على أم رأس بريطانيا، حين سمحت بإيواء جماعات الإرهاب الأصولى فى أراضيها، والتخطيط لعملية خطف السياح فى اليمن من لندن.

وكانت بريطانيا قد بادرت إلى إرسال

فريق من جهاز «سكوتلانديارد» إلى اليمن للتحقيق فى الحادث، لكن الحكومة اليمنية رفضت تسهيل مهمتهم، واعتبرتها تدخلاً سافراً وتجاوزاً لخطوط السيادة الحمراء، الأمر الذى كاد يؤدى إلى أزمة دبلوماسية حادة بين صنعاء وكل من لندن وواشنطن، فيما حاولت بريطانيا الانتقام الفورى تارة عبر إعلان رفضها انضمام اليمن إلى منظومة للكومنولث، بدعوى أن المعايير المطلوبة للعضوية غير متوافرة فى اليمن، وتارة عبر إيهام «كوماندوز» الأمن اليمنى بإطلاق النار أولاً على الخاطفين دون إتاحة الفرصة للتفاوض معهم، هو تحرير السياح المختطفين بسلام، مما دفعهم إلى قتل ثلاثة بريطانيين وسائح رابع يحمل الجنسية الاسترالية.

وزاد الطين بلة، عندما وجهت بريطانيا وأمريكا وألمانيا رعاياهم إلى مغادرة اليمن أو مجرد تحذيرهم من زيارة محافظتها الجنوبية، فى محاولة لتفريغ شركات البترول ومشاريع التنمية من الخبراء الأجانب ووقف سيل السياح الذى كان قد بدأ يتدفق على اليمن بمعدلات متزايدة فى السنوات الأخيرة. لكن تشاء تصاريف القدر أن يكشف رئيس وزراء اليمن الدكتور عبدالكريم الإيريانى عن أن وزير خارجية بريطانيا السابق مالكولم ريفكند كان صاحب مبادرة انضمام اليمن إلى الكومنولث خلال زيارته صنعاء عام ١٩٩٦، وقال الإيريانى إذا كانت حكومة العمال قد اتخذت نهجاً مغايراً فهذا شأنها وحدها.

من جهة أخرى كانت شهادة عدد من المختطفين الذين تم تحريرهم بمجرد وصولهم إلى لندن بمثابة صفعة لبريطانيا، حيث أكدوا على أن الخاطفين كانوا البادئين بإطلاق النار، وأن السلطات اليمنية لم تمارس معهم أياً من ألوان الضغوط أو الترغيب حتى يشهدوا لصالحها، ولولا تدخل الكوماندوز فى الوقت المناسب، لكان الخاطفون قد نفذوا تهديدهم بقتل جميع السياح تباعاً.

على أن تصاريف القدر كانت تخبئ مفاجأة مدوية لصالح اليمن، فإذا كانت اليمن تعانى من مشكلة شيوع حمل السلاح بحكم وراثتها لأوضاع اجتماعية وسياسية معقدة منذ قيام دولة الوحدة، إضافة إلى الانعكاسات السلبية التى أفرزتها عملية تسلل العرب الأفغان إلى أراضيها، وهو ما أدى فى جملته -إلى ظاهرة الاختلال الأمنى، فالشاهد أن عملية التمشيط الواسعة النطاق التى قامت بها الأجهزة اليمنية مؤخراً لترحيل المتسللين والنازحين إلى بلادهم، أسفرت عن اكتشاف خلية أصولية تضم خمسة يحملون الجنسية البريطانية من أصول يمنية وجزائرياً واحداً يحمل الجنسية الفرنسية وآخر باكستانياً.



من المؤسف حقاً أن تنتقل ظاهرة حمل السلاح إلى المدارس والجامعات، ومع صغر السن والافتقار إلى القدوة أو النصح الثقافى والروحى، كثيراً ما يحتكم التلاميذ والطلبة إلى السلاح لفض ما بينهم من خلاف أو سوء تفاهم

فتنة الحوثى

ثم نتمهل فى الحكم على الداعية الإسلامى حسن بدر الدين الحوثى الذى احتل مساحة يومية واسعة من اهتمامات الإعلام والرأى العام داخل اليمن وخارجه منذ عام ٢٠٠٥ وحتى الآن إثر تمرده على السلطة المركزية فى صنعاء وتكفير العباد والبلاد بقوة السلاح، وتنصيب نفسه ولياً وخليفة للمسلمين سواء بدعوى انتماءاته الهاشمية لآل البيت، أو انتماءاته للشيعة الزيدية الاثنى عشرية، إثر لجوئه المفاجئ وأتباعه إلى الجبال الوعرة بمنطقة «صعده»، واحتمائه بقبائلها المسلحة، وهو ما يفرض عليها حمايته ونصرته مما أسهم فى شروعه إلى مقاومته قوات الأمن والجيش معاً، رغم سقوط عشرات القتلى والجرحى من الجانبين. ورغم توالى الوسطاء. وبينهم شقيقه، لاثنائه عن التمرد وخوض غمار الحوار مع الحكومة والأحزاب حتى تتاح أمامه فرصة التعبير عن دعوته بكل حرية وأمان.

وإذا كان اليمن دون غيره من الدول العربية الذى يتيح تشكيل الأحزاب حتى على أساس دينى، كون الشعب مسلماً برمته إضافة إلى بضع مئات من يهود اليمن فى شبه عزلة عن الحياة السياسية، فلماذا كان خيار الحوثى نشر دعوته فى الظلام وتجنيد الكوادر المناصرة له سراً، بينما كان بوسعه أن يتزعم حزباً سياسياً شرعياً فى إطار الصيغة الديمقراطية الراهنة، ثم إن عائلة الحوثى تنضوى سياسياً تحت مظلة «حزب الحق» الإسلامى، ألم يكن الأسلم بالتالى ممارسة نشاطه السياسى علانية من خلال هذا الحزب على غرار والده البرلمانى السابق وشقيق عضو مجلس النواب؟

الحوثى من مواليد عام ١٩٥٦ فى قرية آل الصيفى بمديرية حيدان التابعة لمحافظة صعده، ويعتبر والده بدر الدين من أبرز المراجع الدينية للمذهب الزيدى، وقد خطب وبكى وأعلن معارضته لدعوة ابنه من فوق منبر أحد مساجد صعده.. حتى اعتقله ابنه وتحفظ عليه، وهو قد تلقى تعليمه الأولى فى المعاهد العلمية التى كان يشرف عليها الشيخ الزندانى، ثم نال ليسانس الشريعة من جامعة صنعاء والماجستير من الجامعة الإسلامية فى أم درمان بالسودان، ثم قام بتمزيق هذه الشهادات فى حضور عدد من اتباع المذهب الزيدى عام ١٩٩٢، معلناً تمرده السياسى والدينى الذى أعلنه من جبل مران، وقيل آنذاك أنه سبق أن تبنى دعوته وأعلن تمرده وجمع هذا الكم الهائل من السلاح على مدى سنوات.

كان حسين الحوثى عضواً فى مجلس النواب عن حزب الحق عام ١٩٩٣، ثم استقال من البرلمان ومن حزب الحق ومنح نفسه حق الإمامة والولاية والمهدى المنتظر، وقيل أنه لقى الدعم السياسى فى البداية من الحزب الاشتراكى ومن حزب المؤتمر الحاكم بدعوى مواجهة نفوذ جناح الإخوان المسلمين فى حزب تجمع الإصلاح، وقيل كذلك أنه تلقى من مصادر مجهولة ولسنوات العديد من شحنات السلاح والذخيرة التى استخدمها فى مواجهة قوات الجيش والأمن، حيث جند عشرات المئات من الشباب العاطل عن العمل وتدريبهم على استخدام السلاح عبر مرتبات مالية تراوحت بين ٥٠ إلى ١٠٠ دولار شهرياً، إضافة إلى وعود بالجنة وأن الخير العين بانتظارهم مقابل جهادهم المقدس ضد المجتمع اليمنى ونظام الحكم الكافر.

المعروف أن الرئيس على عبدالله صالح أفرج عن الحوثى الأب بعد أن فقد ابنه، وسمح له بمباشرة نشاطه السياسى وحياته الطبيعية، لكنه وقبل أن يمضى عام على قمع الفتنة، عاد يكرر نفس الأخطاء، مجدداً المقاومة ضد النظام والمجتمع تحت دعاوى مذهبية لا أساس لها فى الدين الإسلامى.

وكان الرئيس اليمنى فى خطابه أمام مجلس الشورى بمناسبة مرور ٢١ عاماً على توليه سدة السلطة، قد كشف الغطاء رسمياً حول ما يتردد عن الحوثى من حقائق وتهاويل، واتهمه بالعمالة لأجهزة مخابرات أجنبية لكنه لم يحددها، واكتفى بالتأكيد على أنها تسعى إلى إدخال اليمن فى حالة من عدم الاستقرار، محدداً مساحة الصراع المسلح بين الدولة والحوثى بما لا يزيد على ثلاثة إلى أربعة كيلو مترات مربعة، ونفى أن تكون دعوة الحوثى تندرج تحت فكر معين أو مذهب دينى سواء زيدى أو شافعى أو هادوى، وإنما هى عمل استخباراتى أجنبى يستهدف قسمة الوحدة الوطنية وتعطيل التنمية والاستثمار، ونحسب أن هذا الاتهام أقرب إلى الصواب فى ظل غياب الكثير من الحقائق والمعلومات حول أفكار الحوثى وأهدافه السياسية ومصادر تمويله بالمال والسلاح والذخيرة والمتفجرات، مما استدعى استخدام المدفعية والمدرعات والطائرات العسكرية إلى ساحة المواجهة فى صعده وإلى حد سقوط ٨٠٠ قتيل من الجانبين كما لو أنها حرب بين دولتين.

على أنه قدر لهذا التقرير أن نختتمه بخبر سعيد، حيث فتحت الحكومة صدرها وأبوابها لكل يمنى يرغب طوعا فى التنازل عن سلاحه النارى مقابل قدر معلوم من المال، إذ بلغ عدد الذين باعوا سلاحهم وجنحوا إلى السلم زهاء ١٣٥٠٠ مواطن، فى الوقت الذى أطلقت الحكومة نداء إلى الأمم المتحدة والمنظمات الدولية للإسهام المالى فى هذه الحملة الأمنية والإنسانية، كونها تصب فى مواجهة الإرهاب الدولى. ■

حـامد سـعيد

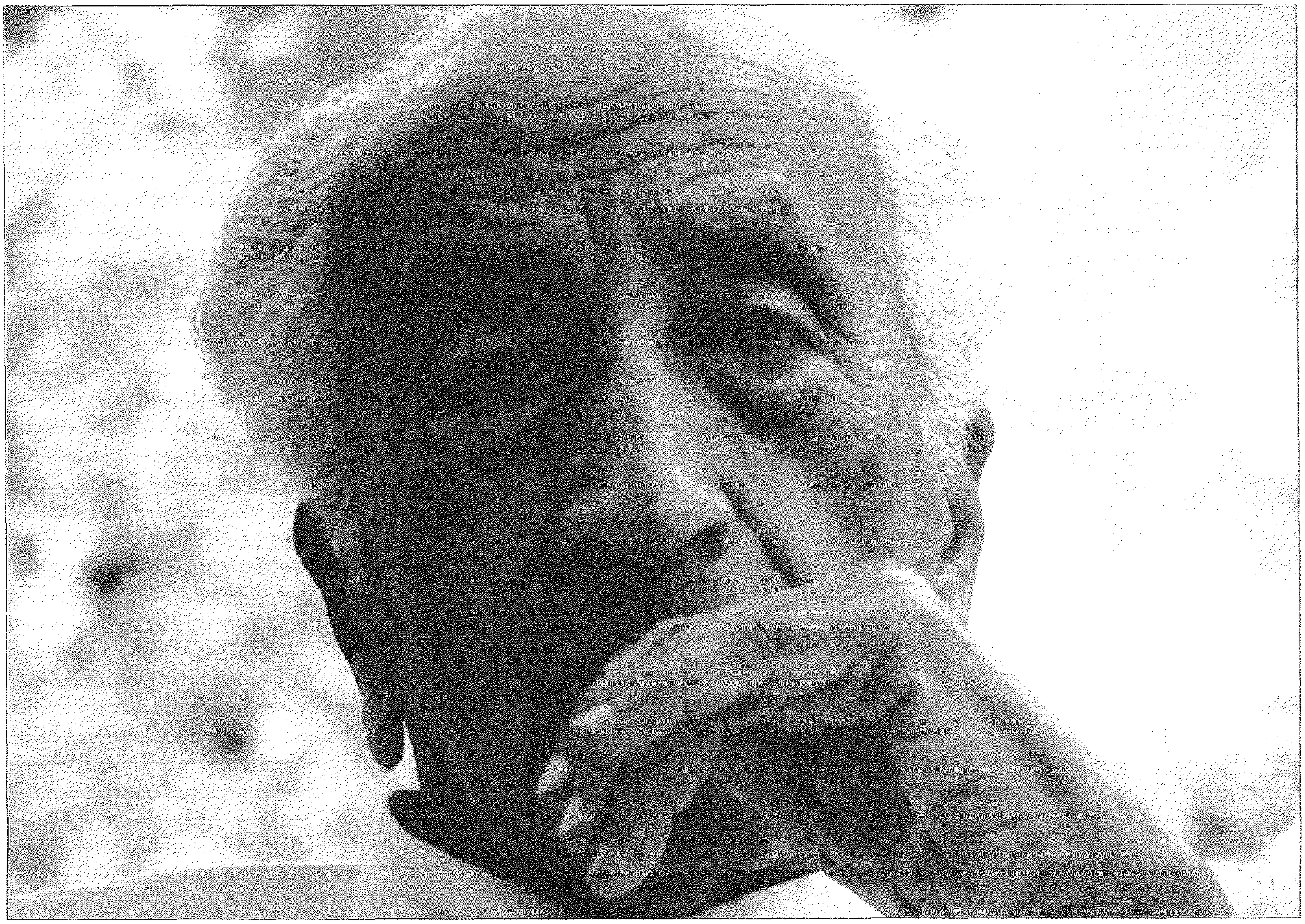
رائد التربية الفنية
راهب الألوان الشاحبة
عاشق القلم الرصاص

مصطفي الرزاز

■■ أكاد أشعر بأن حامد سعيد قد ولد عام ١٩٠٨ بصورة أسطورية، من بذرة مصرية قديمة، ومن سلالة الكهنة الحكماء. كما كان أستاذه حبيب جورجي يؤمن بأن الجينات الوراثية المصرية القديمة كامنة فينا، تفصح عن شخصيتها إن توافرت لها الظروف المواتية. فقد تسنى لي التعرف عن قرب على نشأته منذ الطفولة المبكرة في أوائل القرن العشرين، من خلال رفيق حياته الدكتور عبدالرزاق صدقي، الذي ولد في نفس الاسبوع الذي ولد فيه حامد، وفي نفس الحارة، حارة (الجولشني) بالدرب الأحمر، وتزاملا في نفس المدارس، وتبادلا الإقامة كل في بيت الآخر، وثبتت الأمهات تلك الرابطة الوثقى، إلى أن التحقا معا بمعهد المعلمين العالي، ليتخصصا في التربية الفنية، حيث ينفصل عبدالرزاق تحت ضغط الوالد ليلتحق بكلية الزراعة، ثم يسافر إلى (أدنبره) ليواصل مسيرته المهنية إلى أن يصبح وزير الزراعة مصر في عهد عبدالناصر، ثم مديرا عاما لمنظمة الأغذية والزراعة الدولية التابعة للأمم المتحدة لعشرين عاما.

غير أن افتراق حامد عن صدقي كان مهنيا فحسب، فقد تواصلا الود، وتعددت اللقاءات والمشورات والحوارات الجادة والحميمة، والمشاريع المشتركة، وبينما كان عبد الرزاق في ادنبره، كان حامد سعيد في لندن، يلتقيان وبتراسلان وكانا معا ضمن أعضاء جماعة الدعاية الفنية التي اسسها الرائد حبيب جورجي عام ١٩٢٨. وكانا معا في الجمعية المصرية للفنون الشعبية التي اسسها صدقي عام ١٩٧٥. وكان حامد سعيد مستشارا متطوعا وناصحا أمينا لزميله ابان تقلده وزارة الزراعة، حيث حولا المتحف الزراعي إلى متحف حضاري وفني وفولكلوري من الطراز الأول، يقتني نوادر من أعمال الفنانين الرواد وكبار الفنانين الذين كلفوا بمشاريع فنية، وأسس صدقي بذرة مشروع التفرغ للابداع الفني في وزارة الزراعة، وكان من أوائل المتفرغين في هذا النظام الفنان آدم حنين.

آمن الوزير المتوقد الدكتور ثروت عكاشة بحامد سعيد، ملكاته وقدراته وطموحاته النبيلة فأطلق يده وسانده، ليؤسس مركز الدراسات والبحوث الفنية، في ميدان لاظوغلي، ثم مركز الفن والحياه في شارع أمين باشا سامي بالقصر العيني، ثم في قصر المانسترلي بالروضة وانتقل بعد أن ترك ثروت عكاشة الوزارة بالمركز إلى سبيل أم عباس بالصليبية، ثم ترك العمل العام ليتفرغ في بيته بالمرج الذى صممه له المعمارى



حسن فتحى عام ١٩٣٦ وفرشه بآيات النجارة الإسلامية الرصينة من الحشوات الخشبية والأطباق النجمية المجمعة، يتأمل ويقرأ ويلتقى بمريديه كل يوم أربعاء، ثم الأربعاء الأخير من كل شهر. كان من بينهم علامات هامة من أمثال الأديب يحيى حقى والناقد بدر الدين أبو غازى، والكاتبة نعمات فؤاد. والأساتذة عدلات كمال، عبد الغنى الشال كمال عبيد، يحيى أبو حمدة، نوال حافظ، عايدة عبد الكريم، زكريا الخنانى، هدايت الملوانى، ومن بين الفنانين محيى الدين حسين ومحمود مبروك فضلا عن الفنانة احسان خليل التى أحبها وتزوجها لتظل رفيقة حياته حتى آخر لحظة، كان يقرأ معهم من القرآن ومن الإنجيل، ومن النصوص الصوفية وفى الفكر والعلم والفن والثقافة.

قسم الحكيم «بوذا» العالم إلى طريقين: طريق (السانسار) الذى يقود إلى الوهم والعذاب، وطريق (النيرفانا) الذى يقود إلى الحقيقة والخلاص والفضيلة، وقد اختار حامد سعيد هذا الطريق الثانى صراطا، عزف عن الإفراط والتراخى وعن مخايلة الترف، هادئ الطبع والسلوك، متأملا متساميا، غير باذخ الملبس، رزين الصوت، هامس النغمات، حركاته متئدة، يؤمن بقيم الإيثار والتسامح والمبادأة. تعلم منذ الصغر كيف يقهر جسده، وكانت أدواته فى ذلك الصيام والانتظار والتفكير.

ومن ثم كان قدره التأمل والبحث والتجلى الصامت، وعزف عن استعمال الكهرباء والتليفون والتليفزيون، وضبط إيقاعه مع الغسق ومع الغروب يصحو وينام.

وكان إيمانه بالتراث المصرى القديم غامرا ورأى فيه منافذ لضبط وإصلاح أحوال الوطن ورسم مستقبله بالتسامى والإيمان.

وكان شامخا يؤمن بالكرامة والحرية التى كان يفسرها (بأن تعطى كسيد وتأخذ كسيد).

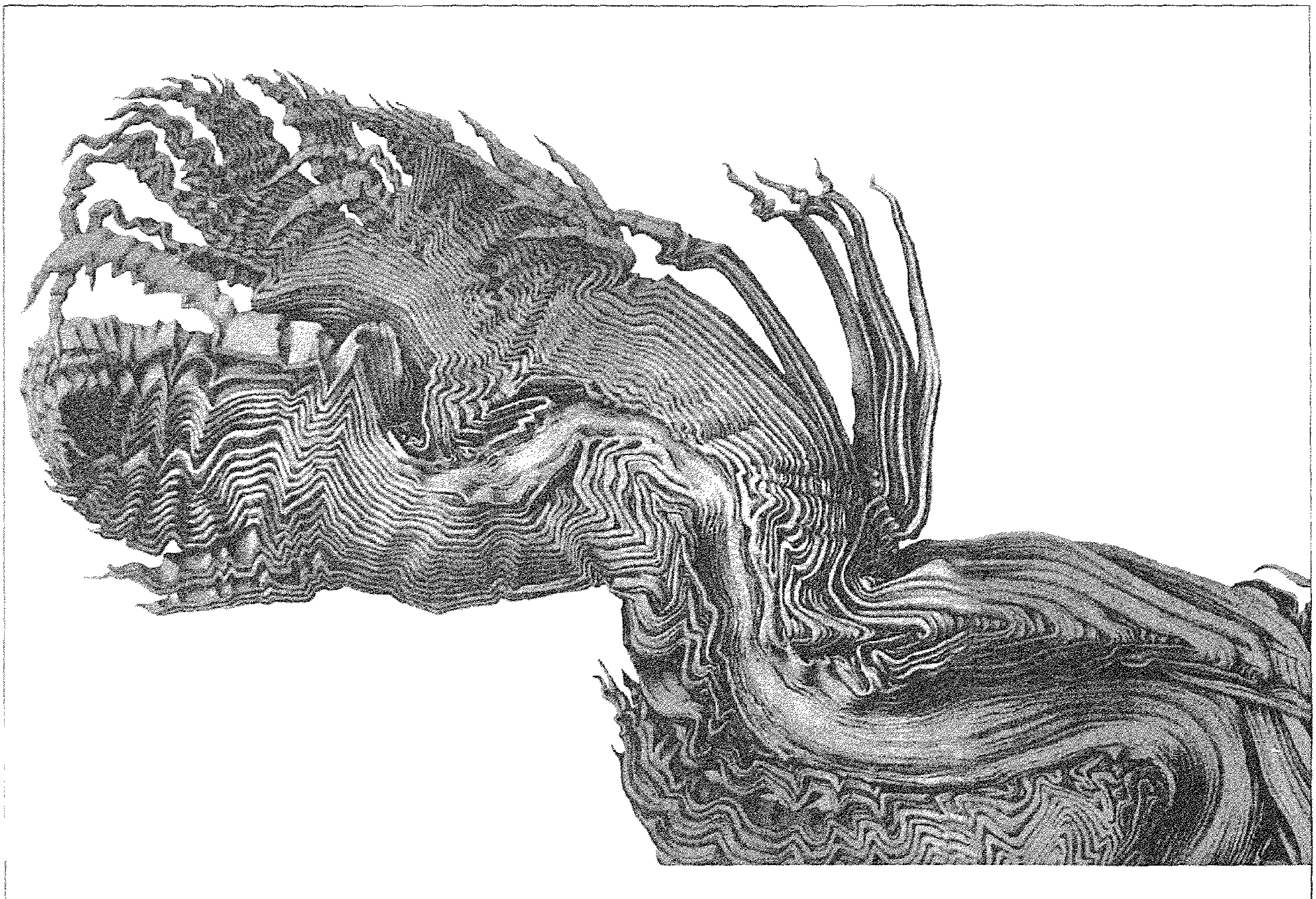
حامد سعيد فنانا:

أثناء التحاقه بجماعة «الدعاية الفنية» مع الرائد حبيب جورجى كان حامد سعيد يرسم بالألوان المائية مشاهد مصرية، ويشارك عبد السلام الشريف ولبيب أسعد وعبد الرزاق صدقى تجربة تصميم تصميمات بتقنية الخيامية التقليدية، ولكن بتصميمات عصرية مرسومة أقرب إلى التراث منها إلى الفن الزخرفى الجديد Art Deco Style.

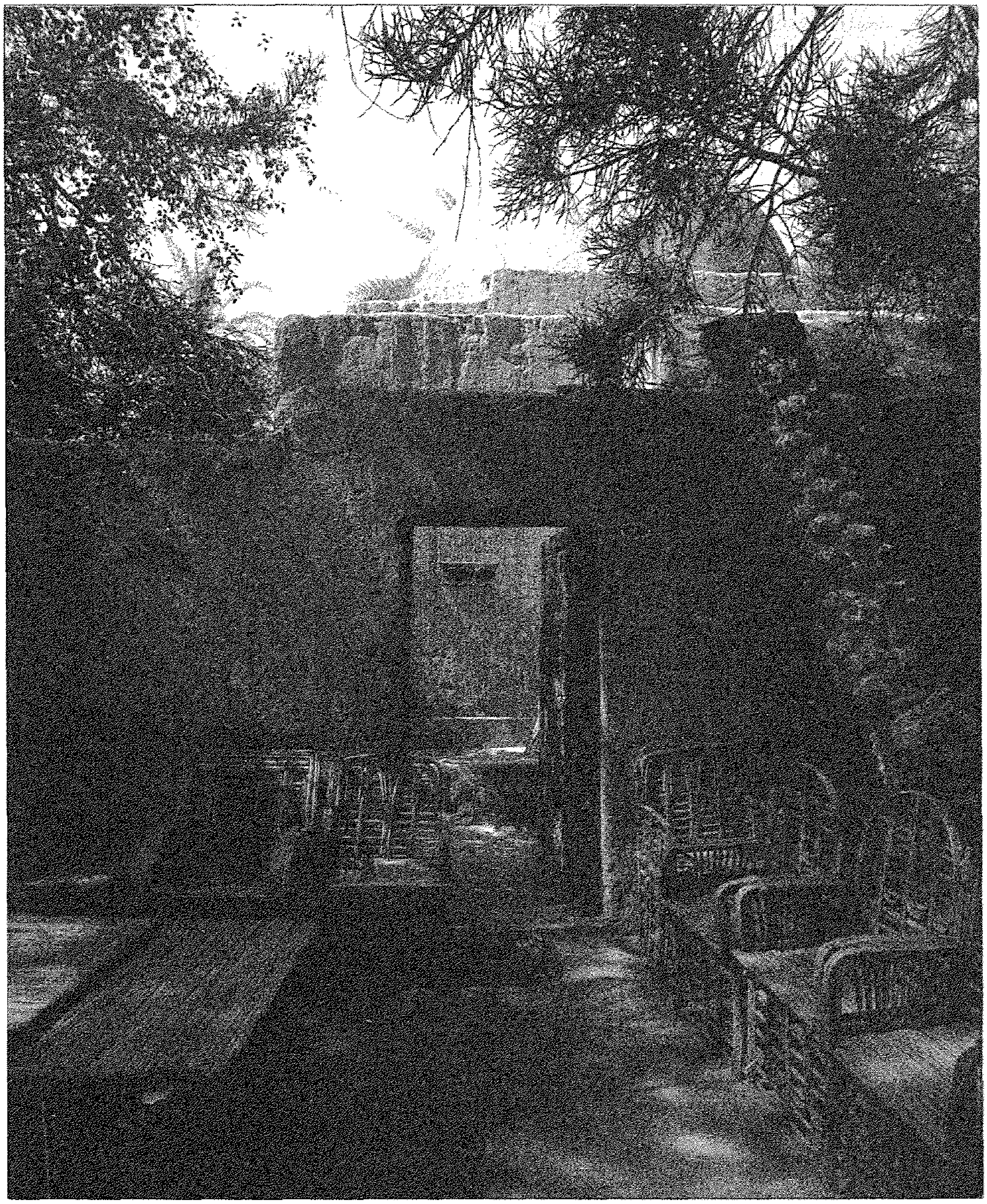
وعندما سافر إلى إنجلترا للدراسة عام ١٩٣٩ لم تفته مناهج التدريس الأكاديمية بمعهد «شلسى» للفنون بلندن. وانتقل طواعية إلى مرسم الفنان «أميدو أوزنفاد». وبعد عودته من لندن تبلورت شخصيته الفنية. متأثراً بمصدرين محوريين، أولهما من قراءاته التأملية فى الصوفية والبوذية حيث توصل إلى القناعة بأن الجمادات معمورة بالروح الشامل، ورأى الكون بكل ما فيه وحدة واحدة، وأن لأصغر جزئياته حضورا فى كليته. أما المصدر الثانى فقد كان الفن المصرى الذى رأى فيه معانى الاستقامة والترفع والورع والاحتشام، وأن فيه شيئا من دقة هندسة التشكيل بالغ الصرامة ورائع اللطف، وكونى الاعتبار، وكان يرى فيه أيضا طموحا نابضا تتوقف عنده الأنفاس.

وقد جاء فنه مرآة لشخصيته ولرؤيته الفلسفية، مختلفا كثيرا عن فن أقرانه ومعاصريه. كان نقائيا خالصا طموحا صابرا، اكتسب الكثير من تتلمذه بمرسم «أميدو أوزنفاد»، رائد النقائية فى لندن سنوات الدراسة، وجعلته قراءاته وتأملاته وتجلياته فى الجانب الصوفى من التراث المصرى القديم والقبطى والإسلامى، ومعها

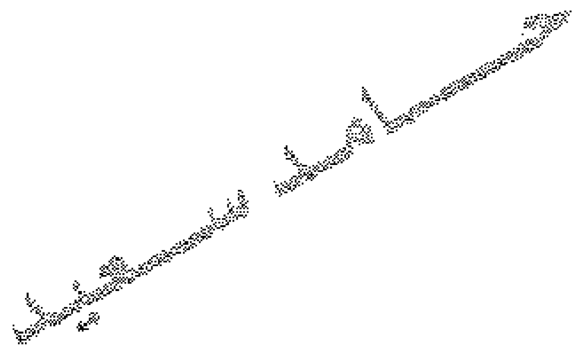
فيلسوف الفن المصرى



فسيلة النخل: رسم بالقلم الرصاص للفنان محمد الحنفى عبدالحميد (جماعة الفن والحياة)



حديقة منزل حامد سعيد
حيث يلتقى مريدوه به



تكوينه الشخصى. جعله كل ذلك أكثر نقائية من أستاذه، فكان يرسم شجرة عناصر الطبيعة بالقلم الرصاص بصورة تأملية تتخطى بكثير مجرد التحديق والتسجيل ومراعاة النسب، إلى التحليق فى قانون النمو فى الطبيعة، والموسيقى الحاكمة لحركات الخطوط والدرجات الظلية.

رسم حامد سعيد أيضاً بالأقلام الخشبية الملونة، وبالألوان المائية الشفافة، بأسلوب يقترب من منهج الرهبان البوذيين، يتميز بالزهد والاحتفال بقيم الهمس البليغ، العازف عن الضوضاء، فاستخدم درجات لونية باهتة شفافة مفرطة فى نقاءيتها، وكان أحيانا يغطى لوحاته كبيرة المساحة بغلالات من الشاشة، للإمعان فى تخفيف الطاقة الصادرة عن الألوان.

فى هذه المرحلة الخصبة من حياته الفنية رسم لوحات كبيرة تتراوح أضلاعها بين الأحد عشر متراً وبين المتر ونصف المتر.

بعناوين أوزريس، ١.٥ × ١٠ أمتار، أنطونيس، ١١ × ١٠ أمتار، وثلاثة جداريات بعنوان نداء السماء، ٢.٥ × ١٠ أمتار.

وستة جداريات من بينها العدالة والثروة البيضاء مقاس كل منهما ٣ × ٧ أمتار.

تلك اللوحات الكبيرة رسمها الفنان بألوان شاحبة متماهية إلى درجة تتطلب معها تركيزاً كبيراً وطويلاً لإدراكها واكتشاف تفاصيلها.

حامد سعيد والقلم الرصاص:

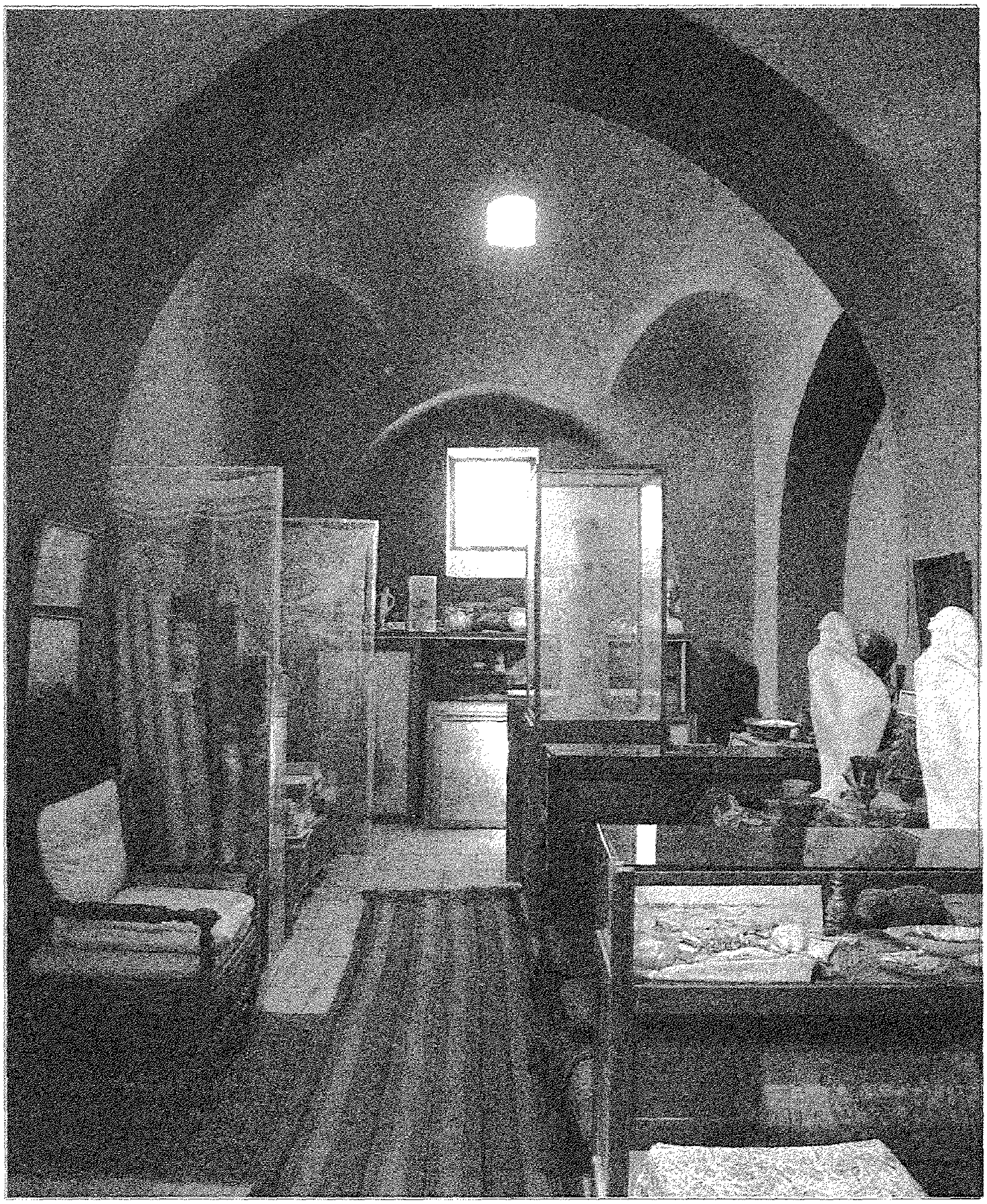
كان حامد سعيد مهتماً بالرسم منذ تلمذته الابتدائية، وعندما حصل على الشهادة الثانوية من مدرسة حلوان الثانوية عمل مدرساً للرسم، حيث كان يصطحب تلاميذه إلى الحدائق لتأمل آيات الطبيعة، والتعرف على جمالياتها وتنوعها الواسع، ودعاهم للرسم المتأنى بالقلم الرصاص.

بقى حامد سعيد فى لندن ثلاث سنوات كانت حافلة بالرسم التحليلى

صورة حامد سعيد فى إنجلترا عام ١٩٣٦



جانب من منزل الأستاذ
حامد سعيد وإحسان خليل



الدقيق فى مرسم «أوزنفاه» بالقلم الرصاص، وكانت له مكانة كبيرة فى هذا المرسم لتميزه بعمق بصيرته.

وحينما عمل بالتدريس فى قسم الرسم بمعهد التربية العالى للمعلمين الذى كان يشغل قصر السلطان حسن بالأورمان. عمد إلى نزع شجرة ميتة فى حديقة المعهد ونقلها إلى المرسم، ودعى الطلاب إلى رسمها بتؤدة طوال العام الدراسى بالقلم الرصاص، مع عرض أمثلة من المستنسخات الواضحة لرسوم الأساتذة القدامى من المكتبة.

كان يبحث عن مكامن البلاغة فى عناصر الطبيعة ونوعية الإيقاع والاتساق، وأن يدربهم على احترام التأمل والتركيز والاكتشاف، من خلال المثابرة فى الرسم الوئيد. وكان دوره أن يحثهم على مواصلة العمل بدون تسرع بينما يتحدث معهم حول إمكانية اكتشاف الكون فى أدق عناصر الطبيعة، ومن ثم تفهم صفات نظام النمو فى كل الكائنات.

بالنسبة لإبداعه الخاص كان حامد سعيد يرسم أشجار السرو وبنفس الزهد والمثابرة بالقلم الرصاص الذى كان الوسيط الأثير لديه فى مرسم «أوزنفاه» وفى منزله بالمقطم حيث رسم الهضبة الصخرية الشاسعة.

وعندما انتقل إلى المرج تآلف مع شجرة نبق عجوز تكتنز أسرار الزمن وظل يتأمل مقاطع منها بالرسم.

عندما أسس حامد سعيد جماعة «الفن والحياة» فى عام (١٩٤٦) واصل مع تلاميذه استخدام أقلام الرصاص كوسيط تعبيرى لرسم مشاهد شاسعة من هضبة المقطم تارة، وفسيلة نخل تارة أخرى، وجذور وسيقان جافة ملتوية وتكوينات من جزئيات من تماثيل قديمة وعظام، عمل صوفى النزعة نقائى الطابع أثيرى الهواء.

هذا هو مشوار حامد سعيد مع القلم الرصاص، الخامة التى يندر أن يلتفت إليها أقرانه فى الحركة الفنية، التى غلب عليها استخدام وسائط الرسم بالألوان الزيتية والباستيل والألوان المائية والفحم أو «الكونتية» لم يشارك حامد سعيد الاحتفال بالقلم الرصاص فى جيله غير «راتب صديق» الفنان العصامى الذى شاركه مرسم «أوزنفاه» ورسم لوحات رائعة بالقلم الرصاص، وسعد الخادم الذى كان فى لندن فى نفس التوقيت، وكان متمرداً على التعاليم الأكاديمية فى معهد «شلسى» للفنون، فرسم بالقلم الرصاص رسوماً تعبيرية متحررة، ورمسيس يونان الذى رسم مجموعة لوحات بالقلم الرصاص يصور فيها أشكال الزلط وهيئات أدمية مكومة ومتداعية.

الطبيعة الأم والبحث عن الكمال:

آمن حامد سعيد كمثل «سيد هارتا» بوحدة الكائنات رغم تنوعها لأن عناصر الطبيعة تكون شيئاً ثم تصبح دائماً آخر، فقالب الطوب النيئ ينطوى عنده على معنى وقيمة فى كل ملمح وكل تجويف فى جفافه وفى رطوبته، فهو عنصر «للبناء من تراب وماء» ... بناء من طين لم تمسسه نار.. إذا اندثر عاد إلى الأرض الأم. يشترك معها فى بناء الحياة.

كان يرى أن «ما نسميه بالجماد معمور بالروح الشامى» ومن ثم يصعد لكونه «يرى الكون كله بكل ما فيه من نوعيات وحدة واحدة، ويعنى حضور الكل فى الجزء».

ومن هنا بزغت عنده «الفن والحياة» التى أسس جماعتها عام ١٩٤٦ بهدف تأمل ورسم الطبيعة المصرية بصورة جماعية، واكتشاف قوانين النمو الخالدة فيها، والوعى بوحدة الكائنات على تنوعها وكان يقول: لقد اكتشفت أنه من النبات نكتشف سر ومنطق الحياة، ومعنى الصدق والعدالة التى يسميها المصريين القدماء ماعت MAAT والتى رمزوا إليها بريشة الناعمة. ويكرر دوماً أن الزراعة Agriculture والثقافة Culture توءمان.

أقامت الجماعة سبعة معارض فى مصر وفى لندن، كما عرضت جماعة الفن والحياة أعمالها فى بينالى فينيسيا عام ١٩٥٦ لتمثيل الجناح المصرى فى هذا العرض الدولى الهام، وقد احتفل بهذا العرض الناقد البريطانى الأشهر السير «هربرت ريد» فى قوله: «عندما تأملت لوحتين أو ثلاثا من مدرسة حامد سعيد، تبينت وجود فن مستقل عن التيارات المعاصرة يتجلى فيها الإخلاص بدرجة لا تسمح بتجاهلها، وليست كلمة الإخلاص كلمة عصرية يمكن استعمالها فيما يتعلق بالفن، ولكنها أول كلمة تبادرت إلى ذهنى وأنا أمام أعمال يتمثل فيها الإخلاص لا للطبيعة بل لخبرة الفنان بالطبيعة،

☚

وما الابتكار والقوة الفنية إلا أثرا من آثار وجود فلسفة معينة وراء العمل الفنى،.... والاشتراك فى مثل هذه الفلسفة بين نخبة من الفنانين المصريين يوضح وحدة معينة في الهدف والأسلوب ولكنها ليست فقط وحدة في العمل الفنى، بل هى كشف عن الوحدة الذاتية ووحدة فى الابتكار...»

علاقة الأستاذ بتلاميذه:

كانت متعتها أن يجتمع مريدوه حوله منصتين، وكان ذلك دافعا على انسياب أفكاره المحلقة وشرح تأملاته.

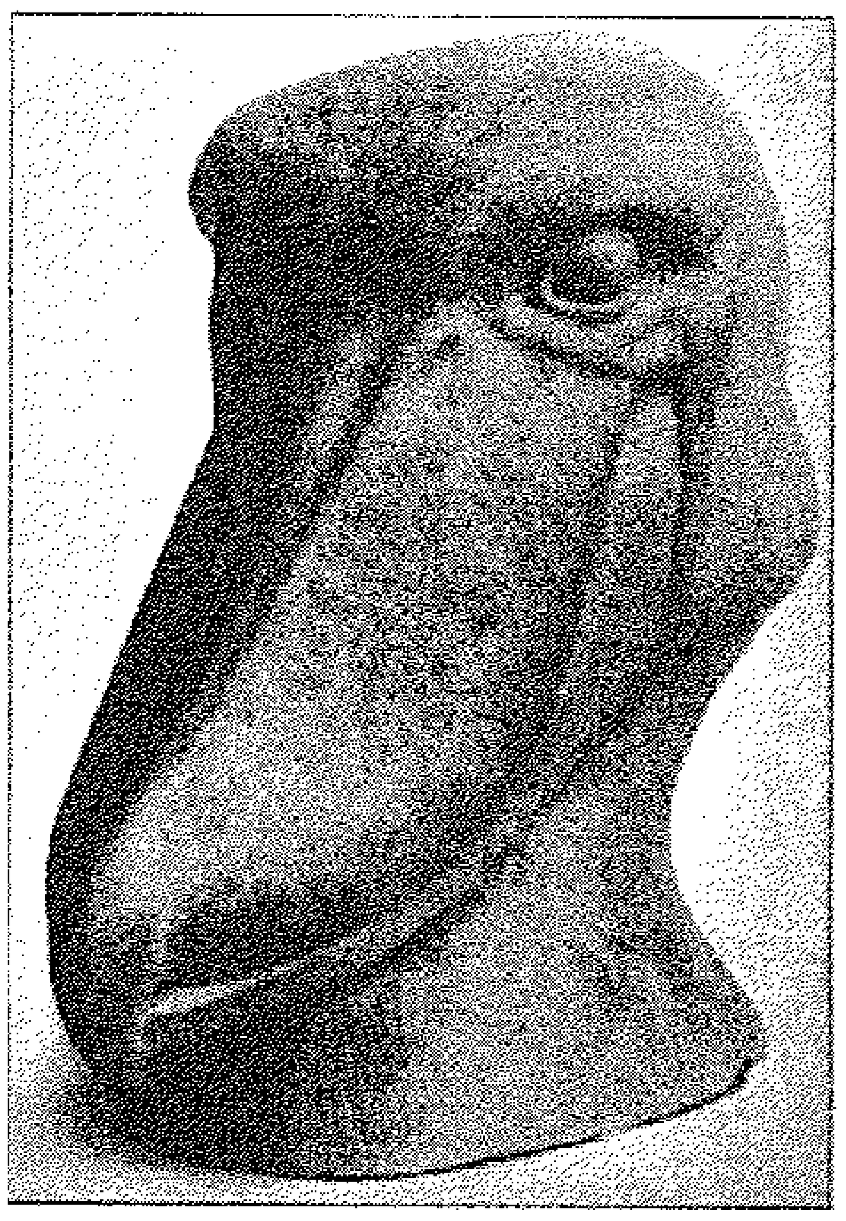
كان تعليم الفن فى زمانه يعتمد على التلمذ حيث يحدد الأستاذ الأسلوب الفنى والوسائل المختارة لأدائه وعلى التلاميذ أن يتتبعوه وفق قدرة كل منهم على الفهم والإتقان والمثابرة.

أما فريق المعلمين من أمثال حبيب جورجى وحامد سعيد وحسين يوسف أمين وسعد الخادم، فقد أضافوا إلى النزعة الأسلوبية وطرق الأداء أفكارا ونظريات مصحوبة بتأويل منطقى، وهدف معنوى، ورسالة عقلية. وقد توحدوا جميعا على علاقة الفكر بالفن بالتراث وبالبيئة من خلال جماعة «الدعاية الفنية» التى أسسها حبيب جورجى عام ١٩٢٨.

يقول الأديب الألمانى المرموق «هيرمان هسه» فى «سيد هارتا» التى يتحدث فيها عن راهب بوذى ومسيرة حياته التأملية. وارتقائه لمستويات الشفافية، يقول على لسان «سيد هارتا»:

«إن المعرفة يمكن نقلها للآخرين، أما الحكمة، إذ يستطيع المرء أن يحصل على الحكمة وأن يتقوى بها وأن يصنع الأعاجيب من خلالها، ولكنه لن يستطيع توصيلها للآخرين». ويقول: «التعبير عن الحقيقة مغلف بانحياز لجانب واحد، وكل ما يمكن التفكير فيه والتعبير عنه فى كلمات له جانب واحد . أى نصف الحقيقة فحسب».

وينطبق ذلك كثيراً على العلامة الأستاذ حامد سعيد. فهو ينقل إلى حواريه المعرفة والتجليات التأملية حولها من زاوية إنحيازه للنزعة التراثية الأصولية فى دفقات متتابعة ولكن



حكمته التى تكونت عبر السنين والجهد والمثابرة، التى عثر عليها وتقوى بها لم تنتقل إلى هؤلاء الحواريين.

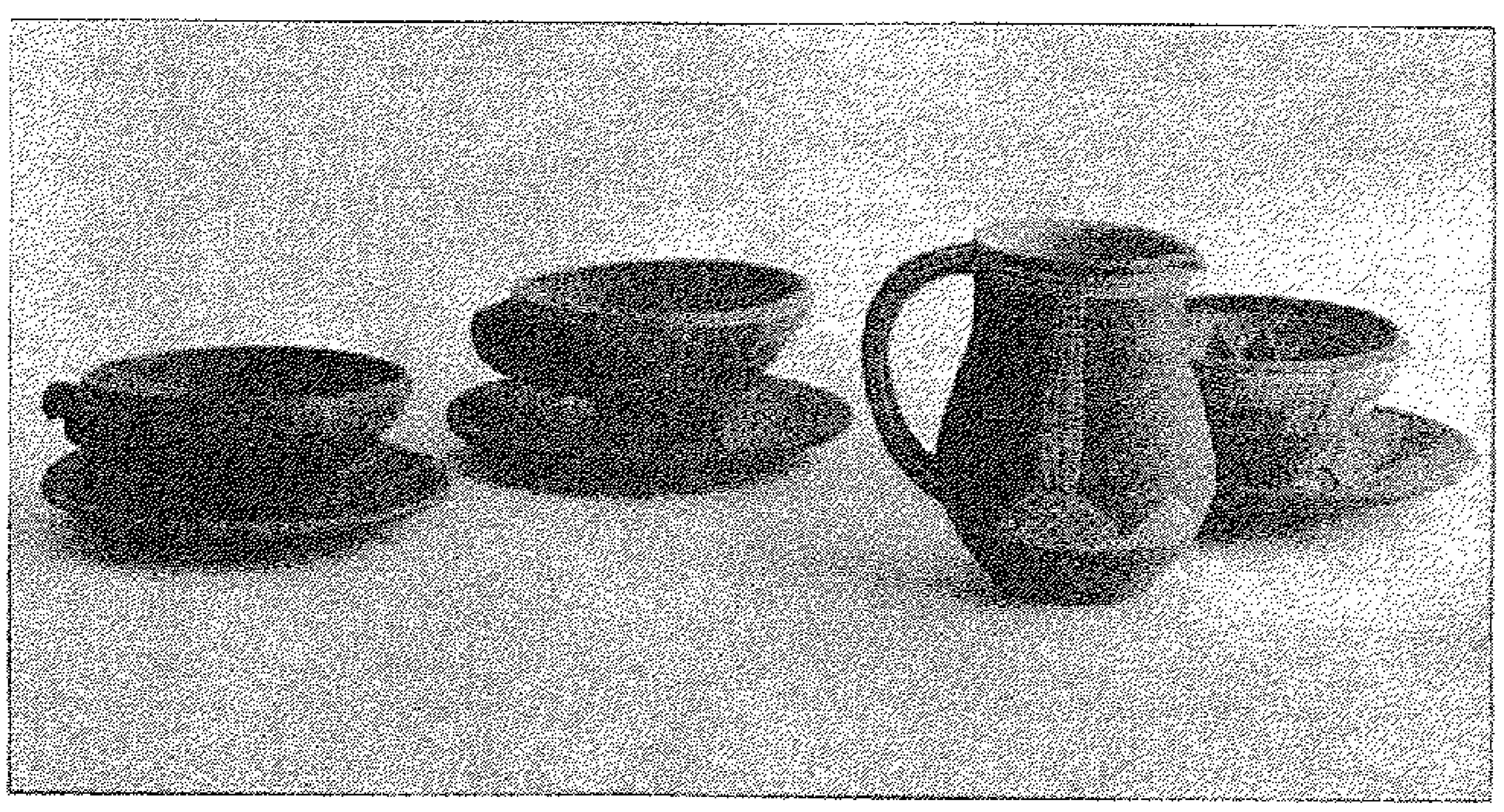
فقد كان فى لقاءاته الأسبوعية كالفنان المبدع يقدم ثمرات تجربته العميقة للمشاهدين، دون أن يستطيع أن يدخلهم فى عالمه الخصوصى الخصب، وأن ينقل إليهم حكمته ليصبحوا حكماء على شاكلته.

تمكن بجدارة وقوة إقناع وعناصر جذب متعددة أن يضع تلاميذه داخل معسكره، وكون منهم كتيبة لتنفيذ أحلامه هو. وهى أحلام نبيلة ولكنها تحتاج مثل سعيه الفكرى ومسيرته الحياتية ليقتنع بها آخرون ويتبنوها الأمر الذى لم يتحقق فى تلاميذه، لقد نقل إليهم عدوى حميدة ولكنهم سرعان ما عزفوا عنها بمجرد نهاية الارتباط الإدارى بانتهاء منحة التفرغ التى حصل لهم عليها من وزير المعارف بقدرته النادرة على الإقناع. وانصراف بعضهم بعد ذلك كلية عن ممارسة الفن، وتوجه النفر الآخر. إلى التعايش مع ما يلائمه من قناعات أسلوبية فى انتاجه الفنى، وأصبح ذلك التحول عنيفا فى مخالفته لأفكار وقناعات الأستاذ، خاصة بالنسبة للفنان محمود عفيفى الذى تحول إلى استخدام ألوان ساطعة قوية وتحديدات سوداء قاهرة وإلى تناول موضوعات تكوينية حياتية وعصرية بما يمثل هجرة كاملة عن أفكار الجماعة. فبمثل الحرارة التى أقبل بها تلاميذ هذه الجماعة إلى ممارسة الرسم التحليلى التأملى النقائى لعناصر الطبيعة، والتراث والمشاهد الخلوية الجبلية، بمثل ما نفضوا أيديهم عنها وبنفس الإصرار والحرارة.

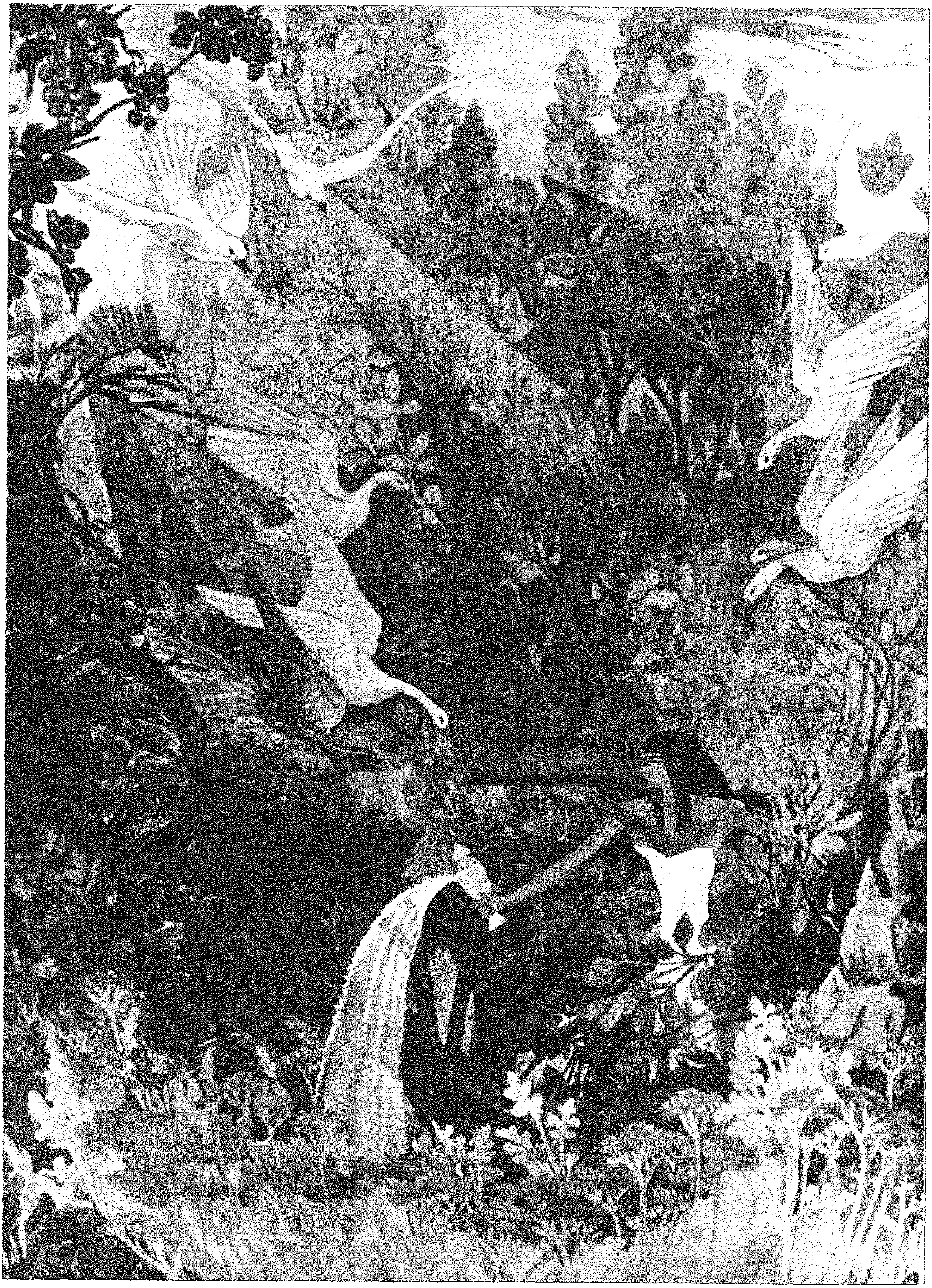
ولذلك فإن حامد سعيد كان كالمبشر الذى اضطر أن يدفع مريديه إلى استعارة عقله وأفكاره وأن يفعلوا ما يفعلونه بأدواته تلك وليس بقناعاتهم الخاصة.


كانت مشكلته إنه كان باحثا بحق، صاحب هدف آسر، وفى سعيه نحو هدفه تعذر عليه لمس متغيرات أخرى مختلفة عما يبحث عنه، كما أن الحكمة كما سبقت الإشارة لا تقبل التوصيل، وتتمخض دائماً عن تطبيقات شكلية عند الحرص على توصيلها للآخرين.

فقد كان حامد سعيد فى تجلياته التأملية العميقة ينفى الزمان، ويرى الماضى والحاضر والمستقبل معاً فى كيان زمانى واحد، ومن ثم ظن أن كل شىء خير كامل، كما يعتقد حكماء البراهمة، وكان يشارك حبيب جورجى فكرة أن التراث لم ينته، وإنما تتوارثه الأجيال، وفقاً لما أشار إليه «كارل يونج» فى فكرة اللاوعى الجماعى و«الماندالا» Mandala، ومن ثم فقد آمن بقوة التراث وبتواجده الحى فى العصر، كطاقة دافعة للمستقبل، بينما كان ينظر للعصر الحديث نظرة ملؤها الريب، «فثقافة هذا العصر عنده متأزمة وزائفة. وأدواؤه الرتابة والسطحية والغرور»، ومن ثم كان يرى أن السبيل للإصلاح ليس بالبناء، ولكن بإعادة البناء وبالعودة من البداية الأولى. ■








سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت



سجاد أطفال
SGS
ISO 9001:2000
SGS
ISO 14001
SGS
ISO 18001
صدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
ادة صلى
www.maccarpet.com

أمين الريحاني

رسائل ومستندات ووثائق

أمين ألبرت الريحاني

تعني «وجهات نظر» بالتاريخ. وتعتمد رواية التاريخ علي الوثائق التي تصبح أحياناً محل جدل يفرضه اختلاف في زاوية النظر، أو في «موقع» الناظرين.

مراسلات أمين الريحاني وتلك المتصلة بها تظل من تلك الوثائق التي لها أهمية خاصة عند دراسة تاريخ المنطقة العربية في فترة مهمة رسمت تفاعلاتها ظلالاً وألواناً وحدوداً علي الخرائط والجغرافيا.

وهنا قراءة تحليلية لتلك الرسائل والتى كانت محل جدل واسع في الأشهر الأخيرة.

وجهات نظر

يبدو أن الملخَصين اللذين أرسلهما أمين الريحانى للخارجية الأمريكية حول رحلته العربية فى مطلع العشرينيات من القرن الماضى أثارا، ولا يزالان يثيران، جدلاً يتراوح بين الشك والاتهام والدفاع عن مواقف الريحانى والبحث فى أسباب تزويده الإدارة الأمريكية بمعلومات عن العرب ظن البعض أنها «سرية». وقبل المباشرة بمعالجة نصوص الملخصين للخارجية الأمريكية، حول الرحلة العربية الكبرى التى قام بها الريحانى عامى ١٩٢٢ و١٩٢٣، لا بد، بادئ ذى بدء، من توضيح النقاط الأساسية الآتية:

أولاً: عدد تلك الملخصات اثنان وفق المستندات والوثائق الموجودة فى الأرشيف الوطنى الأمريكى فى واشنطن العاصمة، ووفق قسم الأرشيف فى متحف أمين الريحانى فى الفريكة، لبنان. قد تكون ثمة وثائق أخرى فى الوثائق الخاصة التابعة لرؤساء الجمهورية الأمريكية، أو وزراء الخارجية، بالإضافة إلى رجال الفكر والأدب فى الولايات المتحدة الأمريكية، بين الأعوام ١٩٠٠ و ١٩٤٠، أى بين تاريخ بداية مراسلات الريحانى لكبار المسئولين فى الإدارة الأمريكية وتاريخ وفاته. أما رسائل الريحانى المتعلقة بالإدارة الأمريكية، والموجودة ضمن مجموعة رسائله الإنكليزية فى أرشيف متحف الريحانى. فقد أفردنا لها مقالة مستقلة تحاول رسم المسارين الفكرى والسياسى البارزين من خلال تلك الرسائل.

ثانياً: تاريخا الملخصين يعودان إلى العامين ١٩٢٣ و١٩٢٥، وسوف نعود إلى هذين النصين رابطين مضامينهما بما ورد فى مؤلفات الريحانى العربية والإنكليزية حول العرب. وليس فى الأرشيف الوطنى الأمريكى فى واشنطن، أو فى أرشيف متحف الريحانى فى لبنان، ما يشير إلى وجود غير هذين الملخصين.

ثالثاً: فى موضوع المبادرة إلى كتابة هذين الملخصين وما إذا كانت كتابتهما قد تمَت بطلب من الحكومة الأمريكية نفسها ونتيجة تكليفها للريحانى بالمهمة المذكورة، أم أن الملخَصين جاءا بمبادرة شخصية من الريحانى، فهذا ما سوف نتبينه فى هذه المقالة. وإذا كان الاحتمال الثانى هو المرجح، كما سوف نبين لاحقاً، فما هى دوافع الريحانى لإعلام الدولة الأمريكية بمهماته العربية؟ فى رسالة القنصل الأمريكى فى بيروت، إدوارد غروث، التى وجهها إلى وزير الخارجية الأمريكية بتاريخ ١٣ كانون الثانى/يناير ١٩٢٤، والمرفقة بملخص الريحانى المؤرخ فى ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٣، يذكر القنصل ما حرفيته: «يشرفنى أن أرسل إليكم، وبناء على طلب من أمين الريحانى، البيان المرفق حول البلاد العربية، والذى قد يكون موضع اهتمام وزارة الخارجية»[1] يتبين من هذه الرسالة، أن ملخص ١٩٢٣ الذى أرسله الريحانى إلى الخارجية الأمريكية حول رحلته العربية هو بمبادرة منه شخصياً وليس بطلب من الحكومة الأمريكية كما ظنَ البعض. أما ملخص ١٩٢٥ فيقول بشأنه القنصل الأمريكى فى بيروت، ب. كنابنشو، فى رسالته إلى وزير الخارجية الأمريكى بتاريخ ٢٣ أيلول/سبتمبر ١٩٢٥، أنه مرسل النص المرفق بطلب منى... بعد أن زارنى أمين الريحانى وأعلمنى عن دوره السلمى بين (السلطان عبد العزيز) ابن سعود والملك على (ملك الحجاز)[2] تكشف هذه الرسالة أن الريحانى زار القنصل الأمريكى أولاً ليعلمه بالدور الذى قام به فى التوسط بين الحاكمين العربيين، وبسبب هذه الزيارة أبدى القنصل الأمريكى اهتماماً بالموضوع فطلب عندئذ من الريحانى كتابة ملخص بالموضوع إلى الخارجية الأمريكية. وهذا إثبات آخر على أن كتابة الملخص الثانى إلى الإدارة الأمريكية سببها المبادرة الشخصية من الريحانى نفسه وليس من أية جهة أخرى.

ويبقى السؤال المحورى: ما الذى دفع بالريحانى للقيام بمثل هذه المبادرة باتجاه الدولة الأمريكية؟ قد تكون الإجابة عن هذا السؤال موزعة إلى ثلاثة أقسام:

١ - تفيد الوثائق الأمريكية أن تجربة الريحانى مع الخارجية الأمريكية إثر سجنه فى المكسيك عام ١٩١٨، لمدة أربعين يوماً ثم نفيه عن البلاد، لم تكن مشجعة، فكل ما يهم الإدارة الأمريكية فى مثل هذه الحالات هو أن يقوم رعاياها بـ «مراعاة القوانين المحلية للبلدان المعنية...»[3] وكأن الإدارة الأمريكية تقول لرعاياها: نحن غير مستعدين للتورط معكم فى نشاطاتكم السياسية، لذلك يُطلب إليكم احترام قوانين البلدان التى تقومون بنشاطاتكم على أراضيها وإلا فنحن لن نتمكن من مساعدتكم إذا ما تعرضتم لأى إجراء من قبل الحكومات المعنية. تجاه هذا الموقف غير المشجع، اعتبر الريحانى أن إرسال ملخص لنشاطاته السياسية إلى الحكومة الأمريكية قد يحملها على الاهتمام بما يقوم به فى حال تعرض لأى إجراء ضده.

٢ - إرسال مثل تلك الملخَصات تعطى الإدارة الأمريكية وجهة نظر الريحانى، فى حال طلبت الخارجية من قناصلها إرسال التقارير حول رحلته، فلا ينظرون إلى مشروعه من وجهة نظر واحدة تخصهم بل من وجهة نظره هو أيضاً. وبالفعل فإن الوثائق الأمريكية تكشف عن طلب الخارجية من قناصلها مراقبة تحركات الريحانى وتزويدها بالتقارير عن هذا الموضوع[4]. فكان من المفيد أن تتلقى الخارجية الملخَصين المذكورين أعلاه من الريحانى نفسه للاضطلاع أيضاً على رأى صاحب العلاقة وصاحب المبادرة.

٣ - رسالة الريحانى إلى هنرى فلتشر، مساعد وزير الخارجية الأمريكية، حول مشروع الرحلة العربية وأهدافه منها، وسعيه للإجابة عن ثلاثين سؤالاً طرحها لنفسه حول العالم العربى وضمنها تلك الرسالة[5]، تدخل فى سياق اهتمام الريحانى وتصميمه على إثارة اهتمام الحكومة الأمريكية حول المشرق العربى وقضاياه وحقه فى تحقيق مبادىء الحرية والسيادة والاستقلال التى كانت أمريكا تنادى بها آنذاك والتى برأيها تشكل حقاً من حقوق الشعوب الصغيرة فى تقرير مصيرها.

على ضوء ما تقدم نراجع نص الملخَصين المذكورين أعلاه ونقارن مع ما ورد فى مؤلفات الريحانى، حول الموضوع إياه، لنرى ما إذا كانت الملخصات تتضمن معلومات إضافية أو مختلفة عن تلك الواردة فى المؤلفات. وغايتنا من ذلك

الرسائل المتبادلة بين أمين الريحانى والخارجية الأمريكية
الأرشيف الوطنى الأمريكى - واشنطن العاصمة
مستندات أرقام ١١٨٨ (ملف رقم ٨٠٠/٤٦٤٤) و١٩٨٥ و٤٤/R ٣١٣ : ١١٢ و٣٢، R ٤٤.
أرشيف متحف أمين الريحانى (ملف الوثائق الأمريكية) - الفريكة - لبنان.

والخارجيـــــــة الأمريكيـــــــة



التحقق من مسألة السرّية أو عدمها في الملخصين.

يتناول القسم الأول من ملخص ١٩٢٣ موضوع الحجاز، ويقع هذا القسم في ١١ صفحة (ص١-١١ من الملخص/ ص ٦٠- ٧١ من ملف الأرشيف الأمريكي في متحف الريحاني)، في حين أن موضوع الحجاز يحتل القسم الأول من الجزء الأول من كتاب ملوك العرب، وهو يقع في خمسين صفحة (ملوك العرب، ج١، ص ٢٢- ٧٢) بعنوان «الملك حسين بن علي». كما يشكل موضوع الحجاز أيضاً القسم الأول من كتاب الريحاني بالإنكليزية Around the Coasts of Arabia (حول الشواطىء العربية) وهذا القسم يحمل عنوان «With King Husein in the Hijaz» يقع في ١١٨ صفحة (ص ٢-١١٩). كذلك تطرق الريحاني إلى موضوع الحجاز في الفصول الأخيرة من كتابه تاريخ نجد الحديث، وتحديداً من الفصل ٣٩ وحتى الفصل ٥١ (ص ٣٣١- ٤٢٦). فمن حيث الحجم نجد أن ملخص ١٩٢٣ حول موضوع الحجاز يختصر مجموع ٢٦٣ صفحة (٥٠ صفحة من ملوك العرب و١١٨ صفحة من Around the Coasts of Arabia و٩٥ صفحة من تاريخ نجد الحديث) في ١١ صفحة من الملخص المذكور. أما من حيث المضمون فما ورد في الملخص يتناول مسألة الوحدة العربية وعثراتها الناتجة عن المشكلات السياسية القائمة بين الملك حسين وسائر الحكام العرب وفي طليعتهم الإمام يحيى ملك اليمن، والسيد الإدريسي حاكم عسير، وابن سعود سلطان نجد، إلى جانب السياسات البريطانية والفرنسية في المنطقة آنذاك التي لم تكن لتسهل العمل باتجاه وحدة الصف العربي.

وهذه المواضيع جميعاً عالجها الريحاني في مؤلفاته ملوك العرب وAround the Coasts of Arabia و تاريخ نجد الحديث وذلك في فصول تتناول بالتفصيل جميع هذه المواضيع.

وعلى سبيل المثال، يستهل ملخص ١٩٢٣ بفقرة تتحدث عن الشريف حسين، ملك

الحجاز، جاء فيها ما ترجمته: «فشل الملك حسين في جهوده كافة كي يصبح ملكاً على دولة موحدة في شبه الجزيرة. لقد اعترفت به إنكلترا وفرنسا وإيطاليا ملكاً على الحجاز، وبعد ذلك مباشرة أطلق الحسين على نفسه لقب «ملك العرب». غير أن أحداً من ملوك العرب اليوم لم يعترف بهذا اللقب باستثناء حاكم شرقي الأردن. فالإمام يحيى ملك اليمن (العاصمة صنعاء)، والسيد الإدريسي حاكم عسير (العاصمة أبها)، وابن سعود سلطان نجد (العاصمة الرياض)، وهم أهم حكام شبه الجزيرة، رفضوا الإصغاء إلى أوامر مكة أو احترام أية سيادة مدنية أو عسكرية من مملكة ليس لها سلطان على شبه الجزيرة»[٦]. النص الإنكليزي لهذه الفقرة يقتصر على تسعة أسطر مطبوعة على الآلة الكاتبة. في حين نجد في كتاب ملوك العرب، ج١، ص ٧٠ وما بعد، فصل «الوحدة العربية» حيث يقول الريحاني: «وليس الأساس، أيها العربي الغيور، في سوريا وفلسطين، بل هو في نجد واليمن وعسير، في الأمراء الأعداء والقبائل المتمردة. فلو تمكن الملك حسين من ضم كلمتهم إلى كلمته، وجمع شتاتهم تحت رايته، لكانت له سيادة تُذلّل عندها عقبات الشمال، وتزول ألوان المناطق السياسية كلها. لكنه، وقد فشل في سوريا وفلسطين، أمسى ولا نفوذ له يُذكر في شبه الجزيرة...» إلى أن يقول: «ومَن من أمراء العرب الذي يعرف بعض الشيء عن زملائه وإخوانه في الجزيرة يعلل النفس بتحقيق تلك الأماني... ولكنها لا تتفق مع أماني الآخرين... قد أدرك جلالة الملك حسين، حتى قبل انتهاء الحرب، وعورة المسلك الذي سلكه في تأسيس دولة عربية، يريدها أولاً سورية، وقد لا يريدها إلا هاشمية...» يتبين للدارس أن ما ورد في الملخص حول صيغة الملك حسين للوحدة العربية أوجزه الريحاني في تسعة أسطر، كما أشرنا، في حين أنه خصص لهذه المسألة فصلاً كاملاً (ملوك العرب، ج١، ص ٦٨- ٧٢). في الملخص سرد مقتضب في بضعة أسطر، وفي الكتاب تحليل ومناقشة وموقف تمتد جميعاً على مساحة فصل كامل. فأيهما الأكثر تفصيلاً، وأيهما الأخطر والأهم؟ وفي كتاب الريحاني Around the Coasts of Arabia فصل بالموضوع ذاته بعنوان «Pan-Arabia» (ص ١١٥- ١١٩) يتضمن نصاً يشكل شرحاً للفقرة الواردة في ملخص ١٩٢٣. يقول الريحاني:

The foundation, to be sure, is not in Syria and Palestine, but in Najd and Al-Yaman, and Asir. The foundation is in making up with enemy Ameers and putting down rebellious tribes. If King Husein had been to gain them to his side and unite them under his standard, his would have been a power before which all the opposition in the north would cease and all the colours of the political zones would disappear. But his failure in Syria and Palestine left him without any authority to speak of in the peninsula proper.

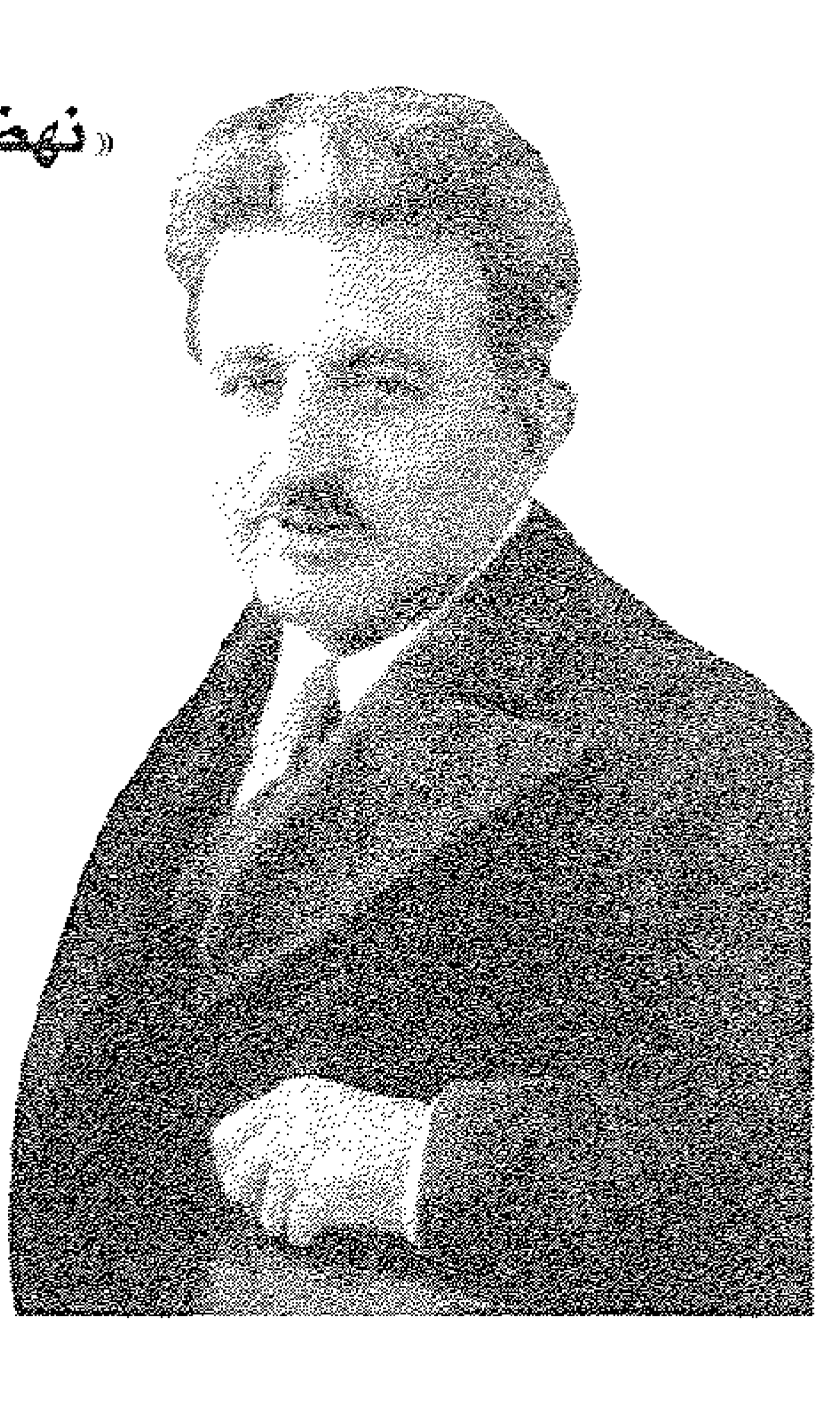
هذا النص المستل من كتاب الريحاني الإنكليزي حول الشواطىء العربية يكاد يكون مطابقاً بصورة حرفية مع نص ملوك العرب، والنصان يشرحان تصور الملك حسين للوحدة العربية والصعوبات التي يواجهها في هذا السبيل، فأين السرية في موجز يضعه في أسطر لما نشره مفصلاً في مؤلفاته العربية والإنكليزية على السواء حول الموضوع ذاته؟

وعلى سبيل المثال أيضاً، يتحدث الريحاني، في ملخص ١٩٢٣، عن بيع إيطاليا الطائرات للملك حسين ومنحها باخرتين له واحدة تُدعى «الطويل» وأخرى «رشدي» وذكر حمولة كل منهما.[٧] أما في كتاب تاريخ نجد الحديث، الفصل الخمسون بعنوان «المناجزات والمكالمات»، فقد جاء على الصفحة ٤٠١: «دفعت الحكومة سبعة آلاف ليرة إنكليزية ثمن ثلاث طائرات قديمة جاءتها من لندن، وهي لا تساوي بالأكثر غير ألف وخمسمائة ليرة. قبل أن تجئ هذه الطائرات كان عند الحكومة الهاشمية خمس إيطاليات لا يصلح منها للعمل غير واحدة. ثم جاءها من ألمانيا في الصيف ست طائرات جديدة تحمل الواحدة من البنزين ما يكفيها لتطير ست ساعات، وهي مجهزة بالمدافع الرشاشة، ومعها قنابلها الخاصة بها. أما الطيارون فقد كانوا في أول الحرب روسيين من الحزب القيصري، وكانوا في آخرها من الألمان. وكانت تجيء الموانىء الثلاثة أي رابغ والليث والقنفذة كل خمسة عشر يوماً بواخر هندية وخديوية وإيطالية، تجيئها من عدن ومصوع والسويس، حاملات الأرزاق ولم تتمكن الحكومة الهاشمية... أن تصادر إلا قليلاً مما كان يصل من هذه الثغور إلى مكة. وما كانت دائماً موفقة حتى بذلك القليل. فقد صادرت «الطويل» مرة خمسة سنابك إيطالية مشحونة من مصوع إلى الليث وجاءت بها إلى جدة فاحتجت الحكومة الإيطالية...».

وجاء في الملخص حرفياً عن الموضوع نفسه: «تعمل إيطاليا ما بوسعها للتدخل لدى حكومة الملك حسين وذلك لمنافسة إنكلترا في البلاد العربية، وفرنسا على الشواطىء الشرقية الجنوبية لإفريقيا. فقد باعت إيطاليا للملك حسين ست طائرات، ثم أعلنت أن الطائرات هدية لجلالته. كذلك منحته (إيطاليا) باخرتين صغيرتين كانتا في ميناء مصوع تبلغ حمولة الواحدة منهما من مائتين إلى ثلاثمائة طن، وهاتان الباخرتان، تُسمى الواحدة «الطويل» والأخرى «رشدي» (نسبة إلى محصل الجمرك قائد الحامية في جدة). وهما اللذان أرسلا إلى «مصوع» لشرائهما. والسفينتان ترفعان علم الحجاز وتجولان الساحل من جدة إلى العقبة»[٨] فهل يكون هذا الإيجاز من باب الأسرار، وقد وردت مفصلة في الكُتب المنشورة للمؤلف؟ نحن هنا أمام نصوص تَردُ افتراض السرية في ملخص ١٩٢٣. فما جاء في تاريخ نجد الحديث للريحاني حول التدخل الإيطالي يقع في صفحة تتجاوز الاثنين والعشرين سطراً، في حين أن ما ورد في الملخص المذكور حول الموضوع نفسه يقع في فقرة واحدة لا تتجاوز الأسطر الثمانية. وواضح أن المادة تكاد تكون نفسها في النصين مع الاختلاف أن التفصيل جاء في الكتاب، والإيجاز ورد في الملخص.

وإذا شئنا أن نسترسل في الأمثلة فهنالك الكثير، نذكر منها باختصار ما يلي: في الملخص إشارة عن الكلية العسكرية في مكة (سطر واحد) وفي ملوك العرب، ج١، ص ٥١، يتحدث الريحاني عن المدرسة الحربية بشيء من التفصيل (١٤ سطراً). كذلك نقع في الملخص على كلام حول مستشفى مكة (٤ أسطر) وفي ملوك العرب، ج١، ص ٣٧- ٣٨، يتوقف الريحاني بالتفصيل عند مستشفى مكة (٢٢ سطراً). فهل هنالك من سرية في مثل هذه التفاصيل التي يذكرها الريحاني مقتضبة في ملخصه للخارجية الأمريكية، ومفصلة في مؤلفاته عن العرب، المنتشرة في مختلف أنحاء العالم؟

وننتقل إلى القسم الثاني من الملخص وهو المتعلق بـ«نجد أو وسط شبه الجزيرة العربية». يقع هذا القسم في ١٣ صفحة (ص ١٢-٢٥ من الملخص/ ص ٧٢-٨٥ من ملف الأرشيف الأمريكي في متحف الريحاني)، في حين أن موضوع نجد وسلطانها يحتلان القسم الأول من الجزء الثاني من ملوك العرب، وهو يقع في ١٥٥ صفحة (ملوك العرب، ج٢، ص ٤٩٠- ٦٤٥) بعنوان «السلطان عبد العزيز آل فيصل آل سعود». كما يشكل موضوع نجد وسلطانها مادة كتاب كامل بالإنكليزية بعنوان Ibn Saoud of Arabia, his People and his Land (ص ١- ٣٥٩)، ومادة جزئية من كتاب تاريخ نجد الحديث (ص٣٣١- ٤٥٧). فمن حيث الحجم نجد أن ملخص ١٩٢٣ حول موضوع نجد يختصر مجموع ٤٤٠



«نهضت ذات ليلة من نومي، عند صياح الديك، وأنا أتصوّر نفسي أكبر من أمريكا!»

أمين الريحاني، كتاب «المغرب الأقصى»

صفحة (١٥٥ صفحة من ملوك العرب و٣٥٩ صفحة من Ibn Saoud of Arabia, his People and his Land و١٢٦ صفحة من تاريخ نجد الحديث) في ١٣ صفحة من الملخص المذكور. أما من حيث المضمون فما ورد في الملخص يتناول مكانة السلطان عبد العزيز «كأقوى حاكم عربي اليوم»، وخلاصة تاريخ ابن سعود في السنوات الثلاثين الأخيرة، ومؤتمر العقير لترسيم الحدود النجدية مع جيرانها، والحركة الوهابية، والقوى العسكرية لابن سعود، والهجر، ومسألة النفط العربي وامتيازاته. وجميع هذه المواضيع قد عالجها الريحاني في مؤلفاته العربية والإنكليزية حول ابن سعود.

ونأخذ مؤتمر العقير، على سبيل المثال، لنجد أنه ورد في الملخص في أربع صفحات (ص ٢١- ٢٤/ ٧٩- ٨٢) في حين أن هذا الموضوع تمت معالجته في ملوك العرب، في تسع صفحات (ملوك العرب، ج٢، ص ٥٤٧- ٥٥٥) وفي تاريخ نجد الحديث، في سبع صفحات (تاريخ نجد الحديث، ص ٣٠٨- ٣١٥) وفي Ibn Sa'oud of Arabia, his People and his Land، في عشرين صفحة (ص٦٩- ٨٩). ورد في ملخص ١٩٢٣ عن مؤتمر العقير ما يلي:

«The Conference of Oqair opened on November 28 and closed on December 23, 1922. It settled a few things and left a few things as a leaven for future conferences... The northern border-line of Najd was defined...

(summary of 1923, pp. 22-23)

وجاء في مؤلف الريحاني الإنكليزي حول الموضوع نفسه ما يلي:

Aside from the boundary and tribal disputes that were temporarily settled, and the neutral zones that were established between Iraq and Najd, and between Najd and Kuwait (Ibn Sa'oud of)....at this conference Arabia.

وجاء في ملوك العرب (ج٢، ص٥٥١): «إن العشائر، خصوصاً عشائر العراق، لا ترتاح إلى حكومة قوية شديدة الساعد، بل لا تبغيها... الاخصائيون من البدو الخبراء بأرض الشمال وحدودها وأماكن الماء فيها، يؤمون من حين إلى حين خيمتي الصغيرة. فرأيت أن رغبة الفريقين بالسلم رغبة حقيقية، وأن السعي مع ما تخلله من وعيد وتهديد ظل متواصلاً حتى النهاية، فكللت في اليوم الخامس أعمال المؤتمر بالنجاح». وجاء في تاريخ نجد الحديث (ص ٣١٣): «قد تم الاتفاق بين السلطان ومندوب العراق على الحدود النجدية العراقية، وتقررت بقعة الحياد بين البلدين... وفي هذا التحديد تقرر أيضاً مصير العمارات والظفير الداخلتين في أرض العراق، المعدودتين الآن من عشائره...» لن نسترسل في مثل هذه المقارنات، ولكن يتضح مما تقدم أن مضمون النص يكاد يكون واحداً، مع فارق بسيط أن الملخص يوجز، والمؤلفات تتوسع بشيء من التفصيل حول طبيعة المناقشات التي حصلت في المؤتمر. فهل من سرية في موضوع مذكور في مؤلفات الريحاني مفصلاً، ومشار إليه في ملخصه بإيجاز كلي؟

غير أن ملخص ١٩٢٥ يختلف عن سابقه لكونه ينحصر في مسألة محددة أوردها الريحاني في العنوان اللافت: «رسالتي السلمية في الحجاز» My Peace Mission in Al-Hijaz. يقع الملخص في ١٣ صفحة (ص١- ١٣ من الملخص/ ص ٩٥- ١٠٧ من الأرشيف الوطني الأمريكي في متحف الريحاني). ويتناول الريحاني موضوع الخلاف بين الشريف حسين والسلطان عبد العزيز ورسالته السلمية ووساطته في الحجاز ضمن مؤلفه تاريخ نجد الحديث وذلك في خمسة وعشرين فصلاً تقع في ١٠٧ صفحات. فمن حيث الحجم يلخص الريحاني أكثر من مائة صفحة في نص يوجزه في أقل من ١٣ صفحة. أما من حيث المحتوى فهو يبدأ ملخصه بسقوط الطائف (تاريخ نجد ٣٣١- ٣٣٥) ويتبعه الحديث عن رسل السلام (تاريخ نجد ٣٥٥- ٣٥٨) والمفاوضات (تاريخ نجد ٣٨١- ٣٨٧). وفي أسفل الصفحة الخامسة يتضمن الملخص «مذكرة» كان الريحاني قد أرسلها إلى السلطان عبد العزيز بعد وصوله إلى مكة. وتمتد تلك المذكرة حتى منتصف الصفحة السابعة (ولنا عودة إلى المذكرة). ويتابع الملخص إيجاز الأحداث وهي إغارة الطائرات (تاريخ نجد ٣٨٨- ٣٩٥) والمناجزات والمكالمات لتحقيق السلام (تاريخ نجد ٤٠٠- ٤٢٠).

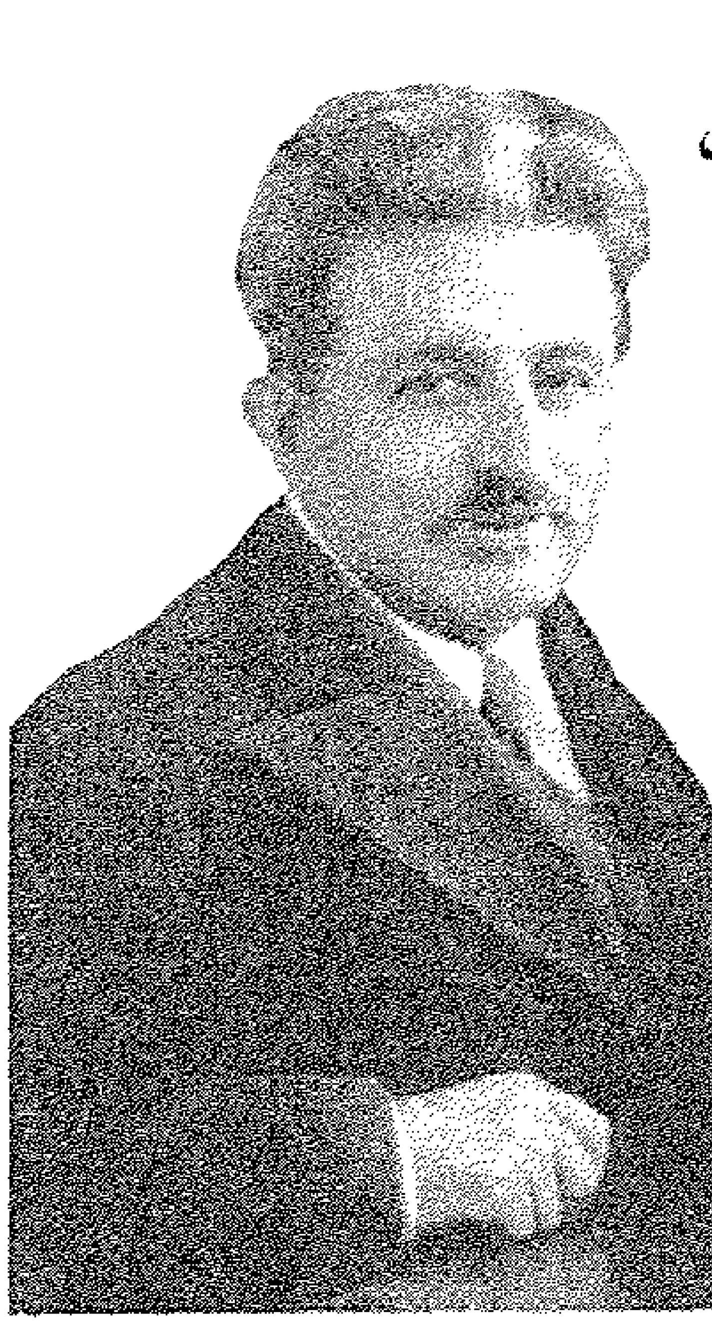
نعود إلى المذكرة لنجد أن الريحاني قد أوردها في ملخص ١٩٢٥ ولم ينشرها في أي من مؤلفاته عن العرب، رغم أنه أتى على ذكرها في تاريخ نجد بقوله إلى السلطان عبد العزيز: «إني مرسل مع (حسين) العويني[٩] كتاباً من وجهاء المسلمين في بيروت، ومذكرة ضمنتها آرائي في الحالة الحاضرة...» (ص ٣٨٥). والسؤال لماذا لم ينشر الريحاني تلك المذكرة في كتابه تاريخ نجد الحديث؟ أعتقد أنه عندما نشر الكتاب كانت الخلافات بين الحجاز ونجد قد انتهت وآلت إلى إعلان السلطان عبد العزيز ملكاً على الحجاز، وتم توقيع اتفاقية تسليم جدة (تاريخ نجد ص ٤٢٧- ٤٣٠، و٤٥١- ٤٥٣) بحيث مضى الزمن على تلك المذكرة التي كانت تسعى إلى حل سلمي لم يتم. فنشرها في الكتاب لا يضيف كبير شيء لأن الأحداث كانت قد تجاوزتها. أما لماذا ضمن تلك المذكرة في ملخص ١٩٢٥ إلى الخارجية الأمريكية، فالتفسيرات عديدة. منها أن الريحاني شاء أن يثبت للأمريكيين أن الدور السلمي الذي سعى إليه بين ملك الحجاز وسلطان نجد لم يكن دوراً خلافياً ينحاز فيه مع فريق دون آخر، ولم يكن دوراً كلامياً بل أتبعه بمذكرة تتضمن آراءه التي يعتقد أنها تفيد السلام في تلك المنطقة من العالم. ومنها أن الريحاني شاء بصورة غير مباشرة أن يرد على التقارير الأمريكية والبريطانية حول رحلته العربية فملخص ١٩٢٥، مع المذكرة التي تضمنته، يعطي الفرصة للخارجية الأمريكية أن تستمع إلى وجهة نظره، هو أيضاً، إلى جانب وجهات النظر البريطانية والأمريكية الرسمية حول الموضوع. ومن تلك التفسيرات أيضاً ما يتلاءم وموقف الريحاني في الأساس من أنه يسعى باستمرار إلى إثارة اهتمام الإدارة الأمريكية حول قضايا العرب وشؤونهم وشجونهم وتطلعاتهم المعاصرة.

أما مضمون المذكرة فيقع في خمس عشرة نقطة يمكن توزيع مواضيعها، بين المذكرة ومقارنتها مع مؤلفات الريحاني، على الوجه الآتي:

١ و٢: نقطتان تتحدثان عن التدخل الأجنبي وعن سعي بريطانيا وفرنسا لمحاربة أي استقلال لأية دولة عربية. وفي هذا الصدد يذكر في ملوك العرب (ج١، ص ٣٥٨): «المطلوب اجتماع الكلمة القومية وتوحيد السياسة على وجه يرضاه الله وتصلح به أحوال البلاد من غير تدخل أجنبي يخل باستقلال البلاد العربية...» ويذكر في كتابه Arabian Peak and Desert (ص ٢٣٠): «But they (the British) cannot escape censure for pursuing, even after Armistice, the same ill-fated policy that has the tendency of widening the breach between the various rulers of Arabia.

٣: عن الوحدة العربية وقطبيها: الشمالي الشرقي في سوريا وفلسطين، والجنوبي الغربي في نجد والحجاز وسائر شبه الجزيرة، وتفاهم حكام العرب شرط من شروط الوحدة. ونقرأ في ملوك العرب (ج٢، ص٩١٩): «لا أمل في تحقيق الوحدة العربية الكلية اليوم. فهل من الممكن أن يتفاهم ملوكها ويتآلفون؟ أجيب: نعم. وأقول فوق ذلك إنه من الممكن أن يؤلفوا وحدتين أوليين تقسمان شبه الجزيرة شطرين في الحكم كما قسمتها الطبيعة، أي الشطر الغربي والشطر الشرقي...»

الريحاني شاء أن يثبت للأمريكيين أن الدور السلمي الذي سعى إليه بين ملك الحجاز وسلطان نجد لم يكن دوراً خلافياً ينحاز فيه مع فريق دون آخر، بل أتبعه بمذكرة تتضمن آراءه عن السلام بالمنطقة



ثم نقرأ في كتابه Ibn Sa'oud of Arabia (ص ٣٩) مخاطباً الملك عبد العزيز: «I am certain that Arab unity can only be realized by a meeting of all the ruling Ameers for acquaintance first and a common understanding...».

٤-٥: الإفادة من التناقضات السياسية بين فرنسا وبريطانيا. نقرأ في تاريخ نجد (ص٣٢٥) في وصف الريحاني لاستقبال الملك حسين في عمان: «صعد الخطباء... وطفقوا يخطبون... مهددين الإنكليز والفرنسيين... لتحيا النهضة العربية وليسقط الاستعماريون والمستعبدون!» ويعطي الأمثلة على تلك السياسة الاستعمارية في كتابه Arabian Peak and Desert (ص٢١٧) England had closed Hudaidah to the Imam, and France, to spite England, and get in the bargain a few of the Imam's bags of gold, would open Mokha to the Yeman trade... كما نقرأ في ملوك العرب (ج٢، ص ٩٢٢) ما يقوله الريحاني عن الملوك العرب وأمرائهم: «إذا وحدوا سياستهم يعتزون ويتخلصون من تدخل عمال الإنكليز، ذلك التدخل الذي يئنون كلهم منه. وإن بريطانيا لتكتسب ثقة العرب وحبهم إذا قبلت بمثل هذا الإصلاح وفيه ضمان مصالحها».

٦-٧: تتحدث المذكرة عن فوائد المعاهدات بين ملوك العرب وأمرائهم. ويتحدث الريحاني في ملوك العرب عن الموضوع نفسه (ج١، ص ٢١٨- ٢٢٤، ٣٥٣- ٣٦١، وج٢، ص ٥٥١- ٥٥٥، ٨٤٠- ٨٤٦).

٨-٩: تتناول المذكرة العلاقة المتشابكة بين الاستعمار والبلاد العربية وسائر البلاد الإسلامية. ويعرض الريحاني رأيه في هذه العلاقة المتشابكة في ملوك العرب (ج١، ص ٢٩، ٦١، وتاريخ نجد، ص ٢٣٥- ٢٣٦، ٢٤٧، ٢٤٨- ٢٥٧، ٣٣١- ٣٤١، ٣٥٣).

١٠-١١-١٢-١٣: تتوقف المذكرة في هذه النقاط عند الملك علي بن الحسين وموقف العالمين العربي والإسلامي منه. ويتناول الريحاني الملك علي والعالم الإسلامي في تاريخ نجد (ص ٣٣٦- ٣٥٥، ٣٧٦- ٣٧٨، ٣٨٩- ٤٠١، ٤١٢، ٤١٧- ٤٢٠، ٤٢٥، ٤٥١- ٤٥٣)، وفي ملوك العرب (ج١، ص ٦٨- ٧٢)، وفي كتابه round the Coasts of Arabia (ص ١١٥- ١١٩).

١٤: تتحدث المذكرة عن تطور الأحداث بين الحجاز وشرقي الأردن. ويتحدث الريحاني عن هذا الموضوع في تاريخ نجد (ص ٣٢٤- ٣٢٧).

١٥: تتحدث المذكرة عن الوضع العسكري القائم في الحجاز آنذاك وأهمية الإفادة من عنصر الوقت وتوظيفه في مسعى السلام. ويتحدث الريحاني عن هذا الموضوع في تاريخ نجد (ص ٤٠٠- ٤٢٠).

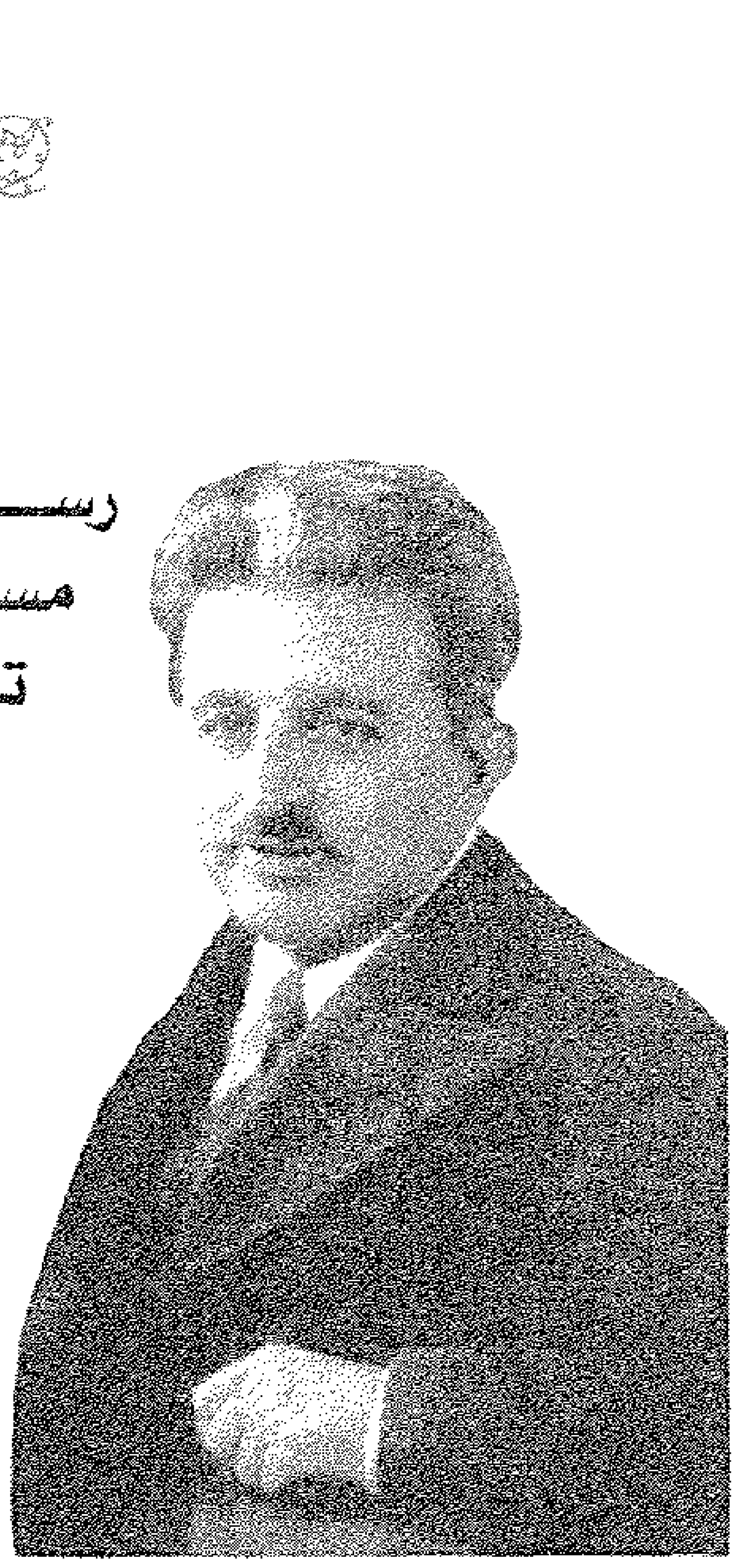
وكأن الريحاني، بعد كل ذلك، قد توقع شك المشككين، أو اتهام المتهمين الذين يجهلون حقيقة مدرسته الفكرية، فما ظن يوماً أن اتصالاته بالإدارة الأمريكية يجب، أو يفترض، أن تكون اتصالات «سرية» كما يحلو للبعض أن يعتبرها. إذ كيف يمكن أن تكون اتصالات سرية تلك التي تدق أبواب الدولة الأمريكية لطرح تطلعات العرب وسعيهم للحرية والاستقلال والتفاهم في ما بينهم؟! كيف تكون اتصالات سرية تلك التي تُسمع الإدارة الأمريكية الرأي المدافع عن فلسطين؟! كيف تكون اتصالات سرية تلك التي تُعلم الأمريكيين بسعي الريحاني لوحدة الصف العربي ووحدة الكلمة العربية؟!! لذا نجد الريحاني مشيراً في مؤلفاته إلى اتصالاته بالخارجية الأمريكية كجزء من مشروعه العربي النهضوي الكبير. (ملوك العرب، ج١، ص ٧٩- ٨١، وAround the Coasts of Arabia (ص ٣٤٣- ٣٤٥).

وقد بدأت تلك الحملات المشككة في حقيقة مشروعه العربي منذ رحلته العربية بالذات، إذ يذكر في ملوك العرب (ج٢، ص ٥٢٢) على لسان الملك عبد العزيز: «قالوا لنا إنك أمريكي وجئت تبشر للدين المسيحي في البلاد العربية، وقالوا إنك تمثل بعض الشركات وجئت تبغي الامتيازات، وقالوا إنك قادم من الحجاز وإنك شريفي تسعى لتحقيق دعوة الشريف، وقالوا غير ذلك. فقلنا إذا كان في الرجل ما يضر فنحن نعرف كيف نتقيه. وإذا كان فيه ما ينفع فنعرف أيضاً كيف ننتفع. ونحن أعلم، يا حضرة الأستاذ، بمهمتك. بارك الله فيك». كذلك نقع على التعليق نفسه بالإنكليزية في كتاب الريحاني Ibn Sa'oud of Arabia (ص ٣٨- ٣٩). فها قد أجاب الملك عبد العزيز على المشككين في أهداف الريحاني الوطنية وغاياته القومية منذ نحو خمسة وثمانين عاماً. وها هو الريحاني نفسه يجيب الإمام يحيى بن حميد الدين، ملك اليمن، موضحاً دوافعه لرحلته العربية. يقول في ملوك العرب (ج١، ص ١٦٩): «قبل أن أفيض بالكلام أؤكد لمولاي أن لا علاقة لي البتة مع الإنكليز، ولا مع أمريكا، ولست أمثل رسمياً الملك حسين. أنا مندوب نفسي، رسول فكرة هي بنت علمي ووطنيتي». والنص المماثل بالإنكليزية مأخوذ من كتاب الريحاني Arabian Peak and Desert (ص ٧١).

وآخر تلك الحملات الشرسة ما قام به البعض أخيراً من اتهام للريحاني بالعمالة على اعتبار أنه يرسل ما يشاهده ويعرفه عن أحوال العرب... إلى الإدارة الأمريكية... وجوابنا أن هذه التهمة ليست سوى تزوير للحقائق التاريخية، بدليل أن ما نشر لا يحمل غير ما ورد في مؤلفاته العربية والانكليزية عن العرب. فهو راسل الإدارة الأمريكية بما نشره مفصلاً في سلسلة من المؤلفات. لم يقل لتلك الادارة ما لم يقله للعرب أنفسهم. لم يتوجه إلى تلك الادارة بما لم يتوجه به إلى العرب والعالم بأسره عبر مؤلفاته التي ما تزال طبعاتها وترجماتها مستمرة حتى اليوم. وتمعن تلك المجلة في افتراضاتها الباطلة إذ تدعي أن وثيقة أمين الريحاني ليست مكررة في كتبه. ونجيب بأن أبسط مقارنة بين كل فقرة من فقرات وثيقة الريحاني وما يوازيها او يقابلها من الفصول المنشورة في كتبه العربية والانكليزية حول العرب، تبين لصاحبها ان ما ورد في تلك الوثيقة ليس سوى مجتزءات موجزة وردت في مؤلفاته. وهذا بالضبط ما توقفنا عنده في الأقسام السابقة من هذا المقال.

بعد كل هذه المقارنات والشواهد والمستندات أي معنى يبقى لتهمة «السرية»؟ وأي معنى يبقى لتهمة العمل لصالح أية جهة أجنبية دولية، عظمى كانت أو غير عظمى، سوى السخرية من غباء المشككين أو المتهمين والذين يفتقرون إلى الدليل والحجة. بلى تكون حجتهم الوحيدة جهلهم للريحاني لأنهم لم يقرأوه، وإن فعلوا فلم يفهموه، فارتضوا بأن يتسرعوا في إلقاء التهم غير آبهين بالنيل من رمز من رموز نهضتنا العربية وعلم من أعلام الثقافة العربية المعاصرة. يبقى رد الريحاني الحاسم على صغار النفوس من المشككين في أهدافه الوطنية وغاياته العربية القومية في صرخته عام ١٩٣٩، أي عاماً واحداً قبل رحيله، حيث قال:

«لا بد من العودة إلى الرحلات العربية، تلك الرحلات التي فرضت عليّ الجهاد في سبيل قضية وطنية قومية هي قضيتي - وأنا من سلالة قحطان - كما هي قضية ابن صنعاء أو العارض أو الرافدين. ومن عجيب ما حدث في ارتقائي الفكري وتطوري الوطني - إذ كان من الواجب عليّ أن أكون أمريكيا قلباً وقالباً، لباً وقشراً، مائة بالمائة كما يقال - من عجيب ما حدث ليفسد ذلك



رسالة الريحاني إلى هنري فلتشر، مساعد وزير الخارجية الأمريكية، تدخل في سياق اهتمام الريحاني وتصميمه على إثارة اهتمام الحكومة الأمريكية حول المشرق العربي وقضاياه وحقه في الحرية والسيادة والاستقلال

الواجب هو أنى نهضت ذات ليلة من نومى، عند صياح الديك، وأنا أتصور نفسى أكبر من أمريكا! أنا اللبنانى العربى المفكر الوحيد - لله درّى - بين مائة وعشرين مليوناً من الناس غير المفكرين ممتزجين امتزاجاً مقدوراً معتكراً، وهم جميعاً يفاخرون بأمريكيتهم... ولا يهمهم من العالم سواها! إنما العالم أمريكا. وكل ما سوى أمريكا لا يساوى فستقة من فستق العبيد! هذه النزعة... ولّدت فىّ أنا اللبنانى، العربى، الأمريكى... بعض العطف على الشعب المزدحم فى غابات المدن هناك بين جبال من ناطحات السحاب، وبين جبال من الجهل. كيف لا وقد تيقنت أنهم يجهلون كل ما أعلم أنا، ولا أجهل أنا كل ما يعلمون، وإن قلّ واعتلّ. هو الغرور - غرور العبقرية...لكنى أنا اللبنانى العربى أريد أن أعلم الأمة الأمريكية شيئاً يسيراً من العلم الذى لا يجرح كبرياءها ولا يمس بضرّ غناها. أريد أن أعلمها أوليات العلم بالأمة التى أنا منها - كنت ولا أزال منها، اليوم وغداً، وعلى الدوام - أى الأمة العربية. ورأيتنى أعيد (الكيخوتية) - عفواً يا سيدى سرفنتس - إلى أصلها العربى، وإن تغرّب لسانها. رأيتنى أشحذ القلم واللسان بالإنكليزية، وأحبّر المقالات وأؤلف الكتب بالإنكليزية، وأقف على منابر الجامعات الأمريكية والجمعيات لأفهم العالم الجديد، رومان هذا الزمان، أن فى العالم غير أمريكا والأمريكان...»[10].

فهل يسمع السامعون؟ هل يقرأ المشككون أصداء تلك الصرخة من صرخات الريحانى الأخيرة؟ وإن فعلوا فكيف لا يتورعون؟ كيف يقدمون على توجيه سهامهم السامة نحو قامة عربية مديدة كقامة فيلسوف الفريكة؟ كيف يتطاولون على تلك القامة التى تمتد ظلالها الوارفة على مساحة العالم العربى بل على مساحة الدنيا؟ ولن يكون التكفير عن ذنوبهم إلا بعودتهم إلى أمين الريحانى. لذا أدعوهم إلى قراءة الريحانى قراءة جديدة متأنية غايتها كشف حقيقة هذا المفكر العربى الذى اكتشفه الغرب قبل أن يكتشفه العرب، والذى «نهض ذات ليلة، عند صياح الديك، وهو يتصور نفسه أكبر من أمريكا!».

هوامش:

(١) الأرشيف الوطنى الأمريكى، واشنطن العاصمة، مستند رقم ١١٨٨، ملف رقم ٨٠٠/٤٦٤٤، وأرشيف متحف أمين الريحانى، الفريكة، لبنان، ملف الوثائق الأمريكية، ص ٥٨.

(٢) الأرشيف الوطنى الأمريكى، مستند رقم ١٩٨٥، وأرشيف متحف الريحانى، ملف الوثائق الأمريكية، ص.

(٣) الأرشيف الوطنى الأمريكى، من رسالة من المساعد الثانى لوزير الخارجية الأمريكية إلى أمين الريحانى بتاريخ ٩ تموز/يوليو ١٩١٨، مستند رقم ٤٤ R/ ١١٢:٣١٢، وأرشيف متحف الريحانى، ملف الوثائق الأمريكية، ص ٢١.

(٤) تفيد وثائق الخارجية الأمريكية أنها لم تكن مهتمة برحلة الريحانى حتى تلقيها رسائل من السفارة البريطانية فى واشنطن تعلنها بتحركات الريحانى فى البلاد العربية. عندئذ عممت الخارجية الأمريكية بياناً لجميع بعثاتها الدبلوماسية فى الشرق الأوسط تطلب فيه تزيدها بأخبار الريحانى وتنقلاته فى العالم العربى آنذاك. وهذا إثبات آخر على أن رحلة الريحانى العربية لم تكن لتثير اهتمام الإدارة الأمريكية إلا بعد أن تبيّن لأميركا أن تلك الرحلة تثير اهتمامات بريطانيا بحيث باتت تترصد تحركات الريحانى ونشاطاته واتصالاته السياسية. راجع وثائق الأرشيف الوطنى الأمريكى من تاريخ ١٥ أيار/ مايو ١٩٢٢ وحتى ٢١ تشرين الثانى/نوفمبر من العام نفسه. الوثائق رقم ٠٣٢ R ٤٤، وأرشيف متحف الريحانى، ملف الوثائق الأمريكية، ص ٣٢- ٥١.

(٥) ملف الأرشيف الوطنى الأمريكى، رسالة الريحانى إلى هنرى فلتشر، تاريخ ١٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢١، الوثيقة رقم ٤٤ R ٠٣٢، وأرشيف متحف الريحانى، ملف الوثائق الأمريكية، ص ٢٧- ٢٩.

(٦) ملخص ١٩٢٣، أرشيف متحف الريحانى، ملف الوثائق الأمريكية، ص ٦٠، (الصفحة الأولى من الملخّص).

(٧) ملخص ١٩٢٣، أرشيف متحف الريحانى، ملف الوثائق الأمريكية، ص٦٧، (الصفحة ٨ من الملخّص).

(٨) ملخص ١٩٢٣، أرشيف متحف الريحانى، ملف الوثائق الأمريكية، ص٦٧، (الصفحة ٨ من الملخّص).

(٩) حسين العوينى لبنانى نفاه الفرنسيون مع بعض زعماء بيروت لبضعة أشهر. ثم جاء الحجاز فعمل فى التجارة فالتقى الريحانى فى جده عام ١٩٢٥ وتصادقا منذ ذلك الحين. وكان العوينى رسول الريحانى إلى السلطان عبد العزيز خلال مفاوضات السلام آنذاك. وقد أصبح حسين العوينى فى الستينيات من القرن الماضى رئيس وزراء الحكومة اللبنانية.

(١٠) الريحانى، أمين، المغرب الأقصى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، طبعة ١٩٨٠، المقدّمة، ص ٨- ٩.



في نظـــريـــة العــــلم عند ابن خلدون

مصطفى لبيب عبد الغنى

■ عندما يُتاح لواحد من أعلام الفكر أن يُقدِّم نظرية ما عن «العلم» فإنه لا يقدم لنا معرفة جديدة تنضاف إلى ما سبقها من المعارف، بل إنه «يتفلسف» حول العلم - بما هو كذلك - فيفسِّر طبيعته ويحدد منهجه وغايته. وتأتي صياغته النظرية هذه محكومة بالسياق الاجتماعي والثقافي في زمنه، وعلى ذلك لا تبقى على الدوام ثابتة لا تتبدَّل. ولقد مرَّ العلم بالفعل، شأن كل نشاط إنساني، بمراحل من التطور حتى أصبح رؤية عقلية للكون تتَّسم بالوحدة والتعميم والتجريد، وفق منهج منظَّم في البحث له مصادراته ووظائفه وأبنيته وتقنياته، ويتم التعبير عن هذه الرؤية بلغة اصطلاحية خاصة وبحيث يظهر العلم في النهاية متميِّزًا عن صنوف المعارف الأخرى المضادة له، من قبيل السحر والأساطير، والتي قد تلتقي معه في بعض أهدافه: من الوصف أو التفسير أو التسخير، وإن اختلفت عنه في المناهج اختلافا جذريا، أو عن المعارف المباينة له من قبيل الدين والفن مما لا تتفق معه سواء في المناهج أو في الغايات.

والمعرفة العلمية، التي هي فاعلية إنسانية متجدِّدة تستهدف متابعة الكشف عن حقائق الكون، لا تستنفدها لحظة ما من لحظات تطورها، بالغا ما بلغت من الدِّقة والكمال، بل هي تستثير العقل دوما لمراجعتها، مراجعة قد تبلغ أحيانًا حدَّ الثورة عليها وقلبها من الأساس. وتاريخ العلم يكشف لنا - بالفعل - عن هذا التطور المتلاحق له في مفهومه وفي بنيته على وجه العموم.

في الأفق الرحب «لمقدمة ابن خلدون»، التي يظهر فيها مفكِّرنا العبقري عالما مجددًا ومصنفا لعلوم عصره ومؤرخًا وفيلسوفا للعلم، نحاول أن نتلمس معالم نظريته عن «العلم»، لبيان مفهومه وحدوده المشروعة وافتراضاته المسبقة، وبنيته العامة وعلاقته بغيره من الأنساق المعرفية : على أن يكون ذلك بالطبع في إطار عصره هو بمكوناته الثقافية - الموروثة والوافدة - وحضارتنا الإسلامية - حينذاك - توشك على المغيب، مجتهدين في ذات الوقت ألا نغفل عما في اللمعات الخلدونية من استباقات ملْهِمة في هذا الخصوص.

مقدمة ابن خلدون
دراسة وتحقيق وتعليق
على عبد الواحد وافي
القاهرة: دار نهضة مصر - ٢٠٠٤

وفي البدء، نتوقف عندما يطرحه ابن خلدون من «مسلَّمات» لازمة لإقامة العلم، وهي: (أولا) اعتبار العقل - الذي هو جوهر الطبيعة الإنسانية - مجعولا للإدراك، و(ثانيا) السببيَّة مبدأً للوجود وللفكر، و(ثالثا): ثبات الطبائع في الكون واطراد حوادثه وفق سنَن لا تتخلَّف.

(أولا): العقل - الذي هو جوهر الطبيعة الإنسانية - مجعولٌ للإدراك:

إن العقل مفطورٌ على إدراك العالم الطبيعي، مهيأً للاستدلال على ما فوقه بآثاره. وهذا العقل تتجلَّى فاعليته في مستويات ثلاثة، متدرجة في كمالها، هي: «العقل التمييزي» و«العقل التجريبي» و«العقل النظري».

وليست مدارك العقل هي غاية ما يُدرَك ؛ بل تأسيسا على أن الوجود هو الأصل في المعرفة، وليس العكس، يقول ابن خلدون: «إنا نشهد بالوجدان الصحيح وجود ثلاثة عوالم: أولها عالم الحس ونعتبره بمدارك الحس الذي شاركنا فيه الحيوانات بالإدراك، ثم نعتبر الفكر الذي اختص به البشر فنعلم عنه وجود النفس الإنسانية علْما ضروريا بما بين جنبينا من مداركنا العلمية التي هي فوق مدارك الحس، فنراه عالما آخر فوق عالم الحس، ثم نستدل على عالم ثالث فوقنا بما نجده فينا من آثاره التي تُلقَى في أفئدتنا، فنعلم أن هناك فاعلا يبعثنا عليها من عالم فوق عالمنا، وهو عالَم الأرواح والملائكة وفيه ذوات مدرِكة لوجود آثارها فينا، مع ما بيننا وبينها من المغايرة».

العقل يظهر، إذن، بما هو مرآة عاكسة للوجود. غير أنَّ ما يميِّز العلم الإنساني أنه علم مكتَسَب نتيجة صرف همة العقل إلى تحصيل المدركات ؛ فعلم البشر هو «حصول صورة المعلوم في ذواتهم بعد ألا تكون حاصلة، فهو كله مكتسب. والذات التي تحصلُ فيها صور المعلومات، وهي النفس، مادة هيولانية تَلْبَس صور الوجود بصور المعلومات الحاصلة فيها شيئا فشيئا... فالبشر جاهل بالطبع... وعالمٌ بالكسب والصناعة، لتحصيله المطلوب بفكره بالشروط الصناعية». إن هذا الجهد العقلي الموصول لاكتساب المعرفة - على اتساعها - هو جوهر الروح العلمية ؛ فالعقل هو الأساس «في انتظام الأفعال الإنسانية»، وفي اقتناص «العلم بالآراء والمصالح والمفاسد» وبه يحصل تصور الموجودات غائبا وشاهدًا على ما هي عليه. والإنسان في الحالة الأولى قبل التمييز هو هيولي فقط لجهله بجميع المعارف، ثم تُستكمل صورتُه بالعلم الذي يكتسب بآلاته، فتكمل ذاته الإنسانية في وجودها. وانظر إلى قوله - تعالى - مبدأ الوحي على نبيِّه - صلى الله عليه وسلم -: (اقرأ باسم ربك الذي خلق.

إن أحوال العمران - فيما يرى ابن خلدون - لا تصبح موضوعا لعلم صحيح إلا بالكشف عن عللها وعن الروابط والعلاقات الكامنة لوجودها والمحدِّدة لمسارها

خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم). أى أكسبه من العلم ما لم يكن حاصلا له بعد، بعد أن كان علقة ومضغة، فقد كشفت لنا طبيعته وذاته ما هو عليه من الجهل الذاتى والعلم الكسبى، وأشارت إليه الآية الكريمة تقرر فيه الامتنان عليه بأول مراتب وجوده وهى الإنسانية وحالتها الفطرية والكسبية». ولعل هذا هو ما دفع بابن خلدون إلى أن يضيف إلى ملكة الفهم والوعى ملكة أخرى يسميها ملكة «الإحاطة»، وذلك فى قوله: «إن الحذق فى العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة فى الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله، وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق فى ذلك المتناول حاصلا. وهذه الملكة هى غير الفهم والوعى، لأنا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيها مشتركا بين من شدا فى ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه، وبين العامى الذى لم يحصل علما وبين العالم النحرير. والملكة إنما هى للعالم أو الشادى فى الفنون دون سواهما، فدل ذلك على أن هذه الملكة غير الفهم والوعى». وهذه الملكة - فيما يرى ابن خلدون - تفتقر إلى التعليم، «ولهذا كان السند فى التعليم فى كل علم أو صناعة إلى مشاهير المعلمين فيها معتبرا عند كل أهل أفق وجيل».

ثانيا: السببية مبدأ للوجود والفكر:

لا تستقيم دلالة الحوادث الفعلية إلا بالفكر، الذى وهبه الله للإنسان، وذلك الفكر يدرك الترتيب بين الحوادث بالطبع أو بالوضع، فإذا قصد إيجاد شىء من الأشياء فلأجل الترتيب بين الحوادث لابد من التفطن بسببه أو علته أو شرطه، وهى على الجملة مبادئه، إذا لا يوجد إلا ثانيا عنها، ولا يمكن إيقاع المتقدم متأخرا، ولا المتأخر متقدما، وذلك المبدأ قد يكون له مبدأ آخر من تلك المبادئ لا يوجد إلا متأخرا عنها، وقد يرتقى ذلك أو ينتهى فإذا انتهى إلى آخر المبادئ فى مرتبتين أو ثلاث أو أزيد شرع فى العمل الذى يوجد به الشىء، بدءا بالمبدأ الأخير الذى انتهى إليه الفكر فكان أول عمله، ثم تابع ما بعده إلى آخر المسببات التى كانت أول فكرته... ولأجل العثور على هذا الترتيب يحصل الانتظام فى الأفعال البشرية». فالسببية التى هى مبدأ عقلى، والذى يتضايف معها النظام والترتيب، هى مبدأ للفعل كذلك فأول العمل آخر الفكرة، وأول الفكر آخر العمل». وعلى أساس الالتزام بهذا المبدأ تتحدد مكانة الفرد من أفراد النوع الإنسانى؛ أى «على قدر حصول الأسباب والمسببات فى الفكر مرتبة تكون إنسانيته، فمن الناس من تتوالى له السببية فى مرتبتين أو ثلاث، ومنهم من لا يتجاوزها، ومنهم من ينتهى إلى خمس أو ست فتكون إنسانيته أعلى». وبهذا الحساب والتقدير تتفاوت همم الأفراد فى فهم حقائق الأشياء كما تتفاوت أقدارهم فى النفاذ إلى عمق الوقائع وبواطن الأمور.

والسببية تتجاوز - عند ابن خلدون - كونها مبدأ ابستمولوجيا فحسب، إذ هى خصيصة ذاتية لوجود الموجود. والحوادث فى عالم الكائنات سواء كانت من الذوات، أو من الأفعال البشرية أو الحيوانية فلابد لها من أسباب متقدمة عليها، بها تقع فى مستقر العادة، وعنها يتم كونها. وكل واحد من هذه الأسباب حادث أيضا. فلابد له من أسباب أخر، ولا تزال تلك الأسباب مترقية حتى تنتهى إلى مسبب الأسباب وموجدها وخالقها سبحانه لا إله إلا هو».

ولأن أسباب الموجودات فى ارتقائها، كما يقول ابن خلدون، تنفسح وتتضاعف طولا وعرضا، ويحار العقل فى إدراكها، فإذن لا يحصرها إلا العلم المحيط: «وكل ما يقع فى النفس من التصورات مجهول سببه إذ لا يطلع أحد على مبادئ الأمور النفسانية ولا على ترتيبها.. والإنسان عاجز عن معرفة مبادئها وغاياتها، وإنما يحيط علما فى الغالب بالأسباب التى هى طبيعة ظاهرة، ويقع فى مداركها على نظام وترتيب». على أن ابن خلدون حريص على ذكر أن «وجه تأثير هذه الأسباب فى الكثير من مسبباتها مجهول». لأنها إنما يوقف عليها بالعادة لاقتران الشاهد بالاستناد إلى الظاهر، وحقيقة التأثير وكيفيته مجهولة (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا). (سورة الإسراء آية ١٧).

ولأن الوجود أرحب من الإدراك كما أن الوجود هو الأصل فى الإدراك يؤكد ابن خلدون هذا الطابع النسبى للعلم الإنسانى المحدود بطبعه بحدود الزمان والمكان، فيقول: «ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها، والوقوف على تفصيل الوجود كله. وسفه رأيه فى ذلك. واعلم أن الوجود عند كل مدرك فى بادئ رأيه منحصر فى مداركه لا يعدوها، والأمر فى نفسه بخلاف ذلك، والحق من ورائه». ولا ريب فى أن رأى ابن خلدون هنا مؤسس على نقد قدرات العقل النظرى وبيان حدوده. وهو أبعد ما يكون عن نزعات الشك والارتياب فى قدرة العقل على الإدراك. ومن ثم فإنه يبادر إلى التصريح بقوله «وليس ذلك بقادح فى العقل ومداركه، بل العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها. غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقيقة الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع فى محال.. لكن للعقل حدا يقف عنده ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته. فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه... وإذا تبين ذلك فلعل الأسباب إذا تجاوزت فى الارتقاء نطاق إدراكنا ووجودنا خرجت عن أن تكون مدركة فيضل العقل فى بيداء الأوهام ويحار وينقطع». وهذا ما دفعه إلى نقد الميتافيزيقا القطعية أو «الإلهيات» فى الفصل الذى عقده - فى المقدمة - عن «إبطال الفلسفة وفساد منتحلها». ولهذا الموقف ما يناظره من قبل عند «أبى حامد الغزالى» ومن بعد عند «إمانويل كانط».

السببية - إذن - مسلمة من مسلمات المنهج لإمكان قيام المعرفة العلمية على تنوع مجالاتها الرياضية والطبيعية والإنسانية. وعلى حين شاع التسليم بالارتباط الضرورى بين الأسباب والمسببات فى الميدان الطبيعى، فإن الأمر لم يكن على هذا النحو من اليسر والقبول بالنسبة للأفعال الإنسانية ولأحوال العمران. والإنسان يشعر بنفسه مريدا مختارا.

إن أحوال العمران - فيما يرى ابن خلدون - لا تصبح موضوعا لعلم صحيح إلا بالكشف عن عللها وعن الروابط والعلاقات الكامنة لوجودها والمحددة لمسارها. لذلك نجده يحمل على المقلدين وبلداء الطبع والعقل الذين يعرضون لأحوال العمران بما هى حوادث لم تعلم أصولها وأنواع لم تعتبر أجناسها ولا تحققت فصولها، يكررون فى موضوعاتها الأخبار المتداولة بأعيانها. اتباعا لمن عنى من المتقدمين بشأنها.. ثم إذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقا. محافظين على نقلها وهما أو صدقا: لا يتعرضون لبدايتها. ولا يذكرون السبب الذى رفع من رايتها، وأظهر من آيتها، ولا علة الوقوف عند غايتها. فيبقى الناظر متطلعا بعد إلى افتقاد أحوال مبادئ الدول ومراتبها. مفتشا عن أسباب تزاحمها أو تعاقبها. باحثا عن المقنع فى تباينها أو تناسبها. «فمبدأ السببية يمتد إلى عالم الإنسان كذلك بحيث تصبح ظواهر المجتمع، شأنها فى ذلك شأن حوادث الطبيعة، خاضعة لقوانين ثابتة. وعلى ذلك جاءت نظرة ابن خلدون إلى التاريخ الإنسانى من حيث إنه فى باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق».

(ثالثا): ثبات الطبائع واطراد الحوادث:

يؤكد ابن خلدون. ابتداء. أن كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لابد له من طبيعة تخصه فى ذاته وفيما يعرض له من أحواله. والوقوف على طبائع الكائنات «أصل لتحكيم النظر والبصيرة وتجنب الغلط والوهم. وأى تجاهل لطبائع العمران وأحواله بمقتضى طبعه وما يعرض له من العوارض الذاتية. المؤدية إلى معرفة علل الكائنات وأسبابها - لا يؤمن معه العثور ومزلة القدم والحيدة عن جادة الصدق».

لا سبيل - إذن - لتحصيل العلم الصحيح إلا إذا كانت طبائع الموجودات ثابتة لاتحكمها المصادفة. والوقوف على هذه الطبائع أساس تقديرنا للمعارف المكتسبة من بعد والتى يكون قبول ما يتقبله المتعلم منها رهنا بعرضها على القواعد والأصول فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان وإلا زيفه واستغنى عنه. ومتى كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والأحوال فى الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك فى تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب، وهذا أبلغ فى التمحيص من كل وجه يعرض.

وقد أشار ابن خلدون إلى تردى العلم - فى زمانه - واغترابه عن أهله عندما تم تجاهل هذا الأصل المكين، وذلك فى قوله: «وقد ذهل الكثير عن هذا السر فيه حتى صار انتحاله مجهلة، واستخف العوام ومن لا رسوخ له فى المعارف مطالعته وحمله والخوض فيه والتطفل عليه. فاختلط المرعى بالهمل، واللباب بالقشر والصادق بالكاذب. وإلى الله عاقبة الأمور».

وانطلاقا من تسليم ابن خلدون بثبات الطبائع نجده يعلق على بعض الأخبار المستحيلة التى نقلها الرواة دون تثبت ودون مراعاة لما يفترض أن تكون عليه المعارف الصحيحة، فيقول: «وانظر ما أبعد ذلك عن المجرى الطبيعى! وأمثال هذا كثير، وتمحيصه إنما هو معرفة طبائع العمران، وهو أحسن الوجوه وأوثقها فى تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها. وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة». ونتيجة لهذا التسليم باطراد حوادث الطبيعة على سنن لا تتخلف. ينبه إلى أن «الأخبار عن الواقعات فلابد فى صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة. فلذلك وجب أن ينظر فى إمكان وقوعه وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدما عليه... وإذا كان ذلك فالقانون فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران، ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته بمقتضى طبعه، وما يكون عارضا لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له. وإذا فعلنا ذلك كان قانونا لنا فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهانى لا مدخل للشك فيه».

ولئن كان هذا القانون

عن الفكر، الذى اختصت به الطبيعة الإنسانية، تنشأ العلوم والصنائع فالإنسان يتوجه بفكره ونظره إلى واحدة من الحقائق وينظر ما يعرض له لذاته واحدا بعد آخر



يصدق فى مجال العلوم الإنسانية فهو من باب أولى يصدق على العلوم الطبيعية. ويتضح تمييز ابن خلدون هنا بين ما هو ثابت وضرورى «ذاتى» بمقتضى الطبع فى الموجودات وبين الأحوال العارضة، تلك التى قد تلحق بها أحيانا، وبين أحوال تقع فى الوهم وليست مما يمكن أن تعرض فى الواقع للموجودات بحال ما.

ومع تسليم ابن خلدون بثبات الطبائع لأحوال الموجودات إلا أنه يقيم توازنا يفرضه الواقع بين قانون التشابه أو التماثل وقانون التباين الذى يتضايف معه ؛ وفى ذلك يقول: «ومن الغلط الخفى، فى التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال فى الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء دوى شديد الخفاء، إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة، وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لاتدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك فى الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع فى الآفاق والأقطار والأزمنة والدول. سنّة الله التى قد خلت فى عباده. وهذا التباين فى الأحوال أوضح ما يكون فى العمران البشرى، حتى إن ابن خلدون يقول: «وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره. وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة، وعالم محدث». وهذا ما جعله ينظر، فى كثير من الأحوال، إلى النصوص الشرعية ـ التى تنظم الأحوال المعاشية ـ فى ضوء ما يزخر به الواقع من متغيرات وما قد يطرأ عليه من مستجدات.

العلم ظاهرة حضارية:

العلم والتعليم ـ فى نظر ابن خلدون ـ «طبيعى فى العمران البشرى» : «فعن الفكر، الذى اختصت به الطبيعة الإنسانية، تنشأ العلوم والصنائع فالإنسان يتوجه بفكره ونظره إلى واحدة واحدة من الحقائق وينظر ما يعرض له لذاته واحدا بعد آخر، ويتمرن على ذلك حتى يصير إلحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علما مخصوصا، وتتشوف نفوس أهل الجيل الناشئ إلى تحصيل ذلك فيفزعون إلى أهل معرفته ويجئ التعليم من هذا».

العلم ـ إذن ـ نشاط مكتسب، ومظهر للارتقاء الإنسانى «والحذق فى العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة فى الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله، وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق فى ذلك المتناول حاصلا». وتتحدد أقدار الجماعات الإنسانية نتيجة لعلاقتها بالعلم، الذى هو سبب للتحضر ونتيجة له: حتى أن رسوخ الصنائع فى الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها و«قيمة كل امرئ ما يحسن»، بمعنى أن صناعته هى قيمته أى قيمة عمله الذى هو معاشه. وبما أن النشاط العمرانى مرآة تعكس طبيعة التحضر، فإننا نجد العلوم تكثر حيث يكون العمران وتعظم الحضارة، و«الصنائع تكثر فى الأمصار، وعلى نسبة عمرانها فى الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة لأنه أمرٌ زائد على المعاش». ولزم عن ذلك أن أصبحت الثقافة العلمية ـ عند ابن خلدون ـ قاعدة لعمل المؤرخ طالما أن العلم ذاته يصنع فى التاريخ، ولا يمكن فهم حقيقته دون أن نأخذ فى اعتبارنا الإطار الذى يحيط به ويوجهه. ولذلك «يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار والسير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال والإحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف، وتعليل المتفق منها والمختلف، والقيام على أصول الدول والملل، ومبادئ ظهورها وأسباب حدوثها، ودواعى كونها، وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتى يكون مستوعبا لأسباب كل حادث، واقفا على أصل كل خبر. وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد». وابن خلدون، بهذه النظرة التكاملية، فى فهم الظواهر أبعد ما يكون عن الفهم المبتسر الذى يقنع بتفسيرها بإرجاعها إلى عامل واحد.

مما يتصل بنظرية العلم عند ابن خلدون تحليله للأسس المنطقية للمعرفة وبيانه لكيفية التدليل على صحة القضايا والتحقق منها. وهو فى ذلك يتابع جهود من سبقه من كبار مفكرى الإسلام الذين حاولوا دمج المنطق فى بنية الثقافة العلمية. فالوعى بأسس العلم المنطقية وأحكامه ومعرفة أصول الجدل أمور واجبة على المشتغلين بالعلم على اختلاف ضروبه، ليُعرف بها «الصحيح من الفاسد فى الحدود المعرِّفة للماهيات، والحجج المفيدة للتصديقات». فالمنطق إذا أمر صناعى مساوق للطبيعة الفكرية ومنطبق على صورة فعلها. على أنه مما يُحمد لابن خلدون ـ الذى لم يكن تجريدى النزعة ـ تحرره من التقاليد الصورية للمنطق الأرسطى وترسيخه للأسس الاستقرائية للمعرفة العلمية وحملته على المقلدين الذين يتجاهلون الوقائع الجزئية فلا يرونها مؤدية إلى علم صحيح ويتعاملون مع أحوال الواقع باعتبارها «صورا قد تجردت من موادها». ولاختلاف طبيعة الاستقراء التجريبى عن الاستنباط الصورى يذهب ابن خلدون إلى أن «البراهين التى يزعمونها على مدعياتهم فى الموجودات ويعرضونها على معيار المنطق وقانونه فهى قاصرة وغير وافية بالغرض، أما ما كان منها فى الموجودات الجسمانية ويسمونه العلم الطبيعى فوجه قصوره أن المطابقة بين تلك النتائج الذهنية التى تُستخرج بالحدود والأقيسة كما فى زعمهم وبين ما فى الخارج غير يقينى، لأن تلك أحكام ذهنية عامة والموجودات متشخصة بموادها، ولعل فى المواد ما يمنع من مطابقة الذهنى الكلى للخارجى الشخصى اللهم إلا ما يشهد له الحس من ذلك، فدليله شهوده لا تلك البراهين، فأين اليقين الذى يجدونه فيها». وابن خلدون على وعى بقصور الاستدلال القياسى الذى لا يؤدى إلى كشف مجهول وإنما ينحصر فى استنباط فكرة من فكرة أو نتيجة جزئية من مقدمة كلية سبق التسليم بصحتها. كما يأخذ ابن خلدون على المتأخرين من المناطقة أنهم «تكلموا فى القياس من حيث إنتاجه

مصر وابن خلدون

■ وصف ابن خلدون مصر فى أول عهده بها أول ذى القعدة من سنة أربع وثمانين وسبعمائة للهجرة. فقال:

«رأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسى الملك: تلوح القصور والدواوين فى جوّه، وتزدهر الخوانك والمدارس بآفاقه، وتضىء البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة، ومدفع مياه السماء، يسقيهم النهل والعلل سيحه، ويجبى إليهم الثمرات والخيرات ثجة؛ ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم.. أقول فى العبارة عنها على سبيل الاختصار: إن الذى يتخيله الإنسان، فإنما يراه دون الصورة التى تخيلها، لاتساع الخيال عن كل محسوس، إلا القاهرة فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها».

(ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨ من كتابه: «التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا» ـ العدد ١٠٠ من سلسلة الذخائر الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر سنة ٢٠٠٣).

ويقول: ولما سبحت فى اللج الأزرق، وخطوت من أفق المغرب إلى أفق المشرق، حيث نهر النهار ينصب من صفحة المشرق، وشجرة الملك التى اعتز بها الإسلام، تهتز فى دوحه المعرق، أزهار الفنون تسقط علينا من غصنه المورق، وينابيع العلوم والفضائل يُمدّ وَشَلُنا من فراته المغدق، أولونى عناية وتشريفا، وغمرونى إحساسًا ومعروفًا، وأوسعوا بهمتى إيضاحًا، ونكرتى تعريفًا. (ص ٢٤٨: «التعريف»).

إن صورة ابن خلدون فى عيون المصريين لتوجزها عبارات السلطان أبى سعيد برقوق عنه فى رسالته إلى سلطان تونس:

«.. جمال الإسلام والمسلمين، جمال العلماء فى العالمين، أوحد الفضلاء، قدوة البلغاء، علامة الأمة، إمام الأئمة، مفيد الطالبين، الملوك والسلاطين عبدالرحمن بن خلدون المالكى أدام الله نعمته فإنه أولى بالإكرام وأحرى، وأحق بالرعاية وأجل قدرًا، وقد هاجر إلى ممالكنا الشريفة وآثر القيام عندنا بالديار المصرية، لا رغبة عن بلاده، بل تحببا إلينا وتقربًا إلى خواطرنا، بالجواهر النفيسة من ذاته الحسنة، وصفاته الجميلة، ووجدنا منه فوق ما فى النفوس، مما يجل عن الوصف ويربى على التعداد. (ص ٢٥١ ـ ٢٥٢) من كتابه: «التعريف». ■

يحرص ابن خلدون على بيان أن «اللغات كلها ملكات» للعبارة عن المعانى. وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو بالنظر إلى التراكيب

المطالب على العموم لا بحسب مادته وحذفوا النظر فيه بحسب المادة».

وينتهى ابن خلدون إلى تقرير أن «صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها من الانتزاع وبعدها عن المحسوس. فإنها تنظر فى المعقولات الثوانى. ولعل المواد فيها ما يمانع تلك الأحكام وينافيها عند مراعاة التطبيق اليقينى. وأما النظر فى المعقولات الأول وهى التى تجريدها قريب فليس كذلك». وعلى ذلك كان من أولى الشروط اللازمة لتأسيس علم صحيح - فيما يرى ابن خلدون - عدم الانطلاق من مسلمات مظنونة ومقدمات لاسند لها من العقل أو التجربة. وجدير بالنظر هنا قول ابن خلدون: «ومن حصل له شغب بالقانون المنطقى تعصب له فاعتقد أنه الذريعة إلى إدراك الحق بالطبع. فيقع فى حيرة بين شبه الأدلة وشكوكها، ولا يكاد يخلص منها. والذريعة إلى درك الحق بالطبع إنما هو الفكر الطبيعى.. إذا جرد عن جميع الأوهام وتعرض الناظر فيه إلى رحمة الله تعالى. وأما المنطق فإنما هو واصف لفعل هذا الفكر فيساوقه لذلك فى الأكثر».

ولأن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين: علوم مقصودة بالذات كالشرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام، وكالطبيعيات والإلهيات من الفلسفة ؛ وعلوم هى آلية وسيلة لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرهما للشرعيات، وكالمنطق للفلسفة، وربما كان آلة لتعلم الكلام ولأصول الفقه على طريقة المتأخرين، فأما العلوم التى هى مقاصد فلا حرج فى توسعة الكلام فيها وتفريع المسائل واستكشاف الأدلة والأنظار ؛ فإن ذلك يزيد طالبها تمكنا فى ملكته وإيضاحا لمعانيها المقصودة. وأما العلوم التى هى آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالها فلا ينبغى أن ينظر فيها إلا من حيث هى آلة لذلك الغير فقط، ولا يوسع فيها الكلام ولا تُفرَّع المسائل لأن ذلك مخرج لها عن المقصود. وهكذا يظهر لنا ابن خلدون بما هو عالم محقق لا تستغرقه نزعات لفظية بل مسعاه جودة الفهم والتدبير لا الاكتفاء بجودة السبك وبلاغة التعبير. وهو موقف له دلالته فى زماننا الراهن، بما يغلب عليه من نظم وتوجهات تعليمية!.

ويتابع ابن خلدون مواقف أسلافه العظام من كبار علماء الإسلام الذين تحرروا فى دراستهم العلمية من النزعة التجريدية فلم يتخذوا من «الرياضيات» غاية ومثالا لكل العلوم، بل نجدهم لا يترددون فى استخدام كلمة «الصنعة» أو كلمة «الصناعة» تعبيرا عن ما هو علم. وإذا كان النظر المتعجل إلى طبيعة العلم العربى يراه علما تجريدى الطابع حظ التطبيق العملى فيه للنظرية ضئيل، إن لم يكن معدوما على الإطلاق، فإن تصنيف ابن خلدون للعلوم الواقعة لعهده إلى: علوم عقلية (تشمل عموم العلوم المكتسبة) وعلوم نقلية (تختص بها الملل والشرائع) فإن العلوم العقلية المكتسبة تضم، بدورها،طائفة من العلوم التطبيقية (التى تندرج ضمن «الطبيعيات» وتتأسس على نظرياتها) من قبيل علم الطب والتوليد، والفلاحة، والبناء، والنجارة. وكان يدرك العلاقة الوثيقة بين العلم وتطبيقاته ولا يركن إلى الفصل المصطنع بين العلوم البحتة و«العلوم التطبيقية». ويمكن القول - تمشيا مع نظرة ابن خلدون - إن العلاقة بين الفكرة النظرية وتطبيقها العملى علاقة وثيقة إلى حد يمكن معه اعتبارهما وجهين لعملة واحدة، ويصعب القطع بأسبقية أيهما فى الوجود على الآخر، خاصة أن الصنعة بما تنطوى عليه من معرفة أيضا، من شأنها أن تطور بنية المعرفة الأساسية ذاتها. وفى ذلك يقول: «والصنائع أبدا يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمى مستفاد من تلك الملكة، فلهذا كانت الحنكة فى التجربة تفيد عقلا، والملكات الصناعية تفيد عقلا، والحضارة الكاملة تفيد عقلا، لأنها مجتمعة من صنائع». ويتفق مع هذا، ويترتب عليه - بالطبع - استباق ابن خلدون فى اعتبار الكسب الحقيقى إنما هو فى قيمة الأعمال البشرية.

ابن خلدون ومعارف عصره:

مما يتصل بجهود ابن خلدون فى نقد المعرفة - على العموم، ونقد المعرفة العلمية على الخصوص، ما يذهب إليه من «إبطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها»، وذلك لافتقاد حقائقها إلى الثبات، ولعدم رصدها لوقائع مطردة لا تتخلف فى الحدوث، ولزعم أصحاب هذه الصناعة وجود روابط يتوهمونها بين أوضاع الكواكب والأفلاك وما يحدث للأنواع والأشخاص ومعرفة تلك الحوادث قبل وقوعها. وهذا العلم المزعوم لا يستند بالفعل إلى أساس تجريبى ممكن، مع أن المتقدمين من أهله يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها تكون بالتجربة. وهذا أمر «تقصر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله ؛ إذ التجربة إنما تحصل فى المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم والظن: وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكراره إلى آماد وأحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو طويل من أعمار العالم». ويبادر ابن خلدون فيدفع الوهم بأن هذه المعارف هى مفارقة للقدرات العقلية الإنسانية وأنها جاءت وحيا وفى ذلك ما فيه من خلط بين النبوة «والصناعة» ؛ ويدعم رأيه كذلك باستقراء الشواهد الشرعية. وهو يفسر سلطان هذا العلم على قلوب العامة بضعف تمييزهم أيضا بين ما هو ثابت وضرورى وبين ما هو عارض وبالصدفة. وذلك فى قوله: «مع مالها من المضار فى العمران الإنسانى بما تبعث فى عقائد العوام من الفساد إذا اتفق الصدق فى أحكامها فى بعض الأحايين اتفاقا لا يرجع إلى تعليل ولا تحقيق، فيلهج بذلك من لا معرفة له ويظن اطراد الصدق فى سائر أحكامها وليس كذلك».. بذلك تفتقد هذه الصناعة شرطى: اطراد الحدوث وقابلية أحكامها للتصديق وربما نجد هنا ابن خلدون يستلهم مواقف بعض من سبقه من حكماء الإسلام.

وفى نقده لمشروعية «علم أسرار الحروف»، الذى هو من تفاريع علم السيمياء، يقول: إنه «لا يوقف على موضوعه ولا تحاط بالعدد مسائله» وبذلك يفتقد شرط الموضوع المحدد الضرورى لقيام العلم وشرط المنهج المحدد المؤدى إلى معارفه. وتعليقا على غموض هذا العلم واستغلاق معارفه وخصوصية ممارساته واختلاف أهله فى حقيقة سر التصرف الذى فى الحروف ينتهى ابن خلدون إلى أن «سر هذا التناسب الذى بين الحروف وأمزجة الطبائع أو بين الحروف والأعداد أمر عسير على الفهم إذ ليس من قبيل العلوم والقياسات، وإنما مستندهم فيه الذوق والكشف».

وفى إنكاره لثمرة علم الكيمياء بسبب اختلاط هذا العلم فى عصره «بالسيمياء» وحصر موضوعه فى النظر فى المادة التى يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة، يقول: «إن الذى يجب أن يعتقد فى أمر الكيمياء وهو الحق الذى يعضده الواقع أنها من جنس آثار النفوس الروحانية وتصرفها فى عالم الطبيعة». كما يأخذ ابن خلدون على الكيميائيين أنهم حرفوا «ألفاظهم كلها فى الصناعة إلى الرمز والألغاز التى لا تكاد تبين ولا تعرف. وذلك دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية». ومن المعلوم أن اللجوء إلى الرمز فى اللغة العلمية يعوق التقدم، كما أن التحديد الدقيق للاصطلاحات العلمية يتوازى مع ارتقاء العقل وقدرته الواثقة على الإدراك.

ويقترب من هذا المنحى حملة ابن خلدون الشديدة على من كان يتوهم - دون سند كاف - وجود علاقة بين الطب وممارسات السحر وعمل أصحاب الطلاسم. وذلك مثلما نقله أبو عبيد البكرى (المؤرخ) فى سبب حدوث حمى العفن بمدينة قابس. وعقب عليه ابن خلدون بقوله: «وهذه الحكاية من مذاهب العامة ومباحثهم الركيكة. والبكرى لم يكن من نباهة العلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أو يتبين خرفه فنقله كما سمعه».

وفى ذكر ابن خلدون «لعلم الفلاحة» يلتفت إلى أن هذه الصناعة من فروع الطبيعيات، وهى النظر فى النبات من حيث تنميته ونشوئه بالسقى والعلاج وتعهد بمثل ذلك. وينبه إلى أن هذا العلم كان مختلطا عند المتقدمين بالسحر ثم قام المسلمون بتنقيته حتى أصبح علما مستقلا.

ومن لوازم المعرفة العلمية ومقتضياتها أن يكون لها لغة خاصة بها مغايرة لما هو متداول من ضروب التعبير عن المعارف الأخرى الدينية أو الأدبية أو الفنية مثلا، ومغايرة للغة العادية الشائعة بين العوام أيضا. ومن هنا كان حرص العلماء على التحديد الدقيق لألفاظهم تحديدا اصطلاحيا يتواطأون عليه. وابن خلدون على وعى بأنه «مما أضر بالناس كثيرا فى تحصيل العلم والوقوف على غاياته... اختلاف الاصطلاحات فى التعليم، وكان لجوء بعض المشتغلين بالعلم الى الرمز والألغاز سببا عند ابن خلدون لإدانة مسلكهم اللغوى غير المشروع هذا. وأساس موقفه الرشيد هو أن «الألفاظ واللغات وسائط وحجب بين الضمائر وروابط وختام على المعانى. ولابد فى اقتناص تلك المعانى من ألفاظها من معرفة دلالتها اللغوية عليها وجودة الملكة للناظر فيها، وإلا فيعتاص عليه اقتناصها».

ويحرص ابن خلدون على بيان أن «اللغات كلها ملكات» للعبارة عن المعانى، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو بالنظر إلى التراكيب. فإذا حصلت الملكة التامة فى تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعانى المقصودة، ومراعاة التأليف الذى يُطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده».

ولا تنشأ الحاجة إلى الاصطلاح - بأشكاله المتنوعة - إلا لضرورة التعبير عن المعانى المستحدثة أو الأشياء المبتكرة أو الدخيلة - والتى نطلق عليها أحيانا «ألفاظ الحضارة» :



ذلك لأن الأوضاع اللغوية إنما هى للمعانى المتعارفة، فإذا عرض من المعانى ما هو غير متعارف اصطلحنا على التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه، توخيًا للإبانة والإيضاح ودفعا للَّبس والغموض.

ويحرص ابن خلدون على أن يُبيِّن، فى ثنايا مقدمته، معنى العلم وعلى أن يميِّز فى تصنيفه للعلوم الحدود الفارقة بين العلم وبين غيره من ضروب المعرفة الأخرى، حتى لا يدخل فيه من ليس من أهله. ولئن كانت النظرة إلى الدلالة المطلقة للعلم، دون تخصيص بمعلوم دون معلوم، تجعلنا نقف على الملامح العامة للمعرفة العملية - بما هى كذلك - من حيث هى تعبير عن فاعلية العقل الإنسانى فلا نخلط بينها وبين غيرها من المعارف غير العلمية أو المضادة بطبيعتها للعلم؛ فإن من شأن الدلالة المقيَّدة أن تحصرنا فى نطاق العلم المعيَّن الذى يستقل عن غيره من العلوم بموضوعه وبمنهجه وبغايته، الأمر الذى يتحقق معه الوعى باستقلال العلوم بعضها عن بعض وبالعلاقات البينيَّة التى قد توجد بينها، وبمدى استناد كل علم من العلوم على علم آخر يسبقه منطقيا أو بمدى كونه أساسا يلزم لعلم سواه.

تتوزع العلوم أصنافا على أساس التباين فى الموضوعات والمناهج والغايات فيستقل كل علم منها بموضوعه وبمنهجه وبغايته. ولأن الوجود هو الأصل فى المعرفة وليس العكس تنوعت العلوم بتنوع موضوعاتها. وكل ما هو طبيعى معايَن يمكن تناوله بالدراسة العلمية؛ وفى ذلك يقول ابن خلدون - ناظرا إلى طبيعة الموضوع العلمى: «وإذا كانت كل حقيقة متعقَّلة طبيعية يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها وجَب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصُّه». وعلى أساس أن نجاح العقل فى حصر موضوع معيَّن هو شرط ضرورى لقيام العلم عرَض ابن خلدون «لعلم العمران» الذى ابتدعه، مبادرًا إلى القول: «وكأن هذا العلم علم مستقل بنفسه: فإنه ذو موضوع، وهو العمران البشرى والاجتماع الإنسانى، وذو مسائل: وهى بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى. وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو عقليا».

على أن هذا الشرط الضرورى ليس كافيا وحده فى قيام العلم بل لابد أن ينضاف إليه شرطان آخران هما: المنهج الملائم لبحث موضوعاته والثمرة المرجوة من قيامه. وهذا ما سوف يفصِّله ابن خلدون فى بيانه لخصائص الخبرة العلمية الفارقة لها عن غيرها من الخبرات المعرفية الأخرى المغايرة لها أو المضادة لطبيعتها.

طبيعة الخبرة العلمية:

الخبرة العلمية محصورة - بطبيعتها - فى حدود الوقائع الفعلية لا فى حدود الخبرات الذاتية. كما هو شأن الخبرة الدينية أو الخبرة الفنية، وتستهدف الخبرة العلمية، ضمن ما تستهدفه، وصف الواقع وصفا يأتى معه دليل صدقه وأن يكون هذا الدليل عاما مشتركًا، أو بتعبير ابن خلدون: «بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى، وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أو نقليا». ومجال هذه الخبرة رحب يشمل الطبيعة بأسرها، أو بتعبير إسلامى يشمل «الأنفس والآفاق»: «فكل حقيقة متعلقة يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها». وينهج ابن خلدون - فى تأسيسه لعلمه الجديد «علم العمران البشرى» النهج الواجب فلا يستهدف شأن من سبقه، ممن كانت لهم عناية ببعض موضوعاته المتفرقة، الإقناع بل يستهدف معرفة الوقائع طالما أن موضوعه «ليس من علم الخطابة». ومن المعلوم أن «موضوع الخطابة إنما هو الأقوال المقنعة النافعة فى استمالة الجمهور إلى رأى أو صدهم عنه؛ وبالفعل كان شأن ما وقع إلينا من قليل مسائل علم العمران» - من قبل - «كلمات متفرقة لحكماء الخليقة... مما لا يكشف عن التحقيق قناعا ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجابا، إنما هو نقل وتركيب شبيه بالمواعظ».

«علم العمران»، إذن، عند ابن خلدون ليس علما معياريا يسعى إلى «ما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه». وتتحدد أهداف المعرفة العلمية عنده فى الوصف وفى التفسير (أى بيان العلل والأسباب) وفى تسخير وتحقيق السيطرة على الواقع لاستكمال العمران وترسيخ الحضارة، وبذلك تتميز المعرفة العلمية عن غيرها من المعارف التى تستهدف الإقناع بمنهج خطابى، أو الإمتاع وإشاعة الإحساس بالجمال أو تحقيق الخلاص والهداية العامة للشخصية الإنسانية فى الدنيا والآخرة.

وعلى هذا الأساس تحدَّد هدف ابن خلدون فى مقدمته وهو «بيان ما يعرض للبشر فى اجتماعهم من أحوال العمران فى الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية يتضح بها التحقيق فى معارف الخاصة والعامة وتدفع بها الأوهام وتَرفع الشكوك».

ولأن الحقيقة العلمية موضوعية وليست ذاتية، عامة وليست شخصية تستوجب نبذ كل صور «التشيعات للآراء والمذاهب»: «فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال فى قبول الخبر أعطته حقه فى التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه، وإذا خامرها تشيع لرأى أو نحلة» قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص.

وتتميز الخبرة العلمية كذلك بأنها خبرة قصديَّة موجهة نحو موضوعها بوعى وأنها ليست خبرة عارضة أو عفوية وأنها تتم بجهد مقصود وليست غريزية مفطورة فى الطبع، ولذلك حرص ابن خلدون أن يصف لنا، على وجه الإجمال، كيف انعقدت همته على النظر بعد أن استوعب من الزاد العلمى ما أهَّله لعرض أفكاره عن العلم الجديد. وهو يعلل تأخر ظهور «علم العمران البشرى» من قبل إلى موقف السابقين الذين تعاملوا مع «مسائل منه تجرى بالعرض فى براهين علومهم وهى من جنس مسائله بالموضوع والطلب». ولهذا فإننا نجده يقول عنه: «واعلم أن الكلام فى هذا الغرض مستحدث الصنعة... أعثر عليه البحث وأدَّى إليه الغوص». وغيره ممن لم يوفَّق من قبل إلى ابتداعه كأنه حوَّم على

تعدد «القراءات» لابن خلدون

■ تتمثل خصوصية التراث الخلدونى فى حياته المتجددة وفيما حواه من نظريات مبتكرة اخترقت حدود الزمان والمكان، وكشفت عن وعى عميق بالنسبية التاريخية وبإمكانية التجاوز للارتقاء بالعمران البشرى وبإدانة الانكفاء على التراث وبلزوم استبعاد كل عود إلى مثال مضى طالما أن قيمة الإنسان فى كسبه وما يصنعه فحسب.

ولقد كانت إضاءة الأنوار الخلدونية لعقلية المحدثين بقدر استعدادهم الفعلى لذلك وإذا كان المستشرق النمسوى «فون هامر برجشتال» قد وصفه بأنه «منتسكيو العرب»، فلعل الأحرى به أن يصف «منتسكيو» بأنه «ابن خلدون الغرب»؛ فابن خلدون هو السابق بنظراته العميقة فى فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسى، على أمثال: ميكافيلى ١٥٢٧، وفيكو ١٧٤٤ ومونتسكيو ١٧٥٥ وآدم سميث ١٧٩٠ وأوجست كونت ١٨٥٨ وأتباع المادية الجدلية وأرنست ميكل ١٩١٩.

ولئن كان البعض من أمثال المستشرق الهولندى دى بور يراه فى ثقافتنا.. لا دون سلف كما أنه بقى دون خلف، فإنه يظل يمثل أكثر جوانب ثقافتنا التقليدية عصرية، وهو عقلية واضحة كلها ضوء. وضوؤه العقلى يمزق كل غموض ويصل نقيًا إلى الأشياء - على حد تعبير أورتيجا إى جاسيت ١٩٣٤.

ولقد كان من الطبيعى أمام خصوبة التراث الخلدونى أن تتعدد تأويلاته بين أقصى اليسار وأقصى اليمين بما يعكس ثقافة أصحاب كل قراءة وشواغلهم. وبقدر الاستثارة الخلدونية للعقل المعاصر، العربى على وجه الخصوص والعالمى على وجه العموم، يبقى من الأهمية بمكان أن تتوافر قراءة متوازنة أيضًا للنص الخلدونى فى إطار عصره، وفاءً للروح الخلدونية ذاتها المؤسسة للرؤية التاريخية على الدراية لا على الرواية. ■

نجد عند ابن خلدون تقديرا واضحا لخصوصية التجربة الصوفية الوجدانية وتفرّدها، وهي التي نجد أصحابها يدَّعون الوجدان ويفرون عن الدليل

الغرض ولم يصادفه، ولا تحقق قصده، ولا استوفى مسائله. ودعوته النبيلة للباحثين من بعد هي أن تتوافر جهودهم في القصد إلى موضوعات هذا العلم لتدارك النقص فيه، فيقول: «وإن فاتني شيء في إحصائه، واشتبهت بغيره مسائله، فللناظر المحقق إصلاحه». فالحقيقة العلمية أبعد ما تكون عن أن يحتكرها عالم واحد أو مجموعة من العلماء، حاضرا ومستقبلا وإنما هي تيار متدفق يتوافق مع صيرورة الوجود ومع ارتقاء العقل الإنساني.

وانطلاقا من تصور الوجود بما هو حركة مستمرة مبدعة تنتقل من حال إلى حال في حلقات متصلة يأتي تصور المعرفة - بالتالي - بما هي جدل بين الثابت والمتحول وارتقاء مستمر لا يعرف ابتداءً نهايته، وهو ما يقترن حتما بالحاجة المتجددة إلى تطويع مناهج تلائم موضوعاتها المستحدثة.

وفي دراسة «طبائع العمران» يبيِّن ابن خلدون أنه «من الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الإعصار ومرور الأيام، وهو داء دوي شديد الخفاء، إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يتفطن إليه إلا الآحاد من أهل الخليقة. وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول: سنّة الله التي قد خلت في عباده». ولا ريب أن في إغفال هذا الشرط تضييعًا للمعرفة الصحيحة، طالما توهم الناظرون ثبات أحوال العمران واستقرارها فسكنوا إلى المحاكاة والتقليد: إذ أن «القياس والمحاكاة للإنسان طبيعة معروفة، ومن الغلط غير مأمونة، تخرجه مع الذهول والغفلة عن قصده، وتعوج به عن مرامه، فربما يسمع السامع كثيرا من أخبار الماضي ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها فيجريها لأول وهلة ويقيسها بما شهد، وقد يكون الفرق بينهما كثيرا، فيقع في مهواة من الغلط».

لقد كان لمفهوم «التقدم» الموصول أبدا أساس راسخ في النسق الخلدوني، وهو ما يعني أن صرح العلم لا يكتمل إلا بتضافر جهود العلماء، وبرغم وعي ابن خلدون بقيمة ما أنجزه حينما وصف مقدمته قائلا: «فجاء هذا الكتاب فذًا بما ضمَّنته من العلوم الغريبة، والحكم المحجوبة القريبة» غير أنه سرعان ما يستدرك على هذا مباشرة، إيمانا منه بنسبية المعرفة الإنسانية، فيقول: «وأنا بعدها موقن بالقصور بين أهل العصور، معترف بالعجز عن المضاء في مثل هذا القضاء، راغب من أهل اليد البيضاء، والمعارف المتسعة الفضاء، النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء، والتغمد لما يعثرون عليه بالإصلاح والإغضاء، فالبضاعة بين أهل العلم مزجاةٌ والاعتراف من اللوم منجاة، والحسنى من الإخوان مرتجاة». وعلى حين يعرض لرأيه في جدّة موضوع «علم العمران» بحيطة العلماء وأناتهم وتقديرهم لتواصل المعرفة البشرية، وذلك حين يقول: «وكأنه علم مستنبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة»، لا يغيب عنه كذلك إدراك الطابع النسبي لمحاولته التأسيسيَّة هذه فيبادر إلى القول: «ونحن ألهمنا الله ذلك إلهاما، وأعثرنا على علم جَعَلنا سن بَكْره وجهَيْنة خبره. فإن كنت قد استوفيت مسائله، وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه، فتوفيق من الله وهداية. وإن فاتني شيء في إحصائه، واشتبهت بغيره مسائله، فللناظر المحقق إصلاحه، ولي الفضل لأني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق».

ولا يستنكف عالمنا الحصيف - صاحب النسق الدينامي المفتوح - من مطالبة غيره باستكمال ما قصر عن بلوغه، وفي ختام «مقدمته» يكشف عن رجاء إنساني صادق، حين يقول: «فلعل مَن يأتي من بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا... والمتأخرون يُلحقون المسائل... شيئا فشيئا إلى أن يكمل». وهو ما يستوجب المراجعة الدائمة للأفكار وعدم الركون إلى صوابها المطلق. ولن يقدح ذلك - بالطبع - في الفضيلة العقلية للإنسان.

ويقترن بهذا الإيمان الراسخ بمفهوم التقدم ضرورة التحرر في مواجهة أي سلطة فكرية ضاغطة، وعدم ربط صواب الفكرة بمصدرها أو بالسلطة التي صدرت عنها، ووجوب التخلص من كل صور التبعية لأي سلطة خارج نطاق العقل ذاته. كما نبه ابن خلدون - وهو الخبير بطبائع البشر وأحوال العمران - إلى مخاطر الملق والنفاق الذي يسود الأوساط العلمية عندما يتقرب الأدعياء - في الأكثر - لأصحاب التَّجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك، فتستفيض الأخبار بها على غير حقيقة». وهنا تتحدد مسئولية العالم الحقيقي فلا ينعق مع الناعقين. ونصيحة ابن خلدون للعالم وللمتعلم هي أن يكون «مستوعبا لأسباب كل حادث، واقفا على أصول كل خبر. وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول، فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان، وإلا زيَّفه واستغنى عنه».

وعلى هذا يظهر الشكُّ خطوةً منهجية أولى عنده، ووصيته للباحث عن الحقيقة يمثلها قوله: «فلا تثقن بما يلقى إليك من ذلك، وتأمل الأخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه».

وإذا كانت الثقة بالناقلين من الأسباب المفضية إلى الكذب - أحيانا - وكان سبيل التمحيص يرجع إلى التعديل والتجريح «فموقف ابن خلدون الصريح هو أنه: لا يرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع، وأما إذا كان مستحيلا فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح. ولقد عدَّ أهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لا يقبله العقل». فيكون العقل هنا مقدما على «النقل». وعلى ذلك فإن ابن خلدون لا يتردد في تقديم شهادة الواقع على الرواية وتقديم متن الرواية على سندها وجرح وتعديل رواتها. وفي ذلك يقول عن الباحث في علم التاريخ: إنه «يحتاج إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف، وتعليل المتفق منها والمختلف، والقيام على أصول الدول والملل، ومبادئ ظهورها، وأسباب حدوثها، ودواعي كونها، وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتى يكون مستوعبا لأسباب كل حادث واقفا على أصول كل خبر. وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول، فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان، وإلا زيَّفه واستغنى عنه». «والأخبار عن الواقعات فلابد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة». وعلى هذا الأساس يتحدد معيار القابلية للتصديق: «فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران، ونميِّز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضا لا يُعتد به وما لا يمكن أن يعرض له. وإذا فعلنا ذلك كان ذلك قانونا لنا في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه».

الخبرة الفلسفية:

قد ينجم شيء من الالتباس عن استخدام ابن خلدون لمصطلح «علوم الفلسفة» أو لمصطلح «علم الإلهيات» الذي يُطلق على الميتافيزيقا «ما بعد الطبيعة». وواضح أنه يعرض لهذين المصطلحين بدلالتهما التقليدية عند الفلاسفة القدماء وعند الإسلاميين ممن كانوا ينشدون معرفة الوجود على ما هو عليه أو الوجود في ذاته ولا يقنعون بدراسة الموجود بحال ما، فيظهران باعتبارهما من الأسماء المشتركة التي قد توقع في الغلط.

على أن ابن خلدون وهو يكشف لنا عن تصوره لحدود الميتافيزيقا التقليدية يبادر إلى إخراجها من دائرة العلم اليقيني لمجاوزتها حدود الإدراك الإنساني الممكن لأن «ذواتها مجهولة رأسا، ولايمكن التوصل إليها ولا البرهان عليها؛ لأن تجريد المعقولات من الموجودات الخارجية الشخصية إنما هو ممكن فيما هو مدرك لنا، ونحن لا ندرك الذوات الروحانية حتى نجرد منها ماهيات أخرى، بحجاب الحس بيننا وبينها، فلا يتأتى لنا برهان عليها، ولا مُدرَك لنا في إثباتها على الجملة».

ويظهر تحديد ابن خلدون للخبرة العلمية بموضوعها الجزئي خلافا للخبرة الفلسفية بموضوعها الكلي عندما يميز بين «علم التاريخ» و«فلسفة التاريخ» «فإن التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصر فهو أسٌ للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده وتتبين به أخباره».

ولأن التجربة الفلسفية - عند أصحابها - تجربة عقلية خالصة ينبِّه ابن خلدون إلى وجوه الخلط المنهجي الحاصل في الثقافة الإسلامية بينها وبين التجربة الأصولية عند علماء الكلام. ويميِّز ابن خلدون بين الخبرة الفلسفية العقلية، التي لا تنطلق من افتراضات مسبَقة تُسلِم بيقينها وبين مسلك المتكلمين الذين ينطلقون ابتداء من الإيمان بصحة العقائد الموحاة ويستهدفون إقامة الحجج العقلية عليها إلزاما للخصوم.

تكشف الخبرة الدينية عن مجال أرحب يتجاوز الخبرة الحسية العادية والخبرة العلمية والخبرة



الفلسفية في إقامة علاقة بين النسبي والمطلق بمناهج خاصة ملائمة، كما تكشف عن خصوصيتها وتفردها ووضوحها الشديد عند أصحابها في مقابل الخبرات الإنسانية المشتركة والمغايرة لها.

وابن خلدون على بينة بأن «مدارك صاحب الشرع أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الأنظار العقلية، فهي فوقها ومحيطة بها لاستمدادها من الأنوار الإلهية، فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك المحاط بها. فإذا هدانا الشارع إلى مدرك فينبغي أن نقدمه على مداركنا ونثق به دونها، ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه، بل نعتمد ما أمرنا به اعتقادا وعلما، ونسكت عما لم نفهم من ذلك ونفوضه إلى الشارع ونعزل العقل عنه».

وتبلغ التجربة الدينية كمالها في وعي الأنبياء الذين تعتريهم حالة إلهية خارجة عن منازع البشر وأحوالهم، فتغلب الوجهة الربانية فيهم على البشرية في القوى الإدراكية والنزوعية. ولذلك يكون علمهم في تلك الحالة علم شهادة وعيان لا يلحقه الخطأ والزلل ولا يقع فيه الغلط والوهم. بل المطابقة فيه ذاتية لزوال حجب الغيب وحصول الشهادة الواضحة عند مفارقة هذه الحالة إلى البشرية: لا يفارق علمهم الوضوح استصحابا له من تلك الحالة الأولى، ولما هم عليه من الذكاء المفضي بهم إليها.

ونجد عند ابن خلدون تقديرا واضحا لخصوصية التجربة الصوفية الوجدانية وتفردها، وهي التي نجد أصحابها «يدعون الوجدان ويفرون عن الدليل، والوجدان بعيد عن المدارك العلمية وأبحاثها وتوابعها»؛ ومن ثم استعصاء مثل هذه الخبرات الكشفية الذوقية على البرهنة العقلية العامة.

ومع ذلك يلاحظ ابن خلدون اختلاط المعرفة الصوفية بالمعرفة الفلسفية عند المتأخرين من غلاة صوفية المسلمين الذين صيروا المعارف الوجدانية علمية نظرية. على ما بين الفلسفة والتصوف من مغايرة، ولاختلاف مناهج الإدراك أساسا في كل نسق منهما، ولأن البرهان والدليل غير نافع للحكم على المتصوف ردا وقبولا وخبرته وجدانية في طبيعتها ينتهي ابن خلدون إلى تقرير أن كلام الصوفية «لا يقتدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه وبعد ما بين كلام صاحب المشاهد والوجدان وصاحب الدليل».

ويتصل بمحاولات ابن خلدون الناجحة في ترسيم الحدود الصحيحة بين الأنساق المعرفية موقفه الرشيد من ضرورة التمييز بين ما هو دين وما هو علم، وحملته الشديدة على من يخلطون بين المطلق والنسبي وبين الإلهي والبشري وبين الكامل والناقص فتغيب عنهم الحكمة في أصل الدعوات الدينية ومقاصدها. ولا يتردد ابن خلدون، وهو يتحدث عما عرف بـ «الطب النبوي»، في القول: إن النبي صلى الله عليه وسلم إنما بعث ليعلم الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات، وقد وقع له في شأن تأبير النخل ما وقع، فقال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم، فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع».

غير أن ابن خلدون، بما هو مفكر مسلم - يتابع مسيرة أسلافه من علماء الإسلام لا ينازع، وهو الفقيه الكبير، في علمية علوم الدين الإسلامي التي نبتت في تربة الحضارة الإسلامية، بعد عصر التدوين وقبل عصر الترجمة، واستقرت بموضوعاتها النقلية ومناهجها العقلية وأهدافها في الكشف عن عقيدة الإسلام وشريعته، وحملت هذه العلوم معها في نشأتها بذور تقدمها عند كل المجتهدين. وذلك في مقابل علوم الأوائل العقلية، والتي أصبح لها في حضارة الإسلام تاريخ ذو شأن.

ثمة تساؤل قد يلح على قراء «المقدمة» في عصرنا وهو: ألا يستوقفنا شيوع استخدام ابن خلدون للفظي «علم» و«علوم» بدلالة مشتركة حين يطلق على كثرة من العلوم، مثل علوم الملائكة، وعلوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعلم الإلهيات، وعلم التصوف، وعلوم السحر والطلسمات، وعلم أسرار الحروف، وعلم الزيرجة، وعلم النجوم، وعلم السيمياء... إلخ؟ وبعض هذه العلوم - فيما هو مقرر - مفارق بطبيعته لمدارك الإنسان المحدودة بحدود الزمان والمكان، أو مظنون في علميته أو باطل لا سند له من المشروعية.

وجوابنا على هذا التساؤل المشروع هو: إن ابن خلدون بما هو مؤرخ، ومصنف للعلوم الواقعة لعهده يدفعه تقديره لواقع الممارسة العلمية عند المشتغلين بها إلى ألا يغفل عن رصد سائر العلوم الصحيحة منها والمزعومة. ولعله كان يرى فيها مناسبة لفهم طبيعة العمران البشري، ومدى سطوة معارف بعينها في صياغة وتوجيه «العقل الجمعي». هذا بالإضافة إلى أن ابن خلدون قد وقف - بالفعل - من علوم عصره موقفا نقديا فلم يسلم بمشروعيتها جميعا، وإنما اجتهد في الكشف عن الشروط الضرورية والكافية لقيام العلم الذي يعرض له، موضحا حدود الموضوع وفاعلية المنهج ووضوح الهدف. وجاءت رؤيته بالطبع محكومة بثقافة عصره ومستوى ما بلغته من تطور وارتقاء. فلا نخطئ أن نلمح في نظرته إلى بعض العلوم تراجعا عن المكانة التي شارفتها في فترات الصحوة والازدهار الحضاري عند المسلمين: من ذلك نظرته إلى علم الكيمياء الذي ابتدعه جابر بن حيان ورعته من بعد طائفة متميزة من كبار العلماء أمثال الرازي والبيروني والعراقي،

عبدالرحمن بن خلدون (٧٣٢ - ١٣٣٢م/ ٨٠٨هـ - ١٤٠٦م)

- ولد عبدالرحمن أبو زيد ولي الدين بن خلدون بتونس يوم الأربعاء غرة رمضان سنة ٧٣٢هـ الموافق ٢٧ مايو سنة ١٣٣٢م. وهو ينتسب إلى أسرة أندلسية ترجع إلى أصول يمانية حضرمية.

- بدأ بتلقي العلم على والده، بعدها اتصل بحلقات العلم في موطنه فتتلمذ على قاضي القضاة محمد بن عبدالسلام والشيخ محمد الحضرمي والعلامة محمد بن إبراهيم الأبلي. وظهر نبوغه مبكرا.

- من سنة ٧٥١هـ إلى ٧٧٦هـ خاض غمار حياة سياسية حافلة وشغل الوزارة في بلاط إمارات عدة.

- من أواخر سنة ٧٧٦هـ وحتى منتصف سنة ٧٨٠هـ اعتكف في قلعة «ابن سلامة» بمقاطعة وهران. وانصرف إلى كتابة «مقدمته» و«تاريخه». بعدها توجه إلى قسنطينة وتونس.

- في سنة ٧٨٠ هـ - ١٣٧٨م: قام بالتدريس بجامع «الزيتونة» وواصل كتابة تاريخه.

- في سنة ٧٨٤هـ - ١٣٨٢م: مغادرته لتونس إلى الإسكندرية ووصوله إلى القاهرة في زمن السلطان «الظاهر برقوق»، وقيامه بالتدريس في الجامع الأزهر.

- في سنة ٧٨٦هـ - ١٣٨٤م: درس بالمدرسة القمحية التي أنشأها صلاح الدين بن أيوب لتدريس الفقه المالكي.

- وتولى منصب قاضي قضاة المالكية في مصر.

- في سنة ٧٨٨هـ - ١٣٨٦م: تولى تدريس الفقه المالكي بالمدرسة الظاهرية البرقوقية بحي «بين القصرين» عند إنشائها.

- وشغل كرسي «الحديث» بمدرسة الأمير «صرغتمس الناصري».

- في سنة ٧٩٧هـ - ١٣٩٤م: أتم النسخة المصرية من كتابه «العبر».

- في سنة ٨٠٢هـ - ١٤٠٠م: زيارته للقدس والخليل وبيت لحم وغزة.

- في سنة ٨٠٣هـ - ١٤٠١م: وصوله إلى دمشق بصحبة السلطان الناصر فرج، وملاقاته التتري «تيمورلنك» للتفاوض معه بشأن فك الحصار عن دمشق.

- في سنة ٨٠٣ هـ - ١٤٠١م: وصوله إلى القاهرة وإعادة تعيينه للمرة السادسة قاضيا للمالكية.

- في سنة ٨٠٨ هـ - ١٤٠٦م: وفاته وهو في الرابعة والسبعين من عمره، يوم الأربعاء ٢٦ رمضان الموافق ١٧ مارس، ودفنه بمقابر الصوفية خارج باب النصر بالقاهرة.

ابن خلدون وقف - بالفعل - من علوم عصره موقفا نقديا فلم يسلم بمشروعيتها جميعا، وإنما اجتهد فى الكشف عن الشروط الضرورية لقيام العلم الذى يعرض له، موضحا حدود الموضوع وفاعلية المنهج ووضوح الهدف

وهو غير «السيمياء» التى داعبت عقول وأخيلة الكثيرين قديما وحديثا، أو نظرته إلى الفلسفة التى غاب فيها التمييز بين النسق المعرفى فى ذاته وبين بعض تجلياته فى التاريخ، ذلك لكى لا نقع فى وهم أن إبطال صور فلسفية بعينها هو إبطال للفلسفة أو أن إدانة ممارسات علمية بعينها هى إدانة للعلم!

ولا نُنهى وقفتنا مع «نظرية العلم» عند ابن خلدون دون الإشارة إلى أمر ذى بال يضعنا فى مواجهة أزمة أو مأساة: فقد دفع حرص ابن خلدون على صيانة مستقبل العلم فى أمته إلى أن يوصى المشتغلين بالكتابة العلمية ألا تغيب عنهم مقاصدها السبعة، وهى:

- استنباط العلم بموضوعه وتقويم أبوابه وفصوله وتتبع مسائله أو استنباط مسائل ومباحث تعرض للعالم المحقق يحرص على إيصالها لغيره لتعم المنفعة.
- أو: بيان المستغلق على الأفهام فيما عند السابقين من علماء المعقول والمنقول.
- أو: العثور على خطأ فى كلام مشاهير المتقدمين بعد الاستوثاق من ذلك بالبرهان الواضح الذى لا مدخل للشك فيه، وإيصال ذلك للغير.
- أو: إتمام نقص حاصل.
- أو: ترتيب وتنظيم معارف جاءت بغير تهذيب.
- أو: جمع مسائل متفرقة تبرز وحدة فى موضوعها لتصبح أصولا للعلم من بعدُ.
- أو: اختصار المسهب وإيجاز المطوَّل وحذفُ المكررُ غير الضرورى.

وما سوى ذلك، مما يقوم به الكاتب، هو فى نظر ابن خلدون «فعل» غير محتاج إليه وخطأ عن الجادة التى يتعين سلوكها فى نظر العقلاء مثل انتحال ما تقدم لغيره من التواليف بأن ينسبه إلى نفسه ببعض تلبيس من تبديل الألفاظ وتقديم المتأخر وعكسه، أو يحذف ما يحتاج إليه فى الفن، أو يأتى بما لا فائدة فيه. فهذا شأن الجهل والقحة.

إنه إذا كانت عظمة المفكر تقاس بمدى نجاحه فى التمييز بين الموضوعات العلمية المشتركة، وفى قسمة الموضوع الواحد إلى عناصره تحقيقا لمزيد من التخصص فإن ابن خلدون قد نجح فى ابتداع معارف جديدة مستقلة بموضوعها وبمنهجها وبغاياتها نخص بالذكر منها علم «العمران البشرى» وعلم «الاقتصاد». وقد مثّل تصنيفه لعلوم عصره ارتقاء ملحوظا فى تمييز بعضها عن بعض وإرهاصا بكثرة من المعارف المستحدثة وإسهاما فى تطوير مناهج للبحث أكثر فاعلية من المناهج التقليدية المستقرة ويأتى فى المقدمة من ذلك تبشيره بمنهج «النقد التاريخى»، وترسيخه للمنهج الاستقرائى فى العلوم الإنسانية، وتضييق الهوّة بين مناهج البحث فى كل من: «العلوم الإنسانية» و«فى العلوم الطبيعية».

وكشف ابن خلدون عن استباق ملحوظ فى رؤيته الفلسفية للعلم وإدراك طبيعته المتميزة والوعى بمسلمات المعرفة العلمية. ونحمد له تأكيده على طبيعة العلم التاريخية ونظرته المتكاملة إلى عوامل النهضة وعوامل الانكسار.

وبعد، فإننا نشعر يقينا أن هذا غيض من فيض، و«كل الصيد فى جوف الفرا». ■

من أبرز مؤلفاته:

- «لباب المحصل فى أصول الدين»، وهو تلخيص لكتاب «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين» لفخر الدين الرازى.
- «المقدمة»، وهى أهم مؤلفاته وأشهرها.
- «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر»، وهو تاريخ عام للبشرية حتى عصر المؤلف.
- «التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا»، وهو من أمتع كتب السيرة الذاتية فى التراث العربى، سرد فيه تطوره العقلى وتقلبه فى المناصب العامة ووقائع الحياة السياسية فى عصره.
- «شفاء السائل لتهذيب المسائل»، وهو دراسة مهمة للتصوف وأحوال رجاله.

ومن الثابت أنه قد قام بتنقيح مؤلفاته أثناء إقامته بمصر التى استغرقت زهاء أربع وعشرين سنة هجرية، وهناك نسخة من «المقدمة» حررها سنة ٧٩٩هـ كما أنه وصل فى رواية حوادث كتابه «التعريف» إلى نهاية سنة ٨٠٧هـ، قبيل وفاته ببضعة أشهر.

ومن مؤلفاته المفقودة، التى أشار إليها لسان الدين بن الخطيب فى كتابه: «الإحاطة فى أخبار غرناطة»:

- «شرح البردة».
- «شرح رجز فى أصول الفقه» كان قد أعده لسان الدين بن الخطيب.
- «تقييد فى المنطق».
- «كتاب فى الحساب».
- «تلخيص فلسفة ابن رشد».

كتاب الزاوية

رسالة فى التسامح

الدعوة بالحسنى

إذا زعم أى إنسان أنه ينبغى استخدام السيف والنار لإجبار الناس على اعتناق عقائد معينة، والانتماء إلى عبادات وطقوس معينة بغض النظر عن «الجانب الأخلاقى»، وإذا حاول أى إنسان أن يحول الآخرين إلى عقيدته وأن يجبرهم على الاعتراف بما لا يؤمنون به بدعوى أن عقيدتهم كاذبة، وأن طقوسهم لا يسمح بها العهد الجديد: إذا حدث ذلك فمن المؤكد أن مثل هذا الإنسان ينشد تجمعًا ضخمًا يشاركه نفس العقيدة. ولكن أن يكون مقصده تأسيس كنيسة مسيحية حقيقية فهذا ما لا يصدقه عقل. ولهذا ليس من المستغرب على هؤلاء الذين لا يدافعون عن انتصار الدين الحق وعن كنيسة الله أن يستخدموا الأسلحة التى لا تنتسب إلى النضال المسيحى. فإذا كانوا يريدون بحق الخير لنفوس الناس مقتدين فى ذلك بأمير السلام، كان لزامًا عليهم اقتفاء أثر خطواته واتخاذه مثالاً لهم عندما أرسل جنوده لإخضاع الأمم وضمهم إلى كنيسته. ولم يكن ذلك بالسيوف أو بأية أدوات أخرى من أدوات العنف، ولكنه كان مسلحًا بسلام العهد الجديد والأسوة الحسنة.

ذلك كان منهجه. وإذا اقتضى الأمر استخدام العنف فى تحويل غير المؤمنين أو استخدام الجنود المسلحين لإرغام فاقدى البصيرة والمعاندين بتحويلهم عن أخطائهم بقوة الجند المسلحين، فنحن نعرف أنه كان من السهل على المسيح أن يستخدم، فى إنجاز هذه المهمة، كتائب من جنود السماء، عددها يفوق ما يكون ميسورًا لكنيسة واحدة مهما تبلغ من القوة ومهما يكن لديهم من فيالق.

مصر وطن الجمال؟



وطنان أشوق ما أكون إليهما
مصر التى أحببتها وبلادى
وطن الجمال خفيه وجليه
والفن من مستطرف وتلاد

بيتان للشاعر الكبير ايليا أبو ماضى يصف فيهما مصر فى زمنه بوطن الجمال والفن، ظاهرا وباطنا. قديما وحديثا. فهل مازالت مصر هى وطن الجمال والفن؟ نعم بالاستمرارية الحضارية، ونعم بالإمكانات الكامنة، ونعم بما يجب أن يكون. وليس بما هو كائن من تلوث وقبح وفوضى وعدم إحساس بالمسئولية. لذا فإن ظهور جهاز التنسيق الحضارى وإن جاء متأخرا إلا أنه أشاع الكثير من التفاؤل والأمل فى إمكانية الإصلاح والتحسين مما يستوجب مناقشة جادة واسعة عنه. لا تخص المتخصصين المهنيين فقط بل كافة المواطنين الذين من حقهم تبسيط النواحى الفنية المهنية لهم بما يجعل قضايا تخطيط وتصميم البيئة المعاشة قضايا يومية يمكنهم المشاركة فيها. ألا تستحق هذه القضايا اهتماما يساوى الاهتمام بمباريات كرة القدم؟!

مبادئ

لا يدل المعنى الحرفى لمصطلح «التنسيق الحضارى» عن معناه المقصود عمليا والذى يبدو أقرب فعليا لمصطلحات «التصميم الحضرى» Urban Design و«عمارة البيئة» أو «تنسيق المواقع» Landscape Architecture وهى المجالات المتوسطة بين «تخطيط المدن» فى المقياس الكبير والتصميم المعمارى للمبنى المفرد فى الموقع المفرد فى المقياس الصغير. مع ملاحظة أن هذه المجالات المتوسطة تمتد بتلاحم ضرورى إلى كل من المقياسين الكبير والصغير أيضا. تتعامل كافة مجالات تصاميم البيئة مع ثلاث نوعيات أساسية من البيئة هى الطبيعية والإنسانية والمبنية. ويكون المطلوب دائما وفى أى موقف أو حل أو مشروع هو الوصول إلى التوازن الصحى بين هذه البيئات الثلاث. لا يتأتى التوازن من معادلات وقوالب جاهزة وإنما من عملية إبداعية متعددة الجوانب يتشارك فيها العديد من التخصصات المتصلة مباشرة أو غير مباشرة بتخصصات تصاميم البيئة، على أن تكون تحت قيادة المتخصصين. كما يشارك أيضا المواطنون عموما والمستخدمون للأماكن المعنية بالتدخل خصوصا بشكل مباشر أو عبر مؤسسات المجتمع المدنى. يشارك فى العملية الإبداعية أخيرا وليس آخرا كافة المثقفين والمبدعين من أى تخصص، فقد تشكل رؤية أحدهم أساسا إبداعيا يبنى عليه الجميع إضافاتهم الإبداعية فى عملية مستمرة ومتجددة. هنا تظهر بوضوح أهمية البعد الحضارى الذى يجعل قبول هذا المصطلح الجديد «التنسيق الحضارى» مستساغا بل ومرحبا به رغم عدم دقته.

بعد البعد الحضارى (الذى لن ينقطع حضوره فيما هو آت) هناك البعد الجمالى. تعتبر القيم الإنسانية الأساسية هى الحق والخير والجمال، والثلاث شديدة الارتباط بحيث تكون فى تقوية إحداها تقوية للقيمتين الأخريين والعكس بالعكس. لذا يعتبر القبح السائد حولنا انعكاسا لضعف قيمتى الحق والخير وما يشتق منهما من قيم مثل العدل والإحساس بالمسئولية بل والمحبة بين الناس أفرادا ومجتمعا. ذلك ما جعلنا (فى بحث آخر) نعتبر العمران الخارجى المعاش انعكاسا للعمران الداخلى فى نفوس كل منا أفرادا ومجتمعا. لذا فإن أى سعى نحو الجمال الحقيقى الذى يأتى تلقائيا وكتعبير صادق عن دواخل المجتمع وأفراده يجب أن يصاحبه بل يسبقه سعى آخر متعدد الجوانب لتحسين أحوال المجتمع وتحسين نفوسنا. «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».... صدق الله العظيم.

هناك منظور آخر يرى الجمال كنتيجة تابعة للصحة، سواء كان ذلك فى البيئة الطبيعية أو الإنسانية أو المبنية، فالتوازن الإيكولوجى الناتج من صحة تشكيل سطح الأرض والدورة الطبيعية للمياه وكثافة وتنوع النباتات والحيوانات كما وكيفا، من المحتم أن ينتج بيئة جميلة لاتعرف القبح إلا بمقدار التدخل الجائر للبشر فيها. نفس النتيجة تكون فى حالة الإنسان الصحيح مقارنة بالمريض. والمدينة الصحية كبيئة ومجتمع متوازن وأنشطة ثقافية واجتماعية واقتصادية وصرف صحى وإعادة تدوير واستخدام وحركة مرور مشاه ومركبات، مقارنة بالمدينة المريضة فيما تقدم.

فى حالة المدينة هناك من يرى (مستشهدا بالتراث، ونؤيده فى ذلك) أنه عندما كانت البيئة المبنية تنمو وتتطور كناتج للتفاعل والمبادرات المجتمعية من كافة المؤسسات الرسمية والشعبية والتى

عبد المحسن محمود فرحات

كانت تعبر فى مبادرتها عن ثقافة المجتمع وادابه، فإن هذا المجتمع قد طور آلياته وضوابطه المباشرة وغير المباشرة التى تقود فى النهاية إلى تراكم الانتفاع والحكمة والإبداع مع منع الضرر، مما أنتج مدنا غاية فى الجمال تتفوق حتى اليوم على المدن المعاصرة المنفلتة من جانب والقامعة من جانب آخر. انظر إلى خط السماء لأسطنبول التاريخية والذى لا يقترب من عشر جماله خط السماء لاسطنبول الحديثة. نفس الجمال يظهر فى دمشق التاريخية وفاس التاريخية وأخيرا وليس آخرا أجزاء من القاهرة التاريخية التى ما زالت تقاوم فى معركة غير متكافئة بين الجمال والقبح.

هناك بعد آخر قد يساء فهمه أو تناوله هو البعد الاقتصادى. فهناك من يرى استحالة الوصول لبيئة جميلة دون إنفاق سخى ومستوى اقتصادى مرتفع وميزانيات كبيرة. الرد على ذلك يبدو بوضوح فى قرى النوبة القديمة حيث المستوى الاقتصادى القريب من حد البقاء ومعه الجمال الذى لا يقتصر على الجزر النيلية وتجمعات البيوت ذات الأقبية وإنما يمتد لتفاصيل مدخل البيت الذى تقوم ربة المنزل أساسا بتجميله وتزيينه. إلى اليوم تجد فى الحوارى الضيقة المحيطة بالمسجد الأموى بدمشق نظافة تحسدها عليها بعض من الشوارع الكبيرة بالقاهرة. كما تجد بهذه الحوارى الجميلة الكثير من النباتات المتسلقة على الحوائط وعبر الطرق، ناهيك عن الحفاظ التاريخى القوى ليس فقط للمبانى التاريخية وإنما أيضا المنطقة التاريخية ككل، بما فى ذلك المبانى غير التاريخية الخاضعة بانضباط (تحسدها عليها زميلتها بالقاهرة) لمحددات الارتفاع والحجم والواجهات، بما يعطى النسيج المتكامل المتغنى بالتاريخ والحضارة. يمكن أن يتواجد الجمال فى بيئة متواضعة اقتصاديا وغنية ثقافيا ويمكن أن يغيب فى بيئة أكثر غنى وأكثر قبولا للضعف الثقافى.

لا يجب الفصل بين البعد الاقتصادى والأبعاد الثقافية الاجتماعية، بما فى ذلك العدل الاجتماعى. مجهودات «التنسيق الحضرى» لا يجب أن تقتصر على المناطق الغنية تاركة المناطق الفقيرة، مثلما هو حادث بالقاهرة فى مفارقة ازدادت وضوحا وظلما مع الزمن، وتعدت الإنذار بالخطر إلى وقوعه فعلا، حيث يشير الجميع إلى المناطق العشوائية المهملة كمورد مضمون للإرهاب. لا يقبل أن تكون على واجهة النيل مبان شاهقة وعصرية وخلفها مباشرة مناطق مهملة وقذرة وبدون خدمات أساسية وكأنها لا تنتمى لنفس العصر ولا نفس المجتمع. الأولوية يجب أن تكون للمناطق الفقيرة المحيطة بالمبانى التاريخية للقاهرة القديمة، فلا يعقل أن تكون كنوزنا وقممنا المعمارية والحضارية متروكة كجزر محاطة ببحر من القذارة والإهمال والفوضى، بل والضرر المباشر المستمر من صرف غير صحى وصناعات ملوثة تفتقد الحد الأدنى للأمان. حوارى قاهرة الأربعينيات والخمسينيات وما قبلها هى التى أفرزت «ثلاثية» «نجيب محفوظ» و«قنديل أم هاشم» لـ«يحيى حقى» وروائع كثيرة لطابور طويل من المبدعين الذين عاشوا بها واغترفوا من جمال هذه المناطق القديمة. أما حوارى قاهرة اليوم فهى التى أفرزت الإرهاب، بعد أن تم إهمالها فلم ينجُ من القبح والقذارة والخطر الاجتماعى لا الشوارع الكبيرة ولا الحوارى الصغيرة. يلاحظ هنا أن كل ما نطالب به أو نعطيه كأمثلة بالقاهرة ينطبق على كافة مدن وقرى مصر بصورة أو بأخرى. بل إن أهم حلول مشاكل القاهرة تكمن فى حل المشاكل خارجها.

مهـــــــــــام

قد يرى البعض بناء على ما سبق أن الأداء المهنى السليم فى كافة مستويات التخطيط والتصميم والتنفيذ وما يتصل بها من سياسات وبرامج ومشروعات وقرارات وأنشطة ثقافية واجتماعية واقتصادية هو المطلوب لإصلاح كل شىء بما ينفى الحاجة إلى «التنسيق الحضارى».

ما نراه هو العكس فتصحيح وإكمال الأداء المهنى وغير المهنى فى البيئة المعاشة عبر مستويات متعددة رأسيا وأفقيا يتطلب جهة خارجية مثل جهاز «التنسيق الحضارى» تكون أولى مهامه الإشارة والتنبيه للفجوات والخلل، وتحديدها بطريقة موضوعية وعلمية بهدف تحريك كافة المؤسسات الحكومية والمدنية المؤثرة والمعنية. يلى ذلك المبادرة للعمل المهنى المباشر فيما يمكن احتواؤه والسيطرة عليه ضمن أولويات واضحة. لابد أن يتم الكثير من العمل المهنى من قبل أجهزة ومؤسسات وأطراف أخرى غير جهاز «التنسيق الحضارى» إلا أن تحديد المهام والمتابعة والتنسيق تكون منه. إذ ليس المطلوب أن يكون هذا الجهاز الجديد بديلا لكافة الأجهزة المعنية ولا حتى رئيسا لها. فذلك يعتبر غير واقعى ولا مطلوب، حتى يكون تركيزه فقط على سد الفجوات وزيادة التكامل والشمولية فى البيئة العمرانية، بمعنى تكامل وشمولية العمل التخطيطى التصميمى التنفيذى عبر مقاييس متدرجة ومتتابعة ومترابطة.

لتوضيح المقصود سيتم فيما يلى مناقشة فجوتين نراهما شديدتى الأهمية. من المعروف أن ما يطلق عليه إجمالا «التخطيط» يحوى مستويات وأدوارا ومؤثرات عديدة. يفترض نظريا أنها تتبلور إلى سياسات ثم برامج ثم مشروعات يكون بعضها مشروعات تخطيط عمرانى. ما يحدث عمليا هو أن مخطط استعمالات الأراضى هو الناتج الأهم والأكثر تأثيرا فيما بعده. ما يحدث عمليا أيضا هو أن يتم القفز مباشرة من مخطط استعمالات الأراضى ذى المقياس الكبير إلى تصميم وتنفيذ المبنى المفرد فى الموقع المفرد تبعا لتشريعات البناء التى تحدد الارتفاع تبعا لعرض الشارع.

الفجوة الأولى فيما تقدم هى «التخطيط البيئى» Landscape planning or Environmental Planning الذى يجب أن يسبق مخطط استعمالات الأراضى محددا له أين وكيف يكون التطوير العمرانى من ناحية والحفاظ على البيئة الطبيعية من ناحية ثانية، وكيفية حمايتها وتنميتها واندماجها الإيجابى ضمن النسيج العمرانى للمدينة. غياب «التخطيط البيئى» أدى إلى تطوير إحدى المدن الجديدة فوق فوالق جيولوجية كما أدى للامتداد الجائر للقاهرة فوق الكثير من الأراضى الزراعية التى كان من الممكن الحفاظ عليها واستيعابها ولو جزئيا ضمن نسيج المدينة بما يمكن أن يخدم الجميع بيئيا واقتصاديا. نفس الغياب أدى لتقليص معظم واجهة النيل إلى مجرد ممشى جانبى يحاصره السور العظيم للمبانى المرتفعة، بدلا من وجود حرم أخضر واسع حوله ثم مساحات خضراء عمودية عليه تضاعف طول واجهة النيل أضعافا مضاعفة ومعها الإطلال على النيل ترفيها وسكنا. كما تتيح تحسين تهوية المدينة وغسل تلوثها ولو جزئيا. لاحظ أن كثيرين ينظرون إلى التلوث كناتج من عادم السيارات ودخان المصانع وغيرها ولا يفطنون لغياب المساحات المفتوحة والخضراء كأحد أهم الأسباب أيضا. قارن هذا بالوضع الحالى لتكدس جسور النيل بالباحثين عن نسمة هواء، ثم بالوضع القريب من الإيجابى عند حديقة الأسماك.

غياب «التخطيط البيئى» أدى لطريقة البناء على هضبة المقطم وكأنها مكان معتاد من المدينة دون وعى بخواصها ككل وخواص وحداتها البيئية Basic Landscape Units لدرجة البناء المتقن حتى وقت قريب إلى الحافة العليا والبناء العشوائى عند السفح مباشرة. تم تحديد حرم لكل منهما فقط بعد حدوث تصدعات وانهيارات جزئية، ومازالت هناك حاجة ماسة لتحديد أماكن العروق الطفلية المؤثرة والتى يمكن أن تسبب المزيد من التشققات إذا لم يتم التعامل معها بحساسية تخطيطية تشمل أماكن الفراغات المفتوحة وطريقة رى النباتات وطريقة الصرف الصحى وغيرها. من وجهة نظر تخطيطية بيئية أكبر مقياسا قد يدعم ما سبق جعل معظم جبل المقطم فراغات مفتوحة لهذه المدينة البائسة التى مازالت أكبر وأهم حدائقها ما تم إنشاؤه فى عهد الخديوى إسماعيل!! الإنجاز الأهم المطلوب هو وضع منظومة للفراغات المفتوحة Open Space System فى المدى البعيد لكل مدينة بناء على دراسات متعددة وتحقيقا لأهداف متعددة أيضا. على أن يشمل ذلك المناطق الواجب تحويلها من مناطق مبان حالية إلى فراغات مفتوحة عند تهدم البناء مستقبلا وتعويض أصحابها بنفس الطريقة المتبعة فى إنشاء طرق عامة.

الفجوة الثانية الهامة هى المقياس المتوسط بين مخطط استعمالات الأراضى وتصميم وتنفيذ المبانى فرادى، وهو التصميم الحضرى Urban Design وما يصاحبه جنبا إلى جنب من عمارة البيئة Landscape Architecture فى تكامل واندماج يتم فيها بناء على دراسات متعددة تصميم كتل المبانى فى الأبعاد الثلاثة كمجموعات، والفراغات المتنوعة للمدينة من ميادين وساحات وحدائق إضافة إلى منظومة الحركة من مشاة ومركبات. يأتى كل ذلك ضمن تصور حضارى مبنى على ثقافة المجتمع وتاريخ وحاضر المدينة بما يبرز شخصيتها الحضارية وشخصية أجزائها من أحياء ومعالم وحواف ونقاط التقاء ومسارات، بعضها



قائم ويحتاج لمعالجة وإبراز، والبعض الآخر ينبغي التخطيط والتصميم لإيجاده. يعتبر هذا المقياس الأكثر تأثيرا بشكل مباشر في حياة المواطنين وبالتالي يمكن الربط بين غيابه وبين قبح مدننا.

لتوضيح الفارق بين الجدية الواجبة في هذا المقياس والإهمال العبثي عندنا بشأنه فإن مدينة صغيرة تسمى «تشاندلير» بولاية أريزونا بالولايات المتحدة الأمريكية أقامت من مدة مسابقة عالمية للتصميم الحضري وعمارة البيئة لوسط هذه المدينة المكونة من ساحات ومبان بمساحة محدودة لا تتعدى مساحة ميدان التحرير عندنا. لحسن قيام المتسابقين بعملهم، تم إعداد كتيب يشمل بالخرائط العديدة التطور التاريخي للمدينة وكافة مكوناتها الفيزيقية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، إضافة لصور جوية وتتابع الصور المرئية من مسارات مختلفة، هذا وتم إعطاء المتسابقين مدة ثلاثة شهور لإعداد مشروعاتهم. في زمن مقارب أعلن في مصر عن مسابقة لتخطيط وتصميم أربعة أو خمسة ميادين بالقاهرة في مدة لا تتجاوز ثلاثة أسابيع وبخريطة واحدة بدائية لكل ميدان (منها ميدانا التحرير ورمسيس). يحدث هذا بالرغم من وجود الكثير من المتخصصين المبدعين في مصر الذين تتزايد أعدادهم باستمرار بنفس قدر تزايد المشاكل الناتجة من تجاهلهم.

من المنتظر في رأينا أن يتم تحديد أولويات مهام جهاز «التنسيق الحضاري» بناء على الموازنة بين «الأكثر احتياجا» و«الأكثر إمكانا». الأول يعني المكان ذا الاحتياج الأكثر للتدخل إما لإنقاذ أو معالجة أو محافظة أو تطوير نواح معينة فيه وصلت لمرحلة حرجة منذرة تستدعي سرعة التدخل. الثاني يعني المكان الذي يمكن عمل ما تقدم فيه ضمن ما هو متاح من إمكانيات بسهولة نسبيا وفي مدى زمني قريب بتأثير كبير. في الحالتين يجب أن تكون هناك موازنة بين التكلفة الممكنة والمردود البيئي الطبيعي والثقافي والاجتماعي ثم بعد ذلك العائد الاقتصادي.

أحـــــــــلام

ليس المقصود بالحلم هنا الانفصال عن الواقع، وإنما تجاوز الواقع الحالي ومنع أنفسنا من الغرق فيما فيه من تجزؤ وتخلف وقبح، ومحاولة الرؤية النافذة من خلال هذا الركام لواقع جديد يمكن صنعه أكثر تكاملا ورقيا وجمالا.

هل لو تحققت المنظومة الواجبة للفراغات المفتوحة بالقاهرة، ستكون هناك مناقشة حول أي احتمال للتدخل والجور على مجرى النيل بتعريض الطريق الأسفلت لجعل جزء منه أو طابق سفلي منه مخصصا للنقل الثقيل السريع كما تم اقتراحه رسميا في الفترة الأخيرة؟!! أم أن الأولوية حينئذ ستكون كما ذكرنا لتعريض الفراغات الخضراء للمشاة على النيل ثم عموديا عليه لتشق الكتلة العمرانية، مع تدرج ارتفاعات المباني من الأقصر عند واجهة النيل إلى الأعلى بعيدا عنه كلما ازداد عمق الفراغ. مع أن هذا التصور لن يتحقق إلا بعد عشرات السنين إلا أنه يجب التحضير والتخطيط له من الآن. أما في المدى القريب والمتوسط فهناك الكثير الكثير الذي يمكن عمله. من الطبيعي والواجب أن تنشأ أعمال فنية كبرى يشارك فيها النحاتون ومعماريو البيئة والمصممون الحضريون والمعماريون عند النقاط الإستراتيجية على واجهة النيل وداخل النيل نفسه بتشكيلات نحتية تدخل فيها النوافير والشلالات الموسيقية الملونة والمضاءة ليلا. من العدل أن يساهم أو حتى يتبنى أصحاب الفنادق الكبرى والمؤسسات المطلة على النيل هذه الأعمال الفنية العامة، ونفس الأمر يمكن عمله بالتطويع المناسب في أجزاء عديدة من منظومة الفراغات المفتوحة.

كل مسارات السكك الحديدية الواصلة لميدان رمسيس يمكن انزالها تحت الأرض وربطها بمحطات مترو الأنفاق بشكل أكثر مباشرة ويسرا. وفي نفس الوقت يمكن البناء فوقها بساحات مفتوحة ومشجرة للمشاة مع مبان خفيفة وأنشطة مناسبة ذات عائد اقتصادي جيد منها انتظار السيارات تحت هذه الساحات.

الفراغ الضخم الواقع عند مدخل هضبة المقطم عند طريق صلاح سالم (والذي يحتل معظمه الآن موقف لسيارات النقل والمعدات الثقيلة وغيرها) يمكن أن يتحول إلى واحد من أجمل الفراغات الحضرية والحضارية في العالم. يمكن ذلك إذا تم تصميمه كفراغ مفتوح في الأبعاد الثلاثة تمتد فيه الخضرة والأشجار من المستوى السفلي إلى الحافة العلوية للهضبة عبر مساطب مدرجة على جدار الحافة القابلة لعمل تشكيلات نحتية ضخمة بما يجعل كامل الفراغ مثالا رائعا للاندماج بين الفنون التشكيلية والتصميم الحدائقي والتصميم المعماري، ويكون الفراغ بؤرة أنشطة ثقافية ترفيهية مناسبة. من المناسب أن تكون هناك مبان محدودة بتصميم إبداعي يتمشى مع طبيعة المكان، وهنا يجب التحذير من فقدان هذه الفرصة الحضارية الكبرى (وربما الأخيرة في حجمها) إذا سمح للبناء والتطوير الجشع بالكثافات المعتادة مما سيزيد في خنق القاهرة وحرمان مواطنيها من حقوقهم الإنسانية الأساسية في نمو الفراغات المفتوحة الخضراء جنبا إلى جنب مع النمو العمراني.

إذا كنا قد ركزنا فيما سبق على العديد من الأمثلة السلبية (ولا يزال هناك أضعاف أضعافها) إلا أن التناول الموضوعي لن يكتمل إلا بذكر بعض الأمثلة الإيجابية التي تمثل أضواء هامة وقوية وسط الظلمة العمرانية التي نعيشها. أولها الحديقة الثقافية بالسيدة زينب من تصميم د. عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم وثانيها حديقة الأزهر من تصميم د. ماهر ستينو ود. ليلى المصري مع آخرين. يعبر هذان المثالان عن مستوى راق من الإبداع على المقياس العالمي وليس فقط المحلي أو العربي، ففي الحالة الأولى استطاع المصمم أن يفجر طاقات من الإبداع مستوحاة من التراث المحيط خاصة مئذنة مسجد ابن طولون دون محاكاة وباستخدام مادة بناء صعبة هي الحجر، وفي محيط عمراني واجتماعي بائس لدرجة خلو عدة مدارس قريبة من أحواش للتلاميذ. في الحالة الثانية استطاع المصممون الجمع المبدع بين التشكيل الهندسي والعضوي عبر مناسيب متعددة أثرت التصميم وهي ناتجة أصلا مما كان أكواما من المهملات والنفايات. تم إنشاء الحديقة فوقها، فتمكنوا بذلك من تحويل بقعة قبح وتلوث إلى بقعة ساحرة الجمال يمتد الإحساس بالجمال فيها لما حولها من معالم ومآذن القاهرة التاريخية، حيث صممت الممرات لتصب بصريا نحوها. هناك أيضا محاولات وجهود جادة ومؤثرة مثل تطوير منطقة الدرب الأصفر وتحويل بعض شوارع وسط القاهرة للمشاة مع تصميم حدائقي لها وكذلك إضافة مساطب مدرجة عند حديقة الأندلس على النيل، إلا أن كل هذه الأمثلة تعتبر الاستثناء على القاعدة العامة التي تجعل أحد أخبارنا المعتادة في أي مدينة قيام سيادة الدكتور اللواء المحافظ بتفقد بعض المناطق وتوجيه سيادته بإضافة صناديق ومتجر زهور تحت طريق علوي، مستمرا هو وغيره في تجاهل كافة التخصصات والطاقات المبدعة الموجودة والواجب تنميتها وتشغيلها بالأتعاب العادلة.

ترى إلى متى سنظل نحلم ونحلم بالقدوم الجديد لوطن الجمال والفن؟ ▪


النساجون الشرقيون
OrientalWeavers
إدارة المشروعات الكبرى
تلبى التعاقدات الخاصة للمشروعات (فنادق- قصور- مطارات- مكاتب و أبنية عامة)
تقدم الإدارة برنامج خدمة متكامل يبدأ بدراسة المشروع من حيث الوظيفة المنتظرة للمكان ونوع الإستعمال و الميزانية المحددة ثم تقترح النوعيات الملائمة مع دراسة تقديرية للتكلفة وربما البدائل المختلفة كما تقوم من خلال مهندسيها وخبرائها بتقديم الإستشارات او اعداد كامل للتصاميم والألوان المقترحة استناداً الى خط الألوان المقرر للمبنى وطابعه المعمارى ويكون ذلك مجاناً دون ارتباط من العميل. كما تتابع الإدارة تنفيذ التعاقد مع المشروع وإعداد رسومات وطرق تركيب الموكيت و الإشراف عليه مجاناً
تضم الإدارة قسماً لخدمة ما بعد البيع بما فى ذلك طرق الصيانة و التنظيف
8 El Shaheed Zakaria Khalil Street. Heliopolis. Cairo. Egypt tel .: 02 - 2672121 fax : 02 - 2672241
e-mail owc@orientalweavers.com

مصر أصل الشجرة

ربما تجاوز المصريون القدماء كل حضارة أخرى في قدرتهم على تغيير جوهر مجتمعهم وديانتهم، في الوقت الذي ادعوا فيه عدم إجراء أية تغييرات.

كانوا يرون أن التغيير مستحيل. فالحقيقة وُجدت لكل زمان، منذ الخلق، منذ «الزمن الأول» أو «الحدث الأول». إلا أن المصريين كانوا يقومون في واقع الأمر بتغييرات جوهرية ويخلقون قوالب جديدة أكثر تعقيداً وغير مفهومة من الناحية المنطقية بوضعهم الطبقة فوق الأخرى من المعتقدات والمدلولات والأسماء دون التخلص من أية تناقضات.

والهدف الأول من هذا الكتاب هو شق طريق يمكن السير فيه خلال تلك الكتلة المتشابكة الضخمة من المفاهيم والتغيرات وحدة الذهن والتوفيق بين المعتقدات المتعارضة والاندماجات والتناقضات والألغاز.

يضع الجزء الأول من «مصر، أصل الشجرة» الديانة المصرية والنظام السياسي والمجتمع داخل سياقات التاريخ القديم الخاصة بالديانة والميثولوجيا والتكنولوجيا والفن وعلم النفس وعلم الاجتماع وحركات الهجرة والجغرافيا، وهي سياقات يعود بعضها إلى فترة تصل إلى عام ٤٠٠٠ ق.م. كما يجري بحث تثبيت المعتقد الديني داخل الحلول الإلهي وتعدد الآلهة، رغم وجود ولع شديد بالتغيير بدون تغيير، وانتشار السحر، وسلطات الفرعون الإله، ونقطة تحول الإنسان التي صورتها مصر القديمة في الكثير من المجالات اللاهوتية والسياسية والفنية والتقنية الأساسية منذ عصور مبكرة جداً. ويبحث المجلد الثاني كيف أدت تلك السياقات القديمة إلى نتائج محددة وإلى الحلول المصرية الأصيلة للمشاكل السياسية والمجتمعية والوجودية والميتافيزيقية. كما يبحث على نحو خاص وضع نظام كان فيه لكل إنسان في النهاية خمسة أرواح، والحل المتفائل لمشكلة الموت، ووضع قانون أخلاقي غامض. وقد كرّست تلك الحلول والتسويغات المصرية على نحو يقوم على المفارقة دور أصل الشجرة الحقيقي والخيالي الذي قامت به مصر في تاريخ البشرية وما زالت تلك الأدوار مزدهرة في وقتنا الحاضر. وتجرى مقارنة الرؤية المصرية برؤى المجتمعات الدينية القديمة العظيمة الأخرى، وخاصة الرؤى السومرية والعبرانية والهندوسية والزرادشتية واليونانية والمسيحية المبكرة.

مقدمة كتاب:
مصر أصل الشجرة
تأليف: سيمسون نايوفتس
ترجمة: أحمد محمود
مكتبة الشروق الدولية
المجلس الأعلى للثقافة
(المشروع القومي للترجمة) ٢٠٠٦

وتُقيّم مكانة مصر في تاريخ الديانة إلى جانب معقولية التأثير الكبير (وإن لم يكن بالإمكان إثباته) في التطور نحو التوحيد والتأثيرات الشعائرية والميثولوجية على اليهودية والمسيحية والديانات اليونانية والرومانية (وأثر عكسي على الإلحاد).

إحدى أكثر الفترات كثافة من التغير الديني والسياسي والتقني والثقافي والاقتصادي بدأت في مصر حوالي عام ٣١٠٠ ق.م واستمرت حتى حوالي ٢٠٠٠ عام. وأصبحت مصر، إلى جانب سومر، مجتمعاً متعلماً مستقراً ومتقدماً في العصر البرونزي استوعب قيم العصر الحجري الحديث وتجاوزها. وبدأ عصر اقتصادات الفائض والمجتمعات المنظّمة والديانات المتكيفة مع قيم مجتمع الري والزراعة ذي المحاصيل الوفيرة. وحينذاك أصبحت مصر منطقة التنمية الأساسية، والطليعة، والمحرك، وروح البشرية، نتيجة لترسيخ نظامها الثابت منذ حوالي عام ٢٧٠٠ ق.م حتى بداية الانهيار في القرن الثاني عشر الميلادي.

كان الدين الإطار الأساسي للمجتمعات في تلك العصور، غير أن الدين لم يُستخدم قبل ذلك بهذا القدر من النجاح كواقع أساسي وكتبرير للحياة البشرية. ولم يحدث قبل ذلك أن كان نسق السحر الديني والميثولوجيا الدينية القائم على مفهوم حيوية المادة animistic perception الخاص بالحلول الإلهي immanence في الطبيعة على هذا القدر من الكمال والمعقولية. ولم يحدث قبل ذلك أن اختُرع مثل هذا الدين المُحكَم وتلك الميثولوجيا الجامعة. ولم يحدث من قبل أن كانت تلك الحقائق المتعددة الخاصة بالكون والوجود على ذلك القدر من ربطها معاً بدهاء في نسق مقدس من التنوع والثنائية والنظام العتيق والانسجام يعاد خلقه بشكل يومي.

كان المصريون البراجماتيون يؤمنون إيماناً قوياً بأن السحر حقيقة، وليس معجزة. فقد كانوا يعتقدون أن السحر جزء من القوانين الإلهية وأنه يعبّر عنه في الميثولوجيا الخاصة بهم (التي لم تكن بطبيعة الحال ميثولوجية بالمعنى الذي نعرفه لهذه الكلمة، بل وصفاً حقيقياً للكون وأصوله والإنسان والسلوك الصحيح الواجب تبنيه. ورغم ما كان عليه النسق المصري المعقد للسحر والإيمان بحيوية الطبيعة والميثولوجيا من الزيف والوهم، فقد وفر لهم أدوات فعالة لبناء الدين والدولة الأحدث والأكثر حيوية في ذلك الوقت.

لم يحدث من قبل أن تجمع ذلك الكم الهائل من الآلهة والإلهات على شكل حيوانات وبشر وتلك التي لها أجسام بشر ورءوس حيوانات في ذلك النسق الثوري المعقد والناشئ: وهو تعدد آلهة أصيل أو حقيقي يقوم على حاجات المجتمع الزراعي المستقر.

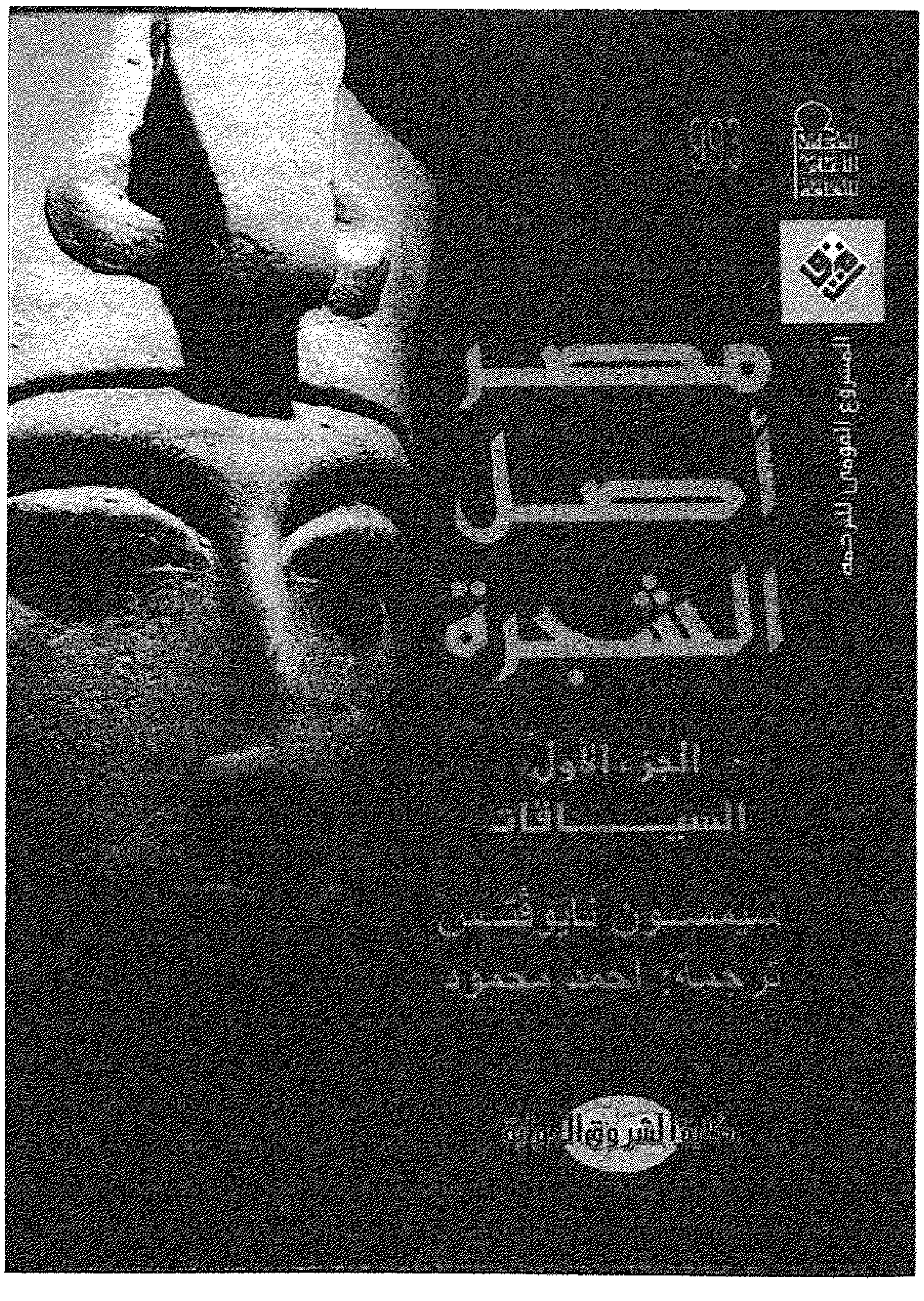
غيرت سومر ومن بعدها مصر مجرى التاريخ تغييراً جذرياً باختراع الكتابة. وبعد ذلك اخترعت مصر بالرموز الهيروغليفية ما هو بالتأكيد أكثر أشكال الكتابة جمالية في تاريخ البشرية. فقد كانت الكتابة عند المصريين لغة الآلهة السحرية.

ولم يحدث من قبل أن استُخدم الفن، وخاصة العمارة، بهذه الطريقة الثورية والمدهشة وواسعة الانتشار الخاصة بأغراض السحر والتلقين، باعتباره أداة من أدوات الدين، والمقابر على وجه الخصوص (التي كان يُنظر إليها على أنها مدخل إلى الحياة الآخرة). وتحققت الحلقة الأكثر إحكاماً وحميمية بين الفن والدين منذ العصر المجدليني[1] قبل ذلك باثني عشر ألف سنة في مصر. فقد وُضعت قوانين جديدة للجمال والمدلولات الفنية الدينية لرسم صورة مصطنعة لجوهر عالم مثالي وشعوب مثالية. ومنذ بناء أول هرم حوالي عام ٢٦٦٠ ق.م، تحققت ثورة عمارة الحجارة المنحوتة، مما مكّن العمارة المصرية من التفوق على البشرية لآلاف السنين، وكذلك من بناء معابد مازالت حتى وقتنا هذا أكبر معابد شيدها أي شعب من الشعوب.

تأسست أولى دول العالم ومحورها الأساسي المُلك الإلهي بحلول عام ٣١٠٠ ق.م. وبحلول عام ٢٦٠٠ ق.م أقيم أول نظام إداري وخدمة مدنية قومي مركزي في التاريخ في العاصمة منف. وتكيفت الكفاءة البراجماتية والتنظيم الذكي ونظام السحر المنتشر في كل مكان داخل كل يتسم بالمعقولية. ونُسجت الثيوقراطية والمجتمع الذي بُني على أساس تراتبي صارم والاعتقاد بأنهم شعب الآلهة الوحيد في نظام معقد نادراً ما كان يتحداه أحد. وبحلول عام ١٤٥٨ ق.م تقريباً أصبحت مصر أعظم قوة إمبراطورية في العالم، حيث ظلت كذلك مدة تزيد على المائتي سنة حتى معركة قادش في عام ١٢٧٤ ق.م حيث ظلت قائمة على نحو غير ثابت لمدة ١٥٠ سنة أخرى باعتبارها قوة عظمى وظلت تحارب على فترات متفرقة للقيام بدور إمبراطوري في آسيا إلى أن سحق قواتها الملك البابلي نبوخذ نصر الثاني في قرقميش على نهر الفرات عام ٦٠٥ ق.م.

لأول مرة في تاريخ الإنسان اقتُرح حل، أو وهم، فعال بدا معقولاً لمشكلة الموت. فقد اخترع المصريون «الحياة الثانية» وهي أن يعيش الإنسان حياته السعيدة بشكل أبدي في الحياة الآخرة. وكان هذا الحل بمثابة المقاربة الأكثر تفاؤلاً لقضية الموت التي اختُرعت حتى

تأسست أولى دول العالم ومحورها الأساسى الملك الإلهى بحلول عام ٣١٠٠ ق.م. وبحلول عام ٢٦٠٠ ق.م أقيم أول نظام إدارى وخدمة مدنية قومى مركزى فى التاريخ فى العاصمة منف



سيمسون نايوفتس

ذلك الوقت. وقد أدت إلى أعظم جهد مادى وسحرى ودينى يقوم به الإنسان لضمان الحياة الآخرة. وبدأت الثورة فى مفاهيم الحياة الآخرة حوالى عام ٣١٠٠ ق.م ببناء المقابر الضخمة وأعقبها اختراعات حفظ الجثة. التحنيط. والمقابر الأهرام والنظام المعقد للأرواح المرافقة العديدة. فقد اخترع المصريون اعتقاداً مروعاً بأن الجثة يمكن حفظها وتبقى حية بعد الموت. وعلى مدى مئات السنين القليلة التالية يقدم الإله المُخلّص أوزيريس البعث وتُخترع الحياة الآخرة الإيجابية، حيث كانت تلك الحياة الآخرة تُمنح من الفرعون لكل من هو «مستعد»، أى الذى يقدر على دفع ثمن الاستعدادات المعمارية والفنية والشعائرية والسحرية.

اعتباراً من عام ٢٣٠٠ ق.م كانت هناك محاولات لربط الأخلاق والدين ببعضهما. فقد بدأت تراود المصريين فكرة التحذير من أنه ما لم يتصرف المرء التصرف اللائق فى هذه الحياة فلن نكون له حياة أخرة. ومع ذلك فهم لم يقبلوا قط الأساس الأخلاقى الصارم لهذه الحياة أو الحياة التالية وتشبثوا بالاعتماد على السحر، وما سمى بالسلوك المجتمعى الصحيح... والحيلة. ومع أن القوة الدافعة الأساسية لأول محكمة معروفة (وكانت تحكم بما إذا كان من حق الشخص الحصول على الحياة الآخرة أم لا) كانت سحرية وليست أخلاقية. فقد عُقدت فى حوالى عام ٢١٨٠ ق.م.

بحلول عام ١٥٥٠ تقريباً، بلغت عبادة آمون ومفهومها الخاص بالتنوع والوحدة فى آن واحد. الجمع بين الآلهة كافة باعتبارها جوانب لإله واحد. بينما يتم الإبقاء على وجود كل الآلهة كافة. مستويات غير مسبوقة. ورغم ما فيها من لبس بين الوحدة والتنوع. رفضها المطلق لنبذ الرؤية المصرية الأساسية الخاصة بالكون باعتباره تنوعاً. فقد كانت تمثل رغم ذلك اتجاهاً توحيدياً وأدت بعد ذلك إلى اختراع التوحيد، فى الفترة القصيرة التى عاشها أول توحيد شمسى فى منتصف القرن الرابع عشر ق.م. ومع أن التوحيد الخاص بعبادة آتون لم يستمر إلا حوالى خمس عشرة سنة، فقد كان يمثل واحداً من أهم التغيرات التى أحدثها الإنسان وفترة من الفترات الأساسية فى تاريخ البشرية.

كان الجدل الدائم الذى ربط ديانة آمون رع الشمسية وعبادة آتون وأفكار التوحيد الأصلى أو القديم أو الخفى أو الافتراضى فى مصر القديمة قائماً منذ القرن السابع عشر ق.م فيما يتعلق بالعلاقات المصرية العبرانية والقضية الأساسية الخاصة بأصول التوحيد. وأفكار التوحيد الأصلى أو القديم أو الخفى أو الافتراضى فى مصر هى فى الأساس أفكار مبالغ فيها، ولكن عبادة آتون كانت بحق أول عبادة توحيد، حتى وإن لم تكن عبادة توحيد أصيلة مكتملة النمو.

بعد عام ١٠٩٩ ق.م هوت عبادة آمون فى الشمولية والأصولية والتعصب الدينى. وبعد عام ٧٤٧ ق.م، وخاصةً بعد الغزو الفارسى لمصر فى عام ٥٢٥ ق.م. بلغت عبادة الحيوانات أوجها وأسفرت عن شكل من أكثر أشكال الديانة تطرفاً.

هناك جدل كبير يتعلق بتاريخ انتهاء مصر المصرية على نحو واضح. هل كان فى عام ٥٢٥ ق.م. مع أول غزو فارسى شديد المهانة؟ أم فى عام ٣٣٢ مع الغزو اليونانى وما تلاه من تأثير الفلسفة اليونانية؟ أم هو التاريخ التقليدى فى عام ٣٩٥ ق.م حين أصبحت مصر باعتبارها دولة مسيحية جزءاً من الإمبراطورية الرومانية؟ الأمر المؤكد هو أن القلب الأصيل للديانة المصرية والمجتمع المصرى كان قد مات قبل عام ٣٩٥ بزمن طويل.

الأمر المؤكد كذلك هو أنه بحلول القرن السادس ق.م على الأقل كانت مصر قد فقدت تماماً دورها الطليعى وكانت فى انحدار دينى وسياسى عميق. وتقدمت الشعوب الأخرى فى سعيها نحو الحلول والتسويغات الدينية والسياسية والدنيوية الأفضل والأوضح والأكثر براعة، فى حين تشبثت مصر بالدين السحرى وتخلفت عن الركب. ونجد أن العبرانيين بروحانيتهم الأثيرية وتوحيدهم الأصيل، والفرس بما لديهم من مصير أخروى نهائى للإنسان، والمسيحية بما فيها من نموذج للمحبة والعفو والمبادئ الأخلاقية التى تقوم على قدر أكبر من المساواة، واليونانيون بما لديهم من البحث الفلسفى العقلانى غير الميثولوجى والوضوح العلمى، قد حلّقوا جميعهم عالياً. ولا يبدو أن أياً من تلك القفزات كان فى متناول مصر العقلى والعاطفى التقليدى الحيوى animistic.

الرأى المعتاد هو وجود القليل جداً من الأدلة التى تبين أن هناك تأثيراً مصرياً يتعدى تلك القفزات. ومن ناحية أخرى، كان المؤرخ اليونانى هيرودوت فى القرن الخامس ق.م الميلادى هو أول من افترض التأثير المصرى، وخاصة فى الديانة. فعلى امتداد القرون، وحتى وقتنا الراهن، بلغت هذه المدرسة الفكرية حد الولع المبالغ فيه بمصر، حيث تقدم النظريات المنافية للعقل التى تتراوح بين ربط مصر بما تسمى قارة أطلانطا المفقودة، والمعنى الخفى للأهرام، وتأكيد أن إخناتون

المؤسس المصرى لأول ديانة توحيد هو فى واقع الأمر موسى، وفكرة أن الحكمة المصرية كانت أصل الفلسفة والعلوم اليونانية، وهلم جرا.

سوف نبحث هذه الآراء كافة، غير أنه سوف يتم تبنى فرضية أن هناك رأياً وسطاً معقولاً: وهو الطابع البديهى لدور التطور المستقل فى القفزات التى حققتها شعوب كثيرة بعد المصريين. غير أنه كذلك ربما يكون تحقيق بعض تلك القفزات قد تم بالاستفادة من الميراث المصرى وبرفضه، الأمر الذى لا يمكن إثباته رسمياً. ومهما كان ما حدث، فى الواقع أو من خلال عملية إعادة بناء مشوهة لما كانت عليه مصر القديمة، فإن تطور الإنسان بصورة عامة قد تأثر تأثراً عميقاً وأثّر تأثيراً عميقاً. ودفعت النتائج الإنسان بقوة للأمام وأدخلته فى وهم شاعرى هائل.

على مدى ما يزيد على ٣٠٠٠ سنة، منذ عام ٣١٠٠ ق.م إلى عام ٣٩٥ ميلادى، تولى حكم مصر أكثر من ٢٠٠ فرعون كان بينهم فراعنة من أصل ليبى وتخللتهم فترات من السيطرة الأجنبية أو الاحتلال، بما فى ذلك ستة فراعنة من الهكسوس الآسيويين، وخمسة فراعنة نوبيين (كوشيون)، وملكان آشوريان وحكامهما العملاء من المصريين، وتسعة أباطرة فرس، وثلاثة ملوك يونانيين، و١٧ من البطالمة اليونانيين، و٥٢ من الأباطرة الرومانيين.

خليط غير عادى من الجديد والمفيد والجميل، واستمرار السحر البدائى والغموض المتعمد، والمجتمع المصرى المتميز الناشئ ولكنه شاعرى بشكل غير عادى. وكذلك ديانته وسياسته وزراعته وتقنيته وصناعاته وكتابته وعمارته وفنونه. كانت مصر مجتمعاً مبدعاً طليعياً ومجتمعاً محافظاً فى المؤخرة، غير أنه لا شك فى أنها كانت كذلك إحدى الدول الأكثر تفاؤلاً فى تاريخ البشرية. إذ اخترع المصريون الحلول المتفائلة للكثير من قضايا الإنسان الأساسية وظلت تلك الحلول «صحيحة» أطول من حلول أى مجتمع آخر فى التاريخ.

ومازال الإعجاب الذى لا ينقطع بما أنجزته مصر باستخدام الديانة السحرية حتى يومنا هذا، إلى جانب الرفض الشديد لما كانت تمثله من الناحية الدينية.

ولا يمكن إبراز اتساع التاريخ المصرى مقروناً بادعائه الدوام اللاهوتى والسياسى (بينما كانت سمة مصر الدائمة هى التغيير دون الاعتراف



لأول مرة فى تاريخ الإنسان اقتُرح حل، أو وهم، فعال بدا معقولاً لمشكلة الموت. فقد اخترع المصريون «الحياة الثانية» وهى أن يعيش الإنسان حياته السعيدة بشكل أبدى فى الحياة الآخرة

بالتغيير) القدر الكافى من الإبراز. وقد مر اللاهوت والسياسة الداخلية والسياسة الخارجية بتغيير مستمر.

كانت نتيجة هذا الموقف متاهة شاسعة من المفاهيم والتناقضات. ورغم الوفرة غير العادية من الوثائق المجتمعية والأدب والآثار الفنية والمعمارية، فليست الحواجز التى تقف فى سبيل الحد الأدنى من الفهم الواضح لمصر القديمة ليست ضخمة فحسب، بل لا يمكن تخطيها فى كثير من الأحيان. وزاد الأمر تعقيداً نتيجة لظهور مصر الخيالية فى أوروبا فى القرن الخامس عشر والتأثيرات الغريبة الكثيرة التى أحدثها ذلك، ومازال يحدثها (وخاصة على الجماعات السرية الحديثة والديانات البديلة وعلى حركة المركزية الإفريقية).

أدت إعادة اكتشاف مصر الحقيقية، أو الأكثر حقيقية التى بدأت فى أوائل القرن التاسع عشر إلى القضاء تدريجياً على الرؤى الخيالية والحمقاء الخاصة بمصر القديمة. ورغم ذلك تطرح عملية إعادة الاكتشاف وإعادة التفسير هذه سؤالاً مهماً مثل التفسيرات المتطرفة السابقة، وهو هل كانت مصر أصل شجرة البشرية؟

سوف نبحث كل تلك الآراء، بما فى ذلك الآراء المتناقضة فى كثير من الأحيان لكبار علماء المصريات والمؤرخين (وكبار المخبولين) فى محاولة للاقتراب أكثر من جوهر مدلول مصر وتأثيرها. ونأمل أن تلقى هذه المحاولة الضوء بشكل واضح على الجمال الرائع والساحر والخيالى للقصة المصرية ولا تفسده. ونأمل أن يضاف شىء كذلك إلى متعة استكشاف الميراث المصرى وإدراك وهج المجتمع المصرى القديم، وهى تلك المتعة التى يبدو أنها لا تنفد أبداً.

من الناحية الواقعية، يصاحب هذا كله الإقرار بأن لا أحد، بما فى ذلك أبرز علماء المصريات والمؤرخين، قد أدرك جوهر مصر القديمة ومعناها إدراكاً تاماً. ويبدو من غير المرجح أن يحقق أحد ذلك بطريقة مُرضية. ويرفض علماء المصريات نظريات بعضهم البعض منذ منتصف القرن التاسع عشر: بل ومنذ القرن الخامس قبل الميلاد، إن نحن أضفنا إليهم النقد القاسى الذى تعرض له هيرودوت.

من المؤكد أنه من غير المرجح أن تكون لدينا صورة واضحة عن مصر كتلك التى لدينا عن بلاد اليونان القديمة. ولكن من الواضح أن لدينا صورة واقعية لمصر أكثر وضوحاً مما لدينا عن إسرائيل القديمة:

حتى ولو كان لدينا فهم أفضل لكيفية تفكير العبرانيين وشعورهم. ومن غير المرجح أن نكتشف إطاراً مترابطاً لمعنى مصر، لسبب بسيط وهو أنه ربما لم يكن هناك وجود لذلك الإطار، أو أنه كان من التعقيد والتنوع بحيث لا يمكن إدراكه، كشأن إطارنا الحديث.

حقق علماء المصريات والمؤرخون نتائج رائعة بحق، غير أن سعيهم لبناء معنى كان مخيباً للآمال فى النهاية. وقليلون هم علماء المصريات الذين يقدمون ما يشبه الرؤية الشاملة الواضحة لمصر. وفتح بعض علماء المصريات المحدثين أرضاً جديدة بمحاولتهم بيان أن العدد الضخم من طبقات المعانى والسياقات والآلهة المدمجة، والتناقضات الواضحة والمربكة فى الديانة المصرية، كان يمثل طريقة مصرية خاصة لإدراك الواقع تتسم بالتعدد، بيد أنها مترابطة فيما بينها. ومع ذلك تظل هذه الرؤية غير كافية لحل مشكلة المعنى الجوهرى للديانة المصرية. وقد أخذتُ فى الاعتبار إلى حد كبير الرؤيةَ المقابلةَ القائلةَ بأن إحدى سمات الديانة المصرية، كما هو حال الديانات كافة، هى التشوش والتناقض.

بدأتْ خلال الثلاثين سنة الأخيرة على أقل تقدير مرحلةٌ جديدةٌ من علم المصريات، إذ أصبح بإمكان قطاع عريض من الجمهور الاطلاع على قدر ضخم من الفن والعمارة فى مواقعه الأصلية وداخل المتاحف، كما هو الحال بالنسبة للنصوص الأولية والنقوش فى كل الميادين التى تُرجمت ترجمةً جيدةً. وبالطبع هناك اكتشافات رائعة لا تزال مرجحة. ولكن يمكن الآن للباحثين والكُتّاب والصحفيين الأكْفَاء، وليس علماء المصريات فحسب، أن يبحروا فى المتاهة المصرية غير العادية ويكافحوا من أجل العثور على نوع من المعنى المترابط، أو اكتشاف أنه لا وجود له. ومع أن الباب الذى فتحه ذلك للهواة الذين يقاربون الأمر مقاربةً غير عقلانية، والتقارير الإعلامية السطحية والمثيرة، فمن المرجح أن هذا سيكون له فى آخر الأمر نتائج إيجابية. وربما سار بنا كذلك فى النهاية بضع خطوات إلى ما وراء البحث الأكاديمى المتكرر عن الاكتشاف العظيم والتفسير العظيم الخاص الذى يقوم به علماء المصريات ويتسم بالتعجل ويكونه مصطنعاً، وهو ما يبدو فى بعض الأحيان مرتبطاً بالبحث عن المجد والشهرة أكثر من ارتباطه بالبحث عن المعرفة.

لست عالم مصريات محترفاً، وإن

كافحت كى أشق طريقى فى المتاهة المصرية لسنوات طوال كثيرة. فأنا صحفى وكاتب ومتخصص فى أنظمة المعتقدات الدينية، وأشارك أناساً كثيرين ولعهم بفهم مصر وتقديرها. وقد حاولت القيام بذلك مستخدماً الوسائل الكثيرة المتاحة حالياً للجمهور العام.

يشمل هذا المشروع الأوصاف المحايدة للديانة والسحر والفن والأدب والمجتمع والتاريخ المصرى، وكذلك تحليلاً وتأويلاً ضخماً؛ أتعشم أن يكون خلاقاً. والمنهج المتبع هو الاستفادة من أفضل الأبحاث المتاحة دون نبذ الآراء الصريحة فى انشقاقها وخروجها على جماعة العلماء، وأن أكون واقعياً ودقيقاً واضحاً بقدر الإمكان. ويقتضى هذا المنهج بالضرورة استخدام نفس المعايير التى قد تستخدم لوصف وتحليل أية حضارة تاريخية أو أية سلسلة من الأحداث فى تاريخ البشرية. كما يقتضى ضمناً قبول أن الديانة كانت العامل الأساسى فى مصر القديمة، كما هو الحال فى سائر المجتمعات القديمة، ورفض مفهوم أن الموضوعات ذات الطابع الدينى «بقرات مقدسة» أو مُحَرَّمات taboo تقتضى ما يزيد على القدر العادى من الاحترام.

هناك بعض الاعتبارات العملية الأخيرة: فقد بات تقليدياً الإشارة إلى آلهة وإلهات مصر القديمة ومدنها بالشكل الذى أعاد به اليونانيون تسميتها بعد فتح الإسكندر مصر فى عام ٣٣٢ ق.م. كما أعيد تسمية المدن المصرية القديمة كذلك بالعربية بعد الفتح العربى فى عام ٦٤٢ الميلادى. وأدى استخدام الأسماء اليونانية إلى ضياع الشعور بما كانت عليه مصر القديمة. ولكن استخدام الأسماء المصرية القديمة (التى يألفها عدد قليل من الناس) وحدها يؤدى كذلك إلى الخلط. وليست هناك طريقة سهلة للتعامل مع هذا الأمر. وربما كان النظام الأقل خلطاً أو صعوبة، والطريقة التى تحافظ على بعض الشعور بمصر القديمة، على الأقل عند الإشارة إلى الأسماء لأول مرة، هى استخدام الأسماء الأكثر شهرة للإله أو الإلهة، مع إضافة اسمه أو اسمها المصرى حين يكون مختلفاً إلى حد كبير، واستخدام الأسماء المصرية واليونانية للمواقع على نفس المنوال.

هناك كذلك خلط فى التواريخ الخاصة بمعظم الأحداث فى مصر القديمة، وربما تكون الاختلافات كبيرة، وهو ما يتوقف على المصدر. ولابد من التأكيد على عدم وجود شىء اسمه التاريخ الدقيق فى التاريخ المصرى القديم، خاصة فيما يتعلق بالتواريخ العتيقة ما قبل ٣٠٠٠ ق.م وحتى ١٥٠٠ ق.م. والتواريخ المستخدمة فى هذا الكتاب اختيرت من تحليل مصادر كثيرة؛ أى من حسابات علماء المصريات المحدثين، والأعمال الفنية، والمؤلفين القدامى من مصريين وغير مصريين، ثم جرت مراجعتها على الأحداث فى الدول المجاورة. وأدى هذا فى معظم الحالات إلى تبنى التواريخ المستخدمة بصورة عامة فى المتحف البريطانى ومعهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو.

إلى أن قسم الكاهن والمؤرخ المصرى الذى تأثر باليونانيين مانيتون (ح. ٣٠٠ ق.م)[٢] الأسر الملكية المصرية إلى ٣٠ أسرة، كان المصريون أنفسهم يحسبون فى قوائم ملوكهم فقط باستخدام عدد السنين التى يقضيها الفراعنة المتعاقبون فى الحكم، ابتداءً من الآلهة التى حكمت مصر والأرض قبل الفراعنة الآلهة. وبالإضافة إلى أسرات مانيتون الثلاثين التى يمكن التحقق منها بصورة أو بأخرى، قسم علماء المصريات التاريخ المصرى تقسيماً تعسفياً إلى ما لا يقل عن ثمانى فترات مميزة عن بعضها بوضوح وثلاثة عصور تسمى بالانتقالية، وليس متاحاً الآن إطار أكثر من ذلك ترابطاً أو أدنى منه خلطاً على أقل تقدير.

كما أنه لا وجود لشىء مثل الترجمة الوحيدة والصحيحة لمعنى الكثير من المصطلحات الدينية واليومية المصرية. ويعنى عدم وجود الحروف اللينة فى اللغة المصرية المكتوبة أنه لا يمكننا إنتاج نطق صحيح ووحيد للكثير من الأسماء والمصطلحات المصرية، وخاصة الأكثر قدماً. ومع ذلك فلابد من الاستخدام الموسع للنطق كى ندرك على الأقل شيئاً مما قد يكون الصوت والرمز اللغوى للغة المصرية القديمة. ■

هوامش

(١) الفترة الثقافية الأخيرة من العصر الحجرى القديم فى أوروبا الغربية وقد اشتهرت بفنها. استمرت هذه الفترة من عام ١٦٠٠٠ ق.م إلى عام ١٠٠٠٠ ق.م. والموقع النمطى لتلك الفترة هو المأوى الصخرى المعروف باسم لامادلين la Madeleine فى جنوب غربى فرنسا. (المترجم)

(٢) الحرف (ح) الذى يسبق هو من الآن اختصار لكلمة «حوالى». (المترجم)

كتاب الزاوية

رسالة فى التسامح

المجتمع والقوانين

إن أى مجتمع، سواء كان حراً أو هزيلاً فى تكوينه، وسواء كان مجتمعاً من الفلاسفة ينشد العلم، أو مجتمعاً من التجار يسعى إلى التجارة، أو مجتمعاً من العاطلين لقضاء وقت الفراغ والحديث والحوار، أقول إن أية كنيسة أو شركة لا يمكن أن تقوم لها قائمة وتكون متماسكة دون أن تتفكك فوراً إلا إذا كانت محكومة بقانون وكان أعضاؤها ملتزمين بنظام معين يحدد مكان الاجتماع وزمانه، كما يحدد قواعد قبول الأعضاء وفصلهم، وكذلك تحديد المسئولين عن العمل وتنظيم مسار العمل وما شابه ذلك. كل هذه الأمور لا يمكن تجاهلها. ولكن حيث إن انضمام مجموعة من الأفراد إلى مجتمع الكنيسة، هو فعل حر وتلقائى خالص، يصبح حق سن القوانين من اختصاص المجتمع، أو على أقل تقدير، من اختصاص هؤلاء الذين فوضهم المجتمع بالإجماع لينوبوا عنه فى ممارسة هذا الحق.

وقد يعترض البعض بدعوى أن مثل هذا المجتمع لا يمكن أن يكون كنيسة حقة إلا فى حالة أسقف يتمتع بسلطة حاكمة يستمدها من الرسل ويتوارثها عبر سلسلة متصلة حتى يومنا هذا.

إلى هؤلاء أقول، أولاً: بينوا لى المرسوم الذى صاغه السيد المسيح ليفرض هذا القانون على الكنيسة. وأرجو ألا يتهمنى أحد بالمروق إذا طالبته بإعلان صيغة هذا المرسوم بوضوح وجلاء؛ لأن الوعد الذى قاله السيد المسيح لنا هو «أينما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمى، هناك سأكون بينهم» (إنجيل متى ١٨: ٥٠) يبدو أنه يومئ إلى الضد من ذلك.

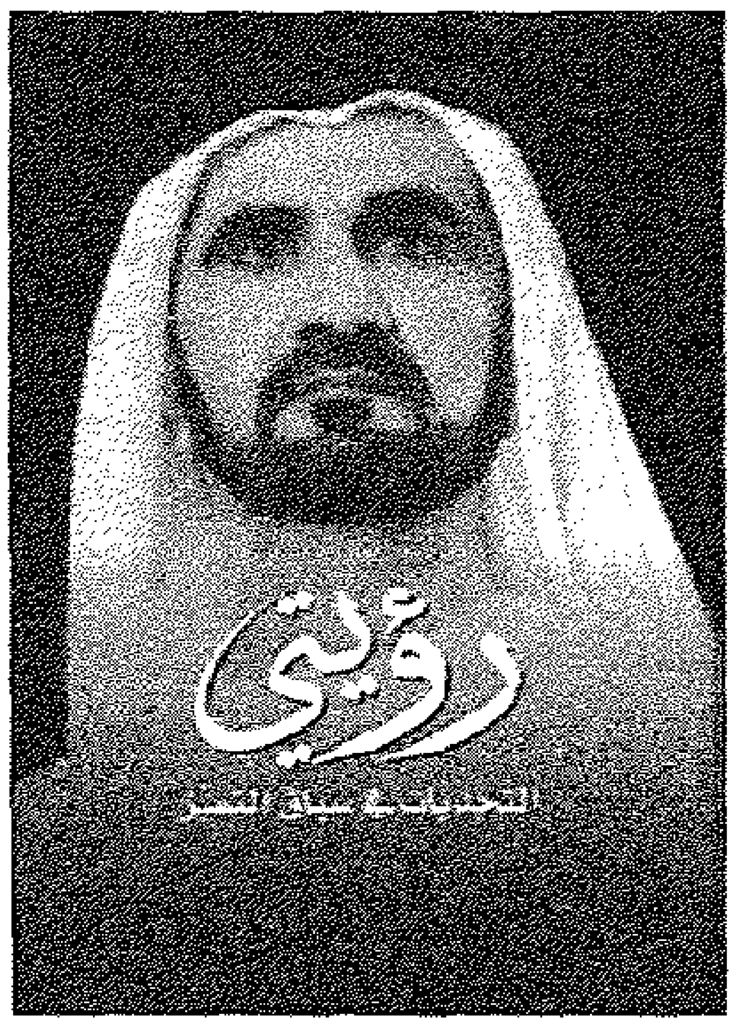
دبى: قرطبة الجديدة

محمد بن راشد آل مكتوم

كثيرون تناولوا هذا الكتاب الذى أصبح موضوعًا للعديد من الأعمدة الصحفية ومقالات لكتاب كبار. وكان طبيعيًا أن يتطلع القارئ الذى هو مهتم أصلاً بـ «لغز دبى» إلى معرفة ما بين دفتى هذا الكتاب.

«وجهات نظر» اختارت أن تضع أمام قارئها بعضًا من صفحاته.

وجهات نظر



يوجد شىء فى دبى أشعر به وأنا أسير أو أسوق سيارتى فى شوارعها وحدى فى كثير من الأوقات، لكن لا أستطيع لمسه لمس اليد أو التعبير عنه بوضوح. إنه مثل شفافية الفجر أو أطياف الليل. ربما قلت إنه «روح دبى». إذا سئلت ما الذى أعنيه لربما قلت إنه مزيج من روح أهلها وروح المدينة.

عندما يبتسم الإنسان لنفسه فمن السهل أن يبتسم للآخرين. هكذا هم أهل دبى. أول طريق الابتسامة انتزاع الطاقة السلبية من صدور الناس واقتلاع اليأس والإحباط. هذا يحدث عندما يؤدى الإنسان عملاً مجديًا يحمل إليه الفرح والافتخار. إذا حدث ذلك فسترتفع معنوياته وسيكون لطيفًا مع نفسه ومع الآخرين وسيضيف إلى عطلة الأسبوع كل أيام عمله.

من يعش فى دبى يظل فى دبى. حتى عندما يترك البعض دبى إلى مدينة أخرى فإن قسمًا منه يظل فى دبى لذا كثيرون يعودون. أسمع قصصًا عن أشخاص ذهبوا إلى كندا وأوروبا وأمريكا ثم عادوا بعد سنة أو اثنتين وأولادهم أسبق منهم فى الرجوع. البعض بدأ معنا بداية متواضعة وارتقى إلى العالمية فى الأعمال والاستثمار واشترى الشركات الكبيرة، والبعض اكتسب فى دبى خبرات عالية مطلوبة فى دول أخرى فقبل عروضًا مغرية ومناصب عالية ومع ذلك أمنوا إدارة استثماراتهم فى الخارج وتركوا مناصبهم العالية هناك وعادوا.

لماذا يا ترى؟

يوجد ود فى دبى، وألفة. يوجد تسامح يحترمه الجميع وتقاليد يحترمها الجميع. يوجد احترام للذات والآخرين. يوجد اتزان وامتياز وحضارة.

يستطيع المرء أن يسير فى شوارع دبى وحاراتها فى أى وقت يشاء. إذا التفت السائر خلفه فلعله يريد رؤية الأنوار البعيدة فى أفق المدينة، أو البحث عن وجه يعرفه لكن ليس للتأكد من أن نشالاً أو سارقًا سيغافله كما يحدث فى بعض شوارع عواصم الدنيا. البعض يعود إلى دبى لهذا السبب. يوجد أمان فى هذه المدينة.

قرطبة كانت هكذا.

توجد شوارع نظيفة وعمارات جميلة وحدائق يقارب تنظيمها الكمال. لا نقول للناس ماذا يلبسون لكن عندما يكون الداخل جميلاً فإن المظهر يماشيه. هنالك أناقة واعتناء بالمظهر والسلوك عند من يقدرون الامتياز.

كثيرون زاروا دبى ثم عادوا إليها واستقروا - الآلاف؛ ولكل منهم قصة. أحدهم طبيب أسنان ألمانى درس فى هارفارد وكان يحاضر فى جامعة برلين، ثم جاء إلى دبى سائحًا فأعجبته الحياة فيها فعاد إليها واستقر. متى جاءها سائحًا؟ فى أغسطس! تصوروا! فى أغسطس. وماذا ترك وراءه؟ ألمانيا وجامعة برلين.

توجد بيئة حياة متميزة فى دبى لا يجدها المرء إلا فى المدن السياحية المتميزة. يوجد تغيير دائم فى دبى لأن الامتياز لا يعرف الجمود. توجد مبادرة. توجد رغبة فى ابتكار الجديد من كل شىء. توجد حركة دائبة فى الليل والنهار لكن يوجد ارتياح. توجد ضغوط العمل المعتادة لأن الجميع يستيقظ ويبدأ السباق لكن يوجد ترفيه متميز بعد ذلك.

تحدثنا كثيراً عن الإنتاجية والأداء والفعالية والتطوير لكننا لا نطلب من أحد فوق طاقته ولا نريد أن يعمل أحد فوق طاقته أو على حساب أسرته. نريد أن يعطى مقابل ما يأخذ وعندما يعطى فوق ذلك سيأخذ فوق ما يأخذه. نريد التعامل مع الناس بعدل وإنصاف وحضارة.

نريده بعد ذلك أن يحقق التوازن فى حياته. أن يعطى العمل حقه وأن يعطى أسرته ونفسه حقهما لأن أفضل وقت يمر على الإنسان هو الوقت الذى يقضيه مع أسرته. نريده أن يستمتع هو وأسرته بالحياة ويرفه عن أسرته وعن نفسه جيداً وإلا لن يكون مستعداً لاستئناف السباق فى صباح اليوم التالى.

للصغار مكانة كبيرة فى دبى لأن لهم مكانًا كبيراً فى قلوبنا نحن العرب لكن الامتياز الخاص بهم ليس صغيراً. إنه الامتياز نفسه للكبار لأن الامتياز لا يعرف السن ولا العنصرية. الامتياز للجميع فى جميع الأوقات والحالات. الامتياز ليس فى الصناعة والتجارة بل فى الخدمات كذلك. يجب أن تكون الخدمة ذات مستوى مرتفع تليق بمقدمها ومتلقيها.

يوجد مكان فى أماكن العمل فى دبى للمرأة فى دبى. توجد لها مكانة. المرأة ليست نصف المجتمع بل أم المجتمع لذا مكانتها خاصة لأنها اشتركت فى سباقنا الكبير وفازت بجدارتها وليس بالترضية. تستطيع أن تقود الفريق وتدير حياة أطفالها وشركتها وتنجز وتصنع شباب المستقبل وشاباته والثروة وفرص العمل للاخرين وتركب الخيل وتسابق الرجال وتفوز. المرأة فى قرطبة كانت هكذا. كانت رسيس تخرج مع الخليفة عبدالرحمن الناصر على ظهر جوادها وهى تلبس قلنسوة وتتقلد سيفًا وتشق معه شوارع قرطبة حتى مدينة الزهراء. لبنى كانت كاتبة الخليفة الحكم بن عبدالرحمن ومزنة كاتبة الناصر لدين الله «وفى ظل هذا المجتمع»، كما يقول أحد الكتاب، «كانت المرأة الأندلسية واسعة النفوذ تتمتع بقسط كبير من الحرية».

دبى مدينة الانتقاء والخيارات. يستطيع ساكنها اختيار أسلوب الحياة الذى يرتاح إليه ونمط الترفيه الذى يروق له. العمل فى مدن العمل المعروفة.. عمل، لكن العمل فى مدينة سياحية متعة. لهذا استقطبنا فى دبى دفقًا من المواهب المتميزة التى لا تجدها مجتمعة فى مكان واحد فى أى مدينة فى الدنيا.

بعض هؤلاء مغتربون عرب. منذ خمسين سنة ونحن نشكو من هجرة العقل العربى والمال العربى إلى الغرب. ماذا فعلنا لوقف هذه الظاهرة الخطرة؟ زدنا جرعة الشكوى وشتمنا الغرب جيداً لأنه كيان شرير يسرق مقدرات الأمم ثم يسرق عقول أبنائها.

الغرب ليس السبب يا عرب. عندما

رؤيتى
التحديات فى سباق التميز
محمد بن راشد آل مكتوم
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر
دبى: مطبعة الإمارات، ٢٠٠٦

مع إطلالة كل صباح في أفريقيا يستيقظ الغزال مدركًا أن عليه أن يسابق أسرع الأسود عدوًا وإلا كان مصيره الهلاك. ومع إطلالة كل صباح في أفريقيا يستيقظ الأسد مدركًا أن عليه أن يعدو أسرع من أبطأ غزال وإلا أهلكه الجوع. لا يهم إن كنت أسدًا أو غزالاً فمع إشراقة كل صباح يتعين عليك أن تعدو أسرع من غيرك حتى تحقق النجاح

يعود المغترب إلى وطنه الأم لقضاء إجازة مع أهله فإنه لا يحترق المطار إلا وهو يطحن أسنانه ندمًا لأنه فكر في المجيء. الطوابير بلا نهاية والانتظار بالساعة والاثنتين والحر شديد وهذا ينظر إليه بريبة كأنه متهم، والآخر يطرح أسئلة لا مبرر لها بينما المغترب يحاول أن ينظر يمينًا وشمالاً ليهرب بخجله بعيدًا عن عيون أولاده وزوجته. إذا كانت البوابة هكذا فكيف البيت؟ لا أحد يهتم ولا أحد يبتسم ولا أحد يساعد ولا أحد يقول: أهلاً بكم.

أهلاً وسهلاً ومرحبًا بكم في دبي أيها السادة المغتربون العرب. قلنا هذا لكثيرين عادوا وسنقولها لكثيرين آخرين وسنستقطب العقول العربية المهاجرة التي تريد المجيء والاستقرار ثم سنتمنى للباقين دوام النجاح. بعض هؤلاء رغبوا لأولادهم نشأة عربية لكنهم يريدون مستويات من التعليم والصحة والخدمات تضاهي الموجودة في أوروبا وأمريكا. عندنا كل هذا.

البعض الآخر يريد عائدًا جيدًا على استثماراته. العائد على الاستثمارات في دبي جيد جدًا ونحن لا نؤمم ولا نصادر ولا نعتدي على أموال الناس ولا نتهم من يحقق الأرباح نتيجة عمله الصحيح بسرقة قوت الشعب فأهلاً وسهلاً ومرحبًا بالمال العربي المهاجر.

آخرون من الهند ولبنان وباكستان والولايات المتحدة وسوريا ومصر وفرنسا وغيرهم ينتمون إلى أكثر من ١٥٠ جنسية يقولون أشياء مشابهة ويضيفون إلى ما يقوله كثيرون آخرون من أنهم اندمجوا في مجتمع دبي بسرعة. أعتقد أن هذا طبيعي لأن دبي مدينة بلا غربة. دبي مدينة بلا هامش. لا أحد فيها يعيش في هامشها مكتئبًا، لذا الكآبة شعور لا تعرفه دبي.

دبي مدينة عربية الحضارة عالمية التطلع والمفهوم والامتياز. قرطبة كانت هكذا. عدد الجامعات في حاضرة الخلافة الأموية الثانية كان أقل بقليل من عدد الجامعات في كل باقي بلدان أوروبا لكن كان في جامعاتها امتياز لذا جاءها أوروبيون كثيرون تقلدوا بعد دراستهم المناصب العالية وأصبح بعضهم باباوات. تجار من أوروبا وآسيا وأفريقيا نشطوا في أسواق تلك المدينة التي كانت تضم أكثر من مليون نسمة. كان فيهم المسلم والمسيحي واليهودي. العصر الذهبي الذي عرفه اليهود في تاريخهم القديم كان مع العرب في الأندلس، فبرز من بينهم الفلاسفة والعلماء والأطباء وأصحاب المهن الرفيعة.

هذه صفة أخرى من صفات الامتياز. إنها احترام أديان الآخرين ومعتقداتهم لكي يحترم الآخرون ديننا ومعتقداتنا لكن الاحترام ليس عطية بل اكتساب. كيف نقنع الآخرين بسماحة الإسلام وبعضنا لا يعرف السماحة؟ كيف نقنعهم بعدالة الإسلام ونحن نمارس الظلم؟ كيف نقنعهم بأنه دين حق ونحن نتعامل بالباطل؟ الله يقول: (لا إكراه في الدين) فبأي حق نريد أن نقسر الآخرين على ديننا؟ إن المسئولية التي تقع على عاتقنا تفرض علينا أن نقدم للآخرين صورة جميلة عن ديننا من خلال معاملتنا وتعايشنا الإيجابي معهم في أمن وسلام وتفاعل لتحقيق مقتضيات التنمية التجارية والإنسانية معًا.

الامتياز لا يعرف التفرقة الدينية أو العرقية لأن إنسانيته الجامعة فوق ما يفرق البشر. الجميع يعيشون بسلام والكل يريدون أن يعملوا وينتجوا ويربحوا في بيئة تتساوى فيها الفرص والحقوق والواجبات، لذا كانت المحافظة على السلام والأمن مسئولية الجميع وأهم أركان استمرار الإنتاج وحماية المصالح والتعاون والتعايش بكل أنواعه: تعايش الديانات، تعايش الاختلاف، تعايش القيم، تعايش المفاهيم وهكذا.

أعظم ما في الحضارة العربية الأندلسية ليس قصر الحمراء أو مسجد قرطبة الكبير أو مدينة الزهراء أو قصر إشبيلية بل لأنها قدمت للإنسانية النموذج الفريد الذي عرفه العالم حتى الآن على إمكان تعايش الحضارات والأديان وتعاون الجميع لصنع الامتياز.

ماذا حل محل المؤسسة العلمية في قرطبة؟ مؤسسة محاكم التفتيش، أطول مؤسسة صنعها الإنسان عمرًا. ماذا حل محل الثقافة والأدب في قرطبة؟ إحراق المؤلفات وحبس من يكتشفه عمال محاكم التفتيش مكبًا على كتاب. ماذا حل محل التعايش في قرطبة؟ العنصرية. معظم حضارات العالم الجديد وقعت ضحية هذه العنصرية لأن الإسبان لم يروا في تنوع الحضارة البشرية آنذاك واحدًا من أجمل صفات الإنسانية بل عدوًا لا رحمة له ولا شفقة.

التنوع هو الذي يعطي الحضارات مذاقها المتميز. التنوع الكبير الموجود في دبي هو أحد أسرار سحر دبي. وقرطبة. هذه الخلطة في مكان آخر يمكن أن تكون شيئًا مختلفًا تمامًا. نحن أيضًا بعد ألف عام من زوال الخلافة في حاضرة الأندلس نقدم نموذجًا متجددًا على إمكان تعايش الحضارات والأديان والتنوع والاختلاف وتعاون الجميع لصنع الامتياز في كل شيء.

من يتحدث اليوم عن صراع الحضارات، وعن العداوة بين الإسلام والغرب، ويزعم أن الغرب لا يستطيع التعايش مع الإسلام وأننا نمجد الموت ولا نمجد الحياة فإنه لم يزر دبي ولا يعرف تاريخ قرطبة أو تاريخ كل حواضر العرب. كلهم تعايشوا مع الأديان كلها ونحن أيضًا نفعل الشيء نفسه ونقدم البرهان مرة أخرى على أن العيش في النهاية ما هو إلا التعايش الذي يدعو إليه الدين الإسلامي وتزهو به صفات حضارتنا.

الإدارة والقيادة

يقول ابن خلدون: «اعلم أن مصلحة الرعية في السلطان ليست في ذاته وجسمه من حسن شكله أو ملاحة وجهه أو عظم جثمانه أو اتساع علمه أو جودة خطه أو ثقوب ذهنه وإنما مصلحتهم فيه من حيث إضافته إليهم». هذا يتطلب من القائد الرفق بمن يقودهم والنظر لهم في معاشهم وتيسير أمورهم والتأكد من أن الإدارة المكلفة بهذه المهام تؤدي واجباتها على الوجه الأكمل فإخفاقها في ذلك إخفاق له وضعف خدماتها إضعاف لموقعه لأن العواقب ترتد إليه وعليه.

....

....

الإصلاح الإداري

يقول الله تعالى: ﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾. القوي الأمين في زمننا هو الموظف المتميز الناجح الكفء الفعال الملتزم ذو الأمانة والسلوك الأخلاقي الحميد. إنه الموظف الذي يبحث عنه القادة ومديرو المؤسسات وأصحاب الشركات وأرباب العمل. الأمانة طريق النجاح، والإدارة قدوة فإذا صلحت الإدارة اقتدى بها الموظفون ونبذوا زميلهم الطالح وأقصوه حتى قبل أن تقصيه الإدارة. وإذا طلحت فهي فاسدة مفسدة.

أحد أهم أسباب ضعف الاستثمار الأجنبي هو فساد القطاع الحكومي ونحن نقدم فرصًا استثمارية متميزة وسمعتنا في هذا المجال عالية ولن نسمح لأحد أن يسيء إليها مهما تكن الأسباب. الفساد الإداري في الإمارات نحن منه براء. لا نريده ولا نتحمله ولا مكان له في قلوبنا وإدارتنا ولا شفاعة ولا تفهم ولا رحمة لمن يستخدمه طريقًا شريرًا لكسب الثروة بغير حق، وبناء التحالفات وخدمة المحسوبيات وكسب الود والنفوذ.

هناك شيء آخر تفعله السمكة الفاسدة غير نشر الأمراض وتلويث الهواء النقي برائحة عفونتها. إنها تنشر الفساد في السمك الآخر، لذا لا مكان لها عندنا. يجب استئصالها فورًا وإحالتها إلى القضاء لتنال العقاب الذي تستحقه. لا أحد فوق القانون، لكن إن لم يخش البعض القوانين فليخش الله عز وجل. وليتعظ بما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده».

....

....

التقدم والتخلف

إن لم تكن في الطليعة فأنت في الخلف. إن لم تكن في المقدمة فأنت تتنازل عن مكانك الطبيعي لصالح منافس آخر ربما كان أقل منك مقدرة واستعدادًا وإبداعًا. إن كنت دخلت السباق ولم تفز في المرة الأولى فلا بأس. هذا ليس فشلاً بل كبوة، وجميعنا يعرف أن لكل جواد كبوة. الفشل الحقيقي في رأيي ليس أن تقع على الأرض لكن أن تظل على الأرض عندما يُطلب منك الوقوف. والفشل الأكبر هو ألا تريد أن تقف مرة أخرى. إن كانت كبوة فعليك دراسة

منذ خمسين سنة ونحن نشكو من هجرة العقل، الغرب ليس السبب يا عرب.
عندما يعود المغترب إلى وطنه الأم لقضاء إجازة مع أهله فإنه لا يخترق المطار إلا وهو يطحن أسنانه ندمًا لأنه فكر في المجيء. الطوابير بلا نهاية والانتظار بالساعة والاثنتين والحر شديد وهذا ينظر إليه بريبة كأنه متهم، والآخر يطرح أسئلة لا مبرر لها

صنع في دبي

أسبابها واكتشاف مكامن الخطأ وتصحيح الوضع والعودة إلى السباق بأسرع وقت ممكن وفي عينيك طموح الفوز. هذا إن كنت تريد الفوز. وإن لم تشأ أن تكون في المقدمة لسبب ما فأنت في الواقع تعترف لنفسك وللاخرين بأنك لست أهلاً لهذه الصدارة وحان الوقت لتتويج فارس جديد والقبول بنتائج الهرولة خلف الأمم العداءة.

▩ ▩ ▩

معظم الحضارات التي عرفها التاريخ لم تعمر طويلاً ولم تترك بصماتها المستديمة في المسيرة الإنسانية لكن البعض يصبح متميزًا. متى يحدث ذلك؟ عندما تستوعب أمة بعينها الحضارات الأسبق ثم تعبر الجسور القديمة إلى آفاق جديدة من التطوير والتميز. ومتى؟ عندما يتحول شعب بكامله إلى فريق عمل واحد. نحن اليوم في الإمارات هكذا. ونحن اليوم في دبي هكذا.

ومتى أيضًا؟ عندما يرحم الله شعبًا فيرسل فيه قيادة متميزة واعية تطلق عقال الحرية والتميز والإبداع والتطوير لدى المتميزين والمبدعين والمطورين. نحن اليوم في الإمارات هكذا.

هذه هي عمومًا معادلة صنع التطور والحضارة وسرها الكبير. خمسون سنة من الإبداع والتميز المكثفين يمكن أن تدفع أمة بأسرها ألف عام.

▩ ▩ ▩

إذا فقدت الأمم العادية ريادتها فإن استعادتها تكون مثل صعود الكسيح الجبال. حتى لو لم ينجح البرتغاليون في قصم ظهر القوة العربية التجارية البحرية، فإن العرب كانوا سيخسرون الحرب التجارية لأنهم خسروا رهان الريادة. الشراع المثلث كان حاسمًا في وقته، ثم عندما استخدمته السفن الإسبانية والبرتغالية مطورًا للوصول إلى المستعمرات الإسبانية والبرتغالية في العالم الجديد لكنه لم يعد يعني شيئًا بعد اختراع القوة البخارية ثم المحركات، وبات شيئًا ينتمي إلى الماضي ورمزًا للتخلف. وعندما خسر العرب الحرب التجارية بدأوا يخسرون الحروب الأخرى ثم استقلالهم وعادوا إلى حال التقليد والتبعية لأن «المغلوب» كما يقول ابن خلدون، «مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده».

....

....

الاقتصاد الجديد

بعضنا يقفل الباب على نفسه ويغلق النوافذ ويسدل الستائر ثم يطفئ النور ويفتح لنا يديه ويسأل في ظلام دامس: أين هي العولمة؟ لا أرى شيئًا. هذه من السلبيات التي يجب أن نقتلعها من عقولنا ونطرحها أرضًا. القعود في العتمة لن تجعل العولمة تختفي فهي آتية شئنا أم أبينا. في العولمة ضرر ونفع فلنأخذ الصالح منها ونترك الطالح بهدف أساسي هو تقليص الفجوة الكبيرة بيننا وبين الدول الصناعية.

العولمة هي بيئة التعامل الدولي الذي سيسود في المستقبل، ولها الآن مرتكزات اقتصادية وإنتاجية واتصالية وتقنية متميزة. لا يوجد خطر علينا في عالمية التوجه والسباق فالإسلام عالمي في التوجه والرسالة، والحضارة العربية عالمية التوجه والتطبيق، ورؤيتنا لدبي عالمية في المضمون والامتياز والمنافسة.

....

....

التنمية والتفاؤل

ما الذي يوجد في دبي ولا يوجد عند غيرها؟ البحر؟ كل دول الخليج تطل على البحر. الشواطئ الرملية؟ هذه عند الجميع، ومثلها الصحراء. الطقس العليل؟ لا شيء في الطبيعة التي أحبها أقرب إلى نفسي من نسمات ريح باردة وقت الغروب. والإمارات بحق من المشاتي المثالية في العالم لكنها لا تنفرد باعتدال الطقس في الشتاء ولا بقسوته في الصيف.

الطقس والصحراء والشواطئ الرملية والبحر لا تصنع التنمية. من يصنعها؟ الناس. ▩

▩ ▩ لو قلنا للعاقل المتزن قبل ١٥ سنة إننا نفكر بتطوير السياحة في دبي لكان «طاح على ظهره من الضحك» كما نقول في الخليج. دبي الآن تستقبل نحو ستة ملايين سائح في العالم وقلنا إننا نخطط لرفع العدد إلى ١٥ مليون سائح بحلول عام ٢٠١٠ لكننا لم نسمع ضحكًا. لماذا؟ لأن الناس يعرفون أننا إذا قلنا إننا سنفعل شيئًا فسنفعله بإذن الله لذا تراهم صامتين ينتظرون أن نقول لهم كيف سنحقق ذلك.

❖ في العالم اليوم أربعة مبان يمكن أحيانًا رؤيتها من القمر الأول هو سور الصين العظيم والثاني سد هوفر الذي استكملت أمريكا بناءه عام ١٩٣٦. لو قلنا للناس عام ١٩٧٧ إننا نريد أن ننضم إلى الصين وأمريكا ونبني شيئًا يراه الإنسان من القمر لربما قالوا: احلموا يا عرب. لا يوجد أرخص من الكلام سوى الأحلام. في عام ١٩٧٩ استكملت دبي بناء ميناء جبل علي الذين يضم ٦٧ رصيفًا وانضم إلى سور الصين العظيم وسد هوفر. وسينضم إلى هذه المباني الثلاثة أكبر مشروع إسكاني وسياحي في العالم هو مشروع جزر النخلة.

❖ بعض الناس لم يتوقع فقط فشلنا في مشروع تأسيس مدينة دبي للإنترنت والتكنولوجيا والإعلام بل استكثر علينا مجرد التفكير فيه: «أنتم عرب متخلفون لا عندكم إنترنت ولا تكنولوجيا ولستم مقرًا إعلاميًا وتريدون أن تبنوا مدينة بحالها للإنترنت والتكنولوجيا والإعلام؟ هذه مخاطرة ما بعدها مخاطرة». أعرف أنها مخاطرة وكان ردي جاهزًا عندما قلت لهم في حفل افتتاح المدينة في ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٠: أكبر مخاطرة هي ألا يأخذ الإنسان أي مخاطرة. البعض الآخر لم ير بين التكنولوجيا والإنترنت من جهة والإعلام من جهة أخرى التكامل الذي رأيناه منذ بداية التفكير في إنشاء المدينة. ولم ير أيضًا التكامل الذي رأيناه بين الإعلام وحرية الكلمة.

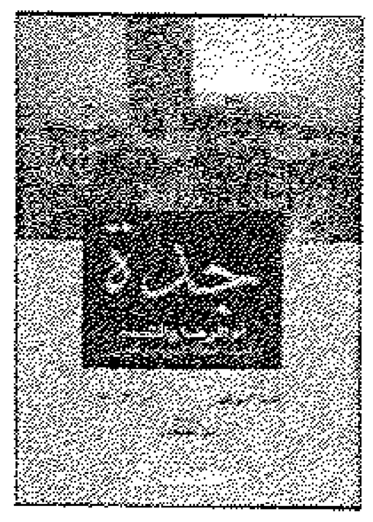
من كان منا المصيب ومن كان المخطئ في النهاية؟ عندما طرحت مشروع تأسيس المدينة وجهت الدعوة إلى عدد من أكبر شركات التقنية في العالم للاشتراك في مشروعنا. كل هذه الشركات موجودة اليوم في المدينة المعنية بالإنترنت إلى جانب عشرات الشركات الأخرى. لو أننا لم نأخذ المخاطرة لما وصل عدد الشركات في قطاعي التقنية والإعلام إلى أكثر من ٧٠٠ شركة ولما جعلنا الإمارات من أهم مراكز الإنترنت والتكنولوجيا والإعلام في الشرق الأوسط، ولما تمتع الإعلام بحقه في العمل بحرية بعيدًا عن الرقابة.

هناك أكثر من تريليون دولار من الأموال العربية المستثمرة في أمريكا وأوروبا ونعتقد أن مركز دبي المالي سيوفر الأقنية المناسبة التي تُسهم في عودة جزء من هذه الأموال وتطوير الخدمات المصرفية الإسلامية. كما نريد دعم هذا المركز من خلال تطوير سوق دبي المالي لكي يصبح السوق الإقليمي الأول للأوراق المالية والسندات والأدوات المالية الأخرى، وأحد أهم مراكز توفير رأس المال لتحقيق النمو بما في ذلك تمويل الشركات العاملة والشركات الناشئة. ▩

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

جدة أم الرخا والشدة

ثريا التركى
أبو بكر باقادر
آمال طنطاوى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٣٤٤صفحة



جدة هى عروس البحر الأحمر، مدينة كوزموبوليتانية بامتياز، تضم عشرات الجنسيات، بعضها أقام فيها بشكل نهائى منذ عدة عقود، وبعضها جاء بحثاً عن الرزق والإقامة المؤقتة.

هذا الكتاب يبحث فى التحولات التى شهدتها المدينة اجتماعياً واقتصادياً عبر أسرتين تضمان عدة أجيال.

ويشير الكتاب إلى أن التحولات فى مدينة جدة بدأت منذ سبعينيات القرن الماضى، بدخول السعودية مرحلة التنمية الشاملة، والاهتمام بالمدن الكبرى ومنها مدينة جدة التى صارت منطقة جذب سكانى.

وبدأ سكان جدة الذين هم خليط من أجناس مختلفة سعيهم للتعايش والاندماج، وعرفت المدينة على نطاق واسع مرحلة الانتقال من الأسرة الممتدة إلى الأسرة النووية.

وبزغت مساحة خاصة لكل ما هو فردى، وساهمت التحولات الاقتصادية العالمية فى تنمية هذه النزعة التى ألقت بظلالها على الأسرة.

ثم كانت أزمة غزو العراق للكويت بداية لمرحلة نوعية جديدة، إذ انسحبت الدولة بصورة أكبر من الحياة الاقتصادية، وهبط الإنفاق الحكومى بدرجة واضحة، وعرف الشباب البطالة على نطاق واسع، وهو مازاد أعداد العاطلين وقلص فرص الزواج، وانتشرت ثقافة الديون بعد أن افتقد الأفراد الحماية التى كانت توفرها لهم العائلة.

وبدرجة ما انعكست هذه التغيرات على أحوال المرأة داخل الأسرة، وبدا أن ثمة تناقضاً لا تخطئه عين بين الثقافة التقليدية والضوابط التى تفرضها العادات القبلية، وطموح المرأة إلى دور أكثر فاعلية.

ومازال الجدل بين الرؤيتين مستمراً، تتساوى فيه فرص المكسب والخسارة على الجانبين. ومازالت التحولات تترى على عروس البحر الأحمر.

الاغتراب الثقافى للذات العربية

حازم خيرى
القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٦،
١٠٤صفحات



يعانى المجتمع العربى اغتراباً، ويعانى المواطن العربى اغتراباً، غير أن أقسى أشكال هذا الاغتراب وأعمقه تأثيراً، ليس ذات الناتج عن مبارحة المكان الذى تربى فيه الشخص وعاش، إنما الذى يستشعره الإنسان وهو بين أهله ومحبيه، ونعنى به الاغتراب الثقافى. وهذا النوع من الاغتراب بالذات هو الذى يركز عليه المؤلف، ولا يرى مكاناً منه سوى بثورة ثقافية، وبحسب قوله فإنها ليست تجديفاً فى مقدسات ولا شطحاً فيما ليس من ورائه نفع.. «وإنما تثمين لذلك القبس الإلهى الذى أودعه الله فى أجسادنا وهو العقل، فإعمال العقل طريق المعرفة، ومن لا يعمل عقله لا يمكنه أن ينقد شيئاً، لأنه مغترب وسيظل على اغترابه».

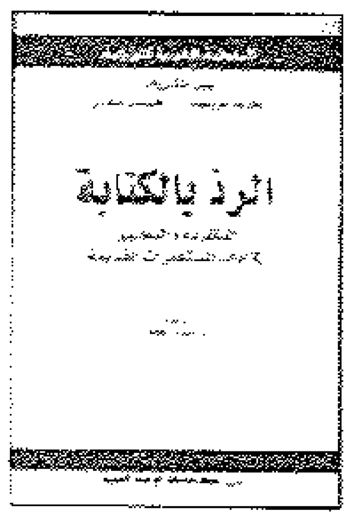
السبيل الأكثر فعالية كما يراه المؤلف هو تثوير تعاطى الذات العربية الإسلامية، لتصبح فاعلة، لديها القدرة على توظيف القبس الإلهى الساكن فيها، وتحقيق الاستفادة القصوى من الزخم الأيديولوجى للإسلام بإعمال العقل بكامل طاقته وقدراته النقدية التفاعلية.

أربعة فصول يتناول فيها المؤلف هذه الفكرة، إضافة إلى فصل تمهيدى يعرض للمفاهيم الأساسية للدراسة: من هم العرب، مفهوم الثقافة، مفهوم الاغتراب، ثم يتتبع فى الفصل الأول لحظات ميلاد الاغتراب الثقافى فى الإسلام وفى اللغة وفى العادات والتقاليد والثقافات الفرعية، ثم يدرس فى مبحثين القائمين على الاغتراب بين العرب وغيرهم، ويخصص الفصل الثالث لآليات تكريس الاغتراب الثقافى، ومنها ما يسميه مؤسسات العنف ويعنى بها الجيش وميليشيا الأحزاب الحاكمة والمخابرات، ثم المؤسسات التعليمية والإعلامية والدينية.

ويعرض فى الفصل الأخير لطريقتين فى التفاعل مع الاغتراب الثقافى، إحداهما تسعى للانخراط فيه والأخرى تحاول أن تقهره.

الرد بالكتابة

النظرية والتطبيق فى أدب المستعمرات القديمة
ترجمة: شهرت العالم
بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٦،
٤٠٧ صفحات



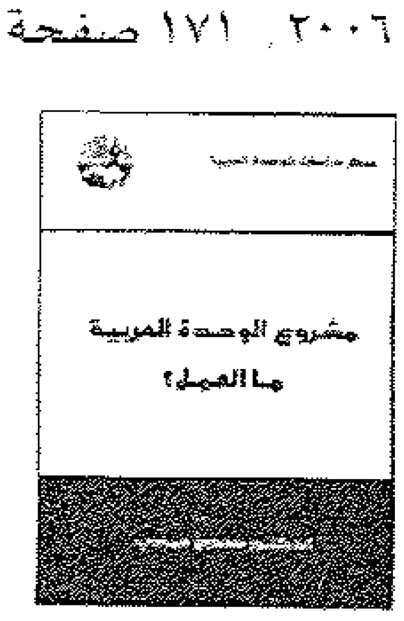
أسفرت التجربة الاستعمارية وردود المراحل اللاحقة وتحدياتها عن ظهور كتابة جديدة باللغة الإنجليزية. وهى كتابة قوية ومتنوعة، فيها استنباط وإبداع، فيها تحد للمعايير السائدة فى الأدب والثقافة. ولقد أفضت هذه الكتب إلى ترسيخ نمط خاص من الكتابة عرفت بأنها ما بعد كولونيالية فى ثقافات بلدان مختلفة مثل الهند وأستراليا وأفريقيا وكندا.

يثير هذا الكتاب نقاشاً حول العلاقات القائمة بين أنماط الكتابة ما بعد الكولونيالية وحول العوامل المؤثرة فى لغتها وفى أساليب نصوصها. وهو يوضح كيف تشكل هذه النصوص نقداً راديكالياً للفرضيات التى تقوم عليها رؤى المركزية الأوروبية فى اللغة والأدب.

وهو لهذا يعد من أهم ما صدر من التحاليل المتصلة بالكتابة فى المرحلة ما بعد الكولونيالية فى علاقتها بكبرى القضايا الفكرية.

مشروع الوحدة العربية ما العمل؟

سعدون حمادى
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ١٧١ صفحة



يقدم الدكتور سعدون حمادى مقاربة لمسألة الوحدة العربية برؤية جديدة. وهو إذ يؤكد أولوية هذه المسألة كقضية قومية يجدد طرح السؤال المحفز: ما العمل؟ ويرى أن التمسك بالقومية العربية وبمشروع الوحدة هو الآن فى ذروة الضرورة أكثر من أى وقت مضى، ويدعو إلى عدم الاستسلام لحالة التجزئة، ويشدد على أن اتحاد الأمة فى كيان قومى «هو الثورة الحقيقية ومفتاح النهضة والتقدم».

وبقدر ما يتضمن الكتاب إضافات نوعية نابعة من التأمل والتجربة فإنه يتميز بمنهج مقارن للإفادة من تجارب الآخرين، وبمراجعة نقدية للتجارب العربية، ويركز استناداً إلى ذلك على أهمية المدخل الاقتصادى فى السعى إلى تحقيق الوحدة، ويميز بين الوحدة كقضية قومية وبين نظام دول الوحدة كقضية سياسية، فضلاً عن شئون عديدة غير ذلك يتناولها بالتمحيص والنقد.

الأغنية الشعبية

على الشناوى
القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٦، ١٩٢ صفحة



تبدو الأغنية الشعبية هى الأقرب للوجدان الشعبى، هى من الناس وللناس، وعلى الرغم من التقدير الذى يحظى به مطرب الأغانى العاطفية، يبقى للمطرب الشعبى مكانته المستحقة بين جماهير تردد كلماته فى الأفراح والمناسبات، وهذا ما دفع كل المطربين الكبار غير الشعبيين إلى أن يغنوا فى مراحل معينة من حياتهم أغنيات شعبية: أم كلثوم غنت الفوازير من كلمات بيرم التونسى، كما غنت «الحب كده» التى يمكن اعتبارها أيضاً أغنية شعبية، عبدالحليم حافظ غنى «على حسب وداد قلبى» و«أنا كل ما أقول التوبة»، وغنى محمد فوزى «تعب الهوا قلبى» و«شحات الغرام»، وغنت نجاة «أما براوة»، وفايزة أحمد «ياما القمر على الباب» وغنت وردة «يا نخلتين فى العلالى» و«وحشتونى».

هذا الكتاب يرصد المطربين الشعبيين، أى من تسجل أمام خانة المهنة فى بطاقة نقابة الموسيقيين «مطرب شعبى»، راصداً تطور الأغنية الشعبية منذ عبدالغنى السيد ومحمد عبدالمطلب وشفيق جلال ومحمد قنديل وكارم محمود ومحمد رشدى، وصولاً إلى أحمد عدوية وحسن الأسمر وكتكوت الأمير، وانتهاء بحكيم وريكو وشعبان عبدالرحيم.

والملاحظة الأساسية التى يمكن استنتاجها من مسيرة الغناء الشعبى هو هذا الارتباط الشرطى بين صعود وهبوط

هذا الغناء، بمسيرة الوطن رقياً وانهياراً، ففى أعقاب النكسة وفى مرحلة الانفتاح ظهر نوع من الغناء لا يهتم كثيراً بالمعنى والدلالات كان نجمه الأول بلا منازع هو الفنان أحمد عدوية، واستطاع نجوم هذه الفترة أن يوجدوا لهم مواقع فى سوق الغناء وأن يجذبوا جمهوراً لبضاعتهم برغم الرفض الرسمى لوجودهم. وظهر نوع من الغناء يسميه المؤلف الغناء السحرى، نجومه مؤدون مجهولون وتجار لا علاقة لهم بالفن وغرف تسجيلات تحت بير السلم، وانتشرت بسرعة البرق نوعية من الغناء هابطة ولا تراعى أى قدر من الذوق، وهى النوعية التى عرفت بأغانى الميكروباص أو غناء المساطيل.

ويؤرخ بأغنية عدوية «السح الدح امبو» لمسيرة الغناء الشعبى، فقد كان شيئا قبلها وانتقل إلى حال آخر بعدها، وتحول عدوية إلى مدرسة لها عشرات المريدين والتلامذة.

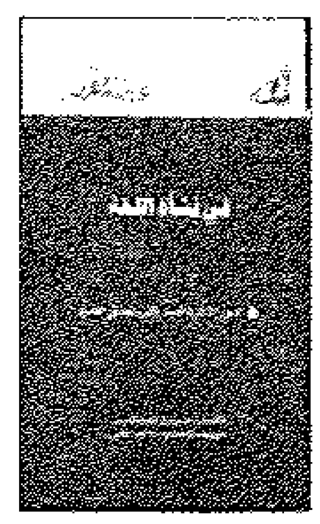
كثيرون من مطربى الأغنية الشعبية ظهروا فى شارع محمد على وآخرون ظهروا فى حى باب الشعرية، ولم يكن متاحاً لمطرب ينتمى إلى منطقة معينة أن يمد نفوذه إلى منطقة مطرب آخر، هذه بعض حكايات يرويها المؤلف عن الطرب الشعبى، راصداً مسيرة عشرات من مطربى هذا اللون الغنائى الأوسع انتشاراً والأعمق تأثيراً.

فى نشأة اللغة
من إشارة اليد إلى نطق الفم

مايكل كورباليس

ترجمة: محمود ماجد عمر

الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون، ٢٠٠٦



يقع الكتاب فى تسعة فصول يتناول من خلالها المؤلف تطور اللغة.. ففى الفصل الأول، «ما اللغة»، يقدم للغة باعتبارها من أهم الإنجازات البشرية بما تتضمنه من نظام معقد من القواعد. وفى الفصل الثانى «هل للحيوانات لغة؟»، يتساءل الكاتب ما إذا كانت للحيوانات القدرة على تعلم اللغة، مدرجاً لعدد من التجارب فى هذا المجال.

فى الفصل الثالث «فى البدء كانت الإشارة»، يعود المؤلف إلى أصل اللغة: الإشارة. بينما يناقش الفصل الرابع «قياما على أقدامنا» التغيرات الجسمانية التى أدت فى النهاية إلى ظهور الإنسان الحديث.

أما الفصل الخامس «الصيرورة إلى الإنسان»، فيبين كيف أن ظهور جنس الهومو كان مقدمة لسلوك إنسانى أرقى يتضمن صنع الأدوات والهجرة.. رغم أن اللغة فى ذلك الحين كانت ماتزال إشارية. ويتناول المؤلف فى الفصل السادس «اللغات الإشارية»، وهى ليست تلك المقصورة على الصم، بل يبين لنا الكتاب أن بعض الشعوب والقبائل قد ابتدعت لغاتها الإشارية كنوع من اللغة المشتركة للتواصل.

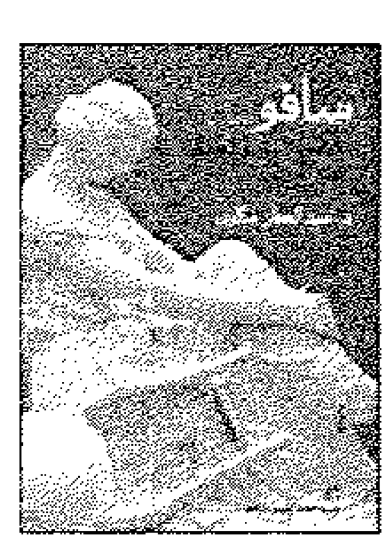
«كله كلام» هو عنوان الفصل السابع من الكتاب، ومن خلاله يعود بنا المؤلف إلى ما قبل تاريخ اللغة المنطوقة، محاولاً تتبع التغيرات الفيزيقية فى تطور الإنسانيات التى حولتنا من مشيرين غير مروضين إلى متحدثين وادعين. وفى الفصل الثامن «لماذا نميل إلى جانب واحد» يبين علاقة الجانب الأيسر من المخ باللغة، بالإضافة إلى النظريات الجينية فى نوع استخدام اليد.

فى الفصل التاسع والأخير «من اليد إلى الفم»، يشير الكاتب إلى أن ظهور اللغة فى حد ذاته لم يكن هو الذى أعطى الدفعة للانفجار التطورى الذى جعل حياتنا مختلفة إلى هذا الحد عن حياة القردة العليا، وإنما الذى أعطى هذه الدفعة هو بالأحرى اختراع الكلام المستقل.

سافو شاعرة الحب والجمال عند اليونان

عبدالغفار مكاوى

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٦، ١٨٩ صفحة



ولدت الشاعرة «سافو» بين نهايات القرن السابع قبل الميلاد والقرن السادس قبل الميلاد، وازدهرت شاعريتها فى مرحلة أفول حضارات سابقة عليها وبزوغ الحضارة اليونانية، وتميز شعرها بالعاطفة والرومانسية والغنائية، كان كثير منه فى الحب، لكنه ليس الحب بمعناه المعتاد، أى حب الرجل والمرأة، إنما حب الحياة والقيم الجميلة والصداقة، وفى كثير من الأحيان كانت تنفعل وتتعذب لما يعذب الآخرين ويؤرقهم، كما نرى فى قصيدتها عن أخيها الذى جاء إلى دلتا مصر وأحب فتاة مصرية وتعذب فى حبها، أو فى بعض الأبيات التى يبدو فيها حنين جارف لابنتها الصغيرة، ونصائحها إليها.

وقد عاشت سافو سنوات طوالاً فى ظل اضطرابات داخلية وعواصف سياسية بين المتنازعين على السلطة فى اليونان، إلا أن ذلك لا يظهر فى شعرها بصورة كبيرة، وقد أرجع كثيرون من دارسى شعرها ذلك إلى طبيعتها الأنثوية ونزعتها الإنسانية الخالصة، وقد عثر فى عام ١٩٣٩ على أول قصيدة ذات طبيعة سياسية فى شعر سافو. وقد تعرضت للنفى بين عامى ٦٠٣ و٥٩٥ قبل الميلاد، وكانت آنذاك فى سن الرابعة عشرة تقريباً، وحين عادت بدأت رسالة نبيلة هى تعليم الفتيات من البيوت الكريمة الفنون الجميلة، وفنون الرقص والغناء والعزف وآداب اللياقة والأناقة. وفى كثير من قصائدها تتبدى مشاعرها الرقيقة والعاطفة الجياشة التى حكمت علاقاتها بالفتيات اللائى درسن فى معهدها، إلى حد أن بعض النقاد وصفها بالشذوذ، وتناول آخرون بإسهاب علاقاتها المتعددة مع الرجال. ولم يخل موتها كذلك من تصورات متباينة يصل بعضها إلى حد الأساطير، فقد قال بعض المؤرخين إنها ماتت منتحرة إثر قصة حب فاشلة.

تميز شعر سافو بالبساطة، وحمل كثيراً من روح الأغنية الشعبية، ومنها أغانى الزفاف التى كانت تنشدها فى حفلات زفاف تلميذاتها وهن يتأهبن لحياة زوجية جديدة، وإلى الآن مازال شعر سافو مادة للشعراء والنقاد والدارسين، لما تميز به من صدق العاطفة وبساطة وحساسية مرهفة.

نحو تطوير التشريع الإسلامى

عبدالله النعيم

القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٦، ٢٣٢صفحة



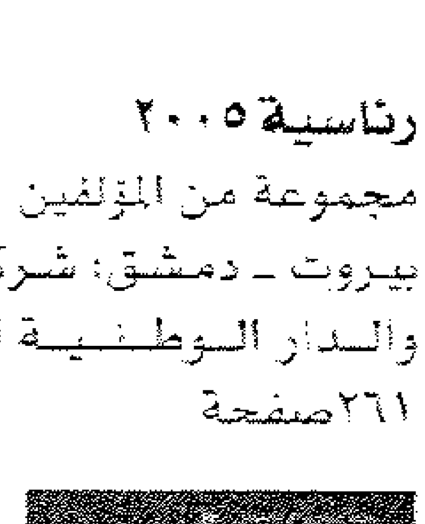
تبدو الفكرة التى يقدمها المؤلف هنا غريبة ومناقضة للسائد حول فكرة الدولة الإسلامية وماهيتها، ما يقوله المؤلف هو أن الإقرار بعلمانية الدولة ضرورى لالتزام المسلمين بأحكام الشريعة الإسلامية، فالدولة على مدى التاريخ الإسلامى - بحسب المؤلف - كانت دائما علمانية، والدولة فى الدول التى تزعم أنها تحكم بشريعة الإسلام مثل السعودية وإيران وباكستان هى علمانية، والقانون الذى تطبقه هو قانون علمانى قائم على الإرادة السياسية للدول، حتى عندما يستمد بعض أحكامه عن الفقه الإسلامى، وهو بالضرورة رأى وفهم بشرى للشريعة الإسلامية، لكنها مع ذلك مقصرة فى علمانيتها، فالعلمانية كما يراها ليست معاداة الدين أو إقصاءه عن الحياة العامة ولا عن السياسة، فالدين له دوره المؤثر فى جميع المجتمعات الإنسانية، العلمانية تعنى الفصل بين الدين والدولة، ويطرح المؤلف هنا تمييزاً دقيقاً بين الدولة والسياسة، فالدولة هى المؤسسات التى ترعى الأمن وترعى حقوق ومصالح المواطنين، أما السياسة فهى نتاج عمل الأحزاب والجماعات التى تسعى للسلطة لتنفيذ سياساتها. ويصر المؤلف على هذا التمييز الدقيق بين الدولة والسياسة، لأن كل من يستولى على السلطة سواء بوسائل ديمقراطية أو قمعية، إنما يسعى إلى تحقيق رؤيته هو فى مسار عمل تلك المؤسسات. وتأسيساً على هذه الرؤية، يدعو المؤلف إلى حياد الدولة تجاه الدين، وأن تنأى مؤسسات الدولة عن مناصرة أو معاداة أى معتقدات دينية أو غير دينية، كأن تعادى السلطة فى السعودية مثلاً، كل من لا يتبنى الفهم الوهابى للمذهب الحنبلى، أو أن تعادى إيران غير الشيعة بداخلها، لأن السلطة فى كلتا الدولتين تتبنى فهماً خاصاً للإسلام لا تقبل سواه، وخلافات السلطة على هذا النحو هى فى حقيقتها خلافات سياسية وليست دينية، وإن كانت الدولة تضفى صفة الإسلامية على الخلافات من هذا النوع لتكسبها قداسة لا تستحقها.

بهذا المعنى يرفض المؤلف الخطاب الإسلامى السياسى، ويصر على أن أصحاب هذا الخطاب هم طلاب سلطة فى الأساس، ويرى أن المصلحة الحقيقية للمسلمين هى فى إرساء قواعد الديمقراطية والحكم الدستورى وحماية حقوق الإنسان، وهذه الثلاثية كما يراها المؤلف متداخلة بصورة كبيرة، وهو يعالج القضايا التى تخصه فى الكتاب من منظور دينى وثقافى إسلامى، يختلف بالضرورة عن الخطاب السياسى الإسلامى الذى يدعو إلى إقصائه من حياة المسلمين، برغم ادعائه أنه يطالب بإقامة حكم إسلامى أو دولة إسلامية، وهذا الإقصاء لن يتحقق إلا بضمان الحريات العامة وإقامة الديمقراطية والحكم الدستورى وصيانة حقوق الإنسان.

رئاسية ٢٠٠٥

مجموعة من المؤلفين

بيروت - دمشق: شركة التقدم العربى والدار الوطنية الجديدة، ٢٠٠٦، ٢٦١صفحة



يتناول الكتاب المرحلة التى تلت رحيل رئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات فى نوفمبر ٢٠٠٤، ويعرض فى الفصل الأول لمعركة انتخابات الرئاسة الفلسطينية التى أتت بمحمود عباس (أبو

مارن). ويشير هذا الفصل إلى أن النتائج التى حققها عباس لم توفر له تفويضًا سياسيًا تامًا. أى أنه كان يتوجب عليه أن يقيم وزنًا لباقى القوى والتيارات السياسية وأن يشكل حكومة وحدة وطنية تضم مختلف ألوان الطيف السياسى. ويعرض الفصل الثانى مؤتمر الحوار الوطنى الفلسطينى الثالث الذى عقد فى القاهرة وصدر عنه بيان القاهرة. وتضمن القرارات التى وافق عليها المجتمعون وبينها إعلان التهدئة وصياغة قوانين جديدة للانتخابات البلدية وفق قاعدة التمثيل السينمائى. ويتناول الفصل الثالث وثيقة جنيف وأهم ما جاء فيها من بنود بعد سنتين من توقيعها، ومصير هذه البنود. وتخلص دراسة الوثيقة إلى أن الموقف الفلسطينى المتماسك هو الأقدر على إقناع الشارع الإسرائيلى باستحالة الوصول إلى تسوية عبر العنف.

ويركز الفصل الرابع على قضايا اللاجئين وحق العودة، بما فى ذلك تنظيم قضايا السلاح. كما يعرض لحركة اللاجئين الفلسطينيين فى محطاتها المختلفة. ويلاحظ أن حركة اللاجئين امتدت داخل إسرائيل وخارجها، وأنها لعبت دورًا مهمًا فى مواجهة مشاريع إسقاط حق العودة لصالح التوطين وإعادة التهجير.

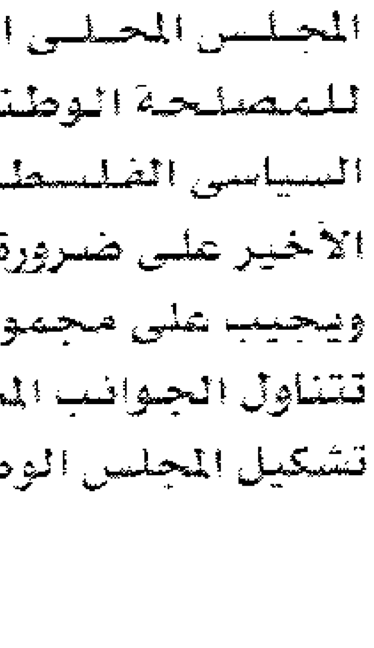
ويعطى الفصل الخامس اهتمامًا أكبر لتعديل قانون الانتخابات التشريعية والتجاذبات التى شهدتها الساحة الفلسطينية فى هذا السياق مع المجلس التشريعى.

ويتناول الفصل السادس القانون رقم ١٠ لسنة ٢٠٠٥ الخاص بانتخابات مجالس الهيئات المحلية، وهو القانون الذى اعتمد مبدأ التمثيل النسبى الكامل على مستوى المجلس المحلى الواحد استجابة للمصلحة الوطنية وتطوير النظام السياسى الفلسطينى. ويؤكد الفصل الأخير على ضرورة الإصلاح والتغيير، ويجيب على مجموعة من الأسئلة التى تتناول الجوانب المختلفة لمسألة إعادة تشكيل المجلس الوطنى الفلسطينى.

المناهضة اليهودية للصهيونية

ياكوف م. رابكن

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦. ٣٥٢ صفحة



وصف البروفيسور نعوم تشومسكى، المفكر الأمريكى البارز، كتاب رابكن هذا بأنه «مثير للاهتمام للغاية وذو قيمة عالية».

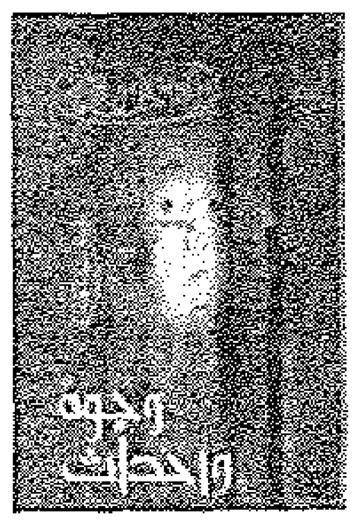
ولا تزال كتابات رابكن عن التاريخ اليهودى والصهيونية تثير جدلاً واسعًا فى الدوائر اليهودية الكندية والغربية عمومًا، وكذلك فى إسرائيل، بسبب معارضته المبنية على أبحاثه التاريخية واللاهوتية للحركة الصهيونية والفكر الصهيونى وسياسات دولة إسرائيل. وهو يعتنق وجهة نظر عبر عنها فى هذا الكتاب تقول: «إن الصهيونية ودولة إسرائيل يشكلان تمزقًا فى التاريخ اليهودى.. لأن الصهيونية حركة سياسية ترمى إلى تحويل الهوية اليهودية العابرة للقوميات إلى هوية سياسية قومية (أمة)».

ولد ياكوف رابكن فى سان بطرسبورغ (روسيا) فى عام ١٩٤٥. غادر روسيا فى أوائل عقد السبعينيات من القرن الماضى. يعيش فى مونتريال (كندا) منذ عام ١٩٧٣ حيث يشغل منصب أستاذ التاريخ فى جامعة مونتريال. وتتناول أبحاثه: العلوم والحضارات والعلاقات الدولية. والعلوم والتكنولوجيا فى التاريخ الروسى، واليهود فى العلوم الحديثة.

وجوه وأحداث

فاروق عبدالقادر

القاهرة: دار العلوم للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦، ٢٥٩ صفحة



يحمل الكتاب عنوانًا ثانيًا ألا وهو «من أوراق الزمن الرخو».

قبل ذلك قدم الناقد الكبير أوراقًا من الرماد والجمر وأوراقًا من الرفض والقبول وأوراقًا من «حقبة التسعينيات». لكنه هنا يحدثنا عن الزمن الرخو من خلال وجوه هذا الزمن وأحداثه، وكلاهما أثر وتأثر فى علاقة تبادلية واضحة. يحضر مثلاً المفكر والمؤرخ طارق البشرى صاحب الرؤى العميقة والتحليلات الموضوعية التى لا يغيب عنها ضمير القاضى أبدًا. ولعل المعنيين بالتاريخ المصرى الحديث يحفظون فى أرفف مكتباتهم «الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢» و«المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية» و«الديمقراطية ونظام ثورة يوليو ١٩٥٢ - ١٩٧٠»، وهو الكتاب الذى يحظى بقراءة فاحصة دقيقة من المؤلف، تضيف إلى ما كتبه البشرى وتنير بعضًا من جوانبه.

يحضر أيضًا خالد محيى الدين فى مناسبة الاحتفاء ببلوغه الثمانين، وبسببها يسترجع المؤلف كتاب محيى الدين «الآن أتكلم» والذى يعتبره أصدق شهادة عن ثورة يوليو يقدمها واحد من صناعها وأبنائها. باقة ورد ثانية يقدمها المؤلف للدكتور عبدالعظيم أنيس لبلوغه الثمانين كذلك. وأنيس هو عالم الرياضيات والمفكر اليسارى البارز الذى كان كتابه فى الثقافة المصرية بالاشتراك مع محمود أمين العالم، إحدى العلامات البارزة فى النصف الثانى من هذا القرن (١٩٥٥)، ويقرأ عبدالقادر مذكرات أنيس وسيرته بمحبة واضحة وتقدير كبير، ويطل أيضًا وجه المناضل والمحامى اليهودى المصرى شحاتة هارون، والذى ظل على يهوديته، كما بقى شديد الاعتزاز بمصريته ونضاله فى صفوف اليسار المصرى بوصفه عضوًا باللجنة المركزية لحزب التجمع.

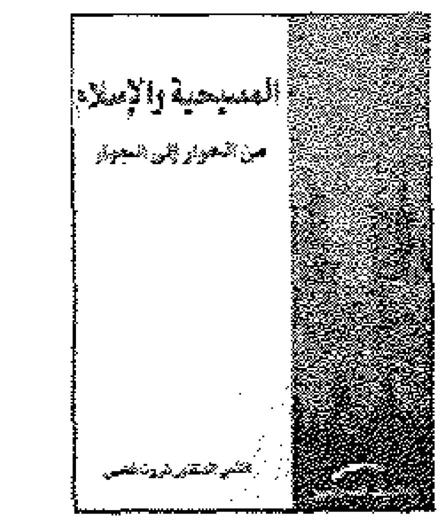
إلى ذلك تحضر شخوص بعضها من أبرز مواقع المسئولية والتأثير، يتتبع المؤلف ما يراه فى مسلكها من عوار، ويوجه إليها سهام نقده اللاذع، فاروق حسنى وسمير سرحان وعادل إمام على وجه الخصوص.

فى القسم الثانى من الكتاب يقدم المؤلف قراءة نقدية لروايات كتبتها مبدعات عرب، من الجزائر أحلام مستغانمى وفضيلة فاروق، ومن فلسطين سحر خليفة وحنان الشيخ ومن مصر نجوى شعبان وفوزية أسعد. ومن العراق هدية حسين ونهى الداخى، ومن الأردن سمية خريس، ومن سوريا هيفاء بيطار، ومن السودان ليلى أبو العلا. وفى القسم الثالث مطالعات لكتب حديثة أدبية وفكرية.

المسيحية والإسلام

ثروت قادسى

القاهرة: دار البستانى، ٢٠٠٦، ١٥٩ صفحة



تبدو ضرورة الحوار بين الحضارات والأديان فى هذا العصر أكثر إلحاحًا من أى وقت مضى، فبرغم ما حققته ثورة الاتصالات من تقريب بين الشعوب والثقافات والحضارات، فإن التمايزات على أساس دينى أو عرقى صارت أيضًا أكثر من أى وقت مضى، وربما يكون ما أشار إليه هنتنجتون فى صراع الحضارات هو التعبير الأكثر دلالة ومباشرة عن هذا العالم الجديد.

المؤلف ترك مصر منذ أربعين عامًا مهاجرًا إلى ألمانيا، وإن كانت قد بقيت له ذكريات عن حالة التآلف التى عاشها المصريون مسلمين وأقباطًا على أرض مصر، فقد راعه بعض ما يجرى من حوادث إرهابية أو تطرف هنا أو هناك، وهو فى كتابه يؤصل لفكرة الحوار ومعناه ودلالاته فى القرآن الكريم والكتاب المقدس، وكيف أن الحوار مطلوب ومهم، ليس فقط لتوضيح ما غمض من أمور العقيدة على الجانبين، وإنما لبيان أن الاختلافات فى جوهرها إنما تخص أشكال العبادة وطقوسها، وأن ما تدعو إليه الكتب المقدسة هو إجمالاً لا يتناقض ولا يتنافر، وأن الحوار بين المسلمين والمسيحيين سيحقق نتائج أفضل، إذ ينطلق الطرفان من خلفية ثقافية وحضارية واحدة ويتكلمان لغة واحدة، وتحثهما التعاليم الدينية على المجادلة بالتى هى أحسن.

الإسلام والدولة بين الوصل والفصل

سالم الغمودى

بيروت: مؤسسة الانتشار العربى، ٢٠٠٦، ٢٢٤ صفحة



هذه واحدة من الإشكاليات التى لم يتوقف الجدل بشأنها طوال تاريخ المسلمين، وتعنى بها العلاقة بين الدين والدولة، وتتوزع الرؤى حول هذه الإشكالية فى ثلاثة اتجاهات: فصل تام بين الدين والدولة على غرار ما جرى فى الغرب، ووصل تام يرهن السياسة بآلياتها وتوجهاتها للنص الدينى، وأخيرًا اتجاه يبحث عن وفاق يبدو تلفيقيًا فى بعض الأحيان.

المؤلف لا ينفى العلاقة بين الدين والسياسة، لكنه يضعها فى إطارها الصحيح، فالإسلام عنده دين وليس سياسة، لكنه دين يؤسس للسياسة، أى أنه يضع لها الأحكام والقيم والمعايير التى تحقق المساواة والعدل بين الأفراد ويقيم أسس المجتمع السياسى، وهو ما تحقق فى صورته المثلى فى دولة المدينة، هذا لا يعنى وجود حكومة أو خلافة دينية، لكنه يعنى وجود حكومة لمجتمع مسلم غايتها تحقيق سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة، ولذا يرى المؤلف أن أى محاولة لإبعاد الدين عن الحياة العامة للمجتمع المسلم هى محاولة لا معنى لها، كما أن المحاولة للزج بالدين فى السياسة فى كل كبيرة وصغيرة وكيفما اتفق هى أيضًا لا معنى لها، وفى هذا الإطار يميز المؤلف بين مستوى الآلية ومستوى المضمون، فالمستوى الأول يتشكل من المؤسسات الديمقراطية ومن الهيئات السياسية الشعبية الجماهيرية ومن مؤسسات

السلطة، وهو مستوى يرتبط بالتطور التاريخى بأكثر مما يرتبط بالنص الدينى، أما المستوى الثانى فهو الذى يراعى انسجام الأفكار التى تتبناها الدولة فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والتشريع مع مقاصد الدين ومبادئه، والخلط بين هذين المستويين كما يرى المؤلف هو الذى يؤدى إلى احتدام الجدل حول العلاقة بين الدين والدولة.

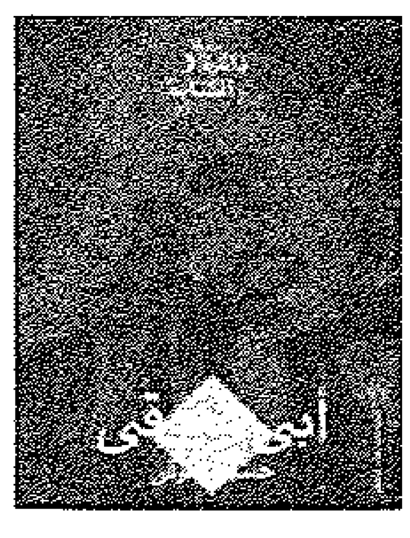
فالسلطة أو السيادة المطلقة هى حق إلهى لا يجوز أن يحوزه بشر، والقرآن لم ينص على شكل الحكم وأدواته إنما تركها لاجتهادات المسلمين، أى أنه ترك ذلك للناس بحسب ظروفهم وأحوالهم، فالإسلام حين تحدث عن الأمة تجنب الحديث عن النظام السياسى والاجتماعى والاقتصادى، والخلافة لم تأت تطبيقًا لنص وإنما استجابة لضرورة تاريخية، والمعنى هنا أن اختيار آلية الحكم بقى متروكا للناس، كما دامت لا تتصادم مع المقاصد التى ارتأتها الشريعة لتحقيق السعادة للإنسان فى الدنيا والآخرة، والشورى كواحدة من هذه الآليات هى أيضًا استجابة تاريخية، والنص لم يحدد شكلاً وحيدًا لها، وهو ما يشير إلى إمكانية تطويرها حسب الإنجاز البشرى فى كل عصر.

هذه بعض الأفكار الأساسية التى يتضمنها الكتاب، الذى يناقش واحدة من القضايا الكبرى التى عنى بها المسلمون طوال تاريخهم.

أبى شوقى

حسين شوقى

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٦، ١٦٦صفحة



يكتب ابن أمير الشعراء عن والده، عن الأب وليس الشاعر، عن تنقلاتهم وزائريهم وعلاقاتهم، وهو يبدأ من المطرية التى كانت لهم فيها دار فسيحة أسماها أمير الشعراء كرمة ابن هانئ نسبة إلى الشاعر العباسى الذى كان شوقى معجبًا به أيما إعجاب وهو أبو نواس فى أوائل ١٩١٤، والتى اختارها لتكون قريبة من قصر القبة حيث يقضى الخديوى عباس حلمى أوقات فراغه.

وقد كان لشوقى ثلاثة أبناء هم حسين وعلى وأمينة، وقد زوجها أبوها وهى لم تبلغ الخامسة عشرة، وقد بنى لها الأب منزلاً مجاورًا لمنزل الأسرة ويكشف الابن عن هواية أثيرة لدى الأب وهى اقتناء التحف النادرة، وهو ما دفعه إلى أن يشترى ملحقًا مجاورًا للدار الفسيحة كى يضع فيه مقتنياته التى كان يشتريها من المزادات، كما يشير إلى احتواء الدار الفسيحة على ثلاث حجرات للطعام وخمسة صالونات، يلتقى فيها أمير الشعراء ضيوفه الذين قد يتوافدون فى وقت واحد، وقد لا يكون أحدهم يعرف الآخر أو راغبًا فى لقائه.

كانت المربية - كما يقول الابن - هى الأمر الناهى فى شئون المنزل، أما الأم فقد كانت رقيقة الحاشية لا تتدخل فى هذه الشئون.

ويصف الابن أباه بأنه كان سريع التقلب لأبسط الأمور، «لكن إذا كان مزاجه معتدلاً فهو لطيف اللطف»، كما يصفه بالأنانية الشديدة. ويشير إلى معاناته حين انفض من حوله الشعراء والزوار والأصدقاء، بعد أن خلع السلطان الخديوى عباس واضطراره إلى الرحيل إلى الأندلس، وكانت هذه من المبررات القلائل، حتى ينظم فيها شوقى قصائد هجاء، بل إنه هجاهم أيضًا فى قطعة نثرية أثناء اجتياز الباخرة التى تقله قناة السويس.

نوادر كثيرة وحوادث نادرة يرويها ابن شوقى عن أبيه وعلاقاته وطبائعه، ومنها علاقته بسعد باشا زغلول زعيم ثورة المصريين فى ١٩١٩، وعلاقاته بالمقاهى، ورحلاته إلى تركيا والأندلس، ورؤيته للأحداث السياسية التى ألمت بمصر فى ذلك الزمان، وجهاد المصريين لنيل استقلالهم، وغيرها من الحوادث الصغيرة والكبيرة، التى تلقى أضواء على سيرة شوقى وأوضاع مصر فى ذلك الزمن.

رسائل عظماء الملوك فى الشرق الأدنى القديم

تريفور برايس

ترجمة: رفعت السيد على

القاهرة: دار العلوم للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦، ٣٧٢ صفحة



شهد العصر الذى تتناوله هذه الدراسة - البرونزى المتأخر - والذى يمتد لنحو خمسمائة عام من بدايات القرن السابع عشر قبل الميلاد وحتى بدايات القرن الثانى عشر صعود إمبراطوريات عظيمة تقاسمت مناطق النفوذ فى منطقة الشرق الأدنى فيما بينها، وقد قامت اتصالات بين هذه الإمبراطوريات والممالك، وإن كانت تتم بصعوبة بالغة بسبب طبيعة العصر آنذاك، أما الممالك التى قامت فى ذلك الزمن فهى مملكة الحثيين وكان موطنها وسط الأناضول، والمملكة الحورانية فى أعالى ما بين النهرين وشمال سوريا، ومملكة آشور فى شمال ما بين النهرين، والمملكة البابلية فى جنوب منطقة ما بين النهرين، والمملكة المصرية التى نهضت مرة أخرى تحت حكم سلالة من أبنائها بعد طرد الهكسوس.

وقد كون حكام تلك الممالك ما يمكن أن تسميه نادى النخبة، واكتسب كل منهم صفة ملك عظيم ووجه الخطابات إلى الآخر بوصفه أخاه الملك، وحافظوا على التواصل الدبلوماسى وتبادلوا الرسائل معًا، برغم نشوب الحروب بينهم بين الوقت والآخر لأسباب مختلفة.

المؤلف يتابع هذه الرسائل ويحلل مضامينها، وهى وإن بدت للوهلة الأولى ذات محتوى تافه وساذج، إلا أنها تكشف بالقراءة الفاحصة عن مجموعة من القيم والتقاليد التى حكمت العلاقات بين هذه الممالك فى الزمن القديم.

السينما والعولمة

محمد فتحى

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٦، ٢٣١ صفحة



منذ البداية، كانت السينما «معولمة»، سواء بالمعنى التقنى والتكنولوجى، أو بالنظر إلى المحتوى، فالآلات التى استخدمت فى العروض السينمائية وفى صناعة الأفلام، انتقلت بسرعة من دولة إلى دولة ومن قارة إلى أخرى، والصورة التى طالعها المشاهدون عبر الشاشات لم تقتصر فحسب على بلد صناعة الفيلم، فقد كان بوسع الكاميرا أن تنتقل لتصور مشاهد من أى مكان فى العالم، فإذا أضفنا إلى اتساع السوق وتنوع مجالات الرؤية أن السينما بدأت صامتة، أى أن ارتباط المشاهد هنا كان بالصورة أكثر من اللغة، فإننا يمكن أن ندرك لماذا كانت السينما «معولمة» منذ بدايتها.

والآن فى عصر العولمة، ومع ثورة الاتصالات والنانو تكنولوجى، فقد صار ممكنًا انتقال الأفلام ومشاهدتها عبر الإنترنت، بل وعبر التليفون المحمول، حيث كشف النقاب عام ٢٠٠٣ عن طراز جديد من التليفون المحمول قادر على استقبال وعرض الإرسال التليفزيونى الرقمى، وتطور الجهاز إلى حد أنه صار قادرا على تسجيل خمسة أفلام مدة كل منها ساعتان عبر الإنترنت لمشاهدتها وقتما يشاء، والواقعة الثانية التى يشير إليها المؤلف هى مشروع «موفى لينك» لتحميل الأفلام السينمائية عبر الإنترنت للمشتركين، بما يعنى أن جميع الأفلام القديمة والحديثة، ستكون متاحة للمشتركين فى أى وقت وفى أى مكان فى العالم.

البعد الآخر للمسألة يتعلق بالمحتوى الذى تقدمه السينما فى زمن العولمة، وهو محتوى يرتبط حتمًا بالقوة الأكبر فى العالم صاحبة السيطرة والثروة والقدرة على تسويق الإنتاج الكبير عبر السوق المفتوح، وهى تعكس قيمًا يتم تقديمها بوصفها نمط الحياة الأمريكى أو روح أمريكا، مع تنويعات على أفلام إثارة ورعب وعنف دموى تضمن توزيعها عبر شركات احتكارية كبرى.

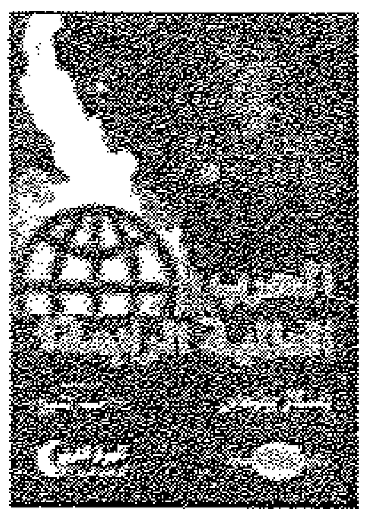
يناقش المؤلف هذه المعانى الكبرى فى خمسة عشر فصلاً، يتناول عبرها سينما هوليوود وسينما العالم النامى والاندماجات الكبرى فى هذه الصناعة وغيرها من القضايا التى ستؤثر حتمًا على صناعة السينما فى دول العالم الثالث، وعلى صياغة عقل الناس ووجدانهم.

الحرب العالمية الرابعة؟!

باسكال بونيفاس

ترجمة وتقديم: أحمد الشيخ

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، المركز العربى للدراسات الغربية، ٢٠٠٦، ٢٠٢ صفحة



.. يكشف هذا الكتاب مفارقات الحرب على الإرهاب، وهى كثيرة وتبدأ من مفارقة أن الذى يحارب الإرهاب هو الذى يدعمه ويعززه، ومرورًا بمفارقة نظرية صدام الحضارات التى كلما زاد نقدها كلما زاد حضورها، وصولاً إلى مفارقة أن الحامى (الولايات المتحدة) لا يستطيع أن يفرض شروطه على المحمى (إسرائيل).

وإذا كان المؤلف قد تمكن من رصد العديد من هذه المفارقات، فإننا من جانبنا نشير إلى بعض المفارقات التى ربما يكون وقع فيها بدوره، المفارقة الأولى تعود إلى عنوان الكتاب، فالمؤلف ينتقد مفهوم الحرب العالمية الرابعة (الحرب على الإرهاب) ولا يجد أى تشابه بينها وبين الحرب العالمية الثالثة (الحرب الباردة)، ومع ذلك نجده يجعل هذا المفهوم عنوانًا لكتابه، والمفارقة الثانية تعود إلى أن المؤلف، وهو فرنسى، يرصد ظهور مصطلح الحرب العالمية الرابعة ودلالاته لدى الأمريكيين، ولا يهتم كثيرًا بدلالة المصطلح وبداية ظهوره فى فرنسا، ولم يشر بقدر كاف لاستخداماته

المتنوعة، بدءاً من استخدام الكونت دى مارنشيز المدير الأسبق للمخابرات الفرنسية، والذى أصدر كتاباً يحمل المصطلح ذاته: «الحرب العالمية الرابعة»: دبلوماسية وتجسس فى عصر الإرهاب»، ووصولاً إلى عالم الاجتماع جان بودريار الذى تحدث فى مقاله الشهير «روح الإرهاب».

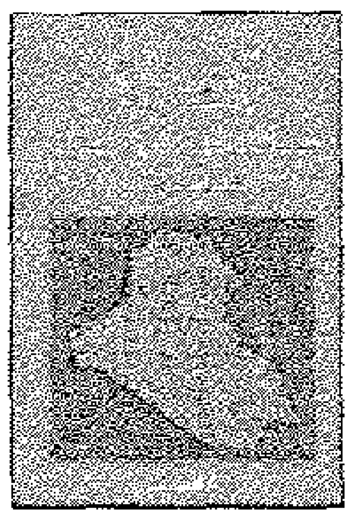
أما المفارقة الأخيرة التى تأخذها من المؤلف أنه فى سجاله مع أقرانه وخصومه من الأمريكيين والفرنسيين يمارس نقداً جريئاً يخضع فيه لمتطلبات العقل الإنسانى المتحرر من القيود والضغوط، لكنه عندما ينتقل إلى تصور الحلول للخروج من أزمة الشرق الأوسط نجده يخضع لعقل عملى ينشد الواقعية السياسية ويقبل بحلول أقل ما يمكن أن يقال عنها إنها لا تتناغم مع العقل النقدى الجرئ الذى وجدناه فى سجاله مع المحافظين الجدد.

لكن يبقى، فى النهاية، أننا أمام محاولة شجاعة تسعى للفهم والتفسير فى زمن أسلحة التضليل الشامل، وتقدم نظرة أخرى عن الإرهاب وجذوره وأسبابه، وتحذرنا من الأخطار الجديدة التى تهدد السلام العالمى.

العراق.. سياقات الوحدة والانقسام

بشير موسى نافع

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٢٢٠ صفحة



يستهدف الكتاب قراءة التكوين العربى الإسلامى لشعب العراق، وعلاقة هذا التكوين بمسألة الهوية، أى أنه يدرس العراق كوطن عربى، بعناصره البشرية وقبائله وعشائره، وتوزيع هذه العشائر فى أنحاء العراق، كما أنه يدرس التنوع الإسلامى الطائفى فى العراق وتاريخ العلاقة بين السنة والشيعة.

يقدم الكتاب دراسة للسياق التاريخى الذى تكون فيه العراق على الصورة التى هى عليها الآن، قراءة للكيفية التى تكونت بها الهويات فى العراق الحديث، ولهذا تقف الدراسة عند سنوات نهاية الحرب العالمية الأولى. وقد أنجزت هذه الدراسة فى العامين التاليين لاحتلال أمريكا للعراق، ولهذا فإن كثيراً من الأفكار المسبقة التى افترضها الباحث قبل بدء الدراسة، تعرضت لكثير من التعديل والتأويل والحذف والإضافة، حسبما أشارت الأحداث فيما بعد.

يدرس المؤلف فى قسم كبير من الكتاب تاريخ السنة والشيعة فى العراق، كما يدرس عروبة العراق مع بدايات الفتح الإسلامى له فى الشهور الأخيرة من خلافة أبى بكر، وهو حين يتعرض للمسألة الكردية، فإنه يتناولها فى هذا الإطار وليس خروجاً عنه بوصفها نزعة انفصالية.

دواخـــل

أحمد آدم

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٦، ١٣٢ صفحة

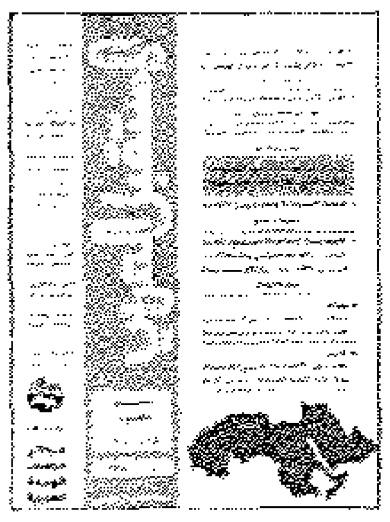


ديوان لشاعر عراقى شاب راح ضحية الخيانات الصغيرة وحرائق الكلام فى ليل بغداد الذى لم يشرق له بعد صباح، وتعكس قصائده هذا القدر من عدم التغيب الذى تعيشه بلاده، والتى صارت نهباً لأطماع الغزاة والأشقاء معاً. وقد ولد آدم فى كربلاء عام ١٩٦٧، وصدرت له ثلاث مجموعات شعرية هى: يسعى، استدراك، كون فى داخلى.

دوريات

المستقبل العربى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية



يتضمن العدد الدراسات الآتية: «العراق.. إلى أين؟ لا مخرج لأمريكا إلا المبادرة الوطنية» لخير الدين حسيب، و«اللوبى الإسرائيلى وسياسة أمريكا الخارجية» لجون ميرز هايمر وستيفن والت، و«مستقبل المقاومة العراقية» لمعن بشور، و«الدعاية الصهيونية فى جمهورية روسيا الاتحادية» لحميدة سميسم، و«اقتصاديات وسياسات صندوق النقد الدولى والبنك المركزى ونشاطاتهما فى الشرق الأوسط» لجين هاريغان.

وفى العدد نص إعلان بيروت لدعم المقاومة مع وقائع المؤتمر العام الرابع لدعم المقاومة، ووثيقة «محكمة مجرمى الحرب» التى أصدرتها المحكمة الشعبية الدولية، وتقرير «حقوق الإنسان فى العراق» الذى أعدته بعثة الأمم المتحدة لتقديم المساعدة فى العراق.

عـــالم الفكـــر

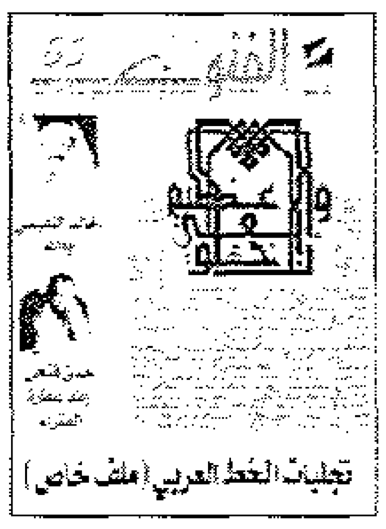
الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون



خصص هذا العدد لمناقشة موضوع العمارة، التى تعتبر الفن الأول للإنسان، ومنطلقاً أساسياً لتحديث فنون أخرى. يتضمن العدد دراسة للدكتور ناصر الرباط بعنوان «مفهوم العمارة فى الكتابات الإسلامية فى القرون الوسطى»، يستعرض من خلالها حال طبقة المعماريين فى الدولة الإسلامية إبان القرون الوسطى، من خلال ما كتب عنهم فى مؤلفات تلك الفترة، أما الدكتور عفيف البهنسى فيدرس من خلال بحثه «الجمالية الفنية فى مفردات العمارة الإسلامية، التفاصيل الجمالية الدقيقة التى امتازت بها العمارة الإسلامية، والمؤثرات التى ساهمت فى تطورها. ويقدم الدكتور هانى الجواهرة فى بحثه «قراءة نقدية للعمارة الإسلامية فى سياقات جغرافية واجتماعية جديدة» تحليلاً لأهم السمات التى تتصف بها العمارة الإسلامية.

الفنـــون

الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون



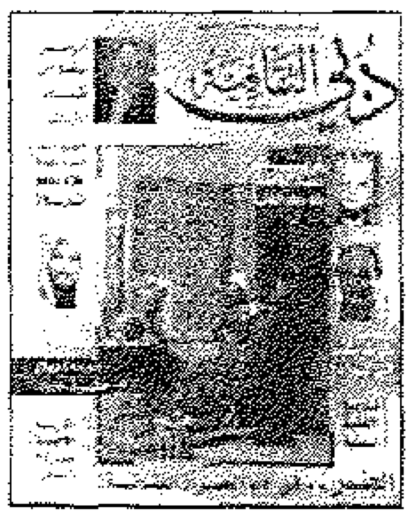
احتفى عدد شهر مايو من «جريدة الفنون» بالخط العربى وأفرد له ملفاً خاصاً بعنوان «تجليات الخط العربى».

وفى باب «التشكيل» عرضت المجلة لرحلة الفنانة الراحلة فخر النساء زيد رائدة الفن التشكيلى فى الأردن، وفى الباب نفسه وتحت عنوان «فن الكاريكاتير بين التنكيت والتبكيت» عرضت لإبداعات مجموعة كبيرة من فنانى الكاريكاتير المصريين الكبار. وفى باب «السينما» ألقت المجلة الضوء على رحلة حياة الفنان الكبير أنطونى كوين الذى صنعته قسوة الحياة التى عاشها، وقدمت عرضاً لأهم أفلامه. وفى باب «العمارة» عرضت لبعض ملامح الرائد المعمارى المصرى حسن فتحى صاحب نظرية عمارة الفقراء، الذى وظف عناصر البيئة الطبيعية لبناء منازل جميلة ونظيفة للبسطاء.

وفى باب «المسرح» قدمت المجلة متابعة لمهرجان المسرح المحلى الثانى فى عمان.

دبى الثقافية

دبى: دار الصدى للصحافة والنشر



يتضمن العدد دراسة للناقد رجاء النقاش عن غراميات العقاد العاصفة.

ويكتب أدونيس عن ثقافة العنف فى التراث العربى.

وفى العدد حوار مع الفنان السورى دريد لحام، يقول فيه بصراحة أن المسرح العربى يتقدم إلى الوراء.

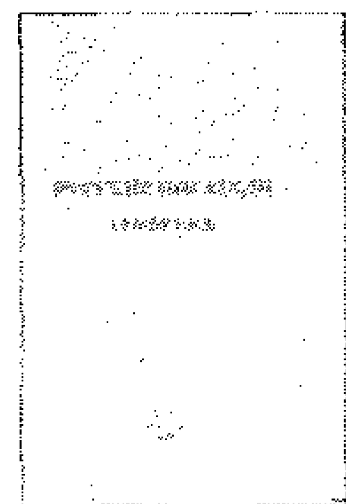
ويرثى فخرى صالح الشاعر السورى الراحل محمد الماغوط الذى أثر فى أجيال من الشعراء بامتداد الوطن العربى كله وعرف بوصفه المتمرد الدائم.

بانوراما العدد عن مدينة دمشق التى تعد واحدة من أقدم المدن المأهولة فى العالم التى مازالت تحتفظ برائحة العراقة والقدم. ويجرى إسماعيل فقيه تحقيقاً حول أدب المرأة يكشف فيه كيف أن الجنس مادة ملتهبة فى أدب المرأة وفى السياق نفسه حوار مع يوسف أبو رية يؤكد فيه أن بعض الأدباء يكتبون من أجل الجنس والمال فقط.

اليـهـــــود فـــى الأدب الروســى

الأدباء الروس يتحدثون عن اليهود

ف. ن. افاناسيف
(باللغة الروسية)



رغم كل المحاولات التى استهدفت الحيلولة دون إصدار هذا العمل الأدبى بالغ الأهمية خرج إلى النور مؤخرا فى موسكو كتاب «الأدباء الروس يتحدثون عن اليهود». طُبِع هذا الكتاب فى «كيروف» إحدى المدن البعيدة عن العاصمة بعد أن بذل مؤلفه، الذى شاء على ما يبدو أن يكون مجهول الهوية ولا نعرف عنه سوى الأحرف الأولى من اسمه الذى قد يكون مستعارا -- ف. ن. افاناسيف، الكثير من الجهد للعثور فى موسكو على ناشر يتيح له نشر ما كتبه الأدباء الروس القدامى والمعاصرون عن اليهود. ولعله لم ينس أن أربعة من زملائه قد لقوا حتفهم يوم أفصحوا عن موقف مناهض فى ظروف يكتنف الغموض الكثير من جوانبها ومنهم ايفانوف مؤلف كتاب «الصهيونية.. حذار» الصادر فى موسكو فى أعقاب نكسة يونيو ١٩٦٧.

وقد اعترف المؤلف صراحة فى مقدمة كتابه بأن المسألة اليهودية لم تكن تشغله فى السابق، بل ولم يكن ليلتفت إليها حتى بعد أن نشر الأديب الروسى الذائع الصيت الكسندر سولجينتسين الحائز على جائزة نوبل فى الأدب رائعته التاريخية «مائتا سنة معا» (أى مع اليهود) فى جزءين كبيرين. وأشار إلى أن ما دفعه إلى الاهتمام بهذه القضية يعود إلى الحملات الإعلامية المكثفة التى روجت بشكل غير مباشر لكتاب سولجينتسين حين راحت تحاول إدانته بعد أن سيطر اليهود على كل مفاتيح الإعلام والصحافة فى روسيا المعاصرة. آنذاك فقط فكر المؤلف فى استحالة أن يعيش اليهود فى روسيا لمدة مائتى سنة دون أن يلتفت الأدباء والشعراء الروس إلى ما قاموا به من أدوار يكتنف الغموض الكثير من جوانبها على مدى هذه الحقبة التاريخية بكل ما حفلت به من مآس وأحداث. ولم يخب ظنه. فقد اكتشف أن الغالبية الساحقة من أدباء روسيا ورجالاتها قد تناولوا بعضا من هذا التاريخ. لكنه اكتشف فى الوقت نفسه أن ما قام به من جهد تصور أنه لا بد أن يحظى باهتمام الملايين، يتناوله الصفوة فى إطار يغلب عليه الكتمان والسرية الشديدان ولا يتحدث عنه أحد إلا همساً وخلسة فيما يتلفت يمنة ويسرة على حد قوله!. قال ما نصه: لم أكن أدرك أن الناشرين يعرفون أكثر منى «أسرار العصر».

بعد هذه المقدمة المثيرة التى حرص على إيجازها فى صفحتين دون الإشارة إلى نفسه، تناول المؤلف ما سجله عدد كبير من أبرز نجوم الأدب والثقافة فى روسيا على مدى المائتى عام الأخيرة عن اليهود وفى مقدمتهم بوشكين وتشيخوف ودوستويفسكى وتورجينيف وجوجول جنبا إلى جنب مع الأساطير والأمثال الشعبية التى أدانت وتندرت بما اعتبرته نذالة من جانب اليهود إلى جانب بُخلهم وشغفهم بجمع المال والذهب وإدمان الخيانة.

وإذا كانت الأوساط الأدبية والسياسية المحلية والعالمية قد اطلعت فقط على ما كتبه فيدور دوستويفسكى عن «المسألة اليهودية» فقد يبدو غريبا أن يعثر المؤلف على الكثير من الأعمال الأدبية التى تناولت هذه القضية ومنها أشعار لأبرز شعراء روسيا فى القرن التاسع عشر - الكسندر بوشكين ومنها «الشال الأسود» وهى مقطوعة غنائية تناولت دسائس أحد أبناء الطائفة اليهودية والذى نعته بوشكين بالحقارة والنذالة وتعمد الوشاية ونقل أخبار خيانة المحبوبة لقاء بضعة قروش. تناول أيضا عملا أدبيا ثانيا سبق ونشره تحت عنوان «الفارس البخيل». هذه المسرحية الشعرية تناولت قصة مراب يهودى يدعى سولومون تعمد بوشكين أن يشير إليه تحت اسم «جيد» بكسر الجيم المُعطشة فى إشارة مفعمة بكل مشاعر الاحتقار لليهودى الذى وصفه بوشكين بالملعون.

بين دفتى هذا الكتاب تناول المؤلف أيضا بعضا مما سجله المؤرخ والأديب الروسى جافريل ديرجافين تحت عنوان «عن اليهود» والذى استعرض فيه تاريخ بنى إسرائيل منذ رحلتهم إلى مصر وخروجهم منها مطرودين للاستقرار فى فلسطين والتى سرعان ما اضطروا إلى الرحيل عنها للانتشار فى مختلف بقاع الأرض. بلهجة مفعمة بالسخرية تندر ديرجافين بما يروجه اليهود عن أنفسهم بأنهم أمة وتاريخ لا يندثر. قال: إنهم تشتتوا فى أرجاء متفرقة من بقاع الأرض على مدى قرون طوال تمتعوا خلالها باحتقار ومقت الآخرين جزاء خيانتهم وما ارتكبوه من آثام وشرور جسام فى حق جيرانهم. وتندر ديرجافين بما يقال حول أنهم شعب الله المختار فى الوقت الذى قال: إنهم منبوذون لم يتمتعوا يوما بحب كل من تعاملوا معه.

واستعرض ديرجافين قصص اليهود مع القياصرة الروس ومنهم فلاديمير مونوماخ الذى طردهم من كييف فى عام ١١١٣ وايفان الرهيب الذى أصدر أمرا مماثلا بطردهم من نوفجورود فى عام ١٥٢٨ ما جعلهم يتنقلون مطرودين بين مختلف أرجاء روسيا الكبرى أى روسيا المعاصرة وروسيا الصغرى التى هى اليوم روسيا البيضاء والمقاطعات المجاورة ومنها كييف عاصمة أوكرانيا المعاصرة.

ولم يكن المؤلف ليغفل بطبيعة الحال ما حفلت به الأدبيات القديمة من أمثال شعبية وأقوال مأثورة حول اليهود وعلاقتهم مع الروس وهو ما تناوله الأديب والمؤرخ اللغوى فلاديمير دال فى كتابه «الأمثال الشعبية والأقوال المأثورة الروسية». من هذا الكتاب انتقى المؤلف بعضا مما حفل به من إشارات إلى تحالف اليهود مع الشياطين وعدائهم للمسيحيين فى نفس الوقت الذى شهد تحول الكثيرين منهم إلى اعتناق المسيحية فضلا عن التندر ببخلهم وإدانة نذالتهم ودهائهم وإدمانهم للخيانة.

ومن الماضى البعيد إلى حاضر اليوم الذى يتناوله المؤلف من خلال ما كتبه بوريس ميرونوف وزير الصحافة والإعلام الأسبق تحت عنوان «حول الفاشية اليهودية»:

«ليس هناك مهنة واحدة لا يدخر اليهود لها وسعا وحماسا ويولونها أهمية مثلما يفعلون بالنسبة لأكاذيبهم حول ما تعرضوا له من اضطهاد ومطاردة ومهانة وانتهاك لحقوقهم وعدم مساواتهم بالشعوب الأخرى أو بقول أدق فيما يسمونه هم بأنفسهم معاداة السامية على الرغم من أن ذلك لا علاقة له بالعرب أو بالفلسطينيين أو بأى من الشعوب السامية الأخرى». وقال ميرونوف: «إن اليهود يفهمون المساواة بين الشعوب على نحو فريد النمط لأنهم يريدون الحصول على الحقوق دون الالتزام بأية واجبات. إنهم ما إن حصلوا فى روسيا فى عام ١٨٧٤ على المساواة فى الحقوق مع بقية شعوب الإمبراطورية بما فى ذلك واجب أداء الخدمة العسكرية حتى سارع الألوف من الشبان اليهود إلى مغادرة روسيا وتوجيه الإهانات إليها علانية بسبب الاضطهاد المريع لليهود».

ولم يغفل ميرونوف دور لينين اليهودى الأصل زعيم ثورة أكتوبر ١٩١٧ حين أشار إلى ما قام به من أجل إحياء أسطورة العداء للسامية وما أصدره من مراسيم قال إنها تستهدف اجتثاث العداء للسامية التى حاول تصوير أن نيرانها لم تخب منذ سنوات الإمبراطورية القيصرية. ونذكر أن الكثيرين من زعماء هذه الثورة كانوا من اليهود ومنهم إلى جانب لينين كاجانوفيتش وتروتسكى وسفيردلوف وغيرهم كثيرون ممن تسللوا إلى الحلقات الثورية السرية التى انتشرت فى مختلف أرجاء الإمبراطورية فى إطار الإعداد لما يصفه اليهود اليوم بالانقلاب الثورى».

الغريب والمثير معا ما أورده ميرونوف من أسماء وألقاب لأبرز نجوم السياسة والفنون والثقافة فى روسيا المعاصرة وما قاموا به من أدوار مشبوهة فى تنفيذ سياسات الخصخصة والتحول إلى اقتصاد السوق فى نفس الوقت الذى راحوا يحذرون فيه مما وصفوه بـ «الفاشية الروسية»:

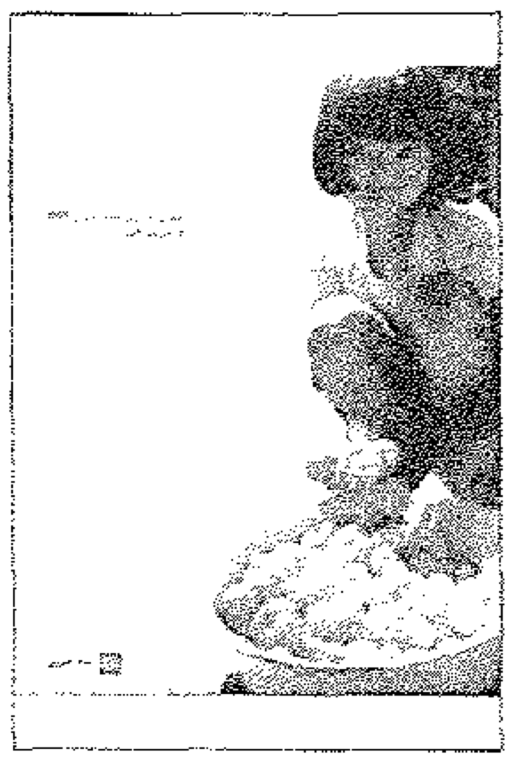
«اليوم تعيش روسيا عهد القياصرة اليهود. إنهم يفرضون هيمنتهم فى كل مجالات وأفرع السلطة. جايدار وبوربوليس ويافلينسكى وكيرينكو وشوخين وجيرينوفسكى وتشوبايس وساتاروف وباتورين وليفشيتس وآفين وموستوفوى وياسين وريسين واورينسون وكوخ وموزيكانتسكى.. فيما وقعت الصحافة بين براثن يهودية: جولومبيوفسكى وياكوفليف وبورتنيروسفانيدزه ولوشاك وتريتياكوف وبومبيانسكى واجناتينكو وبيرجر وتشيدكوى وجوتيونتوف.. أما النفط والغاز والمال والمصانع فثروات روسية يتملكها يهود من أمثال بوروفوى وبيريزوفسكى وجوسينسكى وخودوركوفسكى وخاينت ومالكين» (ص ٤٠٠).

ولم يتوقف وزير الإعلام الأسبق عند إماطة اللثام عن عشرات الشخصيات اليهودية فى مجالات الفن والموسيقى والثقافة والعلوم حيث مضى ليقول: «إن اليهود يسرقون روسيا علانية وبوقاحة. اليهودى نيمتسوف (كان نائبا لرئيس الحكومة فى إحدى حكومات يلتسين) يبيع اليهودى يوردان أكبر مصانع الورق فى روسيا لقاء ٥ . ٧ مليون دولار فى الوقت الذى كان يبلغ ثمن إحدى ماكيناته الجديدة التى جرى تركيبها قبل إتمام صفقة البيع ٥ . ١٢ مليون دولار. وما أن حصل الملاك الجدد ما يريدونه من هذا المصنع حتى قاموا ببيعه مقابل ٢٥ مليون دولار. أما ميناء نوفوروسيسك مقابل ٥ . ٢٢فقد بيع بمليون دولار واسطول النقل فى مورمانسك مقابل ثلاثة ملايين دولار، وهاهو بنك «اونيكسيم» يشترى شركة نفط «سيدانكو» مقابل ٢٠ مليون دولار فى الوقت الذى يسارع فيه مالكوه الجدد ببيع ثلث أسهم الشركة إلى إحدى الشركات القبرصية من المنطقة الحرة بمائتى مليون أى أن الثلث يبدو أغلى بعشرة أضعاف القيمة الإجمالية بما يعنى أن قيمة الشركة النفطية بيعت إلى أحد اليهود لصالح يهود آخرين بما يقل عن القيمة الحقيقية بمقدار ٣٠٠ ضعف.

سامى عمارة

التقرير السنوى للبنك الدولى ٢٠٠٥

إصدارات البنك الدولى، ٦٤ صفحة



تتألف مجموعة البنك الدولى من خمس مؤسسات مرتبطة ببعضها ارتباطا وثيقا، وتأخذ على عاتقها مسئولية مساندة مشروعات التنمية فى العالم بأسره، والخمس مؤسسات هى (البنك الدولى للإنشاء والتعمير، المؤسسة الدولية للتنمية، مؤسسة التمويل الدولية، الوكالة الدولية لضمان الاستثمار، المركز الدولى لتسوية منازعات الاستثمار) وهذا التقرير هو عرض لأنشطة تلك المؤسسات، كل على حدة بالإضافة إلى الأنشطة المشتركة فيما بينهم خلال عام ٢٠٠٥، الذى كان قد أعلن عاما للتنمية، وذلك من أجل إنجاز أهداف الألفية المحدد لها عام ٢٠١٥ كموعد أخير لإتمام أهدافها وتوصياتها.

التقرير يأتى فى كتاب من ٦٤ صفحة، يحتوى على ملخص لنشاط مؤسسات البنك الدولى الخمس وإنجازاتها فى محاربة الفقر فى العالم، كما يحتوى على ملخص لآفاق البنك الدولى الإقليمية، الذى يستعرض به تقارير إقليمية توضح موجز إنجازات البنك الدولى فى أقاليمه الستة، كما توضح أهلية البلدان المقترضة من البنك فى كل إقليم على حدة.

أيضا يحتوى التقرير على موجز للأنشطة المالية فى السنة المالية الماضية، مع إلحاق أسطوانة بها البيانات المالية مفصلة وكاملة، مرفقة بالتحليل من الجهاز الإدارى، والبيانات المالية المراجعة.

الموازنات العامة فى الدول العربية

عدنان محسن ضاهر



منشورات الأمم المتحدة، ٣٤٢ صفحة

السيد «عدنان محسن ضاهر» الأمين العام لمجلس النواب اللبنانى، بعد مجلداته العشرين «مجموعة الموازنة العامة: بين الدستور والواقع، المناقشات فى الذاكرة»، الصادرة فى بيروت، يخط فى هذا الكتاب تقريرا عن الموازنات العامة فى الدول العربية، حيث يتعرض بالتحليل لموازنات جميع الدول العربية العامة لهذا العام، كاشفا عن حجم الإنفاق الحكومى وبنود صرفه، وحجم الدخول، ومعدلات التنمية بمختلف الدول العربية.

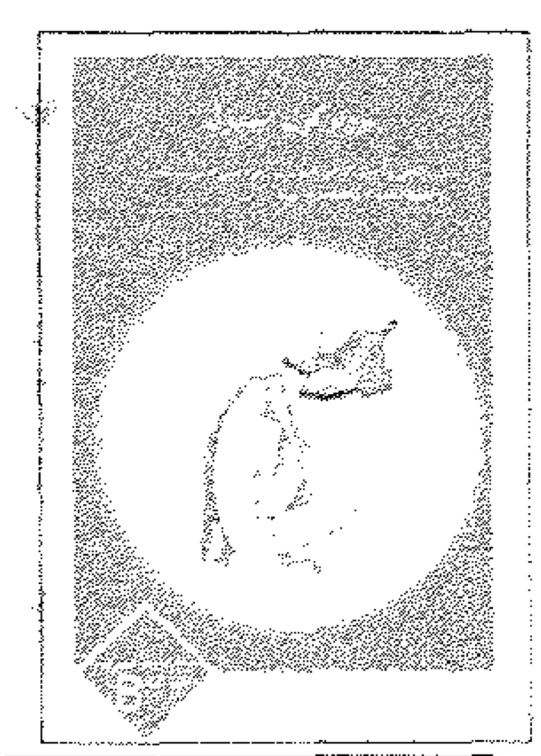
«ضاهر» فى دراسته المقارنة، بدأ بتوضيح خلفيات كل الدول العربية الدستورية والتشريعية تجاه الموازنات العامة، ثم تحدث عن آليات إعداد الموازنات، منتقلا إلى كيفية إقرار الموازنة العامة، ذاكرا آليات وطرق التنفيذ لها، متطرقا إلى وسائل المراقبة عليها.

التقرير يأتى باللغة العربية مصحوبا بملخص تنفيذى موجز باللغتين العربية والإنجليزية.

بروتوكول استنبول

(دليل التقصى والتوثيق الفعالين للتعذيب وغيره من ضروب المعاملة أو العقوبة القاسية أو اللاإنسانية أو المهينة)

مفوضية الأمم المتحدة السامية لحقوق الإنسان، ١٣٧ صفحة



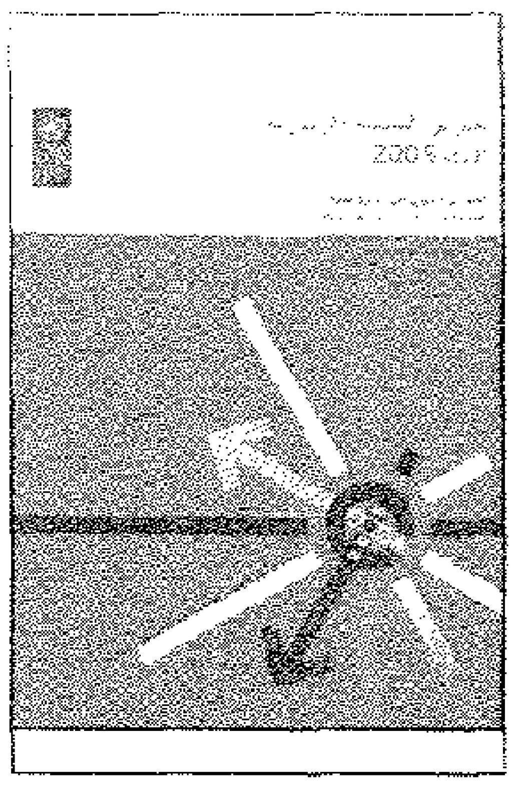
«يقصد بتعبير التعذيب أى عمل ينتج عنه ألم أو عذاب شديد جسدياً كان أم عقلياً يلحق عمداً بشخص ما بقصد الحصول من هذا الشخص أو من شخص ثالث على معلومات أو اعتراف أو معاقبته على عمل ارتكبه أو يشتبه أنه ارتكبه، هو أو شخص ثالث أو تخويفه أو إرغامه، هو أو أى شخص ثالث، أو عندما يلحق مثل هذا الألم أو العذاب لأى سبب من الأسباب يقوم على التمييز أيا كان نوعه....» المادة الأولى من اتفاقية مناهضة التعذيب.

أيضا المادة الخامسة من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان أشارت بوضوح إلى أنه «لا يجوز إخضاع أحد للتعذيب ولا للمعاملة أو العقوبة القاسية أو اللا إنسانية أو المهينة....».

هذا الكتاب هو دليل شامل لكيفية تقصى وتوثيق حالات التعذيب المختلفة، وهو موجه بالدرجة الأولى للعاملين بمجال حقوق الإنسان، وهو يصدر عن سلسلة التدريب المهنى التى تصدرها مفوضية الأمم المتحدة السامية لحقوق الإنسان، الكتاب يحتوى على طرق مختلفة تساعد الأخصائيين على تقصى حقائق عمليات التعذيب، كما يحوى دليلا للتوثيق مشفوعا بالعديد من الرسومات التوضيحية التى تساعد فى إظهار آثار التعذيب البدنية.

تقرير التنمية البشرية

إصدارات برنامج الأمم المتحدة الإنمائى



مع بداية العد التنازلى للسنوات العشر التى تفصلنا عن العام ٢٠١٥، وهو العام المحدد للوصول إلى الغايات الإنمائية لإعلان الألفية، التى سبق أن أعلنت فى عام ٢٠٠٠، فعلى حكومات العالم أن تختار اختيارا حاسما من اثنين، فإما أن يعتبر هذا العام ٢٠٠٥ عاما للنكث بالوعود التى تضمنها إعلان الألفية، أو يكون عاما لبداية عقد جديد من أجل التنمية، وذلك عن طريق إعادة الأمور إلى مسارها الصحيح، والدفع بعجلة التنمية إلى الدوران بالسرعة المطلوبة للوصول إلى الأهداف المرجوة.

تقرير التنمية البشرية لهذا العام، هو السادس عشر فى سلسلة هذه التقارير السنوية، وهو يتناول هذا العام أهمية التعاون الدولى بين بلدان العالم، ويدعو لإجراء تغييرات واسعة من أجل تخليص البشرية من الفقر الشديد، ومن أجل ترسيخ قواعد احترام حقوق الإنسان والمساواة بين الجنسين، واستئصال الفساد.

التقرير يقوم على ثلاث دعامات رئيسية للتعاون، كل منها بحاجة ماسة للتجديد، الدعامة الأولى: المساعدات الإنمائية، التى تعتبر أكثر أسلحة محاربة الفقر نجاحا، ولكنها تحتاج إلى إعادة توجيهها إلى مستحقيها.

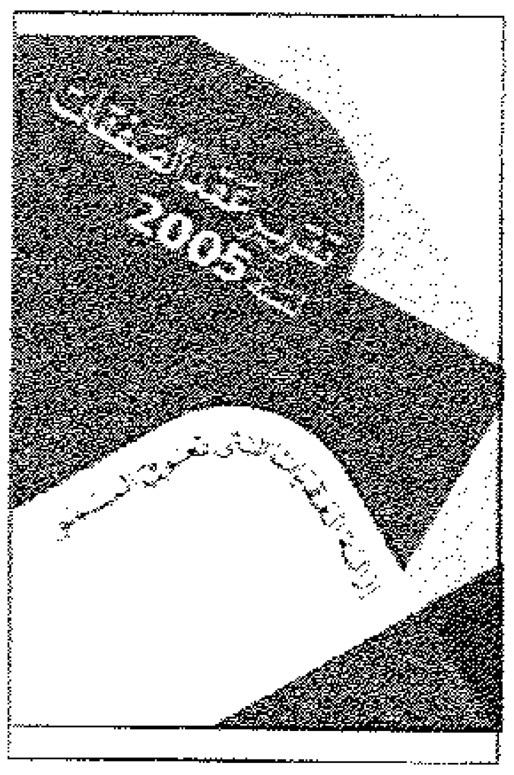
الدعامة الثانية: التجارة الدولية، التى إذا ما توفرت لها ظروف مواتية، ستكون بلا شك عاملا محفزا كبيرا للتنمية.

الدعامة الثالثة: الأمن، فالنزاعات والحروب هى أكثر أعداء التنمية ضراوة، فهى قادرة على استنزاف المكتسبات التنموية جميعها فى لحظات.

التقرير يحتوى على ترتيب لدول العالم طبقا لما أنجزته فى مجال التنمية البشرية، وقد تصدرت النرويج هذا الجدول، تلتها على الترتيب أيسلندا، أستراليا، لكسمبورغ، ثم كندا، وعلى الصعيد العربى جاءت قطر فى المركز ٤٠ تلتها الإمارات العربية المتحدة (٤١)، فالبحرين (٤٣) ثم الكويت (٤٤)، وهى دول ذات تنمية بشرية مرتفعة، وحققت مصر المركز (١١٩) متقدمة عن العام ٢٠٠٤ بمركز واحد محققة مستوى تنمويا متوسطاً.

تقرير عقد الصفقات: توفير فرص العمل

إصدارات البنك الدولي



أصدر البنك الدولي مؤخرا تقرير عقد الصفقات لعام ٢٠٠٥، حيث تناول فيه بالتصنيف كل بلاد العالم، حسب تسهيل إجراءات الاستثمار وإقامة المشاريع، وجاء في التقرير التأكيد على أهمية الإصلاح لقوانين الضرائب والجمارك والتجارة، ومدى ارتباطها بالاستثمارات ومن ثم زيادة فرص العمل.

و يتضمن التقرير هذا العام قائمة لـ ١٥٥ دولة، مرتبة طبقا لمدى صلاحيتها لإقامة المشاريع والاستثمار، جاء في مقدمتها نيوزيلندا، وتبعها كل من سنغافورة، الولايات المتحدة، كندا، النرويج.

أما الدول العربية فقد جاءت في مراكز متأخرة وقد أشير في التقرير إلى العالم العربي بوصفه متخلفا عن ركب التطوير والإصلاحات، وعلى الرغم من هذا فإن مصر جاءت في قائمة أفضل الدول المحققة لإصلاحات العام الماضي، وذلك جاء نتيجة لتصدرها قائمة الدول المحققة لإصلاحات جمركية، كما ساعدتها أيضا إجراءاتها نحو تخفيض رسوم التسجيل العقاري إلى الثلث، أشار التقرير أيضا إلى لبنان، التي أدى تخفيض الحد الأدنى للقروض فيها إلى زيادة في سجل المقترضين، أما تونس، فقد أشاد التقرير بإصلاحاتها تجاه تخفيض رأس المال اللازم لبدء مشروع إلى عشر ما كان عليه.

■

نحو مستقبل أفضل (إستراتيجية لبناء قدرات العلم والتكنولوجيا على الصعيد العالمي)

مكتبة الإسكندرية، ٢١٢ صفحة



يأتي كتاب «نحو مستقبل أفضل» في وقت تتصاعد فيه دائرة النقاش حول علاقة العلوم والتكنولوجيا بالتنمية في دول العالم الثالث، الكتاب ترجم بمبادرة من كل من «مكتبة الإسكندرية» و«المركز القومي للترجمة» و«مجلس الأكاديميات العالمي» وقام بتحرير ترجمته العربية (محسن يوسف).

الكتاب وضعه باللغة الإنجليزية مجموعة من الخبراء ينتمون إلى مجلس الأكاديميات العالمي، ووضعوا فيه تصورهم نحو كيف يمكن أن تؤثر العلوم الحديثة والتكنولوجيا على معدلات التنمية في دول العالم الثالث، كما سطروا رؤيتهم على قدرة العالم الثالث على ذلك.

الكتاب يتناول مختلف قضايا العلم والتكنولوجيا، فبعد مناقشة الحاجة الملحة إلى تعزيز القدرة في مجال العلم والتكنولوجيا، يربط المؤلفون التطور العلمي بزيادة الاستثمارات ومن ثم التنمية الاقتصادية، كما يشددون على دور العلوم الحديثة والتكنولوجيا في التعليم لخلق أجيال جديدة قادرة على الدفع بعجلة التنمية، وأيضا يشيرون إلى مسألة جهود البحث والتدريب، مقترحين بعض الحلول المبتكرة لحل تلك المعضلة، مشيرين إلى التزام حكومي واجب بجانب تلك الحلول ليدعمها ويساعد على تطبيقها.

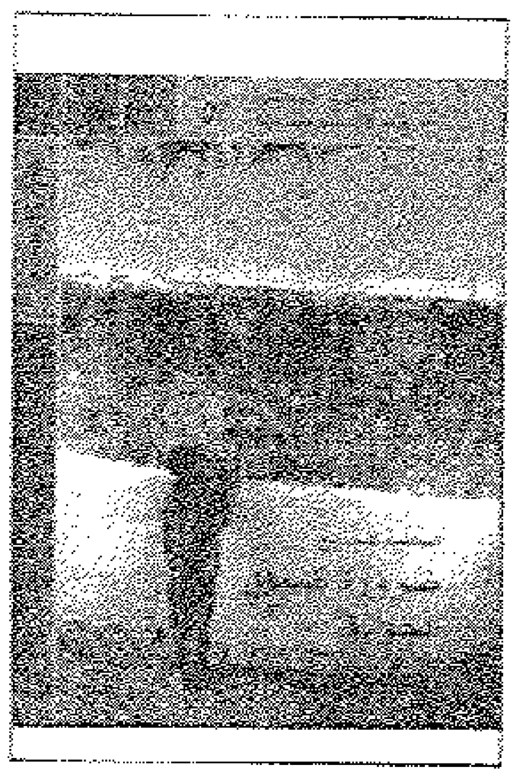
ينتهي الكتاب إلى مجموعة من التوصيات للهيئات والمنظمات العالمية وحكومات الدول النامية والمتقدمة والقطاعين العام والخاص والهيئات المانحة من أجل تفعيل دورهم جميعا من أجل بناء قدرات علمية وتكنولوجية تساعد على الإنماء والتقدم.

يختتم الكتاب بالإشارة إلى دور الهيئات الإعلامية، الواجب حدوثه لزيادة الوعي لدى الجماهير بقضايا العلم والتكنولوجيا.

■

التقرير العالمي لرصد التعليم للجميع

إصدارات منظمة اليونسكو



للعام الرابع على التوالي، صدر التقرير العالمي لرصد التعليم للجميع بعنوان «محو الأمية لدى الحياة»، وتدور فكرة التقرير الرئيسية حول معاناة مسألة محو الأمية من الإهمال الحاد ضمن السياسات العامة الوطنية والدولية، مما يترك مئات ملايين الكبار على هوامش المجتمعات ويعيق الحد من الفقر والتقدم نحو تحقيق الأهداف الستة لـ«التعليم للجميع»، التي قد سبق أن وضعت عام ٢٠٠٠ بدكار خلال المنتدى العالمي للتربية.

التقرير - وانطلاقا من توجهه نحو محو الأمية- يولي اهتماما كبيرا بالكبار الذين يعيشون في أمية تامة، وهؤلاء يبلغ عددهم ٧٧١ مليون نسمة، يعيش ثلاثة أرباعهم في اثنتي عشرة دولة، منها دولتان عربيتان، هما مصر والمغرب.

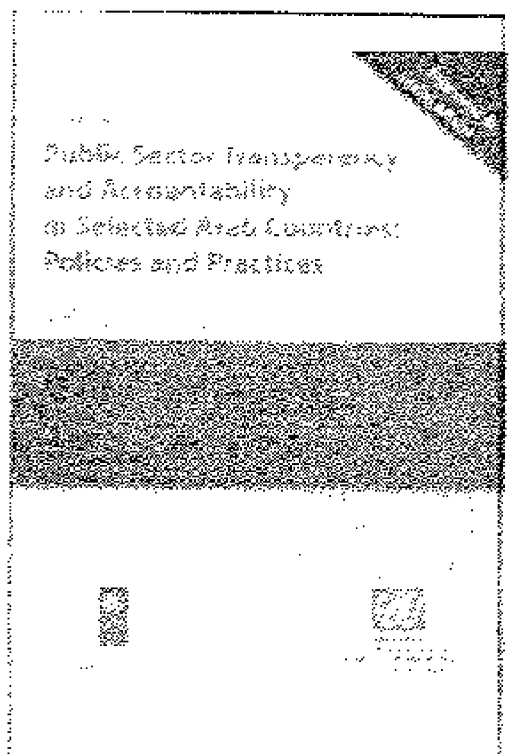
وعلى الرغم من إشارة التقرير إلى أن أعلى نسبة في معدلات الإنجاز في محو الأمية لدى الكبار كانت من نصيب الدول العربية، إلا أنه أشار أيضا إلى استمرار وجود ٦٥ مليون راشد في الوطن العربي يعانون من الأمية، وتصل نسبة من يستطيعون القراءة والكتابة إلى قرابة ٦٣ بالمائة فقط في المنطقة العربية، وهذا المعدل أقل بكثير من المعدل العالمي. تناول التقرير أيضا العلاقة بين الجنوسة والتعليم بالرصد والقياس، حيث تصل نسبة الأمية بين الكبار من الإناث إلى ٦٤ بالمائة. يصنف التقرير ١٢٣ دولة طبقا لما حققته من إنجازات مساعدة لتحقيق أهداف التعليم الستة، وعلى الرغم من وجود تقصير شديد في الوصول إلى الأهداف، فإن التقرير أكد على أن الأهداف الستة لا تظل قابلة للتحقيق، وإن كان ذلك يلزمه تسارع فوري من أجل زيادة حجم المساعدات والمنح لصالح التعليم الأساسي في الدول النامية.

■

Transparency and Accountability in the Public Sector in selected Arab countries : Policies and Practices

(الشفافية والمساءلة في القطاع الحكومي في بلدان عربية مختارة: سياسات وممارسات)

مطبوعات الأمم المتحدة، ١٤٤ صفحة



كان لإفرازات العولمة دور كبير في تزايد مطالب الشعوب لدى الحكومات بمزيد من الشفافية والمساءلة في القطاع الحكومي، وذلك بسبب تزايد الحاجة لدور شعبي أكبر في الحكم ونظرا لنواتج العولمة من سرعة انتشار المعلومات ونقلها، وتقوية الروابط بين الدول وبعضها.

و انطلاقا من هذا تدرك الدول العربية حاجتها الملحة للقيام بإصلاحات جذرية في القطاع الحكومي، حتى تساير تحديات العولمة الداخلية والخارجية، والتي تتمثل في زرع الثقة الشعبية في المؤسسات الحكومية والاستجابة إلى توقعات المستثمرين الأجانب حول مدى دقة المعلومات المتاحة حول أداء عمليات القطاعين العام والخاص.

يقدم هذا التقرير تحليلا نوعيا ودراسة مقارنة لحالة الشفافية والمساءلة في القطاع الحكومي في ست دول عربية (الأردن - لبنان - المغرب - السودان - تونس - اليمن)؛ وهذه الدول أخذت كمثال على كل الدول العربية، لذا فإن التوصيات والمقترحات والنتائج المتوصل لها بتلك الدراسة تعتبر قابلة للتطبيق بباقي دول المنطقة العربية.

التقرير صدر عن «برنامج الأمم المتحدة الإنمائي» بالتعاون مع «وحدة إدارة الشئون الاقتصادية والاجتماعية بالأمم المتحدة» في لغتين، العربية والإنجليزية.

■

وجهات نظر
رسائل وآراء

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

ضفاف الحوار

قرأت فى باب وثائق فى مجلة «وجهات نظر» عدد أبريل ٢٠٠٦ المقال الوثيقة والمعنون «حوارات على ضفاف الحوار» للأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل والحقيقة أننى أرى الأستاذ هيكل فى هذا المقال وضع النقاط الحقيقية وأجاب على كثير مما يدور فى ذهن القارئ من أسئلة حول ما أثير بما يسمى صراع الحضارات ونهاية التاريخ اللذان ابتكرهما الأمريكى هنتنجتون والياباني فوكوياما ولكنى أريد أن استبين بعدما وضح هيكل أنه من مدرسة ترجح أن ليس هناك صراع حضارات ومن نافلة القول أقول إذا كان ذلك فلماذا اقتنع الغرب بكل فئاته حكاماً وشعوباً صحفيين وكتاباً بفكرة هذا الصدام والصراع بين الحضارات ثم لماذا كل هذا الهجوم من الحكام والساسة والكتاب فى أمريكا والغرب على الحضارة الإسلامية التى هى مناط الصراع وإننا بقدر ما نحترم الغرب وحضارته ونعرف قدرها وندرك أهم ما تتسم به من إيجابيات على حاضر البشرية ومستقبلها بقدر ما نستشعر حجم الظلم والتجنى والنظرة الأحادية التى تتسم بها نظرة الغرب للإسلام وحضارته وإن تعادل العداء التاريخى بين الثقافات المشابهة نرى أنها لا تزال تنطوى على اختلافات جوهرية تستخدم فى كثير من الأحيان لتبرير الصراع ثم ما الذى جعل الغرب لا يستنكر تأليف كتاب آيات شيطانية للمؤلف المارق سلمان رشدى بل رأيناه يفتح له البيت الأبيض ويستقبل من الرئيس الأمريكى بيل كلينتون مع الضرب بمشاعر مليار مسلم عرض الحائط ولو أن الغرب استنكر وشجب ما فعله سلمان رشدى بل وتم ردعه ما وصلنا إلى موضوع الرسوم المسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم ولما وصلنا إلى تمزيق المصحف فى جوانتانامو ولو فى أدنى احترام لمشاعر المسلمين ولما رأينا وزيراً إيطالياً حقيراً يرتدى قميصاً فيه إساءة وتحد لمشاعر المسلمين لما يحويه من رسومات مسيئة. إننى أرى أن الغرب عامة والولايات الأمريكية تضمر العداء للمسلمين وإلا ما هذا الكم من المؤلفات التى تحذر الغرب من الإسلام وعلى رأس هذه المؤلفات كتاب «انتهزوا الفرصة» للرئيس الأمريكى الأسبق نيكسون الذى يقول فيه إن العدو الرئيسى للغرب بعد اندحار الشيوعية هو الإسلام - ولقد سئلت مارجريت تاتشر رئيس الوزراء الأسبق لبريطانيا وكانت فى زيارة لبروكسل عن مبررات وجود حلف شمال الأطلنطى بعد انهيار حلف وارسو قائلين أن حلف الأطلنطى كبد المواطن الأوروبى ضرائب باهظة جراء التسليح فأجابت بأن الحلف باق لمواجهة الأصولية الإسلامية.

ثم إننى أرجع وأقول إن حكاية صدام الحضارات التى أقنعوا بها العالم ما هى فى حقيقة الأمر إلا لعبة أمريكية تروج لها من خلال الدعاية المكثفة لتبرير الهيمنة الأمريكية ومحاولة قطع التعامل والتفاعل بين أوروبا وبين الحضارة الإسلامية وبذلك تضمن إبعاد الحضارة الإسلامية بل والأوروبية أيضاً عن المنافسة الكونية.

صابر محمد عبدالواحد
عضو اتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين

صحوة السيدة زينب

ما أحوجنا اليوم إلى صحوة كصحوة السيدة زينب تفتح وعى الجماهير على حقيقة ما يجرى وراء تفاقم صور الفساد الضارب فى سقف النخاع.

هذا ما ختم به الروائى الكبير خيرى شلبى. مقاله. «أم هاشم.. وارثة الأحزان وباعثة الضمير» المنشور فى عدد مارس «وجهات نظر» ٢٠٠٦ - هذا السرد المأساوى لعمق المشهد الحسينى بكل تداعياته. انتهاء باستشهاده مع ما بقى من آل البيت. هل كانت لحظة فارقة فى تاريخ الأمة الإسلامية. أم أن سياق الأحداث يحمل دلالات مسبقة منذ تولى عثمان بن عفان الخلافة بعد موت عمر بن الخطاب. بالتفاف رموز المجتمع الطبقى من بنى أمية. وبداية النهاية للشورى فى الحكم والخلافة. وبداية الملك والفساد بكل أشكاله. هل كان يولى أميراً على الكوفة الوليد بن عقبة (أخو عثمان بن عفان لأمه). ويتم عزل سعد بن أبى وقاص. أو عزل عمرو بن العاص. والى مصر. وتولية عبدالله بن أبى السرح أميراً عليها (أخو عثمان) والذى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله حتى لو كان متعلقاً بأستار الكعبة. هل كان يتم هذا فى عهد خلافة عمر بن الخطاب. تلك هى إذن فلسفة أصول الحكم التى تم اعتمادها من قبل بنى أمية. الملك. والدلالة فى هذا السياق ما لخصه الوليد لسعد عندما قال «هذا هو الملك يا أبا اسحاق يتغداه قوم.. ويتعشاه آخرون». ومن يومها وجمود الفكر الإسلامى فى إطار الموروث حتى يومنا هذا. حتى إن أبناء الأجيال الراهنة لا تستطيع اختيار الطيب من الخبيث من تراثنا الدينى. كما أشار الكاتب. ولإعادة بعث الضمير الإنسانى لابد من محاربة الفساد بكل أشكاله ولن يتم ذلك إلا بالتحرر من سلطة التراث الدينى التى استنام بها المسلمون منذ عهد بنى أمية. على أن تكون البداية تحرير لغة (الخطاب الدينى) من أسر المنقول المشوه فى التراث والذى تاهت بسببه العقول.

مع وافر التحية والتقدير للكاتب وأسرة المجلة.

سعيد الرفاعى
العمار الكبرى. قليوبية

مشروع ثقافى خلاق

لقد فجر فى وجدانى هذه الهواجس المرتعشة المقالان الرائعان للأستاذ خيرى منصور والأستاذ أيمن الصياد.. وجهات نظر.. هيكل.. مصر.. فى العدد الخامس والثمانين فأيقظا فى أعماقنا كقراء وكمريدين لوجهات نظر كوابيس مفزعة سكنتنا.. فمن كثرة ما شيعنا منابر شهرية وفصلية إلى مثواها الأخير، وكنا نظنها لن تنطفئ مهما كانت عواصف الدهر. فلا تزال كلمات الوداع أو قل التأبين التى أطلقها رؤساء تحريرها وقبلها نداءات الاستغاثة تخلق لدينا ثقافة كربلائية ربما لا ينقصها حتى جلد الذات..

وكم كانا بارعين فى صرختهما الكونية التى تحمل نذراً من طوفان يغرق المنارات مهما تسامت.من الجائز أنهما لم يقصدا ذلك ولكننا من كثرة ما فجعنا صرنا نسمع أصواتاً ليست سوى صدى تحمله ضمائرنا المثقلة بالذنوب الثقافية فمن شاهد مكتبة بغداد وهى تحترق وصرخات ابن المقفع والجاحظ والمتنبى تتعالى مع ألسنة اللهب لا بد أن تندلع الهواجس من هذه الرموز الموحية التى بثتها مقالة الأديبين..

وكعادة كتاب هذه المجلة الالتزام بالصراحة الأدبية والأخلاقية منذ رأت النور كتبا بأبجدية عذراء حرون لا ترضى عشيقاً لها إلا من أثمله وله الأدب فكانت الكلمات لا تتنضد فى الأسطر ولكنها تنتظم بإيقاع مدهش كرقص الباليه، لتعطى هذه الزخارف غرابة المعنى كأن عيوننا ومداركنا تطأ ثقافة بكراً..

(وجهات نظر كانت محظوظة بالولادة وربما ولدت وفى فمها ملعقة من حبر أثمن من الذهب وأبقى منه).. والأثمن منهما من اعتصروا إبداعهم ليقدموا هذا الحبر.

لأننا جيل قراء شهد مشروعاً ثقافياً خلاقاً، ربما كان حلماً وحين أوشك أن يصبح حقيقة أقفلنا بوجهه عقولنا فقتلناه، واليوم تنبثق وجهات نظر من أعماق اليأس منبراً ثقافياً وهاجا يضخ نور المعرفة ويؤسس لمكتبة متنقلة رفوفها تتضوع بالثقافة الهائلة وتستطيع حملها إلى بيتك رغم غزارة محتواها، ولها من الخفة لكأن محرريها وكتابها حولوا الصفحات إلى غيوم مؤجلة الهطول لا تنتظر إلا بريق عينى القارئ لتهطل فتروى العقول والأرواح..نحن أبناء الفرات يا سيدى حين يولد لنا طفل يزهر بالجمال وبالتدفق وبالحضور العذب نطلق عليه عبارة إنه ابن آخرة

وكثيرا ما تتحقق رؤانا المُلفحة بهجير اللوعات.

فمن كانت مفصلاً بين قرنين ولها من العمر تسع سنين؟ ؟فهى لا تزال طفلة وتحتاج إلى تمائمنا الفراتية الموغلة بالدهر؟ تمائمنا التى صُغناها من وصايا عبد الرحمن الداخل حين عبر النهر ومن ريش جناحى هذا الصقر.

أعود لمقالى خيرى وأيمن، فمن الغريب أنهما يأخذانى إلى زاوية متواضعة جداً آخر الصفحات تقريباً وهى مُعتمة ربما لا نستطيع أن نرى المجلة من هذه الزاوية ولكننا نري ظلها الثقافى الهائل الذى يمتص أنوارا ليحجبُ عنا هذه المشاهد المصطنعة. أو لعلهم اختاروا هذه الزاوية لكى يُريانا أن الفكر لا يخضع لقوانين سلال الفاكهة حيث الحبات الكبيرة واليانعة من الأعلى بل بالعكس فهذه السلة الثقافية اليانعة كالكرة السحرية ليس لها جهات، لها عدالة ثقافية صارت من الكائنات التى سوف تنقرض..

فقط أُضيف أن الذين غادروا المجلة ليسوا إلا معالم على الطريق للاهتداء إليها وقد كتبوا عبارة هُناك على بُعد سحابتين وجدولين رقراقين ستجدون ينبوع وجهات نظر وأضاف آخر عبارة: التضاريس الهائلة لا تحتاج علامات على الطريق فكأنهم غادروها وبقى وهج فكرهم يُضيف ومضة إلى مصباح لن ينطفئ أبداً...

عدنان شعبان
دير الزور - سوريا

سبحان مغير الأحوال

فى مقالة بعنوان «وهل نحن نقرأ؟» المنشور بعدد يناير ٢٠٠٦ من المجلة، ذكر الأستاذ أيمن الصياد كيف كان مع بعض أصدقائه من الفتية يقضون بعض الأمسيات مع مدرس اللغة العربية لمناقشة كتاب قرأه أحدهم أو لتفسير معنى بيت شعرى أو آية قرآنية، وقد ذكرنى ذلك بالأيام الخوالى.. أيام الصبا والشباب المبكر.. ففى أوائل خمسينيات القرن الماضى كانت دار المعارف تصدر مجلة للأطفال والناشئة اسمها (سندباد)، وكانت تقدم مجموعة من الكتب كنواة لمكتبة تهديها لمجموعة من الفتية إذا قاموا بتأسيس «ندوة سندباد» تشجيعاً لهم على القراءة. وكنت فى تلك الأيام طالباً بالمرحلة الثانوية بالقاهرة، وكنت أقضى الإجازة الصيفية بقرية «طنوب» مركز «تلا» بمديرية (محافظة الآن) المنوفية، حيث كان والدى - رحمه الله - يعمل مفتشاً زراعياً، وقد شاركت مع عشرة طلاب آخرين فى مثل سنى فى تأسيس «ندوة سندباد»، وكنا نجتمع كل أسبوع فى بيت أحدنا حيث يقوم بتقديم عرض ملخص لكتاب قرأه.. وهكذا.. بحيث نكون بنهاية الإجازة، قد سمعنا عرضاً وملخصاً لأكثر من ١٥ كتاباً دون حاجة لقراءتها جميعها، كما كنا بالإضافة إلى ذلك نقوم بمناقشة القضايا العامة، وأذكر أننا أرسلنا برقية إلى مجلس قيادة الثورة فى أغسطس ١٩٥٢ - أى بعد أيام من قيام الثورة - نؤيد فيها منح المرأة حقوقها السياسية فى الانتخاب والترشيح للبرلمان.

هكذا كان حالنا فى شبابنا نحن المخضرمين.. وسبحان مغير الأحوال!

د. شعبان عبدالعزيز عفيفى
كلية التربية الأساسية - الكويت

الإخوان.. محاولة للفهم

فى تاريخ تطور الشعوب والحركات، يكاد يتفق الباحثون على وجود جيلين يتناوبان مسيرة الإصلاح.. بينهما من التشابه وأيضاً التمايز ما يدل على اتفاقهما وفى نفس الوقت افتراقهما.

وإذا كان الجيل الأول يعرف بجيل الآباء أو المؤسسين، فالآخر لم يتعارف على تسمية له، وإن كانت معالمه تتحدد وبمجموعة من الصفات بعضها مستمد من جيل الآباء، وبعضها الآخر مستفاد من تطور الحركة، وتغير الواقع، وإلحاح المستجدات.

الآباء يضطلعون بالبناء والتأسيس، ومن يلونهم يعرفون القواعد ويشيدون. والصفة التى تميز الجيل الأول، «الثبات».. الثبات على الأفكار دون مرونة، وعلى الوسائل من غير تطور، وعلى الغايات بلا تنازل. أما الجيل الثانى فأهم صفاته «المرونة» بما تستلزمه من انفتاح على الآخرين، وقبول بالمشاركة لا المغالبة، وبالمرحلية لا بالكلية، وبالقدرة على مخاطبة شرائح متعددة، وامتلاك أدوات الإقناع العقلى دون الاكتفاء بمخاطبة الوجدان والعاطفة.

وتجربة الإخوان المسلمين فى الدعوة والإصلاح ليست بدعاً مما سبق. صحيح أن «إسلامية» التجربة تجعل لها مذاقاً خاصاً، لكنها فى الغالب الأعم يحكمها ما يحكم التجمعات البشرية وحركات التغيير من سنن وقوانين تكاد تكون راسخة مثل قوانين الطبيعة.

إن من أهم مفردات جماعة الإخوان التى كانت ولاتزال محل نقاش، شخصية مؤسسها الأول الأستاذ حسن البنا؛ فقد كان ملتقى لعدد من الصفات النفسية والخلقية جعلته موضع إعجاب وتقدير حتى ممن يخالف الإخوان، فكان ملهماً موهوباً كما وصفه الأستاذ عمر التلمسانى، ونقطة قوة الإخوان وضعفهم كما عبر بذلك أحد المنشقين عن الإخوان.

وكان على درجة عالية من الوعى والإحاطة بالقضايا المهمة، والتى فى مقدمتها: الإيمان بالديمقراطية، والتدرج فى التغيير، وإدراك أهمية الأقباط فى النسيج المصرى.. فترشح مرتين لمجلس الأمة، تنازل فى الأولى تحت ضغط الإنجليز على حكومة الوفد وأسقط فى الثانية، وكان يؤمن أن التغيير يبدأ ببناء الإنسان أولاً الذى هو عماد المجتمع الصالح، كما ضم اثنين من الأقباط فى اللجنة السياسية للجماعة.. مما جعل الإخوان رقماً مهماً فى المعادلة المصرية، وعلامة فارقة فى تاريخ التجديد الإسلامى.

غير أنى أزعم أن ما تفرد به الإخوان فى عهد حسن البنا لم يرجع فقط إلى صفاته الشخصية ومؤهلاته الفردية، التى أرى أنها لم تجتمع فى شخص واحد من بعده وليس فى ذلك من حرج؛ لأن تميز المؤسس من القوانين الحاكمة لحركات التغيير، ولكنه يرجع أيضاً - وهذا هو بيت القصيد - إلى الظروف التى أحاطت نشأة جماعة الإخوان. فقد نشأت جماعة شرعية، تستمد شرعيتها من قوانين تسمح وتقنن لتعدد الرؤى والأفكار والتنظيمات، ومن تأييد الشعب المتطلع إلى الخلاص من نير الاستعمار واستبداد النظام الملكى. فكانت ولادة الإخوان ولادة طبيعية وليست قيصرية، سمحت بسلمية التغيير، وتعدد مناحى الإصلاح على المستوى السياسى والثقافى والاجتماعى.

الأمر الذى يؤكد أن توفير القنوات الشرعية وإتاحة العمل السياسى للجميع هما الضمان للأمن الاجتماعى، ولاختبار سلامة الأطروحات أو بطلانها، والخروج بهذه الأطروحات من القوالب النظرية الجامدة إلى برامج واقعية مرنة ومتطورة. أما انتهاج الأساليب الأمنية فى الساحة السياسية، وممارسة الاستبعاد والمصادرة فلن يؤدى إلا إلى تخندق الفكر الآخر - أياً كان - داخل أطره، والتمحور حول الذات، والتنكر للمجتمع، ومن ثم الجمود والدخول فى حلقة مفرغة من الاتهامات المتبادلة.

هذا التناغم والتداخل بين شخصية البنا وظروف النشأة، جعل الجماعة حتى مرحلة الصدام مع الثورة تعيش عهدها الذهبى، وتكون لنفسها صورة طيبة فى أذهان بعض الناس. وجعل الذين يتعاطفون مع الإخوان يتمنون أن يتطابق واقعهم المعاصر مع ماضيهم المشرق. كما جعل الذين يتوجسون منهم يقفون عند شخصية البنا، ويعتبرونه مثالاً لم يتكرر، بل ويرون انفصاماً بينه وبين الإخوان الآن. دون أن يأخذوا فى اعتبارهم الاختلاف الجذرى بين الظروف التى واكبت النشأة وبين مراحل متتالية من الاضطهاد، باعدت بين الإخوان وبين تطوير أفكارهم والتواصل بها مع المجتمع على نحو كاشف ومتفاعل.

أما وقد نجح الإخوان فى مجلس الشعب بعد منافسة شهد الجميع بحسن إدارتهم لها، فإنهم مطالبون بإعادة تقديم أنفسهم، وتوضيح موقفهم مما يدور فى أذهان الخاصة والعامة.. كما أن القائمين على إدارة الدولة مطالبون بفتح القنوات الشرعية لهم، والاحتكام أولاً وأخيراً إلى الجماهير. وقد تكون «وجهات نظر» ساحة جيدة لإثارة مثل هذا الجدل المفيد.

السنوسى محمد السنوسى
ليسانس الدعوة الإسلامية

القضاء .. الأمن .. العنف .. الانتخابات

تقرير المجلس القومى لحقوق الإنسان

نص تقرير المتابعة الميدانية للمجلس القومى لحقوق الإنسان عن الانتخابات البرلمانية - نوفمبر - ديسمبر ٢٠٠٥ صدر فى يناير ٢٠٠٦

تمهيد:

مثلت الانتخابات البرلمانية المصرية التى جرت فى شهرى نوفمبر وديسمبر حدثًا هامًا تطلع إليه المصريون بأمل أن يكون مدخلاً لتعزيز جهود الإصلاح السياسى فى وطنهم. ولقد جاءت هذه الانتخابات ببرلمان أكثر توازنًا من سابقه فيما يُعد إشارة إلى صعود قوى سياسية معينة وقيادات برلمانية جديدة ودلالة على أهمية دور القضاء فى الإشراف على الانتخابات غير أنها حفلت بمؤشرات بالغة السوء تنذر بتحديات هائلة سوف تواجهها عملية الإصلاح السياسى فى مصر. وفيما يلى مجموعة من الملاحظات التى تتناول العملية الانتخابية وما كشفت عنه من بدايتها إلى نهايتها.

١ - اللجنة العامة للانتخابات:

أثار تكوين اللجنة العامة المشرفة على الانتخابات تحفظات مفهومة منذ البداية طالما أن وزير العدل يرأسها. وهو عضو فى حكومة تنتمى للحزب الوطنى الحاكم الذى ينافس فى الانتخابات البرلمانية. الأمر الذى يلقى بظلال على مدى الحيدة التى يمكن أن تتمتع بها لدى القيام بوظيفتها ويدفع إلى المطالبة بأن تشكل اللجنة مستقبلاً من عناصر قضائية بعيدة عن أى مناصب تنفيذية. بما يوفر لها الحيدة فى أدائها لعملها.

٢ - عملية الترشيح:

أثارت عملية الترشيح عددًا من الملاحظات يمكن التركيز على اثنتين منها. الأولى تتعلق بخريطة المرشحين التى لم تعكس الواقع الاجتماعى المصرى على نحو متوازن، ولفت النظر فى هذا الخصوص الندرة الواضحة للمرشحات وكذلك للمرشحين الأقباط، وقد حمل الكثيرون الحزب الوطنى المسئولية الأساسية فى هذا الصدد كونه حزب الأغلبية الذى يفترض تمتعه بوضع سياسى قوى يسمح له أن يدفع بمرشحين متوازنين فى تعبيرهم عن المجتمع المصرى. ولقد جاء تبرير دوائر الحزب لنكوصه عن أن يفعل ذلك بما يفيد بأن الاعتبار الأهم فى الترشيح هو قدرة المرشح على الفوز وليس نوعه أو ديانته، وهى حجة ثبت أنها غير ذات موضوع طالما أن نسبة يعتد بها من مرشحى الحزب لم تتمكن من الفوز فى الانتخابات.

أما الملاحظة الثانية فتتعلق بالشكاوى التى أثارها كثير من المرشحين من غير المنتمين للحزب الوطنى بشأن احتكار مرشحى الحزب لرموز موحدة عبر كل الدوائر الانتخابية ولرقمى ١، ٢ فى قائمة المرشحين الأمر الذى يثير علامات استفهام واضحة طالما أن طابع الترشيح فردى وليس جماعيًا.

٣ - الدعاية الانتخابية

يمكن رصد ملاحظتين سلبيتين فيما يتعلق بالدعاية الانتخابية:

الأولى تتعلق بدور المال حيث رصدت كافة التقارير أن عددًا يعتد به من المرشحين قد أنفق أموالاً طائلة فى حملاته الانتخابية، والمشكلة أن هذا الإنفاق لم يكن موجهًا بالضرورة إلى تكلفة عقد المؤتمرات الانتخابية أو الإعلانات الصحفية أو الملصقات والمنشورات الدعائية.. إلخ، وإنما اتخذ شكل مدفوعات عينية أو نقدية للناخبين فى محاولة للاستمالة المادية لهم وقد كان هذا مقدمة طبيعية للشراء النقدى المباشر للأصوات كما سنرى لاحقًا، وفى بعض الأحيان اتخذ هذا الإنفاق شكل تحمل تكلفة إنجاز بعض المشروعات الخدمية فى دوائر المرشحين، والمشكلة أن عديدًا من المرشحين الذين ظهروا فى وسائل الإعلام قبل الانتخابات أو بعدها قد اعتبروا هذه الظاهرة بصفة عامة أمرًا طبيعيًا بل كيفها البعض منهم على أنها نوع من «الزكاة» عن أموال المرشحين لخدمة فقراء دوائرهم، وهو مفهوم جديد وخطير للعمل السياسى العام.

أما الملاحظة الثانية فتتعلق بالتدهور الحاد الذى أصاب أداء الصحف القومية والتى تحولت فى معظمها فى تغطيتها للانتخابات إلى ما يشبه النشرات الإعلانية عن مرشحى الحزب الوطنى.

٤ - الكشوف الانتخابية:

تبقى مشكلة الكشوف الانتخابية حجر عثرة دائمًا فى وجه أى محاولة لإصلاح النظام الانتخابى المصرى إذ تتميز هذه الكشوف بقدر هائل من عدم الدقة والبدائية (كونها متاحة فى شكل ورقى والأسماء فيها غير مرتبة أبجديًا) الأمر الذى أدى فى هذه الانتخابات كما أدى فى سابقاتها إلى عدم تمكن كثير من الناخبين من الإدلاء بأصواتهم. ووفقًا لبعض رؤساء اللجان الفرعية فإن عدد الذين لم يتمكنوا من الإدلاء بأصواتهم نتيجة وجود مشكلات فى الكشوف كاد يصل إلى عدد الذين أدلوا بأصواتهم بالفعل، وهو ما يعنى أن النسبة المتدنية للمشاركة تعود فى جزء منها إلى هذه المشكلة وليس إلى تقاعس الناخبين وأن هذه النسبة كان من الممكن أن ترتفع بسهولة إلى ٣٠٪ على الأقل لو كانت هناك كشوف سليمة ودقيقة.

غير أن هذه ليست المشكلة الوحيدة للكشوف الانتخابية، إذ تعانى هذه الكشوف من ظاهرة القيد الجماعى والتى أدت إلى تسجيل ناخبين يصل عددهم إلى آلاف فى بعض الأحيان فى دوائر لا يقيمون فيها ولا يعملون بها وذلك لأن مسئولاً ما أو رجل أعمال نافذًا قد رعى هذه العملية، ويؤدى هذا إلى اغتيال جوهر العملية الديمقراطية.

يضاف إلى ما سبق أن ثمة اتهامات خطيرة ينبغى التحقيق فيها وجهت من دوائر معارضة مؤداها وجود تباين فى بعض الأحيان بين الكشوف التى سلمت لمرشح الحزب الوطنى (ويفترض أنها صحيحة) وتلك التى سلمت لمرشحى الأحزاب الأخرى أو المستقلين، كذلك ادعى البعض أن هناك عمليات قيد جماعى تمت لأنصار سياسيين فى أكثر من دائرة، بحيث يمكن لكل منهم أن يدلى بصوته أكثر من مرة بعد أن يستخدم مواد كيماوية لإزالة الحبر الفوسفورى، كذلك تأكد فى حالات كثيرة أن ناخبين قد اكتشفوا أن هناك من سبقهم إلى التصويت بدلاً منهم، وليس معروفًا على وجه الدقة الكيفية التى حدثت بها هذه الظاهرة غير أنها تبقى لافتة للنظر ومقلقة فى كل الأحوال.

٥ - دور العنف والمال

اتسمت الانتخابات البرلمانية المصرية لعام ٢٠٠٥ على نحو غير مسبوق ببروز دور العنف والمال فى محاولة للتأثير على نتائجها. ولقد كان مخزيًا بحق أن يتمكن كل من العراق الخاضع للاحتلال والفاقد للأمن والاستقرار ولبنان الذى مر ولايزال بظروف بالغة الدقة من إجراء انتخابات برلمانية فى أجواء لافتة من الهدوء والسلم بينما لا يمكن لمصر التى عُرف شعبها بوداعته وطابعه السلمى من أن تفعل الشىء نفسه.

ولا شك أن هذا العنف غير المسبوق بما أدى إليه من إزهاق أرواح وإصابة المئات قد حال دون تمكن الكثيرين من الإدلاء بأصواتهم سواء لأن هذا كان هو الهدف المباشر للعنف الذى وظف فى منعهم من دخول مقار اللجان الانتخابية، أو لأن الناخبين الأكثر مسالمة فضلوا البقاء فى بيوتهم حتى لا يعرضوا حياتهم للخطر ولابد من تسجيل الزيادة المطردة للعنف عبر مراحل الانتخابات الثلاث بحيث وصلت ذروتها المؤسفة فى انتخابات الإعادة فى المرحلة الثالثة. ومن الأهمية بمكان ألا تقبل التبريرات السطحية لهذه الظاهرة أو تلقى التهم جزافًا على هذا الطرف أو ذاك وإن كانت ثمة مؤشرات مقلقة على تورط جهات رسمية وشبه رسمية فى عمليات من هذا النوع وهو أمر ينبغى التحقيق فيه فورًا فى إطار تحقيق شامل عن ظاهرة البلطجة، ولا شك أنه مما يقلق كثيرًا ألا تظهر أية نتائج للتحقيقات التى تجريها النيابة العامة فى هذا الخصوص حتى الآن، وهو امتداد لغياب مماثل لنتائج التحقيقات فى قضايا أخرى كاتهامات التعذيب الذى طال مواطنى شرم الشيخ بعد تفجير فندق طابا. وهتك عرض النسوة والفتيات يوم الاستفتاء على تعديل الدستور وأحداث الفتنة الطائفية.. إلخ. الأمر الذى يمثل ظاهرة مقلقة بكل المعايير، كذلك يجب أن يكون واضحًا أن المطلوب فى هذا الخصوص لا ينبغى أن يتوقف عند حد التحقيق القانونى، وإنما التحليل السياسى والاجتماعى الشامل للظاهرة التى يمثل تفاقمها على هذا النحو نذر خطر داهم بالنسبة لمستقبل عملية الإصلاح السياسى فى مصر.

وأخيرًا وليس آخرًا تجدر الإشارة إلى «عنف بنيوى» من الواضح أنه مورس على بعض الناخبين والناخبات ويتمثل فى عملية التهديد والترهيب التى تعرضوا لها لإجبارهم على الإدلاء بأصواتهم لصالح مرشحين معينين.

أما دور المال فقد بدا بالغ القبح فى هذه الانتخابات. ليس شراء الأصوات بالظاهرة الجديدة فى الساحة السياسية المصرية أو غيرها، ولكنه بلغ فى هذه المرة مبلغًا من الوضوح والقوة لم يبلغه قبلاً بكل تأكيد، فقد كانت عمليات الشراء شبه علنية فضلاً عما طوره المشترون من آليات حديثة تضمن ولاء المشتراة أصواتهم (البطاقة الدوارة أو تصوير البطاقة الانتخابية بعد اختيار المرشح بكاميرا التليفون المحمول) وهى حيل خبيثة أحالت سرية الانتخابات والوقوف خلف السواتر إلى نقمة على

ثمة مؤشرات مقلقة على تورط جهات رسمية وشبه رسمية فى عمليات من هذا النوع وهو أمر ينبغى التحقيق فيه فوراً فى إطار تحقيق شامل عن ظاهرة البلطجة. ولا شك أنه مما يقلق كثيراً ألا تظهر أية نتائج للتحقيقات التى تجريها النيابة العامة فى هذا الخصوص حتى الآن

الانتخابات. وفى ظل تدنى الوعى السياسى إن لم يكن غيابه عرض البعض شراء أصواتهم للبيع فى مزايدات كان الهدف منها رفع سعر الصوت الانتخابى إلى أعلى حد ممكن.

٦ ـ دور الأمـــن

فى المرحلة الأولى من الانتخابات بدا واضحاً أن القوى الأمنية محايدة تماماً، وعلى الرغم من أن هذا يحسب لها من منظور عدم تدخلها فى العملية الانتخابية إلا أن هذا الحياد بدا سلبياً كونه سرى حتى فى مواجهة بعض ظواهر البلطجة والمساس بكرامة المواطنين، وكان المشهد المألوف هو أن توجد قوات الأمن على مدخل المبنى الذى يضم اللجنة لكنها لا توجد داخل المبنى أو أمام اللجنة الأمر الذى منح مساحة واسعة لعناصر البلطجة تمارس فيها ترهيبها للناخبين، ثم تطور هذا الدور لاحقاً بحيث وصل إلى حد منع الناخبين من الإدلاء بأصواتهم بحجة التصدى للبلطجة، وهو أمر ثابت بالصور والتغطية التليفزيونية. بالإضافة إلى ما ذكره عديد من التقارير فى هذا الصدد من مخالفات أخطر بكثير ينبغى التحقيق فيها فى أسرع وقت ممكن، ولا شك أن هذا التطور فى أداء قوات الأمن لمهامها قد أثر من جانب على نسبة مشاركة المواطنين، ومن جانب آخر على نتيجة العملية الانتخابية.

٧ ـ دور القـضـاة

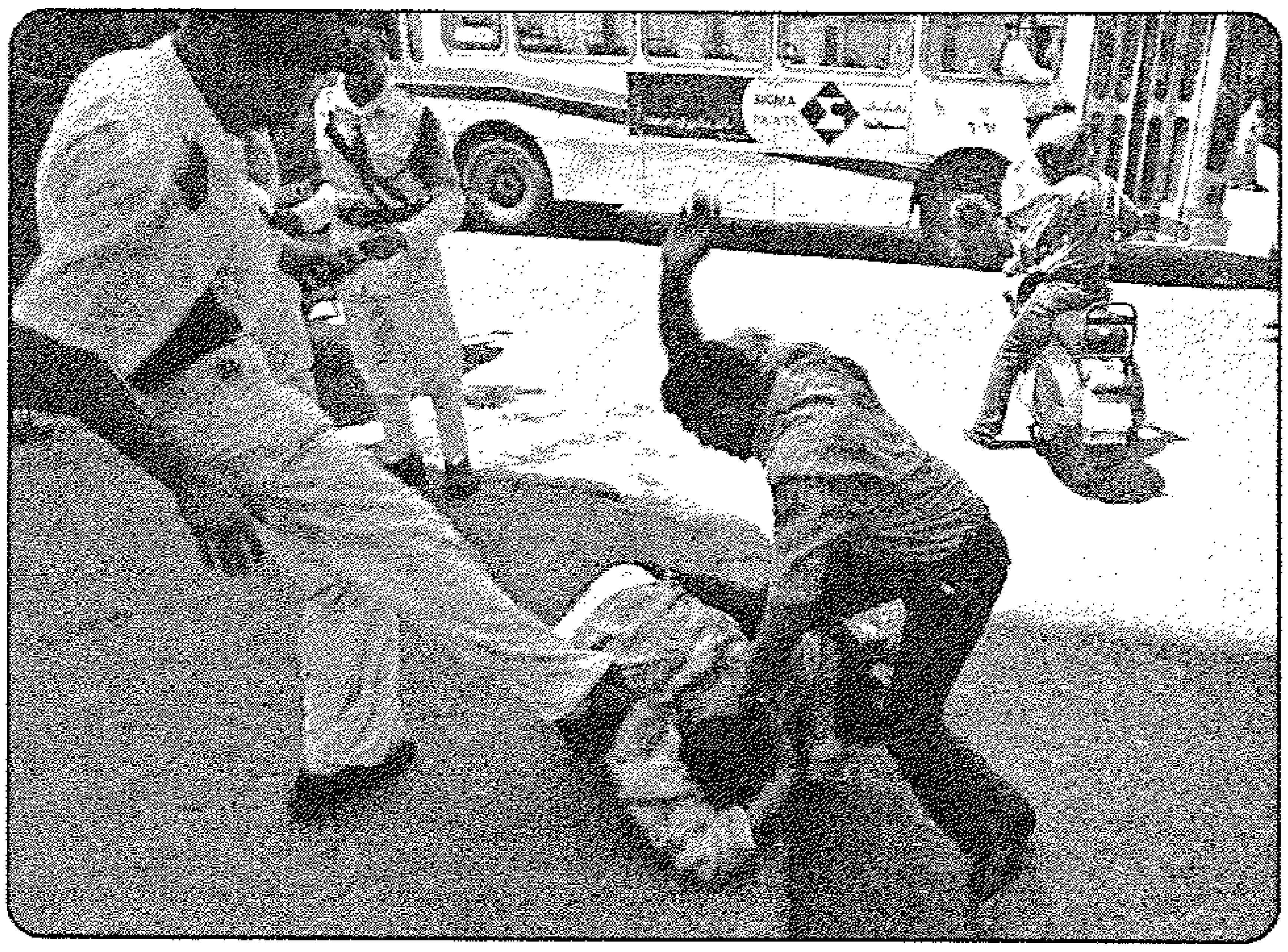
يدين الشعب المصرى لقضاته الذين أشرفوا على الانتخابات بهذا التوازن النسبى الذى تحقق داخل مجلس الشعب الجديد غير أن القضاة قد تعرضوا أحياناً لمضايقات وصلت فى بعض الحالات إلى حد الإهانة بل الاعتداء، وهى ظاهرة أخطر من أن تمر دون حساب. ومن ناحية أخرى فإن ثمة مؤشرات قوية على مخالفات شابت عملية فرز الأصوات وإعلان النتائج فى عدد من اللجان وقد كان القضاة هم أول من أشار إلى وقوع هذه المخالفات، الأمر الذى استدعى ردود فعل من السلطات القضائية العليا بدا معه وكأن ثمة انقساماً داخل صفوف القضاة وزاد البعض بأن روج لمقولة وجود استقطاب سياسى فى الهيئة القضائية وكلها مؤشرات خطيرة على التداعيات السلبية لاضطلاع القضاة بدور الإشراف على الانتخابات فى مناخ غير سليم، الأمر الذى دفع إلى التشكيك فى مدى سلامة تكليف القضاة بهذه المهمة أصلاً، وعلى الرغم من أن لوجهة النظر هذه جدارتها ووجاهتها إلا أن تبنيها فى هذا التوقيت يمكن أن يفهم كأنه ردة عن التمسك بأهم ضمانات نزاهة العملية الانتخابية. وعلى أية حال فإن المسألة برمتها تقتضى دراسة موضوعية شاملة لابد من القيام بها بأسرع ما يمكن.

وتبقى فى دور القضاء الإشارة إلى تجاهل اللجنة العامة للانتخابات عدداً من أحكام المحاكم أثناء العملية الانتخابية وقبولها أحكاما أخرى، الأمر الذى أدى غير مرة إلى ارتباك سير العملية الانتخابية ناهيك عما يعكسه من غياب معايير محددة لقبول أحكام معينة أو رفضها علماً بأن الالتزام بالأحكام القضائية لا ينبغى أن يكون موضعاً لأدنى تشكيك.

يتصل بهذا ما هو متوقع من نتائج نظر محكمة النقض فى الطعون الانتخابية وهى النتائج التى درج مجلس الشعب على عدم الالتزام بها على أساس أن المجلس «سيد قراره» ومن الأهمية بمكان فى هذا السياق التأكيد على ضرورة الالتزام برأى محكمة النقض فى هذا الصدد مع السعى من الآن إلى إجراء التعديلات الدستورية التى تضمن هذا الالتزام.

٨ ـ نسبة المشاركة

تجاوزت نسبة المشاركة فى هذه الانتخابات حاجز الربع بقليل، وهى نسبة قريبة من تلك التى شاركت فى الانتخابات الرئاسية. ويعنى هذا أن هناك حوالى ثلاثة أرباع الناخبين المصريين مازالوا غير مقتنعين بجدوى المشاركة فى العملية السياسية. صحيح أن مشكلة الكشوف ومنع الأمن للناخبين من الإدلاء بأصواتهم تدفع للاعتقاد بأن هذه النسبة الرسمية ليست تعبيراً دقيقاً عن النسبة الحقيقية للراغبين فى المشاركة غير أن أولئك الذين شاركوا بفعل تأثير المال أو الإكراه أو العصبية العائلية يمكن بدورهم ألا يحسبوا ضمن قائمة المشاركين. وفى كل الأحوال يبقى مؤكداً أن كتلة ضخمة من الناخبين المصريين تزيد على النصف مازالت بالتأكيد عازفة عن المشاركة السياسية، الأمر الذى يعنى غياباً تاماً للثقة فى جدوى هذه المشاركة، وهو واقع ينبغى التصدى له بكل السبل الممكنة خاصة تلك المتعلقة باتخاذ خطوات إصلاحية حقيقية تقلل من الشك وعدم الثقة من قبل المواطن فى قيمة الصورة.



نص تعليق وكالة «رويترز»: An Egyptian plainclothes policeman beats an Egyptian citizen during a protest in support of judges who faced a disciplinary committee for criticizing election abuses last year.

بـيـــان(*)

تابع المجلس القومى لحقوق الإنسان سير الانتخابات البرلمانية فى مرحلتها الثالثة، كما ناقش المسألة فى اجتماع اللجنة التنفيذية للمجلس فى ١١/١٢/٢٠٠٥، وسجل مع الأسف الشديد تصاعداً لظواهر سلبية كان يتمنى تراجعها خلال هذه المرحلة ويؤكد المجلس على الظواهر الثلاث الآتية:

الظاهرة الأولى:

هى ظاهرة العنف، الذى أوشك أن يحول شوارع بعض المدن والقرى ومقار اللجان الانتخابية فيها إلى ساحات قتال استعملت فيها العصى والحجارة والأسلحة البيضاء بأنواعها. وتمثل التصاعد الأخير لهذه الظاهرة المؤسفة فى استخدام الأسلحة النارية وسقوط عدد من القتلى والجرحى على نحو شوه صورة الانتخابات العامة وخلق عند كثير من الناس إحساساً بالمرارة والإحباط يخشى المجلس أن يؤدى إلى تراجع ما شهدته المرحلة الأولى من حرص واضح لدى الناخبين على الإدلاء بأصواتهم وعلى المشاركة فى مسيرة الإصلاح السياسى. وإذ يدرك المجلس مدى كفاءة قوات الأمن وقدرتها على توفير ما كان يلزم من هدوء وانضباط لمسار العملية الانتخابية فى مرحلتها الأخيرة، فإنه لا يستطيع أن يبرر ما ساد فى بعض الدوائر من أعمال عنف واضطراب على مشهد من رجال الشرطة مما رشح للقول بأن ما ساد من فوضى فى بعض الدوائر كان أمراً مقصوداً بذاته وتم توظيفه لتحقيق أغراض لم تكن فى صالح العملية الانتخابية بحال.

الظاهرة الثانية:

قيام قوات الأمن فى عدد غير قليل بمحاصرة اللجان الانتخابية وإقامة عازل كثيف من قواتها «دون مسوغ ظاهر» مما منع وصول كثير من الناخبين إلى تلك اللجان وحال بينهم وبين ممارسة حقهم الانتخابى، كما أدت تداعيات هذا المنع إلى مزيد من العنف والمواجهة.

الظاهرة الثالثة:

إن أعمال العنف والإهانة قد طالت بعض رجال القضاء المشرفين على الانتخابات وذلك فى حضور رجال الشرطة مما أثار التساؤل عن مدى توفير الحماية لهم أثناء أدائهم مهمتهم الوطنية فى الإشراف الكامل على الانتخابات.

والمجلس إذ يسجل مع الأسف هذه الظواهر ويقوم بتجميع البيانات والشواهد ونتائج التحقيقات التى تجريها النيابة العامة ليضمن ذلك كله فى تقرير المجلس عن سير الانتخابات البرلمانية بمراحلها الثلاث وما انطوت عليه من إيجابيات وسلبيات. ■

(*) صدر فى ١١/١٢/٢٠٠٥

أيمـــــــن الصيـــــــــاد

القُضـــــاة.. والقَضـــــاء.. والقضيـــــة

■■ قبل سنوات طويلة، وبحكم عملي الصحفي، كنت قريبا من مفاوضات طابا والتي كانت بحق ملحمة دبلوماسية وقانونية و«قومية»، يوم كانت الأمة كلها على قلب رجل واحد. ومازلت أذكر الليالي الطويلة التي كنت أسهر فيها مع الدكتور يوسف أبو الحجاج - أستاذ الجغرافيا، وأحد جنود تلك المعركة الذين قدر لهم أن يظلوا مجهولين. كنا نجلس إلى «طاولة الطعام» المزدحمة بالأوراق والخرائط، في بيته «الصغير» المتواضع في الجيزة. وكان يحكي لي كيف كان الإسرائيليون - لإدراكهم ضعف حجتهم حقا وقانونا - يحاولون كل مرة إغراق الطرف المصري المفاوض في تفاصيل جانبية تتعلق تارة بيوسف طحان - تاجر المخدرات - المحكوم عليه بالإعدام، وتارة أخرى بالتساؤل عن سبب انخفاض عدد صفقات البيض المقرر تصديره إلى هناك... إلى غير ذلك من تفصيلات لم تكن تستهدف في الواقع غير صرف الانتباه عن القضية الأصلية.

لا أعرف لماذا تذكرت ذلك كله «متخوفا»، وأنا أتابع ما يجري على الساحة القضائية في الأسابيع الأخيرة من محاولة إغراق القضاة. بل وإرهاقهم. ومعهم النخبة السياسية في تفاصيل من نوع محاكمة القاضيين «الجليلين»، أو الإفراط في استخدام عنف أمني غير مبرر مع مؤيديهم، أو الحديث عن جماعات سياسية «محظورة». أو غير هذا من ادعاء رسمي بأن «القضية داخلية». مما بدا معه الأمر وكأن هناك محاولة لاستنزاف جهد القضاة وصرف أنظارهم، ومعهم كل القوى السياسية المعنية بمستقبل هذا البلد عن «القضية الحقيقية» والتي لا تمثل مسألة محاكمة القاضيين أو غيرها إلا بعض تداعياتها. فأصل المسألة، وهو ما حاول دهاقنة البلاط أن يطمسوه، هو ما نعرفه جميعا (أكرر «جميعا» مع كل الاحترام لمن ينكرون ذلك علنا) أن هناك «تزييفا لإرادة الناخبين» بشكل أو بآخر شاب الانتخابات البرلمانية الأخيرة (أرجوكم ارجعوا إلى نص تقرير المجلس «الرسمي» لحقوق الإنسان) وهي الانتخابات التي من المفترض أنها تستمد شرعيتها مما قيل إنه «إشراف قضائي كامل» عليها.

أصل الأزمة إذن لم يكن أبدا «اشتغال القضاة بالسياسة» كما حاول البعض أن يقول، بل محاولة البعض استغلال مكانة القضاء في جراحة «تجميل سياسية» تهدف إلى إضفاء شرعية على انتخابات جرت، وجرى فيها ما نعلمه جميعا، وانتخابات ستجرى «ذات يوم» ولا يعلم أحد بعد ما سيجرى فيها. ولأن ضمان النتائج يستدعي بالضرورة مقدماتها. فقد كان - ما نعلمه جميعا - من تجاهل ثم معاندة لمطالب القضاة المتكررة والمصممة على تعديل قانون السلطة القضائية بشكل يوفر للقضاء استقلالا «حقيقيا» يضمن للمجتمع عدلا «حقيقيا».

والحاصل أن المسافة بين من يريدون «شرعية تجميلية» يمكنهم تسويقها، وأولئك الذين لا يمكنهم، بحكم أمانة القاضي أن يقبلوا بغير «شرعية حقيقية» بدت واسعة... وكان ذلك - بحكم التباين - طبيعيا.

ولأن في مصر - ولأسباب ليس هنا مجال تفصيلها - تُحسم المعارك عادة لصالح السلطة / الدولة، بدا المشهد بكل تفاصيله (مع الأخذ في الاعتبار عناصر القوة المختلفة تلك المرة) غير مألوف. وعليه فقد كان طبيعيا - رغم الادعاء بالهدوء - أن يستدعي كل هذا «القلق»، وكل هذا التوتر. والذي بدت ذروته في الصور التي طيرتها وكالات الأنباء للعالم كله لعاصمة بدت وكأنها تحت حظر التجول. وكان طبيعيا أن تصل الهيستريا إلى حد اعتداء رجال الشرطة بالضرب المبرح على «القاضي» محمود حمزة على رصيف نادي القضاة (لاقترافه جريمة التصوير) وهي حسب ما يعرف الكافة ليست بجريمة في القوانين المصرية المعمول بها. والمثير للاشمئزاز - لا لغيره - أن البيان الرسمي الذي صدر تبريرا لما جرى، وتبرئة لمن قاموا بالجرم المشهود، لم يخرج عن القول بأنهم «لم يكونوا حال التعامل معه.. قد تعرفوا على شخصيته.. وأنهم تركوه فور أن تبين لهم أنه قاض» (!) كأن القانون، في غير حالة القضاة - وحاشا له ذلك - يبيح لرجال الضبطية أن «يسحلوا» مواطنا في الشارع ويكسروا عظامه (فعلا لا مجازا) فالقاضي الضحية خرج من الموقعة بكسر مضاعف في العمود الفقري، لمجرد أنه تجرأ واستخدم هاتفه المحمول للتصوير في «شارع عمومي».



الرسم للفنان الأردني: عماد حجاج

■ ■ ■

أخشى أنه وسط وقع أحذية الجنود الثقيلة عبر شارع عبد الخالق ثروت، وصخب الهراوات المشرعة والهتافات العالية، وأخبار المانشتات الصارخة والمزايدة في هذه الصحيفة أو تلك، والقرارات أو التصريحات المهددة أو المهدئة، أن تضيع في الزحام «القضية» الرئيسة. والتي لا أظن أن أحدا يملك (صراحة) الاختلاف حولها. ولعلها إجمالا، ولا أقول «تذكيرا» تتلخص في الآتي:

١ - أن يصدر القانون الذي يكاد أن يكون الصبر قد نفد في انتظاره (عشرون عاما كاملة منذ مؤتمر العدالة الأول ١٩٨٦) بشرط أن يضمن استقلالا حقيقيا للقضاء بحيث لا يطولهم «سيف المعز».. ولا يلمع أمامهم «بريق ذهبه».

٢ - أن يجري تحقيق «جدي» في ما جرى في الانتخابات البرلمانية. بحيث لا يتحمل القضاء «مؤسسة» أو القضاة في مجموعهم، أمام الله أو الأمة ما قد يكون قد شاب بعض دوائرها من حيف أو تزييف لإرادة الناخبين. ليبقى الحكم، كما هو العرف القانوني «عنوان الحقيقة». ويتصل بذلك أن تتم محاسبة من تثبت مسؤوليته في تلك التحقيقات «أيا من كان».

٣ - أن تتم محاسبة كل مسؤول (بالاشتراك أو التواطؤ أو التقاعس) عن ما تعرض له القضاة من تجاوزات وإهانات حال تأدية واجبهم «الذي دُعوا إليه» في الإشراف على الانتخابات.

٤ - أن يتم تعديل قانون مباشرة الحقوق السياسية بشكل يوفر للقضاء إشرافا «كاملا وحقيقيا» على كل مراحل العملية الانتخابية. بحيث يضمنون «عدالتها». وبحيث «يطمئن» القاضي - كما جرى العرف والفقه - إلى حكمه بنتيجتها.

■ ■ ■

هذه باختصار أوراق «القضية»..

ولأنها أوراق ومحاضر لم يتم التصرف فيها بعد. أملا من البعض في دفعها إلى «ملفات النسيان» أو طمرها بتراب التقادم، سيظل أصحاب الحق. وهم بالمناسبة أصحاب هذا البلد - في محراب العدالة ينتظرون. وما أقسى العدالة إذا تباطأت! وما أقسى على المنتظرين أن يروا أنفسهم في طابور الانتظار!

هل نحن بحاجة الى التذكير بأن «استقلال القضاء» ليس مطلبا خاصا بالقضاة وحدهم بل هو شرط لاستقرار الدولة الحديثة؟!

هذا باختصار جوهر «القضية»

والقضية بلغة أهل القانون - مازالت «قيد المداولة». ■

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 8 - Issue 90 - July 2006

مجلة شهرية . العدد التسعون . السنة الثامنة . يوليو ٢٠٠٦ . الثمن عشرة جنيهات

سياسة واقتصاد.. حب وكراهية

حُروب كرة القدم!

هواجس الغرب تجهض حوار الحضارات / سلامة أحمد سلامة

ما الذي يريده أولمرت...؟ / أموس إيلون

ماذا حدث لقيم المصريين...؟ / يحيى الرخاوي

للجريمة تاريخ آخر / صلاح عيسى

الموتى لا يلبون النداء!
أيمن الصياد





خبر الموسم من موبينيل
هتتحاسب بالثانية
MobiNil
ملخص المكالمة
المدة :
00:00:05
الـو بالثانية
نظام جديد من موبينيل
لأول مرة فى مصر والشرق الأوسط موبينيل
تقدم نظام «الـو بالثانية». جميع المكالمات
تحتسب بالثانية الواحدة والثانية بقرشين!
* تضاف ١٠ قروش رسم بداية المكالمة
* للتحويل لنظام «الو بالثانية» اتصل بـ ٤٤٢٩ مجانا
* صلاحية كروت هذا النظام نفس صلاحية نظام الو الأصلى
* لمزيد من المعلومات يرجا الاتصال بـ ٣٠٠ مجانا
* العرض سارى لفترة محدودة
موبينيل

السنة الثامنة
العدد التسعون
يولية ٢٠٠٦

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد :

كتاب العدد :

- احمد عبدالرحيم.. كاتب مصرى.
- اليزابيث درو.. كاتبة أمريكية.
- امبرتو إيكو.. كاتب وروائى وأستاذ للفلسفة بجامعة بولونيا.
- آموس إيلون.. أستاذ بمركز القانون والأمن - جامعة نيويورك.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- تيم باركس.. كاتب وأستاذ للأدب الإنجليزى بجامعة ميلان.
- جريج جتهارد .. باحث فى برنامج دراسات أوروبا الوسطى والشرقية - جامعة لاسال.
- رجاء بن سلامة.. أستاذة جامعية من تونس.
- رنا حايك .. صحفية.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- صلاح عيسى.. صحفى.
- محمد خير.. صحفى.
- محمود الذوادى.. أستاذ علم الاجتماع - جامعة تونس.
- معتز خورشيد.. نائب رئيس جامعة القاهرة للدراسات العليا والبحوث.
- موسى نعيم.. رئيس تحرير مجلة Foreign policy.
- وليد الشوبكى.. كاتب متخصص فى العلوم والتكنولوجيا.
- يحيى الرخاوى.. أستاذ الطب النفسى بجامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنانين

محمد حجى - أحمد اللباد - عماد حجاج

المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص - ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٢٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

ســـــلامة أحمـــــد ســـــلامة

هواجس الغرب تجهض حوار الحضارات

على مدى العقدين الماضيين برزت الدعوة إلى حوار الحضارات أو حوار الثقافات كما يحلو للبعض أن يسميه، كظاهرة ذات وجه إنساني للتغلب على أسباب الصراع والشقاق ومشاعر الكراهية والعداء، التي تنجم عن تباين الثقافات وتصادم القيم والتقاليد التي تحكم البيئات الاجتماعية المختلفة لشعوب العالم. وبدا وكأن أجندة السياسات العالمية بدأت تفسح الطريق أمام جهد إنساني خلاق، يعيد وضع الحضارة الإنسانية تحت مظلة اتفاق شامل، لصياغة سلم للقيم تتوافق عليه البشرية، يحافظ على التنوع الثقافي، ويدعم وشائج التفاهم والتسامح، ويتجاوز أسباب الخلافات المصطنعة والجهالات المتفشية، ويعلي قيم الترابط والتواصل والتبادل الثقافي، بما يدحض دعاوى «صراع الحضارات» التي روج لها كثيرون على رأسهم الأمريكي صمويل هنتنجتون.

وطوال هذه السنوات لم تكن تمر مناسبة أو تقع أزمة طارئة أو مفتعلة تعكر صفو العلاقات الدولية، أو يثور لقاء في منتدى سياسي أو ثقافي أو اقتصادي إلا وتطرح فيه وعلى أجندته دعوة حارة إلى ضرورة استمرار حوار الحضارات على مستويات مختلفة: بين رجال الدين، على مستوى الأديان السماوية الثلاثة تارة. أو على المستوى الثقافي بين الأدباء والمفكرين والإعلاميين تارة أخرى. أو على المستوى السياسي والدبلوماسي لمناقشة التداعيات الدولية الناجمة عن الاختلاف والخلاف المتجذر تاريخياً وإقليمياً بين الدول والتكتلات السياسية تارة ثالثة، بهدف البحث عن القواسم المشتركة، وإيجاد الأرضية الكفيلة بحل المنازعات والصراعات الإثنية والعرقية ذات الأبعاد السياسية التاريخية وتجاوز مشاعر الكراهية وعقد النقص والاستعلاء الكامنة في التعامل بين الشعوب.

ولا يوجد إحصاء دقيق لعدد الندوات والمؤتمرات التي عقدت خلال العقد الأخير، تحت أسماء وعناوين مختلفة في عواصم العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً. ولكن الثابت أنها ربما تجاوزت الآلاف، وأنفقت عليها الملايين، واستهلكت آلاف الساعات والصفحات، سواء قبل أو بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ دون أن تفضي إلى تحقيق النتائج المرجوة. بل لعلها استخدمت في حالات كثيرة لإطفاء الحرائق المشتعلة لبعض الوقت، وللتغطية على أهداف سياسية أبعد مدى وأكثر خطراً مما يظنه الكثيرون، دون أن تؤخذ بالجدية الكافية.

فقبل أحداث سبتمبر جاءت الدعوة إلى حوار الحضارات كرد فعل على حالة التوتر التي أعقبت نهاية الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتي وعودة أوروبا الشرقية إلى أحضان الغرب. واستخدمت مقولة الخطر الإسلامي بديلاً عن الخطر السوفيتي، لتجميع القطعان الأوروبية الشاردة تحت راية التحالف الأطلنطي، باعتبار أن الخطر الإسلامي هو الذي يهدد حضارة الغرب وقيمه وإنجازاته، ويعرض النظام العالمي الجديد للانهيار.

وبعد أحداث سبتمبر استولت قضية الإرهاب والحرب على الإرهاب على مجمل الأوضاع العالمية. وجرى في الغرب إخضاع معظم القضايا والمنازعات الإقليمية لنظريتهم في الحرب على الإرهاب باعتبارها نتيجة لتنامي الأصوليات الإسلامية المتطرفة التي تمثلها جماعات عنف راديكالية بزعامة بن لادن وأمثاله ممن خرجوا من عباءة مجتمعات إسلامية متخلفة، تحكمها نظم سياسية رجعية، معادية للديمقراطية ولقيم الحضارة الغربية القائمة على الحريات والمساواة وحقوق المرأة. وتحركها بواعث العداء والكراهية لمجتمعات الغرب المتقدمة.. في مقابل التجاهل الكامل للمظالم السياسية والنزاعات الإقليمية وسياسة الانحياز لإسرائيل وإنكار الحقوق العربية.

وكانت هذه المفاهيم هي التي قدمت المبرر الأخلاقي والسياسي للحرب في أفغانستان والحرب ضد العراق، بحيث وقر في أذهان قطاعات واسعة من شعوب العالم: أن «الحرب على الإرهاب» هي «حرب على الإرهاب الإسلامي» ليختزل بعد ذلك في «الحرب على الإسلام». واقترن هذا المناخ بتصريحات متناثرة من رؤساء دول وسياسيين كبار ومثقفين، تؤكد هذا التوجه وتزينه في عقول العامة، وعلى رأس هؤلاء بعض التصريحات المعروفة التي أدلى بها الرئيس الأمريكي بوش ورئيس وزراء إيطاليا السابق بيرلسكوني.

على أن هذه الموجة ما لبثت أن أخذت تنحسر في شكلها الظاهري، نتيجة الانهيار الشديد الذي أصاب العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي بدرجة باتت تهدد المصالح والعلاقات المتبادلة، وبالأخص في ضوء النتائج الكارثية لحرب العراق وسقوط الذرائع التي توسلتها واشنطن ولندن في شن ما أسمته الحرب على الإرهاب.. لتفتح الطريق أمام قضايا أكثر أهمية تتعلق بالمصالح الاستراتيجية والاعتبارات الأمنية، والتحسب لمواجهة حالات الفوضى التي يمكن أن تنجم عن انهيار الأنظمة العربية القائمة أو تعرضها للسقوط تحت تأثير تيارات الإسلام السياسي المتنامية في العالمين العربي والإسلامي. وضاعفت منها المخاوف المتزايدة بسبب حركات النزوح والهجرات الكثيفة القادمة من أفريقيا ومن دول الجنوب الإسلامية إلى الشواطئ الأوروبية.

لقد ظل الحوار بين الحضارات أو الثقافات يفرض نفسه على الساحة الدولية طوال العقدين الماضيين، وانخرطت فيه القوى السياسية والثقافية والإعلامية، ثم جاءت قضية الرسوم المسيئة بمثابة اختبار عملي للعديد من القرارات والتوصيات التي أسفرت عنها الجهود الحوارية، لتثبت إخفاق هذه الجهود. وكانت المواجهة الأخيرة قبل أزمة الرسوم، تلك التي دارت حول النظام العالمي الجديد للمعلومات والاتصالات، حيث كانت المواجهة بين مبادئ سيادة الدولة والانسياب الحر للمعلومات قبل انتشار الإنترنت في منتصف الثمانينيات. أما المواجهة الأخيرة فتركزت على الدين. وفي المؤتمر المشترك الذي عقده الاتحاد الأوروبي ومنظمة المؤتمر الإسلامي في اسطنبول عام ٢٠٠٢، ركز على الأبعاد السياسية للحضارة والتقدم والتناغم بين القيم المشتركة. ولكن عندما قدمت منظمة المؤتمر الإسلامي قراراً بشأن مكافحة الإساءة للأديان للجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان في جنيف في أبريل ٢٠٠٤ جاءت الأصوات بنسبة الثلثين من بقية العالم، مقابل الثلث من الغرب أي من دول الاتحاد الأوروبي بالدرجة الأولى.

وعندما وقعت أزمة الرسوم المسيئة ظهر عمق الهوة بين الطرفين في اللقاءات التي تمت في إطار عملية برشلونة والحوار الأوروأوسطي. فبينما أصرت الدول الأوروبية على تأكيد مبدأ الحق في حرية التعبير كحق مقدس: طالبت الدول العربية المتوسطية بالتأكيد على أن الحوار بين الثقافات يقتضي بنفس الدرجة محاربة العنصرية وكراهية الأجانب وعدم الإساءة للأديان.

وهكذا بدا واضحاً أن الحوار من وجهة نظر الغرب لا يعدو أن يكون آلية لتبديد شكوك الجانب الآخر ومخاوفه، دون أن يعني تغييراً من جانب الغرب، أو تنازلاً عن مواقفه وتحيزاته، حيث يؤمن في قرارة نفسه بأن قيمه ومبادئه هي التي يجب أن تسود، أو على الأقل أنه يملك الحق - بحكم تفوقه وتقدمه الحضاري - في فرض الأجندة التي تنظم الحوار وتحدد أولوياته. وتراجعت بذلك فكرة تنوع الثقافات وتعدد الهويات التي ظل الغرب يفاخر بها، فاقتصرت على ما يجري من حوارات داخل القاعات المغلقة بين النخبة من الجانبين، دون أن تهبط إلى الشارع في التعامل الحياتي اليومي، أو تنعكس على القوانين والترتيبات التي تصدرها البرلمانات والمجالس التشريعية.

ويبدو أن الشغل الشاغل الآن في أروقة الاتحاد الأوروبي قد أصبح هو

حوار الحضارات لم يعد يحتل الأولوية التى تعلقت بها الآمال، بل حلت محله استراتيجيات تعطى الأولوية للأمن القومى ومحاربة الإرهاب، وفرض نظم تحد من مخاطر الإخلال بالأوضاع الاجتماعية الأوروبية

تحديد موقف الدول الأعضاء، تجاه الأجانب والمهاجرين، ولأول مرة فى تاريخ أوروبا يتفق وزراء الداخلية فى ١٦ ولاية ألمانية على حزمة من الإجراءات تحدد الاتجاهات العامة لمنح الجنسية للقادمين الجدد من الأجانب الذين يمثلون ٩ بالمائة من مجموع السكان. وطبقًا لهذه الإجراءات سوف يتحتم على طالبى الهجرة فى المستقبل حضور عدد معين من الحصص لتلقى دروس «المواطنة»، وهى تشتمل على تعلم المبادئ الأساسية للدستور والقيم السائدة فى المجتمع.

واتخذت ألمانيا هذه الخطوة فى نفس الوقت الذى تدور فيه مناقشات مستمرة حول إدماج الأجانب، وبالأخص من الجيلين الثانى والثالث.. اللذين باتا يشكلان أزمة اجتماعية مكبوتة، كما ظهر فى اضطرابات الضواحى فى فرنسا أخيرًا، حين تظاهر المئات منهم فى الشوارع معبرين عن حالة من السخط والغضب والإحساس بالاغتراب. وقد كشف ساركوزى وزير الداخلية الفرنسية أخيراً عن قوانينه الجديدة للهجرة طبقًا لنظام انتقائى، يشجع القادمين الجدد على تعلم اللغة ومبادئ المواطنة. ولا تمنح الجنسية إلا بعد فترة إقامة قانونية تتراوح بين خمس وعشر سنوات، وبعد إجراء امتحان يجيب فيه الشخص عن عدد من الأسئلة، تحدد موقفه من الجنس، ومن قضايا المرأة، والأصولية الإسلامية، والإرهاب والتعليم.

ومادامت ألمانيا وفرنسا قد انتهجتا هذا الطريق، فإن سائر الدول الأوروبية تعكف الآن على إعادة النظر فى قوانين الهجرة والإقامة. وأصبحت هذه القوانين موضوعًا للجدل والمعارك الانتخابية، كما فى النمسا وهولندا وغيرهما، حيث تخوض الأحزاب اليمينية معاركها الانتخابية على خلفية التشدد فى هذه القوانين. ويذهب بعضها إلى تطبيقها بصفة خاصة على الأجانب والمهاجرين القادمين من بلاد إسلامية، على أساس وجود هوة واسعة من الاختلاف الثقافى فى الدين والعادات والتقاليد، وما ظهر - خلال التجربة - من إحجام نسبة كبيرة منهم عن الاندماج فى البيئة الاجتماعية المحيطة بهم.

ولا تأتى هذه الإجراءات والتشريعات - كما هو واضح - من فراغ، ولكنها تأتى من تحولات اجتماعية حادة، تعبر عن نفسها فى صورة ردود فعل عنيفة وصدامات مع الأقليات المهاجرة، التى تنحو إلى التقوقع فيما يشبه «الجيتو» فى الأحياء والأطراف البعيدة من المدن والتجمعات السكانية. تتخذ سمة المشاعر المعادية للأجانب وما يمثلونه من عقائد وعادات غرائبية ولون مختلف للبشرة والملامح والأسماء والطقوس الاجتماعية. ويسود فى التعامل اليومى مع هذه الأقليات «منطق الرفض» و«نرجسية الاختلافات البسيطة» التى تهدد الأمن وتنتهك الكرامة الفطرية للفرد.

وفى تحليله الرائع فى رواية «الهويات القاتلة» يقدم لنا آمين معلوف تلك التجربة الإنسانية التى توضح كيف يتحول الجيران بين عشية وضحاها إلى أعداء، يختزلون آدمية بعضهم البعض فى سمة اختلاف واحدة، ومن هنا لم يكن غريبًا تكرار حوادث الاعتداء التى وقعت على أشخاص ملونين أثناء سيرهم دون أدنى سبب فى بعض المدن الألمانية، أو إطلاق الرصاص على تجمع من غير البيض فى قلب بروكسل يصيب فتاة من مالى كانت ترعى طفلاً أبيض، أو تدبير مذبحة ضد مصلين فى مسجد بتكريت.

غير أن الإحساس بالدونية على الجانب الآخر بين الأقليات المهاجرة عادة ما يتداخل مع المعتقدات، فيستدعى مقاومة للمدركات والعادات والمعلومات التى يتلقاها الشخص فى بيئته الجديدة، وتؤدى هذه المقاومة إلى إصدار أحكام مسبقة تحول دون التعلم والتغيير والاندماج. ويعرف علماء «النفس الاجتماعى» هذه الظاهرة بـ «التنافر المعرفى Coghitive dissonance» وهى تقوم على آلية بسيطة مؤداها: إذا لم تتمكن من الحصول على ما ترغب فيه، فإنك تميل إلى بخس قيمته حتى يمكنك الاستمرار فى الحياة فى سلام مع نفسك ومع المجتمع.. وهى نفس قصة لافونتين عن الثعلب الذى لم يتمكن من الوصول إلى العنب لأنه كان عاليًا، فتركه وهو يقول لنفسه: هذا العنب حصرم لا يؤكل.

وفى مقابل ذلك يعتقد بعض الباحثين أن أوروبا تعانى بدورها من «أزمة هوية» لا تقل فى حدتها وعمقها عن «أزمة الهوية» التى يعانى منها المهاجرون المسلمون فى الغرب.

وفى رأى دودينيه مسئول الأمم المتحدة فى شئون العنصرية والخوف من الأجانب، أن سبب إخفاق حوار الحضارات والثقافات يرجع إلى أن أوروبا باتت تخاف من نفسها، وتبدى عزوفًا شديداً عن مواجهة واقعها المتعدد الثقافات والأعراق، والتردد فى الاعتراف بحاجة مجتمعاتها إلى دماء جديدة من المهاجرين لمواجهة الانخفاض المستمر فى عدد السكان ونقص الأيدى العاملة، وازدياد معدلات الشيخوخة فى مجتمعات تفقد شبابها وحيويتها تدريجيًا.

وبعبارة أخرى هنالك صدام لم تتغلب عليه أوروبا حتى الآن بين القوميات التقليدية التى عرفتها الشعوب الأوروبية على مر تاريخها وفجرت كثيرا من المنافسات والأحقاد بين دولها. وبين الهوية الأوروبية الجديدة التى يرمى الاتحاد الأوروبى إلى صياغتها فى سبيكة واحدة تقوم على تنوع الثقافات وتعدد اللغات تحت راية وحدة أوروبية ودستور أوروبى، وعملة أوروبية، وقوانين وتشريعات أوروبية تذوب فيها القوميات. والحاصل أن الشعوب الأوروبية مازالت عاجزة عن الذوبان فى قومية أوروبية واحدة تعترف بالتنوع الثقافى داخلها. وما برحت ترتد على أعقابها إلى قومياتها الأصلية بين حين وحين، مما يفسح الطريق أمام إحياء مشاعر الكراهية والعداء للأجانب وما يقترن بها من عنصرية وتفرقة بين الأديان.

لا تنبئ الحصيلة المتوفرة من حوار الحضارات حتى الآن عن نتائج إيجابية يمكن أن تفضى إلى ردم الهوة بين الغرب والعالم الإسلامى، ولا تنبئ أيضًا بأن الحوار يمثل آلية ناجعة للتوصل إلى توافق عالمى يحرر العلاقات الدولية من الخلافات والصراعات الناجمة عن اختلاف الثقافات.

وهناك أسباب قوية تدعو للاعتقاد بأن حوار الحضارات لم يعد يحتل الأولوية التى تعلقت بها الآمال، بل حلت محله استراتيجيات تعطى الأولوية للأمن القومى ومحاربة الإرهاب والتطرف. وضبط الهجرة، وفرض نظم للإقامة والجنسية تحد من مخاطر الإخلال بالأوضاع الاجتماعية والتقاليد الأوروبية التى تفجر أزمات مثل أزمة الرسوم المسيئة أو إساءة معاملة الأجانب والاعتداء عليهم ومحاولة تغيير هويتهم بالقوة.

وتنطوى هذه السياسات بالضرورة على السعى لإدخال أشكال معدلة للإسلام، ذات خلفيات أمنية وسياسية، وزرع نماذج حضارية تستهدف صب التعاليم الإسلامية فى قوالب غربية بحيث أصبح هناك حديث عن الإسلام الفرنسى والإسلام الألمانى والإسلام الأوروبى. وهو ما يعطى للغرب نوعًا من الوصاية والاستعلاء، يحول دون قيام حوار حقيقى على أساس من التكافؤ والندية.

وفى آخر اجتماع عقده خبراء أوروبيون لوضع وثيقة تمثل مرجعًا معترفًا به فى المسائل الدينية - بعد أزمة الرسوم - كانت الحصيلة النهائية هى الاتفاق على تجنب التصنيفات الخاطئة التى تؤدى إلى الخلط بين الإرهاب والإسلام، وعدم استخدام عبارة «الإرهاب الإسلامى» حتى لا يرتبط الإرهاب بديانة بكاملها، مع التحفظ فى استخدام كلمة «أصولية» وكلمة «الإرهاب الجهادى» الذى يعتبره المسلمون مهينًا.

إن الفشل الذى مُنى به حوار الحضارات حتى الآن، لا يعنى أن العبء يقع على عاتق الغرب وحده، أو أن العرب والمسلمين لا يتحملون نصيبًا مساويًا من المسئولية. فالاستعلاء الغربى يقابله على الجانب الآخر تيارات إسلاموية ترتدى ثوب الوصاية على قيم الغرب وممارساته وثقافاته. ولا تكف عن اتهامه بالانحلال والمادية. وتعمد إلى الانزواء والانكفاء على الذات والعزوف عن التفاعل والاندماج مع المجتمعات الغربية التى تقبلتها وأفسحت لها مكانًا للعيش والرزق والتعليم لها ولأبنائها، أو اللجوء إلى أساليب العنف والتطرف وتحدى القوانين والتقاليد فى المجتمعات التى استضافتهم. والنتيجة الطبيعية لذلك هى لجوء الحكومات الغربية إلى تشريعات وإجراءات تكفل طردهم وإغلاق أبواب الرزق والعمل أمامهم، وإشعال العداء والكراهية بين الثقافات والشعوب على نحو لا يخسر فيه غير العرب والمسلمين فى نهاية الأمر. ■

كرة القدم

من الحرب «العالمية».. إلى الكأس «العالمية»

جـــــــريج جتهـــــارد

من منا لا يذكر «المشهد الألماني» في أعقاب الحرب العالمية الثانية. المدن مدمرة. ولقى عشرات الآلاف من الجنود الألمان حتفهم أو أصيبوا إصابات بالغة. كما أن ملايين أخرى في أنحاء القارة قضى عليهم. وعندما اتضح أن هتلر خسر الحرب، قرر هو وكبار مساعديه جميعاً الانتحار. وتقدم الحلفاء من الغرب وزحف السوفييت من الشرق. وسرعان ما نزلوا جميعاً أرض ألمانيا وبدأوا لعبة سياسية معقدة خاصة بتقسيم البلد.

كانت الفترة التي أعقبت الحرب مباشرة فترة معاناة شديدة للشعب الألماني. إذ بدأ هتلر أثناء الحرب فرض رقابة على الأسعار حدت من تدفق السلع والواردات إلى شعبه. وفي عام ١٩٤٥، كانت فرنسا وبريطانيا وأمريكا والاتحاد السوفيتي مشغولة في تحديد من الذي ستكون له السيطرة على كل جزء من ألمانيا. ولكن تلك الدول جميعها قررت استمرار العمل بسياسة هتلر الخاصة بفرض رقابة على الأسعار. وخلال بضعة أشهر أضر نقص الطعام وغيره من الواردات الضرورية الألمان ضرراً بالغاً. وأصبحت العملة الألمانية بلا قيمة تقريباً، مما أدى إلى خلق اقتصاد مقايضة. حيث كان الناس يجولون في شوارع المدن والبلدات الصغيرة في الريف باحثين عن ضروراتهم الأساسية. لقد سقطت ألمانيا في هاوية اقتصادية.

في الجزء الغربي من البلاد، الذي كان يتولى إدارته حينذاك الأمريكان، بدأ جدال كبير بين الأمريكان والألمان. كان الجميع يعلمون أنه لابد من عمل شيء ما لتخفيف المعاناة. وظهر الديمقراطيون الاشتراكيون من جديد على اليسار، حيث كانوا يريدون من الدولة تقديم العون بأية طريقة يمكنها بها ذلك. ومن ناحية أخرى ظهرت مجموعة من الاقتصاديين الآتين من جامعة فرايبورج. وكانت مدرسة فرايبورج بقيادة فالتر أويكن متأثرة بشدة بميلتون فريدمان وغيره في جامعة شيكاغو الأمريكية الذين كانوا يؤمنون بقدرة الأسواق الحرة. وكان معروفاً أن أويكن وأتباعه، ومنهم لودفيج إيرهارد وفيلهم رويكه، وساعدهم ذلك على كسب التأييد وسط الأمريكان الذين كانوا يحكمون ألمانيا فعليا ويرغبون في تشجيع الألمان الذي ليست لهم صلة بالنازي لمساعدتهم على إدارة البلاد. وفي عام ١٩٤٨ أصبح النفوذ الفعلي في يد تلك الجماعة وبدأ التطور الاقتصادي لألمانيا، وبفضل مشروع مارشال، بدأ خروج ألمانيا الغربية من الرماد، بالمعنى الحرفي للكلمة. وبحلول عام ١٩٥٨، أي بعد عقد من الزمان، كان الإنتاج الصناعي قد زاد بمقدار أربعة أضعاف. وارتفع الناتج المحلي الإجمالي لجمهورية ألمانيا الاتحادية بما يزيد على الثلثين. وتشكلت حكومة ألمانية غربية مستقلة عن السيطرة الغربية. وفي لحظة ما خلال ذلك العقد، ظهرت ألمانيا الغربية باعتبارها دولة.

يمكن للألمان الغربيين العاديين تحديد متى تشكلت دولتهم على وجه الدقة: حيث كان ذلك في الرابع من يوليو من عام ١٩٥٤، وهو اليوم المطير الذي أقيمت فيه نهائيات كأس العالم لعام ١٩٥٤ في سويسرا. وكانت بطولة كأس العالم تلك الأولى التي يذيعها التليفزيون. وكانت ألمانيا الغربية قد تأهلت لدخول تصفيات كأس العالم وكان يُنظر إليها على أنها جواد خاسر ليس لديه فرصة كبيرة لمنافسة قوى كرة القدم الكبرى في العالم. وفي التصفيات الأولية للبطولة كانت ألمانيا تلعب ضمن مجموعة تضم كوريا الجنوبية وتركيا والمجر. وفي مباراة ألمانيا الغربية الأولى أغضبت الفريق التركي المرجح فوزه بهزيمته بأربعة أهداف مقابل هدف واحد. لتصبح مؤهلة للعب ضد المجر، وهو الفريق الذي كان يُسمى «المجريون الساحرون»، وكان يعتبر وقتها أعظم فريق شهده العالم، حيث لم يهزم قط لمدة تزيد على الأربع سنوات. وكانت نتيجة المباراة رغم توقعها مفجعة للألمان، إذ تقدم المجريون على فريقهم بثمانية أهداف مقابل ثلاثة. ليأتي ترتيب الفريق الألماني في المركز الثاني ضمن مجموعته، مما سمح له - بالرغم من المهانة - بالانتقال إلى الدور التالي من البطولة. وفي البداية فازت ألمانيا بصعوبة على فريق يوجوسلافيا الذي كان فوزه مرجحا، ثم فازت على الفريق النمساوي في الدور قبل النهائي. لتقف مرة أخرى أمام المجريين الجبابرة الذين أحرجوها قبل أيام فقط.

تحدد يوم المباراة النهائية في ظروف جوية سيئة. فقد انهمر المطر من السماء. وفي ألمانيا شاهد آلاف الألمان المباراة في البارات وواجهات المحال التجارية: وهي الأماكن الوحيدة التي كان يمكن مشاهدة المباراة فيها في ذلك الوقت، مما ساعد على جعل الحدث مشهداً قومياً. بدأت المباراة، وخلال دقائق بدا وكأن المجريين سوف يهزمون الألمان شر هزيمة، بعد أن أحرزوا هدفين مقابل لا شيء بعد ثماني دقائق من بداية المباراة. ولكن بعد ذلك، وببطء، استعاد الألمان تماسكهم وثقتهم في أنفسهم. وبعد ذلك بست عشرة دقيقة استطاعوا بمعجزة جعل النتيجة التعادل بهدفين لكل منهما. وفي الشوط الثاني سيطر المجريون على المباراة ولكنهم لم يتمكنوا من إدخال الكرة الشبكة. وبينما لم يكن قد تبقى من زمن المباراة سوى خمس دقائق، نجحت ألمانيا الغربية في شن هجمة مضادة انتهت بنجاح حين أحرز هيلموت ران هدفه الثاني في المباراة لتصبح ألمانيا الغربية متقدمة بثلاثة أهداف مقابل هدفين. وعلى الفور شن المجريون هجمة مباغتة سعياً لأن تصبح النتيجة التعادل بثلاثة أهداف لكل من الفريقين، وبدا أنهم أحرزوا ذلك الهدف ولم يكن قد تبقى من زمن المباراة سوى ثوان؛ إلا أن الحكم تجاهل الهدف على أساس أن هناك تسللاً. وانتهى الوقت وفازت ألمانيا لأول مرة بكأس العالم في مباراة ظلت تُعرف في البلاد باسم «معجزة برن». ويساوي هذا الانتصار فوز أمريكا المعروف باسم «معجزة على الجليد»، الذي يعتبره الكثيرون من مشجعي الرياضة أعظم انتصار في تاريخ الرياضة الأمريكية، حيث هزم فريق الهوكي الأمريكي الذي كانت هزيمته متوقعة السوفييت هزيمة كبيرة في دورة الألعاب الأوليمبية الشتوية في ليك بلاسيد عام ١٩٨٠، على خلفية من التضخم والركود الاقتصادي، وأزمة الرهائن الأمريكيين في إيران، وافتقاد الثقة في توجه البلاد.

أخرج الفوز ملايين الألمان إلى الشوارع للاحتفال، وكانت تلك المرة الأولى التي تشهد فيها البلاد

World Cup: The Complete History
(كرة القدم: تاريخ كأس العالم)
Terry Crouch
London: Aurum Press, 2006.

ترجمة: أحمد محمود

حــــــــرب الكــــــــؤوس!

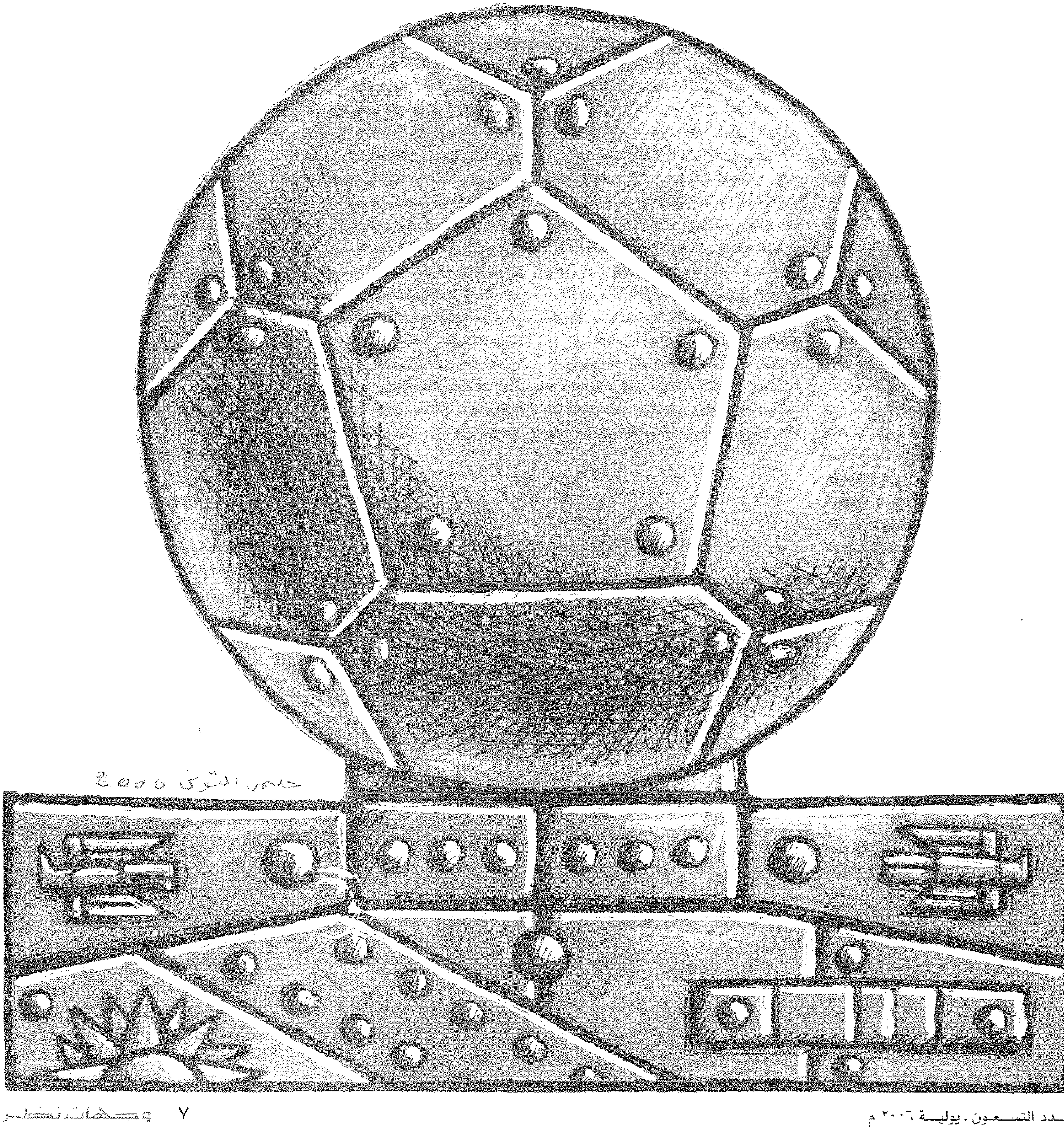
لماذا رفع لاعبو غانا فى كأس العالم علم إسرائيل احتفالاً بفوزهم فى مباراتهم الأولى؟ وإلى أى مدى يرتبط ذلك - وإن بشكل غير مباشر - بما وصل إليه حال العرب. أو بما كان من تجاهل مصر لحديقتها الخلفية؟

إلى أى مدى «تعولمت» كرة القدم اقتصاديًا؟ وما هى الحقائق الاقتصادية أو السياسية لاتهام المصريين للسعوديين بالاحتكار؟

هل يتجاوز ما شهدته مقصورة استاد القاهرة قبل أسابيع مجرد كونه «شأنا كرويًا»، ليصبح مرآة «مجتمعية» وربما «سياسية» لقاهرة السنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين؟!

أسئلة يبدو مكانها الطبيعى فى باب السياسة أو الاقتصاد. ولكن الواقع أنها تأتى على هامش «رياضى» أو بالأحرى «كروى»، لتعكس مدى التأثير المتبادل بين ما يجرى فى ساحات الملاعب وبين التطورات المجتمعية: سياسة أو اقتصاد أو ثقافة.

وهنا دراستان تركز إحداهما على الحالة الألمانية منذ الحرب العالمية الثانية. وكيف كانت كرة القدم فى سياق تحول ألمانيا الاقتصادى وإعادة اتحادها السياسى. وتستعرض الثانية كيف «جرى الأدرينالين أنهارا» فى مسابقات كأس العالم التى كانت ميدانا ملائما لتأجيج الأحقاد القومية القديمة. وكيف كان الموقف البريطانى منها فى الثلاثينيات من القرن الماضى مثالا بارزا «للانعزالية الإنجليزية» التقليدية.



احتفالاً منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية. وكتب عالم السياسة الألمانى آرتور هاينريش:

كان معظم اللاعبين ألمانًا تقليديين: خدموا بلدهم فى الحرب، ونشأوا فى المدن الكبيرة وفى بلدات الريف. وبعد المباراة، ساعد الأبطال العائدون فى تحويل النقاش فى ألمانيا من الحرب إلى كرة القدم.

وهكذا كان انقلاباً غير متوقع، وهو انقلاب كانت لها عواقبه التى تتجاوز عالم الرياضة بكثير. إذ كان إعلاناً لبداية ألمانيا جديدة، والتى استعادت الثقة بالنفس على المستوى القومى » ويلخص يواكيم فيست ببراعة الأهمية التاريخية للحدث بقوله: «كان الألمان يرونه نوعاً من التحرر من الأشياء كلها التى أرهقتهم بعد الحرب العالمية الثانية. فالرابع من يوليو عام ١٩٥٤ فى بعض جوانبه يوم تأسيس الجمهورية الألمانية». لقد كان الانتصار الألمانى الغربى فى برن مجرد الانتصار الأول ضمن سلسلة طويلة من النجاحات فى بطولات كأس العالم التى جرت فى بقية القرن العشرين. حيث عكست الملاعب الخضراء بوضوح جديتهم واتقانهم للقيادة وروح الفريق، وعليه فهم لم يخرجوا أبدا من أى بطولة قبل أن يكونوا قد وصلوا إلى دور الثمانية. فقد وصلوا إلى الدور قبل النهائى مرتين، والى المباراة النهائية خمس مرات، فازوا مرتين بالكأس «العالمية»، إحداهما فى عام ١٩٩٠، عام التوحيد. ومواكبةً لذلك، فقد استمر النمو الاقتصادى فى الوقت ذاته، حين نقلت ألمانيا نفسها من حطام الدولة الحربية الفاشلة إلى أكبر اقتصاد فى أوروبا. وبينما لم تكن معدلات النمو مثلما كانت عليه فى خمسينيات القرن العشرين، فقد استمرت ألمانيا فى رؤية ناتجها المحلى الإجمالى ينمو، وقاعدتها الصناعية تزدهر. وبحلول عام ١٩٩٠ احتل الاقتصاد الألمانى الغربى المرتبة الأولى باعتباره الاقتصاد الأكبر فى أوروبا، وثالث أكبر اقتصاد فى العالم بعد الولايات المتحدة واليابان. وفى حين كانت هناك حاجة إلى معجزة ١٩٥٤ الكروية كى تبرز ألمانيا الغربية اقتصادياً وسياسياً وفى مجال الرياضة. إلا أنه بحلول عام ١٩٩٠ لم يكن هناك ما هو متوقع غير النجاح.

الحرب الباردة.. رياضياً

عند انتهاء الحرب العالمية الثانية كان الألمان يخشون العودة إلى نظام السوق الحرة الرأسمالية. وكان كثيرون يتذكرون أيام التضخم المفرط والكساد فى أواخر عشرينيات القرن العشرين اللذين أديا إلى ظهور النازيين فى الثلاثينيات. ولذلك انجذبت أعداد كبيرة إلى الاشتراكية والنظام الاقتصادى الذى ترعاه الدولة. وكان السوفييت بموجب ترتيبات ما بعد الحرب يسيطرون على ألمانيا الشرقية، ويطبقون فيها النظم الاقتصادية ذاتها التى تم تعميمها فى بقية الدول الشرقية. إلا أنه وبحلول منتصف الخمسينيات، كانت ألمانيا الشرقية بها أعلى مستويات المعيشة بين دول الكتلة الشرقية. وبحلول الخمسينيات كذلك، كان بإمكان سكان ألمانيا الشرقية رؤية ما تفوقت عليهم فيه ألمانيا الغربية، مما أدى إلى موجة الفرار إلى الغرب. وبقية القصة معروفة.. أقيم سور برلين ونشأت حرب دعاية واسعة النطاق بين الغرب والشرق بينما كانت ألمانيا فى الوسط.

امتدت موجات حرب الدعاية إلى عالم الرياضة كذلك. إذ طوال سنوات عديدة كان مسئولو الرياضة الألمان الغربيون يصرون على الأيديولوچيا القائلة بأن الرياضة «غيرسياسية» بطبيعتها، ولابد أن تتسم بالمشاركة الطوعية والهواية (عدم الاحتراف) والعدل والإنصاف، كما أنه مجال يجب أن يظل متحرراً من التأثير والتدخل السياسيين. وعلى العكس من ذلك، لم يسند المسئولون الألمان الشرقيون إلى الرياضة دوراً اجتماعياً منذ البداية فحسب، بل أسندوا إليها دوراً سياسياً كذلك. وأثناء الحرب الباردة والمواجهة بين النظامين، كان للرياضة دور مهم تقوم به. وبالأخص هدف القضاء على زعم ألمانيا الغربية بأنها الممثل الوحيد للأمة الألمانية. وفى الوقت نفسه، كان هناك هدف دمج جمهورية ألمانيا الديمقراطية فى الهيئات الدولية. بل إنه كان هناك أمل فى أن السبيل إلى كسب الاعتراف الدولى يمكن الإعداد له على ملاعب الرياضة وأن الرياضة بصورة عامة قد تزيد من تأثير البلد على السياسة الرياضية وكذلك على السياسة العالمية. وحتى بعد أن أصبحت جمهورية ألمانيا الديمقراطية واحدة من الدول الرياضية البارزة فى سبعينيات القرن العشرين، ظل الاعتراف السياسى فى الخارج والرغبة فى تمثيل النظام بشكل بارز وعرض تفوق الاشتراكية عوامل حاسمة فى تعزيز الرياضة. وفى الداخل كذلك، كان المأمول هو أن تساعد الانتصارات الرياضية وشعبية أبطال البلاد فى تدعيم ارتباط الناس بالنظام.

كانت لدى ألمانيا الشرقية أجهزة حكومية عديدة حاولت تعزيز الألعاب الرياضية فى البلاد. وكان الأطفال الذين يبدون قدرات رياضية فى الصغر يختارون لدخول المدارس الرياضية التابعة للدولة. وكان الأبطال الرياضيون الألمان الشرقيون، وخاصة النساء، يحققون نتائج جيدة جداً بشكل خاص فى الألعاب الفردية كالجمباز والسباحة وألعاب القوى.

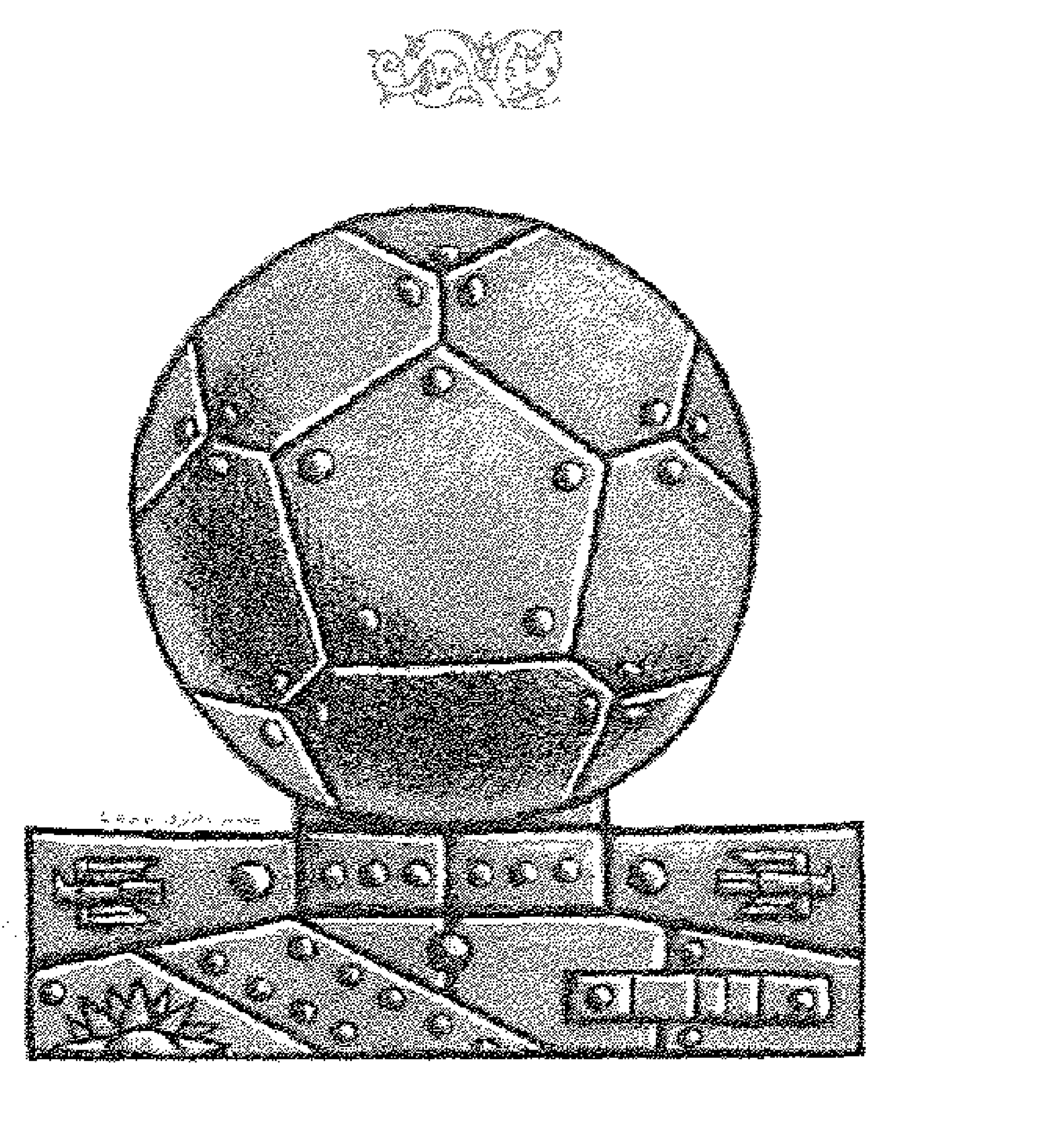
رغم تركيز ألمانيا الشرقية على الألعاب الرياضية باعتبارها أداة من أدوات الدعاية، ومع ما حققته من نجاح، فقد كان لافتًا أن فريقها لكرة القدم لم يتأهل لمسابقات كأس العالم غير مرة واحدة؛ وكان مثيراً ألا يحدث ذلك إلا فى عام ١٩٧٤، أى فى السنة التى استضافت فيها ألمانيا الغربية ذلك الحدث. وكان ذلك يشبه فى صورة من صوره النظام السوفيتى ذاته؛ إذ كان بالإمكان رؤية النجاح فى حالات كثيرة، غير أنه ثبت فى النهاية أن سيطرة الدولة مسألة اصطناعية.

عندما أُعلن عن مجموعات الدور الأول فى البطولة عام ١٩٧٤، صُدم الألمان على جانبى السور (فى ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية) بوضع الدولتين فى المجموعة نفسها، مما يعنى أن الفريقين سيلاعب كل منهما الآخر. ومرة أخرى تتدخل سياسة العالم فى ألعابه الرياضية. ففى عام ١٩٧٤ شهد العالم أزمة طاقة بعد أن أوقف العرب تصدير النفط إلى الدول الغربية التى ساندت إسرائيل، مما تسبب فى حدوث كساد وتضخم فى أنحاء العالم. وفى ألمانيا الغربية، انكمش الناتج المحلى الإجمالى خلال عامى ١٩٧٤ و١٩٧٥، بسبب تلك الأزمة على نحو مباشر. وكان طبيعياً ألا تتأثر ألمانيا الشرقية، شأنها شأن سائر دول الكتلة الشرقية، التى كانت مؤيدة تقليدياً للقضية الفلسطينية.

على هذه الخلفية، التقى الفريقان فى ٢٢ يونيو فى هامبورج. وكانت كلتا الدولتان مؤهلة للصعود إلى الدور التالى، ولكن هذا لم يمنع حماس المباراة الذى يثير كل جانب من جانبى الدولة المقسمة ضد الآخر. وبكل المقاييس، كانت المباراة أسوأ شكل من أشكال كرة القدم؛ وكانت بإجماع المعلقين الرياضيين «رتيبة فاترة». ومع ذلك كانت النتيجة مروعة. فقد أحرزت ألمانيا الشرقية هدفاً متأخراً لتحقق الفوز بهدف مقابل لا شىء وتهزم فريق ألمانيا الغربية الذى كان مرشحا للفوز بالبطولة. وكان من الطبيعى أن يثير ذلك غضب الغرب المجنون بالكرة، حيث طالبت وسائل الإعلام بفصل المدرب وبإجراء تغييرات ضخمة فى تشكيل الفريق. وعلى أية حال فالذى حصل نهاية المطاف أن خسر فريق ألمانيا الشرقية مباراتيه أمام هولندا والبرازيل، بينما وصلت ألمانيا الغربية إلى النهائيات، لتلتقى مع فريق هولندا؛ وهو فريق كان يلعب بأسلوب معروف فى كرة القدم باسم «كرة القدم الشاملة»، وهو نوع من الفوضى على المسطح الأخضر يمكن فيه لكل لاعب أن يلعب فى المكان الذى يحلو له من الملعب، وهو على العكس تماماً من الاستراتيجية الألمانية شديدة الصرامة. والتقى الفريقان فى مباراة من أشهر مباريات كأس العالم على الإطلاق، ليخرج الألمان «بصرامة نظامهم» منتصرين بهدفين مقابل هدف واحد لهولندا.

كان الفريق الألمانى راكداً فى مبارياته الأولى بالبطولة، على النحو الذى كان يكافح به الاقتصاد فى منتصف السبعينيات؛ ومع ذلك لم يغير الفريق التكتيكات تغييراً جذرياً. كأن يُدخِل أسلوب الإيقاع السريع الذى تلعب به هولندا مثلاً .بالضبط كما لم تلجأ الحكومة إلى مراقبة الأسعار أو تحديد إمدادات النفط أثناء

ربما كان اليوم المطير الذى أقيمت فيه نهائيات كأس العالم لعام ١٩٥٤ فى سويسرا، هو يوم الميلاد الحقيقى لألمانيا ما بعد الحرب



أزمة الطاقة. وفى كلتا الحالتين كانت الغلبة لألمانيا الغربية، رغم بعض النكسات.

وحـــدة الـــكـــرة

فى التاسع من نوفمبر من عام ١٩٨٩ سقط سور برلين، مما أدى إلى زوال الستار الحديدى وإعادة توحيد الدولة التى ظلت مقسمة لأكثر من ٤٠ عاماً. وفى يوليو من عام ١٩٩٠ هزمت ألمانيا الأرجنتين فى المباراة النهائية لتحقق بذلك ثالث فوز لها بكأس العالم. ومن الطبيعى أن نتوقع أن تستمر ألمانيا الموحدة فى هيمنتها؛ حيث أُضيف ١٦ مليون مواطن يمكن أن يُختار من بينهم أفضل اللاعبين والرياضيين فى مجتمع أولى الألعاب الرياضية اهتماماً كبيراً. وعبر أسطورة الكرة الألمانية فرانيس بيكنباور عن هذا الأمل بثقة بعد رفع كأس العالم فى عام ١٩٩٠ حين قال: «سوف يكون أمامنا اختيار أوسع للاعبين. فالواقع أننا رقم واحد فى العالم! وفى المستقبل. ومعذرةً لذلك. لن يستطيع أحد هزيمة ألمانيا فى المستقبل».

قد يفترض المرء كذلك أن بلداً كان له ثالث أكبر اقتصاد فى العالم وأكبر اقتصاد فى أوروبا سوف يتجه إلى النمو بسرعة بمجرد أن «يلحق» الشرق المقهور بمستويات الغرب. والواقع أن الكثيرين فى التيار العام كانوا يعرفون أن ألمانيا الموحدة ستزداد تطوراً كقوة اقتصادية، و ربما أمكنها تحدى أمريكا فى الهيمنة الاقتصادية الدولية.

ورغم أن ألمانيا الموحدة خسرت فى النهائيات فى بطولة كأس العالم السابقة التى أُقيمت فى كوريا الجنوبية فى عام ٢٠٠٢، إلا أن فريقين من كبار فرقها، وهما بايرن ميونخ وبروسيا دورتموند، فازا ببطولة دورى أبطال أوروبا. ومن الناحية الاقتصادية مازالت ألمانيا هى الأكبر فى أوروبا. فنفوذها يجعل لها تأثيراً على شئون الاتحاد الأوروبى، وحتى على المستوى الدولى؛ وهو ما اتضح فى رأى ألمانيا القوى المعارض لشن أمريكا الحرب على العراق. ومع ذلك تواجه ألمانيا (الآن) مشاكل على الجبهة الاقتصادية كما فى الملاعب الخضراء لكرة القدم. والأمر الذى يقلق الألمان أكثر من غيره هو حالة سوق العمل فى بلدهم، حيث ارتفع معدل البطالة إلى ١٢ بالمائة؛ وهو أعلى معدل منذ الحرب العالمية الثانية. وفى كرة القدم، يعانى زعماء كرة القدم الألمان من الاضطراب نتيجة للفضيحة التى تشير إلى أن العديد من حكام ألمانيا تورطوا فى تعديل نتائج المباريات. وأدخل الجدل اتحاد كرة القدم الألمانى فى حالة من التشوش والفوضى،

يمكن الآن ملاحظة انكماش ألمانيا الاقتصادى فى قطاع أعمالها التجارية كذلك. فمن بين أكبر ألف شركة فى العالم ليس هناك سوى ٢٨ شركة ألمانية. كما أعلن العديد من الشركات الكبرى إفلاسه أو إجراء إعادة هيكلة مالية فى السنوات الأخيرة. والواضح أن الانهيارات الألمانية فى الأعمال التجارية بدت آثارها واضحة على كرة القدم كذلك. فمن بين أكبر ٢٠ نادياً فى العالم هناك ناديان ألمانيان فقط. كما تعانى الكثير من الأندية الألمانية حالياً من الضائقة المالية، وبعضها على شفا الإفلاس.

تحـديـات جـديـدة

قيل الكثير عن الطريقة التى يجب بها على ألمانيا وشركاتها وعمالها منافسة الدول الناشئة الواقعة إلى الشرق منها. فدول مثل بولندا وجمهورية التشيك ودول البلطيق قد نمت نمواً كبيراً منذ انتهاء الحرب الباردة، حيث تنخفض التكاليف فى تلك الدول وتتمتع نقاباتها العمالية بنفوذ سياسى أقل. كما اكتسب الكثير من تلك الدول ثقلاً سياسياً فى الفترات الأخيرة، حيث بات جزءاً من الاتحاد الأوروبى. وانعكست صراعات ألمانيا لمواجهة بيئة أوروبا التنافسية انعكاساً كبيراً على كرة القدم. ففى بطولة أوروبا لعام ٢٠٠٤؛ آخر بطولة دولية لكرة القدم التى أقيمت فى البرتغال ووضعت فرق أوروبا الكبرى فى مواجهة بعضها، بدأت ألمانيا باعتبارها المرشحة للفوز بالبطولة. وكانت أولى مباريات ألمانيا ضد المنافس التقليدى هولندا التى تعادلت معها. ولكن الكارثة وقعت فى المباراتين التاليتين، إذ تعادلت ألمانيا فى البداية مع لاتفيا التى لم يسبق لها إحراز تقدم فى أية بطولة كبرى. ثم كانت المباراة الحاسمة، حيث خسرت ألمانيا بهدف مقابل هدفين لجمهورية التشيك، وكان فريقاً قوياً. ولكن ليس له ما لألمانيا من تراث أو تاريخ.

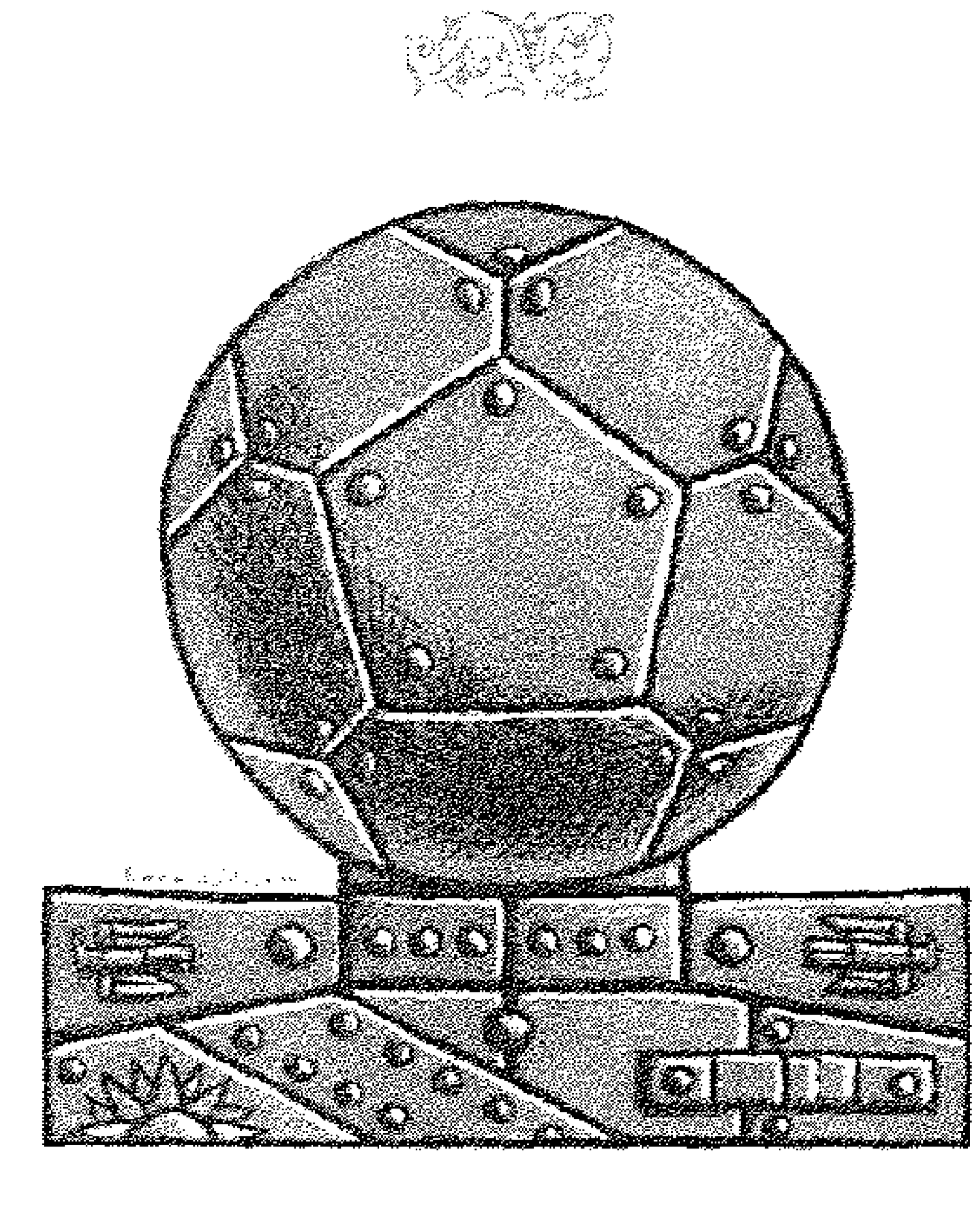
ربما أمكن تفسير عدم نجاح ألمانيا إلى حد ما بناءً على تكوين فريقها. ففريقها الذى شارك فى البطولة الأوروبية لعام ٢٠٠٤ كانت غالبية لاعبيه مطابقة لمظهر الألمانى المقولب: ذلك الآرى الطويل الأشقر. ولم يكن هناك سوى ثلاثة لاعبين وُلدوا خارج البلاد: بولنديين وبرازيلى. كما لم يضم الفريق لاعبين ألمان أتراك. وكان ذلك معاكساً لما كانت عليه فرق أوروبا الدولية الكبرى الأخرى. فعلى سبيل المثال، كان فريق فرنسا يضم لاعبين عديدين من أصول باسكية وإفريقية وجزائرية: أشهرهم زين الدين زيدان. فقد كان والداه مهاجرين جزائريين فقيرين. كما أن العديد من لاعبى إنجلترا سود. ويميز هذا الاتجاه ألمانيا كذلك فى بطولات الدورى الاحترافية. ففى الدورى الممتاز الإنجليزى والدورى الممتاز الإسبانى، اللذين يعتبرهما معظم خبراء كرة القدم أكبر بطولتى دورى على مستوى العالم، هناك قوائم طويلة من أعضاء الفرق الذين أتوا فيما يبدو من كل قارة من قارات العالم. والواقع أن الكثيرين من اللاعبين فى تلك البطولات من أمريكا الجنوبية أو إفريقيا. ولكن الدورى الألمانى مازال يغلب الألمان على قوائم فرقه. ونسبياً يلعب عدد قليل من الأجانب فى الدورى الممتاز الألمانى؛ ويجد الكثير منهم صعوبة فى التكيف مع المفهوم السائد من أن الأولوية دائما للألمان. وعلى سبيل المثال، لم يحدث قط أن فاز أحد اللاعبين الأفارقة بلقب لاعب العام. والمدهش كذلك هو غياب الألمان الأتراك المقيمين فى ألمانيا عن الدورى الممتاز الألمانى، رغم جودتهم كلاعبى كرة قدم. إلا أن هذا يعكس الصعوبات التى يواجهها المهاجرون، وخاصة الأتراك، وهم أكبر جماعة من المهاجرين فى البلاد، فى التكيف مع الحياة فى ألمانيا. إذ رغم عثور معظم المهاجرين الأتراك على مكان فى المجتمع، فمازال الكثيرون منهم يعيشون حياة منعزلة. وتصل نسبة البطالة بينهم إلى ضعف المتوسط القومى. وتتزايد أعداد الأتراك الألمان الذين ينسحبون إلى «المجتمعات الموازية»؛ وهى مجتمعات لها محالها التجارية وإعلامها وترفيهها، وتربطها صلات قليلة بالمجتمع الألمانى.

على الجبهة الاقتصادية عجز الألمان عن الارتقاء بالشطر الشرقى من البلاد إلى مستويات المعيشة الغربية. ويبدو أن الفرق بين الشرق والغرب أحدث كذلك أثراً ملحوظاً على ملعب كرة القدم. فالألمان الشرقيون يُقبلون كأعضاء فى الفريق القومى الألمانى منذ فترة. وتجتذب فرق الأندية بالمدن الكبرى القائمة على أساس تجارى الرعاة المحتملين، وتسيطر على سوق انتقالات اللاعبين، وتحقق نجاحاً على أرض الملعب فى ألمانيا الغربية. ولكن الواقع أن نادياً واحداً فى الدورى الألمانى الممتاز، ينتمى إلى مدينة ألمانية شرقية، وقد هبط النادى فى نهاية موسم ٢٠٠٤-٢٠٠٥. ويرى الألمان أنه لن يكون هناك مؤشر أقوى من ذلك على أن الفجوة بين الشرق سابقاً والغرب سابقاً مازالت تتسع. والسبب الأرجح لغياب الأندية الألمانية الشرقية عن الدورى الممتاز الألمانى بسيط: فالأندية تأتى من مناطق مقهورة اقتصادياً، مما يجعل من الصعب عليها الحصول على الأموال المستخدمة لاجتذاب كبار اللاعبين الذين يمارسون حريتهم الكاملة (بعد أن طغت قوانين السوق الرأسمالية) فى البحث عن فرق الدورى فى أنحاء أوروبا من خلال شبكة الإنترنت أو سوق الوكالات الحرة.

ومع ذلك يظل هناك أمل بالنسبة لألمانيا وكرة القدم فيها. وكما يقول ألمانى مغترب سابق، فإن مشاكل التوحيد تعزز الرؤى المتبادلة الخاصة بالفجوة الاجتماعية، حيث يستاء الغربيون من الشرقيين لعدم إنتاجيتهم، ويشعر الشرقيون بأن الغربيين يتعالون عليهم. ولكن هذه الفجوة يمكن سدها:

ربما يكون هناك مجال واحد لم يحدث فيه التوحيد مشاكل، وهو الرياضة... فإذا فاز الفريق الألمانى بكأس العالم، سوف تصبح ألمانيا أمة واحدة لفترة قصيرة.

معجزة بـرن الألمانيـة ١٩٥٤
لا يعادلهـا غيـر انتصـار فـريق الهـوكى
الأمريكى على السوفييت عام ١٩٨٠، على خلفية
مـن التضخـم والركـود الاقتصـادى،
وأزمـة الرهـائن فى إيـران



معارك بلا سلاح

تيم باركس

> إن أروع ما فى كرة القدم أنها الموقف الوحيد المتبقى الذى يجعلك تشعر حقا أن هناك عدوًا، تستطيع أن تكرهه بلا تحفظ

إن مسابقة كأس العالم لكرة القدم التى تعقد كل أربع سنوات هى الآن أهم الأحداث الرياضية العالمية بعد الدورات الأوليمبية. وقد جاءت مسابقة هذا العام التى تستضيفها ألمانيا باثنتين وثلاثين دولة مرت كل منها بالفعل بعملية اختبار قاسية جدا. بل إن دولا مثل الولايات المتحدة، التى لا تعد فيها كرة القدم من بين أكثر الرياضات شعبية، بذلت جهدا هائلا كى تأتى وتلعب. لم يكن الحال هكذا دائما فى الماضى.

رغم أن الفضل الأكبر يرجع للإنجليز فى ابتكار لعبة كرة القدم الحديثة - فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر - ثم نشرها فى جميع أنحاء العالم، غير أنهم قرروا عدم المشاركة فى تأسيس أول اتحاد عالمى لكرة القدم (الفيفا FIFA) عام ١٩٠٤، كما لم يشاركوا فى مسابقات كأس العالم الثلاث الأولى التى نظمت فى الأعوام ١٩٣٠ و١٩٣٤ و١٩٣٨. وفى تاريخه الرسمى، يصف الاتحاد الإنجليزى لكرة القدم ذلك القرار الآن بأنه «مثال بارز للانعزالية البريطانية». وربما يكون من المفيد أكثر أن نعتبر ذلك الرفض دليلا على التوتر بين الآراء المتباينة بشأن دور رياضات الفرق فى المجتمع الحديث و - على مستوى أعمق - بين المواقف المتعارضة تجاه قضية المجتمع والهوية العامة.

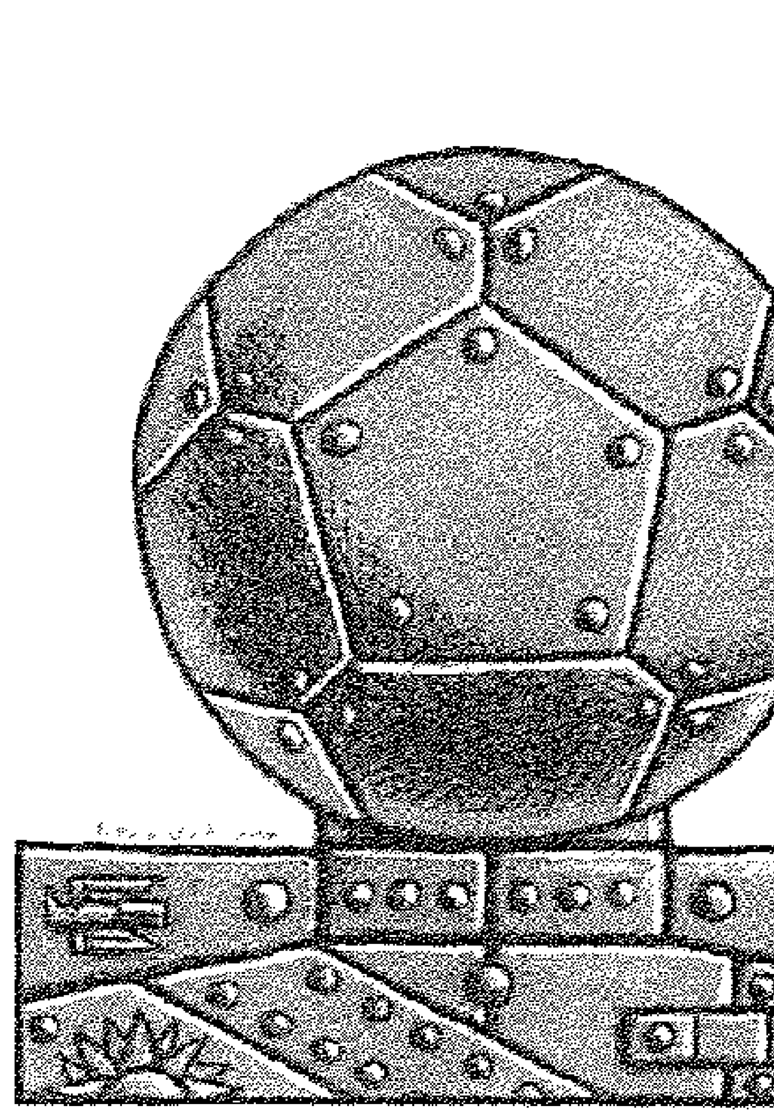
ورغم كل شىء، فقد نظم الإنجليز منذ وقت طويل أول مباراة «دولية» على الإطلاق بينهم وبين سكوتلاندا. وبحلول بداية القرن العشرين كانوا يلعبون بانتظام مع ويلز وأيرلندا أيضا. إن مثل تلك اللقاءات ضمن المملكة المتحدة كانت تؤججها - بالضرورة - المنافسات والأحقاد القديمة. لقد جرى الأدرينالين أنهارا. وقد حدث أنه بعد مرور مائة عام، أن من الضرورى إيقاف المباراة السنوية بين إنجلترا وسكوتلاندا بسبب عنف المشجعين. ولابد أن الاتحاد الإنجليزى لكرة القدم قد سأل نفسه عام ١٩٣٠ عن الجدوى من القيام برحلة عبر المحيط لمدة ثلاثة أسابيع إلى أورجواى للعب ضد فرق مثل البرازيل وتشكوسلوفاكيا.

إن التوجهات الانعزالية التى كانت تحرك الاتحاد الإنجليزى لكرة القدم فى النصف الأول من القرن العشرين - والتى نادرا ما ناقشتها وسائل الإعلام - ما تزال قائمة. ومن الدول الأخرى التى تحفل بتلك التوجهات الانعزالية إيطاليا، التى يبدو غالبا أن حسها الوطنى يعتمد على سلسلة من النزاعات الداخلية القديمة بين ما كان يطلق عليه فى السابق المدن/الدول، أكثر من الاعتماد على أى شعور بفرض نفسها على العالم من حولها. وفى هذا السياق فإن مثل هذه الدول تشبه تلك العائلات التى تشتهر دوما بانغماسها الشديد فى التنازع فيما بينها. وفى حديثه إلى الأمة فى بداية العام الجديد منذ بضع سنوات، تكلم الرئيس الإيطالى «كارلو أزيليو تشامبى Carlo Azeglio Ciampi» عن «إيطاليا أرض المائة مدينة التى تجمع ما بين حب مسقط رأسى وحب وطنى وحب أوروبا». وعلى موقع الإنترنت الخاص بفريق «هيلاس فيرونا Hellas Verona» لكرة القدم والذى يمثل المدينة الصغيرة التى أعيش فيها، أرسل أحد المشجعين رسالة بلغة كرة القدم تحوى قائمة بكل الفرق التى يكرهها بالضرورة أى مشجع لهيلاس، تقول الرسالة: «الوحدة الإيطالية = روما اللعين، وإنتر اللعين، ويوفنتوس اللعين، وميلان اللعين، ونابولى اللعين، وفيسنزا اللعين، وليسى اللعين. هل تحتاجون للمزيد؟».

إن إيطاليا، المرشحة دائما للحصول على كأس العالم، تبدو غالبا فاترة ومترددة تجاه فريقها القومى. وقد أخبرنى أكثر من مشجع فى مباراة كرة قدم محلية لعبت مؤخرا أنهم سوف يشجعون «ضد» الفريق القومى أثناء مباريات كأس العالم: «إن الفريق القومى يتكون من لاعبين من الأندية الكبرى مثل يوفنتوس وروما وإنترميلان. إننا لا نستطيع أن نكرههم طوال العام ثم نساندهم فى الصيف لمجرد أنهم يمثلون إيطاليا».

إن كلمة «كراهية» تتردد فى الأحاديث الخاصة المتعلقة بكرة القدم بطريقة تختلف تماما عما يحدث فى وسائل الإعلام التى تحفل بالمشاعر الطيبة بينما يقترب «عرس كرة القدم» الكبير. وفور الانتهاء من مقابلة لى مع الإذاعة الوطنية حول كتاب وضعته عن إيطاليا والمشجعين، خلع المذيع سماعات الرأس وعلق: «أتدرى، إن أروع ما فى كرة القدم أنها الموقف الوحيد المتبقى الذى يجعلك تشعر حقا أن هناك عدوًا، شخصًا ما تستطيع أن تكرهه بلا تحفظ، شخصًا لا يتوجب عليك أن تتوصل إلى تسوية معه. فحتى مع الإرهابيين أنت تقلق بشأن إمكانية أن تكون مسئولا بطريقة غير مباشرة عن تطرفهم». سألته: «لماذا لم تقل ذلك على الهواء». فضحك. كان سؤالى بالطبع سؤالا بلاغيا.

ولكن حتى فى كرة القدم فهناك أعداء وأعداء. وفى برنامج «كوستانزو شو Costanzo Show» الشهير، وهو البرنامج الحوارى الإيطالى الأول، أصر اللاعب المخضرم «كاوسيو Causio» أنه على الرغم من حقيقة أن الفريق الإيطالى لا يردد أبدا النشيد الوطنى عند عزفه فى بداية المباريات (بعض اللاعبين اعترفوا بالفعل أنهم لا يعرفون كلمات النشيد)، ورغم قلة حضور المشجعين فى الكثير من مباريات الفريق المحلية، غير



بترتيب مع:
New York Review of Books

ترجمة: عادل فتحى

أنه عندما يحين الوقت فإن الأمة يلتئم شملها. تلك هى الرواية الرسمية، وليس هناك من شك فى حقيقة شعور الجمهور الذى لا يشجع كرة القدم بانتظام، ولذلك فمن غير المرجح أن يضع فريقه المحلى فى المرتبة الأولى. ولكن أثناء استراحة الإعلانات، علق الممثل الجالس بجانبى على المسرح مع «كاوسيو» قبل إعادة البث على الهواء: «كلا، إن كرة القدم هى الكراهية. عندما يلعب روما مع لازيو (فريق محلى منافس) فأنا أكره فعلا كل من ينتمى للازيو. ولكن هل أستطيع الآن أن أكره غانا؟ أنا لا أشعر بشىء». كانت تلك الدولة الأفريقية الصغيرة هى الخصم الأول لإيطاليا أو الضحية الأولى المفترضة لها فى المسابقات الحالية.

لقد بدأت كرة القدم بالضرورة على المستوى المحلى حيث استولت بخصوصية وعنف على عقول العامة كما تفعل الآن فى أوروبا وأمريكا الجنوبية. وقد حدث ذلك تماما فى الوقت الذى أصبح فيه من الصعب الحفاظ على الهويات المحلية، مع تسارع الثورة الصناعية وتطور الاتصالات. فعلى سبيل المثال، تم تشكيل فريق «هيلاس فيرونا» عام ١٩٠٣، ولكنه لم يتمكن من هزيمة أقرب جيرانه وأمقت منافسيه فيسنزا قبل عام ١٩١٢. وعندما كتب محرر الصحيفة المحلية لفيرونا عن رد فعل الجمهور عندما تم كسر النحس أخيرا، كان من الواضح أنه يشهد للمرة الأولى أسلوبا جديدا للتعبير عن الهوية الجماعية:

«فاز فيرونا! لا شىء نكتبه يمكن أن يعبر عن فرحتنا، إن كان ذلك ممكنا. ليس هناك من إعلان نقوم به يمكن أن يعادل فصاحة صيحة الجمهور القوية الهادرة فى كل مرة يسجل فيها هيلاس هدفا. ثم يهدأ الهتاف ببطء ليحل محله صخب شديد متزايد يتابع بقلق كل حركة متقنة فى الملعب. فاز فيرونا، إنه انتصار طالما اشتاق له الجميع».

وقبل عقود قليلة من تلك اللحظة التاريخية، عرف «جيوفانى ماريا دى باردى Giovanni Maria de' Bardi» فى كتابه «حديث حول لعبة كرة القدم فى فلورنتين Discourse on the Game of Florentine Football» اللعبة بما يلى:

«كرة القدم لعبة شعبية يشارك فيها مجموعتان من الرجال الشباب، يلعبونها على الأقدام ومن دون سلاح، ويتنافسون بسرور لتحريك كرة منتفخة متوسطة الحجم من أحد طرفى الساحة إلى الطرف الآخر وذلك لتحقيق شرف الفوز».

وإذا ما كانت كلمة «هادرة» هى الأكثر إثارة للانتباه فى الاقتباس الأول، فإن كلمة «من دون سلاح» هى الكلمة الحاسمة فى الاقتباس الثانى. ففى ذلك اليوم من عام ١٩١٢ اكتشف الجمهور - الهادر ومن دون سلاح - فى فيرونا وسيلة جديدة للتعبير عن عدائهم القديم تجاه أقرب جيرانهم، الذين لم يعد هناك بالطبع إمكانية للدخول فى حرب معهم أو حتى فرض عقوبات تجارية مقيتة. وكان لأهالى فيرونا فى ذلك اليوم اليد العليا للمرة الأولى. كان بإمكانهم الاستمتاع ومن دون سلاح على حساب جيرانهم. وكانوا قادرين على السخرية والمرح وممارسة القسوة ضمن إطار يسمح للجميع بالإفلات بدون أذى والاستمرار فى حياتهم كما لو أن شيئا لم يحدث.

إن السخرية القاسية تشكل عنصرا رئيسيا فى مباريات كرة القدم الإيطالية، وبالفعل فإن هذا النوع من الكرامة المحلية الحصينة - الحاد أحيانا وإن كان ساخرا حتى فى أكثر حالات التعبير عنه تطرفا - هو نموذج للتشجيع السائد على المستوى المحلى فى جميع أنحاء أوروبا. وفى مباراة حديثة كانت هناك لافتة تقول: «منذ العام ١٢٠٠، وفى كل مرة يذهب فيها أهل فيرونا إلى فيسنزا، ترتجف الأرض». وفى تناقض حاد، وعندما التقى الفريق الأيرلندى بفريق الكاميرون فى ستاد نيجاتا باليابان فى اليوم الثانى من مباريات كأس العالم الماضى، اضطر المعلق التليفزيونى إلى التعقيب على فتور حماس الجمهور القليل بالإستاد تجاه هذا الحدث الضخم المكلف. كيف بإمكانهم ذلك؟ ما هو النفع الممكن بالنسبة للجمهور اليابانى المهذب الجالس بنظام أن تفوز أى من هاتين الدولتين؟ ليس لديهم نزاع مع أى منهما.

لو كان لنا أن نسأل عن أخطر المشاعر التى ظهرت فى القرنين الماضيين، فإن إحدى الإجابات المحتملة هى الحنين إلى المجتمع والشوق - فى عصر الميكنة والانتقائية - إلى نوع من الإحساس القوى بالهوية الجماعية، والذى يمكنك من تشبيك يديك مع الناس والغناء معهم، وأن تنصهر فرديتك الرائقة فى حماقة الهياج الجماعى وتتوحد فى قضية مشتركة والتى تتضمن بالطبع عدوا مشتركا.

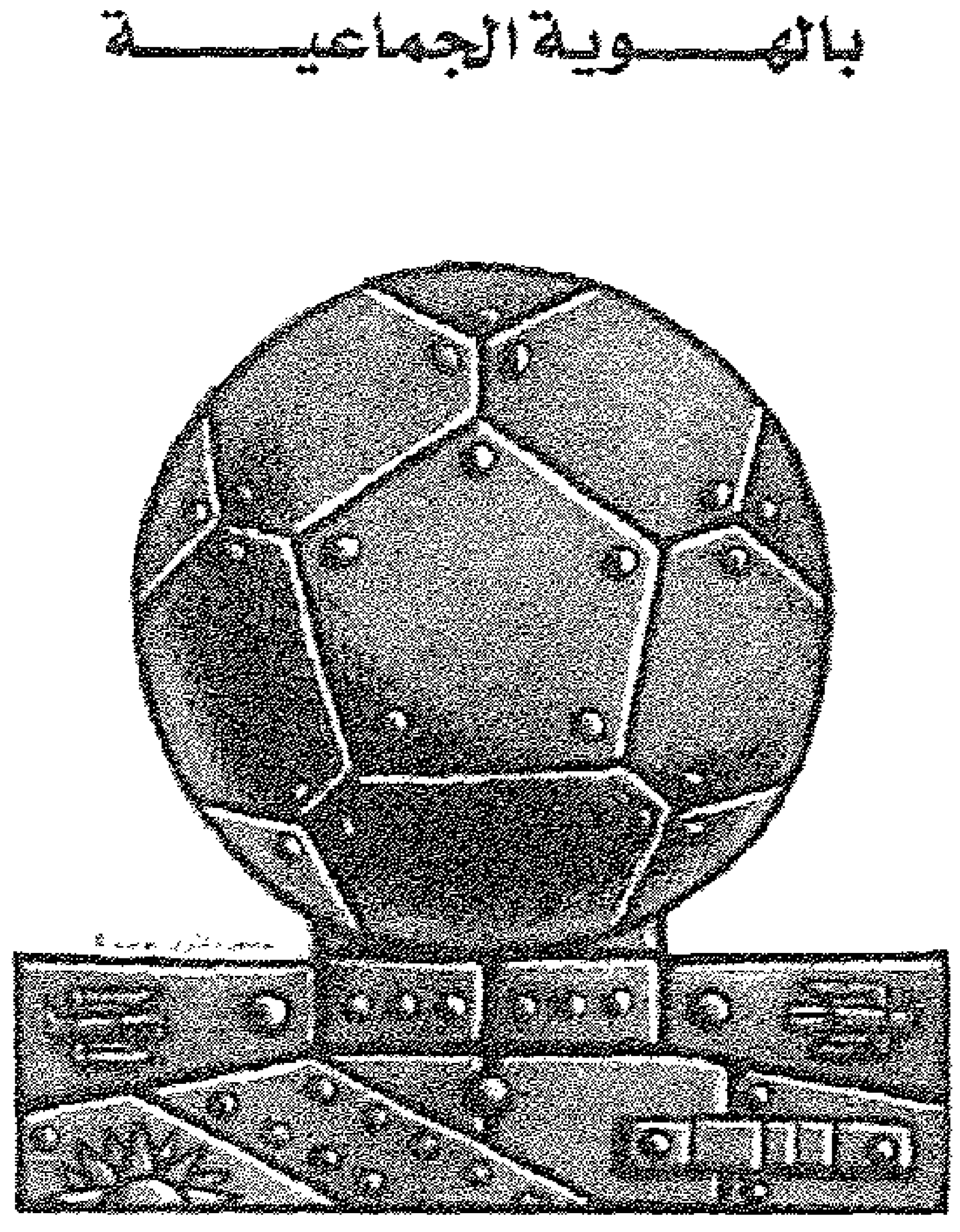
إن الرغبة فى تلاحم المجتمع بأى شكل كانت بلا شك عاملا هاما فى ازدهار الاشتراكية والفاشية والشيوعية ومجموعة أخرى من الأصوليات الحديثة الخطيرة. ويمكن اعتبار تشجيع كرة القدم الذى تطور فى نفس الفترة فى أوروبا وأمريكا الجنوبية محاكاة ساخرة غير ضارة - نسبيا - لتلك الفظائع واسعة النطاق، كما أنها تمنح الشعور بالرضا للانتماء لمجتمع حصين، بل إن أعمال الشغب العرضية بعد المباريات ربما كانت بديلا عن أخطار الحروب الحقيقية. لقد أصبح الاستاد والمباراة هما المسرح الذى تستطيع فيه جماعتان متعارضتان - ربما تمتزجان بسلاسة فى أوقات أخرى - التمتع بإثارة العصبية القبلية فى ظهيرة أحد أيام الأسبوع وتحت ظروف قيد السيطرة بعناية. إن المشجعين المتطرفين للفريقين المتنافسين يحتلون طرفى الاستاد ويولدون طاقة عاصفة من الأناشيد والحركات العدائية التى تكهرب الجو.

أما فى أرض الملعب فإن المهارة الخارقة للاعبين ومكرهم وسرعتهم والأنماط المختلفة لحركاتهم السريعة والتوتر بينما المرء ينتظر وينتظر فى قلق بالغ ذلك الهدف الذى لا يأتى أبدا، كل ذلك يخلق سحرا جماعيا يزيد من التحفظ والفتور بين الخصمين، مع تحديد وتيرة الإهانات والفصل بين مشجعى الفريقين. وفى النهاية، ومع كفاءة قوات حفظ الأمن وعدم وقوع أحداث ملتهبة أثناء المباراة، ربما يمكننا جميعا العودة إلى منازلنا بعد إلقاء بضعة أحجار فقط.

كتب الفيلسوف الرومانى «إميل سيوران Emil Cioranǎ»: «إن الانتقال الحضارى من اللكمات إلى الإهانات كان ضروريا بلا شك، ولكن الثمن كان غاليا. إن الكلمات لن تكون أبدا كافية. سنشعر دائما بالحنين إلى العنف والدماء». لقد خطر لى دائما أن كرة القدم توفر حلا وسطا غامضا بين الكلمات واللكمات. إن المباراة تكون فى أنجح أحوالها عندما تتأرجح دائما على حافة العنف دون أن تقع فيه تماما. وأحيانا - بالطبع - تسوء الأمور.

ولكن مشهد مشجعى الفريقين المتنافسين يوجهون الإهانات لبعضهم البعض - سواء كان ذلك حميدا أم لا - ليس بالتأكيد موضع ترحيب فى كأس العالم. فلا شىء يرعب منظمى أكبر الأحداث الرياضية أكثر من تلك المشاعر الشائعة فى المباريات المحلية التى تلعب أسبوعيا فى

فى عصر الميكنة والانتقائية، هناك حنين إلى المجتمع وإلى الإحساس بالهوية الجماعية



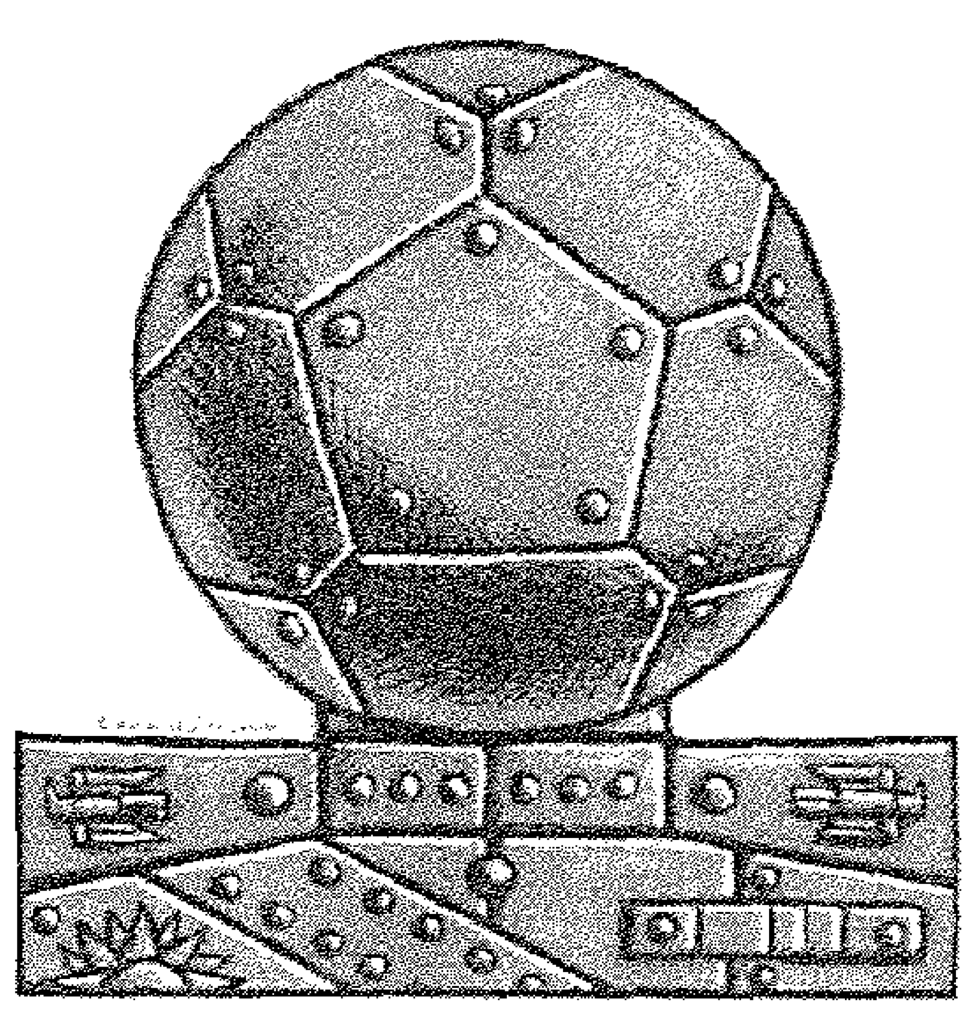
معظم الدول المشاركة. وبجانب الحنين للوطن الذى تطور فى القرن التاسع عشر، فإن المجتمع المحلى شديد التلاحم يفرز نموذجا مغايرا للأخوة الإنسانية العالمية. فى عالم لن يعبر فيه أى شخص عن كراهيته للغير. فى بداية التسعينيات من القرن التاسع عشر، بينما كانت أندية كرة القدم تتشكل فى المدن الصناعية فى كافة أنحاء أوروبا، وبعد قراءته «أيام دراسة توم براون Tom Brown's Schooldays» (رواية لتوماس هيوز Thomas Hughes نشرت عام ١٨٥٧)، واقتناعه بأن المفاهيم الإنجليزية للرياضة النبيلة كانت من بين أرقى تعبيرات النفس البشرية، قرر «بيير كوبرتين Pierre Coubertin» (عالم ومؤرخ فرنسى ومؤسس الألعاب الأولمبية الحديثة، ١٨٦٣-١٩٣٧) أن أفضل ما يخدم الجنس البشرى هو احتفال رياضى يتم فيه التعبير عن الهوية القومية فى شكل مهرجانات وفنون شعبية وبسالة رياضية، مع نسيان كافة العداءات السياسية. وفى عام ١٨٩٦ عقدت أولى الدورات الأولمبية فى العصر الحديث. وقد أدرجت كرة القدم بصورة غير رسمية عام ١٩٠٠ ثم بصورة رسمية عام ١٩٠٨. ولمدة طويلة كانت هى الرياضة الأولمبية التى تجتذب عددا من المتفرجين أكبر كثيرا من أية رياضة أخرى.

كان لـ «كوبرتين» أعداؤه، ومن أهمهم القومى ومناصر الملكية «تشارلز موراس Charles Maurras» (شاعر وناقد فرنسى ١٨٦٨-١٩٥٢) الذى كان معاديا للمباريات مخافة أن تؤدى - كما يعتقد - إلى العالمية (Cosmopolitanism). ولكن بعد حضوره للألعاب الأولمبية فى أثينا ومشاهدته لسلوك الجماهير والرياضيين، بدر إلى ذهن «موراس» أن مثل تلك المهرجانات الدولية يمكن أن يكون لها فى الواقع تأثير معاكس. وقد كتب لاحقا: «عندما يتم تجميع أجناس مختلفة ودفعها إلى التفاعل فيما بينها، فإنها تتناحر فيما بينها وتتنافر حتى بينما يعتقدون أنهم يمتزجون». باختصار، قد يصبح المسرح العالمى هو المجال للتعبير عن أسوأ صور القومية وليس الأخوة العالمية.

إن تحول «موراس» يطرح سؤالا: ماذا يحدث عندما ينتقل فريق رياضى من المستوى المحلى إلى المستوى القومى، وخاصة فى رياضة بدنية عنيفة مثل كرة القدم القادرة على إثارة أعنف المشاعر الجماعية؟ ماذا يحدث عندما تجد الجماهير الغفيرة - ومن بينها الكثير ممن ليسوا مشجعين منتظمين للعبة وليسوا بالتالى على إطلاع واسع بها وبالمشاعر التى تولدها - نفسها وسط معمعة الفوز والخسارة كدولة ضد دولة؟ إن فريق كرة القدم يمثل الأمة - أمة فى حرب فعلية - بأسلوب لا يستطيع الرياضى المنفرد أن يحققه. قبل المباراة الحاسمة بين إنجلترا والأرجنتين - عدوها القديم فى كأس العالم الماضى، أعلنت جماعة «السامريون اللندنيون London Samaritans» (جمعية خيرية من بين أنشطتها تلقى الاتصالات من الراغبين فى الانتحار وتقدم النصح لهم) أنها مهيأة تماما للتعامل مع البؤس الناتج فى حالة خسارة إنجلترا. وبعد فوز اليابان على روسيا - عدو قديم أيضا - رقص أهالى طوكيو فى الشوارع، بينما وقعت أعمال شغب خطيرة وسقط قتيل واحد فى قلب موسكو حيث أقيمت شاشات عملاقة لعرض المباريات. إن جهاز التليفزيون فى المنزل آمن بما يكفى، وفى الاستاد هناك حواجز وقوات شرطة. ولكن حشدا فى ميدان عام يشاهد أمته تخسر أمام عدو قديم ولا شىء يحول بينه وبين - على سبيل المثال - مطعم يابانى (أصيب واحد بأضرار جسيمة فى موسكو جراء أعمال التخريب) هو بالفعل أمر خطير. إن تلك المباريات تذكرنا بأن العولمة لم تفعل شيئا كى تهذب من المشاعر القومية. وربما كان العكس هو الصحيح.

لقد وصل التوتر بين الرؤى المختلفة للرياضة الدولية - المجتمع الحصين من جهة، والأخوة الإنسانية من جهة أخرى - إلى ذروته فى دورة الألعاب الأولمبية ببرلين عام ١٩٣٦. وقد أنشد الجمهور فى حفل الافتتاح «ألمانيا فوق الجميع»، ثم أذيعت رسالة مسجلة لـ «كوبرتين» الذى كان يقترب من سن الثمانين فى ذلك الوقت، تذكر الجميع بأن «الفوز ليس أهم شىء فى الحياة». وقد أعلن الجنرال «باكارو Bacaro» فى خطاب افتتاح كأس العالم بروما بعد ذلك بعامين أن الهدف الأساسى للمباريات هو «إثبات أن الرياضة الفاشية تشارك بمستوى رائع للنموذج النابع من إلهام واحد فريد: الدوتشى».

لقد أصبح الاستاد والمباراة هما المسرح الذى تستطيع فيه جماعتان متعارضتان التمتع بإثارة العصبية القبلية



ومهما كان يعنى - أو لا يعنى - ذلك، فالحقيقة أن منافسات كأس العالم التالية لم تعقد ثانية قبل عام ١٩٥٠ فى البرازيل بعيدا عن أوروبا التى كانت ما تزال منهكة.

لقد تطور كأس العالم كفرع للألعاب الأولمبية مرددا نفس الفلسفة العالمية المثالية. ولكن قرار إقامة مسابقة منفصلة عن الأولمبياد جاء أساسا نتيجة لخديعة. من المفترض أن فرق كرة القدم الأولمبية هى من الهواة، ولكن من الواضح أن كثيرا من اللاعبين كانوا محترفين. إن إنجلترا التى قبلت بالمشاركة وفازت عامى ١٩٠٨ و١٩١٢، انسحبت عام ١٩٢٠ بسبب تلك القضية. وقد فازت أورجواى عامى ١٩٢٤ و١٩٢٨ بفرق محترفة فعليا. وعندئذ كان رد الفعل الوحيد الممكن للكرامة المجروحة للمتنافسين الآخرين هو الاعتراف بالأمر الواقع ومطالبة الفيفا بإقامة مسابقة للمحترفين. وبذلك فإن الظروف التى نشأ فيها كأس العالم ناقضت المبادئ التى تدعى المسابقة أنها تتمسك بها.

إن انتشار التليفزيون هو الذى حول ميزان القوى - أكثر من أى شىء آخر - لصالح عالمية «كوبرتين»، أى رؤية مهرجانية ثرية للرياضة. ففى خلال سنوات قليلة، أضحت الشبكات التليفزيونية - وليس مشترى التذاكر من المشجعين - هى الممول الرئيسى لكرة القدم. وبازدياد خبرة اللعبة بعيدا عن الاستاد، فإنها تفقد وظائفها المحلية لبناء المجتمع، وتضيع إمكانية التنفيس الجماعى. وعند تلك النقطة فإن السلوكيات الشاذة للمشجعين المتطرفين تصبح مثيرة للقلق. وهم يبدون مثل حشود الثلاثينيات الراقصة المتطرفة بصورة مزعجة. ويجب الآن القضاء تماما على كل ما يهدد الرؤية الإيجابية للعالم ويمكن أن يصل إلى العائلات بالمنازل حيث يجلس الأطفال والجدات حول التليفزيون. يبدو أن مسابقة كأس العالم السابقة التى نظمت فى آسيا هى أول حدث رياضى يخلو من الشغب كوضع طبيعى. فكل من طوكيو وسيول تقعان على مسافة آمنة من موسكو ومانشستر وبرلين وبيونس أيرس. ولا يلتقى المشجعون المتنافسون مع بعضهم البعض بأعداد تذكر. كيف كانت ستكون بهجة «كوبرتين» تجاه مراسم الاحتفال المسرفة مع كل ألوان الأبهة الآسيوية

والوجود الساحرة للراقصات الكوريات الأنيقات.

ومع ذلك، ورغم ترويض الجماهير المشاكسة، على الأقل داخل الاستاد وحوله، ومع حرية كاميرات التليفزيون فى التركيز بالكامل على مجريات اللعب، فماذا نرى فى أرض الملعب؟ ليس لدى علم بأى لعبة أخرى يتوطن فيها الغش ويتغاضى عنه مثل كرة القدم، حيث الكذب وسوء النية هو القاعدة السائدة فى العادة. ويتم الاعتراض على كل قرار حتى عندما يكون ما وقع واضحا كالشمس. ويصر اللاعب أنه لم يركل الكرة خارج حدود الملعب بينما الجميع شاهده يفعل ذلك. ويحتج لاعب آخر بأن الكرة عبرت الخط بينما رأى الجميع أنها لم تعبر. ويقوم مدافع تجاوزه أحد المهاجمين بسرعته القصوى بإمساكه من قميصه وإيقافه ثم ينكر فورا أنه فعل ذلك. ويقوم مهاجم عاجز عن تجاوز المدافع بالاصطدام به والسقوط مدعيا أنه تم دفعه.

بعد دقائق قليلة من بداية مباراة الدنمارك والسنغال فى كأس العالم الماضية، تبادل اللاعبون اللكمات. وأثناء مباراة تركيا والبرازيل وبينما اللعب متوقف مؤقتا، قام لاعب تركى غاضب بركل الكرة فى البرازيلى ريفالدو الذى تم اختياره كأفضل لاعب فى العالم عام ١٩٩٩. وبعد أن اصطدمت الكرة بركبته، سقط ريفالدو على الأرض متظاهرا بتلقى ضربة عنيفة فى وجهه. وقام حكم المباراة بطرد اللاعب التركى وحرمانه من المباراة. وفى مقابلة لاحقة، ادعى ريفالدو أن ذلك جزء طبيعى من كرة القدم. وقام المنظمون الذين وعدوا بالتصدى بقوة لأى سلوك مخادع، بتغريم ريفالدو سبعة آلاف دولار، وهو مبلغ ربما يمثل أجر يوم واحد لنجم كرة القدم، ولكنهم لم يوقفوه عن اللعب ولو لمباراة واحدة. فمن الأمور الحاسمة لعائدات التليفزيون أن تحقق البرازيل تقدما فى المسابقة.

ومما يلفت النظر فى كرة القدم أنها بينما تثير فى جانب المشجعين مشاعر تشبه إلى حد كبير ما يربطهم بالأصولية الدينية والمثالية السياسية، فعلى المرء ألا ينسى أبدا أنها بالنسبة للمنظمين مجرد تجارة. وقلائل فقط هم الذين يعتقدون أن قرارات الحكام لا تحابى أحيانا الفرق الغنية. وقد وجهت اتهامات بفساد واسع النطاق إلى الفيفا ورئيسه «سيد بلاتر Sed Blatter» على وجه الخصوص. وعندما تم إلغاء هدفين إيطاليين يبدوان صحيحين أثناء المباراة ضد كرواتيا، بدأ كثير من الإيطاليين فورا فى التساؤل عما إذا كانت هناك مؤامرة ضدهم. وبعد إقصاء إيطاليا لاحقا على يد كوريا الجنوبية بعد إلغاء هدف إيطالى آخر، لمح بعض كبار الكتاب الرياضيين الإيطاليين وبعض الساسة إلى أن حكم المباراة كان يتلقى تعليماته من الفيفا.

وبعد أبهة ومثالية مراسم الافتتاح، ماذا كان يمكن أن يكون أكثر وضوحا من ذلك المشهد وما يحيط به من شكوك؟ أو ماذا كان يمكن أن يؤجج المشاعر أكثر من ذلك؟ رغم نجاحه المؤكد على ما يبدو، فإن الإطار العام للأخوة الإنسانية يتضمن أيضا سلوكا مشينا من جانب اللاعبين، وارتياب واستياء وتلذذ بمعاناة الآخرين من جانب المتجعين. ومن المفارقة أنه بدلا من أن تؤدى الأحداث المؤسفة والمشاعر السلبية إلى إضعاف اهتمام الناس بكرة القدم، فإنها بالتحديد هى ما يؤدى إلى زيادة ذلك الاهتمام القوى. لقد تمثلت عبقرية الفيفا - بمفهوم العلاقات العامة على الأقل - فى تسويق حدث إيجابى خال من العنف ظاهريا، بينما تنقل شاشات التليفزيون المشاعر المتطرفة والشغب العرضى فى الشوارع بعيدا على مسافة آلاف وآلاف الأميال.

وفى النهاية، فإن كرة القدم تكون أكثر عقلانية ومتعة فى الاستاد ومع هياج الجمهور المحلى، عندما يقف المجتمع هناك وراء فريقه مستعدا للفرح أو المعاناة. وبعد فوز إيطاليا المستحق على الإكوادور فى كأس العالم الماضية والذى شاهده الجميع على التليفزيون، كتب أحد المشجعين على موقع فريقه المفضل على الإنترنت:

«فازت إيطاليا بجدارة، ولكن البهجة التى أشعر بها عندما أجلس فى المدرجات وأشاهد فريق فيرونا يلعب، شىء لا يستطيع الفريق القومى أن يمنحه لى حتى لو فاز بكأس العالم. إنها مسابقة يكون فيها للنفاق والولاء اليد العليا. إلى الأمام يا هيلاس!

بالطبع فإن اسم ذلك الفريق المحلى «هيلاس» اقترحه معلم المدرسة على الشباب الذين أنشأوا الفريق قبل مائة عام، وهو الكلمة الإغريقية المرادفة لاسم اليونان. ■

كتاب الزاوية

من أدب الفرس والترك

حسين مجيب المصرى

يعد رائد الأدب الإسلامى المقارن فى العالم العربى الراحل الدكتور حسين مجيب المصرى، أحد أهم من تناولوا بالدراسة تاريخ الأدب وتطوره فى إيران وتركيا. وقد كان من أوائل من تنبهوا وعمل على تقديم هذا الأدب إلى القارئ العربى، وهذا الكتاب الذى أصدره المؤلف للمرة الأولى عام ١٩٥٠ اعتمد فيه على مراجع لا تحصى بلغات شرقية عديدة وعقد المقارنات والموازنات بين الأدبين التركى والإيرانى (الفارسى)، الأمر الذى اقتضى منه الخوض فى مختلف التيارات الروحية والأدبية والاجتماعية فى إطار تاريخى يجمع شتاتها ويشكل منها نسقًا معرفيًا جديدًا وفريدًا.

ويقول المؤلف فى مقدمته: هذا كتاب ينطوى على فصول قصار تنتظم صدرًا صالحًا من أدب الفرس والترك، وتجلو صورًا من تاريخهم على نحو آمل أن يشوق ويروق. ويجعل المطالعة فى مرغوب كل مطالع يود أن يستفيد ما ليس عنده ويتعلم ما لم يعلم. وقد حرصت الحرص الشديد على أن يكون خطابى فى هذه الصفحات إلى العالم المتخصص والمطلع المتأدب سواء بسواء، فأرضيت الأول ما وسعنى أن أرضيه بمادة درستها حق دراستها، وطلبتها فيما تحصل لدى من مصادرها، كما تحببت إلى الثانى بعرضها عليه فى صورة تدفع الملالة عن نفسه وتثير شوقه إلى المزيد مما يفيد.

وقد أعادت الدار الثقافية للنشر بالقاهرة، نشر هذا الكتاب عام ١٩٩٩. وقد اختارت «وجهات نظر» مقتطفات منه لتقديمها.

مـــا الـــــذى

«جـــدار.. وبُـــوَر استيطانية وتفرقة عنصرية»

[١]

بعد أسابيع من المساومة مع الأحزاب الصغيرة، التى لكل منها مصالحه الخاصة، شكّل أخيراً إيهود أولمرت زعيم حزب كاديما الجديد حكومة إسرائيلية جديدة. وقد خيمت على الحملة الانتخابية ظلال شبح رئيس الوزراء الإسرائيلى أريئيل شارون الراقد فى غيبوبة للشهر الثالث بعد إصابته البالغة بسكتة دماغية ونزيف فى المخ، وإن كان لا يزال رسمياً فى منصبه. وتعهد الحمائم والصقور بولائهم الذى لا ينتهى لـ«الميراث» الخاص به، أياً ما كان ذلك التراث. فقد كان شارون رجلاً أهوج مثيراً للجدل، ومتناقضاً إلى أقصى حد؛ ربما كحال الكثير من الرجال المثيرين للاهتمام، أما الأغبياء والكسالى فهم فقط الذين تتسم شخصياتهم بالبساطة. وهو لم يكن رجل سلام، كما أسماه الرئيس بوش ذات مرة، بل إنه يعزف نغمة لا تتماشى مع عصره. ففى عصر القضاء على الاستعمار، وبعد نصف قرن من الحرب الفرنسية الجزائرية، كان مسئولاً على نحو رئيسى عن «مشروع الاستيطان» الضخم فى الأراضى المحتلة، وهو ما يُسمى فى كثير من الأحيان بالخطأ التاريخى الكبير لحرب ١٩٦٧. فما زالت المناطق المحتلة تفسد الحياة الإسرائيلية كأنها مرض هائل رهيب. وتبدو أيامها معدودة. وقد كتبت ريبيكا ويست: «إنى أكره جثث الإمبراطوريات. فهى تُنْتِن نتناً شديدة بحيث لا يمكننى تصديق حتى أنها كانت تتمتع بالصحة والعافية وهى حية.»[١]

كانت إمبراطورية صغيرة لا شأن لها، حتى قبل أن يصيب السكان الملل. فقد اختار المستعمرون الأخرون النُخب المحلية، وتزاوجوا معها، وبنوا الجامعات وشبكات المياه الكبيرة والمرافق العامة الأخرى للمستعمَرين: أما إسرائيل فقد فعلت القليل من هذا النوع. وكانت التحسينات كلها تقريباً التى طرأت على المناطق منذ عام ١٩٦٧ بتمويل من السعوديين ودول الخليج. ففى عام ٢٠٠١ لم تكن هناك إشارة مرور واحدة فى المناطق المحتلة. وكانت سوقاً حكراً ومصدراً للعمالة الرخيصة؛ وكان لذلك آثاره العكسية فى النهاية، حيث إنه أخّر تحديث التشييد وغيره من الصناعات. ويظل مشروع الاستيطان عقبة رئيسية، بل يقول البعض إنه العقبة الرئيسية، فى سبيل التوصل إلى تسوية تاريخية لإنهاء الحرب التى امتدت مائة عام بين حركتين قوميتين على قطعة الأرض نفسها.

ويصف جيرشوم جورينبرج ببراعة كيفية ظهور تلك الإمبراطورية المصغرة إلى الوجود بعد حرب ١٩٦٧ القصيرة فى كتابه الرائع The Accidental Empire الذى اعتمد على أبحاث أصلية. فالإمبراطورية لم تتأسس فى نوبة من نوبات شرود الذهن، كما قيل (خطأ) فى يوم من الأيام عن الإمبراطورية البريطانية، بل كانت نتيجة لقرارات متعمدة لحكومات اليسار واليمين الإسرائيلية، كما يوضّح توثيق جورينبرج. فهو يبين فى هذا الكتاب، الذى كان يمكن أن يصبح فصلاً إضافياً معبراً فى كتاب باربرا تكمان The March of Folly، كيف كان هناك بالفعل ثمانمائة مستوطن يعيشون فى الضفة الغربية بعد حرب عام ١٩٦٧ بسبعة أشهر فحسب. فقد كان الدافع المتسلط على تفكير الحكومات الإسرائيلية كافة بعد عام ١٩٦٧ لإقامة «وقائع على الأرض» (الترجمة العبرية لـ faits accomplis) هو كذلك رد فعل انعكاسى أعمى تقريباً ولّدته تجربة الماضى؛ أى ممارسة آباء إسرائيل المؤسسين لإضافة «دونم بعد الآخر» وذكرى قرار التقسيم الذى أصدرته الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٧ التى خصص لإسرائيل على وجه الدقة تلك الأجزاء من فلسطين التى



يريده أولمرت؟

أموس إيلون

كان يعيش بها يهود كثيرون بالفعل. وبعد حرب عام ١٩٤٨، التى هجر أثناءها حوالى ٦٠٠ ألف فلسطينى البلاد أو طُردوا منها، اعترفت معظم الدول بإسرائيل داخل ٧٨ بالمائة من فلسطين فترة الانتداب، وهى منطقة أكبر بكثير مما خُصص لها فى قرار التقسيم الأصلى.

كما يقول جورينبرج، فقد روّجت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة من اليمين ومن اليسار لمشروع الاستيطان، متجاهلةً الاحتجاجات الصادرة فى أوقات مختلفة عن أقلية من أعضاء مجلس الوزراء وحفنة من المعارضين خارج الحكومة فى الأكاديمية والصحافة. وكان المقصود من المشروع فى البداية تزويد إسرائيل بحدود آمنة، كما جاء فى قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ الذى جرت الموافقة عليه بعد حرب عام ١٩٦٧. ولكن سرعان ما أصبح وقف ذلك المشروع غير ممكن. وكانت النتيجة، كما يقول جورينبرج، شيئًا لا يقل عن «بوسنة خُلقت خلقًا اصطناعيًا». وكان أول المروجين له العلمانيون شمعون بيريس، وموشى ديان، وإيجال آلون، الذين قيل عنهم إنهم بعد إعلان موت الإله الأب تزوجوا الوطن الأم. وأُطلق على المستعمرات الأولى باستحياء «مخافر أمامية». وسأل ريموند آرون، الذى كان يزور إسرائيل فى ذلك الوقت، رئيس الوزراء ليفى أشكول عما إذا كان أمر تمرد العرب كما حدث فى الجزائر لا يشغله. ويورد جورينبرج رد أشكول، وهو «لا. فهذه ليست الجزائر. ويمكننا خنق الإرهاب فى المناطق المحتلة».

بعد أشكول، روّج رؤساء الوزراء الآخرون، ومنهم جولدا مائير وإسحاق رابين، لمشروع الاستيطان؛ إلا أنه لم يكن بينهم من هو أكثر التزامًا وفاعلية على نحو لا يعرف الرحمة مثل شارون، الذى شغل على التوالى مناصب وزير الإسكان، ووزير البنية التحتية (كالطرق)، ووزير

The Accidental Empire: Israel and the Birth of the Settlements, 1967-1977

(امبراطورية بالمصادفة: إسرائيل ومولد المستعمرات)

Gershom Gorenberg
Times Books, 2006

ترجمة: أحمد محمود

الدفاع، وأخيرًا رئيس الوزراء. ومع أن شارون ادعى ذات مرة أنه يحتفظ بكتاب أليستير هورن عن الجزائر The Savage War of Peace على الكومودينو المجاور لسريره، فلابد أنه أساء فهمه بشكل مفجع. فلا يمكن أن يكون هذا الكتاب قد دله على ما يفعله، بل من الممكن أن يكون قد دله على ما لا يفعله. وكان شارون يُسمى «البلدوزر الكبير» الذى نشر المستوطنات ووسعها إلى حد بعيد، غير عابئ بالنتائج الإنسانية والسياسية. ومن المفارقة أن تصرعه سكتة دماغية فى اللحظة نفسها التى حاول فيها متأخرًا جدًا. وربما بعد فوات الأوان. أن يفكك، ولو جزئيًا، ما كان قد صنعه فى أيام شبابه، وذلك فى خضوع منه لموجات الإرهاب.

(«وجهات نظر»: التزامًا بأمانة الترجمة تترك المجلة المصطلحات الواردة بالنص الأصلى كما هى. بغض النظر عن اختلافها مع ما يذهب إليه الكاتب من وصم العمليات الفدائية الفلسطينية بالإرهاب).

وفى الوقت نفسه مازال الإرهاب مستمرًا. فطبقًا لما ذكرته مصادر الجيش الإسرائيلى، جرى اعتراض حوالى سبعين تفجيريًا انتحاريًا حتى الآن خلال العام الحالى، وإن كان أحدهم قد نجح فى الوصول إلى هدفه وفجّر نفسه فى مطعم مزدحم بتل أبيب. وهو لن يكون الأخير. فالجحيم هو الحقيقة التى تُرى بعد فوات الأوان، كما قال هوبز. وكان شارون تكتيكيًا رائعًا، ولكنه كان إستراتيجيًا غايةً فى السوء. فقد شن شارون حربًا مشئومة فى لبنان كان يأمل بها القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية هناك كما قُضى عليها فى الأردن. وأذكر مقابلته لأول مرة بعد حرب عام ١٩٦٧ بوقت قصير مع محررى صحيفة «هاآريتس». كان لا يزال جنرالاً فى الجيش فى ذلك الوقت، وكان يحظى بإعجاب كبير فى حرب سُميت بحرب الأيام الستة تيمنًا بأيام الخلق الستة. وحاول شارون إقناع المحررين بأنه لابد لإسرائيل أن تضم المناطق التى استولت عليها؛ وهى شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة والضفة الغربية ومرتفعات الجولان. وقال إنه إذا كان الفلسطينيون يريدون دولة، فيمكنهم الإطاحة بالملك حسين. فالأردن هو ما ينبغى أن يكون الدولة الفلسطينية؛ ذلك أن مئات الآلاف من الفلسطينيين كانوا يعيشون بالفعل هناك على أية حال. وقد أقنع بذلك عددًا قليلاً من الحاضرين. وبما أنه كان فى الأربعين من عمره فى ذلك الوقت، فقد كان لا يزال أنيقًا ومتورد الوجه وشعره أشقر كث. وهز محرر عجوز خلفى، وكان من أصل ألمانى وشهد سقوط جمهورية فايمار، رأسه وقال مغمغمًا بالألمانية: Ein Kriegsgott! (إله حرب تيوتونى).

[٢]

لم تكن الحملة الانتخابية الأخيرة زاخرة بالأحداث، بل وكانت مملة، حيث قلّت فيها الدراما ولم تكن هناك مناظرات تليفزيونية. وكان الناخبون يعرفون أن أولمرت ليس شارون؛ إلا أنهم لم يكونوا يعرفون عنه ما يزيد كثيرًا عن ذلك. وفى بلد يصوت فيه حوالى ٨٠ بالمائة، وصل الامتناع عن التصويت إلى أعلى نسبة له فى أى وقت، حيث بلغ ٤٠ بالمائة تقريبًا؛ وكان يظن أن الممتنعين عن التصويت هم فى الغالب من الشباب الذى ملّ الفراغ، وفساد الساسة الذى تكرر مرارًا فى السنوات الأخيرة، والعيوب شديدة الوضوح فى النظام الانتخابى النسبى الإسرائيلى. وطبقًا لاستطلاع رأى الناخبين بعد خروجهم من مقار الاقتراع، فقد صوت عدد غير قليل من الشباب، ربما من باب المزاح، للثمانينيين فى حزب «المتقاعدين» بقيادة كبير الجواسيس الذى كان مسئولاً عن چوناثان پولارد. وبذلك فاز الحزب بسبعة مقاعد فى الكنيست وأصبح كبير الجواسيس السابق عضوًا فى مجلس الوزراء. وقد خيبت نتائج الانتخابات آمال الأحزاب جميعها، ماعدا «حزب المتقاعدين». ذلك أنها جميعًا هُزمت بطريقة أو بأخرى. كما أن حزب أولمرت «الوسطى» كاديما، الذى أسسه شارون بعد خروجه من الليكود، فاز بأصوات أقل مما كان يأمل فى الحصول عليه، حيث حصل على تسعة وعشرين مقعدًا بدلاً من واحد وأربعين مقعدًا كان شارون يأمل فى الحصول عليها قبل إصابته بالسكتة الدماغية. واضطر أولمرت إلى الاتجاه للمتدينين وغيرهم من شركاء الائتلاف الذين لهم همومهم الخاصة ولا يشاركونه أهدافه بالضرورة.

وكان إيهود أولمرت حتى وقت قريب شخصية ضئيلة الحجم نسبيًا. فقبل ستة أشهر لم يكن كثيرون يعتبرونه خليفة شارون المحتمل. ولو كان شارون قد أُصيب بالسكتة الدماغية قبل ذلك ببضعة أسابيع، لما انقسم حزب الليكود الحاكم إلى حزبين ولأصبح الصقر بنيامين نتنياهو رئيسًا للوزراء. ويبدو مستقبل نتنياهو السياسى الآن موضع شك. فقد أحدث شعاره فى الانتخابات «أولمرت سوف يقسّم القدس، ونتنياهو سوف يحافظ عليها موحدة» أثرًا عكسيًا. وفقد حزب الليكود الذى يرأسه ثلثى أصوات ناخبيه، حيث ذهب معظمها لكاديما. وفقدت «القدس الذهبية»، وما يسمى بـ «قلب الشعب اليهودى» و«صخرة وجودنا» بعض بريقه. بل يبدو الآن أن هناك تأييدًا لتقسيم القدس أكبر كثيرًا مما كان يفترض فيما مضى.

ولأولمرت حياة عملية متنوعة فى السياسة الإسرائيلية لا تكاد توحى بشىء. ولأنه ابن عائلة أيدت إرهابيى الأرجون اليمينيين فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين، فقد كان فى الشهور التالية لحرب عام ١٩٦٧ صقرًا حربيًا شرسًا. وكان عضوًا فى العديد من الجماعات اليمينية الصغيرة ويقال إنه صك أحد شعاراتها وهو «الأرض المحررة/ تظل فى يدنا للأبد». وهو نظم يفتقر إلى الرشاقة فى لغته العبرية، مثل افتقاره إليها فى اللغة الإنجليزية. وفى عام ١٩٧٣ كان أصغر الرجال سنًا الذين انتخبوا فى الكنيست. وبصفته عمدة القدس فى تسعينيات القرن العشرين، أصبح شخصية قومية ولكنه تسبب فى كارثة بعد أن أمر بطيش بفتح نفق قديم يعود إلى عهد الإمبراطور هيرودس قريب من الأماكن المقدسة الإسلامية على جبل الهيكل القديم. وأدى ذلك إلى معركة غير متوقعة استمرت ثلاثة أيام بين المتظاهرين المسلمين والشرطة، مما أسفر عن موت تسعة وسبعين فلسطينيًا ومئات الجرحى. وفى اليوم الثانى كان لابد من استدعاء الجيش. ومات كذلك أربعة عشر جنديًا إسرائيليًا. فقد كان الفلسطينيون، كدأبهم فى كثير من الأحيان، يشكون أن اليهود يوشكون على تدمير المسجد وإعادة بناء الهيكل اليهودى فى المكان الذى كان يقوم عليه قبل ألفى عام.

وكانت تلك أسوأ مذبحة من نوعها فى القدس الشرقية منذ احتلال إسرائيل لها فى حرب عام ١٩٦٧. و مؤخرًا ذكرت زوجة أولمرت، عليزا، وهى فنانة معروفة بتأييدها لحركة السلام الآن الإسرائيلية، أن تلك الحادثة كانت السبب فى أكبر أزمة شهدتها حياتهما الزوجية التى امتدت ثلاثين عامًا. ويشارك أبناؤهما أمهم فى آرائها السياسية. وقد رفض أحد الأبناء تأدية الخدمة العسكرية فى الجيش الإسرائيلى. وقبل الانتخابات الأخيرة قالت هى إنها لم تصوت لزوجها قط. أما هذه المرة فقد صوتت، حيث قالت إن أولمرت طرأ عليه «تغير عميق». وهى آسفة فقط لأن هذا التغير لم يحدث منذ ثلاثين عامًا.

تولى مجلس وزراء أولمرت الجديد مهامه فى أوائل مايو. وإسرائيل على الدوام دولة صغيرة ذات مجالس وزراء كبيرة. وقد

ما الذى يريده أولمرت؟

يكون مجلس الوزراء الجديد الأكبر فى تاريخ إسرائيل؛ بل إن أحد المعلقين يشكو من أنه فى حجم مجلس وزراء الصين. وكما هو متوقع، فقد خلا هذا المجلس من أعضاء فلسطينيين إسرائيليين؛ وما يدعو لمزيد من الدهشة أنه ليس به وزراء من حزب المهاجرين الروس الذى يزعم الآن أنه يمثل مليون إسرائيلى تقريباً. والرجلان القويان فى مجلس الوزراء الجديد هما أولمرت ورئيس حزب العمل عامير بيريتس، وهو وزير الدفاع الجديد. و بيريتس، النقابى المقاتل، وافد جديد إلى السياسة القومية. وقد جاء هو وأولمرت من طرفى نقيض، سياسياً واجتماعياً. فبيريتس ابن عائلة من المهاجرين المغاربة نشأ فى بلدة جديدة كالحة على حواف قطاع غزة؛ أما أولمرت فابن إحدى عائلات إسرائيل العريقة والميسورة، وهو محام بارز، و«مليونير». ولكن رغم ما بينهما من اختلافات. ياقة زرقاء مقابل ياقة بيضاء، وأحد الصقور مقابل أحد الحمائم، والهامش مقابل المركز. فإنه قد يتضح أن أولمرت و بيريتس ثنائى متوافق، كما كتب دانييل بن سيمون مؤخراً فى صحيفة «هاآريتس». ومع أن حزب العمل الذى يرأسه بيريتس قد فاز بتسعة عشر مقعداً فحسب، فإن كثيرين يرون فى شراكتهما شيئاً يبشر بالأمل؛ غير أن سبب ذلك غير واضح، ربما لأنه بخلاف ذلك لا يبدو أن هناك أى أساس كبير للأمل.

تولى بيريتس قيادة حزب العمل المحتضر بعد فوزه على المرشح الدائم شيمون بيريس البالغ من العمر حالياً اثنين وثمانين عاماً، وهو انتهازى لم يفز قط فى انتخابات قومية. وعندما خسر رئاسة الحزب لمصلحة بيريتس قفز على حزب كاديما كى يُكافأ بوظيفة اسمية فى مجلس الوزراء. وعند أداء اليمين ظهر إلى النور طابع السياسة الحزبية الإسرائيلية المحجوب فى كثير من الأحيان. حين أُعلن رسمياً أن بيريس أودع خزانة محاميه اتفاقاً موقعاً مع أولمرت مازال مضمونه سرياً. ونأمل أن يكون لهذا الاتفاق صلة بتحقيق السلام وليس بسلطة بيريس المستقبلية فى الحكومة الجديدة.

بيريتس هو أول زعيم عمالى منذ سنوات طويلة ليس جنرالاً سابقاً، وأول زعيم كان من الحمائم طوال حياته السياسية، وأول زعيم لا يدخل الانتخابات ببرنامج «الأمن أولاً» كما فعل أسلافه جميعاً من بن جوريون إلى رابين وباراك وشارون. والواقع أن بيريتس وعد الناخبين بخفض ميزانية الدفاع المتضخمة. وقال بيريتس إنه بدلاً من إنفاق المال على المستوطنات، سوف ينفقه على محاربة الفقر، ورفع الحد الأدنى من الأجور، وزيادة معاشات تقاعد كبار السن التى خفضتها حكومة الليكود السابقة بوحشية.

لم يُخفِ بيريتس كراهيته لدستة أو نحو ذلك من الجنرالات المتقاعدين فى الدرجات العليا بحزب العمل ولم يأخذ معه منهم إلا واحداً فى مجلس الوزراء الجديد.

وأوضح بيريتس رأيه بأن مواقف المؤسسة العسكرية الإسرائيلية فى السنوات الماضية اتسمت بقدر زائد عن الحد من العدوانية. وقد عارضت، فى البداية على الأقل، معظم مبادرات السلام، بما فى ذلك زيارة السادات للقدس واتفاقية أوسلو.

كانت الأسابيع الأولى لأولمرت وهو يتمتع بكامل سلطاته مشجعة فى بعض النواحى. فقد كان الصراع الإسرائيلى الفلسطينى لسنوات مسألة انتقام متبادل، و«رد»، وتصفية حسابات. وكان الشعور السائد هو «لا يمكن أن نظل صامتين أو لا نفعل شيئاً. إن لم ننتقم، سوف يشعرون بحرية ويفعلونها مرة أخرى.» وقد أوقف أولمرت. فى أسابيعه الأولى على الأقل، عملية إدارة الانتقام بشكل انعكاسى. وقاوم الحديث الطائش عن «معاقبة» حكومة حماس الجديدة فى غزة على إطلاق صواريخ القسام البدائية محلية الصنع غير الفعالة من غزة فى اتجاه إسرائيل. فهى تسقط فى حقول مفتوحة ولا تحدث أضراراً كبيرة، إن أحدثت. ونجده خلال الأسابيع القليلة الأولى فى منصبه على الأقل يمتنع عن الرد بقذائف مضادة؛ وهو ما قد يكون بتأثير من وزير الدفاع الجديد ذى الاتجاه الحمائمى. ولكنه سرعان ما ارتد إلى الممارسة القديمة وسمح بالاغتيال المستهدف لاثنين من زعماء حماس فى قطاع غزة. إلا أنه قاوم المطالبة بمعاقبة إيران على تهديدات الرئيس محمود أحمدى نجاد بمحو إسرائيل من على الخريطة. وهو مازال يأمل فى قيام مصر والأردن بأعمال القمع من أجله وفى استمتاعه بالعلاقات المحسَّنة إلى حد كبير مع الأوروبيين.

فى هذا الصدد لم يكن هناك ما يمكن أن يحدث لأولمرت أفضل من فوز حماس فى الانتخابات الفلسطينية الأخيرة. فبضربة واحدة حسَّنت تلك الانتخابات موقف إسرائيل فى الخارج. وأولمرت راضٍ بترك الولايات المتحدة والأمم المتحدة والأوروبيون يعاقبون حماس على رفضها المستمر لنبذ العنف، ونزع سلاح الإرهابيين، والاعتراف ليس فقط بإسرائيل وإنما بكل الاتفاقيات الفلسطينية السابقة مع إسرائيل كذلك. وحين كان الرئيس المصرى حسنى مبارك يتحدث مع التليفزيون الإسرائيلى فى أوائل شهر أبريل، طلب من إسرائيل أن تصبر على حماس، قائلاً: «اعطوهم وقتهم. فقد كان هناك وقت رغبت فيه مصر فى إلقائكم فى البحر.... فأين أنتم الآن؟ أفى البحر؟» ولكن مبارك فرض بعد ذلك قيوداً جديدة على الفلسطينيين المسافرين من غزة إلى مصر، ولم يجد وزير خارجيته قط وقتاً لمقابلة وزير الخارجية الفلسطينى الجديد.

وترفض المملكة العربية السعودية والأردن كذلك استقبال وزير خارجية حماس. بل إن البنوك العربية خضعت للضغط الأمريكى والإسرائيلى بعدم تحويلها الأموال للفلسطينيين. ومن جانبه رفض أولمرت فى البداية تحويل الجمارك الفلسطينية وغيرها من الرسوم المفروضة على السلع التى يستوردها الفلسطينيون من الخارج وتحتجزها إسرائيل. وفى الحادى عشر من مايو فقط، حين تسبب نقص الأموال لدى الفلسطينيين فى نقص المواد الغذائية وازدياد حدة الأزمة الإنسانية فى غزة وأماكن أخرى، لأنَ أولمرت وحوَّل بعض الأموال المحجوزة للسلطة الفلسطينية. وفى الوقت نفسه وافقت حكومة أولمرت على قرارات اللجنة الرباعية. التى تضم الولايات المتحدة والأمم المتحدة والاتحاد الأوروبى وروسيا. الخاصة بتقديم المزيد من الدعم الإنسانى للسلطة الفلسطينية. ومع ذلك مازال أولمرت يتجاهل الرئيس الفلسطينى محمود عباس، الذى ما فتئ يدعو إسرائيل إلى استئناف محادثات السلام. ويقول أولمرت إن عباس الآن ليس الشريك الكفء فى عملية السلام. وقد يكون محقاً فى ذلك. فغزة والضفة الغربية تبدوان على شفا حرب أهلية بين حماس والفصائل الأخرى. وفى منتصف مايو زعمت مصادر فلسطينية أن أعضاء حماس كانوا يتآمرون على قتل عباس.

إن خطة أولمرت الحالية هى «فك الارتباط» مع الفلسطينيين. حتى وإن اقتضى الحال أن يكون من جانب واحد. بالانسحاب من أجزاء من المناطق المحتلة إلى خطوط غير محددة، ولكن ليس إلى حدود ما قبل ١٩٦٧؛ الأمر الذى مازال الفلسطينيون يصرون عليه. ويَعِد أولمرت بالحصول على موافقة المستوطنين وموافقة الفلسطينيين على حدود جديدة يحددها الجدار الذى يجرى بناؤه فى الضفة الغربية. ولكن إذا لم تكن تلك الموافقة متاحة. وهو الأرجح على ما يبدو. فسوف يسعى على أقل تقدير للحصول على موافقة الحكومات الصديقة فى أوروبا وكذلك الولايات المتحدة. وكانت تلك الفكرة فى الأصل فكرة شارون، وإن كان هناك من يقول إنها صيغت بتأثير من أولمرت.

لا يزال «الانسحاب» كلمة قذرة فى إسرائيل. ويتحاشى أولمرت استخدام هذه الكلمة. فهو يفضل الاصطلاحات المحسنة مثل «فك الارتباط» أو «التقارب» أو «هيتكانسوت» التى استُعملت كثيراً فى



فى خطابه الذى ألقاه فى بداية توليه منصب رئيس الوزراء، ظل أولمرت يؤكد على أن لإسرائيل حقوقًا تاريخية لا يمكن التخلى عنها فيما يتعلق بالأرض الواقعة غرب نهر الأردن كلها.

الفترة الأخيرة، وهى كلمة عبرية تتحدى الترجمة توحى بضم الصفوف داخل صدر العائلة الدافئ. وفى الحملة الأخيرة فاز أولمرت مقابل وعد بـ«هيتكانسوت» بعدد من الأصوات يساوى ما خسره نتانياهو من أصوات لمعارضته إياها. ويتحدث بيريس عن «قطع الصلة بالماضى».

وفى الوقت الراهن هناك ثلاث عقبات جلية تقف فى سبيل خطة أولمرت. العقبة الأولى عقبة برلمانية. ففى ظل عدم وجود أغلبية برلمانية صريحة، يتردد أولمرت فى الاعتماد فقط على عدد قليل من الأعضاء العرب واليساريين فى الكنيست قد يوفر له فى أى الأحوال هامشًا ضيقًا جدًا؛ وهو مازال يأمل فى الحصول على أغلبية لا بأس بها لتمرير خطته الخاصة بـ«التقارب». وهو لهذا السبب بحاجة إلى المتدينين وشركاء التحالف الآخرين الذين لا يؤيدون الخطة، أو يؤيدونها تأييدًا جزئيًا. والعقدة الثانية عقدة دولية. فأولمرت يخطط لإجلاء حوالى ٧٠ ألف مستوطن خلال عامين أو ثلاثة أعوام من المستوطنات النائية أو المعزولة، تاركًا بقية المستوطنات. أكثر من ٤٠٠ ألف مستوطن. حيثما هى. ولن يكون ذلك بالأمر اليسير، خاصةً إذا ظلت العقوبات الاقتصادية المفروضة على الفلسطينيين تقود إلى موجات جديدة من الإرهاب. وقد نُقل عن أحد أقرب مساعدى أولمرت قوله إنه لابد من جعل الفلسطينيين يتبعون «الريجيم:... جوعهم، ولكن دون أن تُميتهم من الجوع». ومع ذلك فقد سمعت أحد الخبراء الإسرائيليين فى الشئون العربية يقول إن تجويعهم وإفلاسهم لن يجعلهم ألطف، بل سيحيلهم أشد نحولاً وخسة. وقال المساعد نفسه إن خطة «التقارب» سوف تضع الدولة الفلسطينية المقترحة فى «الفورمالديهايد». كما قال إن الفلسطينيين لن يحصلوا على دولتهم إلا بعد أن يصبحوا فنلنديين.

وطبقًا لخطة أولمرت، فسوف يُعاد توطين المستوطنين الذين سيُجلون عن المستوطنات النائية فى أماكن أخرى بالضفة الغربية المحتلة، فى مكان ما خلف السور الذى يرتفع خمسة أمتار بصفوفه المحصنة من الأسلاك الشائكة، والكشافات، ومناطق الموت، والإنذارات الإلكترونية، والكاميرات الرقمية، وغيرها. وقد يقيم البعض منهم بالقرب من المستوطنات الحالية الكبيرة التى سيكون الجلاء عنها غير واقعى، كما قال جورج دابليو بوش فى رسالة إلى شارون أبرزتها وسائل الإعلام.

المشكلة هنا هى أنه لكى تكتسب تلك الحدود الجديدة المشروعية، أى تصبح لها صفة الدوام، لابد من تأكيدها وتعزيزها من جانب الطرف الآخر. فالخطوات الأحادية لا تخلق المشروعية ولا الأمن.

وقد اتضح ذلك منذ بضع سنوات بعد انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان. فقد كان الانسحاب ناجحًا لأن إسرائيل عادت إلى حدود معترف بها دوليًا. والحدود الإسرائيلية اللبنانية فى الوقت الراهن هادئة على نحو لم يحدث منذ سنوات.

دعت الحكومة المقاولين إلى تقديم العطاءات لبناء منازل جديدة، بجدول زمنى سريع، لمن سيُجلون عن المستوطنات فى مواقعهم الجديدة فى أماكن أخرى من الضفة الغربية، حيث سيحميهم الجدار الجديد. وعند اكتمال السور سيكون طوله ٧٥٩ كيلومترًا. وحينذاك سيكون طوله ثلاثة أضعاف طول الحدود الإسرائيلية الأردنية قبل عام ١٩٦٧، حيث يضم الدولة اليهودية داخل غرفة محصنة ضخمة.

العقبة الثالثة هى أن السور الجديد سوف يفصل حوالى ٢٠٠ ألف فلسطينى فى القدس الكبرى عن أقاربهم، ومنطقتهم الخلفية، وجامعاتهم، ومؤسساتهم العامة، وأعمالهم، وورشهم، والأملاك التى يملكونها فى الضفة الغربية. وسوف يُفصَل عشرات الآلاف من الفلسطينيين الآخرين على الجانب الآخر من السور عن بيارات البرتقال والزيتون والحقول التى يملكونها.

[٣]

فى خطابه الذى ألقاه فى بداية توليه منصب رئيس الوزراء، ظل أولمرت يؤكد على أن لإسرائيل حقوقًا تاريخية لا يمكن التخلى عنها فيما يتعلق بالأرض الواقعة غرب نهر الأردن كلها؛ ومع ذلك فقد أوضح أن إعادة تقسيم البلاد أمر حتمى بسبب ما أسماه كثيرًا «القنبلة الديموجرافية الموقوتة». فبحلول عام ٢٠٣٠، وربما قبل ذلك، سوف تكون هناك أغلبية فلسطينية فى غرب الأردن. وبدون التقسيم، سوف يكون وجود إسرائيل نفسها كدولة عبرية فى خطر. وقال فى خطابه إن «انتشار المستوطنات» فى الوقت الراهن «يهدد وجود الدولة».

وعندما سُئل عن سبب عدم ورود احتمال الأغلبية الفلسطينية على ذهنه من قبل. «ألم يكن ذلك واضحًا منذ سنوات؟». قال إنه كان يتوقع وصول المزيد من المهاجرين اليهود إلى إسرائيل، وخاصة من الاتحاد السوفيتى السابق؛ ولكن لم يصل سوى مليون مهاجر. وهو يريد أن تصبح إسرائيل فى النهاية، حسب تعبيره هو، دولة طبيعية، حيث سيكون من «الممتع» أن تعيش دون أن يكون مسلطًا عليك سيف الأغلبية الفلسطينية الأكيدة بحلول عام ٢٠٣٠. ووعد بأنه لن يظل هناك إسرائيليون على الجانب الاخر من السور الكبير. ومن المخطط أن يضم السور القدس الكبرى ومعظم الكتل الاستيطانية الرئيسية فى الضفة الغربية. وسوف يمتد بعمق داخل الضفة الغربية حتى معالى أدونيم، المستوطنة التى تضم ٣٢ ألف مستوطن فى منتصف الطريق إلى أريحا، وفى الغرب حتى مدينة آريئيل الكبيرة، الواقعة على بعد عشرين كيلومترًا داخل الضفة الغربية. وهذا لن يفصل سكان القدس الفلسطينيين عن عائلاتهم وأعمالهم خارج المدينة فحسب، بل سوف يقسم الضفة الغربية فى واقع الأمر إلى جيبين على الأقل. كما يريد أولمرت الاحتفاظ بحرية الحركة فيما تبقى من الضفة الغربية ضد الإرهابيين والاحتفاظ بـ«وجود عسكرى» فى وادى الأردن. ولذلك سوف تقيم إسرائيل منطقة أمنية على طول النهر تمتد لمسافة أطول داخل الضفة الغربية، حيث تشغل مساحة كبيرة من الأرض. وقيل إن الحكومة الأردنية، التى تشك فى الفلسطينيين باستمرار، تفضل مثل هذا الوجود.

هناك الآن ما يقرب من نصف مليون مستوطن إسرائيلى فى المناطق المحتلة، بما فى ذلك القدس، يغريهم بالبقاء هناك إما الإيمان بالقومية الدينية، أو الحوافز الضريبية، أو الإسكان الرخيص، أو الثلاثة معًا. وأغلبهم يذهب يوميًا للعمل داخل إسرائيل نفسها. ويعيش نصف هؤلاء تقريبًا فى القدس الشرقية سابقًا وأطرافها المباشرة التى ضُمت إلى إسرائيل فى عام ١٩٦٧ بقرار من الكنيست. وتغطى القدس الكبرى حاليًا مساحة ضخمة، وهى اليوم مدينة مختلطة، و«موحدة» ظاهريًا. تضم الإسرائيليين والفلسطينيين. ومازال الفلسطينيون يقاطعون انتخابات البلدية «الموحدة». والضواحى الإسرائيلية الجديدة، التى بنيت بعد حرب عام ١٩٦٧ فى الأحياء العربية داخل خط التقسيم القديم وبعده، نظيفة ومرتبة وتحظى بصيانة جيدة، بل تتسم بالفخامة فى بعض الأحيان. ولأن المساكن هناك تلقت دعمًا ماليًا كبيرًا وبُنيت على أراض خاصة وعامة نُزعت ملكيتها، فقد كانت أسعارها أرخص بمقدار الثلث عما فى القدس الغربية التى بحوزة إسرائيل من قبل. وفى المقابل، كان هناك فى البداية تشجيع للفلسطينيين على الهجرة، وبعد ذلك مُنعوا من شراء شقق فى الأحياء الإسرائيلية الجديدة. ولا تزال الحكومة البلدية تهمل الأحياء الفلسطينية الخالصة إهمالاً شديدًا. والكثير منها فى حالة سيئة تثير الحزن. فخلف جبل الزيتون وفى وادى حينوم، وتحت أسوار المدينة القديمة، الأحياء الفلسطينية أقرب شبهًا بعشوائيات القاهرة (الكلام لكاتب المقال). فجبال القمامة قائمة فى الشوارع، وهناك حفر ومطبات فى كل مكان، ولا وجود لأرصفة، وليست هناك إضاءة مناسبة للشوارع، وليست هناك متنزهات كتلك التى على الجانب اليهودى. وتمتد المجارير المكشوفة فى الشوارع الطينية.

وتصل الآن الضواحى الإسرائيلية على الجانب الفلسطينى من خط التقسيم القديم تقريبًا إلى أطراف رام الله فى الشمال وبيت لحم فى الجنوب. ومازال بعض الناس يتحدثون وكأنه مازال بالإمكان إعادة تقسيم القدس الكبرى تقسيمًا مرتبًا على طول الخطوط العرقية. فلابد أن هؤلاء كانوا ينظرون إلى الخرائط القديمة وهم يتحدثون. ذلك أن أى إنسان يسير بالسيارة الآن فى الضواحى الإسرائيلية الجديدة، المنتشرة على نطاق واسع شمالاً وشرقًا، يلاحظ على الفور أن الكثير منها متصل بضواحى الفلسطينيين اتصالاً لا انفصام له. وتُحاط جيوب من الضواحى الإسرائيلية بأحياء سكنية فلسطينية أكبر منها، والعكس صحيح. ومن الصعب تصور الطريقة التى يجرى بها تخليص تلك المناطق المتشابكة من بعضها وإعادة تقسيمها.

يأمل أولمرت فى قيام مصر والأردن بأعمال القمع من أجله وفى استمتاعه بالعلاقات الحسنة إلى حد كبير مع الأوروبيين

كان نائب عمدة القدس السابق ميرون بنفينيستى محقًا حين حذر منذ عشرين عامًا من أن مشروع الاستيطان سرعان ما سيصبح من المتعذر إلغاؤه (وقال محذرًا: «الساعة الثانية عشرة إلا عشر دقائق».). وسخر منه الكثير من الحمائم الإسرائيليين فى ذلك الوقت بسبب آرائه المتشائمة. وكتب أبا إيبان كراسة يفند فيها مقولة بنفينيستى نشرها مركز السلام فى الشرق الأوسط. ولكن بنفينيستى كان معه حق فيما قاله. فقد حذرت الولايات المتحدة ودول أخرى إسرائيل فى وقت مبكر من أن إقامة المستوطنات انتهاك للقانون الدولى. بل إنه حتى المستشار القانونى لوزارة الخارجية الإسرائيلية، الذى أصبح فيما بعد أحد قضاة محكمة العدل الدولية فى لاهاى، حذر فى أوائل خريف ١٩٦٧ من الشىء نفسه. غير أنه كان هناك تجاهل للتحذيرات.

[٤]

أمضيت يومين مؤخرًا فى زيارة للمستوطنات فى الضفة الغربية مع دانى روبنشتاين المعلق المخضرم على شئون الضفة الغربية فى صحيفة «هاآريتس». ويعيش معظم المستوطنين فى ١٩٠ مستوطنة «مصرح بها» بُنيت على أرض انتُزعت ملكيتها من أصحابها العرب أو على الأرض «العامة» (أى غير المملوكة لأحد)، مع أنه من الصعب التمييز بين الأرض الخاصة والعامة فى منطقة لم تُدون بها سجلات رسمية لملكية الأراضى. فحكومة الانتداب البريطانية والحكومة الأردنية لم تصل إلى المنطقة قط لتوضيح سندات الملكية والأملاك. وكانت العشائر تحوز الأراضى بناءً على التفاهمات غير الرسمية. وكانت الملكية تقوم على حجج ملكيةٍ قديمة وعلى ما هو متعارف عليه. وبعد عام ١٩٦٧ فسرت الحكومة الإسرائيلية العسكرية الوضع القانونى لمصلحتها. فقد استولت على مساحات كبيرة من الأراضى لأسباب «أمنية» مزعومة، وانتهى الحال بتلك الأراضى كمستوطنات مدنية إسرائيلية. فالفاتحون المنتصرون يفسرون القانون فى كثير من الأحيان لمصلحتهم، كما كان الحال فى أمريكا، حيث فقد الهنود أرضهم فى أغلب الأحيان بسبب الاختلاف المستمر بين القانون والتطبيق، كما يقول ستيوارت بانر الأستاذ بجامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس.[٢]

كانت المستوطنات الإسرائيلية «المصرح بها» تتلألأ بالفيلات والأكواخ جميلة المنظر والمراكز الاجتماعية التى يُنفق عليها بسخاء من أرباح اليانصيب الوطنى. وهناك مراكز تسوق محاطة بأشجار السرو وتتناثر بها المروج الخضراء وحمامات السباحة الخاصة على مرأى من القرى الفلسطينية التى مازال يصلها الماء مرتين فى الأسبوع فى شاحنات الصهاريج أو محملة على الشاحنات. وعلى الفور يتضح للزائر أن سكان معظم المستعمرات مازالوا مقتنعين بأنهم سوف يبقون هم وذريتهم هنا للأبد. أما فى المستوطنات النائية المقرر الجلاء عنها الآن، وفى المستوطنات «غير المرخص بها»، أى المستوطنات الجامحة، فالكلام عنيف. وكثيرًا ما سمعت شعار «لقد طَرَدَنا النازيون، ولكنهم لن يستطيعوا طردنا من هنا».

مازال جزء كبير من الضفة الغربية منطقة حربية. والوجود العسكرى الإسرائيلى فى تلك الأماكن كبير، حيث يطل الكثير من المعاقل الصغيرة المدرعة المستديرة، أو الأبراج المضادة للرصاص، على القرى الفلسطينية الرئيسية؛ وتلك الأبراج بها فتحات للمراقبة أو إطلاق الرصاص، وعليها هوائيات مرتفعة وأعلام إسرائيلية ترفرف على ساريات طويلة. وتقف فى الخارج العربات المدرعة على أهبة الاستعداد للتدخل الفورى. وفى داخل السور الكبير نفسه رأيت العديد من الأسوار المنخفضة التى بناها الجيش، وهى الآن موازية للطرق المحلية ويمكن استخدامها لسد سُبل الهروب السهلة للسيارات الإرهابية المحتملة.

وفى كل مكان بين القدس والخليل، وبين القدس ونابلس، يقابل المرء عروضًا مدهشة للأعلام الإسرائيلية ذات الحجم الكبير التى تعد تجليات ساطعة للسيادة وسط سكان معادين؛ ولم أر قط مثل ذلك العدد الكبير من الأعلام فى السنوات الماضية. فإنك تشاهدها عند كل علامة طريق، وحول كل مستعمرة، وعلى كل عمود إنارة متيَسِّر، وعلى أسوار الأسلاك الشائكة العالية. وفى كل مكان تقريبًا هناك شبكات طرق منفصلة تمامًا: شبكة للإسرائيليين فقط، والأخرى للفلسطينيين، مع وجود أنفاق وكبارى لتمكين الإسرائيليين من الانتقال إلى القدس أو تل أبيب دون مقابلة أى فلسطينى؛ أو حتى رؤيته فى الغالب. والشبكة المخصصة للإسرائيليين جديدة تمامًا. وطرق المستوطنين ناعمة وعريضة ومضاءة جيدًا بالليل. أما الطرق الفلسطينية فهى فى الغالب قديمة ومليئة بالحفر والمطبات، وهناك نقاط تفتيش كل عشرين أو ثلاثين كيلومترًا. وفى أوقات الذروة يمكن أن تنتظر السيارات الفلسطينية، التى كثيرًا ما تكون بينها سيارات إسعاف، بالساعات عند نقطة التفتيش. وقد صُممت أحدث نقاط التفتيش بحيث لا يكون هناك اتصال مباشر بين الفلسطينيين والإسرائيليين الذين يفحصون أوراق الفلسطينيين من خلال فتحات فى أبواب فولاذية باستخدام ماسحات ضوئية متصلة بقوائم «المطلوبين».

بالإضافة إلى المائة وتسعين مستوطنة الـ «مصرح بها»، هناك أكثر من مائة مستوطنة «غير مصرح بها»، وإن كانت الدولة الإسرائيلية قد زودت معظمها بالإسكان وربطتها بالطرق الإسفلت وأمدتها بخطوط الكهرباء والماء. ومازال الغموض يلف الطريقة التى جرى بها ذلك. ولابد أن عُصْبَةً من الساسة والبيروقراط والمضاربين فى العقارات والحكام العسكريين المتعاطفين، الكثير منهم مستوطنون يعيشون على مقربة، قدمت لهم يد العون. والواقع أن الدولة تخصص فرقًا تضم أربعة أو خمسة جنود لحماية كل مستوطنة، سواء أكان مصرحًا بها أم غير مصرح بها، وتحيطها جميعًا بثلاث حلقات من الأسلاك الشائكة العالية، والكشافات القوية، وأجهزة الإنذار الإلكترونية. وبالإضافة إلى ذلك فإن كل شىء فى محيط ثلاثمائة أو أربعمائة متر حول كل مستعمرة يُعلن «منطقة أمنية خاصة» ويحذَّر الفلسطينيون من دخولها.

وبعد ذلك هناك مستعمرات أصغر حجمًا تسمى المخافر الأمامية. وغالبًا ما يسكن تلك المستوطنات شباب يتسمون بالعنف ومسلحون تسليحًا ثقيلاً وكثيرًا ما يتحرشون بجيرانهم من المزارعين الفلسطينيين لإجبارهم على الرحيل. وفى حالات كثيرة يتعرض المزارعون للضرب وتُحرق أكواخهم: وفى مكان ما زرته فى التلال الواقعة جنوب الخليل، أبلغنى مزارع فلسطينى أن المستوطنين ألقوا سم فئران فى الحظيرة التى يحتفظ فيها بغنمه وماعزه؛ كما أنهم جرفوا الحقل الذى كان يزرع فيه خضرواته وعلف ماشيته. وهناك تحرش يومى بالأطفال الذى يذهبون إلى المدرسة فى قرية قريبة على الأقدام. وعندما كنت هناك أكد لى متطوعون من جماعات حقوق إنسان من السويد وشيكاغو قصة المزارع. وهم يأتون الآن كل صباح لاصطحاب الأطفال إلى المدرسة.

وفى عام ٢٠٠٥ أوردت جماعة «بيتسليم» الإسرائيلية لحقوق الإنسان العديد من مثل هذه الحالات. وقد أُبلغت الشرطة ولكن لم توجه أية تهم. وانتقد بشدة تحقيق رسمى لوزارة العدل السلوك العدوانى لهؤلاء المستوطنين ودعا إلى تفكيك المستوطنات والمخافر الأمامية غير المصرح بها؛ ولكن شيئًا لم يتم.

سيكون إقناع ٧٠ ألفًا من سكان المستوطنات النائية أو «غير المصرح بها» بالانتقال إلى أماكن أخرى أمرًا صعبًا، ولكن الكثيرين يظنون أنه ممكن. وسمعت أن ذلك قد يكلف عشرة أضعاف ما كلفه إجلاء سبعة الاف مستوطن من غزة، أو ما بين ١٥ و٢٠ مليار دولار. وسوف تكون



يظل مشروع الاستيطان عقبة رئيسية ـ بل يقول البعض إنه العقبة الرئيسية ـ فى سبيل التوصل إلى تسوية تاريخية لإنهاء الحرب التى امتدت مائة عام بين حركتين قوميتين على قطعة الأرض نفسها

هناك مظاهرات عاصفة، ولكن لو تم الجلاء فسيكون ذلك قد أصبح ممكناً من الناحية السياسية، الأمر الذى يعود الفضل فيه بشكل كبير إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق الذى يرقد حالياً فى غيبوبة فى أحد مستشفيات القدس. فقبيل إصابته بالسكتة الدماغية، كانت فكرته الخاصة بـ«هيتكانسوت» قد أصبحت جزءاً من إجماع أوسع من أى وقت منذ عام ١٩٦٧. وقيل لى إنه حتى مستوطنة بيت آريى، الواقعة على تلال السامرة المطلة على السهل الساحلى الإسرائيلى الضيق، سوف تُخلى من المستوطنين. وكانت تلك المستوطنة معروفة منذ سنوات باسم «شرفة شارون» لأنه كان يصطحب الأجانب البارزين إلى هناك ليريهم لماذا لا يمكن لإسرائيل التخلى عن الضفة الغربية. وعندما كان چورچ دابليو بوش حاكماً لتكساس اصطحبه شارون إلى هناك فى الهليوكوبتر الخاصة به. وزعموا أنه بينما كان بوش يطالع من خلال منظار شارون نحو البحر ونحو الجنوب الغربى ويطالع من خلال الضباب ناطحات سحاب تل أبيب، بينما يستمع إلى مقولة شارون بأنه لا يمكن إزالة المستوطنات، قال لشارون: «إنى أتفهم ما تقول. فسيكون ذلك جنوناً محضاً».

بفضل شارون إلى حد ما، لم يتبق الكثير لليمين المتشدد العلمانى القديم الذى برز بشدة فى أيام مناحم بيجن ومرة أخرى فى عام ٢٠٠١ بعد اندلاع الانتفاضة الثانية، حين منح الناخبون ليكود شارون أكبر أغلبية فى تاريخه. والليكود القديم، الذى انسلخ عنه شارون قبل بضعة أسابيع من إصابته بالسكتة الدماغية، تضاءل حجمه فى الانتخابات الأخيرة وأصبح حزباً هامشياً له أحد عشر نائباً فقط فى الكنيست. ويبدو أن الدولة أضحت وسطية.

المؤيدون العلمانيون لإسرائيل الكبرى، الذين كان صوتهم مسموعاً فى يوم من الأيام، لا يكاد يسمع لهم أحد صوتاً. والمتظاهرون الذين احتجوا على الجلاء عن غزة قبل بضعة أشهر كانوا جميعهم تقريباً متعصبين متدينين. وكما أشار ديفيد لانداو مؤخراً فى «هاآريتس»، فإن قوة الدفع الأيديولوچية لإسرائيل الكبرى تكاد تصدر بشكل حصرى عن الأصوليين المتدينين فى المستوطنات، وهم رجال تسيطر عليهم فكرة وعد الرب لإبراهيم فى العصر البرونزى أو الوعد المسيحى؛ أو ربما فى كليهما. وهم يرون أن الحدود بين الرؤية النبوئية والسياسة الواقعة الخاصة بالدولة اليهودية الحديثة مازالت غير واضحة مثلما كانت باستمرار منذ عام ١٩٦٧. ولكنهم فازوا بتسعة مقاعد فقط.

وحتى حزب «إسرائيل وطننا» العلمانى شبه الفاشى، الذى لا يسانده سوى المهاجرين الروس المصابين بالخوف من الأجانب بقيادة صديق نيتانياهو الحميم فيكتور ليبرمان، لا يعارض «هيتاكانسوت» أولمرت؛ ولكن بما أنه حتى داخل إسرائيل نفسها يزيد معدل إنجاب الإسرائيليين الفلسطينيين بمقدار الضعف على الإسرائيليين اليهود، فإن ليبرمان يطالب بمبادلة مستوطنى الضفة الغربية الذى سيُجلون بعدد مساو لهم من المواطنين الإسرائيليين الفلسطينيين الذين سيطردون كذلك.

هل سيرضى فلسطينيو حماس وفتح بما سيقدمه لهم أولمرت؟ إن لديهم شعوراً قوياً بأنهم حتى قبل حرب عام ١٩٦٧ كانوا قد فقدوا ٧٨ بالمائة من فلسطين التاريخية لمصلحة الإسرائيليين. واستعادة الـ٢٢ بالمائة الباقية ـ وهو ما يعنى عملياً الضفة الغربية كلها بما فيها «القدس الشرقية» سابقاً ـ هو الحد الأدنى المطلق الذى يقولون إنهم يقبلونه. وبعد ذلك هناك مسألة التوقيت، الذى كان باستمرار ذا أهمية حيوية فى هذا الصراع. حيث ضاعت فرص كثيرة فى الماضى. ففى البداية كان الإسرائيليون مستعدين لتحقيق السلام، بينما لم يكن الفلسطينيون كذلك. وبعد ذلك كان الفلسطينيون مستعدين ولكن الإسرائيليين تأخروا. وفى عام ١٩٦٧ كان الساسة الرئيسيون فى الضفة الغربية مستعدين لتحقيق السلام إذا وافقت إسرائيل على إقامة دولة فلسطينية منزوعة السلاح. وكان ذلك قبل ظهور عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية. ولكن إسرائيل لم تستمع لذلك. وكان الچنرال ديان يعتقد أنه يمكن لإسرائيل أن تبقى فى الضفة الغربية للأبد مادام نظامها الحاكم إنسانياً ويفيد السكان الأصليين اقتصادياً.

وكما يوضِّح كتاب جورينبرج، فإن سذاجة ديان جعلته يعتقد أن الأسمدة الجديدة وإمدادات المياه المحسنة سوف تغرى الفلسطينيين بالموافقة على الحكم الإسرائيلى.[٣] وفى عام ١٩٧٨ اعترفت إسرائيل بقيادة مناحم بيجن فى اتفاقية السلام مع مصر بـ«الحقوق المشروعة» للفلسطينيين ووافقت على «الحكم الذاتى التام» للفلسطينيين، ولكن بيجن أطال المفاوضات حول هذه القضية مع المصريين ـ الذين لم يكونوا مهتمين كثيراً بالفلسطينيين بحال من الأحوال ـ حتى ضجروا منها وعلقوا المحادثات.

الحقيقة أن بيجن كان مقتنعاً بأنه قايض فى معاهدة السلام مع مصر شبه جزيرة سيناء بإطلاق يده فى الضفة الغربية. وبعد عامين من توقيع اتفاقية السلام، قال لى بطرس بطرس غالى، وكان وقتها نائب وزير الخارجية، فى مقابلة أجريتها معه: «إسرائيل تغش. فهى لن تمنح الحكم الذاتى للفلسطينيين». فقلت له: «لماذا تقول تغش؟ فبيجن لم يخف قط ما يشعر به تجاه الضفة الغربية». فرد بطرس غالى: «صحيح، ولكن (عزرا) وايزمان (وزير الدفاع فى ذلك الوقت) أكد لنا أن كل ما يريده بيجن فى الضفة الغربية مجرد ورقة توت». فقلت له: «غريب، فذلك هو على وجه الدقة ما أبلغه وايزمان لبيجن عن موقفكم من هذه القضية. فقد كان يقول باستمرار لبيجن ألق إليه بورقة توت». فضحك بطرس غالى.

فى تلك الأثناء، بدأ بيجن أكبر حملة استيطان فى الضفة الغربية وغزة حتى الآن؛ وتولى شارون مسئولية تلك الحملة. وبعد بضع سنوات صرح بيجن لشارون بغزو لبنان ومحاصرة مقر عرفات فى بيروت. وأبلغ الرئيس ريجان أن الأمر كان أشبه بالإمساك بهتلر فى غرفته الحصينة. وظل التوقيت، أو عدم التوقيت، أمراً بالغ الأهمية. وربما ما كان لاتفاقية أوسلو لعام ١٩٩٣ أن تنهار لو أن عرفات بذل جهداً أكبر لمنع الهجمات الانتحارية ولو لم تسرِّع إسرائيل برنامج الاستيطان، أو لو لم يثر شارون العنف الفلسطينى من خلال زيارته المفجعة لجبل المعبد فى عام ٢٠٠٥. وقبل الانتصار الذى حققته حماس فى الانتخابات، ربما كان لا يزال هناك اتفاق يمكن تصوره مع محمود عباس، وهو معارض صريح لكل أعمال العنف الفلسطينية، رغم أن شارون كان يصر على أن عباس «ليس شريكاً».

ويشير بعض المراقبين الآن إلى إعلان حماس لـ«التهدئة» فى عام ٢٠٠٥، وهو الأمر الذى لا تزال ملتزمة به إلى حد كبير حتى الآن؛ ولكن المنافسين الفلسطينيين ـ حزب الله والجهاد الإسلامى ـ مازالوا مستمرين فى التفجير. وبعد انتصار حماس يقل احتمال موافقة الفلسطينيين على الاتفاق الذى كان عباس قد رفضه مع خصم لا يعترف به قادة حماس ويرفض هو الحديث معهم. ومما يؤسف له أن الأمر استغرق حوالى أربعين سنة لبدء انسحاب إسرائيل مما كان ينبغى عليها الانسحاب منه فى البداية. وفى الوقت نفسه أصبح صراع محلى بحت جزءاً من «صراع الحضارات» الذى يشكل تهديداً كبيراً.

وكانت الولايات المتحدة فى الفترة الأخيرة تحث أولمرت على الإبطاء فى تنفيذ خطته الخاصة بالعمل من جانب واحد، على الأقل إلى أن يتضح أن الضغط الدولى على حماس لا جدوى منه. فالولايات المتحدة لديها أولويات تختلف عن أولويات إسرائيل. ومن المؤكد أنها سوف ترحب بأى انسحاب إسرائيلى من الأرض المحتلة، غير أن همها الأول فى اللحظة الراهنة هو منع انتشار الفوضى فى الضفة الغربية وغزة. ومع اتجاه الإرهاب نحو الاستمرار، يظل وضع إسرائيل محفوفاً بالمخاطر، ويصبح وضع الفلسطينيين داخل السور أحلك ظلاماً من أى وقت مضى. ■

الحقيقة أن بيجن كان مقتنعاً بأنه قايض فى معاهدة السلام مع مصر شبه جزيرة سيناء بإطلاق يده فى الضفة الغربية

هوامش:

(١) A Black lamb and Grey Falcon: Journey Through Yugoslavia (Viking, 19410, p ٢٨٠.

(٢) انظر Stuart Banner, How The Indians Lost Their Land: Law and Power on the Frontier (Harvard University Press, ٢٠٠٥)

(٣) تذكر زيارة لتوجو فى غرب أفريقيا حيث كان لدى الناس ذكريات طيبة عن الحكم الاستعمارى الألمانى قبل الحرب العالمية الأولى. وقال إنه ينبغى على إسرائيل اتباع نموذج الاستعمار الخير. وهى لم تتبع ذلك النموذج، لأسباب اقتصادية فى الغالب؛ وحتى إن اتبعته، ما كان ذلك ليحدث فرقاً.

احتكار السلطة

اليزابيث درو

فى الوقت الذى نسمع فيه حديثا حول تعديل دستورى محتمل فى مصر ويدور فيه نقاش - لا نعرف إذا كان التعديل أو «المعَدِّلون» سيأخذونه فى الاعتبار أم لا - حول توازن بات مطلوبًا بين سلطات الدولة، وتأخير بات ملحًا تحديدُه للدور الدستورى للرئيس. تناقش المحافل الفكرية فى الولايات المتحدة الأمريكية (أحد أهم النظم الرئاسية «اطلاقًا» فى عالم اليوم) خطورة تغول «سلطة الرئيس» على ما عداها من سلطات الدولة.

وهنا مقال للكاتبة الأمريكية اليزابيث درو المتخصصة فى نظم الحكم (لها ٢١ كتابًا فى الموضوع) تتناول فيه القضية تفصيلاً فى الدورية المهمة The New York Review of Books.

المحـــرر

[١]

خلال عهد جورج دبليو بوش بلغ البيت الأبيض من السلطة مبلغا غير مسبوق. فقد حاول بانتظام أن يتحدى المؤسسات التى تعارضه ويهيمن عليها أو حتى يهددها وتلك المؤسسات هى: الكونغرس والمحاكم والصحافة. وقد حاول أن يغير توازن القوى بين الفروع الثلاثة للحكومة التى نص عليها الدستور، ولكن أشد انتهاكات البيت الأبيض وأكثرها رسوخا هى تلك التى كانت ضد السلطة التشريعية: لقد ردد بوش تكرارا ومرارا أنه يعتبر نفسه حرا لتنفيذ أى قانون يراه مناسبا وليس كما نص عليه الدستور. ومن خلال السرية والاستهانة بالكونغرس جعلت إدارة بوش الرئاسة أقل عرضة للمساءلة من أى وقت فى التاريخ الأمريكى الحديث. وبسبب تواطؤ الكونغرس نجحت الإدارة فى مساعيها إلى حد بعيد.

لم يلفت هذا الاستحواذ على السلطة اهتماما كبيرا لأن كل شىء تقريبا جرى فى العتمة. ولم تنتبه الصحف حتى أجاز بوش فى ٥ يناير من هذا العام، بعد توقيع لائحة تحتوى على تعديلات ماكين، التى حظرت التعذيب، نصا منفصلا «بيان توقيع» يبيح له تأويل اللائحة كما يرغب. فى الواقع إن بوش كان يصدر مثل بيانات التوقيع هذه منذ بداية إدارته. والدستور يميز بين سلطة الكونغرس وسلطة الرئيس بالنص على أن الكونغرس هو الذى «يضع كل القوانين» والرئيس «يأخذ التدابير لتنفيذ القوانين بدقة» ويدعى بوش أن لديه السلطة لتنفيذ القوانين كما يفسرها، متجاهلا مقاصد الكونغرس.

يقول جروفر نوركويست وهو شخصية قانونية رئيسية فى الحركة المحافظة وقريب من إدارة بوش ويدعم عادة سياساتها: «إذا فسرت مقولة الدستور بأن الرئيس هو القائد الأعلى بمعنى أن الرئيس يمكن أن يفعل ما يشاء وله الحق فى تجاهل القوانين، فليس لديك دستور.. وإنما لديك ملك» ويضيف: «إنهم لا يحاولون تغيير القانون بل يقولون إنهم فوق القانون وفى موضوع تصنت وكالة الأمن القومى، فهم ينتهكون القانون» والقليل من أعضاء الكونغرس من يدرك معنى ما يفعله بوش ويرغبون فى الحديث العلنى ضد ذلك. وتتحدث ديان فاينشتاين وهى سيناتور من الحزب الديمقراطى عن ولاية كاليفورنيا، عن «جهد واسع جدا» يبذل «من اجل زيادة سلطة الرئيس» ويقول تشاك هاجيل وهو سيناتور جمهورى من نبراسكا:

«هناك نمط واضح جدا من التأكيد الشديد على سلطة الرئيس والكونغرس متواطئ أساسا فى السماح له بذلك. المفتاح هنا هو أن بوش لديه كونغرس جمهورى. وبطبيعة الحال لو كان هذا عهد كلينتون لكنا نعقد الآن جلسات استماع».

المشاهد المذاعة للرئيس يحيط به نواب مبتسمون وهو يمتدح عملهم الرائع أثناء تسليمهم الأقلام التى استخدمها لتوقيع اللائحة، عادة ما تكون مضللة. فالمسئولون المنتخبون لا علم لهم فى ذلك الوقت بنوايا الرئيس الحقيقية فيما يتعلق بالقانون. وبعد مغادرتهم، فإن بيانات التوقيع - التى لم يصدرها لفظيا فى وقت التوقيع - توضع فى السجل الفدرالى وهو أرشيف للقوانين الأمريكية التى نادرا ما يقرأها أعضاء الكونغرس وتكون عادة شديدة التخصص وتشير إلى هذه المادة الفرعية وتلك الفقرة مما يجعلها عسيرة على الفهم.

على مدى خمس سنوات كان بوش يصدر سلسلة من بيانات التوقيع ترقى إلى أن تكون محاولة منظمة لاغتصاب السلطة من الفرع التشريعى. ورغم أن رونالد ريغان بدأ يصدر بيانات التوقيع من أجل توطيد مركزه، فقد كان يفعل ذلك أساسا من أجل توجيه أحكام قضائية ما ولم يكن يعارض مواد معينة من اللائحة إلا نادرا. ورغم أن الرؤساء الذين تلوه أصدروا أيضا مثل هذه البيانات، ولكنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه بوش من مطالبات عجيبة، ولا أصدروا مثل هذه البيانات بهذه الكثرة.

وطبقا لمقالة فى بوسطن جلوب، ادعى بوش الحق لتجاهل أكثر من ٧٥٠ قانونا شرع منذ أن أصبح رئيسا. وقد قام من طرف واحد بتجاوز الكونغرس فى قضايا متعددة، رافضا، على سبيل المثال، قبول شرط التنوع فى منح البعثات العلمية الحكومية. وقد تجاوز شروطا عديدة فى لوائح تخصيصات الكونغرس التى شعر أنها تتعدى على سلطته التنفيذية. كما تجاوز التزام الرئاسة بإعلام الكونغرس بكيفية تنفيذه عدداً من القوانين. أكثر من ذلك، رفض أن يفرض قوانين تحمى المبلغين بقضايا الفساد وتوفير حماية ضد التدخل السياسى فى البحوث الممولة

بترتيب مع:
New York Review of Books

ترجمة: بثينة الناصرى

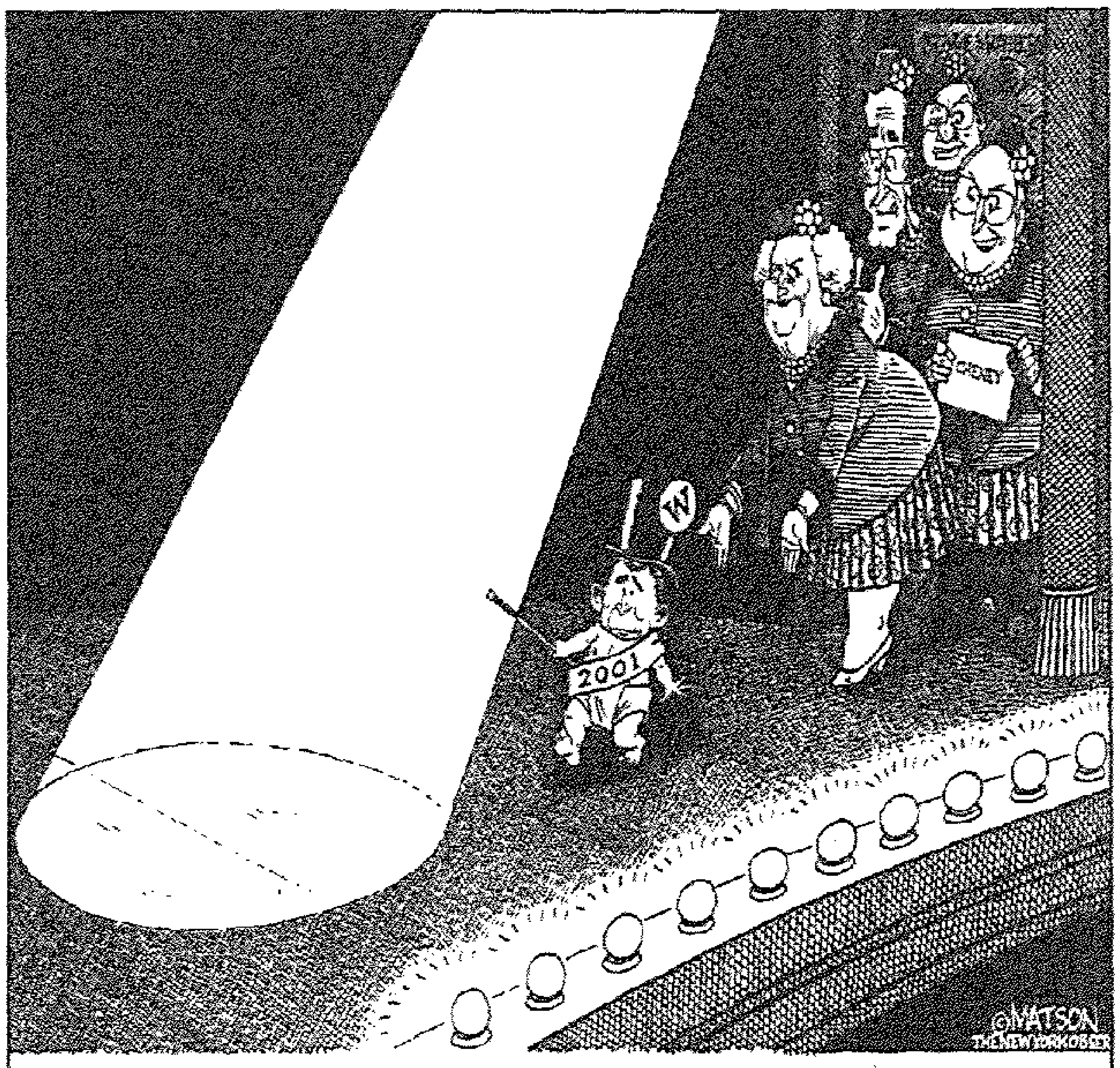
إذا فسرت مقولة الدستور بأن الرئيس هو القائد الأعلى بمعنى أن الرئيس يمكن أن يفعل ما يشاء وله الحق فى تجاهل القوانين، فليس لديك دستور.. وإنما لديك ملك

فدراليا. كما استخدم بوش أيضا بيانات توقيع ليضع قيودا شديدة على المفتشين العامين الذين يعينهم الكونغرس للإشراف على النشاطات الفيدرالية بضمنهم موظفون كان من المفروض أن يراقبوا مجريات الاحتلال الأمريكى للعراق ويبلغوا الكونغرس بنتائج مهامهم..

يمكن للرئيس بطبيعة الحال أن يستخدم حق الفيتو ضد تشريع لائحة لا تعجبه وله أن يناقش علنا أسباب معارضته. وهنا يجازف بأن يتجاوز الكونغرس معارضته. بدلا من ذلك اختار بوش أسلوبا سريا يصعب مجابهته. فحتى تاريخ كتابة هذه المقالة، لم يحدث أن استخدم بوش هذا الحق ضد أية لائحة (رغم انه هدد أن يفعل ذلك فى حالة لائحة صرف يناقشها الكونغرس الآن). بعض اللوائح التى شرعت قرر بوش أن يوقعها ثم يهملها أو يفسدها، وأخرى تمت المصادقة عليها نتيجة لتوافق بين الكونغرس والبيت الأبيض. وقد ابلغنى ارلين سبكتر السناتور الجمهورى من بنسلفانيا ورئيس اللجنة القضائية فى الكونغرس: «طبقا للدستور إذا لم تعجب لائحة الرئيس يستطيع أن يمنعها. إنك لا يمكن أن تنتقى التشريع مثلما تنتقى الكريز».

وقد استند بوش إلى خلفيتين فى تحدى إرادة الكونغرس أو توسيع سلطاته الرئاسية من طرف واحد: أحدهما استحقاقه السلطة «الكامنة» فى منصب القائد الأعلى. والثانية مبدأ غامض يسمى الرئيس المركزى يعطى الرئيس سلطة على الكونغرس والمحاكم. إن مفهوم الرئيس المركزى يتضمن أن سلطة الرئيس يمكن أن تتجاوز المحاكم والكونغرس على أساس تفسير الرئيس للدستور، وهذا يعنى عمليا إسقاط قضية ماربورى ضد ماديسون (١٨٠٣) التى رسخت مبدأ المراجعة القضائية والمفهوم الدستورى للمراقبة والتوازن (المراقبة هى حق ومسؤولية كل سلطة فى مراقبة السلطات الأخرى والتوازن هى قدرة كل سلطة لاستخدام صلاحياتها للحد من قدرات السلطات الأخرى).

إن مصطلح (حكومة مركزية) له معنيان مختلفان: الأول يشير إلى تحكم الرئيس فى الفرع التنفيذى بضمنه الهيئات المفترض أنها مستقلة مثل مفوضية السندات المالية والبورصة SEC وإدارة الغذاء والدواء FDA . الثانى مفهوم أوسع نطاقا وهو الذى يستخدمه بوش ويعطى للرئيس سلطة أعلى من الكونغرس والمحاكم. وقد طبق الرؤساء



R.J. MATSON, The New York Observer

السابقون حقهم فى الامتناع عن تنفيذ أجزاء من لائحة ما بذريعة تعديها على سلطتهم الدستورية، ولكنهم كانوا دقيقين فى اعتراضاتهم وفى الأساليب التى يقترحونها لتنفيذ القانون. كلينتون مثلا، عارض مواد فى لائحة تؤسس إدارة أمن قومى نووى شبه مستقلة وذلك ماوفر الأسباب للاستغناء عن المدير. كلينتون عارض ذلك على أساس أن تلك المواد تعتبر تجاوزا على امتيازاته الرئاسية. أما بوش فإنه يمارس سلطات واسعة بدون أن يكون دقيقاً بمعارضاته أو يفصح عن خططه لتنفيذ القانون. وتأويلاته للقانون كما فى «بيانات التوقيع» فى تعديل ماكين، غالبا ما تفسر اللائحة لتعنى شيئا آخر مختلفا - وفى بعض الأحيان تقريبا العكس - لما يفهمه أى شخص.

إن مفهوم الرئيس المركزى الذى شاع فى دوائر محافظة لعدة سنوات كانت قد دعت إليه بشكل رئيسى الجمعية الفدرالية وهى جماعة من المحامين المحافظين الذين قادوا حملة أيضا لترشيح قضاة محافظين. وقد أخذت الفكرة بالاعتبار والجدية فى وزارة العدل فى إدارة ريغان. أحد أهم المتحمسين لها كان صامويل اليتو وكان حينها محاميا فى وزارة العدل. وفى جلسة المصادقة على ترشيحه قال اليتو إن المذكرة التى كتبها والتى تقول إن تفسير الرئيس للائحة «يجب أن يعتبر بأهمية تفسير الكونغرس لها» كانت «نظرية».. ولكن لم يطالب أى رئيس قبل بوش بشكل واضح بأن يكون مفهوم الرئيس المركزى أساسا لرفض لائحة ما.

كانت النظرية من ابتداع جون يو، وهو محام متوسط المستوى ولكنه شديد التأثير فى وزارة العدل بين ٢٠٠١ و٢٠٠٣ وكانت وجهة نظره أن الرئيس يملك السلطة للقيام بكل مايريده. (وقد كتب كذلك تلك المذكرة سيئة السمعة التى يدافع فيها عن التعذيب)[١] وبصفته مستشار البيت الأبيض فإن البيرتو جونزاليز وهو المدعى العام الآن يؤيد علنيا نظرية الرئيس المركزى.

وتستند النظرية على قسم الرئاسة وفيه طبقا للدستور، يتعهد الرئيس المنتخب حديثا أن «ينفذ بإخلاص مهام الرئيس» وكذلك فى جزء من المادة ٢ التى تنص على أن الرئيس «يتخذ التدابير لتنفيذ القوانين بإخلاص» وقد قدمت الإدارة تفسيرات غير مسبوقة لكلا النصين، زاعمة انهما يعطيان الرئيس سلطة مستقلة لا تخضع لمراقبة فروع الحكومة الأخرى (السلطتين التشريعية والقضائية) لتقرير ما يعنيه القانون. وتغفل هذه النظرية حقيقة أن المشرعين كانوا يحذرون خاصة من سلطة الرئيس.

وقد وصف عدد من الباحثين الدستوريين الذين تحدثت معهم نظرية الإدارة حول الرئيس المركزى باعتبارها لا شىء اكثر من ورقة توت مناسبة لتوسيع سلطة الرئاسة.

[٢]

وقد استثمرت مزاعم بوش حول سلطته الاستثنائية كقائد أعلى بشكل أساسى بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. كان قادرا على استغلال الخوف الذى أثارته الهجمات فى قلوب الشعب الذى بدأ يتطلع إلى رئيس يحميه. ويتذكر السيناتور جاك ريد وهو ديمقراطى من رود ايلاندز بأن كل فرد كان يتطلع للرئاسة وليس لأعضاء الكونغرس البالغ عددهم ٥٣٥، من اجل حمايتهم من هجمات أخرى قاصمة وقد تناسوا قلة ثقتهم المعتادة بالحكومة. وهكذا فقد اكتسبت الإدارة سلطة عظيمة كان يجب التعامل معها بحكمة ولكن ذلك لم يحدث.

وفى ظل صلاحية سلطاته كقائد أعلى ادعى بوش حقه فى إبقاء حوالى خمسمائة «مقاتل عدو» فى معسكر غوانتنامو، حيث لم توجه تهم ارتكاب جرائم إلا إلى عشرة منهم. ومعظمهم كانوا قد سلموا للأمريكان من قبل أفغان من صائدى المكافآت الذين دفعت لهم الولايات المتحدة لتسليم العرب. وقد استغل بوش أيضا نفس السلطة فى التعامل مع العديد من اللوائح التى أقرها الكونغرس وأكثرها بروزا هى معالجة تعديل ماكين الذى يحظر «معاملة أسرى الحروب «معاملة قاسية وغير إنسانية ومهينة» وفى بيان توقيع هذا التعديل قال بوش:

«سوف يفسر الفرع التنفيذى (مادة التعذيب) بشكل يتفق مع سلطة الرئيس الدستورية للإشراف على الفرع التنفيذى المركزى وباعتباره قائدا أعلى وكما يتفق مع التقييدات الدستورية للسلطة القضائية..».

وقد أصبحت هذه الوصفة العامة جزءا نمطيا فى بيانات بوش عند التوقيع رغم أنه لم ينتبه لذلك إلا القلة. وما قاله بوش عن لائحة التعذيب كان فاضحا طالما أن نائبه تشينى وهو حلقة وصله مع الكونغرس قد حاول أن يتفاوض مع مجلس الشيوخ على مادة تخفف من تعديل ماكين ولكنه فشل. وقد اقرها مجلس الشيوخ بنسبة أصوات ٩٠ إلى ٩ وصادق

عليها مجلس النواب بنسبة ٣٠٨ إلى ١٢٢. لقد كانت معركة علنية أخذت حظها من الانتشار وخسر فيها الرئيس.

فى أواخر فبراير، بعد وقت قصير من بيان توقيع بوش على تعديل ماكين، أصدرت (مشروع الدستور) وهى منظمة غير ربحية تمثل الحزبين ومقرها فى واشنطن بيان احتجاج وقعه مسئولو حكومة سابقون من كلا الحزبين ومحافظون بارزون وباحثون. ينص على «أن الموقعين يشعرون بقلق عميق من خطر سلطات رئاسية دائمية وغير مراقبة ومايرافقها من فشل الكونغرس فى ممارسة مسئوليته كفرع منفصل ومستقل فى الحكومة». وعارضوا تأكيد بوش بأنه «قد لا يمكن تقييده» بقوانين يقرها الكونغرس مثل تعديل ماكين وبأنه يستطيع إغفال «التزامات بمعاهدات وقوانين قائمة منذ زمن طويل تحظر تعذيب السجناء». ويختتم «إننا نتفق على أننا نواجه أزمة دستورية»[٢]

ومثال فاضح آخر على استخدام بيانات التوقيع حدث حين قال بوش فى مارس، تفسيرا للائحة إعادة المصادقة على قانون الوطنية، بأنه سوف يهمل الالتزام بأن يبلغ الرئيس الكونغرس بالخطوات المتخذة لتنفيذ القانون، وهذا يعنى إنكارا لضرورة أن يكون من حق الكونغرس مساءلة الرئيس.

وقد أصدر باتريك ليهى الديمقراطى البارز فى لجنة مجلس الشيوخ القضائية بيانا احتجاجيا غاضبا وصف فيه استخدام بوش لبيانات التوقيع بأنها: «لا تعدو أن تكون جهدا متطرفا لإعادة تشكيل الفصل الدستورى للسلطات وتفادى المساءلة ومسؤولية تطبيق القانون». وأضاف ليهى «إن بيانات الرئيس عند التوقيع ليست القانون ونحن (الكونغرس) يجب ألا نسمح أن تكون الكلمة الأخيرة لهم».

وقد ذهب بوش إلى مدى ابعد فى مطالبته العجيبة بالسلطة المطلقة فى ١٧ ديسمبر ٢٠٠٥ حين أقر، كما كشف فى نيويورك تايمز، فى اليوم السابق، بأن الحكومة كانت تدير عمليات تنصت على هواتف داخلية بدون إذن قضائى. وقد ادعى بأن لديه الصلاحية للأمر بمثل هذا التنصت «من أجل إنقاذ حياة الناس» بغض النظر عما يتضمنه القانون السارى.

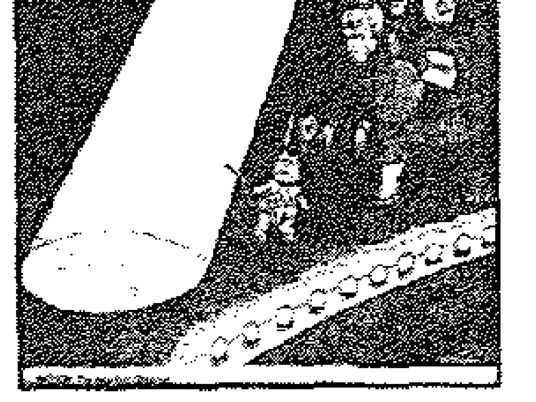
وقد استند فى زعمه هذا على حجتين متناقضتين: الأولى، قال إن التنصت بدون إذن قضائى مصادق عليه فى قرار شرع بعد ثلاثة أيام من أحداث ١١ سبتمبر، ينص على أن للرئيس «أن يستخدم كل القوة الضرورية والمناسبة» لمقاتلة القاعدة. ولكن الإدارة تجادل أيضا بأنها لا تحتاج إلى تفويض استنادا إلى السلطات المكتسبة فى منصب القائد الأعلى. وقد كتب الزعيم السابق للأغلبية فى مجلس الشيوخ توم داشل يقول إن الإدارة قد طالبت بإصدار قرار باستخدام قوة أوسع شمولية مما اقره الكونغرس. وفى اللحظة الأخيرة سعى البيت الأبيض للحصول على قرار يتضمن إجراءات «داخل الولايات المتحدة» ولكن الكونغرس رفض ذلك.

تكمن مشكلة مطالبة الرئيس بسلطات استثنائية كقائد أعلى فى أن «الحرب على الإرهاب» حرب مفتوحة بلا نهاية واضحة وهذا يؤدى إلى أن تكون صلاحيات الرئيس كما يفسرها بوش من أجل أن يفعل ما يريد لإدارة تلك الحرب بلا نهاية أيضا. فى حين أن هناك قيودا غير محددة حول المدى الذى يمكن أن يذهب إليه المشرعون لتوجيه الرئيس حول كيفية إدارة الحرب، ومن الواضح انهم لا يستطيعون أن يقولوا له كيف يستخدم قواته القتالية. ولكن خلال حرب فيتنام استغل الكونغرس سلطاته المالية وصوت على قطع التمويل. ولم تجادل إدارة نكسون بأن الكونغرس لا سلطة له للقيام بذلك.

[٣]

ليس هناك وسيلة لمعرفة عدد القوانين التى أعاد تفسيرها بوش، كما فعل فى حالة برنامج وكالة الأمن القومى للتنصت. وقد شرع قانون مراقبة الاستخبارات الأجنبية واختصاره FISA والذى أقر فى ١٩٧٨ بعد أن رفضت المحكمة العليا التنصت الداخلى الذى قام به ريتشارد نكسون باعتباره غير قانونى، وينص القانون المذكور على ما يسميه «الوسائل الحصرية» التى يمكن للإدارة بواسطتها أن تمارس المراقبة على الأمريكيين. وقد أسس هذا القانون محكمة سرية خاصة يمكن أن تمنح الحكومة الإذن لمراقبة المواطنين الأمريكيين بعد إظهار سبب محتمل. وأحد مبررات الإدارة لإطلاق برنامج التنصت خارج قانون FISA هو أن التنصت على الإرهابيين المحتملين يستوجب السرعة ولكن قانون FISA يعطى الرئيس ثلاثة أيام لإدارة التنصت فى حالات الطوارئ وخمسة عشر يوما إذا كان هناك إعلان للحرب. ويشكو جونزالز من أن القانون بطيء حيث إنه يتطلب توقيع المدعى العام على حالات التنصت الطارئة وعلى أن تكون ضمن متطلبات قانون FISA (حين نقلت هذه الشكوى إلى سناتور جمهورى قال «إذن ما هى المشكلة؟») ولكن قانون FISA قد عدل مرتين منذ تشريعه ولم تسأل الإدارة بشكل واضح ومحدد من الكونغرس لإعادة النظر فى القانون للأخذ بالاعتبار الظروف المستجدة.

ويبدو أن برنامج تنصت الإدارة ينتهك التعديل الرابع الذى يضمن «حق الشعب فى الأمان فى أشخاصهم ومنازلهم ووثائقهم وحاجاتهم ضد التفتيش والاعتقال والاستحواذ غير المبرر والا تنتهك حرياتهم وألا تصدر أذونات قضائية إلا فى حالة وجود سبب محتمل...».[٣] ويقال إن القوة الدافعة وراء برنامج بوش كان الجنرال مايكل هايدن الذى كان فى حينها رئيسا لوكالة الأمن القومى التى كان من مهامها جمع المعلومات باسم الأمن القومى وهو مرشح بوش لرئاسة وكالة المخابرات المركزية. فقد أبلغ هايدن البيت الأبيض انه طبقا لمستشار وكالة الأمن القومى فإن البرنامج قانونى. وتدعى الحكومة أنه إذا أجرى عضو من القاعدة أو جماعة «مساندة» للقاعدة اتصالات هاتفية أو تخاطبوا عن طريق البريد الإلكترونى مع شخص فى الولايات المتحدة، أو إذا شخص فى الولايات المتحدة بادر بالمحادثات فإن الحكومة التى قد تكون أصلا تتنصت على الإرهابى المشتبه به، تستطيع الآن أن تتنصت على المواطن الأمريكى كذلك. وهذا يثير التساؤل ما إذا كانت اتصالات هذا المواطن الأخرى ستخضع أيضا للمراقبة.



فى مؤتمر صحفى عقده فى البيت الأبيض جونزالز وهايدن فى ١٩ يناير من هذا العام، أكد جونزالز على «أن يكون طرف الاتصال من خارج الولايات المتحدة» وأصر على أن تكون هناك (أسس معقولة) للاستنتاج أن أحد طرفى الاتصال مرتبط بالقاعدة أو مساند لها، وهو معيار شديد الإبهام. الإدارة هى التى تتخذ الآن هذا القرار وليس محاكم قانون مراقبة الاستخبارات الأجنبية FISA . اكثر من هذا أبلغ جونزالز لجنة تابعة للكونغرس أنه لا يستطيع أن يغفل أن الرئيس له سلطة التنصت على المكالمات الداخلية. وحين سئل: لماذا لم تطلب الإدارة مصادقة الكونغرس للتفويض بالتنصت (بدون إذن) على المكالمات الداخلية فى حالات الإرهاب، أجاب جونزالز « لقد كانت لنا مناقشات مع الكونغرس فى السابق - أعضاء محددين من الكونغرس - حول إمكانية تعديل قانون FISA ليسمح لنا التعامل بشكل مناسب مع هذا النوع من الخطر، وقد نصحونا بان هذا سيكون صعبا إذا لم يكن مستحيلا » بتعبير آخر مادام قيل لهم إن الكونغرس على الأكثر لن يوافق على إجراء عمليات تنصت بدون إذن، مضت الإدارة قدما بالانفراد باتخاذ قرار التنصت.

أما رد فعل إدارة بوش على كشف برنامج التنصت فقد كان مهاجمة التسريبات. وفى تصريحه الذى اعترف فيه بهذا البرنامج قال بوش «إن مجرد مناقشتنا لهذا البرنامج تساعد العدو». وفى محاولة لتقييد مراقبة الكونغرس للرئيس حاولت الإدارة أن تحد من عدد أعضاء الكونغرس الذين يمكن اطلاعهم على مثل هذه القضايا. فطبقا لتوجيه رئاسى صدر سرا بعد ١١ سبتمبر، لا يناقش المسئولون المعلومات بالغة السرية إلا مع رئيسى لجنة الاستخبارات فى مجلس الشيوخ والمجلس التشريعى وهما جمهوريان ومع الديمقراطى الأعلى رتبة فى هذه اللجنة التى أقيمت للإشراف على نشاطات الاستخبارات بعد فضائح وكالة المخابرات المركزية فى منتصف السبعينيات - إضافة إلى اكبر الجمهوريين والديمقراطيين فى كل قسم من اللجنة (العدد الكلى ثمانية أشخاص) وليس مع كامل أعضائها.

وحسب القواعد الجديدة، لم يكن يسمح لأعضاء هذه المجموعة الصغيرة بمناقشة البرنامج مع أعضاء آخرين من لجنة الاستخبارات أو مع موظفى مكاتبهم. وللإدارة أن تقرر أى المواضيع الاستخباراتية يمكن مناقشتها مع كامل أعضاء اللجنة. مشكلة ترتيبات البيت الأبيض المفروضة هذه، هى انه مثلما

تستند النظرية على قسم الرئاسة وفيه يتعهد الرئيس المنتخب أن «ينفذ بإخلاص مهام الرئيس» وكذلك عليه أن «يتخذ التدابير لتنفيذ القوانين بإخلاص» وقد قدمت الإدارة تفسيرات غير مسبوقة لكلا النصين

يصبح أعضاء لجان الكونغرس الأخرى على علاقات حميمة مع الهيئات الحكومية التى يفترض أن يراقبوها، فإن مسئولى لجنة الاستخبارات - باستثناء السناتور الديمقراطى جى روكفلر من ويست فرجينيا - معروفون بأنهم على صلة قوية بالوكالات الاستخباراتية. فى يوليو ٢٠٠٣ أرسل روكفلر رسالة خطية إلى تشينى يقول فيها إن تقييدات كشف المعلومات «تثير قضايا عويصة تتعلق بالمراقبة».

وقد كتب روكفلر أيضا إن برنامج التصنت يستدعى إلى الأذهان «برنامج الوعى المعلوماتى الشامل» الخاص بالبنتاغون والذى كان يرأسه جون بويندكستر والذى صوت الكونغرس على إلغائه. وكتب يقول إن التماثل «يزيد من قلقى بخصوص الاتجاه الذى تتجه إليه الإدارة فيما يتعلق بالأمن والتكنولوجيا والمراقبة» (وقد أذاع روكفلر تصريحه هذا بعد كشف صحيفة التايمز) وفى بداية هذا العام هدد كل من تشاك هاجيل واولمبيا سنو وهما جمهوريان من ولاية مين، للتصويت مع الديمقراطيين للمطالبة بتحقيق عن برنامج التصنت مالم يبلغ كامل أعضاء اللجنة بالمعلومات. فى أوائل مارس وعشية التصويت على القضية، استدعى تشينى إلى اجتماع مع بعض أعضاء اللجنة الجمهوريين فى غرفة رقم اس ٢٠٧ وهى الغرفة الأشد حصانة فى الكابتول. وقد قام الجمهوريون بضمنهم سنو بانتقاد تشينى بشدة لمحاولات الإدارة منع أعضاء اللجنة من الحصول على المعلومات حول البرنامج.

وكان على تشينى أن يبلغ البيت الأبيض بأن خطته فى منع أعضاء اللجنة ماعدا رؤسائها من الحصول على المعلومات لم يعد ممكنا، ولكن بالعمل مع بات روبرتس رئيس لجنة مجلس الشيوخ للاستخبارات وبيل فرست زعيم الأغلبية فى مجلس الشيوخ استطاعت الإدارة أن تحد من عدد أعضاء اللجنة الإضافيين الذين وافقت على إيجازهم بالمعلومات السرية بحيث اصبحوا أربعة جمهوريين وثلاثة ديمقراطيين، وهذا أيضا يترك معظم أعضاء اللجنة ناهيك عن المسئولين المنتخبين الآخرين، فى الظلام. فى عشية جلسة المصادقة على ترشيح هايدن، وافق روبرتس بعد أن جوبه بثورة علنية من أعضاء اللجنة من الحزبين، على إجازة كل أعضاء اللجنة حول برنامج المراقبة. كانت هذه أيضا طريقة لتفادى أن يقوم أعضاء اللجنة الذين لم تتم إجازتهم عن البرنامج بطرح أسئلة محرجة فى الجلسة العلنية. (و كان هذا سبب الأسئلة الفاترة التى وجهت لهايدن فى جلسة المصادقة العلنية) رغم الإجازة فإن سنو قالت فى الجلسة العلنية « لم تتم حقا استشارة الكونغرس أو إعلامه بالأسلوب الذى نستطيع به حقا أداء مهمتنا فى الإشراف باعتبارنا فروعا متساوية فى الحكومة - ناهيك عن إيمانى بأن القانون يتطلب ذلك أيضا».

فى مارس، بعد أن رفضت لجنة الاستخبارات فى مجلس الشيوخ أن تعقد جلسات استماع حول القضية، عقد ارلين سبكتر وهو جمهورى من بنسلفانيا جلسات استماع أمام اللجنة القضائية لمدة أربعة أيام ولكن سبكتر انتهى إلى أن شهادة جونزالز كانت أكثر إبهاما من أن تكون ذات فائدة. وفى أواخر أبريل هدد بأن يقطع تمويل وكالة الأمن القومى لبرنامج التنصت إذا لم تكشف الإدارة معلومات إضافية عنه. وحين سئل لماذا لم يطلب من جونزاليز أن يمثل أمام لجنته مرة أخرى قال سبكتر «لأنه لن يقول لنا شيئا» وقد أنهت الإدارة، حسب تعليمات البيت الأبيض كما يبدو، تحقيقا تجريه وزارة العدل حول برنامج التنصت.

أثار ترشيح بوش لهايدن لرئاسة السى آى أى ضجة - اكبر بدون شك مما كان يتوقع البيت الأبيض - حول دوره فى برنامج التنصت ودفاعه العلنى المستميت عنه ولكن البيت الأبيض ادعى انه يرحب بالمعركة. ثم انطلقت ضجة أخرى بعد أن كشفت صحيفة يو اس توداى US Today بأن وكالة الأمن القومى تقوم بتجميع سجلات الهاتف لعشرات الملايين من الأمريكيين من شركات الهواتف الكبرى. وفى تصريح للصحافة قال بوش إن وكالة الأمن القومى لم تكن تستمع للمكالمات ولكن كانت تتتبع نمط الاتصالات التى تكشف عنها. ولكن سيكون من اليسير على وكالة الأمن القومى أو أية وكالة أخرى أن تربط الأرقام بأسماء المتصلين. وفى كل الأحوال فإن البرنامج غير قانونى تماما (وينوى سبكتر إقامة جلسات استماع) وقد أدت هذه الكشوفات ببعض المشرعين إلى التساؤل عما إذا كانت هناك إجراءات أخرى لم تصل إلى علمهم تقوم بها الإدارة باسم الأمن القومى.

إن من شأن معركة كبيرة فى الكونغرس حول برنامج التنصت أن تتناسب إلى حد كبير مع استراتيجية كارل روف، التى أعلنها فى أوائل هذه السنة فى اجتماع للجنة القومية الجمهورية والتى ستجعل من مسألة الأمن القومى قضية محورية فى انتخابات ٢٠٠٦ كما فعل فى ٢٠٠٢. قال روف: «الجمهوريون ينظرون للعالم بنظرة ما بعد ١١ / ٩ والديمقراطيون ينظرون للعالم بنظرة ما قبل ٩/١١» وبسبب ولع الإدارة بالعناوين والأسماء الدعائية (مثل القانون الوطنى) فإنها تسمى برنامج التنصت بدون إذن قضائى: «برنامج مراقبة الإرهابيين» وتلصق بمعارضيه تهمة ممانعتهم للتنصت على الإرهابيين. ولكن ليست هذه هى القضية: معظم نقاد كابتول هيل يرون ببساطة ضرورة خضوع برامج التنصت للقانون. يقول هاجيل «لا يمكن أن يتخذ أحد فروع الحكومة قرارات حول من ينبغى أن تنتهك حقوقه. هذا هو أساس وجود ثلاثة سلطات متساوية فى الحكومة».

[٤]

أما بالنسبة للسلطة القضائية فإن إدارة بوش حاولت، مثل الإدارات السابقة، تعيين قضاة يتفقون مع وجهات نظر الرئيس. ولكن بوش كان ناجحا بشكل مثير للانتباه فى وضع محافظين متطرفين على المنصة وربما يكون لديه الآن أربعة أصوات فى المحكمة العليا لصالح نظرية (الرئيس المركزى) وصلاحياته التى تتجاوز السلطتين التشريعية والقضائية. وقد أمرت إدارته المحكمة العليا عدة مرات بعدم قبول قضايا المحتجزين. وكذلك بواسطة تعييناته وبممارسة الضغوط



استطاع بوش أن يكسب الوكالات المستقلة (FDA ،SEC ، EPA وغيرها) إلى وجهات نظره السياسية - وفى حالته مخالفته للقانون - أكثر من أى رئيس قبله (٤) فى حين أن جوهر هذه الوكالات هو أن تكون مستقلة عن الرئيس والكونغرس.

وكان هناك أصلا حكمان قضائيان فدراليان يتهمان وكالة حماية البيئة EPA بمخالفة قانون البيئة الفدرالى.

أما بالنسبة للصحافة فإن مسئولى وزارة العدل قد هددوا بالملاحقة القضائية ليس فقط للمسئولين الذين يسربون المعلومات السرية وإنما أى شخص آخر يستلم معلومات سرية سواء أذاعها أو لم يفعل. وقد اقترح جونزالز بأنه يمكن ملاحقة الصحفيين بتهمة كشف معلومات سرية (مثلا مراسلى نيويورك تايمز لكشفهم برنامج التنصت بدون إذن). فى ١٦ مايو نشرت شبكة أى بى سى للأخبار على موقعها على الإنترنت بأن الإف بى آى (مكتب التحقيقات الفدرالية) قد ساعد مجهودات الحكومة للحصول على سجلات هواتف المراسلين فى تحقيق التسريبات. وقد وجد العديد من الصحفيين والمحررين فى ملاحقة الإدارة لاثنين من لوبى الايباك (لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية) - لاستلامهم مثل هذه المعلومات (وإرسالها إلى إسرائيل) نذيرا جادا وأنه فى أوائل مارس طالبت الإف بى آى بوثائق الصحفى التحقيقى الراحل جاك أندرسون.

ويدرك معظم المراقبين المطلعين ان تشينى ورئيس هيئة موظفيه ومستشاره سابقا ديفد ادنجتون، هما المسؤولان الرئيسيان للتفسيرات الواسعة لسلطات الرئيس إضافة إلى السرية غير المسبوقة التى تدير بها الإدارة الشئون العامة. وطبقا لصحيفة نيويورك تايمز، أنه بعد ١١ سبتمبر دفع تشينى وادنجتون باتجاه التنصت على المكالمات الداخلية. وقد أخبرنى إحدى جماعات الضغط الجمهوريين أن وجهة نظر الإدارة حول مختلف القضايا بسيطة «نريد أن تجرى الأمور حسبما نريد ولا نريد إزعاج أنفسنا بالحديث عنها للآخرين»

ويرى بعض المراقبين الجمهوريين أن تشينى يعيش فى الماضى ويتصرف كرد فعل لما كان يراه تجاوزا من الكونغرس (بضمن ذلك قانون FISA) على سلطات الرئيس خلال عمله فى إدارة فورد وكعضو أقلية فى كونغرس ديمقراطى. ورغم الشائعات بوجود فتور فى علاقته مع بوش حاليا، فإن تشينى يظل أقوى نائب رئيس فى التاريخ الأمريكى بأذرع مثل الأخطبوط تمتد إلى أركان كثيرة فى الحكومة. وقد عين جماعته فى كل وكالة أمن قومى - وزارة الدفاع والخارجية إضافة إلى وكالة

تكمن مشكلة مطالبة الرئيس بسلطات استثنائية كقائد أعلى فى أن «الحرب على الإرهاب» حرب مفتوحة بلا نهاية واضحة وهذا يؤدى إلى أن تكون صلاحيات الرئيس بلا نهاية أيضا

المخابرات المركزية ومجلس الأمن القومى (وحتى مؤخرا حين أخذت إجازة أمومة، كانت ابنته اليزابيث نائب مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى، وهو منصب لا يتطلب مصادقة مجلس الشيوخ وقد رأى المسئولون فى الكابتول هيل أنها مؤثرة أيضا فى منصب المسئولة عن مكتب الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية). تشينى نصب بورتر جوس فى وكالة المخابرات المركزية مع أوامر باجتثات الناس الذين يسربون معلومات تحرج الإدارة. من الصعب مع ذلك معرفة الكثير عما يفعله تشينى لان مكتبه يعمل بسرية تامة بحيث إن صديقا صحفيا يسمى مكتبه «الحفرة السوداء».

وقد وجد تشينى فى بوش مستمعا جيدا. وكانت نظرة بوش الخيالية للرئاسة واضحة من سلوكه. فهو يتخذ موقفا عدوانيا إزاء من يتحداه. وقد قال لبوب وودوارد «لا أحتاج أن أوضح لماذا أقول أشياء. هذا هو الشىء الممتع فى الرئاسة. ربما يحتاج بعضهم أن يوضح لى أسباب قوله شيئا ما ولكنى لا اشعر أنى مدين لأحد بتوضيح». وتعليقه «أنا الذى يقرر» حول عدم إقالة رامسفيلد، هو فى الواقع تعبير استخدمه مرارا.

لماذا كان أعضاء الكونغرس خانعين إلى هذه الدرجة فى وجه التجاوز المستمر على سلطاتهم الدستورية من قبل الرئيس؟ كشفت المحادثات التى أجريتها مع أشخاص مقربين من الكونغرس عن عدة أسباب. معظم أعضاء الكونغرس لا يفكرون بمضمون الدستور. فانشغالهم الرئيسى هو كيف يحصلون على تبرعات من أجل إعادة انتخابهم. وأحاديثهم فى دوائرهم الانتخابية تتركز على القضايا العملية التى تشغل ذهن الناخب: أسعار البنزين والوصفات الطبية والتعليم الجامعى. أو حول تزايد معارضة الناخبين للحرب على العراق.

ويدرك الجمهوريون أن انحدار شعبية الرئيس قد تضرهم فى انتخابات الخريف ولكنهم يشيرون إلى أنه يجيد جمع التبرعات ولهذا فهم يحتاجون عونه. أكثر من ذلك، إن الجمهوريين أكثر ولاء واحتراما لرأس الحزب ولا يمكن تصور أن ينتقد الجمهوريون بوش فى العلن كما كان يفعل الديمقراطيون مع جيمى كارتر أو بيل كلينتون. فالجمهوريون أكثر انضباطا حول إعلان (نقاط الحديث) الخاصة بالحزب على الملأ. وجمع التبرعات للجمهوريين تجرى من الرأس وليس كما هى الحال لدى الديمقراطيين، وهناك دائما ذلك التهديد المبطن بتوقف تدفق المال لحملاتهم الانتخابية، فى حالة عدم ولاء الجمهوريين للرئيس.

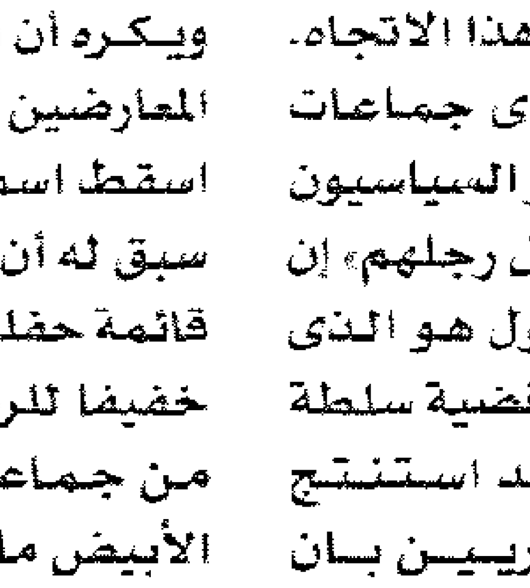
ويمكن للخصم الجمهورى أن يتحدى صاحب المنصب فى الانتخابات الأولية للحزب حيث لا يصوت الكثير من الناس. وهنا قد أظهر أرلين سبكتر شجاعة غير عادية. فبالكاد نجا من تحد محافظ فى الانتخابات الأولية عام ٢٠٠٤ (رغم ان بوش سانده) ثم كان عليه أن يحارب محاولة محافظة لتنحيته من رئاسة اللجنة القضائية لمجلس الشيوخ بسبب آرائه المؤيدة لحقوق الإجهاض. ونجا بتعهده ألا يسمح لآرائه أن تتدخل فى الترشيحات القضائية أمام اللجنة. وقد قال لى سبكتر: «ما يقلقنى اكثر من أى شىء هو تقييد سلطة الكونغرس الدستورية وهو ما لم يقاومه الكونغرس».

إن انحدار شعبية بوش يمكن أن يدفع أحيانا الجمهوريين لمحاولة الظهور بالاستقلالية عنه - كما فى قضية العقد الذى منح لشركة دبى لإدارة الموانئ الأمريكية. فبعد كل حديث الإدارة عن الأمن كانت هذه الترتيبات تبدو مناقضة بشكل صارخ فى قلب الأرض الأمريكية وقد سارع أعضاء فى الكونغرس لقتل الصفقة. ولكن المشرعين الجمهوريين اقتنعوا أيضا وكما عبر عن ذلك أحدهم قائلا «يجب علينا أن نأخذ صف الرئيس لأننا إذا بدأنا فى الانشقاق عنه أو القول انه يستغل سلطاته فكلنا سوف نغرق معه» وكان كارل روف يجادل مؤخرا أعضاء الكونغرس الجمهوريين فى هذا الاتجاه. فى النهاية قالت لى إحدى جماعات الضغط الجمهوريين «يشعر السياسيون الجمهوريون أن بوش«ما يزال رجلهم» إن التحزب الشرس فى كابتول هو الذى يعطل مناقشات جادة حول قضية سلطة الرئيس اللامحدودة: وقد استنتج العديد من الجمهوريين بأن الديمقراطيين يستغلون هذه القضايا لأغراض حزبية وأنهم تخندقوا ضدهم. فى ١١ مايو وأثناء غداء أسبوعى معتاد لحوالى عشرين من السيناتورات المحافظين ندد السيناتور روبرتس بالنقد الموجه ضد برامج بوش للمراقبة وجمع البيانات باعتبارها «خطيرة» و«مهينة» للرئيس واتهم الديمقراطيين بالتعامل مع الأمن القومى كقضية سياسية.

ويمكن القول إن أعضاء الكونغرس ذوى الحمية تجاه مؤسستهم والقادرين على النظر لما هو أبعد من همومهم الضيقة والذين كان يمكن أن يعارضوا تجاوزات بوش على الفرع التشريعى - لم يعد لهم وجود.

منذ زمن التصويت على حرب العراق، كان الكثير من الديمقراطيين يخشون أن يتهموا بالوقوف فى «الجانب الخاطئ» من قضايا «الأمن القومى» حتى تلك التى تطبخ بشكل فج من قبل البيت الأبيض. ويتطلب الأمر رد فعل شعبيا قويا كما فى موضوع التعذيب، حتى يستطيع الكونغرس أن يتخذ إجراء ضد أفعال الرئيس. وقد قال لى سيناتور جمهورى «هناك شعور فى الكونغرس أن الجمهور لا يهتم بالموضوع وانه يرغب فى التخلى عن حرياته من أجل هزيمة الإرهابيين». وبعض المقترحات التى قدمت فى الكابتول هيل لتشريع التنصت الذى تقوم به وكالة الأمن القومى لا ترقى إلى أن تكون قوانين.

فى مركز الصراع الراهن حول الدستور هناك رئيس يحيط نفسه بذوى الولاء الثابت وهو لا يهتم بالتعقيدات ويكره أن يناقش ولا يتسامح مع المعارضين داخل الإدارة وخارجها. (وقد اسقط اسم جمهورى بارز من واشنطن سبق له أن جمع مبالغ كثيرة لبوش، من قائمة حفلة الكريسماس بعد أن وجه نقدا خفيفا للرئيس) وقد وصف لى جمهورى من جماعات الضغط المقربة للبيت الأبيض ما يسميه (ديانة بوش) «أهم ما يميز هذه الجماعة الولاء، وتعريف الولاء يمتد إلى صنع السياسة وتنفيذها وإلى الهيئات التشريعية» ويقول الرجل إن النتيجة هى أن الناس فى الهيئات بضمنها التشريعية «أصبحوا مثل الروبوت يفعلون ما يؤمرون به. وليس هناك حوار».



لم يؤد الضعف السياسى الراهن للرئيس إلى أن يتراجع البيت الأبيض عن مطالباته بسلطات رئاسية فوق العادة. يقول فين ويبر من اللوبى الجمهورى «اعتقد انهم يعون بدقة حقيقة أن موقفهم السياسى ضعيف ولكن هذا لا يعنى أن مؤسسة الرئاسة قد دمرت» والأشخاص الذين لديهم رؤى سياسية يائسة مثل جروفر نوركويست وديان فاينشتاين يشعرون بالقلق من معنى استحواذ بوش على السلطة على المدى البعيد. يقول نوركويست: «هذه كل السلطات التى لا نود أن نراها بيدى هيلارى كلينتون» وتقول فاينشتاين «اعتقد أن هذا الأمر جد خطير لأن رؤساء آخرين سوف يأتون وهذه ستكون سابقة لهم» وتقول، لذلك «من المهم جدا أن يتشبث الكونغرس ويصدر قرارات حول ماهية سياساتنا بخصوص التعذيب والاستعانة بدول أخرى للتعذيب وقضايا المحتجزين والتنصت لئلا يطالب بوش بالحق لوضع هذه السياسات، أو أن تصبح سياساته ذاتها سابقة للرؤساء القادمين».

وكتب جيمس ماديسون فى الوثيقة الفدرالية رقم ٤٧:

إن تجميع كل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية فى نفس الأيادى سواء لشخص أو قلة أو كثرة قد تكون هى نفس التعريف للطغيان.

إن تجميع سلطات فوق العادة فى ظل إدارة بوش، فى «نفس الأيادى» أمر لا يمكن إنكاره الآن. لأول مرة منذ اكثر من ثلاثين سنة وإلى مدى أكثر اتساعا من آنذاك، نجد الشكل الدستورى لحكومتنا فى خطر محدق.

استثمرت مزاعم بوش حول سلطته الاستثنائية كقائد أعلى بشكل أساسى بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. كان قادرا على استغلال الخوف الذى أثارته الهجمات فى قلوب الشعب الذى بدأ يتطلع إلى رئيس يحميه

هـــوامـــــش :

(١) انظر نقد ديفد كول لكتاب جون يو «سلطة الحرب والسلم: الدستور والشئون الخارجية بعد ١١/٩» (قسم النشر فى جامعة شيكاغو ٢٠٠٥) فى مجلة نيويورك ريفيو، ١٧ نوفمبر ٢٠٠٥.

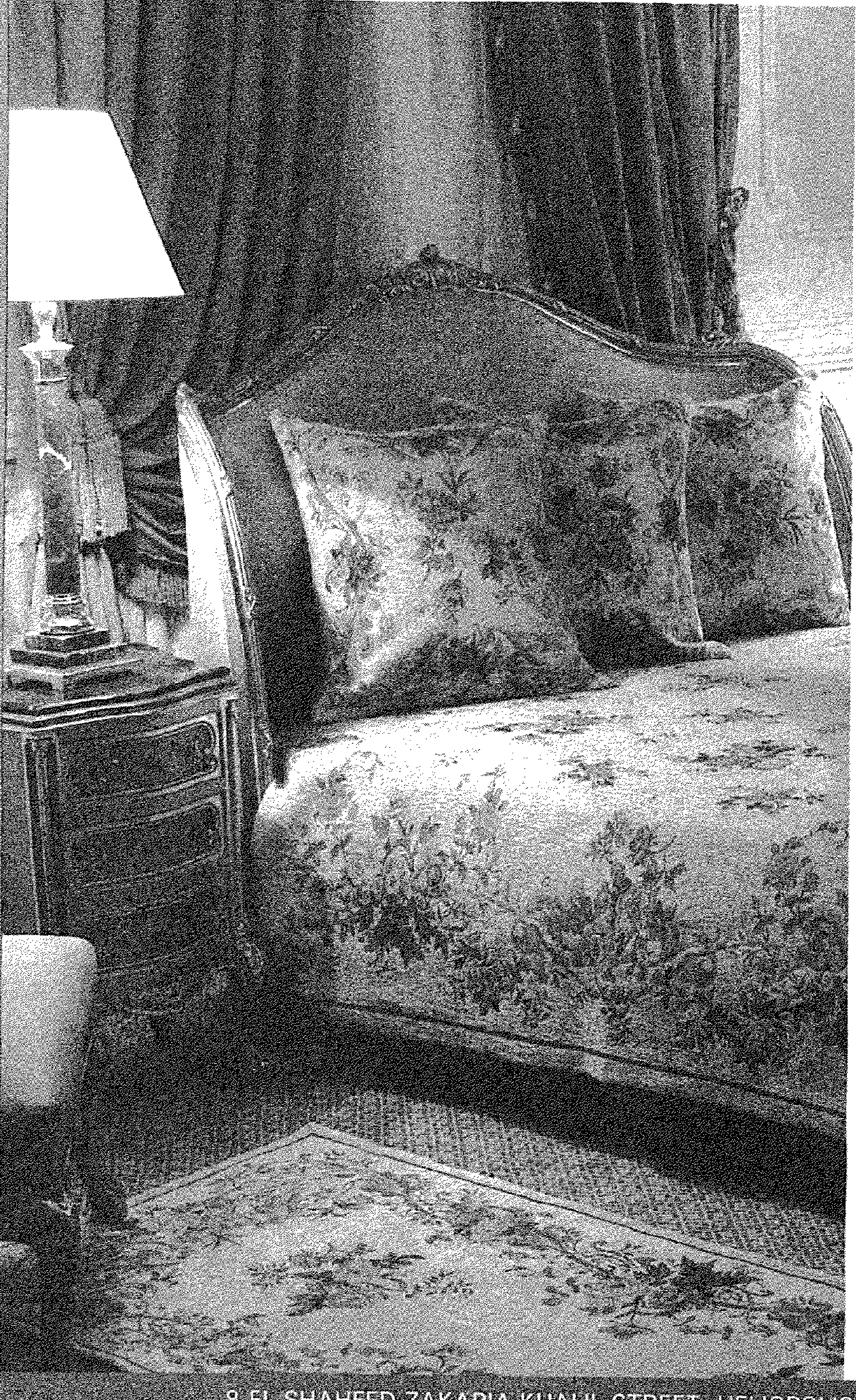
(٢) من بين الموقعين كان ديفد كين رئيس الاتحاد المحافظ الأمريكى وإبراهام سوفاير من معهد هوفر ومستشار قانونى سابق لوزارة خارجية ريغان وريتشارد ابيشتاين باحث قانونى محافظ فى جامعة شيكاغو وبروس فاين من وزارة العدل فى عهد ريغان وناشط قانونى محافظ ووليام سيشنز مدير الإف بى آى تحت إدارة جورج بوش الأب. انظر www.constitutionproject.org

(٣) للاطلاع على نقاشات دستورية أخرى ضد برنامج التنصت انظر «حول تجسس وكالة الأمن القومى: رسالة إلى الكونغرس» وقعها ديفد كول وآخرون. مجلة نيويورك ريفيو، ٩ فبراير ٢٠٠٦ وانظر أيضا رسالة ثانية فى www.law.duke.edu/publiclaw.pdf

(٤) انظر مقالة مارسيا انجيل حول فشل إدارة الغذاء والدواء FDA «صيدليتك الخطرة» فى نيويورك ريفيو ٨ يونيو ٢٠٠٥.

INTRODUCING A NEW CONCEPT IN CARPET DESIGN....

La Boutique
Oriental Weavers

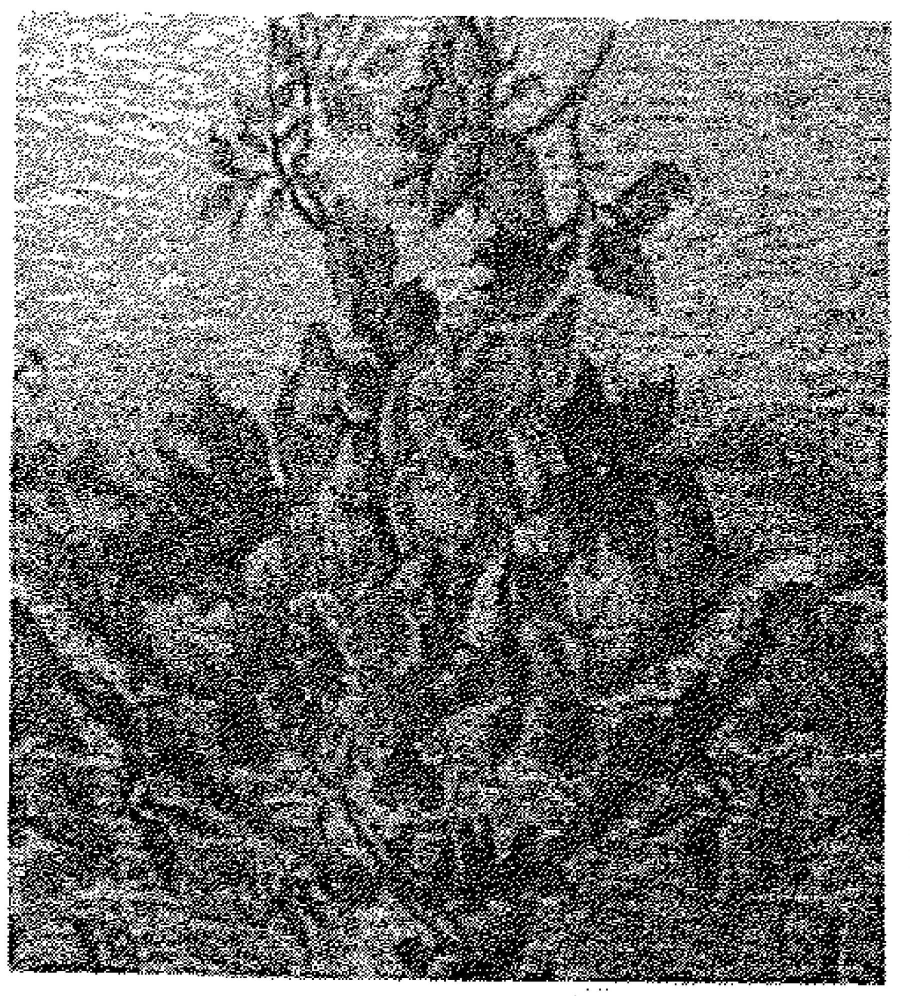


لابوتيك
النساجون الشرقيون
فقط لعشاق التميز

الآن وفى لابوتيك تستطيع أن تبتكر تصميم سجادتك بنفسك محققاً الشعور بالتفرد والتميز.

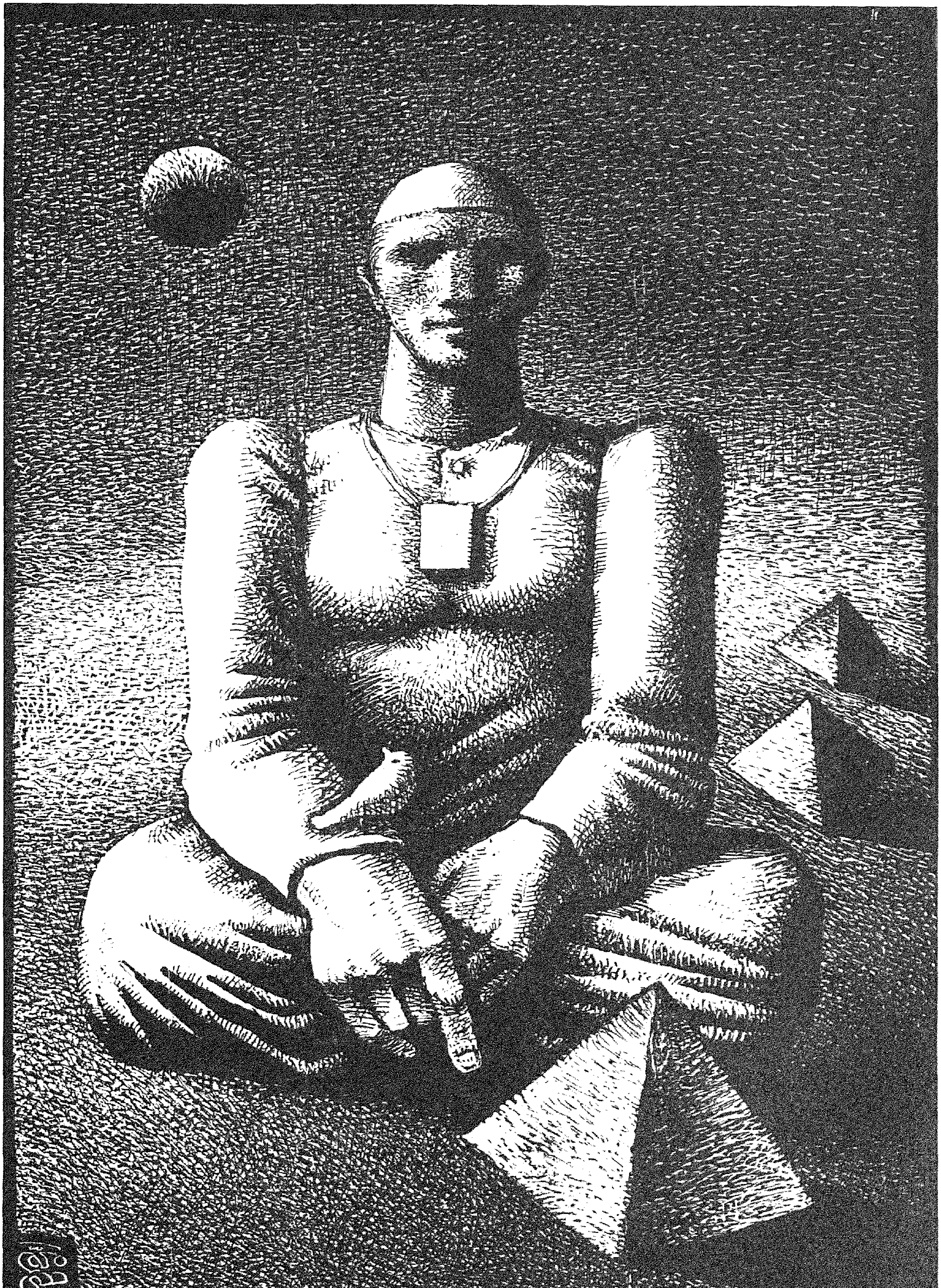
فقط إعطنا قطعة من قماش التنجيد أو الستائر أو ورق الحائط

لعمل سجادة تتناغم مع المكان وتعبر عن رؤيتك من خلال زخرفة أو رمز تفضله.



Personalise your surroundings...

8 EL SHAHEED ZAKARIA KHALIL STREET, HELIOPOLIS, CAIRO TEL:02686690
GAMET DAWAL : 3459661 ABASS EL AKAD : 2632601 ELMANSHEYA : 03/4845086 RAMADA : 03/5551703
NOW OPEN : 35 ABU ELFEDA STREET EL ZAMALAK Tel:7374411



يحيـــــى الرخــــــاوى

مـــاذا حـــــدث لقِيَـــم المصـــريين؟!

السيدة أجنبية أوربية غربية تعيش فى مصر من سنوات، جاءت تطلب مشورتى فى أمر من أمور بناتها، تدرج الحديث إلى تفاصيل تاريخ تكوين أسرتها ومسار معاشها، ولماذا فضلت، فأقنعت زوجها المصرى، أن تقيم الأسرة بقية حياتها فى مصر دون بلدها المتقدم، وصلتنى إجاباتها تقرر بأمانة أنها وجدت فى ناس مصر (الحاليين جدا) شيئا مختلفا هو أقرب إلى ما تريد، شيئا لا هى سمّته، ولا أنا حاولت أن أتمادى فى السؤال عنه حتى لا أحبطها أو أحبطنى.

الحديث عن الشخصية المصرية بشكل يمكن تعميمه يكاد يكون مستحيلا حتى من خلال نتائج الأبحاث التى تصدرها مراكز الأبحاث عندنا. وذلك لأسباب لا داعى لذكرها. من باب أولى ينبغى الحذر من الاعتماد على الانطباعات الشخصية وخاصة حين نعمم من خلالها أحكاما دامغة. مهنتى تضعنى فى مأزق آخر: فمع أنها أتاحت لى معايشة عدد هائل من ناسنا من كل بقعة من بقاع مصر، فإن معايشتى لهذا الكم من المصريين عبر هذا العدد من السنين، مقصورة - أغلبها - على المرضى وذويهم. هنالك زعم يقول إن المرضى (وذويهم) لا يصح أن يكونوا المرجع الذى نقيس به، أو نرسم من خلاله: خريطة الأسوياء، وُجِّهَ هذا النقد لسيجموند فرويد حين عمم ما حصل عليه، من عيادته وتحليلاته، على الشخص العادى. هذا اعتراض خاطئ حيث المسألة غير ذلك، المريض يتعرى فنرى فيه أنفسنا التى لا نجرؤ أن نراها إلا من خلاله، اختلاف مسار المرضى إلى السلب والهزيمة بعد ذلك هو المرفوض تعميمه.

أعترف ابتداء أن ما سوف أطرحه فى هذه المداخلة هو انطباعات قابلة للقبول والرفض، غير صالحة للتعميم، وهى أساسا، وربما تماما، من واقع خبرتى الإكلينيكية خلال نصف قرن إلا عاما واحدا، (١٩٥٧-٢٠٠٦) كما أنها بالضرورة، غير مقصورة على المصريين فى نهاية النهاية.

المأزق صعب، والأزمة عامة

أزمة القيم عبر العالم تفرض نفسها بشكل لحوح ومنذر. ربما يرجع ذلك إلى أمرين: أولا: مأزق انتصار قطب أوحد فى آخر جولة عالمية من جولات الحرب الباردة، وثانيا: تزايد إمكانيات التواصل بين سائر البشر بقدر أكبر وأسرع من أن تحول دونه أية وصاية أو رقابة. هذا بالإضافة إلى أن ثم تداخلا مشوشا بين «القيم» و«الأخلاق».

بعد انتهاء الحرب الباردة لم يتسلم القطب المنتصر قيادة العالم عسكريا واقتصاديا فحسب، وإنما وجد نفسه داعية (حتى النبوة) لمعتقداته (أيديولوجيته) الخاصة، وبالتالى تصور أنها الأرقى، والأبقى، ما دام هو الأقوى والأكثر ثراء والأنشط إعلاما وتسويقا. انتشرت لذلك قيمه الخاصة نتيجة لما يسمى «تأثير الهالة». أغلب هذه القيم سبق اختبارها وفشلت من قبل، ومع ذلك فقد عادت تطل من خلال نجاح لا يعزى إليها بقدر ما يعزى إلى غباء منافسيها. من تلك القيم مثلا: قيمة الاستهلاك، وقيمة الرفاهية، وأغلب ما يسمى قيم السوق، ثم تفرعت قيم أخطر وأدنى مثل قيمة الحق فى تصنيف الناس إلى أخيار وأشرار. بل إن قيمة الديمقراطية نفسها كما تُسوق لنا، وكثير من القيم التى تدرج تحت ما يسمى بحقوق الإنسان، تحتاج إلى مراجعة طول الوقت.

فى نفس الوقت اهتزت حتى تشوهت قيم كانت دائما أكثر إنسانية وأكثر نفعا على مسار التطور، مثل قيمة العدل وقيمة الدفاع عن النفس، فقد تم إدخال تعديلات عليها حتى أصبحت تفيد عكسها، فثم عدل انتقائى، وعدل استثنائى، وعدل خصوصى (بالمقاس). قيمة «الدفاع عن النفس» أطلقوا عليها أسماء حركية لتصبح صالحة للاستعمال فى قتل آلاف الأبرياء دون حساب، (أسماء مثل الهجوم الاستباقى، أو مكافحة الإرهاب أو التطهير العرقى للجنس الحامل جينات الشر اكتسابا. أغلب هذه التحولات ليست نابعة من مصر، وفى نفس الوقت هى غير بعيدة عن مصر.

حين طلب منى أن أرصد التحولات التى جدت على الشخصية المصرية ترددت طويلا حتى كدت أتراجع تماما. مع احترامى لكل الكتابات المجتهدة التى حاولتْ أن ترصد ما جرى للمصريين خلال عشرين عاما أو خمسين عاما، لابد من التنبيه - على الرغم من جودتها - أنها تحمل قدرا من السيرة الذاتية عممها أصحابها حتى تصبح هى المرجع لما ذهبوا إليه. لا ولم أرفض هذا المنحى من حيث المبدأ، لكننى نبهت إلى خطورة التعميم، ثم تصورت أن أية مداخلة جادة لابد أن تتعدى المرحلة الوصفية إلى ما يلوح من بدائل لنا ولغيرنا. ولو كانت آمالا أو وعودا، أو حتى شطحا.

إن أية ممارسة سلبية فى أى مكان فى العالم هى خطر على سائر البشر، كما أن كل اجتهاد أو إبداع إيجابى فى أى مكان فى العالم هو خير عام. موقف بوش من تقسيم الناس إلى خيرين وأشرار، ثم قتل الأبرياء استباقا، هو خطر على الجنس البشرى كله بما فى ذلك شعبه الذى انتخبه، كذلك ما يحدث من إسرائيل - فيها وفينا - هو خطر عليها وعلى جيرانها بقدر ما هو خطر على البشرية، فى حين أن موقف النقاد المبدعين الأمريكيين والألمان والإنجليز من سلطاتهم الظالمة فى كل مجال (العلم والاقتصاد والسياسة)، هو قيمة تعود بالخير على الجنس البشرى كافة دون استثناء.

ما أقدمه فى هذه المداخلة ليس إلا فروضا ناقصة، ربما غير قابلة حتى للتحقيق، إلا أنه يمكن أن نلتقط منها ما لا يتحمل الانتظار، ففائدة الفرض العامل قد تسبق إثباته بدهور، وهل بقيت الأحياء التى نجت من الانقراض إلا بفروض لم يثبتها إلا حقيقة بقائها؟

تقسيم هادف يتجاوز الوصف:

لتحقيق هدف هذه المداخلة سوف أقدم أمثلة لمجموعات من القيم قيد النظر، ربما يتيح ذلك فرصة للنظر فيما يمكن أن يترتب على إقرار أو رفض ما تيسر منها مما يحتاج إلى إضافات وتفاصيل وحوار ومراجعة:

المجموعة الأولى: ترصد التحول الذى حدث ويحدث فى منظومة القيم، ليس فقط بإحلال قيم سلبية محل قيم إيجابية، ولكن بتحويل كثير من منظومة «الرذائل» إلى قيم جديدة نكاد نفخر بها، وذلك من خلال التكرار، والتعميم، والتعود، حتى كادت تصبح نموذجا لما ينبغى أن نعلمه لأولادنا حتى يتمكنوا أن يواصلوا الحياة بمقاييس النجاح الجديد، بشكل أو بآخر.

المجموعة الثانية: تشمل سلسلة من المبادئ والمواقف التى تجمدت فى موقعها نتيجة لحسن سمعتها، وكثرة ترديدها معه أنه انتهى عمرها الافتراضى برغم أدائها واجبها فى حينها.

أما المجموعة الثالثة فهى ما لن أتناوله فى هذه المداخلة بأية تفاصيل، مع أنها هى التى يمكن أن تبين ما أردت أن أعنيه ويمكن أن نتحول إليه نحن البشر(ما أمكن ذلك!).

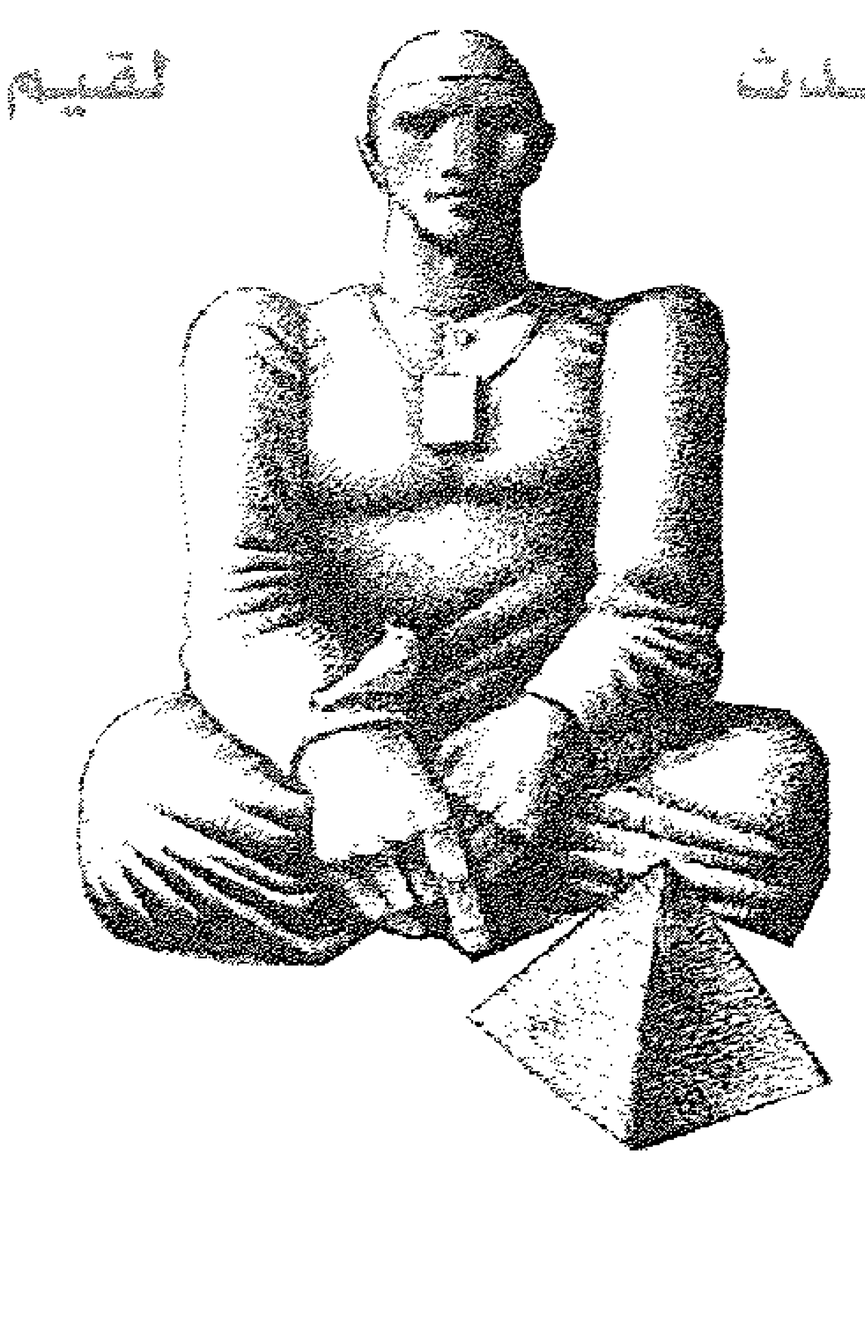
المجمـوعـة الأولـى:

قيم الفخر بالسلبى

أولا: قيم الغش

تدرجت فى مجتمعنا ممارسات الغش متسحبة، ثم معلنة، فردية ثم جماعية، حتى أصبحت صنعة متقنة لها مدارسها وأساتذتها. بل وكتبها وبرامجها، يتباهى من يفعلها ويحكى عنها، حتى كادت تصبح موضع حقد من يعجز عن ممارستها. يبدأ الغش منذ الرضاعة، حين تُرضع الأم رضيعها لبنا انتهت مدة صلاحيته أو اختلفت محتوياته، وقد غشها بائعُه أو صانعُه بتزوير التاريخ أو تلويث أو تزوير مكوناته. قد تعلم الأم أو لا تعلم ذلك، ومع ذلك تصل رسائل الغش إلى نسيج الثقافة دون حاجة إلى إخطار صريح.

يتواصل الغش حين يذهب الأطفال للمدارس تحت



عنوان التعليم، وهم لا يذهبون إلا ليتناولوا الوجبة المجانية أو المخفضة، ثم يتأكد الغش الصريح بإقرار الأسرة له كقيمة تزهو بها على غيرها، حين تفخر الأم أمام ابنها وصاحبه (خصوصا إذا كانت مدرسة أو ناظرة مدرسة أو زوجة رئيس مجلس المدينة) على أهل زميل ابنها لأنهم لم يتمكنوا أن يغششوا ابنهم بنفس القدر الذى نجح به زوجها، كل حسب مركز أبيه، ثم تتأكد قيمة الغش الجماعى بمكبرات الصوت خارج سرادقات الامتحانات، وبإملاء المراقبين الإجابات للطلبة (الغلابة)...الخ، وصلتنى أرقام مرعبة عبر العالم أرجو ألا يتوقف القارئ عندها مرتاحا وهو يقول «مثلنا مثل غيرنا»، فيضيف إلى الرذيلة رذيلة أخرى. إن انتشار قيمة سلبية حتى عبر العالم لا يعطيها شرعية. من أول الغش حتى الحرب، مرورا بشطارة احتكار السوق. من هذه الأرقام إحصائية لمركز النزاهة الأكاديمية فى جامعة ديوك على ٥٠ ألف طالب جامعى و١٨ ألف طالب ثانوى أمريكى اعترف أكثر من ٧٠٪ بأنهم مارسوا غشا فى الامتحانات. كما أقر التقرير أن نسب الغش ارتفعت أربع مرات خلال السنوات الست الماضية، (ثم أرقام أخرى متاحة من الهند وكوريا الجنوبية وبكين) ولكن يبدو أن هناك أنواعاً من الغش تسير جنبا إلى جنب مع الإنتاج، وأنواعاً أخرى تدعم البلادة والكسل والتزوير إلى مالا نهاية، نحن أقرب إلى النوع الأخير: يتخرج النشء عندنا بعد ذلك أو لا يتخرج، فنقابله هو هو فى سوق المال، أو على كرسى الجامعة، أو فى مجلس الشعب أو فى مراكز أعلى فأعلى!

تقع تحت بند الغش بعض الإجراءات التى تقوم بها الدولة خداعا للمواطنين حين توهمهم بأمور لصالحهم وتعمل عكسها تماما، كأن تنقص من وزن رغيف الخبز وهى تعلن عدم زيادة سعره بالصوت الحيانى، وهكذا. أما التهرب من الضرائب- غشا ، فهو القاعدة.

نختم التذكرة بما وصلت إليه هذه القيمة من رسوخ بحضورها الدائم والمتكرر فى تزوير الانتخابات. المداخلة الحالية لا تتوقف عند الاهتمام بالموقف القانونى لإثبات التزوير أو تجريمه. إن التزوير كقيمة لا يقتصر على اللعب الصريح فى كشوف الانتخاب، بل إنه يمتد إلى فكرة الخداع بأية صورة، مثل أن تخدع الناخب، بأمانة شديدة! حتى ينتخب سيادتكم مرشحا مستقلا ضد مرشح الحزب الوطنى (مثلا)!!!! فيصدقك وينتخبك، فتنجح، ثم تأخذ صوته دون استئذانه وتنضم للحزب الوطنى، تحت زعم أنك هكذا سوف تتمكن من أن تخدمه وتسهل مصالحه. ثم خداع أخفى لا يعلمه إلا الله والراسخون فى الغش (لا شعوريا؟ ربما)، وذلك حين ترشح نفسك إخوانيا (مثلا)، وتتصرف بما يجعل الناخب يعتقد (لا شعوريا أيضا) أنه بانتخابك سيدخل الجنة، مع أنك واثق (شعوريا) أنك لا تملك مفاتيحها، أو حتى لو كنت تخدع نفسك أنك تملكها (لاشعوريا)، فأنت شخصيا لا تضمن دخولها لا بترشيح نفسك، ولا بانتخابه إياك، بل قد يكون فى هذا وذاك توجها للناحية الأخرى.

ثانيا: مجموعة القيم البدائية (القبيلة - القرية)

حين نتحسر على الماضى جداً، ننسى أننا بذلك نتمنى لو أن الزمن كان قد توقف، وكأن الحل هو أن نحاول إرجاع الساعة. للماضى نبضه وجمالياته وعطاؤه، لكن علينا ألا ننسى أنه ماض، لا يمكن - إلا فى ظروف استثنائية، ولفترات محدودة - أن يكون هو الأفضل. من منا يريد أن يرجع قردا، أو حتى أن يحب بنفس الطريقة التى أحب بها كُثير عزة، ولا أقول ابن الملوح أو يعيش تحت حكم المماليك. هذا النحى للإعلاء من قيم الماضى دون تحفظ له آثاره السلبية على حركية منظومة القيم من ناحية، وعلى ما آلت إليه هذه القيم الأقدم التى تحور استعمالها حتى أصبحت رذائل برغم تاريخها وسمعتها.

قيم القبيلة تدعم أخلاق الشللية والوساطة، وهى تنتهى بنصرة أخيك ظالما أو مظلوما، مرورا بـ «أنا وأخويا على ابن عمى، وأنا وابن عمى على الغريب». أثر هذه القيم على القيم الأخرى مثل العدل وحتى الديمقراطية هو أثر سلبى خطير، كثير من الانتخابات التى تفخر بأنها ديمقراطية جدا مبنية على هذه القيم أولا، وأحيانا: أولا وأخيرا. خطر حضور هذه القيم بثقلها السلبى لا يقتصر على أنها تخل بقيم أنفع وأرقى، ولكن لأنها موضع فخر معلن من كل من يمارسها، برغم كونها خطايا مؤثمة فى كل الأديان. المصيبة أنها تمتد إلى القبيلة الدينية إن صح التعبير، فالذى يجمع أهل دين ما إلى بعضهم البعض ليس بالضرورة الاتفاق الحقيقى فى المعتقد، وإنما هذا الشعور بالأمان الذى يمثله الانتماء إلى القبيلة الدينية التى تنتمى إلى نفس المعتقد. ثم إن كثيرا مما يسمى «أخلاق القرية» ليس إلا تجليات بعض هذه الرذائل التى تُسوَّق على أنها فضائل.

تدرجت فى مجتمعنا ممارسات الغش متسحبة، ثم معلنة، فردية ثم جماعية، حتى أصبحت صنعة متقنة لها مدارسها وأساتذتها، بل وكتبها وبرامجها، يتباهى من يفعلها ويحكى عنها

الانتخابات بوجه عام تحكمها هذه القيم أكثر من أية قيمة سياسية أو اقتصادية أو برنامج مستقبلى محدد، لا يُستثنى من هذا الاتجاه أى من التجمعات الإثنية والدينية والعنصرية فى لبنان والعراق وأيرلندا وحتى الولايات المتحدة. تكمن هذه القيم وتعلن بدءاً بالوعود الشخصية التى يعدها المرشح لأهل دائرته فى مصر- مثلا- حتى مهارة المرشح عندما ينجح فى الحصول على توقيعات الوزير المختص. يتم تقييم «شعبية» المرشح وكفاءته بمدى دائرة اتصالاته القادرة على تحقيق تسهيلات خاصة لأفراد القبيلة. تتبدى مهارته فى أصرح صورة وهو يصطحب العشرات من أهل دائرته إلى القومسيون الطبى العام للحصول على تراخيص العلاج على حساب الدولة، دون سائر المرضى.

الأخلاق الشللية تمتد إلى دوائر أصغر فأصغر حتى تصل إلى ما يسمى الصالونات الثقافية، الخاصة والعامة، وبرغم ما يدور فيها من بعض التفريغ للاحتقان السياسى، وأيضا بعض النقد الثقافى، فإنها أصبحت مجالا لنوع من التعاون الانتقائى على حساب من هو خارج دائرتهما.

قيمة الشللية لها طيف ممتد من أول تعيين الوزراء حتى الترشيح للجوائز حتى نيلها، (دون تعميم) مرورا بعشرات التشكيلات والتحيزات، وكلها - مع أنها رذائل- هى موضع للفخر والتباهى.

ثالثا: مجموعة قيم الشطارة

أين تقع «الشطارة الآن على متدرج منظومة القيم عندنا؟ هل هى أقرب إلى الفضيلة أم إلى الرذيلة؟ الرد الماسخ سوف يقول لك إن ذلك يرتبط بنتيجتها، وفيم تستعمل» من مَن إلى أين، هذا الرد يبدو ردا صحيحا طيبا حذرا، فلماذا وصفته حالا وابتداء بأنه رد ماسخ؟ لأنه رد هروبى غالبا. ذلك أن المتابع لتطور لغة عامة الناس فى الشارع يعرف أن الشطار لم يعودوا أبناء «على الزيبق» المصرى، ولا حتى أولاد أولاد عمومة أرسين لوبين، وإنما أصبح تعبير الشطارة مقصوراً على من يمشى حاله، ويعرف طريقه، ويكتشف نقاط الدخول إلى المحظور دون أن يقع فى المحظور، أنواع الشطارة الرذيلة التى يتباهى بها أغلب الناس، والتى سادت مؤخرا، كثيرة ومتعددة، ولا مجال لتفصيلها (انظر حولك).



رابعا: مجموعة قيم

«الشكل» «للشكل»

أن تفخر بأنك وليت منصب كذا أو حصلت على جائزة كيت، هذا حقك، لكن أن يصل الأمر إلى أن يصبح الكرسى نفسه قيمة نهائية بغض النظر عما يسمح لك أن تقوم به، أو يفرض عليك أن تؤديه، وأن تكون الجائزة فى ذاتها هى قيمة قصوى غير قابلة للنقد أو للتمحيص، حتى من نائلها، حين يصير الأمر كذلك فنحن نمسخ الإنجاز الجيد إلى عكسه. إذ تحل الوسيلة محل الغاية تماما ودائما، مما يفرغ الشكل من محتواه. هذا التوجه يصبح أكثر خطرا كلما اقتربنا من مناطق شاع عنها ما يدعو للاحترام حتى التقديس. خذ مثلا مجال البحث العلمى: يتطلب هذا النشاط «المحترم» شروطا بذاتها، وشكلا متفقا عليه، ومواصفات محكمة، حتى يسمى البحث بحثا علميا!! كذلك، لكن الوفاء بأغلب هذه الشروط الشكلية لا يعنى بالضرورة أن المحتوى يستأهل صفة البحث العلمى أصلا.

الذى حدث للأسف فى هذا المجال، وفى مصر خاصة، أن مهارة الحبكة والشكل والتراسل المستوفى شروط النشر، قد أخذت كلها مسارا مستقلا بذاتها، حتى وصل الأمر إلى أن يكون هم من يقوم بالبحث (ولا أقول هم الباحث) هو أن يتعلم تلك المهارات أولا وأخيرا، ليصبح ناتج عمله محبوك المنظر حتى لو تجاوز كل القيم الأخرى. هذه المهارة الشكلية أصبحت تحتاج إلى خبرة منظمة معقدة معا، الأمر الذى استتبعه ظهور مدارس، ومراكز، وتسعيرة، إما لتعليمها، أو للقيام بها نيابة عن صاحبها، وكله بثمنه. زاد هذا التوجه مؤخرا بما أتاحه الإنترنت من برامج، ومصادر، وأدبيات كاملة ومختصرة، مدفوعة أو مجانا. وهكذا ينتهى الأمر إلى إفراغ البحث من مصداقيته وجدواه بغض النظر عن أين نشر ومتى، المهم - فى سياق هدف هذه المداخلة - هو بيان أن من يقوم بمثل ذلك لا يخطر على باله أنه يفرغ وجوده نفسه من فحواه، كما أنه يفرغ المنصب من دلالته، والنشر من فائدته، وهو لا يتذكر عادة أن حسابه قبل وبعد البحث، وقبل وبعد النشر، هو على الله، ولو ألقى معاذيره. بل إن بعض من أتقن هذه الصنعة قد يتبرع بتعليم الأصغر طرق التوفيق (والتلفيق) والتنسيق كذبا وخداعا، وهو يرى أن فى ذلك ثوابا يثاب عليه لأنه ساعد هذا الصغير فى بحثه، وخفف عنه مشقة الجدية والمعاناة فى طلب العلم.

خامسا: مجموعة قيم اللاعمل

المفروض أن الانسان «عامل بطبعه»، وإلا فلماذا الحياة، وكيف؟ لكن ما آل إليه حالنا هو أن العمل كاد يصبح استثناء عند بعضنا (ما أمكن ذلك) يشمل ذلك تقديس الكسل، والتفنن فى تجنب العمل. الاكتفاء «بالذهاب إلى العمل دون عمل، كاد يصبح هو القاعدة»، وكأنه إجماع على العصيان المدنى. الجهد الذى يبذله من يمارس هذه القيمة لينجح فى أن يتحايل على الوقت حتى يملأه باللاشىء، يبلغ - فى تصورى أحيانا - قدرا أكبر مما لو كان قد عَمِلَ فعلاً، حتى أنى أشفق على مثل هذا الشخص أنه حرم نفسه من متعة العمل، ولذة الكسل معا. تشكيلات اللاعمل والفخر بها تتضاعف حين يكون الشخص على ميسرة تسمح له بالاستيقاظ بعد العصر، والاستمرار فى الوضع ساكنا حتى الفجر.

كل هذا ليس مربط الفرس كما يقولون، ما يهم هنا هو التنبيه بأن هذه القيمة أصبحت موضع فخر فى كثير من الأحيان، يدعمها وصف من يعمل بأنه «كرودية»، أو «غبى»، أو على أحسن الظروف «يستأهل».

المجموعة الثانية:

القيم الثوابت (بغير وجه حق)

مع حركية تغير منظومة القيم، نرصد فى الشخصية المصرية (ربما عند الأكبر فالأصغر) تمسكا ببعض القيم التى يعتبر التمسك بها، كما هى، دون النظر فى السياق التاريخى الذى أفرزها، ولا إلى ضرورة تطورها. هذا أمر يحتاج إلى إعادة نظر مهما كانت الصدمة أو النتيجة.

كثير مما شاع على أنه قيمة إيجابية فى وقت معين فى سياق معين، لم يعد كذلك بل لعل بعضه انقلب إلى أن يكون رذيلة. (عكس الحال فى المجموعة الأولى التى انقلبت فيها الرذائل فضائل!) الشخصية المصرية - التى لا ينقصها الإعاقة، وهى تتعثر خطاها إذ تتمسك بما رسخ من هذه القيم حتى تثبتها تثبيتا لا يتناسب مع انتهاء عمرها الافتراضى، وانتهاء الظروف التى نشأت فيها. النتيجة هى أن هذه القيمة التى كانت لها مكانتها المتميزة تصبح ثقلا مربوطا فى أقدام أى تطور. ومن ذلك:

١ - قيمة «الثبات على المبدأ»

حكاية يحيا الثبات على المبدأ هذه تبدو فضيلة (قيمة) تصل إلى أن يهتف بها المتظاهرون، ويعاير من يخالفها بأنه متقلب، أو غير وفى، أو حتى خائن لعهده، مع أن الأصل فى حركية النمو، فردا ومجتمعا هو أن يكون «المبدأ» غير ثابت يتحرك ويتحور مع تطور الزمن وتغير الأحداث، وبالتالى فالثبات عليه هو تثبيت له دون مبرر موضوعى. إن الدعوة لعدم الثبات على المبدأ هى دعوة للإبداع، وما نهى عنه بألا نتبع مبدأ «هكذا وجدنا آباءنا»، هو أمر مفتوح يسرى على كل شىء. كل مبدأ لا يستحق التقدير إلا أن يتجدد، خاصة بعد أن يكون قد حقق أهدافه المرحلية.

الشخصية المصرية تتمادى فى هذه الوقفة عند الثبات على المبدأ وهى تؤكد أن الذى تعرفه أحسن من الذى لا تعرفه (اللى تعرفه أحسن من اللى ما تعرفوش)، وهى تخشى المفاجآت حتى من أى قادم (يا قاعدين يكفيكوا شر الجايين) هذه الأمثال القديمة ما زالت حية فاعلة حتى تبدو لى الحركة التى يقوم بها ناسنا فى بعض الأحيان ليست إلا حركة فى المحل (محلك سر) بشكل أو بآخر. هذا الجمود الذى يصف الشخصية المصرية بشكل غالب. قد يسمى أحيانا هدوءا أو تعقلا أو صبرا، لكنه فى أغلب الأحيان دليل على فقر الإبداع إن لم يكن فقده. المبادئ الرائعة رائعة، لكنها تزداد روعة حين تكون قادرة على توليد ما هو أروع منها.

٢ - قيمة الطيبة (والبراءة)

المشهور عن المصرى العادى أنه طيب، هذا المشهور كادت تعريه بقسوة أغنية مصرية بسيطة مشهورة أيضا (بدرجة أقل) يرددها بعض الشباب فى بعض الرحلات (زمان على الأقل)، الأغنية تبدأ بأن يقول البعض (أو أحدهم) «فلان ده طيب» فترد المجموعة: «دا لا هو طيب ولا حاجة داهبل وعبيط، (بل إنها تضيف ولا مؤاخذة: «وريالته نازلة على صدره أربع قراريط»). تقترن الطيبة أحيانا بصفات قد تتداخل مع ما نسميه «البراءة»، سواء براءة الأطفال أو ما نطلق عليه «على نياته»، كل هذه الصفات لها مكانتها فى سياقها، لا أكثر ولا أقل. التساؤل هو: هل ما زالت الشخصية المصرية جديرة بأن توصف بالطيبة سواء بالمعنى الإيجابى أو السلبى؟ الجواب عندى أن نعم، هى توصف بالطيبة بالمعنى الإيجابى والسلبى معا، وإن كانت الطيبة الإيجابية قد تراجعت قليلا أو كثيرا، فإن الطيبة السلبية قد أخذت أشكال اللامبالاة والاستسلام

قيمة الثللية لها طيف ممتد من أول تعيين الوزراء حتى الترشيح للجوائز حتى نيلها، (دون تعميم) مرورا بعشرات التشكيلات والتحيزات، وكلها - مع أنها رذائل - هى موضع للفخر والتباهى



والانسحاب والأنامالية وفقد الطموح والعجز، الأمر الذى ينبغى أن نتداركه بالبدء فى التفرقة بين الطيبة الإيجابية والسذاجة السلبية، دون التوقف عند الفخر بأن «المصرى طيب» وخلاص.

٣ - قيمة التوافق (جدا)

أن تكون مثل الآخرين، هذا هو أسهل الحلول لتعيش فى مصر، وهو حل يلقى قبولا من الانسان المصرى حيث يقبع فى داخله أمران: الأول يبدو إيجابيا (وهو لا شعورى غالبا) تحت زعم أنه واثق من جذوره التاريخية التى تميزه، وأن هذا التشكل الظاهر لن يمس شخصيته الأصلية بتغيير جوهرى. والأمر الثانى هو احتمال أن المصرى تابع مطيع كسول بطبعه، يخاف التغيير، أو ينتظره من خارجه، وهو لا يقدم عليه إلا مع موجة غالبة، أو موجة تعد بأن تكون غالبة، سواء كانت هذه الموجة تسير فى اتجاه سلبى أم إيجابى، سلفى أم ثورى، حقيقى أم زائف.

الذى يحتاج المراجعة هو: متى يكون التكيف مع الأغلبية قيمة إيجابية، ومتى يكون قيمة سلبية، وبالعكس: متى تكون المخالفة إلى العكس المطلق تأكيدا للذات؟ ومتى تكون نفيا للذات؟

الإبداع، هو المخرج الحقيقى من هذا المأزق، وليس الخُلف، هذا بالذات هو ما نفتقر اليه فى مصر، وباطراد حيث مازالت قيمة الإبداع الحقيقى، وخاصة إبداع الذات. باهتة وتزداد ضموراً فى كل مجال.

٤ - قيمة الانتماء إلى الحق (الخاص)

من حق كل واحد منا (من المصريين والناس عامة) أن يتصور ويأمل فى أن يكون على حق، لا أحد يقبل، ناهيك عن أن يختار، أن يكون على باطل. كلما كنت على رأس مجموعة من الناس، أو رأس سلطة ما، كان الحق معك أكثر!!، يصح ذلك إذا كنت على رأس الدولة، أو على رأس الجامعة، أو على رأس الشركة، أو على رأس العائلة إلخ. فى مصر، غالبا ما يكون الحق الذى عليه الرئيس (أو الأغلبية) هو الحق الأوحد. أحيانا يكون الاعتراف الصورى بأنى لست على حق يدور فى طريق ملتف راجع يؤدى فى النهاية إلى التمسك بذات الموقف (الذى هو الحق الحقيقى!)، وليس دافعاً إلى احتمال التراجع البنّاء.

الانتماء إلى الحق والحقيقة لا يكون فضيلة إلا بالتوجه إلى احتمالات مفتوحة، ونحن، المصريين، أصبحنا أبعد ما نكون عن ذلك.

٥ - قيمة التسامح وقبول الآخر

ما أسهل أن تزعم أن المصرى متسامح، بل ومتسامح جدا، مستشهدا بكيف عاش المصريون معا على اختلاف مذاهبهم وأديانهم قرون عددا، وما أصدق أن تثبت ذلك عبر التاريخ من واقع ندرة التطهير العرقى المرصود، والحروب الأهلية الممتدة، ثم قد تستشهد بعد ذلك إلى عهد قريب، وربما حالا، بنشاط تبادل المصالح، وطيب المعاشرة، وحسن الجيرة، وحرارة الأحضان.... الخ.

العمق الآخر لمسألة التسامح يحتاج إلى مراجعة، خاصة فى الأونة الأخيرة. أنت تصبح متسامحا حقيقيا إذا تبنيت حقيقة ماهية الآخر وتفاصيل رأى ومعتقد هذا الآخر بجدية ومسئولية، أولا: لتراه كما هو لعلك تفهمه، تفهم الرأى وتفهم الآخر فى آن، وثانيا: لتأخذ منه ما تعدل به رأيك ومعتقدك باحترام متبادل. أنا لا أزعم أن هذا العمق هو موجود عند غيرنا من الذين يزعمون «قبول الآخر»، الخطأ الشائع عبر العالم دون استثناء العالم المتحضر جدا، هو القبول الانتقائى الاختزالى لمن نسمية آخر. يتطلب قبول الآخر بالمقاييس الحديثة أن تجهل، أو تتجاهل، أنه «آخر» بكل أبعاده وأغواره، أى أن تغمض عينيك على حقيقة وعمق الاختلاف. يظهر ذلك - مثلا- من خلال الفخر المعلن - ثم الدعوة الملاحقة- بإلغاء خانة الدين من الأوراق الرسمية، هذا الإجراء فى ذاته يبين كيف نعجز عن أن نقبل الآخر إلا بإخفاء بعضه. قبول الآخر الحقيقى يتطلب عكس ذلك تماما. موقف التعصب لا ينشأ من قراءة اسم مواطنك (أو أى شخص) وأمامه ديانته. إن الفخر بقبول الآخر لا يكون فخرا جديرا بالاحترام بمجرد حذف جزء من هذا الاخر (الحل النعامى)، ثم التفويت لكثير من تفاصيل موقفه (تأخذه على قدر عقله). ماذا يتبقى بعد ذلك من الآخر حتى تقبله بعد أن حذفت من وعيك ومعلوماتك غوره الدينى الحقيقى.

٦ - قيمة التضحية

يقال إن المصرى يتسم بقدرته على التضحية من أجل الآخرين، وبعض ذلك صحيح، خاصة بالنسبة للأم المصرية. المبالغة فى هذه القيمة دون تحفظ يغفل أن التضحية قد تعنى من عمقٍ ما إلغاء الذات، والذات لا تلغى أصلا إلا أن تلتهم الآخر فتخفيه، أو أن تختبئ فى الآخر لتعوقه. من هنا جاء التحذير من اعتبار هذه القيمة فضيلة على إطلاقها. هذا لا يعنى أننا نحذر من التضحية أو ننكر فضلها، لكن علينا أن نبحث فى الثمن المعلن والخفى الذى يختفى فى ثنياتها للمضحِّى والمضحَّى من أجله على حد سواء.

٧ - قيمة «فض الاشتباك»: بين الناس، وقيصر، والله

كثيرون هم الذين يعيشون ويرددون قيمة أن «الدين لله والوطن للجميع» فرحين مزهوين طول الوقت، وهم -عادة- من أطيب الناس وأذكاهم وأكثرهم وطنية، ومع ذلك فلا مفر من مراجعة الشعار بجدية جديدة. ظهر هذا الشعار فى موقف تاريخى معين (لعله كان ثورة ١٩١٩) فى مواجهة محتل يلعب لعبة «فرق تسد»، وربما يكون هذا الشعار قد أدى واجبه فى حينه، لكن أن يظل هكذا راسخا فى وعى ناسنا طول هذا الوقت وكأنه الحل الأمثل، فهذا ما يحتاج إلى مراجعة. المتدين الحقيقى يعرف أن الأمر كله لله: (حتى بنص الآية الكريمة)، وحين يكون الأمر كله لله، يكون الوطن لله، والجميع لله، وليس معنى أن الوطن لله، هو أن دينا معينا سوف يحتكر الوطن، ويسجله فى الشهر العقارى، ليصبح أهل هذا الدين هم أولياء أمر إدارة الوطن لحساب الله. أما أن الوطن للجميع فهذا تحصيل حاصل، وتأكيد هذه القيمة لا يضيف ما يضمن تطبيق ما نريده من إرساء العدل واحترام بعضنا البعض.

من نفس المنطلق، وبنفس الدعوة للتأمل، يمكن أن نتوقف أمام قيمة أخرى تبدو دعوة لفض الاشتباك أيضا وذلك فى استعمالنا الهروبى: لمبدأ أن ندع «ما لقيصر لقيصر، وما لله لله»، الآية وردت فى سياق آخر، الحقيقة أن قيصر ليس له شيء يختص به دون الله رضى أم لم يرضِ وما لله هو كل شيء لمن أراد أن يمتد فى الناس والزمن والتاريخ إلى ما يعد به تطوره. كل ما فى الأمر أن الله سبحانه لم يعين وكلاء عنه دون سائر البشر، الله سبحانه وتعالى هو رب كل الأديان، واللاأديان، أما قيصر فليس له شيء، حتى لو استحوذ على كل شيء.

المجموعة الثالثة:

قيم التطور والوعى بالوعى

«فروض» حركية القيم الجديدة/ القديمة.

لا يمكن الإحاطة بإيجابية حركية القيم فى مقابل ثبات بعضها، وتشويه بعضها، وعكس بعضها، دون العروج إلى النظر فى مسيرة التطور واحتمالات مساره. الذين يخافون من قوانين التطور ينظرون إليه من زاوية داروينية مسطحة، أو دينية منغلقة. حركة التطور الدائمة لا تعنى أن تحل قوانين التنافس محل قوانين الجدل والتكيف، ولا أن تحل الحركة للحركة محل القيم الثوابت

الجمود الذى يصف الشخصية المصرية بشكل غالب، قد يسمى أحيانا هدوءا أو تعقلا أو صبرا، لكنه فى أغلب الأحيان دليل على فقر الإبداع إن لم يكن فقده

(مرحليا)، حركية التطور نابضة ودائمة وممتدة إلى مطلق الكون المفتوح النهاية، إلى وجه الله.

الدراسات الأحدث، حتى للداروينية المتطورة تنبه إلى أن ثمة قيماً تطورية ليست تنافسية بالضرورة، بل هى عكس ذلك. هذه القيم شاركت فى بقاء النوع من جهة والتوازن الحيوى للأنواع من جهة أخرى، خذ مثلا ما ثبت من أن قيمة «الغيرية» utruism، لم تكن مقصورة على رعاية الأم صغارها: بل امتدت إلى أفراد النوع، وإلى التوازن الحيوى للأنواع كافة.

تصحيح مسار القيم بالوعى بإيجابية برامج التطور لتنميتها

يحتاج هذا الجزء إلى مداخلة مستقلة لاحقة تسمح ببعض التفاصيل. فأكتفى بتقديم بعض العناصر والعناوين الأساسية وكذلك ملامح الفروض، حتى نتمكن من عودة ضرورية.

أولا: مارست الأحياء -على مر الزمن- قيما بقائية، هى التى حافظت على استمرارها، لكن دون وعى بها.

ثانيا: عقول ما قبل الإنسان هى البرامج البقائية التى تحولت إلى مستويات الوعى الكامنة لدى البشر الآن.

ثالثا: حين تميز الإنسان بما يسمى «الوعى بالوعى»، وأيضا بما يسمى العقل الإرادى التخطيطى، أدرك ماهية هذه القيم، ثم أصبحت لديه القدرة على التدخل فى مسارها.

رابعا: لم يكن هذا التدخل إيجابيا طول الوقت، وخاصة فى الأونة الأخيرة.

خامسا: بداية تصحيح المسار تبدأ من النظر فى البرامج البقائية التى حافظت على الحياة والأحياء، وكيف أن مسيرة الإنسان الأحدث لم تستوعبها بالقدر الكافى، حتى انتهت إلى تقزيم بعضها (أو أغلبها) وتشويه بعضها، وعكس بعضها (انظر قبلا).

سادسا: إن هذه القيم البقائية الأقدم، برغم أنها ليست إلا برامج بيولوجية راسخة، فإنها حين تتجلى فى وعى الإنسان حاليا، تصبح واعدة ودافعة بمسيرة التطور إلى ما هو أرقى فأرقى، إلى ما لا نعرف إلا توجّها (للغيب).

سابعا: إن تشكيلات الإبداع بكل تجلياته هى أهم معالم هذا المسار الواعد، كما أن الإيمان بالإبداع الذاتى هو جماع كل ذلك.

ثامنا: إن بعض ملامح هذه القيم الأقدم قد تظهر متفرقة فى تشكيلات بدائية أو نكوصية أو حيوانية تدهورية أو مرضية، وهى لا تكون إيجابية إلا إذا تخطت كل ذلك إلى التناغم والتجاوز بإعادة التشكيل فى اتجاه تناغم الوعى الفائق عند البشر مع الوعى الكونى توجها إلى المطلق ابتغاء وجه الله إبداعا وتناغماً.

تاسعا: تبدو اللغة الرمزية الحالية أعجز عن إطلاق أسماء أو صفات معينة على هذه القيم الواعدة (انظر بعد).

عاشرا: إن التوجه الأحدث لنقد الفكر الغربى، الذى: يقوم به علماء أغلبهم منهم أنفسهم، يتواصل فى إرساء قواعد وأسس جديدة لتصحيح المسار ومن ذلك العلم المعرفى وعلوم الشواش والتركيبية وعلوم اللغة الأحدث وغيرها، مما يعد باكتشاف وإحياء وتطوير منظومات قيم جديدة قابلة للتحقق على أرض الواقع بنظم جديدة وعلاقات جديدة خليقة بموقع الإنسان على قمة هرم التطور الذى نعرفه.

الخلاصة

إن القيم الواعدة بتوجه حركية التطور إلى مسارها ليست مترادفات لمنظومات الأخلاق الفوقية، ولا لمواثيق حقوق الإنسان، أو مواد القانون المكتوبة، وإنما هى القيم التى تبدأ من إيجابيات التاريخ ولا تنتهى عند غيب المطلق، وهى لا تقاس إلا بناتجها التطورى للنوع كافة.

اعتبارا لكل ما سبق من صعوبة تسمية هذه القيم دون تفصيل، كنت أفضل أن أتجنب تقديم عينات لما خطر لى من قيم واعدة فى هذا الاتجاه، ومع ذلك، فقد وجدت أن ذلك قد يكون نوعا من الهرب بشكل أو بآخر، فآثرت أن أختم هذه المقدمة بأسماء بعض العينات التى قد تثير التأمل، وتسمح بالعودة مثل: قيمة (فضيلة) الحيرة الطازجة، قيمة الدهشة المخاطرة، قيمة الحس النقى، قيمة الاتقان المتفتح، قيمة الوعى الممتلئ، قيمة الجهل المعرفى، قيمة المعرفة الفعل، قيمة الجمال الحركى، قيمة الغموض المضىء، قيمة الإنصات النشط، قيمة التلقى المبدع، قيمة التأجيل المسئول، قيمة الاقتحام الحر، قيمة الحوار الجسدى الجنسى المعرفى، قيمة العمل البدنى، قيمة الإيمان الإنارة.

ولنا عودة. (ما أمكن ذلك).

كتاب الزاوية

من أدب الفرس والترك

روح حيرى

«ألقوا أسماعكم! لقد نفخ الروس فى الصور، وألقوا بالكم! فإن للطبول دويًا يصم الأسماع. وارفعوا الصوت بالنواح والعويل، فقد رفع المتحاربون الصوت بالتكبير والتهليل. ولتتحطم هذه القيود، فإن الموت يأتى الأسود، ها هو ذا جيش لو رأيتموه ورأيتم النجوم، لتحيرتم، إليه تنسبون الكثرة أم إليها. يا أسدًا كالحمار أو يا حمارًا له هيئة الأسود. إن الدب لا يعلم أيهما أفل فى الظفر معه بنصيب الأسد الحمار أم الأسد! هيهات هيهات، لن تتحقق الوعود الكاذبة. إنما نحن مسوقون إلى أبواب الجحيم. أنا من نصحت لكم، فلم تستمعوا من نصحى، أنا من وعظتكم فهزأتم بى وجعلتم كلماتى دبر آذانكم. لقد بدا الدب من وراء الجبل، ورآه حبيبى فحن حنينه وذاب شوقًا إليه. ثم مضى ليلقى بنفسه بين ذراعيه، فكان اللقاء لقاء حبيبين. ويلاه لقد أصبح الشرق من نصيب الدب، والغرب من نصيب الأسد!».

هذا بعض من قصيدة للشاعر الإيرانى محمد الباقر، وقد نظمها عام ١٨٨٢ أثناء مقامه ببلاد الإنجليز فسماها (الشميسة اللندنية). وهى طويلة مفرطة الطول، يتجاوز عدد أبياتها الثلاثمائة والستين، وإذا ما قطعنا النظر عن قيمتها الفنية، ألفيناها وثيقة تاريخية على جانب من الأهمية، فقد صور صاحبها حال إيران فى عهد الشاه ناصر الدين، وبين كيف تسلط الأجانب عليها تسلطًا تتأذى به نفس الحر، ولا يرتضيه من عَمُر قلبه بحب وطنه.

الكلى البشرية.. والنفايات.. وفن

موسى نعيم

كان الرجل الألمانى يبلغ من العمر ثلاثين عاما فقط، وكان من الواضح أن الغسيل الكلوى الذى أخذ يجريه لمدة أربعة أعوام يسلبه حيويته ونشاطه. وبالرغم من أنه كان فى حاجة لإجراء زراعة، إلا أن قائمة الانتظار كانت طويلة بالنظر إلى ما كان متوفرا من الكلى، وهو ما عنى احتمال أن يمتد الانتظار لسنوات عديدة. وأخيرا قرر الأصدقاء الإسراع من العملية: فجمعوا مبلغا كبيرا من المال سعيا للحصول على كلية بأى طريقة أخرى. وسرعان ما ظهر أحد السماسرة الإسرائيليين وعرض على الرجل خيارات عديدة. فى مقابل ربع مليون دولار، كان بإمكان الرجل أن يخضع لعملية زراعة سريعة فى أحد المستشفيات المميزة مع مراعاة التوثيق الطبى الكامل والمتابعة الشاملة فى عدد من الأماكن التى يمكنه الاختيار من بينها: ألمانيا، أو جنوب أفريقيا، أو الولايات المتحدة. وإن كانت تركيا متاحة هى الأخرى، بتخفيض كبير يصل إلى ١٦٠٠٠٠ دولار. وافق الرجل على الصفقة. وبعد أسابيع، خرج من أحد المستشفيات بأسطنبول وقد منح فرصة جديدة للحياة، وجسمه يحمل كلية شخص غريب والذى لن يمكنه أبدا معرفة اسمه، أو نوعه، أو جنسيته.

إنه فقط يوم آخر لشبكات التجارة غير المشروعة: عميل آخر راض عن العملية، ومكسب جيد على ما قد يعتبره الكثيرون منا عضواً ثميناً من أجسادنا وإن كان بالنسبة للتجار مجرد سلعة أخرى. وإن كانت الطبيعة تمقت الفراغ وإذا كان الطمع والجشع جزءاً من الطبيعة البشرية، فإن الجشع أيضا يمقت الفراغ. وهو ما يفسر لماذا لا تترك الفرص المتاحة لتحقيق الربح أبدا فترة طويلة قبل أن يتم انتهازها، حتى وإن كان الإمساك بها غير مشروع. ولا يجب أن نندهش لمعرفة أن الشبكات التى تتمتع بالقدرة على نقل السلع غير المشروعة عبر الحدود قد امتدت إلى مناطق جغرافية جديدة كما أضافت خطوط منتجات أخرى إلى جانب خطوطها الحالية. وكما هو الحال دائما فى عالم الأعمال، يقوم الوافدون الجدد بالكشف عن الفرص الجديدة والانطلاق لاستغلالها قبل أو بدلا من اللاعبين القدامى. وغالبا ما يتطرق الداخلون الجدد إلى المناطق الجديدة فى السوق التى لم يتطرق إليها أحد من قبل والتى تبرز بفضل ظهور مصدر جديد للتوريد، أو مجموعة جديدة من العملاء، أو التقنيات الجديدة.

إن التجارة العالمية فى الكلى البشرية تمثل إحدى الأسواق التى لم تكن موجودة لفترة طويلة بالنظر إلى تاريخ البشرية وإن كانت تزدهر الآن بفضل التقنيات الحديثة. كما أن انتشار عمليات النهب فى بغداد فى ٢٠٠٣، بما فى ذلك متحف الآثار الرئيسى، قد أسهم فى تجديد مصادر التحف المسروقة، مثلما فعل انهيار الاتحاد السوفيتى. ويتطلب وعينا البيئى الحديث وضع قواعد حكومية جديدة ترفع بدورها من التكاليف المصاحبة لعملية معالجة النفايات والفضلات الصناعية وهو بالتالى ما يمثل فرصة لهؤلاء الذين يجيدون التخلص منها بصورة سريعة وغير مكلفة. وفى هذه الحالة، فإن السرعة وقلة التكلفة غالبا ما تعنى التخلص منها بصورة غير مشروعة وفى دولة أخرى. وتوجد أسواق عالمية أخرى محظورة غير أنواع التجارة الضخمة الخمسة التى تم تناولها فى الفصول السابقة، والتى شهدت أيضا نموا واضحا فى العقد الماضى أو ما إلى ذلك كما تدفعها نفس القوى المحركة. وتعمل الشبكات التى تقوم بنقل سلع أكثر غموضا أو «ملائمة» - الأعضاء البشرية، الفصائل المهددة بالانقراض، النفايات السامة، الأعمال الفنية المسروقة - باستخدام نفس الأساليب التى تعتمد عليها أشكال التجارة الأخرى المألوفة.

إن التجارة العالمية فى الكلى البشرية تمثل إحدى الأسواق التى لم تكن موجودة لفترة طويلة بالنظر إلى تاريخ البشرية وإن كانت تزدهر الآن بفضل التقنيات الحديثة

إن هذه الأنواع من التجارة - وغيرها مثل السيارات المسروقة، أو قطع الأشجار بصورة غير مشروعة، أو السجائر المهربة - تعتبر «ثانوية» فقط من منطلق أنها لم تتعرض لنفس الدرجة من البحث الرسمى أو التغطية الإعلامية أو أثارت نفس القدر من انتباه الجماهير مثلما فعلت أشكال التجارة غير المشروعة الأكثر خطورة والتى تم التطرق إليها فى الفصول السابقة. كما أنها أيضا تحاول اللحاق بالقيمة التى تحققها أشكال التجارة الأخرى الأضخم وإن كان من الصعب تأكيد ذلك، تحديدا لأن القوانين المحلية والعالمية ما زالت غير واضحة فيما يتعلق بتعريفها كما أن البيانات المتاحة غير كافية. إلا أنه مما لا شك فيه هو أن كل هذه الأنواع من التجارة تنمو، وهو ما لا يثير الدهشة نظرا: لأن كلاً منها يعتبر بطريقة ما منتجاً جانبياً لنفس التغيرات الفنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تصاعدت منذ التسعينيات. فتجارة الأعضاء تعتبر نتيجة للابتكارات العلمية الضخمة والانتشار الواسع للأجهزة، والأدوية، والطرق الجراحية الجديدة فى مجال زراعة الأعضاء والتى تهدف بدورها إلى إطالة عمر الإنسان. وترتبط التجارة غير المشروعة فى الفصائل المهددة بالانقراض بقوة مع انتشار المناطق السكنية، واحتياجنا للموارد الطبيعية، وأذواقنا فيما يتعلق بالطعام والرفاهية. وتنشأ تجارة النفايات، ببساطة، من الاستهلاك. أما التجارة فى الأعمال الفنية المسروقة - بالرغم من أنها ترجع إلى تاريخ الفن نفسه - فقد انتشرت نتيجة الاضطرابات السياسية التى أثارت جانب العرض وإصلاحات السوق والنمو الاقتصادى، التى أنعشت جانب الطلب من خلال رفع الإمكانيات المادية للأثرياء. فلتسمها الظلمة وسط النور - فأشكال التقدم التى نقدرها ونسعى إليها تولد أيضا العديد من الفرص الشائنة للتجارة وتحقيق المكسب.

الأعضاء بلا حدود

إن الكلى تمثل نشاطا تجاريا ضخما. وهو ما ينطبق أيضا على باقى أعضاء الجسد الأخرى: القرنية والكبد والبنكرياس لاستخدامها فى عمليات الزراعة؛ والقلب والرئة والأعضاء التناسلية لصناعة الأدوية والتركيبات التقليدية. وهناك بعض المواد الجسدية المتاحة بالفعل للبيع، ففى العديد من الدول يتم الدفع مقابل الحصول على «تبرعات» الدم والسائل المنوى، كما يتم الإتجار فى البلازما والنخاع بين المؤسسات الطبية. إلا أن الأعضاء الداخلية أمر مختلف. فلا يوجد هناك قانون دولى لتعريف وتنظيم التجارة فيها. أما القوانين المحلية فتتفاوت، ما بين تلك الدول التى قامت بحظر بيع جميع أنواع الأعضاء إلى غيرها التى سمحت لسماسرة الأعضاء بممارسة تجارتهم بحرية، فى حين أن الكثيرين لم يتطرقوا إلى إمكانية بيع الأعضاء، ليتركوا بذلك القضية معلقة فى المنطقة الرمادية المشروعة. وفى نفس الوقت فإن جانبى العرض والطلب يشهدان نموا سريعا. فانتشار التقنية الطبية وامتداد عمر الإنسان فى الدول الغنية قد أبرز مجموعة من المرشحين لعمليات الزراعة. إن الصورة الذهنية الكئيبة للمستقبل والبؤس يجعلان من منح الأعضاء الحية خيارا مقبولا جدا، بل وجذابا للفقراء فى العديد من الدول، كما أن غياب الحماية القانونية تعنى أن المانحين المتوفين - نتيجة المرض أو الحادث أو جراء العملية - لديهم اختيار محدود فيما يتعلق بهذا الأمر.

إن هذا يمثل فى مجمله، ظروفاً

Illicit: How Smugglers, Traffickers and Copycats are Hijacking the Global economy
Moises Naim
New York: Doubleday, 2005

تجارة غير مشروعة
كيف يقوم المهربون والتجار غير الشرعيين والمقلدون بالسيطرة على الاقتصاد العالمى
موسى نعيم
الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٦

ترجمة: لمياء صلاح الدين الأيوبى

جوخ: تجارة غير مشروعة

ممتازة للسوق العالمية. ومن أجل ربط المشترين العازمين مع البائعين (الأكثر أو الأقل حماسا)، برزت شبكة عالمية متطورة إلى حد كبير والتى تشمل بدورها مجموعة من الأطباء والجراحين، والجهات الناقلة، ومديرى المخازن، والقائمين باختيار المتبرعين، والمسئولين الحكوميين الذين يشتركون بعلمهم فى تجارة الأعضاء مقابل رشاوى أو رسوم يتقاضونها. وتجمع تلك الدول التى تعمل كمركز لعمليات الزرع غير المشروعة التى يتم فيها أخذ العضو من متبرع حى بين المستشفيات المجهزة على أعلى مستوى وأجهزة الرقابة المتساهلة أو الفاسدة. وتعتبر بعض تلك الدول نفسها مثل الهند، والصين، والبرازيل، مصدراً رئيسياً للأعضاء. أما البعض الآخر، مثل تركيا وجنوب أفريقيا، فيميل إلى استضافة عمليات الزرع «للمانحين» الذين يفدون من أماكن أخرى: البرازيل، وموزمبيق، ورومانيا. ويقوم العديد من السماسرة المعروفين بإدارة نشاطهم من إسرائيل، حيث أجازت القوانين منذ مدة طويلة العمل فى هذا المجال؛ أما الآخرون فيطوفون فى فضاء الإنترنت، ويقومون بتقديم الخدمات وربط المشترين والبائعين من خلال الشبكة، بالإضافة إلى الأطباء الذين يقومون بالإعلان مباشرة من خلال مزاد ليعلنوا بذلك عن عدم حاجتهم إلى وجود وسيط. ونتيجة لهذا، فإن مثل هذه التعاملات تتجاوز الحدود والمحيطات. فإحدى العمليات التى تم إغلاقها فى ٢٠٠٣ امتدت من رسيف Recife إلى تل أبيب، فى حين كان يتم إجراء العمليات فى أحد المستشفيات المتميزة الموجودة بجنوب أفريقيا.

كما تشهد أيضا تجارة الأعضاء المأخوذة من المانحين المتوفين انتعاشا، وإن كانت تتميز بإمكانية طلب وشحن هذه الأعضاء بكميات كبيرة. وبالاعتماد على تقنيات التعبئة الصحيحة والفترة الزمنية القصيرة نسبيا للنقل، يمكنك إحضار أحد الأعضاء على طائرة داخل أمتعتك الشخصية المحمولة، أو حسب الوسيلة التى تعتمد عليها، عن طريق تأجير الطائرة النفاثة الخاصة بك. لقد انتشرت تقنية الزرع الآن، والتى كانت فيما سبق تعتبر غير تقليدية ومتخصصة إلى حد كبير: فالسيكلوسبورين، وهو أحد الأدوية التى تقوم بالحد من الخطر المتعلق برفض الجسد المستضيف للعضو المزروع، قد أصبح متوافرا. وهكذا، لم يعد من الضرورى أن يكون الجراحون القائمون بعملية الزرع خبراء نابغين يتمتعون بمهارات وقدرات فائقة؛ فأى جراح مختص يمكنه، نظريا، إذا ما توفرت له المعدات والأجهزة الصحيحة إنشاء عيادة لزرع الأعضاء. والكثيرون يقومون بذلك.

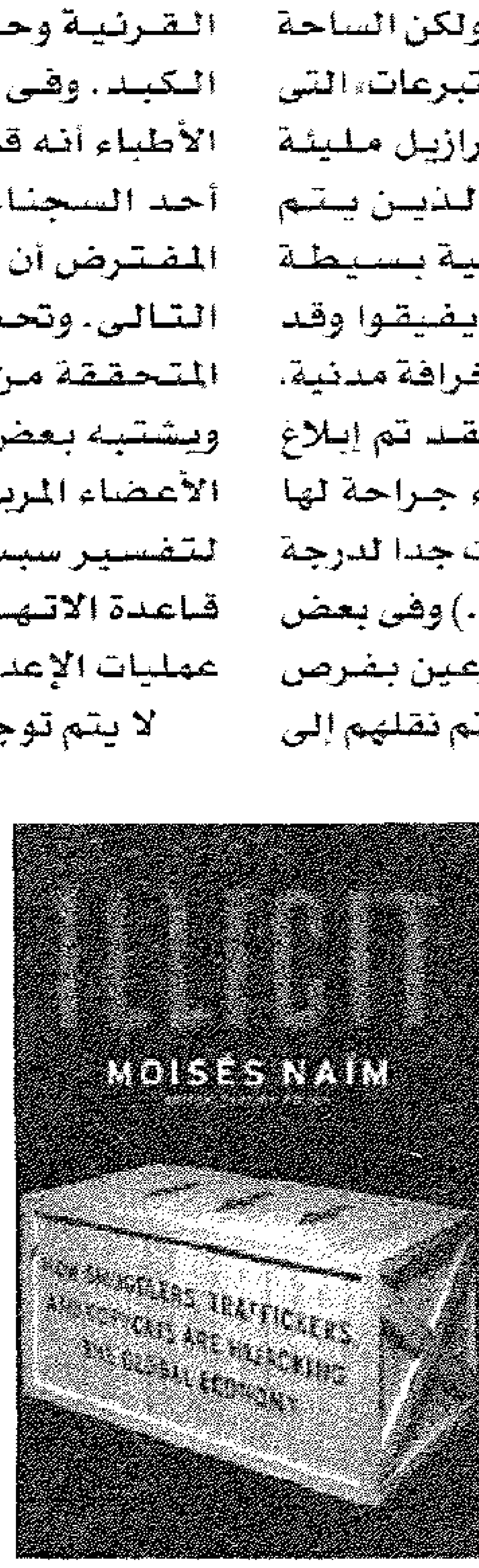
تمثل الكلى القوة المحركة لتجارة الأعضاء. فليس هنالك من العرض ما يكفى من الكلى لإشباع الحاجة إلى الزراعة فى الدول الغنية، ولا تزداد الفجوة إلا سوءا. ففى الولايات المتحدة، على سبيل المثال، شهدت التبرعات المأخوذة من مانحى الأعضاء المتوفين زيادة طفيفة خلال التسعينيات، فى حين



تضاعفت قائمة الانتظار للزراعة أكثر من ثلاث مرات. وهكذا فقد توفرت ٨٠٠٠ كلية فقط سنويا، فى حين أن أعداد المرضى المتراكمة وصلت إلى ٨٠٠٠٠. ويشيع مثل هذا القصور أيضا فى الدول الغنية الأخرى. إن الفشل الكلوى مرض منتشر عالمياً، إلا أن فى الدول الأغنى حيث الأعمار أطول ومستوى الخدمات الصحية أعلى فإن المرضى أصبحوا أقل عرضة للموت أو الاستسلام وغالبا ما يلجأون لإجراء عملية زرع. وفى الدول الغنية، ينتمى غالبية متلقى الأعضاء التى يتم الاتجار فيها بصورة غير مشروعة إلى الصفوة الاقتصادية المتميزة.

وليس هناك عجز فى المشترين. ففى البرازيل، والهند، والفلبين، ورومانيا، وغيرها، أصبح بيع الكلية وسيلة شائعة للحصول على النقود، خاصة بين صغار السن من الرجال والنساء والذين أحيانا ما يعلنون صراحة عن أنفسهم، موفرين بذلك الجهود المضنية التى يبذلها الباحثون. إن السعر الحالى نادرا ما يتعدى ١٠٠٠٠ دولار. فالقيمة الأكثر شيوعا والتى تتراوح ما بين ٢٠٠٠ و٥٠٠٠ دولار غالبا ما تكفى لجذب المشترين من تلك الأقاليم حيث يتجاوز فيها القيمة متوسط الراتب السنوى. أما فيما يتعلق بالأسعار المفروضة على المتلقين، فإن الأرقام المعلنة تتغير حسب المكان، وإن كانت مرتفعة عالميا. قام أحد الإسرائيليين البالغ من العمر أربعين عاما بدفع ١٠٠٠٠٠ دولار - السعر الأساسى للصفقة - نظير عملية زرع فى جنوب أفريقيا. وفى المقابل، يحصل أحد السماسرة على ما قد يصل إلى نصف مليون دولار من الأثرياء العرب الذين يقومون بإجراء عمليات الزرع فى «المستشفيات العالمية الشهيرة». وبالنظر إلى هذه المبالغ، فإن جودة الخدمة تعد أمرا لازما. فبعض السماسرة يقدمون العملية مصحوبة بتذاكر طيران من الدرجة الأولى وجولة محلية لمشاهدة المعالم السياحية. أما بائعو الكلى فلا يتمتعون بهذه الرفاهية؛ حيث يتم احتجازهم فى مخازن الموانىء ونقلهم بأسرع ما يمكن إلى داخل وخارج الدولة والمستشفى التى يتم فيها إجراء الزراعة. وليس هناك أى متابعة أو حماية من المضاعفات. ومن المفزع، أن التجارة الدولية غير المشروعة لتجارة الأعضاء تتشابك بصورة قوية مع الإتجار الدولى غير المشروع فى البشر. فمجموعة المهاجرين الفقراء، غير الشرعيين، الخائفين، الجائعين، والذين لا يتمتعون بأى حماية قانونية، يمثلون صيداً جذاباً للشبكات العالمية التى تسعى لإشباع طلب غير محدود تقريبا على الأعضاء.

إن هذه الحالات على الأقل تتضمن بائعين راغبين فى التبرع. ولكن الساحة تعج بقصص مرعبة عن «التبرعات» التى تتم بالقوة. فالهند والبرازيل مليئة بقصص عن المرضى الذين يتم تخديرهم لإجراء عملية بسيطة ليجدوا أنفسهم بعد أن يفيقوا وقد خسروا كلية - إنها ليست خرافة مدنية، وإنما تجارة ضخمة. (فقد تم إبلاغ إحدى السيدات بعد إجراء جراحة لها أن قنوات المثانة قد تضخمت جدا لدرجة أنها قد التفت حول كليتها.) وفى بعض الحالات، يتم إغواء المتبرعين بفرص العمل فى الخارج، وما أن يتم نقلهم إلى الخارج ويفقدوا أى فرصة للهرب حتى تنكشف نوايا السمسار الحقيقية. وعندما يحتضر المذكور أو يتوفى، يمكن انتزاع أى عدد من الأعضاء، وهو ما يفتح الباب لمجموعة من السيناريوهات المخيفة. فالأيتام أو «أطفال الشوارع» الذين لا أهل لهم - وهى فئة متنامية فى العديد من الدول بفضل الضغوط الاقتصادية، والحرب، والمخدرات، وأمراض نقص المناعة (الإيدز) HIV/AIDS - معرضون للخطر. وفى أذربيجان اختفى عدد من الأطفال خلال نقلهم من دور الأيتام إلى المستشفيات، وتشتبه الحكومة فى أنه قد تم قتلهم من أجل الحصول على أعضائهم. وفى أفغانستان، يمثل توظيف الأطفال سعيا إلى تصديرهم من خلال باكستان للعمل فى المنازل أو لممارسة الجنس أو لانتزاع أعضائهم نفس العملية، الفرق الوحيد هو مصير الطفل النهائى.



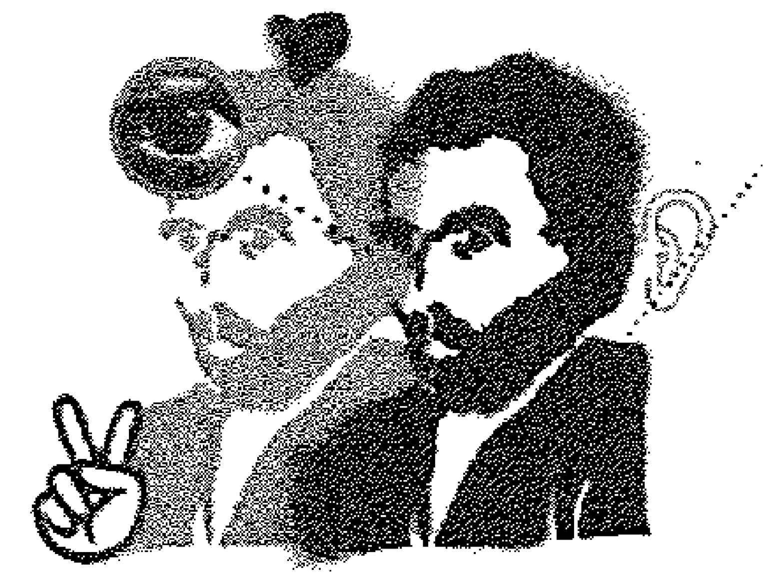
وقد تم استخدام السجناء كمصدر للأعضاء فى ظل الحكم الاستبدادى فى فترات مختلفة فى الأرجنتين، والبرازيل، وتايوان. ويعتبر نظام السجن الصينى اليوم مصدرا رئيسيا للأعضاء لكلتا السوقين المحلية والعالمية. وفى جزيرة هاينن Hainan Island قام أحد الوسطاء بعرض إحدى الصفقات الضخمة على الناشط هارى وو Harry Wu، والذى كان يعمل متخفيا وهى أعضاء خمسين سجينا على مدار عام، بأسعار تتراوح من ٥٠٠٠ دولار لزوج من القرنية وحتى ٢٥٠٠٠ دولار مقابل الكبد. وفى حالة أخرى، أبلغ أحد الأطباء أنه قد شهد عملية نزع كليتى أحد السجناء الأحياء والذى كان من المفترض أن يتم إعدامه فى اليوم التالى. وتحصد السلطات العوائد المتحققة من بيع أعضاء السجناء. ويشتبه بعض الباحثين فى أن سوق الأعضاء المربحة يمثل سببا اضافيا لتفسير سبب قيام الصين بتوسيع قاعدة الاتهامات العظمى، فزيادة عمليات الإعدام تعنى ربحاً أكبر.

لا يتم توجيه كل الأعضاء إلى سوق الزرع. فبعضها يتم استخدامه فى أبحاث الصيدلة، بينما تحتاج كليات الطب إلى جثث كاملة. وفى بعض الدول الأفريقية تنتشر القصص حول الأعضاء - المخ والقلب والرئة والكبد والأعضاء التناسلية الذكورية والأنثوية - والتى يتم استخدامها كمكونات فى الأدوية التقليدية، سواء للاستخدام المحلى أو التصدير. وتعتبر المناطق التى تجرى فيها الحروب الأهلية حاليا تحديدا من المصادر الغنية. ففى الجزء الذى مزقته الحرب والواقع فى شمال شرق جمهورية الكونغو الديموقراطية، على سبيل المثال، هناك تكهنات قوية تشير إلى أن الميليشيات تقوم ببيع الأعضاء إلى المشترين العالميين - تماما مثل أى سلعة أخرى إلى جانب الكولتان، والنحاس، والألماس، والأسلحة، والمجندين من الأطفال، وعبيد الجنس والذين يتم الإتجار فيهم بصورة غير مشروعة تحت ستار الصراع القائم فى الإقليم. وقد تم قتل إحدى الراهبات البرازيليات بموزمبيق فى ٢٠٠٤ بعد أن شرعت فى البحث وراء حقيقة أجساد الشباب والأطفال التى تم العثور عليها بعد أن تم نزع أعضائهم الحيوية.

ربما يبدو من المروع أن الجسد البشرى فى العديد من الأماكن قد استمد قيمته كمصدر لقطع الغيار بدلا من الرجوع إلى قدراته الذهنية أو العضلية. ومع هذا فإن التفاوت الاقتصادى العالمى، والأمراض، والصراع من جهة، وسهولة الإعلان، والتوظيف، والسفر من جهة أخرى، قد نتج عنه مجموعة من الظروف المناسبة لممارسة تجارة مربحة. وحتى فى تلك الأماكن التى تم فيها حظر هذه التجارة بصورة واضحة، فإن التجار غير الشرعيين قد أوجدوا طرقا لتجاوز هذه القوانين. فالمحققون فى البرازيل شهدوا «هدايا» من الكلى البشرية - والتى لم يتم دفع أى مقابل لها ظاهريا، وبالتالى إعتبرت قانونية - بين المرضى والذين تتفاوت ظروفهم بصورة واضحة ولا يربطهم ببعضهم البعض معرفة سابقة، إلا أنه لم يكن بمقدورهم التدخل دون وجود دليل مادى على إجراء الصفقة. إن الحل ليس واضحا، كما أنه حافل بالتحديات القانونية والأخلاقية الصعبة. وبالرغم من أن بعض المسئولين عن الحملات الانتخابية يطالبون بقوانين ونظم للتطبيق أكثر صرامة، فإن آخرين، بما فيهم إسرائيل والولايات المتحدة، قد بدأوا فى تشريع أحد أشكال تجارة زراعة الأعضاء بصورة قانونية ومنظمة. وفى ظل الظروف الراهنة، فإن القوى الهائلة للعرض والطلب والأرباح الطائلة الممكن تحقيقها تحد من فرص إنهاء هذه التجارة بأى طريقة.

عندما تعنى النفاية ثروة

برز مفهوم «المركب المتجول» إلى الوعى العام فى ربيع عام ١٩٨٧. فقد قام مركبان متهالكان، واحد من نيويورك والآخر من فيلادلفيا، بالدوران فى المحيطات لعدة شهور بحثا عن مكان للتخلص من شحنتيهما، أطنان من رماد المواقد السامة. وعادت Mobro إلى نيويورك بعد ثلاثة أشهر بعد أن واجهت رفضا من دولة كاريبية وراء الأخرى. أما Khian Sea، التى تقوم بتشغيلها إحدى الشركات بجزر الباهاما والمسجلة فى ليبريا، فقد انطلقت فى رحلة أطول بكثير. فبعد أن تم طردها من جزر الباهاما، وبرمودا، والجمهورية الدومينيكية، وجزر أنتيل الهولنديةThe Netherlands Antilles ، وغينيا بساو بغرب أفريقيا، ظهرت فى Gonaives



بهايتى، حيث قامت بالتخلص من ٤٠٠٠ طن من الرماد على الشاطئ. وقد حددت أوراق الميناء أن الحمولة كانت عبارة عن سماد. ولأن حمولتها كانت لا تزال ثقيلة، فقد عادت المركب مرة أخرى إلى فيلادلفيا لتظهر مرة أخرى في يوغوسلافيا بعد أن تمت إعادة تسميتها بـFelicia، لتستقر أخيرا في سنغافورة وقد تخلصت من الرماد. فالقبطان قرر ببساطة التخلص من ١٠٠٠٠ طن المتبقية في عرض المحيط.

ويشير استعراض هذه الحوادث القديمة التي تم فيها التخلص من النفايات على المستوى الدولي إلى زمن كانت فيه هذه العمليات أبسط بكثير. فالتجارة غير المشروعة في النفايات السامة تعتبر اليوم جزءا من ظاهرة أشمل «الجريمة البيئية»، لتكتمل في ظل وجود الشبكات المتخصصة - شركات وهمية تعمل كواجهات في العديد من الدول، وتركيبة مالية معقدة، وعلاقات وطيدة مع السياسيين، والجنرالات، والعملاء المسئولين عن تطبيق القانون في الدول الرئيسية، والنطاق العالمي الذي تجرى فيه العمليات. ولا تشمل التجارة البقايا والرماد الكيمائي فحسب، وإنما تشمل أيضا مكونات أجهزة الكمبيوتر والتليفزيون، والهواتف الخلوية، والثلاجات، والسفن، والكثير إلى غير ذلك. وفي نفس الوقت، فإن محاولات التخلص من النفايات بالصورة التقليدية لا تزال قائمة. حيث يشير أحد المشتركين في الحملات الإيطالية، إلى أن الصومال، نظرا لغياب حكومة فعالة منذ عام ١٩٩١، تضم الآن ثلاثة مدافن للمواد المشعة والتي يتعامل معها العاملون دون الاعتماد على أية أجهزة وقائية. كما يشتبه في أن السودان، وإريتريا، والجزائر، وموزمبيق تمثل أربعة منافذ أخرى للتخلص من النفاية النووية الإيطالية، والتي يتم التخلص منها إما برا أو عن طريق الصهاريج الغارقة - أو السفن الكاملة - في مياه المنطقة.

وتعكس تجارة النفايات العالمية الحقائق السياسية، بالإضافة إلى كونها أحد أشكال الكفاءة الاقتصادية المخيفة. فالدول الغنية، والتي تولد كميات ضخمة من القمامة، تستند إلى منطق «إنها ليست في ساحتي الخلفية» إلى أقصى حد حيث تسعى إلى تصدير نفاياتها متى أمكنها ذلك. ومن المحتمل أن تخضع الدول الفقيرة - أو النخبة الحاكمة فيها - للإغراء وتقبل العرض. هذا بالإضافة

تعكس تجارة النفايات العالمية الحقائق السياسية، بالإضافة إلى كونها إحدى أشكال التفاوت الاقتصادي المخيف. فالدول الغنية، والتي تولد كميات ضخمة من القمامة، تستند إلى منطق «إنها ليست في ساحتي الخلفية»

إلى أنه من الصعب التمييز بين النفاية السامة و«النظيفة» في غمار التجارة الضخمة والمشروعة في السلع التي يتم إعادة تصنيعها - من أتوبيسات المدينة المتهالكة إلى السيارات المستعملة وحتى أكوام الملابس المستعملة والتي أصبحت الملابس المعتادة لجيل كامل من الشباب الأفريقي. ويسهم النشاط التجاري المتعلق بإعادة التصنيع في خلق فرص العمل وزيادة الدخول: يعتبر تفكيك السفن أحد النشاطات التجارية الرئيسية بالنسبة للهنود والأماكن الأخرى التي يتم فيها بناء السفن وترميمها، وبصورة أكثر انتشارا وعشوائية، يعتبر جرد النفاية مصدرا رئيسيا للمواد في العديد من أشكال تجارة الشوارع في الدول النامية.

إن مثل هؤلاء المحترفين الذين يقومون بجرد وإعادة تصنيع النفاية هم الأكثر عرضة للخطر. فعندما قامت Formosa Plastics of Taiwan بالتخلص من الرماد المغطى بالزئبق (والناتج عن تصنيع الـPVC) بجوار إحدى القرى الكمبودية في عام ١٩٩٧، استخدم المحليون أياديهم العارية وحتى أسنانهم من أجل الحصول على الغلاف البلاستيكي الذي يغطى كتل الرماد دون أن يعرفوا محتوياته. وفي الصين، وباكستان، والهند، والدول الأفريقية، يتعرض العمال الذين يقومون بتفكيك الإلكترونيات والسلع المنزلية الأخرى إلى الحمض، والرصاص، والتكسين الناتج عن إحراق البقايا المتخلفة. وقد أصبحت منطقتان على الأقل في الصين، جويو Guiyu وتايزهو Taizhou، مركزين لهذا النشاط ومن ثم فقد عانيا من معدلات تلوث رهيبة؛ ويشير العاملون في الحملات إلى أن جميع الآبار في جويو قد تلوثت ومن ثم فقد أصبح من

الضروري أن يتم جلب الماء عن طريق الشاحنات.

إن القوانين المتعلقة بالتجارة في النفاية القاتلة ليست متكاملة بصورة تامة بعد. فمعاهدة بازل Basel Convention المتعلقة بهذه التجارة، والتي تم توقيعها في عام ١٩٨٩ وتطبيقها منذ ١٩٩٢، قد تمت الموافقة عليها من قبل ١٦٠ عضوا؛ وتعتبر الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة من ضمن الدول المتقدمة التي لم توافق على الاتفاقية. ومع هذا فإنه حتى في الاتحاد الأوروبي حيث يحظر تصدير النفايات السامة نظريا، تؤكد إحدى الدراسات الرسمية لستة موانئ كبرى أن ما يقرب من ربع صادرات النفايات غير مشروعة. وقد تضمنت الوسائل المعتادة المستخدمة تزوير المستندات المصاحبة أو نقل المواد من ميناء إلى آخر داخل الاتحاد الأوروبي مما يجعل من الصعب اقتفاء أثرها، عن طريق إعادة تغليفها وتغيير البيانات في الطريق. وغالبا ما نجحت المواد السامة في المرور ببساطة لأن السلطات المسئولة عن الموانئ قد وجدت صعوبة في التمييز بين الشحنات المشروعة وغير المشروعة.

وكالعادة، تقوم هذه الشبكات العاملة في التجارة غير المشروعة باستغلال هذا الغموض. وفي إيطاليا، حيث أصبحت مثل هذه التجارة غير المشروعة أمرا مألوفا على المستوى المحلي والعالمي (يتم التخلص من النفايات السامة المأخوذة من الشمال في الجنوب)، برزت ecomafia ضمن المفردات المستخدمة، لتشير إلى مرتكبي الجرائم والممارسات التي يقومون بها في نفس الوقت. وبالطبع، ارتبط عدد كبير من الحوادث المحلية بمنظمات Camorra، وNdrangheta، وCosa Nostra - والتي تذكرنا بتورط المافيا في تجارة النفايات في الولايات المتحدة. وكما يشير أصحاب الحملات الإيطاليون، فإن تعبير ecomafia مضلل. فتجارة النفايات غير المشروعة، في إيطاليا وغيرها، في الواقع، تتضمن شبكات وقد لا تنطوي على جريمة منظمة، تتواجد فيها المنظمات المشروعة وغير المشروعة سويا، أو قد تتحالف، أو تقدم خدماتها لبعضها البعض حسبما تفرض الظروف.

الإتجار في الجو

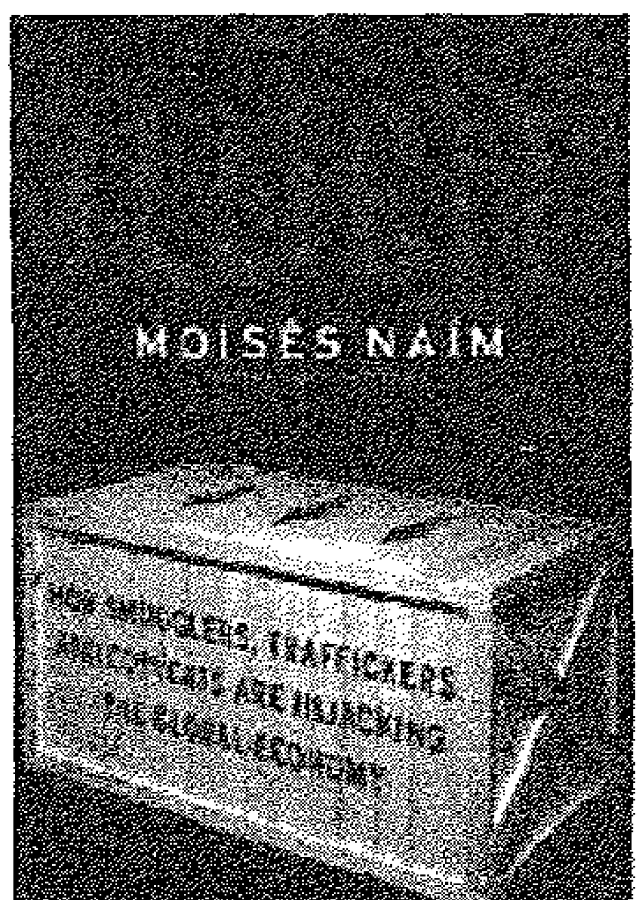
عُرف الكلوروفلوروكربون (choloroflourocarbons) (CFCs) منذ مدة طويلة، والشائع استخدامه للتبريد، كعامل رئيسي لتآكل الأوزون. وتعتبر الاتفاقية العالمية التي تسعى إلى إنهاء استخدامه، والمعروفة باسم بروتوكول مونتريال Montreal Protocal، وفقا لبعض المقاييس واحدة من أنجح الاتفاقيات في العالم. فعدد الأعضاء ارتفع من ٢٧ عضواً من الموقعين الأوائل في عام ١٩٨٨ إلى ١٨٨ دولة في ٢٠٠٤. وقد لاقى البروتوكول قبولا واضحا بالنظر إلى المدخل العملي الذي تقوم عليه، فتسمح الاتفاقية بالتجارة في الكلوروفلوروكربون المستخدم المأخوذ من المعدات الصناعية. كما تمنح الدول النامية المزيد من الوقت حتى تقلع عن استخدام هذه الكيماويات، سامحة لها بالاستمرار في استخدام «حد أدنى للاستخدام المنزلي» بينما تقوم باستبدالها بالكيماويات البديلة والتقنيات الجديدة. ومبدئيا، يجب وقف العمل بالكلوروفلوروكربون بحلول عام ٢٠١٠.

إلا أن السوق لديها فكرة مختلفة. فحين بدأ تطبيق القواعد الخاصة بالرقابة على الكلوروفلوروكربون، بدأت التجارة التي تقوم بانتهاك هذه القواعد بالنمو والانتعاش: حتى وصلت إلى ٣٠٠٠٠ طن و٣٠٠-٤٥٠ مليون دولار سنويا. ومن ثم، فإن الصناعات الشائعة في الدول النامية لا تتحول إلى الكيماويات البديلة حسب المعدل المخطط؛ فالأسعار السوقية للكلوروفلوروكربون ما زالت منخفضة، في حين أن قيمة الكيماويات البديلة، والمفترض أن تنخفض بانتشار استخدامها، بدلا من ذلك لم تنخفض. وما زال الاتحاد الأوروبي، حيث يتم تطبيق الحظر على حجم الإجمالي المستخدم؛ يُعتبر أحد المنتجين الرئيسيين

للكلوروفلوروكربون والموجه بدوره للسوق العالمية المشروعة. ولكن الكلوروفلوروكربون الناتج عن هذا الإنتاج ينتهى به الحال أيضا كسلعة مهربة، حيث يتم وضع بيانات غير صحيحة على الصهاريج أو يتم تهريب هذه الصهاريج ضمن الكيماويات الأخرى المسموح بها، أو يصب الكلوروفلوروكربون داخل عبوات أصغر والتى يتم إخفاؤها داخل أقفاص المنتجات الأخرى، أو وضع بيانات عليها تخص زيت تشحيم أو دهان. كما تظهر شحنات الكلوروفلوروكربون غير المشروعة فى الولايات المتحدة أيضا، فى حين تشير البيانات الموجودة إلى وجهات أخرى، أو يتم تسجيلها ككيماويات أعيد تصنيعها، والتى تسمح بها الولايات المتحدة، مع العلم بأن هذه الكيماويات قد يكون تم تصنيعها حديثا.

نادرا ما يتواصل مُصنّعو ومستهلكو الكلوروفلوروكربون. فمثل هذه التجارة تقوم بدلا من ذلك بالاعتماد على السماسرة والوسطاء، والذين يقومون بدورهم بخلط التجارة غير المشروعة مع العمليات والتجارة المشروعة فى السلع الأخرى. قام أصحاب الحملات بوكالة التحقيقات البيئية Environment Investigation Agency (EIA) بإرسال شرطيين سريين إلى سنغافورة - والتى تعد مركزا للتجارة، بالإضافة إلى دبى - متخفيين كشركة تجارية تسعى لنقل الكلوروفلوروكربون إلى جنوب أفريقيا، والتى تحظر مثل هذه الواردات. ولم يجد هذان الشرطيان صعوبة فى تأمين بعض العروض للتسليم الفورى؛ فى حين قام السماسرة بعرض الطرق «المبتكرة» التى يعتمدون عليها لتجاوز الحظر المفروض صراحة، بما فى ذلك المستندات المضللة، والصهاريج التى تحمل بيانات خاطئة، والتوقف فى الدول المجاورة والتى تتسم بقواعد متساهلة للرقابة. وقد أوضح السماسرة أنهم يقومون بتشغيل الكثير من الوسطاء، وهو ما يسمح لهم بإخفاء أسمائهم من العملية بأسرع ما يمكن تاركين العمليات الخطرة للمحليين الأكثر معرفة بطبيعة البلد، والاتصالات اللازمة. «سوف يكون وكلاء الشحن مسئولين عن الاتصال بالجمارك التابعة لهم»، قال أحد السماسرة للفريق المتخفى، «ويمكنهم القيام بما يشاءون».

لقد خلقت التجارة المشروعة فى الغاز الذى تمت تنقيته الفرص الخاصة به. فقد كشف فريق EIA آخر عن أحد الانتهاكات والتى تم فيها تهريب الكلوروفلوروكربون المصنع حديثا إلى جنوب أفريقيا ليحل مكان الغاز المستخدم فى مبردات مناجم الذهب والذى كان بالكاد مستنفدا، ليتم بيعه فيما بعد فى الولايات المتحدة كما لو كان قد تمت إعادة تصنيعه. كما ينتشر أيضا التهريب الذى يتم برا عن طريق الشاحنات، والتى تقوم باتباع مسارات متغيرة باستمرار حسبما يفرضه الطلب وتطبيق القانون. ويدخل القليل من الكلوروفلوروكربون إلى الهند عن طريق نيبال هذه الأيام؛ فالتهريب من خلال البنجلاديش والتى يعتبر عبور حدودها أسهل بكثير قد ازدهر، باستخدام الطرق البسيطة مثل مناولة البراميل من فوق سور الحدود. وفى باكستان، تشير الأدلة إلى أن تجارتى الكلوروفلوروكربون والهيروين تتحركان جنبا إلى جنب: فليست المخدرات فقط إنما الكلوروفلوروكربون أيضا قد انتشر فى باكستان عبر حدود أفغانستان منذ سقوط نظام طالبان فى عام ٢٠٠١.



النبيل يقابل المجرم

كانت سرقة الأعمال الفنية فيما سبق تخصص «اللص النبيل» المتعلم تعليما متميزا والذى يوازى ذوقه الراقى دوافعه الملحة - أو هكذا اختفت اللوحة. أما السرقات الفنية اليوم، والتى تحدث بمعدلات لافتة ويشوبها عنف متزايد حول العالم فى المتاحف والبيوت الخاصة، فلا تمت للنبيل بصلة. فضوابط الأمن المتطورة تشير إلى أن الفطنة والمكر قد اختفيا، ليحل مكانهما السرقات المتكاملة التى يصاحبها التهديد بالقتل. فالسرقة العلنية للصرخة ومادونا The Scream and Madonna الخاصة بإدوارد مونش Edvard Munch من متحف مونش Munch Museum بأوسلو فى أغسطس ٢٠٠٤ قد حدثت فى وضح النهار وفى مرأى من الاحتياطات الأمنية الموضوعة. وفى متحف الفنون المعاصرة Museum of Contemporary Art بكاراكاس Caracas، اختفت لوحة ماتيس Matisse، «Odalisque in Red Pants»، والتى تصل قيمتها إلى ملايين الدولارات.

أين تذهب هذه التحف الفنية؟ تحتفظ السجلات الدولية بقوائم من الأعمال الفنية المسروقة والمفقودة، والتى يظل الكثير منها على هذا الحال. فالعالم، وفقا لإحدى سجلات New York Times، قد فقد ٥٥١ لوحة لبيكاسو Picaso ؛ و٤٣ لفان جوخ van Goghs ، و١٧٤ لرمبراندت Rembrandts، ٢٠٩ لرنوار Renoir. وقلما تظهر هذه الأعمال فى السوق المشروعة، والأسباب معروفة. فالعديد من لصوص الأعمال الفنية ليس لديهم سوى خيارات محدودة بالنظر إلى تميز صيدهم وسهولة التعرف عليه. وقد يتوقع البعض فى عالم الفن أن لص الأعمال الفنية العادى هو فى الحقيقة مجرم صغير يعمل بلا خطة واضحة.

إلا أن هذا النشاط قد تغير أيضا خلال التسعينيات. فهناك مؤشرات، على سبيل المثال، تدل على أن العديد من الأعمال الفنية المسروقة الجارى تداولها ربما تمثل أحد الأشكال للاحتفاظ بالنقود وأحد الخيارات للتستر على الأرباح غير المشروعة. ففى ٢٠٠١، قام اثنان من تجار الأعمال الفنية بنيويورك بعرض لوحتين على أحد الوسطاء الذى كان يعمل متخفيا فى بوسطن، Jeune femme aux yeux bleus لموديجليانى Modigliani، وLa Coiffure لديجا Degas مقابل ١,٤ مليون دولار، كما رشحا له سمسارا للقيام بخدمات غسيل الأموال: كيفية تنظيم عملية إعادة البيع، ونقل النقود، وتبادل النقود، والمجوهرات، والأعمال الفنية حسب الحاجة. وفى قضية أخرى، تورط أمير سعودى وعشيقته، بالإضافة إلى مدير أسبانى يعمل ببنك سويسرى وأحد الأشخاص الكولومبيين، فى إحدى العمليات التى تمت فى عام ١٩٩٩ حيث تم نقل ٢٠ مليون دولار على هيئة كوكايين من كاراكاس إلى باريس على متن طائرة نفاثة خاصة والتى انتهت بطريقة ما فى ميامى بظهور غير متوقع للوحة لجويا Goya، وأخرى لتسوجوهارو فوجيتا Tsuguharu Foujita، أحد الرسامين اليابانيين المعروفين.

وبالنظر إلى المبالغ الضخمة التى تسعى للبحث عن استخدامات حذرة، فإن سوق التحف الفنية المسروقة لن يتضاءل بالرغم من كل شىء، وإنما سيتحول للبحث عن فرص جديدة. فالإمداد ليس مشكلة، فى ظل وجود مصادر مثل المجموعات النفيسة الخاصة بالمتاحف السوفيتية القديمة (والتى تمت مصادرة الكثير منها أصلا على يد النازيين). وتضم قائمة أحد السجلات العالمية الخاصة بالأعمال الفنية المسروقة الآن، والتى تم إنشاؤها فى ١٩٩٩ لتضم ٢٠٠٠٠ عملية، أكثر من ١٤٥٠٠٠ واحدة.

إن السوق التى تلقى انتعاشا بحق فى مجال الأعمال الفنية المسروقة هى سوق التحف. فمن الصين، إلى كمبوديا، إلى بيرو، يتم استخراج الآثار بصورة مستمرة لتتم سرقتها باستمرار قبل أن تتمكن السلطات من تأمينها. ففى يناير ٢٠٠١، عثر بعض الناس فى بلدة اسمها جيروفت Jiroft بجنوب غرب إيران صدفة على موقع أثرى هام غير مكتشف والذى احتوى بدوره على مجموعة من الآثار ترجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد. وبعد أن وصلت الأخبار إلى طهران وقامت وزارة الثقافة بإرسال فريق لاستطلاع الموقع، كان جل ما وجدوه هو عملية استخراج موسعة منظمة قام بها المحليون - حيث قامت كل أسرة بتفتيش موقع محدد - والتى امتدت لمدة عام قبل أن تقوم الشرطة أخيرا بإغلاق الموقع. ومنذ ذلك الحين، ظهرت آثار جيروفت فى السوق العالمية للأعمال الفنية، بما فى ذلك بعض المزادات الشهيرة الفاخرة. كما أبلغ أحد الصحفيين الفنيين بلندن عن وجود ثمانين قطعة معروضة للبيع نظير ما يقرب من مليون دولار، كما شاهد أحد الأشخاص مجموعة أخرى فى أحد «المعارض الفنية المرموقة بلندن». هذا بالإضافة إلى أن التاجر قد أبلغه بأن البضاعة المقلدة سوف تصل إلى السوق أيضا، والتى تم تصنيعها فى جيروفت كذلك - فالمواد والنماذج موجودة هناك.

إن تراكم الثروة فى أسواق الأعمال الفنية العالمية قد دفع بأسعار التحف الآسيوية وغيرها إلى مستويات مرتفعة،



وقد لاحظ التجار غير الشرعيين ذلك. فالتحف تقدم العديد من المزايا. أولا، يفوض المحليون أنفسهم للقيام بالمهام المرهقة - البحث عن المواقع وعمليات الاستخراج. كما أنهم يتحملون الخطر الأكبر، فهم الذين يواجهون الإجراءات الصارمة التى تفرضها الشرطة - فالصين معروفة بإعدام اللصوص الحقيرين فى حين يتمكن التجار غير الشرعيين من المراوغة - ولا يجب دفع الكثير لهم. كما أن الجزء الأكبر من الأرباح المتولدة من تجارة الآثار غير المشروعة يؤول إلى مجموعة من الأفراد الوسيطة بالإضافة إلى شبكات الوسطاء المنظمة التى تضم المعارض الفنية، والمزادات، وشركات النقل، وأمناء المتحف المتواطئين، والمسئولين الحكوميين، ومديرى البنوك. ثانيا، لا تخضع الآثار لنفس مستوى الفحص والتدقيق الذى تتعرض له التحف القديمة مثل اللوحات والتماثيل. وقد أظهر التجار اهتماما أقل بمصدر أو منشأ هذه الآثار القادمة من آسيا وأفريقيا، وغيرها من الآثار، خاصة إذا كان البعض منها قد تم الكشف عنه مؤخرا ولم يتم توثيقه بصورة كاملة.

لا يُشترط أن يكون تجار الأعمال الفنية غير الشرعيين متخصصين. ففى إيطاليا، والتى تعد مركزا رئيسيا لتجارة الأعمال الفنية القذرة، قامت جماعات المافيا ببساطة بإضافة الفن إلى مجموعة الأنشطة التجارية التى تقوم بها. كما أن أدوات التجارة هى نفس الأدوات المستخدمة، استغلال المنافذ التى يمكن الهرب من خلالها واختلاف القوانين بين الدول، وبالطبع الفساد وتواطؤ الموظفين. فعملية البيع المخططة فى الولايات المتحدة لأحد الآثار من بيرو مقابل ٦,١ مليون دولار، على سبيل المثال، قد ضمت كولونيل شرطة سابقًا وأيضا أحد الدبلوماسيين من بيرو، والذى قام بدوره بتوريد القطعة إلى نيويورك فى حقيبته الدبلوماسية.

لا يزال هناك بعض الحقائق المميزة لتجارة الأعمال الفنية غير المشروعة. أولا، لا يوجد اتفاقية عالمية واضحة فيما يتعلق بالقوانين والعقوبات؛ فالخطر الذى يواجهه التجار غير الشرعيين عند نقل التماثيل، والعملات القديمة أقل بكثير من الخطر المصاحب لنقل الأسلحة أو المخدرات، فى حين أن الأرباح الممكن تحقيقها أكبر بكثير. ثانيا، تعتمد عملية التطبيق إلى حد كبير على التنظيم الذاتى عن طريق المعارض وأصحاب المزادات، بالإضافة إلى الجهود التحذيرية: يعتبر ميشيل فان راين Michel van Rijn، أحد المحققين الهولنديين المنحرفين، والذى كان لص أعمال فنية سابقًا، هو وحده المسئول عن إثارة بعض من أهم التحقيقات. وقد اكتسبت مجموعة أكبر بكثير من الأعمال والآثار التى تم الاتجار فيها بصورة غير مشروعة، خاصة الواردة من الدول النامية ذات الحضارات العريقة، اهتماما أقل بكثير كما يعتبر من الصعب حتى الآن تعقبها.

أعضاء ونفايات

ما هو وجه الشبه بين أشكال هذه التجارة المختلفة؟ أولا: تعمل هذه الأشكال بطرق مشتركة أكبر مما قد يشير إليه تفاوت المنتجات المعروضة. ثانيا: ما زالت هذه الأشكال من التجارة حتى الآن تعمل بصورة غير واضحة، لأسباب غالبا ما تتعلق بالمنتجات نفسها، حيث إن أيا منها لم يستثر الرأى العام أو لم يؤد إلى وضع قوانين جديدة، مثلما فعلت المخدرات، على سبيل المثال. ومع هذا، فإن المنتجات فى مجملها تتوافر بصورة متزايدة، فى أشكال متنوعة إلى جانب مزجها مع غيرها من المنتجات والخدمات المشروعة، ومن ثم فإن أنواع التجارة الأكثر غموضا لن تظل على هذه الحال لمدة طويلة.

وربما كان هناك المزيد. فقد يكون السبب وراء أن هذه الأشكال من التجارة قد أثارت انتقادا محدودا هى أنها ترتبط بصورة واضحة جدا مع الطلب المتزايد للعملاء فى الدول الغنية. فحاجة الدول الغنية لعمليات الزرع هى الدافع وراء تجارة الاعضاء الدولية. كما أن الأثاث، والملابس والاكسسوارات المترفة هى المحرك لتجارة الفصائل المهددة بالانقراض. فى حين أن البائعين المثاليين للأعمال الفنية المسروقة والآثار المنهوبة، فى الأصل، هم أثرياء العالم. وليس هناك مثال أوضح من تشابك التجارة العالمية غير المشروعة مع التفاوتات الاقتصادية لتوضيح حركة النفايات السامة.

الأعضاء فى جهة؛ والنفايات فى الجهة الأخرى. وكما كانت تفعل دائما، تتدفق التجارة غير المشروعة ببساطة مع التيار. لقد أصبح التيار فقط الآن أكبر بكثير مما رآه العالم من قبل. ■

هذه حضارة ناقصة!

قراءة فى فكر طه عبدالرحمن

أحمد عبدالرحيم

■■ من القضايا الملحّة التى يجب أن تشغلنا.. قضية التواصل. أقصد: عدم التواصل! بين أركان الثقافة العربية والإسلامية المعاصرة. فمن المؤلم حقاً أن نعيش. نحن العرب والمسلمين. بعقلية وروح الجُزُر المنعزلة.. فلا تواصلَ، ولا تعارفَ، ولا اهتمامَ بالمتابعة بين المنشغلين بالهمِّ الثقافى والعلمى! لا يكاد يعرف «أهلُ المشرق». خصوصاً. عن نتاج «أهل المغرب». خصوصاً أيضاً!. شيئاً ذا بال، وهذا فى نطاق «المختصين» قبل أن يكون فى دائرة «المهتمين» عموماً! من الواضح أننا نعيش، فى ظل «ثورة الاتصالات»، زمان «اللاتواصل»!

وهذا المقال يأتى فى سياق محاولة التواصل.. معرِّفاً بواحد من أعلام الفلسفة العربية المعاصرة ضلّت عنه أضواء الإعلام التى أعشاها بَهْرَجُ الأنصاف من محترفى العلاقات العامة! إنه العَلاّمةُ المغربىُّ الفيلسوفُ الدكتور طه عبدالرحمن: أستاذُ المنطق وفلسفة اللغة. المتفرِّغ. بكلية الآداب/ جامعة محمد الخامس بالرباط، ومؤسِّسُ ورئيس «منتدى الحكمة» للمفكرين والباحثين (مقره الرباط)، والخبيرُ بالأكاديمية المغربية، وصاحبُ العديد من الكتب والدراسات. بالعربية والفرنسية. البالغة الأهمية فى مجالات الفلسفة والمنطق واللغة والترجمة والمناهج والحضارة والنقد المعاصر، وفوق ذلك كله.. أحدُ أهم العقول العربية المبدعة إبداعاً حقيقياً رفيعَ المستوى..

....

هذه تحيةٌ مشرقيةٌ عَجلَى.. وواجبةٌ أيضاً. إلى علَمٍ مغربىٍّ كبير.. وهى ليست عرضاً وافياً لمقولاته كلها، ولا نقداً وتمحيصاً لها.. بقدر ما هى فاتحٌ لشهية التعرف. اللازم. إلى هذا الفيلسوف العربى المتميز!

[١]

لا يُخفى الفيلسوفُ المغربىُّ طه عبدالرحمن أنه يعتمد «الإسلام» مرجعاً أولياً، إن لم يكن وحيداً، فى نظريته الأخلاقية العملية، ومن ثَمَّ.. فى نقده الحداثةَ الغربية الراهنة ومنجزاتها الفكرية والتقنية. وفى هذا يقول: «لَمّا كان الدين الذى تعبدنا به وتربينا فيه هو الإسلام ؛ فلا بدع أن تكون الأخلاق التى نستند إليها فى انتقادنا للحداثة هى أخلاقَ هذا الدينِ الإلهى الخاتَم، وليست سواها. ويحق لغيرنا. كلَّ الحق. أن يبنى نقده على دينه المختار، أو ينقل ما قلنا بصدد أخلاق الإسلام إلى أخلاق دينه.. متى رأى وَجاهته ومناسبته». وفى هذا الشق الأخير ما لا يَخفى من الإشارة إلى «كونية» خطاب الإسلام وإنسانيته، بحيث لا يختص بجنسٍ أو دين. وهو بهذا يسلك سلوكاً محموداً، يستحيى منه. أو به!. كثيرون من أبناء هذا الدين. رَغَباً أو رَهَباً.. فوقَ ما فيه من تحديدٍ منهجىٍّ لازم، لا يمكن أن يتغافل عنه فيلسوفٌ أو «متفلسف»!

وهو، إذ ينطلق من هذه الخلفية الواضحة، يقرِّر أن غرضه الأساسى من طرح نظريته فى «الأخلاق العملية»، وتناول إشكاليات الحداثة الغربية والفكر الذى تستند إليه والرؤى التى تصدر عنها.. هو تجديد «فلسفة الدين»، بحيث لا يكون القصد منها مجردَ الدفاع عن العقيدة ضد خَصم معيَّن (كما قد يتبادر إلى أذهان وأقلام الكثيرين)، بقدرما تستهدف تجديدَ الفهم لمكوناتها (أى العقيدة) ومقتضياتها فى سياق المستجدات الفكرية. وهى لا تشتغل بالمسائل النظرية المجردة، وإنما بالمسائل العملية المشخَّصة، بحيث لا يُغفل هذا الفهمُ المنشودُ تأسيسُه سياقَ المستجدات الفكرية والحضارية. فالدين. كما تطرحه هذه الفلسفة. ليس جملةَ شعائر جامدة، كما ينظر إليه المقلِّدون بعين «العلم» النظرى المجرَّد من «العمل». بل هو جملةُ أخلاق حية، نظراً إليه بعينِ العمل. فالشعيرة من شعائر الدين تَرِد. بحسَب فلسفة الدين هذه. إلى قيمة الخُلُق أو الأخلاق التى تثمرها. ومن هنا.. فالحقيقة الدينية مراتبُ ينزلها الأفراد، كلٌّ بحسَب درجة تخلُّقه.

ويسلك طه عبدالرحمن (واللقب والاحترام محفوظان له!) فى بيانه عن فلسفته هذه، وفى نقده سواها، طريقةَ الفلاسفة المتمكِّنين، حيث يعرض أقواله/دعاواه فى صورة استشكالات فكرية واستدلالات منطقية يأخذ بعضُها برقاب بعض، غرضَ تزويد الحقائق الدينية بفضاء فكرى، يضاهى. قوة وسَعةً. الفضاءَ الفكرىَّ الذى وُضع لحقائقَ غير دينية. كالحقائق العلمية.. وهو يرى أن من شأن مثل هذا الفضاء الفكرى المبتغَى إيجادُه وترسيخُه حفظَ الدين بما لا يحفظه به الجمودُ على الظواهر. بل إنه (هذا الفضاء) قد يرقَى إلى رتبة انتزاع التصديق والإقرار من أولئك الذين ليست عادتُهم التسليمَ بالشواهد الشرعية أو الركونَ إليها. ولعل هذا هو سبب نَدرة ذكره أياً من الآيات القرآنية الكريمة أو الأحاديث النبوية الشريفة (كما هو معتادٌ فى الكتابات الدينية الشائعة)، إلا فى صدور كتبه ؛ لينبِّه. تنبيهاً غير مباشر. إلى الخلفية العامة التى يصدر عنها، أو فى الحواشى ؛ ليدلَّ على معانٍ جزئية فى الأثناء.

وهو يأمل. ونحن معه. أن يوفَّق مثلُ عمله هذا إلى خلق فضاء فكرى متماسك، تتحرك فيه معانى الدين وحقائقه الكلِّية بكفاءة استشكالية واستدلالية، لا تقل عن الكفاءة التساؤلية والتدليلية لغيرها من المعانى المقرَّرة فى عالم الممارسة الفلسفية.

[٢]

وفى سياق حيوية طه عبدالرحمن النقدية والبنائية.. لا يتورع عن أن يخالف ما «أجمع» عليه أهل المنطق والفلسفة (من لَدُن أرسطوطاليس.. وحتى يوم الناس هذا!) من تعريفهم الإنسانَ بأنه «حيوانٌ ناطق»، مريدين بالنُّطق العقلَ المجرَّد ؛ فإن هذا العقل المجرَّد ليس. بحسَبه. خاصةً بالإنسان دون سواه من الحيوانات التى أثبت العلم أن لها نوعَ عقل. ويختار. فى المقابل. أن يعرِّف الإنسان بأنه «الكائن الحى المتخلِّق»، مماهياً بين «التخلُّق» و«التدين»، حيث لا تكون الهُوية الإنسانية فى جوهرها إلا هُويةً دينية.

وأظننى لا أعدو الصواب إذا قلت إنه يبنى نظريته هذه، فى «الأخلاق العملية»، على آية قرآنية كريمة، وحديث نبوى شريف..

الآية الكريمة هى قولُ الله تعالى: «وما خلقت الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون» (سورة الذاريات: الآية ٥٦).

والحديث الشريف هو قولُ النبى. صلى الله عليه وسلم.: «إنما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق» (رواه البخارى فى «الأدب المفرَد» بإسناده.. عن أبى هريرة رضى الله عنه).

وهو ينطلق فى تشييد نظرية الأخلاق العملية من مُسَلَّمتين رئيسيتين يقرِّرهما تقريراً فلسفياً عقلياً محكَماً..

أولاهما: مُسَلَّمة الصفة الأخلاقية لهُويةِ الإنسان (لا إنسانَ بلا أخلاق).

وثانيتهما: مُسَلَّمة الصفة الدينية للأخلاق (لا أخلاقَ بلا دين).

وفى أثناء تقريره هاتين المُسَلَّمتين يُبطل مُسَلَّماتِ النظرية الأخلاقية غير الإسلامية، والتى تدور حول التفريق الفاسد بين العقل والشرع، وبين العقل والقلب، وبين العقل والحس. حيث يدلِّل على أن هذه التفرقة فاسدةٌ فى نفسها

عقلاً، ومفسدةٌ واقعاً : لما تُنتجه من آثار وآفات في الخَلْق والخُلُق.

وعندما يحدِّد طريقة ممارسة الأخلاق في طريقين: طريق الإلزام (الأوامر والنواهي التي تُفرض من الخارج على إرادة الإنسان)، وطريق الاعتبار (المعاني والقيم التي يستنبطها الإنسان من تلقاء نفسه مما يشهده من أفعال ويتلقاه من أقوال).. يصرِّح بأن طريق الاعتبار الاختياري (الذي تتحقق فيه إرادة الإنسان) هو الأنسب لسلوك «الإنسان المتنظِّر» (ويعني به الإنسان المتخلِّق بمكارم الأخلاق)، وذلك.. انطلاقاً من ضرورة الجمع بين مقتضى حرية الإنسان، ومقتضى «حَدَثية» الحياة الخُلُقية (فالأخلاق «أفعالٌ» حية. والأفعال الحية تاريخ. والتاريخ لا يحيا إلا بالقصة. فتكون أخلاق الإنسان هي «قصتَه» التي تحدد هُويتَه). ولذا.. يلزم، في الممارسة الأخلاقية، الأخذُ بطريقة الاعتبار. أي: إيراد الأحكام الخُلُقية في صورة أخبار (لا أوامر)، وفي صورة قصص (لا في نَسَقٍ تجريدي جافٍّ).

وبعد تفصيلات مهمة، وأمثلة بالغة الدَّلالة والطَّرافة في آنٍ (قصة الميثاق الأول المذكورة في سورة الأعراف (الآيات ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤): الأخلاق الكونية. حادثة شَقِّ صدر النبي صلى الله عليه وسلم في صباه (رواها مسلم، وغيره، في صحيحه): الأخلاق العُمْقية. حادثة تحويل القِبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة (سورة البقرة، الآيات ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٧٧): الأخلاق الحَرَكية).. ينتهي إلى أن النظرية الأخلاقية الإسلامية يجب أن تنطلق من مبدأ كون الأخلاق الإسلامية أخلاقاً كونيةً . لا محليةً، وعُمْقيةً . لا سَطحيةً ، وحَرَكيةً . لا جُمُوديةً.. وهذه هي صفاتُ «الأخلاق الحُسْنَى» الجديرةُ بالإنسان/الإنسان.. «الإنسان المتَنظِّر» في «العالم المتَنظِّر». بِحسَب مصطلحاته!..

[٣]

أما فيما يتعلق بجانب مساهمة طه عبدالرحمن في النقد الأخلاقي لواقع الحداثة المتمثل في الحضارة الغربية الحديثة..

فهو . بدايةً . يسمِّي هذه الحضارة «حضارة القول»، ويقول إن علامة صحة هذا ما ينهمر على مرائينا ومسامعنا من «طوفان الأقوال».. هذا الطوفان الذي تحاول أن تغطي هَوْلَه وتُخفي فَداحتَه بأسماءٍ مختلفة تُغري بظاهر دلالتها، من نحو: «انفجار المعلومات»، «ثورة الاتصالات»، «انعتاق الكلمة»، «سيادة القلم»، «سلطان العقل»، «تداول المعرفة»، «عولمة الإعلام».. إلى آخر هذه القائمة الطويلة من التركيبات اللفظية البرَّاقة!

ثم يُقرِّر أن هذه الحضارة، رُغم ما آتت الإنسانَ من مكتسبات وقدرات مختلفة، حضارةٌ



ناقصةٌ: لخلُوها كُليًا من اليقين فى نفع هذه المكتسبات، و نُجوع هذه القدرات. مما يستلزم طلبَ عقلانية أخرى غير عقلانيتها المجردة.. عقلانيةٍ تستمد أصولَها من أعماق التخلّق الدينى، الذى هو . وحده . يُورث هذا اليقينَ المفتقَد.

وفى عبارة دالّة يكشف طه عبدالرحمن أدواءَ هذه الحضارة بقوله: «إن هذه الحضارة الغربية الحديثة (حضارة «اللوجوس» / العقل) حضارةٌ ناقصةٌ عقلاً، ظالمةٌ قولاً، متأزّمةٌ معرفةً، متسلّطةٌ تقنيةً». ويردُّ جوانب النقص هذه إلى «آفات العُمق»، التى لا يُجدى فى الخروج منها التظاهر بـ «أخلاق السطح»، وهى الأخلاقيات التى وضعها بعضُ أهل الحداثة الغربية . ولا يزالون . من أجل دفع أسباب الشر أو الأذى الذى لحقهم . ولا يزال . بما كسبت أيدى الحداثة (وقد يصح مثالاً لها مقولاتُ الحرية والديمقراطية وما إليها مما تتشدق به، ويبشرنا به أولئك النَّفَرُ من «الليبراليين العرب الجُدُد»!).. بل لابد . لمداواة آفات العُمق تلك . من طلب «أخلاق العُمق» والسعى إلى التحقق بها، هذه الأخلاق التى يضع طه عبدالرحمن معالمها الأساسية فى نظريته الأخلاقية الإسلامية، وفى الدعوة إلى الشروع فى بناء حضارة جديدة لا يكون السلطان فيها لـ «اللوجوس»، وإنما يكون لـ «الإيتوس» / الخُلُق، بحيث تتحدد فيها حقيقةُ الإنسان بخُلُقه وفعله.. لا بعقله وقوله.

ومن هنا.. يؤكد أنه لابد، للخروج من الآفات الخُلُقية لـ «حضارة القول» الراهنة، من فتح الطريق لظهور «حضارة الفعل».. ينهض بها التخلّقُ المستندُ إلى التجربة الدينية «المؤيِّدة» (والتى سبق أن فصّلَ القولَ فيها فى كتابه «العمل الدينى وتجديد العقل»، الصادرة طبعتُه الأولى سنة ١٩٨٩م). فوحدها.. قوةُ التخلّق المؤيَّد هى التى يمكنها أن تتغلب على سوءات حضارة القول ومظالمها للإنسان؛ إذ ليس فى أنواع الأخلاق جميعاً أقدرُ من أخلاق أهل هذه المرتبة (مرتبة الأخلاق المؤيَّدة) على زعزعة طبقات القشور الحضارية، والنَّفاذ إلى اللُّباب الذى وراءها.

وقبلَ أن يطرح طه عبدالرحمن تصوُّره عن هذه النظرية الأخلاقية العملية، المؤيَّدة بالتجربة الدينية، يستعرض أهمَّ النظريات الأخلاقية الغربية المعاصرة التى التفتت إلى خطورة المُنْحَدَر الذى تتدهور إليه الحضارة الحديثة، وحاولت أن تضع كوابحَ لهذا التدهور (نظرية المسئولية: الألمانى هانس يوناس. نظرية التواصل: الألمانيان كارل أوتو آبل و يورجان هابرماس. نظرية الضَّعف: الفرنسيان جاك إيلول و دومنيك جانيكو).. مجملاً نقدَه إياها . بعد أن ذكر إيجابياتها . فى نقاط ثلاث:

- أخذها بالتعقُّل، وعملها بالتنكُّر.
- إخلالها بشرط التناسب.
- افتقارها إلى «التخلُّق» و«التعرُّف».

ثم يطرح . بعد ذلك كله . «نظرية التعبد» (المنبثقة من نظريته الأخلاقية الأم)، والتى تجمع بين التخلُّق الحكيم والتعرُّف البصير، وتضع آداباً للتنبؤ والتحكم والتصرف (وهذه الثلاث، بحسَب طه عبدالرحمن، هى مقاتلُ الحضارة الغربية)، وينتهى إلى أن من شأن «نظرية التعبد» هذه أن تُخرج الإنسانَ (بصفته الإنسانية المجردة، وبغضِّ النظر عن جنسه أو دينه) من طلب حظوظ السِّيادة على الكون (سيادة الإفساد و البَطَر والاستهلاك)، إلى أداء حقوق العبودية لسيِّد الكون . سبحانه وتعالى.. ومن هنا تتحقق للإنسان السيادة فى الكون (سيادة الإعمار والانتفاع والتنمية).. لا عليه!



«الحضـــارة الغربيــة الحديثــة حضـــارة نـــاقـصــــةٌ عـقـــلاً، ظالمةٌ قولاً، متأزِّمةٌ معرفةً، متسلِّطة تِقنيـــةً»

[٤]

تعمَّدتُ أن أصرِّح بصفة «العملية» وألحقها بما أسماه طه عبدالرحمن «النظرية الأخلاقية»، رغبةَ فى أن أُجنِّب القارئَ الوقوعَ فى تصور أن هذه الفلسفة مجردُ أفكار وتنظير أجوف بلا ثمرةٍ مشاهَدةٍ ومُحَسَّةٍ فى الواقع المعيش. فطه عبدالرحمن يؤكد . فى غير موضع . على أن المدار كله على «العمل» و«التطبيق» و«الممارسة» و«الحركة»، وأن مجرد رصف الكلمات المنمَّقة وتزويقها بالعبارات المخاتلة أو التظاهرَ والدَّعوى.. كلُّ ذلك لا يغنى من الوصول إلى رتبة «مكارم الأخلاق» و«التأييد الإلهى» شيئاً!

وليس أدلّ على هذا من وصفه الحضارةَ الغربيةَ، التى ينتقد الطورَ الحداثىَّ الذى تمر به، بأنها . كما سبق . «حضارة القول» (القول = القشر/ الدَّعوى/التظاهُر).. فى مقابل ما يدعو إليه من «حضارة العمل» (العمل = اللُّباب/الحقيقة/التحقُّق). وأيضاً.. من تركيزه على أهمية التخلق بـ «أخلاق العُمق»، دون الاكتفاء بالتظاهر بـ «أخلاق السطح» من غير عمل.

ومن أجل هذا.. أحب أن أذكر نَموذجين فقط يُظهِران مركزيةَ هذه الصفة (العملية) وموقعها من نظرية طه عبدالرحمن الأخلاقية..

النموذج الأول سأكتفى بالإشارة إليه فقط.. وهو المتمثِّل فى «التصوف الإسلامى» بوصفه ممارسةً أخلاقية وسلوكية تَنْفُذ إلى لُباب الدين، ومن ثَمَّ.. إلى الأخلاق الكاملة.. أو «مكارم الأخلاق» (فصَّل طه عبدالرحمن الجانبَ النظرى من تجربته الصوفية العميقة فى كتابه «العمل الدينى وتجديد العقل»، وأخبرنى . فى زيارته القاهرةَ شتاءَ ٢٠٠٤ . أنه ينوى أن يفصِّل جانبَها السلوكىَّ والوجدانىَّ فى كتاب مستقل، ربما يكون عنوانه «جَماليَّات الإيمان»، بعد أن أشار إليها فى مقدمة الطبعة المغربية الأولى من كتابه «العمل الدينى» المشار إليه آنفاً).

وأما النموذج الثانى : فسوف أحاول إيجازه ما استطعت. وهو يتمثل فيما كتبه طه عبدالرحمن عن انتفاضة الأقصى المباركة (الانتفاضة الثانية التى اندلعت شَرارتُها فى نهاية سبتمبر ٢٠٠٠م)، حيث كتب عن «الانتفاضة» . مفهوماً وواقعةً . مقالاً بديعاً، هو (بالإضافة إلى كتاب أستاذنا الكبير الدكتور عبدالوهاب المسيرى الرائدِ «الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصَّهيونية: دراسةٌ فى الإدراك والكرامة» الذى نشره للمرة الأولى عام اندلاعِ الانتفاضة الأولى ١٩٨٧م) أعمقُ ما قرأت فى هذا الباب. نشر طه عبدالرحمنِ مقالَه البديعَ هذا «نحو تأسيسٍ فلسفى لانتفاضة الأقصى» فى جريدة «القدس العربى» اللندنية (العدد ٣٦٢٣: ٧ . ٦يناير ٢٠٠١م).. أى بعد نحو ثلاثة أشهر فقط من بَدْء هذه الانتفاضة)، ثم أعاد تحريره وتعميقه فصلاً سادساً، بعنوان «كيف نُقيم فلسفةً عربيةً؟: مفهوم الفُتُوَّة المنتفضة نَموذجاً»، فى كتابه «الحق العربى فى الاختلاف الفلسفى» (المركز الثقافى العربى. بيروت. ط١/٢٠٠٢م).

ينطلق طه عبدالرحمن فى تنظيره الفلسفى العميق للانتفاضة من تأصيل النظرة الأخلاقية إلى الهُوية البشرية بعامةٍ، ثم ينتقل الكاتب إلى تصنيف العربِ من حيث مواقفهم من العدو الصَّهيونى، جاعلَهم فى طبقات أربع: طبقة «الناس» (أهلِ التطبيع)، وطبقة «الرجال» (أهلِ المقاطعة)، وطبقة «ذوى المُروءة» (أهلِ الرَّفْض)، وأخيراً.. طبقة «الفتْيان» (أهلِ الانتفاضة). وعلى هذه الطَبقة الأخيرة يركِّز، عاداً إياها العُليا، مُوضحاً أن «الفتى» من أبنائها يتميز عن «الإنسان»/ الكائن ذى الصورة الآدمية (من

أبناء أدنى الطبقات) بكمال التدين/ التخلق، ويتميز عن «الرجل» (من أبناء الطبقة الأعلى من «الإنسانية») بكمال القوة، ويتميز عن «المرء» (من أبناء الطبقة السابقة مباشرة) بكمال العمل.. واضعاً بذلك طبقة «الفتوة» فى أعلى سلمه الطبقى، مقدماً إياها على كل من طبقات «الإنسانية» و«الرجولة» و«المروءة».

وأما: لماذا جعل «أهل الانتفاضة» هم أصحاب هذه الطبقة العليا (طبقة «الفتوة») ؛ فلأنهم جمعوا إلى «التسديد» فى مقاصدهم «التأييد» فى وسائلهم، ولذلك استحقوا أن يكونوا أصحاب أخلاق مؤيدة.. هذه الأخلاق التى يحصل معها اليقين فى نفع المقاصد، ونجوع الوسائل المختارة ؛ لأنهم استمدوا هذه المقاصد والوسائل من تمام تغلغلهم فى العمل الكامل.

وإذ تتشكل «الهوية العربية» الخاصة بعرب هذا الزمان بناء على انتماء كل من هؤلاء العرب إلى واحدة من هذه الطبقات الأربع ؛ يقرر طه عبدالرحمن أن صنع الهوية العربية الحقة.. الهوية الزاكية بالممارسة الدينية، والراسخة بالقوة المقاومة، والواسعة بالتحقق بالعمل (فـ «الهوية». عموماً. عنده لا تكون ضربة لازب.. بل لا تزال تتشكل وتتحول وتتحور ما دام فى الإنسان عرق ينبض. وهى بهذا لا تكون إلا شيئاً متحققاً فى الواقع وفعالاً فيه، لا مجرد ميراث يرثه المرء. من غير جهد ولا كسب. عن أجداده!).. هذه الهوية لا يكتمل صنعها إلا مع طبقة «الفتيان المنتفضين» دون غيرها، حيث لا يتمكن المنتفض من الأخلاق المؤيدة حتى تكتمل له مقومات ثلاثة: ممارسة الدين، والظهور بالقوة، والتحقق بالعمل. ومن هنا.. فلا أزكى، ولا أرسخ، ولا أوسع.. من الهوية التى تكون من صنع الفتوة. وهى اليوم. يوم كتابته دراسته هذه. «هوية انتفاضة»، وغداً (كما يقول ويتمنى.. ونحن معه!) سوف تكون «هوية انتهاضة» شاملة.. انتهاضة إلى ما ينفع الناس ويمكث فى الأرض!

لأى أن يختلف أو يتفق وكلٍ أو بعض هذا الطرح. لكن لا أحسب أن أحداً منصفاً يسعه تجاهل تأمله: طرحاً فلسفياً مبتكراً وجاداً.. وعملياً أيضاً!

[٥]

بقى، فى ختام هذا «التعرف» العجل، أن أشير إلى أمرين أراهما جديرين بالتنويه..

أولهما: أن طه عبدالرحمن لا يستخدم فى كتابته الفلسفية إلا المفاهيم المتداولة فى الممارسة الفكرية العربية، فى الوقت الذى يستخدم فيه جل الباحثين والكاتبين العرب (ولا أريد أن أتورط فى التعميم، مع أننى لا أحسبه مبالغة!) مفاهيم ومصطلحات تشوبها العجمة. على الأقل!، إن لم تحذ المنقول الفلسفى الغربى (مفاهيم ومصطلحات) حذو النعل بالنعل. حسب تعبيره!... وكأنه لا مشابهة ولا مقابسة إطلاقاً بين مضامين هذا المنقول وبين ما جاءت به الممارسة العربية من عندها! وهو الأمر الذى أدى إلى ازدواجية فى الفكر العربى الإسلامى، لم تورث أهله إلا الجمود على ما نقلوه ؛ فحرموا ممارستهم حقهم فى الإبداع الفلسفى المختلف. فى حين أنهم لو كانوا يردون ما ينقلونه من مضامين إلى ما عندهم من تراث زاخر (أو، على الأقل، يقربون بينه وبين ما بأيديهم) ؛ لكان لهذا الفكر العربى الحديث شأن آخر، ولأتى أهله بما لم تأت به الأوائل!

وأحسب أن طه عبدالرحمن بتنبيهه إلى هذا المزلق، وباعتماده ثقافته العربية الأصيلة ولسانه العربى المبين، مع هضمه الثقافة الفلسفية الغربية. القديمة والحديثة. هضماً جيداً ؛ قد وفق توفيقاً كبيراً فى أن يأتى ببعض مما لم تأت به الأوائل، ولا نزال متشوفين إلى المزيد!

أما ثانى ذانك الأمرين ؛ فمتفرع عن الأول.. وهو أن لطه عبدالرحمن قدرة فائقة (تثير الإعجاب والغبطة معاً!) على استثمار خصائص اللسان العربى التعبيرية والتبليغية، وكذا.. على استثمار فروقه الدلالية الدقيقة، وذلك فيما يعانيه عند وضع المفاهيم وسك المصطلحات (نحتاً، واشتقاقاً، وتوليداً). وهو يكثر من هذه المفاهيم والمصطلحات كثرة قد ترهق قارئه بادئ الأمر.. غير أننى زعيم لهذا القارىء بقدر كبير من المتعة الذهنية والفائدة المعرفية إن هو جرب التعمق فى القراءة، ولم يكتف بالتصفح السريع، وإن هو حاول اجتراح نمط من القراءة الجادة المنتبهة. ومن هذه الجهة.. فإن طه عبدالرحمن يصدق فيه ما قلته مرة عن شيخنا وشيخ أشياخنا العلامة الجليل الدكتور إبراهيم عبدالرحمن خليفة (علم جامعة الأزهر.. حفظه الله وبارك فيه): إنه لا يقرأ إلا بانتباه كامل!

والفائدة المعرفية والمتعة الذهنية والروحية مضمونتان. بإذن الله. لمن يجرب!

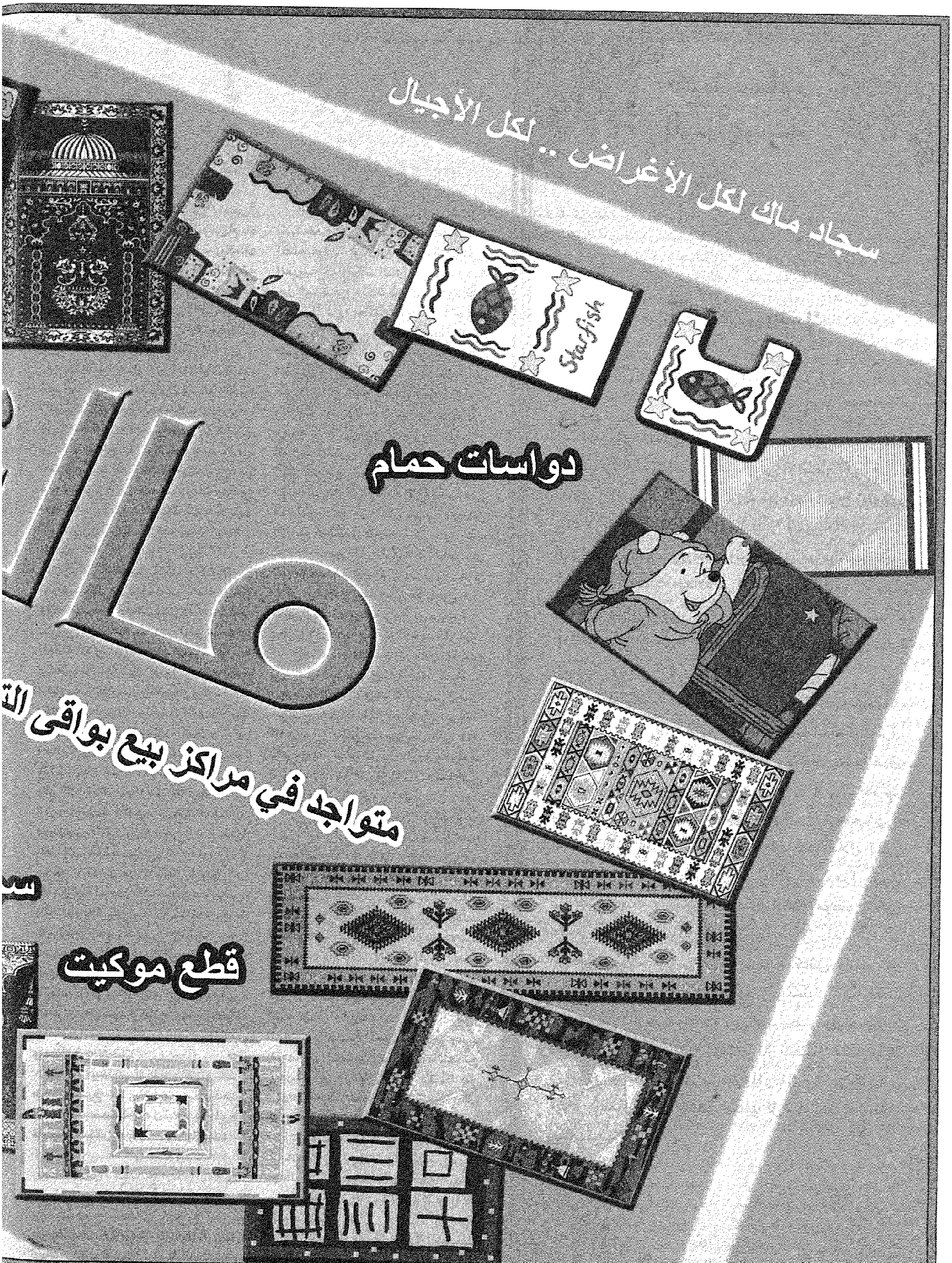
كتاب الزاوية

من أدب الفرس والترك

دراويش الترك

الدرويش بالمعنى اللغوى فى الفارسية هو المتسول الذى يقف بالأبواب مستجديًا، أما بالمعنى الاصطلاحى، فذلك المتزهد المتصوف الذى يرفض الدنيا ويرغب عن زخرفها، جاعلاً من دأبه وديدنه أن يخشوشن ويهين البدن ببعض العذاب، لتصفو الروح وتطهر وتحلم عند ربها بالنعيم المقيم، فشقوة الدنيا عنده سعادة فى الآخرة، وعلى المرء أن يبتغى الوسيلة إلى الفناء فى محبة الله، وإلحاق ذاته بالذات العليا، حتى إذا بلغ من ذلك مأربًا، فقد وصل إلى غاية ينشدها، وحقق الآمال كل الآمال.

وانبعث التصوف من إيران فغمر آسيا الصغرى، تمذهب به الدراويش فتألفت منهم مختلف الجماعات والفرق، وانتشروا فى البلاد طولاً وعرضًا، وفى طليعة هذه الفرق، فرقة المولوية وشيخها جلال الدين الرومى المعروف بمولوى والمتوفى سنة ٦٨٣ هجرية بمدينة قونية، وهو أعظم شعراء التصوف من الفرس غير منازع، وقد قال جلال الدين الرومى فى الناى وسيلة الدراويش الأثيرة شعرًا جميلاً منه هذه الأبيات: «استمع للناى عذب الشكاة موصول الأنين فإنما يشكو الفراق وآلام النوى. وكأنه يقول، لقد انتزعت من قصبائى فتوجع لى كل من سمع بكائى، ولقلب آن يتصدع ويتفطر ليفهم شوقًا يعذبنى ويضنينى ،وما عجب أن يحن كل ناء عن مستقره إلى عهد مضى وأيام خلت. ليس فى الناى ريح تتردد، ولكنها نار للحب تستعر، فلا كان ذلك القلب الذى خلا من حرها! والناى مؤانس ومسامر لهجور ومفارق، فقد هتكت أنغامه كل ستر، فبرح الخفاء وانكشف كل سر».



سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت


سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
صلى
www.maccarpet.com

جميــــل.. رشــيق.. وســيم.. رائـــع



GOYA Y LUCIENTES, The Clothed Maja (La Maja Desnuda) -Romanticism (1799-1800)

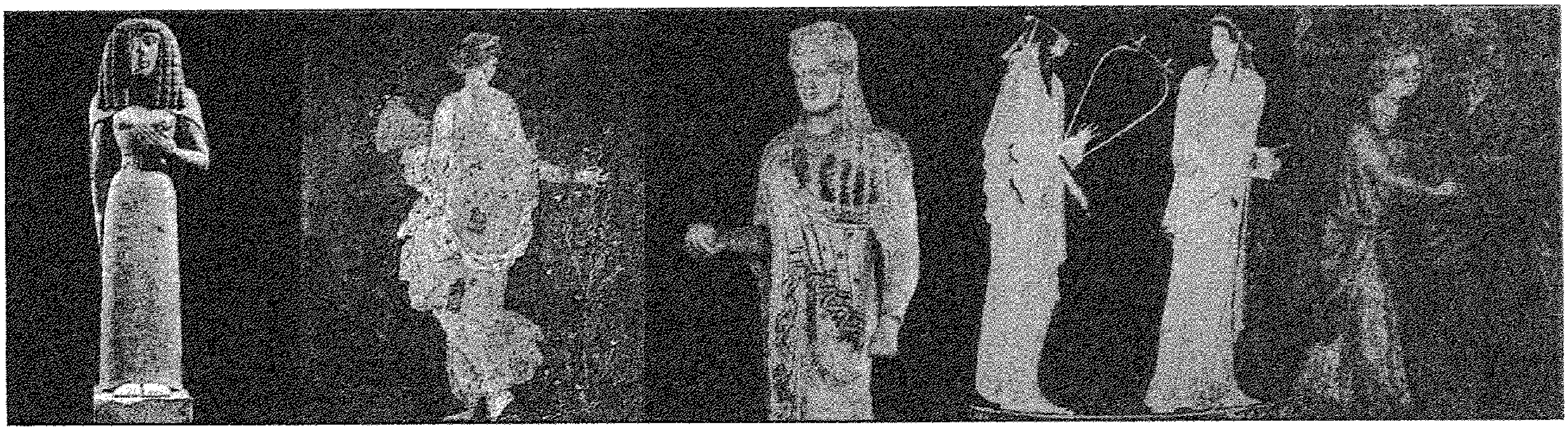
.. مهيب، للجمال أيضا تاريخ

إن «جميل» ـ ومعها «رشيق» و«وسيم»، أو «مهيب»، «رائع»، «فاتن»، وتعبيرات أخرى مشابهة ـ كلها نعوت نستخدمها في الغالب إشارة إلى ما يروق لنا. وبهذا المعنى، يبدو الشيء الجميل مساوياً للشيء الجيد، والحق أن ثمة ارتباطاً وثيقاً قد تشكل خلال العديد من الأحقاب التاريخية بين الجميل والجيد.

لكن إذا كنا بصدد إصدار الأحكام بناء على أساس ما يُستمد من حياتنا اليومية من خبرة، فنحن ننزع إلى تعريف الجيد بأنه - ليس ما يحلو لنا وحسب - إنما ما يجب أن يحلو لنا الحصول عليه. فثمة عدد لا نهائي من الأشياء التي نراها جيدة، مقابلة الحب بالحب، ثروة ينالها المرء بشرف، أطايب الأطعمة. وفي كل هذه الحالات يلذ لنا حوز تلك الأشياء الجيدة. فالشيء الجيد هو ما يثير كوامن رغباتنا. حتى عندما نعد عملاً فاضلاً عملاً جيداً، نود لو أننا القائمون عليه أو نعقد العزم على أن نأتي فعلاً يستحق نفس التقدير، مدفوعين في ذلك بما يتوافر لدينا من أمثلة لما نعتبره جيداً. وفي أحيان أخرى نصف الشيء بأنه جيد حين يتوافق مع أحد المبادئ المثالية، إنما المسببة للمعاناة، شأن الموت المجيد لأحد الأبطال أو إخلاص مَن يعالجون المجذومين أو مَن يضحون بحيواتهم من الآباء من أجل إنقاذ أطفالهم.

ونحن في مثل تلك الحالات نتعرف على العمل باعتباره جيداً لكن، بسبب الأنانية أو الخوف، لا نود أن نجد أنفسنا في موقف مشابه. نتعرف عليه بوصفه جيداً لكن بوصفه خاصاً بشخص آخر. إنه عمل نرنو إليه بقدر من التجرد وإن داخلتنا العاطفة تجاهه دون أن نستشعر رغبة فيه. وفي أكثر الأحيان عندما نصف أفعالاً خيرة نؤثر أن نعجب بها بدل





Seventh century BC *Auxerre Kore,* Minoan-Mycenaean

First century AD *Flora,* fresco from the Villa of Ariadne, Stabiae

Sixth century BC *Kore*

470 BC *Sappho and Alcaeus,* Attic red -figure two-handled crater

c. 1340 *Game with a Hood,* detail of an embroidered purse crafed in Paris.

للجمال أيضاً تاريخ

1899 Paul Gauguin, *Te avae no Maria*

1902 Gustav Klimt, *Beethoven Frieze,* detail of the choir of heavenly angels.

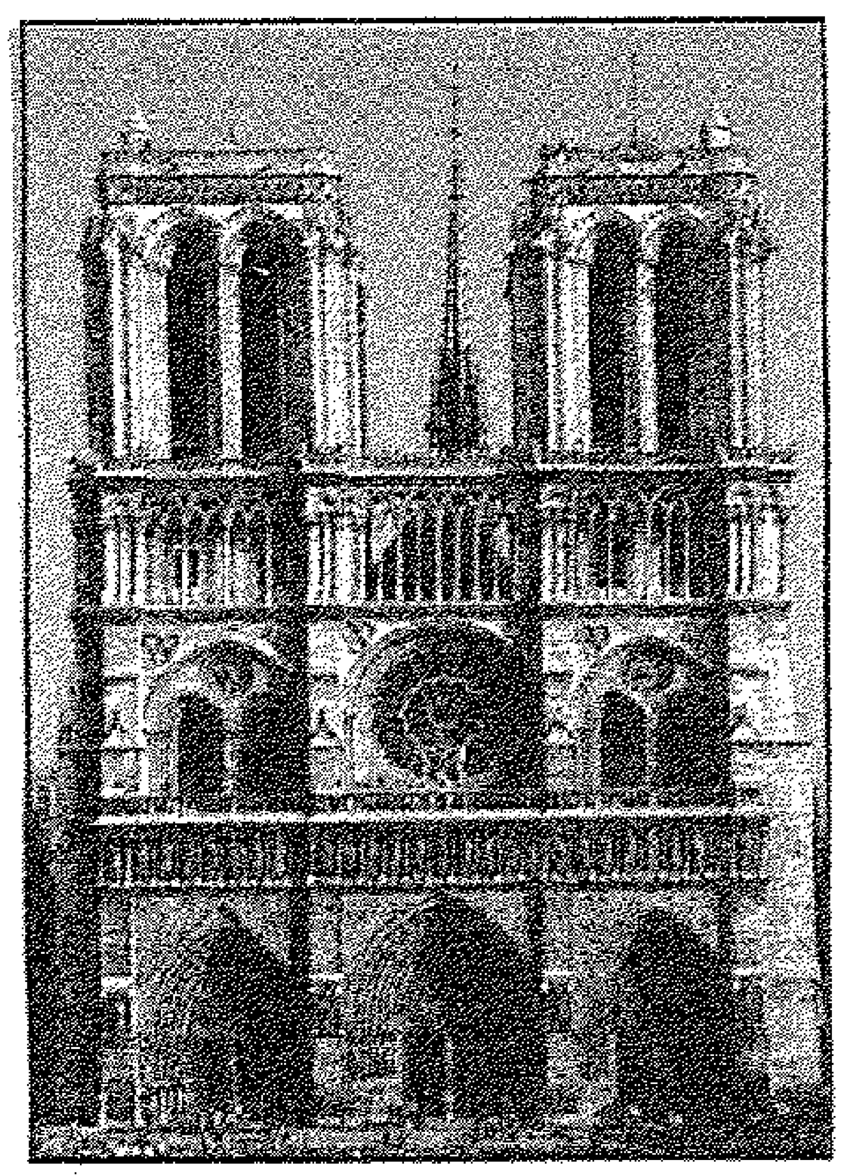
1910 Ferdinand Hodler, *Walking Woman*

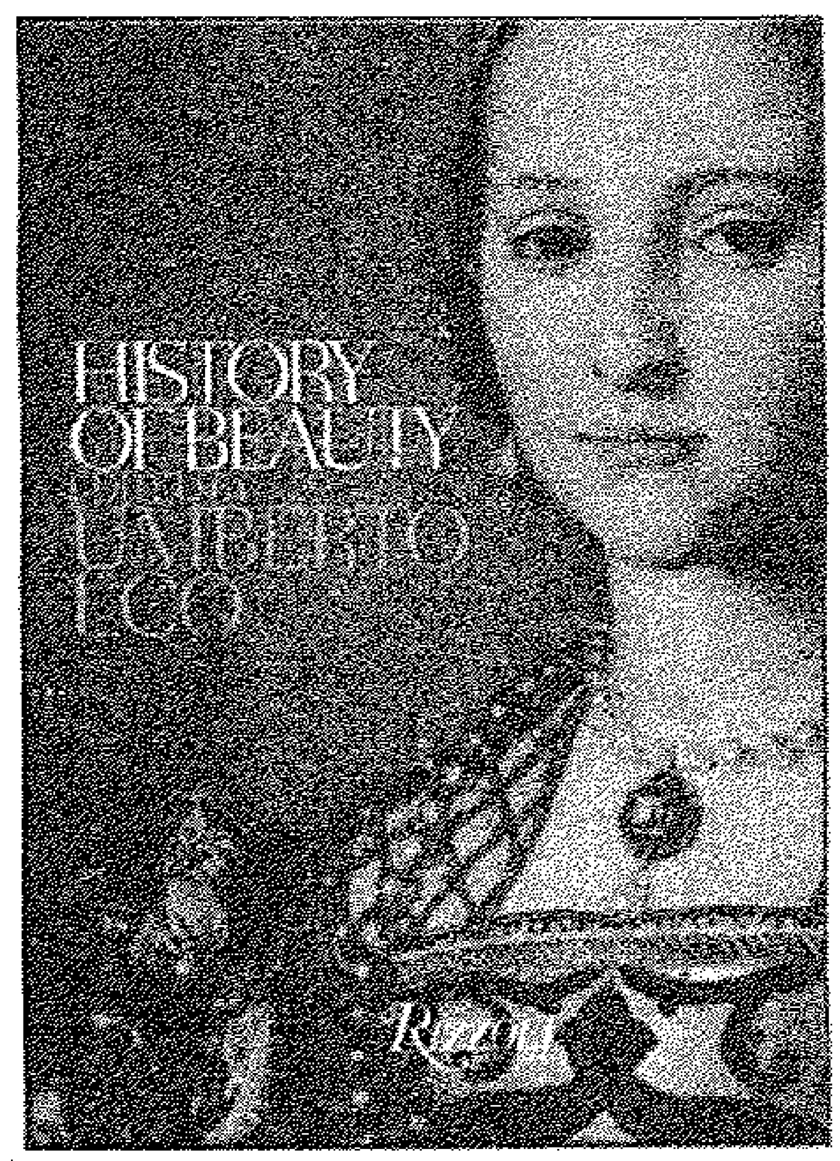
c.1920 Colette

1946 Rita Hayworth



Cathedral of Notre Dam, Paris (1163 - 1197)





القيام بها، فنحن نتحدث عن القيام بعمل «جميل».

إذا تدبرنا الموقف المتجرد الذى يسمح لنا بأن نعرف شيئاً جيداً لا يثير فينا أية رغبة بأنه جميل، نفطن إلى أننا نتحدث عن الجمال عند استمتاعنا بشىء على ما هو عليه بصرف النظر عن امتلاكنا له من عدمه. فلو أعجبتنا كعكة فرح متقنة الصنع بإحدى نوافذ محل الخباز، قد يستوقفنا جمالها لكننا لن نرغب فيها بوصفها شيئاً جيداً يمكن الحصول عليه وذلك مراعاة للمقتضيات الصحية أو لأننا لا نشتهيها. فالشىء الجميل هو ما يجعلنا سعداء لو فزنا به، وهو يلبث جميلاً حتى وإن انتمى إلى شخص آخر. ولا شك أننا لا نناقش هنا مواقف من يرغبون فى امتلاك الشىء الجميل، كلوحة خطها فنان شهير، من قبيل زهو الامتلاك ذاته أو لكى يتمكنوا من تأملها يوماً بعد يوم أو لقيمتها الاقتصادية الهائلة. إن هذه الأشكال من العاطفة والغيرة وشهوة الامتلاك والحسد والطمع لا علاقة لها بإحساس الجمال.

عندما يهرع ثلاثون شخصاً إلى ينبوع وقعوا عليه ليرووا ظمأهم، فهم لا يتأملون جماله. غير أنهم قد يتأملونه بعدها ما إن يرتووا. وهذا يفسر الاختلاف بين الإحساس بالجمال والرغبة. فنحن قد نرى الآدميين غاية فى الجمال، إلا أننا قد لا نرغب فيهم جنسياً أو إذا علمنا استحالة أن يكونوا ملكنا. لكن إن رغبنا فى إنسان (وقد يكون عاطلاً من الجمال) بينما لا يمكن أن تتحقق علاقة نريدها معه، نشعر بالمعاناة.

فى هذا العرض لأفكار الجمال عبر العصور، سنحاول بالأساس أن نعين تلك الحالات التى أدركت معها ثقافة ما أو عهد تاريخى معين أن ثمة أشياء تسر المتأملين بغض النظر عما قد نضمره تجاهها من رغبة. وبهذا المعنى لن ننطلق من فكرة مسبقة عن الجمال: بل سوف نستعرض ما عده الإنسان جميلاً عبر آلاف السنين.

ثمة معيار آخر سوف يهدينا على الطريق، ألا وهو حقيقة أن ما صاغه العصر الحديث من علاقة وثيقة بين الجمال والفن ليس علاقة

History of Beauty

(تاريخ الجمال)

تحرير: أمبرتو إيكو

ترجمة: أليستر ماكوين

نيويورك: منشورات ريزولى العالمية، ٢٠٠٤، ٤٣٢ صفحة

ترجمة: هالة صلاح الدين حسين

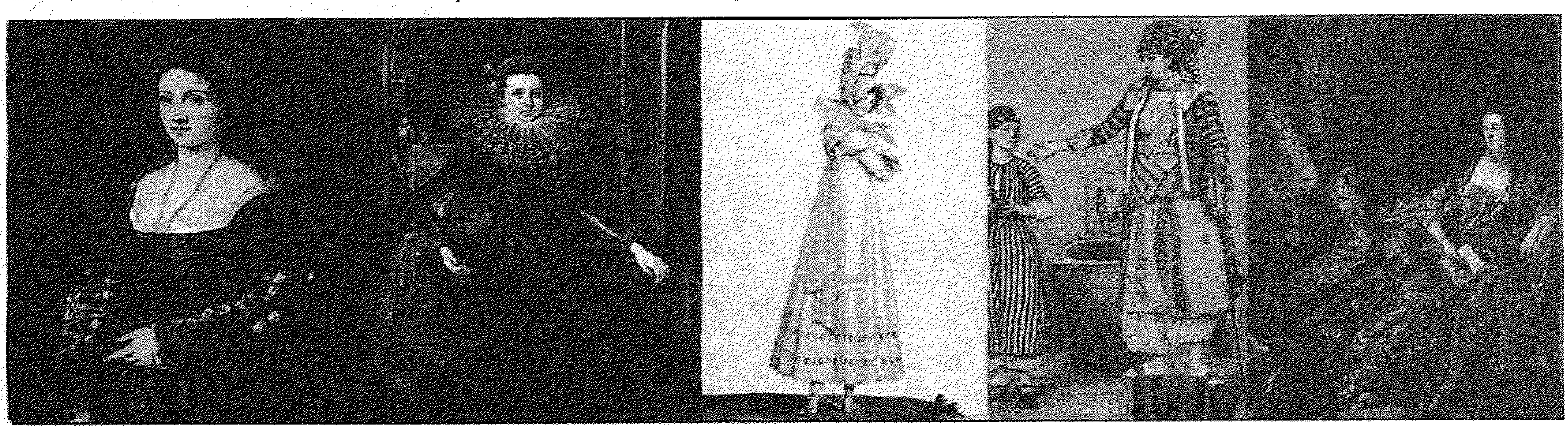
c. 1540 Titian *La Bella*

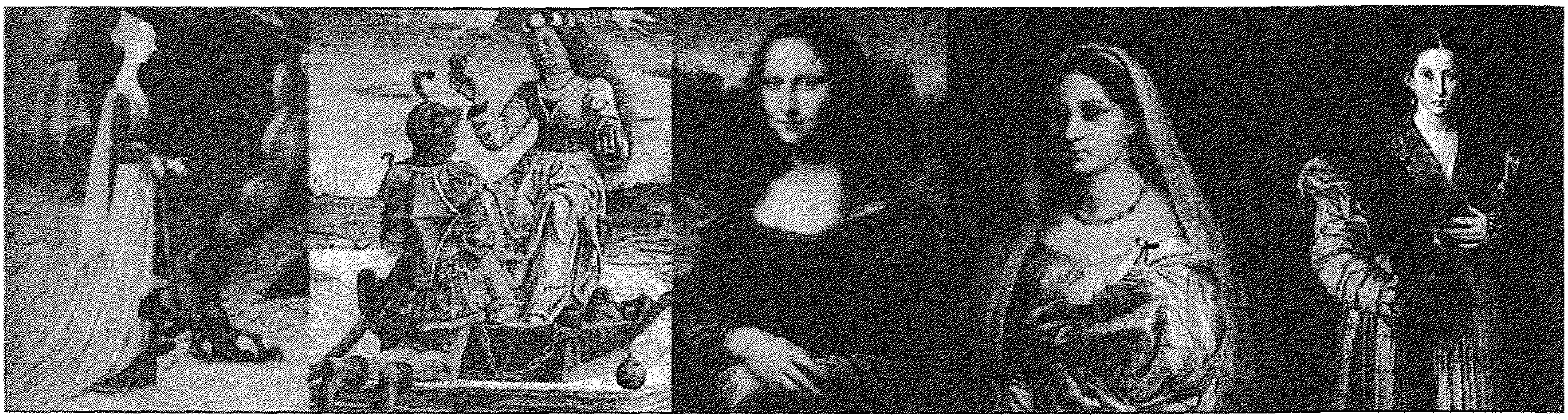
1606 - 1607 Peter Paul Rubens, *Veronica Spinola Doria*

1650 Michel Gatine, *Madame de Sevigne from Galerie française de femmes célèbres*

1740 Jean-Etienne Liotard, *French Lady with Turkish Headdress*

1756 François Boucher, *Madame de Pompadour.*





c.1456
Paolo Uccello.
St. George and the Dragon, detail

1469
Francesco del Cossa.
Allegory of April, detail,

1503 - 1506
Leonardo da Vinci.
Mona Lisa

c. 1514
Raphael
La Donna Velata

1530 - 1535
Parmigianino,
Antea.

جلية كما قد يتبادر إلى الأذهان. فبينما لا تعترف بعض النظريات الحديثة سوى بجمال الفن، وبالتالى تبخس من قدر جمال الطبيعة، كان العكس صحيحاً خلال فترات تاريخية أخرى: إذ كان الجمال صفة يمكن اقتناؤها من خلال الطبيعة (كما هو الحال مع القمر والفاكهة الشهية واللون الخلاب)، فى حين انحصرت مهمة الفن فى إتقان الأعمال بما قد يؤدى الهدف المراد منها - لدرجة أن الفن كان كلمة تُطبق بلا تحيز على أعمال الرسامين والنحاتين وبناة القوارب والنجارين والحلاقين على حد سواء. ولم نبتدع فكرة الفنون الجميلة إلا بعد مضى وقت طويل وذلك للتمييز بين الرسم والنحت والمعمار وما نسميه اليوم الحرف اليدوية.

سنجد مع ذلك أن التعبير عن العلاقة بين الجمال والفن جاء فى الغالب مشوباً بالغموض، فعلى الرغم من تفضيل جمال الطبيعة، ثمة اعتراف بأن الفن يمكنه تصوير الطبيعة تصويراً جميلاً، حتى وإن انطوت الطبيعة المصورة نفسها على المصادفة أو التنافر.

على أية حال، يدور هذا الكتاب حول تاريخ الجمال وليس تاريخ الفن (ولا هو بصدد تاريخ الأدب أو الموسيقى)، وعليه سوف ننوه بالأفكار التى عبرت من وقت لآخر عن الفن، فقط عندما تتعاطى تلك الأفكار مع الصلة بين الفن والجمال.

ويبقى السؤال المتوقع: لماذا إذن وُثق تاريخ الجمال هذا عن طريق الأعمال الفنية وحدها؟ لأن الفنانين والشعراء والروائيين هم مَن أخبرونا عبر القرون بما راق لهم من أشياء جميلة، وهم مَن خلفوا لنا الأمثلة. كذلك صنع الفلاحون والبناة والخبازون والخياطون أشياء ربما رأوها تنطق جمالاً بيد أن أقل القليل من هذه المنتجات قد بقى (كالزهريات والمبانى المشيدة لإيواء الماشية وبعض الملابس). وفوق هذا كله، لم يكتبوا شيئاً ليقولوا لنا لمَ قد يعتقدون الجمال فى مثل تلك الأشياء أو ليفسروا ما يعنيه الجمال الطبيعى بالنسبة لهم. فقط عندما يصور الفنانون الحظائر أو الأدوات أو أناس يرتدون ثياباً، نستطيع تخمين أنهم ربما يقولون لنا شيئاً حول مُثل الجمال العليا التى اعتقد فيها الحرفيون بعصرهم لكننا لا نستطيع أن نتيقن من هذا كل التيقن. أحياناً عندما يشخص الفنانون أناساً يعيشون بعصرهم، يستلهمون أفكار الموضة من العصور الإنجيلية أو أيام هومر؛ وعلى العكس، عند تصوير شخصيات من الإنجيل أو من عصر هومر، يستلهمون الموضة مما هو سائد وقتئذ. لن يسعنا على الإطلاق التأكد مما نبنى عليه آراءنا من وثائق بيد أننا نستطيع مع ذلك أن نجازف بالقيام ببعض الاستنتاجات مع توخى الحرص والحذر الواجبين. ففى الغالب عند دراسة منتجات الفنانين أو الحرفيين القدامى، تعاوننا فى ذلك النصوص الأدبية والفلسفية المكتوبة بتلك الفترة. لا يمكننا القول مثلاً إن مَن نحتوا الوحوش على أعمدة الكنائس الرومانسيكية وتيجانها ألفوا فيها جمالاً إلا أن بين يدينا نصاً كتبه القديس برنارد (الذى لم يجد مثل تلك الصور جيدة أو مفيدة) نعلم منه أن المؤمنين استمتعوا بتأملها (وعلى كل، يكشف القديس برنارد فى شجبه لها أنه قد تأثر بجاذبيتها على نحو طفيف). وفى تلك اللحظة، ونحن نشكر السماء لتوافر هذه الشهادة التى أتتنا من مصدر لا يقبل الشك، نستطيع أن نقول - على ضوء صوفية القرن الثانى عشر - إن تصوير الوحوش كان جميلاً (وإن كان مستهجناً على المستوى الأخلاقى).

أشرنا إلى أننا سوف نستخدم فى الأغلب وثائق من عالم الفن. لكننا، ولاسيما ونحن ندرس الفترات الحديثة، سنستعمل وثائق تفتقر إلى المغزى الفنى ولا هدف لها سوى مجرد الترفيه أو الإعلان أو إرضاء الدوافع الشهوانية مثلها مثل الصور التى تفد إلينا من السينما التجارية والتليفزيون والإعلانات. ومن حيث المبدأ ستحتل الأعمال الفنية العظيمة والوثائق ذوات المردود الفنى الهزيل نفس القيمة بالنسبة لنا شريطة أن تساعدنا على الوقوف على المثل الأعلى للجمال فى فترة معينة.

وبذكر هذا، قد يواجه كتابنا تهمة النسبية وكأننا نروم القول إن الجمال يعتمد على الفترات التاريخية والثقافات المختلفة. وهو تحديداً ما نقصد توصيله. ثمة فقرة شهيرة لزينوفانيس من مدينة كولوفون، أحد الفلاسفة الذين ظهروا قبل سقراط، كالتالى، «لو للثيران أو للأسود أياد لها أن تصور عملاً كتصوير الإنسان له، لو بمقدور الوحوش أن ترسم شبهاً للآلهة، سترسمها الأحصنة على هيئة أحصنة، وترسمها الثيران على هيئة ثيران، وسوف تتخذ أجسامها هيئة مَن تنتمى إليها». (القديس أكليمنض، ستروماتا، ٥، ١١٠).

من المحتمل - بالإضافة إلى مفاهيم

1760
Thomas Gainsborough,
The Hon. Mrs. Lady Graham

1800
Jacques-Louis David,
Madame Récamier.

1866
Edward Burne-Jones,
The Princess Chained to the Tree

1877
Charles-Auguste Mengin,
Sappho.



الجمال المتعددة - أن ثمة بعض القواعد المستقلة التي تنطبق على كل الناس خلال كل القرون. لن نحاول في هذا الكتاب التنقيب عنها بكل الطرق لكننا سنلقي الضوء على الاختلافات. ومن واجب القارئ أن ينشد أي انسجام يتخلل تلك الاختلافات.

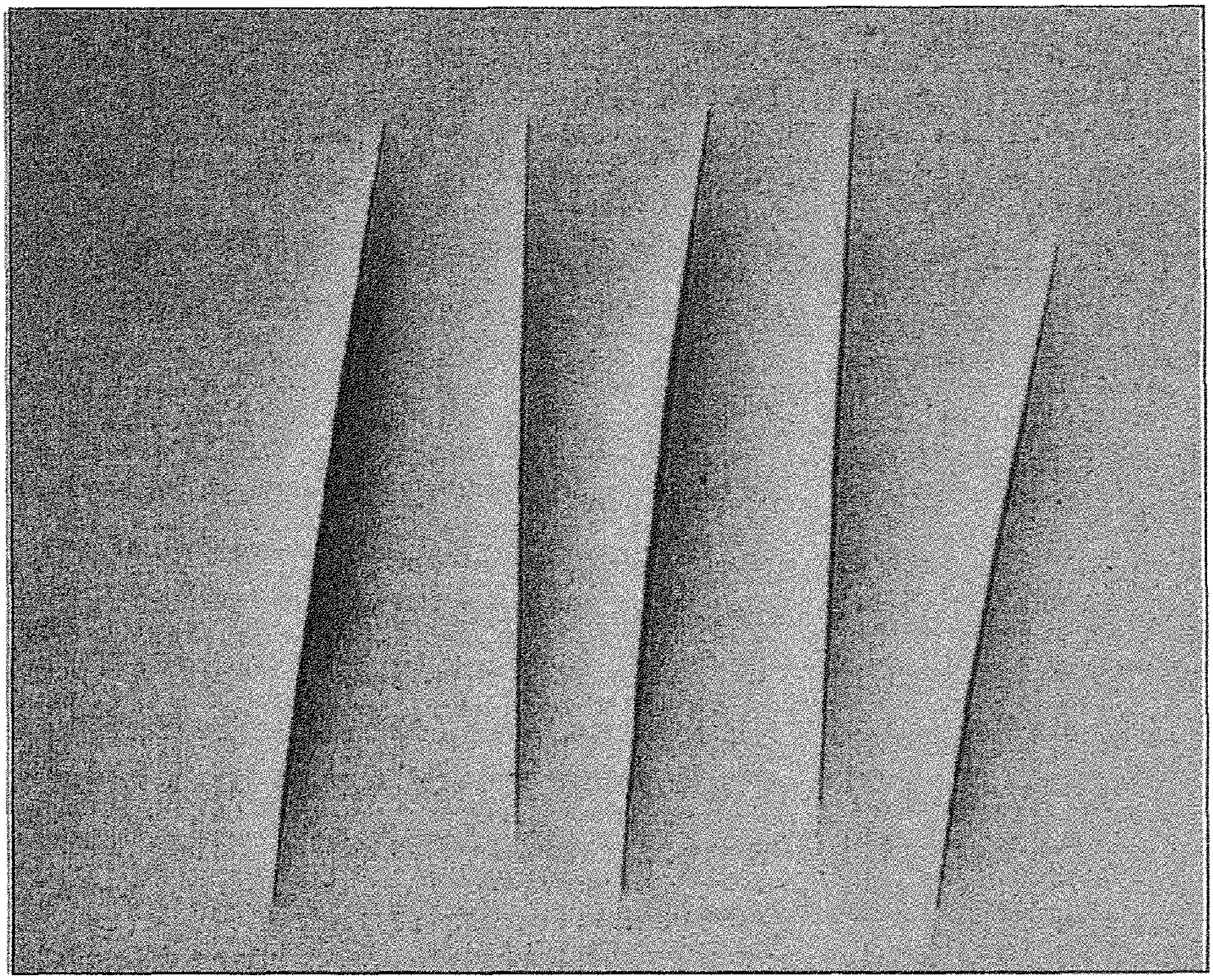
ينطلق هذا الكتاب من المبدأ القائل بأن الجمال لم يكن البتة مطلقاً وثابتاً إلا أنه قد اتخذ جوانب مختلفة اعتماداً على الفترة التاريخية والدولة: ولا ينسحب هذا على الجمال المادي فقط (الرجال والسيدات والطبيعة) إنما على جمال الله والقديسين والأفكار...

وبهذا المعنى سوف نبدي كل احترام للقارئ. سوف نُظهر أنه بينما تلوح صور الرسامين والنحاتين بنفس الفترة وكأنها تحتفي بنموذج معين من الجمال (جمال الإنسان والطبيعة والأفكار)، كان الأدب يحتفي بنموذج آخر. من الجائز أن شعراء إغريقيين معينين غنوا برقي نسائي لم يدركه سوى رسامي العهد التالي ونحاتيه. وعلى الجانب الآخر تخيل ما سيعتري ساكن المريخ من دهشة بالألفية التالية عندما يصادف بغتة لوحة لبيكاسو ووصفا لسيدة جميلة بقصة غرامية بالفترة نفسها. فهو لن يتفهم القصد من العلاقة بين مفهومي الجمال. لذلك سوف يتوجب علينا أن نبذل مجهوداً من حين لآخر كي نحاول أن نرى كيف تتفاعل نماذج مختلفة من الجمال بالفترة نفسها وكيف تشير النماذج الأخرى إلى بعضها البعض عبر الفترات المختلفة.

إن تخطيط هذا الكتاب وأفكاره واضحان من البداية وذلك حتى تتكون لدى القارئ الفضولي فكرة عن مذاق العمل. فالعمل يبدأ بأحد عشر جدولاً للمقارنة، الغرض منها أن يتصور القارئ على الفور كيف عادت أفكار الجمال المتباينة وتطورت (وربما اختلفت) خلال العصور المختلفة بأعمال الفلاسفة والكتاب والفنانين التي كانت أحياناً بعيدة تماماً عن بعضها البعض. وعليه سيرافق النص، عند الحديث عن كل عصر أو نموذج جمالي أساسي، صور واستشهادات تتصل بالقضية المتناولة، وسيصحبها في بعض الأحيان إسناد واضح داخل النص. ▪



Xanti Schawinsky: Photomontage for an Oliviti Calendar (1934)

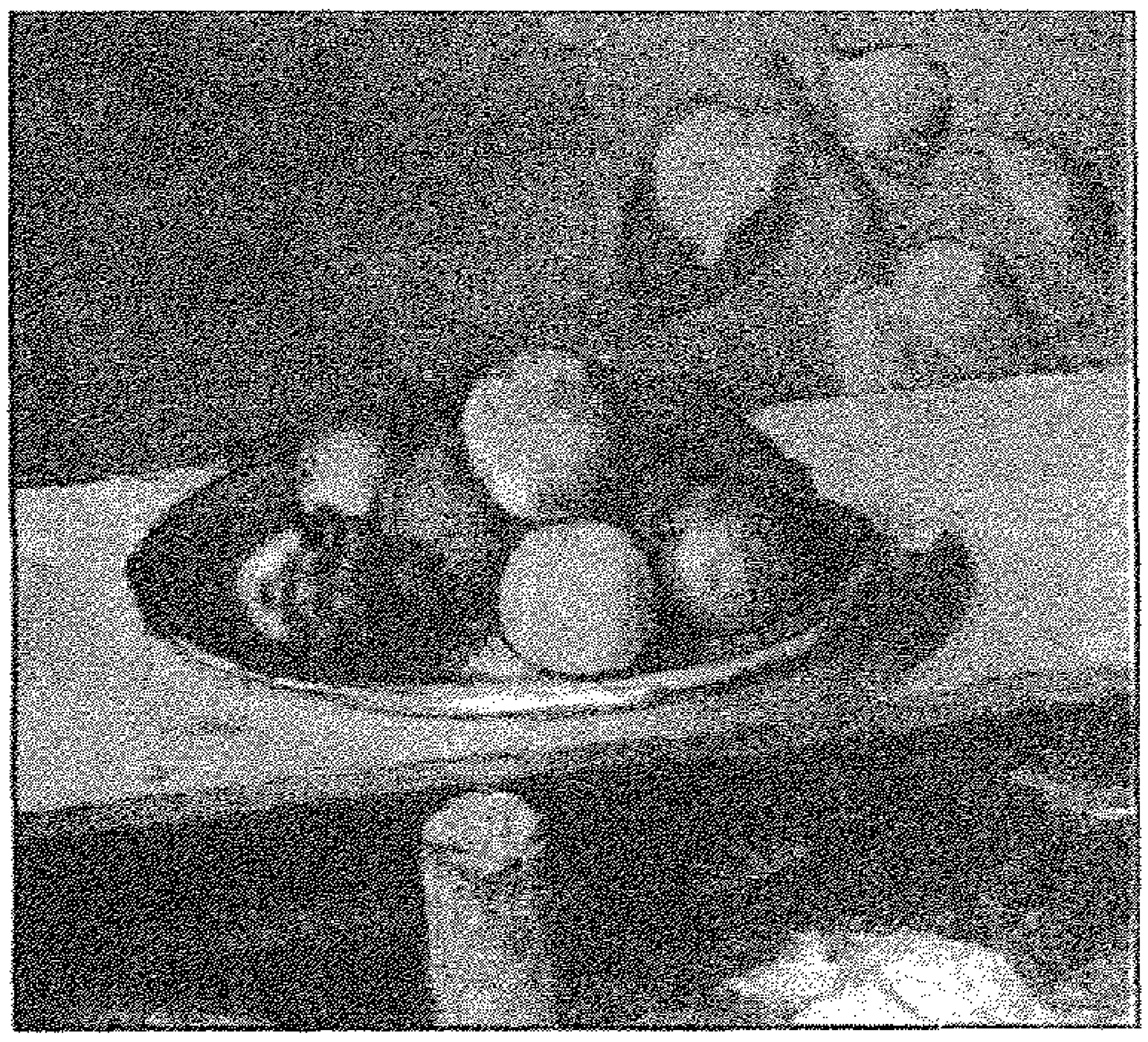


Lucio Fontana
Spatial concept-wait
(1964)



Andy Warhol:
Marilyn (1962)

Paul Czanne: Apples, peaches, pears and grape (1879-80)



ريــــا وســكـيـنـة للجــريـمـة تــاريــخ آخــــر!!

صـــــــلاح عـيـســـى

لم يكن «أبو مصعب» الزرقاوى حتمًا فى بال الكاتب وهو يعد دراسته المحكمة تلك التى تتعرض فى بعض جوانبها للتناول «الشعبى» لأولئك الذين تقع أسماؤهم - قضائيًا - على لائحة المجرمين والأشقياء.. فتنقلهم «المرويات المتواترة عبر الزمن» إلى مصاف الأبطال الأسطوريين. مثلما كان مع «أدهم» الشرقاوى و«متولى» شقيق شفيقة. أو تصنع منهم رموزًا للجريمة والشر والخسة والنذالة مثلما حدث مع القصة «المجهولة» رغم شهرة أبطالها: «ريا وسكينة».

ورغم اختلاف طبيعى يميز حكاية «أبى مصعب» فى رحلته الطويلة من بلدته الصغيرة شرق الأردن إلى مقتله بقنابل أمريكية زنة (٥٠٠ رطل) شمال بغداد، إلا أنه يظل لافتا وجديرا بالاهتمام أن استفتاءات الإنترنت «التلقائية» وصفت الرجل المفترض أنه مسئول عن مئات الضحايا المدنيين على أنه بطل «أسطورى».

والخلاصة أنه حسب زاوية النظر تبقى للتاريخ دائمًا أكثر من رواية.

المحـــرر

لم يعن أحد من علماء الأنساب برسم شجرة «عائلة همام» التى تنتسب إليها الشقيقتان «ريا بنت على همام» و«سكينة بنت على همام»، حتى بعد أن فرضت الاثنتان نفسيهما على الاهتمام العام، وحفرتا اسميهما - بحروف من دم - فى ذاكرة الناس، تتداولهما الألسن، ولا تكف عن ترديدهما الشفاه، ربما بأكثر مما كانت تردد أسماء الكبار - المحفورة فى ذاكرتهم بحروف من نور - مثل «سعد زغلول» و«عدلى يكن» و«اللورد ملنر» الذين كانوا يتفاوضون أيامها حول مستقبل مصر، بعد الحرب، وبعد الثورة.

وحتى بعد أن انتقل هذا الاهتمام بهما من أحاديث السمار فى عربات الترام وفى المقاهى والمنادر والبارات، إلى هؤلاء الجالسين على القمة، فطلب عظمة السلطان «أحمد فؤاد» من رئيس وزرائه، ووزير داخليته «محمد توفيق نسيم باشا» أن يوافيه بتقرير شامل عن ابنتى «على همام»، واستحث رئيس الوزراء، زميله «أحمد ذو الفقار باشا» - وزير الحقانية - على الإسراع بإنهاء التحقيق معهما، وعلى إبلاغه بنتائجه أولاً بأول، فإن أحداً من المتخصصين فى التراجم والسير، لم يشغل نفسه - آنذاك أو بعد ذلك - بالتأريخ لحياتهما، بعيداً عن الأحساب والأنساب وشجرة العائلة، ولم يجد فى ذلك حافزًا يدعوه لتقصى ما جرى لهما، خلال نصف القرن الذى عاشتاه، قبل أن ينفجر اسماهما فى سماء الوطن كالقنبلة، محاطًا بالدماء والأشلاء والغبار، وبالدموع والصرخات والعار، ثم يرفع هذا التاريخ - كما كانت العادة الشائعة - إلى «السدة السلطانية المنيفة» وإلى «مقام نائب جلالة ملك بريطانيا على مصر والسودان» بعبارات إهداء يصف فيها صاحبتى السيرة بأنهما «بعض ما شتلته أياديكما الكريمة فى أرض الوطن من بذور، فأثمرت وأينعت وتضوعت بالروائح الزكية»، ويوقعها بصفته «الخادم الأمين».

ولو أن أحداً من هؤلاء، أو أولئك قد قام بواجبه، لتخلقت أمامنا صورة حية، لابنتى «على همام» منذ كانت كل منهما نطفة، ثم مضغة، ثم علقة، ثم اكتست عظاماً ولحماً، ثم خرجت إلى الوجود طفلة بلا ملامح أو ذاكرة، تبكى وتضحك، وتلهو، وتخاف من الظلمة، تلقم ثدى الأم وتلوذ بأحضانها، وتحبو فى باحة الدار بين صغار الدجاج والأوز، وتكتشف الحياة من حولها بمرح ودهشة، وتتعثر على لسانها الكلمات.

وما تكاد تدرك الدنيا من حولها حتى تنتهى طفولتها فجأة فتستيقظ عند الفجر، لتشعل الفرن، وتكنس الدار، وتحلب المواشى، وتقدم الطعام للدجاج والبط، وتسحب الجاموسة إلى الحقل، وتستحثها على إدارة الساقية وتعود عند الظهر لتحمل الطعام إلى أبيها، فإذا ما جاء الغروب سرحت وراء المواشى، تتلقى روثها بين كفيها، لتعجنه بشىء من التبن ويكسر من الحطب ثم تنشره فى الشمس ليجف فيصبح وقوداً. إلى أن يأتيها «عَدَلّها» فتخضب كفيها وقدميها بالحناء، وتبيض وجهها بشىء من دقيق القمح، وتكحل عينيها وتصبغ شفتيها، وتغنى لها الصبايا فى ليلة الحنة، ثم تشيعها الزغاريد فى ليلة الدخلة، إلى بيت زوجها، ومعها صندوق أحمر، تضع فيه - ككل عروس - حاجياتها، فإذا ما فتحت عينيها فى «يوم الصباحية» عادت لتدور - كالنحلة - طول اليوم، وطوال السنة، وطوال الدهر، لا يقعدها برد أو حر أو مرض أو ألم.

ولو أن أحداً من دارسى موجات الهجرة الداخلية، كان قد اهتم - قبل ذاك أو آنذاك - بـ «تغريبة بنى همام» لعرفنا متى.. ولماذا غادرت «ريا» و«سكينة» مسقط رأسيهما فى «الكلح»، فى أقصى الجنوب بالقرب من «أسوان»، حيث الفقر والجدب والوباء ونقص القوت - ولتتبعنا خط سيرهما الطويل، بين القرى والعزب والكفور، والمدن الصغيرة المتناثرة على شاطئ النيل، تحلبان ضرع الأيام، وتبحثان عن لقمة تدفعان بها غائلة الجوع أو لحظة راحة يستنيم فيها ظهر كل منهما لحشية ناعمة، تكف بعدها سلسلة ظهرها عن ذلك التضاغط المؤلم، إلى أن تحط بهما التغريبة - دون إرادة منهما - فى «الإسكندرية»، حيث البحر والنسيم وأضواء الكهرباء والشوارع الواسعة النظيفة، والخبز الطرى، والطعمية الساخنة وعلب «البولوبيف» و«السردين» و«الحلاوة الطحينية»، وجحافل الأجانب من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين واليونانيين، فلا يزيد نصيبهما من المدينة الجميلة على المقدر لهما منذ الأزل:

حجرات مظلمة ضيقة فى حوار وأزقة أكثر ضيقاً، تتلوى على نفسها كالثعابين، وتفوح منها نسائم الفقر وروائح العفونة تضيئها مصابيح من الصفيح الصدئ تشعل بالنفط. وينزوى فى ركن كل منها «زير» من الفخار يملأه السقاء، بقربة ماء كل يومين أو ثلاثة. وتحتشد بآلاف من الجنوبيين من أمثالهما، قذفت بهم يد الله فى التجربة، وحملتهم التغريبة من قرى الصعيد المعلقة فى بطن الجبل، أو جزائره المتناثرة فى قلب النيل، إلى الإسكندرية، هرباً من ثأر أو فراراً من جوع، أو أملاً فى الاستمتاع بشىء من لين الحياة.. فتاهتا فى المدينة الواسعة، وطاردتهما التغريبة فى أزقتها الطينية الضيقة، واضطربتا طول سبع سنوات مريرة، بين «المسكوبية» و«سوق الجمعة» و«زاوية العطش»، وحين يحط بهما الرحال - أخيراً - فى «حارة النجاة» تجدان المقدر والمكتوب فى انتظارهما، وينفجر اسماها - كالقنبلة - فى سماوات الوطن، وتقودهما صدفة تعيسة إلى حبل المشنقة، وينتهى الحلم بلين الحياة، إلى موت بلا لين.

أما الناشر المجهول، الذى استغل اهتمام الناس

من مقدمة كتاب:
رجال ريا وسكينة: سيرة سياسية واجتماعية
صلاح عيسى
القاهرة: دار الأحمدى للنشر، ٢٠٠٦



الفائق عن الحد، بمعرفة صورتيهما، فطبع عشرات الآلاف منها، تخاطفها الناس فى أيام قليلة، وربح من توزيعها مئات الجنيهات، فقد اكتفى بذكر اسم كل منهما تحت صورتها باللغتين العربية والأفرنجية، ولم يضف إلى ذلك شيئا، ربما لكى لا يصادر على حق الناس فى أن يتخيلوهما كما أرادوا: مجرد وحوش هربت من الغابة، وظلت تعيث فى الدنيا فساداً، إلى أن وقعت فى المصيدة.

ومع أن الصحف التى عاصرت بروز اسمى «ريا» و«سكينة» لم تقصر فى إشباع فضول المصريين لمعرفة أنبائهما، بل وخصصت كل منها زاوية يومية ثابتة فى مكان بارز لتلك الأنباء على امتداد شهرين كاملين، إلا أنها لم تقصر - كذلك - فى نشر كثير من الوقائع المغلوطة أو الناقصة أو المختلطة. ذلك أن إحساساً عميقاً بالعار، مما ارتكبته «ريا» و«سكينة» كان يغلل روايتها للوقائع، إذ بدا لها أنهما شاهدتان على نقص الرقى الاجتماعى للمصريين، وأن صدقها فى رواية الوقائع ربما يستغل للتدليل على عدم كفاءتهم لحكم أنفسهم بأنفسهم، وكانت المناظرة بين الوطنيين المصريين المطالبين بإلغاء الحماية البريطانية على بلادهم، وبين غلاة المستعمرين تدور آنذاك، حول هذا الموضوع تحديداً.

وهكذا تواطأ الجميع بالصمت أو بالجهل أو بسبب الإحساس العميق بالعار، على تحويل «ريا» و«سكينة» إلى رمز أسطورى للشر، لا صلة له بدوافع ما فعلتاه، وأغمضوا عيونهم عن كل ما عدا ذلك. فقد كانوا فى حاجة إلى رمز للشيطان فوجدوه، وإلى صورة تجسد الشر المطلق الطليق فطبعوا عشرات الآلاف من صورتيهما وأخذوا يتبادلونها وينسجون حولهما قصصاً وأساطير مرعبة، جعلتهما فى النهاية، قرينتين لتلك الشخصيات المرعبة، التى طار صيتها فى زمانها، وظل طائراً إلى أن أدرك زماننا، مثل «أمنا الغولة» و«فرانكشتين» و«دراكيولا».

وربما لهذه الأسباب كلها، دخلت الاثنتان التاريخ، دون أسانيد - أو تفاصيل - كافية، فلا شجرة أسرة، ولا شهادة ميلاد، ولا تاريخ اجتماعياً، ولا تقرير من قصاص أثر، حول ما فعلتا أثناء التغريبة أو ما فعلت بهما التغريبة، فاستباحهما الجميع، واتخذوا منهما رمزاً لما يريدون، وليس لما كانا يرمزان إليه بالفعل: الآباء الذين يريدون تخويف أبنائهم من النوم دون غسيل الأسنان، والأمهات اللواتى يردن إخافة بناتهن من شر السكك، ومؤلفى الأفلام السينمائية والمسرحيات الهزلية، الذين يربحون من وراء تسلية جمهورهم بشىء من مغامرات الشرطة فى مطاردة المجرمين، أو من محاولة دغدغتهم بشىء من كوميديا الرعب، فيضحكون على أنفسهم وعلى الآخرين مع أن الذى يستحق الضحك منه، هو مؤلف تلك الأفلام والمسرحيات.

وكانت «ريا» و«سكينة» هما أول من تعرفت عليه الدكتورة «لطيفة الزيات»

ريا وسكينة



دخلت الاثنتان التاريخ، دون أسانيد - أو تفاصيل - كافية، فاستباحهما الجميع، واتخذوا منهما رمزاً لما يريدون، وليس لما كانا يرمزان إليه بالفعل

أستاذة الأدب الإنجليزى والروائية المعروفة - من صور الشر.

ومع أنها ولدت بعد إعدامهما بعامين، ولم تتعرف عليهما إلا بعد ذلك بثمانية أعوام أخرى، ولم تدل بشهادتها فى محاضر التحقيق التى أجراها «سليمان بك عزت» - رئيس نيابة القاهرة الذى حقق القضية - لأنه كان قد أغلق محضره، ونقل إلى عمل آخر.. ومع أنها «شاهد سماع» لا «شاهد رؤية» إلا أن ذلك لا ينفى الأهمية التاريخية لأقوالها، إذ هى نموذج لتلك الرؤية الأسطورية، التى اغتالت الحقيقة، واهتمت بالرمز على حساب الواقع.

تقول «لطيفة الزيات»: «تعرفت على الشر، أول ما تعرفت بصورة غير مباشرة، أحالها خيال أمى، وخيالى إلى صورة مباشرة، وأنا طفلة فى الثامنة من عمرى. حكت لى أمى عصراً - وكانت بارعة الخيال وبارعة القدرة على الحكى - قصة أعتى قاتلتين فى مصر «ريا» و«سكينة». وأوردت أمى طقوس القتل بالتفصيل وكأنها تتمثلها: اختيار الضحية، اصطحابها إلى البيت، خنقها، تمزيق جثتها إلى أجزاء، حرق الأجزاء فى الفرن الكبير ودفوف الزار التى كانت تغطى على أصوات الاستغاثة حتى لا تصل إلى نقطة البوليس أمام دار «ريا» و«سكينة». وأكدت أمى بالطبع فى نهاية الحكاية - التى أسرتنى تماماً - أن الجريمة لا تفيد، وأن الأمر قد انتهى بإعدام «ريا وسكينة».

ذلك نموذج واحد لتلك المبالغات الخيالية التى تضيف للتاريخ ما لم يحدث فيه، فلم يكن القتل يتم بمصاحبة دفوف زار تغطى على أصوات الاستغاثة، ولم يكن يتم بواسطة الخنق، إذ لم يعثر «الطبيبان الشرعيان» - «سيدنى سميث» و«عبدالحميد عمار» - اللذان قاما بفحص جثث ضحايا «ريا» و«سكينة»، على أية كسور فى العظام اللامية، وهى عظام الرقبة التى يدل كسرها على أن الخنق هو سبب الوفاة، ورجحا فى تقريرهما أن القتل قد تم بطريقة كتم الأنفاس.. ولم يكن هناك تمزيق للجثث، فقد عثر الذين حفروا فى أرضية البيوت التى سكنتها ابنتا «على همام» على الهياكل العظمية لتلك الجثث وهى سليمة وكاملة، على بعضها أجزاء من الأنسجة الرخوة فى حالة تحلل، وقد اشتبكت سيقان بعضها بالبعض الآخر لتوفير مساحة الدفن.

أما حرق الجثث فى الفرن بعد تقطيعها، فهو نموذج لتلك الرغبة فى ترميز «ريا» و«سكينة» بإضافة كل ما هو جريمة إلى صحيفة حالتهما الجنائية، ونسبة كل ما هو قسوة ولا إنسانية إليهما، ليسهل اتخاذهما كشاخصين للشر المجرد، يرجمهما كل من يسمع باسميهما، ويبصق على ذكراهما.. أما التاريخ - المفترى عليه - فيقول إنهما كانتا أفقر من أن تملكا فرناً لتنضجا فيه رغيفاً من الخبز، أو ما يكفى من المال لكى يشتريا دجاجة تشويانها فيه ويستطرد فيقول: إن الذين أضافوا إليهما تلك التهمة، قد اقتبسوها عن السفاح الفرنسى الشهير «هنرى لاندرو» الذى كان يحرق ضحاياه والذى تجمعه

بكل من «ريا» و«سكينة» مشابهات: منها أنه كان مثلهما متخصصاً فى قتل النساء فقط، ومنها أنه كان معاصراً لهما، فقد اكتشفت جرائمه فى صيف عام ١٩١٩، وقبل شهور قليلة من دخول الاثنتين فى «الوعد» الذى قضى عليهما، بأن تشتركا فى جرائم القتل.

وليس المهم هو أن تلك المبالغات قد أساءت إلى سمعة «ريا» و«سكينة» ابنتى «على همام»: إذ كانت من السوء بدرجة لا تحتمل ولا تتأثر بالمزيد منه، لكن المهم هو رد الفعل الحقيقى الذى ترسب فى نفس الطفلة التى استمعت إلى هذا التاريخ الأسطورى.. تضيف «لطيفة الزيات»: «ولكن ما أكدته أمى فى نهاية الحكاية شىء. وما استقر فى كيانى شىء آخر.. استقرت كل من ريا وسكينة فى كيانى حيتين تمليان وجودهما على.. كالوجود الذى لا وجود عداه.. ولا إفلات منه.. وفى ظلمة الليل، وأنا أنام وأختى صفية التى تصغرنى بثلاث سنوات فى حجرة مستقلة عن حجرة أمى، داهمتنى كل من ريا وسكينة فى سريرى.. وتحولت وأنا أرقد فى سريرى إلى الضحية، تنزل بى طقوس القتل طقساً بعد طقس، ووجدت نفسى أجرى مرعوبة إلى سرير أمى فى الحجرة المجاورة أحتضنها وأنا أرتجف.. أجد فى حضنها الملاذ من شرور الدنيا».

وفيما بعد اكتشفت «لطيفة الزيات» أن شرور الدنيا، أكبر من أن تحتمى منها بحضن الأم مهما كان واسعاً ودافئاً. والتقت كثيراً بكل من «ريا» و«سكينة»: مرة وهى فى الحادية عشرة وأخرى وهى فى الثالثة والعشرين وثالثة وهى على مشارف الستين. وأيقنت أن قهر السلطة، وقهر اللصوص القتلة، هو ذات القهر. وأن شر عصابة «ريا» و«سكينة» لا يقل عن شر رجال الشرطة الذين رأتهم فى عام ١٩٣٤ - وكانت فى الحادية عشرة من عمرها - من شرفة منزلها فى المنصورة، يردون برصاصاتهم أربعة عشر قتيلاً من بين طلاب المدارس الثانوية، الذين كانوا يتظاهرون ضد ديكتاتورية «إسماعيل صدقى». عدتهم قتيلاً بعد قتيل، ودماؤهم تفور حمراء قانية كالنافورة، فتعرفت على الشر مجسداً على مستوى الدولة.

ثم تعرفت بهما مرة أخرى، حين جلست على شاطئ النيل، وكانت لاتزال طالبة جامعية فى الثالثة والعشرين من عمرها، تتابع الغواصين، وهم ينشلون جثث الطلاب الذين سقطوا فى مياهه - حين أمر رئيس الوزراء «محمود فهمى النقراشى» - فى ٩ فبراير (شباط) ١٩٤٦، بفتح «كوبرى عباس» وجموع المتظاهرين من طلاب الجامعات تحاول عبوره ليصلوا إلى قلب المدينة - يخرجون الجثة بعد الأخرى دون أن تستطيع أن تفعل شيئاً.

وذات صباح من بداية الثمانينيات وأثناء اعتقال «لطيفة الزيات» - التى كانت قد وصلت آنذاك إلى سن الستين - ضمن أسرى الحملة التى شنها نظام الرئيس السادات على المعارضين فى سبتمبر (أيلول) ١٩٨١، دهمت فرقة من السجانات عنبر السجينات السياسيات

بسجن القناطر الخيرية للنساء، فحاصرته. وأخذت تقلب بأصابعها القذرة في أخص خصوصياتهن. وطاردت سجانة منهن، فتاة صغيرة لتنزع منها خطاباً تلقته من أبيها. فألقت به الفتاة في المرحاض، وأسرعت السجانة تمد يدها إلى فوهته، لتعود بالخطاب ملوثاً بما كان يحيط به. وحين رأتها «لطيفة الزيات» لم تستطع أن تحدد ما إذا كنت ملامحها أقرب إلى ملامح «ريا» أم إلى ملامح «سكينة» كما جسدتها الممثلتان «نجمة إبراهيم» و«زوزو حمدى الحكيم» في فيلم «صلاح أبو سيف» الذى يحمل اسميهما، لكنها كانت واثقة أن السجانة كانت إحداهما، وربما كليهما. وبدا لها ما تفعله طقساً من طقوس القتل التى تعرضت لها وهى طفلة، فجرت مذعورة تلوذ بأحضان أمها من شرور الدنيا.

وعلى تلك الحافة بين الكابوس والواقع، سقط من وعى «لطيفة الزيات» الحد الفاصل بين القهر الواقع من السلطة والقهر الواقع من عصابة اللصوص. وخاضت مع زميلاتها المعركة ضد فريق السجانات، وكأنها تصفى حساباً قديماً مع «ريا» و«سكينة» وتنتقم لعجزها حين رأتهما - على رأس عصابتهما - يردون بالرصاص أربعة عشر من طلاب المدارس، وهى جالسة إلى جانب «كوبرى عباس» وقد تحجرت الدموع فى عينيها تنتظر رفاقها الغرقى، رفيقاً بعد رفيق.. من دون قدرة على أن تفعل شيئاً.

وحين انتهت المعركة، استفتت زميلاتها فيما إذا كانت ملامح السجانة - الممسوحة الأرداف والأثداء - أقرب إلى ملامح «ريا» أم إلى ملامح «سكينة»، فتضاحكن من ذلك الخلط بين الأشخاص والأزمان، والأدوار والوقائع، فقد كانت الشقيقتان تنتميان إلى فريق «الحرامية» أما السجانة فهى تنتمى إلى فريق «العسكر». لكن «لطيفة الزيات» كانت واثقة بأنه لا خلط هناك بين العسكر والحرامية.. أو بين قهر «ريا» و«سكينة» وقهر شرطة عهد «السادات».

والحقيقة أن الخلط كان قد حدث فى ذلك الزمن البعيد غير السعيد، حين تحولت ابنتا «على همام» من حقيقة إلى أسطورة، ومن واقع إلى رمز، ومن امرأتين ضعيفتين مطحونتين إلى تجسيد للشر المطلق الطليق. ولو أن «لطيفة الزيات» كانت قد عرفت قصة «ريا» و«سكينة» من مصادرها التاريخية - وليس على لسان الرواة - لأدركت أنهما على الرغم من شرهما البادى وغير المنكور، لم تكونا سوى ضحيتين من ضحايا قهر دفعهما دفعاً إلى تلك القسوة النادرة المثال، التى لا تغادر ذاكرة الناس إلى اليوم.

ولو أن هذه الحقيقة كانت قد عرفت آنذاك، لما أثرت الأسطورة الشائعة عن «ريا» و«سكينة» على نفس «فؤاد الشامى» تأثيراً يختلف تماماً عن تأثيرها على شخصية «لطيفة الزيات». فهو على العكس منها، لم يخف منهما، ولو يجر إلى حضن أمه لكى يلوذ به من شرهما، إذ كان معجباً بهذا الشر المجرد الذى نسب إليهما، وشاع عنهما. مع أنه لم يكن مثلهما فقيراً يتكفف القوت - إذا كان والده تاجراً ميسور الحال. فقد كان «فؤاد» منذ حداثته مفتوناً بقوته البدنية المفرطة. يزهو بها على أقرانه، ويعتبرها رأس ماله الذى يحفظ له مكانته بينهم، فأغراه ما نسب إلى ابنتى «على همام» من قسوة وغرق فى أحلام يقظة يتقمص خلالها شخصية الجلاد، لا شخصية الضحية.. وأخذ يفاخر زملاءه بجرائم لم يكن قد ارتكبها بعد، يصوغها على نسق ما كان يشاع من أساطير عن جرائم «ريا» و«سكينة»، ثم ما لبثت الأكاذيب أن تحولت إلى حقائق، وأصبح «فؤاد الشامى» فتوة لشارع عماد الدين، يفرض الإتاوات على ملاهيه وباراته وراقصاته.. فإذا امتنع أحد عن الدفع، قامت عصابته بتحطيم البار أو الملهى، أو بضرب المتمرد على إرادته، إلى أن رفعت راقصة من الدرجة الثانية اسمها «امتثال فوزى» راية العصيان، وتوقفت عن الدفع، وأصرت على موقفها على الرغم من كل التهديدات ومحاولات الترويع والتخويف، فلم يجد أمامه وسيلة لوقف التمرد، إلا بقتلها فطعنها أحد أفراد عصابته، برقبة إحدى زجاجات البيرة.

لم يعد سراً تاريخياً، أن العرب - كغيرهم من شعوب العالم - قد يقدسون أحياناً، أشخاصاً ممن يصنفون عادة - فى الرؤية الشرطية - باعتبارهم مجرمين، وربما داعرين، ففى كثير من القرى العربية، تتناقل الأجيال - عن طريق التواتر - سيرة ابن من أبناء القرية، هو نموذج لكل الفضائل البشرية: فهو وسيم وذكى وشجاع وقوى وشديد الاعتزاز بكرامته. لا يخاف من أحد ولا يطأطئ رأسه لأحد، وهو فضلاً عن هذا مقاتل عنيد: لا يهاب عدوا ولا يهزم فى معركة حتى لو خاضها وحيداً بلا أعوان. لكنه - على الرغم من ذلك كله لا يعتدى على فقير، أو ضعيف أو مظلوم، فهو يتصدى - فقط - للأقوياء والمتجبرين وظالمى العباد، وآكلى السحت، والذين يستحلون أموال اليتامى والثكالى والأرامل، فهو رمز لتمرد المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، لذلك يحيطه الناس بهالات من الإعجاب، ويحرصون على تلقين سيرته لأولادهم، ويختارون اسمه لأكبر هؤلاء الأولاد، وقد يدرجونه من دون حيثيات مقنعة بين أولياء الله الصالحين ويقيمون له - بعد موته - مقاماً (أى ضريح) يتلون حوله الأوراد والأذكار ويقدمون إليه النذور.

وليس لمعظم هؤلاء الذين يوصفون فى المصطلحات الشرطية بـ «الأشقياء» تاريخ مدون، نستطيع أن نعود إليه لكى نعرف الحد الفاصل بين التاريخ والخيال وبين الحقيقة وما أضفته عليهم الرؤية الشعبية من صفات عظيمة وأعمال باهرة، حولتهم إلى أسطورة. لكن المشترك بينهم، هو أنهم - فى الأغلب الأعم - ممن يشقون عصا الطاعة على السلطة المحلية فى القرية أو المحلة أو المنطقة، سواء كان ممثل هذه السلطة «عمدة» أو «مختاراً» أو «باش آغا» أو إقطاعياً يملك الأرض وما عليها من بشر ودواب، خاصة فى أثناء العصر التركى المملوكى، الذى خضعت فى ظله البلاد العربية، لحكم باطش. كان يستنزف أموال الناس بالضرائب والفرد والمكوس ويستحل انتهاك أعراضهم، وإهدار آدميتهم وتعذيبهم وقتلهم، ثم فى ظل الحكم الأجنبى الذى كان يفعل بهم الشىء نفسه.. فكان منطقياً أن ينحاز الناس تلقائياً لكل من يشق عصا الطاعة على هؤلاء الحكام الظالمين، وأن يعتبروه بطلاً، وربما ولياً أو قديساً، بصرف النظر عن التصنيفات الشرطية، وأن يتواطأوا عن إخفاء بعض ما طالهم من شره وظلمه. وأن ينتدبوا من بينهم ذلك الفريق من المؤرخين الفولكلوريين، الذين يصوغون التاريخ فى صورة مواويل وسير وملاحم، تزدرى بحقائقه. لأن ما يعنيهم هو أن يتركوا للأجيال القادمة، رمزاً للسوبر مان، الذى يتمرد على سلطة لا يستقيم بين يدها ميزان العدل.



لم يعد سراً تاريخياً، أن العرب - كغيرهم من شعوب العالم - قد يقدسون أحياناً، أشخاصاً ممن يصنفون عادة - فى الرؤية الشرطية - باعتبارهم مجرمين، وربما داعرين

وقليلون من هؤلاء الأشقياء هم الذين أدركوا عهد التوثيق أو المطبعة، فتركوا وراءهم شواهد تصلح أساساً للمقارنة بين الحقيقة التاريخية والخيال الشعبى. وقليلون بين هذا القليل، هم الذين تعدت شهرتهم النطاق المحلى لتبرز أسماؤهم على الصعيد القطرى أو القومى، وأحياناً الدولى.

ومن النماذج الأولى فى تاريخ مصر، «ياسين» - الذى دخل التاريخ عبر موال «بهية وياسين» - و«متولى» - الذى دخله عبر موال «شفيقة ومتولى» - وكلاهما رمز للدفاع عن حق الأخذ بالثأر والانتقام للعرض، و«أدهم الشرقاوى» الذى حوله التاريخ الشعبى من قاطع طريق إلى مقاتل ضد الاستعماريين التركى والإنجليزى.

ومن هذه النماذج فى تاريخ لبنان «شاهين ومرعى» فقد طار صيت هؤلاء جميعاً من نطاق مناطقهم المحلية إلى نطاق إقليمى.

أما قصة البطل الشهير «روبن هود» الذى كان يختفى فى غابة «شيروند» الإنجليزية، ليقطع الطريق وينهب مال الأثرياء ليتصدق به على الفقراء. وكذلك قصة قاطع الطريق المكسيكى «زاباتا» فضلاً عن أنهما نموذجان للبطل الشعبى الذى يخترق الحدود والأزمان، فهما شاهدان على أننا - نحن العرب - لم نبتدع هذا التقديس للأشقياء وقاطعى الطرق، وأن المقهورين على امتداد الزمان والمكان، كانوا ينتظرون ذلك الذى يأتى لكى يملأ الدنيا عدلاً ونوراً، بعدما ملئت ظلماً وجوراً، وحين يطول انتظارهم، كانوا يتسلون بصنعه، فيخلطون - متعمدين - بين «الواقع» و«الخيال» وبين «التاريخ» و«الأسطورة» وبين «المجرمين» و«الثوار».

وتنفرد «ريا» و«سكينة» بمكانة خاصة فى هذا التاريخ الفلكلورى للجريمة، فقد تعود الناس ألا يحتفظوا فى ذاكرتهم إلا بأسماء هؤلاء الأشقياء الذين استقر فى وجدانهم أنهم رمز لذلك الثائر الذى ينتظرونه لكى يعدل ميزان العدل المختل، وأن ينسوا أسماء الباقين، ويتنفسوا الصعداء

حين يصلهم خبر القضاء عليهم. وقد فعلوا ذلك يوم نفذ حكم الإعدام شنقًا في كل من «ريا» و«سكينة» صباح يوم الأربعاء ٢١ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢١، فقد احتشدت خارج جدران «سجن الحضرة» في هذا الوقت المبكر، وعلى الرغم من البرد القارس، جماعة كبيرة من نسوة الأحياء الشعبية بالإسكندرية، جئن لكي يتأكدن بأنفسهن من إعدامهما، ولكي يعبرن عن فرحتهن بذلك، وظللن طوال الوقت يهتفن ويزغردن ويرقصن ويغنين خلف واحدة منهن، مطلع أغنية راقصة تقول: «خمارة يا أم بابين.. روحت السكارى فين؟».. وبعد أن نكست إدارة السجن العلم الأسود المرفوع على ساريته دلالة على انتهاء تنفيذ الحكم بالإعدام، هتفن: عاش اللى شنق «ريا».. عاش اللى شنق «سكينة».

لكن الاسمين - استثناء من القاعدة التى وضعها المؤرخون الفولكلوريون لأنفسهم - ظلا في ذاكرة الناس، فلم ينسوهما على الرغم من أن المعاصرين لهما قد شيعوهما باللعنات.

وتثير المفارقة بين المكانة التى احتلها في نفوس الناس كل من «أدهم الشرقاوى» من جانب و«ريا» و«سكينة» من جانب آخر، الدهشة، وتلفت النظر بتباينها الشديد.. والحقيقة أن هنالك ما يدعو للمقارنة بين الطرفين، إذ كان «أدهم» معاصرًا لهما، بل وبدأ نشاطه الإجرامى معهما في السنة نفسها (١٩١٩)، ولقى مصرعه في كمين نصبته له الشرطة يوم الأربعاء ١٢ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٢١، قبل إعدامهما بحوالى سبعة أسابيع، فتلقى الناس الخبر بنفس الفرحة التى استقبلوا بها إعدام «ريا» و«سكينة». وقال مندوب «الأهرام» إن خبر اقتناص البوليس له، ما كاد يتأكد حتى انطلقت الزغاريد في أنحاء القرى التابعة لمركز «ايتاى البارود» و«كوم حمادة» التى كانت مسرحًا لنشاطه، ابتهاجًا بمقتل كبير الأشقياء الذى أدت جرائمه إلى ركود التجارة وتوقف سوق المعاملات.

وليس في المعلومات التاريخية التى بين أيدينا ما يبرر ذلك التباين الشديد - الذى برز فيما بعد - في مكانة كل من الطرفين في نفوس الناس، بين الاحترام البالغ لـ «أدهم» والاحتقار البالغ لكل من «ريا» و«سكينة»، فهذه الحقائق تقول إن «أدهم» كان قاطع طريق، وقاتلاً يستأجر للقتل، وأن بعض أعيان المنطقة التى اتخذها مجالاً لنشاطه الإجرامى، كانوا يستأجرونه لقتل خصومهم، وأنه كان يفرض الإتاوات على التجار والأعيان، ويحكم على مخالفيه بالإعدام، وينفذ جرائمه علنًا في وضح النهار، وقد وصفه مراسل «الأهرام» المتجول بأنه «كان يملك قلبًا أقسى من الحجارة، لا يعرف رحمة ولا شفقة، قتل عشرات الرجال والنساء ونهب وسطا سطوات عديدة على المال والعرض، ونشر الرعب في أنحاء مراكز «ايتاى البارود» و«كوم حمادة» و«الدلنجات».

وعلى العكس من «ريا» و«سكينة» اللتين لا نعرف عن أبيهما «على همام» شيئًا إلا اسمه الذى لا يعنى - في ذاته - شيئًا، فنحن نعرف أن الشيخ «عبدالحليم الشرقاوى» - والد «أدهم» - كان من أعيان قرية «زبيدة» التابعة لمركز «إيتاى البارود» أحد مراكز مديرية (محافظة الآن) البحيرة المتاخمة للإسكندرية وكان يملك ٥٠ فدانًا، لو كان «على همام» يملك واحدًا في المائة منها، لما تغربت ابنتاه التعيستان من جنوب الوادى إلى شماله، وقدرهما في إثرهما. ونعرف أن عمه «عبدالمجيد بك الشرقاوى» كان عمدة القرية، وأنه على العكس منهما، دخل المدارس، وتعلم وحصل على الشهادة الابتدائية في زمن كانت الصحف تنشر في صدر صفحاتها الأولى أسماء الذين يحصلون عليها، وقطع شوطًا في دراسته الثانوية، ثم توقف عن استكمالها عام ١٩١٥ - وكان في السادسة عشرة من عمره - حين نشبت المشاكل بينه وبين عمه «عبدالمجيد بك الشرقاوى» فلفق له العم تهمتى سطو وشروع في قتل، وشهد ضده أمام المحكمة، فحكمت عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات، وفي عام ١٩١٧ لحق به في السجن أحد أتباع عمه، ممن شهدوا ضده، فقتل أدهم هذا التابع وحوكم مرة ثانية، وصدر ضده حكم آخر بالسجن المؤبد.. لكنه هرب بعد عامين عندما هاجم المتظاهرون، أثناء ثورة ١٩١٩، «سجن ليمان طرة» ومكنوا معظم المقيمين فيه من الهروب منه، ليختفى عن أعين السلطات التى تطارده في زراعات الذرة الكثيفة، وليتربص بعمه وابن عمه لينتقم منهما، ومع أن هجماته الجريئة لاقتناصهما كانت تفشل عادة، بسبب حذرهما الشديد، فإنها قد لفتت إليه أنظار أشقياء المنطقة الذين بهرتهم جرأته، فانضموا إليه، وتوحدوا تحت قيادته، ليشكل منهم العصابة التى أثارت الفزع في شمال الدلتا على امتداد ثلاثين شهرًا.

ومع أنه كان رجلاً، فقد كان أكثر جمالاً من «ريا» و«سكينة» اللتين أضاعت التغريبة كل ما كان لهما من ملامح وعلامات الأنوثة، فقد كان - والعهدة على مراسل «الأهرام» المتجول - «طويل القامة قوى العضلات، أشقر اللون، وكان إذا لبس الملابس الأفرنجية والبرنيطة، لا يستطيع أحد أن يفرق بينه وبين الرجل الفرنساوى أو الطليانى أو الإنجليزى».

ولو أننا اعتمدنا على الحقائق التاريخية وحدها، لجاز لنا أن نقول إن «أدهم الشرقاوى» ليس أكثر من ابن ذوات غرته قوته، وأفسده تدليل أسرته، وأبطره ثراؤها، وقاده إلى الجريمة، ما بين أصولها وفروعها من منافسات وأحقاد، ولجاز لنا أن ندهش لتلك الصورة الغريبة التى صوره بها المؤرخون الفولكلوريون، حتى استقر - ولا يزال - في وجدان الناس بطلاً ورمزًا لمقاومة الشر حتى تحولت سيرته إلى موال يقول مطلعه «منين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه.. شبه المؤيد أمنات إذا حفظوا العلوم وتلوه.. الاسم أدهم لكن اللقب شرقاوى.. وأهلى في البحيرة ناس عايشين بالجد غير الجد لم يقولوه»، بينما لا يختلف ما فعله، عما فعلته «ريا» و«سكينة» اللتان لم يفخر أحد بما فعلتا، بل ظل الجميع يطأطئون الرأس خجلاً كلما سمعوا اسميهما، ويتمنون لو أنهما كانتا غير مصريتين، ولم يؤلف فيهما الشاعر الشعبى المجهول، سوى ذلك المطلع الساخر الذى كانت تغنيه نساء الإسكندرية في احتفال زفافهما إلى المشنقة، وهو أبعد ما يكون عن التقدير والاحترام.

فهل يجوز لنا أن نحكم بأن هناك «خيارًا» و«فقوسًا» في دنيا الجريمة وعالم الأشقياء، وأن المؤرخين الفلكلوريين، كبعض المؤرخين الأكاديميين، يكيلون بكيلين ويزنون بميزانين، أو يطففون في الميزان، لترجح كفة أولاد الأعيان، كفة أولاد «على همام». وأنه لو كانت «ريا» و«سكينة» تحوزان شجرة عائلة، لوجدتا من يؤلف فيهما موالاً يقول مطلعه «منين أجيب ناس لعناة الكلام يتلوه.. شبه المؤيد أمنات إذا حفظوا العلوم وتلوه.. الاسم ريا لكن اللقب همام.. وأهلى في الكلح ناس عايشين للجد، غير الجد لم يقولوه؟» اقتباسًا أو معارضة للموال الشهير الذى ألفه - في الغالب - أحد أفراد عصابة «أدهم الشرقاوى» في رثائه؟.. ربما يجوز ذلك.

أما المؤكد فهو أن التوفيق قد أخطأ مراسل «الأهرام» المتجول، حين تنبأ بأن التاريخ سيخلد اسم الخفير النظامى «محمود أبو العلا» والجاويش «محمد خليل»: الأول لأنه، وهو صديق «أدهم» وتابعه وعينه على تحركات أعدائه، هو الذى خانه وتواطأ مع الشرطة ضده، واستدرجه إلى المكان الذى قتل فيه. والثانى لأنه كان على رأس اثنين من زملائه، تنكروا في زى الفلاحين، وكمنوا في الغيطان إلى أن ظهر «أدهم» في المكان الذى حدده لهم صديقه الخائن، وكان يستعد لتناول عشائه حين شعر بحركة خفيفة في حقول الذرة، فمد يده لكى يتناول بندقيته الموزر، ولكن الجاويش «محمد خليل» عاجله برصاصتين سقط على أثرهما مضرجًا بدمائه.

وعلى عكس نبوءة مراسل «الأهرام» فقد اختفى اسم «الجاويش محمد خليل» فلم يعد أحد يذكره، أما «محمود أبو العلا» فقد عاش في ذاكرة الناس، كما عاشت «ريا» و«سكينة» رمزًا للخيانة والغدر، وتحول على لسان المؤرخ الشعبى، إلى طبعة من «يهوذا الاسخريوطى» الذى سلم السيد المسيح لأعدائه مقابل ثلاثين قطعة من الفضة. ومع أن مشهد تسليم أدهم لأعدائه، لا يبتعد كثيرًا عن الحقيقة التاريخية، إلا أن المؤرخ الشعبى المجهول، قد أضاف إليه اقتباسات واضحة من الإنجيل، وخاصة الحوار بين «أدهم اليسوعى» و«أبو العلا الاسخريوطى» أثناء «العشاء الأخير»، الذى لم يشهده «أبو العلا» في الحقيقة، وقبل دقائق من هجوم الأعداء.

وهكذا اختار المؤرخ الشعبى المجهول من حياة «أدهم الشرقاوى» محورًا واحدًا ركز عليه، واعتبره مبررًا لتقديسه والدفاع عن ذكراه، هو ثورته على خيانة صلات الرحم، وإهدار علاقات الصداقة والمودة، وعدم احترام علاقة أكل العيش والملح بين الناس. وربما لو لم يكن الاثنان من ذوى قرباه الذين تربطه بهم صلة الدم وأواصر

ريا وسكينة



كانتا تنويعًا على شخصية «أبو العلا الاسخريوطى» أكثر مما هما تنويعًا على شخصية «أدهم الشرقاوى»، إنهما مجرمتان بلا قضية، وبلا معنى

الرحم، لما ثار ضدهما كل تلك الثورة التى قادته إلى سلسلة جرائمه الأخرى، فأتاح بحياته وبموته، للمؤرخ الشعبى فرصة نادرة لكى يضيف اسمه إلى قائمة الأبطال التاريخيين الذين هزمهم «الولس» - الخيانة - ابتداء من «طومان باى» الذى شنقه الولس على باب زويلة، وحتى «أحمد عرابى» الذى هزمه الولس فى التل الكبير.

وربما لهذا السبب ثقلت مكانة «أدهم الشرقاوى» فى موازين التاريخ الشعبى، بينما خفت مكانة كل من «ريا» و«سكينة». وعلى عكس عشرات من أولاد الليل وبنات الليل الذين أقام لهم المصريون مقامات يزورونها، ويتبركون بها، ويقدمون إليها النذور، ويوقدون حولها الشموع فإن أحداً لم ينشئ لابنتى «على همام» مقاماً، أو يبنى باسمهما سبيلاً، يرتوى منه العطاشى العابرون فيقرأون على روحيهما الفاتحة، ويطلبون لهما الرحمة.

أما السبب فلأنهما كانتا تنويعاً على شخصية «أبو العلا الاسخريوطى» أكثر مما هما تنويعاً على شخصية «أدهم الشرقاوى»، إنهما مجرمتان بلا قضية، وبلا معنى. وفضلاً عن ذلك فإن ضحاياهما كن مثلهما، ضحية للفقر والجوع وافتقاد الأمن والراحة والطمأنينة: مومسات شعبيات ينتمين إلى تلك الفئات التى كانت صحف العشرينيات تصفها بأنها «طبقات واطئة»، ليس لإحداهن شجرة عائلة، وليس لمعظمهن أهل يسألون عنهن إذا غبن، أو يغضبون لشرفهن الذى كن يبعنه بأبخس الأثمان، بنصف ريال، تحصل «ريا» على نصفه، بينما كانت «سكينة» تحصل عليه كله، مقابل إطعام المومس، لا يعرف أحد من أين جئن، وإلى أين يذهبن، يحولن عرق أفخاذهن، إلى غوايش وأساور من الذهب، تضعنها حول معاصمهن لعلها تجلب لهن احتراما اجتماعياً يفتقدنه. والأهم من هذا وذاك، أنهن كن جميعاً من أصدقاء «ريا» و«سكينة» أكلن معهما عيشاً وملحاً، وشربن معهما نبيذاً وكونياك فلم يشفع ذلك لهن، واستدرجتهن السفاحتان إلى بيوت الهلاك الأربعة التى كانتا تديرانها، لتقتلاهن، وهن يأكلن معهما العيش والملح ويشربن النبيذ، كما فعل كل من يهوذا وأبو العلا - الاسخريوطيان.

وهكذا كان ما لابد أن يكون: اختفى الاسمان من دفاتر المواليد، ومكاتب السجل المدنى، كما اختفى اسم «خاير بك» الذى تواطأ مع السلطان العثمانى «سليم الأول» على تسليم مصر والشام إليه، فسماه الناس «خاين بك»، وكما اختفى اسم الضابط «على بك يوسف» الذى والس على «عرابى» فى معركة التل الكبير فسماه الناس «خنفس بك». وأصبح نادراً أن تجد امرأة مصرية - ولدت بعد عام ١٩٢٠ - تحمل اسم «ريا» أو «سكينة»، مع أن الاسم الأخير هو اسم السيدة «سكينة» بنت «الإمام الحسين» وحفيدة «الإمام على» رضى الله عنهما، ومع أن أسماء «آل البيت» كانت - وما تزال - فى مقدمة الأسماء التى يفضل المسلمون من المصريين اختيارها لأبنائهم على سبيل التبرك والقدوة.

وعلى الرغم من هذا الاختفاء، دخلت الاثنتان التاريخ كعلمين مفردين، لم يتكررا، ليظلا - كما أرادت لهما الأسطورة الشعبية، أن تكونا رمزين لخيانة علاقات العيش والملح، التى هى أشر الشرور، وأكثرها مدعاة للاحتقار.

أما وقد دخلت الاثنتان التاريخ، بتلك الصورة الرمزية، التى اختزلت كل ملامحهما الإنسانية، لتبدو كتلك الصور التى ترسم بطريقة «السلويت»، مجرد بقعة من السواد، تحدد الإطار الخارجى للوجه، فقد كان لابد من البحث عن أسانيد دخولهما إليه، ومن التفتيش عن شجرة الأسرة وشهادة الميلاد وشهادة الفقر، وتقارير قصاصى الأثر، وصحيفة الحالة الجنائية، لعلها تضىء تلك الصورة الغامضة وقد تكشف عن المجرم الحقيقى الذى لم يتضمنه قرار الاتهام فى قضية «ريا» و«سكينة».

وكان ذلك هو الواجب الذى دفعتنى مصادفة للقيام به.

فذات يوم من بداية عام ١٩٩٣، كنت أبحث فى فهرس ملفات القضايا السياسية الكبرى المودعة بـ «المركز القومى للدراسات القضائية» عن ملف قضية الحزب الشيوعى المصرى الأول، الذى تأسس فى العشرينيات، حين وقعت عيناى فى الفهرس على عنوان يقول «ملف الجناية نمرة ٢٣ لسنة ١٩٢٠ قسم شرطة اللبان المتهم فيها ريا بنت همام وسكينة بنت همام وآخرين فأثار فضولى ودونت على ورقة أمامى رقم الميكروفيلم الذى صورت عليه أوراقه، وانشغلت بما كنت أبحث عنه.

وبعدها بأسبوع، فكرت أن أشغل نفسى - خلال فترة الانتظار التى يتم خلالها استكمال تصوير ملف قضية الحزب الشيوعى - بإلقاء نظرة على ملف «قضية ريا وسكينة»، فطلبت الميكروفيلم الذى صورت عليه لكى أتصفحه، وفى ظنى أن الأمر لن يستغرق سوى نصف ساعة، ألم فيها بمحتوياته.

وما كدت أستعرض البيانات الأولية عن القضية، حتى لفت نظرى أن المحامى الذى انتدب للدفاع عن ابنتى «على همام» أمام محكمة جنايات الإسكندرية هو «أحمد أفندى المدنى» الذى ورد اسمه بوفرة فى وقائع قضية الحزب الشيوعى المصرى، إذ كان أميناً لصندوقه، ثم سكرتيراً عاماً له، وكان كل ما لدى من معلومات عنه، أنه كان محامياً متخصصاً فى الدفاع عن العمال، ويتسم بنزعة اشتراكية معتدلة.

ومع أن الدافع الظاهر لى، لمواصلة تصفح الملف، كان البحث عن مزيد من المعلومات عن «أحمد أفندى المدنى» إلا أن هناك دافعاً آخر خفياً، لم أتبينه إلا فيما بعد، كان يغرينى بالتوقف أمام بعض صفحاته، فعلى الرغم من أن ابنتى «على همام» ظلتا علمين، تستخدم الأمهات اسميهما لتخويف أطفالهن، وتكرر الصحف نشرهما فى عناوينها الرئيسية كلما كشفت الصدفة عن



دخلت الاثنتان التاريخ كعلمين مفردين، لم يتكررا، ليظلا - كما أرادت لهما الأسطورة الشعبية، أن تكونا رمزين لخيانة علاقات العيش والملح، التى هى أشر الشرور، وأكثرها مدعاة للاحتقار

عصابة للقتل المقترن بالسرقة باعتبارهما صاحبتى مدرسة إجرامية متميزة، فقد كانت المعلومات القليلة المعروفة عنهما، تتسم بالتشوش الشديد، وتستند إلى مرويات شعبية اصطنعت الصحافة بعضها، ونقلت بعضها الآخر من أفواه المعاصرين، ثم ظلت - فيما بعد - تكرر نشرها، وتضيف إليها، وتعيد تصديرها إلى قرائها، ليضيفوا إليها ما تعيد الصحف نشره إلى أن قدم «صلاح أبو سيف» - فى عام ١٩٥٣ - فيلم «ريا وسكينة» مستنداً إلى جانب من تلك المرويات الشعبية، ومضيفاً إليها قصة لم تحدث من الأصل، استلهمها - فى الغالب - من أفلام الحركة الأمريكية التى كانت شائعة فى ذلك الحين، هى قصة مغامرات ضابط الشرطة «أحمد يسرى» - وهو الدور الذى لعبه «أنور وجدى» - للكشف عن سر عصابة «ريا» و«سكينة»، ليتخذ من تلك المغامرات محوراً للسيرة السينمائية التى قدمها لابنتى «على همام» فاعتمدت منذ ذلك الحين، لدى كل الناس - باعتبارها - سيرة رسمية لهما، بل وأصبحت - بسبب ما حققته من رواج جماهيرى - الأساس الذى استلهم منه آخرون أفلامهم ومسرحياتهم عنهما.

وكان القليل الذى أتذكره، مما وقع عليه بصرى، وأنا أقلب فى الصحف المعاصرة لوقائع الكشف عن جرائم من وصفتهم صحف تلك الأيام، بـ «رجال ريا وسكينة»، يتسم بالتشوش نفسه، فقد كان تحقيق النيابة فى القضية - كما تبين لى بعد ذلك - سرياً، وهو ما اضطر مندوبو الصحف المعاصرة إلى التقاط الأنباء، من أفواه كتبة النيابة، والشهود، وبعض أهالى المجنى عليهم، ومن جيران ابنتى «على همام»، وأرسلوها إلى صحفهم التى تلقفت كل ذلك ونشرته لإشباع فضول قرائها فى معرفة أسرار ما كان يجرى فيما سمته بـ «بيوت الهلاك».

ولم يكن فضولى لمعرفة الحقيقة، أقل من فضول أولئك المعاصرين، أو بعيداً عن شغفى - منذ عهد دراستى العالية - بالجانب الاجتماعى والنفسى والسياسى للظواهر الإجرامية، وهو شغف يعود جانب من الفضل فيه لأساتذتى الدكاترة «محمد خليفة بركات» و«محمد عبدالسلام» و«على فؤاد» و«إمام سليم» الذين درست على أيديهم علوم النفس والاجتماع، ويعود الجانب الأكبر منه، لأستاذى وصديقى عالم الاجتماع البارز الراحل د. «سيد عويس» الذى كان أول مصرى يحصل على درجة الدكتوراة فى علم الاجتماع الجنائى.

ذلك شغف دفعنى من قبل، إلى محاولة التأريخ لظاهرة، أولاد الليل، التى تفشت فى صعيد مصر، فى سياق موجة من العنف الجنائى والسياسى، شهدتها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وكان من أشهر علاماتها «محمد محمود منصور» الشهير بـ «الخُط» الذى لايزال اسمه يستخدم إلى الآن، كعلامة تجارية، على النمط الإجرامى الذى تخصص فيه، شأنه فى ذلك شأن «ريا» و«سكينة». ▪

رؤيـــــة ابن خلدون

محمـــــود الـــــذوادى

■■ فى الذكرى المئوية السادسة لرحيل العلامة عبد الرحمن بن خلدون يستطيع الباحث أن يصافح فكره العمرانى على عدة مستويات تهتم بها العلوم الاجتماعية الحديثة. فاخترنا أن نتوقف عند موضوع سوسيولوجى كتب ويكتب عنه علماء الاجتماع المحدثون باستمرار، لنرى مساهمة صاحب المقدمة فيه.

تمثل هذه الدراسة محاولة استكشافية لمعالم فكر ابن خلدون بالنسبة لمفهوم التغيير الاجتماعى، كما تعبر عن ذلك المصطلحات الحديثة للعلوم الاجتماعية مثل مصطلحات التقدم والتطور والتنمية وتصنيف المجتمعات إلى مجتمعات تقليدية traditional ومجتمعات حديثة modern . ولإلقاء الضوء على الفكر الاجتماعى الخلدونى رأينا من المناسب القيام بمقارنة فكر صاحب المقدمة بالفكر الاجتماعى لعلماء الاجتماع الغربيين الأوائل. وبالتحديد فإن هدفنا النهائى من هذه الدراسة يتمثل فى ثلاثة محاور:

١. إبراز المعالم الرئيسية لعلم العمران الخلدونى بالنسبة لظاهرة التغيير الاجتماعى. وهو ميدان لا يزال يحتاج إلى السبر والاستكشاف. ومن ثم فسوف نركز كثيرا فى هذه الدراسة على الفكر الاجتماعى لابن خلدون.

٢. القيام بالتعرف على مستوى التفكير العمرانى الخلدونى حول التغيير الاجتماعى ومقارنته بفكر كونت وسبنسر ودوركايم وفيبر.

٣. تحديد القوى المؤثرة على بلورة الفكر الاجتماعى حول ظاهرة التغيير الاجتماعى عند كل من صاحب المقدمة ونظرائه الغربيين.

ورغم العوامل المتعددة، مثل عوامل الزمان والمكان والثقافة، التى جعلت توجه واهتمام هذين النوعين من علماء الاجتماع مختلفين كثيرا عن بعضهم البعض، فإننا مع ذلك نجد هؤلاء العلماء، كما سوف نرى، يشتركون فى الاهتمام بدراسة التغيير الاجتماعى. إن انشغال علماء الاجتماع بدراسة ظاهرة التغيير الاجتماعى هو أمر مشروع، ما فى ذلك شك. فليس هناك من مجتمع إنسانى تكون له المناعة الكاملة ضد التغيير الاجتماعى. فالتغيير كان دائما يشكل قوة حياة أو اندثار المجتمعات والحضارات الإنسانية عبر تاريخها الطويل. فعملية التغيير قد أثبتت أنها قادرة أحيانا على تحويل تلك المجتمعات والحضارات إلى مستوى شامخ من التقدم أو إلى وضع متردٍ من التخلف. ونظرا لأن دراسة المجتمعات هى التى تستقطب اهتمام علماء الاجتماع فإن دراسة التغيير الاجتماعى تصبح إذن أمرا مركزيا عندهم تصعب مقاومته.

إن الدراسة والتنظير حول تغيير وتطور وتنمية المجتمعات البشرية هما فى واقع الأمر تقليد سوسيولوجى عرفته ثقافات مختلفة. وكما سوف نرى، فمقدمة ابن خلدون قد أشارت وحللت العوامل المؤثرة فى ملامح التغيير فى المجتمعات. وقد كانت ظاهرات التطور والتقدم والتغيير الاجتماعى قضايا اهتمام علماء الاجتماع المعاصرين منذ عهد أوغيست كونت.



هل هناك علم اجتماع خلدونى؟

هناك إجماع فى الدوائر المعرفية المعاصرة أن كونت وسبنسر ودوركايم وفيبر هم الآباء المؤسسون لعلم الاجتماع الغربى المعاصر. ومن المناسب هنا أن نتساءل عن طبيعة الفكر العمرانى لابن خلدون. وبعبارة أخرى، هل يمكن وصف الرصيد المعرفى الاجتماعى الضخم الذى تحفل به فصول كتاب المقدمة على أنه رصيد معرفى تغلب عليه روح التحليل السوسيولوجى بالمعنى الحديث؟.

إن الإجابة على مثل هذا التساؤل يجب البحث عنها فى المؤلفات الحديثة كمعاجم وموسوعات وكتب علم الاجتماع. تعرف هذه المراجع السوسيولوجية تخصص علم الاجتماع على أنه الدراسة العلمية للمجتمع البشرى وعلى المستوى المنهجى يعرف علم الاجتماع أيضا على أنه تخصص تستند معرفته، من جهة، على معطيات ميدانية (محسوسة) Empirical ، ومن جهة ثانية، على أسس نظرية.

إن تطبيق هذه التعاريف العامة لعلم الاجتماع الحديث على المقدمة تجعل ابن خلدون ينتمى بسهولة إلى علم الاجتماع أكثر من انتمائه إلى التخصصات الأخرى فى العلوم الاجتماعية المعاصرة. فالمقدمة هى عمل فكرى يتصف بالتحليل المنظم. عبر مفاهيم وقوانين ونظريات عمرانية جديدة. للمجتمع العربى الكبير قبل وأثناء حياة صاحب المقدمة. ومن ثم فالمقدمة هى أولا فكر ناضج وذو بصيرة ثاقبة حول حركية (ديناميكية) المجتمع العربى بصورة عامة. وفى الواقع ينظر إليها البعض على أنها الدراسة السوسيولوجية العلمية الشاملة الوحيدة التى قام بها باحثة عربى حول هذا الموضوع إلى حد الآن.

ثانيا، إن المعرفة السوسيولوجية التى تحتوى عليها المقدمة هى نتيجة مباشرة لملاحظات ابن خلدون وتجاربه المعيشية فى الحضارة العربية التى عاصرها.

ثالثا، يوجد فى المقدمة عدد هائل مما يسمى بالنظريات السوسيولوجية الكبرى حول المجتمع العربى على الخصوص: كيف ظهرت الحضارة العربية الإسلامية قوية ثم كيف آلت إلى الضعف والانحلال؟ وماذا كانت أدوار شوكة العصبية وروح الدين فى عملية تفكك هذه الحضارة؟ ولماذا يميل القوم المهزومون دائما إلى تقليد غزاتهم؟ ولماذا اتبعت الدول العربية التى درسها ابن خلدون أنماطا قصيرة العمر فى النشأة والنمو؟ وهكذا، فعلم الاجتماع الخلدونى ينبغى النظر إليه كمدرسة فكرية

سوسيولوجية مستقلة بذاتها بين المدارس السوسيولوجية المعاصرة. ونظرا لرسوخ جذوره في تربة واقع المجتمعات العربية، فإن علم الاجتماع الخلدوني مرشح أن يكون له فهم أفضل لقضايا المجتمعات العربية المعاصرة من المدارس السوسيولوجية الغربية.

وأخيرا، يصف ابن خلدون نفسه فكره في العمران البشري بهذه العبارات: «انحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة فصول. الأول في العمران البشري على الجملة وإضافة وقسطه من الأرض. والثاني في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية. والثالث في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية. والرابع في العمران الحضري والبلدان والأمصار. والخامس في البضائع والمعاش والكسب ووجوهه. والسادس في العلوم واكتسابها وتعلمها. وقد قدمت العمران البدوي لأنه سابق على جميعها كما نبين لك بعد وكذا تقديم الملك على البلدان والأمصار. وأما تقديم المعاش فلأن المعاش ضروري طبيعي وتعلم العلم كمالي أو حاجي والطبيعي أقدم من الكمالي وجعلت البضائع مع الكسب لأنها ببعض الوجود ومن حيث العمران كما نبين لك بعد والله الموفق للصواب والمعين عليه».

يعتبر ابن خلدون أن كتاب المقدمة كتاب فريد بما يحتويه من معرفة وحكمة جديدتين «ونحن قد ألهمنا الله إلى ذلك إلهاما وأعثرنا على علم جعلنا بين بكرة وجهينة خبره. فإن كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر البضائع أنظاره وأنحاءه فتوفيق من الله وهداية وإن فاتني شيء - في إحصائه واشتبهت بغيره فالناظر المحقق إصلاحه ولي الفضل لأني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق والله يهدي بنوره من يشاء».

وهكذا نرى أن صاحب المقدمة كان على وعي كامل بأنه قد حقق فتحا جديدا في معرفة القوى المؤثرة في حركية المجتمعات. وقد سمى هذا العلم الجديد علم العمران البشري.

الإطار الفكري

يمكن القول بكل ثقة بأن علم العمران الجديد يمثل إطارا فكريا جديدا لدراسة أحداث التاريخ برؤية عمرانية. لقد أماط ابن خلدون اللثام عن مغالط المؤرخين المسلمين في تفسيراتهم لأحداث التاريخ وذلك في مقدمته للكتاب الأول (المقدمة). لقد أوضح أن كل الرؤى التاريخية لهؤلاء المؤرخين كانت عاجزة على إعطاء تفسيرات ذات مصداقية للأحداث التاريخية التي عالجتها. وبتعبير توماس كوهن كان علم التاريخ العربي الإسلامي يمر بأزمة في إطاره الفكري Paradigm-Crisis. فولادة علم العمران البشري، كما حددت معالمه مقدمة ابن خلدون، كان هو الإطار الفكري البديل الذي يمدنا بفهم أفضل



يعتبر ابن خلدون أن كتاب المقدمة كتاب فريد بما يحتويه من معرفة وحكمة جديدتين «ونحن قد ألهمنا الله إلى ذلك إلهاما وأعثرنا على علم جعلنا بين بكرة وجهينة خبره

خاصة لتاريخ مجتمعات الحضارة العربية الإسلامية. ومن ثم يستطيع المرء أن يفهم لماذا سمى ابن خلدون مقدمته بالكتاب الأول من بين الكتب الثلاثة التي تكون عمله الكبير والمتمثل في كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.

فالكتابان الباقيان هما أساسا كتابان لتاريخ العرب والبربر ومن عاشرهم من الأمم الأخرى المختلفة. فبتسميته للمقدمة الكتاب الأول يؤكد ابن خلدون مدى أهمية هذا الكتاب باعتباره رؤية جديدة لأي فهم حقيقي لحركية التاريخ في مجتمعات الحضارة العربية الإسلامية على الخصوص.

وكما ذكرنا من قبل: فإن عوامل الجغرافيا والثقافة والزمن تفصل بين علم العمران الخلدوني وعلم الاجتماع الغربي. فمن جهة، ظهر هذا الأخير كتخصص معاصر في آخر القرن الثامن عشر في القارة الأوروبية على يد أوغست كونت August Comte . ومن ثم يعتبر كونت في الدوائر المعرفية الغربية المؤسس لعلم الاجتماع المعاصر.

من جهة ثانية، ولد علم العمران الخلدوني في القرن الرابع عشر في المغرب العربي الإسلامي أولا ثم في المشرق العربي الإسلامي بعد ذلك. وفي كلتا الحالتين فإن نشأة هذين العلمين كانت حصيلة للظروف التي كانت تواجهها المجتمعات العربية والأوروبية. فقد تأثر علم الاجتماع الأوربي ثم علم الاجتماع الأمريكي بقضايا المجتمعات الصناعية والحضرية الجديدة التي عرفتها الحضارة الغربية المعاصرة. وكان علم العمران الخلدوني يعكس أيضا قضايا وهموم المجتمع العربي في المشرق والمغرب: عدم الاستقرار السياسي والترف والعصبية والبداوة والحضارة. إن استمرار تدهور الحضارة العربية الإسلامية بعد وفاة ابن خلدون أدى إلى ركود وفقر الفكر الديني والفلسفي والاجتماعي. فغلق باب الاجتهاد بعد ابن خلدون بعقود قليلة فقط كان مؤشرا على استمرار الحضارة الإسلامية في الضعف والتفكك. إن ظهور الفكر الاجتماعي الخلدوني العالي المستوى في هذه الظروف الرديئة للمجتمع العربي يعد ظاهرة لافتة للنظر. فلا يزال عمق تحليله العمراني للمجتمع العربي فريدا من نوعه في كل التاريخ الفكري للمجتمع العربي الإسلامي. فهذا المؤرخ البريطاني المعاصر أرنولد توبني Arnold Tonybee يؤكد هذه الحقيقة:

«ففي ميدان نشاطه الفكري يبدو أنه (ابن خلدون) لم يتأثر بأي من سابقيه ولم يجد من يضاهيه من معاصريه ولم يثر فكره الريادي أي رد فعل بين من تعاقبوا بعده. ومع ذلك فإنه في مقدمة وكتاب العبر قد تصور وصاغ فلسفة تاريخ هي بدون شك أعظم الأعمال الفكرية في مجالها التي لم يتوصل إليها بعد أي عقل بشري في أي زمان وفي أي مكان».

ومع توسع الغرب الصناعي واحتلاله للعديد من بلدان العالم في العصر الحديث جاءت أيضا الهيمنة الثقافية الغربية للعالم العربي بما في ذلك علم الاجتماع نفسه. فنظريات ومفاهيم ومناهج علم الاجتماع الأمريكي والفرنسي والبريطاني تسطو اليوم على علم الاجتماع العربي. فمن الصعب جدا أن يدعي هذا الأخير أن له علم اجتماع عربيا مستقلا. كما هو الأمر بالنسبة لعلم العمران الخلدوني الذي ليس له تأثير كبير على علماء الاجتماع العرب المعاصرين. وفي رأينا إن غياب وجود علم اجتماع عربي مستقل بذاته اليوم يعتبر أحد مظاهر ما سميناه «بالتخلف الآخر» في العالم العربي. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الاعتماد على علم الاجتماع الغربي ليس هو المصدر المعرفي الحقيقي لفهم حركية المجتمعات العربية. فهناك إقرار متزايد اليوم بين الباحثين بأن تفسيرات العلوم الاجتماعية طالما تكون متأثرة بالخصوصيات الثقافية والاجتماعية للمجتمعات التي تنشأ فيها تلك العلوم. فالاستعمال الكامل أو شبه الكامل لنظريات العلوم الاجتماعية الغربية بالنسبة للمجتمعات العربية لا يكاد يجد شرعية علمية. خلافا للعلوم الطبيعية فإن النظريات والأطر الفكرية Paradigms للعلوم الاجتماعية تتأثر كثيرا بالعوامل الاجتماعية والثقافية والتاريخية وبالرؤية الكونية السائدة في المجتمع الذي تنشأ وتنمو فيه تلك العلوم. أي أن هذه الأخيرة لا تتمتع بموضوعية كاملة. ومن ثم فتعميم استعمال رصيدها المعرفي على ظروف اجتماعية وثقافية وتاريخية مختلفة طالما يضعف من مصداقيتها. ولبيان ذلك نقارن الآن كيف درس وصنف ابن خلدون وعلماء الاجتماع الغربيون الأوائل المجتمعات التي تعرفوا عليها.

مفهوم التغيير الاجتماعي

يفيد مفهوم التغيير الاجتماعي، عند كل من ابن خلدون وعلماء الاجتماع الغربيين، تحول المجتمع من وضع اجتماعي بسيط إلى وضع اجتماعي أكثر تعقيدا. فبساطة المجتمع البدوي عند صاحب المقدمة يأتي من ندرة الموارد المعيشية المتوفرة عند هذا الصنف من المجتمعات. فالبدوي لا يملك في العادة من موارد المعاش أكثر مما تتطلبه حاجاته المعيشية اليومية التي تؤمن بقاءه على قيد الحياة. كما أن وجود روح العصبية القوية بين البدو واتصافهم بخصال الشجاعة واستعدادهم العضوي لدخول ديانات جديدة وقدرتهم على المحافظة على خيرية فطرية الطبيعة البشرية هي، من جهة، في رأي ابن خلدون ملامح لهذا النوع البسيط من المجتمعات البشرية. ومن جهة أخرى، يرى ابن خلدون أن تعقيد المجتمع الحضري هو في



غياب وجود علم اجتماع عربى مستقل بذاته اليوم يعتبر أحد مظاهر ما سميناه «بالتخلف الآخر» فى العالم العربى. وبالإضافة إلى ذلك. فإن الاعتماد على علم الاجتماع الغربى ليس هو المصدر المعرفى الحقيقى لفهم حركية المجتمعات العربية

الأساس نتيجة للثراء المادى الكبير (الترف) الذى يتصف به هذا المجتمع.

أساسا. تأخذ العصبية فى هذا الأخير أشكالا أخرى غير العصبية البدوية المشار إليها سابقا. أما وازع التدين وصفة الشجاعة فطالما يضعف شأنهما كثيرا فى ظروف الحياة الحضرية. وهكذا يبرز صاحب المقدمة بأن العوامل المادية (الاقتصادية) تلعب دورا حساسا فى تشكيل نمط حياة الناس.

تقترن عند ابن خلدون المرحلة الحضرية فى تطور المجتمعات العربية التى درسها بأفول حضارة هذه المجتمعات. إذ الثراء الفاحش والترف يؤديان إلى ظهور العديد من المشاكل الاجتماعية وغير الاجتماعية فى المجتمع. ومن أبرز هذه المشاكل هى ما يطلق عليه علماء الاجتماع المحدثون «بالتفكك الاجتماعى الثقافى socio-cultural breakdown» فابن خلدون كان على هذا المستوى سابقا لدور كايم. فإشارته إلى العلاقة الوثيقة بين ازدياد نسبة السلوك الانحرافى / الإجرامى فى المجتمعات العربية وضعف الرابطة الاجتماعية الثقافية وذلك بسبب هيمنة ثقافة الثراء والترف فى المجتمع. يكتب ابن خلدون فى هذا الصدد شارحا مظاهر السلوكيات غير السوية وآلياتها: «وأما فساد أهلها (المدينة ذات الحضارة والترف) واحدا واحدا على الخصوص فمن الكد والتعب فى حاجات العوائد والتلون بألوان الشر فى تحصيلها، وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها. فلذلك يكثر الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهة ومن غير وجهة. وتتصرف النفس إلى الفكر فى ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له. فتجدهم أجرياء على الكذب والمقامرة والغش والخلابة والفجور فى الإيمان والرياء فى البياعات. ثم تجدهم - لكثرة الشهوات والملاذ الناشئة عن الترف - أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه وأطرح الحشمة فى الخوض فيه، حتى بين الأقارب وذوى الأرحام والمحارم الذين تقتضى البداوة الحياء منهم فى الإقذاع بذلك. وتجدهم أيضا أبصر بالمكر والخديعة، يدفعون بذلك ما عساه ينالهم من القهر وما يتوقعونه من العقاب على تلك القبائح، حتى يصير ذلك عادة وخلقا لأكثرهم إلا من عصمه الله.

فمما لا شك فيه أن هذه الملاحظة القيمة حول العوامل العمرانية والتصرفات غير السوية تعد مساهمة خلدونية ذات شأن بالنسبة لدراسة الانحراف والإجرام وهو ميدان خلدونى لم يقع تناوله.

يجب التأكيد هنا بأن المنظور العام لصاحب المقدمة حول التغيير الاجتماعى وكذلك حول أسباب الانحراف هو منظور يعطى أولوية للعوامل المادية المنتشرة فى المجتمع. فتحول المجتمعات العربية من المرحلة البدوية البسيطة إلى المرحلة الحضرية المعقدة هو، فى رأى ابن خلدون، حصيلة أساسا لتغيير موارد المعاش من موارد معيشة بدائية إلى موارد ثراء وترف متقدمة ومعقدة الطبيعة.

الجذور الإسلامية لفكر ابن خلدون

وسواء تعلق الأمر بفكرة التغيير الاجتماعى المطروحة فى هذا المقال أو غيرها من المفاهيم السوسيولوجية فهناك، من جهة، محاولات من طرف الدراسات الغربية لسحب الطابع الإسلامى عن الفكر الخلدونى وتعويضه بنموذج فكرى غربى. يرجع أساسا إعجاب المفكرين بفكر صاحب المقدمة إلى اتصاف عقل ابن خلدون بالوضعية Positivism أو التجريبية Empriricism والعقلانية. إن مثل ذلك الإعجاب أمر منتظر إذ أنه ينسجم كثيرا مع منطق وتصور الفكر الغربى المعاصر الذى لا يجمع بين النقل والعقل فى التفكير كما يفعل العقل العمرانى الخلدونى.

ومن جهة أخرى، يظهر العديد من علماء الغرب الدارسين لتراث ابن خلدون الكثير من الدهشة والحيرة إزاء بعض أفكار صاحب المقدمة. فإيف لاكوست Yves Lacoste، على سبيل المثال، يكن الكثير من الاحترام لأصالة الفكر الخلدونى لكنه لا يكاد يقر بإمكانية تواجد شخصية ابن خلدون الواضحة الملامح الإسلامية مع فكره الوضعى القوى. وبعبارة أخرى، يرى لاكوست نوعا من الازدواجية الفكرية فى شخصية ابن خلدون، هذا المفكر العملاق الوحيد فى القرون الوسطى. فوجود كل من الفكر الوضعى المتين وروح التدين القوى فى شخصية العالم لا يلقيان عادة ترحيبا به عند الرؤية الغربية المعاصرة للعلم. ومن ثم فلاكوست كان بكل تأكيد يريد فرض رؤية غربية للعلم على صاحب المقدمة كعالم مسلم للعمران البشرى متأثر بخلفية رؤيته الإسلامية التى وجهت إطار فكره الناضج. وهكذا فإن بعض ما كتبه لاكوست بشأن ابن خلدون، رغم جديته وامتداحه لفكر ابن خلدون، ليس بالعمل العلمى الموضوعى، إذ أنه كان يحاول أن يلبس أفكار ابن خلدون لباسا غربيا.

أما من وجهة النظر الإسلامية فإن أخلاقيات مؤلفات ابن خلدون تمثل العرف الشائع عند العلماء الباحثين المسلمين والمتمثل فى استعمال العقل والنقل فى دراساتهم لظواهر الكون والمجتمع.

يعتبر المنهج الوضعى إحدى الركائز الأساسية فى المنظور الإسلامى لدراسة الظواهر. فهذا المنهج لا يقتصر إذن على الرؤية المعاصرة للحضارة الغربية. فالقرآن، كأول مرجع للحضارة الإسلامية،قد:

(أ) تبنى منهجا وضعيا وعقلانيا يستند على الملاحظة والواقعية وذلك فى تفسيره للظواهر وفى طرح حججه للجنس البشرى.

(ب) أكد مباشرة أو بالإشارة فى حوالى سدس آياته على الأهمية القصوى للمعرفة والعلم لبنى البشر.

(ج) تحاشى استعمال الحجج أو التفسيرات الفلسفية فى محاولاته، مثلا، لإقناع غير المؤمنين بوجود الإله الواحد. إن أبواب المقدمة وفصولها شاهد على تأثير منهج القرآن على منهج ابن خلدون فى تأسيسه لعلم عمرانه الجديد.

فالكاتب الجزائرى عبد شريط يعتقد أنه يمكن تفسير ظاهرة ابن خلدون فى القرون الوسطى بسبب اعتناقه لتراث فكرى إسلامى خالص عرفه المغرب الإسلامى يومئذ. أما المشرق الإسلامى فيرى شريط أنه كان أقل مناعة من التأثيرات المشوهة الشائعة الانتشار والواردة من الديانات والمذاهب الأسطورية والسحرية والميتافيزيقية للحضارات الإغريقية والإسرائيلية والفارسية والمسيحية. فتمتع المحيط الثقافى الإسلامى فى المغرب الإسلامى بأكثر نقاوة دينية عقائدية.

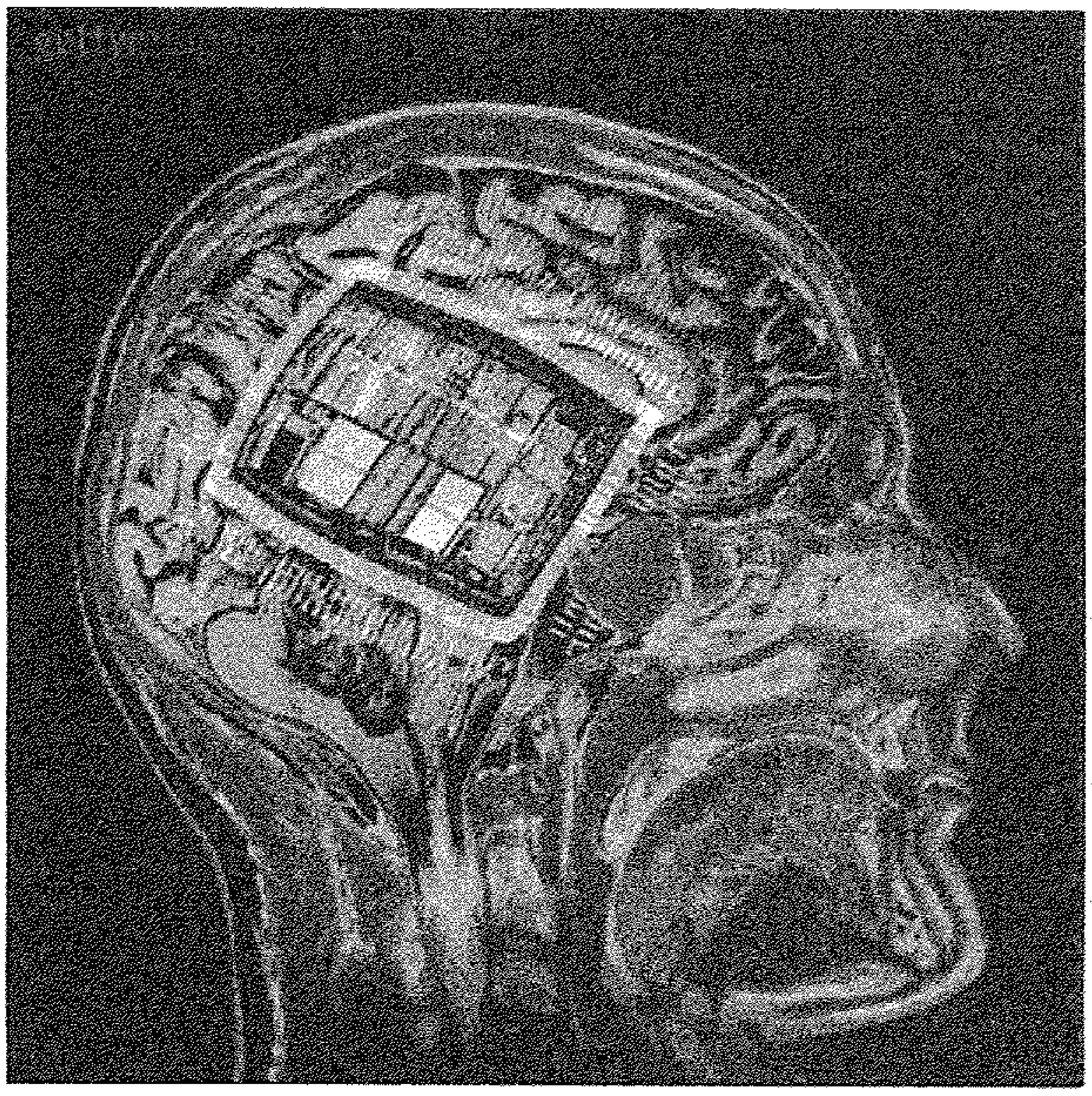
لا بد أنه لعب دورا هاما، فى رأى شريط، فى إنتاج فكر عمرانى خلدونى يتصف بالوضوح والوضعية والأصالة. وفى هذا رد وتفنيد لموقف الكثير من علماء الاجتماع العرب اليوم الذين ينكرون إمكانية تأسيس علم اجتماع إسلامى ذى صدقية علمية والحال أن النشأة الأولى لعلم العمران البشرى/ علم الاجتماع فى كامل التاريخ الفكرى الطويل للبشرية تمت على أرض إسلامية ومن طرف عالم مسلم قوى الإيمان. ▩



TE Data ADSL
٩٥
فقط بـ جنيه
لسرعة 256 Kb/sec شهرياً
استفسر الآن عن الأسعار الجديدة لسرعات أخرى*
TE Data
ADSL
طوّر حياتك
مصر الجديدة: ٤٧ ش الميرغني
مدينة نصر: سيتي ستارز - كومبيومي
المهندسين: ٣٢ شارع الرياض - تقاطع شهاب
المعادى: شارع النصر بجوار سيلانترو
الإسكندرية: ٢٥ ميدان فيكتور عمانويل، سموحة
٥٩ شارع إسكندر إبراهيم، أمام كنتاكي، ميامي
*هذه الأسعار سارية من ١/٧/٢٠٠٦
استفسر الآن 19777

اختــــراق الدمـــاغ

وليـــــــد الشــــوبكى



في سبيل جعل حياة الإنسان أكثر صحة ويسرا، أثمرت تطورات الطب والتكنولوجيا، أو التطورات الطب/تكنولوجية، نتائج هامة تتدرج من التحصين ضد أمراض وبائية إلى زرع أعضاء طبيعية أو صناعية بديلا عن التالفة. ولكن ذلك التطور يسلك أحيانا اتجاها مثيرا للجدل، وذلك عندما ينطوي - رغم بعض الفوائد المرجوة - على اختراق لحرمة الدماغ، وانتهاك لحقوق آدمية راسخة كحرية التداوي وحرية الإدراك والتذكر.

سيتذكر التاريخ يوم الثاني والعشرين من يونيو ٢٠٠٤. ففيه زُرعت للمرة الأولى شريحة حاسوبية داخل دماغ بشري. وكان ذلك دماغ الشاب الأمريكي ماثيو نيجل - المصاب بشلل كلي - لتقرأ أفكاره؛ وذلك بأن تترجم الأوامر العصبية المتعلقة بتحريك الأطراف إلى شيفرة حاسوبية يمكن نقلها إلى أطراف اصطناعية تتحرك بدورها استجابة «لتفكير» المريض في تحريك أطرافه، مما يعيد له، وللمرضى مثله، القدرة على الحركة. وثبتت الشريحة الحاسوبية - وتبلغ مساحتها ٤ ملليمترات مربعة - أسفل عظام الجمجمة، وتمتد منها دعامات في غشاء المخ لحوالي ١ ملليمتر. وتقوم هذه الشريحة برصد النشاط العصبي المخي من خلال متابعة مجموعة صغيرة من الخلايا العصبية في قشرة الحركة (جزء المخ المسئول عن التحكم في العضلات الإرادية). لإنجاز ذلك، استخدم التصوير بالرنين المغناطيسي لتحديد المكان المناسب بالضبط لزرع الشريحة. ونيجل هو أول المرضى الخمسة المتطوعين الذين سمحت مصلحة الغذاء والدواء الأمريكية (FDA) لشركة «سايبر كاينتكس» بتجريب الشريحة الجديدة عليهم، وذلك بعد أن نجحت تجارب مماثلة على القردة.

أثار الإعلان عن زرع هذه الشريحة - واسمها «بوابة المخ» (BraiOnGate) - الانتقادات من متخصصين في ذلك الفرع من الطب. فرغم استقرار حالة المريض نيجل حتى فبراير ٢٠٠٦ (وقت كتابة المقال) وتمكنه من تحريك مؤشر على شاشة الحاسوب بمجرد التفكير في ذلك، وكذلك تمكنه من ممارسة لعبة الـ «بنج بونج» الحاسوبية بمهارة، لا يعني بصورة مؤكدة سلامة ونجاح الشريحة الجديدة. فلفظ الجسم لهذه الشريحة - مناعيا - لا يزال احتمالا قائما. كما أنه ليس ثمة دليل بعد على أن هذا «النظام الحاسوبي» سيظل على كفاءته لعام مقبل مثلا. أضف إلى ذلك - وكما قال الدكتور ميجل نيكوليليس من جامعة ديوك لمجلة «وايرد» الأمريكية - «أنه إذا كان الهدف هو مجرد ممارسة لعبة حاسوبية (بسيطة) أو تشغيل جهاز التليفزيون فلم يكن ثمة داع لغرس هذا الشيء داخل دماغ المريض، فالمخاطرة هنا لا تتناسب مع الفائدة المحققة»، كما أن الفائدة المرجوة غير مؤكدة التحقق. وأعرب الدكتور نيكوليليس عن قلقه من المسارعة بتطبيق وتجريب هذه التقنيات الطبية على البشر، إذ لم تتوافر بعد المعرفة الكافية حول مخاطر ترك هذه «الأشياء» في أدمغة المرضى لفترات طويلة. وكذلك لأن ما أنجزته شريحة «بوابة المخ» حتى الآن تضاهيه تقنيات أخرى أقل انتهاكا للدماغ، مثل تلك التي طورتها مختبرات مركز وودزورث التابعة لوزارة الصحة الأمريكية. والدكتور نيكوليليس متخصص في بيولوجيا الأعصاب، وصاحب تجربة رائدة عام ٢٠٠٢ أثبتت «مطاوعة» المخ، أي قدرته على تكوين والتكيف مع مسارات عصبية جديدة. ومثل هذا المفهوم ركيزة رئيسة في تطوير شريحة «بوابة المخ».

ولم تقتصر الانتقادات على شريحة المخ فحسب، وإنما طالت كذلك شريحة «فيري تشب» (VeriChip) الإلكترونية التي طورتها شركة «أبلايد ديجيتال سولوشنز» وتزرع في جلد الذراع بهدف استدعاء السجلات الطبية للمرضى من قواعد البيانات المختلفة. وهذه الشريحة هي إحدى صور التكنولوجيا المعروفة باسم «شارات التعرف على ترددات الراديو» (RFID). وتحتوي الشارة على رقيقة حاسوبية مشفرة تحوي رقما تعريفيا خاصا، إضافة إلى هوائي متناهي الصغر. ولكي «تُقرأ» الشارة، يُمرر ماسح باعث لموجات الراديو بالقرب منها، فيستشعر الهوائي موجات الراديو فيولد تياراً كهربيا ضئيلا، ولكنه كاف لتشغيل الرقيقة الحاسوبية، فترسل بدورها رقم التعريف الخاص بها عبر إشارة راديو إلى الماسح الباعث للراديو. وحصلت الشركة في أكتوبر الماضي على ترخيص من مصلحة الغذاء والدواء الأمريكية بإنتاج الشارة الإلكترونية. وينتظر أن تساعد هذه الشارة الأطقم الطبية على تحديد هوية المريض في حالات الطوارئ، ومعرفة السجل المرضي له، خاصة في حالات فقدان الوعي أو الحوادث أو ما شابه، ومن ثم اتخاذ المناسب من الإجراءات. وقد كانت تلك المرة الأولى التي تُمنح شركة الترخيص بطرح منتج طبي/ تقني لهذا الغرض. أما سبب توجيه الانتقادات لهذه التقنية الجديدة فهو تخوف بعض المعنيين بالحريات المدنية من أن يتحول زرع هذه الشارة من الاختيار والطواعية إلى الإجبار على بعض الفئات؛ مثل السجناء أو المصابين بأمراض بعينها أو الغرباء المقيمين في غير بلادهم. خاصة أن الهدف الرئيس لهذه الشارات يمكن تحقيقه باستخدام وسائل أبسط لا تنتهك الجسد كالسوار أو البطاقة التي تحوي البيانات التعريفية بالشخص.

إذن، يمثل «التسرع» في اختراق حرمة الجسد، وخاصة الدماغ، ثم إشكالية «الاختيار في مقابل الإجبار» في استخدام التقنيات الطبية، يمثلان لب الخطر الذي تسعى بعض المنظمات غير الحكومية المهتمة بالحريات المدنية لتنبيهنا إليه - وثمة أدلة على أن هذا الخطر يتصاعد.

ويجدر بنا التأكيد على أن اختراق الجسد ليس المشكلة بحد ذاته، وإنما «التسرع» في إجراء ذلك، في قدس أقداس الجسد: الدماغ. فمنذ أول اختراق طبي، موثق تاريخيا، لنظام الجسد البشري عام ١٧٩٨ - وكان ذلك باكتشاف الطبيب إدوارد جينر مفهوم التطعيم ضد الجدري - ظهرت المئات من التطويرات والتقنيات التي وجدت طريقها إلى داخل أو خارج الجسد، دون أن يثير ذلك جدلا لوقت طويل. فمن النظارات فوق أنوفنا، إلى الأمصال السارية في دمائنا إلى الحشو داخل أسناننا، إضافة إلى اختباري الحمل وقياس مستوى الجلوكوز المنزليين. ثم هناك الأطراف الاصطناعية والمفاصل المعدنية، بل وهناك القرنيات والأكباد المستزرعة من موتى في أحياء. فقد صارت أجسادنا «بيونيّة» (بيولوجية-إلكترونية)، وصار كل منا تقريبا «إنسانا مزيدا» - كما يذكر كتاب «عصر الجينات والإلكترونيات»[1] - بما يحمله من تطويرات وإضافات بيولوجية وإلكترونية في آن، وملازمة له بصورة دائمة، داخل جسمه أو خارجه.

ولكن ثمة صفات مشتركة بين كل هذه الإضافات التي سبقت الإشارة إليها، لا نجدها في الموجة الجديدة من التقنيات التي تؤدي وظائفها عبر اختراق الجسد. فأولا: ليس ثمة شك في نفع كل منها. أيخالجك شك في جدوى التطعيم ضد الجدري (وإن اعترض في حينها أطباء عيادات الجدري الذي هاجموا الأسلوب الوقائي الجديد لسبب مفهوم: انقطاع رزقهم!)؟. وهذا ما لا يتوافر مثلا في شريحة «بوابة المخ»، ففائدتها المرجوة في استعادة الحركة أمر يختلف عليه المتخصصون. وثانيا: يجمع بين

الاتساق والوحدة فى سجل ذاكرة الفرد وتاريخه الشخصى - وكلاهما مكون رئيس لشخصيته - ربما يكونان أكثر أهمية من الإسقاط القسرى لبعض المشاهد، وإن كانت مؤلمة

الإضافات البيونية (البيو-إلكترونية) التى حظيت بالقبول والانتشار أنها لا تؤدى إلى وصم المريض اجتماعيا، أو تؤثر على أى من حرياته المدنية. وهذا ما لا يتحقق مثلا فى شارة «فيرى تشب» التى يمكن أن تؤدى إلى التمييز ضد بعض الأشخاص فتؤثر سلبا على أى من حقوقهم المدنية (فى الوظائف مثلا) على أساس الإصابة ببعض الأمراض (كالإيدز) أو التاريخ المرضى. وثالثا: لم يجبر أى منا على ارتداء النظارات أو حشو أسنانه أو تركيب مفصل صناعى رغما عنه. فكل هذه «الإضافات» تمت طواعية، رغبة فى تحسين الحياة وتوسيع نطاق الحرية الفردية، وليس تقييدها أو انتهاكها كما يمكن أن تفعل شارة «فيرى تشب»، أو علاج الإدمان على العقاقير بأسلوب «العقاقير المضادة» أو غيرها مما سيرد ذكره.

الحرب على الإدمان.. وحرية التفكير

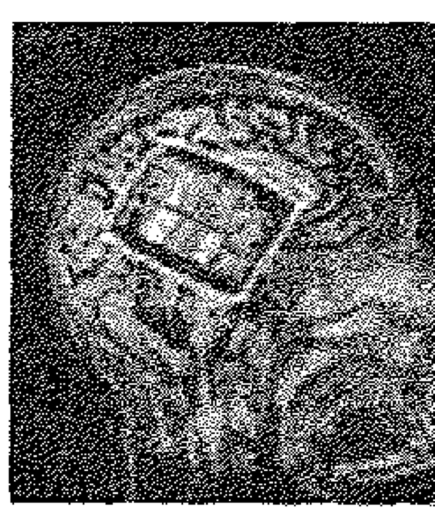
من أمثلة العقاقير المثيرة للجدل ما يعرف باسم «العقاقير المضادة» الهادفة لتحجيم الإدمان على المخدرات. ففى سياق «الحرب على إدمان العقاقير المخدرة» فى الولايات المتحدة، والتى دشنها فى السابع عشر من يونيو ١٩٧١ الرئيس الأمريكى السابق ريتشارد نيكسون، تصاعدت عاما بعد عام الميزانيات الحكومية الموجهة للقضاء على الإدمان على العقاقير باعتباره «العدو رقم ١ لشعب الولايات المتحدة». فزادت هذه الميزانية من ٨,١٥٥ مليون دولار فى ميزانية أميركا عام ١٩٧٢ إلى ٦,١٢ مليار دولار فى ميزانية العام الماضى، ٢٠٠٥، كما ذكر تقرير(٢) من مركز حرية الإدراك والأخلاقيات (CCLE) بكاليفورنيا، صدر أواخر العام الماضى. وقد نالت شركات الأدوية قسطا من هذا التمويل لتطوير عقاقير تثبط أو تمنع وصول المواد المخدرة للدماغ، ومن ثم، تثبط أو تمنع حدوث النشوة التى يجلبها تعاطى العقاقير المخدرة. ويؤدى ذلك إلى تناقص الرغبة فى تناول العقاقير المخدرة، إلى أن يتعافى المريض منها نهائيا. وأطلق على ذلك الأسلوب «العلاج بالعقاقير المضادة» (Pharmacotherapy). ومن أمثلة هذه العقاقير المضادة «ريفيا» و«سوبوتكس» و«سوبوكسون» وطورتها شركتا «دو بونت مرك للأدوية» و«ريكيت بنكيزر للأدوية».

لهذا الأسلوب العلاجى فوائده المثبتة لمن يُقدِم من المرضى - راغبا - على استخدامه. ولكن ما يثير قلق مركز حرية الإدراك والأخلاقيات، كما ذكر التقرير، هو أن التسييس الذى شُحنت به حملة «الحرب على إدمان العقاقير المخدرة» ربما يؤدى إلى الإلزام القسرى لكل المرضى الذين يعالجون من الإدمان فى المصحات التقليدية باتباع أسلوب العلاج بالعقاقير المضادة، الراغب والرافض سواء. أو بممارسة نوع آخر من الإكراه بتقييد العون المادى الذى يتلقاه المدمن بخضوعه للعلاج بالعقاقير المضادة. ونبه التقرير لما تتضمنه هذه السياسات من تعدٍ على الحقوق الدستورية المستقرة. فأولا: يرقى إجبار فرد على تناول العقاقير - وإن كان سجينا - لدرجة التعذيب، حسب الدستور الأمريكى (مستثنى من ذلك غير المؤهلين عقليا والأشخاص الذين يمثلون خطورة على المجتمع). وثانيا، يمثل ذلك انتهاكا لحرية التفكير. فيشير التقرير إلى أنه مهما اختلفنا حول الطريقة التى يبزغ بها العقل الواعى من نشاط مليارات الخلايا العصبية (العصبونات) التى تتواصل مع بعضها البعض كهربيا وكيميائيا؛ فليس ثمة خلاف على أن هذه الخلايا وما بينها من نواقل كيميائية تؤثر فى طريقة تفكيرنا وفى تمايز عقل كل منا عن الآخر. ومن ثم، فإن التحكم فى أى المواد يعبر إلى المخ وأيها يُمنع (كما يفعل العلاج بالعقاقير المضادة) يمثل فى نهاية الأمر تعديا على حرية التفكير. ويخلص التقرير إلى أنه لا بأس أن يختار الأفراد المرضى بالإدمان على العقاقير المخدرة الأساليب العلاجية المختلفة التى يرون فيها خلاصهم، على أن يكون ذلك نتيجة اختيار واع، وتبصر كامل بالعواقب، ودون إكراه من أى نوع.

التذكر والنسيان.. إجباراً!

فى حوار مع مجلة «نيوسيانتست» العلمية البريطانية العام الماضى، نبه ريتشارد جلين بوار، رئيس ومؤسس مركز حرية الإدراك والأخلاق، للخطورة التى تنطوى عليها مجموعة من العقاقير المسماة «عقاقير التحكم فى الذاكرة». وخص بالذكر عقار «بروبرانولول» الذى يستخدم بالأساس للتحكم فى ضغط الدم المرتفع. فقد أثبتت دراسة أجريت على الأطقم الطبية لاستقبال الحوادث عام ٢٠٠٢ أن تعاطى الأفراد للعقار خلال حوالى ٦ ساعات من التعرض للمواقف أو المشاهد المؤلمة، جعلهم أقل قدرة على تذكر هذه المواقف أو المشاهد بعد حوالى شهر من حدوثها، وذلك بالمقارنة بأفراد الأطقم الطبية الذين لم يتناولوا العقار.

ونتج عن هذه الدراسة أن نادى البعض بأن يُعطى هذا العقار بصورة روتينية للمرضى الذين يتعرضون لحوادث مؤلمة، كسقوط الطائرات مثلا، وكذلك للجنود الذين يشاركون فى معارك دموية. ونقطة الخلاف هنا، كما هو الأمر مع العلاج بالعقاقير المضادة، أن إعطاء عقار لمريض بغير رضا منه ووعى كامل بالعواقب يخالف الدستور. كما أن الأمر أكثر تعقيدا مما يبدو. فالشخص الذى قرر أن ينسى مشاهد حادث مؤلم، ربما يرغب - أو يُضطر - أن يدلى بشهادته. فالاتساق والوحدة فى سجل ذاكرة الفرد وتاريخه الشخصى - وكلاهما مكون رئيس لشخصيته - ربما يكونان أكثر أهمية من الإسقاط القسرى لبعض المشاهد، وإن كانت مؤلمة.



والوجه الآخر لمعضلة عقاقير النسيان هو عقاقير تقوية الذاكرة. فيقول بوار أنه خلال ٥-١٠ سنوات ستتاح غالبا عقاقير تقوية الذاكرة. ورغم الآثار الإيجابية المرجوة من هذه العقاقير، فإن مثار القلق حولها هو أن يُكره الأفراد على تناول هذه العقاقير عند التعرض لمواقف مثل الإدلاء بشهادة أمام القضاء. إذ تبرز هنا، مجددا، الإشكالية التقليدية: الإجبار والاختيار فى تناول العقاقير، وما يمثله الإكراه من انتهاك للحقوق والحريات الأصيلة للأفراد.

وثمة تكنولوجيا أخرى ستؤدى غالبا إلى انتهاك خصوصية الذاكرة ويقوم بتجريبها الآن مكتب التحقيق الفيدرالى الأميركى (FBI) وتسمى «بصمة الدماغ». وتعتمد على التقاط موجة (P٣٠٠) الكهربية المنبعثة من دماغ الأشخاص الذين اقترفوا جرائم، وذلك عندما تُعرض لهم صور أو مشاهد متعلقة بهذه الجرائم. بالطبع ستساعد هذه التكنولوجيا - خاصة مع مستوى الدقة الذى تحققه - فى تبرئة ساحة الأشخاص الأبرياء الذين سيطلبون استخدامها معهم لإثبات براءاتهم.

ولكن المشكلة، مرة أخرى، تكمن فى احتمال قيام السلطات باستخدام هذه التكنولوجيا قسرا فى الحالات التى لا يرغب المتهم فى استخدامها معه. فالموجة الكهربية (P٣٠٠) غير إرادية، ومن ثم فإن التقاطها بغير رغبة المتهم هو انتهاك لإحدى خصوصياته الحميمة: ذاكرته.

ليست هلاوس.. بل إعلانات المشروبات الغازية!

ويبلغ اختراق الدماغ مدى جديدا بتطوير تكنولوجيات تقذف بالإعلانات والرسائل التسويقية مباشرة داخل الدماغ، بدون علم أو رغبة صاحبها، وبحيث لن يدرى من أين يأتيه الصوت وكيف يتردد داخل رأسه دون أن يسمعه غيره.

فقد ذكرت مجلة «تكنولوجى ريفيو» التى يصدرها معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (مايو ٢٠٠٤) أن شركتين أمريكيتين تعكفان الآن على تطوير تقنية صوتية تتيح توجيه «شعاع صوتى» إلى شخص معين ليسمع الصوت دون غيره، فيما يعرف بتقنية «الصوت الموجه» (Directional Sound). الشركتان هما أمريكان تكنولوجى كوربوريشن، ويقودها المخترع المخضرم إلوود نوريس، وشركة هولوسونيك لابز، ويقودها المخترع الشاب جوزيف بومبى. وبالمقارنة بمكبرات الصوت التقليدية التى تنتج أصواتا فى شكل موجات تنتشر فى كل الاتجاهات ويمكن للأذن تمييزها (تشبه الموجات التى تنتج عندما تلقى بحجر فى ماء ساكن)، تعتمد أنظمة الصوت الموجه على صنع «أشعة» دقيقة من الموجات فوق الصوتية (تشبه فى فكرة عملها تركيز الضوء فى أشعة الليزر)، ويكون تردد هذه الموجات أعلى من ٢٠ ألف ميجاهرتز، وهو الحد الأعلى من موجات الصوت الذى تستطيع الأذن التقاطه. وعندما تنتقل موجات الصوت العادى أو الموجه فى الهواء يصيبها بعض التشوش، الذى يؤدى إلى إضعاف وتقليل جودة موجات الصوت العادى. ولكن ذلك التشوش هو لب تقنية الصوت الموجه، لأنه يؤدى إلى تكسير الموجات فوق الصوتية إلى موجات أقل ترددا، يمكن للأذن الاستماع إليها وتمييزها، ولكن فى نطاق ضيق يسمح لشخص واحد فقط بسماعها.

وربما تقود هذه التكنولوجيا إلى إحداث ثورة فى عالم الصوتيات، لأنها ستتيح

مثلا لأسرة من ٤ أفراد تجلس فى سيارة أن يستمع كل فرد فيها إلى الموسيقى التى يحبها، ودون الحاجة إلى ارتداء «سماعات» على الأذنين! وقد استخدمت شركة دايملر-كرايزلر للسيارات نماذج اختبارية من أنظمة الصوت الموجه فى بعض سياراتها التجريبية. وكذلك ستخاطب اللوحات الإعلانية فى الشوارع والمحال التجارية زبائنها - بالصوت الموجه - كلاً على حدة. وقد دخلت هذه الأنظمة حيز الاستخدام بالفعل فى ماكينات المشروبات الغازية بالعاصمة اليابانية طوكيو، وساهمت فى تطويرها وتشغيلها شركة «سونى». وكذلك ستمكن أنظمة الصوت الموجه قوات الشرطة من التحدث مباشرة إلى الشخص الذى يثير الشغب أو الاضطراب - وحده - دون الحاجة إلى استخدام مكبرات الصوت.

ولكن ثمة أكثر من سبب يدعو لإثارة القلق بخصوص هذه التكنولوجيا. أولا، أنها تيسر انتهاك حرمة الدماغ، وذلك عندما يُمطر الفرد بوابل من الإعلانات التى لن يعرف مصدرها، وربما يظن بادئ الأمر أن ما يسمع هى هلاوس لا يسمعها غيره، إلى أن يدرك أن ما يسمع هى الإعلانات. وثانيا، أن هذه التكنولوجيا تكاد تكون فى المتناول (سعرها الآن ٦٠٠ دولار أمريكى، وجارى العمل على تخفيض سعرها)، ومن ثم، فإنها تتيح للأشخاص غير المسئولين أن يثيروا فزع جيرانهم أو المحيطين بهم. ولن يعلم الضحايا أبدا مصدر الأصوات التى تَهدر فى رؤوسهم.

وفى سياق مشابه، من انتهاك حرمة الدماغ لأغراض إعلانية، أوردت مجلة «ذى إيكونوميست» فى يونيو الماضى أن بعض شركات السيارات الأوروبية مثل دايملر-كرايزلر، والفرع الأوروبى لشركة فورد الأمريكية قد أجريتا دراسات مبدئية عام ٢٠٠٣ على كيفية استجابة الأفراد لإعلانات الشركتين عن سياراتهما وذلك بتصوير الدماغ بتقنية الرنين المغناطيسى خلال عرض هذه الإعلانات. فلم تعد الشركات الكبرى تكتفى باستبيان مجموعات عشوائية من المستهلكين لتسألهم عن اختياراتهم وتفضيلاتهم التى يذكرونها بألسنتهم حول المنتجات، وإنما صارت تبحث عن جذور القبول والرفض والاختيار والتفضيل، فى الدماغ ذاته، ويطلق على ذلك الأسلوب «التسويق العصبى» (Neuromarketing)[٣]. بل وأوردت صحيفة «نيويورك تايمز» ومجلة «وايرد» أن مؤسسة FKF للأبحاث والاستشارات السياسية قد استخدمت أسلوب «التسويق العصبى» للوقوف على كفاءة الإعلانات الانتخابية للمرشحين الرئاسيين فى الانتخابات الأمريكية الأخيرة التى أجريت فى نوفمبر ٢٠٠٤.

نستطيع أن نخلص إذن إلى أن التطور المتسارع فى العلوم والتقنيات العصبية تصحبه فرص ومخاطر. الفرص تكمن فى الآفاق التى تفتحها هذه العلوم التقنيات لجعل حياة الإنسان أكثر صحة ويسرا. أما التهديدات فلها مصادر عدة. أولا: من التسرع فى زرع التقنيات داخل رؤوس البشر بغير تيقن من النتائج أو العواقب، كما هو الأمر فى شريحة «بوابة المخ». وثانيا: من إقدام بعض الشركات على تحوير استخدام تقنيات طبية لتعمل فى أغراض تجارية. وليس المقصود هنا التذمر من تحوير استخدام التقنيات من غرض لآخر، وإنما لفت النظر إلى أن بعض التقنيات هى بطبيعتها تنتهك الجسد، ولكن يبرر استخدامها أهداف العلاج والتداوى. ومن ثم، فإن استخدامها فى سياق آخر، كما هو الأمر مع استخدام التصوير بالرنين المغناطيسى لتحديد كفاءة الإعلانات التليفزيونية، ربما يكون غير مبرر. وثالثا: أنه لم يتوافر بعد الهيكل القانونى الذى ينظم استخدام الكثير من تقنيات أو منجزات العلوم العصبية، بحيث تتحقق الفائدة منها دون انتهاك الحريات الإدراكية للفرد. فالمحك الرئيس الواجب اعتباره عند الترخيص بتعميم أى تقنية أو أسلوب طبى - مهما ثبت لأى منهما من فوائد عظيمة - هو أن يقبل المريض ذلك، قبولا واعيا متبصرا بالعواقب. ■

هـــــوامـــــش

(١) كتاب «Evolution Isn't What It Used To Be» للمؤلف والترت. أندرسون، وترجمه للعربية تحت عنوان «عصر الجينات والإلكترونيات» الدكتور أحمد مستجير.

(٢) يمكن الحصول على نسخة إلكترونية مجانية من هذا التقرير من العنوان التالى: http://www.cognitiveliberty.org/pdf/Pharmacotherapy%202004.pdf

(٣) راجع مقال «اللعب فى الدماغ» للكاتبة ريم مهنا على موقع إسلام أونلاين من العنوان التالى:
http://www.islamonline.net/arabic/science/2005/02/article05.SHTML

كتـــاب الـزاويـــة

من أدب الفرس والترك

المغامر الشاعر

إن كان للفرس شعر سياسى بحق، فهذا الشعر يستمد نشأته من تلك الثورة التى خفقت ألويتها ما بين سنة ١٩٠٥و١٩٠٩م، بعد أن تحرك الوعى القومى فى النفوس، ووضح الحق المنقوص فى العقول، فطالب الشعب الفارسى بالحكم النيابى حتى أجيب إلى طلبته، وأراد الحد من تسلط الأجنبى وغلوائه فما خاب فى مسعاه وغنى عن البيان أن الشعر فى مثل هذه الفترة لا يكون غالبًا إلا وطنيًا سياسيًا، يعبر عن روح الجهاد، وينادى بالإصلاح العام والخاص.

ومن المتأدبين من يميل إلى نفى الشاعرية عن هذا الشعر، ويذهب إلى أنه وليد المناسبة لا فيض الخاطر، فصاحبه ينحته من صخر ولا يغترفه من بحر، ومهما يكن من هذا القول فليس يصح فى الفهم أن نطلب إلى الشاعر السكوت أمام أحداث تدفع إلى التأثر منها والتحدث عنها، ولن يسوغ أن يذرف الشاعر دموع الحب أو ينعم بنشوة الحمياء، على حين تجرى النفوس على النصال المشرعة، ويعالج أبناء وطنه سكرة الموت الزؤام، وكيف يصف الربيع الباسم المغنى، وهو يشاهد تعبيس المتقاتلين ويسمع أنين المظلومين؟

ومن رجال الثورة الفارسية من يدعى لاهوتى، وقد كان شاعرًا ومغامرًا وجنديًا وسياسيًا، ويعنينا منه حياة عجيبة الأطوار متقلبة الأحوال، ساقته ملابساتها شريدًا طريدًا فى الآفاق، وشعر يعتبر مثالاً جيدًا لشعر السياسة والوطنية فى إيران على عهد ثورتها.



بى بى ...أكثر من اربعين عاماً من الانجازات فى مصر

خلال الأربعين عاما التى شهدت نشاطنا فى مصر، بذلت بى بى أقصى جهدها لتكون قوة إيجابية مؤثرة فى المجتمع. وسعياً لتحقيق هذا الهدف عملنا بالتعاون مع العديد من الجمعيات المحلية والدولية في مجالات مختلفة كالتعليم، الصحة، الأمان والبيئة بالإضافة إلى المساهمة فى الأعمال الخيرية والثقافية. وفى السنوات القليلة الماضية تم تركيز برامجنا على التعليم، التدريب وتطوير المهارات من خلال التعاون مع هيئة فولبرايت، جمعية جيل المستقبل، المكتبات والجامعات المصرية ومنحة شيفننج للجامعات البريطانية. كما نقوم بإرسال نخبة من ألمع الطلاب المصريين المتميزين للدراسة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وجامعة كامبريدج بالمملكة المتحدة.

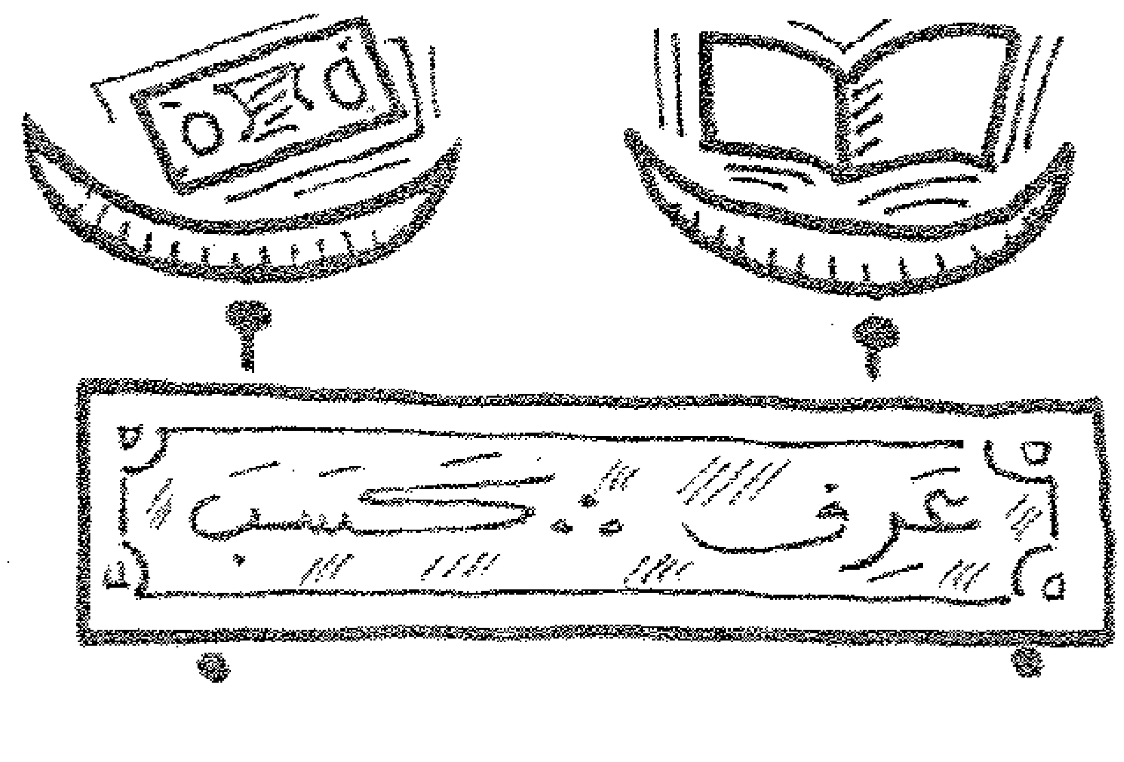
هذه مجرد أمثلة لالتزام الشركة بالمساهمة فى تحقيق تطوير حقيقى للمجتمع المصرى.

لمزيد من المعلومات برجاء زيارة موقع الشركة على الإنترنت www.bp.com

bp

أكثر من ٤٠ عاماً فى مصر

اقتصاد المعرفة .. المكسب



معتز خورشيد

تتسم الألفية الثالثة بتنام غير مسبوق فى دور العلم والمعرفة، وحدوث طفرة فى استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات. إذ يتسارع فى عالمنا المعاصر تراكم المعرفة العلمية وتطبيقاتها التكنولوجية بمعدلات هائلة، نتيجة للزيادة الكبيرة فى الحاسبات ونظم المعلومات ووسائل الاتصالات، مما يُنتظر معه أن يسفر عن تغيرات عميقة فى المفاهيم والأسس التى ترتكز عليها النظم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وفى سلوك الأفراد والمجتمعات.

وقد أدى ظهور شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت) إلى حدوث ثورة فى مفهوم الزمان والمكان، بحيث أصبح من الممكن نقل كميات هائلة من البيانات وتقديم العديد من الخدمات الإلكترونية عبر الحدود وبين الدول والقارات. وقد أسهمت هذه الثورة المعلوماتية فى تسارع وتيرة تكامل الاقتصاد العالمى من خلال تعاظم معدلات التبادل التجارى والزيادة فى تدفقات رؤوس الأموال، وسرعة تحقيق الصفقات والاتفاقيات التجارية، وبذلك أصبحت النظم الاقتصادية فى عالمنا المعاصر ترتكز بشكل كبير على المعرفة. وقد نجم عن هذا التوجه العالمى نحو «اقتصاد المعرفة» - وما يمثله من تنام لدور العلم والتكنولوجيا وزيادة الاعتماد على موارد بشرية أكثر كفاءة وقدرة علمية- ظهور صناعات معرفية تتسم بالتطور التكنولوجى السريع، والقدرة على تحقيق معدلات ربحية مرتفعة، مما أدى إلى سعى النظم الوطنية إلى الإحلال التدريجى للاستثمار المادى بالمعرفة والتنمية التكنولوجية.

وقد واكب هذه الثورة المعرفية تطور كبير فى علوم الحياة (Bio-sciences) وما تشعب عنها من علوم بينية، مثل: التكنولوجيا الحيوية (Bio-technology)، والمعلوماتية الحيوية (Bio-informatics) وتكنولوجيا النانو (Nano-technology)، بحيث انتقلت البحوث العلمية من التركيز على حل شفرة الحمض النووى إلى ترتيب الجينات ورصد الكائنات الحية الدقيقة، مما سمح بتحوير مكونات الأشياء الحية من أجل تحسين صحة الإنسان وابتكار منتجات جديدة وزيادة معدلات الإنتاج.

وفى جملتها فقد أدت هذه الابتكارات والتطورات العلمية والمعرفية غير المسبوقة إلى حدوث تغيرات هامة فى مجال التنمية الاقتصادية والاجتماعية وسلوك الأفراد والمجتمعات، مما ساهم فى خلق مناخ مغاير للبحث العلمى والتنمية التكنولوجية يتعين أخذه فى الاعتبار عند وضع الاستراتيجيات وصياغة الخطط البحثية. ويمكن تلخيص المناخ البحثى الجديد السائد فى الألفية الثالثة فى عدد من الخصائص على النحو التالى:

١ - تنامى دور العلم والمعرفة والبحث والتطوير كأحد عوامل الإنتاج الرئيسية، وارتباط نجاح جهود التنمية الاقتصادية والاجتماعية بتحقيق مستويات عالية من التقدم العلمى والتنمية التكنولوجية.

٢ - التطورات غير المسبوقة فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وتعاظم تطبيقاتها فى طرق التدريس والتعلم والتدريب والبحث العلمى.

٣ - ارتباط التطوير العلمى بالابتكار والتحديث مع تنامى التوجه البحثى نحو التخصصات البينية والعلوم متعددة التطبيقات مثل التكنولوجيا الحيوية والمعلوماتية الحيوية وعلوم الليزر.

٤ - التأثير المتزايد لظاهرة العولمة بما تمثله من تقلص للمسافات وحرية انتقال الأفكار والسلع والخدمات والأفراد والثقافات عبر الحدود وبين الدول، وحدوث توسع غير مسبوق فى الأخذ باقتصاديات السوق الحرة وزيادة تشابك الأسواق على الصعيد العالمى. وبرغم بدء شيوع هذه الظاهرة على المستوى الاقتصادى - من خلال اتفاقيات التجارة الدولية - إلا أنها شهدت توسعاً كبيراً فى نطاقها لتشمل معظم الأبعاد السياسية والاجتماعية والثقافية والبحثية والتكنولوجية، وهو ما يمكن أن يؤثر بشكل رئيسى فى إعداد خطط وطنية للبحث والتطوير.

٥ - اعتماد التوجه السياسى نحو تدويل التعليم العالى والبحث العلمى من قبل منظمة التربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)، وما يتطلبه ذلك من إعادة هيكلة الجامعات لإضفاء بُعد دولى متعدد الثقافات على أنشطتها البحثية والأكاديمية.

٦ - وجود نظام عالمى للحوكمة تتكامل جوانبه ويتنامى تأثيره من خلال شبكة متسقة من المؤسسات الدولية تتمثل فى البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى، وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائى، ومنظمة اليونسكو، واللجان الاقتصادية والاجتماعية على المستوى الإقليمى. حيث تقوم هذه المؤسسات الدولية - وعلى وجه الخصوص منظمة اليونسكو - بوضع الاستراتيجيات وصياغة السياسات الدولية فى مجال العلم والتكنولوجيا.

٧ - توجه الدول والحكومات إلى تبنى نظم سياسية أكثر شفافية وديمقراطية، وتنامى دور المنظمات غير الحكومية ومؤسسات الإعلام والجمعيات الأهلية فى تشكيل المناخ السياسى والاجتماعى. ويمثل هذا التحول الديمقراطى للنظم الحاكمة أحد العوامل التى تساعد على إطلاق حرية الإبداع والابتكار لطرح أفكار بحثية أكثر تطوراً وحداثة.

٨ - تحول النظم الاقتصادية إلى نظم تعتمد على المعرفة (اقتصاد المعرفة)، وما يمثله ذلك من تنام لدور البحث والتطوير وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات كأحد عناصر الإنتاج الرئيسية، وزيادة الاعتماد على موارد بشرية أكثر كفاءة وقدرة علمية. مما ساهم فى ظهور صناعات معرفية ذات قيمة مضافة عالية.

وتأسيساً على ما سبق فقد تعاظمت أهمية البحث العلمى والتنمية التكنولوجية فى عصر المعرفة، وتنامى دورهما فى تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية المستدامة، الأمر الذى يتطلب تعزيز قدرات العلم والتكنولوجيا بالجامعات ومؤسسات البحث العلمى وتوظيفها لخدمة متطلبات تنمية المجتمع المدنى والبحث عن مستقبل أفضل للإنسان.

العولمة وتدويل النشاط البحثى

تتركز انعكاسات عصر العلم والمعرفة وثورة المعلومات والاتصالات ويتنامى تأثيرها فى مجال العلم والتكنولوجيا، من خلال توجهين عالميين رئيسيين - يُنتظر أن يؤثر فى المسار المستقبلى للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ومستوى رفاهية الإنسان - وهما عولمة البحث العلمى وتدويل أنشطته.

وتتمثل عولمة البحث العلمى فى توجه عالمى يتمثل فى حرية انتقال الأفكار والسلع والخدمات والأفراد وتقلص المسافات عبر الحدود وبين القارات. وقد تعاظم تأثير هذا التوجه من خلال اتفاقيات التجارة الدولية (الجات) لتحرير تبادل السلع والخدمات. وحيث إنه يمكن اعتبار البحث العلمى - من وجهة النظر الاقتصادية - واحدة من الخدمات التى تقدمها المؤسسات البحثية (عرض الخدمة البحثية) إلى المجتمع بقطاعاته المختلفة (الطلب على الخدمات البحثية)، فإنه من المتوقع تأثره - بشكل مباشر - بهذا التوجه فى ظل الاتفاقية العامة للتجارة فى الخدمات (GATS). أى أن ظاهرة العولمة ستساهم فى إلغاء القيود على حركة العلماء والمؤسسات البحثية والبرامج التكنولوجية ومشروعات التطوير عبر الحدود، بهدف تحقيق تكامل وتشابك فى سوق البحوث العلمية على الصعيد العالمى. ومن هنا فإنه يمكن النظر إلى العولمة بوصفها عملية ترتبط بالتوسع فى أسواق الخدمات البحثية وباقتصادية البحث العلمى. ولسوف يوكل إلى كل دولة وضع القواعد والآليات التى ستسمح لها بحماية إنتاجها الفكرى والبحثى وتعظيم الاستفادة من توسع الأسواق البحثية - عند التفاوض مع منظمة التجارة العالمية (WTO)- فيما يخص الاتفاقية العامة للتجارة فى الخدمات (GATS)، وشقها الخاص بخدمات البحث والتطوير.

ويُعرف تدويل البحث العلمى بالتوجه الذى يسعى إلى: «إضفاء بُعد دولى - أو بُعد متعدد الثقافات - على كافة أنشطة البحوث والتطوير بهدف الارتقاء بكفاءة البرامج البحثية وتعزيز قدرات العلم والتكنولوجيا». وتختلف عملية التدويل عن ظاهرة العولمة فى كونها توجهاً استراتيجياً يتعين على الجامعات والمؤسسات البحثية تبنيه ورسم السياسات المؤدية إلى تحقيق

والخسارة فى البحث العلمى

أهدافه. وحتى يمكن التفرقة بين ظاهرتى العولمة والتدويل، فقد ذهب بعض خبراء التعليم والبحث العلمى بمنظمة اليونسكو إلى تسميته «بالتدويل غير الهادف للربح».

وقد تبنت منظمة اليونسكو استراتيجية تدويل التعليم العالى والبحث العلمى منذ عام ١٩٩٨، حينما أقرت - فى نهاية حقبة التسعينيات - مبدأ التدويل كوسيلة للارتقاء بالعملية التعليمية والبحثية، من خلال إضفاء بُعد دولى متعدد الثقافات على كافة جوانبها وأنشطتها. كما حثت الجامعات والمراكز البحثية على إعادة هيكلة أنشطتها لمواكبة التوجه نحو التدويل. وأخيراً فقد أقرت المنظمة الدولية مبدأ التدويل بوصفه أحد معايير تقييم أداء مؤسسات التعليم العالى والبحث العلمى وكذلك نظمها.

ويتعين التنويه فى هذا المجال إلى الدراسات المسحية التى قام بها الاتحاد الدولى للجامعات (International Association of Universities IAU) فى السنوات (٢٠٠٣- ٢٠٠٥) باستخدام عينة مُمثلة للجامعات على المستويين الإقليمى والعالمى. ولقد أوضحت نتائج المسح الإحصائى ما يلى:

١ - وجود توسع غير مسبوق فى تبنى جامعات الدول - المتقدمة والنامية على حد سواء - لاستراتيجية تدويل التعليم العالى والبحث العلمى منذ بداية الألفية الثالثة.

٢ - وجود تنوع فى أشكال التدويل بالجامعات وأساليبه، كما اتضح وجود تباين فى الأهمية النسبية لهذه الأشكال البديلة للتدويل.

٣ - أن دعم التعاون البحثى على المستوى الدولى يعتبر من أهم وسائل التدويل التى ترغب الجامعات فى تطبيقها.

> **تؤكد البيانات توجه السياسة الأمريكية نحو إنشاء شركات عملاقة عابرة للقارات تعتمد على اجتذاب العلماء من الجامعات والمؤسسات البحثية المستقلة، أو استيرادهم من العالم الخارجى**

فجوة العلم والتكنولوجيا

فى إطار سعيها نحو تحقيق مستقبل أفضل للإنسان والارتقاء بمستويات رفاهيته وتوفير متطلبات تنمية قدراته البشرية والعلمية، عقدت منظمة الأمم المتحدة ومؤسساتها المتخصصة العديد من المؤتمرات الدولية.

وقد واكبت هذه المؤتمرات العالمية - وما تمخضت عنه من توصيات وتوجهات استراتيجية - تغيرات هائلة فى العلم والتكنولوجيا وثورة فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وتطور غير مسبوق فى علوم الحياة.

وبرغم أنه كان من المتوقع أن تؤدى الجهود الدولية المكثفة - خلال حقبة التسعينيات من القرن الماضى وبداية الألفية الثالثة - وما صاحبها من طفرة هائلة فى العلم والتكنولوجيا، إلى حدوث نقلة نوعية مماثلة فى معدلات رفاهية الإنسان، ومعدلات التنمية الاقتصادية والاجتماعية والبشرية على المستوى الدولى؛ فقد أفادت الدراسات والبحوث الدولية فى هذا المجال - وعلى وجه الخصوص التقرير الهام الذى صدر عن المجلس المشترك بين أكاديميات البحث العلمى حول كيفية بناء قدرات البحث والتكنولوجيا فى العالم - بأن «الواقع العلمى يكشف عن فشل وصول كثير من ابتكارات العلم والتكنولوجيا إلى من يحتاجونها بشدة، كما تتفاوت معدلات استفادة الدول من الفوائد المتحققة منها عبر مختلف بقاع كوكبنا».

وفى ظل ما تشهده الألفية الثالثة من تنام لأهمية العلم والتكنولوجيا كأحد العناصر الهامة المؤثرة فى تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وفى إطار الانتقال إلى «الاقتصاد المعرفى» بالارتكاز على ثورة الاتصالات والمعلومات، فقد تعاظم الدور البحثى للجامعات من خلال الآليات التالية:

١. التنوع غير المسبوق فى مؤسسات التعليم العالى وهياكلها الأكاديمية والإدارية، وظهور منتجين جُدد للخدمات التعليمية، وتزايد الحراك الأكاديمى للطلاب وأعضاء الهيئة العلمية، وتطوير أساليب تعليمية أكثر حداثة وتقنية، مما أسهم فى إنشاء جامعات ذات توجه بحثى تتكون أساساً من عدد من المراكز البحثية المتميزة (مثل جامعة أولم وبرلين بألمانيا)؛ أو جامعات تركز فقط على مرحلة الدراسات العليا بما تتضمنه من رسائل علمية وبحوث أساسية ومشروعات بحثية تطبيقية (مثل مدارس الدراسات العليا بأمريكا وأوروبا وبعض الدول الآسيوية التى تكون على مستوى الجامعة أو أحد قطاعاتها الأكاديمية).

٢. تبنى منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) لاستراتيجية تدويل التعليم العالى والبحث العلمى، واعتبار عملية التدويل أحد المعايير الأساسية لتقييم الأداء الجامعى، ومطالبة مؤسسات التعليم العالى بإعادة هيكلة أنشطتها للتواؤم مع توجه التدويل، مما ساهم بشكل فعال فى تزايد المشروعات البحثية المشتركة بين الجامعات على الصعيد العالمى. كما نتج عن هذا التزاوج بين الثقافات البحثية - عبر الحدود وبين الدول - تعاظم للدور البحثى للجامعات، والارتقاء بالقدرات العلمية والتكنولوجية لأعضاء هيئة التدريس بها.

٣. ارتباط الأُطر المؤسسية الحديثة للبحث العلمى والتنمية التكنولوجية بالجامعات ومؤسسات التعليم العالى، حيث اتضح أن العديد من المنتجعات البحثية ومراكز الابتكار التكنولوجى ومعاهد التميز العلمى قد نشأت وتطورت فى رحاب الجامعات. وقد أدى ارتباط هذه المؤسسات العلمية الحديثة بالجامعات إلى الارتقاء بجهود البحث والتطوير على كافة المستويات.

وعلى الرغم من حدوث هذه التغيرات الدافعة لقوى البحث العلمى على صعيد المؤسسات الجامعية، فإن البنى الحالية لنظم التعليم العالى فى كثير من البلدان النامية قد غدت غير مناسبة لتلبية تحديات الألفية الثالثة، ومن ثم فإنها تتطلب إصلاحات واسعة النطاق حتى يمكن أن تحتل موقعاً مركزياً فى استراتيجية تنمية الموارد البشرية من أجل تعزيز قدرات العلم والتكنولوجيا.

ويرجع السبب فى عدم قدرة مؤسسات التعليم العالى بالدول النامية على تحقيق الارتقاء المرغوب فى القدرات البحثية والتكنولوجية إلى تنامى ظاهرة ديمقراطية نظم التعليم العالى، التى ساهمت فى الزيادة غير المسبوقة فى الطلب على خدمات التعليم العالى (أو زيادة الرغبة فى الالتحاق بالدراسة الجامعية). وقد أدت هذه الظاهرة إلى اتجاه الحكومات - بالدول المتقدمة والنامية على حد سواء - نحو تبنى نظم سياسية أكثر تحرراً وديمقراطية وأكثر تحقيقاً للعدالة الاجتماعية، الأمر الذى نتج عنه تعاظم معدلات الطلب على خدمات التعليم العالى وحدوث توسع كمى غير مسبوق فى أعداد الطلاب الدارسين، وتزايد الضغوط على الجامعات الوطنية لتصبح أكثر تنوعاً فى هياكلها المؤسسية ونظمها الأكاديمية بما يسمح بقبول أعداد متزايدة من الطلاب.

هذا وقد غدت ضرورة إصلاح نظم التعليم العالى بالدول النامية موضوعاً للعديد من الدراسات والتقارير، وأشارت اللجان المضطلعة بإجراء هذه الدراسات والمُشكلة من قبل البنك الدولى ومنظمة التربية والعلوم والثقافة، أشارت بشكل خاص إلى محاور التركيز التالية:

- ضرورة استقلال الجامعات، وزيادة قدرتها على اتخاذ القرارات العلمية والتنظيمية، والسعى إلى توافق الاستقلال الذاتى للجامعات مع الأهداف الوطنية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية.
- ضمان وجود التعددية المؤسسية فى نظم التعليم والتدريب، وتعديل البنى الأكاديمية والإدارية التى تعوق إجراء البحوث البينية والدراسات متعددة التخصصات عبر القطاعات الأكاديمية للجامعات.
- تبنى السياسات الأكاديمية القائمة على أساس الجدارة والتى من شأنها دعم شباب الباحثين المتميزين وتحقيق استقلالهم الفكرى.
- التطوير المتصل لأقسام الجامعات والمعاهد العليا من خلال إعداد نظم شفافة لتقييم الجدارة وضمان الجودة فى مجال البحث العلمى.
- تطوير برامج بحثية خاصة على الصعيد العالمى بالجامعات بهدف تكامل الثقافات البحثية وتعزيز القدرات فى مجال العلم والتكنولوجيا.

خامساً: الهيكل المؤسسى لمنظومة البحث العلمى:

تشير المؤشرات العالمية فى مجال البحث العلمى إلى وجود تباين فى التوزيع النسبى لحجم النشاط، بين المؤسسات الوطنية المنتجة للبحث العلمى

كتاب الزاوية

من أدب الفرس والترك

يقظة الليل

هذه قصيدة من الشعر التركى العالى لجناب شهاب الدين بك المتوفى عام ١٩٣٤، وكان فى بدء أمره يتلو تلو الأقدمين من شعراء الترك، حتى رحل إلى فرنسا طلبًا للطب. فاطلع على الأدب الفرنسى وتأثر به تأثرًا يتجلى فى هذا المثال من شعره الرقراق.

تعالى يا جميلتى، بالله إلا ما قربت مجلسك منى هذه الأمسية، لتسترقى السمع معى بأذن مصغية، فإن هذا الليل من حولنا يموج بالأنغام.

المعزف بعيد بعيد، وله حنين ورنين، لأن رقاق الأنامل تداعبه بلمسها الرفيق، فكأن أرواح الخريف تخفق ثم تخفق.

فاملأى مسمعيك يا حبيبتى من حنينه فى أغوار الليل الساكنة وجوف الظلمة الخرساء.

إذا أدرك هذه الأنغام لين ورقة، أو غشيتها للأسى وحشة وانكسار، ذكرت بها بلبل البستان وهو يرجّع فى شدواته العذاب.

أما إذا ما عرتها هزة النشوة، فإن زفرة الوحدة تغمر كل ما فى هذا الكون النائم.

لمن تلك اليد المرتعشة التى ترسل لحنًا بعد لحن؟ ومن ذا الذى يرفع الصوت بذلك الغناء المحزون؟ وأين هذا المحبوب الهاجر الذى ينطق الأوتار باللحن الكسير على ذكراه؟ وأى مأتم يرتج بهذا النحيب؟

أعرف كتب

والتكنولوجى على مستوى الدول النامية والمتقدمة على حد سواء. إذ يمكن أن يتم النشاط البحثى والتطوير التكنولوجى على مستوى أكثر من قطاع وطنى. فهناك مجموعة من المراكز العلمية والمعاهد المهنية تتبع قطاع البحث العلمى (سواءً أكان ذلك على مستوى وزارة أو مجلس أعلى أو مؤسسة حكومية أو معهد بحثى خاص)، فى حين أن النشاط البحثى قد يتركز بنسبة عالية - فى بعض الدول- فى الشركات والمؤسسات الإنتاجية والخدمية. حيث يُلحق بكل مؤسسة إنتاجية وحدة للبحث والتطوير (Research & Development) يكون هدفها الأساسى القيام بالبحوث لتطوير المنتجات الخاصة بها وتحديثها، والارتفاع بحجم مبيعاتها فى الأسواق، وحل المشاكل الفنية والإدارية والمالية التى قد تؤثر فى معدلات أدائها على المستويات كافة. وبالطبع، فإن هذا المفهوم ينطبق على الشركات كبيرة الحجم أو المؤسسات الإنتاجية متعددة الجنسيات التى تسمح ميزانيتها بالإنفاق على وحدات البحث والتطوير. بينما تلجأ الشركات المتوسطة وصغيرة الحجم إلى الارتباط بجهات بحثية متخصصة لدعمها بحثياً. هذا وقد لوحظ أن الجامعات بالدول النامية تقوم بدور جوهرى فى بناء قدرات العلم والتكنولوجيا مما يؤدى إلى ارتفاع نصيبها من الناتج المحلى البحثى على المستوى الوطنى.

ويرجع التباين بين الدول- فيما يخص توزيع النشاط البحثى بين المؤسسات الوطنية- إلى طبيعة النظام السياسى أو الاقتصادى المُطبق بالدولة من ناحية، وإلى التوجهات الاستراتيجية لقطاع التعليم والبحث العلمى من ناحية أخرى. فمن الطبيعى أن تسمح النظم الرأسمالية للقطاع الإنتاجى الخاص بالتوسع فى وحدات البحث والتطوير به، فى حين تتوجه الدول الاشتراكية إلى إنشاء مراكز بحثية تابعة للقطاع الحكومى فى شكل مراكز قومية للبحوث العلمية. وبصرف النظر عن طبيعة النظام السياسى أو الاقتصادى السائد بدولة ما، فإنه من المفروض أن قطاع البحث العلمى يتضمن توجهات عامة تحدد نصيب المؤسسات الوطنية من النشاط البحثى (هيكل منظومة البحث العلمى). ولدى معظم الدول الرأسمالية أكاديميات وطنية للبحث العلمى تابعة للدولة تختص بتنظيم البحث العلمى وتخطيطه، ووضع الاستراتيجيات الوطنية فى هذا الشأن. ويتعين الإشارة أيضاً إلى أن طبيعة المجال البحثى قد تُحدد - فى بعض الأحيان - الشكل المؤسسى للنشاط، فالبحوث فى مجالات الطاقة النووية وعلوم الفضاء تتم - فى غالب الأحيان- على مستوى مركزى يتبع الدولة.

ويبين شكل (١) مشاركة قطاعات الدولة فى النشاط البحثى على مستوى مصر والولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا (من خلال نسبة عدد العاملين فى مجال البحث والتطوير)، حيث يمكن استنتاج النقاط التحليلية التالية:

١. تتم معظم البحوث العلمية بالولايات المتحدة الأمريكية على مستوى الشركات والمؤسسات الإنتاجية والخدمية (بنسبة تصل إلى ٨٠٪)، على حين يتراجع نصيب كل من قطاع التعليم العالى والبحث العلمى إلى (١٣,٣٪)، (٢,٦) على التوالى. وتعكس هذه المؤشرات التوجه الرأسمالى وما يتضمنه من تنام للقطاع الخاص وتحرير للأسواق من ناحية، واللامركزية فى اتخاذ القرار التى تميز النظام الأمريكى من ناحية أخرى. كما تؤكد هذه البيانات توجه السياسة الأمريكية نحو إنشاء شركات عملاقة عابرة للقارات تعتمد على اجتذاب العلماء من الجامعات والمؤسسات البحثية المستقلة، أو استيرادهم من العالم الخارجى.

٢. يمثل هيكل البحث العلمى بألمانيا نمطاً أكثر توازناً من حيث توزيع الأدوار البحثية على مؤسسات المجتمع. إذ تشير البيانات إلى أن عدد العاملين بالمجال البحثى من القطاعات الإنتاجية والخدمية يقدر بنحو (٦٢٪) من جملة العاملين، فى حين يصل نصيب الجامعات ومؤسسات التعليم العالى إلى نحو (٣٠٪). وتعكس هذه المؤشرات النمط الأوروبى للبحث العلمى الذى يدعم تنامى القدرات العلمية والتكنولوجية بالجامعات، كما توضح والتوجه الألمانى نحو إنشاء جامعات بحثية بالدرجة الأولى (مثل جامعة أولم).

٣. توضح الهياكل العلمية بكل من الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا أن هناك تعاظماً لدور الشركات الإنتاجية والخدمية الخاصة والعامة فى منظومة

هنـاك تعاظـم لـدور الشـركات الإنتاجية والخدمية الخاصة والعامة فى منظومة البحث العلمى والتطوير التكنولوجى

البحث العلمى والتطوير التكنولوجى، حيث يتحقق ذلك إما من خلال إنشاء وحدات للبحث والتطوير على مستوى الشركات (R&D units)، أو من خلال تقوية سبل الارتباط مع الجامعات ومؤسسات البحث العلمى المستقلة.

وبرغم التباين الواضح فى المؤشرات الدولية السابقة - فيما يخص التوزيع النسبى للنشاط البحثى على المؤسسات الوطنية- وضرورة إعادة هيكلة منظومة البحث العلمى بمصر تجاه تفعيل البحث العلمى بالقطاعات الإنتاجية والخدمية الخاصة والعامة، فإنه من المؤكد أن هناك دوراً مهماً للجامعات فى مجال البحث العلمى يتعين دعمه بكافة السبل على المستوى القومى، كما يتعين على الجامعات - بما تتمتع به من استقلالية- أن تقوم بإعداد خطط بحثية تتفاعل مع معطيات الألفية الثالثة. ومما يؤكد هذا التوجه مؤشر حجم الإنفاق على البحث والتطوير بقطاع التعليم العالى كنسبة من الناتج المحلى الإجمالى فى العديد من الدول المتقدمة علمياً وتكنولوجياً وفق الشكل (٢)، إذ يصل حجم هذا الإنفاق إلى نحو (٤١,٠٪) من الناتج المحلى الإجمالى فى فرنسا، مع ملاحظة أن ما تنفقه فرنسا على البحث العلمى بالجامعات يمثل نحو (١٩٪) من جملة ميزانية البحث العلمى على المستوى القومى.

التوجهات الحديثة للبحث العلمى والجامعات

لقد أسهم نجاح الدول المتقدمة لتطوير وحدات بحثية غير تقليدية، مثل: مراكز الامتياز المستقلة، والمنتجعات البحثية، ومراكز الابتكار التكنولوجى، وشبكات الامتياز البحثى الافتراضية فى الارتقاء بالبحوث العلمية والتنمية التكنولوجية وتعظيم مشاركتها فى تحقيق المتطلبات المجتمعية على المستوى العالمى؛ وبرغم توجه هذه الأُطر المؤسسية العلمية إلى دعم قطاع البحث العلمى بشكل عام؛ إلا أن العديد منها قد ارتبط منذ إنشاءه وتطوره بإحدى الجامعات أو بواحدة من مؤسسات التعليم العالى.

فعلى سبيل المثال، توجهت حكومة كوريا الجنوبية إلى إنشاء مراكز امتياز بحثى بهدف النهوض بالدور البحثى والتكنولوجى للجامعات. حيث قامت بإنشاء مراكز للبحث العلمى تختص بتطوير النظريات الجديدة فى مجال العلوم الأساسية، والبحث المعمق حول ظواهر الطبيعة، ومراكز للبحث الهندسى تسهم فى تطوير تكنولوجيا صناعية متقدمة، ومراكز بحث إقليمية تُوجه لدعم التعاون البحثى بين الجامعات على الصعيد الإقليمى؛ على أن تكون هذه المراكز على مستوى الجامعة (أى تشارك بها أكثر من كلية) وتتمتع بتمويل حكومى لفترة ٩ سنوات لحين اعتمادها على مواردها الذاتية.

وتأسيساً على ما سبق، فإنه يتعين على الجامعات المصرية أن تعيد هيكلة أُطرها المؤسسية وأنشطتها البحثية للتواؤم مع متطلبات هذه الأشكال الحديثة للبحث العلمى والتنمية التكنولوجية.

ويمكن تعريف مراكز الامتياز بأنها كيان بحثى يتبع جامعة أو معهد بحوث أو يعمل بشكل مستقل، ويخضع لعملية مراجعة للجدارة والجودة على أعلى مستوى؛ من حيث كفاءة البنية الأساسية والكوادر البحثية والمخرجات العلمية، وتوجه جهوده كافة إلى تطوير القدرات المعرفية - ذات الأهمية الوطنية - فى مجال العلم والتكنولوجيا.

وترتكز فعاليات شبكات الامتياز الافتراضية على جهود حشد من العلماء للتعاون فى مجال بحثى (أو عدة مجالات بحثية) باستخدام التكنولوجيا المتطورة لشبكة الإنترنت العالمية، وهى تقوم بربط مجموعة من المعاهد البحثية الافتراضية القائمة بأكثر من إقليم أو دولة.

وتهدف المنتجعات البحثية ومراكز الابتكار التكنولوجى إلى دفع جهود الابتكار والتطوير من خلال دعم علاقة الجامعات بالصناعة، والمساهمة فى الارتقاء بكفاءة نقل التكنولوجيا الحديثة، من المؤسسات المنتجة لها إلى القطاعات الإنتاجية، وتوطينها وفق متطلبات التنمية الوطنية؛ وزيادة مشاركة الشركات المتطورة تكنولوجياً لدعم جهود النمو الاقتصادى من خلال توفير فرص عمل مغرية للخريجين. ■

كتاب الزاوية

من أدب الفرس والترك

مِصر فى الشعر التركى

كان لبعض من شعراء الترك وفادات على مصر قبل الفتح التركى وبعده، فقدمها الأمير جم وهو شاعر أنيق الشعر رقيقه نزل ضيفًا على قايتباى أيام نازع العرش أخاه با يزيد وهاجت الحرب بينهما. وجاء مصر من الأمراء الشعراء، أخ للسلطان سليم يقال له الأمير قورقود، ومعه نديمه وشاعره الماجن محمد شلبى الذى كان شديد الاختصاص به لا يفارقه فى سفر ولا حضر، ولما تجهز السلطان سليم الأول لفتح مصر، لم تفته دعوة الشعراء إلى صحبته، ليكونوا رفقة معه تؤنس وحشته، ويتسلى بها من كل هم ملم. وهو من يعز العلماء ويكرم الشعراء، لأنه كان شاعرًا ديوانه ريحانة أهل الأدب.

ومن ندمائه الشعراء فى سفرته إلى مصر، إسحاق شلبى، وكان جهينة الأخبار حلو الأسمار كثير الأضاحيك راوية يستمد من بحر لا ينفد، ومعه شاعران مزاحان ضحاكان، لهما اتساع خبرة بأدب النديم، فكانوا ثلاثتهم يسامرون السلطان ويسرون عن نفسه ما قد يغشاها من هول خطب واقع أو متوقع.

وكان كمال باشا زادة من أتباع السلطان سليم، له عنده دالة وحظوة فاصطفاه رفيقًا له مقربًا، وكان شاعرًا عالمًا، فناط به أن يترجم كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى، وامتثل الباشا أمر السلطان، وأطلعه كل يوم على القدر الذى ينجز ترجمته من الكتاب، فما دخل سليم مصر إلا وهو على علم بتاريخها، وأخبار ملوكها.

«طريق» نجيب محفوظ

أليس لون منقار الطائر فى الحلم، أهم أحياناً من أحداث الحلم كلها كما يقول لنا فرويد فى أحد نصوصه؟ بصمة اليد العابرة على جدار بارد أليست أهم من الجدار وبنيانه لمن أراد قراءة القصص واقتناص الأثر؟ إذا كان النص المبتدع حلماً من أحلام اليقظة، فلماذا نعرض عن الترابطات التى تصنع نسيج الحلم وتفتح أبواب التأويل. ونحن نفسر أحلام اليقظة التى خرجت من فضاءات الذات وأصبحت أحلاماً نهارية مشتركة نسميها «أدباً».

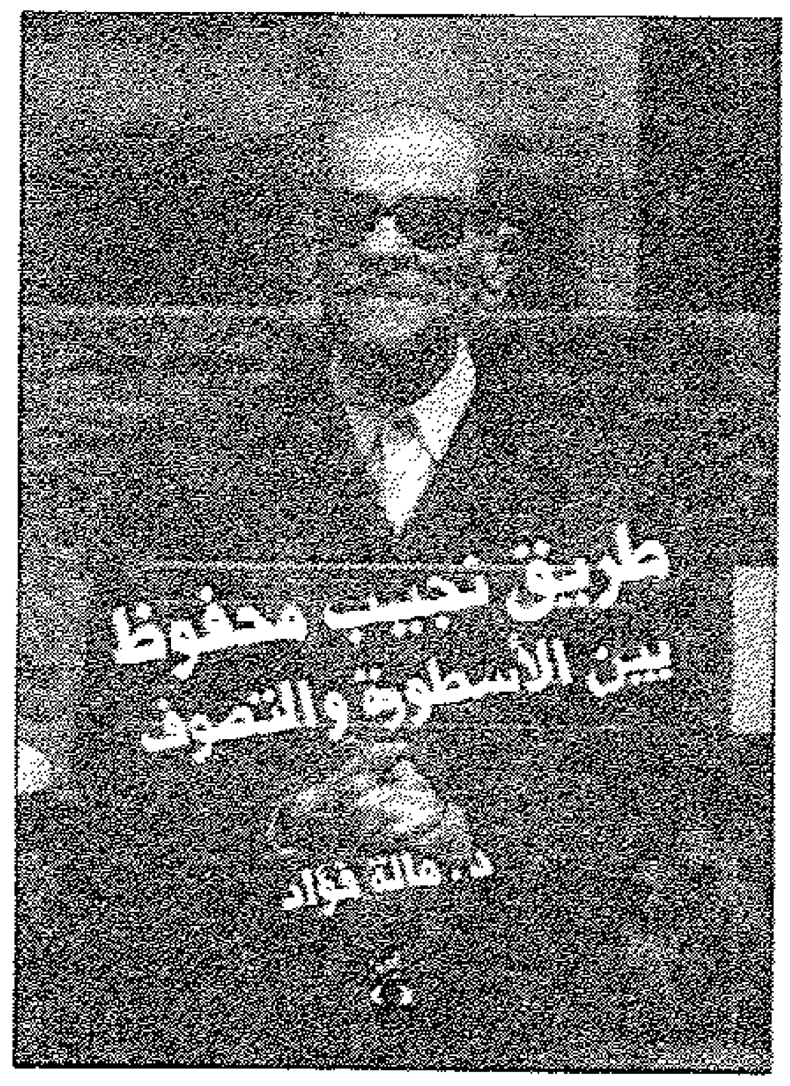
سئمنا التحاليل السرية البنيوية والسيميائية المتعاظمة التى لا تخلى القص من زمنه فحسب، محولة إياه إلى مجموعة من الوظائف أو البنى المجردة، بل تجرده من تفاصيله الشاردة، ومن ثغرات صمته، ومن عمقه التراجيدى الضارب فى أعماق الذات البشرية، إذ «تتسلح بالمنهج» تتخذ المنهج سلاحاً معبوداً تقدم له الكتابة والغرابة قرباناً، فى قداس من الطلاسم التى لم يعد يفهمها إلا الراسخون فى الشكلنة.

وسئمنا مع ذلك انعدام المنهج وانعدام المعرفة، والانغماس فى التجريبية الصماء التى تختزل النص فى مجموعة من القضايا والأطاريح الساذجة.

القصة نسيج من القصص الأقاصيص والآثار، وكلنا نسيج من الأقاصيص والآثار، والقصة اقتصاص للآثار ووقوف على أطلال. والآثار ملموسة من حيث هى آثار، ولا أحد يملك مفاتيح حضورها. القصة ليست صرحاً شامخاً نتأمل هندسته التى لا تعتريها الشروخ. بل صور ومقامات الفتح والتسلح والامتلاك، لنكتف بنوع من «الدندنة» حولها، ولنتبع خطوطها المتشابكة، ولنتخيل ما كان فوقها من بناء، ولنتخيل حركاتها السائرة فى كل اتجاه، دون تعاظم موضوعى.

لا تقدم هالة فؤاد فى هذا الكتيب تحليلاً ضافياً لرواية «الطريق»، بل تكتفى بهامش، تقول إنه صوفى، وهو بالأحرى أشمل من ذلك وأبعد أثراً: إنه تناص، ميثولوجى تراجيدى، بدل القضايا والأطاريح، وبدل البنى المجردة والبهلوانيات المنطقية والسيميائية، اتخذت الكتابة التناص الحر طريقاً إلى «الطريق». إنها المعرفة الحالمة المرحة.

مقدمة كتاب:
طريق نجيب محفوظ بين الأسطورة والتصوف
د. هالة فؤاد
القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٦



تستنطق الكاتبة اللغة، وتشتغل على الدوال فى ترابطاتها العتيقة، فتدهشنا عندما نكتشف من جديد أن اللغة ليست مجرد أداة «نقول بها»، بل هى لسان كاهنة «تقول لنا»: تقول لنا إن «الصبر» من الحبس والأسر، وأن «البرد النوم» لأنه يبرد العين بأن يقرها، وأن «الحسرة» من التعرى والانكشاف، وأن «الصرع» من القتل والغضب.. وما أسعد الكتاب الفلاسفة الذين استمعوا إلى هذه الكاهنة العجوز، فقالوا كالتوحيدى إن «الغريب من غربت شمس جماله»، أو قالوا كابن عربى إن العذاب من العذوبة.

وتتذكر الكاتبة التراجيديا اليونانية القابعة بعمقها الأوديبى فى نسيج أقاصيص حياتنا وفى نسيج روايات نجيب محفوظ البديعة. ألا تقول لنا فى التماعة تأويلية ثاقبة إن الصحفى الضرير الذى كشف عن حقيقة والد صابر لا يعدو أن يكون تيريزياس، لسان حال القدر، ذلك الأعمى الذى أفقدته الآلهة البصر لتمنحه البصيرة؟

سلاح الكاتبة فى هذا الكتيب ليس سردية الوظائف والبنى المنطقية، بل سلاحها ترك السلاح على طريقة أهل التصوف ربما. ترك السلاح واتخاذ الذاكرة الأدبية والصوفية والميثولوجية معيناً ومداداً، أو بالأحرى خيوطاً. لكنها غير خيوط العنكبوت التى تتربص بالقنيصة، بل خيوط الطرازة التى تملأ الفراغات، وتسد البياض، تاركة للآخرين سبل الاستمرار فى الملء والسد المتجددين. أواصل تطريزها من حيث انتهت، فأترجم بعض ما كتبته إلى اللغة التى أصبحت حبيبة إلىّ، منذ أن اقتنعت بأن الأدب لا يمكن أن يكون موضوعاً لعلم، بل مادة لمعرفة، واخترت التحليل النفسى، معرفة وطريقاً، مصيراً محتوماً، كالمصير التراجيدى تقريباً، لأسباب يضيق عنها هذا المجال طبعاً.

تقول الكاتبة: بسيمة أم صابر هى إيزيس، المرددة: «أنا ما كان، وما هو كائن وما سيكون.. وما إنسان بقادر على رفع برقعى».

بسيمة هى الأم العتيقة المتسلطة التى لا تترك للابن فضاء للشوق، ولا تترك للأب مجالاً، لكى يحد من سلطتها ويقوم بإخصاء رمزى للابن، بل وللأم أيضاً، ولذلك اشتق اسم صابر من الصبر الأسر. كان صابر أسير أمه وأسير اسمه: «كان صابر حبيساً داخل فضاء بسيمة عمران الأسطورى...».

تقول الكاتبة: «إن بسيمة وكريمة من سلالة الهات الموت والجنس، أمازونيات يقتلن الذكور بعد مضاجعتهن، بل ويقتلن مواليدهن من الذكور».

بسيمة لم تقتل ابنها واقعياً، بل قتلته يوم اتخذته قمراً معبوداً لا يحتاج ولا يفتقر، ألم يقل نجيب محفوظ إنها قالت لابنها: «أى أب فى الدنيا كان يمكن أن يهيئ لك من أسباب السعادة بعض ما هيأت لك؟» وبسيمة قتلت أبا ابنها بأن غيبته وغيبت اسمه: ألم يقل صابر فى نفسه عن بسيمة: «ثم أحيت أباك لتحرمك نعمة اليأس». التى أحيت الأب قبل موتها هى التى قتلته عند ولادة الابن، بل قبلها.

تقول الكاتبة عن صابر: «إنه يوسف الجميل، صورة أبيه البهية، الساقط فى ظلمة الجب والذى ربما يتحقق ميلاده الجديد عبر غوصه فى عمق هذه الظلمة».

النبى يوسف تركه أبوه، فأخذه إخوته إلى الجب، ثم عاد إليه الأب والتقى به بعد رحلة سعى طويل، وصابر متروك، تركه أبوه، إلا أنه لم يعد إليه. أحلام الأنبياء كانت نبوءات متحققة، أما حلم صابر، فى زمن نهاية النبوءات، فكان عين الواقع: ما كان ممكناً، أى لقاءه بالأب لم يكن، وما كان بإمكانه أن يكون، لأن الأب أرادته الأم بسيمة أن يكون منكراً لأبوته، وهذا ما تحقق فى الحلم، دون أن يكون الحلم نبوءة، أو كان الحلم بالأحرى نبوءة تعكس الماضى السحيق لا المستقبل القريب، ماضى العلاقة الأوديبية الأولى.

فات الأوان يا بسيمة ويا صابر، وصورة الأب التى تسلمها الابن فى آخر لحظات حياة الأم، تسلمها بعد أن سلك صابر طريقه، ولم تعد أن تكون وأن تبقى صورة شبحية. ألم يقل صابر فى حلمه لأبيه المتخيل الذى مزق الصورة ووثيقة الزواج: «أنت تمحو وجودى محواً؟».

تقول الكاتبة: بسيمة: «أعادت إنتاج النموذج السلطوى الذكورى فى أقسى صوره، مرتدة بهذه القيم إلى عصر ما قبل الدين، ما قبل التشريع والقانون».

بسيمة الأم المتسلطة، إمبراطورة الملاذ الليلية بالإسكندرية، لم تترك فضاء لصابر حتى يستبطن القانون الذى يحد من المتعة ويهيكل الذات، لا لأنها مومس وقوادة، فكم من المومسات والقوادات أنجبن أناساً عاديين لا يلجأون إلى القتل، بل لأنها جعلت ابنها يخلد إلى المتعة، ويطلب ما يشاء ويجد ما يطلب. ولذلك تتساءل الكاتبة: «أتراها (بسيمة) كانت تسعى لتأسيس استحالة عثور صابر على أبيه الرحيمى بعالمه وقيمه: قيم الحرية والكرامة والسلام؟».

تستنطق الكاتبة اللغة، وتشتغل على الدوال فى ترابطاتها العتيقة، فتدهشنا عندما نكتشف من جديد أن اللغة ليست مجرد أداة «نقول بها»، بل هى لسان كاهنة «تقول لنا»

رجاء بن سلامة

تقول الكاتبة: «ولعل صابر شأنه شأن كافة البشر، فقد ميثاق التشابه القديم حين غاص في عمق هذا العالم مغترباً عن أصله، فأضحى مجرد قمر على الورق، وحينما رأى صابر الصورة، تذكر ميثاقه الدموي مبهماً وشبحياً، لكنه وعى عبره مدى اغترابه عن الأصل».

الميثاق القديم الضروري لكل البشر، هو ضرورة الاغتراب والابتعاد عن الأصل الرحمي الأموي، لمعانقة المصير والسير على خطى الشوق الفاتح لفضاء الممكن. غاص صابر في اغترابه لأنه عجز عن الاغتراب عن الأصل، وظل يسير على خطى المصير الذي صنعته له أمه، عندما اختارت أن يكون «ابن بسيمة»، وأن يكون له أب حاضر أو غائب أو مسمى.

ومن المفارقات التراجيدية العجيبة أن يكون اسم الأب الذي كشفته عند نهاية المطاف، وبداية القصة، التي كانت قصة نهاية المطاف، هو «الرحيمي»، وكأن اسم الأب نفسه يرد إلى الرحم، ويحيل إلى استحالة الاغتراب المخلص.

حتى لو التقى صابر بأبيه، فليس من الثابت أن ينتشله من عالم الامتلاء بلا شوق، لا سيما أنه هو نفسه أسير المتع التي لا حد لها، وأن بعض ممارساته تدخل تحت طائلة القانون، تقول الكاتبة: «وهكذا لا يختلف فردوس بسيمة في هذا السياق كثيراً عن فردوس الرحيمي، من حيث إنه يقوم على مبادئ التملك والتسلط والاستئثار، وسطوة النفوذ والمال».

لم يكن لصابر أب ولا اسم، ولذلك حق للكاتبة تشبيهه بسمير داكوف، الابن غير الشرعي في أسرة كرامازوف، فقد كان بلا أب ولا اسم، وكان يصرع كصابر، والاثنان آل مصيرهما إلى القتل: كان كلاهما «هامشياً مستوحشاً ممتلكاً بدرجة ما، وقريناً لليأس والعنف والقسوة التي تصل إلى حد القتل».

تتساءل الكاتبة: «هل كان صابر مولود اللعنة أم الاكتمال المخيف، وكلاهما وجهان لعملة واحدة؟ إن زواج بسيمة عمران، والسيد الرحيمي أنجب صابر الجميل المصروع».

نعم كلاهما وجهان لعملة واحدة، كلاهما «انعكاس صارخ لنرجسية مدمرة لا تعتد بحضور الاخر ولم تأتنس به أو تؤنسه أبداً». ألم يقل صابر قبيل قتله زوج عشيقته كريمة: «ولعلي أشارك الله في بعض علمه بالغيب منذ قبلت أن أكون قاتلاً».

كان صابر يصرع، أي يغيب عن العالم ويبتلع العالم، وفضاؤه الصرعي هذا «يصل به إلى حد الشعور بقدرته على الاستغناء عن أبيه، بل إنها اللحظة المناسبة تماماً لمعاينة الأبدية، معاينة الجمال في مجلاه الأكبر، مجلى العمى، أو لعله مقام الحق والفناء إذ تستوعب الذات في عمق الدفء، دفء الرحم البدئي».

تقول الكاتبة: «ولعلنا نقارب هنا تخوم الجنون الإلهي المقدس، الذي قد تنطوي عليه الطبيعة الصرعية لشخصية صابر، والتي كانت تورثه أفكار الفناء. ولعلنا لسنا في حاجة إلى التذكير بالارتباط الأسطوري القديم بين الجنون والأم القمرية الأنثوية الإلهية. ولنتذكر معاً أسطورة سيبيل، الإلهة الأم التي ضربت ابنها وحبيبها آتيس بالجنون فخصى نفسه تحت شجرة التين وظل ينزف حتى الموت».

نعم لنتذكر معاً أسطورة الأم المحرمية سيبيل، عشيقة ابنها الذي أغرق في الجنون وخصى نفسه واقعياً لأنه لم يخص رمزياً ولم يفصل بينه وبين الأم. بسيمة هي إيزيس، وهي سيبيل، ولكن الأسطورة تغالي وتبالغ، و«الغلو يفضح اتجاه الحركة» كما يقول جورج باطاي».

لا لم تكن بسيمة عشيقة صابر الفعلية، ولكنها كانت على أية حال مملكته الوحيدة وكان أسيرها. «إنه لا ينتمي إلا إلى أمه بسيمة» كما يقول نجيب محفوظ، متكلماً بلسان حال القدر.

لكن هذا الجنون غير إلهي، لأنه ليس كجنون «عقلاء المجانين»، ولا يمر عبر تجربة الإعلاء والحب الإلهي، بل إنه جنون مغرق في ظلمة العدم وفي الاكتفاء النرجسي.

تقول الكاتبة إن بسيمة عاجزة عن الافتقار والإعلان عنه، تدافع عن نفسها «إزاء ذلك الحضور المغاير المهدد الذي يخترق حدود السيطرة الذاتية، ويعري أوهام امتلاك المصير الزائفة».

ترى لماذا طردت بسيمة الصديق الذي جاءها ليلاً، ثم أخلدت إلى البكاء؟ ربما لأنها هي أيضاً حبيسة امتلائها النرجسي وافتقارها إلى الافتقار، فلم تترك أي رجل يحتل محل الأب أو العشيق، ويفصم اللحمة بينها وبين ابنها. وربما بكت عجزها عن الافتقار، وربما بكت لأن كل مومس تبيع جسدها لابد أن تبكي في لحظة من لحظات الوحشية. تبكي جسدها الذي لم يعد غاية في حد ذاته، لم يعد أغلى من كل شيء، بل أصبح وسيلة للعيش والربح. إمبراطورة الليل لا سلطة لها على أدنى ما يمكن أن تكون لها عليه سلطة. تقول لنا الكاهنة العجوز - اللغة -: سر المرأة فرجها، والمومس لا سر لها ولا جسد، أو سرها مستباح وجسدها سلعة معروضة.

تقول الكاتبة: كريمة «بسيمة الشابة المولودة من نظرة صابر ومن عمق ذاكرته، وحلمه القديم في عطفه القرشي» وتقول عنها إنها «الامتداد الحي لأمه بسيمة فيما تهبه من متعة وجريمة، وما أعجب صيغ المبالغة بسيمة/ كريمة!».

نعم كريمة آتية من عمق الماضي، كالقراديفا، «صاحبة المشية الرشيقة»، بطلة رواية يانسن. تصور عالم الآثار أنه يحب امرأة غريبة هي تجسيد للنقيشة التي تحمل نفس الاسم، وتصور أن هذه المرأة انبعثت من خراب بومباي، المدينة التي أغرقها بركان الفيزوف، فيتبين له في آخر الرواية أن هذه المرأة بنت جيرانه التي عشقها ونسيها، ولكنه احتفظ في لا وعيه بصورتها، فهو يلتقي بالحبيبة القديمة، ظاناً نفسه أنه يلتقي بامرأة غريبة.

بسيمة، آتية من الإسكندرية، موطن صابر، وهي ملتهبة الوجه والجسد كبسيمة. إنها لا تعدو أن تكون صنواً لبسيمة، التي لم يبرح صابر مملكتها وهو يسير نحو «المرأة الأخرى» أو الحبيبة.

وماذا عن إلهام؟ ألم يحبها صابر محرماً إياها على نفسه، ألم ير ذلك في حلمه، عندما بدا له أنها أخته؟ إذن كريمة وإلهام صورتان للإيماجو الأمومي المنشطر إلى شطرين بفعل الازدواج: شطر سلبي يمثل الشبق والدعارة والقتل وشطر ملائكي طاهر يمثل الأم الأخرى التي تلتبس ببسيمة أو التي ود صابر لو كانت بسيمة هي الشطر السلبي هو كريمة والشطر الإيجابي هو إلهام.

تقول الكاتبة: «فقد كانت بسيمة حريصة على إحكام قبضتها حول أسيرها الجميل حتى إنها أوصته بأن يعشق من النساء من يشاء، ولكن لا يجعل لإحداهن سلطة عليه، أو لنقل لا يسلم صك ملكيته لامرأة أخرى تغدو نداً لها...».

ماتت بسيمة منذ ابتداء الرواية، ولكنها ماتت مجدداً، عندما قتلها صابر بقتله كريمة.

تقول الكاتبة: «إن صابر هو المريد الذي لا شيخ له إلا الظلمة؟ ولعلنا نذكر زيارته اللافتة للعارف سيدي الشيخ زندي بعطفة الفراشة قبل مغادرته للإسكندرية...».

إذاً لم يكن له من شيخ إلا الظلمة، فهو ليس مريداً أو هو المريد المستحيل، كما أنه ابن الأب المستحيل، والشيخ في الظلمة لم يبشره إلا بالصبر، أي بالأسر.

تقول الكاتبة: «وهكذا سقطت الذات في حبالة الطريق الفخ، في بئر كبريائها الذاتي الوهمي، وقد وأدت حضور الآخر، وربما التهمته، لا لتنفي وحشتها الهائلة، بل لتقرها عبر نفي الغيرية وقتلها».

هذا شأن بسيمة وصابر ابن بسيمة. والمقام ليس مقام محاكمة أخلاقية، وما أبعد أدب نجيب محفوظ عن هذا المقام، ما أبعد قارئته أيضاً عن هذا المقام.

بسيمة المومس الباكية في الظلمة ليست بريئة وليست آثمة، وصابر الباحث عن أبيه المتخبط في أذيال مملكة أمه ليس بريئاً ولا آثماً. بسيمة قتلت ابنها صابر من فرط الحب، وصابر قتل كريمة وبسيمة التي تلتبس بها، من فرط الحب أيضاً، وانفتح أمامه باب القتل لأنه أراد أن يعاقب وأن يقدم نفسه قرباناً للقانون وللأب الذي حرم منه.

إنهما من سلالة سيبيل وأوديب الملك. ونجيب محفوظ رسم طريق لعنتهما بحكمة عالية، وحس تراجيدي مرهف، فجعلنا أسرى لهذه الرواية بعد قراءتها، متحيرين متسائلين عن نسيج الأقاصيص التي صنع بها مصائر شخصياته وصنعت منها مصائرنا.

من المفارقات التراجيدية العجيبة أن يكون اسم الأب الذي كشفته عند نهاية المطاف، هو «الرحيمي»، وكأن اسم الأب نفسه يرد إلى الرحم، ويحيل إلى استحالة الاغتراب المخلص

بعد الصحافة والفضائيات

سينما مستقلة

رنا حايك - محمد خير



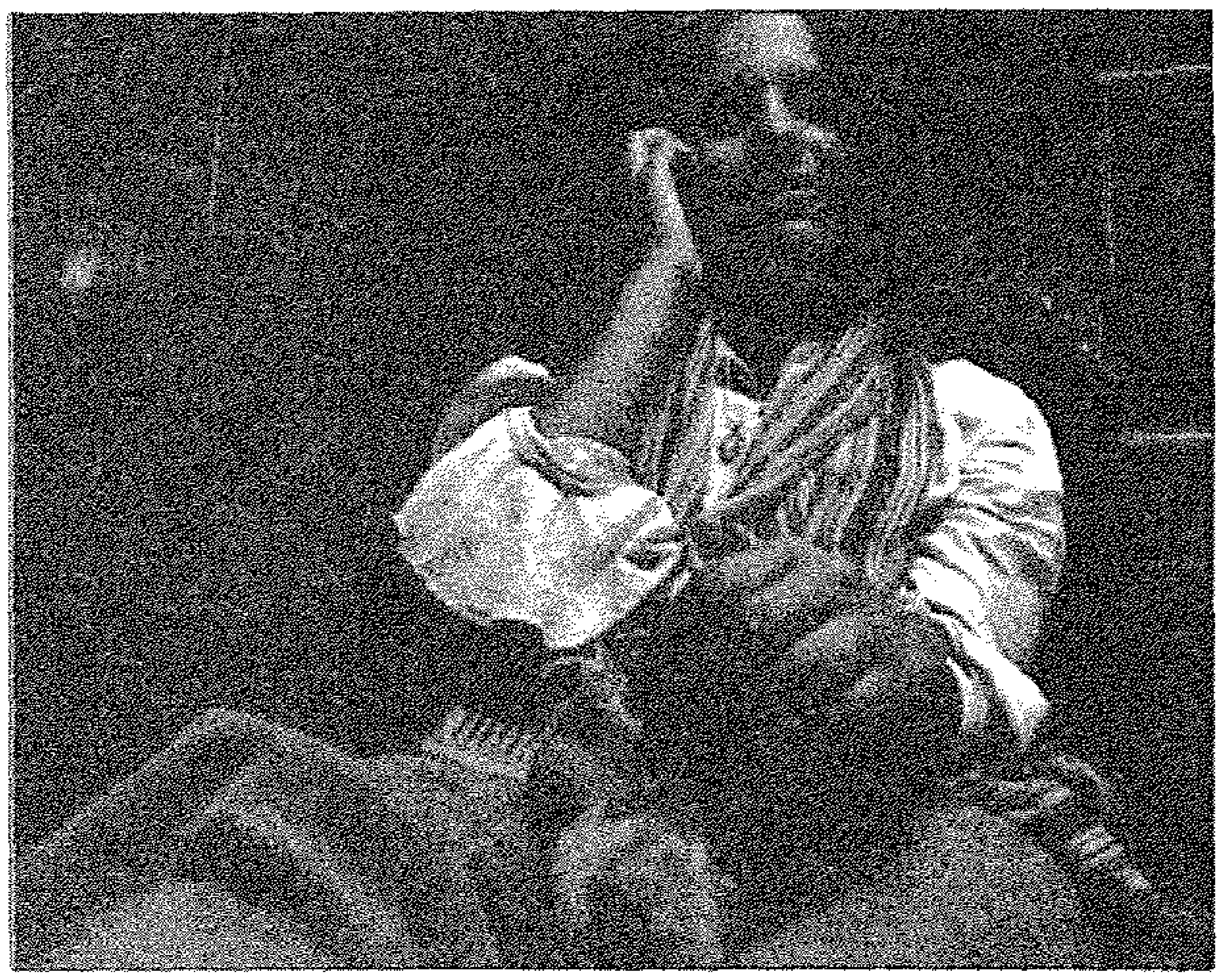
الجنيه الخامس

■■ من مفارقات اللحظة المصرية الراهنة، أن ذلك البلد العريق في بيروقراطيته ومؤسساته العتيدة، المنقسم منذ دهور بين سلطة مركزية وبشر اعتادوا على الدوران في فلكها، أفاق فجأة على انتعاشة فائقة لكل ما هو مستقل عن الطرفين. صحافة مستقلة ازدهر توزيعها على حساب مؤسسات عتيقة، وفضائيات مستقلة غنائية وترفيهية اختطفت الأضواء التي طالما احتكرها مبنى ماسبيرو، دعاة جدد احتلوا مكان ومكانة الأزهر، وأخيراً: سينما مستقلة شابة، قد يندهش القارئ عندما يعرف أن إنتاجها يتخطى الآن خمسين فيلماً سنوياً، في وقت يتفاخر فيه منتجو السينما التجارية بأنهم أنتجوا في موسم ٢٠٠٥ ما يقرب من ٣٠ فيلماً، معتبرين أنهم بذلك أقالوا السينما المصرية من عثرتها التي بدأت في أوائل التسعينيات، تحديداً في العام ٩٣ عندما اقتصر الإنتاج السينمائي المصري على ٧ أفلام لا غير.

وبينما وقفت خلف الإعلام - الصحفي والتليفزيوني - المستقل مؤسسات مالية ورجال أعمال يكفلونه بتمويل لا ينضب، فاستطاع كسب جماهير واسعة، ظلت السينما المستقلة الجديدة على الهامش فيما يختص بالتمويل والعرض العام، بل حتى على مستوى الاهتمام النقدي، ظلت مشاريع الأفلام المستقلة بأنواعها (التسجيلي، والروائي القصير والطويل) مشاريع فردية بالأساس، ينتجها مخرجون شبان على نفقتهم الخاصة أو على نفقة جمعيات أهلية أو مراكز متخصصة لتمويل هذا النوع من الإبداع مثل مؤسسة «سمات» التي تصدر أيضاً مجلة «نظرة» المتخصصة في السينما المستقلة، شبان استفادوا من تقنية كاميرا الديجيتال التي ظهرت منتصف التسعينيات، فصنعوا أفلاماً محدودة التكلفة سرعان ما فرضت نفسها على المهرجانات الدولية قبل المحلية، وانتشرت عروضها في الجمعيات والمراكز الثقافية والنقابات، وإن ظلت بعيدة عن الجمهور العريض الذي لن يتحمل ما تمارسه هذه السينما من تكسير للتابوهات، كما يرى الناقد الفني عصام زكريا، والذي يضيف أن المفارقة تتأتى من كون أن أغلب الاعتراضات على جرأة الأفلام المستقلة ونقدها للمسلمات، تأتي من قبل الجمهور المثقف نفسه.

في الواقع، ولولا هذه الجرأة، ربما لم يكن أغلب الناس ليسمعوا عن السينما المستقلة. في الفترة الأخيرة دأبت صحف ومواقع إلكترونية على إثارة القراء بعناوين من نوع (فيلم مصري يسخر من الحجاب، أو يهين المحجبات، أو يشوه سمعة مصر)، هكذا من دون تدقيق أو رؤية نقدية، بل غالباً دون أن يرى كاتب الخبر الفيلم الذي يكتب عنه، فيمتلئ الخبر بالمعلومات الخاطئة عن الفيلم وعن الممثلين، فيدعي مثلاً أن الممثلة التي (سخرت من الحجاب) ممثلة مسيحية، ثم يتضح أن الممثلة ليست مسيحية، وأنها لم تسخر من الحجاب أصلاً، وأن الفيلم (الأسانسير) للمخرجة هديل نظمي يناقش قضية لا علاقة لها بالحجاب أو الإسلام أو أي دين، ولكنها ضرورات الفرقعة الصحفية.

لماذا حاز الفيلم المصري المستقل هذه السمعة المشبوهة، وهل بالضرورة أن يرتبط كسر(التابو) بالسينما المستقلة كمفهوم وكمشروع؟ في الواقع، تتغير معطيات وأهداف السينما المستقلة من بلد لآخر، ومن فترة زمنية لغيرها، وإن كانت بشكل عام قد ظهرت لأول مرة في خمسينيات القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكية، كنوع من الاحتجاج على احتكارات استديوهات هوليوود الكبرى



الأسانسير



انت عارف ليه

وأحيانًا كان الفيلم المستقل يلعب دور ورقة تعريف يقدم المخرج من خلالها عمله لتشجيع المنتجين على التعاقد معه، كما يحكى الناقد السينمائى ضياء حسنى.

أما فى مصر، فقد ولدت السينما المستقلة فى لحظة سياسية واجتماعية حرجة، كواحدة من تجسدات رغبة شباب المصريين المبدعين فى التعبير عن أنفسهم وأحلامهم وأحزانهم، لا تختلف عن المدونات على شبكة الإنترنت، أو الفرق الموسيقية التى انتشرت تؤدى أغانيها فى المحافل الفنية الثقافية، أو الروايات والدواوين التى ينشرها الشباب على نفقتهم الخاصة فى وقت تنسحب فيه الدولة مسافة جديدة كل يوم، وإن كانت السينما المستقلة قد سبقت كل ما سبق، وقدمت أول فيلم من هذه النوعية عام ١٩٨٩ بعنوان (حبة سكر) للمخرج حاتم فريد، وكان فيلماً روائيا طويلاً على غير عادة الأفلام المستقلة، إذا ما استثنينا فيلم (كلفتى) عام ٢٠٠٤ للمخرج محمد خان الذى ينتمى لجيل مختلف سنًا ووعيًا عن معظم أبناء السينما المستقلة.

غالبًا ما تتميز الأفلام المستقلة بالإيقاع السريع الذى يسابق الدقائق القليلة التى تشكل مدة الفيلم، أفلام تشبه عصرها، عصر السرعة الذى يختصر طموحات جيل شب فوجد نفسه محاصراً داخل الوطن، محدود الإمكانات ومهدد بسلفية متصاعدة تراقب أفكاره، وجمود سياسى خانق يجمد أحلامه فيجعله يتساءل عن معنى الوطن ومكانه وضروراته، كما فعل تامر عزت فى فيلمه الوثائقى (مكان اسمه الوطن) الذى حصد الجائزة الأولى فى كل من مهرجان الجزيرة للإنتاج التليفزيونى والوثائقى، ومهرجان روتردام للفيلم العربى، عمد تامر إلى انتقاء أربع شخصيات تنتمى إلى مختلف شرائح الطبقة الوسطى، وقد استطاع ببراعة أن يلتقط الفوارق الطفيفة بين الوضع الإجتماعى لكل شخصية عن الأخرى. وإن كان بدا مهتماً أكثر بالإجابة عن سؤاله الأساسى : ما هو الوطن؟

يبدأ المخرج بأسئلة حول معنى الوطن يلقيها على عينات عشوائية من المارة ثم ينتقل سريعًا إلى شخصيات الفيلم الأساسية، شابين (السباعى) و(معتز)، وفتاتين (ميريام) و(همس)، كل من الشابين يعول أسرته بشكل ما، الأول يساعد أباه فى شركة صغيرة ولا يجد الوقت أو الفرصة لممارسة هوايته فى التلحين والغناء، والثانى مخرج تليفزيونى يتحمل مسئولية أسرته بعد وفاة الوالد وينجح بإمكاناته المحدودة فى الزواج من حبيبته، أما ميريام فهى فتاة مسيحية تعمل مترجمة فى دار نشر وتحب شابا مسلما لا يمكنها الزواج منه بالطبع، و(همس) فتاة مصرية عاشت فى أمريكا منذ طفولتها وأخيراً جاءت إلى القاهرة وتزوجت شابا بولندياً بعد أن أشهر إسلامه، تقول للكاميرا أنها تشعر بالانتماء لمصر وتريد الاستقرار فيها بعد أن طافت العالم فى رحلة استغرقت أحد عشر شهراً، (معتز) أيضًا لا يريد أن يسافر خارج مصر رغم أنه لم يطف العالم مثل همس، أما (السباعى) و(ميريام) فهما لا يجدان طريقًا لمستقبلهما إلا فى الهجرة، الأول حتى يستطيع أن يحقق أحلامه فى الموسيقى، والثانية حتى تجد حريتها الشخصية وحقها فى اختيار الزوج الذى تريد، والاثنان لا يكفان عن محاولة الهجرة رغم ضغوط الأهل الذين استسلموا أخيراً، ومع انتقال الكاميرا بين الأبطال الأربعة يتحول الوطن تدريجيًا ليصبح مفهوماً هشًا للغاية، مفهوما (شخصيا جداً) كما يقول المخرج نفسه فى نهاية الفيلم، كما تلاحظ، فإن شخصيات (مكان اسمه الوطن) تتمتع بحرية نسبية ومقدرة على اتخاذ قرارات جذرية ومكلفة مثل الهجرة والتخلى عن حياة مستقرة ماديًا على الأقل، وهو ما يختلف تماماً عن الحالة التى وجد فيهابطلا فيلم (الجنيه الخامس) للمخرج أحمد خالد أنفسهما: هنا شاب وفتاة متحابان، مهربهما الوحيد للتنفيس عن حبهما هو الأوتوبيس المكيف وثمن المتعة التى يسرقانها فى آخر مقعدين، بالإضافة إلى الجنيهات الأربعة ثمن التذكرتين، جنيه خامس لسائق الأوتوبيس المتواطئ الصامت، الفيلم كان هو الأكثر جذبًا للاحتجاجات الجماهيرية والضجة الصحفية، والسبب لم يكن تناوله لحالة تواطؤ تحدث يوميًا فى الشارع (الأوتوبيس) المصرى، وإنما ثارت الضجة لأن الفتاة فى الفيلم كانت محجبة، هذا هو ما أزعج الجمهور ودفع بعدة مراكز ثقافية للاعتذار عن عدم عرضه، ومنها المركز الثقافى الفرنسى الذى مازال يتصرف بدافع مشكلة منع الحجاب فى المدارس الفرنسية، وهكذا، يتوجه الاهتمام بغالبية الأفلام المستقلة إلى نواح لم يقصدها — أو يريدها - صناعها، فالحجاب أيضًا كان سبب الضجة والشائعات التى اندلعت حول فيلم (الأسانسير) الذى قدمت فيه المخرجة هديل نظمى شابة مصرية محجبة تحتجز حوالى ربع ساعة فى أسانسير معطل، خلال هذه المدة تصرخ وتستغيث بالبواب لكن لا يسمعها أحد، ويرن هاتفها الخلوى ليأتيها على الطرف الآخر صوت شخص لا تعرفه: «معاكسات التليفون» الاعتيادية، ترصد المخرجة انفعالات الفتاة خلال هذه المدة وتفاعلها مع المتصل الذى لا يمل معاودة الاتصال، وتتدرج ردود أفعال البطلة من العنف والتذمر إلى التجاوب والاستمتاع بغزل المتصل الذى يوصلها فى لحظة من اللحظات إلى خلع الحجاب والنظر فى المرآة وفك ضفائرها لتعيش انوثتها كاملة دونما إحساس بالخجل لأنها وحدها بين أربعة جدران ولأن المواجهة مع من يغازلها ليست فعلية فهو لا يعرف شكلها بل ولا حتى اسمها الحقيقى، ينتهى الفيلم بإصلاح الأسانسير فتلبس الفتاة حجابها مجدداً وتخفى ابتسامتها الرقيقة التى ارتسمت على وجهها خلال الخمس عشرة دقيقة الماضية وتعقد حاجبيها وتخرج من الأسانسير إلى حياتها الطبيعية التى تساوى الكبت وانعدام الخصوصية كما يليق بالأنثى الشرقية التى تحيا اغترابا كاملاً عن مشاعرها بمجرد أن تغادر عتبة بيتها، ومع ذلك، فإن هذا الكبت لا

الاغتراب هنا
هو العنوان الرئيسى
وهو الخيط الذى يجمع كل
ما تكلمنا عنه من
أفلام، بالطبع

كتاب الزاوية

من أدب الغرس والترك

سقاية عابر السبيل

احتساب الخير عند الله وتقديمه فى سبيله، جعل لكلمة سبيل مدلولاً خاصًا، فاقترنت بكثير من الصدقات، كأن يقال عملت التوابيت لتغسيل الموتى للسبيل بغير أجرة، وأن فلانًا كان يقيم فى كل سنة سبيلاً للحاج، وسير معه جميع ما تدعو حاجة المسافرين إليه فى الطريق، ومكتب السبيل هو المكتب الذى لا يلزم الصبيان فى دخوله شىء، ومن أخص ما يسمى بالسبيل سبيل الماء، وهو بناء صغير أو كبير يشرب منه، وتجرى العادة بغرس شجرة أو شجرات تمد عليه وارف الظلال، ليكون مثابة ومأوى لعابر السبيل يلوذ به من لفحة الهاجرة ووقد شمسها، فيرتوى من حرقة الظمأ، ويجد برد الراحة بعد طول الأين والإعياء، فكأنه كان يضرب فى الصحراء المشمسة العطشى، ثم عاج بواحة خضراء فيها ظل وماء.

ومما يشير إلى فرط اهتمام أهل الخير والبر بها، وأنها كانت عندهم أول ما يبتغون به مرضاة الله بعد تشييد المساجد، إنه بينما كانت والدة أحد السلاطين تبنى مسجداً ذا مئذنتين، قل مالها ولم يف إلا بإقامة مئذنة واحدة، وعرف ولدها السلطان ذلك من أمرها، فأمدها بما يسد حاجتها ويقيم لها المئذنة الأخرى، بيد أنها قالت لما تحصل المال لها: «كلا إن فى المئذنة الواحدة كفاية لدعوة المؤمنين إلى الصلاة، وما فى الأخرى إلا مجدى ورفع ذكرى، إن المسكين إلى السبيل فقير!»، وأمرت بإنفاق المال على تشييد سبيل.

يميز أو يعبر عن ميادة سعد الطالبة بقسم الترجمة بجامعة ٦ أكتوبر، وبطلة فيلم (انت عارف ليه)، هى فى السادسة عشرة من عمرها (رغم أن أمها تقول أن عمرها تسعة عشر عاما)، استجابت لإعلان المخرجة سلمى الـــطـــرزى casting agency for modeling وتقدمت للاختبار كممثلة وعارضة وفتاة إعلانات، لم تقصد سلمى أن يكون ذلك فخًا، بل كان تجربة للتفتيش عشوائيًا عن شخصية الفيلم الأساسية، وحين وجدت ميادة، كانت تلك حاضرة ومادة غنية صنعت فيلمًا بتلقائية شديدة، فيلمًا تكلم عن نفسه وعن المجتمع الذى انبثق منه على لسان مقابلات متتالية سجلت مع ميادة ومع أمها، تتخللها لقطات غالبًا ما ناقضت كلام الاثنتين، وكانت كل منهما فى عالم مختلف تتنازعهما منظومات قيم مختلفة، ومع ذلك فإن ما يجمعهما ببعضهما البعض وببطلة فيلم الأسانسير هو ذات حالة الاغتراب، اغتراب عن الذات وعن الآخر، ففى الوقت الذى تمثل فيه الفنانة روبى مثلها الأعلى، ترفض ميادة أداء أدوار الإغراء لكن لا مانع لديها من التقبيل إذا تطلب الموقف الذى تؤديه ذلك، وفى نفس الوقت الذى نرى فيه صورا لميادة ترتدى فيها الثياب الجلدية لامرأة سادية تمسك السوط فى يدها، كما طلب منها المخرج، نسمع صوت أمها أثناء مقابلة مع المخرجة تؤكد على معارضتها لأداءات روبى من ناحية أخلاقية وتقول أنها تصطحب ابنتها لكل المقابلات وتحرص على عدم أدائها أدوار الإغراء وأنه لو تطلب الدور المعروض عليها أداء مشهد إغراء، تصر على تأديتها له بعينيها فقط ! وفى نفس الوقت الذى تقول فيه ميادة أن والدها فخور بها ولا اعتراض لديه على المهنة التى اختارتها لنفسها، ترجو الأم من المخرجة ألا تخبر الوالد لأنه لا يعرف شيئًا بعد عن الموضوع..

هكذا فإنه لا ميادة ولا أمها تعرفان ماذا تريدان بالضبط، المهم أن تصبح الفتاة «شيئًا» مهما كان هذا الشىء غير محدد، مذيعة، مغنية، مضيفة، أى شىء يؤهلها له رصيد ابنتها من الجمال- الذى أصبح الرصيد الوحيد المعترف به للنجاح - لأن تصل إليه، وتتحمل فى سبيله كمًا لا نهائيًا من الاستغلال والتحكم المادى والمعنوى.

يختار الفيلم المستقل الوثائقى شخصيات عادية من واقع الحياة، أما الروائى فإنه يرسم شخصيات تقترب بقدر الإمكان ممن يمكن أن تقابلهم فى الشارع، ولهذا تجد معظم أبطال الأفلام المستقلة قد أصابهم ما أصاب المجتمع المصرى فى صورته العامة، غالبيتهم يحملون داخلهم تناقضات مرعبة وحيلاً نفسية دفاعية يتضخم دورها حتى تكاد تصنع عالمًا وهميًا كاملاً يحيا داخله الناس بينما يتواجدون فى الواقع بأجسادهم فقط، الاغتراب هنا هو العنوان الرئيسى وهو الخيط الذى يجمع كل ما تكلمنا عنه من أفلام، بالطبع، فإن هناك أفلامًا أخرى أشبه بالقصص القصيرة التى تلتقط لحظة لتعبر عنها فى دقائق معدودة، أيضًا ثمة أفلام كوميدية وتاريخية بل حتى بوليسية، هناك أفلام تجمع هذا بذاك ويصعب تصنيفها فى إطار معين مثل (يوم الاثنين) لتامر السعيد، (دردشة نسائية) لهالة جلال، أو (صور من الماء والتراب) لهالة لطفى، زخم سينمائى شاب بعيد كل البعد عن الانحطاط الذى أصاب السينما التجارية التى جربت أن تقتنص بعض المخرجين المستقلين فقدمت فيلم (الحاسة السابعة) للمخرج أحمد مكى الذى كان فيلمًا قصيرًا بنفس الاسم حصد الإعجاب والجوائز، ولكن بعد تحويله و(مطه) ليناسب العرض التجارى لم يحصد سوى الفشل الذريع، مما طرح أسئلة حول الفارق (النوعى) بين الفيلم القصير والطويل، أم أنه فارق فى الأهداف والطموح بين شباب يصنعون فنهم على نفقتهم وبشروطهم، وبين منتجين أتى أغلبهم إلى السينما من عالم البيزنس ويلعبون وفق شروطه، هل من الأفضل أن يتم الفصل بين الفيلم المستقل القصير غالبًا، والتجارى الطويل دائمًا ؟ أم أن ذلك سيحكم على المستقل بأن يظل على الهامش أبداً ؟ خاصة فى بلد تسيطر فيه بضع شركات معدودة على دور السينما وكل وسائل العرض، أم نكتفى من السينما المستقلة بالاطمئنان الذى يداخلنا على أن الموهوبين مازالوا موجودين وبكثرة كما تدل أعمالهم الممتعة فنيًا والمشغولة بقضايا الوطن فى ذات الوقت؟

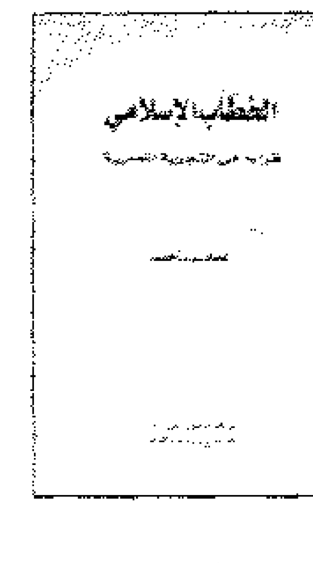
أسئلة ربما لا يصح أن نلقى هم إجابتها على المستقبل وحده.. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك، وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الخطاب الإسلامى.. قراءة فى التجربة المصرية

عماد سيد أحمد

القاهرة: مركز الأندلس لدراسات التسامح، ٢٠٠٦، ١٢٦صفحة



يبدأ المؤلف من لحظة فارقة، حين أعلنت الجماعة الإسلامية فى مارس ١٩٩٧ مبادرتها لنبذ العنف، وبعدها بخمس سنوات تم الإفراج عن أعضائها، بعد سنوات طويلة قضوها فى السجون والمعتقلات وصلت إلى ربع قرن تقريباً، وقد أصدر قادة الجماعة أربعة كتب أسموها كتب المراجعات، وهى التى أكد تقرير مجمع البحوث الإسلامية خلوها تماماً من أى فكر متطرف، ولكن هل انتهى بذلك فكر التطرف والعنف الذى وجه سلوك الجماعة سنوات طوالاً؟

هذا هو السؤال الذى يستغرق المؤلف بحثا فى الجذور الفكرية للخطاب المتطرف لدى الجماعات الإسلامية، وهو يبدأ من محنة الإخوان المسلمين مع ثورة يوليو، فى عامى ١٩٥٤ ثم ١٩٦٥، وكان بين من ألقى القبض عليهم فى الهجمة الأخيرة شكرى مصطفى زعيم تنظيم التكفير والهجرة الذى أودع السجن وهو فى الثالثة والعشرين بتهمة توزيع منشورات لجماعة الإخوان المسلمين، وحين حكم عليه بالإعدام فى ١٩٧٧ كان الاتهام أشد: فقد قتلت جماعة التكفير والهجرة الشيخ الذهبى.

يتابع المؤلف مسيرة الجماعات الإسلامية فى عهد السادات والشروط التى أدت إلى تعاظم الدور الذى لعبته هذه الجماعات وتنامى تأثيرها، مستفيدة من ظروف سياسية ودولية واقتصادية بدت مواتية، ويشير المؤلف كذلك إلى التحولات التى جرت فى التيار الرئيسى لجماعة الإخوان المسلمين، وتأثير الحالة الأفغانية على قطاعات واسعة من شباب تيار الإسلام السياسى، سواء منهم من جاهد هناك أو من بقى، وكانت المفاجأة أن يبرز تيار الوسط برئاسة المهندس أبو العلا ماضى، والذى كان ناشطًا إسلاميًا بالجامعة فى أواسط السبعينيات.

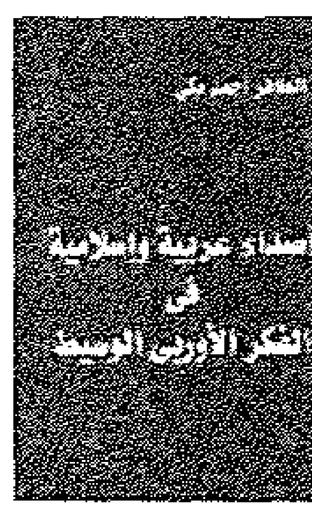
وفى الفصل الثانى يركز المؤلف على دور الأزهر بوصفه المؤسسة الدينية الرسمية التى يقع عليها عبء الدعوة وتجديد الخطاب الدينى، ويشير إلى حالات القصور الشديدة التى تؤثر فى عمل هذه المؤسسة، كما يشير إلى حرب الفتاوى التى تشتعل على الفضائيات بين الدعاة الجدد الذين يحظى بعضهم بكاريزما عالية مع افتقاره للبضاعة العلمية الحقيقية من ناحية أو رموز المؤسسة الدينية المعنيين بالفتوى بشكل رسمى، والذين ينظر إليهم فى كثير من الأحيان بوصفهم موظفين لدى النظام، وهو ما يحد كثيراً من تأثيرهم بين الناس.

يتناول المؤلف بعد ذلك من يسميهم بالإسلاميين المستقلين ويناقش خطابهم، ويركز بالأخص على كتابات أحمد كمال أبو المجد والدكتور محمد عمارة، ويقدم قراءة نقدية تحليلية فى الختام لكتابات جمال البنا ونصر حامد أبو زيد.

أصداء عربية وإسلامية فى الفكر الأوروبى الوسيط

الطاهر أحمد مكى

القاهرة: دار الهانى للطباعة والنشر، ٢٠٠٥، ٣٨٦ صفحة



منذ خمسة قرون كانت إبداعات العرب هى المنار الهادى للغرب فى مجالات العلم والفلسفة والرياضيات والفلك والأدب، وكثير مما بنت عليه أوروبا نهضتها وأرست به دعائم تقدمها فى العصر الحديث، جاء استناداً إلى ما قدمه العرب من إنجازات فى ذلك الزمن، لكن العرب لم يحققوا ذلك إلا بتحقيق أمرين هما احترام العقل واحترام كرامة الإنسان، وهما شرطان غابا، فغاب الإبداع وتراجعت الأمة.

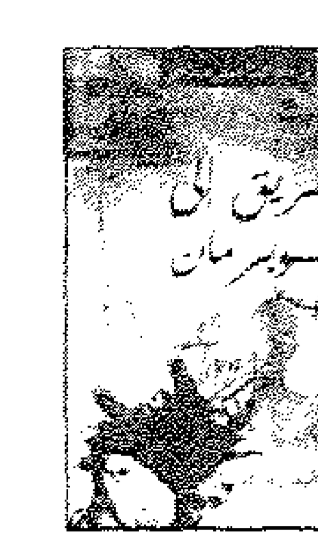
يحاول المؤلف أن يقدم الأصول الحقيقية للإبداعات الغربية فى مجالات العلم والأدب والفلسفة، والتى مثلت الإبداعات العربية بذرتها الأساسية، وفى حالة اليونانيين مثلاً، فقد كانت مدرسة الإسكندرية هى أول لقاء بين المسلمين والفكر اليونانى. ثم يعرض لعمليات الترجمة التى تمت على نطاق واسع من العربية إلى غيرها من اللغات، وهو ما أفاد الغربيين الذين اطلعوا على كتابات رائدة فى الطب والفلك والأدب والعلوم، كتبها المسلمون فى عصور ازدهارهم، كما اهتم الغرب بترجمة الأساطير والحكايات الشعبية مثل ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة ومقطوعات كثيرة من الشعر الأندلسى، ثم كتب التراث وبعض المعلقات ودواوين الشعر ومقدمة ابن خلدون وغيرها.

بعد ذلك يقدم المؤلف شواهد على استفادة الأوروبيين مما قدمه العرب فى كافة العلوم، فيعرض للأصول العربية لفلسفة رايموند ولوليو، الذى قرأ النصوص العربية بلغتها الأصلية دون ترجمة أو وساطة، ثم يعرض لعدد كبير من المفكرين والمستشرقين الإسبان الذين نقلوا علوم العرب إلى الغرب، ويلاحظ كذلك كيف أن كثيراً من الألفاظ الموسيقية التى استخدمها الغربيون هى ذات أصل عربى، ويشير إلى الأصول العربية للكوميديا الإلهية عند دانتى وخصوصاً اقتباساته وتأثره بابن عربى، وكذلك تأثير قصة حى بن يقظان لابن طفيل على عشرات من الأدباء والفلاسفة الغربيين.

الطريق إلى السوبر مان

ترجمة: أحمد مستجير

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٦، ٣٢٠ صفحة



يبدو الدافع إلى تغيير أنفسنا وتحسين ذواتنا جزءاً أساسياً وطبيعياً مرتبطاً بطبيعتنا البشرية، باحثين دوماً عن أن نصبح أقوى وأسرع وأذكى وأطول عمراً، هذا هو سعى الإنسان منذ خلق وحتى قيام الساعة، وقد كانت المخاطرة الحقيقية التى واجهها الإنسان هى وجود خلل أو ضعف فى جهاز المناعة، ويصبح العالم الخارجى فى هذه الحالة مصدر تهديد مستمراً للجسم، وبدأ التفكير فى مسألة العلاج بالجينات بعدما ثبت عدم قدرة العقاقير على تحقيق تحسن مستمر، وقد بدأت الهندسة الوراثية عام ١٩٧٢ واستمرت الأبحاث تتطور طوال الثمانينيات، وبدأت مئات المعامل بدءاً من عام ١٩٩٠ فى تجريب العلاج بالجينات، وفى تجارب أجريت عن علاج الأنيميا مثلاً بالعقاقير وعلاجها بالجينات: ثبت أن المرضى الذين عولجوا بالجينات استمرت كرات الدم الحمراء تتزايد فى دمائهم باطراد، أما من عولجوا بالعقاقير فإن كرات الدم الحمراء تضاءلت بعد عدة أسابيع من العلاج، هذا مجرد وجه من أوجه العلاج بالجينات، يمكن أن يضاف إليها العلاجات التجميلية وتغيير لون الجلد ومقاومة السمنة، وبشكل عام، فإنه فى ظرف عقود، تمكن العلماء من اكتشاف عشرات التقنيات التى تمكن من تحور الجينوم البشرى بشكل منضبط، بما يمنح القدرة على علاج آلاف الأمراض، ويعزز قدرات الجسد ويغير بالتالى نوعية الحياة.

ما يعد به العلاج بالجينات واكتشاف خرائط الجين البشرى يتجاوز هذا بكثير ويمكننا من اختيار عقولنا وتقوية قدرات التذكر ومقاومة الزهايمر أو تأخيره إلى أقصى مدى فى أسوأ تقدير، كما يجرى العلماء تجارب رائعة تستهدف إيقاف الشيخوخة، وهذا هو الطموح الأكبر، فإذا تمكنا من تأجيلها على المدى القريب، يكون العلماء قد حققوا نجاحاً باهراً، يضاف إلى هذا القدرة على تخليق الجينات المماثلة لاختيار صفات الأبناء على صورتها المثلى.

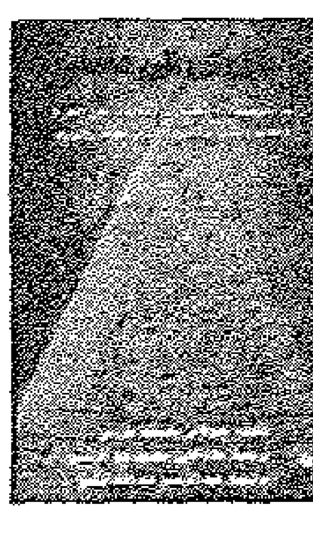
العلم يسعى كما يبين الكتاب إلى تعزيز قدرات الإنسان ومواجهة مخاطر المستقبل، ويثير ذلك بالضرورة كثيرا من المشاكل القانونية والسياسية والاجتماعية والدينية. هذا بعض ما يناقشه الكتاب.

بلزونى فى مصر

جيوفانى بلزونى

ترجمة: علاء الدين محمود عبدالرحمن

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ٥٤٩ صفحة



زار هنرى صولت مصر عام ١٨٠٦ ورسم تخطيطات مبدئية لمدينة القاهرة، وبذل جهوداً كبيرة ليكون قنصلاً بمصر كى يتمكن من جمع أكبر كمية من الآثار لحساب أحد الأغنياء الإنجليز، ليحقق ثروة كبيرة، واستخدم فى حيله تلك المغامر الإيطالى جيوفانى بلزونى الذى وصل إلى مصر عام ١٨١٥، بهدف بيع آلة رافعة لنقل المياه، لكن مشروعه أخفق فأنقذه الرحالة السويسرى لويس بوكهارت وأوصى به صولت، وفى غضون ثلاث سنوات فتح منفذاً إلى معبد أبى سمبل الذى اكتشف بوكهارت وجوده قبل ذلك بعدة سنين، وأزاح الرمال عند مدخل الهرم الأوسط وكشف مقبرة ستى الأول فى وادى الملوك بطيبة، وكانت أساليبه فى الحفر متهورة، وفى مرات عديدة حين احتاج النار للتدفئة أو طهى الطعام كان يشعل النار فى المومياوات.

وهذا الكتاب يتضمن سرداً لما رآه بلزونى

وعايشه فى مصر خلال الفترة من ١٨١٥ وحتى ١٨١٩، وهو لا يقتصر على الاكتشافات الأثرية التى كانت ولعه الأشد، وإنما كذلك الناس وعاداتهم وتقاليدهم، ويعتقد بلزونى أن ما ميزه عن آلاف الرحالة الذين زاروا مصر هو هذه النقطة بالذات، فهو يرى أن أيًا من هؤلاء الرحالة لم تتح له دراسة تقاليد سكان البلاد كما أتيحت له، فقد تعامل مع الأتراك والعرب المصريين والنوبيين والبدو وقبائل العبابدة.

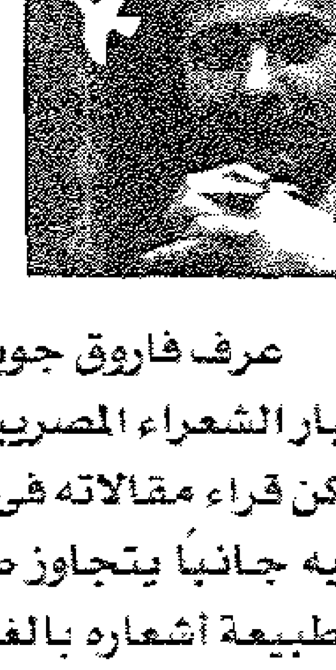
وكان دافعه لإصدار كتابه هذا، هو أنه حين عاد إلى أوروبا اكتشف كثيرًا من الأخبار المغلوطة عن أعمال البحث والتنقيب التى قام بها فى مصر، فكان عليه أن يصحح ذلك بنفسه.

وهو يسرد رحلته بتتابعها الزمنى، كما جرت بادئًا برحلته إلى طيبة وزياراته لمعابد الكرنك وأبو سمبل ومقابر البر الغربى وفيلة وغيرها، ثم رحلته إلى الإسكندرية، ثم رحلته إلى البحر الأحمر ورحلته إلى سيوة، وهو فى كل هذا لا يتوقف عن سرد دقائق مهمة وكاشفة عن طباع الناس وعاداتهم، وإن كانت صفته كمغامر باحث عن الشهرة والثراء لا تغيب عن السرد فى كثير من الأحيان.

هوامش حرة

فاروق جويدة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦ . ١٧٩صفحة



عرف فاروق جويدة بوصفه واحداً من كبار الشعراء المصريين والعرب المعاصرين، لكن قراء مقالاته فى جريدة الأهرام عرفوا فيه جانبًا يتجاوز طبيعته الرومانسية وطبيعة أشعاره بالغة الرقة والشفافية، فهو فيما يكتب مقاتل من طراز فريد، لا يساوم ولا يمالئ، ويضرب فوراً ويكل قوة فى الموضوع، سياسيًا أو اجتماعيًا أو اقتصاديًا أو ثقافيًا: وهذا الكتاب يجمع عشرات المقالات التى كتبها جويدة فى مقاله الأسبوعى بالأهرام، بادئًا بذلك الهم الذى يشغل المصريين . ومازال . طوال السنوات الماضية، فيكتب تحت عنوان «شراكة باطلة عن قضية التغيير فى مصر»، كاشفًا أن هذا التغيير لا يعنى استبدال وجوه بأخرى، أو الإطاحة بأشخاص لحساب آخرين، وإنما هو وقبل كل شيء أسلوب جديد فى العمل، وطريقة مدروسة فى مواجهة المشاكل قائمة على الشفافية، وهو ما لا يراه موجودًا فى أسلوب العمل فى مصر، حيث تتغلب المصالح الخاصة على العامة، ويتصور كثيرون ممن هم فى موقع القرار والسلطة، أنهم يديرون أملاكًا خاصة.. «فتحكموا فى رقاب العباد دون رحمة وضمير».

ويكشف جويدة فى هذا المقال عن الفساد وشبكاته وعلاقاته، فى الإعلام وإدارات الدولة والنفوذ الطاغى لرأس المال، ويؤكد على فساد هذه الشراكة الباطلة بين رأس المال والسلطة والإعلام.. «لأنها شراكة باطلة وزواج مرفوض حتى نبدأ صفحة جديدة أكثر شفافية وتقديراً للمسئولية وتحديداً للأدوار».

وتحت عنوان: ماذا تفعل لو كنت رئيسًا للحكومة، يتخيل المؤلف نفسه فى هذا الموقع ويحدد مسئولياته والقرارات التى سوف يتخذها بشكل عاجل وهى: وقف كل مظاهر الإسراف الترفى فى الإنفاق الحكومى، واستبعاد أية قرارات تستهدف زيادة الرسوم والضرائب على محدودى الدخل والطبقات الشعبية، وتحويل الدعم العينى إلى دعم نقدى ضمانًا لوصول هذا الدعم إلى مستحقيه، وبسط الدولة لرقابتها على السلع والأسواق، فلا تترك الحبل على الغارب بدعوى العرض والطلب، وأن تراجع موقف القطاع الخاص وما قدمته مؤسساته للاقتصاد المصرى منذ أواسط السبعينيات حين تم الأخذ بسياسة الانفتاح الاقتصادى وحتى اليوم، وضرورة العودة للاهتمام بالزراعة خاصة ما يتعلق منها بالغذاء اليومى للمواطنين، وتفعيل أداء الأجهزة الرقابية والاهتمام بما تقدمه من تقارير وتوصيات للقضاء على بؤر الفساد فى كل موقع.

وتحت عنوان «اللغة العربية والأمن القومى العربى» يشير الى الأزمة التى تعيشها اللغة العربية والتى بدت غريبة عن أهلها ومتحدثيها، ويرى أن نقطة البداية هى فى تحقيق مصالحة بين النص اللغوى والعقول الشابة، وأن نطبق الوسائل الحديثة لتدريس اللغة فى مدارسنا كى نحبب الغلابة فى لغتهم.

ويميز فى مقال آخر بين حرية الإبداع والإسفاف، متسائلاً عن الإبداع الذى يمكن الدفاع عنه فى أغنيات العرى والفيديو كليب، والتى تخلو من أى قيم فنية أو إبداعية وتدخل بالإلحاح وسطوة رأس المال بيوت الناس.

هكذا تكلم نيتشه

سمير عبده

دمشق: دار التكوين، ٢٠٠٦ ، ١٠٠ صفحة



لم يكن «الإنسان الأعلى» شيئًا من ابتكار الفيلسوف الألمانى «نيتشه»، كانت الفكرة سابقة عليه، لكنه هو الذى منحها زخمها، خصوصًا حين أصر أنه لا يقصد النوع البشرى وإنما «السوبر مان»، أى استنهاض الطاقات الكامنة فى الإنسان العادى، وقدراته غير العادية. وربما كان اشتراكه فى الحروب فى سن الثالثة والعشرين دافعًا إلى تغيير نظرته على هذا النحو الذى كشف له عن التأثيرات الأقوى لإدارة الحرب والقتال على السلوك الإنسانى، وبرغم ذلك فإنه حين زُج به مباشرة فى ميادين القتال، انكشفت روحه الرقيقة وطباعه الهشة، مما دفعهم إلى نقله لفصيل التمريض ومداواة الجرحى، وقد سعى نيتشه فى وقت مبكر إلى تعميق رؤيته للعالم والاستفادة من كتابات فلاسفة ومفكرين آخرين، من أفلاطون إلى فولتير، وعلى الرغم من أن جده وأبويه كانوا قسيسين، وعلى الرغم من أنه هو نفسه عرف بين أقرانه حين كان صبيًا مازال بالقسيس الصغير، فإنه كان يعتبر نفسه عدوًا للمسيح، ورافضًا لتعاليم الدين المسيحى القائمة على التسامح المفرط والدعة، كانت دعوته مناقضة تمامًا، فحواها أن ثمة حياة واحدة نحياها علينا أن نستثمرها ونعيشها بقوة وإرادة، كما عاب على المسيحية دعوتها إلى وأد العواطف لا تهذيبها، ورأى أن المسيحية نفسها تعبير عن إرادة القوة، لكنها القوة التى يضجرها الضعفاء والمخذولون، الذين يدفعهم حقدهم إلى عداوة متغلغلة لكل امتياز جسمانى وعقلى.

وإذا كان «هكذا تكلم زرادشت» هو أشهر مؤلفات نيتشه وأقربها إلى نفسه، فإن له نحو خمسة عشر مؤلفًا آخر تركت آثاراً كبيرة على فلاسفة وعلماء نفس فى العالم كله، قبل أن يصاب هو نفسه بالجنون فى ١٨٨٩، وسيطرة ما يعرف بهذيان العظمة عليه، حتى أنه صار يبعث خطاباته ويوقعها بإمضاء نيتشه . قيصر.

المؤلف يقدم أهم ملامح فلسفة نيتشه التى قامت أساسًا على السخرية من المرأة والعداء للدين، وبغض عامة الشعب ومدح الارستقراطية، وإبراز إرادة القوة وقدرات الإنسان الأعلى.

نصوص من مقدمة ابن خلدون

اختيار وتعليق: محمود بن جماعة

تونس: دار محمد على للنشر، ٢٠٠٦ . ١٨٣ صفحة



بدأ ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) المولود فى تونس حياته المهنية بكتابة العلامة، وهى وضع الحمد لله والشكر لله بالقلم الغليظ ما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم، وشغل مناصب عدة فيما بعد كان أهمها وأرفعها منصب «الحجابة» أى رئاسة الوزراء فى عهد أبى العباس الذى لم يلبث أن جرده من مناصبه وسعى إلى القبض عليه.

إلا أن ابن خلدون رغم بعده عن المناصب السياسية لم يترك لشأنه لما عرف عنه من حنكة سياسية ومن تقلب فى الولاءات وتغيير الانتماءات، وقد كلفه هذا السلوك البرجماتى عامين فى السجن، إثر اتهامه بالتآمر، وتعكرت علاقته بصديقه لسان الدين بن الخطيب بعد فترة سعيدة قضاها فى الأندلس امتدت نحو عامين ونصف العام، وتوالت عليه النوائب طوال ربع قرن قضاها فى غمار السياسة، قبل أن يعزف تمامًا عنها ويتفرغ لكتابة «كتاب العبر» فى قلعة ابن سلامة.

ومن المؤكد أن هذه الخبرة السياسية ساعدته كثيراً فى فهم أسباب تقلب الحكم وقيام الدول واضمحلالها، وعلاقة ذلك بالعصبية التى عاين أهلها فى مناطق العمران البدوى واحتك بهم.

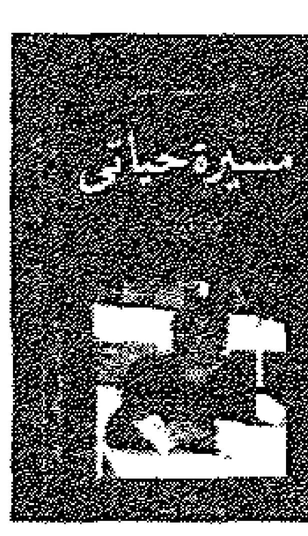
وقد أقبل بعد ذلك وأثناءه على التدريس مثل أبيه فى فاس وجامع الزيتونة، ثم جاء إلى القاهرة ليدرس الحديث والفقه فى الجامع الأزهر، ثم بدأ فى إلقاء دروسه فيه، وقد لقيت دروسه اهتمامًا كبيراً من طلبة العلم.

والمؤلف يقدم نحو ٤٤ مقطعًا مختاراً من مقدمة ابن خلدون موزعة على خمسة أقسام تغطى كافة المسائل التى تناولها: التاريخ، الإنسان، بما هو كائن طبيعى واجتماعى، العصبية والدولة، فى الكسب والمعاش والصنائع، العلم والتعليم.

مسيرة حياتى

محمد يوسف الجندى

القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٦ ، ١٤٨ صفحة



هذا هو الجزء الثالث من مذكرات واحد من الشيوعيين المصريين، وقد تناول فى الجزء الأول من مسيرته نشأته وأصوله وأسرته والدور الذى لعبه أبوه فى قيام ما عرف بـ «جمهورية زفتى» فى ثورة ١٩١٩، والطريق الذى اختاره لنفسه وكلفه سنوات من السجن والاعتقال والنفى، وفى الجزء الثانى تناول الفترة من أواسط الستينيات وحتى التسعينيات: وفى هذا الجزء يواصل حديثه عن المسار الذى اختاره، مع تغير الظروف بسقوط الاتحاد السوفيتى والمحنة التى تواجهها الاشتراكية بشكل

عام، ويشير المؤلف إلى الأزمة التى يعيشها الشيوعيون المصريون، وإصرار كثيرين منهم على أن يبقوا جماعة سرية ظنًا منهم أن السرية مرادف للثورية. ويطالب هو بأن يخرج الشيوعيون مطالبين بحزب علنى شرعى، وفى هذا الإطار فإنه يوجه انتقادات حادة لليسار فى عمومه، ويقول إن اليسار ينقصه الوضوح وتحديد الأهداف، كما تنقصه وحدة الحركة بين فصائله المختلفة ومع كل القوى الوطنية والديمقراطية المستنيرة. وقد لعب المؤلف أدوارًا مهمة وقيادية داخل حزب التجمع لسنوات قبل أن يعلن استقالته من كل مناصبه فى الحزب، وقد رأى أن الحزب لم ينجح فى تعبئة كل قوى اليسار تحت مظلته، بل اتبع أسلوبًا فى العمل أدى إلى تحجيم اليسار وساعد على انقسامه، وهو لهذا يصر على أن يكون للشيوعيين وجود شرعى. ويرى أن هذه قضية ديمقراطية هامة يجب الكفاح لانتزاعها.

ثمة قضايا فكرية عديدة يتناولها المؤلف بالرأى والتحليل من الاشتراكية والتضامن ضد الإرهاب والرأسمالية الجديدة والعولمة والصراع العربى الإسرائيلى وكيفية التصدى للهيمنة الأمريكية. وهناك أيضًا محطات شخصية مثل وفاة شقيقه أحمد وسفر ابنته وزوجها للعمل كباحثين فى أمريكا. لكنه دائمًا يحيل التخصص إلى العام، حتى يبدوا وكأنهما شىء واحد.

السوبر مستقبلية

حسن عجمى

بيروت: بيسان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦، ٢٦٤ صفحة



المستقبلية هى التى تدرس المستقبل من خلال الماضى والحاضر، أما السوبر مستقبلية فإنها تدرس الحاضر والماضى من خلال المستقبل، بالنسبة للسوبر مستقبلية إذن، فإن المستقبل يأتى أولاً، فالأشياء تتحدد ماهيتها بما ستصير إليه فى المستقبل، وليس بما كانت عليه فى الماضى أو بما هى عليه فى الحاضر.

عشرة فصول يناقش فيها المؤلف هذه الفكرة رابطًا المستقبل بالكون والعقل والميتافيزياء والمنطق والعلوم ونظرية القرار واللغة والأخلاق والإنسان.

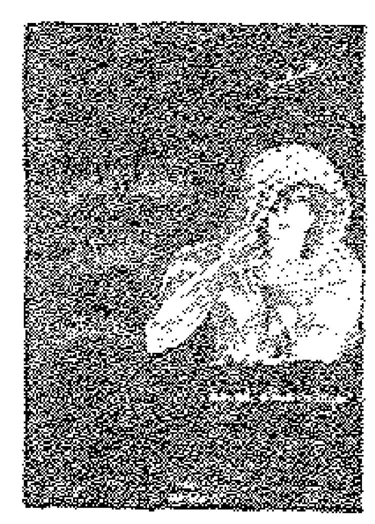
يلاحظ المؤلف مثلاً أن من وجهة نظر السوبر المستقبلية فإن العلم هو الشىء الذى سيصبح أدبًا فى المستقبل، والأدب هو الشىء الذى سيصبح فى المستقبل مصدرًا لمعرفة المجتمع فى الحاضر أو الماضى. ويبرهن المؤلف على هذا التبدل فى المفاهيم والمعايير بقوله إن الدين كان مصدرًا للمعرفة فى عصره الذهبى، أصبح الآن أدبًا فى عصرنا وخاصة بالنسبة إلى المجتمع العلمى، أى لم يعد مصدرًا لمعرفة العالم، بل استبدل بالعلوم الطبيعية والرياضية، ومع ذلك فإن هذا العلم ذاته سيصبح أدبًا فى المستقبل. إذ من المتوقع أن تتغير النظريات العلمية ويتم استبدالها بأخرى. كما أن ما كنا نعتبره علميًا أو صادقًا علميًا سيمسى لا علميًا أو غير صادق، وكذلك الحال بالنسبة للأدب الذى سيصير بعضه أساطير تدرس على أنها مصدر لمعرفة عصرها. وبما أن البشر أوجدوا آلات معقدة متطورة تشبه البشر فى وظائفها. فإن هذه الآلات هى التى ستبقى ربما بعد وفاة البشر وانتهاء الحياة الطبيعية. وهو ما يعنى أن الحياة ذاتها هى التى ستصبح آلة فى المستقبل.

بهذه الرؤية الشاملة والفلسفية يناقش المؤلف فكرة السوبر مستقبلية وتجلياتها فى الدين والفن والفلسفة والعلوم والحياة إجمالاً.

وقودها الناس والحجارة والأغانى

ميعاد هشام عودة

القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٦، ٩٥ صفحة



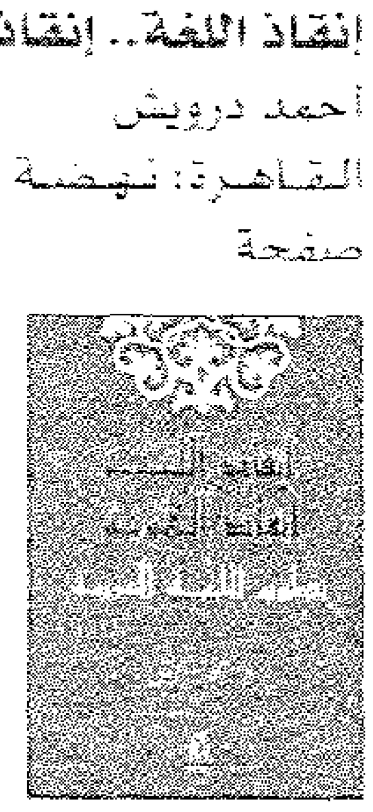
الشاعر من مواليد طولكرم على ساحل البحر بفلسطين (عام ١٩٨١)، تلقى تعليمه هناك حتى المرحلة الثانوية، ثم رحل إلى مصر لاستكمال دراسته الجامعية بكلية الهندسة، ولهذا فإن فلسطين هى بطلة معظم قصائده، المسكونة بألم الرحيل وأحلام العودة. من أجواء الديوان:

لا فائدة ترجى يا عدوى/ لا جدوى/ بطبيعة الحال سنبقى/ حياتنا نزيف/ نزيفنا حياة/ رحيلنا بقاء/ تجذر فى عمق الحكاية ليس إلا/ فإن أبيتم أو أبينا/ بطبيعة الحال سنبقى/ ندافع عما تبقى/ عن الفكرة/ عن الحلم كى لا يفنى/ فمازال يرتدى القمباز/ وفى الزقاق يتمشى/ ويذهب مع الأطفال إلى المدارس/ ويشاركهم النشيد/ ومنقوشة الزعتر/ واللعبة الدموية فى الطرقات ويتأذى/ ربما ينسى التاريخ ربما ينسى/ لا لن نقول ما الذى تبقى لأن شيئًا لم يتبق سنبقى.

إنقاذ اللغة.. إنقاذ الهوية

أحمد درويش

القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٦، ١٦٣ صفحة



من قبل، أصدر المؤلف كتابًا عنوانه «إنقاذ اللغة من أيدى النحاة». وقد أثار وقتها ١٩٩٩ ردود أفعال غاضبة خصوصًا بين المجمعيين والنحاة وأساتذة اللغة العربية. على الرغم من أن المؤلف نفسه ينتمى إلى هذا الفصيل بوصفه أكاديميًا يشغل منصب وكيل كلية دار العلوم فى مصر. وهذا الكتاب هو استمرار للجهد الذى بدأه فى هذا الإطار.

وهو يبدأ بالتأكيد على عراقة اللغة العربية الأقدم تراثًا والأعرق بين كل اللغات السامية، التى انزوى كثير منها فى زوايا النسيان وبقيت اللغة العربية حية متطورة متجددة بين الناطقين بها بفضل جهود العلماء. ولأنها لغة القرآن الكريم والدعاء الذى حمل رسالة الإسلام. ويلاحظ المؤلف أن قوانين دورة الحضارات جعلت اللغة العربية تنكمش على نفسها ويبدو بعض الذبول على ملامحها. وهو ما يستلزم مزيدًا من الجهد لكى تثبت العربية قدميها فى عالم مليء بالصراعات. وتبدو الحرب ضد اللغة جزءًا من هذا الصراع العاتى. وينبه إلى خطورة الدعوة إلى القطيعة مع التراث، والتى يقصد منها فى الأساس الدين واللغة، لأن ذلك يوقعنا فى الفخ الذى يدعونا إليه أعداؤنا، دون أن يعنى ذلك التوقف عن نقد التراث ومناقشة الماضى والمطالبة بتعديل مناهج دراسته. واللغة بهذا المعنى وتلك الأهمية هى مكون أساسى من مكونات الهوية. وهى التى تختزن المشاعر والذكريات والأفكار، ومن خلالها تتحدد المفاهيم التى يواجه بها الإنسان الحياة، وهى التى تشكل الذاكرة الطويلة الأمد التى تحتفظ بالمعلومات أو المفاهيم أو الخصائص الدائمة. يقول الفيلسوف الألمانى هيدجر: إن لغتى هى مسكنى، هى موطنى ومستقرى، هى حدود عالمى الحميم ومعالمه وتضاريسه، ومن نوافذها ومن خلال عيونها أنظر إلى بقية أرجاء الكون الواسع.

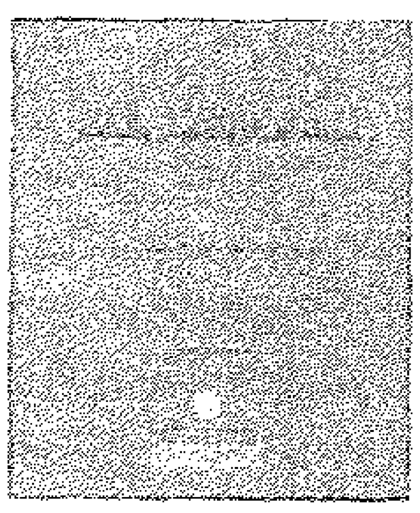
المؤلف كما أشرنا يحذر من الوقوع فى فخ القطيعة مع الماضى. ويحدد بعدها أبعاد المشكلة اللغوية. ويشير بشكل خاص إلى العلاقة بين الدين واللغة، ويؤكد أن للدين قداسته، أما اللغة فلا. فاللغة العربية تكلم بها المسلمون والكافرون أنصار الدين الجديد وأعداؤه. فاللغة تتشرف بأنها الوعاء الذى صبت فيه آيات الذكر الحكيم، لكنها فى ذاتها كائن حى قابل للتطور والنمو والتجديد. وإلا وقفنا عند لغة قريش وبلاغة الجرجانى والأصمعى، ولانتهت اللغة العربية وبادت كما بادت لغات سامية نطق بها أناس فى زمن غابر.

الكتاب يحتشد بالنماذج وبالأفكار حول هذا الموضوع المهم الذى يمس الهوية العربية والإسلامية ويشكل أحد مكوناتها الأساسية.

مدينة الحجاج والأعيان والمحاشى.. دراسات فى تاريخ القدس الاجتماعى والثقافى

تحرير: سليم تمارى وعصام نصار

القدس - فلسطين: مؤسسة الدراسات المقدسية ومركز دراسات القدس، ٢٠٠٥



تشمل هذه المجموعة إحدى عشرة مساهمة لمؤرخين وعلماء اجتماع وانثربولوجيين حول قضايا تاريخية ترتبط بمدينة القدس. تمتاز المساهمات بتجاوزها للقوالب التقليدية التى سادت لدى البحاثة والكتاب العرب حول موضوع القدس. فهى ليست مساهمات تهدف بالأساس لدحض هذا الادعاء أم ذاك ولو كان على حساب أصالة البحث والتجديد فى نمط الدراسة التاريخية. المساهمات الواردة هنا تتجاوز الإشكالية المعهودة فى دراسة تاريخ فلسطين الوسيط والحديث القائمة على تناسى أية معطيات قد لا تدعم المواقف السياسية لصاحب الدراسة.

بذات الوقت لا تشكل مساهمتنا هذه فى مجملها «تاريخًا جديدًا» لفلسطين أو للقدس، أو منحى تحريفيًا يتحدى المنهج التقليدى - أى المنهاج السردى التدوينى لا النقدى التحليلى - فالمساهمون فى هذا الكتاب لا ينتمون إلى مدرسة واحدة أو منهاج متجانس. وليس القصد من مساهماتهم تشكيل صورة شاملة عن تاريخ القدس، بل إن جل الجديد والمشاكس مما يقدمه كتابنا هذا هو أنه يطرح أسئلة جديدة، وإشكاليات جديدة متعددة الجوانب لأكاديميين لايزال معظمهم فى بداية إنتاجهم الفكرى.

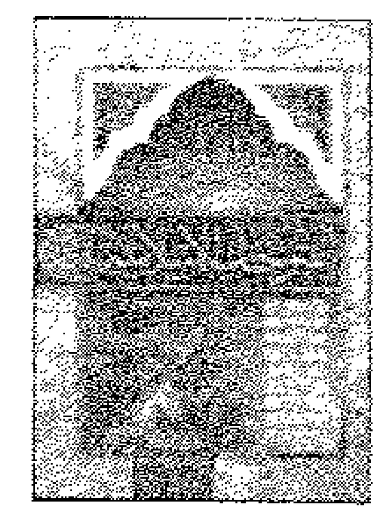
ولعل ما يجمع هذه الدراسات هو قضيتان: الأولى هى الرؤية الجديدة للحقبة العثمانية فى فلسطين - بعيدًا عن التاريخ القومى المعادى للأتراك - ومحاولة لموضعة هذه الحقبة ضمن منظار أكثر بعدًا ضمن مكانة بلاد الشام

قبيل الحرب فى النظام العالمى الجديد. والثانية هى استخدام آليات تحليلية معاصرة فى العلوم الاجتماعية (من تيارات التفكيك، والمجتمعات المتخيلة وغيرها) لفهم ما عبرت فى فلسطين ضمن سياق الأطر التحليلية التى أصبحت سائدة فى مناطق أخرى من العالم.

أطلس الفتوحات الإسلامية

أحمد عادل كمال

القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠٥



فى ثلاثة وعشرين عاماً ومن قبائل شتى أقام النبى صلى الله عليه وسلم دولة وأنشأ أمة، وقام على تربية جيل حمل الأمانة من بعده لتبليغ الرسالة إلى البشر بين عملاق فى الشرق وآخر فى الشمال والغرب، هما فارس والروم اللذان رفض كبراؤهما السماح بذلك البلاغ أن يصل إلى الناس.

وفى سنوات معدودة امتدت دولة الإسلام ما بين المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى، وأقبل الناس على دين الله أفواجاً، فوجدوا فيه ضالتهم، وخرجوا به من عبادة المخلوقات إلى عبادة الخالق، وقامت به دولتهم. فكانت الفتوح الإسلامية حدثاً فرداً مفرداً متفرداً فى تاريخ العالم، غير متكرر، لا سابقاً ولا لاحقاً؛ من حيث اتساع رقعته ودوام أثره وقدرته على هزيمة جيوش أكبر.

هذا الحدث المعجز لم يحدث بأسلوب المعجزات، ولكنه ناتج بعد مقدمات جاءت فى الفتوح على أسس حربية صحيحة من ناحيتها الاستراتيجية والتكتيكية قام عليها قادة لم يدرسوا فى كليات حربية ولكنهم كانوا أساتذة، تعلم عنهم اللاحقون فأقاموا أكاديمياتهم، وقد استغرقت هذه الدراسة من المؤلف نحواً من ثلاثين عاماً أنبتت هذا الأطلس الذى يقع فى ٣١٢ صفحة والذى تناول تاريخ الفتوحات الإسلامية منذ أن بدأت حتى الفتوحات فى عهد الدولة العثمانية، متضمناً العشرات من الخرائط والرسومات والصور النادرة والتى يحكى بها ذلك التاريخ المتفرد بأقل قدر من العبارة.

ويشير الأطلس فى البداية إلى طبيعة حركة الفتوح ويوضح أن الإسلام لم يطلب من المسلمين أن يفرضوا دينهم على غيرهم بقوة السلاح ولكنه فرض عليهم إبلاغه للناس، ووضح الأطلس أن الفتوحات الإسلامية الأولى سارت فى خطين متزامنين إلى الشرق لتشمل العراق والجزيرة والأهواز وفارس، وإلى الشمال وتشمل الشام ومنه غرباً إلى مصر ثم الشمال الأفريقى ثم يتناول الأطلس فى مرحلته الثانية للفتوح فتوح برقة والمغرب مروراً بطرابلس وتونس ثم فتح الأندلس وبداية بحملة موسى بن نصير وطارق بن زياد، ثم يتحدث عن غزوات البحر المتوسط حيث وضح الأطلس الاستراتيجية العسكرية الإسلامية فى تحصين السواحل وإقامة الحصون.

وفى النهاية يتناول الأطلس المرحلة الثالثة من الفتوح والخاصة بفتوحات الدولة العثمانية والتى بلغت معظم العالم من نهر الدانوب غرباً حتى الخليج العربى شرقاً، ومن بحر آزوف شمالاً حتى الحبشة جنوباً، كل ذلك من خلال الكلمة والخريطة (غير المسبوقة) واللوحة الفنية.

وفى النهاية يقدم الأطلس يوميات وحوليات عن التاريخ الإسلامى منذ قيام الدولة الإسلامية حتى نهاية فترة الفتوحات مع تقديم سير ذاتية لأهم القواد والسلاطين وقادة الأعداء ممن كان لهم دور فى التاريخ.

صورة الأم فى المتخيل العربى

فرج بن رمضان

صفاقس: دار محمد على للنشر، ٢٠٠٦، ١١٩ صفحة



حكاية جودر بن التاجر عمر مع أخويه، الأكبر سالم والأوسط سليم، من الحكايات المطولة نسبياً فى ألف ليلة وليلة، وتزيد عن العشرين صفحة، ترويها شهرزاد على شهريار على امتداد حوالى ثمانى عشرة ليلة، وتحفل بالجن والعفاريت والأحداث الخارقة، وتتعلق أهم وقائع هذه الحكاية بإحدى الإشكاليات الأزلية فى بنية النفس والمجتمع البشريين، وهى إشكالية تنازع الأخوة على الحظوة لدى الأبوين أو أحدهما، كما يقول المؤلف فى عرضه التحليلى للحكاية، وهى تختلف مثلاً عن قصة النبى يوسف من جهتين: الأولى أن تنازع الإخوة، وإن لاحت بوادره فى النفوس فى ظل وجود الأب، فإنه لا يندلع فعلياً ولا يتفاقم إلا بعد موته، وكذلك هناك اختلاف فيما يتعلق بالنهاية، إذ بينما تقضى قصة سيدنا يوسف إلى التمكين فى الأرض بما أوتى من الملك والعلم والتئام الشمل بأبويه وإخوته، فإن حكاية جودر وإن تحقق فيها مثل هذا التوازن السعيد فإنها لا تلبث أن تنقلب لتفضى إلى قتل الإخوة الثلاثة، ويصبح هنا أقرب إلى نموذج قابيل وهابيل.

إن جودر يبدو شخصاً بسيطاً كأنما هو وجه واحد يلازمه على امتداد الحكاية وفى تعامله مع الآخرين: الأم، الأخوين، الخباز، المغاربة، السلطان. ومهما تغير هذا الوجه فإنه يظل داخلاً فى سجل واحد هو الخير: الطيبة، الحب، الشفقة.. إلخ، أما سالم وسليم فهما وجهان متقابلان لا يحملان شيئاً من هذه الصفات، والأم التى لا تحمل اسماً فى الرواية وإنما تظهر دوماً بصفتها، هى محور يتلاقى عنده الشخوص والصفات، والمؤلف يحيل إلى الدلالات الرمزية للأم وليس فقط صورتها الظاهرة فى الحكاية، فهى من ناحية رمز التضحية والإيثار والصبر، ثم هى من ناحية ثانية تضفى حناناً وحباً أكبر للابن الأصغر «جودر»، فهى لا تفارقه وهو لا يفارقها، وتضفى دوماً عليه من محبتها ورعايتها، وهو ما أغاظ شقيقيه.

المؤلف يحلل صورة الأب فى هذا المتخيل الأدبى، كاشفاً عن مدى نمطيتها أو شذوذها فى مسيرة السرد الأدبى برؤية علمية عميقة وشاملة.

خطى اجتزناها

حامد عمار

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٦، ٣٢٦ صفحة



مع بلوغه الخامسة والثمانين، يسجل شيخ التربويين الدكتور حامد عمار سيرته الذاتية، وهى سيرة عامرة بالكفاح والجدية والمثابرة، والانتماء للقيم العلمية والإنسانية الأصيلة، وهى السمة التى يمكن استنتاجها بسهولة فى أعماله وكتاباته.

والسيرة تتبع الترتيب الزمنى، فتبدأ من قرية سلوا فى أسوان، وهى قرية فقيرة مثل مئات القرى فى مصر فى ذلك الزمن، بدايات عشرينيات القرن الماضى، وامتازت عن هذه القرى أيضاً بأنها كانت منعزلة فى أقصى الجنوب، وفى الطفولة يحكى كثيراً مما واجهه من أمراض ومخاطر، وكيف كان يتم التداوى منها والتعامل معها بطرق بدائية تخلو بطبيعة الحال من استدعاء طبيب أو سؤال ذى اختصاص، ولا يفوته بطبيعة الحال أن يحكى عن عادة الختان التى شملت الأولاد والبنات على السواء، وتأصلها فى الريف، ولا يخلو حديثه عن مرحلة النشأة والصبا من تناول لطبيعة قريته وأحوال العائشين فيها وتعاملات أهلها ومشاكلهم وثقافتهم، ثم دروسه فى كُتّاب القرية الذى كان بداية معرفته بالقلم وما يسطرون، ثم كان دخوله المدرسة الابتدائية فى مدينة إدفو أملاً فى الحصول على لقب أفندى مصادفة غير متوقعة، وقد كان هذا الطفل الوحيد الذى التحق بالتعليم الحكومى الحديث من قرية سلوا ونجوعها فى ذلك الوقت، إذا كان التعليم الإلزامى ينتهى عند السنة الرابعة الابتدائية.

وحين ظهرت النتيجة كان ترتيبه الأول بين طلاب المدرسة، ورقم ١٧٠ على القطر المصرى كله من بين سبعة آلاف ناجح، وأصبح حينذاك أفندى، وكان عليه بعد ذلك أن ينتظم فى الدراسة الثانوية بمدرسة سوهاج الثانوية.

وفى القسم الداخلى كانت تتنازعه مشاعر الغربة والإحساس بالظلم الاجتماعى خصوصاً بين الطلاب الموسرين القادرين على دفع النفقات وتوفير الحياة الآمنة دون مكابدة، كما هو حال أسرته المتواضعة التى لم تكن تملك سوى ثلاثة فدادين وعدة قراريط.

وكان قسط المدرسة الذى لا يتجاوز عشرين جنيهاً يمثل له عبئاً كبيراً، وهماً مؤرقاً مع بداية كل عام دراسى إلى أن دخل الجامعة.

وفى هذه المرحلة بدأ يتفتح وعى الصبى السياسى على الأحزاب والجماعات السياسية التى كانت موجودة فى تلك الفترة، وكانت البداية مع جماعة الإخوان المسلمين، ثم حزب مصر الفتاة بزعامة أحمد حسين، ويشير المؤلف هنا إلى طبيعة الحياة الجامعية والسياسية فى ذلك الزمان، ويشير بوجه خاص إلى استقالة أحمد لطفى السيد مدير الجامعة احتجاجاً على فصل إسماعيل صدقى لطه حسين ونقله إلى دار المعارف دون الرجوع إليه، ويشير كذلك إلى تأثره بأفكار سلامة موسى والعقاد وسيد قطب عن العدالة الاجتماعية وعلى وجه الخصوص كتاب طه حسين «المعذبون فى الأرض»، ولا تغيب أبداً الحياة السياسية النشطة المليئة بالتقلبات والصراعات والمواجهات.

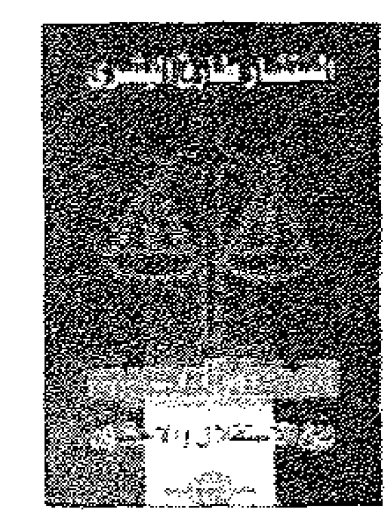
وتتواصل خطى شيخ التربويين من الجامعة إلى البعثة للحصول على الماجستير والدكتوراة وما لاقاه فيها ثم تدريسه بالجامعة ومشاركاته فى عشرات المؤتمرات وعمله بالأمم المتحدة.

وذكرياته عن كلية التربية وأبنائها والعلاقات التى جمعت التربويين قديماً وطبيعة هذه العلاقات الآن، وغيرها من الذكريات والمحطات المهمة فى مسيرته الطويلة.

القضاء المصرى بين الاستقلال والاحتواء

طارق البشرى

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦، ٩٦ صفحة



تحقق الاستقلال للقضاء المصرى فى أربعينيات القرن العشرين، حين صدر قانون استقلال القضاء (١٩٤٣) فى وزارة النحاس.

وحين قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ أحكمت قبضتها على أجهزة التنفيذ والتشريع، وأصدرت عدداً من التشريعات استهدفت تقييد مجال التقاضى، وجرت مواجهات عنيفة بين الثورة ومجلس الدولة طوال عامى ١٩٥٤ - ١٩٥٥، أثمرت قوانين لإعادة تشكيله وسقوط حصانة أعضائه، وقد استمر هذا الوضع حتى يونيو ١٩٦٧، وبدأ القضاء يوسع ولايته المنتقصة، ويمد نشاطه إلى خارج النطاق الذى كان مضروباً عليه مما أشعر الثورة بالقلق، فظهرت الدعوة لإدخال القضاء فى التنظيم السياسى الوحيد الذى كان قائماً آنذاك وهو الاتحاد الاشتراكى.

كما ظهرت فكرة القضاء الشعبى، أى أن يكون مع القضاة فى نظر الدعاوى أناس يمثلون الشعب، كما جرى بعد ذلك فى لجان فض المنازعات والمحكمة التى تنظر فى قضايا الأحزاب ومحكمة القيم.

وقامت المواجهة بين نظام الحكم والقضاء، وأصدر نادى القضاة بياناً فى مارس ١٩٦٨ أعلنوا فيه رفضهم الانضمام للاتحاد الاشتراكى والقضاء الشعبى، وانتهت المواجهة بما بات يعرف بـ «مذبحة القضاة» فى ١٩٦٩، إذ صدرت ثلاثة قوانين حلت بموجبها الهيئات القضائية وأعيد تشكيلها من جديد بعد إسقاط نحو ٢٠٠ من أعضاء هذه الهيئات.

ثم بدأت حيل لاستمالة بعض القضاة بعيداً عن التيار الرئيسى الرافض لهذه الممارسات، عن طريق الانتداب فى هيئات التحكيم وتكليف القضاة بأعمال إضافية يحصلون بموجبها على مكافآت كبيرة، مما يعطيهم ميزة كبيرة لا تتوفر لآخرين، ويقضى على فكرة المساواة بين القضاة.

ويلاحظ المؤلف أن سلطة وزارة العدل على القضاء زادت بدرجة كبيرة فى العقود الأخيرة، وهذه السلطة هى ما يمثل تسلطاً من السلطة التنفيذية على القضاء، حيث يشكل وزير العدل المكتب الفنى لمحكمة النقض، وينتدب رئيس كل محكمة من المحاكم الابتدائية من بين مستشارى محكمة الاستئناف، كما أنه ينشئ المحاكم الجزئية وتتبعه النيابة العامة وإدارتا التفتيش القضائى للمحاكم والنيابة.

ويعطى المؤلف مساحة مهمة للحديث عن حكم المحكمة الدستورية الذى صدر عام ٢٠٠٠، والذى أكد بطلان جميع المجالس النيابية السابقة وإلغاء القوانين الصادرة عنها، ووجوب الإشراف القضائى الكامل على العملية الانتخابية، ويشير المؤلف فى هذه النقطة بالذات إلى أن الانتقادات الموجهة للنظام الحزبى والانتخابى فى هذه الحالة تمس بالضرورة هيبة القضاء وقدسيته، فالقاضى فى مثل هذه الانتخابات - سيئة السمعة - لا يواجه مؤسسات أو أفراداً، لكنه يواجه الحكومة وحزبها.

ومشروع التعديل الذى يقدمه القضاة اليوم من خلال ناديهم يتجه نحو تدعيم سلطة القضاء وتحقيق استقلاليته، ويبين ما يطرحونه من تعديلات أن تتبع إدارة التفتيش القضائى مجلس القضاء الأعلى، وأن تستقل النيابة العامة عن وزارة العدل، وأن يتم اختيار رؤساء المحاكم الابتدائية من خلال مجلس القضاء الأعلى، وأن تختار الجمعية العمومية لمحكمة النقض من بين أقدم نواب بها ممن رأسوا دوائرها فى السنوات الثلاث الأخيرة.

إن استقلال القضاء، كما أكدت الأزمة الأخيرة، جزء من استقلال الوطن، وربما هذا الإحساس هو ما دفع إلى تفاعل عامة الناس مع حركة نادى القضاة.

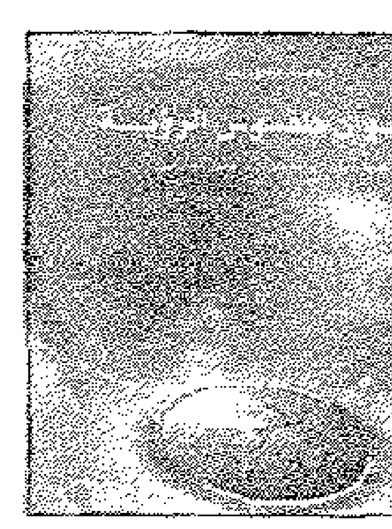
※

ديوان طقوس الرؤية

محمد رفيق زاهر

تعليق وشرح وتعقيب: جمال المرزوقى

جدة: مؤسسة فارس لرعاية الفنون والثقافة، ٢٠٠٦، ٤٨ صفحة



قصائد فى الشعر الصوفى علق عليها وشرحها الدكتور جمال المرزوقى أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف فى جامعة عين شمس، والقصائد شأن أشعار الصوفية تتميز بالغموض والتجريد، خصوصاً أن الشاعر كما يقول المرزوقى يلجأ أحياناً إلى أسلوب التخيل القصصى فى بعض القصائد، فتبدو القصائد وكأنها تخاطب الإنسان على إطلاقه، كما أنه يلجأ إلى الرمز الدينى المستقى من القرآن الكريم ويستعير نتفاً من سير بعض الرسل والأنبياء، دون أن يوظف هذه الرموز كأقنعة تتوارى خلفها مضامين أو رؤى أو أفكار، بل يوظفها بشكل مباشر وكأنها حقيقة ماثلة للعيان، راغباً فى توصيل المعنى المطلوب دون مواربة أو افتعال للغموض.

والرمز فى قصائده شامل وعميق وكأنه يرسم لوحة للطبيعة والإنسان لا يغيب عنها الابتهال والنجوى كما هى طبيعة المحبين من الصوفية، وتتداخل الأزمنة بين الماضى والحاضر والمستقبل بقصدية هدفها كشف المتناقضات فى الشخصية الإنسانية ودلالات وقيمة مجاهدة النفس فى حياة البشر.

يقول فى قصيدة طقوس الرؤية:

هل تعرفون آية الله فى الأرض؟ هل تعرفون الطاووس؟

أبصرته.. فأبصرته.. فأضحى كل غيب ملموس

ألقيتم.. ذات مرة سكارى المحبة، ندامى الكؤوس؟

نعم الحب مسكر، ولسة مومضة قد تودى بالرؤوس.

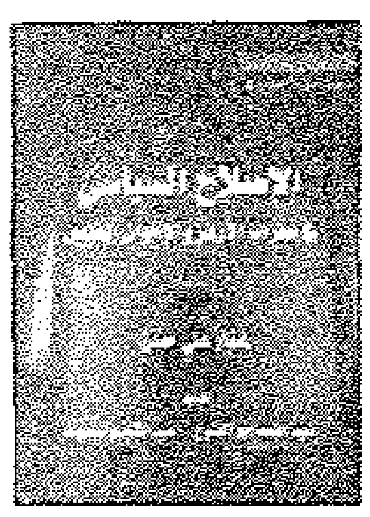
والديوان يحتوى على رسوم فنية تبدو هى أيضاً ذات طبيعة صوفية حيث يتداخل الحرف واللون والخط والظل فى تناغم بديع بما هى بين الغيب والحاضر.

※

الإصلاح السياسى فى محراب الأزهر والإخوان المسلمين

عمار على حسن

القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٦، ٢٤١ صفحة



تشغل قضية الإصلاح مساحة هائلة فى تفكير النخبة المصرية بل وعموم المصريين، الذين سينعكس ما تثمره السجالات على حياتهم الآن وفى المستقبل.

والكتاب الذى يدور فى خمسة فصول هى: حركة الإصلاح مساراتها وخصومها، الإسلاميون والإصلاح السياسى، إصلاح رؤية الإسلاميين: إصلاح الأزهر، الإصلاح الثقافى للإسلاميين، يتضمن أيضاً البرنامج الانتخابى لجماعة الإخوان المسلمين الذى خاضت به الانتخابات البرلمانية الأخيرة.

والأهم أنه يتضمن ثلاث مقدمات تشكل ثلاث رؤى متميزة ومتمايزة فى موضوع الإصلاح، أولها للمثقف الليبرالى الدكتور عبدالمنعم سعيد، وثانيها للرمز الإخوانى المستنير الدكتور عبدالمنعم أبو الفتوح، وثالثها للمؤلف نفسه، حيث يفند الدكتور سعيد الخطاب الإخوانى فى مجال السياسة، ويشير إلى أوجه قصور عديدة فى مجالات تستحق الاجتهاد بمنطق العقل والعصر لا بمنطق النقل والاحتكام إلى اجتهادات السابقين.

وهو فى هذا الإطار يشير إلى اجتهادات الشيخ الأزهرى على عبدالرازق صاحب كتاب «الإسلام وأصول الحكم» (١٩٢٥)، ثم ما جاءت به جماعة الإخوان المسلمين على يد الشيخ الإمام حسن البنا (١٩٢٨)، وتأكيدها على أن الإسلام دين ودولة، مصحف وسيف.. إلخ.

ولا ينفى سعيد عن الجماعة التطور الذى جرى فى تفكيرها على مدى عقود وحتى وصلنا إلى اللحظة الراهنة، لكن بقيت الإشكالية هى احتجاز هذه الجماعة للدين واعتبار نفسها هى الجماعة الناجية من النار دون غيرها.

ويناقش سعيد بعد ذلك شعار الجماعة «الإسلام هو الحل» من الناحية العملية والدستورية، وهو لا يرى أن الجماعة لم تسع إلى دراسة التجارب التى مارست وطبقت هذا الشعار فى غير بلد إسلامى، وما إذا كان هذا الشعار متصادماً مع الدعوة إلى الدولة المدنية الحديثة، وما إذا كانت الجماعة تطالب بحزب مدنى أم حزب دينى باعتبار أن الدستور المصرى يحرم إنشاء الأحزاب على أسس دينية، ويشير سعيد إلى أن خطاب الجماعة يكتفى بعناوين عريضة وإشارات غامضة عند الحديث مثلاً عن قضايا المرأة والأقباط والديمقراطية، وتصورات الجماعة عموماً عن فكرة المساواة.

تقديم عبدالمنعم أبو الفتوح بطبيعة الحال يرمى فى اتجاه مناقض، ويرفض «المنطق التفكيكى» الذى يفصل قسراً بين الدين والدولة، فهما متمازجان ومتفاعلان.

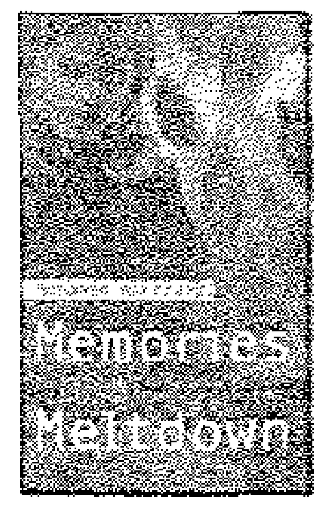
وفى هذا الإطار فإن الخطاب لعموم الناس يبدو أكثر سلامة وصواباً، لأنه لا يمارس هذا الفصل التعسفى ويتفهم أن الإسلام ما جاء إلا ليصبغ الحياة ويصوغها ويمنحها بعداً «خالداً». ويثنى أبو الفتوح على حيادية المؤلف وتناوله للقضية بصورة استثنائية.

أما المؤلف، فقد عمد إلى فضح ثقافة الاستبداد، ودعا إلى مزيد من التفهم على الجانبين بطبيعة المسألة وتداخلاتها المتشابكة، مؤكداً على أن الإصلاح فى الأساس عملية تربوية تقوم على حزمة من القيم التى تتم على أساسها تنشئة الفرد بدءاً من الأسرة وحتى الحزب السياسى مروراً بعشرات المؤسسات.

الكتاب يعد بحق اجتهاداً علمياً رصيناً فى واحد من أوجه الإصلاح المهمة: فى الأزهر وجماعة الإخوان المسلمين.

※

Memories of a Meltdown
(ذكريات الانهيار)
MOHAMED MAKHZANGI
Translated by Samah Selim
AUC Press, 112PP, $17.95, 2006

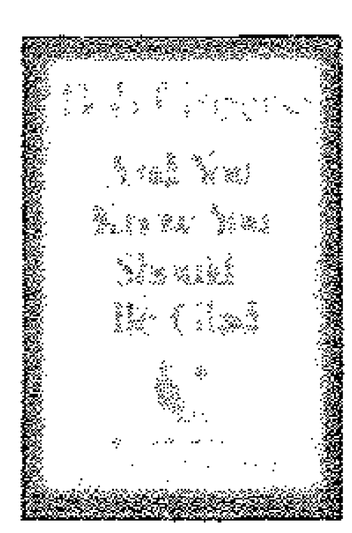


ربيـع عـام ١٩٨٦، كـان «محـمـد المخزنجي» يعيش في مدينة (كيف) الأوكرانية، وفجاة وجد نفسه، كآلاف آخرين، يعيش كابوسا نوويا، ناتجا عن انفجار مفاعل تشرنوبيل الروسي، «المخزنجي» في كتابه يروي بصورة نثرية مدى هول الكارثة النووية من منظوره، كضحية لها أولا، وكغريب على أرض لا ينتمي إليها ثانيا.

أجاد الكاتب في وصف انطباعاته المركبة ومشاعره. كما أجاد في وصف ما حوله بأسلوب صحفي واقعي يمتزج بالجانب العاطفي لديه، أرقام البيانات الرسمية، احساس الناس بعدم الأمان، الإحساس بأن الأمور لن تعود أبدا كما كانت عليه. كحكايته عن صديقه الأصلع الذي كان كل ما يقلقه أن يفقد ما تبقى لديه من شعر، أو حكايته عن الجد الذي يقدم المياه لحفيده ساخنة معتقدا أنها أقل تلوثا من المياه الفاترة.

تجربة شخصية تصور مأساة عظيمة، وضعها «محمد المخزنجي» بأسلوب بارع ومعبر.

And You Know You Should Be Glad : A True Story of Lifelong Friendship
(أنت تعلم انك يجب أن تكون مسرورا، قصة صداقة حقيقية)
Bob Greene
William Morrow, 336PP, $24.95, 2006



أمضى «بوب جرين» طفولته وشبابه بمدينة «بيكسلي» بولاية «أوهايو»، بتلك المدينة الصغيرة تعرف بوب على أصدقاء عمره الأربعة «ألين وتشوك ودان وجاك»، اجتمعوا من اللحظة الأولى بـرياض الأطفال وأمضوا كل طفولتهم معا، كبروا سويا. قابلوا المشاكل سويا، وفرحوا سويا. أسموا أنفسهم نسبة إلى حروفهم الأولى، تشاركوا في الذكريات، الأماكن التي اعتادوا زيارتها، نفس الصف بالمدرسة، أغانيهم كانت واحدة، آمالهم وأحلامهم.

فرقتهم الأيام، ولكنهم ظلوا على اتصال دائم، ويتقابلون من حين لآخر، حتى حل المرض بجاك، عاد تلازمهم من جديد، عادوا ليقفوا بجوار صديق لهم، ويتشاركوا الآمال والآلام من جديد.

Kingdom Coming: The Rise of Christian Nationalism
(المملكة في الطريق : بزوغ القومية المسيحية)
Michelle Goldberg
W. W. Norton, 224PP, $23.95 2006



«ميشيل جولدبيرغ» المراسلة السياسية، تتناول التداخل بين عالم السياسة والأيديولوجيات الدينية، فمنذ ما قبل انتخابات ٢٠٠٤ والأشهر التالية لها، تساءل الأمريكان كثيرا حول تجاهل الإدارة للموازنة الوطنية وكيف بدأت المصالح الشخصية وتفضيل المقربين بالظهور مرة أخرى.

«جولدبيرغ» سافرت عبر البلاد، لتنقل لنا صورة أمريكا الحالية: أمريكا الواقعة في قبضة الراديكاليين الدينيين على حد تعبيرها، تنقل «جولدبيرغ» قلقها حول المذهب الذي يقول أن للمسيحي الحق في الحكم على غير المؤمنين، مما يهدد الديمقراطية في البلاد.

الكتاب يأخذنا في جولة عبر الثقافة الإنجيلية اليمينية المتمتعة بتأييد الجمهوريين، ويتعقب الروابط المالية والأيديولوجية التي تربط المسيحيين الأصوليين بالحزب الجمهوري، وكيفية تأثير ذلك على الإدارة الأمريكية وقراراتها المختلفة، حيث ترى الكاتبة أن لحرب العراق وبعض مبادرات الخدمات الاجتماعية للحكومة والعديد من القرارات والقوانين الأخرى الصادرة عن الجمهوريين لها أصول دينية.

American Theocracy : The Peril and Politics of Radical Religion, Oil, and Borrowed Money in the 21stCentury
(الحكومة الدينية الأمريكية)
Kevin Phillips
Viking Adult, 480PP, $26.95, 2006



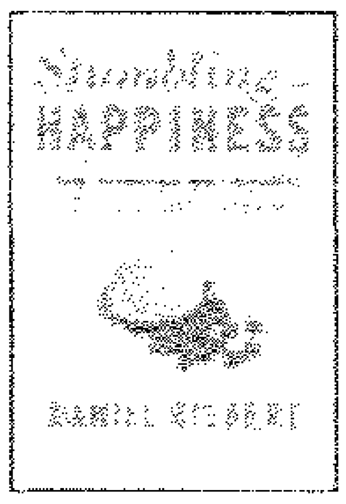
اعتمد العديد من الخبراء الاستراتيجيين السياسيين على التاريخ لفهم النظام السياسي للحكومة الأمريكية، منهم «كيفين فيليبس»، في كتابه الحكومة الدينية يتعرض «فيليبس» إلى ثلاثة محاور مختلفة لتاريخ السياسة الأمريكية، وهي محاور يراها «فيليبس» إنها تشكل خطرا كبيرا على السياسة الأمريكية في القرن الواحد والعشرين.

المحور الأول الذي يقلق «فيليبس» هو النفط، فموارد الطاقة عموما هي مفتاح كل قوة اقتصادية وعالمية على مر التاريخ، فالإمبراطورية البريطانية مثلا كانت تعتمد على الفحم كمصدر وقود رئيسي، والنفط طبقا للجيولوجيين قد قاربت مصادره على النفاد، لذا يرى «فيليبس» أن الخطر قادم اذا ما انتهى مخزون النفط في العالم، كما يرى أن الاعتماد الأمريكي على النفط كان سببا رئيسيا في بداية عصر الإمبريالية الأمريكية، والتي تتمثل في حرب العراق على سبيل المثال.

الانتمان والدين هما المحور الثاني الذي يقلق «فيليبس»، حيث يعتبر أن هيمنة الخدمات المالية على الاقتصاد هو مؤشر وهن للاقتصاد، فالدين زاد بإفراط، واتسع الفارق بين الأغنياء والفقراء، مما ينبئ بكارثة اقتصادية وشيكة.

أما بالنسبة للمحور الثالث فيظهر من عنوان الكتاب، وهو الأصولية الدينية، حيث يرى «فيليبس» أن الحزب الجمهوري تحول إلى الحزب الديني الأول بتاريخ الولايات المتحدة، وهو قلق من تطبيق البيت الأبيض لجداول أعماله السياسية المحلية والدولية بقيادة حوافز دينية ونظرة عالمية توراتية، كما يرى أنه من المقلق استغلال إيمان الناخبين الديني في تمرير العديد من القرارات السياسية الهامة.

Stumbling on Happiness
(العثور على السعادة)
Daniel Gilbert
Knopf, 304PP, $24.95, 2006

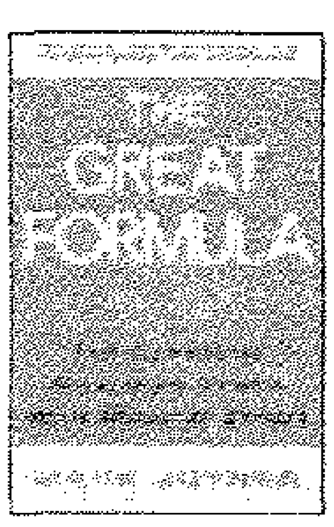


يسألك «دانيال جلبرت» هل تعرف ماذا يجعلك سعيدا؟ ويراهن بأنك تملك اجابة ما ويراهن أيضا على خطأ تلك الفرضية التي وضعتها لنفسك، في كتابه يكشف لنا «جلبرت» كيف تعمل عقولنا، وكيف يقيدنا خيالنا من الوصول إلى السعادة الحقيقية.

الكتاب لا يعرض دليلا للمساعدة، وانما يوضح الأمر بطريقة علمية حول كيف يقيدنا الخيال. «جلبرت» الأستاذ في علم النفس وعلم الأعصاب الادراكي، يقول أن السبب الرئيسي لعدم الوصول إلى السعادة الكبرى هو أخطاؤنا في تذكر الماضي، الذي يؤدي بالضرورة إلى أخطاء في تخيل المستقبل. يقول «جلبرت» رغبتنا في السيطرة قوية جدا، والشعور بأنك تسيطر على الأشياء لشعور جيد، لذا الناس يتصرفون في أغلب الأحيان كمن يستطيع السيطرة على الأشياء التي لا يمكن التحكم بها، ولهذا السبب لا نستطيع رؤية المستقبل، فما بال التحكم به.

يرى «جلبرت» أن الخبرات الشخصية والحكمة لا تعوض أبدا غياب الخيال، ويناقش الموروثات المتنقلة عن السعادة من عقول الأشخاص لبعضها، كالحصول على المال أو الأطفال.

The Great Formula : for Creating Maximum Profit with Minimal Effort
(المعادلة العظيمة : تحقيق أقصى ربح بأقل مجهود)
Mark Joyner
Wiley, 243PP, $21.95, 2006



الطريقة المثالية لزيادة مبيعاتك في هذا الكتاب، حيث يريك «مارك جونيور» كيف تزيد من حجم مبيعاتك، المعادلة

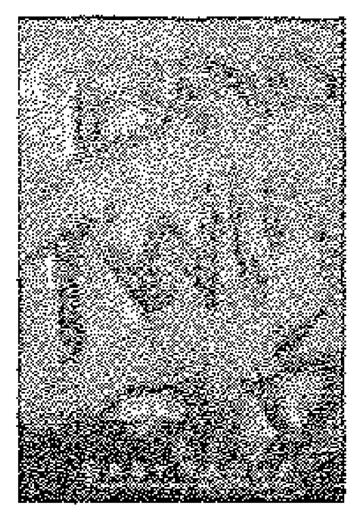
العظيمة تبدأ من تقديمك لعروض بحق جيدة، ثم كيفية تقديم هذا العرض إلى العميل، ثم البيع، فمفتاح عملية البيع يتلخص في ثلاث نقاط صغيرة، خلق عرض وتقديمه للعميل الصحيح، ثم بيعه وتقديم خدمات ما بعد البيع.

يحلل الكاتب بعضا من الأعمال التجارية الناجحة ويوضح كيف استخدموا تلك الطرق لزيادة مبيعاتهم، أيضا يتناول الكاتب الثلاث خطوات بالتفصيل الدقيق مضمنا نصائح متعددة وخدعا مختلفة لتنفيذها، أيضا يركز الكاتب على كيفية تحويل العميل الراضي إلى إعلان مجاني متحرك، وكيفية إيجاد مشترين محتملين لسلعتك.

Bad Twin

(التوأم السيئ)

Gary Troup
Hyperion, 272PP, $24.95, 2006



«بول أرتيسان» المحقق الخاص، يعيش حياة مملة بين العديد من القضايا المملة المليئة بالتصرفات السيئة والاحتيالات، يأتي له أخ ليشكو له من اختفاء أخيه التوأم، ويطلب منه البحث عنه.

الأخ المفقود ذو الشخصية غير المسئولة سليل العائلة الغنية، أمضى حياته متحديا للناس ليكرهوه، ومعاقبا لنفسه على الأخطاء التي ارتكبها، الأخ الآخر يسيطر عليه إحساسه بالمسئولية والواجب ولكنه ممتعض بنفس القدر، الأخ مرتبك من اختفاء أخيه ويشعر بذنب تجاه هذا، ويريد أن يجده قبل أن يدمر حياته وتصبح غير قابلة للإصلاح، ولكن هذا ليس السبب الوحيد، فأبوه أيضا قرر عدم تقسيم ثروة العائلة إلا في وجود الأخوين.

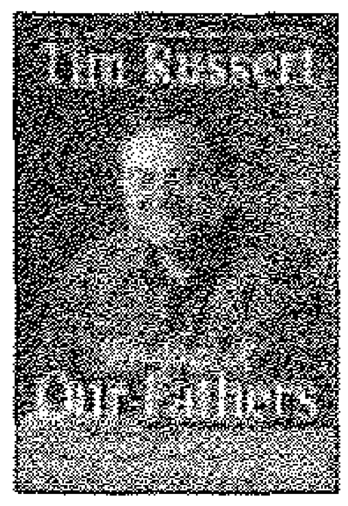
لم تكن الثروة التحدي الوحيد لأرتيسان، فالتحدي الحقيقي هو ما لم يكن يعرفه حول الطبيعة البشرية، فبينما يجوب «أرتيسان» الكرة الأرضية بحثا عن الأخ التوأم، جاب «أرتيسان» عوالم بشرية أخرى، وسافر داخل مفهوم الهوية، ورأى عالما يبدو فيه الأصدقاء كالأعداء، وأحس أن هذه القضية هي فرصته المنتظرة لوضع قدراته قيد الاختبار، متحديا كل الظروف والتحديات التي من الممكن أن تكلفه حياته في أي وقت.

التوأم المفقود هي آخر روايات الكاتب «جاري تروب» التي سلمها إلى دار النشر قبل أيام من فقدانه على متن طائرة فقدت في رحلتها من سيدني إلى لوس أنجيلوس.

Wisdom of Our Fathers : Lessons and Letters from Daughters and Sons

(حكمة آبائنا)

Tim Russert
Random House, 304PP, $22.95, 2006



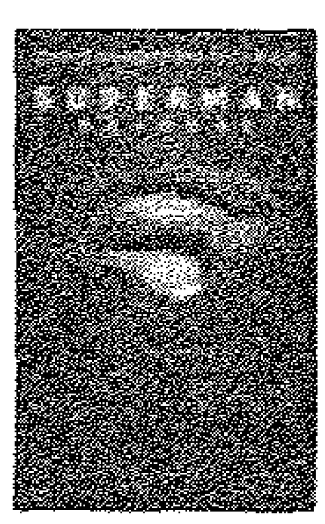
بعد كتابه الأكثر رواجا «روس الكبير وأنا»، الذي تحدث فيه عن أبيه، وصل «تيم روسيرت» الآلاف من الرسائل من أبناء وبنات أرادوا التعبير بدورهم عن امتنانهم لآبائهم، آباؤهم كانوا بدورهم أناسا عاديين، ولكنهم بطريقة أو بأخرى أثروا في وجدان أبنائهم وجعلوهم يحسون بالامتنان الحقيقي لهم.

هذا الكتاب بالمقام الأول لكل الآباء، ليتعلموا كيفية إحداث تأثير إيجابي داخل أطفالهم من خلال مبادرات صغيرة ولكنها تحمل للأبناء معاني كبرى، أيضا الكتاب يحمل العديد من المشاعر الإنسانية العميقة التي تظهر في أوجها في علاقة الأب والأبناء.

Superman Returns

(عودة الرجل الخارق)

Marv Wolfman
Warner Books, 344PP, $6.99, 2006



شخصية الرجل الخارق، أشهر الشخصيات الخيالية في العالم، طالما رأيناها في روايات وقصص مصورة، وانتقلت إلى عالم السينما لتكون البطل الرئيسي لسلسلة من الأفلام التي لاقت نجاحا مبهرا.

بعد غيابه الغامض لعدة سنوات، يعود الرجل الفولاذي إلى الأرض في الملحمة الجديدة (عودة الرجل الخارق)، وفصل جديد في حياة أكثر أبطال الأرض الخياليين شهرة.

بينما يحاول أحد أعدائه القضاء على قوته نهائيا، يعود الرجل الخارق ليجد محبوبته ليست بعد في انتظاره، أحداث مثيرة ومحاولات لتدمير الكون، ومحاولات الرجل الخارق في الدفاع عن نفسه وعن الأرض.

القصة تأتي في نفس الوقت الذي يُنتظر فيه عرض فيلم جديد يحمل نفس الاسم.

Knowledge and the Wealth Of Nations: A Story of Economic Discovery

(المعرفة وثروة الأمم)

David Warsh
W. W. Norton, 320PP, $27.95, 2006



تلعب الأفكار الاقتصادية دورا كبيرا في تشكيل العالم، وتقوى الدول نتيجة لقوة اقتصادها، وفي الثلاثين سنة الأخيرة شهد علم الاقتصاد تطورا كبيرا نتيجة لتطور المعرفة الإنسانية.

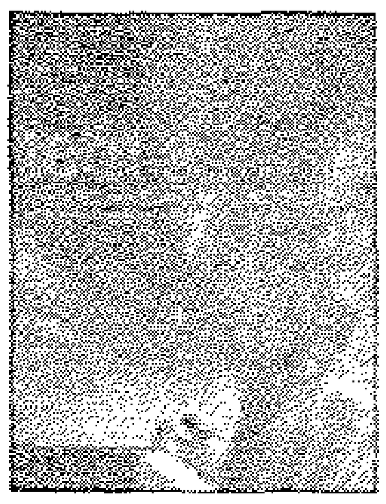
يواجه «وارش» في هذا الكتاب، آثار نمو المعرفة الإنسانية في الاقتصاد، وكيفية تأثير المتغيرات التكنولوجية في علم الاقتصاد، فهو يعيد تعريف العوامل الاقتصادية الرئيسية للإنتاج من وجهة نظره وطبقا للمتغيرات المعرفية والتكنولوجية الحديثة، فبدلا من أرض وعمال ورأسمال كما قال «رومير»، يرى إنها أصبحت أشخاصا وأفكارا وأشياء.

«وارش» يحاول توضيح فكره من خلال أمثلة توضيحية على ذلك، ويربط أفكاره بأفكار العديد من رواد الاقتصاد، كرومير وآدم سميث، مقدما تأريخا لعلم الاقتصاد خلال الـ ٢٠٠ سنة الأخيرة.

Books You Must Read1001 Before You Die

(ألف كتاب وكتاب يجب أن تقرأها قبل وفاتك)

Peter Dr Boxall
Universe, 960PP, $34.95, 2006



«بيتر بوكسال» المحاضر في الأدب الإنجليزي، يقترح ألف كتاب وكتاب يجب أن تقرأها قبل وفاتك، الكتب المقترحة لم تكن من «بوكسال» فقط، وإنما أيضا من العديد من النقاد العالميين ونجوم الأدب.

الكتاب يحتوي على عرض للكتب الألف وواحد، يصف أهمية الكتاب الأدبية وتأثيره وتفاصيل عن تاريخ مؤلف الكتاب بالإضافة إلى صورة طبق الأصل من غلاف الكتاب، ومعلومات عن الناشر.

The Book of the Dead

(كتاب الموتى)

Douglas Preston, Lincoln Child
Warner Books, 464PP, $16.35, 2006



الكتاب الثالث من الثلاثية (حجر الكبريت، ورقصة الموت، وكتاب الموتى)، في هذا الجزء يستعيد متحف التاريخ الطبيعي بنيويورك جواهره المسروقة من الجزء الماضي، «ديوجينيس» القاتل والسارق، يتحدى أخاه والمدينة بأكملها، وأخوه المحقق الفيدرالي يمضي عقوبته في السجن عن جرائم القتل التي ارتكبها أخوه، ويحاول أصدقاؤه ترتيب هروبه ليكشف براءته.

المتحف يقرر فتح تابوت مصري قديم، يوجد بالمتحف منذ زمن ولكنه لم يفتح بعد، بفتح التابوت تفتح أبواب الجحيم، فلعنة التابوت تطارد كل من حوله.

الكتب وجهات نظر رسائل وآراء

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

لا فائدة من الحوار

أستاذنا الفاضل سلامة أحمد سلامة رئيس تحرير «وجهات نظر» تحياتى واحترامى وبعد.. مقالكم عن «الحوار.. منهجًا للالتفاف والهروب».. يحمل عنوانًا هامًا جدًا.. فالحوار هنا الآن هو أسلوب أفلاطونى يبحث عن الجنة المفقودة.. ولن يؤدى الآن لشىء.. لأن نفاد صبر القوة الغاشمة أمام العقل ينتهى بوأد الفكر وإزهاق روحه والتخلص منه كما حدث مع سقراط وقضاة مصر الشرفاء ومفكريها الشهداء الأحياء الذين يمارسون رذيلة حب الوطن.. المناداة بإطلاق الحوار مع الأسف هى رفاهية ليس هذا وقتها.. فحين يصبح الوطن فى خطر الإلغاء والتقسيم والتوزيع على الأقارب والمحاسيب بعد أن جرى تجريفه ونهبه.. وحين يمسى المواطن ذاهلاً من الجوع والقهر والخوف والضياع.. لا يكون هناك أولوية لحوار.. ولكن تكون الأولوية للحركة الوطنية الفاعلة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من بقايا حطام الوطن والمواطن.. وليس الحوار.. ليس الحوار.. مضى مع الأسف وضاع وقت الحوار يا أستاذ سلامة.

د / سمير عنتر
استشارى الحميات - الطالبية - الهرم

بين «القضاء».. والقدر

أبى الأستاذ أيمن الصياد إلا أن يتناول بقلمه أهم جانب فى مصر الحديثة والذى لو استقل وتحرر لانصلح حال مصر وتبدل، إنه القضاء وقضيته الحية والتى يأبى البعض إلا أن يبعث برسالة للعموم أن ما مصر فيه إن هو إلا من قبيل القضاء والقدر وأنه المكتوب على الجبين حتى ولو وصل الأمر إلى هذا الوضع المشين بسبب ما يحيكه فى الظلام أعوان الشياطين ليشغلوا كل من تسول له نفسه ساعيًا أو معترضًا على الظلم المبين.

فأرادوا أن يشغلوا القضاة بمعارك جانبية وقضايا ثانوية وفتن داخلية لتتوه معالم القضية والتى هى ضائعة منذ أن ضرب الفقيه الدستورى السنهورى بالحذاء فوق أم رأسه، واليوم تنفر فئة رائعة من القضاة يشعر المرء عند الحديث عنها بأنها الفئة التى آمنت بربها والتى تود الرفعة لوطنها وزكريا عبدالعزيز على رأسها والمستشار الخضيرى والمكى والبسطويسى بعض فروعها ونهى الزينى هى الفل من زهراتها ومقيمة الحق فى ربوعها والفصاحة بعض حروفها وأثبتت أنها بألف أو يزيد من الفرسان ورجالها وإذا تحقق ما يطالب به الأستاذ أيمن الصياد فإن الوضع سينقلب رأسًا على عقب حيث سيذهب جفاء المزورون ويقدم للمقصلة المعاونون وستمور أرض مصر مورا إذ أضحى كل شىء فيها مزورًا قولاً وفعلاً وإنتاجًا وإخراجًا صغيرًا وكبيرًا والعدالة منذ نصف قرن أو يزيد مازال البعض يبحث عنها بإبرة وسط كومة القش وبالشمعة وسط الظلمة.

ويعجبنى أن نادى القضاة فى بعض فروعه فى المحافظات نفض الغبار عن كاهله وفصل من كان عونًا للظلم ومن دل على إخوانه والأشد إعجابًا ما نادى به المستشار الخضيرى من تطهير لبعض المواقع القضائية وإصلاح يبدأ بالنفس حتى لا يشارك القضاة فى قوانين جائرة ولا حسب التعليمات ولأنهم ضمير مصر فى كل الأوقات ويجب ألا يعبأوا بأى تهديدات ولا تغريهم المغريات ولا تعيين البنين والبنات.

الحسين محمد حميد



أزمة ثقة

قرأت أكثر من دراسة ومقالة - بداية من مقالة الأستاذ سلامة رئيس التحرير وانتهاء بالصفحة الأخيرة للأستاذ أيمن الصياد بعدد المجلة لشهر يونيه ٢٠٠٦ - القضاء والقضاة والقضية - ولى عتاب بسيط كقارئ على كلمة - مواطن - فلو سألت الملايين غيرى فى بلدنا الحبيب (مصر) ما هو تعريفك للمواطن؟ وما هى المواطنة؟ وما هى حقوق الإنسان ومنظماته المتعددة؟ ولماذا أنشئت؟.. إلخ لسمعت عجبًا، فبالله عليك يا أستاذ أيمن لقد قلت فى الصفحة الأخيرة - قراءة - فيما معناه - لو أن مواطنًا عاديًا وليس (قاضيًا) لكُسرت عظامه وسُحل بالشارع، فنحن نتفق بأن غالبيتنا العظمى فى هذه الرقعة الجغرافية ليس لهم حول ولا قوة - لا سلطة أو نفوذ أو مال يحميهم من غلواء القهر والظلم - (قل لى ماذا تعمل؟ أو ماذا تملك.. أو مدى قربك من أصحاب النفوذ - أقل لك من أنت) إذن فالغالبية العظمى هم - أشخاص - أفراد - هُمْ - إنما مواطنون. فما شاء الله؟ يا سيدى هذه رفاهية لا تغنى ولا تسمن من جوع ولا نقدر عليها لو استدعانى (رجل أمن عادى) وركل وصفع وأهان وأهدر.. هل أستطيع أو بمقدورى أن أقول له «القانون والدستور وحقوق الإنسان والمواطنة وما شابه ذلك» هذه هى الثقافة الجمعية التى تربينا عليها منذ قرون خلت، السلبية والخنوع والاعتدال إلى حد الإفراط والتفريط.

وفى الصفحة ما قبل الأخيرة «نص وتعليق وكالة رويترز» ولأول وهلة اعتقدت أن الصورة بالعراق الشقيق لكثرة ما رأينا أحذية المارينز الأمريكان فوق رقاب إخواننا فى العراق لولا رأيت الزى الأمنى المصرى لما صدقت أن هذه اللقطة بقاهرة المعز، فكل الشكر لثورة المعلومات التى جعلتنا نرى النملة السوداء فى الليلة الظلماء.. ألا تستحى الأنظمة العربية فى أن يراها الآخر وهى تهين شعوبها إلى هذا الحد. أم أنها تخاف ولا تستحى، ولقد أصابتنى حالة من الغثيان والقرف وحالة من الغيظ والغضب فى نفس الوقت ونسأل إلى متى يتم احتكار الحقيقة من قبل السلطة بمفهوم العقلية الأمنية وتذكرت شاعرنا الكبير فاروق جويدة فى أبيات له تقول:

اغضب.. فإن الله لم يخلق شعوبًا تستكين
اغضب.. فإن الأرض تحنى رأسها للغاضبين
اغضب.. فإن الناس حولك
نائمون.. مكذبون
اغضب إذا لاحت أمامك أمة مقهورة
خرجت من التاريخ.. باعت كل شىء
كل أرض.. كل عرض.. كل دين

وأقولها متى يا رب نغضب؟؟ مع شاعرنا الكبير.

ومتى يكون بين الأنظمة وشعوبها حوار بمعناه الإيجابى، وليس الحوار كمنهج للالتفاف والهروب، كما أشار الأستاذ سلامة بمقاله الرائع، حيث أكد أن عالمنا العربى لا تنقصه لغة الحوار ولكن تنقصه (روح الحوار بمعناه الإيجابى) الذى يتخلى عن المزايدة والمكابرة والسفسطة. تذكرت ذلك وأنا أرى وأسمع بالفضائيات عن حادثة بين عضوى مجلس الشعب وهل بالفعل خلع طلعت السادات الحذاء أم لا؟ هل هى هذه القضايا التى يجب مناقشتها والتى تهم الناس والمجتمع، ما هذا يا ربى؟؟ إلى هذا الحد الاستخفاف بالعقول من قبل الإعلام، ونعود ونكرر وإذا تم النقاش أو الحوار فكيف تكون لغته، هل نتخلى عن السفسطة والجدال البيزنطى والشخصية وإلغاء الآخر، أم أن الثقافة العربية الراهنة بعيدة عن الأخذ بثقافة الحوار التى تعتمد على التسليم باختلاف وجهات النظر والاعتراف بأن أحداً لا يملك الحقيقة المطلقة، وكما أشار إليه أ. سلامة بمقاله وطالما أننا نتكلم عن الحوار ولغته، هل من الممكن الإشارة إلى ما كتبه د. عبدالوهاب المسيرى فى دراسته الشيقة العميقة ـ نحو حداثة إنسانية ـ ونسأل بدورنا، هل من الممكن أن يكون بيننا وبين الغرب حوار بمعناه الإيجابى؟ أم أن الغرب ينظر إلى العالم ـ وخاصة العربى والإسلامى ـ على أنه مادة استغلالية يوظفها لصالحه باعتباره الأكثر تطوراً وتقدماً وطالما أن الشرق ما هو إلا مادة استعمالية للغرب المتقدم وفق مفهومه لفلسفة القوة، إذن هل من الممكن القول بأن روح الحوار بمعناه الإيجابى مفقودة بيننا وبين الغرب؟ وإذا كان ذلك كذلك، فمتى تؤسس حضارة إنسانية لا تؤدى بالضرورة إلى تقويض الإنسان بداخلنا، كما أشار د. المسيرى.. متى يا رب؟؟

سعيد الرفاعى
العمار الكبرى ـ قليوبية

توضيح وتعليق

لقد قرأت ترجمة لزعيم الإصلاح الدينى جمال الدين الأفغانى فى مجلتكم «وجهات نظر» عدد أبريل ٢٠٠٦ ولى بعض الإضافة والتوضيح حيث نرى أن الشعوب الإسلامية تقدر جمال الدين وتعتز به وتعده من مفاخرها وملكا لها جميعا فتعنى بدراسته وكشف جوانب شخصيته وتسعى إلى تسجيل أفكاره وآرائه وتعمل على تمجيد ذكراه وترى فى هذا كله دليلاً على يقظتها وبرهاناً على حيويتها واستعدادها للسير فى طريق الرقى والازدهار.

ولد الأفغانى فى قرية أسد أباد بالقرب من همدان أى أنه إيرانى الأصل شيعى المذهب.

وبعد مطالعة ثبت لى ما يغاير ما اشتهر به الأفغانى فهو معروف بانتسابه إلى بلاد الأفغان وبأنه سنى المذهب وهذا غير صحيح وبيان حقيقة جمال الدين الأفغانى لا يحط من قدره ولا يؤثر فى مكانته شيئاً ولذا لزم التنويه.

....

ومن ناحية أخرى أحيى الأستاذ سلامة أحمد سلامة على مقاله فى عدد مايو عن أنفلونزا الطيور والذى شرح لنا فيه كيف اجتاح التخبط وكيف تباطأت الإدارة المصرية عند حلول هذا الفيروس أرضنا وكيف أنها لم تطبق الإجراءات الضرورية ومن أهمها استخدام اللقاحات المعتمدة عالمياً ولم تطبق إجراء استئصال وإبادة البؤر المصابة وكم كان كاتبنا متابعاً للأزمة فأحسن القول عندما قال لم يهتم أحد بفرض حصار أو طوق أمنى صحى حول المزارع.. إلخ. وهكذا أوضح لنا الأسباب الكامنة فى انتشار الفيروس وكيفية الاستعداد لمواجهته ولكن لا ينسى أن ينبه بأن الأزمة اجتاحت الكثير من دول العالم، ولكن هذه الدول تعاملت معها بما يستحق أن تعامل به الدول الكوارث وضرب مثلاً بتسونامى ولكن كانت عندنا الأزمة ليست فى الكارثة نفسها أكثر مما كانت فى الإدارة المصرية تخبطت وافتقرت إلى الانضباط والالتزام وتحديد الاختصاص والمسئوليات وقد أدى كل ذلك إلى نفوق وذبح ملايين من الدواجن وكبد الاقتصاد المصرى خسائر فادحة دون ضرورة ملحة وهذا يذكرنا بقول القائل:
لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم..
ولا سراة إذا جهالهم سادوا.

صابر محمد عبدالواحد
عضو اتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين
أخميم ـ سوهاج

وثائق

رسالة مفتوحة إلى مؤتمر الحوار الوطنى الفلسطينى فى رام الله وغزة

نتمنى لمؤتمركم كل النجاح لإزالة الغمة التى خلقتها بعض الخلافات الداخلية والحصار الظالم مما يهدد مستقبل الشعب الفلسطينى. وفيما يتعلق بحق العودة وسائر حقوق اللاجئين غير القابلة للتصرف، نود إيضاح الآتى منعاً للالتباس والغموض الذى نراه فى بعض التصريحات والمبادرات.

إن حق العودة هو حق غير قابل للتصرف وهو حق شخصى فى أصله وحق جماعى بموجب حق تقرير المصير، وهو لا يخضع لمساومة أو اتفاق أو معاهدة ولا تجوز النيابة عنه، وقد كفله القانون الدولى أكثر من ١٠٠ مرة، وقد تم تطبيقه بعودة اللاجئين إلى ديارهم فى معظم بلاد العالم، ولم يقف فى طريق تطبيقه فى فلسطين سوى إسرائيل وأمريكا.

ولذلك فالقول بضرورة «إيجاد حل عادل لقضية اللاجئين» يتجاهل هذا الرصيد الكبير من قرارات القانون الدولى وتطبيقاته، ويدعو إلى البحث عن «حل عادل» جديد، وهذا مخالف لما قرره القانون الدولى فى شأن الحقوق غير القابلة للتصرف وحدده بكل وضوح بشأن اللاجئين الفلسطينيين. والمطلوب هو التطبيق وليس البحث عن «حل عادل».

وأما إضافة عبارة «كما يتفق عليه» إلى عبارة «حسب القرار ١٩٤» فإنها تفرغ هذا القرار التاريخى من معناه، ويصبح النص عبارة دعائية لإرضاء الجماهير، لأن المقصود بهذه الإضافة: «كما يتفق عليه» مع إسرائيل، وهى التى رفضت عودة اللاجئين منذ عام ١٩٤٨، وسلبت أراضيهم وأملاكهم ولا يمكن لعاقل الاعتماد عليها فى الموافقة. وحتى محادثات طابا التى يروجون لها لم تسمح بعودة اللاجئين إلا بشكل مجازى وضئيل تحت عنوان لم الشمل الذى ألغته القوانين الإسرائيلية الآن، بينما خططت محادثات طابا لنفى الفلسطينيين إلى أى مكان فى العالم عدا ديارهم.

أما التعويض فهو حق فردى وجماعى ملازم لحق العودة وليس بديلاً عنه، وهو يشمل التعويض عن الخسائر الفردية والجماعية، المعنوية والمادية، وعن جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية، ويستحقه كل فرد تضرر حسب مقدار ضرره، وهو تابع لحق العودة، وليس ثمناً لإسقاطه.

ومما لا يقبل الجدل أنه لا يجوز الاستفتاء قطعاً على الحقوق غير القابلة للتصرف، فهذا مخالف لأبسط قواعد العدالة والقانون الدولى.

نسوق إليكم هذه الإيضاحات البديهية والقانونية، والتى يدركها شعبنا تمام الإدراك، لأن بعض التصريحات والمبادرات تستعمل بعض التعبيرات الضارة بالحقوق الوطنية الثابتة.

كما نذكركم بأن سبعين فى المائة من الشعب الفلسطينى، و٧٥٪ من اللاجئين، يعيشون الآن خارج فلسطين المحتلة عام ١٩٦٧ (الضفة وغزة)، وليس لهم دور تمثيلى فى الحوار الوطنى الدائر الآن. ومكانهم الطبيعى فى المجلس الوطنى الفلسطينى الذى يجب العمل على عقده فى أول فرصة ممكنة، بعد انتخابات نزيهة تمثل كافة الفلسطينيين فى العالم بنسبة أعدادهم، فالمجلس الوطنى هو مصدر السيادة الوحيد الذى يقرر مصير الشعب الفلسطينى، وواجبه العمل على استرجاع حقوقه الوطنية الثابتة.

وفقكم الله لما فيه خير فلسطين شعباً وأرضاً وحقاً.

د. سلمان أبو ستة
المنسق العام لمؤتمر حق العودة
info@rorcongress.com

أيمـــــن الصيـــــــاد

المـــوتى .. لا يلبـــون النـــداء



❝ الحل موجود. وقد جرب بنجاح مع مصر ومع الأردن، وحتى مع لبنان. عندما انسحبت إسرائيل إلى حدود ١٩٦٧ توقف الأطفال عن الموت.. عندنا وعندهم ❞

ب. ميخائيل

ايديعوت أحرونوت

■■ «ليس مهماً أن تكون قضيتك عادلة.. المهم أن تعرف كيف تقنع الآخرين بها».

لا أذكر بالضبط من صاحب العبارة.. ولكنها قفزت مؤرِّقة إلى ذاكرتي يوم تابعت. على أكثر من فضائية. خطاب إيهود أولمرت؛ رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد أمام الكونجرس الأمريكي في زيارته البروتوكولية الأولى لعاصمة «العالم الجديد».

يومها.. قاطعه النواب الأمريكيون بالتصفيق (٤٠ مرة) ووقفوا تحية لما يقول (١٨ مرة). ويومها اتجهت الكاميرات إلى أولئك الذين انهمرت دموعهم تعاطفاً مع الرجل «الطيب» الواقف على المنصة، ومع شعبه «المؤمن» صاحب الخبرة الطويلة في البكاء «على الحائط».

بعد أيام فقط. أيام فقط. كانت الصغيرة «هدى» الفلسطينية ذات الثلاثة عشر عاماً مع عائلتها على شاطئ غزة. يحاولون في هذا اليوم الحار «سرقة» لحظات من البهجة، تساعدهم على تحمل أيام لم يترك لهم فيها الحصار الإسرائيلي والتواطؤ الدولي والذل العربي غير الصعاب والجوع والدموع.. وبقية القصة معروفة. بعد أن خرجت الطفلة من المياه، التي كانت قد نزلتها بملابسها، لتجد عائلتها (كل العائلة) قد أطاحت بهم «وبأي فرحة في أيامها القادمة» قذيفة إسرائيلية، ألقى بها طيار من طائرته الحديثة جيدة التصويب.

والمشهد رأيناه جميعاً بعد أن جسدته كاميرا مصور وكالة «رامتان»:

على غير هدى.. كانت «هدى» وهذا اسم الصغيرة المكلومة لا تشعر بالزمان أو المكان.. تتكفى على الرمال.. تدور هنا وهناك. تبحث عن إخوة وأخوات وأم وأب .. كانوا هنا قبل لحظات، ولم يعد منهم غير دماء وأشلاء.. وذكريات. وربما «صورة» تجترها شاشات التلفاز الباحثة عن سبق صحفي أو لقطة مميزة.. ثم ينساها «العالم المتحضر» الذي يجيد دبلوماسيوه غض الطرف عن المعاهدات الدولية التي تنظم حقوق المدنيين. ولا يتذكرون «جرائم الحرب» أو «الفصل السابع» من ميثاق منظمتهم الدولية. إلا إذا أراد لهم «أصحاب القوة» ذلك.

■ ■ ■

لا جديد فيما جرى على الشاطئ. غير «الصورة» ربما. فكم من عائلة فلسطينية أبادتها صواريخ «الأباتشي» الإسرائيلية؟ وكم رضيع طالته الشظايا. أو انتزعته الانفجارات من حضن أمه. أرجوكم راجعوا أرقام الضحايا على موقع btselem وهي منظمة «إسرائيلية» لحقوق الإنسان.

هل تذكرون الهدنة التي أعلنتها الفصائل الفلسطينية من جانب واحد صيف ٢٠٠٣ والتي دشنتها يومها ابتسامات دحلان/ موفاز التليفزيونية ومانشتات الصحف العربية التي تبحث عن التهدئة لأسباب داخلية بحتة.

يومها كان للفلسطينيين شرط واحد للالتزام بالهدنة يتمثل في «الوقف الفوري لجميع أشكال العدوان الصهيوني بما في ذلك الاعتقالات والمصادرات والاعتداء على المقدسات».

هل تذكرون ماذا فعلت إسرائيل. أو حسب التعريف القانوني «جيش الاحتلال الإسرائيلي» . في الشهر الأول من الالتزام الفلسطيني بالهدنة؟

حسب «بتسليم» الإسرائيلية، بلغ عدد القتلى الفلسطينيين ١٦٣ منهم ٥٣ طفلاً ورضيعاً (وصل الرقم الآن إلى ٣٤٤١ منذ اندلاع الانتفاضة في سبتمبر ٢٠٠٠). وبلغ عدد المنازل التي هدمت خلال شهر الهدنة الأول ١٣١ منزلاً (لم يضبط في واحد منها سلاح أو ذخيرة)، كما وصل عدد أشجار الزيتون والموالح التي اقتلعت في الفترة ذاتها إلى ٦٢٩٧ شجرة مثمرة. كما صادرت السلطات الإسرائيلية في الشهر ذاته ما يزيد على ٢٧٠٠ فدان.

غير «الصورة» لا جديد إذن فيما جرى على شاطئ غزة.. ولا فيما ستشهده شوارعها وأزقتها الفقيرة في الأيام القادمة.

■ ■ ■

لكل أولئك المتحضرين الذين تشدقوا أمام الميكروفونات طوال الأيام الماضية بمصطلحات من قبيل «التنديد بالإرهاب».. و«العمليات المنفلتة» أو الذين ارتدوا «مسوح الحكمة» أو لوحوا بـ «سيف القوة» ضاغطين أو طالبين من الفلسطينيين الإفراج فوراً عن جندي (جيش الاحتلال) الذي لم يطلب «آسروه» غير مبادلته بالأسرى من النساء والأطفال في السجون الإسرائيلية. نسألكم: هل تعرفون أن حادثة الأسر تلك، وهي مشروعة في القانون الدولي، جاءت بعد يومين فقط من مقتل ثلاثة أطفال فلسطينيين بصواريخ الطائرات الإسرائيلية؟ وأن قائمة ضحايا هذا الشهر شملت «جنيناً» في الشهر التاسع» بعد أن طالته الشظايا في بطن أمه فمات هو.. وراحت هي إلى المستشفى؟

وهل تعلمون أن حصيلة جرائم القتل التي يرتكبها طيارون آمنون في طائراتهم الحربية والتي لا يملك الفلسطينيون حيالها رداً غير «التشبث بالحياة استشهاداً» بلغت هذا الشهر فقط (يونيو/ حزيران) وحتى لحظة أسر الجندي الإسرائيلي، ثمانية وعشرين من المدنيين (بينهم عشرة أطفال).


لا جديد إذن.. غير «الصورة».

■ ■ ■

عندما سمعت «هدى» الفلسطينية الصغيرة على شاشة «الجزيرة» تناشدنا جميعاً (عرباً وعالماً متحضراً) أن «لا تتركوني وحدي..»، تذكرت صورتها وقد ألقى بها اليأس. وربما الأمل . على الرمال تصرخ «في الموتى».. تناشدهم.

يسمعونها.. ربما. ولكن هيهات أن يلبوا النداء.

هل تذكرون نزار قباني؟! ■


الآن مع
خدمة الفاتورة المخفضة للشركات
خصم يصل إلى
١٢٪
على جميع مكالماتك
لجميع مشتركى الخطوط التليفونية التجارية...
اشترك الآن فى خدمة الفاتورة المخفضة
للشركات و تمتع بخصم يصل إلى ١٢٪ على
جميع مكالماتك المحلية و الدولية و مكالمات
المحافظات و المحمول.
مكالماتك أكثر...
وفاتورتك أقل
المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
شبكة واحدة .. بتقربنا كلنا
www.telecomegypt.com.eg
لمزيد من المعلومات اتصل بـ ١١١

الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الواحد والتسعون . السنة الثامنة . أغسطس ٢٠٠٦ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 8 - Issue 91 - August 2006





فروع
أكثـــر لراحتكـــم

١. فرع القاهرة
١٠٨٧ كورنيش النيل - جاردن سيتى

٢. فرع عدلى
٩ شارع عدلى - وسط المدينة

٣. فرع جاردن سيتى
٤ شارع أحمد باشا - الدور ١٢

٤. فرع مبنى اتحاد الاذاعة و التلفزيون
كورنيش النيل - ماسبيرو

٥. فرع المهندسين
٤ شارع سوريا

٦. فرع الجيزة
٣٢ ب شارع مراد

٧. فرع المعادى جراند مول
٢٥٠ ميدان كلية النصر - المعادى الجديدة

٨. فرع حلوان
١٠٠ شارع المنصور - حلوان

٩. فرع مصر الجديدة
٥٢ شارع نزيه خليفة

١٠. فرع جنينة مول
٤٩ شارع البطراوى - مدينة نصر

١١. فرع العاشر من رمضان
المركز التجارى - مدخل ١

١٢. فرع فيصل
٧،٦ مساكن المنصورية - كفر نصار - نهاية فيصل

١٣. فرع ٦ أكتوبر
٤٣ ب المنطقة الصناعية الثالثة

١٤. فرع جامعة ٦ أكتوبر
مدينة الثقافة والعلوم - مجمع معاهد قناة السويس للتكنولوجيا

١٥. فرع القرية الذكية
الكيلو ٢٨ طريق مصر اسكندرية الصحراوى - مبنى ١١٥ ب

١٦. فرع باتريس لومومبا (الاسكندرية)
٢ شارع باتريس لومومبا - باب شرق

١٧. فرع سموحة (الاسكندرية)
٣٨ شارع توت عنخ أمون

١٨. فرع العطارين (الاسكندرية)
١٥ شارع محمود عزمى

١٩. فرع زهران مول (الاسكندرية)
٣٦ شارع فيكتور عمانويل

٢٠. فرع قرية بدر (الساحل الشمالى)
الكيلو ٨٣ - الساحل الشمالى

٢١. فرع قرية غزالة (الساحل الشمالى)
الكيلو - ١٤٢ طريق الساحل الشمالى
فندق موفينبيك العالمين - قرية خليج غزالة

٢٢. فرع السويس
١ شارع البرج - تقاطع ٢٣ يوليو

٢٣. فرع الغردقة
طريق النصر بجانب مستشفى البحر الأحمر

٢٤. فرع شرم الشيخ
شارع صلاح طاهر - منتجع هوليداى أمفورس

٢٥. فرع أسيوط
برج الهدى شارع التحرير متفرع من شارع يسرى راغب

٢٦. فرع أسوان
٨٢ شارع التحرير - بندر أسوان

والآن فرعين جديدين

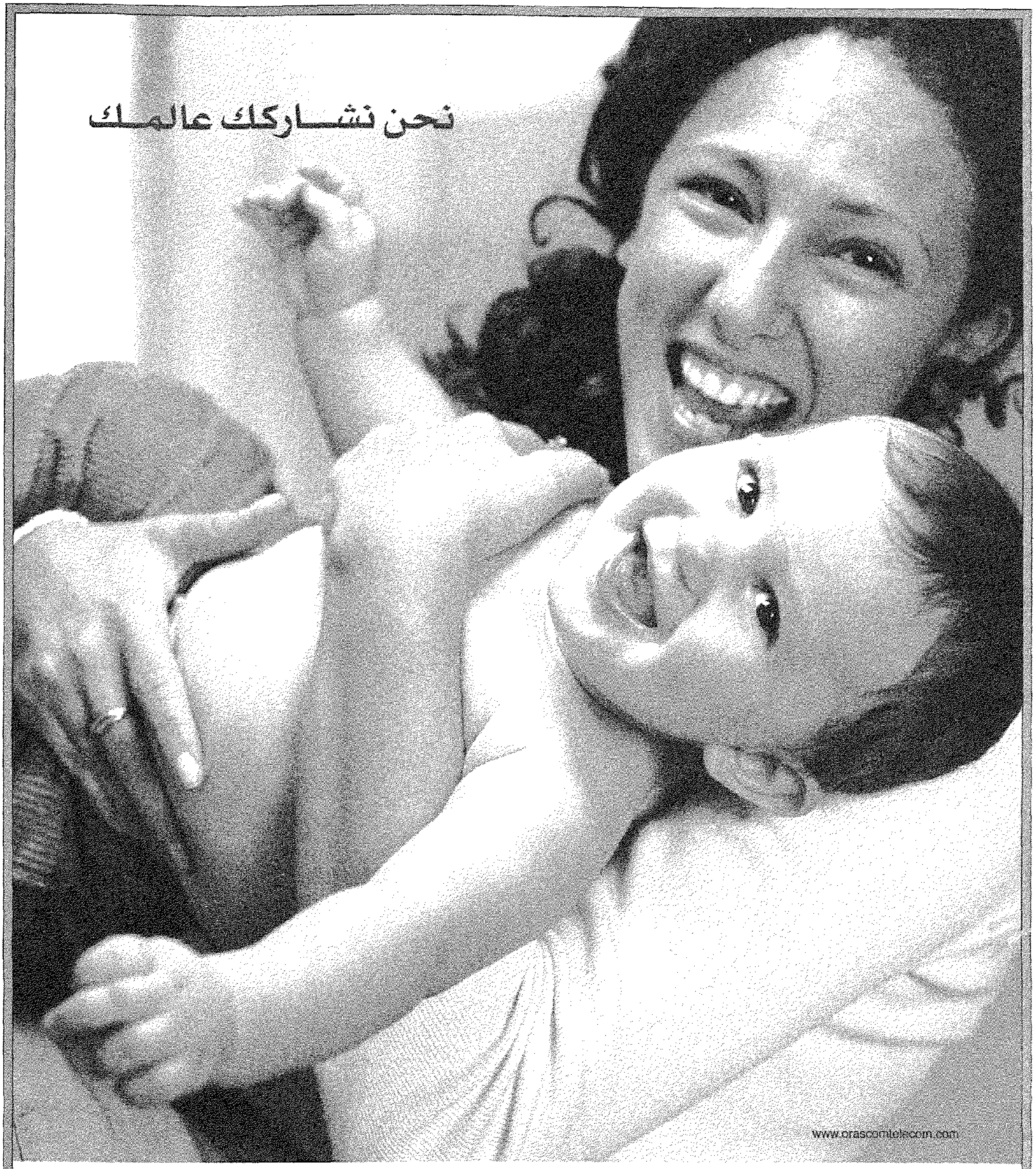
فرع روكسى: ٨٠ شارع الخليفة المأمون
فرع الأقصر: شارع معبد الكرنك - أمام الإدارة التعليمية

PIRAEUS BANK
بنك پيريوس - مصر

البنك بنكك

إتصل بـ 19322

Animation Advertising


نحن نشاركك عالمك
www.orascomtelecom.com

السـنـة الثـامنـة
العدد الواحد والتسعون
أغسطس ٢٠٠٦

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أبو المعاطى أبو النجا.. أديب مصرى.
- إدوارد إريسينشى.. باحث متخصص فى شئون الأديان.
- السيد أمين شلبى.. سفير مصرى سابق ـ الرئيس التنفيذى للمجلس المصرى للشئون الخارجية.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- بل ماكيبن.. صحفى أمريكى.
- جارى ويلز .. مؤرخ وناقد أمريكى.
- جيسون إبستاين.. باحث أمريكى.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- عبدالقادر ياسين.. صحفى فلسطينى.
- عبدالله عبدالسلام.. صحفى.
- فيليبا تاونسند.. باحث متخصص فى شئون الأديان.
- لانس جينوت.. باحث متخصص فى شئون الأديان.
- مازن النجار.. باحث وأكاديمى فلسطينى.
- محمد سعيد رمضان البوطى.. أستاذ بجامعة دمشق.
- محمد عبد الرحمن يونس .. محاضر فى جامعة الدراسات الأجنبية ببكين.
- نادر فرجانى.. مدير مركز المشكاة والمؤلف الرئيسى لتقرير «التنمية الإنسانية العربية».
- نعيم قاسم.. نائب الأمين العام لحزب الله.

رسوم العدد للفنانين

محمد حجى ـ سعد الدين شحاتة ـ أحمد اللباد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٢ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.

إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص . ب : ٣٢ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٢٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٢٠٠ دينار ـ المغرب ٢٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٢٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

نـــوح

سلامة أحمد سلامة

سراب الديمقراطية..

■■ مثل الرمال المتحركة فى الصحراء، تتغير ملامح الخريطة السياسية للتحول الديمقراطى فى المنطقة العربية بين وقت وآخر. فما بدا فى لحظة طريقًا سالكًا ممهداً أمام تقدم العملية الديمقراطية، إذا به يصل إلى حائط مسدود. وما بدا بعيداً عن مجال الحركة أو غارقًا فى الصمت إذا به ينتفض مستيقظاً إلى ما لم يكن أحد يتوقعه أو يتنبأ به.

إذ لا يوجد فى العالم العربى معيار للتقدم الديمقراطى يمكن الركون إليه. كما أن قوة الدفع تختلف من بلد عربى إلى آخر. وفى أحيان كثيرة تأتى فى صورة نقلات مفاجئة من الحركة إلى السكون أو من السكون إلى الحركة تحت ضغط عوامل كثيرة ولأسباب يصعب تحديدها.

وعلى اتساع المنطقة العربية لا تكاد تلحظ تغيرات إقليمية تنبئ بانفتاح حقيقى على طريق الإصلاح. وباستثناء يقظة مباغتة فى الأطراف دون المركز - فى موريتانيا والكويت - فقد تراجعت التحولات السياسية أو أبطأت وانتهت إلى حالة من الجمود والمراوحة فى المكان على أحسن تقدير.

وفى شهور الصيف الحارقة، تبدو الحاجة طبيعية تحت ضغط الخمول والاسترخاء، لإعادة النظر فيما تحقق وما لم يتحقق.. فعلى الرغم من مضى أكثر من عام تقريباً على تعديل المادة ٧٦ من الدستور المصرى، التى أثارت لغطًا كبيراً وجدلاً واسعاً، إلا أنها لم تفض فى النهاية إلى ما أيقظته فى وجدان الشعب المصرى من توقعات وآمال حول تداول السلطة، وما كان ينتظر أن ترتبط به من وضع نظام ديمقراطى لإحداث تغيير طبيعى فى منصب الرياسة بالاختيار الحر المباشر بين أكثر من مرشح، وبما يضمن انتقالاً طبيعيًا للسلطة، ويستجيب لمنطق التغيير وليس لمنطق التوريث. ثم ما أعقبها من انتخابات تشريعية شهدت من الانتهاكات فى مراحلها الثلاث بقدر ما شهدت من مفاجآت أصابت الحزب الحاكم بصدمة لم يفق منها، بعد فوز الإخوان المسلمين بعدد كبير من المقاعد. وعلى مدى الشهور الأخيرة من انعقاد الدورة التشريعية تبخرت كثير من الوعود التى بذلت أثناء ما اعتبره البعض «ربيعًا للديمقراطية»، إذ جرى تأجيل الانتخابات المحلية بحجة الإعداد لإصدار قانون جديد، كما تم تمديد العمل بقانون الطوارئ عامين آخرين،

وفى هذه الأثناء لم تنجز حكومة الحزب الوطنى من برنامجها غير اليسير من القوانين التى وعدت بها. واستخدمت أساليب أمنية اتسمت بالقسوة والعنف لردع حركات الاحتجاج الشعبى وما اعتبر بمثابة تجاوزات غير مقبولة من الصحافة، فأحيل عدد من الصحفيين إلى المحاكمة. وجرى تمرير قانون السلطة القضائية بعد مناورات ومصادمات حادة مع القضاة، لم تستجب فيه الدولة لمطالبهم التى رأوا فيها تعزيزاً لاستقلاليتهم وحماية لهم من الوقوع تحت شبهة التواطؤ فى تزوير الانتخابات، أو الخضوع لرغبات السلطة التنفيذية وأهوائها.

ولئن بدا أن معركة القضاة لم تحسم بالطريقة التى ترضيهم، فقد كانت معركة إلغاء عقوبة الحبس فى قضايا النشر واستبدال الغرامة والتعويض المالى بها أسرع حسماً. حيث غلظت عقوبة الغرامة فى عدد كبير من المواد، وتدخل الرئيس مبارك شخصياً بحكم سلطاته الواسعة، لإلغاء عقوبة الحبس فى جرائم الطعن فى الذمة المالية للأشخاص العامة والنيابية، بهدف إبعاد شبهة الفساد عن بعض الشخصيات البارزة فى الحزب الحاكم، وكانت هذه المادة بالذات من أكثر المواد التى أغضبت الصحفيين وألجأت عدداً من الصحف الحزبية والمستقلة إلى الاحتجاب احتجاجاً على التشدد التشريعى الذى لم يعد له مبرر مقارنة بالديمقراطيات الغربية والذى أبقى مع ذلك على عقوبة الحبس فى عدد لا بأس به من المواد.

ومن الواضح أن التساهل النسبى الذى أبداه النظام مع الصحفيين، جاء ليعوض عن التشدد مع القضاة. إذ يبدو أن الثمن السياسى لو استجيب لكل مطالب القضاة كان سيكون أفدح كثيراً وأبعد مدى فى ضبط العملية السياسية على غير هوى الحزب الحاكم. فضلاً عن أن وسائل إغراء الصحفيين واستدراجهم والتأثير عليهم ليست بالأمر العسير، ولها سوابق وممارسات معروفة فى ظل القوانين المفروضة على ملكية وإصدار الصحف وما تم الإبقاء عليه فى قانون العقوبات.

أما تغيير الدستور أو تعديله ليتلاءم مع مقتضيات التطور الديمقراطى، فمازالت النخبة الحاكمة عاجزة عن انتهاج سياسة واضحة المعالم، تتهيأ من خلالها مشاركة شعبية وحزبية واسعة النطاق لإدخال إصلاحات دستورية جوهرية تستجيب لمطالب كل القوى السياسية، ولا تجمد عند حدود العمل على البقاء فى السلطة، والانغماس فى سيناريوهات الخلافة؛ والجمود على الموجود خوفًا من شبح غياب الرئيس مبارك، ومن تزايد نفوذ التيارات الإسلامية، ووهن الأحزاب السياسية المعارضة وغيابها المشهود عن الشارع. وهناك شواهد تدل على أن الجانب الأكبر من التعديلات الدستورية والقوانين المكملة فى نظام الانتخاب، سوف تنصب على إبقاء قوى سياسية بعينها محجوبة عن الشرعية، وهى القوى الإسلامية على وجه التحديد.

لم تختلف الاستجابة فى سائر دول المنطقة كثيراً عما يجرى فى مصر.. ربما اختلفت السيناريوهات فى هذا البلد أو ذاك، ولكنها استهدفت فى النهاية إبقاء الأوضاع على ما هى عليه وإن كان ثمة تغييرات فبأقل ثمن سياسى ممكن.. ففى الجزائر تم تعديل الدستور ليضمن بوتفليقة إعادة انتخابه خمس سنوات أخرى وفى تونس ومصر سعى القائمون على رأس السلطة إلى إعادة انتخابهم بطرق مرسومة يمكن ضبط نتائجها، تتخذ فى الظاهر شكل التعددية ولكنها تنتهى فى نتائجها إلى إعادة انتخاب نفس الرئيس السابق.

وربما كانت قصة الانتخابات الرياسية فى اليمن هى أحدث طبعة فى ملف الإصلاح الديمقراطى على الطريقة العربية.. فقبل نحو عامين خرج الرئيس اليمنى على عبدالله صالح يطالب رفاقه من الزعماء العرب بأن يطرقوا باب الإصلاح؛ وإلا فإنهم يخاطرون بأن تجرفهم موجة الديمقراطية أمامها. وقال لهم قولته الشهيرة: «احلقوا رءوسكم الآن، وإلا جاء من يحلقها لكم». ولكى يثبت الأقوال بالأفعال، بادر إلى إعلان عزمه على عدم ترشيح نفسه بعد نهاية مدة ولايته الحالية التى استمرت ٢٨ عاماً.

ولكن الذين يعرفون العالم العربى على حقيقته لم يفاجأوا حين جاء موعد فتح باب الترشيح لمنصب الرياسة، ليعلن الرئيس على عبدالله صالح أنه عدل عن رأيه السابق تحت ضغط إلحاح شعبى لم يطق عليه صبراً، حيث تدفقت جموع الشعب من كل أنحاء الجمهورية السعيدة تطالبه بالترشيح، مقلداً بذلك نفس الإخراج المسرحى الذى أعاد عبدالناصر إلى سدة الرياسة بعد هزيمة يونيو ٦٧. ربما اختلفت الظروف التاريخية اختلافًا شديداً، ولكن استخدام نفس الأسلوب من أجل البقاء فى السلطة يغفره الحكام العرب لأنفسهم ولا تبالى الشعوب بالعواقب.

وفيما يشبه الخطب الدعائية التى ألقاها الرئيس بوش لتبرير الحرب على العراق، لفت الرئيس على صالح الأنظار إلى أن «جماهير الشعب اليمنى عندما سمعت بأن هناك ناقوس خطر ووحوشاً تكشر عن أنيابها للانقضاض على الثورة والجمهورية والوحدة والديمقراطية، خرجت بتلقائية لم يدفعها أحد، وبدون برمجة حزبية أو سياسية، تطالبه بالعدول عن قرار عدم الترشيح وتجبره على الترشيح». ولم ينس الرئيس أن يقدم لشعبه برنامجاً انتخابياً حافلاً

ما الذى جرى للإصلاح السياسى الذى لم يكد يبدأ قبل عدة سنوات، حتى أصبح سرابًا يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا؟
ولماذا اندفعت الحكومات العربية فى البداية تبدى حسن نواياها ـ وإن على مضض ـ ثم لم تلبث أن انقلبت على نفسها؟

للتنمية ومكافحة الفقر وإنجاز مشروعات لتوليد الكهرباء بالطاقة النووية.. إلى آخر الوعود الوردية التى يحتاج تنفيذها إلى ربع قرن آخر. صحيح أنه لم يتخل عن وعوده الديمقراطية فسمح لعدد كبير من المرشحين بمنافسته على الرياسة، ولكن المهم أنه لم يتردد فى أن يحلق شعر رأسه بنفسه ولنفسه!!!

وربما كان الرئيس اليمنى صادقًا مع نفسه عندما أعلن فى حينه أنه لن يعيد ترشيح نفسه. فقبل سنوات قليلة عندما كان الغزو الأمريكى للعراق فى ذروته، تصور الحكام العرب أنه من الحكمة أن يستجيبوا لدعاوى الإصلاح التى ألحت عليها إدارة الرئيس بوش. خصوصًا أن ثمة عوامل داخلية فى معظم الدول العربية كانت تستدعيها وتطالب بها. فى ظل الفشل الذريع الذى منيت به الأيديولوجيات والشعارات القومية والاشتراكية التى حكمت طويلاً. وفى ظل ثورة المعلومات التى أزالت الحواجز السياسية ونقلت تجارب الديمقراطية والحرية التى اجتاحت دولاً عديدة فى أرجاء العالم.

ونتيجة لذلك شهدت دول عربية عديدة موجة إصلاحية محدودة. فأجريت أول انتخابات بلدية فى السعودية. وأدخلت تشريعات لتحسين أوضاع المرأة وتمكينها من بعض حقوقها السياسية فى الانتخاب والترشيح. وجرت مناقشات واسعة النطاق حول حرية الصحافة والنشر تحمل وعودًا مبشرة. وفى بعض دول كالمغرب والبحرين صدرت تشريعات تسمح بإعادة النظر فى الحالات التى انتهكت فيها حقوق الإنسان.. حتى أجريت الانتخابات الفلسطينية التى ضرب بها المثل فى النزاهة والشفافية.

ولكن هذه الموجة لم تلبث أن شهدت نهايتها. ففى سوريا أعيد اعتقال عشرات من المنشقين وأنصار حقوق الإنسان. وفى مصر استخدمت الإجراءات الأمنية العنيفة للبطش بالحركات الاحتجاجية واعتقال أنصار الإخوان المسلمين، واستخدام القوة فى تفريق المتظاهرين. وأغلق المعهد الديمقراطى التابع للحزب الجمهورى أبوابه فى القاهرة والبحرين. وخففت واشنطن من تصريحاتها وضغوطها الخشنة والرقيقة فى حملتها لنشر الديمقراطية فى العالم العربى، والتى جعل منها الرئيس بوش شعارًا وهدفًا رئيسيًا لإعادة انتخابه فى ولايته الثانية.

ولا يمكن فى هذا الصدد التطرق إلى التحول الديمقراطى الذى شهده العراق.. فقد أدى الأسلوب الأمريكى فى التطبيق إلى ما يمكن أن يطلق عليه «ديمقراطية التصفية» التى ولدت عمليات عنف وإرهاب وحشى، انتهت إلى تصفيات ومذابح عرقية طائفية يقتل فيها العشرات يوميًا على الهوية فى موجات عنف دموى لم تفلح الديمقراطية فى وقفها حتى الآن.

تقتضى النظرة الموضوعية إلى الحصاد الهزيل للتحول الديمقراطى فى العالم العربى لفت الأنظار إلى التطور غير المتوقع الذى جاءت بشائره من أطراف الأمة العربية، من موريتانيا والكويت..

ففى موريتانيا طرحت القيادة المؤقتة التى تولت السلطة فى أعقاب الانقلاب العسكرى فى أغسطس ٢٠٠٥، تعديلات على الدستور جرى الاستفتاء عليها، تقضى بخفض فترة الرياسة إلى خمسة أعوام بدلاً من ستة ولمدتين فقط، وتشترط ألا يشغل الرئيس أى موقع قيادى أو حزبى. كما حصن الاستفتاء المواد التى تحكم وضع رئيس البلاد من أى تعديلات لاحقة على الدستور تؤدى إلى الانتكاس بهذه الخطوات. وبهذه التعديلات الدستورية كرست موريتانيا سابقة فى المغرب العربى، وربما فى المنطقة العربية بأسرها، خصوصًا بعد أن تعهد الرئيس ولد فال و«المجلس العسكرى للعدالة والديمقراطية» بالتخلى عن السلطة والامتناع عن الترشيح فى انتخابات ٢٠٠٧، الموعد المقرر لانتهاء الفترة الانتقالية.

هذا التطور الإيجابى فى موريتانيا التى شهدت تاريخًا مستمرًا من الانقلابات العسكرية، قد يثير مخاوف البعض نظرًا لأنها تتم فى بيئة سياسية هشة، وتصدر عن إرادة السلطة الحاكمة حاليًا، ولم تنبع من مؤسسات سياسية دستورية ورأى عام ليس من السهل التلاعب به، مما يحول دون إعادة شطبها أو تعديلها أو نسخها بطريقة تخدم رئيسًا جديدًا يستبد بالسلطة وتستبد به، كما يحدث عادة فى العالم العربى. وهو ما ينبغى أن تحتاط له النخبة الإصلاحية فى موريتانيا، فلا تنزلق إلى المنطلق الذى أودى بالديمقراطية ومستقبلها العربى بحجة عدم وجود البديل الصالح، والتى استخدمت لتأبيد الحكام وذويهم.

أما فى الكويت فقد أحرز التقدم الديمقراطى خطوة أو خطوتين إلى الأمام، عندما جرت انتخابات عامة بعد حل مجلس الأمة السابق إثر خلاف حاد مع الحكومة حول الفساد والنظام الانتخابى، أسفرت عن تعزيز حصة المعارضة، وحقق فيها الإسلاميون مزيدًا من المكاسب وتراجع عدد المؤيدين للحكومة.. وبذلك نجح التيار الذى طالب بتعديل الدوائر الانتخابية من ٢٥ دائرة إلى ٥ دوائر فقط. ولكن المرأة الكويتية التى زاحمت الرجل فى ممارسة حقها الانتخابى بنسبة وصلت إلى ٥٧ بالمائة لم تحقق فوزًا واحدًا رغم ترشح أعداد كبيرة منهن. ومع ذلك يظل من أهم الجوانب التى تنتقص من التجربة الديمقراطية الكويتية أن تشكيل الحكومة الكويتية لا يجرى على أساس نتائج الانتخابات، بسبب غياب عنصر التعددية الحزبية فى النظام السياسى الكويتى، وهو ما يضعف تداول السلطة طبقًا لما تقتضيه النظم الديمقراطية.

ما الذى جرى للإصلاح السياسى الذى لم يكد يبدأ قبل عدة سنوات، حتى أصبح سرابًا يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا؟

ولماذا اندفعت الحكومات العربية فى البداية تبدى حسن نواياها ـ وإن على مضض ـ ثم لم تلبث أن انقلبت على نفسها؟ هل اقتنعت هذه الحكومات فعلاً بالحاجة إلى إصلاح ديمقراطى، أم أنها سايرت الضغوط الخارجية ـ أمريكية وأوروبية ـ وهى تضمر فى قرارة نفسها الارتداد عن كل ما اتخذته من إجراءات فى الوقت المناسب؟

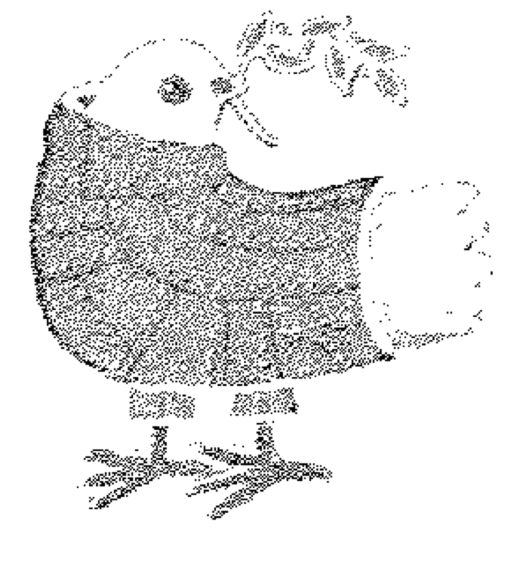
هناك عوامل كثيرة يمكن الاستناد إليها فى تفسير هذه النكسة، أو ما يمكن وصفه بالحصاد الهزيل للإصلاح فى العالم العربى!

ومن بين أهم هذه العوامل تصاعد وزن التيارات الإسلامية فى الانتخابات التى أجريت فى فلسطين ومصر والمغرب والعراق والصومال، وفى الكويت أخيرًا. وهو ما أدخل الرعب فى قلوب الأنظمة الحاكمة، وفى دوائر الحكم فى أمريكا وحلفائها الأوروبيين، التى رأت فى تنامى التيارات الإسلامية خطرًا يهدد استراتيجية «الحرب على الإرهاب» والتى شكلت جوهر الالتزام الأيديولوجى للرئيس بوش.. مما حفزها على إعادة النظر والتفكير فى سياسة دعم الديمقراطية فى العالم العربى، والبحث عن بدائل أخرى تضمن التوسع فى الحريات وضمانات العدالة وإلغاء القيود على الصحافة وتشكيل الأحزاب وتنشيط المجتمع المدنى، دون أن يؤدى ذلك إلى تمكين الإسلاميين من الوصول إلى السلطة وتهديد المصالح الغربية الحيوية.

وكان طبيعيًا أن تستغل الأنظمة الحاكمة هذه الظاهرة وتضخم من خطورتها لتجد المبرر فى الإبطاء، بل والتوقف عن الحركة فى هذا الاتجاه، وتمرير عدد من الإجراءات السلطوية من دون أن تخشى وقف أو تقليص المساعدات واتفاقات الشراكة. وهناك دلائل تشير إلى أن الحكومات الغربية قد عادت إلى انتهاج سياسات واقعية فى هذا المجال. فبسبب قلق حكومات الغرب من برامج إيران النووية على سبيل المثال، خففت من ضغوطها على دول آسيا الوسطى التى تراوغ فى الإصلاحات الديمقراطية. ومن ناحية أخرى أعادت واشنطن علاقاتها الدبلوماسية كاملة مع ليبيا دون اهتمام بدرجة الديمقراطية أو الحريات التى يتمتع بها الشعب الليبى.

هل انتهى ربيع الديمقراطية الذى بدأ مع العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، وأصبح علينا أن ننتظر ربيعًا آخر لن يأتى إلا مع مستقبل غير منظور؟

المؤكد أن عاصفة النيران التى تهب على المنطقة الآن، فى الحرب التى تشنها إسرائيل على لبنان وفلسطين بهدف سحق واستئصال حزب الله وحماس، تعتبر الخطوة الأخيرة فى إعادة رسم خريطة المنطقة، وليس من السهل التنبؤ بتداعياتها وتأثيراتها على الدول العربية.. وقد تؤجل حركة الإصلاح أو تعيد تفكيكها وتركيبها من جديد! ▪



خرائط التيه

أيمـــــن الصـــيـــاد

**هي الحربُ مرةً أخرى...
رغـــــم «ســــــلام»
راهــــنَ عليـــه العــــرب. ورغـــــم
«ســـــلاح» راهــــن عليـــــه
الإســــــرائيليون**

■■ بعد اجتماع مجلس الوزراء المصغر، كان إيهود أولمرت على شاشة التليفزيون الإسرائيلي يصرح بأنها «أيام صعبة لإسرائيل..» في الوقت الذي كان فيه تليفزيون «المنار» يذيع صوراً لنتائج القصف على الجانبين، مع شعار دال يقتصر على الآية القرآنية الكريمة «إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ» (النساء ـ ١٠٤)

وفي كل الأحوال تبقى «قراءة» شاشتي التلفاز على الجانبين مهمة في حساب النتائج.. والأهم «معايير» هذا الحساب.

هي الحربُ إذن مرةً أخرى.. أو بالأحرى، هو فصلٌ جديدٌ من حربٍ لم تنته أبداً. رغم «سلام» راهنَ عليه العرب كخيار إستراتيجي. ورغم «سلاح» راهن عليه الإسرائيليون كأداة للحسم قادرة على رسم الخرائط.

ها نحن بعد ٥٠ عاماً من حمل السلاح وثلاثين عاماً على كامب دافيد نعيش «واقعياً» حالة ليست من «اللا سلم واللا حرب». فهذا تعبير قديم. وإنما من «السلم والحرب» في آن: سلمٌ (على الورق) في المعاهدات والاتفاقات والتفاهمات. وحربٌ (على الأرض).. وفي النفوس.

لكل النتائج مقدماتها.. تلك سنةٌ من سنن الحياة التي لا نملكُ لها تبديلاً أو تحويلاً. وعليه.. يصبح النظر إلى أي مشهد آني (مهما كان أوار نيرانه آخذاً بالأبصار سارقاً للانتباه) قاصراً. ما لم نلحظ شرر المقدمات، ونشعر صهدَ جمرٍ كان دائماً تحتَ الرماد.

عندما اشتعلت «الحربُ السادسة»، وهي كذلك رغم أن لا جيوش نظامية هناك، ورغم أن البعض أنكر عليها الصفة حتى دخلت أسبوعها الثالث، أخذت إلى طاولتي كتاب إدوارد سعيد The End of the Peace Process: Oslo and After الذي سطر فيه كلماته الأخيرة قبل أن يترك القضية «بلا أمل هناك» ويرحل.

وعندما رأيت آخرَ ورقةِ توتٍ تسقط عن النظام العربي (راجع تصريحات «القادة» واجتماع وزراء الخارجية). وسمعت عمرو موسى: آخر أمناء الجامعة العربية (كفكرة ربما) ينبئُ من لا يريدُ أن يصدقَ أن «عملية السلام قد ماتت»: وضعت إلى جانب كتاب سعيد كتاب محمد حسنين هيكل «العربي التائه.. نهايات طرق» الذي صدر قبل أربعة أعوام كاملة.

وعندما شاهدتُ على الشاشة قوافلَ المصطافين عرباً وأجانب يهربون براً وبحراً من لبنان «الفاتنة» بمقاهيها ولياليها المطمئنة الصاخبة، بحثت في كتاب هيكل عما كتبه عن «وهم السلام».

وعندما رأيت صور طابور قتلى المظليين الإسرائيليين من «وحدة جولاني» المتميزة عائداً من «بنت جبيل» كانت أمامي الصفحات التي خصصها هيكل للحديث عن «وهم السلاح».

وكان طبيعياً، و«حزب الله» بعقيدته وفعله ـ في قلب المشهد، أن أضع إلى جانب الكتابين، اللذين ربما يرسمان أجواء المشهد ومناخه، كتابان يُعرِّفانه أحدهما لنائب أمينه العام الشيخ نعيم قاسم والثاني ـ وهو الأهم ربما ـ في المكتبة الغربية عن الموضوع، كتبته صحفية لبنانية تنتمي إلى بيروت المسيحية وتحمل الجنسية الأمريكية. وصدر عن دار Pluto تحت عنوان Hizbu'llah: Politics and Religion

على هامش جدل يبقى كما علمنا تراثنا بضاعة الذين قالوا «إنا هاهنا قاعدون» تبقى حقائق لا مراء فيها ولا جدال:

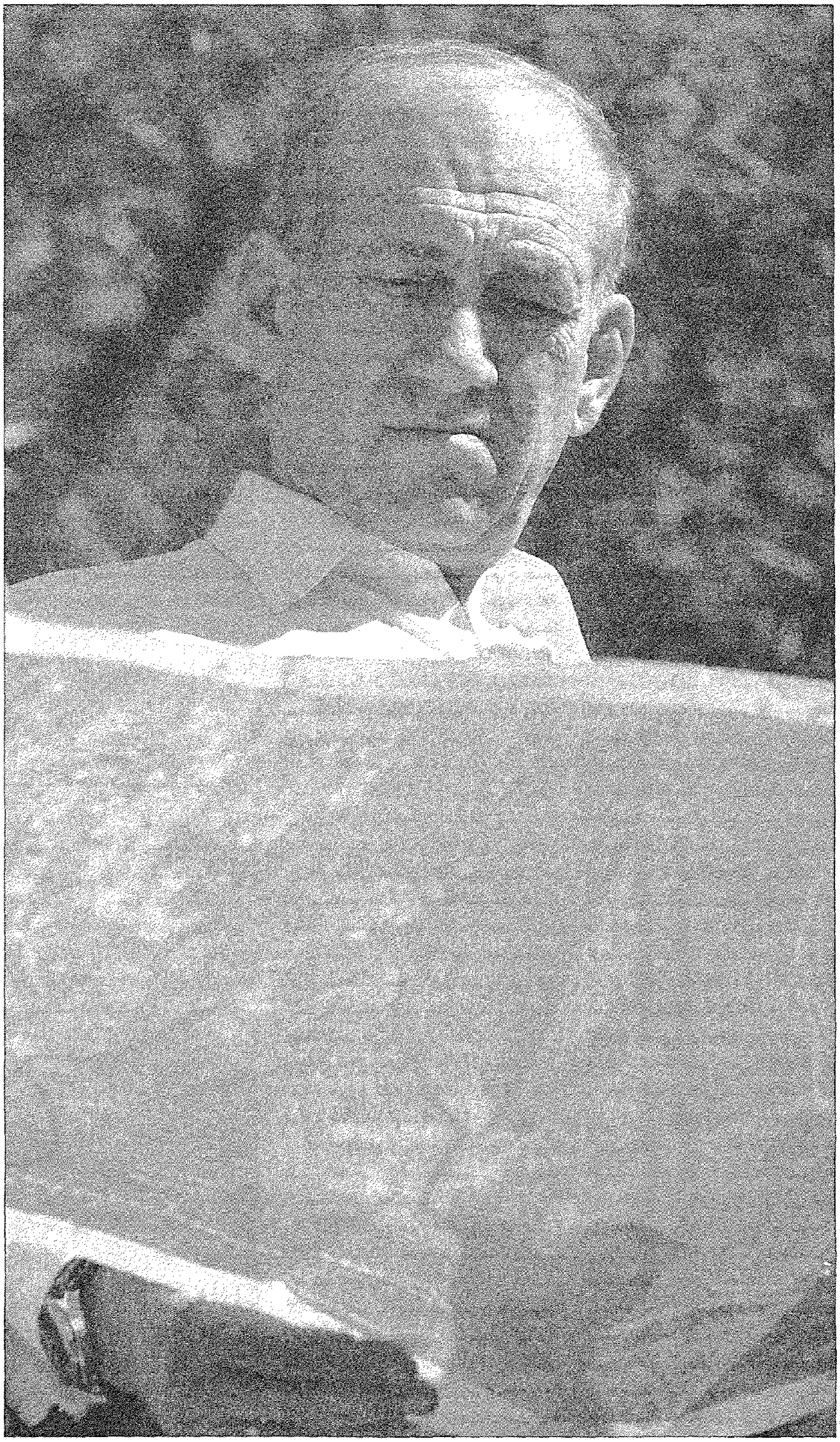
ربما كان صحيحاً أن حزب الله استفز «شمشون» الإسرائيلي بعمليته الأخيرة. ولكن يبقى صحيح أيضاً أن حزب الله نجح ـ وليست هذه المرة الأولى ـ في تحقيق ما عجز عنه آخرون، لنصف قرن أو يزيد، في كسر أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يُقهر. ليعيد ـ على الأقل من ناحيته ـ ترتيب أرقام المعادلة الشرق أوسطية التي أراد لها الكثيرون ـ أو رَضوا ـ تواطؤاً أو عجزاً، أن تصبح قائمة على الهيمنة الإسرائيلية المطلقة.

ويبقى صحيحٌ أيضاً أن لا وسيلة أخرى لاستعادة الحقوق ـ سواء كانت أرضاً أو أسرى ـ في عالم يحكم بالقوة لا بالعدل. أرجوكم تذكروا أن العالم كله الذي وقف اليوم ليطالب بإعادة جنديين «عسكريين» أسرا من داخل «مدرعتهما»، لم يطالب إسرائيل أبداً بإعادة آلاف الأسرى العرب (تسعة آلاف وسبعمائة حسب تقديرات سلطات السجون الإسرائيلية) من بينهم رجال دين اختطفتهم القوات الإسرائيلية من داخل «بيوتهم» في العمق اللبناني. كما أن من بينهم سمير القنطار اللبناني الدرزي المحكوم عليه إسرائيلياً بـ ٥٤٢ عاماً من السجن، بتهمة هي في التوصيف النهائي «مقاومة قوات الاحتلال». وهو فعل مشروع في كل القوانين والأعراف الدولية.

بالضبط كما هو الحال بالنسبة للجندي الإسرائيلي الذي أسره الفلسطينيون في غزة. فالجندي (حسب توصيف القانون الدولي) أحد أفراد قوات الاحتلال. والإقليم (غزة) حسب قرارات الأمم المتحدة ذات الصلة: «أراضٍ محتلة».

ويبقى صحيحٌ أيضاً أن بيروت الجميلة «التي نعشقها جميعاً» لم تكن يوماً بعيدة عن الأيدي الطويلة لجيش «الدفاع» الإسرائيلي (قبل ولادة حزب الله نفسه) وكلنا يذكر اغتيال الأديب الفلسطيني غسان كنفاني ورفاقه في «بيوتهم» في قلب العاصمة البيروتية (١٩٧٢). كما أن بعضنا لابد وقد عاد بذاكرته إلى العام ١٩٦٨ عندما أنزلت إسرائيل قوة من مظلييها في مطار بيروت لتفجر طائرات أسطول شركة الطيران اللبنانية عن بكرة أبيه. ولعله من باب المفارقة التاريخية أنه المطار ذاته الذي شهد الضربة الإسرائيلية الأولى للعاصمة البيروتية في اليوم الأول للحرب الأخيرة.

في عالم يحكم بالقوة لا بالعدل. تعجز المنظمة الدولية (حتى) عن حماية القوات الدولية التابعة لها، التي ذهب أفرادها إلى لبنان «لحفظ



السلام» فقتلت إسرائيل أربعة منهم بصواريخها «جيدة التصويب». ويعجز مجلس الأمن (حتى) عن إدانة الفعل الإسرائيلي.

وفي العالم ذاته الذي يحكم بالقوة لا بالعدل، هناك تاريخ طويل من «إجبار» إسرائيل على تسليم ما لديها من أسرى (فقط على طريقة حزب الله). ففي عام ١٩٨٥ تم الإفراج عن ١١٥٠ فلسطينياً مقابل ٢٣ جندياً إسرائيلياً. وفي ١٩٩٦ تمت مبادلة رفات جنديين إسرائيليين مقابل ١٢٣ لبنانياً أسيراً. وفي ١٩٩٧ أفرجت إسرائيل عن الشيخ أحمد ياسين الزعيم الروحي «القعيد» لحماس لقاء عميلين مأسورين من الموساد (اغتالته الطائرات الإسرائيلية بعدها بصاروخ أطلق على كرسيه المتحرك على باب المسجد فجر الثاني والعشرين من مارس ٢٠٠٤). على قائمة التبادل الطويلة أيضا مبادلة حزب الله ثلاثة لبنانيين ورفات ٤٠ من شهدائه برفات لجندي إسرائيلي (١٩٩٨). ثم كان أن نجحت وساطة ألمانية في ٢٠٠٤ في القيام بعملية التبادل الأهم مع حزب الله الذي أعاد بموجبها رجل أعمال إسرائيلي ورفات ثلاثة جنود مقابل ٤٣٣ من الفلسطينيين واللبنانيين.

والشاهد أن حزب الله بعملياته تلك وبروح المقاومة القائمة على عقيدة «النصر أو الشهادة» قد نجح بعملياته غير النمطية في أن يرسم «حدوداً» لما يمكن أن يحققه «سلاح» إسرائيل من هيمنة.

قلّبوا في ملفاتكم أرجوكم لتقرأوا مقالاً كتبه وزير الدفاع الإسرائيلي موشي أرينز في صحيفة هاأرتس (١٦ فبراير ٢٠٠٤) استلهم عنوانه من نتائج المباريات الرياضية: «حزب الله ٢/ إسرائيل صفر» واصفاً فيه عملية تبادل الأسرى تلك بأنها «الانتصار» الثاني لحزب الله على إسرائيل، معتبراً أن الانتصار الأول كان عندما أجبر إسرائيل على سحب قواتها من جنوب لبنان.

كل ذلك يبقى صحيحاً. كما أنه صحيح بالطبع. وهذا جوهر الرد على التائهين في أروقة التحليلات وسراديبها. أن قرار ١٩٩٥ الذي يتهم اللبنانيون أنهم لم ينفذوا أحد بنوده (الذي هو في حقيقته شأن داخلي بحت) أمامه عشرات من القرارات



للمنظمة الدولية لم تنفذ إسرائيل أيا من بنودها.

في كتابه يرى إدوارد سعيد مبكرا أن أوسلو. رغم كل الأمنيات الطيبة - لن تقودنا أبدا إلى السلام «باعتبارها تدوس على منطق (العدل) وتغلب سرديات المنتصر وتفرض منطقه». ويرى أن عدم التوازن في القوى هو الذي أجبر الفلسطينيين والأطراف العربية على قبول التنازلات التي أمليت عليهم من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، مما حال دون قيام مفاوضات حقيقية.

وكان الكتاب الذي صدر مثل كتاب هيكل في ٢٠٠١ قد تضمن سلسلة من المقالات التي كتبها سعيد ونشرها في دوريات مختلفة على مدى ست سنوات كاملة. ويعلن إدوارد سعيد في مقالته الأولى عن موافقته على السلام «الحقيقي» والتعايش «الحقيقي»، وهما ما يشكل همه الشاغل. مبينا أن ما يعارضه هو ما تتصوره سلاما وهو ليس بذلك. حيث يسمح للإسرائيليين بالسيادة وسلامة الأراضي وتقرير المصير فيها فيما يحرم الفلسطينيون من أي من ذلك.

وينبه صاحب «الاستشراق» إلى أهمية أن ننتبه إلى أن ما تروجه لنا الآلة الإعلامية الأمريكية هو في حقيقته «سلام مزيف» لا يتمتع بمقومات الاستمرار أو الحياة. كاشفا - بمنهجية أكاديمية - عن الصور المضللة التي تقدمها وسائل الإعلام والحكومة الأمريكية عن التقدم الرائع نحو السلام في منطقة الشرق الأوسط الأمر الذي يناقض تماما ما يجري على الأرض، حيث يتزايد تدهور أوضاع الفلسطينيين. وتستمر قطاعات الاحتلال الإسرائيلي من خلال مصادرة الأراضي وتوسيع المستوطنات.

والأهم (وهو ما قد نتذكره الآن عندما نرى الإفشال الأمريكي لمحاولة المجتمعين في روما إنقاذ لبنان بتطبيق فوري لوقف إطلاق النار) يحمل إدوارد سعيد الولايات المتحدة الأمريكية مسؤولية ذلك كله بوصفها الراعي الوحيد لعملية السلام. ولإسرائيل التي تستغل ضعف الفلسطينيين لإطالة أمد احتلالها العسكري الاستيطاني الأطول في التاريخ.

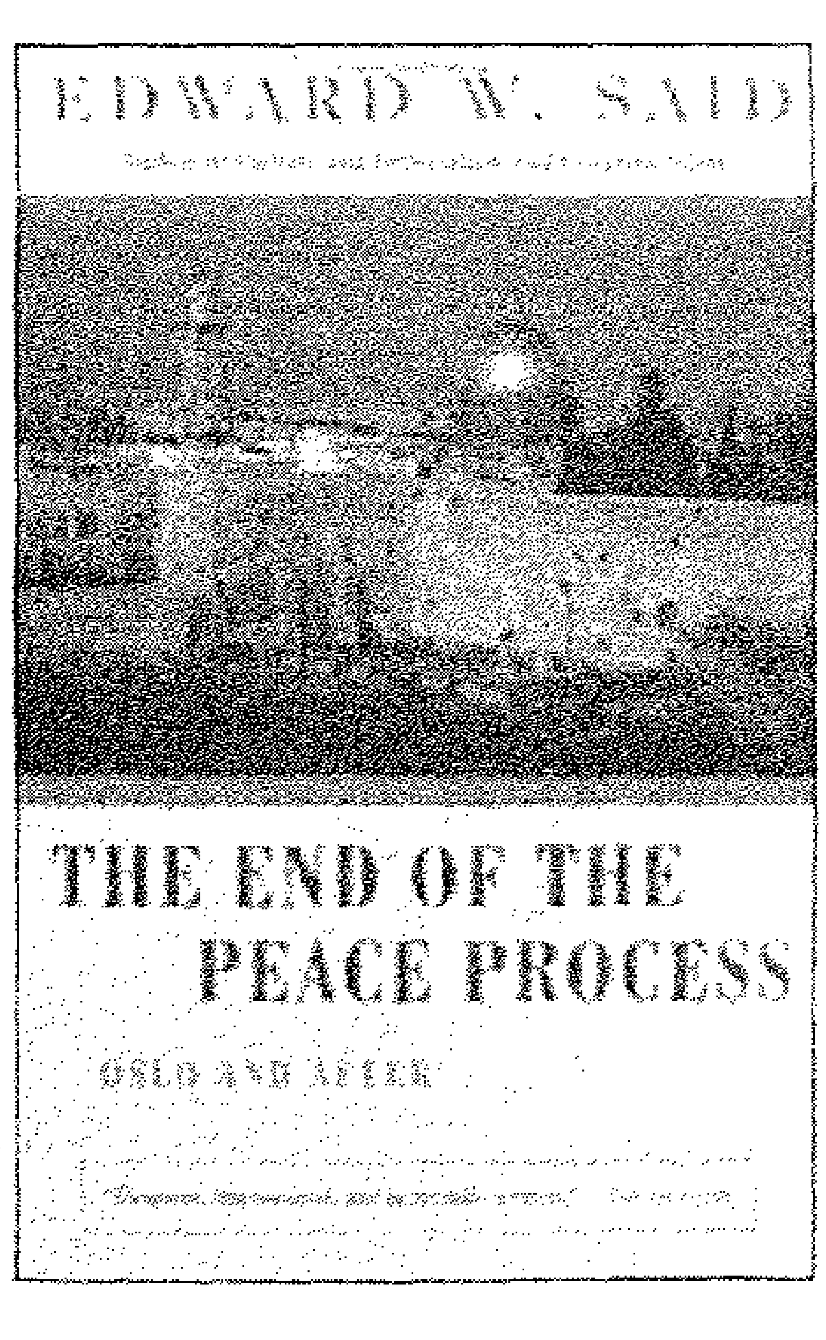
ويذكر أن الأرقام تشير إلى أن نسبة البطالة وصلت إلى ٦٠ بالمئة في غزة (الأرقام تجاوزت ذلك الآن بكثير). ووصلت مساحة الأراضي المصادرة في القدس والضفة الغربية إلى نسبة ٥٧ في المئة من المجموع.

ومنبها إلى الحركات الفكرية التي نشأت في الغرب في أعقاب الحرب العالمية الثانية، ومع عملية إنهاء الاستعمار التي شهدها العالم وقتها، والدعوى إلى الاعتراف بالشرور التاريخية التي عانتها تلك الشعوب. وطرح كل من إيمي سيزير في كتابه «خطاب في الكولونيالية» ١٩٥٥ وفرانزفانون في كتابه «المعذبون في الأرض» ١٩٦١ السؤال عن الطريقة التي يمكن أن تعوض بها أوروبا تلك الشعوب عن معاناتها وعن كل ما أخذته منها، يذكر سعيد في كتابه بدراسات أكاديمية للمؤرخين الإسرائيليين الجدد يكشفون فيها زيف الموقف الرسمي الإسرائيلي منذ ١٩٤٨ إلى الآن وهو موقف يصر على نفي أي مسؤولية إسرائيلية عن تشريد نحو ٧٠ بالمئة من الفلسطينيين. بينما توضح الدراسات الموثقة لأولئك المؤرخين أن القادة الصهاينة مثل: بن غوريون وفايتز أوضحوا لمسؤوليهم بما لا يدع مجالا للشك ضرورة إجبار العرب على الرحيل.

ويلخص سعيد رأيه، الذي نستعيده اليوم في أجواء حرب يراها البعض «نتاج مغامرة» بالسؤال عن نوع السلام الذي نريد، معتبرا أن السلام الذي يعد مقبولا فلسطينيا وعربيا، وحتى بمقاييس الإنسانية المجردة هو الذي يشتمل على الحد الأدنى من العدالة. ويجب أن يقوم على التكافؤ إذ لا يمكن لإسرائيل أن تحصل على ميزات مثل: السيادة والأمن والتواصل الأرضي والاستقلال السياسي الحقيقي وتقرير المصير الوطني. فيما لا يحصل الفلسطينيون على أي شيء من ذلك. فالسلام يكون بين الأنداد وهذا بالضبط ما ينقص عملية السلام. ويقذف بها إلى مصير مجهول تظلله غمامات الحرب ويصم أذنيه وقع طبولها.

«لـن يقتـل
أطفالنا وحدهم بعد اليوم»

السيد حسن نصر الله
الأمين العام
لحزب الله



في مقدمة كتابه «العربي التائه» الذي جمع فصولاً كتبها قبل أعوام في هذه الصفحات ذاتها من «وجهات نظر» وبالتحديد سنة ٢٠٠١. وهي سنة طلع على الدنيا فيها قرن جديد، يشير الأستاذ هيكل إلى مقال مهم كتبه هنا أيضاً (مارس ٢٠٠٠) بعنوان «نهايات طرق». معتبراً أن الطرق. ولسوء الحظ - تبدو عند نهاياتها وكأنها وصلت إلى تيه لا يظهر عليه أفق.

ومع بداية هذا القرن الجديد، القرن الحادي والعشرين. أضاف الأستاذ في مقدمته. فإنه يبدو أن «العربي» أصبح هو «التائه». وهو صدى بالمقلوب لتعبير شاع قبل ذلك قرونا عن «اليهودي التائه».

وفي قرن سبق. وهو القرن العشرون. فإن ذلك «اليهودي التائه» وجد لنفسه مكانا حط فيه رحله، وحصن موقعه - وفي نفس الوقت فإن «العربي» اختلطت عليه الأمور، وبدا وكأنه ضيع عالمه وفيه تراثه ومستقبله، ثم إنه ارتحل بحاضره تائها بين الحقيقة والوهم، وبين الرؤية والسراب، وبين الحلم والعجز.

وهكذا بدأ القرن الحادي والعشرون. يقول هيكل. واليهودي الذي كان «تائها» يتحصن في المشروع الصهيوني على أرض فلسطين، في حين أن العربي الذي كان راسخا في الطبيعة والتاريخ أصبح هو الشارد في التيه: قد يعرف من أين؟. لكنه لا يعرف إلى أين؟!

وكعادته يقرأ الأستاذ التاريخ. وهو ماثل هنا في وثائق الحرب العالمية الثانية «التي هي اختبار عظيم للسياسات والإرادات» لينبهنا إلى حقيقة أن «التهافت على السلام» لا يصنع وحده سلاماً، و أن استرضاء العدو «بأي ثمن» هو في نهاية المطاف أقرب الطرق إلى الحرب؛ «لأن التهافت على الطلب مثير للطمع، ولأن الغاية النبيلة لا تحققها وسيلة ذليلة. فأول قوانين الصراع أنه حين يرضى طرف لنفسه أن يستخذي فإن الطرف الآخر مدعو لأن يستقوي، وتلك طبائع أشياء قبل أن تكون قوانين صراع».

ومثال ذلك الأشهر في التاريخ - يذكرنا هيكل - أن رئيس وزراء بريطانيا سنة ١٩٣٨ «تشمبرلين» لم يكن يدرك وهو يحمل مظلته الشهيرة ويطير لمقابلة الزعيم الألماني «أدولف هتلر» في «ميونيخ» ويعود من هناك بعد يومين ليبشر الشعب البريطاني (وشعوب أوروبا) بـ «السلام في زماننا». أن «ميونيخ» كانت «نهاية طريق». وأنه بوهم صنع «السلام في زماننا». جعل الحرب العالمية الثانية حتمية لأن «هتلر» رأى «التهافت على السلام» دليلاً على الضعف والوهن، وشاهداً على تآكل الإرادة السياسية وقصورها عن تحمل مسؤولية الصراع من أجل الحياة والصراع من أجل السلام.

نقرأ هيكل ونتذكر، ليس فقط «كامب دافيد»؛ النقطة الأولى التي رسمناها على دائرة السلم والحرب «المغلقة»، بل قراراً عربياً «على مستوى القمة». حسب الألقاب البروتوكولية - باعتبار السلام خياراً إستراتيجياً «وحيدا» لكل شعوب المنطقة. وكان الدافع لـ «تمرير» ذلك القرار يومها أنه «يحرج الإسرائيليين أمام العالم!!».. عندما يتشددون في مواجهة أمة أجمعت رأيها على خيار السلام، والحاصل ونعرفه جميعاً أن الأيام جرت.

وأنه كما أن النهر جرت فيه مياهٌ كثيرة - حسب التعبير الشائع - جرت على الأرض دماءٌ أكثر. جلها «عربية». كما أن الإسرائيلي «المحرج» لم يجد ثمة من حرج في أن يردّ على قمة بيروت «تذكروتها» بمنع ياسر عرفات «أحد المدعوين لحضورها» من مغادرة المقاطعة.

لابد - يشدد هيكل - ونعيد قراءة ما كتب حين نرى أمامنا «الدائرة المغلقة» للحرب والسلام في الشرق الأوسط. أن تكون للسياسة قوة فعل تحترم نفسها، وتنتزع احترام الآخرين حين يرون السلام يعرض نفسه واقفاً على قدميه وليس راكعاً على ركبتيه. مؤكداً أن «السياسة» الواضحة تعززها «الإرادة» قد تغني عن الحرب المسلحة ونزيفها الدموي. في حين أن «السياسة» المترددة تجعل «نهاية الطريق» مهلكة في التيه أو مذبحة في العراء!

وعليه .. فقد كان طبيعي تماما أن لايوصلنا «وهم السلام» إلى سلام. وأن نرى أمامنا «حرب سادسة».

والحاصل أنه في الوقت الذي حلق فيه «وهم السلام» فاردا أجنحته الشفافة البيضاء في سماء العرب، استبد «وهم السلاح» بأولئك الذين أسسوا دولتهم تحت نيرانه. وكانت المفارقة مثيرة .. كما كانت النتيجة واحدة. رأيناها ومازلنا في دروب غزة الضيقة، التي لم تعش سلاما «رغم كل الاتفاقات» كما ظلت عصية ومؤلمة «رغم كل الصواريخ والمدرعات والطائرات». ونراها اليوم في جنوب لبنان رغم المعادلة ذاتها.

ويلاحظ هيكل في كتابه أن المشروع الصهيوني - منذ بدايته - قبل مائة عام كان يقدر «للسلاح دوراً لا يتجاوزه» ثم تحول هذا الدور مع التجربة العملية حتى تغير - بالكامل تقريباً.

إذ على امتداد نصف قرن، أي من بداية المشروع وحتى سنة ١٩٤٨. كان المطلوب من السلاح - طرد أكبر عدد من الفلسطينيين من وطنهم، خصوصاً بعد أن اتضح أن فلسطين ليست - كما تصور «هيرتزل» - «أرضاً بلا شعب تنتظر شعباً بلا أرض».

ثم أنه - يرصد هيكل - على مدى ما يقرب من عشرين سنة تالية - من ١٩٤٨ إلى ١٩٦٧ . كانت الإستراتيجية العليا لإسرائيل تعطي للسلاح الإسرائيلي دوراً محدداً مطلبه إبعاد الواديين الكبيرين - وادي الفرات ووادي النيل - عن منطقة الشام التاريخية الممتدة والواصلة بينهما. والمطلوب من وراء هذا الدور أنه إذا كان لا بد للمشروع الإسرائيلي أن يعيش في «الوطن الموعود» فإن البيت الفلسطيني وحده لا يكفي، وإنما لا بد لسلامة البيت من محيط أمني يعطيه مساحة كافية للتمكن والنفوذ: لأن الأوطان لا يدافع عنها عند حدودها، وإنما يدافع عنها في إقليمها جواراً ومحيطاً.

كان الآباء الأوائل «المؤسسون» - حسب هيكل - يدركون حاجة المشروع الصهيوني إلى استخدام السلاح. لكنهم جميعاً جاهدوا حتى يلتزم السلاح حدوده ولا يفسد على المشروع دعاواه المعنوية وضروراته العملية! إلى أن وقع المحظور في تلك الأيام المشهودة من يونيو سنة ١٩٦٧، حين اندفع السلاح - مطمئنا إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية وقوتها وقيادتها ورئيسها في ذلك الوقت «ليندون جونسون» جاهزون جميعاً لمعركة مع مصر. إلى ما يمكن اعتباره نقطة تحول في التاريخ الإسرائيلي، إذ اعتبر نفسه مكلفاً بمستقبل إسرائيل ومصيرها. فكان أن تجاوز السلاح الإسرائيلي حدوده مستولياً على السياسة، متجاوزا ومخترقا حدوداً لم تطلبها إستراتيجية إسرائيل العليا كما قدرها الآباء المؤسسون الأوائل، بل حاذرتها متأكدة أنها على المدى البعيد محكوم عليها!

● والنتيجة - والكلام لهيكل في كتابه المهم الصادر قبل سنوات - أنه في ثلث القرن الأخير وجدت إسرائيل نفسها في الشام دولة إمبراطورية (وفي الإمبراطوريات كبير وصغير) لكن الإمبراطورية مهما كان حجمها قد تكون لها مزايا مغرية، لكن لها مع مرور السنين تكاليف مرهقة، خصوصاً عندما تتنازل كافة عوامل القوة وتترك مكانها للسلاح وحده.

ولقد تعلمت الإمبراطوريات - حتى تلك الكبيرة والقادرة - أن تكاليف الإمبراطورية، حين يكون اعتمادها على السلاح وحده - عبء ثقيل، خير منه الانسحاب، وحتى بغير شروط. وأحيانا بغير كرامة، كما فعلت الإمبراطورية



«هناك شرق أوسط جديد يولد الآن»

كونداليزا رايس
وزيرة الخارجية
الأمريكية

البريطانية في السويس (مصر)، وكما فعلت الإمبراطورية الفرنسية في «ديان بيان فو»، وحتى كما فعلت الإمبراطورية الأمريكية في «سايجون» (فيتنام).

وبعد أن يقرأ هيكل من تاريخ الدم في منطقتنا (اجتياح لبنان، وقانا، والانتفاضتين، والاغتيالات .. إلى آخر ماجرى ويجري) كيف تجاوز السلاح الإسرائيلي «بغرور القوة» حدوده، يذكرنا بأن السلاح الألماني تفوق إلى درجة جعلت من أدولف هتلر سيدا على أوروبا كلها .. لكن السلاح الألماني تجاوز ما يقدر السلاح على تحقيقه مهما بلغ تفوقه. فإذا بهتلر يخرج من أوروبا إلى الشرق نحو الاتحاد السوفيتي في أغسطس ١٩٤١ ثم إذا هو يخرج إلى المحيط غربيا ليعلن الحرب على الولايات المتحدة في ديسمبر من السنة نفسها .. ثم كان أن انتهى الغرور الألماني بالسلاح وتفوقه إلى هزيمة ألمانيا واستسلامها بلا قيد أو شرط. ثم انتهى هتلر - رغم سلاحه - إلى الانتحار في قبو بارد من الأسمنت.

فكرة هيكل عن «حدود السلاح» الإسرائيلي كان قد فصلها أيضا في كتاب خصص فصولا طويلة منه لدراسة متعمقة في «الوثائق الإسرائيلية» ليخلص إلى أن ما اصطلح على تسميته مجازا بـ «أزمة الشرق الأوسط» أو بـ «الصراع العربي الإسرائيلي» إذا وقع تعبير أصرح لا يحتاج إلى «المجاز» كي يصل له مصطلحا، تنتمي إلى نوع من الأزمات موصولا في أساسه بثوابت التاريخ والجغرافيا .. ذلك إذا صح فهمنا لماهو «التاريخ»؟ وماهي «الجغرافيا»؟.

قرر العرب - هوانًا لا اختياراً - أن يكون السلام «خيارهم الوحيد». متجاهلين أن للسلام «الحقيقي» شروطًا .. فصار «السلام وهماً».

وقرر الإسرائيليون - بجموح القوة - أن يكون السلاح «خيارهم الوحيد». غافلين عن أن للسلاح حدوداً .. فصار «السلاح وهماً».

لا سلام بلا عدل .. لا يريد الإسرائيليون - مغترين بسلاحهم - الاعتراف بحقيقة أزلية.

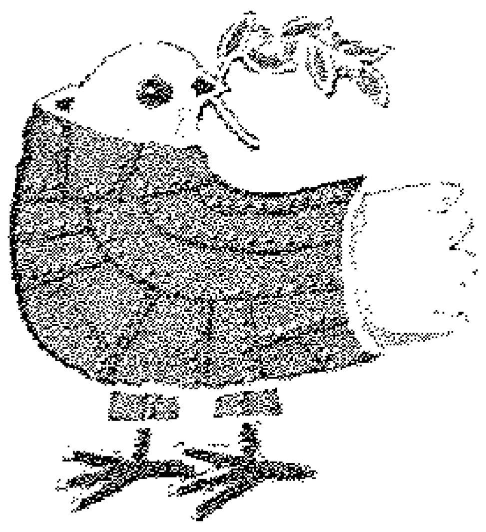
ولا سلام بلا توازن .. لا يريد العرب أن يروا «الحقيقة العارية».

ربما كان لابد اليوم لكل من راهنوا على أوسلو أن يعتذروا الآن لإدوارد سعيد وأن يعيدوا قراءة كتابه الأخير.

ما بين «سلام» توهمه العرب قادماً لا محالة، وبين «سلاح» توهمه الإسرائيليون قادراً على رسم الخرائط، دخلنا جميعاً في تيه لا يبدو له أفق. رغم أطنان السلاح والذخيرة وآلاف القرارات والاتفاقات وعشرات من الصور البروتوكولية المزدحمة. فالحقائق على الأرض لا تؤسس لها أبداً أوهام أو أمنيات.

في وسط القاهرة التي وقعت معاهدة «للسلام» مع إسرائيل قبل ما يزيد على ربع قرن لافتة كبيرة كتب عليها بحبر الإحساس بالظلم واليأس «نصر الله يا حبيب.. اضرب اضرب تل أبيب».

... ولا تعليق. ■



الخيـارات المفتـوحـة

مستقبل حزب الله

نعيم قاسم

التساؤل حول مستقبل حزب الله ظل حاضراً وبقوة منذ سنوات عديدة وتحديداً عقب الانسحاب الإسرائيلى من لبنان فى مايو عام ٢٠٠٠م. عندها قيل: لقد انتصرت المقاومة فما الداعى لاستمرار السلاح فى أيدى حزب الله وبقاء الجيش اللبنانى بعيداً عن الحدود مع إسرائيل؟ ثم تجدد السؤال وبإلحاح مع صدور القرار الدولى ١٥٥٩ الداعى لانسحاب سوريا من لبنان ونزع أسلحة الميليشيات، ومع اغتيال رئيس الوزراء اللبنانى رفيق الحريرى فى فبراير ٢٠٠٥م. وعقب الانسحاب السورى وسلسلة الاغتيالات التى تلته، عقد الفرقاء اللبنانيون جلسات حوار خلال الشهور القليلة الماضية لبحث مستقبل لبنان وفى القلب منه مستقبل الحزب لكن جاء العدوان الإسرائيلى فى ١٢ يوليو الماضى ليبعث الفوضى والدمار فى لبنان وليحاول فرض واقع جديد على الأرض كان الفرقاء اللبنانيون أنفسهم يحاولون تجنبه من خلال التوصل إلى اتفاق وطنى يراعى المصلحة اللبنانية أولا.

سؤال المستقبل لم يغب عن حزب الله ذاته، وقد تحدث زعماء الحزب وكتبوا كثيراً فى هذه المسألة ومن بينهم الشيخ نعيم قاسم نائب الأمين العام لحزب الله الذى أصدر كتاباً عام ٢٠٠٢ اخترنا منه هذه الصفحات.

«وجهات نظر»

أطل حزب الله على الساحة العملية من خلال المقاومة، وارتبط خطابه تبعاً لأولويته بالعمل العسكرى ضد إسرائيل، وأنجز خلال فترة وجيزة حضوراً مميزاً فى عملياته الجهادية النوعية، ولم تكن الحياة السياسية موجودة فى لبنان خلال نشوئه بسبب الحرب الداخلية[1]، واتجهت الأنظار الدولية والإسرائيلية إلى نمو الحزب المقاوم وخروجه إلى العلن فى مطلع العام ١٩٨٥. فانهمرت الاتهامات عليه بالأصولية والإرهاب، وظهّرت وسائل الإعلام الأجنبية -بتوجيه استخبارى- صورة الحزب المقاتل والصلب الذى لا يمكن التعايش معه. وتتالت التصريحات والتحليلات الأجنبية وبعض المحلية عن مناطق مقفلة للحزب، وحياة خاصة لم يعهدها الناس، وصلابة لا تُبقى صاحباً ولا تبنى علاقة، وشدة برزت من خلال المواجهات القاسية مع الجيش الإسرائيلى وعملائه، ما ربط الحزب بحضوره وصورته العسكرية، حتى ترسخت القناعة عند أكثر المحللين والناس، أن وجود الحزب مرتبط بالمقاومة، ولا شىء عنده غيرها، ولا يستطيع الاستمرار بدونها. فإذا تم التوصل إلى تسوية ما فى المنطقة، فسيكون الحزب ضحيتها، وبالتالى فحضوره ووجوده مؤقت، ولمرحلة خاصة فى الصراع مع إسرائيل.

ولّد هذا الانطباع مناخاً عاماً عن حصرية اهتمام الحزب بالمقاومة، شمل أيضاً شريحة من قاعدة الحزب، بسبب ظروف النشأة وضرورات التعبئة ضد الاحتلال وواقع لبنان. وهذا ما تطلب جهداً ثقافياً وتربوياً وعملياً فى الأوساط المؤيدة، عندما قرر الحزب المشاركة فى الانتخابات النيابية عام ١٩٩٢، كما تطلب خطاباً عاماً، وإجابات عن أسئلة صحفية متكررة ومتلاحقة، وتوضيحات تفصيلية أثناء بناء العلاقة مع الشخصيات والأطراف المختلفة.

ساهم خطاب الحزب، إضافة إلى العمل الميدانى شعبياً ونقابياً وانتخابياً ونيابياً وسياسياً فى الاكتشاف التدريجى لنظرة الحزب الشمولية، ورؤيته للعمل السياسى، واهتماماته المتنوعة، شأنه شأن أى حزب يعمل فى بلده، مع تمايزه بمنهجه وما ترتب عليه من أهداف، وخصوصية المقاومة فى لبنان.

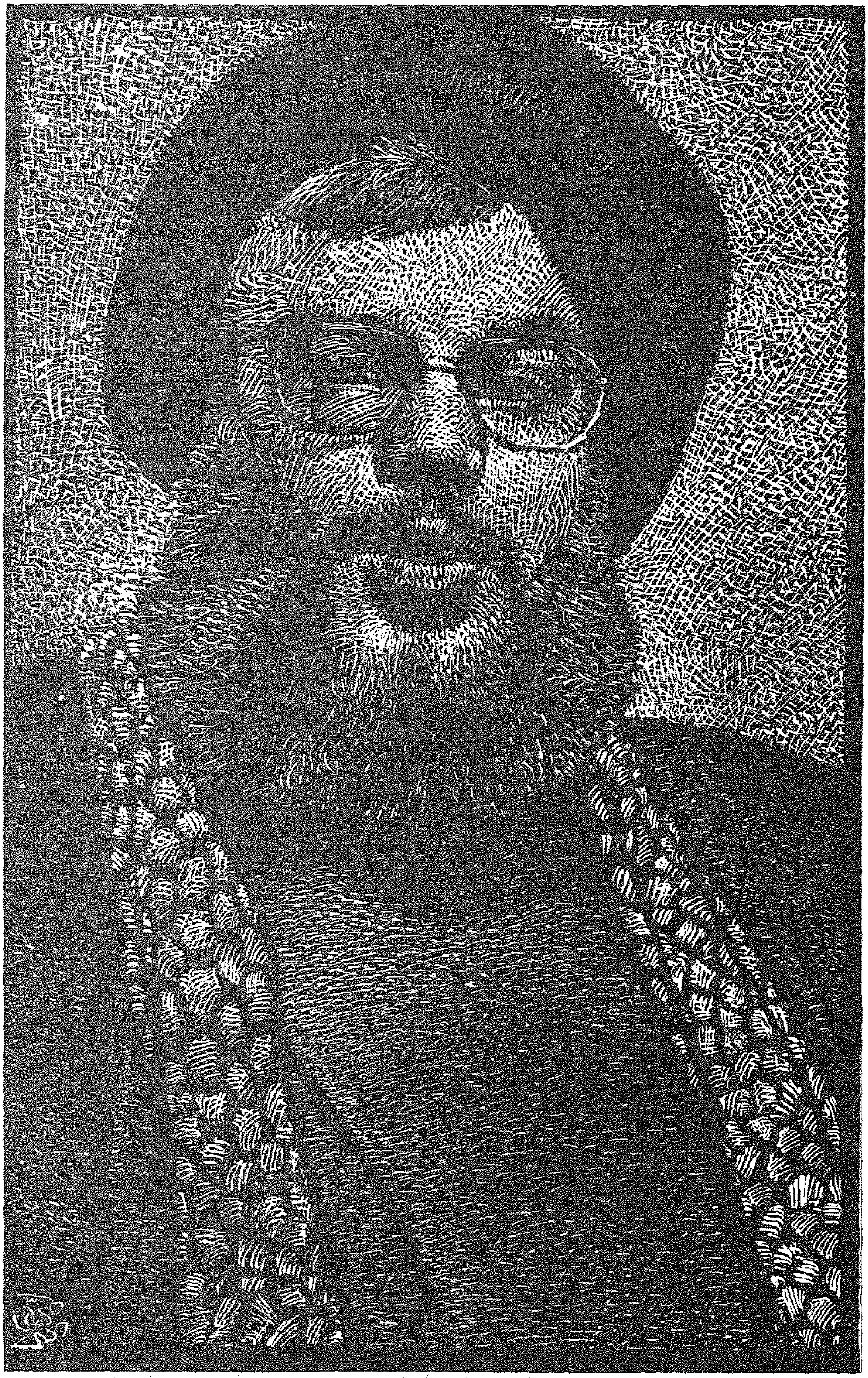
فالحزب إسلامى قبل أن يكون مقاوماً، والتزامه العقائدى هو الذى دفعه ليرفض الاحتلال ويقاتل إسرائيل، فهو يحمل منهجاً للحياة بشموليتها، ولا يقتصر واجبه على ناحية دون أخرى، وإن برزت أولوية الجهاد على غيرها. وقد تحققت مكانته وانتشاره الشعبى من إيمانه بهذا المنهج، الذى يقدم حلولاً لمشاكل الواقع، حيث توفق الحزب فى تجسيد جزء منها بمقاومة الاحتلال، بأداء متميز وتجربة ناجحة، أتت ثمارها بالتحرير فى ٢٤ أيار ٢٠٠٠، وبسلوكيات فردية وعامة، اجتماعية وسياسية وعسكرية، أثرت فى جمهور عريض، أيد وناصر والتف حول قيادته.

بناء عليه لم يعد الحزب فكرة للإقناع، بل تحول إلى واقع متجذر فى كيان الأمة، ولم يقتصر الحزب على المجموعات الجهادية العسكرية، بل دخل فى كل النسيج الاجتماعى والسياسى والثقافى للناس، ولم يتوقف عند حدود المحازبين، بل أصبح تياراً شعبياً واسعاً يشمل الرجال والنساء والأطفال، ويتجاوز الحدود المذهبية والمناطقية. فإذا كانت الاستمرارية ترتبط بالتكون النظرى للفكرة والخطة والبرامج، والمسار العملى يرتبط بالامتداد الشعبى، فهما متحققان فى الحزب، ما يعطيه قابلية الاستمرار بثبات، فكيف إذا اجتاز امتحانات عدة[2]، راهن البعض عليها لتكون محطته النهائية، فخرج الحزب منها أقوى، وأسس بعدها للمزيد من الحضور والتأثير.

أما التهديدات الأمريكية الإسرائيلية المتكررة، فهى جزء من وسائل الضغط على الحزب ومن يؤيده، وتدخل فى إطار الحرب النفسية، التى إذا نجحت توفر النتائج المطلوبة، من دون التورط بأعمال لها مفاعيل سلبية مضادة، لكنها لم تجد نفعاً مع حزب عقائدى، يعلم تماماً طبيعة أهدافه، وما يمكن أن يتحمله فى سبيلها. لذا كانت تتحول التهديدات فى بعض المحطات إلى اعتداءات كبيرة، وهى قابلة للتكرار، فهى جزء من المواجهة، لكنها لا تضمن للعدو فرصة تحقيق ما يزيد بل قد ترتد عليه، وهذا ما حصل فاضطر للانسحاب من جزء كبير من لبنان، على الرغم من كل الأساليب العدوانية التى استخدمها. ولا يتوقع أحد أن تكون نتيجة العدوان عادية ففيها التضحيات الكبرى،

فصل من:
حزب الله
المنهج.. التجربة.. المستقبل
الشيخ نعيم قاسم
بيروت: دار الهادى للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠٠٢

لم يسبق للمحتل الإسرائيلي أن التزم بخيار مستقبلي محدد، ليبقى الطرق مفتوحة أمامه، وليستفيد من مناورة الخيارات المحتملة إلى أقصى حد، فما الداعي للتصرف بغير طريقته في إبقاء الخيارات مفتوحة؟!



إلا أن نتائج الصمود أكبر بكثير. وبما أن السياسة الأمريكية الإسرائيلية مبنية على فرض واقع الاحتلال وشروطه بالقوة، فالخيار محصور بالاستسلام أو المواجهة.

وقد أحرز حزب الله تقدماً في النظرة إليه، وتوسعت علاقاته الإقليمية والدولية، وحصل تعديل نسبي في طريقة تعامل الغرب معه، وهذا يعود إلى حكمة أدائه وبيانه وعلاقاته. ولا يمكن التعويل على هذا المؤشر ومدى استمراريته، إلا أنه يحمل دلالة على الأهمية التي اكتسبها الحزب، حيث استطاع تغيير الصورة السلبية التي روج لها مع بداية نشأته.

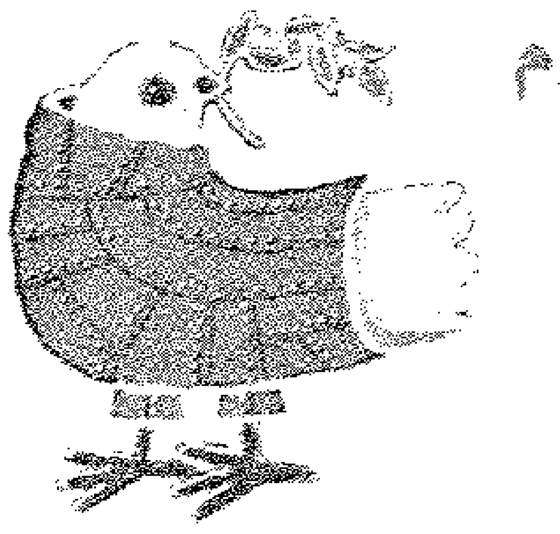
احتمالان للضغط

وبما أن الهجمة شديدة على الحزب ووجوده ودوره وأهدافه، فإن التساؤل عن استمراريته يبقى حاضراً، فإذا لم يكن بالإمكان تصفية وجوده مباشرة عبر الاعتداءات الإسرائيلية، فإن تطورات المنطقة قد تؤدي إلى ظروف تحصل فيها إحدى حالتين أو كلتاهما معاً:

١ ـ تحريك فتنة داخلية مع الجيش اللبناني، أو مع قوى محلية، تستدعي أداء سياسياً من الحكم اللبناني يلغي وجود الحزب كمقاومة.

هذا الاحتمال لا يحصل كمشكلة عابرة، بل ينطلق من موقف سياسي تبرز مقدماته تدريجياً باتجاه الفتنة لتسهل النتيجة. ولكن لا قابلية لحصوله، لأن الموقف السياسي للجيش اللبناني والأطراف المحلية الفاعلة والميدانية منسجم تماماً مع الموقف المقاوم وداعم له، وقد نسجت التحالفات السياسية في لبنان على أساس الموقف مع إسرائيل، الذي أعطى المقاومة أولوية في الاهتمام والتبني. ومع ارتباط هذا الموقف بالظروف الإقليمية، فإنه لا ينعقد من دونها، وبخاصة الموقف السوري، الذي لا يسمح بما يؤدي إلى التصادم مع المقاومة. فإذا أضفنا أسلوب المقاومة في التعاطي مع القضايا الداخلية، ومراعاة القوى المحلية، وترك التدخل في خصوصيات الدولة الأمنية، أمكن استيعاب سبب اطمئنان الواقع الداخلي، وعدم دفعه إلى التفكير بالتصادم مع المقاومة، فالتصادم لا يخدم هذه القوى، وإنما يستفيد منه خصوم لبنان.

٢ ـ مقايضة سوريا بالتخلص من الضغوطات التي تمارس عليها مقابل التخلي عن دعم الحزب، وبما أنها الجهة التي توفر الغطاء السياسي المساعد لاستمرارية المقاومة، فإن رفع هذا الغطاء يكشف الحزب



ويجعـلـه مسـتـفـرداً فـيـسـهـل ضـرب المقاومة.

لكن هذا الاحتمال غير وارد أيضاً، لأن العلاقة الاستراتيجية التي نمت بشكل تدريجي وهادئ بين سوريا والحزب، والقواسم المشتركة في النظرة إلى تطورات المنطقة، والمصداقية التي حكمت تاريخ جهاد الحزب منذ الاجتياح حتى التحرير وما بعده، والحاجة الفعلية لبقاء التعاون بين الطرفين لمواجهة التحديات، وجدية الموقف السوري من الاحتلال الإسرائيلي وحق تحرير الأرض.. كلها عوامل تؤكد على استحالة هذا الاحتمال.

ومهما كانت الظروف صعبة ومعقدة، فالخيارات مفتوحة للتعاون المناسب بين سوريا والحزب، بما يساعد على تخطي العقبات والمخاطر بأقل الخسائر الممكنة وبأعلى مستوى من التفاهم. فعندما تتحمل سوريا منفردة وفي اللحظات الصعبة، في زمن المرحوم الرئيس حافظ الأسد عبء الدفاع عن حق لبنان وفلسطين بمقاومة المحتل، وترفض المساواة بين المقاومة وبين الإرهاب، وعندما يرفض الرئيس الدكتور بشار الأسد أي خدش بالمقاومة وبسلامة أهدافها، ويعلن تمسكه بخيارها من دون تحفظ، فهذا يختلف عن مجرد التأييد أو الدعم العابر أو الحديث عن حق يجب أن يراعى، فقد تحولت المقاومة إلى جزء لا يتجزأ من الإيمان والسياسة السورية الثابتة، وهذه ضمانة مهمة لعدم الاختراق والمقايضة المزعومة.

استمرارية المقاومة

هل يعني هذا أن المقاومة مستمرة بشكل دائم ولا عائق أمامها؟

لقد نشأت المقاومة كرد فعل على الاحتلال الإسرائيلي، الذي انطلق من فلسطين وامتد إلى المنطقة العربية، ومادام الاحتلال موجوداً فإن المقاومة مستمرة، لأنها انطلقت من الإيمان بإزالة الاحتلال، ولم تكن حالة عرضية أو عشوائية. وبما أن مفاعيل الاحتلال امتدت لتشمل احتلال الأرض، وإرهاب المنطقة، وتهجير الفلسطينيين، واختراق الأجواء والمياه الإقليمية لدول مجاورة كلبنان، فمقاومته يجب أن تستمر، وبطرق مختلفة، تنسجم مع طبيعة الظروف الميدانية الجغرافية، وبالأساليب التي تفوت على إسرائيل تحقيق أهدافها، وبالاستفادة أيضاً من الواقع السياسي الإقليمي والدولي.

ولطالما طرح الدبلوماسيون والصحافيون سؤالاً على حزب الله: ماذا سيفعل الحزب فيما لو تحررت الأراضي اللبنانية بالكامل وتم الإفراج عن المعتقلين والأسرى؟ وهو سؤال تحتاج إسرائيل وأمريكا معرفة الإجابة عنه، لبناء منظومة من الخطط والمواجهة تنسجم مع الإجابة. لكن الحزب أصر على عدم الإجابة. فالأمور متشابكة ومترابطة، والتطورات تحمل الكثير من المفاجآت والمتغيرات، ولكل احتمال مستقبلي إجابة تفصيلية مختلفة، وبما أن الاحتمالات كثيرة فالإجابات كثيرة، وحيث تؤدي الإجابة إلى تحقيق رغبة إسرائيلية، فالأفضل أن تبقى مبهمة، ولا داعي لأن تقيد المقاومة نفسها بأجوبة تُلزمها أو تضعها أمام مساءلة من الآن، إضافة إلى تعقيدات وترابط التطورات على الساحات الفلسطينية واللبنانية والسورية وما يمكن أن تفعله إسرائيل في المنطقة، وهذا ما يتطلب جهوزية عالية لا تنفع معها كثرة التصريحات.

كما لا يمكن تحديد طريقة عمل واحدة للمقاومة، ولا يمكن تقييدها بأساليب محددة، بل من الحكمة إبقاء الخيارات مفتوحة أمامها. ولا داعي لرسم نتائجها المستقبلية وما يمكن أن تقوم به لتصل إليها، حتى لا تنكشف مخططاتها للعدو، وكي يبقى في حالة قلق مما تختزنه المقاومة من قوة ومفاجآت وأداء مستقبلي.

لم يسبق للمحتل الإسرائيلي أن التزم بخيار مستقبلي محدد، ليبقى الطرق مفتوحة أمامه، وليستفيد من مناورة الخيارات المحتملة إلى أقصى حد، فحدود ومساحة فلسطين خاضعة للتفاوض، وطبيعة الدولة الفلسطينية تحسمها المفاوضات، والمدى الزمني الذي يرسم الوضع النهائي مرتبط باطمئنان الإسرائيلي على أمنه، ولا تحدد الخطوات اللاحقة إلا بعد الانتهاء من كل خطوة بطريقة منفصلة عن غيرها. فما الداعي لنتصرف بغير طريقته في إبقاء الخيارات مفتوحة؟!

وإذا تخوف البعض من إبقاء لبنان في دائرة المواجهة بهذه النظرة للمقاومة، فإن تخوفه خاطئ في تحديد سبب المواجهة، لأن العدوان على لبنان بدأ من إسرائيل بعنوان تحقيق المدى الأمني للاحتلال، واستمر لفترة ٢٢ سنة من أجل استدراج لبنان لاتفاق سياسي وضمانات أمنية لمصلحة الكيان الإسرائيلي، ومع انسحاب الهزيمة عام ٢٠٠٠، فإن مطامع الاحتلال في لبنان لم تتوقف، وإذا لم يقدم على مغامرة عدوان جديدة حتى الآن فلخشيته من جهوزية المقاومة الإسلامية وردة فعلها، ما يؤكد ضرورة إبقاء القدرة المقاومة للبنان كي يتصدى للأخطار المحتملة، فضلاً عن تبعات الاحتلال التي لازالت مترتبة على لبنان، من وجود اللاجئين على أرضه، إلى الاختراقات الدائمة لأجوائه ومياهه الإقليمية، واحتلال مزارع شبعا، ووجود الأسرى والمعتقلين، ومحاولة منعه من الاستفادة من مياهه. ومهما عالجت إسرائيل مضطرة لبعض هذه الملفات، فإنها ستبقى الخطر المستقبلي على لبنان.

لبنان وفلسطين

ولا ننس مسئوليتنا في مؤازرة الشعب الفلسطيني، وترابط قضيته مع واقعنا، وانعكاس القضية الفلسطينية على لبنان والمنطقة، وهذا ما يجعل الإيمان بالتحرير قضية واحدة، والمصالح المشتركة همّاً واحداً. أما كيفية المؤازرة والدعم، فهي من عوامل القوة في الموقف والتي تُمارس عملياً ولا ينفع الحديث عنها، وهي مرتبطة بعوامل كثيرة سياسية وجغرافية وميدانية.



فالقاعدة الأساس في مواجهة الخطر الإسرائيلي الآني والمستقبلي هي: أن الكيان الإسرائيلي يشكل خطراً كبيراً على فلسطين والمنطقة، ويجب مواجهته ورفضه ومقاومته، وإعداد العدة اللازمة للتصدي له، والتعاطي مع كل مرحلة بحسب مستلزماتها، على قاعدة رفض تشريع الاحتلال واستمرار مقاومته كأصل، ولا داعي للحديث عن أي خطوة مستقبلية، فلكل حادث حديث.

هل هذا يعني أن الجبهة اللبنانية قد تُفتح للتواصل مع الداخل الفلسطيني؟ إنه سؤال مستقبلي يخضع لطريقة التعاطي مع كل الأسئلة المستقبلية، التي لا تسدي الإجابة عنها خدمة لإسرائيل. فلا يضمن أحد ما سيكون عليه حجم العدوان المستقبلي، والجبهات التي يمكن أن تُفتح أو تُقفل، فالمسألة لا ترتبط بما تقرره المقاومة فقط، بل ترتبط بمجموعة من التطورات الإقليمية التي قد تفتح الأبواب على كل الاحتمالات، فلا داعي للعجلة، لأن المهم هو التحصين والاستعداد لمواجهة التحديات، من دون السقوط أمام التهويل والتهديدات المتكررة، فهي أقل بكثير من النتائج الصعبة والخطرة التي تنشأ عن التسليم لضغوطات الصهاينة ومطالبهم.

آمن الحزب بوجوب تحرير كامل فلسطين والأراضي العربية المحتلة، واعتبر أن زرع الكيان الصهيوني في المنطقة غير مشروع، فهو غدة سرطانية ووجوده مقدمة للسيطرة على المنطقة بأسرها، ولا تبرر مصالح الدول الاستكبارية ودعمها للكيان الغاصب خضوع المنطقة لمشروع الاحتلال، فمن الضروري والواجب الشرعي والإنساني والأخلاقي والقانوني بذل أقصى الجهد للتحرير، وإذا كان فرض الاحتلال بقوة السلاح والدعم الدولي، فإن إسقاط الاحتلال يكون بقوة المقاومة وتعاون القوى التحررية في المنطقة.

هذا لا يعني أن الطريق معبدة وأن النتائج سريعة، لكن يجب أن تكون الآمال كبيرة وأن يتم السعي لتحقيقها، وأن تبحث كل القوى التحررية عن وسائل التعاون والدعم ومقاومة الاحتلال.

فلو سلمنا جدلاً بحصول التسوية، ورسمت معالم جديدة لفلسطين والمنطقة، فإن الحزب لا يمكنه أن يقبل أو أن يوقع على مثل هذه التسوية التي تُلزم أصحابها، ولا تغير واقع فلسطين في أنها لأصحاب الأرض الأصليين. لكن

كيف تترجم هذه الممانعة؟ فهذا يرتبط بالتطورات والظروف، لكن عندما تكون الممانعة هي الأصل، فمن الطبيعي أن يتلازم معها إعداد عدتها، ولا داعي لاستعجال الاحتمالات الكثيرة في هذا الاتجاه.

إن الحزب يأخذ بعين الاعتبار الظروف الموضوعية التي تحيط به، ويدخلها في حسابه في إجراءاته العملية، لكنه لا يخضع لها ولا يستسلم لضغوطاتها. إنه حريص على إيمانه وثوابته حيث لا تؤثر التكتيكات المرحلية عليها ولا تكون ثمنًا للتخلي عنها، وهو يستفيد من الظروف السياسية، للنفاذ منها باتجاه تقوية عوامل تحقيق أهداف المقاومة. فهو لا يعزل المقاومة عن العوامل المحيطة بها بطريقة تجريدية، لكنه لا يجعلها جزءاً من صفقة أو مساومة على حل سياسي يسقطها، في مقابل ما يكرس شرعية الاحتلال. فلا بديل عن التحرير ولو طال الزمن وكثرت العوائق، لكن المهم هو الثقة بالله وبالنفس والحق، والصبر على الصعوبات والتضحيات، وعدم استعجال النتائج.

توقعات المستقبل

عند الحديث عن المستقبل، لابد من تقييم الحاضر، الذي يحمل مقومات النجاح أو الفشل، الاستمرارية أو الانحسار، النمو أو الاضمحلال، لتكون مؤشرات التقييم مساعدة في رسم الصورة المستقبلية المحتملة.

فإذا عدنا إلى المنهج، نجد أن منهج الإسلام الذي استمر قوياً فاعلاً، على الرغم من مرور أكثر من ألف وأربعمائة سنة على طرحه، وهو الذي بنيت على أساسه وانطلقت مسيرة حزب الله بهذا الثبات والوضوح. وبما أن الانتماء لا ينفصل عن التربية العقائدية والسلوك الإسلامي، وحيث يعتبر التثقيف والتعبئة جزءاً أساسيًا من نمط عمل الحزب، فإن التأصيل العقائدي والشرعي قد ربى جماعة متمسكة بالمنهج، الذي يحمل قدرة ذاتية على الاستمرار ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (سورة الحجر الآية ٩) وهو تأصيل لم يقتصر على المحازبين، وإنما شمل شرائح الأمة المختلفة، بمواقعهم وأنشطتهم ومستوياتهم العمرية المختلفة، وبما هم متواجدون في الدائرة الشعبية الواسعة.

لم يعمل الحزب ليربط الناس به كمحور بمعزل عن المنهج، وما يسجل للحزب، نجاحه في أن يكون إطاراً فاعلاً لحشد الطاقات، وتوزيع الأدوار، وربط



إذا تخوف البعض من إبقاء لبنان في دائرة المواجهة، فإن تخوفه خاطئ، لأن العدوان على لبنان بدأ من إسرائيل بعنوان تحقيق المدى الأمني للاحتلال

الجماعة ببعضها، وإنجاز تجربة عملية في ساحة الجهاد، وفي ترجمة المضمون الإسلامي السليم. وهذا يعطيه حصانة التماسك والنمو والصمود أمام التحديات.

وبما أن النمو كان طبيعياً، من الضعف إلى القوة، ومن القلة إلى الكثرة، ومن العزلة إلى التعاون، فقد رسخت هذه الخطوات بناء متينًا، على الرغم من التطور السريع الذي ارتبط بشكل أساسي بحجم التضحيات، وقبل وبعد كل شيء بتسديد الله لعباده المؤمنين ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ (سورة محمد الآية ٧) فالبناء المركز والثابت لا يمكن أن ينهار بتهويل أو قرار استكباري.

فإذا أضفنا حاجة الناس إلى من يقودهم ويسير أمامهم، وما حققته طروحات الحزب وتجربته وإنجازاته من إشراقة أمل في المنطقة بواقعها الأليم والمحبط، وما آلت إليه تجارب المستسلمين والمنسحقين أمام الاستكبار وإسرائيل، فإن النتائج الواعدة للاستمرارية متوقعة أكثر من أي احتمال آخر.

وكي تكون الأمور أكثر وضوحًا، فإن الخطر على الحزب وعلى غيره من القوى الحية، يأتي من القرارات العدوانية لأمريكا وإسرائيل. أما تجربة إسرائيل في فرض حدودها وأمنها، رغم مرور ٥٤ سنة على احتلالها لفلسطين، فلم تنجح حتى الآن، وأما تجربة أمريكا بأساليبها المشابهة للأساليب الإسرائيلية فهي تسير في مخاض عسير، واضطرت في بداية الطريق لمواجهة حملة عارمة من الكراهية لها في المنطقة، ولم تستطع تسخير نفوذها لتحريك أدواتها، فانكشفت في أداء استكباري إرهابي مباشر، وهذه بداية السقوط وعدم القدرة على تحقيق الأهداف.

على الرغم من القرار الأمريكي بالتغيير الجيو سياسي في المنطقة، عبر العدوان المباشر على العراق، فإن فلسطين ولبنان وسوريا داخلة في حصة العدوان الإسرائيلي المباشر، الذي يريد الاستفادة من تداعيات العدوان الأمريكي، لتحقيق مشروعه.

لكن لأن إسرائيل فشلت في الاعتماد على نفسها، فإن أمريكا ستكون داعمة وموجهة، وبما أننا ناقشنا قدرة إسرائيل وأثبتنا عجزها عن إنجاز استقرارها، فلنناقش قدرة أمريكا برؤية إجمالية تتعلق بالسيطرة على المنطقة ومن ضمنها ضرب حزب الله، من دون التوقف عند المباشرة الإسرائيلية (التي تعثرت) أو المباشرة الأمريكية (المستبعدة) لها.

إن أمريكا قادرة على التخريب في المنطقة، وعلى الاعتداء على ثرواتها وأنظمتها وشعوبها وأحزابها، لكنها قدرة المحتل والمستعمر، التي لا تؤدي إلى الاستمرارية والاستقرار، أما قدرتنا على حشد الطاقات والمقاومة فهي مستمرة ومتصاعدة، فحقنا يحمل قوة ذاتية، ومنطلقنا قوي، ونحن مصممون على متابعة المسيرة.

فمن من الخطأ أن ينحصر التفكير باللحظة الحاضرة، وطبيعة ظروفها والمعادلات التي تحيط بها. فالسؤال عن المستقبل هو سؤال عن مستقبل أمريكا وإسرائيل والعالم والمنطقة، كما هو عن مستقبل حزب الله، لأن عوامل التغيير والضغط والظروف السياسية لا تختص بفئة دون غيرها، ومؤشرات النجاح أو الفشل تخضع لقواعد وسنن تنطبق على الجميع، مع ميزة يعيشها المؤمنون من اطمئنان وثقة بدعم الله تعالى لهم، تمدهم بقوة إضافية فيستفيدون من نتائج الإيمان التي لا يستفيد منها المعتدون.

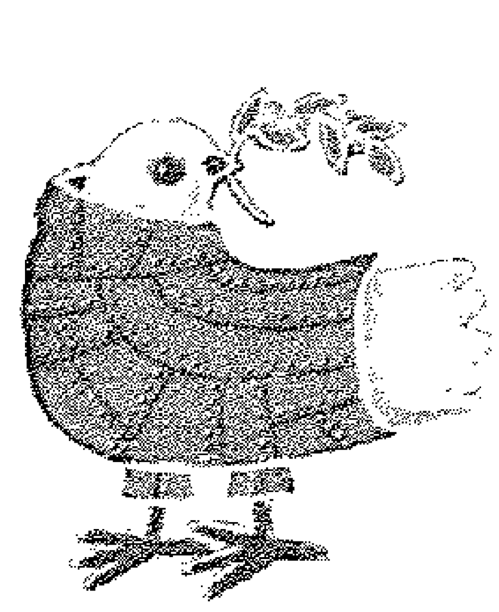
فلننزع الوهم من نفوسنا عن قوة العدو التي لا تقهر، فلكل عدو نقاط ضعف وعلينا معرفتها والتركيز عليها جيداً، ولنقم بواجبنا في بذل الجهد للمحافظة على قيمنا واستقلالنا، ولنعلم بأن النصر يبدأ من انتصار الإنسان في داخل نفسه، فإذا كنا مؤمنين بنصر الله تعالى فهو آت: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ (سورة القصص الآية ٥). وإذا كنا واثقين بأننا نمهد لظهور الإمام المهدي[3] (عج) ليملأ الأرض قسطًا وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً، فإن المستقبل واعد، وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

الهوامش:

(١) منذ تأسيس حزب الله عام ١٩٨٢ إلى سقوط العماد عون عام ١٩٩٠ كان الانقسام قائماً بين منطقتين شرقية وغربية، وبرزت المعارك الداخلية كعنوان رئيس في هذه المرحلة، كما توجهت الأنظار إلى ما يحدث في الجنوب والبقاع الغربي من عمليات لحزب الله ضد الاحتلال الإسرائيلي.

(٢) منها فتنة أمل ـ حزب الله، عدوان تموز ١٩٩٣، وعدوان نيسان ١٩٩٦، الانتصار في أيار ٢٠٠٠.

(٣) أجمعت الرسالات السماوية على وجود المخلص في آخر الزمان، وهو الإمام المهدي (عج) عند المسلمين، لكن السنة يقولون بولادته في آخر الزمان، أما الشيعة فيعتبرونه موجوداً على قيد الحياة، لكنه غائب عن أنظار الناس، وهو الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام، محمد بن الحسن الذي يصل نسبه إلى الإمام الحسين عليه السلام والذي ولد سنة ٢٥٥ للهجرة، وسيظهر في الوقت المناسب ليحكم بالعدل.



سنى / شيعى.. عثمانى / صفوى.. عربى / فارسى

تباين المشروعات

مــــــازن النجـــــار

المقاومة فى فلسطين ولبنان والعراق مثلا لا تنتمى إلى الشيعة فقط أو السنة فقط. وهذه المقاومة هى استجابة الشعوب للاحتلال، وليست من اختراع دولة أو محور أو تحالف

تجاوز رد الفعل الإسرائيلى على عملية حزب الله فى ١٢ يوليو الماضى والتى تمكن خلالها من أسر جنديين إسرائيليين كل الحدود التى تتخذها ردود الفعل المتوقعة والمعهودة فى العلاقات الدولية على مثل هذا الفعل. وظهر مبكرا أن الحرب ليست من أجل الأسيرين الإسرائيليين، بل ليست من أجل إسرائيل تماما. فقد دخلت الولايات المتحدة بقوة على الخط، بل ربما بدت كأنما هى التى رسمت ذلك الخط كما رأى وحذر نواب ووزراء إسرائيليون، ورفضت تماما أى مساع إلى وقف إطلاق النار من أجل بدء التفاوض حول تبادل الأسرى والقضايا الأخرى العالقة. بررت واشنطن هذه الحرب التدميرية كدفاع عن النفس، واعتبرتها فرصة سانحة لتطبيق قرار مجلس الأمن الدولى رقم ١٥٥٩ الخاص بلبنان، والمؤدى إلى نزع سلاح حزب الله وتصفية المقاومة الإسلامية ونشر الجيش اللبنانى على كافة المناطق، خاصة فى الجنوب. واستصدرت واشنطن من مؤتمر قمة الثمانية فى بطرسبرغ بروسيا شبه قرار يفوض إسرائيل القيام بتنفيذ قرار ١٥٥٩ عبر الحرب التدميرية على لبنان. ثم حالت واشنطن عبر مجلس الأمن الدولى دون إصدار قرار بوقف إطلاق النار وبدء التفاوض وصولا إلى نشر قوات دولية كما اقترح الأمين العام للأمم المتحدة كوفى أنان. ثم طلعت وزيرة الخارجية الأميركية بأفكار كبرى حول اعتبار هذه الحرب فرصة تؤذن بقيام شرق أوسط جديد عبر ترتيبات أمنية واستراتيجية تنهى الصراع العربى الإسرائيلى وتعزل محور الممانعة ضد النفوذ الأميركى، وتعرض على سوريا الانضمام إلى الإجماع (الدولى)، وتعتبر أنه لا مجال للعودة إلى الشرق الأوسط القديم.

كان أهم المظاهر اللافتة والمترافقة مع اندلاع الحرب والمؤثرة فى سيرورتها - وربما صيرورتها ومآلاتها- هو موقف النظام العربى الرسمى. فقد أدانت الحكومة السعودية عملية حزب الله بسرعة، وحملت الحزب مسؤولية الحرب الإسرائيلية، ووصفتها بالمغامرات غير المحسوبة، وميزت بينها وبين المقاومة المشروعة. لقى هذا الموقف الذى تبعه مواقف عربية مماثلة قبولا إيجابيا فى إسرائيل. تلا الموقف السعودى مباشرة لقاء القمة المصرى الأردنى الذى أعاد التركيز على خطورة المغامرات والتحذير من عواقبها الوخيمة. من الناحية الأخرى، اعتبرت قيادة حزب الله هذا الموقف العربى الرسمى تغطية للحرب الإسرائيلية على لبنان، بل اعتبرته مسؤولا بشكل مباشر عن تصعيد وإطالة أمد الحرب واتساع نطاقها إلى ما هو أبعد بكثير من الحدود المعتادة والمتوقعة لردود الفعل الإسرائيلية.

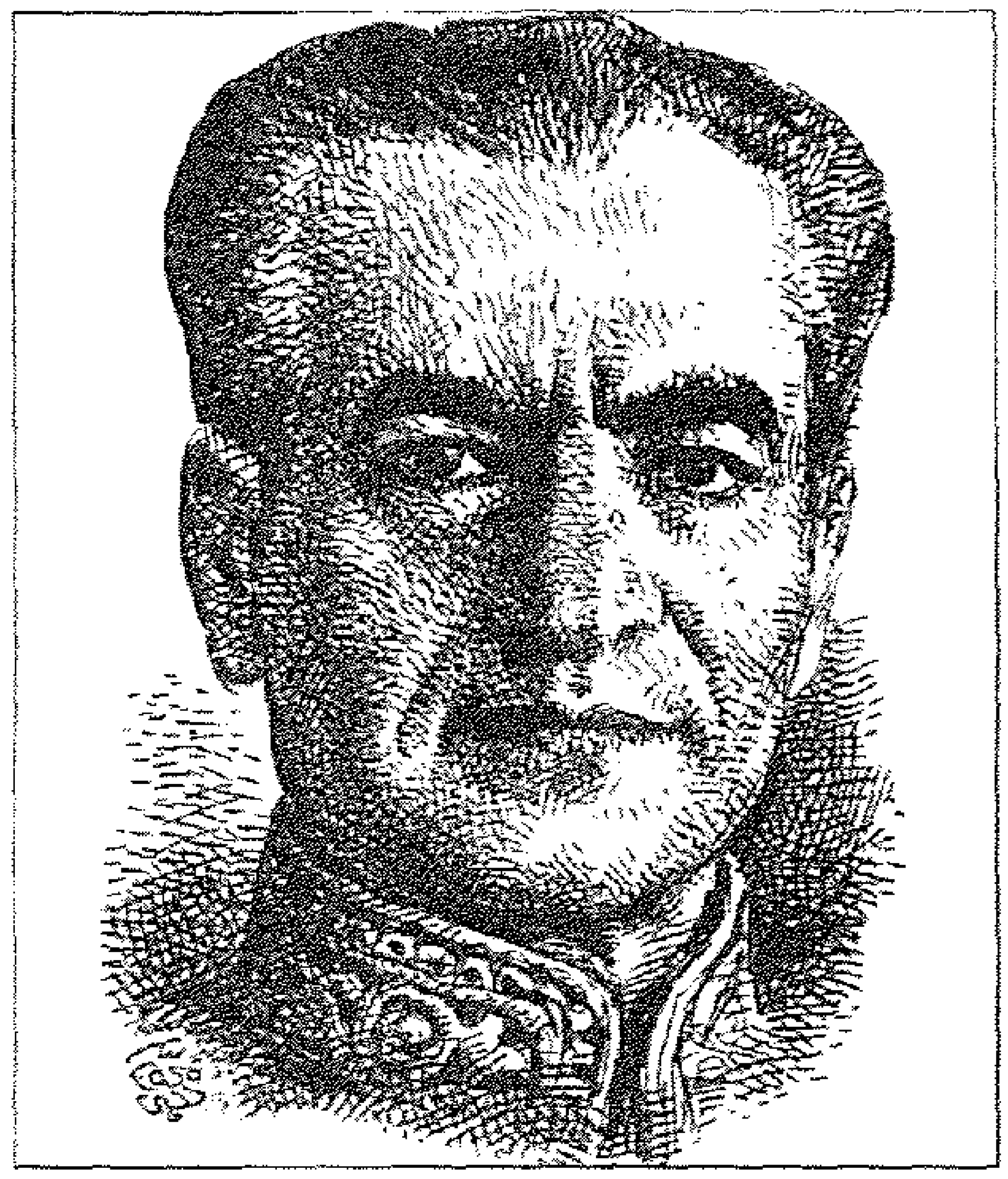
ورغم سعى السعودية لاحقا إلى ترتيب وقف لإطلاق النار فى محاولة جادة لوضع حد للدمار الشامل وإنقاذ الدولة اللبنانية، فقد اتسمت ردود فعل الشارع والجماهير العربية على الموقف الرسمى العربى بالمرارة والغضب والاتهامات اللاذعة والإدانة الشديدة، وتماهت بشكل أو بآخر مع موقف حزب الله وحركات الإسلام السياسى والاتجاهات القومية والوطنية. لكن وبرغم كل شىء، فإن موقف الرأى العام العربى وردود فعله - مبررة أو غير مبررة - لا تفسر المقدمات أو الأسباب التى أدت إلى أن يتخذ الوضع العربى الرسمى هذا الموقف الذى صدم وعى الشارع وافترق عن مساره وأولوياته التى تحددها بوصلة الصراع العربى الإسرائيلى، خاصة أن المملكة العربية السعودية تبنت ولا تزال -على مدى ستة عقود من عمر الكيان الإسرائيلى- موقفا لا يعترف بإسرائيل، ولا يقيم علاقات اتصال معها، بل يتبنى المقاطعة العربية لها.

التصدى للمشروع الإيرانى

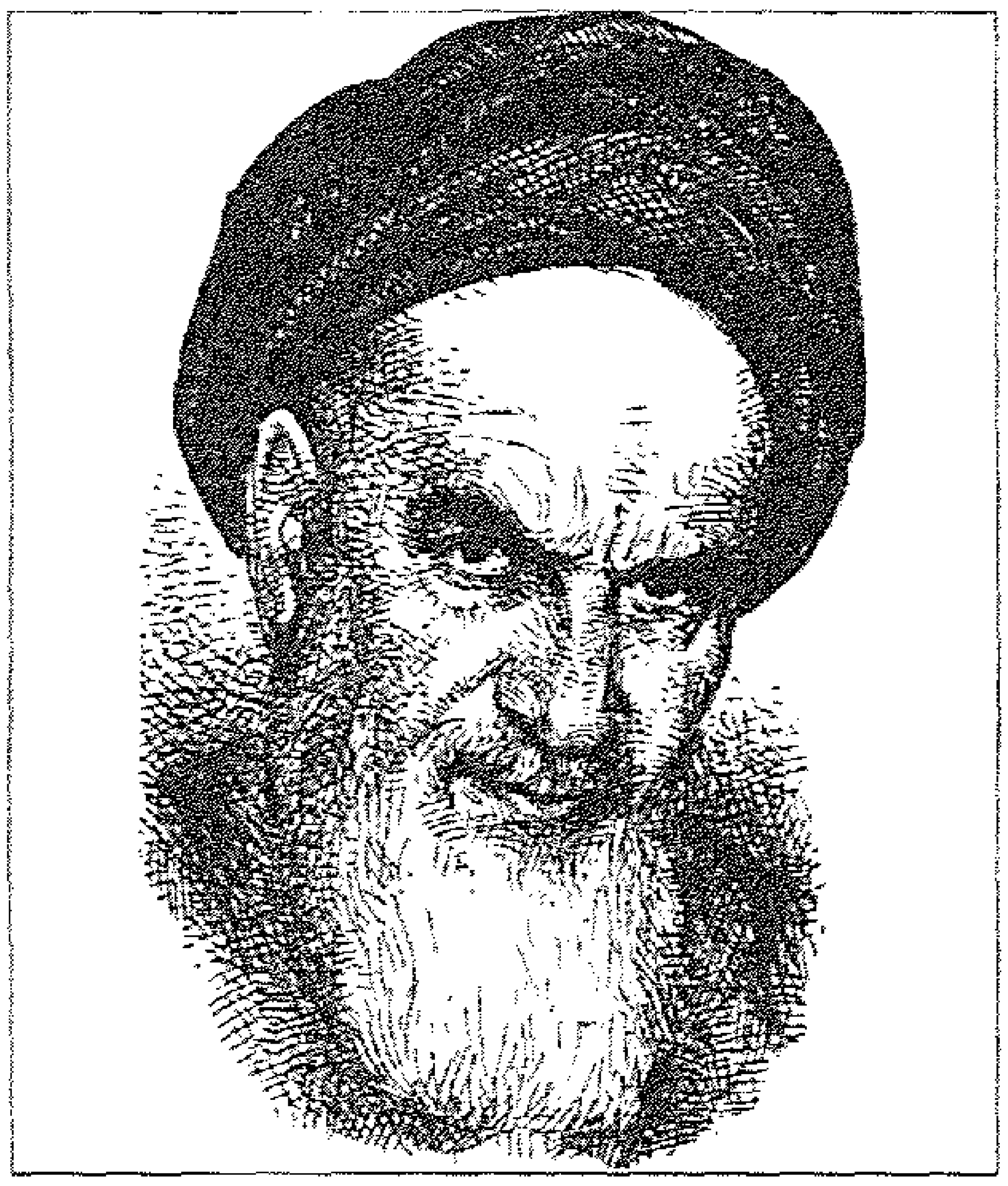
بيد أن تفسير هذا الموقف العربى الرسمى الذى اتخذته الدول الثلاث وتبنته الكويت أيضا، وربما غيرها بدرجات متفاوتة، يجب أن يستبطن عاملا آخر يشكل تحديا كبيرا فى نظر معظم اللاعبين الكبار من أنظمة المشرق العربى؛ ذلك هو التحدى الذى يمثله المشروع الإيرانى فى الشرق الأوسط أو بالأحرى فى الشرق العربى الإسلامى. وكان أبرز تجليات هذا المشروع الإيرانى هى الإصرار على بناء برنامج طاقة نووية، والوقوف فى طليعة الخط المضاد للنفوذ الأمريكى والإسرائيلى فى المنطقة، والتحالف مع سوريا ضد التهديد الأمريكى والإسرائيلى؛ وتبنى حزب الله فى لبنان، ودعم حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وحركة الجهاد الإسلامى فى فلسطين، وعلاقات وثيقة مع التيار الصدرى وحزب الدعوة والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية وجناحه العسكرى (منظمة بدر) فى العراق.

وربما كان دور إيران فى العراق هو أضعف حلقات أو تجليات المشروع الإيرانى، بسبب دور بعض الأطراف المرتبطة بإيران فى الصراع الطائفى الدائر بالعراق، وتعاطى بعضها إيجابيا مع سلطة الاحتلال بدخولها عملية سياسية بدون أفق استقلال أو سياق واضح ينتهى عنده الاحتلال. ويدا أن العراق مهدد بالتقسيم ليس على المستوى الإثنى فحسب، بل على المستوى الطائفى كذلك. واتخذت هذه المخاطر من شعار أو فكرة الفيدرالية غطاء لها. وإضافة إلى الوضع الفيدرالى الخاص لإقليم كردستان فى الشمال، والذى يتيح إدارة ذاتية ببرلمان وحكومة وعلاقات خارجية وجيش وغير ذلك من مظاهر الدولة السيادية، طالب زعيم المجلس الأعلى للثورة الإسلامية فى العراق السيد عبد العزيز الحكيم بفيدرالية مماثلة فى الجنوب، وربما طالب غيره باقتسام بغداد طائفيا. وقد ترافق ذلك مع تطهير طائفى ضد العرب السنة فى بعض المناطق، والذى تراوح بين الفعل المباشر الذى استهدف اختطاف واغتيال علماء وأئمة وأكاديميين وضباط وقياديين ناشطين وقرويين وعمال وطلاب ومشاة فى الطرقات - قتلوا على الهوية - ثم ألقى بجثثهم فى وديان ومقالب قمامة وسيارات نقل؛ أو ردود الفعل على عمليات العنف بواسطة السيارات المفخخة والانتحاريين التى ارتكبت ولاتزال ترتكب ضد الشيعة - بدوافع طائفية واضحة - من قبل مجموعات مسلحة متطرفة داخل العراق. وقد أثبت عدم تحرك القوى العراقية المرتبطة بإيران - فى الأسبوعين الأولين للحرب فى لبنان- أو عجزها عن التحرك محليا، بما يخفف الضغط عن حزب الله والمقاومة الإسلامية، إن هذه القوى العراقية قليلة الجدوى، بل هى عبء

لا يمثل المشروع الإيرانى الراهن مأزقا أو تحديا حقيقيا للنظام العربى الرسمى، بل المأزق هو فى افتراقه عن الاتجاه الذى تؤشر إليه بوصلة الصراع العربى الإسرائيلى ومواجهة الهيمنة والمد الإمبريالى فى المنطقة



محمد رضا بهلوى



الإمام الخمينى



أحمدى نجاد

على إيران، التى يتوقع المحللون أن تقيم علاقات تعاون وتنسيق مع قوى من المقاومة العراقية، لا تتبنى خطا طائفيا.

أدى صعود وتكريس الحالة السياسية الطائفية فى العراق إلى أضرار بالغة بالمشروع الإيرانى فى العالم العربى، ومواقف مضادة لإيران والشيعة فى منطقة الخليج بشكل عام، وتوتر واستنفار لدى الأنظمة الخليجية الحاكمة، وفى دول أخرى غير خليجية، كمصر والأردن. وتراوح الخطاب السياسى الرسمى بين حديث أردنى عن «هلال شيعى يمتد من إيران والعراق إلى سوريا ولبنان» رغم أن الجغرافيا السكانية والسياسية لا تؤشر على وجود هذا الهلال، ولوم سعودى للأميركيين الذين سلموا العراق للنفوذ الإيرانى، وحديث مصرى عن ولاء شيعة العراق لإيران وليس لبلادهم، ومطالب إماراتية لإيران بالوفاء بالتزامات متعددة، كى يطمئن الجيران القلقون فى الخليج من مخاطر وتداعيات البرنامج النووى الإيرانى الاستراتيجية والأمنية والإشعاعية، خاصة مع قرب اكتمال وتشغيل مفاعل بوشهر الواقع شمال الخليج. وفى صراع إيران مع الغرب حول برنامجها النووى، بدا واضحا حرص الغرب - خاصة الولايات المتحدة- على تحريض الجيران وإثارة مخاوفهم إزاء إيران، كما حدث سابقا مع العراق، واستخدم ذلك كذريعة لاستصدار قرارات ملزمة من مجلس الأمن الدولى -بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة الذى يجيز استخدام القوة- ضد نظام الرئيس العراقى الأسبق صدام حسين، أدت إلى حصار شامل وحرب ١٩٩١. بل إن حملة الأردن على حماس، واتهامها بتهريب أسلحة «إيرانية» الصنع عن طريق «سوريا» وتخزينها فى الأردن ورصد أهداف لاستخدام الأسلحة هناك، قد ورطت عمليا كلا من إيران وسوريا، ولكن من دون توجيه الاتهام صراحة أو مباشرة.

حاولت إيران تخفيف حدة التوتر والعداء لها ولمشروعها، فأرسلت رئيس مجلس الأمن القومى محمد جواد لاريجانى إلى مصر والسعودية أكثر من مرة، وقيل آنذاك أن الهدف هو التنسيق فى مسألة البرنامج النووى للضغط على إسرائيل من جهة برنامجها النووى، وربما التنسيق فى العراق أيضا. كما أرسلت وزير الخارجية منوشهر متكى، إلى الأردن فى أعقاب قضية أسلحة حماس. وقبل ذلك وبعده زيارات على مستوى عال إلى الكويت وغيرها من دول الخليج، لطمأنتها وعدم تركها لاستفراد التحريض الأمريكى.

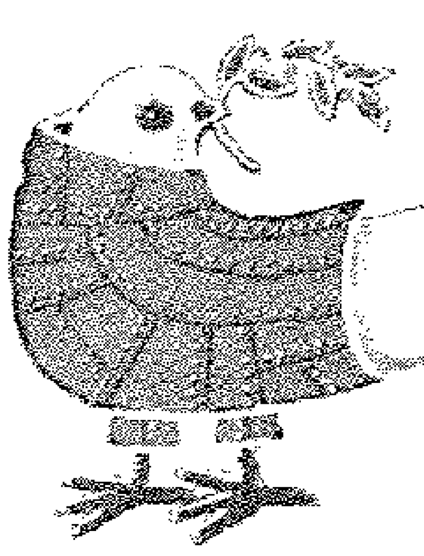
لم يقتصر التوتر والنفور إزاء المشروع الإيرانى فى هذه الدول العربية على إيران أو الأطراف المرتبطة بها أو المحسوبة عليها فى العراق؛ بل طال أطرافا عربية صديقة لإيران، مثل سوريا التى لم تكن علاقتها بشريكتيها فى المحور الرئيسى للسياسة العربية (مصر - السعودية - سوريا) فى أحسن حال قبل اندلاع حرب لبنان مباشرة. وإن كان من المتوقع أن تستعيد سوريا دورها فى هذا المحور الذى يسميه الرئيس الأسد «نواة العمل العربى المشترك»، نظرا لتحديات وتداعيات حرب لبنان. ورغم محاولة الأردن الدخول على خط هذا المحور - فى الفترة الأخيرة - إلا أنه تقليديا غير مرشح للانضمام إليه. كذلك، تفسر المشاركة العربية - المحدودة على الأقل - فى حصار حكومة حماس التى شكلت على أثر فوزها بأغلبية أعضاء المجلس النيابى فى انتخابات يناير/ كانون الثانى الماضى، بأنها رسالة تحذير أو ربما رسالة عقاب عربية لحماس نظرا لاتساع علاقات التعاون والدعم مع إيران. وهذا التوتر لم يقتصر على موقف الأردن ومصر فقط، بل طال علاقة حماس بالسعودية، التى كانت - على مدى عقود - مصدرا رئيسيا للدعم والإسناد.

استدعاء المثال الصفوى

فى هذا السياق الإقليمى المضاد للمشروع الإيرانى، دأب بعض الساسة ورجال الإعلام على إكساب مواقفهم دلالة تاريخية باستدعاء تجربة الصراع العثمانى الصفوى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. والقصد من ذلك بالطبع هو إضفاء السمات السلبية للمشروع الصفوى فى الهضبة الإيرانية ومحيطها الشاسع على المشروع الإيرانى المعاصر، لإفقاده المصداقية، ودفعه نحو العزلة والانكفاء على الذات، وصولا لاحتوائه وإفشاله. من ناحية أخرى، تنظر بعض الأصوات إلى المشروع الإيرانى الآن باعتباره تجليا قوميا فارسيا مضادا للعرب والعروبة، وتلقى عليه أعباء الميراث التاريخى للشعوبية المعادية للعرب والخلافة العربية فى القرون المبكرة التالية على الفتوحات الإسلامية. وفى الأعوام الثلاثة التالية للغزو والاحتلال الأمريكى للعراق، لم يقتصر استدعاء وإطلاق النموذج الصفوى من قبل التوجهات المضادة لإيران فى الخليج والمشرق العربى، بل تعداها إلى شخصيات وقوى شيعية علمانية أو قومية عراقية معادية لأطراف عراقية مرتبطة بإيران، وتمكنت من الهيمنة على معظم العملية السياسية الراهنة، وتشكل أكبر الكتل النيابية والوزارية والأمنية.

غلب طابع الصراع الطائفى (السنى الشيعى) على مسارات ومبررات وتداعيات الصراع العثمانى الصفوى، مع أن جوهر وسياق الصراع لم يكونا كذلك تماما. نشأت الدعوة الصفوية فى إيران أواخر القرن الخامس عشر، وكانت تحولا من خلفية سنية صوفية إلى التشيع الاثنى عشرى فى المجال الفارسى الذى كان يغلب عليه فقهيا المذهب الشافعى وعقيديا العقيدة الأشعرية وثقافيا التصوف. لم يعرف عن التشيع الاثنى عشرى نزوع إلى العنف أو الثورات فى القرون السابقة على الصفويين. بل تعايش الاثنا عشرية بشكل كبير مع أهل السنة فى العصر العباسى الثانى، وانصرف علماؤهم إلى التأسيس الأكاديمى العلمى الشامل لأصول المذهب وفروعه المعرفية، بحيث يكون له فقهه وكلامه وتفسيره وحديثه وغير ذلك. وشارك وجهاؤهم فى إدارة الدولة العباسية فتولوا الوزارات وغيرها. ورغم قيام دولة بنى بويه (قبائل فارسية غلب عليها التشيع) فى ظل الخلافة العباسية ودامت لأكثر من قرن: وباستثناء بعض التوترات المذهبية، لم تتولد آنذاك مظاهر الصراع الذى وقع بين الصفويين والعثمانيين. توجهت جهود علماء الاثنى عشرية فى العراق العباسى إلى مواجهة الهوامش المتطرفة فى حركة التشيع، خصوصا تلك التى لا تستند إلى تأسيس علمى أصولى أو تنطوى على معتقدات حلولية أو باطنية أو ممارسات فوضوية.

والحقيقة أن تبنى الصفويين



فى إيران للتشيع الاثنى عشرى أدى إلى تصفية أو اختفاء تلك الجيوب المتطرفة على هامش التشيع. وحتى ما قبل المشروع الصفوى، كان التشيع تقليدا عربيا بامتياز، ولم يكن للشعوب غير العربية دور هام فى حركة التشيع؛ بل لا يزال عربيا إلى اليوم فى لبنان والعراق والحجاز والإحساء ومناطق أخرى فى الخليج، مع بعض الاستثناءات.

استنزفت الحروب العثمانية - الصفوية طاقات وقدرات الدولتين، وأوصلتهما إلى العصر الحديث - عصر صعود الإمبريالية الأوروبية - وهما أعجز عن الصمود فى وجه المد الاستعمارى

الصراع العثمانى الصفوى

كانت القرون الوسطى المتأخرة بامتياز هى قرون سيطرة القبائل والنخب التركمانية على معظم العالم القديم. فقد انطلقت مملكة تيمورلنك من آسيا الوسطى إلى وسط أوروبا والأناضول والمشرق العربى. وامتدت الامبراطورية العثمانية فى ثلاث قارات، وحكمت سلالتان من المماليك البرجية والبحرية (قبجاق وشركس) معظم المشرق العربى. وسيطر المغول على شبه القارة الهندية، والصفويون - الناطقون بالتركية وقد تعود أصولهم إلى الكرد - على العالم الإيرانى القديم. وحكمت سلالة خوارزم شاه فى آسيا الوسطى وبلاد فارس والسند، وغيرها. كانت الخبرة التركمانية التاريخية تنطوى على تعدد الخانات (الأمراء) ووحدانية الخاقان - وهو الخان الأعظم والأقوى بينهم - وتتحقق خاقانيته لدى قبول باقى الخانات بها أو أن تفرض عليهم. فى هذا الإطار، وقعت الحرب بين تيمورلنك والسلطان العثمانى بايزيد يلدرم (البرق) فى معركة أنقرة ١٤٠١ التى كانت ارتطاما هائلا بين جيشين تركيين مسلمين حنفيين، بسبب عدم تقديم السلطان بايزيد الولاء لتيمورلنك كخاقان. من جانب آخر، لعبت العوامل الجيوسياسية، وتوجه نخب التركمان نحو التمدد على حساب نخب أخرى، دورا هاما فى الصراع بين الدول التركية، وكانت فى معظمها سنية حنفية أشعرية. وكان العالم الإسلامى قد استنكر بشدة حملة تيمورلنك على العثمانيين فى عهد السلطان بايزيد، واعتبرت الحملة غير مبررة، فقد مزقت دولة فاتحين مرابطين فى الثغور، وأدخلتها فى مرحلة من الفوضى.

لذلك، ينبغى أن يعزى التحول المذهبى للصفويين نحو التشيع الاثنى عشرى، وتبنيه كمذهب وعقيدة للدولة وفرضه بالقوة، إلى رغبة القبائل والنخب المعروفة بـ«القزلباش» - أى رؤوس الخراف، لأنهم ربما كانوا يرتدون جلودها ورؤوسها فى الحرب - فى توكيد استقلالهم عن العثمانيين، واتخاذ دعوة دينية سبيلا للتنافس أو التدافع معهم ووسيلة لبناء الملك (على

نحو وصفه ابن خلدون فى «المقدمة» تفسيرا لقيام الممالك والدول)، وانتزاع بعض خصائص العثمانية. شكلت الدولة العثمانية قوة فتح توحيدية عملاقة، فرضت النفوذ والسلام العثمانى (Pax Ottomana) على أرجاء شاسعة من العالم لعدة قرون، وكانت ألقاب السلطان تؤكد أنه سلطان البرين وخاقان البحرين وظل الله فى الأرض وحامى الحرمين الشريفين، إضافة إلى ألقاب عديدة أخرى، وردت فى رسالة السلطان سليمان القانونى إلى فرانسوا الأول ملك فرنسا. وبتعبير المؤرخ العثمانى أحمد دهده منجمباشى، كان للسلطان آلاف القلاع والحصون، فى كل منها آلاف الجنود.

رفض الصفويون خاقانية السلاطين العثمانيين. وشكلت الصفوية مخاطر حقيقية على الدولة العثمانية، ومنافسا على ولاء العشائر التركمانية فى الأناضول. فقد بادر الصفويون إلى إرسال دعاتهم لنشر دعوتهم بين تلك العشائر، ومن ثم إقناعهم بالانتقال إلى إيران والالتحاق بالصفويين. ونجحوا بالفعل فى استقدام نحو نصف مليون تركمانى من الأناضول. أثار هذا الأمر قلقا واستنفارا عظيما لدى السلالة العثمانية، وتغيرات استراتيجية وسياسية داخلية وخارجية. فقد أدى التحدى الصفوى إلى صعود السلطان سليم الأول (ياوز) إلى سدة السلطنة متخطيا أخاه ولى العهد، لأن النخبة وجدت فى سليم الأول استجابة حازمة وكافية للتصدى للتهديد الصفوى، ونتائجه. فقد حفز استشعار المماليك فى مصر والشام للخطر العثمانى عليهم قيام تعاون بينهم وبين الصفويين على اختلافهم المذهبى فى أوائل القرن السادس عشر، وهنا تبرز العوامل الجيوسياسية التى تعمل أفقيا (من الشرق إلى الغرب) لدى تزايد المخاطر أو الضغوط من الشمال إلى الجنوب. قد يكون ذلك هو الدافع

الأبرز لقرار سليم الأول بفتح بلاد الشام فى ١٥١٦ ثم مصر فى ١٥١٧ واضعا نهاية لقرون من حكم المماليك، الذين عجزوا - فى نظر العثمانيين - عن صد الخطر البرتغالى عن مياه وثغور المسلمين فى البحر الأحمر وبحر العرب والخليج.

على مدى قرنين ونيف، خاض العثمانيون والصفويون معارك طاحنة أنهكت الطرفين معا. دارت أبرز المعارك حول السيطرة على العراق. فبعد ضم العراق إلى العثمانيين لأول مرة فى عصر السلطان سليمان القانونى فى النصف الأول من القرن السادس عشر، استعاد الصفويون العراق حتى عصر السلطان مراد الرابع الذى حاصر بغداد، ودارت - وفقا للمصادر العثمانية - رحى معركة هائلة سقط فيها عشرات الآلاف من القتلى والجرحى، وأبدى الصفويون صمودا مذهلا حتى قتل منهم ٥٠ قائدا برتبة بكلربك (فريق)، فقد كانت أوامر الشاه الصفوى أن لا تسليم. عندما استولى الصفويون على العراق، ارتكبوا إساءات وتعصبا طائفيا ترك جروحا غائرة فى تاريخ وروح العراق. فقد خربوا قبر ومزار الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان وغيره، بينما كان العثمانيون يبادرون إلى بناء وتكريم جميع العتبات المقدسة والمزارات، خاصة مزارات آل بيت النبى الأطهار (ص). وفى بعض المراحل، تحالف الصفويون مع قوى أوروبية ضد الدولة العثمانية. امتدت حروب الدولتين إلى تبريز فى أذربيجان وتبليسى فى كرجيستان (جورجيا)، وغيرها. وبرز بين القادة العثمانيين عثمان باشا بن أوزدمير باشا، وهو مصرى والده مملوك من أصدقاء السلطان سليم الأول وأمه أميرة من العباسيين المصريين. خاض عثمان باشا معارك عديدة فى اليمن والخليج والعراق وأذربيجان وشرق الأناضول. كان قائدا أسطوريا رغم مرضه المزمن، بل أهم

قائد عالمى فى القرن السادس عشر، وتوفى وهو الصدر الأعظم العثمانى فى ١٥٨٠.

بنهاية القرن السابع عشر تقريبا، استقرت الحدود العثمانية الصفوية تقريبا على صورة الحدود التركية الإيرانية الراهنة. لكن الإنهاك والإعياء والوهن بلغ من الدولتين مبلغه. وقبيل نهاية القرن الثامن عشر، انقرضت السلالة الصفوية فى ١٧٨٤، وحلت محلها الدولة القاجارية. أما الدولة العثمانية فقد تدهورت مكانتها العالمية فى القرن الثامن عشر من الدولة الأولى إلى الدولة الثالثة أو الرابعة، وتمكنت إمارة موسكو (الروسية) - التى كانت تدفع الجزية لأمراء القرم التتار من سلالة كيراى خان التابعين للسلطان العثمانى - من إلحاق هزيمة منكرة بالدولة العثمانية فى الحرب الروسية البولندية التى خاضتها الدولة العثمانية دفاعا عن أراضى بولندا التى كانت حليفا تقليديا للعثمانيين. انتهت الحرب بنتائج كارثية جسدتها معاهدة قينارجه فى ١٧٧٤. استنزفت الحروب العثمانية الصفوية طاقات وقدرات الدولتين، وأوصلتهما إلى العصر الحديث -عصر صعود الامبريالية الأوروبية- وهما أعجز عن الصمود فى وجه المد الاستعمارى. تتمثل إشكالية أو مأزق المشروع الصفوى فى أنه قد وجه منذ البدء طاقته الصراعية نحو الداخل، نحو الأمة، فهو مشروع للانفجار الداخلى، بل كان باللغة الكلاسيكية مشروعا للفتنة والانقسام والاستنزاف، بكل التضمينات والنتائج السلبية المترتبة على ذلك.

ورغم أنه ليس من حسن الفطن أن ينظر طلاب التاريخ إلى أحداثه السابقة وفقا لفرضيات أو رؤى لاحقة، يعتقد كاتب هذه الصفحات بأن الصراع العثمانى - الصفوى العدمى والمنهك للأمة لم يكن حتمية تاريخية مترتبة على التحول المذهبى فى إيران القرن السادس عشر باتجاه التشيع الإثناعشرى. وكما سبق، تؤشر الشواهد التاريخية إلى دور العوامل الإثنية والثقافية والجيوسياسية فى حدوث تلك الارتطامات بين النخب المسيطرة على الدول ذات الانتماء التركى. وكانت الدولة العثمانية فى الأناضول والبلقان قد دخلت فى صراع أقصر مدى مع سلالتين تركيتين سيطرتا على المجال الإيرانى قبل الصفويين، هما أصحاب الخرفان البيض وأصحاب الخرفان السود، وقد كانوا كالعثمانيين سنيين وأحنافا كذلك. خاضت هاتان الدولتان حروبا لا يستهان بها ضد العثمانيين، وبتحريض من أمراء الإمارات التركمانية فى الأناضول الذين أزاحتهم العثمانية ضمن مشروعها التوحيدى. الفارق الرئيس بين التجربة العثمانية وغيرها من الممالك التركمانية هو رحابة

آفاق العثمانية وتوجهها نحو العالمية مبكرا، بل وتمثلها لذاتها أحيانا كوريث واستمرار لامبراطورية الروم الشرقية (بيزنطة)، وقيام السلاطين على مدى قرون بدور حامى وراعى الكنيسة البيزنطية، ورؤية السلطان لذاته امبراطورا (عاهلا) للشعوب العثمانية على اختلاف أعراقها وأديانها، وخليفة للمسلمين من رعاياه وغيرهم، وخاقانا للشعوب والممالك التركية. وقد عبر الشاعر العثمانى نامق كمال عن هذه الرؤية العالمية فقال شعرا: نحن أهل الهمم العالية نحن أهل الطموح والإرادة... من عشيرة صغيرة أقمنا دولة عالمية.

أين المشروع العربى؟

هذا التباين بين خصائص وتوجهات كل من المشروع العثمانى والمشروع الصفوى هو الذى أكسب الأول عدالته وأهليته وشرعيته التاريخية؛ بينما أفقد الأخير الصدقية والقبول، وقاد إلى ترذيل التجربة الصفوية باعتبارها صفحة غير مشرقة - بل عاملا سالبا - فى مسار التجربة التاريخية للأمة. عزل الصفويون مجالا جغرافيا وثقافيا وإنسانيا هاما من الأمة - هو المجال الإيرانى - عن باقى العالم الإسلامى، وكرست التجربة الصفوية أسباب النفور والغربة، وأساء بدون شك إلى معنى وروح التشيع، كما رأى بحق المفكر الإيرانى الراحل على شريعتى، الذى ميز بوضوح بين التشيع الصفوى والتشيع المحمدى. على المستوى الموضوعى، كان الوريث الحقيقى للمشروع الصفوى - فى التاريخ المعاصر - هو مشروع الشاه السابق محمد رضا بهلوى، فقد عمل على تكريس الفجوة بين إيران وبين العرب والمسلمين؛ فتحالف مع إسرائيل والقوى الاستعمارية، وأصبح وكيلا محليا للإمبريالية الأميركية فى الخليج والشرق الأوسط بناء على مبدأ نيكسون الذى جاءت صياغته كرد فعل للعقدة الفيتنامية، وسعى إلى تسريع وتيرة تغريب ومسخ الشخصية الإيرانية، واتخذ مواقف معادية للإسلام والحقوق والتطلعات العربية، واحتل الجزر العربية الإماراتية الثلاث - بمباركة أو صمت غربى - مدشنا عقدة تاريخية صعبة بين العرب وإيران.

ومن أجل تقييم ماهية ومسار المشروع الإيرانى الراهن، ينبغى النظر فى وجود عناصر التباين بين المشروعين العثمانى والصفوى فى السياق العربى الإيرانى الراهن، فهى تشكل معيارا صائبا وهاديا فى الحكم على أى توجهات أو مشروعات. بيد أن الإشكال هو فى افتقاد المشروع العربى الذى ينبغى أن يقارن به المشروع الإيرانى. فلم يكتسب المشروع الصفوى التاريخى خصائصه السلبية إلا لدى مقارنته أو تضاده بالمشروع العثمانى. وليس هناك الآن مكافئ موضوعى راهن للمشروع العثمانى؛ وهذا ينفى بدورد وجود مكافئ موضوعى راهن للمشروع الصفوى كذلك.

من ناحية أخرى، يذكرنا العدوان الإسرائيلى الراهن فى فلسطين ولبنان بأن هناك مشروعا صهيونيا استيطانيا إحلاليا ليس له حتى الآن من رد مكافئ سوى المقاومة فى فلسطين ولبنان، كما يذكرنا الاحتلال الأمريكى فى العراق والتواطؤ الأمريكى مع العدوان الإسرائيلى فى لبنان بمشروع الهيمنة والإخضاع الأميركى، وكان يدعى سابقا الشرق الأوسط الكبير الذى يضم إسرائيل ويلغى الهوية العربية للإقليم والتناقض العربى الإسرائيلى، ويدعى حاليا الشرق الأوسط الجديد والجديد هنا هو تصفية المقاومة للاحتلال الإسرائيلى والمانعة للهيمنة الإمبريالية، ولذلك لا رد مكافئا له سوى مزيد من المقاومة فى العراق ولبنان وفلسطين.

لا يمثل المشروع الإيرانى الراهن مأزقا أو تحديا حقيقيا للنظام العربى الرسمى، بل المأزق هو فى افتراقه عن الاتجاه الذى تؤشر إليه بوصلة الصراع العربى الإسرائيلى ومواجهة الهيمنة والمد الإمبريالى فى المنطقة. يؤدى هذا المأزق إلى مفارقة مزدوجة تتمثل فى افتقاد الخيارات العربية الرسمية أمام تحديات وتهديدات المشروع الصهيونى والمشروع الأمريكى سوى الهروب أو التساوق أو التهميش، كما تتمثل فى التناقض مع مشروع المقاومة الذى هو خيار الأمة الحقيقى والوحيد. وهكذا يؤدى الافتراق عن البوصلة الحقيقية للأمة إلى افتقاد أو ضبابية الرؤية؛ فهى تنظر إلى المقاومة - التى هى خيار الأمة - من خلال منظار الانتماء الطائفى، وهى مقولة عقيمة لا تفسر. فالمقاومة فى فلسطين ولبنان والعراق مثلا لا تنتمى إلى الشيعة فقط أو السنة فقط. وهذه المقاومة هى استجابة الشعوب للاحتلال؛ وليست من اختراع دولة أو محور أو تحالف. وفى القطر الواحد، وداخل الطائفة الواحدة، هناك من يقاوم الاحتلال وهناك من يتعاون معه، فالانتماء الطائفى لا يفسر هذه التناقضات أو التباينات فى المواقف. فوعى الأمم بتاريخها وقضاياها وتصوراتها حول ذاتها وهويتها أبلغ أثرا فى تشكيل توجهاتها وخياراتها الكبرى، بصرف النظر عن التضحيات اللازمة لإنفاذ وإنجاز تلك الخيارات. وفى هذا السياق تصبح التكاليف المادية والمعاناة الإنسانية معقولة ومحتملة فى سبيل كرامة الأمم وتحقيق المعنى الأسمى لحياتها ومستقبلها. ■

كتـــاب الـزاويـــة

قاســـم أمـــين

الأعمال الكاملة

اختلف الناس ولايزالون مختلفين حول طبيعة الإسهام الفكرى لقاسم أمين.. استقطاب حاد، أثمر تيارين فكريين أحدهما تعصب لفكر قاسم أمين، فهو الرائد الذى قاد الحركة الفكرية والاجتماعية لتحرير المرأة وثانيهما تعصب ضد فكر قاسم أمين، فهو ذلك الذى فتح نافذة التغريب الأوروبى، على عالم المرأة العربية المسلمة.

هكذا كتب المفكر الدكتور محمد عمارة فى مقدمة الطبعة الثانية عام ١٩٨٨ لكتابه «قاسم أمين.. الأعمال الكاملة» الذى أصدرت «دار الشروق» طبعته الثالثة عام ٢٠٠٦.

وقد ولد قاسم أمين فى ديسمبر ١٨٦٢ لأب تركى عثمانى وأم مصرية وحصل على ليسانس الحقوق عام ١٨٨١ وكان أحد طلاب الحقوق الذين اقتربوا من حلقة جمال الدين الأفغانى ومدرسته الفكرية آنذاك، ثم سافر إلى فرنسا فى العام نفسه ودرس الحقوق لأربع سنوات، وعاد إلى مصر عام ١٨٨٥ ليعمل فى النيابة المختلطة، ثم إلى قسم قضايا الحكومة وأصبح رئيسًا لنيابة بنى سويف ثم رئيسًا لنيابة طنطا وبعد ذلك عين نائب قاض فى محكمة الاستئناف ورقى بعد ذلك إلى مستشار. وامتد نشاطه فكتب فى الصحافة وشارك فى تأسيس الجامعة المصرية، وأصدر كتابيه «المصريون» كذلك «تحرير المرأة» ١٨٩٩، و«المرأة الجديدة» ١٩٠٠. وفارق الحياة فجأة عام ١٩٠٨، وقد عرضت «وجهات نظر» من قبل مقتطفات من كتابه «تحرير المرأة» وهى تعرض فى هذا العدد مقتطفات من أعماله غير المنشورة التى ضمها كتاب الدكتور محمد عمارة.

إنجيـــــل الخــــائــــن!

أيًا ما كانت القيمة الدينية أو التاريخية أو العلمية لمخطوطة البردي التي عثر عليها فلاح مصري في إحدى قرى صعيد مصر في سبعينيات القرن الماضي وبعد ثلاثين عامًا فقط من اكتشاف مخطوطات نجع حمادي الثلاثة عشر، فقد أثار نشر ترجمتها أخيرًا على يد عالم مخطوطات سويسري جدلاً واسعًا في العالم المسيحي.

وأيًا ما كان أمر هذا الجدل، أو أيًا ما كانت الحقيقة بشأن تلك المخطوطات فإن ما جاء بها من نصوص كان موضوعًا لكتاب مهم صدر عن National Geographic، وكان الكتاب موضوعًا لهذا المقال الذي نشرته الدورية الرصينة The New York Review of Books بعد أسابيع فقط من نظيرتها The New Yorker.

وتود «وجهات نظر» أن تنبه هنا إلى أن المقال مترجم عن الإنجليزية، مما قد يترتب عليه شيء من الاختلاف في بعض النصوص الدينية.

قال عيسى (عليه السلام) ليهوذا عالما بأنه يدبر أمرا عظيما: «ابتعد عن الآخرين وسوف أطلعك على أسرار المملكة. بإمكانك أن تصل إليها ولكنك سوف تعاني حزنا شديدا».

في الطبعة الأخيرة من «إنجيل يهوذا» تتحول شخصية الشرير في القصة التقليدية لتصبح أكثر حواريي عيسى (عليه السلام) إخلاصا له. إن قارئ «العهد الجديد» سوف يلاحظ أن «إنجيل يوحنا» يصور عيسى (عليه السلام) متساهلا تجاه خيانته إلى درجة التواطؤ، حيث إنه حث يهوذا «افعل بسرعة ما أنت مقدم عليه». ويخبرنا «إنجيل يهوذا» كيف حدث ذلك. هنا يختار عيسى (عليه السلام) يهوذا ليتلقى الأسفار السرية ويفوضه في تسليمه للموت.

فيما كتب عام ١٨٠ للميلاد تقريبا، يخبرنا «إيرينايوس Irenaeus» أسقف «ليونز Lyons» ومن المنتقدين الشهيرين للهرطقة، أن بعض المسيحيين كانوا يعيدون تخيل قصة يهوذا بعد مرور عقود على كتابة الأناجيل الأصلية. وقد ذكر في كتابه «تفنيد كل الآراء الجدلية Refutation of All Heresies» أن بعض الناس أعلنوا أن يهوذا الخائن، والذي وحده يعرف الحقيقة دون الآخرين، دبر حادثة الخيانة. وبسببه أصبحت كل الأشياء الدنيوية والسماوية موضع شك. وتجسد كل ذلك في عمل مصطنع يسوده الشك لقب بـ «إنجيل يهوذا».

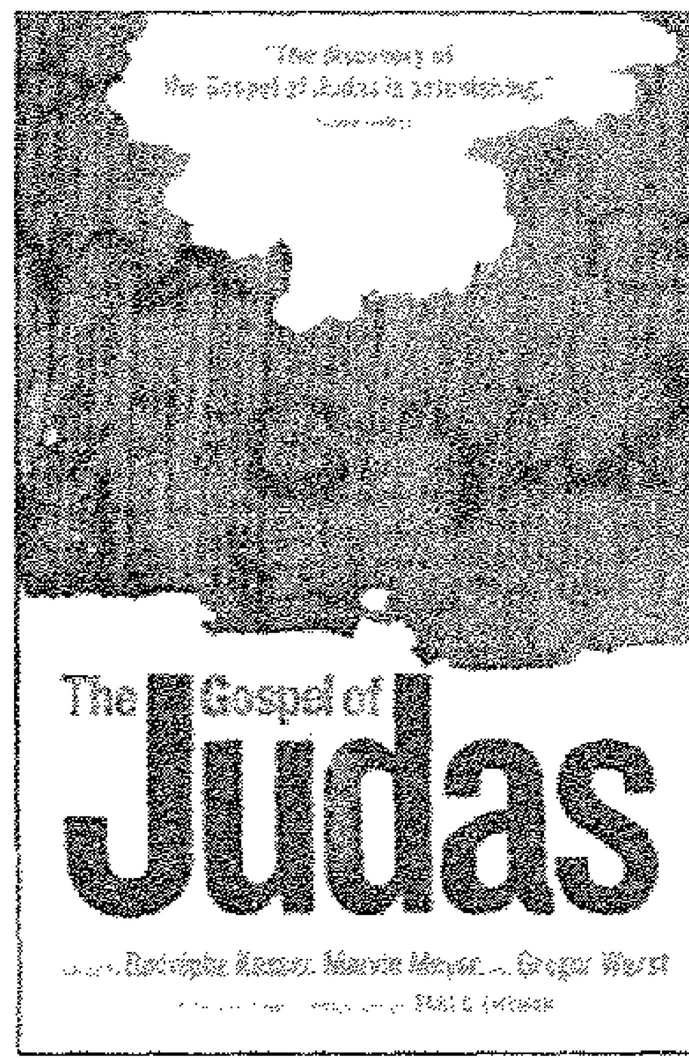
لمدة ألفي عام تقريبا كان تفسير الأسقف الساخط هو أفضل ما أتيح لنا من مصادر حول هؤلاء الناس

The Gospel of Judas from Codex Tchacos
(إنجيل يهوذا من مخطوطة تشاكوس)
Rodolph Kasser
Marvin Meyer
Gregor Wurst
National Geographic, 185pp., $22.00
The New York Review of Books

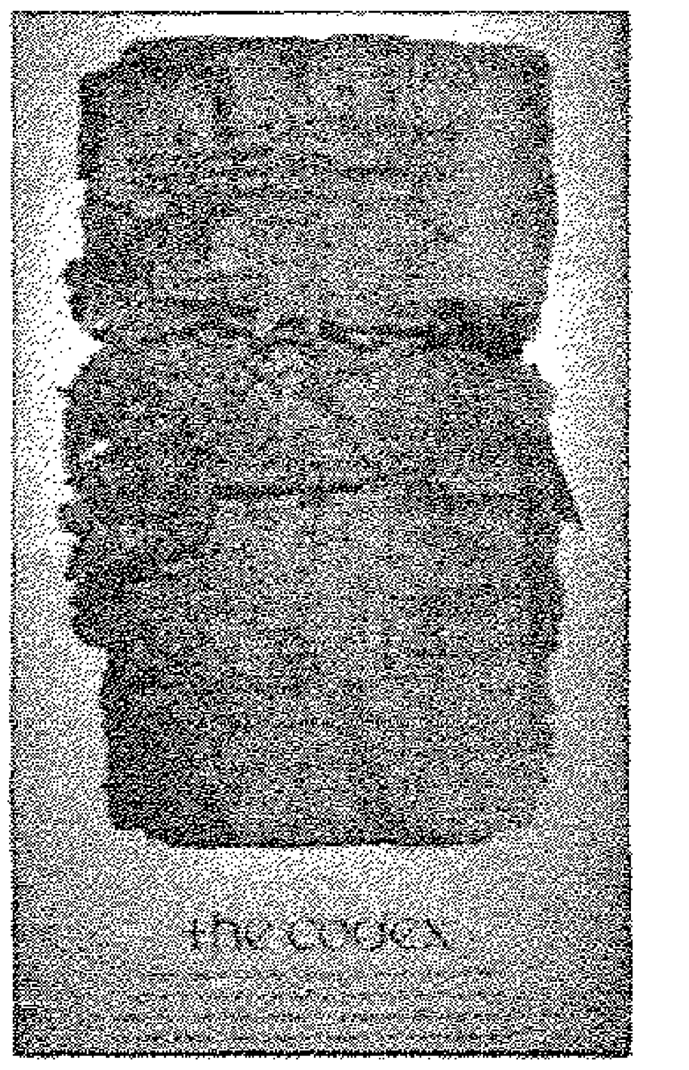
ترجمة: عادل فتحي



ادوارد إريـسـنشي
لانس جينوت
فيليبا تاونسند



الغــلاف



المخطوط

ونصوصهم. أما الآن فقد تغير ذلك بعد اكتشاف نسخة من الإنجيل المفقود منذ أمد بعيد والذي كان محفوظا لعدة قرون في قبر بصحراء مصر.

إن «إنجيل يهوذا» الذي كشف عنه للمرة الأولى في أبريل الماضي هو من أهم الإضافات لمصادرنا عن المسيحية الأولى منذ اكتشاف ثلاثة عشر من مخطوطات البردي بالقرب من مدينة نجع حمادي المصرية عام ١٩٤٥، وقد احتوت تلك المخطوطات التي تعود للقرن الرابع الميلادي، والتي دفنها على الأرجح رهبان من دير «باشوميوس Pachomius» القريب، على كتابات مسيحية يرجع تاريخها الأصلي إلى القرنين الثاني والثالث للميلاد. وبسبب وصمها بالهرطقة من قبل أساقفة مثل «أثاناسيوس Athanasius» أسقف الإسكندرية، فقد جرى استبعادها من لائحة أسفار «العهد الجديد»، واختفت من تاريخ المسيحية بدون أثر، فيما عدا شجبها في مجادلات الكتاب الأوائل عن الهرطقة. وقد اجتذبت تلك النصوص التي اشتهرت بالأناجيل الغنوسطية (الغنوسطية أو الغنوصية أو العارفية هي مدرسة عقائدية فلسفية نشأت حوالي القرن الأول الميلادي) اهتماما كبيرا في الآونة الأخيرة كأحد مصادر الإلهام لرواية «دان براون Dan Brown» «شيفرة دا فينشي The Da Vinci Code» المثيرة للجدل. ومع ذلك، فإن كتابات مثل «إنجيل مريم» و«إنجيل توماس»، وبصرف النظر تماما عن جاذبيتها، وفرت للعلماء فرصة غير مسبوقة لزيادة فهمنا فيما يتعلق ببدايات الجدل المسيحي حول قضايا مثل الجنس والهرطقة وزعامة الكنيسة.

ومثل نصوص نجع حمادي، حفظ «إنجيل يهوذا» المكشوف عنه أخيرا في مخطوطة من ورق البردي تعود للقرن الثالث أو الرابع، وهو مكتوب باللغة القبطية، اللغة القديمة للمسيحية المصرية (رغم اعتقاد العلماء أن الإنجيل الأصلي كان مكتوبا باليونانية). وقد اكتشف هذا الإنجيل للمرة الأولى في السبعينيات من القرن الماضي على يد بعض الفلاحين المصريين في كهف للدفن قرب قرية كرارة في مصر الوسطى. فبينما كانوا - على الأرجح - ينقبون عن الكنوز القديمة التي ما زالت رمال مصر تجود بها بين الحين والآخر، عثر هؤلاء الفلاحون على هيكل عظمي ملفوف في كفن وبجواره صندوق من الحجر الجيري. وبداخل الصندوق كان هناك كنز من مخطوطات البردي لم يدرك أحد أهميته الحقيقية قبل مرور ثلاثين عاما أخرى.

وقد لحقت بذلك الإنجيل أضرار جسيمة أثناء رحلته الطويلة من ظلام ذلك الكهف قرب النيل وحتى نشره مؤخرا. وقد قام تاجر المخطوطات الذي اشتراه ثم حاول بيعه، بالاحتفاظ به لعدة سنوات في خزانة بأحد البنوك في مدينة هيكسفيل بولاية لونج أيلاند الأمريكية مما سبب تدهور حالته. وقام تاجر آخر بالاحتفاظ به داخل فريزر ثلاجة مما أصابه بالمزيد من الأضرار. وعندما وصل الإنجيل عام ٢٠٠١ إلى «رودلف كاسر» عالم البرديات السويسري الشهير، كان في حالة يرثى لها. ويستحضر «كاسر» في مقال نشر له مع الطبعة الأخيرة للإنجيل أنه أطلق صرخة عندما رآه للمرة الأولى.

يقول «كاسر»: «كان ذلك الإنجيل ضحية صارخة للجشع والطمع. لقد صرخت بسبب صدمتي لرؤية شيء نفيس لتلك الدرجة يلقى مثل هذه المعاملة السيئة. كان متحللا لأقصى درجة، وقد تحول جزء منه لرماد، وأصبح هشا تماما، ويتفتت لدى أقل لمسة».

وبمساعدة «فلورنس داربر Florence Darbre» كبيرة المرممين بـ«مؤسسة بودمر Bodmer Foundation» في سويسرا، تولى «كاسر» المهمة المضنية لإعادة تجميع المخطوطة ثانية. كان يجب تجميع كل الشظايا معا مثل أجزاء ألغاز الصور. ولم يتوجب تطابق أشكال الشظايا فقط بل أيضا الألياف الفردية. وقد استخدمت «فلورنس داربر» مجهرا قويا لرؤية الألياف الدقيقة التي لا تراها العين المجردة. وعندئذ فقط استطاع «كاسر» أن يشرع في نسخ وترجمة النص القبطي. وعبر الألياف ثم الحروف، بدأت تتجلى القصة التي ظلت غير مقروءة لأكثر من ١٥٠٠ عام، على الرغم من وجود عدد كبير من الثغرات في النص الذي نشر أخيرا هذا العام بموجب اتفاق حصري مع «جمعية الجغرافيا القومية National Geographic Society».

إن شخصية يهوذا بخيانته الشائنة الشهيرة - وإن لم يكن هناك مفر منها - تجسد تناقضات الشر. فلماذا يسمح الله الكريم القادر بالشرور؟ وإذا كانت الشرور جزءا من الخطة الإلهية، فكيف يمكن - عدلا - اعتبار البشر مسئولين عنها؟ في تفاسير «العهد الجديد» تلخص نبوءة عيسى (عليه السلام) الشهيرة المشكلة ولكنها لا توفر لها حلا. تقول النبوءة: «إن ابن الإنسان لابد أن يمضي كما قدر له، ولكن الويل لذلك الرجل الذي يسلمه. كان خيرا لذلك الرجل لو لم يولد» (إنجيل مرقص ١٤: ٢١، إنجيل متى ٢٦: ٢٤، إنجيل لوقا ٢٢: ٢٢).

يذهب لوقا إلى أبعد من كاتبي الإنجيلين الآخرين في تحري الدوافع وراء ما فعله يهوذا، فيعزو ذلك إلى تقمص الشيطان له (ودخل الشيطان في يهوذا الملقب بالإسخريوطي، إنجيل لوقا ٢٢: ٣). ولكن لوقا بذلك زاد فعلا من تعميق التناقض، جاعلا الشيطان في أحد المعاني مسئولا عن خلاص البشرية. أما تفسير يوحنا فهو الأكثر تعقيدا، حيث يوحي بأن الشيطان قد تقمص يهوذا بتحريض من عيسى (عليه السلام) نفسه. يقول يوحنا: «فأجاب يسوع: هو الذي أعطيه اللقمة التي أغمسها. ثم غمس اللقمة وأعطاها ليهوذا بن سمعان الإسخريوطي. وبعد اللقمة، دخله الشيطان» (يوحنا ١٣: ٢٦-٢٧).

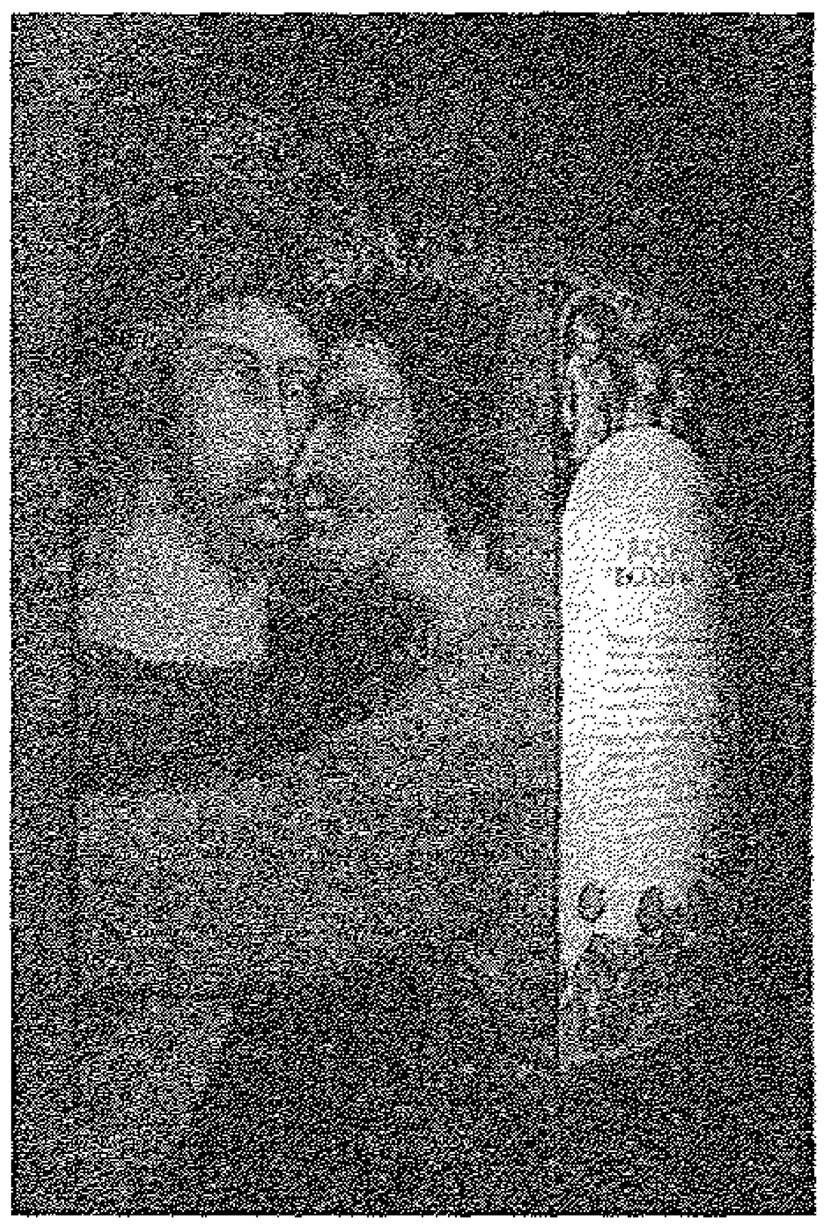
يؤكد «إنجيل يهوذا» بطريقة مختلفة إصرار كتاب الأناجيل السابقة على أن عيسى (عليه السلام) كان على علم مسبق بموته ووافق عليه. في «إنجيل يهوذا» لم يكن عيسى (عليه السلام) وحده في مهمة سرية، ولكن يهوذا أيضا.

إن «إنجيل يهوذا» الذي كتب عام ١٤٠ للميلاد تقريبا بعد عقود من كتابة الأناجيل الكنسية، لا يقدم أساسا لإعادة تقييم يهوذا تاريخيا. ولكنه يطرح سؤالا حول السبب الذي قد يدفع مسيحيا من القرن الثاني الميلادي إلى الاهتمام بإعادة الاعتبار لعدو عيسى (عليه السلام) اللدود. ما الذي يلهم كاتبا للإتيان بهذا العمل الذي يتناول لغز الخيانة محولا الخائن الملعون إلى أكثر حواريي عيسى (عليه السلام) ولاء له، بل ويعيد كتابة التاريخ المسيحي في إنجيل يحمل اسمه. إن العديد من نصوص القرن الثاني المسيحية تزعم أنها تسجل أسفار الرؤيا التي نزلت على الحواريين البارزين مثل بطرس ويوحنا، أو الشخصيات الأخرى التي عرفت بقربها من عيسى (عليه السلام) مثل مريم المجدلية. وعلى النقيض من ذلك، فمن الواضح أن كاتب «إنجيل يهوذا» قد ارتكب ما يعد بالتأكيد عملا هداما بنسبه هذا الإنجيل إلى شخصية ملعونة بالفعل من قبل المسيحيين القدماء. ولابد أنه قد درس هذا الخيار بعناية. ومن بين التفسيرات المحتملة لهذا القرار أن يكون كاتب «إنجيل يهوذا» أحد أعضاء جماعة مسيحية هوجمت ونبذت وربما نفيت تماما من قبل زعماء الكنيسة. وربما كان الكاتب ضحية لمحاولات مستمرة لاستبعاد من انشقوا على الأساقفة وتصنيفهم كـ «هراطقة» حسب التعبير الحديث وقتئذ. وبالنسبة لجماعة من البشر هوجموا كمارقين وخونة، فإن قصة يهوذا التي أعيدت كتابتها ربما وفرت وسيلة لإعادة تأويل تجربتهم وتقديم أنفسهم - ليس كمنبوذين من الدين المسيحي - ولكن كأكثر المدافعين عنه إخلاصا وإن كانوا قد أسيء فهمهم. في الحقيقة: أن «إيرينايوس» منتقد الهرطقة وشاهدنا الأول على «إنجيل يهوذا»، يرى أن

جماعة المسيحيين الذين قرأوا هذا النص يتصورون أنفسهم بالفعل وقد أسيء فهمهم ولم يربط بينهم وبين يهوذا فقط بل أيضا بينهم وبين شخصيات مذمومة أخرى في الإنجيل مثل «قابيل Cain». وبينما يجب أن تبقى إعادة تشكيل موقف الكاتب موضع تفكر، فمن المنطقي أن نندهش لغرابة اختيار يهوذا كشفيع.

اعتاد العلماء تناول النصوص غير الكنسية مثل كتابات نجع حمادي على اعتبار أنها تفترض رؤية عالمية خاصة تعرف بـ «الغنوسطية». وفي الطبعة المنشورة حديثا لـ «إنجيل يهوذا» يستخدم كل من «مارفين ماير Marvin Meyer» و«بارت إيرمان Bart Ehrman» هذا المنهج لتأويل النص. وقد كتب «إيرمان» ملخصا أحد المبادئ الأساسية لـ «الغنوسطية» كما يفهمها: «إن العالم الذي نعيش فيه مستنقع للألم والبؤس والمعاناة، والأمل الوحيد أمامنا للخلاص هو هجر ذلك العالم». ويرى هذا الرأي أن الكون هو خلق شرير لكائنات بغيضة حقيرة، والتي خلقت البشر عن طريق احتباس ومضات إلهية في أجساد مادية. ولكن تلك «الومضة الإلهية» لا تتوفر لكل شخص، والقلائل الذين قدر لهم أن يحصلوا عليها هم فقط الذين سيتم إنقاذهم. ومع ذلك، فلا يتعلق الخلاص بالإيمان أو الأخلاق، وإنما باكتساب المعرفة الروحانية أو «الغنوسطية». وفي النهاية، فطبقا لهذا التفسير للأناجيل الغنوسطية، فإن موت عيسى (عليه السلام) ليس له دور في خلاص البشرية سوى كونه مثالا لكيفية تحرير الموت للنفس الحقيقية من الجسد: «إن عيسى (عليه السلام) - في «إنجيل يهوذا» كما في الأناجيل الغنوسطية الأخرى - هو في الأساس معلم وناشر للحكمة والمعرفة وليس منقذا يموت بسبب آثام العالم».

ولا يظهر أي من تلك الاعتقادات بوضوح في النصوص الغنوسطية المزعومة كما أقر «إيرمان» ذات مرة بدون تحفظ (العهد الجديد: مقدمة تاريخية للكتابات المسيحية الأولى The New Testament: A Historical Introduction to the Early Christian Writings، مطبعة جامعة أوكسفورد، ٢٠٠٣، ص ١٧٣)، كما أنه ليس لدينا أي دليل أن مؤلفي تلك الأعمال اعتبروا أنفسهم «غنوسطيين» أكثر من كونهم مجرد مسيحيين. وعوضا عن ذلك، فإن العقيدة الغنوسطية هي الأساس الذي نشأ عليه العلماء الجدد والتي كونوها - جزئيا - عن طريق الاعتماد على تفنيدات منتقدي الهرطقة مثل «إيرينايوس»، وكذلك بتجميع الأفكار الواردة في كتابات



ما السبب الذى قد يدفع مسيحى من القرن الثانى الميلادى إلى الاهتمام بإعادة الاعتبار لعدو عيسى (عليه السلام) اللدود؟

نجع حمادي المختلفة وفي غيرها من النصوص. ومن الممكن بالطبع أن يكون تصنيف العلماء هذا مفيدا، وليس هناك من شك في إمكانية العثور على عناصر معينة للمبادئ الأساسية لـ «الغنوسطية» في بعض نصوص نجع حمادي وكذلك في «إنجيل يهوذا» نفسه. ومع ذلك، فالافتراض المسبق بأن هناك «رؤية عالمية غنوسطية» عند تناول تلك النصوص غير الكنسية بالدراسة يخلق سلسلة طويلة من المشاكل الخطيرة. وأكثر تلك المشاكل وضوحا هو أن الكثيرين يقرأون في النصوص ما ليس فيها بالفعل. ومن المشاكل الأخرى أنه يحدث تعتيم على الفوارق بين النصوص المختلفة، بينما يتم التركيز على الفوارق بينها وبين النصوص الكنسية. وقد أدى ذلك إلى النظر إلى نصوص نجع حمادي باعتبارها «لا كنسية» أو صورة منعكسة لـ «العهد الجديد» (أو كما يصفها «إيرمان»: «المسيحية مقلوبة على رأسها»)، بينما من المفيد أكثر أن ننظر إلى جميع تلك النصوص المسيحية المبكرة باعتبارها مواقف مختلفة في نفس المناقشة أو أصواتا متنافرة ضمن نفس المحادثة.

يتم تعريف النص في صفحته الأولى بأنه «الرواية السرية لسفر الرؤيا التي كشف عنها عيسى (عليه السلام) في حديثه مع يهوذا الإسخريوطي» قبيل عيد فصح اليهود، عندما تواطأ يهوذا مع القوى اليهودية. يبدأ «إنجيل يهوذا» بإخبارنا ما يلي:

«عندما ظهر عيسى (عليه السلام) على الأرض كانت له علامات ومعجزات كبرى لخلاص البشرية، لأن البعض كان يسير في طريق الصلاح بينما آخرون يسيرون في طريق الخطيئة. والآن الاثنا عشر يسمون بالحواريين، وقد بدأ يتحدث معهم حول الأسرار التي تعلو العالم وعما سيحدث في النهاية» (كل الترجمات الواردة هنا لـ «إنجيل يهوذا» قام بها المؤلفون، وهي تختلف في بعض الحالات عن الترجمة المنشورة مؤخرا).

وينقسم الإنجيل بعد ذلك إلى ثلاثة مشاهد. في المشهد الأول يلتقي عيسى (عليه السلام) بالحواريين الاثني عشر بينما هم مجتمعون يقدمون الشكر على الخبز فيضحك (عليه السلام). وعندما يسألون عن سبب ضحكه على تقديمهم الشكر، قائلين أنهم «فعلوا الصواب»، يجيبهم (عليه السلام) بأنه لا يضحك عليهم وإنما لأنهم ينفذون إرادة ربهم. يجيب الحواريون - مرتبكين - بأنه ابن الرب. ولكنه يخبرهم: «أقول لكم حقا أنه لن يعرفني أي جنس من البشر من بينكم». وعندما سمع الحواريون ذلك «غضبوا وأصابهم الحنق وبدأوا يسبونه في قرارة أنفسهم».

ماذا يقصد عيسى (عليه السلام) عندما يفصل بوضوح بينه وبين «ربهم»؟ كما يشير ناشرو «إنجيل يهوذا»، فبإمكاننا أن نتفهم ملاحظات عيسى (عليه السلام) على ضوء نصوص مشابهة من نجع حمادي. تحاول تلك النصوص تفسير الطبيعة المنقوصة لعالمنا عن طريق نسبة خلقه ليس إلى الله الحقيقي بل إلى إله خبيث أدنى يعرف بـ «إسرائيل». ويوفر لنا «إنجيل يهوذا» بعد ذلك تفاصيل أكثر حول مجموعة الشخصيات العالمية الواردة فيه، ولكن عند تلك النقطة فإن تعليقات عيسى (عليه السلام) توضح أن الحواريين يعبدون - بالخطأ - كائنا وضيعا بدلا من الله العلي، وهو اتهام - وذلك مما يمكن فهمه - يزعجهم كثيرا. ومع علمه بسخطهم، يوجه عيسى (عليه السلام) تحديا: «فليأت منكم من هو قوي بما يكفي من بين البشر بالإنسان الكامل ويقف أمام وجهي». ويستمر النص:

قالوا جميعا: «إن لدينا القوة».

ولكن أرواحهم لم تجرؤ على الوقوف أمامه، فيما عدا «يهوذا الإسخريوطي». كان قادرا على الوقوف أمام عيسى (عليه السلام)، ولكنه لم يستطع النظر في عينيه وأشاح بوجهه بعيدا.

قال له يهوذا: «أعلم من أنت ومن أين أتيت. أنت من مملكة «باربيلو Barbelo» الخالدة. وأنا لا أستحق أن أتلفظ باسم الذي أرسلك».

وطبقا لبعض نصوص نجع حمادي فإن «باربيلو» هي الأم المقدسة العذراء وشريكة الله الحقيقي. وعند تعريفه لعيسى (عليه السلام) بأنه من «مملكة باربيلو»، فإن يهوذا يوضح بذلك أنه الوحيد الذي يدرك من هو عيسى (عليه السلام) وأنه أرسل من قبل الإله الأعلى. وقد تأثر عيسى (عليه السلام) كثيرا بالبصيرة الروحانية ليهوذا فاستبقاه ليطلعه على الأسفار: «ابتعد عن الآخرين وسوف أطلعك على أسرار المملكة. بإمكانك أن تصل إليها ولكنك سوف تعاني حزنا شديدا». وعندئذ يسأل يهوذا متى سيخبره عيسى (عليه السلام) بتلك الأشياء، ولكن عيسى (عليه السلام) يغادر تاركا يهوذا - والقارئ - في حالة ترقب.

وفي المشهد الثاني يظهر عيسى (عليه السلام) ثانية للحواريين، وعندما

من الواضح أن كاتب «إنجيل يهوذا» قد ارتكب ما يعد بالتأكيد عملا هداما بنسبة هذا الإنجيل إلى شخصية ملعونة بالفعل من قبل المسيحيين القدماء

يسألون عن المكان الذي ذهب إليه عندما غادرهم يجيب بقوله: «ذهبت إلى جنس آخر عظيم ومقدس». تصيب الحيرة حوارييه مرة أخرى ويسألون: «أيها الرب، ما هو الجنس العظيم المقدس الذي هو أعلى منا وليس في تلك الممالك؟ يضحك عيسى (عليه السلام) ويجيب: «لماذا تفكرون في قلوبكم بالجنس القوي المقدس؟ أقول لكم حقا، لن يرى ذلك الجنس أي شخص ولد في هذه المملكة». إن ناشري «إنجيل يهوذا» يترجمون كلمة «جنس race» هنا بـ «جيل generation»، ولكن «جنس» في الحقيقة هي الترجمة الأكثر طبيعية والتي تتماشى مع وصف كل من اليهود والمسيحيين الأوائل لأنفسهم كجنس أو كشعب.

وينزعج الحواريون ثانية - وذلك مفهوم - تجاه كلمات عيسى (عليه السلام) التي تتسم بالصد - هل لن يكونوا جزءا من الشعب المقدس؟ - ولكن أسوأ انتقاد لهم ما زال قادما. يسألون عيسى (عليه السلام) أن يفسر لهم رؤيا شاهدوا فيها اثني عشر كاهنا شريرا يقدمون القرابين على المذبح:

«البعض يقدمون أبناءهم كقرابين، وبعضهم يقدمون زوجاتهم، والجمع يسلكون سلوكا ودودا ومتواضعا فيما بينهم. البعض ينامون مع الرجال، والبعض يقتلون، والبعض يرتكبون الكثير من الآثام والخطايا. أما الواقفون على المذبح فكانوا يتوسلون باسمك».

ولم يحقق تفسير عيسى (عليه السلام) الرضا للحواريين:

«أنتم الذين كنتم تقومون بالطقوس عند المذبح الذي رأيتموه. ومن كنتم تقومون بخدمته هو الله، والاثنا عشر رجلا الذين رأيتموهم هم أنتم. أما الحيوانات التي رأيتموها تجلب كقرابين، فتلك هي الحشود التي تقودونها بضلال إلى ذلك المذبح».

ويعتمد التصوير النقدي للحواريين الاثني عشر هنا على الالتباسات التي جاءت بالفعل في الأناجيل الكنسية، مع توجيهها وجهة جديدة. ورغم كل شيء، كثيرا ما يظهر الحواريون في «العهد الجديد» باهتين تافهين متقلبين بصورة كبيرة. وقد أساءوا فهم الحكايات الرمزية وغطوا في النوم في حديقة «الجثمانية» (الحديقة التي اعتقل فيها المسيح خارج القدس) وتنصلوا من عيسى (عليه السلام) بينما كان يواجه الموت. ومع ذلك فقد رد إليهم عيسى (عليه السلام) اعتبارهم كاملا بعد قيامته وتحولوا في النهاية إلى مؤمنين مبشرين برسالته. وبحلول القرن الثاني الميلادي كان الإرث البابوي - وهو المذهب الذي وصل للسلطات الدينية من الحواريين عبر سلسلة متصلة من الأساقفة - قد تم تأسيسه بالكامل، وزعم الأساقفة أنهم ورثوا سلطانهم مباشرة من الحواريين، باستثناء يهوذا بالطبع. إن التصوير شديد السلبية للحواريين في «إنجيل يهوذا» (والذي يزداد سلبية مع التقدم في النص)، وكذلك الارتقاء بمنزلة يهوذا، الحواري الوحيد الذي لم تعترف به سلطات الكنيسة كأحد الأسلاف، لابد أن المقصود منه هو انتقاد الأساقفة أنفسهم. فرغم كل شيء، لو أن سلطة الأساقفة قد ورثوها عن مجموعة من الناس الذين عبدوا الإله الخطأ ولم يعرفوا أبدا تعاليم عيسى (عليه السلام) السرية، فإن تلك السلطة ستكون غير شرعية في الحقيقة.

لو كان الحواريون الاثنا عشر يمثلون فعلا الأساقفة الذين ادعوا السلطة البابوية، فماذا كان النص يقصد بالإيحاء بأنهم كانوا يقودون الحشود إلى الضلال مثلما تقدم قرابين الحيوانات إلى المذبح؟ يبدو من المرجح أن هذا كان انتقادا لمصادقة الأساقفة على فكر الاستشهاد وأيضا لاستسلام المسيحيين الأوائل اللاحق للإعدام على يد السلطات الرومانية. من الواضح أن مؤلف «إنجيل يهوذا» يعتبر الاستشهاد تضحية لا جدوى منها، ويلقي باللوم على زعماء الكنيسة بسبب قيادتهم للحشود شبه النائمة إلى الذبح. لقد فاتت الناشرون تلك السمة في «إنجيل يهوذا»، فترجموا النص بقولهم: «تلك هي الحشود التي تقودونها بضلال أمام المذبح». ومع ذلك، فالنص القبطي يقول حرفيا «إلى» المذبح وليس «أمام» المذبح.

بحلول القرن الثاني للميلاد كان خطر الموت على يد السلطات حقيقة واقعة بالنسبة للمسيحيين، حيث كان الكثيرون في العالم الروماني ينظرون للمسيحية بريبة شديدة. بالنسبة لمن آمنوا بأن أمن ورخاء الإمبراطورية كان يعتمد على إرادة إلهية طيبة، بدا رفض المسيحيين لاحترام الآلهة المتعددة وإنكارهم لتقاليد الأسلاف مهددا للمجتمع بأكمله. وقد ارتابت السلطات الرومانية على وجه الخصوص في دين يشجع أتباعه على عدم المشاركة في الاحتفالات والطقوس التي كانت محورية في الحياة العامة للإمبراطورية، ويفضلون على ذلك عقد اجتماعات خفية في منازل خاصة. وقد بدا هذا السلوك للكثيرين انسحابا غير مفهوم من المجتمع ومعاداة له.

ورغم هذا الفهم للديانة المسيحية، فإن اضطهاد أتباعها في القرن الثاني الميلادي كان متقطعا وكان يهدف في الأساس إلى محاولة إقناع المسيحيين للتحول عما كان ينظر إليه كممارسات مناهضة للمجتمع وليس إلى معاقبتهم بدنيا. وعموما، كان على أي عضو من الكنيسة - في سبيل النجاة من الإدانة بتهمة المسيحية - أن ينكر إيمانه وأن يعرب عن استعداده للمشاركة في عبادة الآلهة الرومانية، مثل نثر بعض البخور على المذبح. وكثيرا ما منح القضاة الرومان فرصا عديدة للمسيحيين للارتداد قبل الحكم عليهم بالموت في النهاية. ولكن العديد من زعماء الكنيسة - ومنهم على سبيل المثال أسقف «أنتيوخ Antiock» في القرن الثاني الميلادي - حذروا رعاياهم من اجتناب الاستشهاد، بل والسعي إليه. كان المسيحيون المتمردون يعدون قدوة رائعة للآخرين. إن التفكير بأن الاستشهاديين كانوا يشاركون عيسى (عليه السلام) في آلامه، كان يجعل المعاناة شيئا ليس فقط محتملا بل مرغوبا أيضا. وعلى سبيل المثال، فأثناء نقل «إجناتيوس Ignatius» أسقف «أنتيوخ» إلى روما لمواجهة الموت، كتب إلى الكنيسة هناك مناشدا رعاياها عدم استغلال علاقاتهم النافذة لإنقاذ حياته:

«امنحوني الفرصة كي تلتهمني الوحوش. فذلك هو الطريق للقاء الله. أنا قمح الرب وأطحن بأسنان الوحوش الضارية حتى أصبح خبزا صافيا للمسيح. تضرعوا إلى المسيح من أجلي، حتى أصبح بتلك الطريقة قربانا».

كما يوحي النص السابق، فإن تصوير الاستشهاد كتضحية أصبح وسيلة قوية للمسيحيين ليقتدوا بالمسيح. فمن رأيهم أن الشهداء كانوا يعيدون تمثيل موت عيسى (عليه السلام) الذي كان - في اعتقادهم - تضحية عن البشرية جمعاء. إن مؤلف «إنجيل مرقص» يفسر الخبز والخمر المستهلكين في عيد الفصح اليهودي كرمز لجسد عيسى (عليه السلام) ودمه: «هذا هو دمي الذي للعهد الجديد والذي يسفك من أجل كثيرين» (إنجيل مرقص ١٤: ٢٤). أما «إنجيل يوحنا» فيركز أكثر على تلك النقطة الرمزية عن طريق إعادة ضبط توقيت صلب المسيح، حتى يتم ذلك ليس في اليوم التالي لعيد الفصح اليهودي وإنما في يوم وجبة العيد نفسه: وهكذا يصبح عيسى (عليه السلام) هو الحمل القربان.

ومع ذلك، فعلى الرغم من الصورة المتراصة للمسيحيين الأوائل المستعدين للموت على يد السلطات والتي وصلتنا عن طريق سجلات الشهداء والكثير من الكتب الأخرى، ناهيك عن أفلام مثل «إشارة الصليب The Sign of the Cross»، فإن الاستشهاد في الحقيقة كان موضع جدل في ذلك الوقت. فقد اعترض بعض المسيحيين على ما اعتبروه مضيعة للحياة لا لزوم لها، وآمنوا بأن إشهار إيمانهم علنا ليس بالأمر الهام. ويعبر عن هذا الرأي أحد النصوص التي عثر عليها في نجع حمادي وعنوانه «شهادة الحق The Testimony of Truth». وقد تحول هذا النص - مثله في ذلك مثل الكثير من كتابات نجع حمادي - إلى شظايا تقريبا، ولكن النقطة التي يشير إليها المؤلف واضحة بما يكفي:

«الحمقى، يعتقدون في قرارة قلوبهم أنهم لو اعترفوا بألسنتهم فقط بأنهم مسيحيون بدون أن تكون لهم القوة، وقدموا أنفسهم للموت دون أن يعلموا إلى أين يذهبون أو من هو المسيح، معتقدين أنهم

من غير المرجح أن يزعزع «إنجيل يهوذا» إيمان العديد من المسيحيين في الرواية التقليدية لخيانة وصلب عيسى (عليه السلام)، ولكنه يطرح أمامنا فكرا معقدا عن العلاقة بين الرب والشر

سيعيشون بينما هم في الحقيقة على خطأ، ويسارعون بتقديم أنفسهم إلى المسئولين والسلطات».

ربما يقصد بالمسئولين والسلطات المشار إليهم هنا الإمبراطورية الرومانية، أو قد يكونون قوى شيطانية تحكم سيطرتها على العالم. وبينما لا نعرف الكثير عمن كتب وقرأ هذا النص، فمن المرجح أنهم آمنوا أن الالتزام الروحاني هو الأهم. وعلى نفس المنوال الذي نصح به «بولس» الكورنثيين (نسبة إلى مدينة كورينث باليونان) أنه لا مانع من أكل اللحم المقدم كقربان للآلهة الوثنية لأنها في الحقيقة ليس لها وجود، فربما شعر هؤلاء المسيحيون أن الإنكار العلني لمعتقداتهم والمشاركة في طقوس القرابين لم تكن خيانة طالما حافظ المرء في باطنه على التزامه الشخصي بالدين المسيحي.

يبدو أن «إنجيل يهوذا» يعبر عن توجه مشابه بخصوص الاستشهاد. ولكن بدلا من انتقاد الشهداء أنفسهم فإنه يلوم الأساقفة ضمنيا باعتبارهم كهنة أشرارا يتضرعون إلى عيسى (عليه السلام) ومع ذلك يسلمون أتباعهم كحيوانات عجماء إلى مذبح إله زائف. وكما في المشهد الأول تماما، والذي يضحك فيه عيسى (عليه السلام) لأن الحواريين يؤدون طقوس صلاة الشكر إلى الإله الخطأ، فهو هنا أيضا ينتقدهم، كما ينتقد - تلميحا - من سار على نهجهم من الأساقفة بسبب قصور فهمهم لما يريده الإله الحقيقي:

«لقد قيل لأجناس البشر: انظروا، لقد تلقى الله قرابينكم من خلال أيدي القساوسة، أي من خلال خدم الإله الخطأ. ولكن الله - رب كل العالمين - هو الذي يأمر بمحاكمتهم في الأيام الأخيرة».

يجب النظر إلى ذلك الانتقاد للسلطات البابوية باعتباره مناقضا لتضحية عيسى (عليه السلام) الكبرى. وكما سنرى فإن أهم ما في «إنجيل يهوذا» هو تكليف عيسى (عليه السلام) الخاص له بـ «التضحية بذلك الرجل الذي يحملني». وبمعنى آخر أن يقدم الجزء البشري من عيسى (عليه السلام) إلى الموت. ومن خلال تصوير القساوسة الأشرار وتضحياتهم الزائفة، يشير يهوذا ضمنيا إلى مثالية تضحية المسيح. بل إنه بمقارنة القساوسة الذين ظهروا في رؤيا الحواريين - تلميحا - مع زعماء الكنيسة البابوية، فإنه يوجه بعض الملاحظات البلاغية المعادية لليهود -



سوف يطرد يهوذا من مجتمع الاثني عشر، ولكنه في النهاية سوف ينضم إلى الجنس المقدس ويحكم الجميع بمن فيهم خصومه السابقون

والتي يستخدمها الأساقفة «الأرثوذوكس» أنفسهم - ضد الحواريين. وعادة ما استهجن المسيحيون الأوائل طقوس القرابين اليهودية التقليدية باعتبارها جسدية أكثر من كونها روحانية، وجادلوا بأن موت عيسى (عليه السلام) قد نسخ ذلك. وعلى سبيل المثال ورد في «الرسالة إلى العبرانيين» في «العهد الجديد»:

«كان دم الثيران والتيوس يرش على المنجسين، مع رماد عجلة محروقة، فيصيرون طاهرين طهارة جسدية. فكم بالأحرى دم المسيح الذي قدم نفسه لله بروح أزلي ذبيحة لا عيب فيها، يطهر ضمائرنا من الأعمال الميتة لنعبد الله الحي» (الرسالة إلى العبرانيين ٩: ١٣-١٤).

وقد طور المسيحيون اللاحقون - مثل «ميليتو Melito» أسقف «سارديس Sardis» (عاصمة مملكة ليديا Lydia) في القرن الثاني الميلادي - تلك الأفكار، مجادلين بأن التضحيات التي قام بها اليهود لم تكن سوى رمز لما سوف يتحقق في شخص المسيح.

يبدو أن لاهوت «إنجيل يهوذا» يتبنى تلك المفاهيم، ولكنه يضخم كثيرا من تلميحاتها المنطقية، موحيا بأن الأساقفة منافقون. فهم يبشرون بأن عيسى (عليه السلام) كان آخر التضحيات وأكملها، بينما يحضون أتباعهم - وزوجاتهم وأطفالهم - على أن يقدموا أنفسهم للاستشهاد كقرابين بشرية. ووفقا لـ «إنجيل يهوذا» فإن الأساقفة لا يختلفون أبدا عن الكهنة اليهود الذين ينتقدونهم، فهم يخطئون بعبادة إله متدن بدلا من الله الأعلى الذي لم يعد يطلب تضحية من أي نوع.

وفي المشهد الأخير لم يعد أي من الحواريين الآخرين موجودا، ونصل إلى أهم أحداث الإنجيل، عندما يبوح عيسى (عليه السلام) ليهوذا بأسرار الخلاص والكون. ويطرح هذا الجزء من «إنجيل يهوذا» أصعب التحديات التفسيرية بالنسبة للقارئ المعاصر، حيث يمتلئ بالمراجع الخرافية والكونيات المعقدة. فأولا، تعرض بمزيد من التفاصيل الفكرة المتواترة عن «الجنس المقدس» وعلاقة يهوذا به. فيحكي يهوذا لعيسى (عليه السلام) رؤيا شاهدها:

«شاهدت نفسي في الرؤيا والحواريون الاثني عشر يرجمونني ويضطهدونني بشدة، ثم رأيت منزلا لم تستطع عيناي إدراك حجمه، وفي وسط المنزل كان هنالك حشد. يا معلم، اقبلني أيضا مع هؤلاء».

ويبدو رد عيسى (عليه السلام) محبطا: «لا أحد مولود لرجل فان يستحق دخول المنزل الذي رأيته، لأن هذا هو المكان المخصص للقديسين. انظر، لقد أخبرتك بسر المملكة».

يتلهف يهوذا لسماع ذلك: «يا معلم، هل بذرتي بالتأكيد ليست خاضعة للحكام؟ يؤكد ناشرو «إنجيل يهوذا» في أحد الهوامش أن «بذرة» هنا تشير إلى «الومضة المقدسة داخلنا»، ولكن هذا التفسير غير ضروري. إن تعبير «ومضة مقدسة» الذي يظهر مرارا وتكرارا في تعقيب «إيرمان» لم يظهر مرة واحدة في «إنجيل يهوذا» نفسه. ومن الطبيعي أكثر أن تفهم كلمة «بذرة» في سياقها المعتاد لذرية يهوذا أو البذرة التي أتى منها. ويبدو أن سؤال يهوذا هو عنه وعن ذريته وهل سيخضعون للقوى الشيطانية التي تحكم سيطرتها على العالم. يجيبه عيسى (عليه السلام):

«سوف تصبح الحواري الثالث عشر، وسوف تلعنك باقي الأجناس، وسوف تحكمهم. وفي الأيام الأخيرة سوف يدينون ارتقاءك إلى الجنس المقدس».

سوف يطرد يهوذا من مجتمع الاثني عشر. ولكنه في النهاية سوف ينضم إلى الجنس المقدس ويحكم الجميع بمن فيهم خصومه السابقون.

عند تلك النقطة يصبح عيسى (عليه السلام) جاهزا ليكشف ليهوذا عن أخطر أسرار الحياة. يخبره كيف أن الإله الحق - المسمى بالروح العظيمة غير المرئية - خلق الكون عبر سلسلة من انبثاقات الضوء والملائكة والتي تضاعفت تعد ذلك بسرعة هائلة. قد يبدو كل ذلك للقارئ المعاصر عويصا ومحيرا، ولكن قارئا قديما ملما بعلم الفلك والعلوم الإغريقية الأخرى سوف يفهمه كتفسير لوجود السماوات في انسجام وتوازن عددي مثالي. يقول عيسى (عليه السلام) أن أحد الكائنات الملائكية خلقت شخصية تسمى «أداماس Adamas». و«أداماس» السماوي هذا هو الذي سيخلق جنس «سيث Seth» وهو الجنس المقدس الذي طالما سمعنا عنه في هذا النص.

إن الإشارة إلى جنس «سيث» في اليهودية القديمة والمسيحية تعني رمزيا الانتماء لعضوية جماعة الصالحين التابعين لله والمنحدرين من «سيث»

إن التفكير بأن الاستشهاديين - أيام الرومان - كانوا يشاركون عيسى (عليه السلام) في آلامه، كان يجعل المعاناة شيئا ليس فقط محتملا بل مرغوبا أيضا

الابن الصالح لآدم وحواء الذي - كما يخبرنا «جينيسيس Genesis» - منحهما الله إياه عوضا عن «هابيل Abel» الذي قتله قابيل. وحيث إن من المعتقد أن جنس «سيث» كان موجودا في السابق في الممالك السماوية، فإن ذلك يعني أن كل من ينتمي لهذا الجنس على الأرض توجد منازلهم الحقيقية في الجنة.

وعند تلك النقطة يعرف «إنجيل يهوذا» القارئ بمملكة أخرى أسفل السماوات تسمى «مملكة الفوضى والعالم السفلي». ويقع عالمنا في تلك المملكة. وتستدعي قوة سماوية الملاكين «نيبرو Nebro» و«ساكلاس Saklas» كي يحكماه. وهذان الملاكان هما اللذان سيخلقان الأجساد المادية لآدم وحواء مستخدمين في ذلك هيئة «أداماس» كرسم تصميمي. ولكن بينما يقوم هذان الكائنان الأدنيان بخلق الجسدين البشريين، فإن الله غير المرئي - كما يفسر «إنجيل يهوذا» - هو الذي يمنحهما الروح والحياة.

ومن منطلق اعتقاده المسبق بخرافة «الغنوسطية» التي تقضي بأن الخالق شرير، يفترض «إيرمان» - في «إنجيل يهوذا» - أن عالمنا هو من صنع الملاكين المتدنيين «نيبرو» و«ساكلاس». ولكن الواقع أن «إنجيل يهوذا» يقدم «مملكة الفوضى والعالم السفلي» كما لو كانت موجودة على الدوام. إن «نيبرو» و«ساكلاس» لا يخلقان الفوضى ولكنهما معينان من قبل الله كي يسيطرا عليها، كنوع من العناية الإلهية التي تنشر النظام في أنحاء الكون. ومع ذلك - وكما يؤكد «إيرمان» - فإن «إنجيل يهوذا» يقدم صورة سلبية لحكام الكون، على الرغم من أنهم مفوضون من قبل الله. يجيء وصف وجه «نيبرو» بأنه «يتقيأ نارا» وأن «مظهره ملوث بالدماء». والأكثر من ذلك أن اسمه - كما يقال لنا - يعني «المتمرد». ولكن فكرة أن قوى ملائكية متمردة تحكم العالم ليست غريبة تماما في اللاهوت الغنوسطي المزعوم. فعلى سبيل المثال، يصف «إنجيل يهوذا» الشيطان بأنه «أمير هذا العالم». وتعلن الرسالة إلى مؤمني أفسس «Ephesians» «فإن حربنا ليست ضد ذوي اللحم والدم، بل ضد الرئاسات، ضد السلطات، ضد أسياد العالم حكام هذا الظلام» (الرسالة إلى مؤمني أفسس ٦: ١٢). ومثل الشيطان الذي يخبرنا «إنجيل لوقا» أن عيسى (عليه السلام) رآه «يهوي من السماء مثل البرق» (إنجيل لوقا ١٠: ١٨)، فإن شخصيتي «نيبرو» و«ساكلاس» تمنحان مؤلف «إنجيل يهوذا» وسيلة لتفسير الشر في العالم بأنه مستقل عن الله الكامل و- مع ذلك - خاضع له تماما في الوقت نفسه.

نستطيع عندما نأخذ في الاعتبار كثافة وتفاصيل التصوير الكوني في هذا النص، أن نفهم لماذا وجده «آدم جوبنيك Adam Gopnik»، المحرر بمجلة «نيويوركر New Yorker» غير جذاب، وذلك في تقرير حديث:

إن «إنجيل يهوذا» يحول المسيحية إلى عبادة غامضة ولكنه يجردها من مضمونها الأخلاقي. وفي إحدى المراحل يصف عيسى (عليه السلام) ليهوذا النظام شديد البيروقراطية للمملكة الفانية معددا المئات من الأجرام السماوية. إن رسالة عيسى (عليه السلام) في الإنجيل الجديد هي خارقة للطبيعة تماما. ليس عليك أن تحب جارك، فقط ابحث عن نجمك (الـ «نيويوركر»، ١٧ أبريل ٢٠٠٦).

إن «جوبنيك» محق في أن إنجيل يهوذا» مختلف تماما عن تلك الأناجيل الموجودة في اللائحة المعتمدة لأسفار الكتاب المقدس. وكما أشار «جوبنيك» نفسه فإن «يهوذا» ليس إنجيلا بالمعنى الذي أصبحنا نفهم به هذا المصطلح، كراوية لحياة عيسى (عليه السلام) على الأرض، ولكنه يتخذ حدثا خاصا من القصة المألوفة ويستكشف مضمونه. ليس من اليسير أن تكسب الأساطير الكونية المحيرة في تلك النصوص تعاطف البعض منا ممن اعتادوا المسيحية الدنيوية للكلاف والراعي والحكايات الرمزية ومعجزات شفاء الفقراء، ولكن تلك الأساطير كانت جزءا هاما من الصراع للإجابة على السؤال العسير الباقي دائما .....من أين يأتي الشر؟

إن الكيفية التي يجعل بها هذا الإنجيل قراءه يفهمون أنفسهم أمر معقد. إن لاهوته بالنسبة للخير والشر بعيد عن الثنائية البسيطة لكراهية العالم. فعلى سبيل المثال يمكن للمرء أن يجادل بأن «إنجيل يهوذا» يطرح كونا مختلفا قليلا جدا عن «إنجيل يوحنا» في «العهد الجديد» بما فيه من صور صارخة للظلام والضوء، والله ضد الشيطان. إن «إنجيل يهوذا» يعلم قراءه أن خلقهم جاء على يد ملائكة سفليين، ولكن في صورة مقدسة للإنسانية المثالية، وأن لديهم القدرة على إصلاح ذواتهم السماوية الأصيلة، وأيضا القدرة على الموت دون إدراك ماهيتهم حقا. إن الخلاص في هذا النص مرتبط بالتأكيد بالمعرفة والوحي، ولكنه أيضا مسألة أخلاق. وفي الحقيقة، يوضح يهوذا منذ البداية أن رسالة عيسى (عليه السلام) على الأرض هي إنقاذ البشرية لأن «البعض كان يسير في طريق الصلاح بينما آخرون يسيرون في طريق الخطيئة». ويتم انتقاء أفعال معينة من خلال «إنجيل يهوذا» باعتبارها غير أخلاقية، بما في ذلك القتل والشذوذ الجنسي والممارسة غير السليمة للشعائر وإقرار الاستشهاد. بل إن علينا جميعا أن نطمح للانتماء إلى جنس يوصف دائما بأنه تقي أو مقدس (وليس حكيما أو «غنوسطي»).

وبعد الانتهاء من إطلاع يهوذا على أسرار الكون، يعود عيسى (عليه السلام) إلى فكرة التضحية، مدينا مرة أخرى على ما يبدو في سطور قليلة مقروءة بالكاد أولئك الذين يقدمون القرابين إلى «ساكلاس» حاكم الكون. ثم يكلف يهوذا في النهاية بمهمته الخاصة: «ولكنك أنت نفسك ستكون أعظم منهم لأنك ستضحي بالرجل الذي يحملني». ويبدو من الغريب إنكار مغزى تلك التضحية والانصراف عنها كما يفعل «إيرمان»: «من وجهة نظر «العهد الجديد»، فإن موت عيسى (عليه السلام) كان مهما جدا للخلاص، على عكس «إنجيل يهوذا»... بالنسبة لـ «إيرمان»، فإن خلو «إنجيل يهوذا» من مشهد صلب المسيح يوضح أن موت عيسى (عليه السلام) لم يكن محوريا في لاهوت يهوذا. ولكن عندما نأخذ في الاعتبار أن النص بكامله يدور حول تفسير الأحداث التي أدت إلى موت عيسى (عليه السلام)، فإن هذا الإغفال تفسره بصورة مقنعة حقيقة أن أحداث صلب المسيح يفترض أنها أصبحت مألوفة بالفعل، وأن مؤلف «إنجيل يهوذا» لم يشأ أن يشكك بها. والذي كان يهتم بنقله لقرائه هو تفسير مختلف لكيفية وأسباب صلب المسيح.

ولسوء الحظ فإن النص عند تلك النقطة يصبح متشظيا بصورة محبطة. ولكن كلمات عيسى (عليه السلام) الأخيرة ليهوذا كانت مقروءة:

«وسوف ترفع صورة الجنس العظيم لآدم، لأن هذا الجنس كان موجودا في الممالك الخالدة قبل السماء والأرض والملائكة. انظر، لقد أخبرتك بكل شيء. ارفع عينيك وشاهد السحاب والضوء بداخله والنجوم المحيطة به. والنجم الذي يقود الطريق، هذا هو نجمك».

إن تلك السطور المبهمة توحي بأن ما يعتمد على أفعال يهوذا هو أكثر من مجرد عودة عيسى (عليه السلام) إلى المملكة السماوية. فخلاص البشرية هو بالفعل محل خطر. إن نجم يهوذا سوف يقود باقي النجوم أو الأرواح إلى السحاب المضيء حيث يعيش «أداماس» السماوي وجنسه المقدس. ويقبل يهوذا مهمته المقدسة: «لقد رفع (يهوذا) عينيه وشاهد السحاب المضيء ودخل فيه».

والآن بعد توضيح كل النقاط الهامة، يغير «إنجيل يهوذا» من نبرته فجأة لينتهي بالسطور المختصرة والمملة - نسبيا - التالية:

«لقد تذمر كبار قساوستهم لأنه (عيسى عليه السلام) ذهب إلى غرفة الضيافة لأداء صلاته. ولكن بعض النساخ كانوا هناك يراقبون بحرص كي يمسكوا به أثناء الصلاة، لأنهم كانوا يخشون الشعب حيث كان الجميع يعتبرونه نبيا».

«اقتربوا من يهوذا وقالوا له: «ماذا تفعل هنا؟، أنت حواري عيسى (عليه السلام)».

«أجابهم يهوذا بما يرضيهم. وتلقى بعض المال وسلمه (عيسى عليه السلام) إليهم».

«لقد عاد بنا النص بفظاظة إلى منطقة السرد الخاصة بالأناجيل الكنسية، ولكن هذا المشهد الذي كان مألوفا في السابق لن يبدو أبدا كما كان مرة ثانية بعد أن شهدنا رؤية يهوذا».

من غير المرجح أن يزعزع «إنجيل يهوذا» إيمان العديد من المسيحيين في الرواية التقليدية لخيانة وصلب عيسى (عليه السلام)، ولكنه يطرح أمامنا فكرا معقدا عن العلاقة بين الله والشر، وهو فكر ربما أوحت به تجربة شخصية أو فضول فلسفي. فرغم كل شيء، فإن تجربة التلبس بشيطان، والتي ربما تعرض لها المؤلف، قد تؤدي - وهذا مفهوم - بأحد المسيحيين الأوائل إلى إعادة التفكير في مشكلة الشر. أما الإجابات التي أتى بها المؤلف فمصدرها الرئيسي كليشيهات الثنائية الغنوسطية. وفي الحقيقة، وبعودة يهوذا إلى القطيع، فإن هذا النص ينتهي بالفعل بترويض الشر، على الأقل بالتلميح إلى أن الخيانة العظمى يمكن أن تتحول إلى عمل من أعمال الطاعة التقية. أما إلى أي حد نجد ذلك التفسير مقنعا ومرضيا فتلك قضية أخرى تماما. وفي النهاية، اقتباسا من أغنية «بوب ديلان Bob Dylan»، فالأمر متروك لنا لنقرر «ما إذا كان الرب يقف في صف يهوذا الإسخريوطي». ■

اليقين الإسلامي والمعرفة الغربية

محمد سعيد رمضان البوطي

القول بالاستغناء العملى عن المعرفة النظرية، وهم يبعث الأخذ به على قدر كبير من الحيرة، ويزج صاحبه فى الشعور بالوحشة، تجاه التعامل مع الحياة، ويلغى الرابطة القائمة بين العلوم الإنسانية والعلوم المادية الخاضعة للتجربة

لعل كلمة «المعرفة» من أكثر الكلمات دوراناً وتداولاً فيما نقرؤه من الكتابات الغربية المنبثقة عن الرؤية الفلسفية، أو المنبثقة من علم الاجتماع والتربية.

فى حين أن كلمة «اليقين» بالمقابل، أقل ما تحفل به هذه الدراسات الغربية، وأقل الكلمات وروداً فيها واستعمالاً لها. هذا مع العلم بأن المعرفة التامة بمعناها الذاتى لا تتحقق بدون يقين.

والفلسفة الغربية تعتذر عن هذه المفارقة المرفوضة (علمياً) بما تؤكده، من أنه لا توجد فى الكون حقيقة مطلقة، أى غير مشروطة، بل كل ما يعبر عنه بالحقيقة فإنما هو حقيقة نسبية، خاضعة للتغير تحت سلطان الزمان والمكان، وما يسميه المناطقة بالوحدات الثمانى. وهذا ما يستوجب انفصال المعرفة عن اليقين فى أكثر الأحيان.

إن المعرفة - فيما تراه الفلسفة الغربية - ثمرة المعاناة التى يبذلها العقل، على طريق الإدراك. والشأن فيها أن تكون متقاصرة دائماً عن بلوغ درجة اليقين، للسبب المذكور. ومن ثم فإن اللزوم ليس موجوداً بالضرورة بين المعرفة واليقين.

وحتى فى القضايا الحسية التى يتم إدراكها بالموازين الرياضية المحددة، قلما يرقى الإدراك فيها إلى درجة اليقين. لأنها تظل خاضعة للتطور والتبدل.

من أجل ذلك لا تفتأ الدراسات الغربية اليوم، لا سيما الاجتماعية منها، تتجه بالنقد إلى الفلسفة اليونانية القديمة، المادية منها والمثالية، بسبب أنها (أى الدراسات الغربية) لا تتجاوز أفكاراً معرفية نظرية، وأنها تظل تتحرك فى ساحة الاحتمالات وضمن درجات الممكن..

وهى - أى الدراسات الغربية اليوم - ترى أن الهبوط عن ذلك المستوى المتعالى فى البحث العقيم، إلى ساحة الأفعال والتجارب المجدية، أولى بالإنسان: هذا الكائن الذى كان ولا يزال تواقاً إلى تحقيق حاجاته الفردية والاجتماعية، مثل إشادة البنيان ونسج الثياب وإقامة الصناعات وإبداع الفنون وتطوير الزراعة. ومما لا ريب فيه أنه لا بد من اتخاذ سبل فكرية وعلمية إليها هى الأخرى. غير أن نجاح هذه السبل رهن بالتجربة الناجحة المحسوسة، وليس متوقفاً على اليقين.

وللتفريق بين السبيل العقلى إلى الأفعال التى يتوقف النجاح فيها على التجربة، والسبيل العقلى الفلسفى إلى اليقين الذى لا جدوى من محاولة الوصول إليه، اصطلحت الدراسات الغربية الحديثة على تسمية الأول منها «علماً»: (Science) وعلى تسمية الثانى «معرفة»: (Knowledge).

ولعل من أبرز الثائرين على المعرفة الفلسفية المتعالية، والداعين إلى الانشغال بالأفعال المهنية والصناعية بدلاً من الانصراف إلى الانفعال الفكرى العقيم، العالم الفلسفى والتربوى (جون ديوى) وكتابه (البحث عن اليقين) خير شاهد على ذلك.

ومن أشد ما ورد فى هذا الكتاب ثورة على الفلسفة التقليدية الكلاسيكية قوله:

«إن الظن بأن القيم غير المستقرة المتقلبة فى العالم الذى نعيش فيه، آمنة أبداً فى عالم أعلى (مما يبرهن عليه العقل ولكن لا يستطيع تجربته) وبأن جميع الخبرات التى تنهزم هنا تنتصر هناك، قد يهب العزاء للمحزون، ولكن ذلك لا يغير واقع الموقف بحال. إن الفصل الذى قام بين النظر والعمل، وما تبع ذلك من استبدال البحث العقلى لبلوغ التوكيد المطلق بالجهد العملى لجعل الحيز أكثر أمناً فى الخبرة، قد حوّل الأنظار وشتت الجهود عن مهمة لو تمت لأفضت إلى نتائج محددة».

«وأعظم مسألة تحقق الأمن المحسوس للقيم، ترجع إلى تكميل «مناهج» العمل. فالنشاط لمجرد النشاط، والسعى الأعمى، لا يخطوان بنا إلى الأمام. وليس تنظيم الظروف التى تعتمد النتائج عليها ممكناً إلا بالعمل.. وإنما يكون ذلك بالعمل الذى يهتدى بالذكاء الذى يحيط بالظروف علماً، ويلاحظ ما فيها من علاقات التتابع. أما القول بأن الفكر، منفصلاً عن العمل، يمكن أن يضمن اليقين الكامل فيما يختص بمنزلة الخير الأقصى، فلا يعين على حل المشكلة الرئيسية الخاصة، بنمو الطرق البصيرة للتنظيم. بل الأولى أن يثبط الجهود التى تبذل فى هذا الاتجاه وترشده»[1]

إذن فإن هذه النظرة تتهم المعرفة، من حيث ذاتها، بالعجز عن بلوغ درجة اليقين، ومن ثم تعلن الاستغناء عنها، وتدعو إلى الاشتغال بما هو أجدى، وهو النشاط الفعلى القائم على التجربة السلوكية.

غير أن الرؤية الإسلامية، تفنّد كلاً من هاتين الفكرتين. فللمعرفة سبيل ميسرة إلى اليقين لو تم السلوك إليه.. وهو الأمر الذى يدل على أن الحقيقة المطلقة موجودة. وإنما الذى يحول دون الوصول إليها الجهل. وبعبارة أدق: الجهل بالمنهج الذى يجب أن يعتمد فى البحث عنها والسير إليها.. ألا ترى أن الإنسان يتعامل مع الحقيقة المطلقة، ربما بدون أن يشعر، فى كثير من القضايا التافهة وربما السخيفة، كمعرفة أن ٢×٢=٤ وأن باريس تقع فى فرنسا، وأن نابليون مات فى اليوم الخامس من أيار عام ١٨١٢ وأن الطيور لها مناقير.. فهذه وأمثالها تدل على أن معارفنا النسبية تنتمى إلى جذور من الحقيقة المطلقة.

وعلى كل حال، فإن القول بالاستغناء العملى عن المعرفة النظرية، وهم يبعث الأخذ به على قدر كبير من الحيرة، ويزج صاحبه فى الشعور بالوحشة، تجاه التعامل مع الحياة، ويلغى الرابطة القائمة بين العلوم الإنسانية والعلوم المادية الخاضعة للتجربة.

ثم إنه ليس مهماً بالنسبة لمن زجَّ به فى مكان غريب، أن يجد أمامه مائدة توافرت عليها أصناف الطعام.. إنما الأهم من ذلك أن يتعرّف على المكان الذى هو فيه، وأن يعلم السبب الذى ساقه إليه وأدخله فيه. وما لم يعلم ذلك، فسيستقر فى نفسه ووعيه أنه سجين فى ذلك المكان.

ولكن كيف السبيل إلى اختراق ظواهر الأمور النسبية إلى المطلق؟

تجيب الرؤية الإسلامية بأن المهم أن نعلم أولاً بأن مصدر الخطأ يكمن فيما يتصوره الباحثون الغربيون من أن الكون ليس إلا ساحة واسعة لحقائق شتى مستقل بعضها عن بعض!.. إن الرؤية الإسلامية لا تقرّ بهذا الذى ذهبت إليه الأفكار الغربية قديماً وحديثاً. بل تقرر وتؤكد أن الوجود الكونى إنما يحتضن حقيقة واحدة. ولكنها ذات جوانب أو أجنحة شتى.. ونقول بعبارة أخرى: إن الوجود الكونى وحدة مترابطة المرافق والأجزاء، فلا تستقيم معرفة أى جزء منه بمعزل عن معرفة الأجزاء الأخرى. إن معرفة أى جزء من هذا الجهاز الكونى، لا يمكن أن تتم إلا ضمن قاعدة واسعة، وإن لم تكن دقيقة، من البصيرة العلمية بالدائرة الكونية كلها. أو بتركيبة الجهاز الكونى من حيث هو.

إن ما تراه من موضوعات المعارف والعلوم المستقلة بعضها عن بعض، ليس فى الواقع إلا أجزاء متراكبة متآلفة فى بناء هذا الهيكل الكونى كله.. إن بينها من التمازج والتداخل والتفاعل ما يجعلك لا تحيط علماً بأى منها إلا على ضوء ما يبصّرك به المجموع الكلى لهذا الهيكل الشامل.. وليست كما قد يُتَوهَم حقائق متناثرة منفك بعضها عن بعض.

وقد علمنا أن بنيان هذا الوجود الكونى، يتألف من أركانه الثلاثة الكبرى، الإنسان والحياة التى يتمتع بها، والموجودات الكثيرة التى تموج من حوله.. فما ثمة فن من الفنون المختلفة، أو علم من العلوم المتنوعة، إلا وهو دائر فى فلك هذه العناصر الثلاثة الكبرى. ومما لا ريب فيه أن هذه العناصر متصلة، متفاعلة، يتقوم كل منها (فى مظهره ووظيفته وآثاره) بالعنصرين الآخرين.

ومن هنا فإن على من أراد أن يتجه إلى دراسة أى من العلوم الكونية، كالفلك والنبات وطبقات الأرض، والتاريخ الطبيعى، أو إلى أى من العلوم المتعلقة بجسم الإنسان أو بإنسانيته، كالطب والتشريح والأجنّة والخلايا الحيوانية، والتاريخ والتربية والأديان، نقول: إن على من أراد أن يتجه إلى شىء من هذه العلوم والمعارف أن يجعل منطلقه إلى ذلك التبصر بالحقيقة الكونية الجامعة التى

تتفرع عنها هذه المعارف والعلوم كلها، والمتمثلة - كما قلنا - في: الإنسان، والكون، والحياة، مع ضرورة التأمل في مظهر العلاقة السارية فيما بينها. وهو المظهر الذي يكشف عن كونها حقيقة واحدة.

إن هذه الضرورة لا تختلف قط عن الضرورة التي يشعر بها ذاك الذي بسط أمامه خارطة، ليعلم موقع بلد أو مجرى نهر أو مسار سلسلة من الجبال.. إن من البداهة بمكان أن عليه قبل كل شيء أن يتصور الرسم الكلي للخارطة، وأن يتبين موقعها من الاتجاهات الفلكية المحيطة بها، وما يتقاسمها من خطوط الطول والعرض.. فإن هو لم يبدأ بذلك، لم تتحقق أي قيمة لتصوراته الجزئية عن تلك الخارطة وما تناثر فوقها من أسماء المدن والأنهر والجبال وإن هو توهمها معرفة وعلماً.

إن شكوى الباحثين الغربيين من أن المعرفة المتعالية التي تبحث في الحقائق الكونية لا توصل أصحابها إلى يقين، مردها إلى أنهم يصرون على أن يتجاهلوا وحدة الكون وصلة ما بين الحقائق الكونية، والرابطة السارية فيما بينها. وإنها لرابطة وثيقة تجعلها تبدو وكأنها فصول متعددة من كتاب ذي موضوع واحد. فما الذي ينبغي أن نتوقعه من باحث عمد على فصل من كتاب، راح يدرسه مفصولاً عن الفصل الذي قبله والذي بعده؟!.. مما لا شك فيه أنه سيعود بمعلومات مضطربة مهزوزة، وفي أفضل الأحوال تظل من تفكيره في مرحلة الشك أو الظن.

على أنهم لو أرادوا أن يصححوا أفكارهم وأن يفترضوا أن ما يتوهمونه حقائق كونية مستقلة بعضها عن بعض، ليست في ذاتها إلا حقيقة كلية واحدة ذات زوايا أو أجنحة متعددة، لن يتبينوا مصداق ذلك، لأن الخارطة الكونية التي تبرز لهم ذلك وتؤكده، غائبة عنهم.. وسأتحدث عن هذه الخارطة الكونية وأعرف بها بعد قليل.

ومما هو جدير بلفت النظر أن الباحثين الغربيين الذين تدفعهم الرغبة إلى أن يصلوا من معارفهم بما يسمونه الحقائق والظواهر الكونية، إلى اليقين، لا يعودون من سعيهم الخائب باللامبالاة التي ينصحهم بها جون ديوي وأمثاله، بحجة أن لهم في الأنشطة العملية التجريبية ما يحقق لهم ثمرات معاشية مجدية، تعيضهم عن تلك البحوث المعرفية العقيمة.. بل إنهم لا يعودون من سعيهم الخائب إلا بالحسرة والوحشة.

ذلك لأنهم يجدون أنفسهم، بعد سعيهم العقيم، من الدنيا التي يتقلبون فيها، أمام لغز يستعصي على العقل فهمه. واللغز الكوني المجهول حله، يفترض العقل فيه احتمالات شتى قد يعود بعضها بل كثير منها على الإنسان بنتائج مشقية وربما مهلكة. إن المجهول، لا سيما المتصل بحياة الإنسان ومعايشه، لا بد أن يقض مضجعه ويبعث في نفسه قدراً كبيراً من الاضطراب، ولسوف يزداد ذلك تأثيراً عليه، ما دام غلاف الجهالة مثبتاً فوقه. ولن يسليه عن ذلك التشاغل بالأنشطة العملية التجريبية.

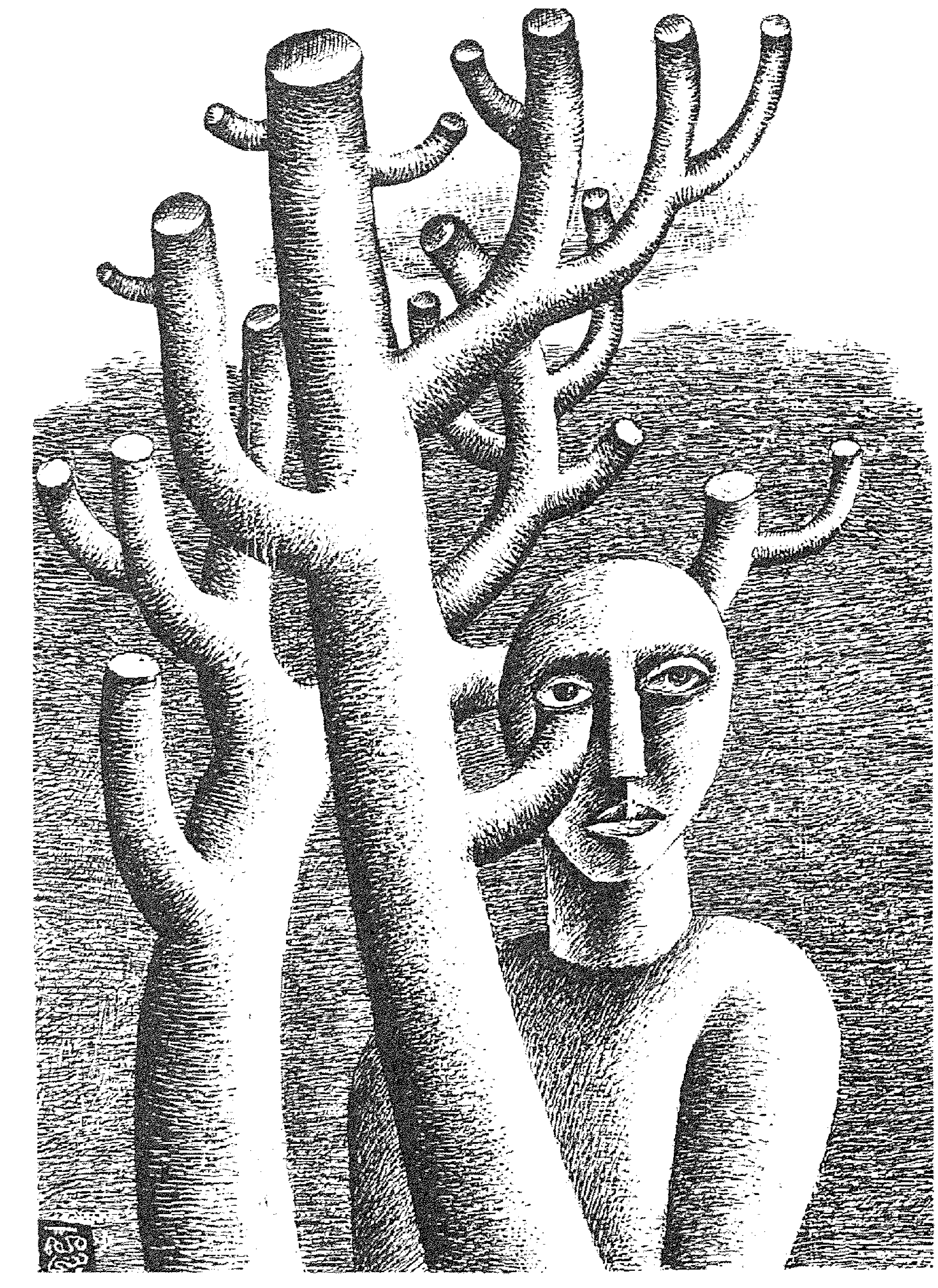
وإليك برهان هذا، متمثلاً في مواقف وكلمات لطائفة من الباحثين، تؤكد أنهم ارتدوا عن رحلة المعرفة إلى مشاعر من الوحشة والأسى، والضيق بالمجهول الذي يحيط بهم.

يقول برتراند رسل في مقدمة كتابه «سيرتي الذاتية» في تحسر وألم:

«قضيت حياتي سعياً إلى ثلاث غايات: الحب، والسلام، والمعرفة. ولقد أتيح لي أن أحقق قدراً كبيراً من الغايتين الأولى والثانية. أما المعرفة فقد عدت منها بأوكس الحظوظ».

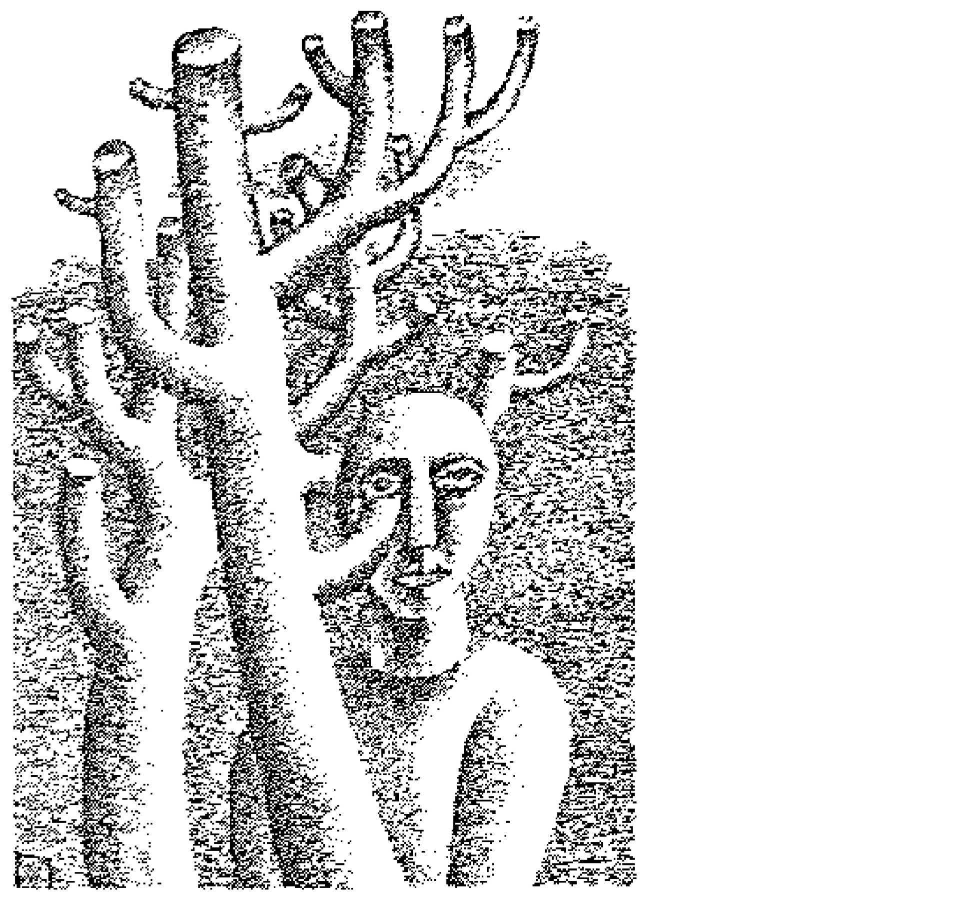
ويروي الكاتب الأمريكي جورج فيرك حواراً جرى بينه وبين صديقه أينشتاين، سأله خلاله عن الموت وحقيقته. ففاجأه أينشتاين بقوله: لا أدري!.. فدهش فيرك من جوابه، وقال له: لا تدري.. وأنت صاحب النظرية النسبية، وصاحب الفضل في تحديد قوانين الفضاء والزمن والجاذبية؟!..

فقال له أينشتاين: أرأيت إلى طفل دخل مكتبة رصفت فيها الكتب بوجه كل من جدرانها الأربعة مرتفعة إلى السقف. ولما سئل الطفل عما يراه، أجاب: هي كتب تحوي علوماً شتى بلغات متعددة.. إنني لا أعرف عن هذا الكون أكثر مما عرفه الطفل عن تلك المكتبة!..



أما انجلز شريك ماركس في وضع استراتيجية المادية الجدلية، فقد اجتاحته حيرة السير إلى المعرفة ثم الرجوع عنها خالي الوفاض إلى حيث لم يجد بداً من القول بأن الأجيال القادمة على الأرجح ستنهمك في تصحيح أخطائنا، لا سيما في شؤون التاريخ والتاريخ الطبيعي. ويقول: «إن الحقائق الأبدية تعاني مأزقاً أشد حراجة، في المجموعات الثلاثة من العلوم، وهي المجموعة التاريخية. وهكذا فإن معرفتنا في مجال التاريخ الإنساني لأشد تخلفاً منها في ميدان الحياة».

ولا تقل حيرة داروين عن حيرة انجلز وأينشتاين. وهو يتحدث عن التاريخ القصصي للإنسان ويدلي بافتراضاته عن أصل الأنواع. فقد كان جوابه لمن ناقشه في بعض ما ذهب إليه من العوامل التي تدخلت بنظره



فى تطوير الإنسان. قوله: «إننا لا ينبغى أن نتوقع العثور على جواب محدد معين على هذا السؤال. إذا عرفنا أننا لا جرم نعجز عن الإجابة عن سؤال أقل من هذا السؤال تعقيداً».

إذن فقد كان العجز المعرفى، ولا يزال، غصة فى صدور هؤلاء الباحثين. لا سيما ذلك العجز المتعلق بمعرفة ذات الإنسان ومبدئه ومصيره، ولم تحملهم هذه الغصة على أن ينفضوا أيديهم أو عقولهم عن هذه المعاناة، وعلى أن يتجهوا بدلاً من ذلك إلى الأنشطة العملية المعيشية القائمة على التجربة بدلاً من اليقين.

أما الآن، فبوسعنا أن نؤكد أن الرؤية الإسلامية لا تعانى من هذه المشكلة، ولا ترى أن ثمة انفكاكاً بين المعرفة واليقين.

إن إدراك الشىء لا يرقى إلى درجة المعرفة (فى المصطلح الإسلامى) إلا إذا أثمر اليقين. ومن ثم فإن بين المعرفة واليقين تلازماً مستمراً. وعندما يقع بينهما الانفصال، تتحول المعرفة عندئذ إلى شك أو ظن.. وهذا هو السبب فى أن المنهج الإسلامى إلى المعرفة لا يفرق إلى اليوم بين مصطلحى المعرفة والعلم. اللهم إلا الفارق اللغوى الذى لا علاقة له بموضوعنا هذا، وهو أن عملية المعرفة لا تكون إلا بعد جهل، فى حين أن العلم قد يكون اكتساباً بعد جهل كعلم الإنسان، وقد يكون حقيقة أزلية كعلم الله. ولذلك لا يجوز أن يوصف الله بالعارف، وإنما يوصف بالعالم.

إن ذخر المعارف الذى يتمتع به تاريخ المعارف والعلوم الإسلامية، يرقى أكثرها إلى درجة اليقين. وهو لا يكتسب اسم المعرفة أو العلم إلا بهذا الشرط. ومن ثم فإنك مهما بحثت، لن تعثر بين علماء المسلمين، الذين ألزموا أنفسهم بالمنهج الإسلامى إلى المعرفة، على من بقيت المعرفة حلماً غير متحقق فى حياتهم، أو عادوا بمشاعر من القلق والاضطراب. بسبب تصورات مهزوزة غامضة إلى شىء من حقائق الكون وقوانينه.

هل تجد فيهم من سئل عن الموت فلاذ من الإجابة عن هذا السؤال بمثل ما قاله أينشتاين؟ أم هل تجد فيهم من وقف أمام كتاب هذا الوجود الكونى وقفة الحائر الذاهل، معترفاً بأنه لم يعد من رحلته فى فجاج المعرفة إلا بأوكس الحظوظ؟

قارن بين قول أينشتاين عن الموت: لا أدرى، وما قاله ابن القيم عن الموت نفسه وكل ما يتعلق به فى كتابه (الروح) ثم قارن بين ما يؤكده انجلز من أن الأجيال الآتية ستصحح الكثير من أوهامه، وما يقوله الإمام الغزالى عن العالم المحيط بالإنسان وعن أحداث المعاد الكونى فى كتابه «إحياء علوم الدين»، أو كل من الإمام الجوينى والرازى وابن تيمية والبيضاوى والعضد الإيجى.. إلخ فلقد كان اليقين أنيس هؤلاء العلماء الأفذاذ فى رحلتهم إلى المعرفة. ولم نعثر على أى كلمات لهم تنبئ عن مشاعر الضيق التى انتابتهم من جراء معرفة تنأى بهم عن بلوغ اليقين.

وهذا لا يعنى أن علماء المسلمين استوعبوا أمور الكون كله علماً. فالمجاهيل التى تحيط بالإنسان أكثر من الموضوعات المكشوفة تحت بصيرته أضعافاً مضاعفة. وجلّ ربنا القائل: «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» ولكنا نعنى أن كل ما هو مثبت ومعرّف به فى الخارطة الكونية التى وضعها الله تحت أبصارنا وبصائرنا، يملك الإنسان سبيلاً إلى معرفته ومن ثم إلى اليقين به، إن هو سلك السبيل القويم إلى ذلك.

ولكن كيف تحقق فى المنهج الإسلامى إلى المعرفة هذا اليقين الذى أعوز المنهج الغربىَ بلوغه؟ وما هى الخارطة الكونية التى استعان بها المسلمون للمعرفة، فى حين أن الغربيين لم يعثروا عليها؟

والجواب أولاً: هو ما قد ذكرته لك من قبل، من أن كل من أراد أن يتجه إلى دراسة فرع من فروع المعرفة الكونية الكثيرة، لابدّ أن يتبين أولاً الجذع الذى تنبثق منه هذه الفروع كلها، ألا وهو الحقيقة الكونية المؤلفة من مجموعة: الإنسان والكون والحياة، تماماً كشأن من بسط أمامه خارطة يستبين فيها موقع مدينة أو دولة أو سلسلة جبال.. لا بد أن يتعرف على الخارطة أولاً.

ثم إن على من يريد أن يتخصص فى دراسة فرع من فروع المعارف الكونية التى ألمحنا إليها، أن يبنى دراسته المعمقة على ثقافة علمية عامة تبصره بعلاقة العلوم المختلفة، بعضها ببعض، وبكيفية تسلسل المعرفة من علاقة ما بينها.

ما من ريب فى أن من يبدأ فيبنى دراسته المعمقة على هذه الثقافة العامة التى تبصره بعلاقة المعارف الكونية بعضها ببعض، سيرى أن البنيان الكونى أشبه ما يكون بفصول متوالية مترابطة من كتاب ذى موضوع واحد.. وتلك هى الحقيقة التى يعبر عنها العلماء بقولهم: إن الكون وحدة متآلفة متناسقة تنطق بوحدة خالقه.

فإذا سار الباحث عن المعرفة ملتزماً هذا النهج، وتحقق بهذا الشرط، فلن تبقى آمال المعرفة واليقين غصة وراء صدره، أو أمنية متأبية على التحقيق فى حياته، بل يتاح له حينئذ أن يكشف عن الحقيقة سترها، وأن يتعرف على هذا الوجود الكونى الذى يعيش فى فلكه، معرفة قد تكون غير عميقة، ولكنها تكون صحيحة تبعث الطمأنينة فى نفسه بكل جزم ويقين.

إذن فقد تبصر العلماء المسلمون بهذه الحقيقة، إذ أتيح لهم أن يتعرفوا على الجذع الكونى الذى تنبثق منه فروع المعارف كلها، فى حين لم يتح ذلك للباحثين الغربيين، فكان شأنهم كمن قفز إلى دراسة الجملة العصبية فى الإنسان فوق المرحلة التأسيسية التى لا بد منها وهى دراسة التشريح.

ولكن ما هو الجذع الكونى لفروع المعارف المختلفة، ذاك الذى عثر عليه المسلمون فتعرفوا عليه، وانطلقوا منه، فى حين لم يتح للغربيين العثور عليه والاستفادة منه؟

إنه القرآن!.. هو الخارطة الكونية التى تضع بين يدى الإنسان خلاصة العالم: صوره وأحداثه وصلة ما بين جهاته وأجزائه، جامعاً بين أزمنة الماضى والحاضر والمستقبل.

ولسوء حظ الغربيين فقد كان القرآن (هذه الخارطة الكونية الجامعة) بعيداً عن أنظارهم واهتماماتهم، وإنما أقصد أولئك الذين كانوا ولا يزالون يبحثون عن اليقين دون أن يجدوه.

ولنتأمل الآن كيف تتحقق المعرفة السليمة التى تبعث على اليقين العقلى والطمأنينة النفسية، لدى الرجوع أولاً إلى خارطة الكون «القرآن» والمفروض أنك سبق أن تعرفت عليه ووقفت على الدلائل القاطعة بأنه يستحيل أن يكون كلام مخلوق، وبأنه لا يمكن إلا أن يكون كلام الخالق.

يبدأ القرآن فيتحدث للإنسان عن ذاته، ويعرفه على مبدئه ومزاياه الكونية ومنتهاه، وذلك نظراً إلى أنه - بما يتمتع به من عقل ورشد - هو الأداة الأولى فى عملية الإدراك والفهم، وهو العنصر الأول من عناصر الحضارة الإنسانية.. وهى البداءة التى تجعل المتدبر للقرآن يقف طويلاً أمام مرآة ذاته، يكتشف مظاهر تكريم الله له وتفضيله على كثير من الخلائق الأخرى. ولكنه يكتشف أيضاً ما هو أهم من ذلك، وهو عبوديته ومملوكيته لله - عز وجل - فى كل الأحوال والتقلبات.

ثم إن القرآن يقود المقبل إليه والمتدبر له إلى الوقوف على حقيقة أخرى ذات أهمية كبرى ألا وهى الحياة التى تسرى فى كيان الإنسان. يحدثه القرآن عن مصدرها وقيمتها ودور الإنسان فى رعايتها والاهتمام بها، وعن الحالات التى يجب عليه فيها أن يكون ضنيناً بها، والحالات التى ينبغى أن يضحى فيها بها.

ثم يأتى دور الحديث عن المكونات الهائلة الكثيرة التى تحيط بالإنسان مسخرة له، فيحدثك القرآن عن مظاهر ربوبية الله وحكمته ووحدانيته فيها، ويلفت نظرك إلى الوظائف التى أقامها الله عليها لخدمة الإنسان وتحقيق رغائبه، وإلى العلاقة السارية ما بينها وبين الإنسان والشروط التى تؤديها لاستمرار حياته وحمايتها من أى سوء.

ثم إن القرآن يؤكد لك أن بنيان هذا الوجود الكونى، إنما نهض على دعامة من خلق الله له ابتداء، ودعامة أخرى من رعايته دواماً، وأن محور هذا البنيان إنما هو الإنسان، وأن المهمة التى أنيطت به هى عمارة الأرض وإقامة مجتمع إنسانى سليم عليها، تشرق فيه العدالة وتشيع فى أنحائه الرحمة.. ولما كان الإنسان عاجزاً عن تحقيق ذلك استقلالاً، فقد أنجده الله بتعاليم لإقامة موازين العدل، ولاستثارة أسباب المحبة والتراحم.. وقد شاء جل جلاله أن يلزم الناس بذلك إلزاماً، وأن يشدهم إليه بعوامل الترهيب والترغيب..

لقد تمثل إذن الهيكل الكلى للكون أمام الإنسان المقبل بتدبر إلى القرآن، كما تتمثل شجرة باسقة عظيمة أمام عينيه عندما ينظر إليها، قائمة بجذعها على

أرض مستوية، ليس بينه وبينها حجاب أو سحاب.

نعم.. هكذا يتمثل الوجود الكونى كله أمام بصيرة كل من أقبل يصغى إلى مناجاة القرآن وتعاليمه، فاتحاً له عين بصيرته، معرضاً عن مشوشات عصبيته. فإذا انطلق من هذه الصورة الكلية إلى ما يريد أن يناله من مختلف العلوم والمعارف الكونية، لم يحجبه عنها غبش الجهالة بها والاستيحاش منها، ووجد عقله بما هو مسخر له منها، أمام أسرار مكشوفة وحجب مرفوعة، فإذا تجاوزها إلى ما وراء ذلك من الغيوب التى طوى الله عن الإنسان سبيل العلم بها، سلّم الأمر للخالق الحكيم، وعاد من جهله بها راضى النفس مطمئن البال.

إن فرق ما بين الرؤية الإسلامية من خلال القرآن إلى الكون، ورؤية الفكر الغربى له، إن الرؤية القرآنية تضع الرائى من الكون أمام جهاز مؤلف من أجزاء متراكبة متناسقة يظل التفاعل البنّاء سارياً فيما بينها، ومن ثم فهو يدرك قيمة الجزء منها بما يتبينه من الأجزاء الأخرى، ويكتشف كمال كل منها بما يراه من الارتباط الوثيق السارى فيما بينها. ثم يعود فيقف من القرآن أمام مرآة ذاته، وقد تبين هويته، ووظيفته التى أقامه الله عليها، ومكانته التى يتبوؤها من الكون كله.

أما الرؤية الغربية، فهى تضع الرائى أمام نثار من ظواهر كونية شتى، لا يدرى من أين جاءت وكيف انبثقت. ومهما تأمل فيها فإنه لن يرى فى عمق ما ينظر إليه، إلا ساحة وجودية مجهولة الآفاق، سداها ولحمتها نسيج من الألغاز..

ومن ثم فإن الشأن فيه عندما يتجه بفكره إلى عملية المعرفة والعلم، أن يلتقط من تلك الظواهر الكونية المتناثرة أمامه (فيما يبدو له) ما يحب أن يدرسه ويسبر غوره، دون أن يدرك أنه إنما حصر نفسه بذلك ضمن مربع فى شبكة كونية متواصلة الخيوط والحلقات. فهو كلما أراد أن يزداد فى مربعه الذى حصر نفسه فيه غوصاً وعمقاً، اصطدم بمزيد من العلاقات المجهولة، والمشكلات الناشئة من ظاهرة الحركة الكونية الواحدة ووظائف الجهاز الكونى المنعكس على النقطة التى حصر نفسه فيها.

وينبغى أن أذكّرك هنا بالقاعدة العلمية القائلة: إن دراسة ٢٠٪ من كتلة ذات أجزاء متراكبة متفاعلة، ليس من شأنها أن تؤدى بالضرورة إلى معرفة ٢٠٪ من حقائق تلك الكتلة. بل إن مثل هذه الدراسة العقيمة، قد لا تؤدى إلى معرفة حتى ١٪ من تلك الحقائق، أو ربما توصل صاحبها إلى مجموعة تصورات مشوشة خاطئة عن مجموع تلك الكتلة.



وأعود إلى داروين، الذى استشهدت بكلامه قبل قليل.. إنه - كما نعلم- بذل جهداً شاقاً فى دراسته لأصل الأنواع، ومنها الإنسان، آملاً أن يحوّل خياله عن أصل الإنسان إلى حقيقة علمية ثابتة. ولكنه اصطدم فى سعيه إلى ذلك بعقبات شتى. بل بوسعك أن تلاحظ أنه كلما حاول أن يزداد فى عرض نظريته عمقاً وسبراً لغور الموضوع ازدادت فى وجهه المشكلات ظهوراً، وتجلت أمامه عوائق ذات صلة بموضوعات أخرى لم يكن حافلاً بها أو متنبهاً إليها، حتى ألجأته فى أكثر من موضع إلى أن يعتذر عن عجزه عن الإجابة عن المشكلات المستعصية التى راحت تتزايد أمامه.. بل أكد أنه يعجز عن الإجابة عن مشكلات أقل منها تعقيداً.

ولكن هذا الموضوع لم يؤرق أذهان العلماء المسلمين، ولم يستأثر باهتمامهم، ذلك لأن القرآن وضعهم أمام أصل الإنسان ونشأته، عندما وضعهم من الحديث عنه وعن كل ما يتعلق به، أمام مرآة الذات، وكلٍ من مبدئه ومنتهاه. ثم زاد يقينهم بذلك رسوخاً، إذ قال عن الأخيلة والأوهام التى أرهق دارون وأمثاله عقولهم وأنفسهم بها «ما أَشْهدتُهم خلْقَ السماواتِ والأرضِ، ولا خلق أنفسهم، وما كنت متخذ المضلين عضداً». (الكهف:٥١).

بوسعك الآن، بعد أن تبينت الثغرات الكبيرة، فى منهج «المعرفة» عند الغربيين، وهى الثغرات التى يتنزه عنها منهج المعرفة فى القرآن، أن تعلم المراد بقوله تعالى: «ما فرطنا فى الكتاب من شىء».(الأنعام:٣٨) وأنه ليس كما يتوهم السطحيون من أنه حوى العلوم والمعارف كلها، وإنما المعنى أن القرآن قد حوى أصول المعارف كلها عندما وضع الإنسان أمام الرسم البيانى الشامل للوجود الكونى بأسره، إلى درجة أن اكتشاف أى حقيقة علمية لا يكتسب قيمته العلمية الصحيحة إلا إذا تم ضمن تصور سليم لذلك الرسم البيانى.

وبوسعك الآن أن تتبين الجواب عن الإشكال الذى يردده الكثير من الناس، عندما يقفون على قوله تعالى: «إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ» (فاطر:٢٨) وهو قولهم: إن الدنيا مليئة اليوم بالعلماء الأفذاذ، ومع ذلك فإن الكثيرين منهم لا يؤمنون بالله، فضلاً عن مخافته. والجواب أن هؤلاء ليسوا (كما قد تبين الآن) علماء بالمعنى الحقيقى للكلمة.. وإنما هم أولئك الذين أعلنوا إعراضهم عن البحث عن اليقين فى قضايا الكون، واستبدلوا بذلك الأنشطة العملية المهنيّة القائمة على التجربة.. وهى ليست علماً إلا بالمصطلح الغربى الحديث.. فإذا طاب لهم أن يتجهوا بوسائل المعرفة عندهم إلى التبصر بحقيقة من الحقائق الكونية، وضعوا المكبرات على رقعة صغيرة من قلب الخارطة الكبيرة، ثم حملقوا فى تلك الرقعة، حيث الحقيقة التى يبحثون عنها، وهم عن الخارطة ذاتها غافلون!.. بل إنهم نموذج لأولئك الذين يحصرون أنظارهم من الجسم الإنسانى كله فى الكبد وحده، وهم عن مجموع جهازه العضوى معرضون.

ومن أجلى الأدلة على ذلك أنهم أنفسهم، يعترفون، بعد كل ما يستحصدونه من المعارف والعلوم، بأنهم يعانون من وطأة الجهل وأنهم بحاجة ماسة إلى المعرفة.. وبأنهم لا يجدون فى معارفهم طمأنينة يركنون إليها، مهما دقت وتعمقت، بل يظلون نهباً لدوّامة حيرة تطوف بأذهانهم وأنفسهم. وقد ذكرت لك نماذج من اعترافاتهم، من قبل.

كما أن من اليسير عليك الآن أن تعلم الجواب عن إشكال آخر ينبثق فى أذهان كثير من الناس عندما يقرؤون قول الله تعالى عن العلماء الغربيين وأمثالهم: «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا» إذ يخيل إلى المستشكلين أن كلمة «ظاهراً» تعنى المدارك السطحية للشىء، بالمعنى المتداول عند الناس، وهو ما لا ينطبق على العلماء الغربيين.

ولكن الحقيقة أن المعرفة السطحية للشىء تتمثل، أول ما تتمثل، فى المعرفة التى يُزهى بها من لم يعلم بعدُ شيئاً من هذا المعلوم وحجمها وحقيقتها، ولكنه انطلق يغوص بدلاً من ذلك، فى أجهزتها ودخائلها الجزئية، تائهاً وسط حجمها الفسيح، غير متعرف على ذاتيتها من حيث هى.

والمهم أن مثل هذا العمل، وإن بدا فى ظاهره سبراً للغور وتعمقاً فى الفهم، ولكنه فى واقع الأمر وحقيقته سطحية متناهية.. وهذا هو بالضبط معنى قوله تعالى عنهم: «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا».

وبعد، فإن الفلاسفة لم يتنكبوا عن الحق عندما وجهوا أنظارهم ومداركهم إلى المكونات يبحثون عن حقيقتها وينشدون الوصول إلى يقين بشأنها.. ولكنهم أخطأوا فى المنهج الذى ينبغى أن يسلكوه لبلوغ ذلك.

حمّلوا عقولهم وحدها مهمة إدراك الحقيقة والبلوغ بشأنها إلى يقين، دون أن يفرقوا بين الحقائق المادية التى تخضع للحس والتجربة، والحقائق الغيبية التى ليس للحواس إليها من سبيل.. فحمّلوا عقولهم من هذه المهمة الثانية أعباء تتجاوز طاقتها، وعادوا من جهودهم المعرفية بأخيلة وأوهام لا سند لها ولا دليل عليها.

ثم إن الفلاسفة المسلمين صححوا الخطأ وقوموا المنهج، عندما قرروا أن السبيل إلى إدراك الحقائق الغيبية إنما هو النقل أولاً والعقل ثانياً.. ومستند النقل إنما هو الخبر الصادق الواصل إلينا بالتواتر.. وهو كتاب الله عز وجل والمتواتر من صحاح السنة، أما العقل فهو الأداة التى لا بد من الاعتماد عليها فى فهم كل شىء، أياً كان مصدره، وأياً كان نوعه، أى حسياً خاضعاً للتجربة أو غيبياً خاضعاً للنقل.

وفى كل الأحوال لا بد من الاحتكام إلى المنهج القرآنى القائل: «ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً» (الإسراء:٣٦). ■

فهرس بأسماء مراجع البحث:

- وليم جيمس: إرادة الاعتقاد.
- داروين: أصل الأنواع.
- جون ديوى: البحث عن اليقين.
- برتراند رسل: سيرتى الذاتية.
- محمد سعيد رمضان البوطى: كبرى اليقينيات الكونية.
- محمد سعيد رمضان البوطى: منهج الحضارة الإنسانية فى القرآن.
- انجلز: انتى دوهرنغ

مهنة المتاعب في فلسطين

عبد القادر ياسين

لم تكن الصحافة العربية الفلسطينية، تحت الاحتلال البريطاني (١٩١٨ . ١٩٤٨) السلطة الرابعة، بل رزحت تحت نير السلطات الثلاث (التنفيذية، والتشريعية، والقضائية). بيد أن هذا لم يكن المبرر الأساسي للدكتورة عايدة النجار من أجل دراسة صحف تلك الحقبة، بل ثمة مبرر أهم مؤداه ضياع مجلدات صحف حقبة الاحتلال البريطاني في فلسطين، ضمن ما ضاع مع النكبة الفلسطينية (١٩٤٨). بيد أن المؤلفة تجاوزت هذا الاستعصاء، بما وفرته لها وظيفتها في الأمم المتحدة من فرص للسفر والتنقل، بما أتاح لها الاطلاع على المصادر الأصلية (الدوريات) في المكتبات العامة في أركان الأرض الأربعة.

لقد استقوت المؤلفة، في دراستها الموسوعية «صحافة فلسطين والحركة الوطنية في نصف قرن (١٩٠٠ . ١٩٤٨)»، بالمبرر نفسه الذي سبق لكاتب هذه السطور أن ساقه في تصديره لكتابه «الصحافة والحياة السياسية في فلسطين (١٩٠٧ . ١٩٤٨)»، قبل خمسة عشر عاماً من صدور كتاب النجار. حيث أفاد هذا المبرر أن الدراسات السابقة انتزعت الصحافة العربية في فلسطين من السياق الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي، والثقافي، والقانوني لفلسطين، «الأمر الذي أظهر الحركة الصحافية وكأنها هبطت من السماء في مظلة». كما أخذت النجار على الدراسات السابقة عن الصحافة العربية في فلسطين أنها لم تف الصحافيين والكتاب حقهم.

معروف أنه منذ أواسط التاسع عشر استجدت جملة من التطورات في مجالات عدة، مهدت السبيل لظهور الصحافة في فلسطين، بعد أن تلقت العلاقات شبه الإقطاعية ضربات قاصمة متلاحقة، ما نقل البلاد إلى أعتاب الرأسمالية، وأخذت المصانع الآلية في الانتشار بالبلاد، وفي كنفها ولدت المطابع، القابلة الحقيقية للصحافة، فضلاً عما رافقها وتلاها من تداعيات ثقافية وتشريعية إيجابية.

خيراً فعلت النجار حين لم تؤرخ للصحافة العربية في فلسطين منذ العام ١٨٧٦، حين أصدرت السلطات العثمانية نشرتين في فلسطين، هما: «القدس الشريف»، و«الغزال»، لكونهما نشرتين أولاً، ولاقتصارهما على نشر الفرمانات والأوامر الحكومية، دون الأجناس الصحافية، ثانياً. لذا بدأت المؤلفة من سنة ١٩٠٧، تاريخ صدور أول صحيفة عربية في فلسطين (الترقي)، وقد أسسها وتراس تحريرها عادل جبر.

لقد غطى الكتاب ٥٤٣ صفحة من القطع الكبير، خصصت ٣٥٤ صفحة منها للفصول التسعة، والباقي للملاحق الضرورية على أنني لا أدري لماذا جعلت المؤلفة من المدخل فصلاً أول كذلك؟! وقد خصصته للحديث عن «وضع فلسطين سياسياً واجتماعياً واقتصادياً». وفيه أظهرت النجار كيف أن الحركة الصهيونية ظلت على أجندة العرب، وصحافتهم، منذ تنبهوا لخطرها (ص٣٦). ما جعل الصحافة العربية الفلسطينية رائدة في رفض الصهيونية، منذ ما قبل الانتداب البريطاني. وحتى في مصر فإن جريدة «المقطم» فتحت صفحاتها للصهاينة، كي يردوا على جريدة «الأهرام». وفي فلسطين أنشأ الصهاينة جريدة «السلام» وأسندوا رئاسة تحريرها إلى نسيم ملول، مراسل «المقطم» في يافا (ص٤١). فيما استمرت صحيفتا «الكرمل» في حيفا، و«فلسطين» في يافا، في فضح الصهيونية، بعد أن عاودت هاتان الصحيفتان الصدور، تحت الانتداب البريطاني، كي تنشطر في الحركة الوطنية الفلسطينية (ص٤٤).

صحافة فلسطين والحركة الوطنية في نصف قرن
(١٩٠٠ . ١٩٤٨)
عايدة النجار
بيروت . عمان: مؤسسة الدراسات العربية، ٢٠٠٥



معروف أن كلا من «اتفاق سايكس . بيكو» لاقتسام المشرق العربي بين فرنسا وإنجلترا، فضلاً عن «وعد بلفور» قد جاءا في غياب الصحافة العربية في فلسطين، بفعل الحرب العالمية الأولى. وإن نشرت «المقطم» خبراً عن ذلك الوعد.

مع غياب الصحافة العربية الفلسطينية، وتعثر وصول صحف من الخارج، خلال سني الحرب العالمية الأولى، استمرت حركة المثقفين والسياسيين، في ظروف جديدة، تبلورت فيها الهوية الفلسطينية، واتضحت فيها التحديات الوطنية، فبعد الصدمة من أعمال الغدر البريطانية المتتالية، تنامت وسيلة اتصال جديدة، ربطت القيادات السياسية بالجماهير، عن طريق تأسيس جمعيات وأندية ثقافية وسياسية (ص٥٩). وتمكنت المؤسسة السياسية للشعب العربي الفلسطيني، وأعني بها «الجمعيات الإسلامية المسيحية»، من عقد مؤتمرها الأول، في القدس (١٩١٩/١٢/٢٥)، الذي رفض «وعد بلفور»، والهجرة اليهودية إلى فلسطين، واحتلالها من قبل بريطانيا، فيما أصر المؤتمر على اعتبار فلسطين جزءاً من الولايات العربية، وانتهى إلى الدعوة لاستقلال فلسطين وتعززت رغبة العرب الموحدة، عندما انعقد «المؤتمر السوري الأول» للعرب في دمشق، في الأسبوع الأول من يوليو/ تموز ١٩١٩، وضم ممثلين من سوريا، ولبنان، وفلسطين (٦٤ . ٦٥).

في الوقت الذي أصدر السياسيون الصحف لتكون منبراً وطنياً، بعد الاحتلال البريطاني، انضم إليهم، بفضل هذا الوازع، عدد من المربين، والأدباء المبدعين، لإعلاء شأن اللغة العربية، والأدب. أما أهم المجلات الأدبية، فكانت «النفائس العصرية»، التي أسسها خليل بيدس (١٩٠٨ . ١٩١٤، ١٩١٩ . ١٩٢٤)، فضلاً عن مجلة «المنهل» لمحمد موسى المغربي.

عن «الانتداب البريطاني والواقع الجديد للفلسطينيين والصحافة (١٩٢٠ . ١٩٢٩) كان الفصل الثاني الذي بدأ بالحديث عن صدور قرار دولي، قضى بانتداب بريطانيا على فلسطين، في

مؤتمر لندن (٢١/٢/١٩٢٠)، سرعان ما صادق عليه مؤتمر سان ريمو (٢٥/٤/١٩٢٠)، وبموجبه غدت بريطانيا مسئولة عن تنفيذ «وعد بلفور»، واعتمدت «عصبة الأمم» هذا الانتداب، في ٢٤/٧/١٩٢٢، وعمدت بريطانيا إلى إقامة بنية تحتية، لتساعدها على الحكم، والوصول إلى شتى المناطق، بسهولة (ص٦٩).

في المجال الصحافي، ما أن انتهى الحكم العسكري البريطاني لفلسطين، حتى شهد الربع الأخير من عام ١٩١٩ ظهور أربع صحف، فيما عادت صحف قديمة إلى الصدور (ص٧٥).

كعادتها استغلت سلطات الانتداب بعض الصحف، وأهمها «لسان العرب» التي استقدمت لها صحفياً من لبنان، و أطلق عليها عرب فلسطين اسم «لسان العقرب»، إلى جانب «مرآة الشرق»، ورئيس تحريرها عربي فلسطيني (ص ٩٢). وذلك في موازاة تأسيس «الحزب الوطني» في يونيو/ حزيران ١٩٢٣، برئاسة الشيخ سليمان التاجي الفاروقي، الذي أسس، سنة ١٩٣٢، جريدة «الجامعة الإسلامية». وتقول النجار إن «الحزب الوطني» قام «بتشجيع من السلطات البريطانية»، ونادي بسياسة «خذ وطالب». بينما الحقيقة أن مدير الإدارة العربية في «الوكالة اليهودية»، كالفاريسكي، هو صاحب فكرة هذا الحزب، ومموله، ما جعل هذا الحزب بلا مستقبل، وفي السنة ذاتها تشكل «حزب الزراع»، في سبيل توسيع الهوة بين القرية والمدينة العربيتين الفلسطينيتين، لكنه لم يكن أسعد حظاً من «الوطني» (ص ٩٣). وقد استغلت «الوكالة اليهودية» ركود الحركة الوطنية الفلسطينية لتزرع الوكالة هذين الحزبين، الأمر الذي لم تشر إليه النجار.

انبرت الصحف للتنبيه إلى الأراضي، التي بدأت تتسرب من أيدي الفلاحين.

صحيح أن الصحافة تماهت مع الحركة الوطنية، لكن حدث، أحياناً، أن تقدمت الأولى على الثانية، ففي أوج احتدام الخلافات داخل الحركة الوطنية، اجتمع تسعة رؤساء تحرير للصحف، هم: على ناصر الدين (المنير)، نجيب نصار (الكرمل)، عيسى العيسى (فلسطين)، بولس شحادة (مرآة الشرق)، خليل نصر (الأردن)، عيسى البندك (صوت الشعب)، حسنى فهمى الدجانى (الجزيرة)، إيليازكا (النفير)، وجميل البحرى (الزهرة)، فيما بين ٨ و ٩/٦/١٩٢٤، بهدف إيجاد حل يوفق بين آراء الصحف أو الهيئات السياسية، وانتهى المجتمعون إلى ميثاق شرف، قضى بأن تكون الصحافة للمصلحة العامة، وألا تنزلق إلى المطاعن الشخصية، مع التنديد بحزب الزراع، لخروجه على الإجماع الوطني على شجب «وعد بلفور»، فضلاً عن دعوة الميثاق إلى مقاومة النعرات الطائفية، وإلى المصالحة الوطنية، وإن لم تنجح هذه الدعوة، لامتناع «الوطني» و«الزراع» عن الاستجابة (ص ٩٨). وكأن القيادة التقليدية للحركة الوطنية فقدت الاتجاه، فمالت لمهاودة الثورة المضادة!

في سياق مواقفها الوطنية، نددت الصحافة بزيارة لورد بلفور إلى القدس، من أجل افتتاح «الجامعة العبرية» (٢٥ . ٢٨/٣/١٩٢٥)، وبزيارة وزير المستعمرات البريطاني، مستر إمري، (١٦/٤/١٩٢٥) (١٠٠ , ١٠٧).

لكن بعض الصحف اتخذت مواقف سلبية إزاء معركة انتخابات «المجلس الإسلامي الأعلى»، فقد خاض الشيخ عبدالله القلقيلي، عبر صفحات جريدته «الصراط المستقيم»، معركة ضارية ضد المجلس، وفي المقابل نشطت صحافة «المجلسيين» ضد «المعارضين» ما وفر سانحة للصحافة العبرية لتوجيه سهام نقدها. وبذا تمكنت سلطات الانتداب من تحقيق سياستها «فرق تسد». ولم يكن الحال أحسن في الانتخابات البلدية، بعد سنتين، ناهيك عن تورط بعض الصحف في إثارة النعرات الطائفية (١٠٧ . ١١٣).

لم تنعزل فلسطين، قط، عن جوارها. ومن بيروت جاء صوت المفكر الوطني اللبناني المرموق، أمين الريحاني، منتقداً المتحزبين من الصحافيين، فبرأيه «المبدأ الجوهري هو مقاومة الصهيونية». ورد منيف الحسيني، في جريدة «الجامعة العربية» بأن «الاختلاف، أيها السيد، إنما يقوم على المبادئ القومية، ولا اختلاف عائلياً هنالك»! كما تدخل عرب آخرون، من بينهم الرمز السياسي السوري، إحسان الجابري، بعد أن أخفق الفلسطينيون في التصافي، في مؤتمر وادي حنين (١٤/١٠/١٩٢٧).

هنا عمد الصحافيون إلى التدخل الإيجابي، فعقدوا مؤتمراً، في يافا، استمر ثلاثة أيام (١٢ . ١٤/١١/١٩٢٧)، وحضره ممثلون عن صحف «الكرمل» و«فلسطين»، «مرآة الشرق»، «صوت الشعب»، «اليرموك»، «الجامعة العربية»، «الصراط المستقيم»، «صوت الحق»، «الزهرة». ودعا المجتمعون إلى «جمع كلمة الأمة، وتسهيل عقد مؤتمر وطني عام، يمثل آراء الأمة». وحث الصحافيون على ضرورة «تبادل الاحترام وعلى اختلاف الآراء». وتوالت المحاولات، حتى أفضت إلى انعقاد المؤتمر الفلسطيني السابع (٢٠ . ٢١/٦/ ١٩٢٨) بعد انقطاع دام ست سنوات!

حين داهمت الأزمة الاقتصادية (١٩٢٨) مبكرة سنة كاملة عن غيرها من بلاد العالم، أرجعت الصحافة الفلسطينية هذه الأزمة إلى السياسة البريطانية . الصهيونية، التي ابتلعت الأرض، فوسعت دائرة المعدمين من الفلاحين، والعاطلين من العمال العرب. ودعت الصحافة إلى تشكيل نقابات عمالية، كما حذرت من تنامي التحالف البريطاني . الصهيوني.

باندلاع هبة البراق، صيف ١٩٢٩، انتهت مرحلة، وبدأت أخرى في حياة الحركة الوطنية والصحافة في فلسطين (١٢٤ . ١٣٧).

حمل الفصل الثالث عنوان «الصحافة الحزبية الملتزمة والصحافيون الشجعان (١٩٣٠ . ١٩٣٥)»، ورصد مدى انعكاس انتعاش الحركة الوطنية، ووحدتها في وجه الانتداب والصهيونية، إيجاباً، على الصحافة، التي وثقت الأحداث والبطولات، الشخصية والشعبية، في هذه المرحلة، كما شكلت تلك الأحداث مادة غنية للصحافة، ما عزز دورها. ومن جهة أخرى عاقب الانتداب الصحافة على دورها الوطني. وعلى مدى عشر صفحات غطت المؤلفة قيام الأحزاب، وتأسيس صحفها، ما بين سنتي ١٩٣٢ و ١٩٣٥ (ص ١٤٩ . ١٥٨).

لم يقل الدور القيادي للصحافيين عن دور الزعماء السياسيين، ما دفع الانتداب إلى تطبيق «قانون منع الجرائم» على الصحافة (١٩٣٠). فقرر خمسة من أصحاب الصحف الإضراب، لمدة أسبوع، احتجاجاً

بعد أن وصلت الأخبار عن فشل الوفد الفلسطيني الثالث إلى حكومة لندن، غضبت الصحافة، غضباً مضمناً الإحباط، والإصرار على مواصلة محاربة الانتداب والصهيونية، ونداء للعرب والعالم للمساعدة.

لم يقل الدور القيادي للصحافيين عن دور الزعماء السياسيين، ما دفع الانتداب إلى تطبيق «قانون منع الجرائم» على الصحافة (١٩٣٠). فقرر خمسة من أصحاب الصحف الإضراب، لمدة أسبوع، احتجاجاً، فيما بين ١٠ و١٧/٨/١٩٣١، ثم عقدوا مؤتمراً صحفياً، في يافا، في ١٨/٩/١٩٣١، تحدوا فيه الانتداب، الذي رد بسن «قانون المطبوعات» سيئ الذكر، غير مكتف بقانون الطوارئ، ثم توالت التعديلات الأكثر جوراً على «قانون المطبوعات»!!

لقد اهتمت الصحافة بأخبار انتفاضة خريف ١٩٣٣، فطلب المندوب السامي البريطاني من الصحافيين استعمال صحفهم «لتهدئة الناس، واحترام النظام، وخلق روح الأمان في شتى أنحاء البلاد».

تجمعت السحب منذرة بالعاصفة، وانعقد اجتماع نابلس الغاضب الكبير (١٢/١١/١٩٣٥)، بمجرد انكشاف كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر مرسلة للصهاينة، عبر ميناء يافا، مخبأة في صناديق للأسمنت، من بلجيكا. أضربت البلاد، في ٢٦/١٠، إضراباً شاملاً، عن نظيره، وفي ١٣/١١ صدرت الصحف حافلة بأنباء عزم البلاد على الإضراب.

هنا توفرت «اللحظة الثورية»، فاندلعت حركة القسام الثورية (٩/١١/٣٥)، التي وصفتها الصحافة الوطنية بـ «ثورة الفلاحين»، وتكتل الشباب، مطالبين بمواصلة التحريض السياسي، وعدم التعاون مع السلطات، والامتناع عن دفع الضرائب، وتنظيم المظاهرات، والإعداد لمؤتمر وطني عام، والتحضير للمواجهة.

صباح ٢٠/١١ نشرت الصحافة أخبار معركة يعبد، وأبن الكتاب وبعض الزعماء الشهيد القسام، ومن بينهم سليمان التاجي الفاروقي، وأكرم زعيتر، وحمدي الحسيني، وصبحي الخضرا، وعجاج نويهض، وإبراهيم الشنطي. ومن الثاني إلى السادس هم من قادة «حزب الاستقلال».

عن «صحافة المرحلة الأولى من الثورة»، كان الفصل الرابع، حيث صمدت الصحافة الوطنية في وجه عسف الانتداب، كما تطورت، مهنياً، في النوع، والمضمون،

مهنة المتاعب في فلسطين



والأساليب فى استقصاء الأخبار، بسبب التحسن الذى طرأ على وسائل الاتصال، وتم الاعتماد على وكالات الأنباء العالمية، ومندوبى الصحف نفسها.

منذ ١٩٣٦/٤/١٥ بدأت أعمال قتل، وردود فعل متبادلة بين عرب فلسطين وصهاينتها، توجت بإضراب سياسى عام فى القطاع العربى، منذ ٤/٢٠، وبعد خمسة أيام اجتمعت قيادات الأحزاب، وقررت الإضراب العام، فى تخلف ملحوظ عن حركة الجماهير!

أسهمت الرسائل الإعلامية فى إنجاح الإضراب، ولعل أجمل مثال على روح التضامن الشعبى ما قام به تجار حى الياسمين، فى نابلس، إذ جمعوا مفاتيح دكاكينهم، وربطوها بحبل، وقدموها للجنة الإضراب، «إلى أن يفك الإضراب»!

التزمت الصحافة بالأجندة الوطنية، إلى أن كان إضراب الصحافيين (٢٨ . ٣٠/ ٣٦/٥)، بعد أن غطت الصحافة «مؤتمر اللجان القومية»، الذى انعقد فى القدس (٥/٧)، وشنت حملة للدفاع عن الفلاح.

لم تخل جريدة واحدة من اللغة الاستشهادية الحماسية، كتبت «فلسطين»: «إننا قوم احترف التضحية»! وفى طبعتها الإنجليزية قالت: «إضراب أمة من أجل حياة وشرف»! (ص٢١٥).

منذ أغسطس/ آب ١٩٣٦ أخذت الصحافة تكتب تفاصيل وساطة ملوك العرب وأمرائهم، لوقف الإضراب والثورة، معاً! كما رجت الصحافة بوصول ابن طرابلس الشام فوزى القاوقجى من العراق إلى فلسطين، على رأس بضع مئات من المتطوعين العرب المسلحين، وتسلمه القيادة العسكرية للثورة.

فى المقابل ارتفع منسوب القمع للقيادات الشعبية، والزعامات التقليدية، والصحافيين، على حد سواء.

انتقدت الصحافة زعماء فلسطين، فضلاً عن ملوك العرب وأمرائهم، «لأن علاقتهم جيدة مع الإنجليز»! وفى عمان صارح رؤساء تحرير الصحف الفلسطينية أمير شرق الأردن، عبدالله بن الحسين، بعدم تمكنهم إيقاف الإضراب، «إلا إذا أوقفت الهجرة اليهودية» (ص٢١٨).

فى ٣٦/١٠/١١ نشرت الصحافة الفلسطينية نداء الملوك والأمراء العرب، إلى «أبنائنا عرب فلسطين» بإنهاء الإضراب، «معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية، ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل». وفي اليوم التالى نشرت الصحف نفسها بيان «اللجنة العربية العليا»، الذى تغنى «بعظم الفائدة» التى تنجم عن «توسط الملوك والأمراء»، ومؤازرتهم! (ص٢٢٠).

هذه «لجنة بيل» الملكية البريطانية تؤكد فى تقريرها «أن العقاب المتخذ ضد الصحافة، غير كاف لإسكات الصحافة المحرضة الشريرة»! وقد سجنت سلطات الانتداب خمسة صحفيين، وصادرت «الصحف» جميعها، بين ٢ ـ ٩/٨، لنشرها «مقالات تحريضية». وعلى مدى أشهر الإضراب الستة، صودرت الصحف ٢٤ مرة، وأنذرت ١١ مرة، مقابل مصادرة الصحف اليهودية مجرد ١٣ مرة. وخلال الشهرين التاليين للإضراب أقفلت ٩ صحف، مقابل صحيفة يهودية فقط، ومُنع دخول ٧ صحف أجنبية، وكتاب واحد، لمساندتها الثوار.

لقد صودرت «الجامعة الإسلامية» ٥ مرات، ما بين ٥/٢٢ . ١٩٣٦/١٠/١١، أما «فلسطين» فتم تعطيلها ٨ مرات، ما بين مايو/ أيار وديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٦، (ص ٢٢٤ . ٢٢٥)، وهما الصحيفتان المعارضتان!

تجددت الثورة، بمجرد صدور تقرير «لجنة بيل» (١٩٣٧/٧/٧)، الذى أوصى بتقسيم فلسطين. وعن هذه المرحلة الثانية من الثورة جاء الفصل الخامس، حيث لم تكتف فلسطين بما لديها من الصحف، فعززتها بست صحف أخرى.

قررت حكومة لندن السماح بمزيد من الهجرة اليهودية إلي فلسطين، فقررت «اللجنة العربية العليا» عدم التعاون مع «لجنة بيل»، وانقسمت الصحافة، على غرار القيادة السياسية، حول «عدم التعاون». واستجد أسلوب الاغتيال السياسى.

ورحبت الصحافة بالمؤتمرات العربية التى انعقدت لنصرة فلسطين فى ثورتها، مثل «مؤتمر بلودان» (٣٧/٩/٨)، و«المؤتمر البرلمانى العالمى للبلاد العربية والإسلامية»، و«المؤتمر النسائى الشرعى» (القاهرة . أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٨).

أولت الصحف مقتل حاكم الجليل ل. ى. أندروز (٣٧/٩/٢٥) اهتماماً ملحوظاً. وبعده ألقت سلطات الانتداب القبض على مئات من الثوار والزعماء. ومع وصول الثورة إلى صيف ١٩٣٨، غدت لغة الصحافة أكثر ثورية، وكأنها أحد أسلحة الثوار. ونشرت الصحافة بيان «ديوان الثورة»، بطلب ارتداء الكوفية والعقال، بدل الطربوش، الأمر الذى تحقق على نحو شبه كامل، ما عكس مدى تمتع الثورة بالنفوذ والتأييد الشعبيين.

خلال سنتى ٣٧ و١٩٣٨، تم إيقاف ١٢ صحيفة عربية فلسطينية، مدداً بلغ مجموعها ٥٢ شهراً، مقابل وقف ٤ صحف يهودية لأسابيع فقط.

فى الفصل السادس تم رصد تهاوى الصحافة مع انطفاء جذوة الثورة، ولم يبق في الساحة سوى صحف «فلسطين»، و«الدفاع»، و«الصراط المستقيم»، الأقرب إلى المعارضين، الذين تقدمتهم عائلة النشاشيبى، في مواجهة «المجلسيين» بزعامة عائلة الحسينى.

ولا أدرى ما مبرر تخصيص الفصل السابع، بعنوان «دار الإذاعة الفلسطينية/ وسيلة اتصال جماهيرية جديدة، والتى أسستها سلطات الانتداب فى سنة ١٩٣٦، واجتذبت أدباء، وكتاباً مرموقين، كما ناقشت الإذاعة الصحافة الأدبية، في مرحلة الركود السياسى.

ما كان لصحافة تتصدى وتواجه الانتداب والصهيونية، إلا أن تتسبب في محاولات محمومة لتكتم صوت الفلسطينيين، فكان الفصل الثامن عن «آليات القمع وقوانين الصحافة والمطبوعات تحت الانتداب البريطانى (٢٠ . ١٩٤٨)»، و التى بدأت بإنشاء «مكتب المطبوعات»، وتخصيص باب «الجرائم التحريضية» في «القانون الجنائى»، فقانون المطبوعات لعام ١٩٣٣، والتعديلات المتوالية عليه، كما أجريت ترتيبات مع السلطات البريطانية فى كل من مصر، والعراق، والأردن، لمراقبة مواد أى صحيفة تعالج المسألة الفلسطينية، واكتشف الانتداب أن «الصحف لن تفقد قوتها فى دعوى قضائية، حسب تقارير «المطبوعات» المتوالية.

رغم كل هذه المعاناة، استمر تطور الصحافة، من حيث العدد، والنوع، والمستوى التقنى، وعاد ذلك إلى الارتفاع النسبى في التعليم، وغدا المحررون يكتبون بمستوى فكرى أعلى، ما أفضى إلى انتقادات لسياسة الانتداب.

ختمت النجار كتابها بفصل تاسع عن الحركة الوطنية والصحافة :ما بين سنتى ١٩٤٠ . ١٩٤٨، حيث تمددت الصحافة الأدبية، بسبب ركود الحركة الوطنية، وإنشاء دار الإذاعة، وعملت الصحافة على إحياء الروح القومية العربية، ورفع المعنويات، ومتابعة عرض قضية فلسطين على الأمم المتحدة، وما كان من انقسام القيادة السياسية الفلسطينية، وعكست الصحافة مقدمات الحرب العربية . الصهيونية الأولى، كما غطت مذبحة دير ياسين (١٩٤٨/٤/٩)، وبعدها كان النزوح، فالنكبة.

وبعد، فهذا هو الكتاب السادس الذى غطى الصحافة العربية في فلسطين حتى نكبة ١٩٤٨، وأولها الكتاب الرائد لأحمد خليل العقاد «الصحافة العربية فى فلسطين، عمان، ١٩٦٧»، وثانى الكتب ليعقوب يهوشع «تاريخ الصحافة العربية فى فلسطين» بأجزائه الثلاثة (١٩٧٤، ١٩٨٣ . ١٩٨٤)؛ فيما كان الكتاب الثالث ليوسف ف. خورى «الصحافة العربية في فلسطين (١٨٧٦ . ١٩٤٨)» (١٩٧٦). وإن اكتفت هذه الكتب بمجرد رصد ظهور الصحف، دون الإطار المجتمعى لهذا الصدور، بل دون ربط هذه الصحف بالحركة السياسية الفلسطينية.

فيما أصدر محمد سليمان رابع هذه الكتب «تاريخ الصحافة الفلسطينية (١٨٨٦ . ١٩٧٦)، نيقوسيا، ١٩٨٧»، الذى تميز عن سابقيه أولاً بتجاوز المدى الزمنى؛ ثانياً بالاستناد إلى الأساس السياسى لظهور الصحافة الفلسطينية، وإن أهمل الأساس الاقتصادي، الاجتماعى، والثقافى، والقانونى. الأمر الذى غطاه كاتب هذه السطور، مرتين (١٩٩٠)، الأولى فى كتاب، والثانية فى دراسة أكاديمية واسعة، تضمنتها «الموسوعة الفلسطينية» في قسمها الثانى، المخصص للدراسات الخاصة، الأمر الذى لم تستعن به النجار، فيما استعانت بدراسة صغيرة لى، نشرت فى شهرية «شئون فلسطينية»، قبل نحو ثلاثين سنة، عن الصحافة السرية، التي عملت بها غداة حرب ١٩٦٧، وهي خارج نطاق موضوع النجار، ومداه الزمنى!

فيما عدا الأخطاء المطبعية، التي ما كان يجب أن تكون ودار النشر فى المدينة التي تقيم فيها المؤلفة (عمان)، فضلاً عن إصرار النجار على استخدام مفردة «الاضطرابات»، التى صكها الاستعماريون، وأطلقوها على التحركات الثورية لشعوب المستعمرات، فى سبيل تشويه هذه التحركات. وبينما لم تظهر أول صحيفة عربية في فلسطين إلا سنة ١٩٠٧، فإن اعتماد المؤلفة سنة ١٩٠٠ بداية لمدى دراستها الزمنى، غدا غير مبرر.

على أنه ما كان لمثل هذه الهنات الهينات أن تقلل من القيمة التاريخية، والفكرية لهذا السفر الأكاديمى الموسوعى، الذى أضاف الكثير إلى موضوعه، بعد أن نجحت المؤلفة فى تضفير الصحافة بالحركة الوطنية، في حرفية عالية. ■



كمبيوتر لكل ٤ طلاب فى كوريا

■■ فجأة تسمع صراخًا وعويلاً صادرًا من طفل يتلوى ويتقلب بين أيدى والديه، والطبيب يحاول تهدئته قائلاً: لو تحليت بالهدوء والسكينة فسوف تكون طفلاً جيداً وسينتهى الأمر بسرعة دون ألم. ثم يبدأ الطبيب فى إجراء الجراحة وهى عملية فى لسان الطفل لتحسين قدرته على نطق حروف اللغة الإنجليزية بشكل سليم.

وقد عرض لهذه المناظر برنامج وثائقى بعنوان «ربط اللسان» بثته إحدى قنوات التليفزيون الكورى الجنوبى قبل شهور ليكشف عن حالة فريدة من الهوس بين الكوريين لتعليم أبنائهم اللغة الإنجليزية. ورغم أن عديداً من الآباء الكوريين الذين التقيتهم قالوا لى إن مثل هذه الجراحات نادرة، إلا أن الدكتور كيم سونج هيى الباحث فى العلاقات الاقتصادية الدولية والحاصل على درجة الدكتوراة من جامعة بنسلفانيا الأمريكية أبلغنى بأن هناك اعتقاداً لدى الكوريين بأن هناك عيباً ما فى لسان الطفل الكورى يجعله غير قادر على نطق حرفى «L» و«R» فى اللغة الإنجليزية بشكل سليم، الأمر الذى يستدعى إجراء جراحة للتخلص من هذا العيب.

لكن الدكتور نوود كونج صن أحد المتخصصين فى علم نفس الأطفال فى كوريا الجنوبية يقول إن المسألة لا علاقة لها إطلاقًا باللسان، لكنها ترتبط برغبة عميقة لدى الآباء لتعليم أبنائهم اللغة الإنجليزية باعتبارها «المفتاح» للتعامل مع العالم. ويشير إلى أن هذا الهوس باللغة الإنجليزية يبدأ خلال فترة حمل الأم بالطفل، إذ يتم عزف أنواع معينة من المقطوعات الموسيقية لمؤلفين إنجليز أو أمريكيين للطفل وهو فى رحم أمه وعندما يبلغ الطفل عاماً من عمره يأتى الآباء بمعلمين خصوصيين لترديد الكلمات الإنجليزية أمامه، ومحاولة جعلها معتادة بالنسبة له، ثم يرسل الأطفال فى عمر ٤ أو ٥ سنوات إلى الحضانة التى تعلمهم اللغة الإنجليزية مقابل ما يعادل ألف دولار فى الشهر، بل إن بعض الآباء يرسلون أولادهم فى سن الخامسة أو السادسة إلى الولايات المتحدة حيث يقضون عدة سنوات لكى يتعلموا اللغة الإنجليزية هناك.

وقد أبلغنى الدكتور سونج جيون بائى مدير قسم تخطيط السياسات والتنسيق بوزارة التعليم وتنمية الموارد البشرية فى كوريا الجنوبية بأنه أرسل نجله إلى الولايات المتحدة فى عمر ٦ سنوات لتعلم الإنجليزية، حيث قضى ٤ سنوات، وأشار إلى أن الأم تذهب، فى الغالب، مع الطفل إلى الولايات المتحدة، بينما يظل الأب فى كوريا لكى يستطيع توفير الأموال اللازمة وإرسالها إلى أمريكا. وفى حالات أخرى يذهب الطفل بمفرده إلى الولايات المتحدة حيث يعيش فى مدرسة داخلية.

وتكشف الإحصاءات أن ٩٠٪ من الأطفال فى كوريا الجنوبية يذهبون إلى مدارس تدعى باللغة الكورية هاجوانز Hagwons، وهى مدارس خاصة يدرس فيها التلاميذ مواد الحساب والعلوم باللغة الإنجليزية. ويتجاوز حجم الأموال التى تنفقها الأسر الكورية على هذه المدارس الخاصة إجمالى ميزانية التعليم الكورية.

ويرتبط بظاهرة الهوس بتعلم اللغة الإنجليزية فى كوريا الجنوبية نوع جديد من المدارس يدعى «القرية الإنجليزية» بدأ ينتشر فى بعض مقاطعات البلاد. وهو يقوم على فكرة أساسية مفادها أن تعليم اللغة الإنجليزية من خلال الدروس المدرسية وحدها ليس كافيًا، بل لابد أن يعيش الطفل فى «جو إنجليزى» أى أن تتاح له الفرصة لممارسة أمور واكتساب مهارات اجتماعية من خلال وجوده فى مكان كل ما فيه ناطق باللغة الإنجليزية ابتداء من أسماء المطاعم وكلها تحمل الطابع الأمريكى أو البريطانى والمدرسين القادمين من دول تتحدث شعوبها الإنجليزية وليس نهاية بالمواد التى يدرسها التلاميذ. وهى مواد ليست فى المناهج التعليمية، بل عبارة عن دروس فى الدراما والإبداع وإلقاء الخطب والموسيقى والطهى. ويقول جيفرى جونز الأمريكى الجنسية ورئيس المدرسة: إن المدرسة تستهدف تحسين قدرة الأطفال على الاتصال الإنسانى ومحاولة تخليص هؤلاء الأطفال من الخجل الذى يتصف به الكوريون عادة. كما أن المدرسة تعمل على إقناع التلاميذ بأنه ليس هناك نطق واحد للإنجليزية وأن من المهم أن يعبروا عن أنفسهم بصورة واضحة.

ويستطرد جونز قائلاً: إن المدرسة تحاول خلق تأثير نفسى على التلميذ من خلال إشعاره لدى دخوله القرية بأنه خرج من كوريا ودخل بلداً آخر ناطقًا بالإنجليزية، فالمكان أى المدرسة مختلف فى كل شىء عن خارجه سواء فى طراز المبانى أو نوعية الطعام المقدمة أو الدروس التى يدرسها التلاميذ.

وتعتمد الدراسة فى القرية الإنجليزية على نظام البرامج الدراسية، فهناك برنامج لمدة يومين وآخر لمدة أسبوع وثالث لمدة أسبوعين وهى كلها تستهدف خلق نوع من الألفة بين التلميذ واللغة الإنجليزية وإشعاره بأنه يمكنه أن يتحدث هذه اللغة بسهولة ويتمكن دون عناء كبير.

ولأن تكاليف تلك المدرسة باهظة، فإن المقاطعات تساهم بحوالى ٧٥٪ من التكاليف على أن تدفع الأسر الباقى. وقد وجد بعض حكام المقاطعات أن التكاليف عالية ومن الصعب على المقاطعات

Education in Korea
2005 - 2006
(التعليم فى كوريا)
Ministry of Eduction
Republic of Korea

Brief Statistics on Korean Education
(إحصاءات حول التعليم الكورى)
Korean Educational Development Institute

تحقيق من كوريا

عبد الله عبد السلام

التعليم دين الشرق الأقصى الجديد!

فلسفة التعليم فى كوريا الجنوبية لم تعد تركز على إمداد السوق المحلية فقط بما تحتاجه من كفاءات بل على جعل الشباب الكورى قادراً على التنافس مع خريجى الجامعات العالمية والتفوق عليهم

الاستمرار فى تحملها ولذلك يدرسون حاليًا مشاركة القطاع الخاص فى العملية إلى أن ينتهى الأمر بتحمل هذا القطاع المسئولية كاملة.

الاهتمام باللغة الإنجليزية ليس سوى مجرد دليل واحد على هوس الكوريين بالتعليم بشكل عام، بل إن بعض الباحثين يصفون هذا الشغف «المبالغ فيه» بأنه أشبه بالمرض الاجتماعى، فالأسر لا تكتفى بتعليم أولادها فى المدارس الحكومية التى تقدم حسب اعتراف هذه الأسر تعليماً جيداً، لكنها ترسل هؤلاء الأبناء فى ساعات ما بعد الدراسة إلى مدارس خاصة هى أقرب للدروس الخصوصية فى مصر. وتعترف الحكومة الكورية بهذه المدارس التى يقضى فيها التلاميذ أوقاتًا طويلة قد تصل إلى ٧ ساعات يوميا.

ويقول الدكتور سونج جيون باتى إن هذه المدارس ترافق التلاميذ منذ بداية تعليمهم المدرسى وحتى الصف الثالث الثانوى وتكون مهمتها إعداد الطلاب للامتحانات وهى تشرح نفس المناهج التى يدرسها التلاميذ فى المدارس الحكومية، لكن المدرسين فيها يحاولون توضيح الأمور بشكل أفضل للتلاميذ. ويشير إلى أن الآباء ليسوا راضين بشكل كامل عن المدارس الحكومية وحتى لو كانوا راضين فإنهم يرغبون فى أن يحصل أولادهم على أفضل فرصة ممكنة لكى يحرزوا أعلى الدرجات فى الامتحانات.

ويعترف سونج قائلاً: رغم أننى مسئول فى وزارة التعليم، إلا أن أولادى يذهبون للمدارس الخاصة لأننى أريد لهم أن يدخلوا أفضل الجامعات. ويشير إلى أنه يدفع ما يعادل ٥٠٠ دولار فى الشهر لكل طفل.

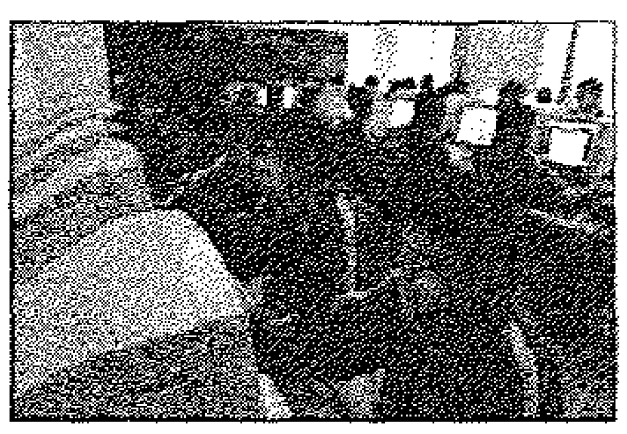
وتطويراً للعمل الذى تقوم به المدارس الخاصة ظهرت عشرات المؤسسات التى تقدم ما تقدمه هذه المدارس ولكن عن طريق الإنترنت. وقد زرت إحدى هذه المؤسسات فى العاصمة سول وهى تدعى Megastudy وقد نشأت فى أكتوبر ٢٠٠٢، ولديها حوالى ١٢٠ مدرساً يقدمون الدروس فى شتى المواد التعليمية للتلاميذ وبشكل خاص فى المدارس الثانوية من خلال موقع على الإنترنت. وتقول سون أون جين مديرة التسويق بالمؤسسة أن هناك ما لا يقل عن ٥٠٠ محاضرة أو درس يمكن للتلميذ أن يختار منها ما يريد حسب تخصصه. وتشير إلى أن حوالى ٢٢٠ ألف تلميذ شاركوا فى هذه الدروس عام ٢٠٠٥. وتهدف هذه المدارس أو المؤسسات فى الأساس إلى إعداد التلميذ للامتحانات وخاصة تلك التى تسبق دخول الجامعات. وتقول سون أون جين إنه ليست هناك علاقة مباشرة بين التلميذ والمؤسسة Megastudy فإذا أراد التلميذ الاشتراك فى الدروس التى تقدمها فإن عليه أن يحول المبلغ المطلوب من خلال الإنترنت وعندها يمكنه الدخول على الموقع وإذا أراد الاستفسار عن سؤال ما فإنه يمكنه أن يرسله عن طريق الإنترنت ويتم الرد عليه خلال ٢٤ ساعة. وتشير أون جين إلى أن حوالى ١,٣ مليون تلميذ فى شتى أنحاء كوريا مشتركون فى دروس المؤسسات التعليمية الخاصة عن طريق الإنترنت.

وقد عرفت كوريا نظام التعليم الغربى الحديث لأول مرة فى القرن التاسع عشر على أيدى الإرساليات المسيحية والجمعيات الغربية التى أسست مدارس خاصة فى البلاد. وترافق دخول هذا النمط من التعليم إلى كوريا مع زيادة النفوذ اليابانى الذى بلغ الذروة باحتلال اليابان لشبه الجزيرة الكورية عام ١٩١٠. ورغم أن الكوريين يرفضون الحديث كثيراً عن أية «حسنات» للاحتلال اليابانى فإن بعض المؤرخين يقولون إن اليابان اهتمت كثيراً بالتعليم فى كوريا، الأمر الذى انعكس فى تراجع معدلات الأمية وقيام مؤسسات تعليمية عديدة فى شتى أنحاء البلاد.

وعقب تحرير البلاد من الاستعمار اليابانى جرى تقسيم شبه الجزيرة الكورية إلى دولتين هما جمهورية كوريا ودولة كوريا الشعبية الديمقراطية وكانت الأولى خاضعة للنفوذ الأمريكى والثانية للنفوذ الشيوعى السوفيتى. وأصدرت جمهورية كوريا (كوريا الجنوبية) عقب الاستقلال قانون التعليم الذى أعطى المقاطعات نوعًا من الاستقلالية فيما يتعلق بإدارة شئون التعليم، كما أنه جعل التعليم إلزامياً ومجانيا حتى نهاية المرحلة الإعدادية.

إلا أن الطفرة الكبيرة فى التعليم بكوريا الجنوبية حدثت مع التوسع الاقتصادى والصناعى الذى بدأ فى ستينيات القرن العشرين، حيث شهد التعليم ما قبل الجامعى توسعات غير مسبوقة فى إعداد المدارس، وكذلك أعداد التلاميذ الذين زادت الحاجة إليهم فى سوق العمل بعد التخرج. وقد تواصل هذا التوسع فى أعداد المدارس والتلاميذ ليصل عدد المدارس الابتدائية فى عام ٢٠٠٣ إلى حوالى ٥٤٦٤ مدرسة يتعلم فيها ٤ ملايين و١٧٥ ألف تلميذ ويقوم بالتدريس فيها ١٥٤ ألف مدرس، أما المدارس الإعدادية فإن عددها حسب إحصاء عام ٢٠٠٣ بلغ ٢٨٦٥ مدرسة يتعلم فيها مليون و٨٥٩ ألف تلميذ ويقوم بالتدريس فيها ٩٩ ألف مدرس، بينما يصل عدد المدارس الثانوية حسب نفس الإحصاء إلى ٢٠٩٥ مدرسة بها مليون و٧٨٧ ألف تلميذ و١١٦ ألف مدرس.

ولم يبدأ التطوير النوعى فى التعليم الكورى بشكل حقيقى وجدى سوى فى ثمانينيات القرن الماضى، فقد جرى النص بداية فى الدستور على الحاجة للتعليم مدى الحياة، وهو ما يعنى أن أهم وظيفة للتعليم هى إعداد الإنسان الكورى، لكى يكون قادراً على الابتكار والتجديد والتعامل مع المنجزات العلمية الحديثة



التعليم دين الشرق الأقصى الجديد!

طيلة حياته. وتحقيقاً لهذا الهدف جرى إدخال سلسلة من الإجراءات أهمها إنشاء شبكة إذاعية مخصصة بالكامل للتعليم وإدخال نظام ضرائبى يتم من خلاله فرض ضرائب محددة لصالح التعليم فقط، كما تم التخلص من النظام الذى يعطى الامتحانات القول الفصل فى تحديد قدرة الطالب على دخول الجامعات وجرى إعطاء الأنشطة التى يقوم بها الطالب فى المدارس الثانوية على مدى العام أهمية كبيرة فى تحديد مستواه، وبالتالى تأهيله لدخول الجامعة.

وأنشأت الحكومة الكورية فى عام ١٩٨٥ لجنة إصلاح التعليم التى آلت على نفسها إصلاح نظام التعليم وتحسين نظام الدخول للجامعات وتحسين المنشآت التعليمية وضمان وجود نوعية مميزة من المعلمين والارتقاء بالتعليم العلمى وتطوير المناهج وطرق التدريس وإعطاء المدارس والإدارات التعليمية مزيداً من الاستقلالية.

ويقول الدكتور سونج جيون بائى مدير قسم تخطيط السياسات والتنسيق بوزارة التعليم وتنمية الموارد البشرية الكورية إن نظام التعليم الكورى مؤلف من ٦ سنوات للدراسة الابتدائية يسبقها عام واحد للحضانة ويشير إلى أن ٧٠٪ من التلاميذ يدخلون الحضانة. وبعد الابتدائية هناك ٣ سنوات للمرحلة الإعدادية. والتعليم فى الابتدائى والإعدادى مجانى، ثم تأتى المرحلة الثانوية (٣ سنوات) والتى يتحمل فيها التلاميذ نفقات الدراسة، والدخول للتعليم الثانوى يكون اعتماداً على امتحانات محددة، إلا أن الدكتور بائى يقول إن هناك أنظمة مختلفة للدخول إلى التعليم الثانوى لكنها جميعاً تستهدف تحقيق نوع من العدالة والمساواة بين التلاميذ، وكذلك المناطق المختلفة من البلاد.

ويشير إلى أن ٤٠٪ من الناجحين فى المرحلة الإعدادية يدخلون المدارس الفنية الصناعية بأنواعها المختلفة بينما يدخل ٦٠٪ الثانوى العام. ويستطرد قائلاً: كلما اقترب الأمر من دخول الجامعات حدث نوع من الحرب الأهلية داخل الأسر، فالآباء والأمهات يبذلون مع أبنائهم جهوداً ضخمة لكى يتمكنوا من دخول أفضل الجامعات ولذلك تزداد الدروس الخصوصية وتخصص الأسرة كل وقتها تقريباً لمساعدة أبنائها على اجتياز هذه المرحلة. ويشير إلى أن هناك مناخاً اجتماعياً عاماً ربما يكون سببه الثقافة الكورية التى تعطى أهمية كبيرة للتعليم، فهناك خشية من جانب الأسر من أنه إذا لم يذهب أبناؤها إلى أفضل المدارس والجامعات، فإن ذلك معناه تراجع فى مكانة الأسرة. ولأن الكوريين عاطفيون فإنه فى حالة فشل الابن أو الابنة فإنك تسمع صراخاً وبكاءً واتهامات للابن أو الابنة بخذلان الأسرة.

وتنفق كوريا على التعليم أكثر من أى دولة أخرى فى منظمة التنمية والتعاون الاقتصادى (oced) والتى تضم فى عضويتها ٣٠ دولة متقدمة فى العالم، ففى عام ٢٠٠٣ بلغ الإنفاق على التعليم العام ٧,١٪ من الناتج المحلى الإجمالى. الذى وصل إلى ٦٨٠ مليار دولار عام ٢٠٠٥. أما إنفاق الأسر على التعليم الخاص أى المدارس الخصوصية فقد بلغ عام ٢٠٠٣ حوالى ٨,١ مليار دولار، وتوضح الإحصائية التالية نفقات كل تلميذ فى المرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية سواء فى المدارس الحكومية أو فى التعليم الخاص الذى يساعد التلميذ على فهم أفضل للمنهج (أى الدروس الخصوصية).

المرحلة	المدارس الحكومية	التعليم الخاص
الابتدائية	٢٧٤٠ دولاراً	٢١٠٦ دولارات
الإعدادية	٣٤٢٩ دولاراً	٢٧٨٩ دولاراً
الثانوية	٤٢٨٠ دولاراً	٣٠٠٨ دولارات

بالإضافة إلى المدارس الحكومية والمدارس الخاصة هناك ٣ آلاف مدرسة كبرى تعطي الدروس باللغة الإنجليزية، كما أن هناك ما لا يقل عن ٥٥ ألف مدرسة للتدريس باللغة الإنجليزية، ولكن من ذات الحجم الصغير.

ولا حاجة إلى القول بأن المدارس الكورية على جميع المستويات والمراحل مزودة بأجهزة الكمبيوتر، حيث يبلغ إجمالى عددها مليوناً و٣٦٧ ألفاً و٢٠٨ أجهزة يستخدمها حوالى ٧ ملايين و٨١٩ ألفاً و٩٦٧ طالباً وتلميذاً ، أى بمتوسط جهاز كمبيوتر لكل ٥,٧ طالب، وتصل النسبة فى التعليم الابتدائى إلى كمبيوتر لكل ٧,٢ تلميذ بينما تبلغ فى المرحلة الثانوية كمبيوتر لكل ٣,٨ طالب.

ويقتضى الإنصاف هنا القول بأن هذا الاهتمام بالتعليم وضخ مليارات الدولارات كل عام لتحسين مستوى المدارس والجامعات وهيئات التدريس والطلاب لا يقتصر فقط على كوريا الجنوبية، بل أصبح سمة عامة فى منطقة شمال شرق آسيا. فالصين على سبيل المثال بدأت قبل سنوات نهضة تعليمية غير مسبوقة قوامها تحسين مستوى التعليم فى الداخل بشقيه ما قبل الجامعى والجامعى وإرسال عشرات الآلاف من الطلاب كل عام للتعلم فى الخارج، أما اليابان فإنها النموذج الذى أصبحت تسير عليه دول كثيرة فى هذا المضمار ومنها كوريا والصين وسنغافورة وغيرها من دول آسيا والمحيط الهادى. إن التعليم حسب الخبراء الكوريين ليس دين كوريا الجديد وحدها، بل دين الشرق الأقصى الجديد.

خلال زيارة لجامعة سول الوطنية إحدى أهم الجامعات الكورية، التقيت بمجموعة من الطلاب من كليات مختلفة تحدثوا معى عن واقع التعليم الجامعى فى كوريا، حيث تشير الإحصاءات إلى أن هناك ٢١ جامعة عامة ممولة من الدولة و٧٨ جامعة خاصة و١١ كلية للمعلمين و٩ كليات صناعية و٦ أكاديميات عسكرية. ويبلغ عدد الطلاب فى الجامعات حوالى ٤ ملايين طالب.

وبشكل عام فإن ٦٠٪ من الناجحين فى المدارس الثانوية يدخلون الجامعات التى تشهد تنافساً شديداً فيما بينها على اجتذاب أفضل العناصر سواء كانوا طلاباً أو هيئات تدريس. ويقول الطلاب إنه حتى فى الجامعات العامة أى المملوكة للدولة، فإن الطالب يتعين عليه أن يدفع حوالى ١٠ آلاف دولار سنوياً، وهو مبلغ يمكن أن توفره الأسرة دون عناء كبير نظراً لارتفاع مستوى الدخل الفردى، إذ يصل متوسط هذا الدخل إلى حوالى ٢٤ ألف دولار فى العام. ويشير الطلاب إلى أن التعليم الجيد يتطلب إنفاقاً جيداً وبالتالى فإنهم يتوقعون أن تضعهم الجامعات على الطريق الصحيح نحو الحصول على وظيفة جيدة. وخلال النقاش أكد عديد من الطلاب أن الجامعات الكورية تغرس فيهم قيماً ومبادئ تشجع على التفكير ليس فى إطار محلى أو إقليمى، بل فى إطار عالمى، فخريج الجامعات لم يعد يتنافس فقط مع زميله فى هذه الجامعة الكورية أو تلك، بل يتنافس مع خريجى الجامعات الكبرى فى العالم، وذلك بالنظر إلى أن كوريا أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حركة الاقتصاد العالمى، وعلى الجامعات أن تمد الشركات الكورية، وعديد منها بالمناسبة يعمل على نطاق عالمى مثل سامسونج وهيونداى وإل جى وغيرها، بعناصر قادرة على العمل فى أى مكان والتنافس مع أبناء الدول الأخرى.

وفى هذا الإطار، فإن الشركات الكبرى ترتبط بعلاقات وثيقة بالجامعات من خلال دعم الأبحاث العلمية. تتقدم الجامعات بمشروعات إيجابية حول موضوعات معينة إلى هذه الشركات، وإذا وجدت شركة ما أن من الممكن الاستفادة بهذه الأبحاث، فإنها تمول المشروع البحثى. كما أن هذا التواجد من جانب الشركات فى الحقل الجامعى جعل الطلاب يحلمون بالعمل فى الشركات الكبرى، وجعل الجامعات تتنافس على تحسين مستوى طلابها خاصة فى امتلاكهم القدرات العقلية والتقنية ومهارة الحديث باللغة الإنجليزية.

لكن الأثر السلبى لهذا التعان بين الجامعات والشركات، كما يقول الدكتور كيم سونج هيى الباحث فى العلاقات الاقتصادية الدولية هو أن الشركات تركز على الأقسام العلمية والتقنية وبالتالى يكون الخاسر هو العلوم الإنسانية والاجتماعية التى تتضاءل أمام المتخصصين فيها الفرصة لإجراء المزيد من الأبحاث والدراسات، وذلك بالمقارنة بالأقسام العلمية التى شهدت طفرة كبيرة للغاية.

وبعيداً عن تلك العلاقة الجدلية، فإن الجامعات الكورية التى لعبت أحد أهم الأدوار خلال سنوات النضال للانتقال من الديكتاتورية إلى الديمقراطية، مازالت تعج بالنشاط السياسى وصراع الآراء، وإن كانت الأمور حالياً تتركز حول قضايا داخلية، بالإضافة إلى مسألة الوجود العسكرى الأمريكى فى كوريا الجنوبية والذى يعود إلى سنوات الحرب الكورية (١٩٥٠ - ١٩٥٣). ويطالب الطلاب بإنهاء هذا الوجود وقد ساهمت تظاهراتهم فى نقل مقر قيادة القوات الأمريكية إلى خارج العاصمة سول وهى العملية التى ستتم بشكل كامل عام ٢٠٠٨.

ورغم كل ذلك، فإن صوت المظاهرات والاحتجاجات الذى سيطر على الجامعات الكورية فى السبعينيات والثمانينيات خفت ليحل محله نقاشات عميقة حول كيفية تحسين مكانة كوريا الجنوبية فى العالم وتحقيق الوحدة مع كوريا الشمالية والتعامل مع الولايات المتحدة على أساس الشريك وليس التابع. ■

جمعية أصدقاء **أحمد بهاء الدين**

جمعية ثقافية مسجلة بوزارة الشئون الاجتماعية ومشهرة برقم ٢٨٥٠/٩٦

منحة سنوية عشرة آلاف جنيه مصرى ١٠,٠٠٠ جنيه

جائزة سنوية عشرة آلاف جنيه مصرى ١٠,٠٠٠ جنيه

جائزة أحمد بهاء الدين
السنة التاسعة (٢٠٠٦)
جائزة الشباب العربى فى كل الوطن العربى

يعم وطننا العربى اهتمام واسع وسعى إلى الديمقراطية والى تغيير أسس العمل الحزبى والمشاركة الشعبية فى الحكم، وبعيداً عن طرق التناول التقليدية فى استعراض التاريخ وتناول الماضى والبحث فى النوايا. فهل يمكن أن يكتب الشباب عن:

"مستقبل وتحديات التحول الديمقراطى فى الوطن العربى"

بغرض تقديم رؤية مستقبلية لإشكاليه الديمقراطية فى وطننا العربى والتحديات التى تواجهها، مع إمكانية الإستعانة بالتركيز والدراسة على نماذج قطرية أيا كانت. مستخلصا النتائج والتصورات المستقبلية والآليات التى يمكن إقتراحها.

وفى هذا الإطار تعلن الجمعية عن مسابقتها السنوية التاسعة لتأليف كتاب باللغة العربية يتناول هذا الموضوع برؤية مستقبلية.

◆ شروط التقدم للمسابقة ◆

١ - الانتماء إلى بلد عربى.
٢ - عدم تجاوز سن الأربعين عند إقفال باب الاشتراك (١ أكتوبر ٢٠٠٦).
٣ - تقديم ما يلى من أصل مطبوع وصورة واحدة :
- السيرة الذاتية.
- خطة البحث فى حدود صفحتين.
- فصل من الكتاب أو جزء منه فى حدود خمسة آلاف كلمة.

٤ - أن يكون العمل جديدا ولم يسبق تقديمه لأية جهة أخرى.

ويترتب على مخالفة أو عدم مراعاة أى من الشروط السابقة عدم دخول البحث المقدم فى المسابقة.

◆ إجراءات المسابقة ومنح الجائزة ◆

المرحلة الأولى

١) يقوم المشترك بتسليم أو إرسال الأوراق المطلوبة فى موعد غايته أول أكتوبر (٢٠٠٦/١٠/١) على عنوان الجمعية برقم ٩٣ شارع قصر العينى، الطابق الخامس، شقة ٣٣، القاهرة، أو على ص.ب ١٨٦ الدواوين (أو الإتصال برقم ٧٩٢٤٠٣٢ - ٠١٠٤٩٧٣٦٣٧).

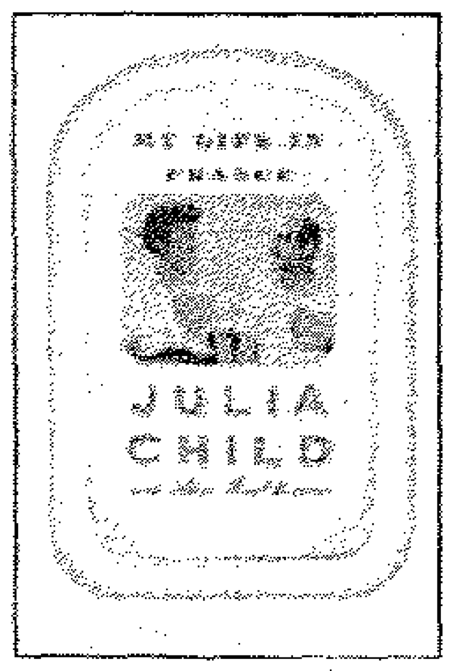
٢) يتم عرض المشاريع المقدمة على لجنة تحكيم تختار من بينها ما يستحق الحصول على منحة بحثية قدرها عشرة آلاف جنيه مصرى لمتابعة الكتابة. وللجنة أن تطلب من مقدمى المشاريع الحضور لمقابلة أعضائها.

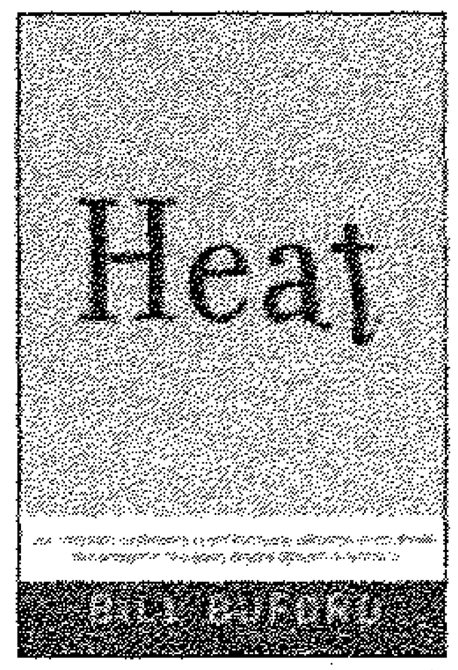
٣) تنظم الجمعية أمسية ثقافية فى الأول من نوفمبر (٢٠٠٦/١١/١) يدعى إليها الفائزون بالمنح البحثية وأعضاء الجمعية ونخبة من الكتاب والناشرين والمفكرين، ويقوم كل من الفائزين بعرض موضوعه.

المرحلة الثانية

خلال العام التالي علي الفوز بالمنح البحثية يقدم كل فائز من الفائزين بها مسودة كاملة لكتابه في موعد تحدده الجمعية. وتختار لجنة التحكيم أفضل عمل كامل ليفوز صاحبه بجائزة أحمد بهاء الدين السنوية وقدرها عشرة آلاف جنيه مصرى بجانب قيام الجمعية بالمساهمة فى نشر كتابه.

المركز الرئيسى ٩٣ شارع قصر العينى، الطابق الخامس، شقة ٣٣، القاهرة
بريد: جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين ص.ب ١٨٦، الدواوين، القاهرة
تليفون وفاكس: ٧٩٢٤٠٣٢ موبايل ٠١٠٤٩٧٣٦٣٧





أكل المطاعم

جيسون إبستاين

سرعان ما أصبحتُ عضواً فى فريق الطهاة، محبوساً داخل هذه الحجرة الخلفية، وسكاكين الطهاة تصطدم بألواح التقطيع بنفس الطريقة الإيقاعية المتأرجحة، كذا فعل سكينى، عملنا بلا نوافذ ولا ضوء طبيعى، بلا اتصال بالعالم الخارجى، ولا حتى فكرة لدينا عن طبيعة الجو

إن بقاء كل المخلوقات يعتمد على الاعتدال، تلك هى نتيجة تكيف ألف عام مع حدود البيئة من خلال التجربة والخطأ: فالحيوانات البرية وطيور الحديقة لا تقتات أو تتناسل على نحو مفرط وإلا ستنتهك توازناً قلقاً ضمن موطنهم المخصص لهم لينتهى بهم الأمر إلى الهلاك. على الجانب الآخر

Heat: An Amateurs Adventures as Kitchen Slave, Line Cook, Pasta-Maker, and Apprentice to a Dante-Quoting Butcher in Tuscany
(الحرارة: مغامرات هاو كعبد فى المطبخ وطاه وصانع للفطائر ومتدرب تحت يدى جزار فى توسكانى يستشهد بكلمات دانتى)
Bill Buford
New York: Knopf, 2006

My Life in France
(حياتى فى فرنسا)
Julia Child, with Alex Prudhomme
New York: Knopf, 2006

بترتيب مع: مجلة
New York Review of Books
ترجمة: هالة صلاح الدين حسين

نحن البشر - بإرادتنا الحرة نفينا أنفسنا من جنة الغريزة النقية - نفتقر إلى تلك الضوابط الأوتوماتيكية. إذ نكابد بدلاً منها شعوراً بالذنب ونخترع آلهة لا تخلو من القسوة ونفرض قوانين للإنفاق ونمتثل للمحرمات الجنسية: وعندما نفشل فى هذه الأفعال، نكفر عنها فى صالات الرياضة وبرامج تحقيق الذات المكونة من عشرين خطوة أو نلجأ إلى الأطباء النفسيين أو نستحيل بوذيين نكافح كى نفرض على أنفسنا ما تتقيد به المخلوقات الأخرى من حدود بغريزتها.

وعلى عكس العديد من الكائنات الناجحة التى يشكل التناغم البيئى جزءا لا يتجزأ من جيناتها، لا بد للإنسان، عدا مَن يجابهون بالفعل الانقراض فى مواطنهم المتفسخة، أن يقرر من خلال العادة أو الصراع الحفاظ على شهيته القوية للطعام والجنس فى مقابل مغريات ثقافة تجارية تروج بلا هوادة لتلك الرغبات غالباً فى نفس الوقت. لقد أوحى بتلك التأملات «بابو» وهو مطعم ثلاثة نجوم بمنطقة قرية جرينتش والموقع الأساسى لسيرة بيل بوفورد الذاتية.. فالمواجهة بين الاعتدال والرغبة تبرز على نحو عنيف فى مثل تلك الأماكن من ثقافتنا، حيث ينساق من عانوا طيلة اليوم فوق السير الرياضى ليجعلوا من أنفسهم مرغوبين فى أعين الآخرين، ينساقون مساء وراء شهواتهم البدائية. إن موضوع بوفورد هو الطعام إلا أن نظيره الشهوانى قلما يغيب عن الأنظار مهما تسامى.

سوف يجذب كتاب الحرارة انتباه القراء المهتمين بمشكلة الولع الشديد العنيد بينما سيستمتع آخرون عديدون بسرد بوفورد المحكم لقصة تمرنه وهو فى منتصف العمر بمطعم شهير بنيويورك، عاصمة العالم الآن للطعام الفاخر. إن ما يجعل كتابه كتاباً غير معتاد ضمن تصنيفه الأدبى، بعيداً عن نوعية نثره، هو أنه يستمتع بمراقبة عمل الطهاة أكثر من تذوق أطباقهم. فعلى العكس من جاك كازانوفا لكن مثل الدكتور كينزى، الذى لم يعبأ بنشاطه الجنسى إنما بالمراقبة الدقيقة لنشاط الآخرين الجنسى، لم يكن بوفورد محباً للطعام مثلما كان محباً لمراقبة الطهاة، هوس يشترك فيه كثيرون كما يتبدى لنا من خلال الكتب الكثيرة وبرامج التليفزيون التى تناقش الموضوع وكذلك المطابخ «المحترفة» التى يركبها المطورون على نحو دورى بغرض استغلال أوهام المطبخ التى تخامر من يشترون بيتاً من الأغنياء.

كان بوفورد محرراً بارزاً بإحدى المجلات إلا أنه ترك وظيفته فى يناير عام ٢٠٠٢ وسط رحلة حياته وكذا ترك حصافته بمثل العاطفة التى تنتاب فى العادة الشهية المنتجة للرجال فى مثل سنه. استقال من النيويوركر وألزم نفسه بأن يصبح «عبداً بالمطبخ»، متدرباً لا يتقاضى أجراً، لصديقه الحبيب ماريو باتالى - الطاهى والمالك الشهوانى لأحد المطاعم. جعله ظهوره بصفته مولتو ماريو على محطة «شبكة الطعام» شخصية هامة ذائعة الصيت فى مطعمه بابو الذى كان أشبه بالمزار. إلا أن بابو لم يكن فقط مقصداً إلزامياً على كل السياح بما يحويه من صورة مالكه البيضاوية المعلقة بالحانة، وصورة شخصية «هامتى دامتى» بالحجم الطبيعى تنسدل منه ضفيرة برتقالية ويلبس سروالاً لا يتجاوز الركبة وقبقاب المطبخ.

يتسم مطعم بابو بالرقى وهو يقدم قائمة طعام جريئة وغالباً ما تكون المعية تعكس التزام باتالى المتقد بطعام توسكانى التقليدى. لم تشهد نيويورك مثيلاً لباتالى على الإطلاق ومن المستبعد أن يجىء مرة أخرى مثل ذلك



المزيج الفوار من العبقرية والذوق والحماسة والتصميم الفولاذى والشهوة المفرطة. بدأ هذا الكتاب، الذى هو فى الحقيقة مجموعة من المقالات المرتبطة، كمهمة أسندتها مجلة نيويوركر لكتابة لمحة من حياة باتالى. إلا أن بوفورد ود لو يصبح نسخة منه وليس كاتباً لسيرته وحسب. وعليه تطوع فى هذا الكتاب للعمل دون أجر عند باتالى بنيويورك بعدها تدرب عند الطاهى التوسكانى الذى علّم باتالى فن المعجنات. يحكى كتاب الحرارة قصة علاقة غرامية وقعت بالمطبخ من جانب واحد، علاقة انخرط فيها بوفورد أحياناً انخراطاً لم يخل من الكبت فيما لم يبد باتالى رد فعل مساوياً.

وصف بوفورد مطبخ بابو، الذى وطأه بوصفه «عبداً» بدون الأجر فى يناير ٢٠٠٢، بأنه جحيم ملتهب بضيقه وحرارته، تحدق به الأخطار من سكاكين لامعة وألسنة دهنية من اللهيب تنطلق من الموقد لتبلغ السقف. كان الطهاة يعملون على المشواة وعلى قدور من المعجنات الفائرة، كانوا يستجيبون لطلبات تصك آذانهم من فم صارخ لطاه عصبى المزاج يبث الرعب فى النفوس ويتملكه الذعر مخافة أن يقدموا شريحة لحم لم تستو بعد إلى ناقدة جريدة نيويورك تايمز، الناقدة التى قيمت أداء بابو بثلاثة نجوم والتى قد تعرج عليهم دون سابق إنذار حتى تعيد النظر فى حكمها فتغرق المكان بطهاته. أو أن يطرأ ما هو أسوأ، أن يصل باتالى نفسه، الذى كان قد سلّم المطبخ إلى الطهاة قبل أن ينضم إليهم بوفود، وسط تقديم عشاء مشحوناً ليلفى سبباً للشكوى. وقع هذا بليلة مفعمة بالحركة عندما اعترضهم باتالى وهم فى طريقهم إلى حجرة الطعام ليجد قطعة طرية غير مستوية من لحم الخنزير وأرتباً مطهواً زيادة عن اللازم كان بوفورد قد جهزه مما أدى إلى أن فصله باتالى من موقعه عند المشواة بعد أن فاز به بصعوبة. اضطر بوفورد كى يترقى إلى «عامل المشواة» إلى أن يبدأ كمساعد لمُعد الطعام، فكان يحضر إلى المكان مبكراً حتى يقطع الكرفس ويكعب الجزر ويفسخ البط وغيره مما يحتاجه الطهاة من أجل وجبات المساء. وصف نفسه فى كتابه بأنه شخص ينتقص من قدر نفسه، يتميز بعين تلاحظ أدق الأشياء ويمهر سريعاً فى تعلم التقنيات الأساسية. ما لبث أن عاد إلى المشواة المتقدة بمجرد أن غادر باتالى ثم عمل مع قدور خطرة غصت بالمعجنات. انصرمت سنة أتقن خلالها أعمال المطبخ بالكامل ثم تهيأ لمتابعة تعليمه فى توسكانى على خطى باتالى.

كانت ساعات بوفورد الطويلة فى بابو - امتدت فى الغالب من الصباح الباكر حتى منتصف الليل يقطعهما راحة عند منتصف الظهيرة - بالنسبة له كالإكسير المقوى. فى اليوم الأول له... جال بنظره فى أركان المطبخ. كان طهاة المعجنات يقفون بجانبى واثنان منهم يقطعان الأناناس. تنهض أمامى حائط من المواقد تعلوه أوعية ضخمة تغلى فوقها السوائل. قام خلفى رجلان يعدان المعجنات. رقد على الأرض خلاط ضخم يقرع فى أصوات متواترة كمية كبيرة من العجين. آنت الساعة السابعة وخمس عشرة دقيقة صباحاً... أسرتنى روائح المطبخ. عندما فرغتُ من إعداد الكثير من الأشياء عند منتصف الصباح، سرعان ما تم طبخها بالتتابع، ففاحت الروائح، الرائحة بعد الأخرى، فى موجات شأنها شأن ألحان الموسيقى. هبت رائحة اللحم وطغت على المطبخ الرائحة الغنية اللزجة للحمل البارد. ثم تضوعت خلال دقائق رائحة الشوكولاته وهى تذوب فى وعاء معدنى. وفى نهاية لا سبيل إلى توقعها نفذت إلى أنفى رائحة كريهة تشبه رائحة الكرش (كان انفصالاً عجيباً، أن ينعم أنفك برائحة الشوكولاته يليها فى لحظة طبيخ أحشاء بقرة). ثم انتشرت رائحة سمك ناضج - كان أخطبوطاً فى حوض ساخن - تلحق بها رائحة أناناس. وهكذا أقبلت، الرائحة بعد الأخرى - ثمرات العنبية ومرق الدجاج والكيمياء المريحة للحم العجل والخنزير واللبن فيما يعد أحدهم صلصة «البولونيز راجو».

قد يلاحظ القراء فى تلك الفقرة الخليقة بفوكنر نزعة بوفورد إلى الثرثرة، كانت إلهاء للقارئ سيتزايد بتطور القصة.

... سرعان ما أصبحتُ عضواً فى فريق الطهاة، محبوساً داخل هذه الحجرة الخلفية، وسكاكين الطهاة تصطدم بألواح التقطيع بنفس الطريقة الإيقاعية المتأرجحة، كذا فعل سكينى، عملنا بلا نوافذ ولا ضوء طبيعى، بلا اتصال بالعالم الخارجى، ولا حتى فكرة لدينا عن طبيعة الجو؛ لا شئ سوى هاتف واحد رقمه ليس مدوناً بالدليل ومستعص على البلوغ - يا لها من راحة عظيمة أن يحاط المرء بهذه الارتباطات القوية بالوجبات المترعة بالبهجة.

عل بوفورد يصف هنا النشوة البدائية وقد انعزلت، كما فى الأغانى الغرامية، عن العالم بما لا يدع وسيلة للوصول إليها: من يبالى لو أن الجو بارد فى الخارج؟ وبالنسبة للهاتف، دعه يرن. لم أقرأ مثل تصوير

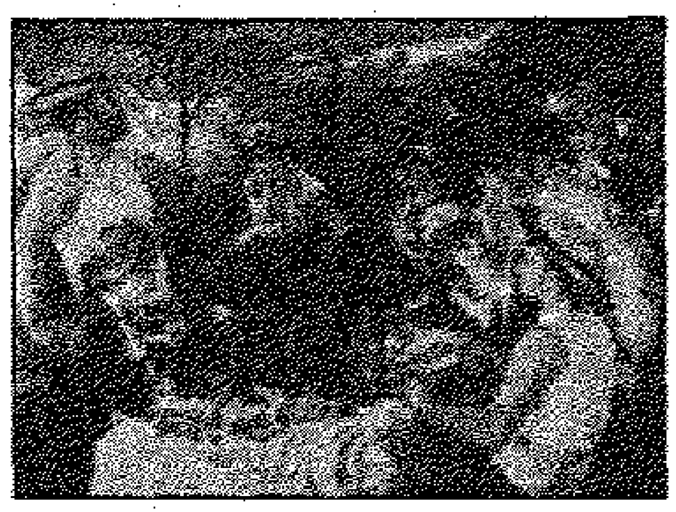
بوفورد المثير للطعام منذ أن طالعت السرد النضير لعشاء م.ف.ك فيشر مع حبيبها الجديد بمدينة ديجون حيث استدعت كل صنف مختلف من الطعام بنفس الكثافة الشهوانية شأنه فى ذلك شأن تبادل الغرام الذى استمر فى نفس الوقت بعقلها وإن لم تنوه به.

لا شك أن بوفورد المولع بالأدب واع لهذا الحس المتزامن. فهو يتأمل... إغراء السيدة وترز لتوم جونز... حيث تتلاشى الخطوط بين «الرغبات والشهية» وتمتزج تنهدات السيدة وترز الناعمة بالتهام توم الموشى بالحيوية لشريحة كبيرة من لحم البقر المشوى. طالما ارتبط الطعام بالشهوانية وأنا أظن أن الطهى بحب لهو انقلاب لمبدأ مخالف: الطهى من أجل أن تُحَب. فالمقدمة المنطقية للوجبة الرومانسية هى أن بإثارة شهوة ما وإرضائها سوف تُثار شهوة أخرى إثارة مشابهة... فقد أخبرنى ماريو ذات مرة أن المعجنات الفرنسية المطهية بالزبد توضح كيفية امتزاج هذه الأشياء، «تنتفخ كما المرأة المثارة». وقال فى إحدى المناسبات إن نبات المردقوش يفوح منه عبق زيتى كالذى يفوح من جسد المرأة: «إنه أكثر الأعشاب إثارة». تفوقت «ليديا باسستيانيش»، أم شريك ماريو وطاهية معروفة تمتلك مطعمها الخاص، فى وضوحها. «ما الذى تضعه أيضاً داخل جسد إنسان؟» سألت سؤالاً بلاغياً عندما التقيت بها على الغداء فى يوم ما. «هل تفهم ما أقوله؟».

بحلول مارس ٢٠٠٣ كان بوفورد قد استعد. كان يعد المعجنات لفترة ببابو وأراد أن يلمس بنفسه كيف تعلم ماريو أساليبه فى إيطاليا:

... أنا لا أرغب فى الانتقاص من أهمية ما أمضيته من وقت بمحطة المعجنات فى بابو - فسوف أذكره طيلة حياتى - حسبى ما أعلمه الآن عن المعجنات الرفيعة والمحار إلا أنى ابتعدت كثيراً عن هدفى الحقيقى.

إن الإشارة إلى المعجنات الرفيعة والمحار لا تستحضر خبرة عميقة لأن ما تعلمه من باتالى ببابو لم يكن بأزيد مما سيلاحظه على الفور أى شخص أعد هذه الوجبة البسيطة: لا تنبع النكهة من محار البطلينوس الذى يتجفف وهو ينفتح داخل مقلاة ساخنة، إنما من سائل البطلينوس الذى أرسل نكهة زيت الزيتون المعبأ برائحتى الثوم والفلفل الحار والذى رميت به المعكرونة إلى أن تُغطى جيداً ثم يُرش عليها بخفة البقدونس المسطح. يضيف باتالى مقداراً طفيفاً من النبيذ الأبيض ولحم الخنزير المقدد والزبدة ليصنع توليفة غنية تضيف ثقلاً



يتناسب مع صلصة البولونيز راجو الزيتية الرائعة التى يجهزها باتالى إلا أنها لا تناسب صلصة البطلينوس التى ينبغى أن تكون نسمة بحرية معدة للأكل. يستعمل أيضاً حيوان الكوكل من نيوزيلاند بدلاً من محار البطلينوس قوى النكهة القادم من مانيلا.

تدرب بوفورد بربيع عام ٢٠٠٣ عند «بيتا فالديسيرى» فى بوريتا، بلدة جبلية بالقرب من مدينة فلورنس على الطريق من بولونيا. تعلم باتالى من بيتا ترقيق المعجنات عندما كان يتدرب بمطعمها «لا فولتا» عام ١٩٨٩ حيث أعاد طهى قائمة طعامه فى «بو»، مطعم صغير بمنطقة قرية جرينتش شجع نجاحه باتالى على افتتاح مطعم بابو الأكبر. عرضت بيتا، الغاضبة من ازدهار عمل باتالى، أن تُعلم بوفورد كيفية صنع التورتيلينى شريطة أن يعدها ألا يشارك باتالى ناكر الجميل المعلومات. وافق بوفورد وبدأت دروس استغرقت شهوراً. والتورتيلينى فطائر صغيرة من العجين الطازج تُحشى عادة بخليط من لحم الخنزير والدجاج ولحم الخنزير المقدد والمورتاديلا - سجق متوسط التتبيل ملىء بلحم الخنزير - ثم يحاط بالبيض ويُلطف الطعم بإضافة جبن البارميزان ويُحلى بالقليل من جوزة الطيب - مكون أساسى يضاف غالباً إلى مرق الدجاج بالعديد من

القوائم الإيطالية-الأمريكية. ويسهل صنع فطائر التورتيلينى يدوياً إلا أنها تستغرق وقتاً طويلاً، لذا تصنع الآلات أغلبية التورتيلينى المتوافر بالأسواق. كان حشو بيتا بمثابة اكتشاف عظيم لبوفورد: فاحت الرائحة نفاذة حادة. ماذا كانت؟ لحوم البولونيز؟ امتزاج النيئ بالمقدد؟ أقحمتُ رأسى فى سلطانية فاستدعى عقلى: ما يعتلى البيتزا من مكونات وشراب البيض وحفلة شواء فى الرابع من يوليو. كانت مزيجاً من كل عطلاتى... كانت طعماً كنت أعلم أنى لن أصادفه بأى مكان فى العالم. توصلتُ فى النهاية إلى أنه عطر مدينى يرجع إلى القرون الوسطى. وددت لو اعتقدتُ أن هذه الرائحة كانت شذا مطبخ فى بولونيا تعلم أن يصنعه فرد من أفراد عائلة بيتا...

تبدو كلمات بوفود هنا وكأنها صادرة عن الشخصية الأوبرالية «دون جيوفانى» وهو ينهمك فى سعيه الدؤوب وليست عن مراسل دقيق يصور عملية حشو معتادة للمعجنات.

يكتب بوفورد، وما يزال تحت تأثير مزاج الأوبرا، أن بيتا رفضت الإفصاح عن سر التورتيلينى النهائى- التجميع الأخير للمعجنات والحشو - إلى أن أيقنت أن بوفورد أوفى بوعده بعدم إطلاع باتالى بما علمته إياه حتى الآن: ألا وهو أن يجعل العجين أرفع ما يمكن. وكى يثبت بوفود أنه لا يحنث بوعده اضطر إلى العودة إلى نيويورك ثم الرجوع مرة ثانية إلى بوريتا، رحلته الثالثة. لو لم

يتناه إليها خلال رحلته أن باتالى أضاف التورتيلينى إلى قائمة مطعمه بابو، ستُطلع بوفورد على بقية السر. اقتنعت أخيراً بأنه رجل أهل للثقة فكشفت له عند عودته إلى بوريتا كيف يصنع فطائر مربعة صغيرة تكاد نحافتها تماثل نحافة الهواء ثم يضعها على إصبعه ثم... يملأ المربع الصغير بأكبر كمية ممكنة من الحشو ويطوى إحدى زواياه مع الزاوية المقابلة ليشكل مثلثاً صغيراً إنما منتفخ. بعدها تقلب رأسىَ المثلث ثم (وهى الخطوة الحاسمة) تجذب الزاويتين الباقيتين إلى الأمام وتضغط على الفطيرة كلها لتصنع دائرة. عندما تقلب الفطيرة، ستساورك الدهشة لمرأى ما أبدعته: إنها سُرة. (ماذا بوسعى أن أقول؟ إنها شهوة جامحة).

قدّم بوفورد نفسه حتى الآن - بدقة على ما أفترض - باعتباره شخصاً غريب الأطوار على نحو معتدل إلا أن ما نزل عليه من اكتشاف عظيم بمطعم بيتا قد يحمل المرء على أن يتساءل ما إذا كانت كلمة «معتدل» هى الصفة الصحيحة لوصف رحلات بوفورد بما افتقرت إليه من حس عملى. فبعد أن تعرّف على لغز التورتيلينى، أبلغ بوفورد زوجته الصابرة فى نيويورك أن عليهما العودة إلى إيطاليا. إن «التورتيلينى»، أخبرها، مجرد صنف واحد وأنا صرت مقتنعاً أن ثمة أسراراً بالمطبخ أحتاج إلى تعلمها - موقفاً ما أو لمسة ما، إنه الشىء الذى طالما قال لى ماريو إننى لن أتعلمه غير «هناك» - لذا يتعين علينا الرجوع.

أصر على العودة حتى يكون فى خدمة أستاذ توسكانى آخر، داريو سيكينى، الذى يقال عنه إنه أبرع جزار فى إيطاليا.

إن القراء المهتمين بمعرفة مصدر اللحم البقرى التوسكانى (أفضل لحم بقرى توسكانى يأتى الآن من مزرعة صغيرة بأسبانيا) وأسمائه (تتصف الأسماء التوسكانية للجهاز العضلى لحيوانات المزارع بتفردها) وتقطيع ثم إعادة ضم أجزاء الحيوان لصنع سجق السوق التوسكانى سيخامرهم انبهار بالغ، كالذى أصابنى، لما تعلمه بوفورد من داريو.

سيلحظ القراء أيضاً أن هذا الهوس بأسرار الطهى التوسكانى بات مرضياً. إلا إذا أراد بوفورد أن يفتتح محلاً للجزارة فى توسكانى لأن لا مكان آخر على وجه الأرض يمكن فيه تطبيق دروس داريو تطبيقاً مريحاً، فما سيتعلمه من داريو يكتسب طابعاً أكاديمياً ليس إلا. وقد ألقت بداية هذا الولع فى نفس بوفورد ضيقاً إلا أنه لم يستطع تمالك نفسه.

أقحمتُ رأسى فى سلطانية فاستدعى عقلى: ما يعتلى البيتزا من مكونات وشراب البيض وحفلة شواء فى الرابع من يوليو. كانت طعاماً كنت أعلم أنى لن أصادفه بأى مكان فى العالم

قال بالتالى... إنى لو رغبتُ فى إتقان الطهى الإيطالى، يجب أن أتعلم اللغة وأن أشتغل فى إيطاليا، فتفكرتُ: بوسعى عمل ذلك أيضاً... ثم أقحمتُ فى رأسى أنى ينبغى أن أُدخل تعديلات بسيطة على تعليم ماريو للطهى... رمتنى زوجتى - وقد عانت طويلاً - فى لهجة هادئة بما يوصف به عادة المهووسون (الولع الشديد والافتقار إلى حسن تقدير الأمور وكذا العجز عن إدراك الحدود) - غير أن المسألة لم تتضح لعينىّ حتى عندما استيقظتُ فى نيويورك وكنتُ على علم أنى يجب أن أعاود، إلى داريو. «هل أنا مرغم على الرجوع؟ بالقطع لا... لكن ماريو ائتمننى على قضاء المهمة.... كيف لى أن أمتنع؟».

عاود فى آخر الأمر إلى نيويورك وانهى إلى باتالى ذات ليلة على العشاء ما تعلمه من داريو عن طرق القطع المختلفة: رحت أثرثر عن «الجريللو»، أخمن ما يمكن صنعه باستخدام «السوتوفيسا»، أكاشفه بمعجزات يمكن القيام بها بقائمة الذبيحة الأمامية... «أرجوك»، قال ماريو، «أنا ليست لدى أية فكرة عما تتكلم عنه».

كتب بوفورد ما بين رحلاته إلى ماريو «كنتُ بالبيت وأردت الحصول على خنزير»، لذا طلب خنزيراً من السوق الواقع فى جنوب مانهاتن وعلّقه بمقدمة دراجته البخارية. حمل وزوجته تجلس فى الخلفية ذبيحة تزن ٢٢٥ رطلا إلى بيته الكائن على بعد عدة مبان. كان الخنزير البالغ وزنه ٢٢٥ رطلا المنقول فوق دراجة بخارية عبر مانهاتن المزدحمة فى وضح النهار مشهداً ندر أن رآه الناظرون، عله لم يُر من قبل ولم يُر بعدها، إلا أن بوفورد بدا غافلاً عن المنظر. أمسى الآن يفكر بجدية فى افتتاح محلاً للجزارة فى مانهاتن على غرار محلات توسكانى، كافح مع الذبيحة حتى أدخلها مصعد مبناه ثم حشرها بالمطبخ. أنفق أسبوعاً يقطعها العضلة بعد الأخرى ثم عدل عن فكرة محل الجزارة، وكذلك رفض عرض باتالى أن يدبر له عملاً بأحد المطاعم. عله غدا طباخاً إلا أنه لا يزال كاتباً. انتوى بدلاً من العمل بالطهى أن «يعبر جبال الألب وينتظر ما سيكشف عنه المستقبل. لا بد أن أقصد فرنسا»، حيث هاجر طهى إيطاليا الفظ فى عصر «كاثرين دو ميديتشى»، ليستحيل طهياً راقياً.

لحسن حظ بوفورد وصلت جوليا تشايلد إلى هناك أولاً. فهى لم تكتف بتعلم الطهى الفرنسى إنما أخضعته للمقاييس العقلية وقدمته إلى الولايات المتحدة محدثة بذلك ثورة فى الذوق الأمريكى سرعان ما ستنتشر إلى كل أرجاء العالم المزدهر. لن يلقى بوفورد حجة أفضل من جوليا تشايلد لترشده إلى الطهى الفرنسى كما فعل باتالى فى الطهى التوسكانى. كانت جوليا قد كتبت فى السنوات الأخيرة من عمرها المديد مذكرات ممتازة تحكى فيها ما تولاها من صحوة فى الطهى بفرنسا ثم نُشرت بعد وفاتها.



التقت جوليا تشايلد بزوجها بول خلال الحرب حين كانا يعملان بمكتب الخدمات الاستراتيجية فى آسيا. وفى نوفمبر من عام ١٩٤٨ كانت جوليا تشايلد (فى السادسة والثلاثين) وزوجها بول (كان يكبرها بعشر سنوات) قد ترجلا من المركب بميناء لوهافر وانطلقا فى سيارتهما الأمريكية عبر ريف دمرته الحرب. كانت وجهتهما باريس حيث توظف بول بوكالة إعلام الولايات المتحدة. صارا إلى مدينة روان وقت الغداء فراجع بول خريطته وذهب مع جوليا إلى مطعم يدعى «لا كورون» يقع بمنزل مصنوع من الخشب يعود إلى عام ١٣٤٥. تتذكر جوليا تشايلد، بمعاونة خطابات كتبتها وقتذاك واحتفظ بها زوجها، فى كتاب حياتى فى فرنسا صحوتها فى الطهى يومها، تتذكرها بنفس الدقة والابتهاج والثقة المعتدلة التى ستقود بها ثورة فى المطبخ الأمريكى بعدها بعشرين سنة.

شهد القرن الذى استغرقه عمرها العديد من الثورات أكثريتها لا قيمة لها. أما ثورة جوليا فقد كانت هائلة. كانت ثورة حقيقية لأنها أطاحت بالمؤسسات القائمة وبثت وعياً جديداً ومفردات حديثة، والآن يهيمن أنصارها على عالم الطهى حيث اندلعت ثورتهم. عل بعض التابعين عانوا من بعض التدليل المفرط لحواسهم إلا أن ملايين غيرهم طبخوا وأكلوا أفضل بكثير مما كانوا لو أن جوليا لزمت مدينة باسادينا وتزوجت المصرفى الذى آثره أبوها الماكارثى على الألمعى الديمقراطى، أحد الألقاب المفضلة لدى جوليا، بول تشايلد المحب للجمال. ساد الدفء فى الداخل (بمطعم «لا كورون»). اتسمت حجرة الطعام بالراحة والتقليدية بلونيها البنى والأبيض. ما كانت بالمتواضعة ولا بالفاخرة. قامت فى النهاية البعيدة مدفأة مهولة ذات قضيب دوار يطهى حوله شىء تنفذ منه روائح مبهجة. حيانا المترودوتيل، رجل نحيف فى خريف العمر ذو شعر أسود تعلو ملامح وجهه سيماء الجدية. بادله بول الحديث فجرت ابتسامة على ثغر المترودوتيل ورد رداً حميماً وكأنهما صديقان من زمن. ثم أرشدنا إلى مائدة جميلة ليست ببعيد عن المدفأة. كان كل الزبائن فرنسيين وقد استشعرت أنهم يعاملون بنفس ما استقبلنا به النادل من كياسة... بعد أن اتخذنا مجلسينا، نمى إلىّ صوت رجلين من رجال الأعمال يرتديان بذلتين رماديتين ويجلسان إلى المائدة المجاورة. كانا يسألان النادل، رجلاً مهيباً يفوق الأول سناً. كان النادل يومئ بقائمة طعام ويجيب على أسئلتهما.

«عم يتحدثان؟»، قلتُ همساً لبول

«يخبرهما النادل عما طلباه من دجاج»، همس رداً علىّ. «كيف تربى وكيف سيطهى وما هى الأصناف الجانبية التى ستلذ لهما معه وأى أنواع النبيذ ستوافق وجبتهما». «نبيذ؟» قلت، «على الغداء؟» لم يسبق لى أن احتسيت نبيذاً بخلاف برجاندى كاليفورنيا بدولار وتسعة عشر سنتاً وبالقطع لم أحتس أياً منه وسط النهار.

شرح لى بول أن الطعام الجيد فى فرنسا يعتبر مزيجاً من الرياضة القومية والفن الرفيع، ويُقدم النبيذ دوماً على الغداء والعشاء. «السر فى الاعتدال»، أطلعها. ثم ما هى إلا وقد امتلأت حجرة الطعام بروائح تداخلت على نحو مدهش، روائح تعرفتُ عليها وإن لم أستطع تسميتها. كانت الرائحة الأولى أشبه بالبصل - «إنه القفلوط»، استنشق بول، «محمر فى زبد طازجة». («ما هو القفلوط؟» سألتُ بلسان مرتبك. «سترين»، أجابنى.) ثم حلت علينا رائحة دافئة كما النبيذ، علها كانت صلصة شهية تُجفف على الموقد. تلتها نفحة من شىء نفاذ: يخلط الطاهى السلطة بسلطانية كبيرة من الخزف ومعها الليمون وخل النبيذ وزيت الزيتون والقليل من الملح والفلفل.

قرقرت معدتى جوعا

لم أتمالك أن ألحظ أن بهجة هادئة غلفت أوجه النُدل وكأن مهمتهم الوحيدة فى الحياة هى أن يجعلوا زبائنهم ينعمون بالراحة وحسن الخدمة. انسل أحدهم فى هدوء بحذاء مرفقى. رمق بول قائمة الطعام ثم سأله عدة أسئلة بلسان فرنسى طلق. لاح النادل مستمتعاً بما يتجاذبه من حديث مع زوجى. ياه، كم كنتُ متلهفة لأكون طرفاً فى هذا الحوارا بدلاً من الكلام، جرت ابتسامة على فمى وأومأتُ برأسى بلا فهم وإن حاولتُ أن أستوعب كل ما يدور حولى.

بدأنا الغداء بست محار يستقر فوق نصف صدفة. كنتُ معتادة على المحار البائخ الآتى من

شهد القرن الذى استغرقه عمرها العديد من الثورات أكثريتها لا قيمة لها. أما ثورة جوليا فقد كانت هائلة لأنها أطاحت بالمؤسسات القائمة والآن يهيمن أنصارها على عالم الطهى حيث اندلعت ثورتهم



واشنطون وماسيتشوسيتس والذى لم أستسغه قط إلا أن هذا الطبق البرتغالى تمتع بنكهة مالحة مثيرة وإحساس ناعم ألقى فى نفسى الدهشة لجدته. قُدم المحار مع حلقات من البا دو سيجال، وهو خبز باهت اللون مصنوع من دقيق الجاودار بُسطت عليه زبدة خالية من الملح. شرح لى بول أن الفرنسيين لديهم، كما هو الحال مع النبيذ، «مناطق» للزبدة، أماكن خاصة تنتج كل منها أنواعاً مختلفة الطعوم من الزبدة... كانت مدينة روان تشتهر بأطباق البط غير أن بول قرر بعد مشاورات مع النادل أن يطلب سمك موسى بالزبدة. جاء الطبق كاملاً: سمكة موسى ضخمة مسطحة اصطيدت من ميناء دوفر. تلونت باللون البنى لما كساها من صلصة الزبدة المتناثر فوقها بقدونس مفروم. تحرص النادل وهو يضع الطبق أمامنا ثم تراجع إلى الخلف قائلاً، «بون ابيتى!» أغلقتُ عينىَ واستنشقتُ العطر المتصاعد. ثم رفعتُ إلى فمى ملء شوكة من السمك وقضمتُ لأمضغ بعدها على مهل. كان لحم السمكة رقيقاً يتحلى بطعم خفيف، إنما واضح، للمحيط ويمتزج امتزاجاً رائعاً بالزبدة البنية... كان طبقاً ارتقى فى لذته إلى الكمال.

درجنا فى باسادينا على أن نشوى سمك الماكريل على العشاء كل يوم جمعة ونتناول كرات من أسماك القد بصلصة البيض وسمك السلمون «المغلى» (المسلوق) فى الرابع من يوليو ونحمر السمك المرقط فى المقلاة من حين لآخر حين نخيم بالجبال. إلا أنى اختبرت فى «لا كورون» سمكاً، عشاء، أرقى من أى شىء تذوقته فى حياتى.

عندما أتيا على زجاجة من نبيذ «بوليى فوميه» والسلاطة الخضراء والقهوة المفلترة وتهيئا للمغادرة، قالت جوليا للنادل «مستعينة بشجاعة مفاجئة ولهجة بدت رديئة حتى لأذنىّ»، «مارسى منصور».

أومأ النادل وكأنه لم تترام إليه الكلمات الركيكة وولى ظهره ليحَيى بعض الزبائن الجدد. خرجتُ وبول من الباب فكللتنا شمس مشرقة وأحاط بنا هواء منعش. كان أول غداء لنا بفرنسا كاملاً كمالاً لا حد له. كانت تلك أكثر الوجبات إثارة فى حياتى.

«سمكة الموسى بالزبدة التى أصبت منها فى «لا كورون» فى يومى الأول بفرنسا فى نوفمبر ١٩٤٨»، كتبتْ جوليا بعدها بأربعة وخمسين عاماً «كانت تجربة بدلت حياتى... كانت اكتشافاً مذهلاً».

عندما استقر بها المقام مع بول فى باريس، أخذت جوليا دروساً فى اللغة الفرنسية بمدرسة بيرليتز ودروساً فى الطهى بمعهد «لو كوردو بلو». اشترى بول لها بمناسبة عيد ميلادها السابع والثلاثين نسخة من كتاب لاروس جاسترونوميك «موسوعة فن الطهى». ما لبثت أن تعلمت وبحلول عام ١٩٥١ طُلب منها أن تنضم إلى «دائرة المتذوقين» ناد حصرى للطعام مخصص للنساء. التقت فى شهر لاحق من نفس تلك السنة بسايمون بيك، المشهورة باسم سيمكا، عضوة من عضوات النادى ستشترك معها فى كتابة كتاب عظيم سيختمان المجلد الأول منه بعدها بسبع سنوات. رافقتهما متذوقة ثالثة وهى لويزيت بيرثول وأسسن مدرسة لتعليم الطهى وذلك بغرض تعريف النسوة الأمريكيات بالمطبخ الفرنسى الكلاسيكى. وقد قدم تلاميذهن نموذجاً أساسياً لمجموع القراء الذين وجّهن إليهم كتابهن المعتزم. جهزت جوليا الدروس بدقة ما بعدها دقة بأن استشارت كتب الطهى الفرنسية الكبرى: إسكوفيه ولاروس وكورنونسكى وبيلابار وسانت-أنج، فاكتشفت أن هذه المواجز الوافية تتعارض فى كل شىء تقريباً. كانت سيمكا وجوليا تختبران، كل فى مطبخها الخاص، النسخ المختلفة للأطباق الكلاسيكية ثم يُخرجان نسختهما المميزة استناداً إلى النتائج.

بعدها تعدها جوليا وتترجمها للقراء الأمريكيين: طاب لى أن أرد كل طبق إلى مكوناته الأصلية؛ ومع بذل القليل من الجهد، ظننت أن هذا الكتاب بوسعه أن يحقق أيضاً نفس الشىء إنما على نطاق أشمل بكثير. لقد تعلمتُ الطهى فى سن متأخرة وعلمتُ من تجربتى المباشرة الإحباط الناجم عن محاولة التعلم من الوصفات المكتوبة بأسلوب ردىء.

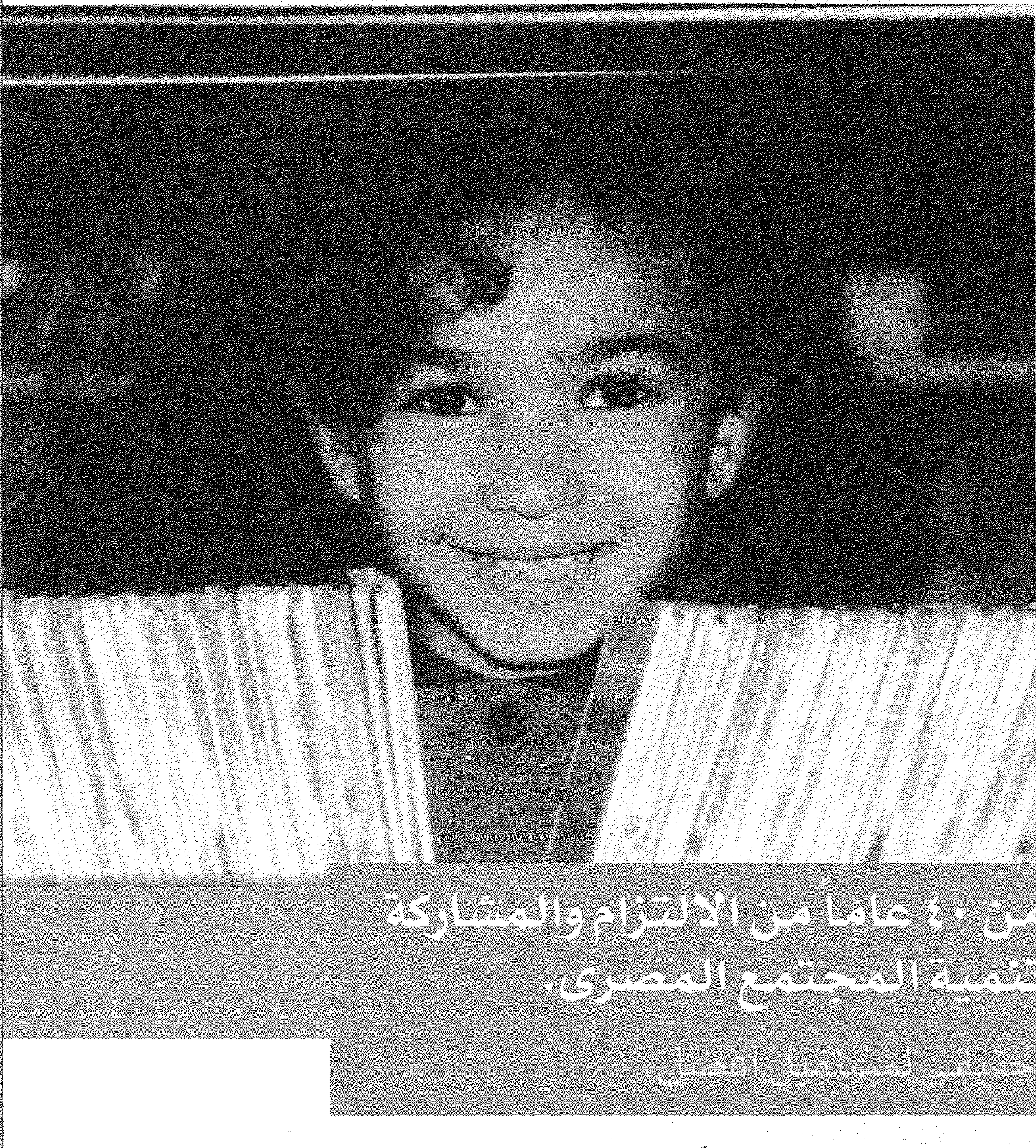
هكذا أخضعت المؤلفات الطهى الفرنسى للمقاييس العقلية، ليس للقراء الأمريكيين وحسب إنما للفرنسيين أنفسهم. فقد افترضن احتمالاً بعيداً أنهم قد يتقبلون نتائج التعاون بين الطهى الفرنسى والطهى الأمريكى.

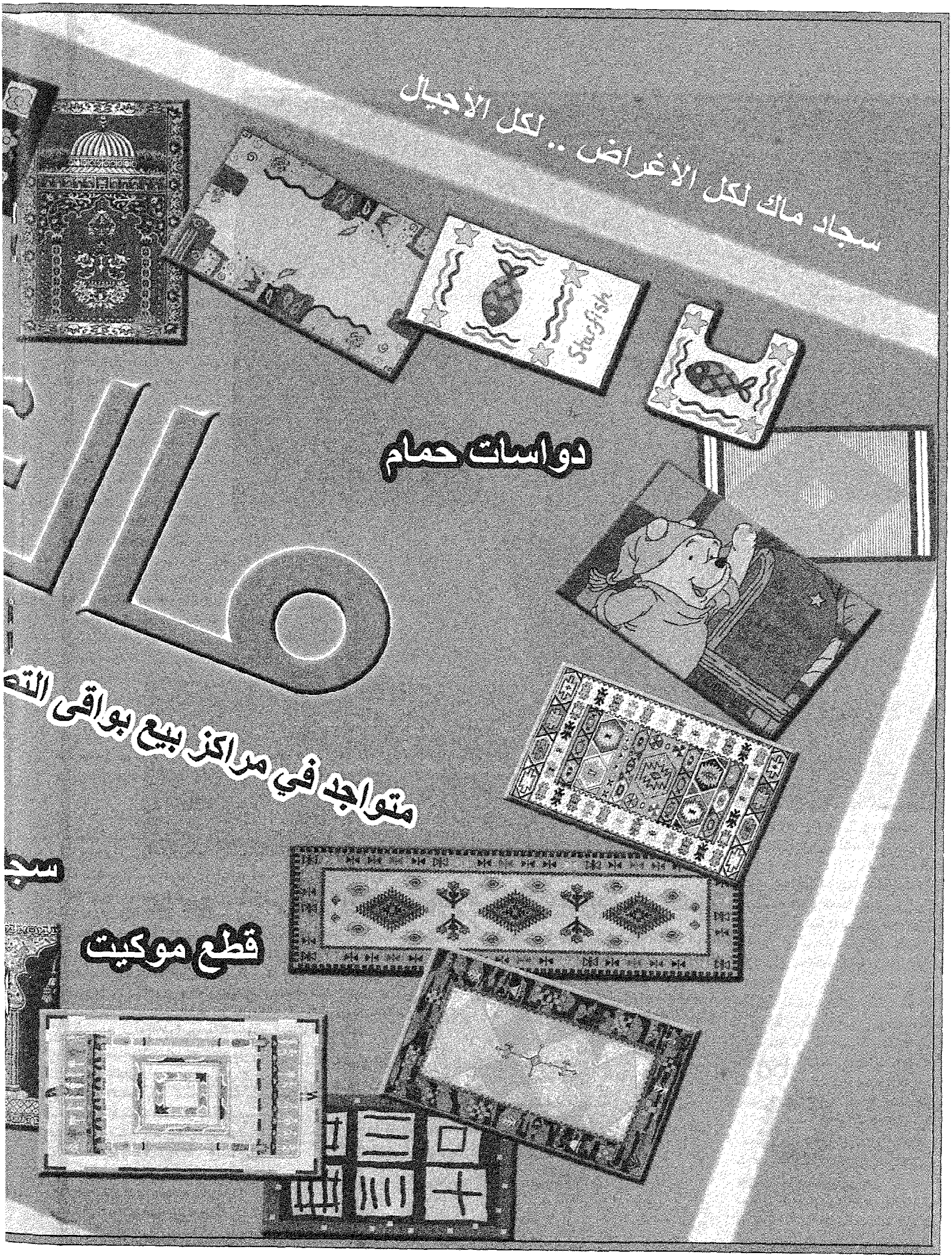
لم يكن متأكدات من أنهن سيجدن ناشراً أمريكياً لنشر مشروعهم الضخم بيد أنهن اجتهدن بكل نشاط وهن على قناعة أن مشروعهن معقول وسيشق سبيله بنفسه. انتهين فى آخر الأمر إلى دار نشر «هوتون ميفلين» ببوسطن. تبين محرر كتب الطهى بها من فوره ألمعية إنجازهن إلا أن إدارة الدار أجمعت على أن ربة المنزل الأمريكية غير مستعدة بعد لتأليف كتاب جاد عن الطهى الفرنسى، فدحضوا بذلك ادعاء الناقد الأمريكى «مينكين» القائل بأن أحداً لم يخسر قط نكلة عندما يبخس تقدير ذكاء الجمهور الأمريكى. إذ خسرت هوتون ثروة. تقدمت المحررة البصيرة جوديث جونز بدار النشر «كنوف»، بمعاونة مؤسس الشركة الكاره وحررا معاً المخطوطة تحريرياً يشع بالذكاء. توصلتْ كذلك إلى العنوان وظلت محررة جوليا حتى النهاية. سوف يصبح كتاب إتقان فن الطهى الفرنسى واحداً من أعظم إنجازات القرن العشرين والأعظم على الإطلاق بين كتب الطهى.

بينما كانت ثورة جوليا تنضج، ساهم الآخرون فى توسيعها وإثرائها: من خلال تشديد «أليس وترز» على المكونات الموسمية الأمريكية والمنتجات الحرفية ومن خلال دمج مصادر متعددة لمطابخ أخرى غريبة غالباً وطعومها وأساليبها الأصلية التى لا يعرفها الطهاة الأمريكيون من جيل جوليا. إلا أن ما نشرته جوليا بالأساس تجاوز نزعة عالمية ناشطة، فقد أرست معياراً للامتياز لأى مطبخ أمريكى فى المستقبل، معياراً يتجلى على سبيل المثال فى الخلاصة الجديدة المتذوق التى نشرتها هوتون ميفلين تكفيراً عن هفواتها السابقة، كما يتجلى حديثاً فى كتاب عشاء الأحد فى لاكس تأليف سوزان جوين التى احترمت بكل ذكاء معيار الامتياز الذى وضعته جوليا منذ نصف قرن وجسدت الحيوية والأصالة والاعتناق العريض لثورتها المتواصلة.

كانت جوليا تبلغ من العمر اثنتين وتسعين سنة وعلى وشك الموت عندما ألفت هذا الكتاب المبهر بمعاونة ابن أخيها. ولأن بول احتفظ بمذكراتها ومراسلاتها، استطاعت مع شريكها أن يرويا قصة متناغمة كل التناغم. لم أجد سوى مرة واحدة فقط تضارباً واضحاً. ففى فبراير ١٩٤٩، اتجهت وبول جنوباً إلى مدينة كان وتوقفا ليتناولا غداء شهياً فى الطريق، فلم يتمكنا سوى أن يتناولا عشاء بسيطاً بمدينة فيين حيث أمضيا الليلة. فى عام ١٩٤٩ كان فيرناند بوينت - عله كان أعظم الطهاة بفرنسا وقتذاك - لا يزال حياً يرزق ويطهو فى «لا بيراميد»، مطعم ذائع الصيت فى فيين حيث تدرب بول بوكيوس والأخوان ترويسجروس. من غير المحتمل ألا يكون بول قد رتب لتناول الغداء والاستمتاع هو وجوليا بعشاء حقيقى هناك، فذلك أشبه بزيارة مدينة أجرا وتجاهل تاج محل. لعله أضمر بعض الأسباب منعته من الزيارة، لكن ما هى؟

شــــرح لى بــــول
أن الطعـــــــام الجيـــــــد
فــى فرنســـا يعتبـــر مزيجـــا
مـــن الرياضـــة القوميـــة
والفـــن الرفيـــع




سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقي
قطع موكيت



سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
صلى
www.maccarpet.com

وصفت يومًا فى هذه الصفحات اجتماعًا للجنة النسائية لنقابة المحامين فى سان فرانسيسكو عام ١٩٩٢، وقد بدأت السيدة التى ترأس الاجتماع بأن دعت إلى الوقوف كل من كانت أول امرأة تتولى رئاسة تحرير صحيفة مدرستها القانونية، أو أول امرأة تعين شريكًا أكبر فى شركتها، أو تصبح عميدة مدرسة قانونية، أو تصبح قاضية منصة، وما إلى ذلك.. وأثناء قراءتها للقائمة وقفت مئات ومئات من السيدات. وهذا المشهد هو أحد الأمور التى تزعج هارفى مانسفيلد، وهو يدعى أن «حركة رجالية ستكون أكثر انقسامًا فيما بينها، إذ ينظر كل فرد إلى نفسه، ولا يبالى كثيرًا بالقضية العامة لجنسه» وهو يثبت نقطته بوضع كتاب بأسره يروج فيه «للقضية العامة لجنسه». ويعترض مانسفيلد على ادعاءات اضطهاد المرأة بإصدار مرثيته بشأن اضطهاد الرجل، بل إن الناس يحاولون منع استخدام كلمة «رجولى»، وهو شىء يكفى لدفع الرجل إلى الصراخ.

ومانسفيلد - أستاذ كرسى ويليم ر. كينان للحكم فى هارفارد - هو مترجم ماكيافيللى وتوكفيل، وهو أب روحى ستراوسى فى دوائر المحافظين الجدد، ومرشد ويليم كريستول فى هارفارد، وقد منحه الرئيس بوش الوسام الوطنى للعلوم الإنسانية فى عام ٢٠٠٤، وكان العضو الوحيد فى كلية هارفارد الذى صوت ضد إنشاء برنامج لدراسات المرأة، وأصبح واحداً من أعنف المدافعين عن لارى سومرز رئيس هارفارد السابق الذى ألمح إلى أن المرأة منخفضة التمثيل فى العلوم والهندسة فى الأكاديمية بسبب نقصها الفكرى، ويمكن اعتبار كتاب مانسفيلد الجديد صقلاً متبحراً لملاحظة سومرز.

رجـال.. أم



فئــــران؟!!!!!!!

جـــــاري ويـــــلـــــز

المعيـــار المــزدوج

ويتسم الكتاب بابتعاد غريب عن العالم الواقعي، فمانسفيلد، ككثير من الأساتذة، لا يرى شيئاً يدور حوله غير النظريات، وهو يعتقد أن المعيار المزدوج في الجنس يختفي، ويفسر صمويل جونسون منطق المعيار الجنسي المزدوج بملاحظة أنه إذا لم يستطع زوج ما الثقة في إخلاص زوجته فإنه لا يستطيع أن يعرف أن طفلها هو ابنه: «فالرجل لا يستطيع أن يفرض ولداً غير شرعي على زوجته»، ومهما كان مدى صحة هذا الادعاء في أيامه، فقد أصبح أقل أهمية الآن.

١ - ففي مجتمع هرمي كمجتمع جونسون كانت الوراثة تشمل الألقاب (بما فيها الألقاب النبيلة)، وتستتبع حقوق ملكية، وهي أمور أقل أهمية في مجتمع ديمقراطي فـ«البنوة غير الشرعية» إن حدثت الآن لا تسبب ما كانت تسببه من خزي حين كان على البلدان أن تتحقق من «شرعية» الحكام والورثة والمنزلة.

٢ - كذلك لم تعد البنوة غير الشرعية اليوم مثار خوف كبير بعد توفر وسائل محسنة لمنع الحمل والإجهاض المشروع، وخاصة بالنسبة للطبقة الوسطى التي تؤثر فيها النسوية.

٣ - كما أن صغر حجم الأسر قلل من مشكلة البنوة غير الشرعية، لأن حياة الحضر، والحاجة إلى تعليم طويل الأمد، قد خفضت عدد الأبناء المطلوبين (شرعيين أو غير شرعيين). ولم تعد هناك حاجة لكثير من الأطفال لفلاحة مزرعة الأسرة. وقد لا يكون هذا صحيحاً بالنسبة للفقراء، لكن مانسفيلد ذاته يقول إن النسوية لا تؤثر إلا على الطبقة الوسطى.

٤ - ويعثر مانسفيلد جزئياً على سبب لعدم احتجاز المرأة فقط لأغراض الولادة والتربية، ويقول إن النسوية ربما كانت ببساطة تعبيراً عن الملل: «وبالنسبة لنا قد يكون الدفاع عن مساواة المرأة مجرد تزيين وإخفاء لحقيقة هي أن التقدم الحديث لم يترك للمرأة كثيراً تفعله في المنزل». ومرة أخرى تبين هذه الجملة مدى ضآلة صلته بالعالم الواقعي، حيث التحديات كثيرة «فيما تفعله المرأة في المنزل»، لكن من الصحيح أن المرأة التي يقل عدد أطفالها وترسلهم إلى المدرسة لم تعد تنفق جانباً كبيراً من حياتها في الأمومة لطيلة الوقت، كما أن زيادة تكاليف المدرسة لكل أطفال الطبقة الوسطى، تزيد الحاجة إلى الدخل الإضافي، والإشباع الإضافي، الذي يؤثره العمل خارج المنزل، ويوسع المرأة أن تطلب المساواة التي كانت مغلقة أمامها بسبب المعيار المزدوج، وبمقتضاه كان الرجال يخشون أن حياة «في العالم» ستجعلهم أقل تأكداً من أن أولاد زوجاتهم هم أبناؤهم.

٥ - كذلك يكمن دائماً خلف تفسير جونسون للمعيار المزدوج قلق الذكور الذي وجد تعبيراً عنه في القلق الكلاسيكي وفي العصور الوسطى عن المرأة «التي لا تشبع». ويقرر مارك توين بوضوحه المعتاد الأساس البيولوجي لذلك فيقول إن للمرأة في أي سن «قدرة الشمعدان»، أما الرجل «فشمعته تزداد وهناً وضعفاً بفعل السن مع مرور السنوات، حتى لا تعود في النهاية قادرة على الوقوف، فتطرح في أسى لتستريح على أمل في بعث مبارك لا يأتي أبداً». وتعد الفياجرا - محاولة علاج هذا الوضع - شاهداً على صحة تعليق توين، وإلا لما حقق الدواء ما حققه من نجاح تجاري، ولسنا بحاجة إلى أي نسوية لبيان هذا الوضع.

هل النسويات تعيسات؟

ينغمس مانسفيلد في مازوكية «رجولية» عن النسوية - أن المرأة قد حصلت على ما تريد، وأنها تعاني من ذلك، فهو في النهاية لم يجعلها أكثر سعادة، وإنما ببساطة حرمها مما كانت تتمتع به من قبل - الرجل الرجولي، فاليوم يبدو من المسلم به عموماً أن الحياد الجنساني هو الطريقة الوحيدة المشروعة للعيش - ومع ذلك فإننا لا نعيش على هذا النحو، ويعني هذا أن لكل امرأة - أو من حقها - شكوى من رجلها ومن الرجال عموماً، وقد تدفعها حقيقة أن رجلها ربما لم يكن أسوأ من أي رجل آخر إلى الإذعان لمصيرها، أو لا يدفعها إلى ذلك، وفي أي الحالين فإنها لا يمكن أن تكون سعيدة في المجتمع الذي يفترض أنه حقق تحرر المرأة.

حسناً.. ما من تحسين في المجتمع سيجلب الهناء الكامل في عالم غير كامل، لكنني لا أكاد أعرف امرأة قد تود أن تعود ثانية إلى ظروف المرأة قبل أن تكسب حقوقها الأخيرة.

ولا يقدم مانسفيلد دليلاً على تأكيده أن المرأة «لا يمكن أن تكون سيدة» في هذا المجتمع. وهناك مقياس تقريبي للسعادة - غير كامل بدوره لكنه أرسخ مما يزعمه مانسفيلد (وهو يعتبر «يزعم» كلمتي المفضلة)، فقد استقصى البروفيسور إدوارد لومان من جامعة شيكاغو - مع فريق من الدارسين الموقرين الآخرين - ٢٧٥٠٠ حالة من تسعة وعشرين بلداً عن رضاهم عن علاقتهم الجنسية من سن الأربعين إلى سن الثمانين. ووجدوا فجوة بين «نظم تساوي الجنسين»، والنظم التي تدور حول الرجل». وكانت السعادة في الأولى أكثر منها في الثمانين، وليس بين النساء فحسب. ويقول جون ديلاماتر رئيس تحرير «الصحيفة الدولية لأبحاث الجنس»، الذي لم يكن عضواً في الفريق الذي أجرى هذا الاستقصاء - أن عوامل أخرى إلى جانب المساواة بين الجنسين - يمكن أن تفسر هذه النتائج. وعلى سبيل المثال الفارق بين البلدان المتقدمة والنامية، حيث يتوفر في الأولى تعليم وصحة ومعلومات عن الجنس أفضل.. إلخ. لكن اليابان التي كان معدل الرضا فيها هو أدنى بلد متقدم.

ويبدو أن متغير المساواة بين الجنسين هو الأفضل. وإن كان مانسفيلد يزعم أن النسوية تجعل المرأة أقل جاذبية جنسياً: «فهن قد يمارسن الجنس بحكم الواجب، ربما لصالح الحركة كلها، لكنهن كنساء لا يبدون شديدات الشهوانية». ويتعارض هذا مع الحس المشترك فضلاً عن استقصاء لومان، فالاحترام المتبادل هو أساس الاتصال الإنساني المجزي. وعلى حد قول الاستقصاء فإن «المثل الأعلى لعلاقات الرفقة يميل إلى تقييم إيجابي للقدرات والمصالح والأداء الجنسي بين شركاء الجنس الحميمين. وبعبارة أخرى فإن الجنس في علاقات الرفقة لا يخدم أغراضاً إنجابية فحسب، بل يعبر كذلك عن توعية العلاقة. وزيادة إشباع المرأة يزيد إشباع الرجل.

لم تعد البنوة غير الشرعية اليوم مثار خوف كبير بعد توفر وسائل محسنة لمنع الحمل والإجهاض المشروع، وخاصة بالنسبة للطبقة الوسطى التي تؤثر فيها النسوية

الفروسيـــة

يدعي مانسفيلد أن الرجولة تحترم المرأة، لكنه عنده احترام من أعلى، حماية فروسية للضعيف «ففي أغلب الأحيان يخفي الجنتلمان تفوقه بسخرية فروسية، ويتظاهر بالإذعان لمن هم أدنى منه». وهذه الإيماءة الساخرة تعطي المرأة نوعاً من المساواة - «نوع المساواة الذي قد يتحقق للرجل حين يكون أرقى في بيته إذا كان أدنى في عمله». لكن الرجل الرجولي - الجنتلمان - ترك مكانه الآن «للذكر الحساس» الذي أصبحت تفزعه النسويات».. «وفي مقابل أن يكون الرجل رجولياً فإن الدفاع عن الرجولة يتطلب أن ينظر الرجل للمرأة في عينيها ويقول لها إنها أدنى في بعض الجوانب الهامة، ولا يستطيع الرجل أن يفعل ذلك اليوم»، ويحن مانسفيلد إلى يقينيات اسبينوزا، الذي يعادل بين القوة والحق، ويقول للمرأة إنها لأنها تفتقر إلى الأولى فليس لها حق في الثاني. ويعلق مانسفيلد قائلاً «فهذا رجل مستعد للنظر إلى المرأة في عينيها، ويخبرها بما تستحق».

وهذه الواقعة هي أساس رومانسية مانسفيلد، فما أن تعترف المرأة بدونيتها حتى يهرع «الجنتلمان» إلى الدفاع عنها، ويطل كتابه هو أدموند بيرك الذي يقول إن السيوف كان

Manliness

(رجـــولة)

Harvey C. Mansfield

Yale Univerity Press, 289PP., $ 27.50

بترتيب مع

The New York Review of Books

ترجمة: محمد مستجير مصطفى

يجب أن تشب من أغمادها حين سجنت مارى أنطوانيت.

ويدافع مانسفيلد عن موقفه بالبحث فى الأدب والفلسفة، وكلاهما يدرس خلال عدسة تركز على «الرجولة» وتتبدى الطبيعة الزائفة لرجولة مانسفيلد بالطبيعة الصبيانية للنصوص الأدبية التى يتحول إليها لإيضاحها، إذ تقدم إلينا نظرات من الدرجة الثانية من أدب من الدرجة الثانية، من «العجوز والبحر» و«كنوز الملك سليمان» و«كتاب الأدغال» و«الدكتور جيكل والمستر هايد» و«الزوج المثالى» و«رجل بالكامل». ومن الغريب أنه يتهم أنصار النزعة النسوية لأنهن «يفضلن مؤلفات مغمورات عن أسماء عظيمة مثل جين أوستن واريث وارتون». ولابد أنه لا يعرف أى نسويات.

لكنه على أى حال ليس الرجل الذى يحق له أن يقول للآخرين إنهم يقرأون كتابات من الدرجة الثانية. ففى المرات القليلة التى يرجع فيه إلى أدب عظيم فإن ما يقوله تشوهه أفكاره المسبقة، فنحن نعرف قلق آخيل على بريسيس، لكن حب آخيل لباتروكلوس هو الذى يعود به إلى القتال «الرجولى» والموت. وبالنسبة لرجل يهتم هذا الاهتمام بالأفكار الكلاسيكية فإن مانسفيلد يصمت صمتاً غريباً عن موضوع الجنسية المثلية: لقد كان أكثر المحاربين القدامى رجولة هم الاسبرطيون، الذين كانوا يقاتلون وإلى جانبهم عشاقهم الذكور، فهل هم مثله الأعلى للرجولة؟ إذا كان الأمر كذلك فلماذا يصمت عنه؟ وإذا لم يكونوا فينبغى أن يخبرنا لماذا لا يتزوجون، وهو يتحدث عن أفلاطون وعن المفاتن الشهوية للفلسفة، لكنه لا يشير أبداً إلى مفهوم أفلاطون عن المثلية الجنسية كخطوة فى السلم المؤدى للمثل الأعلى.

وحين يستشهد بأرسطوفان فلكى يقول إن «ايكل سيازوساى» حيث يجبر الرجال على مغازلة نساء مسنات قبيحات - «ربما يعطينا لمحة عن الفعل الإيجابى المقبل». والواقع أن معرفة مانسفيلد بالأدب الكلاسيكى موضع شك، فهو يعتقد أن الكلمة اليونانية للرجولة هى «ثايموس». التى تعنى بدقة أكبر «الحيوية» بمختلف درجاتها. ويريد مانسفيلد للكلمة أن تعنى أساساً «العدوانية»، وهى ما تعطيها بشكل أفضل كلمة «هيريس». والمصطلح الذى يستخدمه أرسطو للرجولة هو «أنديريا» - وهو اسم مكون من كلمة رجل رانيرخ. ولن يخدم هذا مانسفيلد، لأنه يريد من الرجولة أن تكون غير عاقلة وأنديريا تعنى الوسطية المعقولة تماماً فيما بين الجبن (فوبوى) والتهور (ثارهى). ويقول أرسطو إن «الثايموس» غير عاقلة، ومن ثم فليست فضيلة للرجل، فالوحش لديه «ثايموس» - وليست لديه رجولة، لكن الجانب غير العاقل للثايموس هو ما يعجب به مانسفيلد.

التحكم العقلانى

لماذا يقف مانسفيلد ضد العقل؟! إنه يعتقد أن التحكم العقلانى قد أوهن الرجولة فى حضارتنا، التى حولت رجالنا إلى فئران «فما من رجل فى عصرنا يجرؤ على أن يسخر من النسويات، كما كان الرجال يفعلون مع داعيات حق الاقتراع منذ قرن مضى». لقد «انقلب الأب السائد واستسلم بإذعان» وأخلى الإعجاب بالرجل الحقيقى مكانه للتعاطف مع «الذكر الحساس»، لقد خسرنا البطل، «وحين نعجب به (بالبطل) فإننا نعجب بأنفسنا، لأن لدينا شخصاً أو شيئاً نتطلع إليه». وقد حدثت النسوية فى المجتمع خلال تجميعه من الأشياء السيئة - العلم والتكنولوجيا والحرفية وحكم الجدارة والنزعة التجارية والحداثة والديمقراطية - كلها تؤدى معاً إلى التحكم العقلانى فى الحياة.

١ - فالعلم يتعامل مع متوسط لا وجه له وليس بطولياً ولا استثنائياً «والدراسات العلمية التى تبحث عن المتوسط تفضل الأفضل»، وفى هذا «يكتسب العلم سمعة خدمة الإنسانية بمعارضة الحس المشترك»، والعلوم الاجتماعية هى الأسوأ من بين كل العلوم: فالعلم الاجتماعى قد ابتدع فكرة القوالب ذاتها لكى يفند التحيز المشترك، وهو لا يريد فحسب أن ينكر على التحيز وضع الحس المشترك، بل أن يبقيه بعيداً عن الحوار السياسى، الذى سيدور من ثم بين افتراضات علمية فحسب، والعلوم الاجتماعية لا تصغى - كقاعدة - للتحيز، وبمصطلحات مثل القوالب تحكم مسبقاً على حقيقة الرأى غير العلمى، إنها متحيزة ضد التحيز ويجلب العلم التحكم العقلانى بإلغائه للمصادفة والمخاطر وكل ما تتطلبه الرجولة: ففى حالة الطبيعة من حق كل رجل أن يكون معتدياً رجولياً ضد كل شخص آخر، أما فى المجتمع المدنى (أو الكومنولث كما يدعوه هوبز) فعليه - بعد أن نحى هذا الحق - واجب أن ينسى رجولته ويصبح اجتماعياً أو حساساً أو عقلانياً أو بلا رجولة، وهكذا يتحمل هوبز اللوم لأنه «خلق الذكر الحساس». ولا يفلت داروين من اللوم بدوره، فالانتقاء الطبيعى يتبع مبدأ تكيف نسوى وليس تحدياً رجولياً. «ورغم أن الناس يبقون بمهاجمة عدو فإن الأنواع تبقى «بالتكيف».. فالأكفأ هو الأكثر مرونة». وحتى ماكيافيللى يوجد فى تكوينه علم أكثر مما يجب «فمع ماكيافيللى ولدت فكرة «الأمن» الحديث، وهو النقيض الكامل للرجولة».

٢ - التكنولوجيا: يستخدم العلم التكنولوجيا لضمان رفعة شأنه فى حياتنا «ولم يعد على العلم أن يتعايش مع الصرخة، مما يسمح بصلة العلم المحدودة بالحياة البشرية، وإنما هو يستطيع الآن بالتكنولوجيا أن يتغلب على الصدفة، وأن يحقق تحكماً حقيقياً، وصلة كاملة بالحياة البشرية».



٣ - الحرفية: والحرفية تؤهل الناس بالقواعد لا بالمبادرة الرجولية وهذا هو السبب - كما يقول مانسفيلد - فى أن ضابطة الشرطة فى فيلم «فارجو» تصيب الناس فى وظائفهم: فإذا عمت الحرفية كل الحرف والمهن نستطيع أن نقول إنها جعلت من الممكن تجاوز الرجولة بمعنى تركها إلى الخلف.. ولكن هنا أيضاً هل يمكن أن نستبدل بالرجولة شهادة دكتوراة فى التحكم فى الحشود؟ وهل يمكن إضفاء طابع حرفى على الرجولة؟

٤ - حكم الجدارة: وحكم الجدارة من جوانب الحرفية الأخرى، أوراق اعتماد المحترف، «فأصحاب الجدارة لا رجوليون بقدر ما يعتقدون أن من الضرورى الاعتراف بفضلها وتعزيزها من خلال نظام تعليمى يؤدى لهم وظيفة فرض الذات الرجولية بإعطائهم تكريمات ليس من حقهم المطالبة بها أو القتال من أجلها».

٥ - النزعة التجارية: «فالتجارة غير رجولية لأنها مادية تميل إلى أن تسعى إلى الربح لا إلى النصر، وإلى المقايضات لا إلى العدالة. وترفض الحياة التجارية التضحية وتقوم على حساب الأرباح».

٦ - الحداثة: ترشدنا النزعة التجارية بما توفره كمزايا للحداثة. و«الحداثة فى تكريسها للمصلحة الذاتية لا تعبأ كثيراً بالرجولة بتعطشها إلى المخاطر»، «غير أن مؤسسة الحداثة بأسرها يمكن أن تفهم على أنها مشروع لإبقاء الرجولة دون استخدام».

٧ - الديمقراطية: يدعى مانسفيلد أن «الديمقراطية» بدورها يمكن أن تفهم كشىء معاد للرجولة»، لأن «الديمقراطية معادية للرجولة بقدر ما تتعاون مع التقدم الحديث فى التحكم العقلانى». «وقد كان هدف الليبرالية الحديثة هو الدولة العقلانية».

٨ - ويطرح التحكم العقلانى ذاته كانتصار للديمقراطية: «فالتحكم العقلانى يخشى من عرض نفسه مما يجبره على تولى المسئولية عن حكمه، ومن ثم فإنه يدعى أنه إنما يمثل من يتحكم فيهم». «والتحكم العقلانى يفضل الروتين ولا يحب أن يستشار»، والتحكم العقلانى هو النقيض التام للثايموس، وبالتالى فإنه الشرير الرئيسى فى الكتاب.

النزعة النسوية

ما صلة كل هذا الاستنكار للعالم الحديث، بالنزعة النسوية، إن مانسفيلد يعتبر النسوية شيئاً جديداً، لكنه يفضح

الأهمية المتزايدة ـ عبر القرون ـ للتحكم العقلانى، ويعود به إلى ماكيافيللى.

ومن يلقى عليه اللوم عن التحكم العقلانى لم يكونوا نساء أو من دعاة ثقافة المرأة. وما يعتقد أنه يفسره هو حضارة الإخصاء التى جعلت الرجال يستسلمون للنسوية، وقد استغرق التحكم العقلانى وقتًا طويلاً لكى يؤدى إلى هذا الإخصاء. ولكن حين وصلت النسويات فى النهاية إلى السلطة لم يجدن رجالاً راغبين فى الوقوف أمامهن، وحدث استسلام عاجل، فلم يكن بوسع الرجال أن يفلتوا منه، فقد تم التحكم العقلانى فى رجولتهم بحيث تبخرت.

ويزعم مانسفيلد أن من السخريات أن الرجولة التى تخلى عنها الرجال قد هاجرت إلى المرأة، وكان إلهامها الشخصى الوحيد الذى لا يمكن حتى لمانسفيلد أن يقبله فالثايموس، باعتباره لا عقلانياً فى حاجة إلى أن يراقب، وينبغى أن تأتى هذه المراقبة من خارجها، لأن الثيموس لا ينظم نفسه بذاته مثل «أنديريا» أرسطو. وكان نيتشه وحده ـ فى رأى مانسفيلد ـ هو الذى ترك الثيموس يثور كلية بلا كابح، ورغم هذا فإنه الرجل الذى اختارته المرأة قائداً لها، وكان بوسعها أن تجرى ما يعتبره مانسفيلد خياراً أحكم، كان بوسعها أن تسترشد بكتاب جون ستيوارت ميل «إخضاع المرأة».

ولكن ماذا فعلت النسويات؟ لقد رفضن هذا الذكر العاقل الحساس ـ الذى يتضح فى النهاية أنه إمعة ـ: وأولعن بفريدريك نيتشه الرجولى المجنون. كان نيتشه يرتدى زى النساء مثل سيمون دى بوفوار، لكنه يظل نيتشه.

كم من مئات النساء اللاتى رأيتهن يقفن فى اجتماع نقابة المحامين الأمريكية كانت تحمل فى حقيبتها كتاب «هكذا تكلم زرادشت»؟ وحين يقول مانسفيلد إن مساواة المرأة قد حلت للمرة الأولى محل نظام الأبوة فى عالمنا، فإنه لا ينظر إلى النساء الحقيقيات اللاتى أنجزن ذلك، وإنما إلى بضع منظرات ليس لهن تأثير كبير، إن كان لهن تأثير أصلاً، على النساء اللاتى تزوجناهن وعلى قريباتنا. وهو يعترف فى وقت ما بأن «النسوية الراديكالية التى ناقشتها ليست ما تؤمن به معظم النساء أو تمارسنه، لكنها النسوية الوحيدة الموجودة» (التأكيد لنا). لكنها ليست كذلك، إنها النسوية الوحيدة الموجودة إذا اخترت أن تكون الوحيدة التى تراها، ومانسفيلد أقرب إلى أن يزعج نفسه برؤى عن النيتشويين المجانين من أن ينظر إلى أن مثل العدالة والمساواة تبررها فى مجتمعنا كله نساء يعشن حياة أكثر ثراء، وبذا يثرين حياة الرجال.

والسخرية الحقيقية فى هذا الكتاب هى أن مانسفيلد يعتقد أنه لا شىء يهم سوى الأفكار، ومع ذلك يكره كل الأفكار المرتبطة بالمجتمع الحديث، فأين رأينا من قبل هذا الاستنكار للعلم والليبرالية والحداثة؟ يصف ريتشارد هوستارتر هذا الأمر نفسه حين يناقش عداء مذعورى العشرينيات للفكر: ويستطيع الآن أن يلمح بينهم ظهور أسلوب دينى تشكله رغبة فى رفض كل ما هو حديث ـ النقد الرفيع والتطورية والتحصيل الاجتماعى والنقد العقلانى من أى نوع. وفى هذا الاتحاد بين رد الفعل الاجتماعى واللاهوتى أرسى أساس العقلية مائة فى المائة (التأكيد لنا).

ومانسفيلد يقف ضد كل ما هو حديث، وهو يمثل كاريكاتير للمحافظ الذى يعتقد أنه لا شىء ينبغى أن يتغير حين يقول إن النظام الأبوى قد ساد فى كل وقت وكل مكان، ومن هنا يجب عدم التخلى عنه. فالنسويات فى نهاية الأمر «لا يفسرن لماذا سيطر النظام الأبوى فى كل مكان حتى الآن»، إنه نموذج المفكر المعادى للفكر والمذعور «الرجولى».

وهو يثبت هذه النقطة الأخيرة فى نهاية الكتاب تماماً، وقد أثنى النقاد المحافظون على مانسفيلد لشجاعته فى مواجهة المرأة الغاضبة. وتصفه كريستينا هوف سومرز الباحثة المقيمة فى معهد إدارة الأعمال الأمريكى على هذا النحو: «وفى هذا العالم يخطو البروفيسور مانسفيلد، منتشياً حتى الثمالة، ومسلحاً تسليحاً قاتلاً بكل القوالب التى كان يعتقد أنها محظورة فى المجتمع حسن التفكير»، لكنه بعد أن يلطم صدره مئات الصفحات عن الرجولة، صائحاً «أنحن رجال أم فئران»، ينزلق بهدوء إلى مرتبة الفئران: وهو يعترف بأنه ما من طريق لقلب حركة المساواة فى الحقوق، ويقول إن علينا أن نخلى المجال العام للمرأة ونحاول أن نبقى على قدر من السيطرة على الحياة الخاصة، وفى حين أننا نعرف أن المرأة ليست مساوية فسيكون علينا أن نتظاهر أنها متساوية فى المجال العام، لأن «الرجل بطبيعته أحادى التفكير، ومن ثم يتسم بروح عامة أكبر من المرأة، ولكن دعونا لا نقول ذلك فى القانون». فحين نصل إلى نقطة اتخاذ موقفه النهائى فسنجد أنه موقف نفاق، عدم تأكيد الذات.. أهذه رجولة؟ ▪

الشِّق الأفضل!

نادر فرجانى

▪ الزعم الأساسى هنا هو أن إقصاء النساء عن مجالات الفعل البشرى، خاصة فى ميادين الإبداع، يعطِّل النشاط البشرى لدى النصف الأفضل، إمكانا على الأقل فى بعض مجالات النشاط البشرى، إن أتيحت له الفرص المتساوية، من البشرية، ومن ثم فى المجتمع بأسره. وبناء عليه تهدر المجتمعات التى تهمِّش النساء فرص التنمية الإنسانية فيها. ويستند هذا الزعم إلى الحجج التالية:

أولا: لا يثور خلاف فى أن حرمان النساء من القدرات البشرية، ومن القدرة على الإبداع والإنتاج بوجه خاص، يحرم المجتمع، كمياً، من إبداع ما يقارب نصف الناس فيه.

ولكن يتفاوت معمار المخ البشرى حسب الجنس/ النوع[1] بما ينشئ علاقة محددة بين البيولوجيا وهوية النوع (الاجتماعى).

ثانيا: من حيث النوع، يستقر فى الأدبيات العلمية الأحدث أن للنساء قدرات مميزة عقلية (راجع قائمة المراجع الخاصة بالقدرات العقلية للنساء) تعود أولاً لقوة الترابط بين فصى المخ، مما يؤدى إلى إمكان أعلى للنشاط المتزامن فى فصى المخ عند النساء (نادو، بالإنجليزية، ١٩٩٦، ٥٠- ٥١) و(جيبيكى وآخرون، بالإنجليزية، ١٩٩٣). ومن ثم القدرة الأفضل على توظيف المنطق والحدس، كليهما، فى اتخاذ القرار والإبداع كليهما. ويتفرع عن هذا الفرق تفاوت ملحوظ فى شدة نسبية فى حواس اللمس والتذوق والشم والسمع لدى النساء.

يسمى حزام الأنسجة الذى يربط نصفى المخ الأيسر والأيمن، الكتلة الوسيطة massa intermedia، وتدل الدراسات على أن هذه الكتلة أكبر، فى المتوسط ويفارق معنوى، عند النساء عن الرجال. فعلى الرغم من أن كتلة مخ الرجل تزيد عن كتلة مخ المرأة، فإن الكتلة الوسيطة تزيد عند النساء، فى المتوسط، بأكثر من النصف (نادو، بالإنجليزية، ١٩٩٦، ٤٦) و(ويتلسون، بالإنجليزية، ١٩٩١).

وليس غريبا والأمر كذلك، أن استقر أن للنساء قدرات وجدانية متميزة، تستمد أساسا من هذه القدرات العقلية المميزة لهن، وتزداد أهميتها على خلفية بروز مفهوم تعدد الذكاوات و«الذكاء الوجدانى»[2] emotional intelligence عوضا عن المعانى التقليدية للذكاء[3].

وتدل الدراسات على وجود فروق مهمة بين الجنسين فى عديد من مناطق المخ. حيث يمتلك الرجال، فى المتوسط، قدرة أفضل فى مناطق المخ، البدائية التكوين، المتصلة بالحركة بينما تمتلك النساء، فى المتوسط، قدرات أفضل فى مناطق المخ، الأحدث تطورا، والمتصلة بالبنى الرمزية، مع مجال واسع من التداخل، بحيث يزيد التباين داخل كل جنس عنه بين الجنسين (نادو، بالإنجليزية، ١٩٩٦، ٥٢- ٥٣، ١٣١) و(جور، بالإنجليزية، ١٩٩٥). وعلى وجه الخصوص، تمتلك النساء، فى المتوسط، قدرات لغوية أفضل، مما يمكن أن يسهم، بالإضافة إلى التوازن الأفضل بين فصى

الشِّق الأفضل!

المخ، فى تفسير قدرتهن الأكبر على الحدس.

ويتمثل الجنسان الفضاء space ثلاثى الأبعاد بشكل مختلف. فيعتمد مخ المرأة أكثر على القص (الحكى) والعلامات المرئية بينما يفضل مخ الرجل تركيب المتجهات vectors التى تعلم المسافات والتوجه بين نقطة فى الفراغ وأخرى (نادو، ١٩٩٦، بالإنجليزية، ٥٦) و(بيفر، بالإنجليزية، ١٩٩٦)

وهكذا فإن هناك جانبا من الذكاء الإنسانى، ما يسمى الذكاء المكانى spatial intelligence، يتفوق فيه الرجال فى المتوسط على النساء. مما يدعو إلى نظرة متوازنة تقوم على أن خير البشرية يستدعى تكامل القدرات البشرية للنساء والرجال كليهما، مع احترام الفروق بينهما، وتوظيفها بكفاءة فى بناء التنمية الإنسانية.

وتعود القدرة المخية الأفضل للنساء، ثانيا، إلى قدرة عقل المرأة، كما فى الحواسيب الإلكترونية المتقدمة، على «تعدد المهام multi-tasking»[4] الذى يبدو للرجال-نتيجة لافتقاد نسبى للقدرة ذاتها- على أنه ضعف فى القدرة على التركيز أو تشوّش، بينما هو فى الواقع قدرة أعلى على إدارة المواقف المعقدة.

وليس غريبا، والأمر كذلك، مثلا آلا يقل إنجاز البنات فى التحصيل التعليمى، خاصة فى اكتساب المهارات، عندما تتاح لهن الفرص متكافئة، عن أقرانهن من الصبية، بل يتفوقن عليهم فى أحيان، حتى أضحت البنات نخبة المتعلمين فى كثرة من البلدان العربية، كما سيظهر من الفصل الثانى.

المخ البشرى إذا ليس صفحة بيضاء تسطر عليها البنى الثقافية خاتمها. إذ يعيد كل من الرجل والمرأة تركيب هذه البنى بشكل مختلف نتيجة لفروق فى معمار المخ وما يترتب عليها من فروق فى الجهاز الحسى (نادو، بالإنجليزية، ١٩٩٦، ٩٦). بعبارة أخرى، يترتب على الصلة بين البيولوجيا وهوية النوع أن المجتمع الذى تسوده المساواة بين الجنسين لا يمكن أن يكون محايدا بين النوعين (نادو، بالإنجليزية، ١٩٩٦).

ثالثا: للنساء، على خلاف الوهم الشائع بضعف النساء، فى المنظور العضلى القاصر[5]، قدرات جسدية أفضل من الرجال.

فمن الثابت علميا الآن أن النساء أكمل من الرجال وأقوى، فسيولوجيا[6]، بما يسمح لهن بداية بامتلاك القدرة على أعقد العمليات الحيوية فى الجنس البشرى، أى الحمل والإنجاب.

يسمح هذا التميز الجسدى للنساء بالعيش حياة أطول فى المتوسط، حين تتاح لهن فرص متساوية فى الغذاء والرعاية الصحية طبعا[7].

كل هذه الخصال ترتب للنساء، عند إطلاق طاقاتهن التى تحبسها عادة المجتمعات المتخلفة، ميزات مهمة فى مجالات الإبداع ومختلف شئون الحياة.

رابعا: حيث التنوع أساس جوهرى لحفز الإبداع من خلال التلاقح cross-fertilisation، فإن غياب النساء من حلبة الفعل البشرى عامة، والإبداع خاصة، يؤدى لفقر إبداع الرجال أنفسهم، أى، فى النهاية، فقر إبداع المجتمع بكامله.

ومن ثم، فإن حرمان المجتمع من إبداع النساء، يحرم المجتمع، من إبداع نصفه الأفضل إمكانا، على الأقل فى بعض جوانب النشاط البشرى. وبهذا تتعدى خسارة المجتمع ككل من إضعاف قدرات النساء الإبداعية، مجرد نصف كم الإبداع المنتظر من أفراده. ولكنها تعنى فى حقيقة الأمر الحرمان من القسم الأرقى، إمكاناً، من الإبداع البشرى بكامله.

خلاصة القول أن النساء لسن ناقصات، لا عقلا ولا جسدا. هن بالتأكيد مختلفات عن الرجال، ومن نواح كثيرة أشرنا إليها، إلى الأفضل!

وتفضى الصياغة الإيجابية للمقولات السابقة إلى أن نهوض المرأة شرط لحفز الإبداع والتنمية الإنسانية فى المجتمعات البشرية عامة، وفى البلدان العربية خاصة حيث يستشرى تهميش النساء.



لكن أكسب تفاوت الأدوار الإنجابية الرجال، لا شك، ميزة غير عادلة على النساء فى المجال العام. وسمحت هذه الميزة للرجال بتشكيل الرؤى الثقافية التى أضفت الشرعية على الهيمنة الذكورية.

هوامش:

(١) يعبر «الجنس» عن الفروق البيولوجية-الفسيولوجية فى الجسد، و«النوع» عن السلوك المكتسب، وموقعه العقل mind.

(٢) لا يعنى الذكاء الوجدانى، الحساسية العاطفية. وتتفاعل فى تكوين الذكاء الوجدانى قدرات متعددة، بعضها نفسانى والآخر اجتماعى، تشمل ضبط النفس، والتحكم فى المزاج، والحماس، والمثابرة، وحفز الدافعية الذاتية، وإرجاء الإشباع، ومنع الإحباط من تعطيل القدرة على التفكير، وإعلاء الأمل، والتعاطف مع الآخرين. ويشير أنصار الذكاء الوجدانى إلى أن الذكاء التقليدى، مقاساً بنسبة الذكاء، ليس قميناً بتحقيق النجاح فى الحياة، حيث يحقق بعض محدودى الذكاء، بالمقياس التقليدى، نجاحات باهرة بينما يفشل بعض من مرتفعى نسبة الذكاء ذريعاً.

(٣) بمعنى التفوق الرياضى والمنطقى واللغوى IQ. وقد عرّف «هوارد جاردنر» (١٩٨٣) سبعة صنوف أساسية من الذكاء: اللغوى، والموسيقى؛ والمنطقى-الرياضى؛ والمكانى، والجسدى- الحركى، والنفسانى (التبصر- المعرفة الورائية) intrapersonal والاجتماعى (العلاقات ما بين الأشخاص) interpersonal. وفى معين الذكاء لشخص محدد تمتزج هذه الصنوف الأساسية كلها بنسب متفاوتة، فى مزيج فريد خاص بها (به).

(٤) من الرجال، من لم تدهشه مثلا قدرة النساء على متابعة حديثين فى موقعين مختلفين فى وقت واحد، أو- وهو مثل تقليدى فى الأدبيات عن الموضوع- على الرد على مكالمة هاتفية أثناء إعداد الطعام وإرضاع طفل فى آن؟

(٥) الذى يكتسب مصداقية فقط فى منظور العصر الحجرى للبشرية، أما فى عصر المعرفة فحرى أن تصبح القدرات المخية هى معيار التفضيل النسبى بين أفراد الجنس البشرى.

(٦) يتبدى هذا حتى فى اختيار رمز مورثات الجنس، وهى بالإنجليزية X و Y، وليس الرمز الثانى، الخاص بالذكور، إلا الأول منقوص ضلعاً، مما يجافى الخرافة الشائعة بإتيان المرأة من «ضلع ناقص». والحق، فسيولوجيا، أن الرجل، جسديا، هو تكوين منقوص، بالمقارنة بالمرأة، نتيجة لغياب القدرة على الحمل والإنجاب، وهى القدرة الجسدية الأعقد فى الجنس البشرى. إذ تستطيع المرأة أن تحمل وتغذى الجنين الذى ينمو معتمدا على جسمها وما يوفره له من مكونات النمو مثل الكالسيوم للعظام والفيتامينات وغيرها. وأثناء الحمل يكون قلب الأم مطالبا بضخ الدم فى جسدها وجسد الجنين سويا؛ ولذلك فإن قلب المرأة يعد أقوى من قلب الرجل أثناء فترة الخصوبة، مما يجعلها اقل عرضة للإصابة بأمراض القلب والشريان التاجى، ويعزى ذلك إلى وجود هورمون «الاستروجين» فى دم المرأة خلال فترة الخصوبة.

ويتيح التركيب «الكروموسومى» أيضا مزايا للنساء، حيث تتمتع النساء بزوج من «كروموسوم» X، الذى يلعب دورا مهما فى دعم جهاز المناعة، حيث يمكّن من إصلاح العيوب الوراثية التى قد تلحق بأحدهما وهو ما لا يسمح به التركيب المقابل فى حالة الذكور الذين لديهم واحد من كل من الكروموسومين: Y و X. والنتيجة هى قدرة مناعية أفضل للإناث.

وتتوافر دلائل أخرى على التفوق الفسيولوجى للإناث. فبينما تتخلق النطفة ذكرا بمعدل ١١٥ لكل ١٠٠أنثى، تتعرض الأجنة الذكور للإجهاض بمعدلات أعلى من الإناث. وتكشفت علاقة طردية بين هرمون الذكورة «تيستسترون» وارتفاع معدلات «الكوليسترول» السيئ وأخرى عكسية مع «الكوليسترول» الجيد، بينما يبدى هرمون الأنوثة «إستروجن» ارتباطات عكسية، ويخفف بالإضافة من تأثير الخلايا المؤكسدة free radicals.

(٧) بينما يتوافر من الدراسات السكانية دليل على أن الممارسة الفعلية حين تحرم البنات والنساء من الرعاية الصحية والاجتماعية التى تسبغ على الصبية والرجال فى المجتمعات «الذكورية» تؤدى إلى مستوى أدنى من الصحة، وأعلى من الوفاة، بين البنات والنساء (مثلا، سن، ١٩٩٩). ولعل أشد أشكال هذه التفرقة ضراوة هو وأد البنات عند عرب الجاهلية، الذى حرّمه الإسلام قطعا، ونظيره المعاصر هو ممارسة إجهاض الأجنة الإناث فى بعض المجتمعات المتخلفة والذى يستغل، للعجب، أحد منجزات العلم الحديث بإمكان التعرف على نوع الجنين قبل الميلاد.

في ألف ليلة وليلة
نســـاء القصـــر

أنَّ المستبدِّين والطغاة في ألف ليلة وليلة، رجالاً ونساءً، كانوا يجدون لذّة في تعذيب الناس وقهرهم، وكان يحسّون بالرضى يملأ نفوسهم، وهم يشاهدون الناس البسطاء يفرّون مذعورين أمامهم

محمـــد عبدالرحمـــن يونس

[١]

■ ليست نساء السلطة في ألف ليلة وليلة مستبدات طاغيات فحسب، بل يوجد فيهنّ الزواني اللواتي يخنّ أزواجهنّ كلما سنحت لهنّ الفرصة بذلك، فهنّ يخطّطن لهذه الخيانة ويحتلن على أزواجهنّ ليذهبن إلى عشاقهنّ، وبخاصة إذا كانت هاته النسوة متخيّلات، وغير معروفات في الواقع التاريخي، مع العلم أنّ هؤلاء الأزواج، كما يصورهم الرواة، أوفياء لهنّ، ومؤمنون تقاة في بعض الأحيان. ففي حكاية «الحشّاش مع زوجة أحد الأكابر»، يصوّر الراوي زوجة أحد الرجال المهيمنين في حقل السلطة، بصورة المرأة الزانية التي تنتقم من زوجها شرّ انتقام، لأنّها ضبطته يزني بإحدى جواريها، إذ أقسمت يميناً بأنّها ستنتقم منه، وتزني مع أقذر الناس وأحطّهم منزلة. تقول المرأة: «اتّفق أنّني كنت أنا وإيّاه قاعدين في الجنينة داخل البيت، وإذا هو قد قام من جانبي وغاب عنّي ساعة طويلة، فاستبطأته، فقلت في نفسي لعلّه يكون في بيت الخلاء، فنهضت إلى بيت الخلاء، فلم أجده، فدخلت المطبخ فرأيت جارية فسألتها عنه فأرتني إيّاه وهو راقد مع جارية من جواري المطبخ، فعند ذلك حلفت يميناً مغلظة أنّني لا بدّ أن أزني مع أوسخ الناس وأقذرهم». عندما تخرج المرأة بصحبة خدمها وحرّاسها ليجوسوا خلال الشوارع والأزقّة باحثين عن طلب المرأة وما إن يشاهدها الناس حتّى يفرّوا مذعورين من بطشها. يقول الحشّاش: «فوجدت الناس هاربين، فقال واحد منهم: ادخل هذا الزقاق لئلاّ يقتلوك. فقلت: ما للناس هاربين؟ فقال لي واحد من الخدم: هذا حريم لبعض الأكابر. وصار الخدم ينحّون الناس من الطريق قدّامها، ويضربون جميع الناس ولا يبالون بأحد».

ويمكن أن يتساءل متلقّي الحكاية: طالما أنّ المرأة السلطوية تخرج باحثة عن رجل وسخ لتزني به، انتقاماً من زوجها الزاني، فما ذنب هذا القطاع العريض من الناس الذي يتجوّل في الشوارع باحثاً عن لقمة عيشه، حتّى يبتعد مذعوراً عن طريق هذه المرأة المستبدّة، وحتّى يهان ويُضرب، من دون أن يرتكب أيّ ذنب؟. يبدو أنّ المستبدّين والطغاة في ألف ليلة وليلة، رجالاً ونساءً، كانوا يجدون لذّة في تعذيب الناس وقهرهم، وكان يحسّون بالرضى يملأ نفوسهم، وهم يشاهدون الناس البسطاء يفرّون مذعورين أمامهم، ويبدو أنّ هذا الفرار كان يعزّز لديهم هذا الغرور الأحمق بعظمتهم ومكانتهم السلطوية. فالاستبداد يضعف الأخلاق الحسنة أو يفسدها أو يمحوها. ومن هنا فإنّ المستبدّ الذي تضعف أخلاقه أو تفسد، لا يهمّه إن أهين شعبه، أو قهر جراء أفعاله الاستبدادية. فالمرأة المستبدّة زوجة لأحد رجال السلطة المهيمنين، وقد سمحت لخدمها بضرب جميع من يمشي في الشارع الذي تمشي فيه، وأمرت خدمها أن يهينوا الحشّاش، ويربطوه، ويأخذوه عنوة إلى منزلها: «وإذا بالطواشي جاء إليّ وقبض عليّ، فتهاربت الناس. وإذا بطواشي آخر أخذ حماري ومضى به. ثمّ جاء الطواشي وربطني بحبله وجرّني خلفه، وأنا لم أعرف ما الخبر، والناس من خلفنا يصيحون ويقولون: ما يحلّ من الله، هذا رجل حشّاش فقير الحال ما سبب ربطه بالحبال؟».

وقد يكون راوي الحكاية السابقة أضفى على سلوك المرأة نوعاً من الغرائبية والتخيّل، قاصداً بذلك إثبات أيديولوجيته المعادية لاستبداد نساء السلطة في ألف ليلة وليلة، لكن كاتب هذه الدراسة يدرس فعل السلطة، لا باعتباره فعلاً سحرياً وأسطورياً، بل باعتباره فعلاً يمكن أن يتحقّق في بنية الزمان والمكان: التاريخي والواقعي، لأنّ الإشارات التاريخية الكثيرة لممارسات السلطة من اضطهاد وتعسّف وقهر لشعوبها في العصور، تثبت أنّ ما ورد في ألف ليلة وليلة من ممارسات سلطوية استبدادية يمكن أن يكون له خلفية تاريخية ذات علاقة بواقع معيش عاصره الراوي، بعلاقاته السياسية والاجتماعية، واستفاد منه في تشكيل حكايته. فـ «قصص ألف ليلة وليلة تنبع أحداثها من حاجات المجتمع وترسم وقائعها من خلال المتطلّبات التي حدّدتها الحاجات (...) وهذا يعني أنّ نشأة القصص هذه مرتبطة بنشأة الشعب العربي، وموصولة بأحداثه التي عاصرها (...) وبإنسانه الذي كان مدار هذه القصص وبطل تلك الحكايات والأمثال». على حدّ تعبير الدكتور نوري حمود القيسي.

وحتّى لا تحنث المرأة السلطوية باليمين التي قطعتها على نفسها، فإنّها قادت الحشّاش مربوطاً، مجروراً إلى قصرها، وأدخلته الحمّام، وألبسته أجمل الملابس الفاخرة، وأمرت جواريها أن يرششنه بماء الورد تمهيداً لتحقيق فعل الزنى، والانتقام من زوجها: «ثمّ بعد ذلك أشارت إلى بعض الجواري أن يفرشن لنا في مكان، ففرشن في المكان الذي أمرت به. ثمّ قامت وأخذت بيدي إلى ذلك المكان المفروش ونامت ونمت معها إلى الصباح، وكنت كلّما ضممتها إلى صدري أشمّ منها رائحة المسك والطيب، وما أعتقد إلاّ أنّي في الجنّة أو أنّي أحلم في المنام». فالمرأة السلطوية تزني بالحشّاش القذر تحدّياً لزوجها وانتقاماً منه، لأنّها تعي أنّ وضعها السلطوي يحميها، وأنّها قادرة على أن تمارس هذا الفعل بكلّ جرأة، لأنّها واثقة من قدراتها على إخفاء الحشّاش في مخابئ القصر، إذا ما داهمها زوجها، وهي واثقة من قدرة جواريها المقرّبات على الاحتيال، والإسراع بنجدتها إذا ما حضر زوجها بشكل مفاجئ: «فبينما أنا نائم عندها ليلة ثامن يوم وإذا بجارية دخلت وهي تجري وقالت لي: قم اطلع إلى هذه الطبقة فطلعت في تلك الطبقة».

ويبدو أنّ المرأة السلطوية، التي لا يذكر الراوي اسماً لها، اعتقدت أنّها لا تنتقم من زوجها، أو تسترد كرامتها إذا رقدت مع الحشّاش ليلة واحدة، بل إنّها أسرفت في الانتقام منه، واستمرّت النوم مع الحشّاش، ولثماني ليال متواصلة كما يشير الراوي. وإذا كان زوجها السلطوي قد سلك مسلكاً فاسداً، ومارس فعل الزنى فإنّها بزّته، وتمادت في طريق الفساد، ولم تكتف بذلك فحسب، بل أذلّته بسطوة جسدها الجميل، وجعلته يقبّل الأرض بين يديها، عندما صفحت عنه، وسمحت له ثانية بامتلاك هذا الجسد. يقول الراوي: «فتقدّم (الزوج) إلى الباب وترجّل ودخل القاعة، فرآها قاعدة على السرير، فقبّل الأرض بين يديها ثمّ تقدّم وقبّل يدها فلم تكلّمه، فما برح يخضع

ألف ليلة وليلة
مؤلف مجهول
منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت

إنَّ حياة الفسق التى ينغمس فيها مجتمع السلطة تجعل أفراد هذا المجتمع عاجزين عن ممارسة السيطرة الضرورية على ذواتهم التى تنجرف فى ملاحقة العلاقات الجنسيّة غير الشرعيّة وطلبها



لها حتّى صالحها ونام عندها تلك الليلة».

لم يشأ راوى الحكاية أن يجعل المرأة السلطويّة والرجل زوجها، غارقين فى الفساد على قدم المساواة، وذلك بأن يرتكبا فعل الزنى، وينناما مع الشريك الزانى، وبعدد الليالى نفسها التى تمّ بها هذا الفعل، بل جعل المرأة تفوق الرجل فى هذا الفعل بسبع ليالٍ، لأنّ هذا الراوى محكوم بأيديولوجيا رجوليّة تعتقد أنّ المرأة أكثر فساداً وفسقاً من الرجل، وأنّها أكثر جرأة، وإقداماً على ارتكاب المعاصى من الرجل، لأنّ شهوتها الجنسيّة تفوق شهوة الرجال، وفق هذه الأيديولوجيا الرجوليّة، ولأنّ هذه الشهوة عند النساء متأججة، ولا تستطيع ضبطها، فإنّها تلجأ إلى إشباعها بطريقة شاذة مع الحيوانات الأليفة كالدبّ والقرد، كما فى حكايتى: «وردان الجزّار»، و«داء غلبة الشهوة عند النساء»، أو بطريقة سحاقيّة كما فى حكاية «عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان»، إذ تبدو المرأة العجوز السلطويّة، شواهى ذات الدّواهى ولعة بسحاق جوارى ولدها الملك، فقد كانت تقيم «عند ولدها حردوب ملك الروم لأجل الجوارى الأبكار، لأنّها كانت تحبّ السحاق، وإن تأخّر عنها تكون فى انمحاق، وكلّ جارية أعجبتها تعلّمها الحكمة، وتسحق عليها الزعفران فيغشى عليها من فرط اللذّة مدة من الزمان، فمن طاوعتها أحسنت إليها ورغّبت ولدها فيها، ومن لا تطاوعها تتحايل على هلاكها وكانت ترغب من تساحقها بالجواهر والتعليم».

ووفق الأيديولوجيا الرجوليّة المعادية للمرأة، تبدو المرأة. سواء أكانت سلطويّة أم غير سلطويّة. جريئة ومقدامة، وقادرة على ارتكاب المعاصى والفجور أكثر من الرجال، ومن هنا فإنّه لا عاصم يعصم هذه المرأة من ارتكاب الموبقات، إلاّ إيمانها وخوفها من الله سبحانه وتعالى، وإن انتفى هذا الإيمان، فإنّها ستفعل ما تريده على الرغم من كلّ سلطات الذكور، ومن كلّ الحواجز المحصّنة التى يحاصرونها بها، ويسجنونها داخلها، وهذا ما تشير إليه الأيديولوجيا الرجوليّة فى الحكاية الأولى من حكايات ألف ليلة وليلة: حكاية «الملك شهريار وأخيه شاه زمان».

ولقد عمد معظم رواة ألف ليلة وليلة، من خلال تصويرهم لمواقف نساء الليالى، وسلوكهنّ إلى تأكيد هذه الرؤية الأيديولوجية: «إنّ المرأة إذا أرادت أمراً لم يغلبها شىء». ويبدو أنّ هذه الرؤية مستمدّة من الخلفيات المرجعية التاريخيّة التى اطّلع عليها الرجال، ومن ثمّ آمنوا بها، وكرّسوها فى مدنهم، وفى علاقاتهم الإنسانيّة مع نسائهم وأخواتهم وبناتهم ونساء عصرهم، والتى تؤكّد دونيّة المرأة، وعدم الثقة بها، وتهالكها على ارتكاب المعاصى.

إنّ حياة الفسق التى ينغمس فيها مجتمع السلطة تجعل أفراد هذا المجتمع عاجزين عن ممارسة السيطرة الضروريّة على ذواتهم التى تنجرف فى ملاحقة العلاقات الجنسيّة غير الشرعيّة وطلبها، وإذ يبحث المرء فى الزنى عن العلاقات الجنسيّة غير الزوجيّة التى هى أكثر ما تتنافى مع القانون، فإنّه يكون قد دخل ضمن علاقات جنسيّة تُعدّ بحدّ ذاتها مخزية وناشئة عن الفسق. ومن هنا، فإنّ زنى المرأة السلطويّة بالحشّاش فى حكاية «الحشّاش مع حريم أحد الأكابر»، كان نتيجة علاقات الفسق والفساد التى سادت فى قصور ألف ليلة وليلة، والتى انغمس فيها كبار القوم من جهة، وهو فى بنيته العميقة يشير إلى فساد متأصّل فى طويّة هذه المرأة وسلوكها وقيمها التى تربّت عليها فى مجتمع سلطوى ثرى مستبدّ محاط بالأبّهة والخدم، لا يأبه بالمواضعات الأخلاقيّة، ولا يهمّه إن غرق أعيانه فى حياة قوامها الانحلال والفساد، أو بثّ الرعب فى نفوس مواطنيهم، وإجبارهم على تحقيق نزواتهم من جهة ثانية. ولو كان فعل الزنى مجرد انتقام من الزوج السلطوى فحسب، لاكتفت المرأة السلطويّة بالمبيت مع الحشّاش مرّة واحدة بدلاً من ثمانى ليالٍ، ولا سيّما أنّ الزوج مارس فعل الزنى مع جارية المطبخ مرة واحدة. أمّا المرأة فقد استمرأت هذا الفعل مع الحشّاش، لأنّه لم يعد أقذر رجل فى المدينة بعد أن أدخلته حمّام قصرها، وأمرت جواريها بتنظيفه وتدليكه، وتضميخه بماء الورد، وإلباسه أجمل الملابس.

[٢]

وليست هذه المرأة. زوجة أحد الأكابر . فى حكاية «الحشّاش مع حريم أحد الأكابر»، هى المرأة السلطوية الوحيدة فى حكايات ألف ليلة وليلة، التى تمارس فعل الزنى مع الرجال القذرين، والأدنى منها طبقة اجتماعيّة، بل هناك نساء سلطويات. زوجات وبنات ملوك. أسوأ منها بكثير، ومنهنّ زوجة أحد الملوك الكبار التى تخون زوجها الملك يومياً على الرغم من حبّه ووفائه الشديدين لها، وسلوكه العفيف مع نساء مجتمعه وجوارى قصره، كما تشير حكاية «الشاب مع الملك والأسماك الملوّنة» الداخلة ضمن حكاية «الصيّاد والعفريت». فقد تزوّجت هذه المرأة. لا يذكر الراوى اسماً لها. ابن عمّها صاحب الجزائر السود، وكانت تحبّه محبّة عظيمة، بحيث إذا غاب عنها لا تأكل ولا تشرب حتّى تراه، لكنّها صارت فيما بعد تكرهه وتقع فى حبّ جديد. مثلها مثل معظم نساء ألف ليلة وليلة. وعندما يأتى كلّ مساء تضع بنجاً فى قدح شرابه، وترتدى أجمل ملابسها، وتخرج لملاقاة عشيقها. يقول الراوى: «وإذا بها تقول: نم ليلتك (....) والله كرهتك وكرهت صورتك ومللت نفسى من عشرتك، ثمّ قامت ولبست أفخر ثيابها وتبخّرت وتقلّدت سيفاً وفتحت باب القصر».

وذات ليلة يتظاهر الملك بالنوم أمام جاريتين من جواريه اللّتين تدلّكانه، ويكتشف من حديث الجاريتين خيانة زوجته له: «فسمعت التى عند رأسى تقول للّتى عند رجلى يا مسعودة إنّ سيّدنا مسكين شبابه ويا خسارته مع سيّدتنا الخبيثة الخاطئة. قالت الأخرى: (....) ولكنّ مثل سيّدنا وأخلاقه لا يصلح لهذه الزانية التى كلّ ليلة تبيت فى غير فراشه. فقالت التى عند رأسى: إنّ سيّدنا مغفّل حيث لم يسأل عنها. فقالت الأخرى: ويلك وهل عند سيّدنا علم بحالها أو هى تفعل ذلك باختياره؟ بل هى تعمل له عملاً فى قدح الشراب الذى يشربه كلّ ليلة قبل المنام، فتضع فيه البنج فينام ولا يشعر بما يجرى ولا يعلم أين تذهب ولا ماذا تصنع».

وعندما يكتشف الملك سرّ نومه الثقيل، يمتنع فى إحدى الليالى عن شراب كأسه المخدّر، ويراوغ زوجته، ثمّ يدلق كأسه أرضاً، ويتظاهر بالنوم، فتقوم الزوجة كعادتها بارتداء أفخر ملابسها والخروج قاصدة عشيقها العبد الأسود، فينهض مسرعاً ويتبعها شاقّاً أسواق المدينة، وعندما تصل زوجته إلى عشيقها تنكشف الحقيقة المؤلمة أمامه، فيغيب عن الوجود، ويصير الضياء فى وجهه ظلاماً بمفردات رواة ألف ليلة وليلة. يقول الراوى:

«وإذا بها قد دخلت على عبد أسود فقبّلت الأرض بين يديه، فرفع ذلك العبد رأسه وقال لها: ويلك ما سبب قعودك إلى هذه الساعة؟ كان عندنا السود وشربوا الشراب وسار كلّ واحد بعشيقته وأنا ما رضيت أن أشرب! فقالت: يا سيّدى وحبيب قلبى أما تعلم أنّى متزوّجة بابن عمّى وأنا أكره النظر فى صورته وأبغض نفسى فى صحبته ولولا أنّى أخشى خاطرك لكنت قد جعلت المدينة خراباً يصيح فيها البوم والغراب. فقال العبد تكذبين يا عاهرة وأنا أحلف وحقّ فتوة السود (...) إن بقيت تقعدى إلى هذا الوقت مثل هذا اليوم، لا أصاحبك ولا أضع جسدى على جسدك يا خائنة، تغيبين علىّ من أجل شهوتك يا منتنة يا أخسّ البيض.

قال الشاب (زوجها الملك): فلمّا سمعت كلامها وأنا أنظر بعينى ما جرى بينهما صارت الدنيا فى وجهى ظلاماً وصارت بنت عمّى واقفة تبكى إليه وتتذلّل بين يديه وتقول يا حبيبى وثمرة فؤادى، يا حبيبى يا نور العين! ومازالت تبكى وتتضرع له حتى رضى عليها ففرحت وقامت وخلعت ثيابها ولباسها، وقالت يا سيّدى هل عندك ما تأكله جاريتك، فقال لها: قومى لهذه القوّارة تجدى فيها ما تبغين، فقامت وأكلت وشربت وغسلت يديها وجاءت فرقدت مع العبد على قشّ القصب، وتعرّت ودخلت معه تحت الهدمة، فلمّا نظرت إلى هذه الفعال التى فعلتها بنت عمّى غبت عن الوجود».

آثرت أن أطيل الاقتباس حتّى تتّضح الأيديولوجيا الرجوليّة المعادية والمحتقرة لهذه النوعية من النساء السلطويات الفاسدات، وإلى أىّ مدى يمكن أن تكون نساء السلطة فى اللّيالى.

ووفق هذه الأيديولوجيا .


حلمي
التوني
2006

مندفعات في فسادهن الأخلاقي ورغباتهن المسعورة المتهالكة على الجنس ومع أحط الرجال، مع ملاحظة أن هذه الأيديولوجيا الرجولية هذه لا تدين المرأة الأميرة العازبة، فيما إذا اندفعت متهالكة لتحقيق فعل الجنس مع الأمير أو الملك العازب، بل نجد أن الراوي يشجع هذا التهالك، ويهيئ له جميع الظروف والعوامل المساعدة لتحقيق هذا الفعل، فها هو يشجع بطله تاج الملوك على امتلاك الأميرة العازبة دنيا بنت الملك شهرمان امتلاكاً جنسياً ويشتهي له أن ينام بين نهديها لأنه أهل لذلك، ويثبت هذا الاشتهاء على لسان العجوز مربيتها، حين تصف لها بطله تاج الملوك قائلة: «كأن رضوان فتح أبواب الجنان وسها فخرج منها (أي تاج الملوك) وأنا أشتهي في هذه الليلة أن يكون عندك وينام بين نهودك فإنه فتنة لمن يراه». ثم سرعان ما يقذف بهذا البطل إلى مقصورة الأميرة دنيا، ليحقق له حلمه بامتلاك هذه الأميرة الجميلة: «ثم إن تاج الملوك عد خمسة أبواب ودخل الباب السادس، فوجد السيدة دنيا واقفة في انتظاره. فلما رأته عرفته، فضمته إلى صدرها وضمها إلى صدره (...) ثم اختلت هي وتاج الملوك. ولم يزالا في ضم وعناق، والتفت ساق على ساق إلى وقت السحر». ثم بعد ذلك ليجعله عاشقاً مليئاً بالهيام والوجد والغرام، لا يطيق الصبر على جسد الأميرة دنيا.

تشير حكايات ألف ليلة وليلة، وفي بعض حالات الحب والعشق والجنس إلى أن إيديولوجيا الرواة الرجولية تؤكد أن المرأة الأميرة أكثر تهتكاً وفساداً ورغبة في الزنى من عاشقها الأمير أو الملك، الذي يرغب أن يكون فعل الجنس ذا صبغة شرعية أخلاقية، وذلك من خلال الزواج على سنة الله ونبيه. فالراوي في حكاية «تاج الملوك ودنيا بنت الملك شهرمان»، دفع بطله تاج الملوك إلى حضن الأميرة دنيا، ليلف الساق على الساق، وليشتغل في الهراش والضم والعناق لنصف سنة، من دون أن يجعله يفتض هذه الأميرة، لا لأنه يرى أن هذا الافتضاض فعل شائن قائم خارج حدود أخلاقيات الزواج المتعارف عليها، بل ليؤكد أيديولوجيته الرجولية التي ترى أن أخلاق المرأة. ومهما كانت رفيعة الشأن. سرعان ما تتهاوى عندما يحضر الرجل الجميل المتلئ بالقدرات الجنسية والجمالية، فالأمير تاج الملوك يعلن للأميرة دنيا أنه زاد شوقاً وهياماً وغراماً بها، إلا أن غرامه هذا لم يبلغ غايته الكلية، عندها تدعوه الأميرة لأن يتجاوز فعل الضم والعناق، وصولاً إلى الغاية الكلية (فعل الجنس)، لكنه يرفض أن يصل إلى هذه الغاية، إلا بعد أن تأخذ منحى شرعياً لا حرام فيه. يقول الراوي:

ويبدو أن رواة ألف ليلة وليلة يريدون أن يؤكدوا لمتلقي الحكايات، أن الغريزة الجنسية لدى النساء تشكل قوة شيطانية وحشية



«وأما ما كان من أمر تاج الملوك والسيدة دنيا فإنهما أقاما على حالهما نصف سنة، وهما كل يوم يزدادان محبة في بعضهما. وزاد على تاج الملوك العشق والهيام والوجد والغرام، حتى أفصح لها عن الضمير، وقال لها: اعلمي يا حبيبة القلب والفؤاد أني كلما أقمت عندك ازددت هياماً ووجداً وغراماً، لأني ما بلغت المرام بالكلية، فقالت له: وماذا تريد يا نور عيني؟ (...) إن شئت غير الضم والعناق والتفاف الساق على الساق، فافعل الذي يرضيك وليس لله فينا شريك. فقال: ليس مرادي هكذا (...) ثم قال: وأريد الآن أن أتوجه إلى أبي ليرسل رسولاً إلى أبيك ويخطبك منه ونستريح».

إن العودة إلى الحكاية السابقة: حكاية «الشاب مع الملك والأسماك الملونة»، تكشف بعض ملامح الأيديولوجيا الرجولية المعادية للمرأة السلطوية الزانية، وذلك من خلال التباين الحاد بين أخلاقها وأخلاق زوجها الملك الشاب:

الزوج الملك

الزوجة الملكة

. شاب بأخلاق حسنة لا يصلح لهذه الزانية.

. يثق بها وينام ولا يشعر بما يجري ولا يعلم أين تذهب، وماذا تصنع.

. يقلق على غيابها وتأخرها عن منزلها، ويخاف عليها من شدة محبته لها.

. يحبها زوجها محبة عميقة، لكنها تحتقره وتكرهه.

. سيدة خبيثة خاطئة زانية.

. تضع له البنج كل ليلة في كأس شرابه.

. تقول له: كرهتك وكرهت صورتك وملت نفسي من عشرتك.

. تحب عبداً أسود بشعاً محبة عميقة، لكن العبد يحتقرها.

ومن ملامح هذه الأيديولوجيا الرجولية المعادية لهذه المرأة السلطوية الزانية، اندفاعها الشديد نحو العبد وتعلقها به، وتركيز الراوي على مدى احتقار العبد لهذه المرأة العاشقة له، مقابل خضوعها له، واستجدائها لعطفه ومحبته. والمقارنة الآتية توضح ذلك:

العبد

المرأة السلطوية (الملكة)

. رفع ذلك العبد رأسه وقال لها:

ويلك ما سبب قعودك إلى هذه الساعة.

. فقال العبد تكذبين يا عاهرة.

. دخلت على عبد أسود فقبلت الأرض بين يديه.

. فقالت يا سيدي وحبيب قلبي أما تعلم أني متزوجة بابن عمي وأنا أكره النظر في صورته، وأبغض نفسي في صحبته.

. قال العبد: إن بقيت إلى هذا الوقت مثل هذا اليوم، لا أصاحبك ولا أضع جسدي على جسدك يا خائنة، تغيبين علي من أجل شهوتك يا منتنة يا أخس البيض.

. حتى رضي عليها.

. فقال لها: قومي لهذه القوارة تجدي فيها ما تبغين.

. رضي عليها.

. تبكي إليه وتتذلل بين يديه وتقول له يا حبيبي وثمرة فؤادي، يا حبيبي يا نور العين.

. ما زالت تبكي وتتضرع.

. قالت: يا سيدي هل عندك ما تأكل جاريتك؟

. خلعت ثيابها ولباسها، ورقدت مع العبد على قش القصب.

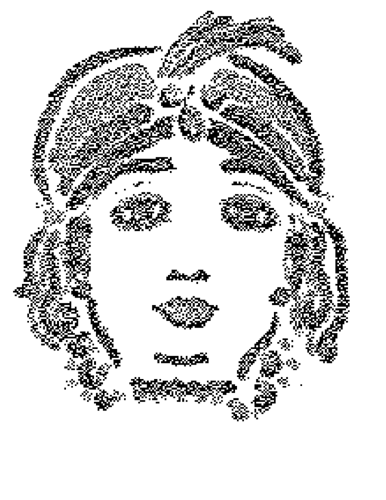
إن هذه المرأة السلطوية قد قلبت الأدوار في طبيعة العلاقة بين الذكر والأنثى، فإذا كان من المتعارف عليه، أن الذكر هو الذي يطلب الأنثى ويطاردها، في حين أن الأنثى تمتنع عنه، أو تعامله بغنج ودلال حتى يزداد وجداً بها، فإن الأيديولوجيا الرجولية الرامية إلى احتقار المرأة، واعتبارها شراً على المجتمع الرجولي، قد قلبت الدور، وجعلتها المتهالكة على إشباع شهواتها، مقابل الرجل المزدري لها، وزيادة في احتقارها، وتشويه قيمها، والطعن بأخلاقها، فقد جعلتها تكره الملك الجميل والوفي والقريب، ابن عمها، وتسفح ماء وجهها للعبد القبيح البعيد، الذي ينصب نفسه سيداً عليها، وتترك مائدة الملك العامرة وفراشه الوثير، لترضى باليسير من الطعام، ولترقد على قش القصب، وهذه الملكة تقلب أدوار السيادة والعبودية، وتتنازل عن دورها كملكة، وترضى بدور الجارية، وذلك لصالح العبد الذي يصبح سيداً لها، موبخاً وآمراً: «يا عاهرة.. يا خائنة.. قومي لهذه القوارة»، مقابل أن يطفئ سعارها الجنسي.

ويبدو أن رواة ألف ليلة وليلة يريدون أن يؤكدوا لمتلقي الحكايات، أن الغريزة الجنسية لدى النساء تشكل قوة شيطانية وحشية، وهذه القوة يجب أن تحبس وتقمع حتى لا تشكل خطراً يهدد المجتمع القائم على مبادئ النظام الأبوي، وحتى لا تمثل تحدياً واضحاً للنظام الذكوري «الذي يقضي بانتقال اسم الرجل وملكيته ومكانته وسلطته من جيل إلى الجيل الذي يليه»، على حد تعبير د. سمر العطار ود. جيراهارد فيشر، ولذا يجب قمع المرأة سواء أكانت سلطوية أم من الطبقات الأخرى، حتى لا تعارض هذا النظام الرجولي الذي لا يريد له الرواة الرجال أن يتنازل عن مكانته وامتيازاته لصالح نساء فاجرات تقودهن شهواتهن المتأججة إلى تقويض بنيانه، وإفساد قيمه.

[٣]

إن الرغبة الجنسية عند نساء السلطة في ألف ليلة وليلة تصبح قوة تدميرية تفتك بكل من يقف ضد إشباعها بالتواصل الجنسي، فنساء السلطة لا يرحمن من يحبط رغباتهن الجنسية، أو من لا يشبعها، حتى ولو كان من أقرب المقربين إليهن. وهذا ما تشير إليه حكاية: «الملك قمر الزمان والملكة بدور»، إذ يتزوج الملك قمر الزمان امرأتين جميلتين، وهما: الملكة بدور والملكة حياة النفوس، فيرزقه الله بولدين منهما، وهما: الأمير الأمجد من زوجته بدور،

وليســـت نســـاء السلطة فـــى ألـف ليـــلة وليـــلة هـــن المـــستبـدات والـزوانـى الـوحـيـدات، بل يتســــاوى فـــى ذلــك معظـــم نســـاء ألف ليـــلة وليـــلة



والأمير الأسعد من زوجته حياة النفوس. ويكبر الولدان حتى يصيرا فى غاية الكمال ونهاية الحسن والجمال، ويفتتن بهما النساء والرجال، بمفردات راوى الحكاية، وتُفتَن بهما زوجتا الملك. إذ «إنَ محبة الأسعد الذى هو ابن حياة النفوس وقعت فى قلب الملكة بدور زوجة أبيه، وإنَ محبة الأمجد الذى هو ابن الملكة بدور وقعت فى قلب الملكة حياة النفوس زوجة أبيه، فصارت كل واحدة من الضرتين تلاعب ابن ضرتها وتقبله وتضمه إلى صدرها (...) وتمكن العشق من قلب المرأتين وافتتنتا بالولدين فصارت كل واحدة منهما إذا دخل عليها ابن ضرتها تضمه إلى صدرها وتود أنه لا يفارقها».

ولا تستطيع هاتان المرأتان الصبر على هذا العشق الذى ملأ عليهما حياتهما، فتمتنعان عن الشراب والطعام وتهجران لذيذ المنام، وتكتب كل منهما رسالة عشق إلى ابن ضرتها، تبدى له ولهها، وتتضرع إليه أن يرحمها مما تقاسيه من اللهف والشغف والبكاء والأنين والكآبة والاحتراق، طالبة الوصال الجنسى. ثم ترسلانهما إلى عشيقيهما الأميرين الأمجد والأسعد مع خادم وخادمة لهما. يقول الراوى: «فتناول الملك الأمجد المنديل من الخادم وفتحه، فرأى الورقة ففتحها وقرأها. فلما فهم معناها علم أن امرأة أبيه فى عينها الخيانة، وقد خانت أباه قمر الزمان فى نفسها، فغضب غضباً شديداً وذم النساء على فعلهن (...) ثم إنه جرد سيفه وقال للخادم ويلك يا عبد السوء أتحمل المراسلة المشتملة على الخيانة من زوجة سيدك؟ والله إنه لا خير فيك يا أسود اللون والصحيفة، يا قبيح المنظر والطبيعة السخيفة. ثم ضرب بالسيف فى عنقه فعزل رأسه عن جثته».

ويفعل الأمير الأسعد مثلما فعل أخوه الأمير الأمجد من قبله، ويرمى عنق العجوز التى نقلت رسالة العشق من زوجة أبيه الملكة بدور. عندها تُحبط المرأتان فى عشقهما، ويصيبهما المرض والضعف الشديد، وينقلب عشقهما إلى حقد وكراهية شديدة لهذين الأميرين، وتقرران الانتقام منهما، وذلك بتدبير مكيدة تطيح بهما. وعندما يعود الملك قمر الزمان (أبوهما) بجيشه من الصيد ويشاهد زوجتيه مريضتين، يسألهما عن حالهما، عندها تقومان بتنفيذ المكيدة لهما. يقول الراوى: «فلما رآهما الملك على تلك الحالة قال لهما: مالكما؟ فقامتا إليه وقبلتا يديه وعكستا عليه المسألة وقالتا له: اعلم أيها الملك أن ولديك اللذين قد تربيا فى نعمتك قد خاناك فى زوجتيك، وأركباك العار. فلما سمع قمر الزمان من نسائه هذا الكلام صار الضياء فى وجهه ظلاماً واغتاظ غيظاً شديداً حتى طار عقله من شدة الغيظ».

إنَ الملكتين بدور وحياة النفوس مستعدتان لأن تقودا ولديهما الوحيدين إلى حافة الموت، وتعيشان طوال حياتهما محرومتين من عاطفة الأمومة الكريمة؛ لأنَ هذين الولدين أذلاهما فى كبح جموح شهوتهما الجنسية، وهما غير مستعدتين أن تعيشا ذليلتين فى ظلهما كحاكمين مع أبيهما، وبعد موته. ويعلل الراوى سبب اندفاعهما لقتل ولديهما، ووفق أيديولوجيته الخاصة. لأنهما خشيتا أن تصيرا تحت ذل هذين الأميرين، بعد أن فضحتا نفسيهما معهما، ويمكن القول: إنَ عدم إرواء الدافع الجنسى عند الملكتين هو الذى أشعل فيهما نزعتهما العدوانية، وحقدهما على الأميرين، ورغبتهما العميقة بقتلهما، لأنَ ثمة عنصراً شيطانياً من العداء يظهر فى حالة الكبت، وهذا العنصر من شأنه أن يجعل من النزعة الجنسية شيئاً مميتاً هداماً إذا لم تجد طريقها إلى الإشباع، وفق رؤية جوزيف جاسترو.

ولا ينسى راوى الحكاية أن يثبت أيديولوجيته المعادية للملكتين الشهوانيتين؛ فعندما يغادر زوجهما الملك قمر الزمان، سرعان ما تبدأ علائم الخيانة لتظهر فى سلوكهما، عندها يدفع بطله الرجل الأمير الأمجد، لأنَ يذم النساء، ويؤكد أنهن خائنات وناقصات فى دينهن وعقولهن؛ ثم يسحب هذه الأيديولوجيا على العجوز الخادمة، لأنها من العجائز الماكرات، ولا ينسى أن يثبت أيديولوجيته التى تشيد بأخلاق أبطاله الذكور. فالأميران الأمجد والأسعد يُظهران وفاءً لوالدتيهما ولوالدهما قمر الزمان، ويقرران أن يحافظا على سرهما خوفاً على حياتهما المهددة. فيما إذا ظهر سرهما للملك قمر الزمان: «ثم تواصيا بكتمان هذا الأمر لئلا يسمع به أبوهما الملك قمر الزمان فيقتل المرأتين». فى حين أنَ هاتين المرأتين تبديان مكراً ولؤماً وتصميماً على تحريض أبيهما لقتلهما، اعتقاداً منهما بأنهما ستبقيان ذليلتين أمام الأميرين ولديهما، طالما هما مقيمان على رأس السلطة.

ولم ينس الراوى فى هذه الحكاية: حكاية «الملك قمر الزمان والملكة بدور»، أن يعمم أيديولوجيته الرجولية المعادية للمرأة، تأسيساً على حالة خاصة لملكتين خائنتين، التى اكتسبها من أخلاقيات ومفاهيم وأدبيات عصره، إذ جعل بطليه الأمجد والأسعد يقولان عن النساء بعامة، بعد أن دبرت لهما زوجتا أبيهما تلك المكيدة:

أعوذ بالله من كيد الشياطين
بين البرية فى الدنيا وفى الدين.
إنَ النساء شياطين خُلقن لنا
فهنَ أصل البليات التى ظهرت

وليست نساء السلطة فى ألف ليلة وليلة هنَ المستبدات والزوانى الوحيدات، بل يتساوى فى ذلك معظم نساء ألف ليلة وليلة، لكنَ الرواة اهتموا بالتركيز، بالدرجة الأولى، على فساد النساء فى طبقتين من طبقات مجتمع ألف ليلة وليلة، وهما طبقتا السلطة والتجار. ويبدو أنَ ظاهرة الثراء الفاحش التى انغمست بها هاتان الطبقتان، قد أسهمت فى فساد نسائهما وفجورهنَ، وجرأتهنَ على ارتكاب المعاصى، فمن المعروف أن الأثرياء فى المجتمعات المدنية ونظراً «لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك. حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة فى أحوالهم؛ فنجد الكثير منهم يقذعون فى أقوال الفحشاء فى مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم، لا يصدهم عنه وازع الحشمة، لما أخذتهم به عوائد السوء فى التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً». كما يقول ابن خلدون فى مقدمته.أ

إنَ الملكة بدور بنت الملك الغيور كانت تحب عشيقها قمر الزمان، قبل زواجها به، محبة شديدة، ثم ما لبثت أن فكرت بخيانته عندما صار زوجاً لها. لأنها وجدت أنَ ابن ضرتها حياة النفوس. الأمير الأسعد. أكثر شباباً وبهاءً منه. ومن شدة محبتها للعشيق قمر الزمان. وعندما يُتاح لها ذات مرة، وقبل أن تتزوجه، أن ترقد بجواره، وتتأمل مفاتنه وجسده المتفجر بالقدرات الجنسية. فإنَ خلايا دمها تهتاج شهوة وعشقاً له. يقول الراوى: «ثم فتحت جيب قميصه ومالت عليه وقبلت رقبته ورأته بغير سروال فمدت يدها من تحت ذيل قميصه وجست سيقانه، فزلقت يدها من نعومة جسمه، فانصدع قلبها وارتجف فؤادها وقبلته فى ثغره وقبلت كفيه، ولم تترك فيه موضعاً إلاَ قبلته، وبعد ذلك أخذته فى حضنها وعانقته، ووضعت إحدى يديها تحت رقبته والأخرى تحت إبطه، ونامت بجانبه». وعندما استيقظت وما وجدته بجوارها، ظنت أنَ قهرمانتها ووالدها الملك قد تآمرا عليها، وحرماها من هذا العشيق، النموذج الطاغى جمالياً، الذى ظلت تبحث عنه طيلة حياتها رافضة جميع عظماء مملكة أبيها والممالك المجاورة حتى لا تتنازل عن سلطتها لأى رجل كان. فها هو هذا النموذج الجمالى المثير والمُشتهى يحضر مزيحاً جميع الرجال الآخرين، محققاً للأميرة جميع آمالها فى إشباع اندفاعها الجنسى المحموم والمكبوت، وها هى تستيقظ ولا تجده، عند ذلك تيقنت أنها حُرمت منه. فما كان منها إلاَ أن أصيبت بنوبة هستيريا أفقدتها عقلها. يقول الراوى: «وطار عقلها على رأسها، وصارت تلتفت يميناً وشمالاً، ثم شقت ثوبها إلى ذيلها، فلما رأى أبوها تلك الفعال أمر الجوارى والخدم أن يمسكوها، فقبضوا عليها وقيدوها وجعلوا فى رقبتها سلسلة من حديد وربطوها فى الشباك الذى فى القصر».

إنَ الاندفاع الجنسى غير المُشبع، يسبب لصاحبه، سواء أكان امرأة أم رجلاً، حالة تشنج دائم، تعترضها نوبات شديدة تقترب كثيراً من الصرع، على حد تعبير ميشيل فوكو، وتتزامن هذه النوبات بتوتر مفرط للأعضاء الجنسية، أو ما يسمى بالنعاظ، إذ تميل

النساء المصابات بهذا المرض إلى الفعل الجنسى باندفاع قوى جداً، وتضمحل عندهن فكرة الحياء كلها، على حد تعبير سورانس.

وتأسيساً على رأى ميشيل فوكو يمكن فهم حال الملكة بدور وهى تشق ثوبها، وتفقد قدرتها على الاتزان العقلى؛ ويمكن فهم حالها بعد أن عادت إلى وعيها، وهدأت نوبتها الهستيرية الشديدة، فبعد أن شاهدت عشيقها قمر الزمان فى قصر والدها، «قامت من وقتها وصلبت رجليها فى الحائط، واتكأت بقوتها على الغل الحديد، فقطعته من رقبتها، وقطعت السلاسل، وخرجت من خلف الستارة، ورمت روحها على قمر الزمان وقبلته فى

فمه وعانقته من شدة ما بها من الغرام. وقالت له: يا سيدى هل هذا يقظة أو منام، وقد من الله علينا بجمع شملنا؟ ثم حمدت الله وشكرته على جمع شملها بعد اليأس ودخل قمر الزمان على الملكة بدور وفرح أبوها بعافيتها وزواجها وحمد الله(...) ونام قمر الزمان عندها تلك الليلة وبلغ أربه منها، وتمتعت هى بحسنه وجماله، وتعانقا إلى الصباح».

إن تمتع الملكة بدور بحسن عشيقها قمر الزمان وجماله، وإرواء دافعها الجنسى أسهما تماماً فى شفائها من نوبات الصرع والغضب التى كانت قد أصابتها. وهنا يمكن القول: إن المجامعة تخفف الغضب العتيف، ولهذا السبب لا يوجد دواء مثلها نافع للغاية ضد الاكتئاب وكره المجتمع، فالفعل الجنسى يهيئ النفس للطمأنينة، وهو يعيد الإنسان الكئيب والغاضب إلى حالة أكثر اتزاناً، كما يرى غاليان.

وتشير سيرة الملكة بدور زوجة قمر الزمان، بالإضافة إلى مكايدها ونزعتها صوب الخيانة الجنسية، إلى أنها كانت مستبدة، وقد نشأت نشأة استبدادية فى مجتمع استبدادى، وفى كنف أبيها الملك الغيور المستبد الجائر والظالم والقاهر الغشوم، الذى قتل أربعين منجماً وحكيماً من منجمى بلاده وحكمائها لأنهم عجزوا عن شفاء ابنته بدور من نوبات مرضها العدوانى، ومن شدة استبدادها فقد قتلت قهرمانتها بالسيف، من دون أن ترتكب هذه القهرمانة أى ذنب. ويبدو أن عشيقها قمر الزمان، بعد أن تزوجها، لم يستطع الحد من نزعاتها الاستبدادية وترويض وحش جوعها الجنسى الكاسر؛ ما دفعها لأن تتعلق بولده الأمير الأسعد ابن الملكة حياة النفوس، ولم يستطع أن يخضعها لسلطته، وذلك لاستبدادها ورفضها منذ شبابها المبكر أن تتخلى عن منزلتها السلطوية.

ونظراً لأن نساء ألف ليلة وليلة فاتنات ومثيرات جنسياً، فإن هؤلاء الحكام كانوا يتطامنون أمامهن، ولذا يمكن لأية امرأة بجمال صوتها، ومفاتن جسدها، أن تكون ذات سطوة فى قصرها وعلى جواريها وعلى زوجها



[٤]

إن للنساء الجميلات فى ألف ليلة وليلة، سواء أكن من طبقة السلطة أم من بقية الطبقات الاجتماعية الأخرى، سطوة شديدة على الرجال، باختلاف طبقاتهم ومراكزهم السياسية والاجتماعية. ومن الغريب أن الرجال الملوك والأثرياء فى ألف ليلة وليلة. ومهما كان عدد زوجاتهم وجواريهم كثيراً . يطمحون دائماً إلى امتلاك المزيد من هاته النسوة الجميلات امتلاكاً جنسياً، ويبذلون كل ما بوسعهم لامتلاكهن؛ ويفتعلون الحروب، ويتطاحنون، ويبددون أنفسهم لأجل هاته النسوة. فعلى سبيل المثال: على الرغم من كثرة نساء النبى سليمان بن داود، فإنه كان يطمح إلى امتلاك أية امرأة جميلة ومغايرة لغيرها من النساء، عندما يسمع بخبرها من أعوانه عفاريت الجان، فعندما يصف له العفريت داهش بن الأعمش ابنة أحد الملوك. وهو من أولاد إبليس. بمحاسنها ومفاتنها، حيث «كانت أحسن أهل زمانها ذات حسن وجمال وبهاء وكمال»، فإنه سرعان ما يبدى رغبته فى زواجها، ويرسل إلى أبيها الملك قائلاً: «زوجنى ابنتك واكسر صنمك (...) وإن أنت أبيت أتيت بجنود لا طاقة لك بها، فاستعد للسؤال جواباً والبس للموت جلباباً، فسوف أسير لك بجنود تملأ الفضاء». لكن والد الفتاة الجميلة يرفض طلبه، عندئذ يستنفر النبى مملكته وأعوانه من الإنس والجان والشياطين، ويأمر وزيره الدمرياط ملك الجان، ووزيره آصف بن برخيا بأن يزحفا بجنودهما إلى هذا الملك، ويهدما مدينته فوق رأسه. ويذهبون ويهدمون المدينة، ويتزوج النبى سليمان هذه المرأة الجميلة . لا يذكر الراوى اسماً لها . اغتصاباً وقهراً. إذا كان الراوى يسوغ للنبى سليمان

بن داود هدمه للمدينة، ووفق أيديولوجيا دينية تهدف إلى تحقيق رغبته فى تأديب هذا الملك. ابن إبليس. وإجباره على الإيمان برسالته النبوية، فإن متلقى الحكاية سيقتنع أن الهدف الرئيس من هذا الهدم هو المرأة الجميلة الموجودة فى هذه المدينة. ويذكر الراوى أنه أرسل الرسالة التالية إلى والد الفتاة الجميلة: «أنا قد أتيت فاردد عن نفسك ما نزل، وإلا فادخل تحت طاعتى وأقر برسالتى واكسر صنمك واعبد الواحد وزوجنى ابنتك بالحلال، وقل أنت ومن معك أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سليمان نبى الله، فإن قلت كان لك الأمان والسلامة، وإن أبيت فلا يمنعك تحصنك منى فى هذه الجزيرة، فإن الله تبارك وتعالى أمر الريح بطاعتى، فأمرها أن تحملنى إليك بالبساط وأجعلك عبرة لغيرك».

ويمكن أن يتساءل متلقى الحكاية: لماذا لم يرجع النبى سليمان بن داود الملك الضال ابن إبليس إلى طريق الإيمان والحق، إلا بعد أن سمع أن له ابنة جميلة؟ وهل غزوته مدينة الملك كانت تهدف إلى عودة هذا الملك الضال إلى الإيمان أم هى غزوة هدفها اختطاف المرأة الجميلة والزواج بها رغماً عنها، مع العلم أن هذه المرأة رافضة له عن قناعة تامة، بناء على قناعة أبيها الذى يكرهه. وقد يتساءل هذا المتلقى: هل يجوز للنبى سليمان أن يتزوج هذه المرأة قهراً، لأنها اختارت طريق الشرك ورفضت طلبه؟ هذا إذا كان من المتعارف عليه أن الزواج عند كل الأمم والأقوام، وعبر تاريخ الحضارات المتعاقبة والمتزامنة، لا يكون إلا برضى الطرفين. وكيف يجوز له وهو العارف بأصول الزواج وأعرافه الاجتماعية والإنسانية، أن يجبر امرأة جميلة لا تحبه على الرضوخ له والزواج به كراهية وغصباً، وبخاصة إذا كانت قصوره مليئة بالجوارى والنساء

الجميلات، ويستطيع الزواج بمن يشاء من نساء مملكته الكثيرات المؤمنات برسالته؟ وكيف يمكن فهم سر سطوته وإصراره على اختطاف امرأة تبغضه، ثم تدمير مدينتها، وقتل أبيها. وسبى قومها؟.

إن المتلقى يجد نفسه أمام احتمالين: إما أن يكون النص الحكائى نصاً تخيلياً غرائبياً نسجته مخيلة راوٍ مبدع آثر أن يقدم نصاً قادراً على إدهاش المتلقى، وشده إلى الاستمتاع بهذا النص، والتحليق به إلى فضاءاته السحرية البعيدة. وهنا تبدو إجابته على تساؤلاته السابقة مريحة مقنعة، فمادام فضاء الحكاية هو فضاء التخيل الغرائبى الإبداعى، فليس هناك ما يمنع الراوى من أن يقول ما يشاء، ويؤسطر ما يشاء حول حياة النبى سليمان بن داود، وطموحه لامتلاك النساء. وإما أن يكون النص الحكائى قريباً من الواقع، أو مؤسساً على مجموعة من المصادر التاريخية التى تحدثت عنه. وهنا سيعود هذا المتلقى ويتساءل ثانية، بالإضافة إلى أسئلته السابقة: ما السر الخفى الكامن وراء اندفاعه للزواج بالمرأة غصباً؟ وهل أخلاقه أخلاق الأنبياء أم أخلاق الملوك؟. وقد يظل هذا المتلقى عاجزاً عن إيجاد إجابات دقيقة عن أسئلته الكثيرة التى توقعه فى مزيد من الحيرة والشك والإبهام.

ويبدو أن النبى سليمان بن داود كان ولعاً بامتلاك النساء وحشرهن فى قصوره، فقد كان له ألف بيت فيها ثلاثمائة صريحة، وسبعمائة سُرِّيَّة، كما يروى الطبرى.

وليس غريباً على راوى الحكاية أن يجعله يهدم مدينة، ويقتل ملكها، ويتزوج ابنته غصباً، هذا إذا عرفنا أن معظم ملوك ألف ليلة وليلة وأمرائها وخلفائها، من الملك شهريار مروراً بعمر النعمان حتى هارون الرشيد وغيرهم كثر، يتزوجون المرأة التى يريدونها شاءت أم أبت.

ونظراً لأن نساء ألف ليلة وليلة فاتنات ومثيرات جنسياً، فإن هؤلاء الحكام كانوا يتطامنون أمام هاته النسوة، ولذا يمكن لأية امرأة بجمال صوتها، ومفاتن جسدها، أن تكون ذات سطوة فى قصرها وعلى جواريها وعلى زوجها، كدنيا البرمكية، وزوجة أحد الرجال السلطويين فى حكاية: «الحشاش مع حريم أحد الأكابر»، وجوارى السيدة زبيدة. فالرواة الذين عاصروا طغاة أزمنتهم لا يستطيعون أن يتركوا أبطالهم من الملوك والأمراء فى حال سعار جنسى؛ على الرغم من جبروت النساء المعشوقات وسطوتهن: فما على النساء فى نهاية

المطاف إلاّ الاستسلام لرغبات رجال السلطة، وإطفاء سعارهم الجنسى. وقد كان كثير من النساء يجد لذّة فى هذا الاستسلام، لأنّه يحقّق لهنّ إشباعاً جنسياً، وطموحاً للوصول إلى أعلى المراتب السياسيّة، وهذا الاستسلام فى بنيته العميقة ليس هزيمة، بل إنّه يقود إلى المجد والسلطة، فبعد أن تستسلم المرأة لرغبات الرجل السلطوىّ تمارس بدورها سلطة جنسيّة عليه، وتمارس على جواريها وعبيدها سلطة فعليّة.

[٥]

على الرغم من سلطة النساء فى ألف ليلة وليلة، وبطشهنّ واستبدادهنّ، فإنّ الرواة. بعد أن يبرزوا ملامح استبدادهنّ، ويبثّوا أيديولوجيّته م المعادية لهنّ. يحطّون من مكانتهنّ، فهنّ دائماً فى وضعيّة تقبيل اليد لرجال السلطة، على الرغم من مكانتهنّ الاجتماعية العليا. فالسيدة شمسة بنت الملك شهلان عشيقة الأمير جانشاه فى حكاية «حاسب كريم الدين وملكة الحيّات»، هى وجميع أخواتها الأميرات يقبّلن يد الأمير العاشق جانشاه عندما يصل إلى قصر والدهنّ الملك. فى حين أنّ هؤلاء الرواة يعدّون الرجل السلطوىّ سيّداً دائماً. فى معظم حكاياتهم. ويعدّون المرأة بمنزلة الجارية الدونيّة. فمعظم النساء، مهما علا شأنهنّ، يبقين جوارى لأزواجهنّ ولعشاقهنّ ولآبائهنّ، وحتّى الأميرات بنات الملوك يصبحن جوارى عندما يتزوّجن أو يعشقن، لأنّ الرواة يجبرونهنّ على التنازل عن مكانتهنّ السلطويّة كأميرات. فابنة ملك صنعاء الأرستقراطيّة البهيّة التى تحاكى البدر الزاهر تصبح جارية عند الراوى، عندما يعشقها ابن أحد ملوك ألف ليلة وليلة، فهذه الأميرة «الجارية فرحت عندما سمعت من ابن الملك هذا الكلام».

وتشير حكاية «حسن الصائغ البصرى» إلى أنّ الأميرة منار السنا زوجة حسن الصائغ البصرىّ من أهمّ أميرات ألف ليلة وليلة، وأنّ والدها من أثرى ملوك زمانه، وأشدّهم سطوة، ويملك أقاليم وبلاداً شاسعة، ومع ذلك فإنّ الراوى لا يراها إلاّ جارية أمام زوجها، على الرغم من أنّ زوجها من طبقة اجتماعيّة دونيّة. طبقة الصاغة .. وحتّى يحطّ الراوى من منزلة الأميرة منار السنا، هذه المرأة التى كانت أميرة ثمّ صارت جارية بعد زواجها من حسن البصرى، فإنّه يتجاهل اسمها منذ بداية خيوط سرد الحكاية، ولا يفصح عن هذا الاسم إلاّ بعد أن تكون الحكاية قد شارفت من نهايتها.

وهنا يمكن القول: إنّ البنية الثقافيّة لرواة الليالى، بمفاهيمها ومعتقداتها، هى انعكاس للبنية الثقافيّة العامّة والتجميعيّة لحضارة عصرهم والعصور التى سبقتهم، هذه البنية التى تعتقد جازمةً أنّ النساء لسن إلاّ جوارى، على الرغم من علوّ مكانتهنّ الاجتماعيّة والسياسيّة، ولسن فى نهاية المطاف إلاّ ملكاً للرجال، و«ما خُلقت النساء إلاّ للرجال». وأنّه مطلوب منهنّ أن يطعن الرجال طاعة مطلقة، وأن لا يغادرن منازلهنّ إلاّ بأمر أزواجهنّ، لأنّ الخروج على طاعة هؤلاء الأزواج يعنى ارتكاباً للآثام، ودخول أبواب المعاصى والهلاك. وهذه الرؤى الأيديولوجيّة المبثوثة فى حكايات ألف ليلة وليلة تشير إلى بنية الرواة المعرفيّة التى يكمن وراءها عقل استبدادىّ معادٍ لاستبداد النساء وجبروتهنّ، ويرى أنّ أولى مهمّات المرأة فى الحياة أن تكون وعاءً للإنجاب واللذّة وخادمة للرجل، ترضخ لأوامره، ولا تفكّر أبداً بالانفلات من حظيرة سطوته، وإلاّ فإنّ المصائب الهالكة ستحيق بها. وهاهو أحد الرواة يكشف عن رؤيته الاستبداديّة، بحمولاتها المعرفيّة التى تدعو المرأة إلى حمل لواء طاعة الرجل، ومهما كانت رفيعة القدر، ويجعل بطلته منار السنا تعزّز ذلك. وهاهى تعتذر لزوجها حسن البصرى عن خروجها من منزله ببغداد من دون أمره، مؤكّدة له أنّ كل ما حلّ بها من مصائب كان نتيجة لخروجها على طاعته: «هيهات يا روحى هيهات أن يخلّصنى أحد، ممّا أنا فيه إلاّ الله تعالى، ففز بنفسك وارحل ولا ترم روحك فى الهلاك فما حلّ بى هذا إلاّ لكونى عصيتك وخالفت أمرك، وخرجت من غير إذنك، فبالله عليك يا حسن لا تؤاخذنى بذنبى واعلم أنّ المرأة ما تعرف قيمة الرجل حتّى تفارقه وأنا أذنبت وأخطأت، ولكن أستغفر الله العظيم ممّا وقع منّى وإن جمعَ الله شملنا لا أعصى لك أمراً بعد ذلك أبداً».

إنّ رؤية الرواة الأيديولوجيّة المأخوذة بوهم الرجولة والسيادة والتفوّق، أسهمت إلى حدّ بعيد فى تشكيل نساء ألف ليلة وليلة المستبدّات اللواتى يشكّلن خطراً على مجتمع الرجال ومجتمع النساء فى آن. ومن هنا فإنّه وجب على الرجال. وفق أيديولوجيا هؤلاء الرواة. فى المدن الإسلاميّة وغير الإسلاميّة، حتّى يمنعوا مدّ شرور النساء وبطشهنّ، وحتّى يعمّ الأمان والطمأنينة، أن يكبحوا جموح النساء، وأن يقلّصوا أدوارهنّ فى الحياة السياسيّة والاجتماعيّة، ووجب على النساء أن تعمل على دوام مرضاتهم وسعادتهم، ولذائذهم فى المأكل والمشرب والجسد، وخدمة أولادهم، وتربيتهم التربية التى يرونها مناسبة.

كتـــاب الزاويـــة

كلمـــات

قاســم أمــين

❖ الحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأى، ونشر كل مذهب، وترويج كل فكر.

❖ لا يغرنك المرتقى السهل إذا كان المنحدر وعرًا.

❖ إن الذى مدحك بما ليس فيك إنما هو مخاطب غيرك.

❖ رب كلمة يتجرعها حليم مخافة ما هو شر منها.

❖ إذا استشارك عدوك فأخلص له النصيحة، لأنه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل فى مودتك.

❖ فى مصر: كل من يعرف القراءة والكتابة يسمى فاضلاً، فإذا درس شيئًا من العلم صار عالمًا مفضالاً، فإذا امتاز ببعض الحذق أو إظهاره عد من النوابغ.

❖ ليس الإيمان مسألة عقلية أو علمية، فإنا نرى بين العلماء من يصدق كما نرى بين الجهلاء من يكذب، وإنما الإيمان مسألة شعور صرف، شعور يجعل صاحبه يرى نفسه محتاجًا إليه إلى حد أنه يستحيل عليه أن يعيش بدونه.

❖ تعصب أهل الدين، وغرور أهل العلم، هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم. وليس بصحيح أنه يوجد بينهما خلاف حقيقى، لا فى الحال ولا فى الاستقبال.

❖ لا شىء يشبه العشق فى عنفوان نشأته، إذا هجم هذا المستبد القاهر ارتعدت له الفرائص وحصر اللسان واختبل العقل وخلا الطريق أمامه فوصل إلى القلب بوثبة واحدة أو بوثبات متعددة، ومتى احتله تمدد فيه وانتشر وملأه برمته، فلا يقبل منافسًا أو منازعًا أو شريكًا أو ضيفًا بجانبه.

أمل الشبكة

بل ماكيبن

> سار هوارد دين فوق المسرح قائلاً:
> «ما أريد أن أعرفه هو ما الذي بحق أي شيء في العالم يفعله ديمقراطيون كثيرون جدا بتأييدهم تدخل الرئيس من طرف واحد في العراق؟»

■■ عندما ظهرت الإنترنت، منذ أقل من عقد مضى، كقوة دافعة في حياة أغلبنا، كان أحد الأسئلة التي دائما ما سألها الناس: هل سيثبت أنها، مثل التليفزيون، وسيلة إعلامية للتسلية والترفيه بالأساس؟ أم ستسمح لها طبيعتها ذات الاتجاهين أن تكون أداة ذات بأس من أجل إعادة بناء الروابط بين الناس والمنظمات، وربما حتى تجديد الإحساس بمجتمع؟ لا تزال الإجابة غير واضحة يستخدم أناس الشبكة في النظر إلى نساء متجردات من الملابس وتضييع أموالهم على البوكر أكثر من أي أغراض أخرى. ولكن إذا كنت بصدد إقامة الحجة على أن للشبكة تأثيرا سياسيا مفعما بالطاقة، فلا بأس من أن توجه متصفحك إلى ديليكوس.كوم dailykos.com، والذي أطلقه ماركوس مولتساز زنيجا Markos Moulitsas Zuniga في ٢٠٠٢.

لقد خرج الموقع، الذي يجذب أكثر من نصف مليون زيارة كل يوم[1]، كملتقى للفيف من الناس العاديين (أي: ليس فقط السياسيين أو الصحفيين أو الخبراء الأكاديميين أو أنصار القضايا أو كبار المتبرعين) الذين يبغون إحياء الحزب الديمقراطي. مشغولا بتطوير استراتيجيات لإيقاع الهزيمة بـ الجمهوريين. كان الموقع مرتبطا ارتباطا كبيرا بحملة هوارد دين Howard Dean للترشح الرئاسي ومواصلة معارضته المعلنة لحرب العراق. لقد سمح معماره التقني المحبوك، الذي كونه مولتساز، لمطالعيه بأن يجمعوا الأموال للسياسيين الأثيرين ويراجعوا أنفسهم في المواقف من القضايا ويتجادلوا فيها ويحملوا على الصحفيين والمعلقين الكسالى أو المنحازين أيديولوجيا، ويساعدوا حتى في إذاعة الأخبار التي نجحت الصحافة السائدة في إغفالها. وفي قيامه بهذا، فقد حاول صراحة رسم خريطة لمستقبل جديد من أجل الديمقراطيين. وهو موضوع الكتاب محل المراجعة -واقترح ضمنيا احتمالات جديدة للنظام السياسي الأمريكي والتي قد تساعده في الإفلات من قبضة الثروة. إنه يطرح أيضا أسئلة كبرى عن مستقبل الصحافة. في نظري، لم يحدث شيء أشد إثارة للاهتمام في السياسة الأمريكية لعدة سنوات.

Crashing the Gate: Netroots, Grassroots, and the Rise of People-Powered Politics

(تحطيم البوابة: جذور الشبكة وجذور العشب وصعود السياسة المحركة شعبيا)

Jerome Armstrong
Markos Moulitsas Zuniga
Chelsea Green: 216PP.

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: محمد فتحي كلفت

جاء مولد الحركة الجديدة التي قادها ديلي كوس Daily Kos في ٢٠٠٣ مع الظهور غير المتوقع لـ هوارد دين كمرشح رئاسي. وحيث إن تلك الحملة قدمت كلا من الإلهام التقني والروحي بكثير مما جاء لاحقا، فمن المهم إعادة النظر في فيم كانت (وفيم لم تكن) مغامرة دين. لقد قامت في ظل غلبة بوش في السنوات التي أعقبت ١١ سبتمبر، عندما كان بمقدور قلة من الناس ليسوا بالتأكيد مرشحين رئاسيين همهم أن ينتخبوا أن يتحدوا البيت الأبيض مباشرة. في ذلك الوضع، فإن وضوح هوارد دين، بالخصوص استعداده لأن يعارض بقوة الحرب في العراق، وحّد الكثير من الناس الذين خشوا أن بوش كان قد نجح في خنق المعارضة.

ولكن من المهم أيضا تبين أن دين لم يكن ليبراليا تحديدا. في سنواته حاكما لفرمونت كان قد كسب سمعة كمعتدل في السياسة الاجتماعية والمالية، مخاطبا الرعاية الصحية للأطفال، على سبيل المثال، ولكن محبطا النشطاء المحليين برفضه الأخذ بخطة طبية أشمل. بيرني ساندرز Bernie Sanders، عمدة برلنجتون السابق وهو الآن العضو المستقل الوحيد في مجلس النواب، هو ليبرالي في فرمونت. دين ليس كذلك. ما كان يَهم في حالة دين هو طريقته المنفتحة ورغبته في المخاطرة مدليا بتصريحات واضحة عن العراق. في كتابهما، يعيد آرمسترونج ومولتساز المعروفان على نطاق واسع على الإنترنت باسميهما المختصرين جيروم وكوس- حكاية قصة الأيام المبكرة من الحملة، خصوصا خطبة دين في الحزب الديمقراطي بـ كاليفورنيا في مارس ٢٠٠٣. لقد جاء بعد المرشحين المعروفين الذين مشوا مع التيار وركبوا الموجة:

كان الحشد، بضعة آلاف من الحرس القديم للحزب، يأخذ نظرة عن كثب للرجال الباحثين عن إيماءة الموافقة الديمقراطية، ولا يعجبه ما يراه.

ثم سار هوارد دين فوق المسرح قائلا:

«ما أريد أن أعرفه هو ما الذي بحق أي شيء في العالم يفعله ديمقراطيون كثيرون جدا بتأييدهم تدخل الرئيس من طرف واحد في العراق؟».

جلب هذا تهليلا عاليا من الوفود.

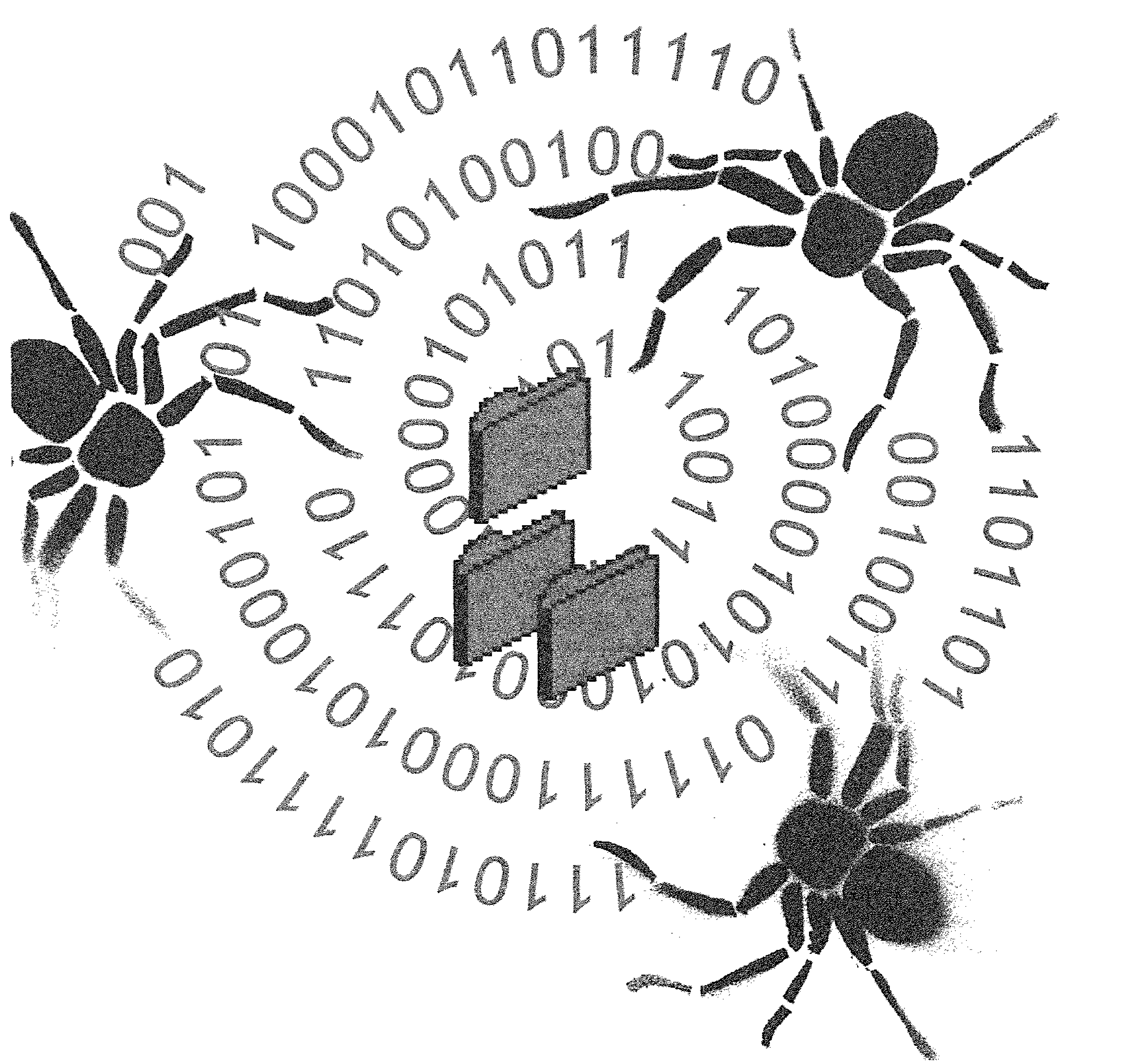
«ما أريد أن أعرفه هو ما الذي بحق أي شيء في العالم يفعله ديمقراطيون كثيرون جدا بتأييدهم تخفيضات الضرائب التي قد أفلست هذا البلد وابتلتنا بأكبر عجز في تاريخ الولايات المتحدة؟».

بعد وقت قليل كان الحشد يهتف «دين، دين» وكان ذلك قبل أن يطلق الجملة التي تحمل توقيعه: «أريد أن أسترد بلادي! نريد أن نسترد بلادنا! أنا متعب من الانقسام! لا أريد أن أستمع إلى الوعاظ الأصوليين أكثر من هذا! أريد أن تبدو أمريكا أمريكا، حيث كلنا لنا مكان.... عندنا حلم. نستطيع فقط أن ننال الحلم لو أننا كلنا معا -أسود وأبيض، شاذا وطبيعيا، رجلا وامرأة. أمريكا! الحزب الديمقراطي!»

الحشد، كما يكتبون، «كان واقفا على قدميه، كانت قاعة الاجتماعات ترتج من جلبة الجمهور، والخطبة تؤدي فعلها كعملية تحرير على استحياء.. نشطاء الحزب «لم يكونوا وحدهم في المعركة. لم يعودوا كذلك. كان لديهم بطل وكان اسمه هوارد دين. كان النداء القتالي من قبل دين لا-أدريا من الناحية الأيديولوجية، متحزبا قلبا وقالبا». وفي تحزبه ذلك، أطلق حركة فاق عمرها عمر حملته بائسة المصير ولا زالت تستجمع قواها.

ما لم يكن واضحا آنذاك هو أن حملة دين أطلقت أيضا حقبة الإنترنت في السياسة الأمريكية. فيما سبق، حتى لو أصبح الناس متحمسين لمرشح في الانتخابات التمهيدية، لم تكن هناك كل تلك الأشياء الكثيرة التي بإمكانهم عملها للمساعدة. قد يجدون عنوانا بريديا ويرسلون شيكا، أو ينتظرون الحملة التمهيدية حتى تصل ولايتهم بحيث يمكنهم أن يشاركوا في الحملة ثم يصوتوا. لكن فريق حملة دين من الشبان فتح قناة جديدة من خلال موقعهم دينفورأمريكا.كوم Deanforamerica.com، والذي يُبرز الفكرة الطازجة آنذاك الخاصة بمدونة. كل بضع ساعات -أحيانا كل بضع دقائق- كان أعضاء سيوافون بأخبار من الحملة على موقعها: نشرات حميمة وغير رسمية عن كم من الناس كانوا يتجمعون من أجل مسيرة، ملفات بيانات قصيرة لمتطوعين بعينهم، صور رقمية للافتات بارعة علقها مؤيدون على ممرات علوية أو الصقوها في أفنيتهم الأمامية.

استخدم الفريق ميتأب.كوم Meetup.com، وهو في خلاف ذلك موقع غير سياسي مصمم لجمع شمل جماعات من الناس ذوي اهتمامات متشابهة، لتمكين المؤيدين في أجزاء معينة من البلاد من أن ينظموا بسهولة لقاءات شهرية في أقبية الكنائس وصالات ألعاب المدارس الثانوية، حيث يمكن للمتطوعين، على سبيل المثال، كتابة رسائل فردية لكل ديمقراطي في أيوا ونيو هامبشاير مطالبين بتصويت من أجل دين. الأهم من كل شيء، كانوا روادا لجمع الأموال على الإنترنت. كل مرة حدث فيها شيء غير عادي (عندما كان حكيم ما سيندد بـ «مجموعات العيال» التي تدير عرض دين، مثلا) كانوا «سينصبون مضرب كرة» على الصفحة الرئيسية - صورة لمضرب بيسبول، فارغ مثل أحد ترمومترات منظمات يونايتد واي قبالة مجلس مدينة، والذي كانوا سيملأونه بالأحمر فيما كانت المشاركات ستترد من الناس الذين يأخذون دقائق قليلة لقراءة المدونة من حاسبات منازلهم أو مكاتبهم. جمع مؤيدو حملة دين بسهولة مالا أكثر من خصومهم في بواكر الانتخابات التمهيدية واجتماعات اللجان، وللمرة



أحمد اللباد

العنكبـوتيـــــــة..

الأولى فى التاريخ السياسى القريب، فعلوا ذلك على نحو كبير بمساهمات من فئات ٢٠ و٥٠ و٧٥ دولارا من أنحاء قاعدة عريضة من معجبيه المولعين. فجأة أمكن لعشرة آلاف لديهم حماسة ومع كل منهم ١٠٠ دولار أن يضاهوا لجنة عمل سياسى كبيرة أو باحة ملأى بنجوم هوليوود.

السبب الذى لأجله انهارت حملة دين فى أيوا، كما يعلل المؤلفان على نحو مقنع، كان بدرجة كبيرة أن ذلك النوع الجديد من الحملات التى كان يحشدها هددت الكثيرين جدا من أصحاب النفوذ: من المتبرعين الأغنياء المعتادين على سلطة التأثير فى القرار التى أعطتها لهم أموالهم إلى المستشارين الإعلاميين، غير الراضين وهم يرون حكمتهم التقليدية مهملة. يحكى چيروم وكوس قصة سلسلة الإعلانات التليفزيونية التى ساعدت فى قلب الاقتراعات ضد دين؛ كانت تحت رعاية مجموعة غامضة جديدة تسمى أمريكيون من أجل الوظائف والرعاية الصحية Americans for Jobs and Healthcare وقد عرضوا، بين أشياء أخرى، وجه أسامة بن لادن لكى يحاججوا بأنه «هوارد دين لا يمكنه منافسة چورج بوش فى السياسة الخارجية وكفى». بعد شهور قلائل عندما ظهرت التقارير المالية الإجبارية أخيرا: تبين أن الإعلانات كان قد أنفق عليها مؤيدو چون كيرى John Kerry ورتشارد جيفارت Richard Gephardt ونظمها «السيناتور السابق عن نيو چيرسى المفضوح الفاسد روبرت توريشيلى Robert Torricelli». وبنظرة كلية: كان رعاة الإعلان قد أعطوا أكثر من ٧,٨ مليون دولارا لـ الحزب الديمقراطى فى السنوات القليلة السابقة. ارتكب دين تصرفات خرقاء وحده لكنه كان قد أزيل بواسطة الديمقراطيين ذوى النفوذ.

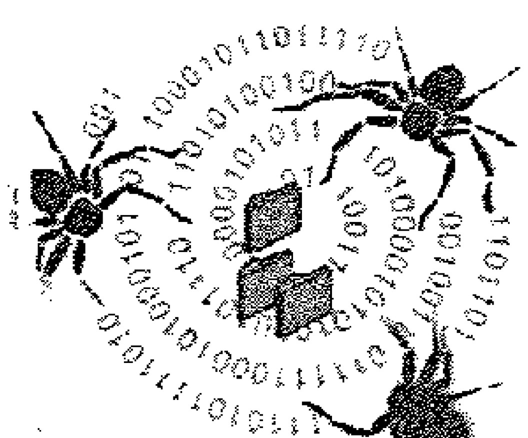
اللافت، على أية حال، أن معظم مؤيديه لم يهجروا الحزب الديمقراطى بعد هزيمته. بدلا من ذلك، عندما أظلم موقع حملة دين انتقل كثيرون جدا إلى ديلى كوس وبدأوا التطوع لـ چون كيرى- ليس بنفس المودة التى شعروا بها حيال دين، ولكن بكثير من التفانى. قضيت الأسبوع الذى يسبق الانتخابات العامة فى كولومبس، أوهايو، وكل من حدثتهم على وجه التقريب ممن خرجوا يطرقون الأبواب من أجل كيرى كانوا قد بدأوا السنة مؤيدين إما لـ دين أو للأثير الآخر على الإنترنت، الجنرال وسلى كلارك Wesley Clark.

والكثيرون منهم لم ينسحبوا عندما خسر كيرى الانتخابات، كذلك. بدلا من ذلك، ركزوا على سباق دين من أجل منصب رئيس الحزب الديمقراطى، وهو منصب كان محل اهتمام بالأساس للمطلعين السياسيين. تقاعد متولى المنصب، تيرى ماكأوليف Terry McAuliffe، بعد فشله فى انتخابات ٢٠٠٤، وكان الإجماع العام أن الأعضاء الـ ٤٤٧ المصوتين فى لجان الأحزاب ذات الصلة كانوا سيتوجهون إلى مخضرم آخر أيضا من العالم الطبيعى الوسطى لفنيى الحزب الديمقراطى والسياسيين عديمى المذاق وجامعى التمويلات بساعات الدوام الكامل. بدأ چيروم، فى مدونته ماى دى دى (ديمقراطيتى المباشرة) MyDD التى تتابع على نطاق واسع (حيث كان كوس قد بدأ مسيرة تدوينه بنشر التعليقات)، فى تقييم فرص المتنافسين: بدأ مدونون آخرون فى دراسة سجلات منافسى دين. أحدهم، ليو هندرى Leo Hindery، على سبيل المثال، كان النموذج القياسى للقطط السمان. بحسب تحطيم البوابة، فقد استدار عائدا بطائرته الجلفستريم فى عرض الجو وهو فى الطريق لاجتماع لجنة ديمقراطية عندما نمى إلى علمه أن المدونات قد كشفت أنه كان الراعى الأكبر للإعلان الذى

يربط بين دين وأسامة. عندما ربح دين أخيرا، قال، «إن قوة هذا الحزب لا تنبع من المستشارين من فوق. إنها تنبع من القاعدة من أسفل». في جوهر الأمر، كانت هذه القوة الجديدة قد خسرت الانتخابات التمهيدية، ولكنها جعلت من الواضح أنه بإمكانها الاستمرار في القتال. «كان دين هو أول من يقتحم ويدخل عالم الحزب المغلق حتى هذه اللحظة»، كما يكتب كوس وجيروم. «لن يكون الأخير».

يركز تحطيم البوابة على التكتيكات من أجل استراتيجية ديمقراطية جديدة. وهي تشمل، أولا، نقل السلطة بعيدا عن جماعات الدفاع عن قضايا يتيمة، مثل حركة حقوق الإجهاض، والبيئيين، والاتحادات العمالية. ناحية الحزب الديمقراطي نفسه عائدا للحياة. لقد كانت مثل هذه الجماعات منذ وقت طويل هم الأصوات الانتخابية الرئيسية للعديد من ديمقراطيي واشنطن، مصادر المال والمتطوعين معا، وبالنتيجة فقد كانوا قادرين على فرض مناهجهم المتشددة نحو القضايا الهامة على الحزب. من الصحيح أن هذه الجماعات مثل نارال NARAL-رابطة عمل حقوق التناسل والإجهاض القومية the National Abortion and Reproductive Rights Action League-وسييرا كلب (نادي سييرا) Sierra Club تنضم إلى التحالفات الانتخابية الموالية لـ الديمقراطيين مثل آكت أب ACT UP وموفأون.أورج MoveOn.org. لكن المشكلة، كما يشير المؤلفان، هي إن إعطاء الصدارة لمثل هذه الجماعات يبدو مؤكدا على الصور النمطية الجمهورية («حاضنو الأشجار»[٢]). الأسوأ، أن النشطاء المعنيين بقضايا يتيمة لا يمكنهم أن يحرزوا بشكل يعتمد عليه انتصارات انتخابية. دائما ما تكون جهودهم ضررها أكثر من نفعها. في مايو ٢٠٠٥، على سبيل المثال، أقرت نارال سيناتور رود أيلاند الجمهوري لنكولن تشافي Lincoln Chafee لإعادة انتخابه في الخريف القادم لأنه قال إنه كان من أنصار حق اختيار الإجهاض. من الناحية الأخرى، كما يشير جيروم وكوس، فهو صوت ليجعل بل فرست Bill First المناهض المتطرف لحق الاختيار زعيما لأغلبية مجلس الشيوخ، وانحاز لصف إدارة بوش في التصويت الحاسم على قطع الطريق على مرشح المحكمة العليا صامويل أليتو Samuel Alito.

على النقيض، يقول هاري ريد Harry Reid النيفادي، الزعيم الديمقراطي في مجلس الشيوخ، إنه شخصيا ضد الإجهاض-إلا أنه قد قاوم مع ذلك العديد من القضاة الفيدراليين المعارضين للإجهاض الذي قد طرحته إدارة بوش أثناء فترة تعيينه. (سيكون ريد المتحدث الرئيسي عندما يعقد مجتمع كوس، الذين يسمون أنفسهم أحيانا «الكوساك»، اجتماعهم الجماهيري الأول الذي سيلتقون فيه بأجسادهم في يونيو القادم في لاس فيجاس.) كوس وجيروم متلهفان أيضا على رؤية الديمقراطيين يتنصلون من بعض مواقفهم الماضية من أجل الوصول لمصوتين جدد وقفة دين ضد قوانين التحكم في حيازة الأسلحة النارية بصفته حاكم ولاية ريفية راقت لهما، على سبيل المثال، وقد وجدا في بريان شوتزر Brian Schweitzer، الحاكم الديمقراطي للولاية الحمراء مونتانا، سياسيا يمكنهما الإعجاب به، والذي يحبذ عددا من الإصلاحات الليبرالية ولكنه ساند أيضا برنامج ناشيونال ريفل أسوسياشن (اتحاد البندقية القومي) National Rifle Association.



إن مقصدهما هو أن الجمهوريين قد رخا عيشهم بتجاهلهم الاتساق الأيديولوجي. لقد ضموا جنبا إلى جنب ائتلافا متنافرا يمتد من المبشرين اليمينيين ومروجين آخرين لقيم أخلاقية محافظة إلى مؤسسات أعمال كبيرة معتمدة على الفروع الفيدرالية وتخفيضات الضرائب، وكل منهم يدرك أنهم سيحصلون على المزيد مما يريدون بالتعاون في جهود مشتركة. إن أغلبية ديمقراطية في مجلس النواب ومجلس الشيوخ ستحمي حقوق الإجهاض حتى لو كان الشيوخ الأفراد متذبذبين بخصوص القضية. «لا أحد تخدم أجندته الصغيرة أن يكون ضمن الأقلية»، كما يكتبان. «إن أغلبية حاكمة ستعتني أكثر بمراحل للقضايا العزيزة على كل شخص. فليكن الحزب هو الحزب، والحركة في الخارج تمر عليه». إنهم يمثلون، إذا استخدمنا جملة دين المفضلة التي تتلقى التصفيق، «الجناح الديمقراطي لـ الحزب الديمقراطي».

يريد جيروم وكوس أيضا أن ينهيا تحكم المستشارين السياسيين المقيمين بـ واشنطن والذين، كما يصران، قد خسروا عشرات الحملات وبددوا مئات ملايين الدولارات. دليلهم الرئيسي هو بوب شرم Bob Shrum، الذي كان قد أدار، وخسر، بالفعل، سبع حملات رئاسية ديمقراطية عندما استأجرت خدماته لإدارة حملة جون كيري في ٢٠٠٤. هما لا يحبان بالخصوص الإجماع داخل حزام واشنطن على أن الديمقراطيين ينبغي أن يركزوا على الولايات التي لهم فيها ميزة انتخابية. وجنبا إلى جنب مع دين، يدافعان عن استراتيجية مداها ٥٠ ولاية، معللين بأن الحزب يمكنه بناء زخم قومي بالتنافس حتى على المناطق المستحيلة، والتعرف على مصوتين ديمقراطيين جدد، وتشجيعهم على المساهمة بالمال والعمل في الحملات على طول الخط.

لقد أصبح العديد من المدونين الذين على اتصال بـ جيروم وكوس خبراء علموا أنفسهم بأنفسهم في موضوعات مثل الاقتراع ومجموعات التركيز. وإحدى النقاط التي يطرحونها هي أن العديد من مديري الحملات يشترون ببساطة وقتا على التليفزيون ليُثروا المؤسسات الاستشارية الخاصة بهم، والتي تتقاضى ما يصل إلى ١٥ بالمائة من كل دولار ينفق على الإعلانات. يقدم جيروم وكوس حيثيات لصالح طائفة من المناهج المختلفة، بما فيها تقنية قواعد بيانات محبوكة من شأنها تمكين الديمقراطيين من التقرب من، مثلا، الجمهوريين المسجلين الذين قد تكون عائلاتهم تعاني من مرض باركنسون وسيكونون متقبلين لدعوة لتأييد بحوث الخلايا الجذعية. وهما يريدان الحملات أفضل قدرة على الاستفادة من عاملي الحملات المحتملين الذين يمكن تعبئتهم عن طريق المواقع- أناس مستعدين لقضاء ساعة كل بضع أمسيات، مثلا، في استخدام دقائق هاتف خلوي زيادة للاتصال بمصوتين متقلبين محتملين في المنافسات النيابية القريبة في منتصف الطريق عبر البلد. على كل جبهة هما متلهفان على انتزاع السلطة من نخبة واشنطن الديمقراطية وثيقة الروابط المتعلمة في جامعات رابطة آيفي، محاججين بأنها عديمة الاتصال مع الجسد السياسي الأكبر.

إنهما أيضا يهدفان إلى الخروج برسالة جوهرية بخصوص الحزب الديمقراطي، وما يعنيه، والتي سوف تقارع بنجاح أفكار الحزب الكبير القديم[٣] عن الأمن القومي والحكومة محدودة السلطات والضرائب الأقل و«القيم الأخلاقية». إنهما يحبذان رسالة عريضة اقتصادية شعبية، تؤكد على قضايا مثل التحسينات في الأمن القومي والرعاية الصحية شديدة التوسع والضرائب الأكثر عدلا. وبعد أن جالا في عزبة الحاكم شوتزر في مونتانا وفوتا فرصة تصوير كلاب المراعي، «سألناه ما الذي كان سيريد أن يسمعه لو سئل الناس في الشارع عن الحزب الديمقراطي. توقف شوتزر لوهلة، ثم رد بيقين، «إنهم الحزب الذي في صفنا».

في تناوله للإمكانيات السياسية للإنترنت، يبدو لي تحطيم البوابة المغامرة الأكثر طموحا وإثارة للاهتمام وإعطاء للأمل في السياسة التقدمية خلال عقود. إنه ليس نموذجا سيفوز بين عشية وضحاها. انتقى كوس دستة من المنافسين الديمقراطيين، معظمهم في سباقات كيخوتية ضد محببين من الوزن الثقيل مثل توم ديلاي Tom DeLay، لجمع المال لهم في ٢٠٠٤، وكلهم خسروا. ولكن وكما يشير، فقد لزم الأمر عمل صبور من اليمين الجمهوري ليبني قوته بعد خيبة جولدووتر[٤] في ١٩٦٤. وفي الحقيقة، في الشهور الثمانية عشر منذ هزيمة كيري، فقد اختبر ناشطو الشبكة المناهج الجديدة في انتخابات خاصة مع بعض النجاحات. جاء أحد الأمثلة أثناء انتخابات أغسطس الأخير على مقعد في المنطقة الثانية في أوهايو، وهي معقل جمهوري منذ ١٩٧٤، أخذه بوش في ٢٠٠٤ بـ ٦٤ بالمائة من الأصوات. الطبيعي أن الديمقراطيين كانوا بالكاد سيشغلون أنفسهم بالتنافس على المقعد، لكن بول هاكت Paul Hackett، وهو مبتدئ سياسي عاد مؤخرا من جولة بصفته رائدا في القوات البحرية في العراق، أطلق حملة مناهضة للحرب بالضبط من النوع الذي كان الناشطون على الإنترنت يطالبون به: كان، كما يكتب المؤلفان، «مفوها بجرأة، غير خائف من نقل المعركة إلى أرض الجمهوريين»، وعندما وجه له سؤال عن زواج الشواذ، قال: «زواج الشواذ - من يهتم بحق الجحيم؟ إذا كنت شاذا، فأنت شاذ - بالتوفيق. ما تريده هو أن يعاملك القانون بإنصاف وأي أمريكي لا يعتقد أن هذا ما يجب أن يكون عليه الحال هو، بصراحة، غير أمريكي». جمع ناشطو الإنترنت ٥٠٠,٠٠٠ دولار من ميزانية الـ ٨٥٠,٠٠٠ دولار الكلية للحملة - بإعطاء تسعة آلاف شخص ما يزيد في المتوسط قليلا على ٥٠ دولارا للواحد.

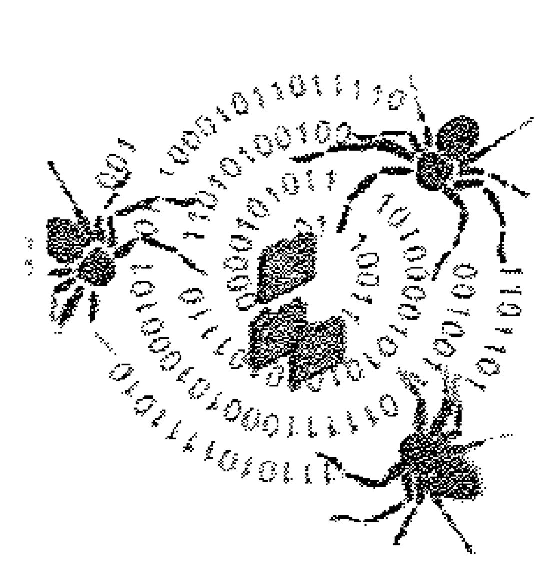
في يوم الانتخاب، سرى الكلام في الساعة ١٠.٣٠ صباحا بأن هاكت كان يحتاج ٦٠.٠٠٠ دولار لمصاريف إخراج الناس للتصويت، وبعد ست ساعات كانت ٦٠.٠٠٠ دولار قد ضُخّت. اضطر الناشطون على الإنترنت أن يخبروا الناس أن يتوقفوا عن الدفع.

في النهاية، جاء هاكت بشكل مذهل قريبا من الفوز: فاز عليه خصمه، جين شمدت Jean Schmidt، بـ ٣.٥ بالمائة فقط، وهو ما قال نيوت جنجرجتش Newt Gingrich إنه «ناقوس خطر لـ الجمهوريين». ولعل تتمة رسالة أكثر تهديدا قد وصلت في هذا الشتاء عندما أجبر ديمقراطيو حزام واشنطن هاكت على الخروج من سباقه التالي، على مقعد شيوخ أوهايو الذي يحتله الآن الجمهوري مايك ديواين Mike DeWine، لإفساح مجال لمرشح، شيرود براون Sherrod Brown، اعتقدوا أن لديه فرصة أفضل للفوز. كان هناك كثير من الامتعاض على المواقع بخصوص إسقاط هاكت، لكن رأي الأغلبية بدا أنه: لا بأس؛ يعجبنا هاكت، لكننا نريد الفوز، وبراون ديمقراطي مخلص ومرشح قابل للفوز.

في الحقيقة، تحطيم البوابة كله عن الفوز. ذلك هو ما يحرك الناشطين على الإنترنت-ولهذا يرتفع رقم مرات الزيارة على المواقع مع اقتراب الانتخابات. ليست القضايا ثانوية، تماما، ولكن هناك إجماعا واضحا على أن الانشغال بدقائق السياسة هو ممارسة عقيمة بدون قوة حقيقية، وأن القوة تأتي من وحدة الحزب.

إنها التهديدات لوحدة ذلك الحزب هي حقيقة ما يغضب ناشطي الشبكة. يواجه سيناتور كونكتكت جو ليبرمان Joe Lieberman، على سبيل المثال، تحديا مبدئيا أعطى له في البداية أهمية حقيقية على ديلي كوس ومواقع حليفة. ليس لأنه غير ليبرالي في قضايا من قبيل التأمين الاجتماعي؛ ولكن لأنه لا يتصرف كديمقراطي إنه يبدو سعيدا أن يطلع في برامج نقاش الأحد ويمتدح الرئيس لبدئه حرب العراق أو ينتقد الديمقراطيين لكونهم ضعافا في الأمن القومي. في صورة وزعت على نطاق واسع على الشبكة، كان هو أول من يقف على قدميه مصفقا لسياسة الرئيس في العراق أثناء خطاب حالة الاتحاد لهذه السنة. يجوز جدا أن يجتاز ليبرمان التحدي المبدئي الذي يواجهه من ند لاموت Ned Lamont، وهو صاحب مشروع عالي التقنية ومحرر جريدة سابق يعارض حرب العراق، لكن يبدو من المحتمل أنه إن ينازع بقوة، سيؤثر هذا على مواقفه في السنوات القادمة.

ما يعطي كوس وجيروم الصداقية ليس هو كتابهما المتماسك والمباشر بقدر ما هو مجتمع الشبكة الذي قد ساعدا في إلهامه وبنائه. إنه يشمل سلسلة من المواقع متداخلة الروابط بمعنى الكلمة، تتراوح ما بين الضخمة وإن كانت بشكل ما متوقعة، مثل موفأون.أورج، الممول جزئيا من قبل جورج سوروس George Soros، والضئيلة والمركزة في حدود ضيقة. القليل منها هي مدونات متخصصة في موضوعات معينة: يقدم الأستاذ خوان كول Juan Cole، على سبيل المثال، تناولات مفصلة لأحداث اليوم في العراق على موقعه إنفورمد كومنت (التعليق عن علم) Informed Comment، خوانكول.كوم JuanCole.com. وتخرج أخرى من رحم الصحافة الأكثر تقليدية: جوش مارشال Josh Marshal في توكنج بوينتس ميمو (مذكرة موضوعات النقاش) (www.talkingpointsmemo.com) يوظف زوجا من المحررين بالدوام الكامل لكشف وتفسير آخر التطورات في الفضائح النيابية الجمهورية. وغيرها مدونات أكثر تقليدية (إذا أمكن أن تجوز «تقليدية» على وسيلة إعلامية ذات أربع أو خمس سنوات). تشمل هذه إسكاتون Eschaton (www.atrios.blogspot.com وفايردوجليك Firedoglake (www.firedoglake.com)، حيث يدلي المدونون بدلوهم، ساعة بساعة، حول طيف واسع من الأحداث الإخبارية بمجرد حدوثها على مدار اليوم. المواقع الأكبر والأفضل تمويلا مثل هفنجتون بوست Huffington Post (www.huffingtonpost.com) تبرز طائفة من الصحفيين المعروفين مع تعليق حزبي على قضايا الساعة. الموقع المسمى كروكس آند ليارز (نصابون وكذبة) Crooks and Liars (www.crooksandliars.com) يقدم لقطات فيديو مختارة من النشرات الإخبارية وبرامج النقاش. كل من هذين الموقعين، ومئات المواقع الأخرى التي تربط بهما، لها شخصيتها الخاصة بها: لو أن هناك مزايا توحدها جميعا، لكان من بينها التشكك حول ما تدعيه الحكومة ونغمة سخرية عيابة إزاء مزاعم إدارة بوش.



في مركز هذا العالم، على أية حال، ديلي كوس. والذي بسبب معمارة الخاص، والروح المنفتحة لمؤسسه، قد أصبح تجربة في الديمقراطية على طريقة الشبكة. ينشر كوس نفسه القليل من مداخل المدونة كل يوم. لكنه في كل عام يعين خمسة مساعدين يمكنهم نشر تعليقات خاصة بهم على واجهة موقعه. العديد من هؤلاء قد أصبحوا أسماء مألوفة للجميع (وإن كانت أسماء مستعارة) في عالم التدوين-ميتيور بليدز Meteor Blades أو آرماندو Armando يقرآن على نطاق أوسع بمراحل من تي آر بي[٥] TRB في ذا نيو ريبابليك The New Republic، رغم ميزة السنوات المائة للمجلة. (كمقياس لمقارنة النجاحات المادية، أعلنت ذا نيو ريبابليك في الشهر الأخير أن توزيعها قد هبط بنسبة ٤ بالمائة في السنوات القليلة الأخيرة.) لكن أي شخص يلتحق بـ ديلي كوس-وهي عملية مجانية ولا تكلف جهدا- يسمح له بنشر «يوميات»- مقالات صغيرة جدا-عن موضوعات محددة في أي وقت. بينما أكتب هذا، ذات صباح يوم اثنين في أواخر فبراير، هناك العشرات من اليوميات الجديدة منشورة في غضون الساعة الأخيرة في موضوعات من مثل «نهاية (برنامج المساعدة الطبية) ميدكايد هو البداية» لـ تشكلز1 chuckles1، أو «المخاطر التي تعرّض لها سرية مكتب خدمة الضرائب» لـ ردلامي redlami، أو «حان الوقت من أجل محور حول قضية الموانئ» لـ ألفاليبرال AlphaLiberal.

لفرز هذا الطوفان من المعلومات (والمعلومات المغلوطة)، يسمح الموقع للأعضاء بقراءة اليوميات ثم، بالنقر على زر، يقومون بـ «تزكيتها» لو اعتقدوا أنها مهمة. اليوميات الحاصلة على تزكيات أكثر تظهر على رأس الصفحة-في هذه اللحظة، على سبيل المثال، «ماكين: مخطئ ١٠٠٪ في كل شيء» هو المزكى على أوسع نطاق. يمكن للأعضاء أن يفعلوا أكثر من تزكية المواقع-يمكنهم أيضا التعليق عليها، ودائما ما يفعل المئات، ودحض أو تصحيح روايات الصحافة أو الإضافة لها. تعمل التقنية بسلاسة ملحوظة، وهي تتغير بانتظام مع تطوير كوس وأصدقائه برمجية جديدة.

عندما نتأمل موقع كوس الخاص به وروابطه العديدة لمدونات أخرى، نرى شيئا يشبه خلية اتصالات آخذة في التوسع، مخابرات جمعية. ويمكن للنتائج أن تكون مبهرة. نظم كاتب له الاسم القلمي (الاسم الفارى) جيروم آ باريس Jerome à Paris، على سبيل المثال، عشرات من الكوساك الآخرين المهتمين بسياسات الطاقة ليكتبوا خطة طاقة أجدها أكثر إحاطة وأعمق فكرا بمراحل من أي شيء قد أنتجته لجان الخبراء. لقد قرأ وأعيدت صياغته من قبل آلاف القراء؛ وسيؤدي وظيفة نموذج مفيد في حال استعاد الديمقراطيون الكونجرس وكانت لديهم القدرة على تمرير القانون. بدأت المدونات رد-فعلية بشكل محض ولا زال المدونون ينفقون الكثير من طاقتهم في الرد على «وسائل الإعلام السائدة». لكن نوعا من صحافة أولية يظهر، ويصبح بأطراد أكثر إحكاما. إذا كنت تريد أن تفهم (وإن كان ذلك بقدر وافر من الدوخة) كل كبيرة وصغيرة تخص دفاع سكوتر ليبي Scooter Libby في محاكمة فضيحة بليم Plamegate على سبيل المثال، المكان الذي يجب أن تقصده هو فايردوجليك.

بعض من الخطاب أقل تنويرا، بالطبع. هناك الكثير من الزعيق المألوف والمزعج دائما تجاه إدارة بوش، تجاه أنصار نظرية الخلق الذكي[٦]، تجاه قناة فوكس نيوز. لكن كثيرا من ذلك يختفي عندما تكون هناك قضايا واقعية محددة لمخاطبتها. على سبيل المثال، فقد أصبح معلقو الموقع خبراء في مراقبة الصحافة الدورية والتليفزيون بحثا عن علامات انحياز لليمين، وهم يردون جماعة. عندما ظلت واشنطن بوست تردد تهمة الحزب الكبير القديم بأن عضو جماعة الضغط المفضوح جاك ابراموف Jack Abramoff أعطى مالا لـ الديمقراطيين وبالمثل لـ الجمهوريين، جمع الناشطون على الإنترنت معلومات ونظموا ردا ساحقا، مبينين أن آبراموف عمل بشكل رئيسي مع الجمهوريين. التقط هذا الكشف بعد ذلك بقليل من قبل الصحافة والتليفزيون ولم يعد يسمع سوى أقل القليل عن حقانية آبراموف. المراسلون الذين شكمتهم طويلا التهم المتحفظة الخاصة بالانحياز (كما أظهر مايكل ماسنج Michael Massing في مقالاته الأخيرة حول تغطية الصحافة لـ العراق[٧]) يجدون الآن أنهم يتعرضون لتمحيص أدق على الإنترنت. وحيث إن ليبراليي عالم التدوين هم أفضل تنظيما، يأخذ هذا في امتلاك تأثير موازن. يقول كوس إنه يتلقى أكثر خمسين مرة من

كتـــاب الـزاويــة

آراء

قاســم أمــين

❖ صحافتنا: إذا قرأت الجرائد تجدها جميعها متحدة فى موضوعها متشابهة فى تحريرها بحيث لا تكاد تشعر باختلاف بين إحداها والأخرى، وإذا اجتمعت فى اليوم بعشرين رجلاً من معارف تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته من الأول. ولا تجد فى الجريدة التى تقرؤها أو تسمع من الصاحب الذى تقابله فكرة غريبة أو تعبيرًا جديدًا أو أسلوبًا مبتدعًا، لا تجد النابغة الذى يدهشك ويجذبك بعجائب جنونه.

❖ عقل الإنسان المحدود لا يسع غير المحدود، وعلمه القليل لا يصل إلى إدراك المجهول الذى لا نهاية له، لذلك تراه متى ترك دائرة معلوماته الحسية دخل فى عالم الظلام وسار كالأعمى يتخبط يمينًا وشمالاً، لا فرق فى ذلك بين الغبى الجاهل والذكى العالم.

❖ المقلد فى إيمانه مقصر يحمل عقيدته كما تحمل الوردة فى عروة الملابس، والمنكر مجازف جاوز حد العقل والعلم، وأبغض منهما من يخادع بدينه فيقول: إن كان الله غير موجود ما خسرت أكثر من غيرى وإن كان موجودًا ربحت مع الرابحين، لذلك أومن به! هذا هو المحتال الذى لا يصان أحد حتى الإله من نصبه.

❖ الفضيلة والرذيلة يتنازعان السلطة على نفس الإنسان فى جميع أدوار حياته، فتارة تخضع للأولى وتارة تغلب عليها الثانية، ولا يوجد رجل مهما بلغ من التربية والعلم يكون آمنًا من السقوط يومًا فى الرذيلة، كما لا يوجد رجل مهما أحاطت به الرذيلة إلا وفيه استعداد لأن يأتى يومًا بأفضل الأعمال.

عدد الزيارات التى يتلقاها كل «عالم التدوين» من الجناح اليمينى، حيث منافسه الأكبر هو ربما موقع يسمى إنستابندت.كوم Instapundit.com.

وحيث إن الإنترنت أرشيف افتراضى غير محدود، فيمكنه بسرعة تتبع أى شىء تقريبا قد قاله وفعله صحفى أو سياسى فى العقد الأخير. حتى عندما يحاول الناس جعل الأشياء تختفى، فإن شخصا ما فى ذلك الحشد الضخم من القراء ربما لديه نسخة. عندما ساعد جوش مارشال، محرر توكنج پوينتس ميمو، فى قيادة الحرب على خصخصة التأمين الاجتماعى، أحسن استخدام اقتباسات من تقارير إخبارية فى جرائد محلية لنواب يتحدثون لناخبيهم فى منتديات صغيرة. وبين أن السياسيين كانوا يدلون بتصريحات مطمئنة للمصوتين فى مناطقهم ثم يصوتون على العكس فى كاپيتول هل. (ساعد أيضا فى تتبع صور للرئيس بوش وچاك آبراموف).

أحد الشواهد على قوة ديلى كوس هو قائمة المحترمين الذين يأتون للزيارة. لقد نشر نجوم كبار مثل چيمى كارتر Jimmy Carter وباراك أوباما Barack Obama يوميات (وقد تعرضوا للنقد وتلقوا مديحا بالمثل). لكن الاهتمام القومى الذى أخذ يحصل عليه ليس هو أكثر جزء إثارة للاهتمام فى العملية برمتها. الأكثر إدهاشا هو الطريقة التى يتعلم بها الناس استخدام التقنية للتواصل مع الواقع على الأرض. باقتراب انتخابات نصف-المدة، وقد أضعف الجمهوريون للمرة الأولى خلال اثنتى عشرة سنة على الأقل، تصبح اليوميات على الشبكة بشكل متزايد وسائط لجمع المال أو تشغيل المتطوعين. ينشر الناس روايات عن جهودهم لإنعاش مقار الدوائر الانتخابية الديمقراطية ويقدمون لبعضهم البعض نصائح عن كيفية بناء قوائم بريدية. فى بعض الأماكن، تدهورت آليات الحزب ببساطة من سنوات الإهمال، حتى بينما كان الحزب الكبير القديم، بفضل استراتيجيين مثل روجر آيلز Roger Ailes وكارل روف Karl Rove، يقضى عقودا فى بناء آلية تصويت فعالة.

لقد قضى تنظيم الحزب الديمقراطى أكثر من جيل يتكلم على الزخم الذى أقامه فى عقد ١٩٦٠ وبواكر عقد ١٩٧٠، وقد أخذ هذا الزخم ينفد. لكن مواقع الشبكة المربوطة بـ ديلى كوس والملايين من مستخدميها أعطوا الديمقراطيين شحنة جديدة. سيكون من السابق لأوانه أن ننسب قوة انتخابية شديدة على مستوى قومى لهذه الأصوات الجديدة-فعدة ملايين من المصوتين لم يسمعوا قط بها. لكن ما يبدو الأكثر إدهاشا بخصوص أصوات الإنترنت الأعلى صوتا دائما المرتبطة بـ كوس هو أنها تتقاسم رغبة قوية فى الفوز، ووسائل جديدة لجعل الرغبة ذات أهمية.

هـــوامـــش

١ - الأسلوب اللائق لتبين الحركة المرورية على الإنترنت هو مسألة نزاع ساخن. أينبغى عليك أن تحصى زائرا جديدا كلما سجل الدخول لموقع؟ أم ينبغى عليك أن تحصر عدد الصفحات المختلفة التى ينقرون عليها داخل موقع؟ ماذا لو أنهم، مثل العديدين من قراء ديلى كوس، يعودون ثلاث أو أربع مرات فى اليوم؟ فى مقابلة أخيرة فى مجلة نيويورك تايمز مجازين New York Times Magazine، زعم مولتساز أن مليون شخص مختلف فى الأسبوع يتوقفون عند موقعه، وهو ما يبدو على الأقل معقولا. يكفيه أيضا أنه يكون دخلا سنويا يقدره بما بين ٧٠٠٠٠ دولار و٨٠٠٠٠ دولار، الكثير منها من الإعلانات التى تظهر على موقعه.

٢ - مصطلح مهين يطلق على أصدقاء البيئة المؤيدين لفرض قيود على صناعة قطع الأشجار وللحفاظ على الغابات - المترجم.

٣ - الحزب الكبير القديم Grand Old Party اسم آخر يعرف به الحزب الجمهورى - المترجم.

٤ - إشارة لفوز الديمقراطى لندون چونسون Lyndon Johnson (شاغل منصب الرئيس آنذاك) فوزا ساحقا على الجمهورى بارى چولدووتر Barry Goldwater، والذى تسبب أداؤه الضعيف فى إخراج جمهوريين كثيرين من الكونجرس - المترجم.

٥ - اسم عمود شهير فى جريدة ذا نيو ريپبليك، تناوب على كتابته عدة معلقين، جاء اسمه من قلب الحروف التى يختصر بها اسم شركة مترو بروكلين رابد ترانزيت (خطوط بروكلين السريعة) Brooklyn Rapid Transit - المترجم.

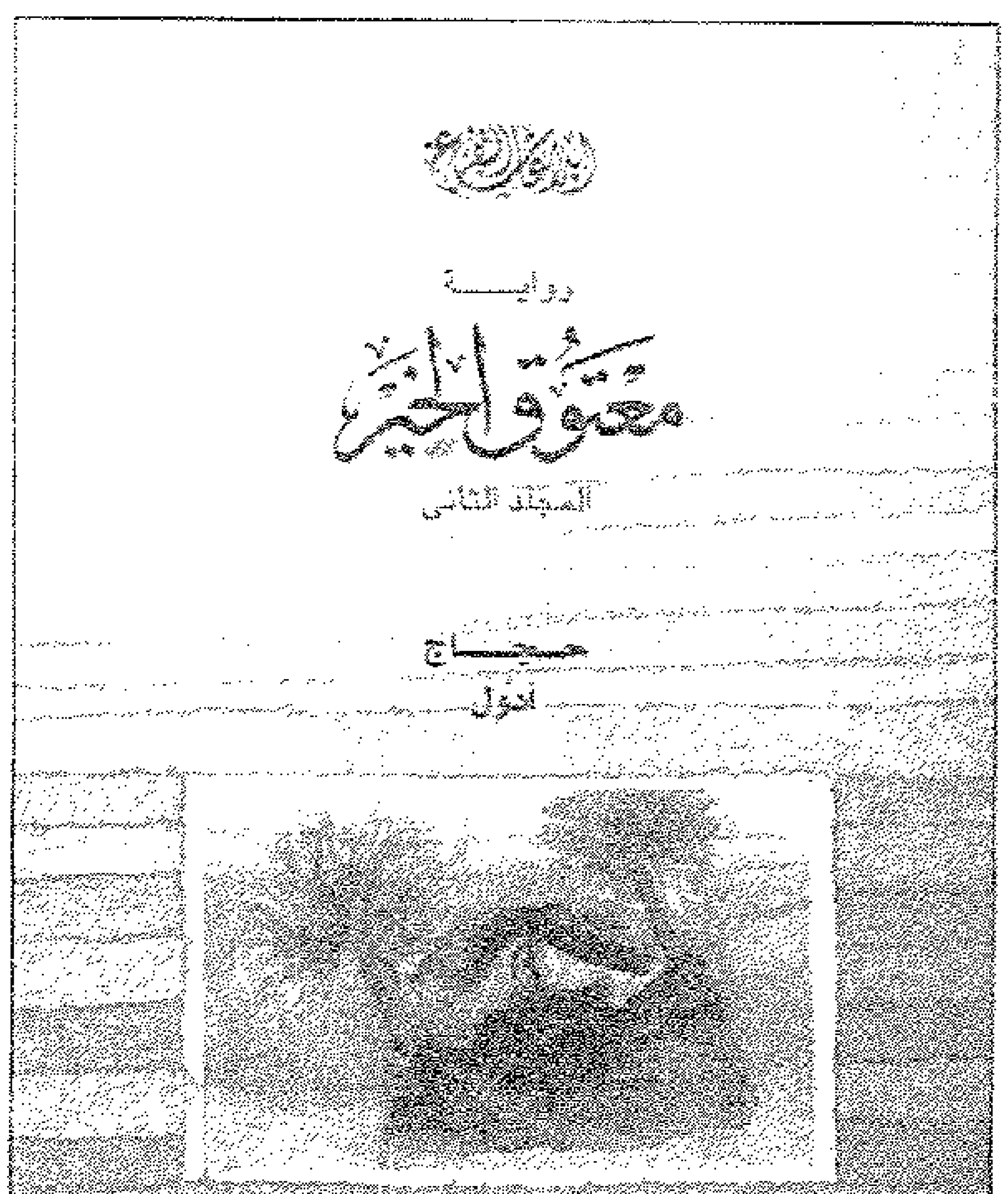
٦ - الخلق الذكى intelligent design هو الاعتقاد بأن الحياة أكثر تعقيدا من أن تفسرها فكرة الصدفة ونظرية النشوء والارتقاء، وأنه لابد من وجود خالق ذى علم وراءها، وينقد أغلب العلماء هذه النظرية باعتبارها غير علمية - المترجم.

٧ - مايكل ماسنج، «نهاية الأخبار؟ The End of News?» و«الصحافة: العدو من الداخل The Press: The Enemy Withing»، ذا نيويورك ريفيو The New York Review، ١ و١٥ ديسمبر، ٢٠٠٥. ■

الفرد
القبيلة
الوطن

قراءة نقدية فى رواية حجاج أدول "معتوق الخير"

أبو المعاطى أبو النجا



لعل هذه أول رواية فى الأدب العربى الحديث تقدم بدرجة عالية من الشمول والعمق والامتداد أول تشريح «فنى» لمجتمع القبيلة حول هذا الجزء من حوض وادى النيل المعروف ببلاد النوبة فى أواخر العهد العثمانى وفى مرحلة بدأ فيها هذا المجتمع القبلى يعرف درجات من الانفتاح على ما حوله من مناطق مصر العليا والشمال السودانى.

ويلوح أن هذا التشريح الفنى والأدبى يهدف إلى جلاء صورة الفرد فى مرآة القبيلة، وصورة القبيلة فى مرآة الفرد وفى ضميره، ففى كل ما يصدر عن شخصيات هذه الرواية من سلوك يمكن للقارئ أن يكتشف أن قيم وعادات القبيلة كامنة ومؤثرة وفاعلة فى سلوك الفرد، وحتى فى سلوك بعض الأفراد الذى يبدو ممعنا فى فرديته، ومتمردا وثائرا على القبيلة، مثل سلوك «همارين الساحر» أو «سلوك سلاطين» المتمرد الذى يصبح عمدة وزعيما للقبيلة أو «أثمان» المنفلت والهارب الذى يصبح أخيرا صانعا للخمور ومتاجرا فيها ضد أعراف القبيلة، فإن سلوك هذه الشخصيات إنما هو خلاصة جدل عميق بين هذه الشخصيات وبين قيم القبيلة وعاداتها وتقاليدها قبولا وإذعانا أو رفضا، وتطويرا فى اتجاه أن يكتسب الفرد مزيدا من الحرية المدفوعة الثمن، وأن تكتسب الجماعة مزيدا من المرونة والحركة المدفوعة الثمن كذلك.

كما يمكن للقارئ أيضا أن يلاحظ فى كل ما يصدر عن القبيلة من أعراف وطقوس وعادات كيف أن القبيلة تفرد مظلتها الكبيرة أو عباءتها على كل فرد فيها تحميه وترعاه، وتعاقبه وتحاسبه، وتراقبه وتوظفه وتكاد لا تسمح له بأن يفلت من قبضتها حتى فى أحلامه، حتى ولو كان فى قوة «همارين الساحر» أو «سلاطين» الزعيم.

تقوم هذه الرواية على بناء شبكى: فأى خيط تبدأ منه يقودك إلى بقية الخيوط. يبدأ السرد الروائى غالبا بالحديث عن إحدى شخصيات الرواية عن ابرز صفاتها، بشكل مباشر أو من خلال الموقف أو الحدث، ويتحرك بحركتها فى أى اتجاه. وبالرغم من كثرة الشخصيات، وتداخل المواقف والأزمنة، فالقارئ لا يضل أبدا فى غابة هذه الرواية. فالشخصيات كلها قريبة وحاضرة وتلتقى فجأة بالشخصية التى كنت تخشى أن تند عن ذاكرتك!

كيف حافظ الكاتب على هذا التوازن المدهش؟ وهذا الحضور المتوازى أو المتقاطع بين كل هذه الشخصيات؟ هل عبقرية القبيلة التى لا يتحقق وجودها إلا من خلال هذا البناء الجماعى المدهش، فكل فرد من أفراد القبيلة لا يمكنه أن يبقى وحده لوقت يطول أو يقصر، إنه فى أقصى حالات تفرده يبقى دائما جزءا من كل، وحتى حين جاءهم تاجر العبيد «بمعتوق الخير» بطل هذه الرواية، والتى تحمل اسمه، ذلك الطفل الذى هو بعض من الإنسان، وبعض من الذئبة التى أرضعته فى الكهف، وقبل أن يلتقيه تاجر العبيد، فإن القبيلة عرفت كيف تجعل من «معتوق الخير» هذا جزءا لا يتجزأ من أبنائها، جزءا يختلط فى كل أطوار حياته بسداها ولحمتها، وليكون له بعد موته هذا المقام الكبير الذى يحتل مكانه إلى جوار اكبر أوليائها السابقين.

الطبيعة بكل أشكالها، النهر والجبل، والشمس والقمر والنجوم، الطيور والحيوانات، والزرع والشجر، البيوت والرياح والمطر، الجن والإنس، فى النهار وفى الليل وفى مختلف الفصول، كل هذا جزء من البناء الروائى من خيوط الشبكة، كل هذا مبثوث خلال المواقف، وعبر الأحداث، كل هذا موصوف ومرصود بعيون شخصيات الرواية وعلى ألسنتهم بحيث لا يشعر القارئ بافتعال الوصف أو إقحامه بل يأتى كجزء من الحدث أو من رؤية الشخصية يكشف عنها بقدر ما تكشف عنه، الأحداث الاجتماعية فى القبيلة يشترك فيها الصغار والكبار، تحرك مشاعر الصبيان والبنات والنساء والرجال، وهى جزء من الأحداث الكونية والروحية والفردية فالزمن الذى تجرى فيه مثل هذه الأحداث محسوب بمواسم الفيضانات، وحصاد المحاصيل، وبما يعترى ذلك من وفرة المياه أو نقصانها، وبالتالى زيادة المحصول أو قلته وبالتالى بيسر الحياة وعسرها.

هذا عالم يمسك فيه كل شىء بأطراف كل شىء آخر وكان لابد أن يجىء البناء الشبكى لهذه الرواية ليستطيع الكاتب والقارئ أن يعيش معا هذه المغامرة التى تحاول من خلال هذه البلورة السحرية أن تمسك بالدنيا كلها أو على الأقل أن ترى بعض تجلياتها التى لا يمكن أن تلوح إلا من خلال هذه الرؤية الكلية الجزئية فى الوقت ذاته.

ومع أن كل شخصية فى هذه الرواية تكاد تكون لها صلة بطريقة أو بأخرى مع بقية شخصيات الرواية إلا أن هناك علاقات ثنائية بين بعض شخصيات الرواية تميزها، وتمنحها دلالات فريدة وإيقاعات خاصة.

فالأشرم برغم ذكائه الشديد يعانى بسبب من ظروف - لا يد له فيها - من مهانة الضعيف، وهو يحتاج إلى أن يكون فى حماية شخص قوى مثل «سلاطين»، ولكى يتحمل الأشرم وطأة مثل هذه العلاقة - فإنه بطريقة لاشعورية يتماهى مع شخصية صديقه «سلاطين» وحين يقرر «سلاطين» القوى المستبد أن يتزوج «هوشه» التى كان الأشرم يحبها كأخته، فإن «الأشرم» بسبب من هذا التماهى يحبها بدوره كزوجته وإذا أصبح

معتوق الخير
حجاج حسن أدول
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

كان معتوق الخير يتحول الى نوع من المعدن النفيس الغامض الذى تمتحن به معادن الناس فى القبيلة كلها حين تحتك به أو تتفاعل معه!

سلاطين ينجب من «هوشه» فى الحقيقة، فان الأشرم ينجب منها فى الخيال، كل ذلك نتيجة التماهى بين الرجل الضعيف والرجل القوى لستر هذه العلاقة غير المتكافئة. لكن كان لابد أن ينكسر ذلك التماهى حين يبدأ سلاطين فى كره المرأة التى أصبحت زوجته وأم أولاده.

ويبدأ الأشرم انشطارد حين يتعلق فى حب المرأة التى لم يتزوجها، ويمهد هذا الانشطار إلى تطور العلاقة بين «الأشرم» و«سلاطين» فى جدل رائع بين ضعف القوى «سلاطين» وبين قوة الضعيف «الأشرم» بحيث يكون الاشرم فى نهاية الرواية وهو من أضعف الرجال فى القبيلة هو الوحيد القادر على قتل «سلاطين» الذى أصبح فى مكانة العمدة والزعيم للقبيلة كلها.

هذا مجرد نموذج لعلاقة ثنائية بين رجل ورجل فى هذه الرواية. ويمكن أن نشير بسرعة إلى نموذج آخر لعلاقة ثنائية أخرى بين «رجل» «وامرأة» هذه المرة.

وهما «أثمان» و«تعويضه لسانين» وهذا ما أطلقته القبيلة عليها بسبب من طول لسانها وجرأتها القاسية اللاذعة، قدرتها على الحكى والثرثرة تتجلى فى اكثر من مجال، وبأكثر من طريقة، هى المعددة فى رقصة النائحات وهى المغنية فى الأفراح وهى التى تحكى للأطفال حكايات القبيلة الخرافية، بطريقة تجعلهم يصدقون أن «الايركابى» وهى نوع من الوحش الخرافى، حقيقة واقعة وإنهم سوف يلتقون بها، وسوف تأكلهم دون أن تترك منهم شيئا،لو مضوا بعيدا عن البيوت ناحية الصحراء ولكن حين يزعم «معتوق الخير» ذلك الصبى الذى هو نصف إنسان ونصف حيوان، لأن ذئبة أرضعته حين يزعم بأنه رأى الايركابى حقا، وانه تكلم معها، فإن تعويضه تصرخ فى وجه «هكيمه» أمه:

ـ سوف أموت لو ظل طفلك المجنون هذا يردد مثل هذا الكلام إنها تبدأ فى تصديق ما كانت تسعى إلى أن تخيف به أطفال القبيلة!

الرجل «اثمان» كان فى بداية شبابه حلما لكثيرات من فتيات القبيلة ومن بينهن «تعويضه» لكنه فى بداية شبابه هرب من القبيلة كلها إلى الجنوب،وراء أحلام مجنونة، وبحثا عن حريات مستحيلة، وحين عاد خائبا من رحلته ليركن تحت جناح القبيلة، فانه لم ينجح سوى فى مواصلة الهروب تحت هذا الجناح فى مهنة ترفضها القبيلة فى العلن ولكن بعض أفرادها يهربون إليها فى الخفاء، إنها صناعة الخمور وتجارتها.

وهكذا كان ما يربط بين الرجل والمرأة، بين «تعويضه لسانين» و«أثمان» بذرة حب قديم خائب،وأن كليهما يعانى من نوع من النبذ من القبيلة، وأن كليهما لا تستغنى عنه القبيلة أو بعض أفرادها فى الوقت ذاته، ويظل هذا النبذ المشترك هو ما يربط بين «أثمان» و«تعويضه» كما يظل ذلك التمرد المقموع داخل كل منهما جامع آخر، كما يبقى التقدير الخفى من كل منهما لمواهب الآخر فى السخرية والجرأة والتطاول أحيانا على تقاليد القبيلة،هو أعظم وأجمل ما يربط بينهما على الإطلاق وحين كانت تتقطع الوشائج بين كل واحد منهما وبين من كانوا قريبين منه من زوج أو زوجه من أبناء وبنات، فانهما «أثمان» و«تعويضة» يزدادان قربا من بعضهما، على مدار الرواية،وهكذا فانهما حين اجتمعا فى نهاية الرواية فى مصير واحد بشع كان من الواضح أنهما معا، كانا يستحقان رواية مستقلة عن هذه الرواية الضخمة، ودون أن تفقد الرواية الأصلية الكثير من جدارتها.



وبعيدا عن العلاقات الثنائية فى الرواية فان الحديث عن بعض شخصيات هذه الرواية لن يكتمل إلا بهذه الإشارة إلى شخصية «هكيمة» أنها مثل غيرها من شخصيات الرواية فى الارتباط بمن حولها من شخصيات القبيلة، لكنها ترتبط أكثر بأختها «نبرة» التى تفوقها جمالا وجاذبية، ولكن التحول الكبير يحدث فى حياة «هكيمة» حين يأتى لها زوجها يوما «بمعتوق الخير» ذلك الطفل الذى جلبه تاجر العبيد والذى تكررت الإشارة إلى أنه نصف إنسان ونصف حيوان، كان مجرد طفل فى حاجة ماسة لمن ترضعه من النساء، وحين فعلت ذلك «هكيمة» فان كل شىء فى حياتها قد بدأ فى التغير، بالرغم من أنها كانت فى ذلك الوقت ترضع طفلها الحقيقى «ألوا» إلا أنها كانت تعانى من الشعور بأن صدرها يكاد يجف من الحليب، ولكن ما كادت شفتا «معتوق الخير» تمسان ثديها حتى عاد يتدفق بالخير، وعلى نحو هادئ تدرك «هكيمة» ان صدرها لم يكن وحده الذى عاد يتدفق بالخير، دماء جديدة عادت تتدفق فى جسدها كله، أصبحت لا تقل جمالا ونضارة عن شقيقتها «نبرة»! الخير يأتى إلى بيتها من كل صوب، زوجها «أبيدون» يتسع رزقه من الأرض التى يزرعها، الطيور والحيوانات التى تربيها فى البيت تتكاثر كما لم تعهدها من قبل، ويستقر فى وجدانها أن هذا كله لم يحدث إلا بعد أن جاءهم «معتوق الخير»، وتمضى الأيام والسنون التى يكبر خلالها معتوق الخير هذا ليتأكد أن قدومه كان خيرا على القبيلة كلها بمعنى من المعانى.

ولكن الأيام ذاتها والسنون تؤكد أن قدوم معتوق الخير كان غصة فى حلق «ألوا» الابن الأصلى لـ«هكيمة» و«أبيدون».

فهو لا يفهم ابدا معنى أن يأتى هذا الطفل الحيوانى المجلوب ليستولى على كل هذا الحب من أسرته، من أمه وأبيه بل وعلى هذا الاهتمام من القبيلة كلها.

لم يكن «معتوق الخير» طرفا فى هذه الخصومة، لم يكن يفهم حتى لماذا يكرهه «ألوا» ويؤذيه إلى هذا الحد مع أنهم قالوا له انه أخوه!!

كان معتوق الخير يتحول الى نوع من المعدن النفيس الغامض الذى تمتحن به معادن الناس فى القبيلة كلها حين تحتك به أو تتفاعل معه!

يصل تطور الأحوال بـ «ألوا» وتمكن الغيرة والكراهية «لمعتوق الخير» من قلبه إلى أن يصبح صبيا شاذا وعاجزا عن أن يقيم علاقة طبيعية مع رفاق سنه فى القبيلة ومع أقاربه فى العائلة.

يصبح «ألوا» محنة العائلة، محنة للأب والأم، حين تشيع فكرة شذوذه بين أفراد القبيلة، حيث يعتقد الأب انه قد يكون من المناسب أن يواجه الأب ابنه، بما يردده الكبار والصغار فى القبيلة عن العلاقة الشاذة «لالوا» بالصبيان فى مثل سنه، فقد يكون لمثل هذه الصدمة من الأثر ما يحدثه الكى بالنار من شفاء ما هو مستعص من الأمراض.

لكن تعامل «هكيمة» مع هذه المحنة كان فى حد ذاته ذروة الحكمة التى يمكن ان تصل اليها فطرة انسان بسيط.

تقول «هكيمة» لزوجها «أبيدون».

«انهما سيفقدان ابنهما «ألوا» لو واجهاه بمعرفتهما وتصديقهما لمسألة شذوذه!».

تتيقن أن عطاء الله لهم المتمثل فى معتوق الخير له اثر رئيسى فى أزمة «الوا»، وان ابنهما لم يستطع حتى الآن ان يفهم ان معتوق الخير أتى ليحمى حياته، وحين يفهم بعد وقت تأمل أن يكون قصيرا سوف تبرأ نفسه من الكثير من آلامها وان المزيد من الصبر والحنان سوف يساعد «ألوا» على تخطى آلامه النفسية، والعيب الذى ابتلاه الله به. كيف تنتج هذه القبيلة مثل هذا المستوى من الحكمة؟!

إن الموقف من «معتوق الخير» من هذا المعدن النفيس الغامض هو الذى يكشف الحقيقة عن معادن الكثير من الناس فى القبيلة. وما على القارئ هذه الرواية سوى ان يتابع رحلته مع كل شخصياتها فى ضوء ذلك البصيص من النور الذى اضاءته لنا هكيمة الحكيمة!

«سلاطين الزعيم»

الاكتشافات الاولى فى حياة «سلاطين» كانت بالغة القسوة اكتشف ان المرأة التى كان يعتقد انها أمه، هى عمته «هكيمة»، وأن الرجل الذى كان يظنه أباه هو زوج عمته «نورى» العمدة.

ثم قالوا له «إن أمه الحقيقية قد ماتت بعد ولادته بوقت قصير، وان أباه الحقيقى اسمه «أثمان»، وانه قد هاجر الى الجنوب دون أن يعرف أحد أسباب هذه الهجرة، ولا مقصدها ولا متى تكون العودة؟

لم يتورط مؤلف هذه الرواية فى الحديث عن الآثار التى من الممكن أن تتركها مثل هذه الاكتشافات الأولى فى شخصية الطفل والصبى «سلاطين»، ولم يتورط فى تفسيرات من نوع أن مثل هذه الاكتشافات، وطريقة الصبى «سلاطين» فى التعامل معها كانا وراء طموحه الشديد، ورغبته القوية فى أن يصبح يوما هو عمدة القبيلة فى مكان «نورى» زوج عمته، فقط اكتفى المؤلف، وهذا بعض ما يحمد له بأن يصور بدقة وأمانة سلوك «سلاطين» فى البيت وفى الكتاب، وفى

الأماكن التى يتجمع فيها مراهقو القبيلة عند «ربوة مجيد الرملية» يلعبون ويثرثرون وينفثون عن مكنون صدورهم بعد أن يتجرعوا القليل أو الكثير من عرق البلح.

وكيف تطورت علاقته «بألوا» الابن الحقيقى للعمدة «نورى» الى أن يصبح «ألوا» الشاذ ضحية لعلاقة «سلاطين» المتمرد به.

ومع أن «سلاطين» كان يكن ذات الكراهية والغيرة «لمعتوق الخير» الذى تربى بينه وبين «ألوا» فى بيت العمدة الى انه لم يسقط ضحية هذه الغيرة مثلما حدث مع «ألوا».

ومن خلال هذا التصوير الدقيق كان القارئ يشعر بعمق القلق الذى يتفجر فى داخل سلاطين الصبى والمراهق. والذى يتجلى فى ذروته فى لقاء سلاطين مع أبيه «أثمان» بعد عودته من غيابه الطويل الغامض.

يقول «أثمان» الأب:

«سلاطين يا بنى.. دع الماضى.. أنا معك الآن!»

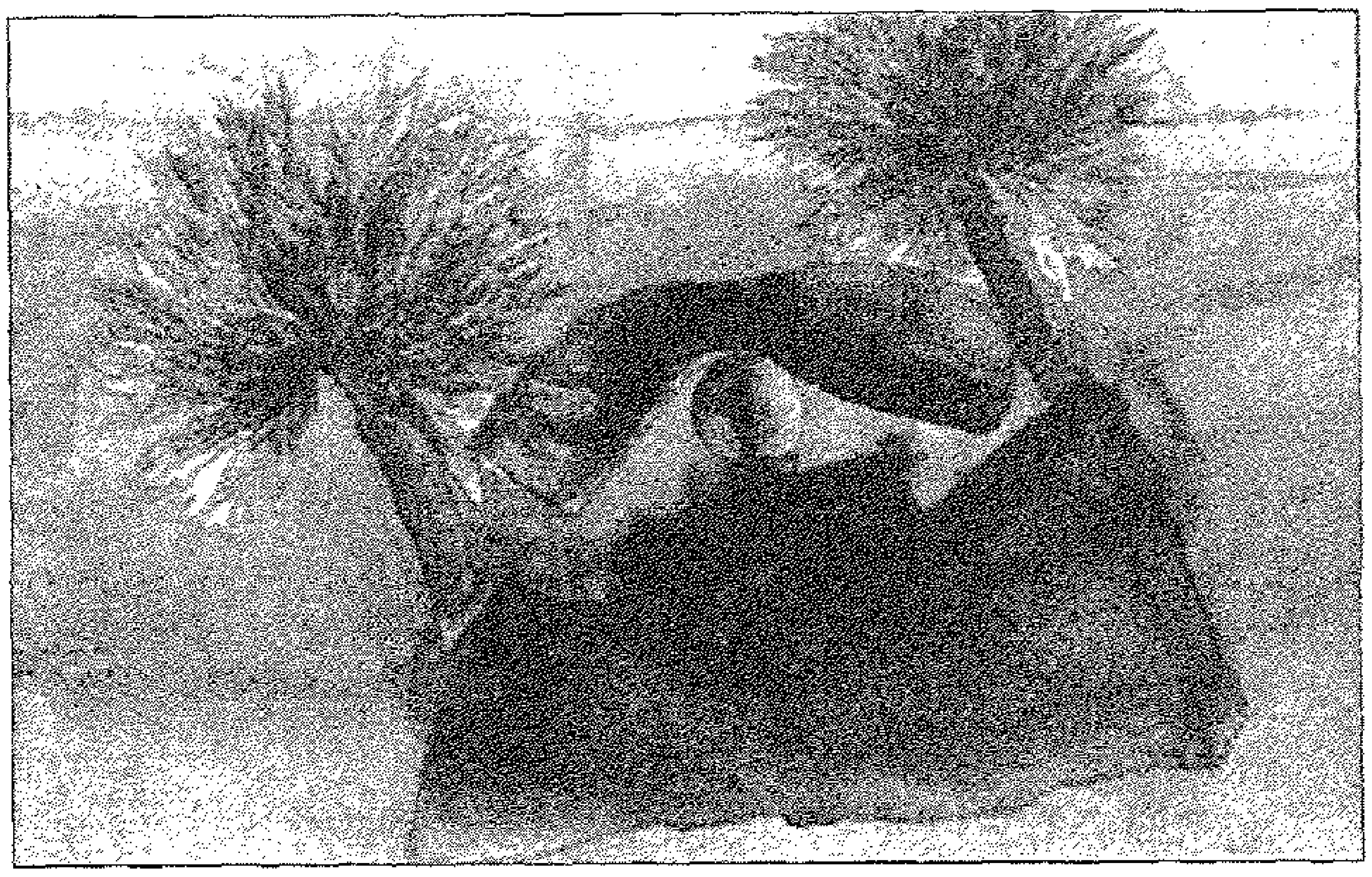
«لماذا عدت الآن؟ لو كنت مت أنت بدلا من أمى!؟»

وفى محاولة أخرى من «أثمان» لاحتواء «سلاطين» فى حضنه يصرخ فيه سلاطين ناقضا ذراعى أبيه:

«لن أبقى معك سأهجرك إلى أن تموت كما هجرتنى، سأبقى مع العمدة رغما عنه وعنك حتى أعذبكما معا!».

تلك لمحة خاطفة عن نشأة «سلاطين» الذى سيصبح زعيما لشلة المراهقين عند ربوة مجيد، وقبل أن يصبح عمدة للقبيلة!

فى مرحلة زعامته للشلة نتعرف على الفتيان والفتيات الذى سيبرز من بينهم أبطال الجيل الثانى فى هذه الرواية ممثلين لتيارات ثقافية مختلفة، وفى هذه المرحلة نرى كيف سيبدو «سلاطين» مختلفا ليس فقط عن الكبار فى القبيلة بعدما جرى له مع أبيه، بل حتى عن أفراد شلته، وفى بحثه المجنون عن مصدر للقوة والاستقلال قاد شلته للوصول إلى المقبرة الأثرية التى سمع أن الخواجات يأتون إليها سرا وليلا مع سماسرة من البلاد المجاورة للبحث عما بها من كنوز للملوك القدامى، وقبل أن يصلوا إلى حجرة الكنز يعود «سلاطين» وحده ذات ليلة لينفرد بالخبيئة، ولأن ناس القبيلة كانوا يزدرون فكرة الحفر فى قبور الموتى



القبيـــلة تفـــرد
مظلتهـــــا الكبيــــــرة
أو عبـــــاءتها عـــــلى
كل فـــــرد فيهـــــا
تحميـــه وترعـــاه

ويرونها عملا منافيا للدين ولحرمة الموتى، فقد كانت البداية فى صعود «سلاطين» هى اختلافه عن أهل قبيلته فى النظر إلى الماضى، ثم إنه يختلف مع قبيلته مرة أخرى فى النظر إلى المستقبل حين عمل وعبر سنوات طويلة على كسر حواجز العزلة من حول قبيلته من خلال إدخال عنصر التجارة الكبير إلى عالم القبيلة، بما توفر له من أموال الكنز الذى انفرد بالسطو على المقبرة التى تحتويه وبيع محتوياتها، وعلى إدخال أنواع من الصناعات الصغيرة التى لم يكن لها وجود فى قرى القبيلة ثم على إنشاء ميناء على النهر أمام إحدى قرى القبيلة وبناء مخازن بجوار الميناء للبضائع الواردة، ولمزروعات القرية الصادرة، ثم بناء مدرسة جديدة إلى جوار الكتاب القديم، ثم السماح لمدينة صفيح عشوائية صغيرة بأن تمتد على حافة القرى النوبية ليعيش فيها العمالة والعبيد المجلوبين من الجنوب للعمل فى الميناء والمخازن والصناعات الصغيرة.

هل نجرؤ على أن نصف هذه الحركة الهادرة الجديدة بأنها خير هبط على القرية، وحرك سكونها الطويل، وأنه من الطبيعى أن يفسد نقاؤها القديم، وأن هذا الخير العميم إنما جاء مرتبطا بشرور كثيرة تجسدت فيما قام ويقوم به سلاطين العمدة أو الذى أصبح العمدة، مع أو ضد الكثير من زعماء التيارات الثقافية المختلفة فى القبيلة من الشباب الذين كانوا أصدقاء شلته فى زمن المراهقة عند ربوة مجيد وهى الشرور التى قادت أصدق أصدقائه، والذى كان بمثابة ذراعه اليمنى فى إنجاز الكثير مما قام به صديقه الذى كانوا يسمونه «الاشرم» قادت صديقه هذا ليقوم بقتله وهو فى ذروة قوته ومجده!

بالنسبة لمثل هذه الرواية الملحمية الكبيرة التى يصعب تقديم صورة «بانورامية» لمجمل شخصياتها وأحداثها فى مقال، كان من الضرورى أن نختار بعضا من أهم هذه الشخصيات للكشف عن التوجه العام لمسار هذه الأحداث والشخصيات. وهنا ملاحظات:

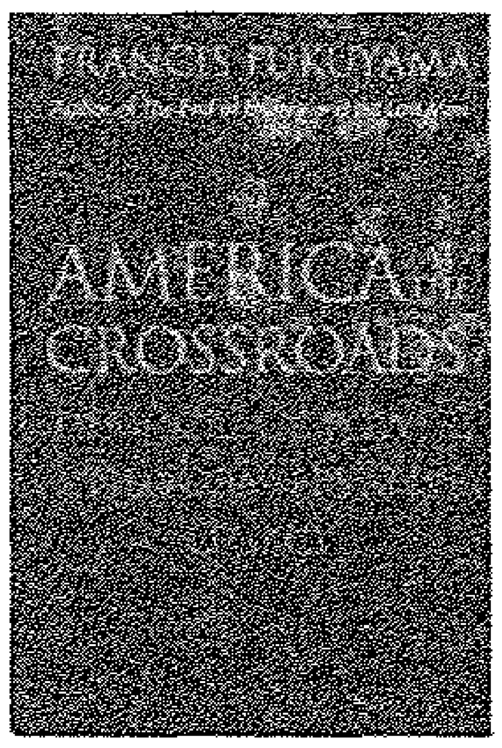
- سوف يلاحظ القارئ أن الشخصيات التى توقفنا أمامها فى هذا المقال بشىء من التفصيل وهى «الاشرم» و«سلاطين» و«أثمان» و«تعويضة لسانين» و«هكيمة» هى كلها شخصيات تتمتع بقدر هائل من الثراء والتعقيد والسمة البارزة والمشتركة فى كل هذه الشخصيات أنها شخصيات تملك القدرة على قبول التناقض، والتعامل معه، مرة بمرونة حين لا تكون قادرة على حسم الأمور المتناقضة لصالحها، ومرات بعنف أو قوة حين تكون قادرة على مثل هذا الحسم وفى الوقت المناسب لها، وهذه القدرة لا علاقة لها بالمستوى الاقتصادى أو الثقافى للشخصية، ولكنها قدرة شبه فطرية تتصل بالإمكانات النفسية والعقلية للشخصية.

- التركيز على هذه النوعية من الشخصيات كان وراءه انها هى التى قامت بالدور الأعظم فى تحقيق الإنجاز الذى تطمح اليه هذه الرواية وهو رصد لحظات التحول فى حياة بعض قرى النوبة وبعض قبائلها فى مرحلة تاريخية اشتد فيها التواصل بين هذه القرى مع الشمال السودانى من ناحية، ومع الجنوب المصرى من ناحية أخرى والكشف عن الطابع العام للقوانين التى تحكم هذا التحول بوجهيه الاقتصادى والاجتماعى الثقافى، الأمر الذى كان لابد أن يؤدى إلى خلخلة النظام القبلى المستقر والآمن والهادئ فى هذه القرى منذ سنين مع ما قد يسبب ذلك من آلام ومآس هى ثمن لابد أن تدفعه هذه المجتمعات فلا يوجد انتقال آمن أو فجائى.

- الشخصيات التى لم نتعرض لها فى هذا المقال مع أنها كانت لها أدوارها الهامة فى مقاومة هذا التحول أحيانا أو الرغبة فى ترشيده أو الحد والتقليل من مخاطره، كلها شخصيات من النوع الذى يتسم بأحادية النظرة والجمود والميل الى المألوف والمستقر، من أهم هذه الشخصيات «صلاتو» أمام المسجد وحفيده «بلال» الذى يتعلم فى الأزهر فى القاهرة ويعود فى الإجازات والمناسبات ليشارك فيما يجرى من أحداث فى القرى النوبية، والفنان المغنى «تاج طنبورة»، و«أبيدون» العمدة و«هاشم الكيد» الفلاح الذى قدم من الصعيد واندمج فى القبيلة وطور أساليب الزراعة فى القرى النوبيــة، بعضهم حماه تمسكه بالتقاليد وبعضهم دمره هذا التمسك بها. ■



أزمـــة الـــدور الأمـريـكـــى



إصـلاح المـصـــداقـيـــة الأمريكية لن يكون أمرا من أمور العلاقات العامة، إنها ستتطلب فريقا وسياسات جديدة لمواجهة التحديات التى تكاد تعصف بالسياسة الخـارجـيـة الأمـريـكـيـة

الســـيـد أمـيـن شـــلـبـى

■■ خلال عملى بالسفارة المصرية فى واشنطون فى الثمانينيات، وفى ترددي على وزارة الخارجية الأمريكية كنت أحرص على زيارة إدارة التخطيط السياسى Policy Planning ، وهى الإدارة التى كلف وزير الخارجية الأمريكى جورج مارشال الدبلوماسى والمؤرخ الأمريكى جورج كينان بتأسيسها عقب انتهاء الحرب الثانية لكى تتولى التخطيط للسياسة الخارجية الأمريكية لفترة ما بعد الحرب ومشروعاتها، وكان المشروع الأول الذى خطط له هذه الإدارة هو مشروع مارشال للنهوض بالاقتصاد الأوروبى. ومنذ هذا الوقت وهذه الإدارة تساهم بشكل مؤثر فى صياغة السياسة الخارجية الأمريكية، على الأقل كما تتصورها وزارة الخارجية الأمريكية، وفى النصف الأول من الثمانينيات، التى توافقت مع فترة عملى، كان يرأس هذه الإدارة بيتر رودمان، والذى كان الساعد الأيمن لهنرى كيسنجر، وهو الذى حرر مذكراته، وهو يشغل حاليا وكيل وزارة الدفاع لشئون الأمن الدولى، كما كان بها دايفيد أرون ميللر، والذى كان مختصا بقضية النزاع العربى الإسرائيلى، وسوف يمثل فى فترة العشرين عاما التالية مع كل من دنيس روس ، ومارتن انديك، الثالوث الذى سيكون الفريق الأمريكى فى محادثات السلام الإسرائيلية الفلسطينية. كذلك كان ضمن فريق الإدارة شاب كان واضحا ملامحه الأسيوية هو فرانسيس فوكوياما، والذى كانوا يحددونه لى عندما أود مناقشة الأوضاع فى إيران، وأفغانستان، وكان واضحا لى تركيزه على الأساس التاريخى والفكرى للقضايا وأبعادها الاستراتيجية التى تتعدى نطاقها المحلى، فكان يرى الثورة الإيرانية كمقدمة لتوتر بين الإسلام والغرب، وكان يرى - فى هذا الوقت المبكر - الوضع السوفيتى وأفغانستان وتأثيراته المحتملة على النظام السوفيتى. تابعت فوكوياما بعد ذلك وفهمت أنه انتقل للوسط الأكاديمى ليعمل فى مؤسسة راند وهى من كبرى مؤسسات الفكر والبحث الأمريكية، ويبدو أن هذه الفترة هى التى فكر وأنتج فيها مقالته الشهيرة « نهاية التاريخ » التى نشرها عام ١٩٨٩ فى دورية The National Interest ، وهى منبر التيار المحافظ المتشدد، والتى أراد بها أن يقدم مسحا للمسرح الدولى يعالج من خلاله «المسائل الكبيرة». فى هذه المقالة، التى كان أساسها محاضرة قدمها فى جامعة شيكاغو، اعتبر فوكوياما أن القرن العشرين قد بدأ والعالم المتقدم يخوض صراعا عنيفا بين الليبرالية والديمقراطية، وبين بقايا الحكم المطلق ثم مع النازية والبولشفية، ثم انتصف بما تنبأ به البعض من عملية تلاقى أو تقارب Convergence بين الرأسمالية والاشتراكية. غير أن القرن ينهى دورته بالنصر الواثق لليبرالية الاقتصادية والسياسية، ورأى فوكوياما أن هذا النصر يبدو أولا وقبل كل شىء فى « الاستبعاد الكامل لأى نظم بديلة لليبرالية الغربية تكون صالحة للحياة...» وانتهى فوكوياما أن ما نشهده ليس مجرد إنهاء الحرب الباردة، وانقضاء فترة وإنما نهاية التاريخ نفسه ووصوله إلى نقطة نهائية فى التطور الأيديولوجى للبشرية ولعالمية الديمقراطية الغربية كشكل نهائى من أشكال الحكم.

وكانت هذه المقالة بما أثارته فى الدوائر الأكاديمية والفكرية هى التى قدمت فوكوياما كمؤرخ ومفكر استراتيجى وخاصة بعد أن طورها فى كتاب أصدره عام ١٩٩٢ عنوانه « نهاية التاريخ والإنسان الأخير »، وبعدها واصل فوكوياما أعماله الفكرية والبحثية فأصدر عام ١٩٩٥كتابه:Trust : the social virtues and the caqution of prosperity كما أصدر عام ١٩٩٩ كتابه The Great Disruption : Human Nature and the reconstruction of social orolers ، وفى عام ٢٠٠٢ أصدر كتابه:

Our Post Human Future : Consequences of the biotechnology Revolution

ثم أصدر فى عام ٢٠٠٤ كتابه:

State Building : Governance and the world order in the 21st century .

أما كتابه الأخير فهو الذى نعرض له اليوم والذى أعلن فيه انفصاله عن مجموعة المحافظين الجدد الذين ارتبط بهم منذ التسعينيات ووقع على العديد من وثائقهم ومشروعاتهم، أما اليوم فهو يقول «إنه كان لديه العديد من الانتماءات مع أجنحة مختلفة من حركة المحافظين الجدد، وكنت تلميذا لألان بولوم تلميذ شتراوس الذى كتب The Closing of American Mind ، وعملت فى مؤسسة راند وعملت فى مناسبتين مع وولفويتز، وقد فسر العديد من الناس كتاب « نهاية التاريخ والإنسان الأخير» باعتباره منشورا من منشورات المحافظين الجدد..» وانتهى إلى أن « حركة المحافظين الجدد كرمز سياسى وكيان فكرى قد تطورت إلى شىء لا أستطيع بعد الآن تأييده».

يقرر فوكوياما فى البداية أن كتابه هو محاولة لتوضيح ميراث المحافظين الجدد، وأن يشرح لماذا أخطأت إدارة جورج بوش، وأن يخطط طريقا بديلا للولايات المتحدة فى علاقتها بالعالم. ففيما يتعلق بتقييمه لميراث المحافظين الجدد وأصولهم الفكرية، فيعتبر أن جذور المحافظين الجدد تكمن فى مجموعة متميزة من المثقفين اليهود ممن ظهروا فى الثلاثينيات والأربعينيات.. ارمنج كريستول، ودانيال بل، وارمنج هاو، وسيمور مارتن ليبست وفيليب سلزنك، وناثان جارلز ثم متأخرا دانيل باتريك مونيهان. وقد كانت الفترة التى ظهروا فيها، كما هى الحال اليوم، فترة أزمة حادة فى السياسة العالمية وكانت الجامعة التى ينتمون إليها مسيسة تماما وملتزمة بسياسات الجناح اليسارى، ومع هذا كان أهم ما ورثوه هو المعاداة إعادة للشيوعية وكراهية مساوية لليبرالية المتعاطفين مع الشيوعية الذين لا يرون الشر الذى تمثله، ولهذا فإن فهم بذور الليبرالية المعادية للشيوعية هذه حاسمة لفهم

America at the crossroads :
Democracy, Power and the Newconservative legacy
(أمـريـكـا فـى مـفـتـرق طـرق: الـديـمـقـراطـيـة، والـقـوة ومـيـراث المحافظين الجدد)
Francis Fukuyama
Yale University Press, 2006

أصول المحافظين الجدد ومعارضتهم للهندسة الاجتماعية وهو الخط الأكثر دواما الذى يجرى عبر هذه الحركة، وقد انعكس فكر هذه المجموعة فى هذه الفترة فى مجلات مثل: the partisan Review, Commentary ثم The Public Interest وهكذا كانت معركة التكوين الأولى التى شكلت حركة المحافظين الجدد هى الحرب ضد الستالينيين فى الثلاثينيات والأربعينيات، والمعركة الثانية كانت مع اليسار الجديد والثقافة المضادة التى أطلقتها فى الستينيات وكان لهذه المعركة الثانية أبعادها السياسية الخارجية والداخلية، فمعارضة الحرب فى فيتنام قد أنجبت جيلا من اليساريين الأمريكيين المتعاطفين مع النظم الشيوعية الماركسية فى هافانا وهانوى، وبكين، كما أدت أيضا إلى أجندة داخلية طموحة التى فكرت فى أن Emulate تقلد دول الرفاهية الأوروبية وأن تخاطب العديد من الأسباب الرئيسية لعدم المساواة الاجتماعية. وقد أسس كل من كريستول و بل The Public Interest لكى تلقى نظرة نقدية، وإن كانت دائما متعاطفة، مع الجزء الداخلى من هذه الأجندة، وقد أصبحت هذه الدورية بيتا لجيل من الأكاديميين وعلماء الاجتماع والمثقفين ومراكز الأبحاث.

وكان ما يربط هذه المجموعة هو الحدود التى تفرضها على الهندسة الاجتماعية Social Engineering وكانت تعتبر أن الجهود الطموحة لتحقيق العدالة الاجتماعية تنتهى بالمجتمعات كأسوأ مما كانت من قبل، ذلك أنها تتطلب تدخلا شاملا من الدولة يفكك العلاقات العضوية الاجتماعية، كما أنه ينتج نتائج غير متوقعة.

وفى تقييمه النهائى للمحافظين الجدد فإنه يلقى نظرة على ميراثهم ليس فقط خلال السنوات الخمس الماضية، ولكن فى الخمسين عاما المنقضية، فبداءة فإنه يقرر أن هناك قدرا كبيرا من التنوع فى وجهات نظر الذين ينتمون إلى هذه الحركة خلال ربع القرن الأخير وبشكل لا يقترب من خط حزبى واحد، ومع هذا فإنه من الممكن أن تستخرج أربعة مبادئ رئيسية تصف فكر المحافظين الجدد والتى تشرح بشكل منطقى المواقف السياسية التى اتخذوها وتميزهم عن مدارس فكرية أخرى حول السياسة الخارجية، وهذه المبادئ هى:

● الاعتقاد بأن الطابع الداخلى للنظم هو شىء مهم وأن السياسة الخارجية يجب أن تعكس أعمق قيم المجتمعات للبلدان الديمقراطية.

● الاعتقاد بأن القوة الأمريكية كان يمكن أن تستخدم لأهداف أخلاقية وأن الولايات المتحدة تحتاج أن تظل مرتبطة بالشئون الدولية، فباعتبارها قوة العالم المسيطرة فإن الولايات المتحدة عليها مسئوليات فى مجال الأمن.

● عدم الثقة فى مشروعات الهندسة الاجتماعية، وعدم الثقة فى هذه الخطط هو الذى يربط نقدهم للستالينية فى الأربعينيات بشكهم حول « مشروع المجتمع العظيم » فى الستينيات.

● وأخيرا الشك فى شرعية وكفاءة القانون الدولى والمؤسسات للوصول إلى الأمن أو العدالة. فالمحافظون الجدد فى هذا يتفقون مع الواقعيين أن القانون الدولى هو من الضعف بحيث لا يستطيع أن يفرض القواعد والتحكم فى العدوان، وهم ينتقدون بشكل كبير الأمم المتحدة على أنها لا تستطيع أن تكون محكما أو أن تفرض العدالة الدولية. غير أن عدم الثقة فى الأمم المتحدة لا يمتد بين كل المحافظين الجدد إلى كل أشكال التعاون

يتوقف عند الحرب على العراق ويعتبر أن إدارة بوش ومؤيديها من المحافظين فشلوا قبل أن يقوموا بالحرب فى توقع رد الفعل العدائى العالمى لها وخاصة فى أوروبا

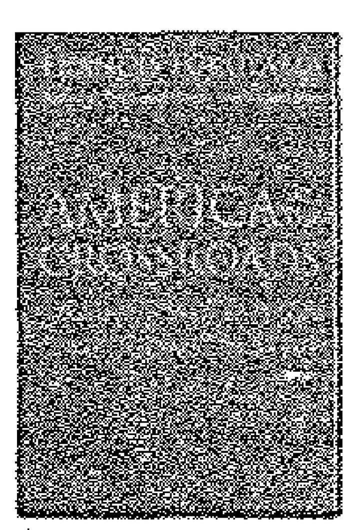
الدولى فمعظمهم يفضلون مثلا تحالف الناتو ويعتقدون فى بعض المبادئ الديمقراطية المشتركة.

وينتقل فوكوياما إلى الهدف الثانى من كتابه وهو توضيح ماذا حدث من أخطاء فى السياسة الخارجية الأمريكية لإدارة بوش، ويناقش فى هذا السياق مفهومين وجها سياسات الإدارة وهما مفهوم « الهيمنة الرحيمة» Benevolen Hegemony والاستثنائية الأمريكية American Exceptionalism وهما المفهومان اللذان ظهرا فى أدبيات المحافظين الجدد فى التسعينيات وخاصة فى كتابات ويليام كريستول ، وروبرت كاجان. ويبدأ فوكوياما بطبيعة الحال من أحداث ١١ سبتمبر والبيئة الأمنية والتهديدات التى أحدثتها Threat Perceptions حيث اجتمع تهديدان هما: الراديكالية الإسلامية، وأسلحة الدمار الشامل، وقد كانت التهديدات موجودة لمدة طويلة كقضايا السياسة الخارجية الأمريكية حيث كان الأول على الأقل منذ ظهور الثورة الإيرانية عام ١٩٧٨، والآخر منذ فجر العصر النووى، وكان كل منهما يشكل مشكلة خطرة للسياسة الخارجية الأمريكية، ولكن اجتماعهما فى حزمة واحدة، أثار للمرة الأولى الإمكانية الوشيكة لتهديد نووى أو بيولوجى لا يمكن ردعه للولايات المتحدة، وإمكانية منظمة غير حكومية Nonstate أن تظل خطرا كارثيا هو شىء جديد فى العلاقات الدولية ويعرض تهديداً أمنيًا غير مسبوق. هذه التهديدات التى اجتمعت بعد أحداث ١١ سبتمبر قد أدت إلى أن تشن الإدارة الأمريكية حربين فى أفغانستان والعراق. ولا يتوقف فوكوياما عند حرب أفغانستان، ولكنه يتوقف عند الحرب على العراق ويعتبر أن إدارة بوش ومؤيديها من المحافظين فشلوا قبل أن يقوموا بالحرب فى توقع رد الفعل العدائى العالمى لها وخاصة فى أوروبا، وقد فعلت الإدارة خطأ تكتيكيا فى الفشل بالتنبؤ بموقف الرئيس الفرنسى شيراك ووزير خارجيته دى فيلبيان بسحبها تأييد قرار مجلس الأمن الثانى عن الحرب، غير أن معارضة الحرب لم تقتصر على النخبة وحساباتها السياسية، فقبل شهر من الحرب قامت مظاهرات حاشدة فى مدن غربية مثل لندن، وروما، ومدريد، التى وافقت حكوماتها على أن تشارك إدارة بوش فى الحرب فى ظل مفهوم «تحالف الراغبين»، وحقيقة لم تتوحد أوروبا من قبل بشكل تلقائى حول قضية واحدة من هذه وهو ما جعل وزيرا فرنسيا سابقا يصف المظاهرات بأنها « مولد الأمة الأوروبية » وثمة أسباب للتفكير أنه - على غير خلافات أطلنطية سابقة - فإن الشقاق الذى حدث نتيجة الحرب على العراق كان تحولا بنائيا، وعلى هذا فلن يكون من السهل رأبه فى المستقبل. ورغم أن أسباب لماذا أثارت حرب العراق هذا الارتفاع المفاجئ فى العداء للولايات المتحدة هى أسباب معقدة إلا أن هناك سببا قصير الأجل لهذه المقاومة ينبنى فى نظرية الأمن القومى الاستراتيجى عن الحرب الوقائية Preemptive War وهو: اعترافها الضمنى بالاستثنائية الأمريكية. ومن الواضح أن نظرية الحرب الوقائية لا يمكن تعميمها فى النظام الدولى، فالعديد من الدول تواجه تهديدات إرهابية وقد تتجه إلى أن تتعامل معها من خلال تدخلات استباقية Preemptive ضد تلك النظم التى تحتضن الإرهابيين، وتقع ضمن هذه الفئة دول مثل روسيا والصين والهند، فإذا فعلت هذا فان الولايات المتحدة ستكون أول من يعترض عليها، وحقيقة أن الولايات المتحدة منحت نفسها الحق الذى تنكره على غيرها من الدول إنما يتأسس على حكم ضمنى أن الولايات المتحدة مختلفة عن البلدان الأخرى وأنها يمكن أن يوثق فيها باستخدام قوتها المسلحة بعدل وحكمة وبطرق لا تستطيعها دول أخرى. والواقع ما كان فقط ضمنيا فى تصريحات إدارة بوش الرسمية كان قد تقرر بوضوح بواسطة عدد من الكتاب المحافظين الجدد فى السنوات التى قادت إلى حرب العراق. وكان أحد التأكيدات الأولى حول حاجة أمريكا لممارسة قوة مهيمنة لتحقيق نظام عالمى والأمن قد جاءت من تشارلز وتهامر الذى جادل مع نهاية الحرب الباردة أن الولايات المتحدة تواجه «لحظة القطب الواحد Unipolar Movement» حيث لا تستطيع أى قوة أخرى قائمة أن تتحدى الهيمنة الأمريكية، كذلك حاول تشارلز وتهامر أن الولايات المتحدة لا تنشد إمبراطورية كما فعلت غيرها من القوى العظمى، ولكنها سوف تتصرف «لممارسة للنظام الدولى». ويفند فوكوياما مفهوم الهيمنة الرحيمة فيعتبر أن فكرة قيادة الولايات المتحدة للحرب الباردة يمكن تحويلها إلى وضع من الهيمنة الرحيمة تجاه بقية العالم يحتوى داخلها عدداً من الثغرات الهيكلية والتناقضات التى تجعلها غير ممكنة التحقيق كأساس طويل الأجل للسياسة الخارجية الأمريكية فأولا، ترتكز الهيمنة الرحيمة على الاعتقاد فى الاستثنائية الأمريكية والتى يجدها معظم الأمريكيين ببساطة غير جديرة بالثقة، ففكرة أن الولايات المتحدة تتصرف بشكل منزه عن الغرض على المسرح الدولى يعتقد فيها بشكل واسع لأنها فى معظمها غير صحيحة وهى حقا غير صحيحة إذا ما حقق القادة الأمريكيون مسؤولياتهم تجاه الشعب الأمريكى، فالولايات المتحدة قادرة على أن تعمل بكرم حين تتوافق مثلها مع مصالحها ، ولكن الولايات المتحدة هى أيضا قوة عظمى لها مصالح لا تتصل بالصالح العام العالمى، فالرؤساء الأمريكيون عليهم أن يحموا

المصالح الطبيعية لعدد من الدوائر الخاصة، وعليهم أن يقلقوا حول أمن إمدادات الطاقة، وأن يستجيبوا لمطالب عدد من الدوائر العرقية المختلفة داخل الولايات المتحدة، ويحتاجوا إلى التعاون مع عدد من البلدان بغض النظر عن معاملة هذه البلدان لمواطنيها، وهنالك العديد من المصالح العالمية ابتداء من قوات حفظ السلام الأفريقية إلى تهدئة الانبعاثات الحرارية والتى تجد الولايات المتحدة أنها على درجة كبيرة من العبء بحيث لا تستطيع تقديمها. والمعضلة الثانية حول الهيمنة الرحيمة أنها تفترض مسبقا درجة عالية من الكفاءة من جانب القوة المهيمنة. والعديد من نقاد الولايات المتحدة فى حربها على العراق لا يشككون فى الحرب على أساس معيارى مجرد وإنما يتساءلون عما إذا كانت الإدارة تتفهم ما يتضمنه التحول السياسى الذى تقوم به فى الشرق الأوسط، فى هذا الشأن فإن هؤلاء كانوا فى رأى فوكوياما على درجة كبيرة من البصيرة.

أما المشكلة الأخيرة مع الهيمنة الرحيمة فتكمن فى السياسات الأمريكية الداخلية. فثمة حدود حادة لاهتمام الشعب الأمريكى بالشئون الخارجية والاستعداد لتمويل مشروعات خارجية التى ليس لها فوائد واضحة للمصالح الأمريكية. وقد غيرت ١١ سبتمبر هذه الحسابات بعدة طرق وقدمت تأييدا شعبيا لحربين فى الشرق الأوسط وزيادة واسعة فى الإنفاق العسكرى، غير أن استمرارية هذا التأييد ليست أكيدة، ورغم أن معظم الأمريكيين يريدون أن يفعلوا ما هو ضرورى لنجاح مشروع إعادة بناء العراق، فإن ما بعد الحرب لم يزد من الشهية الشعبية لمزيد من التدخلات المكلفة.

أما الهدف الثالث الذى كتب من اجله فوكوياما هذا الكتاب فهو يخصصه لتقديم « نوع جديد من السياسة الخارجية الأمريكية » وبديل للولايات المتحدة فى علاقاتها بالعالم. ويبدأ فوكوياما من جديد بالحرب على العراق وبأن العراق الآن قد حلت محل أفغانستان كجاذب وأرض تدريب، وقاعدة عمليات للمجاهدين الإرهابيين مع الكثير من الأهداف الأمريكية لكى يطلقوا النار عليها. ورغم أنه كان من أهداف إدارة بوش المعلنة هو إسقاط نظام صدام حسين لكى تكون نموذجا فى المنطقة، إلا أنه من الواضح أن الإدارة فى ولايتها الثانية قد نحت جانبا فى سياستها الخارجية مفهوم تغيير النظم من خلال حرب وقائية. وفى حالة العضوين الآخرين فى محور الشر: إيران وكوريا الشمالية، فإن الإدارة قد أطلقت إشارات أنها لا تنوى استخدام القوة المسلحة لتحقيق تغيير فى النظم. وهذا فى جانب منه انحناء أمام واقع بسيط: فالقوات الأمريكية الآن تمددت من خلال الحرب على العراق، ولم تاعد هنالك خيارات بسيطة للتدخل لوقف البرنامج النووى الإيرانى أو الكورى الشمالى. ولكن فيما وراء القيود العملياتية، فانه يبدو أن الإدارة قد أدركت أنها دفعت ثمنا سياسيا باهظا للحرب على العراق وأن الحرب الوقائية لا يمكن أن تكون مركز الاستراتيجية الأمريكية. وهكذا فإن قدرة الإدارة على إصلاح المشكلات التى خلقتها لنفسها فى السنوات الأربع الأولى ستكون محدودة، فإصلاح المصداقية الأمريكية لن يكون أمرا من أمور العلاقات العامة، إنها ستتطلب فريقا وسياسات جديدة. ويتوقع فوكوياما أن ما تعرضت له الولايات المتحدة وما تعرضت له أجندة المحافظين الجدد قد تدفعهم إلى نوع من الانعزالية فى السياسة الخارجية الأمر الذى سيكون أمرا سيئا إذا ما حدث وعادت الولايات المتحدة إلى دورة الانسحاب مثل ما حدث بعد فيتنام، فالولايات المتحدة تظل قوة ضخمة وغنية وذات نفوذ بشكل لا يجعلها تتخلى عن الطموحات الكبيرة فى السياسات العالمية، ولكن ما هو مطلوب ليس العودة إلى الواقعية الضيقة وإنما ما يسميه فوكوياما « الويلسونية الواقعية: Realistic Wilsonianism والتى تدرك الأهمية للنظام العالمى لما يحدث داخل الدول، وان تلائم بشكل أفضل الأدوات المتاحة مع تحقيق الغايات الديمقراطية. وهذا يعنى فى المقام الأول نزعًا جذريًا للاعتماد والطابع العسكرى للسياسة الخارجية الأمريكيةDemilitarization . وإعادة التأكيد على أشكال أخرى من أدوات السياسة. فالحرب الوقائية وتغيير النظم من خلال التدخل العسكرى لا يمكن أبدا استبعادها بشكل كامل من على المائدة، ولكنها يجب أن تفهم وتؤخذ كإجراءات بالغة التطرف. إن استراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة يجب أن تعاد صياغتها رسميا لكى تقدم معيارا واضحا حول متى نعتقد أن الحرب الوقائية مشروعة، وهذه المعايير يجب أن تكون مقيدة ومحددة. إن اللغة الطنانة حول الحرب العالمية الرابعة، والحرب العالمية على الإرهاب يجب أن تتوقف، ورغم أن الولايات المتحدة تحارب حربا ضد حركة جهادية عالمية تحتاج أن تكسبها، ولكن تصور النضال الأوسع كحرب عالمية مثل الحروب العالمية أو الحرب الباردة إنما تبالغ بشكل واسع فى نطاق المشكلة وتوحى بأننا نضطلع بجزء كبير من العالمين العربى والإسلامى. أما ما يجب أن تفعله الولايات المتحدة فى رأى فوكوياما فهو الترويج للتنمية السياسية والاقتصادية وأن تهتم بما يحدث داخل الدول فى العالم، ويجب أن تفعل هذا بالتركيز فى المقام الأول على الحكم السليم، والمشاركة السياسية، والديمقراطية والمؤسسات القوية الأدوات الأولى التى تفعل بها هذا يجب أن تكون فى نطاق القوة الناعمة: أى القدرة على أن تكون النموذج، وأن تعلم وتدرب وأن تؤيد النصيحة دائما بالمال. فالسر بالنسبة للنمو سواء سياسيا أو اقتصاديا هو أن القوى الخارجية ليسوا أبدا الذين يدفعون العملية إلى الأمام، انهم دائما الناس داخل المجتمعات، فى بعض الأحيان نخب صغيرة، وفى أحيان أخرى المجتمع المدنى الواسع، الذى يجب أن يخلق الطلب على الإصلاح والمؤسسات وهذا يتطلب صبرا عظيما فى الوقت الذى تبنى فيه المؤسسات، وتنشأ المنظمات، وتتشكل التحالفات وتصبح الظروف ناجحة للتغيير الديمقراطى. فى هذا الشأن، ومع بداية ولايتها الثانية، فقد حولت إدارة بوش بشكل جوهرى لغتها الطنانة حول الديمقراطية فى الشرق الأوسط، ومستخدمة لغة رقيقة تجاه دول مثل مصر والسعودية لحثها على اتباع الإصلاح. وقد قررت كونداليزا رايس كوزيرة للخارجية بوضوح تام أن الإدارة مستعدة لتحمل مخاطر مجىء متطرفين إلى السلطة فى انتخابات مفتوحة. وهو تغيير يرحب به، ولكن من المهم أن يكون واضحا فى أذهاننا لماذا نفعله، فالديمقراطية فى الشرق الأوسط هى شىء مرغوب فيه فى حد ذاته، وليس لأنه سوف يحل كل مشكلات الولايات المتحدة مع الإرهاب، وحتى لو تحولت مصر والسعودية إلى ديمقراطيات مستقرة بين يوم وليلة، فسوف تظل الولايات المتحدة منغمسة بعمق فى مشكلة الإرهاب لسنوات قادمة. ورغم أن الإصلاح السياسى فى العالم العربى هو أمر مرغوب فإن الولايات المتحدة تواجه مشكلة قصيرة الأجل: فهى لا تملك تقريبا أى مصداقية أو سلطة أخلاقية فى المنطقة، فالصورة المسيطرة للولايات المتحدة



القوات الأمريكية الآن تمددت
من خلال الحرب على العراق،
ولم يعد هنالك خيارات بسيطة للتدخل
لوقف البرنامج النووى الإيرانى
أو الكورى الشمالى

ليست هى تمثال الحرية ولكن هو سجن أبو غريب، والإصلاحيون الليبراليون الموالون للغرب يشعرون بأن عليهم أن يبعدوا أنفسهم عن الولايات المتحدة وهم مستهدفون لتلقيهم منحا من مؤسسات أمريكية للديمقراطية، ويأمل فوكوياما أن لا يظل هذا وضعا دائما، ولكنه يعتى أن دفعا قويا للتغيير السياسى قادم من واشنطون فى هذه المرحلة الحاسمة سوف يأتى بنتائج عكسية، وهذه توضح أهمية أن تكون هناك مؤسسات دولية بديلة يمكن أن تنفصل نفسها قليلا عن واشنطن.

ويقرر فوكوياما أن القوة الأمريكية تظل حاسمة بالنسبة للنظام الدولى، ولكن القوة الأمريكية ستكون اكثر قوة إذا ما كانت مستترة Latent، فرغم حقيقة أن الولايات المتحدة تنفق تقريبا على قواتها العسكرية مثل ما تنفق بقية دول العالم معا، فقد أثبتت حرب العراق أن ثمة حدودا واضحة على فعاليتها العسكرية، فهى ليست مهيأة بهذا لكى تحارب تمردات طويلة، فتوترات حرب العراق قد أجبرت بالفعل البنتاجون فى ولاية إدارة بوش الثانية فى استعراضه للقوة العسكرية الأمريكية Quadrenial Review، على أن يتساءل عن قدرة الولايات المتحدة على أن تحارب فى حربين إقليميتين فى وقت واحد. وفى النموذج التاريخى الذى يجب أن تفكر فيه الولايات المتحدة فى ممارستها للقوة فى عالم القطب الواحد اليوم، فإن فوكوياما لا يحبذ نموذج هنرى كيسنجر الواقعى المفضل الذى يقدمه متريتيخ، وإنما يفضل نموذج المستشار الألمانى بسمارك الذى بعد أن خاض حربين لتوحيد ألمانيا وبعد تحقيقها عام ١٨٧١، أدرك أن هدف ألمانيا الرئيسى هو أن يؤكد لجيرانها الخائفين والناقمين أن ألمانيا قد أصبحت قوة تحافظ على الوضع الراهن Status Quo Power، وكان هدفه الواضح هو أن يمنع تكوين تحالفات معادية التى سوف تنشد علانية معارضة القوة الألمانية. فى هذا السياق التاريخى، يعتبر فوكوياما أن الولايات المتحدة لن تذهب إلى إثارة فرنسا وألمانيا إلى تكوين تحالف عسكرى معاد، ولكنها قد أثارت قدرا كبيرا من الوحدة بين أطراف أوروبية عنيدة عادة حول فكرة أن الممارسة الأمريكية غير المسئولة للقوة هى إحدى المشكلات الرئيسية فى سياسات المعاصرة. وقد نتج عن هذا بالفعل «توازن ناعم» Soft Balancing حيث حاولت بلدان مثل ألمانيا وفرنسا أن تعارض مبادرات أمريكية أو ترفض التعاون حولها حينما يطلب منها ذلك. وبالمثل فان بلدانًا آسيوية قد انشغلت فى بناء منظمات إقليمية عسكرية لأنها قد تصورت واشنطون على أنها غير مهتمة بحاجاتها. كذلك استخدم هوجو شافيز فى فنزويلا عوائد البترول لكى يفصل بلدان فى الانديز والكاريبى عن المحيط الأمريكى، فى الوقت الذى تتعاون فيه روسيا والصين لكى تدفع ببطء الولايات المتحدة خارج آسيا الوسطى.

ويستخلص فوكوياما أن اكثر الطرق أهمية التى يمكن أن تمارس فيها القوة الأمريكية فى هذا المفترق ليس من خلال استخدام القوة، وإنما من خلال قدرة الولايات المتحدة على صياغة مؤسسات دولية.

وهكذا نستطيع أن نضع كتاب فوكوياما هذا ضمن مجموعة من الكتابات أصدرها فى الأعوام القليلة الأخيرة عدد من المفكرين الاستراتيجيين والمحللين الأمريكيين، والذين يضعون جميعا الولايات المتحدة وسياستها الخارجية فى مفترق طرق ويقدمون لها بدائل وخيارات على سياساتها الحالية. نذكر من هؤلاء كتاب زبيجنيو بريجنسكى The Choice والذى اعتبر فيه أن جوهر الدور الأمريكى هو القيادة لا الهيمنة وكرسه لضمان أن تمارس أمريكا مبادرتها بشكل آمن وتفادى ما يمكن أن يولد مقاومة ومعارضة عالمية بل وكراهية، وكذلك كتاب جوزيف ناى Joseph Nye، «The Paradox of American Power»، والذى نبه فيه السياسة الأمريكية بأن للقوة العسكرية أخطارها ويطور مفهوم القوة وعناصرها ويقدم مفهوم القوة اللينة Soft Power الذى يعتمد على التأثير على النتائج التى تريد تحقيقها لا من خلال التركيز بشكل ضيق على الأبعاد العسكرية للقوة الأمريكية، وإنما من خلال الاعتماد على الثقافة والأيديولوجية وجاذبية القيم والإقناع والنموذج والاستماع لآراء الآخرين اكثر مما يعتمد على القسر والضغوط. ثم أخيرا كتاب ريتشارد هاس The Opportunity، والذى يقدم فيه نظرية جديدة للسياسة الخارجية الأمريكية تتمثل فى التكامل: Integration مع القوى العالم وان يصبح هدف السياسة الخارجية الأمريكية هو تشجيع تعددية أقطاب Multipolarity تتصف بالتعاون والتنسيق أكثر من التنافس والصراع. ■

كتــــاب الــزاويـــة

الحجاب الفتنة

قاســـم أمـــين

❖ رأيت يومًا فى شارع الدواوين امرأة تمشى وأمامها خادم، يظهر من هيئتها أنها من عائلة كبيرة، طويلة القامة ممتلئة الجسم، عمرها بين العشرين والثلاثين، فى وسطها حزام من الجلد مشدود على خصر رفيع وملاءة منطبقة على جسمها انطباقًا تامًا، الجزء الأسفل بارز عند الأرداف ومرسوم تحت ستار الملاءة باعتدال جميل، والقسم الأعلى غير مستور، وإنما الملاءة مشبوكة فى رأسها مسدولة على كتفيها وذراعيها إلى المرفقين، على وجهها قطعة من الموسلين الرقيق أقل عرضًا من الوجه. تحجب فاها وذقنها حجابًا لطيفًا شفافًا كما تحجب قطع السحاب الرفيع شكل القمر، وتترك العيون والحواجب والجبهة والشعر إلى منتصف الرأس مكشوفة. كانت تمشى خطوات مرتبة يهتز معها جسمها مائجًا كما تفعل الراقصة على المرسح، وكانت تخفض جفونها بحركة بطيئة وترفعها كذلك وترسل إلى المارة نظرات دعابة ورخاوة وحنان واستسلام وبالإجمالى كان مجموعها تحريضًا مهيجًا لحواسهم!

❖ أخلاق جديدة عند الشبان: علمت أن بعضهم يحمل قوائم تشتمل على معلومات مفصلة عن البنات اللاتى يرشحون أنفسهم لخطبتهن، وعلى الخصوص عن حالتهن المالية وحال بيوتهن، فيرصدون فيها ما تملكه من الأطيان والأماكن وقيمة ما تساويه ومقدار ريعها وسن والدها والأمراض التى يكون مصابًا بها وعدد الورثة الذين يتركهم بعد موته.. إلخ.. معلومات لا يفكر فى جمعها أشد المرابين احتياطًا إذا أقرض مبلغًا جسيمًا بدون تأمين.

كيف نفهم السياسة الإيرانية

مصطفى اللباد

قضى الكاتب ثلاث سنوات فى الاعداد لهذا الكتاب المرجعى محاولاً البحث عن إجابات بشأن الظاهرة الإيرانية مستعينا بالماضى ومستشرفًا المستقبل وبالطبع دارسًا ومحللاً للسياسات الإيرانية الراهنة. والمؤلف حاصل على دكتوراه الدولة من ألمانيا فى الاقتصاد السياسى لمنطقة الشرق الأوسط وأصدر فى القاهرة مجلة «شرق نامة» المتخصصة فى شئون إيران وتركيا وآسيا الوسطى. وفيما يلى مقدمة الكتاب.

إيران بلد فريد فى جغرافيته وتاريخه وفى وجدانه وموقعه الإستراتيجى، وهو مهد إحدى أعرق الحضارات الإنسانية التى مازالت تثرى مخيلة المتابعين وتشحذ قريحة المهتمين. وإيران ترتبط مع العرب بوشائج التاريخ والجغرافيا وإرث الحضارة الإسلامية المشترك، حتى لكأن الله هو الذى صنع هذه العلاقات وصاغ معالمها وليس بنو البشر. وبالرغم من كل هذه العوامل الموضوعية، فإن المعرفة المتبادلة بين العرب وإيران مازالت دون المستوى المأمول. بمقارنتها بمعرفة العرب بالغرب مثلاً. والتعرف على الغرب وحضارته أمر مهم وضرورى لمعرفة الآخر، ولكننا عندما نكتب عن إيران ونتعرف عليها. فإن ذلك من قبيل معرفة الذات الحضارية الواحدة ومتعددة الأشكال. ومثلما أن إيران فريدة فى تراثها وتاريخها الفلسفى والعرفانى (الصوفى)، فإن واقعها السياسى فريد هو الآخر، وحيوية هذا الواقع هى من دلائل حيوية إيران ومجتمعها.

ويتناول الكتاب الذى بين أيديكم موضوع «ولاية الفقيه» فى إيران، وهى النظرية التى تطغى على واقع إيران السياسى وعلى ملامح منطقتنا، منذ صعودها بانتصار الثورة الإيرانية فى عام ١٩٧٩ وحتى الآن.

والثورة الإيرانية حدث متميز فى تاريخ القرن العشرين، فهى التى أطاحت رمزًا عتيداً للقوة الإقليمية وهو الشاه السابق. ولكنها لم تكتف باستبدال حاكم آخر به فحسب، بل وثبتت مكانه فكرة أو نظرية، ومازالت هذه الفكرة تحكم وتتحكم حتى اليوم فى إيران وتفرض حضورها على الساحة.

قليلة هى الأفكار السياسية التى استطاعت الوصول إلى السلطة، وكثيراً ما وصلت جماعات إلى السلطة بفكرة معلنة وشعارات تبدلت بمرور الزمن، واختفت لصالح شعارات أخرى. أما نظرية «ولاية الفقيه» فقد استمرت تهيمن على إيران لأكثر من ربع قرن، منذ نهاية السبعينيات من القرن الماضى وحتى اليوم. وخلال هذا الوقت انقلبت أنظمة وتغير شكل المنطقة العربية. الإسلامية من المغرب وحتى إندونيسيا، وتبخر النظام العراقى وقبله نظام طالبان بفعل الآلة العسكرية الأمريكية. وأعادت أنظمة كثيرة فى منطقتنا النظر فى أولوياتها وتحالفاتها الخارجية، ولكن إيران تحت حكم «ولاية الفقيه» لم تنقلب حتى الآن مع أنها هدف معلن لواشنطن، بل أنجزت تسعة انتخابات لرئاسة الجمهورية منذ قيامها. ولم تنكفئ طهران على نفسها إقليمياً، بل إن حضورها بوصفها طرفا أساسيًا فى المنطقة يزداد فاعلية وثقلاً. وتثور هنا مجموعة من الأسئلة تبحث عن إجابات، أو كما يقول الحكيم هادى السبزوارى من فلاسفة القرن الثالث عشر الهجرى فى إيران:

أُس المطالب ثلاثة عِلْم
مطلب هل، مطلب ما، مطلب لِمَ

ما هى إذن نظرية «ولاية الفقيه» التى ملأت الدنيا وشغلت الناس؟ ما أساسها العقائدى والفكرى؟ كيف وصلت إلى الحكم؟ كيف استطاعت النظرية تحييد التيارات السياسية الأخرى فى إيران مثل الليبراليين والقوميين والماركسيين؟ كيف انتقلت السلطة من الإمام الخمينى، مؤسس «جمهورية إيران الإسلامية» إلى السيد خامنئى؟ ما الأسس الفكرية لخطاب الرئيس السابق محمد خاتمى؟ وما حجم التأثير الذى تركه التيار الإصلاحى فى التوازنات السياسية والاجتماعية فى إيران؟ هل يمكن تجسير التناقضات البنيوية فى مفهوم «الجمهورية الإسلامية»؟ وماذا يخبئ المستقبل لإيران من تحديات؟ هذه الأسئلة وغيرها كثيراً ما تراود القارئ العربى ولا يجد لها إجابات شافية. وبالرغم من مرور ربع قرن على تأسيس «جمهورية إيران الإسلامية» على أساس نظرية «ولاية الفقيه»، وحضور السياسة الإيرانية فى المنطقة بشكل يومى ومتداخل؛ فمازالت هذه النظرية بجوانبها التاريخية والعقائدية والسياسية، تمثل لغزًا لدى كثيرين فى عالمنا العربى والإسلامى.



ربما يشبه البناء الفكرى والعقائدى لنظرية «ولاية الفقيه» هندسة المنازل الإيرانية القديمة، إذ كلاهما يبدو منغلقًا على نفسه، ولكنه يقوم عمليًا بدور المصفاة. وفى حين يستعصى النفاذ إلى واقع إيران السياسى دون الإلمام بجوانب «ولاية الفقيه»، يجب عليك أولاً اجتياز تلك الأروقة الطويلة التى تفصل الفضاءات الخارجية للمنزل الإيرانى القديم عن فضاءاته الداخلية، قبل الولوج أخيرا. بتدرج وسلاسة. إلى مركز المنزل الذى تعبق به الأسرار والحرمات.

حاولت، قدر المستطاع، الخروج من ثنائية «مع» أو «ضد» التى تطغى على أغلب الكتابات السياسية عموماً، والمتعلقة منها بإيران خصوصاً، لأن هذا النوع من الكتابات يصادر على المطلوب مقدماً، فضلاً عن أنه يختزل المعرفة فى نطاق ضيق. ولا يعنى ذلك أن الكتاب لم يقدم هو الآخر أفكاره ورؤاه عن نظرية «ولاية الفقيه»، ولكنى بذلت جهدى للتعريف بأهم الآراء المتعلقة بالموضوع بالرغم من أنها تصب فى خانة «نعم» أو خانة «لا». ولما كانت الكتابة فى النهاية أيضاً موقفاً، حاولت قدر الجهد ألا أخفى على القارئ موقفى من نظرية «ولاية الفقيه»، بوصفها. فى وجه من الوجوه. أحد مفاتيح فهم واقع إيران الحالى، وركيزة نظامها السياسى وحجر زاويته. وفى وجه آخر، أو على مستوى مغاير، تُعد نظرية «ولاية الفقيه» مسألة فلسفية تتناول البشر وعلاقتهم بالدولة والمجتمع، وهو ما يستحق التأمل على كل حال.

اخترت للكتاب عنوان «حدائق الأحزان» لاعتبارات متعددة، منها إعجابى بحدائق إيران وتصميمها

مقدمة كتاب:
حدائق الأحزان
إيران و«ولاية الفقيه»
مصطفى اللباد
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦ ــ ٣٢٠ صفحة

وعمارتها الفريدة التى تأخذ بالألباب، وما تركه فى نفسى الأثر العميق لحزن الإيرانيين الدائم، الذى يبدو ركنًا أساسيًا فى وجدان المسلمين الشيعة عمومًا، والإيرانيين خصوصًا. ولا تقتصر وظيفة الحديقة فى إيران على تدليل العيون والأبصار، إذ هى، سواء فى تراث إيران الشعبى أو ممارسات الإيرانيين الاعتيادية، جزء من الحياة اليومية، فيها يستريحون ويتنزهون ويتناولون طعام العشاء فى ليالى الصيف.

يتكون الكتاب من خمسة فصول تتناول الجوانب المتعددة لنظرية «ولاية الفقيه»، إذ يبدأ الفصل الأول من الأساس التاريخى للتشيع، ومرورًا بعلاقة الفقهاء بالدولة الإيرانية. أما الفصل الثانى فيهتم بمبانى ومعانى «ولاية الفقيه» وولادة النظرية ودور الإمام الخمينى فى تطويرها والمبانى الفكرية لها. ويتوقف الفصل الثالث عند مرحلة تسلّم السلطة والتطورات التى أدت إلى استفراد «ولاية الفقيه» بالسلطة فى إيران وإبعاد التيارات السياسية الأخرى عن العملية السياسية، فى حين يركز الفصل الرابع على عملية نقل السلطة بعد وفاة الإمام الخمينى إلى السيد على خامنئى وتأثيراتها سواء فى النظرية ذاتها أو فى واقع إيران السياسى. أما الفصل الخامس فيتناول دور الرئيس السابق محمد خاتمى فى تطوير الخطاب الدينى الإيرانى، وتغيير التوازنات السياسية فى إيران، مرورًا بمفهوم «جمهورية إيران الإسلامية»، وأخيرًا التحديات التى تواجهها.

كان طريق الكتاب شاقًا ومجهدًا حيث استغرقت فى البحث والتحضير والكتابة سنوات. قبلها كانت سنوات أخرى من الإحجام. برغم إلحاح الأصدقاء. عن التصدى لمثل هذا الموضوع فى كتاب مستقل، ليس بسبب الخوف من مشقة الكتابة فقط، ولكن أيضًا هناك مجموعة من الأسباب والمعوقات الموضوعية والذاتية. كان تلاحق الأحداث بعد الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، والهجمة الضارية التى تتعرض لها منطقتنا حضاريًا وعسكريًا وسياسيًا، من أهم بواعث التشاؤم والإحباط. كذلك كان توقيت صدور الكتاب المفترض عامل أرق لى، خشية تفسير التوقيت بالوضع فى خانة «مع» أو خانة «ضد» الشهيرة، خصوصا فى ضوء الحملات الإعلامية والدبلوماسية المتوالية التى تشنها الإدارة الأمريكية المتشددة بقيادة بوش الابن على النظام الإيرانى. وكان من جملة المعوقات الذاتية أننى استوعبت من إيران وتاريخها، وخزنت فى ذاكرتى فى كل زيارة من زياراتى المتعددة إلى إيران، ما يجعلنى أشفق على نفسى من أن أغفل بعضًا منها. وكما يقول المثل العربى البليغ: «العلم صيد والكتابة قيد»، فما بالك أيها القارئ العزيز والعلم هنا إيران العبقرية والهائلة الضخامة؟ كيف يمكن تقييد بعضها بين جدران الكلمات وقضبان الصفحات؟

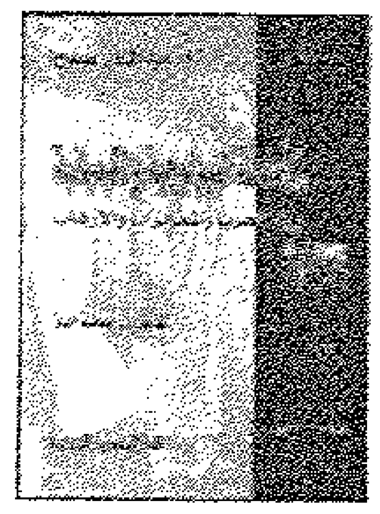
وهبت الأقدار إيران كثيرًا من الهبات، ويأتى فى مقدمتها تلك المرتبة العرفانية الصوفية السامقة، التى تسمو فوق الاعتبارات المادية الممثّلة فى ثرواتها النفطية والغازية والموقع الجيو. سياسى وما يتفرع عنه من «علوم ظاهرية». إذ حبا الله إيران بأن وضعها بفضل تراثها من العلوم الغيبية والعرفانية والفلسفية فى مرتبة يستعصى معها على الباحث التجرؤ فى عرفان أسرارها. وما هذا العمل المتواضع إلا محاولة للإبحار فى أسرار تلك المعانى، ولكن فى كل مرة يغوص المرء فيها مستكشفًا معنى، فإنه يتأكد فى المرة التالية أن معانى أخرى قد فاتته. ولذلك أطلب من القارئ غفرانه، على تقصير الكتاب عن بلوغ الأرب، وهو أمر واقع بالضرورة بالنظر إلى ما سبق. ولما وقع ماهو واقع ولم يكن له دافع، كان صعبًا، إن لم يكن مستحيلاً، أن يطوى المرء فصول الكتاب محتفظًا بأحكامه الأولية، وهو ممسك بزمام الكشف عن المعانى وملم فى الوقت ذاته بكل ما استغلق من أفكار. فإلى علوم إيران الغيبية وتراثها العرفانى ووجدانها الشرقى أتقرب.. وإليها جميعًا أعتذر.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الأسلحة البيولوجية والكيمائية

عبدالهادى مصباح

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية ط٢، ٢٠٠٦، ٢٤٠ صفحة



تعد الأسلحة البيولوجية من أقوى أسلحة الدمار الشامل فتكاً وتدميراً والتى تشمل الأسلحة النووية والذرية والكيماوية، وهى سهلة التصنيع ولا تحتاج لوقت طويل أو تكلفة كبيرة أو إمكانيات تكنولوجية معقدة، كما أنها يمكن تصنيعها دون الوصول إلى فاعل وتأثيرها لا يظهر إلا بعد فترة حضانة معينة.

ويشير المؤلف إلى وجود ٣٩ نوعاً يمكن استخدامه كسلاح بيولوجى ويشمل البكتيريا، الفيروسات، الريكستيا، السموم، وبعض هذه الأسلحة مثل بكتيريا الانثراكس العضوية تسبب مرض الجمرة الخبيثة، ويكفى استنشاق واحد على مليون من الجرام منها لقتل إنسان ضخم الجثة.

كما يشير المؤلف إلى ظهور أكثر من ١٥ فيروساً جديداً فى ربع القرن الأخير، بعضها اختفى ثم عاد للظهور وبعضها جديد تماماً، وهو ما يعطى الفرصة لاستخدام هذه الفيروسات الجديدة كأسلحة فى مجال الحرب البيولوجية، إضافة إلى أن الانتهاء من إعداد مشروع الجينوم البشرى قد يمكن بعض الدول من اكتشاف اختلافات متميزة فى جيش أو شعب معين، مما يمكن أعداءه من إعداد سلاح بيولوجى يتم توجيهه إلى هذا الشعب الذى يحمل الجين الذى يميزه أو يصيبه ببعض الأمراض الخطيرة والمزمنة.

يتناول المؤلف نبذة عن تاريخ استخدام الأسلحة البيولوجية والذى يعود إلى عام ٣٠٠ ق. م. ثم تطورها حتى وقتنا الحاضر.

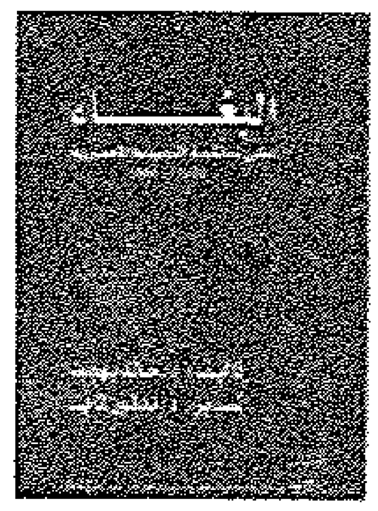
ويخصص باباً للأسلحة الكيماوية ليميز بينها وبين الأسلحة البيولوجية، ويعرض للاستخدامات المختلفة للأسلحة البيولوجية ومنها استخدامها كسلاح فى المخابرات، ويعرض لبرنامج التسليح البيولوجى والكيميائى العراقى، ودور أمريكا وأوروبا فى دعم هذا البرنامج، ولماذا فشل العراق فى استخدامه.

قدم للكتاب الدكتور أسامة الباز.

البغاء على شاشة السينما المصرية

خالد بهجت

القاهرة: أكاديمية الفنون، ٢٠٠٦، ٣٧٥ صفحة



هذا الكتاب فى الأصل هو رسالة جامعية حصل بها المؤلف وهو مخرج على درجة الماجستير فى السينما، وهو يعترف منذ البداية بأن التصدى لمشكلة البغاء فى الواقع المصرى وعلاقتها بالسينما مليئة بالمحاذير والصعاب، وتاريخ السينما المصرية لم يتعامل مع المسألة بجدية، وإنما باستحياء أو فجاجة. والمؤلف يحلل بعد دراسة نظرية مستفيضة عن البغاء فى الواقع الاجتماعى، سبعة أفلام هى «درب الهوى» و«خمسة باب» و«المذنبون» و«شوارع من نار» و«شفيقة ومتولى» و«ولا من شاف ولا من درى» و«إنقاذ ما يمكن إنقاذه».

ولاحظ المؤلف من خلال استبيانات علمية دقيقة، أن هناك غياباً شبه كامل وعدم اهتمام بمشكلة البغاء، لأن النسبة المئوية لأفلام البغاء فى حقبة الدراسة (٧٥ - ٨٥) لم تتجاوز ٣،٥٪ بالنسبة للمجموع الكلى لأفلام هذه الحقبة.

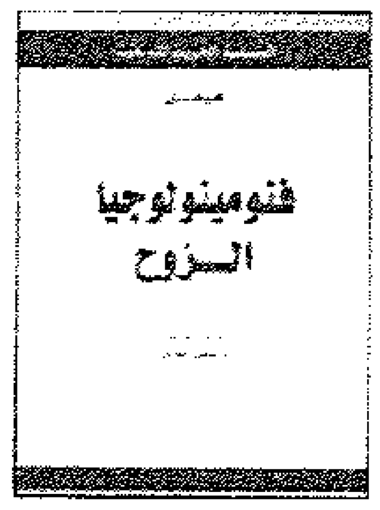
ويلاحظ المؤلف أيضاً أن الأفلام السبعة لم تعر أدنى اهتمام لديناميات الأسس العلمية النفسية أو الدوافع العلمية للواقع الاجتماعى الاقتصادى لمشكلة البغاء، ووقفت الأبعاد الاجتماعية الاقتصادية عند حد الفقر أو اضطهاد زوجة الأب، أو مرض الزوج، أو غياب من يعول الأسرة، وكذلك قهر القوادين واستغلالهم للبغايا، وبعضها اتجه للشكل البوليسى مثل المذنبون، وحتى حين قدم مخرج المذنبون سعيد مرزوق فيلمه «إنقاذ ما يمكن إنقاذه»، فإنه لم يخرج عن الإطار ذاته، وهو سقوط الفتاة وتحولها بسهولة غريبة إلى بغى وراقصة. ويشير المؤلف أيضاً إلى أن هذه الأفلام جاءت مواكبة للمناخ الاقتصادى السائد آنذاك (الانفتاح) الذى حمل شعار «اكسب واجرى»، وكانت عين صناع السينما بشكل رئيسى على شباك التذاكر، وهو ما جعلهم يستهدفون غرائز المشاهد، وإغراق الفيلم بالمشاهد الجنسية والألفاظ المبتذلة والرقصات والقبلات الحارة، وربما أضافت عنفاً يصل إلى حد القتل، لمزيد من الإثارة.

فنومينولوجيا الروح

هيجل

ترجمة: ناجى العونلى

بيروت: المنظمة العربية للترجمة ٢٠٠٦، ٨٣٨ صفحة



«فنومينولوجيا الروح» نص من بين أمهات نصوص الثقافة الغربية الحديثة، لكنه أيضاً متن فلسفى بلغت فيه المثالية الألمانية قصارى ما استطاعت من تفكير فلسفى فى جميع أشكال الوعى الإنسانى من سياسة وأخلاق وعلم وتاريخ ودين وأدب وفن وفلسفة. رُب نص هو حصيدُ تفكير فى تاريخ الإنسانية نفسها.

يقول المترجم: لقد آثرنا فى هذه الترجمة الكاملة أن نقدم إلى القارئ العربى نص ١٨٠٧ على تحيره وتقلبه وتصيره، وألا نقطع أوصال الجملة الهيجلية وإن تشعبت، وأن نبسط حركة تفكير هيجل وإن كان لانبساطها «ثقل يعيى»، ففى فنومينولوجيا الروح شرع هيجل لأول مرة - إذ بدأ يتملك ناصية نسقه فى الفلسفة - فى اتباع التمشى الديالكتيكى بما هو الآية على علمية الفلسفة والحياة الخاصة للروح نفسها. لذلك كله كانت فنومينولوجيا الروح فى ذات الآن رأس النسق الهيجلى وجزءه الأول، بل بيانه فى جملته.

نجيب محفوظ وطنى مصر

محمد سلماوى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ١٠١ صفحة



يضم هذا الكتاب النص العربى لكتاب وطنى مصر الذى صدر بالفرنسية وترجم بعد ذلك إلى عدة لغات، وهو عبارة عن سلسلة من الحوارات أجراها المؤلف مع الأديب الكبير، إذ كان من الصعب على محفوظ بعد محاولة الاغتيال الغادرة التى تعرض لها أن يكتب بقلمه، فكانت هذه الحوارات بديلاً أكثر من مناسب.

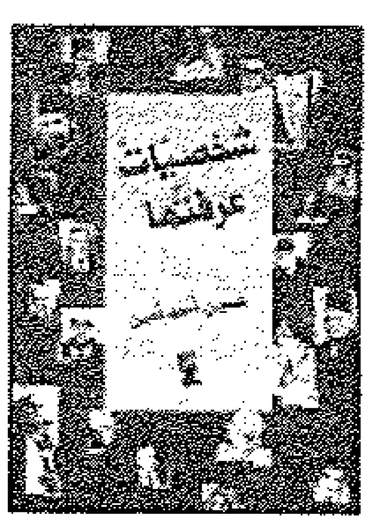
وحوارات سلماوى تتقصى عالم نجيب محفوظ من البدايات، فى حى الجمالية الذى مثل نشأة محفوظ وعالمه الأثير الذى دارت فيه أكثر رواياته، كما أنها تتابع انتماءه لثورة ١٩١٩ وزعيمها وإيمانه بمبادئ الوفد القديم، وتنتقل معه إلى حى العباسية الذى انتقلت إليه الأسرة فيما بعد، ولا تغيب عن الحوارات الملامح المميزة لنجيب محفوظ والقيم التى يتمسك بها وأهمها الانضباط والحفاظ على المواعيد والدقة المتناهية، وتتابع أيضاً انشغاله بالفلسفة وهى أصل تخصصه الدقيق، ثم اهتمامه بالتاريخ الذى شكل العمود الفقرى لرواياته، وما تمثله مصر الفرعونية ثم القبطية فالإسلامية فى وجدانه وانعكاس هذه الرؤية على أعماله التى يناقشها معه المحاور، وهو فى الأصل أديب وكاتب مسرحى مرموق.

حوارات سلماوى مع نجيب محفوظ ترسم صوراً كاملة لأديب نوبل، كما أنها بالتوازى معها، ترسم لوحة كاملة للمجتمع المصرى فى تحولاته، والتى كانت روايات نجيب محفوظ أصدق تعبير عنها.

شخصيات عرفتها

حسين أحمد أمين

القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٦، ٢٢٥ صفحة



يحدثنا المؤلف عن نحو ٢٥ شخصية عرفها عن قرب، أدباء وفلاسفة وصحفيين ومفكرين وسياسيين وفنانين.

والبداية من أحمد أمين الأب، العالم والباحث والأديب الذى توفى فى مايو عام ١٩٥٤ عن ثمانية وستين عاماً، وكان الابن وقتها لم يتجاوز الثانية والعشرين. يحكى المؤلف عن زهده وبساطته وتواضعه، وعزوفه عن العمل السياسى رغم الإغراءات التى قدمها قادة سياسيون آنذاك. يحدثنا المؤلف عن صداقاته واهتماماته التى كانت مقصورة تقريباً على ميدان التاريخ الإسلامى دون فنون العصر وفلسفاته.

وكثير من الشخصيات التى يحتشد بها الكتاب تعرف عليها المؤلف من خلال والده، أو بسبب البيئة الثقافية التى نشأ فيها، مثل العقاد وطه حسين والشيخ مصطفى عبدالرازق، وكان يستذكر دروسه

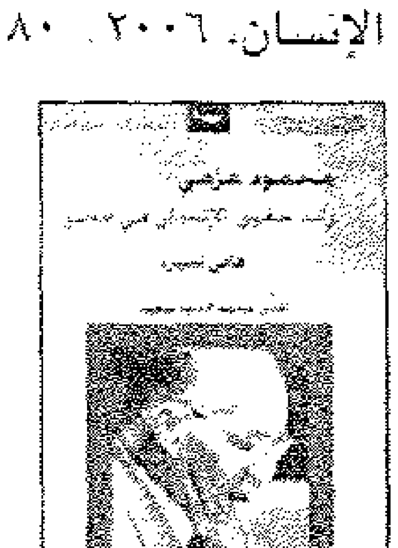
مع ابن الأخير ممدوح، وكذلك حسن البنا وزكى نجيب محمود وغيرهم، وهو فى معرض حديثه عن هذه الشخصيات وسيرتها، يتناول العلاقات بينها، وكيف كانت قائمة على الاحترام المتبادل والرغبة فى خدمة الوطن والثقافة على الرغم من اختلاف المشارب والتوجهات، كما هى الحال فى العلاقة بين لطفى السيد والشيخ مصطفى عبدالرازق على سبيل المثال. لكن هناك آخرين توطدت صلة المؤلف بهم لأسباب ومناسبات خاصة مثل حسن الكرمى وصباح محيى الدين ومحمود مرسى ومراد غالب وأنور السادات وأسامة الباز ورجاء النقاش وصافى ناز كاظم ومحمود محمد شاكر ومكرم محمد أحمد وغيرهم. وهو لا يكتفى بالحديث فقط عمن أحب، لكن أيضاً عمن كانوا سبباً فى لحظات عاشها من التعاسة مثل محمد أمين حماد مدير عام الإذاعة والتليفزيون فى مصر، الذى عامله بقسوة وجفاء لأسباب سياسية مخابراتية.

ووسط كل هذه الشخصيات المهمة والرائدة والمؤثرة، يبرز اسم «خضرة»، وقصتها، كما يرويها المؤلف تنطوى على كفاح ومثابرة غير عاديين، فهى خادمة صغيرة تمكنت من تثقيف نفسها وتعلم اللغة الإنجليزية والاطلاع على أبرز أدباء عصرها من العرب والغربيين، ثم زواجها من أحد أبناء العائلات الكبيرة، والذى كان زميلاً لها فى المجلس البريطانى بالقاهرة، حكاية أشبه بالأسطورة، يرويها المؤلف بوقائعها دون حذف أو إضافة.

محمود عزمى رائد حقوق الإنسان فى مصر

هانى نسيرة

القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٦، ١٨٠ صفحة



يعد محمود عزمى واحداً من المفكرين الكبار، ورائداً من رواد النضال من أجل حقوق الإنسان فى مصر والعالم العربى، ويقدم الكتاب عدداً من مقالاته المهمة والتى تمثل محطات فى رحلته الفكرية، وتظهر خطابه الواضح دفاعاً عن الديمقراطية والدستور وحقوق الإنسان، كما تظهر المجادلات العقلية والسياسية والمعاناة الإنسانية والشخصية لمثقف مصرى عاش الجانب الأكبر من حياته فى النصف الأول من القرن العشرين.

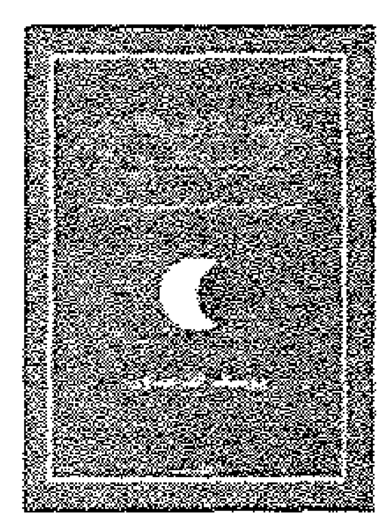
كما يقدمه من خلال تحليلات ومقارنات قام بها المؤلف جمعت عزمى مع كتاب ومفكرى عصره من كافة الأطياف، وبالذات فى مجال حقوق الإنسان، ودوره فى الدفاع عن هذه الحقوق والترويج لها.

وبحسب المؤلف، فإن عزمى كان جزءاً من ريادة ثقافية مصرية فى المنطقة العربية كلها، وقد عاش فلسفته بأكثر مما كتبها، فهو لم يترك مؤلفات ضخمة ولا مجلدات تتزين بها أرفف المكتبات. ولم تستغرقه الإشكالات المعرفية النقدية قدر اهتمامه بالإشكالات المؤسسية والأبعاد الاجتماعية والسياسية للإصلاح والنهضة والمواطنة، كان نموذجاً لمثقف مستقل يسعى للبناء والانتقال النوعى فى الخطاب والممارسة على السواء، وقد ظلمته بعض خصائصه الفردية فى الاستقلالية والمزاج الفردى المتوحد مع مبادئه فى استقامة فكرية لا تقبل الممالأة أو التوفيق أو التراجع، وكان يرفض دائما أن يكون من مفكرى التخوم أو مثقفى السلطة أو الأحزاب وأبواقها.

دراسة فى فقه مقاصد الشريعة

يوسف القرضاوى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٢٨٨ صفحة



يضم الكتاب دراسة أعدها المؤلف للمشاركة فى ندوة مقاصد الشريعة التى أقيمت فى صيف عام ٢٠٠٤ بلندن وشارك فيها عدد كبير من العلماء.

ويؤكد الدكتور القرضاوى فى البداية أن اهتمامه بمقاصد الشريعة إنما عمقه فى نفسه وعقله تدبره فى القرآن الكريم، واستقراءه لأحكام الشريعة وما يحويه من مثل عليا وقيم رفيعة، ثم قراءته لمؤلفات العلماء المعنيين بمقاصد الشريعة، والتى تعنى الغايات التى تهدف إليها النصوص من الأوامر والنواهى والإباحات.

ويشير المؤلف إلى ثلاث مدارس أساسية فى فقه المقاصد: المدرسة الأولى تعنى بالنصوص الجزئية وتفهمها حرفياً بمعزل عما قصد الشرع من ورائها، ويقول إن أصحاب هذه المدرسة ورثوا عن الظاهرية القدماء الحرفية والجمود، دون أن يرثوا عنهم سعة العلم، والمدرسة الثانية تزعم أنها تعنى بمقاصد الشريعة وروح الدين، وتعطل النصوص الجزئية للقرآن الكريم، بدعوى أن الدين جوهر لا شكل وحقيقة لا صورة، ويقول المؤلف إن كل العلمانيين والمتغربين والحداثيين الذين اقحموا أنفسهم على الشريعة هم من تلاميذ هذه المدرسة، ويسميهم المؤلف «المعطلة الجدد»، أما الذين يدعون إلى تعطيل الشريعة.

وأما المدرسة الثالثة فهى المدرسة الوسطية التى لا تغفل النصوص الجزئية فى كتاب الله وصحيح السنة النبوية، وهى ترد الفروع إلى أصولها والجزئيات إلى كلياتها، وهى تعتصم بالنصوص القطعية فى ثبوتها ودلالتها، والاستمساك بها على ما يقول المؤلف، استمساك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها.

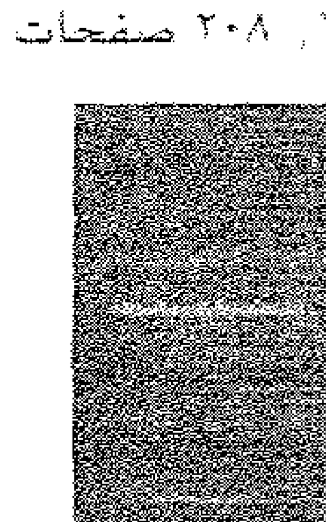
وهذه هى المدرسة التى يؤمن بها المؤلف ويتبنى منهجها ويراها معبرة بصدق عن حقيقة الإسلام، وهى التى تجسد فقه الخلف العدول الذين أثنى عليهم الرسول الكريم بقوله: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين».

ويعرض المؤلف لهذه المدارس الثلاثة بالنقد والتحليل، مبيناً ميزات كل مدرسة منها ومثالبها.

المساعدات الأمريكية لمصر

حسن محمد سليم

القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠٦، ٢٠٨ صفحات



يستعرض الكتاب برؤية تحليلية، أسلوب المفاوضات التى جرت بين الحكومة المصرية والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية والكونجرس الأمريكى والإدارة الأمريكية خلال الفترة من ١٩٨٩ وحتى عام ٢٠٠٠.

واتسمت المفاوضات مع الجانب الأمريكى بأنها كانت صعبة فى بعض المراحل وسهلة فى مراحل أخرى، واختلفت درجة الصعوبة والسهولة وفقاً للمعايير والمؤشرات التى تتدخل فى رسم السياسة الاقتصادية وبرامج الإصلاح المصرية.

ويرى المؤلف أن مصر تتجه بسرعة نحو الخط الأحمر فى المفاوضات والذى يجب على الحكومة المصرية ألا تتعداه مستقبلاً، مع الأخذ فى الاعتبار انخفاض حجم المعونة الاقتصادية بصفة مستمرة، بسبب ربط استراتيجية الوكالة بحجج البرنامج الاقتصادى للمعونة المقدمة لمصر، وإن كانت النظرة المستقبلية تحتم تقييم برامج المعونة على أساس تحليل التكلفة والعائد الاقتصادى والاجتماعى والسياسى.

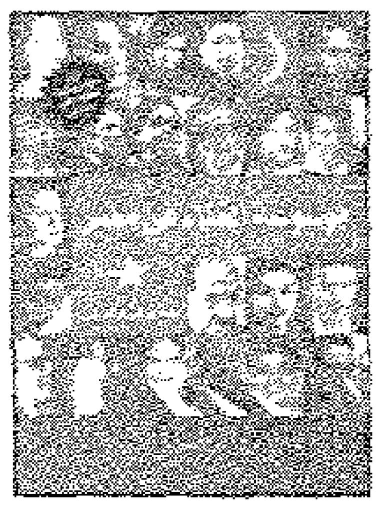
ويقدم المؤلف فى نهاية تحليله دروساً مستفادة يجب على المفاوض المصرى الانتباه إليها، ومنها أن يحدد نقاط التفاوض وما يمكن التنازل عنه وما لا يجوز التنازل عنه، والإعداد الجيد للمفاوضات، ووجود تنسيق بين الوزارات والهيئات المستفيدة من البرنامج على مستوى مجموعة صغيرة من الوزراء المعنيين داخل المجموعة الاقتصادية، وبحضور وزير التعاون الدولى ورئيس القطاع الأمريكى بها، وكذلك المتابعة المستمرة مع الكونجرس الأمريكى لضمان المصالح المصرية، وقيام الحكومة المصرية بإجراء تقييم ذاتى مستمر لمعرفة استعداد الكونجرس للموافقة على برنامج المساعدة الذى تسعى إليه مصر، والبعد عن القضايا الشائكة المعروف رأى أعضاء الكونجرس فيها بالسلب مسبقاً.

وفى ختام توصياته التى بلغت ٢١ توصية، يؤكد المؤلف على ضرورة تحديد الاستراتيجية المصرية فى مسألة المعونة وفقاً لأهداف وسياسات برامج الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى لمصر، وأن تحدد الحكومة المصرية ما الذى تريده من أمريكا وما هو ثمن ذلك، وهل هناك مبررات للاستمرار فى تلقى معونات من الوكالة الأمريكية وإلى أى مدى؟

موسوعة الغناء فى مصر

محمد قابيل

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٣٩٢ صفحة



تبدأ هذه الموسوعة التى تعد الأولى من نوعها بمدخل من الأغانى بوصفها صور التاريخ السياسى والاجتماعى الذى يمكن بالرجوع إليه فهم حركة المجتمع، ولذا فهو يعطى نبذة تاريخية مختصرة عن الشعر والموسيقى عند المصريين القدماء ثم الشعر والموسيقى فى الكنيسة القبطية، ثم فى العصر الجاهلى فصدر الإسلام، ومع النهضة التى جرت فى عصر محمد على، وتأثر الموسيقى المصرية بالتركية، يتابع المؤلف هذا التأثير، ثم يعرض للموشحات والابتهالات التى تزعمها المشايخ فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ويعرض لقالب الطقطوقة وهى الأغنية الحقيقية التى ظهرت فيما بين الحربين الأولى والثانية، والتدهور الذى لحق بالغناء فى أعقاب الحرب الثانية ودخول الأغنياء الجدد إلى هذا المجال، ويتناول فن المونولوج، ودور الإذاعة فى نشر فنون الغناء، ثم الأغنية فى السينما، والغناء بعد ثورة يوليو ١٩٥٢.

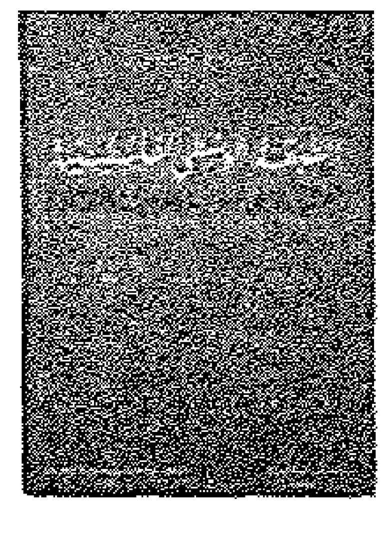
والموسوعة تضم مؤلفين وملحنين ومطربين، من مصر ومن خارجها، وكثيرون ممن تضمهم الموسوعة أسماء لا يعرف عنها القارئ شيئاً، كما أن المؤلف ضم إلى قائمة المصريين أو المؤدين بعضاً من الفنانين الذين أدوا أغنيات داخل أفلام

سينمائية أو مسرحيات، إضافة إلى المرتلين والمبتهلين والفرق الغنائية والثنائيات.

الطبقة الوسطى الفلسطينية

جميل هلال

بيروت، رام الله: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، ٢٠٠٦، ٣٢٦صفحة



أجريت هذه الدراسة خلال سنتى ٢٠٠٣ و٢٠٠٤، فى فترة عانى فيها الشعب الفلسطينى من الانسداد السياسى وشل اقتصاده، وتردى الأوضاع المعيشية فى الضفة الغربية وقطاع غزة، ووصلت معدلات البطالة إلى أرقام قياسية، والسلطة الفلسطينية إلى حالة شديدة من الضعف إلى حد محاصرة رئيسها فى مقره برام الله ووفاته فى نوفمبر ٢٠٠٤.

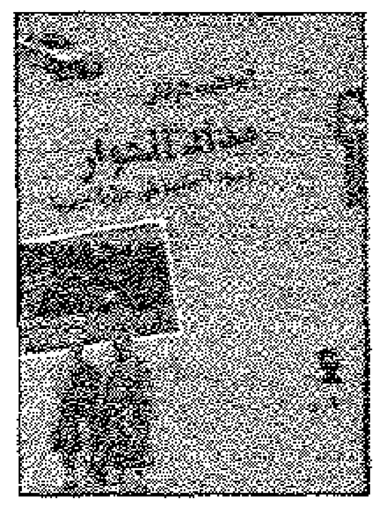
قامت الدراسة على حوارات مطولة استهدفت التعرف على المهن والأوضاع الاجتماعية ومستويات التحصيل العلمى والمهنى، وعمل الزوجة وأوضاع المسكن وسعت إلى الإجابة على الأسئلة التالية: هل تغير وضع الطبقة الوسطى وما هى سمات هذا التغيير خصوصاً أن هناك تقديرات تشير إلى أن الطبقة الوسطى الحديثة اتسعت بعد قيام السلطة الفلسطينية نتيجة التوسع الذى شهده القطاعان العام والخاص وقطاع المنظمات غير الحكومية، وإن لم يصاحب هذا التوسع توسع فى الدور السياسى لشرائح هذه الطبقة، وتتساءل الدراسة عما تقوم به هذه الطبقة على الصعيد المهنى والوظيفى، وما إذا كانت مميزاتها تبرز على هذا الصعيد، وهل لهذه الطبقة سمات مشتركة على صعيد ما تتمسك به من قيم وما تحمله من توجهات فكرية أو ثقافية، وهل لضعف الطبقة العاملة وتبعثرها وللطبقة الرأسمالية وغيابها تأثير فى دور الطبقة الوسطى وتصوراتها عن نفسها، وهل للعائلات الكبيرة دور فى إنتاج طبقة وسطى حديثة.

هذه هى الأسئلة الأساسية التى تثيرها الدراسة وتسعى للإجابة عليها، وهو ما يحدو بالمؤلف إلى مناقشة إشكاليات ذات طبيعة ثقافية مرتبطة أساساً بحراك الطبقة الوسطى، إشكاليات من نوع الهوية والمرجعية والعلاقة مع السلطة.

مـــدار الحـــوار

إبراهيم فرغلى

القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٦، ١٢٧صفحة



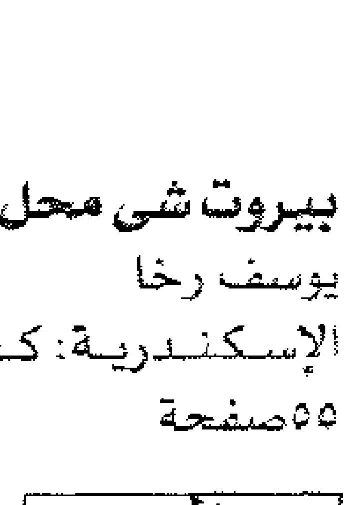
يأتى هذا الكتاب محصلة لتجربة المؤلف عبر مشاركته فى مشروع رواة المدن، وهو أحد مشروعات المنتدى الألمانى العربى على الإنترنت، وهو مشروع مشترك لمعاهد جوتة المتواجدة بمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ويحظى بدعم المؤسسة الثقافية الاتحادية بألمانيا، وهو عبارة عن يوميات سجلها المؤلف خلال إقامته التى دامت شهراً فى مدينة شتوتجارت، فى محاولة للاقتراب من الشخصية الألمانية بما عرف عنها من مهارة وإتقان وإخلاص.

ثمة أسئلة كبيرة سعى إلى الإجابة عليها خلال فترة إقامته: ما هى طبيعة الألمان، كيف تسير حياتهم اليومية، كيف يتعاملون مع بعضهم البعض، ما هى القضايا الاجتماعية التى تشغلهم، كيف يقضون أوقات اللهو، وهل هم شعب جاد لا يعرف المرح، كيف استطاعوا تحقيق معجزتهم والتحول من شعب مسحوق وبلد محطم بعد الحرب العالمية الثانية إلى مارد اقتصادى، وقد وجدها - كما يشير فى اليوميات - فى وجوه ثلاثة: اللامركزية، وتقديس الحرية، والإرادة.

بيروت شى محل

يوسف رخا

الإسكندرية: كتاب أمكنة، ٢٠٠٦، ٥٥صفحة



كتاب عن بيروت المدينة التى كانت، بالكتابة والصورة، ينقل لنا المؤلف رؤاه، تفاصيل التفاصيل من السياسة إلى الفن وأحوال الناس.

يمتزج الواقع بالتوهم بالمكان فى تناغم رائع، ينتقل المؤلف من بيروت إلى صيدا، إلى ساحة النجمة والحمرا والمرافئ التى تعج بالمراكب والناس، وتقتحمك السياسة دون أن تشعر، مقتل الحريرى والتصريحات النارية لحسن نصر الله، وحكايات المقاومة وحماس والقادة الذين باعوا البلد فى سوق النخاسة، والعروبة الضائعة وسط حالة من الشيفونية المقيتة التى تلف المنظمة العربية من محيطها النائم إلى خليجها الغائب.

ما لا تفضحه الكلمات أو حتى تعجز عن إبانته، تجليه بوضوح الصور: الحلاق والمقاهى والدكاكين والسوق وشوارع حياة الليل وصور الزعماء السياسيين والبنايات الشاهقة والمتهتكة.

كتاب أمكنة يحمل الروح ذاتها التى تحملها المجلة الفريدة المبهرة «أمكنة».

قطار ولا محطة

أمين البرت الريحانى

بيروت: دار نلسن، ٢٠٠٦، ١٩٩ صفحة



شغلت فكرة الزمن - ومازالت - كثيراً من الأدباء والفلاسفة، فلا شىء يدور خارجه، ولا معنى إلا منغمساً فى دقائقه، يقول المؤلف إنه حين بدأ الكتابة، لم يكن يتصور أن موضوع الزمن سوف يستنفد منه كتاباً كاملاً يستغرق العمل فيه عامين كاملين، وأن فكرة الزمن لم تكن لتستوقفه لو لم تتردد على مسامعه عبارات مثل زمن التجلى، زمن البغضاء، زمن الوهم، الزمن الصوفى، الزمن الوجودى، زمن الغضب، زمن الاستشراف، زمن الرؤية.. إلخ.

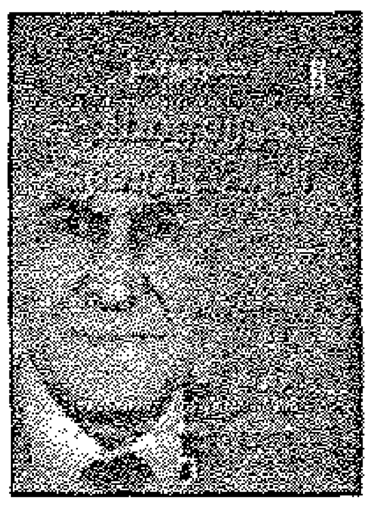
ويتساءل: لماذا الزمن، لماذا محاولة الإمساك باللحظة الهاربة، لماذا القبض على كرة النار، تحرق منك الأنامل ليستيقظ الوعى، وإذا بك أمام هول الحقيقة، حقيقة الزمن، حيث تجد نفسك ريشة فى مهب الوجود. ويقدم الكتاب على محاورة متوهمة بين ثلاثة أشخاص هم زمنون ويقظان ومكنار، تدور حول طبيعة العلاقات المفترضة بين الأشياء، وهى التى تشكل النسيج الخام للكتاب والذى تدور فصوله حول العلاقة بين الزمن والمعنى، وبين المعنى واللغة، إذ لا معنى للوجود بغياب الزمن، ولا مضمون للزمن بغياب اللغة.

وكذلك فإن العلاقة بين الذاكرة والعقل مبعثها إشكالية التصادم بين فعل التذكر المتناهى والقدرة العقلية اللامتناهية، وفضاء التذكر هو زمن محدود، بينما فضاء العقل هو زمن إيقاعى، وبهذا المعنى يستحيل الزمن مسألة عقلية، بقدر ما يستحيل العقل حافزاً لاستنباط أبعاد الزمن ومعانيه، وتدور الحوارية بين الأشخاص الثلاثة حول الفعل كروح كونى، وعبر ثلاثية المكان والزمان والفعل، يمكن استعادة فهم الوجود وانتظام العلاقات الحيوية بين الأفراد والجماعات.

سوريا وحطام المراكب المبعثرة

صقر أبو فخر

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٦، ٥٠٥ صفحات



حوار طويل أجراه المؤلف مع نبيل الشويرى عن مدينة دمشق وتكوينها البشرى الفريد، وعن الفئات الاجتماعية المتسلطة كالمُلاك والتجار ورجال الدين، وعن حزب البعث وتمزقاته العنيفة وتفسخ الحياة السياسية والاجتماعية فى سوريا منذ أوائل ستينيات القرن العشرين.

يرصد هذا الكتاب التحولات التى خضعت لها دمشق منذ بدايات القرن العشرين، والتغيرات التى عصفت بهذه المدينة - الحاضرة وكيف تحولت من عاصمة لبلاد الشام طوال المرحلة العثمانية إلى عاصمة لدولة شبه برية مع إعلان اتفاق سايكس بيكو. ويتجول الكتاب فى حى الميدان الذى ولد فيه ميشال عفلق وعلاقة هذا الحى بدمشق العتيقة المنغلقة داخل أسوارها، وبالمدى المفتوح على سهول حوران وجبل الدروز فى الجنوب، ثم يتكلم عن ميشال عفلق الذى بقى تقليدياً وعلمانياً معاً. وفى الكتاب دحض للحكاية الملفقة عن تحول ميشال عفلق إلى الإسلام فى أواخر أيامه.

يتناول الكتاب، بالتفصيل، ظهور حزب البعث والأحوال المضطربة التى نشبت فى سوريا بعد الاستقلال ولا سيما الانقلابات العسكرية، ويركز على مؤامرة اغتيال أنطون سعادة وديكتاتورية أديب الشيشكلى وعن جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وانحدار الحياة السياسية إبان عهد الوحدة المصرية - السورية. ويتحدث بإسهاب على سورية فى ظل البعث وعن رجال البعث أمثال ميشال عفلق وأكرم الحورانى وجلال السيد وصلاح البيطار ومنصور الأطرش.. إلخ، وعن الصراعات الدموية التى احتدمت فى حزب البعث بين المجموعات التأسيسية المكونة له ثم بين الضباط الريفيين الذين لم يصدقوا أن السلطة دانت لهم فأمسكوا بقسوة غير معهودة، الأمر الذى أدى بسوريا إلى ارتجاجات واضطرابات متمادية كان من شأنها وأد الديمقراطية وطغيان الاستبداد وأخيراً هزيمة حزيران ١٩٦٧.

يتعقب هذا الحوار أيضاً سوريا

المعاصرة برجالها وأحزابها ومشكلاتها، ويروي حكايات وأحداثًا متشابكة عن شتى المراحل: كالثورة السورية الكبرى وسلطان الأطرش وعبدالرحمن الشهبندر وعبدالحميد السراج، بعضها مسطور في الكتب وبعضها ينشر لأول مرة.

ومع أن هذا الحوار يركز اهتمامه على التجربة الشخصية لنبيل الشويري في حزب البعث، إلا أنه يعيد قراءة ٣٠ عامًا من التاريخ المعاصر لسوريا وليس سيما تجربتها في لبنان. وهنا بالتحديد تكمن أهمية هذا الحوار: ليس لأنه يؤرخ لهذه الحقبة العاصفة، بل لأنه يحاول أن يقرأ الأحداث في ضوء التجربة الشخصية.

أنيس صايغ عن أنيس صايغ

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٦، ٥٣٥ صفحة



أكثر من خمسين عامًا، قضاها أنيس صايغ أسيرًا لعالم القلم والكتابة، ومناضلاً بالمقالة والبحث والدراسة وإصدار المجلات والجرائد في سبيل فلسطين وعروبته.. «خمسون عامًا ومسعاي تحرير فلسطين أولاً وأرض العرب كلها ثانيًا لإلغاء الكيان المغتصب وعودة الشعب المقتلع وتحرير الإنسان والأرض معًا، وفي الوقت نفسه أمارس الصنعة الثقافية لتصبح المعرفة بعد التحرر ركنًا أساسيًا في بنيان فلسطين الغد، فالثقافة تحرر، والتحرير يثقف، وهدفهما معًا غنى حضاري».

بهذه الكلمات يلخص المؤلف سيرة حياته ومسيرته في الثقافة والسياسة، ولا يستغرب والحال كذلك ألا يهتم كثيرون بسيرته الذاتية، إذ تبدو محدودة جدباء لا شيء فيها يغري بالقراءة، والتقصي، لكنه يقول إن ما دفعه إلى كتابة سيرته مع إدراكه لما سبق، هو رغبته هو نفسه في اكتشاف ذاته، بعد أن بلغ الخامسة والسبعين: أن يستعرض حياته أمام عينيه، أفكاره وعلاقاته ومواقفه وصفاته وأخطاءه وأصدقاءه.

وبرغم هذا التواضع في تعريف المؤلف بذاته، وسعيه لاكتشافها، فإن أصابع أنيس صايغ لا تغيب عن كثير من المشروعات الثقافية والفكرية الجادة في عالمنا العربي، فهو مؤسس ورئيس تحرير المستقبل العربي وشئون عربية ومشروع الموسوعة الفلسطينية، كما أنه تقلد العديد من المناصب ذات الطبيعة الإعلامية والدبلوماسية المهمة، وصدرت له كتب عديدة بدءًا من أواسط الخمسينيات حتى اليوم، في إطار تخصصه في العلوم السياسية والعلاقات الدولية.

وطن بحجم عيوننا

أحمد بخيت

القاهرة: منشورات أحمد بخيت، ٢٠٠٤، ١٣٤ صفحة



يعيد أحمد بخيت المجد للغة الميتة، فهو بحسب ما قال عنه الشاعر فاروق شوشة يحتفظ لنفسه بأصفى ما في الموروث من نسيج حي متجدد قابل للبقاء، يطلق من خلاله روحه الشعرية العارمة، مجددة إيقاع الشعر الجياش، ويراهن على موهبته الناقد الدكتور صلاح فضل «بنبضه الكلاسيكي الحي وقدرته على إعادة الشباب للقصيدة العربية»، والذي يقرأ قصائد أحمد بخيت بوسعه أن يكتشف ما ذهب إليه شوشة وفضل.

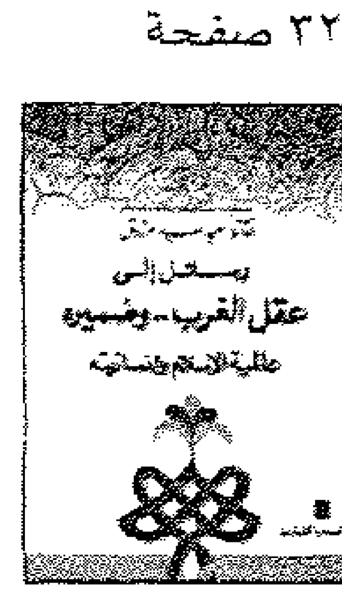
من أجواء الديوان ومن قصيدة سلام المحارب:

وعن ماذا أقاتل/ يا حبيبة/ إذا ساومت/ عن مدني السليبة؟/ إذا أغمضت عن عينيك/ قلبي/ وعن دمع الجليل/ وحزن طيبة؟/ أأسقي الورد/ في شرفات بيتي/ وناب الذئب/ في لحم العروبة؟/ تقول: وهل تحاربهم بحرف/ أقول لها: خلقت له/ حروبه/ أنا هو شاهد الكلمات نارًا/ وحاشد كل قافية/ كتيبة.

رسائل إلى عقل الغرب وضميره

عبدالصبور مرزوق

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٦، ٣٢٧ صفحة



ثلاث رسائل في ثلاثة أبواب، الأولى عن قضية تشغل العالم كله الآن، وهي حقوق الإنسان، حيث يوضح المؤلف موقف الإسلام من هذه القضية، ويعقد مقارنة بين حقوق الإنسان، كما جاءت في الإعلان العالمي للأمم المتحدة، وما جاء في الشريعة الإسلامية من هذه الحقوق قبل ظهورها بأكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان.

والقضية الثانية يعني المؤلف فيها بحقوق المرأة، وهي المسألة التي طالما تشوق بها الغرب ظنًا منه أن الإسلام أبخس فيها المرأة حقوقها، وأنه - على ما يقول بعض من المستشرقين المغرضين - ديانة ذكورية نظرت للمرأة باستعلاء واحتقار. والرسالة تبين كذب هذه الادعاءات، وتؤكد على أن الإسلام أعلى من شأن المرأة وأعلى مكانتها وحماها من مقولات السوء، وكفل لها كل الحقوق السياسية والاجتماعية والمالية، وهي حقوق لم تنلها المرأة في أي من المذاهب الوضعية الأوروبية المعاصرة.

أما الرسالة الثالثة فهي تؤكد أن الإسلام دين رحمة وحضارة وسلام لا دين إرهاب وقتل وتدمير، ويتصدى المؤلف لظاهرة العنف التي تتبناها بعض الجماعات التي تنسب نفسها زورًا وبهتانًا للإسلام وهو منها براء، ويؤكد على أن ظاهرة الإرهاب ليست إسلامية، كما أن القتال لم يشرع في الدين إلا دفاعًا عن النفس، وليس للعدوان على الغير، وأن الإسلام دين رحمة وسلام.

هذه هي القضايا الأساسية التي يتصدى لها المؤلف تعبيرًا عن وسطية الإسلام وروحه التي تتسم بالسماحة وتشجع على التحاور مع الآخر وقبوله، وهي السمات التي أشادت حضارة كبرى أشعت بنورها على عالم كان يغط في سبات وظلام عميقين.

الحقيقة في دارفور

كمال الجزولي

القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٦، ٢٣٥ صفحة



يعيد المؤلف تحرير تقرير لجنة التحقيق الدولية بشأن دارفور، والتي أنهت مهمتها ورفعته إلى الأمين العام للأمم المتحدة في ٢٠٠٥/١/١٥.

ويشير قبل عرضه للتقرير إلى أن الأزمة التي يعيشها السودان حاليًا هي نتاج لما تعانيه الجبهة الداخلية من تفكك، وأن مسألة المحكمة الجنائية الدولية ليست مما يمكن فصله عن شروط الأزمة الوطنية العامة ومحدداتها، ولا يمكن معالجتها بمعزل عن جملة ترتيبات يقع عبء تسييرها على الحكومة السودانية نفسها، فلم يعد ثمة مهرب من أن تسارع الحكومة إلى ترميم شروخات هذه الجبهة الداخلية وإعادة بنائها بالكامل، وهي المسألة التي تحتاج إلى مشاركة القوى الأخرى، والالتزام الصارم بتطبيق اتفاقية السلام والدستور الانتقالي، وحل مشكلة دارفور وكل المشكلات الجهوية الأخرى في السودان بأكبر قدر من التنازل، وإجراء الإصلاحات القانونية والقضائية الضرورية، وإطلاق مبادرة لرد المظالم ودفع الأضرار، وهو ما أصبح يطلق عليه عالميًا «العدالة الانتقالية»، وبفضل مطلب المحاسبة السياسية والدستورية بشفافية وإطلاق الحريات العامة والحقوق الأساسية، بما في ذلك تيسير حق تنظيم الأحزاب السياسية والنقابات والمنظمات المدنية وإصدار الصحف بلا عوائق إجرائية قانونية أو إدارية.

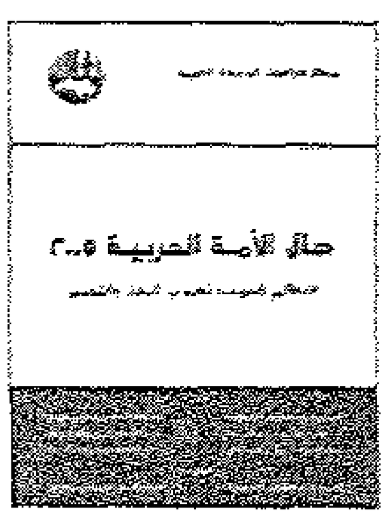
ويشير المؤلف كذلك إلى أهمية تفعيل المادة ٢١ من الدستور المؤكدة على مبادرة الدولة بعملية مصالحة شاملة لتحقيق التوافق الوطني والتعايش السلمي بين جميع السودانيين.

حال الأمة العربية ٢٠٠٥

النظام العربي: تحدي البقاء والتغيير

تحرير: أحمد يوسف أحمد ونيفين مسعد

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ١٤٣ صفحة



يتناول الكتاب حال الأمة العربية في عام ٢٠٠٥ من خلال التركيز على ثمانية موضوعات رؤى أنها تغطي التطورات الرئيسية التي مرت بالأمة في ذلك العام. تناول اثنان منها النظام العربي من منظور شامل مرة بالتركيز على التفاعلات بين الدول العربية في إطار النظام العربي الرسمي، وثانية بتتبع عملية الإصلاح السياسي داخل النظام، واختصت الموضوعات الأربعة التالية بالقضايا العربية المحورية في عام ٢٠٠٥ وهي القضية الفلسطينية والعلاقات السورية - اللبنانية، والأوضاع في كل من العراق والسودان، ثم تناول الموضوع السابع أهم ملامح الوضع الاقتصادي العربي في ذلك العام، واختتم بتحليل الدور الإيراني في المنطقة العربية.

وقد أظهر التحليل في مختلف الموضوعات تفاقم المخاطر والتهديدات المحدقة بالأمة سواء كان مصدرها نابعًا من داخل النظام العربي نفسه أو من بيئته الإقليمية والعالمية، غير أن التحليل أظهر في الوقت نفسه أن قوى المقاومة والتغيير قد واصلت فعلها الإيجابي كما تمثل في استمرار صمود المقاومة الفلسطينية وتفويض الشعب الفلسطيني ديمقراطيًا لها في الإمساك بزمام قيادة مسيرته، ومثابرة المقاومة العراقية على إنهاك المحتل واستنزافه، والصعود النسبي

كتـــاب الــزاويـــة

جنــــــازة

قاســم أمــين

❖ ما رأيت جنازة مسلم إلا أخجلني منظرها. هذه الجمال التي تحمل الفواكه ويلتف حولها الأطفال والرعاع ويتشاجرون على اختطاف ما يلقى لهم منها على الأرض، وهذه الجاموسة المسكينة التي يزفها الجائعون والشحاذون ويتضاربون على قسمتها قبل أن تموت، وهؤلاء الفقهاء الذين يجر بعضهم بعضًا وليس فيهم إلا الأعمى والأعرج والأعور، ويمشون بسرعة غير منتظمة، لابسين ثيابًا قذرة، صائحين بأصوات مزعجة، كلمات تخرج من حناجر مختنقة بنغمات شنيعة. وهذا النعش المحمول الذي يتخبط فيه الميت ويلتفت تارة إلى جهة اليمين وتارة إلى جهة الشمال، وأحيانًا يطير في السماء إن كان من الأولياء المقربين!!

وهؤلاء النسوة اللاتي صبغن أيديهن ووجوههن، وعفرن بالتراب رؤوسهن، يمشين وراء النعش مشيرات بالمناديل إليه بإشارات مريعة مصحوبة بألفاظ مرتلة. ما هذا كله؟ أمجمع مجانين؟ أم نفر بهم مس من الشياطين؟ ألعوبة أطفال؟ أم معرض كرنفال؟!

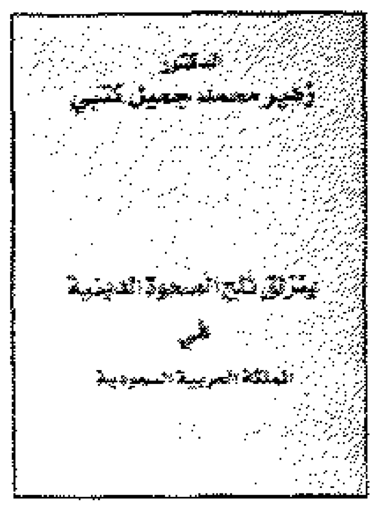
في الجنازة التي تمر في الطريق شيء من جميع ذلك، ولا ينقصها إلا أمر واحد وضعت لأجله هو: إظهار الاحترام للميت بالصمت والسكون.

لبعض قوى التغيير وحركة الجماهير في عدد من الأقطار العربية، الأمر الذي يمكن النظر إليه باعتباره إشارة واعدة بمستقبل عربي أفضل.

■

قراءة في كتاب: ينزلق ثلج الصحوة الدينية في المملكة العربية السعودية

د. زهير محمد جميل كتبي
السعودية، ١٠٧ صفحات

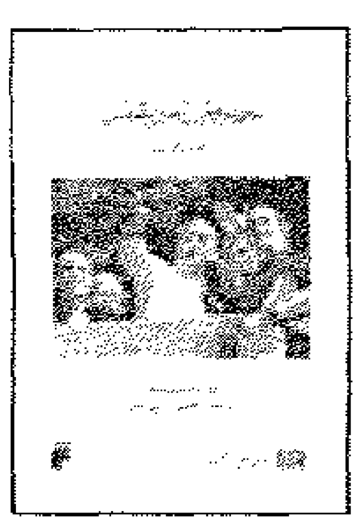


هذا الكتاب يعالج قضايا ثقافية وفكرية ودينية واجتماعية، فقد تناول وأبرز فتاوى دينية قديمة وحديثة لبعض العلماء والفقهاء ورجال الدين الكبار في السعودية، في مقدمتهم سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز والشيخ محمد بن عتيمين والشيخ عبدالله بن حميد. وهم من أهم المفاصل الدينية المهمة والقوية في المؤسسة الدينية.

نص هذا الكتاب محرض على الجدل والمناقشة والمحاورة، ولكنه مثير للقلق لما فيه من حقائق وحجج وبراهين وأدلة، بل هو مستفز للعواطف الدينية والتي ألف الشارع السعودي على أن تكون هادئة ومستقرة.

■

مدار «أوراق إسرائيلية» ٣٥.. تقييم أولي لخطة أولمرت أحادية الجانب



رام الله: صدر حديثا عن المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية «مدار» الورقة الإسرائيلية «٣٥» تحت عنوان «خطة أولمرت آحادية الجانب: تقييم أولي» وهي عبارة عن بحث أعده الكاتب السياسي الأميركي ديفيد ماكوفسكي لصالح معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى.

تتناول الورقة التي ترجمها وعقب عليها ساجي خليل، وتقع في ٩٠ صفحة، بإسهاب المكونات الأساسية لتلك الخطة ومرتكزاتها السياسية والأيديولوجية.

كما يغطي أهم ما دار حولها حتى الآن من نقاشات في إسرائيل وفي الأراضي الفلسطينية المحتلة، وكذلك على الصعيد الإقليمي والدولي.

وتمثل الورقة نظرة عن قرب للداخل الإسرائيلي تساعد في التعرف على طريقة تفكير أولمرت وتصوراته للآفاق العملية لتطبيق خطته، وللعقبات والانعكاسات المتوقعة.

ورغم العقبات والصعوبات التي تواجه الخطة، ويتناولها البحث بالتفصيل، يرى الكاتب أنها لا زالت تشكل الإطار العام لسياسة الحكومة الإسرائيلية ولخطواتها المقبلة، معتبراً أنها قد تكون أرضية صالحة مستقبلاً لخدمة فكرة الدولتين، وفق تقديره.

وفي تعقيبه على الورقة، يكتب المترجم:

«يقر المؤلف بأن هناك الكثير من الصعوبات أمام الخطة، ولكنها من وجهة نظره ليست من القوة والثبات بحيث تتمكن من وقفها.

ويشير إلى أن الاستقطاب القائم بين (خطة أولمرت الأحادية وبين خطة خارطة الطريق)، وبين (مبدأ الأحادية ومبدأ المفاوضات) وكذلك بين (نظرية لا يوجد شريك والإقرار بوجود شريك).

هذا الاستقطاب مرشح لأن يفرز محاولات للجسر بين الاتجاهين، وصولاً إلى صيغة توفيقية يتم من خلالها تخفيف الطابع الأحادي للخطة مقابل الحفاظ على جوهر الإجراءات العملية التي تتضمنها.

وقد يتم على هذا الصعيد بلورة إطار دولي يتم من خلاله تأجيل بحث موضوع القدس واللاجئين وإقرار مبدأ الدولة الفلسطينية المؤقتة.

ولا شك بأن مجابهة مثل تلك التحديات تتطلب الكثير من الجهد، وأكثر من مجرد الرفض اللفظي لتلك الخطة وتداعياتها، بل العمل من أجل بلورة مبادرة سياسية فلسطينية تعيد تقديم رؤية فلسطينية واضحة للسلام ولعناصر التسوية الشاملة.

مبادرة تأخذ بالاعتبار المواقف والالتزامات الفلسطينية، بما فيها الاستعداد لإجراء المفاوضات على قاعدة خارطة الطريق.

مبادرة سياسية هجومية تقوم على التمسك بمبدأ إقامة الدولة الفلسطينية على أراضي عام ١٩٦٧ وعاصمتها القدس وإقامة السلام بين الشعبين، وإيجاد حل عادل لقضية اللاجئين على أساس القرار ١٩٤. مثل هذه المبادرة هي الكفيلة بتعزيز التحفظات العربية والدولية إزاء خطة أولمرت، وهي التي تمكن من مراكمة الإسناد اللازم فلسطينياً وعربياً ودولياً للحقوق الفلسطينية وإعادة الإعتبار لقرارات الشرعية الدولية وللمبادرة العربية، وتمنع الانزلاق نحو صيغ توافقية مع خطة أولمرت».

■

حكايات عن الوقف والأوقاف

أمنية البندارى وهدى السعدى
القاهرة: مؤسسة المرأة والذاكرة، ٢٠٠٦،
٩٥ صفحة



يمثل «الوقف» نموذجًا أوليًا لفكرة المجتمع المدنى كما باتت تعرف فى الأدبيات السياسية المعاصرة، وفكرة الوقف قديمة قدم المجتمعات العربية والإسلامية، كما أنها لعبت دورًا بارزًا فى نمو هذه المجتمعات وتطوير حياة الناس، هذه هى الفكرة الأساسية التى يسعى الكتاب إلى توكيدها عبر استعراضه لمعنى الوقف وأهميته ودلالاته وتطوره من مرحلة تاريخية إلى أخرى. لكن كيف يمكن التعبير عن كل هذه المضامين التى تبدو جافة لا تشجع أحدًا على قراءتها والتعاطف معها؟ كيف يمكن تحويل موضوع الوقف من موضوع جامد لا يحظى بمقروئية واسعة إلى موضوع شيق يمكن أن يجذب قطاعًا من القراء أكبر بكثير من عجائز يطالعون صفحات الوفيات ومصائر الثروات؟

هذا هو الجهد الرئيسى المبدع الذى تقدمه المؤلفتان بالاشتراك مع الفنان وليد طاهر صاحب رسوم الكتاب. لا تقدم المؤلفتان دراسة جامدة بالأرقام والإحصاءات عن الموضوع - وإن كانتا ضمنتا مادتهما الشيقة أرقاما وبيانات مهمة - وإنما كتابًا تفاعليًا كما لو كان للصغار، ليس بهدف تحقيق جاذبية القراءة فحسب، ولا تبسيط الموضوع فقط، وإنما كى تثبتا أن فكرة موت القارئ وانتحار المؤلف وتدمير النص، ليست سوى إشكالات صنعتها الكتابة العتيقة والأساليب المنفرة التى يعمد إليها بعض المؤلفين حتى فى الموضوعات ذات المضامين البسيطة، ربما لميول استعراضية خفية، وربما لأن المؤلف نفسه استعصى عليه فهم موضوعه، فصعب عليه أن ينقله إلى قارئه، تقرأ مثلاً فى الصفحات الأولى عن معنى الوقت عبر مكوناته: واقف وموقوف وموقوف عليه ووقفية، والمؤلفتان تقدمان فى سطور بسيطة داخل برواز محاطًا برسوم تعبيرية وكاريكاتيرية دالة معنى الواقف على هذا النحو: هو الشخص الذى يقرر أن يوقف عقارًا ما، ويجب أن يكون الشخص الواقف هذا، بالغًا حرًا، أهلاً للتبرع، غير محجوز عليه، لا توجد عليه ديون.

وعلى طريقة تقديم مذكرة تفسيرية لصياغة قانونية معقدة، تقدمان هذه العبارة البسيطة الظريفة: يعنى سيادتك - مثلاً - لا يمكن أن توقف عقارًا إذا كنت - ولا مؤاخذة - مجنونًا أو كانت عليك ديون لعم أحمد البقال، فالأولى أن تسدد ديونك أولاً.

وبطريقة أخرى وتحت عنوان «ناظر الوقف.. مدير يشرف ولا يبيع»، تشرح المؤلفتان طبيعة هذه الوظيفة التى تعرف بناظر الوقف والشروط التى ينبغى أن تنطبق على من يتقلدها.

ولابد أن تقفز إلى الذهن فورًا صورة الممثل عباس فارس، ناظر الوقف فى الفيلم الشهير «أبو حلموس»، والذى قام ببطولته الفنان الراحل نجيب الريحانى، والذى كان مثالاً للص لا يشبع ونهاب لا يرتوى، خصوصًا حين يأتى ضمن الديالوج الذى يشرح معنى ووظيفة ناظر الوقف هذه الإجابة: ولأن النفس البشرية تختلف من شخص لآخر، فبطبيعة الحال لم يكن كل نظار الأوقاف مثاليين شرفاء، فبالطبع دخل فى هذا المجال بعض الفاسدين الذين استغلوا مناصبهم ومكانتهم لصالحهم الشخصية، وانعكس هذا بطبيعة الحال على أحوال الأوقاف التى كانوا يشرفون عليها.

تتتابع بعد ذلك إجابات الأسئلة عن الجهات الخيرية التى تدعمها الأوقاف (المدرسة - المستشفى - الكتاب - السبيل - المؤسسات الصوفية على اختلافها)، وأسباب وقف الناس لأملاكهم، وغيرها. ويقدم الكتاب دلائل على أن الوقف الخيرى أو الأهلى موجود فى كثير من الحضارات والأديان، والأصول الفرعونية لفكرة الوقف، ثم القوانين التى نظمت الأوقاف الإسلامية والقبطية فى عهد ثورة يوليو ١٩٥٢، وإشارات إلى المكتبات العامة التى ما كان لها أن تقوم لولا الأوقاف مثل مكتبة الجامع الأزهر ودار الكتب المصرية، والأوقاف التعليمية التى أسسها أفراد من الأسرة الحاكمة وكبار الملاك الزراعيين لمناهضة الاحتلال بالتعليم، ولعل أشهرها وقف جامعة القاهرة، ووقف مدرسة الفنون الجميلة، ويتواصل السرد بالطريقة الشيقة ذاتها: بالرسم والديالوج والحكاية والكتابة الساخرة، وصولاً إلى وقف هيكل لنقابة الصحفيين والذى بمقتضاه أنشئت مؤسسة هيكل للصحافة العربية.

كتاب شيق وجهد رائع، أحال موضوعًا بالغ التعقيد إلى حكاية بالغة المتعة.

عماد الغزالى

كتاب الزاوية

خادمة الدنيا

قاسم أمين

❖ تقول العامة: «إن مصر أم الدنيا». والأصح إذ قورن بينها وبين مدن الممالك الأخرى مثل لندرة وباريس وهامبرج وبروكسيل وأمثالها أن تسمى «خادمة الدنيا»، لأنها لو وضعت فى جانب هاته المدن لظهرت فى حالة فقر محزنة، كما لو وضعت سائلة مكدية ذات أطمار بالية قذرة فى جانب عروس متجلية بأفخر الملابس وأثمن الحلى وأبهاها.

وفى الحقيقة أن مصر بلدة فقيرة جدًا. نصف أهلها، وهم الفلاحون، يعيشون بالشىء التافه الذى يقى الحى من الموت جوعًا، والنصف الآخر ينقسم إلى قسمين، الأول: يشمل التجار والصناع. وهؤلاء ليس فيهم شخص واحد يقال عنه إنه مالى ملىء. والآخر: يحتوى على الموظفين وأرباب المعاشات، وهم الطبقة المتظاهرة بحالة اليسار نوعًا ما فى معيشتهم، ولكن أغلبهم إن حيل بينه وبين مرتب المعاش شهرًا واحدًا وقعوا فى العسرة والضنك الشديد.

أما أرباب الأطيان، من الذوات والعمد والمشايخ والأعيان فى البلاد. فحالهم كحال «رابيل» المؤلف الفرنساوى المشهور إذ قال فى وصيته: «إنى لا أملك شيئًا. وعلى ديون كثيرة، وأوصى ببقية ما أملك للفقراء!».

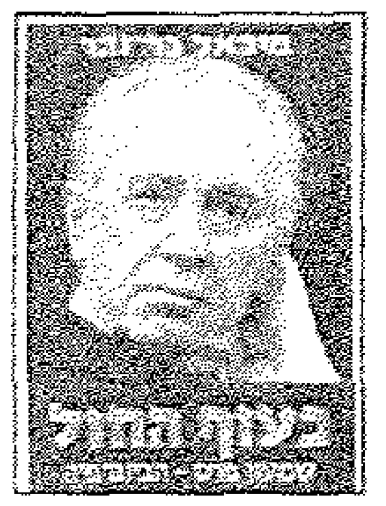
والبلد التى يكون أهلها فقراء مثلنا لا يمكنها، مادام فقرها، أن تؤمل خيرًا فى المستقبل، لأن حياة كل مملكة مرتبطة بماليتها، إذ بالمال يتم كل شىء، وبغير المال لا يتم شىء مطلقًا.

والمملكة لا تكون غنية إلا إذا كان أهلها أغنياء، ولذلك قال أحد السواس المشهورين: أعطنى مالية حسنة أعطك سياسة حسنة.

כעוף החול שמעון פרס - ביוגרפיה
מיכאל בר-זהר
ידיעות אחרונות
٢٠٠٦
٧٨٢ עמודים

(كطائر الرمل: شمعون بيريس سيرة ذاتية)

ميخائل بار زوهر
يديعوت احرونوت
٢٠٠٦ , ٧٨٢ صفحة



العديد من الكتب صدرت فى إسرائيل وتناولت السيرة الذاتية للقائم بأعمال رئيس الوزراء الإسرائيلى الحالى شمعون بيريس، ودوره الحاسم فى بناء الدولة العبرية، لكن كتاب «كطائر الرمل - شمعون بيريس السيرة الذاتية»، لمؤلفه ميخائيل بار زوهر، والذى صدر عن دار النشر «يديعوت احرونوت»، يكتسب أهمية خاصة. فالمؤلف الذى كان من قادة حزب العمل، وأحد النواب فى كتلة الحزب البرلمانية لوقت طويل، اعتمد فى كتابه على قربه ولعقود من الزمن من دوائر صنع القرار فى الدولة العبرية، وبالذات عندما كان حزب العمل هو الذى يقود الدولة فى الفترة (١٩٤٨-١٩٧٧).

الكتاب يورد تفاصيل وشواهد جديدة تدلل على التأثير الواسع لبيريس الشاب على رئيس الوزراء الإسرائيلى الأول دفيد بن غوريون. ويشير المؤلف إلى أن بن غوريون لشدة ثقته ببيريس كان يتبنى مواقفه وتوصياته حتى عندما كانت تخالف كبار وزراء الحكومة من أمثال يسرائيل جليلى وجولدا مائير.

وينوه الكتاب إلى أن جولدا مائير كانت من أكثر الذين شعروا بالضيق من التأثير الطاغى لبيريس على بن غوريون، محذرة إياه من أن بيريس ينقله إلى «المكان الخطأ فقط».

اللافت للنظر، كما يتضح من الكتاب أن بيريس الذى لا يملك تجربة عسكرية تقريباً، كان له تأثير بالغ على بلورة الاستراتيجية الأمنية التى اعتمدها ديفيد بن غوريون والتى أضحت العقيدة الأمنية لدولة الاحتلال حتى هذه اللحظة؛ وهى الاستراتيجية القائمة على الحرب الاستباقية. وإن كان هناك الكثير من المؤلفات التى تطرقت لدور بيريس فى بناء المشروع النووى الإسرائيلى، سيما عندما نجح فى إقناع الحكومة الفرنسية بالموافقة على التوقيع على اتفاقية يقوم الفرنسيون بموجبها ببناء المفاعل الذرى الإسرائيلى فى «ديمونا»، عام ١٩٥٦، إلا أن بعض التفاصيل التى يوردها بار زوهر فى كتابه حول دور بيريس هذا وكشف لأول مرة.

الكتاب يزخر بالتفاصيل عن الجهود التى قام بها بيريس من أجل إقناع الفرنسيين بالموافقة على طلبه بناء مفاعل ذرى لإسرائيل.

الكتاب يتطرق للدور الهائل الذى لعبه بيريس فى إرساء قواعد العلاقة الفرنسية الإسرائيلية فى الستينيات من القرن الماضى، وهى العلاقات التى وظفتها الدولة العبرية فى بناء قوتها العسكرية التقليدية وغير التقليدية، ويشير الكتاب إلى قدرة بيريس الكبيرة على الوصول إلى جميع مستويات القيادة فى الدولة الفرنسية. إلى جانب ذلك تطرق الكتاب بشىء من التفصيل إلى مسئولية بيريس عن التنسيق للعدوان الثلاثى على مصر فى العام ١٩٥٦ . مع العلم أن بيريس قام بكل هذه الأدوار من خلال منصبه كمدير عام لوزارة الدفاع. عندما كان بن غوريون يشغل كلاً من منصبى رئيس الوزراء ووزير الدفاع. ومنذ أواسط الستينيات أصبح بيريس وزيراً فى الحكومة، وظل يتقدم فى المناصب حتى أصبح وزيرا للدفاع فى العام ١٩٧٤، عندما كان خصمه إسحاق رابين رئيساً للوزراء. وفى هذه الأثناء كان بيريس من المتحمسين لبناء المستوطنات فى الضفة الغربية وقطاع غزة، وكوزير للدفاع قدم للمستوطنين الكثير من الخدمات والمساعدات.

ويتطرق الكتاب بشىء من التفاصيل لعملية «عنتيبى» فى العام ١٩٧٦، والتى قامت فيها وحدة إسرائيلية خاصة بتحرير ركاب طائرة إسرائيلية اختطفت إلى العاصمة الأوغندية «عنتيبى»، حيث كان بيريس كوزير للدفاع هو الذى دفع إلى تنفيذها على الرغم من تردد رابين، وكانت من أنجح العمليات الخاصة التى ينفذها جيش الاحتلال.

ويتطرق الكتاب للفترة التى تولى فيها بيريس رئاسة الوزراء فى العام ١٩٨٤ لأول مرة والخلافات التى كانت تنشب بينه وبين شريكه فى الحكومة رئيس الليكود فى ذلك الوقت اسحاق شامير.

ويتطرق الكتاب إلى ولاية بيريس الثانية كرئيس للوزراء بعد مقتل رابين أواخر العام ١٩٩٥ .

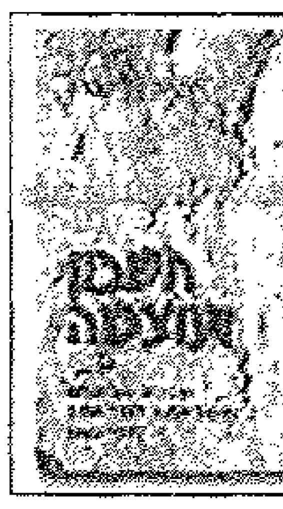
المؤلف، وإن كان وثق للكثير من الأحداث بالغة الأهمية فى حياة دولة الاحتلال، إلا أن خلفيته الحزبية الواضحة، وعلاقته الخاصة بقادة حزب العمل، جعلته لا يشير إلا إلى إنجازات شمعون بيريس.

■

חשבון העוצמה
יצחק גרינברג
הוצאה: משרד הביטחון
٢٠٠٦
250 עמודים

(حساب وعظمة)

يتسحاك جرينبرغ
إصدار: وزارة الدفاع الإسرائيلية.
٢٠٠٦ , ٢٥٠ صفحة



يبحث كتاب (حساب وعظمة) فى العلاقة بين موازنة الأمن والأمن «القومى» الإسرائيلى بمفهومه الواسع. وكما يقول مؤلف الكتاب الدكتور يتسحاق غرينبرغ، الباحث فى وحدة البحث التاريخى فى وزارة الدفاع الإسرائيلية، فإن موازنة الأمن تصمم لبناء القوة العسكرية للدولة العبرية، وضمان تفوقها العسكرى على كل دول المنطقة، فى حين أن الأمن «القومى» يعنى المحافظة على القوة العسكرية للدولة وتطويرها، إلى جانب شموله مسألة التطورات الديموغرافية فى الدولة، ومراقبة موازين القوى الديموغرافية بين اليهود والفلسطينيين فى الدولة؛ إلى جانب مراقبة عوامل المنعة للدولة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية.

ويكتسب هذا الكتاب أهمية كبرى، لأنه يتطرق إلى موازنة الأمن فى الدولة العبرية، التى تعتبر واحدة من أكثر القضايا التى تحاط بالسرية التامة، وباستثناء مجلس الوزراء المصغر لشئون الأمن وقيادة هيئة أركان الجيش، وكبار موظفى وزارة المالية، وأعضاء اللجنة الفرعية لموازنة الأمن التابعة للجنة المالية فى الكنيست (البرلمان)، فأن أحداً لا يطلع على تفاصيل هذه الموازنة. الكتاب يتطرق للتغيرات فى مضامين موازنة الأمن فى الفترة الفاصلة بين حرب العام ١٩٥٦ وحرب العام ١٩٦٧؛ إلى جانب الاعتبارات التى حكمت كلاً من المستوى السياسى الحاكم والمستوى العسكرى فى بلورة موازنة الأمن بشكل عام حتى الآن.

فى نفس الوقت يتطرق الكتاب للعوامل المؤثرة فى بلورة موازنة الأمن بشكل عام وأوجه تأثيرها على حجم الموازنة. وينوه الكتاب إلى سلم الأولويات الذى يؤثر على مبنى موازنة الأمن والمرتبط دوماً بالعقيدة الأمنية الإسرائيلية. فى نفس الوقت يناقش الكتاب تأثير موازنة الأمن على الاقتصاد الإسرائيلى، الذى هو فى الأساس اقتصاد دولة رفاه اجتماعى.

لا يتطرق الكتاب كثيراً للجدل الذى تثيره وسائل الإعلام الإسرائيلية بين الحين والآخر والذى تتهم فيه جنرالات الجيش بالتركيز على التحديات الاستراتيجية التى تواجه الدولة ورفضهم المتواصل لانخفاض مستوى هذه التحديات؛ وذلك من أجل تبرير مطالبتهم المستمرة بزيادة حجم موازنة الأمن.

■

מלחמה ללא אות
משה תמיר
הוצאה: משרד הביטחון
٢٠٠٦
٢٨٣ עמודים

(حرب بدون علامة)

موشيه تمير
إصدار: وزارة الدفاع الإسرائيلية
٢٠٠٦ , ٢٨٣ صفحة



فى كتابه «حرب بدون علامة»، يتطرق جنرال الاحتياط فى الجيش الإسرائيلى موشيه تمير، من خلال تجربته كضابط كبير فى الجيش للعدوان الإسرائيلى على لبنان فى العام ١٩٨٢ وما مثله ذلك العدوان من نقطة تحول فارقة فى تاريخ العسكرية الإسرائيلية.

ويشدد الكتاب على أن نقطة التحول هذه تمثلت فى خضوع الجيش الإسرائيلى الذى كان حتى ذلك الوقت يوصف بأنه «الجيش الذى لا يقهر» لحركات المقاومة اللبنانية، وتحديداً لحزب الله. ومن خلال تجربته الشخصية كقائد، يتطرق تمير إلى الصعوبات الجمة التى واجهت جيش الاحتلال أثناء أدائه لعملياته فى لبنان.

ويشير الكتاب أيضا لتأثير الرأى العام الإسرائيلى على الموقف الرسمى من مواصلة التواجد العسكرى الإسرائيلى فى جنوب لبنان. ومع العلم أن هذه الحرب أدت إلى ظهور العديد من الحركات الجماهيرية الداعية إلى خروج الجيش الإسرائيلى من لبنان، كان أهمها حركة «الأمهات الأربعة».

هذا الكتاب يتناول من وجهة نظر شخصية مجريات هذه الحرب التى نظر إليها الكثير من الإسرائيليين على أنها حرب كان بالإمكان تجنب شنها، وتجنيب الدولة العبرية دفع الثمن الكبير والأليم

الذي دفعته خلال سني تواجدها هناك التي امتدت من العام ١٩٨٢ وحتى العام ٢٠٠٠، عندما أمر رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك قوات جيش الاحتلال بالانسحاب من لبنان، وهي الخطوة التي قوبلت باستحسان كبير من قبل الرأي العام الإسرائيلي.

מנחם בגין: דיוקן של מנהיג
עפר גרוזברד
הוצאה: רסלינג
2006
350 עמודים

(مناحيم بيجن، سيرة قائد)

عوفر غروزبيرد
إصدار: رسلينج
٢٠٠٦، ٣٥٠ صفحة



يتطرق كتاب «مناحيم بيجن، سيرة قائد»، لمؤلفه الطبيب النفسي عوفر غروزبيرد: إلى واحدة من أهم القضايا التي شغلت، ومازالت الرأي العام الإسرائيلي: ألا وهي الأسباب الحقيقية التي دفعت إسرائيل إلى شن الحرب على لبنان في العام ١٩٨٢.

وينسف غروزبيرد في كتابه هذا المسلمة القائلة أن هذه الحرب وما نجم عنها من تورط إسرائيلي مكلف في المستنقع اللبناني هو الذي أدى إلى إصابة مناحيم بيجن بحالة من الاكتئاب أدت في النهاية إلى استقالته من رئاسة الوزراء.

ويزعم غروزبيرد أن العكس صحيح هنا: بمعنى أن إصابة بيجن بحالة من الاكتئاب هي التي أدت إلى حرب لبنان. ويضيف أن ما أصاب بيجن أوجد فراغاً سرعان ما ملأه وزير الحرب في ذلك الوقت أرئيل شارون الذي دفع بيجن والحكومة في ذلك الوقت إلى إعلان الحرب على لبنان.

ويضيف في كتابه أن «الانزلاق إلى حرب دموية لا فائدة منها نبع من تفاقم الكآبة المزمنة لدى رئيس الوزراء، وهي واحدة من حالات عديدة أدت إلى إضعاف قدرته على الصمود في وجه خطة الحرب التي وضعها أريئيل شارون».. ويؤكد غروزبيرد على أن «التدهور في الحالة النفسية لبيجن هي التي أدت إلى تطور الحرب إلى أبعد من أهدافها الأولية، لأنها لم تمكنه من السيطرة على مجرى التطورات. ليست حرب لبنان هي التي أدت إلى كآبته وإنما على العكس، الكآبة التي رافقته طوال حياته تصاعدت في سنواته الأخيرة خلال توليه رئاسة الوزراء وهذا ما أدى إلى تطور حرب لبنان».. ويذكر غروزبيرد في كتابه أن القابلة التي ولدت بيجن هي جدة أريئيل شارون.

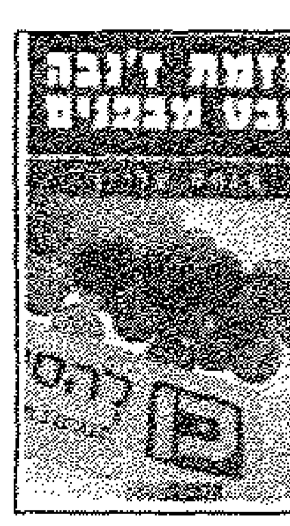
ويضيف هنا أن بيجن كان في مطلع العام ١٩٨٠ في حالة «اكتئاب كبير» وذلك بعد شهرين على استقالة وزير الخارجية موشيه ديان. ويضيف غروزبيرد إنه بعد فوز الليكود، الذي قاده بيجن في الانتخابات العامة في العام ١٩٨١، شكل حكومة مؤلفة من الصقور مثل موشيه أرينز واسحق شامير واريئيل شارون وعين رفائيل ايتان رئيساً لأركان الجيش وجميعهم معروفون بأفكارهم اليمينية. وأضاف أنه «كلما أصبح بيجن أكثر ضعفاً كلما سعى للتغطية على ذلك بإحاطة نفسه بمجموعة صقرية أكثر وذلك خلافاً للحكومة التي شكلها في العام ١٩٧٧».

وتابع غروزبيرد قائلاً إنه «كلما ضعف بيجن اعتمد أكثر على شارون ومنحه المزيد من الصلاحيات وهذه حالة مرضية بمعنى أن لا فرق بين بيجن وشارون. هذا يعني أن بيجن لم يعد يفكر بشكل مستقل».. ويقول في كتابه «ولذلك فإني أدعي بأن الكآبة لدى بيجن التي تصاعدت بعد انتخابات ١٩٨١ سبقت الحرب وليس التورط في الحرب هو الذي أدى إلى الكآبة. كذلك فإن تزايد عدد الجنود الإسرائيليين الذي قتلوا في لبنان بعد الاجتياح أدى إلى غوص بيجن في اكتئاب عميق».. وينقل غروزبيرد عن عليزا زوجة بيجن قولها إن زوجها اعتكف في إحدى الأمسيات في غرفته وبكى طوال الليل حزناً على جنود قتلوا في لبنان، وإنها طلبت عدم الاتصال به في ساعات الليل لإبلاغه بسقوط المزيد من الجنود.

יוזמת ז'נבה - מבפנים
מנחם קליין
הוצאה: כרמל
2006
225 עמודים

(مبادرة جنيف ـ نظرة من الداخل)

مناحيم كلاين
إصدار: كرميل
٢٠٠٦، ٢٢٥ صفحة



في كتابه «مبادرة جنيف نظرة من الداخل»، يتطرق المستشرق مناحيم كلاين، إلى كل ما دار خلف الكواليس قبل الإعلان عن التوصل لهذه المبادرة، من قبل عدد من الساسة والأكاديميين الفلسطينيين والإسرائيليين برئاسة كل من عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ياسر عبد ربه، ويوسي بيلين الوزير السابق ورئيس حزب «ميريتس - ياحد» اليساري.

هذه المبادرة تضمنت مبادئ عامة تحكم أي تسوية سياسية نهائية بين الشعب الفلسطيني ودولة الاحتلال؛ وقد لاقت معارضة عارمة في الشارع الفلسطيني، بعد أن تبين أن الفلسطينيين الذين شاركوا في الجهود للتوصل إليها تنازلوا عملياً عن حق العودة للاجئين الفلسطينيين، وغيرها من الثوابت الفلسطينية؛ في حين أبدى اليمين الإسرائيلي معارضة قوية لما جاء في هذه المبادرة.

مناحيم كلاين، كأحد المشاركين في التوصل لهذه المبادرة، يكشف في كتابه الصادر عن دار النشر «كرمل»، تفاصيل اللقاءات التي جمعت أعضاء الوفدين الإسرائيلي والفلسطيني في العدد من عواصم العالم، ويتعرض لـ «حرب الصياغات» التي دارت بين أعضاء الوفدين للتغلب على الخلافات في وجهات النظر والمتعلقة بالقضايا الكبرى في أي تسوية سياسية بين الشعب الفلسطيني ودولة الاحتلال، سيما مصير التجمعات الاستيطانية في الضفة الغربية وقطاع غزة، ومصير القدس المحتلة، وخط الانسحاب النهائي ومستقبل منطقة غور الأردن، وفكرة تبادل الأراضي بين الدولة الفلسطينية العتيدة ودولة الاحتلال؛ إلى جانب شروط إقامة الدولة الفلسطينية من حيث درجة تسليح هذه الدولة؛ وقدرتها على عقد تحالفات مع الخارج؛ وغيرها من القضايا الأخرى. كلاين يشير خلال الكتاب إلى أن الذين بادروا إلى صياغة مبادرة كانوا يرغبون في النجاح في المهمة التي فشل فيها الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك خلال مؤتمر كامب ديفيد الذي عقد في أواخر العام ١٩٩٩.

وينوه كلاين المعروف بآرائه «اليسارية»، إلى أنه على الرغم من أن موازين القوى في الساحة الحزبية الإسرائيلية لا تسمح بتبني مبادرة «جنيف»، إلا أنه يشدد على أن المبادرة تعرضت للتحديات التي يتوجب على كل إسرائيلي أن يفكر بها.

זהות במשחק
תמיר שורק
הוצאה: מגנס
2006
270 עמודים

(هويات في الملعب)

تمير شورك
إصدار: ماجناس
٢٠٠٦، ٢٧٠ صفحة



يتطرق كتاب «هويات في اللعبة: كرة القدم العربية في الدولة اليهودية»، لمؤلفه تمير شورك إلى الطابع السياسي الذي يميز مباريات كرة القدم التي تجمع فرقاً يهودية وعربية من مواطني فلسطين ٤٨.

ويشير شورك إلى العنصرية التي يتعاطى بها الشارع اليهودي مع الفرق العربية، سيما صرخات «الموت للعرب»، التي يستقبل بها مشجعو الفرق اليهودية الفرق العربية في ملاعب كرة القدم؛ ناهيك عن العنف الذي يميز هذه المباريات بحيث أن قيادة الشرطة تتخذ إجراءات خاصة من أجل ضمان الأمن فيها. الكتاب يدلل على أن الصراع الرياضي بين الفرق اليهودية والعربية أصبح صراعاً سياسياً، تغيب عنه روح التسامح الرياضية.

يتعرض الكتاب إلى ردة الفعل العنصرية التي سرت في إسرائيل عندما صعد فريق «سخنين» العربي للدوري الممتاز الإسرائيلي، والذي تم التعامل معه جسم غريب بين الفرق الرياضية اليهودية.

وينوه الكتاب إلى أن المواقف العنصرية اليهودية ضد الفرق الرياضية العربية تأتي على الرغم من الإنجازات الكبيرة التي حققها ويحققها المواطنون العرب في الدولة العبرية، حيث إنه على الرغم من أن فلسطينيي ٤٨ يشكلون سدس السكان في إسرائيل، إلا أن اللاعبين العرب يشكلون أكثر من ثلث أعضاء الفرق الرياضية في إسرائيل. ويطرح المؤلف تساؤلاً: كيف ينجح العرب في الرياضة في حين يفشل اليهود؛ إلى جانب التساؤل عن مصير الصراع بين الفرق العربية واليهودية من ناحية سياسية، وهل بإمكان كرة القدم أن تساهم في حل الصراع العربي الإسرائيلي؟

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

هواجس الغرب

قرأت مقال الأستاذ الكبير سلامة أحمد سلامة والمعنون «هواجس الغرب تجهض حوار الحضارات» وذلك فى عدد يوليو ٢٠٠٦ وسرد لنا الكاتب فى عرض شيق كيف أن مخاوف وهواجس العالم الغربى تجاه مجتمعاتنا الإسلامية اجهضت حوار الحضارات التى استغرقت وقتاً كبيراً من الزمن والجهد والمال ولكن دون جدوى. وكان كل ذلك لدحض فكرة صراع الحضارات التى روج لها الأمريكى صمويل هنتنجتون وأسفر رأى الكاتب فى نهاية المقال عن أن الفشل الذى منى به حوار الحضارات قد لا يتحمله الغرب وحده، وإنما تتحمل نصيباً منه التيارات الإسلاموية التى ترتدى ومازال ثوب الوصاية على قيم الغرب وممارساته وثقافته وبتهمه دوماً بالانحلال والمادية وأنا مع الكاتب فى كل ما يقول ولكننى أتساءل: لماذا فشلت فكرة حوار الحضارات بعد عقدين من الزمن وبعد طول سجال، بل وتفاقمت بعد أحداث ١١ سبتمبر، بل زادت وأدت إلى وصف الإسلام ذاته والتيارات الإسلامية بالإرهاب والعنف، بل حتى طالت المهاجرين إلى بلاد الغرب، بل واستنت لهم قوانين غاية فى الصرامة لتمكينهم بالهجرة والمكوث فى بلادهم، كما ذكر الكاتب. ومن نافلة القول أقول إن الترسبات النفسية لدى الغرب تجاه الإسلام والمسلمين ترسبت فى العمق ومن زمن بعيد وإن المتتبع لسبر أغوار تاريخ العلاقات بين الغرب والشعوب الإسلامية يلاحظ حقداً مريراً يملأ صدر الغرب حتى درجة الجنون ويصاحب هذا الحقد خوف رهيب من الإسلام وأهله إلى أبعد نقطة فى التقسيمة الأوروبية، هذا الحقد وهذا الخوف لا شأن لنا بهما وإن كان مجرد إحساس نفسى شخصى، أما إذا كان من أهم العوامل التى تبلور مواقف الحضارة الغربية من الشعوب الإسلامية سياسياً واقتصادياً وحتى هذه الساعة فإن موقفنا يتغير بشكل حاسم وسوف تشهد لنا أقوال قادتهم أن للغرب والحضارة الغربية بكل فروعها القومية وألوانها السياسية تجاه الإسلام لا يتغير إنما تحاول محو الإسلام وإنهاء وجود شعوبه دون رحمة حاولوا تدمير الإسلام فى الحروب الصليبية الرهيبة ففشلت جيوشهم التى هاجمت بلاد المسلمين بالملايين فعادوا يخططون من جديد ليمضوا ثم يعودوا لنا بجيوش حديثة وفكر جديد وهدفهم تدمير الإسلام، بل إننى أرى منذ صعود الحضارة الغربية يعيش العالم عنفاً أسود يتحمل المسلمون النصيب الأكبر منه، فبعد إبادة ٢٥ مليوناً من الهنود الحمر، نرى بعد ذلك على سبيل المثال لا الحصر أن الاستعمار الفرنسى قام بقتل وتهجير ٢ مليون من السكان فى الجزائر وكانت الجزائر وقتها ٤ ملايين، أى أن الاحتلال قتل نصف السكان، ثم نرجع قليلاً إلى الوراء لنرى واقعاً آخر فى بلاد الأندلس وذلك على لسان سيجريد هونكة المستشرقة الألمانية تقول هونكة: فى ٢ يناير ١٤٩٢ رفع الكاردينال «ديبدر» الصليب على الحمراء القلعة الملكية للأسرة الناصرية، فكان ذلك إعلاناً بانتهاء حكم المسلمين على إسبانيا وبانتهاء هذا الحكم ضاعت تلك الحضارة العظيمة التى بسطت سلطانها على أوروبا طوال العصور الوسطى. وقد احترمت المسيحية المنتصرة اتفاقها مع المسلمين لفترة وجيزة، ثم باشرت عملية القضاء على المسلمين وحضارتهم وثقافتهم. لقد حرم الإسلام على المسلمين وفرض عليهم تركه كما حرم عليهم استخدام اللغة العربية والأسماء العربية وارتداء اللباس العربى، ومن يخالف ذلك كان يحرق حياً بعد أن يعذب أشد العذاب. وهكذا انتهى وجود الملايين من المسلمين فى الأندلس فلم يبق فى إسبانيا مسلم واحد يظهر دينه» انتهى كلام سيجريد هونكة. هذا بعض مما حدث للمسلمين فى العصور الماضية أما ما يحدث الآن من مذابح فى فلسطين وأفغانستان والعراق وغيرهما وما حدث لمسلمى دول البلقان البوسنة والهرسك وخلافهما فحدث عنهما ولا حرج كل هذه الأحداث الجسام هى التى أدت إلى هذا الاحتقان الدائم بين الغرب والمسلمين وأفشل مبدأ حوار الحضارات أما لسان حال القوم من المسلمين الآن وما يعتريهم من الآلام فيذكرنا بقول القائل حبل الفجيعة ملتف حول عنقى.. من يعاتب مشنوقاً إذا ضربا.

صابر محمد عبدالواحد
عضو اتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين . أخميم . سوهاج

السمو الأخلاقى

قرأنا فى مجلتكم الموقرة فى عددها الصادر فى يونية ٢٠٠٦ تحت عنوان «هل مازالت مصر وطن الجمال» للأستاذ عبدالمحسن محمود فرحات أستاذ عمارة البيئة والذى تألم وتحسر فى كلمته عن عمارة البيئة فى مصر أيام زمان وقارن بينها وبين عمارة مصر الآن، وكم فيها من قبح وقباحة وأورد مصطلحاً جديداً استعمل فى الآونة الأخيرة هو ما يسمونه «التنسيق الحضارى» وإن كنا نميل إلى تسميته «عمارة البيئة». وجاء فى قوله «تعتبر القيم الإنسانية الأساسية هى الحق والخير والجمال، والثلاث شديدة الارتباط بحيث يكون فى تقوية إحداها تقوية للقيمتين الأخريين، والعكس بالعكس، لذا يعتبر القبح السائد حولنا انعكاساً لضعف قيمتى الحق والخير وما يشتق منهما من قيم مثل العدل والإحساس بالمسئولية، بل والمحبة بين الناس أفراداً ومجتمعاً».

ونحن نرى من جانبنا أن مصر لم تعد موطناً للجمال فى عمارة البيئة، لأن عمارة البيئة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعمارة النفوس، فكما هربت القيم والأخلاق هربت صفة الجمال فى البيئة وتعالوا بنا نراجع عناوين الصحف والأخبار فى نهاية القرن العشرين وحتى الآن، فما من يوم إلا ونسمع أو نقرأ عن «عمارة الموت»، «عبارة السلام»، وانهيار كوبرى، وأسمنت مغشوش وتراخيص بناء مضروبة وارتفاعات غير مسموحة ووزراء أفلتوا من العقاب وفقراء يفترشون التراب. والحق نقول إنه لابد أن يكون هناك «سمو أخلاقى» قبل التنسيق الحضارى لأن المشكلة فى الأخلاق والقيم.

ورحم الله شيخنا متولى الشعراوى عندما استند فى هذه الجزئية إلى قول الشاعر:

وليس بعامر بنيان قوم
إذا أخلاقهم كانت تراباً

بمعنى أنه لا عمارة ولا عمران للبناء إذا كانت أخلاق المجتمع تراباً.

بدوى أبو شنب
محام . الأقصر

كأسك يا ماغوط

لست بباحث أكاديمى أو ناقد أدبى، ولكن مثلى كغيرى من القراء أحس بالكلمة أتفاعل معها . شريان الحياة الدائم بالنسبة لنا . التواصل مع مصدر المعرفة . الهم الخاص متداخل مع العام . ولا أبالغ إذا قلت شوقى بلا حدود مع هلال أول كل شهر للاطلاع على العدد الجديد من مجلتكم «وجهات نظر» حيث أتمكن وآلاف غيرى من القراء من السياحة الفكرية والثقافية مع الإصدارات الجديدة والدراسات الرصينة الهادفة التى تتناولها المجلة، وكم أسعدنى عدد مايو ٢٠٠٦ خاصة الدراسة النقدية لرواية «قبلة الحياة» لفؤاد قنديل التى تناولها الدكتور حلمى القاعود، ومقالة محيى الدين اللاذقانى حول رؤية الشاعر والمسرحى الراحل محمد الماغوط لتاريخ القمع السياسى . كما رواه . ومعرفتى بالشعر لا تتعدى أكثر من قارئ لكاتب مشهور، فمنذ منتصف الستينيات وأول الثمانينيات من القرن

الماضى كنا نقرأ لمحمد الماغوط بمجلة المستقبل التى كانت تصدر بباريس ويرأس تحريرها آنذاك الصحفى اللبنانى نبيل خورى بالصفحة الأخيرة أو ما قبل الأخيرة على ما أذكر بأسلوبه الساخر، ماذا سيكتب للوطن؟. ومازلت أذكر. ومنذ ما يقرب من ربع قرن مقالة له فيما معناها أنه سأل شرطياً وهو متوجه إلى مطار باريس: كم الساعة الآن؟ فما كان من الشرطى إلا أن رفع قبعته وانحنى وأجابه الساعة السابعة الآن يا سيدى؟، فكرر عليه السؤال، فكانت إجابته بنفس الاحترام والتقدير، فتلفت يمناه ويسراه ليتأكد هل يجد أحداً غيره مقصوداً بهذا الاحترام والتقدير، ولأول مرة يشعر بآدميته وإنسانيته، وكم كان يتمنى فى تلك اللحظة أن يراه شرطى بلاده؟! وشعر فى تلك اللحظة كم هو إنسان خارج الوطن، كنا نتابع مسرحياته ومنها «كأسك يا وطن» والكثير غيرها والتى كانت تُعبر عن الحالة السياسية والثقافية لسوريا آنذاك والوطن العربى عامة، هذا هو محمد الماغوط. كان الشرطى فكرة كابوسية وليس وجودا جسدياً فى الشارع، فحسب كان فى وجدانه وعقله كما أشار اللاذقانى فى المقال. إذن رحل الماغوط ومعه شارع القمع السياسى كما رواه، رحل ومعه حلم الحرية التى كان يبحث عنها منذ خمسينيات القرن الماضى، وكما روى بالنص فى المقالة: «إن الأجيال العربية التى حلمت بالحرية لم تحصد غير تكثيف الحضور الأمنى والتطور التقنى فى الرقابة».

وإذا كان ذلك كذلك فمتى يتم فك أسر الشعوب من قبضة حكامها؟ متى يا رب؟

سعيد الرفاعى
العمار الكبرى - قليوبية

الواقعية والوقوع

مع انتشار وسائل الإعلام المرئية والمقروءة وتنوعها ومع اتساع مساحة البث التليفزيونى والكتابة الصحفية بصورة أصبح معها ملء الفراغ بالكمّ أهمّ كثيرا من النوعية والمستوى، فى ظل هذه الوضعية الضاغطة ظهر حشد من الخبراء والباحثين والاستراتيجيين الذين تتغير صفاتهم وتخصصاتهم طبقا للموضوع الذى يعلقون عليه، فإذا كان الموضوع فى العنف أصبح المذكور خبيرا فى قضايا الإرهاب وإذا كان الموضوع يتعلق بالموقف الأمريكى فى العراق أصبح هذا «النفر» أو «الزول» أو «الزلمة» أو «المعود» خبيرا فى الاستراتيجية الأمريكية بل قد لا يتورع أن يطلق على نفسه متخصصا فى النظام السياسى الأمريكى.

هذا الحشد من الخبراء لا تعرف عنهم شيئا سوى مخرجاتهم التى يخرجونها علينا ليل نهار فلا تعرف أين تعلموا؟ أو من أين تخرجوا؟ أو فى أى الموضوعات - إذا كان لديهم تخصص - قد تخصصوا؟ وعلى الرغم من ذلك صار هؤلاء هم صنّاع الرأى وحرّاس بواباته والمتحكمون فى تشكيله وتوجيهه.

وأصبحت مقولاتهم وآراؤهم هى التى تحرك النقاش وتتحكم فى وجهة الحوار ونتائجه، وللمرء أن يتخيل مآل حالنا إذا قاد أمتنا أنصاف العلماء أو أشباههم. فنصف العالم نصف جاهل كما كان يردد على مسامعنا منذ ربع قرن أستاذنا الدكتور رفعت المحجوب أستاذ الاقتصاد السياسى فى جامعة القاهرة.

ويشارك هؤلاء الخبراء مجموعة من هواة العمل السياسى الذين دخلوا إلى السلطة من نوافذ الفساد أو المحسوبية أو الارتباط بمصالح دولية معينة. هؤلاء جميعا أصبحوا عباقرة «الواقعية» ومنظّريها ومراجع الفكر السياسى الواقعى ورواده، يصبون جام غضبهم واحتقارهم على أولئك الحالمين الرومانسيين الغارقين فى الوهم المتمسكين بالثوابت والحريصين على المبادئ والمحافظين على هوية هذه الأمة وأمنها القومى ومصالحها العليا.

فدائما يزين هؤلاء الخبراء والسياسيون الهواة أقوالهم وتصريحاتهم بمفهوم «الواقعية» على أساس أنها الكلمة السحرية التى تعطى لآرائهم الشرعية والحجية وتدحض آراء معارضيهم وتنزع عنها المصداقية وتلقى بها خارج دائرة الحوار.

لذلك وجب أن نناقش هذا المفهوم ونميز بينه وبين نقائضه ومعاكساته، فإذا كان التعريف المتداول للسياسة أنها «فن الممكن» فالممكن لا يعنى الموجود أو المتاح وإنما يعنى نهاية حدود الإمكانيات والإمكانات، فهى «فن الممكن من أجل التمكين» كما يقول خالد الحسن السياسى الفلسطينى. لذلك تكون السياسة حركة تفاعلية مع الواقع تنطلق منه نحو تحقيق الأهداف باستخدام كل الوسائل المتاحة وتعظيمها واستنفاد كل الإمكانات وتفعيلها. ومهما كانت الإمكانات ضعيفة فإن العنصر الإنسانى يلقى عليها معنى ويحولها من شىء عديم القيمة إلى قيمة تفوق طاقة الأشياء، فالحجر والحصى فى يد الطفل الفلسطينى له معنى غير ذلك الحصى الذى يلعب به آخرون «السيجة»، والملابس عديمة القيمة ضعيفة المستوى على جسد غاندى لها معنى يفوق طيلسانات أعظم الملوك.

ومن ثم فالواقعية تعنى الانطلاق من معطيات الواقع والابتكار فى تفعيلها من خلال رؤية نافذة تخترق حجب الزمن وتغوص إلى ما وراء الواقع لتخلق واقعا أقدامه على أرض الواقع ورأسه فوق السحاب. ولولا هذه الرؤية البصيرة ما كانت معجزة دبى واقعا ملموسا يتجاوز كل محدوديات وقيود الواقع العربى والواقعيين العرب.

فالواقعية التى يتشدق بها أنصاف العلماء من الخبراء والاستراتيجيين وهواة السياسة ليست واقعية بل هى «وقوع»، أى هى حالة من وقوع الرأس تحت القدم بحيث أصبحت العيون لا ترى إلا حوافر ولا تلامس إلا التراب وتقبل بالأدنى لأنها فى الأدنى، وتتنفس الهوان لأنها ملتصقة بالثرى والطين وتسعى إلى تبريره واعتباره الحد الأقصى للطموح.

فذلك الفكر الوقوعى وليس الواقعى يدعو أمتنا إلى الرضا بالموقع الأسفل وتقبيل اليد التى تهيمن حتى يصبح التفاعل مع المحتل، المنتهك لسيادة الأمة وحرمتها وحريمها الناهب لثرواتها والمدمر لإمكاناتها، شرفا يتشدق به الوقوعيون ويفاخرون به بل يعتبرونه نضالا ومقاومة وجهاداً.

ولو تخيلنا أن هذه الفصيلة البشرية الوقوعية كانت هى السائدة فى التاريخ البشرى لخلا هذا التاريخ من الثورات وحركات التحرير والابتكارات والاختراعات وكل الفعاليات التى كانت تمثل خروجاً عن المألوف، ولتمّ اعتبار المخترعين الكبار والفلاسفة العظام مجانين أو حالمين أو سفهاء، ولما تقدمت البشرية خطوة إلى الأمام ولما حصلت الشعوب على حقوقها ونالت حريتها وكرامتها.

ولو طالبنا الأفارقة فى الولايات المتحدة بالوقوعية لما كان هناك مارتن لوثر كنج ومالكوم أكس ولما كانت هناك حركة لتحرير السود من نير العبودية ونيلهم لحقوقهم الإنسانية.

ولو كان زعماء حركات التحرير فى العالم الثالث واقعيين بالمعنى الوقوعى لما كانت هناك ثورات تحرير ولما نالت هذه الشعوب استقلالها وتخلصت من الاستعمار.

لذلك لن يكون واقعيا مطالبة الفلسطينيين بقبول الواقع المتغير (المتجدد) الذى تفرضه يد الاحتلال الغاصب على أرضهم، ولصارت هناك واقعيات مختلفة: فالواقع الذى صنعته اتفاقية أوسلو وقبله الواقعيون حينذاك هو غير الواقع الذى صنعته اتفاقيات طابا وشرم الشيخ وخريطة الطريق وقبله الوقوعيون حينها، وذلك كله غير الواقع الذى صنعه الجدار ويطالب الفلسطينيون بقبوله.

فأى واقعية ينبغى أن يكون عليها الفلسطينى، أو بعبارة أخرى لا بد أن يكون وقوعيا حتى يقبل بالواقع كما يحدده عدوه.

والحال هكذا بالنسبة للعراقيين ولغيرهم من الشعوب المقهورة المضطهدة. لذلك وجب علينا أن نحرر الفهم والعقل من فلسفة الوقوعية ونتفاعل مع الواقع كمعطى مادى تستطيع يد الإنسان أن تحوله وتغير معانيه ودلالته.

نصر عارف

من الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

هـــذا بيـــان للنـــاس

■■ (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين)

(ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)

(إن يمسسكم قرحٌ فقد مس القوم قرحٌ مثله)

(وتلك الأيام نداولها بين الناس)

(وليعلم الله الذين آمنوا، ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين)

(وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين).

....

....

بمناسبة مرور أسبوعين من المعارك البطولية التي يخوضها جند الله في فلسطين ولبنان في مواجهة أعداء الله من الصهاينة ومن يشد أزرهم، تلك المعارك التي تذكرنا ببطولات القرون الأولى، قرون الصحابة رضوان الله عليهم، ومن تبعهم بإحسان، يرى الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين من واجبه، أن يذكر أبناء هذه الأمة جميعاً، بغض النظر عن أعمارهم وبلدانهم ومذاهبهم وجنسياتهم: بواجبهم في دعم جهاد إخوانهم في لبنان وفلسطين بالنفس والمال واللسان والقلم، «فالمسلم ـ كما يقول النبي ﷺ ـ أخو المسلم: لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله»، «المسلمون يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم». ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ (التوبة: ٧١). وقد أوجب الإسلام على المسلمين إذا غزيت أي أرض لهم أن يقاتلوا دفاعاً عنها وهذا فرض عين عليهم. وأوجب على المستطيع من المؤمنين أن ينفر إذا استنفر لمعاونة إخوانه بما يحتاجون إليه من رجال وسلاح ومال، فقال سبحانه: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ (التوبة: ٤١)، وقال النبي ﷺ: «وإذا استنفرتم فانفروا». وهذه النفرة تكون بالمال والسلاح وتكون بالنفس: روحاً، ويداً، ولساناً، وقلماً، وتشجيعاً، وتحريضاً على القتال، ودعاء على المعتدين، ولا تكون تخذيلاً للمجاهدين، أو تعويقاً لهم، أو انتقاداً لجهادهم، أو سلقاً لهم بألسنة حداد. وقد قال ربنا عز وجل عمن يفعل ذلك: ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا، ولا يأتون البأس إلا قليلاً[١٨] أشحة عليكم، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت: فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد، أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم﴾ (الأحزاب: ١٨-١٩).

وقال سبحانه:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ[١٧٣] فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ[١٧٤] إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران ١٧٣-١٧٥).

كما يعيد اتحاد علماء المسلمين التأكيد مجدداً على أهمية توحيد صفوف المسلمين، ويحذر من خطورة الانزلاق مع بعض الدعاوى الخبيثة التي يطلقها المضللون والمضللون هنا وهناك، بمهاجمة طائفة من طوائف المسلمين أو إثارة الفتنة بينهم، أو إضفاء الصواب المطلق على رؤية شاذة أو فتوى متطرفة، أياً كان مصدرها، أو وصف الآراء الأخرى التي لا توافقها بالضلال أو الفسوق أو الكفر، ويخص الاتحاد بالذكر ما نراه وما نسمعه بين حين وآخر، لاسيما منذ أن ظهرت بطولات المقاومة الإسلامية في لبنان، من المغرضين والمغرر بهم من تفريق بين السنة والشيعة، وهم جميعاً من أهل القبلة، أو من الاقتتال بينهما في أي ميدان.

والحق أن القول الثابت الذي يثبت الله به الذين آمنوا: وهو كلمة «لا إله إلا الله»، هو الذي يضفي على قائله صفة الإسلام، وأن اختلاف الآراء وتعددها ضمن إطار الإسلام الجامع هو من المزايا الإيجابية لهذا الدين، وقد قال سيدنا رسول الله (في الحديث المتفق عليه: «من قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقها، وحسابه على الله تعالى».

وقد آن أن نستجيب لقول الله عز وجل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣)؛ وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦)، وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠). وقول النبي («بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه». وقوله («المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً».

إن هذا العدوان الوحشي الذي ينفذه أولئك الذين ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاً وَلا ذِمَّةً﴾ (التوبة: ١٠) على إخواننا في لبنان وفلسطين، والذي يتجلى فيه الجبن بأجلى مظاهره، إذ ﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ (الحشر: ١٤)، ولا يجرؤون على مجابهة المجاهدين المصابرين المرابطين وجهاً لوجه: بل يصبون جام قذائفهم المحرم استعمالها دولياً، من طائراتهم وبوارجهم، على الأطفال والنساء والرجال الذين لا يقاتلون، وعلى المساكن والمدارس والمستشفيات والبنية الأساسية للبلاد.. إن هذا العدوان الذي يمثل الخسة والنذالة بأجلى مظاهرهما، احتماء بقوى الهيمنة والاستكبار، واستفادة من الصمت الدولي المشبوه، لن يؤدي إلا إلى مزيد من الثبات والصمود لدى أبناء هذه الأمة، الذين أظهروا من البطولات والصبر ما يحير الأعداء وغير الأعداء، وإلا إلى مزيد من الجبن والرعب في قلوب الصهاينة بحول الله:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال: ١٢).

ولا يحسبن أحد أن ما تواجهه القوة الصهيونية المجرمة من هزائم في الجبهة اللبنانية، سوف يخفف من استهدافها للجبهة الفلسطينية، بل إن الواقع الميداني يدل على ازدياد شراسة الصهاينة على إخواننا في فلسطين، مما يوجب علينا أن نحافظ على أعلى مستوى من اليقظة والحذر، وأن نواصل تقديم الدعم لهم بشتى صوره وأشكاله بما في ذلك أموال الزكاة والصدقات والوصايا بالخيرات العامة وغيرها، بل يجب أن يقتطع المسلمون نصيباً من أموالهم الخاصة ومن أقواتهم لدعم إخوانهم، كما أفتى الاتحاد من قبل.

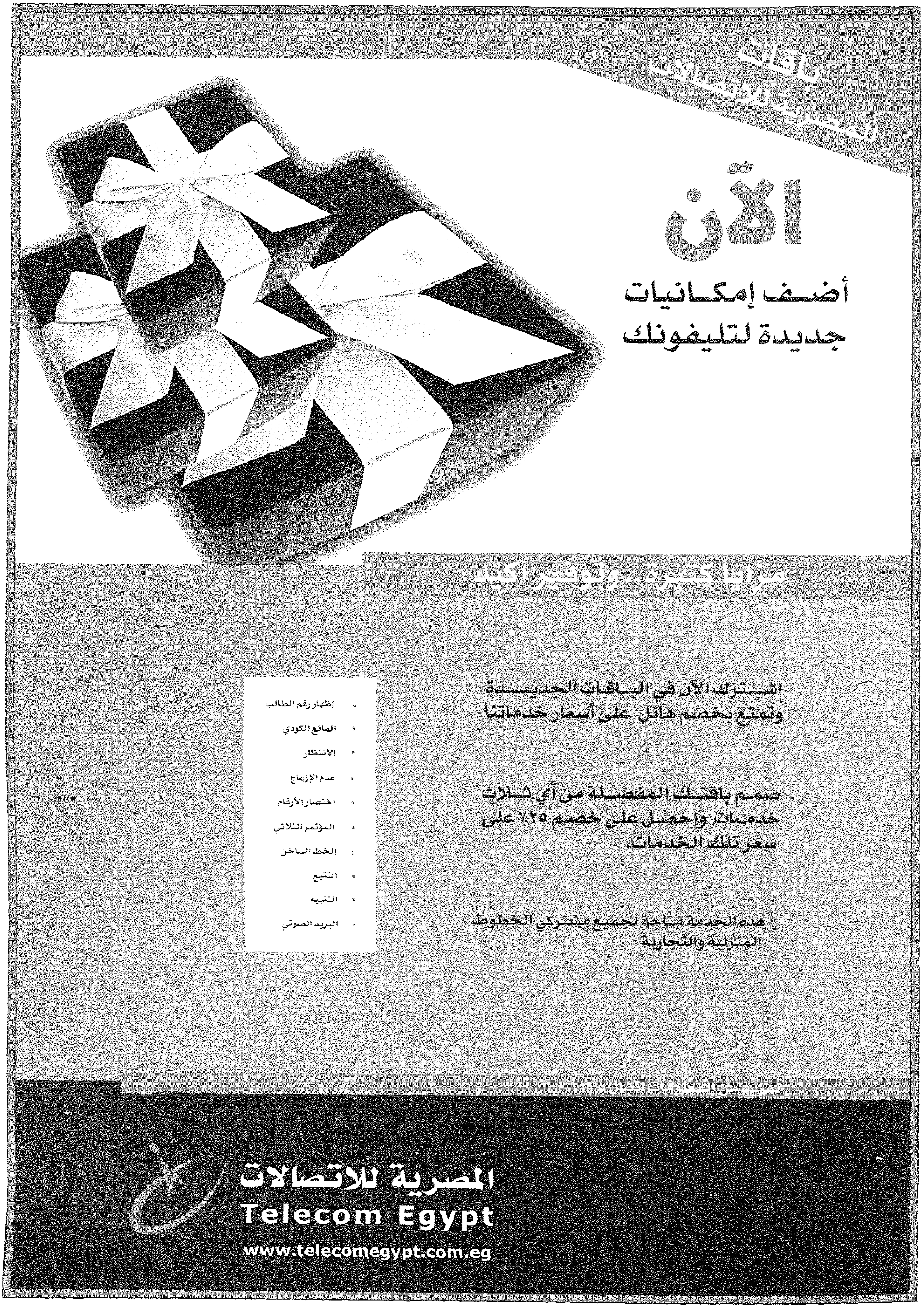
﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١).

د. سليم العوا ـ الأمين العام للاتحاد

د. يوسف القرضاوي ـ رئيس الاتحاد


صدر هذا البيان عن الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين في يوليو ٢٠٠٦

خرائط قراءة التيه ص ٦


باقات
المصرية للاتصالات
الآن
أضف إمكانيات
جديدة لتليفونك
مزايا كتيرة.. وتوفير أكيد
اشترك الآن في الباقات الجديدة
وتمتع بخصم هائل على أسعار خدماتنا
صمم باقتك المفضلة من أي ثلاث
خدمات واحصل على خصم ٢٥٪ على
سعر تلك الخدمات.
هذه الخدمة متاحة لجميع مشتركي الخطوط
المنزلية والتجارية
إظهار رقم الطالب
المانع الكودي
الانتظار
عدم الإزعاج
اختصار الأرقام
المؤتمر الثلاثي
الخط الساخن
التتبع
التنبيه
البريد الصوتي
لمزيد من المعلومات اتصل بـ ١١١
المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
www.telecomegypt.com.eg

الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر



ملف خاص

نجيب محفوظ

مجلة شهرية . العدد الثالث والتسعون . السنة الثامنة . أكتوبر ٢٠٠٦ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 8 - Issue 93 - October 2006



فروع
أكثـــر لراحتكـم

المركز الرئيسى
١٠ شارع طلعت حرب - القاهرة.

١- فرع القاهرة
١٠٨٧ كورنيش النيل - جاردن سيتى.

٢- فرع عدلى
٩ شارع عدلى - وسط المدينة.

٣- فرع جاردن سيتى
٤ شارع أحمد باشا - جاردن سيتى.

٤- فرع مبنى اتحاد الاذاعة و التلفزيون
ماسبيرو - كورنيش النيل.

٥- فرع حلوان
١٠٠ شارع المنصور - حلوان.

٦- فرع المعادى جراند مول
٢٥٠ ميدان كلية النصر - المعادى الجديدة.

٧- فرع المهندسين
٤ شارع سوريا - المهندسين.

٨- فرع الجيزة
٣٢ ب شارع مراد - الجيزة.

٩- فرع فيصل
٧،٦ مساكن المنصورية - كفر نصار - نهاية فيصل.

١٠- فرع القرية الذكية
الكيلو ٢٨ طريق مصر اسكندرية الصحراوى - مبنى ١١٥ ب.

١١- فرع ٦ أكتوبر
٤٣ ب المنطقة الصناعية الثالثة مدينة ٦ أكتوبر.

١٢- فرع جامعة ٦ أكتوبر
مدينة الثقافة والعلوم - مجمع معاهد قناة السويس للتكنولوجيا.

١٣- فرع نزيه خليفة
٥٢ شارع نزيه خليفة - مصر الجديدة.

١٤- فرع روكسى
٨٠ شارع الخليفة المأمون - روكسى.

١٥- فرع جنينة مول
٤٩ شارع البطراوى - مدينة نصر.

١٦- فرع العاشر من رمضان
المركز التجارى - مدخل ١ - مدينة العاشر من رمضان.

١٧- فرع باتريس لومومبا
٢ شارع باتريس لومومبا - باب شرق - الاسكندرية.

١٨- فرع سموحة
٣٨ شارع توت عنخ أمون - سموحة - الأسكندرية.

١٩- فرع العطارين
١٥ شارع محمود عزمى - العطارين - الأسكندرية.

٢٠- فرع زهران مول
٣٦ شارع فيكتور عمانويل - باب شرق - الأسكندرية.

٢١- فرع قرية بدر
الكيلو ٨٣ - الساحل الشمالى - الأسكندرية.

٢٢- فرع قرية خليج غزالة
الكيلو ١٤٢ الساحل الشمالى - فندق موفينبيك العالمين - قرية خليج غزالة - الأسكندرية.

٢٣- فرع السويس
١ شارع البرج - تقاطع ٢٣ يوليو.

٢٤- فرع الغردقة
طريق النصر - مركز الغردقة التجارى - الغردقة.

٢٥- فرع شرم الشيخ
شارع صلاح الدين - فندق هوليداى أمفورس - شرم الشيخ.

٢٦- فرع أسيوط
برج الهدى - شارع التحرير متفرع من يسرى راغب - أسيوط.

٢٧- فرع الأقصر
شارع معبد الكرنك - أمام الإدارة التعليمية - الأقصر.

٢٨- فرع أسوان
٨٢ شارع أبطال التحرير - بندر أسوان - أسوان.

والآن فرع جديد
فرع بور سعيد: شارع الجمهورية وحافظ إبراهيم - بور سعيد

PIRAEUS BANK
بنك پيريوس - مصر

البنك بنكك

إتصل بـ **19322**

Animation Advertising

السنة الثامنة
العدد الثالث والتسعون
أكتوبر ٢٠٠٦

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتَّاب العدد:

- خيرى منصور .. كاتب عربى.
- روبرت سكيدلسكى.. أستاذ الاقتصاد بجامعة وورويك بإنجلترا
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى
- عبد الصبور شاهين.. أستاذ بكلية دار العلوم.
- عزام التميمى.. مدير معهد الفكر السياسى الإسلامى - لندن
- عفاف عبد المعطى.. ناقدة ومترجمة.
- فاروق عبدالقادر.. كاتب.
- محمد السطوحى.. صحفى مصرى مقيم فى واشنطن.
- محمد السعيد مشتهرى.. مدير مركز بحوث ودراسات القرآن الكريم
- محمد مزالى.. الوزير الأول للجمهورية التونسية الأسبق.
- محمد المهدى... مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.
- نجيب محفوظ.. روائى مصرى راحل.
- هشام السلامونى.. ناقد أدبى وفنى.
- وليد محمود عبدالناصر.. كاتب مصرى.
- يحيى الرخاوى.. أستاذ الطب النفسى بجامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجى - سعد الدين شحاتة
Daryle Cagle - Angle Boligan
صورة الغلاف: جمال الغيطانى

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٩٣٠٤٩٠/ ٢٩٣٠٤٩٢/ ٢٩٣٠٤٩٦ - ٢٩٣٠٤٩٨ فاكس ٢٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عددًا) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٢٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

نوه

سلامة أحمد سلامة

الاعتذار عن الماضي.. أو تقشير البصل

■■ مغالبة الماضي واستحضاره، واستعادة تفاصيله وذكرياته، وإعادة النظر في شخوصه وأفكاره، والاعتراف بما انطوى عليه من انتصارات وهزائم، وما أقدم عليه المرء من نزوات أو جرائم في حق نفسه أو في حق الآخرين.. هي جزء من ثقافة الاعتراف وطلب الغفران التي تدعو إليها الأديان، والتي ترجع في الأساس إلى ثقافة التطهر من الآثام والاعتذار عن الماضي.. حيث تصبح عملية التطهر طقسًا فكريًا واجتماعيًا ودينيًا، أشبه بالنزول إلى مياه النهر في بعض العبادات الهندوسية، التي يغتسل المرء فيها من ذنوبه ليعود كيوم ولدته أمه.. أو مثل شعيرة الحج عند المسلمين.

ولعل الأدباء والكتاب هم أكثر الناس خوضًا لهذه التجربة، التي يمتحن الكاتب فيها وجدانه ويستبطن مشاعره وذكرياته كلما أوغل في التفكير والتأمل، واحتك بالأحداث والمتغيرات التي تحيط به. فهو يستمد من أعماق تجاربه الذاتية ما وعته الذاكرة وما نسيته أو تعمدت نسيانه.. ويظل هذا الصراع بين ذكريات وخبرات يحاول أن يتذكرها ويحاول في آن معًا أن ينساها، بحثًا عن نقطة التوازن الداخلي التي تحقق له الاقتناع بأن ما ارتكبه من فعل كان صحيحا في وقته ومكانه، إرضاء لما يسميه الفلاسفة بالضمير الأخلاقي، أو ما تعتبره الأديان اعترافًا بالذنب طلبًا لمغفرة الذات العلية.

غير أن هذا التفاعل الداخلي سرعان ما يتحول ويتحور في أعماق الأديب أو المفكر إلى مصدر للإلهام الفني والإبداع الأدبي والفكري، الذي يتخذ شكل «السيرة الذاتية». يستعرض فيها الكاتب مراحل حياته وتقلباته، ونجاحاته وانكساراته، وتكوينه وتحولاته، وشذرات كاملة أو مبتسرة من تجاربه الشخصية. تستمد قيمتها الأدبية والتاريخية من عناصر متعددة.. أهم ما يميزها أن تكون على درجة عالية من الصدق والتلقائية بغير تصنع أو زيف. وأن تلقى على شخصية الكاتب أو المبدع في نشأته ومجتمعه والحقبة الزمنية التي عاشها من الأضواء والأجواء ما يسهم في فهمها وإدراك أبعادها، وتقييم أحداثها..

إن كاتب السيرة الذاتية، سواء كان أديبًا أو مفكرًا، سياسيًا أو علمًا من أعلام عصره، يظل في الحقيقة صندوقًا مغلقًا على أسرار وخفايا قد لا تتكشف لمعاصريه أو لمن بعدهم، ما لم يمتلك صاحبها من جسارة الروح وشجاعة العقل التي يفض بها مغاليق هذا الصندوق الذي أودعه أسرار طفولته وشبابه، ومجمل حياته، ودقائق تجاربه العاطفية ومشاعره الحميمة. وهو يعلم تمام العلم أنه يقدم نفسه قربانًا للحقيقة، غير نادم ولا عابئ بسهام النقد والتجريح والتشكيك، التي قد تأخذ منه أكثر مما تعطيه، وتظلمه أكثر مما تنصفه، حيًا وميتًا.

وقد كانت هذه على الأرجح هي الحالة التي مر بها الكاتب والأديب الألماني الشهير، الحائز على جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٩٩، جونتر جراس، أحد كبار الروائيين المعاصرين الذي سيطر على المشهد الثقافي الألماني طوال سني ما بعد الحرب. ومازال يعتبر أفضل من عبر في كتبه ورواياته ومقالاته ومسرحياته عن الوجدان الألماني بكل آلامه وجراحه، وآماله وأشواقه في أعقاب سقوط النازية واندحارها وهزيمة ألمانيا في الحرب.

فجأة أعلن جراس في اعتراف مثير أحدث صدمة في ألمانيا وفي العالم أنه انضم إلى قوات الحرس الخاص المعروفة بالـ S.S، أشد القوات النازية شراسة وقسوة في عهد هتلر، عندما كان في السابعة عشرة من عمره. وهي فترة وجد نفسه خلالها يتنفس أفكار المثالية الألمانية التي انحرفت تحت وطأة التأثيرات النازية التي سادت في تلك الحقبة. والتي كانت تعلي من روح النظام والجدية والعسكرية، وتبحث عن العبقرية الفردية التي تؤكد قيم العنصرية ونقاء الجنس، وتقدس معاني القوة والتفوق، وهي حقبة ملتبسة، سادت فيها أفكار ونظريات ملتبسة، انتشرت وذاعت في أوروبا والعالم، وأثارت من الجدل والنقاش أمواجًا من العداء والكراهية والحروب التي مزقت أوروبا، وقسمت شعوبها، وأريقت بسببها دماء لم تخلف وراءها غير التعاسة والشقاء.

عندما أعلن جونتر جراس هذه الحقيقة في شهر أغسطس الماضي، ظن الكثيرون أنها مجرد حيلة دعائية وتدافعت الشكوك من كل حدب وصوب.. «إنه على أهبة نشر كتاب جديد وهو يحاول لفت الأنظار إليه بهذه الخدعة.. إنه أسلوب رخيص لتسويق كتابه». لم يصدق الكثيرون أن مثل هؤلاء المشاهير يمكن أن تكون لهم أخطاؤهم وسقطاتهم، وأن ماضيهم لا يخلو من العثرات والفضائح والأسرار المخزية.

ولكن الذين افترضوا أن يقدم جراس على اصطناع هذه الحيلة التي يمكن أن تدمر مستقبله ومكانته، لم يدركوا أن إقدامه عليها لم يكن من أجل ترويج كتابه، بل من أجل إنقاذ سمعته وما أنجزه في حياته من مجد أدبي ومكانة أخلاقية شكلت شخصيته ورسمت صورته في أذهان الناس عبر جهد إبداعي شاق متصل، وضعه في مكان الصدارة العالمية.

فقد فرض المناخ الذي ساد ألمانيا بعد الحرب على كتابها ومبدعيها شروطًا ومطالب، وضعتهم في قلب «أزمة الضمير» الذي كان على ألمانيا وشعبها أن يواجهها، وهي عقدة الشعور بالذنب إزاء الكارثة التي حاقت بالعالم من جراء إشعال الحرب العالمية الثانية، وظهور النازية التي دمرت أوروبا وأذلت شعوبها وارتكبت فيها من الفظائع والأهوال ما وضع الشعب الألماني في عداد الشعوب المارقة المحكوم عليها بالعزلة والاستبعاد والإقصاء من الجماعة الدولية. ولم يكن بوسع أديب أو مفكر أو سياسي أو أي شخصية عامة أن يلقى أدنى قدر من الاعتراف أو القبول حتى على المستوى الإنساني، ما لم يعلن براءته من هذه الحقبة النازية وإنكاره لأفكارها ومبادئها، وتنصله من كل ما له علاقة بها. ويمكن القول بأن جيلاً أو أكثر من جيل توارى واختفى من الساحة، أو هاجر إلى أصقاع بعيدة في أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا هربًا من محنة الذل والهزيمة وإلصاق الجرائم والفظائع التي ارتكبت في ميادين الحرب بألمانيا وشعبها. ومازالت جذور هذه الكراهية المشوبة بالخوف والتربص والحذر تلون علاقة ألمانيا بجيرانها وحلفائها حتى هذه اللحظة.

ويدهش المرء إذ يرى أنه بعد أكثر من نصف قرن على مأساة الحرب العالمية الثانية، تغير خلاله العالم تغيرًا جذريًا، قامت إمبراطوريات وسقطت إمبراطوريات، ونشأت دول وتفككت دول، وأقيمت تحالفات واندثرت معسكرات، مازالت المخاوف والشكوك كامنة تحت سطح كثير من التعاملات والمواقف الدولية، متأثرة بما خلفته الحرب العالمية الثانية من أطماع وأحقاد وضغائن. ولهذا لم يكن غريبًا أن تدور معظم الحوارات التي أجريت مع كتاب ألمانيا وأدبائها ومفكريها خلال هذه الفترة - حول آرائهم السياسية ومواقفهم من أحداث

لا يذكر جراس إن كان قد اختار قوات الـ SS بمحض إرادته أم أنه أُرسل إليها، ولكنه فى اعتذاره عن الماضى وإزاحته الستار عن هذه السقطة المريعة فى صباه، يستخدم أسلوب «تقشير البصل» فى إزالة لفائف الغموض الهشة المتراكمة طوال سنى الانكسارات والدموع والمعاناة التى مر بها

عالمية مثل قضايا التسلح والسلام الدولى والأسلحة النووية وعلاقات الشرق والغرب والحرب الباردة وسياسات نيكسون وبريجنيف وفيلى برانت وغيرها من عشرات المشاكل والأزمات التى شهدها العالم.

ولم يكن جراس فى بداياته معنيًا بالسياسة وقضاياها. وبقيت رواياته الأولى بعيدة عن الغوص فى مشاكلها، ولكنه بمرور الوقت حاول أن يرتبط بقضايا عصره وانضم إلى الحزب الاشتراكى الديمقراطى، ودخل فى مجادلات سياسية دافع فيها عن صديقه المستشار الألمانى الراحل فيلى برانت فى معاركه السياسية التى خاضها ضد اليمين الألمانى المحافظ. وفى نفس الوقت لاقت رواياته «طبل من صفيح» و«القط والفأر» و«ثلاثية دانزيج» من بواكير إنتاجه رواجاً واسعاً فى ألمانيا وخارجها، حيث كانت تصور حياة أجيال طحنتها الحرب وخرجت منها مثخنة بالجراح.

وفى هذه الأجواء لم يكن غريبًا فى هذه المرحلة أن يساند جونتر جراس حق دولة إسرائيل فى الوجود عندما زارها لأول مرة فى صحبة المستشار الألمانى فيلى برانت، وأن تظهر له بعدها بعض كتابات وخطابات عن إسرائيل، لا تتضمن شيئاً عن العرب أو حقوقهم. وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا الموقف لم يكن مقصوراً على جونتر جراس وحده، فلم يسع المثقفون والكتاب العرب فى أى وقت من الأوقات إلى مد جسور التواصل والتفاهم مع المثقفين من رموز الأدب والفكر فى الغرب إلا فى حدود ضيقة لم تتعد بعض مشاهير الأدباء فى فرنسا، كما أن انكفاء العرب على قضاياهم وكوارثهم حال دون التعرف على إنتاجهم الثقافى والأدبى، إلا فى وقت متأخر بعد حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل. ولم تتح لجراس فرصة زيارة دولة عربية إلا مؤخراً، عندما شارك فى ملتقى الرواية العربية الذى عقد بصنعاء قبل نحو ثلاث سنوات بمناسبة اختيارها عاصمة للثقافة العربية. وفى هذه الزيارة الوحيدة لدولة عربية فتن بالعمارة اليمنية القديمة، وأسهم فى إنشاء مركز للدفاع عن التراث اليمنى المهدد، كما تدخل لدى الرئيس اليمنى على عبدالله صالح لإسقاط القضايا المرفوعة ضد الروائى اليمنى وجدى الأهدل الذى كان فاراً وملاحقاً من الشرطة لمحاكمته على روايته «قوارب جبلية».

ليس من المبالغة القول إن جراس مثل جيل بأكمله من الألمان، قد وجد نفسه مسوقاً تحت ضغط الضرورة والإكراه فى ظل حكم النازى للذهاب إلى الخدمة العسكرية حين استدعى للخدمة فى سن السادسة عشرة.

ويكشف جراس النقاب فى سيرته الذاتية التى نشرها أخيراً بعنوان «تقشير البصل» والتى أثارت هذه الضجة، إنه لم يتطوع للانضمام إلى قوات الحرس الخاص الـ SS، الذين كانوا يمثلون مجموعة من سفاكى الدماء، الذين قاموا بأسوأ عمليات الإبادة الجماعية وإدارة معسكرات الاعتقال الشهيرة، ولعبوا دوراً مهماً فى «الهولوكوست» المحرقة النازية التى مازالت أشباحها تطارد الشعب الألمانى حتى الآن بكل فظائعها.. ولكنه وجد نفسه ملحقاً بصفوفها على كل حال. وكانت الحرب العالمية الثانية فى شهورها الأخيرة فى ربيع عام ١٩٤٥ وبوادر الهزيمة تدق الأبواب، بينما تستدعى القيادة العسكرية مجندين من الصبية تدفع بهم إلى ميادين القتال.

لا يذكر جراس إن كان قد اختار قوات الـ SS بمحض إرادته أم أنه أرسل إليها، ولكنه فى اعتذاره عن الماضى وإزاحته الستار عن هذه السقطة المريعة فى صباه، يستخدم أسلوب «تقشير البصل» فى إزالة لفائف الغموض الهشة المتراكمة طوال سنى الانكسارات والدموع والمعاناة التى مر بها، وكأنه يدعو الآخرين لفهمه وتقدير موقفه، وهو يتعمد إضفاء مسحة من الغموض والإبهام على وعيه بالماضى.

إنها ليست خيانة الذاكرة، ولكنها حائط صد للدفاع عن موقفه عندما تأخر ستين عاماً فى الكشف عن ماضيه السياسى خلال صباه. وهو الذى بنى مجده الأدبى على دعاوى أخلاقية، نابعة من التزام بالقيم الإنسانية وداعياً شعبه الألمانى إلى إعادة إحياء هذه القيم، والتنكر للمبادئ والأفكار التى غرستها النازية فى عقول وقلوب جيل أو أجيال لم تعرف غير الشقاء والتعاسة على يد هتلر ونظامه الفاشى. وهو من أجل وصوله إلى هدفه فى إزاحة الماضى، يقيم نوعاً من العلاقة المتوترة بين ما يقول أنه لم يقترفه: فلم يطلق رصاصة ولم يرتكب أى جريمة من جرائم الحرب أو يشارك فى أى عمل من الفظائع التى عرفت عن قوات الحرس الخاص، وبين أسباب صمته طوال هذه السنوات، فلا يبوح بها إلا بعد أن هدأت العواصف وسكنت النفوس وتبددت المخاوف وتغير المشهد الأوروبى والعالمى بأسره.

غير أن هناك من يرى قصة جراس بعيون أخرى.. فهذا الكاتب العملاق الذى بنى مجده الروائى عبر خمسة عقود من الجهد والعرق، لم تغب عن طموحاته منذ البداية جائزة نوبل. وقد أدرك أنه الوحيد الذى يستحقها من بين مجايليه، ولكنه رأى كيف أن زيارة واحدة قام بها الأديب الأرجنتينى الشهير خورجى ل. بورجيس لديكتاتور شيلى بينوشيه، كلفته ثمناً باهظاً فاستبعد من الترشيح للجائزة.. فهل كان من الممكن لشخص خدم فى الحرس الخاص لهتلر أن تتاح له هذه الفرصة؟

ولكن بعد أن حصل جراس على نوبل عام ١٩٩٩، واستقر به المقام شخصية أدبية مرموقة ومعترفاً بها على الصعيد الألمانى والعالمى، بدأت تؤرقه أشباح الماضى لو ظهرت بعد موته وهو يناهز الثمانين. ولابد أنه أدرك بذكائه أن مكانته وشهرته لن تمنع الباحثين والمنقبين والنابشين فى القبور من الصحفيين الذين يبحثون عن الإثارة، أن يعثروا حينئذ على سره الدفين، ويشعلوا النيران فى كل ما شيده من مجد بقلمه وفكره. وفى عالم اليوم لم تعد هناك أسرار يمكن إخفاؤها، وقد تتحول حكايته وتاريخه هو إلى قصة تلوكها الألسن وتدمر سمعته.

ويعتقد الكثيرون أن الوصول إلى هذا السر لم يكن بالأمر العسير، بل لعله كان قاب قوسين أو أدنى، بعد أن رفع الحظر مؤخراً عن الأرشيف السرى لجهاز «الاستاسى» الذى راكمته أجهزة التجسس فى ألمانيا الشرقية وحفظت فيه أوراق الرايخ الألمانى الهتلرى ووثائقه، وبدأت السلطات فى برلين تسمح بالإفراج عنه والاطلاع عليه لمن يريد. وهكذا اختار جراس أن يزيح بيديه الستار عن الماضى ويخرجه بطريقته، ولا يتركه نهبا بين يدى المشوهين والخباصين والمزورين المحترفين والباحثين عن الفضائح.

نـــون

من الذى يملك عندنا فى عالمنا العربى الجرأة على مواجهة ماضيه، لاسيما عندما يبلغ الكاتب أوج شهرته وعطائه عالمياً، ثم يجد نفسه طائعاً أو مكرهاً، مدفوعاً للهبوط من قمة الجبل إلى السفح

من الطبيعى ألا تظل صورة جونتر جراس كما كانت، وسوف تتأثر على الأرجح بما سيثيره أدعياء النقاء ومحترفو توظيف العداء للسامية لأهداف سياسية من اتهامات.. ولن تغفر الآلة الدعائية لدعاة الصهيونية وضحايا النازية القدماء الذين تحولوا هم أنفسهم إلى نازيين جدد، يمارسون أساليبهم، ويتفوقون فى تطبيقها على ضحاياهم من العرب باسم الدفاع عن أمن إسرائيل وسلامة الجنس اليهودى، خطأ صبى ارتكبه فى سن المراهقة تحت تأثير الدعاية الجبارة لنظام لم تقهره غير حرب عالمية، وامتلك شجاعة الاعتراف به عندما واتته القدرة على مواجهة ماضيه والاعتراف به والاعتذار عنه.

وأكبر الظن أن كثيراً مما كتبه جراس فى رواياته، كاشفاً عن هشاشة الإنسان فى مواجهة أقداره، وما يثوى فى أغوار النفس البشرية من قابلية للفساد والإفك، جنباً إلى جنب مع ما تنطوى عليه من إخلاص وتضحية وسمو، إنما ينبئ عن الطبيعة المعقدة والمركبة لما تنقاد إليه النفس البشرية من آثام وأخطاء تعذب ضميره فى لحظات الصحو ومحاسبة النفس.. وهذا هو ما سوف يبقى معنا وما سوف يخلد فى التراث الأدبى للإنسانية.

ولكن من الذى يملك عندنا فى عالمنا العربى الجرأة على مواجهة ماضيه، لاسيما عندما يبلغ الكاتب أوج شهرته وعطائه عالمياً، ثم يجد نفسه طائعاً أو مكرهاً، مدفوعاً للهبوط من قمة الجبل إلى السفح ومن أعلى الشجرة إلى ما دونها؟! لا يحاسب نفسه على أخطاء شخصية ونزوات عاطفية وانحرافات جنسية، ولكنه يحاسب نفسه على جريمة الصمت أمام رأى عام عالمى، يجلس على منصته قضاة تجرفهم الأهواء السياسية ونوازع الأنانية، دون اعتبار للظروف والعصر والقدرة على التمييز والاختيار؟ وهذه هى المعضلة!!

تحــــــولات الــــــــروح

يا رب

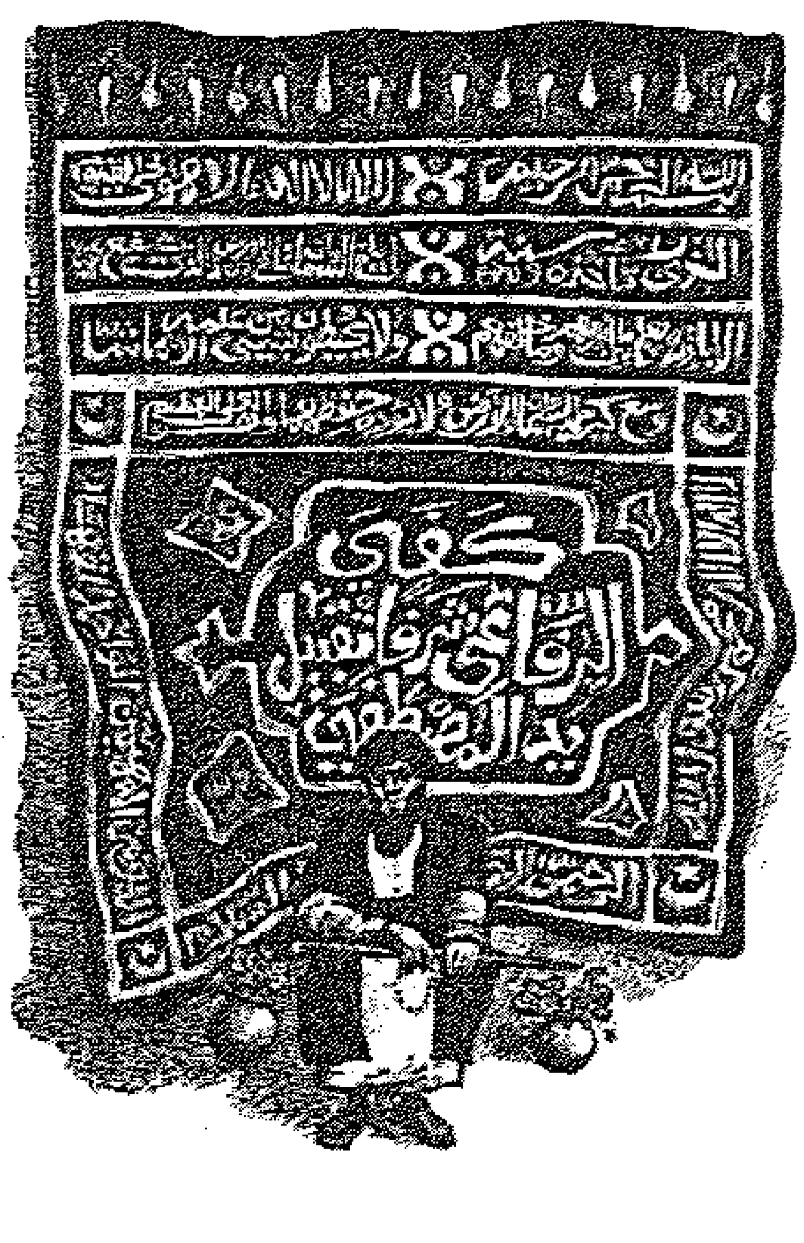
قربتنى إليك حتى إذا دنوتُ بعدتُ
رفعتنى من وهدة الضلال حتى إذا ارتقيت هبطت
رققتنى روحاً وبدناً حتى إذا شفَفت غلظت
أخرجتنى من ظلمة الجهل حتى إذا رأيتُ عميتُ
بصرتنى بالجمال حتى إذا أدركت تركت
زودتنى بالعقل حتى إذا عرفتُ جهلت
أترعت قلبى بالحب حتى إذا امتلأت فرغت

يا رب

أغدقت علىّ من نعمك فبطرت
أسقيتنى من خمر وصلك فسكرت
أوقفتنى على حقيقتى فاغتررت
صفيت نفسى من أدرانها فنكصت
بحثت حولى عن اليقين فضللت
أعشت عينى أضواء الطريق فما أبصرت

يا رب

أنر بصيرتى حتى أراك
واجعلنى أرى ما يستحق أن يرى
وأسمع ما يستحق أن يُسمع
وأعرف ما يزيدنى علماً بك



وأقرأ باسمك أسرار عظمتك
وأسلك الطريق الذى لا أضل فيه أبداً

يا رب

قطرة أنا فى بحر الوجود تتخبط
لحظة أنا من عمر الزمن كلمح بالبصر
ريشة فى فضاء الكون عبثت بها الريح
ذرة فى الهباء تضاءلت واختفت
من يملك مسيرتى وصيرورتى غيرك؟
فى قضائك قدرى وفى قدرى قضاؤك

يا رب

أخرجنى من حيرتى كلما ادلهمت
وثبت يقينى كلما تزعزع

وجنبنى عثرة الطريق لحظة الشك
لا تذلنى لسواك..
ولا تجعل علىّ سلطاناً لغيرك
ولا تنزل فى قلبى خوفاً إلا منك
ولا حاجة إلى إليك
ولا رجاء إلا عندك

يا رب

أخرجنى من ثقوب الحياة السوداء
واكفنى شرور العولمة والهيمنة
وجنبنى الوقوع فى براثن الطغاة وأزلامهم
ولا تبتلنى بأمراض العصر وأوبئته
ولا تجعل خاتمتى تحت أنقاض الزلازل والأعاصير

يا رب

قنى من شر عدو لا يرحم
وصديق لا يصدق
وأنأ بى عن حبيب شيمته الغدر
ورئيس مجبول على الجهل
وطاغية يعميه الظلم

يا رب

امنحنى القدرة على تغيير ما أستطيع تغييره
والصبر على ما أعجز عن تغييره
وأدخلنى فى رحمتك
يا أرحم الراحمين!

سلامة أحمد سلامة

نجيب محفوظ

الأعمال الكاملة



دار الشروق


وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم
كفى الرفاعي شرفا تقبيل يد المصطفى

السُّنَّة النَّبَوِيَّة

اتفاق لا اختلاف

محمد السعيد مشتهرى

إن ظاهرة التفرق التى يشهدها العالم بين المسلمين، وتشرب قلوبهم لثقافة التخاصم، تنذر بخطر عظيم يهدد مستقبلهم ورسالتهم للشهادة على العالمين. إن تفرق الأمة إلى مذاهب عقائدية ترمى بعضها بالفسق والضلال وبمخالفة سنة رسول الله، يفقد كثيرا من الناس الثقة فى فاعلية رسالتها فى مواجهة التحديات المعاصرة. لقد دفع المسلمون ثمن هذه الفرقة (عبر العصور) دماء سفكت بغير حق!!. وتقف هذه الفرق المتخاصمة صفا واحدا فى مواجهة عدوها المشترك، ثم عندما تظهر لها علامات النصر يبدأ بعضها فى قتال بعض من أجل الوصول إلى الحكم وكل منهم يعتبر نفسه الفرقة الناجية التى يجب أن تتولى حكم البلاد والعباد!!. أما أن يصل الأمر إلى أن يفجر أتباع فرقة أنفسهم وسط أتباع فرقة أخرى، وتسفك دماء المدنيين الأبرياء باسم الإسلام وتحت راية التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، فهذا مؤشر خطير يوجب علينا إعادة النظر فى تديننا الوراثى!!. إن الإسلام هو الحجة على الناس، وتدين المسلمين وفهمهم لنصوصه حجة عليهم وليس على الإسلام!!. إن صحابة رسول الله لم يعرفوا إلا: إلها واحدا، ورسولا واحدا، وكتابا واحدا، وقبلة واحدة. لم يكن رسول الله وصحبه الكرام أصحاب مذاهب دينية مختلفة، كما حدث للمسلمين بعد وفاة رسولهم. فكيف السبيل إلى العودة إلى ما كان عليه الرسول وصحبه الكرام؟!!. إن هدف هذه الدراسة هو بيان أن «السنة النبوية» طريق واحد يسلكه كافة المسلمين أمة واحدة، منذ عصر الرسالة وإلى قيام الساعة، الأمر الذى لا يتحقق إلا إذا كانت نصوصها التى تستقى منها لا تتبدل ولا تتغير، محفوظة بحفظ الله لها، عبر رحلتها من عصر الرسالة وإلى يوم الدين!!!!.

أرجو من القارئ الكريم، عالما كان أو داعيا أو مفكرا، أن يقرأ هذه الكلمات ويتدبر مقاصدها الحقيقية، دون أى خلفية دينية مذهبية، وذلك قبل أن يعلق أو أن ينتقد أو يحكم على كاتب هذه الدراسة بأى حكم شاء!!.

أنا كمسلم، نشأت فى بيئة علمية دينية، أشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأقيم أصول الإسلام والإيمان التى فرضها ربى على، أحمل مؤهلات وأدوات البحث العلمى المخلص الجاد، تفرغت سنوات تفرغا كاملا للبحث والدراسة العلمية للوقوف على أسباب تفرق علماء المسلمين إلى فرق ومذاهب مختلفة متخاصمة متصارعة، يستحل بعضها دماء بعض بغير حق وتنشر مأساتهم هذه (وخاصة فوضى الفتاوى الفقهية التكفيرية) على القنوات الفضائية، وشبكة الإنترنت العالمية بصورة هزلية مؤسفة، جنى المسلمون ثمارها عبر العصور تخلفا وذلا وانتهاكا لهويتهم ومقدساتهم، وإلى يومنا هذا!!.

نحن نعيش مأساة أبرز مظاهرها تفرق علماء الفرق الإسلامية، بل وعلماء مذاهب الفرقة الواحدة، وبعد أن تبين لى بالبحث العلمى وبما لا يدع مجالا للشك أن هذا التفرق ليس من باب التعددية الفكرية التى يسمح بها فى الإسلام، وإنما هو مما حذر الله المسلمين منه فى كتابه الحكيم، والذى كان هو محور دراساتى الرئيسى.

وليعلم القارئ الكريم أن أى باحث يخرج على قومه بما يخالف ما ألفوه، ويهدم ما ورثوه من تدين مذهبى، يُتهم على الفور بالردة عن هذا الدين (والحقيقة أنها ليست بردة لأن المولود يُفرض عليه مذهب آبائه يوم يولد)!!.

أو يُتهم بالعمالة لجهة أجنبية أو بالعمل على إقامة تنظيم يهدف إلى هدم دينهم. لذلك نجد أن أنصار ودعاة الفرقة والمذهبية يسارعون على الفور بإثارة الناس ضده، ليشلوا حركته فى الحياة، فينعزل عن حياتهم الاجتماعية ويُضيق عليه فى الرزق، ظنا منهم أنهم يملكون مفاتحه!!.

واللافت للنظر أن هؤلاء «المكفرين» يعلمون جيدا أنه لا سبيل أمام الباحث الذى يريد أن يتعرف (فى القرن الخامس عشر الهجرى) على طبيعة وخصائص النص الإلهى الذى أمر الله تعالى رسوله والمؤمنين باتباعه، ليقيم على أساس ذلك تدينه إلا بدراسة أمهات الكتب الدينية التى ورثتها الفرق والمذاهب المختلفة، ليقف على طبيعة نصوصها وخصائصها المميزة لها مقارنة بطبيعة النص الإلهى المنزل وخصائص هذا النص واجب التصديق بصحة نسبته إلى الله تعالى أولا والإيمان به كمصدر تشريعى إلهى.

كذلك فإن الباحث اليوم لا يملك للتحقق من صحة ما نُسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث إلا بدراسة كتب المرويات التى ورثتها الفرق والمذاهب المختلفة كل وفق شروطه فى الصحة والضعف. ولا يستطيع أحد من علماء الفرق والمذاهب المختلفة أن يدعى أن الله تعالى قد أوحى إليه بما صح من هذه المرويات ليقول أنه قد وقف على صحة نسبة هذه المرويات إلى رسول الله يقينا.

إن القضية ليست قضية تشكيك فى تراث الأمة الدينى، وإنما هى قضية تحقيق علمى، على كل طرف من أطراف النزاع أن يقدم الدليل والبرهان على صحة ما ذهب إليه، بحرية كاملة، ودون أن ينظر كل طرف إلى الآخر نظرة تكفير أو عداء أو تخاصم. لقد وجدت، وأنا أقوم بتدوين صفحات هذه الدراسات العلمية (وأنا خارج دائرة التقليد المذهبى) أن محور تفكيرى لا يرى بصورة رئيسة واضحة إلا عصرين من الزمان:

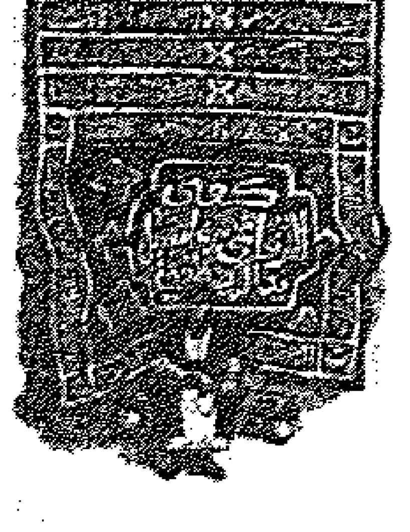
عصر الرسالة الخاتمة: الذى أشهد شهادة علمية أن كل ما نقله القرآن عنه حق ثابت ثبوت القرآن نفسه. والعصر الذى أعيش فيه: ذلك الذى لا أستطيع أن أشهد فيه شهادة علمية تقوم على يقين قطعى الثبوت أن ما حملته الفرق والمذاهب من مرويات تشريعية منسوبة إلى رسول الله حق واجب الاتباع!!.

إن ميزان وأدوات إثبات قطعية المصدرين أصلا مختلفة!!. لذلك كان قلمى يتحرك بين العصرين، فتارة ينظر إلى كتاب الله فيرى الحق ناصعا، يحذر المسلمين من التفرق فى الدين، فإذا نظر إلى واقع المسلمين لا يرى هذا الحق معمولا به!!.

فالإشكالية التى كانت أمامى وما زالت هى: لماذا لم ترث الأمة الإسلامية على مستوى جميع الفرق والمذاهب المختلفة كتاب الله تعالى، وكتابا واحدا جامعا لأحاديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بنفس درجة الحفظ الإلهى، وبنفس درجة الإسناد المباشر إلى الله تعالى، وإلى رسوله يرجع إليهما المسلمون كافة، منذ عصر الرسالة وإلى يوم الدين، إذا كانت هذه الأحاديث نصوصا تشريعية يحرم مخالفتها وعدم اتباعها؟!

وجدت أن مصطلح «إنكار السنة» (الذى يحمله علماء كل فرقة سلاحا قاتلا فى وجه المخالف لمذهبهم) هو فى حقيقته مصطلح مذهبى قام

قبل ظهور الفرق والمذاهب
السنة النبوية حقيقة قرآنية
محمد السعيد مشتهرى
تقديم: عبدالصبور شاهين
القاهرة ـ دار مصر المحروسة ـ ٢٠٠٦



على رؤى واجتهادات علماء كل فرقة لحجية الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله، والتى على أساسها أقاموا علما لتصحيحها وتضعيفها فأصبح الحديث الصحيح عند فريق ضعيفا أو موضوعا عند آخرين.

فسألت نفسى:

أين نجد فى هذه الحالة من التفرق المذهبى موقع «إنكار السنة»؟!!.

ولا يخفى على كل ذى بصيرة ما نشأ بين علماء الفرق (بل وبين علماء مذاهب الفرقة الواحدة) من خصومات بسبب علم الجرح والتعديل، والتصحيح والتضعيف، والتى وصلت إلى حد رمى كل فريق الآخر بالضلال والفسق، بل وأحيانا بالكفر، ومخالفة سنة رسول الله، وعدم اتباع سبيل المؤمنين!!!

لقد ارتبطت مسألة اختلاف المناهج بين الفرق فى طرق إثبات الأحاديث القولية إثباتا قطعيا بقضية «تكفير المسلم لأخيه المسلم» المخالف له فى المذهب. ولقد امتدت جذور هذه المسألة إلى عصور الفتن الكبرى التى بدأت تنبت بعد وفاة رسول الله مباشرة، والتى نجنى نحن اليوم ثمارها!!.

وإن أخطر ما نجنيه من ثمار التخاصم والتكفير هو هذه القنابل البشرية التى تتسع رقعتها يوما بعد يوم تحت راية «هنيئا لنا الجنة يا أخى والحور العين».

وجدت أن المسلمين جميعا أمام خطر محو هويتهم الإسلامية، هذا الخطر الذى لا يشك فى زحفه على العالم الإسلامى إلا مطموس القلب مغيب البصيرة. هذا الخطر الذى يتحمل مسئولية زحفه وتحركه (بعد أن كان خامدا) كثير من علماء المسلمين (بعيدا عن شماعة المؤامرة) وذلك لتفرقهم وتخاصمهم وعدم تفاعلهم مع سنن التطور الحضارى، وانشغالهم بخلافاتهم المذهبية، وفتاوى التخلف وثقافة الهزيمة!!.

فلماذا لا يفتح العلماء والدعاة والمفكرون قلوبهم لفهم واستيعاب فكر الآخر ووجهة نظره، فلعل ذلك يضيف إليهم شيئا جديدا؟!!. ألم تكن الفتاوى التخاصمية التكفيرية (ومازالت) وراء التفجيرات الانتحارية التى يقوم بها أتباع فرقة إسلامية وسط أتباع فرقة أخرى (من أفغانستان مرورا بباكستان ووصولا إلى العراق) والتى أصبحت اليوم ظاهرة خطيرة لا تخفى على أحد، بل وتهدد استقرار وأمن الناس جميعا؟!!!.

ومما يزيد ما فى نفسى ألماً وحزنا أن يُبث هذا الواقع على الفضائيات وعلى شبكة الإنترنت وتحمله منابر الدعاة، وخاصة الدعاة الجدد لما أصبح لهم من حضور إعلامى غير طبيعى، وقاعدة شبابية غير مسبوقة، دون فهم واع لما يقذفونه فى قلوب هؤلاء الشباب الحائر المسكين المغلوب على أمره، من فكر إسلامى مغلوط ومن تدعيم لثقافة التخاصم والتكفير وهم لا يشعرون!!. فإذا قام أحد بالهجوم على الإسلام والمسلمين مستخدما قاعدة البيانات التراثية التخاصمية المذهبية هذه، والتى يحملها هؤلاء إلى الناس، ويقدمونها هدية ثمينة لأعدائهم... قامت الدنيا ولم تقعد!!.

إن إشكالية الأمة الإسلامية تتحدث عن نفسها، والبكاء على المريض لن يشفيه، لذلك علينا أن نتحرك من واقعنا المعاصر، ونواجه مشكلتنا بفهم واع وإدراك حقيقى لأسبابها، وأن نسعى للنهوض من سباتنا، ونعيد الاتصال بعصر الرسالة كنقطة انطلاق نحو الخيرية التى وعدنا الله تعالى بها.

ونحن حين نتحدث عن الانطلاق من عصر الرسالة نتحدث عن الانطلاق من عصر فكر الأمة الواحدة، تلك الأمة التى حملت كتابا تشريعيا واحدا، وشهد أفرادها تفعيل آياته فى واقع حياتهم، تحت راية إمام واحد، رسول الله محمد، صلى الله عليه وسلم. أمة لم تعرف الفرقة ولا المذهبية، ولم تعرف أصول فقه متخاصمة متناقضة ولا مدارس جرح وتعديل يهدم بعضها بعضا!!!.

ومن منطلق ما سبق ألتمس من القارئ عذرا لما قد يجده فى قلمى من حدة فى التعبير عما فى نفسى من هذا الواقع المؤلم، لتفرق وتخاصم علماء الفرق والمذاهب المختلفة. إن القارئ الكريم سيجد نفسه أمام تعبيرات يكررها الكاتب فى مواضع كثيرة من هذه الدراسة، قد يشعر فيها بشىء من التجنى على تراث الأمة، أو على ما توارثته من أحاديث لها قدسيتها فى قلبه، ولكن هذا الذى سيجده هو ما سيشعر به كل مسلم غيور على دينه وإسلامه، وعلى وحدة كلمة علماء أمته، ونبذ التخاصم وثقافة التكفير بينهم، وذلك إذا قام بدراسة علمية تُمسك بجوهر القضية من الناحية الدينية (وليس السياسية) والتى يغض الطرف عنها كثير من أنصار الفرقة والمذهبية ليبقى الحال على ما هو عليه!!.

فعندما أقول (على سبيل المثال): «فلنجتمع حول نصوص القرآن وما اتفقنا عليه من كيفيات الأداء العملى لما أجمله من أحكام، ما لم يخالف نصا قرآنيا، أو مقصدا من مقاصده الحكيمة، وما عدا ذلك (فلنتركه الآن جانبا) ولنقف صفا واحدا فى مواجهة التحديات المعاصرة، لعل الله يهدينا إلى وجه الحق فيما تركناه واختلفنا بشأنه»...

لا أقصد بذلك هدم تراث الأمة الدينى، وما يحتويه من أحاديث قولية منسوبة إلى رسول الله، وإنما الربط بين ما يجب أن يكون (وفق عصر الرسالة) وبين ما هو كائن اليوم!!. فلنجتمع على ما اتفقنا على حجية نصوصه وصحة نسبتها إلى الله تعالى، حتى نتحقق من قطعية ثبوت ما يثبت منها ونجمع عليه!!.

وعندما أقول وأكرر: «ونحن نعيش اليوم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضع النص القرآنى سلوكا عمليا أخلاقيا فى واقع الحياة، على الوسطاء من علماء الفرق والمذاهب المختلفة أن يمتنعوا»، أقصد:

ما سبق أن بينته من إيمانى بوجوب أن يصل إلى اليوم كتاب واحد يحمل أحاديث رسول الله (مهما كان حجمه وعدد أجزائه) بنفس درجة الثقة التى فى نسبة كتاب الله إلى الله تعالى، الأمر الذى لو تحقق لما وجدنا لمدارس الجرح والتعديل المختلفة المتصارعة وجودا، ذلك لأن حديث رسول الله عندئذ سيصل إلى الناس جميعا دون واسطة من رواة ومحدثى الفرق والمذاهب المختلفة كحديث الله تعالى تماما، هذا إن كنا نؤمن حقا بأن المصدرين تشريع إلهى يتوقف إسلام المرء على اتباعهما!!!.

وإلى أن يتحقق ذلك فلنجتمع على ما تلقيناه من الله تعالى مباشرة من شريعة محكمة محفوظة بحفظ الله لها.

وعندما أكرر بعد كل سورة قولى:

«فهل وجدت وأنت تتلقى من رسول الله هذه التوجيهات غموضا يجعلك لا تستطيع العمل بها؟!!. أم أنك شعرت بحاجتك إلى مزيد من التفاصيل المتفرعة عنها كما هو الحال فى كتب الفقه المذهبى..» أقول:

إن تفعيل رسول الله للنص القرآنى فى واقع حياته لا شك أنه يشمل حديثه القولى مع قومه وصحابته وأهل بيته، والمكون من كلماته، فهل يستطيع مسلم عاقل متدبر لكتاب الله أن ينكر ذلك؟!.

ألم يقل رسول الله للسيدة عائشة (رضى الله عنها) يوما أريد ماءً؟!. ألم يقل رسول الله لأحد «لا تغضب» والذى هو تفعيل لكثير من نصوص القرآن؟!.

ولكن هذه ليست الإشكالية التى هى محل بحثى ودراساتى، فتفعيل رسول الله للنص القرآنى هو أصلا تفعيل لنص «قولى» إلهى:

. إنه إعادة لصياغة الآية القرآنية ولتوجيهاتها بلغته (صلى الله عليه وسلم) وتعبيراته، وليس بيانا لمعناها اللغوى، وإلا نكون قد هدمنا بهذه الدعوى الآية القرآنية التى تحدى الله بها أهل اللسان العربى، أهل الفصاحة، أن يأتوا بمثلها!!. فهل يعقل أن يتحدى الله تعالى العرب بكلمات لا تُفهم؟!!.

. وليس إنشاء نص قولى تشريعى جديد يكون من محتوى رسالته التى أمره ربه أن يدونها فى الصحف لتكون للعالمين منهج هداية!!.

وإلا نكون بهذه الدعوى قد اتهمنا رسول الله بالتقصير فى تدوين هذا المصدر الثانى للتشريع وتوفى (صلى الله عليه وسلم) تاركا هذا المصدر بين أيدى الناس، والرواة والمحدثين يصححه من يصححه، ويضعفه من يضعفه!!.

. أما ما حمله هذا النص «القولى» الإلهى من أحكام مجملة تحتاج إلى بيان كيفية أدائها، فهذا ما تعلمته الأمة عن رسول الله بالتقليد والمحاكاة، جيلا عن جيل، وليس من خلال نصوص أمر رسول الله بتدوينها فى الصحف (كالقرآن) فهذا التدوين جاء لاحقا لمنظومة الأداء العملى لهذه الأحكام المجملة.

فلا فرق بين فرضية النص المجمل الآمر بأداء عبادة معينة، وبين بيان الرسول لكيفية أداء هذه العبادة، من حيث حفظ الله لأصول هذه الكيفية عبر منظومة التواصل المعرفى (ولهذا الموضوع دراسة مستقلة)، ذلك لأن هذه الكيفية تابعة للنص المفروض من الله تعالى، والمحفوظ بحفظ الله له، وليست نصا تشريعيا مستقلا عنه.

ولا يقاس على ذلك فيقال: إن الأحاديث القولية المنسوبة إلى رسول الله تأخذ نفس حكم هذا الأداء العملى، وذلك لأننا لا نملك دليلا قطعيا على أن الله أنزل على رسوله نصا تشريعيا قوليا... أمره الله أن يدونه فى الصحف.. وتحت إشرافه (صلى الله عليه وسلم).. ليكون من محتوى رسالته العالمية الخاتمة... غير النص القرآنى.

قد يكون هناك كلام بين الله ورسوله خاصا بأحداث عصر الرسالة، ولكنه ليس

القضية ليست قضية تشكيك
فى تراث الأمة الدينى، وإنما هى قضية
تحقيق علمى، على كل طرف من أطراف النزاع
أن يقدم الدليل والبرهان على صحة
ما ذهب إليه، بحرية كاملة

من محتوى رسالة الله للعالمين، لذلك لم يتضمنه القرآن، ولم يأمر الله تعالى رسوله بتدوينه فى الصحف، كشريعة واجبة الاتباع إلى يوم الدين!!.

إن ما ورثته الأمة من أحاديث منسوبة إلى رسول الله لا يستطيع عاقل أن ينكر ثبوتها عن الرواة الذين نقلوها، ولا يستطيع عاقل أن يشكك فى إمكانية أن تكون قد حملت أقوالا فعلية لرسول الله، ولكن الإشكالية ليست فى ثبوتها أو عدم ثبوتها عن الرواة، أو عن رسول الله (فقد تكون خاصة بعصر الرسالة) وإنما الإشكالية فى ثبوتها عن الله تعالى كنص تشريعى واجب الاتباع إلى يوم الدين، الأمر الذى يحتاج إلى أدلة قطعية لا تختلف عن أدلة حجية كتاب الله تعالى!!!.

فإلى أن يصل علماء الفرق والمذاهب المختلفة إلى هذه الأدلة القطعية المجمع عليها بينهم، فليجتمعوا حول النص القرآنى وتفعيله فى واقع حياتهم!!. لأنه يستحيل أن تتحول طاعة رسول الله بعد وفاته من قضية إيمانية يقينية ونصوص قطعية وضع حدودها الله تعالى فى عصر الرسالة، وقام بتفعيلها رسول الله وصحبه الكرام، إلى قضية ظنية الثبوت لا عن الله تعالى ولكن عن رسوله.

وإذا نظرنا إلى مسألة استقلال الأحاديث (المنسوبة إلى الرسول) بالتشريع سنجدها محل خلاف بين علماء الفرق، بل وبين علماء مذاهب الفرقة الواحدة وذلك لضعف الأدلة التى يُعتمد عليها فى إثبات حجيتها مقارنة بحجية كتاب الله تعالى، والمكتبة الإسلامية (للفرق والمذاهب المختلفة) خير شاهد على ذلك!!.

لقد قرأت بحثا بعنوان: «السنة كلها تشريع»، وآخر «السنة والتشريع» للأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين (نائب رئيس جامعة الأزهر سابقا ورئيس مركز السنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية) وجه فيهما اتهامات خطيرة لكل من: فضيلة الشيخ محمود شلتوت (شيخ الأزهر الأسبق) . والدكتور عبد المنعم النمر (وزير الأوقاف الأسبق). والدكتور يوسف القرضاوى (رئيس الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين وعضو المجلس العالمى الأوروبى للإفتاء).

وذلك لإيمانهم بأن السنة تنقسم إلى: سنة تشريعية وغير تشريعية، وفضيلته يؤمن بأن السنة كلها تشريع!!. ومن هذه الاتهامات الخطيرة التى تشكك فى صدق إيمان هؤلاء، قول الدكتور موسى فى بحثه «السنة والتشريع» ص ٤٧:

«لكن مشكلة العصر تشكيك بعض علماء المسلمين فيها بصفة عامة بهدف أو بآخر، ولا نبالغ إذا قلنا: إن أعداء الإسلام والمستشرقين بل والاستعمار والغزو الثقافى وراء هذه المحاولات، أو بالأحرى وراء بعض هذه المحاولات، ومما لا شك فيه أن كثيرا ممن يرفع عقيرته فى السنة بغير علم قد رضع لبنا غير لبانها وفطم عن ثدى غير ثديها سواء أدرك ذلك أو لم يدرك».اهـ

ويرد الدكتور موسى (ص ٥٥): على ما قاله الدكتور عبد المنعم النمر فى كتاب له باسم «السنة والتشريع»، فيقول:

يقرر الباحث أن له أن يجتهد كما كان الرسول يجتهد، ويبيح لنفسه أن يخالف حكم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصريح لفظه ونص حديثه، فيقول فى كتابه: «مادام الرسول كان يجتهد، وما دام هذا الاجتهاد قد شمل الكثير من أنواع المعاملات أفلا يجوز لمن يأتى بعده من أيام الصحابة، وحتى الآن، أن يدلى فى الموضوع باجتهاده أيضا، ولو أدى اجتهاده إلى غير ما قرره رسول الله باجتهاده؛ ولا يصبح ما قرره الرسول باجتهاده حكما ثابتا للأبد». اهـ

ثم يؤكد الدكتور موسى اتهامه للدكتور عبد المنعم النمر بقوله ص ١٠٢: «قد أكون أطلت بعض الشىء، وعذرى أن البحث خطير (يقصد كتاب الدكتور النمر) بل وأخطر ما كتب عن السنة حتى اليوم وأخطر من كتابة المستشرقين والمبشرين، لأنه ممن ينتسب إلى العلماء المسلمين».اهـ

ويقول الدكتور موسى فى بحثه (السنة كلها تشريع) ص ٥٨: «هذه القضية (السنة كلها تشريع) لم يخالف فيها أحد من علماء المسلمين فى أربعة عشر قرنا مضت. ولم نسمع ولم نعلم أن واحدا من علماء المسلمين قسم السنة (أى الحديث) إلى تشريع وإلى غير تشريع؛ حتى كان النصف الثانى من القرن الخامس عشر الهجرى فكان أول من قسم السنة إلى تشريع وإلى غير تشريع فضيلة المرحوم الشيخ محمود شلتوت فى كتابه «الإسلام عقيدة وشريعة». اهـ

ثم ينقل عن الدكتور يوسف القرضاوى قوله: «وعن الشيخ شلتوت أخذ الكثير من المعاصرين فيما كتبوه عن السنة وتقسيمها إلى تشريعية وغير تشريعية» اهـ. وينقل الدكتور موسى رأى الشيخ شلتوت:

«أن كل ما ورد عن النبى، صلى الله عليه وسلم، ودون فى كتب الحديث من أقواله وأفعاله وتقريراته وكان على سبيل الحاجة البشرية (كالأكل.. التزاور.. والشفاعة والمساومة فى البيع والشراء) أو كان على سبيل التجارب والعادة الشخصية أو الاجتماعية (شئون الزراعة، الطب، اللباس) أو على سبيل التدبير الإنسانى (كتوزيع الجيوش.. وكل ما يعتمد على وحى الظروف الخاصة). فكل ذلك ليس شرعا يتعلق به طلب الفعل أو الترك وإنما هو من الشئون البشرية التى ليس مسلك الرسول فيها تشريعا ولا مصدر تشريع». اهـ

ثم يعلق الدكتور موسى على ذلك بما سبق أن قاله بالنسبة للدكتور عبد المنعم النمر، ثم يقول ص٦٢: «وأحدث من كتب فى موضوعنا بإسهاب، وتولى العرض بحماس ونادى بصوت عال عن وجود سنة غير تشريعية الدكتور يوسف عبد الله القرضاوى...».

وفى ص٧٢ قال: «وهكذا يتبين أن الشبهات التى تعلق بها المخالفون شبهات واهية، نشأ أكثرها من التباس الأمر عندهم، بين التشريع الملزم المطلوب والتشريع غير الملزم وغير المطلوب!!. لكنهم كلهم على اختلاف مناهجهم ينفون التشريع عن بعض أفعاله، صلى الله عليه وسلم، بل ينفون الرسالة عنه فى بعض أقواله كلهم يقول ذلك، والفرق بينهم فى الأفعال التى تطبق عليها هذه الصفة». اهـ

وأخطر ما فى هذه القضية استدلال الدكتور موسى على موقف هؤلاء العلماء من «السنة» بآيات قرآنية تحذر من الضلال، وتنفى صفة الإيمان عمن يفعل فعلتهم، كقول الله تعالى فى سورة الأحزاب:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾

وقول الله تعالى فى سورة النور:

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

حيث يقول الدكتور موسى: «وما كان لمسلم يبلغه حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيرده زاعما أن المصلحة فى خلافه...»!!!. لقد ساوى الدكتور موسى بين مخالفة أمر الرسول (الذى بينته الآية السابقة لهذه الآية) وهو قوله تعالى مخاطبا المعاصرين لرسول الله «وإذا كانوا معه على أمر (جامع) لم يذهبوا حتى يستأذنوه»، وهو موقف يجمع رسول الله شخصيا مع المؤمنين لأمر هام يستوجب عدم الانصراف إلا بعد استئذان!!.

وبين مخالفة ما بلغه الرواة من أحاديث منسوبة إلى رسول الله، والتى لم تدون فى كتاب واحد (مجمع) عليه (إلى يومنا هذا) بين علماء الفرق والمذاهب المختلفة (منذ ظهورها)!!!. فهل يعقل أن تحل المرويات الظنية المنسوبة إلى رسول الله محل شخصه الكريم، صلى الله عليه وسلم، بحيث يكون لمخالفتها نفس العقوبة التى تترتب على مخالفته فى حياته؟!!.

كما استدل فضيلته بقول الله تعالى فى سورة النساء:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

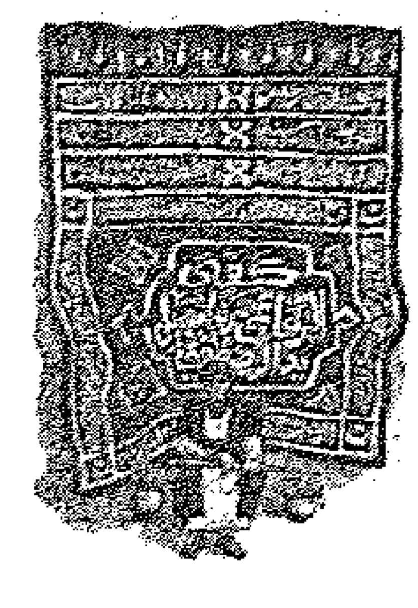
لقد أتيحت لى فرصة أن أناقش فضيلة الدكتور موسى شاهين لاشين فى بيته حول هذه النظرة التخاصمية بين علماء المذاهب الفكرية المختلفة، وكان محور تعليقاتى هو: إن الخلاف بين العلماء (مهما كان حجمه) لا يجب أن يدخل دائرة التخاصم والاتهام بالضلال!!.

إننا جميعا نركب سفينة واحدة فى مواجهة تحديات عالمية تريد محو هويتنا بل واقتلاعها، وإن ما آمن به هؤلاء العلماء لا يتضمن بأى حال من الأحوال مخالفة للنبى، فلو بعث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليعيش معنا اليوم فإنه لم يكن ليأمرنا أن نستنجى بالحجارة ثلاثا، أو أن نركب الدواب بدلا من السيارات، أو أن نعود إلى نظام المقايضة فى البيع والشراء وأن نقاتل بالخيل والسيف بدلا من الصاروخ والطائرة!!!. ولو كان هؤلاء العلماء الثلاثة (وأنا معهم) فى عصر النبى لفعلنا ما يأمرنا به مما يقتضيه عصر النبوة سمعا وطاعة!!!.

لقد كان محور رد فضيلته على تعليقاتى قوله:

إن هؤلاء العلماء أقروا بصحة الحديث، ولكنهم لا يعتبرونه سنة تشريعية إلى يوم الدين، وهذه هى الإشكالية التى وقعوا فيها، أما أنت فقضيتك ليست فى صحة الحديث أو ضعفه، لوجود شبهة عندك فى قطعية ثبوت الحديث أصلا عن رسول الله، لذلك لا يستطيع أحد أن يتهمك أو يعترض عليك لوجود هذه الشبهة.

إن إشكالية الأمة تتحدث عن نفسها، لذلك علينا أن نتحرك من واقعنا المعاصر، ونواجه مشكلتنا بفهم وإدراك، ونعيد الاتصال بعصر الرسالة كنقطة انطلاق نحو الخيرية التى وعدنا الله تعالى بها



ومثال آخر أشد خطورة: لقد كتب فضيلة الشيخ الغزالى كتابه: «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» فقوبل بسيل من الاتهامات، وحكم عليه بعض العلماء والدعاة بالردة وهو الذى أفنى حياته فى الدعوة الإسلامية، بل وتربع على عرشها. ولكن لماذا؟!!. لأنه خالف فى كتابه مقدسات فرضتها مرويات ثقافة التخاصم على المسلمين باعتبارها من السنة التشريعية الواجبة الاتباع.

لقد قمت على الفور بمقابلة الدكتور عبد الله المشد (رئيس لجنة الفتوى الأسبق) فى أواخر يناير عام ١٩٩٠) لمناقشته فى قضية تكفير الشيخ محمد الغزالى، وقلت له: هل يعقل أن ينزل الله نصا تشريعيا مستقلا عن كتاب الله (يُحكم على منكره بالكفر) ثم لا يأخذ نفس خصائص نصوص القرآن. من حيث الحفظ الإلهى وإشراف الرسول على تدوين نصوصه، ومراجعتها وإقرارها قبل وفاته؟!!.

وفى نهاية الحوار، طلبت من فضيلته (بصفته الوظيفية) أن يضع حدا لهذه الفتاوى التكفيرية التى يرفعها كل من هب ودب سلاحا فى وجه كل من يخالف مذهبه، بل وفى وجه كل مفكر مسلم مخلص لدينه محب لله ورسوله، يريد أن يدفع عن رسول الله ما نُسب إليه، صلى الله عليه وسلم، من افتراءات لا يقبلها مسلم، خاصة وقد وصل سلاح التكفير لقمة من قمم الدعوة الإسلامية. فطلب منى الدكتور المشد أن أتقدم بطلب للجنة الفتوى بالأزهر الشريف أحدد فيه مطلبى، وكان سؤالى لها: «ما حكم من أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم، هل يعد كافراً؟!!. ولقد جاءت الفتوى الصادرة فى ١٩٩٠/٢/١ على النحو التالى: «وعلى هذا فمن أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم فهو منكر لشىء اختلف فيه الأئمة ولا يعد مما علم بالضرورة فلا يعد كافرا».

ولقد طلب فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهرى من الدكتور المشد نشر هذه الفتوى، تضامنا منه مع الشيخ الغزالى، بعد غمزه ولمزه، وبعد هذه الحملة الشرسة التى قادها أنصار ودعاة الفرقة والمذهبية ضد هذا العالم الجليل، والتى ما زالوا يقودونها رافعين سلاح الردة فى وجه المخالف لهم فى المذهب!!.

ولقد وعد الدكتور عبد الله المشد بنشرها فى كتاب له، ولكن لما طال الانتظار قام فضيلة الشيخ الغزالى بنشرها فى كتابه: «تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل» (ط١ ص١٧٥).

والشيخ محمد الغزالى يرى أن النص التشريعى، الذى لا يقبل خلافا بين علماء المسلمين (لقطعية ثبوته عن الله عز وجل) هو النص القرآنى، وما عداه فيقبل الخلاف (لظنية ثبوته عن الله تعالى)، وأن السنة النبوية بيان لهذا النص القرآنى، ولا تكون أبداً حاكمة عليه. ويعلق على هذه الفتوى (فى كتابه المشار إليه سابقا ص١٨١) فيقول:

«والفتوى التى نقلناها تشير بشىء من الإجمال إلى رأى الأزهر فى ضرورة التعويل على القرآن أولا، وإلى أن العقائد لا تستقل بإثباتها أخبار الآحاد. وما نوصى به هو تدبر القرآن الكريم، وإدامة النظر فيه، واستصحاب معانيه عند قراءة السنن. أما أن يكون المرء عابر طريق أمام آيات الله، ومطيل المكث أمام بعض الأخبار، فهذا غير سائغ... لا يجوز أن يكون المرء أعشى أمام القرآن وحاد البصر أمام الأحاديث، وقد سمعت كلمات سمجة فى هذا المجال!! قال بعضهم: حاجة الكتاب إلى السنة أشد من حاجة السنة إلى الكتاب... وهذه موازنة خاطئة... نحن نؤمن بالكتاب والسنة معا. ونؤمن بأن السنة فرع والكتاب أصل، ونؤمن بضرورة الاستيقان من أن الرسول قال وأن هذا الاستيقان لا يتم إلا بوزن السند والمتن معا... وهذا منهج العلماء الراسخين والرجال الثقات، ولا تعويل على من دونهم!!».

وفى ص١٨٢، يوضح موقفه من السنة فيقول: «والخلاصة أن السنة لا تكون إلا بيانا للقرآن، بيانا يتسق مع دلالاته القريبة والبعيدة، ويستحيل أن تتضمن معنى أو حكما يخالف القرآن الكريم».

وفى كتابه: «نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم» (ط١، ص٦) يقول: «والقرآن الكريم خلاصة ما أنزل الله من وحى فى القرون الأولى، وقد توافر له من الحفظ ما ضمن له الخلود...

ولا يوجد فى الأولين والآخرين كتاب وعته القرائح وسجلته الصحائف وحفه التواتر حرفا حرفا إلا هذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه». فلو سأل سائل: أين وحى الله فى هذا العصر؟!. لما كانت الإشارة إلا إلى القرآن، ولا الإشادة إلا بكلماته...».

وفى كتابه: «المحاور الخمسة للقرآن الكريم» الطبعة الثانية ١٩٩٧م ص٥:

«عندما يسأل المسلمون: هل لله وحىٌ يهدى العالم القديم والجديد إلى الحقائق ويخرج الناس كلهم من الظلمات إلى النور، فإن إجابتهم المفردة: نعم، هذا القرآن الكريم.

الثقة فى هذا الكتاب وحده، الذى لم ترق إليه شبهة، والذى لم يختلط فيه الوحى الأعلى بفكر بشر...».

ويقول ص٦: «ومن بدء الوحى لا يوجد إلا هذا المصحف ولن يوجد غيره ما بقيت الدنيا».

وفى ص٧: «إننا نحن المسلمين نقول فى رسوخ وشموخ: ليس فى القارات الخمس ما يسمى وحيا محضا إلا هذا الكتاب الذى لا ريب فيه... ولن يُعرف الله معرفة صحيحة إلا من التأمل فى معانيه ومغازيه».

وفى ص١٠: «ليت المسلمين استقوا عقائدهم تصوراً وتصويراً من القرآن وحده: إذن لأراحوا واستراحوا».

وفى ص٦٥: «ولن يبصر المسلمون الطريق إلا إذا عادوا إلى الفلسفة القرآنية العملية وفقهوا قوله تعالى فى سورة الحديد:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾

والخلاصة:

إن المسلم المحب لله ولرسوله لا يمكن أن يترك نصوص «السنة النبوية» المحكمة والثابتة ثبوتا قطعيا بشهادة النص القرآنى نفسه (رسالة الله للناس كافة) ويذهب إلى مرويات البشر واجتهاداتهم المذهبية الظنية الثبوت، يبحث وينقب فيها ويتحرى ما صحت نسبته إلى رسول الله

عندما أقول فلنتجمع حول نصوص القرآن وما اتفقنا عليه من كيفيات الأداء العملى لما أجمله من أحكام، لا أقصد بذلك هدم تراث الأمة الدينى، وما يحتويه من أحاديث قولية منسوبة إلى رسول الله

كى يتبعه!!. أى رحمة إلهية فى هذا المنهج المذهبى؟!!.

وهل الذى يدعو علماء ودعاة الفرق والمذاهب المختلفة إلى خلع ثوب المذهبية والفرقة: من سنة وشيعة ومعتزلة وخوارج (وغيرها من المذاهب المتفرعة عن هذه الفرق) ورفع راية واحدة هى راية الإسلام، هل يتهم فى دينه وعقيدته؟!!!!.

ألم نبصر ثمرة الفرقة وما سفكت فى سبيلها من دماء، وجذور التخاصم التى زرعتها الاختلافات المذهبية عبر العصور؟!!!. ألم نعلم شيئا عن التفجيرات الانتحارية التى أصبحت ظاهرة يومية تنذر بمحو الهوية الإسلامية من العالم العربى والإسلامى؟. لماذا يصر كثير من علماء الفرق والمذاهب الإسلامية على تقديس ثقافة التخاصم؟!!!.

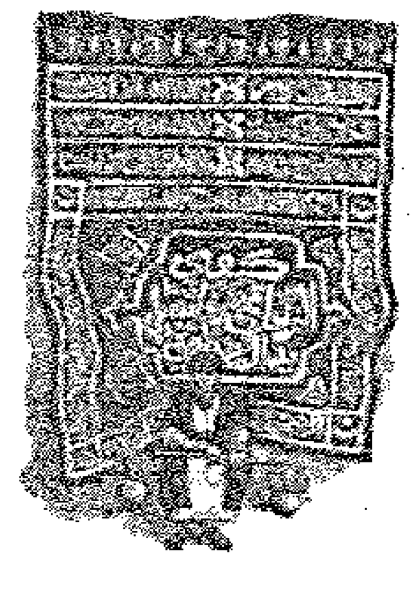
إن الحقيقة التى لا شك فيها (والتى يؤيدها واقع تراث الأمة الإسلامية المذهبى عبر العصور) أن الذين يتهمون من يدعو إلى العودة إلى قراءة القرآن (قراءة تتناسب مع كونه آية يجب أن تظهر فاعليتها اليوم) يتهمونه بالخروج من دين الله عز وجل يقصدون فى واقع الأمر الخروج من الدين الذى فرضه أتباع الفرق والمذاهب المختلفة على أولادهم يوم ولادتهم، والذين لم يكن لهم وقتها حرية اختياره.

إن الأمة الإسلامية المقطعة أوصالها اليوم لم تحظ بأى تأييد إلهى ينصرها على عدوها المحتل لأرضها، السالب لكرامتها، الناهب لخيراتها، المحطم لعزتها مع ما لديها من قوة عسكرية ترمى بها، فلماذا لا تنتصر على عدوها!!!.

إنها دعوة إلى جموع المسلمين وقيادات العمل الإسلامى ومنابر الدعوة إلى الفرقة والمذهبية (التى أصبحت تحتل مساحة كبيرة اليوم على القنوات المحلية والفضائية) وحركات الدعوة المنتشرة حول العالم، دعوة إلى إعادة النظر فى الشق الثانى من الآية الكريمة من سورة الأنفال: «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» والمتعلق بشرط رضا الله تعالى عن المسلمين كى يؤيدهم بنصره على عدوهم!!!.

إن رضا الله لا يتحقق إلا بإخلاص الدين لله تعالى (عقيدة وشريعة) وإعداد القوة التى ترهب عدو الله، والتى يعمل لها العدو ألف حساب قبل أن يفكر فى الإضرار بالمسلمين أو الاقتراب من أراضيهم. فأين نحن من هذه القوة؟!!. لماذا انحسر العمل الإسلامى فى انشغال كل فرقة وكل مذهب داخل الفرقة الواحدة بأجندته الفقهية الخاصة به مع بقاء فقه التكفير والتخاصم فى هذه الأجندة؟!!!.

إن الذى يميز المسلمين اليوم هو المظهر العام الذى قوامه الشعائر التعبدية: من



هذا الكتاب

«إن السنة النبوية ليست تراثا روائيا مذهبيا تتخذه كل فرقة لتدعيم توجهاتها المذهبية المختلفة، وإنما هي حقيقة قرآنية تقوم على تفعيل كافة المسلمين لذات النص القرآني المعجز في كل عصر، وفق إمكانياتهم العلمية والمعرفية».

بهذا النص ختم مؤلف كتاب «السنة النبوية حقيقة قرآنية» إيضاحه لفكرته عما ينبغي أن يراد بعبارة «السنة النبوية» في ضوء قول الله في سورة النساء:

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

وقد جاء في آيات القرآن لفظ «السنة» مضافا إلى لفظ الجلالة: «سنة الله» وورد أيضا مضافا إلى السابقين من رسل الله: «سنة الله في الذين خلوا من قبل» كما جاء ضمن قوله تعالى في سورة الأحزاب منسوبا إلى النبي صلى الله عليه وسلم:

مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾

فسنة النبي هي ما فرض الله له وعليه كما مضت سنته في الذين خلوا من قبل. ولكن التطور الدلالي أصاب لفظة «السنة» فجعلتها الأجيال مقصورة على ما ورثنا عن الماضين من تعريفها بأنها:

«ما أثر عن النبي، صلى الله عليه وسلم، من قول أو فعل أو تقرير أو صفة» وبذلك ازدوج معنى «السنة»:

أ. فهو أولا: ما يتعلق بتفعيل النص القرآني في شكل أفعال وسلوكيات تتمثل في تطبيق النبي للنص القرآني.

ب. وهو ثانيا: المأثور عن النبي من أقواله وأفعاله وتقريراته وصفاته.

ومن الواضح أن المؤلف قد لاحظ أن المعنى الثاني هو ما أدى إلى انقسام الأمة الإسلامية إلى فرق وطوائف، وأحزاب، بحسب ما انتهى إليهم من آثار السنة النبوية بالمعنى الثاني، ولعله هو مضمون إشارة القرآن عن «الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون» (الروم/ ٣٢).

فأما المعنى الأول فهو الذي اعتمده المؤلف منطلقا إلى بيان المراد بالسنة النبوية حسب اختياره، وهو يوشك بهذا الاختيار . في نظر الفرق والمذاهب . أن يتجاهل المعنى الثاني الذي تستند إليه في تبرير وجودها وتعددها.

والواقع أن هذا المعنى الثاني ليس موضوع دراسته واجتهاده، وهو يؤكد دائما اتجاه القرآن الكريم إلى توحيد الأمة ويحذر من انقسامها، في آيات كثيرة:

قول الله تعالى في سورة آل عمران:

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

وقول الله تعالى في سورة الأنعام:

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

وقول الله تعالى في سورة الأنفال:

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾

غير أن الزمام قد أفلت . فيما يرى . فانقسمت الأمة وتشرذمت لعوامل مختلفة أهمها . في رأي المؤلف . تناقض المرويات عن السنة واختلاف التفسيرات التي يستند إليها المتفرقون.

ونحن نرى أن الدوافع إلى الانقسام كانت مؤامرات عديدة، عملت على تفريق الأمة الواحدة، إلى حد أن صارت كل فرقة ترى أنها هي صاحبة الحق، وأن ما عداها خارج عن الملة، كافر بدين الله.

وقد جاهد أنصار الانقسام في التماس النصوص التي نسبوها إلى بيان النبوة بل ولقد وضعوا ما زعموا أنه من أحاديث الرسول ليدعموا مواقفهم الشاذة وهكذا اختلط الحابل بالنابل في بناء الأمة الواحدة.

إن محاولة المؤلف، التي تقوم على اعتبار «السنة» هي الصورة الفعلية للبيان القرآني، تخرجنا . في رأيه . من المأزق الذي تورطت فيه الفرق المختلفة، استنادا إلى مروياتها المريضة، وتضعنا مع النص القرآني العملي في التزام النبي بأوامر القرآن، وهو ما عبر عنه بعبارة «تفعيل النص القرآني» وهذا التفعيل هو «السنة النبوية» لا غير.

ولذلك صار في وسعه أن يتصور التطابق بين معنى «السنة النبوية» و«الحقيقة القرآنية»، وهو اتجاه أثار كثيرين من أهل الدعوة، بدعوى أن المؤلف منكر للسنة بالمعنى الثاني، وهو ما يترتب عليه إهدار «ما أثر عن النبي قولا أو فعلا أو تقريرا أو صفة»، وهو تراث يتجاوز مئات الألوف من أحاديث الرسول سواء أكانت صحيحة أم غير صحيحة!!... وقد عالج هذا الجانب علماء الجرح والتعديل.

والحق الذي نراه جمعا للشمل، وتوفيقا بين الجانبين، قد يدل عليه مضمون قوله تعالى في سورة المائدة:

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾

فالأمر بالتبليغ في الآية يشمل التبليغ بالقول والفعل لما أنزل إليه من ربه وقوله «وإن لم تفعل» ليس معناه في رأينا «وإن لم تبلغ» بل المقصود أن يكون التبليغ بالفعل، أي بلغ ما أنزل إليك بالقول وبالفعل، فإن بلغت بالقول فقط ولم تفعل . فما بلغت رسالته . وهو أيضا مضمون قوله تعالى في سورة الصف: «لم تقولون ما لا تفعلون... الآية». أليس هذا هو المقصود بتفعيل النص القرآني؟!. وعليه يمكن أن يكون المقصود بالسنة النبوية في رؤية المؤلف: «التبليغ النبوي بالفعل»، وحينئذ ينفض الاشتباك، ويبرأ المؤلف من شبهة إنكار السنة بالمعنى الثاني. إن الجهد الذي بذله الدكتور محمد مشتهري في تأليف هذا الكتاب، طبقا لفكرته عن «تفعيل النص القرآني»، لم يسبق أن بذل مثله مؤلف صاحب فكرة بناءة كهذه الفكرة، وإنه ليستحق أن يهنأ بما حالفه من توفيق الله وعونه.

ولا ريب أن فكرته قد فتحت بابا واسعا للدعاة، يثري عطاءهم، ويجدد نداءهم لجماهير المسلمين، أن يعودوا إلى لواء الوحدة الإسلامية، يستظلون به ويشربون تعاليمه، وينبذون الفرقة التي مزقتهم على مر التاريخ.

ولا ريب أن الرجوع إلى القرآن بتفعيل نصوصه، واستنطاق آياته، في ضوء البيان المحمدي الفعلي سوف يعيد للأمة حيويتها، ويزيد من طاقتها، ويعدل كثيرا من سلوكياتها، وهو أمل نطمح إليه جميعا، حيث تجتمع القلوب ويتعانق الإخوة المؤمنون ويومئذ يفرحون بفضل الله.

عبد الصبور شاهين

صلاة وقيام ودعاء، وصيام، وإنفاق غير حكيم، وحج وعمرة، وتجارة بالدين (عبر التسجيلات الصوتية التي تحمل مواعظ التطرف الداعي إلى الفرقة والتخاصم والتكفير وسفك الدماء بغير الحق) فلماذا لم ينصرنا الله تعالى وهذا هو حالنا؟!.

لماذا لم يمكن الله تعالى دينه الذي ارتضاه لنا، لنصبح بنعمته إخوانا، أمة واحدة تحمل أجندة فقهية واحدة للعمل الإسلامي؟!. لماذا لم يبدل الله تعالى خوف المسلمين أمنا؟!!. إنها مقومات القيام بأمانة الشهادة على الناس التي شرف الله تعالى بها هذه الأمة، فهل من سبيل للخروج من عنق الزجاجة؟!.

أين هي الأمة الإسلامية؟!!!. ولا أقول أين هم أهل السنة ولا الشيعة ولا المعتزلة ولا أقول أين الحنفية والحنابلة. إلى آخر هذه الأحزاب المتصارعة. أين المسلمون الذين لم يسمهم الله بهذه المسميات المذهبية وإنما سماهم «المسلمين» ليكونوا شهداء على الناس، لا ليتصارعوا فيما بينهم ويكفر بعضهم بعضا؟!. تدبر قول الله تعالى في سورة الحج:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

لقد حذر الله تعالى المسلمين من الفرقة ومن اتخاذ أسماء وهويات وجماعات دينية لم يشهدها عصر الرسالة، ولا كانت من سنة رسول الله التي أمره ربه باتباعها!!! ثم ها هم الآن يصرخون، ويتشنج دعاتهم على منابر الدعوة: في وجه المخالف لهم في المذهب بل وفي وجه القطب الواحد الأمريكي المسيطر اليوم على مقدرات شعوب العالم، والذي أصبح ينظر إلى المسلمين نظرة تخوف من هذا التدين المغلوط الذي يهدد مصالحه ومصالح أبنائه في المنطقة!!!.

ها هم يصرخون دفاعا عن فرقتهم وعن مذاهبهم وتخلفهم الحضاري، مكتفين بما حصلوا عليه من منابر الدعوة المذهبية عبر وسائل الإعلام، يطلقون منها فتاوى التخاصم والتكفير والتطرف والخرافات والتغييب العقلي، فيسلمون رقابهم بأيديهم إلى هذا المارد الجبار، ويهدونه أدوات الطعن في دينهم وفي إسلامهم ليغتصب بها حقوقهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا!!!

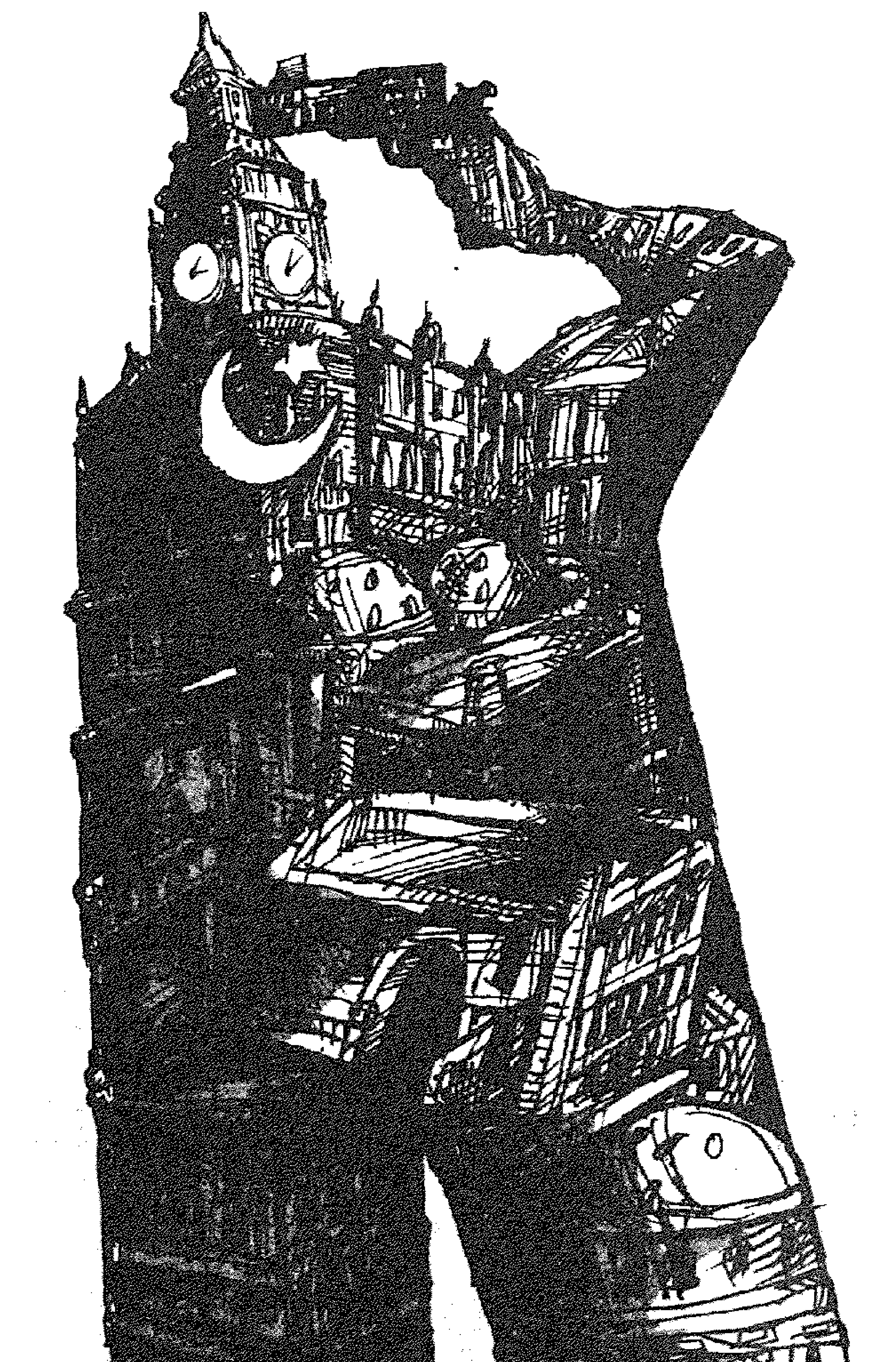
الإرهاب على الطريقة البريطانية

عــــزام التـميـمـــى

تعيش بريطانيا أجواء من الرعب غير مسبوقة، وذلك منذ أن أعلنت السلطات الأمنية البريطانية في أغسطس الماضي عن كشف خطة تستهدف تفجير طائرات ركاب أثناء طيرانها عبر الأطلسي بين بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. ومصدر الذعر والهلع ليس الإعلان عن اكتشاف الخطة، فقد سبقها إعلانات كثيرة عن نوايا وخطط قيل إنها كانت تستهدف البلاد والعباد بأعمال إرهابية، ولكن لم يحصل من قبل ما حصل الآن. الجديد فى الأمر هو الإجراءات الأمنية المفاجئة التى فرضتها السلطات فى مطارات البلاد وما لبث أن انتشرت إلى مطارات الدنيا قاطبة، حتى أضحى السفر جحيماً لا يطاق. فقد ألغى مطار هيثرو كافة الرحلات المحلية والأوروبية لما لا يقل عن ٤٨ ساعة، وأدخلت سلطاته الأمنية إجراءات تفتيش لم يسبق أن لجأت إليها من قبل، إذ منع المسافرون من اصطحاب أى شىء معهم على متن الطائرة، فلا حقيبة يد، ولا كتاب، ولا معجون أسنان، ولا هاتف نقال، ولا شىء يعمل بالبطاريات أو الكهرباء مهما صغر، ولا سائل أياً كان لونه أو طعمه أو رائحته، وجرد المسافرون من كل ما بحوزتهم حتى لم يبق إلا أن تنزع عنهم ملابسهم.

فى كل المرات السابقة كان الناس يسمعون عن الخطط المزعوم كشفها من خلال وسائل الإعلام دون أن يشعروا بها أو بأى أثر لها، أما الآن فقد عانى عشرات الآلاف من المسافرين الذين إما ألغيت رحلاتهم أو تأخرت ساعات طويلة بينما افترشوا أرصفة الشوارع المحيطة بالمطار، وهؤلاء شعر بهم عشرات الآلاف من أقاربهم ومعارفهم المودعين لهم أو المستقبلين، مما رسخ فى أذهان أكبر نسبة من الشعب البريطانى هاجس اقتراب الخطر الداهم من عتبة بيت كل واحد منهم.

ما من شك فى أن الحكومة البريطانية نجحت هذه المرة فيما فشلت فيه مرات عديدة من قبل. فمنذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر والسلطات تحاول جاهدة إقناع الرأى العام البريطانى بأن خطر الإرهاب محدق بالجميع، وبأنها إزاء ذلك مضطرة لإدخال تعديلات قانونية تسمح بردع من تسول له نفسه النيل من استقرار البلاد، فجاءت محاولات تمرير قانون الإرهاب بصيغه المختلفة بهدف الحد باسم القانون من الحريات المدنية وتجاوز حقوق الإنسان الأساسية التى ما فتئ البريطانيون يفتخرون بريادة العالم فى التمسك بها والدفاع عنها. ورغم كل المحاولات السابقة، ورغم تعرض شبكة قطارات الأنفاق اللندنية لحملة تفجيرات فى السابع من تموز (يوليو) ٢٠٠٥ إلا أن الرأى العام ظل متشككاً لا تنطلى عليه الادعاءات الرسمية، واستمرت المؤسسات التشريعية والقانونية مدعومة بقطاع واسع من الإعلام المستقل ومؤسسات المجتمع المدنى تقاوم إلحاح حكومة طونى بلير على فرض ما يشبه حالة الطوارئ فى طول البلاد وعرضها.



لم يعد ثمة شك فى أن البلاد البريطانية مهددة، فتفجيرات تموز أثبتت ذلك يقيناً، إلا أن فشل الأجهزة الأمنية فى اكتشاف ذلك المخطط قبل وقوعه وثبوت عدم صدقية كل ما زعمته السلطات من مخططات أخرى، أوقع الحكومة فى مأزق كبير، حتى أصبح من المألوف سماع الناس يتحدثون عن مسلسل الكذب الحكومى. ولعل هذا ما يدفع بكثير من الناس إلى التردد فى قبول الرواية الحكومية حول المخطط الأخير، وحتى بعد توجيه المدعى العام فى الحادى والعشرين من آب (أغسطس) تهماً بالتخطيط للقتل العمد لثمانية من الموقوفين الأربعة والعشرين.

لا يتسع المجال هنا لسرد قائمة بكافة المخططات والمؤامرات التى زعمتها السلطات الأمنية ولم تثبت صحتها، والتى يأتى على رأس قائمتها الزعم بأن الحرب على العراق كانت ضرورة ملحة للحيلولة دون أن يستخدم نظام صدام حسين ما ادعى الساسة الأمريكان والبريطانيون من أنه «أسلحة دمار شامل» ذات قدرة على ضرب الشواطئ الجنوبية للقارة الأوروبية. كما زعموا أيضاً بأن حربهم على الإرهاب كان لابد أن تشمل العراق بسبب ما ادعوه من دليل لا مجال لدحضه على وجود علاقة تعاون وتنسيق بين القاعدة والنظام العراقى، ورافق ذلك الادعاء الذى ثبت كذبه فيما بعد أن العراق اشترى كمية من اليورانيوم من دولة النيجر لاستخدامها فى مشروع نووى مزعوم. ولإقناع الرأى العام المتشكك، وقبيل شن الحرب بأسابيع قليلة، أمرت السلطات البريطانية

توقيت الكشف عن الهجمات على بريطانيا لم يكن بمعزل عن تطورات الأوضاع في لبنان، حيث كان يُدمر بأيدي الصهاينة وكان الرأي العام يتجه نحو التنديد بالموقف الأمريكي - البريطاني الذي عطل جهود وقف العدوان

الجيش بالانتشار حول مطار هيثرو في شهر فبراير (شباط) ٢٠٠٣ بينما كان الحجاج المسلمون البريطانيون يتأهبون للعودة إلى بريطانيا بعد استكمال مناسكهم. وادعى السياسيون البريطانيون حينها بأنهم توفرت لديهم معلومات استخباراتية تؤكد بأن مسلمين إرهابيين يعدون لإسقاط طائرات ركاب بالصواريخ يطلقونها بزعمهم من مبان محيطة بالمطار. وتم بشكل أو بآخر ربط هذا المخطط بالحجيج والحج، لإلصاق التهمة بالإسلام ديناً وبالمسلمين أمة. ومنذ ذلك الوقت وإلى ما بعد غزو العراق بشهور تعرض ما يقرب من ألف مسلم للاعتقال لفترات متفاوتة للشك في ضلوعهم في مخططات إرهابية، وسربت إلى وسائل الإعلام معلومات مختلقة حول وجود خلايا من الشباب الجزائريين الذين كانوا يعدون لصنع قنبلة من «حبوب الخروع»، ولم تصمد التهم أمام القضاء البريطاني النزيه الذي كشف النقاب عن أن المصدر الوحيد لهذه المعلومات هو بعض من أجهزة استخبارات عربية انتزعتها بدورها من معتقلين تعرضوا في زنازينها وعلى أيدي زبانيتها لأقصى أنواع التعذيب والامتهان.

ثم جاءت تفجيرات تموز التي أوشكت السلطات استخدامها كما لم يتسن لها من قبل في تبرير سياساتها لولا أنها وقعت في شر أعمالها حينما طلعت على الرأي العام بكذبة شاء الله بكيده مقابل كيدهم أن يكشفها. فقد ادعت الأجهزة الأمنية، وطبل السياسيون لذلك وزمروا، بأن شخصاً ذا ملامح آسيوية - يظن بأنه مسلم - كان يوشك أن يقوم بعملية إرهابية في إحدى محطات الأنفاق في الثاني والعشرين من نفس الشهر لولا أن ضباط الأمن «اليقظين» عاجلوه بسبع أو ثماني رصاصات فأردوه قتيلاً. ولما يقرب من أربعة وعشرين ساعة كانت وسائل الإعلام تضلل بمعلومات تفيد بأن الشرطة كانت تراقب مسكنه، وبأنه تأكدت من ضلوعه في الإرهاب، ثم تابعته، فهرب منها، ودخل محطة القطارات قفزاً على الحاجز بشكل غير قانوني، وطلب منه أن يتوقف مراراً وتكراراً لكنه لم ينصع، فما كان منهم إلا أن أردوه قتيلاً قبل أن يقدم على فعلته التي نسبوها إليه زوراً وبهتاناً. إنه الشاب البرازيلي المظلوم «دي مينيسز» الذي لم يهرب منهم، ولم يكن مسلماً، ودخل المحطة بتذكرة وبشكل قانوني، ولم يطلبوا منه التوقف مرة واحدة، ولم يكونوا يعرفون عنه شيئاً على الإطلاق، ومع ذلك قتلوه بدم بارد. كانت لدي شكوكي منذ البداية، وفي صبيحة ذلك اليوم تحدثت مع عمدة لندن السيد كين ليفنغستون على هامش زيارته للمسلمين في مسجد برينت، فقال لي بأن مفوض الشرطة أكد له بأن معلوماتهم عن الرجل وعن نواياه مؤكدة وبأنه كان على وشك تفجير نفسه في القطار. ولم تمر ساعات حتى «سود» الله وجه حكومة طوني بلير وأوقع السلطات الأمنية في حرج غير مسبوق.

وبعد أقل من عام، وتحديداً في الثاني من حزيران (يونيو) ٢٠٠٦ أعلنت الحكومة البريطانية عن مداهمة بيت عائلة مسلمة من أصل باكستاني في حي «فوريست جيت» في شرق لندن، بحجة توفر معلومات استخباراتية عن وجود مصنع لتجميع قنبلة «قذرة». دوهم البيت في الساعات الأولى من النهار قبيل الفجر، وظن سكانه بأن لصوصاً قد سطوا عليهم، فبلا سابق إنذار قاموا من نومهم مذعورين على أشباح مكممين ملفحين بالسواد يأمرونهم بالانبطاح أرضاً ويكيلون لهم أقذع الشتائم بأحط العبارات وأقذر الألفاظ، ويهددونهم بالقتل إن لم يستجيبوا لهم. انتهت «عملية السطو» بإلقاء القبض على شابين شقيقين، أصيب أحدهما بعيار ناري في كتفه، وبترويع أهل الدار من نساء وأطفال، بل وإزعاج الحي بأكمله. وبعد أن خرب البيت تماماً بحثاً عن «الدليل»، ولم يبق لوح خشب في محله، ونزعت كافة الجدران والسقوف والأرضيات، وحفرت الحديقة الخلفية بأسرها، وتعرض الأخوان للاستجواب المستمر ما يقرب من عشرة أيام متواصلة، أعلنت السلطات بأن المعلومات الاستخباراتية لم تكن فيما يبدو صحيحة وأن الأخوين بريئان مما وجه إليهما.

ثم جاء الإعلان عن الخطة المزعومة لتفجير الطائرات في الجو باستخدام سوائل يتم إدخالها إلى الطائرة حيث تمزج وتتحول إلى قنابل، وأعلنت السلطات عن إلقاء القبض على مجموعة من المسلمين، من عدة مناطق في بريطانيا، أحدهم شخص اعتنق الإسلام قبيل شهور قليلة. ورغم أن السلطات تحاول جاهدة هذه المرة أن تبدو أكثر ثقة بما لديها من معلومات وما تدعي بأن أيديها وقعت عليه من أدلة، إلا أن المسلمين في بريطانيا لا يصدقون ما ينسب إلى هذه المجموعة المعتقلة، ويرى كثير منهم بأن الأمر لا يتعدى محاولة يائسة أخرى من السلطات البريطانية لتبرير مضيها في سياسة خارجية ثبت فشلها وفي إجراءات أمنية داخلية ثبت عقمها.

ومما كرس الشك لدى المسلمين، وغير المسلمين على حد سواء، ما تناقلته وسائل الإعلام الأمريكية والبريطانية عن الدور الأمريكي والدور الباكستاني في الموضوع. فقد ذكرت محطة إن بي سي الامريكية بأن الحكومة البريطانية كانت



تريد التريث قبل الإعلان عن المخطط حتى يتوفر لديها مزيد من المعلومات وحتى لا تخرج على الناس كما حصل في السابق بقصة ملفقة تسود وجهها، إلا أن إدارة الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش أصرت على الإعلان وعلى الإجراءات الأمنية الشديدة في المطارات لأن الحزب الجمهوري الحاكم، والذي تراجعت شعبيته بشكل كبير خلال الشهور الأخيرة بسبب تحول العراق إلى مصيدة ومستنقع، بحاجة إلى ما يحسن وضعه الانتخابي وهو يخوض غمار الحملة الانتخابية لاختيار أعضاء الكونغرس في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) القادم، ولا أفضل من حالة من الرعب والذعر يستغلها الجمهوريون - الذين يتربع المحافظون الجدد الصهاينة على عرش زعامتهم - لإثبات أن الحرب على الإرهاب مطلوب استمرارها، وبأنهم وحدهم القادرون على حماية البلاد الأمريكية من الخطر الإسلامي الفاشستي كما عبر عنه الرئيس جورج بوش. ويرى البعض بأن توقيت الإعلان عن الخطة وإنفاذ الإجراءات المزعجة في المطارات الأمريكية والبريطانية، لم يكن بمعزل عن تطورات الأوضاع في الساحة اللبنانية، حيث كان لبنان يدمر بأيدي الصهاينة لإنفاذ خطة أمريكية-بريطانية مشتركة، وكان الرأي العام يتجه بشكل متسارع نحو التنديد بالموقف الأمريكي-البريطاني الذي عطل كل جهد دولي لوقف العدوان.

أما الدور الباكستاني فقد انكشف أمره حينما أعلن البريطانيون بأن من اعتقلوا في الساحة البريطانية إنما توفرت المعلومات عنهم من خلال تحقيقات يدعي الباكستانيون بأنهم أجروها مع شاب بريطاني من أصل باكستاني اعتقلته أجهزتهم الأمنية في الباكستان، ويشك بأنه من العناصر القيادية في «القاعدة». ويعلم المسلمون في بريطانيا، كما يعلم ذلك أهل الاختصاص، بأن الأجهزة الأمنية الباكستانية فاقدة للمصداقية وبأن الحكومة الباكستانية تسعى جاهدة وبكل الوسائل لاسترضاء الحلفاء الأمريكان وكسب ودهم، ولو كان ذلك من خلال تلفيق القصص حول مخططات كبيرة ومذهلة كالتي يزعمون الكشف عنها. ولا يخفى على أحد أن السلطات الباكستانية مسؤولة بشكل مباشر عن معاناة معظم معتقلي غوانتينامو الذين سلموا، أو بيعوا بثمن بخس، للأمريكان بحجة انتمائهم للقاعدة أو ضلوعهم في الإرهاب، ولم تتمكن الولايات المتحدة حتى الآن من تقديم شخص واحد منهم للمحاكمة لعدم وجود أي دليل يمكن أن يصمد أمام القضاء.

بعد خمس سنوات تقريباً من بدء الحرب المزعومة على الإرهاب بدأت الساحة البريطانية تشهد حالة من التوجس والقلق لم تعهدها من قبل، وبدأنا نشهد تزايداً ملحوظاً في التصرفات المعادية للعرب والمسلمين كنا نفاخر بأنها ظلت محدودة جداً رغم كل ما حدث. ولعل في هذا مؤشراً على نجاح - ولو

كتاب الزاوية

أريج البُستان

السعدى الشيرازى

التقت قلوب وعقول العرب مع الفرس منذ الفتح الإسلامى لبلاد فارس، وزاد التواصل السياسى والعلمى والأدبى بين الأمتين المسلمتين على مدى السنين. وقد كان التأثير الفارسى على الأدب العربى بشكل خاص واضحًا ومؤثرًا، الأمر الذى أعلى من قدر الأدبين العربى والفارسى على السواء.

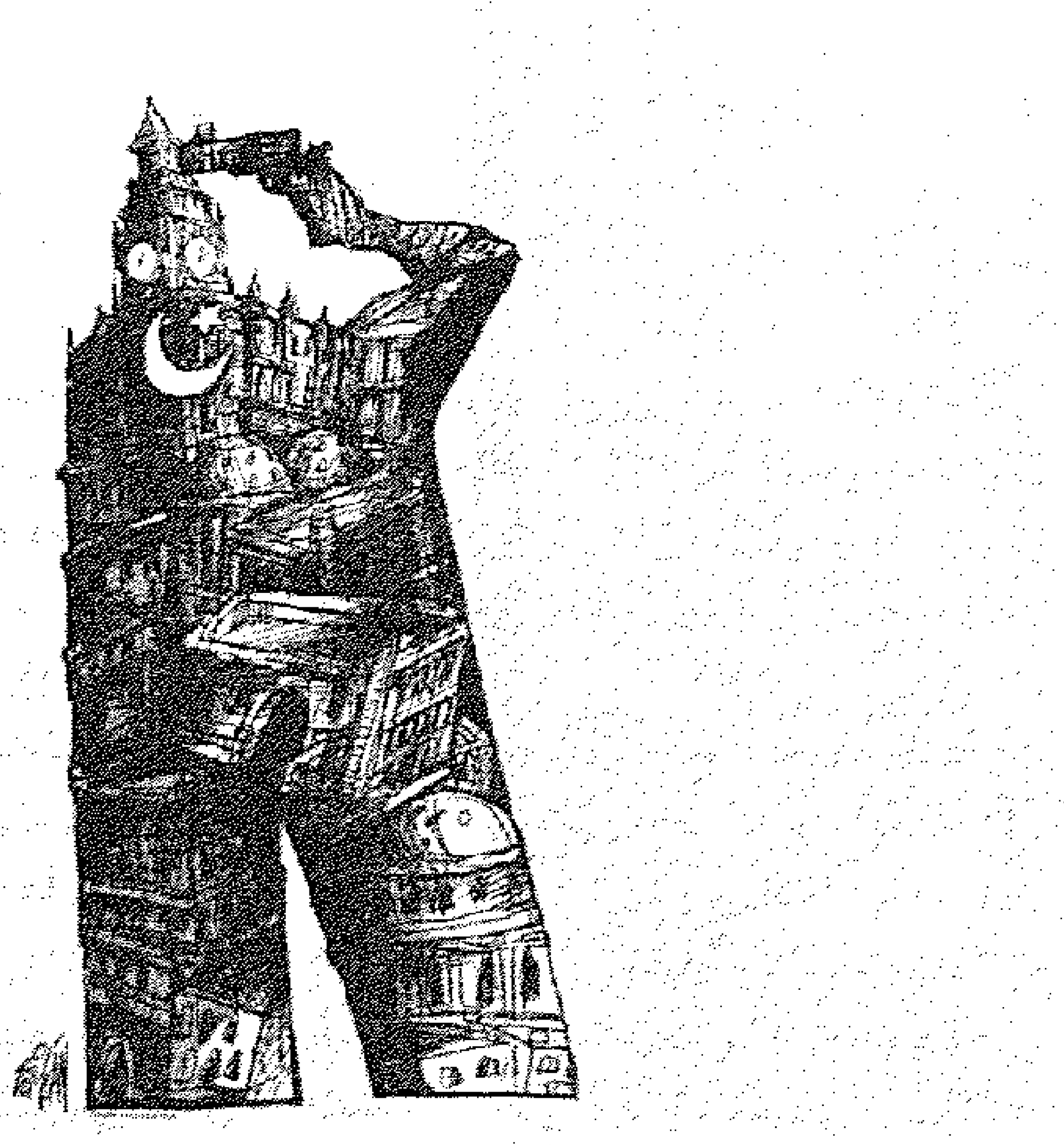
ورغم هذا التواصل والتلاقح، فإن كثيرًا من الأعمال الفارسية لم تنل حظها من الترجمة للعربية حتى يتعرف عليها أبناء لغة الضاد. ومن بين هذه الأعمال العمل الأدبى الشهير «بوستان» للشاعر السعدى الشيرازى الذى ولد على الأرجح عام ٥٨٠ هجرية (١١٨٤ ميلادية) وتعلم فى بغداد علوم اللغة وآدابها وعلوم القرآن والرواية. وله ديوان ضخم يعرف بالكليات ويضم ست رسائل نثرية وأشهر آثاره وأكثرها انتشارًا: بوستان وكلستان وقصائد عربية وفارسية وغزليات. وقد عاش الشاعر - على ما يقال - مائة عام.

واسم السعدى الشيرازى هو اسم أدبى لأن اسم الشاعر الحقيقى هو مشرف الدين بن مصلح الدين، لكن الشاعر اتخذ اسم الشيرازى على عادة شعراء الفرس فى اختيار أسماء أدبية.

وقد ترجم كتاب بوستان كاملاً إلى العربية ولأول مرة الدكتور أمين بدوى أستاذ الآداب الفارسية بجامعة عين شمس واختار عنوانًا للترجمة العربية هو أريج البستان، ونشرت الكتاب دار الشروق فى طبعتين الأولى عام ١٩٩٧، والثانية عام ٢٠٠٦.

جزئى - للسلطات البريطانية فى خلق حالة الهلع التى تريد. ولعل فيه مؤشراً أيضاً على تمكن التيارات العنصرية والصهيونية المناهضة للوجود الإسلامى فى بريطانيا، بل وفى الغرب بشكل عام، من احتلال موقع لم تكن تحلم به من قبل يسرته لها سياسة الحكومة بزعامة طونى بلير. فقد توحد صناع القرار فى الدولة البريطانية مع زعماء ومنظرى وكتاب الاتجاه اليمينى المتطرف (من العنصريين وأنصار إسرائيل) فى اعتبار أن مصدر الخطر المحدق ببريطانيا هو نفر من المسلمين الذين لا تعجبهم ثقافة الغرب، ولا يريدون أن يندمجوا فى المجتمع، ويرفضون قيم الديمقراطية والحرية، ويفسرون الإسلام تفسيراً أيديولوجياً ويوظفونه توظيفاً سياسياً. من هم هؤلاء المسلمون؟ لا أحد يعرف تحديداً، مما يتسدعى اعتبار أن كل مسلم، بملامحه «الآسيوية» أو «الشرق أوسطية» أو «الشمال أفريقية» كما يحلو للصحافة وصفه، متهم حتى تثبت إدانته. ومما يثبت أننا ولجنا النفق المظلم - الذى لا يعلم إلا الله كم عمقه - بدأت تتكرر حوادث الإساءة الجماعية للمسلمين. وهنا يكمن الخطر الحقيقى. فما كان يحدث من قبل كان لا يعدو كونه حوادث فردية معزولة، أما الآن فالمجتمع البريطانى بات أكثر جرأة على هذا الآخر المخالف له فى كل شىء المشكوك فى ولائه وانتمائه. قبل أقل من يومين على مرور حادثة إجبار راكبين مسلمين على النزول من طائرة تملكها شركة «مونارك» قبيل إقلاعها من أحد المنتجعات الإسبانية باتجاه مدينة مانشستر للاشتباه بهما، أجبرت عائلة مسلمة تزور لندن من دبى على الخروج من طابور الراغبين فى ركوب ما يعرف بـ«عين لندن» المطلة على نهر التيمز ومبنى البرلمان، وذلك لأن أفرادها سمعوا يتحدثون بالعربية.

طونى بلير مسؤول مسؤولية كاملة عن هذا الذى يجرى، والذى سيجر الويلات على المجتمع البريطانى لما تسببه مغامراته من تصدع فى معادلة التعايش بين الثقافات والشعوب التى ما لبث البريطانيون يفاخرون الدنيا بها، ويتسامون بسببها عما يعتبرونه فشلاً ذريعاً من قبل غيرهم من الشعوب الأوروبية فى احتواء موجات المهاجرين واللاجئين إليها. ومرجع ذلك إصرار طونى بلير والحكومة التى يتزعمها على أن سبب الأزمة التى نعيشها هو الإسلام أو بعض تفسير منحرف أو متطرف له. بل رأيناه فى الآونة الأخيرة يحتل موقع المفتى والمرشد العام للأمة الإسلامية إذ يجد فى نفسه الكفاءة لأن يخبرنا أى الإسلام حق وأيه باطل. فالإسلام الحق من وجهة نظره هو «الإسلام الأوروبى» الذى لا يأبه أتباعه بما يجرى من حولهم من أهوال تسببها سياسة حكومته، ولا يرتبطون بأواصر بأحد فى العالم الإسلامى، ولا يخلطون السياسة بالدين، ولا يتمسكون بما يميزهم عن غيرهم خلقاً أو سلوكاً أو مظهراً. إنه الإسلام الأوروبى الذى تحدث عنه مؤخراً أحد وزراء الداخلية الأوروبيين حينما دعاهم إلى اجتماع فى لندن وزير داخلية بريطانيا لتدارس تداعيات الخطة المزعومة، إنه الإسلام الذى لا لون له ولا طعم ولا رائحة، إسلام لا يختلف عن المسيحية التى جردت من كل محتواها عبر قرون من العلمنة. وطونى بلير بإصراره على ذلك يقصد عدم السماح



الإرهاب على الطريقة البريطانية

بفتح باب المساءلة عما جنته سياسة حكومته الخارجية من مصائب، وعما تسببته من استقطاب يوفر الأرضية الخصبة لتنامي تيارات العنف وحركات الإرهاب. فبريطانيا لم تتعرض لخطر من قبل أحد من المسلمين قبل أن تشارك الولايات المتحدة في غزو العراق وتتحالف معها في حربها على الإرهاب. بل كان مصدر الخطر عليها في السابق هو الجيش الجمهوري الإيرلندي الذي قرر طوني بلير بعد استلامه للسلطة الاعتراف به والتفاوض معه لإنهاء حالة العنف المتبادل.

يدور حالياً في أوساط المثقفين البريطانيين جدل عنيف حول من يتحمل المسؤولية وكيف نخرج من دوامة الأزمة العاصفة بنا جميعاً، إلا أن الحكومة حتى الآن تأبى أن تشارك في الحوار، لأنها لا تريد تحمل مسؤوليتها وتخشى من المساءلة. وفي محاولة فاشلة منها قامت الدولة بتشكيل هيئة أعضاؤها من المسلمين الذين اختارتهم بعناية حتى تدرس أسباب التطرف والعنف وتقدم مقترحاتها إلى الحكومة مساهمة منها في التوصل إلى حل للأزمة، إلا أن التقرير الذي قدمته الهيئة لم يعجب الحكومة لأنه اعتبر السياسة الخارجية للدولة البريطانية أحد العوامل التي تساهم في دفع الشباب الغاضب والمحبط نحو التطرف.

يحلو للساسة البريطانيين توجيه إصبع الاتهام إلى المسلمين على افتراض أنه كان بإمكانهم تدارك الأمر ومواجهة تيار العنف والتطرف بين ظهرانيهم، الأمر الذي يرفضه زعماء المسلمين رفضاً قاطعاً محذرين من أن نهج الحكومة يشجع العنصريين واليمينيين المتطرفين وأنصار إسرائيل على التطاول على المسلمين مما يفاقم من آثار التصدع الذي طرأ على المجتمع البريطاني. ومما يبعث على الاستهجان أن إصرار الحكومة ومن يؤيدها في ذلك على تحميل المسلمين المسؤولية يتناقض مع فرضيات بدهية، على رأسها أن بريطانيا بلد ليبرالي الفردية فيها - كما في العالم الغربي بشكل عام - هي الأساس، فما أن يبلغ المرء في هذه المجتمعات الثامنة عشرة من عمره حتى يصبح مسؤولاً عن نفسه وعن أفعاله أمام القانون، ولا يتحمل أحد وزر ما يصدر عنه من أقوال أو أفعال. وكلما تجدد الجدل حول هذا الموضوع تساءل المسلمون: عجباً، كيف نلام نحن جميعاً حينما يخطئ بعضنا ولا توجه أصابع الاتهام لأحد حينما يرتكب شخص من أتباع الديانات أو الأعراق الأخرى جنحة أو جرماً ما؟

إن أي حوار جاد وهادف لابد أن يسلط الضوء على ثلاث دوائر من المسؤولية. الدائرة الأولى تتعلق بالمسلمين كمجتمع له مراكزه ومساجده وزعماء ينطقون باسمه وصناع رأي يؤثرون في أبنائه. هل ثمة خلل علينا تداركه، وكيف يمكننا أن نساهم في حماية أمن المجتمع الذي نعيش فيه مما قد يتهدده من أخطار. إلا أن الدائرة الأهم من ذلك هي الدائرة الأمنية، حيث منيت الأجهزة الأمنية بفشل ذريع حينما لم تتمكن رغماً عن كل الإجراءات والمتابعات من اكتشاف أمر الذين أحدثوا زلزال السابع من تموز في لندن العام الماضي. ورغم الفشل الذريع والأخطاء الفاضحة المتكررة إلا أن تحقيقاً لم يجرى ومحاسبة للمسؤولين الأمنيين لم تتم. وأما الدائرة الأهم منهما جميعاً فهي المتعلقة بالأسباب الحقيقية للاحتقان والاستقطاب، ألا وهي السياسة الخارجية للحكومة البريطانية والمتمثلة بالتحالف مع الأمريكان في حربهم على الإسلام بحجة مكافحة الإرهاب وبالتأييد المطلق وغير المشروط للعدو الصهيوني الذي تلهب أنات ضحاياه في فلسطين ولبنان مشاعر إخوانهم وأخواتهم من المسلمين والمسلمات عبر العالم. وما لم تقر الحكومة البريطانية بمسؤوليتها، أو على الأقل تقبل بالحوار حول الموضوع، فإن أي جهد يبذله مسلمو بريطانيا وأي إجراءات تتخذها الأجهزة الأمنية لا تكفي وحدها لصيانة أمن البلاد ودرء خطر الإرهاب عنها.

الأزمة بين الحكومة والمسلمين في بريطانيا مرشحة للتفاقم إذا لم تحصل مفاتحة ومصارحة وإذا لم يفتح المجال أمام حوار يشارك فيه الجميع دون خوف أو تشنج. إلا أن ذلك من غير المتوقع حدوثه قبل أن يطرأ تعديل على القيادة السياسية في البلاد، فرئيس الوزراء طوني بلير لم يعد قادراً على التحرر من القيود التي فرضتها عليها علاقته الحميمة بالإدارة الأمريكية، وقد خضع بلير للضغوط من داخل حزبه معلناً أنه سيتقاعد عن منصبه كرئيس للوزراء خلال ١٢ شهراً. ■

كتاب الزاوية

حكاية عن عمر بن عبدالعزيز

أريج البستان

١ ـ شخص من العظماء أهل التميز، يحكى عن «عمرَ بن عبدالعزيز».

٢ ـ أنه كان له فص على خاتم، حار في «تقدير» قيمته الجوهري.

٣ ـ كأن ذلك الجرم المضيء الدنيا في الليل، كان درة مثل النهار في النور.

٤ ـ وجاء قضاء عام قحط، فصار بدر سيما الناس هلالاً.

٥ ـ فلما لم ير في الناس راحة وقوة، لم ير الراحة ذاتها مروة.

٦ ـ حين يرى إنسان السم في حلوق الخلق، كيف يمر الماء حلوًا في حلقه؟

٧ ـ فأمر أن «يبيعوه» وباعوه بالفضة، لأنه أشفق على الغريب واليتيم.

٨ ـ وفي أسبوع واحد بدد نقده وثمنه، وأعطاه للفقير والمسكين والمحتاج.

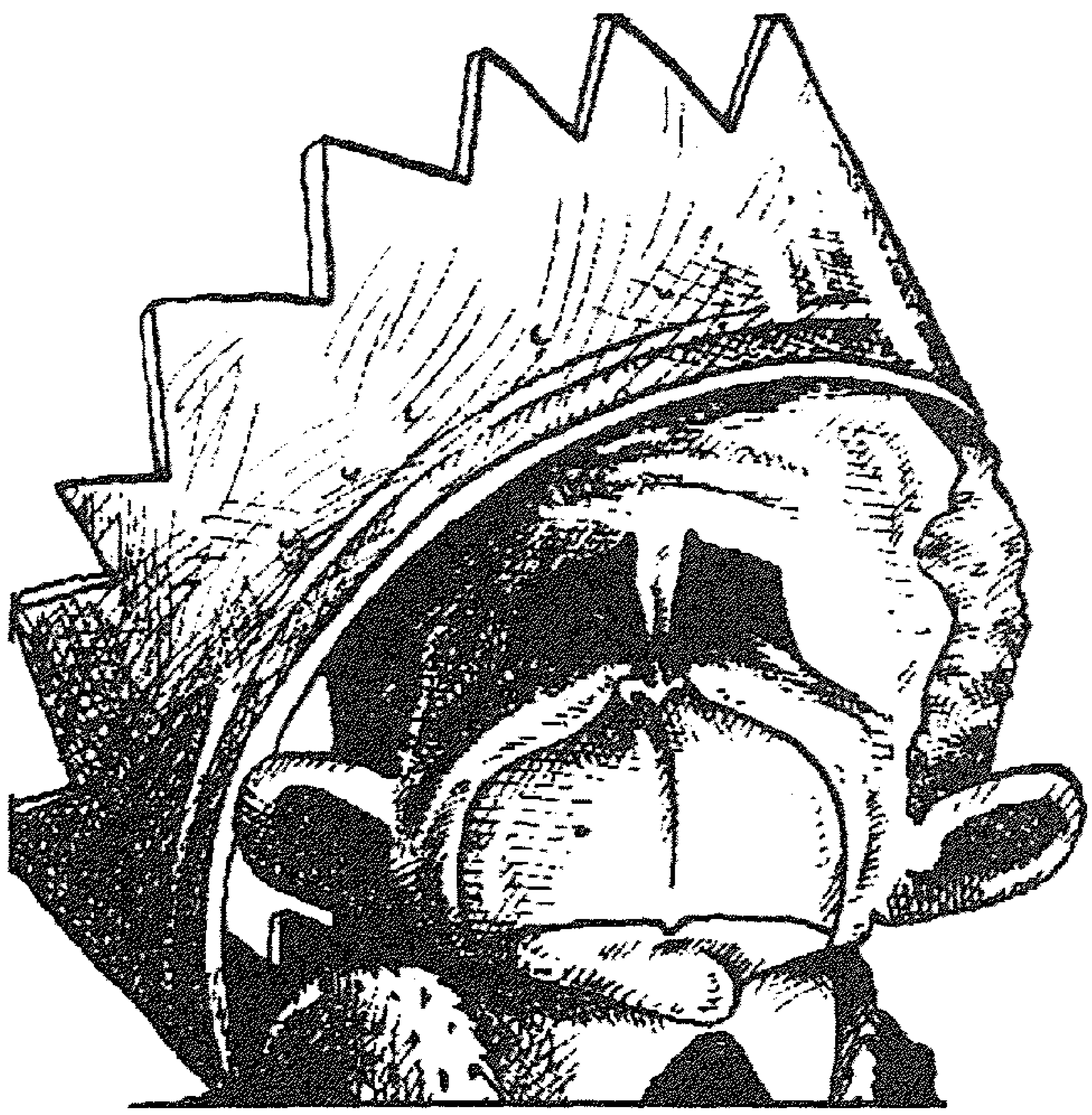
٩ ـ فلامه اللائمون قائلين: إنه لا يأتي مثله في يدك مرة أخرى.

١٠ ـ سمعت أنه كان يقول وأمطار الدمع كانت تهطل على عارضيه مثل «دموع» الشمع.

١١ ـ الزينة تكون قبيحة على الملك، وقلوب المدنيين قريحة من الضعف.

١٢ ـ إذا نام الملك ناعمًا مستغرقًا على السرير، لا أظن أن الفقير ينام مستريحًا.

إمبراطورية الدولة
إمبراطورية الرئيس



روبرت سكيدلسكي

■ تعد مسألة كيف ينبغى إدارة العالم ودور أمريكا فى إدارته موضوع جزء كبير من النقاش السياسى والأكاديمى الدائر فى واشنطن هذه الأيام. والأسئلة الواقعية هى: هل الولايات المتحدة فى سبيلها لأن تصبح إمبراطورية كالإمبراطوريتين الرومانية والبريطانية من قبلها؟ وما هى احتمالات نجاح مثل هذا المشروع فى عالم اليوم؟ وبشكل أكثر تأملاً، هل تحتاج العولمة إلى أساس إمبراطورى يدعمها؟ وهناك كذلك أسئلة مهمة مثل: هل النزعة الإمبراطورية شىء نافع أم ضار؟ وهل ينبغى أن تضحى الولايات المتحدة بمؤسساتها الجمهورية من أجل تحقيق المهمة الإمبراطورية؟ يمكن قراءة كتاب جريجور دالاس «١٩٤٥: الحرب التى لم تنته قط» استعداداً لهذه المناقشة. فقد قضت الحرب العالمية الثانية على الإمبرطوريات الأوروبية، القائم منها والمأمول، حيث بقيت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى القوتين العظميين المتنافستين. وأنهى انهيار الاتحاد السوفيتى «ما لم ينته من أعمال» الحرب، حيث ترك الولايات المتحدة القوى العظمى الوحيدة وخلق فى الوقت ذاته اقتصاداً عالمياً واحداً. وديناميات السيادة الأمريكية فيما بعد الحرب ومسألة ما إذا كانت تلك الديناميات لا تزال تدفع الولايات المتحدة نحو الإمبراطورية الرسمية أم لا هى موضوع كتاب تشارلز ماير «بين الإمبراطوريات: الهيمنة الأمريكية وأسلافها».

طبقًا لما يقوله جريجور دالاس، فإن الحرب العالمية الثانية لم تنته؛ لقد توقفت فحسب حيثما التقت جيوش الشرق والغرب، ثم تحولت على الفور تقريبًا إلى الحرب الباردة. وكان ذلك لأن الاتحاد السوفيتى حقق هدفه من الحرب بإقامة إمبراطورية تمتد من بحر البلطيق إلى البلقان. ولم تحقق الولايات المتحدة هدفها الذى قد لا يكون مفاجأة، وهو تحويل أوروبا بكاملها إلى ديمقراطية ومشروع حر. وبدأت الحرب الباردة عندما أدرك ترومان أن معنى «الديمقراطية» عند ستالين لم يكن هو المعنى نفسه الذى عند الأمريكيين.

هذه باختصار هى المقولة الأساسية لكتاب دالاس الذى يتسم بالاستطراد، ولكنه كتاب شديد الروعة يتكون من شذرات لا حصر لها كالكولاج. ويبرر دالاس أسلوبه هذا باقتباسه ما قاله الشاعر البولندى تشسواف ميووف: «يمكنك التعبير عن الأشياء تعبيراً صحيحاً بالتفاصيل. وإذا ما لاحظت التفاصيل، فلابد أن تكتشف تفاصيل التفاصيل». ومع ذلك فإن وراء الكتاب افتراضاً صحيحاً على نحو بارز، وهو أن الحرب ضد ألمانيا (نادراً ما ذُكرت اليابان) كانت فى الوقت نفسه كفاحًا للقضاء على مستقبل ما بعد النازية. وخلف كل قرار عسكرى كان هناك حساب سياسى. والواقع أن كتاب دالاس انشغل بالتنافس على وضع ما بعد الحرب بالقدر الذى جعل حقيقة أنه حتى عام ١٩٤٥ كانت الحرب لا تزال تُشن ضد ألمانيا النازية تغيب عنه. ولكن حتى عند الهزيمة، أثَّر هتلر كذلك على شكل أوروبا ما بعد النازية، باختياره أين يحارب، ومدى شدة قتاله، ولمن يستسلم؛ ومن يقتل. وفى النهاية، فضل هزيمة ألمانيا على يد الشيوعية السلافية وليس الديمقراطيات المتدهورة.

يحدد دالاس تاريخ نقطة تحول الحرب بيوليو من عام ١٩٤٣، حين فشلت ألمانيا فى وقف التقدم الروسى فى كورسك ونزلت الحلفاء فى صقلية. ولكن ربما أدرك هتلر أنه خسر الحرب، بمعنى أنه لن يمكنه فرض إرادته على سير الأحداث بالقوة العسكرية وحدها، فى ديسمبر من عام ١٩٤١، فى أعقاب الهزيمة الألمانية المفجعة أمام موسكو، وهى إحدى معارك الحرب المنسية رغم كونها حاسمة. وبعد ذلك كان أقصى ما ينتظره من جيوشه هو تحقيق انتصارات «مؤقتة» تضعه فى موقف تفاوضى أفضل. وكان يظن أن التحالف بين الغرب واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية سرعان ما سينفرط عقده بسبب المصالح المتضاربة، مما يتيح له العثور على حل «سياسى». وكان محقًا فى اعتقاده أن التحالف الكبير سوف ينهار، ومخطئًا فى ظنه أن ذلك سوف يحدث قبل اجتياح إمبراطوريته. وكانت أهدافه وأساليبه وجرائمه قد وضعته بشكل نهائى خارج نطاق كل ما هو معقول أو مقبول بالنسبة للحلفاء الغربيين.

ويشير دالاس إلى أنه كانت ستتاح لهتلر فرصة أفضل مع ستالين. والدليل الرئيسى على ذلك هو اتفاقية ريبنتروب/ مولوتوف، أو الاتفاقية النازية السوفيتية، فى ٢٣ أغسطس من عام ١٩٣٩. وطبقًا لشروط تلك الاتفاقية، اعترف هتلر بوجود نصف بولندا ودول البلطيق وفنلندا وبيساربيا داخل «المنطقة» الروسية. واعتبر معظم المؤرخين الاتفاقية زواج مصلحة؛ فقد جنبت هتلر خطر الحرب على جبهتين، وجعلت ستالين يكسب الوقت. ويقبل دالاس الشق الخاص بهتلر. فقد كانت أنظار هتلر مركزة باستمرار على غزو روسيا الأوروبية واستطيانها. ولكنه لا يقبل ما يخص ستالين. ذلك أن ستالين كان ينظر إلى الاتفاقية على أنها ترتيب

بترتيب مع:
The Newyork review of Books

ترجمة: أحمد محمود

طويل الأمد. ولو رتبنا الأمور على نحو دقيق لوجدنا أن هتلر كان يمكنه أن يعطيه ما لم يكن بإمكان الديمقراطيات الغربية إعطاءه إياه، وهو إعادة تكون الإمبراطورية القيصرية والمزيد من المكاسب في المستقبل. وفي نوفمبر من عام ١٩٤٠ تَلَعَّب هو وهتلر بفكرة اقتسام الإمبراطورية البريطانية فيما بينهما. ولكن ذلك لم يكن حلم هتلر، وربما كان يغرى بذلك ستالين كي تستمر الواردات في التدفق من روسيا إلى أن يكون مستعداً لتوجيه ضربته.

يزعم دالاس أنه حتى بعد غزو الألمان لروسيا، لم يتخلَ ستالين عن «التصورات الوهمية» التي خلقتها الاتفاقية الروسية النازية. «في ربيع وأوائل صيف عام ١٩٤٣، حاول ممثلو ستالين في ستوكهولم التفاوض على إحياء الاتفاقية؛ ولكن ذلك لم يتحقق لأن هتلر أصر على الصمود حتى أوكرانيا». وكان الانتصار السوفيتي في كورسك في يوليو من عام ١٩٤٣، وليس في ستالينجراد في ديسمبر من عام ١٩٤٢ (الذي أعقبه الهجوم الألماني المضاد)، هو ما أقنعه في النهاية بأن هتلر ليس لديه شيء آخر يقدمه. «عندما تقدمت الجيوش السوفيتية، انعش ستالين حلمه الخاص بفرض نوع جديد من الاتفاقية النازية السوفيتية؛ واحد ناقص النازيين».

تكمن قوة افتراض دالاس في تفسيره لحركة جيوش ستالين، وبالتالي ربطه الاتفاقية النازية السوفيتية بأصول الحرب الباردة. فضم الأراضي الذي قام به ستالين بعد الحرب، بما في ذلك بولندا حتى «خط كورزون»، حيث اتبع على نحو دقيق خطوط الاتفاقية النازية السوفيتية. وكان هناك ما ينذر بخطط الخاصة بالبلقان؛ وحتى تلك المتعلقة بالشرق الأوسط (حيث كان يُنظر إلى إسرائيل في الأصل على أنها دولة تابعة للسوفييت)، في المناقشات التي جرت في عام ١٩٤٠ بين مولوتوف وريبنتروب في برلين. وكان من المحتم أن تحطم طموحات ستالين التحالف الكبير. وما لم تكن بريطانيا وفرنسا على استعداد لمنحه لروسيا في عام ١٩٣٩ ثمناً لاتفاقية مناهضة للنازية، لم تكن أمريكا وبريطانيا على استعداد لمنحها إياه ثمناً لاستمرار التحالف الكبير. ويرى دالاس أن بذور الحرب الباردة وُضعت عندما أصر ستالين في طهران في نوفمبر من عام ١٩٤٣ على أن شروط الاتفاقية النازية السوفيتية مازالت مطبقة على بولندا.

ومع ذلك لا تخلو فرضية دالاس من المشاكل. فهل هناك حاجة إلى الاتفاقية لتفسير «تحرك» جيوش ستالين؟ وألم يكن ستالين يخدم نفسه فحسب للحصول على غنائم الحرب التي سقطت في حجره؟ فالواقع هو أن ستالين حصل على أكثر مما عرضه هتلر. وربما بدأت الحرب الباردة باستيلاء السوفييت على بولندا، ولكنها سارت سيرها الجاد في عام ١٩٤٨ فحسب مع الانقلاب الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا التي لم تكن لها علاقة بالاتفاقية. (كانت تشيكوسلوفاكيا وليست بولندا هي ورقة عباد الشمس الخاصة باختبار النوايا السوفيتية في عام ١٩٤٨، مثلما كانت اختباراً للنوايا الألمانية قبل ذلك بعشرة أعوام).

يمكن القول بأن صلة «التصورات الوهمية» التي تبدت للاتحاد السوفيتي فيما بين ١٩٤٥ و١٩٤٨ بفراغ القوة في أنحاء أوروبا الغربية وأوروبا الوسطى كانت أقوى من صلتها بالاتفاقية. كما يبدو زعم تفضيل ستالين لهتلر أمراً مبالغاً فيه، إذا ما أخذنا في اعتبارنا جهوده السابقة للتفاوض على إقامة تحالف معادٍ لألمانيا مع بريطانيا وفرنسا. ثم إنه إذا كان ستالين حريصاً على أن يتخذ هتلر رفيقاً في غزو العالم، فلم أرسل مبعوثاً شرساً مثل مولوتوف إلى برلين في عام ١٩٤٠؟ وعلاوة على ذلك، لا يقدم دالاس أي دليل على رأيه القائل بأن ممثلي ستالين حاولوا التفاوض من جديد على اتفاقية ريبنتروب/مولوتوف في ستوكهولم في عام ١٩٤٣. والحقيقة هي أننا لن نعرف أبداً وبشكل مؤكد ما الذي كان يجري في عقل ستالين. فقد قدم دالاس تحريضاً للفكر وليس استنتاجات قائمة على أدلة.

كـان انتصـار بريطانيا الأكثر التباساً. فقد فاز الاتحاد السوفيتي بإمبراطورية في أوروبا الشرقية، وأصبحت أمريكا القوة البارزة في العالم، بينما خرجت بريطانيا على نحو أضعف من أن يمكنها من الاحتفاظ بالإمبراطورية

لم يكن روزفلت مهتماً بشأن من الذي ينبغي أن يحرر من، لأنه كان يحلم بسيادة مشتركة ما بعد إقليمية بواسطة «أنكل جو»(*) تُمارس من خلال المؤسسات التعددية كصندوق النقد الدولي والبنك الدولي والأمم المتحدة. ويمكن أن تُعد تلك أوضح إساءة تقدير في التاريخ الأمريكي، وقد ساعد عليها وأغرى بها الجواسيس السوفييت داخل وزارتي الخزانة والخارجية. وأبدى تشرشل الذي كان يدافع عن الإمبراطورية الإقليمية قدراً أكبر بكثير من الاهتمام بالمناطق الحدودية؛ ومن ثم كانت محاولته للحد من النزعة التوسعية السوفيتية بواسطة «النِسب المئوية» مع ستالين في أكتوبر من عام ١٩٤٤. وللسبب نفسه، لم يبدِ روزفلت اهتماماً بدخول الجيوش البريطانية والأمريكية أوروبا الشرقية عبر ألمانيا قبل الروس. وربما كان ذلك مجدياً في خريف عام ١٩٤٤، حين كانت ألمانيا عاجزة عن الدفاع عن نفسها في مواجهة الهجوم الغربي. كما أنه لم يؤيد خطة تشرشل الخاصة بالاستيلاء على المجر والنمسا بتسريع الهجوم على الخطوط الألمانية في شمال إيطاليا. وقال هارولد ماكميلان، مبعوث تشرشل في البحر المتوسط، في مذكراته: «ربما كان اختراق ثغرة ليوبليانا والسير نحو النمسا سيغير المصائر السياسية للبلقان وأوروبا الشرقية». غير أن تنفيذ تلك الإستراتيجيات كان سيتطلب وجود مفهوم تشرشل الخاص بـ«توازن القوى» الذي لم يكن له مكان في عالم روزفلت ما بعد الإقليمي الرائع. ولم يكن تشرشل، وهو أضعف الثلاثة الكبار، يسيطر على السياسة الغربية.

من بين الظافرين الثلاثة، كان انتصار بريطانيا الأكثر التباساً. فقد فاز الاتحاد السوفيتي بإمبراطورية في أوروبا الشرقية، وأصبحت الولايات المتحدة القوة البارزة في العالم، بينما خرجت بريطانيا على نحو أضعف من أن يمكنها من الاحتفاظ بالإمبراطورية التي كان هدف تشرشل هو الحفاظ عليها. ويؤكد دالاس نقطة أجد لزاماً عليَّ إقرارها، بما أنني قلت الشيء نفسه، وهي أن هدف الحرب الذي كان روزفلت مصراً عليه هو «طرد الإمبراطورية البريطانية باعتبارها قوة كبرى». وقد حارب تشرشل فيما يخصه من الجيوبوليتيكا وكينز في سياسته الاقتصادية بقدر استطاعتهما للحفاظ على استقلال بلدهما عن الأمريكيين، غير أن الأصول المنكمشة التي كانت بريطانيا تسيطر عليها بحلول نهاية الحرب لم تكن كافية لتحقيق تلك المهمة.

فهل كان هناك بديل؟ يذكرنا دالاس بأن ديجول اقترح تحالفاً انجلو فرنسياً في ١٢ نوفمبر من عام ١٩٤٤. وقد قال لتشرشل: «لو اتفقت فرنسا وبريطانيا على العمل معاً فسوف يصبح لديهما من القوة ما يمنع حدوث ما لا تقبلانه أو تقررانه. وسوف تتبعنا بلدان. ولن يمكن لأمريكا وروسيا معارضتنا وقد قيد تنافسهما حرية حركتهما». وكان آخرون سينضمون إلى المعسكر الأنجلو فرنسي بسبب ما يشعرون به من «خوف فطري من العمالقة». ورفض تشرشل ذلك قائلاً: «استمالة الأقوى أفضل من معارضته». ويميل دالاس إلى وصف تفضيل تشرشل لأمريكا على أوروبا إلى افتقارد إلى الجذور (بدافع من أمه الأمريكية ومن تصوره الخاص بالتجارة الحرة). ولكن من الذي كان يخلق الوهم: هل هو تشرشل بآماله الخاصة بتشجيع الأمريكيين على ارتياد سبل الواقعية، أم ديجول بحلمه الخاص بتحول أوروبا المفلسة إلى قوة ثالثة؟

فكرة دالاس الموازية هي الصراع الذي جرى داخل حصن هتلر: بين المتواطئين والمقاومين، وبين جماعات المقاومة المختلفة. فقد كان المتواطئون يأملون في العثور على مكان مقبول داخل إمبراطورية هتلر، أما الأنصار والمقاومون فكانوا يتقاتلون على المستقبل ما بعد النازي: باعتبارهم رءوس حراب للجيوش وطلائع لحكومات ما بعد الحرب. وكان فوز أي اتجاه سياسي يتوقف على «تحرك الجيوش». ويذكرنا دالاس بكيف كانت النتيجة معلقة. ففي عام ١٩٤٣ «كانت المقاومة

إمبراطورية الدولة
إمبراطورية الرئيس

اللاشيوعية فى بولندا تنتظر الحلفاء لتحريرها، وكان الشيوعيون فى فرنسا على أهبة الاستعداد للتحرير السوفيتى». ولم يكن أى من التوقعين عبثياً بالقدر الذى يبدو عليه الآن. فلم يكن غزو نورماندى قد جرى بعد، وكانت القوات الألمانية لا تزال موجودة فى عمق روسيا.

فى كل تلك الأجزاء من أوروبا الخاضعة للألمان التى لم يكتب لشعوبها العبودية أو التصفية، كان للألمان حلفاء ومتواطئون يسعون للحصول على مكانة مميزة فى نظام هتلر الجديد، بدافع الاقتناع أو الضرورة التى أدركوها. وكان نظام فيشى فى فرنسا، لبعض الوقت على الأقل، أكثر مشروعية من أنظمة ما بعد الحرب المستقلة ظاهرياً التى أقامها الروس فى أوروبا الشرقية. وبدا لكثيرين فى عامى ١٩٤٠ و١٩٤١ أن ألمانيا كسبت الحرب. وبناء على هذا الافتراض، ماذا كان البديل للخروج بأفضل المكاسب من الوضع السيئ؟ كان بيير لافال والأميرال چان فرانسوا دارلان يأملان فى مشاركة ألمانيا فى اقتسام أفريقيا على حساب بريطانيا. ولم يكن ذلك أمراً يتسم بالحمق تماماً ؛ فكما رأينا، كان ذلك أحد خيارات هتلر، وإن لم يكن خياره المفضل. وحتى على الجبهة الشرقية المهلكة كانت هناك قوات موالية للنازيين بدافع من المعاداة العرقية للروس أو المعاداة للشيوعية أو المعاداة للسامية. ولو كان هتلر أقل قسوة تجاه السكان المحليين لكان من المحتمل أن يستقبله الناس باعتباره محرراً فى أنحاء كثيرة من الاتحاد السوفيتى، وليس فى أوكرانيا فحسب. غير أن نظرياته العنصرية لم تترك مجالاً للحلفاء السلاف.

كانت فصائل المقاومة الأخرى تتنافس فيما بينها على السيطرة كى ترسخ مطالبتها بالحكم بعد الحرب. وغالباً ما بدت أكثر حرصاً على القضاء على منافسيها من محاربة المحتل. ففى فرنسا، حاول الشيوعيون ضمان أنهم، وليس ديجول، الذين سيرثون فرنسا المحررة. وربما شمل ذلك خيانة قادة المقاومة الديجولية، مثل چان مولان، للألمان. وكانت المشكلة التى واجهت ديجول، الذى يقول دالاس إنه عرف باسم قضيب الدلك، «لأنه كان فى صلابة سيخ إذكاء النار دون أن يكون له دفئه العرضى» . هى أنه زعيم عين نفسه بنفسه فى المنفى، بينما كان الشيوعيون يديرون معظم المقاومة الداخلية التى كانت تتفاعل مع الترحيل الجماعى للعمال الفرنسيين إلى ألمانيا. وكانت مشكلة ديجول الأخرى هى أن روزفلت كان يمقته. وكان روزفلت «فى أعماق نفسه حليفاً لفيشى، وكان يظن باستمرار أن فيشى سوف تغير اتجاهها وتصبح دولة عميلة مريحة للأمريكان». وطوال عامين كان تشرشل وماكميلان وحدهما من يؤيد دعاوى الجنرال الفرنسى العصبى ضد العدوان الأمريكى. وفاز ديجول فى معركة الشرعية عندما سيطر مؤيدوه على التمرد المسلح فى باريس فى أغسطس من عام ١٩٤٤ قبل وصول الأمريكان، بمساعدة القائد العسكرى الألمانى ديتريش فون شولتيتس الذى تجاهل أوامر هتلر بـ «محو» العاصمة الفرنسية. وكان الثمن الذى اضطر ديجول إلى دفعه هو أن يشاركه الشيوعيون فى شرعيته. ودالاس محق

هتلر وستالين لم يكونا سياسيين «طبيعيين» يسعيان لتحقيق أهداف «السياسة الواقعية»، بل كانا قاتلين جماعيين يطمحان إلى إعادة تشكيل المجتمعات التى يسيطران عليها

فى إشارته إلى أن علاقة ديجول الغامضة بالشيوعيين فى الداخل وبالسوفييت فى الخارج استمرت بقية حياته.

كانت باريس مختلفة تماماً عن وارسو. فقد كانت المدينتان «رمزين للشهور الأخيرة من الحرب العالمية الثانية؛ إذ حُررت باريس، وبيدت وارسو». وفى الجزء الذى كان الألمان يحتلونه من بولندا لم يكن هناك مجال كبير للتواطؤ مع الألمان، حيث كانت الخطة النازية هى جعلها دولة موالية. وأظهر قتل عشرات الآلاف من الضباط البولنديين فى كاتين وأماكن أخرى فى عام ١٩٤٠ بناء على أوامر ستالين أن الزعيم السوفيتى كان يخبئ مصيراً على نفس القدر من الرعب تقريباً للنخبة البولندية فى الجزء الذى يسيطر عليه من بولندا. وبموت فلاديسلاف سيكورسكى فى حادث طائرة فى عام ١٩٤٣، خسرت بولند ديجولها، مع أنه كان سيصبح عاجزاً عن إنقاذ بولندا من السوفييت فى مواجهة «تحركات الجيوش»؛ إلا فى حال تلقى الحكومة البولندية فى لندن دعماً أقوى بكثير من بريطانيا وأمريكا. وربما كان ذلك سيتطلب مكاشفة مع ستالين. وربما تهديداً بقطع الإمدادات المهمة لروسيا. وهو الأمر الذى ربما كان تشرشل مستعداً له، بينما لم يكن روزفلت كذلك.

فى غياب أية مساندة غربية حازمة، كان مقدراً لانتفاضة وارسو التى بدأها «الجيش الوطنى» فى الأول من أغسطس عام ١٩٤٤ أن تتعرض لكارثة. وكان هدف الانتفاضة الاستيلاء على وارسو قبل وصول الجيش الأحمر، الذى كان سيتوجب عليها تحيته باعتباره مالك وارسو الشرعى. وقد نجحت جزئياً فى تحقيق هدفها الأساسى، ولكن الجيش الأحمر ظل معسكراً على الضفة اليمنى لنهر فستولا ولم يدخلها، متيحاً بذلك الفرصة للألمان كى يقضوا على «الجيش الوطنى» ومعظم وارسو خلال شهرين من القتال الشرس. بل إن ستالين لم يعط الإذن للقوات الجوية الملكية البريطانية بالهبوط وللقوات الجوية الأمريكية بنقل الإمدادات.

تركز الجدل التاريخى حول سبب قرار ستالين وقف تقدم جيوشه. هل كان ذلك لكونها مجهدة؟ هل كان يريد إتاحة الوقت للألمان كى يقضوا على المقاومة المناوئة للشيوعيين؟ أم أنه كان قلقاً من وقوع هجوم ألمانى مضاد؟ لدى دالاس تفسير آخر، وهو أن ستالين أجل التقدم إلى ألمانيا، ونقل جزءاً من قواته إلى البلقان كى «تعيد تثبيت المكاسب التى حققها وتلك المتوقعة من الاتفاقية النازية السوفيتية لعام ١٩٣٩ ....» ولأن دالاس تسيطر عليه فكرة واحدة، فهو يستخدمها فى تفسير أمور كثيرة جداً.

من بين ضحايا النازية فى أوروبا وعددهم ١٨ مليوناً، لقى ١١ مليوناً حتفهم فى بولندا، منهم ملايين اليهود. ويذكرنا القسم الأخير من كتاب دالاس بأن هتلر وستالين لم يكونا سياسيين «طبيعيين» يسعيان لتحقيق أهداف «السياسة الواقعية»، بل كانا قاتلين جماعيين يطمحان إلى إعادة تشكيل المجتمعات التى يسيطران عليها بترحيل السكان جميعاً أو تصفيتهم. والشىء المثير على نحو خاص عند دالاس هو القول (مثل سولچنتسين) بأنه فيما يتعلق بمسألة أعمال السخرة والإبادة، كان هتلر تلميذاً لستالين «تفوق» على أستاذه فى الحرب فحسب، ثم فى الظروف الخاصة بالحرب «الشاملة». «كانت المعسكرات الروسية والألمانية تنفث الموت فى بعضها البعض، كرياح السهل، فى دورة تبادلية». وفى بولندا وروسيا، «انتقل النازيون إلى المعسكرات السوفيتية السابقة؛ ثم استولى السوفييت على المعسكرات النازية القديمة واستغلوها. والأسوأ من ذلك أن بعض تلك المعسكرات كان بها النزلاء الأسرى أنفسهم والإداريون ذاتهم. وهذه هى القصة التى لم تُرو حتى الآن».

بدأ ستالين أعمال السخرة؛ فقد كان هناك بالفعل الملايين داخل المعسكرات الصناعية مثل كوليما فى عام ١٩٣٩، فى حين لم يكن داخل معسكرات الاعتقال الألمانية سوى ٢١ ألفاً. وأثناء الحرب، قلد هتلر ستالين بجمعه الملايين من العمال الأجانب لإنتاج الذخائر والطعام فى ألمانيا، وهى السياسة المفجعة التى دفعت بالشباب فى المناطق المحتلة إلى المقاومة. وكانت تلك السياسة النتيجة المنطقية لرفض السماح بتعبئة النساء الألمانيات، حيث كان هتلر يعتقد أن «نساءنا الألمانيات النحيلات ذوات السيقان الطويلة» لا يتناسبن مع العمل فى المصانع. وكما هو الحال فى معسكرات العمل السوفيتية (الجولاج)، كان الكثير من هؤلاء العمال يموت بسبب البطش والوحشية وسوء التغذية والمرض.

ويتبع دالاس سولچنتسين فى إنكاره تفرد الهولوكوست. فالتمييز الكلاسيكى بين وسم جنس من الأجناس (وهو ما لا يمكنه تغيير صفات هذا الجنس) ووسم

إمبراطورية الدولة
إمبراطورية الرئيس

طبقة من الطبقات (فيمكن «إعادة تثقيفها») ينهار في حالة ستالين. ويقول سولجنتسين إنه «ألقى أمماً بكاملها في البالوعات». فقد رحّل الأمم التي ظن أنها تواطأت، أو قد تتواطأ، مع الألمان، الجورجيون والشيشان والأنجوش والكلموك. مما أجهد جهاز النقل الروسي مثلما أجهد ترحيل اليهود إلى الشرق جهاز النقل النازي. وكان السبب في الحالتين واحداً؛ فقد جعلت سمات الضحايا العرقية منهم أعداء فعليين أو محتملين للنظام الحاكم. وفي عام ١٩٤١، تردد هتلر بين ترحيل اليهود وإبادتهم. وكان يفكر في إجلاء اليهود كافة في البداية إلى مدغشقر ثم إلى شرق جبال الأورال بعد ذلك. وكان «ضياع أية فرصة للسيطرة على تلك الأراضي... (هو ما) دفع النازيين في اتجاه... صالح الأخير».

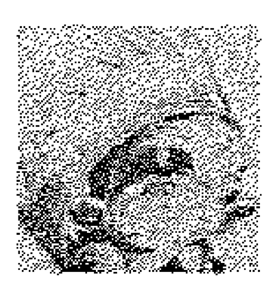
وفي تحريف آخر للقصة، يقول دالاس إن «الحدث الحاسم بالنسبة لمصير اليهود» لم يبدأه هتلر وإنما ستالين، حين رحّل ألمان الفولجا إلى سيبيريا في سبتمبر من عام ١٩٤١. وقد أبلغ ألفريد روزنبرج وزير المناطق الشرقية النازي هتلر أن أياً منهم لن يبقى على قيد الحياة. «ويبدو أنه في الفترة من أواخر سبتمبر وأكتوبر من عام ١٩٤١ قرر هتلر، الرجل غير المتسامح، إبادة يهود أوروبا في المقابل». وبذلك كانت سياسات النظامين متصلة في ثأر قاتل. وكان الإسراع في تنفيذ برنامج هتلر للإبادة في عام ١٩٤٢ رد فعل لحرب كان يخسرها. ويقول دالاس إنه بعد الهزيمة أمام موسكو «كان (هتلر) مضطراً للتفكير في الطرق التي يمكن بها للأيديولوجيا النازية أن تبقى... ولابد من قتل اليهود، كل اليهود، بينما لا تزال له السيطرة، قبل إنهاء الحرب».

طبقاً لما يقوله دالاس، فالفرق الرئيسي بين النازيين والسوفييت هو أنه «كانت للنازيين أهداف محددة بينما كان الشيوعيون يطلقون النار في كل الاتجاهات». كان النازيون قتلة أكثر عزماً وتصميماً، غير أن أهدافهم كانت أكثر تحديداً بكثير. وبينما «اخترق الجولاج الروسي كل جانب من جوانب المجتمع السوفييتي»، نجد أن معظم الألمان «لم يكن هناك ما يخيفهم من النازيين». وكان الاتحاد السوفييتي، وليس ألمانيا هتلر، هو «الدولة الشمولية في أشد صورها صرامة».

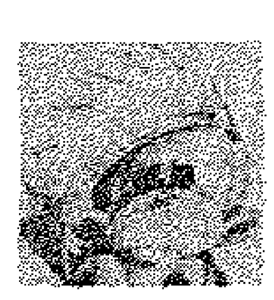
من الممكن أن تكون هناك تفسيرات مختلفة لأصول الهولوكوست، وتفسير دالاس معقول تماماً. وتكمن قوته الكبيرة في إصراره على أن تلك المأساة المرعبة لم تكن مقررة سلفاً. وتثير روايته أسئلة حول ما كان يمكن أن تقوم به الدول الأخرى لمنع إبادة اليهود الجماعية. والسؤال الأكثر إزعاجاً من بين تلك الأسئلة كافة هو: هل كان من الممكن أن يحدث ذلك بحال من الأحوال لو أن بريطانيا وفرنسا تنازلتا عن دانتسيج لهتلر؟

خلّف توقف القتال أعداداً ضخمة من الأشخاص المشردين: من بقوا على قيد الحياة في المعسكرات، والسكان الألمان الذين فروا من الجيش الأحمر، وغير الألمان الذين تواطأوا مع الألمان، طوعاً أو كرهاً. وفي يالتا، قرر الثلاثة الكبار أن «حثالة أوروبا»، كما أسماهم كوستلر، سوف يُعادون إلى «دولهم الأم»، حتى وإن أُرغموا على ذلك. وكانت تلك محاكاة لـ«تقرير المصير القومي». وعانى اليهود أكثر من غيرهم؛ فمن بقوا على قيد الحياة في المعسكرات النازية ظلوا داخلها، وكان الكثيرون منهم يموتون بسبب التيفوس والدوسنتاريا. ورُحّل القوزاق والقوقاز والمسلمون والمسيحيون والأوكرانيون وحتى البولنديين الذي حاربوا مع الألمان أو عملوا معهم إلى الجولاج. وأشهر قصة هي إيداع ٢٥ ألفاً من القوزاق والآلاف من «التشتنك» اليوجوسلاف من النمسا التي تحتلها بريطانيا أمانة لدى الجيش الأحمر والأنصار التابعين لتيتو المتعطشين للدماء. واستمر استئصال الشعوب وقتلها بعد توقف تحركات الجيوش.

فمتى إذن انتهت الحرب العالمية الثانية النهاية الفعلية؟ لم يجر تصفية الاتفاقية النازية السوفييتية بشكل نهائي في السنوات التالية لعام ١٩٨٩. فقد فقدت روسيا ما بعد الشيوعية كل مكاسبها الإمبراطورية التي حققتها في ظل الاتفاقية: شرق بولندا (الآن روسيا البيضاء)، ودول البلطيق، وبيسارابيا (الآن مولدوفا)، بالإضافة إلى أن الدائرة المحيطة بها من دول أوروبا الشرقية التابعة قد أصبحت جميعها دولاً مستقلة. بل إن بعض المناطق التي كانت خاضعة في الأصل لستالين. أوكرانيا وجورجيا وأرمينيا وأذربيجان وقازاقستان وقرغيزستان وطاجيكستان وأوزبكستان وتركمانستان. من خلال وراثته إياها من روسيا الإمبراطورية ضاعت. وقضي على نفوذ روسيا في الشرق الأوسط من الناحية العملية. وذكر سولجنتسين في مقابلة أجرتها معه مؤخراً صحيفة «موسكوفسكايا نوفوستي» أن حلف شمال الأطلنطي (الناتو) «يطور انتشاره العسكري في أوروبا الشرقية وعلى الجانب الجنوبي لروسيا بشكل منهجي». وقد شرعت الولايات المتحدة في تنفيذ نسخة معدلة من مهمة فرانكلين روزفلت لنشر الديمقراطية والأسواق الحرة في أنحاء العالم. وقد يجعل ذلك الشخص المندفع إلى القول بأن الحدود في الأماكن تلك كلها ثابتة، مع أنه من غير الواضح المكان الذي ستكون ثابتة فيه، أو ما إذا كان تثبيتها سيُحدث ذلك الفرق الكبير أم لا.



المنافسة مع الاتحاد السوفيتي أجبرت الولايات المتحدة على بناء مناطق نفوذ إقليمية وما بعد إقليمية في الوقت ذاته



الولايات المتحدة هي الدولة المحاربة الوحيدة بلا مطامع إقليمية التي ناقشها دالاس. فقد كانت ألمانيا وإيطاليا واليابان تحاول امتلاك الإمبراطوريات، وكانت روسيا تحاول استعادة الإمبراطورية الروسية، وكانت بريطانيا تحاول الاحتفاظ بإمبراطوريتها. (وقلما ذُكرت الصين.) فقد كانت الولايات المتحدة تطمح إلى إقامة «إمبراطورية الحرية» فيما بعد الحرب، وليس إلى مناطق النفوذ الإقليمية المفروضة بالقوة. واضطرت الولايات المتحدة إلى إقامة «مناطق حدودية» فحسب في أوروبا وآسيا في عامي ١٩٤٧ و١٩٤٩. وهو ما كان يزدريه فرانكلين روزفلت، بسبب انهيار وهمه الخاص بقيام سيادة مشتركة أمريكية سوفيتية. وكما يصف البروفيسور تشارلز ماير من جامعة هارفارد الأمر في كتابه «بين الإمبراطوريات: الهيمنة الأمريكية وأسلافها». ففي عالم ما بعد الحرب، كانت للولايات المتحدة «مناطق حدودية بعيدة جداً ولكنها حقيقية». وكان وودرو ويلسون وفرانكلين روزفلت قد حلما بقيادة أمريكية لا تعتمد على الأرض؛ ولكن المنافسة مع الاتحاد السوفيتي أجبرت الولايات المتحدة على بناء مناطق نفوذ إقليمية وما بعد إقليمية في الوقت ذاته.

لدى كتاب ماير الكثير الذي يقوله عن هذا البناء الذي جرى بعد عام ١٩٤٥. وهو بهذا المعنى يبدأ من حيث انتهى دالاس. فقد كان الحل الوسط الأمريكي بين الإمبراطورية التقليدية والكياسة الكانطية الخاصة بالجمهوريات الديمقراطية هو نشر «الهيمنة» الأمريكية على «العالم الحر» تساندها في ذلك التعهدات العسكرية والقواعد العسكرية، وتدعمها الأسلحة النووية وتكنولوجيا خط التجميع الخاصة بفورد. ويفرق ماير بين «إمبراطورية الإنتاج» و«إمبراطورية الاستهلاك». ففي المرحلة الأولى، نقل النظام الإنتاجي الأمريكي إلى حلفائها من خلال مشروع مارشال وغيره من برامج المساعدات، وكانت «إمبرطورية الاستهلاك» الخاصة بالمرحلة الثانية تقوم على سيادة الدولار، وبلغت ذروتها بـ«توءم العجز»: أي عجز الميزانية وعجز ميزان المدفوعات.

ويقارن ماير بين الطرق التي مولت بها بريطانيا والولايات المتحدة هيمنتهما العالمية. وهو يبين كيف أن نزعة المغامرة التي تميزت بها فترة كنيدي/خروشوف، التي بلغت ذروتها بأزمة الصواريخ الكوبية وبالفشل في فيتنام.

أفسحت الطريق لجهود نيكسون/ كيسنجر/ بريجنيف لفرض الاستقرار فى المناطق الحدودية الواقعة بين النظامين المتنافسين، وكيف أن تلك المحاولة الفاشلة لـ«تعليق... الحرب الباردة» تبعتها «حركة (جديدة) للأمام» قام بها الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان ومبدأ حقوق الإنسان الخاص بكارتر. وعن خطة نيكسون/ كيسنجر لتعدد الأقطاب الإمبراطورية، التى تشارك فيها القوة العظمى الأمريكية الصين والاتحاد السوفيتى العالم. يقول: «منذ أن عرض هتلر على مولوتوف جنوب ووسط آسيا فى نوفمبر من عام ١٩٤٠، لم يكن هناك مثل هذا النظام السياسى العالمى الأساسى الذى قُدم باعتباره صفقة كبيرة للمنافسين الدوليين».

رغم وجود بعض الأفكار اللافتة للانتباه هنا، فهذا هو الجزء من كتاب ماير الذى يحظى بأقل قدر من الرضا، حيث إن تاريخ الحرب الباردة أرض طالما طُرقت. وهناك ما يدل على أن ذلك الجزء كُتب على عجل، ومليء بالأخطاء الصغيرة المثيرة للغضب. كما أنه لم ينجُ من آفة المجال الأكاديمى المسمى بالاقتصاد السياسى؛ وهى المعالجة الغامضة للمفاهيم الأساسية ولما بين الاقتصاد والسياسة من ارتباطات.

الجزء الأول من كتاب ماير أكثر إثارة للفكر، وهو يبحث معنى كلمة «إمبراطورية» وإلى أى حد يشبه الوضع الأمريكى فى العالم الإمبراطوريات السابقة كالإمبراطوريتين الرومانية والبريطانية. ومنهجه هو تحديد «الأفكار المتكررة» فى التاريخ الإمبراطورى والسؤال عن مقدار تطابق التجربة الأمريكية معها. وقد أصبح البحث ملائماً للموضوع على نحو خاص؛ لأن هناك إجماعاً أكاديمياً آخذ فى الظهور على أن الولايات المتحدة بتدخلها العسكرى فى أفغانستان والعراق، وإقامتها قواعد عسكرية لأول مرة فى أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى، وتهديدها بشن هجوم على إيران، قد انتقلت إلى ما وراء أشكال «السيادة» أو «الهيمنة» أو «القيادة» أو «السيطرة»، التى كان يوصف بها دورها حتى وقت قريب، وهى تطمح فى الوصول إلى مرحلة جديدة قد ينطبق عليها فيها مصطلح «إمبراطورية». وقد وصف المؤرخ نيال فرجسون أمريكا بأنها «إمبراطورية مع الإنكار»؛ ويشير ماير إلى أنها قد تكون إمبراطورية قيد الإنشاء.

يريد ماير تخصيص مصطلح «إمبراطورية» لـ«بنية الحكم الموسعة إقليمياً» التى تُخضع «جماعات عرقية لغوية مختلفة» وتخصص القوة المتفوقة للسلطة التنفيذية ونُخَبها. وبناءً على هذا التعريف لا تكون الولايات المتحدة، ولن تكون، إمبراطورية؛ فهى لم تسعَ إلى سيادة رسمية على أرض أجنبية. (يرى ماير أن التوسع الداخلى فى أمريكا الشمالية لا يؤهلها لذلك، لأن سكان أمريكا الأصليين كانوا شبه رُحَّل؛ وكانت الفليبين استثناءً.) ومع ذلك يجد ماير أنه من الصعب استخدام الكلمة على نحو متساوق عند الحديث عن الولايات المتحدة باعتبارها «إمبراطورية استهلاك». وفى النهاية فإن أفضل ما يمكنه فعله هو أن يقول إن أمريكا لها بعض سمات الإمبراطورية وتفتقر إلى سواها.

ليس لأمريكا أباطرة بعد، وإن كان من الممكن النظر إلى رؤسائها على أنهم أباطرة منتخبون ذوو عناصر وراثية. ومنذ الحرب العالمية الثانية واعتبارات «الأمن القومى» تدمر المؤسسات المدنية أكثر وأكثر

فلنأخذ الطريقة التى تفرض بها الولايات المتحدة نفوذها. فالحكام التابعون يذعنون للولايات المتحدة. كما أن واشنطن عاصمة «إمبراطورية» تجتذب النخب الأكاديمية وغيرها التى تريد أن تكون قريبة من مركز النفوذ. غير أن تلك ترتيبات، على عكس ما هو عليه الحال فى الإمبراطوريات التقليدية، طوعية وتقوم على القيم المشتركة وقد خلقها تصور مشترك للتهديد الخارجى من جانب الاتحاد السوفيتى: فإذا كانت تلك إمبراطورية، فهى «إمبراطورية بالدعوة».

وكان للإمبراطوريات أباطرة. وكان لقب إمبراطور يرتبط بالحكم العسكرى. ويجسد الإمبراطور الحكم، وله علاقة وثيقة بالموارد العسكرية، ويمتلك (أو يدعى) عظمة أخلاقية، وهو على عكس الملك ليس بالضرورة حاكماً بالوراثة. ويرى ماير أن روما تظل النموذج الأكثر إقناعاً لمناقشة الولايات المتحدة لأن الغزو الخارجى حولها من جمهورية إلى إمبراطورية. وكانت تحتفظ بمؤسسات جمهورية مسلوبة القوة كمجلس الشيوخ، فى حين انتقلت السلطة إلى الإمبراطور، وأصبح التصويت استفتائياً. وبناء على هذا الرأى فإن الولايات المتحدة ليست إمبراطورية بعد، لأن سياستها الداخلية لم تصبح بونابرتية. ولكن ربما هى فى سبيلها إلى ذلك. وهناك تدهور للسلطة من السلطة التشريعية إلى السلطة التنفيذية، ومن المناقشة العلنية لسيطرة الخبراء، ومن السياسة والأحزاب السياسية إلى الجماعات الدينية وغيرها. وطبقاً لمبدأ بوش الخاص بـ«السلطة التنفيذية المركزية»، فإن الرئيس باعتباره القائد العام له سلطة عليا ولا يجب أن يكون عرضة للمساءلة من الكونجرس على ممارسة تلك السلطة.

ليس لأمريكا أباطرة بعد، وإن كان من الممكن النظر إلى رؤسائها على أنهم أباطرة منتخبون ذوو عناصر وراثية. ومنذ الحرب العالمية الثانية واعتبارات «الأمن القومى» تدمر المؤسسات المدنية أكثر وأكثر، رغم تعيين الرئيس ترومان للحاكم الإدارى الأمريكى الحقيقى واسع الصلاحيات لإحدى المستعمرات، وهو الجنرال دوجلاس ماك أرثر. ومع ذلك فالأيديولوجيا الرسمية والشعبية للولايات المتحدة معادية للإمبراطورية، ولهذا السبب وحده فمن غير المحتمل أن تكمل أمريكا التحول التقليدى من الجمهورية إلى الإمبراطورية.

الفكرة المتكررة الأخرى الخاصة بالإمبراطورية هى ما توفره من إشباع للرغبات: البطولة والمجد والشجاعة والشرف وفرصة الخدمة لجماعات النخبة، والتماثل التفويضى للجماهير. وليس لدى ماير الكثير الذى يمكنه قوله كوسيلة للتقييم الأخلاقى للإمبراطورية. فهو يكتب باعتباره عالم سياسة أو عالم اجتماع، وليس بصفته فيلسوفاً سياسياً. وهو لا يعير اهتماماً لدور الأفكار باعتبارها تأثيرات على أشكال الحكم. وهو ما ينتج عنه مناقشة ناقصة لمبررات الإمبراطورية والانهيار الإمبراطورى. وكما أدرك ثوسيديديس منذ زمن بعيد، تنشأ الإمبراطوريات من إيمان بالحق فى الحكم، وتنهار حين يخبو هذا الإيمان. ومن المؤكد أن هناك عنصراً أيديولوجياً قوياً فى السعى الأمريكى الحالى إلى الإمبراطورية، وخاصةً بين المحافظين الجدد فى الأكاديميات ومؤسسات البحث فى واشنطن. وهو يقوم على الإيمان بأن الغرب هو الأفضل، وأن الشىء الوحيد المأمون هو أن يصبح الأسلوب الغربى المعيار العالمى. وهؤلاء الذين يقاومون اعتناق مذهب الغرب يُعَدون همجيين ولابد من اقناعهم، أو إجبارهم، على الاعتراف بخطأ أساليبهم. وهذا هو حديث الإمبراطورية الأوروبى التقليدى، وتسمعه فى واشنطن الآن. غير أن مبدأ التفوق الغربى لم يتبلور بعد فى شكل أيديولوجيا إمبراطورية صريحة. فهو يفتقر إلى مكون النزعة العنصرية الخاص بالقرن التاسع عشر، وكذلك النزعة النازية، التى يصعب بدونها تبرير الحكم بلا موافقة، وإن كان السوفييت قد نجحوا فى تحقيق ذلك لبعض الوقت.

يناقش ماير ما إذا كانت الإمبراطوريات تستغل رعاياها بالقطع أم لا، وينتهى على نحو مقنع إلى أن نظريات الاستغلال كافة تطرح «دعاوى معيارية لا سبيل إلى حلها». وبالإضافة إلى ذلك، يشير ماير بعض الأسئلة الواقعية: هل تفوق تكاليف الإمبراطورية فوائد النفوذ الإمبراطورى؟ وهل يمكن استعادة تلك التكاليف من رعايا

الإمبراطورية من خلال الضرائب؟ وأى الجماعات يكسب وأيها يخسر من خلال الصلة الإمبراطورية؟ يميل ماير إلى دعم الرأى الليبرالى القائل بأن الإمبراطوريات، بكل تكاليفها العسكرية وغيرها، استنزاف صافٍ للنفوذ الإمبراطورى، ولكن النخب السياسية والتجارية، وبعض المصالح الخاصة، فى كل من المركز الإمبراطورى وعلى الهوامش، قد تحقق مكاسب على حساب ذوى الدخول المنخفضة.

يبدو أن هذا يتناسب مع التجربة الأمريكية (فيما يتصل بأمريكا اللاتينية على سبيل المثال)، غير أنه من غير المرجح أن يدعم المشروع الإمبراطورى فى غياب التأييد الشعبى. ويشير ماير بتبصر وإدراك إلى تردد الليبراليين فى الاعتراف بالصلة بين الأسواق والإمبراطورية. وهم يميلون فى علم الاقتصاد كما فى علم النفس إلى اعتبار تعويضات الإمبراطورية ومكافآتها من بقايا الظروف القديمة، ولا ينظرون إليها على أنها جزء من طريقة عمل الأسواق. ويقول ماير إن نموذج السوق الحالى الخاص بالعولمة يخفى دور الشركات الأمريكية متعددة الجنسيات فى نشر «أنماط التوظيف الإمبراطورى» من خلال إنتاج «الأوفشور». وبما أن الإمبراطوريات كانت باستمرار موافقة على السيطرة على الموارد، فإن المغامرة الأمريكية الحالية فى الشرق الأوسط الغنى بالنفط تتناسب مع المنطق الإمبراطورى التقليدى.

يتعلق الجزء الأكثر إثارة من كتاب ماير بدور الحدود والعنف فى التجربة الإمبراطورية. فالإمبراطوريات، شأنها شأن الدولِ (على الأقل فى التراث الغربى) تُعرِّف بأن لها حدوداً ثابتة؛ غير أن تثبيت الحدودِ بالغزو، والحفاظ على الحدود التى تثبت بهذه الطريقة، مصدر للعنف المتكرر «على الحدود»، الأمر الذى يؤثر على السياسة الداخلية. ويقول ماير إن الحدود الإمبراطورية متنازع عليها بالوراثة، حيث إنها لا تقوم على الاتفاق. ولذلك فإن الإمبراطوريات، على عكس الدول، بُنى غير مستقرة. ومع ذلك فإن النقطة الرئيسية لديه هى أن محاولة «تثبيت» الحدود تمثل تراجعاً عن دعاوى السيادة العالمية، واعترافاً بأنه يمكن إصدار الأوامر الإمبراطورية لتصل إلى هذا الحد فحسب. والمثال الكلاسيكى هو قرار أغسطس بتحديد الإمبراطورية الرومانية بنهر الراين فى أعقاب فقدان فيالق فاروس فيما وراءه فى العام التاسع الميلادى. ويقول ماير إن «يوتوبيا الولايات المتحدة كانت نسقاً من المعاملات العالمية الحرة... وعندما تتحطم اليوتوبيا، يفرض منطق الأرض نفسه». وكما أجبر تعزيز الإمبراطورية السوفيتية فى أوروبا الشرقية الولايات المتحدة على الحد من دعاواها بعد الحرب العالمية الثانية، فقد أجبر ظهور الإرهاب الولايات المتحدة على التحول من اليوتوبيا ما بعد الإقليمية إلى الدفاع الإقليمى فى العالم ما بعد الشيوعى.

وهكذا فإن التناقض الأساسى فى قلب الإمبراطوريات هو أنها تعد بالسلام ولكنها تنجب الحرب. وادعاؤها بأنها مؤسسات محبة للخير يقضى عليه الصراع المستمر على الحدود وتمرد الشعوب الخاضعة. ويتذكر ماير مجزرة إنجلترا التى راح ضحيتها الشعب الأيرلندى المحلى فى القرن السادس عشر. فمع ولع الإمبراطوريات بالتصنيف، نجد أنها قد زادت كذلك من حدة الانتماءات العرقية والاندماج فى الجماعات والانقسامات؛ وعادةً ما يتضح أن ما تُسمى «كراهيات قديمة» من صنع السياسات الإستعمارية.

يتسم ماير باللاأدرية فيما يتعلق بالدفاع الحالى الأكثر شيوعاً عن الإمبراطورية باعتبارها أحد عوامل العولمة، بغض النظر عن صحتها التاريخية. وحجة ذلك أن العولمة تقتضى ظروفاً من السلام والأمن يمكن للإمبراطوريات وحدها توفيرها. غير أن المدافعين عن الإمبراطورية ينسون أن آخر عصور العولمة، الذى كان كذلك عصر الإمبريالية، انتهى بالحرب العالمية الأولى. والحقيقة هى أنه لن يُقبل أى بديل إمبراطورى للمؤسسات والسلطات التعددية فى العالم المتعولم الذى هو كذلك فى سبيله لأن يكون أكثر تعددية. وليس هناك بديل سوى التقدم بالسرعة التى تجد أبطأ القوى العظمى أنها مقبولة.

فإلى أين تتجه أمريكا إذن؟ سيكون من الصعب فى المستقبل دعم فكرة أن الولايات المتحدة «إمبراطورية دعوة» وليست غزواً فى غياب التهديد السوفيتى. ومن الواضح أن الولايات المتحدة ليست موجودة فى العراق بدعوة. ويبدو أنه جرى تجاوز خط ما. وكما حدث فى فيتنام، سيكون على الولايات المتحدة إما أن تجعل حدودها الجديدة فعلية. وهو ما يتضح أنه ليس كذلك فى العراق، حيث تشتعل الحرب الطائفية دون أن يقيدها شىء تقريباً. أو أن تخرج. وفى أى الأحوال، كانت فكرة «إمبراطورية الدعوة» باستمرار قصة خيالية إلى حد ما؛ فالولايات المتحدة لم تكن «مدعوة» إلى ألمانيا واليابان فى عام ١٩٤٥، بل غزتهما. ومنذ ذلك الحين «تحتلهما» القوات الأمريكية. ويمكن القول بأنه منذ الحرب العالمية الثانية وهاتان الدولتان فى موضع ما بين كونهما مستقلتين وتابعتين؛ ويصدق الشىء نفسه على الاتحاد الأوروبى ككل، الذى يفتقر قادته وشعوبه إلى الإرادة والتماسك للخروج من القفص الذى تحميه الولايات المتحدة.

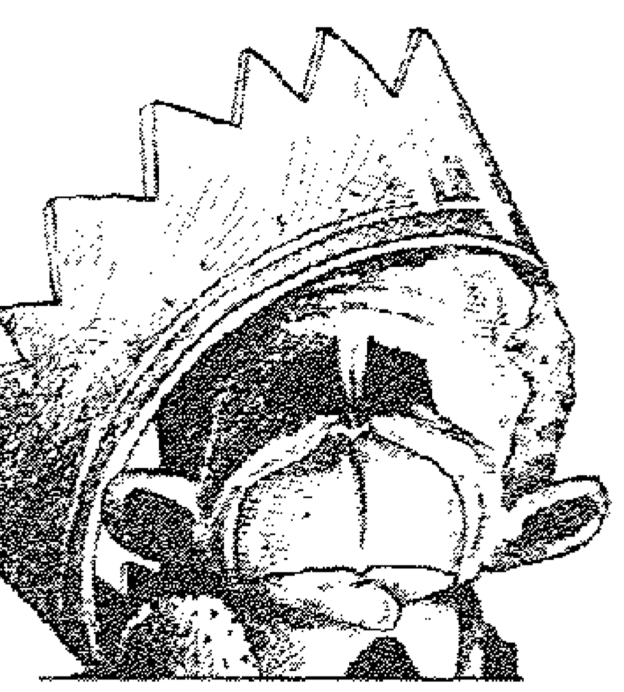
النتيجة الأساسية التى تخرج من دراسة ماير، مع أنه لا يبدو لى أنه قالها صراحة، هى أن بين قطبى «الإمبراطورية» و«الاستقلال» هناك عدد كبير من المواقع الوسطى التى يبدى كل منها مزيجاً مختلفاً من الاستقلال والخضوع. والواقع أن الرواية الخيالية التى تقول إن هناك بديلين فقط. وهى الرواية الخيالية التى تعد إنتاجاً مشتركاً للمثالية الويلسونية ومناهضة الاستعمار. هى التى تتسبب فى معظم ما يوجد حالياً من اضطراب. وأية ممارسة للنفوذ من جانب القوى يسميها خصومه «إمبريالية»، بينما يجب على الإمبريالى التظاهر بأن أعماله تتسق اتساقاً تاماً مع الاستقلال الوطنى.

إلى أين تتجه أمريكا إذن؟ سيكون من الصعب فى المستقبل دعم فكرة أن الولايات المتحدة «إمبراطورية دعوة» وليست غزواً فى غياب التهديد السوفيتى

ومع ذلك فإنه بينما يؤذى هذا المظهر الخادع الأرواح الساذجة التى ترغب بشدة فى التباينات الحادة، فهو قد يكون كذلك دليلاً على التقدم. وهناك أدلة على أن أشكال الحكم تزداد نعومةً وحكمةً وإنسانيةً؛ وحيث إنها أقل شفافيةً، فإن تعريفها أكثر صعوبةً. ورغم أعمال القتل الجماعية وغيرها من الفظائع التى لا تزال تشوه أجزاءً من العالم، فإن القسوة «الإمبراطورية» المنظمة الخاصة بهتلر وستالين التى يوثقها دالاس تاريخ قديم. فقد عذبا وقتلا الملايين؛ والآن هناك عدد أقل نسبياً من الوفيات وانتهاكات «حقوق الإنسان» المنسوبة للجهود الإمبراطورية التى تثير الإدانة العالمية؛ وهو ما يعود فى جزء منه، وليس بشكل كامل، إلى صعوبة حجب العنف عن موجات الأثير.

الاتحاد الأوروبى بدعة سياسية جديدة، ونحن الأوروبيين لدينا فى تعريفه المشكلة ذاتها التى يجدها ماير بالنسبة للولايات المتحدة. فهل هى دولة فدرالية قيد الإنشاء؟ وهل هو اتحاد كونفدرالى؟ إننى أرى أنه تجربة تتخذ شكل حكم لمجموعة من الدول لم نجد له اسماً بعد. وأشك أن الشىء نفسه يصدق على وضع الولايات المتحدة فى العالم. وهكذا فإنه رغم وضوح محاولة المطابقة بين الولايات المتحدة والأنماط التاريخية للإمبراطورية، فهى محاولة مضلِّلة تماماً. فالولايات المتحدة ليست تحولاً من الهيمنة إلى الإمبراطورية. العالم فى سبيله إلى التحول إلى أشكال جديدة من التنظيم السياسى الذى يمكن تصور خطوطه العامة على نحو غير واضح، بينما لا يمكن تثبيت حدوده بعد. ■

● الجنرال الأمريكى الذى كان يرأس قوات الحلفاء فى الصين وبورما والهند أثناء الحرب العالمية الثانية. وقد توفى فى عام ١٩٤٦، أى بعد عام واحد من انتهاء الحرب. (المترجم)



سَيِّد قَراره!

محمــــد الســطوحى

■ لم تكن مباراة الملاكمة قد بدأت بعد، لكن النتيجة كانت محسومة مقدما للملاكم الأوكرانى فلاديمير كليتشكو، الذى لم يكن قد تعرض للهزيمة قط فى أكثر من أربعين مباراة، فاز فى أغلبها بالضربة القاضية، حتى إن المعلق تساءل قبل أن تبدأ الجولة الأولى عما إذا كانت هناك نقطة ضعف واحدة فى هذا الملاكم العملاق الذى يزن أكثر من مائتين وستين رطلا واشتهر بلكماته القوية، ومهارته داخل الحلبة. لكن الإجابة لم تنتظر أكثر من دقيقتين، عندما تمكن الملاكم الجنوب إفريقى المغمور كورى ساندرز من إسقاطه بلكمة قوية فى ذقنه، ثم أسقطه بعدها ثلاث مرات قبل أن يوقف الحكم المباراة. عندها قال المعلق الأمريكى الشهير لارى ميرشانت: «إن الملاكم العظيم ليس فقط من يمكنه توجيه اللكمات القوية، لكن من يستطيع أيضا أن يتلقى ويتحمل تلك اللكمات».

وليس لدى شك فى أن نظرة العديد من دول العالم وكذلك الدول العربية للولايات المتحدة، لم تكن تختلف كثيرا عن تقييم لارى ميرشانت للملاكم الأوكرانى. فلم يكن هناك جدل كبير فى قدرة واشنطن على توجيه اللكمات بما لديها من قدرات عسكرية هى الأكبر فى تاريخ البشرية. ولكن كانت هناك شكوك وتساؤلات دائمة عن قدرة واشنطن على تلقى اللكمات العنيفة. هذه التساؤلات نبعت فى الأساس من بعض التجارب التاريخية، ومنها الحرب فى فيتنام التى اضطرت الولايات المتحدة للانسحاب منها بعد سقوط أكثر من ٥٥ ألف قتيل من جنودها. ثم انسحبت من بيروت بعد الهجوم الانتحارى لحزب الله على موقع لمشاة البحرية عام ١٩٨٣. وجاء الانسحاب الأمريكى من الصومال فى عام ١٩٩٣ بعد سحل جثث ثمانية عشر جنديا أمريكيا فى شوارع مقديشيو ليؤكد الصورة التى ترسخت لدى الكثيرين، وهى أن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تتحمل الخسائر البشرية، وأن تأييد الشعب الأمريكى للحرب سرعان ما ينهار مع رؤية صور القتلى بين الجنود الأمريكيين. ولاشك أن الكثيرين داخل واشنطن ذاتها كانوا قلقين من هذا الأمر، حتى إن مسئولى البنتاجون منعوا لفترة نشر صور نعوش الجنود الأمريكيين الذين قتلوا فى العراق، حتى لا يهتز تأييد الشعب الأمريكى للحرب.

المؤكد أن تنظيم القاعدة كان يفكر بهذا الشكل عندما خطط لإحداث أكبر قدر من الدمار والخسائر فى الأرواح فى هجمات سبتمبر، كما أن الكثيرين يتابعون عدد القتلى الأمريكيين فى العراق، وهم يتساءلون - حتى لو لم يجهروا بذلك - عن الرقم السحرى للقتلى الذى تضطر معه واشنطن إلى أن تلعق جراحها وتنسحب من العراق.

غير أن اعتقادى أن هؤلاء قد ينتظرون طويلا، تماما مثلما كان أسامة بن لادن مخطئا فى حساباته عندما تصور أن مقتل آلاف الأمريكيين فى هجوم إرهابى يعنى نهاية «الشيطان الأكبر»، أو على الأقل تقليم أظفاره. ويأتى خطأ الحسابات - فى تصورى - من عدم فهم نفسية وتركيبة الشعب الأمريكى، من ناحية، وانعدام المعرفة بشخصية الرئيس الأمريكى جورج بوش بسلبياتها وإيجابياتها. فانسحاب الأمريكان من فيتنام على سبيل المثال لم يكن فقط بسبب عدد القتلى، وإلا لما انتظروا حتى تجاوز ٥٥ ألف جندى. لكن الضغوط زادت بعد أن تأكدت قناعة الأمريكيين بعدم جدوى البقاء هناك دون وجود رؤية واضحة للمستقبل أو خطة محددة للخروج من المستنقع الفيتنامى، هنا فقط يصبح سقوط أى جندى غير مبرر. أما فى الصومال ولبنان، فقد قدمت القضية للشعب الأمريكى على أنها إنسانية فى الأساس، ولم يوضح أحد للأمريكيين طبيعة المصالح الحيوية التى سوف تتأثر بالانسحاب. وربما يوضح ذلك سر إصرار إدارة بوش على ربط غزو العراق بالحرب ضد الإرهاب. فهذه قضية يفهمها الأمريكيون، كما أنهم على استعداد لتحمل الخسائر البشرية فى أى عملية عسكرية فى الخارج إذا كان ذلك يعنى حمايتهم من تكرار هجمات الحادى عشر من سبتمبر. لذلك برر الغزو فى البداية بالربط بين صدام حسين ومنظمة القاعدة، ثم زيد على ذلك التهديد بأسلحة العراق ذات الدمار الشامل، وأن سقوطها فى أيدى القاعدة قد يجعل هجمات سبتمبر مجرد ضربة بسيطة مقارنة بما يمكن أن يحدث.

إلا أن تكشف الكثير من الحقائق فيما بعد عن عدم وجود تلك الأسلحة، وأن العراق لم يكن مسئولا بأى شكل عن هجمات سبتمبر هو الذى دفع الكثير من الأمريكيين للتشكك فى رواية الإدارة الأمريكية قبل الغزو، وارتفعت المعارضة للحرب فى العراق إلى واحد وستين فى المائة فى آخر استطلاع للرأى العام. هنا تعود الإدارة لربط العراق بالإرهاب ولكن بطريقة مختلفة، حيث تؤكد أن انسحاب القوات الأمريكية الآن يعنى سيطرة «القاعدة» والإرهابيين على البلاد بما يوفر لهم المأوى والقاعدة التى ينطلقون منها مثلما حدث من قبل فى أفغانستان. والأمر المؤسف أن الإدارة ربما تكون محقة فى تحذيرها هذه المرة، كما أن العراق أصبح على شفا حرب

عاش بوش الابن حياته كلها منذ طفولته خارج قطيع الأسرة وكان شابا مستهترا متواضع المستوى وفشل فى تحقيق نجاحات تذكر فى حياته المهنية

أهلية يرى البعض أنها بدأت بالفعل، وانسحاب القوات الأمريكية الآن يعنى اندلاعها بصورة شاملة تدمر الأخضر واليابس. غير أن نقطة الضعف لدى الإدارة هى أنها فقدت مصداقيتها لدى نسبة كبيرة من الأمريكيين الذين لم يعودوا يقبلون بمبرراتها، كما أنها لم تقدم خطة واضحة لتصحيح الأوضاع والخروج من المأزق العراقى، وهنا يتكرر النموذج الفيتنامى. فإذا كانت الإدارة نجحت فى إقناع البعض بمبررات البقاء، إلا أنها فشلت حتى فى إقناع حلفائها من الجمهوريين والمحافظين بخططها للنجاح. هنا قد يتراءى للبعض أنها مسألة وقت فقط قبل أن تتكشف الضغوط على إدارة بوش للانسحاب من العراق. لكنهم يخطئون هذه المرة فى قراءة الرئيس الأمريكى شخصيا.

لن أعيش فى جلباب أبى!

فى أول مؤتمر للدول الصناعية الثمانى الكبرى بعد تولى الرئيس بوش، سارع الرئيس الفرنسى جاك شيراك للاتصال بصديقه القديم الرئيس السابق بوش الأب، ليبلغه بسعادته بأداء ابنه فى القمة. ورغم أن المكالمة كانت فى إطار الإشادة بالرئيس الجديد، إلا أنها أثارت غضبه الشديد. أسباب هذا الغضب كانت خافية فى ذلك الوقت على شيراك، مثلما لاتزال خافية ربما على الكثيرين فى الدول العربية الذين راهنوا على العلاقة بين الابن وأبيه، وتصوروا عندما احتاج الأمر، أن كلمة الرجل العجوز ستكفى لتطوى الابن عن غيه وسياساته.

إلا أنهم لم يدركوا أن بوش الابن عاش حياته كلها منذ طفولته خارج «قطيع الأسرة» أو ال Black Sheep كما وصفه العالم النفسى والمحلل السياسى ستانلى ريشتون، الذى أصدر مؤخرا كتابا بعنوان «In His Father's Shadow» أو فى ظل أبيه، حاول فيه ان يشرح كيفية التحول فى شخصية جورج، الابن الأكبر لعائلة بوش، الذى كان شابا مستهترا، متواضع المستوى فى الدراسة، وفشل فى تحقيق نجاحات تذكر فى حياته المهنية، هذا بالإضافة لإدمانه الكحوليات، بما جعله موضع انتقاد فى أسرته التى خيب أملها فيه. ويرى ريشتون أن هذه المرحلة دعمت قدرة بوش على الوقوف بعيدا عن الآخرين، واستعداده للدخول فى صراعات بدلا من تفاديها، كما أن ثقته بنفسه لم تعد تستند إلى الآخرين أو رأيهم فيه. ومن هنا فإن ما حدث من تحول فى شخصيته استند كما يقول ريشتون إلى الإرادة والإيمان، وقد أثر ذلك على سياساته فيما بعد كرئيس. فالشخص الذى تمكن من هزيمة الشيطان فى داخله، أصبح يصر على هزيمة شيطان الإرهاب والتطرف فى أنحاء العالم. ونلاحظ هنا أن قراءة ريشتون رغم جديتها التحليلية فى الجانب النفسى، إلا أنها تأثرت كثيرا بميوله الجمهورية المحافظة فى تفسير سياسات بوش وتبريرها.

عكس ذلك تماما نراه فى قراءة المحلل النفسى جستين فرانك لشخصية بوش، كما عرضها فى كتابه «George Bush: A Puppet Who Chose His Puppeteers» أو جورج بوش: الدمية التى اختارت محركيها. فبوش هو يعرف تماما ما يريد، وهو الذى يتخذ القرارات بنفسه، إلا أنه يعتمد بشكل كبير على نائبه ديك تشينى ليقوم بدلا منه بعملية التفكير التى تجعله قلقا ومضطربا. كما أنه فى شبابه لم يكن يجد من يتحدث إليه عن مشاعره وانفعالاته، ولم يكن يميل للقراءة بما يساعده على فهم نفسه من خلال الآخرين، وهذا - كما يقول فرانك - جعله قاسيا فى علاقته بالناس والحيوانات، كوسيلة للتفريج عن مشاعر القلق بداخله، كما دفعه بقوة إلى الكحوليات التى أدمنها حتى تجاوز الأربعين من عمره. وبوش بهذه المواصفات لديه خطوط دفاع نفسية يلجأ إليها عند الحاجة. منها مثلا الانفصال عما يضايقه بالعزلة عن الآخرين. وهذا يفسر كما يقول فرانك عودته المستمرة إلى مزرعته فى كروفورد بولاية تكساس. فهى «كروفورد عقلية» يجد فيها الراحة بعيدا عن الضغوط التى يتعرض لها. كما يبدى فرانك انزعاجه الشديد من نوعية الأحاسيس الدينية للرئيس الأمريكى التى يرى أنها تربطه بالمسيح، وتعطيه الشعور بأن لديه مهمة مقدسة.

هذه «الإدانة النفسية» لشخصية بوش إذا صح هذا التعبير، تجد رفضا شديدا من ستانلى ريشتون، الذى تحدثت إليه فى مقره بنيويورك. فالرئيس الأمريكى -كما يقول- لا يتحدث إلى الله ولم يزعم يوما أنه تلقى منه التعليمات عما يفعله. أما مسألة المهمة المقدسة فهى فى الأساس تعبير عن قوة الهدف لديه نتيجة إحساسه الحقيقى بأنه يفعل الشىء الصحيح.

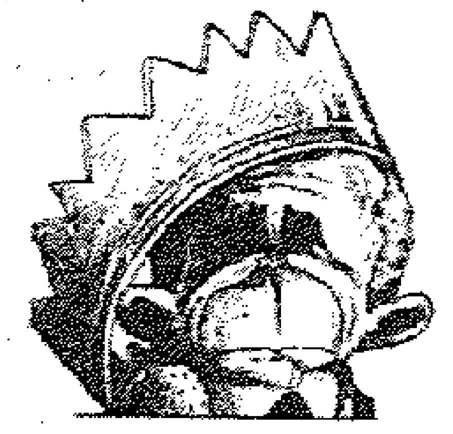
وأيا كانت التحليلات النفسية لشخصية بوش، فإنها رغم اختلافها فى التفسير، تتفق فى النهاية على أنه صانع القرار حتى لو كان فى حاجة لمن يحركه كما يقول فرانك. وقد لفت نظرى ما أورده الكاتب الصحفى بوب وودوارد فى كتابيه الشهيرين: بوش فى حرب «Bush At War» وخطة الهجوم «Plan Of Attack»، حيث يوضح مدى سيطرة بوش على جلسات مجلس الأمن القومى لبحث القضايا الخاصة بهجمات سبتمبر وأسلوب الرد عليها، ثم بعد ذلك فيما يتعلق بقرار غزو العراق. وسر الدهشة هنا هو أن هذه الجلسات كانت تضم شخصيات قوية وذات خبرة وتاريخ طويل من أمثال ديك تشينى ، ووزير الخارجية كولين باول، ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد، بينما كان بوش يفتقد تماما للخبرة فى هذه القضايا. وهنا أذكر أول مؤتمر صحفى مشترك عقده بوش مع وزير خارجيته الجديد كولين باول أثناء مشاوراته لتشكيل حكومته، حيث تنحى الرئيس المنتخب جانبا ليتولى باول الرد على أسئلة الصحفيين فى القضايا الحرجة للسياسة الخارجية، بما أثار التساؤلات عما إذا كان باول سيفرض اختياراته وسياساته على إدارة بوش. إلا أن الأيام أثبتت عكس ذلك تماما. بل ربما كان بوش يتعمد أحيانا التصرف بعكس ما يقوله باول كما حدث فى قضيتى الشرق الأوسط، وكوريا الشمالية، فى محاولة للتأكيد على من هو صاحب القرار.

> لم يكن يميل للقراءة بما يساعده على فهم نفسه من خلال الآخرين، وهذا جعله قاسيا فى علاقته بالناس والحيوانات، كوسيلة للتفريج عن مشاعر القلق بداخله

إلا أن ذلك لم ينف الانتقادات العديدة التى لا يزال يتعرض لها بوش، وكثيرا ما تكون فى صورة نكات تسخر من محدودية فهمه للقضايا المعقدة أو معرفته بالعالم المحيط، فهو لم يغادر الولايات المتحدة طوال حياته إلا مرة واحدة لعدة أيام زار فيها إسرائيل، واصطحبه رئيس الوزراء السابق إريل شارون فى جولة بطائرة الهليوكوبتر شرح له فيها ضيق مساحة إسرائيل بما يفسر تمسكها بأراض فى الضفة الغربية لأسباب أمنية. وقد انعكس ذلك على تفكير بوش بعد توليه الرئاسة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية. والأمر المؤكد أن بوش حاول أن يتعلم ويتفهم الكثير من القضايا بعد دخوله البيت الأبيض، إلا أن هذه القضايا أكثر تعقيدا من أن يتم التعامل معها فى عجالة، خاصة مع ما عرف عن الرئيس الأمريكى من عزوفه عن القراءة الطويلة المتعمقة، حيث يفضل المناقشات بدلا منها. الطريف أن بعض المدافعين عن بوش يجدون فى ذلك ميزة وليس عيبا. حيث ذكر المعلق الشهير بيل أورايلى أن تركيبة بوش كانت مناسبة تماما لنوعية القيادة المطلوبة بعد هجمات سبتمبر والحاجة إلى شخصية حاسمة لا تضيع الوقت فى قضايا بيزنطية. وضرب مثلا على ذلك بأنه لو كان بيل كلينتون فى مكان بوش وقيل له إننا نريد أشياء معينة من اليمن، فإن كلينتون كان سيحاول أن يفهم الموقف اليمنى وأوضاعه الداخلية وانعكاسات القرار اليمنى إلى آخره. أما بوش -كما يقول أورايلى- فهو لا يعرف أين يوجد اليمن ولا يريد أن يعرف، فكل ما يهمه أن ينفذ اليمنيون المطلوب منهم، وسيكون حاسما وقويا حتى يحصل على ما يريده.

ويرتبط بذلك أسلوب رؤية الرئيس الأمريكى للأمور، فهى دائما أما أبيض أو أسود.. أو قوى الخير فى مواجهة الشر الذى هو فى هذه الحالة الإرهاب. وهو بشخصيته هذه غير قادر أو غير راغب فى رؤية المنطقة الرمادية التى يقع فيها الكثير من القضايا، فهى غالبا ما تكون نسبية

سيّد قراره!



وليست مطلقة تماما فى الأبيض أو الأسود كما يروق لبوش أن يراها. وقد نجحت إسرائيل ورئيس وزرائها السابق إريل شارون ببراعة فى صياغة الصراع فى الشرق الأوسط فى هذا الإطار بحيث لم يعد قضية احتلال للأراضى العربية أو اضطهاد للشعب الفلسطينى، بل هى كما صورتها لبوش، مشكلة إرهاب فلسطينى ينبغى أن يهزم أولا ليفسح المجال لبزوغ ديمقراطية فلسطينية تسمح بتحقيق السلام، وهى الرؤية التى أوضحها الناشط والوزير الإسرائيلى السابق آلان شارانسكى فى كتابه «THE CASE FOR DEMOCRACY» أو القضية من أجل الديمقراطية، وهو الكتاب الذى أخذه بوش مرجعا لسياساته فى المنطقة رغم ما فيه من خلل وتحيز واضح فى أسلوب العرض ومنهج التفكير بما قاد إلى نتائج مغلوطة. لكن بوش كان على استعداد للقبول بها لأنها خاطبت توجهاته، واتفقت مع أسلوبه فى التفكير ورؤيته لعالم ما بعد سبتمبر، بكل ما فيها من اختزال. وهنا أعود للخبير النفسى والمفكر السياسى ستانلى ريشتون، الذى يرى أن بوش لديه مشاعر وطنية حقيقية وليست للمزايدة السياسية، كما أنه تعامل مع هجمات سبتمبر كما لو كانت هجوما شخصيا على زوجته أو ابنتيه. ومع تسليم ريشتون بأن بوش قد لا يلم بالكثير من التفاصيل والتعقيدات الخاصة بالقضايا المعروضة، إلا أنه قادر على الوصول إلى الحقيقة المجردة. فقد أدرك بعد هجمات سبتمبر مباشرة أن هذه حرب حقيقية وليست مجرد عملية يمكن الرد عليها بشكل سريع وينتهى الأمر. فالرئيس السابق كلينتون - كما يقول - ربما كان قادرا على رؤية وجوه متعددة وزوايا مختلفة للقرار، ولكن ما فائدة ذلك إن كان عاجزا عن اتخاذ هذا القرار. ويضيف رشتون أن هناك الكثير من الظلال والمناطق الرمادية فى تفكير بوش وسياساته أكثر مما يبدو على السطح من مجرد متابعة كلماته، وهو يدلل على ذلك بعبارته الشهيرة فى خطابه أمام الكونجرس عقب هجمات سبتمبر، بأن على كل دولة أن تقرر لنفسها إما أن تكون مع الولايات المتحدة أو مع الإرهابيين. إلا أنه عند التطبيق كان عليه القبول بمواقف أقل وضوحا وصرامة من دول مثل السعودية وباكستان بل وفرنسا. لكن يبقى الأمر المؤكد فى التحليل النهائى، أن بوش أحدث نقلة نوعية فى طبيعة وتوجهات السياسة الخارجية الأمريكية، فهو أكثر جرأة فى الدخول فى مغامرات خارجية، ولا مانع لديه من استخدام القوة العسكرية حتى لأسباب يراها وقائية كما حدث فى العراق. وهو فى ذلك بعيد عمن سبقوه من الديمقراطيين أو الجمهوريين بمن فيهم والده الرئيس السابق بوش، الذى تشير كثير من المصادر أنه لم يكن راضيا عن كثير من هذه التحولات. وقد روى الكاتب الصحفى جيمس ريزن فى كتابه «حالة حرب» State Of War أن الرئيس الحالى أنهى مكالمة هاتفية حامية مع والده بوضع السماعة بغضب، بعد أن لامه الرئيس السابق على النفوذ الكبير لمجموعة المحافظين الجدد فى إدارته من أمثال وزير الدفاع دونالد رامسفيلد، وعدم استماعه للأصوات المعتدلة مثل كولين باول. كان هذا عام ٢٠٠٣، حيث كانت بعض الدول العربية تأمل أن يؤثر الأب على ابنه ويثنيه عن غزو العراق. وقد روى لى المحقق الصحفى الأمريكى سيمور هيرش أن دولة عربية كبرى أرسلت طائرة خاصة للرئيس السابق لزيارتها وإقناعه بالتدخل لدى ابنه، ليتبين للجميع بعد ذلك أن الابن شب عن الطوق. إنه قد يستمع لوالده، لكنه يختلف عنه كثيرا، وهو فى النهاية «سيد قراره». لقد عاد بوش الابن للاتصال بأبيه واعتذر عن إنهاء المكالمة السابقة الذكر بهذه الطريقة، وانتهى الأمر بينهما عند هذا الحد. لكنه لم ينته مع بقية دول العالم التى ستعيش مع نتائج سياساته بسلبياتها وإيجابياتها لأجيال عديدة قادمة. ■



أكثر من ٤٠ عاماً من الالتزام والمشاركة نحو تنمية المجتمع المصرى.

التزام حقيقى لمستقبل أفضل.

بى بى ... أكثر من اربعين عاماً من الانجازات فى مصر

خلال الأربعين عاما التى شهدت نشاطنا فى مصر، بذلت بى بى أقصى جهدها لتكون قوة إيجابية مؤثرة فى المجتمع، وسعياً لتحقيق هذا الهدف عملنا بالتعاون مع العديد من الجمعيات المحلية والدولية في مجالات مختلفة كالتعليم، الصحة، الأمان والبيئة بالإضافة إلى المساهمة فى الأعمال الخيرية والثقافية. وفى السنوات القليلة الماضية تم تركيز برامجنا على التعليم، التدريب وتطوير المهارات من خلال التعاون مع هيئة فولبرايت، جمعية جيل المستقبل، المكتبات والجامعات المصرية ومنحة شيفننج للجامعات البريطانية. كما نقوم بإرسال نخبة من ألمع الطلاب المصريين المتميزين للدراسة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وجامعة كامبريدج بالمملكة المتحدة.

هذه مجرد أمثلة لالتزام الشركة بالمساهمة فى تحقيق تطوير حقيقى للمجتمع المصرى.

لمزيد من المعلومات يرجاء زيارة موقع الشركة على الإنترنت www.bp.com

bp

أكثر من ٤٠ عاماً فى مصر

إيران وأمريكا





البحث عن طريق ثالث!!

«حكاية» العلاقات الأمريكية الايرانية هى من «الحكاوى» القديمة المتجددة باستمرار، بدأت تبرز قرب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وتواصلت فصولها، حتى مع انقطاع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين منذ عام ١٩٧٩.

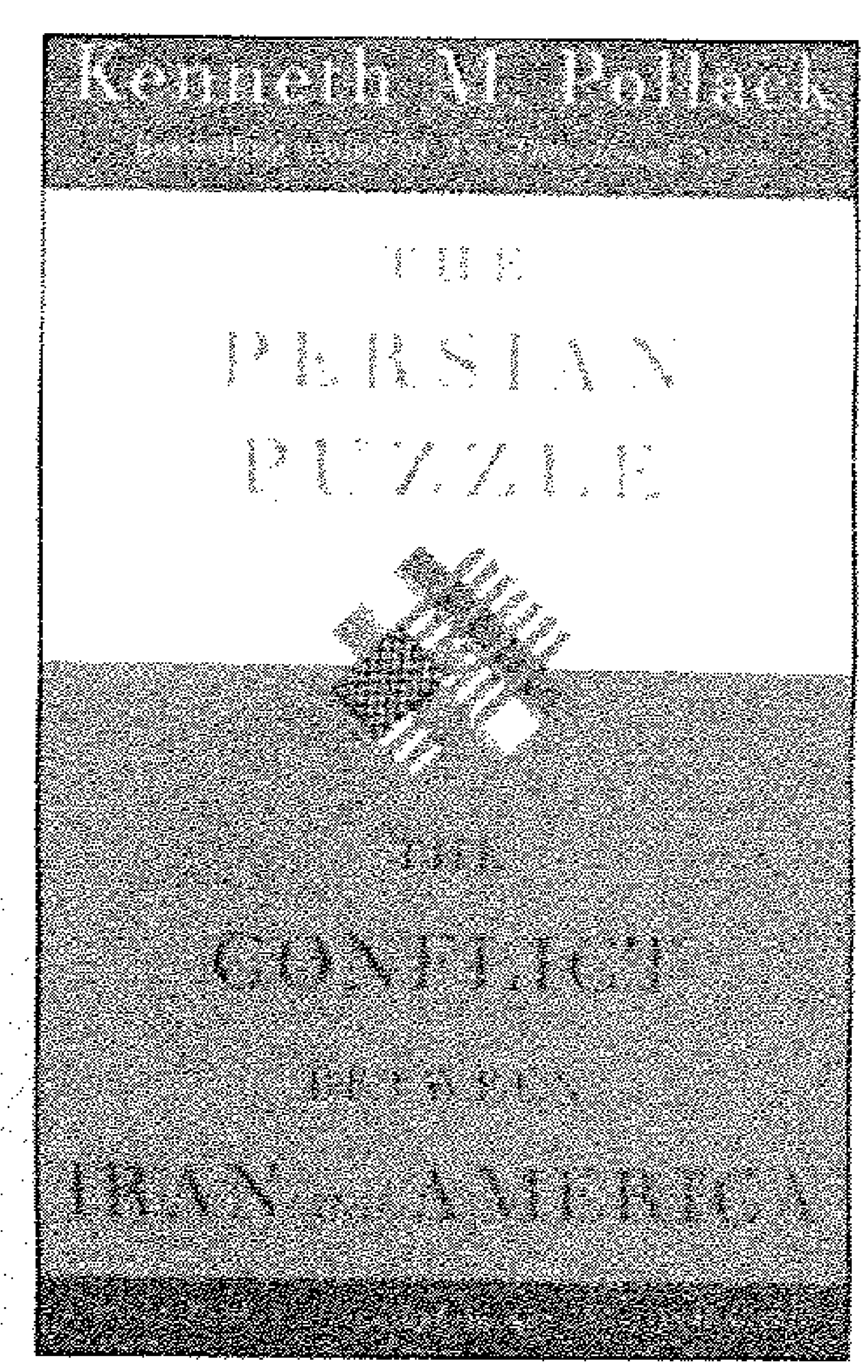
إيــــران وأمريكـــا

وليـــد محمود عبدالنـاصر

يكاد موضوع العلاقات بين الولايات المتحدة وإيران أن يكون المتصدر بلا منازع لجدول أعمال العلاقات الدولية ولتغطية وسائل الإعلام العالمية منذ فترة طويلة، أى هو بعبارة أخرى «موضوع الساعة». تختلف العناوين من وقت إلى آخر، ولكن يبقى الجوهر توتر

The Persian Puzzle: The Conflict Between Iran and America
(اللغز الفارسى: الصراع بين إيران وأمريكا)
Kenneth M. Pollack
New York: Random House, 2005, 539PP

إحدى المشكلات المزمنة فى الموقف الأمريكى من إيران أن واشنطون كانت تقوم بمبادرات تجاه قيادات إيرانية تتوسم فيها الاعتدال والبراجماتية ثم يتضح لها متأخراً أنها أدت إلى عكس ما كان مرجواً منها



العلاقة فى الإجمالى والتناوب بين بوادر انفراج أحيانا وفترات شد فى معظم الأحيان.

فهناك حوار حول العراق ثم اتهام امريكى لإيران بتمويل الإرهاب فى العراق وإدراك إيرانى ودولى - بما فى ذلك أمريكياً ضمنياً أحياناً وعلنياً فى كثير من الأحيان - بأن الاحتلال الأمريكى للعراق أوجد لإيران تاثيراً غير مسبوق فى العراق من الناحية الفعلية. وهناك أيضاً اتهام أمريكى مستمر لإيران منذ انتصار الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ بالعمل على إعاقة «عملية السلام» بين العرب والاسرائيليين عبر توفير الدعم والغطاء للمنظمات الفلسطينية المناهضة لهذه العملية والتلويح بالتهديدات لإسرائيل والمعاداة للسامية، ويقابل ذلك «كروت» إيرانية هامة ومؤثرة على هذه الجبهة، ما بين تحالف مع سوريا ودعم لحزب الله وآخر لحكومة حماس. ثم هناك اتهام واشنطون المتواصل لنظام الجمهورية الإسلامية فى طهران بدعم الإرهاب ممثلاً على وجه الخصوص من وجهة النظر الأمريكية الرسمية فى حزب الله اللبنانى، يقابله خلاف إقليمى ودولى متزايد وهوة تزداد اتساعاً حول تعريف الإرهاب أصلاً.

وخلال هذا كله يتواصل الجدل الذى لا يلبث أن يهدأ حتى يثور من جديد حول الملف النووى الإيرانى ويكتسب اهتماماً إقليمياً ودولياً واسعاً لا يخلو من جهود استقطاب فى هذا الاتجاه أو ذاك، وهو ملف شهدت الشهور الأخيرة تصعيداً غير مسبوق فيه فى اتجاه ينذر بمواجهة سيدفع الجميع إقليمياً ودولياً ثمناً باهظاً لها إذا حدثت، أو مماطلة قد تؤدى إلى أوضاع اكثر تعقيداً فى الشرق الأوسط ومنطقة الخليج ويراها الكثيرون حينذاك كتهديد للسلم والأمن الدوليين. وكأن كل ما سبق لا يكفى فيأتى اشتعال الجبهة اللبنانية/ الإسرائيلية ليدفع بالولايات المتحدة لاتهام محور إيران/ سوريا بالوقوف خلف تصعيد حماس وحزب الله الذى ادى بدوره إلى تسخين الأجواء وقدم المبرر للهجوم الإسرائيلى على لبنان.

ولا يسعنا أن نتجاهل التحرك البندولى للعلاقات الإيرانية الأمريكية فيما يخص أفغانستان، فما بين إشادات أمريكية متحفظة وغامضة عن «تعاون» إيرانى فى أفغانستان وكذلك فى جهود مكافحة المخدرات بها ومنها، ثم اتهامات أمريكية لإيران بإيواء عناصر من تنظيم القاعدة ولعب دور تحريضى فى صفوف شيعة أفغانستان بل ومحاولة بناء تحالف مناهض للحكم الموالى لواشنطون فى كابول عبر تأليب قادة مجاهدين سابقين، وبين هذا كله يبرز - كما فى الحالة العراقية- أن إيران كانت المستفيد الأول من الحرب الأمريكية فى أفغانستان.

وأخيراً، وليس آخراً، هناك الضجة التى أفرزها داخل الولايات المتحدة منح تأشيرة دخول للرئيس الإيرانى السابق خاتمى للولايات المتحدة لإلقاء عدد من المحاضرات بها ما بين مؤيد لها، كلفتة انفتاح نحو أحد أصوات الإصلاح والاعتدال فى إيران وبين من يرى ما يحدث داخل إيران مجرد توزيع أدوار متفق عليه ويذكر بأن خاتمى لم يحقق ما وعد به من إصلاحات خلال ثمانى سنوات فى سدة الرئاسة ويشير إلى أن من شأن فتح خط مع خاتمى توفير فرصة للنظام الإيرانى للخروج من عزلته، وكأنه يسلم بأن هذا النظام بات معزولاً بالفعل!

والواقع أن «حكاية» العلاقات الأمريكية الإيرانية هى من «الحكاوى» القديمة المتجددة باستمرار، بدأت تبرز قرب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وتواصلت فصولها، حتى مع انقطاع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين منذ عام ١٩٧٩. ولهذه العلاقات محاور متعددة ومستويات متباينة ومراحل متفاوتة، تمر عبر النفط والغاز والموقع الجيو-استراتيجى، ولم تقف عند حدود الحرب الباردة كما فى حالات العلاقات الأمريكية مع دول أخرى بالمنطقة وخارجها. وتداخلت فيها الأيديولوجيا والمصالح والثقافة، ولعبت الدبلوماسية غير الرسمية فيها أدواراً هامة. وتعددت دوائرها بين أفغانستان والعراق والصراع العربى الإسرائيلى وأمن الخليج والتاثير فى مناطق التواجد الشيعى والمد الإسلامى فى مجمله والأوضاع فى آسيا الوسطى.

ووصلت أصداء العلاقة/ المواجهة بين الولايات المتحدة وإيران إلى جنوب أفريقيا جنوباً عبر مشروع تخزين النفط الإيرانى فى جنوب أفريقيا فى النصف الثانى من التسعينيات، وإلى أمريكا اللاتينية غرباً من خلال تعزيز الروابط مع مناهضى واشنطون فى فنائها الخلفى ممثلين فى كوبا وفنزويلا، وهو ما شكل استمراراً لإرث أحد الزعماء الأوائل للثورة الإيرانية الراحل آية الله سيد محمود طالقانى الذى استقبل عام ١٩٧٩ وفد جبهة الساندينيستا اليسارية الحاكمة حينذاك فى نيكاراجوا والتى كانت تناصب واشنطون العداء وأعلن وقوف «الجمهورية الإسلامية» مع الجبهة فى مواجهة «الشيطان الأكبر» (وهو الاسم الذى أطلقه الراحل آية الله الخمينى على الولايات المتحدة) وبرر ذلك بآية فى القرآن الكريم تحث المسلمين على مساندة الذين يجاهدون من أجل «القسط» (العدل) فى العالم، واعتبر طالقانى أن ذلك يسرى فى كل الأحوال حتى ولو كان هؤلاء المجاهدون من الشيوعيين.

ونتناول هنا كتاباً هاماً صدر منذ شهور قليلة نشعر بازدياد أهميته بمرور الأيام وتطور الأحداث على صعيد الأوضاع والمواقف بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية. والكتاب بعنوان The Persian Puzzle، ومن تأليف باحث له اسمه وصيته فى الدراسات والبحوث المتصلة بمنطقة الشرق الأوسط بصفة عامة، ومنطقة الخليج والعراق وإيران على وجه الخصوص، وهو Kenneth Pollack والذى يشغل منصب مدير البحوث بمركز سابان لدراسات الشرق الأوسط التابع لمؤسسة بروكنجز، أحد أهم مراكز الأبحاث بالعاصمة الأمريكية واشنطون، وسبق له العمل فى مجلس الأمن القومى الأمريكى خلال إدارة الرئيس السابق «بيل كلينتون» وإدارته الديمقراطية متولياً مسئولية الملفين الإيرانى والعراقى، كما سبق له قبل ذلك العمل كمحلل بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

وسنتعرض هنا بالعرض والتحليل النقدى لمضمون كتاب «بولاك»، وفى سياق هذا العرض النقدى سنحاول وضع الكتاب فى إطاره الطبيعى تاريخياً ومنهجياً وبحثياً كجزء من سياق طويل للعلاقات الأمريكية الإيرانية التى مرت بأطوار مختلفة، خاصة خلال نصف القرن الأخير.

ويشكل انقلاب ١٩٥٣ الذى دبرته المخابرات الأمريكية لإسقاط الزعيم الإيرانى الإصلاحى والوطنى ذى الشعبية العريضة محمد مصدق وتمكين الشاه الصغير حينذاك محمد رضا بهلوى من السلطة نقطة البداية

إيـــران وأمريكـــا

الحقيقية فى تغطية بولاك للعلاقات الأمريكية الإيرانية، نظراً لما أوجده هذا الانقلاب لدى الإيرانيين من اعتقاد بأنه ليس فقط الولايات المتحدة تريد السيطرة على إيران بل انها تمكنت من ذلك بالفعل. ومن هنا يبرز بولاك فى كتابه أهمية تصريح وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة مادلين أولبرايت عام ٢٠٠٠ بالأسف للتراجع فى تطور إيران السياسى فى عهد الشاه المخلوع، بما شكل إشارة ضمنية لمسئولية الولايات المتحدة عن هذا التراجع، دون أن يرقى إلى الاعتراف الصحيح أو الاعتذار اللذين كانا يحتاجهما الإيرانيون بل ويشترطونهما لإطلاق حوار مع الولايات المتحدة.

ويرى بولاك أن الاعتراف بأخطاء السابق وإن لم يكن له نتيجة آنية فإنه هام لتجنب أخطاء المستقبل. فبحسب بولاك، فإن الأمريكيين الذين دبروا انقلاب عام ١٩٥٣ لم يفهموا لا مصدق ولا الشاه. فمصدق أدرك أن الولايات المتحدة تنظر إلى إيران باعتبارها هامة وحيوية لمصالحها وأمنها القومى على الصعيد الإقليمى، وبالتالى اعتقد - عن صحة أو خطأ- انه يستطيع الحصول على تنازلات من الولايات المتحدة عندما يظهر وكأنه مستعد لعقد صفقات مع الاتحاد السوفيتى السابق. أما الشاه فقد رأى نفسه معتمداً بالكامل على الولايات المتحدة ولكنه من منطلق هذه الحماية الأمريكية الكاملة يتدلل على من يحميه، كما فعل عام ١٩٧٣ عندما دفع منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك) إلى مضاعفة أسعار النفط بشكل غير مسبوق.

وقد انكشفت هذه التبعية للشاه السابق على الولايات المتحدة - بحسب بولاك - فى أيامه الأخيرة بشكل كامل عندما بدأ يخطط لحملة قمع دموية للثورة الإيرانية ولكنه ذكر للسفير الأمريكى فى طهران أنه لن ينفذ هذه الخطة بدون موافقة واشنطون، وهى موافقة رفض أن يمنحها حينذاك الرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر. وبخصوص هذه اللحظة التاريخية، يوجه بولاك اشد الانتقادات لإدارة الرئيس كارتر وعملية صنع السياسات والقرارات بها حيث يصف المعتدلين والمتشددين فيها على حد سواء بأنهم عملوا فى ظل فرضيات لا أساس لها من الصحة على ارض الواقع ولكنها من بنات أفكارهم.

ويعتبر كتاب «بولاك» -وبحق- أن الأزمة التى عصفت بالعلاقات الأمريكية الإيرانية منذ قيام الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ ثم أزمة الرهائن بالسفارة الأمريكية فى طهران -والتى بدأت فى العام نفسه- كانت مصدر إحباط لآخر خمسة رؤساء للولايات المتحدة، بدءاً بالديمقراطى جيمى كارتر وانتهاء - حتى الآن على الأقل- بالجمهورى جورج بوش الابن، حيث فشلت مختلف الاستراتيجيات والسياسات والمبادرات التى طرحوها للتعاطى مع الشأن الإيرانى ومع حالة العلاقات الأمريكية الإيرانية، المجمدة على افضل تقدير منذ فبراير ١٩٧٩.

ويفسر المؤلف أن إحدى المشكلات المزمنة فى الموقف الأمريكى من الجمهورية الإسلامية فى إيران والتى سببت هذا الفشل والإحباط هو أن واشنطون كانت تقوم بمبادرات تجاه شخصيات فى القيادة الإيرانية تتوسم فيها الاعتدال والبراجماتية ثم يتضح لها متأخراً أن هذه المبادرات أدت إلى عكس ما كان مرجواً منها. ويرى «بولاك» أن هذا النمط بدأ عندما التقى مستشار الأمن القومى الأمريكى حينذاك زبيجنيو بريجينسكى مع رئيس الوزراء الإيرانى فى ذلك الوقت الراحل مهدى بازرجان فى نوفمبر ١٩٧٩. إلا انه بعد هذا اللقاء بأيام قليلة تم الهجوم على السفارة الأمريكية فى طهران بواسطة ما سمى بـ «الطلاب السائرين على نهج الإمام» واحتجاز العاملين بها فى أزمة استمرت لحوالى أربعة عشر شهراً، وسقطت حكومة بازرجان «المعتدلة» وسط اتهامات لها من دوائر المتشددين فى طهران بالسعى للتقارب مع واشنطون والتغاضى عن «الجرائم» الأمريكية فى حق الشعب الإيرانى.

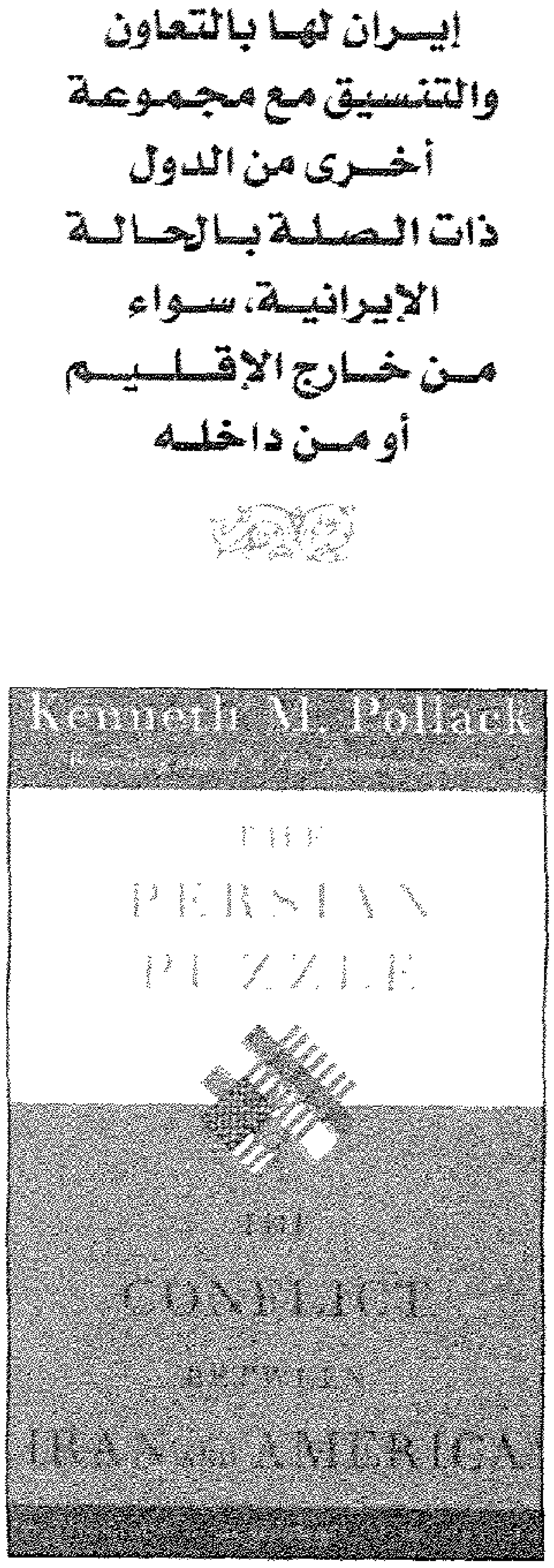
وفيما يتعلق بحادث احتجاز الرهائن الأمريكيين فى السفارة الأمريكية بطهران من نوفمبر ١٩٧٩ إلى يناير ١٩٨١، فان بولاك يؤكد من جديد أن موقف الخمينى لم يقتصر على تبنى الاستيلاء على السفارة الأمريكية واحتجاز الرهائن ولكنه تخطى ذلك إلى الدفع لإبقائهم محتجزين أطول فترة ممكنة حتى يتحقق هدف إسقاط الرئيس كارتر، كنوع من الثأر للموقف الأمريكى المدبر لانقلاب ١٩٥٣ ضد مصدق.

ولكن لا تبدو لنا الصلة هنا مؤكدة فالمؤسسة الدينية الشيعية فى إيران بقيادة آية الله كاشانى كانت قد اختلفت مع مصدق قبل سقوطه وتصالحت مع الشاه بعد عودته على أسنة الحراب بتخطيط أمريكى عام ١٩٥٣ ولم تواجه الشاه من جديد سوى عندما تعارضت مصالح الطرفين حين أطلق الشاه ما أسماه بـ «الثورة البيضاء» فى مطلع الستينيات من القرن الماضى وتم المساس بالمصالح الاقتصادية للمؤسسة الدينية الرسمية الشيعية. كما أن آخرين ممن كتبوا عن العلاقات الأمريكية الإيرانية اتفقوا مع بولاك فى أن مد الجانب الإيرانى لأمد أزمة الرهائن كان بغرض إسقاط الرئيس كارتر ولكنهم خلصوا إلى دوافع مختلفة، أهمها السعى لصفقة مع الإدارة الجمهورية الجديدة للرئيس ريجان كرد لهذا الجميل لإيران، أو تصور البعض داخل القيادة الإيرانية أنه قد يكون الأسهل لنظام الجمهورية الإسلامية فى إيران التعامل مع إدارة جمهورية محافظة عن التعامل مع إدارة ديمقراطية ليبرالية تركز على قضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان، وربما لم يدر بخلد هؤلاء للحظة أن الإدارة الجمهورية الجديدة ستدشن حقبة من تعاظم تأثير اليمين المسيحى فى دوائر الحزب الجمهورى وإداراته المتعاقبة بما يؤدى فى نهاية المطاف إلى نمو تراكمى للعداء لإيران فى ظل حكم الجمهورية الإسلامية.

ويعطى المؤلف مثالاً آخر بما عرف بفضيحة «إيران-كونترا» خلال حكم الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان -وتحديداً عام ١٩٨٤ - حيث اتبع مجلس الأمن القومى نهج التعامل السرى مع قيادات إيرانية مثل «على أكبر هاشمى رفسنجانى» رئيس مجلس الشورى (البرلمان) الإيرانى حينذاك فى صفقة لإمداد إيران بالسلاح مقابل إطلاق سراح رهائن أمريكيين محتجزين لدى تنظيمات شيعية مسلحة قريبة من إيران فى لبنان، وأيضا مقابل أموال تم تحويلها لتمويل متمردى «الكونترا» الذين كانوا يقودون تمرداً مسلحاً ضد حكومة الساندينيستا فى نيكاراجوا بزعامة «دانيال أورتيجا» اليسارية التوجه والمناهضة للولايات المتحدة حينذاك. ولم يتحقق أى عائد للولايات المتحدة من جراء هذه الصفقة، بل عندما انكشف الأمر تحول إلى فضيحة بكل المعايير للإدارة الأمريكية وتم محاكمة بعض المسئولين عنها وأجبر البعض الآخر على الاستقالة، كما لم تحقق أى مردود إيجابى على المواقف الإيرانية إزاء الولايات المتحدة. وفيما يتعلق بهذه الفضيحة يفسرها بولاك بأن الكونجرس حين حظر على الإدارة الأمريكية توفير موارد للمخابرات المركزية لتمويل برنامج لدعم متمردى الكونترا فى نيكاراجوا فان مسئولى مجلس الأمن القومى والمخابرات المركزية وجدوا طريقاً غير مباشر لتمويلهم عبر تلك الصفقة.

ونزيد هنا بأنه حتى الشخصيات الإيرانية

يوصى بولاك بأن تتعامل الولايات المتحدة مع التحديات التى تشكلها إيران لها بالتعاون والتنسيق مع مجموعة أخرى من الدول ذات الصلة بالحالة الإيرانية، سواء من خارج الإقليم أو من داخله



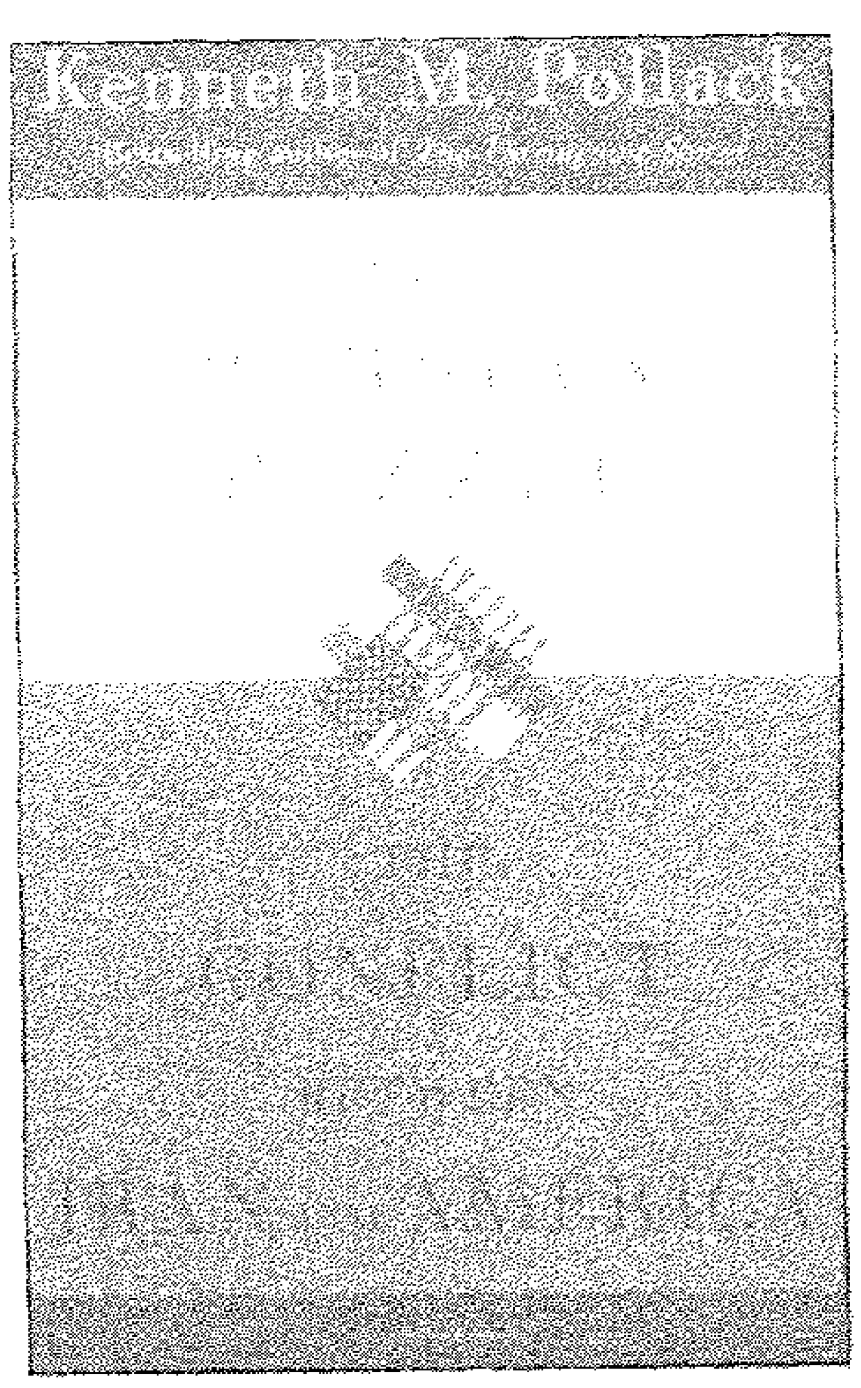
إيـــران وأمريكـــا

المتورطة فى فضيحة «إيران - كونترا» سارعت بالإعلان عن مواقف متشددة إزاء الولايات المتحدة لتبرئة ساحتها من «تهمة» التقارب مع الولايات المتحدة، بل وبررت موافقتها على الصفقة بأنها كان يمكنها التعامل مع «الشيطان» للحصول على السلاح الذى كانت إيران تحتاجه حينذاك فى حربها مع العراق، وكان هذا «الشيطان» بالطبع من وجهة نظرهم هو الولايات المتحدة، وهو وصف سبق أن ذكرنا أنه أطلق عليها فى إيران الثورة منذ أيامها الأولى وكان يقرن بـ «الأكبر» وكان أول من أطلقه هو آية الله الخمينى نفسه.

وفى الفصل السابع من كتابه، يتناول بولاك ما يسميه «إيران فى حالة حرب مع العالم» ويركز على عقد الثمانينيات من القرن العشرين. فإيران كانت فى حالة حرب مع العراق، وفى الوقت نفسه تتبنى حزب الله فى لبنان وتشرف على خطط لهجمات مثل الهجوم على مقر قوات مشاة البحرية الأمريكية (المارينز) فى بيروت عام ١٩٨٣. ويرى بولاك أن الصراعات داخل إدارة الرئيس الراحل ريجان وفضيحة إيران- كونترا كانتا على قمة سجل الأخطاء الأمريكية فى تلك الحقبة، ويرى بولاك أن قرار إرسال قوات المارينز إلى لبنان كان كارثة للسياسة الأمريكية فى المنطقة، وكان كارثة للسياسة الأمريكية تجاه إيران، بل ويرى أن التدخل الأمريكى فى لبنان فى حد ذاته كان خطأً كبيراً.

وتستمر عملية سوء التقدير وسوء الحكم على الأمور المتبادلة بين الجانبين الأمريكى والإيرانى -من وجهة نظر بولاك- طوال فترة وجود آية الله الخمينى كمرشد للثورة (أى حتى عام ١٩٨٩). ويقر بولاك بوجود صراع مستمر بين من أسماهم بـ «الثيوقراطيين» وبين من يسميهم بـ «العلمانيين المتغربين» وذلك استمر حتى فى الفترة التى تلت وفاة آية الله الخمينى، وانتهى الأمر بتكرار ما يسميه بولاك بالنموذج الصينى، أى بالثيوقراطيين يخففون بعض القيود فى المجال الاجتماعى ويمنحون قدراً من الحريات فى هذا المجال مقابل الحصول على كل السلطة والقوة السياسية بلا قيود. ويدهشنا هنا تصنيفات بولاك الحادة والتى لا يقدم مبرراتها بقوة فلا نعلم من تحديداً المقصود بالثيوقراطيين داخل السلطة الإيرانية التى تقوم أسسها الدستورية وشرعيتها الفقهية بالكامل على مفهوم «ولاية الفقيه»، ومن هم «العلمانيين المتغربين» داخل هذه السلطة التى لا مجال بداخلها إلى وجود علمانيين ولا متغربين إلا إذا كانت التعريفات عنده نسبية وفضفاضة للغاية داخل إطار الجمهورية الإسلامية الإيرانية وفى إطار مقارن. إلا أن المقارنة بين الحالة الصينية والحالة الإيرانية تبدو لافتة للنظر وإذا تناولناها بالتحليل لا تخلو من جدة ووجاهة، وأهمية ودلالة، مع الأخذ فى الاعتبار اوجه التباين فى المشروع الفكرى والسياسى للنخبة السياسية والثقافية الحاكمة فى الحالتين.

السلطة الحقيقية لاتخاذ القرار على الجانب الإيرانى كانت فى أيدى أشخاص إما أنهم ليسوا مستعدين أو غير مكترثين بتحسين العلاقات الأمريكية الإيرانية



ثم يقدم «كينيث بولاك» لنا رؤيته من داخل الإدارة الأمريكية الديمقراطية فى عهد الرئيس السابق بيل كلينتون حيث عمل حينذاك فى مجلس الأمن القومى وكان منوطاً به الملف الإيرانى، ويسير على نفس المنهج فى العرض، فيعرض لجهود إدارة كلينتون للتقارب مع العناصر المعتدلة فى القيادة الإيرانية. ولكن النتيجة النهائية التى يخلص لها من هذه التجربة هى الإقرار بسوء تقدير الإدارة، وسوء تقديره هو شخصياً، حيث أنه تصور فى مرحلة ما أن الولايات باتت قريبة جداً من تحقيق «اختراق» من العيار الثقيل فى العلاقة مع إيران، إلا انه وعى -على حد قوله- أن السلطة الحقيقية لاتخاذ القرار على الجانب الإيرانى كانت فى أيدى أشخاص إما كانوا ليسوا مستعدين أو غير مكترثين بتحسين العلاقات الأمريكية الإيرانية.

وفى تناوله لفترة الإدارة الجمهورية الراهنة يتناول المؤلف المنهج الأمريكى الخاص بتصنيف إيران ضمن مجموعة دول معادية، سواء كانت التسمية «الدول المارقة» Rogue States أو لاحقاً «محور الشر» Axis of Evil وهى مجموعة بدأت واسعة لتضم العراق وإيران وسوريا وكوريا الديمقراطية الشعبية وكوبا والسودان وأفغانستان والجماهيرية الليبية، ثم تقلصت وخرجت منها أفغانستان والعراق بفعل الحرب، وليبيا عبر تسوية تفاوضية مع بريطانيا والولايات المتحدة، وصارت السودان على حدودها تدخل احياناً كضغوط سياسية أو عبر قرارات للأمم المتحدة وتخرج أحياناً أخرى عبر تسويات دبلوماسية. ولكن الكاتب يتجاهل هنا واقع وجود تقليد سابق هو سعى العديد من الإدارات الأمريكية المتعاقبة إلى وصم الدول أو التنظيمات السياسية أو العقائد المناهضة لها بأوصاف ونعوت ذات مكون أخلاقى سلبى، ومن منا لا يذكر وصف الرئيس الراحل ريجان للاتحاد السوفيتى السابق بـ «امبراطورية الشر» فى الثمانينيات من القرن الماضى. فالإدارة الحالية إذاً لم تبتدع سنة جديدة فى هذا المجال.

وفى مجال توصياته لمستقبل السياسة الأمريكية إزاء إيران، فان «بولاك» حاول الجمع بين ودروس وخبرة الماضى ومنح الأمل فى مستقبل أفضل، فهو من جهة يوصى باستمرار السعى الأمريكى للوصول إلى البراجماتيين فى القيادة الإيرانية وفى المجتمع الإيرانى ومحاولة التوصل معهم إلى صفقة «ما»، ولكنه على الجانب الآخر، وتحديداً فيما يتعلق بالملف النووى الإيرانى يوضح انه إذا أصرت طهران على الاستمرار فى برنامجها النووى، فعلى الإدارة الأمريكية اتخاذ إجراءات والقيام بأفعال أكثر حزماً إزاء إيران، بما فى ذلك -وفى الحالة القصوى على حد تعبيره- النظر بجدية لإمكانية اللجوء للخيار العسكرى.

وقد سبق لنفس الكاتب إصدار كتاب أثار جدلاً واسعاً عام ٢٠٠٢ بعنوان The Threatening Storm : The Case For Invading Iraq, وهو ما مثل دعما موازياً لموقف من كان يسمى حينذاك بالمتشددين فى إدارة الرئيس بوش الأولى الذين كانوا يدعمون خيار الغزو العسكرى للعراق. وجاءت توصيات كتاب «بولاك» فى نفس الاتجاه لتثير الاستغراب على نطاق واسع أخذاً فى الاعتبار خلفية عمل المؤلف فى إدارة كلينتون الديمقراطية التى لم تتبن خيار غزو العراق.

ولئن كانت إجابة المؤلف على حالة العراق هى ضرورة الحرب، ففى حالة كتابه الأخير عن إيران فان إجابته هى رفض مشروط لاعتبار الحرب الوقائية هى الحل لما تصفه الدوائر الأمريكية بالمسألة الإيرانية. فبولاك يقر فى كتابه الجديد أولاً أنه أخطأ فى كتابه السابق ويبرر ذلك بأنه كان يستند إلى معلومات استخباراتية اتضح فيما بعد أنها كانت مضللة أو على أفضل تقدير خاطئة. وأسباب رفضه للحرب فى حالة إيران متعددة منها الكثافة السكانية للإيرانيين، الطبيعة الوعرة للأرض وكثرة عدد المرتفعات والهضاب، والأعداد الكبيرة المتوقعة لمقاومين إيرانيين لأى غزو أمريكى لبلادهم نتيجة ما يؤمنون به عقائدياً بما يدفعهم للموت دفاعاً عن «الجمهورية الإسلامية» وهى قناعة أيديولوجية لم تكن متوفرة بحسب رأى بولاك فى الحالة العراقية لدى المدافعين المفترضين عن حكم الرئيس السابق صدام حسين. كما يشير بولاك إلى مخاطر قد تتعرض لها المصالح الأمريكية والمواطنون الأمريكيون فى مناطق أخرى عبر العالم فى حالة القيام بهجوم عسكرى أمريكى ضد إيران.

وحتى بالنسبة لتوجيه ضربة وقائية ضد منشآت إيران النووية أسوة بالضربة العسكرية الإسرائيلية لمنشآت العراق النووية فى يونيو ١٩٨١، فانه يستبعد هذا الخيار لأنه يرى فيه عيوبا أكثر من مزاياه. ويوصى بولاك بأن تتعامل الولايات المتحدة مع التحديات التى تشكلها إيران لها بالتعاون والتنسيق المكثف مع مجموعة أخرى من الدول ذات الصلة بالحالة الإيرانية، سواء من خارج الإقليم أو من داخله، ومواجهة إيران بمزيج من عصى كبيرة وجزرات كبيرة أيضاً Big Carrots and Big Sticks.

وقد أخذت بعض الدوائر داخل مراكز الأبحاث ووسائل الإعلام الأمريكية المؤيدة لدعوات التغيير الديمقراطى فى العالم العربى والإسلامى التى أطلقتها الإدارة الأمريكية الحالية، خاصة منذ بداية الولاية الثانية للرئيس بوش الابن، على «بولاك» فى كتابه عدم تعرضه بما يكفى لخيار دعم القوى والاتجاهات الديمقراطية داخل إيران، بالرغم من أن تحول إيران من نظام إسلامى إلى نظام ديمقراطى على النسق الغربى - حسب رؤية هذه الدوائر- هو السبيل الوحيد لضمان نشأة وتطور علاقات جيدة ومستدامة بين إيران والولايات المتحدة على المدى المتوسط والطويل.

الأمر الآخر الذى أخذه بعض الأكاديميين على كتاب «بولاك» هو اعتماده شبه التام على المصادر الأمريكية فى مراجعه، فلم يستخدم مراجع أوروبية هامة عن إيران، بالإضافة إلى عدم استخدامه مراجع إيرانية هامة. وبالتالى أخذ هؤلاء على الكتاب أنه عكس نقاط القوة والضعف للأدبيات السياسية والأكاديمية الأمريكية حول إيران وتاريخها. وإن كان العذر الذى يمكن التماسه لبولاك فى هذا السياق أنه يبحث أساساً فى إخفاقات السياسة الأمريكية إزاء إيران وليس عن تطورات الحالة الإيرانية فى حد ذاتها.

وهناك أمر ثالث أخذه بعض الإيرانيين والأمريكيين المؤيدين أو المتعاطفين مع شاه إيران الأخير محمد رضا بهلوى على «بولاك» وكتابه، حيث اتهمه هؤلاء بالتحامل على الشاه السابق، وتضخيم أخطائه وإخفاقاته بشكل مبالغ فيه مع تجاهل ما حققه من إنجازات لإيران وللعلاقات الإيرانية الأمريكية، وكذلك اتهموه بالتحدث مطولاً فى كتابه عما أسماه بفشل سياسات الشاه الاقتصادية دون أن يذكر أن إيران حققت خلال بعض السنوات ما بين عامى ١٩٥٣ و ١٩٧٨ معدلات نمو كانت تعتبر الأعلى بين مختلف دول العالم فى تلك الفترة.

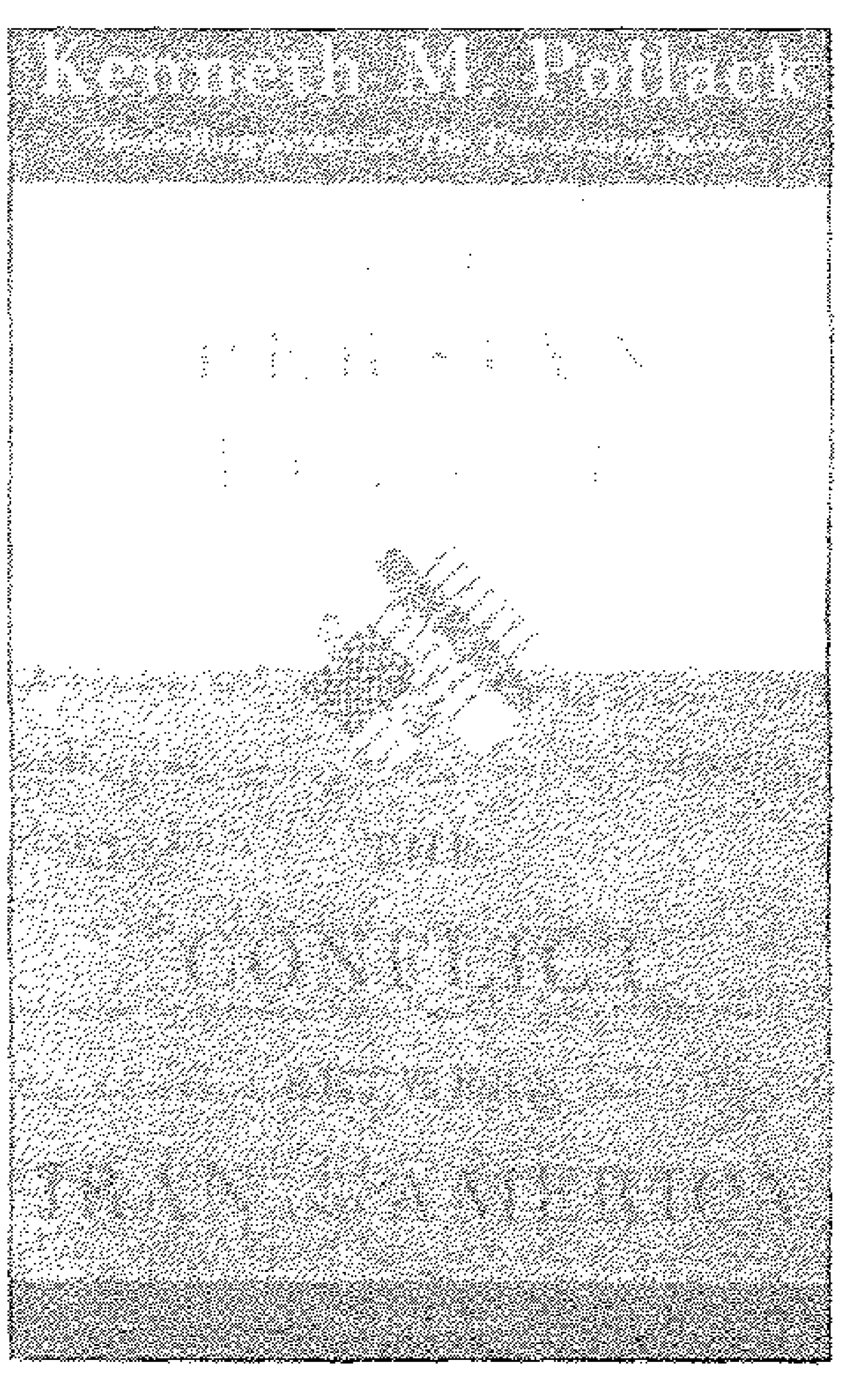
يوفر الكتاب أرضية هامة ولا مثيل لها كثيراً لخلفية العلاقات الإيرانية الأمريكية وتطورها. ويبدو أقوى فى حججه ومنهجه عندما يتحدث عن الماضى وليس المستقبل، وربما هذا ما تتصف به دراسات وبحوث العلوم السياسية والعلاقات الدولية بشكل عام بالرغم مما حدث فيها من تقدم وطفرة فى مناهج وأدوات التحليل - بما فيها الكمية - فى العقود الماضية. فبولاك يذكر القارئ مثلاً مراراً وتكراراً كم أن الكثير من الفرضيات والمسلمات الأمريكية حول إيران وأولوياتها ومصادر قلقها هى ببساطة خاطئة. ويستدعى هذا إلى الذاكرة ما فعله تشارلز دويلفر كبير خبراء الأسلحة الأمريكيين فى العراق عندما كشف للعالم كله، وللأمريكيين على وجه الخصوص، أن الرئيس العراقى السابق صدام حسين كان يدعى أن لديه أسلحة دمار شامل لأنه كان معنياً أساساً بردع إيران، الخصم الإقليمى اللدود، وليس الولايات المتحدة، القوة العظمى الوحيدة فى عالم ما بعد الحرب الباردة.

ولا شك أن مواقف بولاك تجاه إدارة كلينتون وسياساتها كانت اكثر ايجابية وتعاطفاً، وهو أمر متوقع فى ضوء عمله هو شخصياً فى هذه الإدارة كمحلل سياسى فى المخابرات المركزية ثم كمسئول عن ملف إيران والعراق بمجلس الأمن القومى. فهو يعطى لإدارة كلينتون الفضل فيما يعتبره تراجع إيران عن «الإرهاب» المعادى للولايات المتحدة بعد انفجارات أبراج الخبر فى المملكة العربية السعودية عام ١٩٩٦. ولكنه يقر أن لفتات إدارة كلينتون تجاه إيران لم تؤد إلى نتيجة. وبالرغم من أن البعض يشير إلى ما أوردته لجنة التحقيق فى أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ من وجود أدلة على تسهيل إيران سفر السعوديين المتهمين بالاشتراك فى هذه الهجمات، فان بولاك يتجاهل هذه النقطة كلية ويشير بالمقابل إلى ما يسميه بتعاون إيران على المستوى العملى مع الولايات المتحدة عقب هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ مباشرة وخاصة خلال الحرب ضد حركة الطالبان فى أفغانستان.

إلا أن الكاتب لم يمنح اللفتات والمبادرات المحدودة للانفتاح والمصالحة ولكن الهامة وذات الطابع غير الرسمى خلال العقد الأخير التغطية أو الوزن الذى تستحقه، رغم تنوعها بين الإعلامى والثقافى والفنى والرياضى والقادم من المجتمع المدنى. ولم يتناول بالإسهاب المطلوب الجدل المستمر داخل الولايات المتحدة بين مؤيدى الانفتاح على المجتمع الإيرانى، ولو بدون سياسة، وبين من يعتقد أن أى انفتاح على الشعب الإيرانى سيصب لصالح النظام الإيرانى. وهو فى الواقع خلاف أعمق مما يبدو على السطح، فهو فى حقيقته نزاع بين دعاة تغيير النظم المناوئة للولايات المتحدة ولو بالقوة او بالغزو الخارجى أو تقديم الدعم الفعال لمعارضى هذه النظم من خارجها أى اتباع طرح Regime Change وبين من يؤمنون بإمكانية حدوث التغيير بشكل سلمى وتدريجى من داخل هذه المجتمعات فى سياق إصلاح النظم من داخلها. كما أنه خلاف بين من يسعى إلى «تسييس» و«أدلجة» كل شىء، وبين من يسعى إلى الاحتفاظ باكبر قدر من الفضاء الإنسانى بعيداً عن قيود السياسة وتاثيرها المباشر.

وأخيراً، فإن كتاب بولاك لا يمنح الثقل المطلوب لدور العامل المعنوى فى العلاقات الأمريكية الإيرانية، خاصة من جانب نقص أو أحياناً غياب لإدراك الجانب الأمريكى لأهمية هذا العامل على الجانب الإيرانى وتأثيره على الرؤية الإيرانية للولايات المتحدة، وهو أمر يبدو أنه متوارث فى تحليل العلاقات الإيرانية الأمريكية من الجانب الأمريكى. فمشاعر المرارة تتواجد لدى الشعب الإيرانى تجاه الدور التاريخى للولايات المتحدة فى بلادهم وتدخلاتها المتتالية فى شئونهم الداخلية فى ضوء معرفتنا بأن الشعب الإيرانى يمثل حضارة آلاف السنين ويعتز بهويته القومية والدينية وبالتالى باستقلاله الوطنى وتميزه الحضارى. ويدل على هذه المشاعر أنه حتى رموز المجتمع المدنى الإيرانى فى الداخل - مثل المحامية شيرين عبادى الحاصلة على جائزة نوبل للسلام - حريصون على حث الولايات المتحدة على عدم إعلان دعمها لهم لأن من شأن هذا الدعم الإساءة إلى نظرة الشعب الإيرانى إليهم، وعلى حثها عدم التدخل فى الشئون الإيرانية الداخلية وترك شأن إيران لشعبها. ويستدعى هذا إلى الذاكرة ما ذكره الأستاذ الدكتور حسن حنفى فى تقديمه للترجمة العربية لكتاب «الحكومة الإسلامية» لآية الله الخمينى عام ١٩٨٠ من أن حادث احتجاز الرهائن الأمريكيين فى طهران مثل جزءاً مما أسماه «رد فائض قيمة الإذلال التاريخى» من الشعب الإيرانى للولايات المتحدة. ■

مشاعر المرارة تتواجد لدى الشعب الإيرانى تجاه الدور التاريخى للولايات المتحدة فى بلادهم وتدخلاتها المتتالية فى شئونهم الداخلية



محمد مزالي

لماذا أكتب؟ كيف أقرأ؟

■ لم أزل منذ شبابي مؤمناً بجملة من القيم الروحية والثقافية والسياسية، ملتزماً بالدعوة لها والدفاع عنها والسعي إلى نشرها بين الناس ما وجدت إلى ذلك سبيلا، لأن الحياة عقيدة وجهاد وهي رسالة سامية يضطلع بها الإنسان الذى شرفه الله وميزه بالعقل واستخلفه في الأرض ورزقه الفكر وألهمه الحس الأخلاقي وحبب إليه العمل.. ليكون في مستوى إنسانيته وقادراً على تحمل الأمانة.

ولئن كان النضال من أجل القيم السامية - في المجال السياسي والاجتماعي والثقافي خاصة - يستوجب الدعوة باللسان والاتصال بالجماهير والقدرة على التنظيم وعلى ممارسة جدلية الموجود والمنشود، والاهتداء إلى بلوغ الغايات النبيلة، دون التورط في استعمال الوسائل الدنيئة، خلافاً لما ذهب إليه «الواقعيون» ومثلهم الأعلى «مكيافيللي» في كتابه «الأمير» والتسامي عن خلة الغدر عملاً واقتداء بما قاله الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -: «والله ما معاوية بأدهى مني، لكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن لكل غدرة فجرة ولكل فجرة كفرة ولكل غادر لواء يغرت به يوم القيامة».. وإنه ليس كالكتابة ضبطاً وتقييداً للمعاني ولا تأثيراً على وجدان القارئ ولا أشد اشتباهاً وإدراكاً لفكر قراء اليوم في الماضي والغد كذلك أي الأجيال الصاعدة ما دام الكلام على بعد وقعه في التقرير معرضاً لأن تذروه الرياح وتنساه الذاكرة، بينما يبقى المكتوب محفوظاً في نفائس الكتب ترجع إليه الأجيال جيلاً بعد جيل أخذاً وانتقاداً واستلهاماً.

لذلك كله، حرصت منذ عهد الطلب على الكتابة. إنها عندي تعبير عما أومن به وأدعو له! إنها حوار بيني وبين أبناء وطني، بل بيني وبين الناس أجمعين، اليوم وغداً.

ولكن الكتابة - من وجهة نظري - ليست ترصيف كلمات وتنميق ألفاظ ولا هي نشاط مجاني ترفيهي لقتل الوقت وطرد الملل والكلل! الكتابة مسئولية والتزام! إن أحداً لم يلزم «كاتباً» بالكتابة ولا وجهه توجيهاً ما في تحبير المقالات وتصفيف الكتب.. اللهم إلا إذا رضي هذا «الكاتب» أن يكون مرتزقاً محترفاً، طامعاً أو خائفا.

إن الالتزام غير الإلزام! إنما الشعور بالمسئولية اختيار نابع من الذات، مرادف للتجربة ودليل عليها، ومقوم هام من مقومات الشخصية الفردية ووعيها بمنزلتها، في الكون ورسالتها في الوجود.

لذلك فإني إذ أكتب إنما أريد أن أعبر عن وجودي وأفرض حريتي وأضطلع بإنسانيتي وأبلغ إخوتي في الوطن وفي الإنسانية جمعاء في مفهومي للخير والحق والجمال وتصوري لجوهر الحرية وتبعاتها، وحقيقة الواجب ومستلزماته.. ذلك أن وظيفة الكاتب - كما أكدت ذلك منذ الخمسينيات - تتمثل في كونه يسمي الأشياء بأسمائها ويكشف عنها فيؤثر في مواقف الناس وفي علاقات البشر بعضهم ببعض. وإذن فإن الكاتب مسئول نحو نفسه ونحو معاصريه عن كل ما يكتب، أي عن كل ما يفعل طالما أن الكتابة موقف و«فعل».

يختلف الكُتّاب ويتفاوتون قيمة فتأثيراً بحسب قيمة فنهم وروعة أسلوبهم وحسن ديباجتهم.. وهم في ذلك أحرار.. ولكنهم - في نظري - يفقدون أصالتهم ويزيغون عن رسالتهم إذا هم اهتموا - دون الجوهر - بتنميق الألفاظ واستهواء القارئ بحلاوة الجرس والرنين وآثروا أن يكونوا - كما يقول طه حسين - «معازف يتعين على أنغامها المقربون» (انظر كتابه «تحت شمس الفكر» فصل «الفكر والشعب»).

أنا لم يخطر على بالي أن أمارس الفن للفن بل كتبت دائماً «توصيلاً» وتبليغاً وسعياً إلى التأثير ووفاء لالتزامي نحو الأمة والإنسانية وما ترنو إليه من مستقبل أسعد وغد أفضل.

لماذا أكتب؟ سؤال قد يجد القارئ الكريم جواباً له - إلى جانب ما سبق - في هذه المقتطفات من مقدمة كتابي «في دروب الفكر» (١٩٧٩): «هذه أيها القارئ الكريم، «معالم أخرى» أضعها في طريقك: ألقاك بها وتلقاك، بعد أن كانت سعت إليك كتبي «من وحي الفكر» و«مواقف» و«دراسات» و«وجهات نظر».. فحفلت بها ورحبت. ورأيت فيها صورة بينة الملامح، بعيدة الأفق، لنضال دأبت عليه سنين طوالاً - ومازلت - مساهمة في إيقاظ الهمم، واستنهاض العزائم، وفتح البصائر، ودعوة أهل الفكر من أبناء أمتنا إلى تكسير أغلالهم وتفجير طاقاتهم وتسخير قواهم لخدمة ثقافتهم ومعالجة قضاياهم وإنارة شعوبهم.

لقد حاولت، يا قارئي الكريم، أن أطرح بين يديك قضايا هي قضاياك، وأن أثير مشاكل هي مشاكلك، وأن أجابه متناقضات هي متناقضاتك، وأن أواجه تساؤلات هي تساؤلاتك. وأن أقف من الوجود مواقف دعوتك إلى التفكير فيها بكل جد، ورجوتك إمعان النظر في أبعاده بكل حبى ومعالجتها بكل شجاعة!

ولقد كان ديدنى في كل ذلك أن أكون معك صريحاً، إذ كنت أطمح بآمالي إلى أن أفيد قومي وشباب بلادي، وأن أعرض عليهم مآسينا وقضايانا عارية كيوم الحساب، وأن أصدع بما أعتقده الحق غير مكتف بعرض القضايا دون حلولها، بل كنت أدعو إلى إعمال الفكر وإيثار الصدق والاعتبار بما يجري في غير دارنا.. وهل التفتح شيء آخر غير الاعتبار أساساً بما يقع حولنا وفي ظروف حياة تشبه ظروفنا؟

فلا تطمعن إذن - أيها القارئ الكريم - في أن تجد فيما أقدمه لك - أدباً «إبداعياً» يجنح بك إلى الخيال ويدعوك إلى التأويل.. ويسمو بك - أو ينزلق - إلى ضرب من التسابيح الضبابية والتجليات الصوفية. بل لقد سلكت إليك أسلوباً واضح العبارة، فصيح الإشارة، لم أركب فيه مركب الرمز والإغماض، ولم ألتجئ إلى المداورة والالتواء، رجاء النفاذ إلى نفسك بلا تأشيرات ولا مسوغات، وإقامة حوار معك وحوار آخر بينك وبين ذاتك - حوار قوامه نزاهة في الحكم وصراحة في القول وصدق في معالجة الأمور.. فعسى أن أكون قد وفقت».

أما كيف أقرأ فجوابي هو أني أطالع بنهم كبير وإقبال شديد كلما استسغت كتاباً أو استجزت مقالاً في مجلة أو جريدة.

إن المسئوليات الجسام التي تحملتها طيلة ثلاثين سنة منذ استقلال تونس إلى سنة ١٩٨٦ حالت دون قراءة كل ما كنت أود مطالعته من أدب رفيع نثراً وشعراً ومن دراسات تاريخية وأبحاث حضارية عربية وأجنبية، بل إني كنت مضطراً طيلة تلك الفترة الطويلة إلى قراءة مئات التقارير والرسائل الإدارية عديمة الفائدة الثقافية، وأشعر اليوم أن ما فاتني في مجال الثقافة لا يمكن تداركه لأن عملية النشر في نمو متزايد وعلي واجب انتقاء أغزر ما ينشر اليوم فائدة وألصق باهتماماتي.

إن ولعي بالكتاب كبير، وما أبلغ ما قاله فيه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري: «.. ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ولا ينطق إلا بما تهوى، آمن من الأرض، وأكتم للسر من صاحب السر وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة، ولا أعلم جاراً آمن ولا خليطاً أسعد ولا رفيقاً أطوع ولا معلماً أخضع ولا صاحباً أظهر كفاية وعناية ولا أقل إملالاً ولا إبراماً.. ولا أزهد في جدال ولا أكف عن قتال من كتاب..».

وما أفصح ما قاله الجاحظ في الكتاب: «.. وإن عزلت لم يدع طاعتك وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك ومتى كنت متعلقاً منه بأدنى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء..».

لقد أصبحت في منفاي منذ خمس سنوات أشد حباً للكتاب وأطول معاشرة له، وأكثر اعتماداً عليه لتجاوز الوحدة والوحشة وتعميق وعيي للناس والحياة. ■



حيز مطبخك يحدد طبقتك

«ثقافة الطعام» فى مصر

ملك رشدى

خلال السنوات الأخيرة طرأت فى مصر عدة تغييرات مهمة فى الثقافة الغذائية وحيز المطبخ. يمكن ملاحظة هذه التطورات فى مجالين أساسيين: التوسع فى شكل جديد من أشكال الطهى عملت على نشره وسائل الإعلام الرسمية ودور النشر والإنترنت؛ وإعادة تشكيل حيز المطابخ تماشياً مع أسلوب الطهى الحديث. ويسعنا اقتفاء أثر هذه التغييرات منذ نهاية العقد التاسع من القرن العشرين وبداية العقد الأخير منه، وذلك مع التوسع فى إقامة شركات إنتاج المأكولات الجاهزة والمجمدة وسلاسل المطاعم وشركات تصميم الأثاث الخاصة. وقد تطلب هذا التوسع تسويقاً «مبتكراً» و إستراتيجيات للتعليب - غالباً ما تكون نسخة طبق الأصل من التصاميم الغربية - ترمى إلى نشر المنتجات وتوزيعها على نطاق قومى.

لقد عمدتُ فى هذا البحث إلى سبر العوامل التى تعكس من خلالها الثقافة الغذائية صورة جديدة لطعام يتمحور حول الطبقات الاجتماعية. كما تفحصتُ أيضاً كيف تعيد هذه الصورة تعريف حيز المطبخ باعتباره رمزاً للهوية الطبقية. إن المهمة الأولى وثيقة الصلة بالأخرى والاثنتان تنتجان فى النهاية هوية اجتماعية تميز بين الفاعلين لها و«الآخرين» (بيير بوردو، الفوارق الاجتماعية: نقد اجتماعى للحكم، ١٩٧٩: ١٩١) إن تلك البنية تحديداً، بنية التفاوت الاجتماعى الممثلة فى الثقافة الغذائية والحيز، هى التى تبين كيفية حدوث عملية التغيير الاجتماعى والثقافى بالمجتمع القاهرى، ولا سيما الطبقتين الغنية والمتوسطة.

وقد استخدمت مصطلح الطبقة هنا للإشارة إلى الطبقتين الوسطى والعليا، حيث الأخيرة متميزة اقتصادياً واجتماعياً، وفى النهاية سياسياً. وهى متأثرة ثقافياً بالغرب بشكل أو بآخر وأنماط استهلاكها تتسم بالذوق الرفيع. بمعنى آخر، سيحاول هذا البحث أن يستوعب كيف يتسنى لمقاربات الطهى الجديدة تحويل العلاقات الاجتماعية وبناء هويات اجتماعية جديدة ليسفر هذا عن انقسامات اجتماعية وثقافية جديدة.

إن الطعام والطهى يشغلان مكانة أساسية بالاقتصاد والمجتمع المصرى. إذ يتجليان فى حجم الاستهلاك والعلاقات الاجتماعية، وفى فئات عاملة مختلفة تهيمن على الممارسات اليومية للطبقات المدينية المتباينة بالقاهرة. ثمة ملاحظات بسيطة للحيوات اليومية للقاهريين - بغض النظر عن انتماءاتهم الإقليمية أو الدينية أو الطبقية - تبرز الشبكات والنظم المتعددة التى يتبعها القاهريون لإدارة هذه المساحات. وعلى صعيد آخر، برهنت الدراسات الاقتصادية على أهمية الإنفاق المنزلى للطعام فيما يتعلق بمعدلات الفقر والدعم الغذائى، وأوضح بعض علماء الأنثروبولوجيا أن تجهيزات المطبخ تضطلع عادة بجزء لا يتجزأ من أى زواج (عبد الخالق جودة وكريمة كريم، إجراءات السياسة المالية فى مصر: الدين الداخلى والدعم الغذائى، ٢٠٠١؛ وهوما هودفار، بين الزواج والسوق. سياسات جوهرية والبقاء فى مصر، ١٩٩٧: ٨٦، ١٦٨).

غالباً ما تمثل تلك التجهيزات عبئاً مادياً على ميزانية المتزوجين حديثاً وتصبح محل تفاوض بين عائلتى العروسين. هناك مثلاً نظام لا خلاف عليه يحكم توزيع تجهيزات المطبخ تنهض أسرة العروس وفقاً له بأغلبية النفقات. بل إن الأسرة ميسورة الحال تبتاع خزائن المطبخ لمنزل ابنتهم (هوما هودفار، ١٩٩٧: ٦٨، ١٦٦ ـ ٦٨). وفى واحدة من المقابلات التى أجريتها مع سيدة من المقطم متزوجة حديثاً، أفضت إلى العروس أنه تبعاً للتقاليد، كان على أسرتها أن تزود الزوجين الشابين بالطعام المطهو والمكونات النيئة لمدة شهر من بداية زواجهما بغرض رفع العبء المادى لاستهلاك الطعام. وتماماً كما تأثر الفقراء بالعبء المادى للاستهلاك الغذائى، تأثرت الطبقتان المحدودة والمتوسطة تأثراً لا يستهان به بارتفاع أسعار الطعام وإلغاء الدعم الغذائى خلال السنوات الأخيرة. وعليه ضعفت قدرتهما على الاحتفاظ بمستواهما المعيشى (عبد الخالق وكريم ٢٠٠١: ٦٩-٧٨، ٨٧-٩١). وفيما تحاول الطبقة المتوسطة بلا انقطاع الحفاظ على أسلوب حياتها وطموحاتها للترقى بمستواها مقارنة بنموذج الطبقات العليا، تكافح بلا هوادة فى مواجهة ظروف اقتصادية صعبة لتجابه فى العادة نتائج تصيبها بإحباط لا حد له.

يظهر أحد جوانب هذا الصراع فى مذاق الطعام وأنماط استهلاكه. يوضح بوردو أن الممارسات الاجتماعية والثقافية ترتبط عادة بالطبقات المختلفة وتنتظم طبقاً لبنية التعارض. وعليه، فإن تنظيم المساحات الاجتماعية يشكل البنية ويغير أسلوب حياة المستهلك وثقافته. وبناء على هذه الفكرة، تحاول الطبقتان الفقيرة والمتوسطة بكل قوتهما تشكيل حيزهما الاجتماعى واستهلاكهما داخل بنية تتعارض مع الأطعمة المميزة لعامة الشعب. سيحاولان دائماً وأبداً بلوغ «مذاق الرفاهية» والابتعاد عن «مذاق الحاجة». ويشدد بورديو على أن مذاق الحاجة يتعارض تعارضاً حاداً مع مذاق الرفاهية، حيث يصبح الأخير مذاق من يتمتعون بالرفاهية المرافقة لرأس المال لينأوا بعدها بأنفسهم عن عالم الحاجة. هكذا يقبع مذاق الحاجة فى تعارض مع مذاق الرفاهية ليُعبر عن الحاجة الدائمة لتأمين الضروريات الأساسية. ويقول بورديو إن هذا يتجلى فى استهلاك الطعام حيث نجد الطعام الشعبى زهيد الثمن إنما مغذ بما يكفى لضمان القيام بنشاطات الطبقة العمالية بأقل تكلفة ممكنة (بوردو ١٩٧٩: ١٩٦، ١٩٨). ويفسر لنا هذا التناول النزوع النظامى للشريحة الدنيا من الطبقة المتوسطة إلى مذاق الطبقات العليا. فهى تحاول أن تبتعد اجتماعياً عن دنيا الحاجة ودنيا «الشعبى» كى تدنو من دنيا الرقى والتميز.

وفى هذا الإطار لم يسبق للدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية بحث العلاقة بين الاستهلاك الغذائى والممارسات الاجتماعية كما ينبغى. فأغلبية الدراسات التى أجريت عن أهمية الطعام فى مصر تدور فى المجمل حول المجال الاقتصادى وتتركز على موضوعات تتصل بالفقر ودخل الأسرة وإنفاقها. إن الأبحاث فى هذا الحقل لا تضع فى اعتبارها الأبعاد الثقافية التى تسمح لنا بفهم آلية التحول الاجتماعى وديناميكيته. فالدراسة الأنثروبولوجية والاجتماعية الحديثة الوحيدة - على حد علمى - التى تحاول ربط النظم الغذائية بالأبعاد الثقافية فى القاهرة هى المجلد الصادر عام ١٩٩٥، نظام التغذية الحضرى فى القاهرة (جورج جيرتيل، ١٩٩٥).

أما الدراسات الأخرى فتلقى الضوء على القضايا الغذائية والعادات الصحية والتغذية والأشكال الحديثة لاستهلاك الطعام الصحى. وفى هذه الكتابات، تغيب الجوانب السوسيولوجية والأنثروبولوجية للثقافة الغذائية عن السياق المصرى برغم أهميتها المتزايدة فى الدراسات التاريخية والسوسيولوجية والأنثروبولوجية بوجه عام (فرانسوا أشر، الأكل المفرط فى الحداثة، ٢٠٠٥؛ جيمس واطسون، القناطر الذهبية شرقاً: ماكدونالد فى شرق آسيا، ١٩٩٧, Ariès 1997, Ferriéres 2002, Flandrin ٢٠٠٢). لذا يمكن الزعم أن ثمة ثغرات فى المعالجة النقدية لمجال الاستهلاك الغذائى والثقافة فى مصر.

بيد أن المفارقة تكمن هنا فى تصاعد اهتمام واضح، على الصعيدين

النص الكامل للمقالة ينشر أيضًا فى:
Cultural Dynamics in
Contemporary Egypt
(متغيرات الثقافة فى مصر)
Cairo Papers in Social Seience,
Volume, 27
The American University in Cairo
Press

ترجمة: هالة صلاح الدين حسين

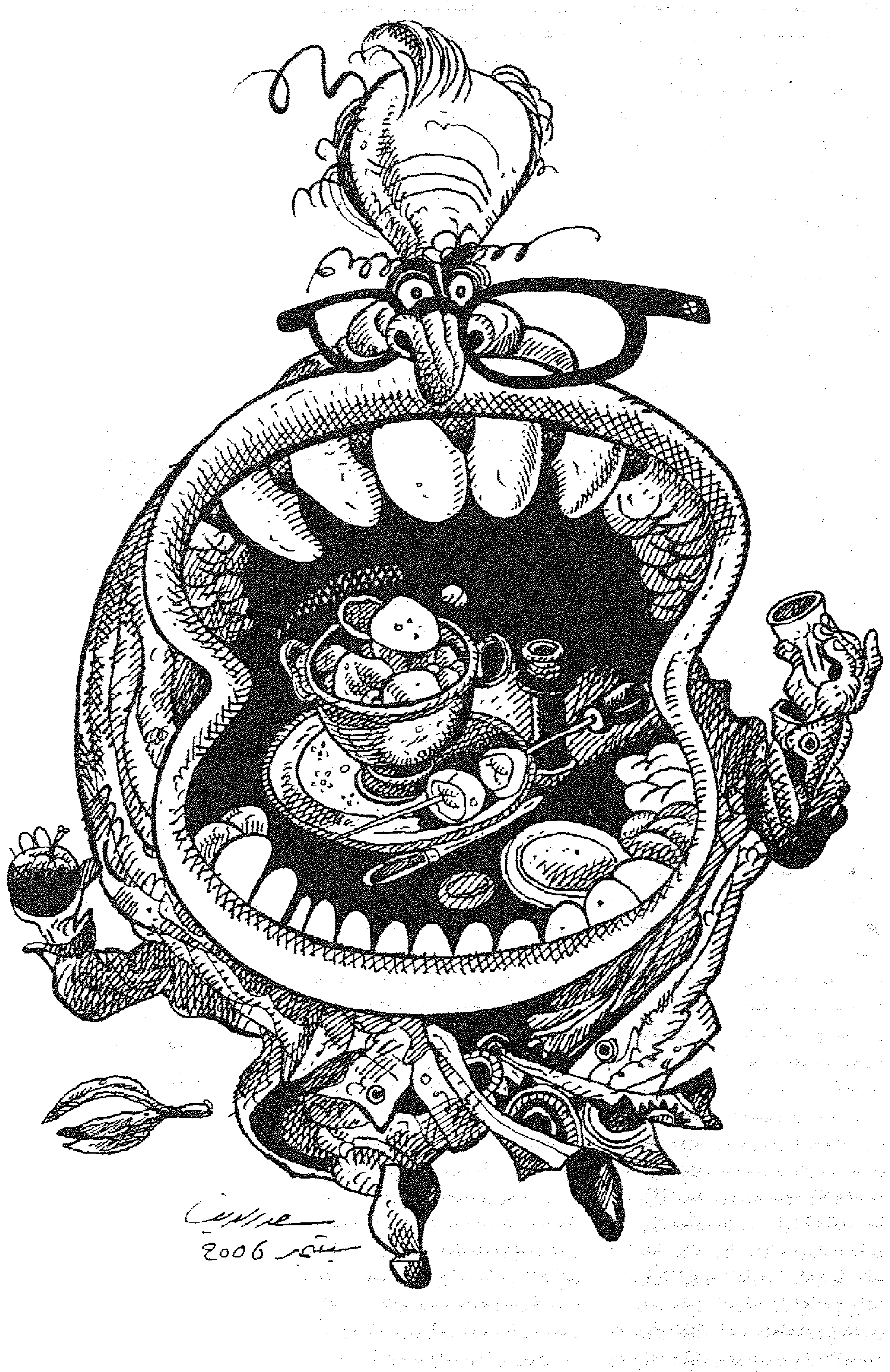
الاجتماعى والجماهيرى، بنشر المعرفة والثقافة الغذائية وتعميمهما من خلال وسائل الإعلام والإنترنت ومختلف الشبكات الاجتماعية. فالطهاة المحترفون والصحافة ووسائل الإعلام وأسواق الطعام ومتاجر الأثاث والأجهزة الكهربائية جميعها تستثمر أموالها فى الترويج لمكونات الطعام الجديدة والوجبات الجاهزة ومفاهيم الطهى.

ويتعين علينا معالجة هذا الاتجاه وتحليله والوقوف عليه فى سياق الاستهلاك العالمى واقتصاد السوق. كما أن القراءة التحليلية لهذا الواقع ستعاوننا على وصف التغيرات الاجتماعية والثقافية المعقدة التى تتداخل مع الديناميكيات المحلية والعالمية. وفى إطار العلاقات المتشابكة للديناميكيات العالمية والمحلية، يتعين النظر إلى المعرفة والثقافة الغذائية بوصفهما حاملتين للبنى والصور والعلاقات الاجتماعية والثقافية. إذ غالباً ما تشير مثل هذه النوعية من المعرفة إلى بنى الهوية والفوارق الطبقية. وعند هذا المستوى من التحليل تحديداً نستطيع القيام بتناول نقدى بهدف تعيين بضعة أبعاد للتغيير الاجتماعى والثقافى وما يتولد عن مثل هذا التحول من انقسامات داخل المجتمع المصرى.

لقد انتقلت المعرفة والثقافة الغذائية إلى اللغة العربية فى مصر من خلال التليفزيون ووسائل الإعلام المكتوبة والإنترنت وكتب الطهى. وبلغت هذه الوسائل المتباينة العديد من الفئات الاجتماعية المختلفة: المتعلمة والجاهلة، الغنية والفقيرة. وعلى الرغم من تنوع وسائل الانتشار المتاحة حالياً، تضمر هذه المعرفة ثقافة تستعصى على الأغلبية العظمى استهلاكها. إذ تلبث ملكية خاصة لأقلية ومطمحاً لطبقة متوسطة فى سبيلها إلى الحراك الاجتماعى صعوداً أو هبوطاً.

إن كل شكل من أشكال الانتشار يسرد قصة مختلفة - قصة تفد من الماضى أو الحاضر، قصة عما يعتبره الناس غذاء جيداً أو رديئاً، قصة عن الطريقة التى يجب أن يطهى بها الطعام ويؤكل. فأدوات انتقال تلك المعرفة تحدد معايير الطعام الجيد وكيفية تعامل الناس معه. إنها رسالة تطلعنا على كيفية تقديم أنفسنا على ضوء تلك المعرفة وكيفية تصوير «الآخرين» (أرجون أبادوراى، دراسات مقارنة فى المجتمع والتاريخ، ١٩٩٨: ٣، ٧).

سوف أبحث أولاً فى كتب طهى محددة وبرامج تليفزيونية عن الطهى تذاع باللغة العربية، برامج كتبها مصريون وقدموها خلال الأعوام الخمسة الأخيرة. وسيتبع ذلك نقاش حول العلاقة بين نماذج الطهى المقترحة.



وكلاء وفاعلون ومؤلفون

لقد نجم عن التوسع فى تكنولوجيا النشر وزيادة أعداد القنوات التليفزيونية فى السنوات الأخيرة تدفق حقيقى لمنشورات وبرامج ترتبط بالطعام والطهى. فقد أصدرت الكثير من البرامج التليفزيونية كتباً تصاحبها شرائط فيديو تبرز تقنيات الطهى الجديدة (منى عامر؛ وأسامة السيد). ومن بين معظم النصوص الموجودة يمكننا تعيين ثلاثة أنواع:

❖ النوع الأول يتمثل فى كل المتأثرين بالثقافة الغربية/العالمية والمطلعين عليها.

❖ الثانى يغطى هؤلاء المؤمنين بأن معرفتهم وخبرتهم الخاصة فى الطهى يجب نشرها ومشاركة أكبر عدد من المشاهدين والقراء فيها.

❖ يتضمن النوع الثالث الحاصلين (أغلبيتهم من النساء) على دبلومة فى مجال الطهى من كلية الاقتصاد المنزلى.

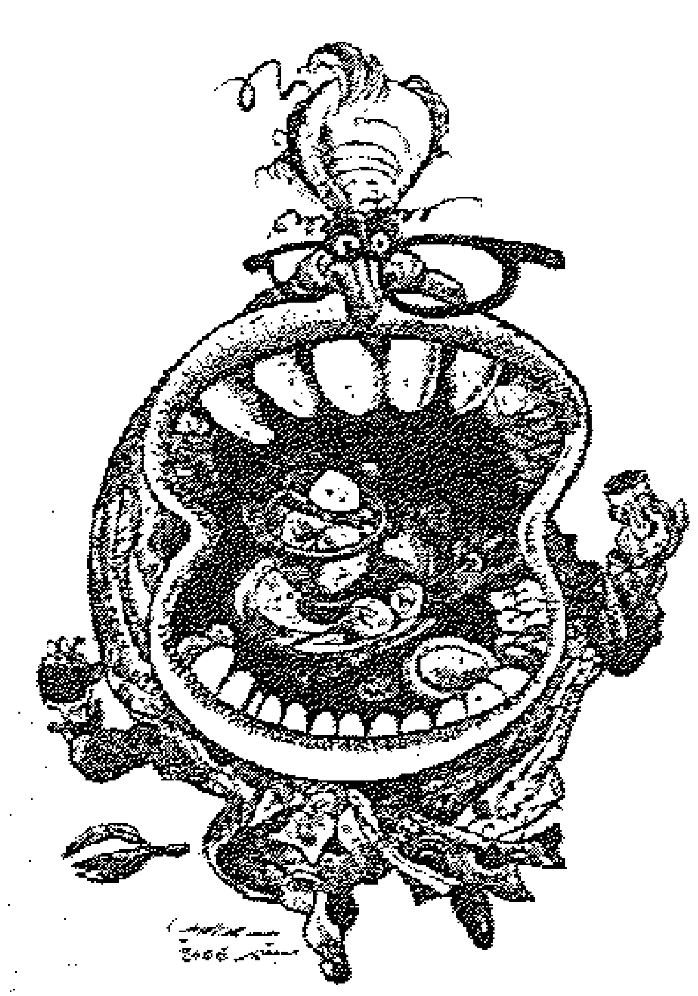
لقد أنتجت النساء أغلبية الوثائق المجمعة - سواء كانت مكتوبة أو مسجلة أو تم تحميلها على الحاسبات الإلكترونية - باستثناء بضعة طهاة مهرة من أمثال أسامة السيد وإسماعيل هاشم، رئيس الطهاة بوزارة الخارجية. ويعتبر الاثنان من الطهاة المتخصصين بسبب مواقعهم المهنية المتميزة.

لقد اعتمدت اختياراتى للمواد على أن يكون المؤلفون مصريين وينشرون باللغة العربية ويوجهون خطابهم إلى الجمهور العربى. إن هذه المجموعة المختارة لا تمثل الطهى المصرى تمثيلاً شاملاً بأية حال كما أنها ليست محاولة منى لنقد الاتجاهات العامة لأنماط الطهى الحديثة؛ إلا أنها محاولة لتقديم بضعة أمثلة ستعاون القارئ على فهم الصورة الاجتماعية والتمثيل الأيديولوجى وعملية بناء الهوية. ولا بد أن يلم القارئ بكل فئة من العوامل الموضحة أعلاه فى سياقها الخاص.

الفئة الأولى: شخصية الطهى العالمية

صادفتُ اسم منى عامر أول مرة فى مقالة نشرها مكتب الشئون الزراعية عام ٢٠٠١ بالسفارة الأمريكية فى القاهرة وأنا أتابع دراسة عن السلع الغذائية المستوردة من الولايات المتحدة (منال المصرى، «طهاة مصريون يروجون الصادرات الأمريكية»، ٢٠٠١). عرض التقرير وصفاً مفصلاً لما تنفقه الولايات المتحدة من جهود للترويج لمنتجات الطعام الأمريكية المصدرة إلى مصر. وكجزء من مجهوداتها، أطلقت السفارة الأمريكية فى القاهرة مسابقة بعنوان «مهرجان الطعام الأمريكى العظيم» استضافه فندق خمسة نجوم بغرض جذب رؤساء الطهاة المصريين

«ثقافة الطعام» فى مصر



نجم عن التوسع فى تكنولوجيا النشر وزيادة أعداد القنوات التليفزيونية فى السنوات الأخيرة تدفق حقيقى لمنشورات وبرامج ترتبط بالطعام والطهى

والمستوردين المصريين الأساسيين. وقد قدم هذا الحدث الترويجى حوالى تسعة عشر منتجاً وتضمن مسابقة تنافس فيها أربعون طاهياً مصرياً لابتكار أفضل وصفة تتكون من ٩٠٪ على الأقل من منتجات أمريكية مستوردة. وقد ترتب على هذه المسابقة كتاب عن الطهى باللغتين العربية والإنجليزية، أول كتاب للوصفات الأمريكية، وقد تم توزيع هذا الكتاب على الفنادق ذوات الخمسة نجوم والمتاجر الكبرى. وطبقاً لمنال المصرى «إن تأليف (كتاب) عن الطهى - مع التركيز على مكونات الطعام الأمريكية - من شأنه أن يدعم الواردات المصرية مستقبلاً» (المصرى ٢٠٠١: ٨) كانت منى عامر أول فائزة عام ٢٠٠٠، وقد صرحت فى أحد اللقاءات أن «استخدام المكونات الأمريكية أمام الجمهور يعطى انطباعاً رائعاً»، وأردفت قائلة:

لطالما استعملتُ المكونات الأمريكية فى طبخى لأنى أنال مذاقاً أفضل والوجبة تجهز سريعاً... أستخدم دقيق القمح الأمريكى والصلصة وما أزين به الحلوى... إن المستهلكين المصريين يصعب إقناعهم لذا يتوجب على الشركات الأمريكية بذل المزيد من المواد الدعائية والترويجية (اقتباس من منال المصرى، ٢٠٠١: ٨).

لا تنفك عامر تروج منتجات الطعام الأمريكية عبر حملات دعائية تستهلها سفارة الولايات المتحدة بالقاهرة. وقد أقيمت آخر حملة فى يناير ٢٠٠٤ بغرض زيادة «... وعى المستهلك بتوافر المنتجات الأمريكية وجودتها». وقد انطلقت هذه الحملة فى المتاجر الكبرى حيث تتسوق بانتظام الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة. ومن خلال عروض حية للطهى بمتجرى ألفا وشوبرايت، طورت عامر ثمانية عشر طبقاً أثناء حملة استغرقت أربعة أشهر كما روجت قوائم طعام مختلفة بكل متجر من المتاجر.

يجب الإشارة إلى أن مجهودات الحكومة الأمريكية للترويج لمنتجات الطعام الأمريكية بالسوق المصرى جاءت نتيجة لنقص حصة المنتجات الزراعية والغذائية الأمريكية بالسوق المصرى من ٥٠.٥ مليون دولار عام ٢٠٠١ إلى ٤٧ مليون دولار عام ٢٠٠٢. ويرجع هذا النقص إلى اتفاق وقعته الحكومة المصرية وخمس عشرة دولة من أعضاء الاتحاد الأوروبى يقضى بتقليص تعريفة الواردات على معظم المنتجات خلال ١٢-١٥ عاماً مقبلة. وعلاوة على ذلك، أفضى الوضع السياسى الحالى بالشرق الأوسط وتخفيض قيمة الجنيه المصرى إلى انخفاض يعادل ٣٠٪ من المبيعات (منال المصرى وعلى عبدى، «دليل الصادرات المصرية»، ٢٠٠٣: ٢ - ٣). ومع الوضع فى الاعتبار هذه الأرقام وما يوشى به المقال من نبرة قلقة، تم اتخاذ عدد من التدابير للإعلان عن المنتجات الغذائية الأمريكية وترويجها عن طريق وكلاء كمنى عامر وغيرها.

وقد عرفت عن طريق المعلومات الصحفية المتاحة لدى أن منى عامر عاشت لبضع سنوات فى أمريكا الشمالية حيث تعرفت على الثقافة الأمريكية وتلقت دورة فى الطهى (شاهيناز العقباوى، «أنا خارج المنافسة»، «الأهرام العربى»، ٢٠٠٤) تعرض عامر فى برنامجها «صحى ومفيد» على القناة الأولى بالتليفزيون المصرى وصفات وافدة من دول متباينة كالمكسيك وجامايكا. يجدها المشاهدون فى أكثرية الأحيان غريبة وعصرية، فهى تقدم مقاربات مبتكرة للطهى من خلال مزج وصفات مختلفة لإخراج طعوم متباينة (العقباوى، ٢٠٠٤)، وجمهورها، سواء كان قارئاً أو مشاهداً، يستطلع عوالم لم يعهدها من المكونات التى تكون أحياناً متوافرة محلياً إلا أن هذه العروض الجديدة تكسبها قدراً من الاعتراف بها. فقد أعادت عامر على سبيل المثال تقديم حبوب السمسم المستخدمة فى السميط إلى الطبقة المتوسطة عن طريق مجموعة من الأطباق الصينية. وعليه لم تعد تلك الحبوب مجرد مكون من مكونات خبز السميط أو المعجنات الشرقية إنما خضعت لعملية إعادة تعريف فى إطار قائمة الطعام الصينية وصورتها الاجتماعية. لقد أحرزت هذه المكونات مغزى جديداً بمجرد أن تم تقديمها واستخدامها فى سياق ثقافى جديد.

وبالإضافة إلى نشاطاتها الإعلامية، افتتحت عامر مطعماً يدعى «فاين تاتش» فى حى المعادى السكنى بضواحى القاهرة حيث يقطن العديد من الأجانب والمصريين المنتمين إلى الطبقة المتوسطة. وسواء أفردت لها الصحافة صفحات الإعجاب أو النقد ودار حولها الجدل، لا مراء أن عامر قد قدمت اتجاهات جديدة إلى الثقافة الغذائية حتى إن بعض الصحفيين ادعوا أنها أحدثت ثورة فى عادات المطبخ المصرى (إنجى الكاشف، «ابتكر، لا تقلد»، الأهرام ويكلى ٢٠٠٠؛ العقباوى، ٢٠٠٤). غير أن ثمة صحفيين آخرين يزعمون أن برنامجها المعروض فى أوقات الذروة بالتليفزيون المصرى يؤدى إلى عزل أكثرية المشاهدين وتهميشهم، المشاهدين الذين لا ينتسبون إلى طبقة متوسطة صاعدة تطمح إلى الاستيلاء على الرموز الثقافية للطبقات العليا. وقد أردفوا أن منى عامر تحاول إعادة صياغة المفاهيم القائمة بين الطعام والآكلين وكذا إعادة تشكيلها فى سياق الاقتصاد العالمى.

فى إحدى المقالات التى انتقدت عامر وسخرت منها، اقترح أحد المؤلفين تحويل الطابق الأول من مبنى

التليفزيون المصرى إلى معرض دائم «للأطباق التقليدية» التى تقدمها عامر ببرامج التليفزيون، واقترح أن يُخرج هذا المعرض للجمهور كل الأطباق التى صنفتها عامر باعتبارها «طعوماً شائعة»، مثل «كريسبى تشيكين» و«الاستيك دو بوافر» و«التشيكين آلا جريك» و«التشيزى ديب ستيكص وذلك كى يتفرج عليها الناس ويتذوقوها. كما يقترح أيضاً أن يكون دخول المعرض مجانياً وأن تؤخذ صور الزوار بجانب الأطباق حتى يتذكروا هذا الحدث. (محمد على إبراهيم، «وجبات التليفزيون»، حريتى، ٢٠٠٤: ٢٠). ووسط تلك الانتقادات، يمكن القول إن ظهور منى عامر المكثف قد ألهب الجدل حول ما إذا كانت عامل ابتكار وحداثة أم اغتراب وتهميش.

وفى سياق مشابه آت من أحد مطابخ شمال أمريكا، يقدم أسامة السيد على نحو منتظم برنامج «بالهنا والشفا» على القناة الأولى المصرية وقنوات فضائية أخرى. ويصاحب البرنامج كتاب متقن التأليف يحمل نفس العنوان صدر باللغة العربية فى الولايات المتحدة ويوزع بالقاهرة. ويطل الشيف أسامة، كما يشار إليه فى العادة، على المشاهدين فى وسائل الإعلام بقدر مساو لعامر بيد أنه أكثر حضوراً على الإنترنت من خلال موقعه ومشاركاته فى العديد من مواقع الطعام بالشرق الأوسط. عاش الشيف أسامة بالولايات المتحدة منذ أوائل العقد التاسع من القرن العشرين. وهو يقدم نفسه بوصفه متخصصاً فى مطبخ حوض البحر المتوسط وأخصائى تغذية حائزاً على دبلومة من جامعة كورنيل (أسامة السيد، بالهنا والشفا، ٢٠٠١: ٦-٧). كما يعمل مستشاراً لعدد من المواقع الإلكترونية العربية والمصرية المتخصصة فى وصفات الطعام مثل www.wasfasahla.com وwww.chefosama.com حيث تتحادث النساء من دول مختلفة من العالم العربى ويتناقشن ويتجادلن فى موضوعات تتعلق بالطهى. إذ يجدن فى هذه المواقع فسحة حقيقية للاطلاع على فتاوى عمرو خالد الدينية ووصفات الشيف أسامة ونصائح الطهى ومنتجات التجميل. ويستخدمن الموقع لتبادل الأفكار حول أية موضوعات تطرأ لعقولهن. وكما هو حال عمرو خالد فى دنيا التقوى، بات السيد حجة معترفاً بها فى مسائل الطهى بالعالم العربى.

يمنحنا حسين الإمام مقاربة تختلف عن مقاربات الآخرين. فهو - الممثل والمذيع ببرنامج رمضانى والابن لمخرج ذائع الصيت ألا وهو حسن الإمام - يقدم على شبكة الأوربت برنامجاً يومياً عن الطهى بعنوان «القاهرة اليوم». إن الإمام يتمتع بموهبة الممثل وإبداع المتذوق الخبير؛ وهو لا يدعى الإلمام بأية كفاءة فى الطبخ عدا ما ينعم به من موهبة بحاستىِ الشم والتذوق. فهو مثال بارع للمتذوق الجيد وممثل يجلب المتعة للمشاهدين بأدائه. يقدم الإمام برنامجه وسط مطبخ بالغ العصرية معد بكل التجهيزات الممكنة حيث يقوم بدور الطاهى وفى نفس الوقت يستضيف الضيوف. يبدى شيئاً من الحرية فى أساليب طهيه ويلوح وكأنه يرتجل بدون تقيد بالوصفات.

وفى هذا الجو استضاف الإمام منذ عدة أعوام عماد أديب فى برنامجه. راح الإمام يطبخ طبق فتة فى بيئة تشيع فيها الراحة، ويتجاذب فى استرخاء أطراف النقاش حول متع الطعام. إن جسمىَ أديب والإمام لا يتناغمان مع المعايير المثالية للنموذج الصحى؛ فهما - فى الخمسين من العمر - زائدا الوزن وقد تراءت عليهما ملامح الاستمتاع الشديد عند أكل الفتة. ومن ثم يقفان فى وضعية تتعارض مع صورة مذاق الرفاهية على حد قول بوردو. فتلك الصورة تحتقر البدانة والمكونات الدسمة وكميات الطعام الضخمة. أما الاعتدال والنحافة والمظهر الصحى وكميات الطعام المقننة والطعم الراقى الفخم فهى فى العادة علامات لمذاق الرفاهية (بورديو، ١٩٧٩: ١٩٩).

لقد نقل كل من الضيف والمذيع مزيجاً من المذاق الشعبى ومذاق الرفاهية، الأمر الذى انعكس على ملابسهما ولغة جسميهما وحديثهما عن الطعام. بعد الشكل المعتاد للبرنامج، ينتقى الضيف الوصفات - وهو فى هذه الحالة هاو للفتة بكل أشكالها - ثم يساهم المشاهدون من البلاد العربية المختلفة فى مناقشة تحتدم بين الإمام وضيفه حول قضايا تتعلق بالسياسة والاقتصاد والرياضة وثقافة الشباب. وفيما تقع تلك الأحاديث، ينهمك الإمام فى الطهى، وعند نهاية البرنامج، يتناول المذيع والضيف الوجبة معاً. هكذا يصبح حيز المطبخ حيزاً للمرح والاختلاط الاجتماعى ويصير الطهى نشاطاً بسيطاً يحكمه المذاق الطيب ولا يخضع للتعقيدات والقواعد الصحية والتقنيات. إن السياق الاجتماعى والوصفات تقدَمان بطرق تتوافق مع المذاق الثقافى للجمهور بينما يتحلى الموقع بجماليات دولية عالمية.

يشترك عامر والشيف أسامة والإمام فى صفات واحدة: اتصالهم بوسائل الإعلام والشخصية العصرية وتعرضهم لتأثيرات الثقافة الغربية. الأولان يروجان نموذجاً عصرياً تسوده التكنولوجيا والقواعد الصحية والطعوم الغربية بينما يشدد الثالث على متع التذوق والتسلية الاجتماعية المرافقة للطهى والأكل.



فيما تحاول الطبقة المتوسطة بلا انقطاع الحفاظ على أسلوب حياتها وطموحاتها للترقى بمستواها، تكافح بلا هوادة فى مواجهة ظروف اقتصادية صعبة

الفئة الثانية: التقليد والحداثة

لا يمكن فى أى حديث عن المطبخ المصرى تجاهل ماجدة المهداوى. كانت قد أصدرت كتاباً، مطبخ جدتى أكلات مصرية، حلو وحاذق، يحوى تصاميم ملونة وصورة للمؤلفة تتصدر الصفحة الثانية منه ومقدمة طويلة عن مشروعها وآرائها. ولدت المهداوى فى الإسكندرية وتربت بها وقد قررت جمع وصفات ما تسميه المطبخ المصرى «التقليدى» من السيدات العجائز وكتب الطهى القديمة. فجمعت وصفات قديمة وأعادت تأليفها قبل أن تختفى من ذاكرة المجتمع الجمعية. غير أنها لا تفسر لنا ما هو المقصود بالمطبخ «التقليدى» ولا تُعرفه. تحاول المهداوى بعدها تحسين الوصفات التقليدية حتى تتكيف مع المعايير الحديثة للنظافة والصحة. للمهداوى خلفية فى علم المصريات وهى تعلن أن هدفها هو جمع وصفات المطبخ المصرى القديم الأصيل وحفظها. الوصفات المشتقة بالأساس من الأطباق المصرية القديمة. (ماجدة المهداوى، مطبخ جدتى، أكلات مصرية، حلو وحاذق ٢٠٠٣: ٦-٧). ففرضها هو تحديث الوصفات القديمة دون إحداث تغيير فى أصالة الطبق. وترى المهداوى أن تحديث الطهى يشمل تخفيض كمية الدهون وتبسيط خطوات التجهيز والارتقاء بشكل الطبق فيما يتعلق بألوانه وأسلوب تقديمه (المهداوى، ٢٠٠٤).

إن العاملين فى هذه الفئة يتولاهم القلق من اختفاء الثقافة والأصالة المحلية فى مواجهة ثقافة غربية عالمية تغزو المطبخ المصرى ويتملكهم إحساس قوى بالقومية والحنين إلى الماضى.

الفئة الثالثة: المقاربة العلمية

معظم من تشملهم هذه الفئة مؤلفون يدعون أنهم يخاطبون بخلفيتهم العلمية جمهوراً أوسع فى إطار مقاربة عصرية تستند إلى «الثقافة التقليدية». تباع كتبهم عادة بأسعار زهيدة وهى فى متناول أيدى القراء بمعظم المحافظات المصرية. وتصدر بعض هذه الكتب كمراجع «أكاديمية» لطلبة كليات الاقتصاد المنزلى بينما يستعين آخرون بشركات غذائية محلية كالمخابز وشركات تصنيع الحلويات لتمويل نشر كتبهم. يعمل العديد من المؤلفين أعضاء بهيئة التدريس فى كليات الاقتصاد المنزلى ويعدون هذه الكتب ككتب دراسية للطلبة. يصعب علينا هنا تحديد مجال توزيع تلك الكتب أو مبيعاتها إلا أنه من غير المحتمل أن تضارع

مبيعات هؤلاء المؤلفين مبيعات مؤلفين من الفئة الأولى كمنى عامر وأسامة السيد الذين هم فى النهاية نجوم إعلاميون.

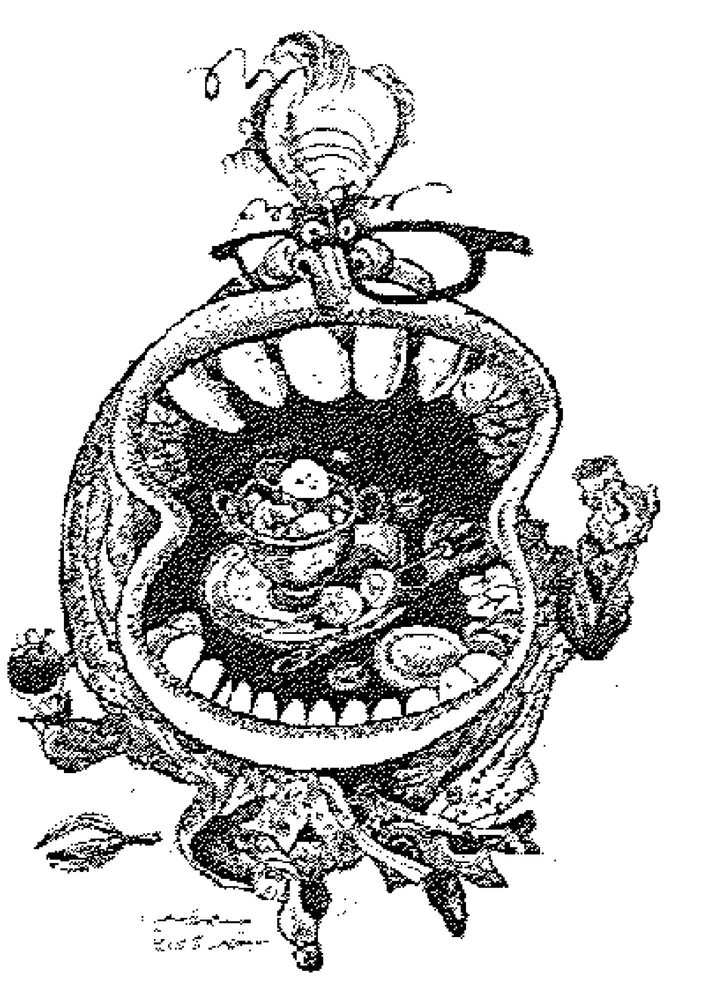
إلا أن هذه المقارنة لا تجدى نفعاً بالغاً فى المجمل بما إن الكتب وبرامج التليفزيون والمواقع الإلكترونية تعكس نزعات مختلفة وتوجه لجماهير متباينة كما تبعث برسائل مختلفة. فى الصفحات القادمة، لن أسبر بالتفصيل سوى الفئتين الأوليين وذلك لأنهما وثيقتا الصلة بالنقاش الحالى ألا وهو تحول الثقافة الغذائية فى مصر.

برامج وكتب ومواقع إلكترونية

أُقدم فى هذا المجال أعمال أربعة مؤلفين/فاعلين كعوامل تؤثر فى تطور الطهى بين الطبقات الموسرة. إن عامر والسيد والإمام والمهداوى ممثلون للمذهب الحديث الذى يقول بتقديم ممارسات مبتكرة ورموز جديدة إلى المبادئ الثقافية للطبقة المتوسطة والشريحة العليا منها. فهم يوجهون خطابهم فى الأغلب إلى المجموعات الاجتماعية الغنية بغرض تبديل المعرفة والممارسات التقليدية للطهى والتقديم والأكل. الحق أنهم يحاولون خلق نموذج معين للتفوق الثقافى والاجتماعى، نموذج يميز بين جمهورهم وقرائهم وبين العامة أو بين ممارسات يحسبونها غير مناسبة أو عتيقة أو ضارة بالصحة. إن مقاربتهم مقاربة إصلاحية تتلون بملامح عصرية.

يتبين لنا بعد القراءة الدقيقة لأغلبية كتب الطهى أو المواقع الإلكترونية أن إشارات دينية طويلة - آيات قرآنية وأحاديث شريفة تلائم مقتضى الحال - لا بد أن تتصدر النصوص. إلا أن النصوص المنتقاة هنا قد قلصت هذه الإشارات أو على الأقل غدت تستعملها باعتدال (بيتر هاينه، «إحياء الطهى التقليدى بكتب الطهى العربية الحديثة» مذاق الزعتر: ثقافة الطهى بالشرق الأوسط، ١٩٩٤:١٤٥). إذ تم استبدال أغلب تلك الإشارات إلى الدين ونواميسه بالمعنى الحرفى للكلمة بخطاب قوى اللهجة يتمحور حول التحديث وإن انسجم مع المبادئ الدينية الإسلامية. وهذا الضرب من الخطابات يضع فى الحسبان الحساسيات والثقافة الدينية للطبقة المتوسطة المصرية. الواقع أن الطبقة المتوسطة ازدادت فى الحجم وشهدت تقلبات ثقافية واقتصادية وسياسية مهمة منذ اندماجها مع اقتصاد البترول إبان هجرة الأيدى العاملة وسياسة الانفتاح خلال العقد الثامن من القرن العشرين وما تلاه (جلال أمين، مصر تحت حكم مبارك، ١٩٨٩: ١٠٥). فاتصال الطبقة

«ثقافة الطعام» فى مصر



مذاق الحاجة يتعارض تعارضاً حاداً مع مذاق الرفاهية، حيث يصبح الأخير مذاق من يتمتعون بالرفاهية المرافقة لرأس المال لينأوا بعدها بأنفسهم عن عالم الحاجة

المتوسطة بثقافات الخليج العربى حث العديد من مؤلفى كتب الطهى على تقديم وصفات من أجزاء مختلفة من الشرق العربى من أبرزها دول الخليج وفلسطين ولبنان. وتقديم المصريين لهذه الوصفات بكتب الطهى العربية يدل على نشأة تبادل ثقافى بين مناطق معينة من العالم العربى، تبادل نتج عن الهجرة والاتصالات المختلفة بين المهاجرين العرب بأمريكا الشمالية وجنوبها وأوروبا. ويتجلى هذا البعد واضحاً فى وصفات الإنترنت والدردشة الإلكترونية.

لقد صارت الصفة العلمية للطهى والتقديم والحفظ والأكل مذهباً تتقيد به ثقافة يشترك فيها إخصائى التغذية كما يتضح لنا من خلال تلك الكتب الثلاثة مطبخ جدتى وأطباق صحية وشهية وبالهنا والشفا. فقط الإمام يشذ ببراعة عن هذا الإطار الفكرى ليظل الوحيد (هو وضيفه أديب) الذى يطرى على متعة الطعام. فبينما يجهز طبق الفتة فى البرنامج السابق ذكره، جاهر أديب بأنه يعتقد أن الأكل فى النهاية متعة: «إن الأكل ليس أن يحشو المرء معدته أو فمه كما اعتدنا نحن المصريون. الأكل هو الخطيئة الوحيدة التى لا ترمى بنا فى النار... هل سبق لك أن رأيتَ متذوقاً للطعام يدخل النار؟» ووصف الطعام بأنه «الخطيئة الحلال» (القاهرة اليوم، مارس ٢٠٠٤). وبرغم اعتراف الإمام بأهمية تقليل الدهن فى الطهى مراعاة للمقتضيات الصحية إلا أنه يستخدم السمن أكثر من الآخرين بحجة أنه لا يمكن إعداد طبق شهى بدون جرعة مناسبة من السمن الحيوانى. وهكذا يستخدم السمن فى تحضير الفتة بتشجيع من ضيفه وإن كانت نبرات صوته تنم عن الاعتذار.

فى معظم البرامج التى تقدمها عامر والسيد، تتسم علاقتهما بالمشاهدين بالبعد والتجرد و«الموضوعية» الكاملة. فهما يميلان إلى إبراز ملامح الكفاءة والاحترافية والمبادئ الصحية الحديثة والثقافة الغذائية. تعرض عامر مثلاً وصفات متباينة من مجموعات عرقية ومناطق مختلفة لكنها تنبه القارئ أن تلك الوصفات فى طريقها إلى أن يحللها معهد علمى شهير للتغذية. وهى تقترح مقاربة لا تسيطر عليها اللحوم والدجاج. إذ تبذل جهداً جاداً لكسر العادات التقليدية المفضلة للحم/الدجاج والخضروات بالدمعة التى تطبخ بالبصل وصلصة الطماطم ويصاحبها الأرز. إن هذا الطبق مثال للنمط التقليدى العتيق لطهى يعكس المذاق الشعبى. وهناك أيضاً محاولة واضحة للابتعاد عن مذاق الحاجة. لقد انتقصت عامر عدد الوصفات المحلية من مجموع أطباقها بغرض تحويل مذاق الطعام المصرى عن طريقة الأكل التقليدية القديمة. فهى لا تأتى على ذكر أطباق الفول أو العدس، ولا البصارة أو الفتة. وسواء كانت وصفاتها فرنسية أو إيطالية أو مكسيكية أو هندية أو تايلاندية، فمعظمها تنبع من مناطق جغرافية بعيدة جالبة معها مكونات وتوابل وأدوات جديدة تباع فى متاجر محددة. وبمقدور المرء التعرف على أطباق مغربية معينة لاستخدامها الكسكسى وأطباق سعودية وكويتية لاستخدامها أسماء معينة كالجريش. وتعتمد الوصفتان على الأرز واللحم وبهارات معينة واللبن الرائب.

تصف عامر بكلمات موجزة فى برنامجها التليفزيونى الأصل الجغرافى للوصفات المختارة بينما تعترف بأنها أضافت لمستها الخاصة وجددت الوصفة الأصلية كى تتوافق مع مقاييس الصحة العالمية. ويكمن تجديدها المعتاد فى استخدام زيت الزيتون بكل الوصفات سواء كانت صينية أو مكسيكية أو سعودية. وينبغى أن ننوه بأن هذا التجديد، سواء كان ملائماً للوصفات من عدمه، لا تقدر عليه سوى الفئات الموسرة نظراً لثمن زيت الزيتون الباهظ فى مصر.

لا يختلف السيد فى معالجاته للطهى عن عامر خلا أنه يتوجه بخطابه أكثر نحو العرب المهاجرين إلى الولايات المتحدة وكندا. فهو يختار جمهوره من المهاجرين إلى الدول الخليجية أو أولئك الذين بطريقة أو بأخرى عاشوا بالدول العربية الغنية بالبترول أو الولايات المتحدة أو أوروبا ثم رجعوا بعدها إلى بلدهم الأصلية، ولا سيما مواطنيه المصريين. وعلى عكس وصفات عامر، تتميز وصفات السيد بغناها باللحوم وتعقيدها، إذ تتألف من تشكيلة من الأطباق الصغيرة المنفصلة التى تجتمع بعدها فى طبق تقديم واحد. تحوى واحدة من وصفاته على سبيل المثال حملاً ينقع فى المرق ثم يشوى بعد أن يحشى بالتوابل ويغطى بالفريك ثم تضاف إليه كرات من اللحم المفروم غارقة فى صلصة الطماطم (داود باشا). يقدم المزيج فى طبق كبير تزينه حبات العنب والخوخ والمشمش لتضفى ألواناً زاهية وتجمل طبقاً مزيناً بالفعل. وسواء عدل السيد هذه الوصفة أو نسخها من وصفة أخرى قائمة، فهو طبق يرضى ذوقاً يقدر اللحم (ويستطيع شراءه) بأشكاله المتعددة ويستمتع بعرض كميات كبيرة فوق المائدة. إنه تباه لا تخطئه الأعين ببحبوحة ووفرة لا يقدر عليها سوى قلة من الناس.

إن تأثير مذاق يغلب عليه التعقيد كالمذكور أعلاه يسيطر على تقديم الأطباق الغنية باللحوم والتوابل والأرز

والفريك والكسكسى والسمن. إذ تخيم الوفرة والألوان المتعددة على أصناف مقدمة فى أطباق ضخمة. من الواضح أن السيد يخاطب جمهوراً مسلحاً بمعدات عصرية بالمطبخ ويمكنه توفير المنتجات المختارة و/أو معاونة من الخدم.

وعلى عكس السيد وعامر، تحاول المهداوى تعريف ما تسميه المطبخ المصرى الأصيل منذ عصر القدماء المصريين. فالطعام التقليدى والأصيل كما تراه هو الطعام الذى لا يزال المصريون يتناولونه منذ القدم كأنواع معينة من الخضروات والحبوب واللحوم. ويشمل هذا أكلات تقليدية فى مصر مثل الفول بالزيت؛ الملوخية المطبوخة مع لحم الضأن فى المرق، ويضاف إليها الثوم المقلى والكزبرة الجافة والحمص؛ ممبار؛ الفسيخ وهو سمك بورى يخلل فى الملح. وتعتبر المهداوى أن هذه مكونات صحية وطبيعية ولذيذة لأنها قديمة وعليه تكون أصيلة. ثمة نبرة يخالها حنين غامر تطغى على خطاب المهداوى ووصفها للمطبخ المصرى. إذ يتولاها اشتياق إلى العادات القديمة عندما كانت النساء يمضين الساعات الطوال لطهى وجبات طبيعية شهية. وفى اعتقاد المهداوى أن المجتمع المصرى يفقد تقاليده من جراء تحديث أسلوب المعيشة وغزو المنتجات الصناعية والطعوم والألوان الصناعية وأن إحياء هذا المطبخ يجب أن يتم من خلال استخدام كمية أقل من السمن وتحسين طريقة تقديمه على مائدة العشاء.

ومن بين الثلاثة، تنفرد المهداوى بالعمل مع وصفات تعرفها أغلبية السكان. إلا أن ميزتها ليست مستمدة من حنينها ولا من نزعتها القومية إنما من مجهودها فى جمع وصفات على حافة الانقراض من أجزاء مختلفة من مصر. هناك أيضاً محاولتها للتذكير بنشاط إنسانى طالما غفل عنه الناس ألا وهو الطهى والأكل. لا مراء أن إسهام المهداوى يشمل إعادة تكامل أطباق عديدة تمثل المذاق الشعبى، أطباق لم تعد وجيهة بما يكفى بالنسبة لقوائم الطعام «الراقية». وتتضمن تلك الأطباق الشكشوكة (تطبخ الطماطم والفلفل الأخضر فى صلصة طماطم ثم تغطى ببيض مقلى)؛ كبد إسكندرانى (يقلى الكبد مع الفلفل الأخضر والطماطم والثوم ويتبل بالبهارات الحريفة)؛ والمش (تحفظ بقايا الجبن ومنتجات الألبان فى قدر فخارى ويحكم إغلاقه لتختمر محتوياته لمدة عام ثم تقدم مع الطماطم والزيت والفلفل الأحمر). إن هذه الوصفات لا تحتل مكاناً بمائدة الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة المصرية ما لم تؤكل كوجبات عجيبة استثنائية.

إن المؤلفين الأولين لا يقدمان وصفات تقترح بأية حال إعادة تدوير بقايا الطعام إنما توحى ضمناً بغزارة المكونات وسهولة ارتياد شتى المتاجر حيث تباع خيرة المكونات العالمية والمحلية. من الواضح أيضاً أن معظم الوصفات لا تتوجه بالحوار إلى الميزانيات الهزيلة أو الأذواق المحلية. على النقيض، تخاطب عامر جمهوراً/قارئاً على استعداد لأن يباشر رحلة إلى المذاق الطيب القادم من أجزاء مختلفة من العالم ويغامر بتجربة أساليب جديدة للأكل. على الجانب الآخر، تتحدث المهداوى إلى من نسوا «ثقافتهم المحلية» أو فقدوها ومن يساورهم الحنين إلى «المذاق المحلى». يمكن للمرء أن يخمن أن قراءها (كما ترنو هى إليهم) قد نأوا بأنفسهم عن «الثقافة الشعبية التقليدية» أو لم يكونوا جزءاً منها قط، ومن ثم يحاولون من آن لآخر تذوق الأطباق «المحلية التقليدية». أما السيد فيقدم وصفاته للبيئات الثرية بالدول العربية ولا سيما المغرب ومصر والأردن والسعودية والدول الخليجية، إذ يتيح لهم وصفات وافرة غنية عمادها اللحوم عدلها طاهيها لإنتاج مزيج معقد من الأطباق المتعددة.

تنزع الاتجاهات الجديدة فى الاستهلاك الغذائى - فى أجواء التحول الثقافى بالمجتمع المصرى - إلى تبنى معايير الفئات الغنية فى ظل نشر وسائل الإعلام والصحافة لها. هكذا تحدد الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة تدريجياً مقاييس المذاق والتمثيل الغذائى وفقاً لقواعد الحداثة والصحة.

إن هذا البحث ليس المقصود منه الدعوة إلى الرجوع إلى العلاقات الطبقية التقليدية أو النماذج التقليدية لعرض الطعام، ولا يبغى الترويج إلى فكرة البحث عن هوية قومية من خلال الثقافة الغذائية. كل ما هنالك هو أنه يقترح أن النزعات الجديدة فى الطهى تعزز التفاوت الاجتماعى عن طريق الفوارق الطبقية والانسلاخ عن المجتمع. المفارقة هنا أن هذه الاتجاهات تزعم أنها تروج مذاقاً جديداً يندرج تحت مقتضيات الحداثة والصحة والجمال وذلك عبر إدماج مساحات اجتماعية جديدة تشترك فيها فئات اجتماعية مختلفة. بيد أن هذا المفهوم قد ينشأ بمجتمعات تتقلص فيها الاختلافات الطبقية تقلصاً ملموساً. أما بالنسبة للفئات المحرومة بالبيئة القاهرية - وهى الأغلبية - تفاقم هذه الاتجاهات إحساسهم بالإحباط وفى الوقت ذاته تعمل على تقوية شعور الأقلية بالتميز وتنميته. ■

كتاب الزاوية

فى العطف على اليتيم

أريج البستان

١ - ألق ظلك على رأس اليتيم الذى مات أبوه، وانفض غباره وانزع شوكته.

٢ - لا تدرى ماذا حدث له، إنه بائس جداً، وهل تكون الشجرة بلا جذر ناضرة أبداً؟

٣ - لا عجب أن يكون ذابلاً وأسود البخت. لأن الشجرة لا تكون ناضرة بدون جذر.

٤ - حين ترى يتيماً مطرق الرأس، لا تقبل وجه ولدك.

٥ - اليتيم إذا بكى، من يدلكه؟ وإذا غضب، من يتحمله؟

٦ - ألا، حذار أن يبكى! فإن العرش العظيم، يرتج حين يبكى اليتيم.

٧ - امسح الدمع من عينيه برحمة، وانفض التراب عن وجهه بشفقة.


٨ - إذا انحسر ظل «أبيه» عن رأسه، فربِّه أنت فى ظلك.

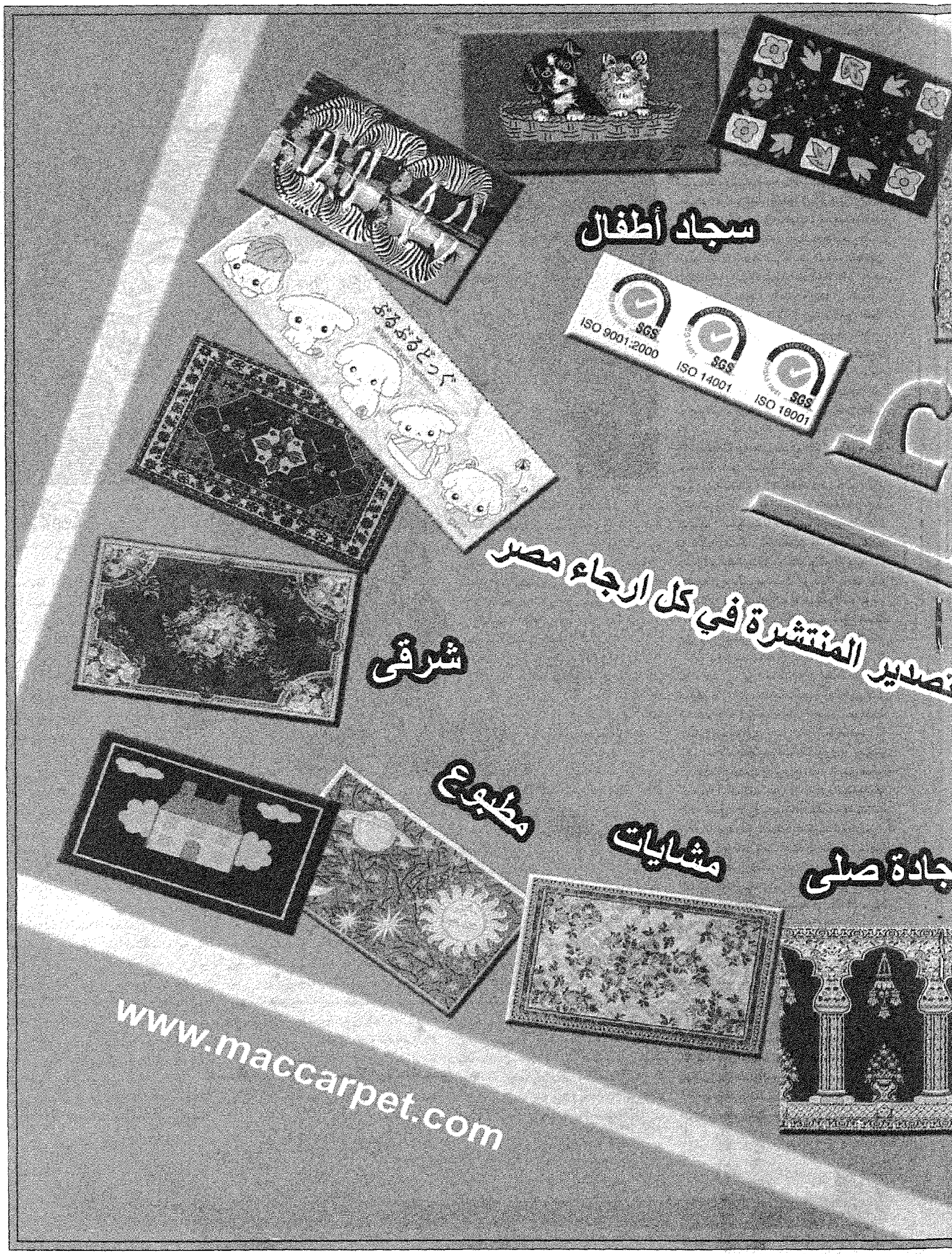
٩ - لقد كان رأسى متوجًا، حين كان رأسى فى حضن أبى.

١٠ - كانت إذا حطت على جسمى ذبابة، كان يضطرب خاطر عدة أشخاص.

١١ - والآن إذا أخذنى الأعداء أسيرًا، لا يكون أحد من أصدقائى نصيراً.

١٢ - لى خبرة ودراية بألم الأطفال، لأن أبى رحل عن رأسى فى طفولتى.


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقي
قطع موكيت



سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
SGS
صدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com

تفكيك

هشام السلاموني



مثلما يصح . أولاً . أن نقول إن الإنسان حيوان ناطق، ويصح . ثانياً . أن نقول إن الإنسان حيوان له تاريخ، يصح . ثالثاً . أن نقول إن الإنسان حيوان يضحك.

كذلك فإن من الصحيح . أيضاً . أن نقول إن الإنسان . عندما يصل إلى أعلى درجات نموه العقلى (الذكاء)، وأغنى مراحل استقراره، واختباره للحياة، وفهمه للمؤثرات والضغوط، والمعاينة المدققة لسيادة ما اصطلحنا على تسميته بالصدفة أو بالقدر، حيوان ساخر.

كل ما فات ليس صحيحاً فحسب، لكنه . بنفس القدر . ضرورى لنفهم ماهية الضحك والإضحاك، ولنعرف قدر الفنون المختلفة، التى تستطيع توليدهما.

وحدنا.. نحن الضاحكون و..

والحقيقة أنه لا يوجد عضو آخر . بحسب ما وصلت البشرية إليه من علم . من إخوتنا وأبناء أفخاذ قبيلتنا الحيوانية (ونخص بالذكر ثدياتها) مما هم غير الإنسان العاقل، من يستطيع النطق (إلى درجة التعبير الفنى)، أو من هو قادر على الاحتفاظ بخبراته التاريخية المتراكمة، والاستعانة بها على تغيير الواقع من حوله ليصبح أكثر ملاءمة لطموحاته (فليس غيره بمستطيع التشوف والتخيل وتحقيق المتخيَل)، وأن عضواً آخر فى المملكة الحيوانية، يعجز عن الضحك، فما بالك بالإضحاك القصدى، والسخرية.

ذلك ببساطة لأن الضحك والإضحاك والسخرية، يتطلبون كل ما اختُص به الإنسان: العقل الذكى الكشاف المتشوف، والنطق الفنى المعبر، والخبرة التاريخية . فى أمور الحياة . المتراكمة، أو التراكمية.

الحيوانات الأخرى . غير الإنسان . لا تضحك، حتى إخوتنا القردة العليا لا يفعلون، وما قد يبدو لنا من مراقبتهم على أنه ضحك، لا يعدو كونه تقلصات عضلية، ليس فيها من الضحك الذى نعرفه . ونمتاز به . غير تراقص عضلات الوجه، وتوتر عضلات الصدر، وارتجاج الجسم، وبعض الأصوات أو التصويتات التى تصاحب ضحكنا نحن، وهذه العناصر الثلاثة وحدها لا تعنى قدرتها على الضحك.

فالضحك، كما عهدناه، معروف علمياً أنه واحدة من وظائف المخ العليا، من وظائف القشرة المخية، ومراكزها الأكثر تطوراً، وتَعقُد هذه القشرة وظيفياً خصيصة مميزة وصل إليها العقل البشرى وحده.

الضحك عملية شديدة التعقيد:

يستلزم الضحك إدراكاً شديد الحساسية والحدة للأمور التى تطرأ باستمرار فى حياة الإنسان، والإدراك المعنى وظيفة عقلية للمخ الإنسانى، تمكنه منها مراكز قشرته المخية وخلاياها العصبية ذات الارتباطات القوية المتشابكة عالية التطور، ويعمق هذا الإدراك خبرات حياتية (معيشة / مسموعة / مقروءة) يستطيع الإنسان أن يحتفظ بها فى ذاكرته، وأن يستدعيها،

ويربط بينها وبين الحادث الطارئ / الفعل / القول وأن يستخلص نتائج جدلية منها، ويستطيع الإنسان في الإضحاك والسخرية أن يعبر تعبيراً فنياً عنها.

الضحك هو إدراك أولاً (يعمقه الاستدعاء والربط والتفسير)، وهذا الإدراك يؤدي إلى انفعال شديد التوتر، وإلى تحول طاقة الانفعال هذه لتتسرب في انقباضات متتالية لعضلات الصدر والبطن (على الأقل)، وبذلك تؤدي إلى ارتجاج الجسم والقهقهات (وربما التصفيق والخبط وهز الرجلين مستندتين أو مرفوعتين حسب درجة الانفعال، والانقلاب على الظهر أيضاً)، وتسرب الطاقة هذا يخلف وراءه نوعاً آخر من الانفعال يتراوح بين طرفين بعيدين هما الانتشاء الشديد والاكتئاب المروع).

نعم الضحك قد يؤدي إلى الاكتئاب، وهذه نقطة مهمة سوف نصل إليها.

الفلاسفة والعلماء يتدخلون.. ويفسرون:

ولأن كثيراً من أسرار المخ البشري (والعقل وظيفة له، وليست الكلمتان - المخ والعقل - مترادفتين في العلم) لم يفك غموضها بعد، كان الفلاسفة منذ قرون، وحتى الآن، أصحاب قصب السبق في دراسة الظاهرة، وقد حذا حذوهم، بما لديهم من المعلومات العلمية المتاحة، بعض العلماء، مقدمين فرضيات ثلاث (إذا أتقنا التجريد) تنتظر مزيداً من الاكتشافات ليتم إثبات أي منها، وتبقى الحقيقة أن أحداً من الفلاسفة أو العلماء لم يقدم، حتى اليوم، تفسيراً شاملاً ومريحاً لأسباب الضحك، أو ماهية الشيء المضحك، ومن ثم ماهية الضحك والإضحاك، الفلاسفة والعلماء حاولوا التفسير، ويصح أن نقول إن تفسيراتهم تداخلت واشتركت في أمور، لكن الصحيح أيضاً أن نزعم أن تلك التفسيرات تناقضت، وأن الفرضيات الثلاثة لو جمعناها، وتجاهلنا التناقضات، أو وحدناها جدلياً يتبقى شيء ناقص يجعل الفهم الكامل مستعصياً.

وعموماً فإنه من الممكن تصنيف ما أورده الفلاسفة والعلماء في فرضيات ثلاث:

أولاها: أن الضحك ممارسة للتفوق من جانب الضاحك، يرى الضاحك فيها أن المضحوك منه أقل شأناً أو (أحط درجة)، وأن ممارسة التفوق هذه (وهي ضمن الطاقة العدوانية في النفس البشرية، وليست كلها مذمومة إلا حين تعمد إلى إيذاء مشاعر الآخرين) هي السبب وراء النشوة التي يخلفها الضحك في نفس الضاحك، وهذه الفرضية كانت أكثر الفرضيات بقاء وصموداً وسيطرة في كل العصور، اعتقد بها أفلاطون، وأرسطو، وشيشرون، وكوينتيكان، وصولاً إلى فرنسيس بيكون، وفولتير، وبودلير، وبيرجسون (الذي صار علماً على الفرضية)، ومارسون بانيول.

وثانيتها: ترى أن الضحك ينشأ من وجود تناقض بين الشيء، أو الأمر الحادث، وما اعتدنا أن يكون عليه، أو تراه إحباطاً لتوقع يكاد يكون مؤكداً، يتخذ، هذا التوقع، سمة التوتر الانفعالي، ويأتي الضحك حين يؤول هذا التوتر إلى الاصطدام بمفاجأة تعكس مساره، أو هي ترى أن الضحك نتاج لسوء الفهم، أو سوء التفاهم، في الأمر الحادث المشاهد أو المروي، وهذه الفرضية اعتقد بها باسكال، وكانت، وسيدني سميث، وهربرت سبنسر (العالم النفسي).

وثالثة الفرضيات ترى الضحك ارتخاء مفاجئاً، نتيجة حدث أو قول، لتوتر دائم في حياة البشر، وانفكاكاً لحظياً لإحباط لا ينتهي (أو ما نسميه، نحن، انبساطاً، أو تلاهياً)، وفرويد ينسب هذا التوتر والإحباط الدائمين، إلى ما هو مكبوت منذ الطفولة في الإنسان، بسبب الضغوط التي تمارسها عليه الأنا العليا (الضمير، والقيم الدينية والمجتمعية).

تعالوا نحاول التطبيق.. والاعتراض:

إن منظر رجل محترم، متأنق، ينزلق فجأة، في جو مطير، على الأرض الموحلة، يثير ضحك من حوله، فإذا اعتبرنا الضحك فرحة من يرون أنفسهم متفوقين على الرجل، لأنهم لم ينزلقوا مثله (الفرضية الأولى)، فلا بد أن نعترف بأن الفرحة تبقى محدودة بعامل الشفقة أولاً، ثم التألم ثانياً، فالحزن الجارف أخيراً، والواقع أن الشفقة تتداخل مع الضحك (الفرحة العدوانية) منذ اللحظة الأولى، فإذا تغلبت، الشفقة، في الميزان النفسي للمراقبين، انقطع الضحك، ولو حدث وأصيب الرجل إصابة تعوق نهوضه، أياً كان مداها، ستجد من يسارع بمد يد العون للرجل، سواء وهو مستمر في الضحك، أو وقد انقطعت تماماً ضحكاته (حسب ما يراه من حال الرجل المنزلق)، أما حين التأكد من أن إصابة الرجل بليغة، أو بدون ذلك أحياناً لدى العديدين من المراقبين، سنجد أن الضحك قد تحول إلى تأمل ممض، ومن ثم إلى حزن قد يصير جارفاً، بل إن بمجرد سقوط الرجل سنجد من يصرخ في الناس «علام تضحكون؟!!» (ربما وهو يضحك مثلهم، وهو أمر لا يشكك في جدية الصيحة، وفي تقزز الضاحك ونفوره من فعل الضحك في مثل تلك الحال المؤلمة)، هكذا، لا يمكننا القول إن الإحساس بالتفوق لدى الضاحكين، عامل غير مقيد بالشفقة، منذ اللحظة الأولى، بل على العكس تماماً، يمكن أن نقول إن الضحك كان انفلاتاً لطاقة انفعالية تحاول التملص من قيود الشفقة، والتألم والحزن الجارف.

ثم إن ضحك المتواجدين في الشارع على من وقع، من الممكن ألا يعدو كونه انفلاتاً وقتياً لتوتر حادث (سواء كان وقتياً بالخوف من الانزلاق على الأرض الموحلة، أو كان دائماً كما شرحه فرويد)، يعود بعده التوتر سيرته الأولى، والتوتر الوقتي يكون حادثاً نتيجة الخوف على الذات، وهو تخوف يضع في اعتباره أن الكل، والذات بينهم، معرض لنفس السقوط، بنفس الشروط، وإلى ما حدث من جرائه، وهكذا لا يكون العنف عنفاً على الآخر فقط، بل عنفاً على الذات أيضاً، ولا يكون إحساس التفوق راسخاً، بل قد يعني القناعة ضمناً بعدم التفوق، وتكون تلك القناعة دافعاً للرغبة في الإحساس به للحظات قصيرة.

هكذا نجد تداخلاً بين الفرضية الأولى (ممارسة التفوق على الآخر) وبين الفرضية الثالثة (انفكاك لحظي للتوتر والإحباط)، وقد تلمح الفرضية الثانية بينهما، في رؤية الضاحكين للتناقض الحادث بين قدرة إنسان على تجنب السقوط، وبين السقوط المرئي، لكننا في نفس الآن نجد تناقضاً بينهم وفيهم، فلا التفوق حاسم، ولا التوتر دائم، ولا الاقتناع بالقدرة راسخ.

المؤكد أن هناك شيئاً ينقص الثلاث.

ماذا حدث للسجين؟

بعض أصحاب الفرضية الثانية (التناقض بين سيرورة الحادث، وما نرى أنه يجب أن تكون عليه، أو إحباط لتوتر في عكس مساره، أو سوء الفهم وسوء التفاهم) يروون نكتة تقول: إن حراس سجن شرسين كان ينقصهم واحد ليستطيعوا لعب الورق، فكان أن أتوا بسجين محكوم عليه في قضية أخلاقية ليكمل عددهم، لكنهم أثناء اللعب اكتشفوا أن السجين يغش في اللعب، وصمموا على عقابه، فقاموا بطرده إلى خارج أسوار السجن، انتهت النكتة، وهم يدللون بها على وجود أكثر من تناقض فيها كان مدعاة لضحك المتلقي، أولهم: بين كون الحراس حراساً وإطلاقهم سراح السجين!، وثانيهم بين كون المجرم مجرماً وظن الحراس أنه لن يغشهم في اللعب!، والثالث بين رغبة الحراس في معاقبة السجين على ما اقترفه في حقهم ونتيجة هذا العقاب التي حررت السجين، وكأن ثمن الغش هو إطلاق السراح، ثم إنهم يرون أن مسار النكتة عكس مسار التوتر في متابعتها، فالتوتر تصاعد لحظة اكتشاف الحراس الشرسين أن السجين يغش في اللعب، وانبعث تصاعده من توقع عقاب صارم سينفذه حراس شرسون، فإذا بالعقاب يجئ إفراجاً عن السجين وإطلاقاً لسراحه، وبهذا ينتهي التوتر إلى عكس مساره تماماً، ويقولون إن النكتة أيضاً تحتوي على سوء فهم، بالطبع من الحراس لطبيعة عملهم ولماهية العقوبة التي يوقعونها على السجين، بل لطبيعة السجين وأخلاقياته، وما يمكن أن يصدر عنه من أفعال.

لكن ألسنا نضحك أيضاً، في نفس النكتة، لغباء الحراس، وبإحساسنا بأننا متفوقون عليهم، ولأننا في مكانهم لا يمكن أن نفعل ما فعلوه، وفي ذلك ممارسة لطاقة العدوان ضدهم (الفرضية الأولى)، ثم أليس في الأمر تعاطفاً خفياً من جانبنا (كمتلقين) مع السجين، الذي لم نتساءل قبل أن نضحك عن جريمته!، وأن التعاطف مع أي سجين يوضح انفلات طاقة تعبر عن فرحة لكسر الضغوط التي تمارسها علينا الأنا العليا، والقيم المجتمعية (الفرضية الثالثة).

مرة أخرى تلتقي الفرضيات الثلاث، وتتناقض.

ومرة أخرى نرى أن هناك عنصراً غائباً يجعل التفسيرات غير مرضية.

ولنسأل لسان العرب:

في مادة «فكه» نجد (رجل فكه: يأكل الفاكهة / من ينال من أعراض الناس / طيب النفس مزاح / الذي يحدث أصحابه فيضحكهم / الأشر البطر)، و(الفاكه: عنده فاكهة / من كثرت فاكهته / المازح والمزاح (وفي حديث أنس: كان النبي «ص» من أفكه الناس إذا خلا مع أهله))، و(فكههم بملح الكلام: أطرفهم (من الطرافة)) و(الاسم: الفكيهة والفكاهة: المزاح، التفاكه: التمازح)، و(تفكهت بالشيء: تمتعت به)، و(القوم يتفكهون بفلان: يغتابونه وينالون منه)، و(فكه من كذا: تعجب)، و(التفكه: التندم).

وفي مادة «ضحك» نجد (الضحك: معروف)، و(في الحديث: يبعث الله السحاب فيضحك أحسن الضحك: جعل انجلاءه عن البرق ضحكاً، استعارة ومجازاً، كما يفتر الضحك عن الثغر، وكقولهم ضحكت الأرض إذا أخرجت نباتها وزهرتها)، و(ضحكة: ما يضحك منه)، و(ضحكه: الرجل كثير الضحك)، و(الضحك: مدح)، و(الضحك: العجب)، و(الضحوك: الطريق الواسع، وطريق ضحاك: مستبين) و(ضحكات كل شيء: خياره)، و(رأي ضاحك: ظاهر غير ملتبس)، و(يقال القرد يضحك إذا صوت).

وفي مادة «سخر» نجد (سخر منه وبه: هزئ به).

وهكذا يضعنا لسان العرب أمام معان يجب ألا تغيب عنا:

أولها: أن الضحك فاكهة الكلام وملحه، وأن من يضحك طيب النفس، وأن الضحك إخراج للطيبات.

ثانيها: أن من الضحك ما هو غيبة، وما هو نيل من الأعراض، وما هو استهزاء.

ثالثها: أن الضحك رأي غير ملتبس، وطريق مستبين.

رابعها: أن في الضحك تعجباً وندماً.

لقد تكلمنا كثيراً عما ينقص الفرضيات الثلاث لتعطي تفسيراً مشبعاً عن الضحك

والإضحاك، الآن لنركز على « ثالثها ورابعها » فهما يتضمنان من الشيء الناقص الكثير.

ثم ليتكلم المفكرون والمبدعون:

يقول لويس ليري: « إن تاريخ الأدب الأمريكي يبدأ بمارك توين (الكاتب الأمريكي الساخر صامويل لانجهورن كليمنس) فهرويه إلى المغارة، وإلى الماضي، وإلى الفكاهة، التي تأخذ مجراها ضمن الحقيقة وتتجاوزها.... ».

ويقول مارك توين: «إن روح الفكاهة ذاتها تجد مصدرها السري في الحزن لا في الفرح، فليس هناك فكاهة في الجنة».

ويقول نيتشه: أعرف تماماً لماذا كان الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يضحك، فإنه لما كان الإنسان أعمق الموجودات ألماً، فقد كان لا بد له من أن يخترع الضحك، وإذن فإن أكثر الحيوانات تعساً وشقاء، هو بطبيعة الحال، أكثرها بشاشة وانشراحاً.

يقول لورد بايرون: «ما ضحكت لمشهد بشري زائل، إلا وكان ضحكي بديلاً استعين به على اجتناب البكاء».

ويقول د. زكريا إبراهيم: «هل كان الضحك إلا اختراعاً بشرياً، تفتق عنه ذهن ذلك الموجود المتناهي، الذي يعرف أنه لا محالة ذائق الموت، لقد أرادت الطبيعة لهذا المخلوق الناطق أن ينوء بهَمِّ الموت، وكأنما هي أرادت أن تكون فكرة الموت هي الضريبة الفادحة، التي يدفعها الإنسان، ثمناً لنعمة العقل، التي اختصته به دون غيره من الموجودات، فكان لا بد لهذا الموجود الشقي أن يجد علاجاً لفكرة الموت، فكان الدين، وكان الضحك».

الفكاهة إذن تأخذ مجراها من الحقيقة، وتتجاوزها، وتنبع من الحزن والألم، والرغبة في اجتناب البكاء، ومقاومة السيطرة القابضة لفكرة الموت.

أقوال أخرى مهمة:

يقول د. زكريا إبراهيم: «والحق أن الابتسام والضحك والبشاشة والمرح والفكاهة والمزاح والدعابة والهزل والنكتة والملحة والنادرة والكوميديا إن هي إلا ظواهر تنفيسية من فصيلة واحدة، وكلها إنما تصدر عن تلك الطبيعة البشرية المتناقضة، التي سرعان ما تمل حياة الجد والصرامة والعبوس، فتلتمس في اللهو ترويحاً عن نفسها، وتبحث في الفكاهة عن منفذ للتنفيس عن آلامها، وتسعى عن طريق النكتة نحو التهرب من الواقع، الذي كثيراً ما يثقل كاهلها».

ويقول: «وليس العنصر الوجداني الوحيد الذي يدخل في ظاهرة الضحك هو عنصر الارتياح والانشراح أو الغبطة والسرور، بل هناك عنصر وجداني آخر قد لا يقل أهمية، ألا وهو عنصر اللهو والمرح والتسلية واللاواقعية».

ويقول يونج «بعض الأقوام في جنوب أفريقيا كثيراً ما تستخدم الضحك وسيلة للتعبير عن الدهشة أو القلق، أو التعجب، بل قد تعبر به عن شعورها بالحزن العميق، في بعض الأحيان، وأما عندنا نحن المتحضرين، فقد عملت العوامل الحضارية عملها، فاصبح للضحك من الدلالات الاجتماعية، والمعاني العقلية ما جعله يفقد مضمونه البدائي الأصلي».

ويقول د. زكريا إبراهيم: «ذهب بعض علماء النفس إلى أن الفكاهة تقوم في حياتنا النفسية بدور أو وظيفة تشبه إلى حد ما وظيفة اللاشعور، على نحو ما يتبدى في الأحلام. مثلاً. أو في الأعراض العصابية، وهذا ما قرره فرويد نفسه في دراسته للنكتة، وعلاقتها باللاشعور».

ويقول فرويد: «إن العلاقة وثيقة بين الفكاهة والحلم لأن كلاً منهما ينطوي على ضرب من الارتداد نحو الطفولة، من أجل التملص. ولو إلى حين. من تلك الحدود أو القيود، التي تفرضها علينا الحياة الجدية، ومعنى هذا أننا نجد في الضحك نكوصاً نحو الأسلوب الطفلي في المعيشة، بما فيه من أحلام براقة، وخيالات سعيدة، وتهاويل جميلة».

ويلاحظ روس في دراسته لعلاقة روح الفكاهة ببعض المتغيرات في الشخصية، أن أولئك الذين يتمتعون بحس فكاهي يجئ ترتيبهم في العادة متأخراً نسبياً في سلم الأشخاص المعرضين للأمراض النفسية، ومهما يكن من شيء فإن طابع اللهو واللاواقعية الذي تتميز به المواقف الفكاهية والنكتة، سواء أكان هذا الطابع طبيعياً تلقائياً، أم اصطناعياً تعويضياً هروبياً، كما نقول أحياناً، فإنه لا بد أن يكون ماثلاً في جميع الحالات كخاصية أساسية تميز كلاً من الضحك والفكاهة.

يقول لو دافيتشي: «إن في الضحك شيئاً من الغدر أو التشفي في الآخرين، وإن الشعور بالتفوق الذي يقترن بالضحك كثيراً ما يكون مجرد محاولة تعويض، يراد بها تغطية خوفنا من التعرض لحالة الدونية أو النقص، كما يحدث مثلاً حينما نجد أنفسنا في موقف مهين يدعو إلى السخرية، فنضحك على سبيل الدفاع عن النفس».

و يقرر مارسيل بانويل أن في الضحك استعلاء وقتياً.

.. الفكاهة والضحك إذن، هما إدراك لواقع محزن يحاول الإنسان جاهداً أن يفر منه. وقتياً. مثلما يفر الإنسان من واقعه في الحلم، وفي اللاواقعية (التي هي هروب قصدي)، بل وفي الاستعلاء على المواقف، وهذا الهروب يحاول. لبعض الوقت. استعادة الطفل فينا، ذلك الكائن المختنق تحت ركام من الضغوط أهمها الحقيقة الكامنة وراء واقعنا، الحقيقة التي لا تفتأ تعيرنا بضعفنا، الذي يستأهل أن تُمارس ضده سخرية، وأن السخرية قد تبدو للعين غير المدققة أنها سخرية من الآخرين، لكنها في الأساس سخرية من النفس.

أقوال ثالثة

يقول فرويد. في بحث له عن الفكاهة ظهر ١٩٢٨. إن الفكاهة تقوم بدور (الفيلسوف الساخر) الذي يلقي جلائل الأمور بروح الهزل والاستخفاف أو بروح الاستهانة وعدم الاكتراث.

ويرى فرويد أن في (إنكار الواقع) عن طريق النكتة درباً من السمو الأخلاقي الذي يرجع إلى ما يقوم به (الأنا الأعلى) من دور هام في صميم هذا النوع من أنواع الضحك، فالأنا الأعلى في مثل هذه الحالات، يعامل (الأنا) كما يعامل الشخص البالغ الرحيم طفلاً ألمت به بعض المصائب الصغرى، أو الكوارث البسيطة، إذ يبين له، في ضوء خبرته الناضجة كيف يزن تلك الأحداث البسيطة، التي هي مما لا يستحق كل هذا الاهتمام، وكأن (الأنا الأعلى) يريد أن يأخذ بيد (الأنا).

ويرى ديكارت أن الضحك (القهقهة) فعل يفلت من طاقة العقل، وهو ليس انفعالاً من انفعالات النفس، وإنما هو انفعال من انفعالات البدن.

ويقول كانت: «إن الضحك هو ضرب من الإعياء المفاجئ الذي يصاب به العقل، فلا يلبث البدن أن يقوم هو بالاستجابة للمؤثرات الخارجية، على طريقته الخاصة، إن كل ما يستثير لدينا القهقهات العالية لا بد أن ينطوي على شيء من «الاستحالة»، التي لا يجد فيها العقل أية لذة خاصة، وتبعاً لذلك فإنه ليس للضحك من فائدة سيكولوجية بالنسبة للفكر، ولكن تنحصر فائدته في الآثار الفسيولوجية التي يتركها في الجسم».

وتؤكد نظرية جيمز لانج أننا لا نضحك لأننا مسرورون، بل نحن مسرورون لأننا نضحك.

ويصمم الوجوديون على أن الضحك ليس ثمرة تصميم إرادة، وإنما هو يقترن دائما بضرب من (الغائية)، التي تخلع عليه معناه، والتي بدونها يفقد كل صبغة إنسانية، ولهذا يعمدون إلى توضيح أن الإجابة على السؤال « لماذا نضحك؟ » لا مندوحة أن تكون بـ «كي» وليس بـ «لأن»، إننا نضحك لكي نعبر عن انشراحنا، وفي أحيان لكي نوجد هذا الانشراح.

ويكتب الأمريكي الشهير لامينيه «إن الضحك لينطوي في جميع الحالات على حركة تبدأ من الذات، وتنتهي إلى الذات، يستوي في ذلك أن تكون بإزاء ضحك السخرية القاسي المرير، أم ضحك اليأس المليء بالفزع والخوف، أم ضحك الشيطان المنهزم الذي يصر على المقاومة فيلوذ بكبريائه الغاشمة التي لا تلين، أم ضحك الأبله المعتوه».

ويتبع الكتاب العرب القدماء ما روى عن الرسول (ص) أنه قال: «روحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلت عميت» فيرون أن الضحك استراحة واسترواح.

ومما قاله علي بن أبي طالب: «من كانت فيه دعابة فقد برئ من الكبر».

وكان من رأي الجاحظ أن الضحك ليس نقيضاً للجد، بل هو حال من حالاته، و تجل من تجلياته.

ويقول أبو العلاء المعري: «ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة / وحق لسكان البسيطة أن يبكوا / يحطمنا ريب الزمان كأننا / زجاج ولكن لا يعاد له سبك».

ويقول مارك توين إن صورة الإنسان عن الإنسان «ليست إلا صورة نفسه منظورة بمنظار الإخلاص الذاتي العميق في قلبه، وهو في هذا الصدد يرى الإنسان «متحف أمراض»، وأنه يبدأ قذارة، وينتهي رائحة نتنة، وأن ليس هناك من سبب لوجوده غير تغذية الجراثيم وإنعاشها».

ويرى فرويد أن للضحك جانباً «نزوعياً» (هو إحساسنا بالتفوق على الآخرين، أو الرغبة في الاستمتاع بهذا الإحساس)، ويرى أن الجانب النزوعي إنما ينشأ عن الاقتصاد في إنفاق طاقة الكف أو المنع (سيطرة الضمير والقيم المجتمعية على الأنا)، كما يرى في الضحك جانبا «وجدانياً»، ويراه اقتصاداً في العواطف، أما الجانب الثالث فهو الجانب «الإدراكي»، ويراه اقتصاداً في التفكير، وفي هذا السياق يطلق أيزنك اسم «الفكاهة» على العنصر «الوجدني»، واسم «النكته» على الجانب «النزوعي»، واسم «الكوميديا» على العنصر الإدراكي.

ويقول لوسيان فابر: «إن الضحك انطلاق من حالة شعورية إلى حالة شعورية مغايرة».

ويرى بعض العلماء «إن عمليات تفريغ الطاقة،عن طريق الفكاهة هي عمليات معقدة متباينة إلى أقصى حد، وليس تنوع تلك العمليات بمقصور على عمومية أو جزئية مصدر التوتر، أو على طبيعة مضمونه الانفعالي، وإنما يمتد هذا التنوع أيضاً إلى الآلية النفسية التي يتم عن طريقها التحرر، أو التخفف (النكتة/ الموقف الطارئ / جلسات التريقة / الكتابة الفكاهية.... .

.. الضحك إذن ينطلق من الذات، رغبة في إنهاء شعور أو انفعال، بإطلاق طاقته في اتجاه آخر، بغرض التحرر أو التخفف، ولأنه ينطلق من الذات فهو يأخذ موضوعه منها، وهو يأخذ هذا الموضوع عندما يعطى « إدراكياً » معنى للمؤثر الداخلي أو الخارجي الباعث للتوتر، وكونه يأخذ معناه الانفعالي من الذات، فهو إذن سلاح موجه لها وليس للآخرين (إلا في حالات قصدية)، بل ربما كان سلاحاً للدفاع عن الذات (لا علاقة له بالآخرين) لحمايتها من هذا المعنى الباعث للتوتر، والذي كونته للمؤثر، وذلك بإفلات الطاقة الانفعالية إلى مسارب لا تؤذيها.

والآن.. ماذا يقول الفينومينولوجيون؟:

تتجه النظرية الفينومينولوجية (الاختزال الفينومينولوجي) إلى وصف بيان الشعور الخالص في علاقته بموضوعات العالم، واستخلاص معنى الظواهر بإرجاعها إلى البنيان المقابل لها من الشعور الخالص.

ويعنى هذا الأمر لدى المقتنعين بها والمطبقين لها. ضرورة الابتعاد. مؤقتاً. عن اليقين البديهي، الذي يفترضه كل فكر وكل فعل، كيما يتسنى إبرازه وإيضاح دلالته، حتى نستطيع أن ننظر نظرة جديدة تكشف عن معنى الألم، وعن أصل الظواهر في الشعور الخالص.

وبناء على ما فات فإن واقعة نفسية مثل الانفعال، وهو يعتبر. عادة. اضطراباً لا يحكمه قانون، هي واقعة ذات معنى خاص بها، ولا يمكن إدراكها في ذاتها دون فهم هذا المعنى، إن معنى واقعة شعورية يكمن في كونها تدل على الواقع الإنساني في جملته، من حيث أنه. الواقع الإنساني. يكون واقعا منفعلاً أو متنبهاً أو مدركاً أو مريداً أو...

وترى النظرية الفينومينولوجية أن الانفعال يحيل إلى ما يدل عليه من معنى، وما يدل عليه إنما هو مجموع علاقات الواقع الإنساني، ومن هنا، ولأن الانفعال تحقيق لماهية الواقع الإنساني من حيث هو وجدان، فلا بد أن يبدأ وصفه. الانفعال. من الواقع الإنساني نفسه.

ويقول سارتر. شارحاً الانفعال على المنهج الفينومينولوجي في كتابه نظرية في الانفعالات، أن الانفعال يعني تغييراً للعالم، أي أننا به نحاول أن نحياه. العالم. كما لو لم تكن العلاقات بين الأشياء وإمكانياتها خاضعة لعمليات حتمية، ونحن. بالانفعال نستغرق في الموقف الجديد، ونتفانى فيه بكل ما نملك من قوة، ثم أن هذه المحاولة ليست شعورية بما هي كذلك، وإلا أصبحت موضوعاً للفكر، بل هي قبل كل شيء إدراك لروابط جديدة ومطالب جديدة، ولما كان إدراك الموضوع محالاً أو مثيراً لتوتر لا يطاق، فإن الشعور يدركه. أو يعمل على إدراكه. على نحو آخر، أي أنه يغير نفسه لكي يغير الموضوع.

ويقول هوسرل (من كبار مفكري النظرية الفينومينولوجية) إن التكشف يتم على دفعات، فالشيء المدرك ينكشف للشعور تدريجياً في سلسلة لا نهائية من المظاهر، وهذه المظاهر هي أوجه مختلفة لنفس الشيء.

ويقول هيجل: إن الشعور هو علاقة محددة بين الأنا وموضوع ما.

أي أن الانفعال هو خبرة الفرد الشعورية بذاته والعالم (الواقع الإنساني)، ونحن لا نستطيع تفسير الشعور، إننا فقط نستطيع أن نتفهمه.

وبعد:

كنا نحاول أن نجد الشيء المفتقد بعد أن استعرضنا فرضيات الضحك الثلاث، والآن يصح لنا (بعد أن عرضنا ثلاث مجموعات من أقوال الفلاسفة والعلماء والمبدعين، والأساس اللغوي لقاموسنا المعبر عن الظاهرة) أن نتقصى هذا الشيء المفتقد من خلال النقاط الآتية:

(أ) الضحك يأتي من انفعال.

(ب) الانفعال يتجنب الاستمرار في مساره، فينفلت ليتسرب في مسار أقل إيذاء.

(ج) الانفعال يأتي استجابة لإدراك.

(د) الإدراك يكون لمعنى متصل اتصالاً مباشراً بالواقع الإنساني (العالم).

(هـ) لاشيء (حدث / قول / فعل) مضحك في ذاته.

هكذا يصبح الشيء المضحك هو شيء. حين يتم لنا إدراك قدر من معناه. مثير للانفعال، ولا يعني هذا أن الانفعال هو استجابة للشيء المضحك في حد ذاته، بل هو استجابة لما أدركناه من معنى لهذا الشيء، أي أن الشيء الذي نصفه بأنه مضحك، والمعنى الذي أدركناه، هما جزءان من الاستجابة الشعورية (من الانفعال).

وأن الطاقة المنبعثة في الاستجابة الشعورية (الانفعال)، يتم تسريبها وقتياً (لأن احتجازها شديد الضرر بنا) في مسارب الضحك أو البكاء، وأن تسريب هذه الطاقة جزء من طبيعة الانفعال (دفاعاً عن أنفسنا ضد ضرره).

والنشوة التي تعقب الضحك، مثلها مثل الراحة التي تأتي بعد البكاء، سببها التخلص من الانفعال بعد تسريبه.

الانفعال يصبح هكذا عملية ذات معنى، ومعناه يكمن في تفاعل الذات مع العالم أو رؤية الذات للواقع الإنساني.

هكذا لا يكون لدينا مضحوك منه غير العالم منعكساً في ذواتنا، وغير الواقع الإنساني في هذا العالم.

نحن لا نضحك من الآخرين، أو على الآخرين (وإن بدا لنا ذلك، أو وإن حاولنا أن نظهر أننا نفعل ذلك) إننا لا نضحك إلا من. وعلى. حالنا، على الواقع الإنساني، على واقعنا مُدركاً في الآخرين، لا نضحك إلا على أنفسنا منعكسة في مرايا الآخر.

وبكل ما سبق نقول إن ما افتقدناه في الفرضيات الثلاث التي حاولت أن تفسر عملية الضحك، لتصل إلى ماهيته، سواء كان قصدياً (مجموعة تتلاقى لكي تضحك)، أو كإدراك واستجابة بالانفعال لفعل أو حدث أو قول: كان. ما افتقدناه. هو المعنى المتصل اتصالاً مباشراً بالواقع الإنساني.



يرى فرويد أن للضحك جانباً «نزوعياً» (هو إحساسنا بالتفوق على الآخرين، أو الرغبة في الاستمتاع بهذا الإحساس)

إن الإنسان. مثلما هو الكائن الوحيد الناطق، صاحب التاريخ، والضاحك، هو الكائن الأوحد الذي يعي واقعه الذاتي، يعي ضعفه، الذي لم يكن تاريخه كله إلا محاولة دءوب مستمرة للتقليل من أثره المدمر للذات (لهذا كان يتجمع، ولهذا كان يحاول فرض سيطرته على الآخرين، بحثاً عن تفوق زائف، ولهذا بنى الحضارات، ولهذا فكر في الاشتراكية والشيوعية، ورغب في تحقيقهما، فهما منجاته من الاستناد على قوة مكذوبة. ومن ثم مؤرقة. في السيطرة على الآخرين واستغلالهم).

والإنسان. بدرجات متفاوتة. يعاني من ضعفه، وهذا سر توتره الدائم، الذي أشار إليه فرويد (الفرضية الثالثة)، فالإنسان لا يتقبل الكف المستمر الذي يمارسه عليه الضمير والقيم المجتمعية والدينية، إلا ليخفي ما هو أبشع وأكثر إيلاما من الكف المستمر (والذي يرتاح منه قليلاً في الحلم، وفي الضحك)، والإنسان وهو يمارس التفوق على الآخرين بالضحك (الفرضية الأولى) تتداخل مع شعوره بالتفوق شفقة أساسها أنه يدرك أن الضعف، الذي يثير الضحك، مشترك بين الضاحك والمضحوك منه، ولهذا إذا زاد الأمر عن حده انقلبت الضحكات وجوماً أو بكاءً واكتئاباً، والإنسان ينفعل للتناقض (الفرضية الثانية) لأنه يدرك هذا التناقض الحادث بين ضعفه وحلمه الذي لا ينقطع بالسمو والقوة والحق والخير والجمال.

الإنسان إذن ينفعل (بما نسميه مثير الضحك)، وحتى لا يدمره الانفعال، يتم تسريبه عبر المتشابكات في المخ الإنساني، إلى فعل انقباضي في عضلات الصدر والفم وبقية العضلات (حسب قوة الانفعال) فيبتسم أو يقهقه أو يرفس الهواء برجليه أو ينقلب على ظهره، وهو ما نسميه الضحك.

لله ما أعظم المصريين. الذين سخر بعض المثقفين من كلماتهم. عندما يقولون بعد الضحك، اللهم اجعله خيراً!!.

المراجع:

(١) سيكولوجيا الفكاهة والضحك (في علم النفس) أ. د. زكريا إبراهيم، مكتبة مصر القاهرة (مرجع أساسي).

(٢) مارك توين (أعلام الأدب الأمريكي). المكتبة الأهلية. بيروت.

(٣) الموسوعة الأمريكية الجزء ١٤ ص ٥٦٣ وما بعدها، والجزء ٤ ص ٣٣ وما بعدها، والجزء٧ ص ٢٥٤ وما بعدها، والجزء ١٠ ص ٨٢٤، والجزء ١١ ص ١١، والجزء ٢٣ ص ٥.

(٤) جحا،عباس محمود العقاد، دار المعارف، القاهرة.

(٥) لسان العرب لابن منظور (دار المعارف،القاهرة)

(٦) نظرية في الانفعالات، جان بول سارتر. ترجمة د. سامي محمود علي، ود. عبد السلام القفاش، أمهات الكتب مهرجان القراءة للجميع، القاهرة.

(٧) الفكاهة في مصر، أ. د. شوقي ضيف. القاهرة.

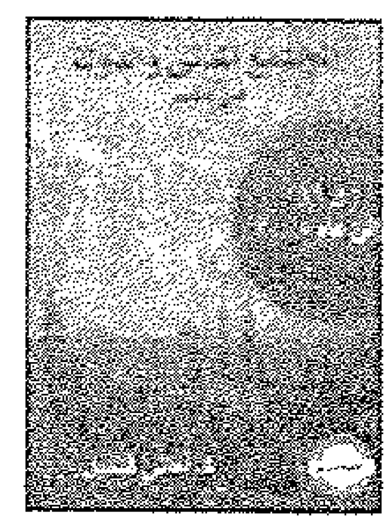
(٨) الفكاهة والضحك، د. شاكر عبد الحميد، عالم المعرفة، يناير ٢٠٠٣، الكويت.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

المجتمع المدنى والدولة فى مصر

أمانى قنديل

القاهرة: مركز المحروسة للنشر، ٢٠٠٦، ١٦٠ صفحة



على الرغم من أن مصر والمجتمعات العربية والإسلامية عرفت المجتمع المدنى باكراً ممثلاً فى أشكال بدائية من التكافل فى الأوقاف والأربطة وغيرها، فإن المجتمع المدنى فى صيغته الحديثة يستحق اهتماماً أكبر من قبل الباحثين فى العلوم الاجتماعية والسياسية. وهو ما تضطلع به الباحثة منذ سنوات، ليس فقط بوصفها باحثاً يراقب ويرصد ويحلل، وإنما بوصفها مديراً تنفيذياً للشبكة العربية للمنظمات الأهلية.

ويركز هذا الكتاب على تطور العلاقة بين المجتمع المدنى والدولة فى مصر منذ القرن التاسع عشر وحتى العام الماضى (٢٠٠٥)، والمتغيرات الداخلية والدولية التى تؤثر فى صياغة العلاقة بين الطرفين، وهذه الدراسة هى الأولى من نوعها فى المنطقة العربية التى تركز على هذه المسألة فى ضوء أمرين أساسيين. أولهما العولمة بأبعادها السياسية والاقتصادية والتكنولوجية، وثانيهما أحداث ١١ سبتمبر وما أعقبها من إجراءات ألقت مزيداً من الأضواء على دور المؤسسات الأهلية فى المجتمعات العربية، وتناقش المؤلفة على مدى أربعة فصول مرجعية مؤسسات المجتمع المدنى والإطار العالمى والإقليمى الذى تعمل من خلاله، ثم تشرح خريطة المجتمع المدنى فى مصر قبل الألفية الثالثة، ثم خريطة المجتمع المدنى فى مصر بعد ٥ سنوات من الألفية الجديدة، ثم تناقش عدداً من الإشكاليات المحيطة بموضوع المجتمع المدنى من نوع الاستقواء بالخارج والتمويل وتعاملات الدولة مع مؤسسات المجتمع المدنى.

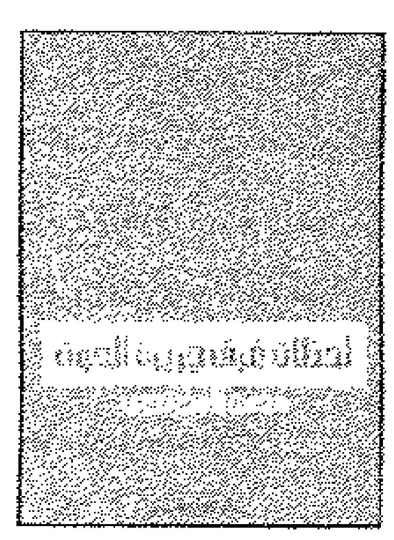
وتلاحظ المؤلفة فيما يتصل بالنقطة الأخيرة تحديداً أن الملمح الرئيسى الذى اتسمت به العلاقة بين الدولة والمجتمع المدنى عبر هذه الرحلة الطويلة هو هشاشة وضعف الثقة بين الطرفين وهو ما انعكس على التشريعات التى تنظم أوضاع المجتمع المدنى خاصة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، وهو ما انعكس على التعامل الأمنى مع بعض هذه المنظمات، بالإضافة إلى أن المجتمع المدنى منذ ولادته فى أواخر القرن التاسع عشر على وجه الخصوص، تبنى مطالب تندرج بشكل أو بآخر تحت عنوان الإصلاح، وتشير المؤلفة إلى أن المجتمع المدنى فى مصر تأثر بشكل كبير بطبيعة الدولة المصرية المركزية التى تطرح وبقوة السلطة الأبوية وتركزها فى مواقع صنع القرار السياسى، ثم فى أجهزتها البيروقراطية التى لعبت هى الأخرى دوراً فى صياغة المجتمع المدنى، كما تلاحظ الباحثة وجود دور قوى للعامل الخارجى بأشكال مختلفة، وقد ساهم هذا الدور فى تطور المجتمع المدنى على عدة مستويات، وقد شهد العقدان الأخيران درجة عالية من التفاعل بين العوامل الداخلية والخارجية فى إطار عملية التحول الديمقراطى واحترام حقوق الإنسان.

وبين الملاحظات المهمة التى ترصدها المؤلفة فى نهاية دراستها هى النزوع إلى العمل السياسى بين هذه المنظمات، وما صاحبه من توظيف الدولة لبعض مؤسسات المجتمع المدنى فى اتجاه المساندة السياسية للنظام، وتشير كذلك إلى أن تطور المجتمع المدنى فى مصر صحبه تواجد مكثف للجمعيات الدينية الإسلامية والقبطية، والتى تصل نسبتها إلى ٣٢٪ من إجمالى الجمعيات الأهلية.

لحظات غرق جزيرة الحوت

محمد المخزنجى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ١٣٠ صفحة



نصان يمكن اعتبارهما نوعاً من التحقيق الأدبى، وقائعهما عاشها المؤلف بنفسه. النص الأول عن «فصول تشيرنوبيل الأربعة»، وهو ولد مع الانهيار المدوى لمفاعل تشيرنوبيل الشهير فى ١٩٨٦، وثانيهما «طوابير موسكو ٩٠» وولد مع وداعه لموسكو فى نفس العام ١٩٩٠.

والنصان كما يقول المؤلف فيهما من جسد التحقيق نواة الواقعية، ومن أثير القص ذلك الشجن، فيهما أيضاً تلك الحسرة.. «والتى هى أقرب ما تكون لمشاعر من يتابع بكيانه المغدور كله جزيرة حلمه الكبير وهى تغوص سريعاً، غارقة فى أعماق سوداء لمحيط لا متناه».

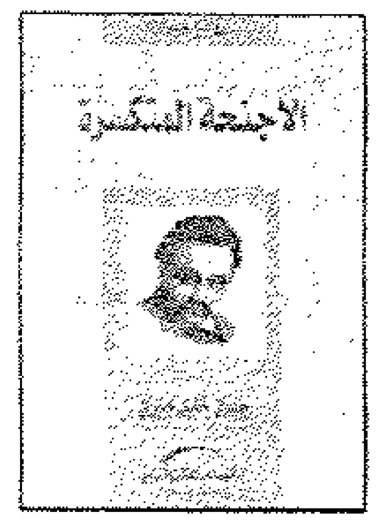
والجزيرة هى الاتحاد السوفيتى الذى آثره المؤلف على السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية حين جاءه العرضان فى نهاية عام ١٩٨٥، الأول لدراسة الطب بموسكو، والثانى لدراسة الأدب بأمريكا، ولم يتردد المؤلف فى حسم اختياره لصالح الاتحاد السوفيتى الذى رأى فيه دوماً المثل والنموذج الحلم بعدالة اجتماعية والتكافل العام، برغم أنه - المؤلف - لم يكن شيوعياً أبداً بالمعنى الاصطلاحى للكلمة، بل كان مثل كثيرين غيره من الثوريين الرومانسيين، ويحلم بدولة العدالة والحرية، والتى تجسدت أمام ناظريه فى روسيا، تلك التى عاش عليها ومات فيها الكتاب الذين سحروا بأعمالهم عمر الصبا: تور جنيف ودوستويفسكى وتشيكوف وتولستوى وجوركى، يقول المؤلف: وصلت، أكاد أكون محلقاً من فرط الغبطة إلى موسكو فى مطلع عام ١٩٨٦، وبعد أيام السحر الأولى، فى أول بلد كبير أراه، وأول ثلج فى الشوارع، وأول وعد من الصبايا البيض ملونات العيون، بدأت أنفجر وحدى فى نوبات بكاء ليلية مريرة.

ويقول فى موضع آخر: «كنت قد لمست أطناناً من الكذب الأممى، وعانيت أشكالاً شتى من دناءات الرشوة والفساد، واقتربت كثيراً من حدود انكسارات القلوب»، وهكذا انهار الحلم.. وهكذا غرقت جزيرة الحوت.

الأجنحة المتكسرة

جبران خليل جبران

القاهرة: دار البستانى، ٢٠٠٦



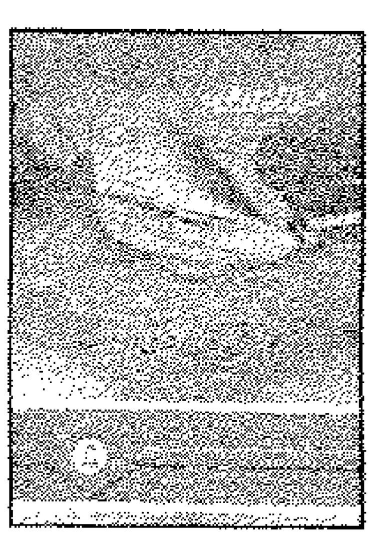
هذا الكتاب واحد من الكتب الشهيرة لمؤلفه الأشهر، وهو يروى قصة حبه الأولى مع سلمى كرامة حين كان وعيه يتفتح وعواطفه الشابة تتوثب لملاقاة مشاعر جديدة لم تألفها، والغريب أنه يهدى قصة حبه الأولى تلك إلى صديقته الأمريكية والمؤتمنة على أسراره مارى هاسكل.

وقد كانت تلك الحبيبة امرأة متزوجة، إلا أنها أحبت جبران وسعت دوماً إلى لقائه بعيداً عن أعين الناس، متجاوزة كل الأعراف والتقاليد التى تحكم حياة الناس فى الشرق وتضع ضوابط وسياجات للعلاقات من هذا النوع، والمعروف أن جبران عاش حياة حرة بلا قيود من أى نوع، بل دعا فى كتاباته إلى التحرر من كافة القيود، خصوصاً فى علاقات الحب والعلاقات الإنسانية عموماً، وفى قصته تلك يخاطب المتمسكين بالتقاليد والقيم بقوله: إن السجين المظلوم الذى يستطيع أن يهدم جدران سجنه ولا يفعل يكون جباناً، وسلمى كرامة كانت سجينة مظلومة ولم تستطع الانعتاق، فهل تلام لأنها كانت تنظر من وراء نافذة السجن إلى الحقول الخضراء والفضاء الوسيع، هل يحسبها الناس خائنة لأنها كانت تجئ من منزل منصور بك غالب لتجلس بجانبى بين عشتروت المقدسة والجبار المصلوب؟ ليقل الناس ما شاءوا، فسلمى قد اجتازت المستنقعات التى تهز أرواح الذئاب، وبلغت ذلك العالم الذى لا يبلغه عوى الذئاب وفحيح الأفاعى، وليقل الناس عنى ما أرادوا، فالنفس التى شاهدت وجه الموت لا تذعرها وجوه اللصوص، والجندى الذى رأى السيوف محتبكة فوق رأسه وسواقى الدماء تجرى تحت قدميه لا يحفل بالحجارة التى يرشقه بها صبيان الأزقة.

أوراق نقدية فى الأدب

عبدالرحمن أبو عوف

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦، ٤٣٢ صفحة



يضم الكتاب ما يقرب من ٦٠ دراسة نقدية لأعمال روائيين وكتاب قصة ومسرحيين من أجيال مختلفة، فضلاً عن قسم خاص للمعارك الفكرية الأساسية التى جرت فى الواقع الثقافى المصرى منذ المعركة بين العقاد وشوقى وحتى معارك صلاح عبدالصبور.

فى الرواية يبدأ الناقد بإشكالية أسلوب وبناء الرواية عند طه حسين، وهو يرى أن مجايلى طه حسين مثل هيكل والمازنى والحكيم وتيمور ويحيى حقى يتميزون عنه بدرجة كبيرة، أو على حد قوله: هناك فرق شائع بينهم وبينه فى التعبير البنائى والتشكيلى وآليات السرد وبناء النماذج والتعبير بالصورة والمجاز وإدراك وحدة الموضوع.. إلخ.

وحتى حين نقارن بين رواية طه حسين ورواية الجيل التالى مثل نجيب محفوظ، فإن الميزان يميل لحساب محفوظ، ويلخص المؤلف رأيه فى أن الرواية عند طه حسين تفتقد الوحدة الفنية والنسق البنائى للموضوع، ويتبدى الأسلوب الخبرى اليقينى متعارضاً مع

شاعرية السرد، فهو - أي طه حسين - يفي بالإنشاء البلاغي الجزل وينحو نحو الخطابة وعلو النبرة في الحديث. وهو عكس ما يلاحظه في تحليله لأعمال نجيب محفوظ مثلاً التي رأى أنها تلتحم بسياق وتحولات التاريخ المصري المعاصر، وأنها تعبر عن وعي حقيقي بمسار وتناقضات الثورة الوطنية الديمقراطية منذ اندلاع ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول وحتى تدخل العسكر وثورة يوليو ١٩٥٢، وذلك عبر قراءة عديد من أعماله منها ما فاض في أعماق النفس الإنسانية وتابع مسيرة البشرية مثل أولاد حارتنا والحرافيش، ومنها ما تابع التطورات السياسية والاجتماعية في حقبة الديمقراطية الليبرالية مثل بين القصرين وقصر الشوق والسكرية ومنه ما تنبأ بهزيمة ١٩٦٧، وانتقد التنظيم السياسي الوحيد (الاتحاد الاشتراكي) مثل ميرامار، ومنها ما عبر عن قلق وصخب ومجد وهزيمة الثورة مثل «السمان والخريف» و«ثرثرة فوق النيل» و«الطريق» و«الشحاذ» و«حب تحت المطر»، وهكذا.

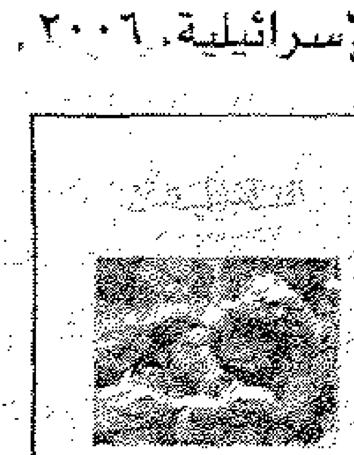
ويلاحظ المؤلف في تحليله لأعمال يوسف إدريس أن شخصيته القلقة البركانية الحافلة بالتناقضات والشهوة والحلم والصدامية كانت سبباً وراء إبداعه القصصي والمسرحي المتنوع، وأن هذه الشخصية التي عرفها أبو عوف عن قرب، تميزت أيضاً بقدر من الشفافية والصفاء والإدراك العميق لماهية ما يجري حوله، كما تميز إدريس بقدرة خارقة على استشعار الخطر المحدق بالبلد، وكذلك على استشعار المستقبل والتنبؤ بما سيقع من أحداث في حياة وطنه وحياته الخاصة، ويشير بالذات إلى مجموعته بيت من لحم.

على هذا النحو يتابع المؤلف أعمال يحيى حقي وعبدالحكيم قاسم وصنع الله إبراهيم ومحمد البساطي ويوسف أبو رية والرواية النوبية، وكذلك أعمال جبرا إبراهيم جبرا، وغالب هلسا، ويحيى الطاهر عبدالله، وإحسان عبدالقدوس، ولطفي الخولي، فضلاً عن الشعراء حسن طلب، وفاروق جويدة ومحمد صالح.

الفشل الإسرائيلي في لبنان

إعداد وتقديم: أنطوان شلحت

رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، ٢٠٠٦، ١٢٤ صفحة



برهنت الحرب الإسرائيلية الأخيرة في لبنان على إمكانية هزيمة الجيش الإسرائيلي، وهذه الهزيمة لا يمكن قياسها بحسابات العدة والعتاد، وحجم القطع العسكرية التي تم تحطيمها، والقتلى من الجنود على الجانبين، فصمود مقاتلي حزب الله، وعدم قدرة الجيش الإسرائيلي على تحقيق أهدافه، وتراجع هذه الأهداف إلى الحدود الدنيا مع توالي أيام الحرب، يؤكد الفشل الإسرائيلي في لبنان وينفي من ناحية ثانية فكرة الجيش الذي لا يقهر التي رسخها الإعلام الصهيوني على مدى عقود.

المعلقون والخبراء العسكريون الإسرائيليون أجمعوا - كما يبين الكتاب - على إخفاق الجيش الإسرائيلي في الحرب، وكذلك على أن هذه الحرب كانت حافلة بالمفاجآت غير المتوقعة، وهي مفاجآت لم تشر فحسب إلى قوة الجانب الآخر وجاهزيته لخوض حرب من هذا النوع في مواجهة جيش قوي حديث منظم، وإنما أيضاً أثارت شكوكاً حول قوة الجيش الإسرائيلي وأدائه، وكذلك الحال بالنسبة لاستخباراته.

يتضمن الكتاب آراء نحو تسعة عشر خبيراً إسرائيلياً من اتجاهات مختلفة، يقول أحدهم مثلاً في مجلة «تخيلت» أن ثمة حاجة لاتخاذ خطوات وإجراءات فورية للحد من التبذير الصارخ في المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، ويطالب وزير الدفاع بإصلاحات في جهاز الاحتياط.. و«إحياء الروح الصهيونية التي تشكل حافزاً للدفاع عن الدولة».

ويشير موشيه يعالون رئيس الأركان السابق في عدد آخر من المجلة إلى أن إسرائيل رغم توطيدها لمكانتها كقوة إقليمية في المنطقة، فإن حقها في الوجود كدولة يهودية مستقلة، مازال موضع خلاف وجدل.

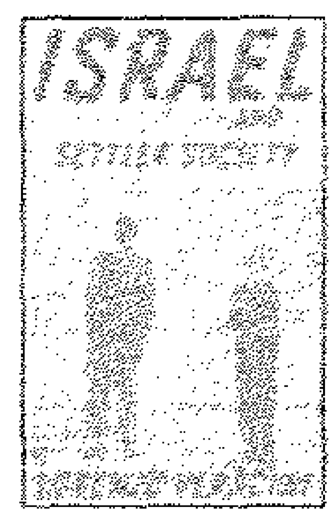
وتحت عنوان الضربة القاضية التي تلقيناها، يقول رؤوبين بدهستور وهو خبير استراتيجي جامعي إن حرب يوم الغفران (٦ أكتوبر) لا تزال محفورة في الذاكرة الجمعية الإسرائيلية باعتبارها حدثاً انعطافياً تصدعت في أعقابه ثقة الجمهور الإسرائيلي بالجيش، ومن السابق لأوانه القول بأن حرب لبنان ستذكر كخط انكسار يصحو الجمهور في أعقابه من وهم القوة العسكرية الإسرائيلية غير المحدودة.

ويقول المعلق السياسي عوزي بنزيمان إن الحرب أثبتت حدود القوة العسكرية لإسرائيل وقوة الاستفزاز الكامنة في تأييد مطالب الفلسطينيين والسوريين حيال إسرائيل.

ويؤكد «زئيف شيف» المعلق العسكري لصحيفة «هآرتس» أن الصواريخ كانت هي المفاجأة التي أعدها حزب الله لإسرائيل، تماماً كما كانت الصواريخ هي مفاجأة حرب يوم الغفران.

ويتساءل «يوفال شطانيتيس» عضو الكنيست من الليكود: هل الحديث هو عن فشل موضعي ناجم عن قيادة سياسية

إسرائيل والمجتمع الاستيطاني



صدر في فبراير/شباط الماضي عن دار نشر بلوتو بريس كتاب بعنوان «إسرائيل والمجتمع الاستيطاني» للدكتور لورينزو فيراتشيني، وهو أكاديمي أسترالي، وباحث في مرحلة ما بعد الدكتوراة بجامعة كانبرا الوطنية. ويبدو من الاطلاع على بعض أعماله أن اهتماماته لا تقتصر على الاستيطان الصهيوني، بل تتعداه لتشمل مختلف تجارب الاستيطان الأوروبي في وطنه أستراليا، وغيرها من الأصقاع التي شهدت مشروعات استيطانية تراوحت بين الإخفاق والنجاح.

تنطلق رؤية لورينزو فيراتشيني لطبيعة وبنية ومسار المشروع الاستيطاني الصهيوني من فكرة أساسية مؤداها أن الصراع بين إسرائيل والفلسطينيين ليس فريدا أو متميزا بذاته، مهما كانت الانطباعات والتضمينات التي تجترحها وسائط الإعلام ومصادر الأخبار في الغرب. يجادل فيراتشيني بأن أفضل طريقة لفهم هذا الصراع هي في إطار وسياق الاستعمار (الكولونيالية).

وشأن كثير من المجتمعات الأوروبية خارج أوروبا، تظل إسرائيل مجتمعا استيطانيا بامتياز. ولدى النظر برؤية تفصيلية متفحصة إلى نشوء وتطور المنظومات والمشروعات الاستيطانية الأخرى -كنظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، والاستيطان الفرنسي بالجزائر قبل الاستقلال، والاستيطان الأسترالي الراهن- يقدم فيراتشيني تفسيرا معمقا لمختلف حركيات وآليات (ديناميات) الاستيطان الاستعماري، مما يتيح إطارا تفسيريا واضحا يمكن من خلاله فهم وتفسير أزمة الصراع في الشرق الأوسط.

يتحدى فيراتشيني أسطورتين هامتين من الأساطير المؤسسة للكيان الصهيوني، ويرتكز عليها المشروع الاستيطاني. أولاهما: إن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني هو حالة فريدة في العلاقات الدولية، تستعصي على المقاربات والمقارنات التي تفسر مختلف أشكال وحالات الصراع. ثانيتهما: أن مرتكزات الصراع الأساسية هي القومية والدين، وبالتالي فهو صراع مختلف عن صراعات وحروب (التحرر الوطني) التقليدية الناجمة عن الاستعمار.

لكن على العكس من ذلك، يبين فيراتشيني كيف أن المجتمع الإسرائيلي قد تم تنظيمه بشكل متواز مع الخطوط العامة لنظام الفصل العنصري.

ويعتبر فيراتشيني أن معظم الأفكار أو التصورات التي يقترحها الاستيطان الصهيوني فيما يتعلق بمستقبل الفلسطينيين -من حكم ذاتي أو شبه دولة منزوعة السيادة ومفتقرة إلى التماسك الجغرافي والقدرة على الحياة- ترمي إلى عزل التجمعات السكانية الفلسطينية في إطار ما كان يعرف في جنوب أفريقيا ب البانتوستان»، وهي جزر منعزلة من السكان الأفارقة، تكرس فكرة الفصل العنصري.

وفي سياق نزوع الأيديولوجية الاستيطانية نحو إنكار التاريخ الدموي الحقيقي للاستيطان وعدم الاعتراف بكوارث -تصل حد الإبادة- والتي أوقعها بالشعوب الأصلية، والإصرار على الاحتفاظ بالرواية الاستيطانية التقليدية، يقارن فيراتشيني بين إسرائيل وأستراليا. فكلتا الدولتين قد شهدت رفضا عاما ملحوظا إزاء القبول ببعض النتائج التي تقدمها دراسات المؤرخين الجدد (التصحيحيين) في إسرائيل وأستراليا، خصوصا إذا تعلقت بتقييم العنف التأسيسي للمشروع الاستيطاني. ونادرا ما يتم استبدال أي جزء من الرواية الرسمية لتاريخ الكيان الاستيطاني بدون معركة.

ويعتبر فيراتشيني أن مستوى العنف الذي مارسه الإسرائيليون ضد الفلسطينيين مؤشر على اتساع مدى خطة الاستيطان الصهيوني باتجاه طرد العرب من بلادهم، بل ويعتبر مجزرة دير ياسين -وغيرها من المجازر- دليلا على وجود مخطط كبير للمشروع الاستيطاني باتجاه اقتلاع العرب من فلسطين. ويرى المؤلف في مصير مشروع الاستيطان الفرنسي الذي تفكك وانهار في النهاية، واضطرار المستوطنين الفرنسيين إلى الخروج من الجزائر والعودة إلى فرنسا، يرى فيه نذيرا ومصيرا محتملا لمستقبل المشروع الاستيطان الصهيوني.

د. مازن النجار

دار بلوتو بريس، فبراير ٢٠٠٦، ١٦٠ صفحة

عديمة التجربة، أم أن الأمر يكمن فى عجرفة وكبرياء قيادة الجيش الإسرائيلى التى صمت الآذان عن النقد لاعتمادها المبالغ فيه على عجائب القوة الجوية.

انتقادات كثيرة عسكرية وسياسية يوجهها الخبراء لأداء الجيش الإسرائيلى فى هذه الحرب، كما يشير الكتاب.

■

تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية

قاسم عبده قاسم

القاهرة: عين للدراسات والبحوث، ٢٠٠٦، ٣٢١ صفحة



لاتزال الحركة الصليبية تستأثر بجهود الباحثين والمؤرخين فى الغرب الأوروبى وفى الشرق العربى الإسلامى على السواء، وهذا الكتاب نموذج للعمل الجماعى البحثى فى هذا المجال، ففريق العمل الذى يقوده المؤرخ جوناثان رالى سميث أحد أبرز المتخصصين المعاصرين فى الحركة الصليبية، يقدم خمس عشرة دراسة عن جوانب عديدة تتم دراستها لأول مرة فى تاريخ الحركة الصليبية فى عمل مشترك يحمل اسم أوكسفورد، حيث يتم تناول المسألة برؤية جديدة وفى جوانب مختلفة، التاريخ والفن التشكيلى والعمارة والموسيقى والآثار والشعر والرهبنة والأحوال الاجتماعية والمعارك العسكرية.

ويبرز سميث فى تقديمه للكتاب هذا التنوع فى دراسة الحملات الصليبية، بأنه كان من الصعب تصنيف السلوك فى الحرب بالمصطلحات القديمة القاطعة عن البطولة أو الجسارة، كما أن النظريات التى تبرز مفهوم الحرب العادلة حظيت باهتمام أكبر، كذلك فإن محاكمات نورمبرج التى جرت على افتراض أن الجرائم يمكن أن ترتكب ضد الإنسانية، قد أعادت إحياء الاهتمام بالقانون الطبيعى.

وبينما يحتمل أن تكون التطورات الفكرية قد هيأت الناس للنظر إلى الحروب الصليبية بقدر أكبر من الوجدانية، فإن معظم التفسيرات لتورط مثل هذا العدد الكبير من الناس فى الحركة الصليبية كانت لاتزال تدور حول أنها كانت تفتقر إلى العقلانية أو أنها كانت ترنو إلى المكسب المادى.

ويضيف فى موضع آخر: كان المؤرخون غافلين عن الحقائق والبراهين بسبب نفورهم من العنف الأيديولوجى وعدم قدرتهم على فهم أنها كان يمكن أن تكون فعلاً دعوة مقنعة، إذ إنهم قد نسوا كيف كانت النظرية المسيحية عن العنف الإيجابى محترمة فكرياً.

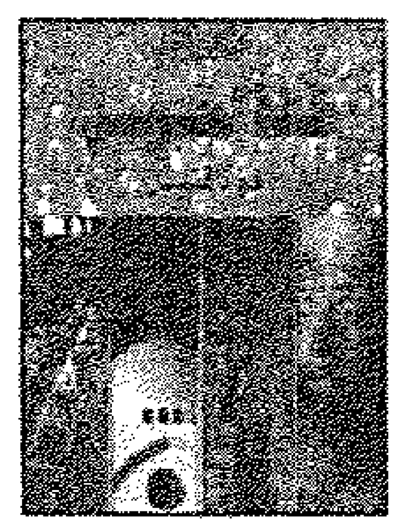
ويشير المحرر إلى هذا الاهتمام بدوافع الفقراء فى الحرب الصليبية، وهم الذين شكلوا عنصراً مهماً فى الحملات الصليبية الباكرة، كما تجمعوا سوياً بين الحين والآخر فى هبات شعبية فى القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر، لكن هذا الاهتمام بالصليبيين الفقراء والذى كان تعبيراً عن حماسة حركات الجماهير التى كانت شائعة فى خمسينيات وستينيات القرن العشرين، بدأ يتبخر عندما بات واضحاً أن ما يمكن معرفته عنهم قليل للغاية، وبدأت معظم الدراسات تتجه إلى كتابات المفكرين، رجال القانون الكنسى وعلماء اللاهوت، مفاهيم النبلاء والفرسان، مناقشات البابوات والمبشرين.

■

ثقافة المصريين

فؤاد قنديل

القاهرة: مؤسسة أخبار اليوم، ٢٠٠٦، ١٣٦ صفحة



مم تتشكل ثقافة المصريين؟ وهل للمصريين جميعاً ثقافة واحدة أو ملامح ثقافية مشتركة تشابكت عبر القرون؟ سؤالان كبيران يجيب عنهما المؤلف عبر مقالات تراقب حركة الناس وترصد المصادر الرئيسية التى تشكل وعيهم فى سعيهم اليومى بادئاً بتعريف معنى الثقافة التى يحصى لها أكثر من ثلاثمائة تعريف، مشيراً إلى تعريف تايلور الذى يجمع بين المعرفة والمعتقد والفن والأخلاق والقانون والعادات، وأي قدرات أو مهارات يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً فى المجتمع معتبراً أن هذا التعريف هو الأشهر، وإن أشار إلى الإجماع على تعريف الثقافة بأنها مجموعة المعارف والقيم التى تتجلى فى سلوك جماعة من الناس: أى أنه هنا يربط بين الأفكار وقدرتها على التغلغل فى حياة الناس والتأثير فى سلوكياتهم وتعاملاتهم، وهو ما يعرف بثقافة الجماعة دون تجاهل لخصوصيات الأفراد وتمايزاتهم عبر ما يحصلونه من ثقافة بشكل شخصى.

يتقافز المؤلف بعد ذلك راصداً سلوكيات المصريين وفهمهم لمعنى حقوق الإنسان والديمقراطية والتدين ومعنى النهضة وحقوق المرأة واحترامهم أو عدم تقديرهم لمعنى الاختلاف، ويشير كذلك إلى تأثير العشوائيات على سلوك الأفراد ومنظومة القيم لدى الشعب المصرى فى عمومه، ويؤكد على أن الوجه الحقيقى لثقافة الاستبداد ليس فقط فى صورة الحاكم الديكتاتور وإنما يتجلى فى مجالات العمل والتعامل بمختلف مناحى الحياة العربية ،حيث تحتشد بذور الاستبداد وشرانقه لتتربى وتتجذر.

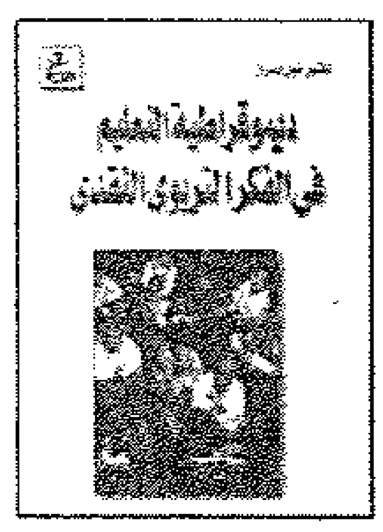
ويناقش فى الفصل الثانى من الكتاب عدداً من المفاهيم حول منتج الثقافة ودور الأدب والفن فى تشكيل الثقافة الجمعية وحدود حرية الأديب والمفكر وميثاق شرف المثقفين وغيرها من الموضوعات المهمة التى تؤكد أن النهضة لا تتحقق فحسب بتنمية الموارد وزيادة المداخيل، وإنما ببناء الإنسان وتنمية وعيه الثقافى والاهتمام بالأجهزة والمؤسسات التى تسهم فى تقديم المنتج الثقافى.

■

ديمقراطية التعليم فى الفكر التربوى النقدى

شبل بدران

القاهرة: عين للدراسات الاجتماعية والبحوث، ٢٠٠٦، ٢٠٨ صفحات



يتضمن الكتاب عدداً من الدراسات والأطروحات النظرية للاتجاه النقدى فى الفكر التربوى فى أوروبا وأمريكا، ويشير المؤلف وهو عميد لكلية التربية بجامعة الإسكندرية ورئيس اتحاد كتاب الإسكندرية، إلى أن هذه الحركة التجديدية فى الفكر التربوى المعاصر، كانت محل انشغال العالم المتقدم بها منذ السبعينيات وحتى الآن، إلا أن حركة الفكر التربوى المصرى والعربى، مازالت تدور حول مجمل أفكار جون ديوى، وما طرحه من خلال فلسفته التربوية الشائعة فى واقعنا المعاصر، وظلت حركة الفكر التربوى النقدى بعيدة عن متناول الباحثين والدارسين والمشتغلين بالعمل التربوى، وهو ما يسعى المؤلف إلى الاشتباك معه فى هذا الكتاب وعبر دراساته كلها.

يتضمن الكتاب سبعة فصول، يتناول الأول الأبعاد الاجتماعية والتربوية للمنهج النقدى، والثانى: ديمقراطية التعليم فى الفكر النقدى حيث يطرح المؤلف فيه النظريات التى عالجت مفهوم الديمقراطية التعليمية من زوايا عديدة، وفى الفصل الثالث: يدرس التعليم المدرسى فى المجتمع الرأسمالى محاولاً الإجابة عن سؤال رئيسى هو: هل تستطيع المدارس أن تحقق المساواة، ويتناول الفصل الرابع: الإصلاح التعليمى والتغير الاجتماعى فى المجتمعات الرأسمالية، ويعرض الخامس للتعليم غير العادل والتقسيم الاجتماعى للعمل، أما السادس فيدور حول اتجاهات معاصرة فى الاقتصاد السياسى للتربية، ويركز السابع على ديمقراطية التعليم وتكافؤ الفرص فى المجتمع المصرى بوصفه مجتمعاً رأسمالياً فى التوجه والممارسة.

■

جرح بلا جداول

معروف الخضر

طرطوس (سوريا): دار قرطاج، ٢٠٠٦، ٨٣ صفحة



نصوص حرة كما يسميها المؤلف نفسه على غلاف الكتاب، كى يحصنها ضد التصنيفات الأدبية المتعارف عليها، فهى ليست قصائد تتعامل على هذا النحو، وإن كانت هى أكثر شعرية من كثيرين مما يكتب هذه الأيام بوصفه شعراً.

من أجواء الكتاب:

ورود ذابلة/ فى أصيص من البلور/ فيما مضى/ أصحابها/ كانوا عبيراً/ وشهدهم الندى/ واليوم باتوا رحيلاً/ أدخل كل يوم/ إلى بيتى/ أرى ذاك الصبوح/ واليوم/ فتحت باب بيتنا/ فلم أره/ من يومها/ صرت بلا روح.

والنصوص هى الرابعة للشاعر بعد دمع الصعاليك (٢٠٠١) ومباسم ولقاء (٢٠٠٣) وعلى ضفاف الأصيل (٢٠٠٤).

■

جهاز التعليم فى إسرائيل

خالد أبو عصبة

رام الله: المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية، ٢٠٠٦، ٢٩٨ صفحة



جهاز التعليم فى إسرائيل هو المسئول عن تفريغ هذه المقولة الكارهة لكل ما هو عربى ومسلم، هو الذى يشحن عقول التلاميذ بأسباب الغضب والعنصرية والرفض، ويشحذهم للقتل والتدمير بلا رحمة، والمفارقة أن أجهزة التعليم عندنا تحت دعوى التطوير ونشر فكر التسامح والتعايش وقبول الآخر، تنزع كل ما يشرح حقيقة اليهود والصهيونية حتى لو كان نصاً دينياً أو وقائع تاريخية.

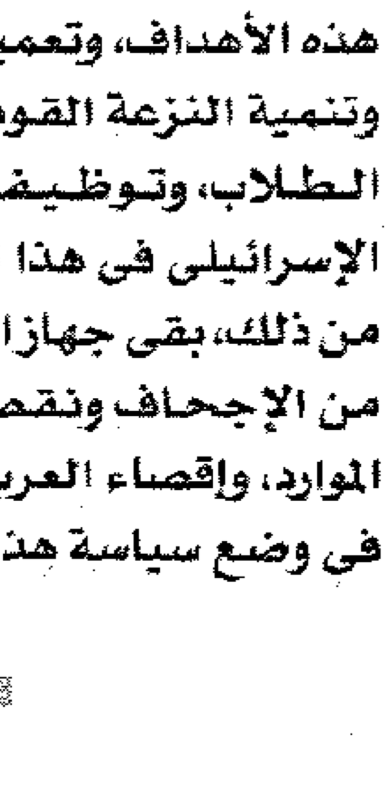
فى ستة فصول يتحدث المؤلف عن هذا الجهاز: جهاز التعليم العبرى قبل قيام دولة إسرائيل، السياسة التربوية، مناهج التعليم ورؤية الآخرين، جهاز التعليم العربى فى إسرائيل، التعليم العالى، فجوات تعليمية فى جهاز التربية والتعليم الإسرائيلى.

ولأهمية هذا الجهاز فى إسرائيل فإنه يحظى باعتمادات مالية هائلة تتزايد بشكل سنوى، كما أن النقاشات الجادة لا تتوقف حول تطوير هذا الجهاز وتحسين أدائه، ويلاحظ المؤلف أنه إلى جانب تطوير شبكة التعليم التقليدية تطورت شبكة من المدارس البديلة التى تقدم خدمات تعليمية مناسبة للمدارس القائمة، وأن إحياء اللغة العبرية إحدى المهام الجسيمة التى تضطلع بها تلك المدارس، كما يؤكد على النمط الأيديولوجى المهنى للتعليم والذى رعته الحركة الصهيونية منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى، وأن الدعم البريطانى للتعليم اليهودى لم يتوقف، وأن الأهداف القومية بما فيها تلقين الأيديولوجية الصهيونية ونشر اللغة العبرية بقيت تتصدر سلم الأولويات التربوية على امتداد فترة الاستيطان وصولاً إلى قيام الدولة، فقد كان الجهاز التربوى أداة تستعملها الحركة الصهيونية لإنتاج المعنويات القومية وتعميمها فى سبيل بلورة «الإنسان الجديد»، كما أطلقوا عليه فى الدولة العبرية، إلى جانب التشديد على أهمية الجماعة والارتقاء بأهدافها إلى ما فوق الأهداف والمصالح الفردية، واستعداد الأشخاص للتضحية فى سبيل هذه الأهداف، وتعميق الفكر الصهيونى وتنمية النزعة القومية اليمينية لدى الطلاب، وتوظيف الصراع العربى الإسرائيلى فى هذا المجال، وعلى العكس من ذلك، بقى جهاز التعليم العربى يعانى من الإجحاف ونقص التمويل وضعف الموارد، وإقصاء العرب تماماً عن المشاركة فى وضع سياسة هذا الجهاز.

حزب البعث العربى الاشتراكى يحكم سوريا

سمير عبده

دمشق: منشورات دار حسن ملص، ٢٠٠٦، ١٥٢ صفحة



حكم حزب البعث الاشتراكى سوريا لمدة تتجاوز ضعف عمر سوريا الحديثة منذ نالت استقلالها عن فرنسا، ويتناول هذا الكتاب أحداثاً سياسية عصفت بسوريا فى الفترة من ٨ مارس عام ١٩٦٣، وحتى ١٦ نوفمبر عام ١٩٧٠، وهى بدورها تنقسم إلى قسمين: المرحلة الأولى من مارس ١٩٦٣ وحتى ٢٣ فبراير ١٩٦٦ التى سميت بالمرحلة القومية أو اليمينية لحزب البعث، أما المرحلة الثانية التى تمتد من ٢٣ فبراير ١٩٦٦ وحتى ١٦ نوفمبر ١٩٧٠، فهى تعرف بالمرحلة القطرية أو اليسارية لحزب البعث.

وقد مثلت المرحلة الأولى فترة استلام حزب البعث العربى للسلطة فى سوريا، ومنها برزت التناقضات بين أعضائه إلى أن تم حسم الأمر بين اتجاه قومى وآخر يسارى، وتغلب الأخير على الأول وأطاح به ليتسلم السلطة بعد فبراير عام ١٩٦٦.

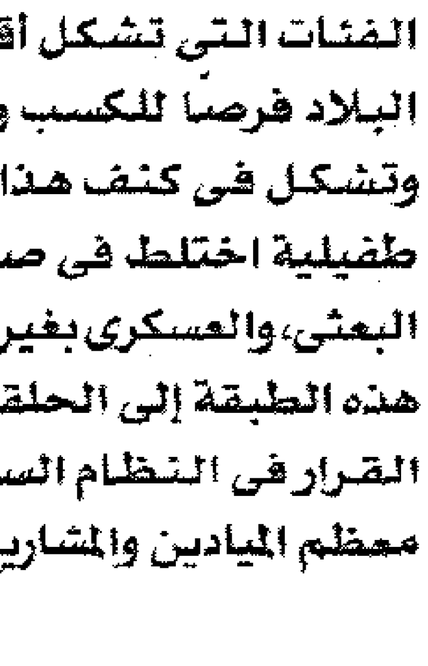
وفى المرحلة الثانية طغت الأطروحات والنظريات اليسارية من أقصاها إلى أدناها، وكانت محصلتها صراعاً بين جناحين قادهما حافظ الأسد وصلاح جديد، ولم يكن الخلاف بين الجناحين فى العمق بقدر ما كان خلافاً حول التكتيك والاستراتيجية. وحين انتهت هذه المرحلة وقامت حركة التصحيح فى ١٦ نوفمبر عام ١٩٧٠ بدأت مرحلة جديدة من حياة الحزب، لم يعد فيها أجنحة متصارعة داخل الحزب الواحد، ولم يعد هناك تيار يمينى أو يسارى، وتمكن الحزب من تجاوز الكثير من أخطاء الماضى.

ويشير المؤلف فى تحليله إلى أن حزب البعث جاء إلى السلطة فى سوريا على أساس نظام علمانى قائم على عصبيات ما دون طائفية، وقد سعى إلى إعطاء مختلف الفئات التى تشكل أقليات تاريخية فى البلاد فرصاً للكسب وتبوؤ مراكز مهمة، وتشكل فى كنف هذا الحزب برجوازية طفيلية اختلط فى صفوفها البعثى بغير البعثى، والعسكرى بغير العسكرى، وتحولت هذه الطبقة إلى الحلقة الأهم فى صناعة القرار فى النظام السورى متغلغلة فى معظم الميادين والمشاريع.

أحمدى نجاد رجل فى قلب العاصفة

عادل الجوجرى

دمشق: دار الكتاب العربى، ٢٠٠٦، ٣٣٥صفحة



يمثل أحمدى نجاد بمواقفه الراديكالية فى مواجهة الأمريكان والغرب حالة استثنائية، خصوصاً فى هذه الفترة التى يبحث فيها العرب والمسلمون عن صقر وسط الحمائم، وما يصدر عن الرجل من تصريحات: وما يطرحه من رؤى يضع بلاده فى مواجهة صارمة وحاسمة مع القوة الأكبر فى العالم، ولا أحد يعرف إلى أين تقوده المواجهة.

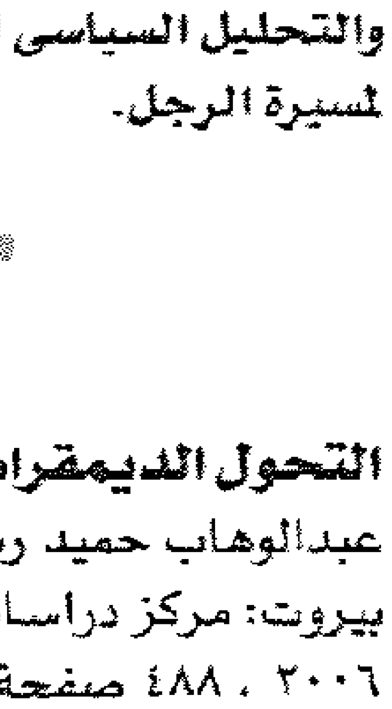
من هو الرئيس الإيرانى أحمدى نجاد: كيف استطاع أن يجمع بين أسطورة المحارب فى الحرس الثورى، ودرجة الدكتوراة فى الهندسة وأستاذية الجامعة، أى ريح وضعته على أعتاب السلطة ما بين الظل والضوء حين صار محافظاً للعاصمة طهران، كيف استطاع أن يحصل على ثقة ١٧ مليون ناخب إيرانى، وأن يطيح بالكبار فى لعبة الكراسى الديمقراطية؟ لماذا صاحبته العواصف الغربية والصهيونية والأمريكية وكأنها كانت تختبئ وراء الباب فى انتظار الرجل الذى يستدعيها بتصريحات ثورية عن مستقبل إسرائيل، وبإجراءات عملية لبناء القدرة النووية الإيرانية.

هذا الكتاب يحاول الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال الوثائق والشهادات والتحليل السياسى الموضوعى والمحايد لسيرة الرجل.

التحول الديمقراطى فى العراق

عبدالوهاب حميد رشيد

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ٤٨٨ صفحة

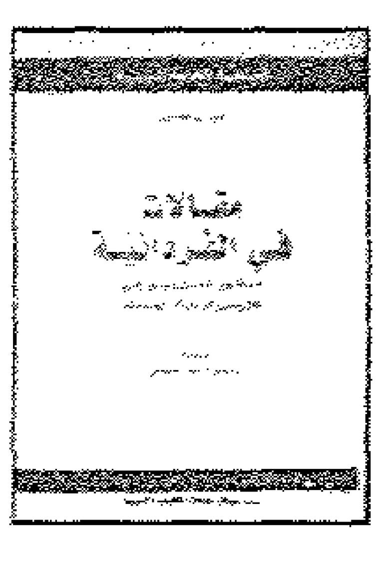


فى هذا البحث محاولة لتحليل إشكالية التحول الديمقراطى فى العراق. ولا تقتصر لفظة «إشكالية» هنا على المشكلات فحسب، بل تعنى أيضاً المتطلبات والمستلزمات والشروط اللازمة للتحول الديمقراطى. وإذا كانت هذه الإشكالية فى ظروفها الحالية تشكل خطراً وتهديداً لأية مسيرة دستورية فى البلاد، علاوة على كونها مرتبطة بحلول بعيدة الأمد تتطلب جهوداً مجتمعية واعية ومتواصلة، وتسير نمطياً مع مسيرة التحول المنشودة، فإن هذا البحث كذلك يفترض أن عملية البناء الدستورى والبدء بالتحول الديمقراطى يتطلبان بروز جبهة وطنية تاريخية فعالة تقود مهمة إنهاء الاحتلال وبناء الاستقلال وقادرة على تعبئة أكثرية الناس بمختلف أطيافهم ومجموعاتهم فى إطار قبولهم وتبنيهم برنامج حد أدنى، واقعياً يتسم بالوضوح الفكرى والمفاهيمى، مرناً ووافياً ومتناسباً مع قدرات ومتطلبات المجتمع، وفى سياق إعادة بناء إرادة الإنسان العراقى.

مقالات فى الفردانية

ترجمة: بدر الدين عرودكى

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٦، ٣٩٠ صفحة



من خصائص الأيديولوجية الحديثة أنها تخضع الكلية الاجتماعية للفرد، باعتباره كائناً «معنوياً» مستقلاً بذاته. هذه الأيديولوجية تميز بين المجتمعات الغربية والمجتمعات الأخرى التى تعطى قيمة للكلية الاجتماعية وتخضع الفرد لها.

لكن كيف ولماذا اختلف الغربيون عن الآخرين؟

فى هذا الكتاب تحليل عميق لتشكل الفردانية الغربية ولصيرورتها الدينية والسياسية، منذ بدايات العصر المسيحى إلى اليوم.

وهو، مع حرصه على التوعية بما للغرب من فرادة، لا يكتفى بالتفكير فى الاختلافات الأيديولوجية، وإنما ترسم مسارات ذكية نحو كونية ملموسة هى حصيلة مقارنة مستمرة بين الأشكال المختلفة للإنسانية.

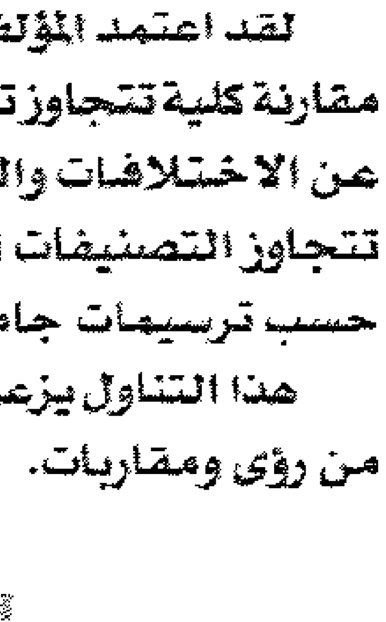
لقد اعتمد المؤلف فى تناول الفردانية مقارنة كلية تتجاوز تناول الكونى، مستقلاً عن الاختلافات والخصوصيات، كما تتجاوز التصنيفات المعهودة للمجتمعات حسب ترسيمات جامدة.

هذا التناول يزعزع كثيراً مما هو سائد من رؤى ومقاربات.

الأحزاب المصرية عبر مائة عام

يونان لبيب رزق

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦، ٢٦٠ صفحة



بهذا الكتاب يستكمل المؤلف جانباً من رحلة بحثه الحداثية التى بدأها عام ١٩٧٠ بصدور كتابه «الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى

١٨٨٢ - ١٩١٤»، ثم كتابه «الأحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢» الصادر عام ١٩٧٥، ثم «تاريخ الأحزاب المصرية» عام ١٩٩٧.

وهذا الكتاب الذي يرصد التجربة الحزبية المصرية منذ نشأتها في ١٩٠٧ وحتى اليوم يؤكد على خصوصية التجربة المصرية من حيث النشأة، التي انعكست بدورها على المفهوم.

فقد نشأت هذه الأحزاب لمواجهة التدخل الأجنبي في شئون البلاد، ثم الاحتلال الإنجليزي بدءاً من عام ١٨٨٢، وقد بدأت على شكل تيار يضم جماعة الوطنيين الذين عارضوا الاحتلال، فأطلقوا على أنفسهم الحزب الوطني، وهو عكس نشأة الأحزاب في أوروبا التي انبثقت أساساً من داخل النظام البرلماني ممثلة للقوى الاجتماعية وتعبيراً عن مصالحها.

كما أن الأحزاب التي نشأت في مصر قبل الحرب العالمية الأولى نشأت أساساً حول الصحف الكبيرة التي كانت تصدر في تلك الفترة وأهمها صحيفة المؤيد التي صدرت عام ١٨٨٩ وتبعتها جريدة اللواء عام ١٩٠٠، فيما كانت الصحف في أوروبا تصدر لتكون لسان حال الحزب لا أن يخرج الحزب من عباءة الصحيفة.

والسمة الثالثة هي أن الأحزاب في مصر نشأت بمعزل عن البرلمان فيما نشأت الأحزاب الأوروبية في أحضانه.

والكتاب يؤكد من ناحية ثانية فكرة التواصل، وهي ظاهرة ممتدة في أنساق الثقافة المصرية عموماً.

فالتجربة الحزبية الأولى ١٩٠٧-١٩١٤ تمتد ظلالها في التجربة الثانية ١٩١٩ - ١٩٥٣، ثم التجربة الثالثة منذ ١٩٧٦ بإعادة التعددية وحتى اليوم.

والمؤلف يعرض للتجارب الثلاث كاشفاً عن الظروف التي أحاطت بكل منها، مستنداً إلى وثائق وزارة الخارجية البريطانية وأوراق الأحزاب والمذكرات الشخصية للزعماء، وقائمة طويلة من الدوريات والرسائل الجامعية.

ويضيف المؤلف إلى ذلك دراسة تحت عنوان: «ثقوب في التجربة الحزبية الثالثة» يتناول فيها أصداء إعلان الرئيس مبارك في فبراير ٢٠٠٥ عن نيته لتعديل المادة ٧٦ من الدستور، وهي المادة الخاصة بطريقة تولي رئيس الجمهورية لمنصبه ليصبح بالانتخاب بدلاً من الاستفتاء، وهي المادة التي أثارت كثيرا من الجدل منذ صدورها ويطالب كثير من القوى السياسية بتعديلها.

مدخل رياضي إلى عروض الشعر العربي

د. أحمد مستجير

دار العين للنشر، ٢٠٠٥، ١٦٥ صفحة



في لفتة كريمة، أعادت دار العين للنشر العام الماضي إصدار كتاب مدخل رياضي إلى عروض الشعر العربي للعالم والشاعر والناقد الراحل الدكتور أحمد مستجير والذي كانت «وجهات نظر» قد نشرت مقدمته في العدد الماضي.

ومن شأن إعادة إصدار هذا الكتاب المهم تسليط الأضواء مجدداً عليه بعد سنوات من نفاد طبعته الأولى التي أصدرها المؤلف الراحل على نفقته الخاصة في النصف الثاني من ثمانينيات القرن الماضي.

ويقدم الكتاب رؤية مختلفة في موسيقى الشعر العربي، من شأنها أن تلغي الكثير من المشاكل في علم العروض؛ وأن تبسط أمره لكل من يود معرفته.

وأن تصف بعضاً جديداً من خصائص الأذن العربية، وأن تفتح طريقاً لنوع جديد من الدراسات الموسيقية في الشعر.

وهو يبين توحد الشاعر والرياضي في موسيقى الشعر العربي.

ويكشف ويؤكد أن ثمة نظاماً رياضياً يكمن خلف ما تحبه الأذن العربية من أوزان، نظام تخرج منه كل البحور المهملة والمصطنعة، ويتحكم رقم لتفعيلة العروض فيه في تركيب الأبحر التي تستسيغها آذاننا.

ويكشف لنا النقاب عن هذا النظام. وقد استطاع الكاتب تحويل فكرة الأدلة الرقمية لبحور الشعر - التي هي هذا الكتاب - إلى إنجاز فعلي فاستطاع أن يضع نظاماً بسيطاً للوصف الرياضي لبحور الشعر، وطور هذه الطريقة، التي نشأت عن علاقة مع الحاسب الآلي، فطوعت الشعر له، لكنها تجاوزت هذه العلاقة لتصبح ناتجاً ثانوياً بالنسبة إلى نتائجها الأخرى.

فقد أوضحت هذه الطريقة الكثير من أسرار بحور الخليل، وأصبحت تمثل صيغة «عصرية» لعلم العروض.

وقد تختلف قليلاً عما قال به الخليل، لكنها تؤكد بعد مضي أكثر من ألف عام عبقرية هذا العالم العربي.

المازني.. صورة من قريب

من «جمع وتحرير وتقديم» الأستاذ عبدالسلام حيدر - أصدر «المجلس الأعلى للثقافة» الأعمال غير المنشورة للأستاذ إبراهيم عبدالقادر المازني تحت عنوان «التأملات والذكريات». وذكر الجامع أنه سينشر هذه الأعمال على أساس موضوعي بحيث يقسمها إلى ثلاثة أقسام: قسم التأملات والذكريات، ويقع في المجلد الأول من الأعمال غير المنشورة، ويضم ما نشره المازني من مقالات تعرض فيها لذكر بعض أحداث حياته وتأملاته حولها، وحول الحياة بصفة عامة. وأما المجلد الثاني فيضم ما تيسر جمعه من «المقالات والدراسات النقدية». ويخصص المجلد الثالث لقسم «الأشكال السردية» - سواء كانت قصيرة مثل الصورة والأقصوصة والمقال القصصي أم طويلة مثل الرواية. أما رحلات المازني فسوف يخصها الجامع بمجلد خاص - بقيت المقالات الاجتماعية والسياسية، خاصة تلك التي نشرها في أخريات حياته، ويذكر الجامع أنه لم يرتح بعد إلى طريقة مناسبة لنشرها. وإنه لما نذكره أنه ترد ضمن هذه الطائفة الأخيرة من المقالات ما عرض فيه المازني للمسألة الفلسطينية عرضاً موسعاً لو أتيح نشره لما ترددنا أن نقرر أنه إنما يتحدث عن الواقع الذي نعيشه هذه الأيام!!

وإذا كان الأستاذ عبدالسلام حيدر، يذكر أن ما نشره في هذا المجلد، وما هو بصدد نشره في المجلدات الأخرى التي قد تكون ثلاثة، وقد تكون أربعة إذا ارتاح إلى طريقة مناسبة لنشر المقالات السياسية والاجتماعية، إلا أنه لم يوضح لنا ما إذا كانت هذه المجلدات الثلاثة أو الأربعة ستضم أيضاً أعماله التي سبق نشرها في كتب أم ستقتصر على «الأعمال غير المنشورة»، وإن كنا نتمنى أن تضم - في مجلدات أخرى - ما سبق نشره علاوة على ما لم يسبق نشره، فبذلك يصدق عليها وصف «الأعمال الكاملة»، وهو ما ندعو الله أن يوفقه إليه في ظل «اعتمادات مالية» كثيراً ما يتعذر تدبيرها!

وقد قدم الجامع للمجلد الأول ببحث شيق، قدم - أو رسم - فيه «صورة من قريب» للأديب إبراهيم عبدالقادر المازني، ووعد بتقديم كل قسم بمقدمة خاصة يشير فيها إلى بعض خصائص الأعمال المنشورة فيه.

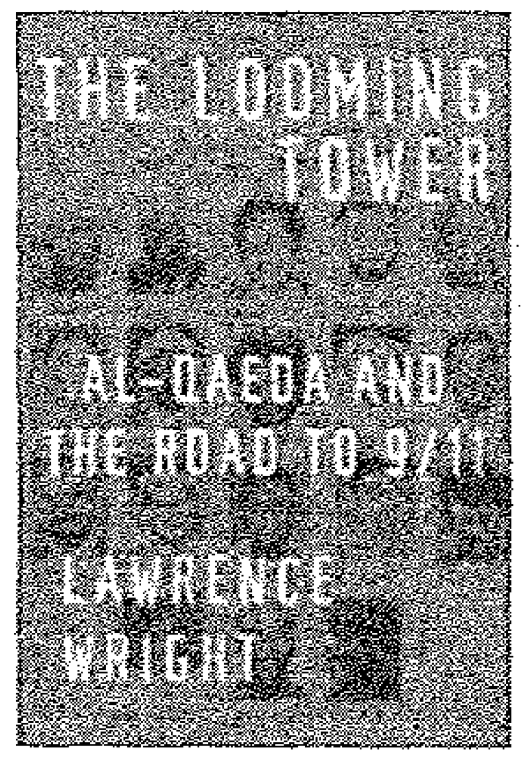
وهي صورة للمازني ضمت جميع الزوايا.. لم تقف عند «تاريخ حياته» بل حرصت على أن تصور - وترصد - خطواته في سبيل تكوين نفسه كإنسان يواجه حياة صعبة قاسية، فقد جفت الموارد، ونضب المعين، وكان عليه منذ صباه أن ينهض بأعباء جسام، فقد مات أبوه وهو صغير، ولم يترك له إلا النزر اليسير، وكان على أمه أن تمضي بهذا النزر لتصل بالقافلة إلى بر الأمان، ولذلك عاش المازني، وهو يذكر أمه بكل خير، بل ويشيد بذكرها، وبحكمتها، وصلابتها، حتى لقد أصابته أزمة عقب وفاتها استغرقت منه جهداً ووقتاً حتى عبرها، وقد أمكن له من ذلك الدخل الضئيل أن يواصل دراسته حتى منتهاها، وحصل على شهادة المعلمين العليا متخصصاً في اللغة الإنجليزية، وقد أكسبته دراسته وقراءاته مقدرة نادرة على الترجمة من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية حتى ليذكر عنه - كما يروي صنوه العقاد - أنه كان يجلس أمام الآلة الكاتبة، وعن يمينه الكتاب الذي يريد ترجمته، فتكفيه النظرة، لينقل المعنى في أحسن عبارة - وأسلمها - وما إن ينتهي حتى يسلم الصفحات التي تضم ترجمة كاملة قد صيغت في أحسن عبارة، دون أدنى مراجعة أو تصحيح، وتلك هي التي سماها العقاد «عبقرية الترجمة».

وتبلغ صفحات المجلد الأول ٧٣٦ صفحة، وقد ضمت فضلاً عن التقديم والصورة التي رسمها الجامع للمازني - المجموعة الأولى من مقالات المازني التي لم يسبق نشرها، والتي اختار لها الجامع عنوان: «التأملات والذكريات» وهو عنوان لا أعتقد أن المازني كان يرتضيه لو أن له الخيار، فمن أطلق على مجموعاته «حصاد الهشيم»، و«قبض الريح»، و«خيوط العنكبوت» كان حرياً، كما قال في بعض ما كتب أن يختار لهذه المجموعة عنوان: «باطل الأباطيل» - أو ما هو من قبيله.. فقد ذكر أنه هم بأن يختار هذا العنوان لبعض ما كان ينتوي جمعه.. ولا نقف عند العنوان طويلاً، فهو في رأي «الجامع» عنوان معبر عن الموضوع الذي يجمع هذه المقالات، حيث إن الجامع حرص على «التقسيم الموضوعي» في نشره للأعمال غير المنشورة.

والمجموعة الأولى التي بين أيدينا تضم ١٣٢ مقالاً، ليس منها مقال يمكن أن يوصف بأنه قد بعد به العهد، أو يتجافى مع روح العصر، أو يعيدنا إلى «أيام زمان».. ورغم أنها ترجع إلى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، فإنها لا تفترق عما يمكن أن يكتب أو ينشر في هذه الأيام، فيما لو كان من بين كتاب اليوم بعض من يضاهي المازني: دقة تعبير، وخفة روح، وصدق نظرة، وعمق تفكير.. فضلاً عن حسن التناول. لا نقول هذا من قبيل المبالغة، أو إعلاء قدر كل ما هو قديم، وإنما نقوله تقريراً لواقع، وإحقاقاً لحقيقة واضحة ومؤكدة.

ولم تقف موضوعات المجموعة عند التأملات والذكريات، فقد اتسعت في الواقع، وتعددت، وتنوعت بحيث شملت الكثير من جوانب الحياة والفكر، والأدب، والإبداع، وإن اتسمت جميعها بالصدق، والصراحة، والمضي قصداً إلى الهدف، حتى لو كان الهدف هو التهرب من الإجبار على قول لا يريده، أو إبداء رأي لا يوافق عليه.

أحمد السيد عوضين



The Looming Tower: Al-Qaeda and the Road to 9/11

(البرج المرتقب: طريق القاعدة إلى ٩/١١)

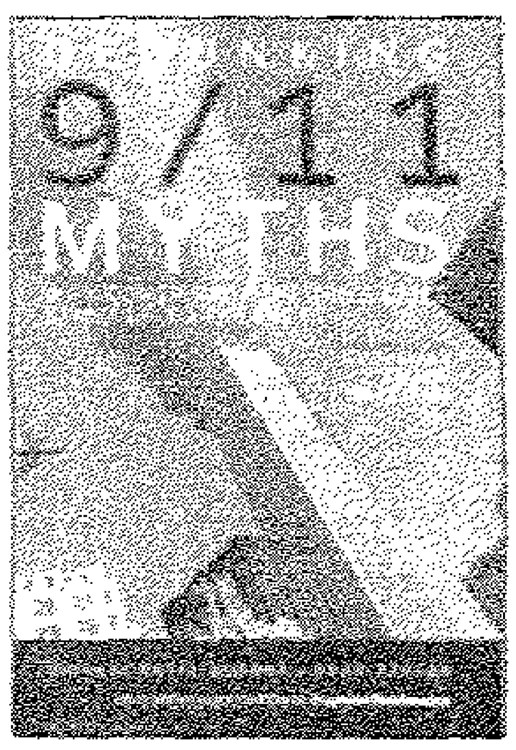
Lawrence Wright

Knopf, 2006, 480PP, 27.95$

كتاب من أكثر الكتب اهتماما بتأريخ نشاط القاعدة، بدءا من الغزو الروسي لأفغانستان عام ١٩٧٩، والمساعدات الأمريكية والإسلامية العديدة لأفغانستان لمقاومة الغزو.

شكلت القاعدة عام ١٩٨٨ بقيادة أسامه بن لادن، وكانت أولى نقاط جدول أعمالها معاداة أمريكا. بعد ذلك بعشرة أعوام، فجرت القاعدة سفارات أمريكا في أفريقيا والمدمرة كول.

الكاتب يمر بتاريخ القاعدة وعملياتها، ويتعرض إلى طريقة عمل الوكالات الأمنية الأمريكية في مكافحة الإرهاب، ويصل الكاتب إلى أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر ما كانت لتحدث لو تعاونت تلك الوكالات فيما بينها.



Debunking 9/11 Myths: Why Conspiracy Theories Can't Stand Up to the Facts

(فضح أساطير ٩/١١)

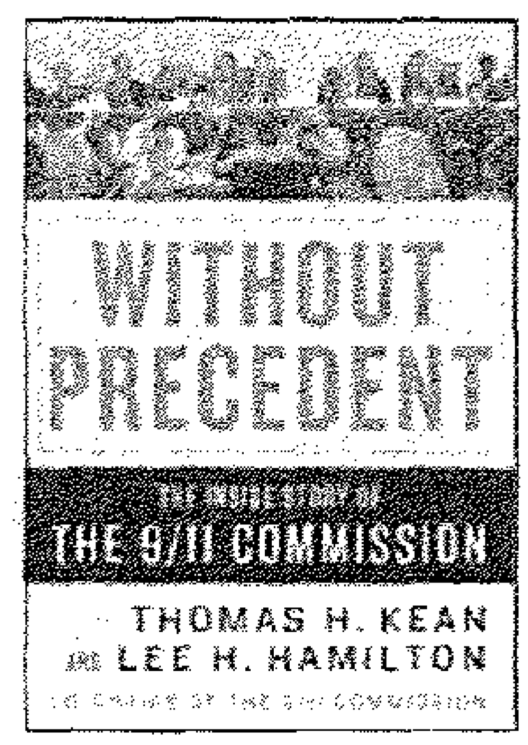
David Dunbar , Brad Reagan

Hearst, 2006, 192PP, 12.98$

العديد من نظريات المؤامرة التي ظهرت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، حاولت إثبات تورط الحكومة الأمريكية في الأمر، سواء بالتواطؤ، أو حتى بتنفيذ تلك الأحداث. المؤلفون يرون أن تلك النظريات غير مستندة إلى دلائل ولا حتى أسباب منطقية.

المؤلفون يتعرضون إلى أكثر عشرين نظرية شيوعا بالنقد، مثل نظرية أن البنتاجون لم تضربه طائرة، أو أن انفجار الطائرتين في برجي التجارة لم يكونا السبب الرئيسي وراء انهياره.

يأتي النقد من خلال العديد من شهادات العلماء البارزين في الطيران والدفاع الجوي والهندسة والعسكريين.



Without Precedent: The Inside Story of the 9/11 Commission

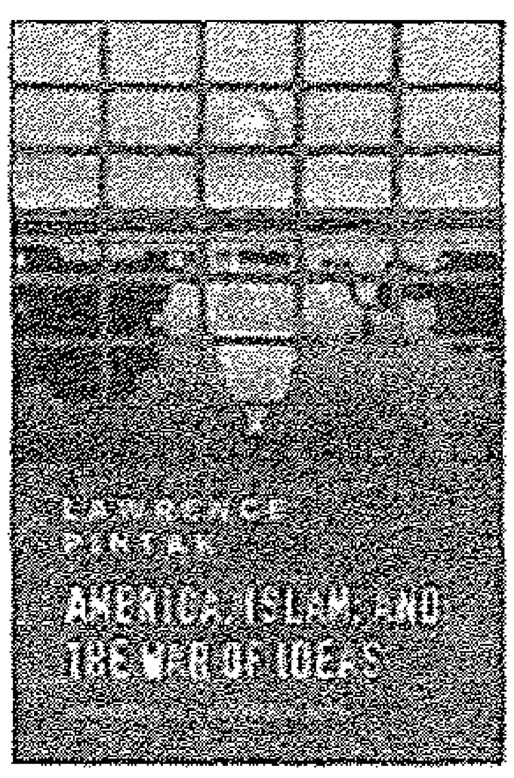
(بدون سوابق : قصة تقرير لجنة ٩/١١)

Thomas H. Kean, Lee H. Hamilton

Knopf, 2006, 384PP, 25.95$

تقرير لجنة الحادي عشر من سبتمبر، كان مختلفا عن جميع المنشورات الحكومية الأمريكية، فقد جاء في لغة سهلة وطرح في الأسواق بصورة واسعة محققا مبيعات ضخمة.

الكتاب يتناول القصة حول تلك اللجنة، كيف تشكلت وكيف كانت تعمل، أعضاؤها وانتماءاتهم السياسية، ومدى تأثير ذلك على آرائهم داخل اللجنة، كما يتناول الكتاب معارك اللجنة مع الكونجرس ومحاولة وصولهم إلى الوثائق السرية.



America, Islam, and the War of Ideas Reflections in a Bloodshot Lens

(أمريكا، الإسلام وحرب الأفكار)

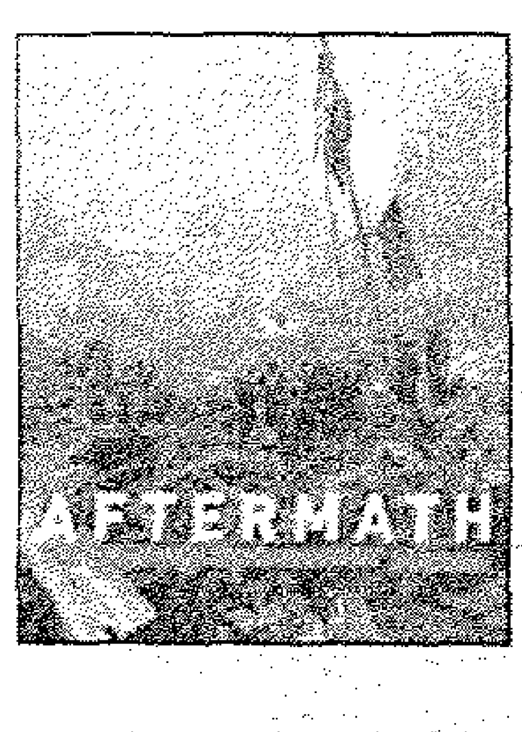
AWRENCE PINTAK

AUC Press, 2006, 394PP, 29.95$

الصحفي المخضرم ومراسل أخبار السي بي إس السابق «لورانس بينتاك» يتعرض في هذا الكتاب للاختلاف الأساسي في الفهم بين الأمريكان من جانب والمسلمين من جانب آخر، الذي يعتبره نتيجة طبيعية للانقسام الدائم منذ قرون والعلاقة التضادية السائدة.

يرى «بينتاك» أيضا أن الإعلام المُسيطر عليه من قبل أجهزة الدولة على الجانبين، كان سببا في تفاقم المشكلة. فالقادة والزعماء على الجانبين على السواء لا يعرفون أو لا يفهمون كيف تؤثر كلماتهم على مصير العالم بشكل عام على المدى الطويل.

الكتاب يستكشف كيف يصوّر الإسلام بوسائل الأعلام الأمريكية، وكيف تتعرض وسائل الإعلام العربية والإسلامية لأمريكا وسياستها، وكيف يؤدي سوء الفهم والتحريف الذي تقوم به وسائل إعلام الجانبين إلى كوارث كبرى.



Aftermath: Unseen 9/11 Photos by a New York City Cop

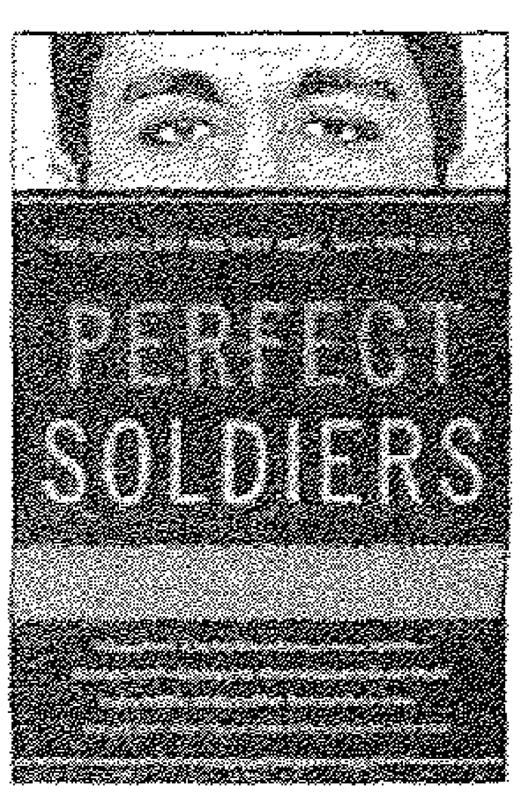
(آثار الكارثة)

John Botte

Regan Books, 2006, 224PP, 44.95$

في الذكرى الخامسة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، يصدر «جون بوت» كتابه المصور عن هذا اليوم، «بوت» كان شرطيا بمدينة نيويورك، كلف بعد الحادث بتوثيقه فوتوغرافيا، يقول «بوت» عن هذا اليوم، «أمضيت مع الآلاف الآخرين ممن فقدوا أحباءهم تلك الأيام، فقدت أصدقاء هناك، وكانت هذه الحادثة سببا لتقاعدي من مهنتي التي أحبها، فقد أصبت بربو رئة مزمن».

مع مائة وثلاثين صورة بالأبيض والأسود، ملحقين بتعليق من المصور، ترى الدمار الذي خلفته الحادثة، ترى تلال الرماد، والدخان في كل مكان، والناجين والفاقدين لأسرهم وأحبائهم.



Perfect Soldiers: The 9/11 Hijackers: Who They Were, Why They Did It

(جنود مثاليون)

Terry McDermott

Harper Paperbacks; Reprint edition, 2006, 368PP, 14.95$

«تيري ماك ديرموت» أمضى ثلاثة أعوام في دراسة شخصية منفذي أحداث الحادي عشر من سبتمبر، قابل خلالها العديد من أصدقائهم، وجمع العديد من الوثائق التي تشير إليهم، ليقوم بإخراج هذا الكتاب.

يبدأ الكاتب بنبذة سريعة حول القاعدة وكيفية نشأتها، متعرضا لشخصية المجاهدين الإسلاميين في حرب أفغانستان، ثم مدى التأثر الحادث في الشخصية الإسلامية والعربية نتيجة غزو العراق للكويت وتدخل القوات الدولية، والحصار الأمريكي للعراق.

جنود فدائيون، لم يكونوا يوما متطرفين دينيا، ولم يكونوا يوما فقراء، وافقوا على الموت، ورحبوا به، ودربوا من أجله، وقاموا بمهمتهم خير قيام. هذا ما يدور حوله الكتاب.



The War for Muslim Minds

(الحرب من أجل العقول الإسلامية)

GILLES KEPEL

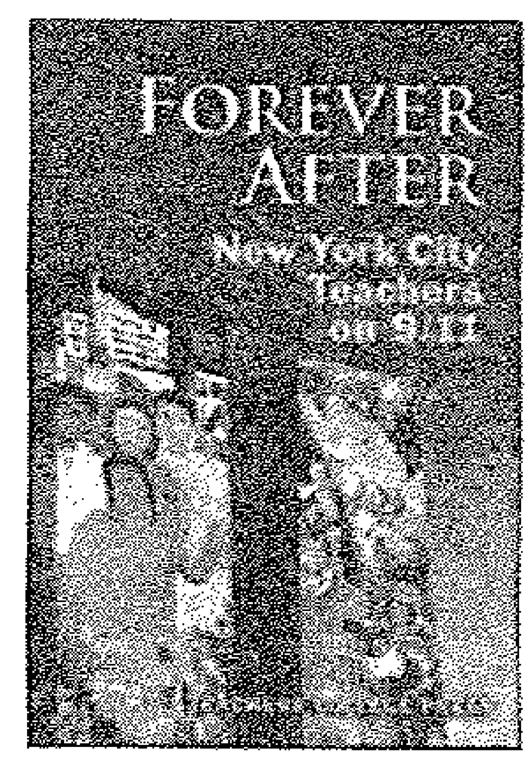
Translated by Pascale Ghazaleh

AUC Press, 2006, 336PP, 24.95$

كان لتعطل عملية السلام الفلسطينية الإسرائيلية عام ٢٠٠٠ دور كبير في بداية دوامة العنف والدموية التي كان احد شواهدها أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وخاصة مع بداية الثورة المحافظة في الولايات المتحدة التي أدت إلي زعزعة السياسة الأمريكية الشرق أوسطية، التي اهتمت في تلك الفترة بالأمن الإسرائيلي، ونفط الخليج فقط.

كان لهذا أثره على الراديكاليين الإسلاميين الذين رأوا أن السياسة الأمريكية وصلت إلى الحد الذي يستوجب معه نقل ميدان العمل الإرهابي من الأراضي الإسلامية إلى الغرب فأعلن «بن لادن» ورفاقه الجهاد ضد أعدائهم عالميا.

«كيبيل» يتحرى، في هذا الكتاب، تأثير الإرهاب العالمي والعمليات العسكرية التي تتبعه، ويشكك بقدرة الولايات المتحدة على مواجهة هذا التحدي على طريقة خطابات الحرب الباردة، كما يقترح مخرجا لمستنقع الشرق الأوسط يخدم مصالح أطراف النزاع، الإسلاميين والغرب والنخبة العربية والإسلامية الحاكمة، محددا شروطا لقبول إسرائيل، ولتطبيق الديمقراطية في المجتمعات العربية والإسلامية، موصيا الغرب بمحاولة الفوز بقلوب وعقول المسلمين.



Forever After: New York City Teachers on 11/9

(دوما في الأثر)

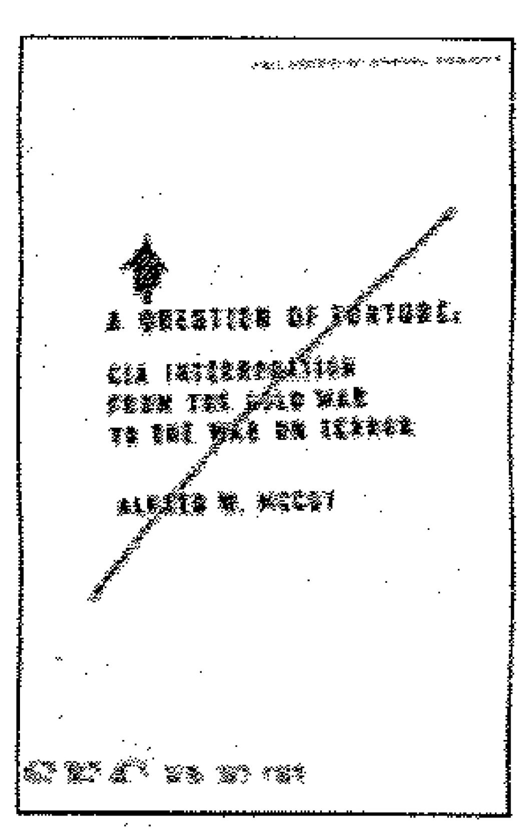
Maureen Grolnick

Teachers College Press, 2006, 253PP, 17.95$

لم يكن أكثر من ٨٥٠٠ طالب و٤٠٠ مدرس في ذلك الصباح، يعلمون أن حياتهم ستكون مهددة بعد ساعتين، وأنهم سيهرعون للنجاة بحياتهم.

«جرولنيك»يحكي قصصا لم تحك من قبل عن الوقائع التي حدثت بمدارس نيويورك بعد الحادث مباشرة. كيف شهدت بعض المدارس فوضى كبيرة، وكيف كان، على العكس، البعض الآخر منظما إلى درجة كبيرة.

من خلال سبع عشرة قصة يستعرض الكاتب ما حدث فعلا بمدارس نيويورك ذلك الصباح، ثم يعرض رأيه الشخصي حول أحداث الحادي عشر من سبتمبر وكيف أثرت في حياة المعلمين.



Question of Torture : CIA A Interrogation, from the Cold War to the War on Terror

(سؤال عن التعذيب)

Alfred McCoy

Metropolitan Books, 2006, 304PP, 25.00$

أستاذ التاريخ بجامعة (ويسكنسن ماديسن) «الفريد مكوي»، يقيم محاكمة تخيلية لوكالة الاستخبارات المركزية (CIA) حول قضايا التعذيب وانتهاك حقوق الإنسان منذ الحرب الباردة وحتى الحرب على الإرهاب الدائرة الآن.

يكشف الكاتب عن تطور وسائل التعذيب النفسي والجسدي خلال الخمسين سنة الأخيرة، من الحرب الباردة إلي أبو غريب، وما بعده.

يري الكاتب أن الفضائح الأخيرة التي شهدها سجنا أبو غريب وجوانتانامو لم تكن نتيجة لانحرافات قلة، كما ادعى البيت الأبيض، وإنما هي نتيجة طبيعية وتطور منطقي للبرنامج التي تتبعه الولايات المتحدة في الاستجواب، المبني بشكل رئيسي على الحرمان الحسي والألم الذاتي الذي يشكل هجوما شاملا على أحاسيس الضحية مدمرا قاعدة الهوية الشخصية لديه، ولعل أقدم وأبسط الطرق في التعذيب في العالم تشكل جانبا هاما من ذلك البرنامج مثل العزلة وتغطية الرأس وإجبار السجناء على الوقوف لساعات وتعريضهم لدرجات حرارة حادة الارتفاع أو الانخفاض.

«مكوي» يتعقب تطور طرق التعذيب عبر السنين منذ حرب فيتنام مرورا بإيران وأمريكا الوسطى، وصولا إلى التطور الذي حدث بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وهو الذي شهد استعانة الولايات المتحدة بحلفائها من الدول محترفي التعذيب لانتزاع الاعترافات من المشتبه بهم والمتهمين.

يصل الكاتب في نهاية كتابة إلي استنتاج أن وسيلة التعذيب لا تصل إلى نتائج مرضية بعكس الوسائل القانونية العادية، فالاعترافات المنتزعة تحت وطأة التعذيب عديمة الجدوى، ناهيك عن الانتهاك الشديد لحقوق الإنسان الذي، ومن الواضح، انه لم يعد أمرا يوضع في الاعتبار لدى وكالة الاستخبارات المركزية (CIA).



Unembedded: Four Independent Photojournalists on the War in Iraq

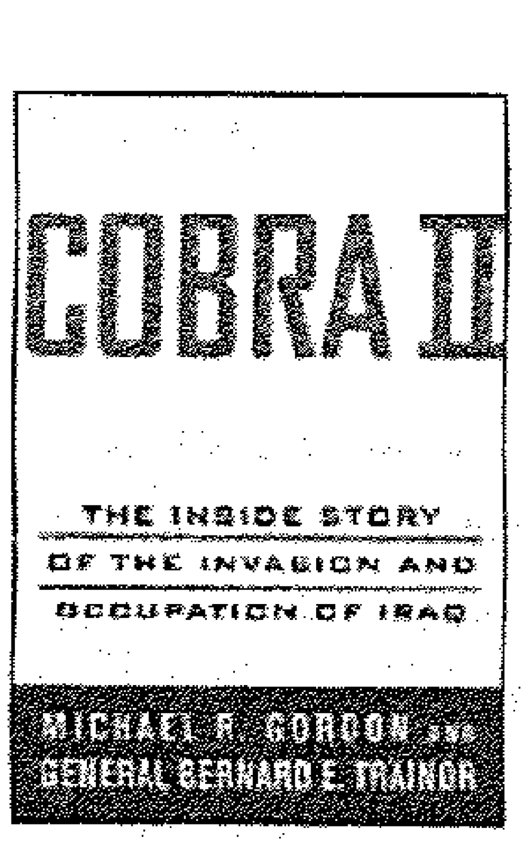
(غير ملحق : أربعة مصورين صحفيين مستقلين في حرب العراق)

Thorne Anderson, Ghaith Abdul-Ahad, Kael Alford, Rita Leistner, Philip Jones Griffiths (Foreword), Phillip Robertson (Introduction)

Chelsea Green Publishing Company, 2006, 192PP, 29.95$

مجموعة من الصور التي تصف الحرب في العراق، أربعة مصورين صحفيين مستقلين يغطون الحرب، يلتقطون صورا نادرة وفريدة، لا يمكن أن تراها في وسائل الإعلام، تظهر الصور مدى بشاعة الحرب على الجانبين.

الكتاب صنف على انه ليس سياسيا، وإن كانت التعليقات على الصور تحمل الكثير من النقد للإدارة الأمريكية، والتشكيك في جدوى الحرب من الأساس.



Cobra II : The Inside Story of the Invasion and Occupation of Iraq

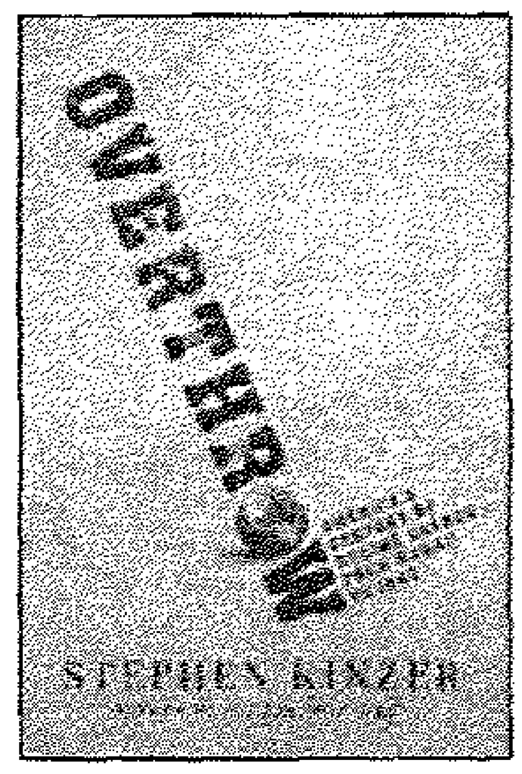
(كوبرا ٢ : القصة الخفية لغزو العراق)

Michael R. Gordon, Bernard E. Trainor

Pantheon, 2006, 640PP, 27.95$

خلال الأعوام الماضية، ظهر العديد من الكتب والتقارير التي تتعرض لحرب العراق، وانتشرت التفسيرات المختلفة للحرب، وانقسم المتعرضون للحرب ما بين - مؤيد ومعارض، ولكن، وعلى الرغم من هذا كله، لم يجزم أحد بمعرفته القصة الخفية وراء الحرب على العراق.

كوبرا ٢ يجزم بمعرفة القصة الحقيقية، استراتيجيات الحرب، المعارك الفعلية، الأدوار الرئيسية التي لُعبت، والشخصيات التي لعبتها، الدبلوماسية، والاحتلال. كتاب جديد مليء بالفضائح الجديدة.



Overthrow : America's Century of Regime Change from Hawaii to Iraq

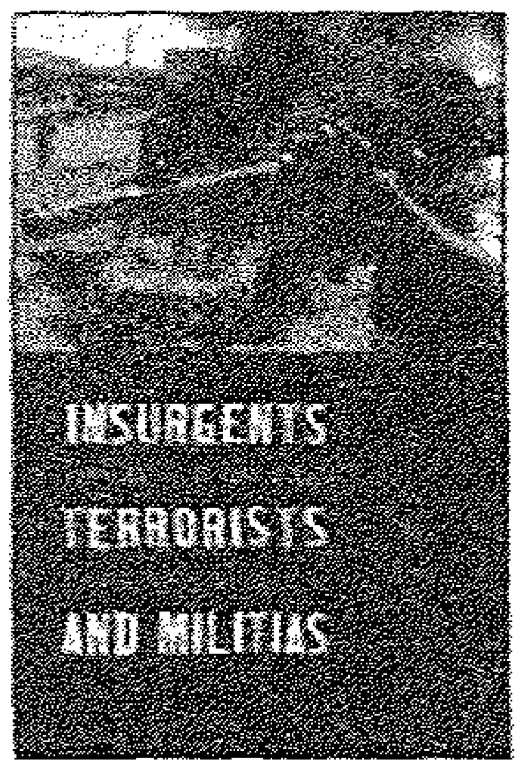
(الإســـقاط)

Stephen Kinzer

Times Books, 2006, 400PP, 27.50$

للإدارة الأمريكية سوابق كثيرة على مدار القرن الماضي في تغيير أنظمة الحكم وإسقاطها حول العالم، بدأت تلك السياسة بهاواي عام ١٨٩٣ عندما تآمر البيت الأبيض مع الأقلية البيضاء بهاواي من أجل إسقاط حكم الملكة «ليليووكالاني»، كخطوة لضم الجزر وجعلها جزء من الولايات المتحدة الأمريكية.

تلا هاواي العديد من الدول الأخرى، فالولايات المتحدة أحبطت حركة الاستقلال في كوبا، بورتيريكو، الفلبين ونيكاراجوا، كما قامت بإخراج العديد من الحركات السرية والانقلابات في إيران، غواتيمالا، جنوب فيتنام، وتشيلي، كما غزت جرينادا، بنما، وبالطبع افغانستان والعراق. على مدى العقود الأحد عشر الماضية نشرت الولايات المتحدة قواتها في جميع أنحاء العالم، لتضع يدها على الموارد الطبيعية في العالم.



Insurgents, Terrorists, and Militias: The Warriors of Contemporary Combat

(متمردون، إرهابيون، ميليشيات: محاربو المعركة المعاصرة)

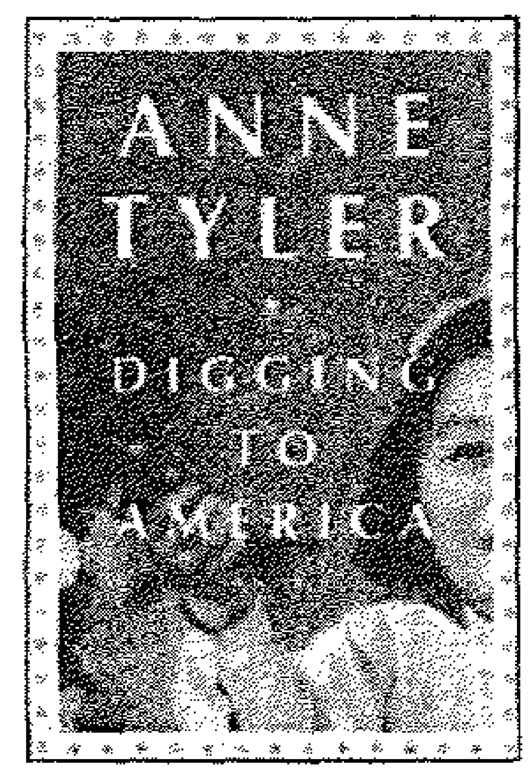
Richard H. Shultz, Andrea Dew

Columbia University Press, 2006, 328PP, 29.50$

طبيعة الحروب تغيرت بصورة كبيرة عما كانت عليه في العقود الأخيرة، ولعل أهم تلك التغييرات ظهور العديد من المجموعات المقاتلة غير الحكومية، والتي تستخدم تكتيكات متقدمة وجديدة لم تعهدها الجيوش النظامية من قبل.

المدرسان بأكاديمية الأمن العالمي «ريتشارد شالتز» و«أندريا ديو» يؤكدان على أن عدم فهم هذه التغيرات في طبيعة الحروب يؤدي إلى نتائج وخيمة، ضاربين المثل بالحرب العراقية وكيف أدى عدم الفهم الأمريكي لطبيعة العراقيين وطريقتهم في المقاومة، إلى عواقب سيئة على الجيش الأمريكي.

المؤلفان يستعرضان تاريخ الحروب والصراعات المسلحة بين قوات حكومية وأخرى غير حكومية خلال العقدين الماضيين، كحروب الصومال والشيشان وأفغانستان والعراق، التي واجهت فيها القوات الحكومية المدججة بالأسلحة المختلفة والمتطورة، صعوبات شديدة في مواجهة قوات غير حكومية، لا تملك من السلاح إلا الفتات.



Digging to America

(الحفر لأمريكا)

Anne Tyler

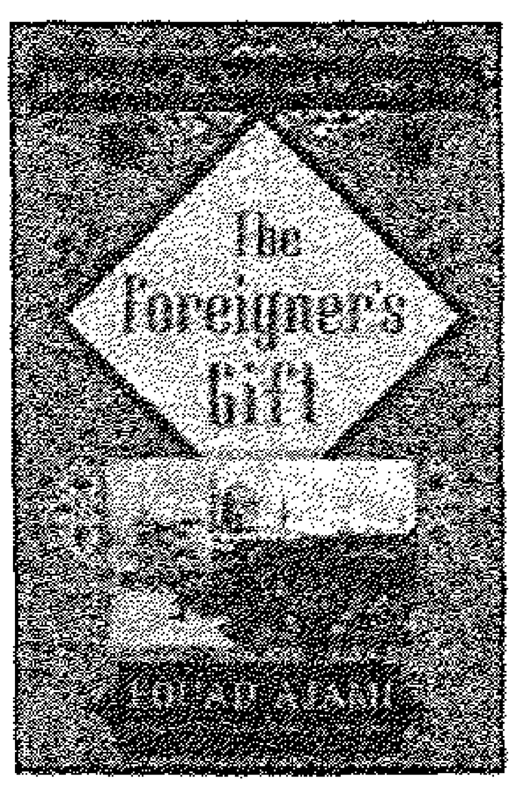
Knopf, 2006, 288PP, 24.95$

الرواية الجديدة لأني تايلر (الحفر لأمريكا) التي تدور حول اصطدام الثقافات في المجتمع الأمريكي، مع التركيز على أثرها في الحياة اليومية للأسرة الأمريكية الحديثة.

الرواية تدور حول تبني الزوجين الأمريكيين، «بيتسي وبراد دونالدسون» و«سامي وزيبا يزدان»، لفتاتين كوريتين صغيرتين.

يلتقي الزوجان في مطار بيلتيمور لأول مرة، حيث كانا بانتظار ابنتيهما بالتبني قادمتين من كوريا، ونظرا لعلاقة الابنتين القوية ببعضهما، تضطر الأسرتان إلى إنشاء علاقة تجمعهما.

القصة التي تدور أحداثها منذ وصول البنتين عام ١٩٩٧ إلى عام ٢٠٠٤، تجسد الصراع الثقافي والاصطدام الحضاري في المجتمع الأمريكي، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي أثرت على علاقة الأسرتين.



The Foreigner's Gift

(هدية الأجنبي)

Fouad Ajami

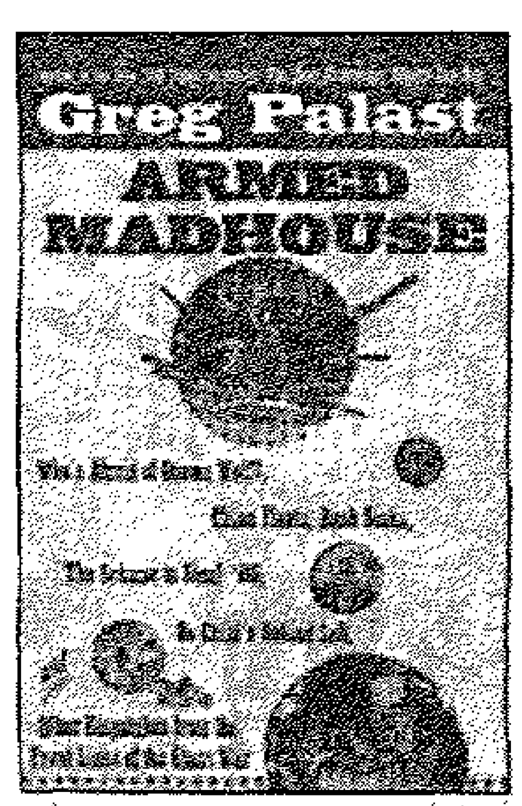
Free Press, 2006, 400PP, 26.00$

لم يكن أحد ليتوقع ما يحدث في العراق الآن، فسقوط صدام حسين إن كان أعطى لمحة للحرية التي حظي بها العراقيون، فهو أعطى أيضا حالة التشوش والفوضى التي تعاني منها العراق الآن، فالعنف والطائفية تتفجر في كل مكان في العراق.

لا يفهم أحد ماذا يحدث ولا تعرف إجابات لأسئلة كثيرة حول الوضع في العراق، «فؤاد العجمي» يبحث في العديد من تلك الأسئلة، ما مدى تأثير التاريخ العراقي على ما يحدث الآن؟، وما هي طبيعة العراق الطائفية؟ وما السيناريوهات المحتملة الحدوث في الفترة القادمة؟

الكاتب يستعرض الحروب العراقية الأخيرة، منتهيا بالحرب الأمريكية العراقية الدائرة حاليا، ويحاول تفسير ما يدور على الساحة الآن مستعينا بتاريخ العراق الممتد.

«فؤاد العجمي» قام بمقابلة العديد من الشخصيات العراقية خلال سنوات الحرب، وسجل آراءهم وأفكارهم حول الحرب ونتائجها وأسبابها، قابل العجمي رجال دين من السنة والشيعة وسياسيين أكرادا وأدباء وفنانين، وعناصر من الشرطة والجيش، والعديد ممن يعتبرون مواطنين عاديين، كما سجل أيضا العجمي آراء بعض السياسيين الأمريكيين ومواطنين عاديين أمريكيين.



Armed Madhouse

(مستشفى المجانين المسلحة)

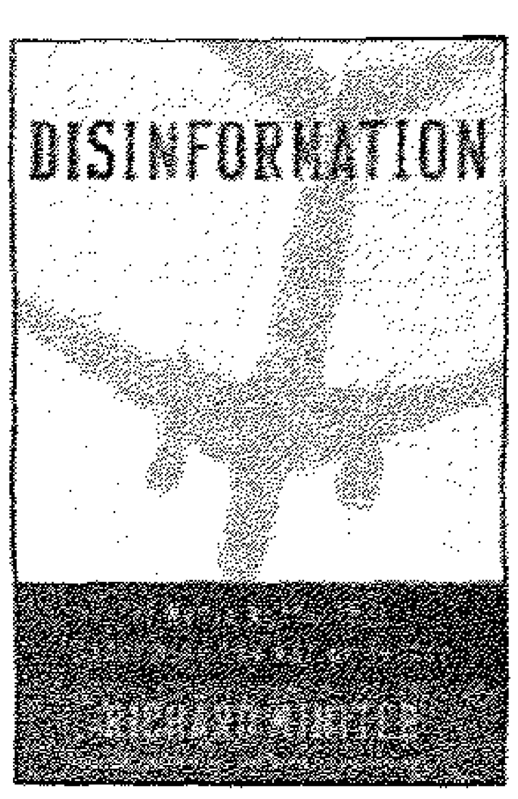
Greg Palast

Dutton Adult, 2006, 384PP, 25.95$

الاقتصادي وصحفي التحقيقات الأمريكي «جريج بلاست» يأتي بكتابه الجديد (مستشفى المجانين المسلحة) الذي ينتقد بسخرية لاذعة فيه السياسة الأمريكية.

الكاتب يعترف بعدم احترامه لجورج بوش، وهو يرى أن بوش سقط مرتين في الانتخابات الرئاسية الأمريكية وذلك نظرا لضعف الفارق بينه وبين منافسيه.

الكتاب يكاد يغطي كل المواضيع السياسية المثيرة للجدل بدءا من الحرب على الإرهاب وصولا إلى إعصار كاترينا، في نقد لاذع مبني، ويحكم خبرة المؤلف، على الحقائق الواضحة والأرقام الدالة.



Disinformation : 22 Media Myths That Undermine the War on Terror

(التشويش: ٢٢ أسطورة إعلامية قوضت الحرب ضد الإرهاب)

Richard Miniter

Regnery Publishing, 2005, 256PP, 27.95$

يواجه هذا الكتاب اثنتين وعشرين أسطورة حول الحرب على الإرهاب، تلك الأساطير روجتها وسائل الإعلام ويساعد الكثير من الناس في نشرها، المؤلف لم ينسب ترويج هذه الأساطير إلى النوايا

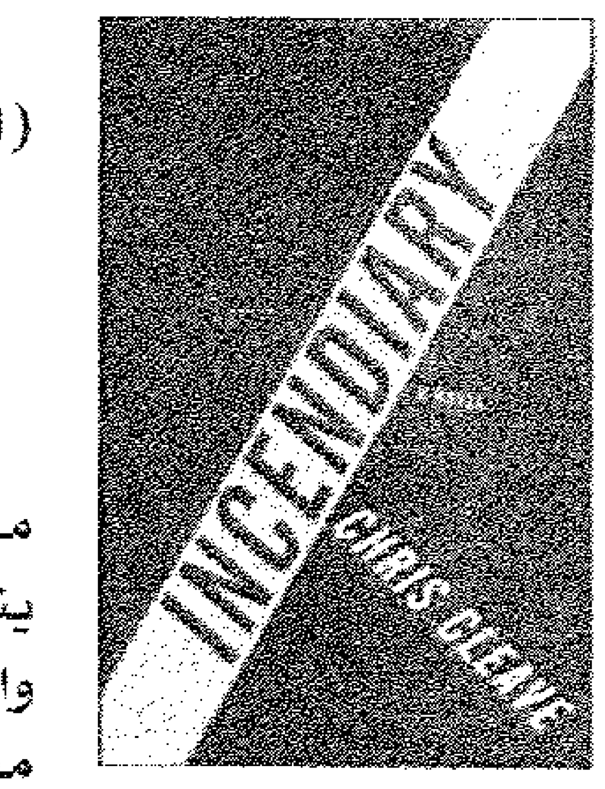
السيئة كلها ولكنه يرى انه يجب نسيان كل شيء عن تلك الأساطير وتنحيتها جانبا إذا ما أراد الشعب الأمريكي معرفة حقيقة ما يواجهه في تلك الحرب.

تعرض الكاتب للأساطير جاء مثيرا للجدل في بعض الأحيان، فهو يرى أن هناك صلة بين صدام والقاعدة، كما يرى أن العراق كان يمتلك أسلحة الدمار الشامل ويدحض قوله ببعض الأدلة التي جمعها بنفسه من مصادر مختلفة.

يبدأ الكتاب بأربع أساطير عن بن لادن موضحا أن بن لادن لم يدرب من قبل المخابرات الأمريكية ولا مول منها، كما انه لا يملك هذا الكم من الثروة التي يعتقدها البعض، بالإضافة انه كان معروفا قبل أحداث سبتمبر وتحدثت عنه وسائل الإعلام قبلها.

ينتقل الكاتب إلى ثلاث أساطير حول أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي تقول أن الحكومة كانت عندها تحذيرات عدة حول بن لادن ونواياه، وبأن الموساد كان على علم بما سيحدث فحذر اليهود من الذهاب إلى أعمالهم في ذلك اليوم.

يتعرض الكاتب للعديد من الأساطير الأخرى حول العراق وأسلحة الدمار الشامل قائلا أن العراق كان يحتوي على أسلحة دمار شامل، كما يتعرض لأساطير حول مخاوف بيع السلاح النووي من قبل بعض دول الاتحاد السوفيتي السابق ويتعرض كذلك إلى الإرهاب بوجه عام.



Incendiary

(الإحـــــراق)

Chris Cleave

Knopf, 2005, 256PP, 22.95$

هجوم للقاعدة على ملعب كرة قدم في لندن أثناء مباراة لفريق الأرسنال، وتفجير عدة قنابل به، الدمار ينتشر في كل أرجاء المكان، القتلى بالآلاف، بينهم أب وابنه ذو الأربعة أعوام، والأم تشاهد كل هذا الدمار مباشرة على التلفاز، لندن تتعرض للإرهاب الدولي، مشاعر غاضبة تجتاح الأم، لا تصدق ما حدث وتحاول الانتحار. الأم لا تجد شيئا لتفعله، سوى إرسال رسالة غاضبة إلى أسامة بن لادن.

الرواية تدرس تأثيرات العمليات الإرهابية على المجتمع ككل وعلى أهالي الضحايا، من وجهة نظر التعامل مع الصدمة العصبية التي تصاحب الحادث، وأيضا التعامل مع الصعاب التي تصاحبها فيما بعد.



(الإرهاب: التشخيص والحلول)

عبد الله بن الشيخ المحفوظ بن بيه

١٥٠ صفحة، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥

الباحث «عبد الله بن الشيخ المحفوظ بن بيه» يبحث في هذا الكتاب مدلول كلمة الإرهاب، باحثا في العديد من المعاجم العربية والأجنبية، ليصل إلى تعريف شامل للإرهاب، فعلى سبيل المثال عرف معجم روبير الفرنسي الإرهاب بأنه تيار يتخذ الإجراءات الاستثنائية العنيفة بانتظام، للوصول إلى أهداف سياسية، في حين أن معجم لاروس عرفه على أنه جملة أعمال العنف التي ترتكبها منظمة من أجل خلق جو الرعب، أو من أجل قلب نظام الحكم.

المدقق في التعريفين يجد اختلافا شديدا بينهما، فلاروس ذكر أن الإرهاب يكون إما لخلق جو من الرعب، أو لقلب نظام الحكم، وهو هدف سياسي، بينما اشترط روبير وجود هدف سياسي في جميع الأحوال. الإرهاب وتعريفه، هما محور الكتاب، ويختتم الكاتب بوضع بعض الحلول والمقترحات التي يراها تساعد على التخلص من الإرهاب تماما.



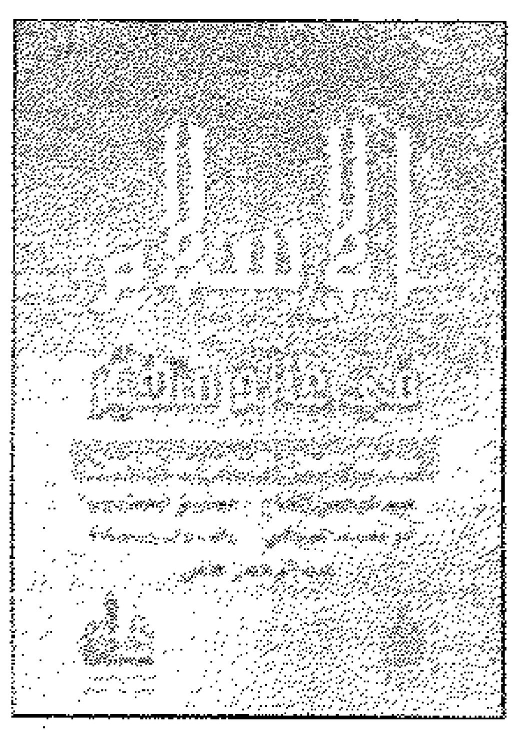
(العرب وعالم ما بعد ١١ سبتمبر)

برهان غليون

١٣٣ صفحة، دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٥

ظن العالم أجمع انه بانتهاء الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفيتي، أن العالم سيبتعد لفترة عن المنازعات، وسيتحول الى عالم متعدد الأقطاب، مما يحقق فرصا أفضل للتنمية، ولكن قيام النظام العالمي الجديد المعتمد على وجود قطب أوحد، كان خيبة أمل كبيرة، فالولايات المتحدة وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، اتخذت الحرب على الإرهاب ذريعة لفرض هذا النظام، فقامت باحتلال أفغانستان ثم العراق، وتمادت في تهديد كوريا الشمالية وإيران وسوريا، مثبتة سيطرتها، وفارضة سطوتها.

الكاتب يتساءل عن دور العالم العربي من هذا كله وخاصة أنه يقع في المنطقة الأكثر اشتعالا في العالم، ومهددا بأخطار عديدة نتجت عن السطوة الأمريكية، وتفردها في النظام العلمي الجديد، ترى هل يستطيع العالم العربي لعب دور فعال فيما يحدث، وهل يستطيع أن يفرض سيطرة ما في هذا العالم الجديد؟



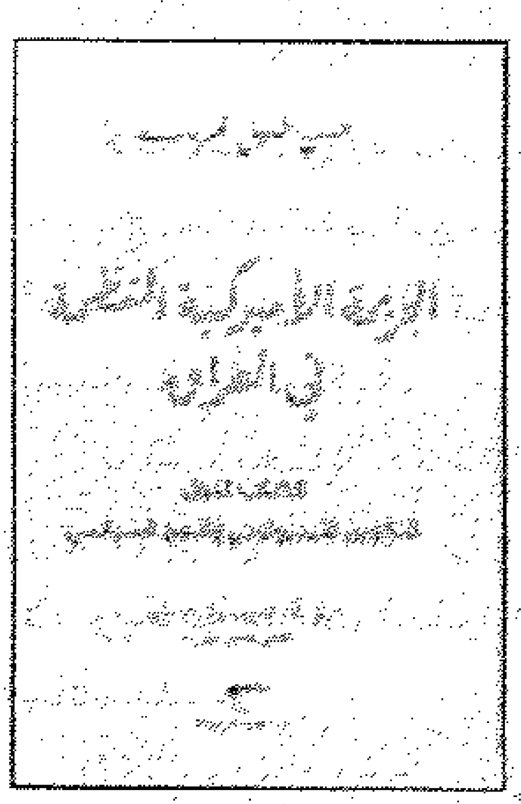
(الإسلام في عالم متغير: سياسات الإصلاح السياسي بعد ١١ أيلول)

مجموعة مؤلفين

١٦٨ صفحة، دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٥

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، أختلف شكل العالم، واختلفت النظرة الغربية للإسلام، وأفرزت العديد من الإشكاليات والتحديات التي واجهت العالم الإسلامي، وظهر ولأول مرة انتقادات للخطاب الديني، كما أثيرت قضايا عديدة تتعلق بالإرهاب وخلفياته، وأسبابه الحقيقية، مما دفع إلى المناداة بالإصلاح السياسي، الذي يضمن نوعا من الحرية السياسية يكون من شأنها تقليل التطرف.

العالم الإسلامي والإصلاح السياسي المطلوب والمفروض، إشكاليات الديمقراطية وحقوق الإنسان والمدنية، والتعارض بين القيم الإسلامية والغربية، مواضيع شائكة يخوض الكتاب في تحليلها ودراستها.



(الجريمة الأمريكية المنظمة في العراق)

حسن خليل غريب

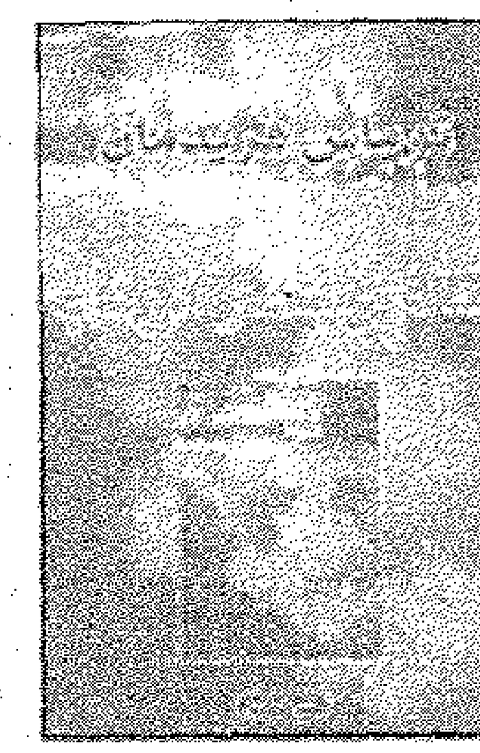
٨٢٢ صفحة، دار الطليعة للطباعة والنشر، ٢٠٠٦

في ثلاثة أجزاء يوضح لنا الكاتب «حسن خليل غريب» منهجية الجريمة الأمريكية المنظمة في العراق، الجزء الأول بعنوان (التكوين الأيديولوجي والنهج السياسي)، يستعرض فيه الكاتب التاريخ العدواني للولايات المتحدة الأمريكية، مثبتا كونها الأشد شد دموية وعدوانية عبر التاريخ الإنساني كله، فتاريخها لا يخلو من العدوانية والدموية، بل وإن قيام الدولة الأمريكية كان على دماء الهنود الحمر، وتاريخها الحالي مليء بدماء الأفغانيين والعراقيين.

الجزء الثاني من الكتاب جاء بعنوان (وحشية الممارسة والتطبيق) يقدم فيه الكاتب وصفا للوحشية الأمريكية في المعتقلات سواء داخل الأراضي الأمريكية أو خارجها، وخاصة بسجون العراق، ويتحدث الكاتب عن الممارسات الأمريكية بشأن العراقيين.

(أمام قوس المحكمة الجنائية الدولية) هو عنوان الجزء الثالث الذي يتحدث فيه الكاتب عن محاكمة الرئيس العراقي صدام حسين أمام محكمة عينت بواسطة الاحتلال، وهو ما يراه الكاتب كان سببا في انقسام المحامين المتطوعين إلى قسمين، قسم يرى أنه لا يجوز لهم الترافع أمام محكمة غير شرعية، لأن هذا من شأنه الاعتراف الضمني بشرعية الاحتلال، وقسم يرى أنه لابد من الترافع لفضح عدم شرعية المحاكمة.

(العالم في عصر الإرهاب)



توماس فريدمان، ترجمة، تحقيق: محمد طعم
٣٩٩ صفحة، منشورات الجمل، ٢٠٠٦

الكاتب «توماس فريدمان» محرر قسم الشئون الدولية لجريدة «نيويورك تايمز» في محاولة وصفها بالتدوينية، يحاول في هذا الكتاب فهم ما حدث بالفعل يوم الحادي عشر من سبتمبر، وفهم دوافع منفذي الحادث التسعة عشر، وفهم أسباب الفرحة ونشوة الانتصار التي جابت أنحاء العالم العربي والإسلامي، يقول «فريدمان» إنه إن لم تستطع الأمة الإجابة عن تلك الأسئلة، فهي حتما في خطر كبير.

الكتاب عبارة عن مجموعة من المقالات نشرت في أوقات مختلفة، جزء منها نشر قبل الحادي عشر من سبتمبر، ويهدف الكاتب من وضع تلك المقالات في الكتاب إلى المساعدة على التحليل السليم لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، ثم يحتوي الكتاب على معظم مقالات الكاتب في الفترة من سبتمبر عام ٢٠٠١ إلى ابريل ٢٠٠٣.

الكتاب يحتوي على مذكرات الكاتب التي جمعها خلال رحلته للعالم العربي والإسلامي التي قام بها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر مباشرة.

(العالم الإسلامي وتحديات ١١ سبتمبر)

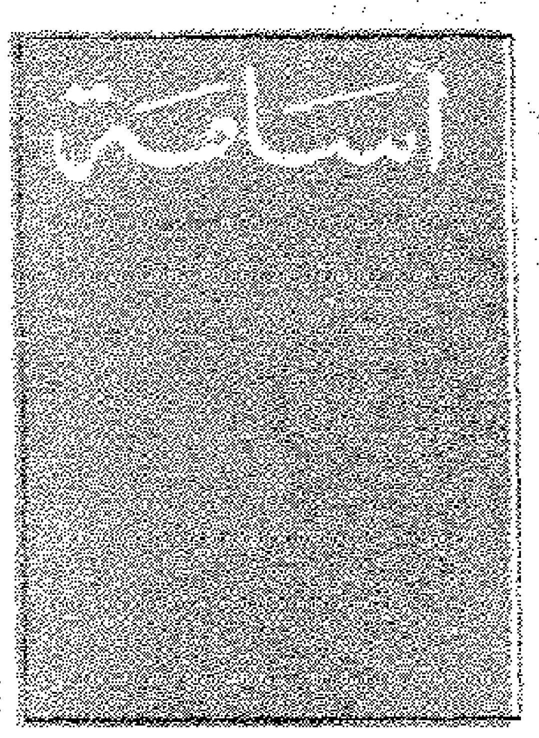
د. محمد بشاري
٢٠٨ صفحة، دار الفكر، ٢٠٠٦

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ظهرت العديد من المبادرات الأمريكية والأوروبية من أجل نشر الديمقراطية وتبني حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية والشفافية واقتصاد السوق وما إلى ذلك، ومن أشهر تلك المبادرات والتقارير مشروع الشرق الأوسط الكبير، ومبادرة منتدى المستقبل، ومشروع الإسلام المدني الديمقراطي، والمبادرة الألمانية الدنمركية.

الكاتب يتناول تلك المبادرات والتقارير بالتحليل والنقد، مطلقا تساؤل حول مرجعيات تلك المبادرات والهدف الحقيقي من ورائها، منتقلا إلى تحديات العولمة الجديدة التي تواجه العالم الإسلامي، ومنها تحديات التنمية الاقتصادية.

في نهاية كتابه يتعرض الكاتب إلى الأقليات المسلمة في الدول الأوروبية وأمريكا والتحديات التي تواجهها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وتفجيرات لندن ومدريد، متعرضا إلى مسألة الحفاظ على الهوية والاندماج في المجتمعات الجديدة.

من البيزنس إلى الإرهاب



أســـامة
جوناثان راندل
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦

كيف يتسنى لمليونير سعودى فرد فى أواسط عمره أن يهدد القوة العظمى الوحيدة فى العالم؟ هذا هو محور السؤال فى رواية جوناثان راندل الأخاذة حول دور أسامة بن لادن فى الشرق الأوسط والعالم.

ويقول المؤلف: «أمضيت أياماً، بعد الحادى عشر من أيلول ٢٠٠١، أتساءل عما إذا كان أسامة بن لادن قد جلس، كما العالم من أقصاه إلى أقصاه، يشاهد تلك الصور الحية لطائرات ملأى بالوقود خطفها طيارون انتحاريون مع أتباعهم وهى تخترق البنتاجون (مبنى وزارة الدفاع الأمريكية) وبرجى مانهاتن التوأمين حيث مركز التجارة العالمى. لأسباب لا أزال حائراً فى ادراكها يبدو لى، بالنسبة إلى «١١/ ٩» كما باتت تعرف تلك الهجمات، أن كل شىء آخر كان خاضعاً لتلك الإمكانية. لعله فى سنوات ماضية، وفى حصنه المحفور فى أعالى جبال «هندوكوش» الأفغانية، راح يشبع رغباته كرجل ثرى يتمتع بسحر الوسائل والأدوات الحديثة ويستمد بهجته من أن يعرض أمام زواره أحدث ما عرفته أسواق الكمبيوتر والهواتف الخلوية والصحون اللاقطة وسواها من أدوات التكنولوجيا الحديثة. تراه بات يتمتع الآن بفن تقليد الحياة وباستعادة عروض الابتذال الهوليوودية لأفلام الرعب على كمال بشاعتها، من الأجسام البشرية الساقطة من الأعالى إلى ألسنة اللهب الهائج والأبنية المتفجرة من داخلها، إلى الأبطال من رجال الإطفاء يقتحمون أدراج تلك الأبنية لملاقاة حتفهم؟ هل أخذ يرتاح إلى بدعة يشاهد فيها مسافرين يواجهون، بين الأرض والسماء، قدراً محتوماً، يشرحون عبر أحدث الهواتف الخلوية رحلتهم إلى الموت فى حين يحاول مسافرون آخرون من طينة الأبطال أن يربكوا خاطفيهم ويستعجلوهم إلى ارتكاب الأخطاء مصممين على أن يحرفوا طائرتهم، التى تحولت صاروخاً مدمراً، عن أن تصيب هدفاً وترفع حصيلة التدمير؟

لم أحسب فى تلك الآونة أن لهذه التساؤلات أجوبة واضحة وحاسمة، ذلك أننى غصت فى بحر من التكهنات لكنها تكهنات مبنية على أكثر من سنتين من المحاولات اليائسة فى سبيل فهم أسامة. شعرت أنه، قياساً بماضيه، يمكن أن يوافق، بل أن يزعم أنه أوحى بعملية عنف بهذا الحجم المذهل تحفر له موقعاً فى سجل الإرهاب، لكن دون أن يعترف بأنه أمر بها أو خطط لها، والأهم من ذلك عدم اعترافه بأى دور فى إدارتها وتنفيذها. هذه الطريقة المخادعة وغير المباشرة كانت قد أصبحت سلوكاً مألوفاً لديه منذ عقد من السنين تقريباً، وقد أهله للإيحاء بأن يده تمتد إلى زوايا الأرض الأربع حتى كان أشبه بالمستحيل، فى ضوء أى مقياس منطقى، الربط بصورة حاسمة بينه وبين أعمال الإرهاب المتراكمة عند عتبة بابه. كذلك فإن هذا السلوك قد أبعده، على الأقل فى حسبانه، عن الأعمال الإرهابية التى نظمها هو بالفعل».

تمتد خبرة المؤلف الصحفية بالشرق الأوسط على مدى أربعين سنة، وقد أوضح لنا فى كتابه هذا كيف تختصر حياة أسامة بن لادن الصدام الحتمى بين إسلام القرن الحادى والعشرين والغرب، واصفاً رحلة ابتعاده عن الغرب وعن «مملكة النفط» السعودية التى تشكل عائلته جزءاً لا يتجزأ منها.

يستعرض المؤلف نشاط أسامة قبل الحادى عشر من أيلول ٢٠٠١، ويرى فى شخصيته نموذجاً جديداً غير مسبوق فى التاريخ المعاصر: رجل أعمال مستقل ذو ثروة، ينتشر أتباعه فى أرجاء العالم.

يستكشف راندل ما عرضه أسامة على السعوديين من أن تتولى قوات «القاعدة» إخراج صدام حسين من الكويت فى العام ١٩٩١. وبعد أن يقتفى مصادر أسامة المالية ومعارجها إليه، يعود ليخبرنا كيف تحولت حرب العراق إلى أداة فى أيدى أتباعه.

ينبثق نص راندل من مصادره الموثوق بها فى الشرق الأوسط وفهمه العميق لهذه المنطقة، وهو الأنقى والأوضح من أى نص قرأناه لكل التساؤلات المحيطة بشخص يشكل أبرز بؤرة رعب فى العالم.

وقد ولد جوناثان راندل فى العام ١٩٣٣ فى بافالو، من ولاية نيويورك، وتلقى علومه فى «إكزتر» و«هارفارد». خدم جندياً فى الجيش الأمريكى فى أوروبا، وبدأ العمل مراسلاً صحفياً فى أواسط الخمسينيات فى باريس. ومن ثم عمل مع وكالة يونايتد برس وباريس هيرالد ومجلة تايم وصحيفة نيويورك تايمز، ثم انتهى به الأمر إلى العمل على مدى ثلاثين عاماً تقريباً مراسلاً لصحيفة واشنطن بوست. غطى حرب الاستقلال الجزائرية، ومن بعدها حروباً وأزمات عديدة شملت الكونغو وفيتنام وإيران ولبنان وكردستان والبوسنة وليبيريا وغيرها من النزاعات.

يحيى الرخاوي



نجيب محفوظ

همسة عند الفجر

تشكيلات الموت والحياة

تسير وانا فى مقدمتها أسير حاملا كأسا كبيرة مترعة برحيق الحياة. فى مرحلة حاسمة من العمر. عندما تنسم بى الحب ذروة الحيرة والشوق، همس فى اذنى صوت عند الفجر.

«هنيئا لك فقد حم الوداع»

واغمضت عينى من التأثر فرأيت جنازتى

همسة عند الفجر

نجيب محفوظ أصداء السيرة الذاتية (فقرة ٥٨)

«قالت لى الغمامة: سامحى

وقال الليل: سأغيب فى الفجر المضطرم

وقال الألم: سألوذ بصمت عميق كآثار خطاه

وأجابت حياتى: سأموت وأنا فى منتهى الكمال

وقالت الأرض: إن أنوارى تلثم أفكارك فى كل لحظة

وقال الحب: وتمضى الأيام ولكننى انتظرك

وقال الموت: سأقود زورق حياتك عبر البحر»

طاغور

> **الموت لا يجهز على الحياة والا أجهز على نفسه**
>
> نجيب محفوظ
>
> من ملحمة الحرافيش: (ص ٦٦)

لا أشك فى أن شيخنا قد اختار الموت راضيا حين شاء الله تعالى أن يختاره إلى جواره بعد أن هيأ ربنا الظروف لذلك، كما أننى لم أشك أنه اختار الحياة طول الوقت، حتى لحظة اختياره الموت، اختار الحياة ليس بمعنى الاستمرار على ظهر هذه الأرض كائنا بشريا جسديا متحركا حاضرا.. فحسب، ولكنه اختارها أكثر: كيانا فاعلا مبدعا جميلا مضيفا بما تيسر مهما نضبت الموارد وضعفت الأدوات. وحين تيقن أن الله تعالى قد أراد أن يجعل الأدوات أضعف حتى العجز، والمجال أضيق حتى الاختناق، اختار شيخنا أن يقولها بملء وعيه أنْ «كفى». لم يكن اختيار الحياة بديلا عن اختيار الموت، كان اختياراً متداخلا، متكاملا مكمِّلاً. حين آن الأوان: قالها شيخنا بملء وعيه أن: «كفى»، ومضى إليه راضيا مرضيا، ومع يقينى أن هذا حقه بلا منازع، فقد رحت أعاتبه: «لم قُلْتَها شيخى: «كفى» ؟ لمَ قُلْتَها الآن ونحن فى أشد الحاجة إليك؟ لم قلتها أصلا؟ لم وافقتَ؟ لم تركتنا؟ ولم أكن أعرف أنه ترك لى الرد مسبقا واضحا جليا فى أغلب أعماله حتى آخرها، «أحلام فترة النقاهة»، ومن قبلها «أصداء السيرة الذاتية».

> **لم يتمنَّ محفوظ الموت الاختفاء/العدم لحظة واحدة، لكنه رحب بالموت الرحيل الجسدى حين يحل أوانه، طول الوقت**

فرانسوا ميتران:

لكن ثمة حكاية تستأهل الحكى قبل المضى فى عرض بعض ردوده تلك:

اتذكر أننى فى أوائل معرفتى الحميمة به شخصيا، كان الرئيس فرانسوا متران يقترب من الموت بعد أن أصيب بالسرطان وتأكد من قرب النهاية، سأله أحد الصحفيين بعشم (أو وقاحة) عن توقعاته بعد الموت، وعن مدى إيمانه أو رغبته فى الجنة، فأجاب دون استهانة وبكل شجاعة، أجاب بما تيسر له، ومن ذلك أنه يرى أن الخلود فى الجنة بلا نهاية هو أمر يدعو للملل، نقلت للأستاذ هذا التصريح متعجبا، وربما معْجبا بشجاعة متران ومساحة الحرية التى تسمح بمثل هذا التصريح، أطرق الأستاذ رأسه ليس قليلا، وقد عودنا أنه حين يفعل ذلك فهو يُعمل فكره دون التزام بالرد. صمتُ منتظرا، وطال الانتظار ثم نبهته بكل العشم أنى أحتاج إلى تعليقه، قال: «أنا لا أوافقه»، قلت له «ألم تلاحظ شجاعته حتى لو اختلفنا معه؟ السنا نفتقد إلى هذه المساحة من الحرية التى يتحركون فى إطارها بلا سقف يُقَزِّمهم؟» قال: «ليكن، لكنك تسأل عن رأيى فيما قال، لا عن ما أتاح له إبداء رأيه»، انتبهت إلى دقة انتباهه، ووافقته، ثم أردفت أننى ما زلت انتظر تعليقه على تصريح «ميتران»، قال بعد قليل: أنا لا أوافقه. اسمع يا سيدى: أنت حين تحب شخصا ألاّ تكون حريصا على البقاء معه أطول مدة ممكنة؟ قلت نعم. قال: هل يمكن أن يخطر ببالك ما هو ملل وأنت تحبه فعلا؟ قلت: لا، قال، فإذا كنت تحب الله سبحانه، فهل تشبع من قربه مهما امتد الزمن بلا نهاية، أم أنك تزداد فرحة وتَجدداً طول الوقت؟

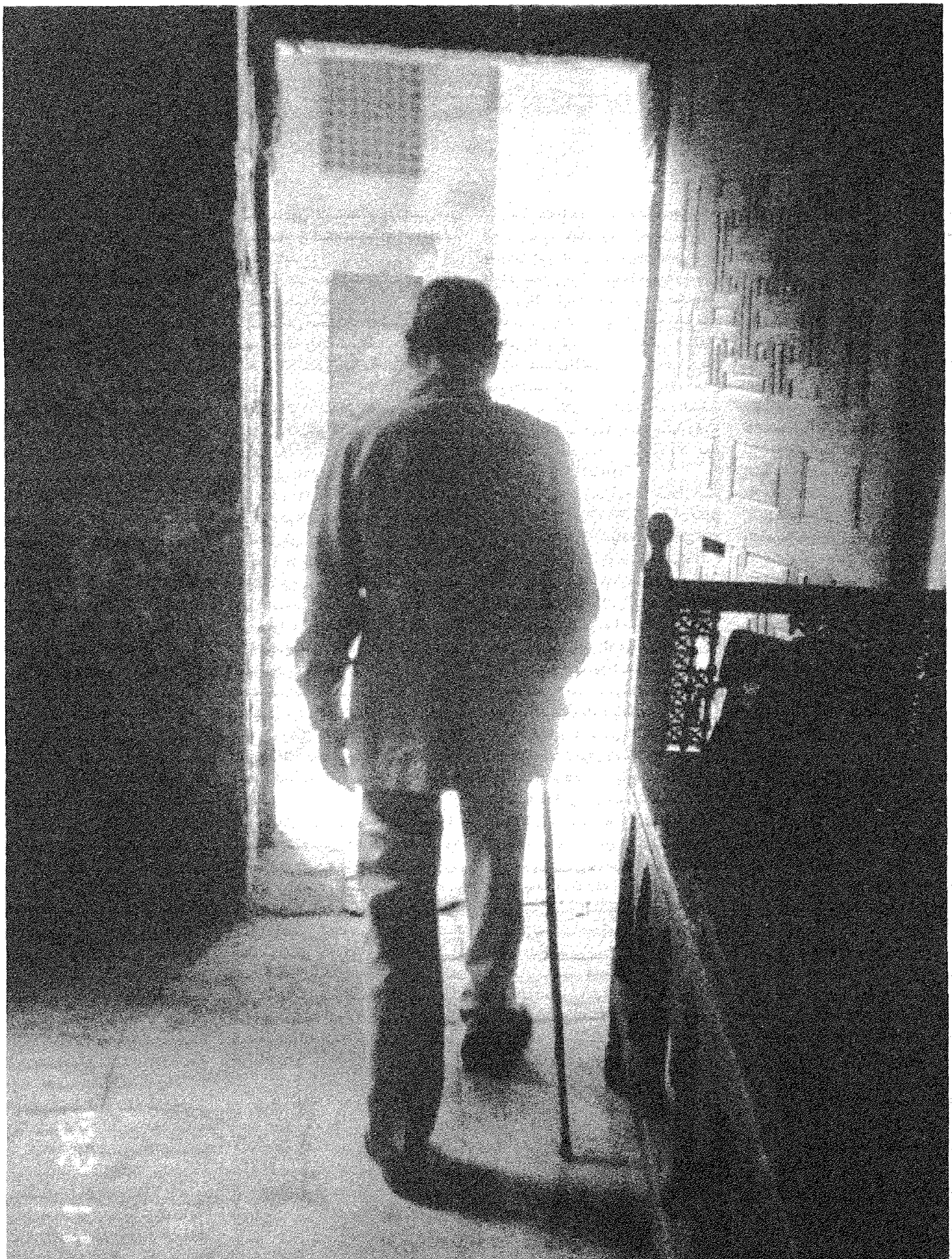
صمت شاكرا، فاهما، متعجبا، متأملا داعيا

نعاهدك ألا تموت بما تركت فينا:

كان هذا الحديث. على ما أذكر. قبيل وفاة ميتران (٨ يناير ١٩٩٦)، رحت أتأمل يقين شيخنا من حبه لله ورغبته فى البقاء إلى جواره، يدور فى فلكه إلى أبد الآبدين، لم يخالجنى أدنى شك فى موقفه هذا طوال معرفتى له بهذا القرب، وحتى قبل معرفتى الوثيقة تلك، قبل أن ألقاه، كان قد وصلنى هذا الموقف، تماما وقد سجلته منشورا[1] بمجرد أن بلغنى حادث الاغتيال كتبت آنذاك أخاطبه قائلا. ..تصورتُ أننى شاب من هؤلاء المخدوعين أتابع ما جرى لك , وأعايش موقفك , وأفهم أقوالك , فأفاجأ بك تدعو لى أنا القاتل أو المتربص للقتل , تدعو لى بالهداية , هل أستطيع بالله عليك إلا ان أقول «آمين» , وحين أهتدى بك شيخنا سوف أعرف الله الذى أردت أن تُعرِّفنى به طول عمرك على مسار إبداعك...، إلى أن قلت:

«يا شيخنا: مازلنا فى حاجة إلى بقائك بيننا.... ربنا يخليك لنا ولهم، وإن تَمُتَ - بإذن ربنا , لا بمديتهم - فنعاهدك ألا تموت بما تركت فينا ولنا».

مضى على استجابة هذا الدعاء إثنى عشر عاما، ثم اختاره ربنا، وبالتالى آن الأوان أن نفى بما تعهدنا به،... «الا يموت بما ترك فينا ولنا».



عدسة الأديب: جمال الغيطاني

علمنى الدهر

قبل ذلك بعام إلا قليلا نشر محفوظ فى الأهرام قصة قصيرة بعد أن غير الأهرام عنوانها دون استئذانه - كما أخبرنى!!- حتى أصبح عنوانا ضحلا هو «علمنى الدهر»[٢]، وصلنى منها أن شيخى يعد نفسه «بهدوء» للرحيل، وإن استغرق ذلك أكثر من اثنى عشر عاماً.

تبدأ القصة القصيرة هكذا:

«آن لنا أن نرحل»

«.... نصح الطبيب بذلك وإذا نصح الطبيب وجبت الطاعة , كانت إقامة طيبة , وشقة أنيقة».

ثم تمضى القصة فى اتجاه أن الساكن الجديد الذى سيحل محل الراحل هو أولى بالمسكن، إلى آخر ما يشير إلى أن البقاء هو للأكثر فتوة، وأوفر شبابا وأصغر سنا.

لكن يشوب بقية القصة تخوف الراحل من النسيان، وفتور العواطف، الأمر الذى أتعجب كيف خطر لشيخنا أصلا، وعلى قدر رضا هذا الساكن القديم بالرحيل، كان الساكن الجديد موهوما بالدوام حين قال لصاحبة المنزل:

-......، لتكن إقامة دائمة بإذن الله

فقالت له بثقة: ما أقام عندى ساكن وفكر فى هجر بيتى

ويعترف الراوى (الراحل) أنه فعلاً لم يفكر فى هجر البيت، إنما الذى قرر الرحيل هو الطبيب، فهو يقول:

«هذا حق»، ثم يضيف:

«ولكن ما العمل إذا نصح الطبيب!..»

«وثمة عتاب يا ست الستات: كنت عندك فرخة بكشك حتى حل بى المرض»

وحين صعد إلى القطار، أعلن رضاه بقوله (فى باطنه):

- من الإنصاف أن أذكر أنها إقامة جميلة وأنها تستحق الشكر»

انتهت القصة القصيرة.

قال محفوظ كل ذلك حتى قبل الحادث: (سنة ١٩٩٣)

الاستلهام قبل التأبين، والنقد قبل التمجيد

فهل حدث بعد ثلاث عشرة سنة شىء آخر؟ وهل ننتبه إلى احتمال تخوفه من أن ننسى ما ترك فينا بعد رحيله؟ لا أظن، فكل ما بلغنى مما يجرى حولى حالا يقول إن التكريم، والتأبين، والتمجيد، كل ذلك يجرى على قدم وساق، بكل معانى ومظاهر الوفاء الجاد، وضد كل التخوفات التى جاءت بالقصة. لكن لثقتى فى حدس شيخى كتبت للجنة المكلفة بكل هذه المهام، والتى تقوم بها خير قيام، كتبت تحفظاتى على الاكتفاء بالتخليد دون الامتداد، وبالتأبين دون الاستلهام، وبالتمجيد دون مواصلة النقد والابداع.

كيف أحب محفوظ الموت وهو يحمل كل هذا الحب للحياة؟

لم يتمن محفوظ الموت الاختفاء/العدم لحظة واحدة، لكنه رحب بالموت الرحيل الجسدى حين يحل آوانه: طول الوقت.

من أكثر الأعمال النقدية التى لا أتردد فى الفخر بكتابتها هو ما جاء بالجزء الأول من نقدى لملحمة الحرافيش الذى صدر فى أكثر من موقع منذ سنة ١٩٩٠، وقد كان بعنوان دورات الحياة، وضلال الخلود: ملحمة الموت، والتخلق فى الحرافيش[٣]

يقول محفوظ فى الملحمة (ص ٦٤): «الموت لا يجهز على الحياة، وإلا أجهز على نفسه».

حاولت فى نقدى هذا أن أبين كيف كان الوعى بالموت، الموت الامتداد، الموت الهارمونى الأكبر، هو المحور الأساسى للملحمة، التى تجلى فيها كل من الإيقاع الحيوى، وإعادة الولادة، المرة تلو المرة، كأروع ما يكون التجلى، كما تعرى وهم الخلود على هذه الأرض، حتى ظهر أنه العدم الخامد، أى الموت الذى نخافه جميعا.

وصلنى من الملحمة - ومن غيرها - كيف أن التوليف الجدلى بين الموت والحياة هو أصعب مراحل جدل الوجود.

الطفل يعرف الموت أفضل:

منذ ذلك الحين رحت أحاول التعرف على الموت من خلال إبداعات متعددة، حتى تحددت معالمه لى أثناء نقدى بعض حكايات هانز كريستيان أندرسون الخرافية للأطفال. اكتشفت: فى قصة «بائعة أعواد الكبريت الصغيرة» كيف يرسم أندرسون موت الصغيرة على الوجه التالى:

صاحت الصغيرة: جدتى خذينى معك، أعلم بأنك ستختفين عندما ينطفئ عود الكبريت. ستختفين مثل الموقد الدافئ، مثل البطة الشهية وشجرة عيد الميلاد المباركة، ثم أسرعت بشحط عيدان الكبريت الباقية فى الحزمة تلو الآخر، كانت تود بشدة أن تبقى جدتها، أضاءت عيدان الكبريت ببريق أصفى من ضوء النهار، لم تكن جدتها فى يوم أحلى وأكبر منها الآن، حملت الجدة الفتاة الصغيرة بين ذراعيها وطارا بألق وفرح عاليا، عاليا جدا، حيث لا برد ولا جوع ولا خوف، كانا عند الله.

علمنى أندرسون من خلال هذه القصة حتى النهاية كيف يمكن أن تكون النقلة هادئة بين الحياة والموت، إلى الله سبحانه.. كل ذلك ووعينا يضىء المرة تلو المرة فى نعومة حانية، وألم جميل، بما يجعلنا أقرب إلى أنفسنا، وإلى خالقنا ورحمته، وبما يجعل الموت هو القريب البعيد، هو الذى نخشاه بقدر ما ننتظره، هو الطريق إليه ونحن نعيش واقعنا نجمع بين قسوة الفقر، وقرص الحرمان، ونداء الطبيعة، وفرحة الأمل، وقوة الخيال، فى نفس الوقت.

فى قصة أخرى لأندرسون للأطفال أيضا بعنوان «قصة أم» يتجسد الموت الذى خطف الصغير من أمه الثكلى فى شكل شيخ غريب، فتهيم الأم على وجهها نائحة باحثة لتسترد ابنها المخطوف، وفى سبيل ذلك تضحى بكل شىء تعطيه لمن تقابله، وما تقابله، فى مقابل أن يدلها على أين ذهب الشيخ (الموت) بابنها: تضحى بعينيها فلا تعود تبصر، وبلسانها و..و...الخ. حتى تصل إلى «مشتل الموت» فإذا بالموت ليس عدما بل مشتلا انقلب فيه الراحلون إلى زهور واعدة بما لا نعرف، وتنتهى القصة بأن ترضى الأم أن تتنازل عن إصرارها على استرجاع ابنها حيا، وتسلم ابنها زهرة بين الزهور فى

اسمع يا سيدى: أنت حين تحب شخصا ألاَ تكون حريصا على البقاء معه أطول مدة ممكنة؟ قلت نعم. قال: هل يمكن أن يخطر ببالك ما هو ملل وأنت تحبه فعلا ؟ قلت: لا، قال، فإذا كنت تحب الله سبحانه، فهل تشبع من قربه مهما امتد الزمن بلا نهاية؟

مشتل الموت، زهرة تنتظر قدرها وتقبله، إنها تتنازل عن محاولتها استرداد طفلها قائلة للموت: «....إحمله، إحمله بعيدا إلى ملكوت الله، إنس دموعى، إنس دعواتى».

يتعجب الموت (الشيخ) قائلا: «لا أفهمك، ألا تريدين طفلك، أتريدننى أن آخذه إلى هناك، حيث لا تعلمين» ؟

ترد الأم: لا تسمعنى حين أسألك بخلاف مشيئتك، التى هى المثلى، لاتسمعنى لا تسمعنى، وحنت رأسها إلى الأسفل إلى حضنها، ومشى الموت بابنها إلى البلاد المجهولة.

رثاء عاتب

لم استطع أن أقف موقف هذه الأم الجميلة من رحيل شيخنا الجميل، الأم تعرفت على مشتل الموت بهذه الشجاعة والسهولة ورفضت استرجاع ابنها بعد أن اطمأنت عليه، لكننى رحت أعاتب شيخى أنه رحل دون استئذاننا. بل إننى رحت أطالبه أن يوقف الزمن، مع أنه القائل على لسان شمس الدين الناجى فى ملحمة الحرافيش (ص ١٢٧) «إن هدم زفة مسلحة أيسر ألف مرة من صد ثانية بما لا يقاس....».

إبداع متواصل:

لم يحل أى حدث أو إعاقة أو صعوبة أو عجز دون أن يواصل شيخنا إبداعه حتى آخر لحظة، وأحسب أنه لن يطمئن إلى اننا لن ننساه إلا إذا واصلنا بدورنا مسئولية الإبداع عامة طول الوقت، طول الدهر، هذا هو ما يجنبنا تحقيق مخاوفه التى بدت متشائمة فى «علمنى الدهر».

عرفت نجيب محفوظ شخصيا قريبا حبيبا وشيخا رائدا منذ اثنى عشر عاما (بعد حادث الاعتداء عليه)، عرفته وقد نجا من موت محقق، لأن الله كتب له النجاة بشكل معجز، انتبهت من أول لحظة إلى كيف أن إرادة الحياة كانت ومازالت لديه متدفقة غامرة، حدث ذلك من أول زيارة له فى مستشفى الشرطة بعد الحادث، فهدتنى إرادته تلك إلى أن أكون عونا فى أن يستمر فى الحياة كما أرادها له ربنا، فوفقنا الله أن يخرج بانتظام إليها - الحياة - برغم كل الصعوبات، والإعاقات، والمقاومة المحبة ممن حوله خوفا عليه وحرصا على سلامته. راح شيخنا يمارس حب الحياة كما كان دائما، ولو لم يتبق له من أدواتها إلا بعض هسيس سمع، وبعض بصيص بصر، وما تيسر من «شخبطة يد»، ثم جسد كالطيف يتنقل به بكل ثقة وإصرار كل يوم، كل يوم، كل يوم، بلا استثناء أو توقف، إلا للشديد القوى!. صنع محفوظ من أصدقائه ومن ترتيب أيامه واقعا جديدا من الناس، فقد كانوا دائما

غذاء وجوده، فراح يمارس، بتلقائية رائعة ما أسميته الإبداع الحيوى المباشر، أو «إبداع حى= حى». (قياساً على صواريخ: أرض = أرض) اكتشفت أنه بحضوره بيننا، مع تواضع وسائل تواصله، يعيد تشكيل وعينا بشكل مباشر دون حاجة إلى أن يسجله فى رمز مكتوب أو نص مقروء.

فى أصداء السيرة الذاتية يقول نجيب محفوظ:

«... تذكرت كلمات بسيطة، لا وزن لها فى ذاتها، مثل «أنت»، «فيم تفكر»، «طيب»، «يالك من ماكر»... ولكن لسحرها الغريب الغامض جن أناس، وثمل آخرون بسعادة لا توصف».

تحقق لى من خلال هذا التشكيل البشرى اليومى لوعينا من حوله: ذلك الفرض الذى طالما شغلنى، وهو: إن الحياة الحقيقية هى الإبداع الحقيقى: قبل وبدون أى ناتج إبداعى آخر خارج عن ذات صاحبه.

الإبداع بالمشاركة الحية:

رحت أتأمل اختراقه لكل ما أصابنا إذ أصابه، رحت أتابعه وهو يروض القدر بفعل هادئ طيب صبور، ساعة بعد ساعة، يوما بعد يوم، جلسة بعد صحبة، حديثا بعد نكتة، فعاينته وعايشته وهو يبنى معمارا جديدا من وعى المحيطين بحركية وعيه الناقدة لتتجدد من خلال هذه اللقاءات المنتظمة.

ما وصلنى من معايشتى تلك ما بين لقاءاتنا به فى جلسات مفتوحة، أو حرفشة خاصة، هو أن ثمة مقاييس للإبداع، مثل أن يخرج الواحد منا - من جلسته - غير ما دخل، أو أن يكتشف الواحد منا - وهو يتحدث إليه - غير ما قصد، أو أن يتذوق الواحد منا طعم الهواء الداخل إلى صدره غير ما ألف، كل ذلك من واقع هذه المعايشة البسيطة الصادقة العميقة، إذ راح شيخنا يقرؤنا ويكتبنا ثم يعيد كتابتنا دون أن يخط حرفا واحدا على الورق، وهو لا يكتفى بهذا، بل يسمح لنا أن نعيد قراءته واستقبالنا له. أى خبرة وأى تجربة!!!

حل آخر: إبداع الأحلام:

بعد أن انتصر شيخنا بالتدريب اليومى المعجزة على عجزه عن الكتابة، لم يكتف بإبداع وعينا بهذا الحضور المباشر، فراح يعايش عالم أحلامه كواقع بديل، ثم استطاع أن يرغم مفردات واقع الحلم أن تبقى معه بعد استيقاظه، لتمثل له الأبجدية التى يصوغ منها إبداعه الجديد. كنا نسأله بين الحين والحين عن احتمال عودته إلى الكتابة، فيصمت، ثم إذا به ذات يوم يخبرنا بفرحة طفلية بديعة أن ثمة «نغبشة» بدأت تراود دماغه: ثم تصدر الإرهاصات الأولى، موجزة «مشخبطة»، ثم هات يا إبداع غير مسبوق لما أسماه أحلام فترة النقاهة وخذ عندك: معجزة جديدة بعد الأصداء.

تشكيلات الموت فى الأحلام

عاودت قراءة أحلام النقاهة مجتمعة بعد رحيله، ووصلنى بعض الرد على عتابى له راثيا، وأيضا على التساؤلات التى سألها الناس عن «كيف أحب محفوظ الموت» لكن فى نفس الوقت- بالمصادفة - كان قد أصدر المجلس الأعلى للثقافة كتابى فى نقد الأصداء «أصداء الأصداء»[٤].

فمررت فيه فإذا بتجليات الموت تمثل محوراً أساسيا قدرت أن يكون الفصل الأول فى الجزء الثانى من الدراسة الطولية النقدية للأصداء، لكننى أكتفى هنا بمرور فى الأحلام.

هكذا أجابنى محفوظ عن كل ما تساءلت عنه بعد رحليه وكأنه كان يعلم جزعى واحتجاجى.

رفع الحواجز بين مستويات الوعى

أن نتعرف على الموت، وما بعده واقعاً ملموساً متحققاً، هو المستحيل بعينه. المبدع الحقيقى يستطيع أن يستشرف بعض ذلك، دون يقين مطلق. ومثلما أراد أفلاطون فى جمهوريته أن يعلمنا ماهية النفس الإنسانية، فكبرها بمجهر إبداعه حتى صارت جمهورية كاملة، فإن محفوظ اخترق الحواجز بين وعى الحلم ووعى اليقظة ليعرف ويتعرف، ولعله يعرفنا، ماذا هناك على الجانب الآخر (بما فى ذلك الموت)، النوم موت أصغر، والحلم حركية مرنة زاخرة تتشكل بداخل هذا الموت الأصغر، واليقظة إحياء بعد الموت (الحمد لله الذى أحيانى بعدما أماتنى وإليه النشور) - حين لجأ محفوظ إلى إبداع الأحلام (وليس تسجيلها) وجد نفسه داخل هذا الموت الأصغر، فاستطاع أن يلمح بعض معالم الموت الأكبر من النافذة التى فتحها بين مستويات الوعى هكذا:

تعالوا نبدأ بآخر حلم نشر له، ونتجول معه وهو يرفع هذه الحواجز.

«رأيتنى أعد المائدة والمدعون فى الحجرة المجاورة تأتينى أصواتهم أصوات أمى وإخواتى وأخواتى، وفى الانتظار سرقنى النوم ثم صحوت فاقدا الصبر فهرعت إلى الحجرة المجاورة لأدعوهم فوجدتها خالية تماماً وغارقة فى الصمت وأصابنى الفزع دقيقة ثم استيقظت ذاكرتى فتذكرت أنهم جميعاً رحلوا إلى جوار ربهم وأننى شيعت جنازتهم واحداً بعد الآخر.

لمَ قُلتَها شيخى: «كفى»!!

قد كنتَ فينا رائحاً أو غادياً تخطو بنا نحو الذى قد صاغَنا، وجعلتَ إيقاعَ الحياة له صليلٌ مثل نبض الكون سعيا للجليل، حتى حسبنا أنها لا تنتهى، وظللتَ تخطرُ هامساً كالطيف، كالروح الشفيف، كظلٍّ رب الكون فيما بيننا، وجعلتَ تنحت جاهدا لتعيد تشكيل البشرْ:

حُلماً فحلماً: واقعاً منّا، لنَا، نسعى إلى عمق الوجود ليلتقى فينا بنا، «لتَعارَفُوا» هذا «طريق الزعبلاوى»، نحو وجه الحق، نحو النور، نحو العدل، نحو الله فينا حولنا.

ومضيتَ تقهرُ كلَّ عجزٍ، كلَّ ضعف، كلَّ هم، حتى دعونا ربنا أن تقهر الساعات تسحبُنا إلى المجهولِ إذ تخفى العدمْ، حتى نسينا أننا بشرٌ لنا أعمارُنا.

لم قلتَها شيخى: «كفى»؟

الآن؟ كيف الآن ؟ شيخى!؟ ربنا!؟

بالله ليس الآن، إرجعْ عقارب ساعتك،

لا، نحن لسنا قدرها، ليستْ «كفى»

لا، ليس هذا وقتُها، أفلستَ تعلم أننا فى «عزِّ» حاجتنا إليك؟

أفلستَ تعرف ما جرى؟

أفلستَ تعرف كيف تنهشنا السباعُ الجائعة؟

أفلستَ تعرفُ أن ما يأتى بدونك لهُوَ أقسى ألف مرة؟

لو كنتَ أقسمتَ عليه، من أجل خاطرِنا، لأبرَّك الله العزيز بقدر ما وعد الذين همُوا كمثلك.

لمَ قلتَها شيخى: «كفَى»؟

كنا نريدك دائما تخطو جميلا بيننا، كنا نريدك خالدا فى قرة العين هنا، كنا نريدك مثل أطفالٍ أبوا أن يُفطموا من حلو ما نهلوا عطاءك، مثلنا، كنا نريدك نحتمى فى دفء بُرْدك من برودةِ عصرنا.

لكنْ خاتمةَ الكتاب تقررت، فسمعتَها، وكتمتَها حرصا علينا، وانسحبتَ برقةٍ وعذوبةٍ، وتركتَنا.

لمَ هكذا؟

علّمتنا شيخى بأنا قد خُلقنا للحلاوة والمرارة نحملُ الوعى الثقيل نكونُه سعيا إليه.

فاجأتَنا، ورحلتَ دون سؤالنا.

ويكى الخميسُ لقاءَنا، وتركتَ بيتى خاويا فى كل جمعةْ.

ماذا جرى؟

كيف جرى؟

هل يا تُرى: قد كان همسا من وراء ظهورنا يدعوك سراً:

ورجوتَ أن تلقاه شيخى بعد ما طال العناءْ؟

فاستأذن الجسدُ العليل بشجَةٍ فى الرأس كانت عابرة؟

لا لم تكن أبدا مصادفةً، ولم يشأ القدرْ كانت نذيراً بالوداعْ، قطعت حبالَ وِصالنا فتهتك العهدُ القديمُ وحرر الجسدَ العنيد، والشيخ درويش «الزقاق» يقولها:

«لا شىء دون نهاية»

وهجاؤها:

«قد حان وقتٌ للرحيل».

علَّمتنا شيخى الجليل:

أن الخلودَ بهذه الدنيا عدمْ، والموتُ لا ينْهى الحياةَ لكلٍّ من أعطاها مثلَكَ نفسَهُ، الموتُ ينقلها إلى صُنّاعها من بعض فيضك، قد كنتَ رائدَ حملها.

يا للأمانة!!

يا ثقلها!!!

هل جاء من أنباكَ أنَا أهلُها؟

حتى الجبال أبيْنَ أن يحمِلْنَها.

كيف السبيل، وكل هذا حولها؟

لكنَّ ما قدّمتَ علَّمنا «الطريق» إليه عبر شعابها:

لَمّا عرفتَ سبيل دربك نحوه، كدحاً إليه:

ودخلتَ فى عمق العباد تعيد تشكيل الذى غمرتْه أمواجُ الضلالْ، حتى تشوهَ بالعمى والجوع والجشع الجبانْ.

شيخى الجليل:

ما دمت أنتَ فعلتَها فانعم بها واشفعْ لنا أن نُحمل العهدَ الذى أوْدَعْتَنَا شيخى الجليل:

نمْ مطمئنا، وارجع إليه مُبْدعاً، عبر البشر، وادخل إليها راضيا، أهلاً لها.

نجيب محفوظ

همسة عند الفجر

(حلم ٢٠٦)

أين الحواجز بين الحياة والموت، بين النوم والصحو، بين الذاكرة والواقع؟

كيف كان شيخى يتلقى الموت:

عاصرت شيخى مع بعض الحرافيش الأصليين، فرحنا بكل الجزع نفقد الحرفوش تلو الآخر فلا نستطيع أن ننسى الموت أو نتغافله، بل إن الموت سبق رحيل هؤلاء الحرافيش حين اختطف باكرا صديقا - ليس حرفوشا - هو مصطفى أبو النصر ثم اختطف صديقا لاحقاً فى عز وهجه هو أ.د. محمد راضى، ثم رحل من الحرافيش كل من بهجت عثمان، وأحمد مظهر ثم عادل كامل (بلغنا رحيله من أمريكا بعد أن زارنا بضعة أسابيع) كان تفاعل شيخنا لكل ذلك هادئا صادقا متألما لعله يتمثل دائما فى القول الرائع: الموت حق، ولكن الفراق صعب.

التذبذب فى قبول قرار الموت

حين يقترب الموت واقعاً، حتى بقرار طبيب، تقفز منا، فينا، مواقف متذبذبة، هى أكثر من موقف فى آن، بعضها فى بؤرة الوعى وبعضها على هامشه، تتراوح هذه المواقف ما بين الجزع والتحدى والتسليم والتمنى والمراجعة، إلى غير ذلك، وقد تبدو متداخلة أو متناقضة لكنها كلها تعلن - فى النهاية - التمسك بالحياة، بشكل أو بآخر. ثم أن الوعى بتوقيت الموت القادم قد يدفعنا - بدلا من التسليم - إلى الإقدام على ما يبدو تمسكا بالحياة، أو اللحاق بآخر مركبة فيها، أو اختيار هو أقرب إلى التوريط.

هذا بعض ما وصلنى من هذا الحلم:

لم يبق فى الحياة إلا أسابيع فهذا ما قرره الفحص الطبى، فحزنت حزناً شديداً ثم تملكتنى موجة استهتار فأقبلت أتناول الأطعمة التى حرمها على الأطباء من سنين ولازمت صديقتى «س» وعرضت عليها الزواج فدهشت وقالت لى: إنك تفقد صداقة بريئة عظيمة ولا تكسب شيئاً فألححت عليها حتى رضخت وبعد يومين جاءنى صديق طبيب يخبرنى بأن هناك أخصائيا عالميا سيزور مصر وأننا حجزنا لك مكاناً عنده فهنيئاً لك بفرحة الحياة، وغمرنى سرور من رأسى لقدمى غير أننى تذكرت الأطعمة الضارة التى التهمتها، والزواج الذى قيدت به نفسى على غير رغبة، فشاب فرحتى كدر وقلق.

(حلم ١٥٧)

الموت: تمزيق الصفحة فى انتظار الوعد. ثم موت هو بمثابة تمزيق صفحة الزمن البليد، وذلك متى تبين صاحبها أنها خالية إلا من الاغتراب وتزجية الوقت باللاشىء، أو بتكرار مُسَل، ربما بعزف أنغام النعابة: دون إضافة أو تجديد، حياة أشبه بالتسول، قد يقفز الوعى بهذه اللاجدوى فى أزمة منتصف العمر أو بعده أو ربما بمناسبة فقد عزيز أو بتذكر رفاق، رحلوا بلا معنى ولا أثر، هنا قد يقفز الحل التقليدى بالدعوة للانسحاب، أو حتى قبول الكف عن الشخبطة والثرثرة فى صفحة الزمن الخاوية إلا مما لا لزوم له، شىء أشبه باستجداء الأيام لمزيد من اللامعنى، وتظهر الوعود بالانتقال إلى المكان الجميل والرزق الوفير، وهى دعوة عيانية تصدر عادة من سُلطة وصية مفسرة، أو حلم واعد بلا ضمان أكيد، ذلك أن تحقيق هذا الوعد يرجع إلى رأى أصحاب النفوذ القادرين الواثقين، فتبدو المسألة كأنها النقلة من خواء فاتر، إلى راحة مؤمَّنة، ليكن، فهى الخلاص من الضياع على أية حال، أملا فى القبول بالموعود، ولو من حيث المبدأ، لكن الأمر يحتاج «همة عالية وصبر طويل»، فلم العجلة، فليقصُر وقت الانتظار أو يطول، فالأمر محسوم يوماً عند الجامع على طلوع الفجر

عند منعطف من منعطفات الحارة، رأيت أمامى الصديقين الشقيقين اللذين طال غيابهما وأحزننى غاية الحزن، وبهتنا لحظات ثم فتحت الأذرع وكان العناق الحار، وتذاكرنا الأحزان و الأفراح والليالى الملاح، وطلبا منى زيارة سكنى فمضيت بهم إليه على بعد أمتار، وتفحصاه حجرة بعد حجرة وضحكا طويلا كعادتهما ثم أعربا عن أسفهما لبساطة المأوى، ثم سخرا منى بلسانيهما اللاذعين الجذابين. وسألانى عن عملى الذى أعيش منه، فأجبت بأننى عازف رباب وأتغنى بعذابات الحياة وغدر الدهر، وعزفت لهما وغنيت فقالا إنها حياة أشبه بالتسول، ولذلك فهما لا يدهشان لما يبدو فى وجهى من آثار الضعف والبؤس، وقالا لى إنهما بحثا عنى طويلا حتى عثرا على، وتبين لهما أن قلقهما على كان فى محله وانهما يبشرنى بالفرج.. حمدت الله على ذلك ولكن ما الذى يبشراننى به؟ قالا ستهاجر معنا إلى المكان الجميل والرزق الوفير، فسألت كيف يتيسر لى ذلك فقالا إنهما - كما أعلم - يمتان بصلة لأصحاب النفوذ ولا خير يجىء إلا عن طريق أصحاب النفوذ.

وتأبطا ذراعى وسارا بى إلى الخارج، حتى بلغنا أحد الرجال العظام شكلا وموضوعا، واستمع للحكاية بوجه محايد، وقال لى إن الهجرة تحتاج لهمة عالية وصبر طويل، فوعدنى خيرا، وقال الصديقان، إنهما يطمئنانى.. فقال:

- انتظرونى عند الجامع على طلوع الفجر.

> **عاصرت شيخى مع بعض الحرافيش الأصليين، فرحنا بكل الجزع نفقد الحرفوش تلو الآخر فلا نستطيع أن ننسى الموت أو نتغافله**

(حلم ٣٤)

الخوف من الموت:

مهما أعلنا حب الموت، أو زعمنا قبوله، أو سلَّمنا بانتظاره، ومهما صدقت الوعود بما بعده، حتى رأيناها رأى العين فى حلم أو بيقين راسخ، إلا أن المسألة - من عمق أعمق - ليست بهذه السهولة المعلنة. حتى بعد التأكد من اللقاء هناك بأمثالنا، وبعد الارتياح إلى صدق الوعد بما لذ وطاب، يظل الحرص على الحياة غالباً ربما من باب «اللى تعرفه أحسن من اللى ماتعرفوش»، الحرص على الحياة غالب إلى آخر لحظة حتى لو حَرَمنا هذا الحرص من المشاركة فى ما تُقدمه الحياة، وما بعد الحياة فالأصدقاء فى هذا الحلم هم أصدقاء العمر الراحلون، والامتناع عن مشاركتهم، وهم قد رحلوا، هو حرص على الحياة يمتد حتى بعد الاطمئنان إلى أن الذين رحلوا مازالوا يسمرون ليلاً تسبقهم ضحكاتهم المجلجلة، والمفارقة الموقظة هنا هى التنبيه إلى أن الخوف من الموت يمتد حتى بعد الموت.

وجدت نفسى فى بهو جميل، وبين يدى وعاء ذهبى ملئ بما لذ وطاب.

فذكرنى هذا بسمار الليالى من أصدقاء العمر الراحلين، وإذا بى أراهم مقبلين تسبقهم ضحكاتهم المجلجلة. فتبادلنا السلام وأثنوا على الوعاء وما فيه. غير أن سعادتى انطفأت فجأة وصارحتهم بأننى لن أستطيع مشاركتهم حيث منعنى الأطباء من التدخين منعا باتا، وبدت الدهشة على وجوههم ثم ركزوا أبصارهم فى وجهى وتساءلوا ساخرين:

- أمازلت تخاف من الموت؟!

حلم ٩٢

الموت لا يفرق بين الأحبة:

حضور وعى من يرحل عنا «فى» وعى من يبقى منا، هو فرض يزداد اقترابا واحتمال تحقق يوما بعد يوم، سواء من منطلق علمى بيولوجى، أو من منطلق نفسى باراسيكولوجى، أو حتى من منطلق ميتافيزيقى، وبالتالى: إنه من المحتمل أن يبقى - فينا - من نتصور أنه رحل عنا بجسده، خاصة إذا ما كان قد تم بيننا وبينه حوار حياتى جدلى عميق، يسمح بهذا التشكيل المتداخل لوعينا معاً، ليس فقط ما يسمى الحب هو الذى يسمح بمثل هذا الجدل، ولكنه يسمى عادة بهذا الأسم.

سمعت شيخى ينبهنى إلى ما يشككنى فى حبى له، من فرط افتقادى إياه وذلك حين أمعنت النظر فى رد المعلم القديم على المرحومة عين وهى تعتذر له بالموت عن الغياب.

رأيتنى فى حى العباسية أتجول فى رحاب الذكريات وذكرت بصفة خاصة المرحومة عين فاتصلت بتليفونها ودعوتها إلى مقابلتى عند السبيل وهناك رحبت بها بقلب مشوق واقترحت عليها أن نقضى سهرتنا فى الفيشاوى كالزمان الأول وعندما بلغنا المقهى خف إلينا المرحوم المعلم القديم ورحب بنا غير أنه عتب على المرحومة عين طول غيابها فقالت إن الذى منعها عن الحضور الموت فلم يقبل هذا الاعتذار وقال إن الموت لا يستطيع أن يفرق بين الأحبة.

من حلم ١٠٤

الموت العدم والجسد الهش:

حضور وعى الراحل فى تشكيل وعى من تبقى من أحياء لا يتم إلا إذا كانت العلاقة حقيقية نابضة: أحيانا نتوهم باندفاع عاطفى مغترب أننا نحب شخصاً ما حباً هائلا، ونحن لانحب إلا ماتصورناه عنه، وحين يختفى جسد هذا المحبوب بالموت، تتراجع أو لا تتراجع معه صورته التى كوناها له، لكنها - الصورة لا الوعى - يمكن أن تُستدعى فى الحلم أو فى العلم، فى ذكرى أو تخيل، لكنها مجرد صورة لا تمثل وعى الراحل، فإذا ما حدثت الصحوة المفاجئة، فقد نصدم ونحن نتبين من خلالها الحقيقة، وأن «طلعتها البهية، ومشيتها السنية وملامحها الأنيقة» لم تكن إلا من صنعنا نحن، فتتعرى

عندما بلغنا المقهى خف إلينا المرحوم المعلم القديم ورحب بنا غير أنه عتب على المرحومة عين طول غيابها فقالت إن الذى منعها عن الحضور الموت فلم يقبل هذا الاعتذار وقال إن الموت لا يستطيع أن يفرق بين الأحبة

الصورة ولا يبقى إلا كيان هش، يعلن عدماً منذ البداية..

تريضت على الشاطئ الأخضر للنيل. الليلة ندية والمناجاة بين القمر ومياه النهر مستمرة تشع منها الأضواء. هامت روحى حول أركان العباسية المفعمة بالياسمين والحب. ووجدت نفسى تردد السؤال الذى يراودها بين حين وآخر. لماذا لم تزرنى فى المنام ولو مرة واحدة منذ رحلت؟ على الأقل لأتأكد من أنها كانت حقيقة وليست وهما من أوهام المراهقة. وهل الصورة التى طبعت فى خيالى هى الصورة الحقيقية للأصل؟

وإذا بصوت موسيقى يترامى إلى من ناحية الشارع المظلم. صارت أشباحا ثم تجلت مع ضوء أول مصباح صادفها فى طريقها أدهشنى أنها لم تكن غريبة على فى الموسيقى النحاسية التى كثيرا ما استمعت إليها فى صباى ورأيتها تتقدم بعض الجنازات، وهذا اللحن أكاد أحفظه حفظا، إما المصادفة السعيدة غير المتوقعة فهى أن حبيبتى الراحلة تسير وراء الفرقة. هى هى بطلعتها البهية ومشيتها السنية وملامحها الأنيقة، أخيرا تكرمت بزيارتى وتركت الفرقة الجنائزية تسير ووقفت قبالتى لتؤكد لى أن العمر لم يضع هدرا، وقمت واقفا منبهرا وتطلعت إليها بكل قوة روحى. وقلت لنفسى إن هذه فرصة لا تتكرر - لألمس حبيبة القلب.

وتقدمت خطوة وأحطتها بذراعى ولكننى سمعت طقطقة شىء يتكسر وأيقنت أن الفستان ينسدل على فراغ. وسرعان ما هوى الرأس البديع إلى الأرض وتدحرج إلى النهر وحملته الأمواج مثل ورد النيل تاركة إياى فى حسرة أبدية.

حلم ١٤

الموت التغيير والمراجعة

حين ينظر الميت (حيا) إلى من خلفه، فلا يجدهم غير سلبيات ما رحل عنه، يتحسر بلا جدوى. ما دام الأمر كذلك فلماذا تركها لهم آملا أن يخطوا هم الخطوة التالية، فتطرد مسيرة الحياة، هذا عن التوقف والجمود، فإذا أضيف إليهما جحود وبلادة هذا الجيل التالى للسابقين، فقد يصدق حدس محفوظ فى تخوفه من النسيان والإهمال فى قصة «علمنى الدهر».

... هذه «حجرة السكرتارية» حيث أمضيت عمرا قبل إحالتى إلى المعاش وحيث زاملت نخبة من الموظفين شاء القدر أن أشيع جنازاتهم جميعا واسترقت نظرة من داخل الحجرة لأرى من خلفونا من الشباب فكدت أن أصعق لأنى لم أر سوى زملائى القدامى، واندفعت إلى الداخل هاتفا سلام الله على الأحباب متوقعا ذهولا واضطرابا ولكن أحدا لم يرفع رأسه عن أوراقه فارتددت إلى نفسى محبطا تعسا ولما حان وقت الانصراف غادروا مكاتبهم دون أن يلتفت أحد نحوى بما فيهم المترجمة الحسناء ووجدت نفسى وحيدا فى حجرة خالية.

حلم ٩٧

يتبين إصرار محفوظ على أن الموت هو خطوة فى حركة متصلة نحو التغيير حين نتأمل ما جاء فى حلم باكر من دعوة إلى مراجعة لما يسمى مسلمات الماضى، حتى بعد رحيله، فقد أعاد محفوظ أستاذه الشيخ محرم من الآخرة بعد أن شيع جنازته قبل ستين عاما، أعاده ليخبره دون مقدمات بضرورة إعادة النظر فى المسلمات التى هو مسئول عن إبلاغها له.

رن جرس التليفون وقال المتكلم:

الشيخ محرم استاذك يتكلم

فقلت بأدب واجلال:

أهلا استاذى وسهلا...

أنى قادم لزيارتك.

على الرحب والسعة

لم تمسنى أية دهشة على الرغم من اننى شاركت فى تشيع جنازته منذ حوالى ستين عاما وتتابعت علىّ ذكريات لاتنسى عن استاذى القديم فى اللغة فى معاملة التلاميذ وجاء الشيخ بجبته وقفطانه الزاهيين وعمته الملوظة وقال دون مقدمات: هناك عايشت العديد من الرواة والعلماء ومن حوارى معهم عرفت أن بعض الدروس التى كنت ألقيها عليكم تحتاج الى تصحيحات فدونت التصحيحات فى الورقة وجئتك بها.

قال ذلك ثم وضع لفافة من الورق على الخوان وذهب.



(حلم ٦)

وصية محفوظ ودورية النقد:

شغلتنى فكرة دورية نقد متخصصة لأعمال محفوظ منذ نال نوبل وكتبت إلى المسئولين بذلك، بدءا من خطابى إلى أ.د. عزالدين إسماعيل رئيس تحرير مجلة فصول آنذاك فى ١٩٨٨/١١/١١، ورحت أكرر طلبى لإصدارها فى كل مناسبة، كان آخرها للجنة المشكلة لتخليد ذكرى محفوظ، وهأنذا أعثر على حلم ينتهى بهذه الوصية «إن المقال أحب إلى نفسى من الانفعال والخداع» وأقرأ «المقال» بمعنى النقد ونقد النقد، فهى الدورية، وأن يكون حوار لا يتوقف. فهذا وحده هو الذى يحول بين الأجيال الحديثة وأن تفقد ذاكرتها...... الخ.

قرأت فى المجلة مقال نقد قاس لشخصى وأعمالى بقلم الأستاذ ع وإذا به يمثل أمامى معتذرا ويقول إنه يقصد بالمقال أن يكون أساس حوار بينى وبينه يحدث ضجة تعيد الغائب إلى الوجود فقلت له: من يصدق هذا الحوار وأنت ميت منذ ١٥ سنة فقال إنه يعتمد على أن الأجيال الحديثة فاقدة الذاكرة

فقلت له: إن المقال أحب إلى نفسى من الانفعال والخداع!

(حلم ١٦٥)

الموت فى أصداء السيرة

أما تناول محفوظ للموت كما ظهر فى الأصداء، فهذا يحتاج إلى عودة مطولة مستقلة، مكتفيا بالعينة التى صدرت بها هذه المداخلة وهى فقرة من أصداء السيرة الذاتية بعنوان «همسة عند الفجر»، تجليات الموت فى الأصداء هو الفصل الثانى فى الجزء التالى من أصداء الأصداء. ■

هوامش:

(١) الأهرام ١٨ أكتوبر ١٩٩٤

(٢) ١٠ ديسمبر ١٩٩٢

(٣) يحيى الرخاوى: مجلة فصول المجلد التاسع - العددان الأول والثانى - أكتوبر ١٩٩٠ (ص ١٥٥ - ص ١٧٥).

يحيى الرخاوى: كتاب «قراءات فى نجيب محفوظ» الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٢.

(٤) يحيى الرخاوى: أصداء الأصداء: تقاسيم على أصداء السيرة الذاتية «نجيب محفوظ». المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٦.

خيري منصور

البانوراما المحفوظية

من النقد الاتباعى.. إلى نقد النقد





الكتابة عن نجيب محفوظ بعد رحيله هى أعسر من الكتابة عنه حيًا، لأن الوداع وطقوسه غالبًا ما يؤجل الاستقرار النقدى، بحيث تغلب الأيقنة كنزعة شرقية مزمنة على التعامل الجمالى، ومحفوظ الذى عاش قرابة قرن، هو كما وصفه مؤرخوه أقصر القرون وأطولها، شهد بالنفى والإثبات معًا على أهم ما عصف بالعالم ومنه نحن العرب، ونادراً ما كان شاهد ملك، لأنه بطبيعته مفطور على المقاربات السجالية للظواهر، سواء تعلقت بالنسيج الاجتماعى أو بميتافيزيقا الكون!

وقد تكون الكتابة عن أمثاله خصوصًا عندما تكون محررة من الطقوسية وكرنفالية الوداع أشبه بالبحث عن قدم مربع من اليابسة فى محيط يخلو من الجزر، وهذا ما يقوله نقاد شكسبير وأحفادهم، وكذلك نقاد ديستويفسكى وبلزاك ودانتى وآخرين..

وثمة نمطان على الأقل من المبدعين الأكثر فاعلية فى تاريخ الأدب، الأول مقل وذو إنجاز يتيم من طراز الأخوات برونتى ولامبيدوزا، والثانى غزير من طراز محفوظ وديستويفسكى وكازنتراكى، لكن ما قاله الناقد فيتشر عن رواية لامبيدوزا، جدير بالتأمل، فقد قال إنه أعاد إلى كلمة الإنجاز بمعناه الكيفى اعتبارها المسلوب.

محفوظ مقل رغم غزارته، بمعنى آخر هو من المبدعين الذين تكون تكراراتهم إلحاحًا دراميًا على الفكرة ذاتها، هذا إذا صحت مقولة ألبير كامو الذى قال غداة فوزه بجائزة نوبل. إن لكل فنان فكرة أو نبعًا واحدًا يغذى أعماله كلها، وبالفعل استطاع ناقد أوروبى أن يتقصى أعمال كل من كامو وكنجوى من البداية إلى النهاية وهو ممسك بخيط حريرى واحد، ليس لأنهما كتبا الرواية أو القصة ذاتها عدة مرات، بل لأنهما مهجوسان بسؤال خالد تتفرع منه أسئلة الوجود والعدم والحياة والموت والحرية وما يحول دون تحقيقها!

أكاديميًا كان محفوظ محظوظًا بعدد الأطروحات المكرسة لإبداعاته، لكنه الأقل حظًا إذا احتكمنا إلى ما أضافته تلك الأطروحات، التى أكثر مؤلفوها أن يسلكوا الطرق المطروقة والمعبدة، بحيث لا يقع الحافر على الحافر فقط، بل ينطبق عليه، وبالطبع ثمة استثناءات مغامرة وكاشفة لكنها قد تكرس القاعدة، لهذا قد تكون الدراسات النقدية التى كتبت عن نجيب محفوظ بمبادرات ثقافية ومعرفية وذات نزوع موسوعى حى الأجدى، بل الأبقى وفى مقدمتها الدراسات التأويلية التى لم تحلق بجناحين مهيضين حول النص، بل سعت إلى تفكيكه، وأذكر على سبيل المثال مقالة تناولت روايته الطريق، وهى مقاربة تأويلية توصلت إلى أن جملة القرائن التى صاحبت بطل الرواية صابر الرحيمى، تلمح إلى أن المقصود هو جمال الدين الأفغانى، وهذا ليس قراءة بروكوستية تعسفية للرواية، لأن هناك محاولات سابقة، مارسها نقاد غربيون منها ما سعى إلى تأويل الأسماء، كما هو الحال فى رواية همنجواى العجوز والبحر، وإحدى قصص كامو الطويلة، فاسم سانت باغوب العجوز والبحر اقتاد الناقد باركر إلى طبرية، وكان النبى يعقوب هو ما أحاله إلى القرائن، فلم يعد الصياد عجوزًا يشتبك مع بحر وسمكة قرش بقدر ما هو إنسان يشتبك مع قدره، وبالنسبة لألبير كامو فإن قصته قبلت مثل هذا التأويل الميثولوجى لأن اسم بطلها هو يوحنا المعمدان!

وكى لا تأخذنا هذه التداعيات والاستطرادات بعيداً عن نجيب محفوظ رغم أنها من صلب الملكوت الروائى الذى ينتسب إليه، فإن هناك ثلاثة محاور على الأقل تحتاج إلى مفاتيح ذهبية تدار فى أقفالها.

المحور الأول، هو التاريخ، لا بمعناه الحدثى، بل بمعناه النافذ وقد لاذ به محفوظ فى بواكيره استلهامًا، وتمهيدًا، وحتى الترجمة فى هذا السياق تخضع للهواجس ذاتها، لأن نجيب لم يحولها إلى حزمة موازية لإبداعه، ولاح لمؤرخى أدبه أنه ابتدع ما ترجمه، أى انتشى به زمنًا ليحوله فى زمن لاحق!

إن الثلاثية وهى النهضة الروائية الأعلى، والأكثر بانورامية فى إبداعه الروائى، لم تكن مجرد تشطير للزمن، أو تحقيب للتاريخ، فهى بإيقاعاتها الداخلية وصيرورتها، كيان روائى واحد، ربما أملت شروط النشر تجزئته فى ثلاثة كتب، وكما أن لكل رباعية جزءًا خامسًا لم يصدر فإن لكل ثلاثية رابعها المحذوف.

ولكى أوضح هذه النقطة كى لا تبدو أحجية، فإن ما كتبه سارتر عن رباعية لورنس داريل يصلح مدخلًا نموذجيًا لقراءة المحذوف أو المسكوت عنه، والجزء الخامس فى رواية «داريل» حسب سارتر هو صمت وشخير حامد الأعور، الخادم النوبى الذى لم يشهد على امتداد الرواية..

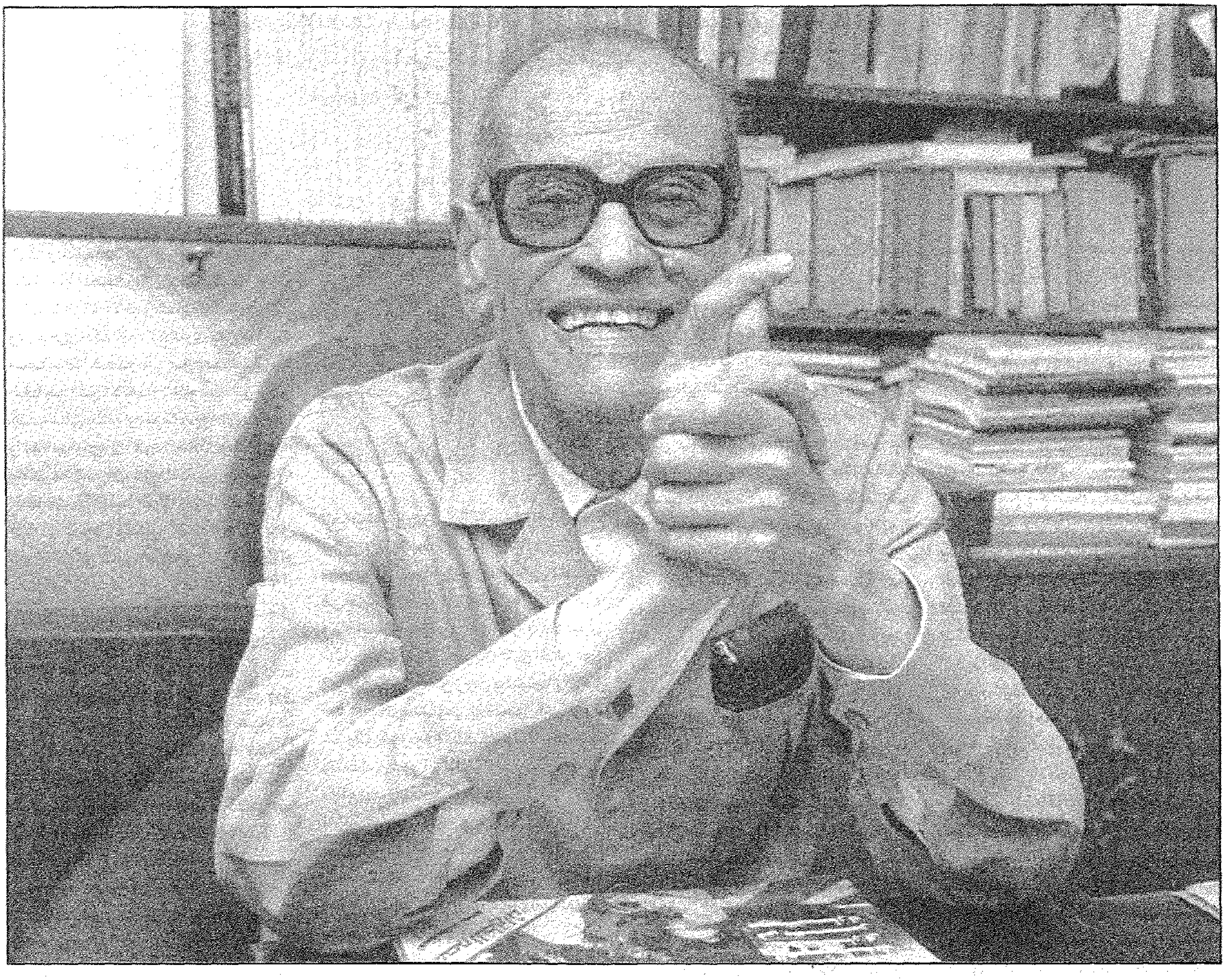
وبهذا المقياس، فأين هم شهود نجيب الصامتون؟ الذين يتشكل منهم الجزء الرابع المحذوف من ثلاثيته؟ لكل ناقد وبالتالى لكل قارئ الحق فى أن يعثر على الزوايا غير المضاءة فى المسرح الروائى، وثمة مثلًا من يرون أن الصراع العربى الإسرائيلى شبه محذوف من القلعة الروائية لمحفوظ باستثناء إشارات قد لا تجد اللبيب الذى يفهمها.

واقعية الممكن

عندما أصدر جارودى فى مرحلته الوردية كتاب «واقعية بلا ضفاف قبل السبعة عقود، صاح الواقعيون مثلما فعل أرشميدس قائلين وجدناها، فالواقعية

> لن يتقلب محفوظ ذات يوم فى قبره إذا علم بأن بلاده ولدت الأنجب، لأنه من صلبه الروائى أولاً، ويشكل قيامته الإبداعية ثانيًا!

> إن نجيب محفوظ هو كما هو.. مصرى وعربى يكتب بلغة ذات مرجعيات جمالية غير إنجليزية وغير فرنسية، لهذا يستحق أن يطلق اسمه على كاتب فرنسى أو بريطانى فى مثل حجمه الروائى إذا تجردت النوايا من ألغامها!



ليست رهينة التعريف المعجمي الهاجع في موسوعات النقد، لهذا أصبح ثلاثي عالمي منعوت بالسوريالية واللاواقعية والفانتازيا واقعيًا، لكن بلا ضفاف.. وهذا الثلاثي هو اراغون وكانكا وسان جون بيرس، وإذا أضيف إليهم بابلو بيكاسو فإن التعريف الجديد للواقعية حررها من الكولوخوز ومستوطنات الحزب التوتاليتاري وأمثولة «الأم» لجوركي بعد أن أعلن العصيان على ما طلب منه صديقه لينين بعد صدور رواية «الأم».

ونجيب محفوظ جدير بأن يكون في طليعة الواقعيين الذين بلا ضفاف، لأن واقعيته تندرج من المعنى الدقيق والكلاسيكي للمصطلح إلى ما يمكن تسميته واقعية الممكن أو الواقعية الفائقة، فهو مثلاً في عام ١٩٦٦ ومن خلال روايته ثرثرة فوق النيل تحدث عما سيحدث، وليس عما حدث، بحيث اكتشف عرب حزيران بعد تلك الهزيمة أنهم محكومون بالإقامة في اليوم السابع من حرب الأيام الستة عدة عقود وفي عوامة بسعة قارة.

وهو يذكرنا بواقعية مكسيم جوركي إلى حد ما وواقعية بلزاك إلى حد أبعد، فالأول كتب عن وقائع لم تقع إلا بعد رحيله، ومنها قصة الخادمة، التي خنقت طفل مخدوميها لفرط إحساسها بالنعاس وهو الذي كان يحول دون نومها.

وهذا ما تنبه إليه بحصافة الروائي كونديرا عندما كتب عن شخوص سلفه التشيكي كافكا، فهؤلاء الشخوص من لحم ودم، ولهم ذرية في نظم شمولية حيث الكوابيس لا تعود حكرًا على الراوي!

وقد تكون رواية الشحاذ مزيجًا من واقعية قابلة للتأويل ومشحونة بالممكنات وبين الميتاواقعية التي صهرت خاتمة الرواية ومصير البطل «الحمزاوي».

والأرجح أن نجيب محفوظ بما احتازه وامتاز به من قدرة على التوازن، وتدريب على الانضباط لم يجابه الواقع وجهًا لوجه أو بمعنى أدق قلما لسوط، لهذا كان الترميز إحدى أدواته ودفاعاته أيضًا، فأسماء أبطاله لم تكن منحوتة جزافًا، بدءًا من الطريق حتى أولاد حارتنا والمرايا، وكذلك الأمكنة التي شكلت مسرحه الروائي، فهي أزمنة أكثر منها أمكنة إذا قبلنا بالتعريف القائل إن الجغرافيا هي تاريخ متخثر، فالجمالية والحسين وخان الخليلي والكرنك وقشتمر ليست مجرد أمكنة صماء أو ساحات يدار عليها وحولها السرد، المكان لدى نجيب بطل روائي بامتياز. بانسيون ميرامار، مكان بطل وكذلك العوامة في ثرثرة فوق النيل ومقهى الكرنك وزقاق المدق، لكن نجيب محفوظ بقي مسكونًا بالمكان الأول، وهو حي الجمالية، ويعترف في حوار أجراه معه محمد سلماوي أنه عندما انتقل من الجمالية إلى العباسية أقنع العباسيين بالعودة معه مرة في الأسبوع على الأقل إلى الجمالية، ويقول أيضًا إنه قد يذهب إلى فندق مثل سميراميس، ويستمتع بوقته، لكنه متأكد من العودة إلى مقهى الفيشاوي.. وقد تكون هذه النوستالجيا المحفوظية قدر تعلقها بالحنين إلى مسقط الرأس والطفولة هي ما يفسر حنين أبطاله للعودة إلى حيث كانوا، لكن عبر تأويلات زمانية وليست مكانية فقط.

المحور الثاني الذي يحشد عدة مقاربات محفوظية في قلعته الروائية المرأة، فنساؤه لسن نمطًا واحدًا، رغم أن الأم تبقى ذات سمات شبه ثابتة، بسبب اعترافه في أكثر من مناسبة بتعلقه بأمه. نساء رواياته نماذج متباينة حد التضاد باستثناء الأم، وذلك لهدف محدد هو توضيح خطوط الطول والعرض الأنثوية في واقع ملغوم بالتناقضات وتحكمه أيديولوجية ذكورية، وثمة رأي شائع بأن بطلات محفوظ هن على الأغلب يرمزن إلى مصر.. وكنت قد سمعت هذا الرأي من الفنان الراحل محمود مرسي قبل ثلاثين عامًا، وهو يتحدث عن ريري وعن دوره في رواية السمان والخريف، وإذا كانت الحارة كما يقول ترمز إلى مصر، كما في زقاق المدق، وإلى الكون كله كما في الحرافيش، فإن امرأة واحدة مثل زهرة في ميرامار قد ترمز إلى مصر، لكنها تتمدد لتقبل الحياة برمتها وفطرتها قبل أن تتعرض للغواية! لكنها قاومت وإن كان لعاب زبائن البانسيون قد سال مدرارًا عليها باستثناء اثنين، هما الصحفي

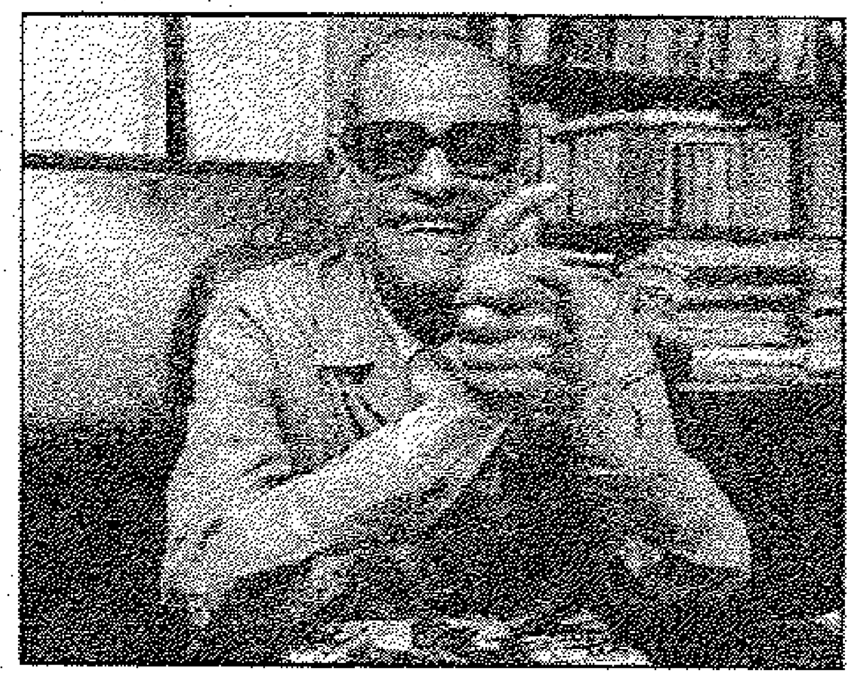
الوفدى المتقاعد عامر وجدى والشيوعى التائب أو المضطر لإعلان التوبة تحت تأثير شقيقه الأكبر ضابط البوليس، وقد يغرى التشابه الظاهرى بين بطلات محفوظ خصوصًا من اضطرتهن الحاجة إلى الاتجار بالجسد بزجهن جميعًا فى خانة واحدة، «نور» فى «اللص والكلاب» و«ريرى» فى «السمان والخريف» و«بسيمة عمران» فى «الطريق»، التشابه الظاهرى يتجسد فى كون نساء محفوظ ملاذات لرجال مكسورين، يلجأون إليهن ثم يتمردون عليهن، وأخيرًا يندمون أو يعترفون بالذنب.

وهنا علينا ألا نغفل التدخل السينمائى فى مصائر الشخوص لدى محفوظ، فالروايات تخسر كثيرًا، وهى تهاجر من ورق الإبداع البكر إلى ورق السيناريو المصنع، وقد يحدث اختلاف عابر فى بعض التفاصيل خللاً بنيويًا فى النسيج الروائى، لا يستشعره مشاهد الفيلم، ولا قارئ الرواية الذى لم يشاهده، بل من قرأ أو شاهد وقارن!!

البغى الفاضلة

هذه الموضوعة بحد ذاتها مطروقة فى العديد من الثقافات، وقد نجد نصوصًا موغلة فى القدم تحاول الانتصاف للبغى، باعتبارها ضحية اجتماعية، لكن القرن العشرين شهد معالجات درامية لهذه الظاهرة المسكوت عنها أخلاقيًا، والمتواطأ عليها اقتصاديًا واجتماعيًا، والمسرحية الشهيرة «المومس الفاضلة» لجان بول سارتر تنسجم وتتناغم مع السياق الوجودى لأعمال هذا الفيلسوف الفكرية والفنية، حتى وجد من اتهمه من النقاد بأنه قدم أدبًا هو المعادل التعبيرى لأفكاره المجردة فى كتابيه الوجود والعدم وفقد العقل الجدلى.. بغايا روايات محفوظ من طراز مغاير، رغم أن إفراز مثل هذه النماذج فى كل بلدان العالم يبدأ من الحاجة، وبالتالى من استغلال الميسورين لمن يعانون من العسر، سواء كانوا من أحزمة الخدمات والمهمشين أو من النساء اللواتى يتاجرن بأجسادهن، لأن الجسد هو رأس المال الوحيد الذى يملكنه.

وبالرغم من أن مهنة البغاء هى أقدم مهنة فى التاريخ، كما يقال، إلا أن لكل عصر معياره الخاص الذى يحتكم إليه فى تعامله مع هذه المهنة، وبالنسبة لمحفوظ هناك نموذجان يجسدان البغى



الفاضلة، ريرى فى «السمان والخريف» و«نور» فى «اللص والكلاب». ريرى يغدر بها عيسى الدباغ البطل المدحور والمصاب فى عمق نرجسيته الطبقية والعاطفية والحزبية أيضًا، وهى لم تكن تريد سوى حياة عادية، لهذا لم يحل فارق السن دون قبولها بالزواج من رجل يصونها ويوفر لها حياة كريمة، وهى إذ تتحول إلى زوجة ثم إلى أم رءوم لطفلتها الوحيدة وتستقيم بعد أن انتفت حاجة الإتجار بالجسد تقدم نموذجًا لبغى ساقتها الظروف إلى هذه المهنة، لهذا فهى أكثر نبلاً من الرجل الذى استخدمها ثم طردها، وأخيرًا استنكر عليها أن تكون أمًا لابنته وبعودته إليها فى نهاية المطاف باعتبارها الملاذ الوحيد الباقى، تكون فضيلتها قد استكملت الدائرة بالقوس الأخير.. الذى تشكل من الاعتذار والعودة!

لهذا لا أرى ما رآه البعض وهو أن عيسى الدباغ بطل السمان والخريف كان الطائر المهاجر الذى اصطادته البغى من نقطة ضعفه وهى تعبه وانكساره وخذلانه بعد أن تزوجت خطيبته من ابن عمه، وانكسر صولجانه!

الصياد هنا ليس امرأة، إنه المجتمع، وبمعنى أدق طبقة سياسية محددة، لأن احتكار السلطة وفق أدبيات السياسة العربية المعاصرة يتأسس على النبذ المتبادل وفلسفة الإقصاء والإعدام الرمزى إن لم يكن الإعدام العضوى متاحًا.. وقد يكون عيسى الدباغ نموذجًا محفوظيًا للبطل التراجيدى الإشكالى، فهو فاضل أيضًا لكن بمقياس آخر، يقاتل فى صفوف خصومه القدامى فى العدوان الثلاثى على مصر، ويعلن طلاقًا سياسيًا بائنًا بينه وبين الرفاق القدامى الذين رأوا فى العدوان خلاصًا من الثورة وفرصة للثأر ممن قاموا بها!

قد تكون رواية الشحاذ مزيجًا من واقعية قابلة للتأويل ومشحونة بالممكنات التى صهرت خاتمة الرواية ومصير البطل

إن هذا التناوب على الفضيلة بين بغى تائبة وسياسى يعود إلى رشده الوطنى فى زمن الحرب، حد تعبير عن التوازن المحفوظى الذى لا يرى البشر موزعين بين ملائكة وشياطين، والنموذج الثانى، وهو نور، التى لاذ بها سعيد مهران الهارب فى اللص والكلاب، وجد فى فضيلة إيواء سعيد والإنفاق عليه وحمايته التعويض عن الرذيلة، وكما عثر عيسى الدباغ على فضيلة تحقق له التوازن غير سعيد مهران اللص والقاتل على فضيلته أيضًا، فهو لم يتخل عن البغى التى احتضنته، وربما كان إصراره على إحضار الدواء لها أحد أسباب العثور عليه، وكما أن الدباغ جلاد وضحية وملاك وشيطان فإن مهران أيضًا كذلك، إذ لولا تلك المواعظ التى كان يحقنه بها الطالب الذى أصبح صحفيًا مرموقًا لما وجد التسويغ الكافى لاحتراف السرقة.

إذن هناك عدالة، ومرجعية ضميرية ـ كى لا نقول أخلاقية ـ كانت على الدوام تحقق لمحفوظ توازنه، وبالتالى خروج شخوصه عن الثنائيات الحاسمة التى تحولهم إلى بيض وسود وأخيار وأشرار.

والمحور الثالث الذى لا يمكن لقارئ محفوظ وناقده أن يتخطاه هو دور مدينة الإسكندرية فى بعض أعماله، والإسكندرية جغرافيًا وثقافيًا وتاريخيًا مدينة متوسطية، تشتبك فيها عدة هويات حتى أشبه بما وصفه لورنس داريل وهو يتحدث عن الأساطيل الستة فى بحرها. وكان الناقد محمود أمين العالم أول من رصد التعامل المحفوظى مع الإسكندرية، خصوصًا فى السمان والخريف، فهى تبدو كما لو أنها مخلوعة من السياق الحضارى والثقافى الذى تقع مصر فى صميمه، بل فى العمق منه، فهل الإسكندرية بما تعنيه كملاذ ومنفى لمن فروا إليها من أعباء الإخفاق فى القاهرة حتى مدينة كوزموبوليتية؟ أم أن هناك فى اللاوعى ما يوحى بأنها هيلينية، فيها الكثير من أصداء غرب البحر المتوسط؟

أذكر مثلاً أن رواية داريل عن الإسكندرية تضمنت مقاطع صريحة عن التباس هوية المدينة، وحين تلتقط جوستين بطلة الجزء الأول من الرواية حبة زيتون من الإناء، تقول بأن نكهة غرب المتوسط بدءًا من اليونان قد انفجرت فى حلقها!

أما نسيم حصنانى، فكل ما يرد من قرائن حول شخصيته يجزم بأنه ثمرة خليط من الثقافات، بل هو خلاصة تلك الكيمياء التى ربطت شرق البحر المتوسط بغربه، لأنه جسد أقصى التلاقح وليس التلاقى فقط بين الحسية الوثنية والتجريد الفلسفى.

وحقيقة الأمر أن الإسكندرية فى روايات محفوظ التى اتخذت من المكان بطلاً، تلعب الدور ونقيضه فى آن، عيسى الدباغ بطل «السمان والخريف» يهرب إليها من ماضيه، وقد يكون نداء المستقبل هو ما اجتذبه إليها ليجرب حظه، لكن صابر الرحيمى بطل «الطريق» يفعل العكس، فهو هارب من حاضره الإسكندرى ليبحث عن أبيه الذى يرمز إلى ماضيه فى القاهرة، رغم أن العثور على الأب قد يعادل العثور على المستقبل المحلوم به!

ولا تتحول إسكندرية محفوظ إلى مكان عائم الهوية إلا فى ميرامار، البانسيون الذى يحتشد فيه شخوص يمثلون أهم الشرائح التى كان المجتمع المصرى ينوء بصراعاتها.. وحين يلتقى فى مكان واحد الإقطاعى المؤمم والعاطل بالوراثة والموظف فى القطاع العام والعضو فى الاتحاد الاشتراكى مع الصحفى الوفدى المتقاعد والشيوعى الحائر بين التوبة والاستمرار فإن هذا المكان سيتحول إلى مسرح يعج لا بالصراعات فحسب، بل بكل ما كان يمور به المجتمع الآخذ فى التحول، والذى يشتبك جديده مع قديمه.

ميرامار تشبه إلى حد ما رواية السفينة لجبرا إبراهيم جبرا، لأنها مكان شبه مطلق وغير محدد، فالبانسيون محطة فى الطريق إلى مكان ما.. رغم أن ما أوحت به ميرامار هو أن النزلاء مقيمون إلى الموت، لأنهم غادروا مساقط رؤوسهم ومساقط أرواحهم أيضًا، وانتهوا إلى انتظار غودو الذى يأتى فقط ليقول بأنه لن يأتى!

بالطبع لن يكون هناك تماثل بين إسكندرية كفافى وداريل وإسكندرية

أكاديمياً كان محفوظ محظوظاً بعدد الأطروحات المكرسة لإبداعاته، لكنه الأقل حظاً إذا احتكمنا إلى ما أضافته تلك الأطروحات، التى أكثر مؤلفوها أن يسلكوا الطرق المطروقة والمعبدة، بحيث لا يقع الحافر على الحافر فقط، بل ينطبق عليه

محفوظ، رغم أن التماس قائم، وثمة مراوحة على تخوم مدينة بحرية محررة من شروط اليابسة، وهنا أحب أن أشير إلى مسألة قد تبدو عابرة على صعيد الوعى، لكنها ليست كذلك على صعيد اللاوعى، وهى أن المصريين يسمون القاهرة مصر بحيث تبدو الإسكندرية بالتحديد مناخاً نفسياً واجتماعياً وثقافياً مغايراً!

وأية مقارنة بين العوامة كمكان مطلق فى «ثرثرة فوق النيل» والبانسيون كمكان مطلق أيضاً فى رواية ميرامار ترينا الفارق بين رؤيتين تعامل بهما محفوظ على المكانين.

«ثرثرة فوق النيل»، يتجانس الشخوص رغم اختلاف المهن فى الهاجس العبثى، وفى الاستسلام لرؤى عدمية، وحين يتولى حشاش محترف قيادة العوامة رغم أنه وصلها بالصدفة فإن معنى ذلك ببساطة هو أن العوامة ليست رمزاً لواقع فاسد، بل هى كثافته، وقد استطاع الروائى تقطيرها فى شخوص، لهذا فإن «ميرامار» تملك من إمكانات المسرحة الروائية أكثر مما تملك «ثرثرة فوق النيل»، لأن التناقضات بين الشخوص تصل إلى أقصاها، بل يكون الموت من حصة أحد النزلاء، أما فى «ثرثرة فوق النيل»، فالموت يحدث خارج العوامة وبعيداً عنها، عندما تسحق السيارة التى يركبها الشخوص جميعهم فلاحة فى الطريق.. وبالعودة إلى مفهوم البغى الفاضلة فإن «ميرامار» تخلو من هذا النموذج، بل هى على العكس من ذلك تقدم زهرة الفلاحة الأمية الخادمة فى البانسيون والهاربة من زواج قسرى من رجل عجوز إلى رمز مشحون بالمناعة، وكان بمقدورها أن تقيم علاقات مع كل الزبائن بدءاً من طلبة مرزوق الإقطاعى الذى يعيش على الذكرى حتى العاطل بالوراثة.. هكذا يصبح لدى محفوظ نموذج لامرأة أفضل من البغى الفاضلة، وهى التى تقاوم شروط التحول السلبى والاستسلام بسبب الحاجة أولاً، والأمية ثانياً..

نوبل بأثر رجعى

نلاحظ أن الخطاب الاحتفائى بنجيب محفوظ منذ عام ١٩٨٨ مقترن على الدوام بفوزه بجائزة نوبل، وبإضافة صفة «العالمى» إلى اسمه، وهنا لا نستطيع الحديث عن نوبل وشجونها ونجيب محفوظ بمعزل عن ثلاث قضايا، الأولى، هى المفهوم الرائج عربياً لهذه الجائزة، والثانية تأرجح الموقف العربى منها سلباً وإيجاباً تبعاً لمن ينالونها فى كل عام! والثالثة دورها الحاسم فى سيرة محفوظ أكثر من دورها فى أدبه.

القضية الأولى: تتلخص فى الريبة التقليدية من كل ما يصدر عن الغرب بسبب العلاقة غير الصحية بينه وبين بلدان العالم التى كان ولايزال يحاول الهيمنة عليها والتهامها!

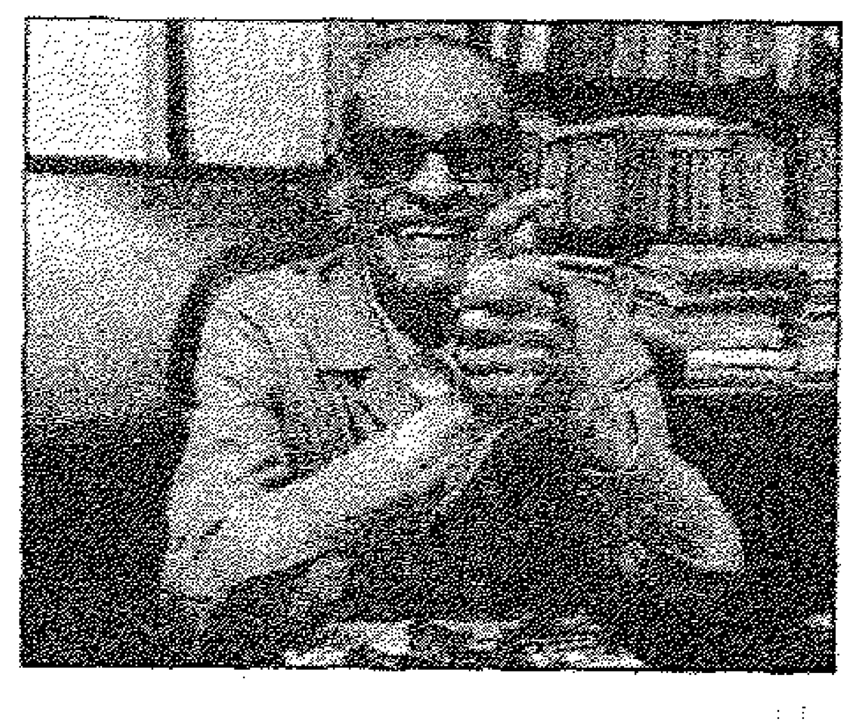
ولم يخفف إلى حد ما من هذا الإحساس قدر تعلقه بالجائزة سوى فوز أدباء آسيويين وأمريكيين لاتينيين وأفارقة بها، أى أنها لم تعد حكراً على النطاق الجغرافى للغرب.

أما تأرجح الموقف منها، فهو تبعاً لمن ينالونها، فحين نالها الصهيونى يوسف عجنون أحس المثقفون العرب أن هذا يشكل انحيازاً أيديولوجياً وقوة كولونيالية، خصوصاً حين أشارت الجائزة إلى اللغة الطقوسية وشبه الغاربة التى كتب بها عجنون وهى اليديشية.

وحين نال بعضها أنصاف أو أثلاث ساسة عرب، بعد إنجاز اتفاقيات سلام مع الدولة العبرية، تصاعدت وتيرة الارتياب وعلق البعض خصوصاً من الراديكاليين العرب قائلين إن الغرب لا يكرمنا ولا يعترف بنا إلا حين نلبى رغائبه، ويكافئنا على ما نرضيه به وليس على ما يرضينا.

لهذا كان فوز نجيب محفوظ بالجائزة بمثابة إعادة النظر عربياً بها، والأمر لا يخلو من نزعة برغماتية ليس هذا مقام السجال حولها..

وما كتبه الناقد والكاتب الكبير رجاء النقاش فى كتابه «فى حب نجيب محفوظ» حول نوبل وشجونها المحفوظية يستحق الاستذكار.. فهو يرى أن نوبل ظفرت بأدب طالما تجاهلته هو الأدب العربى، ونحن نضيف أن نجيب محفوظ إذا حذفت من سيرته جائزة نوبل لن ينتهى إلى كاتب عادى، فهو أنجز أهم أعماله قبل فوزه بالجائزة بعقدين على الأقل، وكان يستحقها قبل موعد منحها، لهذا قلت لإذاعة صوت أمريكا بعد خمس دقائق فقط من إعلان فوز محفوظ بالجائزة أن التوقيت يستحق التأمل، وهذا ليس انتقاصاً من جدارة محفوظ بالجائزة، بل إشارة إلى استحقاقه لها قبل الموعد وفى حقبة عربية لم تكن قد دجنت بعد سياسياً وثقافياً وعسكرياً واقتصادياً!



وأكثر ما يفتضح النرجسية العربية الجريحة هو النعوت التى تطلق على أمثال محفوظ تعبيراً عن الرغبة فى الاحتفاء ومنها أنه شكسبير العرب، أو بلزاكهم أو ديستويفسكى مصر.. وهذا النمط من التفكير يعود إلى تراث استشراقى تحدث عنه بقسوة وإلحاح درامى اثنان على الأقل من ضحايا الكولونيالية هما مالك بن نبى وفرانز فانون، عندما رأى كل واحد منهما بطريقته أن الغرب الاستعمارى زرع قبل رحيله صورة المستعمر (بفتح الميم) عن ذاته، فأوقعه فى وعى سالب واغترابى.. ولا أظن أن الإنجليز قالوا يوماً بأن تشوسر أو جون دن أو إليوت هو متنبى بريطانيا، أو أن الفرنسيين قالوا بأن ديكارت هو ابن رشد فرنسا أو ابن خلدونها!

وهذه مسألة تستحق التأمل لأنها ليست موسمية أو عابرة، فحين أصدر غاتيان بيكون وبواديفير معجمين عن الأدب الفرنسى، قال أحدهما بأن اللغة الفرنسية هى الإمبراطورية الفرانكفونية البديلة، لهذا أطلق على الكاتبة اللبنانية ليلى بعلبكى اسم فرانسواز اللبنانية وعلى كاتب سورى اسم ألبير كامو السورى، وكأن هؤلاء العرب

ميتافيزيقا محفوظ ملجومة بعض الشىء ولا تمضى حتى النهاية، بحيث يبدو نجيب أقرب إلى أسلوب الغزالى فى الشك منه إلى ابن رشد

مجرد ظلال أو أصداء، ناسين بأن التكرار قدر تعلقه بالإبداع هو مجرد كاريكاتور، يذكرنا بما قاله ماركس عن عودة التاريخ مرة بصورة الكوميديا وأخرى بصورة التراجيديا..

إن نجيب محفوظ هو كما هو.. مصرى وعربى يكتب بلغة ذات مرجعيات جمالية غير إنجليزية وغير فرنسية، لهذا يستحق أن يطلق اسمه على كاتب فرنسى أو بريطانى فى مثل حجمه الروائى إذا تجردت النوايا من ألغامها!

وإلى أن يبلغ الوعى السالب رشده الحضارى وتشتعل الإرادة المرتهنة ونصف المشلولة، فإن المشبه به سوف يبقى هناك فى نطاق آخر، لأنه النموذج الذى يجب احتذاؤه حسب أدبيات المحاكاة وما ترسب من الثقافة الكومبرادورية بعد قرون من التبعية! والسؤال الذى تمليه علينا هذه المناسبة، هو هل بدأ الناس يقبلون على محفوظ بعد نوبل، أم أنها اجتذبتهم بسحرها لإعادة اكتشافه؟

إن الإجابة ليست متاحة لنا أو لسوانا بسبب التباعد الهائل بين قارئ وآخر، وبين ناقد اتباعى يعيش على نشارة الكتب لا الخشب وبين ناقد اجتراحى مغامر..

فما كتب عن نجيب غداة فوزه بنوبل وعشية رحيله كثيرة احتفائى يليق بالرجل، لكنه لا ينتفع به، كما لا ينتفع به روائيون قادمون من المستقبل، وما قيل عن النقد الأشبه بالنحل يصدق هذه الأيام على نقدنا، فثمة نحل يعلف بالسكر المطحون، وثمة نحل يقطع آلاف الأميال بحثاً عن الرحيق، وشتان بين شهد وشهد.. وأخيراً بين شاهد وشاهد!

نعرف أن عالمية محفوظ هى المرادف أو المعادل الموضوعى لمحليته، فهو ستنطق حتى الحجر الأصم فى معابد وبيوت وأسوار وقلاع مصر، ولم يكن يخطر بباله أن يكون عالمياً إلا عبر طريق واحد يفضى إلى العالمية، هو محليته، وتشبثه بجمرة المكان الذى سقط عليه رأسه فى حى الجمالية، الحى الممهور بأزمنة لا يمكن اختزالها بكاميرا سائح أو بسحابة بخور أو بنشيد ليلى مفعم بالنشيج المدائحى!

البحث عن الخلاص

إن غودو الذى ينتظر ثلاثة على الأقل من أبطال محفوظ قدومه للخلاص، لا يأتى

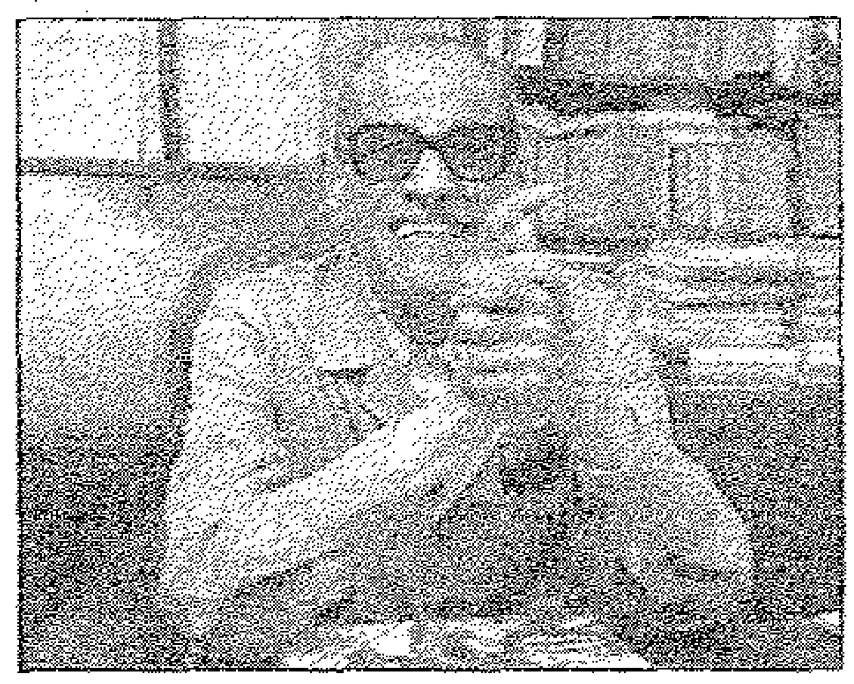
على الإطلاق رغم أنه يتجلى أحيانًا فى مظاهر سرعان ما يروغ منها، فى الطريق، يكون الخلاص الموعود عن طريق الأب سيد الرحيمى الذى زرع البذرة واختفى، لهذا يلوح الأب للابن الضال فى سيارات مسرعة وملامح بعض المارة، لكنه يبقى كينونة مشتتة لا تلتئم فى أى سياق آدمى.

وقد يكون البحث عن زعبلاوى فى دنيا الله أوضح بكثير من الطريق لأن زعبلاوى ليس مجرد أب موسر ينتقل بين العواصم والنساء، إنه بكل ما يرمز إليه ذو صلة ما بالغيب، وهنالك قراءة نقدية لزعبلاوى قدمها كاتب إسرائيلى هو ساسون سوميخ، الذى ينتهى إلى القول بأن نجيب محفوظ أنجز نصًا هو بمثابة إعادة إنتاج للخبرة البشرية، لكن عبر الواقع فى بعده المحلى، وكان الناقد ماهر شفيق فريد قد أشار إلى هذه الدراسة فى مقالته عن محفوظ ضمن العدد المكرس لمناسبة بلوغ محفوظ الرابعة والتسعين فى مجلة «الهلال» عدد ديسمبر ٢٠٠٥.

لكن دراسة سوميخ هذه تبقى فى النطاق الاستشراقى لأنها تلتقط من القصة مفردات وإيحاءات ذات مدلول صوفى فى الثقافة العربية، وإذا كان أحد أساتذة علم النفس فى جامعة الأزهر قرر رواية الشحاذ نموذجًا للرواية السايكولوجية، فإن قصة زعبلاوى جديرة بذلك لأنها مشحونة بهواجس الوجود وسؤال الحياة البكر والجذرى..

والجرثومة التى أصابت البطل زعبلاوى وحولت حياته إلى بحث مستمر عن خلاص أو «سلفادور» بالمفهوم الدينى أصابت بطل الشحاذ، بحيث كانت حياته تسير على وتيرة رتيبة، ولا يشكو من شىء إلا الضجر، فجرب العبث بكل وسائله، وتنقل بين النساء ليكتشف أن المرض العضال الذى قضم عافيته الروحية لا شفاء منه، ومن خلال ثلاثة نصوص على الأقل لنجيب محفوظ حول سؤال الوجود وهدفية الحياة والضياع الآدمى فى زحام هذا الكون يتضح أن الرجل كان يكظم مكابدات حقيقية تتعلق برؤاه حول العالم والخلق وأسرار الوجود، لهذا تبقى شهوة القيامة ملازمة لأبطاله الذين يشعرون بأنهم من البشر الفانين، لكنها قيامة تأخذ أحيانًا بعدًا رمزيًا وتتخفى أحيانًا أخرى وراء التماهى مع نماذج عليا، ذات وهج عقائدى أو جاذبية تاريخية!

من هنا يمكن مقاربة نصوص



محفوظية مع نصوص روائية ومسرحية كتبت فى أوروبا فى فترة ما بين الحربين العالميتين، فما كان لأبطال مالرو وكامو وسارتر أن يكونوا على ما هم عليه من إشكالية وتمزق ومراوحة بين اليقين والشك، لولا أن أوروبا مرت خلال نصف قرن بحربين عالميتين دمرتا من المعانى والمنظومات القيمية أكثر مما دمرتا من القلاع والمبانى.

وقد يذكرنا أبطال العوامة فى «ثرثرة فوق النيل» بمسرحية جلسة سرية لسارتر التى ترجمت بعنوان الحلقة المفرغة، حيث يجد عدد من الأشخاص أنفسهم سجناء فى مكان مغلق، وعليهم أن يمارسوا حياتهم على مرأى من بعضهم، بحيث أصبح كل واحد منهم يشعر أن الجحيم هو الآخر.

أبطال العوامة لا يستيقظون من سباتهم وغيبوبة الحشيش حتى بعد ارتكاب جريمة جماعية هى سحق الفلاحة الشابة أثناء القيادة النزقة للسيارة الفارهة، وكان لابد من شاهد صامت يفتضح عريهم الأخلاقى وعدميتهم سواء كان الصحفية المغامرة أو «أنيس» زعيم مملكة الحشيش فى العوامة.

ولا أدرى لماذا ذكرنى هذا الفارق بين أبطال الحلقة المفرغة لسارتر وأبطال العوامة بمقالة بالغة الأهمية كتبها سلامة موسى ذات يوم عن بيجماليون الحكيم وبجماليون شو.. وكان قد توصل إلى سمة أساسية فى العقل الشرقى أو بمعنى أدق فى الثقافة الشرقية كى لا نسقط فى فخ المصطلح الاستشراقى العرقى من خلال المقاربة بين أسلوبى توفيق الحكيم وبرنارد شو!

إن ميتافيزيقا محفوظ ملجومة بعض الشىء ولا تمضى حتى النهاية، بحيث يبدو نجيب أقرب إلى أسلوب الغزالى فى الشك منه إلى ابن رشد، لأن جاذبية الإيمان سواء كانت للعجائز أو للفتيان لم تضعف فى مجمل أعماله، وقد يعود ذلك إلى سببين أولهما التكوين الروحى والنفسى والثقافى لنجيب الذى ولد فى حى ممهور بنداهات الصوفيين، وثانيهما الاحتراز الفطرى من محاكم تفتيش غير معلنة، لكنها قابلة للظهور إذا وجدت مناسبة، وهذا ما حدث مرارا منذ قرون، وبالتحديد ما حدث فى النصف الأول من القرن العشرين مع عبدالرازق وطه حسين وآخرين! حيث كانت التوبة شرط البراءة والتوبة ليست بمعناها الفقهى، بل بالمعنى الذى صاغه الاتباعيون بعد أن حذفوا منه هامش التسامح!

الديوث الراذل

النقيض المحفوظى للبغى الفاضلة هو الديوث الراذل أو غير الفاضل، وقد يظهر الديوث أو بمعنى آخر أكثر تداولاً (القواد) فى بعض الأعمال وقد أقصى إلى هامش ثانوى، لكنه فى «القاهرة ٣٠» يصبح البطل، الذى أضافت له السينما قرنين تناغماً مع المفهوم الشعبى، قد لا يراهما الآخرون، لكن محجوب عبدالدايم يراهما بوضوح، خصوصًا عندما يختفى وراء باب العمارة كى لا يراه ولى نعمته الذى يعاشر زوجته بعلم منه، بل بمباركة منه.

محجوب عبدالدايم نموذج بشرى يصلح للتحليل النفسى، لأنه حزمة من المكونات المتضاربة التى تصهرها فى النهاية كيمياء الوظيفة وقوة الحاجة، وإذا كان من السهل العثور على الضحية فى الفتاة التى تزوجها محجوب رغماً عنه، لأنها عرضت للبيع، فإن مساحة الضحية فى شخصية محجوب تبقى ضئيلة، بل تنحسر حتى توشك على التلاشى بعد لقائه الدراماتيكى بأبيه الذى يضبطه متلبساً بالعار والكذب معاً!

وبشىء من التحوير والتوسع يمكن لشخصية الديوث أن تستوعب شخوصاً كانت بضاعتهم السياسة ودم الناس وليس المرأة فقط.. سرحان البحيرى فى ميرامار ديوث سياسى، خدع الدولة والمرأة سواء كانت ريفية ساذجة أو راقصة محترفة، ثم خدع نفسه أيضاً وسرق، وخدع العمال الذين كانوا يرون فيه أمثولة فى النضال والصدق من خلال انتسابه للاتحاد الاشتراكى وهو حين يقتل مرتين، مرة بالانتحار وأخرى بالركل على الرأس من الفتى الماركسى، لا يشبه «كانكان» العوام الذى مات مرتين فى إحدى روايات آمادو.. لأن الموت المزدوج بالنسبة لسرحان كان بمثابة عقاب مزدوج من الذات والآخر.. إن مجمل السياقات التى يرد فيها دور الديوث عند محفوظ تخضع لموقف أخلاقى، وبالتحديد لمثقف هو ربيب الطبقة الوسطى المصرية لا يفلت على الإطلاق من المحددات والمرجعيات والأعراف إلا ليعود بعد قليل، وهذا ما يسميه البعض الاعتدال أو الوسطية عند نجيب محفوظ، فالليبرالية كموقف عام وسياسى أحياناً لها معادل اجتماعى وأخلاقى! وإفادة علم النفس من منجز محفوظ الروائى ليست مجالاً للسجال، فمن المعروف أن أبطال ديستويفسكى استبقوا علم النفس الإكلينيكى بأوضاعهم الإشكالية وكينوناتهم القلقة ولدى نجيب محفوظ كائنات كتبت رسائلها أيضاً من أعماق الأرض أو من العالم السفلى، لكنها لم تصل إلى المرسل إليه.. وهو حين يتعاطف على نحو مضمر وبالغ الخفاء مع النماذج الشاذة، فذلك لقناعته بأنهم أيضاً ضحايا، سعيد مهران ضحية رغم كونه مجرماً، وكذلك نور وريرى ومحجوب

نساء رواياته نماذج متباينة حد التضاد باستثناء الأم، وذلك لهدف محدد هو توضيح خطوط الطول والعرض الأنثوية فى واقع ملغوم بالتناقضات وتحكمه أيديولوجية ذكورية

الإسكندرية فى روايات محفوظ التى اتخذت من المكان بطلاً، تلعب الدور ونقيضه فى آن، عيسى الدباغ بطل «السمان والخريف» يهرب إليها من ماضيه، وقد يكون نداء المستقبل هو ما اجتذبه إليها ليجرب حظه

عبدالدايم، لأن المجتمعات تستحق ما تفرزه من المجرمين والقضاة، كما يقول أحد الفلاسفة..

كتابة المكتوب وآفة الاختزال

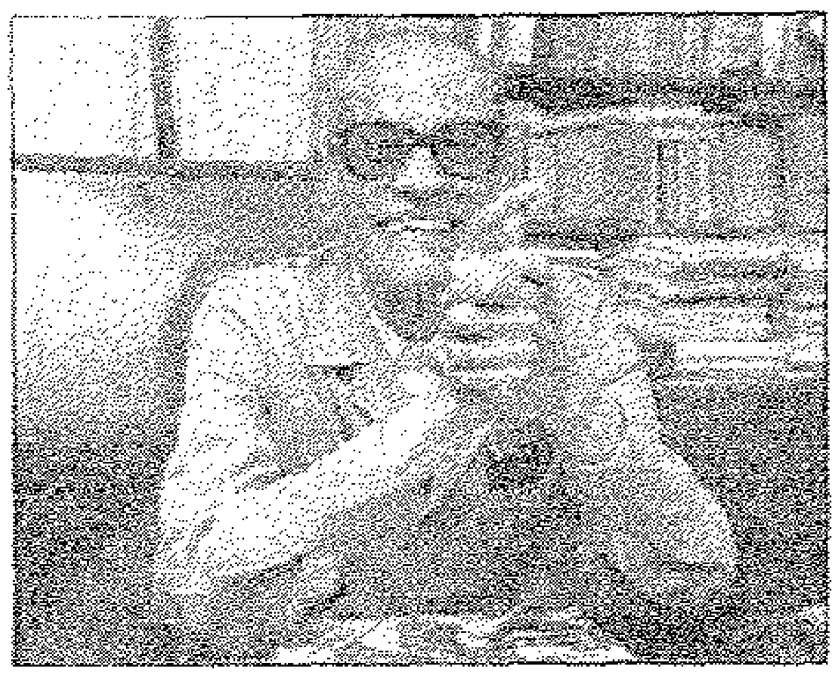
إذا كان النقد موازيًا للإبداع، يسلفه بدلاً من أن يقترض منه حتى الإفقار، فهو بالفعل كما وصفه جراهام هيو الحصى القابع فى قعر النهر وليس النهر، وقد لا يكون مبدعونا الكبار محظوظين بالنقد الذى يجدر بإنجازهم، وهناك ظاهرتان يمكن رصدهما حول ما أسميه كتابة المكتوب وآفة الاختزال.. الأولى، هى النأى قدر الإمكان عن المغامرة لأنها تجازف بالتورط بطرقات غير معبدة، والثانية هى ما أشار إليه د. مصطفى حجازى فى كتابه القيم «سيكولوجيا الإنسان المقهور» ومن أهم سمات هذا الإنسان النزوع إلى الاختزال.

ويضرب مثالاً بالمرأة التى تختزل من كائن إلى جنس، وبالتالى إلى عضو ومن ثم إلى وظيفة، وهناك فيض من الكتابات عن نجيب محفوظ يتناول المرأة والعامل والسياسة والتاريخ والجريمة فى أعماله على نحو تجزيئى أى بلا سياقات رؤيوية، وهذا النمط البدائى من النقد يخلو من الاستبصار بمعنى ربط الأجزاء والتوصل إلى الفائض الناتج عن حاصل جمعها.

وهنا يمكننا بقدر من التعميم المبرر ولو على صعيد إجرائى أن نضع التجزئة مقابل التفكيك، أو الحفريات التى تستفيد من منجزات العلوم كلها بدءا من الأناسة حتى علم النفس الاجتماعى.

وهناك كتابات أخرى عن محفوظ تستلهم آراءه سواء فى مقابلات أو مقولات متداولة فى المقهى. وحقيقة الأمر أن ما قاله أحد النقاد وهو: لا تثق بالقاص وثق بالقصة يصدق على نجيب محفوظ، كما يصدق على أمثاله، فأحيانًا يكون التضليل البرىء تحريضًا على المزيد من الكشف وأحيانًا تملى ظروف سياسية أو اجتماعية على كاتب يعيش تحت إضاءة ساطعة أن يصرف الانتباه عن موقف ما.. فما أراد محفوظ أن يقوله قاله سردًا روائيًا وقصصيًا، وعلى ناقده أن يبدأ من صفره الخاص، بعيدًا عن عكازات مستعارة من أحاديث ومقابلات ودردشات!

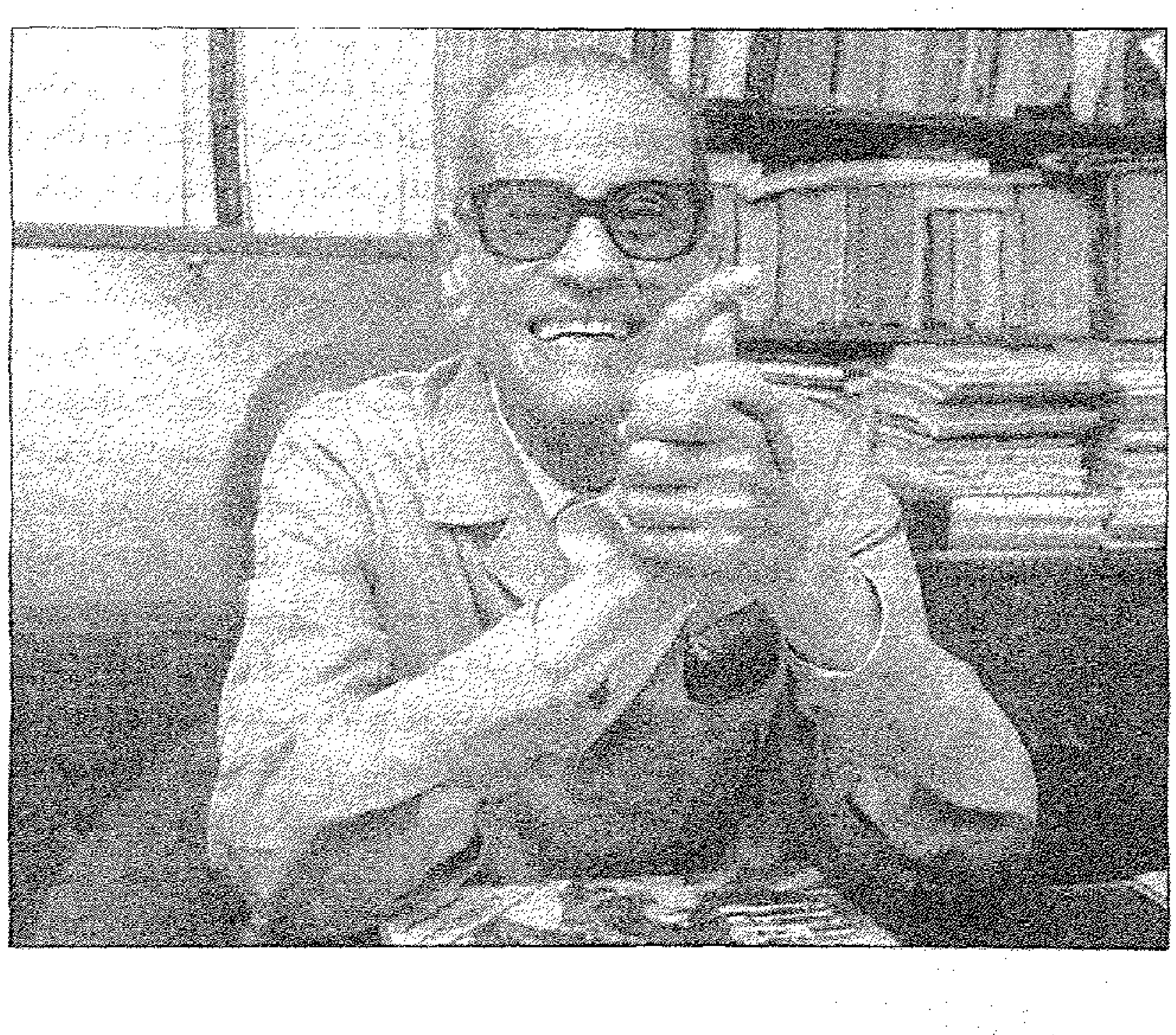
فلو أخذنا للمثال فقط رواية «حضرة المحترم» فإنها تنطوى على بعد من السيرة الذاتية لموظف محترم، وما يسمى نقد البيروقراطية المترسبة من عهود العثمنة فى هذه الرواية يغفل بعدًا نفسيًا بالغ الأهمية، وأزعم أن هذه الرواية خطرت ببالى على الفور بعد قراءة كتاب موريس عن القرد العارى.. لأن الموظف بمعناد التقليدى يصلح مدخلاً للعثور على ما يسمى الحلقة المفقودة فى الداروينية المؤولة سيكولوجيًا. واستغرب كيف لم تجد استراتيجية التسمية، وهذا المصطلح يعود للكاتب مطاع صفدى حيث أصدر كتابًا بهذا العنوان، مجالاً رحبًا فى أعمال محفوظ خصوصًا عندما ترد بعض الأسماء للتضليل وعلى نحو مضاد لمعانيها المتداولة والمعجمية.. فاسم أمينة عندما يرد فى الثلاثية يكون مطابقًا للنموذج، لكن أسماء سعيد سعيد ونور وكامل تعنى عكسها تمامًا فى «اللص والكلاب» و«السراب»، حتى اسم الفندق الذى يخونه أحد العاملين فيه ويهرب زبائنه إلى بانسيون ميرامار هو «الأمين»، كى تكون المفارقة ساطعة الدلالة، وقد يبدو الإفراط فى التأويل تقويلاً قسريًا للنصوص، أو على طريقة بروكوست الإغريقى الذى كان يعذب ضحاياه، فيبتر سيقانهم إذا فاضت عن السرير ويمطها إن قصرت.. لكن العمل الإبداعى كما وصفه برادلى متعدد، وقابل للتكاثر وقد يصبح مع مرور الزمن بعدد القراء أنفسهم لأنه ليس مجرد بصلة تقشر بحثًا عن لب قد لا يكون موجودًا، ولعل أسوأ ما تورط به النقد الاتباعى فى ثقافتنا هو التأنق النظرى، الذى يعقبه تعثر عندما يترجل الناقد عن المنصة



النظرية إلى النقد التطبيقى، وهذا ما شعرت به ذات يوم فى ندوة عقدت فى الرباط المغربية حول نجيب محفوظ وبعيد فوزه بنوبل، فقد لاحظت أن المشاركين يتراشقون بمصطلحات فرانكفونية وأنجلو ساكسونية تبعًا لاختلاف المرجعيات ومحفوظ خارج المدار.

النجيب والأنجب!

راجت قبل ثلاثة عقود مقولة ليست من النقد فى شىء، وقد تكون مستعارة من أدبيات السباق، هى أن قامة روائية باسقة كقامة نجيب محفوظ تحولت إلى عقبة كأداء أمام الروائيين العرب، بل حاصرتهم من الأفق، ومن المستقبل أيضًا، لأن قدرهم هو الارتطام بأفقه الروائى.. ولا أظن أن نجيب محفوظ كان سعيدًا بهذه المقولة لأنه كمبدع كبير يعى بأن جزءًا أصيلاً من دوره هو أن ينتج من معطفه من سيصبحون ذات يوم أطول قامة، لكن حسب المعنى الذى قصد إليه بول فاليرى وهو يؤبن أندريه جيد، فقد قال إن من هم أطول قامة منه.. إنما يجلسون على كتفيه فهو يحملهم كما يفعل الآباء مع أبنائهم.. ولن يتقلب نجيب محفوظ ذات يوم فى قبره إذا علم بأن بلاده ولدت الأنجب، لأنه من صلبه الروائى أولاً، ويشكل قيامته الإبداعية ثانيًا!



أما أن يتكرر نجيب محفوظ على النحو الذى يحلم به أسرى إبداعاته وسيرته ورؤاه، فذلك أمر ليس مضادًا فقط للتاريخ، بل للإبداع أيضًا، وليس المطلوب فى ثقافة تودع واحدًا من أعز رموزها أن ترتجى تكراره، لأنها عندئذ تعتدى عليه مرتين.. مرة لأنها تريده أن يكون شاحبًا ومضجرًا أو فاقدًا لمغناطيسيته، ومرة لأنها تحكم بالإعدام على القادمين، وما نقوله هنا لا ينتقص مقدار أنملة من مكانة الرائد العظيم، الذى عرب فن الرواية بامتياز، وحرره من التعريف الذى يحتكره بين قوسين.. فالرواية بعد محفوظ لم تعد ملحمة البرجوازية الأوروبية فقط، كما قال جورج لوكاتش، إنها ملحمة الطبقة الوسطى المصرية، والعربية إلى حد ما، رغم أن هذه الطبقة شهدت غسقها قبل أن يشهد شاهدها غسقه، وقد تكون سبقته فى تابوت بسعة قارة!

أخيرًا، بل أولاً وهذا ترتيب يليق بالرائد الذى اجترح أفقًا عربيًا للرواية فإن من كتبوا عنه يودعونه خصوصًا من سدنة الثقافة الرسمية، جعلونا نشعر بأنهم يعتذرون عن عدم قراءته، فأهمية محفوظ يعرفها من قرأوه حيًا وتابعوا إقلاعه حتى اختفى بين الغيوم.

لهذا نتمنى أن يكون هذا الرحيل العاصف درسًا لكى لا نرثى «نجيب» وننكل بالنجباء الأحياء على امتداد العالم ومنه هذا القوس الملتهب الذى يسمى الوطن العربى وهو فى حقيقته المنفى العربى، حيث يغترب الناس فى عقر دورهم، وحيث ينقسمون إلى من ينتظرون البرابرة تحت الأسوار ومن يقاتلون البرابرة حتى الموت!

إن من شاركوا فى جنازة محفوظ عن بعد يتيح لهم رؤية المشهد على نحو بانورامى لابد أنهم لمحوا أبطاله وهم يتسللون إلى الجنازة ويختطفون التابوت، كى يحولوا دون دفنه، فكرامة الروائى إذا كان من طرازه هى فى نشره وقيامته المعرفية وليست فى دفنه!!

فـــــاروق عبد القـــــادر

عن «الأصداء» و«الأحلام»

إن ضاق الخارج بقى الداخل رحبا ثريا



> ليست هناك «انقلابات» فى إبداع نجيب محفوظ. بعبارة أخرى: إن إبداعه يجرى متدفقًا، مثل نهر تحدد الشطآن مجراه، قد تتمايز فيه موجة أو موجات، لكنها تبقى متصلة بما سبقها، مفضية لما تلاها

■■ عندى، فإن الأعمال الإبداعية لنجيب محفوظ يمكن أن تندرج فى «منظومات» أربع كبرى: تبدأ الأولى بروايته الأولى «عبث الأقدار ١٩٣٩»، وتنتهى إلى ثلاثية «بين القصرين» (فرغ من كتابتها فى أبريل ١٩٥٢، لكنها لم تنشر كاملة إلا فى ١٩٥٧)، الثانية تبدأ «بأولاد حارتنا» (نشرت مسلسلة فى ١٩٥٩، وصدرت طبعتها الأولى فى بيروت فى ١٩٦٦)، وتنتهى إلى «ميرامار» ١٩٦٧، الثالثة تبدأ برواية «حب تحت المطر، ١٩٧٣» وتنتهى إلى «قشتمر، ١٩٨٩»، وأعتقد أن أعمال عقد التسعينيات وما بعده تمثل المنظومة الأخيرة ويتميز فيها عملان. هما موضوع هذا الحديث.: «أصداء السيرة الذاتية» (نشرت مسلسلة فى ١٩٩٢، وصدرت كاملة فى ١٩٩٦)، و«أحلام فترة النقاهة» (وهذه لها حكاية صغيرة: منذ أصبحت مجلة «نصف الدنيا» القاهرية هى المسئولة عن نشر أعماله، أصدرت ثلاث مجموعات: أسمت الأولى منها «كتاب القرن»، ووصفته بأنه «يضم ٥٩ قصة، آخر ما كتب صاحب نوبل (١٩٩٩/٢/٢١)، والثانية والثالثة تضمان «أحلام فترة النقاهة»، واحدة فى نهاية ٢٠٠٠، والثانية بعدها بعام، ومازالت المجلة المذكورة توالى نشر مجموعات «الأحلام» (المجموعة الأخيرة منها صدرت فى ٢٠٠٦/٩/٣)، غير أن هذه الإصدارات - على وجه العموم - تفتقد الدقة، كما أن الأخطاء الطباعية الكثيرة التى تحفل بها، تزيد من عدم اكتمالها وصعوبة اعتبارها نصوصًا «معتمدة Standerdised» لهذه الأعمال، والطبعة المعتمدة فى هذه القراءة هى الصادرة عن «دار الشروق» فى ٢٠٠٦، وتضم مائتى حلم، أضيفت لها ست أخرى، نشرت - للمرة الأولى - فى ديسمبر ٢٠٠٥.

وعندى أيضًا، فإننى أفضل استخدام كلمة «منظومات» بدل «مراحل» التى دأب النقاد على استخدامها، فهذه الأخيرة قد توحى بوجود «انقطاع» أو «انفصال» بين المرحلة والتى تليها، كأن المؤلف قد أغلق درجًا وفتح درجًا آخر، وكلٌ مغلق على ما فيه، ولا صلة له بالدرج الآخر، وليس هذا التصور صحيحًا، وليست هناك «انقلابات» فى إبداع نجيب محفوظ. بعبارة أخرى: إن إبداعه يجرى متدفقًا، مثل نهر تحدد الشطآن مجراه، قد تتمايز فيه موجة أو موجات، لكنها تبقى متصلة بما سبقها، مفضية لما تلاها، قد تعترض هذا المجرى عقبات موضوعية، فيتوقف زمنًا، أو يتخذ مسارب أخرى كى يواصل التقدم (لمزيد من التفاصيل عن هذه المنظومات وسماتها وعلاقاتها بالواقع، راجع - من فضلك - : «نفحات من عطر نجيب محفوظ» فى «فى الرواية العربية المعاصطرة»، كتاب الهلال، سبتمبر ٢٠٠٣).

> كلمة «أصداء» تشير إلى صميمه: إنه لا يقدم سيرته أو أحداث حياته، لكنه يقدم انعكاسات تلك الأحداث على عقله وروحه ووجدانه

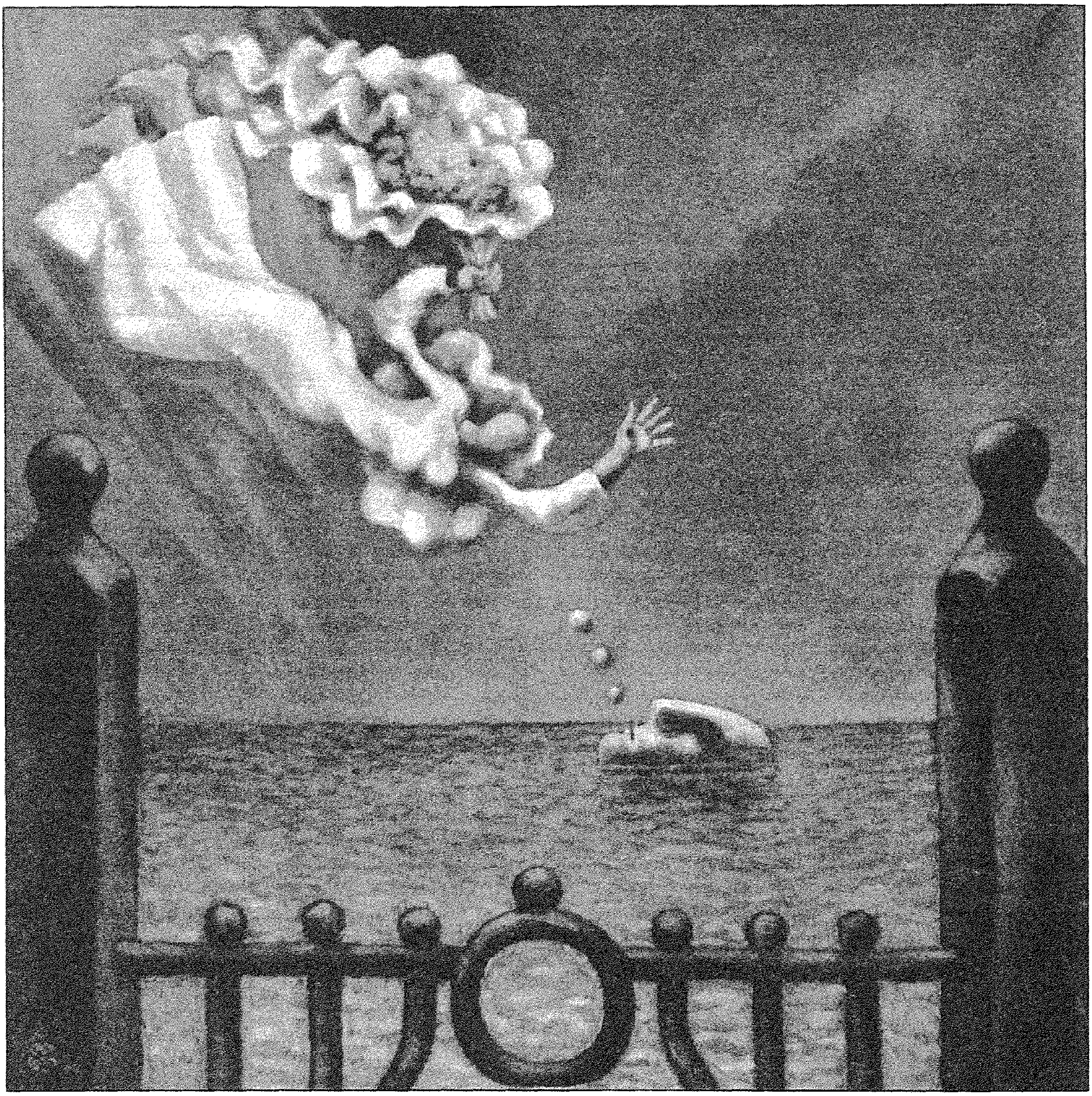
ولحسن قراءة أعماله الأخيرة، علينا أن نضع فى اعتبارنا ما أصبح عليه خلال العقد الأخير من حياته، وربما أكثر قليلاً: وَهَن منه السمع والبصر وهنًا شديداً، ثم جاءت تلك الحادثة الرهيبة التى تعرض لها فى أكتوبر ١٩٩٤ لتزيده وهنًا على وهن: فأصبحت يمناه عاجزة عن الإمساك بالقلم، إضافة إلى ما تركته طعنة الخنجر فى روحه من آثار دامية (وهو ما يبدو واضحاً فى أحلامه، كما سيجىء)، وفى نظام حياته الذى اعتاده لأكثر من خمسين سنة، فقد شُددت عليه الحراسة حتى أصبح عاجزًا عن الخروج فى مشواره الصباحى المعتاد (حدث بعض خلصائه أنه يظل يمشى داخل شقته الصغيرة جيئة وذهاباً حتى ينال منه التعب!).

بعبارة ثانية: إنه أصبح عاجزًا عن كتابة أعماله، فهو يمليها على غيره، ثم إنه لا يراجع تجارب الطباعة كما اعتاد، لهذا نجد أخطاء طباعية عديدة فى أعماله الأخيرة، بل إن إحدى مقطوعات «أصداء السيرة..» تتكرر بنصها دون أن يلتفت إليها أحد من مراجعيها («القبر الذهبى» ترد فى صفحة ٤١، ثم تتكرر بنصها فى صفحة ١٣٤). إن نجيب محفوظ أبدع أعماله هذه فى ظل أقسى الشروط الإنسانية لمبدع كبير.

إذن: وَهَن منه السمع والبصر، وضاقت معرفته بالعالم الخارجى وبالواقع من حوله، إلا ما يترامى إليه منهما عن طريق جلسائه، وهو قليل، وغير محايد بالضرورة، فماذا بقى له؟ الجواب فى عمل من أعمال نهاية الثمانينيات: فى «صباح الورد، ١٩٨٨» يكتب: «إنها لنقمة أن تكون لنا ذاكرة، لكنها أيضًا النعمة الباقية..»، وأكاد أضيف: والوحيدة أيضًا، فمن معين تلك الذاكرة يمتح نجيب أعماله الأخيرة: إن ضاقت معرفته بالخارج، بقى له الداخل رحبًا ثريًا..

من هنا تأتى «أصداء السيرة الذاتية» فى مكانها تمامًا. وقد كانت قضية السيرة الذاتية دائمًا قضية مثارة وسؤالاً مطروحًا بين نجيب ومحاوريه، وكانت إجاباته عن السؤال تأتى حسب تقديره لصاحبه وحسب حالته المزاجية حين يُطرح السؤال. فى مرة قال لى: «أنا من عائلة معمرة، ولست أحب أن أسىء لأحد.»، ولم يقنعنى الجواب بطبيعة الحال، إذ لماذا يتحتم أن يسىء كاتب السيرة لذويه؟ وهل من الضرورى أن يفعل الجميع ما فعل لويس عوض حين كتب «أوراق العمر»، وخُيل لكثير من قارئيه أنه لم يكتبه إلا تصفية لحسابات قديمة ظلت معلقة فوق رأسه بينه وبين بعض أفراد عائلته؟ ومرة أخرى قال لسائله: (لا تنس أنه ابن بلد قاهرى، ومن سماته أن يزوغ من المأزق بالنكتة): «وماذا يجديكم لو قلت لكم إن حياتى كانت، زمنًا ما، «هلسًا وصرمحة»؟، ثم أطلق ضحكته الممتدة.

وأقول لك - من البداية - إنك لن تجد فيها «سيرة ذاتية» لصاحبها، فلا تتوقع أن يقول لك - كما يقول كتاب السير فى العادة -: «ولدت لخمس خلون من شهر كذا عام كذا ..»، فسيرة نجيب - بهذا المعنى المباشر - منتشرة - مثل أشعة الشمس -



تتخلل الكثير من أعماله (أشير - بوجه خاص - إلى الجزء الثانى من الثلاثية: «قصر الشوق، ١٩٥٧» و«المرايا، ١٩٧٢»، ثم هذا العمل من نهاية الثمانينيات «قشتمر، ١٩٨٩»، وفى هذا الأخير يحدثنا الروائى عن التكون الوطنى والسياسى والفكرى والعاطفى له ولجيله، فكل أبطاله مولودون فى عام واحد: ١٩١٠، وهم يحتفلون - زمن الكتابة - بانقضاء سبعين عاماً على بدء صداقتهم، أما حياته الوظيفية، أو حياته فى الوظيفة، فإنك واجدها فى عدد كبير من الأعمال كذلك، وإن كانت «حضرة المحترم، ١٩٧٥» تحظى بأهمية خاصة فى هذا السياق).

وكلمة «أصداء» فى عنوان العمل تشير إلى صميمه: إنه لا يقدم سيرته أو أحداث حياته، لكنه يقدم انعكاسات تلك الأحداث على عقله وروحه ووجدانه. إنه يصفيها ويستقطر دلالاتها ويستخلص دروسها ومعانيها، ثم يصوغها تلك الصياغة الخاصة. أكثر من مائتى مقطوعة (٢٢١ على وجه التحديد، قد لا يتجاوز أطولها الصفحة الواحدة، وقد تقف عند السطر أو السطرين) يلخص فيها الكاتب ويركز ويكثف ويوجز رؤيته للحياة والناس. وفى عقد ينتظم أكثر من عشرين ومائتى حبة، أليس طبيعياً أن تجد بينها كثيراً من الجوهر الحر الكريم، وألا تخلو - كذلك - من حبات زائفة وأصداف فارغة؟

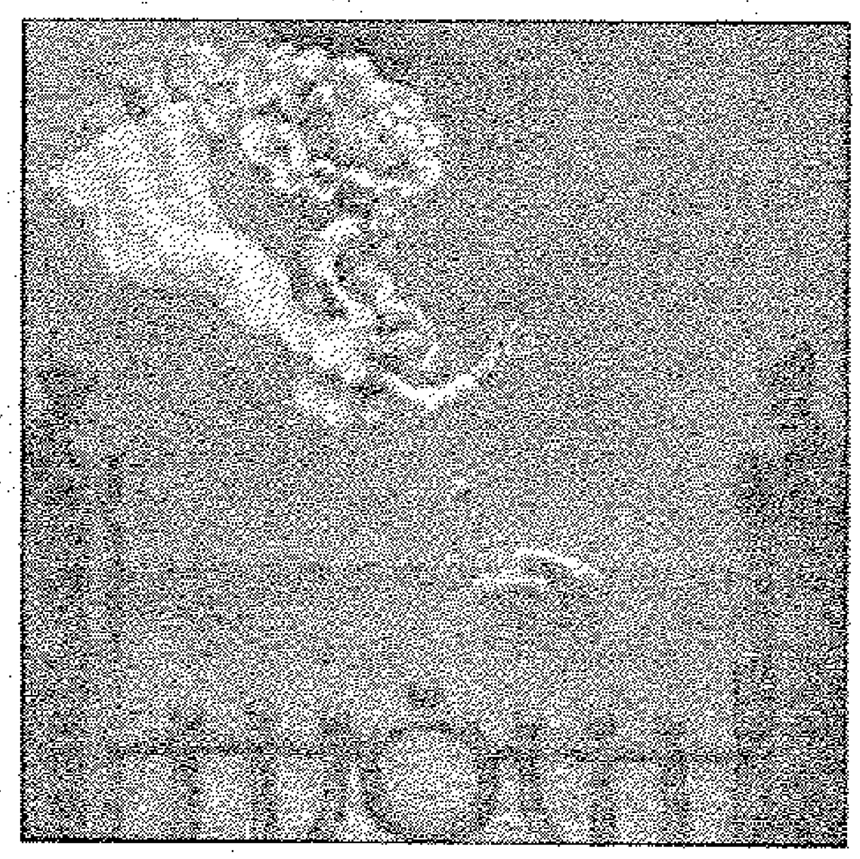
النصف الأول منها ينطلق فيه الراوى حراً يحدثنا بما رأى وسمع وعرف وتذكر وحلم وتخيل، حتى يظهر «الشيخ عبد ربه التايه» فى النصف الثانى على وجه التقريب (أول ظهوره فى المقطوعة الخامسة عشرة بعد المائة)، ويقدمه لنا الراوى: «كنا نلقاه فى المقهى أو الطريق أو الكهف، وفى كهف الصحراء يجتمع الأصحاب، حيث ترمى بهم فرحة المفاجأة فى غيبوبة النشوات، فحق عليهم أن يوصفوا بالسكارى، وأن يسمى كهفهم الخمارة، ومنذ عرفته داومت على لقائه ما وسعنى الوقت وأذن لى الفراغ. إن فى صحبته مسرة، وفى كلامه متعة، وإن استعصى على العقل أحياناً..»، وقدم الراوى إليه صديق خطاط (اقرأ: فنان) بعد أن اخترقا صحراء المماليك إلى الكهف (يأبى نجيب الابتعاد عن أرضه الأثيرة، وإن فى خرج من قلبها فإلى أطرافها، وقد لا ننسى أن فى هذه الصحراء ذاتها دارت معظم معارك «ملحمة الحرافيش، ١٩٧٧»). من هذه المقطوعة سوف يشغل عبد ربه مكان الراوى، وتأخذ المقاطع كلها ذلك الشكل الأدبى الذى عرفه الإغريق باسم «الابيجرام Epigram» والكلمة - فى معناها الأصلى - تعنى الكتابة بالنقش البارز، لكنها أصبحت تطلق على قول يتسم بالبلاغة والإيجاز، وعادة ما يكون ساخراً لاذع السخرية، سواء جاء شعراً أو نثراً، وأقرب وصف له ما جاء فى «ابيجرام» شهير يشبه هذا الشكل بالنحلة: ذات جسم رشيق دقيق جميل، لكن فى ذيلها

لسعة حادة، وقد مارس هذا الشكل كتاب غربيون قدامى ومحدثون كثيرون فى الآداب الإنجليزية والفرنسية والألمانية وسواها، وكانوا - عادة - يقسمون «الابيجرام» - حسبما قال المسرحى والشاعر والناقد الألمانى ليسنج (١٧٢٩ - ١٧٨١) إلى جزءين: الأول يلفت انتباه القارئ، والثانى يفاجئه بقول غير متوقع (ساخر فى الغالب).

وفى أدبنا العربى سبق أن حاول هذا الشكل طه حسين فى كتابه «جنة الشوك، ١٩٤٥»، وكتب فى تقديمه: «الذين يقرأون ما أذعتُ فى الناس من الكتب.. يستطيعون أن يتبينوا - فى وضوح وجلاء - أننى أستجيب حين أكتب - وحين أكتب فى الأدب خاصة - لشيئين اثنين: أحدهما ما أرى أو أجد من عاطفة وشعور، والآخر امتحان قدرة اللغة العربية على أن تقبل فنونًا من الأدب لم يطرقها القدماء..»، وكان هذا الأخير دافعه لكتابة «ابيجراماته» التى كان يبدأ كلاً منها بجملته التى أصبحت شهيرة: «قال التلميذ الفتى لأستاذه الشيخ...».

هكذا إذن: سيصبح الراوى هو التلميذ الفتى، وعبد ربه أستاذه الشيخ، فماذا فى نصفى النص: ما يرويه الراوى عن نفسه، وما يرويه عن شيخه؟ لن يجدينا، وليس بوسعنا - بطبيعة النص ذاته - أن نقف عند كل مقطع من مقاطعه، لكننا نتلمس أهم الألحان المترددة فى النص كله، أو «البنى» المتكررة فيه. ومن البداية سأله الشيخ: «ماذا يدفعك إلينا؟ فقلت بعد تردد: أكاد أضيق بالدنيا، وأرجو الهرب منها..»، فقال بوضوح: الدنيا محور طريقتنا، وعدونا الهروب..». تلك البداية سوف تتكرر فى صياغات مختلفة. ولكن: ماذا فى الدنيا جدير بأن يصبح موضوعًا للحب؟ مرة ثانية: «سألت الشيخ عبد ربه عما يقال عن حبه للنساء والطعام والشعر والمعرفة والغناء، فأجاب جاداً: هذا من فضل الملك الوهاب...».

وما أكثر ما قاله الراوى وشيخه فى المرأة والحب! أسوق لك أمثلة قليلة، وأحيلك إلى الباقى: «سألنى صديقى الحكيم عن حلم لا أنساه فقلت: «وجدتنى فى خمارة وسط جماعة من أهل الخير والبركة، نشرب ونغنى. وسأل سائل: ترى من يكون صاحب الحظ السعيد؟ وانزاحت الستار المسدلة على باب الخمارة، ودخلت امرأة عارية تموج برحيق الحياة وفتنتها، ووقفنا ذاهلين ننظر وننتظر، واتجهت المرأة نحوى حتى التصقت بى وحلت عقدة شعرها المعقوص، فانصب حولنا كموجة عاتية



فغطانا، وثمل الجميع بسعادة شاملة، أنشدنا معاً: بشرى لنا، نلنا المنى..»، وأكثر من مرة يوجز الشيخ رأيه فى الحب فى كلمات قليلة، فمرة يقول: «الحب مفتاح أسرار الوجود..»، وأخرى يقول: «خفقة واحدة من قلب عاشق جديرة بطرد مائة من رواسب الأحزان..»، وثالثة: «كنا فى الكهف نتناجى حين ارتفع صوت يقول: أنا الحب، لولاى لجف الماء وفسد الهواء وتمطى الموت فى كل ركن...». (راجع كذلك: «هيهات، ص ٤٨»، «الثابت والمتغير، ص ٧١»، «شكوى القلب، ص ٨٦»، «مأوى النعمة، ص ١٠٠»، «الرقص فى الهواء، ص ١١٠»، «الواعظة، ص ١٢٠»، «لقاء فى الظلام، ص ١٣٧، وسواها).

مع الحب يأتى الفن. ومادمنا فى رحاب المتصوفة، نسهر سهراتهم وننشد أناشيدهم ونتناجى بنجواهم ونستخدم قاموسهم، فالفن يأخذ شكل السماع والطرب. انظر لهذه المقطوعة «يا له من زمن، زمن الطرب! ترسل الحناجر الذهبية أنغامها فتنتشر النشوة كالشذا الطيب النفاذ، وتتخلق فى حالة الطرب امرأة جميلة تعشقها القلوب البيضاء، لكنك لا تعثر لها على أثر فى غير دنيا الطرب، لقد اختارت قلب الطرب مكاناً لها لا تبرحه..». كذلك: «حدثنا الشيخ عبد ربه فقال: أغرتنى نشوة الطرب ذات مرة بالتمادى فى الطرب حتى طمعت أن أثب من الطرب الأصغر إلى الطرب الأكبر فسألت الله أن يكرمنى بحسن الختام، عند ذلك همس فى أذنى صوت: لا بارك الله فى الهاربين..». (راجع كذلك: «عبير من بعيد، ص ١١١»، «خطبة الفجر، ص ١٤٩»، «الطائر الأخضر، ص ١٥١»، «الغناء، ص ١٥٤»، وسواها).

ولكن.. لا تحسبن الشيخ وصاحبه يدعوان إلى التفرغ للحب والفن، أو العشق والطرب، بل إن العمل قيمة كبرى فى عالم الأصداء: «قال لصاحبه العاكف على العبادة كأنه يعتذر: «فى زحمة هموم أسرتى ومطالب الشئون العامة ضاع عمرى فلم أجد وقتاً للعبادة..»، فى تلك الليلة زاره فى المنام من أهدى إليه وردة بيضاء وهمس فى أذنه: «هدية لا يستحقها إلا العابدون الصادقون..»، والمرأة الجميلة «ست الحسن» لا ترحب بمن يجيئون إليها هاجرين عملهم فى السوق، وهذا الراوى يقول لشيخه إنه يرحب بتعب عام متصل، لكنه يضيق بعطلة شهر واحد، فيجيب شيخه: «طبعنا على حب الحياة وكره الموت..»، وفى نهاية الأصداء يهنئ الشيخ مريديه: هنيئاً لمن قام بواجبه فى السوق وتحدى الكدر. بعبارة من عندنا: من عمل على الاهتمام بشئونه الخاصة من جانب، ولم يهمل الشئون العامة، من الجانب الآخر.

ويشغل الموت: تأمله والتفكير فيه، وتذكر الراحلين، والتأهب للقائه، حيزا كبيراً فى الأصداء. فى المقطوعة الثانية يقول الراوى: «كانت أول زيارة للموت عندنا لدى وفاة جدتى، كان الموت مازال جديداً، لا عهد له بى، عابراً فى الطريق(..) انتزعنى النحيب من طمأنينتى، فأدركت أنه تسلل فى غفلة منا إلى تلك الحجرة التى حكت لى أجمل الحكايات، ورأيتنى صغيراً كما رأيته عملاقاً..»، لكن تلك رؤية الطفولة، والمواجهة الأولى للموت، لكن رؤية الأعوام المتقدمة سوف تختلف كثيراً: هذا هو الشيخ عبد ربه يقول: «رأيت الموت فى هيئة شيخ فانٍ وهو يقول: لو كففت عن عملى عاماً واحداً لانتزعت منكم الإقرار بفضلى..»، ويقول أيضاً: «استلقيت فوق الأرض الخضراء تحت ضوء القمر أهيم فى الرؤية، فهمست الأرض فى أذنى شاكية: ينفسون علىَّ لقمتى اليومية، وما فعلت سوى أن أستردت ما سبق أن وهبت...». الموت حتم ومقدور، الخطوة الأخيرة التى يجب أن يخطوها من عاش وعمل واستمتع بالحياة دون خوف أو وجل، ولعل من أجمل ما يصوغه لنا الراوى هنا تلك المقطوعة بعنوان «همسة عند الفجر»: «فى مرحلة حاسمة من العمر، عندما تسنم بى الحب ذروة الحيرة والشوق، همس فى أذنى صوت عند الفجر: هنيئاً لك، فقد حم الوداع، وأغمضت عينى من التأثر فرأيت جنازتى تسير، وأنا فى مقدمها أسير حاملاً كأساً كبيرة مترعة برحيق الحياة..» (راجع كذلك: «التلقين، ص ١٥»، و«الصور المتحركة، ص ١٧»، «النداء، ص ٤٢»، «الهجر، ص ٤٧»، «المعركة، ص ٥٥»، «المتنبى، ص ٨٥»، «شهد الضحك علينا، ص ٩٨»، «صوت القبر، ص ١٢٨»، «بلا ترحيب، ص ١٤٨»، وسواها).

ولأن الذاكرة هى المصدر الوحيد لما يرويه الراوى عن نفسه وعن شيخه فطبيعى أن تشغل قضية الذاكرة والنسيان مكانها فى الأصداء. يقول الراوى: «رأيت شخصاً هائلاً ذا بطن تسع المحيط وفم يبلغ الفيل، فسألته فى ذهول: من أنت يا سيدى؟ فأجاب باستغراب: أنا النسيان، فكيف نسيتنى؟»، ويقول له صديقه الحكيم: إن قوة الذاكرة تتجلى فى التذكر كما تتجلى فى النسيان، وما أكثر ما يتعرض الراوى لمراوغات الذاكرة ومعابثاتها، فيلتقى برجال ونساء يعرفونه ويعرفنه، ويحاول كل أن يذكِّره بما كان بينهما، لكنه لا يذكر شيئاً، ليس الراوى وحده، هذا معلمه القديم، وقد أُنسى كل شىء، الحى يعرفه والناس يحبونه، ولكن نادراً ما يحييه أحد لضعف ذاكرته وحواسه، أما هو فقد نسى الأهل والجيران والتلاميذ وقواعد النحو، وما دمنا في عالم المتصوفة نرى رؤاهم ونستخدم كلماتهم فى السكر والغناء والنشوة ومقام الحيرة ومقام التعرف ومقام الرضا.. إلخ، ألا يحق لنا أن نقول قولة واحد منهم: وما سمى الإنسان إنساناً إلا لأنه نَساء؟ (راجع كذلك: «الطرب، ص ١٣»، «التسول، ص ٣٣»، «الندم، ص ٦٧»، «النهر، ص ٨٠»، «رجل الأقدام، ص ٨٨»، وسواها).

وما كان لصاحب الأصداء أن يغمض عينيه عن الواقع المعيش مهما غاص فى أعماق الذاكرة، ثمة مقطوعات عديدة تشى بأن الكاتب الكبير بقى مهموماً بهذا الواقع الثقيل وهمومه الرازحة، خذ هذه المقطوعة وتأمل كلماتها القليلة ما شئت: «سألت الشيخ عبد ربه التايه: متى ينصلح حال البلد؟ فأجاب: عندما يؤمن أهلها بأن عاقبة الجبن أوخم من عاقبة السلامة». وهذا الراوى فى قافلة تقطع الصحراء، عَنَّ له أن يتساءل عن المكان الذى يحب صاحب القافلة أن يكون فيه، اختلف الرأى عند سامعيه لكنهم أجمعوا على استنكار سؤاله، ثم وجدت الرؤوس تتقارب، والأعين تسترق النظر إلىّ، والريبة تتفشى فى الجميع. رباه.. كيف أقنعهم بأننى لم أقصد سوءاً، وأننى لا أقل عن أى منهم ولاء للرجل؟، ودنا منى رجل صارم الوجه وقال لى: اترك القافلة، ودعنا فى سلام.. ولم أر بداً من الخروج لأجد نفسى فى خلاء مطبق وكرب عظيم..» كل هذا لأنه جرؤ على التساؤل - مجرد التساؤل - عن صاحب القافلة!

ثم.. من أولئك الأشباح الذين يراهم

ربما كان أهم ما يلفت النظر فى شخصية الحالم فى هذه الأحلام كلها أنه محاصر، محاط بـه، موضوع ملاحقة وتربص، يعانى الخديعة المرة بعد المرة، وتُسلب نقـوده المرة بعد المرة أيضـاً. بل يتعرض للإيذاء الجسدى أو التهديد به، ويحكم عليه بالإعدام أكثر من مرة

الراوى: «وسَرَح بصرى فى متاهة الصحراء المسربلة بالظلمة الرقيقة وسرعان ما خيل إلىّ أن أشباحاً تتحرك نحو المدينة، قلت: لعلهم من رجال الأمن، ولكن مرّ من أمامى أولهم فتبينت فيه هيكلاً عظمياً يتطاير شرر من محجريه، واجتاحنى الرعب فوق الصخرة، وتسللت الأشباح واحداً فى إثر الآخر، وتساءلت وأنا أرتجف عما يخبئه النهار لمدينتى النائمة...»، ومَن يعرف الواقع المصرى حق المعرفة لن يصعب عليه أن يعرف مَن كان يعنى بتلك الأشباح التى تنفث الشرر؛ ألم تمتد يد أحدهم بالخنجر إلى رقبته؟

ولا يتخلى الكاتب العظيم أبداً عن الأمل، وهذه رؤية شيخه للمستقبل: «سيجئ الطوفان غداً أو بعد غد، سيكتسح الفساد والفاسدين والعاجزين، ولن تبقى إلا قلة من الأكفاء، وتنشأ مدينة جديدة تنبعث من أحضانها حياة جديدة، ليت العمر يمتد بك يا عبد ربه لتعيش ولو يوماً واحداً فى المدينة الآتية...». (راجع كذلك: «التحدى، ص ٣١»، «المخبر، ص ٧٥»، «الرحلة، ص ٧٠»، وسواها).

تلك أهم الألحان المترددة فى الأصداء: الحب والفن والعمل والموت والنسيان وهموم الواقع المعيش، اختار الكاتب أن يصوغها فى شكل الحكايات الصغيرة الدالة، وأن يستخدم أدوات تعبيرية مختلفة: الرؤى والرموز والأحلام، وأن يستعين بلغة المتصوفة، حيث لا تعنى الكلمة دلالتها الشائعة، بل تحيل إلى عالم آخر تتماسك مفرداته ويفضى بعضها إلى بعض، ولا تقف بعض الحكايات عند حدود هذا العالم، بل تتجاوزها إلى ما وراءه.

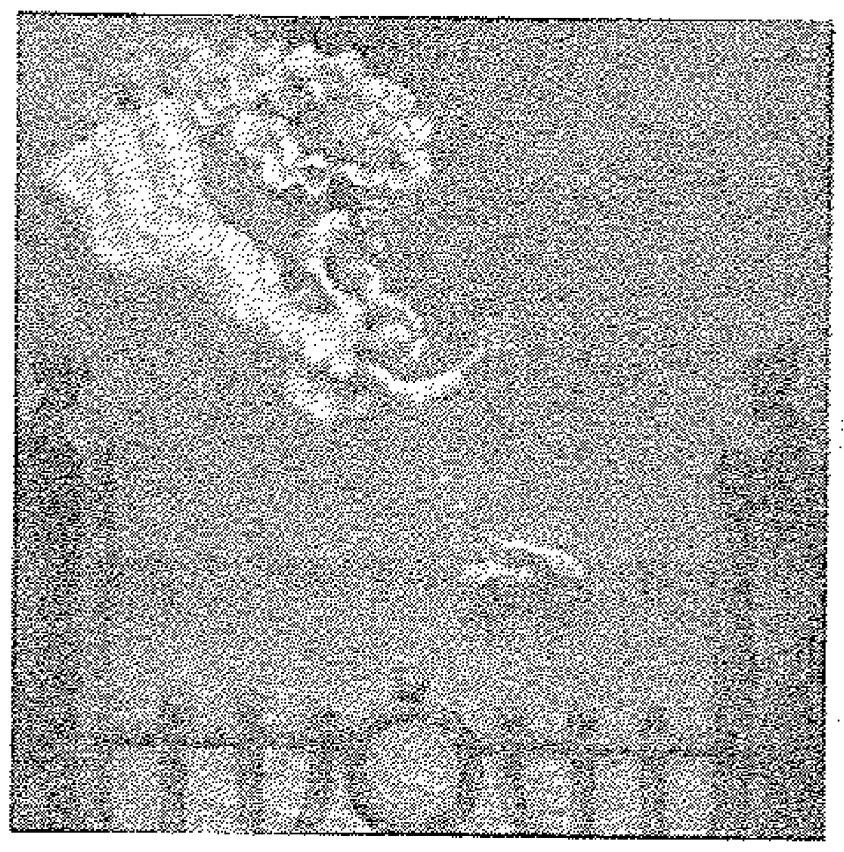
حقاً: كلما اتسعت الرؤية، ضاقت العبارة!

وتضم «الأصداء» عدداً من الأحلام، يحلمها الراوى، التلميذ الفتى، أو أستاذ الشيخ (راجع المقطوعات: «٦١»، «٦٢»، «٦٨»، «٧٩»، «١٢٠»، «١٧٠»، والأخيرة «حلم الشيخ عبد ربه نفسه»)، وهى تشغل مكانها الملائم فى نسيج «الأصداء» من حيث دلالتها فى الكشف عن جوانب معينة من شخصية صاحبها، أما «أحلام فترة النقاهة» فتتجاوز المائتين، فكيف يمكن أن «نقرأ» هذه الأحلام أو «نفسرها»؟

وإن قلنا «تفسير الأحلام» تداعى - على الفور - سيجموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) وكتابه الشهير بهذا العنوان (صدرت طبعته الأولى - بالألمانية - فى ١٩٠٠، ومنها ترجم إلى لغات العالم، وله ترجمة عربية ممتازة، قام بها الأستاذ الدكتور مصطفى صفوان، راجعها وقدم لها الأستاذ الراحل مصطفى زيور، وصدرت فى ١٩٥٨)، ولا شك عندى فى أن فرويد هو صاحب أوفى نظرية متكاملة فى تفسير الأحلام، ولا شك عندى أيضاً فى أن هذا الكتاب أحد أهم الكتب المؤسسة فى الثقافة الغربية والإنسانية المعاصرة، ولعل شأنه فى هذا لا يقل عن شأن «أصل الأنواع» أو «رأس المال»، أو كما يقول زيور فى تقديم الطبعة العربية: «كان «تفسير الأحلام» يضم ، فى الحقيقة، أخطر الاكتشافات فى تاريخ معرفة الإنسان بنفسه، وكان صدوره فتحاً لا يدانيه فتح فى العلوم الإنسانية، ونقطة تحول بالغة الأثر فى تطور علم النفس والطب النفسى جميعاً، حتى شبهه البعض بكتاب كوبر نيكوس الذى طلع بثورة فكرية أرست قواعد علم الفلك الحديث...»، وشأن الأعمال الكبرى التى أشرنا لبعضها، ذاب «تفسير الأحلام» ومنجزاته فى نسيج الثقافة الإنسانية المعاصرة.

فإلى أى مدى يمكن أن يفيدنا فى قراءة أحلام نجيب محفوظ؟

هنا نلاحظ، أولاً، أن جوهر النظرية التى جاء بها هو أن «الحلم لغة»، لها قواعدها ونحوها وصرفها ودوال المعنى الخاصة بها، وطرائقها فى التعبير والصياغة، وأن «ميكانيزمات» الحلم فى التحول من «المحتوى الكامن» إلى «الصورة الظاهرة» إنما هى ذوات الميكانيزمات التى يستخدمها الإبداع الفنى بوجه عام، والأدبى بوجه خاص، أعنى ميكانيزمات مثل: التكثيف والنقل والإبدال والرمز والصياغة الثانوية، وليس هذا هو الرابط الوحيد بين تلك النظرية والإبداع، وأقصر الحديث هنا على الإبداع الأدبى، فثمة تراث هائل من الدراسات التطبيقية لفرويد وتابعيه عن أدباء أو أعمال أدبية، وفى ثقافتنا العربية تراكم قدر كبير من هذه الدراسات، سواء ما التزم منها بالمنهج الفرويدى أو أضاف إليه سواه من المناهج، منذ أنجز الدكتور مصطفى سويف دراسته الرائدة عن «الأسس النفسية للإبداع الفنى - فى الشعر خاصة» فى ١٩٥١، تتابعت بعده دراسات الدكاترة: عز الدين إسماعيل وروز غريب وعبد الحليم محمود ومصرى حنورة وعلى زيعور وسواهم، ورغم أن المجال لا يتسع للإفاضة فى الحديث عن هذه الدراسات، إلا أننا لا نستطيع إغفال الإشارة إلى أشملها فيما يتعلق بالرواية العربية، وهى التى قدمها الأستاذ جورج طرابيشى فى كتبه: «عقدة أوديب فى الرواية العربية»، «الرجولة وأيديولوجيا الرجولة فى الرواية العربية»، «شرق وغرب، رجولة وأنوثة»، «الله فى رحلة نجيب محفوظ الرمزية»، «أنثى ضد الأنوثة»، حتى آخرها - فيما أعرف: «الروائى وبطله، ١٩٩٥».



ثانى ما نلاحظه أن الإفادة من منهج التحليل النفسى لفهم الإبداع لا تقتضى - بالضرورة - الالتزام بحرفية النظرية الفرويدية بكل ما فيها وحولها من نقاط الجدل والاختلاف، بعبارة أخرى: إن الدارس لهذا الإبداع قد لا يلتزم بما جاء فيها خاصا بغلبة الدافع الجنسى أو سيادة «المركب الأوديبى» أو سواهما من قضاياها الخلافية، وإذا كان فرويد نفسه قد تحدث، فى مقال شهير عنوانه «الشعر وأحلام اليقظة»، بأن الشاعر يعمد إلى حلم يقظته بهدف جذب قرائه وإغرائهم على مشاركته فيه، مستخدماً أدواته الشعرية، فإن هذا الفهم يسرى على كافة المبدعين، لا الشعراء وحدهم بطبيعة الحال، فى مثل هذه الدراسات لا يجب أن يغفل الدارس لحظة واحدة عن أنه يتعامل مع إبداع فنى له شروطه وجمالياته الخاصة - ما بالك إذا كان مبدعاً فى قامة نجيب محفوظ؟

ولتوضيح ما أعنى، لندخل عالم الأحلام ونضرب الأمثلة: حدثنا فرويد عن «الأحلام النمطية» أو «النموذجية» أى تلك التى يراها الناس جميعاً، ومن أكثرها شيوعاً أحلام الارتباك من جراء العرى، يكتب: «والمألوف أن يكون نوع العرى ومداه بعيدين عن الوضوح..(..) والنقص فى الثياب لا يكون فى العادة خطيراً إلى المدى الذى يبدو معه مبرراً لما يصحبه من الخجل..(..) أما الناس الذين يستشعر المرء قبالتهم هذا الخجل فيكادون أن يكونوا دائماً غرباء، ولا يحدث أبداً فى الحلم النمطى أن تلقى طريقة الارتداء التى توقع صاحبها فى كل هذا الارتباك اعتراضاً، ولا هى تعير التفاتاً، بل تحمل الناس، على العكس، وجوهاً لا تبالى...».

فى الحلم (٤) من أحلام نجيب يرى الحالم نفسه مع رفيقين له يقفون فى ركن من بهو مترامى الأركان.. «صاحباى يرفلان فى كامل حلتيهما حتى رباط العنق على حين اكتفيت أنا بالجلباب..» (هو بديل العرى): ثم جاء رجل بملابس رسمية فهجس الحالم بأن حفلة ستقام، ثم جاء رجلان مماثلان له انضما إليه فزال كل شك، حاول الحالم الهرب فوجد وراء كل باب جداراً موصداً (أى أنه محاصر بلا فرصة فى الإفلات).. «رجعت إلى صاحبىّ فاندسست بينهما كأننى أتستر بهما.. طمأننى بعض الشىء أن الرجال الثلاثة لم يعيروننا أى التفات» (يقصد أنهم لم يعيروه، هو، أى التفات)، ثم تتابع مجىء الناس ودخل رجل كأنه زعيم، هتفوا له ثم اختفى...».

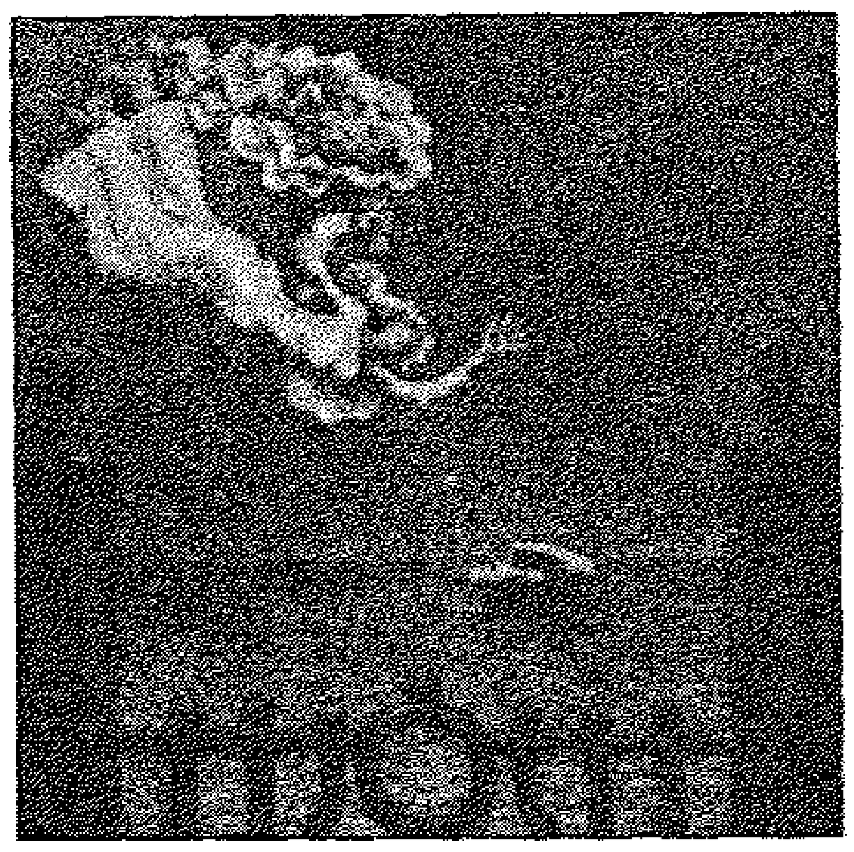
كذلك يمكننا أن ننظر فى الحلم (٢) باعتباره حلماً نموذجياً للتوهان: يدخل الحالم ومعه الفتاة إلى الشقة، وخلفهما البواب يحمل الحقيبة كأنهما زوجان (رغم قوله إن الصلة بينهما غير محددة). وللشقة شرفة تطل على البحر، وينزل الحالم إلى السوق كى يبتاع بعض الأشياء، وحين رجع وجد باب الشقة مفتوحاً ولم يجد الفتاة، وقال له البواب: «حضرتك أخطأت الطريق، وهذه ليست شقتك..(..) وملت إلى الاعتقاد بالخطأ متذكراً أنه توجد ثلاث عمارات متشابهة فى صف واحد...»، وحين هبط إلى الطريق رأى الفتاة تسير فى طرفه المفضى إلى الميدان.. «فجريت نحوها حتى أدركها قبل أن تذوب فى الزحام...».

ومن الأحلام النموذجية كذلك أحلام الاستعجال والطيران والامتحان وعدم اللحاق بالقطار أو الطائرة، وهذا كله لا تخلو منه أحلام نجيب محفوظ ولنكتف بحلم واحد: فى الحلم (١١٩) يحدثنا الحالم: «وصلت إلى المحطة فى الوقت الحرج، واتخذت موقعى فى الطابور الممتد إلى شباك التذاكر، فظللنا بين القاطرة والشباك حتى انطلقت صفارة الإنذار الأخيرة، ومازلت على مبعدة من الشباك، وهكذا فاتنى القطار...».

تلك، وغيرها (راجع الأحلام «٦٥»، «٦٧»، «١٦١»...) أحلام نموذجية أو نمطية، استطاع المبدع العظيم أن يحولها لنصوص أدبية، بإضافة تفاصيل لا تخرج عن

سياقاتها، ثم بتلك العملية التى أسماها المحللون «الصياغة الثانوية»، ولا تنس أن أدوات المبدع فى هذه الأحلام وفيرة، فإلى جانب وسائل عمل الحلم فى تحويل المحتوى الكامن إلى الصورة الظاهرة، ثمة تكنيكات الصياغة الأدبية فى القصة والرواية.

وربما كان أهم ما يلفت النظر فى شخصية الحالم فى هذه الأحلام كلها أنه محاصر، محاط به، موضوع ملاحقة وتربص، يعانى الخديعة المرة بعد المرة، وتُسلب نقوده المرة بعد المرة أيضاً، بل يتعرض للإيذاء الجسدى أو التهديد به، ويُحكم عليه بالإعدام أكثر من مرة، وقائمة الأحلام هنا طويلة جداً، سوف نقف عند أكثرها دلالة: هو - فى أول الأحلام - جائع يبحث عن مطعم «مناسب لذوى الدخل المحدود»، ويطوف بدراجته طويلاً، ويلمح صديقه إلى جوار الساعة فى الميدان، ويطلب منه صديقه أن يترك معه الدراجة حتى لا تعيقه فى البحث، وبعد رحلة خائبة رجع إلى الميدان فلم يجد الصديق ولا الدراجة. والحلم (١٦) عملية سلب وقهر لا شك فيها: الحالم يسير لكنه يحس أن شخصاً يتبعه، وهطل المطر بقوة فعاد إلى بيته مهرولاً.. «لكن شعوراً غريباً اجتاحنى بأن شخصاً غريباً مختفياً فى المسكن..» واستفزنى استهتاره فصحت به أن يسلم نفسه، ففتح باب حجرة الاستقبال وبرز رجل لم أر مثيلاً فى مساحته وقوته، وقال بهدوء وسخرية: سلم أنت نفسك، وملكنى الإحساس بالعجز والخوف.. (..) أما هو فأمرنى بتسليمه محفظتى ومعطفى..» وبعد أن تسلمهما دفعه فألقاه أرضاً، وحين نهض كان الرجل قد اختفى، وخوفاً من أن يصبح سخرية لم يستغث بأحد ولم يبلغ الشرطة!. وفى الحلم (٣٦) تتم خديعة الحالم فى صفقة فيخسر نقوده، وفى الوقت ذاته تخلو وظيفة المدير العام فى المكان الذى يعمل به، فيتقدم لها ويفشل فى الحصول عليها.. «قابلت الوزير لكنه قال لى: «إنك لم تستطع أن تحافظ على مالك الخاص، فكيف أأتمنك على المال العام؟..»، ولم يجد أمامه سوى أن يطلب إحالته للمعاش كى يجد الطأنينة!. ومن ذكريات جو الموظفين أيضاً الحلم (١٦٨): يذهب الحالم إلى «مدير المستخدمين» يشكو تخطيه فى الترقية رغم أن القانون فى صفه، فينصحه الرجل بأن يرفع قضية، فذهب إلى «مدير التحقيقات» وقدم شكوى.. ولكن أذهلنى أن وجهه نسخة دقيقة من وجه مدير



المستخدمين..»، ومن فوره ذهب إلى المحامى شرح مشكلته ودفع مقدم الأتعاب.. «ولكنى ذهلت أن وجهه نسخة من وجه مدير المستخدمين ومدير التحقيقات»، وكذلك سوف يكون الطبيب الذى يذهب إليه فى المساء، فحصه بدقة.. و«لكن لاحظت أن وجهه نسخة طبق الأصل من سابقيه..»، وسوف يلاحقه لص يسلب نقوده وهو عائد إلى بيته فى الليل، لم ير وجهه لكنه سمع صوته، «فسألت نفسى: ترى.. أين سمعت هذا الصوت من قبل؟»، وهل نحن بحاجة للجواب؟

فى هذه الأحلام، وسواها، نرى الحالم يعانى الحصار والملاحقة (حتى فى النهر، ثمة من يلاحقه، راجع الحلم (٤٥)..)، يتعرض للإيذاء الجسدى والمعنوى أكثر من مرة، وتشتعل النار فى بيته أكثر من مرة كذلك، وتنتهى به أحلام كثيرة وهو قلق، متوجس، متخوف مما يمكن أن يحيق به من فضيحة أو اتهام: الحلم (٨) ينتهى بهذه العبارة: «وعاد الهدوء لليل، ولكننى لم أزل أتوقع فضيحة أو شراً من ذلك..»، وفى الحلم الذى يليه مباشرة تسلب نقوده امرأة فى ثياب الرجال.. «وتم كل شىء بسرعة، ولما وقف المصعد وفُتح بابه أمرتنى بالخروج، وهبط المصعد، وجدتنى فى طرقة مظلمة، وقهرنى شعور بأننى قد فقدت أصدقائى وأن حوادث كالتى وقعت لى فى المصعد تتربص بى هنا أو هناك..».

وثمة أحلام تحولت لقصص ذات طابع رمزى خالص. إن محتواها الكامن ينطلق من الواقع، لكنه يقدم صوراً ومعادلات رمزية لهذا الواقع، والقائمة تطول هنا أيضاً: فى الحلم (١١) امرأة «فارعة الطول، ريانة الجسد، تستلقى فى ظل نخلة على شاطئ النيل..»، تكشف عن صدرها وتنادى الأطفال، فتدافع نحوها أطفال لا يحصرهم عد وتزاحموا على ثدييها ورضعوا بشراهة غير معهودة، وكلما انتهت جماعة جاءت أخرى، وبدا أن الأمر قد تجاوز كل الحدود وخرج عن كل تنظيم وأصبح يقتضى التنبيه أو الاستغاثة، لكن الناس يغطون فى النوم على شاطئ النيل، ويحاول الحالم الاستغاثة لكن صوته لا يخرج من فمه، أما الأطفال والمرأة فقد تركوها جلداً على عظم «ولما يئسوا من مزيد من اللبن راحوا ينهشون اللحم حتى تحولت بينهم إلى هيكل عظمى، ثم راحوا يتقاتلون بضراوة فيما بينهم، ولمحه بعضهم فاتجهوا نحوه وهو «فى رحاب الرعب الشامل». هل ثمة شك فى هوية المرأة «فارعة الطول، ريانة الجسد التى تستلقى فى ظل نخلة على شط النيل؟ هذا ما فعله بمصر أبناؤها الشرهون النهمون القساة، ثم استداروا يتقاتلون، والويل للشاهد الوحيد لأن الباقين «يغطون فى النوم على شاطئ النيل..».

وخذ أيضاً هذا الحلم (١٢٧): أصحاب يجتمعون فى حديقة الفيللا للسهر والسمر «فى حرية شاملة»، لكن صاحب الحديقة تغير فجأة فاستبد بكل شىء.. «فهو يختار موضع الجلسة وموضوع الحديث والأكل والشرب، وحسبناها دعابة لكنه استمر وتمادى فضقنا به ذرعاً غير أننا أخفينا مشاعرنا إكراماً للموقف»، غير أن واحداً منهم لم يستطع أن يخفى مشاعره، وذات مساء انفجر غضبه فأخرج مسدسه وراح يطلق عليهم النار!

لعلنى أغامر بالتفسير: الحالم وفدى لا شك فى وفديته واقتناعه بأنهم كانوا يعيشون فى حرية شاملة، أما صاحب الحديقة فأغلب الظن أنه عبدالناصر دون سواه، والحلم يصور كيف تتقبل الشعوب التنازل عن حريتها، والعيش فى ظل الديكتاتورية!

وأخيراً.. هذا هو الحلم (٥١): وقف القطار حيث لا محطة، وسرعان ما طوّقه الجنود، وأنزلوا منه العسكريين وبعض المدنيين الذين كانوا فيه، ومن بينهم الحالم.. «أمرنا الجنود المسلحون بخلع بِدَلنا والبقاء بملابسنا الداخلية.. (..) وتساءل صوت منا: هل تقتلوننا بلا محاكمة؟ فأجاب القائد بصراحة: الأمر لا يحتاج إلى محاكمة!».

أليست هذه صورة رمزية للحياة فى أية بلاد يحكمها العسكر؟

وكما تعكس الأحلام تفاصيل من حياة صاحبها، فنحن نتلمس فى هذه الأحلام بعض ثوابت عالم نجيب محفوظ الذى عرفناه فى أعماله السابقة. وعلى نحو من الأنحاء يمكن القول بأنه إذا كان المحللون يستعينون بالتداعيات الحرة للحالم كى يصلوا لمعنى حلمه، فإن أغلب مستدعيات حالمنا هنا مثبتة ومنشورة، فالبيت الذى تدور فيه كثير من الأحلام هو «بيت العباسية»، لكنها العباسية التى كانت حتى عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضى، والتى صورها نجيب أكثر من مرة (يمكن أن تعد روايته «قشتمر، ١٩٨٩» بكائية رقيقة لهذا الحى الذى كان جميلاً، بكلمات نجيب: «واحة فى قلب صحراء مترامية، فى شرقيها تقوم السرايات كالقلاع، وفى غربيها تتجاور البيوت الصغيرة مزهوة بجدتها وحدائقها الخلفية، تكتنفها من أكثر من ناحية حقول الخضر والنخيل والحناء وغابات التين الشوكى، يشملها هدوء عذب وسكينة سابغة، ويهب عليها هواء الصحراء الجاف فيستعير من الحقول أطيابها مثيراً فى الصدور حبها المكنون.. إلخ»، حيث تجتمع العائلة: الأم والإخوة والأخوات. وثمة ملاحظة مهمة هنا هى أن الأب يغيب عن هذه الأحلام غياباً كاملاً، فى أكثر من مائتى حلم (٢١٢ على وجه التحديد) نرى الأم والأخوة والأخوات عدة مرات، لكننا لا نرى الأب مرة واحدة. لست أعرف تفسيراً لهذا الغياب أو الإقصاء، ولأننى أحاول التعامل مع هذه الأحلام باعتبارها نصوصاً أدبية قبل أن تكون أى شىء آخر، ولأننا لا نعرف - على وجه اليقين - ماذا رأى الحالم حقاً وماذا أضاف الكاتب إلى ما رأى، فلست أولى هذا الأمر أهمية كبيرة.

وفى عالم نجيب محفوظ إن جاء ذكر العباسية جاء حُبه الأول. هى حبيبة الصبا والمراهقة وأول الشباب، صاغها أكثر من مرة وأعطاها أكثر من اسم: هى عايدة شداد «بين القصرين»، وهى صفاء الكاتب «المرايا»، وهى فاطمة العمرى «صباح الورد»، وهى - فى كل الأحوال - «حلم الطفولة المجهول، وموعد اللقاء النافذة، وإذا توارت يوماً فإنما لتلقننى الألم قبل أوانه..»، وجوهر العلاقة حب من طرف واحد، فى حين يبقى الطرف الآخر جاهلاً بهذه العاطفة أو لا مبالياً بها، وها هو نجيب - كان على أعتاب التسعين - لا يزال وفياً لذكراها. ها هو فى الحلم (١٤): «هامت روحى حول أركان العباسية المفعمة بالياسمين والحب، ووجدت نفسى تردد السؤال الذى يراودها بين حين وآخر: لماذا لم تزرنى فى المنام ولو مرة واحدة منذ رحلت، على الأقل لأتأكد من أنها كانت حقيقة وليست وهماً من أوهام المراهقة؟»، وجاءت (القاعدة

هل ثمة شك فى هوية المرأة «فارعة الطول، ريانة الجسد التى تستلقى فى ظل نخلة على شط النيل؟ هذا ما فعله بمصر أبناؤها الشرهون النهمون القساة، ثم استداروا يتقاتلون، والويل للشاهد الوحيد لأن الباقين «يغطون فى النوم على شاطئ النيل..»

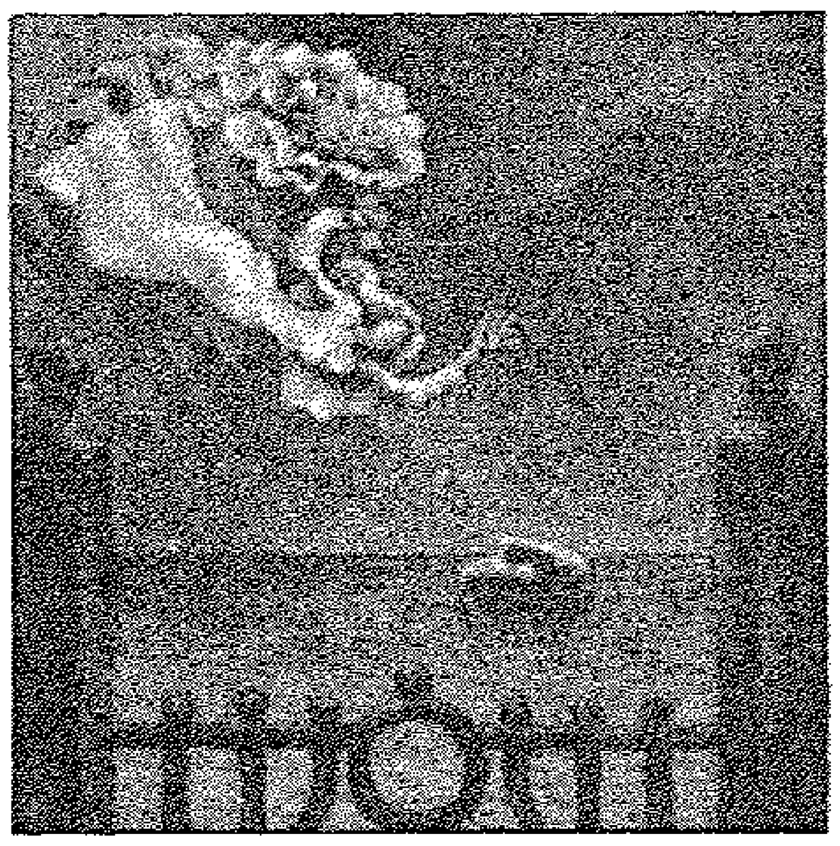
الأساسية فى الحلم أنه تحقيق لرغبة)، لكنها جاءت وراء فرقة موسيقية من تلك التى كانت تتقدم الجنازات، وهمَّ صاحب الحلم بأن يلمسها، لكنه سرعان ما أيقن أن الفستان ينسدل على فراغ.. «وسرعان ما هوى الرأس البديع إلى الأرض، وتدحرج إلى النهر، وحملته الأمواج مثل ورد النيل، تاركة إياه فى حسرة أبدية..». وها هو يراها فى سياق آخر، فى الحلم (١٨): فى قارب بخارى، وهى الملاح.. «ارتعش لمرآها قلبى، أطللت من النافذة وأنا واقف تحت الشجرة، وكان الوقت بين الصبا ومطلع الشباب..»، وحين همَّ بأن يسير إليها ليرى كيف يكون استقبالها له رأى نفسه فى حى شعبى، لعله الغورية، وهو مكتظ بالخلق فى مولد الحسين.. «ولمحتها تشق طريقها بصعوبة عند أحد المنعطفات فصممت على اللحاق بها..»، هل نحن بحاجة للقول إنه حين رجع لمكانه فى القارب وجد الملاح عجوزاً متجهم الملامح؟

أليس نجيب نفسه هو القائل لنا: «ما أشد معابثة الأحلام؟ ها هى تعابثه بحبيبة الصبا، التى يصفها.. فى الحلم (١١٠) بأنها «الوجه الذى علمنى العشق وألهمنى الخلود..»، وفى الحلم (١٤٤): «نظرت فى ظلمات الماضى فرأيت وجه حبيبتى يتألق نوراً بعد أن دام غيابها خمسين سنة..».

وفى الأحلام عدد كبير من الشخصيات العامة التى عرفها الراوى وارتبط معها بعلاقات شتى: ثمة - بطبيعة التكوين الثقافى والسياسى - سعد زغلول ومصطفى النحاس ومكرم عبيد، وثمة أيضاً زكريا أحمد وحسين فوزى وسعد الدين وهبة وأصدقاء يذكرهم بأسمائهم وآخرين يرمز لهم بالحروف الأولى، لكن الشيخ مصطفى عبدالرازق هو أكثر الشخصيات العامة تردداً، فهو يرد فى أحلام ثلاثة: (١٢٣) و(١٥٥) و(١٨٠). ونحن نعرف أنه كان أستاذاً لنجيب محفوظ، درس له الفلسفة الإسلامية فى كلية الآداب، كان أستاذاً مجدداً مستنيراً، قضى فى باريس زمناً وحصل على الدكتوراه من السوربون. وفى وقت من الأوقات سجل نجيب رسالته للماجستير فى الفلسفة الإسلامية تحت إشرافه ثم انصرف عنها، وحين أصبح الشيخ وزيراً للأوقاف، قبل أن يصبح شيخاً للأزهر، فى إحدى وزارات النصف الثانى من أربعينيات القرن الماضى، أخذ نجيب معه كى يعمل معه «سكرتيراً برلمانياً» (لهذا ترد وظيفة السكرتير البرلمانى هذه فى حلمين من الأحلام). المهم أن اثنين من هذه الأحلام الثلاثة يتضح فيها دور مصطفى عبدالرازق كما يراه نجيب محفوظ. فى الحلم (١٨٠): «رأيت أستاذى الشيخ مصطفى عبدالرازق - وهو شيخ للأزهر - يهم بدخول الإدارة، فسارعت إليه ومددت له يدى بالسلام فصحبنى معه، ورأيت فى الداخل حديقة كبيرة جميلة، فقال إنه هو الذى أمر بغرسها، نصفها ورد بلدى والنصف الآخر ورد أفرنجى، وهو يرجو أن يولد من الاثنين وردة جديدة كاملة فى شكلها، طيبة فى شذاها..» .. إنها صياغة جميلة للدور الذى ألقى على عاتق الشيخ وسواه من جيل الأحياء: المواءمة بين العلم الحديث والتراث، أو الغرب والشرق على التحليل الأخير. يؤكد هذا الفهم ما يقوله نفس الشيخ فى الحلم (١٥٥): ألمت به وعكة وقرر صاحب الحلم أن يعوده. قال الشيخ: «عندكم كثير من الصيدليات مليئة بالأدوية، إضافة إلى الوصفات الشعبية المجربة..». لا تناقض إذن بين العلم (الأدوية) والتراث (الوصفات)، ولا ينفى أحدهما الآخر ولا يقصيه.

وأود أن أقف لحظة عند حلمين عن اثنين من الشخصيات العامة ذكرهما بأسمائهما: حسين فوزى وسعد الدين وهبة. الحلم (٨٦) عن أولهما: «كلفت بحمل رسالة إلى المرحوم الدكتور حسين فوزى» فقلت له إن معى عرضاً لإعادته إلى الخدمة مع زيادة ملموسة فى الراتب وتخصيص حجرة فاخرة لمقامك، ضحك الدكتور وقال إنه لا يهمه الراتب ولا الحجرة، ولكن يهمه احترام فكره وكرامته..».

ويخيل إلىَّ أن هذا الحلم يستعيد تلك الأزمة التى تعرض لها الدكتور فوزى بعد زيارته لإسرائيل، وتعرضه للنقد والهجوم، آنذاك وصفت هذه الزيارة بأنها «سحابة معتمة غشت وجه القمر: قبل الدكتور فوزى الدعوة لزيارة إسرائيل، وزارها مرتين: فى ديسمبر ١٩٧٩، ثم فى أبريل ١٩٨٠، حيث ألقى بعض المحاضرات فى جامعاتها، وتقبل الدكتوراه الفخرية من جامعة تل أبيب..». فى رحيل الدكتور فوزى (١٩٨٨)، كتبت: «عندى، وقد مضى الرجل عن عالمنا بكل ما فيه من شر وخير. إن الدكتور فوزى لم يكن يلتمس - بهذه الزيارة - رضا أصحاب الحل والعقد، الذين لم يتوقفوا لحظة عن الحث على «التطبيع» و«إزالة الحاجز النفسى»، ولا



كان يبغى تحقيق مصلحة عابرة شأن الكثيرين ممن فعلوا، لكنه كان مخلصاً - كل الإخلاص - لاقتناعاته الرئيسة التى شكلت أسس تكوينه الفكرى، وأهمها - فى هذا السياق - الإيمان التام والمطلق، الذى لا يأتيه الباطل من أى مكان، بصحة النموذج الحضارى الغربى وسلامته، وبأنه النموذج الذى علينا احتذاؤه، إن شئنا أن يكون لنا مكان تحت الشمس. وما أيسر أن يؤدى مثل هذا الإيمان التام والمطلق إلى إسرائيل، هى التى قامت دعايتها - منذ بدء البدء - على أنها طليعة تلك الحضارة، وواحتها المتقدمة فى صحراء العرب والشرق والتخلف.

هذه واحدة، الثانية أن الدكتور فوزى كان عاشقاً مخلصاً لمصر، لكنها مصر المكتفية بذاتها، المكتملة كالجوهرة، التى لم يحدث - طوال تاريخها الذى عرفه الرجل حق المعرفة - أن انقسمت أو انقصمت أو انقصفت، أو انتفض فيها جزء على جزء أو جزء على الكل، أو فقدت تكاملها المنغلق - بصحاريه وجنادله - عما حوله.

بعبارة أخرى: إن الدكتور فوزى كان يحمل مصر، وحدها، فى قلبه، لم يتسع ليحتويها من حيث هى قلب العالم العربى، وواسطة عقده، رائدته وقائدته إلى الصلاح أو إلى الفساد، ولم يكن الرجل بدعاً فى هذا، كثيرون من مثقفى جيله الكبار كانوا كذلك، يشاركونه الاقتناع بتكامل مصر واكتفائها، وإن توجهت للخارج فإنما نحو الغرب، وعبر المتوسط، يجب أن تتوجه!

هى سحابة غشت وجه القمر، لا تنسينا ضوءه الذى ظل يسطع أكثر من خمسين عاماً متوالية: كاتباً ومبدعاً وباحثاً ومؤرخاً ومسئولاً، عاشقاً للفنون والآثار، متذوقاً وممارساً للأدب والموسيقى، وقبل هذا كله: مدافعاً صلباً عن قيم العقل والحرية والإبداع..». (راجع من فضلك: «حسين فوزى: فى رحيل السندباد، فى «أوراق أخرى من الرماد والجمر، القاهرة، ١٩٩٠، ص٢٣٩ - ٢٤٠).

وهنا نجيب محفوظ، يمسح على رأس صديقه الكبير، متفهماً ومتعاطفاً ومواسياً.

وعن سعد الدين وهبة الحلم (١٥٩): «تلقى بعض الحرافيش دعوة من الأستاذ سعد الدين وهبة فذهبنا إلى مقابلته، وهناك رحب بنا وأطلعنا على بيان سيرفعه إلى كبار المسئولين لتطهير الهيئة من الساسة المنحرفين، ودعانا إلى التوقيع عليه بإمضاءاتنا فاستجبنا بحماس، وعند فجر ذلك اليوم اخترق بيوتنا زوار الفجر وساقونا معصوبى الأعين إلى المجهول..».

فهل كان نجيب محفوظ يعرف عن سعد الدين وهبة أكثر مما يعرف الناس؟ لست أدرى بطبيعة الحال. ما أعرفه هو أن سعد الدين هبة كان - على وجه اليقين - رجل السلطة بامتياز، منذ جاء القاهرة نقيباً فى الشرطة ومحرراً فى المجلة التى كانت تصدرها وزارة الداخلية باسم «البوليس» ثم رئيساً لتحريرها قبل منتصف الخمسينيات، وحتى رحل فى نوفمبر ١٩٩٧، مهما تغير الجالسون على قمة هذه السلطة، أو تغيرت توجهاتها.

وحين رحل كان رئيس اتحاد الكتاب المصريين، واتحاد الفنانين العرب، ومهرجان القاهرة السينمائى، وكاتباً جهير الشهرة له صفحته الأسبوعية فى «الأهرام» وصاحب مشروعات خاصة، ولا تنس - من فضلك - عضو الأمانة العامة، المسئول عن الثقافة، فى الحزب الوطنى الحاكم!

فى الحلمين (١٧٩) و(٢٠٦) يعرض نجيب محفوظ حاله. فى أولهما يقول: «زارنى المرحوم صديقى الحميم، وسألنى عن أسباب حزنى، فقلت له: إن ضعف السمع والبصر حال بينى وبين مصادر الثقافة المقروءة والمسموعة والمرئية..»، وفى الثانى يقول: «ذهبت إلى مقابلة المرحوم الرئيس السادات، وهناك أخبرنى بأنه قرر تعيينى محافظاً للإسكندرية، فأطلعته على حالتى الصحية من ضعف البصر والسمع ويدى اليمنى المشلولة.. إلخ».

ألم أقل لك إنه كان يبدع أعماله الأخيرة فى ظل أقسى الشروط الإنسانية التى يعانيها مبدع كبير؟

عفــــــاف عبدالمعطــى



روايتـــان

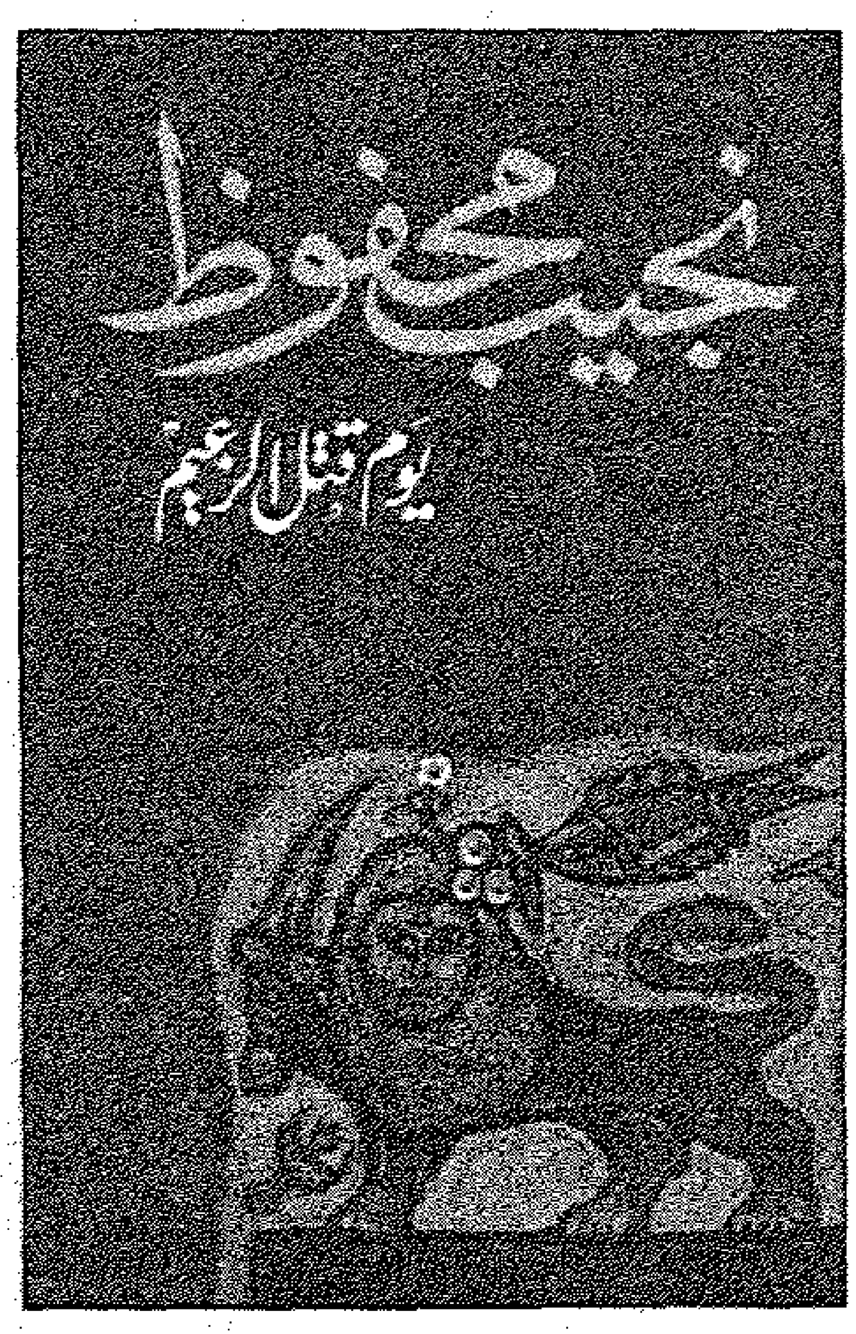
نادين جورديمر.. نجيب محفـوظ

■ في عام ١٩٩٣ كانت الزيارة الثالثة للكاتبة الجنوب إفريقية نادين جورديمر إلى مصر سبقتها زيارتان في (١٩٥٤ و١٩٥٨)، وفيهما حاولت اللقاء مع فارس جائزة نوبل الراحل الكبير نجيب محفوظ لكنها لم تستطع نظراً لإخفاق الوساطة بينهما. ثم كان أول لقاء على الأوراق إبان تقديم نادين جورديمر لأصداء السيرة الذاتية للكاتب الكبير نجيب محفوظ التي صدرت عن قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٩٧ بترجمة دينيس جونسون ديفز وقد تحقق لجورديمر لقاء محفوظ أخيراً إبان زيارتها لمصر كضيفة لمعرض الكتاب الدولي بالقاهرة عام ٢٠٠٥.

لا يحتاج نجيب محفوظ إلى تعريف ولا تحتاج نصوصه إلى تقديم، بينما لا تزال نادين جورديمر تحتاج إلى ذلك في العالم العربي، فهي روائية وكاتبة قصة قصيرة من جنوب أفريقيا حصلت على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٩١، وهي مقدمة الترجمة الإنجليزية لكتاب نجيب محفوظ (أصداء السيرة الذاتية) «وهي صاحبة مقالة عن أقصوصة (زعبلاوي) نشرت تحت عنوان (زعبلاوي الجانب الخفي) في كتابها المسمى (الكتابة والكينونة) «منشورات جامعة هارفارد ١٩٩٥». ولدت نادين جورديمر في سبرنجز بإقليم الترانسفال في ٢٠ نوفمبر ١٩٢٣ وتلقت دراستها في مدرسة الدير، وفي جامعة «ويتوتر ستاند» بجوهانسبرج، تزوجت لأول مرة من ج. جافرون في ١٩٤٩ ثم من رينولد كاسيرر في ١٩٥٤ حيث أنجبت ولداً وبنتاً. عملت محاضرة زائرة في معهد الفنون المعاصرة بواشنطن عام ١٩٦١، وفي جامعة هارفارد عام ١٩٦٩ وفي جامعة برنستون بنيوجرسي في ١٩٦٩، وفي جامعة نورث وسترن بإيفانستون بولاية إلينوي في ١٩٦٩، وفي جامعة متشجان في ١٩٧٠، ثم عملت أستاذاً مساعداً للكتابة الإبداعية بجامعة كولومبيا «نيويورك» في ١٩٧١، وقد حصلت خلال حياتها الأدبية على العديد من الجوائز: جائزة سميث الأدبية ١٩٦١، جائزة توماس برنجل ١٩٦٩، جائزة بلاك التذكارية ١٩٧٢، جائزة بوكر ١٩٧٤، جائزة النسر الذهبي الكبرى في فرنسا ١٩٧٥، الجائزة الأدبية لوكالة الأنباء المركزية بتايوان ١٩٧٥. تعيش جورديمر في جوهانسبرج الآن. وتشمل نصوص نادين جورديمر القصصية مجموعات: «وجهاً لوجه» ١٩٤٩، «وصوت الحية الناعم» ١٩٥٢، و«الأيام الكاذبة» ١٩٥٣، «ستة أقدام من البلد» ١٩٥٦ و«عالم من الغرباء» ١٩٥٨، و«أثر قدم فرايداي» ١٩٦٠ و«مناسبة للحب» ١٩٦٣، و«ليس للنشر» وقصص أخرى ١٩٦٥ و«العالم البرجوازي الزائل» ١٩٦٦، و«ضيف شرف» ١٩٧٠ و«رفاق لفنجستون» ١٩٧١، «المحافظ» ١٩٧٤، و«قصص مختارة» ١٩٧٥، و«يوم اثنين ما على سبيل المثال» ١٩٧٦، وقد ترجم بعض هذه الأعمال الى اللغة العربية في سلسلة «روايات الهلال». ومن أعمالها الأخرى «حول المناجم» بالاشتراك مع ديفيد جولد بلات ١٩٧٣، و«المفسرون السود» وهو كتاب في النقد الأدبي ١٩٧٣ وقد حررت بالاشتراك مع لايونل إبرامز كتاب «الكتابة في جنوب إفريقيا اليوم» ١٩٦٧. ومما عرف عن نادين جورديمر أنها كاتبة عصامية تنشر على نطاق واسع في المجلات والدوريات وقد بدأت تكتب بانتظام في سن

> نصوص محفوظ وجورديمر تعد سجلا حياً للمجتمع المصري عند الأول ومجتمع الفصل العنصري في جنوب إفريقيا عند الثانية

> محفوظ في نص أمام العرش جعل من حوار رجال مصر ذريعة لمحاكمة تاريخ تلك البلد، ومنهم بالطبع أنور السادات لأنه جزء من تاريخ هذا الوطن







التاسعة، ونشرت لها بعض قصص قصيرة وهى فى الخامسة عشرة. ومن المعروف أن جورديمر كانت ضيف شرف معرض القاهرة الدولى للكتاب٢٠٠٥ وأثناء ذلك التقت بالراحل الكبير نجيب محفوظ لقاءً حميمياً.

فى منزل نجيب محفوظ نظرت نادين طويلا فى وجه محفوظ قبل أن تقول له، «فى مثل هذا اليوم ٢٩ يناير/ كانون الثانى قبل واحد وخمسين عاما تزوجت.. إنه عيد زواجى.. وقد أخذنى زوجى الراحل فى رحلة إلى مصر وكانت أول دولة أزورها فى حياتى.. والآن يا أستاذ محفوظ أشعر بأن لقائى بك الذى كنت أسعى إليه منذ سنوات هو أثمن هدية أتلقاها بهذه المناسبة.. إننى أرى دائما أنك من أعظم المواهب الإبداعية فى العالم.. واحتفظ بكل أعمالك فى مكتبتى مترجمة إلى الإنجليزية.. وكلما قرأت قصة أو رواية وأنهيتها تأخذنى بلا وعى إلى الأخرى».

وقال نجيب بهدوء ومن خلال ابتسامته الودودة: سأقدم لك الآن كتابا لى لم تقرئيه.. فها هى النسخة الإنجليزية من كتابى صصأحلام فترة النقاهةصص الذى صدرت ترجمته الشهر الماضى وصدرت نسخته العربية منذ أيام. اختطفت نادين الكتاب وراحت تتأمل غلافه الأزرق وتقلب صفحاته وقالت بسعادة غامرة: عجبا لم أر هذا الكتاب من قبل.. فقال نجيب وهو يحتفظ بابتسامته الرقيقة: إنه يضم مجموعة قصص قصيرة استوحيتها من أحلامى[1].

ذكرت نادين جورديمر فى مقدمة أصداء السيرة الذاتية أنها أميل إلى تصديق أن تقييم الكاتب ربما يتحقق تطبيقاً على السيرة الذاتية، حيث عبر تتبع الكاتب/الكاتبة للظواهر الإنسانية حوله عبر كتابة سيرته الذاتية تظهر موهبته أو موهبتها. وبفضل الخيال الإبداعى الذى يستحضر توهج الحياة وزينتها بالألوان الزاهية أو بالإفراط فى وصف طريقة معيشته فى المغامرات أو حياة السُكر والمرح، أو عبر التجارب الجنسية.

فعلى أية حال السيرة الذاتية نثار متلاحقة لكيفية مثول أحداث الحياة للعيان كى تكون مكرسة للحقيقة. إنها تحتوى تدفقاً من السرد الصريح قد يكون ذلك أحياناً نكاية فى الكاتب وبالطبع هناك استثناءات. عامة ترى جورديمر أن الكُتّاب هم نتاج لسيرهم الذاتية ومن تكون سيرهم الذاتية أفضل من رواياتهم لديهم شىء يشير إلى موهبتهم.

وترى أن أثر كُتّاب السيرة الذاتية يمتد إلى تدوين تاريخ الحياة منذ ظروف الميلاد الأولى مروراً بجمال الصبا حتى التوارى فى الثرى. فكيف يُنتج الكاتب ذلك المدى الزمنى الذى يكون موجوداً بالفعل وينتقل فيه بحرية بين الزمان والمكان؟ ترد جورديمر نفسها فى مقدمة أصداء السيرة الذاتية:«يظهر ذلك خلال الأقوال المأثورة، والأمثال، والحكايات فى نص نجيب محفوظ التى لم تُذيّل بتاريخ،فهى لم تكن محسوبة تاريخياً عندما كتبها. دُونت منذ زمن بعيد فصاعداً إلى آخره حيث كان الذهن الإبداعى لمحفوظ متسعاً متيقظاً، بدلا من التجوّل بين الماضى والحاضر مع جموع من الأحداث لا تُعد سوى مجرد فعل تذكر. فأصداء السيرة الذاتية تجربة تمثل نزوة مصغرة أو ومضة من التعمق فى جميع معتقدات نجيب محفوظ. فمحفوظ ذاكرة متخمة مثل(شخص عملاق ذى معدة تتسع لكميات كبيرة وفم يستطيع أن يبتلع فيلاً) لذا، تخيلت أننى أسأله بذهول، من أنت يا سيدى؟ فيجيب فجأة «أنا النسيان». كيف يمكن أن تنسانى؟. عامة كان محفوظ مدركاً للماضى وخبرة تجربة الحاضر. تلك القطع الأدبية فى أصداء السيرة الذاتية ما هى إلا تأملات تمثل رجعا الصدى للذى حدث وكيف كان الكاتب نجيب محفوظ آنذاك؟.

كما تجسد اكتشاف محفوظ وإمعانه للنظر فى الحياة. والاستغراق فى تلك التأملات يستكشف روعتها ويظهر للعيان رموز قصص محفوظ حيث الكلمة المفردة أو العبارة تنهض على الدرس الأخلاقى: العدالة، الزمن، الدين، الذاكرة، اللهفة، الحركة،الجمال، الطموح، الحرية، الصفح،وأخيراً الفرح. كل ذلك يلاحظ عبر التركيز على اللغة الساخرة وأخذ موقعاً وسطاً بين المرح والعاطفة.

يوم قتل الزعيم

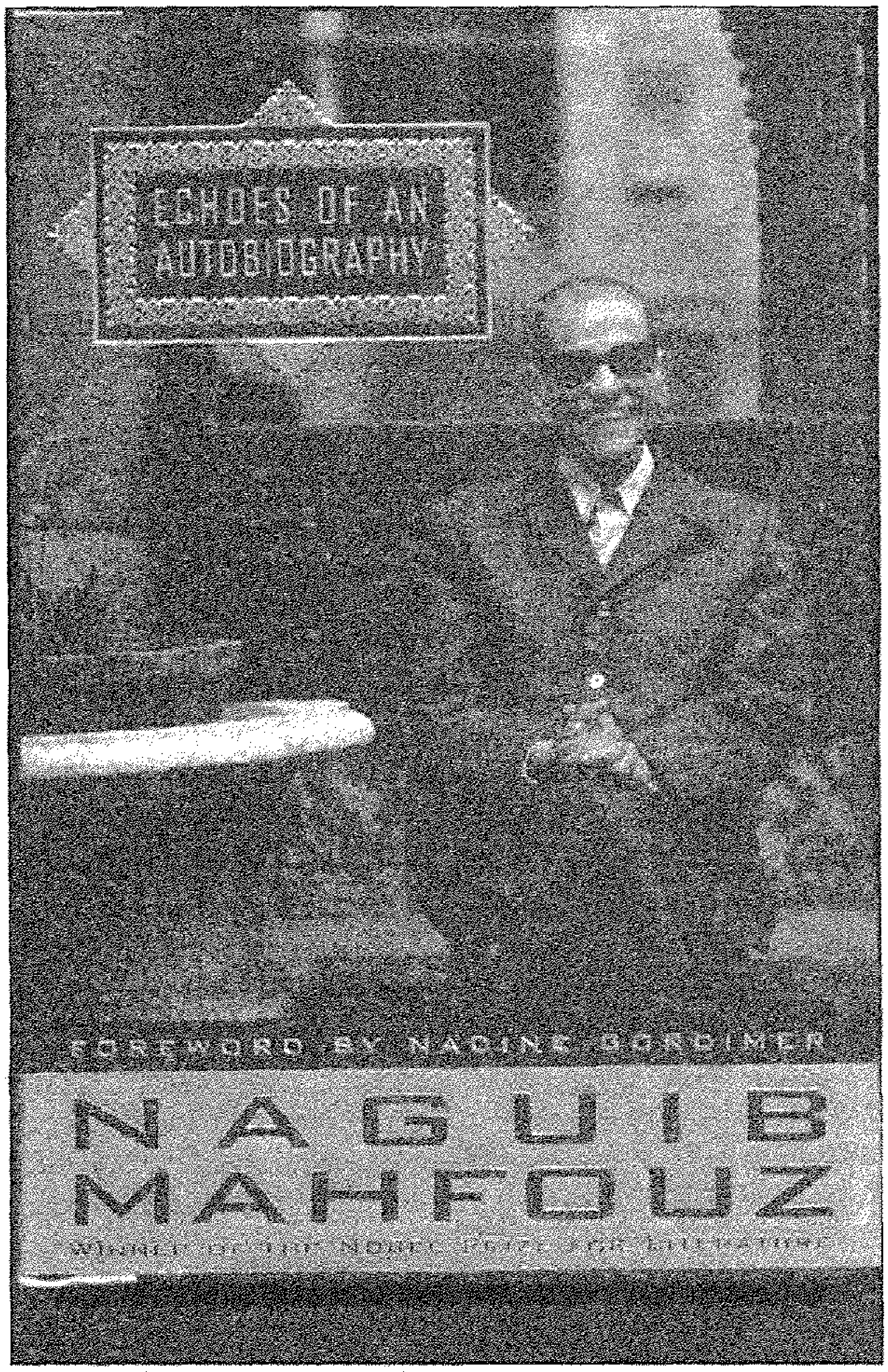
نقدم هذه الدراسة المقارنة بين رواية «يوم قتل الزعيم لنجيب محفوظ» ورواية «شعب يوليو» لنادين جورديمر لاعتبارات عدّة أهمها صدور الروايتين فى الثمانينيات ثم حصولهما (نجيب محفوظ(١٩٨٨) ونادين جورديمر(١٩٩١)) على جائزة نوبل العالمية فى الأدب. ثانياً لكون جورديمر امرأة كاتبة من العالم الثالث حصلت على نوبل نتيجة لشرف مواقفها العامة ولأنها ومحفوظ يشتركان فى الاهتمام بالواقع الاجتماعى لوطنيهما خاصة ما يخص تصوير القهر الإنسانى. وثالثا أنها كاتبة قدمت السيرة الذاتية لكاتب. ورابعا لأن كتابات محفوظ قد تشابهت فى غايتها مع غايات جورديمر فى الكتابة، حيث كلاهما يكتب عن البشر والبشر غاية من التعقيد والتناقض والغموض. إذن ثمة سر إنسانى يحاول كل منهما أن يكتشفه عبر الكتابة التى هى هدف لكل منهما للوصول إلى السر الكامن فى الحياة. آخر ما صدر عن نجيب محفوظ كتاب «نجيب محفوظ فى سيدى جابر-انعكاسات تتويج جائزة نوبل) صدر عن قسم النشر بالجامعة الأمريكية ٢٠٠٦، واخر ما صدر لنادين جورديمر كتاب تحت عنوان «لنحكى حكاية» يضم قصصاً مشتركة مع مجموعة من الكتاب العالميين ممن

جورديمر تذكر أحداثاً حقيقية تضمنها النص كى تؤكد ان ما يحدث (الصراع الأسود ضد البيض) ما هو إلا نتاج طبيعى لأحداث سياسية اجتماعية متتالية

حصلوا على نوبل أمثال ماركيز وجونترجراس وتشينو اتشيبى و وولى سونيكا أو غير الحاصلين على نوبل أمثال سوزان سونتاج وقد ترجم إلى خمس عشرة لغة كما بيع منه ٥٠ ألف نسخة خصصت عائدها لصالح مرضى الإيدز فى العالم.

صدرت رواية «يوم قتل الزعيم» للكاتب الكبير نجيب محفوظ فى منتصف الثمانينيات من القرن المنصرم أي بعد اغتيال الرئيس أنور السادات ومن ثم يجب إلقاء الضوء على الخلفية السياسية التى صدر عنها النص.

حيث إن التزام السادات بالديمقراطية وترديده لها ككلمة كان يلازمه منذ البداية لإسقاط خصومه وهى الديمقراطية التى وصفها نجيب محفوظ على لسان مصطفى النحاس إبان محاكمة السادات فى نص أمام العرش بأنها: ديمقراطية قبلية تمارس فيها سلطاتك الدكتاتورية، ثم عقّب سعد زغلول بأن: الديمقراطية الحقيقية تؤخذ ولا تُمنح. وبمرور الوقت زاد عدد معارضى سياسة السادات خاصة فى الحياة الثقافية وبسبب إهمال السادات للثقافة وموقفه من آراء المثقفين وهجرة عدد كبير منهم إلى الدول العربية والأجنبية فقد قدراً كبيراً من الثقة التى كان قد حققها بين المثقفين بإصلاحاته الديمقراطية. وفى ١٩٧١ كان قد بدأ بالفعل فى تفكيك الصرح الثقافى الذى تشيّد قبله، فأغلق معظم المجلات الثقافية التى كانت تصدر عن وزارة الثقافة والهيئة المصرية العامة للكتاب فى وقت واحد تقريبا، أغلقت أولا مجلة «المسرح والسينما» ثم «المجلة» و«القصة» و«الكتاب العربى» و«الفكر المعاصر» و«الفنون الشعبية» فى أكتوبر ١٩٧١. ليحل محلها جميعا مجلة واحدة هى«الجديد» برئاسة رشاد رشدى، ثم جاءت فى أكتوبر ١٩٧٣ مجلة «الثقافة» برئاسة الوزير يوسف السباعى، لكن أيا من المجلتين لم يصل إلى المستوى الرفيع،وظلت مجلة «الكاتب» صوتا مستقلا حتى سبتمبر ١٩٧٤ عندما قدم محرروها استقالة جماعية احتجاجا على تدخل الوزارة فى تحريرها،ومن ثم أغلقت بعد شهور قليلة، كما قررت الهيئة العامة للكتاب إيقاف السلاسل التى كانت تصدر سابقا: مثل «المكتبة الثقافية» و«كتابات جديدة» و«أعلام العرب» و«روايات عالمية» و«روائع المسرح العالمى». لكن بدءاً من ٩



فبراير ١٩٧٤ ألغيت الرقابة على الصحف والمجلات، ومع ذلك لم يستتبع هذا الإلغاء حرية التعبير المتوقعة. إذ باختفاء الرقباء من مكاتب التحرير انتقلت مهامهم الرقابية إلى رؤساء التحرير ورؤساء مجالس الإدارة الذين كانوا يعينون بواسطة الرئيس، وبالتالي يكونون مسئولين أمامه، وحلت التعليمات اليومية الصادرة من المكتب الصحفى للرئيس محل أوامر الرقباء، وحدثت تغيرات كبيرة فى الصحافة، صحفيون محترمون حل محلهم أشخاص كل مؤهلاتهم الولاء للسادات وسياسته.

وبمرور السنوات تفاقم الصراع مع تزايد عدد الكُتّاب والصحفيين الذين غادروا مصربإرادتهم أو منفيين. وفى أكتوبر ١٩٨٠ وجّه المدّعى الاشتراكى الاتهام إلى ١٢٠ صحفيا بتهمة كتابة مقالات ضد النظام السياسى للدولة. وفى عملية واسعة فى السادس من سبتمبر عام ١٩٨١ ألقى القبض على آلاف بزعم الفتنة الطائفية، ومن بين المعتقلين ٢٥٠ من أبرز الشخصيات العامة: قيادات نقابات المحامين والصحفيين وأحزاب المعارضة، كما تم فصل الكثير من الأساتذة الأكاديميين من الجامعة، وما فعله هؤلاء المثقفون لم يكن إثارة لخلافات دينية، وإنما نقد لاتفاقية كامب ديفيد ولسياسة السادات الاقتصادية القائمة على الانفتاح الذى لازال المجتمع المصرى يعانى مما خلّفه من طبقية حتى يومنا هذا، ثم اغتيل انور السادات فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ و أكثر من ثلاثة آلاف من معارضى سياسته فى المعتقلات.

«.... وانتهى الأمر بمأساة المنصّة»

لم ترد هذه الجملة على لسان مصطفى النحاس فى نهاية نص«أمام العرش» لنجيب محفوظ اعتباطياً، بل إن محفوظ (وفدى الهوى) قد جعل من نصه السالف محاكمة لتاريخ مصر السياسى كاملا متمثلاً فى حكامها منذ الفراعنة ثم زعمائها فى العصر الحديث، فقد وردت محاكمة لعصر انور السادات لينتهى به النص، وإذا كان النص يُخضع السادات لمحاكمة باعتباره الزعيم الأخير لهذا البلد فإن الحياة العربية لا تزال تعانى من قدر كبير من سياساته. وهو ما جسده محفوظ عبر الحوار الذى حدث مع رجال مصر أمام العرش بين انور السادات وكل من الملك اخناتون وتحتمس الثالث ورمسيس الثانى والملك امنتمحتب الثالث وكأن الماضى الذى يمثل البدايات يحاكم الحاضر الذى ورث عنه بنية الدولة وعلى ذلك يتجلى سؤال ماذا فعل حاكم العصر الحديث فى الدولة؟ ومن هنا تأتى أهمية كلمات الملك حور محب فى نص أمام العرش عندما قال للسادات اعترف بأنك تهاونت فى معاقبة الفساد والمفسدين حتى أوشكوا على أن يحيلوا انتصاراتك إلى هزائم، فلا قيام لدولة إلا على الانضباط والأخلاق. ثم مناظرة المونولوج السردى التى قامت بين حاكمى مصر بعد تحولها إلى النظام الجمهورى وهما جمال عبد الناصر وأنور السادات خاصة اللغة التى يدين بها كل منهما الآخر وهى بلا شك رؤية محفوظ لكلٍ من العهدين وقد أراد أن يقدمها فى نوع من الكلام شبه المباشر أو السرد الاستبدالى الذى اطلق عليه جيرالد برنس فى قاموس السرديات[٢] مصطلح Substitutionary Narration. وهو ما تم فى نص أمام العرش بين عبد الناصر والسادات (سأله جمال عبد الناصر:كيف هان عليك أن تقف من ذكراى هذا الموقف الغادر. فقال السادات:اتخذت ذلك الموقف مضطراً إذ قامت سياستى فى جوهرها على تصحيح الأخطاء التى ورثتها عن عهدك. فقال ناصر: ولكنى عهدتك راضياً ومشجعا وصديقاً. فقال السادات: من الظلم أن يحاسب إنسان على موقف اتخذه فى زمن رعب اسود خاف فيه الأب ابنه والأخ أخاه (يقصد أفعال مراكز القوى فى زمن عبد الناصر) فقال ناصر: وما النصر الذى احرزته إلا ثمرة استعدادى الطويل له! فقال السادات: ما كان لمنهزم مثلك أن يحقق انتصاراً، ولكنى أرجعت للشعب حريته وكرامته فقال ناصر: ثم تنازلت عن كل شئ فى سبيل سلام مهين فطعنت وحدة العرب طعنة قاتلة وقضيت على مصر بالانعزال والغربة واندلقت فى الانفتاح حتى أغرقت البلاد فى موجة غلاء وفساد وبقدر ما كان عهدى أماناً للفقراء كان عهدك أماناً للأغنياء واللصوص. ولأن محفوظ كما سبق(وفدى الهوى) فقد لخص مزيداً من نقده لعصر السادات فى مقولة على لسان مصطفى النحّاس(الذى حاول السادات اغتياله فى يوم ما) فقال النحاس:اشتدت الضائقة بالناس وحدث ما يحدث عادة فى مثل تلك الظروف من أعراض الفتن والتطرف، فتركت الأمور تستفحل كأنك لا تبالى، ثم انفجرت بغتة فألقيت بالجميع فى السجون فأغضبت المسلمين والمسيحيين والمتطرفين والمعتدلين، وانتهى الأمر بمأساة المنصة؟!.

وإذا كان محفوظ فى نص أمام العرش قد جعل من حوار رجال مصر ذريعة لمحاكمة تاريخ تلك البلد، ومنهم بالطبع أنور السادات لأنه جزء من تاريخ هذا الوطن، فقد كانت رواية «يوم قتل الزعيم» محاولة لتقطير رأى المواطن العادى فى حكم السادات وما وقع عليه من جراء هذا الحكم.

ثلاثة أجيال مروى عنهم فى النص هم الجد محتشمى زايد والابن فواز محتشمى، والحفيد علوان فواز محتشمى زايد تظهر الحياة المصرية برخاء ما قبل السادات ثم فساد ما بعد السادات. وعلى الرغم من أن الجد من مخلفات زمان سابق إلا أن الراوى يجعل منه أيقونة دالة قادرة على فرز الفروق بين عصرين، خاصة أنه يجلس فى المنزل فى مرحلة ركود ما بعد المعاش ومنذ الصفحة الأولى يصف الجد حال حياته وسط أسرة الابن قائلاً: «ما أكثر نعم الله فى دنياه اللهم جنبنى المرض والعجز لا أحد ثمة للعناية بالآخرين ولا فائض مال للتمريض الويل لمن يسقط يجمعنا فى الصباح المدمس وحده أو الطعمية، هما معاً أهم من قنال السويس، سقياً لعهد البيض والجبن والبسطرمة والمربى ذلك عهد بائد أو (ق.ا)اى قبل الانفتاح، الأسعار جنت كل شىء قد جن».

هنا تبدو دلالة مساوئ الانفتاح

عندما نقرأ شخصيات رواياته، حتى الشخصيات الإجرامية مثل «سعيد مهران» فى رواية «اللص والكلاب» لا نملك إلا أن نشعر بالعطف والحزن والمشاركة الإنسانية لشقاء هذه الشخصية الإجرامية

الاقتصادى جلية عبر المروى. وهذا ما يتأكد على لسان حفيده علوان -ويظهر بالطبع تأثر الجيلين فى تلك المرحلة على الرغم من الفارق الزمنى بينهما- إذ يقول: صباح يوم جديد.. جديد قديم. قديم جديد. دوخينى يا ليمونة، إن لم يوجد قديم حسن فليوجد جديد سيء... منذ الصغر منذ الشباب ونحن فى البيت القديم الضائع بين العمائر الشاهقة دسيسة بين الأغنياء. صباح الخير أيها المكدسون فى الباصات، وجوهكم تطل من وراء الزجاج المشروخ مثل المساجين فى يوم الزيارة، والسائرون على عجل يلتهمون سندوتشات الفول بِنَهَم وبلا تذوق.

تتضح عبر اللغة التحسُرية للشاب درجة تردى الواقع الاجتماعى من جانب وتشرذمه من جانب آخر، وقد اعتمد محفوظ على ما يعرف بـ«المحور الدلالى» أوtopic كما يعرف فى اللاتينية بـtopos بمعنى المحور الموضوعى اللازم للكشف عن جميع الدلالات المتعلقة بالسرد والذى ثبت معناه لدى امبرتو ايكو بمعنى تمكن القارئ من الخروج بتفسير متسق مع النص. فإذا كان محفوظ يلُمس على واقع اجتماعى أليم يراه الجد بعين متعالية تحمل خبرة السنوات وهو قار فى المنزل، فإن الحفيد الملتصق بهذا الواقع يرصده بكل تفاصيله العينية الأكثر ألماً.

وإذا تساءلنا عن جيل الوسط الذى يمثله الابن (فواز محتشمى ولننظر إلى السخرية الواضحة فى الاسم حيث فواز هو صيغة المبالغة من فائز أو من الفعل الثلاثى فوز وهو كثير الفوز على حين أنه فى النص ذلك المواطن العادى المطحون بين عملين كى يحقق للأسرة حد الكفاف) نجد أن دوره فى النص لا يعدو ثانوياً مفعولاً به فى السرد، حيث يأتى الكلام عنه على لسان الابن قائلاً: فقدت أبوى بعد أن فقدا نفسيهما فى عمل يتواصل من الصباح حتى المساء موزعين بين الحكومة والقطاع الخاص فى سبيل اللقمة والضرورة لا نلتقى إلا خطفاً.

هذا إلى جانب معاناة الحفيد من عدم اتمام الزواج بمن اختارها قلبه وتعانى من نفس المرض الذى يعانى منه وهو داء الفقر فيقول الحفيد: «أعلنت الخطبة فى عهد عبد الناصر وواجهنا الحقيقة فى عصر الانفتاح». بل إن حبيبته راندا سليمان مبارك -التى يدفعها أهلها دفعاً إلى ترك علوان وبيع نفسها إلى مديرها الثرى- لا تكف عن السخرية من الشعارات المسموعة من النظام فى الدولة فتصف حبيبها علوان بأنه فى ثورة غضبه «يسب الدين ربما استغفر الله إرضاءً لى كشعار ليس إلا كسائر الشعارات الجوفاء التى تنهال علينا من أفواه المسئولين، زمن شعارات مقزز حتى الراحل البطل لم يكف عن ترديد الشعارات». وفى مقولة أخرى لها ترثى لحال حبيبها علوان «ماذا يفعل المسكين علوان؟.. محرومون وسط سيرك من اللصوص فى زمان رمى ببهلوان يطلق فى العطسة عشر شعارات عقيمة. فيرد علوان فى جزء السرد الخاص به وكأن بينه وبين راندا مونولوج لكن لكل منهما كلامه على حدة يقول: احنا الشعب اخترناك من قلب الشعب والحب كان باقة من الورد فى قرطاس من الأمل، فقدنا زعيمنا الأول ومطربنا الأول - كناية عن عبد الناصر- ويخرجنا من الهزيمة زعيم مضاد فيفسد علينا لذة النصر، نصر مقابل هزيمتين». وهكذا جعل نجيب محفوظ من رواية يوم قتل الزعيم وثيقة لإدانة عصر حكم انور السادات فى لغة متقشفة جافة لا تحمل سوى مرارة كل راوٍ من الشخصيات عن نفسه التى لا يجدها فى زمن الطبقية وتوحش الثروات وقهر الشعب بالجوع.

شعب يوليو

صدرت رواية نادين جورديمر «شعب يوليو» عام ١٩٨١ وربما كانت حقبة الثمانينيات هى أول الجوامع بينها وبين رواية محفوظ «يوم قتل الزعيم» لكن قبل تفاصيل ذلك ينبغى إلقاء الضوء على نصوص نادين جورديمر التى يربطها جميعاً خيط واحد فى تصوير القهر الإنسانى فى المجتمع نظراً للمساوئ السياسية، وهو الأمر نفسه الذى طالما عبرت عنه روايات نجيب محفوظ.

فى رواية نادين جورديمر الأولى «الأيام الكاذبة» ١٩٥٣ تتحدث عن فتاة تكبر فى مدينة صغيرة بجنوب إفريقيا، لا تعرف شيئاً مما يدور حولها، وتدريجياً تصطدم بحقائق عن العالم المحيط بها الذى كانت غافلة عنها، وتتكشف لها أكاذيب وشرور نظام الحكم القائم على التمييز العنصرى، ويتسع مجال الرؤية أمام جوردير فى روايتها التالية «عالم الغرباء» ١٩٥٨ لتكشف عن القطيعة الكبيرة بين السود أصحاب الأرض الأصليين فى جنوب إفريقيا وبين الأقلية البيضاء الحاكمة، وعن زيف الليبراليين البيض.

ومع صدور قوانين الفصل العنصرى فى جنوب إفريقيا التى كرست للقطيعة والانقسام والكراهية بين البيض والسود فى الستينيات، ومن خلال النقاش والجدل مع الكُتاب السود الذين اكتسبت صداقتهم، ازداد وعى «نادين جورديمر» بعمق المأساة التى يعانى منها سود جنوب إفريقيا، وارتفع صوتها بالتنديد بالممارسات العنصرية، وبالدفاع عن النخبة السوداء الذى أصبح مصيرها المنفى أو السجن أو الموت.

ثم تتابعت روايات نادين جورديمر مُعبرة عن عمق الصراع العنصرى المُجسد لطبيعة الروح الإنسانية، وعن خيانة النظام السياسى لقيم الحرية والعدالة والسلام. ومع انتفاضة سويتو فى عام ١٩٧٦، اتجهت نادين جورديمر فى كتاباتها اتجاهاً آخر يتسم بالعداء الصريح للعنصرية فى جنوب إفريقيا مؤكدة فى روايتها «شعب يوليو» ١٩٨١[3] على الدور الذى يمكن أن يقوم به البيض فى جنوب إفريقيا من أجل الإصلاح السياسى. وعن السود ضحايا دولة العنف فى جنوب إفريقيا الذين أخرجوا من ديارهم واقتيدوا إلى أقسام الشرطة وضُربوا، وأُلقى بهم خلف جدران السجن، وعن انعدام الفهم والكراهية والقسوة وافتقاد الحب فى مجتمع منقسم على نفسه يفرز قوانين التميز العنصرى.

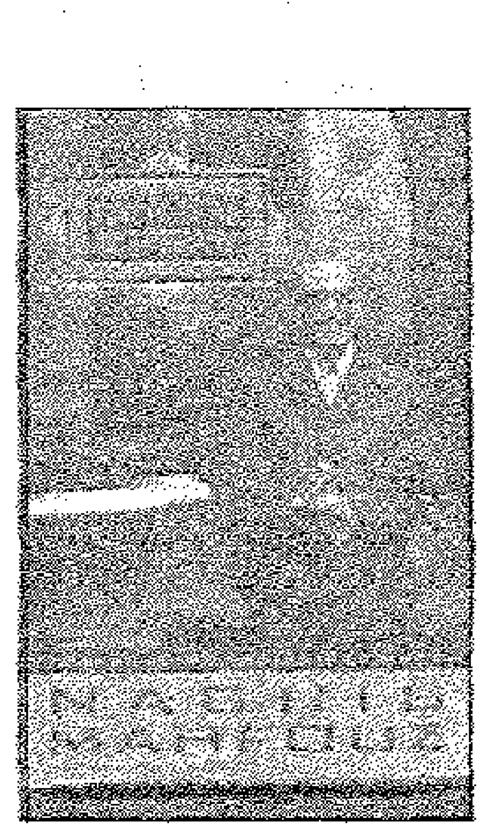
فى رواية «شعب يوليو» التى صدرت قبل عشر سنوات من حصول صاحبتها على جائزة نوبل، وبعد خمس سنوات من الانتفاضة التى شهدتها شوارع وأزقة مدينة «سويتو» وامتدت حتى شملت كل مدن جنوب إفريقيا، تروى نادين جورديمر فى رواية «شعب يوليو» قصة عائلة سميلز البيضاء التى لم تجد الملجأ والحماية إلا فى الهروب بمساعدة خادمهم الأسود «يوليو» الى بيته بإحدى القرى المنعزلة التى يسكنها السود الفقراء. وهو ما يقرره الراوى قائلاً: «بدأت الأحداث عادية مبتذلة تبعث على التشاؤم. جاءت اضطرابات عام ١٩٨٠ فى بطء وتثاقل.. إضراب يلى إضراباً الى أن أصبحت الإضرابات والانفجارات وإطلاق الرصاص من مفردات الحياة اليومية، وبينما كانت الحكومة فى محاولات مستمرة لتقديم تنازلات لاتحاد العمال السود على شكل كلمات متقنة الصنع، تخفى بداخلها قيوداً جديدة، كان العمال السود يكابدون الجوع والغضب والبطالة.. والمتاجر والمصانع تُشعل فيها النيران».

ولمزيد من إضفاء وجود الواقعية فى النص نجد الكاتبة تذكر أحداثاً حقيقية تضمنها النص كى تؤكد أن ما يحدث (الصراع الأسود ضد البيض) ما هو إلا نتاج طبيعى لأحداث سياسية اجتماعية متتالية يقول الراوى: «وللمرة المائة منذ حرائق الخمسينيات ومنذ «شاريفيل» و«سويتو» ١٩٧٦، ونهر «إلسى» ١٩٨٠، يبدو الأمر وكأن كل هذه الاضطرابات ليست إلا محاولات للتنفيس عن الغضب».

وعبر ثنايا النص تتراوح لغة القص بين وصفية تعنى بسرد التفاصيل، وتعبيرية تصويرية مشحونة بالرمز والسخرية، فتظهر جورديمر وقد جردت الرجل الأبيض من سلطته الاقتصادية وأحالتها الى الرجل الأسود مرة بعد أخرى. بعد المرة المائة. السود ينتصرون، الزجاج المُهشم يتم إزالته من أمام المبانى العامة والمحال التجارية، إصلاح الخطوط التليفونية، تأكيدات الراديو والتلفزيون أنه تم إحكام السيطرة على الموقف..، «بام» و«مورين» أدركا انه من الحماقة ترك أموالهما المسحوبة من البنك فى المنزل وكانا على وشك إيداعها فى البنك».

وبام ومورين هما عضوا الأسرة البيضاء التى لا تجد ملاذا وسط ثورة السود على البيض إلا اللجوء الى منزل خادمهما الأسود «يوليو» الذى تتكفل لغة السرد بوصف الواقع الذى يعيش فيه والذى يمثل لبام ومورين صدمة كبرى عند الالتحاق بالحياة فيه، نظراً للفروق الحضارية الكبيرة بين حياة يوليو الخادم الأسود الفقير وحياة «بام ومورين» سادته البيض. وقد وصف الراوى ذلك فى لغة معبرة عن تلك الفروق الحضارية والطبقية كذلك: يوليو الخادم الذى يعيش فى فناء المنزل منذ زواجهما، ويحصل منهما على راتب جيد، وله كسوتان واحدة لأعمال المنزل، والأخرى بيضاء يرتديها عند تقديم وجبات الطعام، هذا الخادم الذى تحول الى ذلك الشخص الذى اختير لأن يضعوا أرواحهم بين يديه، هو الأسود المنقذ «يوليو». ولمزيد من التفاصيل التى تكشف الواقع الأدنى الذى انتقل اليه «بام»







و«مورين» تقدم لغة السرد الواقع المعيش الذى انتقلا اليه وسط بيوت السود: يقول الراوى: «موطن «يوليو» لم يكن قرية، بل هو تجمع سكنى من بيوت طينية يقطنها أعداد من عائلته ممتدة الفروع، من المُسلَم به أن ما أقدم عليه «يوليو» مُخاطرة، إذا استطاع أن يضمن قبول عائلته لذلك التواجد الغريب لعائلة بيضاء بينهم، وأن يحملهم على التزام الصمت، فهو لا يمكنه أن يمنع الآخرين الذين يعيشون فى الجوار من اكتشاف عربة لرجل أبيض، ونقل تلك المعلومة الى قوات الدورية السوداء.. هذا إذا لم يقوموا أنفسهم باتخاذ اللازم».

ومن الفروق الحضارية بين حياة البيض التى كانت وحياة السود الآنية التى ينتقلون إليها، إلى رفض السود إقامة البيض بينهما لما تحمله حياتهما معا (البيض والسود) من إرث طويل من المرارة؛ إذ كيف يسامح المجنى عليه (السود) الجانى (البيض) بل ويجعل له مأوى، تظهر معارضة أم «يوليو» لوجود «بام» و«مورين» وسطهما وكأن هذا الوجود عار على القرية السوداء، تقول الأم:

- البيض هنا؟! كيف ألم تخبرنا كيف يعيشون هناك.. البيض لهم البيض أمثالهم فى مكان ما، أليسوا يعيشون فى كل مكان من هذا العالم؟ «جير مسستون» و«كيب تاون» أنت عشت فى أماكن كثيرة يا بنى، ألا يستطيعون أن يذهبوا الى أى مكان يريدون؟.

- الاضطرابات فى كل مكان، إنهم يطردون البيض من منازلهم، والبيض يخوضون المعركة معهم ويحدث الشىء نفسه فى كل المدن، أين يمكنه الفرار بعائلته؟ أصدقاؤه أيضاً يفرون. إذا هو أراد أن يذهب إلى صديق فى المدينة فلن يجد الصديق هناك. وربما عند وصوله الى هنالك يلقى مصرعه.

وعبر الكثير من المواقف- المتضاربة بالفعل نتيجة صدام الأسود صاحب المكان بالأبيض المُنبَت فى المكان تحدث الكثير من المفارقات التى تؤدى فى النهاية الى التأكيد على ان الحياة بينهما (البيض والسود) طالما كانت قائمة فلابد ان تكون على التعايش بينهما. فكأن نادين جورديمر كانت ترى ببصيرتها وقت كتابة رواية «شعب يوليو» ما سوف تسفر عنه السنوات من متغيرات تجبر حكومة جنوب إفريقيا على السير فى بدايات الطريق الى الإصلاح السياسى.

وإذا كانت الدراسات المقارنة تعتمد أساساً على دراسة وتحليل العلاقات وأوجه التشابه والاختلاف والعوامل التشكيلية لآداب الأمم والشعوب المختلفة[4]، فإن نصوص كل من نجيب محفوظ ونادين جورديمر تعد سجلاً حياً للمجتمع المصرى عند الأول ومجتمع الفصل العنصرى فى جنوب إفريقيا عند الثانية. فتكتب نادين جورديمر خبرات حياتها اليومية المتلئة بالأحزان فى أعمال روائية غنية بالتفاصيل الدلالية، والصور المضيئة: باحثة عن إجابة تنير لها طريقها على أرض الكراهية التى لا تنمو فيها غير أشجار السموم، فلا تملك إلا أن تقبض بنفسها على جمر الإيمان والثقة بالشباب الأسود المتعلم الواعى، وببعض الليبراليين البيض الذين لم يخونوا ما عاهدوا الناس عليه من انحياز لقيم السلام والحرية والعدل.

تكشف كتابات نادين جورديمر الروائية عن الانكسار الذى أصاب روح الرجال السود تحت وطأة التمييز العنصرى، مؤكدة ذلك فى رواياتها «ابنة برجر» ١٩٧٩، وعن الدمار الذى يلحق بالعلاقات بين البشر فى حياة يومية تتغذى على البغضاء و العنف مثل رواية «رياضة الطبيعة» ١٩٨٩، ضمن وصف سياق من العلاقات المتهرئة والشخصيات التى يتجاذبها وضع قائم لا طاقة لها على احتماله، ولا قدرة لديها على تغييره، وأحداث تُكرس للقطيعة بين أفراد المجتمع الواحد، وتفاصيل تقطع بفقدان الأمل فى الوطن الذى لم يعد لأبنائه أية حقوق فيه.

أما نجيب محفوظ، فقد استطاع أن يسبر غور المشاعر الإنسانية المتلاطمة مع واقعها، ويعبر عنها على لسان شخصياته فى رواياته وقصصه، فإذا هو يهدى إلينا، ويهدى الإنسانية جمعاء، أجمل هدية، هى الكشف وإضاءة جوانب الذات المظلمة، هدية معرفة النفس، ومعرفة الآخر، ومعرفة الوجود، والسعى الدائم لمعرفة خالق هذا الوجود. وقد فعل ذلك ليس بأسلوب الوعظ المباشر المعنف الذى لا يلمس قلب الإنسان وبالتالى لا يؤثر ولا يجدى كمعظم الخطب المباشرة المعنفة المقرعة بلا جدوى.. وإنما فعله بأسلوب الطبيب الجراح الذى يبحث عن اصل الداء، ويضع يده على الجزء المريض المتعب من الجسد.. لكى يمكننا بعد هذا أن نُقدم العلاج، أو الراحة المسكنة. كما فعله بأسلوب المحب لكل الناس.

فعندما نقرأ شخصيات رواياته، حتى الشخصيات الإجرامية مثل «سعيد مهران» فى رواية «اللص والكلاب» لا نملك إلا أن نشعر بالعطف والحزن والمشاركة الإنسانية لشقاء هذه الشخصية الإجرامية. ونلمس فيما يكتبه نجيب محفوظ أن طاقته على محبة الجميع تشمل حتى المجرمين الذين يصورهم ببراعة وانسانية بالغة فى رواياته.

ولنجيب محفوظ كلمات أخرى بها نقد عظيم للشخصية المصرية وللمصريين - على قدر حبه العظيم الواضح لهم - نقرأها على لسان شخصياته الروائية. ومنها: «كان كالثور المصرى عظيم الخوار عديم الأذى». كما تمنحه الروايات فرصة استخدام كلمات قد لا تكون لائقة لا يقولها هو ولكن تقولها شخصياته الروائية بشكل معبر قوى.. فنقرأ فى «السكرية»: الحق إن الاستبداد هو مرضهم (المصريين) المتوطن.. كل ابن كلب غرته قوته يزعم لنا أنه الوصى المختار وأن الشعب قاصر.. نحن شعب قليل الأدب!.. لا أعرف شعباً كالشعب المصرى ولعاً بالخوض فى أعراض الأمهات!.. إن الزمن أدبنا أكثر مما ينبغى، والشىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده، ولذلك فنحن غير مؤدبين! ولكن تغلب علينا الطيبة رغم ذلك..

أما فى «ميرامار» فيصرخ «عامر وجدى» فى غضب: «أيها الأنذال، أيها اللوطيون، ألا كرامة لإنسان عندكم إن لم يكن لاعب كرة؟».. ويقول عامر وجدى ايضا فى نفس الرواية: «لقد سلبت (الثورة) البعض اموالهم وسلبت الجميع حرياتهم». أما حسنى علام، شخصية أخرى من شخصيات ميرامار فيخاطب المصريين قائلا: «إنى أتبرأ منكم!.. أتبرأ منكم يا فتات العصور البالية»!

وفى «المرايا» نقرأ على لسان شخصية «عبدالرحمن شعبان» هذه السخرية اللاذعة: «هكذا أنتم أيها المصريون، لن تزالوا غارقين فى أوهام الكلمات حتى تموتوا.. لو لم أكن مصرياً لتمنيت أن أكون مصرياً! ولمَ لا تتمنى أن تكون حماراً فيكون لك نفع على الأقل؟!».. وفى موضع آخر من «المرايا» ايضا يقول عبدالرحمن شعبان: «اتعرف ما هى اكبر نعمة أغدقت علينا؟ هى الاستعمار الأوروبى، وسوف تحتفل الأجيال القادمة بذكراه كما تحتفلون بمولد النبى».

مما سبق فى ضوء كتابات نادين جورديمر ونجيب محفوظ نتأكد من كل نقدهما اللاذع عبر الكتابة، أن الذين يحملون للوطن حباً حقيقياً هم الذين ينتقدونه اشد النقد ويسعون الى تغييره عبر الكتابة. ■

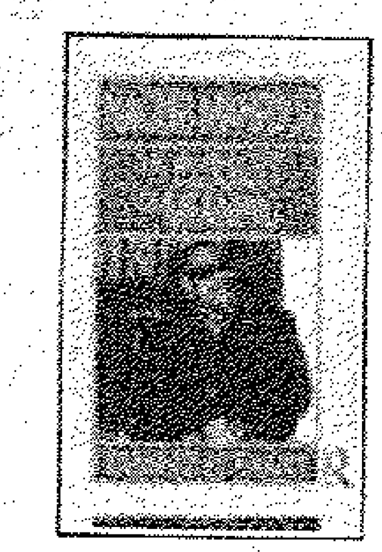
هـــــــوامـــــــش:

(١) اقتطفنا لك المقاطع من مجموعة من الدوريات التى نشرت اللقاء التاريخى بين الكاتبين (نادين جورديمر ونجيب محفوظ) من الدوريات التى سجلت ذلك اللقاء منها مجلة نصف الدنيا - جريدة أخبار الادب- جريدة الأهرام ويكلى.

(٢) للقاموس ترجمتان الأولى صدرت عن المجلس الأعلى للثقافة-المشروع القومى للترجمة رقم ٣٦٨، تحت عنوان «المصطلح السردى» بترجمة لعابد الجابرى. والثانية عن دار ميرت تحت عنوان «قاموس السرديات» ترجمة: السيد إمام.

(٣) الدار المصرية اللبنانية - ترجمة: أحمد هريدى.

(٤) راجع دليل الناقد الأدبى لميجان الرويلى وسعد البازعى- المركز الثقافى العربى-بيروت- ط٢-س-٢٠٠٠-ص٢٢. راجع كذلك معجم المصطلحات الأدبية لإبراهيم فتحى- دار شرقيات- ط١-س-٢٠٠٠-ص٢٠.



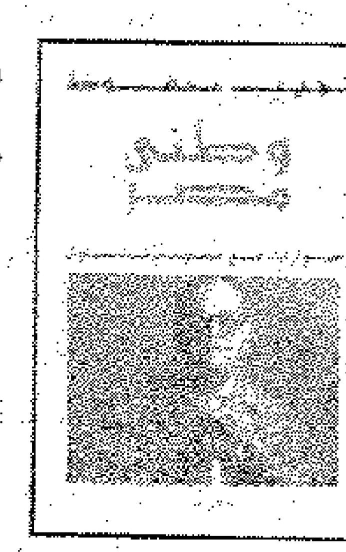
Naguib Mahfouz: The Pursuit of Meaning

(نجيب محفوظ: البحث عن معنى)

Rashid El-Enany

Routledge, $40.95, 288PP., 1993

يقدم هذا الكتاب تاريخ نجيب محفوظ الأدبي للقارئ الغربي كتجسيد مثالي لتطور الرواية العربية. ويقوم الكاتب رشيد العناني بتحليل العديد من العوامل المتعلقة بحياة وأدب نجيب محفوظ لرسم صورة أكثر وضوحا للمؤثرات التي صاحبت طور أعماله. من ضمن تلك المؤثرات أمور تتعلق ببيئته المحلية وبالتأثيرات الأجنبية عليه. كما يحلل العناني تطور أفكار نجيب محفوظ وأدواته ككاتب. ويتناول العناني بعض أعمال نجيب محفوظ بشكل منفرد ولكنه يركز أيضا على استمرارية بعض المواضيع وبعض الجماليات الأدبية عبر عدة أعمال.

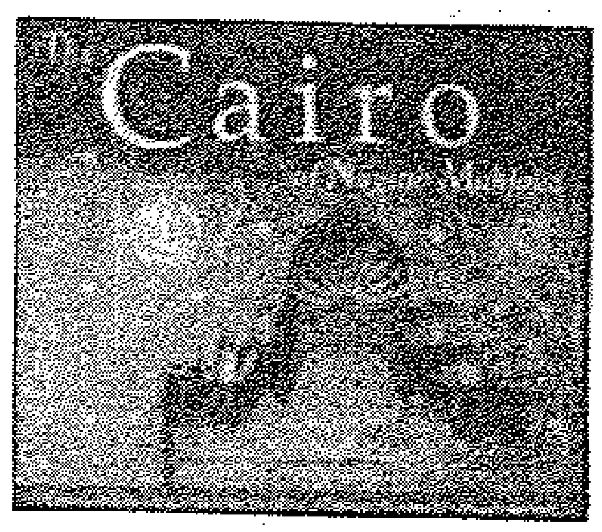


(نجيب محفوظ وطني مصر)

محمد سلماوي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ١٠٤ صفحات

النسخة العربية من الكتاب الذي صدر باللغة الفرنسية في باريس عن دار «لاتيس»، والذي ترجم بعد ذلك إلى العديد من اللغات الأخرى. الكتاب هو عبارة عن سلسلة من حوارات متصلة أجراها الكاتب محمد سلماوي مع الأديب الراحل نجيب محفوظ استغرقت أكثر من ٤٠ ساعة تحدث فيها محفوظ عن مصر التي يعرفها، عن الجمالية التي ولد فيه والعباسية التي انتقل إليها، وعن الحواري والأزقة التي كانت أبطالا لرواياته، وعن القيم والمبادئ التي تميز الشعب المصري والتي طالما دعا إليها محفوظ في رواياته. سلماوي كان من أقرب المقربين إلى الراحل الكبير، مما ساعده على إخراج ما بداخل محفوظ في سلاسة شديدة، ليصور مصر التي عرفها محفوظ والمجتمع المصري وتحولاته لما يقرب من قرن من الزمان. الكتاب هو النص الأصلي للحوار الذي دار باللغة العربية وليس مترجما عن الكتاب الأصلي الذي جاء بالفرنسية.



The Cairo of Naguib Mahfouz

(قاهرة نجيب محفوظ)

Gamal El Ghitani; Britta Le Va (photos)

AUC Press, $19.95, 82p., 2000

يعتمد هذا الكتاب بشكل أساسي على صور التقطتها المصورة المحترفة بيرتا ليه فا لأحياء وتفاصيل من القاهرة القديمة لتمثل المدينة كما وردت في كتابات نجيب محفوظ. تحمل المصورة إعجابا كبيرا بكتابات محفوظ يسبق البدء في مشروع الكتاب. قدم لهذا الكتاب الكاتب المصري جمال الغيطاني بمقال طويل يعيد فيه، سرد تفاصيل نزهة مطولة قام بها مع محفوظ في شوارع الجمالية. والغيطاني ليس فقط من أقرب الكتاب لنجيب محفوظ على المستوى الشخصي والأدبي ولكنه يشترك معه أيضا في الانتماء إلى حي الجمالية الذي كان مسرح أهم أعمال نجيب محفوظ. لذا كان من السهل جدا على الغيطاني أن يختار مقاطع من كتابات محفوظ لتمثل افضل تعليق على الصور.



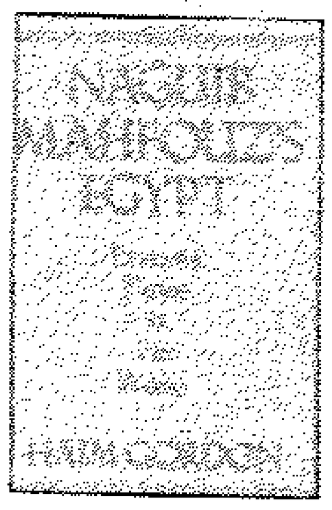
(المجالس المحفوظية)

جمال الغيطاني

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٣٢٠ صفحة.

جمال الغيطاني، تلميذ نجيب محفوظ، يعتبر وفاته «خسارة كبيرة له شخصيا» على حسب تعبيره في كتابه المجالس المحفوظية، وهو الكتاب الذي يجمع فيه الغيطاني ملخصات لأحداث جلسات كان يحضرها مع أستاذه نجيب محفوظ. يقول الغيطاني في تقديمه للكتاب: «خلال لقاءاتنا عبر السنوات الأخيرة، بدأت انتبه إلى نفاسة ما يبديه الأستاذ من آراء. حرصت بعد عودتي إلى البيت أن أدون ما قيل، إما بنصه كما أتذكره أو خلاصته في (المجالس المحفوظية)».

الكتاب يأتي في ثلاثة أجزاء، سجل فيها أربعة وأربعين عاما رافق فيها الغيطاني نجيب محفوظ؛ الأول يدون فيه الغيطاني المحاورات التي دارت بينه وبين محفوظ وبعض من رفاقهم خلال مجالسهم التي امتدت من الستينيات من القرن الماضي حتى عام ٢٠٠٤، أما الجزء الثاني، فيدون فيه الغيطاني نص المجالس التي دارت بينه وبين أستاذه كل يوم اثنين على امتداد أربعة شهور صيفية عام ١٩٧٨ بمقهى الفيشاوي، وفي الجزء الثالث يسرد الغيطاني العديد من المجالس المتنوعة ونصوصا تتابع محفوظ في القاهرة القديمة.



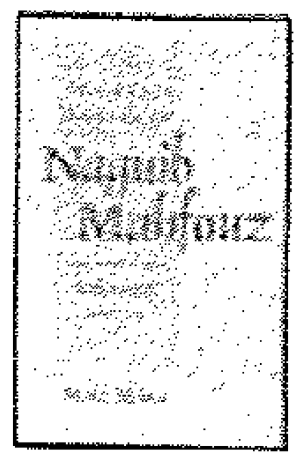
Naguib Mahfouzs Egypt

(مصر نجيب محفوظ)

Haim Gordon

Greenwood Press, $85.95, 152PP., 1990

مع أن المتفق عليه أن مهارة نجيب محفوظ الأساسية تكمن في قدرته المذهلة على الحكي، إلا أنه يعطي القارئ متعة اضافية بتنوع شخصياته وعمق تحليله لها. لهذا فإننا نقف في كتاباته كثيرا عند الأزمات والتساؤلات الوجودية لأبطاله. بل إن من أهم كتب نجيب محفوظ، المرايا، التي هي عبارة عن بورتريهات منفصلة لشخصيات يرى البعض لها صدى في الواقع بين من أثروا في حياة نجيب محفوظ ولكنها في آخر الأمر نتاج قدرة محفوظ على إضافة خياله وابتكاراته على شخصيات قصصه ورواياته. هذا الكتاب نتاج لعدة حوارات اجراها الكاتب حاييم جوردن الأستاذ بجامعة بن جوريون مع نجيب محفوظ الوجودية كما تجلت في شخصيات ومواضيع وأحداث رواياته. إلا أن النتيجة الإجمالية لهذا العمل هي نظرة متعمقة للحياة في القاهرة كما يراها محفوظ.



Early Novels of Naguib Mahfouz

(الروايات الأولى لنجيب محفوظ)

Matti Moussa

University Press of Florida, 304PP, 1994

قدمت ماتي موسى، نجيب محفوظ للقارئ الغربي بعد حصوله على جائزة نوبل بفترة قصيرة. ولم يكن نجيب محفوظ معروفا في الغرب قبل نوبل إلا في نطاق المتخصصين في الأدب. وفي بداية معرفة القارئ الغربي بأعمال محفوظ كان من المهم بالإضافة إلى ترجمة الأعمال نفسها أن يطلع القارئ الغربي على عالم محفوظ المتكامل. وقد أضاف كون نجيب محفوظ أول عربي يحصل على جائزة نوبل أهمية مضاعفة لدى القارئ الغربي للاطلاع على كتابات تبحث في عالمه بما انه عالم جديد نسبيا على هذا النوع من القراء. وبحثت موسى في تناول محفوظ للدين والأمور الاجتماعية والسياسية على خلفية القرن العشرين بدءا من أعماله الأولى وحتى «أولاد حارتنا».



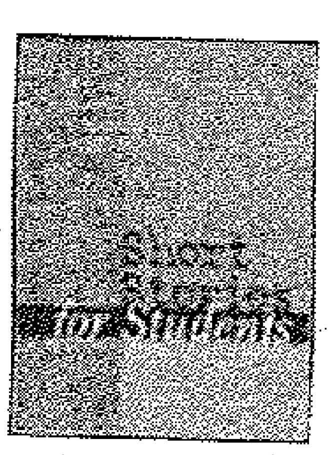
(في حب نجيب محفوظ)

رجاء النقاش

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٣٥٢ صفحة.

الطبعة الثانية من كتاب رجاء النقاش (في حب نجيب محفوظ) التي أضاف النقاش إليها ستة فصول جديدة تتناول قضايا لم تتناول من قبل في الطبعة الأولى.

الكتاب الذي يعتبر دراسة في أدب نجيب محفوظ، نجح في أن يكون سيرة لحياته أيضا، نظرا للعلاقة التي جمعت بين النقاش ومحفوظ منذ عام ١٩٥١ وحتى وفاة محفوظ، وفصول الكتاب تعتبر رحلة طويلة مع نجيب محفوظ فنانا وإنسانا، وتقوم كلها على أساس من الحب الذي يسعى إلى الفهم على حسب تعبير النقاش. الكتاب يأتي في أربعة أقسام، الأول «من الجمالية إلى نوبل» ويتناول حصول محفوظ على جائزة نوبل عام ١٩٨٨، وأصداء هذا الحدث. ويتناول الجزء الثاني «الفن والإنسان في أدب نجيب محفوظ» قراءة أدبية في عدد من روايات محفوظ. أما الجزء الثالث «قضايا ومواقف» فيتناول النقد الذي تعرض له محفوظ، والقضايا الذي أثيرت حوله أو كان طرفا فيها. أما الرابع «متفرقات» فهو يضم مجموعة من المتفرقات التي كتبها النقاش حول محفوظ.



Naguib Mahfouz's "Half a Day": A Study Guide from Gales "Short Stories for Students"

(مرشد دراسي لقصة نجيب محفوظ «نصف نهار» من سلسلة «قصص قصيرة للطلبة» من جايل)

Gale Group,$3.95, 25P., 2002

لم يثر نجيب محفوظ فضول واهتمام وإعجاب القراء فقط ولكن الجامعات رأت في أعماله مادة تستحق الدراسة الأكاديمية. لذا صدرت عدة كتب متخصصة من دور النشر التابعة للجامعات عن محفوظ. وقد صدرت في هذا السياق عدة كتب جامعية موجهة للطلاب تناقش أعمالا منفردة من أعمال محفوظ، ضمن سلاسل تعنى بأعمال منفردة لكتاب مختلفين، لكي تساعد الطلاب في فهم العمل والكتابة الأكاديمية عنه.

نجيب محفوظ



نجيب محفوظ

LE FIGARO MAGAZINE

المقال الأخير

رحابة حلم

> هذا هو آخر مقال نشر باسم أديبنا الراحل نجيب محفوظ في الصحافة الأجنبية، وقد نشر في مجلة «الفيجارو» الفرنسية بتاريخ ١٢ أغسطس الماضي حينما كان محفوظ مازال في المستشفى، وقد أشارت المجلة في تقديمها إلى أن المقال كتبه الأديب المصري الكبير بمعاونة الكاتب محمد سلماوي صديقه المقرب على مدى سنوات.

■ إن عملية الكتابة ليست بريئة تماماً، فهي تسمح أحياناً للأفراد الذين يأتون لمقابلتي، والذين لم يقرأوا كتاباتي بتمعن، بالتطرق للحديث في أمور شخصية بدلاً من أن ينصب النقاش حول الأحداث الجارية، لقد تسنى لي مقابلة صحفي فرنسي انصب اهتمامه على إحدى قصصي القصيرة التي تحمل عنوان «الرجل» والتي كنت أصور فيها صحفياً يكتب مقالاً حول رجل من الجيل القديم، أليست تلك مصادفة غريبة؟

كان الصحفي في هذه القصة القصيرة يقوم بوصف أحد جيرانه الذي كان يراقبه عن بعد وهو يتنزه على طريق الحرية. وكان هذا الشخص الذي تقلد مناصب مهمة خلال مشوار حياته كمهندس ناجح ومسئول حكومي رفيع يعيش حالة وحدة مميتة بعد أن فقد زوجته وبعد هجرة أولاده للولايات المتحدة.

وهنا يتساءل الصحفي: «طوال عمره المديد لم يتبق له سوى الذكريات؟ ترى فيمن يفكر في وحدته هذه؟ وكيف يقوم بالترفيه عن نفسه؟ كيف يتسنى للمرء أن يتآلف مع شيخوخته بدلاً من أن تكون عائقاً له؟ حين قرأ الرجل هذه السطور تعرف على نفسه على الفور. وكان مندهشاً لأنه أختير كموضوع باعث على التفكير والتأمل وإن كان قد أحس ببعض الضيق. ذلك لأن هذا المؤرخ وليد اللحظة قد أخطأ. إذ إن تقدمه في السن لم يكن عائقاً له على الأحلام ولم يكن حاله مثيراً للشفقة: فقد كانت حياته دوماً مبعثاً للشجاعة والإصرار. تلك الصفات التي علمه إياها والده - رحمة الله عليه - الذي كان معلماً عظيماً وكان حبه للقوة يصل لدرجة العبادة.

وكانت قوة ملاحظة والده وشدته المغلفة بالحكمة قد جعلت منه رجلاً في صلابة الحديد، عندما تأمل الضعف الذي يفترضه الآخرون فيه قال: «يا لها من تخيلات كتّاب!».

وفي اليوم التالي عند مقابلته لكاتب المقال أثناء نزهته المعتادة ذهب لمصافحته، شكره ودعاه في بيته لكي يشرح له حقيقة الموقف، اندهش الصحفي قائلاً: «أصحيح هذا؟».

ثم تتناول القصة القصيرة «الرجل» الحوار الذي دار بين الرجلين، والذي انصب على الرغبة في الحياة وفي التغلب على كل الصعاب.

وبعد سنوات عديدة من نشر هذا النص، طرح علي صحفي فرنسي سؤال: «كيف نصنع من شيخوختنا نعمة وليس نقمة؟».

سوف تكون إجابتي هنا، وفي هذا الوقت مختلفة عن إجابة بطلي المنتصر، فليس معنى أن نكتب شيئاً أننا بالضرورة نؤمن به حتى تكون الشيخوخة نعمة، يجب أن نعلم قيودها، وأن نعيش في قلب هذه القيود دون أن نحاول أن نتخطاها من فوقها أو من تحتها، يجب على كل منا، أن يكون مدركاً لحدوده.

في شقتي الصغيرة بشارع النيل بالقاهرة، أعيش أحلامي، فالضعف الذي أصاب جسدي، لم يؤثر قط على روحي وخيالي، بالعكس فقد سمح بظهور نوع آخر من الحرية لدي كل شيء تغير منذ ذلك اليوم في أكتوبر ١٩٩٤، حين حاول اثنان من المنتمين إلى الجماعة الإسلامية اغتيالي.. كنت خارجاً من البيت حينما هاجمني أحدهما من الخلف، أحسست بأن وحشاً يغرز أظافره في رقبتي. والحقيقة أنه كان يغرز السكين مرتين، وقد هربت من الموت بعد سبع ساعات قضيتها في غرفة العمليات ثم استمرت إقامتي في المستشفى لعدة أسابيع، ولكن إصابة أحد الأعصاب تسببت في شل يدي اليمنى، اليد التي أكتب بها، وتطلب الأمر ثمانية عشر شهراً من إعادة التأهيل، لكي أستطيع أن أكتب مرة أخرى حروفاً مقروءة. لقد تعلمت من جديد كيف أكتب اسمي، يا له من رمز! الرجلان اللذان هاجماني كانا ينفذان فتوى تبيح دمي بسبب إعادة إصدار إحدى رواياتي التي كانت صدرت لأول مرة عام ١٩٥٩، وهي رواية «أولاد حارتنا». عند صدورها لأول مرة كان علماء الدين قد اتهموها بنشر أفكار ملحدة. وكان يمكن من خلال أحداث الرواية استشفاف شخصيات الأنبياء موسى وعيسى ومحمد، وهو ذنب لا يغتفر في عيون المتشددين الإسلاميين، والشيء المفجع أنه خلال محاكمة الجانيين، اتضح أنهما لم يقرأ الرواية. يا لهما من إرهابيين بائسين يرفضان فكر الآخرين في حين أن الإسلام دين الحرية.

بعد إعدامهما، ظللت أشعر طويلاً بمزيج من الحزن والغضب.. كنت أفكر في الحياة التي كان من الممكن أن يعيشاها. لقد كانا شابين صغيرين، ثم كنت أفكر في إعاقتي، لأن هذه الحادثة، بخلاف الشلل الذي أعانيه، كانت قد أدت إلى تدهور في حالتي العامة، فقد أدت إلى صمم وشبه عمى، كيف يمكن أن تصبح الشيخوخة نعمة؟ لقد غفرت لهما هنا في هذه الحياة الدنيوية.

أنا، الذي كتبت أكثر من خمسين رواية ومجموعة قصص قصيرة بخلاف المسرحيات، ما عدت أستطيع تأليف سوى حكايات قصيرة جداً، مبنية على أحلام، لكن الأحلام بلا حدود.

هي خواطر حقيقية نابعة من الأحلام أو شكل من أشكال التأمل أقوم بتحويلها بعد ذلك إلى قطع أدبية. لا أكتبها كما أستقبلها. إنها تدور في ذهني وتتحول، إنها كيمياء غريبة، فهناك الفكرة المجردة ثم الإنتاج الأدبي.

إن العملية تنجح كثيراً ولكن أحياناً لا تنجح، هذه العملية الداخلية تستمر من أسبوع إلى أسبوعين، لكن إذا لم تؤد إلى شيء لا أُصر.

الحلم الذي يسكن رأسي الآن هو أني رأيت جمال عبدالناصر يعطي لي خبزاً من الصعيد، وهو نوع من الخبز شديد الصلابة ينضج على حرارة الشمس (عيش شمسي) لقد قدمه لي وطلب مني تناوله. لم أفعل شيئاً بعد هذه الرؤية، سوف أكتبها إن وجدت في نفسي القوة إني أتركها تسكنني. إنها لا تزال في طور التكوين.

نعم، إن الحلم هو حدود عالمي. ■

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 8 - Issue 94 - November 2006

مجلة شهرية. العدد الرابع والتسعون. السنة الثامنة. نوفمبر ٢٠٠٦. الثمن عشرة جنيهات

فى البحث عمّا يجمعنا : سراب الهويّة

بين عجز الداخل وأطماع الخارج: دارفور

تحديث الخطاب الإسلامى للغرب / سلامة أحمد سلامة




عيد فطر مبارك
قولها بصوتك أحسن بالـ Voice SMS
عيّد على الأهل والأصدقاء برسالة بصوتك
فقط: • اضغط على * ثم ادخل رقم المحمول المرسل إليه
• اضغط على
• قم بادخال رسالتك الصوتية باللغة التى تفضلها
كيفية الإستماع لرسالتك الصوتية Voice SMS
• اضغط على * 0 * ثم للإستماع لرسالتك الصوتية مجاناً
• لإعادة الإستماع لرسالتك الصوتية إضغط على * 1 * وسوف تحاسب بسعر دقيقة المحمول
موبينيل
* سعر إرسال رسالة صوتية Voice SMS ٣٠ قرش لعملاء ستار وبريمو وبيزنس و ٤٠ قرش لعملاء الـو
* لمزيد من المعلومات إتصل بـ ٣٠٠ مجاناً

السنة الثامنة
العدد الرابع والتسعون
نوفمبر ٢٠٠٦

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- إجلال رأفت.. أستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة
- أمارتيا سين.. أستاذ بجامعة هارفارد وحاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد ١٩٩٨.
- أورهان باموك.. روائى تركى حصل على جائزة نوبل فى الآداب ٢٠٠٦.
- جوردون س. وود.. أستاذ التاريخ بجامعة Alva O. way الأمريكية
- خيرى منصور.. كاتب عربى.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى.
- صبرى حافظ.. أستاذ الأدب العربى الحديث بجامعة لندن.
- فكرى أندراوس.. كاتب مصرى مقيم بالولايات المتحدة.
- كريستيان كاريل.. صحفى أمريكى.
- كيشور مهبوبانى.. دبلوماسى بارز من سنغافورة.
- مارتن ريز.. أستاذ علم الكونيات بجامعة كامبريدج البريطانية.
- محمد المهدى... مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.
- مها عبد الرحمن.. أستاذ علم الاجتماع المساعد فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة.
- نيكولاس رو.. ناقد أدبى بريطانى.

رسوم العدد للفنانين

محمد حجى - سعد الدين شحاتة - أحمد اللباد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٩٣٠٤٩٠/ ٢٩٣٠٤٩٢/ ٢٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٢٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

نــور

ســـــلامة أحمـــــد ســـــلامة

تحديث الخطاب الإسلامي للغرب

في العقد المنصرم كان التسامح والتفاهم، والتحاور والتقارب هي المفردات الغالبة في لغة الخطاب بين أوروبا والعرب والمسلمين، مهما اشتدت الخلافات وانجرفت السياسات. كانت لم تزل هناك بارقة أمل في أن تظل الصراعات السياسية والمنازعات القومية والعرقية التي تؤججها الأطماع التوسعية والمكاسب الاقتصادية، بمنأى عن دائرة الأديان والعقائد، وعن محاولات الزج بها في أتون الصراعات السياسية التي اشتعلت بضراوة بعد الحرب الباردة.. لم يكن أحد يتوقع أن يشهد العالم نكسة إلى عصور الحروب المقدسة، ولا إلى الخلط بين الدين من ناحية وبين حركات التحرر والنضال من أجل الاستقلال من ناحية أخرى.

نعم، كان الصراع في نهاية القرن الماضي قد حسم لصالح النظام الرأسمالي في مواجهة الأيديولوجية الشيوعية. بعد مايقرب من نصف قرن من منافسات وصدامات ذات أبعاد اقتصادية واجتماعية وعسكرية. لم يكن الدين فيها غير عامل ثانوي. بل يمكن أن يقال إن الدين أُبعد عمداً عن دائرة الصراع بين الشرق والغرب، وطغت المسحة الإلحادية على المعسكر الشيوعي بينما طغت المسحة العلمانية على المعسكر الغربي. وفي كلتا الحالتين بقيت الكنيسة والدين خارج الحلبة.

أما في العالم العربي ودول العالم الثالث بصفة عامة، فلم يكن الدين حينذاك يلعب في الداخل دوراً صراعياً تنافسياً في تفاصيل الحياة السياسية والاجتماعية وتقلباتها في هذه الشعوب التي كانت تشهد مرحلة أشبه باليقظة من سبات عميق.. تناضل من أجل استكمال استقلالها وانتزاع سيادتها على ثرواتها، وتعيد التوازن الاجتماعي بين الطبقات. وفي كل ذلك بقي الدين مكوناً روحياً أساسياً يقبع في الوجدان، دون أن يتحول إلى موضوع للصراع الداخلي أو التصدير الخارجي، على كثرة ما زخرت به المنطقة العربية من أديان وملل ونحل وطوائف. وإن كان زرع إسرائيل كدولة يهودية تقوم على أساس ديني قد أعاد إحياء النزعة الدينية بين الشعوب الإسلامية، كدافع إلى الجهاد في وجه الهجمة الصهيونية.

ومع ذلك فقد شهدت هذه الفترة نشاطاً متزايداً في مجالات التبادل الثقافي وفتح أبواب الجامعات مع الغرب، اتخذت طابعاً تنويرياً حضارياً في محاولة للتعويض عن قرون من الاستعمار أدت إلى التخلف والجهل والفقر. وسقطت الحواجز أمام آلاف من المبعوثين والدارسين والباحثين عن عمل. الذين لقوا تشجيعاً ودعماً في صورة المنح الدراسية وتيسير سبل الانتقال والعمل والاندماج في المجتمعات الغربية، دون أن يقف اختلاف الدين حائلاً أمام علاقات خلت من شوائب العنصرية والتعالي والكراهية.. لم يكن هناك ذلك الاستقطاب المفتعل الذي برز بقوة في السنوات الأخيرة على أسس دينية وعرقية يعاني منها العالم الآن.

فما الذي حدث؟

ولماذا انقلبت العلاقات إلى شكل من أشكال العداء والصدام؟ فلا يكاد يمضي يوم دون أن تحمل موجات الأثير صوراً صحيحة أو زائفة لدين لم يخرج بعد من ظلام العصور الوسطى، وشعوب تحمل السيف والأحزمة الناسفة.. يركب المتطرفون فيها السيارات المفخخة، يجزون الرقاب ويفجرون الأبراج ومحطات القطارات ويزرعون الرعب بين المدنيين، ويعملون كل ما في وسعهم لإبراز اختلافهم الثقافي في السلوك والملبس والممارسة الدينية، ثم لا يسمحون لأحد بانتقادهم حتى ولو كان من بين صفوفهم.. فلا ينجو مفكر أو أديب من تهديداتهم وطعناتهم لمجرد أنه يطرح فكراً مخالفاً أو اجتهاداً دينياً غير تقليدي؟!

لقد كان من الطبيعي نتيجة لهذه الصورة الظالمة أن تأتي الردود من الغرب محملة بالإساءات في مقالات ومواد إعلامية، تطعن على الإسلام والمسلمين وتحقر من شأنهم وتسخر بتعاليم دينهم وتتخذ موقفاً عدائياً منهم. وتمضي إلى أبعد من ذلك بإجراءات وقوانين تهدف إلى عزلهم وحصارهم في المجتمعات الغربية التي استقروا فيها، ثم ينتهي الأمر الآن إلى ظهور أحزاب وقوى سياسية تطالب بطردهم من أوروبا كلية. ولا يقتصر الأمر على السياسيين، بل تسارع الكنيسة وعلى رأسها بابا الفاتيكان إلى إسباغ صبغة دينية عقائدية على المواجهة، تعيد إحياء العداوات الدينية والتاريخية القديمة، بعد قرون خفتت خلالها الأحقاد والعداوات، وجرى تبادل ثقافي خصب وغني شكل أساساً من أسس الحضارة الغربية الراهنة.

لم يأت التدهور الحالي في العلاقات بين الغرب والإسلام والمسلمين من فراغ. ولكنه جاء نتيجة ثلاث موجات ارتدادية تصاعد مفعولها عبر العقود الثلاثة الأخيرة. ومع كل موجة من هذه الموجات، تغلب إرث الضياع العربي وعجزه عن ملاحقة الحضارة الحديثة، وما اقترن بها من طفرة علمية وتحولات اجتماعية وسياسية، على قدرة العرب والمسلمين في الرد على التحديات والاتهامات التي وجهت إليهم. وعكست كل موجة مرحلة من الصدام الحضاري والفكري الذي استدعته صراعات دولية، كانت ترتفع فيها درجة العداء وتتسع الهوة بين طرف متقدم يملك المكتسبات الحديثة، وطرف متأخر ينأى تدريجياً عن الإمساك بآليات التقدم السياسي والاجتماعي والمعرفي، على الرغم مما تهيأ له من أسباب الثروة النفطية والبشرية. وكلما اتسعت الهوة كلما ازدادت في المجتمعات الإسلامية درجة الانغلاق على القديم والعودة إليه. وكأنه الدرع الذي يحمي من التهديدات الخارجية ومن مخاطر الانفتاح على العالم الجديد.

تمثلت الموجة الأولى في الصدام الذي وقع بين الثورة الإسلامية في إيران وبروز حكم ولاية الفقيه، وبين الولايات المتحدة، عندما استولى الحرس الثوري على السفارة الأمريكية وتم احتجاز الرهائن فيها. وبدأ الغرب ينظر إلى هذا التطور نظرة مختلفة، باعتبار أن هذا الصعود الإسلامي يمكن أن يتخذ موقفاً معادياً للغرب ومصالحه في هذه المنطقة الحساسة التي تضم أكبر مخزون للنفط في العالم.

وجاء هذا التغير في مرحلة استخدمت فيها أمريكا عداء المسلمين للماركسية في طرد النفوذ السوفيتي من أفغانستان. وهي اللحظة التي تشكلت فيها طالبان بمساعدة المخابرات الأمريكية ونشأ تنظيم القاعدة في أحضانها. واعتبرت أمريكا أن معركتها في أفغانستان هي الضربة قبل الأخيرة، لتقويض المعسكر الشيوعي وطرد النظام السوفيتي من أوروبا الشرقية.

وفي هذه الحقبة بدأت مظاهر التحرش الفكري بالإسلام. عندما أدانت الثورة الإسلامية في طهران سلمان رشدي بسبب روايته «الآيات الشيطانية» وأهدرت دمه. ولحق بها العالم الإسلامي السني ليثبت أنه ليس أقل حماساً ودفاعاً عن الإسلام من الدولة الشيعية.

وولد في هذه الظروف ما سُمي بالحوار بين الأديان، واتخذ شكلاً مؤسسياً حين استضاف الفاتيكان مؤتمراً للحوار في مدينة «ازيزي» الإيطالية عام ١٩٨٦. وكان الكاردينال راتزينجر (البابا بنديكت الحالي) من أقرب المقربين للبابا يوحنا بولس الثاني، ولكنه على العكس منه لم يكن متحمساً لمسألة الحوار، ولا يثق في إمكانية التغلب على الخلاف بين الأديان.

وفي هذه المرحلة نجح اليهود في تجاوز أحقاد الماضي وإقناع الغرب بأن دولة إسرائيل تشكل امتداداً للحضارة الأوروبية التي تتحالف فيها المسيحية واليهودية، بعد أن قدمت الكنيسة الكاثوليكية اعتذاراً برأت فيه اليهود من دم المسيح. وبدا بوضوح أن النفوذ اليهودي على السياسة الأمريكية وصنع القرار فيها، أخذ يتجه نحو كسب جماعات للضغط في أوروبا للدفاع عن حقوق الإنسان ومكافحة العنصرية، مستفيداً من خلو الساحة من أي جهد عربي أو إسلامي في مقاومة حملات

لــــم يكـــن غـــريبًا أن تظهـــر حينـــــذاك فكـــرة «البـحـث عـن عـدو» بـعـد أن اخـتـفـى الـعـدو الـشـيـوعـى وسـقـطـت هـيـبـة مـوسـكـو. وظهـــر مـا ســـــمى بالعـــــدو الأخضـــــر

التشكيك والإدانة التى اقترنت بحوادث خطف الطائرات وبعمليات انتقامية قامت بها فصائل المقاومة الفلسطينية ضد أهداف إسرائيلية فى الخارج.

وجاءت الموجة الثانية مواكبة للظروف التى أدت إلى أحداث سبتمبر ٢٠٠١ والتداعيات التى أعقبتها. وهى فترة اتسمت بكثير من المساجلات والأزمات بين الغرب والعالم الإسلامى. وظهرت خلالها مقولات هنتنجتون وفوكوياما حول صراع الحضارات ونهاية التاريخ. وبالأخص بعد تفكك الاتحاد السوفيتى وتداعى حلف وارسو وسقوط حائط برلين وهرولة دول أوروبا الشرقية للانضمام إلى الاتحاد الأوروبى وحلف الأطلنطى.

ولم يكن غريباً أن تظهر حينذاك فكرة «البحث عن عدو» بعد أن اختفى العدو الشيوعى وسقطت هيبة موسكو. وظهر ما سمى بالعدو الأخضر ممثلاً فى العالم الإسلامى، الذى يختلف فى عقائده وقيمه ومصالحه عن الغرب. وعندما وقعت أحداث سبتمبر التى قام بها مسلمون (١٩ شخصاً عربياً) كانت خميرة العداء فى العالم العربى ضد أمريكا قد بلغت درجة لا يمكن تجاهلها.. فتحت غطاء تخليص الكويت من الغزو العراقى ٩٠، ٩١، أقامت أمريكا قواعد عسكرية غطت منطقة الخليج، وانكشفت حقيقة الدور الأمريكى فى إشعال الحرب العراقية الإيرانية. وبدا أن النظام العالمى الجديد الذى برزت فيه الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة فى العالم، استهدف وضع منطقة الشرق الأوسط تحت هيمنته، لحساب إسرائيل وعلى حساب الحقوق العربية وحقوق الشعب الفلسطينى، وهو ما ولد نقمة على النظم العربية الحاكمة، أفضت إلى عمليات إرهابية داخلية قامت بها جماعات إسلامية متطرفة، راح ضحيتها الرئيس السادات. وحين ازداد الضغط على هذه الجماعات، أفسحت لها الدول الأوروبية والولايات المتحدة ملاذاً على أمل أن تصبح أداة ضغط على الحكومات والأنظمة العربية.

ولا يمكن فى هذا السياق أن نتجاهل ظهور البعد الدينى فى حرب أفغانستان ثم فى حرب العراق التى شنتها الولايات المتحدة بالتحالف مع دول أوروبية، بدعوى محاربة الإرهاب وسحق عناصره وتنظيماته فى أفغانستان. ثم بدعوى تجريد العراق من أسلحة الدمار الشامل.. وأخيراً بدعوى نشر الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان التى أدى غيابها عن العالم الإسلامى - من وجهة نظرهم - إلى التطرف والراديكالية وظهور بؤر إرهابية. وقد جرى ترويج هذه الدعاوى فى حملات إعلامية مكثفة تحت غطاء محاربة «الفاشية الإسلامية» أو «الإرهاب الإسلامى».

ومرة أخرى لم يكن العرب والمسلمون على مستوى التحدى فى مواجهة هذه الهجمة المنظمة التى استخدمت فيها أرقى التقنيات الحديثة فى حروب الإعلام، وأساليب الضغط السياسى والاقتصادى والعسكرى لابتزاز النظم السياسية الحاكمة. وإطلاق يد إسرائيل فى التعامل مع السلطة الفلسطينية بأكثر الأساليب همجية وبربرية، ودون أدنى مراعاة للمواثيق والاتفاقيات الدولية. الأمر الذى شجع إسرائيل على حصار غزة واحتلال الضفة، ثم على شن حرب تدميرية ضد لبنان.

وفى كل هذا وقفت الدول العربية والإسلامية عاجزة مهلهلة، غير قادرة على الدفاع عن مصالحها، وغير قادرة على اكتساب احترام العالم بفضل ما تملكه من نظم سياسية تساير التقدم. وبدت الصورة الشائعة للعالم الإسلامى، انعكاساً فى مرآة مشوهة تسم المسلمين بالعنف وعدم التسامح والتعصب والعيش فى الماضى. التصقت بأكثر من ١٨ مليون مسلم يعيشون فى أوروبا ونحو ٧ ملايين يعيشون فى الولايات المتحدة.

فى الموجة الثالثة التى نشهد تجلياتها الآن، فقد حوار الحضارات - الذى كان منصة لإطلاق الجهود للحفاظ على التعددية الثقافية وعلى التنوع العقائدى - زخمه وهدفه، وأصبح مجرد شكل بغير مضمون. بل أصبح فى بعض الأحيان قناعاً لعملية تفكيك منظمة أوشكت أن تعيد العلاقات بين الغرب والإسلام إلى نقطة الصفر. فتصاعدت حملات الوقيعة لتعميق الهوة وإيجاد الذرائع الكفيلة بحصار الجاليات المسلمة وتضييق الخناق عليها، والنظر إلى ظاهرة الهجرة من الجنوب باعتبارها تمثل تهديداً للمجتمعات الأوروبية وتقاليدها وعاداتها.

وجاءت حوادث التفجيرات فى مدريد ولندن لتضفى جواً من التوتر والتوجس فى العلاقات بين الجاليات المسلمة وبين المجتمعات التى تعيش بين ظهرانيها. وأصبح الاتهام الجاهز أن هذه الجاليات تقاوم الاندماج فى المجتمعات الأوروبية وتحاول فرض قيمها ومعتقداتها على الآخرين. وبذلك هيأت الجرائم التى ارتكبها بعض المسلمين فى هذه البلاد أسباباً لتغذية الحملات الموجهة ضد الإسلام.. أسفرت عن مسلسل لا يكاد يتوقف من الاستفزازات والإساءات الناجمة عن سوء الفهم أو عن الرغبة فى إثارة ردود فعل حمقاء من الجاليات المسلمة، تكرس الصور السلبية المسبقة التى تعمق روح العداء والاستعلاء.

أخشى ما نخشاه أن تكون العلاقات بين الإسلام والغرب قد دخلت مرحلة حرجة، تتحرك فى حلقات مفرغة من الفعل ورد الفعل الذى يمكن أن ينسف جسور التواصل ويذكى نار الخصومة وينزل أضراراً جسيمة بملايين المسلمين والعرب المقيمين فى أوروبا وأمريكا.

ولأسباب عديدة، فليس فى مقدور العالم الإسلامى وليس فى مصلحته أيضاً، أن يوسع الفجوة أكثر مما اتسعت مادام الوضع العربى الإسلامى متخلفاً، عاجزاً عن اللحاق بالطفرة العلمية والفلسفية الهائلة التى تشكل ملامح العصور الحديثة وتحديات العولمة، وما دمنا نعيش فى عالم متخلف يتخبط فى مشاكل سياسية واجتماعية واقتصادية لا نهاية لها.

هنا لابد من البحث عن أساليب جديدة فى التفكير، وفى التخاطب مع الغرب.. من أجل إيجاد أرضية لحوار نقدى وخطاب عقلانى يسعى إلى كسب النخب الغربية من ناحية، والارتقاء بمفاهيم الجاليات المسلمة وسلوكياتها من ناحية أخرى.. على أن نأخذ فى الاعتبار أن هذه المجتمعات الغربية تعيش فى ظل نظم علمانية، لا تحتل فيها السلطة الدينية وضعاً مركزياً كالذى تحتله السلطة الدينية فى المجتمعات الإسلامية. كما أن التنوع الثقافى والدينى فى مجتمعات الغرب، حررها من الوصاية التى يمارسها رجال الدين عندنا، وأطلق العنان لمناقشة المقدسات والإلهيات دون حساسية أو تحفظ، بل ودون مبالاة بمشاعر الآخرين ومقدساتهم.

وعلى هذا الأساس، وباختصار شديد، فإن تحسين صورة الإسلام لن يتحقق من خلال محاولة دعوة الغرب أو هدايته إلى الإسلام أو إقناع الفاتيكان ورجال الدين المسيحى بصحة المعتقدات والتصورات الإسلامية، كما بدا فى الخطابات والرسائل والمقالات التى حررها علماء الدين والإفتاء وأئمة الأزهر والمؤسسات الإسلامية موجهة إلى بابا الفاتيكان أخيراً على صفحات الصحف العربية.

ولكن المطلوب هو التعريف بالإسلام ومبادئه، واستثمار منظومة القيم التى تحكم هذه المجتمعات فى الدفاع عن الحرية والمساواة والعدالة الدولية، ومبادئ التنوع الثقافى والتعددية السياسية والتكامل الحضارى للإنسانية.. دون أن نفرض معتقداتنا على الآخرين، ودون أن نجد أنفسنا فى موقف يعادى حرية الفكر والتعبير.

إن حاجتنا لخطاب دينى جديد موجه للخارج، لا تقل عن حاجتنا إلى تجديد الخطاب الدينى فى الداخل!

سراب الهوية

أمارتيا سين

يقوم «التوجه الأيديولوجي» على الاستخدام الفعلي لما يسمى بـ«الهوية» المفردة. وهو بهذا يجرد الإنسان مما يتصف به دائما من تعدد جوانب انتماءاته التي تقوم عليها الصلات التي تجمعه إلى غيره من الناس في وطنه أو في العالم الأوسع. ويتغذى هذا «التوجه الأيديولوجي» على غرس مفاهيم الاستعلاء على من لا ينتمون إلى تلك الهوية المفردة الضيقة. ومن هنا كان هذا التوجه سببا في كثير من الحروب الداخلية الفظيعة في العالم الإسلامي وفي غيره.

وأسهم ما يسمى بـ«الصحوة» الإسلامية في خلال الثلاثين السنة الماضية في التركيز على «الهوية الدينية»، بل «المذهبية» وحدها مما خلق كثيرا من الأزمات القاتلة في المجتمعات الإسلامية المتعددة.

وإذا كان علينا أن «نتصدى» لهذا «التوجه الأيديولوجي» فيلزمنا أن نعالج مشكلة «الهوية» الضيقة التي عمل التيار الصحوي على إنقاص المسلمين إليها.

ومن الشواهد الأخيرة على صحة توصيف البروفيسور الأمريكي من أصل هندي أمارتيا سين لميل كثير من الناس إلى التصنيف بانتخاب هوية واحدة ليستخدموها عنوانا على من يريدون أن يجعلوه هدفا لعدائهم عبارة «المسلمون الفاشيون» الخرقاء التي أطلقها الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن على من اتهمتهم السلطات البريطانية قبل أسابيع بالتخطيط لتفجير بعض الطائرات في أثناء تحليقها على المحيط الأطلسي. وهو يوحي بذلك أن كونهم مسلمين كاف لأن يقوموا بهذه الجريمة. ولا يلتفت إلى أن من الممكن أن تكون بعض الانتماءات الأخرى لهؤلاء، إن صحت التهمة عليهم، إلى جانب كونهم مسلمين، هي التي دفعتهم إلى هذا التخطيط الإجرامي غير المقبول. والبروفيسور سين حائز على جائزة نوبل للاقتصاد في سنة ١٩٩٨م. وتورد المجلة البريطانية أنه «وُصف مرة بأنه «ضمير المتخصصين في تخصصه»، أي في الاقتصاد. وقد قضى أكثر من أربعة عقود وهو يعالج قضايا مثل عدم المساواة والفقر والثمن الذي تدفعه الإنسانية مقابل التنمية الاقتصادية. ويتناول سين في كتابه الجديد «الهوية والعنف: خداع المصير» Identity and Violence: The Illusion of Destiny, الصادر عام ٢٠٠٦، مفهوم الهوية الإنسانية مبينا كيف أن حس انتماء شخص ما إلى مجموعة عرقية أو ثقافية أو دينية أو اجتماعية في ظروف محددة ربما يقوده إلى أن يتصرف بطريقة قاتلة مسمومة».

وقد كتب البروفيسور سين مقالين عن قضايا الهوية نشر الأول في مجلة Slate في مارس الماضي والثاني في مجلة The New Stateman في يوليو الماضي. وتفضل البروفيسور سين مشكورا بالإذن لي في ترجمة هذين المقالين وهنا أولهما.

حمزة المزيني



عمّــــا يجمعنــــا..

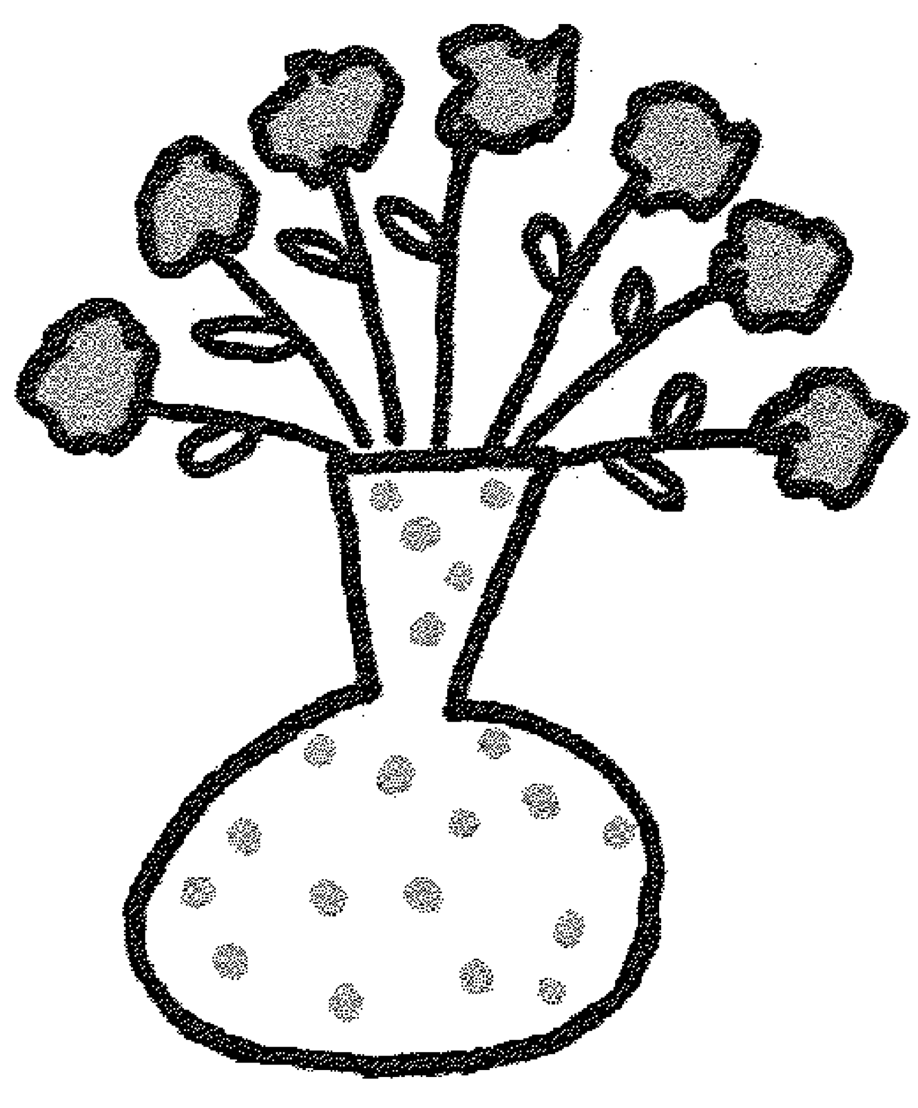
تُلفت قدرةُ بعض الرسومات الهزلية للرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) على إثارة بعض الاضطرابات فى عدد كبير من البلدان أنظارَنا إلى بعض الأمور المهمة جدا عن العالم المعاصر. فهى تشير، من بين قضايا أخرى، إلى الحساسية المفرطة عند بعض المسلمين تجاه تمثيل النبى (صلى الله عليه وسلم) والسخرية به فى الصحافة الغربية (إضافة إلى السخرية من اعتقادات المسلمين التى يُرى أنها تصاحب ذلك) وتلفت أنظارنا كذلك إلى القوة الواضحة لمثيرى الشغب المصممين على إثارة نوع الغضب الذى يقود مباشرة إلى العنف. لكن التمثيلات التنميطية من هذا النوع تتسبب فى نوع آخر من الضرر كذلك، وذلك بجعل جماعات كثيرة من الناس فى العالم تبدو ضيقةَ النظرة وغيرَ واقعية.

فمن الواضح أن تصوير النبى (صلى الله عليه وسلم) معتمرا قنبلة على شكل عمامة لا يعدو أن يكون اختلاقا تخييليا لا يمكن الحكم عليه بصورة حرفية، كما أن صلة ذلك التمثيل لا يمكن أن تُفصل عن الطريقة التى يمكن أن يُنظر بها إلى أتباع النبى (صلى الله عليه وسلم). أما ما ينبغى أن نَنظر إليه بجد فهو الطريقة التى يُفترض أن الهوية الإسلامية، فى مثل هذا التمثيل، تحجبه من انتماءات وأولويات وانشغالات أخرى مما يمكن أن يكون لدى أى فرد مسلم. ذلك أن الفرد ينتمى إلى جماعات كثيرة مختلفة، لا يمثل الانتماء الدينى إلا واحدا منها. فأن تَنظر إلى متخصص فى الرياضيات صدف أنه مسلم بمعايير الهوية الإسلامية بشكل رئيس سيخفى أكثر مما يبين. فحين يلجأ أىُّ متخصص معاصر فى الرياضيات، حتى الوقت الحاضر، ولْنقل فى جامعة ماساتشوستس أو برنستون مثلا، إلى تطبيق «اللوغاريتمات» لحل مشكلة حوسبية صعبة فإنه يساعد فى الاحتفاء بتذكر إنجازات عالم الرياضيات المسلم، الخوارزمى الذى عاش فى القرن التاسع الميلادى، واشتُق هذا المصطلح من اسمه (وجاء مصطلح «الجبر» من كتاب فى الرياضيات للخوارزمى عنوانه «الجبر والمقابلة»). إن التركيز على هوية الخوارزمى الإسلامية فقط بشكل يُغفل هويتَه بوصفه عالم رياضيات سيكون مضلِّلا إلى أبعد الحدود، ومع ذلك فقد كان مسلما بشكل واضح. كما يمكن، وبصورة مماثلة، أن يَنتج سوءُ فهم عميق من إعطاء أولوية تلقائية للهوية الإسلامية لشخص مسلم من أجل أن تَفهم الدورَ الذى يقوم به فى المجتمع المدنى أو عالم الأدب أو العمل الإبداعى فى الفنون والعلوم.

بترتيب مع مجلة: Slate

ترجمة: حمزة المزينى

إن التوجه المتزايد لإغفال كثير من الهويات التى يملكها أى إنسان ومحاولة تصنيف الأفراد بمعيار هوية دينية مفردة تأخذ الأولوية على غيرها لا يعدوان أن يمثلا اضطرابا فكريا ربما ينشأ عنه تقسيم خطير. وربما يريد إسلامى مثير للعنف ضد غير المؤمنين أن ينسى المسلمون أنهم يملكون أية هوية غير كونهم مسلمين. ومن اللافت أن أولئك الذين يودون القضاء على ذلك العنف إنما يشجِّعون، فى الواقع، الاضطراب الفكرى نفسه بالنظر إلى المسلمين بصورة رئيسة على أنهم أعضاء فى عالَم إسلامى واحد. ويتعرض العالَم لمزيد من الاهتياج المحرق بسبب الدعوة إلى تصنيف بنى الإنسان باستخدام بُعد تصنيفى واحد وانتشارها، وهو التصنيف الذى يجمع بين ضبابية الرؤية مصحوبة بالمدى المتزايد لاستغلال مؤيدى العنف لتلك الضبابية.



ويمكن أن نعثر على استعمال لافت للواحدية المتخيَّلة فى كتاب صامويل هنتنجتون المؤثِّر: «صراع الحضارات وإعادة تكوين النظام العالمى»:
The Clash of Civilizations and the Remaking of the World Order, 1998.

وتبدأ صعوبة مقاربة هنتنجتون مع نظام التصنيف الفريد الذى يقترحه، حتى قبل أن يبدأ فى إثارة قضية الصراع، أو عدمه. ولا تزيد مقولة صراع الحضارات عن أن تكون زيادة طفيلية على القوة الصارخة للتصنيف الفريد الذى يترافق بشكل لصيق مع ما يسمى بالحدود الحضارية، وهى التى تتصاحب بشكل متلازم مع التقسيمات الدينية التى وجَّه إليها انتباهه المفرد. فيقابل هنتنجتون الحضارة الغربية بـ«الحضارة الإسلامية»، و«الحضارة الهندوسية»، و«الحضارة البوذية»، وغيرها. وقد ضُمِّنت العداواتُ المفترَضة النابعةُ من الاختلافات الدينية فى رؤية صندوقية شديدة الإحكام للتقسيمات المعزَّزة.

والواقع أنه يمكن أن يصنَّف الناس فى العالم تبعا لعدد كبير من التقسيمات الأخرى، ولكل منها بعض الصلة بحياتنا، وأحيانا إلى حدود بعيدة، ومنها: الانتماءات الوطنية، والانتماءات المحلية، والطبقات، والمهن، والمكانة الاجتماعية، واللغات، والسياسة، وتقسيمات أخرى كثيرة. وعلى الرغم من شيوع التصنيفات الدينية فى السنين الماضية القريبة واشتهارها إلا أنه لا يمكن الافتراض بأنها قضت على التمايزات الأخرى، بل إنه يمكن النظر إليها على أنها أقل من أن تكون النظامَ ذا الصلة الوحيد لتصنيف الناس عبر العالم. ويؤدى تقسيم سكان العالم إلى أولئك الذين ينتمون إلى «العالم الإسلامى»، و«العالم الغربى»، و«العالم الهندوسى»، و«العالم البوذى» مما تستخدمه القوة التقسيمية للأولويات التصنيفية بصورة غير مباشرة إلى وضع الناس بصورة صارمة داخل مجموعة من الصناديق المغلقة بقوة. وتخفى هذه الطريقة التى تزعم الأولوية فى النظر إلى التنوعات بين الناس التقسيمات الأخرى كلها (كالتقسيم إلى أغنياء وفقراء، وإلى المنتمين إلى طبقات ومهن مختلفة، والمنتمين إلى انتماءات سياسية مختلفة، وإلى الوطنيات المتمايزة والمحليات السكنية، وإلى المجموعات اللغوية، إلخ).

وتبدأ صعوبة فرضية صراع الحضارات مع افتراض الصلة الفريدة للتصنيف الأحادى الفريد. بل إن السؤال: «هل تتصادم

الحضارات؟» إنما يقوم على الافتراض بأنه يمكن تصنيف بنى الإنسان بشكل لازم إلى حضارات متباينة ومتعازلة، وأنه يمكن رؤية العلاقات بين بنى البشر المختلفين بشكل ما فى ضوء العلاقات بين الحضارات المختلفة، من غير أن نفقد قدرا من الفهم بصورة خطيرة.

وتعزز هذه النظرة التقليصية دائما بانطباع غائم إلى حد بعيد عن تاريخ عالمى يتعامى، أولا، عن مدى التنوعات الداخلية داخل هذه الأصناف الحضارية، وثانيا، عن المدى الذى يصل إليه التفاعل التأثرى. الفكرى والمادى كذلك. الذى يخترق بصورة مباشرة الحدود الإقليمية لما يسمى بحضارات. كما أن قوة هذا التفاعل المربك يمكن ألا يوقع فى شركه أولئك الذين ربما يؤيدون فرضية الصراع (وهم يتنوعون بين غلاة الوطنيين الغربيين والأصوليين المسلمين) فقط، بل أولئك الذين ربما يودون أن يفندوا حجج هذا الصراع إلا أنهم يحاولون أن يقاوموه مستخدمين مصطلحاته المرجعية المحددة مسبقا.

ويمكن أن تبرهن محدودية مثل هذا التفكير الذى يتأسس على الحضارة على أنه يمثل قدرا من التغرير لبرامج «الحوار بين الحضارات» (الذى حقق رواجا كبيرا هذه الأيام) يماثل التغرير الذى يوجهه لنظريات صراع الحضارات. ويقلص السعى النبيل المتسامى للنظر إلى الود بين الناس على أنه ود بين الحضارات بسرعة الجوانب المتعددة لبنى البشر إلى حد أن يملك الواحد منهم بعدا واحدا وإلى أن يخفى الارتباطات المتنوعة التى توفر خلفيات غنية متباينة للتفاعلات العابرة للحدود طوال قرون عديدة، ومنها: الفنون والأدب والعلوم والرياضيات والألعاب والتجارة والسياسة، إضافة إلى مجالات أخرى من مجالات الاهتمامات الإنسانية المشتركة. فيمكن أن يكون لمحاولات السعى الخيرة نحو السلام العالمى بعض النتائج العكسية الحقيقية حين تؤسس هذه المحاولات على الفهم الخادع أساسا لعالم بنى الإنسان.

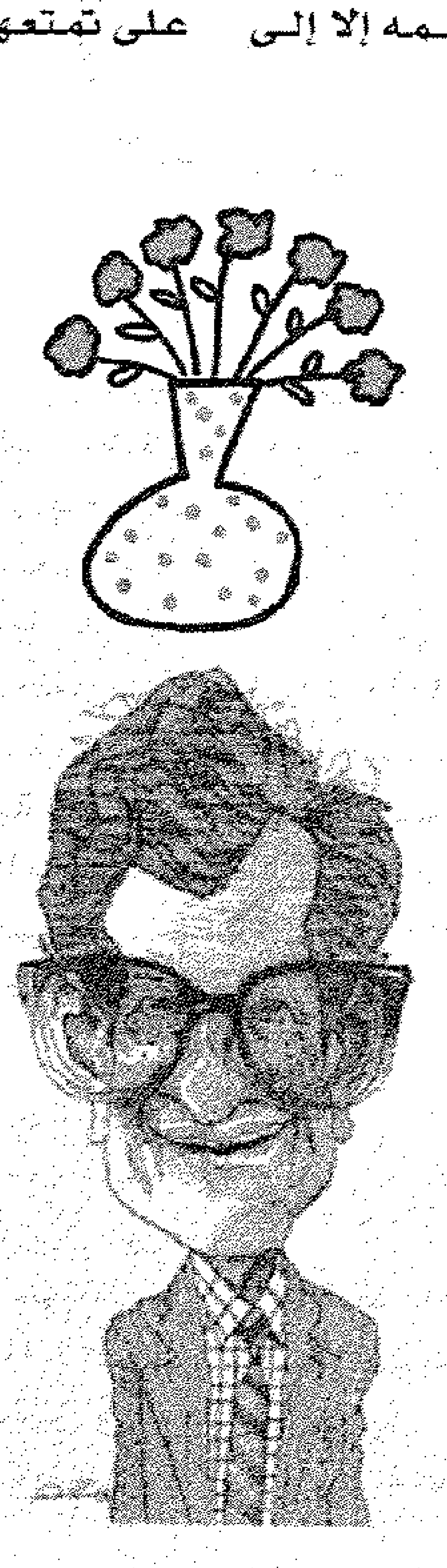
كما يميل الاعتماد المتزايد على تصنيف بنى البشر المؤسس على الدين إلى أن يجعل من رد الفعل الغربى على الإرهاب والصراع العالميين يبدو على درجة من عدم الإتقان بشكل لافت. ذلك أنه يعبر عن احترام «الشعوب الأخرى» بالتعبير عن امتداح كتبهم الدينية، بدلا من التنبه للارتباطات والإنجازات متعددة الجوانب، فى الحقول غير الدينية إلى جانب الحقول الدينية كذلك، عند مختلف البشر فى عالم يتفاعل عالميا. فتتوجه القوة الفكرية للسياسة الغربية إلى حد بعيد، فى مواجهة ما يسمى بـ«الإرهاب الإسلامى»، بالمصطلحات المعاصرة الغامضة، إلى محاولة تعريف. أو إعادة تعريف. الإسلام.

ولا يؤدى التركيز على التصنيف الدينى المبالغ فى حجمه إلا إلى الغفلة عن الاهتمامات المهمة والأفكار الأخرى التى تحرك الناس وحسب. بل يؤدى عموما إضافة إلى ذلك إلى تضخيم صوت السلطات الدينية. ومن ذلك أن يعامل «علماء الدين المسلمين» تبعا لذلك على أنهم المتحدثون الرسميون باسم ما يسمى بـ «العالم الإسلامى»، على الرغم من أن عددا كبيرا من المنتمين إلى الإسلام قد يختلفون اختلافات كبيرة مع هذا العالم أو ذاك. ويؤدى هذا إلى أن يظهر العالم فجأة، على الرغم من تنوع تنوعاتنا، لا على أنه يتألف من مجموعة من الناس، بل على أنه يتألف من تحالفات اتحادية من الأديان والحضارات. فقد أدت وجهة النظر المرتبكة فى بريطانيا لما يجب أن يفعله المجتمع المتعدد الانتماءات الثقافية إلى تشجيع إنشاء مدارس إسلامية ومدارس هندوسية ومدارس سيخية، إلى آخره، تمولها الدولة لتلتحق بالمدارس المسيحية الموجودة من قبل التى تمولها الدولة. فيوضع الأطفال الصغار، فى ظل هذا النظام، فى حيز انتماءات مفردة بشكل سابق على تمتعهم بالقدرة على التعليل النقدى للأنظمة المختلفة للهوية التى ربما تتصارع على الاستحواذ على انتباههم. وكانت المدارس التابعة للطوائف الدينية قد غذت التباعد السياسى بين الكاثوليك والبروتستانت فى إيرلندا الشمالية على نحو متواصل من التصنيف المفتت الذى يرسم منذ الطفولة. أما الآن فقد صار التحديد المسبق نفسه للهويات «المكتشفة» مسموحا به، بل يشجع فى الواقع، وهو ما يلزم عنه بذر مزيد من الاغتراب بين الأطراف المختلفة من المواطنين البريطانيين.

ويمكن أن يكون التصنيف الدينى أو الحضارى مصدرا للتشويه العدائى كذلك. فيمكن مثلا أن يتخذ شكل الاعتقادات الفجة التى عبرت عنها ملحوظة الجنرال الأمريكى وليم بويكين المدوية. التى يعرفها الناس جميعا الآن، فى وصفه لمعركته ضد المسلمين بشكل خشن:

«لقد عرفت أن ربى أكبر من ربه»، و«أن رب المسيحية كان الرب الحق، وأن رب (المسلمين) ليس إلا وثنا». ومن السهل الكشف عن غباء مثل هذا التعصب، لذلك فإن هناك خطرا محدودا فى الإطلاق غير المهذب لمثل هذه الصواريخ المنفلتة من التحكم. إلا أن هناك بالمقابل مشكلة أكبر من هذه فى استعمال السياسة العلنية الغربية لـ«الصواريخ الفكرية الموجهة بإحكام» التى تقدم نظرة سطحية أكثر نبلا لصرف النشاطات الإسلامية بعيدا عن المعارضة عبر استراتيجية تبدو أقل ضررا تتمثل فى تعريف الإسلام تعريفا ملائما. فتسعى هذه السياسة إلى منع الإرهابيين المسلمين عن العنف عن طريق التأكيد على أن الإسلام دين سلام، وأن «المسلم الحقيقى» يجب أن يكون فردا متسامحا («أى: انته عن ذلك وكن مسالما»).

ومن المؤكد أن رفض النظرة إلى الإسلام على أنه دين مجابهة ربما يكون ملائما حقيقة وهو مهم جدا فى



هذا الوقت، لكننا يجب أن نسأل إن كان من الضرورى أو المفيد، بل من الممكن، أن نحاول أن نعرِّف بمصطلحات سياسية إلى حد كبير ما يجب أن يكون «مسلما حقيقيا».

وينبغى ألا يكون الدين الهوية الجامعة المانعة لشخص ما. ذلك أن الإسلام، بوصفه دينا، لم يقض على الاختيار المسؤول للمسلمين فى كثير من مناحى الحياة. بل الواقع أن من الممكن لشخص مسلم أن يتبنى وجهة نظر تجابهية وأن يتبنى مسلم آخر وجهة نظر متسامحة جدا تجاه البدعة من غير أن يخرج أى منهما عن كونه مسلما لذلك السبب وحده.

ويصبح رد الفعل على الأصولية الإسلامية والإرهاب الذى يُربط بها مضلِّلا بشكل خاص أيضا حين يكون هناك فشل عام فى التمييز بين التاريخ الإسلامى وتاريخ المسلمين. ذلك أن للمسلمين، كالشعوب الأخرى فى العالم، اهتمامات مختلفة كثيرة، ولا ينبغى أن توضع أولوياتهم كلها وقيمهم كلها فى حيِّز هويتهم الوحيدة بصفتهم مسلمين.

وليس من المستغرب أبدا، بالطبع، أن يرغب دعاة الأصولية الإسلامية فى القضاء على الهويات الأخرى كلها للمسلمين فى صالح الإبقاء على هويتهم بصفتهم مسلمين فقط. لكن من الغريب جدا أن أولئك الذين يريدون التغلب على التوترات والمجابهات التى تُربط بالأصولية الإسلامية يبدون كذلك عاجزين عن أن ينظروا إلى المسلمين بأى شكل يتجاوز كونهم مسلمين وحسب.

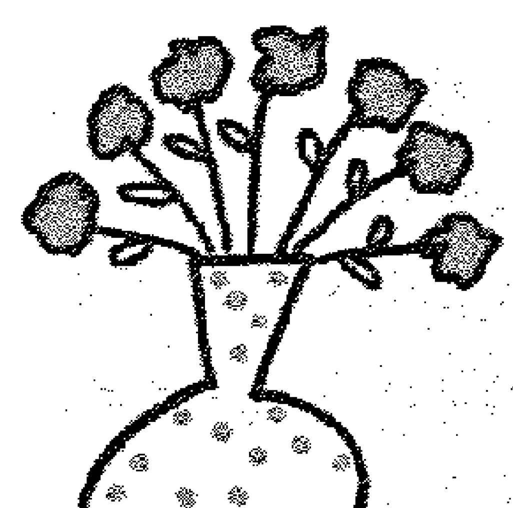
ويرى الناس أنفسهم، ولهم أسبابهم ليروا أنفسهم، بطرق مختلفة كثيرة. فالمسلم البنغلاديشى، مثلا، ليس مسلما فقط بل هو أيضا بنغالى وبنغلاديشى، وهو فخور بالطبع باللغة البنغالية والأدب البنغالى والموسيقى البنغالية، هذا إن لم نذكر هوياته الأخرى التى ربما ترتبط بالطبقة والجنس والمهنة والسياسة والذوق الجمالى وغير ذلك. ولم يؤسس انفصال بنغلادش عن باكستان على الدين أبدا، ذلك أن الهوية الإسلامية تجمع بين معظم السكان فى جناحى باكستان قبل التقسيم. أما القضايا التى تقوم وراء الانفصاليين فكانت تتصل باللغة والأدب والسياسة.

وليس هناك، بالمثل، سبب علمى أبدا لتركيز دعاة الماضى الإسلامى، أو للسبب نفسه دعاة التراث العربى، بصفة محددة على الاعتقادات الدينية وحدها وعدم تركيزهم كذلك على العلوم والرياضيات، التى أسهمت المجتمعات العربية والإسلامية فيها إسهاما كبيرا، وهى التى يمكن أن تكون كذلك جزءا من الهوية الإسلامية أو العربية.

وعلى الرغم من أهمية هذا الإسهام إلا أن التصنيفات الفجة تسعى نحو وضع العلوم والرياضيات فى سلة «العلم الغربى»، تاركة الشعوب الأخرى لتنقب عن فخرها فى الأعماق الدينية.

وإذا أمكن للنشطاء العرب المستلَبين اليوم أن يفخروا فقط بنقاء الإسلام، بدلا من الفخر بغنى التاريخ العربى متعدد الجوانب، فإن إعطاء الأولوية الفريدة للدين، وهو ما يشترك فيه المناضلون فى الجانبين، يلعب جزءا كبيرا فى العمل على حصر الناس داخل حدود الهوية الواحدة.

إن البحث الغربى المسعور عن «المسلم المعتدل» يخلط بين الاعتدال فى الاعتقادات السياسية والاعتدال فى الاعتقاد الدينى. ذلك أنه يمكن للشخص أن ينطوى على اعتقاد دينى قوى - إسلامى أو أى دين آخر - إلى جانب اعتناقه سياسة معتدلة. فقد أمكن للامبراطور صلاح الدين الذى قاتل ببسالة من أجل الإسلام خلال الحروب الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى، أن يُنزل، من غير أى تناقض، ابن ميمون بوصفه ذلك الفيلسوف اليهودى المتميز الذى هرب من أوروبا غير المتسامحة مكانا محترما فى بلاطه فى مصر. وفى أوائل القرن السادس عشر الميلادى، حين كان المهرطق جيوردانو برونو يُحرق على الخازوق فى كامبو دى فيورى فى روما، كان الإمبراطور المغولى العظيم «أكبر» (الذى وُلد مسلما ومات مسلما) قد انتهى للتو، فى عاصمة مملكته «أجرا»، من مشروعه العظيم لتشريع حقوق الأقليات، ومنها الحرية الدينية للجميع.



التصنيف الدينى المبالغ فيه يؤدى إلى تضخيم صوت السلطات الدينية، ومن ذلك أن يُعامل علماء الدين المسلمين على أنهم المتحدثون باسم العالم الإسلامى مع أن هناك مسلمون كثيرون قد يختلفون مع هذا العالم أو ذاك

والنقطة التى تتطلب تنبُّها خاصا هى أنه فيما كان «أكبر» حرا فى انتهاج سياساته الليبرالية من غير أن يخرج عن الإسلام، فإن تلك الليبرالية لم تشجع - ولم تمنع - بالإسلام. كما استطاع امبراطور مغولى آخر هو أورانزيب أن يمنع حقوق الأقليات وأن ينتهك حقوق غير المسلمين من غير أن يكون خارجا عن الإسلام، لذلك السبب، بالطريقة نفسها تماما التى لم يخرج بها «أكبر» عن أن يكون مسلما بسبب سياساته التعددية المتسامحة.

إن الإصرار، وإن كان غير مباشر، على الواحدية غير المختارة للهوية الإنسانية لا تُسقطنا جميعا فقط، بل إنه يجعل العالم أكثر قابلية للاشتعال. إن البديل للتفرقة التى تقوم على التصنيف الوحيد المسيطر لا يتمثل فى الزعم غير الواقعى بأننا جميعا متماثلون تقريبا. بل إن الأمل الرئيس للتعايش فى عالمنا المضطرب يقع فى تعددية هوياتنا، وهى التى يخترق بعضها بعضا وتعمل ضد التفريقات الحادة عند حدود خط واحد فريد صلب من التفريق المسموم الذى يُزعم أن من المستحيل مقاومته. وتتحدى إنسانيتنا المشتركة بصورة عنيفة حين تضيِّق اختلافاتنا لتصبح نظاما مصطنعا واحدا يتصف بتصنيف قوى فريد.

وربما يأتى أسوأ المثبطات من تجاهل - أو جحود - الأدوار التى يلعبها التعليل المنطقى والاختيار اللذان ينبعان من الاعتراف بهوياتنا التعددية.

إن سراب الهوية الفريدة أكثر قدرة على التفريق من كُلِّية التصنيفات التعددية المختلفة التى تصنف العالم الذى نعيش فيه. إن للضعف الوصفى للفرادة غير القابلة للاختيار أثرا على الإفقار الحتمى لقوى تعليلنا الاجتماعى والسياسى وعلى مداهما. ويرغمنا سراب الهوية على أن نتكلف دفع ثمن باهظ بشكل عظيم. ■

بين عجز الداخل وأطماع الخارج..

دارفور

إجلال رأفت

يدرك المجتمع الدولى أن دخول القوات الدولية قسرا فى دارفور يؤدى إلى مجازر وفوضى خطيرة يمكن أن تعم كل السودان. وذلك حيث استطاعت الحكومة السودانية أن تعبئ الشارع بدرجة عالية ضد فكرة التدخل

إذا أردنا أن نُعرف أزمة دارفور، هذا الإقليم الواقع فى أقصى الغرب من دولة السودان، نقول أنها جزء من الأزمة الداخلية العامة للبلاد، كما أنها جزء من الحالة الدولية الراهنة التى أفرزها النظام العالمى الجديد.

أما عن الأزمة الداخلية فهى مركبة يصعب على الباحث لملمة أطرافها، وأسبابها عديدة ومتنوعة بين تاريخية واقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية. وتختلف مفردات هذه الأزمة من حيث الكم والكيف وفقا للإقليم المعنى بها. غير أن الإشكالية الأساسية التى تكاد أن تكون قاسماً مشتركاً بين الغالبية العظمى من مشكلات البلاد هى إشكالية ذات طبيعة ثقافية سياسية يتأثر بها ويؤثر فيها النسيج الاجتماعى السودانى. وقد عبرت هذه الإشكالية عن ذاتها على المستوى الحكومى، عندما عجزت الحكومات الوطنية السودانية عن إدارة التعددية الثقافية الواسعة التى يتسم بها السودان، بحيث تعبر بها إلى مستوى الأمة التى تحتضن جماعاتها المختلفة حول مصلحة قومية عليا، وفى ذات الوقت تحترم خصوصية هذه الجماعات وتقبلها ضمن المنظومة السودانية العامة.

هذا العجز الرسمى انعكس بكل سلبياته على المستوى الشعبى، فأحدث بذلك ارتباكا واضحا فى استيعاب الجماعات والأفراد لمبدأ قبول الآخر، وهو الأخطر على الإطلاق، حيث يستقر هذا لارتباك فى ذاكرة الشعوب ويتجذر، ويصبح من الصعوبة بمكان إزاحته وعلاج آثاره المدمرة. هذا العنصر الاجتماعى الثقافى للأزمة نجده متكررا فى مشاكل الجنوب وجبال النوبة وجنوب النيل الأزرق ودارفور، وحتى فى أقصى الشمال.

يبقى أن ننوه إلى أن هذا الطرح للأزمة السودانية لا ينفى أو يقلل من أهمية عناصرها الأخرى الاقتصادية والسياسية والتنموية. ولكنى أردت أن أؤكد على خطورة هذا العنصر لصعوبة علاج آثاره. أقول ذلك وأنا أدرك تماما ثقل المهام التى ألقيت على الحكومات الوطنية التى تولت السلطة فى السودان منذ ١٩٥٦، وتحملت مسئولية إصلاح ما خلفه التاريخ والاستعمار من آثار سلبية، هذا فضلا عن أن بناء الأمة بمرتكزاتها الرئيسية الهوية الموحدة والانتماء الوطنى، عمل ضخم وممتد، لا تظهر نتائجه فى فترة زمنية منظورة. إنما المأمول كان بداية صحيحة تضع الأساس لسعى جماعى مستمر ودؤوب، لبناء تلك المنظومة سالفة الذكر.

على الصعيد الخارجى تتأثر أزمة دارفور بالحالة الدولية الراهنة، والتى خلقها النظام العالمى الجديد، حيث أصبحت الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة فى العالم حتى الآن ولسنوات طويلة قادمة سواء أردنا ذلك أم أبيناه. وهى بهذه الصفة أصبحت لها أجندة دولية للتمدد بمصالحها فى العالم بما فى ذلك القارة الأفريقية. وقد اتضح ذلك منذ عهد كلينتون ابتداء من النصف الثانى من تسعينيات القرن الماضى، وبرز بشراسة تحت إدارة بوش واليمين المتطرف فى الحزب الجمهورى.

إذا راجعنا الاستراتيجية الأمريكية نجدها ترتكز على هدفين رئيسيين: أولا: البترول وكيفية الاستيلاء على منابعه فى العالم وحرمان الآخرين منه، وثانيا: محاربة الإرهاب المتمثل حسب تعريفها فى تنظيم القاعدة والتنظيمات الإسلامية السلفية المتشددة. ومن أجل تحقيق هذه الأهداف تعيد الولايات المتحدة تشكيل بعض مناطق العالم ومنها الشرق الأوسط وأفريقيا بمفاهيم جديدة تخدم مصالحها.

فيما يخص الهدف الأول، اهتمت الولايات المتحدة بشبكة النفط الواعدة فى غرب القارة الأفريقية. فالاحتياطى وفير والنوعية جيدة والنقل مباشر عبر المحيط الأطلسى. فإذا أضفنا إلى ذلك تعقيدات الموقف السياسى فى الشرق الأوسط، وارتفاع تكلفة نقل البترول وخطورة المرور به من خلال منطقة معبأة ضد الولايات المتحدة، أدركنا أهمية هذه المنطقة للاستراتيجية الأمريكية. وتتركز أهم آبار البترول فى أنجولا ونيجيريا وخليج غينيا وتشاد والسودان وبخاصة جنوب السودان ودارفور.

من ناحية أخرى تواجه الولايات المتحدة فى هذا المجال المنافسة الفرنسية فى الدول الفرانكوفونية لغرب القارة وبخاصة فى الجابون وتشاد، والاستثمارات الصينية الواسعة فى السودان. والأولى هى رأس الحربة للاتحاد الأوربى فى علاقاته بأفريقيا، والثانية تمثل الثقل الاقتصادى والبشرى الآسيوى الواعد والذى يخشى من تأثيره المستقبلى على مصالح الولايات المتحدة فى العالم.

أما فيما يخص الهدف الثانى وهو محاربة الإرهاب، استطاعت الولايات المتحدة أن تنسق فى سبيله مع الاتحاد الأوروبى وعدد من دول الشرق الأوسط وأفريقيا. ذلك أن بعض الدراسات قد أثبتت أن خلايا القاعدة التى هربت من أفغانستان بعد الغزو الأمريكى، تسرب بعضها إلى القرن الأفريقى وبخاصة الصومال مستغلة بذلك فرصة انهياره بعد اندلاع الحرب الأهلية فى بداية التسعينيات، حيث أصبحت بقايا هذه الدولة بيئة صالحة للعنف. وقد واجهت الولايات المتحدة ذلك بتواجد عسكرى أمريكى أوربى فى خليج عدن والمحيط الهندى أمام الشواطئ الصومالية وفى القاعدة العسكرية الفرنسية بجيبوتى على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر.

رغم هذا السياج العسكرى تسربت خلايا القاعدة إلى الشرق الأوسط، واختارت للانتشار المناطق المضطربة مثل العراق وفلسطين. ثم أعلنت مؤخرا الجماعة السلفية للدعوة والقتال فى الجزائر انضمامها إلى تنظيم القاعدة، مما يؤكد تسربها إلى الشمال الأفريقى. من ناحية أخرى دلت الدراسات سالفة

الذكر أن خلايا القاعدة تستخدم الصحراء الأفريقية الكبرى للتدريب وإجراء بعض التفجيرات النووية المحدودة. وتعتبر هذه الصحراء فضاءً واصلا بين دول شمال أفريقيا ودول الساحل الأفريقى وهى موريتانيا ومالى والنيجر وتشاد والسودان.

لمواجهة هذا الخطر الذى يهدد المصالح الغربية والاستقرار فى المنطقة، تقوم الولايات المتحدة مع بعض دول الاتحاد الأوربى، وبخاصة فرنسا وألمانيا وبعض دول الشمال والغرب الأفريقى منها مصر وتونس والجزائر وموريتانيا والسنغال، بإجراء مناورات عسكرية مشتركة، تعطى الفرصة لوجود عسكرى مقدر، يقف حائلا دون زحف القاعدة جنوبا حيث الثروات الهائلة والمصالح الاقتصادية الغربية الهامة. وجدير بالملاحظة أن خلايا القاعدة إذا صح تواجدها فى الصحراء الأفريقية الكبرى، تكون قد أصبحت على مرمى حجر من إقليم دارفور.

هكذا تساعد النظرة الشاملة للأحداث، التى تتسع لتربط بين الاستراتيجية الأمريكية الغربية فى عمومها والأوضاع الملتهبة فى دارفور، على فهم مواقف الدول الكبرى من الأزمة. ذلك أن التركيز على الأهداف الاقتصادية دون غيرها، يشرح جزءاً فقط من أسباب الاهتمام الأمريكى الغربى بالسودان، فضلا عن أنه لا يفسر بشكل مقنع العدد الكبير من قرارات مجلس الأمن الصادرة فى شأن دارفور وتلاحقها بشكل لافت للنظر (حوالى ١٨ قرارا من سنة ٢٠٠٤ إلى سنة ٢٠٠٦). كما لا يفسر استخدام الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة فى صياغة القرار ١٧٠٦، هذا الفصل الذى لم يستخدم إلا فى حالات نادرة أذكر منها حالة الصومال عندما اندلعت الحرب الأهلية. وكان هذا التوقيت متوافقا مع ميلاد النظام العالمى الجديد، وصعود الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة، وبروز خطتها فى التواجد فى القرن الأفريقى ومناطق أخرى من أفريقيا، منازعة فى ذلك النفوذ الفرنسى التقليدى فى القارة. يساعد أيضا هذا المنهج فى الحساب الدقيق لخطورة الموقف ولقدرة السودان على التصدى للمجتمع الدولى الذى أصبحت تقوده الولايات المتحدة الأمريكية.

من خلال هذا المنظور العام سنتطرق بشىء من التفصيل إلى عناصر الموضوع لعل ذلك يقودنا إلى فهم أعمق للأحداث ورؤية أوضح للمستقبل.



تأصيل الأزمة الداخلية

تتعدد الأسباب التى شكلت أساسا للأزمة الداخلية فى دارفور بين الاقتصادى والبيئى والاجتماعى والسياسى. ويمكن تلخيص أهم عناصرها فى التهميش ونتائجه وفى الثنائيتين الإنتاجية والعرقية وتداعياتهما.

للتهميش ونقص التنمية أثر كبير فى الخلاف بين أهالى دارفور والحكومة. ويبرز ذلك فى غياب البنية التحتية والمشروعات الاستثمارية الكبيرة وإهمال التنمية الاقتصادية والبشرية. والنقص الكبير فى الخدمات الصحية والتعليمية. هذا بالإضافة إلى البطالة التى انتشرت بين الشباب.

غير أن التهميش هو سمة كل الأقاليم الطرفية فى السودان. فبسبب المساحة الشاسعة للدولة، لم تتمكن الحكومات الوطنية منذ الاستقلال من إدارة الأطراف بشكل ناجح. كما لم تسعفها إمكانياتها المحدودة، وبخاصة فى بداية الاستقلال من الوصول بالتنمية إلى هذه المناطق. فاقتصرت جهودها على مثلث الجزيرة فى وسط السودان (الخرطوم كوستى سنار).

إذا التهميش قاسم مشترك بين أقاليم سودانية عديدة فى الجنوب والشرق والغرب وأقصى الشمال. فما هى الأسباب الخاصة بإقليم دارفور والتى دفعت بالمشكلة إلى أزمة إقليمية أصبحت تهدد السلم والأمن الدوليين، حسب توصيف مجلس الأمن لها؟

يتسم إقليم دارفور بملامح خاصة، قد تكون غائبة عن أغلب المناطق السودانية الأخرى. فقد ساهمت عوامل عديدة فى تشكيل الإقليم فى صورة ساعدت كثيرا على دفع الأمور فى فترة قصيرة إلى هذه الدرجة من السخونة.

فتاريخيا لم ينضم إقليم دارفور إلى بقية السودان إلا فى سنة ١٩١٦. وكان بذلك آخر المناطق التى ألحقت بالدولة. من ثم قد يكون لحداثة الهوية السودانية فى الإقليم دور فى جعله أكثر استعدادا للتمرد ضد المركز.

على المستوى السكانى، يعتبر إقليم دارفور أقرب إلى تشاد وليبيا وأفريقيا الوسطى منه إلى بقية السودان. فكثير من قبائله لها جذور وفروع فى هذه الدول. لذا تأثرت هذه القبائل دوما بالتفاعلات السياسية والعسكرية فى هذه المناطق، ذلك أن الفريق المهزوم فى الاشتباكات، كان يرتد إلى بطونه فى دارفور، حاملا أسلحته وأزمته السياسية مع الآخر.

من ناحية أخرى، يتسم هذا الإقليم بثنائيتين تتقاسمان العيش فيه منذ مئات السنين وهما ثنائية النمط الإنتاجى (مزارعون ورعاة) وثنائية التكوين العرقى (أفارقة وعرب). فالقبائل الأفريقية تمثل السكان الأصليين وهم فى غالبيتهم مزارعون. والقبائل العربية أغلبها من الرعاة الوافدين من جنوب مصر والشمال الأفريقى. وأثناء الحراك الدائم للقبائل العربية البدوية التى ترتحل وراء الماء والكلأ، تحدث أحياناً احتكاكات بينها وبين المزارعين الأفارقة، بسبب تعدى الماشية على المحاصيل الزراعية. هذه المشكلات المحدودة كانت الإدارة

الأهلية، التي تم إلغاؤها في عهد الرئيس جعفر نميري، تعالجها بنجاح حسب العرف السائد في الإقليم. غير أن هذه الاحتكاكات قد تصاعدت عندما ضرب التصحر غرب السودان في السبعينيات والثمانينات، فضاقت المراعي وزاد التعدي على المناطق التي تعيش فيها القبائل الأفريقية الزراعية.

من ناحية أخرى، رغم الاختلاط والتزاوج بين العرب والأفارقة، وكلهم من المسلمين، حافظت القبائل ذات الأصول العربية على شيء من الاستعلاء الثقافي تجاه القبائل الأفريقية (الزرقة). وحجتها في ذلك أنها جاءت بالثقافة العربية الإسلامية إلى دارفور، ومن ثم يحق لها إزاء هذا الفضل السيادة على الإقليم. وكان هذا الإحساس بالفروق العرقية يتصاعد، كلما ضاقت سبل العيش. ومن ثم دفعت هذه العوامل الاقتصادية الاجتماعية القبائل العربية إلى الرغبة في الاستيلاء على مزيد من الأراضي، وذلك بغض النظر عن الاتفاقيات السابقة بين الطرفين والتي كانت تحدد لكل منهما الحواكير الخاصة به.

عبر هذا الموقف العربي عن نفسه سياسياً فيما يسمى بالتجمع العربي. وقد نشأ هذا التنظيم في بداية الثمانينيات، وإن كانت إرهاصاته قد لاحت منذ عام ١٩٦٥ حسب بعض البيانات. وهو مشكل من ٢٧ قبيلة عربية من غرب السودان (دارفور وكردفان). ولهذا التجمع منشورات باسم قريش (١) و(٢)، تشير في مقدمتها إلى المنطلق الفكري والسياسي الذي يتبناه وهو يتلخص في تأكيد السيادة للثقافة العربية في غرب السودان، والتوسع في الأراضي على حساب الزرقة، والعمل تدريجيا للاستيلاء على السلطة في البلاد، وتوثيق العلاقات بالدول الخليجية وبالقرشيين[1].

ومما زاد الأمر تعقيدا، أن بعض الحكومات والأحزاب أقدمت على استخدام الثنائية الثقافية في تحقيق بعض الأهداف السياسية الضيقة، التي لم تراع المصلحة القومية للبلاد. وأخص بالذكر حالة المشاركة في الفيلق الإسلامي في عهد الديمقراطية الثالثة وحالة حزب المؤتمر الشعبي وتنسيقه مع حركة العدل والمساواة المسلحة في دارفور، والحالة الثالثة هي الاستعانة بالجنجويد في أزمة دارفور الحالية من قبل حكومة الإنقاذ.

ففي النصف الثاني من الثمانينيات، أرسل حزب الأمة مليشيات من بين صفوف أعضائه للتدريب في ليبيا، وذلك في إطار تنظيم سمي بالفيلق الإسلامي، شاركت فيه بعض دول الساحل الأفريقي ورعته ليبيا. وكان هذا التنظيم يرمي إلى نشر الثقافة العربية الإسلامية في منطقة الساحل الصحراوي. وفي سبيل ذلك سلحت ليبيا القبائل العربية في المنطقة ومنها القبائل العربية في دارفور، وأغلبها قبائل أنصارية تابعة لحزب

دارفور

القرار منح مجلس الأمن سلطات تتجاوز ما يقرره له ميثاق الأمم المتحدة من صلاحيات، حيث أعطى المجلس سلطات تتعلق بالشرطة والقضاء في السودان، وهي أمور داخلية محضة تختص بها الحكومة السودانية

الأمة. وقد لقيت هذه السياسة السودانية معارضة من بعض القوى السياسية السودانية التي رأت في التركيز على النبرة الدينية العرقية خطورة على البلاد.

وعندما غير القذافي استراتيجيته من عربية إلى أفريقية - وكانت تكاليف هذا التنظيم قد ثقلت عليه - حل الفيلق الإسلامي، وعادت المليشيات إلى ديارها وقبائلها، حاملة ما تبقى من سلاح لديها. ويقال في بعض الأدبيات، أن أفرادا من هذه المليشيات العربية العائدة إلى دارفور، قد اختاروا السلب والنهب مسارا لحياتهم فأطلق عليهم لفظ الجنجاويد.

أما بالنسبة للحالة الثانية، فقد ادعت كثير من المراجع والوثائق استعانة حكومة الإنقاذ بالجنجاويد في حربها ضد المليشيات العسكرية. فقد سلحتهم ونسقت معهم الهجوم على قرى المدنيين في دارفور. وقد تأكد هذا الادعاء في التقرير الذي أصدرته اللجنة الدولية لتقصي الحقائق[2] في بداية عام ٢٠٠٥، وأثبتت فيه أن هناك آلاف من الجرائم ارتكبت ضد المدنيين في دارفور. وقد أمنت على ذلك المنظمات الدولية العاملة في المجال الإنساني، كما أكدتها بعض المصادر السودانية.

وجدير بالملاحظة أن الحركات المسلحة التي تحارب الحكومة في دارفور، وأهمها حركة تحرير السودان وحركة العدل المساواة وجبهة الخلاص الوطني، هي تنظيمات لقبائل أفريقية من الزغاوة والفور والمساليت وآخرين. هذه الملاحظة تنطبق أيضا على الغالبية العظمى من الحركات المعارضة في الإقليم منذ الأربعينيات سواء عبرت عن نفسها بشكل سياسي من خلال جمعيات أو صحف أو جبهة سياسية أو من خلال عمل عسكري مثل حركة داود يحي بولاد في سنة ١٩٩٠.

فيما يخص الحالة الثالثة، استخدم الشيخ حسن الترابي زعيم حزب المؤتمر الشعبي، بعد أن أقصي عن السلطة في سنة ١٩٩٩، علاقته ببعض تلاميذه ومريديه من أهل دارفور لينسق معهم العمل المعارض، وذلك من خلال حركة العدل والمساواة بزعامة د. خليل إبراهيم، التي بدأت نشاطها العسكري - السياسي في عام ٢٠٠٣. وتشير طبيعة هذه الحركة ومنطلقها الفكري والسياسي إلى هذا التنسيق. فأجندتها السياسية واضحة ومرجعيتها إسلامية، وعملها المعارض قومي ويخطط له أن يتمدد في كل السودان. غير أن السمة التي ميزت الحالة الثالثة عن الحالتين الأولى والثانية، أن المؤتمر الشعبي تحالف مع القبائل الأفريقية بينما تحالفت الديمقراطية الثالثة وحكومة الإنقاذ مع القبائل العربية. وقد يعود هذا التباين في اختيار الحليف إلى توحد الهدف المرحلي الآني بين المؤتمر الشعبي والحركات المسلحة في دارفور، فكلاهما يسعى إلى إسقاط النظام.

هذه الصورة التي تجمع بين السلبيات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والمآسي الإنسانية، تبرز بجلاء الواقع المتدهور الذي بات عليه إقليم دارفور عشية اندلاع الأزمة؛ فقد صنعت منه الظروف المختلفة بيئة صالحة للاشتعال.

قراءة في القرار ١٧٠٦

صدر قرار مجلس الأمن رقم ١٧٠٦ في ٣٠ أغسطس الماضي بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة. هذا الفصل يسمح بنشر القوات الدولية دون الحاجة إلى موافقة الحكومة المعنية، كما يعطيها صلاحية كاملة باستخدام القوة في تنفيذ المهام الموكلة إليها. ويقضي القرار بنشر ١٧٣٠٠ من الأفراد العسكريين وعنصر مدني مناسب يشمل عددا يصل إلى ٣٣٠٠ من أفراد الشرطة المدنية وعددا يصل إلى ١٦ من وحدات الشرطة المشكلة، وذلك لتحل محل قوات الاتحاد الأفريقي التي ستنتهي مهمتها في الإقليم في آخر شهر ديسمبر ٢٠٠٦.

أوكل مجلس الأمن إلى القوات الدولية مهاما عديدة من أهمها، حماية المدنيين ونزع أسلحة المليشيات، ورصد الأنشطة العابرة للحدود والتي تضطلع بها جماعات مسلحة على طول حدود السودان مع تشاد وأفريقيا الوسطى، المساعدة في العودة الطوعية للاجئين والنازحين من أهل دارفور، دعم تطبيق اتفاقية أبوجا والمساعدة في إعادة هيكله مرفق الشرطة في السودان وإقامة جهاز قضائي مستقل. ورغم أن الفصل السابع لا يشترط موافقة الحكومة إلا أن القرار دعاها للموافقة على انتشار القوات الدولية في دارفور.

صدر القرار بموافقة ١٢ عضواً هم الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وغانا وتنزانيا والكنجو واليابان والأرجنتين وبيرو واليونان وسلوفاكيا والدانمارك، وبامتناع ثلاثة أعضاء عن التصويت هم روسيا والصين وقطر. وجدير بنا أن نلاحظ ما يلي:

١ - أن الامتناع عن التصويت ليس معناه الرفض. وقد صرح في حينها مندوبو الدول الثلاث بأسباب الامتناع، وهي خاصة بعدم النص في القرار بشرط موافقة الحكومة السودانية بالإضافة إلى توقيت صدور القرار الذي يظنون أنه غير مناسب. وهذا الموقف المعلن لا يعني في حقيقة الأمر رفض مبدأ انتشار القوات الدولية في دارفور.

٢ - أن الممتنعين الثلاثة لهم علاقات متميزة بالحكومة السودانية؛ فدولة قطر عليها التزام عربي من خلال عضويتها في جامعة الدول العربية. أما الصين فهي أكبر مستثمر للبترول في السودان، وروسيا تعتبر مصدرا هاما من مصادر تسليحه. وربما كانت الحكومة السودانية تأمل في أن تستخدم إحدى هاتين الدولتين الفيتو لمنع القرار، ولكن ذلك لم يحدث. فالحسابات الدقيقة

للتوازن الدولى بالنسبة لروسيا، وحجم التجارة البينية الضخم مع الولايات المتحدة بالنسبة للصين، قد حال دون ذلك.

٣ - أن الدول الأفريقية الثلاث فى مجلس الأمن صوتت لصالح القرار. ولا يجب فى رأيى أن يفهم هذا الموقف على أنه نتاج لضغوط الولايات المتحدة فقط. فقد صار من المعلوم أن الدول الأفريقية جنوب الصحراء تتعاطف بقوة مع المأساة الإنسانية للقبائل الأفريقية فى دارفور، وترى فيها تعبيرا عن عنصرية الحكومة السودانية.

٤ - كل الدول الأوروبية ودول أمريكا اللاتينية صوتت لصالح القرار. وننوه هنا إلى أن المجتمع المدنى فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية له دور مقدر فى الضغط على حكوماته فى هذا الاتجاه. هذا فضلا بطبيعة الحال عن المصلحة السياسية للدول ذاتها.

هذه الملاحظات الثلاث تشير بجلاء إلى العزلة الدولية للحكومة السودانية، كما تؤكد على أن النظام فى السودان لم يعد يملك كروتا ذات قيمة تفيده فى معاركه الدبلوماسية.

من ناحية أخرى قد تفهم دعوة مجلس الأمن الحكومة السودانية للموافقة على دخول القوات الدولية دارفور على النحو التالى:

١ - تقلل هذه الدعوة من حدة القرار، بحيث تعفى الصين وروسيا من الحرج وتمنعهما من استخدام الفيتو ضد القرار.

٢ - يدرك المجتمع الدولى أن دخول القوات الدولية قسرا فى دارفور يؤدى إلى مجازر وفوضى خطيرة يمكن أن تعم كل السودان. وذلك حيث استطاعت الحكومة السودانية أن تعبئ الشارع بدرجة عالية ضد فكرة التدخل. ولتلاشى ذلك، ما زال مجلس الأمن يعطى فرصة للدبلوماسية الدولية - الاتحاد الأوربى والجامعة العربية - لتلعب دورا فى هذا الشأن، كما لم تزل الإدارة الأمريكية تجرب لعبة العصا والجزرة مع المسئولين السودانيين.

هذا وتجدر الإشارة إلى الموقف العربى من أزمة الحكومة السودانية مع المجتمع الدولى. فقد صرح الأمين العام لجامعة الدول العربية، أن الجامعة لن تعترض على القرار ١٧٠٦ الصادر عن مجلس الأمن، ولكنها ستسعى إلى حل المشكلة من خلال الاتحاد الأفريقى. ويعنى ذلك أن الدول العربية لن تشكل ظهيراً للرئيس البشير فى رفضه تنفيذ القرار الدولى، ولكنها ستساعده فى التعامل المرن معه.

من ناحية أخرى، ثارت مناقشات قانونية عديدة حول القرار ١٧٠٦ ومدى احترامه لميثاق الأمم المتحدة، ومن ثم وجوب تنفيذه من عدمه. والرأى الغالب عند رجال القانون الدولى والذى عبر عنه د. مفيد شهاب[٣] أن القرار منح مجلس الأمن سلطات تتجاوز ما يقرره له ميثاق الأمم المتحدة من صلاحيات، حيث أعطى المجلس سلطات تتعلق بالشرطة والقضاء فى السودان، وهى أمور داخلية محضة تختص بها الحكومة السودانية. غير أنه فى كثير من الحالات يتدخل المجلس بقرارات تتدرج فى القوة طبقا للفصل السابع. أى أن موقفه يختلف من نزاع إلى آخر ليس لاعتبارات قانونية وإنما لاعتبارات سياسية دعت لإصداره. ومع ذلك فبمجرد صدور القرار يصبح واجب التنفيذ مما يترتب عليه وجوب التعامل معه.

وعلى الرغم من رأى فقهاء القانون الدولى فى القرار ١٧٠٦، اختلفت القوى السياسية السودانية فى مواقفها منه. ويمكن فى هذا الصدد رصد ثلاثة مواقف متباينة: الرافضون للقرار والموافقون عليه وموقف ثالث لجماعات وقفوا فى منتصف الطريق بين الرفض والموافقة.

القوى السياسية والقرار

أولا: الرافضون:

١ - حزب المؤتمر الوطنى الحاكم: يرفض الرئيس البشير رفضا قاطعا، ومعه غالبية كبار المسئولين فى الحزب والحكومة، دخول القوات الدولية فى دارفور. وقد أعلن هذا الرفض منذ أصدر مجلس السلام والأمن التابع للاتحاد الأفريقى فى ٢٠٠٦/١/١٢ قراره بتحويل بعثة الاتحاد الأفريقى فى دارفور إلى عملية تابعة للأمم المتحدة. كما عزز الحزب هذا الرفض بتعبئة الشارع، وبخاصة قواعده المنتشرة فى مؤسسات الدولة، ضد قرار مجلس الأمن، وفتحت معسكرات لتدريب الشباب وإعدادهم للمواجهة. ويبرر الحزب الحاكم موقفه هذا بأن دخول القوات الدولية فى دارفور يعد بمثابة احتلال للسودان لنهب ثرواته.

ونشير هنا إلى التناقض الذى أوقع الحزب نفسه فيه. فالقوات الدولية موجودة بالفعل فى مناطق مختلفة فى السودان، منذ التوقيع على اتفاقية نيفاشا فى يناير ٢٠٠٥. فهى فى الجنوب وجبال النوبة والخرطوم، وذلك لمراقبة تنفيذ الاتفاقية وبموافقة كاملة من الحكومة السودانية. ويفسر هذا التناقض رسميا بأن القوات المنتشرة فى الجنوب تعد تحت مظلة الفصل السادس وليس السابع، الذى صدر فى إطاره القرار ١٧٠٦. غير أن دحض هذه الحجة أتى على لسان الرئيس البشير نفسه حيث أعلن غير مرة وقبل صدور القرار الأخير، أنه يرفض دخول القوات الدولية تحت أى فصل من الميثاق اللهم إلا الفصل الثامن الذى يتيح للقوى الإقليمية - وفى حالتنا هذه الاتحاد الأفريقى - القيام بحماية السلم والأمن الدوليين. هذا التناقض لا يفسر فى رأيى إلا فى إطار التخوف من القبض على المتهمين باقتراف جرائم ضد الإنسانية، والواردة أسماؤهم فى القائمة التى أصدرتها اللجنة الدولية لتقصى الحقائق فى دارفور، وتسليمهم إلى المحكمة الجنائية الدولية. فالقوات الدولية، بحكم الصلاحيات القوية التى أعطيت لها، تستطيع أن تقوم بهذه المهمة. ويبدو أن هذه القائمة تضم بعض كبار المسئولين فى الدولة.



٢ - أصحاب الاتجاه الإسلامى المتشدد: فهم يعتبرون أن دخول القوات الدولية يستهدف النظام الإسلامى فى السودان، ومن ثم فهو هجوم ضد العقيدة. وعليه فقد أصبح واجبهم الدينى يحتم عليهم الجهاد ضد هذا الخطر. ويشكل الشباب نسبة كبيرة من أصحاب هذا الرأى.

٣ - القبائل العربية فى دارفور: يرفض كثير من هذه القبائل دخول القوات الدولية فى إقليمهم، وبخاصة تلك التى لا تتبع حزب الأمة. وقد يكون سبب من أسباب هذا الموقف هو ظنهم أن الولايات المتحدة والدول الأوروبية ستتدخل من خلال سيطرتها على الأمم المتحدة، لصالح القبائل الأفريقية على حساب القبائل العربية. وتكون النتيجة اختلالا فى توازن القوى فى الإقليم مما يتعارض مع مصالحهم.

ثانيا: الموافقون:

١ - الحركة الشعبية لتحرير السودان: رغم شراكتها فى الحكومة إلا أن موقفها من انتشار القوات الدولية اختلف مع حزب المؤتمر الوطنى. فقد رحبت بدخول هذه القوات حيث تعتقد أن ذلك هو السبيل الوحيد لإنقاذ مئات الألوف من المدنيين من الموت والتشرد. فالحكومة قد شاركت فى الاعتداء على هؤلاء المدنيين، ومن ثم أصبحت طرفا فى النزاع ولا تصلح أن تكون حكماً.

وينسجم هذا الرأى مع ظروف الحركة الشعبية، حيث لعبت الدول الغربية الدور الرئيسى فى اتفاقية نيفاشا للسلام هذا وقد قبلت الحركة وجود القوات الدولية فى الجنوب كضمان لتنفيذ هذه الاتفاقية.

أدى الانقسام بين شريكى الحكم بشأن التعامل مع المجتمع الدولى إلى موقف غاية فى الخطورة. فقد لوح حزب المؤتمر الوطنى بإلغاء اتفاقية نيفاشا للسلام. إذا ما أصرت الحركة الشعبية على موقفها المؤيد لدخول القوات الدولية دارفور.

٢ - المساعد الأول للرئيس البشير: وهو منى أركوى مناوى رئيس المليشية التى انفصلت عن حركة تحرير السودان ووقعت اتفاقية أبوجا مع الحكومة. وقد رحب مناوى بدخول القوات الدولية واعتبر ذلك نصرا للحركات المقاتلة فى دارفور، والتى دعت منذ بداية الأزمة إلى وساطة المجتمع الدولى، على غرار ما حدث فى مفاوضات الجنوب. وأكثر من ذلك، لوح مناوى مؤخرا، على إثر اشتباكات حدثت فى أم درمان بين رجاله والشرطة السودانية، بالانسحاب من اتفاقية أبوجا.

٣ - المعارضة الشمالية:

كتـــاب الـــزاويـــة

محمد الغزالى
مستقبل الإسلام خارج أرضه كيف نفكر فيه؟

يناقش المرحوم الشيخ العلامة محمد الغزالي في هذا الكتاب قضية بالغة الأهمية كان هو أحد أوائل الذين استشرفوا أهميتها وأخضعوها للبحث والنقاش ألا وهي مستقبل الإسلام خارج أرضه.

وقد ألقت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وما تلاها من توتر في العلاقات بين المسلمين والغرب ومشاكل واجهتها الجاليات المسلمة المقيمة في الغرب بظلال كثيفة على الوجود الإسلامي في أوروبا وأمريكا وخرجت عشرات، بل مئات الكتب لمناقشة هذه الأوضاع الجديدة التي تكاد تعصف بعلاقات استمرت لمئات السنين بين أبناء ديانتين سماويتين بصورة لم يسبق لها مثيل منذ الحروب الصليبية.

وقد حفز الشيخ الغزالي على وضع هذا الكتاب الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٩٧ والثانية ٢٠٠٣ عن «دار الشروق» ما قرأه المؤلف قبل حوالي ١٤ عامًا من ذلك التاريخ، من أن عشرات الألوف من الفرنسيين اعتنقوا الإسلام ويقول الغزالي أنه لم يجد مشقة في معرفة الأسباب التي دعت هؤلاء الأشخاص إلى الرضا بالإسلام دينًا لأن المدنية الحديثة حولت البشر إلى عبيد للتراب ودفعت الأفراد والدول إلى حراك مسعور يدور المرء فيه حول نفسه حتى يدركه الإعياء ويسقط عجزًا أو هلاكًا. ولا يقدر على إطفاء هذا الجمر إلا الإسلام. لكنه يقول إن العوائق أمام الدخول للإسلام كثيرة، فليست هناك أبوة روحية وثقافية تعني بالإسلام وأساليب عرضه على المحتاجين لأن أجهزة الدعوة الإسلامية معطلة، كما أن هناك أممًا إسلامية لا تدري الكثير عن دينها، ولذلك فإن الكتاب يتحدث عن طريقة تعامل المسلمين مع الإسلام وكيف أنهم يكونون أحيانًا نموذجًا غير جيد لدين عظيم ومثالي.

يفسر ارتباك القرارات الصادرة من الحكومة السودانية، وتأرجحها بين الترحيب والتهديد والتراجع، على أنه مناورة سياسية تمهد لمبادرة سودانية جديدة أكثر مرونة تستعد الحكومة لإطلاقها

أعلنت الجبهة المكونة من ١٤ حزبا معارضا، أهمها حزب الأمة القومي وحزب المؤتمر الشعبي والحزب الشيوعي، موافقتها على دخول القوات الدولية. وهي ترى في هذا الإجراء وسيلة لإيقاف المأساة الإنسانية في دارفور. كما أدانت الجبهة الحكومة ورأت أن فشلها في إدارة الأزمة هو الذي أتى بالقوات الدولية إلى البلاد.

وجدير بالتنويه أن حزب الأمة قد تعرض لانشقاقات داخلية استقطبت الحكومة بعضها. غير أن الكتلة الرئيسية في الحزب برئاسة الصادق المهدي ما زالت في المعارضة. كما أن أهم الفصائل المنشقة وهي التابعة لمبارك الفاضل المهدي قد أعلنت تأييدها للصادق المهدي في موقفه المؤيد لانتشار القوات الدولية.

ثالثا: الموقف الثالث:

١ ـ حركة العدل والمساواة: رفض د. خليل إبراهيم دخول القوات الدولية لأنها ستدعم تطبيق اتفاقية أبوجا التي رفضتها الحركة. هذا فضلا عن أن قرار مجلس الأمن لم يحدد مدة معينة للبقاء في الإقليم، ولا منطقة معينة لتمركز القوات الدولية. مما يشكل خطورة محتملة على استقلال البلاد. هذا وقد أوكل القرار إلى القوات الدولية مهمة جمع الأسلحة من كل المليشيات المسلحة في دارفور، مما يساوي بين الجنجاويد وهم مليشيات معتدية، وبين المقاتلين في الحركات العسكرية.

٢ ـ جيش حركة تحرير السودان: أبدى مسئول فيه نفس الملاحظات السابقة على القرار وأرسلها إلى الأمين العام ولكن دون أن يرفض مبدأ دخول القوات إلى دارفور.

٣ ـ الحزب الاتحادي الديمقراطي: لم يبد الحزب موقفا واضحا في هذا الشأن. فقد أعلن زعيمه السيد محمد عثمان الميرغني رفض انتشار القوات الدولية في دارفور، في حين رحب نائبه بذلك. وجدير بذكر أن الحزب الاتحادي يعاني أيضا من انقسامات داخلية، بعضها يشارك في الحكومة وهو فصيل زعيم الحزب محمد عثمان الميرغني والبعض الآخر ما زال في صفوف المعارضة. وقد يفسر هذا الواقع اختلاف الآراء حول القرار الدولي. كما قد يكون هذا الاختلاف ضمن سياسة لتوزيع الأدوار لكي يحافظ الحزب على موقف وسط، لا يغضب الحكومة فلا تعرقل مصالحه، وفي نفس الوقت يظل متصلا بالمعارضة لاحتمالات مستقبلية.

على أية حال تشير المواقف المختلفة للقوى السياسية السودانية إلى انقسام عميق في الجبهة الداخلية، بحيث لم تعد تصلح سندا لرئيس الجمهورية في موقفه الرافض للقرار الدولي. وقد طال هذا الانقسام الحزب الحاكم ذاته، حيث لا يرى بعض أعضائه مصلحة في رفض دخول القوات الدولية وتعريض البلاد للمخاطر. ويعني هذا الوضع أن نظام الرئيس البشير يعاني من عزلة داخلية تزداد كلما استحكمت الأزمة.

الموقف الراهن

يقودنا التحليل التفصيلي السابق للأزمة العامة في السودان، إلى تحديد الموقف السياسي الراهن لحكومة الوحدة الوطنية، باعتبارها صاحبة القرار في أدق موقف يمكن أن يواجه السودان مع المجتمع الدولي:

١ ـ تواجه الحكومة السودانية عزلة دولية وبخاصة من قبل الدول المسيطرة على مجلس الأمن، مما يؤدي إلى ضعف موقفها الدولي.

٢ ـ تواجه الحكومة السودانية انقساما عميقا في داخلها، مما يؤدي إلى تذبذب قراراتها، ومن ثم ضعف تأثيرها على الداخل والخارج. كما يهدد هذا الارتباك بانهيار اتفاقيتي نيفاشا وأبوجا مما يعرض وحدة السودان للخطر.

٣ ـ يواجه حزب المؤتمر الوطني الحاكم، باعتباره السلطة التنفيذية الحقيقية في حكومة الوحدة الوطنية، عزلة داخلية اللهم إلا من بعض الجماعات الإسلامية وبعض الأحزاب الصغيرة المشاركة معه في الحكومة. لذا تشكلت لجنة من شخصيات سودانية عامة، برئاسة الرئيس الأسبق سوار الذهب، لمحاولة رأب الصدع بين حزب المؤتمر الوطني وباقي القوى السياسية الأخرى.

٤ ـ يواجه الحزب الحاكم بالنسبة لبيئته الإقليمية حيادا سلبيا من الكتلة الأفريقية وحيادا إيجابيا من الكتلة العربية. على أن نتذكر أن إيجابية حياد الدول العربية لا تصل إلى حد مساندته فى رفض تنفيذ القرار ١٧٠٦، بل تقتصر على السعى معه للوصول إلى طريق ثالث يخرج السودان من أزمته.

من ناحية أخرى صدر القرار ١٧١٤ لمجلس الأمن فى الخامس من أكتوبر ٢٠٠٦. وقد أعلنت الحكومة السودانية موافقتها على القرار واعتبرته نصرا للدبلوماسية السودانية.

بتفحص هذا القرار، يتضح أنه لم يغير الموقف الأساسى لمجلس الأمن من أزمة دارفور وإن كان قد خفف من حدة المواجهة مع الحكومة السودانية. بمعنى أنه لم يتراجع عن ضرورة إحلال القوات الدولية فى الإقليم محل القوات الأفريقية بعد مغادرتها دارفور. وكل ما صدر عنه هو أولا: التصديق على قرار الاتحاد الأفريقى بمد المهمة لقواته فى دارفور حتى آخر ديسمبر القادم. ثانيا، الموافقة على تعزيز القوات الأفريقية بعناصر من الأمم المتحدة مالية وفنية ولوجستية حتى مغادرتها الإقليم فى الميعاد المحدد. ثالثا، مد مهمة البعثة الدولية فى السودان حتى إبريل القادم، وذلك بدون إضافة قوات جديدة إليها. وهنا الشطر المهم من القرار، حيث كانت الولايات المتحدة وبعض الدول الغربية تريد زيادة عدد البعثة الأمنية المذكورة لنشرها فى دارفور. أى أن الذى قام به المجلس هو تأجيل المشكلة وليس حلها، على الأقل بالطريقة التى تريدها الحكومة السودانى.

من ناحية أخرى أسرعت الحكومة السودانية بإنكار مضمون مذكرة تهديد أرسلتها إلى البعثات الدولية فى الأمم المتحدة، تحذر فيها الدول من مشاركتها فى القوات الدولية المزمع نشرها فى دارفور، حيث ستعتبر ذلك عملا عدائيا[٤]. وفى بعض الروايات قيل أن الحكومة السودانية خصت الدول العربية والأفريقية بهذا التهديد.

وقد يفسر ارتباك القرارات الصادرة من الحكومة السودانية، وتأرجحها بين الترحيب والتهديد والتراجع، على أنه مناورة سياسية تمهد لمبادرة سودانية جديدة أكثر مرونة تستعد الحكومة لإطلاقها، وذلك نظرا لإدراكها دقة موقفها السياسى. على أن حل المشكلة الدولية لن يكون آخر المطاف، حيث تبقى أمام الحكومة أزمتها فى الداخل التى يقتضى حلها الخطوات التالية:

١ ـ التنسيق مع الأحزاب المعارضة والمؤثرة فى الحياة السياسية فى السودان مثل الأمة والاتحادى والمؤتمر الشعبى والشيوعى. وقد يكون هذا التوافق الوطنى المنشود مقدمة لحكومة وحدة وطنية حقيقية تدير البلاد حتى تاريخ الانتخابات الرئاسية القادمة.

٢ ـ أن يقبل الحزب الحاكم مراجعة اتفاقية أبوجا على ضوء مشاركة كل القوى السياسية المعنية بالأمر فى دارفور، سواء التى شاركت فى المفاوضات ولم توقع مثل حركة العدل والمساواة وحركة تحرير السودان (فصيل عبد الواحد النور)، أو التى لم تدع أصلا إلى المفاوضات مثل الاتحاد الفدرالى الديمقراطى لأحمد إبراهيم دريج وشريف حرير، وممثلى القبائل العربية.

٣ ـ أن يعجل حزب المؤتمر الحاكم بتسوية المسائل المعلقة فى اتفاقية نيفاشا بينه وبين الحركة الشعبية لتحرير السودان بما فى ذلك عائدات البترول وحدود منطقة أبيبى.

٤ ـ أن تبدأ الحكومة بوضع أسس لاستراتيجية قومية رشيدة، تعمل على كافة المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لنشر ثقافة السلام وقبول الآخر، والتأكيد على المواطنة كأساس للحقوق والواجبات. ■

هوامش:

(١) وثيقة قريش (٢) صادرة عن تنظيم التجمع العربى، بدون تاريخ.

(٢) Report of the International Commission of Inquiry on Darfur to the United Nations Secretary-General, Geneva, 25 January ٢٠٠٥.

(٣) مفيد شهاب: أستاذ القانون فى كلية الحقوق جامعة القاهرة، جريدتا الأهرام والمصرى اليوم فى عددهما الصادر فى ٢٠٠٦/٩/٣٠.

(٤) أكد مجذوب الخليفة مستشار رئيس الجمهورية على إرسال هذه المذكرة، وذلك فى لقاء رمضانى أقامه مكتب حزب المؤتمر الوطنى بالقاهرة فى ٢٠٠٦/١٠/٦.

كتاب الزاوية

عطب أجهزة الدعوة

محمد الغزالى

رياضة الجماهير على قبول الضيم، بفتوى شرعية(!) أفقدت الشعوب ملكة الشجاعة، ووطأت ظهرها للاستعمار الخارجى، وكان ذلك يقع فى البلاد الإسلامية فى الوقت الذى كانت الأمم تصرخ بالدفاع عن الدم والعرض والمال، وتشرع الدساتير التى تقرر ذلك!

أى أن قوانين الفطرة تستعلن هناك، وتموت عندنا بتمويت النصوص التى تدل عليها وتأمر بها..

ومن أمثلة تحريف الكلم عن مواضعه أن يجىء فى القرآن الكريم ﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى..﴾ فإذا مفسر قاصر تائه يقول: بل هناك إكراه فى الدين والآية منسوخة! من نسخها أيها المسكين؟

الواقع أن أجهزة الدعوة الرسمية والشعبية أصابها عطب رهيب، فلما نكلت عن أداء حق الله فى البلاغ وتبين الرشد من الغى، أتى من يزعم أن السيف يُغنى عن الإعلام، وأن القوة طريق الإقناع، وهذا من أكذب الكذب على الله ورسوله، ولم يقع قط أن صاحب الرسالة أكره أحدًا على دينه.

الذى وقع أن السلاطين الجهلة لا تدرى ما رسالة الأمة؟ ولا تحسن البيان والهداية، وربما مالت إلى التوسع والسطو والغزو! ووجدت من علماء الدين من يعينها على ذلك..

وفى عصرنا هذا، متحدثون إسلاميون كأنما أصابهم سعار، فهم يرددون بإلحاح منكر أن الحاكم لا يلتزم بالشورى.

هل يمكن للآسيو

كيشور مهبوباني

عُقد المؤتمر الدولي السابع عن التفكير في سنغافورة في يونيو ١٩٩٧م. وكان بحاجة إلى بعض المتحدثين الآسيويين. وحين طُلب مني أن أتحدث إليه برز في ذهني بصورة مباشرة سؤال معين، هو: «هل يستطيع الآسيويون أن يفكروا بطريقة تشبه الآخرين؟» وقد اكتشفت حينها أن القضية معقدة. وتمثل هذه المحاضرة أول محاولة لي للإجابة عن السؤال. وهدفها الأول أن أبدأ حوارا بين العقول الآسيوية. لكن ربما ود الناس من القارات الأخرى أن يسألوا أسئلة مماثلة، مثل: «هل يستطيع الأوروبيون أن يفكروا؟»، أو «هل يستطيع الأمريكيون أن يفكروا؟». وهذا المقال نسخة منقحة لهذه المحاضرة، وكانت نشرت في شكل مقال في مجلة National Interest (الأمريكية) في صيف ١٩٩٨م.

وخيبة أملي الرئيسة بخصوص هذا المقال أنه لم ينشأ عنه نقاش بين الآسيويين يتمحور حول كيف تأخرت مجتمعاتهم وحضاراتهم قرونا عدة وراء الحضارات الغربية، ولماذا؟ وهناك كثير من التفسيرات الممكنة. أما ما أعتقده فهو أن الوقت لمثل هذا النقاش لم يحن بعد. فمعظم المجتمعات الآسيوية (باستثناء اليابان و«النمور الأربعة» (كوريا الجنوبية، وتايوان، وهونج كونج، وسنغافورة) لم تصل بعد إلى مستويات مُرضية من التطور. وحين تصل إلى تلك المستويات فإن هذا السؤال لابد أن يُثار.

وقد دُهشتُ، مع ذلك، بردود الفعل الغربية على عنوان المقال. وربما كان سبب ذلك أن السؤال غير ملائم سياسيا. لكنْ ألا يكون كذلك نتيجةً لكون بعض الغربيين ربما يفضلون أن يسأل الآسيويون أنفسهم أسئلة أساسية عن أنفسهم وعن مستقبلهم؟ ذلك أنهم لو فعلوا ذلك فمن الممكن أن يحقق بعضهم في نهاية الأمر نجاحا مماثلا لنجاح المجتمعات الغربية.

وأيُ إيحاء بأن بعض الغربيين ربما يفضلون أن تبقى المجتمعات الآسيوية متخلفة سوف ينظر إليه معظم المفكرين الغربيين على أنه غير صحيح. لكن المفكرين الآسيويين ربما لن ينقود. ويوحي هذا الاختلاف بين الشرق والغرب أنه لا تزال هناك فجوة فكرية عميقة في العالم وهي التي تنتظر من يُجسرها.

هل يستطيع الآسيويون أن يفكروا؟ ومن الواضح أن هذا سؤال حساس. ففي هذا العصر الذي نعيش فيه ويُحرص فيه على الملاءمة السياسية يمكن أن نتخيل مدى الضجة التي ستنشأ إن ذهبنا إلى أوروبا أو أفريقيا وسألنا السؤال «هل يمكن للأوروبيين أن يفكروا؟»، أو «هل يمكن للأفريقيين أن يفكروا؟». لذلك يجب أن تكون آسيويا لتسأل السؤال «هل يستطيع الآسيويون أن يفكروا؟».

ونظرا لحساسية السؤال دعني أفسر الأسباب التي تجعلني أثيره والسياق الذي أثيره من خلاله. فأولا: فإنه إن كان يلزمك أن تسأل سؤالا أساسيا يمكن أن يحدد مستقبل الكون فسيكون ذلك السؤال «هل يستطيع الآسيويون أن يفكروا؟». فقد وصل عدد الآسيويين في ١٩٩٦م إلى ثلاثة بلايين ونصف البليون من بين أكثر من خمسة بلايين هم سكان كوكب الأرض (أو ٧٠٪ من سكان كوكب الأرض). وتشير التوقعات المحافظة أنه سوف يتزايد نصيب الآسيويين من عدد سكان الأرض إلى خمسة بلايين وسبعمائة مليون من مجموع سكان الأرض الذين سيصلون إلى تسعة بلايين وثمانمائة وسبعين مليون نسمة، في حين سيبقى عدد سكان أمريكا الشمالية وأوروبا مستقرا تقريبا عند ثلاثمائة وأربعة وسبعين مليونا في أمريكا وسبعمائة وواحد وعشرين مليونا لأوروبا. ومن الواضح أنه في القرون الماضية القليلة أسهمت أوروبا، ثم أمريكا بعد ذلك، بنصيب أكبر من المهمة الكونية لتقدم الحضارة الإنسانية. فهل يمكن أن يكون من العدل في ٢٠٥٠م حين يمثل الأوروبيون وسكان أمريكا الشمالية عُشر سكان العالم بدلا من سدسهم، أن تتوقع نسبةُ تسعين بالمائة من بني الإنسان أن تستمر هذه العشرة بالمائة في تحمل هذه المهمة؟ بل، هل يمكن لبقية العالم أن يظل مستندا إلى أكتاف الغرب؟ وهل يستطيع الآسيويون الذين سيضاعفون من عددهم في الخمسين سنة القادمة أن يتحملوا قسطا عادلا من هذه المهمة؟

ثانيا: إنني لا أسأل هذا السؤال عن أفراد الآسيويين بصيغة تتصل بالقدرات الفكرية المحدودة. ومن الواضح أن الآسيويين يستطيعون أن يجيدوا أنظمة الهجاء، وأنَّ حاصل اثنين زائد اثنين أربعة، وأن يلعبوا الشطرنج. ومع ذلك فقد كان هناك، عبر التاريخ، أمثلة من المجتمعات التي أنتجت أفرادا عباقرة ومع ذلك عانت كثيرا من الحزن بمجموعها. والمثال الكلاسيكي هو المجتمع اليهودي. فقد أسهم اليهود، نسبة إلى عددهم، بأكثر من نسبة عددهم من العقول العبقرية، من إينشتاين إلى فيتجنشتاين، ومن ديزرائيلي إلى كيسنجر، وهم يتجاوزون في ذلك أي مجتمع آخر. ومع ذلك فقد عانوا بوصفهم مجتمعا معاناة كبيرة، خاصة في القرن الماضي تقريبا. وأود أن أؤكد أنني لا أتحدث عن تفوق إسرائيل في الزمن الحديث. فأنا أتحدث عن الفترة ما بين سنة ١٣٥ بعد الميلاد، حين أُرغم اليهود على الخروج من فلسطين، إلى ١٩٤٨ حين أنشئت إسرائيل. فهل ستتعرض المجتمعات الآسيوية لمصير مماثل، أو هل سيستطيع الآسيويون التفكير بصورة جيدة ليضمنوا مستقبلا أفضل لأنفسهم؟

ثالثا: لا يقاس الزمن الذي أثير خلاله هذا السؤال بالأيام أو الأسابيع أو الأشهر أو السنين، بل ولا بالعقود. فأنا أنظر إلى السؤال بمقياس القرون، خاصة لأننا على بعد سنتين من الألفية الجديدة (طُبع الكتاب لأول مرة في ١٩٩٨م). ومن الممكن المحاججة بأن المسار المستقبلي للتاريخ العالمي في القرون القليلة القادمة، كما سأفسر ذلك فيما يأتي، سيعتمد على كيف تفكر المجتمعات الآسيوية وكيف تتصرف.

دعنا نعد إلى السؤال: «هل يستطيع الآسيويون أن يفكروا؟». وإذا ما صيغ ليتماثل مع امتحان على هيئة الاختيارات المتعددة فستكون هناك ثلاث إجابات ممكنة عن السؤال، وهي: «نعم»، و«لا»، و«ربما». وقبل أن نقرر أية إجابة سنختار، دعني أوضح الأسباب التي تدعو إلى اختيار أي منها.

«لا»، لا يستطيعون التفكير:

سأبدأ بالأسباب التي تفضل الإجابة «لا»، وإن لم يكن ذلك إلا لأبين خطأ أي ناقد يمكن أن يقترح أن السؤال نفسه تافه بشكل كلي. فإذا نظرنا إلى السجل التاريخي للألف السنة الماضية فبإمكاننا أن نبرهن على أن الآسيويين، أي المجتمعات الآسيوية، لا يستطيعون أن يفكروا.

دعنا ننظر أين كان الآسيويون قبل ألف سنة، ولننقل في سنة ٩٩٧م. فقد قاد الصينيون والعرب (أي الحضارتين الكونفوشية والإسلامية) حينذاك الطريق في العلوم والتقنية، والطب والفلك. فقد استورد العرب النظام العشري والأعداد من صفر إلى تسعة من الهند، ثم تعلموا كيف يصنعون الورق من الصينيين. وأسست أول جامعة في العالم في القاهرة قبل أكثر من ألف سنة تقريبا، وذلك في سنة ٩٧١م. وفي مقابل ذلك، كانت أوروبا حين ذاك لا تزال فيما وصف بـ«العصور الوسطى»، وهي الفترة التي بدأت حين انهارت الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي. وكما وصف ذلك ويل ديورانت في كتابه «عصر الإيمان»: The Age of Faith

كانت أوروبا في القرن السادس الميلادي فوضى من الحروب المتبادلة، والتفكك، والعودة إلى البربرية. وقد احتُفظ بمعظم الثقافة الكلاسيكية، في أغلب هذه الفترة، على شكل مجمد ومخفي في عدد قليل من الأديرة وعند عدد قليل من الأسر. لكن الأسس المادية والنفسية للنظام الاجتماعي كانت على درجة عالية من الاضطراب مما احتاج في إصلاحه إلى

من كتاب:

Can Asians Think?

(هل يمكن للآسيويين التفكير؟)

Kishore Mahbubani

Times Editions, 2004, 264PP.

ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني

يين أن يفكـــروا؟!

فى هذا العصر الذى نعيش فيه ويُحرص فيه على الملاءمة السياسية يمكن أن نتخيل مدى الضجة التى ستنشأ إن ذهبنا إلى أوروبا أو أفريقيا وسألنا السؤال: «هل يمكن للأوروبيين أن يفكـــروا؟»، أو «هـــل يمكن للأفريقيين أن يفكـــروا؟»



عدد من القرون. وتهاوى حب الآداب والإخلاص للفن واتحاد الثقافة ووحدتها والتلاقح بين العقول التى تستطيع التواصل أمام ضراوة الحرب، ومصاعب النقل واقتصاديات الفقر وازدهار العاميات واختفاء اللغة اللاتينية من الشـــرق والثقافة اليونانية من الغرب [1].

وفى مقابل هذا المشهد فمن الغباء البيِّن أن نتوقع فى ذلك الوقت أنه فى الألفية الثانية سوف تتقهقر الحضارات الصينية والهندية والإسلامية إلى مؤخرة التاريخ فيما ستنهض أوروبا لتصبح الحضارة الأولى التى ستهيمن على العالم كله. لكن هذا، بالطبع، ما حدث.

ولم يحدث هذا فجأة. ذلك أن الحضارات المتقدمة فى آسيا، وإلى القرن السادس عشر، ظلت، على الرغم من أنها فقدت تفوقها، على قدم المساواة مع الحضارات فى أوروبا ولم يكن هناك ما يشير بدقة إلى أن أوروبا ستقفز إلى الأمام هذه القفزة البعيدة. ولم يكن الضعف النسبى لأوروبا، فى ذلك الوقت، أكثر وضوحا من قوتها. ولم تكن أكثر أجزاء العالم خصوبة، ولا كانت كثيرة السكان بشكل لافت للنظر. وهذان هما المعياران المهمان فى معايير ذلك الوقت، حين كانت الأرض مصدر أكثر الثروة، وكانت عضلات الإنسان والحيوان مصدر الطاقة. ولم تُنبئ أوروبا عن مزايا بيِّنة فى حقول الثقافة والرياضيات أو الهندسة أو البحرية أو التقنيات الأخرى. وكانت كذلك قارة مفتتة بشكل عميق، وتتكون من خليط من الممالك والإمارات والدول التى تتكون من مدن. وأبعد من ذلك كانت أوروبا، عند نهاية القرن الخامس عشر، تخوض حربا دموية مع الإمبراطورية العثمانية التى كانت فى طور التوسع، من غير مقاومة كما يبدو، نحو أبواب فيينا. وكان هذا التهديد شديدا حتى إن الأمراء الألمان الذين كانوا يبعدون مئات الكيلومترات عن خطوط المواجهة صاروا يبـــادرون إلـــى إرســـال الإتـــاوات. Turkenverehrung . إلـــى ميـــنـــاء أسطنبول.

وبدت الثقافات الآسيوية، من جهة أخرى، فى حالة من التقدم والثروة فى القرن الخامس عشر. وكانت الصين، مثلا، متطورة إلى حد عال وذات ثقافة حيوية. وكانت إدارتها

الموحدة والتراتبية يديرها موظفون كونفوشيوسيون على درجة عالية من التعليم أسهموا فى تميز المجتمع الصينى بالتماسك والتعقد اللذين لم يكن لهما مثيل. وكانت التقنية الصينية على درجة عالية من القوة والكثرة. وكانت الطباعة من النوع المتحرك قد ظهرت فى القرن الحادى عشر. وساعدت العملة الورقية على الإسراع فى تبادل التجارة وفى نمو الأسواق. وأعطت صناعة حديد الجارجنتوان فى الصين، بالإضافة إلى اختراع البارود، الصين مزيدا من القوة العسكرية الهائلة.

ومع ذلك، وبالدرجة نفسها من الدهشة، كانت أوروبا هى التى قفزت إلى الموقع المتقدم. فقد حدث شيء قريب جدا من السحر للعقول الأوروبية، وتبع ذلك بموجة تتلوها موجة أخرى من التقدم والترقى فى الحضارات، من عصر النهضة إلى عصر التنوير، ومن الثورة العلمية إلى الثورة الصناعية. ففيما كانت المجتمعات الأسيوية تتحلل إلى مستويات من التخلف والجمود كانت المجتمعات الأوروبية، التى أنهضتها الأشكال الجديدة من التنظيم الاقتصادى والحيوية العسكرية التقنية والاندماج السياسى داخل القارة ككل (إن لم يكن ذلك داخل الأقطار المعينة كلها)، والبدايات غير المتساوية للحرية الفكرية، وعلى وجه أخص فى إيطاليا وبريطانيا وهولندا تنتج ما يمكن أن يسمى أحيانا بـ«المعجزة الأوروبية». لو كان هناك حضارة أعلى تلاحظ وتحدد ذلك الحدث. ولأن هذا المزيج من المكونات النقدية لم يوجد فى أى مجتمع آسيوى فقد بدا أنها ظلت تراوح فى مكانها فيما كانت أوروبا تتقدم لتتصدر المسرح العالمى. وأدى الاستعمار، الذى بدأ فى القرن التاسع عشر، بالإضافة إلى الثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر إلى تعزيز سيطرة أوروبا.

ولمجيئى من سنغافورة التى يبلغ سكانها ثلاثة ملايين فإن ما يؤدى إلى الاستغراب العظيم أن تستطيع دولة كالبرتغال، التى لا يزيد سكانها كذلك عن ملايين قليلة، أن تنتزع مناطق مثل جوا وماكاو ومالقا من حضارات أقدم منها وأكبر. إنها جرأة مدهشة. لكن ما هو أكثر إدهاشا حدوث هذا فى القرن الخامس عشر. وقد تبع المستعمرون البرتغاليون بالمستعمرين الأسبان والهولنديين والفرنسيين ثم البريطانيين. وكانت المجتمعات الآسيوية، خلال تلك الفترة، ولثلاثة قرون أو تزيد، تمارس الخضوع وتسمح لأنفسها بأن تسبقها وتستعمرها مجتمعات أصغر منها.



وأكثر الأشياء إيلاما أن ما حدث لآسيا لم يكن الاستعمار المادى بل الاستعمار العقلى. فقد بدأ كثير من الآسيويين (ويشمل ذلك، كما أخاف، كثير من أسلافى فى جنوب شرقى آسيا) يعتقدون أن الآسيويين كانوا مخلوقات أدنى عند الأوروبيين. وهذا وحده ما يمكن أن يفسر كيف أمكن لآلاف قليلة من البريطانيين أن يتحكموا فى عدد من الملايين من الناس فى جنوب شرقى آسيا. وإذا ما سمح لى بأن ألحق نقطة تثير الخلاف هنا فسوف أضيف أن هذا الاستعمار العقلى لم يقتلع بصورة نهائية فى آسيا، وأن كثيرا من المجتمعات الآسيوية لاتزال تكافح من أجل الانفكاك منه.

إنه غريب حقا إلى الوقت الحاضر، فى الوقت الذى نقف فيه على مشارف القرن الحادى والعشرين، بعد ٥٠٠ عام من قدوم أول المستعمرين البرتغاليين إلى آسيا، أن يصل مجتمع آسيوى واحد. وأعيد، واحد. فقط، بمعنى متكامل، إلى مستوى التطور الذى ساد فى أوروبا وشمال أمريكا اليوم. فقد كان العقل اليابانى هو الأول فى الاستيقاظ فى آسيا، بدءا بحركة الإصلاح خلال فترة الميجى فى ستينيات القرن التاسع عشر. وكانت اليابان الأولى التى يُنظر إليها على أنها متطورة وتقبل تقريبا بوصفها مساوية فى سنة ١٩٠٢، حين وقعت الحلف الإنجليزى اليابانى.

فإذا كان العقل الآسيوى يفكر فلماذا كان باستطاعة مجتمع آسيوى واحد فقط أن يلحق بالغرب؟ وقد أنهيت مرافعتى عن الإجابة بالنفى عن سؤالى. والآن يمكن للذين يرغبون منكم أن يختاروا الإجابة «لا» عن السؤال «هل يستطيع الآسيويون أن يفكروا؟» أن يفعلوا ذلك.

«نعم» إنهم يستطيعون:

دعنى أحاول الآن عرض الحجج عن أسباب أن تكون الإجابة بـ«نعم» عن السؤال «هل يستطيع الآسيويون أن يفكروا؟».

والسبب الأول، والأوضح، هو الفعالية الاقتصادية الممتازة لمجتمعات شرقى آسيا فى العقود الماضية القليلة. فقد أرسل النجاح اليابانى الآن، وإن لم يقلَّد بصورة كاملة فى بقية آسيا، موجات أحدثت بعض النتائج الممكنة (مع عدم إغفال المشكلات الحالية) لتصبح تيارا من الموجات. فقد تُبع النجاح اليابانى أولاً بظهور «النمور الأربعة»، أى كوريا الجنوبية وتايوان وهونج كونج وسنغافورة. لكن نجاح هذه النمور الأربعة أقنع الأقطار الأخرى فى جنوب شرقى آسيا، خاصة إندونيسيا، وماليزيا، وتايلاند، أنها يمكن أن تعمل الشيء نفسه. وقد تبعتها مؤخرا الصين التى يتوقع أن تسبق الولايات المتحدة وتصبح أوسع اقتصاد عالمى فى ٢٠٢٠م. والمدهش هو وتيرة التطور الاقتصادى (للصين). فقد استغرقت بريطانيا ٥٨ سنة (من ١٧٩٠)، واستغرقت أمريكا ٤٧ سنة (من ١٨٣٩)، واليابان ٣٣ سنة (من ١٨٨٠) لكى تضاعف ناتجها الاقتصادى. ومن جهة أخرى فقد استغرقت أندونيسيا ١٧ سنة، وكوريا الجنوبية ١١ سنة، والصين ١٠ سنين لتنجز المهمة نفسها. وقد نمت معجزات الاقتصاديات الجنوب شرق آسيوية، بمجموعها، بسرعة أكبر وأكثر اطرادا من أية مجموعة من الاقتصاديات فى العالم من الستينيات إلى التسعينيات (من القرن العشرين). وقد أنجزت متوسط نمو سنوية بنسبة ٥,٥ من حيث نمو الدخل الحقيقى للفرد، متفوقة بهذا على أى اقتصاد فى أمريكا اللاتينية وأفريقيا جنوب الصحراء بل وفى اقتصاديات منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية OECD، التى حققت متوسط ٢.٥ فى المائة من النمو فقط خلال تلك الفترة.

ولا يمكن أن تحصل على درجات طيبة فى الامتحان عن طريق الحظ. فيتطلب ذلك الذكاء والعمل الجاد. وبالمثل لا يمكنك الحصول على إنجاز اقتصادى جيد، خاصة على المستوى الذى رأيناه فى آسيا، عن طريق الحظ. إن هذا الإنجاز يعكس ذكاء وعملا جادا. ومن المهم أن نؤكد هنا أن تسارع الانفجار الاقتصادى الذى رأيناه فى آسيا ومستواه غير مسبوقين فى تاريخ الإنسان. وقد صور هذه الحقيقة بصورة دقيقة كبير الاقتصاديين فى البنك الدولى، جوزيف ستيجليت، فى مقاله الذى نشرته صحيفة: Asian Wall Street Journal

إن «المعجزة» الشرق آسيوية حقيقة. فقد كان التحول الاقتصادى فى شرق آسيا واحدا من أكثر الإنجازات المدهشة فى التاريخ. وقد برهنت على هذا التحول الفجائى المتسارع فى حاصل الإنتاج المحلى الذى صاحبها المستويات العليا للمعيشة لمئات الملايين من الآسيويين، ويشمل ذلك المستويات المرتفعة لمتوسط الأعمار، وتحسن مستويات الصحة والتعليم، بالإضافة إلى إنقاذ ملايين آخرين أنفسهم من الفقر، وهى الآن تعيش حياة أكثر تفاؤلا. وهذه الإنجازات حقيقية، وسوف تكون أكثر دواما من التقلبات الحالية[٢].

والسبب الثانى الذى يحملنا على الإجابة بـ«نعم» عن السؤال «هل يستطيع الآسيويون أن يفكروا؟» هو التحول المهم الذى يعمل فى كثير من الأدمغة الآسيوية. فيعتقد الآسيويون، منذ قرون، أن الطريق الأوحد للتقدم يمر عبر الغرب. وقد لخص يوكيتشو فوكوزاما، وهو أحد قادة الإصلاح فى فترة الميجى، هذا التوجه حين قال فى أواخر القرن التاسع عشر إنه يجب على اليابان لتتقدم أن تتعلم من الغرب. ويشاركه فى هذا التوجه الأساسى قادة التحديث فى آسيا، سواء كانوا (الزعيم الصينى) سن يات سن أو جواهر لال نهرو. ويتمثل التحول العقلى الذى يحدث للعقول الآسيوية اليوم فى أنهم لم يعودوا يؤمنون بأن الطريق الأوحد للتقدم هو فى استنساخ الغرب؛ إذ يعتقدون الآن أنه يمكن أن يوجدوا حلولهم الخاصة بهم.

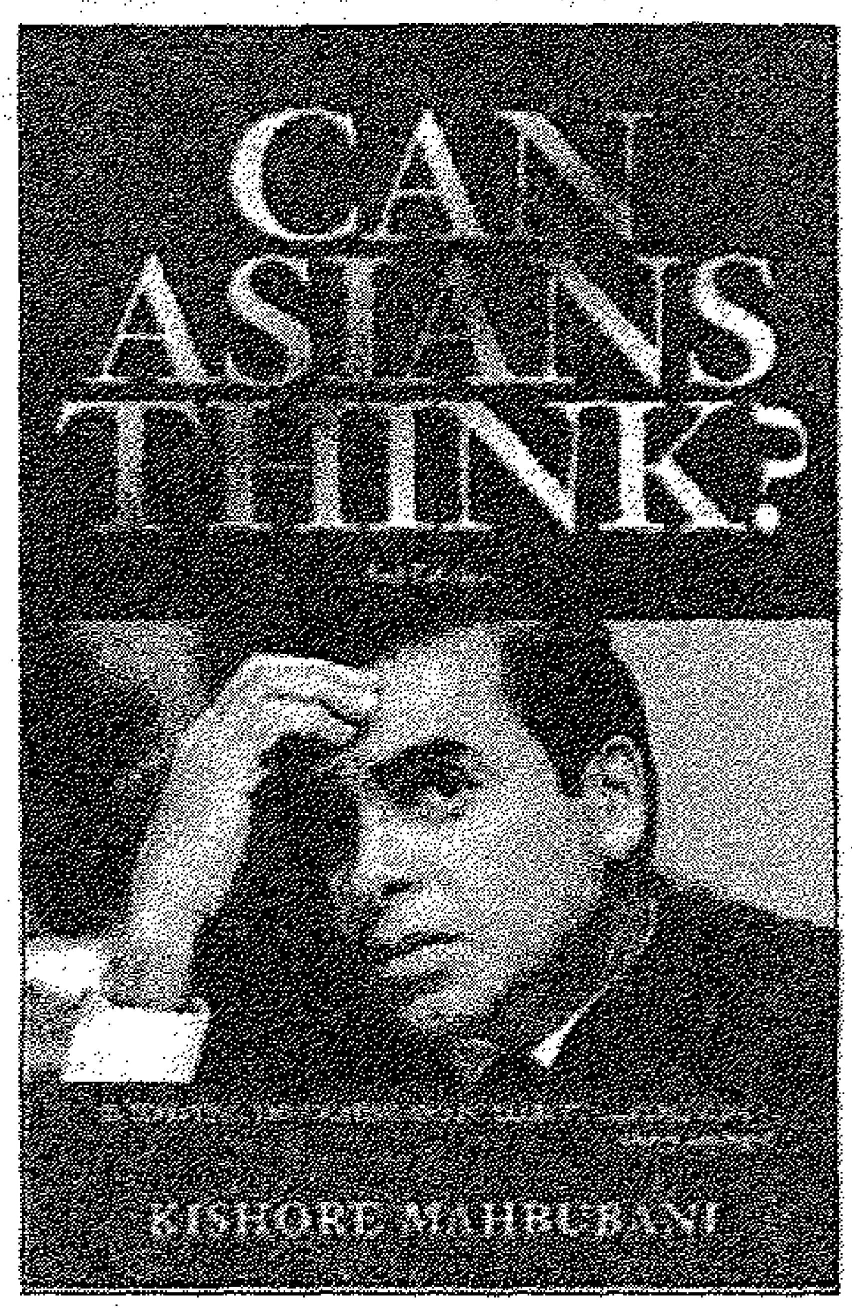
يتخذ هذا التحول فى العقول الآسيوية مساره ببطء وبطريقة غير ملموسة. وكانت المجتمعات الغربية، إلى عقود قليلة ماضية، تصوت (متفاخرة) مثلما تصوت الديكة على المرتفع: فهى أمثلة حية للأشكال الأكثر تقدما للمجتمعات الإنسانية. فهى غنية اقتصاديا، ومستقرة سياسيا، وهى فوق ذلك كله، توفر بيئات ظلت تقدم أفضل الظروف لمواطنيها لأن ينمو وأن يغتنوا بوصفهم أفرادا. وليست هذه المجتمعات كاملة، لكنها كانت بوضوح أفضل، بأى معنى للكلمة، من أى مجتمع خارجى. وكان من الغباء، إلى فترة ماضية قريبة، بل من غير المتصور، لأى مفكر آسيوى أن يقترح «إن هذا ربما لا يكون المسار الذى نريد أن نسلكه». أما اليوم فهذا ما يفكر به أكثر الآسيويين، بصورة سرية إن لم يكن بصورة علنية.

أسست أول جامعة فى العالم فى القاهرة قبل أكثر من ألف سنة تقريبا، وذلك فى سنة ٩٧١م. وفى مقابل ذلك، كانت أوروبا حين ذاك لا تزال فيما وصف بـ «العصور الوسطى»، وهى الفترة التى بدأت حين انهارت الإمبراطورية الرومانية فى القرن الخامس الميلادى

ومع ذلك، وبصورة عامة، فلا جدال أن المجتمعات الغربية تظل أكثر نجاحا من نظيراتها فى شرق آسيا. وهى تحافظ على حقول التميز فى مجالات لا يقترب أى مجتمع آخر من مستواها. كما فى جامعاتها ومراكز الأبحاث فيها، و فى المجالات الثقافية على وجه التأكيد. فلا تقترب أية فرقة موسيقية آسيوية فى العزف من الفرق الغربية، ذلك مع أن عالم الموسيقى فى الغرب ازداد غنى بانضمام كثير من الموسيقيين الآسيويين المتميزين إليه. لكن الآسيويين تروعهم مستويات المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التى حاقت بكثير من المجتمعات الغربية. فقد أصيبت المجتمعات، فى أمريكا الشمالية، بانهيار الأسرة بوصفها مؤسسة، وبطاعون إدمان المخدرات وما يصحبها، ويشمل ذلك الجرائم، واستمرار وجود الأحياء الفقيرة المغلقة والانطباع بأن هناك انحدارا فى المثل الأخلاقية. ويشهد بذلك الإحصاءات التى توفرها الحكومة الأمريكية التى تعكس التوجهات المجتمعية خلال الفترة من الستينيات إلى التسعينيات. فقد زادت نسبة جرائم العنف أربع مرات خلال فترة ثلاثين سنة، وزادت نسبة الأسر ذات الوالد الواحد أو الأم الواحدة ثلاثة أضعاف تقريبا، وزاد عدد المسجونين فى السجون الاتحادية أو سجون الولايات أربع مرات. كما دهش الآسيويون بإدمان الأوروبيين لشبكات الضمان الاجتماعى على الرغم من أن من الواضح أن هذه الشبكات تعرقل مجتمعاتهم وأوجدت جوا من الكآبة عن مستقبل التطلعات الاقتصادية على المدى الطويل. وقد كانوا، فى العقود الماضية، يحسدون تلك المجتمعات على المستويات العليا للحياة والنوعية الأفضل للحياة. أما اليوم، فمع أن المستويات العليا للحياة بقيت على ما هى عليه فى الغرب، إلا أن الآسيويين لم يعودوا يتخذون هذه المجتمعات قدوة حسنة. ذلك أنهم بدأوا يعتقدون أنهم يستطيعون أن يحاولوا طرقا مختلفة.

وربما تساعد استعارة لما يمكن أن تراه العقول الغربية لو اطلعوا على العقول الآسيوية. فقد اشتركت معظم هذه العقول، إلى وقت قريب، فى المسلمة العامة التى تقول إن طريق التطور للمجتمعات كلها تلتقى فى الهضبة التى تحتلها الآن أكثر المجتمعات الغربية. ومن هنا فستنتهى المجتمعات كلها، مع بعض الاختلافات، إلى إيجاد مجتمعات ليبرالية ديموقراطية، مؤكدة على الحريات الفردية، فيما هى ترتقى السلم الاقتصادى الاجتماعى. ولا يزال من الممكن للآسيويين اليوم أن يروا هضبة الرفض التى تحتلها معظم المجتمعات الغربية، لكنهم يمكن أن يروا أيضا، فيما وراء هذه الهضبة، مرتفعات بديلة يمكن لهم أن يأخذوا مجتمعاتهم إليها. وبدلا من أن يروا الهضبة بوصفها المآل الطبيعى فإنهم يطمحون الآن إلى اجتنابها (لأنهم لا يرغبون الإصابة ببعض العلل الاجتماعية والثقافية التى أصيبت بها المجتمعات الغربية) وأن يصلوا إلى مرتفعات بديلة وراء هذه الهضبة. ولم يكن هذا الأفق العقلى موجودا أبدا فى العقول الآسيوية إلا مؤخرا. وهو يبين عن ثقة جديدة عند الآسيويين بأنفسهم.

والسبب الثالث لاحتمال أن الإجابة ربما تكون «نعم» عن السؤال «هل يستطيع الآسيويون أن يفكروا؟»، أن الفترة الحاضرة ليست الفترة الوحيدة التى يبدأ العقل الآسيوى فيها بالنهوض. ففيما ينتشل عدد متزايد من الآسيويين أنفسهم من مستويات البقاء على الحياة، فإنهم يمتلكون الحرية الاقتصادية التى تمكنهم من التفكير والتأمل، وأن يكتشفوا من جديد تراثهم الثقافى. وهناك وعى متنام بأن مجتمعاتهم، مثلها مثل المجتمعات فى الغرب، تمتلك تراثا اجتماعيا وثقافيا وفلسفيا غنيا يمكن لهم إحياؤه واستخدامه من أجل تطوير مجتمعاتهم الحديثة المتقدمة. وقد اعترف العلماء الغربيون بغنى وعمق الحضارتين الهندية والصينية، إن اقتصرنا على ذكر هاتين فقط. بل إن الجهود العلمية الغربية وعملها الدؤوب، خلال القرون القليلة الماضية، هى التى حافظت على ثمرات الحضارات الآسيوية، مثلما حافظ العرب على الحضارتين اليونانية والرومانية فى الأيام المظلمة لأوروبا ونقلوهما. ففى الوقت الذى انحطت فيه الحضارات الآسيوية، مثلا، حافظت المتاحف والجامعات فى الغرب بل وقدرت أفضل ما أنتجه الفن والثقافة الآسيويان. وكلما غاص الآسيويون بشكل أعمق فى تراثهم الثقافى فإنهم يجدون عقولهم تنمو. فللمرة الأولى، منذ قرون، بدأ عصر نهضة آسيوى يأخذ مجراه. ويرى زوار المدن الآسيوية الآن، من طهران إلى كالكوتا، ومن بومباى إلى شينغهاى، ومن سنغافورة إلى هونج كونج. الثقة المكتشفة حديثا بالإضافة إلى الاهتمام بالتراث اللغوى والثقافى. وفيما ينمو اقتصاد المجتمعات الآسيوية، وفى الوقت الذى يتوفر لها مزيد من الدخل الزائد، ينفق الآسيويون هذا الدخل بشكل متزايد على إحياء الرقص أو المسرح.



حين نُشر هذا الكتاب لأول مرة فى منتصف ١٩٩٨م لم نكن، لا الناشر ولا أنا، نتوقع أن ينتشر حتى يصل إلى الآماد التى وصل إليها. ومما فاجأنا أن هذا الكتاب نشر منذئذ فى كندا والولايات المتحدة كلتيهما. وظهرت طبعة أسبانية له فى المكسيك فى أوائل ٢٠٠٣م كما ظهرت طبعة هندية عن دار نشر بنجوين فى الهند فى ٢٠٠٤م (وهو يتطلع إلى ترجمة عربية لهذا الكتاب، وهو ما أحاول إنجازه قريبا. (المترجم).

وللأفكار أجنحة، كما يقولون. لهذا فأنا سعيد بأن الأفكار التى يتضمنها هذا الكتاب وصلت إلى هذا البعد والانتشار. ولست أدرى لماذا. ربما كان ذلك لأن كثيرا من الأفكار التى عُبِّر عنها، وهى التى كانت هرطقية فى أواسط التسعينيات، لا تزال هرطقية فى العقد الأول من القرن الواحد والعشرين.

وربما كانت البداية الحقيقية للقرن الواحد والعشرين فى يوم الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م. فقد أوضحت هذه الهجمات الإرهابية بشكل لا لبس فيه، وهى التى استمرت، أننا ندخل فى قرن خطير. فقد أخذت كثير من التناقضات البنيوية فى البروز على مستوى العالم. وتضعنا العولمة كلنا فى القارب نفسه. ومع ذلك فإن البنى الحكومية المتنفذة تقودنا إلى أن نعتنى بغُرَفنا فقط فى هذا القارب. وهذا ما أدى إلى تجاهل التحديات العالمية. وفى الوقت نفسه فقد رَمت العولمةُ الحضارات والثقافات المختلفة فى تجاور أكثر قربا. وخلق هذا بصورة لا فَكاك منها بعض الاحتكاكات، مما أعطى شيئا من الصدى لنظرية صمويل هنتنجتون المشهورة لـ«صراع الحضارات».

والخطر الحقيقى الذى يواجهه القرن الحادى والعشرون هو أننا سوف نبحر فيه بالخرائط الذهنية للقرن التاسع عشر. لكنه يلزمنا، فى الاستعداد للدخول فى العالم الجديد، أن نتخلى عن الحكمة التقليدية، وأن نتخلص من أنماط الفكر القديم وأن نبدأ فى التفكير بسلوك مسارب ذهنية جديدة. ولا يحاول هذا الكتاب الذى يتكون من مقالات أن يوفر إجابات. لكنه، بدلا من ذلك، يرغم القراء على تحدى المسلمات القديمة. وربما كان هذا هو السبب فى استمرار ظهور الطبعات الجديدة له، فى سنغافورة وفى أماكن أخرى كذلك.

المؤلف

هل يمكن للآسيويين أن يفكروا؟!

وما نشهده اليوم ليس إلا البدايات الأولية لإعادة اكتشاف ثقافية. والفخر الذى يشعر به الآسيويون عن ثقافتهم واضح ومتميز.

وباختصار، فالآسيويون الذين يرغبون فى الاستعجال للإجابة بـ«نعم» عن السؤال لديهم ما يسوغ اختيارهم. لكن قبل أن نفعل ذلك، نود أن ننصحهم بأن يتوقفوا ويتأملوا فى الأسباب التى تجعل الإجابة بـ«ربما» قبل أن يصلوا إلى قرار نهائى.

الإجابة بـ«ربما»:

وعلى الرغم من المصاعب التى نشأت عن الأزمة المالية فى أواخر ١٩٩٧م إلا أن معظم الآسيويين استمروا فى التفاؤل عن مستقبلهم. ومثل هذا التفاؤل صحى. ومع ذلك فربما يكون مفيدا للآسيويين أن يتعلموا درسا تاريخيا صغيرا من تجربة الأوروبيين قبل قرن تماما، حين كانت أوروبا على درجة كاملة من التفاؤل. ويصف زبيجنيو بريجينسكى فى كتابه «الإنفلات» out of control كيف كان العالم يبدو آنذاك:

وُلد القرن العشرون فى روح من الأمل. فقد انبلج فجره فى حال من الهدوء. إذ كانت القوى الرئيسة تتمتع، بشكل عام، بفترات طويلة تقريبا من السلام... وكانت الروح المسيطرة فى العواصم الكبرى فى الأول من يناير ١٩٠٠ تتميز بالتفاؤل عامة. وكانت بنية القوى العالمية تبدو مستقرة. فقد بدت الإمبراطوريات الموجودة تتمتع بمزيد من التنوير والأمن كذلك

لكن القرن العشرين، على الرغم من الأمل العظيم، أصبح على ما يقول بريجينسكى:

أكثر قرن مر على البشرية من حيث الدموية والكراهية، وهو قرن اتصف بالسياسة المجنونة والقتل الوحشى. وقد مؤسست القسوة إلى درجة غير مسبوقة، ونُظم الإفناء على أسس إنتاجية عامة. وكان التناظر بين الإمكان العلمى من أجل الخير والأبلسة السياسية التى أطلقت من عقالها مفزعا للغاية. ولم يعرف التاريخ أبدا تلك الدرجة من شيوع القتل واستمراره على مستوى العالم، ولم يهلك مثل ذلك العدد الكبير من الناس قتلى، ولم يكن إفناء الناس أبدا من قبل على مثل هذه الدرجة من الجهود الحثيثة نيابة عن مثل هذه الأهداف المتكبرة غير العقلانية[٣].

ويجب أن يكون أحد أكثر الأسئلة



أهمية التى يجب أن يسأل الآسيوى نفسه اليوم سؤالا بسيطا، هو: كيف تكون كثير من المجتمعات الآسيوية، باستثناء اليابان (التى صارت عضوا مقبولا فى النادى الغربى) واثقة تماما من أنه يمكن أن تنجح وأن تفعل ذلك أيضا بمعنى كلى مشابه للمجتمعات المتقدمة فى شمال أمريكا وغربى أوروبا؟ فإذا كانت الإجابة عن هذا السؤال أنه لا أحد منها، بل حتى إن كانت قلة من تلك المجتمعات، فالبرهان على الإجابة بـ«ربما» يصبح أقوى.

ولا تزال هناك تحديات عظمى كثيرة يجب على المجتمعات الآسيوية أن تتغلب عليها قبل أن تستطيع الوصول إلى مستوى كلى للإنجاز الذى تمتعت به المجتمعات الغربية. والتحدى الأول هو أن التنمية لأى مجتمع هى اقتصادية (فى المقام الأول). فقد اعتقدت أكثر المجتمعات الشرق آسيوية، حتى أواسط ١٩٩٧م أنها تمكنت من معرفة القواعد الأساسية للاقتصاد الحديث. فقد حررت اقتصادياتها، وشجعت دخول الاستثمار الأجنبى ومارست سياسات متحفظة لميزانياتها. وأعطتها المستويات العليا للتوفير هامشا اقتصاديا مريحا. وكان من الطبيعى لمجتمعات مثل كوريا الجنوبية وتايلاند وإندونيسيا وماليزيا، بعد تمتعها بنسب نمو اقتصادى مستمرة بلغت ٧٪ أو أكثر سنويا لعقود، أن تفترض أنها اكتشفت الإكسير السحرى للتنمية الاقتصادية.

وبيّنت الأحداث التى تلت تعويم العملة التايلاندية فى الثانى من يوليو ١٩٩٧م أنها لم تحقق ذلك. وكان المدهش فيما يخص الأزمة المالية أنه لم يتوقع أى اقتصادى مدى عمقها أو مستواها. ولا يزال الاقتصاديون والمحللون منقسمين عن أسبابها العميقة. وبما أن الأزمة لا تزال تتكشف فى الوقت الذى أكتب فيه هذا المقال فمن المبكر جدا تقديم أحكام محددة عن الأسباب العميقة. لكن بعض الافتراضات القليلة ربما تستحق الإشارة إليها.

فقد ارتكبت أخطاء كثيرة على الجبهة الاقتصادية. ففى تايلاند، مثلا، سمح القرار بالحفاظ على نسبة صرف العملة بين العملة التايلاندية، البات، والدولار، على الرغم من الاختلاف فى نسبة الفائدة، لرجال الأعمال التايلانديين أن يقترضوا بشكل رخيص بالدولار الأمريكى وأن يحصلوا على نسبة فائدة عالية بالبات التايلاندى. وقاد هذا كذلك إلى المبالغة فى الاستثمارات فى تايلاند، فى العقار وأسواق الأسهم. ومن الواضح أن هذه كلها لا يمكن إدامتها. وقد قدم البنك الدولى بعض التحذيرات السرية. إلا أن الحكومات الضعيفة تقريبا التى تقوم على التحالفات التى كانت تحكم فى تايلاند لم تستطع أن تتناول الدواء المر اللازم من أجل إصلاح الوضع لأن بعض هذه الأدوية يجب أن يُعطى لمؤيديها الماليين. وكانت العوامل التى بدأت الأزمة المالية فى الداخل وأطالت من أمدها مزيجا من العوامل الاقتصادية والسياسية.

وكان هناك أيضا عامل كبير جديد عقّد القصة: ذلك هو قوة العولمة. والدرس الرئيس الذى يجب أن يتعلمه المديرون الاقتصاديون الشرق آسيويون من أزمة ١٩٩٧ - ١٩٩٨م هو أنهم كلهم مسئولون ليس أمام الفاعلين المحليين بل أمام الأسواق المالية العالمية واللاعبين الرئيسين فيها. وكان يجب ألا يُفاجأ الشرق آسيويون. ذلك أن ما حدث هو المترتبات المنطقية لتحرير الاقتصاد والاندماج فى الاقتصاد العالمى. فيجلب الاندماج معه الفوائد (ويتمثل فى الزيادة المهمة فى مستويات العيش) والأكلاف (المتمثلة فى فقد الاستقلال فى الإدارة الاقتصادية). لكنه كان هناك تردد واضح فى الاعتراف بفقد الاستقلال والقبول بذلك الفقد. وذلك ما أوضحته حالة الجحود التى اتصف بها رد فعل الشرق آسيويين الأولى على الأزمة. فقد بيّن الجحود بوضوح البطء الزمنى النفسى فى العقول الآسيوية فى مواجهة الحقائق الجديدة.

ومن الأهمية بمكان أن الاقتصاديين الآسيويين اللذين ابتلعا (بعد الممانعة الأولية) بشكل أمثل الدواء المر الذى وصفه البنك الدولى كانا المجتمعين اللذين حققا تقدما أسرع فى تطوير الطبقات الوسطى التى دمجت أنفسها بالرؤية العالمية عن الترابط الجديد للاقتصادات العالمية. وقد أظهرت كوريا الجنوبية وتايلاند، مع استمرارهما فى مواجهة بعض التحديات الاقتصادية الخطيرة فى الوقت الذى أكتب فيه هذا المقال، أنهما اللتان أوضحتا بشكل بيّن أن الطبقة العليا تتصف الآن بأنها مرتبطة بشكل ممتاز بالشبكة المالية الجديدة. وصار وزير المال التايلاندى، تارين نيمانهايمندا، يسير ويتحدث بشكل سهل فى أية عاصمة مالية رئيسة. وتصرفه واحد من الإشارات الدالة على العقل الآسيوى المعولم الذى أخذ فى الظهور.

كما كشفت الأزمة المالية فيما بين ١٩٩٧ - ١٩٩٨م عن حكمة الصينيين فى ترجمتهم لكلمة crisis «أزمة» على أنها ربط بين شكلين فى اللغة الصينية، هما «خطر» و«فرصة». ومن الواضح أن المجتمعات الشرق آسيوية مرت بعدة أوقات خطيرة. لكنها إن خرجت من الأزمة المالية التى حدثت فى ١٩٩٧ - ١٩٩٨م باقتصاد مُصلح ومقوّى وبأنظمة إدارية فاعلة فربما تكون من بين أوائل المجتمعات فى العالم التى تطور أنظمة قوية للمناعة تصلح للتعامل مع التحديات الحالية والمستقبلية التى تنشأ عن العولمة. ومن المبكر جدا القول بأن هذا صحيح أم لا. ويقوى هذا بدوره النقطة عن الجبهة الاقتصادية، وربما كان ينبغى علينا أن نجيب بـ«ربما» عن السؤال: «هل يستطيع الآسيويون أن يفكروا؟».

ثانيا، أما على الجبهة السياسية فمعظم المجتمعات الآسيوية، ومنها المجتمعات الشرق آسيوية، لا يزال ينتظرها طريق طويل قبل أن تستطيع الوصول إلى المستويات الغربية فى الاستقرار والتناغم السياسيين. وليس هناك إلا خطر بسيط من الانقلاب أو الحرب الأهلية الحقيقية فى معظم المجتمعات الغربية المعاصرة (باستثناء إيرلاندا احتمالا). فقد تبنت المجتمعات الغربية عددا من التنوعات السياسية لنموذج الليبرالية الديموقراطية، وإن اختلفت الأنظمة الرئاسية فى الولايات المتحدة وفرنسا بشكل واضح عن نماذج البرلمان البريطانى فى المملكة المتحدة، وكندا وأستراليا. وليست هذه الأشكال السياسية كاملة. ذلك أنها تحوى كثيرا من الخصائص التى تقف فى وجه التقدم الاجتماعى، من جماعات الضغط التى توجهها أغراضها المحددة، إلى السياسات الفاسدة للإنفاق المالى. والواقع أن من العدل القول إن التطور السياسى فى أكثر المجتمعات الغربية بدأ فى التآكل. لكن هذا التآكل ظهر بمستويات مريحة. ذلك

كشفت الأزمة المالية فيما بين ١٩٩٧-١٩٩٨م عن حكمة الصينيين فى ترجمتهم لكلمة crisis «أزمة» على أنها ربط بين شكلين فى اللغة الصينية، هما «خطر» و«فرصة»

أن أكثر مواطنيها يعيشون حياتهم فى أمن داخلى، ولا يخافون من أى ظلم، وهم راضون عن الأطر السياسية فى بلدانهم. فكم هى المجتمعات الآسيوية التى تستطيع ادعاء الاشتراك فى هذه الحالة الرضية للأمور؟ والإجابة بوضوح أنها قليلة جدا. ثم إنه إذا كان من الواضح بشكل مماثل أنهم لن يتمتعوا بهذا فى القريب العاجل فإن هذا مما يدفع نحو الإجابة عن السؤال بـ«ربما».

ثالثا، وفى المجال الأمنى فالميزة العظيمة التى تمتلكها المجتمعات الغربية على بقية العالم هى أن الحرب بينها أصبحت شيئا من الماضى. وسبب هذا معقد. وهو يشمل الوعى بالتقارب العرقى . الثقافى بين القبائل الغربية التى تشعر أنها أقلية بين سكان العالم وكذلك الإحساس بالانتماء إلى حضارة مشتركة. وربما تعكس كذلك التعب من خوض حروب كثيرة فى الماضى. ومع هذا فمن الصحيح أن نلحظ، حين نحصى عدد الحروب. وهى حروب كبيرة بالفعل. أن الإنجليز والفرنسيين والألمان الذين حارب بعضهم بعضا (ويشمل ذلك حربين فى هذا القرن)، فإنه ليس هناك إلا احتمال لا يزيد عن الصفر لأن تقوم حرب بين المملكة المتحدة وفرنسا وألمانيا. وإنجاز هذا شىء متحضر مثير، وهو ما يعكس خطوة مهمة إلى الأمام فى تاريخ الحضارة الإنسانية. فمتى تُنجز الهند والباكستان، أو كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية، هذا المستقبل الصفرى للحرب؟ وإذا لم تكن الإجابة أنه لن يُنجز فى المستقبل القريب فمن المعقول الافتراض بأن العقول الآسيوية (أو عقول المجتمعات الآسيوية) لم تصل إلى المستوى نفسه الذى وصل إليه الغرب.

رابعا: يواجه الآسيويون تحديات خطيرة فى المجال الاجتماعى. فمع أن من الصحيح أنه احتيج للتغير الاجتماعى الذى تسببت به الثورة الصناعية من أجل القضاء على بقايا الإقطاع فى الثقافات الغربية (أى الحرية الاجتماعية متبوعة بالحرية الاقتصادية) فلا يزال من غير الواضح إن كانت الثورات الاقتصادية المشابهة فى شرق آسيا سوف تنشأ عنها الآثار الاجتماعية التحريرية نفسها على المجتمعات الآسيوية. لكن ما يدعو إلى الأسف أن كثيرا من البقايا الإقطاعية، خاصة تلك التى تتعلق بالعشائرية والصلة القرابية، لا تزال مستمرة فى منع المجتمعات الآسيوية من أن تصبح مجتمعات تقوم على الكفاءة الفردية فى تحقيق النجاح، حيث يكون باستطاعة المواطنين الأفراد أن ينموا وأن يُثروا اعتمادا على قدراتهم لا اعتمادا على الأسرة التى ولدوا فيها أو على الواسطة أو على الخلفية العرقية الثقافية التى جاءوا منها.

خامسا وأخيرا: وربما كان هذا أكثر الأمور أساسية، لا يزال السؤال الرئيس هو هل سيكون باستطاعة العقول الآسيوية أن تطور المزيج الصحيح من القيم التى ستحافظ على بعض مظاهر القوة التقليدية للقيم الآسيوية (مثل الانتماء إلى الأسرة بوصفها مؤسسة، والاحترام لما يرى المجتمع أنه مهم له، والتوفير، والمحافظة فى الأنماط الاجتماعية، والاحترام للسلطة) بالإضافة إلى قبول قوة القيم الغربية (مثل التأكيد على الإنجاز الفردى، والحرية الاقتصادية والسياسية، الاحترام لقواعد القانون بالإضافة إلى احترام المؤسسات الاجتماعية الرئيسة). وسوف تكون هذه تحديات معقدة.

وكان من أوائل ردود الفعل الغربية (وربما يكون مما لا مفر منه) التى عبر عنها المعلقون الغربيون على الأزمة المالية فى ١٩٩٧-١٩٩٨م افتراض أنها تعكس بشكل أساس فشل القيم الآسيوية. وإذا لم يعبر رد الفعل السريع هذا عن أى شىء آخر فإنه يوحى أن «حوار القيم الآسيوية» الذى حدث فى أوائل التسعينيات قد لامس بعض الأعصاب الحساسة فى العقل والروح الغربيين. وقد كشفت الرغبة فى دفن القيم الآسيوية عن الألم الحقيقى الذى أصاب تلك الأعصاب خلال ذلك الحوار.

ولا يتبين الاختبار الحقيقى لصحة القيم وأهميتها على المستوى النظرى لكنه يتبين فى الممارسة. ويلزم أولئك الذين يحاولون أن يجدوا رابطا سببيا مباشرا بين المحافظة على القيم الأسيوية والمشكلة المالية أن يبرهنوا على ذلك بطريقة علمية جادة بسبب ردود الفعل المتنوعة فى المجتمعات الشرق آسيوية على الأزمة المالية. وقد أُعطيت كوريا الجنوبية وتايلاندا، وهما دولتان من ثلاث الدول التى تأثرت بشكل عميق بالأزمة (أى الدول التى اضطرت إلى اللجوء إلى البنك الدولى من أجل المساعدة) أعلى العلامات فى العقول الغربية لتوجههما نحو الدقرطة. أما الاقتصاديات الثلاث التى لم تتأثر إلا قليلا بالأزمة المالية فكانت تايوان وهونج كونج وسنغافورة، وتتبع الدول الثلاث أنظمة سياسية مختلفة جدا. وباختصار، فلم يكن هناك ارتباط واضح بين الأنظمة السياسية واحتمال التعرض للأزمة المالية.

والارتباط الأوضح إلى الآن هو الذى يقوم بين الحكم الرشيد والصمود فى أثناء الأزمة المالية. ولا يرتبط الحكم الرشيد بأى نظام سياسى واحد أو بأية إيديولوجيا. فهو يرتبط بقدرة الحكومة واستعدادها لتطوير الاقتصاد وللأنظمة الاجتماعية والإدارية التى تتسم بقدر من الصمود يجعلها قادرة على التعامل مع التحديات التى تجد فى فترة الاقتصاد الجديد التى ندخلها الآن. وتقدم الصين مثالا جيدا حيا لهذا. إذ لا يبحث قادتها عن نظام سياسى كامل من حيث النظرية. فهم يبحثون يوميا عن حلول عملية من أجل تحريك مجتمعهم إلى الأمام. ويؤيد المواطنون الصينيون هذا البرنامج العملى، لأنهم يشعرون هم أنفسهم بأن الوقت قد حان للصين أن تلحق بغيرها. وكان الصينيون يبحثون، تقليديا، عن الحكم الرشيد، لا الحكومة المقلَّصة. ويمكنهم التحقق من الحكم الرشيد حين يجربونه. وتبيِّن حقيقة أن اليابان، التى تعد فى الأنظار الغربية كأكثر المجتمعات الشرق آسيوية ديموقراطية وليبرالية، تعانى من مشكلات كبيرة فى التأقلم مع البيئات الاقتصادية الجديدة أن الانفتاح السياسى ليس المتغير الرئيس الذى يجب أن نبحث عنه.

ومن المهم للعقول الغربية أن تفهم أن جهود الآسيويين لإعادة اكتشاف القيم الآسيوية ليس هو البحث الوحيد ولا الأساسى عن القيم السياسية. وبدلا من ذلك تبيِّن هذه الجهود منظومةً معقدة من الدوافع والتطلعات فى العقول الآسيوية، مثل: الرغبة فى الاتصال بماضيهم التاريخى بعد أن تآكل هذا الاتصال بفعل الحكم الاستعمارى وبفعل سيطرة القيم الغربية Weltanschauung على العالم التى نتجت عن ذلك؛ والجهد من أجل العثور على نقطة التوازن الصحيحة فى تربية أبنائهم كى يصبحوا منفتحين على العالم الجديد المترابط تقنيا ومع هذا يظلون مغروسين فى ثقافة أسلافهم وواعين بها؛ والجهد لتعريف هوياتهم الشخصية والاجتماعية والوطنية بطريقة تعزز من إحساسهم بالثقة بالنفس فى عالم كان أسلافهم القريبون قد قبلوا بطريقة غير واعية أنهم فيه مخلوقات أدنى فى عالم غربى. وباختصار، فتمثل إعادة التأكيد على القيم الآسيوية فى التسعينيات مسارا معقدا من الإحياء وإعادة الاكتشاف الذى يمثل مظهرا لازما لولادة المجتمعات من جديد.

وهنا أيضا، فمن المبكر جدا القول إن كانت المجتمعات الآسيوية تستطيع بنجاح أن تدمج نفسها بالعالم الحديث وأن تحيى ارتباطها بالماضى. وكلا التحديين ضخم. وتتمتع العقول الغربية بميزة واضحة على العقول الآسيوية، ذلك أنها مقتنعة بأن قفزتها الناجحة إلى الحداثة كانت إلى مدى بعيد نتيجة لملاءمة أنظمتهم القيمية مع العالم الحديث. والواقع أن كثيرا من العقول الغربية تعتقد (بوعى أو بغير وعى) أنه من غير أنظمة القيم الغربية لن يستطيع أى مجتمع أن يدخل دخولا حقيقيا العالم الحديث.

والوقت هو الحكَم الذى سيبين إن كانت المجتمعات الآسيوية تستطيع الدخول فى العالم الحديث بوصفها مجتمعات آسيوية بدلا من كونها نسخا مقلدة للغرب. وبما أن من المبكر الحكم على إن كانوا سينجحون أم لا فى هذا الجهد فربما كان من العدل أن نفترض أن هذا أيضا هو حجة أخرى فى صالح الإجابة بـ«ربما» عن السؤال «هل يستطيع الآسيويون أن يفكروا؟».

الخلاصة:

من الواضح أن القرن الحادى والعشرين والألفية المقبلة سوف يكونان تحديين جديين للمجتمعات الآسيوية. ذلك أنها خلال ثلاثمائة سنة الماضية تأخرت وراء المجتمعات الغربية بطرق كثيرة. وهناك رغبة قوية للحاق. وستتحقق الإجابة الحقيقية عن السؤال «هل يستطيع الآسيويون أن يفكروا؟» إن حققوا هذه الرغبة. وحتى ذلك الحين فإن الآسيويين يُسدون إلى أنفسهم معروفا كبيرا بتذكير أنفسهم باستمرار بالسبب الذى جعل هذا السؤال يبقى سؤالا وجيها بالنسبة لهم ليسألوه أنفسهم. وهم الوحيدون الذين يستطيعون الإجابة عنه. ولا يمكن لأحد آخر أن يفعل ذلك. ■

١. Will Durant. The Age of Faith, New York. Simon & Schuster, 1950. P. 450
ويل ديورانت. عصر الإيمان.

٢. Joseph Stiglitz, The Asian Wall Street Journal, 2 February 1998.

٣. Zbigniew Brzezinski, Out of Control. New York, Charles Scribner\s Sons. 1993, P. 3.

المنظمـــــات غيـــــر الحكـــــومية

اللوبي الجديد في مصر



■ تتناول فصول هذه الدراسة مفهوم «المجتمع المدنى»، والضعف المتأصل فى الاستخدام المعاصر للمصطلح، وخاصة محاولة أنصاره الترويج له كـ «مساو» لبرامج التغيير الاجتماعى والسياسى. وتقوم الدراسة على فرضية أساسية هى أن مفهوم المجتمع المدنى يمكن استخلاصه، وبشكل قابل للتطبيق، ضمن سياق لأبنية يشكلها نظام دولى، دولة، وقدرات مجتمعية محلية.. ويفهم باعتباره محصلة لعملية ديناميكية وليس ككيان جامد سلبى التأثير. تستعين الدراسة بـ «الحالة المصرية» لتوضيح كيف يمكن تحليل المجتمع المدنى، وأطرافه المؤسسة، ويقدم هذا الفصل تحليلاً لعينة بحث مكونة من ٦٠ منظمة، تشمل مؤسسات تنمية مجتمعية، منظمات دينية إسلامية وقبطية، ومنظمات حقوقية. وتبحث الدراسة الأساس الطبقى، هيكل التنظيم الداخلى، أسلوب الإدارة، نوعية النشاطات، والعلاقة بين المنتفعين ومؤسسات المنح الأجنبية. كما تتناول معنى المجتمع المدنى والديمقراطية، لدى أعضاء فى منظمات غير حكومية متباينة، ومدى الدور الذى تلعبه هذه المنظمات، كقوى جماعية، فى المجتمع المصرى. انتقاء عينة البحث (٦٠ منظمة) تم وفقًا لمعيارين: النوع، والنطاق الجغرافى. وجرى اختيار العينة من أربعة أنواع: إسلامية (١٩)، قبطية (٧)، حقوقية (٤)، وتنمية مجتمعية (٣٠) منظمة من نطاقين جغرافيين: القاهرة (٣٠)، وصعيد مصر (٣٠)، من ثلاث محافظات هى أسيوط، سوهاج، وأسوان.

إن الهياكل المتباينة، للمنظمات غير الحكومية، هى - تحديداً - الجمعية العمومية، مجلس الإدارة، العاملون، والمتطوعون. وفحص كل مكون لهذه الهياكل، بشكل منفصل، وفى ضوء الأساس الطبقى والخلفية، يحدد طبيعة التفاعل ومستوى التنسيق والسمات الرئيسية لأساليب إدارة هذه المنظمات، وما إذا كانت تعمل فى إطار ديمقراطى مرن يختلف عن بيروقراطية «دواوينية» الدولة. وإلى أى حد تعمل لصالح الفقراء وتمدهم بوسائل بديلة لمواجهة احتياجاتهم الأساسية.

الجمعية العمومية:

هى المكون الأول للمنظمات غير الحكومية ويشترط القانون تشكيل المنظمة لجمعيتها العمومية قبل الاعتراف بها من السلطات. ويكون على الجمعية العمومية عقد اجتماع خلال الأشهر الثلاثة الأولى من كل عام مالى لمراجعة واعتماد الميزانية والحسابات. ويتم فى هذا الاجتماع انتخاب مجلس الإدارة ومناقشة موضوعات جدول الأعمال و.. ويطالب القانون بإبلاغ وزارة الشئون الاجتماعية باجتماعات الجمعية العمومية قبل ١٥ يومًا - على الأقل - من انعقادها. ويحضر الاجتماعات أحد العاملين فى الوزارة كممثل عنها.

وتلعب الجمعية العمومية - نظرياً - دوراً بالغ الأهمية. وهى التى تسائل مجلس الإدارة وتثرى الرؤى وتقدم الأفكار الجديدة. تناقش انتخابات مجلس الإدارة، وتنتخبه، وتوافق على الميزانية والموضوعات المالية وتبعات عمل المنظمة.

وعلى أرض الواقع، يرى أفراد عينة البحث، باستثناء أعضاء فى منظمتين قبطيتين، أن الجمعية العمومية «هيئة فخرية» بلا دور حقيقى أو مشاركة فعلية فى أى نقاش خاص بعمل المنظمة: توافق على الميزانية بشكل روتينى، تؤيد - دون مناقشة جادة - مداولات مجلس الإدارة، وهناك تفاهم بين أعضائها، وأعضاء مجلس الإدارة، على أن السلطة الفعلية لصنع القرار هى فى يد المجلس.

وعلى صعيد انتخابات أعضاء مجلس الإدارة، يتم تحديد الوظائف من قبل المجلس، ويتم الموافقة عليها من الجمعية العمومية التى ليس لها سوى إسهام وحيد هو: تسديد اشتراكات العضوية فى موعدها السنوى، والتى تمثل نسبة هامشية فى دخل المنظمات غير الحكومية. ويتشابه أعضاء الجمعية العمومية وأعضاء مجلس الإدارة فى الأساس الطبقى والخلفية المهنية.

مجـــلـس الإدارة:

هو الهيئة المسئولة عن صنع جميع القرارات الخاصة بعمل المنظمة وتنفيذ خططها. ويتكون من: رئيس، أمين صندوق، سكرتير، وأعضاء. ويشترط القانون ألا يقل العدد الإجمالى لمجلس الإدارة عن ٥ أعضاء، ولا يتجاوز ١٥ عضواً. مدة العضوية ٣ سنوات، ويجب إعادة انتخاب ثلث الأعضاء فى كل عام.

وتظهر عينة البحث، وخاصة للمنظمات العاملة فى الريف، أن مجالس إدارة المنظمات، بما فى ذلك مؤسسات تنمية المجتمع، والمنظمات الدينية، تضم بشكل أساسى أعضاء من أكبر العائلات المتنفذة فى القرية أو القرى المجاورة. وفى حالات كثيرة يحدث تشابك بين فئتين: عائلات متنفذة بامتلاك الأراضى وأشكال أخرى من الأرصدة، وعائلات يحتل أعضاؤها مراكز مرموقة فى الهرم الاجتماعى للقرية. وفى ٢٠ حالة كان أحد أعضاء المجلس من أقرباء الدرجة الأولى للعمدة. وفى أربع من المنظمات القبطية فى صعيد مصر تشابهت الأسس الطبقية مع تلك التى للآخرين، وكان أعضاء مجالس إدارتها من أهم العائلات القبطية فى القرية. وفى ٢٢ حالة كان أحد أعضاء المجلس من العاملين المتقاعدين لوزارة الشئون الاجتماعية. وفى حالات أخرى جاء الأعضاء من هيئات حكومية ذات صلة بعمل المنظمات مثل بنك القرية، نادى الشباب، الجمعية الزراعية، والمجالس المحلية.

جميع أعضاء مجالس الإدارة، فى عينة البحث الخاصة بالقاهرة، من الطبقة الوسطى كما تبين من الخلفية المهنية والتعليمية. ويحمل ١٩٥، من أصل ٢٤٠ عضواً، درجات جامعية، والبقية من الحاصلين على دبلومات فنية. أغلبية أعضاء منظمات العينة من موظفى الخدمة المدنية والقطاع العام، و١١٪ من العاملين فى القطاع الخاص والأعمال الحرة، وخاصة الأطباء والمحامين ورجال الأعمال. وفى ١٧ منظمة يوجد عضو مجلس إدارة، واحد على الأقل، من المسئولين المتقاعدين لوزارة الشئون الاجتماعية. وينظر أعضاء مجالس الإدارة - فى عينة البحث - إلى «الطبيعة النخبوية» للمجلس باعتبارها ميزة تحسب لصالح المنظمات غير الحكومية. وفى القرى، يعد احترام الأهالى للعائلات الغنية عاملاً بالغ الأهمية فى الثقة الممنوحة لأعضاء مجالس الإدارة. فى القاهرة، وعلى النقيض من ذلك، ينظر إلى الخلفية المهنية والدراسية للأعضاء كضمانة للنجاح. ولم ير أعضاء مجلس إدارة ثمان، من منظمات العينة، أهمية كبيرة لعامل مستوى التحصيل العلمى. فى حين رأى الأغلبية (٢٢ منظمة) فى الخلفية الدراسية والتعليمية ضرورة بالغة وراء القدرة على اتخاذ القرار و«التعامل مع مؤسسات المنح الأجنبية». والأكثر أهمية هنا هو ملاحظة الدور المتميز الذى تلعبه الخلفية المهنية والدراسية لأعضاء مجالس الإدارة فى تشكيل مواقف المؤسسات الخارجية

فصل من:
Civil Society Exposed
the Politics of Ngos in Egypt
منظمات المجتمع المدنى فى مصر
Maha M. Abd Elrahman
Cairo - Aucpress - 2004

مهـــــا عبد الرحمن

(الشئون الاجتماعية ووزارات ومؤسسات أخرى، إضافة إلى مؤسسات المنح الأجنبية). اتفقت الآراء حول أهمية المستوى التعليمى والمهنى فى تشكيل العلاقة بين المنظمة وجمهور المنتفعين فى المجتمعات المحلية.

وعلى أرض الواقع، تبين أن أغلبية تمثل ٩٠,٧٪، من أعضاء مجالس إدارات منظمات عينة البحث، هم من موظفى الخدمة المدنية. وفسر العديد ذلك بأن ساعات العمل، فى الوظائف الحكومية، قصيرة نسبيًا وتمكن من أداء أعمال تطوعية. وفى ٤٠ حالة (٦٦٪)، يوجد عضو مجلس إدارة تقاعد من، أو لا يزال يعمل فى، وزارة الشئون الاجتماعية. ومن بين هذه الحالات ٣٠ مؤسسة تنمية مجتمعية، تعتمد على وزارة الشئون فى إمدادها بالموظفين، والتمويل؛ وهذه المؤسسات عادة ما تعمل كوكيل تنفيذى لمشاريع الوزارة، وينتهى الأمر - بقيادات هذه المؤسسات، إلى أداء دور مزدوج. وهذه «الترتيبات» تعد فى نظر البعض دليل احتواء وفقدان للاستقلالية؛ وينظر إليها قيادات المؤسسات المعنية كامتياز للمنظمة غير الحكومية باعتبار أن أعضاء مجالس هذه المؤسسات الذين كانوا يعملون، أو يعملون، فى وزارة الشئون الاجتماعية، أكثر الناس خبرة بالقوانين والعقبات البيروقراطية، وهذا يساعد المنظمة غير الحكومية ويحل مشاكلها بكفاءة أكبر، وفى وقت أسرع.

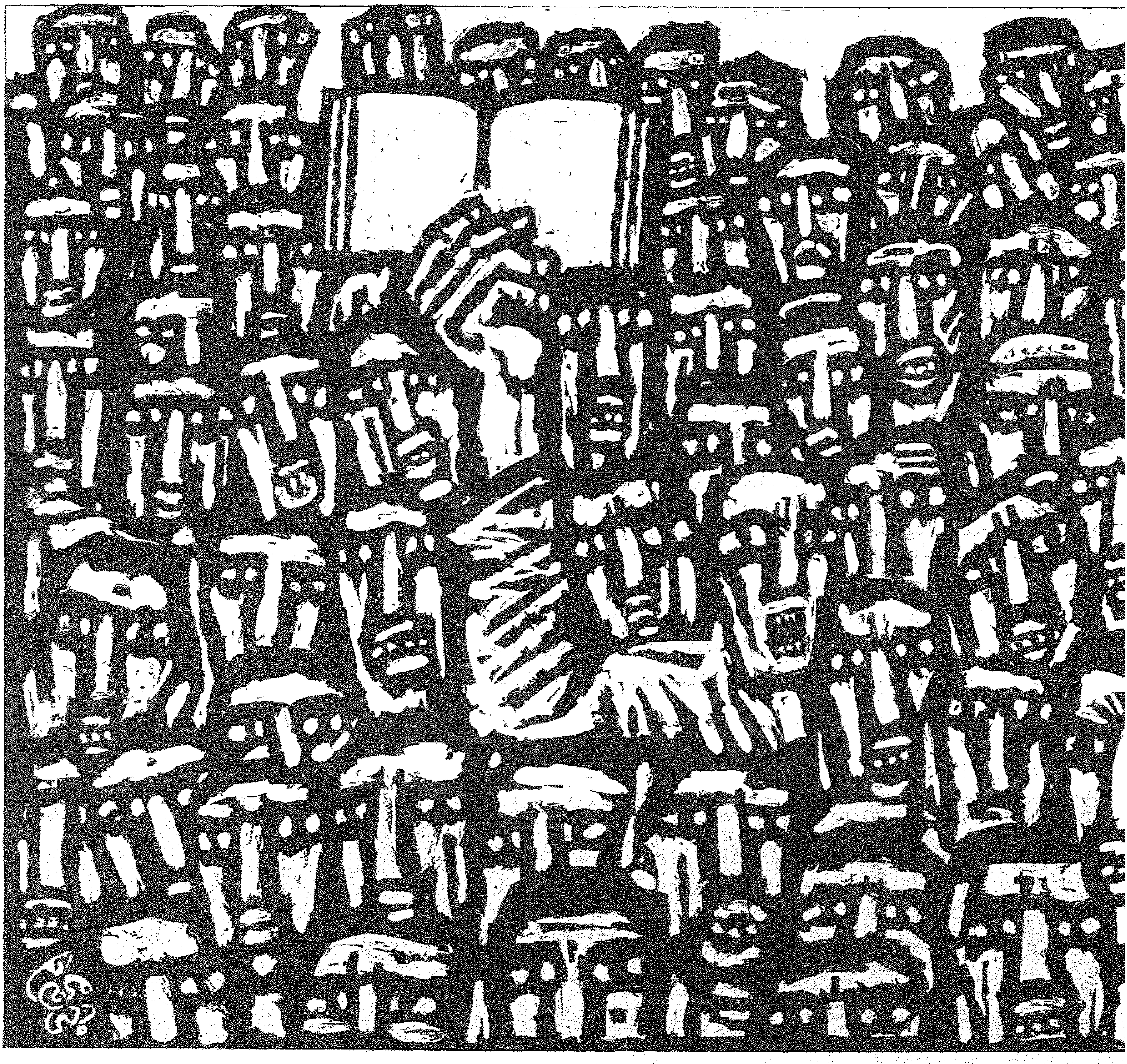
تقليدية أم حديثة؟

عندما يتم اختيار قيادات، أو أعضاء مجلس إدارة، لمنظمة غير حكومية، فى الريف، لا يكون الأساس الطبقى، أو درجة الثراء، وحدهما، وراء الاختيار، ولكن يوضع فى الاعتبار - أيضًا - وضع عائلة المختار وعلاقاتها بالعائلات الأخرى فى المنطقة أو القرية. ولأن الخصومات فى صعيد مصر تسفر عن وقوع ضحايا فى كل عام، أصبح من الحيوى أن يكون اختيار قيادات العمل غير الحكومى من عائلات محايدة.

وتعد السن معيارًا آخر له أهمية عند اختيار الرئيس أو عضو مجلس الإدارة. وتبين أن الأغلبية فى عينة البحث (٧٣٪) أكثر من ٥٠ عامًا. وأن أصغر عضو عمره ٣٥ عامًا. تفسير ذلك يكمن فى أمرين: الأول أن كبار السن يتمتعون - عادة - بثقة واحترام المجتمع المحلى «الذى لا يزال يفضل أن يرى، فى مواقع المسئولية، أشخاصًا يتسمون بالنضج، وينظر إلى صغار السن باعتبارهم لا يعتمد عليهم، ولا يهتمون بالعمل العام». وبدلاً من مواجهة هذا المفهوم، نجد المنظمات غير الحكومية تدعمه.

التفسير الثانى يمكن إجماله فى أن «الطبيعة التطوعية»، لعمل هذه المنظمات، تعنى - ضمنيًا - تمتع الأعضاء بمصدر دخل مستقر يسمح لهم بإنفاق وقت فى عمل مجتمعى و«ليس من المعقول أن ينفق الشباب، الذى لا يزال يكافح لبناء حياته المهنية والعائلية، الساعات فى عمل تطوعى. علينا أن نحيطه علمًا بنشاطات المنظمة فى منطقته، ونتركه يؤمن مستقبله هو أولاً، وبعدها سيأتى دوره فى عمل المسئوليات داخل هذه المنظمات».

هذا المنطق نراه ساريًا أيضًا عند تفسير وسطية الأساس الطبقى للأعضاء وغياب الطبقة العاملة والفئات الأفقر فى المجتمع: «انشغال الفقراء فى كسب قوت



يومهم يحول دون تفكيرهم فى، والعمل على، تحسين أحوال معيشتهم». وفى تقدير أعضاء المنظمات فى عينة البحث أن الصغار والفقراء عليهم ترك أمر رعايتهم وتدبير مصالحهم للمجموعات الأكبر والأغنى فى المجتمع.

يلاحظ، أيضاً، أن «طبيعة العمل التطوعى» استخدمت فى تبرير البقاء فى عضوية مجالس الإدارة لفترات طويلة، وتظهر عينة البحث أن هناك من أمضوا ٢٠ عاماً فى مواقعهم القيادية داخل المنظمات، وأن الأغلبية (٨٧٪) تحتل مواقعها منذ تأسيس هذه المنظمات، رغم أن القانون يحدد مدة العضوية بثلاث سنوات وينص، أكثر من ذلك، على ضرورة إعادة انتخاب ثلث الأعضاء فى كل عام، وذلك لضمان توسيع المشاركة وتجديد دماء المنظمة.

من جانب آخر، يعد تنظيم اجتماعى شهرى، لمجلس الإدارة، أحد المحاور التى تفتقر إلى الاحترافية والجدية فى عمل المنظمات غير الحكومية. وينص القانون على ضرورة عقد هذا الاجتماع مرة فى كل شهر، على الأقل - ولضمان التزام الأعضاء، ينص القانون على أن العضو يعد مستقيلاً إذا ما تعذر عليه حضور أكثر من نصف عدد مرات الاجتماع على مدار العام. ويقول أحد أعضاء منظمات عينة البحث إن هذه المادة، من القانون، إذا ما طبقت لن تبقى على أحد فى عضوية المجلس. والمأزق أن عدداً كبيراً من أعضاء مجالس إدارة معظم المنظمات لا يحضر نصف الاجتماعات المقررة. كما أن عدداً آخر أقر بأن الاجتماعات لا تعقد بشكل شهرى. وتبين من البحث أن ٢١ منظمة، فى صعيد مصر، لم تعقد اجتماع مجلس إدارة - بالنصاب القانونى - لأكثر من عام.

وقال ٧٣٪ من أعضاء مجالس المنظمات أن هناك صعوبة بالغة إذا ما دعت الحاجة إلى عقد اجتماع لبحث قضايا مهمة، حيث يعتذر معظم الأعضاء بأن لديهم ارتباطات تحول بينهم وبين الحضور. كما أن رئيس المجلس يجد حرجاً فى التذكير المسبق للأعضاء بموعد الاجتماع، ويرى فى ذلك «نوعاً من الرسميات»، خاصة إذا ما كان للأعضاء مكانة اجتماعية أرفع من مكانته، أو كانوا أكبر سناً.

فى هذه الحالات، عندما يتعذر عقد الاجتماعات، يتم «فبركة» محضر الانعقاد، الذى يتطلبه القانون، ويرسل إلى الوزارات «التى تدرك الأطوار الغريبة للاجتماعات» ولا تهتم بإرسال ممثل عنها، كما يدرك أعضاء مجالس إدارة المنظمات «أن الوزارة راغبة فى التغاضى عن هذا الخرق - الثانوى - للقانون طالما أن طبيعة عمل المنظمة لا تمثل تهديداً لما اصطلح عليه - عادة - بأخلاقيات المجتمع وسلامة نظامه».

وتتمحور المساجلات بشأن المنظمات غير الحكومية حول قدرتها على «البناء» فى مواجهة مشاكل الفقر والتخلف. رغم ذلك تأتى «تقوية القدرات التنظيمية والإدارية» فى ذيل قائمة اهتمامات دوائر هذه المنظمات.

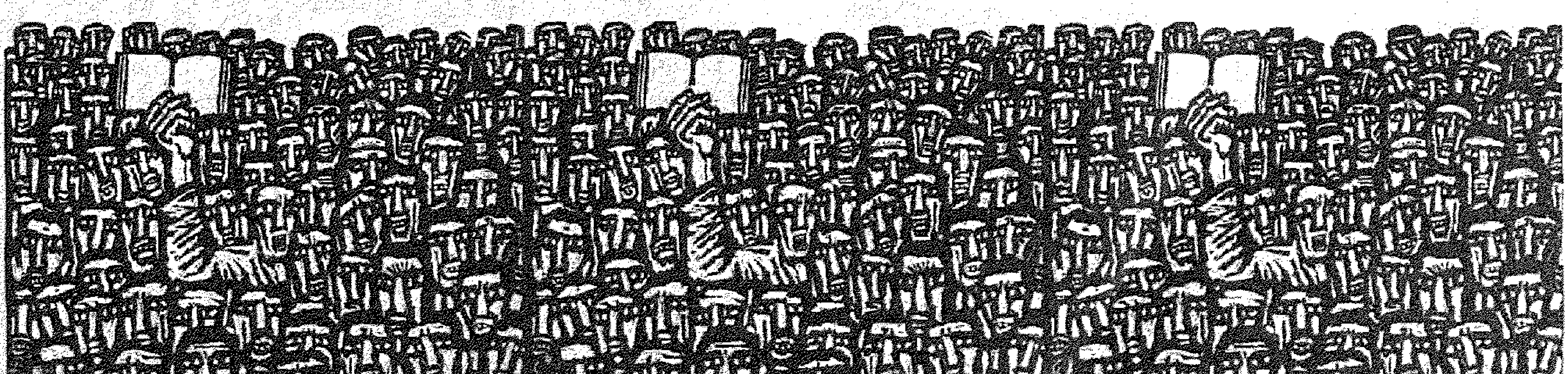
وفى الوقت الذى يتطلب فيه البناء إعداد دورات تدريبية لأعضاء مجالس وهيئات عمل المنظمات، لرفع مستوى الأداء الاحترافى، لم يتلق ٨٦٪ من مجالس وأطقم عمل منظمات عينة البحث، أى دورة تدريبية قبل أو أثناء العمل فى هذه المنظمات. وفى حالات قليلة (٨ منظمات) تلقى بعض أعضاء مجالس الإدارة تدريبات نظمتها مؤسسات مانحة. وارتبط التدريب بمحورين محدودين يقدر أن لهما أهمية حيوية فى العلاقة بين المنظمات غير الحكومية والمانحين: كتابة المقترحات، وجمع التبرعات. وتواجه مثل هذه البرامج التدريبية بانتقادات عديدة لأنها لا تهتم بقضايا أخرى مثل: طبيعة العمل الاجتماعى، معنى التنمية، وأبحاث التسويق. ويعترف معظم أفراد عينة البحث بعدم حصولهم على خبرة حقيقية، أو تدريب على إدارة منظمة غير حكومية أو مشروع مجتمعى. والأغلبية لا ترى فى ذلك أى ضعف أو تقصير، خاصة مع وجود عضو لديه خبرة فى عمل مشابه فى منظمة حكومية: مجلس محلى، نادى شباب، أو الوزارة نفسها. هكذا نجد أن معظم المنظمات غير الحكومية، فى مصر، تدار بأساليب تقليدية لا تساعد على مشاركة حقيقية، وتجسد الأساليب نفسها التى يعانى منها المجتمع بشكل عام.

منظمات الفرد الواحد

رغم تعدد أعضاء مجالس إدارة المنظمات غير الحكومية، تتسم هذه المنظمات فى مصر بالفردية فى أسلوب الإدارة. وفى ٥١ منظمة، من عينة البحث، يحرص هذا الفرد على أن يكون مجلس الإدارة ليس أكثر من رمز، وأن يكون بقية الأعضاء فيه «ضيوف شرف فى معية القائد». وفى هذه الحالات تقتصر مسئولية معظم الأعضاء على إقرار ما يقرره العضو المسئول، أو «القائد الفعلى» الذى يكون عادة السكرتير أو أمين الصندوق أو مجرد عضو. هذا القائد الفعلى هو المسئول عن مختلف أوجه العمل، بما فى ذلك تسجيل المنظمة لدى وزارة الشئون، إعداد الميزانية السنوية وخطة العمل، متابعة جميع الإجراءات الروتينية مع الهيئات الحكومية، الاتصال المباشر بمؤسسات المنح الأجنبية، والمشاركة فى كل مراحل مشروعات المنظمة منذ البداية وإلى الإنجاز. ولا يوجد لدى المنظمات غير الحكومية توصيف يحدد الاختصاصات الوظيفية لمختلف أعضاء المجلس ومسئولياتهم. ولا يؤمن أعضاء هذه المنظمات بالحاجة إلى توزيع المسئوليات بين الأعضاء: «من يتواجد يقوم بالعمل المطلوب». هذا هو الرد إذا ما كان السؤال عن دور أو أدوار محددة للأعضاء، الأمر الذى يعنى - فى الواقع - أن شخصاً واحداً - عادة - هو الذى يتواجد معظم الوقت ويقوم بمعظم الأعمال. ومن أعراض الخمول لدى بقية أعضاء المجلس، قال العديد من أعضاء منظمات عينة البحث أنهم تحملوا المسئولية بعد إدراكهم أن لا أحد غيرهم يبدى اهتماماً بالعمل، وأن «المنظمة كادت تُحل لولا قيامهم بأداء أعمال كل الأعضاء». هكذا أصبحوا قيادات بالصدفة وليس بالتخطيط. واللافت أن الوزارة «المختصة» تشجع على نحو واضح، ولكن غير رسمى، أن وجود شخص واحد «يعرف كل شىء» يوفر الكثير من الجهد والوقت. ورغم الأدبيات البلاغية «المشاركة» لم تبذل الهيئات الأخرى، أو المنظمات نفسها، وكذلك الوزارات، محاولة لعلاج أمراض الخمول وتشجيع قيام كل الأعضاء بدور أكثر فعالية.

هكذا تتشابه الهياكل التنظيمية، للشكل الحديث للمنظمات غير الحكومية، مع الهياكل التنظيمية فى المؤسسات الحكومية، مثل الوحدات

تبين أن أغلبية تمثل ٩٠,٧٪، من أعضاء مجالس إدارات المنظمات، هم من موظفى الخدمة المدنية. وفسر العديد ذلك بأن ساعات العمل، فى الوظائف الحكومية، تمكن من أداء أعمال تطوعية



الاجتماعية والزراعية والمجالس المحلية. وبما أن معظم أعضاء المنظمات غير الحكومية، أعضاء فى هيئات حكومية، ينظر المجتمع المحلى إلى المنظمات غير الحكومية وكأنها هيئات قطاع عام تقدم الخدمات الصحية والاجتماعية. نجد هذه «النظرة الدامجة» فى المناطق الريفية. لكن الوضع فى المنظمات العاملة فى مجالات تنمية المجتمع يختلف عنه فى منظمات أخرى، وخاصة الحقوقية، والقبطية الكبيرة، حيث يكون دور مجالس الإدارة هو دور استشارى أكثر منه تنفيذيا، ويتم الاستعانة بالعاملين المحترفين للقيام بالأدوار التنفيذية، ويترك لمجالس الإدارة مناقشة وإقرار خطط المنظمة والقضايا ذات الطابع العام.

المـــرأة والمنظمات

يعد «تمكين المرأة» أحد الأهداف الرئيسية التى يجاهر بها، ويهلل لها، معظم المنظمات غير الحكومية. هذا الهدف يمكن تحقيقه من خلال إمداد المرأة، فى المجتمع، بفرص تحسين حياتها عبر دورات لمحو الأمية أو التدريب الحرفى، أو إشراكها فى عملية صنع القرار.

وتظهر عينة البحث أن ١٤ منظمة، فقط، لديها تمثيل للمرأة فى مجالس إدارتها. وليس من بين تلك المنظمات واحدة إسلامية، والأغلبية لمؤسسات تنمية مجتمعية.

الأسباب التى قدمت لغياب المرأة تتبلور فى أمرين: التقاليد التى لا تشجع المرأة على العمل العام وتحدها بحدود المنزل، وخاصة فى صعيد مصر باستثناء حالات تكون فيها المرأة عاملة بأجر يساهم فى دخل الأسرة، والاعتقاد بأن المرأة لا تملك الوقت للعمل التطوعى، ولا تملك مهاراته.

تبين أيضاً، وخاصة فى صعيد مصر، أن النساء يتم تعيينهن فى المنظمات غير الحكومية تلبية لشرط - غير معلن - لمؤسسات المنح الأجنبية، وليس بسبب مهارتهن الشخصية والاحترافية.

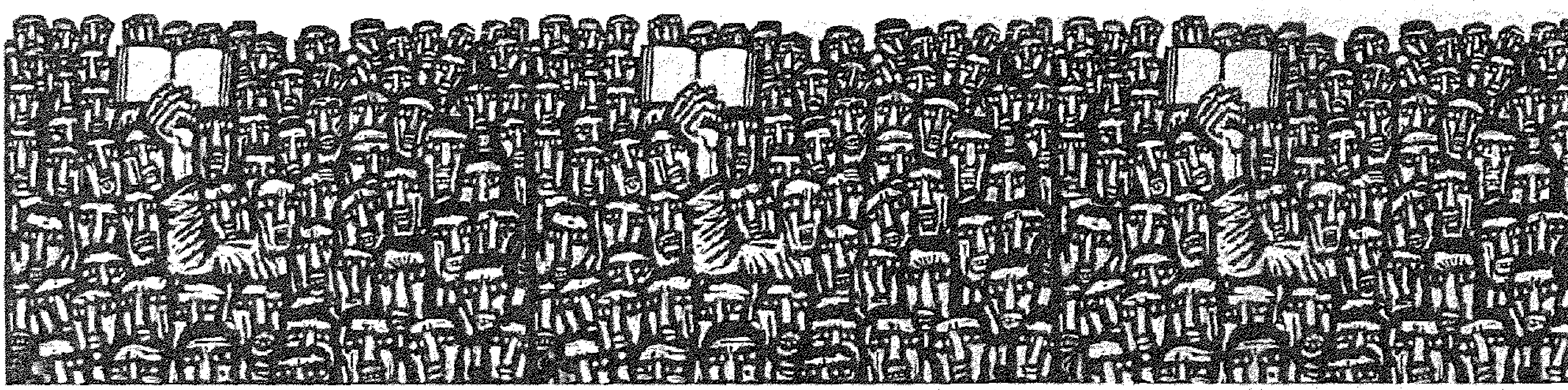
وفى منظمات عينة البحث، فى الصعيد، تبين أن المرأة الوحيدة فى مجلس الإدارة تم اختيارها بمجرد انضمامها إلى المنظمة. وفى أغلب حالات البحث كانت المرأة، عضو مجلس الإدارة هى زوجة أحد الأعضاء. وفى معظم الحالات يقتصر دور المرأة على التعامل مع السيدات المنتفعات بعمل المنظمة، ويتم استبعادها من العمل فى محاور أخرى وخاصة محور صناعة القرار. واللافت أن النساء أنفسهن لا يعرن الأمر التفاتا، ولم يأخذن المبادرة لتفعيل أدوارهن أو الرد على الادعاء بأنهن غير قادرات على العمل التطوعى ويفتقدن القدرة والمهارات، باستثناء سيدة واحدة، عضو فى مجلس إدارة منظمة قبطية، وتظهر نشاطاً فى الاتصال وجذب النساء إلى برامج التخطيط الأسرى. وقد أعربت عن تفاؤل بشأن انضمام النساء إلى مجالس إدارة المنظمات غير الحكومية رغم وضوح هامشية أدوارهن بما فى ذلك دورها هى أيضاً. ورغم مطالبة المؤسسات المانحة بضرورة إشراك المرأة وضمها إلى مجالس إدارة المنظمات غير الحكومية، إلا أنها لا تتابع أو تراقب فعالية هذه المشاركة، وما إذا كانت تساعد، أم لا، فى تمكين المرأة داخل المنظمات، وفى المجتمع ككل. الحال يختلف فى القاهرة حيث ترتفع نسبة تمثيل المرأة فى مجالس إدارة هذه المنظمات. كل النساء العضوات يمثلن خلفية تعليمية متميزة، وينظرن إلى أنفسهن كجزء أصيل متمم، وليس كفئة ثانوية. يلتحق النساء بهذه المنظمات بمبادرات ذاتية ولا يواجهن صعوبات بسبب النوع. وفى منظمتين حقوقيتين، من منظمات عينة البحث، تم التأسيس بجهود نسائية، وتكون مجلس الإدارة من سيدات يقمن باتخاذ القرارات ووضع الخطط والاتصال بهيئات الدولة والمؤسسات المانحة والمنظمات النظيرة، وسبق لهن ممارسة أنشطة نسائية داخل أحزاب سياسية قبل التحاقهن بالعمل فى المنظمات غير الحكومية.

فئتان من العاملين

إضافة إلى الجمعية العمومية، ومجلس الإدارة، يلجأ العديد من المنظمات غير الحكومية إلى توظيف أفراد يوكل إليهم مسئوليات إدارية وفنية. ويمكن تقسيمهم إلى فئتين: المنتدبون من وزارة الشئون الاجتماعية، والمعنيون من قبل المنظمات. ويكشف إحصاء حديث أن عدد الموظفين المنتدبين يقدر بحوالى ٦٠ ألف موظف، تقوم الوزارة بدفع رواتبهم ومعاشاتهم وتسديد تأميناتهم. ورغم عدم وجود إحصاء يبين توزيع هذا العدد من الموظفين على مختلف أنواع المنظمات غير الحكومية، إلا أن المعتقد لدى معظم المسئولين فى الوزارة أن الأغلبية من المنتدبين يعملون لدى مؤسسات تنمية المجتمع التى نشأت - فى حالات كثيرة - بمبادرات من الوزارة نفسها التى تحتفظ بروابط وثيقة مع هذه المؤسسات، التى تعتمد - بدورها - على الوزارة فى التمويل وفى الإمداد بالموظفين. هذا الوضع، ومن وجهة نظر منظمات أخرى غير حكومية، يعد امتداداً لدواوينية الدولة. فى حين ترى المنظمات المستفيدة أن هذا النظام له فوائد مشتركة (حل عمل المنظمات غير الحكومية). لكن المنظمات التى لا تستفيد بنظام المنتدبين تجد صعوبة بالغة فى جلب محترفين والتعاقد معهم بسبب ضعف الإمكانات المالية. وتظل النقطة الجوهرية هى: كيف تؤثر هذه الترتيبات ما بين الوزارة والمنظمات على عمل المنظمات نفسها، وأهدافها؟ لقد تبين أن المنتدبين إلى ٣٠ مؤسسة تنمية فى عينة البحث، يحتلون وظائف بعينها داخل المنظمات: مدرسات ومشرفات حضانة، إشراف على فصول حياكة، نظافة، وحراسة. ولا يوجد من بين ٢٧ مدرسة حضانة من تلقت تدريبات ذات صلة قبل أو بعد انتدابها. وعند استجوابهن تبين أنهن يفضلن العمل فى وظائف إدارية، هن مؤهلات لها، بدلاً من العمل مع الأطفال. ورغم أن الموظفين المنتدبين يحصلون على رواتبهم من الوزارة إلا أن الأخيرة تستبعدهم من نظم الحوافز، التى لا يحصلون عليها أيضاً من عملهم مع المنظمات غير الحكومية التى تتذرع بوجود مشاكل مالية.

ولا تعانى المنظمات غير الحكومية من الصعوبة البالغة فى تعيين الخبرات التى تحتاجها فحسب، بل تعانى أيضاً من عدم إمكانية الحفاظ عليها. ويتضح هذا بشكل جلى فى المنظمات التى تدير عيادات صحية وتستعين بأطباء يرى معظمهم أن عمله فى مثل

«طبيعة العمل التطوعى» استخدمت فى تبرير البقاء فى عضوية مجالس الإدارة لفترات طويلة، وظهر أن هناك من أمضوا ٢٠ عاماً فى مواقعهم القيادية، وأن الأغلبية (٨٧٪) تحتل مواقعها منذ التأسيس



هذه المنظمات مجرد مرحلة انتقالية فى حياته المهنية، إلى أن يتمكن من الحصول على وظائف أفضل.

تبدو المنظمات الدينية، الإسلامية والقبطية، فى وضع أفضل من غيرها، وخاصة تلك العاملة على المستوى القومى ولديها ميزانيات كبيرة وقدرة على دفع رواتب معقولة، وتقديم خدمات جيدة. ثم إن الطبيعة الدينية لهذه المنظمات تجذب العديد من المهنيين، ومن بينهم الأطباء، الذين يرون فى عملهم هذا على أسس تطوعية أو برواتب ضعيفة، واجباً دينياً.

وعلى صعيد الاتصال، والحد الأدنى المطلوب من التفاعل بين أعضاء الهيئة العاملة من جانب، أظهر البحث أن العاملين فى هذه المنظمات، وباستثناء بعض العاملين فى منظمات قبطية قومية غير حكومية، لا يدعون إلى اجتماعات الجمعية العمومية أو مجالس الإدارة، وأن كل القرارات المتعلقة بالعمل تمرر إليهم بشكل تسلسلى، باستثناء حالات قليلة يطلب فيها رأى الموظف فى أمور فنية. ولا يحصل العاملون على تلقين أو تلخيص بشأن العمل بشكل عام، سواء عند التحاقهم به، أو خلال عملهم فى المنظمة. ورغم أن معظم النشاطات تتم داخل مقر المنظمة إلا أن بعض العاملين لم يكن باستطاعته تمييز النشاطات التى لا يشارك فيها بشكل مباشر، ونادراً ما يشارك أعضاء هيئة العاملين فى عملية صنع القرار. وبما أن المنظمات غير الحكومية تنادى بضرورة «التمكين» ومشاركة المجتمع فى تحسين مستويات معيشة أفراده، يصبح من المشروع التساؤل: كيف يمكن للعاملين فى هذه المنظمات، الذين يشعرون، هم أنفسهم، بأنهم غير متمكنين، ومستبعدون من المشاركة، بالإضافة إلى عدم قناعتهم بوظائفهم، أن نتوقع منهم «تمكين» أفراد المجتمع، وتشجيعهم على المشاركة؟

التطوع الاحترافى

«المتطوعون» هم المكون الرابع لفريق عمل المنظمات غير الحكومية، إضافة إلى الجمعية العمومية، مجلس الإدارة، والعاملين. و«التطوع» هو العمود الفقرى فى عمل المنظمات غير الحكومية. ومعظم هذه المنظمات يعانى من عجز فى عدد المتطوعين، ومن غياب روح التطوع بين الناس.

يرجع البعض أسباب ذلك إلى أن الحكومات المتعاقبة أفسدت الناس عندما قدمت خدماتها إليهم دون تجهيزهم لتحمل المسئولية بأنفسهم.. وأن اشتداد الأزمة الاقتصادية تجعل الناس فى حالة انشغال تام، والعمل فى أكثر من وظيفة. ويعنى ذلك أن التطوع فى العمل الاجتماعى، أو تحمل المسئولية من أجل صالح المجتمع، أصبح - مرة أخرى - حكراً على الأغنياء والفئات المتميزة فى المجتمع.

وتاريخياً، كانت المنظمات غير الحكومية، فى أول نشأتها، تؤسس وتدار من قبل متطوعين من العائلة المالكة والطبقة الأرستقراطية. وقبل بزوغ هذه المنظمات الخيرية اعتاد الناس فى مجتمعاتهم المحلية التطوع، بالجهد والوقت والمال، لتحسين مستوى المعيشة فى المجتمع ككل. هذه التقاليد لا تزال سارية، وتستفيد بها منظمات المجتمع المدنى الحديثة بشكل جيد، وفى شكل تبرعات كريمة بالوقت والمال ممن يطلق عليهم اسم «المنتفعون». وفى البيئة المتطورة المعاصرة تطور مفهوم التطوع وأصبح مهنة مدفوعة الأجر تتطلب تدريبا ومهارات ترصد من أجلها الميزانيات. وبمعزل عن الجهود التى يبذلها أفراد المجتمع من أجل تحسين أحوال محلياتهم، وهى جهود سابقة على بزوغ المنظمات غير الحكومية، تدفع هذه المنظمات رواتب لمتطوعين مقابل أعمالهم. وفى الوقت الذى تسعى فيه المنظمات القومية الكبيرة إلى الحصول على عاملين (كل الوقت) فى مشروعاتها طويلة الأجل، تعجز المنظمات الصغيرة عن تشغيل متطوعين إلا بعض الوقت، وفى مشروعات قصيرة الأجل، ممولة بشكل ثابت من وكالات منح أجنبية.

وباستثناء محفظى القرآن، والأطباء، فى حالة المنظمات الدينية، يشار إلى المتطوعين فى عينة البحث، باعتبارهم «قيادات المجتمع»، وهو مصطلح يعود إلى فترة الخمسينيات عندما تأسست فى اتحاد مصر وحدات صحية واجتماعية جلبت أعضاء من المجتمعات المحلية للعمل «واجهات» وأداة وصل بين دواوين الحكومة والجماهير. كما يشار إلى «قيادات المجتمع»، أحياناً، باعتبارها قيادات «طبيعية» تؤرخ لبداية مهنة جديدة جرى إحياؤها خلال العقدين الماضيين بفضل جهود كان هدفها تنمية الموارد البشرية وتجديد شباب نظم الخدمة الاجتماعية كى تعمل كمحركات لتحقيق التنمية.

تتجه قيادات المجتمع العاملة فى منظمات غير حكومية إلى أن تكون قيادات لنساء فى منتصف العمر، عادة ما يشاركن فى مشروعات تعليم أو صحة أو تخطيط أسرة. «النوع» و«المرحلة العمرية» عاملان على غاية من الأهمية وخاصة فى المناطق الريفية حيث مسموح للنساء بدخول المنازل فى أى وقت، عكس الرجال الذين لا يستطيعون ذلك طبقاً للتقاليد. النساء فى منتصف العمر، وكبار السن، يمكنهم الاقتراب من الرجال بشكل مباشر، ومناقشة موضوعات شتى، دون حرج، عكس الصغار من النساء وخاصة غير المتزوجات، ووراء نجاحهن حقيقة أنهن يتمتعن باحترام وشعبية، وبثقة معظم أفراد المجتمع المحلى.

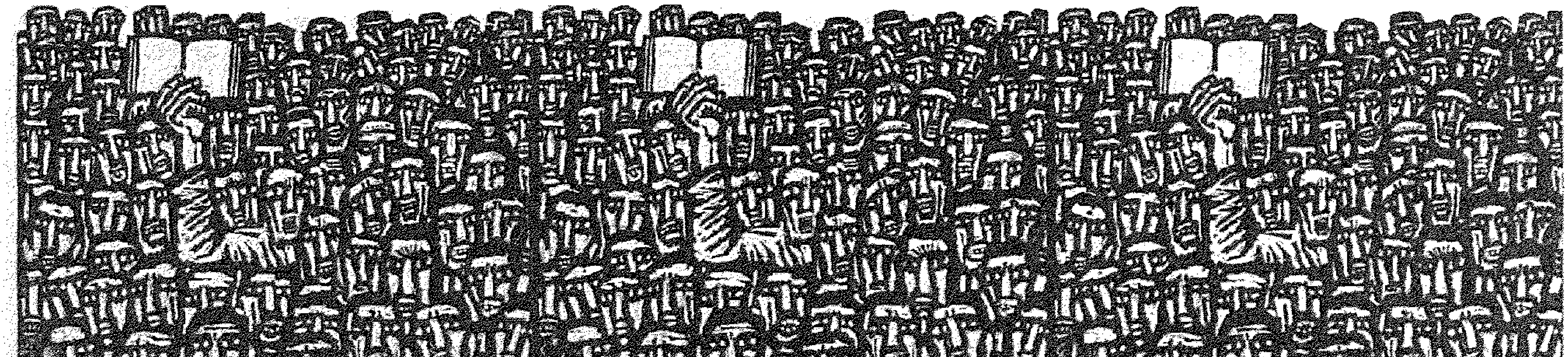
واللافت أن معظم أعضاء المنظمات غير الحكومية، باستثناء الجماعات الحقوقية ومنظمات قبطية، أقر بصعوبة جلب هذا النوع من المتطوعين «العدد قليل والطلب متزايد» بتزايد عدد المنظمات التى تحاول جلب وتدريب أعضاء من المجتمع لمواجهة هذا النقص فى المتطوعين المحترفين. ويظل التمويل، ودفع الرواتب، عقبة قائمة.

اتحادات المنظمات

لا يفرق القانون بين المنظمات غير الحكومية وبين اتحاداتها الإقليمية والنوعية والقومية. وتخضع هذه الاتحادات لإشراف الوزارة وللإجراءات الروتينية نفسها التى تطبق على المنظمات. أكثر من ذلك، ومثل غالبية المنظمات، لا يملك معظم الاتحادات هيئة عاملين لكل الوقت، الأمر الذى يجعلها عاجزة عن أداء وظيفتها تجاه المنظمات.

تعمل هذه الاتحادات - أيضاً - بميزانيات هزيلة تأتى - بشكل رئيسى - من

عندما يتعذر عقد الاجتماعات، يتم «فبركة» محضر الانعقاد، الذى يتطلبه القانون، ويرسل إلى الوزارات «التى تدرك الأطوار الغريبة للاجتماعات» ولا تهتم بإرسال ممثل عنها



رسوم وعائدات سنوية تقدمها المنظمات التابعة، وبعض اعتمادات مالية صغيرة من الوزارة. ولا يسمح القانون بتشكيل اتحادات منافسة - اتحاد إقليمى واحد فقط يمكن أن يوجد فى كل محافظة لكل نوعيات المنظمات غير الحكومية، واتحاد نوعى «متخصص» واحد لكل المنظمات العاملة فى مجال تخصصى بعينه.

ورغم أن مجالس الاتحادات تضم - عادة - أعضاء مجالس المنظمات، لا تسمح الوزارة لغير الأشخاص المنفصلين لديها، باحتلال مواقع فى الاتحادات. وتتضارب هذه السيطرة الفوقية مع جوهر ووظائف الاتحادات وقدرتها على تقديم العون، والتنسيق بين عمل المنظمات المحلية. هذا التداخل، إضافة إلى نقص الموارد البشرية، يجعل الاتحادات غير قادرة على تحقيق مستوى من التعاون بينها وبين المنظمات. ويرى العديد، فى عينة البحث، أن الاتحادات نفسها تساهم فى زيادة عدم التماسك بين هذه المنظمات. ويستخدم بعض أفراد العينة، فى هذا السياق، مصطلحات مثل «الفساد»، «العقم» و«إساءة استخدام السلطة».

المنتفعون والتمكين

يوجد فى أدبيات منظمات العمل غير الحكومى ما يؤكد ما لهذه المنظمات من سمات تميزها عن دواوين الحكومة أو القطاع الخاص، وتتعلق بطرقها التى تمكنها من الوصول إلى كل أعضاء المجتمع المحلى، وقدرتها على المبادرة، وعلى الإبقاء على روابطها مع متلقى خدماتها، أو «المنتفعين» كما هو متداول بين المعنيين بالأمر. لهذه الأسباب تسمى المنظمات غير الحكومية بـ «منظمات الشعب» واقترابها الكلى من عمليات التنمية موسوم بـ «تنمية الناس». ولا تؤمن هذه المنظمات بأنها أفضل من يعمل وسط الناس فحسب، بل تعتقد أيضاً أنها تعمل - بالوكالة - من أجل «تمكين» المجتمع وأفراده. وهذا ادعاء يتعرض لانتقادات أهمها أن المنتفعين، بالنسبة للمنظمات، ليسوا أكثر من متلقين.

تبين من البحث أن المنتفعين لا يملكون معلومات عن مصادر وعمليات المنظمات، وأن النخبة الممثلة فى قيادات هذه المنظمات لديها قناعة بأنها الأفضل تأهيلاً لاتخاذ القرار نيابة عن المنتفعين، ولصالحهم. وعلى مستوى التفاعل والتعامل وجهاً لوجه، قال العديد من المنتفعين إنهم لا يعرفون من هم أعضاء مجلس الإدارة. ورغم أن العينة المختارة جاءت صغيرة نسبياً (٢٠٠ منتفع) إلا أن أكثرهم - فى الريف وفى الحضر - لم يلتق ولو مرة واحدة بأحد من أعضاء مجلس الإدارة. بعض المنتفعين، فى مؤسسة تنمية فى القاهرة، قال إن دعوة واحدة وجهت مرة إليه وإلى آخرين، من أعضاء مجلس الإدارة. وتبين يوم اللقاء، غير الرسمى، أن أحد أعضاء المجلس رشح فى انتخابات محلية وكان يحاول ضمان أصواتهم.

ترى أغلبية عينة البحث (١٧٤ شخصاً) عدم وجود حاجة إلى وجود علاقات مع مجالس إدارة المنظمات، أو تفعيل مشاركتهم فى أعمالها. وأعرب عدد صغير جداً عن رفضه لأسلوب التهميش، ويرى أعضاء مجالس الإدارة، مع تأكيد حرصهم على تفعيل دور المنتفعين، أنهم جزء من المجتمع وأن لديهم دراية كافية بمشاكله واحتياجات الناس و«لا توجد ضرورة حقيقية لإشراك أعضاء المجتمع المحلى فى تحديد المشاكل أو اقتراح استراتيجيات التغلب عليها».

يتم أيضاً استبعاد المنتفعين عن دوائر صنع القرار ولا يسمح لهم بالمشاركة فى انتخابات مجالس الإدارة. يضاف إلى ذلك استبعادهم عن مناطق أخرى أكثر أهمية وتتعلق بتقييم الأداء وجودة الخدمات. منطقتان فقط يسمح فيهما بمشاركة المنتفعين: جمع التبرعات، والتنفيذ الفعلى للمشروعات. أى أن الجهد الوحيد الذى تطلبه المنظمة من المجتمع المحلى يتمثل فى بذل المال والوقت والعمل. وينظر إلى هذه المشاركة باعتبارها تمكيناً.

وحقيقة أن المنتفعين يتم استبعادهم من المشاركة فى عملية تصميم وتقرير عمل المنظمات غير الحكومية، لا تعنى إبعادهم عن فرص ممارسة مزيد من السيطرة على تحسين أحوالهم المعيشية فحسب، بل تعنى أيضاً أن الخدمات التى تقدم إليهم لا تستجيب - بالضرورة - إلى قائمة أولوياتهم. ومن خلال ١٢ جلسة نقاش مع ١٢ مجموعة من سكان ٦ قرى، لم يذكر أمامهم أن النقاش يتعلق بما تفعله، أو لا تفعله، المنظمات غير الحكومية، تبين أن الأولويات الأكثر إلحاحاً هى، وبترتيب أهميتها: بناء نظام للصرف الصحى تفتقده القرى المعنية، تشييد مدارس تخلو منها القرية والقرى المحيطة المجاورة وخاصة للبنات، وزيادة عدد الوحدات الصحية إذ إن الموجود منها يعمل لساعات محددة ويغلق فى كثير من الأحيان لغياب المختص.

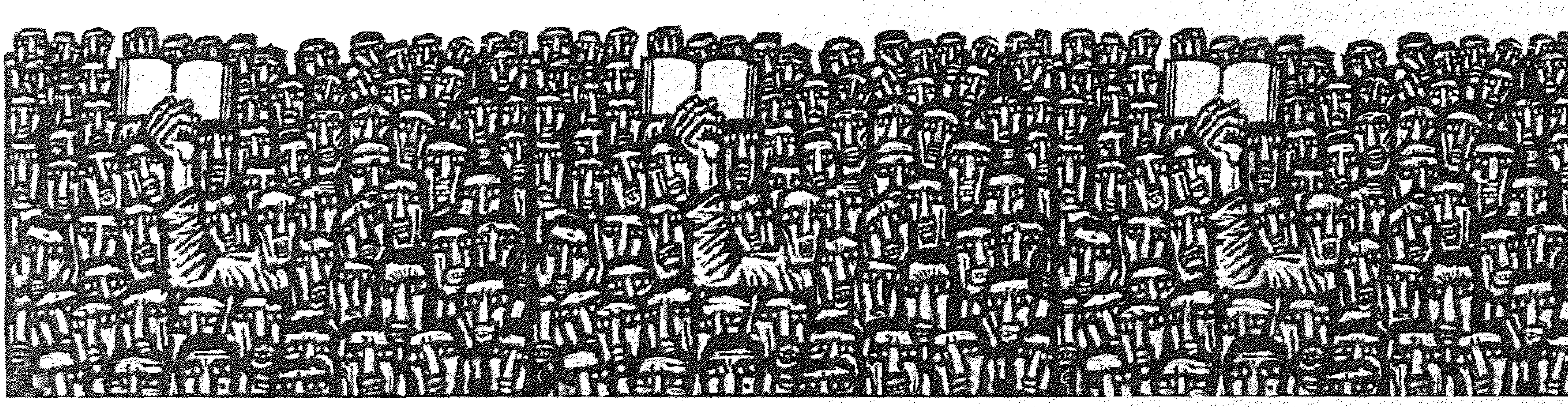
فى هذه القرى نفسها توجد ٤ مؤسسات للتنمية ومنظمة دينية، ولهذه المنظمات مركز واحد للرعاية اليومية، فصل لتعليم النساء حياكة الملابس، ودروس دينية للأطفال. ومن بين هذه المنظمات واحدة تنتج عسل النحل وتبيعه فى القرية بأسعار معقولة، والثانية تنظم فصول محو أمية للكبار. وعند سؤال أعضاء هذه المنظمات التعليق على نتائج جلسات المجموعات جاء الرد بأنهم لا يملكون التمويل اللازم لتنفيذ مشروعات يحتاجها الناس.

يتصدر «التمكين» أيضاً قائمة أهداف الجماعات الحقوقية، ومنظمات العون القانونى، والممثلة فى عينة البحث بنساء. وتمتد نشاطات هذه الجماعات من تقديم المساعدة القانونية المجانية إلى النساء فى المناطق الفقيرة، وتدريب ومعاونة صغار المحاميات على تنظيم حملات قومية فى قضايا تبدأ بـ «ختان البنات» وتصل إلى «تعديل الدستور». وهذه المنظمات الحقوقية فى عينة البحث بدأت العمل منذ سنوات قليلة (ما بين ١٩٩٣ و١٩٩٦). ومع قصر فترة التواجد، وسمو أهداف هذه المنظمات، يصبح من الصعوبة، ومن المبكر، اختبار ادعاء «التمكين» الذى يظل مصطلحاً مراوغاً يصعب قياسه.

مصادر التمويل

لا توجد أرقام محددة للدخول الفعلية للمنظمات غير الحكومية فى مصر، رغم الإشراف الصارم لوزارة الشئون الاجتماعية على مختلف أوجه عملها، بما فى ذلك ميزانياتها. هناك تقديرات فحسب، ولسنوات مختارة، فى سجلات الوزارة ومصادر أخرى، تشير - على سبيل المثال - إلى أن الدخل السنوى للمنظمات، عام ١٩٩٣، والمقدر

تبين أيضاً، وخاصة فى صعيد مصر، أن النساء يتم تعيينهن فى المنظمات غير الحكومية تلبية لشرط - غير معلن - لمؤسسات المنح الأجنبية، وليس بسبب مهارتهن الشخصية والاحترافية



عددها فى ذلك الوقت بحوالى ١٤.٥٠٠ منظمة، يتراوح ما بين ٨٥ و ١١٠ ملايين دولار أمريكى. هذا الدخل، إذا ما وزع بالتساوى بين جميع المنظمات يتبين أنه يتراوح ما بين ٥.٨٦٢ و٧.٥٨٦ دولار أمريكى، الأمر الذى يعنى أن الميزانيات ضئيلة جداً مقارنة بالأهداف. وعلى أرض الواقع لا توزع هذه الدخول الضئيلة بالتساوى، ويحصل البعض على أكثر مما يحصل عليه البعض الآخر. وتظهر عينة البحث أن الدخل السنوى لمنظمة دينية يصل إلى حوالى ٥ ملايين جنيه مصرى، بينما يصل الدخل، بالنسبة لـ (١٩) مؤسسة تنمية إلى أقل من ١٠٠٠ جنيه فى بعض السنوات.

ويشير تقرير نشر عام ١٩٩٩ إلى أن ٣٣٪ من إجمالى المنظمات لديها ميزانيات لا تزيد على ٥٠٠ جنيه مصرى فى العام.

ولدى المنظمات مصادر دخل مختلفة: منح الوزارة (سنوية واستثنائية للبناء والتشييد)، اشتراكات العضوية، التبرعات العامة ومن الأفراد والمؤسسات، التمويل الأجنبى. وتسيطر الوزارة على كل هذه الموارد بشكل أو آخر.

التعاون والتنسيق

من النادر العثور على دلائل تشير إلى تعاون أو تنسيق ما بين المنظمات غير الحكومية فى مصر. وإذا ما وجدت محاولات داخل منظمات متطابقة فى النوعية، توجد المخاوف المتأصلة، والشكوك المتبادلة، والعداء بين مختلف الفئات، وتؤدى إلى بقاء المحاولات فى وضع متأرجح، إن لم يكن نافراً فى فكرة «تعاون القوى المشتركة». الحالات الموثقة. فى هذا السياق. تمت بين مجموعات نسائية ومنظمات تعمل فى قضايا المرأة والطفل. وبدأ هذا الاتجاه فى عام ١٩٩٤، قبيل انعقاد المؤتمر العالمى للسكان فى القاهرة. وقد أسفر هذا الاتجاه عن تشكيل لجنة مشتركة من منظمات غير حكومية تعمل فى مجال السكان والتنمية. وقد أسست وزارة السكان اللجنة بمبادرة من المنظمات المشار إليها. الجانب الآخر من الصورة يتمثل فى العدد المتنامى لحالات انفصل فيها أعضاء من منظمات وشكلوا منظمات جديدة. وما بين عامى ١٩٩٦ و١٩٩٧، تأسست منظمتان نسائيتان بواسطة عضوات سابقات فى المنظمة المصرية لحقوق الإنسان وكلتاهما تقدم الدعم القانونى للمرأة فى المناطق الريفية. ومن المبكر الحكم ما إذا كان هذا الاتجاه إيجابياً، بمعنى أنه يضمن تقديم المزيد والأفضل من الخدمات، أم أنه يزيد من التشرذم فى قطاع المنظمات غير الحكومية.

يبدو المجتمع المدنى فى مصر وكأنه فضاء سياسى تتنازعه برامج سياسية شتى، وقد استحدثت منظماته، وخاصة غير الحكومية، بواسطة مختلف المعسكرات السياسية، لحشد وكسب دعم الجماهير لمشاريعها، فى مناخ من المبارزات. رغم ذلك تظل المنظمات غير الحكومية هى المكون الأكبر للمجتمع المدنى، والأعلى صوتاً، والأكثر قدرة على إمكانية التغيير. ■

ترجمة: جمـــال إسماعيل

تقسيمات ورمـــوز

فى عام ١٩٩٦، قدرت إحصاءات رسمية عدد المنظمات غير الحكومية (NGOs) فى مصر بحوالى ١٥٠٠٠ منظمة. لكن دراسة مستقلة، أكثر جدة، قدرت العدد - فى عام ١٩٩٨ - بحوالى ١٩.٢٤٨ منظمة. وذكرت دراسة أخرى أن العدد يرتفع إلى ٢٨ ألف منظمة.

تسجل هذه المنظمات فى وزارة الشئون الاجتماعية، التى تشرف عليها. وتعمل هذه المنظمات طبقًا للقانون رقم ٣٢ لسنة ١٩٦٤، قبل أن يحل محله القانون رقم ٨٤ لسنة ٢٠٠٢.

يقسم هذا القانون جميع المنظمات المصرية، غير الحكومية على فئتين: جمعيات رعاية (منظمات خيرية)، ومؤسسات تنمية مجتمع CDAs وفى الوقت الذى لا يسمح فيه القانون للمنظمات الخيرية بالعمل إلا فى نشاط واحد (خدمات صحية، رعاية سجناء، محو أمية)، يسمح لمؤسسات تنمية المجتمع بممارسة ما تراه من أنشطة توافق عليها الوزارة (الشئون الاجتماعية) باعتبارها مناسبة لتنمية المجتمع ككل. وفى حين ترتبط مؤسسات التنمية بمحيط محلى واحد، حضرى أو ريفى، لا ترتبط المنظمات الخيرية بنطاق جغرافى.

يجسد هذا التصنيف إشكالية فى ظاهرة المنظمات غير الحكومية، إذ يدرجها - جميعها - ضمن فئتين عامتين، رغم تنوع الأهداف، ولا يلبى الاحتياجات المغايرة، ويخضع هذه المنظمات - مع اختلاف الاتجاهات - إلى قواعد تنظيمية واحدة. والأكثر من ذلك أنه يُقَنّع المصالح السياسية التى يمثلها بعض المنظمات.

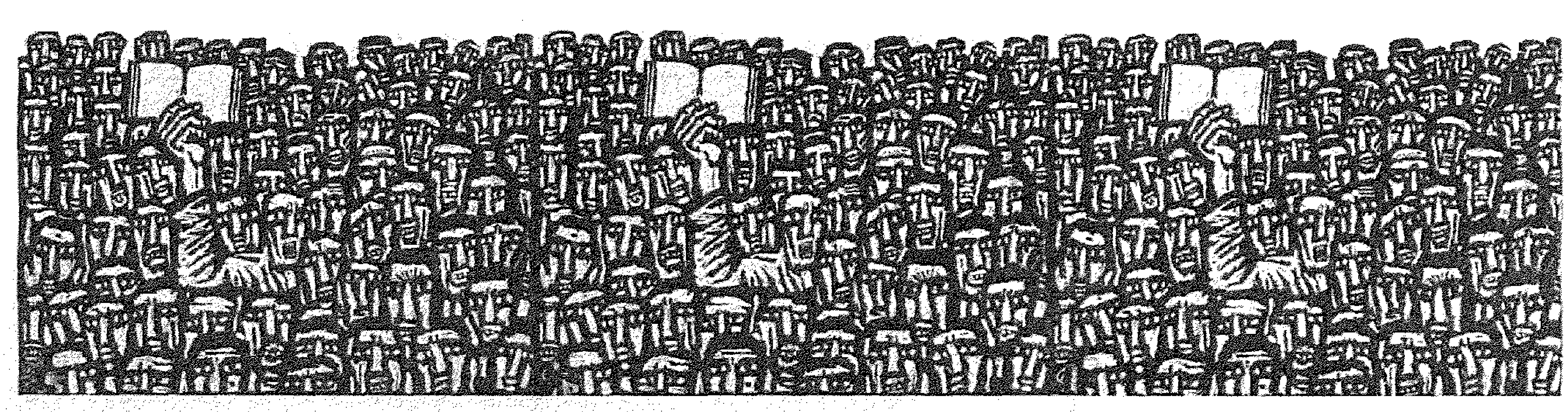
ولأن هذا التصنيف ينزع إلى التبسيط، ويعد مضللاً، تستخدم هذه الدراسة تصنيفًا أكثر تحديداً، يفرق بين ٥ فئات من المنظمات غير الحكومية: إسلامية، قبطية، مؤسسات تنمية مجتمع، جماعات حقوقية Advocacy، وجمعيات رجال أعمال.

معيار هذا التصنيف هو مدى التطابق من حيث الفلسفة والأهداف والبنية والعقيدة، وهو معيار ضرورى عند تسليط الضوء على فئات معترف بها رسميًا، مثل مؤسسات تنمية المجتمع التى تضم مجموعات متباينة فى الرؤى والأهداف، وفئات لمنظمات حقوقية علمانية لديها - عادة - أجندة سياسية، ومنظمات إسلامية ببرامج عمل تستند إلى رؤية للمجتمع والدولة، ومنظمات شبه رسمية تعتمد بشكل كبير على بيروقراطية «دواوينية» الدولة، فى أداء رسالتها ونشاطاتها.

ومن الصعب التعرف بدقة على عدد المنظمات الإسلامية إذ تسجل - عادة - كمنظمات دينية تشمل المنظمات القبطية. وفى عام ١٩٩١ قدرت نسبة المنظمات الإسلامية، إلى مجموع المنظمات، بـ ٤٣٪، ومثلت المنظمات القبطية ما نسبته ٩٪. وبلغت نسبة مؤسسات تنمية المجتمع بما يقارب ٢٥٪.

تضم المنظمات الحقوقية الفئات المعنية بحقوق الإنسان، حقوق المرأة، والبيئة. أما جمعيات رجال الأعمال فقد ظهرت منتصف ونهاية السبعينيات، فى عصر سياسة «الانفتاح»، كجماعات مصالح أكثر منها منظمات غير حكومية. والهدف الرئيسى لها هو تعزيز مصالح الأعضاء.

كيف يمكن للعاملين فى هذه المنظمات، الذين يشعرون، بأنهم غير متمكنين، ومستبعدون من المشاركة، أن نتوقع منهم «تمكين» أفراد المجتمع، وتشجيعهم على المشاركة؟

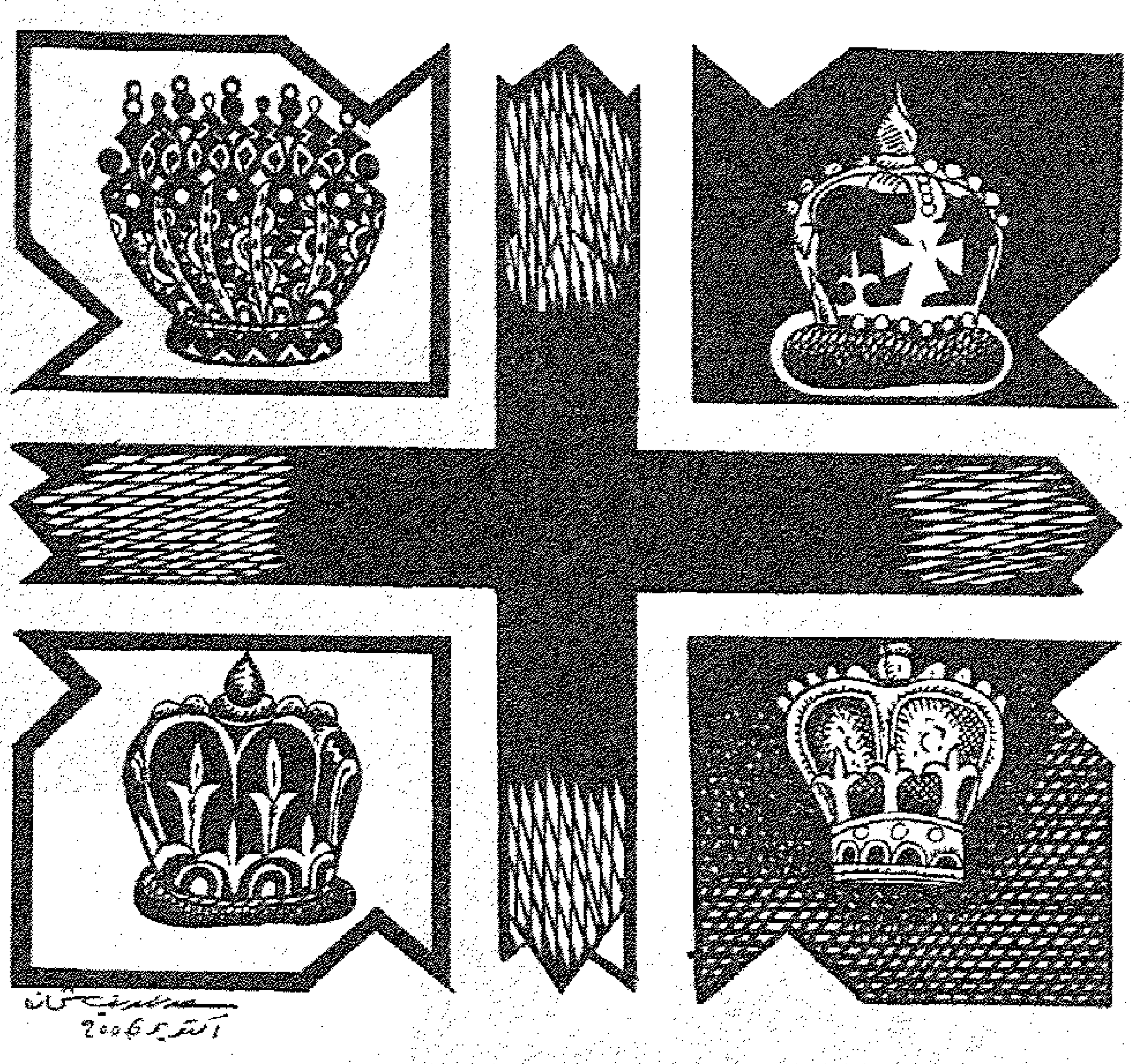




الديانة الأمريكية

زادت الثورة الأمريكية من تحول الديانة الأمريكية. فقد أقرت إيمان التنوير بحرية الضمير وظلت تفتت الصلة التى كانت ضعيفة أصلاً بين الكنيسة والدولة. ولكنها لم ترفض دور الدين فى الثقافة.

جـــــــــــــوردون س. وود



لم يكن التوفيق بين الدين والسياسة فى يوم من الأيام بالأمر الهين أو اليسير. ولا يدلنا على ذلك الصراع الطائفى الدموى الجارى فى العراق فحسب، بل كذلك النزاعات الانفعالية عندنا نحن؛ وإن لم يصل بنا الحال بعد إلى تفجير بعضنا البعض. فمن أبحاث الخلايا الجذعية إلى التصميم الذكى، ومن الصلاة فى المدارس إلى ذكر الرب فى قسم الولاء، تحدث قضايا الدين والسياسة فُرقة كبيرة بين الأمريكيين. ذلك أنه بينما يظن البعض أن البلاد قد نسيت الرب وميراثها المسيحى، يخشى البعض الآخر من استيلاء المتدينين المتحمسين على الحكومة والثقافة ليقيموا دولة يحكمها رجال الدين.

من المحتم أنه على مدى العقد المنصرم أو يزيد أغرق المتنازعون على الجانبين البلاد بكتب عن الدين والحكومة يروج كل منها لموقف كاتبه، حيث كان لدى معظمهم الكثير مما يقولونه عما كان يقصده المؤسسون فيما يتعلق بدور الدين. والواقع أن بيان أن المؤسسين كانوا سيقرون موقف الكاتب يبدو أمراً أساسياً بالنسبة لأى جدل بشأن الدين والحكومة.

الكتابان اللذان نعرضهما هنا محاولة للتدخل فى المجادلات الساخنة الحالية. وهما يسعيان للتوفيق بين الخلافات القومية والتقريب بين الأمريكيين من خلال إعادة رواية التاريخ الفعلى للدين فى أمريكا، وخاصة عند تأسيس الدولة. وكما يتفق الكاتبان، فنحن الأمريكيين لدينا تراث دينى غير عادى إلى حد كبير، إذ إننا لا نولد فى ديننا بالطريقة ذاتها التى نولد بها فى مواطنتنا. ذلك أن الدين شأن طوعى فى كثير من الأحيان، وهو مسألة اختيار حر. ولا توجد مؤسسة دينية هنا وليست هناك صلة رسمية على نحو كبير بين الدين والحكومة؛ والواقع أنه على امتداد الجيل السابق كان هناك اهتمام يكاد يكون مفرطاً بإبعاد الدين عن الثقافة العامة وشئون الدولة.

ومع ذلك فلم تؤد هذه النزعة الطوعية والفصل بين الكنيسة والدولة إلى اللامبالاة الدينية أو فتور الشعور الدينى. فالواقع أنه باستثناء أيرلندا، نجد أن الولايات المتحدة الدولة الدينية الوحيدة فى العالم الغربى. ويقول حوالى ٩٠ بالمائة من الأمريكيين إنهم يعتبرون أنفسهم مؤمنين متدينين من نوع أو آخر، ويعتنق حوالى ٨٠ بالمائة عقيدة مسيحية ما، ويؤمن ٧٩ بالمائة بميلاد العذراء، ويقول ٧٩ بالمائة إن يسوع قام قيامة مادية من الموت، ويزعم ٤٨ بالمائة أنهم عاشوا تجربة «الميلاد الثانى» المسيحية، ويقول أكثر من ٤٠ بالمائة من الأمريكيين إنهم يرتادون الكنيسة أسبوعياً، مع أن نسبة من يرتادون الكنيسة بالفعل قد تكون أقرب إلى ٢٥ بالمائة. وعلى أية حال، فهناك عدد ضخم من الجماعات الدينية المختلفة، يصل بها أحد الإحصاءات إلى أكثر من ١٥٠٠ جماعة، من بينها أكثر من خمسة وسبعين نوعاً مختلفاً من المعمدانيين وحدهم. بل إنه فى مواجهة «العلمانية» القاسية فى القرنين العشرين والحادى والعشرين، مازال الدين فى أمريكا مزدهراً. وإلى جانب كون الدين معفياً من الضرائب، فهو يزدهر بدون دعم من الحكومة أو الدولة، وبدون أى من المؤسسات التقليدية التى حافظت على الأديان فى أماكن أخرى فى غيرها من الدول. فكيف تطورت تلك الثقافة الدينية غير العادية؟ وما هى الظروف التاريخية التى خلقت هذا العالم الدينى المتميز؟

لم يكن الأمر على هذا النحو فى البداية. ففى زمن المستعمرات الأولى فى القرن السابع عشر، كان معظم المستعمرين المهاجرين إلى العالم الجديد يأتون معهم بالمواقف التقليدية الخاصة بالأوروبيين فيما يتعلق بالدين. وكان الدين يدخل فى كل شىء. ورغم ما حدث من تقدم فى العلوم فى القرن السابع عشر، كان الدين لا يزال الوسيلة الكبرى التى يفسر بها معظم الناس العالم. وكان معظم المهاجرين إلى أمريكا، كشأن معظم الأوروبيين فى تلك الفترة ومثل أناس كثيرين فى أماكن أخرى من العالم اليوم، يفترضون أن رخاء الدولة يتوقف على وجود التماثل الدينى داخلها. وكانوا يفترضون أن هناك حقيقة دينية قويمة تفسر العالم وأن مسئولية الدولة هى فرض تلك الحقيقة. ولم يكن معظم المستعمرين يفكرون فى أى فصل حقيقى بين الكنيسة والدولة؛ فقد كان الدين والحكومة شطرين من وحدة كاملة غاياتها واحدة؛ وكان الدين ومجد الرب من أجل الجماعة الواحدة ذات المصلحة المشتركة. كما كان الدين مهماً لرفاهية الشعب الذى كانت الدولة تتحمل بالضرورة مسئولية دعمه الكبرى بكل طريقة ممكنة؛ بدءاً من جمع العشور ودفع رواتب رجال الدين حتى معاقبة الهراطقة والمنشقين.

صحيح أن أتباع طائفة البيوريتان الذين جاءوا إلى خليج ماساتشوستس فى عام ١٦٣٠ كانوا فارين من اضطهاد كبير أساقفة كانتربرى لود وكنيسة بريطانيا الأنجليكانية التراتبية. غير أنهم لم يكونوا يسعون إلى التسامح الدينى بالمعنى الحديث. فقد كانوا لا يبغون سوى ممارسة الحقيقة الدينية القويمة كما يرونها، وما إن سيطروا على كنائس خليج ماساتشوستس حتى أقاموا أكبر قدر ممكن من التماثل الدينى فى العالم الجديد، وهو ما كان كبير أساقفة كانتربرى لود يسعى إليه فى العالم القديم. فكانوا يطالبون السكان بارتياد الكنائس البيوريتانية وسرعان ما قضوا على الانشقاق، إما بنفى المنشقين أو شنقهم. ولأن التركيبة الكنسية التى كانوا يؤيدونها تقوم على الأبرشيات، وكانت بالتالى تتناسب بشكل مثالى مع اتجاهات الحياة الأمريكية الخاصة بإضفاء السمة المحلية، فقد نجح بيوريتانيو ماساتشوستس نجاحاً كبيراً فى دينهم الدين الرسمى؛ والواقع أن مؤسستهم الدينية الأبرشانية فى ماساتشوستس أصبحت فى نهاية الأمر الأطول بقاءً فى الولايات المتحدة، حيث حافظت على وجودها حتى عام ١٨٣٣.

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: أحمد محمود

مع أن دساتير الولايات الثورية لعام ١٧٧٦ أكدت جميعها بطريقة أو بأخرى إيمان التنوير بالحرية الدينية، فإن معظمها لم يتخل عن دوره التقليدى فى الأمور الدينية

ومع ذلك، تآمرت الظروف فى أماكن أخرى من العالم الجديد لتغيير المؤسسات الدينية الأوروبية التقليدية. فلم يكن المستعمرون الإنجليز فى فيرجينيا يستهدفون إلا إقامة نوع من الكنيسة التى كانوا يعرفونها فى العالم القديم؛ وهى فرع فيما وراء البحار من كنيسة إنجلترا. ولكن لم يأت إلى أمريكا أساقفة أو كبار أساقفة، وبالتالى لم يكن هناك تكرار لتراتب كنيسة إنجلترا المعقد فى فيرجينيا أو أى مكان آخر من العالم الجديد.

وفى بعض المستعمرات كان وجود طوائف عديدة داخل المجتمع الواحد يجبر على إجراء تغييرات فى التفكير. فقد استوطنت مستعمرة ميريلاند على سبيل المثال باعتبارها ملجأ للكاثوليك الإنجليز. ولكن بما أن الكاثوليك لم يكونوا يشكلون أغلبية المستعمرين، فقد شعر مُلاك ميريلاند، وهم عائلة كال فيرت، فى عام ١٦٤٩ بأنهم مضطرون لإصدار قانون التسامح الشهير الخاص بميريلاند. ونص القانون على أنه لضمان الهدوء العام. ولهذا السبب وحده. يُمنح كل المسيحيين المؤمنين بالتثليث الحق فى ممارسة دينهم بحرية.

لم تكن تلك بالوثيقة الحديثة. فهى لم تذكر شيئاً عن الفصل بين الكنيسة والدولة أو عن حرية الضمير الفردى. بل كانت مجرد أداة براجماتية محدودة المقصود بها تلبية متطلبات الحفاظ على النظام فى المجتمع الذى توجد به ديانات عديدة. وتسامح القانون مع تلك الجماعات التى كان مضطراً للتسامح معها فحسب؛ وحظر سب الجماعات الدينية «بأسلوب توبيخى»، وعاقب بالموت كل المجدفين ومنكرى التثليث.

كانت بالمستعمرات الوسطى التى تضم نيويورك ونيوجيرزى وپنسلفانيا قدر أكبر من التنوع الدينى. وشملت تلك الجماعات الدينية الأنجليكانيين، والأبرشانيين، والمعمدانيين، والصاحبيين، والمشيخانيين، واللوثريين، والهيجونوت، والإصلاحيين الهولنديين والألمان، وحتى بعض اليهود. ولا شك فى أن تعددية الشعوب والأديان تلك كانت حقيقة أساسية تشكل طابع الحياة الدينية فى أمريكا العصور المبكرة، وخلق التنوع الشديد فى العرقيات والجماعات الدينية (والواقع أنه لم يكن هناك تميز بين الأمرين فى أمريكا العصور المبكرة) صعوبة شديدة فى إقامة أى نوع من المؤسسة الدينية وفرض التماثل والعقيدة التقليدية، رغم محاولة حكومات نيويورك ونيوجيرزى المتعاقبة ذلك.

الواقع أن مستعمرتين فى القرن السابع عشر تأسستا على مبدأ الحرية الدينية المثالى. ففى عام ١٦٨١ منح التاج البريطانى الأرستقراطى ويليام پن، من طائفة الصاحبيين، قطعة أرض كبيرة أصبحت مستعمرة پنسلفانيا وملجأ لطائفة الصاحبيين الإنجليزية المضطهدة. وكان جزء من حلم پن الخاص بإقامة مجتمع من الحب الأخوى رفض وجود أية مؤسسة دينية، ولم يكن منح الحرية الدينية للمستعمرة يعنى أى فصل بين الدين والحكومة. وكتب پن: «يبدو أن الحكومة جزء من الدين نفسه، فهى شىء مقدس فى مؤسساته وغرضه». وكان تصوره لدور الحكومة فى تنظيم الأخلاق ومعاقبة المجدفين ودعم السبت لا يختلف كثيراً عن دور البيوريتانيين فى نيو إنجلاند.

ونشأ وضع مشابه فى رود آيلاند القرن السابع عشر، حيث سعى روجر ويليامز، المرتد عن ماساتشوستس البيوريتانية، إلى بناء مجتمع مدنى للمنشقين البيوريتانيين الذين لم يلوثهم فساد الدولة. وكتب ويليامز أن «الرب لا يطالب بتماثل الدين»، ولا بوجود مؤسسة الكنيسة. وقال ويليامز إن الروح الداخلية للناس بحاجة إلى ما يحميها من الدولة، وبالتالى لابد من إقامة «جدار عازل» يفصل بين الكنيسة والشئون الدنيوية. إلا أن ويليامز كان يتوقع أن تفرض الدولة النظام فى المستعمرة.

رغم ذلك الشذوذ عن القاعدة، فقد كانت المستعمرات الأمريكية حتى منتصف القرن الثامن عشر لا تزال تعتقد أن الحقيقة الدينية متكاملة وأن مسئولية الدولة هى دعمها. ولكن وجود الطوائف المختلفة داخل المجتمع الواحد يجبر الناس على التسامح على نحو بطىء وبشكل ضنين. وفى الوقت نفسه كان منظرو التنوير، مثل جون لوك، يقدمون التبريرات الفكرية والفلسفية للتسامح وحرية الضمير التى أضعفت الإيمان التقليدى بالعقيدة القويمة والمؤسسة. وكانت الكنائس التى تدعمها الدولة فى كل مكان بالمستعمرات محاطة بأعداد متزايدة من المنشقين الذين اضطرت الكنائس إلى الاعتراف بهم والتسامح معهم. ومع ذلك، فإنه بالرغم من تنازلات التسامح، فقد ظلت الافتراضات القديمة قوية فى كل مكان تقريباً؛ إذ كان كل شخص فى المجتمع لا يزال لديه التزام بدعم الدين. ولو لم يكن ذلك الدين هو دين الكنيسة الرسمية، فقد يكون دين إحدى الطوائف المسيحية التى ينص القانون صراحة على الاعتراف بها والتسامح معها. ولم يعد هناك أحد، بمن فى ذلك اليهود، يتعرض للمضايقات أو يُشنق بسبب معتقداته الدينية. غير أن الجميع، باستثناء المسيحيين البروتستانت، كانوا يعانون فى كل مستعمرة تقريبًا من التفرقة السياسية.

غيرت الصحوة الكبرى، وهى سلسلة من الحركات الإحيائية التى اجتاحت المجتمعات فى مختلف أرجاء قارة أمريكا الشمالية فى العقود الوسطى من القرن الثامن عشر، المشهد الدينى الأمريكى من جديد. وكان جزء كبير من النزعة الإحيائية ينفذه القساوسة الجوالون الذين كانوا يغزون الأبرشيات الرسمية ويتحدون سلطة رجال الدين التقليديين. وأثناء ذلك كانت الكنائس الطائفية تتحطم، وكانت الأواصر التى تربط الناس بالقيود الدينية التقليدية تتفكك، وكان هناك تأكيد على منطق البروتستانتية الفردى بشكل لم يسبق له مثيل. وفقدت فكرتا العقيدة القويمة والتماثل الكثير والكثير من معناهما بالنسبة للأمريكيين. وكان رجال الدين الإحيائيون يحثون الناس على أن يثقوا فى «محاسبة النفس» وفى أحكامهم الخاصة فحسب، حتى وإن كان «جيرانك يتذمرون منك، ويوبخونك». وبلغ الأمر ببعض الوعاظ الإحيائيين حد التأكيد على «الضرورة المطلقة لكل شخص كى يتصرف على نحو فردى... وكأنه ليس هناك مخلوق بشرى آخر سواه على الأرض». وفى تلك الفترة كان عبء الروابط الدينية الجديدة للناس يقع بشكل واضح عليهم هم أنفسهم وعلى قراراتهم الفردية.

كانت نتائج اليقظة جذرية. فقد زادت من سرعة التطورات التى كانت تحدث منذ القرن السابع عشر. كما أنها أحدثت تحولاً آخر فى دور رجال الدين، وفتتت الكنائس المؤسسية على نحو لم يحدث من قبل، بل قوضت الاعتقاد التقليدى بأن الدين التزام جمعى. فقد قل فى أمريكا كون الدين مسألة شعائر وطقوس وزاد كونه مسألة اهتداء فردى. وقل كون رجال الدين جماعة كهنوتية من القساوسة تؤدى واجبات كهنوتية لمجتمع ثابت وزاد كونها جماعة من الوعاظ الإنجيليين الذى يسعون إلى إقناع الأفراد بالقدوم وإنقاذهم. ولم يعد الحكم على رجال الدين برفاهية المجتمع الذى يُفترض أنهم يخدمونه، وإنما بعدد الأرواح المفردة التى أنقذوها. وبناءً على ذلك أصبح رجال الدين أكثر اعتماداً على الناس الذين يحاولون إقناعهم. وفى ظل تلك الظروف كان من الصعب التفكير فى وجود قدر كبير من الوحدة بين الكنيسة والمجتمع.

زادت الثورة الأمريكية من تحول الديانة الأمريكية. فقد أقرت إيمان التنوير بحرية الضمير وظلت تفتت الصلة التى كانت ضعيفة أصلاً بين الكنيسة والدولة. ولكنها لم ترفض دور الدين فى الثقافة.

هنا تصبح القصة مثيرة للجدل ويستجمع مؤلفا الكتابين اللذين نعرضهما قدراً كبيراً من طاقتهما. ويقدم جون ميتشام مدير تحرير «نيوزويك» عرضاً كاملاً ومقروءاً جداً لما تمكن منه المؤسسون. ويدرك ميتشام أن قضية الدين والحياة العامة الحالية تثير مشاعر مكثفة.

وهو يقول إن أصحاب العقلية العلمانية يستشهدون حالياً بما قاله چيفرسون عن «الجدار العازل بين الكنيسة والدولة» ويفترضون أن النقاش ينبغى أن يتوقف عند هذه النقطة. ويدافع المسيحيون المحافظون من جانبهم عن غزواتهم للحياة العامة باقتباس ما قاله المؤسسون عن الدين، «وكأن واشنطن وآدامز وچيفرسون وفرانكلين كانوا جنوداً مسيحيين مبتهجين». ويقول ميتشام إن هذا الانقسام بشأن الدين يتسم بالعناد ويمكن أن ننهيه من خلال «استعادة معنى عصر التأسيس وروحه». وهو يظن أن المؤسسين لديهم ما يقولونه لنا بشأن قضية الدين فى الحياة العامة. فقد كانوا يؤمنون بكل من العقيدة والحرية، وهو ما يمكن أن نؤمن به نحن فى الوقت الراهن، «ذلك أن زمانهم كزماننا»، وصراعاتهم لها «صدى معين فى عصرنا».

إن هدف ميتشام الجدير بالثناء هدف شامل؛ إذ إن فكرته الرئيسية هى فلنقبل القليل من موقف كل جانب. وهو يعترف بأن «الإيمان بالرب أساسى بالنسبة لتجربة البلاد. ومع ذلك فالمركز العريض يرى أن الإيمان مسألة اختيار ولا إكراه فيه». وهو يقول إنه بذلك «يكون ميراث التأسيس هو ما يؤمن به المركز الواعى... إذ كان المؤسسون يؤمنون بأنهم يعملون فى خدمة الرب والإنسان، وليس فى خدمة أىٍ منهما دون الآخر». فقد أقاموا توازناً بين الرب والحكومة، وهذا ما يُفترض أن نفعله نحن. كما أنهم خلقوا ما يسميه ميتشام «الدِّين العام» الذى نجح فى الحفاظ علينا خلال عقود متعاقبة، وهو واثق من أنه سوف يخرجنا سالمين من اضطرابنا الحالى.

يؤيد ديفيد ل. هولمز فى كتابه هذه الرؤية المتوازنة للمؤسسين. ويشعر هولمز، الذى يعمل أستاذاً للدراسات الدينية فى كلية ويليام ومارى، برغبة شديدة فى بيان أن كبار المؤسسين. واشنطن وچيفرسون وآدامز وماديسون وفرانكلين ومونرو. كانوا متدينين وغير متشددين فى تدينهم فى الوقت ذاته. فقد ظلوا جميعاً، إلا فرانكلين، يتعبدون من حين لآخر فى الكنيسة المسيحية الخاصة بأسلافهم؛ وعندما كان فرانكلين يرتاد الكنائس فى فيلادلفيا كان يميل للذهاب إلى كنيسة المسيح، وهى واحدة من ثلاثة كنائس أسقفية بروتستانتية فى المدينة. إلا أنه فى الوقت نفسه كان هؤلاء المؤسسون جميعاً متأثرين بدرجة أو بأخرى بالربوبية، وهى مجموعة من معتقدات تنوير القرن الثامن عشر التى تفترض وجود رب فعال فى ثوابه وعقابه وربما حياة آخرة، ولكنها تنكر ألوهية المسيح.

يبدو أن هولمز يدمن التصنيف؛ فقد خلق عدة صناديق دينية يضع فيها كل مؤسس من المؤسسين. وهو يفيد من الربوبية ويعاملها كما لو كانت إيماناً عاملاً، على سبيل المثال؛ وبذلك يحول ما كانت الغالبية تراه مجرد معتقد غامض إلى ما هو فى واقع الأمر ملة دينية أخرى ينتمى إليها الناس. وهو يقدم «مرشد العلمانى (أى غير الإكليريكى)» لتصنيف آراء المؤسسين الدينية تصنيفاً صحيحاً ويفترض وجود ثلاث فئات: الربوبية اللامسيحية، والربوبية المسيحية، والمسيحية القويمة. ويقول هولمز إنه لكى نضع كلاً من المؤسسين فى فئته الصحيحة، لابد أن ننظر أولاً إلى أعمالهم: هل كانوا يرتادون الكنيسة أو يخدمون كأعضاء فى مجلس الكنيسة؟ ثانياً: هل جرى تعميدهم أو تزكية إيمانهم؟ ثالثاً: ما مدى نشاطهم فى كنائسهم؟ هل كانوا يشاركون فى القربان المقدس، بما فى ذلك تناول العشاء الربانى؟ ورابعاً: ما نوع اللغة الدينية التى كانوا يستخدمونها؟

طبقاً لما يظنه هولمز، فقد كان توماس پين وإيثان ألن ربوبيين لامسيحيين؛ فكان كلاهما يزدرى المسيحية، حيث كان پين يقول إنه «من بين أنساق الدين جميعها التى اختُرعت ليس هناك ما هو أكثر حطاً من قدر الرب، ولا أكثر تحقيراً للإنسان، ولا أكثر بُغضاً للعقل من ذلك الشىء الذى يسمونه المسيحية». وبما أن واشنطن وجون آدامز وماديسون كانوا يرتادون الكنيسة بانتظام، وظلوا منتسبين إلى إحدى الملل المسيحية القويمة، فقد كانوا ربوبيين مسيحيين. وبما أن پاتريك هنرى، وصموويل آدامز، وجون جاى لم يكونوا يرتادون الكنائس فحسب، بل كانوا يؤمنون بألوهية يسوع، فقد كانوا مسيحيين قويمين. أما تصنيف فرانكلين وچيفرسون فأكثر صعوبة. ففرانكلين لم يكن منتظماً فى ارتياده الكنيسة ولا يبدو أنه كان يؤمن بألوهية المسيح، غير أنه لم يكن لديه كره قوى للديانة المنظمة؛ فالواقع أنه كان يظن أنها مفيدة للناس. ويقول هولمز: «كان فرانكلين كذلك من بين هؤلاء الربوبيين الذين ظلوا متقبلين إمكانية التدخل الإلهى أو العناية الإلهية الخاصة فى الشئون البشرية»؛ وهو الرأى الذى كان يشاركه فيه معظم المؤسسين، وخاصة واشنطن.

كان چيفرسون مختلفاً كل الاختلاف عن المؤسسين الآخرين. فقد كان يضمر ازدراءً شديداً للدين المنظم ولرجال الدين، حيث كان يعتقد أنهم متحالفون باستمرار مع المستبدين ضد الحرية. وقال إنهم «فى سبيل ذلك، كانوا يحولون دون وصول الدين فى أنقى صوره إلى الناس، ويحولونه إلى لغز ولغة غير مفهومة للبشرية كافة، وبذلك يكون محركاً أكثر أماناً لتحقيق أغراضهم». ولم يكن التثليث عنده سوى «كلام غير مفهوم» و«خداع... لا يمكن أن يفهمه العقل البشرى بحيث لا يمكن لأى رجل مخلص أن يقول إن لديه فكرة عنه». كما قال إن السخرية هى السلاح الوحيد الذى يمكن أن يُستخدم ضده. ومع ذلك يقول هولمز إنه «بالرغم من هرطقة چيفرسون، فقد ظل فى الظاهر أنجليكانياً وأسقفياً طوال حياته». وكان چيفرسون معروفاً بنفاقه، ولكنه فى هذه الحالة يبدو أن مظهره الخارجى الخاص بالشعائر الدينية كان مصدره كراهيته الشديدة للجدل الشخصى.

اقتصرت تعليقات چيفرسون شديدة القسوة بشأن رجال الدين وآرائهم المنحرفة الخاصة بالمسيحية، التى ظل يداوم عليها طوال حياته، على الرسائل الخاصة إلى أشخاص كان يفترض أنهم يشاركونه آراءه. إلا أنه نشر فى بداية حياته العملية تعليقات تفتقر إلى الحكمة عن الدين أوقعته فى مشاكل. ففى «ملاحظات عن ولاية فيرچينيا» الذى نُشر لأول مرة فى عام ١٧٨٥، هاجم كنيسة فيرچينيا الرسمية وكتب أنه «لا يضيرنى فى شىء أن يقول جارى إن هناك عشرين إلهاً، أو إنه لا وجود لأى إله. فهذا لا ينشل منى شيئاً ولا يكسر ساقى». وفى ديباجة لائحته الشهيرة الخاصة بالحرية الدينية فى فيرچينيا التى أُقرت فى عام ١٧٨٦، قال: «إن اعتماد حقوقنا المدنية على آرائنا السياسية لا يزيد بحال من الأحوال على اعتمادها على آرائنا فى الفيزياء أو الهندسة».

خلقت تلك التعليقات العامة، التى كانت خارجة بشكل عنيف على الرأى العام السائد، عاصفة من النقد وأدت فى انتخابات عام ١٨٠٠ إلى تسميته بـ «الكافر الفرنسى» و«الملحد»؛ ومن المؤكد أن ذلك كان أكثر الاتهامات التى ساقها ضده خصومه، فاعلية. ومع أن چيفرسون، شأنه شأن سائر المؤسسين، لم يكن لديه شك فى وجود الرب، فقد عانى فى العلن من اتهامات الإلحاد والكفر تلك فى صمت، حيث كان ينفيها فى السر باعتبارها ولعاً بالانتقاد تميز به رجال الدين الاتحاديون المتعصبون. ومع ذلك فقد كان يرغب بشدة فى أن يكتسب إلى جانب قضيته الجمهورية كل الأشخاص المتدينين العاديين الذين صوتوا لخصمه؛ ولكى يحقق ذلك كان يعرف أن عليه التعويض عن اتهامات الاتحاديين له بأنه عدو للمسيحية. ونتيجة ذلك أنه كان يعلم تماماً الأثر الذى يمكن أن يحدثه، كرئيس، بحضوره قداساً أقيم فى يناير من عام ١٨٠٢ فى قاعة مجلس النواب. وقد حظى حضوره الشعائر الدينية باهتمام شعبى كبير أدهش الاتحاديين. وداوم چيفرسون على حضور القداس فى قاعة المجلس ووفر مبانى تنفيذية للوظائف الكنسية. إلا أنه كما يشير هولمز وميتشام، فلم يكن سلوك چيفرسون جديداً عليه فى الواقع؛ إذ كان چيفرسون منتظماً باستمرار فى ارتياده الكنيسة، وجرى تعميده، وتزوج فى أبرشيته، وخدم فى مجلس كنيسته المحلية، وكان يحضر القداس المقام فى المبانى الحكومية فى فيرچينيا.

فى عام ١٨٠٣، عندما تلقى چيفرسون نسخة من كتاب چوزيف پريستلى «مقارنة بين سقراط ويسوع»، حثه ذلك على تسجيل أفكاره المشابهة فيما أسماه

شملت المستعمرات الوسطى نيويورك ونيوچيرزى وپنسلفانيا قدراً أكبر من التنوع الدينى. ومن تلك الجماعات: الأنجليكانيين والمعمدانيين والمشيخانيين واللوثريين والهيجونوت، وحتى بعض اليهود

«مجمل تقييم جدارة مبادئ يسوع مقارنة بمبادئ الآخرين». وأرسل نسخة من هذا المقال المكون من ألف كلمة إلى بريستلي، وإلى بنجامين راش الذى كان قد سأله عن آرائه الدينية، وإلى صديقه جون بيدج، وإلى مجلس وزرائه، وإلى العائلة. وقد أعقب هذا المقال بنسخة قص ولصق من العهد الجديد أزال منها كل الإشارات إلى المعجزات الخارقة للطبيعة وألوهية المسيح وأبقى كل الفقرات التى كان المسيح فيها يدعو إلى الحب والقاعدة الذهبية.(وقد أسمى تلك المجموعة «فلسفة المسيح». وأخبر أحد أصدقائه أن تلك الأعمال، التى باتت تسمى كتاب جيفرسون المقدس، «دليل على أننى مسيحى حق، أى أننى حوارى لمبادئ يسوع، ومختلف تماماً عن الأفلاطونيين الذين يدعوننى كافراً». ومع أن جيفرسون لم ينشر تلك الأعمال، فقد شاع أنه غير آراءه الدينية، وهى الشائعة التى لم يأل جيفرسون جهداً فى إنكارها.

ويمثل جيفرسون باعتباره أحد المؤسسين أهمية خاصة بالنسبة لنا بسبب رسالته الشهيرة التى بعث بها فى عام ١٨٠٢ إلى معمدانيى دانبرى بولاية كونيتيكت التى يوردها ميتشام فى أحد ملاحقه. وفى هذه الرسالة الموجهة إلى المعمدانيين، الذين كانوا يكنون معارضة شديدة تعود إلى روجر ويليامز لأى تدخل للدولة فى الدين، قال إن التعديل الأول للدستور الاتحادى أقام «جداراً عازلاً بين الكنيسة والدولة». وفى قضية «إيفرصن ضد مجلس التعليم» (١٩٤٧) استشهد القاضى هوجو بلاك بعبارة جيفرسون فيما كان أول تصريح مهم للمحكمة العليا بشأن البند الخاص بالمؤسسة الدينية فى التعديل الأول للدستور الأمريكى، وأتى ذلك بمجموعة من القرارات الأكثر إرباكاً على مدى الستين سنة التالية، حيث كافحت المحكمة العليا للحفاظ على الجدار العازل هذا. وجاهدت المحكمة من أجل تعريف ما يمكن السماح به وما لا يمكن السماح به فيما أصبح علاقة نزوية إلى حد كبير بين الكنيسة والدولة. فالصلاة بالمدارس غير مسموح بها إذا كانت برعاية الإدارة، ولكن ربما لا يكون الأمر كذلك إذا كانت برعاية الطلاب. والاحتفال بالأعياد الدينية فى المدارس العامة غير مسموح به، ولكن السماح للطلاب بعدم الذهاب إلى المدارس فى أعيادهم الدينية مسموح به. وفى هذا المناخ الذى يبعث على الارتباك أصبح المدرسون فى المدارس العامة غير متيقنين بشأن ما هو مسموح به وما هو غير مسموح به إلى الحد الذى جعلهم يتحاشون فى كثير من الأحيان الحديث عن الدين ككل، مما أدى إلى شكوى الكثير من الأمريكيين من إبعاد الدين عن الفضاء العام.

خلق جيمس هـ. هستون، رئيس قسم المخطوطات بمكتبة الكونجرس ومؤلف ومحرر العديد من الأعمال المميزة عن المؤسسين والدين، عاصفة من الجدل حينما استنتج فى عام ١٩٩٩ من دراسته لرسالة دانبرى أن جيفرسون كان له هدف سياسى محض من وراء كتابة الرسالة ولم يكن فى ذهنه ذلك النوع من الجدار العالى والمنيع بين الكنيسة والدولة الذى يحافظ عليها فقهاء القانون المحدثون. ويقول هستون إن واقع الأمر هو أن كتابة جيفرسون للرسالة قبل يومين من حضوره قداس فى قاعة مجلس النواب يوحى بأن ذلك الجدار العازل لم يكن المقصود به قط إبعاد الدين عن الميدان العام.(*)

وذكر مؤرخ شاب اسمه يوهان ن. نيم فى بحث سينشر قريباً، وعلى نحو مقنع جداً، أن جدار جيفرسون العازل لم يكن هو النقطة المهمة فى الرسالة. فقد كان جيفرسون ينظر إلى الجدار على أنه وسيلة فى سبيل تحقيق غاية أكبر فحسب. إذ كان ذلك سيوفر الوقت للعقل والبحث الحر كى يشق طريقه إلى التنوير النهائى الذى كان يؤيده. بعبارة أخرى، كان الجدار سيحمى المعمدانيين من «الأمر الدائم» الخاص ببيوريتانيى كونيتيكت على المدى القصير؛ ولكن جيفرسون كان يظن أن المعمدانيين والأمر الدائم مرشحان على المدى الطويل للانقراض، كشأن كل الديانات القائمة على الإيمان وليس العقل. والواقع أن جيفرسون ظل حتى عام ١٨٢٢ يعتقد أنه «لا يوجد شاب يعيش حالياً فى الولايات المتحدة لن يموت على التوحيد».

لقد كان مخطئاً فى واقع الأمر. فلا يبدو أنه فهم القوى السياسية التى وراء نجاحه ونجاح ماديسون فى حصول مشروع قانونه الخاص بالحرية الدينية فى برلمان فيرجينيا. وربما ظن أن معظم أهل فيرجينيا قبلوا التفكير المستنير فى ديباجته، غير أن القانون ما كان ليحظى بالموافقة بدون الدعم الكاسح لأعداد المشيخيين والمعمدانيين الإنجيليين المتزايدة فى الولاية الذين كانوا يكرهون المؤسسة الأنجليكانية إلى حد أنهم لم يعيروا اهتماما لما تقوله الديباجة. ولم يكن المصدر الرئيسى لفصلنا بين الكنيسة والدولة فى يوم من الأيام هو العقلانية المستنيرة، بما هى عليه من أهمية فى وقتنا الراهن، بل إدراك الجماعات الدينية العديدة المتنافسة بشكل متزايد أن تحييد الدولة فى أمور الدين أفضل من الدخول فى مخاطرة سيطرة أحد خصومها على الحكومة.

فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر كانت المسيحية الإنجيلية الشائعة الخاصة بالصحوة الكبرى الثانية تكتسح البلاد. والواقع أن التحول الدينى الذى جاء نتيجة للثورة كان جذرياً إلى حد بعيد. فقد فرض الأشخاص العاديون بأعداد غير مسبوقة الاعتراف بحقوقهم أثناء الثورة، وجاءوا معهم بحماسهم الدينى المساواتى. وحلت فجأة الطوائف والملل الدينية الجديدة، التى لم يكن أحد قد سمع بها من قبل فى بعض الحالات، محل كنائس الدولة القديمة التى سيطرت على المجتمع الاستعمارى طوال قرن ونصف، وهى الأنجليكانية والأبرشانية والمشيخية. وبحلول بداية القرن التاسع عشر، كانت جماعات المعمدانيين والميثوديين المتحمسة قد انتقلت من هوامش المجتمع الأمريكى إلى مركزه. غير أن الأمر الأكثر وضوحاً من النمو السريع لتلك الديانات التى تعود أصولها إلى العالم القديم، كان الظهور غير المتوقع لطوائف جديدة وجماعات دينية طوباوية لم يكن قد سمع بها أحد من قبل: وهى الأصدقاء الكونيون، والخلاصيون، والمهتزون، ومجموعة من الجماعات الصغيرة المنشقة والطوائف الألفية الأخرى. وبين عشية وضحاها تقريباً تغيرت الثقافة الدينية بكاملها ووضعت أسس ظهور عالم دينى إنجيلى يضم مللاً متنافسة كان يعد فريداً فى العالم المسيحى.

كان فرانكلين حكيماً فقط فى نصحه صديقاً فى عام ١٧٨٦ بألا ينشر أى شىء يهاجم المسيحية التقليدية. فقد قال إن «من يبصق فى وجه الريح يبصق على وجهه»

ولا يمكننا أن نحل نزاعاتنا الحالية بشأن الدين بالنظر إلى الظروف التاريخية الفعلية الخاصة بالتأسيس؛ فتلك الظروف من التعقيد والارتباك والتحيز للمسيحية البروتستانتية بحيث لا يمكن استخدامها حالياً فى المحاكم، ومعظمها بعيد عن احتياجات القرن الحادى والعشرين أو معاد لها. ويخطئ ميتشام حين يقول إن قصة التأسيس لها «صدى معين فى عصرنا» وإن «زمان (المؤسسين) كزماننا». ورغم كل مخاوفنا الحالية بخصوص حكم رجال الدين، فقد كان الدين حينذاك أشد قوة وأكثر انتشاراً مما هو عليه الآن، حتى وإن كانت نسبة عضوية الكنائس فى ذلك الوقت أقل مما هى عليه الآن؛ والواقع أنه كما يشير هولمز بحق، فإن تدين العصر الثورى المفرط جعل المؤسسين يبدون «أقل ورعاً». وكان جيفرسون وماديسون وغيرهما من القوميين فى موقف الدفاع أمام قوى الحماس المسيحى الشعبى. وكان فرانكلين حكيماً فقط فى نصحه صديقاً فى عام ١٧٨٦ بألا ينشر أى شىء يهاجم المسيحية التقليدية. فقد قال إن «من يبصق فى وجه الريح يبصق على وجهه». وعلى النقيض من ذلك فإن المخلصين فى تدينهم هم الذين يشعرون الآن بهجوم الثقافة العلمانية المتزايدة ومحاصرتها لهم.

رغم زعم ميتشام، فالواقع أن المؤسسين لم «ينجحوا» فى أن يخصصوا للدين مكانه الصحيح فى المجتمع المدنى». ويمكن لميتشام أن يدعى هذا الادعاء فقط لأن القضاة فى القرن العشرين نجحوا فى دمج التعديل الأول مع التعديل الرابع عشر ثم ربطه بالولايات، وهو ما لم يكن مقصوداً فى عام ١٧٨٧. وكشأن كثيرين جداً يكتبون عن هذه الأمور، ينسى ميتشام الإحساس الحاد بالحكومة الفدرالية المحدودة الذى كان لدى معظم أمريكيى أواخر القرن الثامن عشر:

وهو يميل إلى تجاهل تطبيق التعديل الأول حينذاك على الحكومة الفدرالية فحسب وليس على الولايات بحال من الأحوال. صحيح أن المعاهدة التى أبرمت مع طرابلس الإسلامية فى عام ١٧٩٦ نصت على أن «حكومة الولايات المتحدة الأمريكية لا تقوم بأى معنى من المعانى على الدين المسيحى»، إلا أن هذا لم يكن يصدق على العديد من حكومات الولايات؛ ذلك أنها كانت فى بداية الأمر ولايات قائمة إلى حد كبير جداً على المسيحية، كما أعلنت. وربما كان الرئيس أندرو جاكسون مدققاً بشأن تورط الحكومة القومية فى الأمور الدينية، غير أنه لم تكن لديه شكوك بشأن تشجيع حكومات الولايات للمسيحية. بل يبدو أن ميتشام يعتقد أن شعار البلاد (E Pluribus Unum من الكل يكون الواحد) كان يشير فحسب إلى «الطبيعة التعددية للتجربة الأمريكية»، وليس إلى أن الثلاث عشرة ولاية المستقلة التى تجمعت معاً لتكون دولة. فى البداية كانت الولايات المتحدة، التى كانت جمعاً باستمرار، أقرب شبهاً بالاتحاد الأوروبى الحالى منها إلى الدولة المركزية نسبياً الحالية. وهذه الحقيقة تخلق فرقاً ضخماً فى الطريقة التى نفسر بها التأسيس.

مع أن دساتير الولايات الثورية لعام ١٧٧٦ أكدت جميعها بطريقة أو بأخرى إيمان التنوير بالحرية الدينية، فإن معظمها لم يتخل عن دوره التقليدى فى الأمور الدينية. ومن المؤكد أن مؤسسة كنيسة إنجلترا الرسمية التى كانت موجودة فى ست مستعمرات أُلغيت على الفور فى ١٧٧٦-١٧٧٧. ولكن الدساتير الثورية لميريلاند وساوث كارولينا وجورجيا أجازت لمجالسها النيابية خلق نوع من المؤسسة التعددية التى تضم الكثير من الجماعات الدينية لتحل محل الكنيسة الأنجليكانية، مستخدمة فى ذلك أموال الضرائب فى دعم «الدين المسيحى». واشترط العديد من دساتير الولايات إجراء الاختبارات الدينية للموظفين الحكوميين. وكانت ست ولايات. نيو هامبشير وكونيتيكت ونيو جيرزى ونورث كارولينا وساوث كارولينا وجورجيا. تشترط أن يكون الموظفون الحكوميون بروتستانت. وكانت ميريلاند وديلاوير تشترط كونهم مسيحيين. وكان لابد لموظفى ساوث كارولينا أن يؤمنوا بالإله الواحد وبالجنة والنار، وكانت ديلاوير تشترط الإيمان بالتثليث. واحتفظت كونيتيكت وماساتشوستس بمؤسستيهما الأبرشانية حتى العقدين الثانى والثالث من القرن التاسع عشر.

نحن لا نقيم القوانين الدستورية الأمريكية على الواقع التاريخى للتأسيس، ولا يمكننا ذلك. فقوانيننا الدستورية تقبل أية رواية تتضمن قصد المؤسسين؛ فربما أصبحت الرواية القانونية ضرورية عند تشكيل قوانين البلاد، ولكنها تظل رواية رغم ذلك. فقصد أيٍ من المؤسسين نختار لإبرازه؟ هل هو قصد جيفرسون وماديسون الربوبيين؟ أم قصد واشنطن وآدامز اللذين كانا يرتادان الكنائس وكانا يتعاطفان مع الدين؟ أم قصد ما لا حصر لأعدادهم من البروتستانت الإنجيليين الذين استولوا على الثقافة إلى حد لم يتوقعه معظم النخبة المؤسسة قط؟

ربما ظل جيفرسون غافلاً عما كان يحدث، ولكن أفراد النخبة الآخرين كانوا على معرفة أفضل. وفى عام ١٨١١ اعترف الفقيه القانونى البارز جيمس كنت، مستشار نيويورك، فى قضية التجديف الشهيرة «أهل نيويورك ضد راجلز» بالصلة القانونية بين ولايته والدين. واعترف كنت بأنه ليست لنيويورك كنيسة رسمية، وبأنه ليست لها لائحة تحظر التجديف. ورغم ذلك أعلن أن سب الدين المسيحى وازدراءه الذى يصرح به المجتمع كله تقريباً، كما فعل راجلز، يهدف إلى «ضرب جذور الالتزام الأخلاقى وإضعاف أمن الروابط الاجتماعية».

وكما فعل بعض المؤسسين، ازدرى كنت الحماس الدينى وكان يصف المسيحية فى المجالس الخاصة بالخرافة البربرية. أما كونه مستعداً رغم ذلك لإعلان المسيحية جزءاً من القانون العام لولاية نيويورك فإجراء يتعلق بمقدار ما كان عليه مناخ الصحوة الكبرى الثانية من ترهيب. ويرغم تأثير المذهب الإنجيلى فى البيت الأبيض وفى الولايات الحمراء الآن، فنحن نعيش فى عالم مختلف كل الاختلاف. ■

الهوامش

(*) ظهر مقال هستون والعديد من الردود فى William and Mary Quarterly, Third Series, Vol. 56 (October 1999), pp 775-824.

كتاب الزاوية

جراثيم العلل


محمد الغزالى

يوجد متدينون من المسلمين النازحين إلى أوروبا وأمريكا، وفيهم بلا ريب من هزم تيارات الانحراف التى تجره إلى السقوط، غير أن كثيراً من هؤلاء يحمل جراثيم العلل التى شاعت فى بلاده الأصلية، فى إنجلترا دعاة للطريقة النقشبندية التقيت بأتباعهم من الإنجليز؟ وهناك من اجتهد فترجم موطأ مالك! فهو المذهب السائد فى شمال أفريقيا! وهناك من يحارب القباب والأضرحة فى أمريكا وهناك من يرى وضع اللثام على الوجه، ويقرنه بكلمة التوحيد! وهناك من جعل شارة الإسلام الجلباب الأبيض كأننا فى صحراء نجد!

وهناك من حلق رأسه وشواربه بالموس وأطلق شعر لحيته على نحو يشعرك بأن كل شعرة أعلنت حربًا على جارتها، فهناك امتداد وتنافر يثيران الدهشة.

إن الأجيال المنتمية للإسلام فى هذا العصر تنقصها التربية النفسية والفكرية التى برز فيها السلف الأول، وأضحوا بها قادة ترنو لهم الدنيا بإعجاب وحفاوة.

وكثيراً ما نبهت إلى أن الأوروبيين يهتمون بالأصول لا بالفروع، وأنهم يزنون النهضات بثمراتها المادية والأدبية معًا، هم لا يكترثون لليابانى إذا أكل الأرز بالأقلام أو بالعصى! إنما يرمقونه بدهشة، وهو يبدع الأجهزة أو وهو يقلدهم فى عمل، ويصل بعقله اللماح إلى أبعاده، ثم يسبقهم إلى إنتاجه.



اسـبانيا
٧ رحلات اسبوعيـاً
القاهرة / مدريد
يوميا عدا الثلاثاء و الاربعاء
القاهرة / برشلونة
الجمعة و الاثنين
بأحدث طرازات الطائرات
لمزيد من المعلومات أتصل الأن
٠٩٠٠٧٠٠٠٠ سعر الدقيقه(٥٠ قرشا)
١٧١٧ سعر الدقيقه(جنية واحد)
مصر للطيران
EGYPTAIR
www.egyptair.com

العصيان المدنى وسيلة للتغيير

فكرى أندراوس

> **اكسبت قضية الفلاحين والعمال غاندى شعبية هائلة، فقد أحسَّ بالضعفاء والفقراء وأحسوا هم به، عاش كواحد منهم، ودافع عن حقوقهم ولم يكن له مطالب أو مطامع شخصية**

احتلت إنجلترا مصر لتأمين طريقها للهند سنة ١٨٨٢ وكان جلاؤهم عنها سنة ١٩٤٧ مع احتفاظهم بقناة السويس حتى سنة ١٩٥٤ . الشعب المصرى شعب متجانس، اللغة عربية، الديانة الإسلام مع وجود أقلية قبطية قديمة. كانت مصر قبل الاحتلال دولة مستقلة ومتكاملة بها وزراء وبرلمان منتخب، دولة تكامل بناؤها على مدى ثلاثة أرباع قرن. وحتى خلال الاحتلال استمر وجود نوع من الاستقلالية والديمقراطية. أما الهند فدخلها الإنجليز للتجارة والسيطرة ابتداءً من حوالى سنة ١٦٥٠ وكانت محتلة تماماً عسكرياً سنة ١٧٥٧ وكان جلاؤهم سنة ١٩٤٧ . الهند بلد شاسع متباين فى المناخ والأصل العرقى والطائفى، بها ١٧ لغة رسمية معترف بها فى الدستور، الديانة الرئيسية الهندوسية، بها أقليات بوذية، وإسلامية، ومسيحية، وجينية (ديانة هندية قديمة تعود للقرن الخامس قبل الميلاد)، وبارسية (ديانة إيرانية قديمة اختفت من إيران). كان من باب أولى أن تنجح الديمقراطية فى مصر ولكنها ما زالت متعثرة. أما فى الهند فبتركيبتها المعقدة قد راهن الكثيرون بعد استقلالها على عدم نجاح الديمقراطية بها وأنها ستتحول لدويلات متحاربة، غير أن هذا لم يحدث، ومازالت الديمقراطية فى الهند متماسكة.

إن تعثر مسار الديمقراطية فى مصر مطروقٌ من قبل، وتناوله الكثيرون داخل وخارج مصر ولن أتعرض له فى هذا المقال.

إننى أعتقد ان دراسة الديمقراطية الهندية سوف تساعدنا فى تفهم أكثر لمشاكل الديمقراطية فى مصر وفى الدول العربية وكذلك فى طرق حلها. لماذا وُفِّقت الديمقراطية فى الهند رغم المشاكل العديدة التى قابلتها وما زالت تقابلها؟ إن الديمقراطية الهندية مازالت متماسكة بعد أكثر من نصف قرن، إنها أكبر ديمقراطية فى العالم وأكثرها تعقيداً. فى هذا المقال سوف نستعرض تاريخ الديمقراطية فى الهند وماذا حققت من نجاح والصعوبات التى تواجهها. سوف أتعرض باختصار شديد لتاريخ حياة غاندى وحركة غاندى للعصيان المدنى والتى أدت إلى استقلال الهند وديمقراطيتها. سوف أتوقف قليلا أمام حركة تمثيل الأقليات فى الهند وأمام مشكلة كشمير وما تمثله من تحدى للديمقراطية.

إن حركة غاندى المسالمة أعطت الإنسانية الطريق لمحاربة الظلم أينما كان. لقد ساهمت حركة غاندى للعصيان المدنى فى مقاومة ظلم الحكومات لشعوبها، فى مقاومة الشركات متعددة الجنسيات، فى حركات التحرير، فى الانتفاضة الفلسطينية الأولى، فى حركات الديمقراطية، وفى مقاومة اضطهاد الأقليات. إن الهند صاحبة مدرسة من الممكن أن نتعلم منها الكثير ويدون استخدام العنف.

[١]

كانت عائلة غاندى من الطبقة المتوسطة. ولد غاندى عام ١٨٦٥ وكان أصغر إخوته الأربعة. كانت شخصية غاندى شخصية معقدة من الصعب تحليلها نفسيا كما سنرى. تأثر غاندى فى الصغر بوالديه، يبدو أن أهم ما تعلمه من والده هو الصدق، عندما كان صغيراً سرق بعض النقود لشراء سجائر، شعر بالذنب، فاعترف لوالده الذى احتضنه ولم يعاقبه وشجعه على عدم الكذب. عندما كتب غاندى سيرته الذاتية اعتبر تلك التجربة تجربة مع الصدق. اهتم غاندى كثيراً بأن يكون صادقا وسمى كتاب سيرته الذاتية «تجربة مع الصدق». أما عن والدته فقد زرعت فيه الإيمان وكانت بالنسبة له قديسة كثيرة الصيام وقد ظهر تأثره بها كثيراً عندما كبر وبدأ كفاحه ضد الظلم، وفى صياماته الطويلة.

كان غاندى فى طفولته منطوياً وخجولاً، واستمر كذلك حتى منتصف العشرينيات من عمره حين غيَّرته الظروف. كان تلميذاً متوسط الذكاء، أحبه مُدرِّسوه، حصل على ما يعادل الثانوية عندنا بمجموع قدره ٣٩٪، وكان أقل مجموع للنجاح هو ٣٣٪. تزوج غاندى فى سن الثالثة عشرة طبقا للتقاليد الهندية، كان غيوراً جداً على زوجته، واعتقد أنه يمتلكها. عندما كان عمره فى السادسة عشرة وكان والده يحتضر، ترك والده وهو يحتضر ليمارس الحب مع زوجته. أثناء ذلك توفى الوالد، فشعر غاندى بالندم الشديد لعدم وجوده معه فى لحظاته الأخيرة. اعتقد غاندى أنه أهمل واجباته تجاه والده واستمر ذلك الشعور بالذنب معه لمدة طويلة وقد مثلت تلك التجربة مشكلة نفسية بالنسبة للجنس فى حياة غاندى كما سنرى.

يعتقد البعض أن تلك الظروف جعلته مرهف الحس وأنهُ اعتبر نفسهُ فيما بعد ابناً للمجتمع بأكمله. فى سن الثامنة عشرة قررت العائلة وبعض الأصدقاء أن أفضل الخيارات لغاندى أن يذهب لإنجلترا ليدرس القانون. كانت دراسة القانون فى ذلك الوقت بسيطة، وتستلزم دراسة القانون الرومانى والقانون العام فقط ثم عبور امتحان فى هاتين المادتين فقط ليحق للناجحين بعد ذلك ممارسة القانون. كان اجتياز هذا الامتحان سهلاً، وكانت نسبة النجاح حوالى ٨٠٪. كان غاندى سعيداً بذلك المشروع وسافر لإنجلترا سنة ١٨٨٨ ومكث بها حوالى ثلاث سنوات ونجح فى اجتياز الامتحان. فى إنجلترا حاول غاندى أن يكون جنتلمان إنجليزيًا، تعلم الرقص وخرج مع بعض البنات الإنجليزيات، تعلم الفرنسية وزار فرنسا. تعرض لبعض أساليب الحياة الغربية، وإن ظل حتى غادر إنجلترا شاباً ساذجاً غير مثقف وقليل الثقة بالنفس، ولم يكن هناك ما ينبئ بأنه سيكون ذا شأن.

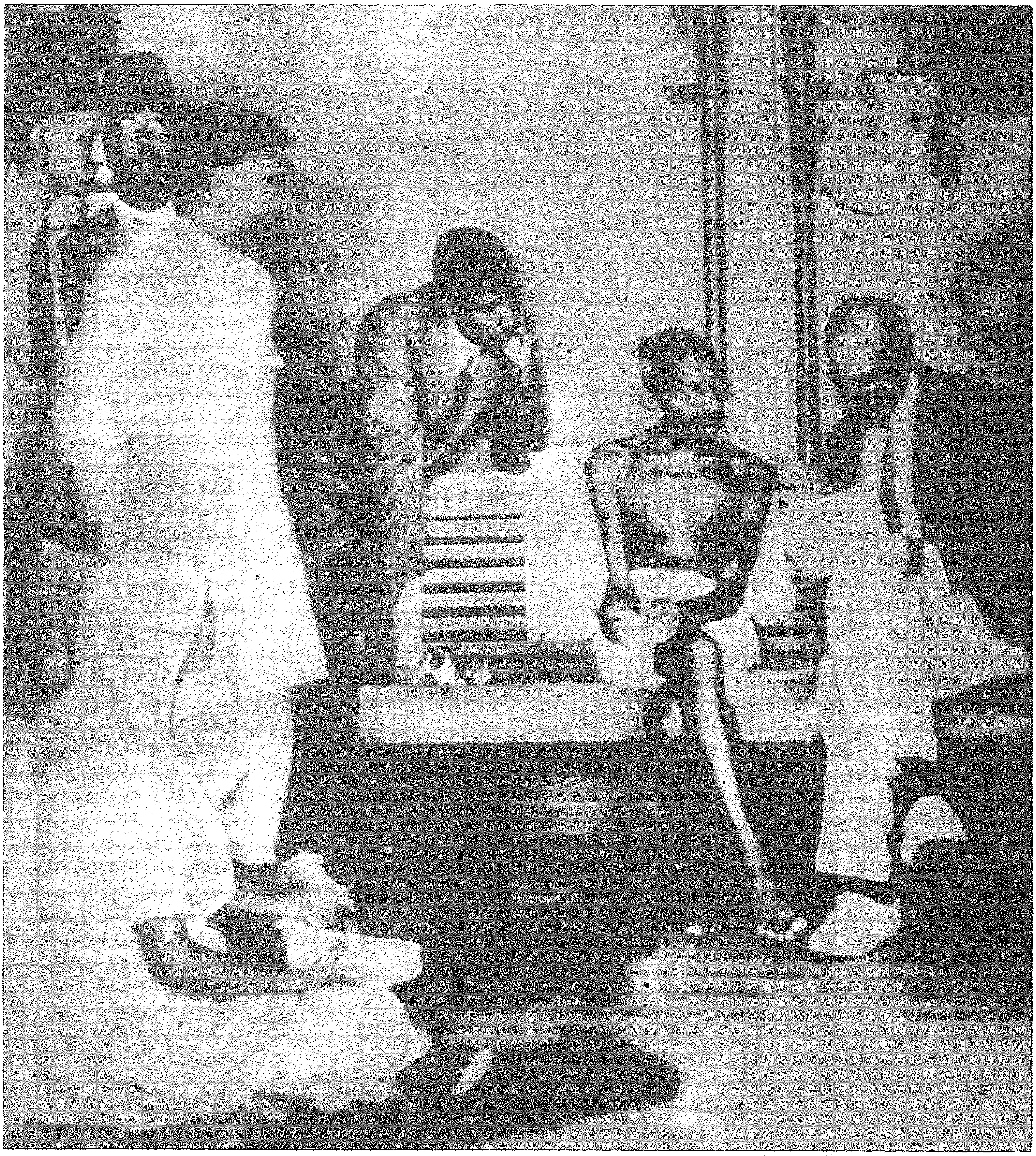
عاد غاندى للهند عام ١٨٩١، وبدأ يحاول ممارسة القانون، افتتح مكتباً للمحاماة بعد حوالى ستة أشهر حضر لهُ أول عميل فى قضية بسيطة. كان غاندى شديد الخجل، فى المحكمة أمام القاضى لم يستطع غاندى أن يفتح فمه بكلمة واحدة، تنحى عن القضية. وصف غاندى تلك الفترة فى سيرته الذاتية «بأنه لا يوجد نهاية لحالتى اليأس والخوف اللتين تعترياننى». حاول أن يكون مدرساً للغة الإنجليزية ولكنه لم يوفق. عمل لفترة بسيطة ككاتب للعرائض والشكاوى. شاءت الظروف أن تُعرَض عليه المساعدة فى قضية طرفها هنود فى جنوب إفريقيا. كان المفروض أن يعود غاندى للهند بعد الانتهاء من تلك القضية والتى ستستغرق شهوراً قليلة، إلا أن ذلك لم يحدث، مكث غاندى فى الهند واحداً وعشرين عاماً غيَّرت حياته تماما وأهَّلتهُ للدور الهائل الذى

قام به فى الهند. ركب البحر سنة ١٩٨٣ لجنوب إفريقيا، ثم أخذ القطار لبروتوريا. حصل على تذكرة قطار بالدرجة الأولى ولم يكن للهنود أو غير البيض أن يسافروا بالدرجة الأولى. طلب منه مفتش القطار أن يذهب للدرجة الثالثة ولكن غاندى رفض. فى المحطة التالية وفى منتصف الليل قذفوه خارج القطار. أمضى ليلته فى محطة القطار وحيداً يفكر فى هذه المشكلة التى لم تكن فى الحسبان. هل يعود للهند؟ هل يتقبل العنصرية المفروضة على الهنود؟ كيف نحصل على العدل؟ أليست الهند وجنوب أفريقيا عضوين فى الإمبراطورية البريطانية؟ قرر بعد ليلة طويلة أنه ليس هناك خيار سوى البقاء من أجل ما قدم له وفى نفس الوقت مقاومة هذه العنصرية الفظة.

اكتشف غاندى أن المشكلة العنصرية فى جنوب إفريقيا ليست مقصورة على ركوب القطارات. لم يكن من حق الهنود أو الآسيويين عموماً أن يملكوا الأرض، أو يصوّتوا فى الانتخابات، أو يمشوا حتى على أرصفة المُشاة، أو أن يسيروا بالليل بدون ترخيص. مثّل كل ذلك صدمةً لغاندى، ولكن ما أدهشهُ حقّاً هو كيف يتقبل الناس مثل ذلك الظلم والإجحاف بآدمية الإنسان؟

كان غاندى يعتقد أن تغيير القانون سوف يغيِّر الناس، ولم يكن ذلك واقعياً. القانون يحدد الحقوق والواجبات، ولكن لا يغير ما فى القلب. إذا كان القلب مغلقاً لا يتكلم العقل. كيف نحارب الظلم إذا كان الحوار لا يجدى والعنف غير مستطاع أو مُجدٍ؟ فى جنوب إفريقيا اكتشف غاندى العصيان المدنى - وإن كان العصيان المدنى قديماً قدَم الإنسانية - إلا إن غاندى اكتشف أن للعصيان المدنى بعداً سياسياً قوياً لو اجتمع رأى الناس عليه. بدأ غاندى

غـــاندى فى مصـــــر



يفكر ويقرأ عن إمكانية العصيان المدنى. لم تكتمل رؤية غاندى لتلك الفلسفة إلاّ بعد سنين عديدة، وبعد أن التحم تماماً بالشعب الهندى.

[٢]

فى عام ١٩١٥ وعندما كان عمر غاندى ٤٥ عاماً قرّر العودة للهند بعد أن طلب منه بعض المفكرين الهنود ذلك وأقنعوه بأن المشكلة الكبرى فى الهند وليست فى جنوب افريقيا وأن له دوراً مهماً هناك، وقد كان بعض هنود الهند يساعدونه مادياً ومعنوياً. وقد كان نشاط غاندى معروفاً فى الهند. استُقبِلَ غاندى استقبالاً طيباً وتعرّفَ على القيادات الهندية، ولكنهُ اعترف انَّهُ لا يعرف الكثير عن الهند. قرر غاندى بمساعدة البعض أن يُسافرَ إلى مناطق الهند المختلفة ليتعرف عليها وعلى مشاكل أهلها. فى الهند كان مقرهُ ومجموعة من العاملين معه فى أشرم بالقرب من جبال الهيمالايا.

كان غاندى يعيش عيشة الفقراء وكان يسافر بقطارات الدرجة الثالثة حتى عندما أصبح رجل الهند الأول وكان يفاوض الإنجليز. كان له نظام خاص فى حياته، حيث يستيقظ مبكراً ويقرأ ويكتب كثيراً. بعد أن تجول فى الهند قرابة عامين بدأ يكتب للصحافة عن مشاكل الهند كما يراها وخصوصاً عن الفقراء ومشاكلهم. بدأت كتاباته تجتذب كثيراً من القراء. كانت أول مشكلة تدخّلَ فيها غاندى تخص الفلاحين فى منطقة البيهار عام ١٩١٧، طلب فلاحو البيهار من غاندى أن يسلط بعض الأضواء على مشاكلهم. وكان فلاحو تلك المنطقة يزرعون نبات (النيلة) الذى تستخرج منة صبغة زرقاء، وقد ازدادت مساحة الأراضى المزروعة خلال الحرب الأولى. بعد الحرب قلَّ الطّلَب وتدهور حال الفلاحين. بعد أن تعرّفَ غاندى على المشكلة قال: «إن أهم شىء أن يتحرر الفلاحون من الخوف». كان لاهتمام غاندى بتلك المشكلة أن اجتمع حوله الكثيرون. الأمر الذى لم يرضِ السلطات، ولكن غاندى لم يبالِ وكان على استعداد للذهاب للسجن، وعندما قال معاونوه: نحن على استعداد للذهاب معك، قال غاندى: «إذن لقد كسبنا القضية». هكذا أفادتهُ خبرتهُ من دخول السجن فى جنوب أفريقيا ومن إلمامه بدور الصحافة. درس غاندى وعديد من مساعديه المتطوعين، وبطريقة علمية، أحوال ما يقرب من ١٠٠٠٠ فلاح. اتضح من تلك الدراسة أن كبار المُلاّك - وكثيرٌ منهم كانوا إنجليز- قد أساءوا استغلال سلطتهم على

العصيان المدنى

كان يوم الإضراب يوماً مشهوداً توقفت فيه المصالح الإدارية وأجهزة الدولة توقفاً يكاد يكون تاماً، وأصبحَت الحكومة عاجزة عن العمل. بذلك الإضراب اتضحت قوة العصيان المدنى للجميع

الفلاحين. بعد نشر تلك الدراسة قرر حاكم الولاية تشكيل لجنة لتقصى الحقائق واختير غاندى لعضويتها. أوصت اللجنة - ووافقتها الولاية - على أن يُعيد مُلاّك الأرض ٢٥ ٪ مما حَصّلُوه من الفلاحين، هذا بالإضافة إلى إصدار بعض القوانين لتحسين أحوال الفلاحين وتقنين علاقة المالك بالمستأجر. ومن ناحية أخرى قرّرت الحكومة عدم تحصيل ضرائب من المزارعين المعدمين. كان غاندى يرى أن الفقر أبشع صور الإرهاب. اعتبر غاندى أن ما حدث كان نصراً أخلاقياً فى المقام الأول. أكسبت تلك القضية غاندى شعبيةً كبيرة.

سنة ١٩١٨ انتقل غاندى ليسكن مع مساعديه فى أشرم بجوار أحمد أباد حيث كانت تعيش عائلته. هناك لجأ إليه عُمّال نسيج مضربون يطالبون بزيادة ٥٠٪ من أجورهم. أيَّدَ غاندى مطالبهم وسأل أصحاب المصانع أن يلجئوا للوساطة والتحكيم لإنهاء الإضراب. وفى نفس الوقت نصح العمال بالاستمرار فى الإضراب والتضامن، وكان يجتمع بهم يومياً لتقوية عزيمتهم. استمر الإضراب دون تقدم، شعر غاندى أن عزيمة العمال بدأت تضعف، فقرر أن يصوم انقطاعياً - عدا تناوله الماء - تضامناً مع العمال، وإلى أن يتفاهم العمال مع أصحاب المصانع. كان ذلك بمثابة ضغط على أصحاب المصانع وفى نفس الوقت أخبر أصحاب المصانع، وكان يعرف بعضهم انه ليس من مصلحتهم أن يهينوا العمال ويصروا على تجاهل مطالبهم. فى اليوم الرابع من صيام غاندى اتفق الطرفان على زيادة أجور العمال بنسبة ٣٥٪. بذلك انتهى صيام غاندى، كان ذلك أول صيام يقوم به غاندى للصالح العام أو لمساندة الضعفاء والمحتاجين. استخدم غاندى أسلوب الصيام كثيراً فيما بعد اعتماداً على رصيده الهائل مع الشعب الهندى، وأحياناً كاد أن يموت من جرَّاء تلك الصيامات الطويلة ولكنها كانت مُجدية. اكسبت قضية الفلاحين والعمال غاندى شعبية هائلة، أحسّ غاندى بالضعفاء والفقراء وأحسوا هم به،عاش كواحد منهم، تأكد الفقراء أن غاندى واحد منهم وأنه المدافع عن حقوقهم ولم يكن له مطالب أو مطامع شخصية فوثقوا تماما فيما يقول.

[٣]

كان أكبر حزب سياسى فى الهند هو حزب الكونجرس (يسمى بالعربية حزب المؤتمر الهندى)، كوّنهُ بعض الإنجليز والطبقة العليا من الهنود سنة ١٨٨٥ . رأس الحزب إنجليزيون حتى سنة ١٩٠٧ ولم تكن هناك انتخابات. كان عام ١٩١٩ عام حافل فى تاريخ الهند وحزب المؤتمر. حدثت بعض الاضطرابات فى الهند استغلتها الحكومة وقرّرت على أساسها أن تستعمل قانوناً للطوارئ، واعتقد أغلب الهنود أنَّهُ لم يكن هناك داعٍ لذلك. اقترح غاندى على أعضاء الحزب أن يكون أول يوم ينفذ فيه هذا القانون هو يوم للصلاة والصيام، أى يوم للإضراب. كان هناك توافق تام بين المسلمين والهندوس، وكان يوم الإضراب يوماً مشهوداً توقفت فيه المصالح الإدارية وأجهزة الدولة توقفاً يكاد يكون تاماً، وأصبحَت الحكومة عاجزة عن العمل. بذلك الإضراب اتضحت قوة العصيان المدنى للجميع. اعتُقلَ غاندى فثارت الجماهير، وبدأت جولة من العنف اضطرت معه الحكومة للإفراج عنه.

فى ١٣ أبريل من نفس العام فى مدينة أمريستار Amritsar حدثت بعض الاضطرابات، تقرر على أساسها منع الاجتماعات العامة، ولم يكن ذلك معروفاً لعامة الشعب. كان هناك اجتماع سلمى لبعض الهنود، قرر بريجادير جنرال داير Dyer أن يطلق النار على الموجودين بدون أى تمييز وكان بينهم نساء وأطفال. استخدم عسكر هذا الضابط - وكانوا من الهنود - ١٦٥٠ طلقة قتلت ٣٩٧ شخصاً وأصابت ١١٣٧ آخرين. أصدر ذلك الضابط قوانين أخرى القصد منها تأديب وإذلال الهنود.. منها أن يسيروا على أربع كالحيوانات عند عبور شارع قُتِلَت فيه مُبَشِّرة إنجليزية، رغم أن بعض الهنود حاولوا مساعدتها. أيّدت حكومة الولاية تلك القرارات، وبدأت بعض أعمال الانتقام، ولكنّ غاندى ساهم فى تهدئة الأمور، وقال: «نحن لا نريد أن نمثل للإنجليز ما مثَّلَهُ الجنرال داير لنا، إن مبدأ العين بالعين سوف يجعل الجميع عمياناً، إن الإنجليز أصدقاؤنا، وهم أيضاً محتاجون إلى تحرير أنفسهم». كان غاندى دائما يتساءل ويسأل الهنود «هل نريد أن نغير الأوضاع أم نريد أن نعاقب؟ إنى أرى أن نترك العقاب للخالق».

بعد تلك المذبحة فقد غاندى الكثير من ولائه للإمبراطورية، وبدأت الهند بعد ذلك تطالب بالاستقلال بدلاً من الحكم الذاتى.

فى ديسمبر من هذا العام كان هناك اجتماع عام لحزب المؤتمر فى مدينة أمريستار Amritsarوربما كان ذلك أهم مؤتمر فى تاريخ الحزب لما أدى إليه من قرارات محورية كان أهمها - وتحت تأثير غاندى - عدم التعاون مع الحكومة البريطانية للهند، الأمر الذى

بدأت معه مسيرة الهند للاستقلال التام. ولم تكن باقى القرارات أقل أهمية، ومنها:

أولاً: دخول العديد من متوسطى الدخل الحزب بعدما كاد أن يكون مقصوراً على الأغنياء.

ثانياً: خرج من الحزب بعض (الحرس القديم) من هندوس ومسلمين لعدم رضاهم عن أسلوب غاندى فى مقاومة الإنجليز أو لأنهم كانوا يمثلون النخبة، ولهم مصالحهم، بينما كان غاندى يمثل الفقراء ومصالحهم؛ يهمنا هنا خروج (محمد على جناح) وقد كان رئيس حزب عصبة الإسلام Muslim League وهو الذى أدخل العديد من المسلمين فى الكونجرس، وكان أحياناً المتحدث باسمه. كان محمد على هندياً قومياً ولكنه غير توجهه فيما بعد وأصبح رائد الانفصال من الهند، كما سنرى لاحقاً ولكنه ظل علمانياً.

ثالثاً: من الممكن اعتبار أنّه منذ ذلك التاريخ وحتى اغتياله عام ١٩٤٨ أصبح غاندى رجل الهند الأول. رابعاً: بدأت الديمقراطية الهندية تتقدم وبخطى ثابتة، فكان عدد الأصوات المؤيدة لعدم التعاون مع الإنجليز ١٣٣٦ صوتاً لصالح غاندى، و٨٨٤ صوتاً ضده، وكان رئيس المؤتمر من المعارضين. بعد ذلك التاريخ لم يحصل غاندى على أغلبية الأصوات دائماً وإنما التزم الجميع بديموقراطية القرار. خامساً: إصرار غاندى على حرية الرأى والصحافة، ذلك المبدأ الذى لم يتنازل عنه طوال حياته، وقد قال: «إن الديمقراطية هى مياه الحياة، والمياه لا تنضب». وقد استمر احترام الهند للديمقراطية وحتى الآن ماعدا فترة استمرت ١٩ شهراً خلال حكومة إنديرا غاندى الأولى، وسنعود إلى ذلك لاحقاً.

سادساً وأخيراً: فى تلك الفترة خلع العديد من الهنود الملابس الغربية وارتدوا الملابس الهندية، ولم يكن ذلك تقليداً لغاندى، بل كان تغييراً له مضمون رمزى وثقافى.

كانت الهند مزرعة لإنجلترا تستورد منها المواد الخام وتُصدر لها تلك المواد مُصنّعة. كان القطن مثالاً واضحاً للاستغلال. بدأ غاندى يشجع الهنود على الغزل والنسج اليدوى لعمل ما يحتاجونه من ملابس، كان هدفه تنشيط بعض الصناعات اليدوية البسيطة فى الريف الهندى الفقير. كان تعداد الهند فى ذلك الوقت ٣٠٠ مليون نسمة، وبها ٧٠٠٠٠٠ قرية أغلبها فقير. كان غاندى يقوم بالغزل اليدوى يومياً ولمدة ساعة حتى وهو فى السجن، وكان يشترط على مساعديه أن يقوموا بالمثل. ذهب غاندى خطوة أخرى وطلب من الهنود أن يقوموا بحرق الملابس الإنجليزية الصنع وأن يلبسوا مما هو مُصنّع محلياً. كان لكل ذلك تأثير ضار على الاقتصاد الإنجليزى، ولكن الأهم أن الهنود بدأوا فعلاً حركة استقلالهم. قال غاندى لمواطنيه: «إن اعتمادنا على منسوجات إنجلترا يدل على اعتمادنا ثقافياً على إنجلترا، نحن مشتركون فى عبودية أنفسنا بطريق غير مباشر، بحرق الملابس الإنجليزية نحن نطهر أنفسنا».

فى اجتماع الحزب سنة ١٩٢١ كان بالهند ما يقرب من ٢٠٠٠٠ معتقل سياسى من ضمنهم أغلب زعماء الكونجرس. كان غاندى يحث مواطنيه



دائماً على عدم استعمال العنف، وأن يتحملوا الضرب والسجن وقال لهم: «إن القوة الحقيقية لا تأتى من استعمال العنف، بل تأتى من الإرادة التى لا تقهر». فى اجتماع سنة ١٩٢٩ طالبت الهند عن طريق حزب المؤتمر بالاستقلال فى مؤتمر رأسه جواهر لال نهرو. قرر هذا المؤتمر اعتبار يوم ٢٦ يناير يوم استقلال الهند. أى أن الهند أعلنت استقلالها قبل أن تناله فعلاً بثمانية عشر عاماً. ظلت الهند تحتفل بهذا اليوم للآن وإن كان اسمه (يوم الجمهورية).

بدأ غاندى يتحمس ويحرك الجماهير ويتحدى القوانين متبعاً دائماً سياسة عدم التعاون وعدم العنف.

كان المستعمر يحتفظ لنفسه باحتكار صناعة الملح الرابحة والتى لا تكلف شيئاً، ولكنها تمثل ٣٪ من دخل الهند. قرر غاندى أن يتحدى - ومعه الشعب الهندى - احتكار صناعة الملح. فى ١٢ مارس سنة ١٩٣٠ بدأ غاندى ما أسماه (مسيرة الحق ضد القوة). بدأت المسيرة بأربعين شخصاً سيراً على الأقدام لمدة ٢٤ يوماً. كان يسير ١٠ أميال كل يوم. بدأ عدد المشتركين فى المسيرة يزداد، وبدأت المسيرة تجذب انتباه الصحافة العالمية. عندما وصلت المسيرة إلى بحر العرب قُدّر عدد المشتركين فيها بعشرات الآلاف من الرجال والنساء. بخّر غاندى ماء البحر للحصول على الملح وتبعه الآلاف، وبينما كان الملح بين يديه والصحافة حوله تتابعه قال: «بهذا الملح أقاوم الاحتلال البريطانى، اشتركوا معى فى مقاومة القوة ضد العدل». كان غاندى يدرك تماماً أهمية الصحافة، ولهذا استمرت المسيرة ٢٤ يوماً قبل إنتاج الملح ليبنى القوة الدافعة للمسيرة وليسمح للصحافة أن تتابع ما يحدث. اعتقل الإنجليز الآلاف، ومنهم زعماء الكونجرس ونهرو وزوجته وحتى والدته، وأخيراً فى ٤ مايو اعتقلوا غاندى أيضاً.

حلت شاعرة الهند العظيمة Sarojini Nadia محل نهرو فى رئاسة الحزب. كان للمرأة دور هام فى مسيرة الديمقراطية الهندية، وقد رأست امرأة حزب المؤتمر مرتين قبل الاستقلال ومرتين بعد الاستقلال. استعمل الإنجليز العنف مع صانعى الملح ولم يبدِ الهنود أى عنف مقابل عنف الإنجليز، ودخل السجن عشرات الآلاف. بعد تلك المسيرة أصبح واضحاً أن استقلال الهند آتٍ لا محالة، ولكن متى؟

قال ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطانى: «إننا سوف نبقى فى الهند لمدة طويلة، وإن لن تستمر إلى ما لا نهاية. إننى لم أصبح رئيس وزراء الإمبراطورية لكى أبدأ تفكيكها، إن هذا الفقير الهندى نصف العارى لن يهز الإمبراطورية، ولكن الشعوب إن أرادت فهى لا تقهر».

رفع الهنود شعارات «تركوا الهند» والهند حرة أو الموت. سُجن أغلب القيادات الهندية مرة أخرى بما فيهم غاندى، ولكن هذه المرّة خرج من السجن لمقابلة الحاكم العام ومنها إلى لندن لمفاوضات مع الحكومة الإنجليزية. أعلنت إنجلترا عام ١٩٤٣ عدم قدرتها على حكم الهند وقررت الخروج من الهند بعد انتهاء الحرب وبعد الوصول إلى حل لمشكلة الأقليات. استغرق ذلك ٤ سنوات، انتهت بانقسام الهند لدولتين وباغتيال غاندى

[٤]

الأقليات الهندية التى مثلت عقبة كانت أقليتا المسلمين وغير الملموسين untouchable أو كما تسمى المنبوذين وهى طائفة وإن كانت هندوسية إلا إنها بحكم أعمال الخدمات التى تقوم بها اعتبرت طائفة غير طاهرة، ولم يكن يُسمح لها حتى بدخول المعابد. هناك طوائف أخرى عديدة، ولكنها لم تمثّل مشاكل جادة. كانت مشكلة المنبوذين مشكلة متأصلة فى الثقافة الهندية، وكان غاندى معارضاً لطريقة معاملتهم. فى جنوب أفريقيا وتحت تأثير غاندى كان هناك أعضاء من تلك الطائفة تعيش فى الأشرم دون أى تمييز. أما فى الهند فالمشكلة أكثر تعقيداً، فأولاً يمثل عدد المنبوذين حوالى ربع تعداد السكان؛ وثانياً: إن تغيير ثقافة شعب فيما يتعلق بالعنصرية أو الطائفية أمر أصعب من مجرد سن قوانين لتغيير التعامل معهما. كان الإنجليز يرغبون أن يؤصّلوا التفرقة بأن يكون للمنبوذين عدد معين فى أى تمثيل برلمانى، ولكن الهنود وتحت تأثير من غاندى رفضوا ذلك. فى عام ١٩٣٤ بعد أن تعقّد الوصول إلى حل طلب غاندى من القيادات الهندية أن تجد حلاً مُرضياً وأنه سوف يبدأ صياماً ولن ينهيه إلا بالوصول لحل أو بموته. ووُجد الحل حين قرر أن يخصص للمنبوذين ١٧١ مقعداً فى الانتخابات الأوليّة يختار المنبوذون أربعة مرشحين لكل مقعد، على أن يُختار منهم فيما بعد مرشح واحد يشترك فى انتخابه كل هنود المنطقة الانتخابية، يزول العمل بذلك القانون بعد عشر سنين، يكون بعدها التمييز ضد المنبوذين قد زال.

أما عن الأقلية الإسلامية فالمشكلة مختلفة، بل تكاد تكون العكس، كان المسلمون الهنود قبل دخول الإنجليز للهند يشكّلون الإدارة العليا فى بعض المناطق والتى كان يمثلها حكام المغول المسلمين الذين احتلوا جزءاً كبيراً من الهند منذ سنة ١٥٢٦ وحتى سنة ١٧١٩. كان بعض هؤلاء الحكام سيئاً فرض الإسلام بحد السيف وهدم بعض المعابد وترك آثاراً سيئة بين الهنود مثل مؤيد الدين أبو المظفر محمد رنجزب المغير (١٧٠٧-١٦٥٨) ولكن بعض هؤلاء الحكام المغول ارتفع إلى مستوى رفيع ما زالت آثاره موجودة فى الفن والعمارة، والتراث الفكرى للتسامح الدينى وتركوا آثاراً طيبة. كان السلطان جلال الدين أبو الفتح محمد أكبر (١٦٠٥- ١٥٥٦) من أحسن حكام المغول، وقد احترم تقاليد الهند والتعددية الدينية والعلمانية. ويربط مؤلف كتاب The Argumentative

Indian (الحاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد عن ١٩٩٨ عام) بين التشابه فى تعاليم السلطان جلال الدين أبو الفتح محمد أكبر وبين تعاليم أشوكا أعظم ملوك الهند فى القرن الثالث قبل الميلاد.

فى غياب الموضوعية، للأسف اعتبر بعض الهنود أن كل الفترة التى حكمها حكام مسلمون كانت مجحفة بالهند، وأرادوا محوها من التاريخ، واستغل بعض المتطرفين الهندوس مساوئ بعض الحكام المسلمين لتصفية الحسابات أو للتخلص من المسلمين الهنود وكان ذلك أحد أسباب انفصال باكستان.

عندما جاء الإنجليز للهند بدأوا يُحِلُّون الهندوس والأقليات محل المسلمين فى المناصب المهمة عملاً بسياسة (فرِّق تَسُد). أضرَّ ذلك بالمسلمين ماديًا ومعنويًا. فى عام ١٨٣٩ كانت هناك حركة إسلامية رئيسها محمد خان، وكان هدفها تحسين علاقة المسلمين بالإنجليز، وقد شجعها الإنجليز. ثم أُنشئت عُصبة الإسلام سنة ١٩٠٦ League Moslem والتى لعبت دوراً مهما فى الحركة الوطنية الهندية. كان محمد على جناح هو الذى أدخل العديد من المسلمين فى حزب الكونجرس، وكان فى البداية من المتحدثين باسم الكونجرس عندما كانت الجبهة الداخلية متماسكة. خرج محمد على جناح من الكونجرس عندما زادت شعبية غاندى التى لم ترُق له كما سبق وأشرنا. ترك محمد على جناح السياسة ومارس القانون فى إنجلترا بضع سنين إلى أن أصبح من الواضح أن الإنجليز سيخرجون من الهند. فى عام ١٩٣٧-١٩٣٦ أجريت انتخابات تشريعية تحت رئاسة الإنجليز لم يفز فيها ممثلو عصبة الإسلام بكثير من المقاعد حيث اكتسحها أعضاء الكونجرس، وكان من بينهم مسلمون. توقع محمد على جناح أنه بعد الانتخابات ستتكون حكومة ائتلافية بين الكونجرس وعصبة الإسلام فى المناطق التى بها أكثرية مسلمة. لم يحدث ذلك. وكان من رأى محمد على جناح أن اشتراك المسلمين فى تلك المناطق لا يتناسب وعددهم. حاول محمد على جناح أن يتفاهم مع غاندى، ولكن غاندى فى ذلك الوقت إما لم يقدر حجم المشكلة أو لم يستطع أن يفعل حيالها شيئًا أو اعتمد على وجود بعض المسلمين البارزين فى الكونجرس. لم يكن نهرو على وفاق مع محمد على جناح وكان يريد أن يحل تجمع عصبة الإسلام نفسه، وقال: «إن هناك طرفين فقط للصراع مع الإنجليز وهما الكونجرس والإنجليز». كان محمد على جناح شخصية قوية وكان تجاهله أمراً له عواقبه. كان محمد على جناح علمانياً ولكنه كان يخشى

العصيان المدنى

قرر غاندى أن يقضى بقية أيام حياته فى باكستان، ولكن الأيام لم تمهله ذلك حيث اغتيل يوم الجمعة ٣٠ يناير سنة ١٩٤٨

سيطرة الهندوس على المسلمين. هذا طبعاً بالإضافة إلى الصراع على السلطة.

تأزمت العلاقات مع الإنجليز بعد أن طلبوا أن تُشكَّل حكومة انتقالية تشترك فيها كل الطوائف بالتساوى ولم يكن ذلك مقبولاً من الهندوس الذين يمثلون حوالى ٨٠٪ من السكان. كان رئيس الكونجرس فى ذلك الوقت مولانا آزاد أبو الكلام وهو مسلم. رفض محمد على جناح أن يمثل المسلمين بغير أعضاء من عصبة الإسلام وفشلت محاولات الحكومة المؤقتة. استمر الصراع، وقرر الإنجليز اعتبار أن الكونجرس حزب غير قانونى واعتقل العديد من رئاساته بينما ترك أعضاء عصبة الإسلام أحراراً. استغل محمد على جناح هذا الوضع وبدأ يحذر المسلمين من سيطرة الهندوس وجمع شمل الكثير من المسلمين وخصوصاً فى مناطق كثرتهم.

فى سبتمبر ١٩٤٥ قرر الإنجليز إجراء انتخابات تشريعية لنقل السلطة للهند. أصبح واضحاً أن الانفصال آتٍ لا محالة ولكن كيف؟ شُكِّلت الحكومة المؤقتة برئاسة نهرو واشترك فيها أعضاء من عُصبة الإسلام. بدأت الاضطرابات الطائفية. فى يوم واحد فى كلكتا قُتل حوالى ٥٠٠٠ شخص وأُصيب حوالى ٢٠٠٠٠ آخرون. انتقلت الاضطرابات إلى مناطق أخرى، لم تستطع أجهزة الدولة السيطرة على المناطق المضطربة. شعر غاندى بالفشل. إن كل ما حاول عمله ينهار الآن أمام عينيه. ربما كان هذا صحيحاً، ولكن غاندى بدأ فترة كفاح أخرى، لولاها لتغير وجه الهند ولأصبحت تختلف كثيراً عما نراه الآن. سافر غاندى إلى كلكتا وقرر الصيام حتى الموت أو حتى يتعلم الهندوس والمسلمون أن يعيشوا معاً بسلام. هدأت الأحوال. انتقل إلى Naokhali حيث توجد أقلية هندوسية وأكثرية مسلمة، حاول بعض الشباب حمايته، إلا إنه رفض وقال لهم: لا توجد قوة تحمى الجبناء، المشكلة ليست أنكم أقلية، بل أن شعوركم باليأس قد سيطر عليكم وأصبحتم تعتمدون على الآخرين. زار غاندى ما يقرب من ٥٠ قرية بالإضافة إلى بعض المدن الكبيرة مثل كلكتا ودلهى والتى ألمَّ بها العنف. كانت تلك الفترة من أحلك فترات حياة غاندى، لم يكن يخطر بباله احتمال انقسام الهند، وقد عارض ذلك حتى اغتيل عام ١٩٤٨.

أعلن الحاكم البريطانى مسبقاً أن يوم ١٥ أغسطس عام ١٩٤٧ سيكون يوم استقلال الهند. قسمت البنجال والبنجاب لفصل الهندوس والسيخ والمسلمين الأقليات إلى حيث توجد تجمعات كبيرة منهم. كان غاندى على وعى بخوف المسلمين من أغلبية هندوسية، فاقترح على محمد على جناح أن يرأس الحكومة المؤقتة فإذا رغب بعد ذلك فى الانفصال فليكن. لم تلقَ تلك المحاولة القبول. بدأت عجلة الانفصال تدور ولم يستطع أحد أن يُوقفها حتى لو أرادت القيادات ذلك. أصبح المستقبل كئيباً، انتقل فى تلك الفترة حوالى ١٥ مليون شخص من الأقليات الإسلامية والهندوسية وبدون أى استعداد لذلك. زادت حركات العنف ومات بالقتل أو من الجوع والعطش على الأقل نصف مليون إنسان وإن كان العدد فى بعض التقديرات حوالى اثنين مليون. انتقل غاندى إلى حيث توجد أعمال العنف، صام كثيراً وأصبح وزنه أقل من ٤٥ كيلوجراماً، وتدهورت صحته كثيراً وكاد أن يموت - كان فى السبعينيات من عمره - ولكن بفضل تلك الصيامات تحسنت الأحوال كثيراً. كان غاندى يجتمع بالهندوس والمسلمين فى اجتماعات للصلاة يوميا وكان يقرأ من الكتب المقدسة الهندية ومن القرآن. بدأت احتفالات الاستقلال، وكان غاندى فى غاية الحزن ولم يحضر أياً من تلك الاحتفالات وقال: «لماذا هذا الفرح؟ إننى أرى فقط أنهاراً من الدم». ولكن الحقيقة التى أجمع عليها أغلب الكُتّاب أنه لولا محاولات غاندى فى تلك الفترة لتدهورت الأحوال كثيراً.

قرر غاندى أن يقضى بقية أيام حياته فى باكستان، ولكن الأيام لم تمهله ذلك حيث اغتيل يوم الجمعة ٣٠ يناير سنة ١٩٤٨ وكان قاتله من تنظيم هندوسى متطرف اعتقد أن غاندى أعطى الكثير للمسلمين.

أعلن نهرو للشعب الهندى اغتيال غاندى، قال: «لقد ذهب النور من حياتنا وانتشر الظلام فى كل مكان». كان ذلك نعياً عاطفياً، والحقيقة إن غاندى وتعاليمه لا يزالان أحياء. قال نهرو فى كتابه «إن غاندى أحس بالجماهير وعاش مثلما تعيش وتفاعل معها وفقا لحاجاتها. لقد عاش فقيراً ومات فقيراً ولم يكن له أى منصب رسمى ولكنه ترك للإنسانية فى كل مكان مثالاً لحل بعض المشاكل الهامة، وبدون استخدام العنف». وقال أينشتين: «إن الأجيال القادمة سوف تشك أن غاندى مشى بقدميه على أرضنا هذه».

إن الحركة القومية الهندوسية التى أودت بحياة غاندى تسمى هندوتفا Hindutva وهى حركة مازالت موجودة بالهند وأصبحت جزءاً مهما من النسيج الديمقراطى الهندى. هذه الحركة تقدم وجهة نظر ضيقة للحضارة الهندية؛ فهى ترى العودة بالهند إلى ما قبل غزو المغول الإسلامى. تعتمد تلك الحركة على التفسير غير المناسب والضيق لكتاب الهند المقدس Vidas والذى كتبه الهنود فى القرن الثانى قبل الميلاد، وإن

كانت جذوره تعود إلى ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد. تتناسى حركة الهندوتفا سيئات الماضى أو وجود أقليات غير هندوسية والتقدم الذى حصل فى العالم فى القرون الماضية. هى حركة تشابه الحركات السلفية الإسلامية مع فارق أساسى وهو وجودها فى إطار ديمقراطى حقيقى فى الهند. إن اليمين الدينى موجود الآن فى كل دول العالم تقريباً والخيار إما أن يكون جزءاً من النظام السياسى كما فى الهند وبلاد أخرى أو أن يكون خارج النظام السياسى كما هو عندنا، وأعتقد أن هذا له خطر أكبر. تأسيس الحركة الهندوسية السياسية يعود إلى Veer Savarakar والذى وضع أسسها فى كتاب طبع سنة ١٩٢٣. وتعد تلك الحركة أحد الأسباب التى أدت إلى انفصال الباكستان حيث خشيت الأقلية الإسلامية من سيطرة الهندوس وقد استغل محمد على جناح ذلك الشعور ونماه. لم تكن الهندوتفا حركة قوية بل إن أغلب المسلمين المقيمين بالهند اعتبروا أنفسهم هنوداً ولم يتركوها لباكستان إبان الاضطرابات والانفصال. عدد المسلمين بالهند الآن حوالى ١٤٠ مليوناً، فى باكستان ١٦٢ مليوناً، وفى بنجلادش ١٤٤ مليوناً. أهم حزب سياسى يمثل الهندوتفا هو حزب Bharata Janata Party أو BJP وهو حزب يتكون من سبع جمعيات أو مؤسسات دينية أغلبها لا يؤيد أعمال العنف ولكن من بعضها خرج من اغتال غاندى، ومنها أيضاً خرج من سبب اضطرابات للأقليات، وخصوصاً الإسلامية والسيخية. فى انتخابات عام ١٩٨٤ حصل ذلك الحزب على مقعدين فقط من ٥٣٤ مقعداً فى البرلمان الهندى. فى عام ١٩٨٩ حصل على ٨٥ مقعداً، عندما رفض حزب المؤتمر أن يؤلف حكومة ائتلافية اشترك حزب BJP فى وزارة ائتلافية مع أحزاب الأقلية. الحقيقة أن الوزارة تكونت من حوالى تسعة أحزاب؛ الأمر الذى حكم عليها بالفشل حتى من قبل أن تبدأ عملها، ولم تستمر تلك الحكومة إلا ١١ شهراً.

بدأ حزب BJP يؤلف وزارات غير مستقرة مع أحزاب الأقليات منذ عام ١٩٩٦ وحتى عام ١٩٩٩ حين اكتسب شعبية أكبر وحاز على ٣٤٪ من مقاعد البرلمان منفرداً، بينما حصل حزب المؤتمر على ٢٥٪ فقط. كون حزب BJP وزارة ائتلافية مستقرة حتى عام ٢٠٠٤. بدأ الاقتصاد يتحسن وكان معدل النمو السنوى ٨٪ وإن كان حال الفقراء لم يتحسن كثيراً. ومن ناحية أخرى كانت هناك بعض المشاكل الطائفية وخصوصاً الموجهة ضد المسلمين. فى انتخابات ٢٠٠٤ عاد حزب المؤتمر للحكم فى ائتلاف وزارى آخر، وإن كان قد حصل على ٢٧٪ فقط من مقاعد البرلمان، بينما حصل BJP على ٢٥٪. استمر الائتلاف الوزارى برئاسة الكونجرس حتى الآن والنمو السنوى للاقتصاد الهندى هذا العام ٨,٤٪، وهى ثانى دولة يتقدم اقتصادها بهذه السرعة بعد الصين.

حزب المؤتمر- وهو حزب غاندى ونهرو - فقد الوصاية التى كان يتمتع بها فى الماضى حين كان يفوز بأغلبية المقاعد فى البرلمان. الحزب الحالى والذى يؤلف الحكومة بتحالف اليسار والتقدميين ترأسه سونيا غاندى زوجة راجيف غاندى، وهى إيطالية الأصل، رئيس الوزراء مونماهان سنج من طائفة السيخ والتى تمثل ٢٪ فقط من تعداد الهند. هذا الحزب ذو النزعة اليسارية وغير الطائفية له مكانة مهمة فى الهند ولديه اختيارات أوسع فى تكوين حكومات ائتلافية مع أحزاب أخرى غير دينية. أما حزب BJP فهو حزب هندوسى ذو نزعة دينية اكتسب الكثير من ثقة الهنود فى العشرين عاماً الماضية، كون حكومات ائتلافية مع أحزاب غير دينية وأحياناً غير مستقرة، بعضها يسارى النزعة؛ الأمر الذى اضطر معه الحزب أن يخفف حدته الطائفية. إن وجود التعددية الحزبية فى الهند يحد من سيطرة أى حزب دينى وحتى حين ألف BJP الحكومة لم تحاول أن تتلاعب بالدستور. من أسباب عدم رضاء البعض عن ذلك الحزب هو سببان: الأول وجود بعض العناصر المتطرفة والتى سببت بعض الاضطرابات للأقلية المسلمة فى عام ١٩٩٣ والسبب الثانى هو برنامج الحزب النووى. على أثر التجارب الذرية فى الصين قررت حكومة إنديرا غاندى عمل قنبلة ذرية وفجرت إحداها عام ١٩٧٤ ولكنها احتفظت بذلك كسر ورأت أن تصاعد السباق النووى ليس فى مصلحتها. عندما وصل حزب BJP للحكم توسع فى البرنامج النووى، وفجرت الهند خمس قنابل ذرية مما دعى باكستان لتفجير ست قنابل ذرية. لم يرض الكثير من الهنود عن سياسة التصعيد؛ الأمر الذى قد يكون قد أثر فى انتخابات عام ٢٠٠٤ لغير صالح BJP.

إن ديمقراطية الهند معقدة للغاية، فيكفى أن نعرف أن بها ٢٨ ولاية تختلف كثيراً فى ظروفها وتوجهاتها السياسية ولها حكوماتها التى تتمتع باستقلالية فى شئون كثيرة. إذا أخذنا فى الاعتبار مشاكل الهند الطائفية والدينية والاقتصادية نجد أن ديمقراطية الهند معجزة بكل المقاييس، ولكنها معجزة استمرت لأكثر من نصف قرن وأعتقد أنها ستستمر.

هناك ملاحظتان عن غاندى وكل من فلسطين ومصر لا أعتقد أنهما يرتبطان بموضوع المقال كثيراً أو بشكل مباشر، ولكن قد يهم القارئ العربى معرفتهما.

العصيان المدنى

هى حركة تشابه الحركات السلفية الإسلامية مع فارق أساسى وهو وجودها فى إطار ديمقراطى حقيقى فى الهند

فمن فلسطين كان غاندى متعاطفاً مع معاناة اليهود فى أوروبا ولكنه كان ضد ما يحدث فى فلسطين. فى عام ١٩٣٨ أدان حزب المؤتمر استعمار اليهود لفلسطين بمساعدة الأوروبيين. ورأى غاندى أن ما كان يحدث فى فلسطين أمر غير أخلاقى يجب مقاومته. كان غاندى يميز بين ارتباط اليهود الدينى بفلسطين وبين الرغبة فى تملكها. لجأ غاندى إلى التفسير المجازى لمقولة أرض الميعاد حيث قال:

«لقد أخطأ اليهود بتصورهم أن فلسطين (الأرضية) هى المقصودة، إن فلسطين رمز، ومكانها داخل الإنسان اليهودى وليس خارجه». لقد اعتبر غاندى أن خلق إسرائيل هو عمل إرهابى بعينه يجب مقاومته وكان غاندى يفضل أن يلجأ الفلسطينيون إلى الطرق السلمية للمقاومة بدلاً من مقابلة العنف بالعنف. إن مبدأ العين بالعين يجعل الجميع عمياناً. فى أواخر أيام غاندى وعندما تكونت إسرائيل قال: «لقد أصبحت قضية من الصعب حلها، لو كنت يهودياً لقلت لليهود إن الإرهاب الذى تستعملونه سوف يضر قضيتكم». لقد اتهم بعض المتطرفين اليهود غاندى (رسول السلام) بأنه يعادى السامية!!

أما عن مصر فقد كان غاندى معجباً بالوفاق والترابط بين المسلمين والمسيحيين خلال ثورة ١٩١٩ وما بعدها. إلا أن الحقيقة أن المشاكل الطائفية فى الهند أكثر تعقيداً من مشاكلنا فى مصر. إننى أعتقد أن بعض الصعوبات بين مسلمى مصر وأقباطها والتى تهب علينا بين حين وآخر ما هى إلا قشور، ولظروف طارئة. فالشعب المصرى بتاريخه الطويل به من الرواسب الحضارية ما يجعله متماسكاً تماماً رغم ما يقول أو يقوم به بعض المتطرفين. ■

المراجع

(1)Gandhi's Autobiography Public Affairs Press, Washington, D.C. 1948.

(2)Ghandy A Memoir, William L. Shicrer, Simon and Schustler, 1969.

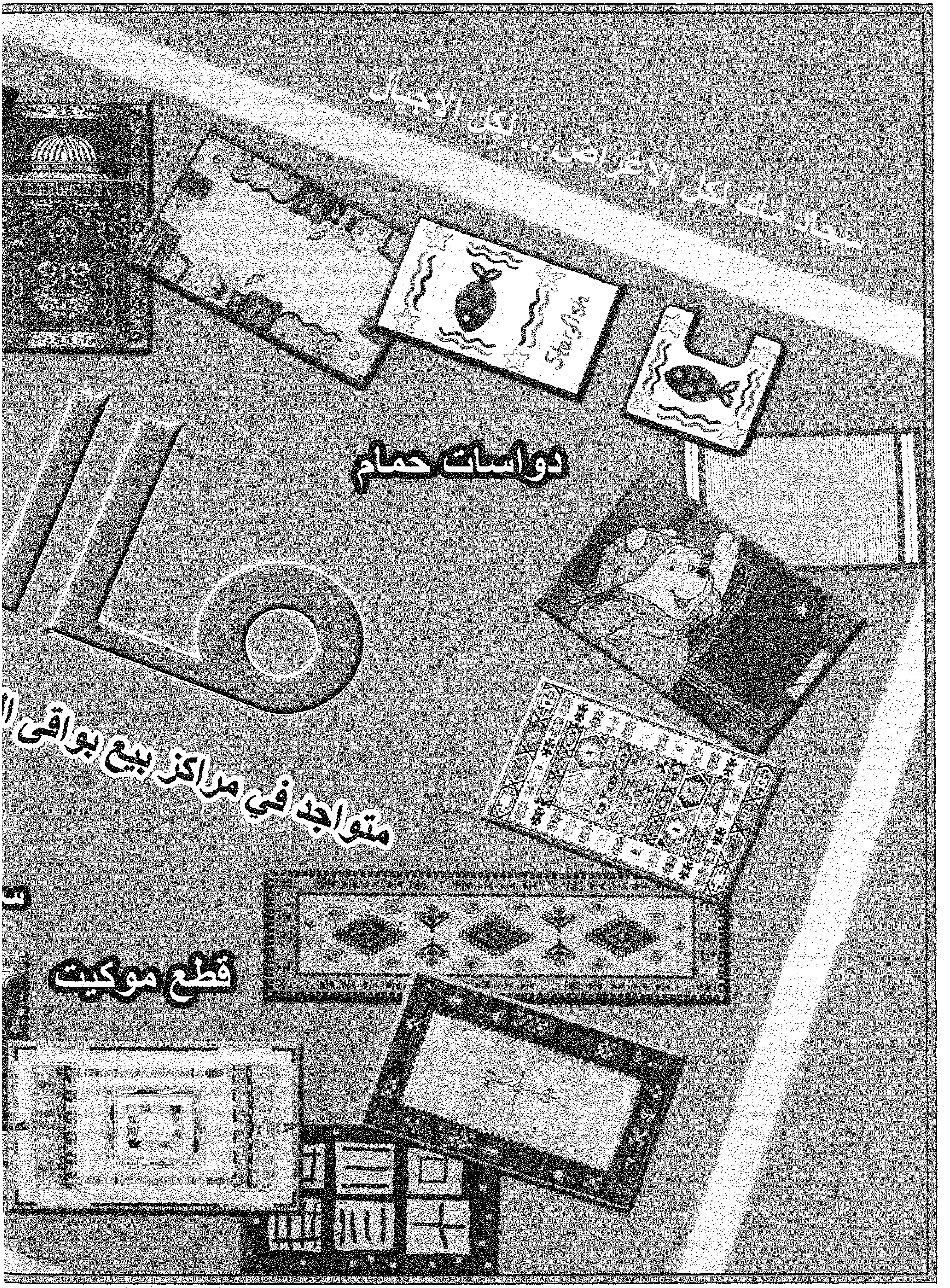
(3) Rediscovering Ghandi, Yogesh Ghandi, Arrow books Ltd. 1997.

(4)Nehru, an Autobiography, Sixteenth Impression, Oxford University Press, 2003

(5) Nehru, A Political Biography Michael Edwards, Praeger Publisher, New New York and Washington, 1972.

(6)India after Independence 1947-2000, B. Chandra, M. Mukherjee, A. Mukherjee, Pengiun Books, 2000.

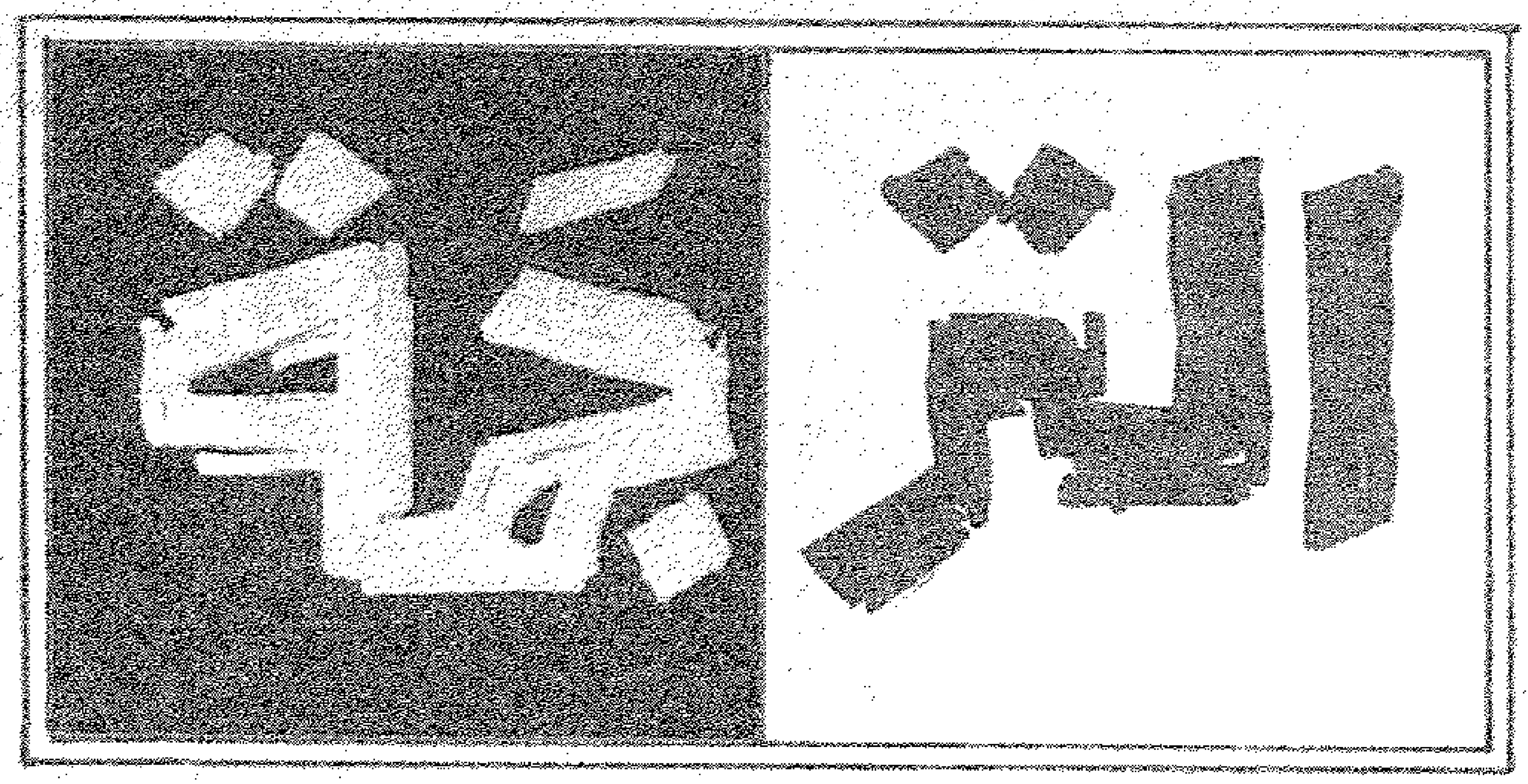
(7)The Argumentative Indian, Amartya Sen, Penguin Books, ٢٠٠٥.


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت



سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
دير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
دة صلى
www.maccarpet.com

من إعادة الإنتاج



ساعترف منذ السطر الأول بأن التصدى لنشاط ثقافى بالغ الخطورة والأهمية كالترجمة، لن يكون بمقالة واحدة... وقد يتطلب هذا التصدى فريقا من المراجعين ليجيبوا عن سؤال أصبح ملحا الآن.. ما الذى فعلته الترجمة على اختلاف مستوياتها بثقافتنا المعاصرة... وبلغتنا (وأسلوبيتها)، وأية ظلال يصعب حصرها ومعرفة حدودها أصبحت تحيط بالفكرة الواحدة، بالمقطع الواحد من قصيدة مترجمة، وأخيرا بما يسمى فى كثير من المجازفة (الثقافة العالمية)؟

ساعترف ايضا باننا ندين لعدد من المترجمين (الخلاقين) الذين نقلوا الكثير من الأعمال الخالدة والتى هى أشبه بينابيع، إذ لولا هؤلاء - على قلة عددهم وضخامة إنجازهم - لأصبحنا غرباء فى هذا العصر، ولن يتنكر لهذا الجميل الثقافى إلا من يتجاسر على الادعاء بأن فماً واحدا ستتحرك فيه كل الألسنة، لكن ما يبعث الأسى هو ما آلت إليه الترجمة فى الوطن العربى، بتشجيع من دور نشر تجارية ومغامرين فى سوق الكتاب لا يهمهم سوى مقاييس الربح والخسارة دون إقامة أى اعتبار لجودة الترجمة ودقتها أو حتى اختيار ما هو جدير فعلا بالنقل.

ومنذ بدأت حركة الترجمة تنشط بعد الحرب العالمية ونتيجة الاتصال بالغرب وتزايد عدد العارفين بلغاته، صاحبت هذه الحركة (مخاطر) كان لها أثر سلبى لا يمكن تجاوزه، ومن تلك المخاطر عمليات الاختزال والتصرف بالأصول، وتعريبها مختصرة أو مشذبة ومن ثم تشويهها تحت تبريرات من نوع (التبسيط أو الاختصار أو التعريب بما يلائم المرحلة.. الخ) الكثير من النصوص والدراسات الأساسية عانت من الحذف لأسباب سياسية أو أخلاقية بشكل عام.

وقد بدأت عمليات التلخيص والحذف فى أواخر القرن التاسع عشر حين قام «نجيب ميخائيل» بتلخيص روايات فيكتور هوجو، ومحمد كامل حجاج الذى لخص عشرين قصة ورواية فى كتابه (بلاغة الغرب) عام ١٩٠٩، ووصل الأمر إلى حد جعل درينى خشبة يتبنى مذهبا فى التلخيص حين نشر مقدمة كتابه قصة طروادة عام ١٩٤٥، من ذلك قول خشبة :

(الأدب اليونانى مثقل بمئات من أسماء الآلهة والإشارات الأسطورية التى تصرف القارئ عن لب الموضوع) لهذا فالمترجم يحذفها لكى (يحبب الأدب اليونانى إلى قراء العربية) كما يقول : وقد طبق (خشبة) مذهبه هذا على ترجمة الالياذة والاوديسة، ومن المعروف أن سليمان البستانى الذى عرب الالياذة شعرا وقف ضد هذا الاتجاه فى التلخيص والوصاية على الذوق عند القارئ العربى[1].

والحقيقة أن تجربة العرب مع الترجمة عن اللغات الأخرى فى كل العصور تطرح مشكلات وأسئلة يتعذر تجاوزها من ذلك عزوفهم عن ترجمة الشعر فى عصر الترجمة الذهبى من منطلق نجد خير تعبير عنه فى قول الجاحظ بكتابه الحيوان أن الشعر (حكمة العرب) لا يجوز عليه النقل إلى لغة أخرى ومتى حول تقطع نظمه وبطل وزنه وسقط موضع التعجب!

ويحدد (محمد عبد الغنى حسن) فى كتابه «فن الترجمة» محاولة وديع البستانى فى ترجمة رباعيات الخيام عام ١٩١٢ باعتبارها أولى الترجمات الشعرية فى القرن العشرين. بهذا المعنى يكون انصراف العرب إلى ترجمة العلوم الأخرى من تراثات الإنسانية أمرا ذا دلالة، كما أن اهتمام غير المترجمين بأمور الترجمة ومشكلاتها أمر ذو دلالة أيضا. يقول عبد الغنى حسن: إن الذين اهتموا بأمر الترجمة هم أدباء مثل الجاحظ وصلاح الدين الصفدى اللذين لم يعرفا غير العربية، أما المترجمون أمثال حنين بن اسحق وابن ماسويه وابن البطريق فلم يقولوا شيئا عن تلك المشكلات.

إن بواكير الترجمات بالرغم من كل سلبياتها، اتسمت بالجدية، فالذين أقدموا على ترجمة الآثار الأجنبية كانوا يعرفون صعوبة مهمتهم، وكانوا يجيدون اللغتين معا... المنقول منها والمنقول إليها، وكان معظمهم ممن اتصلوا مباشرة بالغرب، عاشوا فى عواصمه وعرفوا تفاصيل هى من صميم لغات لا يكفى التعرف عليها (معجميا) أو على طريقة تعلم الإنجليزية فى شهر واحد!

لكن سرعان ما أصبحت الترجمة نشاطا مبذولا للجميع، وانحرفت باتجاه مسار سياحى، ساعد على ذلك تعدد دور النشر التجارية والمجلات والصحف التى يبتلع بياض صفحاتها كل شىء، وإذا كانت ترجمة خبر فى صحيفة أو مقال رياضى لا تشترط أكثر من معرفة اللغة المترجم عنها، فإن المقالات الأدبية والأنواع الأدبية والنقد تشترط ما هو أكثر من معرفة اللغة.

فالأدب بكل تفريعاته ملىء بالإحالات إلى بعضه، وإلى تراثات ثقافية على امتداد العصور، من هنا لا بد لمترجم (الأدب) ان يكون متقفا، ملما بأساسيات الأدب، كيف يترجم قصيدة إنجليزية من لم يقرأ الشعر فى حياته الا لماما وكيف يترجم دراسة نقدية من نسيت لغته الأجنبية بين أكداس المجلات غير المتخصصة؟ كم سيفوت هذا المترجم على نفسه وعلينا من الإشارات؟

لقد أقدم كثير من العارفين بلغات أجنبية على مغامرات لم يتهيأوا لها من قبل، فكانت الحصيلة (مسوخا) فاقدة الروح، ومراجعة سريعة لكثير من المجلات والصحف الصادرة اليوم تكفى لأن يسأل أحدنا : كم من هذه الترجمات سيبقى؟ وكم من هذه المسوخ يمكن الركون إليه والتأكد من أنه ليس بحاجة إلى إعادة الاعتبار (إعادة الترجمة)؟

تعهدت إحدى دور النشر فى بيروت وعلى مدى عشرين عاما بتشويه أهم الروايات العالمية وتقديمها إلى القارئ العربى بصفحات مغرية - من حيث العدد - وأغلفة أشبه بمصائد ينجذب إليها ملايين المحرومين، الحرب والسلم لتولستوى تضغط فى مائة وخمسين صفحة صفراء، الجريمة والعقاب تضغط فى أقل من العشر، والأحمر والأسود لستاندال تصبح كراسا بغلاف (طعم)، وعشرات الروايات التى لم يتجرأ أصحاب المشاريع التجارية فى الغرب على اختصارها، تختصر وتقدم بلغة وأساليب الرسائل وتغمر رفوف المكتبات.

وقد اهتدت دور نشر من هذا النوع إلى طريقة تمرر من خلالها مشروعها التجارى، فالمترجم غائب عن الغلاف والترجمة يجب أن تنسب إلى شخص ما... فكان أن نسبت إلى عبارة غامضة، مخاتلة وإغوائية فى مجتمع لم يفقد ثقته بأساتذة الجامعات بعد..

(نخبة من الأساتذة الجامعيين)، دون أن يذكر اسم أستاذ واحد من هؤلاء.. والمسألة باختصار خديعة تجارية، لا نخبة ولا أساتذة... بل مترجمون (سياحيون)، جاهزون كأنابيب ووسائط نقل لكل تكليف... يكتفون بالأجر فقط، ولا يطالبون بأى اعتبار معنوى كذكر الاسم مثلا.. إن هذه الخديعة لا تسىء إلى الروايات وأصحابها فقط، وإنما تسىء إلى القارئ وإلى اللغة العربية وأخيرا إلى سمعة الجامعات، فهذه حصيلة نخبة من أساتذتها كما يقول الغلاف!

إلى الخيانة النبيلة

خيري منصور

لقد أقدم كثير من العارفين بلغات أجنبية على مغامرات لم يتهيأوا لها من قبل، فكانت الحصيلة (مسوخا) فاقدة الروح، ومراجعة سريعة لكثير من المجلات والصحف الصادرة اليوم تكفى لأن يسأل أحدنا : كم من هذه الترجمات سيبقى؟

وثمة نوع آخر من دور النشر التجارية، لم تسعفها المرحلة بتشريع يسمح بنشر الكتب الرخيصة التى لا تهدف إلى اكثر من التحريض الغريزي... لجأت إلى طريقة أخرى، انتخاب أعمال روائية من آداب العالم للجنس فيها دور وظيفى ضمن سياق روائى عام، وكان هذا المنحى تعويضيا إلى حد كبير عن إنتاج أدب يكتب لهذا الغرض بهاجس تجاري... سآخذ على سبيل المثال لا الحصر، بعض روايات البرتو مورافيا (السأم) ومدار الجدى لأرثر ميلر وعشيق الليدى تشاترلى للورنس.

هذه الأعمال قام بترجمتها أناس لم تتكرر أسماؤهم بعدها، ولدى قراءتها أحسست بأن إضاءة مبالغا بها سلطت على كل ما يتعلق بتحريض الغريزة، وعلى سبيل المثال أيضا سأتوقف قليلا عند رواية (ميلر) مدار الجدى التى ترجمها أسامة منزلجي. نحن نعرف أن ميلر كاتب حر، لا تحده حدود، لكن ما هو واضح تماما أن المترجم تبذل فى اختيار المفردات العامية، وبعض تراكيب العبارات المتداولة (سرا) حول الجنس وبإلحاح تجارى، كان هذا الإلحاح يهدف إلى غير ما انتهى إليه بالفعل... كان يهدف إلى أن تباع الرواية فى السوق السوداء وان يهربها القراء العرب كالمحظورات.

وثمة دور نشر جعلت من الترجمة وسيلة سريعة للربح من خلال لعبة العناوين. كان يطبع الكتاب نفسه - مترجما - مرتين بعنوانين مختلفين، والامثلة هنا كثيرة، منها كتب سارتر ودى بوفوار، فمسرحية سارتر (جلسة سرية) صدرت فى ترجمة أخرى تحت عنوان الحلقة المفرغة، وكذلك مسرحية الإله والشيطان، وتباعا صدرت عن إحدى الدور ثلاثة كتب لمالرو هى كتاب واحد (الحبل والفئران) و (سقوط السنديان) الاول يتضمن الثانى فى أحد فصوله!

ترجمة الشعر

كان روبرت فروست يعرّف الشعر قائلا : هو ما لا يترجم، وفروست كشاعر يدرك ما للمفردة من ظلال نفسية ودلالة بيئية، لكن تعريف فروست للشعر لم يحل دون استمرارية هذا الشر الذى لا بد منه (ترجمة الشعر) وهناك من الأمثلة ما يطرح موقفا مضادا من فروست كتجربة (جيته) حين ترجم شعر نيرفال الى الفرنسية (وكاد أن يتخطى الأصل) كما يقول جيته، ولدينا فى المكتبة العربية رفوف من الأعمال الشعرية التى ترجمت فى السنوات الأخيرة[١]، تطرح علينا (إشكاليات) متعلقة بترجمة الشعر منها :

١- هناك شعراء ترجموا سبع مرات إلى العربية، بينما لم يترجم آخرون لا يقلون أهمية، سبع ترجمات عربية للأرض اليباب تكاد أن تقدم لنا سبعة شعراء لا شاعرا واحدا، ونحن لا نعترض هنا على تعدد الترجمات لشاعر واحد، فقد يكون فى هذا التعدد غنى نوعى وتنوع على مستوى الذوق والحساسية الجمالية، فقد ترجم الإنجليز كوميديا دانتى (الجحيم) اثنتى عشرة ترجمة، وترجمها الفرنسيون ست مرات، ان اعتراضنا هنا على تسليط الإضاءة كلها على شاعر أو روائى وإبقاء العشرات الآخرين ممن لا يقلون قيمة فى الظلام.

٢- لجأ بعض المترجمين إلى (نظم) النص المنقول شعرا، هادفين بذلك إلى الحفاظ على روحه الشعرية!، وهنا يحدث ما يشبه إعادة إنتاج (النص) بإمكانات المترجم وجماليات لغته، بمعنى آخر أدت هذه الطريقة إلى تدمير النص الأصلى عكس ما كانت تطمح إليه، وسآخذ هنا مثالين : (أنت وأنا) لبول جيرالدى الذى ترجمها نظما إلى العربية نقولا فياض، ومرثية ميخياس للوركا ترجمها نظما الدكتور عبد الرحمن بدوى.

يتحدث نقولا فياض فى مقدمته عن طريقته فى ترجمة جيرالدى يقول : لقد أضفت مثلا جملة (تمضى أمانينا) وهى ليست فى الأصل، لكنها تحصل من كلام الشاعر وهى لا تضعف قوله، بل بخلاف ذلك تفسره، هذا القصور فى فهم الترجمة يصاحبه قصور فى فهم الشعر لكى تكتمل مأساة جيرالدى فى العربية، عشرات الجمل على غرار (تمضى أمانينا) أحصيتها فى الديوان، جاءت إما مفسرة أى مضعفة للشعر أو استكمالا مجانيا لعجز البيت، أما ترجمة د. بدوى ونظمه لمرثية ميخياس على (الرمل) فيكفى أن يقارنها القارئ بترجمات عربية أخرى لنفس القصيدة، وسيكتشف بنفسه حجم الخسارة.

٣- تفاوت مستويات الترجمة حيث يتعدد المترجمون للنص الواحد.

وكمثال أيضا ترجمة كل من د. عبد الغفار مكاوى ومحمود مكى قصيدة لوركا (الحزن الأسود) جاءت ترجمة مكاوى هكذا :

معاول الطيور
تحفر باحثة عن الفجر

عندما تهبط (سوليداد) على الجبل الأسود، (ثورة الشعر الحديث ص ٥٤)

أما ترجمة محمود مكى للأبيات نفسها فهى :

(مناقير الديكة
تحفر فى الأرض باحثة عن الفجر
و (سوليداد) تهبط على سفح الجبل المظلم (مجلة عالم الفكر، المجلد الرابع، عدد٢)

باستثناء اسم سوليداد الذى يشكّل قاسما مشتركا بين المقطعين، نتساءل : أين المعاول من المناقير...؟ وأين الطيور من الديكة؟ وأين الجبل الأسود من سفح الجبل المظلم؟ صحيح أن البحث عن قصيدة لوركا خلف الترجمتين أو فى إحداهما هى مهمة مترجم ثالث عن الأسبانية، لكن هذا التفاوت بين الأداءين غير قابل للتخطى، أنه يؤشر قصور إحدى الترجمتين، وهنا نتذكر ملاحظات د. عبد الواحد لؤلؤة على ترجمة لويس عوض للأرض اليباب، والأخطاء الجذرية التى سقطت فيها ترجمة عوض، حين قام بعملية تذكير المؤنث على امتداد القصيدة، وترجم أسماء الأشخاص بيلادونا - وهو اسم علم ترجمه (السيدة الجميلة)، هذا عدا عمليات الحذف والإضافة غير المسئولة.

إن الذى احتج على ترجمة العرب القدماء لـ التراجيديا بالهجاء، والكوميديا بـ المديح، يعود عند انتصاف هذا القرن ليجعل من المرأة رجلا فى ترجمته ويضع المدفأة على السقف!

سأتوقف هنا عند تجربتين فى ترجمة الشعر، حيث تمتزج المكابدة العذبة والحذر واتّقاء (الخيانة)، التجربة الأولى : هى تجربة روسلو فى ترجمة ادغر الن بو إلى الفرنسية، والتجربة الثانية : لجبرا إبراهيم جبرا من مقالة له بعنون تجربتى مع شكسبير.

يقول روسلو : الكلام عن مترجمى (بو) يطرح مشكلة ترجمة الشعر، لم يترجم إلى أى لغة فى العالم مقطع NEVER MORE من قصيدة الغراب[٣] لأن الأذن الفرنسية وحدها هى التى تلتقط انزلاق الثلج فى مقطع من NEVER والمقطع الأخير الذى يوحى لنا أن هذا الثلج ينفتح فجأة على هاوية مظلمة مجلدة، أين الغطيط الرهيب الذى يتعالى من تلك الهاوية مع MORE التى ليست غطيطا وليست رهيبة لدرجة جعلنا نلمس فى قلبنا غشاء الموت، إلا أن رنين MORE يتناغم بصورة مثالية بالنسبة للفرنسى مع MORE معنى كلمة MORTE الموت بالفرنسية، ثم يقارن روسلو بين ترجمات الشعراء لقصيدة الغراب

كتاب الزاوية

فراغ النفس المسلمة

محمد الغزالى

إذا كان الأوروبيون لا يألفون إلا أن يكون وجه المرأة سافرًا فليسقط النقاب ولتمض كلمة التوحيد فى طريقها.

وإذا كانوا يرون أنها تلى منصب القضاء أو الوزارة، فمن يصدهم عن الإسلام لأن من فقهائنا مَنْ يمنع ذلك! ألا فليسلموا، ولتسقط العقبات التى تصدهم عن دين الله!

من قال: إن الإسلام يشترط تبعية لمذهب فقهى معين فى الفروع؟ إن فى الدعاة فتانين يصدون عن سبيل الله، ويكرهون الناس على اتخاذ سبل أخرى.

سيطر علىَّ وأنا فى كندا شعور من الكآبة والمرارة لأن نزاعًا حدث فى أحد المساجد، أتقرأ سورة قبل خطبة الجمعة أم لا؟

إن النازحين إلى العالم الجديد حملوا معهم جراثيم العفن فى عالمهم القديم! وبدهى أن يكونوا صورة للأقطار التى أتوا منها! هل فكر أقلهم أو أكثرهم فى أسباب تخلف الأمة التى ينتمون إليها؟

كان من المستطاع أن تكون «الأقليات» الإسلامية فى أوروبا وأمريكا وأستراليا رءوس جسور يعبر عليها الإسلام - وكل شىء هنالك يتطلبه، ويهفو إليه - لو أن المسلمين يفقهون دينهم ويصنعون من أنفسهم ومسالكهم صورًا وسيمة له.

أما الاشتباك فى حرب حياة أو موت من أجل التصوير الشمسى أو من أجل نقاب المرأة، فضلاً عن حقوقها الطبيعية، فلا نتيجة له إلا الفشل.

الترجمة

ومنها ترجمات بودلير ومالارميه، أما عن ترجمته هو فيقول : (كان علىَّ أن أدخل فى جلده، فى أوتاره، أن أصعد فى مركبته إذا كنت حقًا أريد فهمه ورؤية ما رأت عيناه، كانت ترجمتى قبل كل شىء تعنى مرافقته، حمل معوله ومنظاره والتجرؤ أحيانا على تخفيف حمله، لعنت معه أيام الشرس، متذكرا طفولتى الخاصة بى)(٤).

هذه العبارة الأخيرة هى هدفنا من الاستشهاد بتجربة (روسلو)، لقد وجد نفسه فى (بو) سكنه وترجم (روحه) إن كلمة MORE التى يقول عنها روسلو «تناغم» بالنسبة للفرنسى مع كلمة MORTE (الموت) لم تخطر على بال يوسف الخال أحد مترجمى بو إلى العربية، فترجم الخال تلك الجملة «ما مضى لن يعود»، رغم إمكانية الاستفادة من العلاقة الصوتية بين MORTE الفرنسية و (موت) العربية التى تحمل نفس المعنى!

أما جبرا إبراهيم جبرا الذى يقول فى تجربته مع شكسبير أنه قرأ يوليوس قيصر بالإنجليزية وهو فى الخامسة عشرة، فهو يبحث عن العنفوان الشكسبيرى فى ترجمات أخرى إلى العربية فلا يجده وكلما جابه النص الأصلى خشى عليه وعلى لغته وما يترجم، ولكن النشوة فى مجابهة النص كانت هائلة!

ويذكر جبرا أنه شاهد وهو فى العشرين المسرحيات الثمانى التى كانت تقدم على مسرح شكسبير التذكارى، لهذا، فهو أحب شكسبير أولا وتذوقه وعاناه فترجمه، يقول : ترجمة شكسبير كانت لى إذن فعل حب، وأكاد أقول فعل إنقاذ... وكل ما أترجم لا أتصدى له إلا إذا شعرت انه رئة أخرى لى أتنفس بها(٥).

بعد هذا كله... كيف يجرؤ على مجابهة نصوص صعبة أناس يعتقدون أن العدة الوحيدة لإنجاز ترجمة ما هى احتياز لغة أجنبية!؟ وينسون معاناة التذوق والتصادى وأخذ المنظار والمعول وتخفيف العبء؟ إن عدة الترجمة متعددة الأدوات، إما احتياز لغة أجنبية بمجرد احتياز لغة فمن شأنه أن يخلق (أدلة سياحيين) فى بلادنا الواسعة المكتظة بالآثار وأطلال الحضارات.

ويبدو أن دور النشر التجارية ومغامرى البحث عن الربح السريع فى سوق الكتاب يواصلون مصائدهم وإغراءاتهم لإجهاض (مترجمين) يعدون بالكثير إذا نجوا من هذه المصائد أو قد يخففون العبء عن ضيوف كبار يحلون على لغتنا، يأخذون منهم المعول أو المنظار ويلعنون من خلالهم ما يشتهون أن يلعنوا.... ويتذكرون طفولاتهم أو يتنفسون من رئة (معافاة) جديدة!(٦)

هوامش :

(١) من أمثلة الحذف كى تلائم الترجمة الذوق العربى، ما فعله خليل مطران حين حذف (هاملت) ثلاثة عشر مشهدا أى ثلث المسرحية كما يقول جبرا إبراهيم جبرا الذى أعاد ترجمتها كاملة بعد خمسين سنة! وكذلك بعض المشاهد من الكوميديا الإلهية لدانتى - لأسباب دينية - رغم أهمية هذه الترجمة.

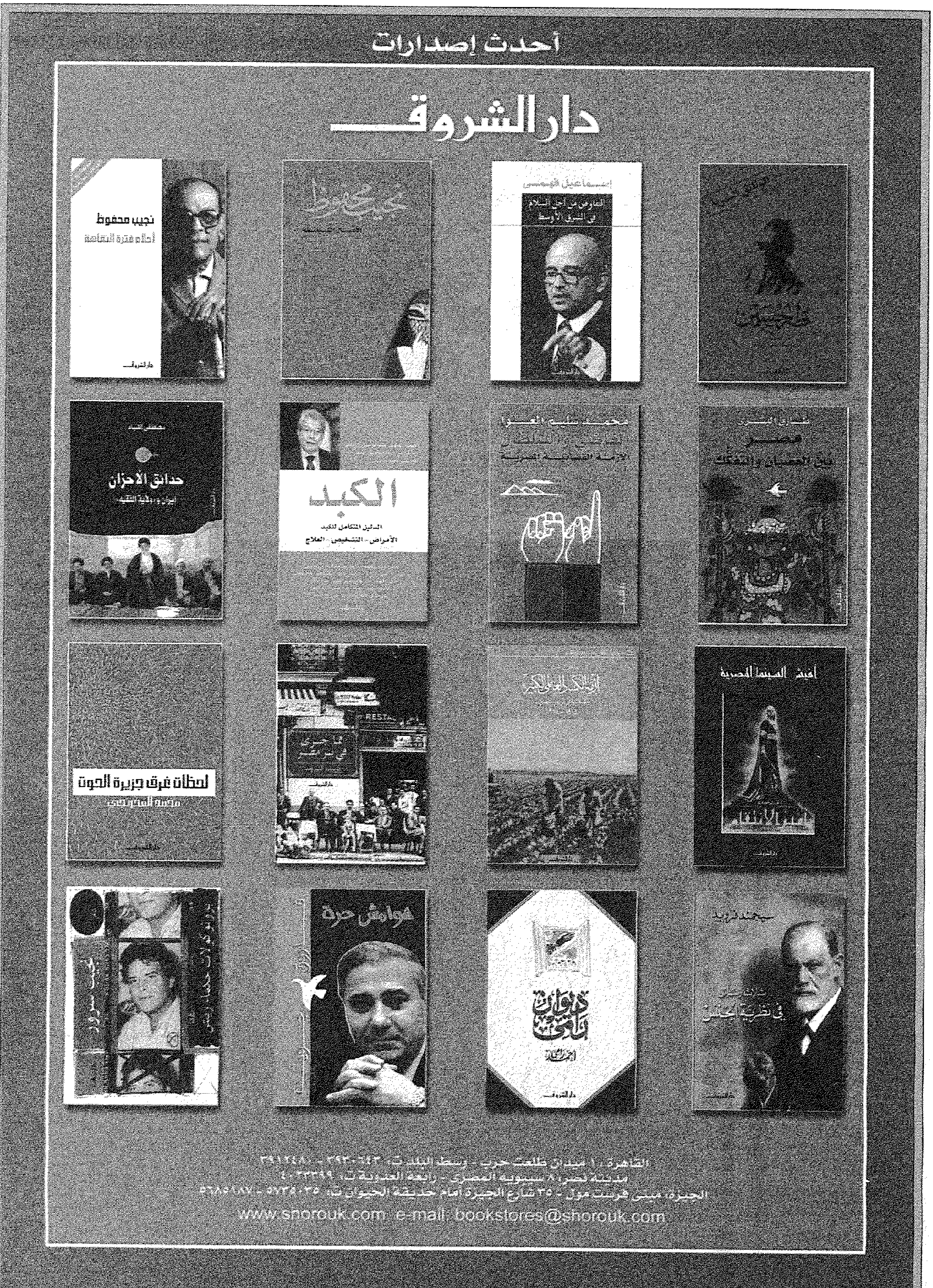
(٢) بمناسبة ذكرنا لما قاله جيته عن ترجمة نيرفال لشعره إلى الفرنسية قال جيته : لم أعد قادرا على قراءة شعرى بالألمانية التى كتبت به، بهذه المناسبة تجدر الإشارة إلى ترجمة عوض محمد عوض لـ(فاوست) جيته، فقد قدم الجزء الثانى ملخصا، أما الشعر فى فاوست فلم ينج من النظم وإعادة إنتاج النص بإمكانات المترجم نفسه!

(٣) NEVER MORE عبارة من قصيدة الغراب لـ (بو)، وتجربة روسلو فى ترجمتها وردت فى كتابه عن (بو) الذى ترجمه كميل داغر، أما تجربة جبرا مع شكسبير فهى من كتابة ينابيع الرؤية.

(٤) ما يقوله روسلو عن عبارة بو يذكرنا بقول مشابه لـ أ. إدمان الذى روى أنه سمع أحد الأجانب الذين لا يعرفون الإنجليزية يبدى إعجابه لدى استماعه إلى كلمة CELLAR DOOR و قال إنها اجمل كلمة سمعها من تلك اللغة، وهنا نجد إشارة إلى جمالية الصوت وجرس الكلمة الذى يضيع فى الترجمة، وبهذا المعنى قال (كزرلنج): إن الفلسفات العميقة تكمن فى اللغات، أما (ادمان) فيجزم أننا نجد فى نثر ديكارت مثلا ذلك الإيقاع المميز للغة الفرنسية.

(٥) ثمة محاولات فى ترجمة الشعر تجاوزت فيها الطريقتان : الترجمة من شعر إلى نظم ومن شعر إلى نثر، وعند المقارنة بين الطريقتين يتبين لنا حجم الخسارة حين ننتهج الطريقة الأولى، من أمثلة هذا التجاوز (مائة قصيدة من الشعر الإنجليزى) ترجمة دكتور رزوق فرج رزوق.

(٦) عندما كلفت (رد بوك) الأمريكية كتابا بتلخيص الروايات العالمية أو ما يسمى (فن قفز الصفحات) ووجه هذا المشروع باستنكار واسع فى العالم، ولم ينجح كما نجحت دور النشر التجارية العربية فى (تقزيم) الروايات العالمية دون احتجاج من أحد.



هنــاك فنــون وثقــافات أخــرى..

الغــرب المغــرور

محـــمـــد المـــهـــدى

■■ نشرت مجلة معرفة الفنون (connaissance des arts) الفرنسية قبيل انتخابات الرئاسة الفرنسية عام ١٩٨١ لقاءات مع الأربعة الكبار الذين دارت بينهم المعركة الحامية.. انتهت التصفية إلى اثنين منهم، وانتهت تصفية التصفية إلى ميتران كما نعلم.. الأربعة الكبار هم: ديستان، وميتران، وشيراك، ومارشيه.. ونوع اللقاء كان لطرح آرائهم الفنية وكيفية تذوقهم لفنون الحضارات، والملاحظة الأولى حول هذه اللقاءات هي حديث رجل السياسة الفرنسى يمينيًا كان أو يساريًا عن الفن بتعمق واهتمام وجدية وفهم.. يدعو للإعجاب بقوم، والأسف على حال آخرين..

والملاحظة الثانية هى إجماع الأربعة على إدراك قيمة فنون الحضارات الأخرى خارج النطاق الغربى أو النموذج الإغريقى. وإن لم يمنع ذلك بعض اللمحات التمييزية عند البعض.. قد ترتفع لتذكر بالريادة الفنية الفرنسية.. أو قد تهبط لتلمح بضعف قيمة بعض فنون الآخرين.

فى هذا المجال لا يمكن أن ننسى المفكر الفرنسى الذى قيل إنه نزل أيضًا معركة الانتخابات. لا يمكن أن ننسى «روجيه جارودى» وما طرحه حول فنون الآخرين فى كتابه الشهير (من أجل حوار بين الحضارات) (pour un dialogue, des civilisations) تعرفت على هذا المفكر الكبير عن قرب عند زيارته للكويت عام ١٩٨٥.

روح إنسانية بسيطة تألفك من أول جملة ترحيب تلقيها، وتألفها بعمق من أول رد يكشف جوانبها السمحة دون وجل أو تصور لحواجز. ولم يكن ذلك بغريب فجارودى هو المبادر، المعروف بتأليف هذا الكتاب فى سبعينيات القرن الماضى، وقبل اعتناقه الإسلام. كان يردد وعن يقين الدارس الفاحص المقارن.. «الغرب حدث». لم يكن يقصد فى انفعال الغائية فكرية لحضارة الغرب، ولكن يقصد إثارة تساؤل مبطن بعيد الغور بالعمق الفلسفى، بعيد النظرة بالبعد التاريخى.

ماذا سيبقى من الغرب؟

تعرفت أيضًا فى هذه الفترة على صديق المفكر جارودى المحامى الدكتور فرنسيس لامان Francis Lamand (كان آنذاك المستشار الثقافى للسفارة الفرنسية) وربطتنى به علاقة صداقة وثيقة وأهدانى كتابه الذى يعد أيضًا أول مبادرة لمعرفة الإسلام والمسلمين فى فرنسا (الإسلام فى فرنسا) (L'islam en France) صدر عام ١٩٨٦ بعقلية واعية موضوعية، وبعمق دارس جاد، وقلب محب.

بعد عودته لفرنسا تولى الدفاع عن جارودى أمام القضاء بعد الحملة الصهيونية الشرسة لتشكيكه فى المحرقة اليهودية.

عقـدة مـاراثـون

تتتابع بل تتسارع الأحداث فى لهاث كجزء من خلل المنظومة الغربية لتثبت بادئ ذى بدء وجهة نظر جارودى، وأن ما تبينه وقرره منذ أكثر من ثلاثة عقود يتطامن فى جنون ككرة الثلج مخترقًا متغافلاً عن الخصوصية الدينية، أو القومية أو العرقية، أو الثقافية، وبغير بديل يطمئن ويجعلنا نقرر أن الغرب ليس بحدث.

يرى المؤلف حوار الحضارات بناء متكاملاً متداخلاً، ولا يراه حديثًا بين كتل منفصلة متجاذبة أو متنافرة.

وأكتفى هنا بالحديث عن رافد من روافد الحضارة. أو نستمع إلى حوار الفنون من بين أحاديث الحضارات كما قدمه جارودى. يعرف هذا الرافد عند أهل التخصص بالتفسير الجمالى للتاريخ. اعتمد فى بدء ظهوره على تمييز كل ما هو إغريقى أو رومانى، وانتهى فى قمته إلى تتويج كل ما هو أوروبى أو غربى. يقول «هيجل» إن تطور الفن هو حركة تحقيق الذات فى سير التاريخ أو محاولة لتبين الفكر أو العقل.

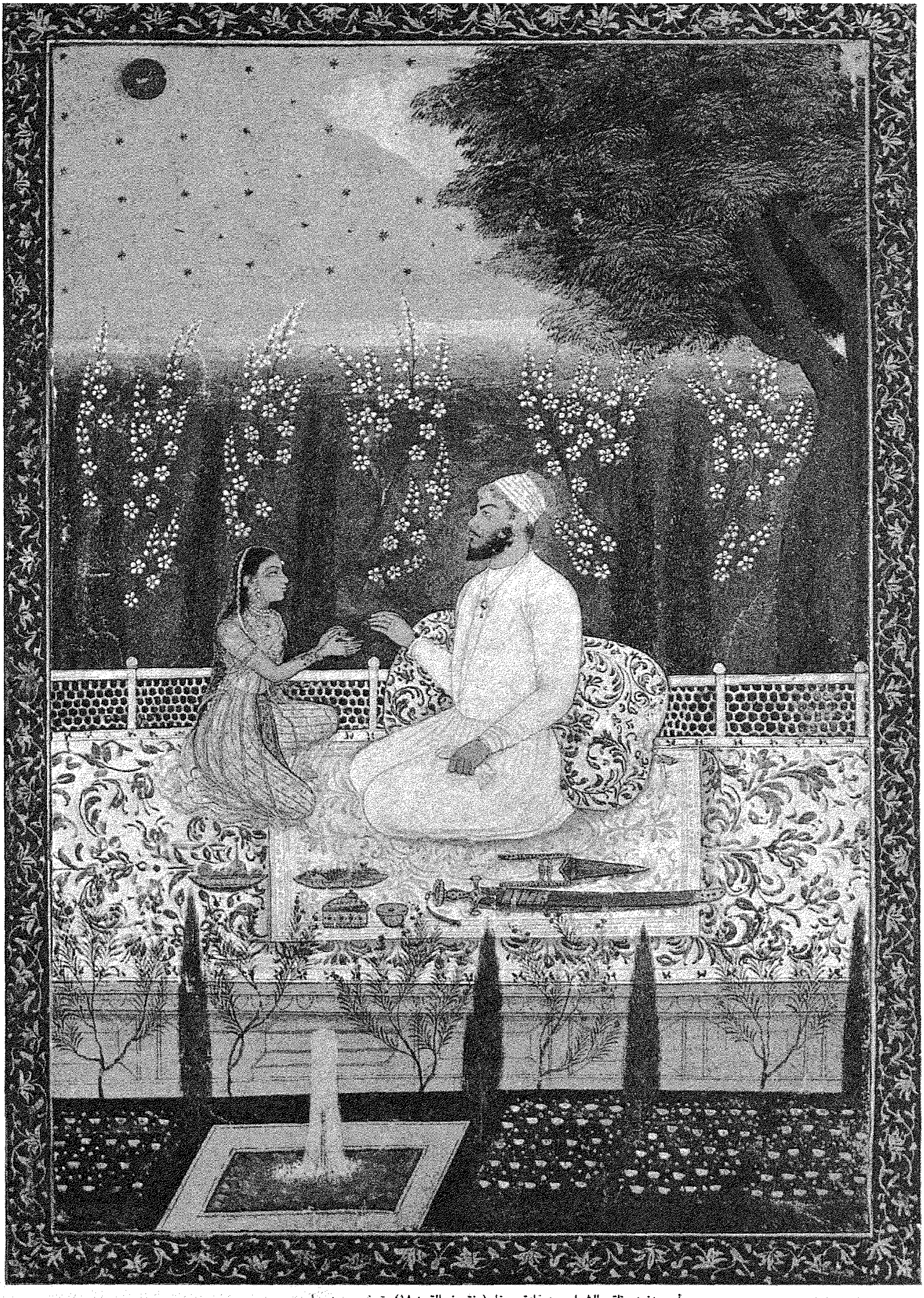
بدأت فى الفنون القديمة أى فنون الشرق القديم بالمرحلة الرمزية، مرحلة تتغلب فيها المادة على الفكر وبالتالى يقتصر الإبداع على فنون العمارة. وفى مرحلة الوسط أى مرحلة الفن الكلاسيكى. تتعادل المادة مع الفكر يتم بينهما امتزاج وتوائم. هذه المرحلة تمثلها الفنون النحتية اليونانية والرومانية. وتأتى المرحلة الثالثة الرومانتيكية. يعود فيها الإخلال بالتوازن بين المادة والفكر، ولكن هذه المرة لصالح الفكر. الفكر يعلو شأنًا على المادة، وتصبح المادة عديمة القيمة إلى جوار ما



مومياء تعود للأسرة الفرعونية الـ ١٩



المسجد فى الفن الإسلامى هو الرمز الأعظم وهو نوع من صلاة الحجارة.. مسجد أفريقى



أمير هندى يتلقى الشراب من غادة حسناء (منتصف القرن ١٨) متحف جيميه - باريس

يقدمه الفكر.. مرحلة الارتقاء العظمى. مرحلة الذروة، ولا يمثلها فى رأيه سوى الإبداع الأوروبى. وأفضل ما أبدعه فيها كان فن التصوير.

خرجت من نظرية هيجل عدة أفرع فكرية. كانت جميعها تعتز وتميز كل ما هو أوروبى، وتركز على كل ما هو إغريقى. يعود الفضل فى اكتشاف أبعاده لعصر النهضة الأوروبية. أى القرن الخامس عشر.

لم يأخذ الإنصاف درجة جعل الحضارة الغربية مركز الدائرة أو منطقة الجذب، تجمع ميزات الحضارات الأخرى، لم يأخذ الإنصاف درجة جعل الحضارات الأخرى درجات فى سلم التدرج تقيم بجهدها لبناته لتصل إلى قمة الحضارة الغربية، لم يأخذ الإنصاف درجة جعل حضارة الغرب منسوجة بخيوط ولو خفية من صنع الحضارات الأخرى.

الحضارة الغربية فى رأى هذه الجماعة الشديدة العنصرية متميزة، منفردة بذاتها ولذاتها. لم تأخذ لتكاملها وكمالها من أحد ولا تعطى لقصور الآخرين عن إدراكها لأحد.

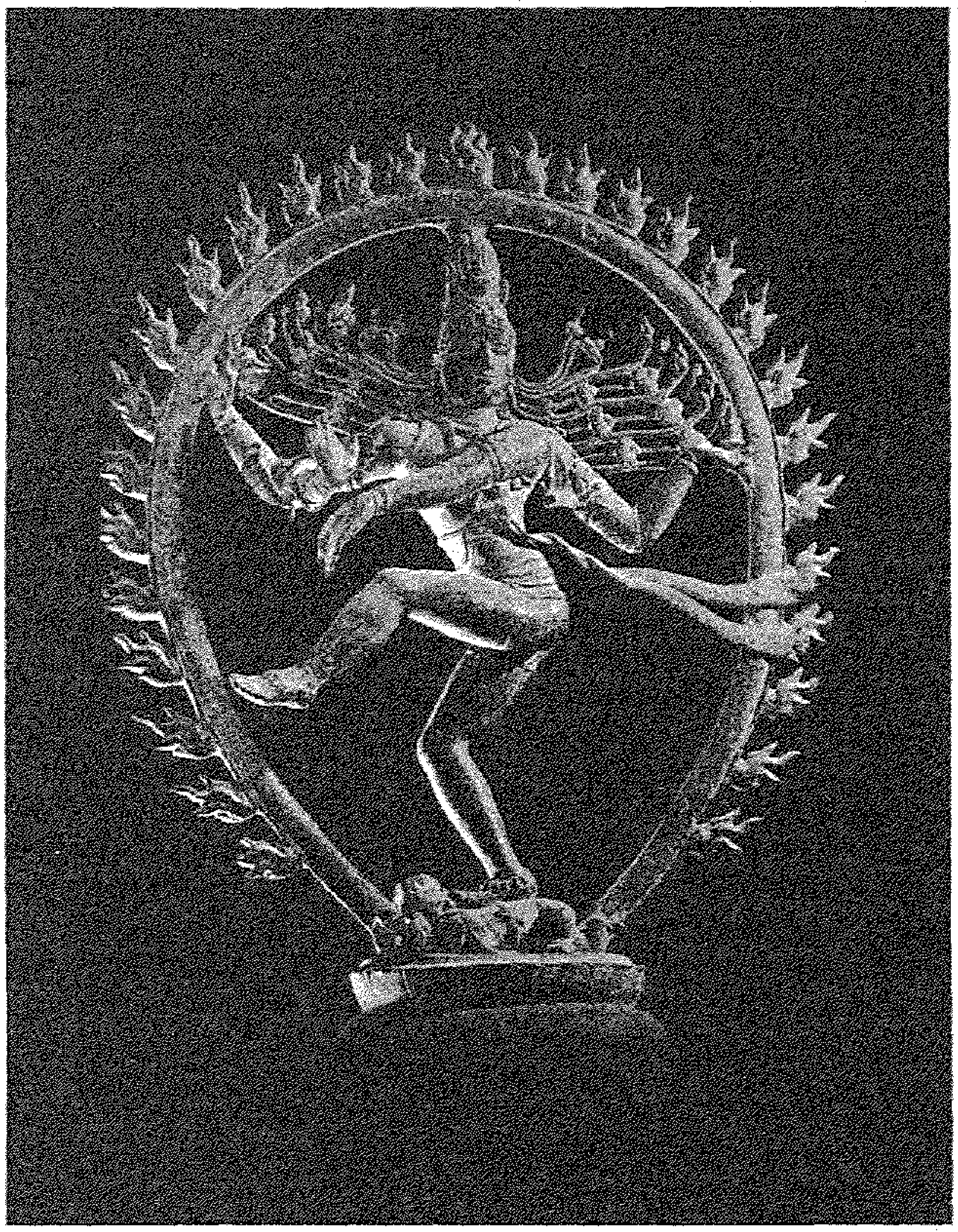
وحينما بدأ الغرب ينظم عقده الاقتصادى من ثروات العالم تأكد له الخبل بذاته، ولكن كانت ذروة العظمة التى وصل إليها فى تصوره، هى أيضًا مصدر كشف البلاء الذى أصيب به. تبين من أعلى أن السفح ملىء بثروات، إنها ليست مجرد ثروات، إنها تراث يعود لأبعد وأبعد من ذاته المتعجرفة، تراث يعيش فى السفح فى تواضع، تراث لا يعرف قيمة نفسه لأنه ببساطة لا يجعلها بطريقة الأوروبى مصدره الأول والأخير فى المعرفة والقياس.

بدأ الغرب يعيش مأساة الدكتور (فاوست)، العالم الذى نقب فى العلوم والفنون، الذى شرق وغرب فى المراجع بحثًا عن الحقيقة.. ولكن دون نتيجة. عقد صفقة مع الشيطان وخسر الرهان وخسر نفسه.

عقدة (فاوست) فى كتاب «روجيه جارودى» هى العمود الفقرى الذى اكتسى بالمأساة.

عقدة الإنسان المتفرد المعتز بهذه الفردية، بدأت بمقولة (بروتا غوراس).. إن الإنسان مقياس الأشياء كلها. وانتهت إلى مقولة (ديكارت).. أنا أفكر إذن أنا موجود.

يقول جارودى فى كتابه (إن فاوست هو الرمز المأساوى لثقافتنا، ومنذ أواخر القرن الـ ١٦ حدد كروستوفر مارلو فى



شيفه إله الرقص. أسرة تشوله. الهند (القرن ١١)

التاريخ المفجع للدكتور فاوست شعار الحضارة الجديدة.. برأسك القوى يا «فاوست» كن إلها. سيد العناصر كافة وربها. هذا الشاعر سبق بنصف قرن وعد ديكارت بعلم يجعلنا سادة الطبيعة ومالكيها).

فاوست أو الغرب حينما نظر إلى الجيران تعامل معهم بعقدة «ماراثون» وعقدة (بواتييه).

ماراثون هى المعركة التى دارت بين الفرس واليونان. تحدث عنها هيرودوت كبطولة يونانية استطاعت أن تصد هجمة البرابرة. تلقن لأطفال أوروبا، فى مدارسهم عن أنها أول صدام بين الشرق والغرب. استطاع فيها الغرب إنقاذ نفسه من عدوى الاستبداد أو النموذج الشرقى.. والقصة تقول إن «هيبياس» ابن طاغية أثينا لجأ إلى فارس، وحرض ملكها على غزو بلاده لإرجاع نفوذ الأرستقراطية اليونانية إلى الحكم. يشارك «هيبياس» فى قيادة جموع الفرس - البرابرة - ولكنه يعجز عن تعبئة شعب أثينا إلى جواره، فيضطر الفرس إلى التراجع، وينتهز أهل أثينا الفرصة ويهجمون.

هؤلاء الفرس البرابرة ممثلو الشرق (المتخلف) هم الذين فرضوا السلم بعد هذه الموقعة بمائة عام (٣٨٦ق.م) على كل مدن اسبرطة وأثينا وطيبة. وهؤلاء الاثينيون ممثلو العالم (المتحضر) أو النموذج الديمقراطى الغربى، كانت مدينتهم تتكون من أربعين ألف مواطن أثينى حر، ومائة وعشرة آلاف من العبيد، وأربعين ألف أسرة من الأغراب. يسميها جارودى (أوليجاركية استبدادية). قبلت استرقاق غيرها من الشعوب بضمير هادئ. أورثت الغربى حق إصدار حقوق الإنسان فى الثورة الفرنسية مع قبول طبقية ظالمة فى تركيبته الداخلية، أو استغلال وسرقة أراضى الشرق باسم الاستعمار فى تركيبته الخارجية. أو أورثت إلغاء الرق فى الدستور الأمريكى عام ١٧٧٦، مع قبول طبقية ظالمة وتفرقة فى تركيبته الداخلية، أو استغلال وسرقة شعوب الأرض باسم الرأسمالية والشركات الاحتكارية فى تركيبته الخارجية.

عقدة (بواتييه) أكدت عقدة «ماراثون». تجاهل جديد لحقائق التاريخ فى سبيل تجسيم مثالية غربية غير موجودة.

معركة بواتييه كانت عام ٧٣٢م دارت بين عبدالرحمن الغافقى وشارل مارتل ملك الفرنجة. وفى عام ١٩٤٥ كان جارودى يحاضر فى تونس وحدث المستمعين عن عبارة أناتول فرانس التى تقول إن أسوأ يوم فى تاريخ فرنسا هو يوم معركة بواتييه. عندما تراجع العلم العربى، والفن العربى والحضارة العربية أمام همجية الفرنجة. وطرد جارودى من تونس على يد السلطات الفرنسية المحتلة.

الغرب صور (بواتييه) على أنها مواجهة جديدة بين الشرق والغرب. بين أوروبا من ناحية وآسيا وأفريقيا من ناحية أخرى. فلو أن العرب انتصروا فى هذه الموقعة لدخلت جموعهم فرنسا وتحولت فى نظرهم إلى مستعمرة إسبانية جديدة. يصحح جارودى هذه المقولة التى يرددها التعليم الغربى فى ذهن أطفاله. تراجع العرب فى بواتييه فى نظره فوت على فرنسا فرصة التخلص مبكرًا من نظام الرق واستبداد الكنيسة. فوت عليها تلقى علوم العرب فى مجالات عديدة فى وقت مبكر.. كان لأحد خلفاء الأمويين فى قرطبة مكتبة تضم مائة ألف مجلد. بينما كانت مكتبة شارل الخامس (الملقب بالحكيم أى العالم) بعد ذلك بأربعة قرون تتكون فقط من ألف كتاب.

فاوست المعتدى

زرعوا فى الغرب عقدة فاوست. عقدة العظمة، والتعالى، وقدرة خلق كل شىء. وساعدت مسيرة الفكر الغربى على تأكيد ذلك. قامت حضارة الغرب على إحالات ثلاث. إحالة الإنسان إلى العمل والاستهلاك. وإحالة الفكر إلى الذكاء والسوبر مان. وإحالة اللانهائى إلى الحكم.

يقول فاوست (جوته) عن العمل، إنما يبدى الإنسان عظمته كلها، حين يعمل عملاً دائبًا موصولاً،، عبادة العمل لمجرد العمل تولد ذكاء الاختراع. والاختراع يدفع إلى الامتلاك بحساب الكم دون حساب الوسيلة.

لقد قالها من قبل (ميكيافيللى) وصارت دستوراً سياسياً إلى الآن.. الغاية تبرر الوسيلة. من هنا كان سعى أوروبا لامتلاك شعوب آسيا وأفريقيا. بنفس راضية وعقل متزن. من الرق إلى بنك بركليس، إلى شركة لويدز، إلى نظرية مالتوس، إلى الأمراض والمجاعات والمذابح، إلى البنك الدولى، إلى قول الأمريكى هرمان بكل هدوء (إن المعونة المقدمة إلى البلدان المتخلفة وسيلة ممتازة تتيح للبلدان الفقيرة أن تساعد البلدان الغنية)!

عقدة فاوست اعتدت على الشرق بقدر الاقتراب أو الابتعاد عنه جغرافياً أو زمنياً.

اعتدت زمنياً على الشرق من خلال عقدة ماراثون. وأمعنت فى اعتدائها على العرب بحكم الاقتراب الجغرافى والزمانى من خلال عقدة بواتييه. وحينما امتدت يد الاستعمار اعتدت على بقية الشرق البعيد. اعتدت على الهند وشوهت ما أبدعه أهلها من خيال وطاقة تفوق طاقة العقل والذكاء والفرد. اعتدت على الغرب البعيد، بالمفهوم الجغرافى. على معالم حضارتى الأزتك والمايا فى أمريكا اللاتينية بحجة نشر المسيحية ومحاربة الوثنية.

يعتمد (فاوست) ـ وهذا هو الأهم ـ على الجوانب الخلاقة لهذه الحضارات وأن أنكر ذلك. اعتدى على الإبداع فى مجال الفنون. قطع على الشعوب حوار الفن من بين أحاديث وهمسات ولمسات الحضارات.

حديث (جارودى) عن الفن يستحق التوقف، ربما بحكم دور الفنون الرائد فى حوار الحضارات. وربما بحكم براعة جارودى نفسه كأستاذ لعلم الجمال، وحكمته فى عرض تأملاته وأحكامه الفنية. وربما بحكم الأمرين معاً. وربما بحكم ألفة موضوع الكتاب نفسه واحتضانه الحميم لكل البشر.

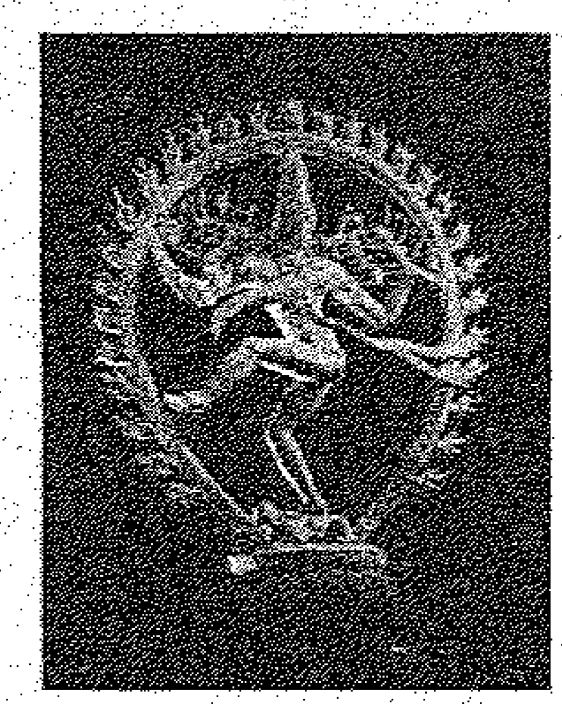
لقد تجول (جارودى) فى أنحاء الكرة الصغيرة. تأمل الفنان الصينى واليابانى فى لحظة الإبداع. تأمل أهل جنوب شرق آسيا حينما يرقصون على طبول الحب دون تكلف أو تفلسف. تأمل تبتل الهندى، وعشق صمت غاندى وطاقاته اللامحدودة التى نزعت الحاجز المصطنع بين الغاية والوسيلة. طاف بمساجد المسلمين من حدود الصين إلى قلب الأندلس، واجتهد فى فهم التجريد الهندسى والفكرى والعقائدى. عايش قبائل أفريقيا وتحاور مع الأقنعة والنحت الذى يجسم الوهم، ينزل بقدراته الحلم إلى عين المشاهد ويد اللامس.

وتعرض (فاوست) لإحباطات جعلته أو دفعته إلى تأمل أحوال الغير. وأقرب (الغير) إليه كان الشرق العربى. زاره الكثير من الأدباء والفنانين منذ عدة قرون. وارتفع الحماس لنقاء الشرق. فى القرن الثامن عشر، تحدث عنه بطرق غير مباشرة كل من (روسو) و(منتسكيو) و(ديدرو)، وتحدث عنه بشكل صريح (جوته) فى ديوانه الشرقى. اقترب من مفهوم حوار الحضارات حينما قال (توحيد الشرق والغرب وجعل الأخلاق وطراز الفكر فى المنطقتين يفيض بعضها على بعض).. تأمل الشرق بروح أديب جيراردى نرفال. وتأمله بروح عالم إدوارد وليم لين. وتأمله بروح عاشق بريس دافين. وتأمله بروح مصور ديلاكروا. وتأمله بروح فنان تيوفيل جوتييه.. وغيرهم كثيرون وكثيرون.

ريادة الفنون

بعد أن تحطمت أساطير إقليدس، وديكارت، وأرسطو اكتشف الغرب لا نهايات ثلاث. لا نهاية الصغر التى اكتشفتها الفيزياء النووية. ولا نهاية الكبر التى ارتادها رجال الفضاء. ولا نهاية التعقيد التى خاضها السبرنتيك (تصحيح العقول الإلكترونية لأخطائها بنفسها، بما يشبه الجهاز العصبى لدى الإنسان). لا نهايات تقتضى بدء حوار ا لحضارات على صورة صريحة لتخرج الغربى من أنانيته وعزلته.

الريادة كانت للفنون التشكيلية فى بدء تلمس موضوع الهمس ثم الحوار. أو الانتقال من ألحان متفرقة إلى منظومة هارمونية غيرمصطنعة. ويقول جارودى.. (على الغربى أن يعى معنى. عروق التنين ـ فى التشكيل الصينى، واليابانى. يقول رسام من عصر (سونج) القرن الحادى عشر، إن مجارى المياه هى عروق الجبل. وإن الأعشاب والأشجار جدائله. والضباب والغيوم لونه). اللوحة فى التشكيل بهذا المنطلق تعنى تنغيماً منتظماً بين أدوات الطبيعة. الإنسان فيها شبح ضئيل. ليس هناك ما يدعو لتضخيم حجمه ودوره فى كون لا محدود فى زمانه ومكانه. الإنسان المرتفع عن المادة يعرف كيف يسيطر عليها. ورسم الصينى بالحبر، أو تسطيحه للمرسوم محاولة لخلق عالم خاص غير عالم الملموس. ومحاولة الفنان الصينى أن يتحرك بكل ذراعه وكتفه دون تحريك معصمه وأصابعه وهو راكع ليرسم، ليس إلا معايشة للحظة إبداع. لحظة إبداع لا يراها إبداعاً، ولكن نوعاً من التعبد. إنه عالم مختلف عن عالم الغربى. منطق مختلف، تأثر ببعض رذاذه (فان جوخ، و(جوجان) وغيرهما.. محاولة للحوار.



على الغربى أن يعى أن فنون أفريقيا ليس مكانها المتحف، إنها فنون معايشة. يقول مالرو (إن المتحف هو الذى يرغم الصليب على أن يغدو نحتاً) ويقول الشاعر ايميه سيزار: (هناك يمكن الإمساك بالحياة وإعادة توزيعها بحسب قاعدة الغناء وعدالة الرقص). فنون أفريقيا تختلط فيها الأقنعة الخشبية بقصص الجدود، بالموسيقى والرقص بطاقة الإيمان الصادق. يقول جارودى: (لقد رأيت رجلاً يموت وهو يلبس قناع قبيلة أخرى غير قبيلته، هذا ما يفعله الإيمان ومن له من أهل الغرب قوة هذا الإيمان؟

على الغربى أن يعى فى الفن الإسلامى أن المسجد بلا ريب هو المثل الرمزى الأعظم. هو نوع من صلاة الحجارة، وملتقى جميع فنون الإسلام. وقد أصاب القائلون إن جميع الفنون تقود فى الإسلام إلى المسجد، والمسجد إلى الصلاة، لكن جارودى رغم إدراكه أن الفن الإسلامى فن معاش وأبدع فى الحديث عن ذلك، إلا أنه لم يستكمل أن الحياة بهذا المفهوم تقود إلى الفن، والفن إلى التجريد، والتجريد إلى الصلاة. المسجد له سمة وظيفية، له دور دينى ودنيوى، فى عمارته وهندسته يلخص حكمة الكون فى قوانين رياضية وموسيقية.

لقد أدرك (ماتيس) و(بول كلى) قيم التجريد الإسلامى وتعمق جارودى دور التصوف فى صياغة فن التبتل، إنه أيضاً فن اللافن لأنه فن اندماج الكل فى واحد، أو الواحد فى الكل. وقد لخص توفيق الحكيم الفارق بين هذا اللون من التشكيل وبين التشكيل على مزاج غربى حينما قال ما معناه.. إن الفنان اليونانى يقلد الطبيعة إلى حد المثالية أو التحدى.. بينما الفنان المصرى القديم يخلق لنفسه عالماً خاصاً وإبداعاً بمقاييس خاصة.

خلق عالم خاص.. من هنا كانت بداية ثورة التشكيل الأوروبى الحديث، من ثورة سيزان على الأبعاد الثلاثة إلى البوب آرت، والأوبتكل آرت، إلى جنون ـ فاوست. ومحاولاته الهلوسة أو الانتحار عندما يعجز عن الإدراك.

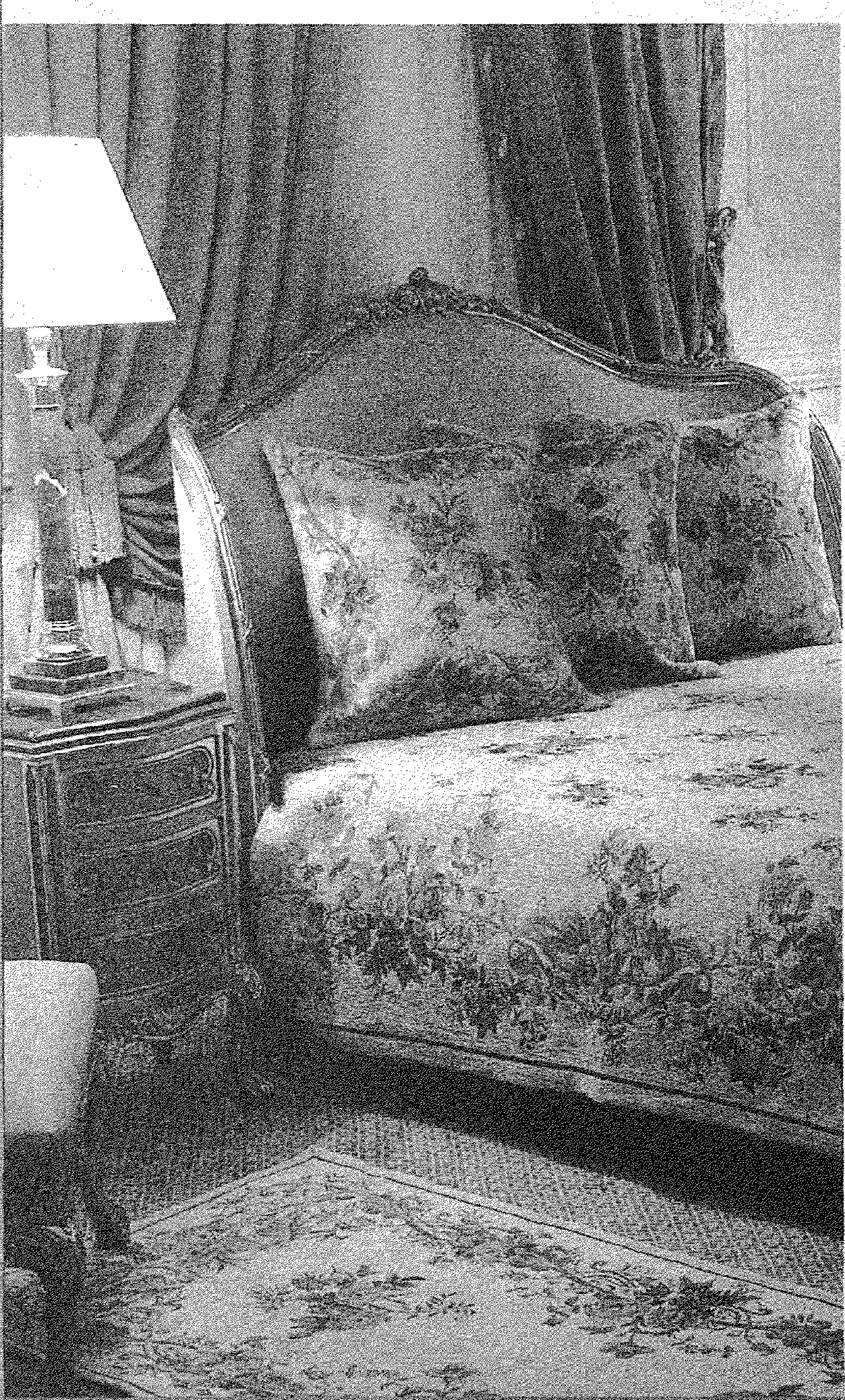
هذا هو (جارودى) الفنان حاولت تقديمه بصياغة خاصة أو عنيت بتقديم رؤيته الجمالية من مسبحته الحضارية. يحاول إيقاظ الغربى.. معجزة اليونان ليست معجزة. لقد أقامت جذورها منابع شرقية. وهو أمر لا يعلى، ولا يقلل من قدر أحد. حضارة الغرب ليست متفردة.

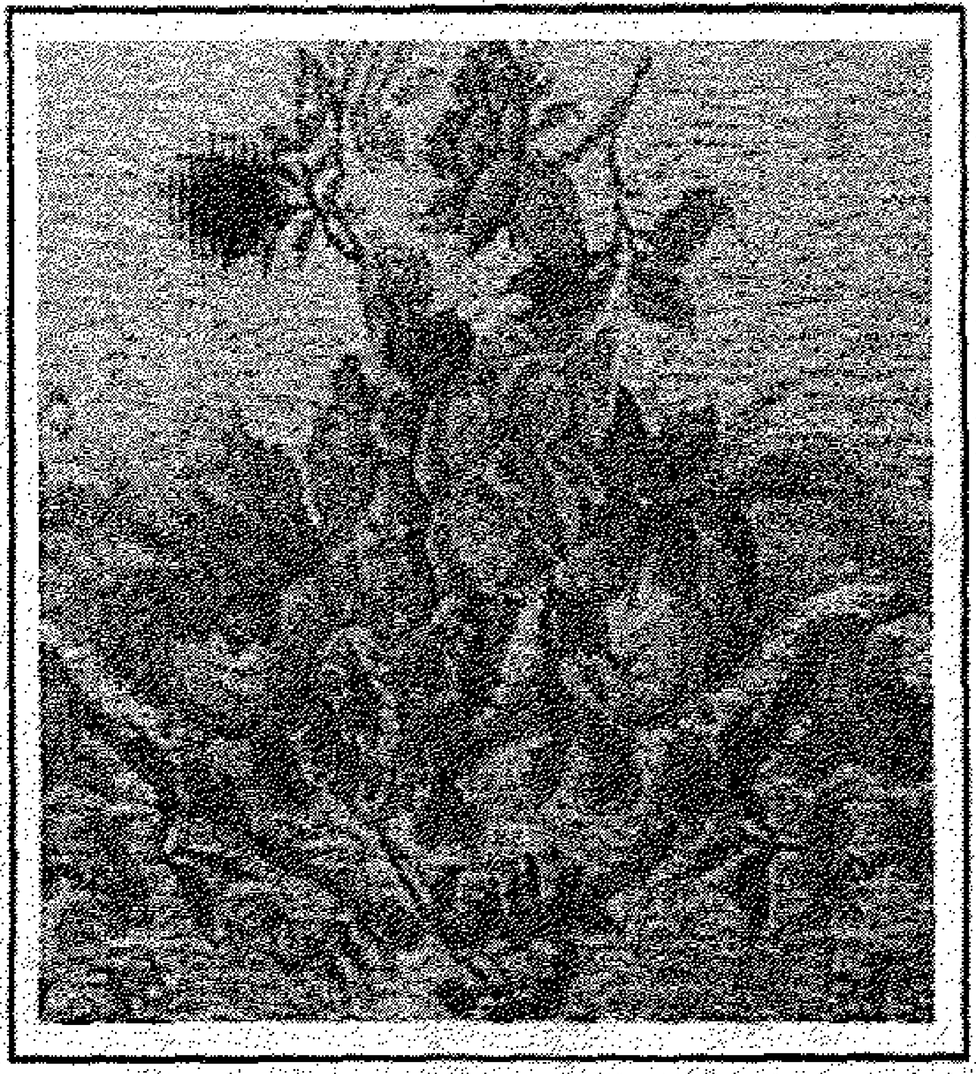
مقاييسها مادية صرفة، ولذلك تصورت نفسها أعظم الحضارات، ولو قيست بمقاييس إنسانية لانحط قدرها عن كثير من الحضارات الأخرى، حضارة الغرب شىء عارض، بل أخطر عارض تعرضت له البشرية منذ القرن الخامس عشر الميلادى.

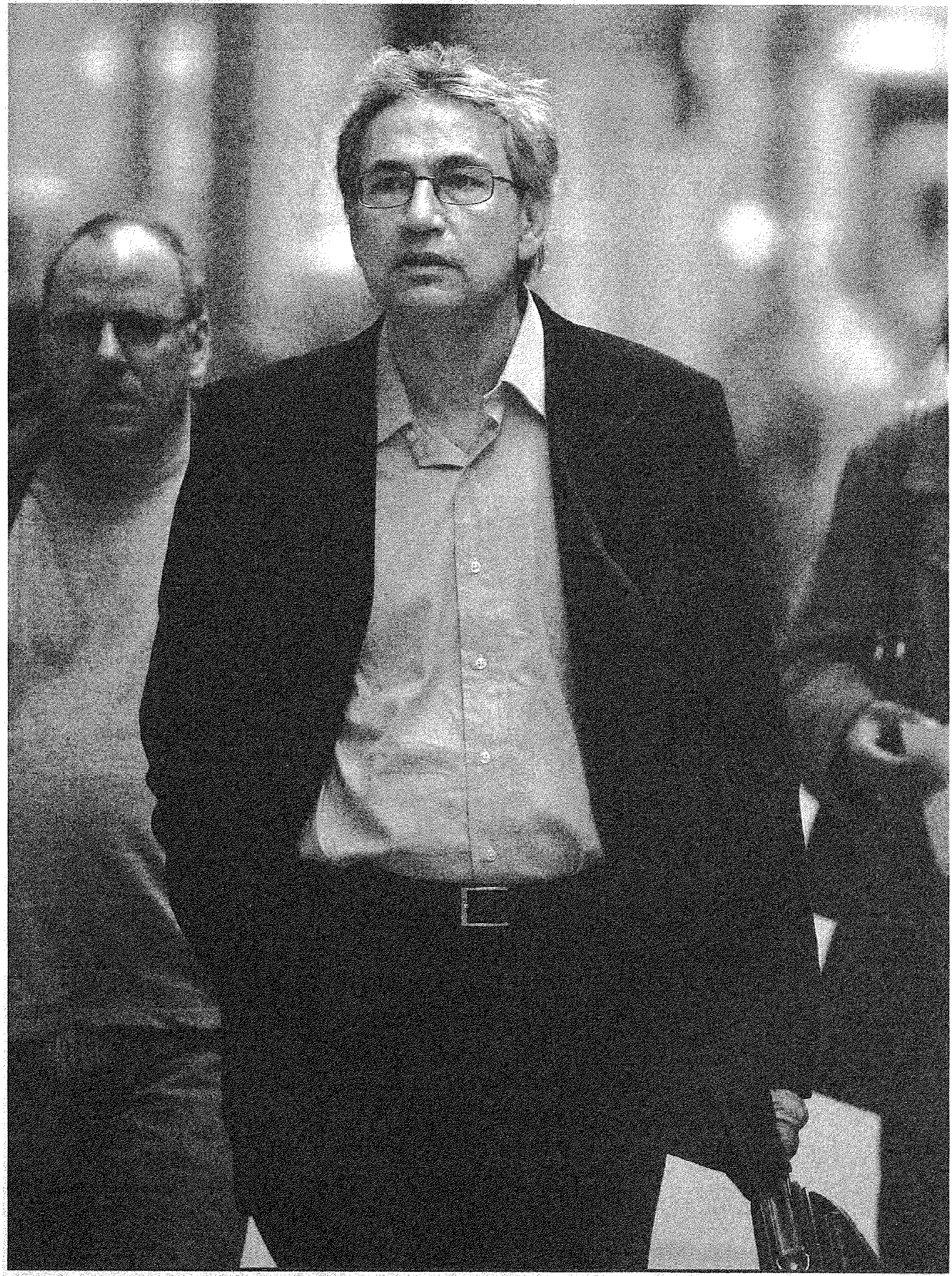
خطر قد يقود إلى فناء البشرية، على الغربى أن يحاول القضاء على الروح التسلطية فى ثقافته ويستعيض عنها بتصور سيمفونى هارمونى.. اكتشاف للآخرين، تمثل لأبعادهم. معايشة لجذورهم.. حوار مع بنيتهم. على الأقل حوار مع فنونهم.

الصور:

١ ـ المفكر روجيه جارودى
٢ ـ غلاف كتاب (من أجل حوار بين الحضارات)
٣ ـ الدكتور فرنسيس لامان
٤ ـ غلاف كتاب (الإسلام فى فرنسا)
٥ ـ شيراك ورأيه فى الفن عام ١٩٨١. فرنسا تظل أرض الفنون.
٦ ـ جورج مارشيه ورأيه فى الفن عام ١٩٨١.. الإبداع هو النضال.
٧ ـ ميتران ورأيه فى الفن عام ١٩٨١.. دور السياسة فى الفن ليس إعطاؤه استعراضاً.
٨ ـ ديستان ورأيه فى الفن عام ١٩٨١. الفن ضرورة من ضرورات الحرية.







أورهان باموك

نــــوبــــل 2006

يراه بعض الأتراك خائنًا سياسيًا من منطلق دعمه لحقوق الأكراد فى مواجهة عنف الدولة التركية ومطالبته باعتراف أنقرة بالمذبحة التى تعرض لها الأرمن خلال الحرب العالمية الأولى على أيدى الجيش التركى وراح ضحيتها ما لا يقل عن مليون شخص، وهو ما ترفضه الحكومة والجيش وغالبية الشعب، إلا أن أورهان باموك الفائز بجائزة نوبل فى الآداب لعام ٢٠٠٦ يظل ذلك الكاتب الجرىء الذى نجح فى لفت الانتباه إلى فن الرواية الحديثة فى تركيا كما لم يفعل كاتب آخر.

ولد أورهان باموك فى ٧ يونيو ١٩٥٢ فى اسطنبول لأسرة من الطبقة الموسرة ودرس الهندسة المعمارية فى جامعة اسطنبول التقنية، ثم درس فى معهد الصحافة بجامعة اسطنبول وتزوج عام ١٩٨٢، لكن زواجه انتهى بالطلاق عام ٢٠٠١ ولديه ابنة واحدة تدعى رؤية.

ومن أهم رواياته «جودت بك وأبناؤه» ١٩٨٢، و«البيت الهادئ» ١٩٨٣، و«القلعة البيضاء» ١٩٩١، و«الكتاب الأسود» ١٩٩٥، و«الحياة الجديدة» ١٩٩٧، و«اسمى أحمر» ٢٠٠١، و«اسطنبول» ٢٠٠٣، و«الثلج» ٢٠٠٤.

وقد فاز بعديد من الجوائز قبل حصوله على نوبل.

وكان باموك قد تعرض للمحاكمة قبل عامين عندما صرح لصحيفة سويسرية بأن هناك ما لا يقل عن مليون أرمنى تعرضوا لمذبحة على أيدى الأتراك فى الحرب العالمية الأولى، لكن المحاكمة انتهت بعد تغيير القانون الذى يعاقب من يتحدث عن ارتكاب الأتراك لمذبحة ضد الأرمن، وذلك فى إطار تحديث النظام الجنائى التركى فى محاولة لانضمام البلاد للاتحاد الأوروبى.

البطــل «الغــربى»!!

نــيكــــــــــولاس رو

ظهرت لوحات الإعلانات فى جميع أنحاء إسطنبول فى ١٩٩٤ تحمل الكلمات التالية: «قرأت رواية فى يوم من الأيام غيرت حياتى كلها». شكلت هذه الكلمات جزءاً من حملة إعلانية لرواية أورهان پاموك فى ذلك العام، وهى بعنوان «الحياة الجديدة»، وكانت العبارة هى الجملة الافتتاحية

بترتيب مع:
New York review of Books

ترجمة: علاء الدين محمود
محمد مستجير مصطفى
جمال إسماعيل

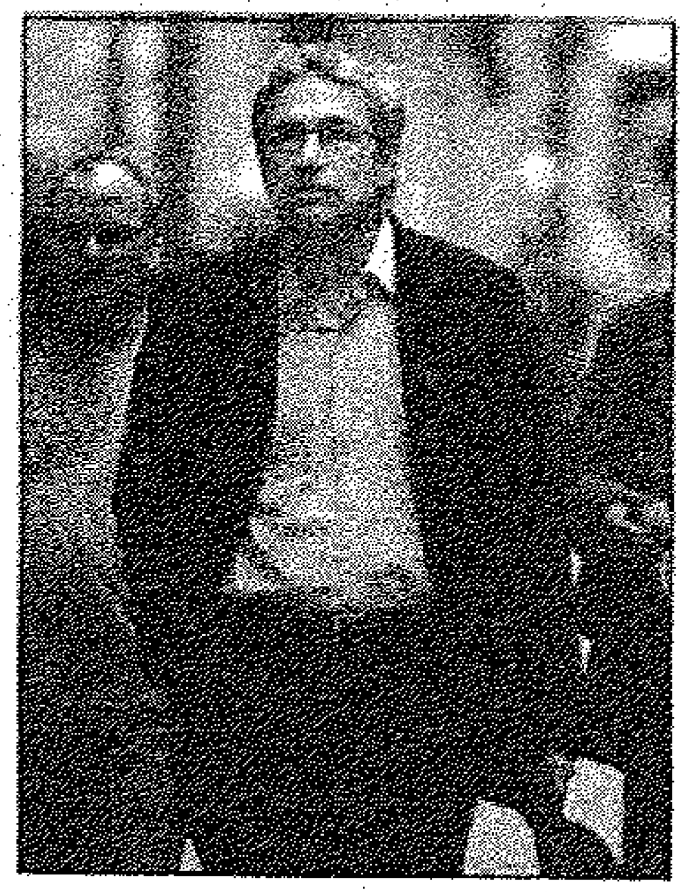
بالرواية. ولا يعتبر تسويق الروايات الشعبية بهذه الطريقة شيئاً جديداً، رغم أنه كان أمراً مبتكراً فى تركيا فى ذلك الوقت. غير أن ما جعل هذه الطريقة تبدو شديدة الغرابة هو أن كتابة پاموك لا يسهل تمييزها على الفور كمادة لحملات التسويق الجماهيرية.

ذكر الكاتب والروائى الأمريكى چون أپدايك فى معرض إطرائه على رواية «الحياة الجديدة» قائلاً إن پاموك «بذكائه الموضوعى وزخارف تأمل الذات التى تشبه الأرابيسك يشير ضمناً إلى پروست». إلا أن أپدايك أشار أيضاً إلى أن پاموك كان الأكثر غرابة بين الكائنات الأدبية، «سواء بين مؤلفى الأعمال الأكثر مبيعاً أو الكتاب الطليعيين». تضم روايات پاموك الحيل السردية ما بعد الحداثية بكثافة، وينظر إلى أعماله مقارنة بأعمال كافكا وبورخيس وكالفينو وجارثيا ماركيز. يقول پاموك: «باعت روايتى الأولى (جودت بك وأبناؤه، ١٩٨٢) ٢,٠٠٠ نسخة فى تركيا فى العام الأول، بينما باعت روايتى الثانية (البيت الهادئ، ١٩٨٣) ٨,٠٠٠ نسخة، وهو ما كان جيداً إلى حد كبير. لكن الرواية الثالثة (القلعة البيضاء، ١٩٨٥) باعت ١٦,٠٠٠ نسخة، وباعت الرابعة (الكتاب الأسود، ١٩٩٠) ٣٢,٠٠٠ نسخة. فاقت رواية «الحياة الجديدة» غيرها بكثير باعتبارها أسرع الروايات مبيعاً فى تاريخ النشر التركى، وكانت عملية طباعة روايته التالية «اسمى أحمر» فى عام ١٩٩٨ الأكبر على الإطلاق فى تركيا.

ومنذ نشر أول أعماله، رحب به كل من الماركسيين والمحافظين والإسلاميين السياسيين - وإن كان ترحيباً مشوباً بالريبة؛ كان من نتيجته اهتمام إعلامى وشعبى بكتاباته. إلا أن أعماله صبت من الناحية الفنية فى الوجدان التركى الحديث على مستوى أكثر عمقاً. يعترف پاموك أن التيمة الشائعة فى رواياته هى «التغير الثقافى، الحياة وفقاً

أورهان باموك

نوبل 2006



للطراز المستغرب في بلد غير غربي بصورة جوهرية». كانت أجندة التغريب العنيفة القوة الرسمية المهيمنة على الحياة التركية لأكثر من قرن، وليس باموك إلا نتاج طبقة حاكمة استفادت من هذا النظام.

ذكرت الروائية والصحفية ومترجمة روايته «الثلج» مورين فريلى أن «التغير الاجتماعى فى تركيا يسير بسرعة مدهشة، وإن كانت هذه السرعة مصدراً لقدر عظيم من الألم والحيرة أيضاً». وتضيف فريلى أن «ألعاب الحداثة/ما بعد الحداثة تشتمل على عناصر تنتمى إلى تقاليد متعارضة تتحدى العقل والمنطق إذا وضعت جنباً إلى جنب، بل وتجعل من «السرديات الكبرى» أمراً مستحيلاً، لكن ربما كانت أعماله أقل صعوبة فى الفهم بالنسبة لقارئ تركى حديث على أساس أنها تجربة حياتهم اليومية».

لا يختلف إصدار رواية جديدة لباموك فى تركيا كثيراً عن عرض فيلم بهوليوود. ورغم انتقاد البعض له بأن الناس يشترون رواياته أكثر مما يقرأونها، فإن النقد الأكثر خطورة - من منظور يسارى قومى - هو أنه يبيع إلى جمهور أوروبى، وحظيت وجهة النظر هذه بمصداقية أكبر على ما يبدو حينما حصل باموك على جائزة إمباك وقدرها ١٠٠.٠٠٠ جنيه استرلينى العام الماضى عن رواية «اسمى أحمر».

قابل دانيال كون بنديت، الزعيم الطلابى الراديكالى الفرنسى الذى تحول إلى عضو منتم إلى حركة الخضر بالبرلمان الأوروبى، باموك أولاً فى ٢٠٠١، ودعاه إلى برنامجه التلفزيونى السويسرى حول الروايات. قال بنديت إن باموك «كان أحد المثقفين الذين جعلونى أفهم أهمية انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبى».

قلما تعامل باموك مع القضايا السياسية مباشرة فى رواياته رغم كل المواقف الخلافية التى تبناها، بل إنه انتقد من قبل مؤيديه المتوقعين الذين رأوا أن تأثير الانفصال بين العمل الأدبى والقارئ فى بعض من تكنيكاته ما بعد الحداثية جعل أعماله لاسياسية للغاية. غير أن باموك قال بأن فكرة كتابة «رواية ديستوفسكية سياسية» كانت فى ذهنه عند كتابته لرواية «الثلج». «حاولت فى أواخر السبعينيات كتابة رواية سياسية حول أناس مثلى، طلاب ينتمون إلى الطبقة الوسطى أو العليا الذين يذهبون مع أسرهم إلى المصايف، لكنهم يلعبون أيضاً بالمسدسات ونصوص ماوتسى تونج، بل وراودتهم أفكار خيالية حول إلقاء قنبلة على رئيس الوزراء».

يقول باموك إنه لما قرر كتابة رواية أخرى، «أحببت فكرة هذه البلدة التى يعزلها الثلج والانقلاب العسكرى عن سائر أنحاء تركيا». الرواية التى تقع أحداثها فى عام ١٩٩٢ فى جزء منها قصة حب، وقصة سياسية مشوقة تحكى عن شاعر يزور بلدة بعيدة فى شرق تركيا بحجة القيام بمهمة صحفية. تتضمن كل روايات باموك أجزاء متعلقة بالسيرة الذاتية، لكن روايته الأحدث «اسطنبول» - التى نشرت فى تركيا فى وقت متأخر من العام الماضى، والمتوقع نشرها فى المملكة المتحدة فى ٢٠٠٥ - تمزج بوضوح المذكرات بأفكاره حول المدينة.

ولد باموك فى اسطنبول فى يونيو ١٩٥٢ ويمكن العثور على وصف لحى الطبقة الراقية الذى نشأ فيه فى رواية «الكتاب الأسود». اشترى باموك شقة فى نفس البرج الذى كانت تسكن به العائلة وعاش بها مرة أخرى. ولا تزال أم باموك وأخوه الأكبر، وهو أستاذ اقتصاد، يعيشان فى المدينة.

ذهب باموك وأخوه إلى المدرسة الأمريكية فى إسطنبول حيث تعلما الإنجليزية والتركية. اهتمت المدرسة بالنخبة الاجتماعية وأنجبت عدة رؤساء وزارات أتراك، لكن أغلب خريجيها شغلوا مناصب فى الصناعة والجامعات التركية. يقول باموك: «ذلك النوع من التعليم يجعلك علمانياً ومتغرباً للغاية بدرجة يستحيل معها التواصل بشكل صحيح مع الناخبين التقليديين».

كانت الجامعة حرماً ماركسياً مقاتلاً عندما ذهب إليها باموك فى ١٩٧٠، وكان هو يسارياً. «رغم أننى كنت أقرأ كتابات كل هذه الفصائل الماركسية الصغيرة، لم انضم إلى أى منها، لكننى كنت أعود إلى البيت وأقرأ فيرجينيا وولف. احتفظت بروحى المعنوية - رغم ما أبديت من تعاطف - بقراءة وولف وفوكنر ومان وبروست. أحسست بالذنب، لكننى كنت أرى أنها أكثر تشويقاً».

ورغم كونه يسارياً فقد أحس بالقليل من التعاطف مع الواقعية الاشتراكية لجوركى أو شتاينبك أو بعض روائيى القرى الأتراك. ويقول باموك ضاحكاً: «إن النشر فى إنجلترا وأمريكا وبـ ٣٥ لغة أكثر سهولة بالمقارنة بالنشر لأول مرة فى تركيا». التحق باموك بمدرسة صحافة لا لشىء إلا لتأجيل إدائه للخدمة العسكرية طوال الوقت الذى كان يكتب فيه الرواية. ويرى البروفيسور بارلا بجامعة بيلجى باموك «باعتباره وريثاً على وعى كبير بالتقليد الروائى - سواء فى تركيا أو الغرب».

التحق باموك بمدرسة أيوا للكتابة وقام بالتدريس فى فصول تعليم اللغة التركية، لكنه أقام معظم الوقت فى غرفة صغيرة فوق مكتبة كولومبيا حيث بدأ العمل فى كتابة «الكتاب الأسود»، وهى قصة معاصرة عن محام يبحث فى اسطنبول عن زوجته المفقودة.

يقول باموك إن أول انطباع يشعر به إزاء مبيعات رواياته الآن حول العالم هو وعيه أكثر بتركيته. «اندهشت من استخدام كلمة تركى كمرادف لاسمى. فبدلاً من كتابة «باموك قال هذا أو ذاك» وجدت أنهم يكتبون «ذلك المؤلف التركى قال هذا أو ذاك»، وشعرت بشىء من الانزعاج. فإذا كتبت مقالاً عن بروست أو همنجواى فقد أكتب من حين لآخر عن المؤلف الفرنسى أو الأمريكى، لكن ليس طول الوقت. يبدو أنك إذا كتبت رواية فى ذلك الجزء من العالم، فإن جنسيتك ليست بذات بال، لكنك إذا كتبت رواية فى هذا الجزء من العالم، فإن جنسيتك، بل الأسوأ وانتماءك العرقى له أهميته. عندما يكتب كاتب انجليزى عن علاقة حب، فإنه يكتب عن علاقة حب إنسانية، لكن عندما أكتب عن علاقة حب، فإننى أتحدث فقط عن علاقة حب تركية». ■

لا يختلف إصدار رواية جديدة لباموك فى تركيا كثيراً عن عرض فيلم بهوليوود. ورغم انتقاد البعض له بأن الناس يشترون رواياته أكثر مما يقرأونها، فإن النقد الأكثر خطورة - من منظور يسارى قومى - هو أنه يبيع إلى جمهور أوروبى

شيزوفرينيا الصوفى

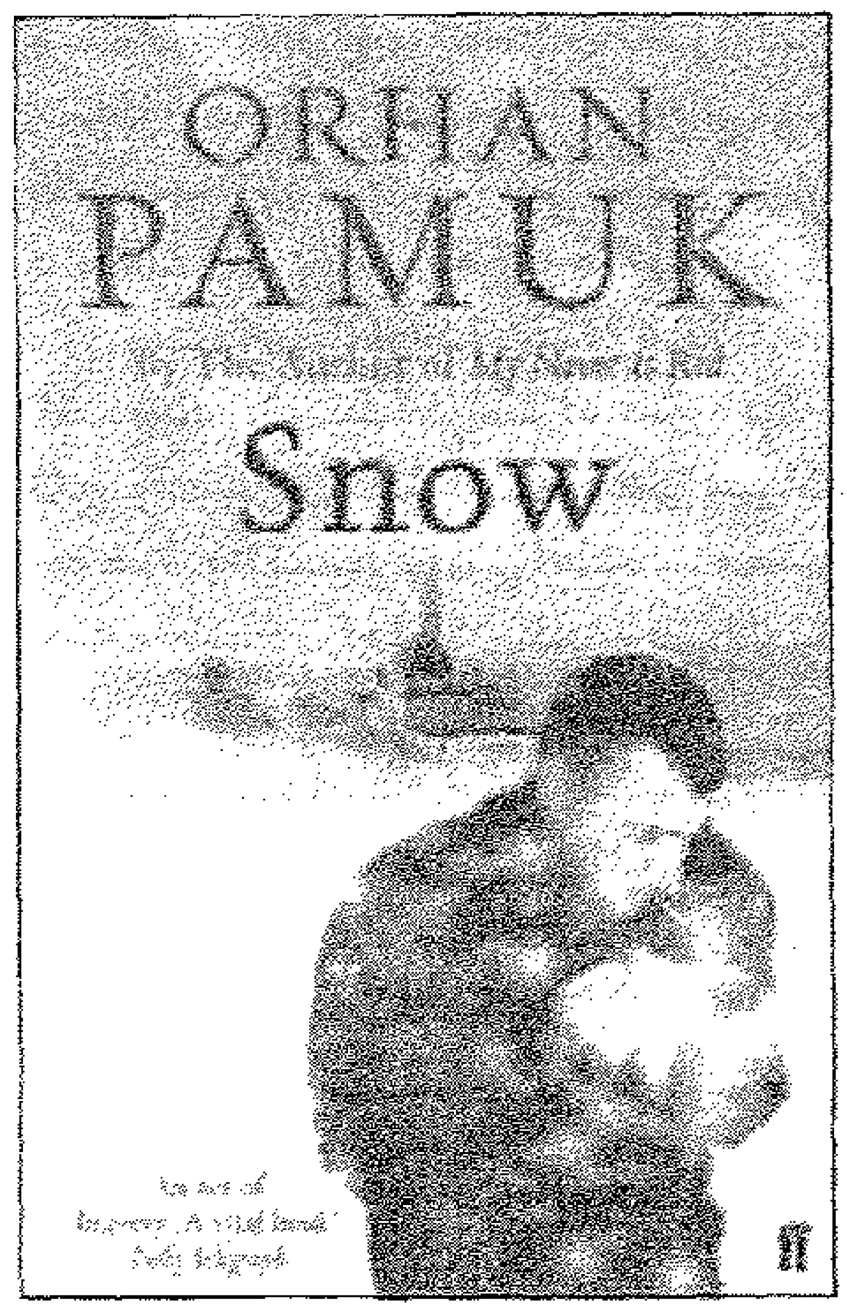
كريستيان كاريل

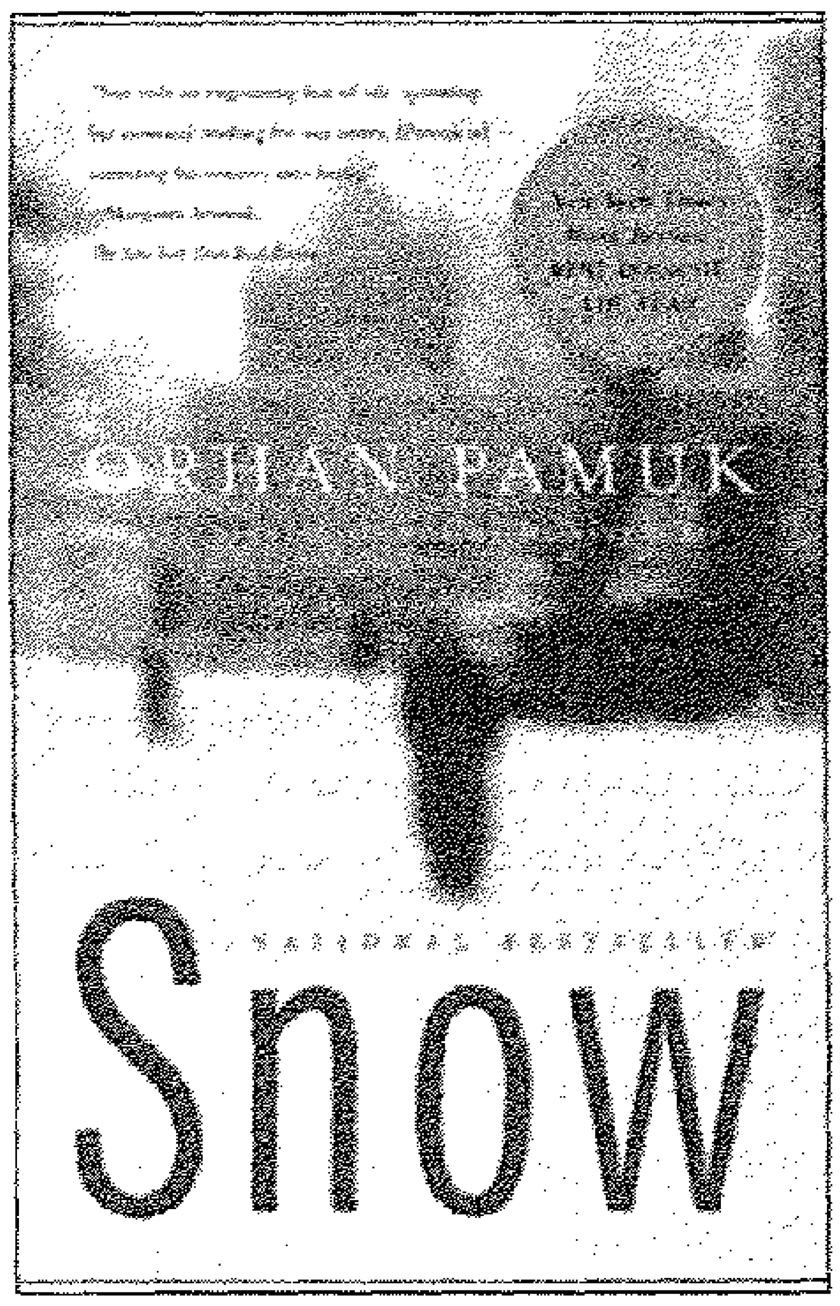
يرتدى بطل أشهر روايات أورهان باموك «الثلج» معطفاً طويلاً أسود بلون الفحم، ولديه ميل إلى الأفلام الإباحية، وتوق إلى إله القرآن، ولن نعرف أبداً ما إذا كان الرجل الذى يسمى أورهان كابول فى الرواية يتصف بهذه الصفات، لكنه - وهو يقوم بدور الروائى - يخبرنا أن بينه وبين شخصيته الرئيسية، الذى هو أيضاً صديقه، كثيراً من الصفات المشتركة الأخرى، فكلاهما تركى، وكلاهما ينحدر من أسرة بورجوازية استانبولية طيبة ذات نظرة علمانية قاطعة، وكلاهما أديب جمالى، ولهما ذوق شديد التماثل فى النساء، وكلاهما ألف كتاباً باسم «الثلج».

وعمل باموك هو الرواية التى بين أيدينا، وهى تحكى لنا قصة إبداع كتاب آخر وضياعه، مجلد أشعار وضعه صديق باموك الصدوق الذى يحمل اسم «كا». ويبذل باموك كل جهده لكى يوضح أن الاسم فى الواقع شفرة، إنه يتألف من الحرفين الأولين لاسم «كا» الرسمى الحرفين الأولين كاسم مستعار[1] لكن هناك هاجساً بأن أصوله الحقيقية تكمن فى منطق شعرى، فالكلمة التركية التى تعنى الثلج هى كار، مما يوحى بامتزاج حميم بين الكاتب وموضوعه، وهى لفتة دقيقة تضيع فى الترجمة لكن العلاقة بين «كا» و«الثلج» - كما سنرى - جزء من نسيج الرواية حتى لا نعود فى حاجة إلى من يذكرنا به.

ويشترك باموك و«كا» كذلك فى الجهة التى يقصدانها، إنها مدينة كارس الريفية فى أقصى حدود تركيا الشرقية، وكلاهما توجه للزيارة فى الشتاء، حتى تختفى ملامحها الخشنة تحت سقوط الثلج الكثيف.. كا.. كار.. كارس.. وتبدأ القصة بوصول «كا» إلى هناك فى وقت ما فى منتصف التسعينيات، وسيقفو باموك أثره بعد أربع سنوات فى محاولة لاستعادة تجربة صديقه.. وكانت كارس هى الموقع الكامل لهذه الرحلات، فهى - ككثير من مناطق الحدود التى انتقلت من دولة إلى أخرى فى مجرى التاريخ - تجسد الازدواج فلسنوات طويلة كانت جزءاً من الإمبراطورية الروسية لتصبح جزءاً من الجمهورية التركية الوليدة فى عام ١٩٢١، وأفاض باموك فى تمجيد الطابع الأوروبى لمبانيها القديمة.

Snow
(الثلج)
Orhan Pamuk
Translated by Maureen Freely
Faber, 436PP., 2004





«الثلج».. أشهر روايات باموك فى طبعتيها البريطانية والأمريكية

وتكاد الإشارات المتكررة إلى هذه النقطة تصل إلى حد النكتة الجيوسياسية حين نرى أننا الآن على نحو ٧٤٠ ميلاً شرق البسفور، الذى يعتبر عادة الحد بين أوروبا وآسيا، وبالطبع فإن كارس تضم فندق آسيا، لكن «مبانى البلطيق البديعة»، هى التى تبقى فى ذهن الكاتب وبطله. وأنها لسخرية - أن يسافر المرء فى أعماق آسيا لينتهى فى أوروبا - وهى سخرية واضحة بوجه خاص لـ «كا» العائد إلى تركيا بعد سنوات طويلة من المنفى السياسى فى ألمانيا.. وفى نظر سكان كارس كان هذا المعطف الأسود بلون الفحم - الذى اشترى من محل فى فرانكفورت - يميزه كـ «أوروبى» تماماً كلهجة حديثه الاستانبولية المثقفة، وتعليمه غربى الأسلوب.

ولا يعنى هذا بالطبع أنه شعر بأنه أوروبى فى أوروبا، ويبدو أنه كان قد أنفق اثنى عشر عاماً فى فرانكفورت مع نفسه أساساً، فى عزلة شبه كاملة عن المجتمع من حوله. وفى وقت ما كان يتفاخر بأنه لا يعرف كلمة ألمانية واحدة. وسيتضح أن «كا» كان غريباً حتى عن اللاجئين السياسيين الآخرين فى فرانكفورت، وهذا فى الواقع مناسب تماماً لمنفى سياسى «لم ينغمس كثيراً فى العمل السياسى» كما يلاحظ باموك. وفضلاً عن هذا، فقد كان نفى «كا» فى الواقع قائماً على قضية هوية خاطئة، ففى إحدى نوبات الحكم العسكرى المتقطعة فى تركيا - كما يقول باموك فى حديث جانبى - كان على «كا» أن يهرب من موطنه بسبب مقالة مضادة للحكومة نسبت إليه خطأ. وباختصار لم يكن «كا» هو الابن الضال العادى العائد.. إنه غريب حتى بين الغرباء.

غير أنها لم تكن بالتأكيد صدفة أن يشعر أنه منجذب لكارس، وهو مكان مازالت روحه منقسمة انقساماً عميقاً، فنحن نعرف أنها كانت فى السنوات الأولى للجمهورية التركية أحد معاقل برنامج كمال أتاتورك عن التحديث الغربى الأسلوب، أما فى زمن زيارة «كا» فلم تعد هذه الأيام إلا موضع حنين لكبار السن، فقد انحدرت المدينة بصورة غامضة، ودارت السياسة دورة كاملة، وبدأ العلمانيون يتراجعون، وأصبحت كارس - التى مزقها الفقر وحاسة متفشية بتناقص الإمكانات - على وشك انتخاب أول عمدة إسلامى لها (غير أن لمحة أخرى لفشل الأيديولوجية الكمالية تبدو فى الخلفية: الوجود المتلألئ لرجال حرب العصابات الأكراد، بما يكذب اعتناق المؤسس للقومية التركية الاثنية باعتبارها القوة المحركة لدولته الجديدة.

ولم يكن على «كا» أن يذهب بعيداً لكى يواجه هذه التوترات، فهى قائمة فى السبب الظاهرى لرحلته إلى كارس فى المقام الأول، فقد جاء فى مهمة كلفته بها صحيفة استانبولية للتحقيق فى قضية «المحجبات» وهى مجموعة من الفتيات المسلمات يؤثرن أن ينتحرن عن أن يطعن الإملاءات الرسمية بأن يزلن أى مظهر خارجى للدين عند المشاركة فى الحياة العامة. وتلك مسألة تمضى إلى قلب النزاع بين الإحياء الإسلامى فى تركيا المعاصرة والمبادئ التى مازالت ثابتة من التراث السياسى الكمالى، والتى تضرب بجذورها فى الفصل القاطع بين العقيدة والدولة، وسرعان ما جعلته على صلة لا بأسر الفتيات القتلى فحسب، بل كذلك بالدوائر الإسلامية فى المدينة - الصريحة والسرية - فضلاً عن خصومهم الذين يماثلونهم فى عزمهم.

فلا عجب إذن أن ينغمس «كا» سريعاً فى محاولات لا تنتهى عن طبيعة الهوية التركية، وتذبذبها بين قطبى الشرق والغرب المتخيلين. والموضوع مألوف لكل المثقفين الأتراك الذين يعيشون فى بلد لم يتغلب أبداً على إحساس فطرى بالشيزوفرينيا الحضارية، ولكن هنا فى كارس حيث تكرر العنف السياسى عبر السنوات - فإن للجدال إلحاحاً ينفى مظهر الريفية النائمة، وليس من قبيل الصدفة أن يتضح أن المدينة تعانى حالة ولاء منقسم.. فهناك وفرة من الجواسيس والمرشدين، ويتضح أن وكلاء الحكومة يتابعون مصالحهم الخاصة لا المصالح الرسمية.. وثمة

زائر قادم من الحركات السرية الإرهابية مطلق السراح، ويمكن أن تقتل إذا وقفت فى الجانب الخاطئ من مسألة الهوية، وهذا ما سيجرى بالدقة أكثر من مرة فى مجرى الرواية. فحتى «كا» - المتفرج البرىء، والعاشق ذى العقلية الجمالية، والمتعاطف غريزياً مع المستضعفين، حتى «كا» يمكن أن يكون قادراً على ارتكاب خيانة قاتلة فى سعيه نحو حبه.

رغم كل ما تتسم به رواية «الثلج» من كثافة فى تفاصيل الحياة الواقعية فإنها فى الحقيقة رواية عن بحث، وعن معجزة تنشأ عنه. وبحث «كا» لا يستلهم السياسة، والسر الذى يتمخض عنه ينتمى إلى مجال مختلف تماماً. فمهمة «كا» فى تغطية أخبار المحجبات - الدافع المهنى وراء رحلته إلى كارس - ليست إلا ستاراً آخر. أما السبب الحقيقى لزيارته فهى امرأة تدعى ابيك، كانت عشقه القديم أيام الجامعة. وعادت - بعد أن غادرت استانبول منذ سنوات - إلى مسقط رأسها كارس، حيث تعيش مع أبيها، وهو نشط سياسى يسارى سابق، استسلم الآن إلى خمول وبلادة منتصف العمر، ويدير فندق قصر الثلوج.

كانت أبيك الجميلة قد تطلقت من زوجها مختار، الزعيم المحلى لحزب سياسى إسلامى معتدل نسبياً، الذى يبدو الآن عازماً على كسب الانتخابات القادمة. و«كا» متلهف على الاستفادة من وجودها، ومن المؤكد أنه نجح فى ذلك - فى البداية على الأقل، فقد استجابت لتوسلاته، وأقنع نفسه بأن أبيك على استعداد للعودة إليه فى فرانكفورت، حيث سيعيشان معاً فى سعادة، لكن الآفاق المعتمة لهذه العلاقة اتضحت من الأحداث التى صاحبت موعدهما الأول، حين اغتيل وزير المعارف المحلى انتقاماً لإنفاذه سياسات الدولة ضد المحجبات، وسرعان ما اتضح كذلك أن كلا من أبيك وأختها خديجة - المؤمنة المتعاطفة مع المنتحرات - أكثر تورطاً فى الأزمات السياسية فى كارس مما تعترف به أيهما فى البداية - وإن يكن عبر الرومانسية أكثر منه عبر الأيديولوجية، وكان لهذا التعقيد أثر كالكارثة على «كا»، وعلى تطلعاته إلى السعادة، حالما اتضح أن أعداء الإسلاميين كان يعدون لضربة مضادة.

وطيلة هذا كله كانت الثلوج تسقط كثيفة تغطى كل شىء ونحن نعرف أن «كا» قد رأى كثيراً من الثلوج فى سنواته فى فرانكفورت لكن هذا النوع الخاص من الثلوج - ثلوج كارس - وأبيك، والسعى المحلى المضنى إلى الخلاص - سواء فى العقيدة أو السياسة - يضرب على الوتر الحساس أدبياً.. فهو يحرك الذكريات، ويعيد إلى ذاكرته أيام الشتاء فى طفولته فى استانبول، لكنه يوحى كذلك بالنسيان الذى يفرضه الزمن، والملىء بالكآبة والأسف، إنه يخلص كلا من الجمال والملل، وفى لحظة أخرى تحرك الثلوج هبة مفاجئة من الأشواق الدينية.

«سأل صوت ببعض الضيق: ماذا تعنى بأنك لا تعرف؟ «ألست ملحداً بدورك؟»

أجاب «كا» لا أعرف.

وإذن فقل لى يا هذا: أتؤمن أو لا تؤمن بأن الله القدير قد خلق الكون وكل ما فيه، حتى الثلوج التى تتساقط من السماء؟

قال «كا».. إن الثلوج تذكرنى بالله.

«حسناً.. ولكن هل نؤمن بأن الله خلق الثلوج»؟

ساد صمت.. إن هذا اللقاء يتردد كشوكة رنانة، وبعد عدة فقرات، إذ تعود إليه عشرات التفاصيل عن تغطيته السابقة لمفارقة الثلج الموجود.

سمع «كا» نداءً عميقاً داخله: النداء الذى لا يسمعه إلا فى لحظات الإلهام، الصوت الوحيد الذى يمكن أن يجعله سعيداً، صوت إلهة شعره.. فللمرة الأولى منذ أربع سنوات كانت قصيدة تأتيه، ورغم أنه لم يسمع الكلمات بتدفق كانت مكتوبة بالفعل، وحتى وهى تنتظر فى المكان الذى تختفى فيه كانت تشع قوة وجمال المصير.

وعاد «كا» إلى غرفته فى الفندق، وكتب القصيدة على الفور فى «الدفتر الأخضر الذى جاء به معه من فرانكفورت».

وسمى القصيدة «الثلوج» وكانت فاتحة سلسلة من القصائد الأخرى - تسع عشرة فى مجموعها - وسرعان ما امتلأ الدفتر. ولن نلقى أبداً نظرة على محتويات هذا الدفتر.. فالأسباب ستتضح فيما بعد. يشار إلى القصائد فحسب، وإن كانت هناك كثير من الصور والعناصر المتكررة (ومن العناوين «النجوم وأصدقاؤها» و«الشطرنج» و«صندوق الشيكولاتة»). فإنها تتجمع لتشكل كلاماً غامضاً. وفيما بعد سيستطيع «كا» أن يرى (على حد تعبير باموك) بأنها يمكن أن تخطط فى شكل ندفة ثلج وفقاً للمحاور التى تستلهم شجرة المعرفة عند بيكون»، ولدى الوهلة الأولى قد يبدو هذا أشبه بخدع ما بعد الحداثة التى أصبحنا ننتظرها من ممارسى الشكلية الأدبية على شاكلة بورجيس ونابوكوف، لكن المرء يستطيع بسهولة أن يرى فيها كذلك أحجية متبلورة وفق التقاليد الصوفية العظيمة (يسمى أحد الإسلاميين «كا» «درويشا عصرياً». ومن أكثر مشاهد الكتاب تأثيراً مشهد اللقاء بين «كا» والشيخ الصوفى المحلى.

قال الشيخ «فليباركك الله يا بنى بقبولك دعوتى، لقد رأيتك فى حلمى وكانت الثلوج تسقط».

قال «كا» «وأنا أيضاً رأيتك فى الحلم.. وقد جئت هنا لأجد السعادة».

وشرح «كا» للشيخ التناقض الذى يعيشه: إنه يتشوق إلى الإيمان، لكنه يجد من المستحيل أن يقبل تعاليم الإسلام وتخلفه.. «أريد أن أومن بالإله الذى تؤمن به، وأن أكون مثلك، لكن هناك غريباً بداخلى يبلبل أفكارى». ويحاول الشيخ تهدئته مواسياً (وذات مرة قال له ضاحكا «ألديهم إله آخر فى أوروبا؟». وسرعان ما «تصاعد شعور بالسلام داخل «كا». وسيكون عنوان القصيدة التى نجمت عن هذا اللقاء هو «تماثل خفى» وهى عبارة عادت به إلى أصداء تفكير قديم.

«وبعد فترة طويلة، حين فكر كيف كتب هذه القصيدة تراءت له صورة ندفة ثلج، واعتبر أن هذه الندفة هى حياته مصغرة، والقصيدة التى أطلقت معنى حياته أصبح يراها الآن، قابعة فى قلبها. ولكن - تماماً كما تتحدى هذه القصيدة التفسير السهل. فإن من الصعب أن يقول أى قدر من حياته تحدده التماثلات الخفية التى يسعى هذا الكتاب إلى إماطة اللثام عنها.

ورغم أن «كا» لم ينجح تماماً فى العثور على الإله فإنه يلتقى بهذه التماثلات فى كل مكان حوله أثناء إقامته، ويعتنق أصل هذه القصائد فى تفسيرات تأتى من العالم الآخر. وهو يلاحظ أن الإلهام شىء يأتى من الخارج، ويكاد يكون على الرغم منه: «وفيما بعد سيشير إلى السرعة التى يحدث بها ذلك كدليل على أن هذا وكل ما يتبعه من أشعار - شأنها شأن العالم نفسه - ليس من إبداعه هو». وفى مكان آخر يذكر الملحوظة الواردة فى بداية «كوبلا خان» ويستخلص: «تصور قصيدة رائعة أبدعت نفسها، دون أن يكون على الشاعر أن يبذل أى جهد ذهنى!». غير أن القصائد ليست دواء، إنها لا تقدم حلولاً». ويأمل أن تكون القصائد قد أرسلت لترضيته، لتعطيه الأمل، لكنها حين تنتج يظل يشعر بألم ساحق فى جسده كله، ولذا فإنه يغادر المسرح القومى مكتئباً»، فالفن يعطى تعالياً وسيكون فى النهاية أقرب ما يستطيع أن يبلغه إلى الإيمان، لكنه لن ينقذه.. لا هو ولا الحب.

ويكمن سبب ذلك فى التواءة أخرى فى السرد، فقد تبين أن للثلوج دوراً أكثر دنيوية فى هذه القصة. فحين وصل «كا» إلى المدينة سرعان ما تحولت الثلوج الساقطة إلى عاصفة ثلجية عنيفة عزلت كارس عن العالم الخارجى، وتنتهز هذه الفرصة شخصية تآمرية هى سوناى زاى، الممثل المتجول الذى جاء إلى كارس مع فرقة مسرحه الطليعى، التى كانت تخطط لأن تعرض عملاً من أعمال عصر الثلاثينيات الدعائية الكمالية بعنوان «وطنى أم حجابى». والمسرحية التى تصور انتصار المحدثين على تخلف الإسلام - هى استفزاز محسوب موجه إلى المتحمسين للسياسة الدينية فى المدينة.

لكن سرعان ما اتضح أن هذا أيضاً مجرد ستار، فما كان يدور فى ذهنه ليس أقل من انقلاب مؤقت يتولى هو دفته، يرمى إلى القضاء على الخطر الإسلامى، ويجعل منه بطلاً علمانياً (ورغم عدم الإشارة صراحة إلى السابقة فإن كلا من خططه وجمالياته الحديثة للغاية تبدو مدينة بالكثير للكاتب الإيطالى جابرييل دانونزيو، وتأسيسه لدولة صغيرة فاشية مبكرة فى «نيوم» بعد الحرب العالمية الأولى). ويجد سونى - فى وصف ذاتى «على الطريقة اليعقوبية» - كثيراً من الحلفاء بين العسكريين المحليين وعدد من المتطرفين اليمينيين المرتدين، الذين يسعدهم جميعاً أن ينتهزوا الفرصة ليسووا الحساب مع المعسكرات الدينية، وموضع غضبهم الخاص هو «بلو» - المناضل الإسلامى التآمرى المتطرف الذى استقر فى كارس تعاطفاً مع المحجبات. وسيفوزون فى النهاية - ولكن ليس قبل أن يكون «كا» قد اجتذب بعمق إلى كلا جانبى النزاع.

وسوناى وبلو - شأنهما شأن باموك و«كا» - توأمان من نوع ما (حتى وإن كانا متعارضين أيديولوجياً) فكل منهما متطرف سياسى كاريزمى يريد إعادة صنع العالم، وكل منهما يفهم قوة الثقافة كسلاح سياسى، فسوناى - ككثير من أسلافه الفاشيين - يرى السياسة كعمل فنى وليس العكس، وكجزء من لعبة ابتزاز سياسى، سيجبر شقيقة أبيك على أن تخلع حجابها على المسرح كجزء من المسرحية، فى قضاء رمزى على مثل خصومه العليا، أما بلو فهو قد اكتسب الشهرة فى البداية لتهديداته ضد السلوك «غير الإسلامى» لمضيفى لعبة الاستعراض، وهو يطرح على «كا» خطاباً طناناً طويلاً عن أهمية «الشاهنامة» - كلاسيكية الأدب الفارسى منذ ألف عام. وليس فى العمل كثير مما هو إسلامى، لكن بلو يبدو وكأنه يصل به إلى غاية هى حماية تقاليده الثقافية «الخاصة»، إنه يتحدى «كا» لأن يبحث «ما إذا كانت هذه القصة من الجمال بحيث يمكن لإنسان أن يقتل من أجلها». ولكن على الرغم من ادعاءاتهما فإن كلا الرجلين جاد تماماً، فكل من سوناى وبلو فنان بطريقته، لكن كلا منهما على عكس «كا» بصوفيته مقتنع بأنه يعرف كيف يمكن حل الأسرار العلمانية، وعلى عكس «كا» الذى تصل ندفات ثلوجه إلى أن تجسد «تفرد» الخبرة الفردية، فإن كلا من بلو وسوناى يستحوذ عليه إنفاذ رؤى توافق لا تترك مكاناً واسعاً

لأبرياء، ولا يشعر أى منهما بقلق أمام احتمال إيذاء أحد، لكن كليهما سيغدان من الضحايا فى نهاية القصة.

وما يتفوق فيه باموك حقاً فى هذه الرواية هى المهارة التى يسمح بها لهذه القوى بأن تجر إحداها الأخرى، فبايك ـ مثل السيتوفسكى السلف الأدبى الذى تحوم روحه على الكتاب بصورة ملموسة ـ يبدو أنه يقدر السياسة ـ كفرصة عظيمة لأن يترك شخصياته تطنطن بكل الوان الطرق الإنتاجية[1]. إن البساطة وتلاحم الأيديولوجية مغريان، لكن ما يحويان من مبادئ نادراً ما تثبت أمام الواقع الاجتماعى، وبدلاً منها نطرح علينا دوامة من الدوافع، ومن فصولى المفضلة فصل يجمع معاً حشداً من راديكاليى المدينة فى «اجتماع سرى» (كل كلمة فيه تركبها الدولة) عن كيفية الاستجابة للانقلاب، وتتداخل المناقشات الكبرى عن المسائل ذات الأهمية العالمية مع عمليات الثأر الشخصى، وصغائر الحديث الكوميدية، وأحاديث النميمة، ويقوم واحد من «اشتراكيى الموجة القديمة» بالإبلاغ عن الاجتماع للسلطات المختصة.

لم تكن نواياه خبيثة، لقد فعل ذلك لمساعدة الاتحاد على تجنب تحرش الشرطة. وسيقوم بإبلاغ الدولة بأى أنشطة لا تروق له. وأغلبها تبدو له عند استرجاعها غير ضرورية ـ لكنه فى أعماق قلبه كان فخوراً بأن هناك عصاة يناضلون من أجل القضية، فخوراً إلى حد أنه سيتباهى بحالات إطلاق الرصاص والاختطاف والضرب والقصف الاغتيال أمام كل من يسمع.

و«كا» قادر على الاستماع بتعاطف حتى مع ممثلى أشد الآراء تطرفاً، لكنه أيضاً لا تخامره أى أوهام عن الغايات التى قد تقود إليها السياسة.

«فعند بلوغه الثلاثينيات كان قد رأى كثيرين من أصدقائه وزملاء دراسته يعذبون من أجل مبادئ حمقاء، بل حتى خبيثة، ثم هناك هؤلاء الذين قتلوا بالرصاص وهم يحاولون سرقة البنوك، وأولئك الذين صنعوا قنابل انفجرت فى أيديهم، وأمام رؤية فساد مثله العليا عند وضعها فى التطبيق آثر «كا» الابتعاد عنها عموماً وإذا كان من شأن النشاط أن يغير العالم فإننا نكون مخطئين إذا اعتقدنا أننا نستطيع دائماً أن نتنبأ بنتائج تصرفاتنا (كالرصاصات التى ارتدت دون تمييز وسط الجمهور حين فقد سوناى انقلابه المسرحى). إننا نعتقد أننا نفهم السبب والنتيجة، لكن الروابط الفعلية قد تكون غامضة، وحين وصل «كا» إلى كارس حكى له عن اغتيال العمدة السابق، ومع نهاية الرواية سنكون قد استمعنا إلى ثلاث روايات مختلفة عن الوفاة، ولم تحل أبداً الأحجية حسب الكلمة المحببة لباموك.

دارت السياسة دورة كاملة، وبدأ العلمانيون يتراجعون، وأصبحت كارس ـ التى مزقها الفقر وحاسة متفشية بتناقص الإمكانات ـ على وشك انتخاب أول عمدة إسلامى لها

رغم كل ما تتسم به رواية «الثلج» من كثافة فى تفاصيل الحياة الواقعية فإنها فى الحقيقة رواية عن بحث، وعن معجزة تنشأ عنه



والمعتقدات البشرية ليست غنية بالتنوع فحسب، بل هى كذلك فى تدفق دائم، فبعض إسلاميى الرواية ـ مثل زوج أبيك السابق بدأوا ماركسيين، والأمر نفسه ينطبق على بضعة يمينيين ومع نهاية الرواية كان عديد من الراديكاليين الإسلاميين قد تخلوا عن النشاط السياسى كلية، منضمين إلى طوبيى الأجيال السابقة فى صنوف المستسلمين. وفضلاً عن هذا فإن التسميات الأيديولوجية التى بدأت واضحة غدت غائمة عند فحصها، وعلى سبيل المثال فكلما زاد استحواذ فكرة التعارض بين الشرق والغرب على أذهان شخصيات باموك زاد تقويضهم لهذه الفكرة ذاتها، فالغربيون ليسوا جميعاً بأى حال «ملاحدة»، ولم يفطم بلو على القرآن والمنظر الإسلامى الراديكالى فى القرن العشرين سيد قطب فحسب، بل كذلك بعض التقاليد الغربية عن أيديولوجية تحرر العالم الثالث، وأفلام هوليوود وأثناء «الاجتماع السرى» كان هو الوحيد الذى سبق أن زار أوروبا.

ومن جانبه كان «كا» يقول «أردت أن أكون غربياً ومؤمناً»، ولم تنجح العملية أبداً، لأن «كا» لم يكن تستطيع أن يلتزم فى الواقع بأى منها. كما لا يوفر الحب بها، فهو بدوره نوع من الإيمان، قائم على الثقة بين شخصيتين لا يستطيعان أن يعرفا كل شىء عن بعضهما بعضاً، وحين أراد اتباع سوناى أن يدرجوا «كا» حليفاً فى تعقبهم لبلد اكتشفوا مع الزمن أن أبيك كانت على علاقة فى وقت ما مع القائد الإرهابى المزعوم. وبدوره سيخون «كا» بلو ويخسر أبيك إلى الأبد نتيجة لذلك، فحين طرده مديرو الانقلاب من كارس عاد إلى ألمانيا، وعاش هناك وحيداً بضع سنوات أخرى إلى أن اغتاله قاتل ـ ثأراً على ما يبدو للإبلاغ عن الزعيم الإسلامى، ولن تعرف أبداً الظروف الدقيقة للمسألة وبالطبع، لكن ثمة شيئاً واحداً واضحاً ببرود.. فهنا أيضاً فشل «كا» فى أن يصبح مؤمناً.

ولكن لعل «كا» كان يستطيع الوصول بعد الموت إلى خلاص من نوع ما، فى الفن ـ من خلال الوحدة الصوفية ـ دون دين ـ التى وجدها فى عمله المسمى «الثلج»، فقرب نهاية الرواية وصل باموك إلى كارس، بحثاً عن خلاصه هو: أن يستعيد على الأقل شيئاً من عمل صديقه، وأن يكتب كتاباً يحيى ذكراه، وكان باموك قد فتش فعلاً متعلقات «كا» فى فرانكفورت، حيث لم يجد أثراً للدفتر الأخضر الصغير الذى يحوى القصائد التى يبدو أنها ضاعت إلى الأبد وربما كان القاتل قد سرقها، وكان باموك يأمل أن يعيد فى كارس بناء مولد القصائد، وربما تسجيلاً لقراءة «كا» لواحدة منها فى أرشيفات التليفزيون المحلى.. وانتهى به الأمر إلى تعقب خطى «كا» زائراً مشاهد الأحداث التى نعرفها جيداً مما جرى من قبل.

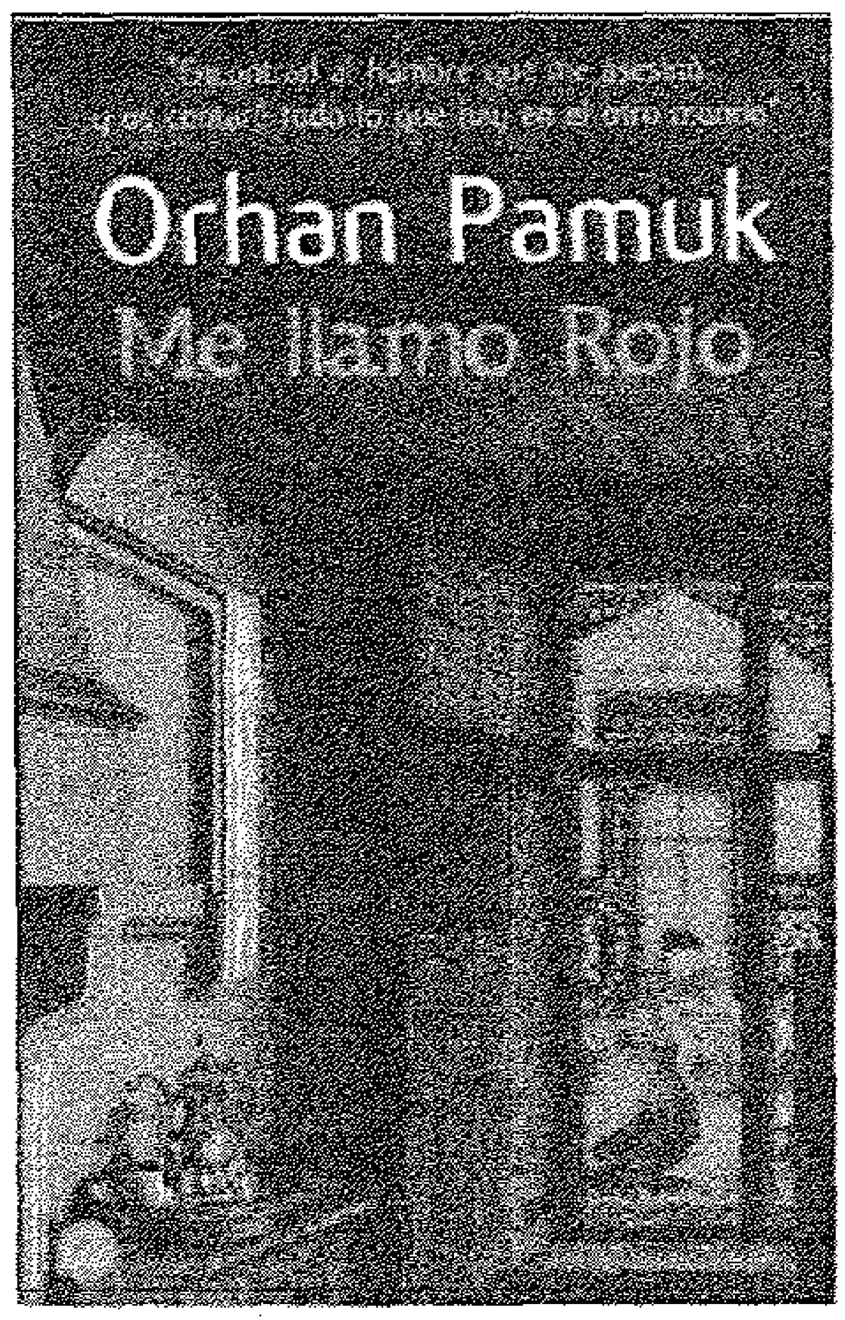
وفى الطريق يقابل كثيراً من تفاصيل الطلاسم التى أثرت يوماً على «كا»: الكلب الأسود، ملصق يحذر من أن الانتحار جريمة فى الإسلام، أقراص صغيرة من «جبن كارس الشهير». يقول باموك «وفى ذلك الصباح، وأنا أجوب شوارع كارس، متحدثاً مع نفس الناس الذين تحدث معهم «كا»، وجالساً فى نفس المقاهى، أحسست أنى أكاد أن أكون «كا» الذى جاءنى ومعه أبيك للمرة الأولى ليتناولا حلوى القسطل فى كافيه نيولايف.. حيث سحره جمالها، فوقع فى حبها، بنفس النهاية العقيمة، وغادر المدينة بالقطار، تماماً كما فعل سلفه ـ ولكن ليس قبل أن تتاح للمحليين فرصة تحذيرنا نحن القراء من ألا نثق فى تصوير الكاتب لهم، وإذ نجد أنفسنا نتعقب آثار خطوات «كا» بترتيب معكوس إلى حد ما، فإننا نكتشف أننا ننعكس فى مرآة بللورية، قد لا يكون التماثل إلا مختفياً جزئياً، لكنه مع هذا يظل فريداً، وقد لا نعرف أى محور فى ندفة الثلج نجد اليوم أنفسنا فيه، ولكن يبقى ذلك الإحساس بأن الوحدة الصوفية التى سعى إليها «كا»، وتتبعها وآثارها باموك قد بقيت بعد اغتيال الشاعر وضياع قصائده، فى حين يضىء باموك الروائى، على طول الطريق، حيرة الهوية فى البلد وأزمة الثقة بين الإسلام والغرب، بعمق خيالى لم نعرفه من قبل. ■

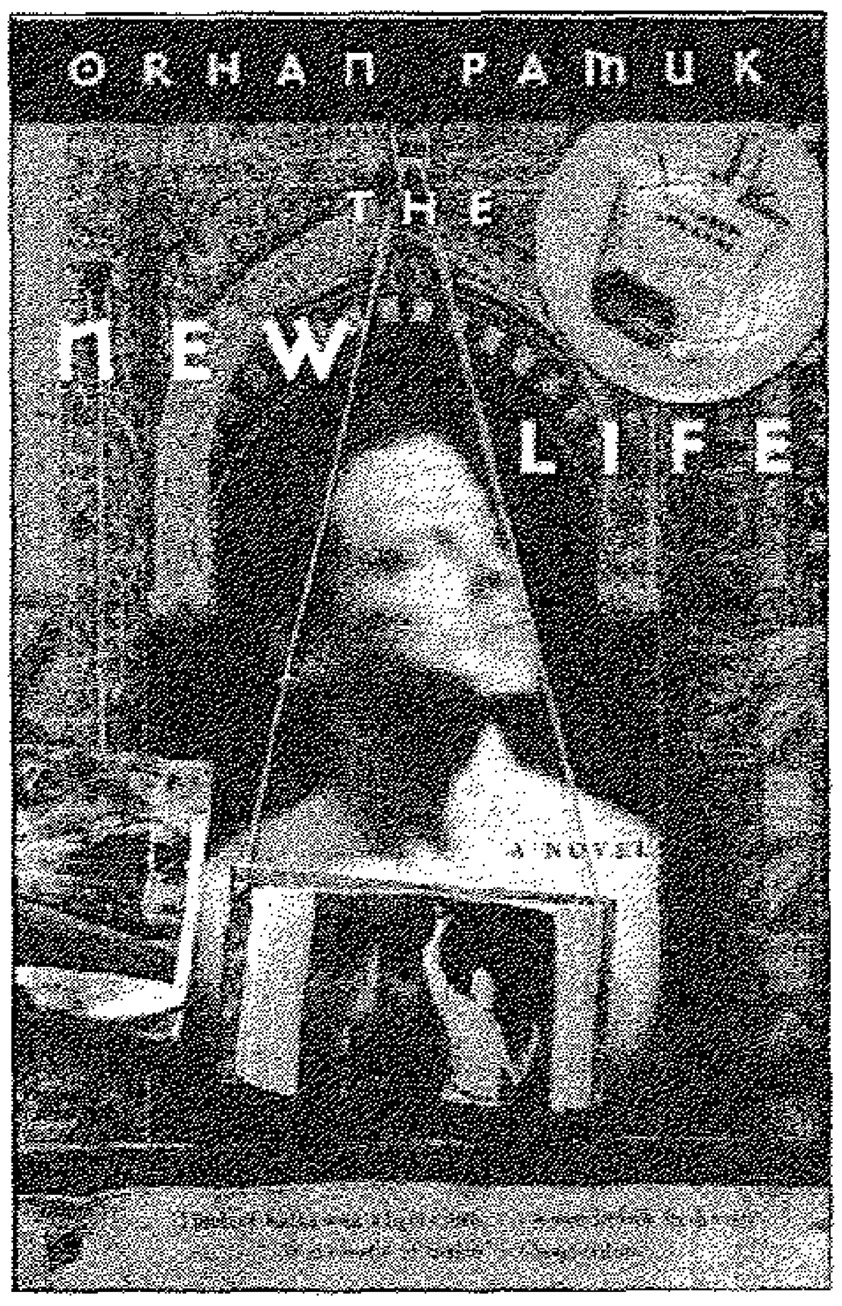
الهوامش

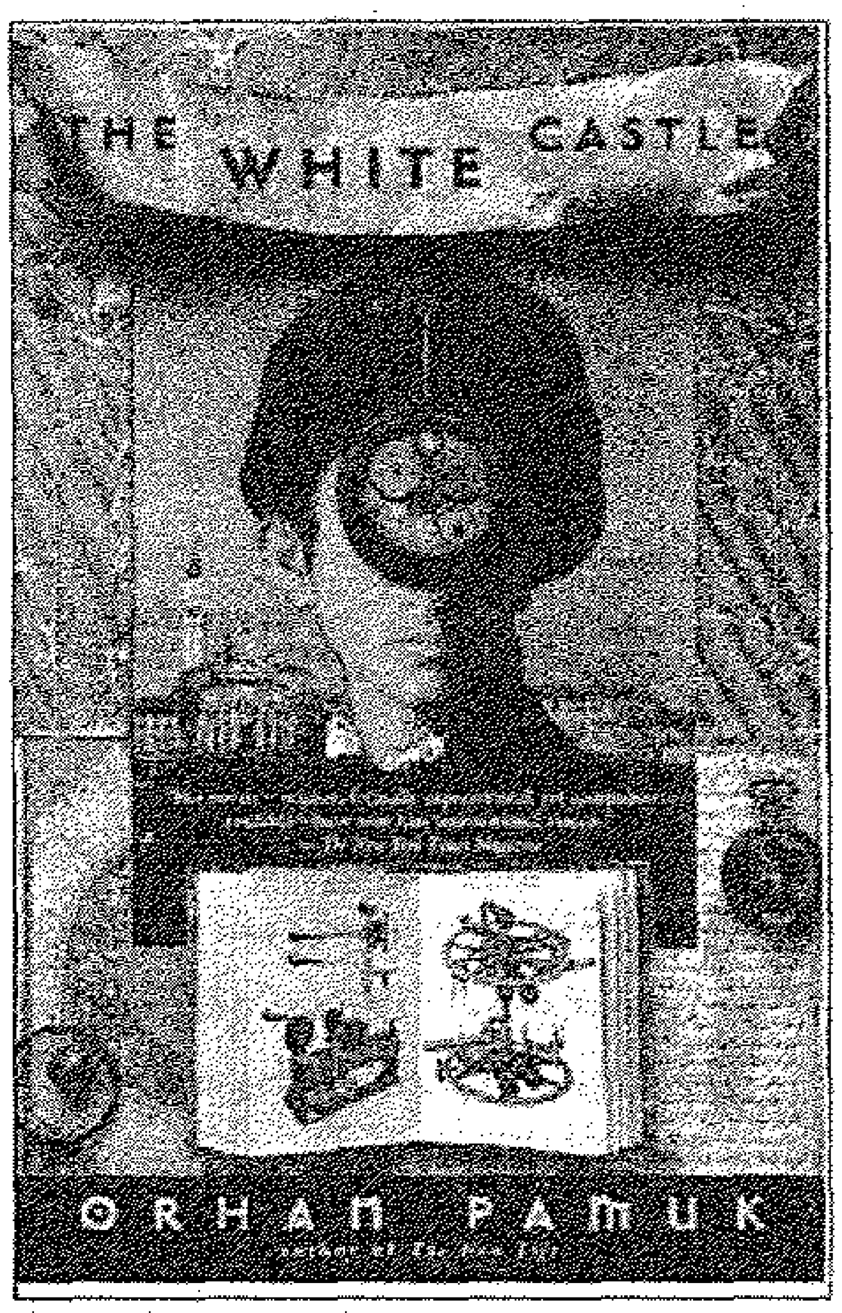
(١) هناك صدى أو اثنان كذلك لشخصية «ك» عند كافكا ولنتذكر مثلاً ملاحظة باموك بأن شخصيته الرئيسية ذات العقلية الطبيعية قد حرصت دائماً على استخدام هذا الاسم المصنوع فى الأوراق الرسمية حتى لو كان ذلك يعنى النزاع مع المدرسين والموظفين الحكوميين.

(٢) وهنا أيضاً تمتلئ الصفحات بأسماء شباب ثوريين متحمسين تحولوا إلى رجعيين، وبالحديث المتكرر عن الانتحار والإلحاد، والإرهاب السياسى والسياسة كمسرح خطير للفضائح، وتأملات لاهثة عن العلاقة بين الوطن ومثل «أوروبا» و«الحضارة الأوروبية» و«للمهاتين» الذين تدفعهم المآزق التى يطرحها الإرهاب والتطرف السياسى، نفوذ قوى. ويجد اللينينى الأصيل نيكولاى ستافروجين مثيلاً له فى «بلو» الإسلامى الكاتب الكاريزمى، ويبدو تومرجوت بك والد أبيك، اليسارى الذى انزاح عنه الوهم، إعادة صياغة خبيثة لستيفان خوفنسكى، الذى كان راديكالياً وأصبح الآن ليبرالياً جديراً بالاحتقار ومن هنا يبدو طلب بلو أن يعدم «كعمل فردى» «سخرية مع التقديس الغربى للفرد» لغزاً من ألغاز ديستويفسكى.. وقد تحققت له أمنيته.

حرية







■■ فى شهر مارس ١٩٨٥، قام آرثر ميلر[1] وهارولد بنتر[2]، الكاتبان الأكثر شهرة وأهمية آنذاك فى المسرح العالمى، بزيارة إلى مدينة استنبول. لكن المؤسف أن الهدف من تلك الزيارة لم يكن لحضور عرض مسرحى أو ندوة أدبية، بل كان تلك القيود الثقيلة التى فرضت على حرية التعبير فى تركيا، والزج بمئات الآلاف من الأتراك فى السجون، فى أعقاب الانقلاب الذى شهدته تركيا فى خمسينيات القرن الماضى. وكما هى العادة دائماً تصدر العديد من الكتاب التعساء قائمة الأكثر عرضة للاضطهاد شديد الوطأة.

وفى كل مرة كنت أعود فيها إلى أرشيف الصحف و«روزنامات» ذلك الوقت، كى أذكر نفسى بما كانت عليه الحال فى تلك الأيام، كانت ترتسم أمامى صورة تقدم تجسيداً دقيقاً لتلك الحقبة ومعظم من عاصروها: الجندرما «عساكر» تحيط برجال رءوسهم محلوقة ويجلسون بوجوه عابسة تزداد عبوساً كلما طال نظر القضية داخل غرفة المحكمة. وبين الرجال كان هناك العديد من الكتاب. وقد جاء ميلر وبنتر إلى استنبول لمساندتهم والالتقاء بهم وبعائلاتهم ولفت أنظار العالم إلى الوقت العصيب الذى يعيشونه. وكانت «الجمعية الدولية للشعراء وكتاب المسرح والمحررين وكتاب المقالة والروائيين» PEN[3] هى التى نظمت تلك الزيارة باتفاق مع Helsinki Watch Committe «لجنة هلسنكى المعنية بحقوق الإنسان. ويوم وصول ميلر وبنتر توجهت، وأحد الأصدقاء إلى المطار لاستقبالهما، وكنا قد كلفنا بمرافقتهما.

كنت قد تقدمت إلى هذه الوظيفة ليس بشغف السياسة بل لأننى روائى يجيد الإنجليزية بطلاقة. وقد سعدت بالوظيفة ليس لأنها وسيلة لمساعدة أصدقاء كتاب فى محنة، بل لكى أكون، ولو لبضعة أيام، فى صحبة اثنين من كبار كتاب العالم.

وبصحبة ميلر وبنتر زرنا دور نشر صغيرة تجاهد من أجل الاستمرار، صالات تحرير وبث أخبار تعيش الأزمة، ومقار مجلات صغيرة مظلمة على حافة الإغلاق. تنقلنا من منزل إلى منزل، ومن مطعم إلى مطعم، للقاء كتاب فى ورطة هم وعائلاتهم.

كنت، وإلى تلك الفترة، أقف على هامش السياسة ولا أخطو إلى داخلها إلا مجبراً. لكننى، وبينما كنت أستمع إلى حكايات خانقة عن الكبت، القسوة، والشر المطلق، شعرت بانجذاب مشوب بالذنب إلى هذا العالم، وأننى مشدود إليه، أيضاً بمشاعر التضامن وإن كنت قد شعرت، فى الوقت نفسه، برغبة مساوية ومناقضة، تدفعنى إلى أن أنأى بنفسى بعيداً عن هذا كله وألا أفعل شيئاً فى حياتى سوى تأليف الروايات الجميلة.

ونحن نتنقل داخل سيارة أجرة من موعد إلى موعد، وسط زحام المرور فى استنبول، أتذكر أننا تبادلنا الأحاديث حول الباعة والعربات التى تجرها الخيول وأفيشات الأفلام السينمائية والنساء السافرات منهن والمتشحات اللاتى يثرن دائماً اهتمام الزائر الغربى. أتذكر أيضاً، وبشكل أكثر وضوحاً صورة: أنا وصديقى المرافق نقف عند نهاية ممر طويل فى «هيلتون» استنبول نتبادل همساً مضطرباً إلى حد ما، بينما ميلر وصديقه بنتر يجلسان يتهامسان بحدة غامضة مماثلة. لقد بقيت هذه الصورة محفورة فى الذاكرة المضطربة ربما لأنها ترسم فى اعتقادى، تلك المسافة الشاسعة ما بين تاريخنا المعقد وتاريخهم، وتوحى فى الوقت نفسه بأن التضامن العزائى بين الكتاب كان ممكناً.

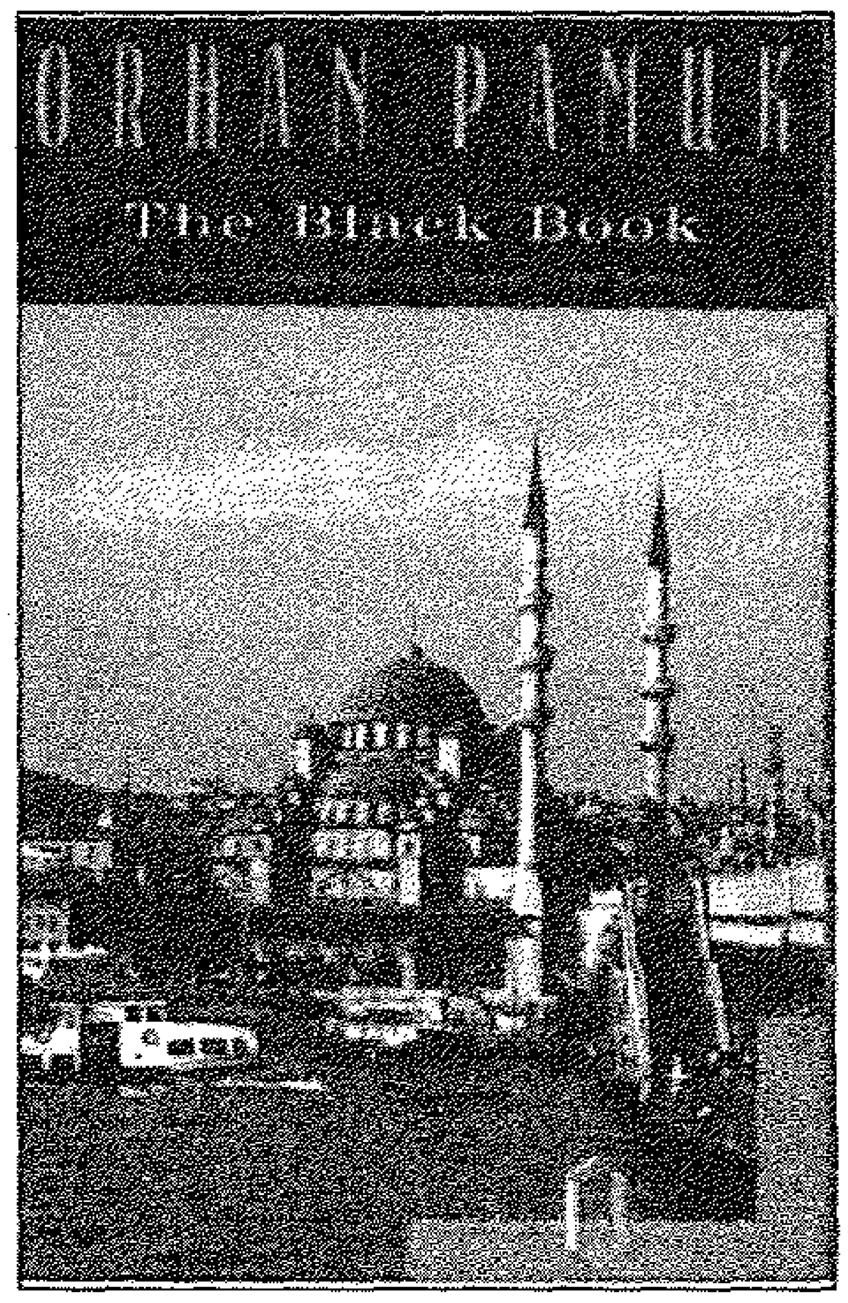
في كل اجتماع آخر مع كتاب داخل غرف معبأة بالدخان، كنت أشعر بالكبرياء المتبادل والعار المشترك. لقد أدركت ذلك وكان التعبير عنه علانية أحياناً، وألمسه بنفسى فى أحيان أخرى أو أراه فى تلميحات وتعبيرات الآخرين. كان معظم الكتاب، المفكرين، والصحفيين، الذين التقينا بهم، غالباً ما يعرفون أنفسهم، فى تلك الأيام، بأنهم من اليسار. لهذا يمكن القول بأن مشاكلهم كانت ذات علاقة بالحريات التى يحظى بها الديمقراطيون فى الغرب الحر. بعد ذلك، وبعشرين عاماً أرى ما يقارب نصف هؤلاء يقف فى صف واحد مع أصحاب الاتجاهات القومية المتنازعة مع اتجاهات غربية وديمقراطية. ومن المؤكد أن هذا الأمر يشعرنى بالحزن.

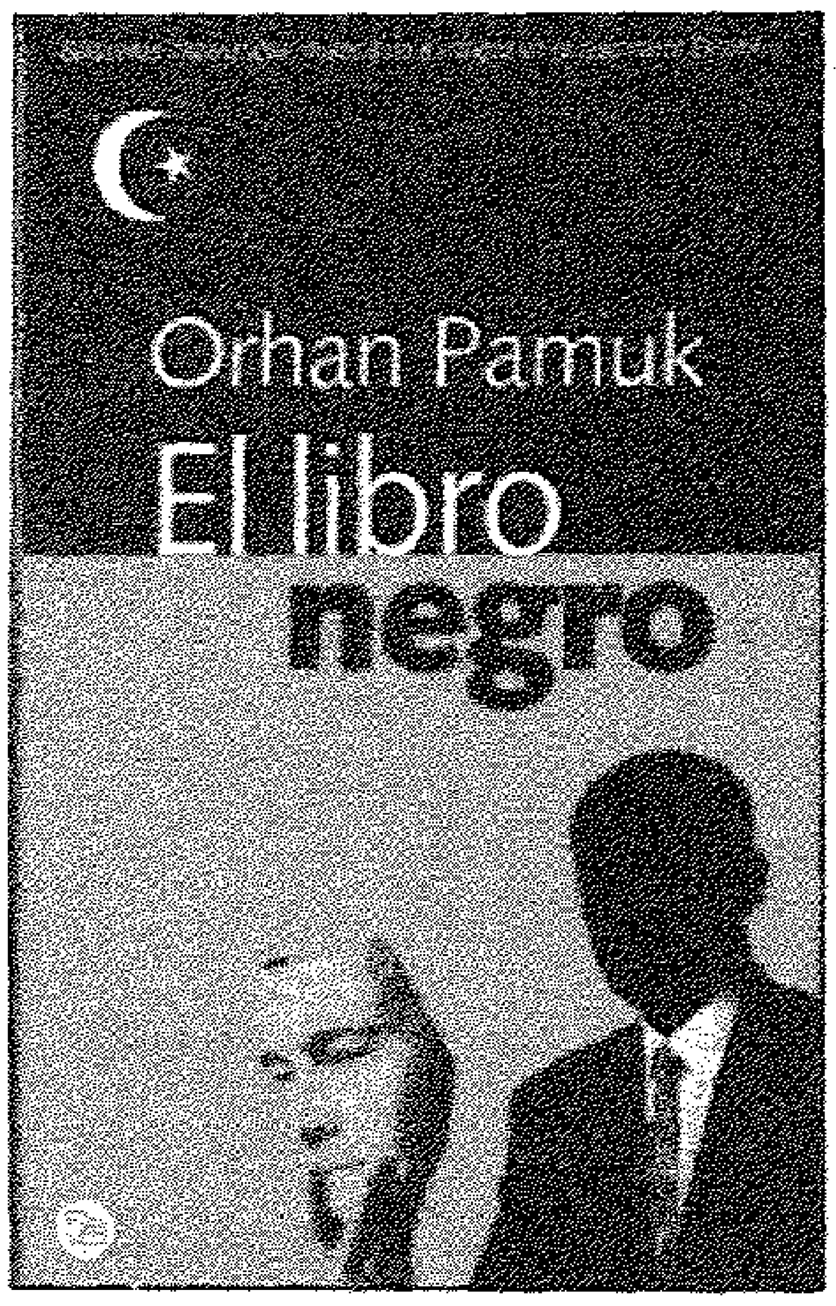
لقد تعلمت من تجاربى، كدليل، والتجارب المشابهة لآخرين، شيئاً نعرفه جميعاً وأرغب فى انتهاز الفرصة للتأكيد عليه الآن: إن حرية التفكير وحرية التعبير هما من الحقوق الأساسية العالمية للإنسان دون النظر إلى طبيعة الدولة. وهذه الحريات التى يشتهيها الإنسان المعاصر، كما يشتهى الخبز والماء، لا يجب تقييدها باستخدام عاطفة قومية أو حساسيات أخلاقية، أو مصالح تجارية أو عسكرية. والأخيرة هى الأسوأ على الإطلاق. وعندما يعانى العديد من الدول خارج العالم الغربى، وبخجل، من الفقر، لا يكون ذلك بسبب أنها تملك حرية التعبير، بل بسبب أنها لا تملك هذه الحرية. وبالنسبة لهؤلاء الذين يهاجرون من دولهم الفقيرة إلى دول الغرب والشمال، هرباً من صعوبات اقتصادية واضطهاد وحشى، يجدون أنفسهم، وكما نعرف، تحت وطأة وحشية أشد، بسبب عنصرية يتعرضون لها فى دول غنية. نعم، يجب أن نتنبه أيضاً إلى هؤلاء الذين يشوهون سمعة المهاجرين والأقليات بسبب معتقداتهم الدينية أو أصولهم العرقية، أو بسبب آثار البطش التى تتركها ممارسات حكومات الدول التى جاءوا منها، على مواطنيها. لكن احترام إنسانية ومعتقدات الأقليات لا يعنى أننا يجب علينا تقييد حرية التفكير. واحترام حقوق ومعتقدات الأقليات العرقية لا يجب أن يكون ذريعة لانتهاك حرية القول. وعلينا، نحن الكتاب، ألا نتردد إزاء هذا الأمر مهما كانت تلك الذريعة مستفزة. إن لدى البعض منا تفهماً أفضل للغرب. وبعضنا ينجذب أكثر إلى هؤلاء الذين يعيشون فى الشرق، والبعض، وأنا منهم، يحاول أن ينفتح على

محاضرة ألقاها المؤلف ضمن فعاليات المهرجان العالمى للأدب، والذى نظمته «الجمعية الدولية للشعراء وكتاب المسرح والمحررين وكتاب المقالة» (PEN)، بنيويورك فى ٢٠٠٦/٤/٢٥

الكتابة







جانبي هذا التقسيم المصطنع إلى حد ما. لكن ارتباطاتنا الطبيعية ورغبتنا في فهم هؤلاء الذين يختلفون عنا، يجب ألا تقف في طريق احترامنا لحقوق الإنسان.

دائماً ما أجد صعوبة في التعبير عن مواقفي السياسية بشكل واضح، حاسم، وقوي، إذ أشعر وكأنني مدع يقول أشياء ليست صادقة تماماً. سبب ذلك هو علمي بعدم استطاعتي تكثيف ودمج أفكاري حول الحياة في نغمة موسيقية مفردة أو وجهة نظر وحيدة. أنا روائي في نهاية الأمر، وصنف من الروائيين الذين يجعلون عملهم هو التطابق والتماثل مع كل شخصيات رواياتهم، وخاصة الشخصيات الشريرة. والعيش، كما أعيش أنا، في عالم يستطيع فيه شخص ما، أن يتحول، وخلال فترة قصيرة، من ضحية استبداد إلى مستبد، علمني أيضاً أن الإصرار على التمسك بمعتقدات حول طبيعة الأشياء هو في حد ذاته عمل صعب. إنني أؤمن أيضاً أن معظمنا تؤانسه، وفي وقت واحد، تلك الأفكار المتناقضة داخل روح الإرادة الطيبة والنوايا الحسنة. إن متعة كتابة الروايات تكمن في الكشف عن هذه الحالة العصرية المميزة، حيث يتناقض الناس، بشكل مستمر، مع ما في عقولهم. إن عقولنا المعاصرة غامضة إلى درجة تجعل لحرية التعبير أهمية قصوى: نحتاج «هذه الحرية» لكي نفهم أنفسنا، ونفهم أفكارنا الغامضة المتناقضة، ونحتاجها بسبب الكبرياء والعار اللذين سبق وأشرت إليهما.

دعوني أحكي لكم حكاية أخرى قد تلقي بعض الضوء على العار والكبرياء اللذين شعرت بهما قبل ٢٠ عاماً مضت، وأنا أصطحب ميلر وبنتر في جولات حول مدينة استنبول. ففي السنوات العشر التي تلت تلك الزيارة وقعت سلسلة من مصادفات ناجمة عن نوايا حسنة، مشاعر غضب، إحساس بالذنب، وتباينات شخصية، قادتني إلى حرية التعبير، منبتة الصلة برواياتي، وقبل وقت طويل من تجسيدي لشخصية سياسية كانت أشد بأساً إلى درجة لم أخطط لها. في ذلك الوقت كان مؤلف هندي كبير السن، أعد تقرير الأمم المتحدة حول حرية التعبير في ذلك الجزء من العالم الذي أعيش فيه، قد جاء إلى استنبول وراح يبحث عني. والذي حدث أننا التقينا في فندق هيلتون، أيضاً، وفور جلوسنا إلى المائدة بادر السيد الهندي بتوجيه سؤال لا يزال صداه يتردد بشكل غريب داخل عقلي. سألني: ما الذي يجري في بلدك وترغب في سبر أغواره في رواياتك لكنك لا تحاول الاقتراب منه بسبب محظورات شرعية؟

بعد السؤال مرت فترة صمت طالت ووجدت نفسي في خضم تفكير عميق. غرقت في تساؤل ديستو فيسكي[4] ذاتي موجع. وكان واضحاً أن السيد القادم من الأمم المتحدة يسألني عن المسكوت عنه في بلدي، نتيجة للمحرمات والمحظورات الشرعية، والسياسات القامعة. لكنه صاغ السؤال في إطار ما أكتبه من روايات لأنه مهذب. أما أنا، وفي ضوء تجربتي، فقد أخذت السؤال في إطار معناه الحرفي. ففي تركيا، وخلال عشر سنوات مضت، كان هناك العديد من الموضوعات التي أغلقت القوانين وسياسات الدولة القمعية، أبواب الحوار حولها. لكنني، وباستعراض هذه الموضوعات، الواحد تلو الآخر، لم أجد موضوعاً واحداً أرغب في سبر أغواره في رواياتي. رغم ذلك أدركت أنني سأقدم انطباعاً خاطئاً إذا ما قلت أنه لا يوجد ما أرغب في الكتابة عنه، في رواياتي، ولا أستطيع مناقشته لأنني كنت قد بدأت بالفعل تناول كل تلك الموضوعات بشكل علني ولكني خارج رواياتي. الأكثر من ذلك أن مجرد التفكير في طرح تلك الموضوعات في رواياتي لمجرد أنها موضوعات محظورة، كان يصيبني بالغضب. وبينما كانت كل تلك الأفكار تعبر خاطري، شعرت فجأة بخجل من صمتي الذي طال واستقر في يقيني أن حرية التعبير لها جذورها المرتبطة بالكبرياء، وهي في جوهرها تعبير عن الكرامة الإنسانية. لقد عرفت على المستوى الشخصي، كتاباً اختاروا طرح قضايا محظورة لمجرد أنها محظورة. أظن أنني غير مختلف. لأنه، وعندما يوجد كاتب آخر، في دار آخر، ليس حراً، فهذا معناه عدم وجود كاتب حر. هذه. حقاً. هي الروح التي تشكل التضامن الذي تشعر به «الجمعية الدولية للشعراء PEN»، ويشعر به الكتاب في أنحاء العالم كله.

أحياناً ما يخبرني أصدقائي بأني ما كان يجب على صياغة أمر ما بالشكل الذي صغته به «ولو أنك صغته، هكذا، وبأسلوب لا يضير أحداً لما كنت في مثل ما أنت فيه من ورطة». لكنك إذا ما غيرت في كلمات المرء وغلفتها بأسلوب يحظى بالقبول، من الجميع، داخل ثقافة مقموعة، وتصبح ماهراً في هذا الميدان، فإن ذلك يشبه إلى حد ما تهريب بضائع ممنوعة عبر الجمارك. وهذا فعل مشين ومحقر.

إن الفكرة الرئيسية لمهرجان هذا العام «للجمعية الدولية للشعراء PEN» هي العقل والعقيدة. ولقد سردت كل تلك الحكايات بهدف تجسيد حقيقة واحدة هي أن بهجة التعبير الحر عما نشاء قوله ترتبط بالكرامة الإنسانية رابطة لا انفصام لها. لذا دعونا نسأل أنفسنا الآن عن مدى معقولية تشويه الثقافات والديانات، بل وقصف دولة بالقنابل، وبلا رحمة، تحت اسم الديمقراطية وحرية التعبير. إن الجزء الذي أعيش فيه، في هذا العالم، لم يعد أكثر ديمقراطية بعد سقوط كل هؤلاء القتلى. إن اضطهاد وقتل آلاف الناس بلا رحمة في الحرب على العراق، لم يحقق سلاماً ولا ديمقراطية. لقد أصبحت الأوضاع أكثر صعوبة بالنسبة لأقلية صغيرة تقاوم من أجل الديمقراطية والعلمانية في الشرق الأوسط. وهذه الحرب الوحشية القاسية هي عار أمريكا والغرب. أما المنظمات مثل PEN، والكتاب مثل هارولد بنتر وآرثر ميلر، فهم الكبرياء. ■

هوامش للمترجم

(١) Arther Miller (١٩١٥.٢٠٠٥) كاتب مسرحي أمريكي له العديد من الأعمال ذائعة الصيت، من بينها «كل أبنائي»، و«موت بائع متجول» التي فازت بجائزة بوليتزر للأدب.

(٢) Harold Penter شاعر وكاتب وممثل بريطاني فاز بجائزة نوبل للآداب لعام ٢٠٠٥.

(٣) International Association for Poets, Playwriters, Editors, and Novelists

(٤) نسبة إلى Fyodor Dostoevsky (١٨٢١ - ١٨٨١) الأديب والروائي الروسي العالمي الذي من أشهر أعماله: الجريمة والعقاب، الإخوة كرامازوف، والسكير.

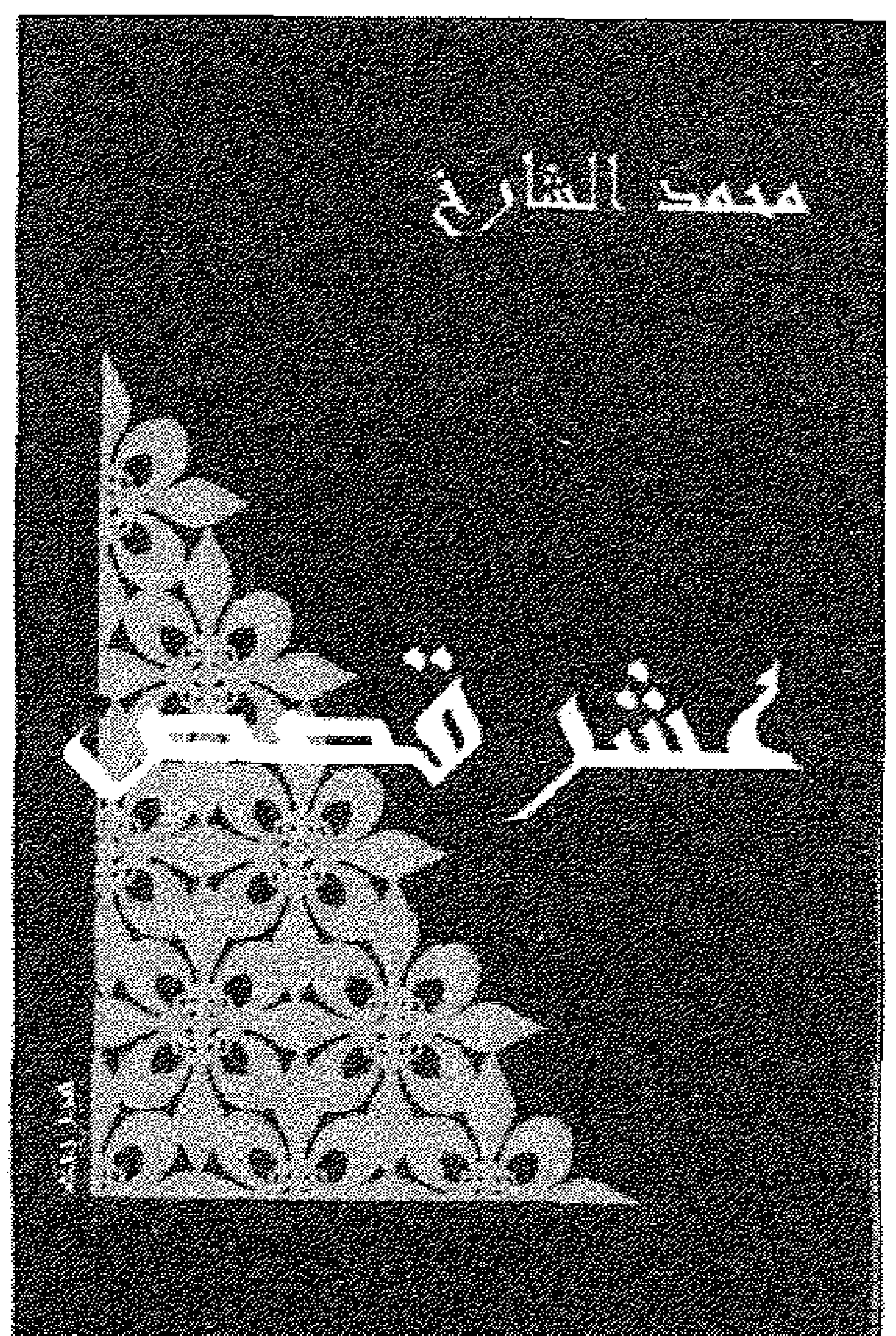
من الغزو إلى الترحال

هموم روائية

صبري حافظ

لم أفاجأ عندما تلقيت المجموعة القصصية الأولى (عشر قصص) للصديق محمد الشارخ، لأننى لازلت أذكر - رغم انصرام عدة عقود - الأثر المدهش الذى تركته قصته الأولى «قيس وليلى» التى نشرتها له مجلة (جاليرى ٦٨) فى أعدادها الأولى. فقد كان المثير فى هذه القصة بتناصها اللافت ونزعتها التهكمية الشفيفة أنها ليست كالقصص الكويتية الأخرى التى كانت تتسم بصبغة البدايات القلقة والمتعثرة وقتها، وإنما كانت أقرب إلى القصص العربية الناضجة التى كانت تكتب فى ستينيات القرن الماضى، وتنطوى على كثير من سمات مرحلة التحول الكبيرة فى طبيعة الخطاب السردى العربى آنذاك. ولشد ما أسفت، عندما توقف بعدها عن الكتابة، على خسارة الثقافة العربية لموهبته الباكرة، وخاصة القصة الكويتية التى لم ترق لسنوات طويلة من ممارساتها إلى مستوى الإنجاز السردى الذى حققه الشارخ بقصته الأولى تلك. ويبدو أنه كان عليها أن تنتظر عودته إلى الكتابة حتى ينهض بها من عثراتها التى ظلت تعانى منها لسنوات طويلة. ولم تقترب مما حققه فى تلك القصة الأولى الباكرة إلا بعد انصرام عدة عقود على نشرها. وكنت أشير إلى فداحة خسارة القصة الكويتية لموهبته فى أكثر من مجال، وأقارن ذلك بتلك الخسارة الجسيمة التى انتابت الرواية المصرية حينما كسر عادل كامل، كأخيل، حربته فى مطلع الشباب بعد روايته اللافتة (مليم الأكبر). أو خسارة القصة القصيرة فى مصر بتوقف زميل يوسف إدريس الموهوب محمد يسرى أحمد عن الكتابة فى أواخر الأربعينيات ومطالع الخمسينيات.

ومثل عادل كامل الذى حرص على صداقة الكتاب برغم نجاحه الكبير فى المحاماة، وثرائه منها، وظل عضوا بارزا فى جماعة الحرافيش حتى غادر مصر فى ثمانينيات القرن الماضى أو مطلع تسعينياته، ظل محمد الشارخ حريصا على أن يبقى قريبا من عالم الأدب والثقافة بالقراءة والمتابعة، وعلى الإبقاء على صلته الحميمة به من خلال علاقته الوثيقة بصديقنا المشترك، الراحل العزيز: إبراهيم منصور. ناهيك عن علاقاته المستمرة مع عدد لا بأس به من الكتاب والفنانين التشكيليين من أبناء جيله. وكما ترك عادل كامل الأدب إلى المحاماة فبرع فيها وكون ثروة لا بأس بها من خلالها، انصرف محمد الشارخ بعد فترة عمل فى البنك الدولى إلى تطوير أعماله فى مجالات تجارية متعددة، وإن كنت لا أعرف الكثير عن هذا الجانب فى حياته، فإننى أعلم أن قسما منها - وخاصة ذلك المتصل بالبرمجة الكومبيوترية التى حقق فيها فتوحات تجارية، وأسدى بها خدمات جليلة للمعلوماتية العربية - على علاقة وثيقة بالثقافة العربية ومستقبلها. فقد حرص الشارخ على تنمية مشروعه التجارى/الثقافى الكبير حرصه على ألا تنقطع شعرة معاوية التى تربطه بالأدب والثقافة. وأنا أعرف أن هذه الشعرة لم تنقطع أبدا بينه وبين الثقافة، فلايزال قارئا نهما لكل جديد فى الثقافتين العربية والغربية على السواء. وكلما التقيت به كان دائما يسأل عن الجديد والجيد فى الثقافة العربية، وكنت أكتشف أنه على علم بالكثير من انجازاتها، وله رأيه السديد فيها.



وبالرغم من توقف محمد الشارخ عن الكتابة لفترات طويلة، إلا أنه لم يهجرها كلية، بل كان يستسلم لمناوشاتها بين الحين والآخر، ويبعث لى كل فترة من الزمن بقصة جديدة كتبها. وكنت أتعامل مع هذه القصص الجديدة باعتبارها نوعا من الكفارة عن هجرته المبكرة للكتابة، وانصرافه عنها بالرغم من عشقه لها، فهى بالنسبة له كالحب الأول الذى لا يسلوه عنه أى حب سواه، مهما كانت عرامته أوعنفوانه. ولا أدل على تمكن هذا الحب منه من تلك المجموعة الأولى التى يصدرها الآن بعد انصرام عدة عقود على نشر قصته الباهرة الأولى. والواقع أن هذه المجموعة الجديدة تشكل علامة فارقة فى تاريخ القصة القصيرة فى الكويت. فبالرغم من متابعتى الواسعة للقصة العربية فإننى لم أقرأ لكاتب كويتى مجموعة تضاهيها من حيث خصوبة التجربة السردية، وثراء العالم، ورهافة التركيب، وغنى اللغة القصصية. فهى مثل قصته الأولى لا تنتمى إلى واقع التجربة السردية فى الكويت - وإن كانت بعض مفردات عالمها السردى طالعة من خصوصية الحياة فى هذه الإمارة الخليجية - وإنما إلى أفق القصة العربية الأرحب، وإلى تجربتها العربية الواسعة الأنضج، وشغفها المستمر بالتجريب فى البنية واللغة والأداة. فنحن هنا بإزاء كاتب متمكن يدرك أن للسرد مستويات متعددة من المعانى والدلالات، ويعرف أن للقصة حبكة درامية لابد أن تشد القارئ وتستحوذ عليه، وينسج تفاصيله السردية بدهاء ماكر ولغة سلسة شيقة، وأهم من هذا كله يصدر فى كتابته عن معرفة عميقة بمادته، وخبرة مستبصرة بما يقدم من شخصيات إنسانية يعريها لنا من خلال الحدث والموقف، وخاصة الشخصيات النسائية الخليجية التى برع فى تصويرها بطريقة جارحة العمق والصراحة.

وتتكون المجموعة من (عشر قصص) كما يقول عنوانها الذى اختار استخدام العدد ولم يشأ إيثار أحد العناوين على

عشر قصص
محمد الشارخ
القاهرة: دار ميريت - ٢٠٠٦

بقية العناوين - كما هو المعتاد - ليجعله عنوانا للمجموعة، ناهيك عن اختيار عنوان مغاير كلية لعناوين القصص. فإذا كان ثمة هنات فى هذه المجموعة فإنها تتصل عادة بعناوين القصص التى لم يحسن الكاتب اختيارها فى بعض الأحيان. لأن العنوان هو عتبة النص الأولى كما يقول جينيت. ولا يعنى هذا أن (عشر قصص) هو عنوان سهل أو عاطل عن الدلالات المتراكبة، ولكنه عنوان دال بما يبديه من تواضع ظاهرى يريد به الشارخ أن يؤكد عودته القوية للكتابة بهذا الرقم الدائرى الذى يختصر الأرقام كلها ويحتويها معا. هى عودة فيها شىء من الاستحياء إذ تقدم لنا مجرد «عشر قصص» لا مجموعة، ولكن فيها كذلك قدر من القوة، إن لم يكن الغرور بسبب طبيعة هذا العدد نفسها. والواقع أن عنوان المجموعة موفق من هذه الناحية، لأن أى عنوان آخر ربما صرف انتباه القارئ عن إدراك أنه بإزاء عمل ذى محاور متعددة تدور حولها قصصه العشر. أما ما عنيته بهنات العناوين فإنها تتجلى لنا منذ العنوان الأول للقصة الأولى «ابنى ليس ابنى» والتى كان الأوقع له أن يكون «ابنى» فحسب دون هذا الشرح الذى يستبق الكثير من الأحداث، ويفسد على القارئ وقع لحظة التنوير الأخيرة والدالة فى هذه القصة الجميلة التى تعد واحدة من أجمل ما قرأت عن تجربة الاحتلال العراقى للكويت. فهى وحدها أبلغ أثرا وأشد وقعا من مجموعة كويتية كاملة عن الموضوع مثل (طلقة فى وجه الشمال) لوليد الرجيب، بالرغم من أن بدايات الرجيب كانت من أكثر المحاولات الكويتية وعدا.

التجربة الكويتية

وقصة «ابنى ليس ابنى» هى مدخلنا للمجموعة كلها من ناحية، وللمحور الأول فيها من ناحية أخرى، وهو محور التجربة الكويتية بخصوصيتها وزخمها الفريد. وتبدأ القصة بمفاجأة الاحتلال العراقى للكويت صباح الخميس الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠. وكيف فاجأ هذا الحدث بطلها - أبو حمد أو حسن بن فلاح الفريجى - كما فاجأ غيره من الكويتيين، فقلبت خطط حياته رأسا على عقب. فبدلا من أن يستمتع بحياة التقاعد الرخية التى تتخللها رحلات صيد السمك التى حلم بها مع صديقه - عبد الوهاب المزنى مدير جمعية النزهة التعاونية - وبدلا من أن يفر من الكويت كما فعل أكثر الموسرين، بقى بها ليعيش بطريقته الفريدة هذه التجربة ويقاومها بأسلوبه الخاص. فهو لا يرى الحدث إلا بطريقته البسيطة «الذئب طمع بالشاة». ولذلك يقاومه بطريقة الشاة الضعيفة التى لا تملك إلا مراوغة الذئب. ويعيد الاحتلال أبو حمد إلى عمله الذى تقاعد منه بالجمعية التعاونية ليصبح مراقبا للبضائع ومسئولا عن «تسهيل حصول الضباط والجنود العراقيين على ما يحتاجون إليه من أكل وشرب، بثمن أو بدون ثمن ولكن دون مشاكل»(ص١٢). ومن خلال هذا العمل تتخلق صداقة بينه وبين الرائد مجبل عبد الواحد يبدأ فيها ومن خلالها اكتشاف حقيقة عدوه.

ويقدم لنا النص هذا الاكتشاف لا من خلال السرد أو تأملات الشخصية، وإنما من خلال التجسيد والحدث كى لا يصبح الأمر مجرد رأى يكونه أبوحمد لنفسه، وإنما تصوير سردى يتوجه للقارئ قبل الشخصية حتى تكتشف معه حقيقة الاحتلال وشخصية المحتل معا. وهذا التصوير برغم كشفه عن بشاعة الرائد مجبل الذى يقتل دون أن تطرف له عين، فإنه لا يعريه من إنسانيته، بل يكشف لنا عن التشوهات التى كونت هذا الجانب البشع فيه، والتى أنتجتها منظومتا القهر الاستبدادى والحرب الشرسة. لأنه ما أن تطحن رحى هذه الحرب أبوحمد، وتنال من ابنه حمد الذى قبضت عليه قوات الاحتلال ذات مساء بعدما احتدت المقاومة الكويتية للاحتلال، وأخذ أبو حمد يتعلل بأمل «يمكن كلاب الحراسة تأكل الذئب». حتى يسارع الرائد مجبل بمساعدته. ويرسله بتوصية استثنائية إلى زميل له فى البصرة هو مدير السجن الذى أخذوا إليه ابنه. ولما يذهب إليه يعطيه سجينا بالاسم المطلوب، حمد حسن، لكنه يكتشف أن هذا السجين ليس ابنه، وأنه مجرد تشابه فى الأسماء. وحينما يريد استبداله بابنه يثور عليه الضابط وينهره طالبا أن يأخذ هذا الولد الذى أفرج عنه وينصرف، فقد تلاعب بالسجلات من أجل الإفراج عنه. ويسقط فى يده، فالمفرج عنه لمرارة المفارقة ليس حتى كويتيا، وإنما عراقى من أبناء الفاو خالفت أسرته تعاليم التهجير فماتوا جميعا أثناء القصف عداه، ولايجد أبو حمد مناصا من أن يأخذه معه، وإلى بيته عوضا عن ابنه. فالحرب والقهر تجعل العراقى المقهور والكويتى المقهور صنوين، وتكشف عن الوحدة الأعمق بين أبناء الوطن العربى الواسع. ولا تكمن أهمية هذه القصة فى حبكتها المترعة بالمفارقات، وإنما فى التفاصيل الدقيقة التى نسجت عبرها آليات الاحتلال والقهر معا، وقدرتها على الكشف عن معادن البشر ووضعهم فى مواجهة الوحش فيهم من ناحية والإنسان الهش بهم من ناحية أخرى.

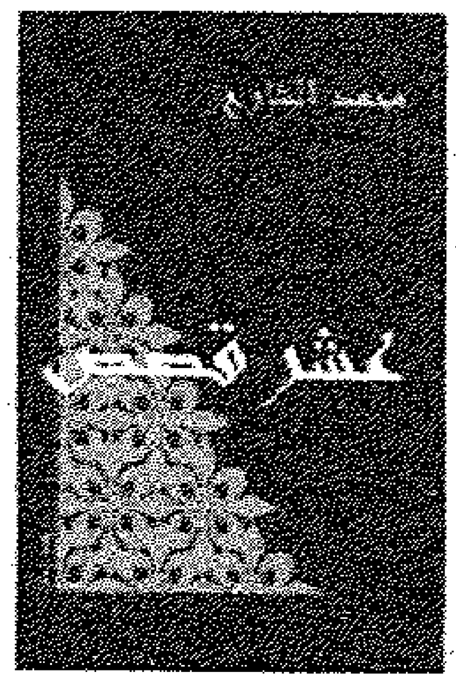
القصتان الباقيتان فى هذا المحور الكويتى هما «الحفلة» و«مزاح قاتل». وهما قصتان تعريان لنا المرأة الكويتية بصراحة جارحة، حيث تكشفان عن الكيفية التى تفت بها آليات الثراء الباذخ فى نفس المرأة وفى إنسانيتها فتشوهها من الخارج والداخل على السواء. أولاهما «الحفلة» تقدم لنا تنويعا كويتيا على حبكة الفيلم الشهير (عرض بذىء Indecent Proposal) من خلال حفل تتشكل عبره لغة سيميائية كاملة من التفاصيل الدقيقة الكاشفة عن حركية عالم النساء فى هذا المجتمع، أو بالأحرى الشريحة التى تعيش فى بحبوحة من العيش الباذخ المترف فيه. وهو حفل ينطوى وصف القصة له على تفاصيل تلك اللغة الإشارية/ السيميائية التى تتبلور عبرها صور العلاقات، ونوعية التراتبات الاجتماعية والأخلاقية. وطبيعة القيم التى تنطوى عليها هذه الشريحة الاجتماعية المتميزة. فسارة صديقة لولو صاحبة الحفلة لها طائرة خاصة ستأخذهما غدا لمشاهدة عرض

> **القصة مترعة بأسماء الأكلات، وماركات الملبوسات، وأنواع المجوهرات، وأماكن الحفلات والعروض الباذخة التى يتردد عليها أبناء هذه الشريحة لاجتماعية المترفة بصورة تشى بمعرفة الكاتب الدقيقة بتفاصيل التجربة التى يكتب عنها**

أزياء الخريف فى ميلانو. وصديقها السابق، «بشارة»، الذى أقيمت الحفلة على شرفه فى زيارته للمدينة بعد غيبة عشر سنوات، وكان يود الزواج بها قبل سفره، قد «تبلين» أى أصبح بليونيرا كما تقول ميريام الثرثارة التى تبدد بشقشقاتها ملل النسوة المترفات. وقد عاد فى زيارة قصيرة للبلاد طلب فيها من أسعد - الذى كان صديقه الصدوق - أن يعد له حفلة يدعو لها كل أصدقائه. أما زوجها أسعد - الذى خطفها من بشارة - فهو الآخر ثرى فادح الثراء تنطوى قائمة الطعام فى حفلته على الأرنب الكولومبى وسلطة الباذنجان الأوزبكية والبريانى البنجابى والسوشى اليابانى وغير ذلك من أطعمة السراة.

فالقصة مترعة بأسماء الأكلات، وماركات الملبوسات، وأنواع المجوهرات، وأماكن الحفلات والعروض الباذخة التى يتردد عليها أبناء هذه الشريحة الاجتماعية المترفة بصورة تشى بمعرفة الكاتب الدقيقة بتفاصيل التجربة التى يكتب عنها، وتعضد مصداقيتها. ويعود بشارة بعد تلك الغيبة الطويلة ليؤكد للولو أنه لم ينسها، ولم ينس وعدهما بالزواج، ولذلك لم يتزوج حتى الآن. ويخبرها أنه لم يجلب لها هدية من الماس حتى لا يشعر بذلك أسعد، «هديتك شيك، شيك بخمسة ملايين دولار تشترين بها ما تشائين من الماس. كدت أنهار. دخل على من نقطة ضعفى»(ص٤١)، على أن تأتى إلى حجرته فى الفندق لمدة ساعة واحدة يقضى فيها وطره منها. ولما تتردد فى قبول الشيك، «المبلغ مغر. أين أضع الشيك وأسعد يعرف كل حساباتى»(ص٣٤) تشجعها صديقتها سارة على قبوله. وتبدأ فى التفكير فيما ستشتريه به من الماس من عند هارى وينستون أو من عند شانيل. صحيح أن القصة، إرهافا منها للحبكة، تجعل لولو تستنكره بلسانها وحده «ماذا يظن بى متزوجة وفاتحة فخذيها»، وهى بالفعل فاتحة فخذيها ولكنها تختار- فنحن نعرف أنه قد سبق لها، وبمعرفة سارة أيضا وتدبيرها، أن خانت زوجها من قبل مع بيير الملحق الإعلامى فى السفارة الفرنسية، عندما أمضت معه يومين فى ميلانو وبمباركة من سارة التى تفوق تدابيرها حنكة أى قوادة محترفة. فلماذا لا تخونه مرة أخرى مع بشارة والثمن مغر. فتطلب منه الشيك، ويكتبه لها على عجل، ويسلمه لها «شد على يدى، غدا فى التاسعة صباحا، وابتسم: أنا لست عطيل أموت غيرة. أنا بشارة أغار وأقطف»(ص٤٢). وكأى محترفة مدربة تخفى الشيك فى صدرها وتتوجه مباشرة للحمام للتأكد مما فيه، فتكتشف أنه شيك بخمسة آلاف، وليس بخمسة ملايين دولار. ولما تخبره أن الشيك به خطأ يتساءل باسما: لماذا؟ لا يوجد غلط «لا بأس الليلة اتفقنا على المبدأ، وغدا يالولو نتفاهم على الثمن»(ص٤٣).

بهذه النهاية المفتوحة يترك الشارخ قارئه وهو لا يشك فى أنها ستفى بموعدها معه، ولكنه لا يقفل النهاية فلعل كرامتها تثور، أو لعلها ترفض وقاحته وثقته الصلفة بنفسه فلا تذهب له، وقد تأكد لها أنه سيساوم على كل دولار. فالشارخ مولع بالنهايات المفتوحة التى ترهف من فاعلية السرد وتثير عقل القارئ معا. فقصة «مزاح قاتل» التى تجسد لنا صورة أخرى جارحة الصراحة للمرأة الكويتية ـ من خلال تصويرها لخزنة المغناج اللعوب التى تستهلك الأزواج كما تستهلك الملابس والمكياجات الفجة الفاقعة ـ تنتهى هى الأخرى بنهاية شبه مفتوحة، فلا نعرف إذا ما كنت مزحتها



ستقضى بالفعل على سلفتها نعيمة، أم أنها مجرد نوبة سكر قد تفيق منها دونما مشاكل. صحيح أن العنوان «مزاح قاتل» يقفل هذه النهاية المفتوحة إلى حد ما، وهذا يشير إلى ما عنيته من هنات العناوين، لكن المهم فى هذه القصة البارعة هى ما تنطوى عليه من مقابلة بين نمطين مختلفين بل متضادين هما خزنة ونعيمة، تنتمى أولاهما إلى نوع لولو وسارة من الكائنات التى شوهتها الثقافة الاستهلاكية، بينما تجسد لنا الثانية نوعا آخر لايزال حريصا على القيم التقليدية والمواضعات الأخلاقية. لأن صراحة الشارخ الجارحة فى تناول شخصياته النسائية تلك ليست من نوع العداء للمرأة، بقدر ما هى من نوع صراحة الفن الناصعة عندما يتغلغل تحت السطح ويعرى الشخصيات أمام القارئ دونما مساومة. لأن تعرية «الحفلة» لشخصياتها النسائية، وخاصة لولو وسارة، أو تعرية «مزاح قاتل» لشخصية خزنة لا يقل حدة عن تعرية القصة الأولى لكل من شخصيتى بشارة وأسعد، أو عن تناول القصة الثانية لشخصيات الرجال ـ السوسى وفتوح وعبدالله وحتى العم عثمان الذى يبدو أنه يمضى بنفسه لحتفه وسيكون الزوج التالى ـ الذين تزوجتهم خزنة، وامتصت رحيقهم أو أجهزت عليهم الواحد تلو الآخر كما تفعل ملكة النحل. ففى خزنة الكثير من أنانية ملكة النحل وثقتها الفجة بنفسها، حيث تبدو فى القصة وكأنها من تجليات الطبيعة القاسية التى لا راد لها، يسير الرجال منومين إلى فخاخها، وكلما اشتد التحذير كلما تنامت حدة الغواية.

من السفر إلى الترحال

صراحة الشارخ الجارحة فى تناول شخصياته النسائية تلك ليست من نوع العداء للمرأة، بقدر ما هى نوعا من صراحة الفن الناصعة عندما يتغلغل تحت السطح ويعرى الشخصيات أمام القارئ دونما مساومة

الهم العربى العام

أما المحور الثانى فى هذه المجموعة القصصية فهو ما أود تسميته بمحور الهم العربى العام. ويضم هذا المحور ثلاث قصص هى «ديرة بطيخ» و«قانا» و«بيبسى»، توشك أولاها أن تكون أمثولة رمزية Allegory لما يدور فى العالم العربى الراكد والمترع فى الوقت نفسه بالفساد والإحن والصراعات الصغيرة. بينما تردنا ثالثتها «بيبسى» إلى تناقضات التجربة الاشتراكية فى عدن وعالم رواية صنع الله إبراهيم الجميلة (وردة). وتكشف لنا «ديرة بطيخ» عن مدى الكلبية التى تتغلغل فى كل ثنايا الحياة العربية فى أعلى شرائحها وأقربها من دوائر السلطة وصناعة القرار. بينما تعرى لنا «بيبسى» آليات التسلط والاستبداد وهى تتخلق تحت جلد الحلم العربى بالاشتراكية والتقدم والتغيير. أما درة العقد أو درة هذا المحور كله فهى قصة «قانا» التى كتبت عن تداعيات مجزرة قانا الأولى، وهاأنا أعيد قراءتها وأكتب عنها قبل أن تجف الدماء عن مجزرة قانا الثانية فأجد أن كل نبوءات هذه القصة الشعرية الشفيفة قد تحققت برمتها وكأن الواقع يبرهن على حدوس الفن واستبصاراته. فبطلها نبيل أحمد الشاب الوسيم المعروف فى المدرسة والحى بـ«توم كروز» يعيش ما يمكن دعوته بعقابيل المجزرة الصهيونية الوحشية الأولى على قانا قبل عشر سنوات، وينضج وعيه وتتبلور رؤاه نتيجة لما عاشه فيها. وهو من مراهقى الجيل الذى لم يعرف غير الممارسات البربرية الوحشية الصهيونية التى تنتهك أمنه اليومى، بينما تكتفى الأنظمة العربية الخانعة بالشجب والإدانة الشفهية. مات أبواه وأخته نجلاء معهما فى الغارة على كنيسة الأمم المتحدة. وشطرت إحدى قنابل المحتل الصهيونى لفلسطين العمارة التى تقع فيها شقتهم إلى نصفين، دمر أحدهما وبقى الثانى عالقا فى الهواء، ومعه نبيل أحمد وجدته العجوز مريم، الوحيدة التى بقيت من أسرته. وهاهى الكهرباء تنقطع عن النصف الباقى ليلة الامتحان كى تحرمه من التفوق الذى اعتاده. وهاهو صبيحة يوم الامتحان يدور فى الحى، بعدما غاب خليل صديقه وابن عمه عماد ولم يعودا من وادى المقاومة قبل أسبوعين. بينما يطلبه قريبه العميد محسن ليبشره بأنه حصل له على منحة من مؤسسة الحريرى للدراسة بكندا، تكفيرا عن إحساس منه بالذنب تجاه عائلته، ومواصلة منه لدور المؤسسة الخانعة والفاسدة فى شراء الذمم.

وهاهى عجوز الحى المجنونة ـ رمز الموت والزمن المعتوه ـ برائحتها النتنة تحوم حوله وتلتصق به، فيردها عنه، وينزع منها عصاها ويهوى بها على جسدها، فتموت. وتقبض عليه الشرطة، وتعيده إلى العميد محسن كى يحقق بنفسه معه. لكن العميد الذى دبر له قبل أن يحدث شيء من هذا منحة يريده أن يذهب بها إلى كندا أو ألمانيا قائلا له: «ادرس الكيمياء، أصنع متفجرات تحمى بها أبناءك وأبناء أبنائك. نحن لم نقصر. أبوك لم يقصر.... لا تذهب مع المقاومين، لا تفهمنى خطأ. ضحينا نحن كثيرا. مئات غيرك سيضحون بأنفسهم»(ص١٠٥). لكن نبيل لا يفهم هذا المنطق الأعوج، منطق المؤسسة الخائرة التى طالما مرغت شرف العرب فى الوحل والهوان. فيوقعه نبيل أرضا وينهال بمطرقته على نظارته ثم على وجهه وأسنانه حتى يجهز عليه وينطلق بسنواته الغضة وعنفوان رفضه للموت والهوان إلى المقاومة. فنبيل فى هذه القصة الشعرية الجميلة هو رمز المقاومة التى أعادت للعرب كرامتهم فى لبنان فى الشهر الماضى، وزعزعت بصمودها كل الركائز الهشة التى تستند عليها الأنظمة العربية الفاقدة للشرعية. فهو ابن الجيل الذى أزاح عن نفسه الموت بقوة حينما ضرب العجوز الخرفة بعصاها حتى أردها قتيلة، ثم انهال بعدها على المؤسسة الفاسدة المهلهلة التى يمثلها العميد محسن، والتى حاولت أن تشترى برشاواها استكانته وخنوعه، فأبى. ولم يتوقف إلا بعدما أجهز عليه هو الآخر. لذلك كان تحرره من الموت الذى مثلته العجوز، والعجز التبريرى بكل غواياته الصغيرة الذى يمثله العميد محسن هو المقدمة لانطلاقته المقاومة التى تحققت بها أولى الانتصارات العربية بعد زمن طويل من الانكسارات والنكسات والهزائم، وتبددت بصمودها أسطورة الوهم الصهيونى التى كرسها عجز الأنظمة العربية وعمالتها قبل قوة دولة الاحتلال الصهيونى المدعومة بالغطرسة الأمريكية الجائرة.

مفارقات الحياة الدالة

أما المحور الثالث فهو محور مفارقات الحياة الدالة والذى تدور حولها قصص «وليمة إبراهيم منصور» و«الحسناء» و«زياد غالب وابنه تيمور». وترتبط قصص هذا المحور بالترحال لأن الرحلة عادة أداة الانفتاح على الحياة بمفارقاتها المؤلمة والمدهشة معا. ففى القصة الأولى والتى تعد مرثية جميلة لصديقنا الراحل

إبراهيم منصور، والذى يلعب دورا أساسيا فى القصة الثانية كذلك، نجد أنفسنا فى رحلة فى غابات أفريقيا المفتوحة تردنا إلى رحلات همنجواى الشهيرة فى قلب القارة العذراء. وهى رحلة تكشف لنا عن أبعاد المقولة النيتشوية الشهيرة التى تقول بأن مواجهة الخطر ترهف الإحساس بالحياة وتعزز الوعى بها. والخطر هنا هو خطر الطبيعة بجبروتها العاتى الذى يستعذب السرد ذلك المتلقى فى قبضة نهاياته المفتوحة كى يعيش هو الآخر وقع هذا الخطر الجبار. لكن القصة تكشف لنا أيضا عن مدى وثاقة العلاقة بين المؤلف وإبراهيم منصور الصديق المترع بالحياة والحيوية معا. فصحبة إبراهيم منصور لم تكن تملأ حياته الرفقة والصحبة فحسب، ولكنها كانت تضخ فيها الصخب والحيوية، فتملأها بالحياة. وهذا أيضا ما نجده فى قصة «الحسناء» التى يلعب فيها إبراهيم منصور دورا أساسيا هو الآخر. وتوشك هذه القصة أن تكون تجسيدا عصريا للأسطورة الإغريقية الشهيرة عن ربة الحظ ذات الشعر الذهبى الطويل التى تمر على الإنسان مرة، فتدغدغ شلالات شعرها الحريرى وجهه، فإن لم يقبض على جدائل شعرها الباذخ فى تلك اللحظة المواتية، فقد الفرصة للأبد. فهى كما تقول الأسطورة لا تعود مرة ثانية أبدا. هذا ما تقدمه لنا هذه القصة بحسنائها التى دقت الباب على الراوى وقد جاءته كربة الحظ لتمنحه نفسها، ولكنه لا يقتنص الفرصة، وما أن يفيق من صدمة الفقد حتى يذهب لمطاردتها والبحث عنها، ولكن هيهات. فالأسطورة علمتنا أنك لو ضيعت الفرصة مرة، فقد ضيعتها للأبد. ولا تكتفى القصة بهذا البعد الأسطورى، ولكنها تربطه ـ فى صخب حيوية إبراهيم منصور ـ باكتشاف المدينة، المدينة بالمطلق من ناحية، ومدينة نيويورك فى سعيها لتلخيص هذا المطلق الحضرى من ناحية أخرى.

أما آخر قصص هذا المحور «زياد غالب وابنه تيمور» فإن المفارقة فيها من نوع مغاير تماما. يرتد بنا إلى المحور السابق من حيث الانشغال بالهم العربى العام، لأنها تناوش مدى تجذر الاختلاف بين منطق الحضارة الغربية العقلى الصارم، والذى يجسده الدكتور زياد غالب بثقافته الألمانية الصارمة ـ فالثقافة الألمانية بلوثريتها الصارمة هى ذروة العقلانية الغربية ـ ومنطق الحضارة العربية الانفعالى الذى يمثله ابنه وصديقه ياسين بمزاحهما الصبيانى. فالحبكة الظاهرية فى هذه القصة والتى تتسم بشىء من التهكم الشفيف والدعابة ليست إلا السطح الخادع الذى تسرى تحته المفارقة الحضارية العميقة التى تتناول الأدواء المتراكبة التى تعانى منها حضارتنا العربية بما أخذته من قشور التحديث التى حالت دون فهمها للب العملية التحديثية الغربية وجوهرها. لذلك تجىء النهاية المنطقية الصارمة كصفعة فى وجه الابن وصديقه ياسين علهما يفيقان من سمادير هذرهما السخيف.

ولا يبقى بعد هذه المحاور الثلاثة إلا قصة واحدة هى «رائحة الباقلاء» التى أعتبرها اضعف قصص المجموعة سردا وحبكة على السواء، برغم ما فيها من نزعة تهكم من الذات أفسدتها لغتها السردية غير الموفقة تستخدم فى الوصف عبارات مثل «شاب عفن تجلس أمامه أمه النذلة تلوك علكا طوال الليل»(ص١٧١) أو «وأنا مثل كل الباذخين المبذرين المتحطين الذين تعودوا النوم بغرفة خاصة»(ص١٧٧) أو «وأنا مثل كل السفلة المترفين المبذرين الذين تعودوا أكل اللحم متى شاءوا لم استطع أن أتعشى بطا مطبوخا»(١٧٩) أليس البط المطبوخ لحما. وقد يتغاضى القارئ عن المثلين الأخيرين بدعوى التهكم من الذات، لكن احكام القيمة الصارمة فى وصف الشاب بالعفن وأمه بالنذلة ليست من طبيعة اللغة السردية الناضجة التى تكشف للقارئ عفنه وتجسده أمام القارئ حتى يصل القارئ بنفسه إلى نتيجة أنه عفن يطلق مع أمه طوال الليل روائح كريهة من مؤخرته. لكن هذه القصة هى الاستثناء فى هذه المجموعة التى تشكل علامة فارقة فى مسار القصة العربية فى الكويت. لأن ما يضفى على قصص محمد الشارخ قيمة سردية خاصة فيها هو أن حبكاتها الظاهرية تخفى تحت سطحها مستويات عديدة من الدلالات والخبرات التى تسعى لسبر أغوار النفس البشرية والتعرف على نزعاتها الدفينة. ومن هنا فيه قصص مفتوحة لأكثر من قراءة ليست هذه إلا واحدة منها. ■

كتاب الزاوية

ضيق الفطن

محمد الغزالى

ماذا يحدث عندما يجىء دعاة مسلمون ينتمون إلى السلف ويؤلفون كتبًا تزعم أن فى القرآن نيفا وأربعين آية تقرر جمود الأرض فى موقعها ودوران الشمس حولها.. وهو زعم كاذب لا ينطوى إلا على خليط من الجهالة والكبر! وهو فى هذا العصر فتنة عن الإسلام، وإساءة بالغة لكتابه الأول!!

لو أن بدويًا اعتنق هذا الفكر فليعش أو ليمت به إن شاء!

أما أن يقول باسم الإسلام كلامًا يخالف أبجديات العلم الحديث وحقائقه المستقرة، فمعنى ذلك أنه يفتن العلماء عن الحق، ويجعل جمهرتهم تحس هذا الدين بقية من خرافات القرون المتأخرة. ومن ثم فإن تدريس الفيزياء والكيمياء والأحياء والجغرافيا وبعض الأوليات فى الجيولوجيا والفلك أمر يحتاج إليه المشتغلون بالدعوة حتى لا يصعد مجنون منبرًا ويكذب باسم الإسلام وصول الأمريكيين إلى القمر!

ونصل إلى الحركة السلفية التى قادها فى القرن الماضى محمد بن عبدالوهاب، إن كل غيرة على التوحيد مشكورة، وكل جهد لتنقية العقائد من الشوائب والأقذاء مقدور!

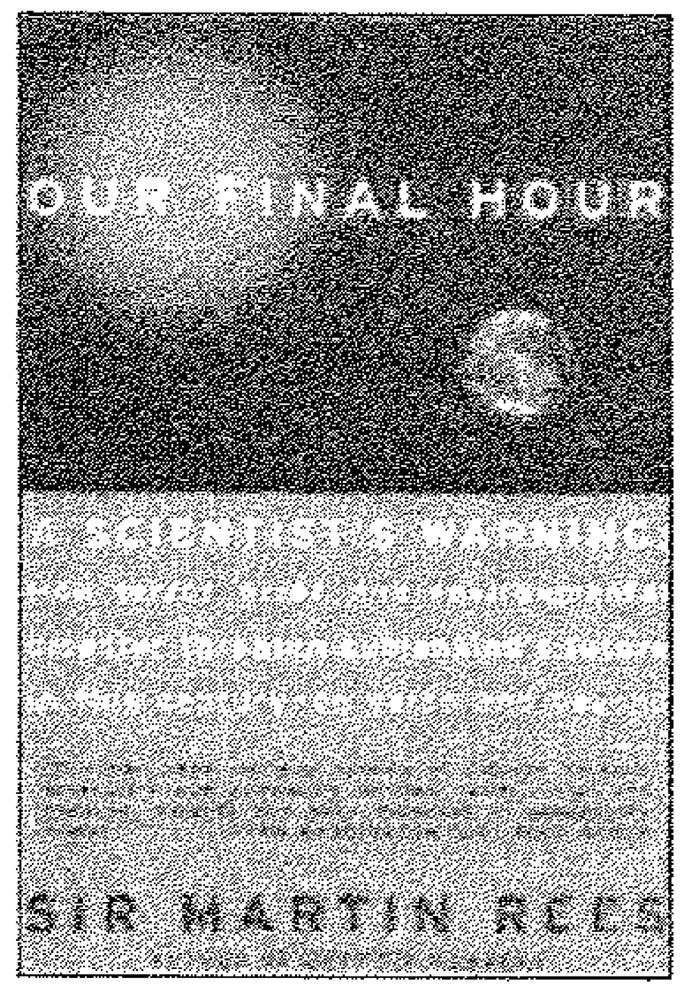
وما أعرف مسلمًا ذا عقل يخاصم هذه الحقائق أو يعترض أصحابها! ولو رزق محمد بن عبدالوهاب أتباعًا ذوى حكمة وبصيرة لكانت الأقطار التى انفتحت له أضعاف مساحتها الآن.

إن الدعاة المصابين بضيق الفطن، واصطياد التهم، وشهوة الغلب يضرون أكثر مما ينفعون.

ساعتنا الأخيرة

مارتن ريز





ت: مصطفى إبراهيم فهمى

فصل من كتاب:
ساعتنا الأخيرة
مارتن ريز
ترجمة: د. مصطفى إبراهيم فهمى
القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٦

Our Final Hour
Sir Martin Rees
basic books - 2004

■ يصف إ. أو. ويلسون فى كتابه «مستقبل الحياة» مشهدا فيه صورة تلقى الضوء على الهشاشة المعقدة التى فى «الأرض سفينة الفضاء»: «مجمل الحياة، الذى يعرف عند العلماء بالمحيط الحيوى ويعرف عند اللاهوتيين بالتكوين، هو غشاء رقيق من الكائنات الحية ملفوف حول كوكب الأرض ويبلغ من رقته أنه لا يمكن رؤية سمك لحرفه من مكوك فضاء، ولكنه بالغ التعقيد داخليا بحيث إن معظم الأنواع التى تكونه ظلت دون اكتشافها».

تسبب البشر فى استنزاف تنوع الحياة النباتية والحيوانية على الأرض. من الطبيعى أن تكون الانقراضات أمرا متأصلا فى التطور والانتخاب الطبيعى: الأنواع التى لا تزال باقية على الأرض حاليا هى أقل من ١٠ فى المائة من كل الأنواع التى سبق مطلقا أن سبحت أو زحفت أو طارت. حدث تسلسل خارق للمعتاد للأنواع (التى تكاد كلها أن تكون قد انقرضت الآن) اتبع فيه المسار المتخبط للطريق الذى قطعه الانتخاب الطبيعى ليؤدى من الكائنات الوحيدة الخلية إلى محيطنا الحيوى الحالى. ظلت الكائنات «الدقيقة» البدائية لما يزيد عن بليون سنة وهى تزفر الأوكسجين، لتغير الجو السام (لنا) فى كوكب الأرض الصغير السن بحيث تخلى الطريق لأشكال الحياة المعقدة ذات الخلايا المتعددة - القادمون الجدد نسبيا - وتخليه لنظهر نحن فى النهاية.

يتطلب الأمر وثبة مفعمة بالخيال حتى نستوعب آماد الزمان الجيولوجية، ومدى طولها الهائل عندما تقارن بتاريخ أشباه البشر، وهذا بدوره أطول كثيرا من التاريخ المسجل للبشر. ونحن نعرف من الحفريات أنه كانت هناك وفرة من أشياء تسبح وتزحف قد تطورت أثناء العصر الكمبرى[1] منذ ٥٥٠ مليون سنة بما أدى إلى تنوع هائل فى الأنواع. وشهدت المائتا مليون سنة التالية اخضرار كوكب الأرض، ليقدم الموطن البيئى لكائنات غريبة: يعاسيب ضخمة مثل نورس البحر، وديدان ألفية الأرجل يبلغ طولها الياردة، وعقارب عملاقة ووحوش بحرية تشبه الحيتان. ثم أتت الديناصورات. وأدى موتها المفاجئ منذ ٦٥ مليون سنة إلى فتح الطريق للثدييات، حتى انبثقت القردة العليا ونحن أنفسنا. يظل النوع باقيا لملايين السنين؛ وحتى تفجرات الانتخاب الطبيعى التى لها أقصى سرعة تستغرق عموما آلافا من الأجيال حتى تغير مظهر أى نوع. (على أن الأحداث الكارثية تستطيع بالطبع أن تحدث تغيرات عنيفة فى عشائر الحيوان؛ وكمثل فإن الاصطدام بكويكب يمكن أن يقدح الزناد لانقراضات مفاجئة).

الانقراض السادس

تكشف السجلات الجيولوجية عن خمسة انقراضات عظيمة. وأكبرها كلها حدث فى فترة الانتقال بين العصر البرمى والثلاثى منذ ما يقرب من ٢٥٠ مليون سنة؛ وثانيها كبرا وقع منذ ٦٥ مليون سنة وأباد الديناصورات. إلا أن أفراد البشر يرتكبون الآن ما يؤدى إلى «انقراض سادس» له المقياس نفسه مثل الأحداث السابقة. تنقرض الأنواع الآن بمعدل يزيد بمائة مثل أو حتى بألف مثل للمعدل الطبيعى. قبل أن يصل «الهوموسابينز» (الإنسان العاقل) إلى المشهد، كان المعدل يقرب من انقراض نوع واحد فى المليون سنويا؛ أصبح المعدل الآن أقرب إلى أن يكون نوعا واحدا فى الألف. وبعض الأنواع تستأصل مباشرة؛ إلا أن معظم الانقراضات تكون نتاجا لما يحدثه الإنسان عن غير قصد من تغيير فى الموطن البيئى، أو لإدخال أنواع غير محلية فى منظومة ايكولوجية.

يحدث الآن تآكل للتنوع الحيوى. تثير الانقراضات الأسى ليس فحسب لأسباب جمالية وعاطفية، فهذه مواقف تتولد فى مبالغة عن طريق ما يزعم أنه الفقريات الفاتنة، أو الأقلية الضئيلة من الأنواع التى لها ريش أو فراء، أو الأنواع الأقيانوسية المهيبة. وانما السبب هو أننا على أقصى المستويات النفعية تدمر التباين الوراثى الذى قد تثبت فائدته لنا. وكما يقول روبرت ماى، «نحن نحرق الكتب قبل أن نتعلم قراءتها». بل إن معظم الأنواع لم يحدث حتى أن صنفت فى الكتالوج. طرح جريجورى بنفورد مشروع «مكتبة للحياة» للقيام بجهد عاجل لجمع وتجميد وتخزين عينة من مجموع الحياة بأكملها فى غابة استوائية مطيرة، وذلك ليس كبديل لإجراءات الحفاظ على البيئة، وإنما « كبوليصة تأمين».

يتزايد أبدا مع أوجه التقدم البيوتكنولوجى ما يحدث من تهديدات للمحيط الحيوى. وكمثل، فإن سمك السلمون فى مزارع السمك، يعدل وراثيا لينمو بأسرع وأكبر، ويستطيع هذا السمك المعدل لوهرب إلى البرية أن يتغلب فى منافسته للأنواع الطبيعية. وأسوأ كل شىء أن هناك أمراضا جديدة، يتم اطلاقها دون انتباه، ويمكنها ان تدمر الأنواع. وفوق كل هذا، فإن ما يحدث هكذا من تهديد وشيك بنقص الثروات الطبيعية يتضمن إخفاقنا فى إدارة شئون كوكبنا.

على أن التوق إلى عالم «طبيعى» بلا تلف أمر ساذج. البيئة التى يعتز بها الكثيرون منا ويشعرون بأقصى تناغم معها - وهى فى حالتى بيئة الريف الإنجليزى - هى كلها تخليق اصطناعى، نتاج قرون من رعاية زراعية مكثفة، يثريها الكثير من النباتات والأشجار غير المحلية



التى يدخلها المزارعون والبستانيون. بل وحتى المشهد الطبيعى «للغرب القديم» فى أمريكا الشمالية لهو أبعد من أن يكون طبيعيا. وقد ظل الهنود يغيرون من أرض المنطقة قبل الغزوات الأولى من أوروبا: استمرت مزاولة مبدأ «القطع والحرق» لألف سنة على الأقل، مما جعل الريف مكشوفا بأكثر وبغابات أقل مما فى حالته الأصلية. أما فى القرن العشرين فقد حدث للأرض تحول أشد عنفا.

التوقعات السكانية

يعتمد تأثير البشرية فى الأرض فى المدى الطويل على عاملين معا هما السكان وأسلوب الحياة. نشرت إحدى جماعات الحفاظ على البيئة، واسمها «دابليو دابليو إف[٢]»، تقديرات لمساحة الأرض، أو «طبعة القدم» اللازمة لإعاشة الفرد الواحد: وهى تستنتج أن المساحة المطلوبة لإعاشة سكان العالم بأسلوب الحياة ونمط الاستهلاك الذى تتنبأ به الجماعة بالنسبة لعام ٢٠٥٠، ستكون مساحة تساوى تقريبا «ثلاثة كواكب». وهذا الحساب بالذات خلافى، وربما يكون فيه بعض اتجاهات متحيزة: وكمثل، فإن «طبعة القدم» تشمل مساحة الغابات اللازمة لامتصاص ثانى أكسيد الكربون المنبعث من استخدام كل فرد للطاقة، دون إدخال أى حساب للتحول إلى الموارد المتجددة للطاقة، ولا للرأى القوى بأن الزيادة المتواضعة فى مستويات ثانى أكسيد الكربون هى مما يمكن تحمله. ومع ذلك فإن من الواضح أن العالم لن يتمكن من الاستمرار فى إعاشة كل سكانه بالأسلوب الحالى للطبقة المتوسطة من الأوروبيين والأمريكيين الشماليين.

وعند الطرف الأقصى الآخر، فإن عدد سكان يبلغ العشرة بلايين يمكن إعاشته إعاشة كاملة لو ان كل فرد سكن فى شقق بالغة الصغر، ربما بما يشبه «فنادق الكبسولات» التى توجد بالفعل فى طوكيو، وعاش على طعام نباتى أساسه الأرز، وجعلت له شبكات الكترونية، وقلت تنقلاته، ووجد وسائل استجمامه وتحققه فى الواقع الخائلى بدلا من النزعة الاستهلاكية والانتقال المستمر مما يفضل الآن فى الغرب المسرف. سيكون هذا الأسلوب من الحياة مقتصدا فى طلبه على الطاقة والموارد الطبيعية. على أنه ليس من اللازم ان يكون هذا غير متوافق مع التقدم الثقافى والتكنيكى: والواقع أن المحركين الأكثر شدة فى النمو الاقتصادى الحالى - التصغير المنمنم وتكنولوجيا المعلومات - هما محركان حميدان بيئيا.

حتى يستمر السكان فى حالة مستقرة، ينبغى أن تنجب كل امرأة فى المتوسط ٢.١ من الأطفال (الواحد من العشرة الإضافى يضع فى الحسبان الأطفال الذين لا يصلون قط لسن الإنجاب). ومعدلات الخصوبة فى الكثير من البلاد المتقدمة أقل من ذلك كثيرا. ولعل مما يثير الدهشة أن ايطاليا الكاثوليكية لديها أقل المعدلات كلها - أى معدل من ١.٢ ولادة لكل امرأة. ويكاد يماثلها انخفاضا اليونان وأسبانيا ومعها روسيا وأرمينيا.

هذا الانخفاض المتطرف فى حجم الأسرة ليس ظاهرة أوروبية فحسب. يوجد الآن أكثر من ستين بلدا حيث معدل الخصوبة أقل من مستوى الإحلال. ولا تقتصر هذه البلاد على الصين التى ظل فيها لزمن طويل ضغط سياسى ملح للإبقاء على «عائلات الطفل الواحد»، وإنما تتضمن هذه البلاد أيضا بلاداً أخرى آسيوية مثل اليابان وكوريا وتايلاند حيث لا توجد فيها أى ضغوط من هذا النوع. كما أن هناك انخفاضات متطرفة فى بلاد أخرى. وكمثل، على الرغم من سياسة الكنيسة الكاثوليكية المعادية لموانع الحمل، إلا أن معدل الخصوبة فى البرازيل قد انخفض إلى النصف فى عشرين سنة، وهو الآن ٢.٣. وفى إيران أبدى الملالى الحاكمون فى تسعينيات القرن العشرين عداء صريحا لجدول أعمال الأمم المتحدة لتحديد النمو السكانى، ومع ذلك فإن النساء هناك اتخذن قرارهن بخياراتهن الخاصة، وانخفض معدل الخصوبة من ٥,٥ فى ١٩٨٨ إلى ٢,٢ حاليا.

على الرغم من انخفاض معدل المواليد، إلا أن عدد سكان أوروبا مازال يزيد، وسبب ذلك فى جزء منه هو أن أطفال «الانفجار السكانى» أصبحوا الآن فى سن الحمل، والسبب أيضا هو الهجرة وتحسن السن المتوقع للحياة. أدت أوجه التقدم الطبى وإجراءات الصحة العامة إلى إطالة العمر المتوقع مع الامتلاء بالعافية فى كل أنحاء العالم فيما عدا أشد الأجزاء حرمانا.

مالم تتدخل كارثة فى الأمر، فإنه يبدو أن من المحتم أن يستمر عدد سكان العالم فى التزايد حتى ٢٠٥٠، ليصل وقتها إلى الثمانية بلايين. ينتج هذا التوقع عن حقيقة أن توزيع الأعمار الحالى فى الدول النامية فيه انحراف حاد تجاه العمر الأصغر، وبالتالى سوف يستمر التزايد حتى ولو كان عند هذه الشعوب مستوى أقل من مستوى إحلال الأطفال. هذا التزايد، مصحوبا بالنزعة إلى الحياة فى المدينة، سيؤدى إلى أن تنشأ على الأقل عشرون «مدينة ضخمة» يزيد عدد السكان فيها على العشرين مليوناً.

هناك انخفاض سريع مذهل فى الخصوبة ينبع مما يحدث من تمكين للنساء، وقد أدى هذا لأن تقلل الأمم المتحدة من توقعاتها للنصف الثانى من هذا القرن. وأفضل تخمين حاليا هو أن عدد السكان سيبدأ فى الانخفاض بعد ٢٠٥٠، ربما ليعود ثانية إلى مقداره الحالى مع حلول نهاية القرن، إلا إذا أدت أوجه التقدم الطبى إلى التعزيز من عمر الحياة المتوقع ليصل إلى الحد الذى يتنبأ به بعض المستقبليين. سوف يهيمن عمر «ما فوق الخمسين» على أوروبا وأمريكا الشمالية، حتى بدون أى تقنيات جديدة لمد أمد الحياة. ربما ستكون هذه النزعة مستترة، خاصة فى الولايات المتحدة، نتيجة الهجرة من العالم النامى، فيتأجل الاستقرار



ساعتنا الأخيرة!

وما يترتب عليه من هبوط فى السكان (إن كان سيحدث بأى حال).

هذا التقدير بالاستقراء يتأسس بالطبع على افتراضاتنا بشأن النزعات الاجتماعية. إذا حدث أن أصبحت البلاد الأوروبية قلقة حقا بالنسبة لهبوط عدد السكان، فإن الحكومات تستطيع عندها ان تستحدث بسهولة إجراءات لحفز الخصوبة. وعلى العكس من ذلك فإن انتشار أوبئة داخل «المدن الضخمة» يمكن أن يتسبب فى انخفاض كارثى فى السكان من النوع الذى ظهر بالفعل فى أجزاء من أفريقيا: بحلول ٢٠٥٠ فإن هذه التنبؤات يمكن أن تتغير جذريا بواسطة أوجه تقدم تكنيكية فى الروبوتات والطب يكون فيها عنف بمثل ما يتصوره المتحمسون للتكنولوجيا.

لو أمكننا حقا أن نبقى أحياء فى القرن التالى دون انقلابات كارثية، ستكون أكثر نتيجة حميدة هى أن يصبح عدد سكان العالم أقل من العدد الحالى (وأقل كثيرا من الذروة المتوقعة حوالى عام ٢٠٥٠).

أحد المخاطر التى لابد أن تتضمنها هذه التوقعات للمستقبل، والتى ربما يكون فيها نذير بغيرها، هو وباء الإيدز. لم ينتشر هذا الوباء فى السكان من البشر إلا فى ثمانينيات القرن العشرين، وهو لم يصل بعد إلى ذروته. من المعتقد أن ما يقرب من ١٠ فى المائة من شعب جنوب أفريقيا الذى يبلغ ٤٢ مليونًا من الأفراد يظهر عند اختبارهم نتيجة ايجابية بالإصابة بالإيدز: ومن المتنبأ به أن الإيدز سوف يسبب سبعة ملايين حالة وفاة فى هذا البلد وحده بحلول عام ٢٠١٠، بما يقضى على الكثيرين من مجموعة العمر الأكثر إنجابا. وهذا يقلل من العمر المتوقع لدى الرجال والنساء معا بما يبلغ عشرين عاما، مخلفا الملايين من اليتامى المضارين بين الأجيال الصغيرة السن. وباء الإيدز المتفشى والذى يزداد انتشاره سريعا سيؤدى إلى دمار أفريقيا؛ ومن المتنبأ به أن ستظهر ملايين الحالات فى روسيا؛ كما يتزايد سريعا إجمالى أعداد المصابين بالعدوى فى الصين والهند، حيث ربما سيحدث أن يزيد عدد الوفيات من الإيدز عن المستويات الأفريقية خلال عقد واحد.

هل يمكن أن نتوقع أوبئة «طبيعية» أخرى فاجعة؟ بعض الخبراء يطمئنوننا بشأن ما يحتمل من استهدافنا للمرض. وكمثل، فإن بول و. إيوالد يلاحظ أن الهجرات الكوكبية، وما يترتب عليها من امتزاج الناس عبر القرن الأخير، قد أدت إلى أن يتعرض كل فرد لجراثيم مرضية من كل أنحاء العالم، ومع ذلك لم يتفش إلا وباء واحد مدمر: هو الإيدز الناتج عن فيروس نقص المناعة. هناك فيروسات أخرى موجودة طبيعيا، مثل الايبولا[٣] ولكنها لا تبقى مستمرة للزمن الكافى لأن تحدث وباء ينفلت منطلقا خارج السيطرة. إلا أن تقدير إيوالد المتفائل نوعا قد ترك جانبا احتمال الخطر من بعض وباء يقدح زناده خطأ بيولوجى أو إرهابى بيولوجى وليس عن طريق جراثيم طبيعية.

مناخ كوكب الأرض غير الثابت

يتَميز كوكب الأرض خلال كل تاريخه بالتغيرات المناخية مثلما يتميز بانقراض الأنواع. ولكن معدل هذه التغيرات حدث له مثل ما حدث لمعدل الانقراض، فزادت سرعته زيادة مزعجة بواسطة تصرفات البشر.

يتعرض المناخ لتغيرات طبيعية بكل المقاييس الزمنية، ابتداء من عقود السنين ووصولا إلى مئات الملايين منها. بل وحدث حتى فى نطاق عهود التاريخ المسجل أن تغير المناخ الإقليمى تغيرا ملحوظا. كان المناخ فى شمال أوروبا أدفأ منذ ألف سنة: فكان هناك مستعمرات زراعية فى جرينلاند حيث كانت الحيوانات ترعى على الأرض التى تغطيها الآن الثلوج؛ كما ازدهرت الكروم فى إنجلترا. على أنه حدثت أيضا فترات باردة طويلة. ويبدو أن الفترة الدافئة قد انتهت بحلول القرن الخامس عشر، ليعقبها «عصر جليدى صغير» استمر حتى نهاية القرن الثامن عشر. وهناك سجلات متنظمة عن وجود ثلج فوق نهر التيمز فى أوقات كثيرة من هذه الفترة كان يبلغ من سمكه أن النيران كانت توقَد من فوقه؛ وزاد تقدم المثلجات[٤] فى جبال الألب. لعل هذا «العصر الجليدى الصغير» يطرح مفاتيح مهمة للإجابة عن سؤال ظل خلافيا زمنا متواصلا وهو: هل يمكن لتغيير فى الشمس أن يقدح زناد تغيرات فى المناخ؟ يبدو أن الشمس خلال هذه الفترة الباردة كان سلوكها فيه شذوذ هين: حدثت فى النصف الثانى من القرن السابع عشر وأول سنين القرن الثامن عشر فترة غامضة من سبعين سنة، تعرف الآن بأنها فترة الحد الأدنى «لموندر»، وذلك على اسم العالم موندر الذى لاحظها لأول مرة، وقد خلت هذه الفترة تقريبا من أى بقع شمسية. يحدث عادة أن النشاط على سطح الشمس المضطرب - الوهج الشمسى والبقع الشمسية وما إلى ذلك - يرتفع إلى ذروته ثم ينخفض ثانية، مكررا هذه الدورة على نحو غير ثابت نوعا، ولكنها تحدث تقريبا كل أحد عشر أو اثنى عشر عاما. هناك مزاعم بأن هذه الدورة تؤثر فى المناخ، وهى مزاعم يرجع تاريخها وراء إلى أكثر من مائتى عام، ولكنها مازالت خلافية. (مما يزعم أيضا أن الدورة الاقتصادية «تتبع مسار» النشاط الشمسى). هناك كذلك مزاعم بأن طول دورة بعينها - سواء كانت أقرب إلى أحد عشر أو اثنى عشر عاما - يؤثر فى متوسط درجة الحرارة.

ما من أحد يفهم حقا الطريقة التى يمكن أن تؤثر بها البقع الشمسية والنشاط الوهجى (أو غيابهما) فى المناخ تأثيرا يصل إلى هذا الحد. هناك ربط بين بقع الشمس وبين السلوك المغناطيسى للشمس، وبينها وبين الوهج الشمسى الذى يولد جسيمات سريعة الحركة تضرب كوكب الأرض. على أن هذه الجسيمات نفسها تحمل فحسب جزءا ضئيلا من طاقة الشمس، ولكننا ينبغى أن نكون متفتحى الذهن بشأن احتمال وجود بعض «مكبر» فى طبقات الجو العليا قد يجعل هذه الجسيمات قادرة على أن تقدح زناد تغيرات مهمة فى الغطاء السحابى. كثيرا ما ضُبط العلماء فى الماضى وهم يرفضون أدلة تقع تحت أبصارهم مباشرة لأنهم لم يستطيعوا وقتها التفكير فى طريقة تشرحها. (أحد الأمثلة المذهلة لذلك هو الانجراف القارى. وكما يبدو فإن خط ساحل أوروبا وأفريقيا يتلاءمان مع خط ساحل الأمريكتين، مثلما تتلاءم أجزاء لعبة الصور المتشابكة «Jigsaw»، وكأن هذه الكتل من الأرض كانت متصلة معا ذات يوم ثم انجرفت منفصلة. لم يكن هناك أحد حتى ستينيات القرن العشرين يفهم كيف يمكن للقارات أن تتحرك، وكان هناك بعض علماء الفيزياء الجغرافية المرموقين ممن ينكرون الأدلة التى يرونها بأعينهم بدلا من أن يوافقوا على أن تحرك القارات قد يكون ناتجا عن بعض ميكانيزم لم يكن لديهم الفطنة الكافية للتفكير فيه).

هناك تأثيرات بيئية أخرى على المناخ، مثل التفجرات البركانية الكبرى. حدث فى ١٨١٥ تفجر لبركان تامبورا بإندونيسيا قذف ما يقرب من مائة كيلومتر مكعب من الغبار فى الستراتوسفير، ومعها غازات اتحدت ببخار ماء فكونت ايروسولات من قطرات حمض الكبريتيك. حل بعدها طقس بارد برودا استثنائيا فى السنة التالية فى أوروبا وكذلك فى نيوانجلند، وأدى فى ١٨١٦ إلى ما سمى «سنة بلا صيف». (كتبت مارى شيلى روايتها الفانتازية الكئيبة «فرانكشتين» - أول رواية خيال علمى حديثة - وذلك أثناء طقس تلك السنة اللاموسمى، حيث كانت فى حالة بيات شتوى فى فيلا مستأجرة لبيرون[٥] على شاطئ بحيرة جنيفا).

أحد التغيرات الجوية التى أحدثها الإنسان، ولم يكن هناك مطلقا أى تنبؤ بها هو ظهور ثقب الأوزون فوق قارة القطب الجنوبى، والذى سببته التفاعلات الكيميائية لمواد الكلوروفلورو كاربون (ك ف ك) فى طبقة الستراتوسفير وأدت إلى استنزاف طبقة الأوزون. تم الاتفاق دوليا على أن نتخلص على مراحل من المواد المتهمة (ك ف ك)، التى تستخدم فى معلبات الايروسول، وكمادة مبردة فى الثلاجات المنزلية، وقد أدى هذا الاتفاق إلى أن خفف من المشكلة: أخذ ثقب الأوزون الآن فى الامتلاء ثانية. إلا أننا كنا بالفعل محظوظين بأن هذه المشكلة تم علاجها بسهولة بالغة. بول كروتزين هو أحد الكيميائيين الذين شرحوا الطريقة التى تُحدث بها بالفعل

من الواضح أن العالم لن يتمكن من الاستمرار فى إعاشة كل سكانه بالأسلوب الحالى للطبقة المتوسطة من الأوروبيين والأمريكيين الشماليين



ساعتنا الأخيرة!

مواد (ك ف ك) مفعولها فى طبقة الجو العليا، وقد أوضح أن ما حدث فى ثلاثينيات القرن العشرين من اتخاذ مادة تبريد تجارية اساسها الكلورين كان بمثابة أمر عارض تكنولوجيا وحدث كيميائى طريف. لو كنا استخدمنا البرومين بدلا من ذلك؛ لكانت التأثيرات على الجو أكثر عنفا وأطول بقاء.

احترار (الصوبة)

ينتج الاحترار الكوكبى عما يسمى «ظاهرة بيت النباتات» وهو، فى تباين مع استنزاف الأوزون، يعد مشكلة بيئية ليس لها علاج سريع. تحدث هذه الظاهرة لأن الجو فيه شفافية لما يأتيه من ضوء الشمس أكثر من شفافيته «للأشعة الحرارية » تحت الحمراء التى تبثها الأرض؛ وبالتالى فإن الحرارة تنحبس بما يشبه ما يحدث فى بيت النباتات الزجاجى. ثانى أكسيد الكربون هو أحد «غازات بيت النباتات» التى تحبس الحرارة (وكذلك غازات أخرى كبخار الماء والميثان) أصبح مستوى ثانى أكسيد الكربون أعلى فعلا بخمسين فى المائة عن مستواه قبل الصناعة، وذلك بسبب تزايد استهلاك الوقود الاحفورى. هناك اتفاق فى الرأى على أن هذا التراكم سيجعل العالم فى القرن الحادى والعشرين أدفأ مما سيكون عليه بغير ذلك، وإن لم يكن من الواضح بالضبط حتى الآن مقدار زيادة الدفء. ومن المرجح أن يكون الارتفاع النسبى فى الحرارة ما بين درجتين إلى خمس درجات. وفيما ينبغى ليس غير قلة ممن سيغامرون بذكر تنبؤات فيها دقة أكثر؛ يحذر الكثيرون من أن هناك سيناريوهات هى حتى أكثر تطرفا ولا يمكن استبعادها. وحتى لو كان الارتفاع بدرجتين لا غير، وهذا تقدير متحفظ جدا، فإنه يمكن عندها وقوع نتائج محلية خطيرة (مثل المزيد من العواصف وغير ذلك من ظواهر جوية متطرفة).

لا يوجد فى مناخ الأرض الحالى ما يعد وضعا مثاليا؛ وإنما الأمر ببساطة أنه وضع قد تكيفت معه الحضارة البشرية عبر القرون، كما تكيفت معه الحيوانات والنباتات (النباتات الطبيعية والزراعية معا) التى تتشارك معها فى كوكب الأرض. السبب فى أن الاحترار الكوكبى الوشيك يمكن أن يكون فيه تهديد بإحداث فوضى مدمرة هو أنه سيقع بمعدل أسرع كثيرا من التغيرات التى حدثت طبيعيا فى التاريخ الماضى؛ معدل أسرع من أن يتكيف معه السكان من البشر، وأنماط استخدام الأرض، والنباتات الطبيعية. قد يؤدى الاحترار الكوكبى إلى إحداث ارتفاع فى مستوى البحر، وزيادة فى الجو المتطرف فى شدته، وانتشار الأمراض التى يولدها البعوض إلى خطوط عرض أعلى. أما الجانب المشرق فى الأمر (من منظورنا البشرى) فهو أن المناخ فى كندا وسيبريا سيصير أكثر اعتدالا.

عندما يحدث احترار كوكبى مطرد يجرى معدله حسب «أفضل التخمينات تحفظا»، فإنه سيؤدى إلى فرض تكاليف لازمة للتكيفات الزراعية، وترتيب دفاعات للمناطق البحرية ولأرجاء أخرى، وسوف يفاقم من الجفاف فى بعض المناطق. ولا ريب أن الأمر يستحق أن تنفذ الحكومات إجراءات منسقة للإقلال من الاحترار الكوكبى. على أننا سنكون مبالغين لو اعتبرنا أن ارتفاع الحرارة بدرجتين أو ثلاث هو فى حد ذاته كارثة كوكبية. وإنما سيكون فى ذلك نكسة للتقدم الاقتصادى وإفقار لدول كثيرة. كثيرا ما تنشأ المجاعات داخل إحدى البلاد نتيجة سوء توزيع الثروة وليس نتيجة نقص عام فى الطعام، ويمكن التخفيف منها بإجراءات حكومية. وبالمثل فإن النتائج المترتبة على تغيرات المناخ يمكن تخفيفها، وتوزيعها فى تساو أكثر بواسطة إجراءات دولية.

لاريب أن الإبطاء الواضح فى النمو السكانى يعد نبأ طيبا بالنسبة لسيناريوهات الاحترار: فالإقلال من الأفراد يعنى الإقلال من بث الحرارة. إلا أن هناك فى المنظومات الجوية والمحيطية قوة قصور ذاتى يبلغ من شدتها أنه مهما كان ما سيحدث، فمن المرجح فيما يبدو أن متوسط الحرارة سيرتفع فى ٢١٠٠ بدرجتين على الأقل. من الواضح أن أى توقعات لزمن يتجاوز ذلك ستعتمد على ما يكون عليه كبر عدد السكان، وعلى طريقة حياة الناس وعملهم. بل وبالإضافة إلى ذلك، فإن تحديد المآل على المدى الطويل سيعتمد على ما إذا كان الوقود الأحفورى قد حلت محله موارد بديلة للطاقة. يأمل المتفائلون أن هذا سيحدث كأمر طبيعى. هناك داعية بيئى ضد التشاؤم هو بيورن لومبرج، وهو يستشهد بقول مأثور لوزير بترول سعودى يقول فيه «سوف ينتهى عصر البترول، ولكن ذلك لن يكون لنقص فى البترول، تماما مثلما انتهى العصر الحجرى، ولم يكن ذلك لنقص فى الحجر». إلا أن معظم الخبراء يعتقدون أن الحدود العليا التى تفرضها الحكومة كسقف لبث ثانى أكسيد الكربون هى حدود جديرة بأن تفرض، ليس فحسب لتأثيرها المباشر، وإنما أيضا كحافز لانشاء موارد طاقة متجددة أكثر كفاءة.

أسوأ الحالات

جرى فى القرن العشرين مواقف أيديولوجية فى العلاقات بين الشرق والغرب أدت إلى حفز للمواجهات النووية. على ان هذه المواقف بالنسبة للكتلة الكبرى من سكان العالم هى مجرد نوع من إلهاء غير ذى موضوع ليصرف الأنظار عن المشاكل المباشرة للفقر والمخاطر البيئية. هناك مصطلح قديم عتيق عما يوجد من «تهديدات بلا أعداء» يصنعها الإنسان للمحيط الحيوى والمحيطات البحرية. لاريب فى أن المحيط الحيوى للأرض ظل يتغير بلا توقف عبر تاريخها. إلا أن التغيرات التى تجرى حاليا - التلوث، وفقدان التنوع الحيوى، والاحترار الكوكبى، الخ - كلها تغيرات غير مسبوقة فى سرعتها.

ستكون مشاكل التحلل البيئى أكثر تهديدا بكثير حتى مما هى عليه الآن. وربما لن تتمكن المنظومة الايكولوجية من التكيف مع هذه التغيرات. بل وحتى لو حدث الاحترار الكوكبى بمعدل الطرف الأبطأ من مداه المحتمل، إلا أن النتائج المترتبة عليه - مثل المنافسة على إمدادات المياه، والهجرات بمقاييس كبيرة - يمكن أن تولد توترات تقدح الزناد لصراعات دولية وإقليمية، خاصة إذا توفر مزيد من الوقود لهذه الصراعات بسبب النمو السكانى المستمر. وبالإضافة، فإن هذا الصراع يمكن أن يتفاقم، وربما على نحو كارثى؛ بسبب التكنيكات المدمرة التى تتزايد فعاليتها والتى تضفى بها التكنولوجيا الجديدة تمكيناً حتى للجماعات الصغيرة

أما التفاعل بين الجو والمحيطات فهو أمر يبلغ من تعقده وعدم اليقين فيه أننا لا يمكننا أن نسقط من حسابنا ما يوجد من احتمال خطر فى إحدى المشاكل التى تحوى ما هو أعنف كثيرا مما يحويه «أفضل تخمين» عن معدل الاحترار الكوكبى. هناك إمكان لأن يكون ارتفاع الحرارة فى ٢١٠٠ بما يتجاوز حتى الخمس درجات. بل وأسوأ من ذلك أن تغير درجة الحرارة لن يكون مجرد تغير بنسبة مباشرة (أو «خطية») مع الارتفاع فى تركيز ثانى أكسيد الكربون. وإنما سنجد أنه عند الوصول إلى مستوى عتبة معينة، يمكن أن يحدث «تقلب» مفاجئ عنيف إلى نمط جديد من الرياح ودورة المحيط.

يشكل «تيار الخليج » جزءا من نمط الانسياب المسمى «الحزام الناقل» حيث تنساب المياه الدافئة للشمال الشرقى تجاه أوروبا قرب السطح، وتعود بعد تبريدها إلى أعماق أشد غورا. يؤدى ذوبان ثلوج جرينلاند إلى إطلاق حجم هائل من المياه العذبة التى تمتزج بالماء المالح، لتخففه وتجعله قابلا للطفو بحيث لا يغوص حتى بعد أن يبرد. وبالتالى فإن هذا الحقن للمياه العذبة يستطيع أن يخمد نمط الدورة «الحرارية الهالوجينية» (المحكومة بملوحة المحيط وحرارته) وهى دورة حاسمة للحفاظ على المناخ المعتدل لشمال أوروبا. لو حدث أن قُطع «تيار الخليج » أو انعكس، سيكون ممكنا أن تنغمر بريطانيا والبلاد المجاورة فى فصول شتاء تقرب من الشتاء القطبى، مثل فصول الشتاء التى تسود حاليا عند خطوط العرض المماثلة فى كندا وسيبريا.

نحن نعرف أن تغيرات من هذا النوع قد حدثت فى الماضى لأن قضبان قلب الثلج التى

مالم تتدخل كارثة فى الأمر، فإنه يبدو أن من المحتم أن يستمر عدد سكان العالم فى التزايد حتى ٢٠٥٠، ليصل وقتها إلى الثمانية بلايين

كتاب الزاوية

سنن الكون

محمد الغزالى

آفاق الكون فى نظر المسلمين لا تضبطها سنن، وخيرات الأرض تحت أقدامهم لا يستغلها عقل مكتشف أو جهد طموح. أما الأوضاع الاقتصادية والسياسية، فإن تعاليم الإسلام فى الحكم والمال لا تكاد تعرف.

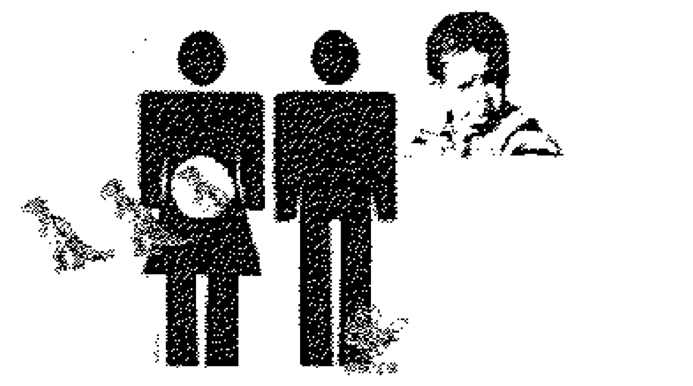
ومن بضعة قرون وأجهزة الدعوة الإسلامية معطلة، فلا منهج يوضع، ولا متابعة تكشف.

فلما ذهبت طوائف من العمال الذين يلتمسون الرزق، أو الطلاب الذين ينشدون العلم إلى أوروبا وأمريكا، وجدوا عالمًا آخر مواراً بالسعى والقدرة والذكاء، دونه بمراحل ما خلفوا وراءهم من جماهير خاملة وسلطات تائهة.

ماذا يقول هؤلاء وأولئك عن الإسلام؟ أو ماذا يعرفه الناس عن الإسلام الحق حين يتأملون أحوالهم وأعمالهم؟

لا طريق لأن يعرف الأجانب الإسلام إلا عن تأمل فى تطبيقنا له! أو عن تفهم لحديثنا عنه. فإذا كانت تطبيقاتنا رديئة منفرة، وكانت كلماتنا تتضمن أخطاء شنيعة، فكيف يُفهم هذا الدين؟ ولماذا يدخل الناس فيه؟

إن إسرائيل طردت رئيس وزراء رأت فى تصرف مالى له شائبة إدارية لا تمس النزاهة الخلقية، فماذا نقول نحن عن الحكم الإسلامى الذى يتولاه الصعاليك حينًا من الدهر فيخرجون وخزائنهم مثقلة؟ من حوسب منهم؟ ومن جرد من مال الحرام؟



ساعتنا الأخيرة!

نحصل عليها بالحفر بمثقاب (بريمة) خلال صفحات الثلج فى جرينلاند وقارة القطب الجنوبى تمدنا بنوع من سجل حفرى لدرجات الحرارة: ففى كل سنة يتجمد ثلج جديد عند القمة ويضغط لأسفل الطبقات الأقدم. ويبدو أنه حدث فى مرات كثيرة خلال المائة ألف سنة الماضية فترات ابتراد عنيفة خلال عقود من السنين أو أقل. والواقع ان المناخ قد أصبح مستقرا على نحو غير معتاد خلال الثمانية الاف سنة الماضية. أما ما يثير القلق فهو أن الاحترار الكوكبى الذى يحدثه الإنسان قد يجعل «التقلب» التالى أكبر عنفا إلى حد كبير.

لو حدث «تقلب» لتيار الخليج سيكون فى ذلك كارثة لغرب أوروبا، حتى ولو أمكن أن يكون له مايوازيه من «جانب مفيد» فى مكان آخر. هناك سيناريو آخر (وإن كان باعتراف الجميع من غير المرجح) وهو ما يسمى «ظاهرة بيت النباتات المنفلتة» حيث يسبب ارتفاع الحرارة تغذية مرتدة إيجابية تطلق بدورها المزيد من غازات بيت النباتات. سيلزم أن تكون الأرض بالفعل أسخن بما له قدره مما تكون عليه فى الواقع حتى تصبح معرضة لأى احتمال بخطر من تبخر منفلت للمياه من المحيطات (حيث إن بخار الماء هو أحد غازات بيت النباتات). ولكننا لا نستطيع أن نستبعد هكذا بحزم أن يحدث انفلات بسبب انطلاق كميات هائلة من الميثان المنحبس فى التربة (الميثان كغاز لبيت النباتات له فاعلية هى على الأقل بعشرين مثلاً لفاعلية ثانى أكسيد الكربون). سيكون فى انفلات كهذا كارثة كوكبية.

لو كنا نستطيع أن نكون واثقين ثقة مطلقة بأنه لا يمكن أن يحدث أى شىء أكثر عنفا من أن تكون التغيرات المناخية تغيرات «خطية»، فسيكون فى هذا ما يطمئن. إلا أن وجود احتمال صغير لأن يحدث شىء ما يكون حقا كارثيا لهو أمر أكثر إقلاقا من وجود احتمال أكبر لوقوع أحداث أقل تطرفا. لا يمكن ولا لأقصى ما يكون تصوره من عنف فى التحولات المناخية أن يؤدى مباشرة لتدمير البشرية كلها، إلا أنه يمكن للأسوأ من هذه التحولات، عندما يكون مصحوبا بتغييرات إلى أنماط من الطقس تذهب إلى مدى أبعد كثيرا فى تغيرها وتطرفها، أن يؤدى إلى سلب عقود من السنين من التقدم الاقتصادى والاجتماعى.

حتى لو كان هناك احتمال من واحد فقط فى المائة بأن تؤدى تغيرات الجو التى يحدثها الإنسان إلى قدح الزناد لتحول متطرف ومفاجئ فى المناخ - وهذا أمر يحتاج من عالم الأرصاد الجوية إلى أن يكون حقا واثقا جدا حتى يرتب على احتمالات قليلة هكذا - حتى لو كان الأمر كذلك فإن هذا توقع مزعج بالقدر الكافى لأن يبرر اتخاذ إجراءات وقائية أكثر عنفا مما اقترح بالفعل فى اتفاقية كيوتو (التى تتطلب من البلاد الصناعية الإقلال مما ينبعث منها من ثانى أكسيد الكربون لتصبح مستوياته فى ٢٠١٢ مماثلة لمستوياته فى ١٩٩٠). سيكون تهديد مثل هذا أكبر بمائة مثل من احتمال خطر الخط القاعدى للكوارث الطبيعية التى تتعرض لها الأرض، بصرف النظر عن التصرفات البشرية، كما فى الاصطدام بالكويكبات والأحداث البركانية القصوى.

أنهى هذا البحث بالاستشهاد بتقييم متزن من الأمير تشارلز أمير ويلز، الذى نادرا ما يستشهد العلماء بآرائه فى موافقة عليها، ويقول الأمير ان «التهديدات الاستراتيجية التى تفرضها البيئة الكوكبية ومشاكل التنمية تعد من بين التحديات التى تواجه أمننا أكثرها تعقدا وتشابكا وأكثرها إمكانا للتدمير. العلماء... لا يفهمون فهما كاملا النتائج التى تترتب على تهجمنا بأوجه متعددة على النسيج المتشابك للجو، والمياه، والأرض، والحياة بكل ما فيها من تنوع بيولوجى. من الممكن أن يثبت فى النهاية أن الأمور ستكون أسوأ مما يوجد حاليا كأفضل تخمين علمى. تأسست السياسة لزمن طويل فى الشئون الحربية على القول المأثور بأننا ينبغى أن نكون مستعدين لأسوأ حال. لماذا ينبغى ان يكون الأمر جد مختلف عن ذلك عندما يكون الأمن الذى نتناوله هو أمن هذا الكوكب ومستقبلنا على المدى الطويل؟». ▩

هوامش:

(١) العصر الكمبرى: الدور الأول من حقب الحياة القديمة أو الباليوزى. ويرجع الاسم إلى كلمة كمبريا وهى اسم قديم لمقاطعة ويلز بانجلترا حيث اكتشفت صخوره لأول مرة. وأهم حفرياته هى ثلاثيات الفصوص (التريلوبيت) وقد انتهى من حوالى ٥٠٠ مليون سنة. (المترجم)

(٢) دابلو دابليو إف WWF مختصر الكلمات الانجليزية التى تعنى الصندوق العالمى للطبيعة. (المترجم)

(٣) الإيبولا مرض فيروسى فى أفريقيا يسبب حمى وتزيفا وموتا سريعا بمعدلات عالية. (المترجم)

(٤) المثلجة تجمع جليدى عظيم غير ثابت قد يتحرك فى مجار تشبه الأنهار. (المترجم)

(٥) لورد بيرون (١٧٨٨ - ١٨٢٤) شاعر رومانسى إنجليزى. (المترجم)

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

خيولنا التى لا تصهل

فهمى هويدى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦ ، ٢٦٧صفحة



مقالات فى السياسة والتياسة، هذا هو العنوان التالى للكتاب؛ ثمة شعور بالغضب فى العنوانين معاً، يكمله ما جاء فى المقدمة التى تشير إلى تلك الأزمة التى يعانيها كل صاحب فكر مغاير وقلم حر، فى نظام سياسى يصر على أن تبقى المعادلة على هذا النحو: «قولوا ما شئتم وسنفعل ما بدا لنا»، أى أنه يختصر حريات التعبير فى واحدة لا تتجاوز الصياح - حتى لا نقول النباح تأدباً - لكن بالإمكان الانتباه إلى خطورة استمرار الوضع على هذا النحو، فالغضب المكبوت - وهو هائل وله مبرراته - يمكن أن يتحول إلى انفجار مدو فى أى لحظة.

المقالات التى يتضمنها الكتاب سبق نشرها فى صحيفتى الأهرام (الثلاثاء) والوفد (الجمعة)، وقد نظمت فى ثلاثة فصول:

بين الأوهام والحقائق، خائفون لا أقوياء، خيولنا التى لا تصهل، وهى تغطى مساحة هائلة من الأحداث والأشجان المحلية والدولية والإقليمية، فى السياسة والاقتصاد والثقافة والشأن العام، دون أن يغفل أن المنشغل الجاد بالشأن العام هو أكثر الناس غربة فى هذا الوطن، كما يؤكد فى مقاله المعنون «غرباء المحروسة» والذى يتحدث فيه عن أحد رجال الأعمال الكبار الذين رشحوا على قائمة الحزب الحاكم فى محافظة الجيزة، وسخرت له كل مؤسسات المحافظة بما فيها جامعة القاهرة كمنابر للدعاية.

وتحدث المرشح عن وعود باهرة إلى حد أنه وضع خطة مستقبلية للمحافظة تمتد حتى ٢٠٢٠، بل وشكل لجاناً ضمت أساتذة جامعيين للمشاركة فى النهضة المرتقبة، وما أن انتهت الانتخابات ووصل المرشح إلى مجلس الشعب حتى انفض المولد، وتوارت اللجنة، وانتكست خطة النهضة.

وتحت عنوان «لماذا يطالب الجوهرى وحده بالاستقالة؟» يعلق المؤلف على مطالبة النقاد وجماهير الكرة مدرب المنتخب الوطنى بالاستقالة عقب هزيمته فى إحدى المباريات بالجزائر قائلاً: إن الذى فشل فيه الجوهرى أهون بكثير مما فشل فيه آخرون جاثمون على أنفاس هذا البلد منذ سنين طال بعضها بأكثر مما ينبغى، فلا مقارنة بين الذى خاب فيه، وبين الخيبة التى حلت بمصر فى إدارة اقتصادها، وما قيل عن الاقتصاد ينسحب بذات القدر على مجالات الصناعة والزراعة والإسكان والتعليم.. إلخ.

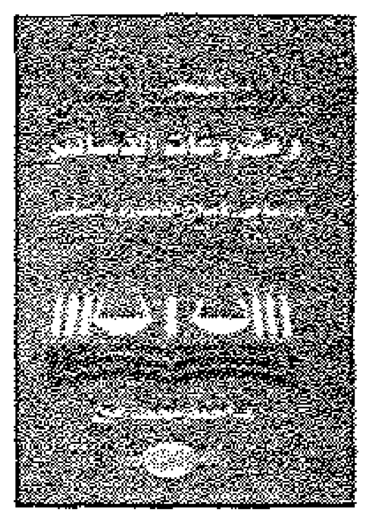
ويتعجب فى مقال آخر عنوانه «كى يقام العرس الديمقراطى حقاً» ممن نصبوا أنفسهم وكلاء عن الشعب المصرى زاعمين أنه لم يستعد بعد لنيل حقوقه الديمقراطية الكاملة وكأنه أقل من شعوب رومانيا وأوكرانيا وجورجيا، ويشير إلى أن من يرددون هذا الكلام إنما يستهدفون إطالة عمر الأوضاع غير الديمقراطية وحماية الاستبداد واستمراره.

ولا يغيب الشأن الإقليمى والدولى، خصوصاً على صعيد الصراع العربى الإسرائيلى والنفوذ الأمريكى الكاسح فى المنطقة، ففى مقال عنوانه «رسالة الحقيقة المصرية» يعلق على ما كتبه الصحفى الأمريكى توماس فريدمان متسائلاً عن دور مصر الغائب عبر تحليله لتوازنات القوى الإقليمية فى المنطقة، وإذ يؤكد هويدى على كثير مما استنتجه فريدمان فإنه يحذر من أن انسداد القنوات الموصلة للحقيقة، والبون الشاسع بين ما يجرى فى الشارع وما يجرى فى كواليس السلطة لا يعطى أملاً فى الإصلاح، وفى المقالة التى يأخذ الكتاب عنوانها «خيولنا التى لا تصهل» يعدد عديدا من الإهانات التى توجه للعرب والمسلمين فى غير موضع من العالم على أيدى الأمريكان والصهاينة فى أفغانستان وفلسطين وغيرها، ويطرح السؤال الكبير: أين الشارع العربى، ما الذى أصابه لينتهى هذه النهاية المحزنة، ويجيب بمثل بدوى دال: الخيل المخصية لا تصهل.

الدساتير ومشروعات الدساتير فى مصر

أحمد محمد أمين

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦ ، ٢٧٦ صفحة



يحتل الحديث عن الإصلاح السياسى مساحة كبيرة من الجدل الدائر بين النخبة المثقفة على اختلاف توجهاتها من ناحية، وبين السلطة السياسية من ناحية ثانية. والإصلاح الدستورى جزء أصيل من الحديث الدائر عن الإصلاح، لكن كثيرين من خضم الحديث عن الإصلاح الدستورى، يغيب عنهم أن مصر عرفت أنواعاً عدة من الدساتير طوال تاريخها النيابى الذى بدأ فى مرحلة مبكرة من تاريخها الحديث، قياساً بدول عديدة فى المنطقة، ويعود ذلك إلى ما قبل ١٨٠ عاماً.

المؤلف يقدم فى اثنى عشر فصلاً رصداً تاريخياً للدساتير التى عرفتها مصر ونصوصها والمعارك التى أثيرت حولها، وكذلك التعديلات التى جرت فيها وماهيتها ودلالتها، بادءاً بدستور ١٩٢٣ الذى كان نتيجة مباشرة لثورة المصريين فى ١٩١٩، ثم دستور ١٩٣٠ الذى مثل انقلاباً فى عهد إسماعيل صدقى على دستور ١٩٢٣، ثم ما عرف بالإعلانات الدستورية التى استحدثتها ثورة يوليو ١٩٥٢ وهى أربعة، وفى الفصل الرابع يشير إلى مشروع دستور ١٩٥٤ ونصوصه، وفى الخامس دستور ١٩٥٦، ثم دستور ١٩٥٨ ونصوصه فى الفصل السادس، ويستعرض فى الفصل السابع الإعلان الدستورى بشأن التنظيم السياسى لسلطات الدولة العليا والصادر فى سبتمبر ١٩٦٢، ثم يعرض لدستور ١٩٦٤، والإعلان الدستورى فى ١٩٦٩، ويخصص الفصل التاسع للحديث عن الدستور الحالى الصادر فى ١٩٧١، وأهم التعديلات التى جرت عليه وهى التعديل الدستورى فى مايو ١٩٨١، ثم تعديل المادة ٧٦ من الدستور فى مايو ٢٠٠٥.

ويستعرض فى الفصول التالية (من العاشر حتى الثانى عشر) مشروعات الدساتير التى اقترحتها منظمات ولجان شعبية وأحزاب بهدف الإصلاح الدستورى، ورؤى هذه الأحزاب فى التعديلات الضرورية لجعل الدستور أكثر ملاءمة لواقعنا السياسى والحزبى.

علوم الأرض فى الحضارة الإسلامية

زغلول النجار

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٦ ، ٢٧٧ صفحة



فى خمسة أبواب وأكثر من عشرة فصول، يناقش المؤلف موضوعه، بادئا بالكتابات السابقة عن علوم الأرض فى الحضارة الإسلامية، من البعثة المحمدية إلى مطلع عصر النهضة الحديثة، حيث يشير إلى عشرات المراجع الإسلامية التى أشار إلى بعضها المستشرقون، والتى عثر على بعضها الآخر فى جامعات أوروبا، وشكلت مراجع أساسية استفاد منها الدارسون، مثل ما كتبه كليمونت موالييه عام ١٨٥٨م عن الكثافة النوعية لمختلف المواد المعدنية عند أبى ريحان البيرونى، ومقاله عن «علم المعادن عند العرب» والذى اعتمد فيهما على ما كتبه العالم المسلم أحمد بن يوسف التيفاشى المتوفى سنة ١٢٥٣م تحت عنوان «أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار»، عشرات المراجع يذكرها المؤلف فى هذا الباب وكلها لمؤلفين عاشوا فى هذه الفترة، بعد ذلك يتحدث المؤلف عن علوم الأرض كما

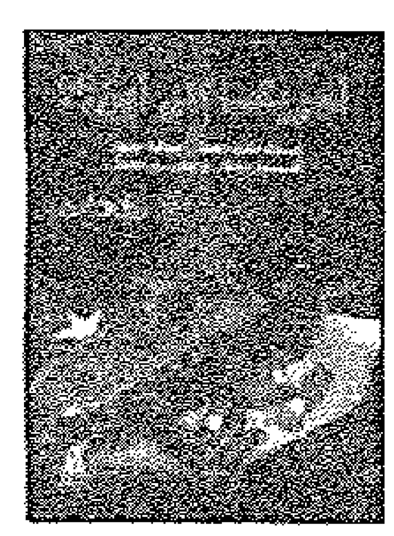
نعرفها اليوم ثم الأرض فى الحضارات القديمة، المصرية والصينية والسومارية والبابلية والأشورية والعراقية والكلدانية والفينيقية والهندية وغيرها، ثم يصل إلى علوم الأرض فى الحضارة الإسلامية، وكيف شجع الإسلام بتعاليمه وبنصوص القرآن الكريم على التفكير العلمى فى الكون وفى الأرض، ويشير إلى أن المسلمين كانوا مشغولين طوال البعثة المحمدية بالعلوم الدينية وبنشر رسالة الإسلام، إلا أنهم سرعان ما توجهوا إلى العلوم الكونية والإنسانية التى بدأوا فى الأخذ بأسبابها منذ القرن الثانى الهجرى، وقد استمر الاهتمام بهذه المعارف يتزايد حتى أسس الخليفة المأمون بيت الحكمة فى بغداد عام ٨٢٠م، وجعل له مكتبة ضخمة وميزانية كبيرة، وجمع فيه عدداً هائلاً من النساخ والمترجمين الذين اتقنوا عدة لغات، وكلفهم بنقل كل ما وصل إلى أيدى المسلمين من تراث الأمم السابقة إلى اللغة العربية، وقد استمرت حركة الترجمة تلك حتى منتصف القرن الثالث الهجرى.

ويشير المؤلف فى فصل تال إلى الدور المهم الذى لعبه العلماء المسلمون فى تطور علوم الأرض، فيشير إلى المعاجم الجغرافية ومنها «معجم ما استعجم» لأبى عبيد البكرى و«معجم البلدان» لياقوت الحموى، وكتابات ابن خرداذبة واليعقوبى والاصطخرى وابن حوقل والمقدسى والتى تناولت البلدان والمدن المعمورة، بالإضافة إلى مصنفات كثيرة تناولت بعض مظاهر سطح الأرض مثل كتابات الكندى وابن سينا والبيرونى وإخوان الصفا والكرخى، ويعرض المؤلف لكثير من هذه الآثار تفصيلاً فى فصول الكتاب التالية.

أمريكا إلى أين؟

راجى عنايت

القاهرة: نهضة مصر للنشر، ٢٠٠٦، ٢٤٦ صفحة



الافتراض الأساسى الذى يسوقه المؤلف منذ البداية ويدلل عليه طوال صفحات الكتاب هو أن إسرائيل مسيطرة تماماً على أمريكا، وهو ينقل عن شارون قوله لبيريز فى ٢٠٠١: لا تقلق حول ضغوط أمريكية على إسرائيل، فنحن، الشعب اليهودى، نسيطر على أمريكا، والأمريكيون يعرفون ذلك.

لكنه يؤكد أيضاً على أن ما حدث اليوم فى أمريكا حدث من قبل فى ظل كافة الرئاسات سواء كانت جمهورية أو ديمقراطية، فالأصل فى الحكم الأمريكى هو سيطرة كبار الأغنياء على كل شىء، والاختلاف بين ما يحدث اليوم وما كان يحدث دائماً هو اختلاف فى الدرجة وليس فى النوع.

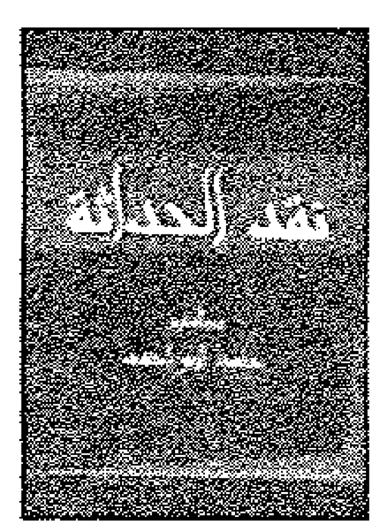
فصول الكتاب الخمسة تسعى إلى تأكيد هذه الفرضية، وهو يتساءل فى الختام عما إذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية حرة فى اتخاذ القرارات التى تتفق مع مصالحها ومصالح شعبها، ويجيب: الشرط اللازم لذلك هو أن تخرج الولايات المتحدة من ذلك الفخ المحكم الذى نصبته الصهيونية العالمية من خلال خطتها الكبرى.

ويشير إلى أن إسرائيل هى الحليف الخطأ لأمريكا، ويضمها إلى ثلاثة أخطاء تميز الحكم الأمريكى اليوم وترسم وجه أمريكا: الديمقراطية الخطأ والقوة الخطأ والطاقة الخطأ.

نقد الحداثة

حامد أبو أحمد

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٦، ٢٢٥ صفحة



ربما يتجاوز محتوى هذا الكتاب عنوانه، فهو لا يتوقف فحسب عند نقد الحداثة، وإنما يتخطاها إلى نقد الواقع الثقافى العربى، المصرى على وجه الخصوص، وهو يبدأ بنقد كمال أبو ديب، صاحب «جدلية الخفاء والتجلى» و«الرؤى المقنعة» والذى ادعى أن عمله فى تطوير المنهج البنيوى كان يسير جنباً إلى جنب مع جهود رولان بارت وتودورف وسواهما من نقاد الحداثة الأوروبيين، فيما نشرت أعمال بارت لأول مرة فى أواسط الخمسينيات ونشرت أعمال أبو ديب فى النصف الثانى من السبعينيات.

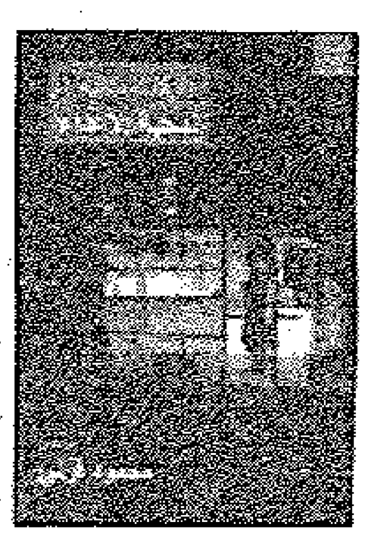
ويكشف المؤلف عن تزعزع إيمان أبو ديب بالبنيوية التى كان يؤمن بها إيماناً مطلقاً مع ظهور اتجاهات ما بعد البنيوية، مثل التفكيكية والتداولية ونظرية التلقى وتحليل الخطاب وغيرها، كما يكشف عن حجم الادعاء الذى يذهب بأبى ديب إلى نقل تحليل ليفى شتراوس للأسطورة فى مجال الشعر، وخاصة الشعر الجاهلى، ثم ما فعله محمد خطابى حين سار على النهج ذاته دون تمحيص، ويعيب المؤلف على هذه الطريقة فى التعامل مع الوافد من النظريات الغربية أنها تمثلها دون تمحيص وتطبقها فى واقع مغاير، ويتساءل: لماذا لا ننقل هذه المعارف أولاً إلى القارئ العربى فى لغة سهلة ميسرة، كما كانت تفعل الأجيال السابقة من النقاد، وعندما تصل هذه المعارف إلى درجة من الاستقرار الذيوع نلجأ إلى تطبيقها على النصوص، شعرية كانت أو نثرية.

وعلى جانب آخر، ينتقد المؤلف ما ذهب إليه صلاح فضل، الذى آثر أن ينقل المعارف الجديدة فى مستواها النظرى، وهو ما يتبدى فى كتبه عن البنيوية والأسلوبية وعلم النص، ويقول المؤلف: كان يمكن للدكتور صلاح فضل أن يقدم خدمات جليلة فى هذا المجال، لكنه كان دائماً فى عجلة من أمره، يريد أن يسابق الزمن، ولذلك جاءت أعماله مجرد نتف من هنا وأخرى من هناك.

أوقات مثالية لمحبة الأعداء

محمود قرنى

القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠٦، ١١٠ صفحات



هذا هو الديوان السادس للشاعر الذى بدأ مسيرته الشعرية منذ أواسط التسعينيات بـ «حمامات الإنشاد»، ثم توالت بعدها دواوينه: هواء بشجرات العام، خيول على قطيفة البيت، طرق طيبة للحفاة، الشيطان فى حقل التوت.

يحتوى الديوان على عشر قصائد: خديعة، إذاعة الأغانى، الكنز، مظلة من أجل النهار، أخوة العدم، باليه، هولوكوست، شرفات بولاق، فستان كيم أدونيزيو، العابر.

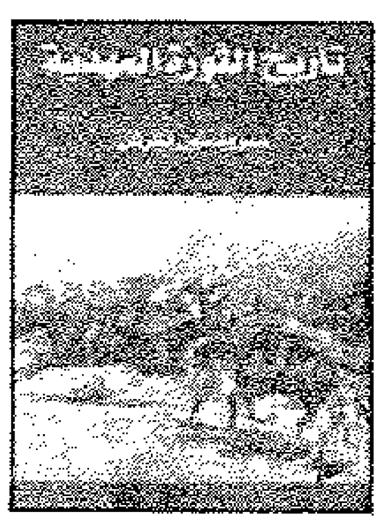
من قصيدة «الكنز»:

بعد أن حطت الحرب أوزارها/ وجدت الكنز فى يد القتيل/ كان ملقى تحت أصوات مشئومة/ الحراس قضوا نحبهم إلى جواره/ والنسوة كن يتبركن بالضريح/ لا شىء يتحرك هناك/ فقط أصابع القتلى/ كانت لا تزال دافئة/ لكن حشرجة نهائية/ أخذتها إلى الله/ الوطن الآن ينام قرير العين.

تاريخ الثورة المهدية

سيرونستون تشرشل

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٣٧١صفحة



كتب «ونستون تشرشل» رئيس الوزراء البريطانى هذا الكتاب عام ١٨٩٩، عندما كان فى الجيش البريطانى، ويحتوى على شهادات عن ثورة المهدى ومعاركه بأسلوب أدبى رشحه للفوز بجائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٥٣، ويلاحظ المترجم أن تشرشل فى مذكراته كان مدركاً لطبيعة العلاقة العضوية التى ربطت مصر بالسودان والتى وصفها بقوله: يرتبط السودان بمصر كارتباط الغواص بأنبوبة الأكسجين، بدونها لا شىء سوى الاختناق، يلاحظ المترجم أيضاً أن تشرشل كان عادلاً ومنصفاً لمقاومة الرجال الذين قاتلوا واستشهدوا بشرف، وإن كان يلاحظ أنه فى كثير من المواقف يسخر أو يتشفى من رجال الثورة، ويمر على انتصاراتهم مروراً عابراً، فيما يسهب فى وصف انتصارات قواته الغازية.

يتألف الكتاب من تسعة عشر فصلاً تحكى عن الثورة والحرب وعديد من المعارك التى خاضها الطرفان ومنها معركة فيركة فى ٧ يونيو ١٨٩٦، ومعارك نهر عطبرة فى ٨ أبريل ١٨٩٨ ومعارك أول سبتمبر ومعركة أم درمان فى ٢ سبتمبر ١٨٩٨، بالإضافة إلى ملحق يتضمن نص اتفاقية السودان فى ١٩ يناير ١٨٩٩ وإعلان ٢١ مارس ١٨٩٩، وآخر خاص

بمناطق النفوذ لبريطانيا وفرنسا فى أواسط أفريقيا.

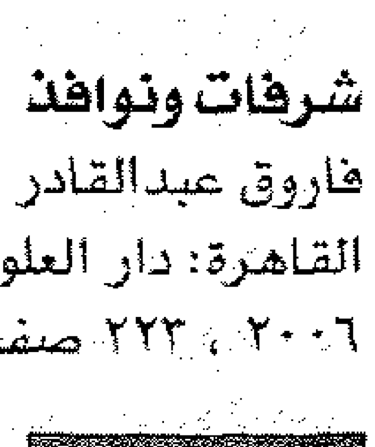
وفى التقديم الذى كتبه سيرجون كولفيل مساعد السكرتير الخاص لرئيس الوزراء كشف البعض المقدمات التى سبقت مجىء تشرشل إلى السودان، ثم الظروف التى صاحبت تأليفه للكتاب والذى حمل عنوان «حرب النهر»، وقد كتبه تشرشل وقت أن كان عمره خمسة وعشرين عاماً، ويشير كولفيل إلى أن تشرشل وصل إلى السودان بوساطة من والدته التى استغاثت بتدخلات أمير ويلز ورئيس الوزراء آنذاك ليشارك ابنها فى الحرب بناء على رغبته، وإقناع كتشنر الذى كان يرفض مشاركة الشباب فى المهام الكبيرة بقوله، ويقول كولفيل إن هدف تشرشل لم يكن فحسب المشاركة فى الحرب، وتحقيق الخلود العسكرى، وإنما أراد أن يسجل أحداث الحرب ويرسلها للصحف، وهو ما جرى فعلاً برغم عدم مشروعيته، إذ أرسل تشرشل أخبار المعارك لجريدة «المورننج بوست» تحت اسم مستعار وبطريقة سوية، ويشدد كولفيل على وجود الروح الاستعمارية لدى تشرشل، والتى كانت تشمل مشاعر أبناء ذلك الجيل من أبناء وطنه فى عهد الإمبراطورية، والتى تظهر بوضوح فى تسجيله للوقائع، ويشير كذلك إلى أن تشرشل كان مستاء من معاملة كتشنر غير الإنسانية وغير الرحيمة لضحاياه من الدراويش، الذين احترم تشرشل ثباتهم فى المعارك وشجاعتهم النادرة، والقارئ للكتاب سيلاحظ كيف مزج تشرشل معلوماته العسكرية بأسلوبه الأدبى الشيق فى وصف المعارك، بما تتضمنه من تفاصيل دقيقة.

■

شرفات ونوافذ

فاروق عبدالقادر

القاهرة: دار العلوم للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦، ٢٢٣ صفحة



التحية التى يقدمها الناقد الكبير فاروق عبدالقادر إلى نجيب محفوظ تعود إلى سنوات خمس مضت، حين بلغ الأستاذ التسعين، وفى عديد من كتبه كان محفوظ حاضراً بدراسة عن عمل جديد أو رؤية نقدية، وهو فى هذه التحية يلقى ضوءاً على واحد من ملامح الأديب الراحل الإنسانية والروائية ونعنى به الحس الفكاهى، أو على حد تعبيره «ابن البلد المولع بالنكتة والفكاهة، الملتفت للمفارقة فى حياته وأعماله على السواء»، وللتدليل على هذا الملمح، يقدم شهادة للدكتور أدهم رجب أحد رفاق صبا محفوظ وشبابه، كما يشير إلى بعض من أعماله: الثلاثية وخان الخليلى وصباح الورد، وغيرها.

وأكثر ما يلخص رأيه فى «لوحات» إبراهيم أصلان التى يتضمنها كتابه «خلوة الغلبان» هذه العبارة التى يختتم بها مقاله: فى زمن سيادة الكتابة الركيكة والرثة، ذات الصياغة المعتمة والمنطفئة، نجد هنا كتابة جميلة نضرة، مدققة مقتصدة، تنأى عن الثرثرة والتزيد، نأيها عن القبح والفجاجة، كتابة قادرة على أن تشيع حالة من البهجة، دون أن تغفل لحظة، عما يموج به الواقع من فساد وتناقض، إن عذوبة الكتابة جديرة بعذابها.

وأما بهاء طاهر، وهو مثل أصلان والبساطى ومحفوظ ومنيف وسعد الله ونوس والطيب صالح، ممن يحظون برعاية نقدة ومحبة حقيقية لدى المؤلف، فإنه يتناول كتابة «فى مديح الرواية» الذى يتناول فيه بهاء طاهر عدداً من الروايات والروائيين ممن أحب، لكنه يجد مناسبة ما ليحدثنا عن قصته الجميلة «أنا الملك جئت» المعارضة لقصة يحيى حقى «قنديل أم هاشم» كاشفاً عن أوجه شبه وتعارض خصوصاً بين بطليها «فريد» و«إسماعيل»، فى علاقتهما بالغرب وبالمرأة، ومساحات الشك واليقين بداخل كل منهما.

ثمة صوت أدبى آخر، من جيل تالٍ، يحظى باهتمام الناقد الكبير ومتابعته، صوت القاص محمد المخزنجى، منذ صدور مجموعته «الآتى» فى ١٩٨٤، و«حتى لحظات غرق جزيرة الموت» فى ١٩٩٨، ومروراً بـ «رشق السكين» ١٩٨٤، و«الموت يضحك» ١٩٨٨، و«سفر» ١٩٨٩، و«البستان» ١٩٩٢...

يتابع الناقد بعضاً من قصص «أوتار الماء»، وهى تكشف عن الطاقات الكامنة فى الكائنات والتى تتجلى فى لحظات بعينها، دون أن يكون لذلك تفسير علمى أو منطقى، ويستفيد القاص فى رصده لتلك الحكايات الغريبة من دراسته للطب النفسى ودراساته العليا فى الطب النفسى البديل، ثم أسفاره إلى أماكن عدة من العالم يجمع منها وجوهاً وملامح.

ربما كانت النغمة النشاز فى هذه المجموعة من الدراسات هى ما يكتبه عبدالقادر عن مجموعة علاء الأسوانى «نيران صديقة» التى يكشف عنها أنها مجرد تجميع لكتابات قديمة، فى سعى من المؤلف للاستفادة من نجاح رواية «عمارة يعقوبيان» بصورة استثنائية، وبدورها لا يرى فيها الناقد كثيراً مما يستحق الالتفات، فقد استفادت من غياب روايات جادة جديدة، وعمدت إلى ما يعرف بـ «أدب التلفيق»، فضلاً عن أنها جمعت شيئاً من كل شىء: جنس وشدة وفساد وإرهاب واستبداد وخيانة وفقر.. إلخ.

■

ما بعد الصفاقة

نورمان فنكلشتاين

القاهرة: إصدارات سطور، ٢٠٠٦، ٢٨٨صفحة



مؤلف الكتاب هو نفسه صاحب كتاب «صناعة الهولوكوست»، والذى اعتبره أسطورة تم الترويج لها لتحقيق أهداف إسرائيل الاستعمارية الاستيطانية، وهو هنا يقدم صوراً أخرى من السلوك الإسرائيلى الوحشى، استناداً إلى تقارير قدمتها جماعات متنوعة من منظمات حقوق الإنسان ذات الصلة بالأمم المتحدة راقبت السلوك الإسرائيلى ضد الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة، حيث يؤكد أن سجل إسرائيل فى مجال انتهاك حقوق الإنسان استناداً إلى هذه التقارير يدعو للعجب، وإزاء هذه الانتهاكات فإن المحكمة العليا فى إسرائيل أضفت منطقاً على جميع الأفعال والعمليات الخلافية للسلطات الإسرائيلية، فقد أضفت شرعية على اختطاف الرهائن وعمليات القتل العشوائى (بدءاً من نوفمبر ٢٠٠٣ قتل ما يزيد على ٢٠٠٠ فلسطينى فى الانتفاضة الراهنة غالبيتهم من المدنيين) وينقل عن مراسل نيويورك تايمز قوله: شاهدت أطفالاً يتعرضون لإطلاق النيران فى صراعات أخرى غطيتها، لكننى لم أشاهد أبداً جنوداً يستدرجون الأطفال كما تستدرج الفئران للمصائد ويقتلونهم للتسلية.

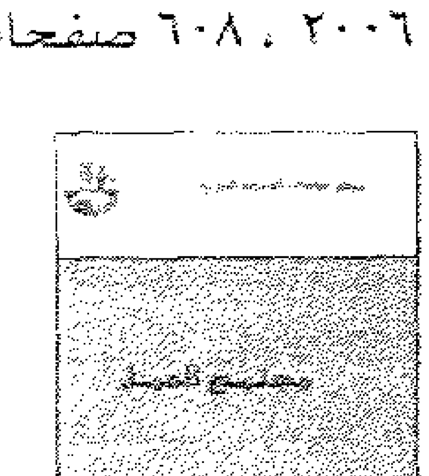
وتقدر منظمة «رايتس ووتش» عدد من خضعوا للتعذيب من الفلسطينيين منذ بدء الاحتلال بعشرات الآلاف، وأن التعذيب وفقاً للمنظمة ذاتها يتم بشكل منهجى روتينى، وإسرائيل هى الدولة الوحيدة فى العالم التى تلجأ إلى إزالة المنازل عقاباً لمن تصفهم بالإرهابيين، وهى «الدولة الديمقراطية الوحيدة» التى تعتبر التصفيات السياسية عمليات مشروعة، وهى لا تقدم أية قرائن تدعم اتهاماتها لمن تستهدفهم عمليات الاغتيال، ومع ذلك تجد إسرائيل دائماً فى العالم من يبرر أفعالها ويدافع عنها ضد أى عقوبات فى المحافل الدولية، يتألف الكتاب من قسمين: القسم الأول يتناول معاداة السامية الجديدة والقديمة، ويضم ثلاثة فصول، وتحت عنوان أضخم أسطورة روجت يدور القسم الثانى الذى يضم خمسة فصول: أسلحة ملوثة، ثلاث طلقات، فى مؤخرة الرأس، أبو غريب إسرائيل، عودة التتار، إسرائيل آفة الأمم.

■

مجتمع العمل

مصطفى الفيلالى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ٦٠٨ صفحات



عمل الإنسان محور هذا الكتاب، مورد رزق، وقيمة فردية، وقضية اجتماعية، وهم سياسى، ومحور للنظر الفكرى، وحقل للتدبر والمساءلة، يتناول بعض جوانب القضية من زوايا ثلاث ولا يختزلها فيها جميعاً: زاوية الإقرار بمركزية العمل فى مراتب العناية والممارسة من جانب أنظمة الحكم وهياكل المجتمع؛ وزاوية الاعتبار لما يحتله عمل الإنسان من أولوية فى بناء التضامن الاجتماعى، وفى ترشيد سياسة التنمية، وفى توثيق سعى الإنسان العربى بالقيم المرجعية؛

وأخيراً زاوية العجز النظرى الذى يحيط بقضايا العمل فى أوطاننا العربية، وما يحتاجه بحتها من جهد فكرى متعدد المساهمات.

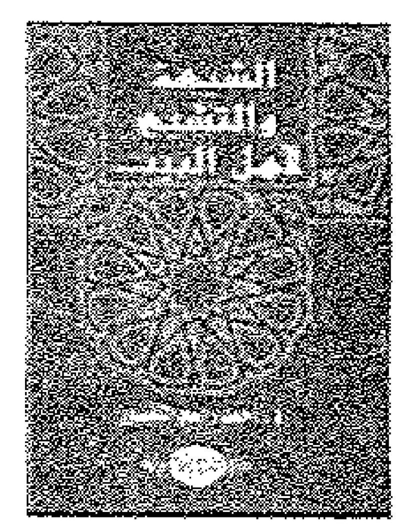
والمؤلف مصطفى الفيلالى كاتب وباحث، وقائد نقابى من مواليد تونس ١٩٢١، حاصل على درجة «الأستاذية» من الجامعة الفرنسية ـ باريس، وهو نائب ووزير سابق وقيادى فى الحزب الاشتراكى الدستورى، وفى الاتحاد العام التونسى للشغل.

من مؤلفاته: «الإسلام والنظام الاقتصادى الدولى الجديد»، «المغرب العربى الكبير: نداء المستقبل»، إضافة إلى دراسة عن سياسة توطين العشائر البدوية فى المملكة العربية السعودية ودراسات ومقالات منشورة فى مجلة المستقبل العربى ومساهمات فى ندوات مركز دراسات الوحدة العربية، والجامعة العربية.

الشيعة والتشيع لأهل البيت

أحمد راسم النفيس

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦، ٢٤٧ صفحة



يحاول المؤلف ـ وهو شيعى ـ تقريب المذهب الشيعى من الناس وخصوصاً جمهور السنة، مستنكراً الخلافات الناشئة بين أبناء الأمة الإسلامية من أتباع المذهبين، ومؤكداً على أن الأصل الذى يستقى منه المذهبان أفكارهما واحد، وهو القرآن والسنة النبوية المطهرة، ويشير إلى أن هذا الخلاف فتنة، يغرسها أعداء الأمة وأعداء الدين كى يفتتوا وحدة المسلمين ويسيطروا عليهم، ومنذ البداية يسعى المؤلف إلى نفس ما يتردد حول المذهب الشيعى بين عامة الناس، كما أنه يضع فتاوى شيوخ الأزهر مثل الشيخ شلتوت وغيره، والتى تجيز التعبد على المذهب الشيعى فى مقدمة كتابه.

يتألف الكتاب من تسعة فصول، يتناول الأول منها أصل الشيعة ومعناها فى التاريخ والسنة النبوية، ويقدم نماذج عديدة على صحة التشيع للإمام على بن أبى طالب ومن جاءوا بعده من التاريخ الإسلامى، ويركز بالذات على تعريف الشهرستانى للشيعة، خصوصاً مقولة: من شايع علياً وأولاده وقالوا بإمامته، مازجاً بين الاثنين فى رباط لا ينفصم، أى أن يصبح الالتزام بولاية على وولده هو عنوان التشيع لأهل بيت رسول الله.

ثم يستعرض الأدلة التى تربط بين الولاية والإمامة، وكلها مستقاة من كتب الأحاديث الصحيحة، وإن كان بعض من علماء السنة قد ردوا عليها فى كتبهم. وفى الفصل الثانى يتحدث عن مفهوم الإمامة، مشيراً إلى أن الشيعى حين يطلق صفة الإمام هكذا، فإنه يقصد بها على بن أبى طالب، مبيناً فضل علم على وأخلاقه على سائر العلماء الذين يأخذ عنهم السنة والشيعة جميعاً.

وفى الفصل الثالث يتناول بعضاً من ألوان الاضطهاد الذى لاقاه الشيعة فى أعقاب رحيل الإمام على بن أبى طالب، مشيراً إلى أن أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز كان هو الذى أوقف سب على بن أبى طالب من فوق المنابر فى صلاة الجمعة، وأمر بقراءة الآية الكريمة: إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى.

وفى الفصل الرابع يتحدث عن أئمة أهل البيت الاثنى عشر حسب المعتقد الشيعى، وهم الإمام على والحسن والحسين وعلى زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وموسى الكاظم وعلى الرضا ومحمد الجواد والهادى والحسن العسكرى ومحمد بن حسن العسكرى.

وفى الفصل الخامس يتحدث عن نشأة المذاهب الإسلامية والاجتهاد عند الشيعة، ويبين مواقف الإمامين أبو حنيفة ومالك من الاجتهاد عند الشيعة، وفى الفصل السادس يتناول أركان التوحيد عند الشيعة، وهو التوحيد والنبوة والإمامة والعدل ومفهومى الرجعة والغلو، ثم يتحدث عن الأمور الأخلاقية بين المذهبين خصوصاً ما يتعلق بزواج المتعة وولاية المرأة على نفسها والطلاق والميراث وبعض أحكام الصوم والجمع بين الصلاتية، ويرد فى الفصل الثامن على الشبهات المثارة حول الشيعة مثل التقية ومصحف فاطمة وتحريف القرآن وسب الصحابة، وفى الفصل الأخير يقدم تفصيلاً للمذاهب الشيعية مثل الإمامية والزيدية والإسماعيلية والعلوية.

روائع الخط العربى بجامع البوصيرى

إعداد: خالد عزب ـ محمد الجمل

القاهرة: مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٦، ١١٧ صفحة



ينفرد جامع البوصيرى بمكانة خاصة بين مساجد الإسكندرية، وذلك لاشتماله على كم هائل من العناصر الزخرفية والكتابات الأثرية، وقد تم تجديده على يد محمد سعيد باشا بن محمد على (١٨٥٤ ـ ١٨٥٧)، حيث كان بمثابة زاوية أنشأها يحيى باشا للعارف بالله سيدى محمد الأباصيرى، ثم قام محمد سعيد باشا بهدمها وبناء الجامع الحالى الذى شهد عديداً من الترميمات فى عهد الخديو توفيق عام ١٨٨٩.

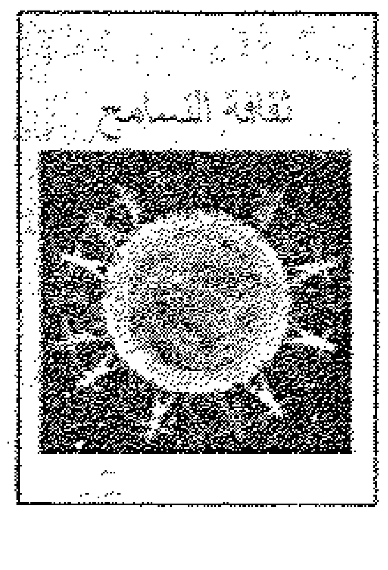
أما صاحب المسجد فهو محمد بن سعيد بن حماد بن عبدالله بن صنهاج، ولد فى دلاص عام ٦٠٨ هـ وتوفى بالإسكندرية عام ٦٩٧ هـ، ولذلك يعرف بالدلاصى، واشتهر بالبوصيرى نسبة إلى أبو صير، واشتهر بين شعراء القرن السابع عشر، وهو من كتب قصيدة البردة الشهيرة فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد كتب أمير الشعراء أحمد شوقى معارضة لها هى قصيدته «نهج البردة».

والكتاب يتضمن وصفاً للمسجد والنقوش التى كتب بعضها بالفارسية وبعضها الآخر بالعربية، حيث يصف الكتاب النقوش فى كل المواضع ويقدم ترجمة لما كتب منها بالفارسية ويبين جمالياتها وثراءها، ومناسبة معانيها لكل موضع كتبت فيه، سواء عند القبة أو المآذن أو مواضع الوضوء أو النقوش الموجودة بالسقف وعلى الجدران وشاهد القبر، واختلاف الخط الذى كتبت به النقوش من موضع لآخر وفلسفة هذا الاختلاف، ويحتوى الكتاب على عشرات الصور والرسوم التوضيحية للمسجد ونقوشه.

ثقافة التسامح

تحرير: هانى عياد

القاهرة: الهيئة القبطية الإنجيلية للخدمات الاجتماعية، ٢٠٠٦، ١٩٥ صفحة



يرى كثير من علماء الاجتماع أن ثقافة التسامح التى عرف بها المجتمع المصرى قد انحسرت لصالح سلوكيات العنف والتشدد.

ويدللون على ذلك بما يمكن ملاحظته فى الواقع المصرى من تصاعد لقيم التعصب وانفلات انفعالات الغضب إلى حدود غير مسبوقة تهدد المجتمع الآن وفى المستقبل.

هذه المقولات كانت مبرراً كافيا لعقد مؤتمر فى إطار منتدى حوار الثقافات بالهيئة القبطية الإنجيلية للخدمات الاجتماعية حول ثقافة التسامح، وشاركت فيه مجموعة مميزة من الخبراء والمعنيين بالموضوع ويمثل هذا الكتاب تلخيصاً لما دار فيه، وقد انتهى المشاركون إلى حقيقة مهمة مؤداها أن ثقافة التسامح تزدهر فى أوقات الرواج الاقتصادى، وارتفاع مستويات تشغيل الجهاز الانتاجى، واقامة فرص عمل لقطاعات واسعة من الناس وحصار المردودات السلبية للبطالة.

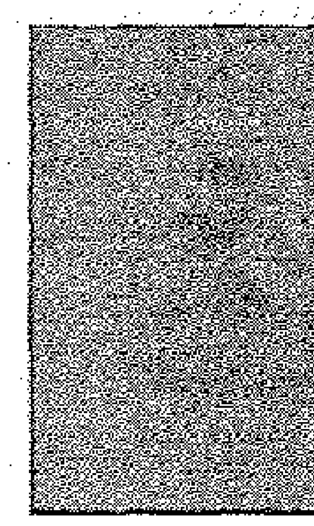
وهو ما يقلل التنافس والصراع على فرص العمل لأنها ببساطة متوفرة، خصوصاً إذا صاحب الإزدهار الاقتصادى سياسات اجتماعية فعالة وتوزيع عادل للدخل يتيح حداً أدنى من حياة كريمة للفقراء.

وإذا ترافق أيضاً مع وجود نظام ديمقراطى يتيح المشاركة السياسية ويوفر مستويات معقولة من الشفافية التى تمنع الفساد، أو تواجد آلية قوية لمكافحته.

فى مناخ من هذا النوع، وفى توافر شروط على هذا القدر من الأهمية، تتراجع الحساسيات الطائفية والعرقية، ويتجه المجتمع نحو قدر أكبر من التآلف والتوافق على أهداف وطنية كبرى.

الوثائق السرية لطه حسين

عبدالحميد إبراهيم
القاهـــرة: دار الشـــروق، ٢٠٠٦، ١٠٧٨صفحة



تبدو الأهمية البالغة لهذا الكتاب غير المسبوق ليس فقط بما يتضمنه من وثائق وأسرار لم يسبق نشرها تضيء جوانب مهمة من حياة عميد الأدب العربي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، منذ أطل على الواقع الفكري والأدبي العربي بكتابه الإشكالي «في الشعر الجاهلي»، أو ما يحتويه من رسائل متبادلة بين طه حسين ورموز عديدة من مفكري عصره مصريين وعربًا، وإنما - وهذا هو الأهم - كونه يمثل شهادة ثرية على زمن أسس لنهضة فكرية وأدبية عربية مازال مثقفونا يقتاتون عليها حتى الآن.

وقد كانت هذه الرسائل في حوزة زوج ابنة طه حسين الدكتور محمد حسن الزيات وزير خارجية مصر الأسبق، وهي لا تفيد فحسب كونها وثائق على وشائج أدبية وإنسانية جمعت العميد بنفر من معاصريه في مصر والسعودية والمغرب وسوريا والسودان وكندا وباريس وأمريكا وإيطاليا وغيرها، وإنما باعتبارها تسجيلا لواقع سياسي وأدبي واجتماعي عاشته مصر في حقبة مليئة بالتحولات والمبادرات.

نعرف مثلا في رسالة من إحسان عبدالقدوس إلى طه حسين كيف دار الصراع بين أنصار الأدب القديم والجديد في أواسط الستينيات، وكيف كان النظر إلى هذا اللون من الأدب «المكشوف» على حد تعبير البعض، وكيف تدخلت العوامل السياسية وتركت تأثيرها في مواجهة هذا الأديب أو ذاك، فإحسان الذي عرف باتجاهاته الليبرالية المناوئة لسيطرة العسكر على مقاليد الحكم في أعقاب يولية ١٩٥٢، والذي طالبهم صراحة بالعودة إلى الثكنات، لم يلبث أن تعرض للحصار المهني والملاحقة الأدبية، فأعفي من منصبه بوصفه رئيسا لمجلس إدارة «روزاليوسف».

وقد بدأت الحملة ضده باستجواب قدمه أحد النواب ضد قصة إحسان الشهيرة «أنف وثلاث عيون» يصفها فيه بأنها لون من الأدب الفاضح الذي يسيء إلى القيم والأخلاقيات، فما كان من إحسان إلا أن «هُرع» إلى لجنة القصة بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والتي تضم أدباء مشهورين برئاسة يوسف السباعي.

وعلى الرغم من تأييد اللجنة لموقف إحسان وكتاباته، إلا أنها رفضت أن تسجل موقفها هذا في محضر رسمي دعما للمؤلف، بما يعني أن ثمة شيئا كان يدبر لإحسان عبدالقدوس في الخفاء، لا صلة له باتجاهاته الأدبية، وإنما بمواقفه السياسية وقناعاته الفكرية التي اصطدمت بأركان النظام في ذلك الوقت.

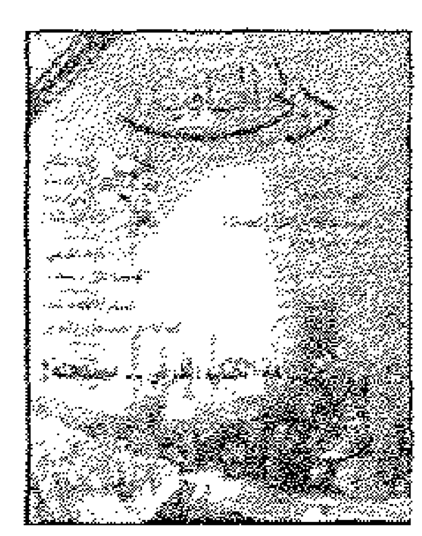
على هذا النحو يمكن قراءة الرسائل المتبادلة بين العميد ومعاصريه: العقاد ومحمد مهدي الجواهري وتوفيق الحكيم وخليل مطران وعبدالرزاق السنهوري والشيخان على عبدالرازق ومصطفى عبدالرازق ومحمد كامل حسين ومحمد مندور وسليم حسن وسهير القلماوي وآخرين.

شهادات على عصر عاصف بالتحولات والانعطافات السياسية والأدبية، وهي رسائل تفيد الدرس الأدبي والسياسي والاجتماعي جميعا، وتلقي أضواء مهمة على هذا العصر.

دوريات

دبي الثقافية

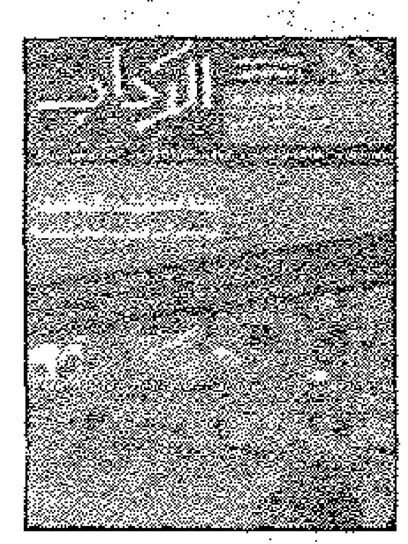
دبي: الصدى للصحافة والنشر



يتضمن عدد أكتوبر من المجلة دراسة عن أبواب القاهرة التي وصلت إلى ٧١ بابًا وجدها نابليون بونابرت حين غزا مصر في ١٧٩٨، وفي بانوراما تحقيق عن سوق في بلجيكا أنشئ قبل ألف عام، وآخر عن بيت التراث في مدينة دبي، ويكتب رجاء النقاش عن قضية نجيب محفوظ وأولاد حارتنا، كما يتضمن العدد حوارا مع أديب نوبل أجراه رياض توفيق قبل رحيل محفوظ بأيام، ومن صنعاء حوار مع رئيس الهيئة اليمنية للكتاب يؤكد فيه أن أزمة الكتاب العربي مستفحلة، وحوار آخر مع السيناريست وحيد حامد صاحب فيلم «عمارة يعقوبيان» يتحدث فيه عن توابع الهجوم على الفيلم، بالعدد أيضا دراسات في الفن التشكيلي والأدب والفنون والعمارة، إضافة إلى أبواب المجلة الثابتة.

الآداب

بيروت: دار الآداب



ملف العدد تحت عنوان: أيها المثقف الناشط.. كيف قرأت الحرب على لبنان؟ يتضمن شهادات من مثقفين عرب ولبنانيين وأجانب منهم نعوم تشومسكي ومنير شفيق ومنى حرب ومنذر سليمان وحميد دباشي وسيد البحراوي ورنا بشارة وغيرهم.

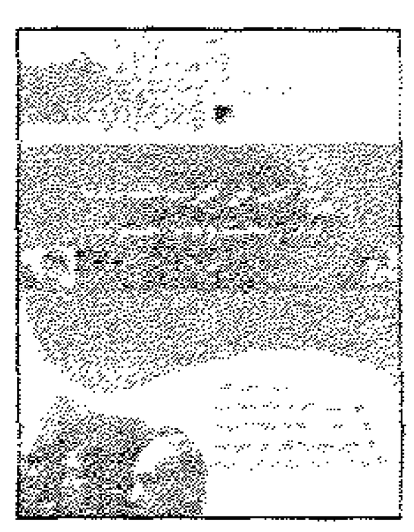
كما يجري محمد زيدان مقابلات مع ناجين من الحرب يحكون فيها عن تجارب مروعة.

وتكتب كرستين شايد عن مقاطعة الشركات الداعمة للعدو الصهيوني، وتقدم دليلاً بأسماء أبرز الشركات الداعمة للعدو الصهيوني.

وفي قسم المقالات والأبحاث يكتب أسعد أبو خليل عن نظرية المؤامرة، وبسام أبو غزالة عن أزمة العمل القومي العربي، وكرستين شايد عن يوميات الحرب، ويكتب جوئل بنيين عن حرب لبنان وقوى السلام الإسرائيلية.

مـــــدار

عدد خاص عن الحرب على لبنان

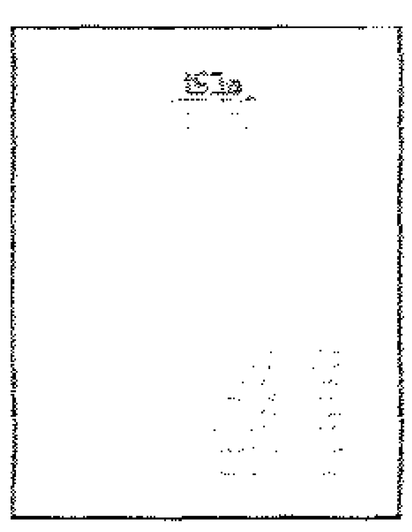


صدر حديثا عن المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية «مدار» عدد خاص من فصلية «قضايا إسرائيلية» (العدد ٢٣)، كرس معظم مواده لمتابعة مجريات ونتائج العدوان الإسرائيلي الأخير على لبنان، وما واكبه من مفاجآت، وما خلفه من حراك وتساؤلات على المستويات الإقليمية والدولية، وعلى الصعيد الداخلي الإسرائيلي، في محاولة لاستشراف ما قد تفرضه نتائج الحرب من تغييرات إستراتيجية وسياسية وعسكرية في المنطقة.

ويكتب سلمان ناطور مدير التحرير، في تقديمه للعدد: «هذا العدد نكرسه لهذه الحرب ونحن ندرك تماما أنه لا يمكن نشر دراسات تحليلية وشاملة تكتب في خضم المعركة وتفتقد إلى النظرة الزمنية البعيدة التي توفر شمولية التحليل، ولكننا آثرنا عدم الانتظار لأن هذه الحرب أثارت كل الأسئلة حول طبيعة هذا الصراع.

مـــدى أخـــر

حيفا: مدى الكرمل للدراسات



يتضمن العدد الأخير من «مدى آخر» عدداً من الدراسات يدور معظمها حول علاقة الهوية بمعطيات وعلوم أخرى، منها مثلا مايكتبه جمال ضاهر عن فردانية الهوية واللغة، كما يكتب إسماعيل الناشف أستاذ الاجتماع في جامعة بيرزيت تحت عنوان «فتح الإبستيم عن فلسطين معرفيا» وتجلياتها في حداثة المعرفة.

ويكتب المحامي مروان دلال تأملات في سياق الغياب في القضاء الإسرائيلي»، محللا طبيعة القانون والدستور الإسرائيلي، ويتضمن العدد أيضا دراسة لميشيل فوكو عن نظام الخطاب.

وبالعدد أيضا مراجعات كتب لسهاد ظاهر وقراءة في كتاب محمود ممداني «المسلم السيئ، أمريكا الحرب الباردة وبذور الإرهاب» والذي يتعرض للممارسات الرسمية الأمريكية ضد الآخر.

كــــتب فرنســـية

Aux origines de la tragédie arabe

(عودة إلى أصول المأساة العربية)

René NABA
Bachari éditions, 2006, 261pp, 18euros.



حين تمسك بهذا الكتاب بين يديك فإن أول ما يتبادر إلى ذهنك تساؤل عن السبب الذي حدا بفنان الغلاف إلى اعتماد اللون الأسود في تصميمه، أهو الحداد المزمن أم عتمة المجهول المبهمة، أم تراهما الاثنين معا... وأي لون آخر يصلح لكتاب عن تجذر المأساة العربية في صحراء هذا الزمان القاحل؟

وعلى صفحات الكتاب «الأسود»، يشرح مؤلفه رينيه نابا، الخبير الإعلامي السابق لدى وكالة الأنباء الفرنسية، فصول خسارة العالم العربي لمعركة التحديث والانطلاق الاقتصادي في القرن العشرين، ليستديم بذلك إلى أجل غير مسمى عهد الخضوع والتبعية. وهو العهد الذي استمر مع بداية القرن الحادي والعشرين، إذ لم تلحق أية دولة عربية بعد بركب الدول الصناعية الجديدة المنتمية إلى العالم الثالث. ويبين المؤلف كيف ازداد الأمر سوءا مع الوقت. فالدول العربية، التي ظلت لأزمنة متلاحقة تلعب دورها المسالم في إمداد القوى الصناعية الغربية باحتياجاتها من الطاقة، أو في تقديم التسهيلات العسكرية للجيوش الأجنبية، هاهي اليوم بين المطرقة والسندان: مطرقة الدعوة الديمقراطية الجبرية التي تفرضها إدارة المحافظين الجدد بزعامة جورج بوش، وسندان التنامي المطرد للأصولية الإسلامية.

ويرى الكاتب أن الخطأ الأكبر الذي ارتكبه الغرب في هذا السياق هو أنه قد أراد دوما التعايش مع عرب مستأنسين وخاضعين كما تعودوا دوما أن يكونوا منذ عهود الاستعمار. وعلى ذلك، كان رد فعل الغرب إزاء ظهور الزعامات الوطنية العربية والإسلامية أن قام بمحاربتها ومحاولة تشويه صورتها، الأمر الذي أدى الى تجذر الصراع واحتدامه. كان ذلك نهج الغرب في علاقاته بزعماء مثل جمال عبد الناصر وياسر عرفات وكذلك محمد هداية مصدق في إيران. فعلى اختلاف توجهاتهم، فقد شبهتهم آلة الإعلام الغربية جميعا بهتلر. وبحركة سيمترية، كتلك التي تميز حركة منسوب الماء في الأواني المستطرقة، انزوت الحركات الوطنية لتحل محلها الدعوات الأصولية الإسلامية على اختلاف أطيافها الفكرية وتباين وجوهها وممثليها، من أسامة بن لادن إلى الإمام الخميني، ومن حماس إلى الجهاد الإسلامي.

هكذا يقدم رينيه نابا في كتابه الجديد تحليلا دقيقا وموثقا للتحديات الجيوسياسية والمناورات الإستراتيجية والإعلامية التي أدت في مجملها إلى ما آل إليه العالم العربي من انهيار. ويخلص نابا في نهاية كتابه إلى نتيجة قاطعة: «لكي يتم إقرار السلام في الشرق الأوسط، يجدر بالغرب أن يستفيد من دروس التاريخ وأن يقدم للعرب سلاما حقيقيا قوامه العدل بدلا من ذلك الاستسلام المقنّع في فلسطين، أو تلك التبعية العمياء كما في العراق».

■

Condoleezza Rice .La puissance et la grâce

(كوندوليزا رايس.القوة والألق)

Joël MICHELParis, LA TABLE .RONDE, 2006, 254pp, 17euros



هذا كتاب عن الافتتان بأنياب الأسد وهو متبسم.

وفيه يروي مؤلفه المؤرخ الفرنسي جويل ميشال سيرة سيدة صقور البيت الأبيض، منذ كانت بعد تلك الطفلة السمراء الصغيرة عميقة التدين شديدة التعقل، التي نشأت بولاية آلاباما في أوج انتشار ممارسات التمييز العنصري. ويعود الكتاب إلى الماضي، ليبرز أهم الملامح الشخصية لتلك الصبية الطموح التي كانت وحيدة أبويها، والتي تعددت مواهبها في مجالات شتى: فمن نبوغ دراسي إلى تفوق رياضي إلى إتقان للعزف على آلة البيانو،حتى أنها قد تمنت يوما- بحسب رواية الكاتب -أن تحترف العزف الموسيقي.

ويروي ميشال ما كان من تجلي نبوغها الدراسي مع الوقت، وما حققته من بطولات عدة في رياضة التزحلق الفني على الجليد. ويفرد الكاتب جزءا هاما من كتابه لقرار اختيار الآنسة رايس طريق التدريس الجامعي، ويبين كيف تتلمذت في هذا المجال على يد زوج السيدة مادلين أولبرايت. وهكذا يمضي الكتاب في رسم مسار «الفتاة النابغة»: فأينما مرت يحالفها النجاح ويعلو من أجلها صوت التصفيق. ويتوقف الكتاب عند أهم محطات رايس المهنية، وتحديدا عند فترة عملها كمستشارة مسموعة الرأي مطلوبة المشورة في إدارة الرئيس بوش الأب، وما هي عليه اليوم بوصفها الوزيرة الأكثر قربا إلى الرئيس بوش الابن. تلك هي كوندوليزا رايس بقلم فرنسي لا يوفر المديح. تلك هي أكثر بنات حواء نفوذا في عالم اليوم، التي يرسم لها الكاتب صورة تغلفها غلالة من الأناقة والبرود، ويحيطها بهالة من الغموض وكأنها بطلة إحدى الروايات التي تحكي قصة صائدي الأحلام البعيدة. ومن يدري؟ لربما صحت رؤية جويل ميشال عن كون الآنسة كوندي، مع كل ما حققته من نجاحات، ما تزال بعد في منتصف طريقها الصاعد إلى المجد.

■

Ségolène Royal décryptée de A à Z

(سيجولان رويال من الألف إلى الياء)

Laurent PFAADT
Paris, CITY éditions, 2006, 252pp, 14euros.



«ها قد حان زمان النساء»، تلك هي الجملة القصيرة التي قفزت إلى ذهن سيجولان رويال وهي تلقي بنفسها في خضم معمعة الانتخابات الرئاسية الفرنسية. ولكن هل تتمتع صاحبة هذا الوجه الهادئ اللطيف، التي فتنت وسائل الإعلام ومؤيدي الحزب الاشتراكي، بالقامة السياسية اللازمة لشغل منصب رئيس الدولة؟ وللإجابة على هذا السؤال، يعيد مؤلف هذا الكتاب رسم مسار حياة سيجولان رويال،ابنة ضابط الجيش التي دخلت إلى المعترك السياسي قبل أكثر من عشرين عاما، حينما بدأت عملها في إدارة معلمها الأول الرئيس الراحل فرانسوا ميتران.

ومن وراء غلالة رقيقة من البراءة المحببة، تتبدى مواهب مرشحة الحزب الاشتراكي كعقل يجيد التخطيط على رقعة الشطرنج السياسي، وخبيرة محنكة في تسديد الضربات الإعلامية. كما أن شخصيتها تبدو عامرة بالمتناقضات: فهي مناصرة قوية لتحرر المرأة ولكنها أيضا شديدة الارتباط بالقيم الكبرى التي تقوم عليها الأسرة، وهي دائمة السخرية من طبقة السياسيين التقليديين على الرغم من كونها قد درست بمؤسسة الإدارة الوطنية،و هي مؤسسة فرنسية حكومية مخصصة لتأهيل المشتغلين بالعمل العام لشغل المناصب القيادية. ويدخل في باب الجمع بين الأضداد أيضا تحلي رويال بتمام الرقة في الوقت الذي تتجلى فيه قدراتها الجهنمية على التشهير بأعدائها.

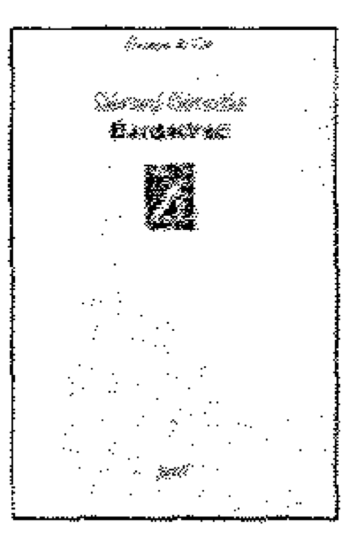
وهكذا، يرسم هذا المعجم الشخصي مسار السيدة الطموح من الألف إلى الياء، ويورد بحسب الترتيب الأبجدي أهم الكلمات التي تعد بمثابة مفاتيح لطروحاتها السياسية الكبرى. ولعل أهم ما يميز هذا الكتاب هو الموضوعية التي يرتكز عليها في رسم صورة وسط لسيجولان رويال، فلا هي تميل إلى المجاملة الفجة ولا تجنح إلى النقد المترخص، مع الاستناد في كل رأي وتحليل إلى تصريحات سيدة الحزب الاشتراكي.

■

Bardadrac

(كراكيب)

Gérard GENETTE
Paris, Seuil, 2oo6, 452pp, 21euros.



هذه هي «كناسة دكان» الناقد الفرنسي الكبير جيرارجونيت.

والكتاب، وإن لم تكن له نفس القيمة التعبيرية التي تجلى عنها قلم يحيى حقي - يذكرنا بنفس حالة استحضار ذكريات الماضي بروح مشبعة بخفة الظل ورقة العاطفة وحدة البصيرة. أما عنوان الكتاب، فهو عبارة عن كلمة لا وجود لها في معاجم الفرنسية، إذ هي من اختراع إحدى صديقات المؤلف، التي كانت تشير بها إلى ركام الأشياء التي تمتلئ بها حقيبة يدها الكبيرة. وهو ما يعني أننا سنجد في هذا الكتاب خليطا من كل الألوان والأشكال: فمن ذكريات الطفولة والصبا، وأفكار سن الشباب والتزاماته السياسية، وصولا إلى بعض التأملات الخاصة بالمجتمع المعاصر، مع النظر في أنماطه الخطابية وقوالبه الفكرية، فضلا عن إبراز بعض الوجوه الثقافية الهامة مثل الناقد الفرنسي الراحل رولان بارت والأديب الأرجنتيني جورج لويس

كتب فرنسية

بورهيس. وإلى جانب ذلك كله ثمة حديث عن شغف جونيت بالمدن والأنهار والنساء والموسيقى الكلاسيكية والجاز، وبالطبع هناك الكثير من الملاحظات الخاصة بالأدب واللغة، فضلاً عن إضاءات نقدية لاذعة حول الخطاب الإعلامي الراهن. ثمة فيض من المرح والسخرية يسرى بين سطور هذا الكتاب كسريان الدم فى العروق، وهى سمة تجعله قريب الشبه بالقاموس الساخر الذى ألفه الأديب الفرنسى جوستاف فلوبير حول أهم الأفكار البالية فى المجتمع، وهو قريب أيضا من كتاب جورج بيريك «أنا أتذكر...».

إنه باختصار كتاب شيق يقطف من كل بستان زهرة.

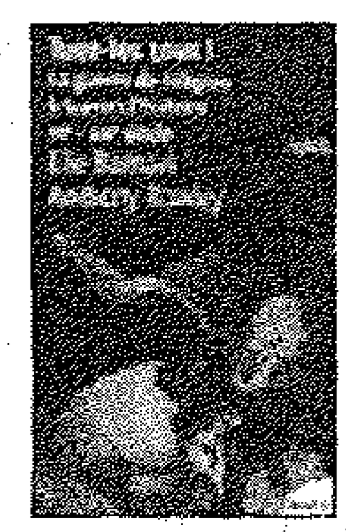
■

Tuez-les tous! La guerre de religion à travers l'histoire VIIe-XXIe siècle

(اقتلوهم أجمعين! الحروب الدينية عبر التاريخ من القرن السابع إلى القرن الحادى والعشرين)

Elie BARNAVI-Anthony ROWLEY

Paris, Perrin, 2006, 149pp, 6euros.



ها قد عاد الحديث مجددا عن الحروب الدينية.فهذا كتاب حسن الحظ، إذ يدفع به سياق الأحداث الراهنة إلى دائرة الضوء، كما أن اسمى مؤلفيه من عوامل إثارة الاهتمام به. فهو نتاج تعاون بين خبير الدراسات اليهودية ايلى برنافى،الذى كان سفيرا لإسرائيل لدى فرنسا، وأستاذ العلوم السياسية أنتونى رولى،المتخصص فى تاريخ القارة الأوروبية.

ويعرف الكتاب فى مقدمته مفهوم الحرب الدينية. تلك الحرب التى ترتكز فى دوافعها الظاهرة على علاقة البشر بالرب. وهى أيضا الحرب التى بدت منذ القرن السادس عشر، كرفض عنيف لفصل الشأن السياسى عن الشأن الدينى، وهو الفصل الذى يعد اليوم بمثابة الركيزة الأساسية للدولة العلمانية الحديثة. وفى معرض الحديث عن ملامح الحرب الدينية، يبين الكاتبان ما تتسم به من عنف مطلق فى مواجهة عدو لا يمكن تصور التعامل معه إلا بالإبادة أو الإخضاع، وهما يضربان المثل فى هذا السياق بالحرب التى يشنها اليوم جورج بوش على بن لادن، وكذلك بالحرب التى شنها فى فرنسا القرن السادس عشر البروتستانت بقيادة الأميرال «دو كولينيى» ضد الكاثوليك.

ويتناول الكتاب سرد القصة الأزلية المقيتة للحرب الدينية، إذ هى حرب شاملة ضارية، تتخذ من الحرب الأهلية وسيلة، وينتج عنها الدمار الشامل للدولة التى تقع تحت براثنها. ومن خلال الفصول التسعة التى يتكون منها الكتاب، يقوم إيلى برنافى وأنتونى رولى بإلقاء الضوء على أهم النزاعات الدينية الكبرى بدءا بالقرن السابع الميلادى،وانتهاء باعتداء الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، ومرورا بحمى الحروب العقائدية فى فرنسا وألمانيا، وثورات انجلترا، وحرب الأعوام الثلاثين التى شملت أوروبا، وجحيم البلقان فى العصر الحديث.

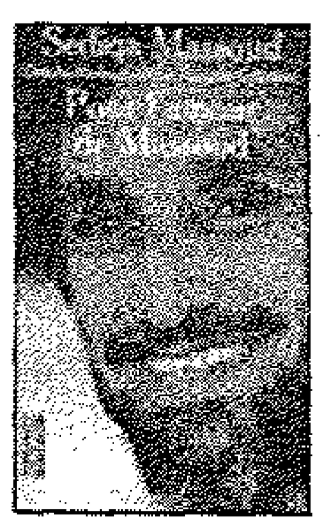
■

Pour l'amour de Massoud

(محبةً فى مسعود)

Sediqa MASSOUD, Cheqeba HACHEMI, Marie-Françoise COLOMBANI

Paris, Pocket, 2006, 276pp, 6.60euros.



هذا كتاب تروى فصوله أرملة أحمد شاه مسعود، الرجل الذى ذاعت أخبار مقاومته المحتل السوفيتى فى معارك ضارية شهدتها فيما مضى جبال أفغانستان وشعابها، قبل أن يتحول مجرى الصراع ليضعه فى مواجهة عاصفة ضد قوات طالبان. إنها سيرة الرجل الذى رأت فيه كثير من الأقلام بطلا، وظلت حياته الشخصية لغزا إلى أن اغتيل فى التاسع من سبتمبر ٢٠٠١.

ويمثل هذا الكتاب الجديد شهادة استثنائية، إذ تروى فصوله السيدة التى أحبها مسعود وتزوجها فى سرية تامة، وأنجبت له ستة أطفال. وعلى مر صفحات الكتاب، تتكشف لنا جوانب خفية من شخصية الرجل، فنراه حين كان يعود أحيانا مهيض الجناح بفعل ضراوة المعارك، ونسمعه وهو يتحدث طوال الليل ليتحرر من ضغوطه. إنها صورة رجل ظل يحلم برؤية السلام ينشر جناحيه فوق بلاده، رجل عشق الشعر والأدب وتفانى فى حب أسرته. فالكتاب فى مجمله قصة حب فوق العادة، بطلها زعيم حربى حالم، قد تملكه حبه للحرية، وأثارت أخبار حياته ومماته اهتمام العالم. أما اليوم، فلا يبقى منه إلا صورة باسمة على غلاف كتاب وذكريات ذابلة فى قلب امرأة.

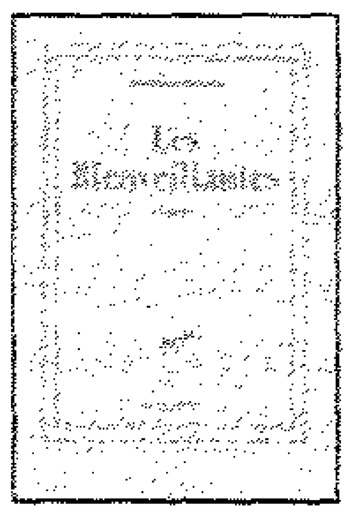
■

Les Bienveillantes

(الطيبات)

Jonathan LITTELL

Paris, Gallimard, 2006, 904pp, 25euros.



ماذا لو أمسك أحد النازيين القلم وسجل اعترافاته؟

فعلها جونتر جراس قبل بضعة شهور فقامت الدنيا ولم تقعد. لكنه أقدم على فعل البوح بوازع من التطهر والانعتاق. أما بطل هذه الرواية الملحمية الكبرى فيسجل اعترافه بصلافة الجلادين وبرودة أعصاب القتلة.

تلك هى الرواية الأولى للكاتب الأمريكى الشاب جوناثان ليتل الذى يكتب بالفرنسية. لكن دار نشر جاليمار التى رحبت بنشر الكتاب منذ اطلاعها على الصفحات الأولى من المخطوط، تأبى إلا أن تخلع عليه صفة «العمل الأدبى الضخم» قيمة وحجما، ولا تضاهيه إلا بأعمال كبار الخالدين، مثل ملاحم الشاعر الإغريقى «ايشيل» أو «ملاعين» المخرج الإيطالى «لوتشينو فيسكونتى».

وتقتفى الرواية سيرة شخصية مركبة، هى شخصية الدكتور «ماكسميليان آو»، أستاذ القانون الدستورى، الذى بدأ حياته العملية ضابطاً فى منظمة الشرطة العسكرية النازية، يقضى عمله برفع كفاءة «الأداء» فى المعسكرات. ومع نهاية الحرب العالمية الثانية، ينجح «ماكس أو» فى التسلل الى فرنسا ليبدأ حياة جديدة بهوية فرنسية مزورة. لكن الذكريات التى يحملها صدره تتكشف على الورق، حاملةً تفاصيل صاعقة تصور خفايا آلة الحرب الألمانية، والمقابر الجماعية بأوكرانيا، ومشاهد معركة ستالينجراد، وفظائع معسكر أوشفيتز، وهملر ذا الأصابع التى تحاكى المخالب حدة، وأدولف هتلر فى مخبئه تحت الأرض قبل انتحاره بثلاثة أيام.

ثمة أديب واعد وراء هذه الصفحات المسكونة بأشباح الماضى. أديب يجيد المزج بين تاريخ الإنسانية العام وتاريخ شخوصه الخاص. ومن خلال هذا المزيج المتجانس يطالع القارئ ألسنة نار وأعمدة دخان، ويشم رائحة لحم محترق وجثث متعفنة. ويهرب طوال الأيام التى تلى إتمامه القراءة من لقطات بعينها تظل تطارده كأرواح هائمة بين أرض الواقع وسماء الخيال.

وجدير بالذكر أن جوناثان ليتل قد اختار العمل ضمن بعثات الإغاثة الإنسانية فى سراييفو عام ١٩٩٣، لكى «يعاين ويعايش». بعد ذلك، عمل خبيرا لوجستيا فى برنامج «معا لمكافحة الجوع» فرنسيا لشروع، فمنسقا لعدة مشاريع إغاثية. وهكذا أمضى عامين متطوعا فى البوسنة، ثم ارتحل إلى الشيشان، ومنها إلى أفغانستان، فإلى رواندا والكنغو وسيراليون.

وطوال تلك الفترة الثرية بمشاهداتها وأحاسيسها، راح ليتل يلتهم كتب الأدب فيقرأ بالفرنسية والانجليزية والروسية: أعمال ستاندال وفلوبير وتاسيت وفوكنر وكافكا وفيتزجيرالد وتولستوى. وظلت فكرة روايته هذه تختمر فى رأسه طوال اثنتى عشرة سنة. وحينما شرع فى تحقيق حلمه الأدبى، بدأ بفترة خصصها للبحث والتوثيق استمرت عاما ونصف العام، أما عملية الكتابة فاستغرقت منه مائة واثنى عشر يوما وليلة، لم ينقطع خلالها عن العمل فى هدوء ومثابرة واستغراق، كاتباً بالقلم الرصاص على الورق، فلا ينتقل الى الحاسوب الا ليصف النص فى صورته النهائية. فمن ذا الذى يعمل اليوم بمثل هذا الشغف؟

لقد أحدث هذا العمل الأدبى الكبير دويا هائلا بصفحاته التسعمائة منذ صدوره فى أول سبتمبر، فهو أحد تلك الكتب النادرة التى تنبئ فور ميلادها بأنها ستصبح من كلاسيكيات الأدب، وهو العمل الوحيد الذى تم ترشيحه للفوز بأهم أربع جوائز أدبية فرنسية لهذا العام (جوائز جونكور، وفيمينا، و ميديسيس، ورونودو). وفى انتظار إعلان النتائج فى الأسبوع الأول من الشهر المقبل (نوفمبر ٢٠٠٦)، يحتفى النقاد كل يوم بصاحب «الطيبات»، ذلك الرجل العجيب،الذى لا يملك جهاز تلفاز، ولم يمارس فى حياته أية هواية أو رياضة. فإن أراد التسرية عن نفسه، فهو يأخذ صغاره للعب فى إحدى الحدائق العامة أو يجالس أمهم الطبيبية البلجيكية المتطوعة فى صفوف حركة «أطباء بلا حدود».

■

أمريكـــا حــين تســـتغيث

منذ خمس سنوات، وبينما كنت أرى مبنى التجارة العالمى ينهار أمام عينى فى نيويورك، كان التساؤل يلحُّ على: كيف سيكون العالم غداً، وبعد غد؟ لاشك أن الحياة تستمر رغم كل شىء إلى أن يرث الخالق الأرض ومن عليها. لكن الغالبية العظمى من الأمريكان فقدوا فى تلك اللحظات الهائلة أى يقين بأنهم سيشهدون شمس اليوم التالى. وهم لم يكونوا يتخيلون أنه ستمر خمس سنوات كاملة على الحدث. وأن أمريكا ستبقى أمريكا. والعالم سيبقى كما هو عليه.

فى ذلك الوقت بالتحديد، شعر المواطن الأمريكى العادى بأن بلاده تواجه أزمةً كبرى. كانت ملامح الأزمة وأسبابها موجودةً ابتداءً فى مختلف مفاصل (المنظومة) الأمريكية سياسياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً. بل يمكن القول أنها كانت تتشكلُ وتنمو عبر العقود الماضية من خلال تلك العلاقة التفاعلية بين النظرية والواقع. لكن بساطةَ أدوات قراءة الواقع لدى ذلك المواطن الأمريكى لم تمكّنه من رؤيتها. إضافة إلى هذا، خلقت الثقافة الجماهيرية السائدة (Public Culture) مناخاً إعلامياً لم يكن قابلاً لاستيعاب طروحات النخبة الأمريكية التى كانت تشير إلى ملامح الأزمة واعتبارها داخل إطار مايسمى بالتيار العام (Mainstream) لساحتى الثقافة والإعلام. لهذا بقيت تلك الطروحات المتقدمة محاصرةً فى الهامش الضيق على الجوانب الأكاديمية أو الحقوقية لذلك التيار.

فمنذ ثمانى سنوات وفى عام ١٩٩٨م تحديداً، كتب على سبيل المثال الناقد الأمريكى المؤرخ وعالم السياسة وخرّيج جامعة (ييل) الراقية Michael Parenti / مايكل بارينتيه) كتابه الشهير (America Besieged / أمريكا المُحاصَرَة)، وكان قبلها بسنوات نشرَ كتابه الآخر (Democracy for the Few / ديمقراطيةٌ للبعض فقط) الذى طُبع سبع طبعات. فى هذين الكتابين استشرف الرجل رؤيةً مبكرةً للأزمة التى تقود إليها بعض المكونات الفلسفية للمنظومة الأمريكية. كان هذا المحلل المتميز يشير إلى الإفرازات السلبية العملية التى بدأت تظهر خاصةً فى النظامين السياسى والاقتصادى، وتبعاً فى الأنظمة الاجتماعية والثقافية وماإليها. أما محور رؤيته فكان يتمثل فى استقرائه بأن هناك آليات أو (ميكانيزمات) داخل المنظومة تسمح وستسمح بشكلٍ متزايد لمجموعات قوى مركزية أن تفرغ الديمقراطية الأمريكية من مضمونها، وأن توظف البلاد بأسرها لتحقيق مصالحَ شخصية معينة أو لخدمة رؤية أيديولوجيةٍ محدّدة، أو للأمرين كليهما.

بقيت صيحة الرجل وأمثاله (جور فيدال، إدوارد سعيد، هوارد زن، نعوم تشومسكى وآخرين) علىٍ هامش الحراك الثقافى والسياسى الأمريكى إلى أن جاءت أحداث سبتمبر.

وهنا حصلت المفارقة. فبدلاً من أن تدفع الأحداث الهائلة المواطن الأمريكى العادى إلى التساؤل جذرياً عن مسبباتها الحقيقية. وبدلاً من أن تكون تلك الوقائع فرصةً لمراجعات كبرى تُحتِّمها مقتضياتُ العقل والمنطق. وقعَ المجتمع الأمريكى ضحيةً لأزمته الحضارية/الثقافية مرتين. مرةً حين ابتُلى بتلك الأحداث، ومرةً أخرى حين سمح كالعادةً بطغيان قيم التبسيط والسطحية والاجتزاء فى قراءة الواقع والتاريخ عند تفسير تلك الأحداث. وذلك حين أعطى الفرصة للإدارة الأمريكية، ومن ورائها اليمين الجديد المحافظ، باختطاف تلك اللحظة التاريخية كى تطرح إجابتها الخاصة وتفسيرها المحدد لما جرى نيابةً عن الأمة الأمريكية بأسرها.

لم يأتِ ذلك التفسير بطبيعة الحال من الفراغ، ولم يكن مبنياً على ردود الأفعال. وإنما على رؤية مركزية استراتيجية عمل اليمين الجديد المحافظ على بنائها لسنوات طوَيلة!. كانت إحدى خلاصات تلك الرؤية الأكثر شهرةً (مشروع القرن الأمريكى الجديد) الذىً صدر فًى شهر يونيو من عام ١٩٩٧م وتحته توقيع شخصيات معبّرة، منها للمفارقة (ديك تشينى) نائب الرئيس الحالى، (دونالد رامسفيلد) وزير الدفاع الحالى، (بول وولفويتز) رئيس البنك الدولى حالياً، (إليوت أبرامز) المساعد الخاص للرئيس بوش ومدير مجلس الأمن القومى خلال رئاسته الأولى وحالياً نائب مستشار الرئيس للأمن القومى، (جيب بوش) شقيق الرئيس وحاكم ولاية فلوريدا الأمريكية حالياً، (زلماى خليل زادة) سفير أمريكا فى العراق حالياً، (لويس ليبى) الذى كان إلى ماقبل أشهر رئيس هيئة موظفى نائب الرئيس ومستشاره الأول ثم استقال إثر فضائح عديدة، و(ستيف فوربس) ناشر مجلة (فوربس) المعروفة. ويمكن للقارئ أن يطلع على تفاصيل المشروع المذكور من مصدره بعيدا عن النقولات المشوهة على الموقع الخاص به (www.newamericancentury.org). كما يمكن للقارئ أن يطلع على معلومات أكثر عن نشاطات وحياة المذكورين أعلاه وغيرهم من أفراد مجموعات اليمين على الموقع الذى يرصدهم بشكل شامل على شبكة الإنترنت (شبكة اليمين) وعنوانه (http://rightweb.irc-online.org/).

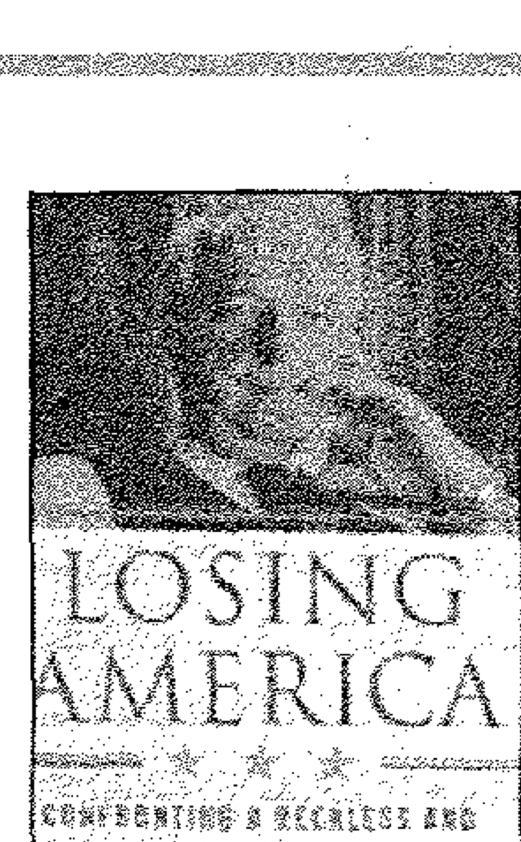
بناءً على تلك الرؤية اليمينية. ظهرت إلى الواقع السياسات والممارسات التى قامت بها الإدارة الأمريكية فى السنوات التالية فى الساحتين الأمريكية والعالمية، وهى سياسات وممارسات باتت معروفة التفاصيل بشكل لانحتاج لتكراره فى هذا المقام. لكن مايهمنا هو أن تلك الممارسات بدأت تفرض فى الداخل الأمريكى واقعاً بدأ يهدّد ليس فقط شرائح واسعة من المجتمع الأمريكى. وإنما جملةً من الأعراف والتقاليد والقيم التى تحفظ الحدّ الأدنى من نسيج ذلك المجتمع.

هنا حصلت المفارقة الثانية. حيث صارت تلك الممارسات سبباً لنشوء موجة جديدة من النقد الذاتى داخل أمريكا خاصةً منذ احتلال العراق وماترتب عليه من مضاعفات دولياً ومحلياً. تصاعدت هذه الموجة تدريجياً فى الآونة الأخيرة وتبلورتْ فى أشكال مختلفة إعلامياً وحقوقياً وثقافياً. لكن وجه المفارقة الأكبر تمثّلَ فى أنها بدأت تأخذ طابعاً أكثر شعبيةً. بمعنى أن الإحساس بالأزمة والإشارة إلى ملامحها وأسبابها لم يعد حواراً نخبوياً محصوراً فى دوائر المثقفين من توجه معين، بل بدأ يصبح حواراً قومياً تُشارك فيه بشكل متزايد شرائحُ أوسع من أفراد المجتمع الأمريكى. وبشكلٍ يمكن القول أنه يمثل (صيحة استغاثة) يطلقها الكثيرون الَيوم من داخل أمريكا لنجدة بلدهم من المصير الذىً يبدو سائراً إليه.

وانسجاماً مع طبيعة (وجهات نظر) فإننا سنركز على عرض مجموعة كتب صدرت خلال الأشهر الماضية. وهى كتب يمكن القول بأنها تمثل من حيث مواضيعها وكتّابها شرائح واسعة من المجتمع الأمريكى بشكل مفعمٍ بالمعانى والدلالات.

والكتب هى التالية مع تعليقات مختصرة بداعى التعريف وليس بهدف العرض المفصّل :

وائـل مـــرزا



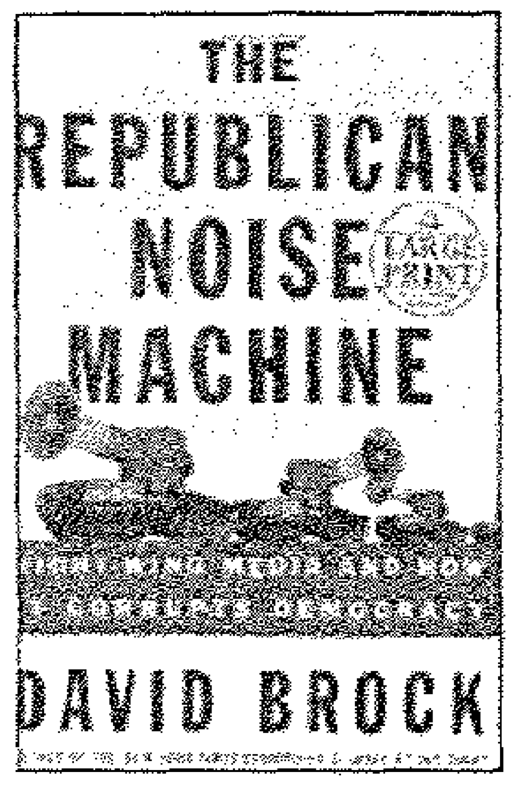
Losing America: Confronting A Reckless and Arrogant Presidency

(حين تخسر أمريكا: المواجهة مع رئاسةٍ مستهترة ومتعجرفة)

Robert C. Byrd

W. W. Norton & Company; Reprint edition (2005), 320 pages

للسيناتور (Robert Byrd روبرت بيرد) الذى تقول عنه موسوعة السياسة الأمريكية (يمكن أن يكون أقرب من أى سيناتور آخر إلى النموذج الذى حلم به الآباء المؤسسون). ويصفه زملاؤه أعضاء مجلس الشيوخ بأنه (ضمير المجلس). فى هذا الكتاب يستعرض المؤلف مايراه بالمؤشرات الأساسية على وجود تلك الرئاسة المتعجرفة والمستهترة. وذلك من خلال عرض أمثلة تتعلق بالسرية المبالغ فيها فى العمل السياسى داخل البيت الأبيض وفى الوزارات الحساسة كالدفاع والعدل والداخلية والأمن القومى. ثم يتحدث عن قصة الحرب على العراق من التخطيط للميزانية للصلاحيات غير المعهودة للرئيس ونائبه ووزير الدفاع وغيره من مسئولى الهيئة التنفيذية المفترض بهم أن يكونوا مسئولين دائماً أمام ممثلى الشعب وفى منتهى الشفافية تجاههم. كما يوجه المؤلف دعوات ملحة وعديدة للكونغرس بمجلسيه وللإعلام وللشعب الأمريكى لممارسة واجبهم فى باب مراقبة ومحاسبة كل تلك الممارسات التى تقوم بها الإدارة، ويرى السيناتور بيرد أنها مخالفةٌ بشكلٍ معيب للدستور الأمريكى ولكل ماحلم به وأراده وخطط له الآباء المؤسسون لأمريكا (Founding Fathers).



The Republican Noise Machine: Right-Wing Media and how it Corrupts Democracy

(ماكينة التشويش الجمهورية: الإعلام اليميني وكيف يُفسد الديمقراطية)

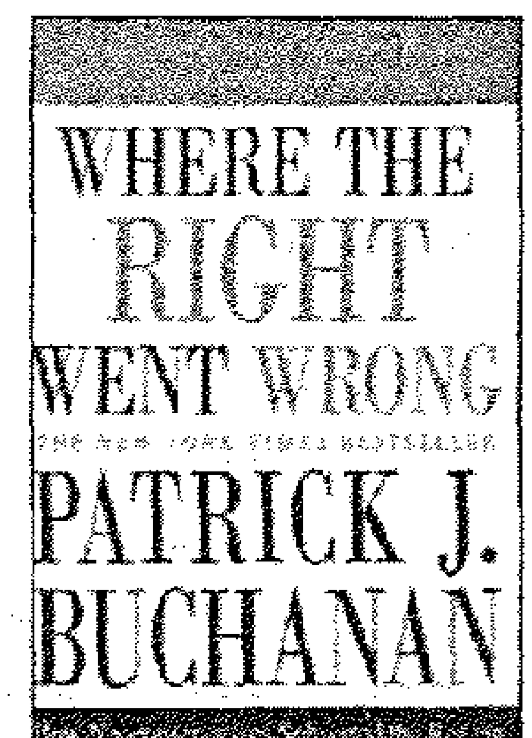
David Brock
Three Rivers Press; Reprint edition (2005), 448 pages

ديفيد بروك الذى كان بالمناسبة من عُتاة الصحافيين اليمينيين المحافظين خلال التسعينيات، ثم إنه بعد مراجعات فكرية سخر حياته لتفكيك آلة اليمين المحافظ الإعلامية الجهنمية التى كان جزءاً منها. فى هذا الكتاب يستعمل المؤلف خبرته ومعرفته المتطاولة بأساليب وتكتيكات اليمين المحافظ فى التخطيط والتمويل وإقامة شبكات العلاقات الشخصية لتفسير مايسميه بعض النقاد بأهم ظاهرة شهدتها أمريكا خلال العقود الثلاثة الماضية: كيف أمكن لليمين المتطرف الذى كان دوماً عنصراً هامشياً فى الحياة الأمريكية أن يقفز للسلطة السياسية وأن يختطف الخطاب والحوار الأمريكى (Discourse) خاصة من خلال وسائل الإعلام.

■

Where the Right Went Wrong

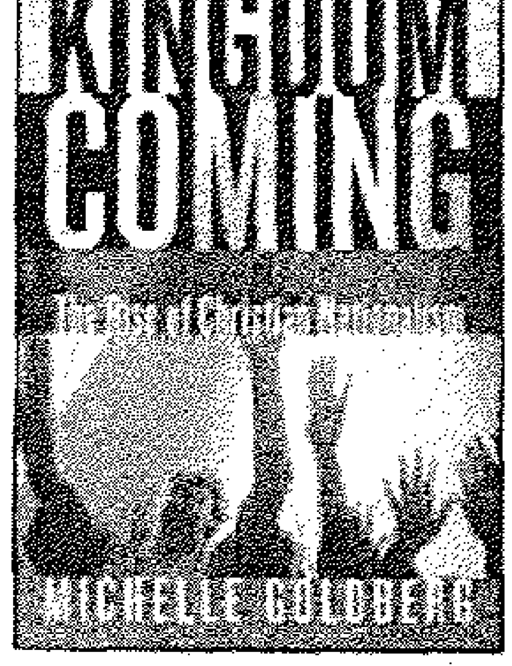
(أين سار اليمين فى الاتجاه الخاطئ)



Patrick J. Buchanan
Amazon Remainders Account (2004), 272 pages

للكاتب (Patrick J Buchanan باتريك بوكانن) الإعلامى والكاتب والسياسى الذى كان محافظاً ثم ترشح للانتخابات الرئاسية الأمريكية عام ٢٠٠٠م عن حزب الإصلاح (Reform Party)، وكان قبل ذلك مستشاراً أساسياً لثلاثة رؤساء هم نيكسون وفورد وريجان. فى هذا الكتاب يقول المؤلف أنه يحاول أن يشرح بالأحداث والوقائع كيف تخلى الرئيس بوش ومن ورائه المحافظون الجدد عن مبادئهم، وكيف تمكنت (قبيلة) صغيرة من اختطاف سياسة أمريكا الخارجية، ومن إشعال فتيل صراع الحضارات مع العالم الإسلامى على وجه الخصوص، بشكل سيُبقى الولايات المتحدة فى حالة حرب فى الشرق الأوسط وخارجه لسنوات طويلة قادمة. ولايقف الكتاب عند هذا، بل يسهب أيضاً فى توضيح كيف تخلت الإدارة عن المواطن الأمريكى فى الداخل وأصبحت حكومة تبيع روحها،كما يقول، لأكبر مزاود.

■



Kingdom Coming: The Rise of Christian Nationalism

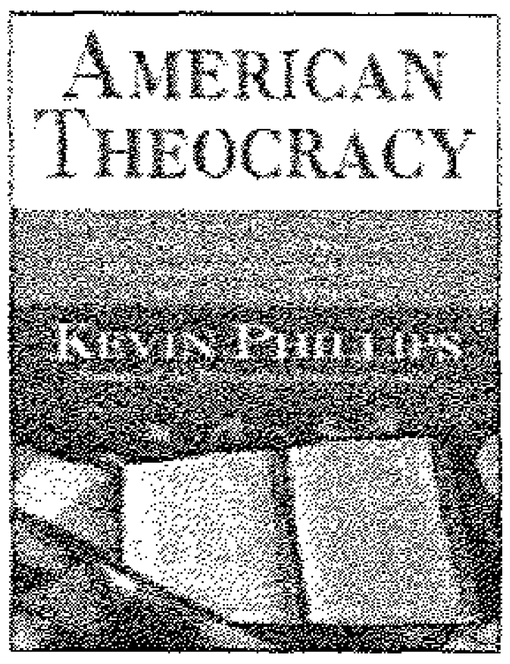
(المملكة القادمة: صعود القومية المسيحية)

Michelle Goldberg
W. W. Norton (2006), 224 pages

للكاتبة والصحافية (Michelle Goldberg ميشيل جولدبرج) خريجة جامعة بيركلى الشهيرة التى تعتبر من أعمدة موقع (salon.com) الإخبارى. فى كتابها تأخذنا المؤلفة فى رحلة عجيبة تبدأ من حيث تتم تربية أجيال اليمين الدينى المتطرف فى المدارس، وتمر بنا فى الكنائس العملاقة التى يملكها ذلك التيار، لتنتهى بنا فى المحاكم الفدرالية والحكومة حيث يقوم المحافظون الجدد بزراعة أنصارهم ومؤيديهم على مختلف المستويات. تلتقى المؤلفة أيضاً بعسكريين متقاعدين يتعهدون باحتجاز البلاد رهينةً باسم المسيح، وبأعضاء فى الكونغرس يرون أنهم يحكمون باسم المسيح، وبمسئولين كبار عن بعض البرامج الحكومية يقولون أنهم يقدمون المسيح عليه السلام حلاً لمشاكل أمريكا الاجتماعية. تصف الكاتبة فى مجلة The Nation) (Katha Pollitt كاثا بوليت) الكتاب بقولها (لو أنه كان مقطوعةً هجائية بحتة لكان مسلياً ورائعاً. لكنه لسوء الحظ ملىء بالحقائق. ملىءٌ بأشياء أسوأ مما نتصور). ويرد فى عرض الكتاب فى مجلة (Esquire)

أنه صرخةٌ ضد التطرف والروح القبلية تنادى باستعادة قيم الإنسانية والعقل والحداثة.

■



American Theocracy: The Peril and Politics of Radical Religion, Oil, and Borrowed Money in the 21st Century

(الثيوقراطية الأمريكية: أخطار وسياسات التدين الراديكالى والمال والدين العام فى القرن الحادى والعشرين)

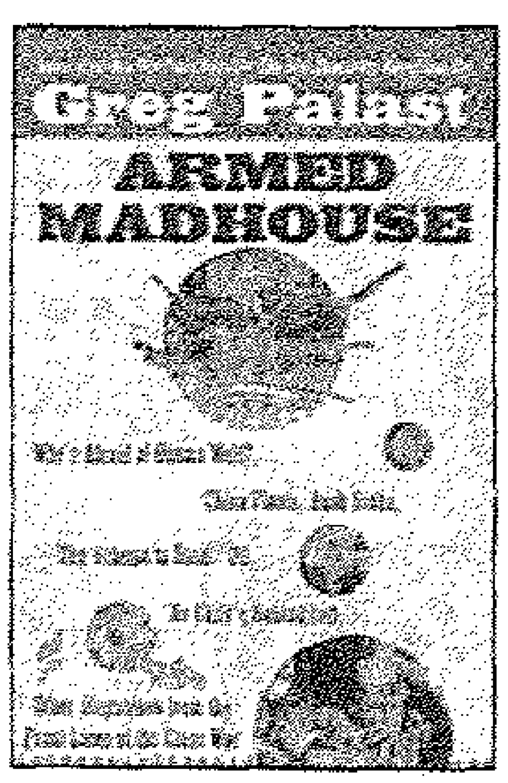
Kevin Phillips
Thorndike Press; Largeprint edition (2006), 907 pages

للكاتب (Kevin Phillips / كيفين فيليبس) الذى كان أيضاً مستشاراً للرئيس نيكسون ويُعتبر من كبار المنظرين الاستراتيجيين المحافظين السابقين. وهو الكتاب الذى قال عنه أشهر تقرير لمراجعة الكتب فى جريدة نيويورك تايمز (New York Times Book Review) فى مارس الماضى مايلى: (قد يكون هذا الكتاب التحليل الذى يدق أخطر جرس إنذار ليخبرنا أين نحن الآن وما نحن سائرون إليه فى السنوات القادمة.. إنه كتاب مقتولٌ بحثاً ومخيفٌ فى إقناعه). يُعتبر هذا الكتاب إتماماً لمشروع الكاتب المتخصص فى متابعة وتحليل ونقد مراكز القوى السياسية / الاقتصادية التى تحكم أمريكا وتتحكم بها. بدأ المشروع فى كتابيه السابقين (American Dynasty / السلالة الحاكمة الأمريكية) و (Wealth and Democracy / الثروة والديمقراطية). لكن هذا الكتاب يُعتبر نقلةً فى التركيز على دور اليمين الدينى الجديد فيما يعتبره الكارثة التى تنتظر أمريكا. ولتوضيح نظريته يشرح المؤلف كيف سقطت قوى عالمية من روما القديمة إلى الامبراطورية البريطانية باجتماع تركيبة قاتلة من عناصرها وجودُ تدينٍ (ميليشياوى) يحمل رؤية عالمية مبالغاً فيها أضافة إلى تناقص الموارد ودَينٍ قومى يتضخم باستمرار. وهى التركيبة التى يقول أنها صارت السمة المميزة للنظام السياسى الأمريكى خلال العقد الأخير.

■

Armed Madhouse

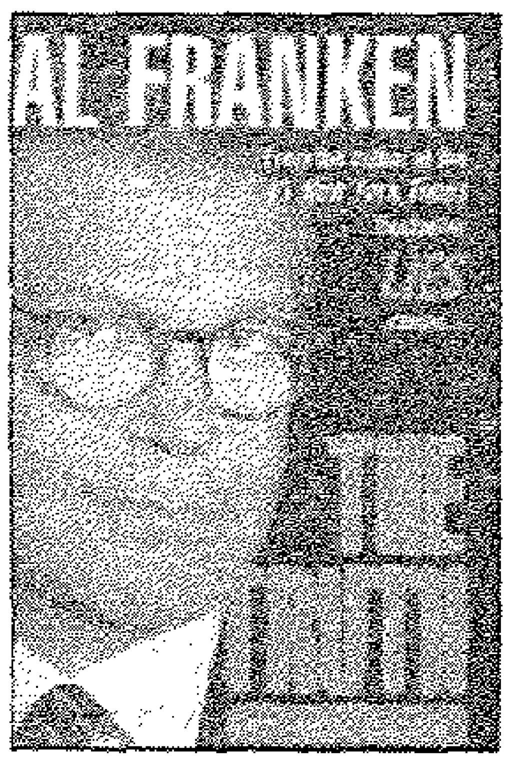
(بيت المجانين المسلّح)



Greg Palast
Dutton Adult (2006), 384 pages

للإعلامى الأمريكى (Greg Palast / جريج بالاست)، وهو المحقق الصحفى فى البى بى سى وغيرها من وسائل الإعلام والذى ينتظر مقاله على الإنترنت مليونان من البشر حسب موقع (Village Voice). فى كتابه يتحدث المؤلف عن صناعة الخوف التى تساوى البلايين فى أمريكا، وعن حقائق (الحرب على الإرهاب)، وعن مخططات السيطرة على الدول الصغيرة المنتجة للبترول، وعن المخططات لسرقة انتخابات ٢٠٠٨ الرئاسية القادمة، وعن سواها من المواضيع ذات العلاقة بتوجهات الحلف الجمهورى اليمينى المحافظ.

■



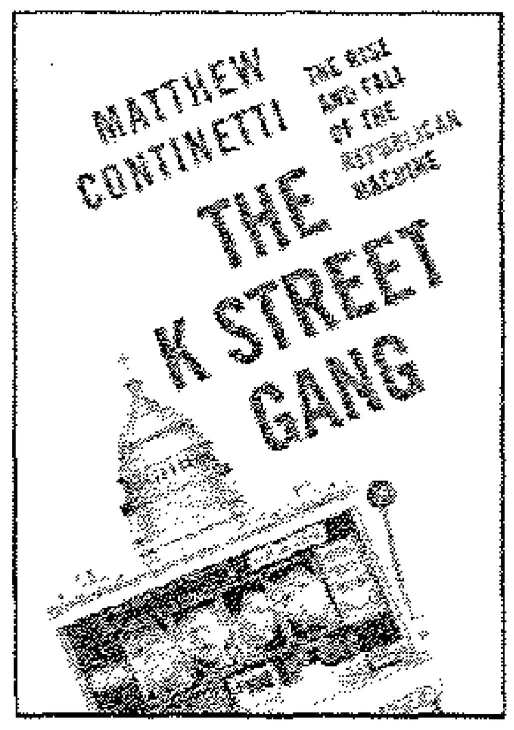
The Truth

(الحقيقـــــة)

Al Franken
Plume; Reprint edition (2006), 384 pages

للإعلامى والكوميدى والممثل والناشط السياسى الليبرالى (Al Franken آل فرانكين) الذى يتحدث فيه عن (التخويف والتشويه كاستراتيجية للحزب الجمهورى للعمل السياسى فى أمريكا). يُعتبر هذا الكتاب امتداداً لبحث المؤلف فى كتابه السابق (Lies and the Lying Liars Who Tell Them: A Fair and Balanced Look at the Right / الأكاذيب والكاذبون: نظرة عادلة ومتوازنة لليمين). فى ذلك الكتاب تحدث

المؤلف عن أكاذيب الإدارة ومن ورائها اليمين الدينى المحافظ. لكنه فى هذا الكتاب ينتقل ليقدم (الحقيقة) كما يراها بأسلوب يتميز بالسخرية والفكاهة. والحقيقةُ لديه تتمثل بتقديم أدلة ونماذج لكيفية تطبيق استراتيجية الحزب الجمهورى المذكورة من خلال عرض تكتيكات الجمهوريين التى تهدف لزراعة الخوف فى قلوب الأمريكيين بكل طريقة ممكنة. ثم لكيفية استخدام أساليب ووسائل التشويه والتوريط لردع كل من يفكر فى الوقوف فى وجههم أو معارضة سياساتهم ومخططاتهم.



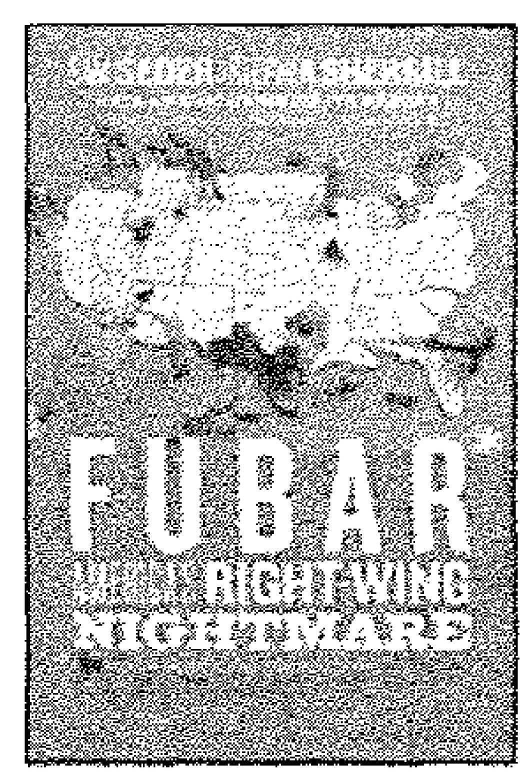
The K Street Gangs: The Rise and Fall of the Republican Machine

(عصابة شارع الكونجرس: صعود وسقوط الماكينة الجمهورية)

Matthew Continetti

Doubleday (2006), 288 pages

للكاتب (Matthew Continetti / ماثيو كونتينيتى) الصحفى فى مجلة (Weekly Standard) الذى تظهر مقالاته فى صحف النيويورك تايمز والواشنطن بوست وغيرها. وهو الكاتب الذى كان متحمساً (إلى حد العبادة) للمحافظين وزعيمهم (نيوت جينجريتش) فى النصف الأول من التسعينيات كما تبين كتاباته فى ذلك الحين. أما فى هذا الكتاب فإن المؤلف، الذى يتحدث عن عودة الوعى إليه بعد رؤية حجم الفساد الذى نتج عن وصول الجمهوريين للسلطة، يتحدث بالوثائق والتفاصيل عن ممارسات الساسة الجمهوريين فى واشنطن بشكل يبعث على (الصدمة والقشعريرة) كما يؤكد موقع (Newsplaze.com) الإخبارى. وفى الكتاب أمثلة على ممارسات وصفقات قام بها بعض كبار الساسة والمستشارين الجمهوريين مثل (توم ديلى) و(جاك أبراموف) و(رالف ريد) و(جروفر رينكويست) مع ممثلى المصالح الخاصة لأكبر الصناعات والشركات فى الولايات المتحدة. علما أن كثيرا من أولئك الساسة والمستشارين هم قيد التحقيق حالياً لتورطهم فى فضائح مختلفة.



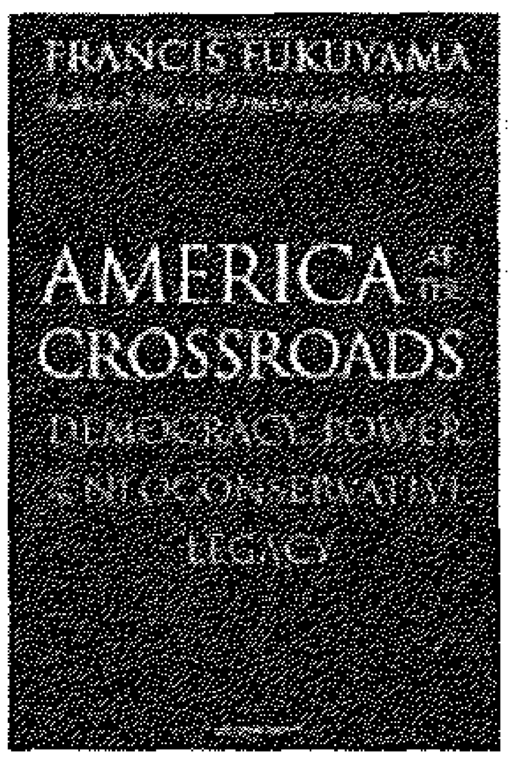
A: America's R.B.U.F Right-Wing Nightmare

(مخترقون بشكل يفوق كل خيال: كابوس أمريكا اليمينى)

Sam Seder, Stephen Sherrill

HarperCollins (2006), 224 pages

للكاتبين (Sam Seder سام سيدر) و(Stephen Sherrill ستيفن شيريل). المؤلفان إعلاميان يشمل إنتاجهما الكوميديا والأفلام الوثائقية وغير ذلك من أنواع الإنتاج الإعلامى. وهما يستخدمان فى هذا الكتاب نبرة ساخرة تنتمى لتلك (الكوميديا السوداء) التى يستعملها كثير من الفنانين الكوميديين الأمريكان للنظر إلى الأوضاع الراهنة. لذا، ربما لايكون غريبا أن يصف أحد النقاد (تيم جيبهارت) الكتاب بقوله عنه (إذا لم تستطع أن تضحك منه فسوف يبكيك). وفى الكتاب، الذى ترجمنا عنوانه الأول بشكل مهذب للقارئ العربى.. يتحدث المؤلفان عن مأزق أمريكى راهن يفوق أى مأزق آخر شهدته الولايات المتحدة فى تاريخها على الإطلاق (الكساد الكبير، بيرل هاربر، فيتنام، واترجيت..). حيث يرى المؤلفان أن أمريكا كانت تعود بعد فترة من مرور تلك المآزق لتكون أمريكا. لكن أمريكا تواجه هذه المرة شيئاً مختلفاً تماماً كما يؤكد الكتاب، وذلك بسبب سياسات وأفكار وممارسات اليمين المحافظ التى تؤدى بمجملها إلى الواقع (الكابوس) الذى تعيشه الولايات المتحدة، وستظل تعيشه إذا مابقيت الأوضاع على ماهى عليه. ويتضمن الكتاب الإشارة إلى دور العقيدة والأيديولوجيا فى تشكيل سياسات المحافظين والجمهوريين وطرق تعاملهم مع الآخرين، ثم مظاهر الفساد و(دليل المستهلك إلى كيف تشترى سيناتورا)، ثم اختراق المحافظين للإعلام وحتى مايسمى بالليبرالى منه حيث يأتى الانتقاد الحاد لبعض وسائل الإعلام والإعلاميين مثل الكاتب المعروف (توماس فريدمان). اضافة إلى مواضيع أخرى تظهر طبيعة الكابوس الذى يصر المؤلفان أن أمريكا تعيشه وأن عليها أن تتحرك لإزالته بشكل أو بآخر.



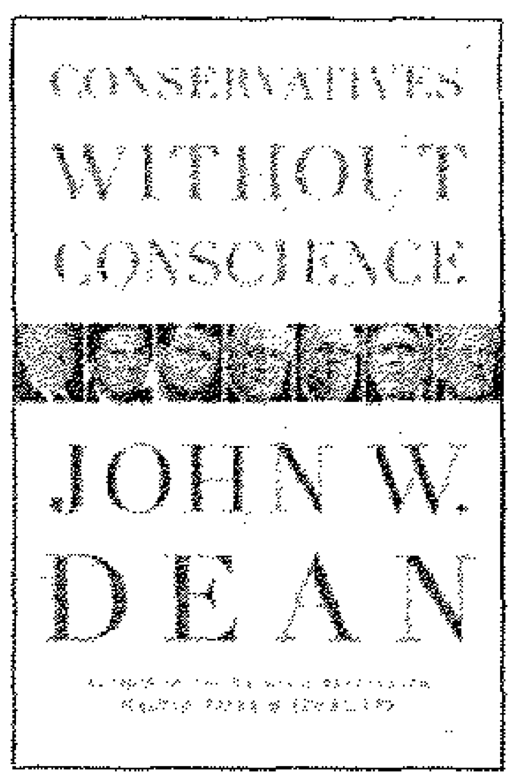
America at the Crossroads: Democracy, Power, and the Neoconservative Legacy

(أمريكا على مفترق الطرق: الديمقراطية، القوة، وميراث المحافظين الجدد)

Francis Fukuyama

Yale University Press (2006), 240 pages

للأكاديمى المعروف صاحب نظرية نهاية التاريخ (Francis Fukuyama / فرانسيس فوكوياما) الذى كان للمفارقة من الموقعين على وثيقة مشروع القرن الأمريكى الجديد، ثم إنه قام أيضاً بعمليات مراجعة كبرى قادته إلى تغيير رؤيته بشكل كامل لمشروع المحافظين الجدد، وإلى إدراك السلبيات الاستراتيجية التى ستنتج عن تطبيقه محلياً وعالمياً. فى كتابه يشرح المؤلف رؤية المحافظين الجدد لما يجب أن تكون عليه أمريكا ولموقعها المفترض فى العالم. يأتى هذا التحليل من منظور أكاديمى ومن خلال معرفته بأدبيات المحافظين على مدى العقود الماضية واستعراضه لها. ويركز المؤلف فى الكتاب على أخطاء إدارة بوش فى الحرب الاستباقية على العراق وعلى جذور تلك الأخطاء الكامنة فى رؤية وفلسفة المحافظين الجدد المذكورة. وربما كان أخطر وأهم ما فى هذا الكتاب كما تقول جريدة النيويورك تايمز فى مراجعتها له تتمثل فى كون كاتبه عنصراً أساسياً فى تشكيل رؤية المحافظين الجدد فى منتصف التسعينيات. لكن نظرته النقدية إلى طريقة تطبيق تلك الرؤية ونتائجها الكارثية على أمريكا دفعت المؤلف ليقول فى نهاية كتابه بأن (إصلاح مصداقية أمريكا لن يأتى من خلال حملة علاقات عامة، وإنما باتت تحتاج إلى فريق جديد وسياسات جديدة).



Conservatives Without Conscience

(محافظون بدون ضمير)

John Dean

Viking Adult (2006), 288 pages

للسياسى والكاتب (جون دين) الذى كان من أعمدة حزب المحافظين فى الستينيات ومستشارا أيضا للرئيس نيكسون. فى حنايا هذا الكتاب الذى يحذر من أجندة المحافظين الجدد يورد الكاتب واقعةً تستحق العرض. حيث يذكر الرجل أنه اكتشف مبادئ المحافظين السياسية (الأصيلة) فى كتاب السيناتور السابق (بارى غولدووتر) وذلك من خلال كتابه (ضمير السياسى المحافظ). ثم يقول أنه بعد رؤية ممارسات المحافظين الجدد بدأ مشروع كتابه بالتعاون مع السيناتور المذكور الذى يُعتبر من أعمدة المحافظين التقليديين، والذى رصد أيضاً تلك الممارسات وخاطب المؤلف متحدثاً عنهم بغضب قائلاً (ياللهول يا جون. هؤلاء الجمهوريون يبيعون أرواحهم ومبادئهم للفوز بالانتخابات. سجّل كلماتى هذه: عندما يتمكن هؤلاء الكهَنة من السيطرة على الحزب، وهم يحاولون فعل ذلك بالتأكيد، فسوف نكون جميعاً فى ورطة كبيرة. بصراحة، إن هؤلاء القوم يثيرون ذعرى بدرجة هائلة). وفى هذا الكتاب الذى يعتمد كثيرا على اللغة الأكاديمية السائدة فى حقل العلوم الاجتماعية يعود المؤلف أولا للبحث فى أدبيات المحافظين خلال القرن الماضى موضحاً كيف تمت عمليات انتقاء واسعة لتشكيل الرؤية الحالية للمحافظين الجدد. ثم ينتقل لمتابعة وعرض ممارساتهم فى الهيئات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية، موضحاً كيف ولماذا تجمع بين ممثليهم صفات معينة منها السلطوية واللاعقلانية واللاأخلاقية. ليخلص فى النهاية إلى بيان إمكانية أن يقود هذا الواقع الولايات المتحدة إلى أن تعيش نسختها الخاصة من الفاشية.



The Left Hand of God

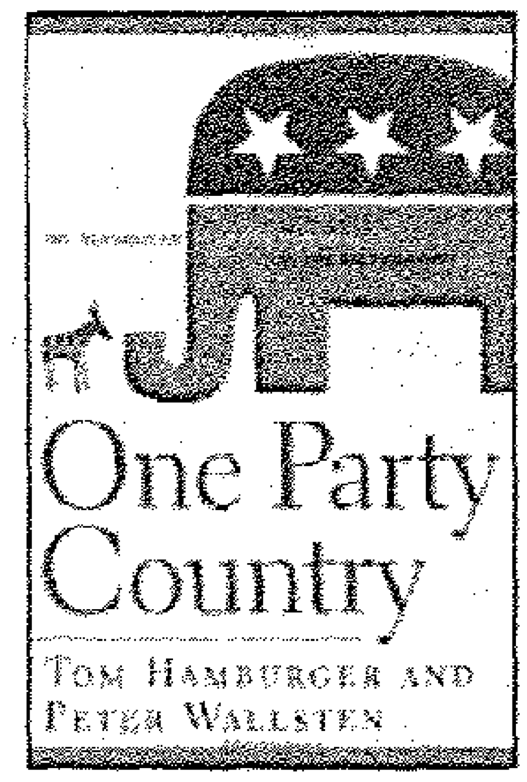
(اليد اليسرى للإله)

Michael Lerner

HarperSanFrancisco (2006), 416 pages

للناشط اليسارى والحاخام اليهودى (Michael Lerner / مايكل ليرنر)، وهو محرر دورية (Tikkun) اليسارية التى تصدر مرتين شهريا فى مدينة سان فرانسيسكو والذى تسميه الأوساط الصهيونية فى أمريكا (اليهودى الذى يكره نفسه). فى هذا الكتاب يشرح المؤلف

كيف تحالف اليمين الجمهورى مع اليمين الدينى فى أمريكا لإعادة تركيب مفهوم جديد للإله وللدين يقفان فى صف الحرب ورجال الأعمال والأثرياء وضد العلم والعقل والبيئة. ورغم كل الأخطاء والمساوئ والأكاذيب الظاهرة لذلك التحالف، إلا أنه كما يقول المؤلف لايزال ينجح فى جعل أمريكا تُنصت له لأنه يتحدث بخطاب يشبع جوع الإنسان الطبيعى لوجود هدف أكبر للحياة. من هنا، ينتقل المؤلف ليتحدى اليسار الأمريكى ليخرج من خوفه المبالغ فيه من الدين. وليقدم خطاباً إنسانياً يلبى حاجات الإنسان الروحية التى تفرض نفسها على الدوام.



One Party Country: The Republican Plan for Dominance in the 21st Century

(بلد الحزب الواحد: خطة الجمهوريين للسيطرة فى القرن الحادى والعشرين)

Tom Hamburger, Peter Wallsten

Wiley (2006), 272 pages

للكاتبين الصحافيين فى جريدة لوس أنجلوس تايمز (Tom Hamburger توم هامبورغر) و(Peter Wallstein بيتر والستاين). وهو الكتاب الذى يقول فى تقديمه موقع (buzzflash.com) لمراجعة الكتب (لا يشك أحد فى أن الجمهوريين أنذال، كاذبون، فاسدون، وغير مؤهلين للحكم. لكنهم دون شك يعرفون كيف يصلون إلى الناخب). ويتحدث الكتاب بالتفصيل عن الأساليب التى يستخدمها الجمهوريون ومن ورائهم المحافظون الجدد ليس فقط للوصول إلى الناخب، وإنما أيضاً للسيطرة على الحياة السياسية ثم الثقافية والإعلامية فى أمريكا من خلال شبكة معقدة من القوانين والأنظمة والهياكل والمؤسسات. وعلى وجه الخصوص يشرح الكتاب ما يسميه المؤلفان بتقنية (Microtargeting) وهى تقنية تُستخدم فى صناعة الدعاية وفى الحملات السياسية لتحديد هدف معين، هو فى هذه الحالة الناخب من خلال معرفة اهتماماته وعادات شرائه والمعلومات الديمجرافية المتعلقة به بغرض اصطياده للتصويت للجمهوريين. وباستخدام قواعد البيانات المعقدة وتكنولوجيا البحث والتحليل المتقدمة، يقوم الجمهوريون بتحقيق نجاحات كبيرة يضرب المؤلفان أمثلة غريبة عليها. حيث تمكنت ماكينة البحث الجمهورية مثلا من اصطياد امرأة سوداء مسجلة رسمياً كناخب ديمقراطى وتصوت عادةً للديمقراطيين. لكن الماكينة اكتشفت أنها تسجل أولادها فى مدارس خاصة وترتاد الكنيسة وتلعب رياضة الجولف. من هنا، بدأ تواصل نشطاء الجمهوريين معها عبر الرسائل والبريد وأحيانا شخصياً، مع التركيز على هذه الاهتمامات الأخيرة وبيان نقاط الاشتراك بينها وبين برنامج الحزب الجمهورى إلى درجة أحست فيها (أن الحزب الجمهورى يمكن أن يكون مكانا مشابها للبيت لأول مرة فى حياتها) كما قالت لمؤلفى الكتاب! ورغم أن هذا قد يُعتبر تطوراً عادياً فى طرق تنفيذ الحملات السياسية فى أمريكا غير أن المؤلفين يحذران من أهدافه الاستراتيجية. وهى أهداف تصب فى رأيهما فى خانة جعل أمريكا بلد الحزب الواحد فى نهاية المطاف.

هل يمكن أن نسمع أمريكا وهى تستغيث من خلال عرض الكتب المذكورة أعلاه؟ ربما تتأكدُ مصداقية مقولتنا حين نمعن النظر مرةً أخرى فى مواضيع الكتب، وفى التنوع الكبير لطريقة عرضها، وفى خلفيات مؤلفيها التى تشمل الليبرالى والمحافظ والمسيحى واليهودى والرجل والمرأة والسياسى والمفكر والأكاديمى والإعلامى. لكننا ستتأكد أكثر حين يقرأ المرء تلك الكتب وغيرها، ويسمع نداء الاستغاثة ويعايشه فى أوساط المجتمع الأمريكى وهو يعبر عن نفسه بلسان الحال و بلسان المقال.

منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، سألنى الزميل الأكاديمى الأمريكى المهذب والمتابع لشئون العرب والمسلمين على استحياء قائلاً: (هل تعتقد أنه يمكن لأمريكا أن تساعدكم بأى شكل من الأشكال؟). أجبتُ الرجل بما أجبته عليه، ثم مرَّ دهرٌ من الزمان، وفى جولتى الأخيرة فى الولايات المتحدة التقيت الزميل نفسه، فلم يكن منه إلا أن بادرنى متسائلاً وبنفس الدرجة من الحياء: (هل تعتقد أنه بإمكانكم مساعدتنا فى أمريكا بأى شكل من الأشكال؟).

هل نساعد أنفسنا فنساعد أمريكا ونساعد العالم بأسره؟ هذا هو السؤال الذى سيبقى يتكرر مع كل ذكرى لأحداث سبتمبر حتى نبدأ فى الإجابة عليه بالأفعال قبل الأقوال.

■

كتـــاب الـزاويـــة

الإسلام مظلوم

محمد الغزالى

أعرف من يقول: إن كشف النصوص ليس عبقرية. وإن كشف أمريكا والعالم الجديد ليس عبقرية. غير أننا محتاجون إلى أصحاب هذه العبقريات المنكورة. إن مكتشفى النفط لم يخلقوه من عدم. وإنما عرفوا مكانه وأحسنوا تقريبه ونفع العالمين به.. والإسلام مظلوم مع أصحاب النظر القصير والرؤية المحدودة، لأنهم يقرون ما يعرفون وينكرون ما يجهلون.. الفلاح يرى الدنيا مروجًا خضراء، والبحار يراها أمواجًا زرقاء والبدوى يراها رمالاً عفراء.. والدنيا أوسع مما يرى هذا وذلك، ولم أعجب عندما بلغنى أن عالمًا ضليعًا فى الفقه أنكر غزو الفضاء، وظنه احتيال خبثاء، لأن الدنيا فى عالمه الدراسى لا تعدو التقعر فى بعض العبادات، والغفلة عما وراء ذلك.. وقد غبرت قرون على المسلمين وهم داخل السجن أنفسهم ورسالتهم. فلما صحوا آخر الأمر وجدوا أنفسهم غرباء على الدين والدنيا معًا! ويجب توفير عناصر النجاح للصحوة الإسلامية الحاضرة. فإن المتربصين بها والحاقدين عليها كثيرون. وأول ما نصنعه بناء الأجيال الجديدة على قواعدها الدينية وتقديم زاد ثقافى غنى يكفل لها القوة والعافية.

فى مقدمة المواد الثقافية علم العقيدة وأرى انتقاء عدة فصول من كتابى «العلم يدعو إلى الإيمان» و«الله يتجلى فى عصر العلم» مع ضميمة حسنة من الآيات والسنن تعرض أركان الإيمان على منهج السلف وأجدنى مسوقًا إلى إعلان كراهيتى لأغلب المتون والحواشى. ويستطيع المدرس الذكى أن ينتقى منها ما يصلح لعصرنا مع إطراح الباقى!!

وجهات نظر

رسائل وآراء

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

الإخوان والفن

بنظرة موضوعية وبتقييم منصف عادل وعقلانى أكثر منه حياديًا يحدثنا الباحث الإسلامى الأستاذ عصام تليمة فى عدد سبتمبر ٢٠٠٦ من «وجهات نظر» عن الإخوان المسلمين وموقفهم من الثقافة والفن والأحزاب. وبدأ الكاتب حديثه عن نهج وموقف الإمام الشهيد حسن البنا من تلك القضايا الثلاث التى كثيراً ما شغلت الرأى العام من المثقفين والعامة وأثارت هواجس لدى الكثيرين من المفكرين الحداثيين وغيرهم. فاستهل الكاتب حديثه عن موقف الإمام من تلك القضايا، وكيف عالجها فى حينها، وكيف كان رده وموقفه ممن أثاروها، فبأدب جم وبدماثة خلقه وبأيديولوجية إسلامية نيرة وبأريحية كان رده على الدكتور طه حسين والأستاذين محمد أحمد خلف الله وسيد قطب فى هذه القضايا التى استثارت الرأى العام واستفزت المجتمع المسلم حينذاك من رجل ينكر قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فى القرآن إلى رجل يتحدث وينتقد بديهيات من القرآن فى مستهل حديثه عن الفن القصصى فى القرآن إلى رجل يدعو إلى العرى التام على الشواطئ، ثم يدلف بنا إلى موقفه من الأحزاب وأيضاً معالجته وموقفه من الأقباط، ثم موقفه من الفن والمسرح. رأينا كاتبنا كيف أنصف الجماعة والإمام الشهير بوثائق موثقة وبكلامه وأحاديثه فى الصحف وأوضح لنا الكاتب كيف كان رد حسن البنا الدمث الخلق الذى لم تخرج منه كلمة نابية أو لفظ يجرح إنساناً كائناً من كان وسرد لنا الكاتب الكثير والكثير من مواقف البنا التى كان فيها ناضجاً أشد ما يكون النضج الفكرى والعقلى ومعالجتها فى حينها واستوقفنى ما طلب منه أن يرد على مقال سيد قطب فى صحيفة الأهرام والذى ينادى فيه المصريات بالعرى التام أمام الشواطئ. رأيناه كيف كان ثاقب الرؤى عندما قال إن ردى سيثير ضجة، والذى لم يقرأ المقال سيقرأه ويصبح للموضوع ضجة وقضية رأى عام يعرفها الخاصة والعامة، وكان رأى الإمام التجاهل التام لما كتبه سيد قطب وهدأت الزوبعة فى حينها دون أن يدرى أحد عنها شيئاً ووئدت الفتنة فى مهدها.

وموقف الإمام هذا يذكرنا بموقف الإمام الخمينى من رواية آيات شيطانية لسلمان رشدى، فلو كان أهمله وما أصدر فتوى بقتله ما كان أحد يعرف عنه شيئاً، وإنما موقفه هذا بفتواه جعل سلمان رشدى ملء السمع والبصر فى الغرب، وبعد أن كان نكرة أصبح علماً ومفكراً مضطهداً.

ثم يحدثنا الكاتب فى مستهل مقاله عن أن إخوان البنا أمس غير إخوان اليوم الذين أحدثوا بعده، وذكر الكاتب عدة أشياء، ولكنه لم يهاجمهم ولم يثر حفيظة المجتمع ضدهم، ولم يؤلب عليهم السلطة، ومن نافلة القول أقول إن هذا المقال الرائع وضع النقاط الحقيقية على الحروف الحقيقية بعدما امتلأت الساحة بحروف مزيفة ونقاط مزيفة وأصبح الكل يركب الموجة ويهاجم الإخوان بمناسبة وبدون مناسبة.

فليهدأ القوم قليلاً من الغلاة والمزايدين ونرجو الكثير من الكتابات الواضحة والعاقلة والمنصفة والتى تقيم لنا تاريخ الإخوان بعيداً عن المزايدة والاتهامات الباطلة، وحيث إن لكل تجربة إنسانية عيوبها ومميزاتها. وفى النهاية لا يصح إلا الصحيح.

صابر محمد عبدالواحد
عضو اتحاد الكتاب
الأفريقيين الأسيويين -
أخميم - سوهاج

ماذا حدث للشخصية المصرية؟!

لا أدرى لماذا ربطت بين خصائص الشخصية المصرية شبه المتفق عليها من الدارسين والباحثين - وبين القيم التى تناولها بالتمثيل العميق أستاذنا الكبير د. يحيى الرخاوى فى دراسته القيمة تحت عنوان: ماذا حدث لقيم المصريين؟! بعدد المجلة لشهر يوليو ٢٠٠٦ - وكما ذكر بأنه تردد عندما طلب منه رصد أهم التحولات التى طرأت على الشخصية المصرية خلال الخمسين عاماً الماضية.. هل يعنى ذلك - أن جملة من المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية هى التى ساهمت بالسلب فى قيم الشخصية المصرية من الإيجاب فى نصف القرن الماضى - أم أن خصائص الشخصية المصرية من اعتدال إلى حد الإفراط والتساهل والمحافظة: إلى حد الثورة من أجل المحافظة على الموروث والقديم - والتدين: إلى حد التطرف أحياناً. والنزوع إلى الهروب غالباً والاتكال والتواكل - وكذلك الواقعية المريرة: التى اكتسبها غالباً من الجغرافيا والتاريخ والتى أفضت بدورها فى النهاية إلى السلبية وهى أزمة الأزمات فى الشخصية المصرية. وأن تلك الخصائص التى أفرزت بدورها تلك القيم السلبية - ترجع بجذورها إلى الطغيان السياسى بكل أشكاله. عبر التاريخ الطويل والذى عانى منه المصرى عامة والفلاح خاصة - حيث لا ننسى أن مصر تعتبر أطول مستعمرة فى التاريخ وباقى تاريخها حكمها الطغاة فى الداخل - أى الغزاة من الخارج والدكتاتورية من الداخل. والخلاصة: أن الخوف المتجذر بوعى الإنسان المصرى عبر مراحل التاريخ الطويل. والذى ساهم فى تشكيل أهم خصائص الشخصية المصرية وهى - السلبية - إذن: قيم الغش - وقيم اللاعمل - والشكل للشكل - وقيم التوافق (جداً) - والتسامح وميول الآخر والتى أشار إليها أستاذنا الكبير د. الرخاوى - من وجهة نظرى لا تخرج عن نطاق السلبية التى تتمتع بها الشخصية المصرية - فهل من خلاص؟!

وأسأل بالنهاية هل تختلف مصر عام ٢٠٠٦ ميلادية - سياسياً كثيراً - عن عام ٢٠٠٦ قبل الميلاد - لا أعتقد ذلك.

سعيد الرفاعى
العمار الكبرى - قليوبية

آيــة الكـرسـى


تشكر «وجهات نظر» القارئ الكريم الذى تفضل بتنبيهها إلى خطأ ورد فى نص الآية الكريمة التى تضمنتها اللوحة الفنية المنشورة فى الصفحة الثامنة من العدد الماضى (أكتوبر ٢٠٠٦) وصحته: «اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ» (البقرة: ٢٥٥).



وجهات نظر.. إلكترونيا

أشكركم على هذا الإصدار الجاد والرائع. لقد بدأت فى قراءة وجهات نظر ابتداء من عام ٢٠٠١ وسرعان ما طلبت الأعداد السابقة من المجلة إلا أن الحيز الذى تشغله مجلدات «وجهات نظر» اتسع وتضخم. ولذلك أسأل لماذا لا توزعون الأعداد السابقة من «وجهات نظر» فى شكل الكترونى، إن ذلك سيساعد كثيراً على أن يحتفظ القراء بالأعداد التى يريدونها فى حيز مناسب.

د. مصطفى الحسينى
أستاذ طب المجتمع المساعد
جامعة عين شمس



الآن مع
خدمة الفاتورة المخفضة للشركات
خصم يصل إلى
١٢ ٪
على جميع مكالماتك
لجميع مشتركى الخطوط التليفونية التجارية...
اشترك الآن فى خدمة الفاتورة المخفضة للشركات و تمتع بخصم يصل إلى ١٢ ٪ على جميع مكالماتك المحلية و الدولية و مكالمات المحافظات و المحمول .
مكالماتك أكثر...
وفاتورتك أقل
المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
شبكة واحدة .. بتقربنا كلنا
www.telecomegypt.com.eg
لمزيد من المعلومات اتصل بـ ١١١

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 8 - Issue 95 - December 2006

مجلة شهرية . العدد الخامس والتسعون . السنة الثامنة . ديسمبر ٢٠٠٦ . الثمن عشرة جنيهات



هيكل .. الصحافة والسياسة والتاريخ

عالم نووى

جحيم العراق

سلامة أحمد سلامة

ما وراء الحجاب

أيمن الصياد

السينما الأفيش والترجمة



فروع
أكثـــر لراحتكـــم

المركز الرئيسى
١٠ شارع طلعت حرب - برج ايفرجرين

١. فرع القاهرة
١٠٨٧ كورنيش النيل - جاردن سيتى

٢. فرع عدلى
٩ شارع عدلى - وسط المدينة

٣. فرع جاردن سيتى
٤ شارع أحمد باشا - الدور ١٢

٤. فرع مبنى اتحاد الاذاعة و التلفزيون
كورنيش النيل - ماسبيرو

٥. فرع حلوان
١٠٠ شارع المنصور - حلوان

٦. فرع المعادى جراند مول
٢٥٠ ميدان كلية النصر - المعادى الجديدة

٧. فرع المهندسين
٤ شارع سوريا

٨. فرع الجيزة
٣٢ ب شارع مراد

٩. فرع فيصل
٧،٦ مساكن المنصورية - كفر نصار - نهاية فيصل

١٠. فرع القرية الذكية
الكيلو ٢٨ طريق مصر اسكندرية الصحراوى- مبنى ١١٥ ب

١١. فرع ٦ أكتوبر
٤٣ ب المنطقة الصناعية الثالثة

١٢. فرع جامعة ٦ أكتوبر
مدينة الثقافة والعلوم - مجمع معاهد قناة السويس للتكنولوجيا

١٣. فرع نزيه خليفة
٥٢ شارع نزيه خليفة

١٤. فرع روكسى
٨٠ شارع الخليفة المأمون

١٥. فرع جنينة مول
٤٩ شارع البطراوى - مدينة نصر

١٦. فرع العاشر من رمضان
المركز التجارى - مدخل ١

١٧. فرع باتريس لومومبا
٢ شارع باتريس لومومبا- باب شرق-الاسكندرية

١٨. فرع سموحة
٣٨ شارع توت عنخ أمون-سموحة-الاسكندرية

١٩. فرع العطارين
١٥ شارع محمود عزمى-العطارين-الاسكندرية

٢٠. فرع زهران مول
٣٦ شارع فيكتور عمانويل - باب شرق - الاسكندرية

٢١. فرع قرية بدر
الكيلو ٨٣ - الساحل الشمالى - الاسكندرية

٢٢. فرع قرية غزالة
الكيلو - ١٤٢طريق الساحل الشمالى فندق موفينبيك العالمين - قرية خليج غزالة - الاسكندرية

٢٣. فرع بور سعيد
جمهورية و شارع حافظ إبراهيم - بور سعيد

٢٤. فرع السويس
١ شارع البرج - تقاطع ٢٣ يوليو

٢٥. فرع الغردقة
طريق النصر- مركز الغردقة التجارى - الغردقة

٢٦. فرع شرم الشيخ
شارع صلاح الدين-فندق هوليداى أمفورس-شرم الشيخ

٢٧. فرع أسيوط
برج الهدى شارع التحرير متفرع من يسرى راغب أسيوط.

٢٨. فرع الأقصر
شارع معبد الكرنك - أمام الإدارة التعليمية - الأقصر

٢٩. فرع أسوان
٨٢ شارع التحرير - بندر أسوان - أسوان

والآن فرع جديد

فرع الظاهرة: ١٢ ميدان سرايا القبة - أمام قصر الظاهرة

PIRAEUS BANK
بنك پيريوس - مصر

البنك بنكك

إتصل بـ 19322

Animation Advertising



السنة الثامنة

العدد الخامس والتسعون

ديسمبر ٢٠٠٦

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج

أحمد الزيادي

الكتب

وجهات نظر

في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة

إبراهيم المعلم

رئيس التحرير

سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني

حلمي التوني

مدير التحرير

أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد إبراهيم محمود.. خبير بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.
- السيد أمين شلبي.. سفير مصري سابق - الرئيس التنفيذي للمجلس المصري للشئون الخارجية.
- أمارتيا سين.. أستاذ بجامعة هارفارد وحاصل على نوبل في الاقتصاد ١٩٩٨.
- أيمن الصياد.. صحفي.
- جمال محمد غيطاس.. محرر تكنولوجيا المعلومات بالأهرام ورئيس تحرير مجلة لغة العصر
- داليا يوسف.. مدير تحرير قسم مسلمي أوروبا بموقع إسلام أون لاين نت.
- ستيفن بيتر روزن.. أستاذ كرسي بيتون مايكل كانب للأمن القومي والشئون العسكرية ومدير معهد جون م. أولين للدراسات الإستراتيجية بجامعة هارفارد.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفي.
- عبد العظيم حماد.. صحفي.
- فضل مصطفى النقيب.. أستاذ في جامعة واترلو - كندا.
- كارين آرمسترونج.. كاتبة بريطانية.
- محمد البرادعي.. مدير عام الوكالة الدولية للطاقة الذرية
- محمد يحيى جمال.. أستاذ ترجمة وباحث في دراسات الترجمة العربية بجامعة نيو سوث ويلز في سيدني بأستراليا.
- محمود قاسم.. كاتب وصحفي.
- منار الشوربجي.. باحثة متخصصة في الشئون الأمريكية.
- وضاح خنفر.. مدير عام شبكة الجزيرة.

رسوم العدد للفنانين

محمد حجي - أحمد اللباد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٩٣٠٤٩٠/ ٢٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)

البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.

إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري، ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر

هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهماً - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.

Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

نوح

سلامة أحمد سلامة

مأزق الخروج من جحيم العراق

■■ فى مثل هذه الأيام قبل أربعة أعوام، كان العراق لم يزل دولة موحدة، تخضع لحكم قبضة حديدية واحدة، يتحدث العالم عن قوتها العسكرية وما تمتلكه من أسلحة الدمار الشامل التى تهدد الأمن والسلام فى الشرق الأوسط.. بنفس الطريقة والإلحاح التى يتحدثون بها عن إيران وقنبلتها النووية الآن. وكانت الولايات المتحدة الأمريكية تحت قيادة الرئيس بوش، مدعومة بتحالف قوى اليمين المحافظ والصهيونية قد عقدت العزم على أن الوقت قد حان لتوجيه ضربة عسكرية إلى النظام العراقى، بدعوى محاربة الإرهاب، لتجريده من الصواريخ والأسلحة النووية التى يخبئها، والتى فشلت بعثات التفتيش الأمريكية وخبراء وكالة الطاقة الذرية فى العثور عليها.

وفى مواجهة معارضة دولية قوية، عجزت معها واشنطن عن الحصول على قرار من مجلس الأمن يسمح لها طبقاً للباب السابع بالتدخل العسكرى فى العراق، وقف العالم كله تقريباً - باستثناء بريطانيا وإسرائيل وحفنة دول تابعة وضالعة - مشلولاً وعاجزاً عن فعل شىء، ينتظر نشوب حرب طاحنة، لن يتورع ديكتاتور العراق - فى تقديرهم - عن استخدام ما لديه من أسلحة فى الدفاع عن نفسه وعن عراقه مهما كلفه من ثمن.

بعد أربع سنوات إلا قليلاً، ها هو العالم يقف بأجمعه مرة أخرى، سواء هؤلاء الذين انضموا إلى «تحالف الراغبين» بزعامة أمريكا وبريطانيا، أو أولئك الذين عارضوا الحرب من بين الدول الأوروبية وروسيا والصين، أو حتى بعض الدول العربية التى أباحت أراضيها كقواعد عسكرية للعمليات والإمدادات الحربية والتسهيلات الجوية، يرقب ويترقب كيف غرقت القوات المتحالفة بقيادة أمريكا فى أوحال العراق، تحاول انتزاع أقدامها التى غاصت وتغوص يوماً بعد يوم فى بحر من الدماء والدمار، قتل خلالها نحو ثلاثة آلاف جندى أمريكى، وضاعت فيها بلايين الدولارات.. دع عنك ما فقده العراق من أرواح تجاوز عددها طبقاً لمجلة «لانسيت» البريطانية ٦٥٥ ألف نسمة، وما جرى تدميره من منشآت ومبان أعادت البلاد قروناً إلى الوراء. كما فقدت فيها إدارة الرئيس بوش مصداقيتها لدى الشعب الأمريكى على نحو أفضى بها إلى هزيمة فادحة فى الانتخابات النصفية للكونجرس، فقد فيها الجمهوريون الأغلبية البرلمانية. ودخلت أمريكا مرحلة خسوف سياسى أشبه بالحقبة التى أعقبت حرب فيتنام.

لم يكن هذا التحول فى مسار الأحداث مفاجأة لأحد، كما أن الإخفاق الذريع لسياسات الرئيس بوش وفريقه، وللخطط العسكرية التى طبقها دونالد رامسفيلد مهندس الحرب العراقية، لم يقع بين يوم وليلة. ولكنه جاء محصلة لأخطاء تكتيكية تراكمت بكثافة خلال عامين من بدء الغزو. انتقدها قادة وخبراء عسكريون من داخل المؤسسة العسكرية الأمريكية ومن خارجها، ولم يأبه بوش وجماعته لخطورتها، وربما لم يفهمها ويعمل على تداركها إلا متأخراً.

ولم تقتصر الكارثة على أخطاء تكتيكية ارتكبها رامسفيلد ورفض بكل عجرفة وعناد الاعتراف بها، ولكنها تركزت بصفة خاصة فى عجز أجهزة البنتاجون والمخابرات الأمريكية عن إدراك التداعيات الخطيرة للزلزال الاجتماعى والطائفى الذى أحدثه الغزو، وأدى إلى إزاحة الأقلية السنية القوية التى حكمت العراق تاريخياً، لتحل محلها أغلبية ذات مرجعيات متعددة من الشيعة، تعمقت لديها مشاعر المظلومية والاضطهاد والملاحقة. فجرت منازعات طائفية دامية، ليس بوسع أحد أن يتنبأ بتفاعلاتها، ولا بتأثير ذلك على بقاء القوات الأمريكية أو خروجها.

وتشير كل الدلائل إلى أن احتلال العراق لم يكن غير هدف مرحلى فى مخطط أكبر رسمته قوى اليمين المحافظ لمشروع إمبراطورى، يرمى إلى إعادة صياغة منطقة الشرق الأوسط الكبير، يجعل من العراق نموذجاً لنظام ديمقراطى فى بناء حديث للدولة، يرسل إشعاعاته إلى جيرانه العرب، ويصبح بما يملكه من ثروات طبيعية وبشرية بؤرة جذب لنظام جديد فى المنطقة يضمن الاستقرار والأمن، ويقضى على الإرهاب وحينئذ يمكن أن يتحقق السلام الدائم فى إطار علاقات طبيعية مع إسرائيل.

ولقد بدا إيمان بوش وإدارته بهذه العقيدة أمراً مثيراً للدهشة لبعض الوقت، ومثيراً للشك فى مدى سذاجته هو وأصحابه معظم الوقت. وقد استغل بوش ومجموعة اليمين المتطرف سلاح الحرب ضد الإرهاب لتخويف الشعب الأمريكى، وإقناعه بأن البلاد تواجه خطر إرهاب إسلامى حقيقى، يهدد أمن أمريكا ورخاءها واستقرارها. ولابد من تعبئة كل القوى، ولو اقتضى الأمر إصدار قوانين استثنائية تحد من الحريات دفاعاً عن الوطن، لمواجهة قوى الظلام الإرهابية الكامنة فى الشعوب العربية والإسلامية بضربات استباقية فى عقر دارها. وكلما حاول بعض عقلاء الأمريكيين، ومن بينهم رئيسان سابقان: جورج بوش الأب وجيمى كارتر، الحد من موجة هستيريا الحرب التى اجتاحت بوش وإدارته، ضاعف بوش من سرعة اندفاعه لإنجاز المهمة الرسالية التى كلفه بها الرب!

ويحكى وودوارد فى كتابه «حالة إنكار» لمحات من الأزمة التى نشبت بسبب الحرب على العراق بين بوش الأب وبوش الابن: عندما انتابت حالة من القلق والديه، إلى درجة أن بربارا بوش الأم، فى حفل عشاء رسمى عشية الغزو، انتحت جانباً بصديق قديم للأسرة هو السناتور الديمقراطى السابق دافيد بورين الذى كان رئيساً للجنة المخابرات فى الكونجرس أثناء فترة جورج بوش الأب، وقالت له:

- لقد اعتدت دائماً أن تصارحنى بالحقيقة.. فهل تفضى بها إلىّ الآن؟

❖ هل نحن على حق لو راودنا القلق بسبب مسألة العراق.. هل تعتقد أنه عمل خاطئ؟

- رد عليها السناتور: بالتأكيد يا سيدتى.. إنه خطأ فادح لو واصلنا السير فى هذا الطريق..

- أضافت بربارا بوش: أبوه قلق جداً ولا ينام الليل..

- قال لها السناتور: ولماذا لا يتكلم معه؟

- أبوه يظن أنه لا ينبغى أن يتدخل إلا إذا سأله هو النصيحة!

ويضيف وودوارد أن أصدقاء بوش الأب عارضوا بشدة هذه الحرب وسياسات المحافظين الجدد. وكتب برنت سكوكرفت مستشار الأمن السابق فى عهد الأب مقالاً فى «نيويورك تايمز» حذر فيه من غزو العراق. وسكوكرفت يعد من المدرسة القديمة التى لم تقتنع بمشروع نشر الديمقراطية، وتعامل مع صدام ونظامه كحاجز صد ضد إيران، فلم يتدخل عام ١٩٩١ عندما قام صدام بإعدام أعداد كبيرة من الأكراد والشيعة، لأن أمريكا - فى رأيه - ليست على استعداد لاحتلال ما أسماه تشرشل يوماً ما «بركان العراق الذى لا يخمد»!!

ولكن بركان العراق لم يخمد بالفعل، بل انفجرت حممه منذ اليوم الذى أسقط فيه الجنود الأمريكيون تمثال صدام حسين فى بغداد. ولم يدرك الرئيس بوش عندما هبط على أرض العاصمة العراقية بلباسه العسكرى كقائد أعلى للقوات الأمريكية فى أول وربما آخر زيارة له معلناً صيحة النصر، أن الحرب لم تكن على أبواب النهاية، بل كانت فى بداياتها الأولى. وأن المدى الزمنى لبقاء القوات الأمريكية واستمرار العمليات العسكرية سوف يطول بأكثر كثيراً مما قدر له، وأن «تحالف الراغبين» سوف يتحول إلى «تحالف الكارهين»، الذين بدءوا سحب قواتهم بالفعل من العراق قبل عدة شهور.

الآن اعترف الشعب الأمريكى بأن الحرب فى العراق باتت مسألة ميئوساً منها، وجاءت الانتخابات النصفية بمثابة استفتاء على شعبية الرئيس بوش وسياساته الخاسرة. وأصبح السؤال: وماذا بعد؟ كيف يمكن وضع نهاية لهذا النزيف المستمر الذى أعاد إلى الذاكرة الأمريكية كارثة حرب فيتنام، وخاصة بعد أن اعترف ثعلب أمريكا الداهية هنرى كيسنجر الذى يستمع بوش لنصائحه، بأن النصر العسكرى فى العراق أصبح مستحيلاً.

فى السياسة الأمريكية توجد عبارة شائعة بأنه لا يوجد غذاء مجانى. وحتى هذه اللحظة لم تبد أمريكا ما يشير إلى أنها على استعداد لدفع الثمن. وهو ما ألمحت إليه الاتصالات المبدئية التى جرت بين بيكر والإيرانيين، بأنهم ليسوا على استعداد لتقديم أى شىء دون مقابل

وقال للإذاعة البريطانية إنه يعتقد أنه لم يعد ممكنًا إقامة حكومة عراقية تتولى زمام الأمور فى البلاد كلها، وتضع حداً للحرب الأهلية الطائفية فى وقت معقول، يسمح للغرب بمساعدتها! ونصح كيسنجر - كما نصح قبله جيمس بيكر وزير الخارجية الأسبق الذى يرأس لجنة مشتركة من الحزبين لبحث الأزمة الحرجة التى تواجه إدارة بوش فى العراق - بفتح حوار مع جيران العراق وبالأخص إيران وسوريا.

ولكن كيسنجر لا ينصح فى الوقت نفسه بخروج سريع من العراق، لأن مثل هذا الخروج سوف تكون له نتائج كارثية، ليس فقط على العراق ولكن أيضاً على منطقة الخليج بأسرها حيث التجمعات الشيعية القوية. وهو ما قد يؤدى إلى قلقلة المنطقة فى حروب طائفية لا تنتهى بين الشيعة والسنة، بل وبين الشيعة وبعضهم البعض. وقد ينقضى زمن طويل قبل أن يستعيد العراق وحدته. وهو أخشى ما تخشاه إسرائيل من نتائج الخروج الأمريكى وتمزق العراق، إذ تبرز إيران وكأنها الكاسب الأول والقوة الإقليمية النافذة فى المنطقة.. والتى لن يجرؤ رئيس أمريكى فى المستقبل القريب على توجيه ضربة إليها، وهى تواصل بإصرار العمل فى برامجها النووية وتحرز فى كل يوم تقدماً ملموساً.

بعد ٣١ عاماً من الهزيمة الأمريكية فى فيتنام، تجرى المقارنة بين المأساة الفيتنامية والمأساة العراقية وكأن الأمريكيين لم يتعلموا شيئًا من دروس التاريخ. وبقدر ما كانت الحرب فى فيتنام لأسباب ملفقة بهدف وقف تغلغل النفوذ الشيوعى فى آسيا مدفوعة بلوبى شركات السلاح والبترول، كانت الحرب فى العراق لأسباب لا تقل كذبًا وتلفيقًا، لإعادة ترتيب الموقف فى الشرق الأوسط من أجل احتكار مصادر النفط فى منطقة الخليج، وحماية أمن إسرائيل واستقرارها، والتحكم فى النمو المتسارع للقوى الآسيوية الصاعدة وعلى رأسها الصين والهند.

ربما كان الفارق الوحيد أن الأمريكيين عندما انسحبوا من فيتنام، تركوا وراءهم شعبًا وحدته الثورة والنضال ضد الاحتلال الأمريكى، بحيث استطاع بناء نفسه فى غضون سنوات قليلة. أما فى العراق فلن يكون الانسحاب سهلاً فى ظروف تنبئ باستمرار القتال بين الفصائل المتصارعة فى العراق، واحتمالات تقسيم البلاد على أسس طائفية. وهو ثمن باهظ لن تستطيع أمريكا احتماله. ولعل هذا هو الدرس الذى أشار إليه بوش فى حديثه عن دروس الحرب الفيتنامية، بما يعنى أن أمريكا لن تهرول للانسحاب من العراق كما فعلت فى فيتنام، دون أن تترك وراءها من وما يحمى مصالحها ويحافظ على أمن ربيبتها إسرائيل.

فى هذا الصدد تروى قصة ذات مغزى، عن مفاوضات جرت بين أحد أباطرة صناعة السينما فى هوليوود والأديب الإنجليزى المعروف برنارد شو حول الحصول على حقوق إنتاج إحدى مسرحياته الشهيرة للسينما. وبعد حوار طويل قال شو للمنتج الكبير: «أخشى أننا لن نتوصل إلى اتفاق.. فأنت تتحدث فقط عن الفن، وأنا أتحدث فقط عن الفلوس».

والمغزى أن بوش، سواء فى رحلته إلى آسيا أو فى محاولة تعديل سياساته فى العراق يبتعد كثيراً عن الممكن، ففى اجتماع قمة التعاون الآسيوية فى هانوى، لم يكن الهاجس الوحيد الذى سيطر على بوش غير الأزمة النووية الكورية، بينما كان ٢١ رئيس دولة آسيوية أخرى مشغولين بتوسيع نطاق التبادل التجارى.

وهو ما يفعله بوش حالياً للخروج من مستنقع العراق. فالأمريكيون - فى ضوء مقترحات بيكر الجديدة - يتحدثون عن ضرورة الكلام مع العدو، أى عن فتح قنوات للحوار مع إيران وسوريا. وكأنه يكفى أن تمد واشنطن يدها بالصداقة أو ما يشبه الصداقة إلى البلدين، حتى تذوب جبال الجليد التى تراكمت عبر الخلافات والتهديدات بالحصار والمقاطعة والضربات الاستباقية، وتزول وصمة «محور الشر» الذى اتخذ منه المحافظون الجدد هدفًا لابد من القضاء عليه. وكان الظن أن إسقاط صدام حسين سوف يؤدى بالتالى إلى سقوط نظام الملالى فى طهران، ومعها أو قبلها نظام الأسد فى سوريا، لتبسط الديمقراطية جناحيها على المنطقة، وتفتح الطريق للسلام الأمريكى الإسرائيلى فى الشرق الأوسط.

وبقدر السذاجة التى تميزت بها تصورات المحافظين الجدد، جاءت الطروحات التى ترددت أخيراً حول الهدف من الاتصالات مع إيران وسوريا للمساعدة على تهدئة الموقف المتدهور فى العراق لا تقل سذاجة. فالمطلوب من سوريا هو التعاون الكامل لمنع تهريب السلاح والمقاتلين من المتطوعين فى صفوف «القاعدة» عبر حدودها للانضمام إلى المقاومة السنية. ووقف المساعدات المالية التى يرسلها أعضاء القيادة البعثية السابقة الذين وجدوا لهم ملاذاً فى سوريا، حيث تنسب معظم العمليات التى راح ضحيتها جنود أمريكيون فى العراق إلى المقاومة السنية. وقد يتطرق الحديث أيضًا إلى تغيير السياسات السورية إزاء لبنان، ومساندتها للفصائل الفلسطينية المعارضة لتذليل الصعوبات بين الفلسطينيين وإسرائيل.

أما بالنسبة لإيران فالمطلوب منها أن تستخدم نفوذها للسيطرة على العمليات التى تقوم بها الميليشيات الشيعية التى تنتمى إلى الفصيلين الرئيسيين من الشيعة فى العراق، والتى تنتمى إحداهما إلى مقتدى الصدر والأخرى إلى عبدالعزيز الحكيم.. وكلاهما يعتمد فى تمويله وتسليحه على مساعدات إيرانية، وكثير منهم أمضوا سنوات المنفى فى إيران أثناء حكم صدام.

وفى السياسة الأمريكية توجد عبارة شائعة بأنه لا يوجد غذاء مجانى. وحتى هذه اللحظة لم تبد أمريكا ما يشير إلى أنها على استعداد لدفع الثمن. وهو ما ألمحت إليه الاتصالات المبدئية التى جرت بين بيكر والإيرانيين، بأنهم ليسوا على استعداد لتقديم أى شىء دون مقابل. بل على العكس، فمازالت تتردد تصريحات لمسئولين أمريكيين بأنهم لن يقدموا على أى تعاون مع إيران ما لم تتراجع عن برنامج التخصيب النووى، وتقبل بالحوافز والشروط التى قدمها الأوروبيون.

ولا يختلف الحديث مع سوريا - فى الاتصالات غير الرسمية التى جرت - عن هذه النغمة حيث يتجاهل الأمريكيون تماماً حجم المشاكل والإساءات التى شاركت أمريكا فى توجيهها إلى سوريا، سواء فيما يتعلق بلبنان أو فلسطين أو التجاهل الصارخ للاحتلال الإسرائيلى للجولان.

كما لم يبد من جانب واشنطن حتى الآن ما يشير إلى أن بالونات الاختبار التى أطلقها تونى بلير رئيس وزراء بريطانيا، ودعا فيها إلى ضرورة توسيع نطاق الحوار مع إيران وسوريا ليشمل مشكلة الصراع العربى الإسرائيلى باعتبارها أم المشاكل، قد وجدت صدى لدى الإدارة الأمريكية، خصوصاً إذا أخذنا فى الحسبان أن الأغلبية الديمقراطية التى سيكون لها اليد الطولى فى تعديل السياسات الأمريكية، لا تتحدث بصوت واحد. وأن مواقف الديمقراطية فى ملفات السياسة الخارجية، سواء بالنسبة لسوريا وإيران أو بالنسبة للتأييد المطلق لإسرائيل، لا تختلف عن رؤى الجمهوريين. وليس من المرجح أن يترك الحزب الديمقراطى نفسه للانجرار إلى صراعات داخلية حول هذه القضايا، وهو على أبواب الانتخابات الرياسية المقبلة.

لا تبدو فى الأفق نهاية سعيدة أو محددة لكيفية خروج القوات الأمريكية من الجحيم الذى أشعلته فى العراق. وقد كانت إيران هى الأسرع فى مواجهة التطورات الأخيرة بتحركات أبرزتها كقوة إقليمية تملك أوراقا قوية للمساومة والدفاع عن مصالحها، حين دعت إلى قمة ثلاثية تضم سوريا والعراق فى طهران. وهو ما ينبئ بأن طبقات الظلام التى تلف المنطقة لن تنقشع فى وقت قريب. وأخطر الاحتمالات أن تقدم إسرائيل - فى حالة يأس - وبإيعاز من أمريكا على حماقة كبرى بتوجيه ضربة إلى إيران. ■

قــــراءة

مـــا وراء الحجـــاب

أيمـــن الصيـــاد

قبل عام كامل وبالضبط في اليوم السابع من شهر ديسمبر عام ٢٠٠٥ كان «عمرو نبيل» المصور البارع لوكالة أسوشيتدبرس AP يؤدي مهمته، لا في ميدان قتال كما فعل مراراً - وإنما في تغطية الانتخابات البرلمانية المصرية. يومها فقد «المصور» عينه - أو كاد - بعد أن اعتدى عليه من أراد منعه من تصوير تجاوزات أمنية فاقت يومها كل حد.

تذكرت الحادثة المؤلمة - ولم أكن قد نسيتها أبداً - حين شاهدت قبل أيام «صورتين» إحداهما للبلطجية ذاتهم يقتحمون جامعة عين شمس بالهراوات والسيوف والجنازير لتأديب طلبة جامعيين فكروا في ممارسة «حق ديمقراطي» حجبته عنهم قوة السلطة. والأخرى لسيارة الأمن المركزي «المهيبة» تدخل - ربما للمرة الأولى - من البوابة الرئيسية لجامعة القاهرة.

ذكرتني «الصورتان» بصديقي «المصور». وكان مثيراً أن نشرهما كان بعد أسابيع فقط من حادثة التحرش الجنسي الجماعي في وسط القاهرة. ومن حادثة تلوث مياه الشرب في الدقهلية. وربما في الوقت نفسه الذي شهدنا فيه بوادر حادث مروع كشف الحالة الحقيقية لاستاد القاهرة «الدولي». وفي الأسبوع ذاته الذي شهد اجتماعاً للقضاة الذين أعياهم الدفاع عن استقلالهم. وبعد أيام فقط من الإعلان عن «الاستمرار» في تحمل المسؤولية «مادام في الصدر قلب ينبض ونفس يتردد». وكان الأكثر إثارة أن كل ذلك غطاه «حجاب» من حديث أو قل «شجار» حول «الحجاب» الذي بات فجأة مسألة المسائل أو قضية القضايا.

ثم كان أن دارت آلة التلهي أو الإلهاء الجهنمية، فانشغلنا جميعاً؛ مانشتات وبرلماناً وفضائيات بكلام لوزير «وليس قراراً قانونياً ملزماً». وبدا أننا بتنا نتعارك في ميادين نمهدها بأنفسنا لأنفسنا. وننسى أن القضاء؛ حصن العدل والأمان الأخير في مصر قد بات مهدداً - تحت ضغوط فاقت كل حد - في كرامته، ومن ثم في استقلاله. ونتجاهل أن إقصاء القضاة - بنزاهتهم المؤكدة - عن العملية الانتخابية - قد بات هدفاً يدبر له بليل. ويجري الترويج له بباطل القول.

يخترع مثقفونا ومفكرونا - وسياسيونا أيضاً - معركة لا فائدة منها حول ما قاله الوزير و«ماذا كان يقصد». وينسون بروفة «فوضى الشارع» القادمة وسط القاهرة ليلة العيد. هل تذكرون ما جرى في ١٩٨٦. حين كانت شرارة واحدة كافية لأن يشتعل الحريق.

يحترق العراق.. ويذبح الفلسطينيون بدم بارد كل يوم، وتعلن إسرائيل تطوير وسائل قتالية متناهية الصغر بواسطة «النانو تكنولوجي».. وتنشغل الدولة العربية «الكبرى» بشجار مفتعل حول مسألة من المفترض أنها حسمت - أياً ما كان أمر ذلك الحسم - قبل أربعة عشر قرناً. حتى وإن لم يكن الأمر كذلك - كما يرى البعض - فليس من الحكمة التي هي «ضالة المؤمن» أن ننشغل بها «الآن» ونترك بيتاً عربياً يحترق، وبيتاً مصرياً تكمن في زواياه - وإن لم نر - أشباح الخراب.

نعرف أن «الحجاب» قد بات «اصطلاحاً» يعني غطاء رأس المرأة المسلمة، وما إذا كان «حقاً» لها أو «واجباً» عليها، ولكننا نعرف أيضاً أن «الحجاب» بمعناه اللغوي الأوسع قد يعني «غمامة» يضعها البعض على ناظريه لتخفي عنه ما لا يريد أن يرى. أو «غطاء» يعمد إليه من يريد أن يخفي أو يحجب ما يراه أولى بالإخفاء عن العيون .. أو ضوء النهار.

وأخشى أن نكون دولة ومجتمعاً، قد ارتاح بعضنا إلى تلك «الغمامة» وأمن الآخرون إلى هذا «الغطاء». فإذا كان «وراء الأكمة ما وراءها» كما يقول القول المشهور، يبدو للمتأمل للمشهد من بعيد أن وراء «الحجاب» الذي أردناه جميعاً واسعاً وكثيفاً يغطي سوءاتنا.. الكثير والكثير والكثير.

إذ يبدو أن مصر قد اختارت أو اعتادت -دولة ومجتمعاً ونخبة للأسف- أن تعيش خلف «حجاب» فضفاض من الشعارات البراقة تخفي خلفه الوضع الحقيقي لحال التعليم والديموقراطية والاقتصاد وحقوق الإنسان وإنتاجية العامل ومستوى خريج الجامعة... وكل ما هو معلوم أو مسكوت عنه، أو بالأحرى مختفٍ خلف زحام اللافتات والمانشتات المتبارية دوماً في المبالغة وإهانة اللغة و«الأرقام».

فوراء حجاب «مجانية التعليم» تقبع حقيقة أن الدروس الخصوصية تستهلك مايزيد عن المليار جنيه سنوياً، (إن صحت التقديرات في بلد يدعي العلم وتغيب فيه دوما البيانات أو الاحصاءات الموثقة)

ووراء حجاب «جامعة في كل محافظة .. وأربع عشرة جامعة خاصة» تعليم جامعي «فاشل» باعتراف الوزير المختص نفسه، والذي اختار أن يرسل أولاده للتعليم في الخارج. وخريجون - إن أردنا الحقيقة بلا «حجاب» - لا يزيدون عن كونهم أشباه متعلمين، وجامعات «خاصة» تبيع شهاداتها لمن يدفع لا لمن يتعلم. ... ومن ذلك كثير «أنى قلبت وجهك».

جربوا من فضلكم زيارة مواقع الجامعات المصرية على الإنترنت، (حسب المعايير العلمية كان ترتيب موقع جامعة القاهرة بين جامعات العالم (٤٧٠٨) وبين جامعات أفريقيا (٢٦) بعد ناميبيا وموريشيوس ودار السلام.!.

http://www.webometrics.info/top100_continent.asp-(cont=africa.htm

نتغافل عن كل هذا. ونتحدث عن الحكومة الإلكترونية. ونقنع أنفسنا بأن لنا الريادة وأننا في الصدارة ثم نذهب لنحتسي الشاي ونتبادل المبسم على المقاهي. وإنا.. «ها هنا لقاعدون..».

وراء الحجاب الذي أردناه مزركشاً - كما هي موضة تلك الأيام - ببريق ديمقراطي، دولة أمنية، وإن تخفت تحت «حجاب» أو في ثياب مدنية.

ووراء الحجاب حقيقة أننا أمام نواب لا يعبرون كما يزعمون عن آرائهم الحقيقية. بل تحركهم «عصا الفرعون الخفية» فالذين هاجوا وماجوا ضد الوزير مدافعين عن «صحيح الدين» كما قالوا بأعلى صوت، هم أنفسهم الذين هدأوا فجأة، وبلعوا كل شعاراتهم حين جاء وقت اتخاذ القرار. بالضبط كما حدث قبل عام ونصف العام. فالذين اعتبروا يوماً تعديل الدستور من الكبائر هم أنفسهم الذين صفقوا للمبادرة الرئاسية الكريمة لتعديل المادة ٧٦ دعماً للديمقراطية. أو قل لإضفاء مزيد من البريق على «الحجاب».

ووراء الحجاب معارك «رسمية» خشنة مع القضاة والصحفيين والطلاب والمهنيين على اختلاف نقاباتهم. ووراءه تقرير - نسيناه - للمجلس «الرسمي» لحقوق الإنسان عن اعتقالات واحتجاز لمواطنين دون سند من القانون، وعن حالات مؤكدة للتعذيب، وعن أحكام للقضاء تجاهلتها السلطات واعتبرتها «محض حبر على ورق».

ووراء الحجاب «الديموقراطي» حقيقة أن أحكام القضاء التي صدرت عشية الانتخابات الطلابية والعمالية الأخيرة «لم يعتد بها» .. هكذا ببساطة. ولحسابات انتخابية ضيقة لم يدرك أصحاب القرار/السلطة خطورة أن يتعمق لدى المواطن العادي شعور باليأس من اللجوء إلى التقاضي «سبيلاً سلمياً لحل المنازعات». وغير مدرك أنه عندما تُغل يد القضاء في رد المظالم لأصحابها يصبح الأمن الاجتماعي مهدداً. كما يصبح مفهوم الدولة ذاته في خطر.

قبل عام كامل. وعين صاحبنا المصور التي أصيبت تشهد. لم يدرك أصحاب قرار اللجوء إلى «الهراوة والسكين» لضمان الأغلبية خطورة أن يشيع في المجتمع مفهوم: أن القوة / العنف هي السبيل «الوحيد» لكي تصل إلى هدفك (حقاً كان أو باطلاً). والآن بعد عام كامل مازال «الحجاب» فيما يبدو يغطي عيونهم.

ووراء الحجاب - تأملوا الصورة .. وتمعنوا فيما ماجرى في شوارع وسط البلد ليلة العيد - إحساس بالإحباط، وحالة من التوتر المجتمعي (لا السياسي أو الديني فقط) لن تهدئه - مهما قست - هراوات الأمن المركزي، كما لن تخفيه - مهما تكاثفت - غازاته المسيلة للدموع. والمشكلة أن بعضنا، رغم كل شيء اختار أن يضع «الحجاب» على عينه حتى لا يرى النار تحت الرماد. رغم أن تمرد الأمن المركزي (١٩٨٦) إذا ما كنا نتذكر - ويجب أن نتذكر - لم تسبقه إشارة، كما لم يكن بحاجة إلى تنظيم وكوادر و«البيان الأول». ولكنه في نهاية المطاف، أو في نهاية «المفاجأة» جاء بالدبابات إلى الشوارع.. وبالقلق إلى النفوس.

خلف «حجاب» فضفاض من الشعارات البراقة يختفي الوضع الحقيقي لحال التعليم والديموقراطية والاقتصاد وحقوق الإنسان وإنتاجيـة العـامل ومسـتوى خـريج الجامعـة



نزعم أننا بلد «عرف طريقه إلى الله» وندلل على ذلك بانتشار النقاب واللحى، وصفوف المصلين اللامتناهية في رمضان. ونخفي وراء ذلك «الحجاب» الواسع المطمئن أن الفساد قد وصل إلى كل ركن، وأن الرشوة قد صارت في كل جيب. وأن الغش قد أصبح في منظومة قيمنا الحديثة شطارة وفهلوة. وأننا «عدا ما هو شكلي» قد فقدنا الإحساس الكامن في الضمير بالخط الفاصل بين الحلال والحرام. وأننا بإهدارنا قيمة التعليم «الحقيقي» والعمل «الحقيقي» قد بتنا نلهث خلف أمم عرفت أن لا قيمة للشكل بلا جوهر. ولا للقول بلا فعل. ورحم الله شيخنا محمد الغزالي الذي بح صوته منبهاً ومحذراً.

تبقى على الهامش ملحوظات ثلاث:

١ - الأولى حول علاقة المثقف الملتبسة بالسلطة من ناحية وبالدين من ناحية أخرى. إذ ليس مفهوماً أن يدافع نفرٌ من «المثقفين» عن حرية الرأي وحرية الفعل. مستثنين من ذلك حرية المتدينين في التمسك بدينهم أو الجهر به. وتحار قطعاً حين تجد من يرسخ في الأذهان أن الثقافة الحقة تعني التنكر للدين أو إخفاء «إيمانك به» تحت حجاب براق من شعارات الحداثة والليبرالية.

٢ - أنه كان مدهشاً أن كثيرا ممن انبروا تحت القبة «مزايدين» ومدافعين عن الدين الذي اعتبروه مجسداً في غطاء رأس المرأة ملوثة أيديهم - ولا أقول ضمائرهم - بوقائع تزوير وغش واستغلال نفوذ. بل إن منهم - حسب أحكام محكمة النقض النهائية - من وصل إلى مقعده أصلا بطريقة لايرضاها شرعٌ ولا دين.

٣ - أن هناك حالة من الاستقطاب الحادة في المجتمع ينبغي الانتباه إليها.

وهناك «ثقافة ديموقراطية» ينبغي تعزيزها، لا وأدها تحت سنابك الخيل أو أحذية الجنود. وأن «الأغلبية البرلمانية» بحكم الأمر الواقع تتحمل مسؤولية ذلك بالتأكيد. إذ أن ماجرى في مصر في الأيام الماضية، وامتد بالتالي تلفزيونيا وصحفيا الى محيطها العربي كان «شجارا» ولم يكن بحال من الأحوال «حوار». ففي الحوار، يحدد الناس بداية حول ماذا بالضبط يتحاورون وما هي نقاط الاتفاق. وما هي تلك التي مازالت محلاً للخلاف، ومن ثم للحوار. ثم ما هي المرجعيات المتفق عليها، وما هي التعريفات المحددة لما سيستخدمونه من مصطلحات... هنا - وهنا فقط - يبدأ تبادل «حقيقي» لوجهات النظر بين أطراف تعلم بالضرورة أن هناك «رأيا آخر» ليس لنا بالتالي أن نتبرم من الإنصات إليه، بعقل يدقق، وقلب يسمح.. واستعداد لأن نقبل منه كما نرفض.

وبعد.. فستهدأ - كعادتنا - الضجة.. مهما علا الصوت أو ارتفع الضجيج. كما هدأ قبلها بأسابيع فقط الصخب. الذي بتنا لا نجيد غيره. حول تظاهرات التحرش الجنسي في قلب العاصمة. وسننسى كل شيء كما نسينا إصابة «صديقي عمرو» على يد البلطجية أثناء تأدية عمله في رصد الممارسات «الديمقراطية» في ذلك اليوم «الديمقراطي» قبل عام كامل.

وخلاصة القول إنه خطأٌ قطعاً - بل وربما «جُرمٌ» أيضاً - أن يسخر احدهم سواء كان في لندن أو القاهرة. أو أن يقول إن الحجاب أو ارتداءه علامة من علامات «التخلف». ولكن أن يصبح الحجاب «قضية» وأن تصبح «قضية الحجاب» هي الأولى قبل كل قضايا الإصلاح والحرية والتقدم العلمي والديمقراطية التي هي غائبة بامتياز، يصبح هذا هو «التخلف بعينه». ■

هيكل

جدلية الصحافة والسياسة والتاريخ



فضل مصطفى النقيب

قراءة هيكل لم تكن مفيدة وضرورية لفهم الخمسينيات والستينيات والسبعينيات فحسب، فالواقع أن قراءته فى التسعينيات قد ساعدتنى وأثرت فى تفكيرى أكثر من السابق

[١]

إنهم يتحدثون دوماً عن الستينيات: جيل الستينيات، وفكر الستينيات، وثقافة الستينيات، مع أن واقع الأمر يؤكد أن كل شىء كان قد ابتدأ وتكرس فى الخمسينيات.

فى مطلع الخمسينيات كنا طلاباً فى المدارس الثانوية فى دمشق، وكانت «القراءة» بالنسبة لنا هى كل شىء. وكان شغفنا بالقراءة يزداد مع تسارع إيقاع المحطات التاريخية لذلك العقد العظيم. ١٩٥٢ (ثورة ٢٣ يوليو) و١٩٥٤ (ثورة الجزائر) و١٩٥٦ (حرب السويس) وشباط ١٩٥٨ (وحدة مصر وسوريا) وتموز ١٩٥٨ (ثورة العراق).

قبل ثورة يوليو، كنا نقرأ قصص جرجى زيدان وروايات ألكسندر دوماس الكبير، ونعيش فى عالم مسحور، تتوزع فيه عواطفنا بين أبطال العروبة والإسلام، وفرسان أوروبا وأميراتها الجميلات.

ثم فتحت ثورة٢٣ يوليو أمامنا عالماً جديداً من الأدب والسياسة. أول ما قرأناه فى السياسة كان فلسفة الثورة لجمال عبد الناصر، ثم اكتشفنا على صفحات «الجمهورية» نجيب محفوظ، ويوسف إدريس، وعبد الرحمن الشرقاوى، كما أخذنا نقرأ للكتاب الكبار الذين كنا نسمع عنهم دون أن نقرأ لهم كطه حسين، وتوفيق الحكيم وعباس محمود العقاد.

بعد انطلاق ثورة الجزائر عام ١٩٥٤، تسارع نبض حركة التحرر العربى، فأخذنا نلتهم كل ما تصل إليه أيادينا من كتب النضال الثورى، والعمل القومى، والفكر الاشتراكى. وكنا ننتظر بفارغ الصبر يوم الاثنين من كل أسبوع، لتصل مجلة «روز اليوسف» من القاهرة، كما ننتظر مطلع كل شهر لتصل مجلة «الآداب» من بيروت. وعلى صفحات هاتين المجلتين كنا نتحاور فى الأفكار التى قرأنا عنها فى الكتب، أو استمعنا إليها فى النقاشات الدائرة فى كل مكان.

عشنا سنوات ١٩٥٦ - ١٩٥٨ فى مظاهرة واحدة مستمرة، فبعد هزيمة العدوان الإسرائيلى - البريطانى - الفرنسى على مصر، وتكريس قيادة جمال عبد الناصر لحركة التحرر العربى تظاهرنا بشكل دائم مطالبين بتحقيق الوحدة بين مصر وسوريا.

فى تلك الأيام اختفت الحواجز بين السياسة والأدب، فكنا نهتف بشعارات الوحدة والتحرر، وفى نفس الوقت، نناقش آخر أخبار المعارك الأدبية التى كانت تدور بين طه حسين، ومحمد مندور ومحمود أمين العالم، وعبد العظيم أنيس. وعندما حضر طه حسين إلى بيروت تلبية لدعوة مجلة «الآداب» ليتحاور مع رئيف خورى فى موضوع الالتزام والأدب، كان لذلك الحوار وقع وصدى وتداعيات الأحداث السياسية الكبيرة.

ثم جاءت الأشهر الستة الكبيرة لعام ١٩٥٨ التى امتدت من قيام الجمهورية العربية المتحدة فى شباط إلى ثورة العراق فى تموز.

كانت أياماً نادرة، لم يعرف العرب مثلها فى تاريخهم الحديث، وعندما أعلن عبد الناصر «أن الذى علقت من أجله المشانق، أصبح له وحده قوة القانون»، تحرك فى أعماقنا إحساس أكيد بأن أمتنا عادت لتدخل التاريخ من جديد، وأننا نسير على الطريق الذى سيوصلنا لاستعادة الحقوق، وتحطيم الظلم الذى أثقل ظهور آبائنا وأجدادنا مئات السنين.

وفى ظهر أحد تلك الأيام العربية، كنا عائدين من المدرسة، فتوقفنا كعادتنا أمام مكتبة «النورى» فى شارع جمال باشا لنقرأ عناوين الصحف، فوجدنا صفحة من جريدة الأهرام معلقة على جدار المكتبة وفيها رسالة مفتوحة من محمد حسنين هيكل إلى الملك سعود بن عبد العزيز يبدأها بالقول:

«يا صاحب الجلالة، كل الأقلام تحطمت على أعتابك، إلا هذا القلم».

فاجأنى شعور طاغ من الفرح والحماسة هزنى من شعر رأسى إلى أخمص قدمى.

لم أكن من قراء محمد حسنين هيكل، فلقد كان يعمل فى دار «أخبار اليوم»، ثم سمعنا أنه انتقل ليصبح رئيساً لتحرير جريدة «الأهرام». ولم أكن من قراء صحف دار «أخبار اليوم» أو «الأهرام». فلقد كنت أسمع من أحاديث والدى وأصدقائه أن دار «أخبار اليوم» تعمل على نشر أسلوب الصحافة الأمريكى الذى يهدف إلى الإثارة بالدرجة الأولى، كما أنها مؤسسة موالية للقصر ومعادية للوفد «حزب الأغلبية»، كما كنا نرى فى «الأهرام» جريدة قديمة وتقليدية وبعيدة عن أجواء حركة التحرر الوطنى.

بعد ذلك عدت للأعداد القديمة لمجلة «آخر ساعة» التى كان أخى عصام يشتريها ورحت أقرأ فيها كل ما أجده من مقالات هيكل، وعندما فرغت من ذلك رحت أتردد على المكتب الثقافى المصرى لأقرأ مقالات هيكل القديمة فى صحف ومجلات وجرائد دار «أخبار اليوم». ولقد شعرت أنى أتعرف على كاتب من نوع لم أعرفه من قبل، فلقد كانت مفاجأة لى عندما اكتشفت أنه فى الأشهر الأولى من عام ١٩٤٨ يوم كنت ما زلت مع أهلى فى فلسطين كان هو أيضا هناك. ثم اكتشفت بعد ذلك أنه كان أيضا فى كل الأمكنة

التى كانت تأتى منها أخبار النزاعات والحروب والثورات.

لقد تولد عندى بعد قراءة تلك المقالات شعور غريب لم أعهده من قبل، إذ شعرت وكأنى تعرفت على صديق سينقل لى دوماً حقيقة ما يدور فى العالم.

وهكذا أخذت أترقب يوم الجمعة وقراءة مقاله الأسبوعى «بصراحة». فى جريدة الأهرام.

ولكنى لم أتمكن من الاستمرار بقراءة «هيكل» بشكل منتظم كل أسبوع إلا لبضعة أشهر فقط، فلقد سافرت فى مطلع عام ١٩٥٩ إلى الولايات المتحدة للدراسة الجامعية.

فى الولايات المتحدة، كنت أقرأ عن رأى أو وجهة نظر هيكل أيام الأحداث الهامة فى العالم العربى، إذ أن وسائل الإعلام الأمريكية كانت تعتمد على مقالات «بصراحة» كجزء من تغطيتها لتلك الأحداث، وأيام الأحداث الكبرى، كأيام كارثة «الانفصال» أو أيام ثورة اليمن كان والدى يرسل لى بالبريد بضعة مقالات «بصراحة». ولكن لم أعد لقراءة هيكل بشكل منتظم ومستمر إلا بعد مرور أكثر من سنتين على وجودى فى الولايات المتحدة.

عن طريق الصدفة، كنت أزور صديقاً يقيم فى مدينة بورتلاند بولاية أورغون، فاكتشفت أن هناك كلية عن الشرق الأوسط فى جامعة بورتلاند وتحتفظ مكتبتها بكتب وجرائد ومجلات عربية، كثيرة منها أعداد جريدة «الأهرام» التى تعود لسنوات عديدة.

بعد تلك الزيارة، أصبح عندى التقليد التالى: كل ثلاثة أو أربعة أشهر أسافر فى مساء الجمعة لبورتلاند وأقيم عند صديقى، وفى صباح السبت أستيقظ باكراً وأكون على باب مكتبة الجامعة فى موعد افتتاحها الساعة الثامنة. آخذ أعداد الأهرام للشهور الماضية وأنتقى منها أعداد يوم الجمعة فأفتحها على مقال «بصراحة»، ثم أترك المكتبة وأذهب لمقهى الجامعة حيث أتناول الإفطار، ثم أعود للمكتبة لأقضى ساعات ممتعة فى قراءة المقالات.

وفى صباح الأحد آخذ الباص عائداً لجامعتى فى ولاية واشنطن، وخلال الساعات الثلاث التى تستغرقها الرحلة، أشعر وكأنى عائد من الوطن العربى،وليس من ولاية أمريكية مجاورة.

لم أنقطع بعد ذلك أبداً عن قراءة هيكل، ولكن قراءتى له فى سنوات ١٩٦٧-١٩٧٣ كانت تتم دون حماسى القديم. ففى تلك السنوات كنت مقتنعاً بضرورة محاربة الصهيونية والولايات المتحدة الأمريكية عن طريق الكفاح المسلح وأسلوب حروب التحرير الشعبية، وكنت أرى أن هيكل مازال يؤمن بضرورة الاستمرار بأسلوب الجيوش التقليدى لإدارة الصراع العربى - الإسرائيلى، ويرى ضرورة الابتعاد عن الصراع المباشر مع الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك فإنى لم أرتح للمقالات التى كتبها مؤيدا السادات فى صراعه مع مجموعة على صبرى فى مايو ١٩٧١.

عاد حماسى القديم لقراءة هيكل بعد حرب ١٩٧٣.

بعد قراءتى لمقاله المشهور عن مقابلته لهنرى كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة فى أول زيارة له للقاهرة، أدركت على الفور، أن أنور السادات يريد استغلال حرب أكتوبر لحرف حركة التحرر العربى عن مسارها السليم، ويريد الارتباط بالسياسة الأمريكية وأن هيكل يقاوم ذلك الاتجاه.

بعد ذلك انتقل هيكل من كاتب صحفى إلى مؤلف للكتب، ومن الطبيعى أن كتبه عن حرب الثلاثين عاماً، «ملفات السويس»، «أيام الغليان»، «الانفجار» ««الطريق إلى رمضان»»، و«حرب أكتوبر»، كانت كتباً هامة أعطتنى فهماً جديدا عن الذى دار فى الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، وإنى أحتفظ بها كمرجع أعود إليه بشكل دائم.

أما كتاب «زيارة جديدة للتاريخ» فإنى أعود إليه دوماً كلما شعرت فى نفسى حاجة ماسة إلى تعزيز الصلة بين الماضى والحاضر والمستقبل. والواقع أنى أحتفظ معى دوماً بكتابين: «زهرة العمر» لتوفيق الحكيم، و«زيارة جديده للتاريخ»، لأقرأ بعض فصولهما قبل الشروع فى كتابة أى بحث أكاديمى جديد حتى أتذكر أنه من الممكن كتابة أشد الأفكار صعوبة وتعقيداً بأسلوب بسيط سهل يفهمه الجميع، وأنه إذا لم أستطع ذلك فهذا يعنى أن فكرة البحث غير واضحة فى ذهنى بعد، وأن على أن أعود للبحث والتفكير قبل الشروع بالكتابة.

ولكن قراءة هيكل لم تكن مفيدة وضرورية لفهم الخمسينيات والستينيات والسبعينيات فحسب، فالواقع أن قراءته فى التسعينيات قد ساعدتنى وأثرت فى تفكيرى أكثر من السابق، وفى هذا المجال فإنى أتذكر دوما ثلاث مناسبات كان لها تأثير كبير على نشاطى وتوجهى وحياتى المهنية.

المناسبة الأولى، كانت فى مطلع التسعينيات وبعد حرب الخليج الثانية، فلقد مررت كغيرى من ملايين المواطنين العرب بمرحلة تمزق نفسى حاد، إذ أخذت أشعر أنى أعيش فى عالم غريب يدور فيه صراع تراجيدى غير شرعى، فإذا كانت التراجيديا معروفة تاريخيا بأنها تصور صراع عدة قوى كلها شرعية، فى كل واحدة نزعات من الخير والشر، ولكن القدر قادها لأتون صراع لا مفر منه، وجدت نفسى أشاهد صراعا تراجيديا لقوى كلها غير شرعية وكلها شريرة. فمن ناحية كنت ضد هجوم الجيش العراقى على الكويت واحتلاله، ومن ناحية أخرى كنت ضد الإطار الذى تمت فيه عملية «تحرير الكويت» الذى رأيت فيه مجرد ذريعة وحجة لفرض السيطرة الأمريكية على المنطقة وإعادة الهيمنة الاستعمارية المباشرة بشكل يتناغم مع الأولويات الإسرائيلية.

وأكثر ما كان يضايقنى هو أن أكثر كتاب السياسة العرب ، ما عدا بعض الاستثناءات القليلة، كان يقفز فوق الواقع التراجيدى المعاش ويخترع وضعاً دراميا مزيفاً تتصارع فيه قوة شرعية خيرة ضد قوى الشر. فالبعض كان يضفى على الاستبداد صفة الشرعية لأنه فى وضع صراع مع القوى الإمبريالية، والبعض الآخر كان يضفى على الإمبريالية صفة الشرعية لأنها فى وضع صراع مع الاستبداد.

لقد سبب لى هذا الوضع إحباطاً واكتئاباً مراً، وفى أثناء تلك الفترة سافرت من كندا، حيث أعيش، إلى جنيف فى سويسرا لحضور مؤتمر لمنظمة الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (الاونكتاد)، ولأسافر بعدها إلى دمشق لزيارة أهلى. وفى أمسية المؤتمر الأخيرة وجدت فى مكتبة «الديوان» الكتاب الجديد لهيكل: «حرب الخليج: أوهام النصر»، الذى كنت قد سمعت عن صدوره ورغبت فى الحصول عليه فور وصولى دمشق.

أخذت الكتاب للفندق وقبيل حفلة عشاء كنت مدعواً لها رحت أقرأ فيه. بعد حوالى الساعة، اتصلت بالتليفون واعتذرت عن عدم حضور حفل العشاء وتابعت القراءة إلى ما بعد منتصف الليل، وفى اليوم التالى تابعت القراءة طوال الرحلة حتى وصلت نهاية الفصل قبل الأخير عندما حطت الطائرة فى مطار دمشق.

لم يغير الكتاب شيئاً من الواقع العربى، ولكنه ساعدنى على فهم ذلك الواقع بشكل أفضل. لقد حلل هيكل الواقع العربى وأظهر كيف أنه يمر بمرحلة انتقال تاريخية صعبة وقلقة، فنظام الحياة القديم سقط لأنه لم يعد يتلاءم مع العصر. فى نفس الوقت الذى لم يتم فيه بعد تكوين رؤية واضحة لمعالم النظام الجديد. لقد ترك الناس التقاليد القديمة ولم يجدوا بعد أعرافا جديدة يرتاحون لها ولقد كان ممكنا أن تشهد تلك الفترة صراعا تراجيدياً شرعياً بين قوى المحافظة على القديم وقوى البحث عن الجديد كما حصل مع كثير من شعوب العالم عندما مرت بفترات الانتقال التى عبرت بها من العالم القديم إلى العالم الجديد .ولكن التعقيد الذى نشأ عن المشروع الصهيونى ووجود الثروة النفطية والمصالح الاستعمارية قاد بشكل تدريجى إلى تجريد السياسة من أساليبها الشرعية كنشاط إنسانى يعتمد الحوار والنقاش وأصبحت تمارس إما بأسلوب السلطة العارية أو بأسلوب المال العارى ولقد قاد ذلك،بحكم طبائع الأمور، إلى تجريد قوى المحافظة وقوى التحديث من الشرعية.

لم يعرض هيكل هذا الوضع المأساوى وكأنه قضاء وقدر، ولم يعرضه على أنه نتاج لصراع قوى مجردة تمثل طبقات أو أيديولوجيات، على العكس من ذلك لقد قام بعرض ذلك الوضع بمضمونه الحقيقى كنتاج ممارسات أشخاص لهم أسماء ولهم مصالح وميول وأهواء. بشر عندهم نقاط قوة وعندهم نقاط ضعف. وفى ضوء هذه الصورة الجديدة من المعلومات والوقائع والقصص الإنسانية الموثقة كان من الممكن لكل قارئ أن يجد مكانا له فى خضمها ليتمعن ويحلل ويراجع أفكاره السابقة فى سياق نقد ذاتى يطور هذه الأفكار نحو الأفضل.

لقد أراحنى ذلك الفهم من الحالة النفسية التى كنت أعانى منها، فوصلت دمشق متحرراً من شعور التمزق والإحباط والقنوط.

وكان هناك شىء آخر يتعلق بالكتاب، فأنا بحكم مهنتى كأستاذ لمادة الاقتصاد الرياضى، أمضيت حياتى أتعامل مع المعادلات الرياضية، ومن خبرة سنوات طويلة، فأنا أدرك أن أى نموذج فكرى يشتمل على أكثر من معادلتين أو ثلاث يصبح معقدا ليس فيه محور أو نقطة ارتكاز، لهذا فلقد أدهشتنى قدرة هيكل فى ذلك الكتاب على التعامل مع معادلات الثروة والفقر، البداوة والحضارة، التقدم والتأخر، التحرر والتبعية، الذكاء والغباء، الشجاعة والجبن، الشرق والغرب؛ و...إلخ، وكيف تمكن من دراسة التفاعلات المعقدة المتبادلة بينها، وكل ذلك مع الاحتفاظ بالتوازن الداخلى لتلك المعادلات فى سياق جدلية الذاتى والموضوعى، العام والخاص، الحاضر والمستقبل، وكيف صاغ كل ذلك بأسلوب شيق وآسر.

أما المناسبة الثانية فكانت تخص صدور كتاب «القنوات السرية: قصة المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل».

فى شتاء عام ١٩٩٦ كنت فى القدس مبعوثا من قبل برنامج الأمم المتحدة الإنمائى للقيام بإعداد دراسة لتقييم نظام الضرائب فى الضفة الغربية وقطاع غزة، وتقديم الاقتراحات الكفيلة بإصلاحه.

كان قد مضى على توقيع اتفاق أوسلو الذى تم فيه

هيكل.. جدلية الصحافة والسياسة والتاريخ

الاعتراف المتبادل بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية أكثر من سنتين، وكان قد مضى على قيام السلطة الفلسطينية على بعض أراضى الضفة والقطاع أكثر من سنة. ومع هذا كانت إسرائيل مستمرة فى مصادرة الأراضى الفلسطينية وبناء المستعمرات اليهودية الجديدة وتوسيع القديمة فى الضفة الغربية، كما كانت مستمرة فى ممارسات القمع والقتل والسجن وتهديم البيوت وإحراق الأشجار. ولهذا وبعد يوم من وصولى القدس حدثت عملية استشهادية فى أحد الباصات، أودت بحياة حوالى عشرين إسرائيليا، وفى اليوم التالى حدثت عملية أخرى فى تل أبيب قتل فيها بضعة إسرائيليين.

وجدت نفسى بعد ذلك أعيش فى القدس فى أجواء عالمين مختلفين عن بعضهما ولا يمت الواحد منهما للآخر بأى صلة.

فى النهار، كنت أجتمع مع مسئولين فى السلطة الفلسطينية، وموظفين من منظمات دولية وخصوصا من البنك الدولى وصندوق النقد الدولى، والكل كان يتحدث عن الوضع الاقتصادى ومستقبل العلاقات الاقتصادية بين «فلسطين» و«إسرائيل» و«العالم العربى» فى مناخ التعاون والتنسيق وفى سياق الانفتاح على الأسواق العالمية.

فى الليل كنت أجتمع مع الناس العاديين الذين التقاهم فى الفندق والمطاعم وعن طريق الأصدقاء، والكل كان يتحدث عن الشهداء وأخبار الجرحى والمعتقلين، وعن ممارسات الجيش الإسرائيلى فى هدم البيوت «غير المرخصة»، وعن بناء المستعمرات الجديدة والشوارع الالتفافية.

بعد مرور حوالى ثلاثة أسابيع على وجودى فى القدس أصبحت أشعر أن هناك «قضيتين» لفلسطين وليس قضية واحدة. قضية تخص الناس العاديين وهى لاتزال تنزف دماً ساخناً كما كانت عليه الحال عام ١٩٤٨. وقضية أخرى تخص المسئولين فى السلطة وغالبية من المثقفين وهى قضية معلقة بالهواء وليس لها تاريخ.

وذات مساء وجدت أن جريدة «القدس» بدأت بنشر حلقات يومية من كتاب هيكل الجديد: «القنوات السرية: قصة المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل»

رحت أقرأ حلقات الكتاب كل يوم بنفس الشغف واللهفة اللذين أقرأ بهما أى كتاب جديد لهيكل، ويوما بعد يوم أخذت حماستى للقراءة تتضاعف، إذ أخذت أشعر أن فصول الكتاب تشرح لى بدقة وعمق كيف نشأ ذلك الانقسام فى القضية الفلسطينية وكيف تطور عبر السنوات حتى وصل إلى المشكلة التى نعانى منها اليوم. أخذت أرى أن ما أقرأه عن أحداث



كيف تمكن هيكل من الاحتفاظ بالقدرة على فهم ما يدور فى العالم من أحداث بشكل مميز ولمدة تزيد على ستة عقود تغير خلالها كل شىء فى المجالات السياسية والاقتصادية والفكرية؟

الثلاثينيات والأربعينيات يلقى ضوءا كاشفا على الذى يحدث فى هذه الأيام، وفى نفس الوقت رحت أشعر أن ما يحدث اليوم يفسر لى ما لم أفهمه من أحداث وقعت قبل سنوات.

لأول مرة فى حياتى، شعرت أنى أتعامل مع «الحاضر كتاريخ» وأتعامل مع «التاريخ كحاضر».

أما المناسبة الثالثة، فكانت عام ١٩٩٩ عندما صدرت مجلة «وجهات نظر» ودعوة هيكل إلى ضرورة العودة إلى القراءة والبحث والحوار، فلقد رأيت فى تلك الدعوة عودة إلى تقليد مهم اختفى من حياتنا العربية منذ عقود. وهو وجود مجلة ثقافية يقرؤها العرب فى كل أقطارهم، فلقد كانت «الرسالة» مجلة جيل والدى فى الثلاثينيات والأربعينيات، وكانت «الآداب» مجلة جيلنا فى الخمسينيات ومطلع الستينيات، ثم توقف هذا التقليد رغم قيام محاولات عديدة كان منها محاولة أدونيس فى «مواقف» ومحاولة بلال الحسن فى «اليوم السابع».

ولست بحاجة إلى أن أصف خيبة أملى عندما توقف هيكل عن كتابة مقاله الشهرى فى وجهات نظر بعد مقاله المشهور الذى استأذن فيه بالانصراف. كما أنى لست بحاجة إلى وصف فرحتى عندما عاد ليطل علينا مساء كل خميس على شاشة الجزيرة فى برنامج: «مع هيكل: تجربة حياة».

[٢]

كان ذلك وصفاً لتجربتى الشخصية فى قراءة هيكل. عبر السنوات وطبعا هناك آلاف، إن لم أقل ملايين القراء، الذين لهم تجارب مماثلة. فهيكل يمثل ظاهرة فريدة وبالغة الأهمية فى حياتنا العربية. ومن الممكن تحديد معنى هذه الظاهرة من خلال مناقشة الأسئلة الثلاثة التالية:

أولا: كيف تمكن هيكل من الاحتفاظ بالقدرة على فهم ما يدور فى العالم من أحداث بشكل مميز ولمدة تزيد على ستة عقود تغير خلالها كل شىء فى المجالات السياسية والاقتصادية والفكرية؟

ثانيا: كيف تمكن هيكل من الاحتفاظ بالقدرة على نقل ذلك الفهم المميز بأسلوب مقنع وجذاب وشيق يبدو دوما على أنه «أسلوب حديث» بالرغم من كل التغيرات التى طرأت على أساليب الكتابة وعلى أذواق القراء خلال العقود الستة من الزمن؟

ثالثا: ما هى دلالة كل ذلك فى وضعنا العربى الراهن؟

مناقشة السؤال الأول تتطلب معرفة الدوافع التى تحرك نشاط هيكل وتفسر تصرفاته.

فى هذا المجال، يبدو مفيدا استحضار قول الأديب الفرنسى أندريه موروا بأن المعرفة الحقيقية لإنسان ما تتطلب معرفة الصفة التى تتميز بها شخصيته دون أن يكون له قدرة السيطرة عليها. ومن هذه الزاوية فإنى أعتقد أنه من السهل على أى إنسان قرأ هيكل عبر السنوات أن يستنتج بأن الصفة التى تحرك تصرفاته بشكل غريزى هى الصفة التى تسمى «الفضول العلمى» أو «فضول المعرفة» أو «شغف المعرفة». أى ذلك الشوق الحاد أو تلك الرغبة الجامحة لفهم معنى وماهية أى ظاهرة جديدة أو فكرة جديدة أو حدث جديد.

قد يقال إن هذه الصفة إنسانية يتمتع بها الكثير من الناس وخصوصا الذين يزاولون منهم مهنة الصحافة. وهذا القول صحيح إذا كان المقصود بها حب الاستطلاع والرغبة فى كشف الحجاب عما يبدو غريبا من جديد الأمور. وهذه الرغبة يتم إشباعها ببعض الجهد الذى لا يرقى إلى مرتبة الدراسة والبحث المنهجى. وهو بالتأكيد غير صحيح بالنسبة لفضول المعرفة التى تقود صاحبها إلى الجهد المتواصل الدءوب الهادف إلى سبر أغوار الظواهر الجديدة وتكوين فهم عن ديناميتها الداخلية وعدم الاكتفاء بمعرفة أوضاعها الظاهرية. ففضول المعرفة عاطفة قوية تبحث عن الحقيقة ولا تتراجع عندما تكون تلك الحقيقة على تناقض تام مع اعتقادات سابقة عزيزة على القلب وأثيرة على النفس. إنها صفة نادرة وخصوصا عند الذين يمارسون مهنة الصحافة.

إنى أعتقد أن «شغف المعرفة» هى أهم صفة فى شخصية هيكل وأنها كانت، بشكل أو بآخر، الحافز الرئيسى وراء اختياره الطريق الذى سار فيه. وفى نفس الوقت فإنى أعتقد أن تلك الصفة وإن كانت أساسية إلا أنها غير كافية وحدها لتفسير الإنجازات الكبيرة التى حققها، وأن ذلك كان أيضا بفضل «الانضباط المهنى» الصارم الذى ألزم نفسه به طوال حياته.

فى بداية حياته المهنية تدرب على أساليب الصحافة الحديثة فى «الايجبشين جازيت» ثم استمر بعد ذلك فى صقل تلك الأساليب وتطويرها وفق المفاهيم الجديدة والتقنيات الحديثة بشكل يتلاءم مع مستجدات العصر.

لم يقتصر «الانضباط المهنى» عند هيكل على تعلم أساليب وتقنيات الصحافة الحديثة، ولكنه تعدى ذلك، وبشكل أهم، ليشمل جهدا يوميا متواصلا للقراءة وللدراسة والبحث لفهم طبيعة القوى والتيارات التى تصنع الأحداث وهكذا تحول وبخلال سنوات قليلة من صحفى يمارس المهنة كمخبر يغطى الأخبار فى المناطق الساخنة إلى صحفى يمارس المهنة كتلميذ للسياسة.

أثبتت الأيام صحة توقعات هيكل بالنسبة للحروب القطرية والقبلية والمذهبية ليس فقط بالنسبة للمنطقة ككل، ولكن أيضا بالنسبة للوضع الداخلي في مصر

عندما جاءت ثورة يوليو في عام ١٩٥٢ كان هيكل مؤهلا ليلعب دورا سياسيا هاماً فيها.

- كان من أهم صحفيي دار «أخبار اليوم» والذي غطى صراعات البلقان والحرب الأهلية في اليونان وحرب فلسطين وحرب كوريا والصراع على تأميم البترول في إيران.
- كان رئيسا لتحرير واحدة من أهم المجلات الأسبوعية في العالم العربي «آخر ساعة».
- كان قد ألف كتابا حاز شهرة واسعة: «إيران فوق بركان».
- كان يتمتع باحترام كل الأطراف في الأسبوع الذي سبق ثورة ٢٣ يوليو كان أحمد نجيب الهلالي يستشيره في اختيار أسماء الوزراء في آخر وزارة تشكلت في عهد الملك فاروق. وكان اثنان من الضباط الأحرار (ناصر وعامر) يسألانه عن رأيه في ردود الفعل المحتملة للجيش البريطاني في قاعدة القناة إذا قام الضباط بحركة ضد الملك انتقاما لحله الهيئة المنتخبة لنادي الضباط.
- ..وكان عمره ٢٨ سنة.

كل ذلك كان يؤهله لترك مهنة الصحافة وتبوؤ مركز سياسي هام في النظام الجديد وخصوصا بعد أن ترسخت صداقته مع عبدالناصر مع الشهرة والتواجد المستمر في أماكن صناعة القرار، كان يواجه يوميا إغراءات لا حدود لها. إن قول كلمة (لا) لملك الذهب الأسود مرة واحدة في العمر هو شيء، وقول (لا) بشكل يومي لإغراءات السلطة والنفوذ والقوة هو شيء آخر.

ولكن هيكل نجح في مقاومة تلك الإغراءات لأنه لم يتمتع بصفتي الفضول العلمي والانضباط المهني فقط، بل كانت عنده صفة أخرى أهم، وهي «كبرياء الأخلاق» التي تقود صاحبها بشكل دائم إلى التصرف وفق ما يمليه الفكر والعقل والمبادئ، وليس ما تحركه الغرائز والأهواء.

قاوم هيكل كل إغراءات السلطة والنفوذ وامتنع عن قبول أي منصب «سياسي» وعندما أقدم عبدالناصر على تعيينه وزيرا للإرشاد القومي أثناء حرب الاستنزاف، فلقد فعل ذلك دون أخذ رأيه لأنه يعرف بأنه لن يقبل. ولقد قبل هيكل يومها بالمنصب احتراما لرغبة عبد الناصر.

بعد رحيل عبدالناصر عرض السادات على هيكل منصب نائب رئيس مجلس الوزراء ومستشار الرئيس للأمن القومي وعندما اعتذر عن قبول المنصب استشاط السادات غضبا وصاح به: «هل أنت بلا طموح؟».

في الواقع، كان طموح محمد حسنين هيكل أكبر من أنور السادات. ولهذا فلقد تمكن في خلال سنوات قليلة من أن يتحول من صحفي يمارس المهنة كتلميذ للسياسة، إلى صحفي يمارس المهنة كتلميذ للتاريخ.

[٣]

هناك مفهومان للتاريخ: المفهوم التقليدي الذي يرى في التاريخ قصة الأحداث الكبرى كالحروب والثورات وسيرة العظماء والأبطال من قادة وفاتحين. والمفهوم العلمي الذي يرى في التاريخ سجل التطور الثقافي والسياسي والاقتصادي للمجتمعات الإنسانية.

المفهوم التقليدي يركز على الحدث أو البطل على أساس أن التاريخ لا يكشف عن معنى حركته وهدفها إلا من خلال الأحداث الاستثنائية والأشخاص الاستثنائيين.

على العكس من ذلك، فالمفهوم العلمي لا يرى في أي حدث أو شخص معنى مستقلا بذاته. ولهذا فإن فهم أي ظاهرة لا يتم إلا عبر فهم كيف نشأت وتطورت حتى وصلت إلى وضعها الراهن.

المفهوم التقليدي موجود منذ بداية التاريخ الإنساني وهو ما زال حتى يومنا الحاضر الأكثر شيوعا وشهرة لأن فيه إغراء وجاذبية. أما المفهوم العلمي فهو حديث نسبياً فما عدا بعض المؤرخين اليونان في القرن الرابع قبل الميلاد، وابن خلدون في القرن الرابع عشر، لم يتكرس العمل به إلا منذ منتصف القرن التاسع عشر.

إني أعتقد أن ما مكن هيكل من الاحتفاظ بالقدرة على فهم الأحداث بشكل مميز، هو أنه بفضل صفاته الشخصية وقدراته المهنية وثقافته الواسعة تمكن من أن يكون تلميذا للتاريخ وفق المفهوم العلمي وليس وفق المفهوم التقليدي.

من الممكن إيراد أمثلة كثيرة من كتابات هيكل تدعم هذا الاعتقاد. ولكني سأكتفي بمثالين فقط.

الأول يخص معاهدة السلام التي وقعها السادات مع بيجن بعد مفاوضات كامب ديفيد.

لقد انقسم المعلقون على ذلك الحدث، من عرب وأجانب، إلى فريقين: الأول يرى أن المعاهدة ستفتح صفحة جديدة في الشرق الأوسط تتصف بالسلام والاستقرار والتنمية الاقتصادية. والثاني الذي يرى أن المعاهدة مصطنعة وليس لها أساس موضوعي وأنها لن تقوى على البقاء وسوف تفشل.

بغض النظر عن الخلاف الجذري بين الموقفين الناجم عن تباين في المواقف السياسية إلا أن كلا الموقفين مبني على أساس المفهوم التقليدي للتاريخ، كلا الرأيين يرى أن الحدث فيه معنى قادر على تفسير ما قبله وما بعده. الأول يرى أن النجاح في توقيع المعاهدة يثبت أن أوضاع الصراع التي سبقتها كانت خطأ وليست في مصلحة الشعبين وأن الاتفاق قد صحح هذا الخطأ. بينما يرى الرأي الثاني أن عدم وجود تأييد شعبي مصري وعربي للمعاهدة دليل على أن أوضاع الصراع هي الصحيحة لأنها تعكس واقعا موضوعيا سيفرض نفسه عاجلا أو آجلا.

كان رأي هيكل مختلفا عن الاثنين. لم ير أن المعاهدة ستقود إلى السلام في المنطقة، كما أنه لم ير أنها ستفشل في المستقبل القريب.

في مقال صغير له نشرته النيويورك تايمز (١٨ مايو ١٩٨٠) قال إن المعاهدة تعني أن أكبر دولة عربية، مدعومة بتأييد الدول الكبرى اختارت السير في طريق تجاهل التناقض الرئيسي في المنطقة وأن ذلك سيقود، بحكم طبائع الأمور، إلى فتح الباب أمام التناقضات الثانوية وبالتالي إلى عدم الاستقرار والفوضى والتوتر مع الحروب الأهلية والصراعات القطرية والاثنية والطائفية والمذهبية.

لقد توصل هيكل إلى ذلك الرأي (كما اتضح من كتاباته اللاحقة وخصوصا في كتاب «خريف الغضب») عن طريق التعامل مع المعاهدة كظاهرة لا يمكن فهمها إلا بواسطة فهم نشأتها وتطورها حتى وصولها إلى وضعها الراهن.

لقد رأى أن ولادة الظاهرة تعود إلى الطريقة التي أنهى بها السادات حرب ١٩٧٣ وأنها نمت وترعرعت مع السياسات التي اتبعها بعد ذلك. فسياسة الانفتاح الاقتصادية التي اتبعها كانت مبنية على أساس تجاهل التناقض الرئيسي في المجال الاقتصادي بين أنصار التنمية لكل المجتمع وأنصار الثراء الفاحش للأقلية. وسياسة الانحياز للسياسة الأمريكية كانت مبنية على أساس التناقض الرئيسي بين الجماهير التي ترى مصالحها في التحرر والاستقلال، والأقلية التي ترى مصالحها في الانحياز والتبعية.

وبحكم طبائع الأمور لم يكن ممكنا، الاستمرار في تلك السياسات إلى نتائجها الطبيعية في مناخ الصراع مع إسرائيل ولذلك فإن الصلح المنفرد معها كان نتيجة منطقية لتطور الأحداث منذ توقف إطلاق النار في حرب ١٩٧٣.

أثبتت الأيام صحة توقعات هيكل بالنسبة للحروب القطرية والقبلية والمذهبية ليس فقط بالنسبة للمنطقة ككل، ولكن أيضا بالنسبة للوضع الداخلي في مصر. فلقد كانت مصر أيام الالتزام بمتطلبات صراع التناقض الرئيسي مركزا مشعا لحركة التحرر الوطني على اتساع آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية. وأصبحت أيام «السلم والاستقرار» مرتعا لعصابات قتل السياح الأجانب ومكانا للتناحرات الطائفية والمظاهرات ضد الكتب.

أما المثل الثاني، فيخص العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل.

من المعروف أن هناك أطروحتين لتفسير الانحياز الأمريكي لإسرائيل في الكتابات السياسية في العالم العربي. الأطروحة الأولى (وسندعوها أطروحة اللوبي الصهيوني) يتبناها فريق يرى أن مصالح أمريكا مع العرب ولكن قوة اللوبي الصهيوني تقود حكومتها إلى تبني سياسات معادية للعرب وللمصالح الأمريكية الحيوية. أما الأطروحة الثانية (وسندعوها أطروحة الإمبريالية) فيتبناها فريق يرى أن الولايات المتحدة هي التي ترسم وتدعم السياسات الإسرائيلية التي تكرس الضعف والتشرذم في العالم العربي لأن ذلك يخدم المصالح الأمريكية الإمبريالية.

من الطبيعي أن هناك جزءا من الحقيقة في كلتا الأطروحتين فبالنسبة للأولى، هناك بالفعل لوبي صهيوني له نفوذ هائل داخل الولايات المتحدة، وتجاهل ذلك ما هو إلا تجاهل للحقائق ومن ناحية أخرى فالولايات المتحدة إمبراطورية لها مصالح إمبريالية على اتساع العالم، والاعتقاد بأن دولة صغيرة تقودها طوال عشرات السنين إلى التصرف ضد مصالحها هو اعتقاد يتنافى مع منطق الأشياء.

ومن الطبيعي أيضا: عندما يكون الباعث وراء تبني هذا الموقف أو ذاك سياسيا وليس البحث عن الحقيقة، أن يقوم أنصار كل أطروحة بتجاهل جزء الحقيقة الموجود في الأطروحة الأخرى. فأنصار الولايات المتحدة الأمريكية يضعون اللوم على اللوبي الصهيوني من أجل تبرئتها من الجرائم التي ترتكبها إسرائيل يومياً ضد العرب بأسلحة أمريكية وتمويل أمريكي وغطاء سياسي أمريكي. أما أعداؤها، فإنهم على العكس، يحملونها مسئولية كل ما تقوم به إسرائيل من جرائم على أساس أنها ليست أكثر من وكيلة المصالح الأمريكية في المنطقة.

قبل الغزو الأمريكي للعراق في مارس ٢٠٠٣ وبعده كتب هيكل في وجهات نظر سلسلة مقالات عن الاقتصاد السياسي للإمبراطورية الأمريكية. (أعداد ٤٩-٥٧) وفي تلك المقالات قام بتحليل ماهية العلاقة الأمريكية - الإسرائيلية كما نشأت وتطورت داخل النظام السياسي الأمريكي منذ مطلع الخمسينيات وحتى يومنا الحاضر.

في ذلك التحليل نرى أن هيكل يحدد المصالح الأمريكية كما يراها صانعو القرار الأمريكي وليس كما يراها المعلقون السياسيون. ولهذا

فإن ما يراه البعض على أنه تصرف أمريكي مناقض للمصالح الأمريكية هو فى الواقع مناقض لفكرة هذا البعض عن المصالح الأمريكية، وليس مناقضا لفكرة صانع القرار الأمريكى عن تلك المصالح. ومن ناحية أخرى فهيكل لا يتكلم عن المصالح الأمريكية فى فراغ بل كما هى فى الواقع تتبدل وتتغير مع تبدل الظروف والمستجدات. وهكذا نرى أن دور اللوبى الصهيونى تطور وتعزز مع تطور وتنامى المصالح الاستراتيجية المشتركة للولايات المتحدة ودولة إسرائيل. كما أن تطور تلك المصالح قد تأثر بشكل جوهرى بتصرفات الحكومات العربية تجاه إسرائيل، وتجاه أمريكا وتجاه بعضها البعض وتجاه شعوبها.

ومن دراسته لتطور العلاقة فى ذلك السياق خلص إلى أنها علاقة شراكة تلعب فيها الولايات المتحدة دور الشريك الأكبر. وهنا يظهر رأى هيكل أقرب إلى «أطروحة الإمبريالية» منه إلى أطروحة «اللوبى الصهيونى» وهذا صحيح من ناحية الإطار العام إلا أنه يختلف عنها بشكل جوهرى لأنه مبنى على أساس القراءة التاريخية وليس الاستنتاج الأيديولوجى ولذلك فإنه قادر على فهم المتغيرات التى تطرأ على العلاقة الأمريكية-الإسرائيلية بشكل لا يقدر عليه دوما أنصار أطروحة الإمبريالية. ولقد ظهر ذلك واضحاً وجلياً فى السنوات الأخيرة فى موضوع العلاقة الأمريكية - الإسرائيلية فى عهد إدارة الرئيس جورج بوش الابن. ففى عهد هذه الإدارة ارتفعت وتيرة التأييد الأمريكى لإسرائيل لحدود غير مسبوقة وغير معروفة فى تاريخ العلاقات الدولية. ولقد قاد هذا الوضع أستاذين من أشهر أساتذة العلوم السياسية فى الولايات المتحدة، جون ميرشيمر (جامعة شيكاغو) وستيف والت (جامعة هارفارد)، إلى كتابة دراسة بعنوان: «السياسة الخارجية الأمريكية واللوبى الإسرائيلى» (مارس ٢٠٠٦).

قام الأستاذان بتحليل السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط خلال السنوات الخمس الأولى من عمر إدارة بوش الابن، وخلصا إلى أن المحرك الرئيسى وراء تلك السياسة كان المصلحة الإسرائيلية كما يراها اللوبى الإسرائيلى وليس المصلحة الأمريكية.

لم ير أنصار «أطروحة الإمبريالية» فى تلك الدراسة إلا أنها تفسر العلاقات الأمريكية-الإسرائيلية على أساس منطق أطروحة «اللوبى الصهيونى». فمفكر بوزن ناعوم تشومسكى علق على الدراسة ممتدحا شجاعة مؤلفيها فى التعرض للوبى الإسرائيلى ولكنه انتقد ما توصلت إليه من نتائج، لأنه رأى أن ذلك يعنى تركيز الأضواء على اللوبى وإغفال الدور الأساسى للاستراتيجية الإمبريالية.



بفضل صفاته الشخصية وتدريبه المهنى وثقافته الواسعة، يكتب كتلميذ للتاريخ وفق الرؤية الحديثة للمفهوم العلمى للتاريخ كأداة معرفية، وليس وفق الرؤية القديمة كوسيلة أيديولوجية

ولكن دراسة ميرشيمر ووالت كان فيها أكثر وأهم من ذلك.

أولا: من المتعارف عليه فى الدوائر الأكاديمية الأمريكية، أن ميرشيمر ووالت ينتميان إلى ما يعرف بأنه «الاتجاه السائد» فى العلوم السياسية فهما ليسا من الأساتذة الذين ينتمون لأى مدرسة فكرية متطرفة وهما بالتأكيد ليسا من أعداء الإمبراطورية الأمريكية بل من أنصارها. وثانيا: فإن اختصاصهما ليس الشرق الأوسط، فأكثر الأبحاث التى نشراها تخص علاقات القوة بين الدول فى سياق «المدرسة الواقعية» فى السياسة الدولية. وما كتباه عن اللوبى الإسرائيلى وتأثيره على السياسة الأمريكية نابع من حرصهما على المصلحة الأمريكية وليس الحرص على العلاقات العربية- الأمريكية. وثالثا: فالدراسة لم تكن معنية بتفسير العلاقة الأمريكية-الإسرائيلية منذ نشأتها وحتى يومنا الحاضر. لقد كانت معنية بتفسير السياسة الأمريكية الخارجية فى الشرق الأوسط فى مدة خمس سنوات، وعبر تحليل موضوعى وموثق خلصت إلى أن اللوبى الإسرائيلى قد قام بخطف تلك السياسة، طوال تلك السنوات الخمس.

وهذا ما كان هيكل قد رآه بشكل أشمل وأعم قبل سنتين من صدور دراسة ميرشيمر ووالت. فلقد توصل فى تحليله لتطور الاقتصاد السياسى للمجتمع الأمريكى فى سياق التفاعل المعقد لتطور الرأسمالية والتكنولوجيا والإعلان إلى حدوث عملية اختطاف للقرار الأمريكى السياسى ولكن ليس من قبل اللوبى الإسرائيلى بل من قبل تيار المحافظين الجدد الذى له استراتيجية عالمية تتبنى موقف اللوبى فى جزئها الخاص بالشرق الأوسط وهو يقول:

«من مآسى التاريخ الكبرى أن يتمكن عدد من الرجال والنساء لا يزيد عددهم على مائة إلى مائتين، بينهم سبعون عضوا فى مجلس الدفاع، من الاستيلاء على القرار الأمريكى والاندفاع به إلى مشروع مخيف وشبه مستحيل فى طلب الهيمنة على العالم بغير منافس، وإلى الأبد» وجهات نظر، صياغة القرار الأمريكى الآن، عدد٥٤ ـ يوليو ٢٠٠٣.

وهكذا، فلقد توصل هيكل إلى استنتاج مقولة «الاختطاف» ليس من تركيزه على العلاقة الأمريكية- الإسرائيلية ولكن من دراسته لتطور المجتمع الأمريكى ككل. فعملية الاختطاف لم تحدث كمؤامرة نفذتها مجموعة من خارج النظام السياسى الأمريكى. لقد حدثت كنتيجة منطقية لتطور داخلى فى ذلك النظام. وقوة اللوبى الإسرائيلى أنه واكب ذلك التطور وشارك فى صنعه وصياغة أفكاره وتعيين قياداته إلى الحد الذى أصبح فيه من الصعب التمييز، فيما يخص الشرق الأوسط، بين ما يريده اللوبى وما يريده المحافظون الجدد. وبهذا أثبت هيكل مرة أخرى بمقاربته التاريخية أن التفسير العلمى للأحداث يؤدى بصورة طبيعية إلى الجمع بين أطروحة اللوبى وأطروحة الإمبريالية لأنه يعتمد على الحقائق بدلا من الأيديولوجيا التى تصر على تفسير كل الأحداث من منظور أطروحة وحيدة.

[٤]

أما فيما يتعلق بالسؤال الثانى الخاص بالأسلوب، فإن أهمية الأسلوب تتضح عندما نلاحظ أن كثيرين من كتاب السياسة الذين تعاطوا مع المفهوم العلمى للتاريخ، بدت كتاباتهم فى فترة زمنية معينة وكأنها بالفعل قادرة على رصد حركة التاريخ والتنبؤ بمستقبل الأحداث، ولكن ما أن مرت سنوات قليلة حتى أصبحت كتاباتهم اللاحقة تبدو وكأنها تخص عالما آخر ليس له وجود إلا فى مخيلتهم، وسبب ذلك هو أن هؤلاء الكتاب يأخذون بالمفهوم العلمى للتاريخ وفق الرؤية القديمة التى كانت شائعة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. الرؤية التى تقول بوجود قوانين صارمة ثابتة تحكم حركة التاريخ وتفسر تطوره. والمشكلة هى أنه يحدث فى بعض الأحيان أن تتجمع عوامل عديدة بشكل يبدو وكأن التاريخ يسير بالفعل وفق قانون محدد صارم وما أن تمر فترة وجيزة تتغير فيها بعض تلك العوامل، حتى يفقد ذلك القانون قدرته على تفسير الأحداث وتقديم صورة عن احتمالات المستقبل ولكن بعض الكتاب يحتفظون به كمرشد لتفكيرهم ومرجعية لتحليلاتهم السياسية، وذلك لأنه ينبثق من أيديولوجية يؤمنون بها ويعملون على ترويجها. وفى رأيى أن السبب وراء تمكن هيكل من الاحتفاظ بالقدرة على فهم الأحداث بشكل صحيح، ليس لفترة زمنية محدودة ولكن على امتداد أكثر من ستة عقود، هو أنه ومنذ البداية، وبفضل صفاته الشخصية وتدريبه المهنى وثقافته الواسعة، يكتب كتلميذ للتاريخ وفق الرؤية الحديثة للمفهوم العلمى للتاريخ كأداة معرفية، وليس وفق الرؤية القديمة كوسيلة أيديولوجية. ومن السهل توضيح ذلك عن طريق اعتبار المقولتين الأساسيتين اللتين تشكلان مضمون الرؤية الحديثة للمفهوم العلمى للتاريخ أولا، ثم النظر فى مدى اتفاق أسلوب هيكل فى الكتابة مع هاتين المقولتين ثانيا.

المقولة الأولى للرؤية الحديثة هى النظرة التى ترى أنه إذا كانت هناك قوانين تتحكم فى حركة التاريخ على الأمد البعيد

جاءت روايته عن ثورة ٢٣ يوليو تطبيقا متميزا لأسلوب المفهوم العلمى للتاريخ فى التعاطى مع موضوع الثورة على أساس أنها نتيجة تفاعلات وإرهاصات تاريخية تأخذ عشرات، إن لم يكن مئات السنين، حتى تنضج

(مئات السنين) إلا أنه فى الزمن الخاص بالحاضر والمستقبل المنظور يوجد كم هائل من العوامل والمتغيرات والمتقلبات يستعصى على أى قانون أو نظرية، ولهذا فقد أخذت منهجية العلوم الاجتماعية الحديثة بمفهوم «النماذج التحليلية» المرنة بدلاً عن القوانين الصارمة، حيث يتم بناء النموذج التحليلى لظاهرة معينة عن طريق انتقاء عدة عوامل فقط يعتقد أنها العوامل الهامة التى تؤثر فى الظاهرة وإهمال العوامل الكثيرة الأخرى التى يعتقد أنها أقل أهمية. ثم صياغة نموذج يفسر الظاهرة على أساس النتائج المنطقية لتفاعل تلك العوامل.القليلة وكما شرح عبد الوهاب المسيرى، وفى أكثر من مجال، فليس هناك نموذج موضوعى وآخر غير موضوعى أو نموذج صحيح وآخر خاطئ. هناك فقط نموذج له قدرة تفسيرية للظاهرة أكثر من النموذج الآخر.وتأسيسا على ذلك يتضح لنا على الفور أن ما ندعوه «التاريخ» ما هو فى الواقع إلا «نموذج تحليلى» وذلك لأنه لا يشتمل على كل ما حدث فى الماضى، ولكن فقط على ما اعتقد المؤرخون أنه أهم ما حدث.فى الماضى، وهذا يعنى أن «الماضى» سيكون دوما أكبر من «التاريخ».

وبنفس المنطق، فإن أى تحليل للأحداث فى الحاضر أو الماضى هو نموذج تفسيرى لتلك الأحداث لأنه ليس بقدرة أى كان الإحاطة بكل العوامل المؤثرة فى اى ظاهرة اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية. وبحكم الضرورة، فإن على المحلل أن يبتدئ من تفاصيل الأحداث وجزئياتها لانتقاء العوامل الهامة المؤثرة ثم صياغة نموذج تحليلى يقدم تصوراً عاما لماهية تلك الأحداث. فكما قال المؤرخ الألمانى ليوبولد رانكى (١٩٧٥- ١٨٦٨):

من «الجزئى» يستطيع الإنسان بحذر وشجاعة أن يتحرك باتجاه «العام» ولكن من النظريات العامة ليس هناك طريقة للنظر فى «الجزئى».

من الواضح أن أسلوب هيكل يتطابق مع هذه المقولة بشكل كامل إذ إن ما يميز أسلوبه هو الاهتمام الدائم بالتعرف على كل تفاصيل وأجزاء أى موضوع يطرقه. وهناك من ينتقده على الإمعان فى وصف أدق التفاصيل والحيثيات «التى لا تغنى الموضوع.» والواقع أن هذا النقد يتجاهل حقيقة أن الاهتمام بتلك التفاصيل هو إحدى الأدوات التى تساعد هيكل على الانتقال من «الجزئى» إلى «العام». فعندما كان صحفيا يمارس المهنة كتلميذ للسياسة كان يكتب بأسلوب أتقن فيه الجمع بين «القرب والابتعاد» أو «الحميمية الإنسانية» و«المسافة السياسية» بنفس الوقت.ففى عمله الصحفى، كان يتعامل مع الناس الذين يؤثرون بالأحداث من منظورين اثنين. كان يقترب منهم إنسانياً ويقيم معهم علاقات مميزة يتمكن من خلالها أن يتعرف على قدراتهم وطموحاتهم وأحلامهم وأوهامهم ونزواتهم وكل ما يخص تفاصيل أوضاعهم الإنسانية المعقدة وبنفس الوقت كان يبتعد عنهم سياسيا حتى يحدد مصالحهم العائلية والفئوية والطبقية فى خريطة المصالح السياسية فى المكان والزمان المعنيين.

ومن هذين المنظورين، كان هيكل ينجح فى رؤية ما هو «عام» فى كل تصرف أو حدث «جزئى»...ولهذا كان القارئ يخرج دوما بعد قراءة مقالات هيكل الصحفية بمعرفة حقيقية بالتجربة الإنسانية بكل ما فيها من صخب وأصوات وألوان وروائح وبنفس الوقت كان القارئ يخرج برؤية سياسية وتصور عام يلخص تلك التجربة ويحدد مكانها الصحيح فى مسرح الأحداث الكبير. لا أحد يستطيع أن يتهم هيكل بأنه «يرى الأشجار دون أن يرى الغابة» فليس هناك فى كل ما كتب تفاصيل أحداث لا يجمعها إطار أو تصور أو مفهوم عام.ولا أحد يستطيع أن يتهم هيكل فى أنه «يتخيل وجود غابة وهمية بأشجار غير مرئية».فليس هناك فى كل ما كتب فكرة أو أطروحة أو تصور غير مبنى على أساس قراءة متأنية لدلالات أحداث واقعية.

ولقد تطور ذلك الأسلوب بعد أن أصبح هيكل يمارس الصحافة كتلميذ للتاريخ. وهذا يقودنا تلقائيا إلى المقولة الثانية التى يرتكز عليها المفهوم العلمى الحديث للتاريخ. فإذا كانت المقولة الأولى تعنى أنه ليس هناك قوانين صارمة تتحكم فى حركة التاريخ، فإن المقولة الثانية، التى ترتبط ارتباطا عضويا بالمقولة الأولى، تؤكد أن لكل زمن تاريخه الخاص أى أن التاريخ «عملية مستمرة» تتطور مع مرور الزمن وذلك لأن التقدم العلمى يكشف دوماً عن حقائق جديدة تخص ما حدث فى الماضى وذلك يقود بحكم الضرورة إلى فهم جديد للتاريخ.ولهذا فإن نوعية العلاقة بين «التاريخ» و«العلوم الاجتماعية» هى كما قالت حنا أرندت (١٩٠٦ ـ ١٩٧٥) مشابهة إلى حد بعيد للعلاقة بين «العلوم الطبيعية» و«التكنولوجيا». فكما أن عالم الفيزياء يستعمل أدوات التكنولوجيا كالمجهر والتلسكوب لاكتشاف حقائق علمية جديدة فإن المؤرخ يستعمل تقنيات العلوم الاجتماعية لاكتشاف حقائق تاريخية جديدة. فعلى سبيل المثال، عندما توصلت العلوم الاجتماعية إلى ابتكار طرق علمية لتقدير عدد السكان أو متوسط دخل الفرد أو متوسط عمر الفرد،... إلخ عمدت على الفور إلى ابتكار التقنيات التى تؤدى إلى إجراء قياس تلك المتغيرات فى الزمن الماضى وعندما توفر وجود مثل تلك التقديرات عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السائدة فى الماضى وبشكل يمكن مقارنتها كميا بالأوضاع السائدة فى الحاضر، أصبح هناك فكرة أوضح عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى الماضى وفكرة أوضح عن التطور الذى حصل فى الماضى وقاد إلى الحاضر. وذلك قاد بشكل طبيعى، إلى تكوين توقع أفضل عن احتمالات المستقبل.وهذا يعنى أن العلاقة بين الماضى والحاضر والمستقبل تسير فى الاتجاهين: فهم الماضى يقود إلى فهم أفضل للحاضر والمستقبل: كما أن فهم الحاضر يحمل فى ثناياه تبصرا أفضل بالماضى والمستقبل.وكما يقول المؤرخ الإنجليزى إدوارد هاليت كار (١٨٩٢ - ١٩٨٢) «تتصل أزمان الماضى والحاضر والمستقبل ببعضها بسلاسل لا نهاية لها من التاريخ».

عندما ابتدأ هيكل ممارسة الصحافة كتلميذ للتاريخ كان واعيا بشكل حاسم بموضوع العلاقة الجدلية بين الماضى والحاضر والمستقبل إذ أن أول ما فعله كان أن طرح على نفسه السؤال التالى:

«كيف أزور الماضى وآخذ معى الحاضر والمستقبل؟»(من مقدمة زيارة جديدة للتاريخ)

وكان جوابه أن:

«التاريخ ليس علم الماضى وحده، وإنما هو عن طريق استقراء قوانينه، علم الحاضر والمستقبل أيضا، أى أنه علم ما كان، وما هو كائن، وما سوف يكون»(نفس المصدر).

وباسترشاد هيكل بهذه العلاقة العضوية بين ما كان وما هو كائن وما سوف يكون تطور أسلوبه فى الكتابة إذ أصبح يتناول. منظورى «الحميمية الإنسانية» و«المسافة السياسية» كما هما فى «الزمن التاريخى» وليس فى «الزمن الحاضر» أى الزمن الذى يتم فيه اختراق الحجاب الظاهرى الذى تسدله هموم «الحاضر» على الأحداث ويتم فيه التوصل إلى حقيقتها كما تشكلت فى الزمن الذى يرتبط فيه الماضى بالحاضر بالمستقبل.

نستطيع أن نستشهد بأحداث كثيرة كتب عنها هيكل لإظهار تميز أسلوبه فى الالتزام بالمفهوم العلمى للتاريخ أولاً، وفى الاتفاق الكامل مع المقولتين الأساسيتين اللتين تشكلان مضمون الرؤية الحديثة لذلك المفهوم ثانياً. ولكننا سنكتفى بمثال واحد وهو ما كتبه وما قاله عن ثورة ٢٣ يوليو، على أساس أن ذلك العمل هو من آخر أعماله وأكثرها انتشارا فهو موجود فى مجموعة مقالات فى مجلة «وجهات نظر» نشرت بمناسبة مرور نصف قرن على قيام الثورة (صدرت بعد ذلك فى كتاب) وهو أيضا موضوع حلقات «أيام يوليو» من برنامج «مع هيكل: تجربة حياة» الذى يعرض على شاشة الجزيرة مساء كل خميس.

أكثر الكتابات التى تعرضت لثورة ٢٣ يوليو ركزت على اللاعبين الرئيسيين كالقصر والأحزاب والضباط الأحرار واعتمدت على ما حصل يوم ٢٣ يوليو لتفسير ما كان قبله وما جاء بعده.أى أنها كانت قريبة إلى حد كبير من أسلوب المفهوم التقليدى للتاريخ.

أما اهتمام هيكل، فلقد كان مختلفاً تماماً عن ذلك، إذ أنه اهتم بالحالة العامة للمجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن العشرين، وكيف تطورت إلى حالة ثورية فى منتصف القرن. اهتم بكل المؤسسات والطبقات والأطياف السياسية والثقافية للمجتمع. إذ عرض لمؤسسة العرش، والمؤسسة الدينية (الأزهر)، والمؤسسة القضائية، ومؤسسة الجامعة، ومؤسسة الجيش، ومؤسسة الصحافة، طبقة الملاك الكبار وارتباطاتها بشبكة المال والتجارة الخارجية، طبقة الملاك الصغار والطبقة الوسطى والفلاحين وطبقة العمال الناشئة، وجموع الطلاب، حزب الأغلبية (الوفد) وأحزاب الأقلية والأحزاب العقائدية (الاخوان والشيوعيون)، ونخب المفكرين والأدباء والفنانين والقيادات السياسية العربية الموجودة فى القاهرة، ثم قوة الاحتلال البريطانى وجيشه فى القناة، وقوة إسرائيل على الحدود وضغوط نكبة فلسطين، والقوة الأمريكية الجديدة الزاحفة على المنطقة.

لقد قام هيكل برصد تفاعل كل تلك الأوضاع والعوامل والضغوط سنة بعد سنة وشهرا بعد شهر وأسبوعا بعد أسبوع، حتى وصلت حركة المجتمع إلى الحالة الثورية وعند ذلك أخذ يرصد الأحداث يوما بعد يوم ثم ساعة بعد ساعة، حتى استولى الضباط الأحرار على مقاليد السلطة وانهار النظام القديم.

لم يركز على «أبطال الثورة» وصراعهم ضد «طغاة العهد البائد». فقادة الثورة لم يظهروا فى رواية هيكل للأحداث إلا عندما ظهروا فعلا للناس.ولم يركز على أحداث يوم ٢٣ يوليو أكثر من تركيزه على الأيام التى سبقته والأيام اللاحقة له.لقد اهتم بشكل رئيسى بالتركيز على وضع النظام السياسى وهو يفقد شرعيته، وعلى وضع المجتمع المدنى وهو يفقد توازنه، وعلى وضع ثقافة عصر وهى تحتضر.

وهكذا جاءت روايته عن ثورة ٢٣ يوليو تطبيقا متميزا لأسلوب المفهوم العلمى للتاريخ فى التعاطى مع موضوع الثورة على أساس أنها نتيجة تفاعلات وإرهاصات تاريخية تأخذ عشرات، إن لم يكن مئات السنين، حتى تنضج وفق المقولة المشهورة للمصلح الاجتماعى الأمريكى عدو التمييز العنصرى وندل فيليبس (١٨١١ - ١٨٨٤): «الثورة: لا تحدث. إنها تأتى».

أما عن المقولة الأولى للمفهوم الحديث حول علاقة «الجزئى» و«العام»، فإننا نلاحظ أن هناك كثيراً من «الأفكار» و«النظريات» التى يرددها كثير من المثقفين دون أن يكون لها أى سند أو دعم من «الأحداث» و«الحقائق»، أى أن هناك كثيراً من المفاهيم العامة التى لم تنشأ من قراءة صحيحة للأحداث الجزئية. وهنا يأتى دور التفاصيل المتوهجة التى يسردها هيكل بإسهاب ودقة حتى يتضح بشكل كامل أن تلك «الأفكار» و«النظريات» ليس لها أى سند من الواقع المعاش وإنما تعكس أهدافاً سياسية وأيديولوجية. ومن أهم تلك الأفكار و«النظريات» التى تتردد بشكل مستمر، القول بأن الوضع فى مصر قبل ٢٣ يوليو كان بشكل عام، وعلى الرغم من كل مشاكله، يسير ببطء نحو ترسيخ الديمقراطية وأن ثورة ٢٣ يوليو أجهضت تلك المسيرة. ولكن تفاصيل الأحداث الهامة التى ركز عليها هيكل، تبين بما لا يقبل الشك أن ذلك القول مناف لمنطق الأشياء كما كانت بالفعل ويخص العالم الذى يتم فيه «تخيل الماضى وتذكر المستقبل»، فهل من الممكن لنظام سياسى أن يتقدم فى اتجاه التوازن الديمقراطى إذا كان ذلك النظام يسمح للملك أن يقيل إحدى الوزارات لقاء مليون جنيه دفعها له أحد رجال الأعمال الكبار لأن الوزارة كانت تنتهج سياسة تتعارض مع مصالحه؟ وهل يمكن لذلك النظام أن يستمر فى أى اتجاه إذا كان يوم حريق العاصمة (يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢) قد حدث وكبار ضباط الجيش فى القصر الملكى فى وليمة احتفال من أجل ولادة ولى العهد، ورئيس مجلس الوزراء (زعيم حزب الأغلبية) فى بيته فى الموعد الأسبوعى مع المانيكير التى تقلم أظافره، ووزير الداخلية فى بيته يقوم بالتوقيع على عقود بيع وشراء عقارات خاصة؟.

وبالمقابل فهناك أحداث كثيرة يشاع أنها كانت محورية ومفصلية ولها دور فى حدوث انعطافات تاريخية هامة ولكن عندما يقيمها هيكل فى سياق الإطار العام للحقبة الزمنية التى وقعت فيها يتضح بجلاء أن دورها فى الواقع كان ثانويا وهامشيا ولا يغير بقليل أو كثير من الاتجاه العام للأحداث وعلى سبيل المثال فلقد كان شائعا فى أوساط كثيرة أن حدث تنحية اللواء محمد نجيب عن السلطة بعد اختلافه مع مجلس قيادة الثورة كان له دور أساسى فى عرقلة وحدة مصر والسودان بعد انتهاء الاستعمار البريطانى للسودان، ولكن تحليل هيكل لأوضاع السودان وعلاقاته بمصر فى تلك الفترة، يبين بوضوح وجلاء أن الظروف الموضوعية فى السودان لم تكن تسير فى طريق وحدة البلدين وأن موضوع تنحية نجيب قد تم استغلاله سياسيا على أنه المسئول عن عدم تحقيق الوحدة.



هناك أحداث وقعت مؤخراً وجد فيها هيكل ما يفسر أوضاعاً وأحداثاً فى الخمسينيات. وعلى سبيل المثال فإن النزاع الذى حصل مؤخرا فى قيادة حزب الوفد ألقى ضوءا كاشفاً على أوضاع الحزب قبيل الثورة وفى سنواتها الأولى

وكذلك الأمر بالنسبة لاستعمال هيكل للمقولة الثانية للمفهوم الحديث للتاريخ حول العلاقة المتبادلة بين الماضى والحاضر والمستقبل، فقد ركز على بعض الأحداث التى وقعت أثناء الثورة فى مطلع الخمسينيات لأنها تلقى الأضواء الكاشفة على ما يدور اليوم فى السنوات الأولى من مطلع القرن الواحد والعشرين. فعلى سبيل المثال فإن الهدف الكامن وراء أقوال جنرال أمريكى عام ١٩٥٣ بأن الشرق الأوسط فى وضع غير طبيعى لأنه خال من القواعد العسكرية الأمريكية يلقى أضواء كاشفة على الانتشار الأمريكى العسكرى على امتداد البلاد العربية هذه الأيام وكذلك إصرار المسئولين الأمريكيين فى النصف الأول من الخمسينيات على ضرورة قيام حلف إسلامى يضم مصر وتركيا وإيران وباكستان ضد الشيوعية يلقى أضواء كاشفة على إصرار الإدارة الأمريكية هذه الأيام على مشاريع الشرق الأوسط الجديد والكبير.

وفى المقابل هناك أحداث وقعت مؤخراً وجد فيها هيكل ما يفسر أوضاعاً وأحداثاً وقعت فى الخمسينيات. وعلى سبيل المثال فإن النزاع الذى حصل مؤخراً فى قيادة حزب الوفد ألقى ضوءاً كاشفاً على أوضاع الحزب قبيل حدوث الثورة وفى سنواتها الأولى.

هناك من ينتقد أسلوب هيكل الملتزم بالزمن التاريخى وخصوصا فى حلقات «مع هيكل» التلفزيونية وذلك لأنه يقفز أحيانا من موضوع إلى آخر أو ينتقل بسرعة من زمن إلى آخر مما يزعج المشاهد ويحرمه من متعة الاستماع إلى أحداث قصة واحدة متصلة الحلقات بدون انقطاع. والواقع أنه لو اتبع ذلك الأسلوب لكانت حلقات البرنامج أكثر إمتاعا وتسلية. ولكن هدف هيكل الرئيسى ليس التسلية والإمتاع بل إثارة اهتمام المشاهد بالقضايا المطروحة وعلاقتها بالقضايا الراهنة. إنه لا يهدف إلى إمتاع المشاهد بقصة قديمة منتهية لها بداية ووسط ونهاية، إن هدفه أولا وأخيرا هو تحريك عقل وقلب وضمير المشاهد حتى يدرك أن القصة لم تنته وأنها ما زالت تعيش وتفعل وتؤثر فكما يقول وليم فولكنر «الماضى لا يموت، إنه، فى الواقع، ليس ماضيا» وفهم ذلك بعمق ومسئولية ضرورى من أجل المستقبل. وهكذا فعندما يكثر هيكل من الاهتمام بالذى يسميه «الذاكرة التاريخية»، أو «الضمير التاريخى» أو «الوعى التاريخى» فإنه يفعل ذلك فقط من أجل المستقبل: فاهتمامه الرئيسى كما يقول: «بعض الماضى، ونصف الحاضر وكل المستقبل»(من مقدمة كتاب: أكتوبر ٧٣ السلاح والسياسة).

هذا الاهتمام يتطلب الطرح الدائم للأسئلة والكشف الدائم عن التناقضات والإثارة الدائمة للشكوك حتى يشترك المشاهد فى التفكير فى القضايا المطروحة وإجراء مراجعة نقدية لقناعاته السابقة تساعده على التخلص من الأوهام والمفاهيم الخادعة.

وهكذا فإن جلسة مساء يوم الخميس على شاشة الجزيرة ليست ساعة للتسلية ولكن للحوار، ليست للمتعة ولكن للتأمل، وتأسيسا على ذلك: نستطيع أن نوجز الصفة التى تميز أسلوب هيكل عن أسلوب الكثيرين من كتاب السياسة والتى تجعله يبدو دوما على أنه «أسلوب حديث» بالقول:

«عندما نقرأ للكثير من كتاب السياسة فإننا نجرى حوارا مع الآخرين. أما عندما نقرأ هيكل فإننا نجرى حوارا مع أنفسنا».

[٥]

والآن جاء دور مناقشة السؤال الثالث الخاص بدلالة «ظاهرة هيكل» بالنسبة للوضع العربى الراهن.

بشكل عام، يمكن لنا أن نقول أن القارئ العربى كان ينتظر مقالات هيكل فى الخمسينيات والستينيات والسبعينيات ثم أصبح ينتظر كتبه فى الثمانينيات والتسعينيات كما هو ينتظر حلقاته التلفزيونية هذه الأيام لأن هيكل تمكن من الاحتفاظ بالقدرة على استعمال الأسلوب العلمى فى قراءة الأحداث وهذا يعنى أن القارئ العربى والمشاهد العربى ما زال يحب ويعجب ويتعلق بالرؤية العلمية للسياسة والتاريخ على الرغم من كل ما يتعرض له يوميا من حملات التجهيل المنظمة والمبرمجة والممولة من خزائن الذهب الأسود ومراكز نشر ثقافة التبعية الأمريكية.

أما ما يخص الوضع الراهن فهناك سؤال محدد هو:

ما هى الدلالة السياسية لجلسة الحوار التى نعقدها مساء كل خميس عندما نستمع لهيكل على شاشة الجزيرة؟

ما هى دلالة الاهتمام بالحديث عن «أيام يوليو» بالنسبة لهذه الأيام؟

من المعروف أن «أيام يوليو» لم تبدأ بثورة، ولكنها ابتدأت كحركة ضباط يريدون القيام بعملية إصلاح بالجيش. وبعد ذلك تحولت إلى ما يشبه الثورة الحقيقية عندما أصبحت حركة شاملة للتحرير والمقاومة: تحرير الوضع الداخلى فى مصر من الإرث الاستعمارى الذى كرس وضعا سياسياً- اقتصاديا- اجتماعيا يعيد إنتاج التخلف فى الداخل خدمة للمصالح الاستعمارية فى الخارج ومقاومة للوجود الاستعمارى على امتداد الأرض العربية عن طريق مؤازرة قوى التحرر والقتال معها ضد قوى الرجعية والصهيونية والاستعمار.

ولقد حققت الثورة إنجازات تاريخية

سبب اهتمام الناس بكتابات هيكل والحرص على الاستماع إلى أحاديثه على شاشة الجزيرة هو أنهم يرون فى فكره ومنطقه جسرا يصل بين كل ما هو أصيل وحقيقى وناصع

هائلة فى المعارك التى خاضتها لأن قيادتها فهمت بعمق العلاقة العضوية بين عمليتى التحرير والمقاومة فى سياق مشروع متكامل للنهوض التنموى يلتزم نشر التعليم وبناء الصناعة الوطنية وضمان عدالة توزيع الدخل القومى.

ولقد بلغت تلك الإنجازات ذروتها بقيام الجمهورية العربية المتحدة وإعلان عبد الناصر «إن الذى علقت من أجله المشانق أصبح له وحده قوة القانون» إذ أن ذلك كان يعنى الإصرار على تفكيك وتحطيم كل أوضاع الاقتصاد السياسى للإرث الاستعمارى حتى يتم بناء مستقبل حر يستعيد فيه العرب السيطرة على مصيرهم والعيش فى «الزمن التاريخى» حيث يكرس النضال من أجل الحرية صلة الماضى بالحاضر بالمستقبل، وليس فى «الزمن المشوه» حيث يتم تزييف الماضى وتكبيل الحاضر ومصادرة المستقبل من قبل الاستعمار.

ولكن ثورة ٢٣ يوليو كانت ثورة ناقصة، لم تتمكن من خلق البيئة المناسبة لقيام مؤسسات شعبية ديموقراطية قادرة على تمثيل إرادتها والدفاع عن منجزاتها، ولهذا جاءت الثورة المضادة من داخل السلطة الثورية ولم تلق مقاومة شعبية فعالة، ولقد جاء الإعلان الرسمى عن نجاح الثورة المضادة بشكل كامل مع إعلان أنور السادات بأن «الولايات المتحدة الأمريكية تملك ٩٩٪ من أوراق اللعبة فى الشرق الأوسط». فلقد كان ذلك بمثابة اعتراف صارخ بأن السلطة السياسية قد التزمت بأيديولوجية تقويض كل إنجازات الثورة التاريخية فى تحرير الإرادة الوطنية وإنهاء عهد التبعية، وأنها فى الواقع تعمل على العودة بعقارب الساعة إلى ما قبل الثورة، إلى مطلع الأربعينيات عندما كان موشى شاريت، مدير الدائرة السياسية فى الوكالة اليهودية، يعلن أنه «لا يحتاج إلى الذهاب للعرب للحصول على اتفاقية بشأن فلسطين، وذلك لأن الكلمة النهائية حول الموضوع ليست لهم، ولكن للبريطانيين والأمريكان» (Lipan's. The Birth of Israel: Myths and Realities, 1987)

وبشكل طبيعى، تجندت كل قوى الثورة المضادة فى عملية هائلة محمومة لتزوير التاريخ وبناء صلة الماضى بالحاضر بالمستقبل على أساس أوضاع التبعية، وكما هو معروف فقد تمت عملية التزوير هذه على جبهتين. الأولى كانت فى المجال السياسى الذى تمثل فى قبول النظام الرسمى العربى بضرورة التحرر من «سجن التاريخ» الذى شيدته السنوات الطويلة للصراع العربى- الإسرائيلى حتى يتم بناء مستقبل السلام وفق إرادة الولايات المتحدة الأمريكية التى قال وزير خارجيتها هنرى كيسنجر عندما دخل القاهرة عقب حرب ١٩٧٣ «لا أريد أن أستمع لأحد يحدثنى عن التاريخ». وكان قد قال قبل ذلك بسنوات فى واشنطون «إن أسعد أيامى هو اليوم الذى لا اسمع فيه ذكرا للقرار ٢٤٢».

أما الجبهة الثانية، فكانت فى المجال الفكرى والثقافى وكان فرسان هذه الجبهة مجموعات الكتاب والصحافيين الذين اشترتهم أموال الذهب الأسود وجندتهم لنشر أطروحات التخلف الوطنى والتخلف القومى والتخلف الإنسانى. ومجموعات الأساتذة الجامعيين الذين اشترتهم المنح والبعثات والإعانات الأمريكية وجندتهم لنشر أطروحات التبعية المستترة وراء أقنعة الحداثة والديمقراطية والاعتدال. ولقد تناغمت هذه المجموعات فى جوقة واحدة تعزف معزوفة واحدة تهدف إلى إقناع العقل العربى بأن فكر وممارسات حقبة الخمسينيات والستينيات: حقبة التحرر الوطنى، حقبة الثورة وتشييد دعائم الاستقلال الحقيقى هى الخطأ فى التاريخ العربى، وأن فكر وممارسات التبعية للولايات المتحدة الأمريكية: حقبة الاستسلام، حقبة الثورة المضادة هى السبيل الصحيح للالتحاق بركب الحضارة والحداثة والتقدم.

وفى المقابل تصدت مجموعات من المفكرين والصحفيين الشرفاء لمقاومة هذا التزوير الفاضح والالتزام الكامل بتجديد مشروع النهضة التحررى على أساس التركيز المطلق على المضمون الديمقراطى أسلوبا وغاية ومرجعية. وكان هيكل فى طليعة هؤلاء إذ كرس كل جهده لإعادة قراءة تاريخ معارك حركة التحرر العربية فحدد هدفه بأنه:

«المشاركة - بقدر الطاقة والجهد- فى صد الغارات الهمجية عن ذاكرة الأمة، والأمة مثل الفرد يصاب بالجرح فيشفى، ويصاب بالصدمة فيفيق، ويصاب بخسارة المال فيعوضه، ولكن فقدان الذاكرة كارثة بلا حدود لأنه يودى بكل شىء بما فى ذلك التاريخ والمستقبل ومن ثم يصبح الحاضر محاصرا يتم عزله وتطويقه على لوحة زجاج مسطح لا تحتفظ بشىء ولا تعنى شيئا». (من مقدمة كتاب أكتوبر ٧٣).

ولقد كان شاهدا على، ومشاركا فى، كل أحداث التاريخ الذى كرس وقته وجهده لإعادة قراءته ومع ذلك فلقد رأى فى ذلك عبئا ومسئولية وصعوبة إذ يقول:

«ولعلى لا أتردد إذا قلت أن قراءة التاريخ كانت أصعب بالنسبة لى لأنى عشت وقائعه، وكان على لكى أقراه بأمانة، أن أضع للاختبار كثيرا مما كنت أظن أننى أعلمه، وأن أطرح للمراجعة كثيرا مما كنت أتوهم أنى أفهمه». (من مقدمة كتاب: الانفجار).

الرغبة فى اختبار مدى صدقية المعلومات التى تحتفظ بها، وأكثرها يخص أحداثا عشتها وشاركت فى رسم مقاديرها، والاستعداد لمراجعة مفاهيم وقناعات آمنت بها وناضلت تحت راياتها أحلى سنوات عمرك، لا يتأتى لك إلا إذا كنت مؤمنا بتبصر وعمق بمنهجية المفهوم العلمى للتاريخ التى تعنى أن الحفاظ على ذاكرة الأمة لا يتم عبر التذكير بما حصل فى الماضى واستنتاج الدروس والعظات بل يكون ببقاء الذاكرة حية، ناشطة، فعالة، قادرة بشكل مستمر على تفعيل عملية النقد الذاتى الخلاق الذى يتم بواسطته إعادة تقييم ما حصل فى الماضى على ضوء ما يحصل فى الحاضر وبنفس الوقت فحص ما يحصل فى الحاضر على ضوء ما حصل فى الماضى. على أساس أن ذلك النقد البناء للماضى والحاضر هو الذى يزيل كثيرا من العقبات والصعوبات التى تعترض طريق المستقبل.

ولقد نجح هيكل فى أن يحول قراءته لتاريخ أيام يوليو إلى حوار خلاق بين الماضى والحاضر، فهو لم يعمد إلى تمجيد تلك الأيام، ولم يعمد إلى تعظيم دور أبطالها أو شيطنة أعدائهم، على العكس من ذلك. لقد كان اهتمامه الرئيسى هو الكشف عن تناقضات وأزمات وصراعات تلك الأيام بشكل جعلنا أقدر على فهم إيجابيات وسلبيات تلك المرحلة وعلاقاتها العضوية بأوضاع المرحلة الراهنة. وهذا ما يدفعنا بشكل تلقائى إلى الاسترشاد بالإيجابيات ومحاربة السلبيات. البناء على أولوية تحرير الإرادة الوطنية والتخلص من كل أشكال التبعية وبنفس الوقت الالتزام بالديمقراطية أسلوبا ونهجا وغاية ومحاربة كل نزعات الديكتاتورية.

فى هذا الحوار الخلاق الذى نراجع فيه مفاهيمنا ونراجع توجهاتنا يضىء فى نفوسنا نور يظهر بجلاء ما هو أصيل وحقيقى ومشترك بين الماضى والحاضر ويدفع باتجاه المستقبل الحر وما هو كذب وتزييف وضلال ويشد بنا إلى الوراء، على درب التخلف والتبعية والحداثة المزيفة.

وهكذا نجد أن دلالة جلسة الحوار التى نعقدها كل خميس مع هيكل هى أنها جلسة تعمل على تحريرنا من كثير من القيود التى تكبل عقولنا وقلوبنا. فكما قال مؤرخ جامعة كمبريدج المشهور جون أكتون (١٨٣٤ - ١٩٠٢):

«التاريخ لا يحررنا فقط من التأثيرات غير المناسبة لأزمان معينة، بل إنه يعمل على تحريرنا من التأثيرات غير المناسبة لوقتنا الحاضر، يحررنا من طغيان البيئة وضغط الهواء الذى نتنفسه»

وهكذا فإن دلالة الحديث عن أيام يوليو فى هذه الأيام هو أنه يسهم فى تنقية «الهواء الذى نتنفسه» من الدخان الأسود الذى تنفثه أنظمة الاستبداد والذهب الأسود التى تعمل بشكل محموم ومسعور على قطع الصلة بين المقاومة فى الأمس والمقاومة اليوم عن طريق إشغال الناس بالفتن الدينية والطائفية والمذهبية حتى ينصرفوا عن التركيز على أولويات الصراع الأساسى فى المنطقة.

وهو يسهم فى تنقية «الهواء الذى نتنفسه» من الدخان الأبيض الذى تنفثه جوقة الصحفيين والأساتذة الجامعيين الذين يطرحون أنفسهم كممثلين للحداثة والليبرالية السياسية وهدفهم الأول والأخير هو وراثة أنظمة الاستبداد وإقامة أنظمة سياسية لها كفاءة عالية فى الحفاظ على مصالح الولايات المتحدة الأمريكية والتحالف مع إسرائيل.

وهكذا نرى أن سبب اهتمام الناس بكتابات هيكل والحرص على الاستماع إلى أحاديثه على شاشة الجزيرة هو أنهم يرون فى فكره ومنطقه جسرا يصل بين كل ما هو أصيل وحقيقى وناصع فى أيام حركة التحرر الوطنى فى الخمسينيات والستينيات وما هو حقيقى وأصيل وناصع فى أيام المقاومة فى لبنان وفلسطين والعراق. جسرا يتحرك إلى أمام بقوة دفع ناشئة عن تحرير الماضى والحاضر من الأوهام التى نصنعها بأيدينا متأثرين بعمليات التزييف والتشويه المستمرة. جسرا يصل أيام المقاومة فى ١٩٥٦ بأيام المقاومة فى ٢٠٠٦، جسرا يصل أيام عبد الناصر بأيام حسن نصر الله.

[٦]

فى بداية العقد الثالث من القرن الماضى تنبأ هنرى لوس مؤسس مجلة التايم الأمريكية بأن القرن العشرين سيكون «القرن الأمريكى».

لقد صدقت تلك النبوءة إلى حد كبير. فالولايات المتحدة التى دخلت القرن تسير بخطى بطيئة ومترددة من أجل احتلال مركز عالمى كإمبراطورية جديدة، ودعت القرن وهى الإمبراطورية الوحيدة فى العالم، بعد أن نجحت فى تصفية الإمبراطوريات الصديقة وهزيمة الإمبراطوريات المعادية.

ومع ذلك فإن الصحفى الأول فى القرن العشرين لم يكن أمريكيا. لقد كان عربيا.

وعندما أشرف القرن العشرون على ربعه الأخير، أدركت كبرى الصحف الأمريكية هذه الحقيقة إذ قالت صحيفة النيويورك تايمز فى عددها الصادر يوم ٢٢ آب ١٩٧١ أنه «من الممكن أن يكون محمد حسنين هيكل هو أقوى صحفى فى العالم».

لقد كان

ومازال

مثالا على انتصار الروح العربية على الرغم من كل الجروح النازفة فى الجسد العربى. ■

ستيفن بيتر روزن

ما بعد

ها هو انتشار الأسلحة النووية يحتل من جديد رأس أجندة الأمن القومى الأمريكى مدفوعاً بالتقدم الذى حدث فى برامج الأسلحة فى كوريا الشمالية وإيران. ومن الناحية العملية، تركزت كل المناقشات التى دارت حول هذه القضية على كيفية منع انتشار الأسلحة النووية. وبينما حث الصقور على تغيير الأنظمة الحاكمة أو توجيه ضربات عسكرية، أيد الحمائم منع بيع السلاح والتفاوض. ومع أنه من الأرجح ألا يحل أى من تلك الإجراءات المشكلة، فقد أمضى بعض المراقبين وقتاً طويلاً فى بحث ما سيبدو عليه عالم ما بعد انتشار الأسلحة النووية.

ويمكن تقسيم من عكفوا على ذلك البحث إلى متفائلين ومتشائمين. ويفترض المتشائمون أن أخطار المواجهة النووية سوف تزداد زيادة غير عادية مع تزايد عدد القوى النووية وأن وقوع كارثة فى المستقبل أمر يكاد يكون مؤكداً. وتمضى هذه المقولة فتشير إلى أنه مادام ليس هناك الكثير مما يمكن عمله لتغيير تلك النتيجة الرهيبة أو التخفيف من عواقبها، فلابد من مضاعفة جهود وقف انتشار الأسلحة النووية أولاً. وفى المقابل يفترض المتفائلون أن الاستقرار الذى يبدو أن الأسلحة النووية وفرته لمواجهة القوتين العظميين إبان الحرب الباردة سوف يتكرر. وهم يقولون إنه بدلاً من أن يكون انتشار الأسلحة النووية كارثة مؤكدة فمن الممكن أن يكون حلاً سهلاً ورخيصاً نسبياً (وإن كان مثيراً للأعصاب) لمشكلة الحرب التى طال أمدها.

ومع ذلك فواقع الأمر هو أنه من المرجح أن يكون مستقبل انتشار الأسلحة النووية أعقد مما يعتقده أى من المتفائلين والمتشائمين. ففى عالم متعدد الأقطاب، سوف تظل السياسة الدولية داخل بيئة يحكمها الخوف والشك، مع وجود أخطار جديدة واحتمالات جديدة لسوء الاتصال تزيد من الأخطار والاحتمالات المألوفة وتعقدها. ونتيجة لذلك فمن المرجح أن يصبح الكثير من الخطط العسكرية والسياسات الدفاعية ومبادئ الأمن القومى التى يتعامل معها المسئولون فى الولايات المتحدة وغيرها من الدول فى الوقت الراهن عتيقاً ولا يتماشى مع الزمن، وسوف يكون من الضرورى تنقيح تلك الخطط والسياسات والمبادئ وتعديلها على نحو كبير.

هل سينجح الردع؟

لنفترض، من باب الجدل، أن إيران ستنجح خلال العقد المقبل فى امتلاك بضعة أسلحة نووية بدائية، وأنه سيكون بالإمكان توصيل تلك الأسلحة بواسطة صواريخ باليستية إلى داخل منطقة الشرق الأوسط، ونقلها بوسائل سرية إلى الولايات المتحدة وأوروبا. ولنفترض كذلك أن المملكة العربية السعودية وتركيا أقامتا ترسانتيهما النوويتين، بدافع من الخوف أو رغبة فى التقليد. فكيف ستجرى التفاعلات الإستراتيجية فى مثل هذا العالم الجديد؟

أثناء الحرب الباردة، كان العدد القليل من الدول النووية يعنى أن هوية أى مهاجم نووى كانت ستصبح واضحة. وبذلك كان بالإمكان اتخاذ الاحتياطات من أجل الرد، الأمر الذى ساعد على ردع الهجمات الأولى. غير أن مثل هذا المنطق قد لا يصلح فى شرق أوسط نووى متعدد الأقطاب. ذلك أنه لكى يفلح الرد فى مثل هذه البيئة لابد أن تكون هناك أجهزة كشف يمكنها أن تحدد على نحو لا لبس فيه ولا غموض ما إذا كان الصاروخ الباليستى الذى يحمل سلاحاً نووياً قد أُطلق، على سبيل المثال، من إيران أم من تركيا أم من المملكة العربية السعودية. وفى العقود السابقة أنفقت الولايات المتحدة قدراً ضخماً من الموارد على رادارات الكشف فوق الأفق والأقمار الصناعية التى يمكنها تحديد أصل إطلاق الصواريخ داخل الاتحاد السوفيتى. غير أن تلك الأنظمة التى حققت أكبر قدر ممكن من مراقبة الاتحاد السوفيتى قد لا تكون على القدر نفسه من الكفاءة فى تحديد انطلاقات الصواريخ من دول أخرى. وربما يكون نشر تلك الأنظمة بالأمر الهَيِّن من الناحية الفنية على الولايات المتحدة (أو إسرائيل أو المملكة العربية السعودية)، إلا أن الردع سيكون ضعيفاً إلى حد بعيد لحين وجود تلك الأنظمة وإبداء فاعليتها؛ وقد يكون من الصعب الرد على القنبلة التى لا تحمل عنوان الراسل على نحو واضح.

إن الأمر يزداد سوءاً. فأثناء الحرب الباردة كان معظم المحللين يعتبرون أنه من غير المرجح استخدام الأسلحة النووية فى وقت السلم؛ بل كان قلقهم أكبر بشأن احتمال وقوع صراع نووى ينجم بطريقة ما عن حرب تقليدية. ولا يزال هذا السيناريو هو الأرجح فى مستقبل انتشار الأسلحة النووية كذلك، غير أن تكرار وقوع الحروب التقليدية فى الشرق الأوسط قد يجعل من ذلك توقعاً يبعث على قدر أقل من الارتياح. فإذا أُطلق صاروخ باليستى يحمل سلاحاً نووياً أثناء وقوع قتال تقليدى فى المنطقة تُستخدم فيه صواريخ باليستية لا تحمل أسلحة نووية، فما هو مقدار الثقة التى ستكون عليها أية حكومة عند تحديدها الطرف المسئول؟ وربما يزداد الأمر صعوبة فى حال استخدام طائرة أو صاروخ عابر للقارات فى توصيل السلاح النووى.

وعلاوة على ذلك فإن من أكبر المخاوف بشأن امتلاك إيران المحتمل للأسلحة النووية هو أن طهران قد تعطيها لإحدى الجماعات الإرهابية، الأمر الذى سوف يزيد احتمال استخدامها على نحو رهيب. ويقول البعض إن الحكومة الإيرانية لن تتغاضى عن مثل هذا النقل، بينما يقول غيرهم إنها سوف تتغاضى عنه. وليس هناك من سبيل للتأكد من هذا الأمر. غير أن ما يمكننا قوله هو أن احتمال النقل السرى إلى الإرهابيين الإسلامويين المتشددين سوف يزداد إذا تنامى عدد القوى النووية الإسلامية، ذلك أنه سوف يكون من الصعب تحديد الدولة المسئولة عن النقل لمعاقبتها على ذلك.

وإذا امتلكت جماعة إرهابية إسلاموية مادة إنشطارية أو قنبلة نووية فى الوقت الراهن فسيكون من الصعب أن نحدد على وجه اليقين من هى الدولة التى أعطتها إياها. سوف يتركز الاهتمام على باكستان، الدولة الإسلامية الوحيدة حالياً التى تمتلك أسلحة نووية. ولكن الشك سوف يزداد إذا تحولت دول إسلامية أخرى إلى قوى نووية، وسوف يصبح الرد مستحيلاً تماماً ما لم يكن هناك استعداد للرد من غير تمييز على الدول المشتبه فيها كافة.

قضايا السباق

أثناء الحرب الباردة، دخلت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى سباق تسلح مكثف وأقاما ترسانتين نوويتين شاسعتين. إلا أن المنافسات النووية الثنائية الأخرى، كتلك التى بين الهند وباكستان، خلت من ذلك السلوك. إذ ظلت ترسانات هاتين الدولتين صغيرة إلى حد ما وغير معقدة نسبياً.

ومن غير المرجح أن تبدى الدول المسلحة تسليحاً نووياً فى الشرق الأوسط هذا القدر من الاعتدال وضبط النفس. فإيران والعراق ستشك كل منهما فى الأخرى على نحو كبير، وكذلك سيكون الحال بين المملكة العربية السعودية وإيران، وبين تركيا والعراق، وهلم جرا. وبعد ذلك هناك إسرائيل. وسوف يخلق الحذرُ الظروفَ التقليدية لسباق السلاح متعدد الأقطاب، حيث تتسلح إسرائيل فى مواجهة كل الأعداء المحتملين وتتسلح الدول الإسلامية فى مواجهة إسرائيل ومواجهة بعضها البعض.

وتشير الأدلة التاريخية إلى أن سباقات الأسلحة تعجل بوقوع الحروب، لأن الحكومات تصل إلى حد النظر إلى الصراع باعتباره أمراً مفضلاً على استنفاد الأموال أو الاعتقاد بأنه يمكنها تحقيق ميزة عسكرية مؤقتة من خلال الحرب. ويمكن القول إن أية حرب نووية سوف تتسبب فى حدوث قدر كبير من الدمار بحيث قد يثنى احتمال وقوعها الدول إلى حد كبير عن تصعيد الصراعات. ولكن سباقات التسلح التى لا تهدأ سوف تظل تنتج ترسانات أكبر، مما يجعل منع حدوث الاستخدام الطارئ أو غير المفوَّض به للأسلحة النووية أمراً أكثر صعوبة.

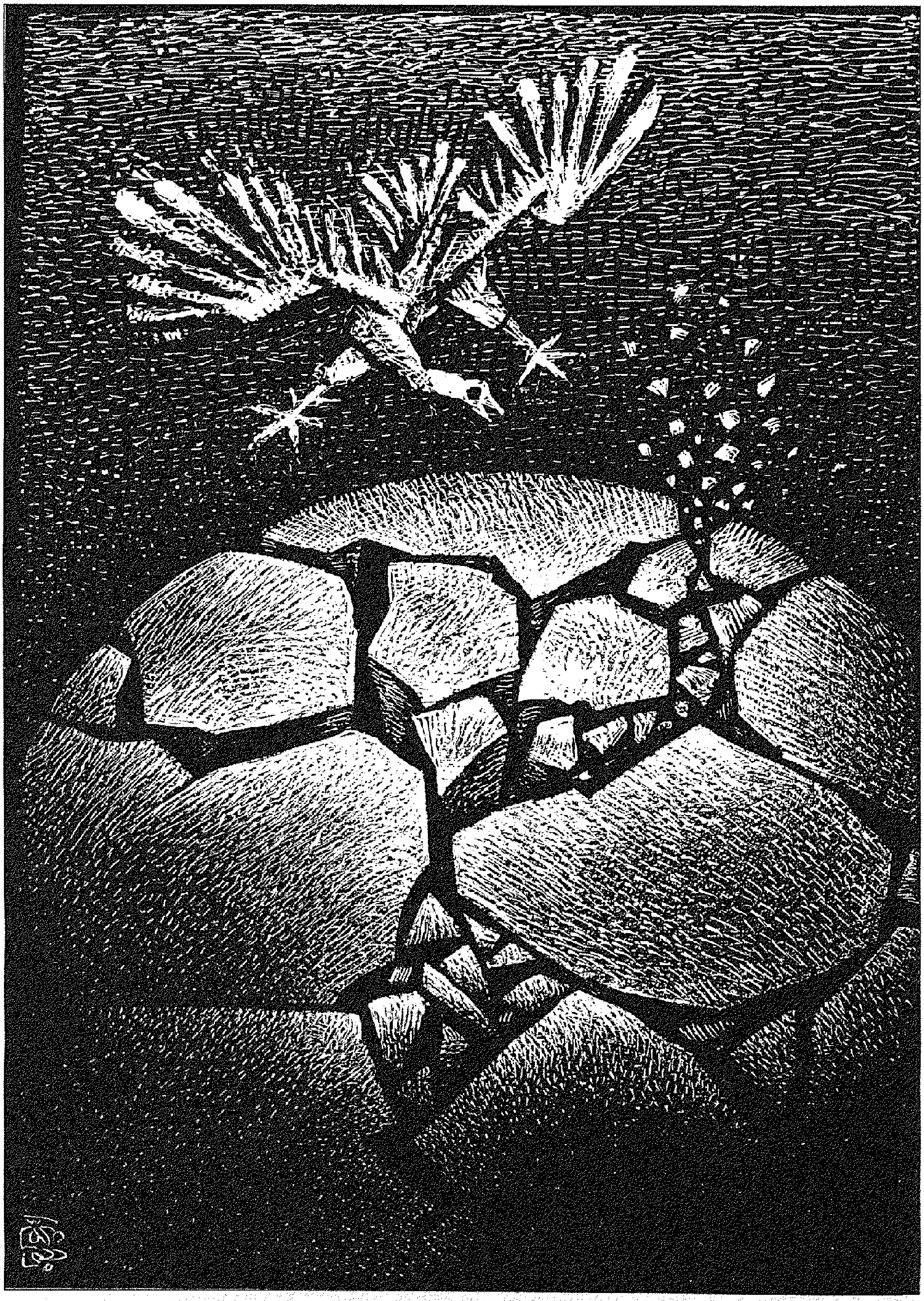
وربما تنشأ سباقات التسلح فى مناطق غير الشرق الأوسط كذلك. فآسيا تضم الكثير من الدول التى بينها نزاعات

بترتيب مع مجلة:
Foreign Affairs

ترجمة: أحمد محمود

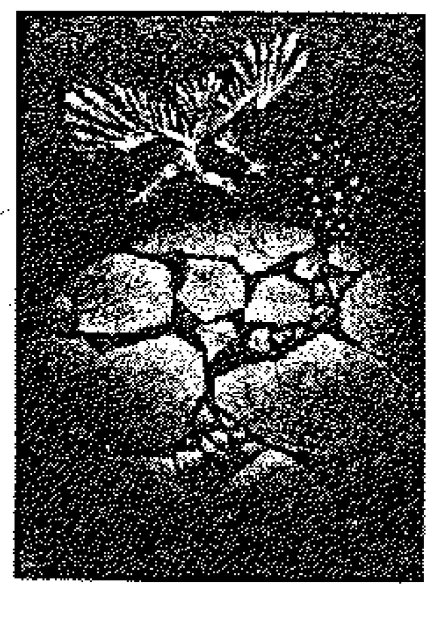
مستقبل انتشار الأسلحة النووية أعقد مما يعتقده أى من المتفائلين والمتشائمين. ففى عالم متعدد الأقطاب، سوف تظل السياسة الدولية داخل بيئة يحكمها الخوف والشك، مع وجود أخطار جديدة واحتمالات جديدة لسوء الاتصال تزيد من الأخطار والاحتمالات المألوفة وتعقدها

الانتشار



إقليمية أو سياسية كبيرة، منها خمس دول لديها أسلحة نووية (الصين والهند وكوريا الشمالية وباكستان وروسيا). وقد تنضم اليابان وتايوان إلى القائمة. وقد يكون لدى تلك الدول كافةً موارد لزيادة حجم ترساناتهم النووية ونوعيتها إلى ما لا نهاية إن هي اختارت ذلك. كما يبدو أنها قومية النزعة على نحو لم تعد تتسم به الدول الأوروبية الغربية؛ فهى تعي تفوقها إلى حد كبير، وغير عابئة نسبيًا بالمنظمات الدولية، وسريعة التأثر بالإهانات، كما أنها حذرة مما يطرأ من تغيرات على الميزان الإقليمي للقوة العسكرية. وإذا ما توقفت الولايات المتحدة عن القيام بدور كفيل النظام الحالي، فسوف تصبح آسيا، كما يقول آرون فريدبرج أستاذ العلوم السياسية بجامعة برنستون، «على أتم الاستعداد للتنافس»، بما فى ذلك التنافس النووي. وفى تلك الحالة سوف تثير المنطقة مشاكل أشبه بتلك التى سوف يثيرها الشرق الأوسط النووي.

والمعروف أن الولايات المتحدة لم تتأثر إستراتيجيًا بسباقات التسلح الخاصة بأوقات السلم بين الدول الأخرى، منذ التنافس الكونى على النفوذ البحرى ومنافسات قاذفات القنابل الأوروبية فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين. ولو ظهرت هذا المنافسات الآن فمن غير الواضح كيف سيكون رد فعل واشنطن، أو ينبغى أن يكون. فخلال الحرب الباردة لم يكن الخبراء الإستراتيجيون الأمريكيون والسوفييت مشغولين بكيفية حماية بلديهم فحسب من الهجوم النووي، بل انشغلوا كذلك بكيفية حماية حلفائهم. ولم تكن هناك قط إجابات شافية عن التساؤلات الخاصة بمصداقية ذلك «الردع الممتد»، غير أن ما قلل من إلحاح تلك التساؤلات، فى الولايات المتحدة على الأقل، هو قرار واشنطن الخاص بربط نفسها ربطًا وثيقًا بشركائها فى حلف الناتو (حيث وصل الأمر بالولايات المتحدة إلى نصب صواريخ نووية أمريكية فى ألمانيا الغربية وتركيا). ومن المحتم أن تعود مثل هذه التساؤلات إذا ما استمر انتشار الأسلحة النووية. وفى أية مواجهة فى المستقبل بين إيران والكويت، على سبيل المثال،



قد تحاول طهران المسلحة تسليحاً نووياً قمع خصمها، فى الوقت الذى تتعامل فيه مع احتجاجات واشنطن وتهديداتها على أنها ضرب من الخداع. فهل سيحتاج التصدى لمثل تلك التحديات إلى تكوين نسق جديد من التحالفات الوثيقة، وضمانات الأمن الصريحة، والهياكل الدفاعية المتكاملة؟

يفترض مفهوم الحرب الباردة الآخر، المعروف بمفارقة الاستقرار وعدم الاستقرار، أن الأطراف الفاعلة تستغل الخوف من الحرب النووية نفسه فى السعى للوصول إلى أنواع أقل من الصراع مع الحصانة. وقد يظهر ذلك أيضاً فى المستقبل. فعلى سبيل المثال، قد تدعم إيران النووية الإرهاب المتزايد ضد القوات الأمريكية فى المنطقة بناء على النظرية القائلة بأن واشنطن سوف تتردد فى تصعيد الصراع.

شروط الاستخدام

لم تُستخدم الأسلحة النووية منذ عام ١٩٤٥، وسوف يبدو أى استخدام آخر لها صدمةً شديدةً. ومع ذلك فقد تظن بعض الأطراف النووية الفاعلة فى المستقبل أن اللجوء لتلك الأسلحة يخدم مصالحها. وليس من غير المتصور، على سبيل المثال، أن دولة ما أو جماعة ما قد ترغب فى أن تُظهر لبقية العالم أنها مستعدة وقادرة على مخالفة أكثر معايير النظام الدولى قدسيةً. وقد تعمدت ألمانيا النازية استهداف اللاجئين المدنيين فى بولندا فى عام ١٩٣٩ وفى هولندا وفرنسا فى عام ١٩٤٠ كجزء من إستراتيجيتها Schrecklichkeit (بث الرعب). والاستخدام شبه الإرهابى للأسلحة النووية، ليس بواسطة جماعة صغيرة وإنما دولة ترغب فى أن يُعترف بها كدولة مخيفة، سوف يكون نظيراً معاصراً.

فما نوع الدولة التى سوف تجرب مثل هذا الأمر؟ إذا كان التاريخ مرشدى فى تحديد ذلك، فالدولة التى ترفض النظام العالمى القائم علانيةً تعتبر خصومها أدنى من أن يكونوا بشراً كاملى البشرية، وتسعى إلى ترهيب الآخرين. وفى المقابل ربما تخلق الصراعات الداخلية كراهية من الشدة بحيث تجعل الأطراف الفاعلة تلجأ إلى استخدام الأسلحة النووية؛ ولننظر على سبيل المثال كيف يمكن أن ترد موسكو إذا أسفر هجوم شيشانى آخر عن قتل المئات من الأطفال الروس. وقد يكون هناك كذلك إغراء لبعض الدول تستخدم الأسلحة النووية بطرق أخرى. فعلى سبيل المثال، كانت جنوب إفريقيا تعتزم قبل تخليها عن برنامج الأسلحة النووية الخاص بها استخدام قنابلها النووية إن هى تعرضت فى يوم من الأيام للهزيمة، باعتبار ذلك محاولة النفس الأخير لجر القوى العظمى إلى الصراع. وإذا ما عبرت تايوان العتبة النووية فإنها قد تتبع إستراتيجية مشابهة.

ومع ذلك فحتى الآن يضم الاستخدام الأكثر احتمالاً للأسلحة النووية الجانب الخاسر فى الحرب غير النووية. فمثل هذه الدولة لن تُواجه بخيار بين الحفاظ على السلام وبدء حرب نووية، بل بين قبولها لهزيمتها الوشيكة والمقامرة باحتمال أن ينهى التصعيدُ القتالَ فجأةً دون أن تتعرض للهزيمة. والصراع بين إيران والعراق أو الصراع بين الصين وتايوان مرشحان محتملان لمثل هذا الكابوس.

ينبغى ألا يتراخى الدفاع

ما الذى يمكن عمله، إن كان هناك ما يجب عمله، كى نستعد على نحو من الفطنة لمثل تلك الأمور المحتملة؟ يقول المتشائمون إنه لا جدوى من الاستعداد، ويرى المتفائلون أنه غير ضرورى وليس هناك ما يدعو إليه. غير أن هناك العديد من الخطوات التى يمكن للمسئولين الحكماء أن يتخذوها، بل وينبغى عليهم اتخاذها، الآن.

كى ندعم فعَّالية الردع فى عالم من القوى النووية الصغيرة القريبة من بعضها جغرافياً، سوف يكون من الضرورى نشر أنظمة مراقبة يمكنها تحديد حركة الطائرات وإطلاق الصواريخ والتحذير منها. وقد يجرى تشغيل تلك الأنظمة على أساس قومى أو متعدد الأطراف؛ والواقع أن عدداً من الدول فى المناطق المعرضة للخطر قد يساهم فى الجهود الجماعية للكشف عن التهديدات المحمولة جواً.

وعلاوة على ذلك، سوف يوجد إنشاء نظام المراقبة الإقليمى هذا جزءاً كبيراً من البنية التحتية اللازمة لدعم أداة مفيدة أخرى، وهى شكل من أشكال الدفاع الصاروخى. ولطالما سخر المتشككون فى الدفاع الصاروخى كثيراً، ومعهم بعض الحق، من فكرة أنه يمكن لهذه الأنظمة أن تكون فعالة ضد الأسلحة النووية أو الأعداد الكبيرة من الصواريخ. إلا أن ما أغفلوه هو أنه حتى الدفاعات التى بها ثغرات أو غير الفعالة يمكن أن يكون لها دور فى ردع الهجوم الآتى من قوة نووية لديها ترسانة صغيرة، أو يقلل من احتمالات نشوب صراع نووى واسع النطاق نتيجة لاستخدام وحيد (من أى أصل).

وهناك أنواع أخرى من الدفاع يمكنها كذلك تقليل احتمالات وقوع الهجوم أو تخفيف نتائجه الرهيبة. وينبغى على المسئولين الأمريكيين تنمية القدرة على إجلاء هؤلاء المواطنين المعرضين لخطر الهجوم المباشر أو التواجد فى طريق السقْط النووى، وكذلك اختزان أعداد كبيرة من أجهزة قياس الإشعاع، وبناء ملاجئ للاحتماء من السقْط النووى، واتخاذ غير ذلك من الإجراءات التى وُضعت أول ما وُضعت فى الخمسينيات. وبات يُنظر إلى الدفاع المدنى على أنه نكتة غريبة عندما امتلك الاتحاد السوفيتى آلاف الأسلحة النووية. غير أنه يمكن أن يؤدى دوراً مهماً فى عالم من القوى النووية الصغيرة، شأنه فى ذلك شأن الدفاع الصاروخى.

إذا نجحت القنبلة النووية فى الوصول رغم ذلك فسوف يكون من الضرورى بالنسبة للدولة المستهدفة أن ترد بسياسات غير الوقوف ساكنة أو الأمر بالرد من غير تمييز. وسوف يكون أحد الخيارات شن حملة عسكرية نووية ضخمة ضد الطرف المسئول للتأكد من أن مثل هذا الهجوم لن يتكرر. إلا أنه رغم وجود كل تلك الإرادة وذلك المال فى العالم فليس بالإمكان استدعاء مثل هذا الرد فجأة؛ فهو يحتاج إلى تخطيط متأنٍ واستعداد.

وقد كانت الولايات المتحدة قادرة على بدء جهد تعبئة غير عادى فى عام ١٩٤٢ ليس لأن الهجوم على بيرل هاربر حفَّز الجمهور الأمريكى فحسب، بل كذلك لأن أشخاصاً مثل فانيفر بوش (باعتباره رئيساً للجنة القومية لأبحاث الدفاع) وروبرت لوفيت (باعتباره مساعداً لوزير الحرب هنرى ستيمسون) أمضوا سنوات فى وضع أساس لتنظيم العلماء المدنيين وصناعة السيارات من أجل الأغراض العسكرية. ومما يؤسف له أن أحداً لم يفكر فى التخطيط لمثل تلك التعبئة فى الولايات المتحدة خلال ٥٠ عاماً. ومع ذلك فإنه فى أعقاب الهجوم النووى على الولايات المتحدة سوف يطالب الشعب الأمريكى بأن تحاول الحكومة تغيير العالم بحيث لا يحدث مثل هذا الهجوم مرة أخرى. وسوف يكون بدء التمعن فى هذا الجهد وتخطيطه الآن قليل التكلفة ويمكن القيام به، وسيزيد خيارات الحكومة الأمريكية فيما بعد.

فى الوقت نفسه سوف يكون وقف سباقات التسلح فى الشرق الأوسط وآسيا أمراً صعباً. ويبدو من غير المرجح أن يكون منع انتشار الأسلحة التقليدى، الذى يتطلب أن تسمح الأطراف بعمليات جرد متبادلة لأسلحتها والالتزام بإجراءات التحقق، ذا فائدة كبيرة، بسبب الشكوك المتأصلة فى تلك المناطق، ولوجود حافز لدى القوى النووية الصغيرة كى تخفى أسلحتها وتبالغ فى حجم ترساناتها وفعَّاليتها كى تمنع خصومها من مهاجمتها. وهكذا فسوف يكون من الصعب التوصل إلى اتفاق على إجراءات التحقق، الأمر الذى سوف يقلل بدوره من احتمالات وجود اتفاقيات فعالة بصور أكثر عمومية.

ومع ذلك فقد يكون من الممكن والمفيد أن يصبح هناك شكل معين من الشفافية النووية. ولكن ذلك يتطلب أن تدرك الدول كافة أن الحرب النووية سوف تؤدى إلى وفيات لديها، حتى ولو كان ذلك باستعمال ترسانات محدودة. فكيف يمكن توصيل هذه الفكرة؟ هناك أدلة تاريخية على أن رؤية تجربة الأسلحة النووية كان لها أثر قوى على الكثير من الأشخاص فى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. وهكذا فمن المفارقة أن يكون من الواجب استمرار الانتشار النووى لفترة أطول قبل إيقافه أو الحد من سرعته؛ فلو أُجريت التجارب النووية بشكل كامل من جديد، فقد يدرك الجيل الجديد من واضعى السياسات وجماهيرهم أنه حتى استخدام عدد قليل من الأسلحة النووية سوف يؤدى إلى دمار لا سبيل لتحمله.

باختصار، إذا استمر انتشار الأسلحة النووية فمن المرجح أن يدخل العالم حقبة جديدة ذات تحديات تختلف اختلافاً كبيراً عن تحديات الحرب الباردة. ومن المحتمل أن يوجد العديد من القوى النووية الصغيرة الأخرى إلى جانب القوى الكبرى، وسيتعين معالجة مشاكل الردع النووى، وسباقات التسلح، والأسلحة الدفاعية والهجومية، والرد المناسب من جديد فى ظروف جديدة وأكثر تعقيداً. ومنذ خمسينيات القرن العشرين حتى ثمانينياته كانت الإستراتيجية النووية مجالاً حياً للبحث له أهميته العملية الكبيرة. ولم يعد لهذا المجال وجود بانتهاء الحرب الباردة، حيث انحسرت احتمالات المواجهة النووية بين القوتين العظميين. ومما يؤسف له أن الوقت قد حان لإحيائه. ■

■■ تعمل زوجة أخى فى منظمة تقدم العون للملاجئ فى القاهرة، حيث تقوم هى وزميلاتها برعاية اليتامى الذين وجدوا أنفسهم فى هذا الوضع لأسباب خارجة عن إرادتهم، وهن يقمن بإطعام هؤلاء الأطفال وكسوتهم وتعليمهم القراءة والكتابة.

وبالتوازى فإن زملائى وأنا نقوم فى الوكالة الدولية للطاقة الذرية بالعمل على حماية المواد النووية من الوصول إلى أيدى الجماعات المتطرفة والتفتيش على المنشآت النووية فى مختلف أنحاء العالم للتأكد من أن الأنشطة النووية السلمية لا تستخدم كستار لبرامج تسلح نووى.

إن زوجة أخى وأنا نعمل لتحقيق نفس الهدف، ألا وهو أمن الأسرة الإنسانية، وإن كنا نعمل للوصول إلى ذلك بأساليب مختلفة.

وفى هذا المقام أود أن أطرح سؤالا أساسيا وهو: لماذا لم نتمكن حتى الآن من تحقيق هذا الأمن للأسرة الإنسانية؟

فى اعتقادى أن السبب الرئيسى فى هذا يرجع إلى أن استراتيجيتنا الخاصة بأمن الأسرة الإنسانية لم تتواكب بعد مع المخاطر التى نواجهها، ففى الوقت الذى قامت فيه العولمة بإزالة العوائق أمام حرية انتقال الأفكار والأفراد والسلع فإنها فى نفس الوقت أزالت الموانع التى كانت فيما سبق تحصر الأخطار الأمنية فى إطار محلى أو إقليمى.

وفى دراسة حديثة قام بها فريق رفيع المستوى من الأمم المتحدة تم تحديد الأخطار التى نواجهها فيما يلى :

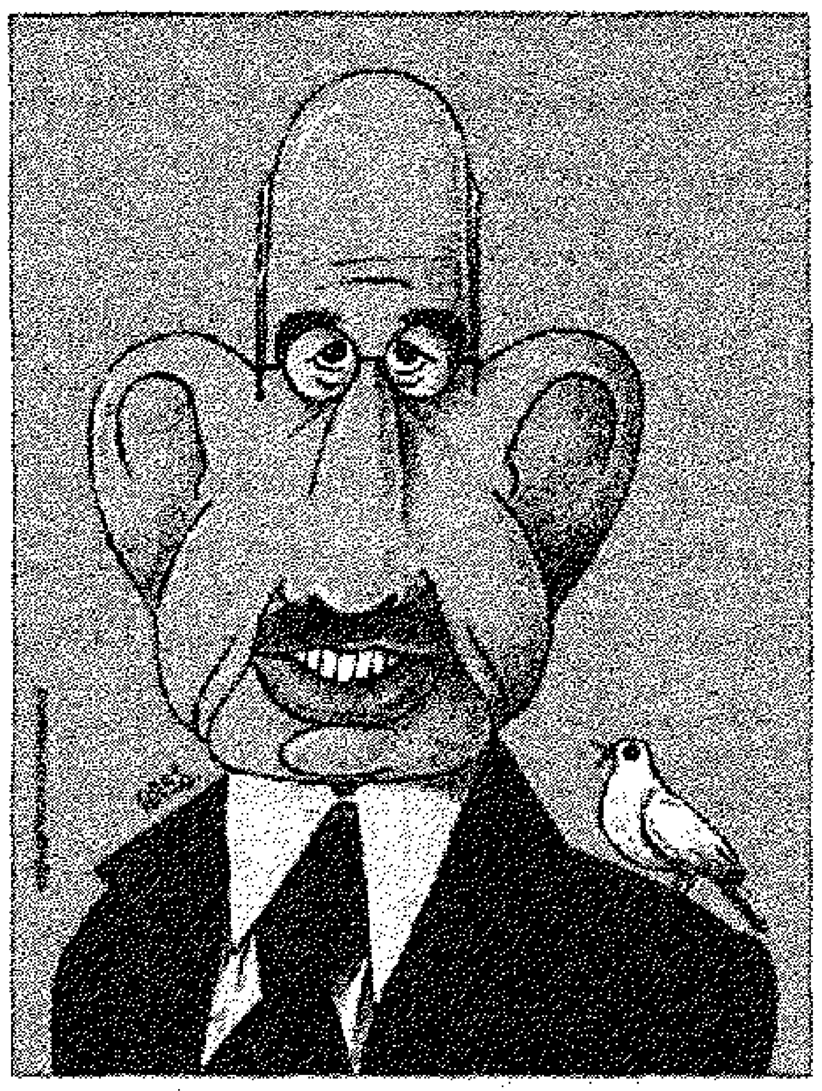
١ - الفقر والأمراض المعدية والتدهور البيئى.
٢ - النزاعات المسلحة، سواء الحروب الأهلية أو الحروب بين الدول وبعضها.
٣ - الجريمة المنظمة.
٤ - الإرهاب.
٥ - أسلحة الدمار الشامل.

كل هذه «أخطار بلا حدود»، أصبحت مفاهيم الأمن التقليدية عديمة الجدوى فى مواجهتها. ويجب أن يكون واضحا أنه لن يمكننا حماية أنفسنا من هذه الأخطار عن طريق بناء المزيد من الحواجز، أو تطوير أسلحة أكثر تدميرا أو إرسال المزيد من القوات. بل على العكس فإن طبيعة هذه الأخطار تتطلب أولا وقبل كل شىء تعاونا دوليا واسعا لمواجهتها.

محاضرة ألقاها الدكتور محمد البرادعى فى أوسلو، ١٠ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٥ بمناسبة فوزه بجائزة نوبل لعام ٢٠٠٥

■ تنشر بترتيب خاص مع المحاضر ومؤسسة نوبل

وبرامج التسليح النووى



البرادعى

أخطار بلا حدود

محمد البرادعى

ولعله من الأهمية بمكان كذلك أن ندرك أن هذه الأخطار ليست منفصلة أو مستقلة بل إننا إذا أمعنا النظر جيدا سنجدها جميعا مترابطة ومتصلة بشكل وثيق.

نحن هنا فى هذه القاعة المهيبة حوالى ١٠٠٠ شخص، وإذا تصورنا للحظة أننا نمثل سكان العالم، فإن المائتى فرد الذين يجلسون على يسارى سيكونون هم الممثلون لأغنياء العالم الذين يستهلكون ٨٠٪ من موارد العالم، وسيمثل الأربعمائة فرد الجالسون على يمينى هؤلاء الذين يعيشون على دخل يقل عن دولارين فى اليوم.

إن هذه المجموعة الفقيرة ليست أقل ذكاء أو أقل قيمة من زملائهم الأغنياء، كل ما هناك أن هذا كان قدرهم حين ولدوا.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى العالم الذى نعيشه، فإننا سنجد أن هذا الخلل فى ظروف الحياة يؤدى بالضرورة إلى عدم التكافؤ فى الفرص وفى الكثير من الأحيان إلى فقدان الأمل. ولعل ما هو أسوأ وأكثر تعقيدا أنه كثيرا ما تؤدى محنة الفقراء إلى انتهاكات واسعة لحقوق الإنسان وغياب للحكم الرشيد واحساس بالظلم والمهانة بل وكثيرا ما تكون مصحوبة بكل ذلك. ويجب علينا أن نفهم أن اجتماع كل هذه الظروف معا يؤدى إلى إيجاد تربة خصبة لنمو النزاعات المسلحة والجريمة المنظمة والتطرف بكافة أشكاله وأنواعه.

زد على ذلك أنه فى المناطق التى استمرت فيها النزاعات تتأجج لعقود طويلة بدون حل، فإننا دائما ما نشهد محاولات مستمرة من جانب دول تلك المناطق للبحث عن أساليب تمكنها من التغلب على الإحساس بعدم الأمن أو من استعراض نفوذها وقوتها. وفى بعض الحالات، فإن الإغراء قد يساور بعض تلك الدول للحصول على أسلحة نووية وغيرها من أسلحة دمار شامل مقتدية فى ذلك بالدول التى سبقتها فى هذا المضمار.

فى أعقاب الحرب الباردة التى انتهت منذ أكثر من ١٥ عاما راود الكثير منا الأمل فى أن يبزغ نظام دولى جديد - مبنى على تضامن الأسرة الإنسانية، نظام دولى متكافئ وشامل وفعال.

وللأسف فنحن مازلنا اليوم أبعد ما نكون عن هذا الهدف. قد نكون نجحنا فى إزالة الجدران الفاصلة بين الشرق والغرب إلا أننا



لم ننجح حتى الآن فى بناء الجسور بين الشمال والجنوب، بين الأغنياء والفقراء.

ودعونا ننظر إلى سجلنا بالنسبة لمساعدات التنمية. ففى الوقت الذى أنفقنا فيه فى العام الماضى أكثر من ألف مليار دولار على السلاح، ستجد أننا قد خصصنا أقل من ١٠٪ فقط من هذا المبلغ - أى مجرد ٨٠ مليار دولار - لمساعدات التنمية الرسمية للعالم الثالث - هذا العالم الذى مازال يعانى فيه ٨٥٠ مليون شخص من الجوع. وفى هذا الخصوص مازلت أتذكر ما قاله لى مؤخرا صديقى جيمس موريس مدير برنامج الغذاء العالمى المسئول عن تقديم المساعدات الغذائية لهؤلاء الذين يعانون من الجوع : «إننى لو أُعطيت مجرد واحد بالمائة من المبالغ التى تنفق على السلاح فلن يذهب أحد فى عالمنا هذا إلى الفراش وهو جائع».

وإزاء هذا فلا يجب أن نندهش إذا ما رأينا الدور المتزايد للفقر فى إشعال النزاعات. ولعل دليلا بينا على ذلك هو أنه من بين الثلاثة عشر مليون قتيل الذين راحوا ضحية النزاعات المسلحة خلال السنوات العشر الماضية، فإننا نجد أن تسعة ملايين منهم قد قتلوا فى أفريقيا السوداء وحدها حيث يعيش أفقر فقراء العالم.

ودعونا ننظر كذلك إلى منهجنا فى التعامل مع قيمة الحياة الإنسانية وقدسيتها. لقد حزنا حزنا عميقا، وبحق، فى أعقاب الهجمات الإرهابية فى الولايات المتحدة فى سبتمبر ٢٠٠١ وأعربنا عن سخطنا الشديد على هذه الجريمة الشنعاء. ومع ذلك، وفى نفس الوقت فهناك الكثيرون الذين لا يعلمون أن ٨,٣ مليون شخص قد قتلوا نتيجة الحرب الأهلية التى اندلعت فى جمهورية الكونغو الديمقراطية منذ عام ١٩٩٨.

الا نستخلص من هذا التباين أن أولوياتنا مختلة وأن منهجنا فى التعامل مع قيمة الحياة الإنسانية مختلٌ هو الآخر؟

على ضوء هذه الخلفية التى أشرت إليها للتو قد نتمكن بشكل أفضل من فهم التغيرات التى حدثت فى مجال منع الانتشار ونزع السلاح النووى. ويمكننا القول إن هناك ثلاثة ملامح رئيسية لهذه التغيرات أولها: ظهور شبكة سوق سوداء واسعة النطاق للاتجار فى المواد والمعدات النووية؛ وثانيها : انتشار الأسلحة النووية وكذلك التكنولوجيا النووية الحساسة فى عدد أكبر من الدول؛ وثالثها: الركود الذى أحاط بجهود المجتمع الدولى للتوصل إلى نزع السلاح النووى.

فإذا ما أخذنا ما تقدم فى الاعتبار، وعلى ضوء العولمة التى تقرب بعضنا البعض يوما بعد يوم، وجب أن نفهم أنه إذا تجاهلنا الإحساس بعدم الأمن من جانب البعض منا، فإن هذا الإحساس ذاته سيشملنا جميعا آجلا أو عاجلا.

وبنفس المنطق، فإنه إذا ما قرر البعض منا أن يستمر فى الاعتماد على السلاح النووى فى أمنه فإن احتمال أن يصبح الحصول على هذا السلاح هدفا للكثيرين سيستمر وسيزيد. وعلى ضوء ما تقدم فإنه ليس لدى شك فى أننا إذا ما أردنا أن نتجنبه لأمين البشرية فلابد أن نتأكد من أن السلاح النووى لا مكان له فى ضمير الإنسانية ولا دور له فى أمنها. ولهذا يتعين علينا أن نعمل بشكل قاطع من أجل ألا تتمكن المزيد من الدول من الحصول على هذا السلاح، كما يتعين علينا فى نفس الوقت أن نعمل على أن تقوم الدول التى تمتلك السلاح النووى باتخاذ خطوات محددة للتخلص من أسلحتها النووية، وأن نبدأ فى بناء نظام أمنى جماعى بديل لا يعتمد على السلاح النووى.

ويصح التساؤل هنا عما إذا كانت هذه الأهداف واقعية وقابلة للتحقيق؟ فى اعتقادى أنها كذلك، ولكن إذا ما أردنا تحقيقها فإن ذلك سيستلزم منا اتخاذ خطوات ثلاث عاجلة :

الخطوة الأولى، هى الحيلولة بكل شكل دون وقوع أى مواد نووية أو مواد مشعة فى أيدى الجماعات المتطرفة. وفى أعقاب الحوادث الإرهابية عام ٢٠٠١ بدأت الوكالة الدولية للطاقة الذرية بالتعاون مع المجتمع الدولى حملة عالمية لدعم أمن هذه المواد وحماية المنشآت النووية، وتدريب مسئولى الأمن ومراقبة معابر الحدود. ولقد تمكنا فى خلال الأربع سنوات الماضية من أن ننجز حوالى ٥٠٪ من هذا العمل، ولكن سرعة التنفيذ مازالت أبطأ من المطلوب فنحن فى سباق مع الزمن.

والخطوة الثانية : هى إحكام السيطرة على عمليات إنتاج المواد النووية التى يمكن أن تستخدم فى صنع السلاح النووى. وطبقا للنظام المعمول به حاليا، فإنه من حق أى دولة أن تقوم بهذه العمليات من أجل الاستخدامات المدنية؛ ولكن المشكلة تكمن فى أنها بذلك تتمكن فى نفس الوقت من التغلب على أكبر العقبات لصنع سلاح نووى ألا وهى الحصول على اليورانيوم عالى التخصيب أو البلوتونيوم.

ومن أجل التغلب على هذا فإننى آمل فى تدويل هذه العمليات بحيث لا تكون تحت السيطرة المباشرة المنفردة لأية دولة. وخطتى فى هذا الشأن، المكونة من عدة مراحل، هى أن نبدأ بإنشاء احتياطى للوقود النووى فى شكل بنك للوقود النووى تتولى إدارته الوكالة الدولية للطاقة الذرية، بحيث تضمن الدولة حصولها على الوقود اللازم للاستخدامات السلمية للطاقة النووية. وفى رأيى أن توفير هذا الضمان لكافة الدول سيؤدى إلى انعدام الحافز أو المبرر لأن تطور كل دولة بمفردها دورة وقود نووى مستقلة. واعتقادى أن هذا سيسهل من إمكانية أن نتفق حينئذ على وقف طوعى لبناء أية مرافق نووية وطنية جديدة لتخصيب اليورانيوم أو لاستخلاص البلوتونيوم، وأن نتفق كذلك على تدابير دولية من أجل تخصيب اليورانيوم وإنتاج الوقود ومعالجة الوقود المستنفد والتخلص من النفايات.

وفى نفس الوقت علينا أن نزيد من فعالية نظام التفتيش. إن نظام التفتيش الخاص بالوكالة الدولية للطاقة الذرية هو جوهر نظام منع الانتشار النووى. ولكى نضمن فعالية هذا النظام يجب علينا أن نتأكد دائما أنه مزود بالصلاحيات اللازمة والمعلومات المطلوبة والتكنولوجيا المتقدمة وكذلك الموارد المالية والبشرية. بالإضافة إلى ما تقدم يجب أن يلقى نظام التفتيش الدعم الدائم من قبل مجلس الأمن فى حالات عدم احترام الدول لالتزاماتها الخاصة بعدم انتشار السلاح النووى.

الخطوة الثالثة : هى التسريع من الجهود المبذولة لنزع السلاح النووى.

فاليوم هناك ثمانى أو تسع دول تمتلك السلاح النووى. واليوم أيضا مازال لدينا ٢٧ ألف رأس نووى. فى رأيى أنه ليس مقبولا أن يكون لدينا حتى رأس نووى واحد.

وقد تكون البداية المنطقية هى أن تقوم الدول التى تمتلك السلاح النووى بالتقليل من الدور الاستراتيجى لهذه الأسلحة، فليس مفهوما أو مقبولا، بعد مرور أكثر من خمسة عشر عاما على انتهاء الحرب الباردة، أن تستمر الدول النووية الكبرى فى حالة تأهب قصوى فيما يتعلق باستخدام سلاحها النووى، بحيث أنه مازال لدى رؤساء تلك الدول، فى حال علمهم بوجود احتمال هجوم نووى عليها، فترة زمنية لا تتعدى ثلاثين دقيقة ليقرروا فيها ما إذا كانوا سيقومون بهجوم مضاد، وهو السيناريو الذى قد يؤدى إلى تدمير أمم بأكملها فى دقائق معدودات.

إن هذه الخطوات الثلاث التى أشرت إليها : حماية المواد النووية ودعم نظام التفتيش؛ والسيطرة على دورة الوقود النووى؛ والتسريع من الجهود المبذولة لنزع السلاح النووى هى فى اعتقادى خطوات محددة قابلة للتنفيذ.

إلا أنه فى واقع الأمر، فإن اتخاذ هذه الخطوات الثلاث ليس كافيا فى حد ذاته. فالصعوبة الحقيقية مازالت تكمن فى كيفية خلق المناخ اللازم الذى يمكننا من أن ننظر إلى السلاح النووى نظرتنا إلى الرق أو الإبادة الجماعية، أى باعتباره من المحرمات ومن الأخطاء التاريخية.

سواء اعتقد الفرد فى نظرية التطور أو التصميم الذكى أو كان مؤمنا بالخالق الإلهى، فهناك أمر واحد مؤكد وهو أن البشر فى حالة حرب دائمة فيما بينهم منذ بدء التاريخ، تحت دعاوى مختلفة منها الدين أو الأيديولوجيا أو الاختلاف العرقى. بالإضافة إلى ذلك، فإنه لا توجد حضارة إنسانية تخلت يوما طواعية عن أقوى أسلحتها. وللأسف، فإنه رغم توافقنا اليوم على أننا نستطيع أن نشارك بعضنا البعض فى استخدام التكنولوجيا الحديثة، فإننا مازلنا نرفض أن نعترف بأن قيمنا الإنسانية - فى جوهرها - هى قيم مشتركة.

إننى مصرى مسلم، تعلمت فى القاهرة ونيويورك، وأعيش حاليا فى فيينا. وقد أمضيت أنا وزوجتى نصف



حياتنا فى الشمال ونصفها فى الجنوب - وفى خلال كل مراحل حياتنا لمسنا بشكل مباشر الطبيعة الفريدة للأسرة الإنسانية والقيم المشتركة التى تربطنا جميعا.

لقد عبّر شكسبير عن هذه الطبيعة الإنسانية الفريدة أبلغ تعبير، عندما تساءل فى مسرحية « تاجر البندقية»: «إذا وخزتمونا، ألا ندمى؟ وإذا دغدغتمونا، ألا نضحك؟ وإذا سممتمونا، ألا نموت؟ وإذا أسأتم إلينا، ألا ننتقم؟» وعلينا أن نتذكر دائما أنه لا يوجد دين مبنى على عدم التسامح ولا توجد عقيدة لا تقدر قدسية الحياة الإنسانية. فاليهودية تطالبنا بأن نقدر جمال وقدسية الحياة الإنسانية.

والمسيحية تقول إنه يجب علينا معاملة جيراننا كما نحب أن نُعامل. والإسلام يؤكد أن من قتل نفسا بغير حق فإنه قد قتل الناس جميعا. والهندوكية تنظر إلى الكون كعائلة واحدة. والبوذية تطالبنا بأن نتفهم وحدة كافة المخلوقات.

وقد يقول البعض إن محاولة بناء مجتمع مبنى أساسا على التسامح وقدسية الحياة الإنسانية، مجتمع تقل فيه أهمية الحدود والجنسية والأيديولوجيا وغيرها من الفوارق، هى محاولة مثالية تقترب من «اليوتوبيا». إلا أننى أقول لهؤلاء إن هذه ليست مثالية بل هى واقعية. فقد علمنا التاريخ أنه نادرا ما تحل الحروب مشاكلنا، وأن استخدام القوة لا يضمد الجروح بل على العكس يفتح المزيد منها.

لقد تحدثت عن جهودنا الرامية للحيلولة دون إساءة استخدام الطاقة النووية.

واسمحوا لى أن أتحدث الآن عن كيف يتم استخدام نفس هذه الطاقة لخير الإنسانية. إننا نعمل كل يوم فى الوكالة الدولية للطاقة الذرية فى جميع أرجاء العالم من أجل وضع التقنيات النووية والإشعاعية فى خدمة الإنسانية. فعلى سبيل المثال، يقوم المزارعون فى فيتنام بزراعة أرز عالى القيمة الغذائية تم تطويره بمساعدة الوكالة الدولية للطاقة الذرية. وفى أمريكا اللاتينية تُستخدم التكنولوجيا النووية لرصد مستجمعات المياه الجوفية حتى يمكن ضمان إدارة موارد المياه بشكل مستدام. وفى غانا، يقوم جهاز أشعة متطور بالمساعدة على معالجة الآلاف من مرض السرطان. وفى منطقة جنوب المحيط الهادئ يقوم علماء من اليابان بدراسة ظاهرة التغير المناخى باستخدام تقنيات نووية متقدمة. وفى الهند توجد حاليا ثمانى محطات نووية لتوليد الكهرباء تحت الإنشاء من أجل توفير طاقة كهربائية نظيفة لبلد سريع النمو -وهو أمر يعكس التوقع المتزايد لاستخدام عالمى أوسع نطاقا للطاقة النووية لتوليد الكهرباء.

تمثل هذه المشاريع وآلاف غيرها الهدف من إنشاء الوكالة الدولية للطاقة الذرية، ألا وهو : الذرة من أجل السلام.

ولكن من المهم أن نؤكد على أن التوسع المتزايد فى استخدام الطاقة النووية يحتم علينا أن نستمر فى الحفاظ على الأمان والأمن النوويين على أعلى مستوى، وقد عملت الوكالة منذ حادث تشرنوبيل فى منتصف الثمانينيات على رفع مستوى الأمان النووى. وكذلك فقد عملنا بدأب منذ أحداث سبتمبر ٢٠٠١ على رفع مستوى الأمن النووى فى مختلف أنحاء العالم. وعلى كلتا الجبهتين فقد عقدنا العديد من الاتفاقيات الدولية ووضعنا الكثير من المعايير التقنية. ولعل من أهم أعمالنا الملموسة فى هذين المجالين مئات البعثات التى نقوم بإرسالها إلى كل أرجاء المعمورة حيث يقوم خبراؤنا الدوليون بالتأكد من أن الأنشطة النووية آمنة ومؤمنة.

إننى أشعر بغاية الفخر بزملائى العاملين فى الوكالة الدولية للطاقة الذرية من رجال ونساء البالغ عددهم ٢٣٠٠ شخص والذين يعملون بكل جد واجتهاد، وهم الزملاء الذين يشاركوننى شرف الحصول على هذه الجائزة والموجود البعض منهم معى هنا. إننا ننتمى إلى أكثر من ٩٠ دولة، ونثرى العمل بمفاهيم ورؤى مختلفة. إن تنوعنا هذا هو مصدر قوتنا. إن سلطاتنا محدودة، وميزانيتنا متواضعة، وليس لدينا جيوش.

إلا أننا، متسلحون بقوة قناعتنا، سنستمر فى قول الحقيقة أيا كانت العواقب، وسنستمر فى تنفيذ صلاحياتنا بنفس الاستقلالية والموضوعية.

إن حصولنا على جائزة نوبل للسلام يتضمن رسالة قوية لنا وهى أن نستمر فى عملنا من أجل تحقيق هدفى الأمن والتنمية. إن السلام ليس إنجازا واحدا بل هو مناخ وعمل مستمر والتزام دائم.

قد تبدو الصورة التى قدمتها اليوم قاتمة بعض الشىء، إلا أننى أود فى الختام أن أقول لكم لماذا يحدونى الأمل.

يحدونى أمل لأن الجوانب الإيجابية للعولمة مكّنت الدول والشعوب من التفاعل والترابط فى مختلف المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وبما يجعل الحرب خيارا غير مقبول لحل الخلافات.

إن الترابط الاقتصادى والاجتماعى والسياسى فيما بين الدول الخمس والعشرين أعضاء الاتحاد الأوروبى واعتمادهم المتزايد على بعضهم البعض أدى إلى جعل استخدام القوة لحل الخلافات فيما بينهم أمرا غير متصور. كذلك فإننا نرى أن منظمة الأمن والتعاون فى أوروبا ذات الخمسة والخمسين عضوا من أوروبا وآسيا الوسطى وأمريكا الشمالية تسير فى نفس هذا الاتجاه. وقد يصح لى أن أتساءل عما إذا كان ممكنا توسيع هذه النماذج لتشمل العالم كله من خلال نفس التفاعل الخلاق والتعاون الدولى الفعال بين جميع الدول، وبحيث يكون القوى عادلا ويكون الضعيف آمنا؟

يحدونى أملٌ كذلك لأن منظمات المجتمع المدنى أصبحت أكثر دراية وأكثر تفاعلا. فهى تقوم بالضغط على حكوماتها من أجل التغيير وخلق مجتمعات ديمقراطية قائمة على أساس من التعددية والتسامح والمساواة. وهى تقوم بتقديم المساعدات كذلك وإيجاد حلول مبتكرة كما إنها تعمل من أجل توسيع الحس الاجتماعى وروح المواطنة وتحويلهما من النطاق المحلى والإقليمى إلى النطاق العالمى.

فى رأيى أن الفرصة متاحة أمامنا الآن وأكثر من أى وقت مضى لكى نقدم جواباً إيجابياً على أحد أقدم تساؤلات البشرية : هل أنا مسئولٌ عن أخى؟

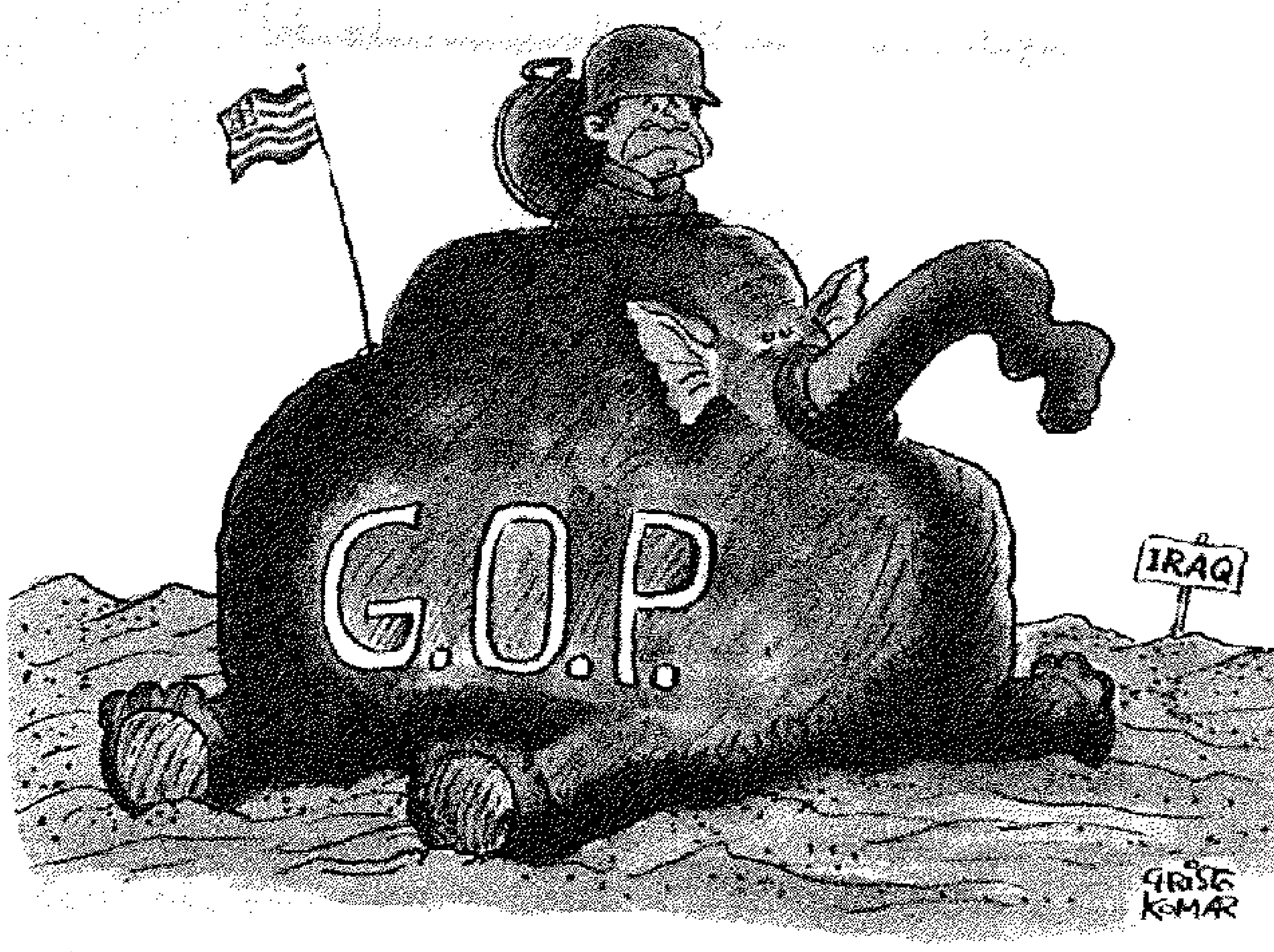
إن المطلوب فى المحصلة النهائية هو إطار جديد لتفكيرنا وتغيير شامل فى مشاعرنا بحيث نكون قادرين على أن ننظر إلى الإنسان الذى يعيش فى الجانب الآخر من العالم على أنه جار لنا.

يحدونى أملٌ كذلك لما أراه فى أبنائى وبعض من جيلهم. لقد سافرت إلى الخارج لأول مرة وعمرى يناهز التسعة عشر عاما. ولكن أبنائى كانوا أكثر حظا منى، فقد اختلطوا بالثقافة الأجنبية منذ نعومة أظافرهم ونشأوا فى مناخ متعدد الثقافات. وأستطيع أن أقول يقينا إنهم لا يرون اختلاف الجنسية أو العرق أو اللون عند تعاملهم مع الآخرين، فهم على سبيل المثال لا يرون أى فرق بين أصدقائهم نوريكو أو مافوبو، أو جستن، أو حسام أو ساولو، فبالنسبة لهم هم مجرد بشر مثلهم وأصدقاء مقربون. وتستطيع العولمة أن تساعدنا -مثلما ساعدت أبنائى وبعض أقرانهم من خلال السفر ووسائل الإعلام والاتصال - على أن ننظر إلى بعضنا البعض على أننا قبل كل شىء مجرد بشر.

فى النهاية دعونا نتخيل عالما مختلفا. فلنتخيل ماذا يمكن أن يحدث لو أنفقت دول العالم على التنمية مثل ما تنفقه على السلاح.

ولنتخيل عالما يعيش فيه كل إنسان فى حرية وكرامة. ولنتخيل عالما نذرف فيه نفس الدموع عندما يموت طفل فى دارفور أو فانكوفر. ولنتخيل عالما نحل فيه خلافاتنا من خلال الدبلوماسية والحوار وليس من خلال القنابل والطلقات. ولنتخيل أن ما تبقى من الأسلحة النووية هى مجرد ما نعرضه فى متاحفنا. ولنتخيل العالم الذى يمكن أن نتركه لأبنائنا وأحفادنا.

دعونا نتخيل أن مثل هذا العالم هو فى واقع الأمر فى متناول أيدينا. ■



الديمقراطيون قادمون

منار الشوربجي

■■ وصفت انتخابات الكونجرس الأخيرة بالزلزال السياسى، حيث أطاحت بالحزب الجمهورى من مقاعد الأغلبية فى المجلسين ومثلت استفتاء على أداء بوش وحزبه داخليا وخارجيا على السواء.

وقد لاقت نتائج تلك الانتخابات ترحيبا عربيا أشبه بذلك الذى ساد العالم العربى حين تولى بوش الرئاسة أول مرة عام ٢٠٠٠. ففى ذلك العام، بنى العرب تفاؤلهم على مجموعة من الاعتبارات التى تم القفز منها إلى تقديرات مغالية فى التعميم والتبسيط. كان أول هذه الاعتبارات أن الرئيس الجديد - وقتها - هو أحد أبناء الرئيس بوش الأب، المعروف بصداقاته العربية خاصة فى دول الخليج، ثم إن بوش الابن كان حاكما لولاية تكساس البترولية، فضلا عن أنه،على أية حال، ينتمى للحزب الجمهورى الذى طالما اعتبره العرب أفضل فى التعامل مع القضايا العربية من الحزب الديمقراطى.

أما فى ٢٠٠٦ فربما ارتبط التفاؤل العربى بكراهية إدارة بوش أكثر من ارتباطه بالديمقراطيين أنفسهم، إذ لم يتخلص العرب بعد من مقولة أن «الجمهوريين أفضل من الديمقراطيين»، حتى بعد سنوات حكم بوش الابن، التى تم اعتبارها مجرد استثناء من قاعدة!

ويطرح ذلك كله عددا من الأسئلة المهمة. فما هى - أولا - حدود «الزلزال» الذى ضرب واشنطن وآفاق التغيير الذى يحمله عموما؟ وثانيا: هل فعلا الجمهوريون أفضل من الديمقراطيين بالنسبة للقضايا العربية؟ وما هو المتوقع بالنسبة لتلك القضايا فى ظل وضع جديد يحتل فيه الجمهوريون البيت الأبيض بينما يسيطر فيه الديمقراطيون على المؤسسة التشريعية الأمريكية.

الزلزال الأمريكى

إذا كان من رسالة مؤكدة بعث بها الناخب الأمريكى عبر صناديق الاقتراع، فقد كان عنوانها الرئيسى أنه يرغب فى وضع قيد على إدارة بوش. ورغم أن العراق كان قد تصدر أولويات الناخب عند التصويت، فإنه كان قضية داخلية بامتياز لا قضية خارجية، فكارثة العراق تجسد كل العلل التى ضاق بها ذرعا ذلك الناخب الأمريكى، بدءا من انعدام الرقابة التشريعية وغياب المساءلة والمحاسبة ومرورا بالفساد السياسى ووصولا إلى تزييف الوعى العام عبر تطويع المعلومات من ناحية وحجبها عن الجمهور من ناحية أخرى، وهى علل برز أحدها أو بعضها فى قضايا أخرى عديدة ولكنها تجمعت كلها فى موضوع العراق الذى هو أصلا عنوان للتكلفة البشرية والمادية الباهظة التى تتكبدها الولايات المتحدة يوميا فى حرب ثبت زيف كل مبررات شنها.

بعبارة أخرى، صحيح أن انتخابات الكونجرس عبرت عن موجة من الغضب الشعبى ضد الجمهوريين فى الكونجرس والرئاسة معا، إلا أنها لا تعنى بالضرورة تأييدا للديمقراطيين. فقد فاز الديمقراطيون لا لأنهم قدموا بدائل أفضل أيدها الناخبون وإنما لأنهم ببساطة أهون الشرين وفرصة الناخب الوحيدة لوضع قيد على إدارة بوش الباقية فى الحكم حتى يناير ٢٠٠٩، فى ظل نظام سياسى فيه حزبان كبيران. فتولى الديمقراطيون الأغلبية فى الكونجرس معناه أن تصبح الصلاحيات الهائلة المنوطة بالمؤسسة التشريعية الأمريكية فى يد معارضى بوش بدءا من الاعتمادات ومرورا بالتشريع ووصولا إلى الرقابة التشريعية.

وقد وصلت الرسالة بالفعل إلى كل من الإدارة والكونجرس، فسارع بوش بإقالة رامسفيلد الذى كان رمزا ليس فقط لكارثة العراق وإنما أيضا لمنهج الغطرسة والأحادية والإصرار على تجاهل الواقع. فقد خلق رامسفيلد لنفسه خصومات فى الكونجرس والمؤسسة العسكرية بل فى الإعلام الأمريكى بسبب غطرسته وإصراره على اتخاذ قرارات منفردة فضلا عن رفضه الاعتراف بالأخطاء التى ارتكبها وكبدت بلاده ثمنا باهظا. وهى كلها فى الواقع خصائص اتسم بها أداء رموز إدارة بوش عموما لا فقط رامسفيلد. فقد حكم بوش الولايات المتحدة عبر سنوات ست تجاهل فيها تماما الديمقراطيين فى الكونجرس وكان يسعى لتمرير تشريعاته عبر أصوات الجمهوريين وحدهم، كما رفضت إدارته غير مرة إطلاع المؤسسة التشريعية على المعلومات التى تطلبها بموجب صلاحياتها الدستورية، حتى أن الكثير من أعضاء الكونجرس بمن فيهم الزعماء الجمهوريون كانوا يعرفون بعض القرارات المهمة من وسائل الإعلام، هذا ناهيك عن استراتيجية التخوين التى اتبعتها إدارة بوش مع كل خصومها السياسيين وأمعنت فى استخدامها حتى اللحظات الأخيرة قبل إعلان نتائج الانتخابات التشريعية.

كما وصلت رسالة الناخبين بالقطع إلى الديمقراطيين أيضا الذين فازوا لتوهم بمقاعد الأغلبية. ومن ثم، فإذا كان من زلزال بالفعل تشهده واشنطن فهو ذلك المتعلق بعودة الحياة لدور المؤسسة التشريعية الأمريكية. إذ من شأن تولى الديمقراطيين الأغلبية أن يعاد بعض الاعتبار للرقابة التشريعية بعد أن تلاشت فى السنوات الأخيرة. فالكونجرس كان منذ أحداث سبتمبر قد تخلى عن صلاحياته الدستورية ووقع شيكا على بياض لإدارة بوش فى السياستين الخارجية والداخلية على السواء. والمسئولية عن انهيار الرقابة التشريعية لا تقع على عاتق الجمهوريين وحدهم، إذ شارك فيها الديمقراطيون- باستثناءات محدودة. فقد خضع أغلب الأعضاء الديمقراطيين لمطالب إدارة بوش ذعرا من تحدى رئيس كان يحظى بشعبية مذهلة، أو بفعل حملة التخوين والاغتيال السياسى التى أدارها الجمهوريون بدعوى حماية الأمن القومى، بينما خضع بعضهم الآخر لأسباب انتخابية قصيرة الأجل. وقد وضع ذلك الديمقراطيين فى مأزق حقيقى وقلل إلى حد كبير من قدرتهم على طرح بدائل يمكن أن يلتف حولها الناخبون.

ومع ذلك، فإن بعض الرموز التى رفضت الانصياع لبوش سوف تتولى رئاسة لجان مهمة فى المجلسين وهو ما يمكن معه توقع أن تشهد قاعات الكونجرس جلسات استماع مكثفة وتحقيقات مطولة واستدعاء لرموز بارزة فى الإدارة للشهادة أمام الكونجرس الأمر الذى قد يسفر عن انكشاف الكثير من الأمور التى حرصت إدارة بوش على حجبها عن الرأى العام. وهى العملية التى قد تطال شخصيات بارزة فى الإدارة وتنفجر فى وجه الجمهوريين بل والديمقراطيين أيضا الذين ليس من مصلحتهم سياسيا السعى لعزل بوش.

فرغم أن عددا من رموز الحزب الديمقراطى بمن فى ذلك جون كونيرز الذى سوف يتولى رئاسة لجنة القضاء فى مجلس النواب يدعون إلى عزل بوش، فإن الأغلبية داخل الحزب الديمقراطى تسعى إلى تجنب ذلك المسار لأنه يشكل مخاطرة غير محسوبة قد تؤثر على فرص الحزب الديمقراطى مستقبلا. فالديمقراطيون قد استوعبوا جيدا الدرس الذى تلقاه الجمهوريون حين سعوا إلى عزل كلينتون فظل الأخير يحتفظ بشعبية معقولة حتى اللحظات الأخيرة فى حكمه بينما منيت القيادات

كارثة العراق تجسد كل العلل التى ضاق بها الناخب الأمريكى، بدءا من انعدام الرقابة التشريعية وغياب المساءلة والمحاسبة ومرورا بالفساد السياسى ووصولا إلى تزييف الوعى العام عبر تطويع المعلومات من ناحية وحجبها عن الجمهور من ناحية أخرى

الجمهورية التى سعت لعزله بهزائم متكررة أطاحت بها الواحدة تلو الأخرى.

والديمقراطيون سوف يحكمون خلال العامين القادمين وعينهم على انتخابات ٢٠٠٨ الرئاسية والتشريعية ومن ثم فإن قراراتهم سوف تقوم على حسابات المكسب والخسارة الانتخابية. خاصة أنهم فازوا فى ٢٠٠٦ ليس فقط من خلال التعبئة فى أوساط قاعدة الحزب أى اليسار، وإنما كانت أصوات المستقلين هى التى حسمت النتيجة فى الواقع لصالحهم. ومن ثم صار على الحزب أن يعقد توازنا دقيقا بين رغبة اليسار فى التحول الراديكالى ومطالب المستقلين الذين يطالبون بإنجازات عملية ملموسة فى شكل تشريعات وقرارات محددة. ومما يجعل ذلك التوازن أكثر تعقيدا أن المناصب القيادية، خصوصا فى مجلس النواب، سوف تذهب إعمالا لمبدأ الأقدمية إلى رموز تمثل اليسار الديمقراطى، بينما ازداد عدد الأعضاء الجدد الذين يمثلون وسط ويمين الحزب.

هل الجمهوريون أفضل من الديمقراطيين؟

من المعروف لدى الباحثين عند تحليل ظاهرة سياسية أنه لا يجوز جمع المعلومات بشأنها عبر فترة تاريخية بعينها ثم إطلاق أحكام يتم تعميمها على كل المراحل التاريخية. ولا يجوز أيضا اقتطاع وقائع أو حقائق بعينها من السياق العام ثم القفز منها إلى التعميم. لكن هذا فى الواقع هو ما يفعله العرب المصرون على مقولة أن «الجمهوريين أفضل للمصالح العربية من الديمقراطيين». فالحزب الجمهورى الحالى ليس هو حزب أيزنهاور الذى وقف ضد العدوان الثلاثى على مصر، ولا هو حتى حزب بوش الأب الذى عارض ضمانات القروض لإسرائيل فى ١٩٩١. ثم إن الحزب الجمهورى هو أيضا حزب ريجان الذى وصفه الإسرائيليون وقتها بأنه أفضل رئيس أمريكى على الإطلاق بالنسبة لإسرائيل منذ إنشائها.

أما الحزب الديمقراطى، فصحيح أن اليهود الأمريكيين يعطون أصواتهم بنسبة ٨٠٪ لمرشحيه، إلا أنه صحيح أيضا أنه ضم تاريخيا القوى الأكثر مناصرة للقضية الفلسطينية. فمن الطبيعى أن ينتمى أغلب اليهود الأمريكيين للحزب الديمقراطى، فهو حزب الأقليات عموما. ولكنه أيضا الحزب الذى انضوى تحت لوائه- أو ظلت على تخومه- ألوان شتى من قوى اليسار التى هى أكثر التيارات الأمريكية مناصرة للحقوق الفلسطينية. والأصوات المحدودة التى تجرؤ اليوم على مناصرة الفلسطينيين تأتى كلها فى الواقع من الحزب الديمقراطى أو من على يساره.

ولا يقل أهمية عن ذلك أن أنصار إسرائيل الجدد داخل الحزب الجمهورى لا يقلون صهيونية عن أنصارها فى الحزب الديمقراطى.

فنظرا للطبيعة الخاصة للأحزاب السياسية الأمريكية، فإن تقدير مواقف أى منها إنما يعتمد فى جزء مهم منه على فهم التركيبة السياسية لها. ولأن تلك التركيبة تتعرض للتطور التاريخى، فإنه لا يجوز الحكم على أى من تلك الأحزاب دون أخذ ذلك التطور التاريخى فى الحسبان.

ويخطئ من يتصور أنه بالإمكان فهم التجربة الحزبية الأمريكية قياسا على تجارب الأحزاب الأوروبية. فالأحزاب الأمريكية ذات طبيعة خاصة فرضها النظام السياسى بل وطبيعة النظام الانتخابى المعمول به فى الولايات المتحدة.

فالحزب فى الولايات المتحدة هو بالأساس عبارة عن كيان مصمم خصيصا بغرض الفوز فى الانتخابات العامة، دون أن يعنى ذلك أن لهذا الحزب أجندة سياسية ثابتة وواضحة المعالم تعبر بالضرورة عن كل رموزه ويفوز بموجبها الحزب بأصوات الناخبين. وهو فى ذلك يختلف عن الأحزاب الأوروبية التى تقدم أيديولوجية واضحة أو توجهات متماسكة، ثم تفوز على أساسها فى الانتخابات وتطبقها كسياسة عامة فيما بعد.

ويرتبط بذلك ارتباطا وثيقا أن الحزب فى الولايات المتحدة ليست له منظومة واحدة من المصالح «القومية» التى يدافع عنها ويسعى لتحقيقها، إذ أن فروع الحزب فى الولايات تحدد أولويات مختلفة على أساس المصالح المحلية وحسابات المكسب والخسارة فى الولاية. ومن ثم، فمن الطبيعى أن تجد اثنين، من مرشحى نفس الحزب، بينهما اختلافات شاسعة فى الرؤى والأفكار لأنهما ينتميان إلى ولايتين، لكل منهما أولويات ومطالب وتركيبة سكانية مختلفة عن الأخرى. ومن الطبيعى أيضا، أن تجد عضوا فى الكونجرس يصوت بانتظام ضد مشروعات الرئيس الذى ينتمى لنفس حزبه، لأسباب تتعلق أساسا بمصالح دائرته الانتخابية وأولوياتها.

لكن الأهم من ذلك كله هو أن الحزب فى أمريكا عبارة عن ائتلاف واسع يتسم بالسيولة، ويضم فى داخله قوى وجماعات وتيارات عدة. هذه القوى والجماعات والتيارات لا تتفق بالضرورة على مواقف موحدة إزاء كل القضايا العامة، إذ توجد بينها تباينات كثيرة تتسع فى بعض الأحيان لتضم طرفى النقيض. ورغم أن أيا من الحزبين لا يعبر بالضرورة عن «كل» مواقف أى من هذه القوى، إلا أن كلا منها تجد مصلحة فى الانضواء تحت لواء أحدهما دون الآخر. فهى تفضل الانتماء بشكل أو بآخر للحزبين الكبيرين، لأنهما وحدهما- دون باقى الأحزاب على الساحة- اللذان لهما فرصة حقيقية فى الفوز بالمناصب السياسية المختلفة.

بعبارة أخرى، فإن الحزب الأمريكى بمثابة مظلة واسعة تضم تحتها تيارات وقوى وجماعات لها مواقف متباينة بل ومتعارضة فى بعض الأحيان، ولا يمكن فى الواقع تصنيفها وفق معيار واحد. فعلى سبيل المثال، قد يتمثل ائتلاف أحد الحزبين فى صغار المزارعين والعمال، وولايات الغرب، فضلا عن الأمريكيين السود والكاثوليك إضافة إلى اليسار. فكما يتضح من التركيبة السابقة، فإن هذا الائتلاف لا يقوم على أساس عرقى أو دينى أو جغرافى أو طبقى فقط، وإنما على توليفة من هذه الاعتبارات جميعا.

وفضلا عن ذلك، فإن هذه الائتلافات ليست ثابتة. إذ قد تخرج إحدى هذه القوى من ائتلاف أحد الحزبين فى لحظة تاريخية معينة، لتنضم لائتلاف الحزب المنافس.

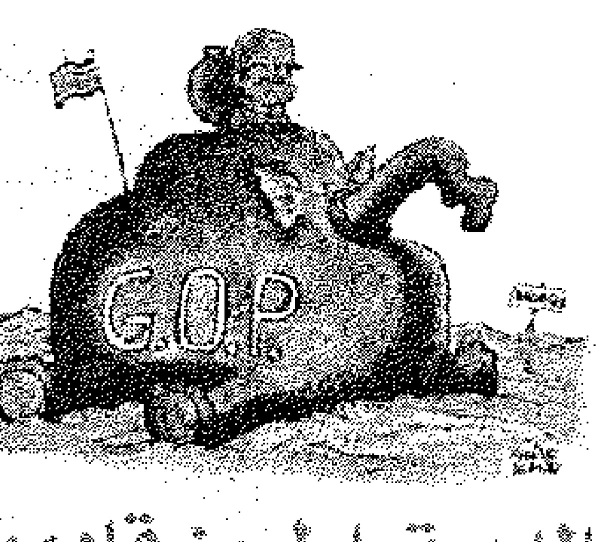
وقد تغيرت ائتلافات الحزبين الجمهورى والديمقراطى فى العقود الأخيرة على نحو قلص الفارق بينهما بشأن القضايا العربية وجعلهما يتسابقان فى مناصرة إسرائيل. وكانت الإرهاصات الأولى لذلك التحول فى ائتلافات الحزبين قد ظهرت ملامحها فى الستينيات وما مثلته من غليان وتحولات كبرى فى المجتمع الأمريكى ولكنها لم تكتمل إلا فى مطلع الثمانينيات من القرن العشرين بانتخاب ريجان عام ١٩٨٠ وصارت تلك الائتلافات الجديدة هى الحاكمة للعمل السياسى الأمريكى منذ ذلك التاريخ.

كانت الولايات المتحدة تموج بأحداث كبرى منذ بداية الستينيات، على رأسها حركة الحقوق المدنية، والتوسع فى برامج دولة الرفاهية، فضلا عن حرب فيتنام، التى كانت فى جوهرها تتعلق بطبيعة العلاقة مع الاتحاد السوفيتى. وإلى جانب كل ذلك كانت هناك الحركات الاجتماعية المختلفة والتى قدمت فى الواقع منظومة قيمية جديدة فيما يعرف بالثقافة المضادة counter culture . ورغم أن هذا التحول فى ائتلافات الحزبين قد ضم قوى وتيارات متعددة إلا أن مايهمنا هنا هو تلك القوى التى غير انضمامها للحزب الجمهورى وجه هذا الحزب بالنسبة لقضايانا.

فمن أهم القوى التى اجتذبها الجمهوريون، بناء على رفض القيم الاجتماعية الجديدة كانت الأصوليين البروتستانت، والذين كانوا يمثلون وقتها حوالى ١/٧ من أصوات الأمريكيين البيض. وكانت بداية قطيعة هؤلاء مع الحزب الديمقراطى قد حدثت فى عهد كارتر. فرغم أنهم ناصروه فى انتخابات ١٩٧٦، إلا أنهم تذمروا من سياساته بشدة، خصوصا حين رفض كارتر الموافقة على إعفاء الأكاديميات الدينية التى تمارس الفصل العنصرى من الضرائب. وحين زاد الديمقراطيون على ذلك بتأييدهم لحق الإجهاض، انفصل اليمين الدينى نهائيا عن الحزب الديمقراطى، وصاروا من أهم القوى ذات النفوذ فى الحزب الجمهورى. وكانت البداية فى عام ١٩٨٠ حين فاز ريجان بينهم بواقع ٦٣٪، ثم فاز بحوالى ٨٠٪ من أصواتهم فى انتخابات ١٩٨٤. وقد صار هذا التيار اليوم هو القاعدة الأساسية للحزب الجمهورى الذى لا يمكنه الفوز فى الانتخابات دونه.

إلا أن ريجان استطاع أيضا أن يجتذب لحزبه، الصقور الديمقراطيين الذين تشككوا فى قدرة كارتر على مواجهة الشيوعية. وقد كان هذا الفريق من الديمقراطيين هو النواة التى كانت معروفة منذ الستينيات باسم المحافظين الجدد، وهم كانوا ليبراليين، صوتوا للحزب الديمقراطى حتى انتخاب كارتر، ولكنهم انقلبوا على الليبرالية الأمريكية لأسباب متعددة كان على رأسها ما وصفوه بعجز الليبرالية عن إدراك حجم الخطر الشيوعى والذى اعتبروه تهديدا لوجود أمريكا ذاته، ومن ثم ينبغى القضاء عليه وإلا قضى على الولايات المتحدة. هذا فضلا عن رفضهم للتوسع فى برامج دولة الرفاهية والحقوق المتساوية للأقليات.

يتضح إذن أن اليهود لا يزالون فى غالبيتهم ضمن



الديمقراطيون قادمون

ائتلاف الحزب الديمقراطى لأنه من ناحية يظل حتى اليوم حزب الأقليات عموما، ومن ناحية أخرى، فإن الجماعة اليهودية الأمريكية تعتبر من الجماعات الليبرالية خصوصا فيما يتعلق بالحريات المدنية والقضايا الاجتماعية.

لكن فى مقابل ذلك، فإن ائتلاف الحزب الجمهورى يضم ليس فقط المحافظين الجدد وإنما يضم أيضا اليمين المسيحى وهو من أكثر التيارات الأمريكية على الإطلاق تأييدا لإسرائيل بناء على تفسير محدد للنبوءة التوراتية المتعلقة بعودة السيد المسيح. إذ يؤمن فريق من هؤلاء (وليس كلهم) إيمانا حرفيا بعودة السيد المسيح ليحكم العالم لألف عام. ووفقا لمعتقداتهم، فسوف يحكم أعداء المسيح العالم أولا، ثم يعود اليهود إلى فلسطين ويعتنق بعضهم المسيحية. بعد ذلك يتعرض اليهود لاضطهاد واسع النطاق، ثم يعود السيد المسيح ويكون جيشا قويا وتقع معركة «أرمجدون» التى سوف يهزم فيها المسيح قوى الشر. وبتحقيق الانتصار، يبدأ حكم المسيح فى القدس لمدة ألف عام.

والمسألة بالنسبة لهؤلاء لا تتوقف عند مجرد الاعتقاد بتلك العودة. فهذا الاعتقاد هو بمثابة الأساس لقراءة الأحداث العالمية. فالكتاب المقدس عندهم لا يعرض فقط لتاريخ البشرية وإنما يقدم خريطة لأحداث المستقبل، وبالتالى الدور الذى ينبغى للمؤمنين أن يلعبوه من أجل أن تتحقق تلك النبوءة ويتم إنقاذ البشرية.

ومن هذا المنطلق، يؤيد هؤلاء إسرائيل تأييدا مطلقا. فرغم أن الكثيرين من رموز هذا التيار متهمون بالعداء للسامية، إلا أن أحدا لم يشكك فى تأييدهم لإسرائيل. فتجمع اليهود فى الأرض المقدسة، أحد شروط تحقق النبوءة كلها. ثم إن المفاوضات مع الفلسطينيين- عندهم- بلا جدوى. فهى مناهضة للنبوءة؛ لأن إسرائيل ستظل على أية حال فى عداء مستمر مع «أعداء المسيح»؛ وسيتعرض اليهود لاضطهاد واسع النطاق.

أما المحافظون الجدد فهم الذين هيمن فكرهم على سياسة بوش الخارجية؛ وهم المسئولون - كما هو معروف - عن كارثة العراق. فهم أصحاب الفكرة منذ عام ١٩٩٢ وهم أيضا فى أغلبهم من اليهود الصهاينة الذين يناصرون سياسات اليمين الإسرائيلى تحديدا. ومن الجدير بالذكر أنه بالإضافة إلى فيتنام والعلاقة مع السوفييت، والقضايا الداخلية التى سبق ذكرها، فقد كان أحد أسباب انقلاب المحافظين الجدد على الحزب الديمقراطى هو المواقف التى اتخذها بعض المنتمين له إزاء القضية الفلسطينية فى الستينيات وبداية السبعينيات.

فقد كانت حرب ١٩٦٧ مصدر فخر للصهاينة من اليهود الأمريكيين الذين رأوا فيها انتصارا مهما للدولة اليهودية. لكن الحرب نفسها كانت تعنى شيئا آخر لقوى أخرى انتمت هى أيضا للحزب الديمقراطى. فبالنسبة لليهود من غير الصهاينة، خصوصا فى أوساط اليسار الجديد، فقد رأوا فيها أحد تجليات الإمبريالية الغربية والتى اعتبروا إسرائيل إحدى أدواتها. أما السود، وهم أيضا إحدى القوى الفاعلة فى ائتلاف الحزب الديمقراطى، الذين تعاطفوا مع حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث عموما، فإنهم لم يستثنوا من ذلك فلسطين وكان لبعض قياداتهم تصريحات واضحة فى عدائها لإسرائيل التى اعتبروها دولة غير قانونية «ولا تملك» حقوقا على تلك الأرض.

وقد شن المحافظون الجدد فى ذلك الوقت حملة ضارية على كل هؤلاء روجوا فيها لفكرة رئيسية مؤداها أن تصوير إسرائيل باعتبارها المعتدى إنما ينبع من أسطورة صنعها اليسار الجديد، قسمت العالم إلى «دول امبريالية وشعوب بريئة فى العالم الثالث». وقالوا إن أية ثورة تقوم على إرادة الشعوب لا تعنى بالضرورة أنها تستحق التأييد، وقد أثار قلق المحافظين الجدد بروز رموز يهودية مهمة داخل اليسار الجديد مثل نعوم تشومسكى وهاورد دين وغيرهما، فوجهوا لهم اتهامات شرسة واعتبروهم دليلا على الخطر الذى يمثله اليسار الجديد على الجماعة اليهودية نفسها إذ أنه يمثل تهديدا من داخلها فضلا عن التهديد الآتى من خارجها والمتمثل فى العداء للسامية، وهى الاتهام الذى وجهوه لقيادات السود التى انتقدت إسرائيل.

غير أن القول بأن الحزب الجمهورى ليس أفضل من الحزب الديمقراطى بالنسبة للقضايا العربية لا يعنى أيضا أن العكس هو الصحيح. فقد صرنا اليوم فى وضع سياسى صارت فيه قيادات الحزبين تتسابق فى خطب ود اسرائيل وإعلان مناصرتها.

فالتحول فى ائتلافات الحزبين ليس وحده المسئول عن الانحياز الصارخ لإسرائيل فى الكونجرس بين الديمقراطيين والجمهوريين اليوم، إذ لا يقل أهمية فى هذا المقام ذلك الجهد المنظم والمستمر الذى قامت به عبر عقود طويلة المنظمات والقوى المناصرة لإسرائيل وهى اليهود الأمريكيون (وتحديدا منظمة إيباك AIPAC كونها المعنية بالمؤسسة التشريعية) فضلا عن عدد من منظمات اليمين المسيحى والمحافظين الجدد، وهم الذين أسفرت جهودهم جميعا عن الحالة التى تشهدها الولايات المتحدة اليوم.

أما إيباك فهى اللوبى الرسمى المشهر من أجل مناصرة إسرائيل فى الولايات المتحدة. وإيباك هى اختصار لاسم المنظمة بالإنجليزية وهو لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية.

American Israeli Public Affairs Committee

وقد أنشئت إيباك من أجل التركيز على المؤسسة التشريعية الأمريكية لا التنفيذية التى وقعت فى اختصاص منظمات صهيونية أخرى.

وقد برعت إيباك فى أداء الدور المنوط بها حتى صارت من أعتى جماعات اللوبى التى تدافع عن مصالح دولة أجنبية، حتى أنها صارت مثلا يحتذى قلدها اللوبى اليابانى واليونانى والكوبى. وقد استخدمت إيباك كل الأدوات، المنصوص عليها فى القوانين، والتى تستخدمها جماعات المصالح الأمريكية عموما، بدءا بالتعبئة للتصويت فى الانتخابات العامة ومرورا بتمويل الحملات الانتخابية ووصولا إلى الضغط على صناع القرار، فضلا عن العمل على المستوى القاعدى، وبرعت فيها جميعا.

وقد كان هدف إيباك منذ البداية هو جعل التأييد غير المشروط لأية حكومة إسرائيلية أمرا مقبولا بل وعاديا فى الولايات المتحدة الأمريكية وخصوصا فى المؤسسة التشريعية الأمريكية. وهو ما سعت إليه إيباك عبر استراتيجية مركبة سارت فى أكثر من اتجاه، أولها الكونجرس نفسه وثانيها محيطه السياسى والفكرى.

فكانت الخطوة الأولى هى تقديم الدعم والمساندة بالمال والأصوات للديمقراطيين والجمهوريين على السواء الذين يؤيدون إسرائيل أو الذين ليس لهم موقف معلن إزاءها بهدف تشكيل موقفهم.

وقد ساعد على نجاح إيباك فى مهمتها غياب أية قوة ذات وزن، ومنافسة لها تقدم فكرا مناهضا، فضلا عن أن الهامش الضئيل بين المتنافسين فى الحملات الانتخابية للمناصب المختلفة ظل يتضاءل باستمرار الأمر الذى يعظم من قدرة جماعات المصالح عموما على التأثير على النتيجة عبر ما تغدقه من أموال أو ما تعبئه من أصوات يوم الاقتراع العام.

وقد أدى العمل الدءوب الذى قامت به إيباك عبر عقود إلى أن خلقت المنظمة لنفسها سمعة صارت فى حد ذاتها جزءا لا يتجزأ من قوتها ونفوذها. إذ صار معروفا بين أعضاء الكونجرس أن إيباك قادرة على الإطاحة بمن يقف ضد مطالبها. وقد قامت إيباك بالفعل فى الثمانينيات بالإطاحة باثنين من أعضاء الكونجرس لجرأتهم على الوقوف فى وجهها وهما بول فيندلى وتشارلز بيرسى. ولأن الناخب العادى لا يهتم أصلا بالقضايا الخارجية عموما بل لا يعرف عنها شيئا فى كثير من الأحيان، ومن ثم لا يمكن الاعتماد عليه لإنقاذ الأعضاء المناهضين لإسرائيل، فقد صار تأييد إسرائيل أمرا بلا تكلفة سياسية،

الحزب الجمهورى الحالى ليس حزب بوش الأب الذى عارض ضمانات القروض لإسرائيل فى ١٩٩١. بل أقرب إلى حزب ريجان الذى وصفه الإسرائيليون وقتها بأنه أفضل رئيس أمريكى بالنسبة لإسرائيل منذ إنشائها



الديمقراطيون قادمون

إن لم يكن مربحا، بينما الوقوف ضدها بمثابة انتحار سياسى يتجنبه من يرغب فى مستقبل فى السياسة.

أما الخطوة الثانية فكانت الهيمنة على الكونجرس من خلال تطعيم الجهاز الفنى وبالذات فى اللجان المهمة والمواقع القيادية بالموالين. فلأن عضو الكونجرس عادة ما لا يملك الوقت الكافى للإطلاع على كل ما يعرض على المجلس، ولا حتى الإلمام بكل القضايا التى تثار، ولما كان أغلبية الأعضاء لا يعرفون أصلا الكثير عن السياسة الخارجية، فإن عضو الكونجرس يوكل الكثير من المهام لمساعديه سواء فى مكتبه الخاص أو فى اللجان التى ينتمى لها. وهؤلاء المساعدون هم الذين يكتبون مشروعات القوانين، ويعدون المعلومات الواجب على العضو قراءتها قبل الحديث للصحافة أو حضور الجلسات، ويرتبون لجلسات الاستماع ويختارون الشهود،(كل ذلك بموافقة العضو المعنى طبعا، والتى تكون تحصيل حاصل فى كثير من الأحيان).

وقد نجحت استراتيجية إيباك، والتى تم تنفيذها عبر عقود متتالية، نجاحا مبهرا، إذ صار عدد كبير من العاملين فى الجهاز الفنى المساعد للأعضاء الديمقراطيين والجمهوريين على السواء على صلة وثيقة بإيباك على نحو أو آخر.

ومن ثم لم يكن مستغربا أن تتم دعوة نتنياهو للشهادة أمام جلسات الاستماع التى كانت تناقش ما إذا كان على الولايات المتحدة أن تغزو العراق فى ٢٠٠٢ و ٢٠٠٣ وتخلو قائمة الشهود من أية شخصية عربية مناهضة لاحتلال العراق!

وقد استكملت إيباك هذه الاستراتيجية بالاهتمام بتشكيل الرأى العام فى أوساط النخبة السياسية والفكرية المحيطة بالكونجرس لصالح إسرائيل. ولذلك أنشأت معهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى، Washington Institute for Near East Studies كمركز من مراكز الفكر فى واشنطن ليهتم بقضايا الشرق الأوسط. وهو الذى أنشئ ليكون فى الواقع الذراع البحثى لإيباك وكان الغرض وقتها وضع حد لنفوذ مؤسسة بروكنجز التى اعتبرتها إيباك فى ذلك الوقت «ليست متوازنة» بشأن الشرق الأوسط.

وقد ضم معهد واشنطن على مدار عمره عددا من الأيديولوجيين من عتاة الفكر الصهيونى الذين أسهموا بشكل واضح فى إعادة تشكيل رأى النخبة الأمريكية على نحو يجعلها أكثر قربا لأفكار اليمين الإسرائيلى تحديدا، إذ صار من المقبول تماما التخلى عن فكرة الأرض مقابل السلام وابتلاع إسرائيل لمزيد من الأرض والسكوت على انتهاكاتها المستمرة لحقوق الإنسان بل وتبريرها بزعم الدفاع عن النفس.

لذلك كله، لم يكن غريبا أن ينعقد المؤتمر السنوى لإيباك هذا العام فيحضره أغلبية أعضاء مجلس الشيوخ وربع أعضاء مجلس النواب فصلا عن عشرات من رموز الإدارة.

ولم يكن مستغربا أيضا أن تثور عاصفة فى الكونجرس بعد إدانة نورى المالكى للهمجية الإسرائيلية فى لبنان ويرفض الأعضاء الديمقراطيون قبل الجمهوريين استقباله، بينما يصف هاورد دين ما قاله المالكى عن إسرائيل بأنه «معاد للسامية».

ولعل حالة هاورد دين من الحالات بالغة الدلالة فى هذا الإطار. ففى حملته لمنصب الرئاسة عام ٢٠٠٤ كان هاورد دين قد طالب فى تصريح له بأن تلعب الولايات المتحدة دور «الوسيط المحايد» فى الشرق الأوسط،الأمر الذى أثار حوله عاصفة إدانة وحملة تشهير استغلها خصومه وأسهمت فى تقليص فرصه. ومنذ ذلك التاريخ، لم يسمع عن هوارد دين أنه نطق بكلمة واحدة قد تبدو على أى نحو وكأنها تنتقد إسرائيل.

وهكذا صار الكونجرس قلعة محصنة تهيمن فيها أفكار أنصار إسرائيل بشكل واضح لافارق فى ذلك بين جمهورى وديمقراطى.

ولكن تظل هناك استثناءات وهذه الاستثناءات تأتى إما من الأعضاء السود أو من الأعضاء الليبراليين الذين يقعون على يسار الحزب الديمقراطى. فعلى سبيل المثال استهدفت إيباك اثنين من الأعضاء السود فى عام ٢٠٠٢ هما سينثيا ماكينى وايرل هيليارد وأطاحت بهما من مقعديهما بعد حملة انتخابية شرسة وقفت فيها ايباك وراء منافسيهما حتى فازا بالمقعدين، وذلك عقابا لكل من ماكينى وهيليارد على مناصرتهما للفلسطينيين. وهى حملة لم تخل من اتهامهما بمناصرة الإرهاب والعداء للسامية.

غير أنه من المهم القول أن ما تقوم به إيباك لا يعبر بالضرورة عن الجماعة اليهودية الأمريكية، إذ صارت إيباك على يمين الناخب اليهودى نفسه، فعلى سبيل المثال كانت أغلبية اليهود الأمريكيين ضد غزو العراق بنسبة أعلى من تلك التى رفض بها الأمريكيون من جماعات أخرى ذلك الغزو، هذا فى الوقت الذى لعبت فيه إيباك دورا بالغ الأهمية فى الترويج لذلك الغزو.

إلا أن أيباك لا تتورع عن التشهير باليهود الأمريكيين الذين تعلو أصواتهم ضد مواقفها والاتهام جاهز فهو «اليهودى الكاره لنفسه» Self-hating Jew وهو اتهام معروف فى الخطاب الصهيونى، الأمر الذى يفسر حالة الصمت فى أوساط الجماعة اليهودية إزاء أداء إيباك رغم وجود بعض التذمر. وإن كانت قد بدأت أصوات بعض اليهود تعلو مؤخرا بل وتطرح نفسها بديلا لإيباك.

خلاصة القول أن الرأى العام فى أوساط النخبة الأمريكية صار محصورا فى إطار واحد ضيق هو التأييد المطلق وغير المشروط لإسرائيل. والاتهامات جاهزة لردع المخالفين، بدءا من العداء للسامية وحتى دعم الإرهاب. فقد تلقت عضو الكونجرس بتى ماكولم التى صوتت ضد مشروع قانون يخفض المساعدات الاقتصادية للسلطة الفلسطينية رسائل تتهمها بتأييد الإرهابيين.

ولا يقل دور اليمين المسيحى شراسة عن الدور الذى تلعبه إيباك فقد كان اليمين المسيحى هو المسئول عن تمرير قانون نقل السفارة الأمريكية للقدس وسلسلة أخرى من القوانين منها قانون الاضطهاد الدينى فضلا عن التشريعات المختلفة بشان السودان. وقد عقدت منظمات اليمين المسيحى المناصرة لإسرائيل مؤتمرا هذا العام حضره أكثر من ٣ آلاف شخص تحت عنوان ذى دلالة هو«المسيحيون المتحدون من أجل إسرائيل».

ولا يدخر المحافظون الجدد بكل مراكز الفكر والإعلام الموالية لهم الجهد فى مهاجمة وتشويه كل من يتعرض بالانتقاد لإسرائيل أو يطلق كلاما مغايرا عن المطلوب بشأن الحقوق العربية.

ما الذى يمكن توقعه؟

رغم أن الحزب الديمقراطى صار هو حزب الأغلبية فى الكونجرس بموجب انتخابات ٢٠٠٦ إلا أن الكثير سوف يتوقف على قدرة الحزب على الخروج من كبوته التى صنعها لنفسه منذ أحداث سبتمبر ولا يزال يدفع ثمنها حتى الآن.

فباستثناء أصوات قليلة من الحزب الديمقراطى من أمثال روبرت بيرد وباتريك ليهى وتيد كيندى، انهارت تماما المعارضة المؤسسية. فمنذ أحداث سبتمبر، أصاب الديمقراطيين فى الكونجرس الذعر بسبب الارتفاع المذهل لشعبية الرئيس، وآثروا السلامة على تحدى رئيس يحظى بتلك الشعبية، فانحنوا بالكامل لرغباته ووافقوا على أغلب التشريعات الخلافية التى دفع بها للكونجرس فى مجال السياسة الداخلية والخارجية على السواء. ماتت المعارضة المؤسسية فخرج المعارضون للشوارع.

التحول فى ائتلافات الحزبين ليس وحده المسئول عن الانحياز الصارخ لإسرائيل فى الكونجرس اليوم، إذ لا يقل أهمية فى هذا المقام ذلك الجهد المنظم والمستمر للمنظمات والقوى المناصرة لإسرائيل

ثم جاءت حرب العراق لتضع المسمار الأخير فى نعش المعارضة التشريعية. إذ جاء انصياع المعارضة الديمقراطية وموافقتها على قرار الحرب لأسباب انتخابية قصيرة الأجل وهو الموقف الذى لا يزال الحزب الديمقراطى يدفع ثمنه حتى الآن.

كانت إدارة بوش قد تعمدت طلب موافقة الكونجرس على استخدام القوة العسكرية فى العراق قبل أسابيع قليلة من الانتخابات التشريعية فى ٢٠٠٢، رغم أنها كانت قد



الديمقراطيون قادمون

عقدت العزم على غزو العراق منذ انتهاء الحملة العسكرية على أفغانستان.

فالدفع بالطلب إلى الكونجرس قبل الانتخابات بأسابيع يجعل هذه القضية تتصدر اهتمامات الإعلام والخطاب العام، الأمر الذى يصرف الانتباه عن فضائح إنرون التى انفجرت قبل الانتخابات، فضلا عن غيرها من القضايا الداخلية، وعلى رأسها أحوال الاقتصاد التى كانت متردية وقتها وتفتح فرصة مناسبة للديمقراطيين. وطرح قضية تتعلق بعمل عسكرى ضد دولة اتهمت بأنها تمثل خطرا على أمن الولايات المتحدة، كان يستدعى الحالة التى سرت عقب هجمات سبتمبر، ومن ثم يسمح بردع المعارضين لقرار غزو العراق لئلا يتهموا بالتهاون إزاء الخطر الخارجى والتساهل إزاء الأمن القومى، مما يؤدى لإحراجهم ودفعهم دفعا للتصويت لصالح القرار.

وكان الحزب الديمقراطى ينوى إدارة المعركة حول قضايا الداخل ومن ثم حين ألقت إدارة بوش بقضية العراق فى المعترك السياسى، تغيرت قواعد اللعبة، وصار على الديمقراطيين التعامل مع الموقف الجديد. فما كان منهم إلا أن تبنوا استراتيجية جديدة ثبت أنها كلفتهم كثيرا.

فقد انطلق الديمقراطيون من مقدمة صحيحة ولكن بنوا عليها استراتيجية انتهازية كلفتهم كثيرا. كانت المقدمة الصحيحة أنه لا ينبغى لهم - إذا كان الهدف هو الفوز - السماح لبوش باستثمار الحالة التى عمت البلاد بعد أحداث سبتمبر لتحقيق انتصار لحزبه مستخدما شعبيته - خصوصا بشأن الحرب على الإرهاب. أما الاستراتيجية البائسة، فكانت قرارا بعدم مواجهته بشأن الأمن القومى، والسعى إلى صرف الانتباه بسرعة إلى قضايا الداخل.

بعبارة أخرى، سعى الديمقراطيون إلى تحييد قضية الأمن القومى لا عبر اتخاذ مواقف بشأنها، وإنما عبر التنازل عنها بالكامل لبوش، عبر إعطائه ما أراد بشأن العراق، ثم تغيير الموضوع بسرعة لتحتل قضايا الداخل الأولوية فى الانتخابات.

ويظل المهم الإشارة إلى أن الحزب الديمقراطى فى الكونجرس كان منقسما على نفسه بشأن قرار حرب العراق. فرغم الاتفاق على أن الاستراتيجية الأمثل هى منح بوش القرار الذى أراده بشأن العراق، إلا أن بعضهم، خصوصا فى مجلس الشيوخ، كان يسعى إلى استصدار قرار يضع قيودا تحد من صلاحيات الرئيس، وذلك عبر إجباره على الحصول على موافقة الأمم المتحدة وتشكيل تحالف دولى، أو العودة مرة أخرى للكونجرس فى حالة فشله فى ذلك. هذا بينما كان هناك آخرون فى مجلس النواب، خصوصا الأعضاء السود، معارضين تماما لذلك القرار. إلا أن العامل الحاسم كان فى الواقع مواقف قيادات الحزب ودورهم فى اتخاذ القرار.

وهكذا مر قرار غزو العراق فى المجلسين بسرعة غير مسبوقة، لم تتعد الأيام العشرة. أى دخلت الولايات المتحدة حربا جديدة استغرقت مناقشة أسبابها ودوافعها وآفاقها وكل ما يتعلق بها أياما قليلة لم تتعد الأسبوعين! وهى سرعة مذهلة، خصوصا بالنسبة للمؤسسة التشريعية الأمريكية المعروفة ببطء أدائها عموما.

وبمجرد أن تمت الموافقة على قرار غزو العراق، عاد الديمقراطيون إلى دوائرهم سعيا لاستكمال باقى الخطة. فقد كان الهدف من الموافقة على القرار هو العودة بأسرع ما يمكن للقضايا الداخلية وجعلها محور الحملة الانتخابية. ولكنهم فشلوا فشلا ذريعا إذ لم يجد الناخب أى فارق بينهم وبين الجمهوريين فهزموا هزيمة مدوية.

خرج الحزب الديمقراطى إذن من معركة ٢٠٠٢ الانتخابية أكثر ضعفا مما دخلها. وهو ما تكرر فى انتخابات ٢٠٠٤ الرئاسية والتشريعية معا. ذلك لأن الأسباب التى أدت إلى هزيمة الديمقراطيين فى ٢٠٠٢ ظلت شبحا يلاحق حملات مرشحى الحزب فى ٢٠٠٤.

وظل مرشح الحزب للرئاسة جون كيرى يعانى طوال حملته فى ٢٠٠٤ من أزمة حزبه، ويدفع ثمن مواقف اتخذها بنفسه كعضو فى مجلس الشيوخ، حيث حرمته تلك المواقف من أن يبنى حملة قوية تتحدى بوش. فهو، من خلال عضويته فى مجلس الشيوخ، وافق على قانون باتريوت، الذى يقوض الحريات المدنية ثم الخفض الضريبى الذى استفاد منه الأغنياء، وعلى إنشاء وزارة الأمن الداخلى، وعلى قرار غزو العراق ثم على تمويل الاحتلال، الأمر الذى حرمه من تمييز نفسه عن بوش وتقديم برنامج متكامل.

بعبارة أخرى، فإن المشكلة الرئيسية فى حملة ٢٠٠٤ لم تكن أبدا أن المرشح الديمقراطى يواجه خصما يتمتع بشعبية يستحيل معها هزيمته، إذ ظلت المشكلة فى الواقع هى ضعف المرشح الديمقراطى، لا قوة بوش.

الديمقراطيون إذن عانوا طوال السنوات الخمس الماضية من مأزق صنعوه لأنفسهم بأنفسهم. إلا أن الأوضاع السياسية فتحت لهم الباب على مصراعيه فى ٢٠٠٦. ولم يكن موضوع العراق وحده المسئول عن تردى شعبية الجمهوريين فقد فشل الحزب الجمهورى فى العامين الأخيرين فى تمرير أى من مشروعات القوانين التى تتعلق بقضايا داخلية مهمة، وجاء إعصار كاترينا ليكشف عن حالة مذهلة من انعدام الكفاءة والعجز عن مواجهة كارثة طبيعية، فى بلد ظل زعماؤه طوال أعوام خمسة يستخدمون «مواجهة الكوارث الأمنية» كمبرر لكل سياساتهم، هذا فضلا عن الفضائح المالية والأخلاقية التى تورط فيها عدد من أعضاء الكونجرس وطالت بعض رموز الإدارة.

ومن هنا صارت لدى الديمقراطيين الفرصة للفوز بالأغلبية فى الكونجرس لا لأنهم الأفضل ولكن لأنهم الحزب الذى قد يفرض قيدا على بوش.

وكان المسكوت عنه فى حملة ٢٠٠٦ أكثر دلالة بكثير مما تمت مناقشته. فالحزب الديمقراطى المعروف تقليديا بأنه المدافع عن الحريات والحقوق المدنية لم يتطرق مرشحوه لما تعرضت له الحريات المدنية فى عهد بوش من قصف منتظم وذلك ببساطة لأن حزبهم كان شريكا فى تمرير قانون باتريوت وغيره من القوانين المقيدة للحريات.

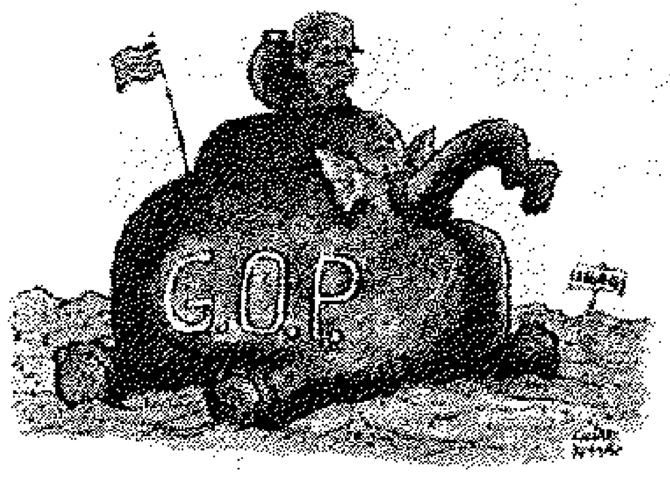
وبسبب ضلوعهم فى الموافقة على قرار غزو العراق ثم الموافقة على الاعتمادات التى طلبها بوش منذ ذلك التاريخ، عجز الديمقراطيون عن تقديم بدائل واضحة بشأن الكارثة العراقية خاصة بعد أن صارت الأوضاع العراقية بمثابة فخ تحمل كل بدائل الخروج منه تكلفة باهظة للولايات المتحدة. وكان ما قاله الديمقراطيون أثناء الحملة الانتخابية بالغ العمومية لا يتعدى الدعوة إلى تغيير السياسة الأمريكية فى العراق دون تحديد لطبيعة ذلك التغيير، فضلا عن انتقادات واسعة لإدارة بوش بشان استراتيجيتها فى العراق. فلم يكن بمقدور من وافقوا على قرار الغزو أن يزعموا فساد الفكرة أصلا.

والطريف أن القلة من الديمقراطيين الذين اعترفوا بأنهم أخطأوا حين وافقوا على قرار الغزو أرجعوا ذلك الخطأ إلى تزييف إدارة بوش للمعلومات التى عرضتها على الكونجرس. أى لم يقل أى منهم إن فكرة تغيير النظم بالقوة فى حد ذاتها فكرة فاسدة ولم يوجه أى منهم أى انتقاد لمسألة إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط.

بعبارة أخرى، فإن هذا المأزق الذى خلقه الديمقراطيون لأنفسهم سوف يمثل فى حد ذاته سقفا مقيدا لما يمكن أن يطرحوه من بدائل.

وفى واقع الأمر، فإن الديمقراطيين منقسمون على أنفسهم بشأن التعامل مع موضوع العراق فهناك فريق يدعو إلى الانسحاب الفورى من العراق، ولايمانع البعض فى هذا الفريق من تقسيم العراق إذا ماكان ذلك هو ثمن الانسحاب بشكل يحفظ لأمريكا ماء وجهها. وفريق آخر يدعو إلى انسحاب مرحلى وفق جدول

صارت لدى الديمقراطيين الفرصة للفوز بالأغلبية فى الكونجرس لا لأنهم الأفضل ولكن لأنهم الحزب الذى قد يفرض قيدا على بوش



الديمقراطيون قادمون

زمنى بدءا من مطلع عام ٢٠٠٧ دون وضوح للرؤية بشأن حجم القوات المنسحبة فى كل مرحلة ولا حدود ذلك الجدول الزمنى. وفى داخل ذلك الفريق هناك من يدعو إلى إعادة نشر القوات الأمريكية فى منطقة الخليج ومناطق بعينها داخل العراق.

لكن هناك درجة من الإجماع داخل الحزب الديمقراطى بل وبين بعض الجمهوريين حول ضرورة إحداث تحول كيفى فى دور القوات الأمريكية فى العراق، يحد من قيامها بالعمليات العسكرية ويقصره على التدريب والاستشارات العسكرية، مع الدفع نحو دور أكبر لجيران العراق من خلال عقد مؤتمر دولى تتم فيه مناقشة الأدوار المطلوبة من الفاعلين الإقليميين.

لكن الديمقراطيين عموما أقل ثقة بكثير من الجمهوريين فى حكومة نورى المالكى حتى أن بعضهم يدعو إلى تشجيع الجيش العراقى على الانقلاب عليها، بينما يدعو بعضهم الآخر إلى ممارسة ضغوط قوية على تلك الحكومة وإلزامها بجداول زمنية ونزع سلاح الميلشيات واستخدام التهديد بانسحاب القوات الأمريكية كسلاح فى وجهها.

ولكل ذلك، يعول الديمقراطيون كثيرا على ماسوف تطرحه لجنة بيكر-هاملتون التى أنشأها الكونجرس فى ٢٠٠٥ وينتظر أن تقدم توصياتها بنهاية هذا العام بشأن العراق. فاللجنة بالنسبة للديمقراطيين بمثابة غطاء سياسى هم فى أمس الحاجة إليه لتبنى بدائل لايمكنهم تبنيها دون ذلك الغطاء بسبب المواقف التى اتخذها حزبهم فى السابق.

أما فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية ينبغى الإشارة إلى أن مواقف الكونجرس كانت طوال الفترة الماضية لا تقل انحيازا لإسرائيل عن الإدارة ولا يختلف فى ذلك الديمقراطيون والجمهوريون.

بل إن الديمقراطيين الذين سوف يتولون عددا من اللجان المهمة خصوصا فى مجلس النواب أكثر انحيازا لإسرائيل فى الواقع من نظرائهم الجمهوريين. فتوم لانتوس الديمقراطى معروفة مواقفه من القضايا العربية وهو الذى سيتولى رئاسة العلاقات الخارجية.

لكن رئاسة اللجان المهمة فى مجلس الشيوخ ستكون من نصيب أعضاء اكثر اعتدالا من نظرائهم فى مجلس النواب، وإن كان من غير المتوقع أن يتمكنوا من إحداث تغيير كبير خصوصا فى جو عام صار معه الوقوف فى وجه مطالب اليمين الإسرائيلى بالغ الصعوبة.

أما فيما يتعلق بإيران وسوريا، فالديمقراطيون ليسوا أفضل حالا من الجمهوريين فمنذ صدور قانون فرض العقوبات على إيران فى ١٩٩٦ الذى كانت ولا تزال إيباك هى الفاعل الرئيسى وراءه، اتخذ الكثير من الديمقراطيين مواقف لا تقل تشددا عن مواقف الجمهوريين بل إن بعضهم لا يمانع فى توجيه ضربة جوية خاطفة للمنشآت النووية الإيرانية، وكان الديمقراطيون أيضا قد أيدوا قانون محاسبة سوريا الذى صدر فى ٢٠٠٣ بل وافقوا بأغلبية ساحقة على مشروع قرار غير ملزم أثناء الحرب اللبنانية الأخيرة يدافع عن «حق إسرائيل فى الدفاع عن نفسها».

ومن الجدير بالذكر أن هذا القرار قد مر بعد أن أصر بعض الأعضاء من الحزبين على حذف عبارة كانت تدعو «كل الأطراف» إلى تجنب الإضرار بالمدنيين والبنية التحتية المدنية. والقرار المذكور لم تكن وراءه إيباك بل كانت هى التى كتبت صيغته أصلا وسلمته للأعضاء الذين تبنوه وقاموا بتمريره.

وفى واقع الأمر فإن أعضاء الكونجرس كانوا فى مقدمة المنادين بالإطاحة بالنظام السورى واشترك معهم فى ذلك عدد من رموز المحافظين الجدد فى الإدارة، بينما عارض ذلك العسكريون فى وزارة الدفاع وكوادر الدبلوماسيين فى وزارة الخارجية، أى الذين لم يأتوا إلى مواقعهم عبر تعيينات سياسية من قبل بوش.

وقد سعت رموز المحافظين الجدد إلى البحث عن جماعة سورية فى المنفى تقوم بالدور نفسه الذى لعبه أحمد الجلبى فى العراق. وبالفعل، عقدت اجتماعات عدة مع رموز حزب الإصلاح، وهو ائتلاف واسع من قوى المعارضة السورية فى الخارج، بزعامة فريد الغادرى، وقد التقى هؤلاء بمساعدى تشينى بالبيت الأبيض، ودوجلاس فايث وفريقه فى وزارة الدفاع، فضلا عن اليزابيث تشينى والفريق العامل معها فى وزارة الخارجية.

وقد لقى هذا الفريق داخل الإدارة معارضة قوية بالذات من داخل وزارة الخارجية التى وجدت فى العمل مع مجموعة الغادرى تكرارا مريرا لفشل تجربة الجلبى، التى كانوا ضدها أصلا منذ ١٩٩٥. غير أن الأمر حسم بعد الانتخابات المصرية والفلسطينية لصالح إرجاء تلك المحاولات مؤقتا خوفا من أن تؤدى الإطاحة بالنظام السورى إلى وصول الإخوان المسلمين للحكم فى سوريا. وصار هدف إدارة بوش منذ ذلك الوقت هو إضعاف نظام الأسد وتهميشه وإبعاده عن إيران ولكن دون القضاء عليه.

أما إيران فهناك حملة محمومة من جانب المحافظين الجدد لتوجيه ضربة جوية مدمرة لها، وهى حملة تدور على قدم وساق ويعود تاريخها إلى ما بعد غزو العراق مباشرة ويغذيها بقوة أنصار إسرائيل فى واشنطن حتى من غير المنتمين للمحافظين الجدد، بعد أن كانوا هم أصحاب تلك الحملة منذ منتصف التسعينيات وحتى تولى بوش الرئاسة فى ٢٠٠١.

وفى هذا السياق، جاء العدوان الإسرائيلى على لبنان ليجد دعما كاملا من جانب إدارة بوش وصل إلى حد رفض وقف إطلاق النار حتى تنتهى إسرائيل من عملياتها العسكرية.

فمن ناحية، كان القضاء على حزب الله شرطا ضروريا لابد أن يسبق اية ضربة أمريكية جوية لإيران لئلا تستخدم صواريخ حزب الله فى أى رد فعل انتقامى.

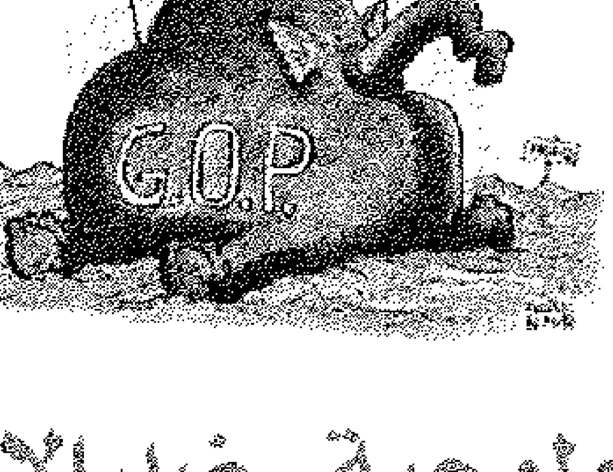
ومن ناحية أخرى كانت الضربة الأمريكية المزمعة على إيران تشبه إلى حد كبير فى شكلها ومضمونها ما سعت إسرائيل إلى عمله. فقد استخدمت إسرائيل فى لبنان استراتيجية الصدمة والرعب نفسها التى استخدمتها أمريكا فى العراق. ومن ثم فإن ضرب البنى التحتية المدنية فى لبنان كان هدفا فى ذاته، إذ كان المقصود بالصدمة والرعب فى حالة لبنان هو تأليب الفرقاء اللبنانيين على حزب الله لتحقيق هدف القضاء عليه، إن لم يكن بالقوة العسكرية فعبر الانقسامات اللبنانية.

ومن المتوقع أن توصى لجنة بيكر-هاملتون بإجراء محادثات مباشرة مع سوريا وإيران. وهو مالن يروق بالطبع للقوى التى ظلت منذ أكثر من عقد تدعو إلى سياسات مغايرة وتتصور أنها كانت قاب قوسين أو أدنى من تنفيذ مخططاتها لولا كارثة العراق. وبالتالى سوف تشهد واشنطن فى تلك الحالة معركة مفتوحة لكل الاحتمالات.

لكن الواضح حتى الآن أن تلك القوى استعدت بأفكار تحفظ لها الحد الأدنى مما تريد، والتى سوف تدفع بكل قوة لتحقيق إجماع حولها. ومن أهم هذه الأفكار هى فكرة المحاور أى تقسيم المنطقة إلى محاور تتحالف فيه الولايات المتحدة مع ما يسمى محور الاعتدال المكون من دول الخليج إلى جانب مصر والأردن، وذلك للضغط على «محور التطرف». وسوف يكون المطلوب من محور الاعتدال هو التدخل لإقناع سوريا بالابتعاد عن إيران والتخلى عن حزب الله، فضلا عن مساعدة الولايات المتحدة فى القضاء على حماس وحزب الله.

لكن المهم القول أن قدرة هؤلاء على تنفيذ أى من تلك المخططات سوف تتوقف ليس فقط على طبيعة المعركة التى ستدور رحاها فى واشنطن، وإنما تتوقف بدرجة أكبر على التفاعلات التى ستدور على الأرض فى عالمنا العربى وما إذا كانت الأطراف المختلفة سوف تمتلك الإرادة السياسية لإفشال تلك المخططات، أو على الأقل الاستعداد لمواجهتها وهو أضعف الإيمان. ■

الديمقراطيون عموما أقل ثقة بكثير من الجمهوريين فى حكومة نورى المالكى حتى أن بعضهم يدعو إلى تشجيع الجيش العراقى على الانقلاب عليها



ضد الأيديولوجية.. ضد الإمبراطورية

انقلاب ٧ نوفمبر

عبد العظيم حماد

القراءة الأولية لنتائج انتخابات نصف المدة التى جرت يوم السابع من نوفمبر الماضى فى الولايات المتحدة تؤكد أنها كانت تصويتاً عقابياً لإدارة الرئيس الجمهورى الحالى جورج بوش الابن، بسبب أدائها المزرى فى العراق بعد الغزو، وقد أسفرت هذه الانتخابات كما هو معروف عن إحراز الحزب الديمقراطى المعارض للأغلبية فى الكونجرس بمجلسيه «النواب والشيوخ» لأول مرة منذ ١٢ عاماً.

لنقل إذن دون أية مبالغة أن ما جرى كان سحباً للثقة من إدارة بوش، ولكن تبقى هذه القراءة - رغم أنها صحيحة - مباشرة ومبسطة، لأنها لا تقول كل شىء، وربما أنها لا تقول أهم الأشياء، لذا يتطلب الفهم الدقيق والشامل لانقلاب ٧ نوفمبر ٢٠٠٦ فى الولايات المتحدة مستويات متعددة ومتوالية من النظر تحت السطح، نختار من هذه المستويات ثلاثة، ونعتقد أنها الأهم، لكننا سنركز بصفة خاصة وبعد استعراض سريع نبين للمستويين الأول والثانى على المستوى الثالث المتعلق بالسياسة الخارجية.

تركيز السلطة أم انتشارها؟!

المستوى الأول الذى يتعين النظر منه إلى نتائج انتخابات التجديد النصفى الأخيرة للكونجرس الأمريكى يتعلق بطبيعة النظام السياسى الأمريكى.

هذا النظام يعد فى رأى غالبية علماء نظم الحكم أنجح النظم السياسية تطبيقاً لمبدأ الفصل بين السلطات منذ أن اكتشف هذه الحقيقة.. القاضى الفرنسى توكفيل فى القرن ١٩، فهو نظام يحتوى على ديناميكية لا تتعطل طويلاً لضمان الرقابة والتوازن (CHECK AND BALANCE) بين جميع مكوناته، والترجمة العملية لهذا المبدأ هى أن نظام الحكم الأمريكى يقاوم ويلفظ بسرعة أية محاولة لتركيز القوة السياسية (أو السلطة) فى واحدة من السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية أو حتى فى جهة بعينها داخل إحدى هذه السلطات كالبنتاجون (وزارة الدفاع) داخل الفرع التنفيذى مثلاً، وكانت أخطر نتائج هجمات الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ الإرهابية على نيويورك وواشنطن، وما ترتب عليها من تجييش للرأى العام وراء سياسة الحرب خارج الحدود، والدفاع داخل الوطن ضد الإرهاب العالمى أن البيت الأبيض والفرع التنفيذى عموماً استوليا على كثير من اختصاصات الفرعين التشريعى والقضائى، وجرى هذا الاستيلاء بأشكال مختلفة منها ماهو تشريعى مثل قانون الوطنية، ومنها ما هو اغتصاب مثل برنامج التنصت على الهواتف، ومنها ماهو من قبيل الابتزاز والتخويف بل والتحايل مثل حمل الكونجرس على الموافقة على مبدأ غزو العراق استنادا على أدلة كان كثيرون يعلمون زيفها، ولم يجرؤ أحد وقتها على الوقوف ضد التيار، لاسيما أن حزب الرئيس أى الحزب الجمهورى كان يملك الأغلبية فى الكونجرس بمجلسيه واستخدمها البيت الأبيض بصورة أليمة فى ظل هوس ما بعد ١١ سبتمبر.

ولايزال معتقل جوانتانامو، والسجون الأمريكية السرية فى أنحاء متفرقة من العالم بمثابة شواهد حية على اغتصاب الفراغ التنفيذى لاختصاصات السلطة القضائية التى أهدرت بالفعل سلسلة من الأحكام ضد الإدارة لمصلحة معتقلى جوانتانامو على وجه الخصوص.

كما أسلفنا توا تمكنت الإدارة من تركيز السلطة فى أيديها بسبب التفاعل بين سيطرة الجمهوريين على الكونجرس سابقاً من ناحية وبين المزاج السياسى السائد فى البلاد والذى اتسم بتجييش الرأى العام وراء الحرب ضد الإرهاب فى الداخل وفى الخارج، وهو ما جعل فضائح التعذيب فى سجن أبو غريب العراقى تمر من دون عقاب حقيقى للمسئول الأول عنها (دونالد رامسفيلد وزير الدفاع المتعجرف وغيره من المسئولين الكبار) قراءة نتائج الانتخابات الأمريكية الأخيرة على مستوى تأثيرها فى النظام السياسى الأمريكى تشير إذن بوضوح إلى أنها أحيت ديناميكية مبدأ الرقابة والتوازن، وقضت على ظاهرة تركيز السلطة فى البيت الأبيض والفرع التنفيذى، بل وأطاحت بدونالد رامسفيلد وزير الدفاع المستقيل بصفته أحد أركان التحالف الضيق الذى احتكر لنفسه أكبر قسط من النفوذ داخل الفرع التنفيذى ذاته، أى تحالف رامسفيلد وديك تشينى نائب الرئيس والذى انضم إليه، وخرج منه فى أوقات مختلفة متنفذون آخرون من الإدارة أبرزهم كوندوليزا رايس وزيرة الخارجية حالياً ومستشارة الأمن القومى فى الفترة الرئاسية الأولى لبوش فضلاً عن رؤساء وأعضاء هيئة الأركان المشتركة للقوات المسلحة.

الأيديولوجية على حساب الداجماتية

أما المستوى الثانى فى النظر إلى نتائج انتخابات الكونجرس الأمريكى يوم السابع من نوفمبر الماضى فهو ذو طابع فلسفى إلى حد كبير، بمعنى أن هذه الانتخابات جرت على خلفية صراع فكرى بدأ منذ انتهاء الحرب الباردة، واحتدم مع هيمنة المحافظين الجدد على إدارة بوش الابن الأولى وقد دار هذا الصراع بين فريق الأيديولوجيين بقيادة المحافظين الجدد وأسلافهم المباشرين من أمثال فرنسيس فوكوياما منظر نهاية التاريخ وروبرت كابلان صاحب نبوءة الفوضى المقبلة وصمويل هانتينجتون المنذر بصراع الحضارات، وبين فريق البراجماتيين ورثة تقاليد الساحل الشمالى الشرقى التى وضعها الآباء المؤسسون للولايات المتحدة، وهى تقاليد تحكم على الفعل الإنسانى - والسياسى فى القلب منه - بالنتائج العملية وليس قياساً على أية أحكام أيديولوجية مسبقة ولا جدال فى أن إدارة الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن واحدة من أكثر - إن لم تكن أكثر - الإدارات فى التاريخ الأمريكى تزمتاً فى إخضاع السياسة للأيديولوجية، وقد تفوقت الإدارة الحالية فى هذه الناحية على غيرها من الإدارات، إذ شمل تزمتها الأيديولوجى السياستين الداخلية والخارجية معاً وامتد إلى إقحام الدين فى عملية صنع القرار السياسى ومن قبل فى بناء التحالفات الانتخابية بطريقة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ الأمريكى إلى حد أنها هددت مبدأ علمانية الدولة الأمريكية، مثلاً كان التزمت الأيديولوجى فى إدارة الرئيس الجمهورى فى أوائل الثلاثينيات من القرن الماضى (هربرت هوفر) يتعلق بعدم تدخل الحكومة الاتحادية فى الحياة الاقتصادية لحماية الفئات الأضعف من الكساد الاقتصادى الكبير. وكان التزمت الأيديولوجى فى إدارة الرئيس الجمهورى فى الخمسينيات (دوايت ايزنهاور) يتركز فى أسلوب وزير خارجيته جون فوستر دالاس فى مواجهة الانتشار الشيوعى (من ليس معى فهو ضدى) وفى مناخ الإرهاب الفكرى الذى أشاعته لجنة النشاط المعادى أو ما يسمى فى التاريخ السياسى الأمريكى «بالمكارثية» لمكافحة الشيوعية فى الداخل، ولكن تزمت إدارة بوش الابن الأيديولوجى استغرق كل شىء تقريباً فى السياسة الأمريكية داخلياً وخارجياً ففى المقررات الدراسية تنحاز الإدارة إلى نظرية التصميم الذكى للخليقة ضد نظرية التطور، وفى البحث العلمى ترفض أبحاث الخلايا الجذعية وفى القضايا الاجتماعية تقف بصلابة ضد الإجهاض والمثلية الجنسية وترفض فصل الأجهزة الطبية عن الموتى سريرياً. وأما فى مجال الاقتصاد فقد غالت هذه الإدارة فى التزامها بمبدأ خفض الضرائب فى وقت تزايد فيه الإنفاق بسبب حرب العراق، إلى حد أنها قضت على الفائض فى الميزانية العامة الذى تركته إدارة الرئيس الديمقراطى السابق بيل كلينتون فى العام التالى لدخول بوش البيت الأبيض وأعادت إلى المالية العامة الأمريكية ظاهرة العجز الكبير المزمن فى الميزانية وفى السياسة

الفشل فى العراق يبدأ من ثبوت افتعال ذريعة الغزو، وتلفيق المعلومات، وتضليل الرأى العام والكونجرس، ولم يكن معارضو هذه الحرب داخل الولايات المتحدة نفسها بأقل من معارضيها فى الخارج إدراكاً أن قرار غزو العراق لا صلة حقيقية له بالحرب ضد الإرهاب

الخارجية - وكما سنرى توا - مارست هذه الإدارة أسوأ أشكال التزمت الأيديولوجى ووجد العالم نفسه لأول مرة منذ عصر التنوير قائداً لدولة عظمى - بله الدولة العظمى الوحيدة فى العالم - يتحدث عن قرارات أوحى بها الله إليه، وهو لم يقل ذلك فقط لجمهور متدين من الناخبين، بل قاله فى محادثات رسمية مع قادة آخرين مثلما حكى المستشار الألمانى السابق جيرهارد شرودر فى مذكراته الصادرة منذ بضعة أسابيع.

على هذا المستوى من النظر تقول قراءاتنا لنتائج الانتخابات الأمريكية فى السابع من نوفمبر الماضى إن الفوضى والاضطراب الناجمين عن التزمت الأيديولوجى للإدارة أعادا العقل الأمريكى مرة أخرى إلى الإيمان بفضائل البراجماتية اتساقا مع تقاليد الآباء المؤسسين، واستيعاباً لخبرة التاريخ التى علمت الأمريكيين أن السياسة العملية (أو الفلسفة الذرائعية إن شئنا استخدام المصطلح المعتمد فى الترجمة العربية لكلمة البراجماتية) هى المنقذ فى الأزمات الكبرى كما حدث فى الحرب الأهلية، وفى الجدل حول مواجهة الكساد الكبير فى أوائل ثلاثينيات القرن الماضى ثم الجدل حول دخول الحرب العالمية الثانية من عدمه وفى الخروج من حرب فيتنام، ومثلما سيحدث فى الورطة الحالية فى العراق فى أرجح الاحتمالات.

الليبرالية ضد العزلة الإمبراطورية

كانت انتخابات التجديد النصفى للكونجرس بالمعنى المباشر استفتاء على مجمل السياسة الخارجية للإدارة الحالية فى سياق الاختيارات الأيديولوجية التى أملاها جناح المحافظين الجدد على حساب من يسمون بالمحافظين الواقعيين، أو البراجماتيين والليبراليين بالطبع، ويجدر بنا قبل تقصى دلالات النتائج الانتخابية فى ميدان السياسة الخارجية أن نسجل تحفظنا على المقولة الشائعة أو المسلم بها دون فحص حقيقى، والتى معناها أن السياسة الخارجية لا تلعب سوى دور محدود فى تشكيل اتجاهات الناخبين الأمريكيين، إذ لم تكن هذه المقولة صحيحة فى عدد كبير من المناسبات الانتخابية الحاسمة فى التاريخ الأمريكى منذ الحرب العالمية الثانية على الأقل، فقد بقى الرئيس فرانكلين روزفلت فى البيت الأبيض أربع فترات رئاسية كانت المرتان الأخيرتان فيهما على الأقل بسبب الحاجة إلى استمرار قيادته للبلاد فى الحرب العالمية الثانية حتى لقد عدل الدستور من أجل ذلك، ولهذا السبب ذاته، ولمواجهة ترتيبات عالم ما بعد الحرب انتخب نائبه هارى ترومان لخلافته، وحين اضطر الرئيس ليندون جونسون فى عام ١٩٦٨ إلى عدم ترشيح نفسه لفترة رئاسية ثانية، فقد كان ذلك راجعاً إلى الفشل فى حرب فيتنام وكان تعهد خلفه «الجمهورى» ريتشارد نيكسون بإنهاء هذه الحرب هو السبب الرئيسى فى انتخابه بل إن انتخاب جونسون فى المرة الأولى كان راجعاً فى جزء كبير منه إلى انتصار سلفه الديمقراطى جون كينيدى فى أزمة الصواريخ الكوبية، أما الرئيس جيمى كارتر فقد أطاح به الناخبون عام ١٩٨٠ لفشله فى إنهاء أزمة رهائن السفارة الأمريكية، وفيما يتعلق بالرئيس الحالى جورج بوش الابن فقد كان حصوله على فترة الرئاسة الثانية عائداً بالدرجة الأولى للسياسة الخارجية، إذ كانت البلاد ولازالت منغمسة فى الحروب التى أعقبت هجمات الحادى عشر من سبتمبر الإرهابية وها نحن نرى السياسة الخارجية عاملاً حاسماً فى انتخابات التجديد النصفى الأخيرة للكونجرس، وربما كانت هذه أكثر الانتخابات النيابية الأمريكية تأثراً بالسياسة الخارجية بما أن كل الأمثلة السابقة تتعلق بالانتخابات الرئاسية.

لكن القراءة الأعمق لنتائج هذه الانتخابات فى ميدان السياسة الخارجية تتطلب - كما قلنا من قبل - عدم الاكتفاء باعتبارها عقاباً أو حكماً بالفشل على أداء إدارة الرئيس بوش الابن فى العراق، ومن ثم تتطلب النظر إلى ما يعنيه هذا الفشل فى السياق الشامل للسياسة الأمريكية الخارجية أصولاً ومنهجاً ونتائج على المدى الطويل نسبياً.

إن الفشل فى العراق يبدأ من ثبوت افتعال ذريعة الغزو، وتلفيق المعلومات، وتضليل الرأى العام والكونجرس، ولم يكن معارضو هذه الحرب داخل الولايات المتحدة نفسها بأقل من معارضيها فى الخارج إدراكاً أن قرار غزو العراق لا صلة حقيقية له بالحرب ضد الإرهاب، وإنما هو الحلقة الأهم أو البداية فى المشروع الإمبراطورى للمحافظين الجدد، وأن الحلقات سوف تترى إذا تحقق النجاح فى العراق، ويروى بوب ودوارد (صحفى ووترجيت) فى كتابه الأخير حالة إنكار أن الرئيس بوش عندما أراد أن يهون على الجنرال جاى جارنر قرار إقالته المفاجئ من منصب الحاكم العسكرى للعراق عرض عليه - وهو يربت على كتفه - أن يختار إما أن يحكم إيران أو أن يحكم كوبا لأن دور كل منهما آت قريباً، فكان أن اختار جارنر كوبا - ولو على سبيل الدعابة - لأن السيجار ومشروب الروم هناك لا يقاومان، كما أن النساء الكوبيات أجمل من نساء إيران.!! وبالطبع فإننا فى هذه المنطقة لم ننس بعد أن سوريا تلقت تهديداً صريحاً بتغيير النظام فيها بالقوة بعد أيام من سقوط بغداد، وكذلك تحدث كتاب المحافظين الجدد عن خطط للتغيير القسرى فى مصر والسعودية وعن خطط لإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط بالكامل مرة تحت اسم الشرق الأوسط الكبير، وأخرى الشرق الأوسط الموسع، وثالثة الشرق الأوسط الجديد.

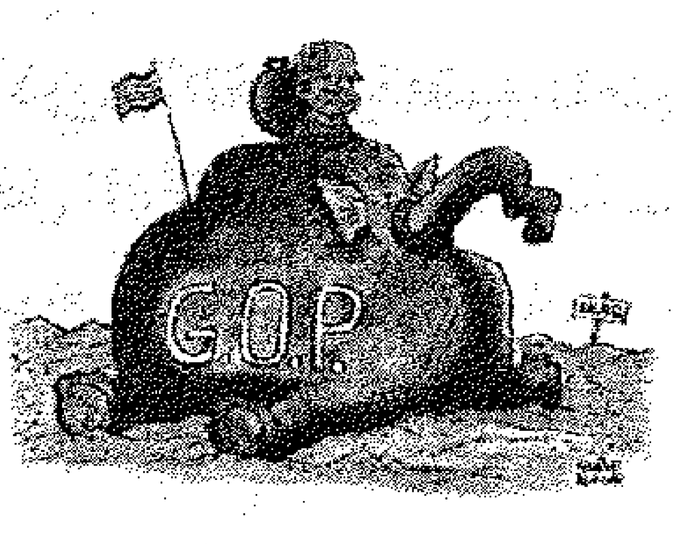
إذن تأتى نتائج الانتخابات الأخيرة فى الولايات المتحدة كاشفة ومقررة فى ذات الوقت لسقوط المشروع الإمبراطورى للمحافظين الجدد، بل وإذا استخدمنا تعبيرات ريتشارد هاس أحد المحافظين الجدد التائبين فى مقاله المهم فى عدد نوفمبر / ديسمبر من مجلة فورين آفيرز فإن الحقبة الأمريكية فى الشرق الأوسط قد وصلت إلى نهايتها وأن هذه النهاية كتبت فى بغداد، والمقصود هو أن الولايات المتحدة فقدت حريتها المطلقة فى العمل والإملاء فى هذه المنطقة من العالم وهى الحرية التى دامت طيلة العقدين التاليين لسقوط الاتحاد السوفيتى وعليه فسوف يتعين على الولايات المتحدة من الآن فصاعداً أن تعمل مع شركاء إقليميين ودوليين فى المنطقة.

لكن الشرق الأوسط جزء من العالم، والمشروع الأمريكى الفاشل فيه كان جزءاً من مشروع أمريكى للعالم كله، يعكس رؤية المحافظين الجدد لمستقبل العلاقات الدولية والسياسة الخارجية الأمريكية عموماً.

هكذا ندخل فى صلب الجدل القديم المتجدد بين المدرستين أو التيارين الرئيسيين فى الولايات المتحدة فى ميدان السياسة الخارجية، المدرسة الأولى هى المدرسة المحافظة التى يمثلها دائماً الحزب الجمهورى والتى تعتز بتقاليد العزلة عن العالم الخارجى والثانية هى مدرسة الليبرالية الدولية التى يعبر عنها عادة الحزب الديمقراطى وهى تؤمن بأن العزلة غير ممكنة، وغير مفيدة، وأن المصالح الأمريكية يمكن أن تتحقق من خلال نظام دولى تقوده الولايات المتحدة، ويعتمد على مبدأ التفاوض والمشاركة، ولابد من الانتباه هنا إلى أن كل مدرسة منهما تحتوى على اتجاهات فرعية تتباين فيما بينهما فى درجة الالتزام بالخط الرئيسى، فمثلاً كانت هناك ليبرالية متطرفة بالمقاييس الأمريكية من أشهر رموزها ادلاى ستيفنسون المرشح الديمقراطى للرئاسة أمام الرئيس ايزنهاور والمندوب الأمريكى فى الأمم المتحدة فى إدارة الرئيس جون كينيدى وهيوبرت همفرى نائب الرئيس جونسون، وكانت هناك ليبرالية محافظة كما فى حالة السيناتور الراحل هنرى جاكسون أو السيناتور جوزيف ليبرمان حالياً، فى حين وجدت محافظة متطرفة لدى مرشح انتخابات الرئاسة الجمهورى عام ١٩٦٤ ووزير خارجية ريجان الأول الكسندر هيج مثلاً، كما وجدت محافظة معتدلة أو واقعية فى حالة الرئيس ريتشارد نيكسون ووزير خارجيته هنرى كيسنجر، أو الرئيس جورج بوش الأب وكل من وزير خارجية جيمس بيكر، ومستشاره للأمن القومى برنت سكوكروفت، أما المحافظون الجدد فهم أحدث ماأنتجه الفكر المحافظ فى مجال السياسة الخارجية وكانوا هم التعبير العصرى عن تقاليد العزلة فى السياسة الخارجية الأمريكية.. كيف؟

إن العزلة بمعناها التقليدى كانت تعنى عدم التورط أو التدخل فى المشكلات والصراعات الأوروبية وذلك عندما كانت الولايات المتحدة دولة ناشئة، وحتى بعد أن تطورت لتصبح قوة كبيرة بين قوى كبيرة أخرى، ولكن بعد أن أصبحت هى القوة العظمى الوحيدة فإن معنى العزلة ينبغى أن يتطور ليصبح الانفراد بإدارة شئون العالم الذى يراه المحافظون الجدد «عالماً هوبزيا» أى مليئاً بالشرور والفوضى طبقاً لنظرية الفيلسوف البريطانى توماس هوبز الذى عاش فى القرن السابع عشر على ألا تحد من الحرية الأمريكية فى الحركة قوانين أو تنظيمات دولية، واستثمارا للتفوق الأمريكى الكاسح فى الاقتصاد والتكنولوجيا والتسلح وأخيراً تطبيقاً لمقولة «أن ماهو فى مصلحة أمريكا لابد أن يكون فى مصلحة العالم». وكان ذلك هو المدخل للمشروع الإمبراطورى للمحافظين الجدد، والذى بدأ (وانتهى) بغزو العراق متذرعاً بهجمات الحادى عشر من سبتمبر على نيويورك وواشنطن كان ذلك المشروع فى السياق السابق شرحه يعد انقلابا على منهج الليبرالية الدولية الذى ساد السياسة الخارجية الأمريكية فى معظم فتراتها منذ الحرب العالمية الثانية وهو منهج ينطلق من رؤية «كانطية» للعالم.. أى من رؤية الفيلسوف الألمانى عمانويل كانط الذى ارتأى العالم قابلاً لحكم العقل وبالتالى لحلول السلام فيه.

ويعود الظهور القوى الأول لهذا المنهج الليبرالى أو «الكانطى» إلى فترة حكم الرئيس (الديمقراطى) وودرو ويلسون فى أثناء الحرب العالمية الأولى، ولكن تقاليد العزلة بمعناها القديم كانت أقوى فحالت



انقلاب ٧ نوفمبر

بين ويلسون وبين متابعة سياسة خارجية ليبرالية تقوم على المشاركة التعاونية فى شئون العالم وفقاً لمبادئ قانونية تتعاقد عليها، وفى إطار تنظيمات فوق قومية أو دولية، فكان أن انسحبت الولايات المتحدة من شئون العالم ومنظماته بعيد اتفاقيات فرساى التى أنهت الحرب العالمية الأولى، وجاءت الحرب العالمية الثانية لتكفل نصراً نهائياً حتى إشعار آخر لتيار الليبرالية الدولية فى السياسة الخارجية الأمريكية على يد الرئيس فرانكلين روزفلت، وكان الرجل تواقاً للانغماس فى شئون العالم كما كان يرى الفرص السانحة فى هذا الدور من ناحية المثل السياسية، ومن ناحية المصالح الواقعية، ولكن كان عليه أن يتدرج فى قيادة الرأى العام والكونجرس من موقف الابتعاد عن هذه الحرب الأوروبية إلى قيادة معسكر الحلفاء فيها، وعبر ملحمة طويلة بدأت بقانون الإعارة والتأجير أى تأجير وإعارة معدات المجهود الحربى لبريطانيا طبقاً لمثله المشهور عن «إعارة خرطوم مياه لجارك ليطفئ الحريق الناشب فى بيته حتى لا يمتد إلى بيتك»، فقد انتهت جهود روزفلت إلى ميثاق الأطلنطى الذى تأسست بموجبه الأمم المتحدة لقيادة نظام عالمى تضامنى وهكذا أصبحت معالم الليبرالية الدولية فى السياسة الخارجية الأمريكية تتمثل فى الانخراط فى الشئون الدولية فى إطار مشاركة مع القوى الفاعلة الأخرى تحت قيادة الأمم المتحدة التى تلعب فيها الولايات المتحدة دوراً خاصاً، وكبيراً مع اعتماد التفاوض منهجاً وأداة رئيسية فى إدارة العلاقات الدولية.

بطبيعة الحال ليس خافياً أن نشوب الحرب الباردة وانفجار الصراع الأيديولوجى بين الشرق الشيوعى والغرب الرأسمالى قد أديا إلى كثير من العثرات فى طريق هذا النظام الدولى الجديد، ولكن الجمع بين سياسة الاحتواء ومنهج التفاوض أدى إلى مفاوضات الحد من التسلح فالوفاق، فالأمن والتعاون الأوروبيين، فسقوط الاتحاد السوفيتى وانتهاء الحرب الباردة ليواجه الأمريكيون بالاختيار وما بين الانفراد بإدارة شئون العالم بالإملاء وفقاً لأيديولوجية المحافظين الجدد، مابين مواصلة منهج الليبرالية الدولية الذى كان التعبير الجديد عنه هو مذهب كلينتون فى العولمة، ونظرية البروفيسور مايكل مان أستاذ العلاقات الدولية بجامعة كولومبيا حول الهيمنة ضد الإمبراطورية الواردة فى كتابه المهم «الإمبراطورية العاجزة».

الهيمنة هنا تعنى القيادة وهى تسلم للولايات المتحدة بالتفوق على جميع الشركاء فى النظام العالمى، وتسلم كذلك بحاجة العالم نفسه إلى هذا الدور القيادى الأمريكى، ولكنها تختلف عن المشروع الإمبراطورى من حيث إن التفوق لا يعنى الانفراد بالحق والقدرة على فعل كل شىء، وأى شىء، وإنكار حق الآخرين فى الاختلاف ورفض السعى لإلزام الولايات المتحدة بمعايير للسلوك سبق إقرارها فى إطار النظام الدولى.

تختلف الهيمنة بمعنى القيادة عن الإمبراطورية فى أن الأدوات الرئيسية فى الحالة الأولى هى مصادر ووسائل القوة الناعمة، وتشمل الإلهام، وتحديد معالم الطريق، والأداة الدبلوماسية وعوامل القوة الاقتصادية، والتقدم التكنولوجى، والتأثير الثقافى، مع استبقاء القوة المسلحة حلاً استثنائيا وملاذاً أخيراً ولكن فى إطار المعايير التى حددها النظام الدولى لاستخدام القوة وذلك حتى لا يعود العالم إلى عصور ما قبل التنظيم الدولى أى إلى عصر الفتح والغزو. وبذلك يتقوض البناء الكبير الذى أمضت البشرية أحقاباً طويلة فى تشييده بالدماء والآلام.. حتى وإن لم يكن قد اكتمل من جميع جوانبه، وإن كان بعض سكانه لا يزالون يشكون من شروخ فيه، نقصد بهذا البناء ذلك التراث الطويل من الاتفاقيات والمواثيق متعددة الأطراف، وكذلك هذه السلسلة من المنظمات والمؤسسات الدولية العاملة فى كل الميادين والتى أحدثت نقلة نوعية فى تاريخ هذا الكوكب.

وفقاً لهذه الرؤية الليبرالية لم يكن غزو العراق بذرائع ملفقة، ولأهداف استعمارية إمبراطورية هو التطبيق الوحيد لأيديولوجية المحافظين الجدد فى السياسة الخارجية أى أيديولوجية الانفراد والإملاء والاستعمار، وإن كان هو أكثر الأمثلة إثارة للاهتمام، فقد سبق لإدارة بوش أن انسحبت من اتفاقية إنشاء المحكمة الجنائية الدولية، ومن اتفاقية كيوتو لحماية مناخ الأرض، وبدأت هذه الإدارة عملها بالتحرش بالصين، واعتبارها عدواً إستراتيجياً للولايات المتحدة، ثم شنت حرباً نفسية ودبلوماسية على مشروع إنشاء قوة انتشار أوروبية سريعة وحاولت قبل أن تبتلعها ورطة العراق التحلل من كافة قيودها التعاقدية مع روسيا لضبط التسلح الإستراتيجى بإحياء برنامج الدفاع الصاروخى الشامل عن الأراضى الأمريكية لتحويل الولايات المتحدة إلى قلعة حصينة وسط عالم مكشوف أمام أسلحتها، وأخيراً - وليس آخراً كما يقولون - أبطلت الاتفاقيات التى كانت إدارة كلينتون السابقة عليها قد توصلت إليها مع كوريا الشمالية حتى تفكك الأخيرة برنامجها للتسلح النووى وتعود للانضمام لنظام منع الانتشار النووى.

إذن فقد انقلبت السياسة الخارجية الأمريكية تحت قيادة بوش وأيديولوجية المحافظين الجدد على كل التقاليد الليبرالية، بل وعلى تقاليد المحافظين الواقعيين، ولكنها لم تحصد بعد ست سنوات إلا فشلاً وراء فشل فى كل اتجاه، وكانت النتيجة النهائية لهذه السياسات هى أن العالم أصبح مكانا أكثر خطورة على الولايات المتحدة نفسها، أى أن إدارة الرئيس بوش حولت العالم إلى بيئة معادية للولايات المتحدة، فى وقت رأينا فيه أن نظرية الهيمنة ضد الإمبراطورية تسلم ضمن بقية مسلماتها بأن العالم يشعر بالحاجة إلى الدور القيادى الأمريكى، ويقدر هذا الدور ويراه لازماً لحفظ السلم والأمن الدوليين، بمعنى أن ليس هناك ما يحتم تحول العالم إلى بيئة معادية للأمريكيين بل إن العكس هو الصحيح.

لشرح هذه «المسلمة» دعونا نفترض جدلاً أن الولايات المتحدة انسحبت من الشئون الدولية عائدة إلى عزلتها بين المحيطين، فالمرجح فى هذه الحالة أن الصراعات القومية والجيوبوليتكية القديمة فى أوروبا وآسيا سوف تتجدد، وسوف تضاف إليها صراعات جديدة، فقد كانت الولايات المتحدة ولاتزال هى حافظة التوازن بين القوى الكبرى فى أخطر مناطق العالم، ويتذكر كاتب هذه السطور أنه سمع فى سنغافورة أو جاكرتا عبارات وألفاظاً مماثلة لما سمعه فى براج أو بروكسل حول أهمية الدور الأمريكى للسلم والأمن الدوليين، فالآسيويون يفزعون من مجرد التفكير فى احتمال انسحاب الولايات المتحدة من الباسيفيك والمحيط الهندى إذ أنهم سيجدون أنفسهم بلا غطاء فى مواجهة الصراع أو الوفاق الصينى اليابانى، كذلك يشعر الأوروبيون خصوصاً فى الدول المتوسطة والصغيرة أن كل شىء على ما يرام مادام الدور الأمريكى فاعلاً فى قارتهم، فلا خوف من التوسع الروسى أو عودة النزعة العدوانية للقومية الألمانية.. الخ.

بالطبع يجب الانتباه هنا إلى المفارقة المتمثلة فى أننا فى الشرق الأوسط لا نرى فى الدور الأمريكى فى منطقتنا مثل هذه الإيجابيات بسبب الارتباط الخاص بين الولايات المتحدة وإسرائيل؛ كذلك لا يرى الكثيرون فى أمريكا اللاتينية السياسة الخارجية الأمريكية بسبب تحالفها مع أكثر نظم الحكم رجعية واستغلالا وقمعاً فى القارة فى الماضى، ولا جدال فى أن السياسة الأمريكية فى هاتين المنطقتين من العالم تشكل ثغرتين خطيرتين فى الدور القيادى الأمريكى للنظام الدولى.

لإعادة تجميع وتركيز ما تشعب من خيوط الحديث، نتذكر أن التيار الليبرالى فى السياسة الخارجية الأمريكية لا يؤمن بالعزلة، ولكن لا يؤمن أيضاً بالإملاء والانفراد بإدارة شئون العالم خارج المعايير التى تشكل فى جملتها ما يسمى بالنظام والقانون الدوليين، ويدعو بدلاً من ذلك إلى تفعيل القيادة الأمريكية - المسلم بها من الجميع - لهذا النظام الدولى، ولذا فهو يفضل الدبلوماسية الوقائية، وحل النزاعات بالتفاوض بديلاً للحرب الاستباقية، وقد كان الفشل فى العراق (وفى كوريا الشمالية أيضاً) سبباً ومناسبة لتحويل انتخابات السابع من نوفمبر الماضى للتجديد النصفى إلى الكونجرس إلى استفتاء للناخبين على الاختيار بين هذه الرؤية الليبرالية «الكانطية» للعالم وللدور الأمريكى فى شئونه وبين رؤية المحافظين الجدد لإمكانية إقامة إمبراطورية أمريكية على أنقاض النظام الدولى الذى أورثه القرن العشرون للبشرية، وكانت النتيجة هى ما رأينا وسمعنا.. ضد الإمبراطورية.. وضد الأيديولوجية «الهوبزية» وضد ظهور قيصر أو أغسطس معاصرين فى واشنطن. ■

تأتى نتائج الانتخابات الأخيرة فى الولايات المتحدة كاشفة ومقررة فى ذات الوقت لسقوط المشروع الإمبراطورى للمحافظين الجدد

أحمد إبراهيم محمود

"قاعدة الصومال!"

الثابت أن التحالفات التى بناها بن لادن فى الساحة الصومالية وقتذاك لم تكن بالضرورة مبنية على أساس أيديولوجى - عقيدى، وانما غلبت عليها البراجماتية واعتبارات السياسة العملية

تعتبر مسألة العلاقة بين اتحاد المحاكم الإسلامية وتنظيم القاعدة المسألة الأكثر أهمية على الإطلاق من بين محددات التعامل الدولى والإقليمى مع التطورات الجارية فى الصومال، بدءاً من البروز القوى للمحاكم في مناطق جنوب ووسط الصومال، وصولاً إلى احتمالات سيطرتهم على الحكم فى الصومال، أو على الأقل مشاركتهم فيه. فقد قصرت الولايات المتحدة والعديد من القوى الدولية والإقليمية الأخرى اهتمامها بتطورات المسألة الصومالية على انعكاساتها على الحرب على الإرهاب عموماً، وعلى إمكانية أن تؤدى سيطرة المحاكم الإسلامية إلى تحويل الصومال إلى ملاذ آمن لتنظيم القاعدة ومركز جديد لإدارة معركته مع الولايات المتحدة والغرب.

فالولايات المتحدة والعديد من الأطراف الغربية الأخرى تذهب إلى أن سيطرة المحاكم يمكن أن تحول الصومال إلى ملاذ آمن Safe Haven لتنظيم القاعدة، كما يؤكدون على أن اتحاد المحاكم الإسلامية يرتبط بعلاقات تنظيمية وثيقة مع تنظيم القاعدة منذ فترة طويلة، وأن هذه العلاقات ما زالت قائمة حتى الآن، ويؤكدون على أن بعض قادة المحاكم يرتبطون بعلاقات تنظيمية مع القاعدة، وفى مقدمتهم الشيخ طاهر حسن عويس رئيس مجلس الشورى بالمجلس الأعلى للمحاكم الإسلامية، الذى تعتبره إدارة جورج بوش رجل القاعدة فى الصومال، ويوجد أسمه على لائحة أخطر الإرهابيين. وتتهم الولايات المتحدة المحاكم بإيواء عدد من أعضاء القاعدة، كما يثير مخاوف من إمكانية مشاركة المحاكم فى عمليات القاعدة فى القرن الأفريقى وشرق أفريقيا، لاسيما من حيث إمكانية توفير الدعم اللوجستى.

فى المقابل، دأب قادة المحاكم من جانبهم على نفى وجود علاقات مع تنظيم القاعدة، ويؤكدون على أن الإدارة الأمريكية تتلقى معلومات مضللة فى هذا الصدد من جانب أطراف إقليمية ذات مصلحة فى توتير العلاقات بين المحاكم والولايات المتحدة، كما تبرأ قادة المحاكم من تصريحات أسامة بن لادن التى اعتبر فيها الصومال ساحة مفتوحة للحرب مع الولايات المتحدة، وأكدوا على أن ما قامت به المحاكم الشرعية هو عمل صومالى بحت، ولا علاقة له بأى طرف خارجى.



دور أسامة بن لادن وأتباعه فى الصومال لم يكن بلا ثمن، وإنما أصبحوا مطلوبين بشدة من جانب الولايات المتحدة عقب انسحاب القوات الأمريكية من الصومال، وباتوا مستهدفين فى ملاذهم السودانى

ويشير ما سبق إلى حجم التعقيد المحيط بهذه المسألة فى ظل الافتقار إلى أدلة حاسمة بشأن وجود أو عدم وجود علاقة بين المحاكم والقاعدة، كما تتسم هذه المسألة بأهمية كبرى فى سياق استشراف آفاق التطور المحتملة للمسألة الصومالية، وهو ما يستوجب رصد وتحليل مختلف أبعاد مسألة العلاقة المزعومة بين القاعدة والمحاكم، مع تقدير الأوزان النسبية للحجج التى يطرحها كل طرف بشأن هذه المسألة.

علاقات قديمة

ربما يتمثل أهم ما ترتكز عليه الاتهامات الأمريكية والغربية بشأن وقوف القاعدة وراء اتحاد المحاكم الإسلامية فى أنه كانت هناك بالفعل علاقات تعاون وثيقة بين الجانبين فى فترات سابقة تعود إلى بداية التسعينيات، حيث جاءت بداية ظهور تنظيم القاعدة فى الصومال أثناء التدخل الأمريكى - الدولى فى الصومال خلال الفترة ١٩٩٢ - ١٩٩٤، ولم تكن جماعة أسامة بن لادن تحمل اسم القاعدة وقتذاك أصلاً، وإنما كان أسامة بن لادن ومساعدوه يقيمون فى تلك الفترة فى السودان، وبدأ منها فى التطور فكرياً وحركياً فى اتجاه اعتناق الفكر الجهادى.

وكانت مشاركة أسامة بن لادن وجماعته فى المواجهة ضد القوات الأمريكية والدولية فى الصومال مرحلة تطور بالغة الأهمية على مستوى التحول الفكرى والحركى، لأنها كانت التجسيد الأول لهذا التحول فى اتجاه اعتبار الولايات المتحدة «العدو الأول» فى فكر بن لادن، بعدما كان قد تعاون معها طيلة الثمانينيات أثناء فترة الاحتلال السوفيتى لأفغانستان، ولكنه بدأ فى النظر للولايات المتحدة كـ «عدو» عندما بدأت القوات الأمريكية تنتشر فى الأراضى السعودية فى إطار عملية درع الصحراء عقب الغزو العراقى للكويت فى عام ١٩٩٠، وهو ما كان قد رفضه بشدة، وطالب الحكومة السعودية بعدم الاعتماد على القوات الأمريكية، والاعتماد بدلاً من ذلك على جيش عربى - إسلامى يحرر الكويت، وهو طرح لم تعتد به الحكومة السعودية أصلاً، وبدأت علاقة بن لادن تتوتر بعدها مع السلطات السعودية، وانتقل على أثر ذلك للإقامة فى السودان.

وانطلاقاً من مقر إقامته فى السودان، بدأ بن لادن فى تطبيق هذا التحول الفكرى فى نظرته للولايات المتحدة على أرض الصومال. وطبقاً لمعلومات مستقاة من تقارير الاستخبارات البريطانية، فإن أبو عبيدة البنشيرى تولى مسئولية عملية التنظيم فى الصومال، وقام نائبه محمد عاطف بعدة زيارات للصومال فى عام ١٩٩٣، كما قام العديد من كوادر التنظيم، بما فى ذلك مسئول التدريب على محمد وصادق محمد عوض، حيث قاموا بإنشاء العديد من معسكرات التدريب للمقاتلين الصوماليين للقيام بعمليات مقاومة مسلحة ضد القوات الأمريكية والدولية[1].

والثابت أن التحالفات التى بناها بن لادن فى الساحة الصومالية وقتذاك لم تكن بالضرورة مبنية على أساس أيديولوجى - عقيدى، وإنما غلبت عليها البراجماتية واعتبارات السياسة العملية، وهو ما يندرج فى إطار خاصية تقليدية معروفة فى فكر بن لادن، تتمثل فى كونه دأب دائماً على إسباغ رعايته على كل راغب فى القتال ضد الأمريكيين وأتباعهم، بغض النظر عن معتقداتهم الفكرية وخلفياتهم السياسية.

ولذلك، لم يقصر بن لادن تحالفاته على الجماعات الإسلامية - الأصولية، ممثلة فى جماعة «الاتحاد الإسلامى» The Islamic Union، وإنما تعاون أيضاً مع ميليشيات الجنرال محمد فارح عيديد، فى إطار ما كان يعرف وقتذاك بـ «التحالف الوطنى الصومالى» The Somali National Alliance (SNA)، وهو تحالف عشائرى علمانى، كان يمتلك موارد قوة بشرية واقتصادية وعسكرية واسعة، كما كان يسيطر على مناطق واسعة قبل التدخل الأمريكى - الدولى. ورغم عدم وجود أرضية فكرية مشتركة بين هذا التحالف وأسامة بن لادن، فإن الجانبين تعاونا معاً فى العمل ضد القوات الأمريكية والدولية فى الصومال، بحكم الالتقاء فى الأهداف، وإن اختلفا فى الدوافع والإطار الأيديولوجى - السياسى الأوسع.

على أن العلاقات الأعمق هى تلك التى بناها بن لادن وأتباعه وقتذاك مع جماعة الاتحاد الإسلامى، والتى كان يقودها وقتذاك الشيخ على ورسمه، ونائبه الكولونيل حسن طاهر عويس الذى كان يقود الجناح العسكرى للحركة. والاتحاد الإسلامى جماعة أصولية لا يقتصر نشاطها على الصومال، وإنما يمتد نشاطها إلى إقليم الأوجادين الذى تحتله إثيوبيا، ويعتبر الآن جزءاً من الدولة الإثيوبية، بل إن الكثير من قادة وعناصر هذه الحركة هم من صوماليى الأوجادين.

وينصب تركيز الحركة على تنفيذ الحلم التاريخى بإنشاء الصومال الكبير على أرضية إسلامية، وتقوم أفكار الجماعة على أنه بعد فشل القوى العلمانية فى تحقيق الوحدة، فإن الدين الإسلامى وحده هو القادر على تجميع شتات الحركة الوطنية الصومالية، وهو الوحيد الذى يمكنه أن يوحد جهود الصوماليين حول هدف الوحدة وإقامة الصومال الكبير، كما شاركت الجماعة فى الحرب ضد نظام سياد برى، وأقامت مناطق نفوذ لها فى عدد من المناطق، وكان مركزها الرئيسى فى منطقة لوق بإقليم جيدو.

وقد قدم أتباع بن لادن وقتذاك التدريب والخبرة القتالية والدعم اللوجستى للطرفين المذكورين فى الصومال، حيث قاموا بتدريب العشرات من المقاتلين الصوماليين، من أجل استنزاف القوات الأمريكية والدولية فى الصومال، واستفاد بن لادن من الفوضى العارمة التى اتسمت بها عملية التدخل فى الصومال، لاسيما بعدما تحولت القوات الدولية والأمريكية إلى طرف فى الصراع، بإصرارها على اعتقال الجنرال محمد فارح عيديد، ثم تنفيذها للعديد من عمليات الاستخدام العشوائى للقوة العسكرية، مما أثار حالة من السخط العام فى صفوف الصوماليين ضد القوات الأمريكية والدولية.

وجرى تنفيذ هجمات واسعة ضد القوات الدولية، ثم وصل الصراع إلى ذروته فى ٣ أكتوبر ١٩٩٣، خلال الاشتباك الذى وقع بين قوات دلتا الأمريكية ومقاتلين صوماليين، أسفر عن سقوط طائرتى هليكوبتر أمريكيتين، ومقتل ١٨ جندياً أمريكياً، وجندى ماليزى واحد، وأصيب ٩٠ جندياً أمريكياً وباكستانياً وماليزياً، ووقوع طيار أمريكى واحد فى الأسر. أما على الجانب الصومالى، فقد تباينت التقديرات بشأن حجم الخسائر البشرية، حيث قدرها البعض بـ ٣١٢ قتيلا، وإصابة حوالى ٨١٤ فرداً آخرين، بينما قدرها آخرون بحوالى ألف قتيل صومالى. وقامت الحشود الصومالية الغاضبة بالتمثيل بجثة جندى أمريكى فى شوارع مقديشو[2]، مما دفع إدارة بيل كلينتون إلى سحب قواتها من الصومال.

ومن غير الواضح بدقة حجم مساهمة أتباع بن لادن فى الاشتباكات التى جرت ضد القوات الدولية والأمريكية، حيث كان بن لادن يمتنع وقتذاك عن الإعلان عن مشاركته الصريحة فى العمليات القتالية ضد القوات الأمريكية والدولية فى الصومال، والامتناع حتى عن التأييد الصريح لها، حتى لا يوقع حكومة السودان - التى كانت تستضيفه وقتذاك - فى حرج إضافى مع الولايات المتحدة وقوى دولية أخرى، وكان بدلاً من ذلك يكتفى بإطلاق عبارات عامة مطاطة يمكن أن يفهم منها هذا المعنى بصورة غير مباشرة، وإن كانت تصريحات بن لادن وأتباعه فى فترة لاحقة هى التى كشفت بصورة أدق أبعاد دورهم فى الصومال.

وفى ضوء مواقفه المعلنة، فإن بن لادن اعتبر أن مشاركة أتباعه فى الاشتباكات التى وقعت فى الصومال كانت أساسية، إلا أن تقديرات العديد من الأطراف الأخرى تشير إلى أن مشاركتهم فى القتال كانت هامشية. واعتبر أسامة بن لادن أن ما جرى فى الصومال كان انتصاراً للصوماليين، بالتعاون مع بعض المجاهدين العرب الذى كانوا قد شاركوا فى الجهاد ضد الاحتلال السوفيتى فى أفغانستان[3]، إلا أن أسامة بن لادن كان فى المقابل قد أعرب فى أحد أحاديثه عن استيائه الشديد من «الهروب السريع جداً» للقوات الأمريكية من الصومال، إثر مقتل عدد من جنودهم، حيث كان «يتمنى أن يمكثوا لفترة أطول حتى يقاتلهم»[4]، فيما يشير إلى أنه كان يرغب فى خوض حرب استنزاف طويلة الأمد فى الصومال ضد القوات الأمريكية.

على أن دور أسامة بن لادن وأتباعه فى الصومال لم يكن بلا ثمن، وإنما أصبحوا مطلوبين بشدة من جانب الولايات المتحدة عقب انسحاب القوات الأمريكية من الصومال، وباتوا مستهدفين فى ملاذهم السودانى، وتعرضت حكومة الإنقاذ فى الخرطوم عقب ذلك لضغوط أمريكية ودولية عنيفة لتسليم بن لادن وأتباعه أو طردهم، وكان ذلك أحد دوافعهم للانتقال بعد ذلك إلى أفغانستان، عقب سيطرة حركة طالبان على أغلب الأراضى الأفغانية.

وعقب انتقاله إلى أفغانستان، لم يكن للصومال نصيب كبير فى اهتمامات أسامة بن لادن، وإنما تحول التركيز إلى مناطق أخرى تعج بالمصالح الأمريكية والغربية. ومع أن بن لادن توقف بعد ذلك عن اعتبار الصومال ساحة رئيسية للعمليات ضد الولايات المتحدة، فإن ذلك لم يؤد لانتهاء العلاقة بينه وبين جماعة الاتحاد الإسلامى، وإنما كان هناك شكلان للعلاقة بينهما خلال النصف الثانى من تسعينيات القرن الماضى، وهما:

الأول: ما تردد عن قيام أسامة بن لادن بإرسال المئات من المجاهدين العرب للمشاركة فى الهجمات التى شنتها جماعة الاتحاد الإسلامى ضد إثيوبيا[5]، إلا أن الثابت أن الحركة تلقت ضربات موجعة أصابت أعضاءها من الصوماليين والأجانب فى آن واحد معاً، حيث نفذت إثيوبيا عدة هجمات واسعة فى الحركة، كان أعنفها ذلك الذى حدث فى يناير ١٩٩٧، وقتل خلاله العشرات من قادة وأعضاء الاتحاد الإسلامى من الصوماليين والأجانب، وكان الهجوم الإثيوبى عنيفاً لدرجة أنه قضى بدرجة كبيرة على القدرة العسكرية للحركة.

الثانى: استخدام تنظيم القاعدة للصومال كمحطة ترانزيت فى تنفيذ هجمات على دول مجاورة، حيث استفاد تنظيم القاعدة من التسهيلات اللوجستية التى قدمتها له جماعة الاتحاد الإسلامى لتنفيذ عمليات تفجير السفارتين الأمريكيتين فى نيروبى ودار السلام فى عام ١٩٩٨، فضلاً



«قاعدة» الصومال!

عن تنفيذ الهجومين المتزامنين فى مدينة مومباسا الكينية فى نوفمبر ٢٠٠٢، والذى كان أولهما ضد فندق «باراديس» الذى يرتاده إسرائيليون، بواسطة سيارة مفخخة، وأسفر الهجوم عن مقتل ١١ شخصاً، بينهم ٦ كينيين وإسرائيليان، إلى جانب منفذى الهجوم، فضلاً عن حرق المبنى بالكامل، بينما استهدف الهجوم الثانى طائرة مدنية إسرائيلية تقل مئات السائحين الإسرائيليين العائدين عقب انقضاء إجازاتهم فى كينيا، إلا أن الصاروخين لم يصيبا الطائرة.

ويشير العديد من التقارير إلى أن الكولونيل طاهر حسن عويس نائب رئيس جماعة الاتحاد الإسلامى وقائد الجناح العسكرى فيه كان ضالعاً فى تلك العمليات، لاسيما فيما يتعلق بتوفير الدعم اللوجستى لعناصر القاعدة الذين نفذوا تفجيرات نيروبى ودار السلام، ويأتى بعده مساعده الرئيسى حاشى عيرو الذى قاد الجماعة التى تولت توفير الحماية لعناصر القاعدة الذين نفذوا عمليات نيروبى ودار السلام وومباسا.

وقد تركت تفجيرات نيروبى ودار السلام آثاراً بعيدة المدى على الموقف الدولى من تنظيم القاعدة والاتحاد الإسلامى فى آن معاً، حيث أتجهت أصابع الاتهام منذ البداية نحو القاعدة بوصفها المسئول عن تلك التفجيرات، ثم تبلورت هذه الاتهامات رسمياً من خلال قرار الاتهام الصادر من السلطات القضائية فى ولاية نيويورك فى نوفمبر ١٩٩٨، والذى تضمن قائمة من المتهمين تشمل زعيم القاعدة أسامة بن لادن والقائد العسكرى للتنظيم محمد عاطف، كما تشمل عدداً آخر من المتهمين من أعضاء القاعدة هم: عبد الله أحمد عبد الله، وفاضل عبد الله محمد، وأحمد سليم سويدان، وأنس الليبى، وأحمد محمد حامد على، وفهد محمد على مسلم، وسيف العدل[٦]. وفى ٧ نوفمبر ٢٠٠١، وضعت الإدارة الأمريكية الشيخ طاهر حسن عويس ضمن قائمة الإرهابيين، لدوره فى تفجيرات نيروبى ودار السلام، وإن لم تصدر بحقه مذكرة اعتقال دولية.

هذا التعاون الوثيق بين القاعدة والاتحاد الإسلامى لا ينفى أن هناك حدوداً واضحة للعلاقة بينهما، وهى حدود تشى بضحالة هذه العلاقة ومحدوديتها. فالاتحاد الإسلامى لم يكن فى أى مرحلة من المراحل قريباً من أسامة بن لادن، مثل الجماعات الجهادية ذات الأصول المصرية واليمنية والباكستانية. وبدا ذلك واضحاً من انعدام الروابط التنظيمية بين الجانبين، وغياب أعضاء من الجماعة المذكورة ضمن الحلقة الضيقة المحيطة بأسامة بن لادن، ناهيك عن أن الاتحاد الإسلامى لم يكن عضواً فيما يسمى بـ «الجبهة الإسلامية العالمية لجهاد اليهود والصليبيين» التى أعلن أسامة بن لادن إنشاءها فى فبراير ١٩٩٨، والتى ضمت جماعات جهادية من مصر وباكستان وبنجلاديش، كما لم يكن الاتحاد الإسلامى طرفاً فى التحالفات التى أقامها بن لادن فى فترة ما بعد هجمات ١١ سبتمبر فى واشنطن ونيويورك.

ويشير ذلك إلى أن العلاقة بين الاتحاد الإسلامى والقاعدة كانت تقف فقط عند حدود الالتقاء الفكرى والأيديولوجى، والإسناد المتبادل فى شن «حروب صغيرة» أو «عمليات صغيرة» تهم أحد الطرفين، بينما عانت العلاقة فى المقابل من الاختلاف الحاد فى الأولويات بين الجانبين. فتنظيم القاعدة كان ولايزال يتبنى أجندة دولية واسعة، تقوم على استهداف مصالح الولايات المتحدة والغرب، ومن يتبعهم، على امتداد الساحة الدولية، بينما يكتفى الاتحاد الإسلامى بأجندة خاصة بالصومال ومنطقة القرن الأفريقى، محكوماً فى ذلك بالمتغيرات القائمة فى تلك المنطقة، وضآلة الموارد المتاحة للتنظيم، ومحدودية خبرة أعضائه فى العمل الحركى.

ركائز الاتهامات الأمريكية

لم تكن المخاوف الأمريكية بإمكانية تحول الصومال إلى ملاذ آمن لتنظيم القاعدة مرتبطة بالانتصارات التى حققها اتحاد المحاكم الإسلامية فى الساحة الصومالية منذ أوائل عام ٢٠٠٦، ثم نجاحه فى فرض سيطرته الكاملة على العاصمة مقديشو فى يونيو من العام نفسه، وإنما تعود تلك المخاوف إلى فترة طويلة سابقة، وترتبط تحديداً بالدور المساعد الذى لعبته جماعة الاتحاد الإسلامى فى مساعدة ناشطى القاعدة فى تنفيذ هجمات نيروبى ودار السلام فى عام ١٩٩٨، ثم اتخذت هذه المخاوف أبعاداً أكثر جدية عقب هجمات ١١ سبتمبر فى الولايات المتحدة، والتى تجدد بعدها الاهتمام الأمريكى بالصومال على أرضية حربها العالمية على الإرهاب[٧].

وفى مرحلة ما بعد ١١ سبتمبر، لعبت إثيوبيا والفصائل الصومالية المعارضة دوراً مكثفاً فى تحريض إدارة جورج بوش ضد حكومة الرئيس الانتقالى السابق عبد القاسم صلاد حسن، لاسيما أن الأخير كان واحداً من الداعمين لنظام المحاكم الإسلامية، وقام بدمجها فى الجهاز القضائى والأمنى الرسمى عقب توليه السلطة. وجرى التركيز فى هذا التحريض على وجود علاقات قديمة بين القاعدة وجماعة الاتحاد الإسلامى، كما ركزت على أن القاعدة تمتلك معسكراً واحداً على الأقل للتدريب فى مدينة جيدو، التى يطلق عليها «قندهار الصومال»، علاوة على التأكيد أن هناك شبكة مالية ضخمة فى الصومال تتولى تمويل الإرهاب، من خلال «مؤسسة البركات» الصومالية.

وكان من نتيجة ذلك أن اهتمت الإدارة الأمريكية باحتمالات وجود عناصر من تنظيم القاعدة فى الصومال، أو على الأقل العمل على منع عناصر هذا التنظيم من الفرار من أفغانستان إلى الصومال. وجرى منذ أواخر عام ٢٠٠١ تسيير دوريات مراقبة كثيفة لبعض السفن الحربية الأمريكية والأوروبية على طول السواحل الصومالية، كما قامت طائرات الاستطلاع الأمريكية بعمليات مسح مستمرة فوق الأجواء الصومالية، بهدف منع فرار أى عناصر تابعة لتنظيم القاعدة إلى الصومال.

وقامت إدارة بوش أيضا بتجميد أنشطة مؤسسة البركات فى ٧ نوفمبر ٢٠٠١، بحجة أنها خاضعة لهيمنة حركة الاتحاد الإسلامى، وأنها تقوم بتحويل أموال إلى تنظيم القاعدة. وزعم مسئولون أمريكيون أن لديهم دليلاً على أن هذه المؤسسة زودت أسامة بن لادن بـ ٢٥ مليون دولار سنوياً فى صورة أسلحة ومعدات وأموال نقدية. وزعموا أيضاً أن المدير التنفيذى لهذه المؤسسة، أحمد نور على جميل، كان صديقاً لأسامة بن لادن خلال سنوات الكفاح ضد الاحتلال السوفيتى لأفغانستان، وأنه أنشأ مؤسسة البركات برأسمال قدمه له بن لادن[٨].

الأكثر من ذلك أن الإدارة الأمريكية تعاملت فى بادئ الأمر مع مسألة توجيه ضربة عسكرية ضد الصومال باعتبارها مسألة حتمية، إلا أن المعلومات التى حصلت عليها الاستخبارات والخارجية الأمريكية أوضحت أنه ليست هناك معسكرات لتنظيم القاعدة أو الاتحاد الإسلامى فى الصومال، وهو ما أكدته أيضاً بعثة مراقبين تابعة للأمم المتحدة فى الصومال وقتذاك. وخلصت تلك الجهود إلى أن الاتحاد الإسلامى أصبح فاقد الفاعلية منذ فترة طويلة من الزمن، كما بدا واضحا وقتذاك أن أى عملية عسكرية أمريكية فى الصومال لن تحقق أى أهداف ملموسة، مما أدى إلى إلغاء خطط تنفيذ عملية عسكرية أمريكية. دولية واسعة فى الصومال، كما اعترفت إدارة بوش أيضاً بضعف الأدلة التى اتخذ على أساسها قرار تجميد مؤسسة البركات، وأصدرت فى أواخر شهر أغسطس ٢٠٠٢ قراراً بشطبها من لائحة المؤسسات المالية الداعمة للإرهاب، وإن عادت الإدارة الأمريكية مجدداً فى يوليو ٢٠٠٣، وأمرت مقاتلاتها الحربية بشن غارات محدودة على جزر صومالية بزعم وجود إرهابيين فيها.

وركزت الإدارة الأمريكية على تنفيذ طائفة واسعة من الإجراءات الوقائية الرامية إلى منع تسلل إرهابيين من القاعدة إلى الصومال، وذلك من خلال إقامة قاعدة عسكرية ضخمة فى جيبوتى، كجزء من حملتها العالمية ضد الإرهاب، وشدد وزير الدفاع الأمريكى السابق دونالد رامسفيلد فى زيارة له لتلك القاعدة على أن «الولايات المتحدة ستبقى انتشارها فى جيبوتى لعدة أعوام، لأنها منطقة يوجد فيها الكثير من العمل»؛ كما تقوم بتنفيذ دوريات بحرية فى المحيط الهندى والبحر الأحمر لمراقبة السفن التجارية المتجهة إلى الصومال والقادمة منها، وتحوم طائراتها الحربية فوق أجواء الصومال لاكتشاف وجود أى معسكرات لتنظيم القاعدة فيها، كما تعمل عناصر المخابرات الأمريكية أيضاً لتحقيق الهدف ذاته.

ولكن الاهتمام الأمريكى بالصومال ارتفع إلى مستويات غير مسبوقة، مع توحيد المحاكم الإسلامية فى إطار ما يعرف بـ «المجلس الأعلى لاتحاد المحاكم الإسلامية» فى عام ٢٠٠٤، وهو تطور كان قد زاد بقوة من فاعلية ونفوذ هذه المحاكم، برغم أنها كانت موجودة قبل ذلك بعدة أعوام، مما أثار قلقاً عارماً لدى الولايات المتحدة وإثيوبيا والعديد من الأطراف الدولية والإقليمية الأخرى، والتى ترى أن جماعة الاتحاد الإسلامى واتحاد المحاكم الإسلامية هما شىء واحد، ولهما نفس الأهداف

الإدارة الأمريكية تعاملت مع مسألة توجيه ضربة عسكرية ضد الصومال باعتبارها حتمية، إلا أن المعلومات التى حصلت عليها أوضحت أنه ليست هناك معسكرات للقاعدة أو الاتحاد الإسلامى فى الصومال



«قاعدة» الصومال!

والتوجهات، ويعتقدون أن حركة الاتحاد الإسلامى هى التى أعطت للمحاكم الشرعية توجهاً إيديولوجياً ذا صبغة إسلامية، وهى التى قامت بعمليات الحشد والتعبئة لصالح المحاكم الإسلامية، من وراء الستار بصورة غير مباشرة.

وقد جرى التعبير عن هذا الاهتمام الأمريكى بالوقوف وراء إنشاء ما يعرف بـ «تحالف إعادة السلم ومكافحة الإرهاب» فى ١٨ فبراير ٢٠٠٦، وضم عددا من جنرالات الحرب الوزراء فى الحكومة الانتقالية؛ ممن كانوا يرون أن رئيس الحكومة الانتقالية على محمد جيدى كان يتبنى نهجاً مهادناً إزاء المحاكم الإسلامية. وكان الهدف الرئيسى لهذا التحالف هو التصدى لاتحاد المحاكم الإسلامية، التى كانوا يتهمونها بدعم الإرهاب وإيواء عدد من ناشطى القاعدة فى جنوب الصومال. وعلى الرغم من أن الإدارة الأمريكية ظلت لفترة طويلة تنفى علاقتها بهذا التحالف، إلا أن التطورات اللاحقة كشفت تزويد الإدارة الأمريكية للتحالف بما لا يقل عن ٢٠ مليون دولار لتمويل أنشطته بهدف محاصرة عناصر «القاعدة» المشتبه فى وجودهم بجنوب الصومال، برغم أن قادة اتحاد المحاكم الإسلامية كانوا من جانبهم يؤكدون رغبتهم فى تفادى الصدام مع لوردات الحرب، ونفى أى اتهامات بسعيهم للسيطرة على السلطة.

وقد باءت هذه السياسة الأمريكية بفشل ذريع، إذ أن الخطوات التى قام بها تحالف إعادة السلم ومكافحة الإرهاب أدت إلى استفزاز اتحاد المحاكم الإسلامية، لاسيما اختطاف أصوليين صوماليين وأجانب محسوبين على المحاكم، وهو ما أدى إلى اندلاع اشتباكات عنيفة بين الجانبين، بدءا من فبراير ٢٠٠٦، حققت المحاكم خلالها انتصارات متوالية، حتى نجحت فى القضاء على ميليشيات التحالف، وفرض سيطرتهم الكاملة على العاصمة مقديشو فى ٥ يونيو من العام نفسه، وفرضت نفسها كقوة كبرى مهيمنة على الساحة الصومالية.

وللتعويض عن هذا الفشل، قامت عناصر من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية بإجراء مفاوضات مع ممثلين من أكبر القبائل الصومالية الداعمة لاتحاد المحاكم الإسلامية، لاسيما من قبيلة «عير»، بهدف إقناعهم برفع حمايتهم لقيادات المحاكم الإسلامية. وشكل ذلك محاولة من جانب الاستخبارات الأمريكية لتكرار نموذج كانت قد طبقته بنجاح فى أفغانستان عبر استمالة العديد من القبائل هناك والحصول على دعمها ومساندتها ضد حركة طالبان فى مقابل رشاوى مالية جرى توزيعها على زعماء تلك القبائل. واستخدمت عناصر المخابرات الأمريكية فى مفاوضاتها مع ممثلى القبائل الصومالية وسائل الترغيب والترهيب، مثل الرشاوى المالية أو التلويح بأن هذه القبائل سوف تكون مستهدفة من الولايات المتحدة ما لم تتعاون معها فى العمل ضد المحاكم، إلا أن هذا الأسلوب لم يحقق نتائج حاسمة فى الحالة الصومالية، بعكس ما كان قد حدث فى النموذج الأفغانى.

هذه التحولات الجذرية للمسألة الصومالية كانت تمثل بحد ذاتها نكسة كبرى للسياسة الأمريكية، لأنها تعنى أن الخطوات التى قامت بها الولايات المتحدة أدت إلى نتائج معاكسة تماماً لما كان مستهدفاً من ورائها، وأدى ذلك بالتالى إلى تصاعد المخاوف الأمريكية من انعكاسات التطورات الجارية فى الصومال على الحرب على الإرهاب، إلا أن هذه المخاوف تنقسم إلى مخاوف محددة رسمية يتم التعبير عنها من جانب مسئولين أمريكيين، ومخاوف عامة غير رسمية يتم تناولها من جانب مراكز البحوث ووسائل الإعلام فى الولايات المتحدة.

ومن المهم، بداية، التركيز على المخاوف الرسمية المحددة من جانب الإدارة الأمريكية بشأن بروز المحاكم الإسلامية كقوة مهيمنة على الساحة الصومالية، وهى تتمثل فى[9]:

الأول: الخشية من تحويل الصومال إلى ملجأ آمن للإرهابيين، وهو ما يرتبط بصورة محددة فى المنظور الأمريكى بوجود عدد من المتطرفين الأجانب فى الصومال، تحت حماية اتحاد المحاكم الإسلامية، ممن تتهمهم الإدارة الأمريكية بالضلوع فى تفجيرات نيروبى ودار السلام وممباسا، وهم: أبو طلحة السودانى، وفاضل عبد الله محمد، وصالح على صالح نبهان. ويعتبر مسئولون أمريكيون أن وجود هؤلاء الإرهابيين فى الصومال يمثل تهديداً فعلياً للمصالح الأمريكية والدولية، ليس فقط فى الصومال، ولكن على امتداد منطقة القرن الأفريقى.

ومما أثار القلق أيضاً من جانب الإدارة الأمريكية أن عناصر القاعدة سالفة الذكر تتحرك بحرية فى منطقة القرن الأفريقى، ويبدو فى بعض الأحيان كما لو أنهم يخططون لهجمات إرهابية جديدة، حيث شوهد فاضل عبد الله محمد فى ممباسا فى مايو ٢٠٠٣؛ مما أثار القلق بشأن إمكانية تخطيطه لعملية إرهابية ضد الخطوط الجوية البريطانية فى كينيا، كما تم اكتشاف مخبأ للأسلحة تابع للقاعدة بالقرب من ممباسا فى أغسطس ٢٠٠٣؛ وكانت به صواريخ مضادة للدبابات كان يمكن استخدامها ضد باصات سياحية أو اليخوت البحرية فى ذلك الميناء.

الثانى: التأكيد على أن حالة انهيار الدولة والفراغ السياسى تجعل من الصومال معضلة أمنية عامة لمنطقة القرن الأفريقى الأوسع، بحكم ما ينجم عن هذا الوضع من انعكاسات سياسية وأمنية بالغة الخطورة، ويدلل مسئولون أمريكيون على ذلك بالزيادة الملموسة فى تجارة السلاح، من وإلى الصومال، بحيث أصبحت تجارة السلاح تتحرك بسهولة شديدة فى منطقة القرن الأفريقى، وفق عملية متكاملة مركزها الصومال.

وبالتالى، فإن الخطاب الرسمى من جانب مسئولى الإدارة الأمريكية اتسم بقدر كبير من الحذر، بل إن مدير مركز مكافحة الإرهاب الوطنى فى الولايات المتحدة، الأدميرال سكوت ريد، أكد فى كلمته أمام إحدى لجان الكونجرس الأمريكى فى ١٣ يونيو ٢٠٠٦ أن التطورات الجارية فى الصومال لا يجب أن تدفعنا للقفز إلى استنتاج بأن القاعدة أصبحت تسيطر على الصومال. وركزت ردود الفعل الرسمية الأمريكية على التريث وعدم التسرع فى اتخاذ خطوات قد تتسبب فى تحول الوضع لغير صالحها فى الصومال، واتجهت نحو تفضيل العمل من خلال مجموعة الاتصال الدولية المعنية بالصومال، التى تأسست بمبادرة من الولايات المتحدة فى يونيو ٢٠٠٦.

أما بالنسبة للمخاوف العامة غير الرسمية، فهى التى تنشرها وسائل الإعلام، بما فى ذلك تلك المنسوبة لمصادر مسئولة غير محددة، وهى أوسع نطاقاً بكثير من المخاوف الرسمية. ويمكن هنا الإشارة إلى نقطتين رئيسيتين هما:

الأول: التأكيد على وجود علاقات وثيقة بين القاعدة والمحاكم، ويذهب القائلون بهذه المخاوف إلى أن القاعدة تقوم بتقديم المشورة لاتحاد المحاكم الإسلامية، وتساعدها فى الحصول على الدعم من جانب مجموعة من الوهابيين المتطرفين فى السعودية واليمن ودول أخرى[10]. وتذهب بعض التقارير أيضاً إلى أن شهود عيان فى مقديشو أكدوا أن أعضاء من القاعدة يعملون فى معسكر أقيم فى مقبرة إيطالية قديمة، وأنشأوا فيه مركزا للتدريب ومسجداً ومستشفى ميدانياً، والزعم بأن هناك أفراداً من السعودية واليمن وباكستان يقيمون فى هذا المعسكر، ويتولون تدريب الشباب الصوماليين على تنفيذ عمليات إرهابية[11].

وفى مواجهة النفى المتكرر لقادة اتحاد المحاكم لوجود علاقات لهم مع تنظيم القاعدة، أو لإيواء المحاكم لأى عناصر من القاعدة، فإن بعض التقارير الصحفية نقلت عن مصادر رسمية أمريكية أن هذا النفى يعتبر مجرد محاولة من المحاكم لتفادى استفزاز الولايات المتحدة ودول أخرى فى المنطقة؛ حتى لا تقدم على أى عمل عسكرى ضدها، واعتبروه أيضاً محاولة من المحاكم لتضليل الأطراف الدولية والإقليمية حتى تخفى أهدافها الحقيقية، والمتمثلة من وجهة نظرهم فى استكمال السيطرة على الحكم وتأسيس نظام حكم إسلامى على غرار النموذج الطالبانى.

الثانى: اتهام اتحاد المحاكم الإسلامية بالسعى إلى تطبيق الشريعة الإسلامية على غرار النموذج الطالبانى، ورأوا فى التحولات التنظيمية التى دخلت على اتحاد المحاكم الإسلامية فى ٢٤ يونيو ٢٠٠٦، وتحويله إلى «مجلس أعلى للمحاكم الإسلامية»، بمثابة مقدمة لإعلان دولة إسلامية صومالية تحكم كل أجزاء البلاد. وتستند هذه المخاوف على عدد من المؤشرات، لعل أبرزها ما تردد عن اهتمام المحاكم المكثف بالسيطرة على المدارس الموجودة فى المناطق التى فرضت هيمنتها عليها، وقيامها بتغيير المناهج الدراسية بها فى اتجاه التركيز على تدريس العلوم الإسلامية، بالإضافة إلى تركيز المحاكم على ضرورة التزام النساء بارتداء الحجاب.

ويستحوذ الشيخ طاهر حسن عويس على حيز كبير من الاهتمام الأمريكى، بحكم المزاعم المثارة بشأن ارتباطه بعلاقات وثيقة مع قادة تنظيم القاعدة. فالشيخ عويس يوصف بأنه الأب الروحى لنظام المحاكم الإسلامية، وأحد أبرز قادتها، وهو أحد المتهمين

الاهتمام الأمريكى بالصومال ارتفع إلى مستويات غير مسبوقة، مع توحيد المحاكم الإسلامية فى عام ٢٠٠٤، وهو تطور كان قد زاد بقوة من فاعلية ونفوذ هذه المحاكم



«قاعـدة» الصومال!

بمساعدة ناشطى القاعدة فى تنفيذ تفجيرات نيروبى ودار السلام وممباسا، ووضعت الإدارة اسمه على قائمة الإرهابيين المطلوبين من جانب الولايات المتحدة. وقد طلبت جينداى فريزر من المحاكم الإسلامية فى يونيو ٢٠٠٦ تسليم المتهمين بالضلوع فى التفجيرات المذكورة، ولم يتضح فى وقتها ما إذا كانت تقصد الشيخ عويس من بين هؤلاء المتهمين، وردت المحاكم على ذلك بنفى وجود أى علاقة لها مع المطلوبين، ثم قامت المحاكم فى الرابع والعشرين من الشهر نفسه بإعادة تشكيل المجلس الأعلى للمحاكم الإسلامية، وتولى الشيخ عويس رئاسة مجلس الشورى، الذى يعتبر أعلى هيئة تشريعية فى هذا المجلس، وهو ما كان بمثابة تحد للإدارة الأمريكية، أعلنت الأخيرة على أثره أنها لن تتعامل مع الشيخ عويس برغم منصبه الجديد.

عوامل النفى

فى مواجهة العوامل السابقة التى تستند إليها المصادر الرسمية وغير الرسمية فى الولايات المتحدة والعديد من الأطراف الدولية والإقليمية الأخرى فى التأكيد على وقوف تنظيم القاعدة وراء اتحاد المحاكم الإسلامية، فإن هناك فى المقابل عدداً من المتغيرات التى تؤكد ضعف احتمالات وجود دور قوى وملموس للقاعدة فى الصومال. ولن يكون مفيداً هنا، بطبيعة الحال، الاستناد إلى النفى المتكرر لاتحاد المحاكم لوجود علاقات تنظيمية تربطها بتنظيم القاعدة، إذ أن مثل هذا النفى عادة ما لا يؤخذ بجدية من جانب الأطراف الخارجية، وإنما يكون المحك الرئيسى متمثلاً فى رصد وتحليل المتغيرات الرئيسية الحاكمة لهذه المسألة، وهى تتمثل هنا فى العوامل الأربعة التالية:

الأول: يتمثل فى عجز الأطراف الأمريكية والدولية والإقليمية عن توفير أدلة حاسمة عن وجود علاقات بين القاعدة والمحاكم الإسلامية. فكما سبق أن لاحظنا، فإن التحليلات المطروحة فى هذا الصدد تستند إلى تاريخ قديم بشأن تعاون الطرفين أثناء التدخل الأمريكى والدولى فى الصومال، أو بشأن وجود دور ما لجماعة الاتحاد الإسلامى الصومالية فى تفجيرات نيروبى ودار السلام وممباسا، أو تستند على اتهامات غير مؤكدة بإيواء اتحاد المحاكم لعناصر إرهابية من تنظيم القاعدة، ممن كانوا ضالعين فى تنفيذ التفجيرات المذكورة.

فى حين أنه لا توجد أدلة فعلية حاسمة ومؤكدة بشأن وجود العلاقة المذكورة، على غرار الإمساك بمؤشرات محددة على وجود تعاون مشترك بين الجانبين فى تنفيذ عمليات إرهابية ضد أهداف أمريكية أو غربية أو إقليمية فى الصومال ومنطقة القرن الأفريقى، وهو ما لم تفلح الإدارة الأمريكية فى إثباته، كما لا يبدو أن هنالك دورا واضحاً للقاعدة فى الانتصارات المتوالية التى حققتها المحاكم ضد خصومها خلال عام ٢٠٠٦. وتتناقض الاتهامات الأمريكية هنا مع ما هو معروف فى حالة روابط أو تحالفات ما بين تنظيم القاعدة وجماعات أخرى، فإن الطرفين يحرصان على إعلان ذلك صراحة فى الكثير من الأحيان باعتبار ذلك نوعاً من استعراض القوة فى مواجهة الخصوم.

والظاهر هنا أن أسامة بن لادن يحاول بكل الطرق أن يختلق لنفسه أى دور فى المسألة الصومالية، بما يعزز موقفه فى مواجهة الحرب الشرسة التى تقودها الولايات المتحدة ضده، بينما يرفض اتحاد المحاكم الإسلامية ذلك، ويصر على إبعاد نفسه تماماً عن تنظيم القاعدة، معتبراً أن ما يجرى فى الصومال يرتبط فقط بالأوضاع الداخلية الصومالية، ولا علاقة له بالحرب العالمية على الإرهاب.

الثانى: يتعلق ببعض خصوصيات المجتمع الصومالى، والتى قد لا تجعله ملائما تماماً كملاذ آمن لتنظيم القاعدة. فالعديد من الأدبيات السياسية تتبنى مقولة محددة مفادها أن انهيار الدولة يوفر فرصاً ملائمة لعمل الجماعات الإرهابية فيها، إلا أن هذه المقولة ليست دقيقة بشكل مطلق، حيث يخلق انهيار الدولة ظروفاً غير مواتية لنشاط الجماعات الإرهابية المتطرفة، بسبب ظروف الفوضى والانفلات الأمنى، مما يجعل القاعدة منشغلة فى مثل هذه الحالة بتأمين نفسها، أكثر من اهتمامها بتخطيط وتنفيذ عمليات إرهابية ضد أهداف غربية. أضف إلى ذلك أن الطبيعة الجغرافية للصومال تختلف إلى حد كبير عن مثيلتها فى أفغانستان، حيث تغلب على الأخيرة الطبيعة الجبلية الوعرة التى توفر فرصاً جيدة للاختباء والتحصن فى المغارات وأعماق الجبال، بينما لا توفر العوامل الجغرافية للصومال مثل هذه الفرص.

وتلعب بنية المجتمع الصومالى والثقافة السياسية السائدة فيه دورا هاماً للحيلولة دون تحويل الصومال لملاذ آمن لتنظيم القاعدة. فالمجتمع الصومالى يتسم بدرجة عالية من الشفافية والانكشاف المتبادل، بحيث تكون حياة الأفراد والجماعات معروفة بالكامل للآخرين فى هذا المجتمع، بصورة تجعل من شبه المستحيل إيواء عناصر من تنظيم القاعدة بدون أن ينكشف أمرها. ويتكامل ما سبق مع طبيعة الثقافة السياسية السائدة فى المجتمع الصومالى، والتى تتسم بطابع براجماتى شديد، بما يحرم تنظيم القاعدة من بناء تحالفات مستقرة مع جماعات عشائرية محددة أو ممارسة النفوذ فى المجتمع الصومالى، مما جعله يشهد تبدلات عنيفة فى أنماط التحالفات فيما بين أطراف الحرب الأهلية منذ انهيار الدولة فى عام ١٩٩١، الأمر الذى يجعل الصومال مكاناً غير آمن لقادة وأعضاء تنظيم القاعدة[١٢].

الثالث: أن مسألة تطبيق الشريعة الإسلامية فى الصومال، والتى تستخدمها الكثير من المصادر الأمريكية والدولية كدليل على رغبة اتحاد المحاكم الإسلامية فى تبنى النموذج الطالبانى، هى مسألة حيوية لا ترتبط فقط بأيديولوجيا وأولويات اتحاد المحاكم الإسلامية، بقدر ما تمثل أيضاً ضرورة سياسية. استراتيجية لتجاوز الانقسامات الرأسية الواسعة التى تضرب المجتمع الصومالى على مدى أكثر من ١٥ عاماً، وتسببت فى انهيار الدولة واستمرار حالة الفوضى والفراغ السياسى. ولم يكن هنالك ما يمكن أن يوحد الصوماليين مجدداً فى مثل هذه الظروف إلا الدين، بحكم أن المجتمع الصومالى ينتمى بكامله تقريباً للعقيدة الإسلامية، وهو ما كان بحد ذاته أحد أهم عناصر القوة لدى اتحاد المحاكم الإسلامية، حيث أن استناده إلى أيديولوجيا دينية ساعده كثيراً على التغلب على خطوط التقسيم العشائرى الحادة فى المجتمع الصومالى.

وعلى الرغم من أن أغلب قادة وأعضاء اتحاد المحاكم الإسلامية ينتمون إلى قبيلة الهوية، لاسيما عشيرة العير، ويستمدون منها الدعم والمساندة، إلا أن المحاكم لم تركز على هذا الانتماء العشائرى، وتبنت خطاباً سياسياً جامعاً، يستند إلى الدين، وموجه لجميع الصوماليين، بغض النظر عن انتماءاتهم القبلية والعشائرية، بحيث لعب الدين هنا دوراً توحيدياً للجميع، فضلاً عن تركيزها على أولويات محددة هى محل إجماع عام فى المجتمع الصومالى، مثل استعادة الاستقرار والنظام، وتوفير الخدمات العامة لجميع المواطنين.

ويكون من المنطقى هنا بالنسبة للمحاكم الإسلامية، بعدما فرضت سيطرتها على مناطق واسعة فى جنوب ووسط البلاد، أن تؤكد بالفعل حرصها على تطبيق الشريعة الإسلامية، باعتبار ذلك أمراً يتسق تماماً مع مبادئها ومنطلقاتها. وما لم تفعل ذلك، فإنها تنتحر سياسياً أمام أتباعها ومؤيديها والمتعاطفين معها، وتبدو كما لو أنها استغلت الدين كمجرد ذريعة للسيطرة على الحكم، ثم تراجعت عن تطبيقه بعد ذلك، وهو فخ يرفض قادة المحاكم . بطبيعة الحال . الوقوع فيه.

ولكن المهم هنا أمران رئيسيان، أولهما: أنه ليس هناك بالضرورة ما يدفع للاعتقاد بأن تطبيق الشريعة الإسلامية فى الصومال، فى حال حدوثه، سوف يستلهم النموذج الطالبانى، إذ تؤكد العديد من المؤشرات على أن النموذج الطالبانى لم يلق قبولاً واسعاً فى المجتمع الصومالى، والذى يميل بدرجة كبيرة للاعتدال والوسطية فى معتقداته الدينية. وثانيهما: أن تطبيق الشريعة الإسلامية يعتبر شأناً داخلياً صومالياً، طالما أن ذلك يتم فى إطار من القبول والرضى من جانب قطاعات واسعة فى المجتمع الصومالى. ولا يجب أن يمثل ذلك تهديداً لأى أطراف دولية أو إقليمية، طالما أن هذا التطور لم يترتب عليه اتخاذ خطوات عدائية من جانب المحاكم ضدها.

الرابع: أن الوضع الحالى لتنظيم القاعدة يجعله أضعف بكثير من أن يكون قادراً على تقديم الدعم للمحاكم الإسلامية أو الوقوف وراءها أو تسيير حركتها. فالضربات العنيفة المستمرة التى تعرض لها التنظيم من جانب الولايات المتحدة وحلفائها فى إطار الحرب العالمية على الإرهاب منذ هجمات ١١ سبتمبر أضعفت كثيراً من قدرات هذا التنظيم، سواء من حيث خسارته لمركز عملياته

مدير مركز مكافحة الإرهاب الوطنى الأمريكى، أكد فى كلمته أمام الكونجرس فى ١٣ يونيو الماضى أن التطورات الجارية فى الصومال لا يجب أن تدفعنا للقفز إلى استنتاج بأن القاعدة أصبحت تسيطر على الصومال



«قاعدة» الصومال؟

الرئيسى فى أفغانستان، أو من حيث مقتل واعتقال العديد من قادته وأعضائه الرئيسيين، أو من حيث ضرب قدراته المالية واللوجستية، أو من حيث القضاء على الكثير من خلاياه الموجودة فى الولايات المتحدة وأوروبا والشرق الأوسط.

وكان من شأن هذا الوضع بالتالى أن أصبح تنظيم القاعدة الآن مفككاً ومطارداً وعاجزاً عن القيام بفاعلية بعمليات التجنيد والحشد والتعبئة والتخطيط والتنفيذ والتمويل للعمليات المسلحة، أو عن تقديم الدعم للجماعات القريبة منه فكرياً فى صراعها على السلطة فى مجتمعاتها المحلية. وهناك ما يشبه الإجماع بين الباحثين المعنيين على أن تنظيم القاعدة تحول منذ فترة ليست بالقصيرة إلى مجرد رمز روحى وحركى للجماعات الأصولية المناوئة للولايات المتحدة والغرب، بحيث يتم استلهام نموذج القاعدة من حيث المرجعية الفكرية والبنية التنظيمية وتنفيذ العمليات الإرهابية ضد مصالح الولايات المتحدة وأصدقائها.

والحديث، إذن، عن دور رئيسى للقاعدة فى التطورات الجارية فى الصومال هو أمر يخدم مصالحها، ويعطيها وزناً أكبر بكثير من وزنها الحالى، ولعل هذا هو أحد أبرز الأسباب الكامنة وراء حرص كبار مسئولى الإدارة الأمريكية على حصر الحديث عن دور القاعدة فى الصومال فى نقاط محدودة، على نحو ما أوضحنا، وحتى لا يبدو كما لو أن الضربات التى وجهتها الولايات المتحدة ضد هذا التنظيم لم تفلح فى القضاء على فاعليته وقدراته الحركية.

والأقرب للحقيقة هو أن تحولات الصراع الداخلى فى الصومال، وبروز اتحاد المحاكم الإسلامية كقوة مهيمنة على الساحة الصومالية، هى مسألة ترتبط بالديناميات الداخلية للصراع، وبموازين القوى المحلية، أكثر مما ترتبط بوجود دور للقاعدة أو غيرها فى هذه التطورات. وحتى بافتراض صحة وجود عناصر للقاعدة فى الصومال، ممن تطاردهم الولايات المتحدة لمسئوليتهم عن تفجيرات سابقة، فإن هذا لا يعنى بالضرورة أن الصومال أصبحت ملاذاً آمناً القاعدة أو نقطة انطلاق لعملياتها فى الخارج.

والإشكالية الرئيسية هنا أن حصر الاهتمام الدولى والإقليمى بما يجرى فى الصومال فى الجزئية المتعلقة باحتمال وقوف تنظيم القاعدة وراء اتحاد المحاكم الإسلامية قد أضاع فرصة هامة لإدراك الدلالات الأعمق لبروز المحاكم كقوة مهيمنة على الساحة، باعتباره أمراً ينطوى بحد ذاته على فرصة غير مسبوقة لإنهاء حالة انهيار الدولة فى الصومال، لاسيما إذا تضافرت قدرات المحاكم مع الحكومة الانتقالية من أجل تحقيق الأمن والاستقرار فى البلاد. وربما يكون التعامل الإيجابى مع اتحاد المحاكم الإسلامية هو وحده القادر على دفعها نحو الاعتدال، بينما يبدو من المؤكد أن توجيه اتهامات غير مؤكدة لها، أو محاولة عزلها أو ضربها عسكرياً، هو الذى يمكن أن يدفعها بالفعل نحو التطرف، بل وإمكانية توثيق علاقاتها مع فلول تنظيم القاعدة. ■

الهوامش

(1) International Crisis Group (ICG), "Counter-Terrorism in Somalia: Losing Hearts & Minds", ICG Africa Report, No. 95, 11 July 2005. p70

(٢) د. بطرس بطرس غالى، ٥ سنوات فى بيت من زجاج (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٩)، م. س.، ص. ١٢٥.

(٣) كان بن لادن قد أدلى بهذه التصريحات فى حديث إلى عبد البارى عطوان رئيس تحرير صحيفة القدس العربى التى تصدر فى لندن، وهى موجودة باقتباس فى المصدر السابق مباشرة.

(٤) مصدر هذه المعلومة هو عبد البارى عطوان فى حديث لقناة الجزيرة، ٢٩ أكتوبر ٢٠٠١.

(5) Gregory Alonso Pirio and Hrach Gregorian, "Jihadist threat in Africa", Middle East Times (http://www.metimes.com), July 2006.

(6) Mary Jo White, "Press Release on the Indictment of Bin Laden and Atef Indicted for bombings of U.S. Embassies in Kenya, Tanzania", Press Release, U.S. Department of State, Nov. 4, 1998.

(7) Ken Menkhaus, "Somalia: In the Crosshairs of the War on Terrorism", Current History, May 2002.

(٨) تيم غولدين وبيل بيركلى ودونالد ماكنيل، «مسئولون أمريكيون: أدلة علاقة مجموعة البركات الصومالية بابن لادن ضعيفة»، جريدة الشرق الأوسط، نقلا عن خدمة نيويورك تايمز، ١٤ أبريل ٢٠٠٢.

(٩) جرى التعبير عن هذه المخاوف من جانب العديد من كبار مسئولى الإدارة الأمريكية، أبرزها تلك التى عبرت عنها مساعدة وزيرة الخارجية الأمريكية للشئون الأفريقية، جينداى فريزر، فى شهادتها أمام اجتماع مشترك للجنتين الفرعيتين لأفريقيا وللإرهاب الدولى ومنع الانتشار، التابعتين للجنة العلاقات الدولية بمجلس النواب الأمريكى، فى ٢٩ يونيو ٢٠٠٦، ثم كررتها فى شهادتها أمام لجنة الشئون الأفريقية بمجلس الشيوخ الأمريكى، فى ١١ يوليو ٢٠٠٦.

(10)Bill Gertz, "Al Qaeda group controls Somalia", The Washington Times, 19 June 2006.

(11) Chris Tomlinson, "Is Somalia a haven for al-Qaeda?", Mail & Guardian Online (http://www.mg.co.za), South Africa, 20 June 2006.

(12) Ken Menkhaus, "Terrorism in Somalia: Threat Assessment & Policy Options", Special Report (Washington DC: The United States Institute of Peace), No. 113, Jan. 2004, p. 9.

كتاب الزاوية

غسان توينى

سر المهنة وأصولها

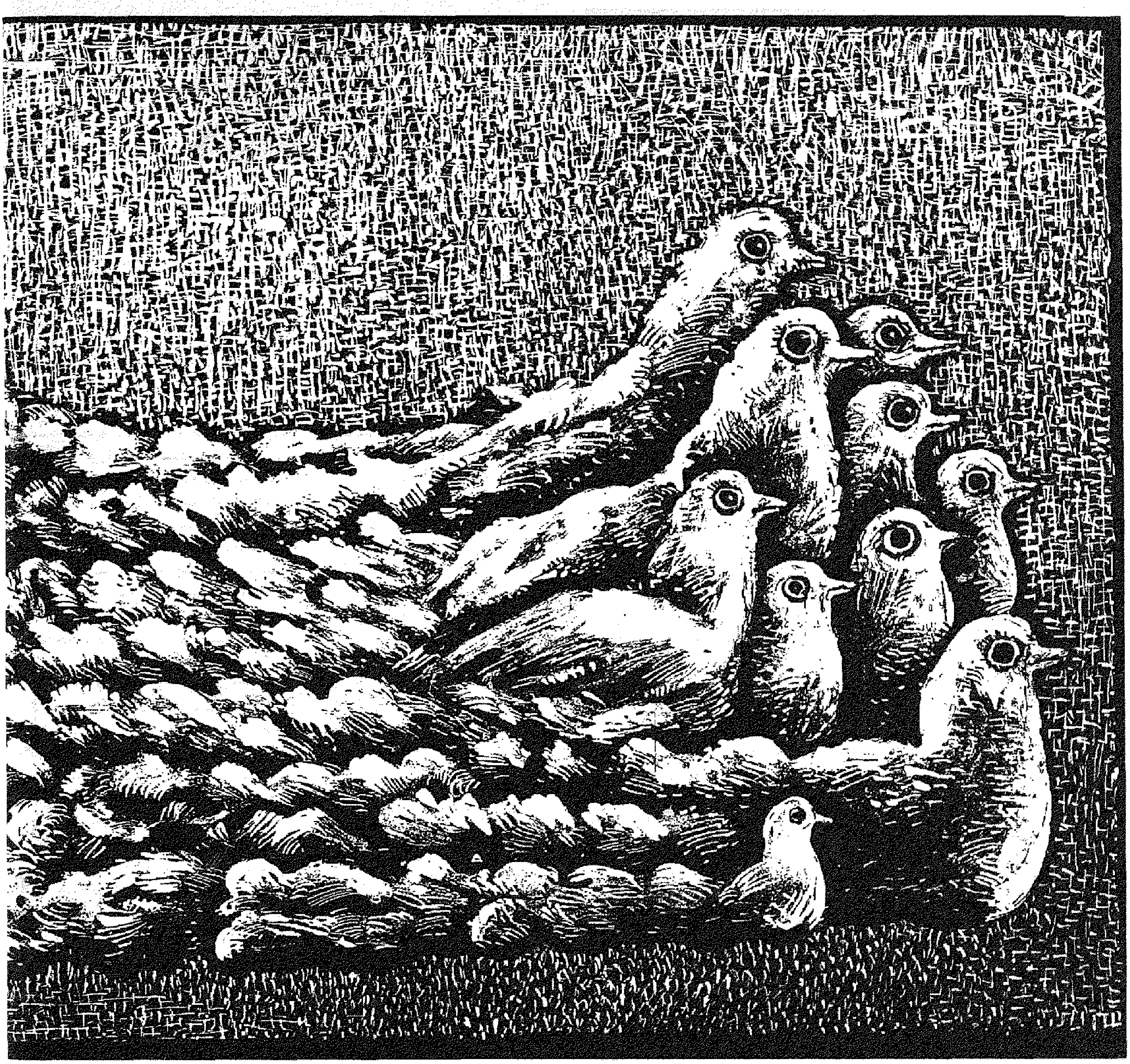
هذا كتاب عن الصحافة والصحفيين، «نظمه» صحفى ترك الصحافة حينًا، بل أحيانًا، ولكن الصحافة لم تتركه، بل ظلت ملازمة لتصرفه سياسيًا ودبلوماسيًا.

غسان توينى أحد أبرز الصحفيين والسياسيين اللبنانيين وصاحب جريدة «النهار» اللبنانية العريقة. وتقول مقدمة الكتاب وهو بعنوان سر المهنة.. وأصولها.. النهار كتاب للتسعينيات: كان يرجى لهذا الكتاب، يوم باشرت «النهار» جمع عناصره وتنظيمه، أن يصدر فى ذكرى مرور خمسين سنة على تأسيسها. ولكن الكتاب لم يصدر فى موعده، فى ٤ آب ١٩٨٢، لأن الاجتياح الإسرائيلى آنذاك حال دون أى احتفال، وظل «الكتاب» مشروعًا ينتظر نهاية الحرب.. فجاء عام ١٩٩٠ والحروب لا تزال هى الأقوى.

«كتاب التسعينيات» أرادته «النهار» أن يكون عودة إلى «سر المهنة»: كيف هى، كيف كانت، كيف تمارس، وكيف تكون حرة وتصون حرياتها، سياسيًا واقتصاديًا، وما هى أصولها ومَن، مَن هم الأصول.

❖❖❖

وتجىء هذه الذكريات سجلاً سياسيًا عبر ما فيها من وقائع صحفية ونظرات.. وليدة تعامل غسان توينى مع «النهار» وعبرها مع الصحافة من عام ١٩٤٨، يوم تولى رئاسة التحرير، إلى اليوم الذى قال فيه إنه يكتب «المقال الأخير»، عام ١٩٧٧، فاستمر بعد «المقال الأخير» أغزر منه قبله، وإن من منابر أخرى، إلى أن عاد إلى «النهار» مشتاقًا متلهفًا كمن يعود من غربة.



في البحث عمَّا

عن مجلة:
The New Statesman

ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني

تعرضتُ إلى مشهد القتل، لأول مرة، حين كنت في الحادية عشرة من العمر. وكان ذلك سنة ١٩٤٤م، خلال الاضطراب الفئوي الذي ساد في السنوات الأخيرة لحكم الراج البريطاني (للهند)، الذي انتهى سنة ١٩٤٧م. فقد رأيت حينها شخصا لا أعرفه ينزف دما غزيرا وفجأة سقط عبر بوابة حديقة بيتنا، طالبا المساعدة وقليلا من الماء. فناديت والدي، في أثناء إحضاري ماء له. ثم نقله والدي بسرعة إلى المستشفى بسيارتنا، لكنه مات هناك متأثرا بجراحه. وكان اسمه «قادر مياه».

وقد مهدت الاضطرابات بين الهندوس والمسلمين التي سبقت الاستقلال كذلك إلى تقسيم الوطن إلى الهند والباكستان. واندلعت المذابح بشكل درامي مفاجئ، ولم توفر البنغاليين المسالمين دائما. وقُتل «قادر مياه» في مدينة دكا التي كانت المدينة الثانية (بعد كالكوتا) في الهند غير المقسمة، وهي التي ستصبح، بعد التقسيم، عاصمة باكستان الشرقية. وكان والدي أستاذا في جامعة دكا، وكنا نسكن في منطقة تسمى «واري» في دكا القديمة، غير بعيد عن الجامعة، فيما كان، بالصدفة، منطقة تسكنها أغلبية هندوسية. وكان «قادر مياه» مسلما، ولم تكن هناك أية هوية أخرى تتصل بإقدام الأوغاد الهندوس القساة لأن يهجموا عليه. وقد قتل مئات من المسلمين والهندوس بعضهم بعضا في ذلك اليوم، وهو ما استمر يحدث يوما بعد يوم.

ولم يكن يبدو أن لتلك المجازر

يجمعنا (٢)

أمارتيا سين

نجح المؤججون السياسيون أن يُقنعوا كثيرا من الناس فى كلتا المجموعتين، الذين يتصفون فى العادة بحب السلام، بأن يتحولوا إلى أوغاد قتلة منتمين. فقد أُقنعوا ليظنوا أنهم ليسوا إلا هندوسا أو إلا مسلمين



الدموية أسبابا واضحة، لكنها كانت بالطبع ثمرة للتخطيط الدقيق المدفوع بدوافع طائفية تتصل بطرق مختلفة بالمطالب السياسية من أجل تقسيم الهند. ولم يكن لتلك الاضطرابات القاتلة أن تستمر طويلا؛ إذ ستتبخر من الجانبين فى البنغال بعد التقسيم. وسوف يختفى العنف بين الهندوس والمسلمين سريعا، وهو ما جعل من السهل إبراز خصائص أخرى للهوية الإنسانية.

بل إن مدينة دكا سوف تتفجر، بعد سنوات قليلة، بالوطنية البنغالية، مع ما صحب ذلك من احتفال صاخب باللغة البنغالية والأدب البنغالى والموسيقى البنغالية والثقافة البنغالية. وهى كلها مشتركة بين المسلمين والهندوس البنغاليين. وكان لعودة الحياة للفخر القوى بغنى الثقافة البنغالية المشتركة أهمية خاصة بنفسها، ذلك أنها كانت قد اختفت بشكل كاسح خلال سراب الاضطراب الذى نتج عن العنف المتبادل بين الهندوس والمسلمين. لكن لها ارتباطات سياسية كذلك، فهى ترتبط بصورة خاصة بالرفض فى باكستان الشرقية (أى الشق البنغالى من الباكستان) لعدم المساواة الواضح جدا فى القوة السياسية والمكانة اللغوية والفرص الاقتصادية بين شقى الدولة الإسلامية (أى باكستان) التى لم تندمج اندماجا تاما.

وأدى اغتراب البنغاليين فى نطاق باكستان فى نهاية الأمر إلى تقسيمها، فى ديسمبر ١٩٧١م، وقيام دولة بنغلادش الجديدة العلمانية الديمقراطية، واتخذت دكا عاصمة جديدة لها. وفى أثناء المذابح التى حدثت فى دكا فى مارس ١٩٧١م، أى فى أثناء عملية الانفصال المؤلمة، حين كان الجيش الباكستانى يحاول بعنف أن يقضى على الثورة البنغالية، كانت الانقسامات الخاصة بالهوية تُحدَّد بحسب حدود اللغة والسياسة، لا الدين، إذ كان الجنود المسلمون من باكستان الغربية يرتكبون الفظائع. ويقتلون. المعارضين (أو ما يشتبه بأنهم معارضون) الذين كان أغلبهم مسلمين من باكستان الشرقية. وقاتل الفصيل المكون حديثا، حينذاك، والمسمى «بوكتى باهينى» (فصيل الحرية) من أجل الاستقلال الكامل عن باكستان. وكان التقسيم بحسب الهوية الذى غذى «الكفاح من أجل التحرير» متصلا بقوة باللغة والثقافة (والسياسة، بالطبع)، بدلا من أن يكون متصلا بالتنوعات الدينية.

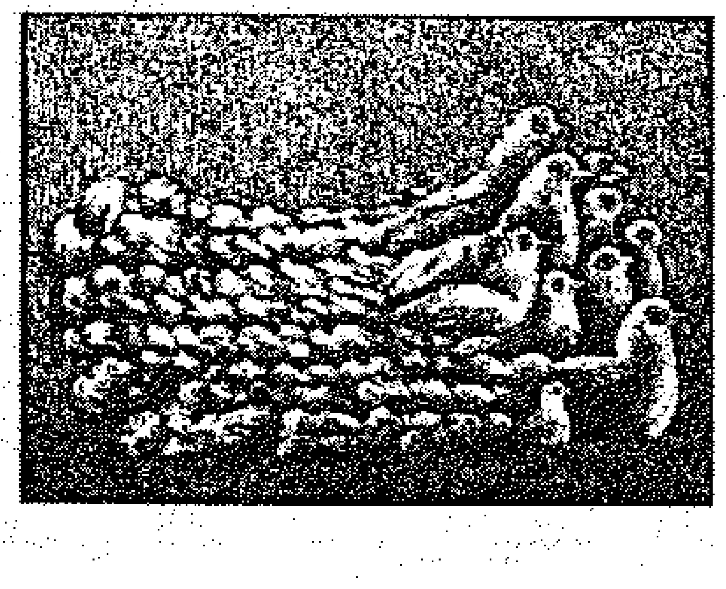
وبعد ستين سنة من موت «قادر مياه»، فى الوقت الذى أحاول أن أتذكر ما حدث من اضطرابات بين الهندوس والمسلمين فى الأربعينيات، فإن من الصعب أن أقنع نفسى بأن تلك الأمور الفظيعة قد حدثت بالفعل. ومع أن الاضطرابات بين مكوُنات المجتمع فى البنغال كانت عابرة وعارضة (ولا يمكن أن تُقارن ببعض الحالات القليلة التى ظلت مشتعلة فى بعض أجزاء الهند الأخرى بما حدث خلال الأربعينيات)، إلا أنها خلَّفت وراءها آلافا وآلافا من القتلى الهندوس والمسلمين. وقد نجح المؤججون السياسيون (نيابة عما أسموه بـ«أهلنا») أن يُقنعوا كثيرا من الناس فى كلتا المجموعتين، الذين يتصفون فى العادة بحب السلام، بأن يتحولوا إلى أوغاد قتلة منتمين. فقد أُقنعوا ليظنوا أنهم ليسوا إلا هندوسا أو إلا مسلمين (وهم الذين يجب أن يطلقوا لأنفسهم العنان ليثأروا بقسوة من «المجموعة الأخرى») وأنهم ليسوا شيئا غير ذلك أبدا: أى أنهم ليسوا هنودا ولا ينتمون إلى القارة الهندية، وليسوا آسيويين، ولا أعضاء فى الجنس البشرى المشترك.

ومع أن الأغلبية العظمى فى كلتا المجموعتين لم تكن تفكر بالأمر بهذه الحدود الضيقة الثائرة إلا أن كثيرا منهم وقعوا أسرى لهذا النوع من التفكير، وكان أكثرهم دموية. وغالبا ما كان ذلك فى نهايات الطيف لكلتا المجموعتين التى تعانى من بعض المشكلات. فإنهم سيقوا إلى قتل «الأعداء الذين يقتلوننا» (بالطريقة التى تعرِّف بها كل فئة الفئة الأخرى). وقد نُظر إلى الأشخاص ذوى الجوانب المتعددة، عبر العدسات المضطربة للواحدية الطائفية، على أنه ليس لأى منهم إلا هوية واحدة فقط: وهى التى تُربط إما بالدين، أو على وجه الدقة، بالفئوية التى تقوم على الانتماء إلى المجموعة الدينية (ذلك أنه لم يكن لشخص ما ممن لا يمارس الدين الموروث أية حصانة من أن يكون هدفا للقتل).

وطُعن «قادر مياه»، وهو عامل مسلم يعمل بالأجر اليومى، حين كان فى طريقه إلى بيت مجاور لنا، من أجل أن يقوم بعمل يتقاضى عنه أجرا قليلا. وطَعَنه وهو فى الشارع أشخاصٌ لم يكونوا يعرفونه وأكثر الاحتمال أنه لم تلمحه عيونهم من قبل. وكانت الحادثة الدموية محيِّرة بشكل عميق، لطفل فى الحادية عشرة، بغض النظر عن كونها كابوسا دائما. فلماذا يتعرض إنسان للقتل بطريقة مفاجئة؟ ولماذا يقتله أشخاص لا يعرفون ضحيتهم، وهو الذى لم يكن بإمكانه أن يعمل أى شىء مؤذ لقاتليه؟ ويبدو أن النظر إلى «قادر مياه» على أنه لا يمتلك إلا هوية واحدة وحسب. ذلك أن يكون عضوا فى الجماعة «العدو» وهو الذى «يجب» أن يُهاجم وأن يُقتل احتمالا. شىء لافت للنظر بشكل كبير. وكان العنف المتصل بالهوية، لطفل تسكنه الحيرة من هذا الأمر، أمرا صعب الفهم. بل إنه أمر ليس سهلا على وجه الخصوص حتى لشخص متحير بالغ.

وفيما كان «قادر مياه» فى طريقه للمستشفى فى سيارتنا من أجل إسعافه قال لوالدى إن زوجته طلبت منه ألا يذهب إلى منطقة معادية خلال الاضطرابات. لكنه كان لابد له أن يذهب بحثا عن عمل، مقابل أجر قليل، لأن أسرته ليس لديها ما تأكله. وتمثَّل العقاب على الحاجة، التى تسبب بها الحرمان الاقتصادى، بالموت. وكان الرابط المؤلم بين الفقر الاقتصادى والحرمان الخالص من الحرية (وغالبا ما يكون الحرمان من الحياة) اكتشافا مفزعا بشكل عميق صعق دماغى الغض بقوة لا يمكن احتمالها.

ومات «قادر مياه» بصفته ضحية مسلمة، لكنه مات كذلك فقيرا، أى عاملا عاطلا يبحث بشكل يائس عن عمل ضئيل وقدر قليل من المال يعيش به أسرته فى أوقات عصيبة. وأفقر المنتمين لأية مجموعة هم أسهل من يُقتل فى هذه الاضطرابات، لأنه يلزمهم أن يخرجوا من غير حماية للبحث عما يعيشون عليه يوميا وأن مساكنهم المتداعية يسهل اختراق العصابات القاتلة لها ببساطة وكذلك هدمها. وفى أيام الاضطرابات بين الهندوس والمسلمين كان الأوغاد الهندوس يقتلون



المسلمين الفقراء الذين لا يملكون حيلة بسهولة فائقة، فيما كان الأوغاد المسلمون يغتالون الضحايا الهندوس الفقراء بكثرة. ومع أن الهويتين الاجتماعيتين لكلتا الجماعتين اللتين كانتا عرضة للهجوم الشرس مختلفتان، إلا أن الهوية الطبقية لهما كانت واحدة (بصفتهما عمالا فقراء لا يملكون إلا وسائل اقتصادية قليلة). ولم يُسمح باعتبار أية هوية أخرى إلى جانب الهوية الدينية. وقد أسهمت خدعة الحقيقة المفردة المختلف عليها في إنقاص بني الإنسان بشكل شامل وأدى إلى كسوف حرية التفكير عند الفريقين المتنازعين كليهما.

غرس العنف ورعايته:

لا يتصف العنف الطائفي عبر العالم اليوم بقدر أقل أو أكثر من الفجاجة، وهو ليس أقل أو أكثر اتصافا بالانتقاص، مما كان عليه الأمر قبل ستين سنة. ذلك أن الهمجية العارية تقوم على وجود اختلاط تصوري كبير فيما يخص مسألة هويات الناس، وهي التي تحوّل بني الإنسان المتعدد الأبعاد إلى مخلوقات ذات بعد واحد.

إن كره الناس ليس أمرا سهلا. وتصوّر المقطوعة الشعرية التي كتبها «أوجدن ناش» بعنوان «دعوة من أجل أذى أقل نحو لا أحد» هذه القضية بشكل غاية في الدقة، إذ يقول: «أي طفل في سن المدرسة يمكن أن يقع في الحب بشكل يشبه الأغبياء، لكن الكراهية، يا بني، فن». فكيف يعمل هذا «الفن»؟ (إنه يعمل بالشكل التالي): يعمل قادة الاتهامات الكاذبة والمذابح بمهارة على نشر السراب الخادع عن هوية مفردة واحدة ثم يُسمحون لهذا السراب بالتجذر والنمو. وليس أمرا لافتا أنّ توليد هذا السراب يبدو مقبولا عند أولئك الذين يشتغلون بمهنة غرس العنف ورعايته. لكن هناك سؤالا كبيرا عن السبب الذي يجعل تنمية الهوية المفردة تحقق هذا المستوى من النجاح. إن محاولة أن نرى شخصا بمعايير واحدة فقط من بين هوياته المتعددة تصرُّف فكري فج بشكل عميق، ومع هذا، ونظرا لتأثيره الكبير، فمن الواضح أن من السهل اعتناقه والدعوة إليه.

ويستفيد الفن التجييشي الذي يرسّخ العنف من بعض الغرائز الأساسية ويستخدمها في كبح حرية التفكير واحتمال التعليل المركّب. لكنه يتغذى كذلك على نوع من المنطق، وهو نوع مبتسر منه. فالهوية المعيَّنة التي تُعزَل من أجل توظيفها في عمل معين هي، في معظم الحالات، هوية حقيقية للشخص الذي يراد تجنيده: فـ«الهوتو» هو حقيقة هوتو، و«النمر التاملي» من الواضح أنه تاملي، والصربي ليس ألبانيًا، والألماني غير اليهودي الذي سممت عقله الفلسفة النازية هو ألماني غير يهودي «جنتايل». أما ما يُفعل من أجل تحويل فهم الذات إلى وسيلة قاتلة فهو: (١) تجاهل أهمية الانتماءات والارتباطات الأخرى، و(٢) إعادة تعريف شروط الهوية «الوحيدة» بشكل عدائي خاص. وهذا هو الحد الذي تُشغَل عنده الفظاظة والسراب التصوري الخادع ويتجذران وينتشران.

كما أن إرغام الناس على الانحشار في صناديق الهوية المفردة خصيصة تتصف بها كثير من النظريات الكبرى عن الثقافات والحضارات التي تتمتع بكثير من التأثير الآن. ولا تتبنى هذه النظريات ولا تُقرّ العنف. وهي بعيدة عن ذلك. ومع ذلك فإنها تحاول فهمَ بني الإنسان لا على أنهم أفراد يتمتعون بهويات متنوعة بل على أنهم في الأغلب أعضاء في مجموعة اجتماعية ما أو فئة.

ومن ذلك، مثلا، أن الذين يصنّفون بحسب الحضارات غالبا ما يحشرون الهند في صندوق «الحضارة الهندوسية»، وهو وصف لا يعبأ، من بين أشياء كثيرة، بأكثر من مائة وخمسة وأربعين مليونا من المسلمين في الهند (هذا إن لم نذكر السيخ والجينز والمسيحيين والفارسيين وآخرين)، كما يتجاهل الارتباطات الواسعة بين مواطني الهند التي لا تعمل عبر الدين إطلاقا، بل عبر النشاطات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتجارية والفنية والموسيقية وغيرها من الأنشطة الثقافية. وتقتطع المدرسة القوية جدا للتفكير الفئوي «هوية واحدة لكل إنسان»، تقوم على العضوية الفئوية، وهو ما ينتج عنه بالفعل التقليل من الانتماءات الأخرى كلها التي تجعل بني الإنسان مخلوقات اجتماعية معقدة ومتشابكة وهو ما يتميزون به.

وفي هذا السياق من اللافت أن نتذكر أن التفكير الفئوي يبدأ، جزئيا في الأقل، بوصفه مقاربة بناءة للهوية، عن طريق محاولة الاهتمام بالشخص في «سياقه الاجتماعي». لكن ما يبدأ بوصفه محاولة نظرية محترمة بشكل خالص للنظر إلى بني الإنسان بصورة «أكمل» وأكثر دقة «اجتماعيا»، ربما ينتهي ليكون فهما محدودا بشكل مفرط للشخص على أنه أساسا عضو في مجموعة واحدة فقط.

إن إنقاص بني الإنسان إلى هويات مفردة يمكن أن يكون له آثار تفتيتية، وهو ما يمكن أن يجعل العالم أكثر عرضة لأن يكون مكانا للاحتراق. وكمثال على ذلك فقد قوبل التحديد الإنقاصي للهند على أنها «حضارة هندوسية» الذي أشرنا إليه من قبل بمزيد من الترحيب من الناشطين الطوائفيين في حركة ما سمي بـ«هندوتفا». وبالمثل فيمكن لنظريات الخصوصية الإسلامية، حين تكون مقرونة بالجهل بصلة الهويات الأخرى المتعددة للمسلمين كلها، أن تُستغلّ لتوفر أساسا تصوريا لوجه العنف في الجهاد (وهو مصطلح يمكن أن يستخدم لإثارة الدعوة للاضطرابات العنيفة كما يمكن أن يستخدم من أجل أعمال سلمية). ويمكن أن نرى هذا بشكل كبير في التاريخ القريب لما يسمى بشكل ملتبس بالإرهاب الإسلامي. ويمكن أن يتجاهل الداعون للهوية الدينية العدائية. بشكل ربما تكون له نتائج مرعبة، الغنى التاريخي لهويات المسلمين المتنوعة بوصفهم علماء أو باحثين أو علماء رياضيات أو فلاسفة أو مؤرخين أو معماريين أو رسامين أو موسيقيين أو كتّابا.

**العنف المتصل بالهوية،
لطفل تسكنه الحيرة من هذا الأمر،
أمر صعب الفهم. بل إنه أمر ليس سهلا
على وجه الخصوص حتى
لشخص متحير بالغ**

وليس هناك من سبب لتركيز الناشطين المسلمين الغاضبين اليوم على الإنجازات الدينية للإسلام فقط في تقرير ما الذي يمكن لهم أن يفعلوه لتغيير العالم المعاصر الذي يربطونه بالإساءة المنتظمة وعدم المساواة. وبالمثل، ومن جهة أخرى، فإن هناك سببا وجيها، في مقاومة الإرهاب من هذا النوع ومحاربته، للاستشهاد بغنى كثير من الهويات لبني البشر، لا الاقتصار على هويتهم الدينية وحدها. بل إن الهوية المفردة كثيرا ما تكون أضيق مما يمكن أن يُسمح به التصنيفُ العام لأن يكون الشخص مسلما. فقد استُخدم التمييز بين الشيعة والسنة، مثلا، بشكل قوي لغرض العنف الطائفي بين هاتين المجموعتين المسلمتين، من باكستان إلى العراق.

وقد أسهم كثير من العوامل التاريخية في إضعاف العراق، ومن ذلك عشوائية حدوده التي رسمها المستعمرون الغربيون، واستحالة الفكاك من التشرذم الذي تسبب به التدخل (الغربي) العسكري العشوائي الجاهل. يضاف إلى ذلك أن المقاربة السياسية لقادة الاحتلال المبنية على الطائفية صبت كثيرا من الزيت على النار (وهي مقاربة لا تختلف كثيرا عن المقاربة الرسمية البريطانية للهند أيام الاستعمار التي اشتكى منها غاندي كثيرا).

ولما كانت المبادرة السياسية التي تقودها الولايات المتحدة تميل إلى النظر إلى العراق بوصفه مجموعة من المجموعات الدينية، بدلا من كونه كيانا بمواطنين، فإن المحادثات غالبا ما تركز على قرارات قادة المجموعات الدينية، وخطاباتهم. ومن المؤكد أن هذا هو الطريق الأسهل للتعامل مع العراق، خاصة إذا نظرنا إلى التجاذب الموجود فيه وهو الذي أوجده بالطبع الاحتلالُ نفسه. لكن الطريق الأسهل في المدى القصير ليس الطريق الأفضل دائما.

وقد أشار غاندي إلى تنمية مثل هذه الهوية الفريدة التي تقوم على الفئوية وتقديمها على أنها «تقسيم» دولة ما بما يشبه عملية تشريح الحيوان (في تقطيع أوصاله إلى قطع صغيرة لدراستها)، وهناك أسباب وجيهة للاهتمام السياسي

بمثل هذه التقسيمة. كما أن من المهم بشكل حاد أن نتنبه إلى الهويات العراقية التى تؤدى إلى الاندماج، مثل الجنس والطبقة بالإضافة إلى الدين. ومن الممكن أن نتذكر تنبيه غاندى لرئيس الوزراء البريطانى، الذى كان يحكم الهند فى سنة ١٩٣١، القاضى بأن النساء «يمثلن نصف عدد سكان الهند». وهو خط من التفكير له علاقة بالعراق المعاصر الآن كذلك.

وللسراب الانغلاقى الخادع نتائج تترتب على الطريقة التى يُنظر بها إلى الهويات العولمية وتقدَّم. فإذا كان لا يمكن أن يكون لفرد ما أكثر من هوية واحدة، فسيصبح الاختيار إذن بين الوطنى والعالمى سباقا بين «العدم والوجود». لكن رؤية هذه المشكلة بهذه المعايير الإقصائية الكالحة يعكس خطأ فى الفهم. ذلك أن لعدد من المشكلات الاقتصادية والسياسية أبعادا عالمية، وأن القضايا الإجرائية التى تتعلق بها يجب أن تُدرس ويُهتم بها. وهناك سبب قوى لإصلاح المؤسسات الرسمية التى تجعل العولمة اتفاقا أكثر عدلا. ومن ذلك وجوب أن يُهتَم على جبهات مختلفة بالمشكلات العويصة التى يواجهها الضعفاء وغير المحميين، ويجب أن تقوم بهذه المهمة السياسات الوطنية والمبادرات الدولية وإصلاح المؤسسات الرسمية.

كما أن هناك قضية العدل الفكرية فى تناول التاريخ العالمى، وهو مهم للفهم الأكمل للماضى الإنسانى وللتغلب على الحس الخاطئ بالتفوق التام للغرب. ومن ذلك مثلا، أنه مع أن هناك بعض النقاش مؤخرا عن حاجة المهاجرين من بيئات مختلفة إلى أوروبا أو أمريكا إلى أن يعرفوا أشياء كثيرة بشكل أوفى عن الحضارة الغربية، فلا يزال من اللافت بشكل كبير أنه لا يوجد إلا وعى قليل بأهمية حاجة «البريطانيين الأصليين» و«الألمانيين الأصليين»، و«الأمريكيين الأصليين»، وآخرين إلى أن يتعلموا شيئا عن التاريخ الفكرى للعالم.

عالم ممكن:

وكثيرا ما يُزعم أن من المستحيل أن يكون هناك، فى المدى المنظور، دولة عالمية ديموقراطية. والواقع هو هذا، إلا أنه إن نُظر إلى الديموقراطية على أنها الحوار العام المعلَّل، فإننا لسنا بحاجة إلى أن نضع إمكان الديموقراطية المعولمة فى

ثلاجة إلى أجل غير مسمى. إنها ليست خيارا بين العدم والوجود. فيمكن أن تُستغل كثير من المؤسسات فى هذه الممارسة للهوية العالمية، ويشمل ذلك الأمم المتحدة، لكن هناك احتمالا أيضا للعمل المتأصل، الذى بدأت فيه للتو منظمات أهلية، معظمها ليست مؤسسات حكومية، بالإضافة إلى أجزاء من الوسائط الإعلامية المستقلة.

وهناك دور مهم جدا لحركة العدالة العالمية. وربما تكون واشنطن ولندن غاضبتين من النقد المتنوع الواسع لاستراتيجيتهما فى العراق، مثلما أن من المحتمل أن تكون شيكاغو أو باريس أو طوكيو على درجة من الاستغراب للاحتجاجات ضد العولمة. وليس كل المحتجين على صواب، لكن كثيرا منهم يسأل الأسئلة ذات الصلة. فهناك حاجة لازمة فى العالم المعاصر لنسأل أسئلة لا تتصل فقط بالاقتصاد أو السياسة أو العولمة، بل كذلك بالقيم، والأخلاق وحس الانتماء الذى أبدع تصورنا عن العالم المعولم. لكن الهوية المعولمة يمكن أن تبدأ باستقبالها استقبالا تستحقه من غير أن نلغى انتماءاتنا الأخرى.

وقد كتب ديريك ويلكوت (الشاعر الكاريبى الحائز على جائزة نوبل فى الآداب)، فى سياق مختلف جدا، متعاملا مع فهمه المندمج للمجتمعات الكاريبية (رغم اختلافاتها الواسعة فى الأعراق والثقافات والاهتمامات والخلفيات التاريخية):

إننى لم أعثر قط على اللحظةَ
التى كان يَقسم عندها الأفقُ العقلَ
ذلك أنه فيما يخص الحداًد من بيناريس
والحجّار من كانتون
فإنه كما يغوص خط اصطياد السمك، فإن الأفق
يغوص فى الذاكرة

إننا نستطيع، فى مقاومتنا للتقزيم من شأن بنى الإنسان، أن نوجد الاحتمال بعالم يمكن له أن يتغلب على الذاكرة فى تاريخها المؤلم وأن نتغلب على مخاوفها الحاضرة. ولم يكن باستطاعتى حين كنت فى الحادية عشرة من العمر أن أفعل الكثير لـ«قادر مياه» فيما كان مطروحا ينزف ورأسه فى حجرى. لكننى أتخيل عالما آخر، ليس بعيدا عن متناولنا، يمكن فيه، له ولى معا، أن نؤكد هوياتنا المشتركة الكثيرة. إنه يلزمنا أن نؤكد، قبل أى شىء، أن أُفقنا ما لم يقسم عقلَينا إلى نصفين. ■

كتاب الزاوية

القلم ينصف الحياة

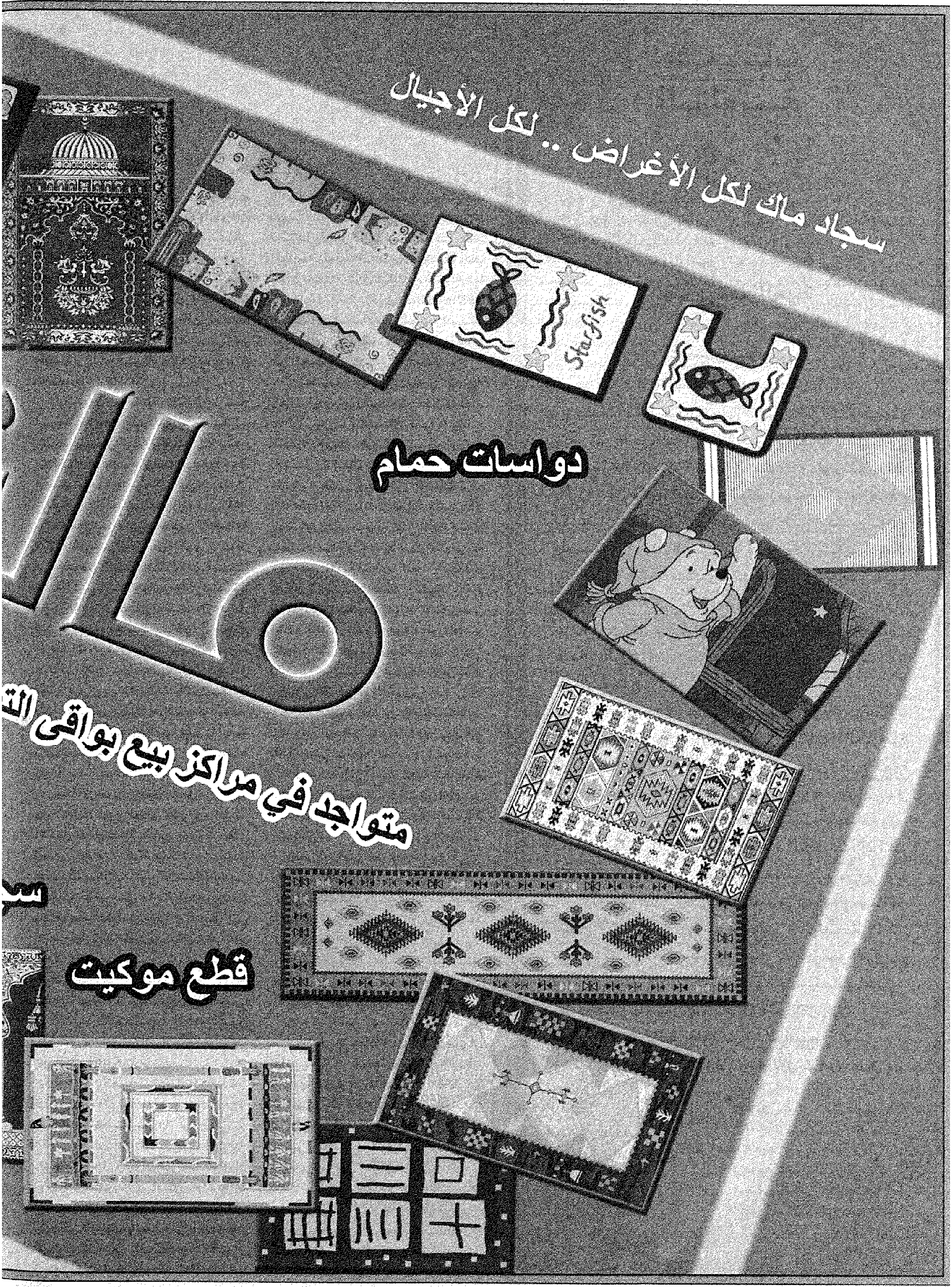
غسان توينى

عندما أسس جبران توينى «النهار»، من أكثر من ربع قرن، كانت الصحافة اللبنانية خبراً متواضعاً، بطيئاً، ورأيًا يستتبع القارئ، وطرائف من الأصدقاء وعنهم.. كل ذلك بأحرف غليظة، وأعمدة متطاولة، وصفحات متعارضة.. ولا عنوان! والقارئ الذى تدرج مع تقدم الخبر والرأى، والحرف والعمود والعنوان، لا يذكر ولا ريب كيف علم ببدء الثورة فى فلسطين أو كيف قرأ عن حصر التبغ والتنباك، كما أنه لا يتذكر، فوق ذلك، أن إعلان الحرب عام ١٩٣٩ كان بمثابة إعلان ثورة فى «النهار».. لأنه جاء بعنوان على عرض الصفحة نسميه الآن «مانشيت»، ولا نقرأ صفحة من دونه..

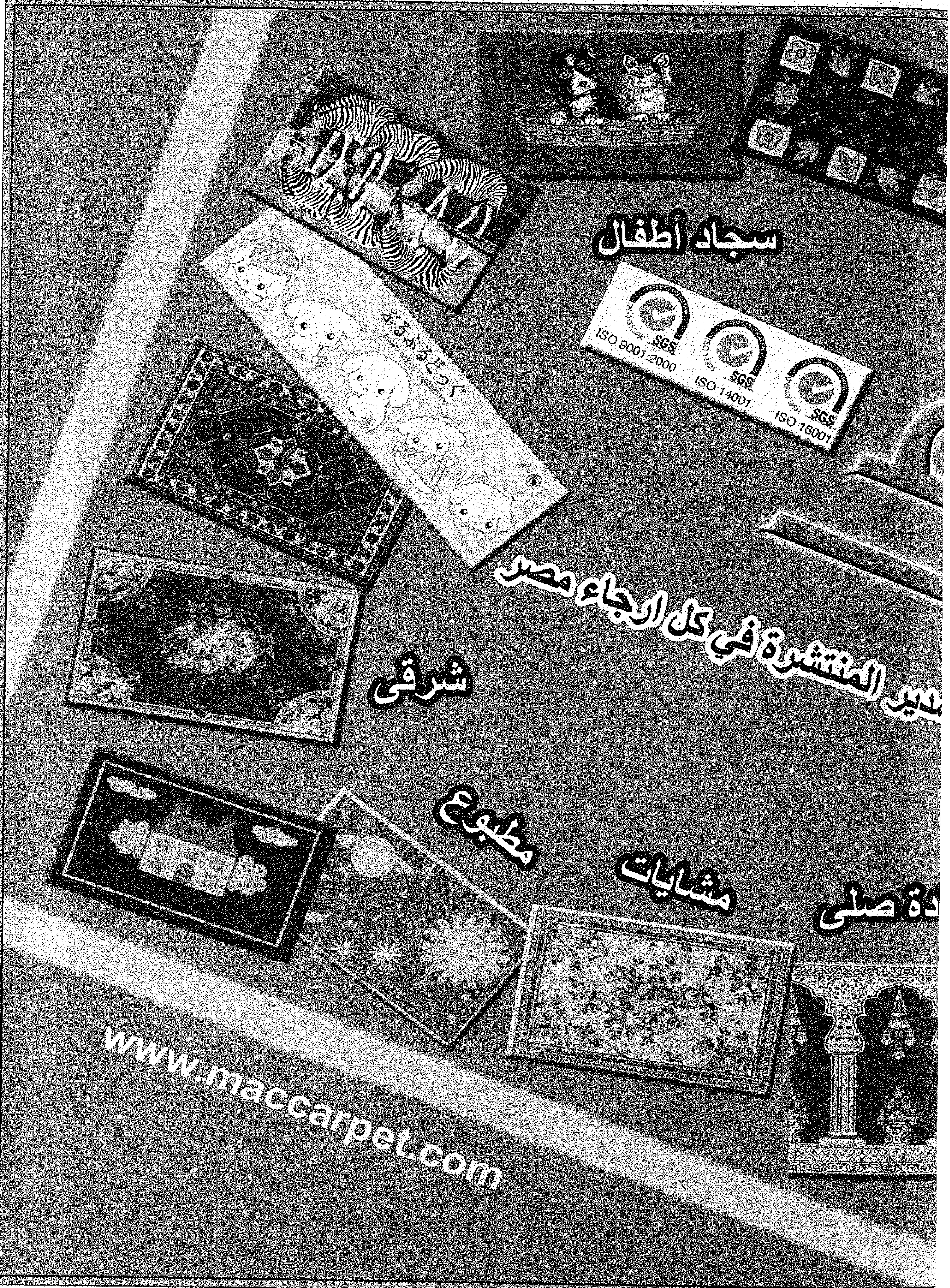
هذا القارئ، ماذا تقدم إليه هذه المجموعة؟ تاريخًا؟.. وما قيمة تاريخ ربع قرن فى عصر الذرة والفضاء الخارجى؟

مجموعة آراء وأخبار قديمة؟ ونحن فى أحرج حيرة حول ما يحمله لنا الغد؟ سر هذه المجموعة أنها تحمل أخبار كل سنة وآراءها من ربع قرن، وكأنها كتبت فى يوم، وكأنها أخرجت اليوم.. ما تفعله هذه المجموعة، إذاً، هو نقلك إلى قبل ربع قرن ثم المرور بك عبر السنين، واحدة واحدة، ستا وعشرين مرة، وكأنك تعيشها اليوم. تستفيق صباح ١٩٣٣ لتقرأ رأى جبران توينى فى الفوضى التى تنتاب حياتنا العامة، ولتسمع بموت الملك فيصل الأول، ثم تقفز إلى عام ١٩٤٣ لتقرأ ـ كأنها حصلت فى الليل ـ أخبار تعديل الدستور، فالاستقلال. ثم تنتقل إلى عام ١٩٥٣ «لتفاجأ» عند قراءة أخبار ما تم بالمراسيم الاشتراعية. وهكذا حتى ما حدث، فعلاً، هذا الليل، وأمس وأول من أمس!

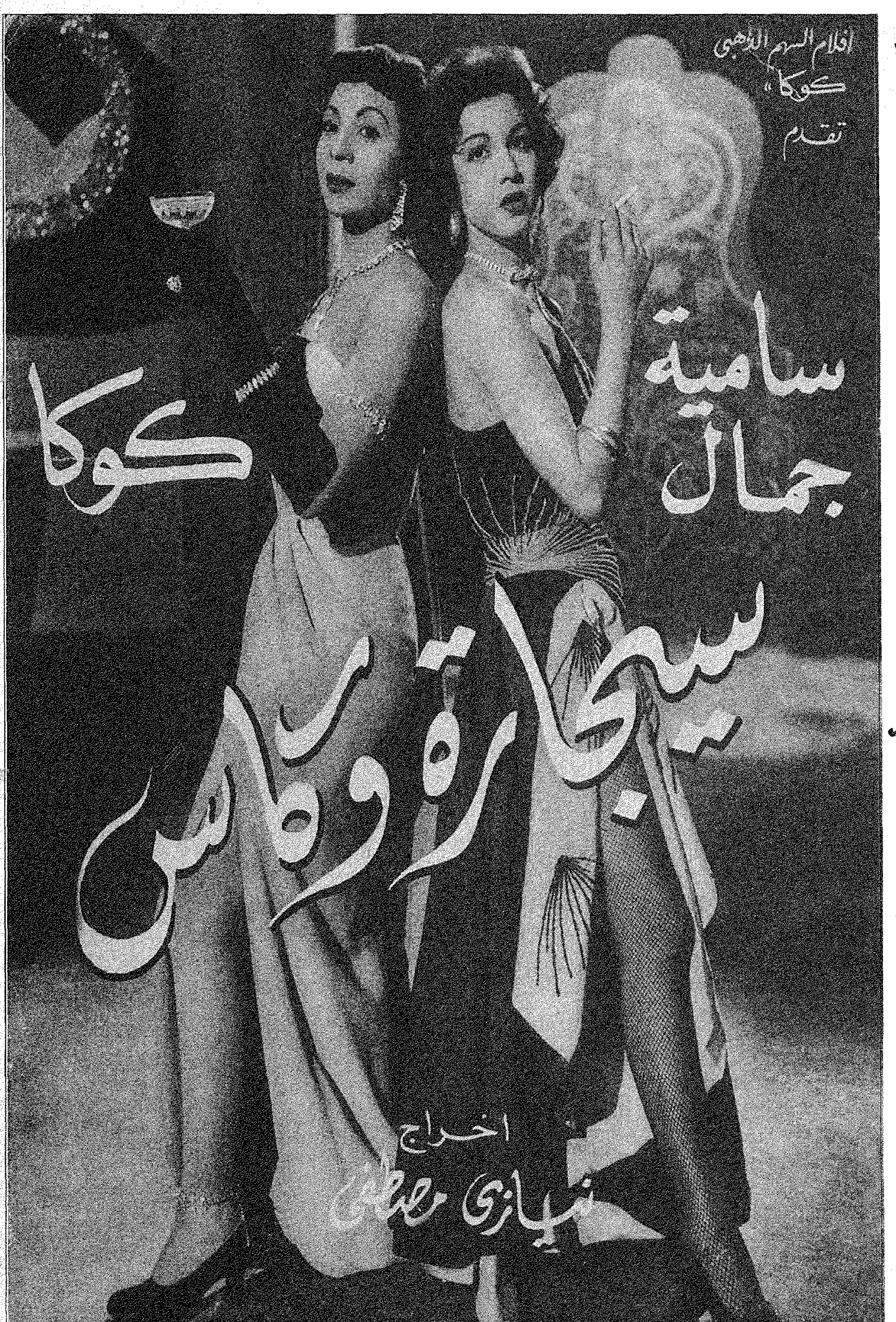
(١٩٥٨)



سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقي
قطع موكيت



سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
www.maccarpet.com


أفلام السهم الذهبي
"كوكا"
تقدم
سامية
جمال
كوكا
سيجارة وكاس
اخراج
نيازي مصطفى
أفلام نهضة الشرق (جول مرديان) ٤٢ شارع شريف

أفيش السينما، مثل أي إعلان تجاري، يعتمد على الصورة، والكلمة معاً، كل منهما يحاول أن يفسر الآخروأن يدل عليه، أي أن يكون بمثابة الآلة له.









■ أفيش الفيلم هو أول علاقة حميمة بين الفيلم والمرء..

حتى وإن كان هذا المرء لن يشاهد الفيلم، أو من غير محبي السينما، إلا أنه، أي الأفيش، سوف يحيط بالأعين، ويقف قبالتها في أماكن عديدة، وبأشكال مختلفة، حتى قبل العرض بفترة طويلة..

وتتعدد أماكن وجود هذا الأفيش، ابتداء من قاعة السينما نفسها، ثم الشوارع، والصحف والمجلات، والتليفزيون، ووسائل النقل في أحيان كثيرة، مثل الترام، والأتوبيس.

إذن، فالأفيش هو أول ما نراه من الفيلم، وبفترة طويلة.

لذا، يجب أن يكون بمثابة المختصر المفيد، والجذاب المؤكد الذي عليه أن يولد ما يمكن تسميته بالحب من أول نظرة بين الطرفين: المشاهد. الفيلم، مما يدفع بالمتفرج إلى انتظار العرض والتهافت لرؤية الفيلم، ربما في الحفل الأول، أو اليوم الأول، وأحياناً، في أيام لاحقة.

ومن هنا تجيء أهمية الأفيش الذي عليه أن يلعب دور زرع الحب من أول نظرة، أن يتضمن كل ما في الفيلم من جاذبية، أسماء النجوم، وأحياناً اسم المخرج، لكن صورة النجوم كما سيبدون، سوف تلعب دوراً أساسياً، بالإضافة إلى ترتيب الأسماء، فعلى الأفيش، يجب أن يظهر النجم في أفضل صورة، وأن يرى المتفرج ما يرغبه في نظرة واحدة، قد تحتاج إلى المزيد من التأمل وإعجاب.

ولاشك أن الأفيشات السينمائية، قد صنعت من الشوارع معرضاً تشكيلياً مفتوحاً، متجدداً، وبأحجام مختلفة، فالناس تجد أنفسها محاطة بهذه الأفيشات، لا تستطيع أن تطردها بسهولة في حالة رفضها، بل هي وسيلة مؤكدة للتأمل، وفي كثير من الأحيان فإنها، مع مرور الوقت، ترتبط بذكريات بعينها، وفيما بعد تظل حالة ملحوظة من الحنين، ومن هنا تأتي جاذبية الكتب التي استجمعت أكبر عدد من أفيشات السينما، كي يمكنها لملمة أكبر عدد من الذكريات..

وقد قامت صناعة الأفيشات، عالمياً وعربياً منذ بداية السينما، وتحويلها إلى سلعة تجارية، مطلوب منها أن تجذب أكبر عدد من الناس لمشاهدة الفيلم، وهذا المنتج التجاري، يجمع بين التجارة، والفن، وينطبق عليه ما يمكن أن نقوله حول صناعة الإعلان في كل أنحاء الدنيا، بل إن السينما ظلت بأفيشاتها بمثابة الكيان المدلل في هذا العالم، باعتبار جماهيرية الفن، وذيوعه، وما يتسم به نجومه من شهرة فائقة.

وأفيش السينما، مثل أي إعلان تجاري، يعتمد على الصورة، والكلمة معاً، كل منهما يحاول أن يفسر الآخر وأن يدل عليه، أي أن يكون بمثابة الآلة له.

وقد وضع مصممو الإعلانات، والأفيشات السينمائية هذا المفهوم وهم يصممون سلعهم، من أجل أن يتقبلها الناس، وأن تحقق الهدف المنشود منها، لكن مع اختلاف واضح أن أفيش السينما يتعامل مع منتجات حية، تتمثل في النجوم، وطاقم العاملين بالفيلم، وأيضاً القصة التي سوف يشاهدها الناس، لذا فالإعلان يعد بمثابة وسيلة لترغيب الناس للذهاب لمشاهدة الفيلم، وقضاء وقت لطيف هي مدة عرض الفيلم.

وفي الولايات المتحدة، وأيضاً بعض الدول التي لديها مؤسسات سينما ضخمة، كانت هناك إدارات خاصة لتصميم الأفيشات، لديها فنانون ذوو سمات خاصة، أي أنهم رسامون مهرة، لكنهم لم يعملوا غالباً في رسم اللوحات، مثل مصممي أغلفة الكتب لدى دور النشر، أو مصممي المجلات في المؤسسات الصحفية.

في العالم، كانت شركة الإنتاج هي التي تتولى عمل الورش، ولم يكن يذكر اسم مصمم الأفيشات، لكن التشابه كان واضحاً في داخل الشركة الواحدة، ولم يكن المصمم يوقع أو يكتب اسمه، مثلما حدث في مصر، وفي أوروبا كانت شركات الإنتاج مثل جرمون، وغيرها هي أيضاً المسئولة عن إدارة تصميم الأفيشات، أما في مصر، فإن الأوربيين هم الذين قدموا الأفيشات الأولى، خاصة الأرمن الذين جاءوا للإقامة في مصر، ثم بدأت المؤسسات الصغيرة في الظهور، الواحدة تلو الأخرى، وسوف توجد في السمات التي سنتوقف عندها ما يتعلق بالمرحلة التاريخية، وبما تركته الأفيشات من أثر في الحياة.

على مدى تاريخ السينما العربية، فإن هناك مجموعة من السمات العامة يمكن أن نلاحظها في الأفيشات التي ملأت الشوارع بقوة قرابة ثمانين عاماً، وتلاشت من فوق أماكنها، لكن الكثير منها ظل ماثلاً في الذاكرة.

نجوم الأفلام: أسماء وصور، هم بؤرة هذه الأفيشات، ونقاط التركيز فيها، ويتوقف ذلك على شعبية النجم، وقبول الناس له، فهذا يعني أن النجم موجود بقوة في الفيلم، مثلما هو موجود في الأفيش، أي أن الأفيش هنا يعتبر بمثابة مدخل، أو مفتاح للفيلم، وبمتابعة هذه الملصقات طوال هذا التاريخ، فسوف تجد أن نجوماً بأعينهم، كانت صورهم، وأسماؤهم المكتوبة بشكل متفرد سبباً في جذب الناس، بمعنى أنه يكفي أن يظهر هذا النجم وحده على الأفيش، اسماً، وصورة، كي يؤدي غرضه، وقد حدث هذا مراراً، لكن فقط لأعداد محدودة من النجوم، خاصة في مجال الغناء، والكوميديا، ولعل أسماء محمد عبدالوهاب، وفريد الأطرش، وشالوم، وعبدالحليم حافظ، وإسماعيل يس، ثم عادل إمام، ومحمد هنيدي، كانت بمثابة بطاقة الأمان المضمونة حين توضع وحدها على الأفيش، وقد بدا هذا واضحاً في يوم سعيد، شاطئ الحب، فتى أحلامي، ليالي الحب، الإنسان يعيش مرة واحدة، وصعيدي في الجامعة الأمريكية.

وقد ساعد في تفرد النجم وحده بالأفيش قوة اسمه أولاً، وأيضاً عدم وجود نجمة تمتلك الجاذبية نفسها في الأفلام المذكورة، ونذكر هذه الأسماء بشكل محدد، باعتبار أن النجومية كلها، كانت للنجم، وأن النجمات المشاركات كن أقرب إلى الدرجة الثانية.

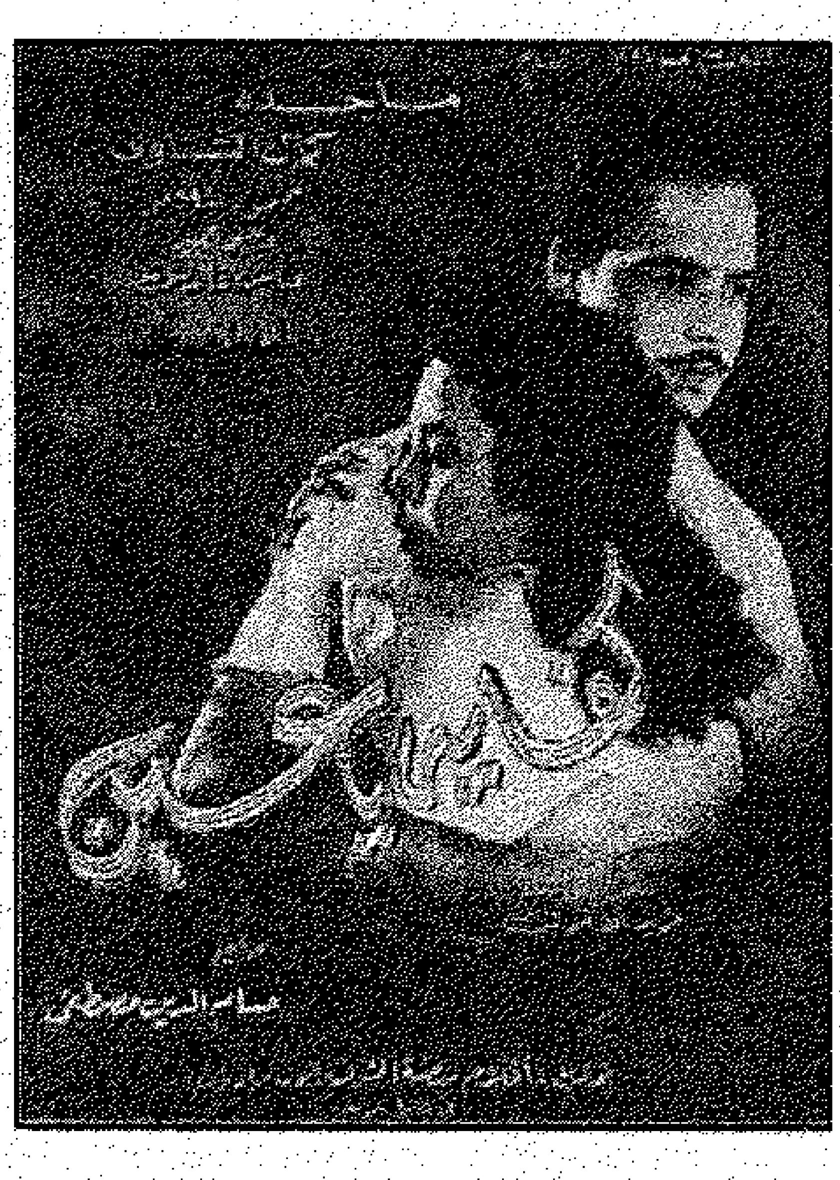
ولم تتكرر الظاهرة نفسها على الأفيشات بالقوة المذكورة، بالنسبة للنجمات، حتى مع فاتن حمامة، ونادية الجندي، وشادية، ونبيلة عبيد، وليلى مراد، بالطبع لأنه كان هناك نجوم إلى جوار هؤلاء اللامعات، لكن هناك بالطبع حالات استثنائية، قد تعود في المقام الأول إلى مصمم الأفيش، أو إلى النجمة المنتجة، أو المشاركة في الإنتاج، فقد حرصت نادية الجندي على أن تضع أسماء من يعملون أمامها في العديد من أفلامها، مثل شوق والخادمة أي أنها لم تنفرد وحدها بالأفيش، اسماً وصورة إلا في حالات قليلة، فهي كانت تراهن على الممثلين الذين يعملون أمامها، لكنها بلا شك قد اقتسمت لنفسها المساحة الأكبر، وقد حدث الشيء نفسه مع نبيلة عبيد، وقد توقفنا عند هاتين النجمتين، لأن كلا منهما حرصت أن تلقب نفسها باسم ما مثل «نجمة الجماهير»، «نجمة مصر الأولى»، مثلما أطلق البعض على فاتن حمامة اسم سيدة الشاشة من قبل التي تصدرت أفيشات قليلة بصورها مثل أريد حلاً.

هذا بالنسبة للأفلام التي اعتمدت في بطولتها على نجوم من طراز الأسماء التي ذكرناها سابقاً، وهناك حالات استثنائية متعددة، فعمر الشريف مثلاً يتصدر أفيش فيلمي أيوب، الأراجوز، وشالوم يتصدر أفيشات أفلامه ومنها: الترجمان، الرياضي، أما الأفلام التي تتضمن اثنين من النجوم، خاصة في الأفلام الرومانسية، فإن الأفيش يظهرهما بالقوة نفسها، وفي مشهد عاطفي، دون تكبير لأحدهما عن الآخر، مثلما شاهدنا في الوسادة الخالية، آه يا ليل يا زمن، سونيا والمجنون، معبودة الجماهير، امرأة للحب، عذراء ولكن،

من مقدمة كتاب:
أفيش السينما المصرية
القاهرة - دار الشروق - ٢٠٠٥

محمود قاسم







الاعتراف الأخير، وتمضي الأحزان، سنوات الحب، رسالة من امرأة مجهولة.

ونحن لا نتوقف هنا عند أفلام بعينها، سواء من حيث تاريخ الانتاج، أو الأهمية الفنية، فهي أفيشات، موجودة أمام الناس، يشاهدونها بدرجاتها المختلفة، ومن حيث هذه السمة، فهناك أفلام تجمع شخصين، سواء اثنين من النجوم الرجال، أو اثنتين من النجمات النساء، لكل طرف منهم أهميته، في أن يتصدر الأفيش، في مواجهة زميلة، مثل وجهي شادية، وفاتن حمامة المتواجهين في المعجزة، ومثل وجهي محمود عبدالعزيز، ومصطفى فهمي على ملصق وجهاً لوجه الذي اختفى عنه تماماً وجه بطلة الفيلم الرئيسية سهير رمزي وكذلك أفيش فيلم رجل بمعنى الكلمة الذي يقف فيه كل من محمود يس، وعادل أدهم في مواجهة كليهما، وقد قيدا بقيد حديدي، و الخدعة الخفية الذي أخذ شطراً من وجهي كل من فريد شوقي وعادل إمام.

وتتدرج الأفيشات، فنرى بعضها، وقد ضم ثلاثة من أبطاله الرئيسيين، مما يعني أن الجاذبية تنحصر في هذا الثالوث، وقد تتعدد هذه الأفيشات بتعدد الأفلام التي يقوم ثلاثة شباب، أو ثلاث بنات ببطولتها، وما أكثرها، ومنها إحنا التلامذة.

كما أن هناك أيضاً الفقراء أولادي، الحب الصامت، هارب من الحياة.

وفي بعض الأحيان، نرى على هوامش هذا النوع من الأفيشات، إشارات، ورسوما لبطلات أخريات شاركن في البطولة، ويتضح هذا في أذكياء لكن أغبياء، يوم الحساب، العاطفة والجسد، انهيار وأنت عمري.

أما الأفلام التي تعتمد على البطولات الجماعية، أكثر من أربعة أشخاص، لا يستطيع أي منهم وحده أن يحمل لواء فيلم، فإن الأفيش يحرص على ضمهم معاً، بأشكال متباينة، منها صور مرسومة لكل منهم متجاورين، في كادرات منفصلة، ولعل الأشهر في تلك السمة هو ثرثرة فوق النيل، وأيضاً الإخوة الأعداء، وفي أحيان أخرى تتناثر رسوم هؤلاء الأبطال، مثلما حدث في أفيشات من يطفيء النار، النصابين وأفراح الشباب اللبناني، بدون زواج أفضل، عمل إيه الحب في بابا، سنة أولى حب، السقا مات، حياتي عذاب، الدنيا على جناح يمامة، الكمساريات الفاتنات، الشيطان، الواد سيد الشغال، كلاب الحراسة، الذئاب الذي ضم ١١ نجماً في شبه دائرة.

الملصقات هي في المقام الأول لوحات مرسومة، قام بتصميمها فنان تشكيلي، تخصص غالباً في عمل هذا النوع من الرسوم، وهو ما هو في رسم الوجوه (بورتريه) الخاصة بالفنانين، وبشكل عام، فهناك ثلاثة أنواع من هذه الملصقات تنحصر في التالي:

رسوم توضيحية، رسوم كاريكاتيرية، صور.

وهناك فنانون بأعينهم برزوا في هذا النوع من العمل، وتفرغوا له، وأتقنوه بقوة، ولعل «جسور» هو الأكثر أهمية في رأينا، لقدرته البارعة في رسم الوجوه، وصياغتها بشكل جذاب، وتعادل موهبته في تصميم الملصقات موهبة وعطاء جمال قطب في تصميم أغلفة الكتب، خاصة الروايات، فجسور أيضاً هو مصمم أغلفة روايات نجيب محفوظ الثلاث، وهي بين القصرين، قصر الشوق، السكرية.

وقد دخل على هذا المجال رسامو كاريكاتير بارزون، على رأسهم مصطفى حسين الذي صمم أفيشات أفلام عديدة منها إلى المأذون يا حبيبي، سوبر ماركت، وبدت ملامح رسوم الفنان التي عرفناها في الكاريكاتير الخاص به في الصحف السيارة في الرسم الأقرب إلى حركة لأفيش إلى المأذون يا حبيبي، أما سوبر ماركت لمحمد خان، ففيه الجو الساخر لمصطفى حسين، حيث وضع ممدوح عبدالعليم في عربة صغيرة لحمل المشتريات في السوبر ماركت، وقامت نجلاء فتحي بدفعه أمامها.

وهناك أفيشات عديدة اعتمدت على الكاريكاتير، من أبرزها ٤ - ٢ - ٤ إخراج احمد فؤاد، أما عادل البطراوي فقد رسم افيش فيلم شيلني وأشيلك لعلي بدرخان.

كما توجد تجارب بالغة الأهمية، منها افيش فيلم إسكندرية ليه ليوسف شاهين ١٩٧٩، كما استعانت أسماء البكري بالفنان الفرنسي جولو ليصمم فيلمها شحاتين ونبلاء، والذي صمم رسماً تخيلياً أقرب إلى ما يرسمه في مجلة سبيرو، والجدير بالذكر أن جولو رسم الرواية نفسها في هذه المجلة من خلال قصص مرسومة.

النوع الثالث من الأفيشات، من حيث نوع الرسوم على الأفيش تتمثل في الاستعانة بصور فوتوغرافية للنجوم، في بعض الأحيان قد تمتزج الرسوم المصورة، وفي أحيان أخرى تتم الاستعانة بالصور بشكل مباشر، مثلما رأينا في أفيشات أفلام من طراز مافيش تفاهم، مذكرات تلميذة، غصن الزيتون، صراع الجبابرة، خلخال حبيبي، يا حبيبي، عنبر الموت، يوم بلاغة، عودي يا أمي، وفي السنوات الأخيرة، وعن طريق الفوتو شوب، وبرامج الكومبيوتر، تم الاستفادة من الصور الفوتوغرافية لعمل مزيج جديد، بالغ التعقيد أحياناً لعمل الأفيشات، ولم توقع مثل هذه الأفيشات باسم صانعها، مثلما رأينا على ملصقات أفلام، عايز حقي، إللي بالي بالك، ميدو مشاكل، زكي شان، عوكل، باحبك وباموت فيك، وغيرها.

انتقلت ظاهرة الاقتباس من القصص والموسيقى إلى الأفيشات. لكن الاقتباس هنا لم يحدث بالصورة نفسها البالغة الاتساع التي رأيناها في القصص، والسيناريوهات، ولعله من الصعب أن نتذكر كل التجارب، لكن أغلب الحالات المتشابهة التي بين أيدينا، مأخوذة عن أفلام أمريكية، باعتبار أن أفيشات الأفلام الفرنسية، والإيطالية التي وجدت طريقها إلى دور العرض المصرية لم يكن أغلبها أصليا، وقد وصلتنا هذه الأفلام غالباً عن طريق شركات التوزيع الأمريكية المعروفة.

أشهر هذه الأمثلة التي لا تضيع من الذاكرة بسهولة، هو أفيش فيلم بئر الحرمان لكمال الشيخ عام ١٩٦٩، الذي خلا من توقيع المصمم وإن كان يقترب من أسلوب جسور، وهو يصور وجها كبيرا لسعاد حسني، وقد تدلى شعرها بطول الأفيش وعلى الجانب الأيمن كل من محمود المليجي، ونور الشريف، ومريم فخر الدين تعانق ابنتها، والأفيش هو صورة طبق الأصل من أفيش الفيلم الأمريكي. البريطاني هروب من القدر إخراج جون شيلزنجر عام ١٩٦٧، وبطولة جولي كريستي، كل ما فعله المصمم أن وضع ملامح وجه سعاد حسني مكان جولي كريستي، ووضع رسوم الممثلين المصريين مكان أبطال الفيلم الأجنبي وهم تيرنس ستامب، وبيتر فينش، وإلك بيش.

وفي نهاية الستينيات أيضاً، كانت ظاهرة اقتباس الأفيشات واضحة، فقد تم تصميم أفيش فيلم حواء والقرد إخراج نيازي مصطفى على النمط نفسه الذي رأينا عليه أفيش فيلم مليون سنة قبل الميلاد، وتصدرت سعاد حسني أيضاً، مرتدية ملابس امرأة بدائية، وتقف بالطريقة نفسها التي كانت عليها راكيل والش في الأفيش.

أما فيلم المشاغب إخراج نيازي مصطفى عام ١٩٦٤، فهو مأخوذ من أفيش لفيلم أمريكي ينتمي إلى المغامرات بعنوان قراصنة بحر الشمال بطولة كيروين ماتيوز، وفيه يقوم هذا الأخير بحمل فتاة، ويجري بها، وهو المشهد نفسه الذي رأينا عليه فريد شوقي يحمل سهير المرشدي في الفيلم المصري.

كما أن هناك تشابهاً ملحوظاً بين أفيش فيلم أرض الأحلام إخراج كمال الشيخ ١٩٥٧، وبين فيلم الرداء عام ١٩٥٣، وهناك تشابه آخر بين أفيش فيلم ثورة المدينة عام ١٩٥٥، وبين أفيش فيلم ذهب مع الريح، وهناك أيضاً تشابه ملحوظ بين أفيش فيلم هروب لحسن الصيفي، المأخوذ قصة، وأفيشاً عن الفيلم الأمريكي حطمت قيودي لستانلي كرامر عام ١٩٧٧، كما أن هناك تشابهاً بين الأفيش نفسه وبين أفيش فيلم رجل بمعنى الكلمة لنادر جلال، حيث هناك رجلان مقيدان بقيد حديدي. ينظر كل منهما إلى الآخر في تحد.

ولعل من الأفيشات الحديثة التي لفتت الأنظار أنها مقتبسة، أفيش فيلم أمير الظلام عام ٢٠٠٢ لرامي إمام، المأخوذ بظلاله، والصورة غير المحددة للنجم، من أفيش الجزء الثالث من فيلم الأب الروحي لفرنسيس فوردكوبولا.







مثلما تتباين الأفيشات في وضع الصور، وأسماء النجوم، فإن التباين ملحوظ، بالنسبة لأسماء العاملين الفنيين، ابتداء من اسم الكاتب، أو السيناريست، ومدير التصوير، أو المونتير، واسم الشركة المنتجة الذي يوضع عادة في أعلى الأفيش، وأيضاً اسم الموزع الخارجي، والموزع داخل مصر، وفي بدايات السينما، كانت أسماء النجوم، والشركة المنتجة توضع عادة في أعلى الأفيش، وأيضاً اسم الموزع الخارجي، والموزع داخل مصر، وفي بدايات السينما، كانت أسماء النجوم، والشركة المنتجة هي الأساس على الأفيش، لكن لو نظرنا إلى أفيش فيلم الكلبشات لأحمد صقر، إنتاج عام ١٩٩١، وهو من أفلام المقاولات التي لم تجد طريقها للعرض على الشاشة فسوف تجد اسم المنتج سيد علي، وأسماء الأبطال الثلاثة سعيد صالح، وسمير صبري، وسماح أنور، هم أسماء كل الممثلين الذين عملوا في الفيلم، وهي تقارب الـ ٢٦ اسماً من نجوم الصف الثاني، والثالث، والرابع، بالإضافة إلى كاتب السيناريو، ومدير التصوير، والمونتاج، والمدير الفني، وآخرين، بالإضافة إلى اسم المخرج.

أثار ترتيب أسماء النجوم على الأفيشات الكثير من المتاعب، خاصة إذا تضمن الفيلم أكثر من بطل، وإذا تقاربت الأهمية النجومية بالنسبة لهذه الأسماء، حيث يحرص النجوم دوماً أن تكون أسماؤهم في الصدارة، لأن أي مساس بمكان الرسم يعني هبوط صاحبه إلى مصاف الدرجة الثانية، وقد عرف عن عادل إمام في بداية بطولاته المطلقة، أنه لم يكن يتوقف عند مسألة ترتيب اسمه، فترك اسم كل من نيللي في الغول، وسعاد حسني في المشبوه، حب في الزنزانة يأتي قبل اسمه، بالطبع لمكانة كل منهما من الناحية التاريخية، رغم أن عادل إمام كان البطل المطلق في هذه الأفلام.

لكن ما هو ترتيب الأسماء لفيلم تقوم ببطولته كل من إلهام شاهين، وفيفي عبده، في أوائل التسعينيات هو ليلة القتل فقد أثار ترتيب الأسماء على الأفيش مشاكل بين الاثنتين أدت بهما إلى أقسام الشرطة، ومن هنا يتفنن مصمم الأفيش في أن يضع أحد الاسمين أعلى، والاسم الآخر المعادل أقصى اليمين، قد تعرف من الأول، ومن الأعلى.

وقد تكرر هذا الأمر في فيلم الطيب والشرس والجميلة إنتاج نور الشريف، الذي وضع اسمه قبل زميله فريد شوقي. وفي أغلب الأحيان، فإن المنتج يستفيد من هذه الخلافات لصالح الدعاية للفيلم، وقد يمتثل، محاولة لإرضاء الطرفين، وربما أكثر، وفي تاريخ السينما هناك الكثير من هذه الحالات، وغالبا ما يتم تجاوزها. فقد قيل إن فاتن فريد دفعت تعويضاً لمحمود يس في أفيش فيلم امرأة دفعت الثمن، كما أن نبيلة عبيد أثارت الكثير من المشاكل مع المخرجين والمنتجين، حين فرضت أن يكتب اسمها منفرداً، وبأسفله، أو بأعلاه عبارة«نجمة مصر الأولى»مثلما حدث في أفلام توت توت، الغرقانة.

هناك عدة أنواع من الأفيشات، لكنها في الغالب تنقسم إلى نوعين من حيث الحجم، الأول يتم نشره في لوحات كبيرة، موحدة القياس، غالباً ما تكون ٣٠٠×٢٤٠سم، وهو قطعة واحدة غالباً، وتتكون من ٢٤ قطعة، أما النوع الثاني فهو يتكون من ٩٠×٦٠ سم، ويعلق على أبواب السينما، وفي الشوارع، ومن ناحية التصميم، فإنه في الغالب ما يكون الأفيش الأكبر مختلفاً تماماً عن قرينه الأصغر، وذلك بهدف التنوع، وفي الكثير من الأحيان يتم عمل أكثر من أفيش، سواء للكبير، أو للصغير، وذلك أيضاً للهدف نفسه، ومن أجل الإحساس بالتجديد.

لم تهتم المؤسسات المختلفة بتكريم الإعلانات إلا مع أواخر الثمانينيات، حيث بدأت جمعية تحمل اسم«الابتكار الإعلامي» في منح جوائزها لأفيشات الأفلام والجمعية المصرية للإعلان، كما أن جمعية الفيلم منحت جوائزها السنوية لأحسن أفيش لأفلام عديدة منذ بداية التسعينيات، منها السادة الرجال، اللعب مع الكبار، الكيت كات، شحاتين ونبلاء، والقائمة طويلة، وهذا أمر يستحق التنويه والإشارة.

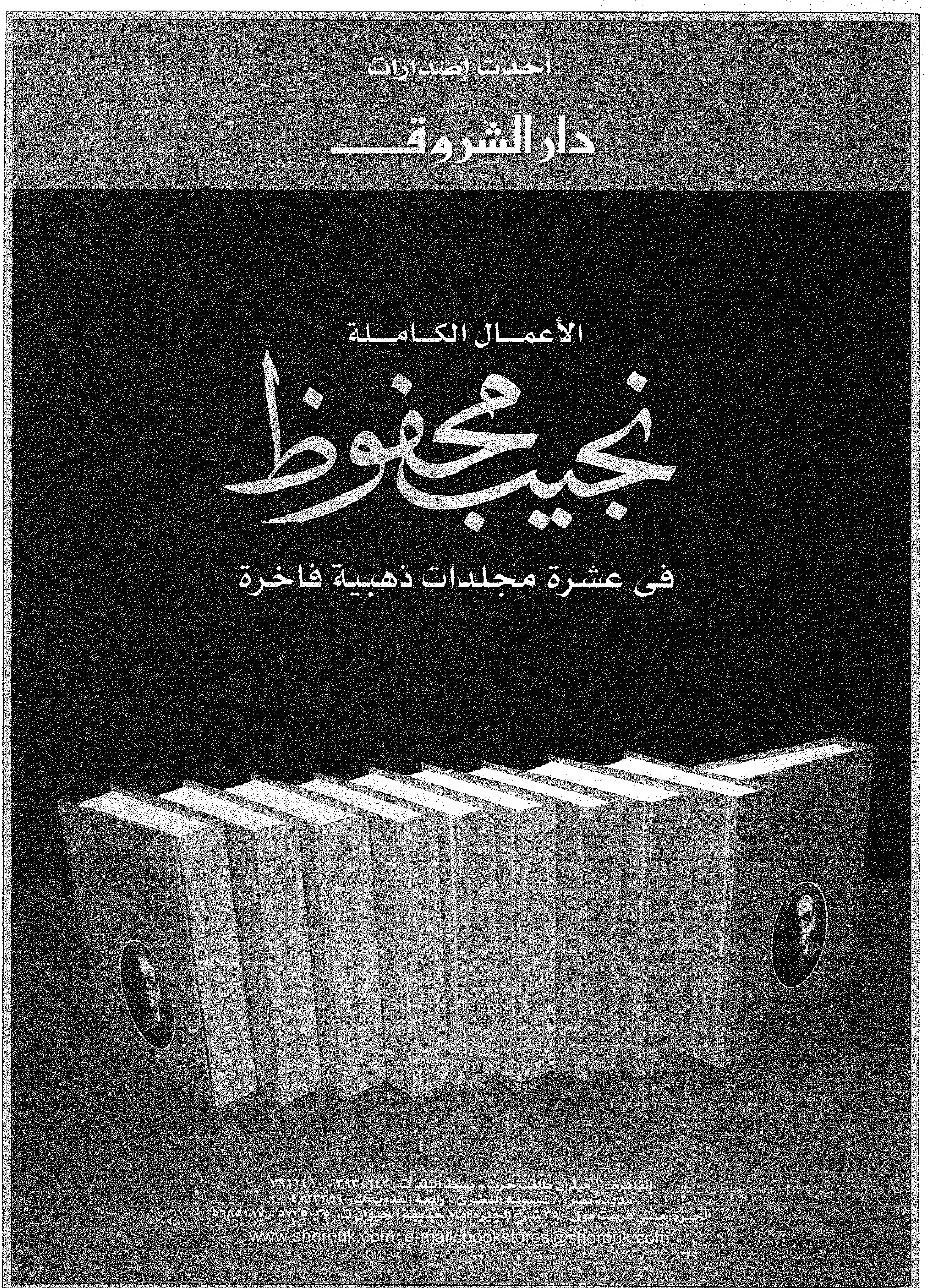
كثيراً ما تثير الأفيشات مشاكل رقابية، باعتبار أن المشاهدين يعدون بالملايين يومياً في مختلف الميادين، والإعلانات الجريئة هي التي استوقفت الناس، قبل أن تستوقف الرقابة نفسها، ومن المعروف أنه في العقود الأخيرة، شوهدت أفيشات عديدة، وقد قذفت من أشخاص مجهولين بالطين، أو ما شابه، لتغطية أجزاء بعينها من أجساد نجمات برزت على الأفيش، أي أن الرقابة الاجتماعية هنا كانت أكثر تشدداً من رقابة وزارة الثقافة، وقد ظلت هذه الظاهرة موجودة بقوة إلى أن ظهر ما يسمى بالأفلام النظيفة، فتقلصت ظاهرة رشق الأفيشات بالطين بشكل ملحوظ.

وهناك أفيشات بأعينها تمت تغطية الكثير من أجزائها بعد أن علقت في الشوارع، ولعل أشهر تلك الحالات أفيش فيلم شهر عسل بدون إزعاج لأحمد فؤاد عام ١٩٦٨، حيث ظهرت فيه الممثلة ناهد شريف، وقد تعرى ظهرها تماماً حتى ما قبل فتحة مؤخرتها، بينما ظهر زوجها في الفيلم حسن يوسف وهو يهم بتقبيلها، ولعله الأفيش الأكثر جراءة الذي صدم الناس، خاصة بعد هزيمة يونيه، وأثار استياء الناس، وسرعان ما تمت تغطية ظهر الممثلة بما يوحي أنها قد ارتدت ملابسها..

ومن التجارب الحديثة، فإن أفيش فيلم النوم في العسل لشريف عرفة ١٩٩٧، قد ظهر فيه كل من دلال عبدالعزيز، وعادل إمام، وشيرين سيف النصر، وقد اختفوا وراء ملاءة طويلة بينما ظهرت أجزاء فاتنة من سيقان دلال، وشيرين، وقد أثيرت حول هذا الإعلان الكثير من الاعتراضات، في فترة تصاعدت فيها حدة العمليات الإرهابية، وقضايا الحسبة، ضد الأفيشات المشابهة، لذا سرعان ما تمت تغطية السيقان العارية بشكل ملحوظ.

وقد يسوقنا هذا إلى مسألة تغطية الصدور على أبواب السينما، وقضايا الحسبة التي رفعت ضد صور بعينها لفيلم أبي فوق الشجرة، لكن من الواضح أن هذا النوع من الأفلام«النظيفة»فرض أيضاً أفيشات مختلفة، باعتبار أن أشياء كثيرة قد تغيرت في السينما في السنوات الأخيرة.

سيبقى الأفيش السينمائي، طيلة ما تبقى للسينما من أعمار، بمثابة الواجهة الأولى، ولغة الخطاب، بين الفيلم، والجمهور، سواء مشاهدة أم لا، وسوف يستفيد صناع هذه الأفيشات من التطورات التقنية، سواء من حيث التصميم، أو الطباعة، أو التوزيع، والنص، واختيار الأماكن، لكنها ستظل تعمل بالوتيرة نفسها، من حيث شدة التركيز على السبب الأول لنجاح الفيلم تجارياً، سواء كان اسم النجم، أو صورته، أو أسماء نجوم آخرين، أو اسم المخرج، ولأنه لم يعد في بلادنا اسم مخرج يمكنه أن يجذب الناس للمشاهدة، فسيبقى النجم مسيطراً لعقود طويلة على الأفيشات، ومن المرجح أن تعرف النجومية انقلابات حادة، ووجوهاً غير مألوفة، مثل الصعود المذهل الذي حدث لمحمد هنيدي ابتداء من صعيدي في الجامعة الأمريكية عام ١٩٩٨، ولمحمد سعد في فيلمه اللمبي، وأغلب هذه النجومية ستكون للرجال في المقام الأول. ■



أحدث إصدارات
دار الشروق
الأعمال الكاملة
نجيب محفوظ
فى عشرة مجلدات ذهبية فاخرة
القاهرة: ١ ميدان طلعت حرب - وسط البلد ت: ٣٩٣٠٦٤٣ - ٣٩١٢٤٨٠
مدينة نصر: ٨ سيبويه المصرى - رابعة العدوية ت: ٤٠٢٣٣٩٩
الجيزة: مبنى فرست مول - ٣٥ شارع الجيزة أمام حديقة الحيوان ت: ٥٧٣٥٠٣٥ - ٥٦٨٥١٨٧
www.shorouk.com e-mail: bookstores@shorouk.com

لا سينما «عالمية»

محمد يحيى جمال

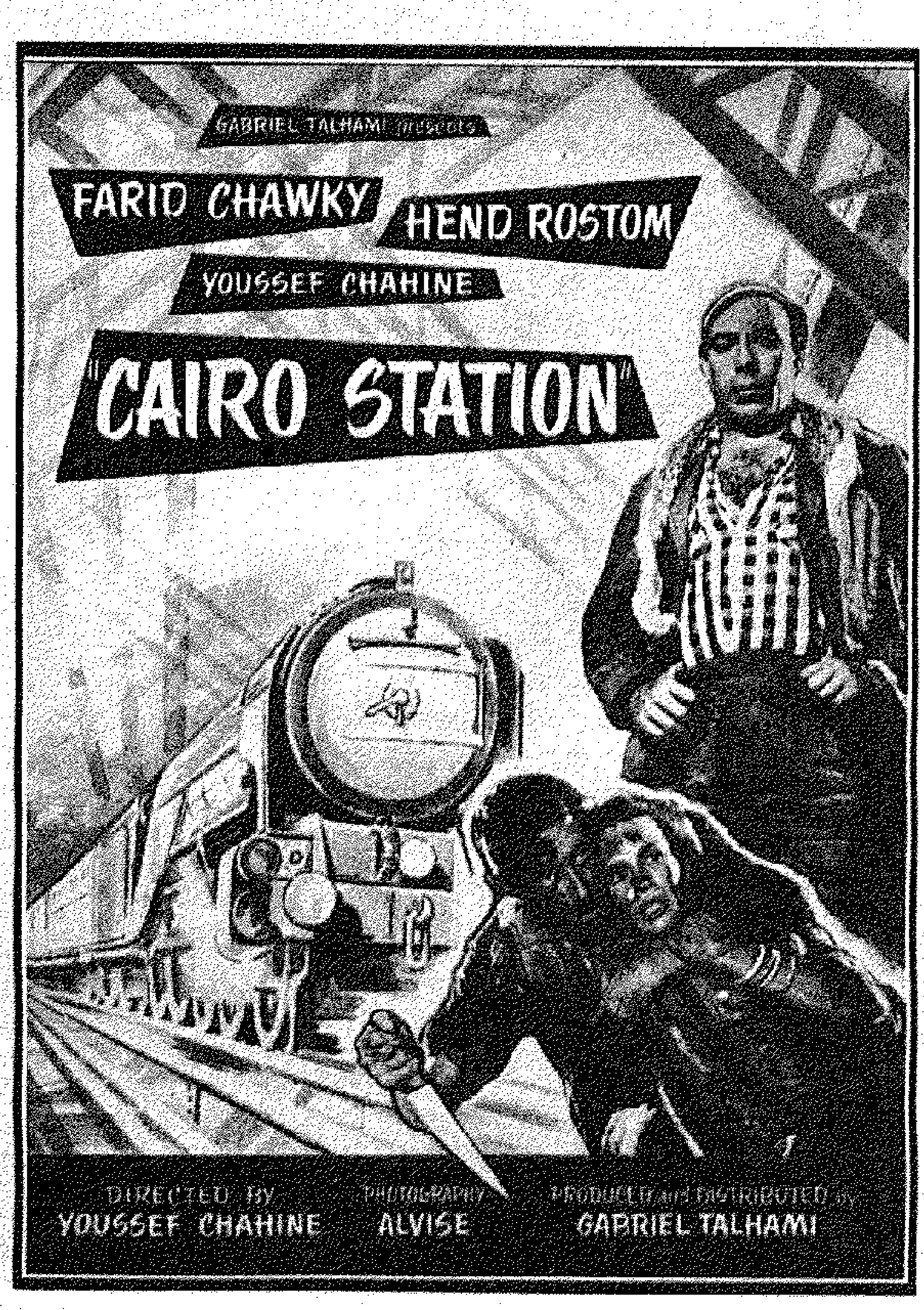


■■ ولدت السينما صامتة وظلت كذلك طيلة سنواتها الثلاثين الأولى. ومع الفيلم الأمريكى «مغنى الجاز» بدأت السينما الناطقة فى ١٩٢٧، ومعها بدأت مهنة «ترجمة الأفلام» وتوزيعها فى العالم ومخاطبة الآخر وأيضا استغلال ذلك الآخر بصورة أو بأخرى حيث يمكن «تصويره» على أنه من أهل الخير أو من أهل الشر. أما السينما فى مصر فقد عرفت الإسكندرية الاختراع الجديد فى نهايات القرن التاسع عشر ومع سنة ١٩٠٧ شُيدت أول دار للسينما فى مصر. وعلى الرغم من الاختلاف بين المؤرخين المصريين على التاريخ الحقيقى للسينما المصرية وهل يبدأ بالفيلم الصامت أم الناطق؟ وهل نحسب تاريخ البداية من الإنتاج المصرى أم من إنتاج الأجانب المقيمين فى مصر؟ أم نحسب عمر السينما منذ أن قامت «صناعة السينما» الحقيقية بتأسيس استديو مصر وعوضا عن تجارب الهواة من السينمائيين. على أى حال أجمعت الآراء، بنسبة توفيقية، على أن التاريخ الوطنى للسينما فى مصر يبدأ مع أول فيلم روائى طويل وهو فيلم «ليلى» الصامت والذى عرض فى الإسكندرية فى نوفمبر عام ١٩٢٧. ولم تنتظر مصر كثيرا حتى شاهدت أول فيلم ناطق وهو «أولاد الذوات» الذى عرض فى عام ١٩٣٢. وكانت تلك المناسبة مهمة أيضا حيث إنها تؤرخ لأول فيلم مصرى يتم ترجمته إلى لغة أجنبية (الفرنسية) وفى الواقع هو أول فيلم مصرى يعرض فى الخارج أيضا حيث تم عرضه فى باريس بعد الانتهاء من عمل المونتاج.

ومع بناء أستوديو مصر الذى يعده بعض المؤرخين البداية الحقيقية لصناعة الفيلم فى مصر، جاءت «وداد» لتكون باكورة إنتاجه. وفيلم «وداد» يعتبر نقطة تحول فى غاية الأهمية فى تاريخ السينما المصرية. فالفيلم هو أول أفلام أم كلثوم، وكانت كوكب الشرق قد قامت ببطولة ستة أفلام أولها «وداد» وآخرها «فاطمة» فى سنة ١٩٤٧. وكانت أفلامها بداية انتشار اللهجة المصرية فى أرجاء العالم العربى. وكان لفيلم «وداد» سبق الاشتراك فى مهرجان البندقية لعام ١٩٣٦ ليسجل له التاريخ أنه أول فيلم مصرى يسعى نحو العالمية منذ سبعين عاما.

ومن هنا نرى الارتباط الوثيق بين السينما والترجمة. فمنذ البدايات الأولى للسينما وهى تتخذ أسلوبا عالميا يخاطب الآخر أكثر من القلم ومن الكتاب. وارتبطت السينما باللغة والحوار والإشارات غير المحكية والرمز السيميائى على نحو أكثر من الموسوعة المصورة أو الصحافة ذات الإمكانيات الكثيرة. إن تعدد الوسائط فى السينما من صوت وصورة ولغة وموسيقى ورموز متعددة جعلها واحدة من أكثر الأساليب ذات التأثير العميق على النفس والعقل البشرى واحتلت السينما بالتالى مكانتها الرفيعة كالفن السابع وطبعت القرن العشرين بصورتها الفريدة.

ومع دخول التليفزيون، الأبيض والأسود، وتعدد سبل الإعداد والإخراج للبرامج ظهرت المسلسلات والدراما التليفزيونية. وما نشرة الأخبار التى كان يقرؤها المذيع إلا أفضل مثال. لقد ولت تلك الحقبة مع دخول تكنولوجيا الاتصالات التى جعلت النشرة الإخبارية أكثر تفاعلا وأكثر ديناميكية عن ذى قبل. ومع إمكانية البث بالألوان فى منتصف السبعينيات والانفتاح على العالم أكثر من ذى قبل تابع المشاهد المصرى العديد من المسلسلات التليفزيونية المترجمة بالإضافة إلى الفيلم المترجم. وساعدت الترجمة «التليفزيونية» على نجاح العديد من الأعمال الأجنبية فى مصر مثل المسلسل الأشهر «الهارب» وأيضا المسلسلات الأخرى مثل «بيتون بليس» و«المحترفون» و«دالاس» و«فالكون كريست». وعلى الرغم من أن معظم تلك الأعمال حملت عبارة «تمت الترجمة والطبع فى معامل أنيس عبيد» إلا أن أحدا لم يتأمل تلك العبارة جيدا. فقد كان تأثير المهندس أنيس عبيد على صناعة ترجمة الأفلام وبعدها الترجمة التليفزيونية تأثيرا كبيرا. ولكن الغريب



يشاهد الجمهور العربى الترجمة التليفزيونية منذ حوالى نصف القرن، وعلى الرغم من الهجوم والاعتراض والحكم القاسى على الترجمة التليفزيونية من حيث عدم الدقة، أو النقص أو الركاكة فلم يتوقف الكثيرون عندها بالفحص والتأمل والدراسة!

دون ترجمة «عالمية»

أن تلك المهارة لم تصبح علما جامعيا يدرس ويبحث فى أصوله وتعقد له الندوات وتنشر عنه الدراسات. إن الترجمة بكافة فروعها الأدبية والقانونية والعلمية والتجارية الخ فى حاجة إلى تخصص وكذلك الترجمة التلفزيونية لما لها من تأثيرات متعددة ساعدت تكنولوجيا الاتصالات على إبرازها.

ومع الثورة الرقمية والسيطرة الإعلامية «شاهد» المواطن العربى إبان حرب الخليج الثانية هرولة القادرين ماديا إلى الفنادق الكبرى لمتابعة الضربة الأمريكية على العراق على قناة السى إن إن. بعدها استطاع المشاهد العربى أن يلحق بعصر القنوات الفضائية وكان دخول الأطباق اللاقطة سمة العصر وعنوان الحضارة فى منتصف التسعينيات. ومع دخول عصر الفضائيات وإمكانية الاشتراك فى باقة من القنوات المدفوعة التى تختار من القنوات العربية التى بلغ عددها حتى اللحظة ٢٥٥ قناة وقع المشاهد العربى فريسة للفضائيات. وبما أن معظم تلك القنوات لا تنتج برامج تكفى لساعات الإرسال فكان لزاما عليها أن تعيد بعض البرامج أو أن تتجه لترجمة بعض البرامج الأجنبية، حتى تلك التى لم يعتد عليها المشاهد العربى من قبل مثل ما يسمى بالبرامج الواقعية والتفاعلية. ومن ناحية أخرى تقوم بعض القنوات الحكومية «بتوجيه» برامجها لمشاهد معين خارج الحدود وتحاول أن تصل إليه عبر الترجمة التليفزيونية. ومن هنا نرى قنوات متخصصة مثل قناة «نايل تى فى» تقدم عليها معظم البرامج مصحوبة بترجمة إنجليزية.

وما من شك فى أن الثورة الرقمية قد فتحت أكثر من باب وأكثر من نافذة على العالم الخارجى وبالتحديد العالم الغربى. والنقاش دائر حول النقطة التى تفصل بين الانفتاح وبين الغزو الثقافى ولكن هذا موضوع آخر. إلا أن الثورة الرقمية وإمكانياتها التى أصبحت فى متناول الحكومات بل والأفراد قد وضعت القائمين عليها فى موقف حرج. فالنظرة التحليلية للقنوات الفضائية العربية، ومع نجاحات القلة منها، إلا أن الإدارة فى معظمها لم تكن مستعدة لهذا المجال الإعلامى. وواحدة من المشكلات الرئيسية هى مشكلة الترجمة التى تعرض على الشاشة.

الترجمة التليفزيونية

إن مصطلح ترجمة الأفلام أو الترجمة التليفزيونية يعنى تقديم العمل الروائى مصحوبا بترجمة تساعد على متابعة وفهم والتمتع بالعمل المقدم. وبالتالى فهى ترجمة انتقائية مختصرة ومبسطة بحيث تتيح للمشاهد متابعة الفيلم أساسا وليس ملاحقة الترجمة لفهم الفيلم. وبالتالى فان الترجمة لا تكون كاملة ويصح للمترجم اتباع أساليب فى الترجمة قد يراها البعض غريبة وغير مقبول منها على سبيل المثال التبسيط أو الاختزال أو الحذف. وهذا التفسير فى غاية الأهمية لكيلا يظلم المشاهد المترجم بأحكامه التى غالبا ما تتسم بالتسرع والقسوة والهجوم. بل وهذا التفسير مهم أيضا بالنسبة للمترجم الذى لم يدرس قواعد الترجمة «المرئية» والذى يتعامل مع الحوار وكأنه ترجمة «أمينة ودقيقة وكاملة» لوثيقة مكتوبة.

والترجمة المرئية تختلف من حيث الاتجاه. فعلى التليفزيونات العربية نشاهد الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية. وهذا الأمر جدير بالاهتمام. فالمشاهد العربى يتحدث بلهجته العربية المصرية أو الخليجية أو الشامية أو المغاربية فى خضم أحاديثه الاعتيادية اليومية. ولكنه حين يتخذ مقعده أمام الشاشة فهو يقرأ باللغة العربية الفصحى (أو قل المعاصرة). ومن هنا تتلاشى اللهجات العربية تماما إلا عند بعض المفردات مثل وجبة «ورق العنب» بالمصرية أو «ورق الدوالى» بالفلسطينية أو «ورق عريش» بالشامية. وهذا يطرح للتأمل والمتابعة والدراسة طريقة ونظرية الترجمة واستخداماتها فى الوسط العربى. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، كيف تصاغ «لغة الترجمة المرئية»؟ بمعنى آخر:

يشاهد الجمهور العربى الترجمة التليفزيونية منذ حوالى نصف القرن (دخل التليفزيون البلاد العربية فى سنوات مختلفة كان أولها فى العراق سنة ١٩٥٦). وعلى الرغم من الهجوم والاعتراض والحكم القاسى على الترجمة التليفزيونية من حيث عدم الدقة، أو النقص أو الركاكة فلم يتوقف الكثيرون عندها بالفحص والتأمل والدراسة! على الرغم من أنها أصبحت لغة شائعة الاستخدام مثل لغة الصحافة أو لغة كرة القدم أو حتى لغة التصريحات السياسية. فالتعبيرات الشائعة مثل «أيها الوغد»، «عليك اللعنة»، «تلك العاهرة» وما إليها أصبحت مفردات لا تستخدم إلا عند مشاهدة الأفلام والمسلسلات الأجنبية (والأمريكية على الأخص).

الرقابة والسينما والترجمة

ومثلما تكون الرقابة على الأفلام تكون الرقابة على ترجمة الأفلام، وتخضع الترجمة لعين الرقيب ومقصه. فليست كل الألفاظ المحكية والواردة فى الأفلام الأجنبية مقبولة على الشاشة العربية حتى وإن قام المترجم العربى بتحييدها وغسلها وتعقيمها تعقيما شديدا. وهناك أمثلة عديدة لتدخل الرقيب فى حجب بعض المشاهد وكذلك فى إسقاط بعض السطور. فعلى سبيل المثال يشكل فيلم الباتشينو «حليف الشيطان» مثالا جديرا بالدراسة والتأمل. فعند عرضه فى القاهرة فى عام ١٩٩٦ أثار زوبعة شديدة بسبب ما جاء على لسان البطل مما فسر على أنه «تطاول على الذات الإلهية»، وهذا حقيقى كما ورد فى مشهد الحوار مع المحامى. ولكن الأمر الغريب أن الرقيب وإن كان قد وافق على عرض الفيلم وسمح بعرض المشهد إلا أنه لم يوافق على ترجمة الحوار وأسقط الترجمة!! والمثال الآخر من فيلم «سورد فيش» والذى عرض تجاريا فى مصر بعنوان «كلمة السر» فى سنة ٢٠٠٤ فإن البطل جون ترافولتا يقدم نفسه على أنه إرهابى و«قد جاء من تل أبيب». إلا أن الترجمة حذفت عمدا ولم تذكر ما قاله الإرهابى!!

ومن ناحية أخرى، هناك حاجة إلى استطلاع آراء المشاهدين فى مستوى الترجمة: هل هى مقبولة وما هى علامات القبول؟ المرونة أم استخدام ألفاظ اكثر حيوية أم الالتزام بروح الفيلم بأقصى درجة؟. والإجابة على تلك الأسئلة ليست سهلة بتاتا. فالأمر يتعلق بشريحة معينة من المجتمع ذات سمات خاصة. فهى أولا شريحة متعلمة غير أميّة. وهى مثقفة لدرجة تدرك الفارق الثقافى بين العربى والأجنبى. والأكثر من ذلك تعقيدا هو أن الأصوات التى تقدم الاعتراض على الترجمة بل والهجوم على المترجم أحيانًا تأتى من أولئك الذين يجيدون التحدث باللغة الأجنبية ولكنهم فى الواقع يجهلون مهمة الترجمة التليفزيونية والغرض منها وطريقة إعدادها.

فالترجمة التليفزيونية ليس الغرض منها أن تكون دقيقة وكاملة. فهى بالأساس تصاحب الحوار المنطوق. ومن البديهى أن الإنسان يتكلم بسرعة تفوق سرعة القراءة. والمناظر تتغير بسرعة وهناك حوار بين أكثر من شخص (ناهيك عن المؤثرات السمعية) والأهم من ذلك كله ليس هناك متسع على الشاشة لوضع الترجمة الكاملة. فالترجمة لابد أن تقتصر على سطرين فقط. والأهم من ذلك هو أن المشاهد، فى الأساس، يريد مشاهدة الفيلم وليس قراءته. ومن هنا كانت الترجمة بالضرورة انتقائية مختصرة ومبسطة. وبالطبع هناك مترجمون محترفون يدركون أن «خير الكلام ما قل ودل» ويحسنون اختيار اللفظ والتراكيب اللغوية التى تساعد المتفرج على المتابعة والفهم وأيضا الاستمتاع بالعمل الروائى المقدم على الشاشة.

ترجمة الفيلم المصرى

إذا كان الوضع هكذا فى الاتجاه الرئيسى للترجمة التليفزيونية (الترجمة إلى اللغة العربية) حيث نرى مثل تلك التحديات على الشاشة فما هو الوضع بالنسبة إلى ترجمة الأفلام المصرية والأعمال التليفزيونية إلى اللغات الأخرى؟

بداية، فإن حجم الترجمات إلى اللغات الأجنبية الأخرى يكاد يكون معدوما. وهنا يتساوى الفيلم والمسلسل مع الكتاب العربى أو القصة العربية. فإن حجم الترجمة من اللغة العربية إلى اللغات الأجنبية لا يعكس حجم أو مكانة الأمة العربية. ثانيا، عندما نتحدث عن ترجمة الفيلم العربى للغات الأجنبية فإن ذلك يكاد يكون مقصورا على مهرجانات السينما الدولية فقط وعندها تكون الترجمة مقصورة على اللغتين الإنجليزية والفرنسية. وهذا يطرح سؤالا هاما :

لماذا لا تترجم السينما العربية أفلامها إلى لغات أخرى لتفتح أسواقًا لتوزيع إنتاجها فى أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا بل وأوروبا نفسها؟ إن ترجمة الفيلم تختلف عن ترجمة الرواية العربية وهى طريقة أسهل وأرخص من ترجمة الأدب العربى. فعلى سبيل المثال، جعلت التكنولوجيا الرقمية فى مقدور الفرد أن يقتنى فيلماً وأن يشاهده مدبلجا أو مترجما على اسطوانة واحدة مدمجة(الدى فى دى). وهذه التقنية العالية تتيح تخزين ترجمة للفيلم فى أربعين لغة ! ومع ذلك نرى الأفلام المصرية مترجمة إلى لغتين فقط هما الإنجليزية والفرنسية. وعلى الرغم من تعدد كليات الترجمة واللغات فى الجامعات العربية وبخاصة أقسام اللغات غير الإنجليزية والفرنسية لا نجد إلا اهتماما ضئيلا باللغات الأخرى. (يقدم التليفزيون العربى السورى نشرة الأخبار بالإسبانية ويترجم بعض المسلسلات العربية إلى الإسبانية).

أما بخصوص الترجمة ذاتها فهى تحتاج إلى عناية ودراسة على مستوى عال. والدليل على ذلك ضعف مستوى الترجمة على القنوات الفضائية التى تقدم أعمالا مترجمة بصورة تقنية رديئة وبأسلوب لغوى ضعيف. فمن الناحية الفنية قطعت الترجمة المرئية أشواطا بعيدة فى مجال تقديم الترجمة بخط واضح ولون مقبول وكذلك تقنية عالية لضبط توقيت دخول وخروج كل سطر من سطرى الترجمة. فلا يصح أبدا أن يضحك الممثل وتظهر الترجمة بعدها بثانية أو ثلاث! وليس من المقبول أن تظل الترجمة لمدة عشر ثوان على الشاشة مع تغير المشهد والأشخاص. إن مثل تلك الأمور لا تساعد المشاهد الغربى على الإقبال على مشاهدة الأعمال العربية أو محاولة التقرب منها ناهيك عن بذل الجهد للتعرف على قضاياها.

ومن أهم التحديات التى تواجه المترجم العربى الذى يقدم ترجمة للأفلام العربية هى لغة الحوار فى الفيلم. فهى لغة عامية غنية بتراكيبها ومفرداتها ولغة الإشارات الخاصة بها. ومن ناحية أخرى: نجد أن معظم الأفلام المصرية تعتمد على الحوار بكثافة شديدة مما يعقد من مهمة المترجم. فعلى عكس الأفلام الأجنبية حيث نرى الكاميرا تقوم بدور أكبر فى السرد الروائى للفيلم نرى أن الحوار فى الفيلم المصرى يقوم بدور الكاميرا أيضا. وفى رأى المخرج السورى نجدت أنزور فإن الأفلام المصرية أفلام «إذاعية» تعتمد أساسا على الحوار وليس على الكاميرا.

والأمر الآخر فى ترجمة الأفلام العربية إلى الإنجليزية أو الفرنسية هو مقدرة المترجم على الترجمة من العربية «العامية». وهذا أمر آخر بالغ الأهمية والحساسية: فإن مقدرة المترجم العربى الذى يترجم من اللغة العربية «العامية» إلى الإنجليزية مثلا موضع شك! وذلك لأن معظم، إن لم يكن جل، الجامعات العربية تقوم بتدريس الترجمة من الفصحى إلى الإنجليزية والإنجليزية إلى العربية الفصحى. وهناك بالتالى نقص شديد فى تناول مواضيع مثل ترجمة أدب الأطفال أو ترجمة الإعلانات أو ترجمة الأفلام. وهذا بيت القصيد! فعلى الرغم من أن صناعة السينما عمرها فى مصر بلغ ثلاثة أرباع قرن والتليفزيون نصف قرن إلا أن مجال الترجمة السمعية والبصرية لم يتأسس بعد. وما زالت الترجمة المرئية تمارس كمهنة بلا ضوابط يقوم بها مترجمون غير محترفين تنقصهم الخبرة والتدريب وإن كانت الجدية سمة أعمالهم إلا أن الغرض التجارى أكبر من الهدف الفكرى. وإن كان هذا لا يعيب النشاط ذاته، على المستوى الفردى، إلا أن توابع ذلك المنهج، من الناحية المهنية بالنسبة للسينما، يجب أن تؤخذ فى الحسبان.

إن الترجمة السمعية البصرية أصبحت فرعا أساسيا من فروع علوم الترجمة وأصبح لها منتدى دولى وتعقد لها المؤتمرات الأكاديمية التى تبحث مجالات تطويرها وإجراء الأبحاث التى تهدف إلى دراسة سبل تنظيمها وتطبيقاتها العملية فى مجالات متعددة مثل ترجمة الأفلام التى تعرض على متن الطائرات (أمام الجميع الكبار والصغار) وترجمة الأنباء السريعة فى شريط الأخبار أسفل شاشة التليفزيون والترجمة التى تظهر فى ماكينات المصارف بل وترجمة المواقع على شبكة الإنترنت. ومن نواحى التطبيقات العملية دراسة سبل الترجمة المرئية للمشاهدين الصم والذين يعانون من ضعف السمع. ففى الدول الاسكندنافية صدر قرار بترجمة كافة البرامج إلى اللغة المحلية التى تذاع بها البرامج بحيث يستفيد منه الصم وضعاف السمع. وفى الهند يتم تطبيق ذلك القرار بهدف تنمية مقدرة القراءة للمواطنين. وما من شك فى أن الترجمة المرئية للبرامج الأجنبية تساعد فى تعلم اللغات وإن كان ذلك يتأتى بعد مقدار من التعلم النظامى للغة. ومن الملاحظ أن مجال الترجمة السمعية البصرية فى حاجة إلى اعتناء الكليات الجامعية به على مستوى الوطن العربى كله. فعلى الرغم من الاستثمارات الضخمة فى إنشاء مدن الإنتاج الإعلامى فى مصر والمغرب ودبى إلا أن الاعتناء بالترجمة السمعية والبصرية قد سقط من الحسبان. ففى مصر، وعلى الرغم من تعدد كليات اللغات والترجمة، لا يوجد سوى مكان واحد فقط لتدريس الترجمة السمعية البصرية وهو الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

والدراسة بها تحظى بقبول واسع ويشرف عليها مترجمون نشطون وإدارة واعية إلا أنها فى حاجة إلى استحداث الجانب العملى باستقدام أجهزة الترجمة التليفزيونية بحيث تكون أكثر فعالية من الجانب النظرى. هذا بالإضافة إلى منح الدورات الدراسية فى الجامعة طابعا أكاديميا وذلك عن طريق تطوير البرامج الدراسية ورفع مستواها الجامعى من مجرد شهادة أو دبلومة إلى درجة الليسانس، على الأقل. إن برنامج تدريس الترجمة فى الجامعة الأمريكية له تاريخ طويل بل وحافل وجدير بالاستثمار طويل الأجل فى مجال الترجمة السمعية البصرية من الناحية الأكاديمية وليس التجارية فقط.

الترجمة لابد أن تقتصر على سطرين فقط. والأهم من ذلك هو أن المشاهد، فى الأساس، يريد مشاهدة الفيلم وليس قراءته. ومن هنا كانت الترجمة بالضرورة انتقائية مختصرة ومبسطة

عمـــارة يعقـوبـيان

ما من شك فى أن «عمارة يعقوبيان» يعتبر نقطة فاصلة فى السينما المصرية. والسبب يرجع إلى أن الفيلم «يخاطب» ليس فقط الجمهور المصرى العربى وإنما يخاطب السينما العالمية بلغة سينمائية راقية. فالفيلم اعتمد فى بنائه على محاور ليست شائعة فى السينما المصرية: فهو ليس فيلم النجم الأوحد، والكاميرا تقوم بعملها جيدا وتتحرك كثيرا والإضاءة تلعب دورا مميزا، والمناظر تتعدد بسرعة معقولة والاختلاف الكبير هو أن الحوار لم يتصدر الأهمية بل أخذ مكانا «معقولا» فى البناء السينمائى للفيلم. والأهم من ذلك الحبكة الدرامية ومواضيعها. إن كل ذلك من شأنه أن يغازل أعضاء لجنة التحكيم فى مهرجان زيورخ حيث فاز بالجائزة الذهبية ومهرجان برلين (شارك فى قسم بانوراما) بعد أن عرض فى مهرجان كان السينمائى(خارج المسابقة) ومهرجانى ترايبيكا وقرطاج أو لدى مهرجان الفيلم العربى فى معهد العالم العربى فى باريس (حيث حاز على الجائزة الكبرى) بل وأن يمتلك فرصة التنافس على جائزة الأوسكار لأحسن فيلم أجنبى فى سنة ٢٠٠٧.

ولكن، رغم أن ميزانية الفيلم قد وصلت إلى ثلاثين مليونا من الجنيهات إلا أن المنتج يبدو أنه قد وقع فى نفس خطأ العديد من المنتجين وهو البخل والشح عند إعداد ميزانية ترجمة الفيلم إلى اللغة الإنجليزية. فوقعت الترجمة المرئية فى بعض من الأخطاء التى لا يصح أن يقع فيها فيلم فى حجم «العمارة». فعلى سبيل المثال، من الناحية التقنية: لابد أن يكون حجم سطرى الترجمة أكثر وضوحا(أكبر فى الحجم) وإن كان اللون الأصفر جيدا! إلا أنه يجب مراعاة الخلفية الصفراء فى بعض المناظر والتى تتلاشى معها الترجمة. أما

من الناحية اللغوية : فإن الترجمة فى الكثير من الأحيان كانت تعكس، بل تعانى من، اللهجة المصرية النابعة من الحوار. وهذا لا يجب ان ينعكس فى الترجمة الإنجليزية التى يجب أن تكون على مقدار رفيع من البلاغة بل والبساطة حتى يتابعها المشاهد الأجنبى دون عناء. وكذلك التحكم فى «كمية» الترجمة المتواجدة فى السطرين: فليس كل ما يقال فى الحوار يترجم. والترجمة، فى سطرين، يفضل أن تكون «قليلة» وخير الكلام ما قل ودل.

إن ترجمة «يعقوبيان» فى حد ذاتها كانت مقبولة ولكن إن كانت النية قد عقدت على ترشيح الفيلم لجائزة الأوسكار فيجب إعادة النظر فى الترجمة فورا. والقائمون على الترشيح أولى بأن يأخذوا الترجمة المرئية على محمل الجد. فعلى سبيل المثال: يتساهل المخرجون فى الأفلام المصرية، كثيرا، مع الحوار بالكلمات الأجنبية ولا يترجمونها كتابة بالعربية على الفيلم. وهذا أمر غريب: فهل كل مشاهدى الفيلم يتحدثون الفرنسية ويدركون معنى الأغانى التى قدمتها «يسرا» فى الفيلم؟

وبالمثل، لم تترجم التحيات ولا الأحاديث التى تمت بالفرنسية وهذه نقطة تحسب على الترجمة المرئية. وأخيرا، قد يكون من حسن التدبير إعداد فريق من المترجمين للإشراف على الترجمة فى عمل كبير مثل هذا، تتوق السينما العربية إلى اعتلائه منصة التكريم فى هوليوود.

تصادف دورة انعقاد مهرجان القاهرة السينمائى الدولى الأخيرة مناسبتين هامتين فى تاريخ صناعة السينما المصرية. المناسبة الأولى هى الذكرى الثلاثون لتأسيسه. فقد انعقد المهرجان وبدون انقطاع منذ سنة ١٩٧٦ وقاد مسيرته خمسة رؤساء تناوبوا على قيادة دفته فى فترات غير سهلة حيث كادت بعض الظروف أن تطيح بالفكرة بل وتعصف بالهدف والرسالة الأساسية التى من أجلها أقيم المهرجان. وتذكر اللائحة الرئيسية للمهرجان أن الغرض الأساسى منه «نشر التذوق الفنى ودعم التفاهم بين شعوب العالم والمساهمة فى تطوير الفن السينمائى». وبالنظر إلى الغرض الأساسى للمهرجان نرى أن ذلك لا يتم إلا عن طريق دخول مهنة الترجمة فى المعادلة. أما المناسبة الأخرى، فهى أيضا تتعلق بالسينما وترتبط بالترجمة فهى الذكرى السبعون لأول فيلم مصرى يشارك فى مهرجان سينمائى دولى.

وعلى الرغم من التاريخ الطويل للسينما فإن العلاقة بين صناعة السينما ومهرجان الفيلم ترتبط ارتباطا وثيقا بالترجمة. ولا يمكن تخيل أى مهرجان دولى للسينما بدون الالتفات للترجمة كعلم وكمهنة. إلا أن موسوعات السينما والكتب التى تتناول مهرجانات الأفلام تكاد لا تشير إلى الترجمة ولا إلى دورها فى إنجاح المهرجان أو حصول فيلم على جائزة أو تقدير. وذلك على الرغم من أن لوائح العديد من المهرجانات تشترط أن يكون الفيلم المشارك مصحوبا بترجمة إنجليزية أو فرنسية (على الأقل). وعلى الرغم من أن الترجمة الجيدة لا تنفع فيلما ضعيفا إلا أن سوء الترجمة من شأنه أن يضيع عمل المشاركين فى صنع فيلم جيد. وأمام المهرجانات العربية فرصة الاهتمام بالترجمة وعلاقتها الوثيقة بالسينما بحيث تكسب سبق الاهتمام عن طريق تنظيم ندوة على هامش كل مهرجان سينمائى لمناقشة جودة الترجمة وقضايا الترجمة السمعية البصرية وتقنياتها وكذلك ظروف عمل المترجمين وطرق إعدادهم. وأخيرا، يعتبر ذكر اسم المترجم أو فريق الترجمة فى لائحة المشاركين فى الفيلم نقطة تقدير طالما طالب بها المترجمون فى كافة أنحاء العالم. فمثلما تذكر أسماء المنتج والمخرج ومهندسى الصوت والإضاءة والديكور بل وعمال النجارة والسائقين يحق للمترجم أن يأخذ مكانه فى لائحة المشاركين فى صنع العمل الفنى فهو الوسيط الذى يصل الفيلم بالعالم الخارجى. إن «التفاهم بين الشعوب» كما ورد فى لائحة مهرجان القاهرة الدولى للسينما يعتمد أساسا على أسلوب ترجمة الفيلم المصرى بصورة سهلة وسلسة وسليمة بحيث لا تعيق فهم الفيلم ولا تفسد متعة المشاهدة.

أوسكار أحسن فيلم مترجم

بل وهناك فرصة أمام مهرجان القاهرة السينمائى لاستحداث جائزة «أفضل فيلم مترجم» وهذا فى الواقع قد يجعل أى مهرجان عربى للسينما، يقدم على تقديم مثل هذه الجائزة، أول مهرجان فى العالم يشيد بدور الترجمة فى إنجاح صناعة السينما عالميا. إن سعى أى صناعة سينما محلية يكون بالضرورة نحو العالمية إن لم يكن من حيث التقدير الدولى للصناعة المحلية فعلى الأقل بغية فتح أسواق جديدة للتوزيع والانتشار. وهذا الدافع المادى خليق بان يجعل صناعة السينما تستثمر فى تكنولوجيا الترجمة وجهود المترجمين والقائمين على مهنة الترجمة التى بدونها تصبح أى سينما حبيسة حدودها الإقليمية مقصورة فقط على القلة القليلة التى تجيد لغتها المحلية ضعيفة الانتشار عالميا. ■

كتاب الزاوية

الصحافة فى بلادنا

جبران توينى (الأب)

هناك بلاد ليست بالديمقراطية ولا بالأوتوقراطية، بل هى حائرة بين النظامين، كبلادنا مثلاً، فإن حالة الصحافة فى هذا النوع من البلاد من أسوأ الحالات وأشدها ارتباكًا. فالصحافة فيها حرة فى الأصل، لكن سلطة الحكومة ترصدها على المنعطفات، فإذا نشرت ما يعكر مزاج الحاكمين نكبوها بالتعطيل الإدارى، من غير أن يعطوها فرصة للدفاع عن نفسها، كما يعطون المجرمين على الأقل، فإنهم لا يحكمون عليهم إلا بعد أن يقيموا محامياً عنهم، وإن بالسخرة، بينما يحكم على الصحافى حكمًا مبرمًا. وهو لا يملك الدفاع عن نفسه، أو تبرير موقفه، وهكذا ينطبق عليه وعلى الحكومة قول الشاعر: «فيك الخصام وأنت الخصم والحكم».

فكيف تستطيع الصحافة أن تزدهر، وتقوى على أداء مهمتها فى مثل هذا الجو، أو كيف يجوز للقراء أن يطالبوها بإظهار الحقائق، إذا كانت لا تعرف فى أى ساعة ينقض عليها سيف التعطيل؟

أضف إلى ذلك أن الصحافة عندنا لا تستند إلى أحزاب منظمة تغذيها، بل هى تعتمد على جهود أصحابها، فإذا خسرت كان على صاحبها أن يتبنى الخسارة.. ومع ذلك يجب عليها أن تظل محافظة على مبدأها، وأن تقاوم الاستبداد، وتدافع عن حقوق البلاد.. والويل لها إن هى قصرت فى ناحية واحدة، إنهم ينسون كل مواقفها وينسبون إليها التقصير أو التهاون فى الدفاع فتذهب سيئة واحدة بكل الحسنات.

(١٩٣٨)



Henrik Ibsen.

Efter Photographi af Petersen, xylographeret af Kanne & Hansen i Leipzig.

سـيد المسـرح ..

السـيـد أمـيـن شـلـبـى

تحتفل الأوساط الأدبية فى العالم هذا العام بمرور مائة عام على وفاة الكاتب المسرحى النرويجى هنريك إبسن (١٨٢٨-١٩٠٦). وفى الواقع أنه على مدى نصف قرن كرس هنريك إبسن حياته وطاقاته لفن الدراما، وحصل على اعتراف دولى كأعظم من كتب الدراما وأكثرهم تأثيرا فى زمنه. وكتب عنه جيميس جويس فى شبابه «أنه قد يكون موضع تساؤل ما إذا كان رجل قد احتفظ بإمبراطورية على عالم الفكر فى العصور الحديثة كما احتفظ هنريك إبسن»، وربط الناقد الدانماركى جورج براندبس بينه وبين نيتشه باعتباره محولا للروح الحديثة، وكما عبر أحد النقاد «إن مسرح إبسن هو روما الدراما الحديثة، فكل الطرق تؤدى إليها وتنبع منها».

وقد كان إبسن شاعرا كبيرا فقد نشر مجموعة من الأشعار عام ١٨٧١، ومع هذا فقد كانت الدراما هى مركز روحه الشعرية الحقيقية، ولسنوات طويلة وصعبة واجه إبسن معارضة مريرة ولكنه انتصر فى النهاية على تحيزات القوى المحافظة فى عصره، وأكثر من أى شخص آخر منح إبسن لفن المسرح حيوية جديدة بما أدخل فيها من عمق سيكولوجى ووقار أخلاقى وأهمية اجتماعية يفتقر إليها المسرح من أيام شكسبير، وبهذا المعنى ساهم إبسن بشكل قوى فى إعطاء الدراما الأوروبية حيوية ومستوى فنيا يقارن بالتراجيديات اليونانية القديمة. وحين مات إبسن عام ١٩٠٦ كان -شأنه شأن نيتشه- قد أغلق صفحته مع نهاية القرن الذى سيطر عليه وحول فكرة المسرح المعاصر مثلما أدار ثورة حول الأفكار الحديثة، وفى الوقت الذى مات فيه كان المسرح قد أصبح شكلا كبيرا من أشكال الفن يقارن بالشعر والرواية، وكانت طريقته فى الكتابة قد غيرت صورة وشكل المسرح نفسه، وتصميم خشبة المسرح وممارسة التمثيل وكل علاقة الدراما وكاتبها بالجمهور. ومن هذا المنظور يقيم النقاد مساهمة إبسن فى تاريخ المسرح، فدرامية إبسن القائمة على الواقعية المعاصرة هى استمرار للتقاليد الأوروبية فى المسرحيات التراجيدية. وفى أعماله صور إبسن شخصيات من الطبقة المتوسطة لزمنه وهى شخصيات وجدت أن روتين حياتها اليومى قد انقلب فجأة بما تواجهه من أزمة عميقة فى حياتها وهى الأزمة التى نتجت عن أسلوب الحياة الذى كانت تتبعه بشكل أعمى وبذلك فهم مسئولون عن أزمتهم وعليهم أن يواجهوها بأنفسهم.

كـان إبـسـن رجـلا علم نفسه، وعـنـده لـم تـكـن الأفكار كلمات فـى الـكـتـب وإنما مبادئ لـلـحـيـاة المعاشـة

وقد كان إبسن رجلا علم نفسه، وعنده لم تكن الأفكار كلمات فى الكتب وإنما مبادئ للحياة المعاشة رغم أن حياته كانت حياة الانسحاب والصمت والمحافظة، ولكنه كان يبغى إحداث ثورة فى «الروح» واعتبر أن مهمته هى مواصلة وتحمل عبء ثورة القرن الـ ١٩ نحو الإصلاح والتحرر وتحقيق الفرد لذاته. ولم تكن هذه الثورة مجرد ثورة اجتماعية أو سياسية وإنما كانت ثورة من الداخل وتغيير وتجديد للفكر وضد التقليد والنفاق وادعاء الورع والاعتداد بالنفس.

ولا يحتوى تاريخ حياة إبسن على فترات ومراحل معينة تتميز بالخطورة، فحياته كفنان يمكن أن ترى على أنها نضال طويل وشاق على نحو استثنائى قاد إلى النصر والشهرة، وكان طريقا صعبا من الفقر إلى النجاح العالمى، وقد أمضى ٢٧ عاما من عمره خارج بلده النرويج فى إيطاليا وألمانيا وغادر مسقط رأسه وعمره ٣٦ عاما ولم يعد إليه إلا وعمره ٦٣ عاما حتى موته عام ١٩٠٦ وعمره ٧٨ عاما. وفى آخر مسرحية له «حين نستيقظ نحن الموتى» يصف حياة فنان، ولذلك فإن قيمتها فى هذا السياق تعكس حياته، فالنحات العالمى البروفيسور روبك، عاد إلى النرويج بعد عدة سنوات فى الخارج، ورغم شهرته ونجاحه لم يشعر بأى سعادة، وفى عمل كبير له «ندم على حياة محطمة» قدم كذلك صورة ذاتية اعترف خلالها أنه أفسد حياته وحياة الآخرين واستبعد فيها ما يمكن أن يجلب السرور، كل هذا من أجل الفن، لقد تخلى عن حب شبابه وكذلك عن مثاليته الأولى وهو بذلك قد خان فى الواقع فنه بتنازله عن هذه الأساسيات.

وفى عالم إبسن نجد شخصياته الرئيسية تجاهد نحو هدف ما، ولكن هذا النضال يؤدى إلى البرد والوحدة، ومع هذا تبقى دائما إمكانية اختيار طريق آخر فمازال أمام الإنسان فرصة لاختيار الدفء والصلة الإنسانية، غير أن المشكلة أمام شخصيات إبسن أن كلا الاختيارين يبدوان طبيين وبشكل لا يستطيع الفرد أن يرى نتائج قراره. وفى المسرحية «حين نستيقظ نحن الموتى» فإن رعشة الفن توضع بشكل متعارض مع دفء الحياة، ومن هذا المنظور يبدو الفن سجنا لا يستطيع الفنان، ولا يريد أن يهرب منه، وكما يقول بطل المسرحية «إننى فنان ولا أشعر بالخجل من مظاهر الضعف العالقة بى، ذلك أنى قد ولدت لكى أكون فنانا، وأيا ما فعلت فلن أكون أبدا شيئا آخر».

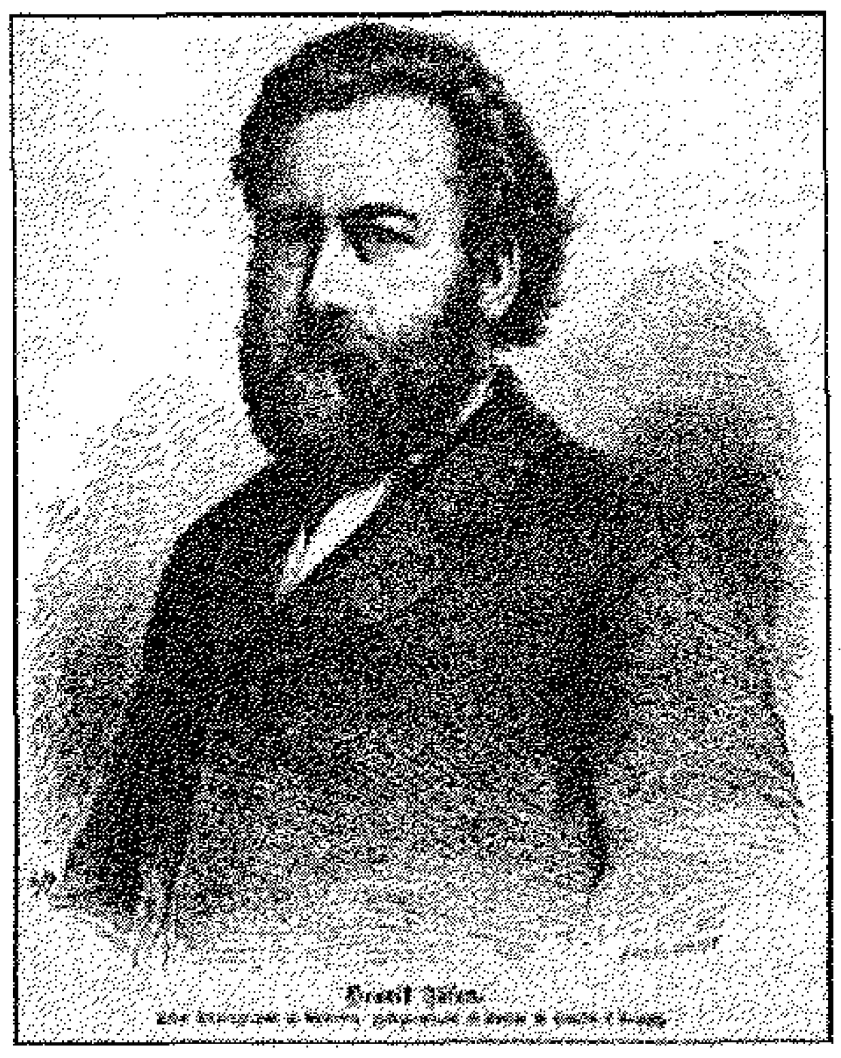
ويمثل إبسن ككاتب تأملا شعريا طويلا فى حاجة البشر لكى يعيشوا بشكل مختلف عما يعيشون، وهكذا ثمة يأس عميق يجرى تحت السطح فى أعماله. ويطلق أحد شراح إبسن على الصور التى رسمها لهؤلاء البشر الذين يعيشون فى توقع دائم والذين يستهلكهم سعيهم «نحو شىء مختلف آخر، إنهم يمثلون «دراما يائسة»، فهذه المسافة بين ما يستطيعون تحقيقه وما يتوقون إلى تحقيقه هى بالتحديد سبب جانب هذه الدراما (وفى حالات كثيرة الكوميديا) فى حياة هؤلاء البشر. وقد أدرك إبسن أن جذور فنه تكمن فى هذا التناقض بين الآراء والإمكانيات الحقيقية، ولذلك قال عام ١٨٧٥ - وهو ينظر إلى ٢٥ عاما من الكتابة- أن معظم ما كتبه «يتضمن التناقض بين القدرة والأمل، بين الإرادة والإمكانية»، وفى هذا الصراع رأى «الكوميديا وتراجيديا الإنسانية والفرد فى آن واحد».

ومن خلال مسرحياته المعاصرة الاثنتى عشرة من «أعمدة المجتمع» عام ١٨٧٧، حتى «حين نستيقظ نحن الموتى» ١٨٩٩، يقودنا إبسن مرة تلو المرة إلى نفس الوسط، فشخصياته تتميز بحياتها البرجوازية القوية والقائمة على أساس متميز، ورغم ذلك، فإن عالمها مهدر ومهدد، وبذلك يبدو هذا العالم فى حركة مستمرة، وتبدو قيمه القديمة ومفاهيمه السابقة فى مهب الريح، وتهز هذه الحركة حياة الأفراد وتعرض للخطر النظام الاجتماعى القائم، وهنا نرى كيف تكتسب العملية مظهرا سيكولوجيا واجتماعيا، ولكن كان من وراء هذه العملية كلها الحاجة إلى التغيير، وشىء نابع وبقوة من إرادة واختيار الفرد.

وقد وصف إبسن نفسه أسلوبه فى الدراما وكان ذلك فى وقت مبكر من حياته الأدبية عام ١٨٥٧: «إنه ليس الصراع الذى بين الأفكار التى تعرض أمامنا، ولا هو الموقف فى الحياة الحقيقية فما نراه هو الصراعات البشرية التى تكمن فيها وفى عمقها أفكار تتصارع فى معركة يخرج البعض منها منتصرا وينهزم الآخر».

هذا الوصف يلمس بدون شك شيئا جوهريا فيما يتطلبه إبسن من الفن الدرامى إذ لابد له أن يجمع ثلاثة عناصر: السيكولوجى، والأيديولوجى والاجتماعى، ويشكل المركب العضوى لهذه العناصر الثلاثة جوهر دراما إبسن، وربما حقق إبسن وفق هذا المقياس نجاحا كاملا فى عدد غير قليل من مسرحياته مثل «الأشباح» و«البطة البرية» و«هيدا جابلر»، ورغم أن إبسن يعتبر أن أكبر أعماله المسرحية هى Emerov and Galilean ١٨٧٣، الأمر الذى يشير إلى الأهمية التى يعطيها للعامل الأيديولوجى كصراع بين وجهات نظر متعارضة نحو الحياة، إلا أن ما منح إبسن شهرته العالمية هو مسرحياته «أعمدة المجتمع»، «عدو الشعب»، «الأشباح» وأكثر من هذا «بيت الدمية».

سيد المسرح



من خلال مسرحياته المعاصرة الاثنتي عشرة من «أعمدة المجتمع» عام ١٨٧٧، حتى «حين نستيقظ نحن الموتى» ١٨٩٩، يقودنا إبسن مرة تلو المرة إلى نفس الوسط، فشخصياته تتميز بحياتها البرجوازية القوية والقائمة على أساس متميز

وقبل أن نستعرض هذه الأعمال تجدر الإشارة، فيما يتعلق بمجمل إنتاج إبسن ومراحله، إلا أن عمل إبسن يمكن تقسيمه إلى أربع فترات وإن كانت صفات كل منها تتداخل في الأخرى، فهناك الدراما التاريخية الكلاسيكية مثل : Brand, Peergynt ثم مسرحياته الحديثة التي تنقسم إلى أعماله الاجتماعية العظيمة بين (١٨٧٠-١٨٨٠)، ثم تراجيدياته المذهلة في نهاية عمله، وتبدو كل مرحلة كأنها تؤدي إلى المرحلة التي تلتها. كما تميزت كل مرحلة بالتغيرات التي كانت تحدث في وقت ومكان كتابتها. فالمسرحيات التي كانت تعالج مشكلات كتبت معظمها في ألمانيا، أما تراجيدياته التأملية فقد أتت غالبا بعد عودته إلى النرويج. وتظهر كل مرحلة يقظة إبسن العميقة لأفكار اليوم،وربما لم يحتفظ إبسن بكتب كثيرة في بيته. كما لم يكن رجل المجموعات والحركات الأدبية، ولكنه كان مراقبا حادا، وقارئا دقيقا للصحف، ومحللا مدققا للسلوك ورجلا متصلا بشكل وثيق مع مشكلات زمنه وكما تعتمل داخله، وكما كتب مرة «أن كل شيء كتبته قد ارتبط لحظة بلحظة بكل ما عشته، وكل عمل كان بمثابة موضوع يخدم عملية التحرر الروحي، وبكل إنسان يشارك في مسئولية المجتمع الذي ينتمي إليه». وكما وصفه صديقه الرسام والفنان ادوارد مونك: «عين نصف مغمضة تبدو في تأمل وتفكير بينما الأخرى تراقب... واحدة تتحول إلى الداخل نحو الروح والأخرى إلى العالم الاجتماعي، ورغم أن نظرته كانت وقورة وقاسية، إلا أنها كانت ذات رؤية وتنبؤية».

وهكذا كانت دراما إبسن الجديدة جديدة حقا، وقد قيل بحق أن قرار إبسن التحول من الشعر إلى النثر من أهم ما شكل مستقبله ومستقبل الدراما الحديثة، ومع هذا الاختيار اختار أيضا أن تكون الموضوعات التي أقدم على استكشافها هي الموضوعات ذات الأهمية والصلة بالأحداث المعاصرة والقضايا الجوهرية للعصر وفوق كل شيء الصراع بين عالم المجتمع التقليدي وما يدعو له المستقبل من أخلاق وتحرر.

وقد كانت اللحظة الأساسية التي تطور فيها إبسن إلى كاتب مسرحي كبير حين كتب عام ١٨٧٧ مسرحيته «أعمدة المجتمع»، وحين سجلت فعلا تطور إبسن ومعه تطور فن الدراما إلى حد كبير. وقد اختار إبسن أن تجري المسرحية في النرويج، ولكن ليست النرويج الفعلية، وإنما في بلد تمثل مستودع الروح الفيكتورية حيث تتشاجر أشباح عقائد واتجاهات الماضي مع ضمير الحاضر الجديد، فهي مكان الانحصار والانغلاق والعقل الضيق والروح التجارية والنفاق

وقد تجسد هذا على المسرح بالحجرة البرجوازية التي جرت فيها الأحداث رغم أن ما حدث فيها تصوغه وتشكله أحداث كبرى في خارج هذه الحجرة المغلقة الخالية من الهواء حيث تحدث أكثر التحولات واللمحات الدرامية في نهاية الفصل الأول، فقد عادت المرأة الحديثة من أمريكا وهي تزيح الستائر جانبا لكي تسمح للضوء أن يدخل وكما قالت: «بعض الهواء الجديد للمجتمع». وكانت هذه اللمحة هي روح دراما إبسن الجديدة نفسها، مثلما كان الشخص الذي أداها «المرأة الجديدة»، هو الشخص المعبر عن التغيير. وفي نهاية المسرحية تعلن الشخصية الرئيسية أن النساء هن أعمدة المجتمع الحقيقية، ولكن «أونا» التي تعبر بدون شك عن كاتب المسرحية، تصحح له وتقدم معنى مختلفا للأحداث «لا يا صديقي»، إن الحقيقة وروح الحرية هي أعمدة المجتمع الحقيقية»، وكان مما أظهرته المسرحية أن مادة الدراما المعاصرة هي الصراع بين المسائل والأفكار المعاصرة بين الاعتداد بالنفس والنفاق الذي يحيط الذات وبين الأخلاقيات المتنورة الجديدة، بين الرجال والنساء، والقديم والجديد، وبين الماضي والحاضر، كما كانت الكراهية التي قوبلت بها المسرحية في كل اسكندنافيا في تراثها تأكيدا لحرية واستقلال إبسن الأدبي والأخلاقي، كما كانت هذه المسرحية التي أرست سمعته الدولية بين دعاة التنوير.

وفي «بيت الدمية»، أطلق إبسن بطلتها إلى العالم تطالب بأن يكون للمرأة الحرية لأن تطور حياتها كشخص ناجح مستقل ومسئول. وفي «بيت الدمية» سوف نجد الحبكة التي كررها إبسن في أعمال تالية وحيث الفرد الذي يقف معارضا للأغلبية ولسلطة المجتمع القهرية، وقد لخصت نورا هذا الموقف بقولها على أن أكتشف من على صواب : المجتمع أم الناس عن النظر إليه كنعمة مطلقة ثم أصبح الطلاق بين أطراف غير متوافقة أمرا مقبولا يمكن تبريره. وهكذا قدمت «بيت الدمية» رسالة متفجرة.. إن الزواج ليس شيئا مقدسا، إن سلطة الرجل في بيته يمكن تحديدها، وأن الواجب الأول لأي فرد سواء كان رجلا أم امرأة أن يكتشف حقيقته وأن يعيشها. وفي المسرحية أدرك إبسن ما أكده فرويد ويونج بعد ذلك : أن تحرير الذات إنما يتحقق فقط في الداخل، وهذا الإدراك هو الذي جعله لا يعتقد في «ثورة من الخارج»، ولكن ما هو مطلوب حقيقة هو ثورة في روح الإنسان.

وهكذا فإنه حين يحرر الفرد نفسه ثقافيا عن طرق التعليم التقليدية، تبدأ الصراعات الخطيرة في النشوء. ولفترة قصيرة حول عام ١٨٨٠ بدا أن إبسن كان متفائلا بشكل نسبي حول فرص الفرد في النجاح بمفرده. فرغم أن مستقبلها «نورا» لم يكن آمنا بمعان كثيرة فقد بدا أن لديها فرصة حقيقية في أن تعثر على الحرية والاستقلال الذي تنشده. وقد ينتقد البعض إبسن لتعامله بشكل مصطنع مع المشكلات التي قد تواجهها امرأة مطلقة في مجتمع معاصر. ولكن ما كان يعني إبسن ككاتب هو المشكلات المعنوية لا المشكلات العملية والاقتصادية ولذلك فإنه رغم مستقبلها «نورا» غير الأكيد قدمت في عدد من البلدان كرمز للمرأة التي تحارب من أجل التحرر والمساواة، وفي هذا الشأن كانت أكثر شخصياته عالمية، فقد التقط الانقسامات والمشكلات الحادة التي حاقت بالأسرة البرجوازية ووضعها على المسرح. فعلى السطح كان البيت البرجوازي يعطي الانطباع بأنه بيت ناجح ويعكس صورة مجتمع صحي ومستقر، إلا أن إبسن قد صاغ بشكل مسرحي الصراعات الحقيقية في هذا المجتمع بفتحه أبواب الغرف السرية والخاصة لهذا البيت وأظهر ما يمكن أن يكون مختبئا خلف الواجهات الجميلة للازدواجية الأخلاقية، والخيانة والتستر وراء الجدران المغلقة والخداع فضلا عن افتقار الأمن الدائم.

وقد بدت «بيت الدمية» في البداية باعتبار أنها تعرض التحدي الأكبر، وتثير «مسألة المرأة»، «مشكلة الزواج» عبر أوروبا كلها، وأثارت نقاشا عاما وقلقا بل ورعبا في المنازل، وقامت مظاهرات عامة معارضة ومؤيدة لها، واعتبرت اكثر المسرحيات التي كتبت نفوذا وتأثيرا، وكانت نهايتها الشهيرة، حين خرجت «الزوجة الطفلة» من بيت زوجها وصفقت الباب وراءها في إشارة نهائية على رحيلها، كانت بذلك اشهر نهاية في الدراما الحديثة. وقد كان لصفق الباب هذا صداه في الاتجاهات الاجتماعية والعلاقات الجنسية الحديثة، وكان إعلان «نورا» النهائي لزوجها الذي حاول إبقاءها وتذكيرها بواجباتها، أن «على أن أعلم نفسي، ولا تستطيع أنت أن تفعل ذلك لي، إن لدي واجبا آخر مقدسا بشكل ما هو واجب حيال نفسي» كان مثل هذا الإعلان دعوة واضحة وعالية لحركة المرأة منذ هذا الوقت، ووعداً عاماً لتحقيق الذات قدم لهؤلاء الذين اختاروا أن يحرروا أنفسهم من قيدهم ويؤكدوا ذاتيتهم وحاجتهم لتحقيقها.

وقد قيل دائما أن كل مسرحية من مسرحيات إبسن تخرج من تلك التي سبقتها، لذلك فان عمله التالي وهو أعظم أعمال هذه الفترة من كتاباته، جاء بالتأكيد من «بيت الدمية»، عبر إبسن عن ذلك بقوله «إني لا أستطيع أن أظل واقفا عند «بيت الدمية» فقد كان على مسز الفنج أن تأتي بالضرورة». وقد كانت المسرحية التي أثارت اعظم صرخة على الإطلاق، ففي كل مكان عرضت فيه أحيطت بمناقشات خلافية غاضبة. ففي ألمانيا كتب أحد النقاد «أن كل شيء مسموح به الآن، كل ما يحتاج الكاتب أن

يفعله هو أن يجلس ويكتب». ولم تعرض المسرحية فحسب الأشباح التى حامت فوق مظاهر الاحترام لمجتمعه وعصره، وإنما تعاملت مع موضوع السلطة الرئيسية للوراثة وعرضها فى أكثر صورها رعبا، صورة مرض السفيس الموروث وموضوع الزواج ولكن فى أكثر صوره عذابا. إن «الأشباح» هى قصة امرأة هجرت زوجها ولكن القس الذى تحبه، يحاول إقناعها بأن تعود إلى منزلها وهو ما تفعله، ثم تحمل ابنا يرث عن أبيه مرضا تناسليا. وقد عقب إبسن على حملة النقد العنيفة التى تعرضت لها «الأشباح» بقوله «إنه تصور مثل هذا النقد فى كل أعماله، ومثلما انقضت هذه الثورة من قبل، سوف تنقضى هذه المرة كذلك» ولكن ما أحدثه ظهور «الأشباح» من إثارة أثر على بيعها وصورت على أنها لا يجب أن تكون بين ألوان الأدب الذى يدخل المنازل وتقرأها العائلة؛ ذلك أنها لم تكن مجرد هجوم على أكثر مبادئ العصر قدسية مثل حرمة الزواج، وهو ما فعلته «بيت الدمية»، أو على واجب الابن أن يشرف أباه، ولكن ما هو أسوأ من ذلك فقد أشارت بشكل لا يخطئ إن لم يكن بالاسم، إلى مرض تناسلى ودافعت عن الحب الحر واعتبرت أنه فى ظروف معينة فإنه حتى الاتصال الجنسى الذى تحرمه أواصر القربى قد يكون مبررا، بل إن المسرحية قد أغضبت أقوى المدافعين عن إبسن واعتبرها بعضهم «واحدة من أقذر ما كتب فى اسكندنافيا» ووصفها آخر بأنها «ظاهرة سيكلوجية مثيرة للاشمئزاز تهدد أسس نظامنا الاجتماعى وتقوض أخلاقياته».

غير أن أصواتا شجاعة دافعت عن المسرحية، فقد كتب أحد أساتذة الأدب اليونانى فى جامعة كريستيانيا (أوسلو) «حين قدم أعظم شعراء التراجيديا والكوميديا فى أثينا الأفكار السياسية والأخلاقية والدينية لعصرهم، فقد وجد من ينتقد هذه الأعمال ويعتبرها ذات أهداف معينة ومتحيزة، ولكن الأجيال التالية رأت ذلك شيئا طبيعيا، وحين بلغ الفن القديم الكتابة الدرامية أوجه فى هذا العصر الذهبى، فقد كانت هذه الواقعية، وإذا شئت أن تسميها التحيز، هى التى أعطت هذا الفن حيويته وطابعه، أما فيما يتعلق بمسرحية إبسن الأخيرة فإن من بين كل الدراما المحترمة التى قرأناها سوف نجد «الأشباح» هى أقربها إلى التراجيديا الكلاسيكية.. وحين يخمد غبار النقد الجاهل، وهو ما أثق أنه سيحدث قريبا، فإن مسرحية إبسن هذه بنقائها وشجاعتها لن تقف فحسب كأنبل الأعمال وإنما كأعظم الأعمال التى أنتجها بل وأنتجها كل أدباء الدراما».

وكان إبسن يتوقع الهجوم من الدوائر المحافظة أما ما صدمه فهو هجوم الصحافة الليبرالية وربما بحماسة أعظم، وقد كتب لصديق دانماركى فى ٢٨ يناير ١٨٨٢ «ربما تكون هذه المسرحية جريئة من بعض الوجوه، ولكنى أعتقد أن الوقت قد حان لكى نتحرك وتتحول بعض علامات الحدود، وقد كان أكثر سهولة بالنسبة لى ككاتب كبير فى السن أن أفعل هذا أكثر من كُتّاب أصغر يريدون أن يفعلوا شيئا من هذا القبيل، لقد كنت مستعدا لعاصفة تتفجر ضدى؛ ولكن الإنسان لا يستطيع أن يتهرب من ذلك حيث سيكون ضربا من الجبن، غير أن أكثر ما أصابنى بالاكتئاب لم يكن الهجوم ذاته وإنما ما كشف عنه من افتقار للشجاعة فى صفوف من يسمون بالليبراليين فى النرويج».

ويبدو أن الغضب الذى أثارته مسرحية «الأشباح» قد حرك إبسن كى يكتب مسرحية أخرى لم يجد عنوانا أفضل لها من «عدو الشعب». وتحكى المسرحية قصة طبيب فى منتجع صغير للمياه المعدنية يكتشف أن ينابيعه التى تعتمد عليها حياة المدينة ملوثة. وفى البداية يثنى عليه السكان باعتبار أنه يخدم المصلحة العامة، ولكن حين يعلمون أن الينابيع سوف تغلق لعدة سنوات، وأن دخلهم سوف يتأثر يتحولون ضده وحين يدعون لاجتماع ليوضح لهم وجهة نظره يصفونه بأنه عدو الشعب. ويقول الطبيب الكسندر ستوكمان الذى خاطر بكل شىء كى يقول الحقيقة حول الماء الملوث «إنى على حق أنا وواحد أو اثنين» وقد أراد إبسن أن يظهر أن التلوث مقصود فعلا وأن هؤلاء الذين يشربون منه هم الذين يعانون وهؤلاء هم أبطاله الحقيقيون وليسوا رجال السياسة أو الموظفون المدنيون».

فى هذا الوقت كان إبسن يقف مبتعدا عن السياسة، ولم تكن الأفكار تعنيه وإنما الأمانى والتطلعات والثمن الذى يدفع فى الحياة من أجلهم، وكان هذا هو موضوع ما سوف يأتى بعد ذلك من أعمال إبسن ومسرحياته الأخيرة عن الأمل الإنسانى والتى سقطت عنه عباءة المذهب الطبيعى. وكما ذكر هو «إننى شاعر بشكل أكثر وفيلسوف اجتماعى بشكل أقل مما اعتاد الناس أن يفترضوا بشكل عام وكان هدفى هو تصوير الكائنات البشرية، وهو ما سيصبح موضوع مسرحياته الأخيرة».

وهكذا لم يخترع إبسن فحسب الدراما الحديثة ولكنه كتب عددا من المسرحيات التى مازالت تشكل جانبا رئيسيا من كل رصيد المسرح العالمى. فقد وجد المسرح الأوروبى فارغا وعاجزا فحوله إلى شكل فنى ثرى وقوى ليس فقط فى بلده وإنما فى العالم كله. وزيادة على ذلك فإنه لم يحدث ثورة فى فنه فحسب ولكنه غير التفكير الاجتماعى لجيله وللجيل الذى جاء بعده. فما فعله روسو بالنسبة لنهاية القرن الثامن عشر فعله إبسن بالنسبة لنهاية القرن التاسع عشر فحيث حث روسو الرجال والنساء على العودة للطبيعة وحرك بذلك ثورة اجتماعية، بشر إبسن بثورة الفرد ضد النظام القديم من المحرمات والتحيزات التى سادت كل مدينة صغيرة بل وكل عائلة. لقد علم الرجال والنساء خاصة أن ضميرهم الفردى وأفكارهم الشخصية عن الحرية لها أولوية أخلاقية على متطلبات المجتمع وحين فعل ذلك حرك ثورة فى الاتجاهات والسلوك بدأت فى حياته وتواصلت من بعده وقبل فرويد بوقت طويل، فقد وضع إبسن الأساس للمجتمع المتحرر، وفى هذا الشأن ربما لم يكن لروسو وماركس تأثير أكثر على الأسلوب الذى سلكه بالناس بالفعل فى مواجهة الحكومات.

ويبدو إنجاز إبسن فى أنه لم يقنع بأن ينتهى به الأمر ككاتب مسرحى اجتماعى فنى ولو كان لهذا الدور تأثير دولى، ومن هنا بدأت مرحلة جديدة من تقدمه والتى شهدت تحوله من المسائل السياسية إلى مشكلة التحرير الشخصى والتى ربما احتلت فكره أكثر من أى جانب من الضمير الإنسانى. وقد كتب فى مذكراته «أن التحرر هو أن يضمن للأفراد حق تحرير أنفسهم كل وفقا لحاجته الخاصة. هذه المرحلة هى التى أنتجت: البطة البرية عام ١٨٨٤ the wild duck، «هيدا جابلر» عام ١٨٩٠ Hedda gabler، «البناء البارع» the master builder.

وربما وجدت هذه المسرحيات فى وقتها محيرة وربما غير مفهومة ولكنها هى التى أصبحت أكثر أعماله قيمة من حيث استكشافها للنفس الإنسانية وتطلعها للحرية. إن من فضائل إبسن أنه لم يكن مجرد صانع لشىء جديد وأصيل فى فنه، قد كانت حساسيته للأفكار التى لم يكتمل تكوينها وربما لم تستكشف بعد. لقد استطاع رواد المسرح فى العالم كله أن يجدوا أنفسهم أو جيرانهم فى معاناة الضحايا والمعذبين المستغلين فى مسرحياته فقد كانت دعواه أن يتاح لكل الكائنات البشرية الفرصة لكى يحققوا أنفسهم ولذلك وجد مفهومه على القيم التقليدية، ودعوته للحرية الشخصية ترحيبا فى كل مكان.

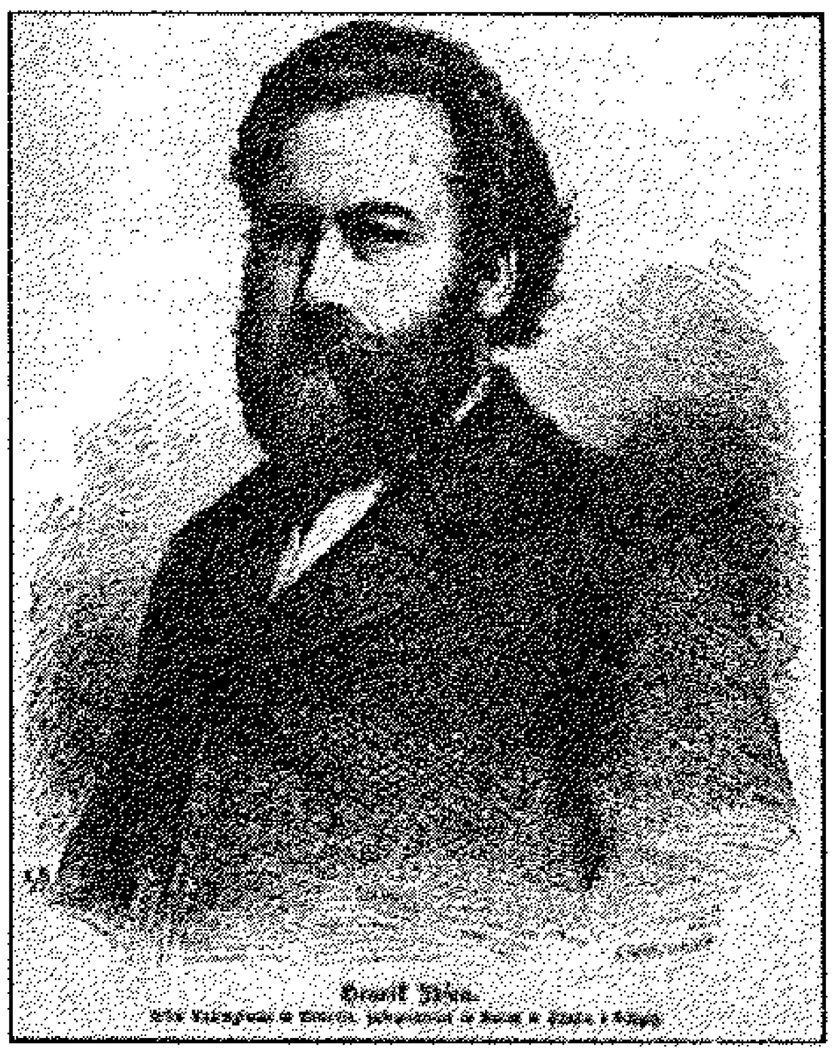
فمنذ بداية التسعينيات من القرن التاسع عشر وحين عاد إلى بلاده منتصرا، كانت مسرحياته تمثل بشكل متزايد فى العالم كله، ومع تولوستوى فى روسيا، كان ينظر إليه باعتباره أكثر كتاب العالم الأحياء. وكان ظهوره اليومى فى مقهى «الجراند هوتيل» حيث كان يجلس بمفرده فى مواجهة مرآة حتى يمكن أن يرى بقية الحجرة، يقرأ الصحف ويشرب البيرة الممزوجة بالكونياك يمثل أحد مشاهد المدينة وحين كان يدخل المقهى كل يوم وفى نفس الوقت والثانية، كان كل من فى المكان يقف ويرفع قبعته، ولم يكن أحد يجرؤ على أن يجلس قبل أن يجلس الرجل العظيم.

غير أنه كما يقول بول جنسون، فإن هذا الرجل العظيم أو المحرر العظيم، الرجل الذى درس وتوغل فى النفس البشرية وعلمتها أعماله كيف تحرر نفسها من أغلال التقاليد والتحيز، له جوانبه الغريبة والمتناقضة. فإذا كان يشعر تجاه الإنسانية بهذه القوة فلماذا ينفر من الإنسان كفرد، ولماذا يرفض التعرف عليه ولقاءه والاكتفاء بأن يقرأ عنه فى الصحف، ولماذا هو دائما وحيد حيث عزلته القاسية التى فرضها على نفسه؟ بل إن من نقاده من اعتقدوا أنه كلما نظرنا إليه عن قرب بدا أكثر غرابة. فالرجل الذى هاجم التقاليد، ودعا إلى حريات الحياة البوهيمية، هو نفس الرجل الذى يقدم نفسه كشخصية تقليدية أرثوذكسية، وأول شىء لاحظه العديد من الناس عن إبسن كان خيلاءه غير العادية، ويبدو أنه لم يكن دائما كذلك وأنها تتطور معه، فقد ذكرت أم زوجته أنها حين رأته للمرة الأولى فى شبابه كان يبدو كحيوان المارموت الصغير الخجول ولم يكن قد تعلم بعد أن يحتقر زملاءه من البشر وكان يفتقر إلى تأكيد ذاته. وكان من مظاهر خيلاء إبسن التى قاربت حدود السخرية والتى لم يستطع أكثر نقاده إعجابا به أن يدافعوا عنها هو عاطفته نحو الميداليات والأوسمة.

أما مظاهر شخصيته المناقضة لصورته الأدبية فقد بدت فى قسوته على الناس بل وحتى الضعفاء والمصابين منهم مثل

فى «بيت الدمية» أطلق إبسن بطلتها
إلى العالم تطالب بأن يكون للمرأة الحرية لأن تطور حياتها
كشخص ناجح مستقل ومسئول

سيد المسرح



لم يخترع إبسن فحسب الدراما الحديثة ولكنه كتب عددا من المسرحيات التى مازالت تشكل جانبا رئيسيا من كل رصيد المسرح العالمى. فقد وجد المسرح الأوروبى فارغا وعاجزا فحوله إلى شكل فنى ثرى وقوى

هجومه علنا على رسام مريض بالسل، وكان هو نفسه يفاخر بأنه طوال حياته كان يدير ظهره لوالده ولعائلته كلها لأنه «لا يستطيع تحمل استمرار علاقة تقوم على تفاهم غير كامل». وحين مات أبوه،لم يكن على صلة به منذ أربعين عاما، وفى الدفاع عن نفسه فى خطاب لعمه ذكر كسبب رئيسى لذكره «ظروف مستحيلة نشأت منذ مرحلة مبكرة جدا»، وكان يعنى بذلك أن أسرته كانت تهبط فى الوقت الذى كان هو يرتفع ويصعد ولم يكن يريدهم أن يشدوه لأسفل. وكان يشعر بالخجل منهم ويخشى مطالبهم المادية، وكلما أصبح غنيا واكثر قدرة على مساعدتهم قل ميله إلى أن يقيم علاقة معهم، ولم يبذل أى جهد لمساعدة أخيه الأصغر المشلول الذى مات بعد ذلك فى الولايات المتحدة كذلك تجاهل شقيقه الأصغر الذى كان رغم فقره الوحيد الذى كان يساعد أباه ولم يقدم لهم إبسن بنسا واحدا.

ومثلما كانت علاقة إبسن مع أسرته على هذا السوء، كذلك كانت علاقته مع أصدقائه باردة بل وعاصفة فى بعض الأحيان. يشهد على ذلك مراسلاته وعلاقته مع زميله الكاتب بيرنسون : فقد كان إبسن يرى فيه منافسا له، كما كان يغار من نجاحه المبكر وطبيعته المتفتحة وبهجته وقدرته على الاستمتاع بحياته، بينما كان بيرنسون هو الذى فعل كل شىء، قابل هذا إبسن بالنكران وعدم الامتنان، واستمرت علاقته به على أساس أن بيرنسون كان هو دائما الذى يعطى وإبسن هو الذى يأخذ. ومع غيره من الكتاب انتهت علاقة إبسن دائما معهم بالخصام أو الانقطاع والتوتر الدائم، وكان الجانب الآخر هو دائما الذى عليه أن يبذل المجهود للإبقاء على العلاقة حية ومتجددة، وقد كتب لأحد الكتاب ردا على انتقاده له ولمقاطعته لأصدقائه (حين يكون شخص ما فى موقفى، ومثلما أفعل، وفى علاقة شخصية جادة مع حياته وعمله فإن المرء لا يستطيع حقا أن يحتفظ بأصدقاء.. إن الأصدقاء هم رفاهية مكلفة،وحين يوجه المرء رصيده من أجل دعوة أو رسالة فى الحياة، فإنه لا يستطيع أن يكون له أصدقاء..).

فى هذا الخطاب يعترف إبسن أن تحقيق الإنسان لذاته إنما تضمن التضحية بالآخرين وفى حالته فإنه لم يكن يستطيع أن يكون كاتبا مسرحيا مؤثرا ومعترفا به دون أن يتجاهل الآخرين بل وأن يدوس عليهم إذا اقتضت الضرورة. ويوحى ذلك أن الأنانية الخلاقة كانت تقع فى مركز تصور إبسن لفنه. وكما كتب لأم زوجته «إن معظم النقد ينتهى إلى نوع من تأنيب الكاتب لأنه يعتبر نفسه بينما الأمر الجوهرى هو حماية المرء لنفسه والاحتفاظ بها نقية وحرة من كل العناصر المتطفلة». وقد كانت الأنانية الخلاقة هى محاولة إبسن كى يحول جوانب الضعف فى شخصيته إلى مصدر قوة. فكطفل كان وحيدا بشكل مفزع يحمل، كما ذكر ناظر مدرسته «وجه رجل عجوز» وشخصية منطوية على ذاتها الأمر الذى جعله غير محبوب من أقرانه. وكشاب فرض عليه فقره مزيدا من الوحدة... فكان يخرج للسير مسافات طويلة منفردا وبشكل جعله عمليا فى منفى يرى المجتمع المحيط به كشىء غريب على أحسن افتراض ولكن دائما كشىء عدائى، وقد كتب فى شبابه «وجدت نفسى فى حالة حرب مع مجتمع صغير وحيث كنت أعيش سجينا» وهكذا لم يكن غريبا أن يختار إبسن النفى الفعلى لأطول فترة وأكثرها إنتاجية فى حياته، وكما كان الحال مع ماركس قوى هذا فيه إحساسه بالاغتراب وحصره فى مجموعة فكرية محدودة بمشاحناتها وعزلتها- وقد اعترف فيما بعد بعدم قدرته على التواصل مع الآخرين، فقد كتب لبيرنسون عام ١٨٦٤ «لا أستطيع أن أقيم صلة قوية مع اناس يطالبون أن يقدم الإنسان نفسه بلا تحفظ، وأفضل أن أكتم ذاتى الحقيقية داخل نفسى» وهكذا أصبحت وحدته خلاقة. وقد ظلت كذلك موضوعه الرئيسى منذ أشعاره المبكرة التى عاشت والتى كتبها عام ١٨٤٧ وحتى توقف عن كتابة الشعر ١٨٧٠-١٨٧١. وأصبحت كتاباته تعكس وحدته وتمثل ملجأه وسلاحه ضد العالم المعادى، وظل كل فكره وعاطفته موجهة للسعى للشهرة الأدبية. وتدريجيا بدأ يرى عزلته الذاتية وإخفاء ذاته كسياسة ضرورية بل وحتى كفضيلة، وكما كتب لصديقه برانديس «إن الوجود الإنسانى كله ليس إلا حطام سفينة ولذلك فإن الطريق العاقل هو أن ينقذ الإنسان نفسه» وفى سنه المتقدمة نصح امرأة شابة «يجب ألا تفصحى للناس أبدا عن كل شىء، أن تحتفظى لنفسك بأشياء هو أكثر الأمور قيمة فى العالم». ومثل هذا التصور هو الذى أجبر صديقه برانديس على أن يستخلص «أن عداءه للبشرية لم يعرف الحدود»، وقد انسحبت هذه الكراهية وبشكل منتظم لكى تشمل أفكارا ومؤسسات أثارت بشكل أكثر حيث رأى معظمهم «منافقين، كذابين، منحرفين ولئاما»، ومثل معاصره تولوستوى، كان يحمل كراهية خاصة للنظام البرلمانى ويراه مصدرا لفساد لا قرار له ولا جدل، كما كان يكره الديمقراطية وكان يقول «ما هى الأغلبية، إنها الجماهير الجاهلة، إن الذكاء ينتمى للأقلية دائما وإن معظم الناس ليسوا مؤهلين لكى يكون لهم رأى، وتحت أى ظروف لن أربط نفسى مع أى حزب لديهم الأغلبية».

وواضح أن السبب الذى جعل إبسن يخطئ بشكل كبير فى إدراك المستقبل إنما ينبع من الضعف الموروث فى شخصيته، ومن عدم قدرته على التعاطف مع الناس على العكس من الأفكار، فحين تكون الجماعات أو الأفراد مجرد أفكار مجسدة، كما كانت فى مسرحياته، فإنه يستطيع تناولها بتعاطف وبصيرة عظيمة، ولكن فى اللحظة التى تدخل فيها حياته كناس حقيقيين فإنه يهرب أو يرد بشكل عدائى.

وغالبا ما كتب إبسن عن الحب، الذى كان موضوعه الرئيسى فى شعره، ولو بالمعنى السلبى للتعبير عن ألم الوحدة، ولكن كان من المشكوك فيه أنه كان يشعر بالحب تجاه شخص ما على العكس مع فكره أو شخص تجسد فى فكره. فالكراهية كانت عاطفة حقيقية بالنسبة له، وخلف الكراهية كان ينبع شعور أكثر أصالة وهو الخوف، ففى أعماق شخصيته كان ثمة خوف مكتوم ومنتشر، وربما كان أكثر الأشياء أهمية بالنسبة له، وقد ورث الخجل عن أمه التى كانت تنتهز كل فرصة لكى توصد الحجرة على نفسها وهو ما كان يفعله إبسن وهو طفل. وقد لاحظ الأطفال الآخرون خوفه وكان الجبن بمعناه الجسدى والمعنوى ما ينطبق عليه عبر حياته. ولم يكن الجبن ينطبق عليه فقط تجاه الأحداث العامة والسياسية والذى كان يتحجج فيه بقوله «نحن الشعراء لدينا مهام أخرى لكى نؤديها» وإنما كذلك فى حياته الشخصية، فالجبن هو الذى جعله يهرب وهو فى صحبة صديقة له حين رأى أباها، وحين تقابلا بعد سنوات طويلة وسألها: لماذا لم تثمر علاقتهما أجابته :ألا تتذكر لقد هربت، فأجابها «أجل لم أكن أبدا رجلا شجاعا يواجه وجها لوجه».

ومع ذلك لم يعدم إبسن من النقاد والشراح من يدافع عنه فيما يتعلق بهذه الجوانب من شخصيته، أو يلقى مزيدا من الضوء على الدوافع والخلفيات التى ساهمت فيها بل وفى تشكيل تصوره ورؤيته للفن وللبشر وعلاقاتهم، وقد وجد هؤلاء النقاد أنه لكى نفهم كتابات إبسن بشكل كامل فإن علينا أن نفهم أولا الرجل الذى كتبها ومن هنا فإنهم يعتبرون أن كثيرا من النقد الذى يوجه لإبسن ربما لم يكن يكتب إذا كان النقاد قد امتلكوا إحساسا كافيا وضميرا كى يكتشفوا أى نوع من الرجال كان حقا وماذا كان فى فكره حين تصرف وكتب. وقد أشار هؤلاء الذين حاولوا إنصاف إبسن أو تفسيره إلى ما كان يشدد عليه مرارا من أن على الكاتب أن ينظر ليس فقط فى قلبه ولكن فى خبرته الخاصة، وليس كثيرا فى الأمور الفعلية التى فعلها أو مر بها بقدر ما ينظر إلى المشاعر التى مر بها وإلى خبرته العاطفية، فقد كتب إبسن عام ١٨٧٠ «أن كل شىء حققته كشاعر قد نشأ أصلا من إطار فكرى ومن موقف من الحياة، ولم أكتب أبدا لأننى كما يتصور البعض وجدت موضوعا جيدا للكتابة». كما كتب مرة أخرى «إن المرء يجب أن يجد شيئا يخلق منه من خبرته فى الحياة، والكاتب الذى ليس لديه ذلك لا يستطيع أن يخلق، والآن، أعرف جيدا أن أى حياة عيشت فى عزلة ليست حياة خالية من الخبرة، إن الإنسان مع هذا وعلى المستوى الروحى مخلوق بعيد النظر، إننا نرى

بشكل أكثر وضوحا من بعيد، فالتفاصيل تخلق التشويش، وعلينا أن نبتعد عما نحكم عليه، فالإنسان يصف الصيف بشكل أفضل في يوم شتاء».

كذلك كان إبسن واضحا تماما في تأكيده على أن أي كتابة يجب أن تستند على الحياة وأكثر من ذلك على أن الكتابة هي أقل أهمية من الحياة. وقد يدهش البعض الذي رأى حياته باعتبارها حياة كئيبة وخالية من الأحداث واعتبروه شخصا محدودا وبورجوازيا صغيرا، أما إبسن فقد تحدث بشكل واضح بما فيه الكفاية «إني أحلم، وأتذكر، واستمر في الكتابة، إن الكتابة شيء رائع، ولكن في نفس الوقت فإن واقع الحياة يمكن أن يكون من وقت لآخر، أكثر روعة». إن المرارة والأسف الذي ينمو مع مسرحياته «حين نستيقظ نحن الموتى» إنما تنشأ عن عدم العيش بما فيه الكفاية، وكما كتب ليبرنسون الذي اختلف معه «إذا كان علي أن أقول ما يجب أن يكتب على قبرك، فإني سوف أختار عبارة «إن حياته كانت أكثر أعماله الخلاقة، ولذلك أعتقد أن تحقيق الإنسان لذاته في حياته هو أعلى ما يستطيع الإنسان أن يحققه».

وعلى عكس ما وصفت به الصحف إبسن عند موته عام ١٩٠٦ من أنه «كان باردا كالسمكة وقاسيا وحادا كالمسمار، وكان بالتأكيد لا يمتلك ذرة من الدعابة» فإنه، في رأي نقاد آخرين ورغم أخطائه لم يكن باردا أو صعبا أو عديم الدعابة، كما اعتبروا أن هذه الأحكام الخاطئة حول إبسن هي نتيجة الفهم الخاطئ للتحفظ النرويجي، وهي صفة قديمة قدم القصص الايسلندية القديمة الزاخرة بأعمال البطولة sagas، باحتقارها الكتوم للنزعة العاطفية والإطناب في الحديث وبشكل يجعل شخصياتها الأصيلة في لحظات الأزمة قد لا يصدر عنهم كلمة. وهو نفس الشيء مع إبسن فقد كان ثمة الكثير من الثلوج عليه، وكان الطفل النازع إلى التأمل لأسرة محطمة غير متجانسة، وفي كل حياته كان يدافع عن نفسه، غير أنه تحت سطح هذا الجليد يكمن ليس فقط نار الغضب وإنما أيضا دفء ما هو أكثر إنسانية، وحيث تبدو صورة إبسن مضللة حين تقدم النظرة المفترسة وليس الابتسامة الساحرة، وحتى في موطن راسه جريمستاد، ومع بعض أصدقائه المقربين فقد كان بالإمكان أن يتحول إلى أكثر المتحدثين حيوية، وفي كل حياته شرط أن تكون الرفقة طيبة، كان يستطيع أن يكون مبهجا -يتدفق منه الخيال والسخرية مما يبعث على الدهشة، وبشكل استطاع من يراقبه بشكل ذكي أن يكتشف فيه حتى وراء صمته تطلعا دفينا نحو العاطفة، بل إنه وفي بعض الأحيان كان يمكن أن يصبح عاطفيا، وكان يحب أن يتحدث مع الأطفال أو مع العمال في الطريق، وأن يكون معهم فاتنا بشكل غير متوقع. وحتى في أيامه الأخيرة المنكسرة سجل من كانوا يعالجونه كيف أنه، وبعد أن يذوب التحفظ المبدئي، يصبح أكثر المتحدثين لطفا، وسجل صديقه براندیس أنه حين التقى به في درسدن عام ١٨٧١ احتضنه إبسن وضمه إلى صدره «بدرجة أن كدت أفقد تنفسي»، ويضيف انه في عام ١٨٨٤ حين استمع إبسن في روما إلى الموسيقى الموضوعة لبعض أشعاره يعزفها الموسيقار النرويجي ادوارد جريج «جاء والدموع في عينيه إلى البيانو حيث كنا وضغط على أيدينا دون أن يقول كلمة واحدة» ويتصور هذا الاتجاه النقدي الذي يدافع عن إبسن أن المفتاح الحقيقي لشخصيته والعاطفة التي تحكمه ربما كانت فرديته غير المرنة التي لا تقهر، وحول هذه النقطة المركزية والحيوية فإن وجهات النظر لا تستطيع أن تجد تعبيرا أفضل وأكثر تركيزا من كلمات إبسن نفسه «إن الشيء الرئيسي هو أن تظل مخلصًا وصادقًا في علاقة الإنسان بنفسه. إن الأمر ليس مجرد أن تكون مستعدا لشيء أو آخر إلا لما هو زائف» وفي مخاطبته لصديقه جورج براندیس يقول «إن ما أتمناه لك أولا وأخيرا هو الفردية المطلقة تستطيع أن تدفع بك في وقت ما أن تنظر إلى ما يهمك باعتبار أنه الشيء الوحيد الذي له قيمة وأهمية، وكل شيء آخر وكأنه لا وجود له. ولا يجب أن يؤخذ هذا على أنه علامة على شيء ما في طبيعتي، فليس هناك طريق أفضل تستطيع أن تفيد به المجتمع الذي ينتمي إليه من أن تصوغ المعادن الموجودة داخلك» كما كتب مرة «إن أقوى إنسان في العالم هو ذلك الذي يقف وحيدا».

على عكس ما وصفت به الصحف إبسن عند موته ١٩٠٦ من أنه «كان باردا كالسمكة وقاسيا وحادا كالمسمار» فإنه، في رأي نقاد آخرين لم يكن صعبا أو عديم الدعابة

في ضوء هذا يصبح من السهل في نظر نقاد إبسن أن يفهموا ما ذكرته أم زوجته من أنها تجد تشابها بينه وبين الفيلسوف الدانماركي كيركجارد، لا لتشابه جسدي، وإنما لأن كلا منهما لديه «هذه الرغبة المتقدة لأن يكون وحيدا مع نفسه» وقد تبدو بعض أقوال وتصرفات إبسن غير معقولة بالمنطق العام، ولكنهم يتفهمونها في ضوء أن العبقرية يجب أن تعبر عن غرابة أطوارها. وبالنسبة لهم فقد ظل إبسن هو الرجل الغاضب الذي كتب Bvamd، وهو نفسه المتشكك العطوف الذي كتب «البطة البرية». وفي بعض الأوقات يبدو مثل سامسون الذي لا رحمة لديه يهز أعمدة المجتمع المتعفنة حتى لو سقط كل البناء على رأسه هو، ويفسر ذلك قول إبسن «إن كلا منا يجب أن يناضل من أجل أن يجعل النظام الاجتماعي العام أفضل مما هو عليه، وهذا ما أفعله بأفضل ما في قدرتي».

أما عن تحفظاته على الديمقراطية فقد كان يقصد بها توقعه أن تضفي على نفسه الأرستقراطية، وحيث كانت الأرستقراطية بالنسبة له هي أرستقراطية الشخصية، وقد أوضح ذلك في خطاب له أمام عمال في تروندهايم عام ١٨٨٥ «إنه مازال هنالك الكثير الذي يجب عمله قبل أن نقول إننا كسبنا الحرية، إن عنصرا من الأرستقراطية يجب أن يدخل سياستنا، وحكومتنا وتمثيلنا وصحافتنا. وبالطبع فإني أعني بذلك أرستقراطية الشخصية، أرستقراطية الفكر والإرادة، إن هذا فقط الذي يجعلنا أحرارا».

إن هذا التيار الذي يحاول أن يتفهم جوانب شخصية إبسن يضع عددا من الأسئلة التي تحاول أن تجيب عن السؤال الأساسي وهو : ما الذي جعل إبسن فرديا بهذا العنف؟ ولا يعتقد هذا الاتجاه أن إبسن كان كذلك بالطبيعة، ولكنه يرده إلى تربيته وتنشئته واعتبار حماس العوامل التي صبغته بهذا الطابع، فقد شهدت حياته المبكرة فشلا متكررا كطالب وكاتب مسرحية وكمدير مسرح، وكان عليه إما أن يقبل العزلة أو الهزيمة، وحتى حين كسب في النهاية النجاح كان نجاح الفضيحة، وحين وجد من ينصت إليه استمع لمن يدينه باعتباره يسمم الرأي العام ومعاديا للمسيح. وقد كان من الطبيعي أن يصبح شخصا غاضبا ورغم هذا وعلى عكس الكثير من الأشخاص الغاضبين كان لديه شيء حقيقي يقوله.

غير أن السؤال الرئيسي الذي أثارته فردية إبسن كان هو إلى أي حد تعمل فرديته المتطرفة في الحياة؟ هنا اختلفت وجهات النظر بشكل واسع. فمن ناحية سيظل مأزق الإنسان الدائم أنه يجمع بين الفردية والنزعة الاجتماعية، فهو في حرب دائمة مع نفسه، لأنه اجتماعي ولكنه ينشد ذاته وتأكيد فرديته، وشأن الحيوانات الشائكة المشاكسة تندفع نحو بعضنا البعض عندما نشعر بالرعشة، وتتفرق ونتباعد مرة أخرى لأننا سريعو الحساسية والفردية الحقة، من نوع فردية إبسن، تتكون من عثور الإنسان على ذاته وكونه إياها وليس وضعها للعرض أو للبيع، مثل هذه الفردية العظيمة يعرفها مونتاني جيدا فهي أفضل ما تكون حين تكون في المؤخرة وليس في الواجهة. في رأي هذا الاتجاه الذي يتلمس الأسباب لتفسير عزلة إبسن وفرديته، تصبح الشعبية شيئا جديرا بالازدراء، كما أنه مما لا يدعو إلى الاحترام أن تكون «مع التيار» أما تكامل وسلامة الشخصية الحقيقية فهو أن ترضى بأن تكون صوتا في البرية. والنتيجة - عند هذا التيار المدافع عن إبسن - أنه ما دمنا جميعا قد ولدنا نجمع بين الفردية والنزعة الاجتماعية، فإنه يبدو من العبث والجنون أن نحاول أن نمحو أي جانب من طبيعتنا ولا يبقى أمامنا إلا أن نقيم التوازن بينهما، ولكنه التوازن الذي يفضل أن يميل بشكل قوى نحو الفردية وكما كتب إبسن عام ١٨٨٤ «اعتقد أننا جميعا ليس لدينا شيء آخر أفضل لكي نفعله من أن نحقق ذواتنا وبإخلاص».

حرر فكرك وحياتك من النفاق
ولا تدع الضمير المريض يجعلك جبانا
كن أفضل ما في نفسك، وكن نفسك
أن تتساءل هو أكثر أهمية من أن تجاوب
لا تقلق من تقييدك لفكرك
بشرط أن تبقى عليه متوقدا ورائعا
إن الحياة أهم من الفن
أن تقتل حب الحياة في القلب البشري
هو الخطيئة التي لا تغتفر
المشكلة الحاسمة في الحياة هي أن تصالح وتوافق ما بين السعادة والواجب
وهكذا تحدث إبسن. ■

المراجع

1. Michael Meyer, "Ibsen", Benguin, 1990
2. Lucas, "The Drama of Ibsen .L.F and Strindeberg", Cossell, London, 1962
3. Arlik Gustafson, "Six Scandinavian Novelists..", Princeton 1940
4. Ellas Bredsdorff, " an Introduction of Scandinavian Literature.." , 1951
5. John Budd, Eight Scandinavian Novelists :Criticism and Reviews in English /complied by John Budd, Greenwood Press 1981

أمن المعلومات

جمال محمد غيطاس

ثقافة أمن المعلومات يمكن تعريفها بأنها مزيج من الأفكار والتصورات والسلوكيات والتوجهات العامة التى تتحرك فوق خلفية معرفية تجعل كل فرد أو طرف على وعى بكيفية التعامل مع المعلومات

كان التصور الغالب خلال السنوات الماضية أن أمن المعلومات قضية تقنية بحتة تتعلق بأدوات وبرمجيات ومعدات وأجهزة، وحينما ارتفع سقف التعامل مع هذه القضية فى السنوات الأخيرة وانتقلت من مستوى الخطط العفوية المجزأة ضيقة النطاق التى يضعها وينفذها الفنيون والتكنوقراط إلى مستوى الخطط القومية والوطنية التى يتولى شأنها الاستراتيجيون وصناع القرار بالمستويات العليا، نظر إليها الكثيرون باعتبارها مزيجا من التكنولوجيا وأدواتها ونظريات الأمن وخبراته وأدواته وتعقيداته، والحقيقة أننا فى الحالتين أمام تصورات خاطئة لا تعكس الحقيقة التى أجمعت عليها الخبرات والتجارب العالمية وتؤكد أنه: (فى أمن المعلومات لابد أن تأتى الثقافة قبل التكنولوجيا) وأنه (لا أمن بلا ثقافة)، وأنه (حينما تغيب الثقافة تفشل خطط وسياسات أمن المعلومات).

قد نتساءل فى البداية: ما الذى زج بالثقافة فى قضايا أمن المعلومات؟

واقع الحال أن الثورة الرقمية والتطورات الجارية فى الاتصالات والمعلومات دفعت إلى الساحة بالعديد من المتغيرات الجديدة فيما يتعلق بأمن المعلومات، ولعل أخطر هذه المتغيرات هو وجود الكثير من المؤشرات التى تنبئ بوجود تهديدات فى أمن المعلومات فيها من الشمول والاتساع والعمق ما يجعلها ترقى إلى مستوى تهديد الأمن القومى الشامل للدول والمجتمعات، وبالتالى بات ينظر إليها ليس على أنها مجرد تهديدات ومخاطر محدودة الأثر ولكن باعتبارها مصادر خطر داهمة تشبه العواصف والأعاصير الضخمة التى تضرب دولة بأكملها فى شتى مرافقها، وفى ظل هذه (العواصف الإلكترونية والمعلوماتية) الحالية أو المتوقعة بدأ الكثيرون حول العالم يعيدون النظر فى قضية أمن المعلومات ويرون أنه بات من الضرورات القصوى العمل على الارتقاء بها من مستوى الأمور التقنية التفصيلية التى تسند إلى فنيين وتكنوقراط داخل المنشآت والمؤسسات كل على حدة بشكل مجزأ، لتأخذ مكانها ضمن القضايا التى يتولاها سياسيون واستراتيجيون يترجمونها فى رؤى وسياسات وطنية تعمل ضمن منظومة الأمن القومى الشامل وتضبط العلاقة بين أمن المعلومات والأمن القومى وتوجهها فى مسارها الصحيح.

وقد أكدت الخبرات العملية التى صادفتها العديد من دول العالم عند تعاملها مع أمن المعلومات من منظور الأمن القومى أنه من الخطأ الكبير اعتبار أمن المعلومات قضية تكنولوجيا معلومات فقط أو خطط تقنية يتم العمل على تنفيذها بالقوة والإلزام على الآخرين أو خطط أمنية فقط، وأن المدخل السليم هو التعامل مع أمن المعلومات باعتباره اتجاهات وسلوكا وقناعات يتعين العمل على بنائها وتحديدها بدقة ووعى يناسب طموحات الوطن وتحدياته، ثم الاجتهاد فى نشرها وترسيخها بين أفراد المجتمع ومؤسساته المختلفة، بما يؤدى لتكوين مستوى من الثقة المتبادلة والولاء القوى بين الفرد والجهة التى يعمل بها إن كان الهدف تأمين منشأة أو مؤسسة، أو بين المواطن والوطن الذى يعيش فيه إن كان الأمر يتعلق بحماية وطن، فيظهر بالمجتمع ما يمكن أن نطلق عليه (ثقافة أمن المعلومات) التى تعمل (كظهير) واسع ورحب يضمن النجاح لأى سياسة أو خطة قومية فى أمن المعلومات.

إذن فالمقصود بالثقافة هنا هى (ثقافة أمن المعلومات)، والتى يمكن تعريفها بأنها مزيج من الأفكار والتصورات والسلوكيات والتوجهات العامة التى تتحرك فوق خلفية معرفية تجعل كل فرد أو طرف بالمجتمع على وعى بكيفية التعامل مع المعلومات ومتى يتم إعطاء المعلومة ومتى يتعين حجبها ولمن تمنح المعلومة وعن من يتم يمنعها ومتى يتم طلب المعلومة ومتى يتعين تركها، ومتى وأين وكيف يجرى توظيف المعلومة واستخدامها، ويستوى فى ذلك جميع أفراد المجتمع ومؤسساته ابتداء من عامل السويتش مثلا وانتهاء بالمسئول عن صيانة وإدارة بيانات فائقة الحساسية داخل قاعدة بيانات قومية ومرورا بجميع الجهات المعنية بتداول وأمن المعلومات.

بناء ثقافة أمن المعلومات

ولو أخذنا التعريف السابق لثقافة أمن المعلومات وطبقناه على ما يجرى فى ساحة أمن المعلومات عالميا من خبرات وتوجهات ورؤى، سنجد أن هناك تنويعات مختلفة داخل ثقافة أمن المعلومات، وببعض التجاوز يمكننا القول إنه لا توجد ثقافة واحدة لأمن المعلومات بل ثقافات متعددة، فالساحة غنية بالعديد من المدارس الثقافية فى أمن المعلومات، فهناك مدرسة تعتبرها ثقافة تعاونية قائمة على المشاركة والرضا، وهناك مدرسة تعتبرها ثقافة إدارية محضة تفرض بقوة الإلزام، وهناك مدرسة ثالثة تتحدث عن ثقافة المعلومات المخططة والمهيكلة أى الخاضعة للتنظيم والمعايرة والقياس، ومدرسة رابعة تتحدث عن ثقافة أمن المعلومات القائمة على العفوية وعدم الهيكلة، وبخلاف هذه المدارس هناك من يرى أن ثقافة أمن معلومات يجب أن تزرع منذ البداية فى جميع الخطط والمشروعات والأنشطة المجتمعية منذ بداية التفكير والتخطيط لهذه المشروعات، وهناك من يراها ثقافة تجسد عمليات تضاف إلى الأنشطة والمشروعات والمؤسسات القائمة وليس الجديدة، والبعض يراها مجموعة الأمور والسلوكيات التى يمكن نشرها والالتزام بها وتطبيقها بشكل روتينى طول الوقت، ومن ثم فهى أقرب إلى ردود الأفعال التفاعلية التى يمكن تنشيطها عندما يحدث شىء ما خطأ.

وعلى الرغم من كثرة وتنوع الرؤى المتعلقة بثقافة أمن المعلومات وأنواعها، هناك ثلاث ركائز أساسية لابد من توافرها فى جميع الأحوال حتى تنشأ بالمجتمع أو المؤسسة أو الدولة ثقافة فى أمن المعلومات قابلة للملاحظة والقياس والتطوير والمتابعة، وتعمل هذه الركائز الثلاث بشكل مشترك وتفاعلى وتشكل فى مجموعها المدخل إلى بناء ثقافة أمن المعلومات، والركيزة الأولى هى الالتزام من أعلى والثانية هى الدمج فى إدارة المخاطر والثالثة هى محفزات البناء وآليات الثواب والعقاب، وفيما يلى نتناول كلا من هذه الركائز بشىء من التفصيل.

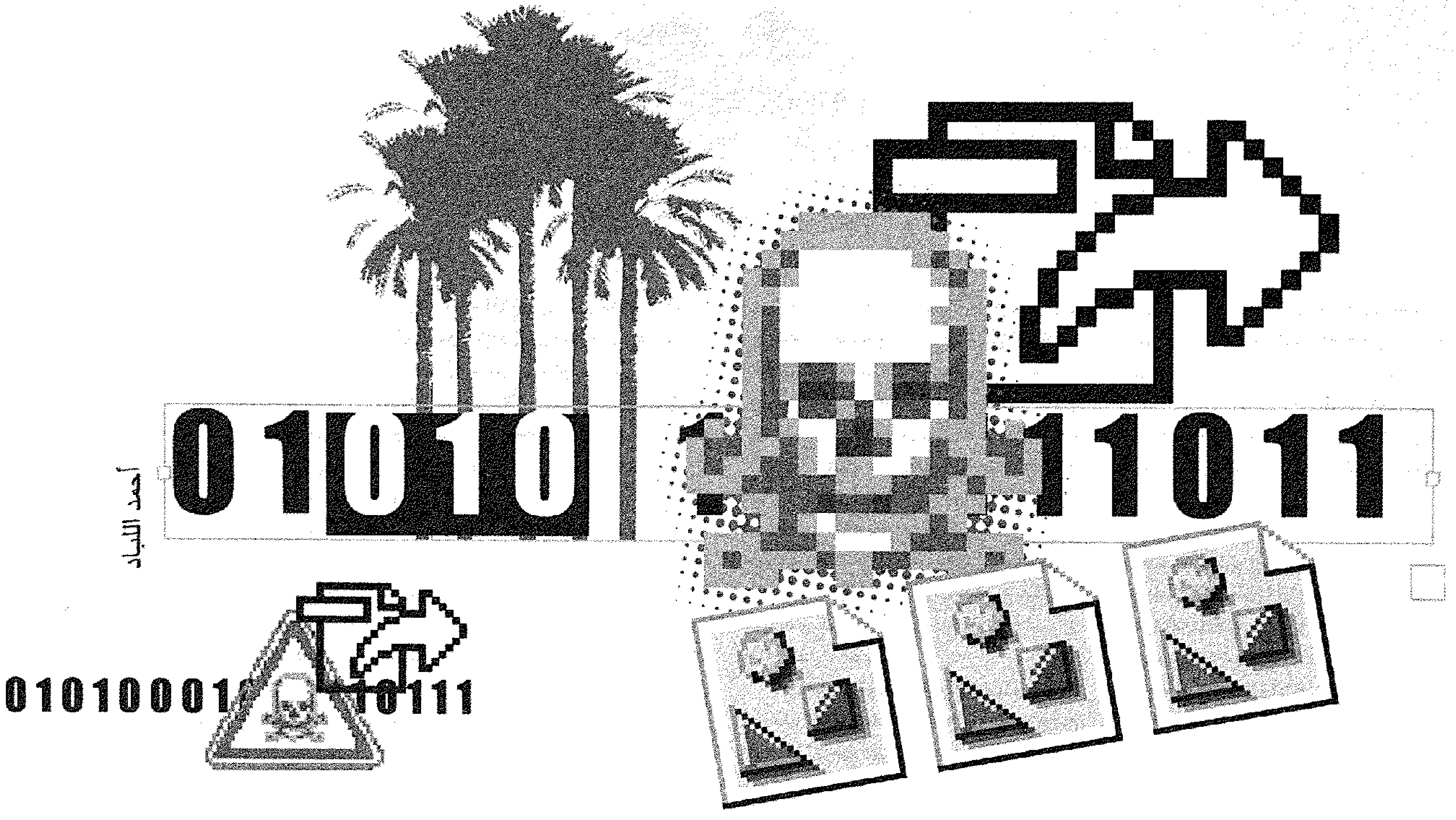
الالتزام من أعلى

تفرض هذه الركيزة أن يكون المسئولون فى أعلى المستويات الإدارية والقيادية بالدولة ومؤسساتها المختلفة على قناعة تامة بأهمية وحيوية أمن المعلومات، وأن تترجم هذه القناعات عمليا فى أن يكونوا على علاقة وثيقة ومستمرة بعمليات وضع سياسات واستراتيجيات أمن المعلومات بالمجتمع وآليات متابعة مستويات أداء أمن المعلومات بالنسبة للمديرين والمسئولين الأدنى تجاه مؤسساتهم، وأن يضربوا المثل والقدوة فى فهم سياسات وإجراءات أمن المعلومات وفى التقيد بها وفى فرض متطلباتها على المستويات الأدنى.

وفى ضوء هذه الركيزة يرى بعض كبار خبراء الإدارة وأمن المعلومات أن ثقافة أمن المعلومات تبدأ من رأس الدولة أو النظام أو المؤسسة أو المنشأة أو الشركة وذلك فى صورة سياسة أو رؤية أو استراتيجية، ثم تتدرج مسئولياتها وأنشطتها وتفاعلاتها إلى المستويات الأدنى حتى تصل إلى المواطن الفرد أو الموظفين فى أدنى المستويات، ويؤكد الذين يتبنون هذا الرأى أنه حينما لا يلتزم القادة فى المستويات الأعلى بثقافة أمن المعلومات ولا يعطونها الأولوية الكافية فإن أى سياسة أو إجراءات تتخذ فى المستويات الأدنى منهم لا تحقق النجاح المنشود، وإذا لم يصنع القادة النغمة الصحيحة لهذه الثقافة ويحرصوا على نشرها فى مجتمعهم ومؤسساتهم يصبح أمن المعلومات فى مهب الريح ومحل صراع وجدل ونقاش، وحينما يقع حادث ما تضيع المسئولية بين الجميع وربما يتنصل الكثيرون منها ويضعونها فقط على المتخصصين والفنيين فى حين تكون المسئولية فى عنق آخرين بالمستويات الأعلى.

والحقيقة أنه حينما يبدأ الالتزام بثقافة أمن المعلومات من رأس الهيئة أو المؤسسة أو الدولة فإن ذلك يفسح الطريق لسياسات واستراتيجيات أمن المعلومات كى تتغلغل بسهولة فى النسيج العام لاستراتيجيات المجتمع وأهدافه وخططه العليا، وتتهيأ الفرصة كى ينظر المجتمع بوحداته ومؤسساته وأفراده إلى أمن المعلومات باعتباره إحدى أدوات تحقيق وتنفيذ هذه الخطط والاستراتيجيات.

وقد وضع جون ستيوارت نائب رئيس شركة سيسكو العالمية لأمن المعلومات معادلة فى هذه النقطة مؤداها أن



أحمد اللباد

(مخاطر أمن المعلومات = القيمة × التهديد × نقاط الضعف) وخلص من هذه المعادلة إلى أن التأثير على الدولة من خلال إفساد أو فقد المعلومات يكون مرتبطا ارتباطا مباشرا بقيمة المعلومات ومستوى التهديد الذى تتعرض له ونقاط الضعف التى يمكن أن تنفذ منها هذه التهديدات إلى مؤسسات الدولة وبياناتها القومية وشبكاتها كل يوم، وكلما كانت القيمة عالية كان الهدف كبيرا والتدمير مؤثرا وخطيرا والمخاطر الكلية على الدولة أكبر.

وتدل هذه المعادلة على أهمية فكرة الالتزام من أعلى كركيزة من ركائز ثقافة أمن المعلومات، ففى ظل الوعى بهذه المعادلة ينعكس الالتزام لدى القيادات العليا إلى أفكار تزرع لدى جميع المواطنين فى مختلف المؤسسات والهيئات، ومن هذه الأفكار: أن المواطن هو العماد الرئيسى للوطن فى قضية أمن المعلومات، وأنه لابد للمواطن من أن يسلك سلوكيات تجسد القناعة بأهمية إدماج أمن المعلومات كجزء من بيئة العمل فى المجالات المختلفة، ويكون من نتيجة ذلك أن يتولد قبول لدى الجميع بأن معايير الالتزام بأمن المعلومات أصبحت من معايير الحكم على المواطن بالصلاح والوطنية، وهنا تكون عملية التدريب الحقيقية بناء ونشر ثقافة أمن المعلومات التى ارتضاها المجتمع لنفسه قد بدأت.

عند هذه النقطة يتعين على القيادات العليا والمسئولين عن بناء ثقافة أمن المعلومات وواضعى سياساتها واستراتيجياتها أن يظهروا ثقتهم فى مواطنيهم ولكن مع توعيتهم بأن عليهم أن يكونوا محلا لهذه الثقة ويتحملوا مسئوليتها، من خلال برامج تدريب وتعليم وتعلم مستمرة وعلى كل المستويات من أجل التوعية؛ ويمكنهم فى هذه الحالة الاستفادة من وسائل نشر ثقافة أمن المعلومات، كإرسال إيجازات أو مختصرات دورية كل أسبوع أو كل شهر حول الأنشطة فى مجال الأمن على مستوى المؤسسات والدولة ككل عبر البريد الالكترونى والصوتى ليس على المستوى القاعدى فحسب ولكن على مستوى القادة أيضا، فالناس يجب أن تكون على علم دائما بما يجرى من تهديدات ومخاطر وما يطرأ على السياسات والإجراءات من تغيير، ويمكن للقادة التحدث بالأرقام من خلال عرض الإحصاءات والنماذج المالية التى توضح الفوائد التى يمكن تحقيقها من وراء العناية بأمن المعلومات والتى يكون لها مردود على الفرد والجماعة.

الدمج فى إدارة المخاطر

إذا كان المجتمع يبحث عن ثقافة أمن معلومات فاعلة وسليمة فلابد أن تنشأ داخل مؤسساته وهيئاته وقطاعاته المختلفة آليات وأدوات تدمج أمن المعلومات ضمن خطط وإجراءات إدارة المخاطر التى يتعرض لها المجتمع ككل، ليصبح أمن المعلومات جزءا مترابطا وأساسيا فى (قلب أو محور) الأعمال والفعاليات الجارية على مدار اليوم فى شتى المجالات، فهذا من شأنه أن يرسخ فى عقول وأذهان الجميع ومع الوقت تجارب وخبرات ومشاهدات يتلاحم وربما يتمازج فيها أمن المعلومات مع إدارة المخاطر التى يتعرض لها المجتمع من شتى النواحى، فتنشأ تدريجيا طبقة من الوعى العام والسلوك العام تتسم بحساسية صحية وإيجابية تجاه أمن المعلومات، مما يساعد فى تشكيل اللبنات الأولى لثقافة أمن المعلومات المنشودة.

ومثل هذه المهمة تقع على عاتق المستويات العليا بالمجتمع وفى مقدمتها الجهات المعنية بالأمن القومى التى يتعين عليها أن تستعين بالمعايير الدولية وبما تتطلبه القوانين السائدة بالمجتمع ولها علاقة بأمن المعلومات لكى توفر للمجتمع الإطار العام لمفهوم إدارة أمن المعلومات كجزء من إدارة المخاطر، وأن تضع الحزمة الأساسية من المبادئ والإرشادات والمعايير الخاصة بذلك، والتى يمكن أن تكون بمثابة القلب أو المحور الأساسى لحزمة مبادئ تهتدى بها جميع مؤسسات المجتمع فى إدخال ثقافة أمن المعلومات ضمن المنظومة الإدارية الحاكمة لديها، على أن تنطلق هذه الحزمة الأساسية من أن بناء ثقافة أمن المعلومات ستكون فعالة ومثمرة وناجحة إذا ما تم تنفيذ إجراءات أمن المعلومات بشكل طوعى وبرغبة من أصحاب المؤسسات والشركات بدلا من وضعها كتكليف أو هدف يتعين تنفيذها قسرا من قبل الحكومة أو الجهات المختصة، فهذا من شأنه أن يرفع المجتمع ومؤسساته كلها إلى مستوى ما يواجهه من تحديات فى أمن المعلومات.

كما يتحتم على هذه الجهات أيضا إطلاق حملات جماهيرية باستخدام المؤسسات المختلفة لنشر وتدعيم مفهوم إدارة أمن المعلومات وملاحظة الذين يقومون بذلك أو يتراخون فيه، ومثل هذه الحملة يجب أن تأخذ فى اعتبارها ما يلى:

. لابد أن تتضمن تعريفا محددا وواضحا للجهود والالتزامات وليس من أشياء يصعب تطبيقها وتقييمها.

. لابد ان تؤكد على أن مفهوم إدارة أمن المعلومات هو الطريق أمام الجميع للقيام بدورهم فى تنفيذ وتفعيل الاستراتيجية القومية لأمن المعلومات وفى حماية الأمن القومى ككل، وأن هذا يتطلب جهدا مستمرا وليس لمرة واحدة، وأن تتسم هذه الجهود بالحذر والحرص والذكاء بحيث تلفت النظر إلى جهود أمن المعلومات ولا تكشف مستوى أمن المعلومات لدى المؤسسات المختلفة.

محفزات البناء...

آليات الثواب والعقاب

ثقافة أمن المعلومات هى فى النهاية تعبير عن وعى وقناعات وأفكار تختمر وتعيش بالنفوس ويتم ترجمتها إلى سلوكيات وقرارات طوال الوقت من قبل أشخاص ومؤسسات، ومن هنا لابد أن تكون إحدى ركائز بناء هذه الثقافة منطلقة من فهم جيد وصحيح للطبيعة والنفس البشرية بحيث تأخذ فى اعتبارها مراعاة احتياجاتها وطبائعها وتفضيلاتها وتوقعاتها، وهذا ما تتولاه الركيزة الثالثة من ركائز بناء ثقافة أمن المعلومات ونعنى بها محفزات البناء وما تتضمنه من آليات للثواب والعقاب.

وعند تناولنا لهذه النقطة، ولو من أبسط مداخلها، سنجد أن معظم الناس لا يحبون عادة وربما لا يطيقون المضى فى حياتهم وأعمالهم وهم يلتزمون بالإجراءات التى يتطلبها أمن المعلومات الجيد المستوى، والكثيرون يفضلون القيام بأعمالهم بسهولة من خلال الخطوات المختصرة السريعة التى لا تتقيد بإجراءات معينة، وواحد من أسهل الخطوات المختصرة هى ببساطة الالتفاف حول إجراءات أمن المعلومات، وفى معظم الأحوال يشعر هؤلاء، سواء على سبيل الخطأ أو الصواب، أنه ليس لديهم حافز أو دافع لتطبيق أنشطة أمن المعلومات وليس هناك تبعات أو نتائج عليهم مواجهتها حينما لا يتوافقون مع قواعد وإجراءات أمن المعلومات، فمثلا ربما يغير البعض كلمة المرور أو السر الخاصة بدخوله على شبكة المعلومات الخاصة بالعمل لشخص آخر، كزميل فى العمل، حينما لا يستطيع الذهاب للمكتب ويشعر أنه يحتاج إلى إرسال رسالة باسمه لشخص ما، والبعض لا يروقه مثلا أن يقضى بعض الوقت فى إنشاء نسخ احتياطية لما لديه من بيانات على حاسبه المحمول أو بريده الشخصى، أو ينفق بعض الوقت فى تنزيل الرقع الأمنية لنظام التشغيل الذى يعمل عليه.

والحاصل علميا أن هذا (المزاج) الإنسانى السائد يشكل نوعا من الثقافة الراسخة لدى قطاعات واسعة، وهذه الثقافة تتصادم مع حقيقة أن نظم أمن المعلومات التى تطبق داخل المؤسسات والمنشآت المختلفة عادة ما تتعارض أو تضايق الذين يميلون لهذه الطريقة البسيطة المحببة من الأداء، ولذلك فإن الكثيرين يواجهون صعوبات فى تنفيذ كل المهام التى يتوقعون التلاؤم معها كل يوم ومن ثم يلجأون لبدائل غير آمنة، ومثل هذه الثقافة لا يمكن تغييرها قهريا دون تغيير فى الأفكار والآراء لتتشكل قناعات جديدة بأنها إذا كانت تحقق وفرا فى الوقت وسهولة فى الأداء إن هذا الوفر والسهولة يستمر لبعض الوقت وبشكل ظاهرى، لأنها فى الحقيقة قد تكلف الإنسان غاليا دون أن يدرى أو فجأة.

ومواجهة هذه الثقافة تتطلب أن يكون هناك حوافز أو دوافع لدى الفرد والجماعة والمؤسسة تشجعهم طوعا على التغيير وتقبل ثقافة أمن المعلومات الجديدة التى ربما تتطلب منهم مزيداً من الوقت ومزيداً من الجهد فيما يقومون به من أعمال وتصرفات وسلوكيات.

وقد كتب الكثيرون عن فكرة التحفيز كركيزة من ركائز أمن المعلومات وأكدوا أن التحفيز يمكن أن يكون بالترغيب فى الحصول على الأشياء الإيجابية والمميزة أو بالترغيب فى تفادى العقوبات والأشياء السلبية، وتذكر الباحثة الأمريكية ريبيكا هيرولد فى دراسة لها حول أمن المعلومات أن الدراسات حول محفزات بناء ثقافة أمن المعلومات تعود جذورها إلى عشرينيات القرن الماضى، حينما كان الأفراد لا يملكون هذا الحافز، وكانت مؤسساتهم تعتمد فقط على التكنولوجيا بالكامل من أجل تأكيد أمن المعلومات، وهذا منزلق خطر لأنه مهما كانت دقة وفعالية التكنولوجيا فإن العامل البشرى هو الذى يديرها ويتعايش معها ويحدد معايير استخدامها ومفاتيح ضبطها والتحكم فيها.

والحقيقة أن الحوافز المشجعة على الالتزام بثقافة أمن المعلومات وإدارة المعلومات ليست ذات نمط واحد يتكرر بكل الأماكن والقطاعات ولكنها تختلف حسب طبيعة القطاع الذى يعمل به الأفراد ونوعية المؤسسات التى يعملون بها وحجمها وأيضا ثقافة كل فرد أو مجموعة أفراد على حدة، فحوافز أو دوافع المثقفين تختلف عن المهنيين والعمال والفلاحين وغيرهم.

وقد قدمت ريبيكا فى دراستها خلاصة لتجارب العديد من خبراء أمن المعلومات حول قضية (المحفزات) كركيزة من ركائز أمن المعلومات، وانتهت إلى أن هذه الحوافز لابد أن تتصف بمجموعة من الصفات كى تصبح فعالة وتلقى قبولا لدى مؤسسات المجتمع وأفراده، وهذه الصفات هى:

. أن تتوافق هذه الحوافز مع القوانين والإجراءات والقواعد السائدة بالمكان التى ستقدم فيه.

. أن تكون هناك تقارير حقيقية وصادقة وأمينة ودورية حول تأثيراتها ومدى قبولها فى المجتمع.

. أن تلبى احتياجات إدارة أمن المعلومات أثناء المراجعات الداخلية للتوافق معها.

. أن تحظى بالاحترام والثقة من قبل العاملين والإداريين والمواطنين من مختلف الفئات والأدوار والمستويات.

. أن تحقق أو تعمل على إيجاد علاقات جيدة وتفاعلات بناءة مع العاملين والمواطنين عموما.

. أن تؤدى لتدعيم وتقوية أعمال تتصف بالاهتمام والفاعلية والتلاؤم مع البيئة المحيطة.

. أن تتبع وتتوافق مع أخلاقيات الأفراد والمبادئ الاجتماعية والمجتمعية السائدة ولا تتصادم معها.

. أن تقلل على نحو واضح ومحسوس من مخاطر أمن المعلومات.

. أن تحقق خبرات شخصية جيدة للمواطنين فيما يتعلق بحوادث أمن المعلومات أو فقدها.

. أن تساهم فى تعليم وتعلم الخبرات السيئة والجيدة فى أمن المعلومات للآخرين.

. أن تظهر درجة من الاقتراب الشخصى مع العاملين وأن تحقق الرضا لدى المديرين والرؤساء.

. أن تحمى السمعة والخصوصية الشخصية للجميع.

. أن يشعر الجميع بأنها أداة من أدوات التفوق والتميز فى المنافسة مع الآخرين.

. أن تحقق شيئا يتصف بالترفيه والمتعة حال الالتزام بها من خلال تلاؤمها مع أجواء العمل.

. أن تحقق الشعور بالإنجاز والرضاء لدى من يلتزم بها من خلال إحساسه بأنه أدى وظيفته كما يجب.

. أن تحقق لدى من يلتزم بها شعورا بالقوة والتآخى أو المساواة مع من لديهم القوة.

. أن تعتمد على أدوات جيدة فى عرض الخبرات الجيدة وتجنب الخبرات السيئة.

. أن تمنع الحوادث السيئة من أن تقع ثانية.

. أن تنقل للجميع أن هناك نوعاً من الثواب والعقاب على الأنشطة التى من شأنها التأثير سلبا أو إيجابا على أمن المعلومات المتعلق بمسئولياتهم الوظيفية وسلوكياتهم العامة.

ويعتبر العامل الأخير هو أحد أهم الدوافع السابقة التى من شانها تكريس وتدعيم ثقافة أمن المعلومات بالمجتمع، ففكرة الثواب والعقاب ليست فكرة حديثة ولكنها من الدوافع والحوافز التقليدية القديمة المتبعة فى جميع الحالات، ومن المفيد استخدامها من أجل تقوية أمن المعلومات، وتذكر دراسة ريبيكا أن الأشياء المحفزة التى يمكن أن تقدم كثواب للتشجيع على القبول بإجراءات وسياسات أمن المعلومات يمكن أن تشمل:

. التقدم الوظيفى أو تدعيم المركز الوظيفى.

. منح فوائد وتفضيلات جديدة.

. إجازات إضافية.

. هدايا وجوائز.

. جوائز مالية كعلاوات بالمرتب أو مكافآت.

أما العقاب فيمكن أن يشمل:

. فقد الوظيفة والتخفيض الوظيفى.

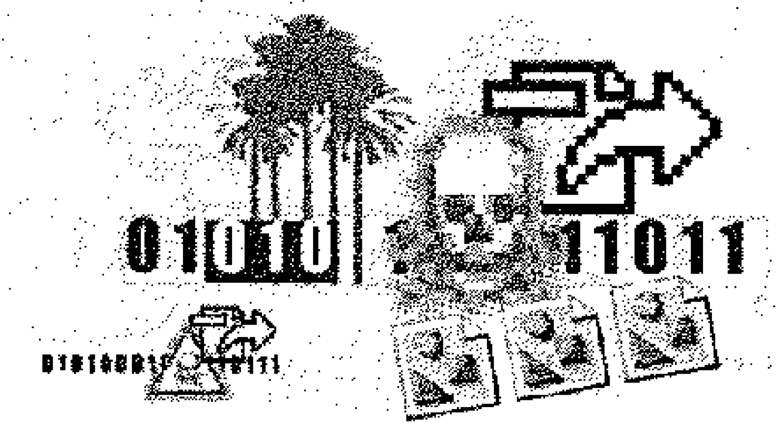
. تقليل المنافع والتفضيلات.

. الخصم من المرتب وإجراءات قانونية.

. الإعلان عن أنه شخص غير متوافق مع قواعد أمن المعلومات السائدة داخل المجتمع.

ولا شك أن بعض إجراءات الثواب والعقاب السابقة يمكن أن تكون لها فاعلية جيدة فى بعض البيئات والمجتمعات والقطاعات داخل المجتمع، وبعضها الآخر يمكن أن يكون غير قانونى أو غير مقبول اجتماعيا أو وظيفيا، ولذلك لابد من مناقشة ودراسة إجراءات الثواب والعقاب تستخدم كأدوات لدعم وتحفيز ثقافة أمن المعلومات بكل عناية قبل الدفع بها إلى داخل المجتمع بقطاعاته وبيئات عمله المختلفة، ففى بعض الحالات قد يتعين تقديم العقاب على الثواب وفى بعضها الآخر قد يتعين العكس، ومن الضرورى فى كل الحالات أن تتم إجراءات الثواب والعقاب وفق

إذا كان المجتمع يبحث عن ثقافة أمن معلومات فاعلة وسليمة فلابد أن تنشأ داخل مؤسساته وهيئاته وقطاعاته المختلفة آليات وأدوات تدمج أمن المعلومات ضمن خطط وإجراءات إدارة المخاطر التى يتعرض لها المجتمع ككل



القوانين والعرف الاجتماعى السائد والظروف الاقتصادية والسلوكيات المجتمعية وغيرها من العوامل الأخرى التى عادة ما تكون مؤثرة بقوة عند نشر ثقافة ما بالمجتمع.

من ناحية أخرى فإن المحفزات السابقة لا يتعين أن تدفع إلى قلب المجتمع ومفاصله المختلفة دفعة واحدة، بل لابد أن يصاحبها ما يمكن أن يطلق عليهم (رواد التحفيز) وهم الأشخاص والمؤسسات والهيئات الذين لديهم الرغبة والقابلية والحماس لتقدم الصفوف ولعب دور الرواد فى القبول بإجراءات وسياسات أمن المعلومات المختلفة ويمكن أن تطلق (الأخصائيين النفسيين فى أمن المعلومات) ويمكن استخدامهم كمفاتيح للنجاح فى نشر وتفعيل ثقافة أمن معلومات جيدة فى المجتمع.

وبالطبع فإن مثل هذه النوعية من الفئات الرائدة لا يمكن العثور عليها تلقائيا، بل يتطلب الأمر من الجهات القائمة على نشر ثقافة أمن المعلومات أن تجرى مسوحا ودراسات معمقة لرصدهم واستكشافهم وتقويتهم وإبرازهم وتقديمهم للمجتمع فى توقيتات محسوبة ووفقا لمقتضيات مراحل بناء ثقافة أمن المعلومات، بحيث يظهرون مثلا عند الحاجة إلى عرض نتائج الالتزام بمعايير أمن المعلومات وما تحققه من فوائد خاصة تخفيض المخاطر والتوافق مع القوانين والسياسات والممارسات المقبولة صناعيا.

وتتطلب سياسات التحفيز. بمختلف جوانبها. تحديث السياسات المؤسسية ومعايير أمن المعلومات المختلفة للتوافق مع منهج الثواب والعقاب والحوافز بحيث تكون هذه السياسات جارية ومستمرة ومقبولة ومدعومة من جميع ذوى المصلحة، كما تتطلب تضمين أمن المعلومات كهدف أساسى ورئيس ضمن التوصيف الوظيفى للجميع، بحيث تتضمن مواصفات أى وظيفة تقييما لمهارات التعامل مع أمن المعلومات للتحقق من أن صاحبها ذو مهارات تتوافق مع السياسات والقواعد المطبقة على مستوى المجتمع أو القطاع أو المؤسسة أو الشركة، ويمكن أن يمتد هذا الأمر ليشمل القبول بأمن المعلومات والالتزام بقواعده كهدف خاص فيما يتعلق بالكفاءة الوظيفية بعد الالتحاق بالوظيفة، وهذا الدافع أو المحفز يمكن أن يجعل من الالتزام بأمن المعلومات جزءا من الكفاءة من العمل.

ويمكن أن تلجأ الجهات القائمة على بناء ثقافة أمن المعلومات إلى إجراءات أخرى كأن تطلب من جميع الأفراد والمواطنين أن يوقعوا دوريا على اتفاقيات متعلقة بأمن المعلومات وحماية الخصوصية فى نطاق أعمالهم، ويمكن أن يكون التوقيع عند الالتحاق بالعمل وسنويا، وهذا يدعو الأشخاص لمراجعة والإطلاع من جديد ودوريا على سياسات ومعايير أمن المعلومات المتفق عليها من قبل الدولة أو المؤسسة.

مجتمعاتنا والثقافة السلبية

والمشكلة أن مجتمعاتنا فى مصر والبلدان العربية لا توجد بها ثقافة أمن معلومات ناضجة من أى نوع ولم تتوفر بها بعد أى من الركائز الثلاث السابقة، ويمكننا القول أن السائد هو نوع من الثقافة السلبية المعاكسة التى تظهر فى ثلاث صور:

الصورة الأولى: وهى الأكثر شيوعا وعراقة وتتبع منطق التهويل والخوف المرضى من التعامل مع المعلومات، وأصحاب هذا الاتجاه إما لا يحرصون على إنتاج البيانات والمعلومات التى يحتاجونها فى أعمالهم ويمضون فى اتخاذ قراراتهم طوال الوقت بلا معلومات يستندون إليها فينخفض أداؤهم ويخرجون من كارثة ليدخلوا فى أخرى بلا انقطاع، أو تكون لديهم المعلومات لكنهم يريحون أنفسهم باعتقالها وحجبها عن الجميع ووضع عراقيل غير منطقية وغير مبررة فى الحصول عليها، وغالبا ما لا يمنع ذلك كله من تسريبها واختراقها انتقائيا وفق أساليب ملتوية تخدم القلة وتضر الغالبية، بل وتفتح المجال لسوق سوداء للمتاجرة فى المعلومات بطريقة غير شرعية تشكل ضررا بالغا للوطن ككل.

وفيما يلى بعض الوقائع التى جرت فى قطاع التعاون الدولى وتم فيها اعتقال وحجب المعلومات المتعلقة باتفاقيات التعاون والتبادل التجارى بين مصر ومجموعة كبيرة من بلدان العالم بحجة الحفاظ على سلامة الوثائق وتأمينها مع أن الوضع لم يكن يستدعى ذلك على الإطلاق وكان بالإمكان إتاحة هذه المعلومات لأنها لا تقع فى نطاق المعلومات السرية، ولكن ما حدث عمليا أن البعض استطاع الوصول إليها ولم يصل إليها البعض الآخر[1]:

. الواقعة الأولى: وقعت مصر مع فنلندا اتفاقية للتعاون الاقتصادى منذ الستينيات، تسمح بأن يقوم مستثمرو البلدين بإقامة مشروعات لدى البلد الآخر بمميزات وإعفاءات ضريبية وجمركية كبيرة، ولأن البحث عن المعلومات والوعى بها فى فنلندا يختلف عن مصر، فقد قامت مجموعة من رجال الأعمال الفنلنديين. استنادا إلى الاتفاقية التى لها قوة القانون. بالتقدم لإنشاء مصنع ضخم فى مصر يتمتع بالإعفاءات المقررة فى الاتفاقية على الرغم من أنها موقعة فى الستينيات، وحينما طلبت الجهات المختصة بالقاهرة منهم أوراق ونصوص الاتفاقية: حصلوا عليها من نسختها المحفوظة فى فنلندا لأنهم لم يستطيعوا الحصول عليها من القاهرة، وقدموا جميع المعلومات الخاصة بالاتفاقية بسرعة ودقة، فتمت الموافقة على المصنع فأصبح يعمل ويتمتع بالإعفاءات المقررة، وفى المقابل أدى عدم دوران هذه المعلومة على رجال الأعمال المصريين بسرعة إلى عدم قيام نشاط مصرى مماثل فى فنلندا يتمتع بالإعفاءات المقررة فى الاتفاقية، لأن أحدا ربما لم يعد يسمع عنها شيئا، ولو حاول الحصول على نصوصها من القاهرة سيجد صعوبة شديدة بسبب حجب واعتقال المعلومات بدعوى الحماية والتأمين.

مفهوم إدارة أمن المعلومات
هو الطريق أمام الجميع للقيام
بدورهم فى تنفيذ وتفعيل الاستراتيجية
القومية لأمن المعلومات وفى حماية
الأمن القومى ككل

. الواقعة الثانية: وقعت مصر اتفاقية للتبادل التجارى مع ليبيا، يتم بمقتضاها استيراد بعض الخامات والسلع من ليبيا بدون جمارك فى مقابل تصدير سلع مصرية إلى ليبيا بدون جمارك أيضا، وفى ظل غياب الوعى الكافى بالمعلومات وعدم وجود نظام كفء لحماية و لنشر وتوزيع جميع المعلومات الواردة فى الاتفاقية على المصدرين والمستوردين، علم البعض بالاتفاقية ونصوصها كاملة، ولم يحصل البعض الآخر على جميع المعلومات، وكانت النتيجة أن من حصل على المعلومات استطاع استيراد سلع وإدخالها للبلاد بدون جمارك طبقا للاتفاقية، بينما من لم يحصل على المعلومات كاملة استورد نفس السلع بنفس المواصفات من ليبيا أيضا، ولكنه اضطر لدفع جماركها كاملة، والسبب أن ملاحق الاتفاقية حددت بالاسم المصانع وجهات الإنتاج الليبية التى يعفى إنتاجها من الجمارك عند دخولها مصر، ولم تعط حق الإعفاء لجميع السلع دون شروط، وهو شرط طبق أيضا على جهات الإنتاج المصرية، وهكذا أصبح للمعلومة ثمن.

. الواقعة الثالثة: وقعت مصر اتفاقية قرض مع الحكومة الإيطالية، و نجحت الأجهزة المعنية فى مصر فى الحصول عليه بمزايا جيدة جدا يمكن أن تساعد العديد من المستثمرين المصريين، فشروط القرض تنص على منح المستثمرين والمستوردين المصريين قروضا بأسعار فائدة مخفضة وتيسيرات كبيرة فى السداد على فترات طويلة إذا ما رغبوا فى استيراد سلع وبضائع وآلات إنتاج من إيطاليا، ولأنه لا توجد آلية واسعة الانتشار تشرح اتفاقية القرض وشروطها ومزاياها لجميع العاملين فى هذا الميدان، كانت النتيجة أن البعض علم بالأمر وعددا أكبر لم يعلم، ومن علم قام باستيراد مصانع وآلات من إيطاليا طبقا لشروط اتفاقية القرض، ومن لم يعلم استورد نفس الآلات والمعدات بالشروط العادية وبأسعار أعلى كثيرا، وشروط أصعب فى السداد والفوائد، وهكذا تحولت دعاوى حماية المعلومات بدون وعى وتخطيط كاف إلى نشأة نوع من التجارة فى المعلومات، تكسب فيه القلة وتخسر فيه الأغلبية.

الصورة الثانية: يسودها منطق التهوين والتقليل من

شأن أمن المعلومات، وهى حديثة بعض الشىء وتنتشر بشكل خاص لدى الأفراد والمؤسسات والمنشآت والفئات التى يقبل أصحابها بنهم على توظيف تكنولوجيا المعلومات والاتصالات بمختلف صورها، فيندفعون فى بناء المواقع على الإنترنت وتشييد نظم المعلومات وقواعد البيانات ويتعاملون فى كم ضخم من البيانات والمعلومات ثم لا يلقون بالا لعملية التأمين من الأصل، إما لكونهم لا يؤمنون بقيمة المعلومة التى يمتلكونها ومن ثم لا يوجد لديهم دافع يحثهم على تأمينها، أو أن لديهم إحساسا عشوائيا خاطئا بأنه لا يوجد خطر يهدد هذه المعلومات، فلا يرتاحون إلى الإنفاق على تأمينها، والنتيجة أن ما لديهم من معلومات تعيش حالة انكشاف خطيرة تضعهم فى مواقف مؤسفة يضيع فيها كل شىء عند أول تهديد جدى.

ومن الأمثلة المهمة فى هذا الصدد ما حدث عند انتشار فيروس تشرنوبيل فى ٢٦ أبريل ٢٠٠١، فبعد مرور أسبوع على الهجوم الكاسح الذى شنه الفيروس على أجهزة الحاسبات فى مصر صباح يوم ٢٦ أبريل ٢٠٠١ بدا واضحا أن حجم الذعر والهلع والخسائر الناجمة ودرجة الانتشار فاقت الحدود المنطقية المقبولة، فقد تداعت الأجهزة أمامه فى العديد من الجهات دون مقاومة، واخترق العديد من المواقع بسرعة تفوق سرعة اختراق سكين حاد لقالب من الزبد، وحدث ذلك على الرغم من أن الفيروس لم يكن جديدا أو حدثا مفاجئًا، ولكن سبق اكتشافه عالميا منذ أكثر من سنة على تاريخ بدء هجومه فى مصر،علاوة على أن اليوم الذى بدأ فيه العمل ومارس فيه نشاطه التخريبى، كان معروفا منذ عام وتحدثت عنه جميع الأوساط وقامت آلاف الشركات عالميا باتخاذ إجراءات احتياطية ضده، والعديد منها وضع إصدارات جديدة ومجانية من البرامج المقاومة له، فقد كانت بداية ظهور هذا الفيروس فى ٢٦ أبريل ٢٠٠٠ فى آسيا تحت اسم PE-CIH ١.٢ ثم ظهر مرة أخرى تحت اسم PE-CIH ١.٣ ليهاجم الحاسبات فى ٢٦ يونيو من العام نفسه، ثم ظهرت النسخة الثالثة تحت اسم ١.٤ لكى تهاجم الحاسبات يوم ٢٦ من كل شهر، أى كان معروفا أنه سيهاجم مرة أخرى يوم ٢٦ أبريل ٢٠٠١.

و إذا كان مقبولا أن يكون الفيروس يفاجئ الأفراد والهواة ومستخدمى الحاسبات بالمنازل، فمن غير المقبول على الإطلاق أن يكون مفاجئا للجهات والمؤسسات الكبرى التى يفترض أن لديها متخصصين يتابعون هذه الفيروسات أولا بأول، ويضعون خطط مواجهتها فى وقت مبكر.

لكن... بسبب فقر ثقافة التعامل مع أمن المعلومات وعوامل الضعف الأخرى، شاعت بعض الأخطاء فى التعامل مع الفيروس، منها ما ردده البعض من أن الشركات المصنعة للبرمجيات هى التى أضافتها لمكافحة القرصنة، وهذا غير صحيح، وأن الفيروس انتقل إلى الحاسبات التى تعاملت مع شبكة الإنترنت فى يوم ٢٦ أبريل وهذا غير صحيح، لأن الفيروس انتقل إلى الحاسبات المصابة قبل أيام وربما شهور ولكنه ظل كامنا داخل الحاسبات حتى اليوم المحدد لعمله، كما أشاع البعض أن الفيروس يدمر كل البيانات والمعلومات المخزنة على وحدة التخزين الرئيسية بالحاسب، وهذا غير صحيح، لأنه يصيب فقط الجزء الأول من الوحدة الفرعية لوحدة التخزين الرئيسية والمعروفة باسم C، وقد تسبب هذا الاعتقاد الخاطئ لدى البعض فى قيامهم بمحو جميع الملفات والبيانات الموجودة على جميع الوحدات الفرعية بوحدة التخزين الرئيسية، والتى كان من الممكن استرجاع ما بها من ملفات عدا الوحدة :C .

وبشكل عام.. كشفت خبرة التعامل مع هذا الفيروس أن الأكثر تضررا بالفيروسات هم عادة الأشد فقرا فى ثقافة التعامل مع الحاسبات وأقلهم وعيا بالطريقة السليمة لتشغيلها، وأكثرهم استهانة بقواعد التأمين اللازمة، سواء كانوا أفرادا أو شركات أو حتى مؤسسات تحرص على التأكيد دوما أنها الراعية والمسئولة عن دنيا الحاسبات والمعلومات، ومن ثم فإن حالة الهلع والانتشار السريع والخسائر الكبيرة التى حدثت بمصر فى ذلك الوقت لم تكن سوى انعكاس تلقائى لحالة الفقر فى ثقافة التعامل مع أمن المعلومات لدى البعض وثمن مناسب لعدم اليقظة، والنتيجة التى أمكن الخروج بها من هجوم فيروس تشرنوبيل أن الخسائر لم يكن سببها الأساسى مهارة المهاجمين والقراصنة، ولا نقص المتاح من تكنولوجيات التأمين أو قصور كفاءتها أو تقادمها أو حداثتها لدى الضحايا، ولكن السبب الأساسى كان يكمن فى فقر ثقافة أمن المعلومات.

الصورة الثالثة: يقف وراءها منطق (نصف الوعى)، وهو منطق يعى فقط متطلبات الجانب التكنولوجى لأمن المعلومات ويهمل أو يغيب عنه متطلبات الواقع الاجتماعى الذى يحكم تداول المعلومات المطلوب تأمينها، ومن ثم فهو يغرق بأصحابه فى التفاصيل التقنية والفنية لقضية أمن المعلومات فقط، فتكون النتيجة نظم أمن براقة خارجيا خائبة جوهريا لأن من يقومون على إدارتها وتشغيلها ومن يتعاملون معها هم أول من يفرغها من مضمونها ويجعلها بلا قيمة.

والحقيقة لا أجد مثالا على هذا الأمر خيرا من رسالة من أحد شباب المتخصصين فى أمن المعلومات نشرتها بمجلة لغة العصر فى عدد أكتوبر ٢٠٠٢ تحت عنوان (قوالب الزبدة) جاء فيها عن صاحبها أنه قام باختبار بعض المواقع التى تضم الكثير من البيانات والمعلومات القومية على الإنترنت ومنها : موقع المتحف المصرى //:http www.egyptianmuseum.gov.eg وموقع آثار القاهرة الإسلامية //:http www.cim.gov.eg وموقع متحف محمد محمود خليل //:http www.mkhalilmuseum.gov.eg وموقع دليل المكتبات المصرية //:http www.libdirectory.idsc.gov.eg ، وبعد الاختبار وجد أن معظمها يفتقر إلى معايير الأمن الأساسية، التى يفترض وجودها على الإنترنت، واكتشفت أن أى شخص لديه المهارات الأساسية فى مجال البرمجة على الإنترنت، يمكنه إلغاء وتغيير وإضافة أى بيانات يريدها على هذه المواقع، بدون الحصول على إذن أو صلاحية، أو التعرض لعمليات تحقق من الهوية.

وأضاف القارئ أنه بعد ذلك قام بتكرار عملية الاختبار مرتين لهذه المواقع، للتأكد من أن استنتاجاته سليمة مائة فى المائة، وحينما تأكد مرة أخرى، قام بالاتصال بالجهة المسئولة عن إنشاء هذه المواقع لإبلاغها عن هذه المشكلات القاتلة جدا جدا جدا، وتم تحويله إلى أحد المهندسين الذى أظهر تعاونا كبيرا وتفهما كاملا للمشكلات الموجودة بالمواقع، وبعد أسبوع كامل قام بعملية اختبار ثانية لنفس هذه المواقع فوجد المشكلات نفسها تحدث فى المواقع نفسها، ثم نسيت الأمر برمته.

وقال القارئ فى رسالته أيضا أنه ذات يوم كان يبحث عن معلومات عن إحدى الجهات، فقام بالدخول على الموقع الرسمى لهذه الجهة، والذى يحتوى أيضا على معلومات وبيانات قومية، وجرى تصميمه أيضا بواسطة الجهة التى أنشأت المواقع السابقة، وراهن على أن به مشكلات وثغرات أمنية، فقام باختياره، واكتشف أن طريقة إعداد الحاسب الخادم الذى يستضيف هذا الموقع، بها ثغرات أو جرى توصيفها بشكل خاطئ يسمح لأى شخص بالدخول لبعض البيانات على الموقع، والحصول على ملفات غير مسموح له برؤيتها أو العبث بمحتوياتها ولذلك قام بالاتصال مرة أخرى بالجهة المسئولة، وأبلغ المشكلة نفسها للشخص نفسه، فشكا من العمليات الإدارية البطيئة داخل هذه الجهة، والخاصة بإعادة تطوير هذه المواقع، ولذلك طلب منه إرسال توصيف كامل بالمشكلة عبر البريد الإلكترونى، لعرض الرسالة على رئيسه، فربما يعتقد رئيسه أن هناك بعض الأخطاء فى طريقة إعداد وبرمجة المواقع التى يقومون بتطويرها.

كان من الطبيعى أن تقودنا هذه الثقافة السلبية بصورها الثلاث إلى

غالبية المؤسسات والشركات
والهيئات المختلفة بمصر والبلدان العربية
لا يوجد بها سياسة تأمين عليا، بدءا من كيفية
تأمين المبانى وحتى التعامل مع أعقد النظم
المطبقة لحماية شبكات المعلومات

أمـــن المعـــلومـات

مشكلات فى أمن المعلومات تغلب عليها الأبعاد الثقافية والاجتماعية والسلوكية والمجتمعية وليس النواحى التكنولوجية، ومن هذه المشكلات:

. أن غالبية المؤسسات والشركات والهيئات المختلفة بمصر والبلدان العربية لا يوجد بها سياسة تأمين عليا تتصف بالوضوح والشمول وتتعامل مع كل الاحتمالات، بدءا من كيفية تأمين المبانى ضد السرقة والحريق والدخول والخروج من المبنى وحتى التعامل مع أعقد النظم المطبقة لحماية شبكات المعلومات وقواعد البيانات ونظم المعلومات الموجودة بها، كذلك لا يوجد بها إدارة أو شخص مسئول مسئولية كاملة عن عملية التأمين بشكل عام داخل المنشأة، بحيث لا ينفرد متخصصو تكنولوجيا المعلومات بوضع وتنفيذ الآليات المطلوبة لتأمين المعلومات، بل يكون من المتعين عليهم العمل فى إطار سياسة تأمين عامة، لها شخص مسئول عن متابعة تنفيذها، وفى الوقت نفسه يتحمل تبعات أى إخلال أو تدمير يحدث نتيجة عيوب أمنية سواء فى مجال المعلومات أو غيره، وتكشف الخبرات العملية عن أن عدم الربط بين خطط تأمين المعلومات وسياسات التأمين العامة للمؤسسة يمكن أن تعرض المعلومات والبيانات للخطر، فمثلا ماذا لو تم وضع خطة تأمين محكمة للدخول على شبكة معلومات المؤسسة وحاسباتها، واستخدم فى ذلك أحدث الأدوات والبرمجيات المضادة لعمليات التلصص والاختراق وسرقة البيانات، ثم كانت إجراءات التأمين الخاصة بالدخول والخروج من المبانى والأقسام المختلفة متراخية وغير قوية بالدرجة التى تمنع سرقة وحدات تخزين أو حاسب أو بيانات موجودة بشكل ورقى؟

. أن نسبة كبيرة من المؤسسات والهيئات تتعرض للتنفيذ الخاطئ أمنيًا لعمليات الصيانة الدورية أو المفاجئة لمعدات تكنولوجيا المعلومات، وترى العديد من الدراسات أن هذه نقطة ضعف تلعب دورا بشكل أو بآخر فى ما لا يقل عن ٥٠٪ من مشكلات أمن المعلومات التى تواجهها المؤسسات المختلفة، لأن حوالى ٨٠٪ من عمليات الصيانة الدورية والتحديث ومواجهة الأعطال التى تتم داخل الشبكات ونظم المعلومات والأجهزة تتم بشكل غير سليم من ناحية التأمين، وينتج عنها تغيير ما فى طريقة الإعداد والمواصفات التى تم تهيئة الأجهزة والحاسبات والبرامج المختلفة لتعمل عليها منذ بدء التشغيل، والتى تم وضعها من قبل مديرى الشبكات والمسئولين عن نظم المعلومات والتأمين، لأن الصيانة تتم فى أحيان كثيرة على يد أشخاص ليسوا من الفريق الذى وضع طريقة إعداد الحاسب أو البرامج منذ البداية بالشكل الذى يحقق مستوى التأمين المطلوب، مما ينتج عنه ثغرات فى شبكة المعلومات أو إجراءات تأمينها، تسهل على المهاجمين اكتشافها والنفاذ منها إلى المعلومات المطلوب حمايتها.

. إن النسبة الأكبر من مؤسساتنا ومنشآتنا لا توجد لديها تغذية عكسية بالمعلومات حول ما يحدث من تغيير فى أوضاع شبكات ونظم وقواعد البيانات والمعلومات نتيجة التغييرات التى تحدث فى مجموعة العاملين بالمنشأة، سواء الذين ينتقلون من قسم لآخر، أو من إدارة لأخرى، أو الذين يتركون العمل بالمؤسسة ويحل محلهم موظفون جدد، أو الذين يلتحقون بالعمل مع أى توسعات تصاحب النمو فى أعمال المؤسسة أو المنشأة، وذلك على الرغم من أن الخبرات العالمية حول هذه النقطة تؤكد أن التغييرات فى هيئة الموظفين لأى سبب ينشأ عنها أوضاع كثيرة لها علاقة مباشرة بنظم وسياسات تأمين المعلومات بالمؤسسة، على سبيل المثال لابد من إجراء تغيير فى جداول وملفات كلمات السر أو المرور المستخدمة فى الدخول على نظام معلومات المنشأة، بحيث يتم بموجب هذا التغيير إلغاء كلمات السر التى كانت ممنوحة للموظفين القدامى، وتوليد كلمات سر للموظفين الجدد، وغير ذلك من الإجراءات الأخرى، وما يحدث عمليا إن التغذية العكسية بالمعلومات الناجمة عن هذا التأخير إما تكون بطيئة أو غير موجودة،ومن ثم لا تصل للمسئول عن تأمين المعلومات فى الوقت المناسب، وبالتالى تحدث خللا فى أمن المعلومات.

إن ما سبق عينة بسيطة من مشكلات أمن المعلومات شائعة الانتشار فى مجتمعاتنا والناجمة عن غياب ثقافة أمن معلومات سليمة وداعمة، ولو تعمقنا فى الأمر قليلا سنصادف ما هو أشد خطرا وإيلاما، ولست فى حاجة إلى التأكيد على أن الثقافة السلبية والمشكلات الناجمة عنها عادة ما تكون ناتجة عن غياب سياسة قومية أو وطنية لأمن المعلومات تتولى بناء الثقافة قبل نشر التكنولوجيا. ■

كتاب الزاوية

الرأى العام

غسان توينى

ما هو الرأى العام، ومم يتكون؟ الفكر الحر، هو الرأى الذى لا يخاف، لا يتأثر، هو الرأى الذى يتكون صغيرًا فينطلق ويتقدم وينمو حتى يستفيق الناس وإذا بهم يقولون به.. متى قرأوه أو ظنوا أنهم يسمعون أنفسهم ويقرأون ما تمنوا لو كان فى وسعهم أن يكتبوا. الرأى العام ليس مجموعة آراء المجموع، إنما هو جوهر الرأى الذى عليه يجتمعون. الرأى العام هو كل واحد منا إذا تحرر من الضواغط على رأيه، من ضواغط التعبير لا من قول الحقيقة، من كوابيس القول لا من كوابيس الإيمان. الرأى العام هو الحرية فى مظهرها التعبيرى الاجتماعى أى فى مظهرها الصحفى، حتى قبل وجود الصحافة.

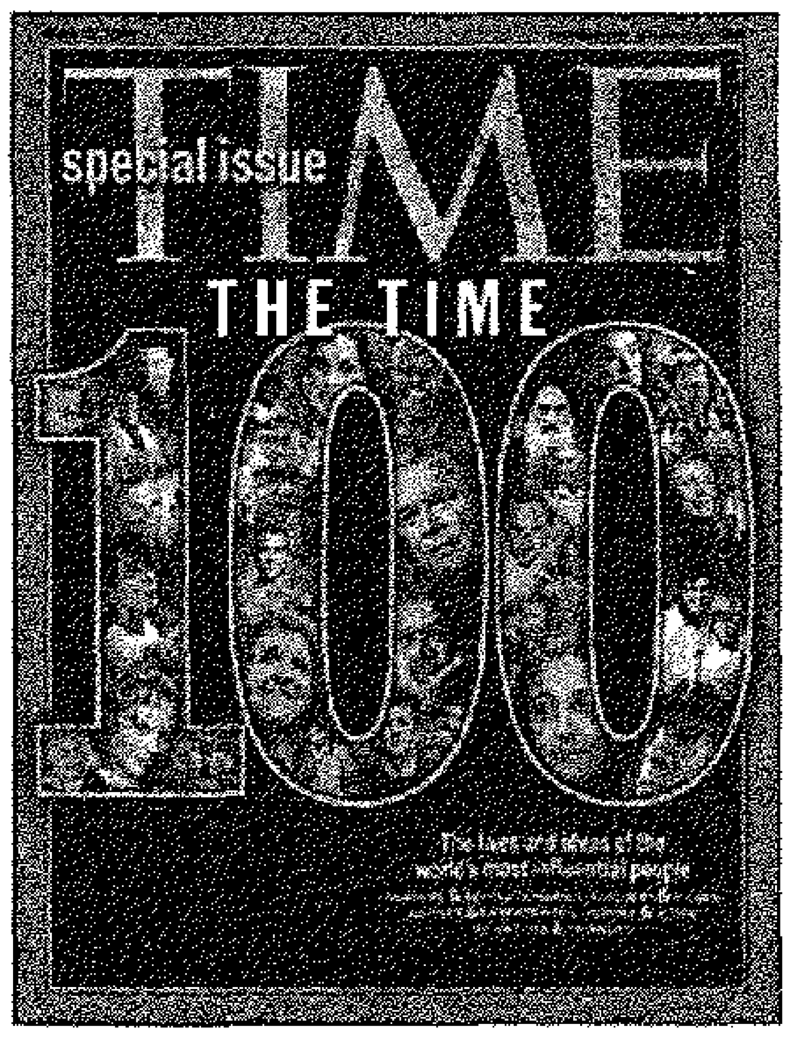
ما هو القارئ؟ هل هو قارئ واحد؟ أعرف صحفًا تكتب لقارئ واحد، لا ضعفًا منها، إنما لأنها تتوجه، سواء أكتبت أسرار الآلهة أم أسرار الشياطين. أعرف صحفًا كذلك لا يقرأها إلا واحد، وهو الذى يكتب فيها. ولكن الصحافة اليوم إنما تؤخذ بشغف العدد، فإما أن تتوجه إلى العدد، إلى الجمهور، أو لا تكون صحافة. أما صحافة القلة، أى المتفوقين المثقفين الذين فوق العامة، هذه الصحافة باتت غير منسجمة مع رأى اليوم ومع متطلبات العصر ومع الحكم الشعبى الذى نريد أن نقيم اليوم فى لبنان، بفضل الصحافة الحرة. لأن الصحافة ليست كالكتاب ولا كالشعر، أو كالفلسفة.. الصحافة لا تكتب حتى تقرأ غدًا أو بعد غد فتنصف فى التاريخ، الصحافة تكتب حتى تقرأ اليوم ويقرأها أكبر عدد ممكن من القراء.

(١٩٦٥)

ظـاهـــرة «الجـــزيـرة»

وضـــــاح خـنـفــــر

بعد عشر سنوات كاملة من بداية البث الفضائي لقناة الجزيرة في نوفمبر ١٩٩٦ تدخل المحطة الأكثر إثارة للجدل في العالم مساحة جديدة ببداية بث قناتها «الوليدة» باللغة الإنجليزية. وإذا كان المثل المصري الشعبي ينسب «العمى» إلي من «لا يري من خلال الغربال» ذي الفتحات الواسعة، فلا أحد يستطيع أن ينكر أو يتجاهل الأثر الذي أحدثته الجزيرة علي مدي العشر سنوات الماضية. والحقيقة أنها بقدر ما أحدثت من أثر، بقدر ما أوجدت من خلاف (لا يخلو من غرض) عليها أو حولها. والمثير أن كل ما وضعه بعضهم في خانة «ما لها» وضعه الآخرون في خانة «ما عليها». البعض اعتبرها مسؤولة عن تلك «القنابل البشرية» التي اختارت الموت دفاعًا عن العقيدة أو الوطن. والبعض ذهب بعيدًا ليراها وقد ألقت حجر الديمقراطية «المتوهج» في مياه أنظمة الشرق الأوسط الراكدة،



فساعدت علي إخماد نيرانه بالتنفيس «صوتًا بلا فعل». كما اتهمها بعض من يتوق إلي «ثورة» لم يكن الإعلام - بحكم تجارب التاريخ - بقادر وحده عليها. كما أنها لم تكن يومًا - ونحن نتحدث عن «المهنية» - من مهامه أو مسئولياته.

أيًا ما كان أمر خلاف سيستمر حول الجزيرة. وهذا شأن «الظواهر» الكبري عادة، تبقي حقيقة أن القناة أسمعتنا ما لم يكن مسموحًا به أبدًا لعقود. وكانت صوتًا لكثيرين غاب أو تم تزييف صوتهم لسنوات طويلة.

ويبقي أنه وسط سيل الاتهامات الكثيرة «المتناقضة» كانت الجزيرة موضوعًا لأكثر من كتاب ولآلاف المقالات وعشرات الدراسات الأكاديمية. كما وضعتها Time علي قائمة المائة الأكثر نفوذًا في عالم اليوم.

المحـــرر

الشعور الذي استقر في نفسي عندما كنت مراسلا تليفزيونيا أنه ينبغي علينا دوما أن ننأى بأنفسنا عن الأجندات السياسية المختلفة، لم أشعر قط أننا كصحفيين يجب في لحظة من الزمن أن نُسَيَّس، أو أن الصحفي يجب أن يكون له دور سياسي. إنني أحسب أنه مما يتناقض مع جوهر الصحافة المتوازنة أن تحمل معك أجندة سياسية.

ثم تبين لي خصوصا بعدما صرت مديرا لقناة الجزيرة ثم مديرا عاما للشبكة، أن الكثيرين ينظرون إلي الجزيرة بوصفها لاعبا سياسيا أكثر مما ينظرون إليها بوصفها مجرد محطة تليفزيونية.

وسأسرد عليكم ملخصا لبعض ما واجهته طوال الشهور الماضية. فلقد سافرت للعديد من الدول منها مصر والمغرب والصين وروسيا وطهران وتركيا في زيارات عمل ولألقي بعض المحاضرات.

فعلي الرغم من أن للجزيرة جمهورا عريضا في مصر، فقد ثار في وجهي قادة شعبيون غاضبون وقادة من المجتمع المدني مطالبين أن تتوقف الجزيرة حالاً عن استضافة الإسرائيليين الذين «يبررون قتل إخواننا في فلسطين»، وأن ننزع فورا اسم إسرائيل من الخريطة التي تعرضها الجزيرة علي شاشتها. ولم يكن ذلك انتقادا عابرا؛ وإنما هو في الواقع انتقاد أساسي أسمعه في كثير من الدول العربية، ووجدت نفسي أحاول إثبات أن الجزيرة لا تعمل علي ترويج أجندة أمريكية أو صهيونية في المنطقة.

وفي المغرب كان التوجه السياسي مختلفا، إذ أثار حفيظة بعض الناس هناك - بعضهم علي الأقل من النخبة السياسية - تغطية الجزيرة لقضية الصحراء، لا سيما استضافتها لرموز من البوليساريو.

وفي تركيا، ناقش البرلمان التركي ما يجب أن يفعله مع الجزيرة؛ لأننا عرضنا فيلما وثائقيا عن حزب العمال الكردستاني، وألقي بعض البرلمانيين بالمسئولية علي الحكومة مطالبين بطرد فريق قناة الجزيرة من أنقرة واسطنبول، بسبب تلك الجريمة التي ارتكبتها قناة الجزيرة باستضافتها منظمة «إرهابية»، وإجراء مقابلة تليفزيونية مع زعيمها.

وبالطبع الأجندة السياسية في الصين مختلفة، فالانتقادات تأتي غالبا من المسئولين الصينيين فيما يتعلق بتغطية الجزيرة لأحداث تايوان. فمراسلنا هناك أجري مقابلة مع قادة تايوانيين، ولم يرض المسئولون الصينيون البته عن نقاط بعينها في تقاريرنا.

وقد زارنا في الجزيرة السيد لافروف وزير الخارجية الروسي، وأمام الكاميرات حذر بعض المؤسسات الإعلامية الدولية من إعطاء «إرهابيين» شيشانيين منبراً يتحدثون من خلاله، مؤكدا علي قناة ABC التي أجرت مقابلة مع شامل باسييف.

وظهرت مشكلة أخري مع السودان، فكان قد أغلق مكتبنا هناك بسبب غضب السلطات من أداء مراسلنا. كما واجهتنا مشكلة مشابهة في طهران، وأغلق مكتبنا هناك ما يزيد علي سنة وشهرين، ومكتبنا في العراق مغلق، وقد اتهمتنا أخيرا صحيفة أردنية شبه رسمية بالترويج لأجندة صهيونية في المنطقة من أجل خلق المشاكل بين الدول العربية.

وكثيرا ما صب مسئولون أمريكيون وغربيون جام غضبهم علي الجزيرة لأنها تحرض علي الكراهية كما يقولون.

فإذا نظرنا أساسا إلي الواقع السياسي في العالم العربي وفي الشرق الأوسط، فإن التعامل مع الجزيرة يتجاوز منطق التعامل مع الصحافة ومعايير المهنة، إلي منطق آخر، فليس المعيار عند الحكومات ما هو مهني وما هو غير مهني؛ وإنما ما هو مقبول سياسيا وما هو ليس مقبولا سياسيا. فإذا خضعنا لهذا المنطق السياسي، فسنجد أنفسنا كل يوم بأجندة معينة تتناقض مع ما سبقها في اليوم الفائت. وحتي نحمي مؤسستنا من التسييس، فقد تبنينا نهجا التزمته الجزيرة في السنوات العشر الأخيرة يقضي بالابتعاد عن الأجندات السياسية لهذا الطرف أو ذاك.

إنني أعرف أن العديد من محطات التليفزيون تمارس أحيانا رقابة داخلية صارمة لتجنب حدة الضغوط السياسية عليها، غير أنه تبين لي أن دور الإدارة في الجزيرة هو حماية المؤسسة وخطها التحريري من تأثير الضغوط الخارجية. فالضغوط السياسية الخارجية تضر المؤسسة ولها آثار عديدة. وآخر شيء يود مراسل أو مدير مكتب رؤيته في أي دولة هو سوء علاقته بالسلطة، ذلك لأن حكومات المنطقة تملك مفاتيح دخوله لأي مكان يود الذهاب إليه. فإذا كانت علاقته بالحكومة سيئة، ضاقت عليه السبل. إنه أمر واقع وتحد حقيقي، فالضغوط السياسية تخلق المشاكل للصحفيين ويحاول الصحفيون ممارسة رقابة ذاتية كي لا يتعرضوا للتضييق.

وهدف الإدارة حينئذ حماية المؤسسة وصحفييها ومدراء مكاتبها من ذلك النوع من الضغوط السياسية حتي يحتفظوا بنزاهتهم وتوازنهم. ذلك هو أحد الأدوار

محاضرة ألقاها وضاح خنفر، مدير عام شبكة «الجزيرة» بجامعة ويستمينستر في ١٠ يوليو ٢٠٠٦

Lecture
10 July 2006
Westminster University
Wadah Khanfar, Al Jazeera
Director General

هنـاك فجـوة في الاعـلام الـدولي
فيما يتعلق بتغطية دول الجنوب المترامية الأطراف..
وسـنحاول أن نسـد هـذه الفجـوة



السياسية الرئيسة التى يتعين على النهوض بها فى الشبكة.

روح الجـــزيـــرة

وعلى صعيد آخر، إذا عدنا إلى العالم العربى، فهناك ما أسميه بروح الجزيرة، التى أود تعريفها بأنها فلسفة الجزيرة ومنهجها فى صناعة الخبر وتقديمه للمشاهدين، إنها الروح التى تجعل من الجزيرة جزيرة، وتميزها عن غيرها من القنوات.

وفى رأيى، أن الجزيرة فى بدايتها انطلقت مستوحية مبادئ إعلامية مهنية غربية. فآخر ثلاثة رؤساء تحرير للجزيرة جميعهم محررون سابقون فى هيئة الإذاعة البريطانية. ولذلك، فإن جذور منهجية الجزيرة المهنية بدأت متأثرة بما هو فى الإعلام الغربى، وبالإعلام البريطانى تحديدا. ثم راحت الجزيرة بعد ذلك تتفاعل مع الواقع على الأرض، وتتعامل مع العقل الجمعى للعالم العربى، ومع البنية الاجتماعية والثقافية فى المجتمع العربى، فصار لها نهجها الخاص وروحها المتفردة.

وأعتقد أن للجزيرة الآن مدرسة فكرية متميزة، وإن كنا فى الجزيرة آخر من يتحدث عن هذه المدرسة. فلم ننشر كتابا رسميا عن أنفسنا، وعن نظريتنا. لقد كتب الكثيرون عن الجزيرة، ولكن الجزيرة لم تكتب حتى الآن عن نفسها.

تغطية الحروب

لقد كان شغلنا الشاغل فى السنوات العشر الأخيرة هو تغطية الأخبار. والأخبار التى نغطيها ليست عادية. فنحن لا نجلس مرفهين على بعد آلاف الأميال من ساحات الحرب والأماكن الساخنة، لنفكر فى عناوين منمقة بعيدا عن الميدان.

إن أهم ست نقاط ساخنة فى العالم تقع فى منطقتنا، أى فى جوار الجزيرة ومنطقة بثها؛ هذه النقاط الساخنة هى: فلسطين والعراق ولبنان وأفغانستان والصومال ودارفور وربما إيران فيما بعد، مما يعنى أننا فى قلب أكثر المناطق سخونة فى العالم.

ولذلك، فعندما نضع فى صدر نشراتنا عناوين تصف هذا الواقع، يطلق عليها بعض الناس «عناوين دموية»، فماذا نفعل حينئذ؟ فقد تجد فى يوم عادى واحد جملة من الأخبار على النحو التالى: عشرات القتلى فى بغداد، سيارة قصفت فى غزة، عملية انتحارية فى أفغانستان... عناوين ثلاثة لا نملك إلا أن نتعامل معها فى صدر نشراتنا، فهل يمكن لنا أن نتجاهلها لأنها دموية؟ إنها أحداث بشعة، ولكنها تحدث دوما فى منطقتنا؛ قد لا تتصدر بعض هذه الأخبار عناوين النشرات الإخبارية فى لندن أو موسكو أو واشنطن. ولكن فى الجزيرة عندما يكون من مشاهديها من هم عوائل الضحايا، أو من ارتكبوا ذلك الفعل أو ممن سمعوا عنه، أو يعيشون يوميا معه فإنه يكون بالطبع عنوانا رئيسا لا يمكن تجاهله.

فإذا لم نضعه عنوانا لنشراتنا فلسنا إذا مهنيين، وسينصرف الناس عن الجزيرة إلى قناة أخرى... إنه واقع يومى. فهل يعجبنا ذلك؟ بالطبع لا. فعندنا نحن أيضا أطفال لا نريد لهم أن يشاهدوا كثيرا من الدماء، ونريد حمايتهم من أشباح الحرب وصورها البشعة. وكشأن سائر الناس حول العالم، لدينا آمالنا الخاصة فى العيش بسلام وأمن، ووقف سفك الدماء فى الشوارع وأن يكون لنا مكان جميل وآمن ومريح نعيش فيه.

فهل بمقدورنا تجاهل واقعنا المؤسف؟ هذا هو السؤال. فهل الجزيرة هى التى تسيل الدماء فى الشوارع أم أن ذلك هو الواقع؟ فإذا اهتم أحد بالأطفال وما يشاهدونه فليسع إذًا لتغيير الواقع الذى أفضى إلى سفك هذا الكم من الدماء فى الشوارع. إن تغيير أخبار القناة وعناوين نشراتها لن يغير الواقع. فالواقع على الأرض صعب ومر. إنى أشعر أن الاقتراب بقدر الإمكان من الحقيقة وإظهارها بوضوح هو جزء من مسئوليتنا كصحفيين. وأنا شخصيا أعتقد بأن حل الصراع يكمن فى عدم التستر عليه. بل فى إظهاره وبيانه، وفى معرفة حقائقه ودقائقه. وبغير ذلك، فإنه متى أسأنا فهمه أسأنا التعامل معه، وافترضنا افتراضات خاطئة، وأصدرنا بشأنه قرارات خاطئة أيضا.

ووظيفتنا كصحفيين هى فى توضيح عناصر الصراع بقدر الإمكان، والإحاطة بمعانيه، ووضعه فى سياقه، حتى يعلم صناع القرار والجمهور ما يحدث، فيأتى من يتعرف يوما على المشكلة ويسعى إلى حلها.

أشرطة القاعدة

ومتى تحدثنا عن الجزيرة، فإن الضلع الثالث بالطبع الذى صار حديث القاصى والدانى هو شرائط أسامة بن لادن والقاعدة. واليكم حقائق وأرقام ليس إلا: فقد أرسل إلينا أسامة بن لادن ستة أو سبعة أشرطة منذ سنة ٢٠٠١ إلى الآن. ولم تكن الجزيرة أول محطة تليفزيونية فى العالم تذيع مقابلات مع بن لادن، وإنما الذى بث مقابلة كاملة مع أسامة بن لادن لمدة ٤٠ دقيقة هى محطة تليفزيون أمريكية.

إننا قناة أخبار، ومهما تكن الأخبار التى تصلنا فمن الضرورى أن يعرف

مشاهدونا بها. ولذلك فإن شريطا لأسامة بن لادن مثلا أو خبراً ما عن القاعدة هو في الحقيقة «سبق صحفي» في المهنة التي ننتمي إليها. إنها ليست شيئا نتجنب بثه أو نخجل من التعامل معه، وإنما هو شيء نسعى إلى التعامل معه. هذا هو ما تعلمناه ممن سبقونا من آباء الصحافة. فكم من السنين ظل الصحفيان في فضيحة ووترجيت يحميان اسم مصدرهما؟ أتذكرون ذلك؟ لم يقل أحد إن ذلك خطأ.

إننا نحتكم في مهنتنا إلى أخلاقيات واضحة تطورت عبر عقود طويلة. ونحن في الجزيرة نحترم تلك الأخلاقيات. ونعيد بذلك الثقة في جوهر الصحافة الحرة من خلال تقديم إعلام لا يأخذ بالحسبان مدى الرضى السياسي عن الخبر... ذلك أمر مهم.

ونحن إذ نعرض شريطا لبن لادن أو مقتطفات منه، فإننا عادة ما نعرض دقائق قليلة أي نعرض مقتطفات أو لقطات ذات قيمة إخبارية من شريط قد يكون طويلا. ولا تعرض قناة الجزيرة الشريط كله على شاشتها، بل لقطات معينة ذات قيمة إخبارية، توضع في سياق تحليلي. وأحسب أن ما نقوم به هو عين المهنية، فنحن نقدم للناس أخبارا وعليهم هم أن يحكموا بأنفسهم على ما يسمعون، فيكون رأيهم مستندا على وعي كامل بتفاصيل القضية التي يتعاملون معها.

وهذه هي آخر مرحلة- أن يحكموا بأنفسهم. فبعض الناس يظن أن الجزيرة تقود العالم العربي في اتجاه معين... إلى تشكيل العقل العربي ... وإصلاح المجتمع العربي. فأنا لا أرى في الجزيرة حركة إصلاحية، ولا حزبا سياسيا ولا منظمة دينية ولا أي شيء من هذا القبيل. إنني أرى في الجزيرة مؤسسة إعلامية لا تعنى إلا بالقواعد المهنية وأخلاقيات الصحافة. وهذا هو السبب في أننا ركزنا في السنوات الأخيرة على أخلاقيات وقواعد السلوك المهني وعلى رؤيتنا ورسالتنا المنشورة على موقعنا الالكتروني. ويستطيع كل شخص بذلك ان يحكم علينا.

الجزيرة والمشاهدون

الجمهور العربي مسيس. والجمهور العربي منفتح على الإعلام الدولي. واذكر عندما كنت طفلا أن أبي كان يستيقظ كل يوم في السادسة صباحا كي يستمع إلى نشرة الأخبار باللغة العربية التي تذيعها الـ BBC . نعم الجمهور في العالم العربي مسيس. إنهم يهتمون بأخبار العالم لأنهم يعرفون أن أخبار العالم تؤثر في مجريات السياسة المحلية في مدنهم وقراهم ومخيماتهم. إنهم يعلمون أن عليهم أن يستمعوا يوميا لنشرات الأخبار لأن الأحداث السياسية والأمنية في المنطقة شديدة التغيير ويمكن أن تقتل من يجهلها. إذا لم تكن على معرفة جيدة بما يحدث في ذلك اليوم، فربما تصيبك طلقة من هنا أو هناك. عليك أن تعرف، فمعرفة الأحداث السياسية أمر حيوي. انه ليس من الكماليات. ففي دول أخرى، إذا لم تستمع إلى أخبار السياسة، فلن يختلف مسار يومك، وربما تفضل الاستماع إلى أخبار الرياضة أو أخبار نجوم الفن والموسيقى.

ولأن الأخبار السياسية مهمة في المنطقة، فإن فهمها يصبح حرفة مشاعة، وجزءا أساسيا في حياة الناس. ولذلك، فإن الناس في العالم العربي مسيسون وقادرون على حل الشفرة التحريرية للمؤسسات الإعلامية وفهم ما تقوله صراحة وما توحي به من خلال السطور.

مصداقية الجزيرة

كلمة «المصداقية» مهمة جدا، حيث توصف الجزيرة وفقا للإحصاءات بأنها أكثر مصادر المعلومات مصداقية في العالم العربي. والمصداقية ليست كالثقة، فالثقة خلق إنساني، وقد يثق المرؤ بزوجه أو أهله أو جيرانه وهكذا. الثقة تمنح ولكن المصداقية تكتسب، لأنك لو أعطيتني خبرا اليوم وثبت غدا أنه خاطئ أو مبالغ فيه أو انفعالي أو ما شابه ذلك، فستفقد مصداقيتك. فالمصداقية شيء تكتسبه بجدك وتعبك. ومشاهدونا يعتقدون أن الجزيرة تتمتع بالمصداقية.

هل نرتكب أخطاء؟ نعم نرتكب أخطاء. من قال أننا لم نرتكب أخطاء قط؟ ولكن لدينا من الشجاعة ما يكفي لتصحيح هذه الأخطاء، ونقول لمراسلينا وصحفيينا أن عليهم إعادة كتابة الموضوع وتصحيحه وإعلام الجمهور أن خطأ قد وقع وإننا نصححه لكم.

إنني أقول ذلك لأننا رفعنا منذ البداية شعار «الرأي والرأي الآخر». وأحسب أن زملاءنا الذين يعملون داخل الجزيرة يعلمون أننا نتبع المعيار نفسه داخل الجزيرة، وداخل غرفة الأخبار نفسها- إذ لدينا الرأي والرأي الآخر داخل الجزيرة نفسها. فعندما نجلس في هيئة التحرير أو في اللقاءات التحريرية اليومية، نتحاور ويدلي الجميع برأيه وربما يثور جدل حول نقطة ما، وأخيرا نخلص إلى قرار محدد، يقبله الجميع وينفذونه برحابة صدر ونمضي في طريقنا.

نجاح الجزيرة لا يكمن في تنوع الآراء التي تستضيفها شاشتنا فحسب، بل لأننا أيضا نعطي صحفيينا حرية التعبير عن مهنتهم بعيدا جدا عن قيود السياسة والمال.

والجزيرة تعطي غرفة الأخبار الحق في أن تقول الكلمة الأخيرة فيما يجب أن يظهر على الشاشة دون أن يهاتفنا أحد ويملي علينا عناوين أخبار اليوم. هذا هو الإنجاز الرئيس والأهم الذي حققته الجزيرة لإعلامنا، أننا حررنا صحفيينا من ضغوط السلطة وطغيانها. فالصحفي الحر هو ذلك الذي يملك المسافة بين طرف لسانه وشفته، وبين سن قلمه وقرطاسه. ووظيفتنا أن نعزز ذلك ونصونه. وحسب فهمي لوظيفتي، فإنه يتعين على أن أصون استقلال غرفة الأخبار وأن أربأ بها عن النفوذ السياسي أيا كان.

الجزيرة وقطر

ومن التساؤلات الأخرى التي سمعتها اليوم «وماذا عن قطر؟».

صحيح أن قطر في النهاية تعطينا المال، وإن حكومة قطر تمول الجزيرة. وأنا أنتهز هذه الفرصة لأشكر أمير قطر، الذي اتخذ قرارا صائبا قبل عشر سنين في أن يؤسس الجزيرة.

إنني كطالب في السياسة الدولية، ووفقا للنظرية الواقعية في السياسة، تعلمت أن الدول لاعبون عقلانيون، وأنها ليست منظمات خيرية على الإطلاق، وأنها تتصرف حسب ما تمليه عليها مصالحها الذاتية.

وعليه فإن قرار تأسيس الجزيرة كان قرارا عقلانيا، ولا شك أنه خدم دولة قطر.

هل أفادت الجزيرة قطر؟ طبعا أفادتها. إن مجرد وجود الجزيرة في الدوحة أعطى قطر مكانة في المنطقة وفي العالم لم تتمتع بها قبل سنة ١٩٩٦ . غير أن دولة قطر أدركت أنها ستستفيد من الجزيرة ما دامت الجزيرة مهنية وبعيدة عن التوجيه السياسي، وأنها لو تدخلت في تحديد أولويات الخبر وسياسات هيئة التحرير داخل غرفة الأخبار بالجزيرة، فستنتهي تلك الميزة التي تتمتع بها، لأنه سينظر لقناة الجزيرة بوصفها بوقا سياسيا آخر من بين مائتين وخمسين قناة تليفزيونية في المنطقة.

أما موضوع تواجد الجزيرة في قطر، ومدى فائدتها لدولة قطر، فأمران بعيدان عن غرفة الأخبار. وبغير ذلك فلن يكون للجزيرة شأن بالمنطقة، واحسب انهم أدركوا ذلك بجلاء. وفي دول أخرى يدفعون مليارات الدولارات من أجل إنشاء شبكات وقنوات أخبار وغيرها من القنوات ، لكنهم لم يحصلوا على ما حصلت عليه الجزيرة من حضور ومصداقية ذلك لأنهم ببساطة لم يتخلوا عن عقلية السياسي الذي يجب أن يحدد الأولويات للصحفي، ففشلوا. وذهبت هباء الملايين والمليارات.

وهو درس للحكومات العربية: لا بأس من تمويل رسمي للقنوات الإخبارية ؛ وإذا أرادوا لاستثمارهم أن ينجح فلا بد من أن يرفع السياسيون أيديهم عن غرف الأخبار، وعليهم أن يتعلموا من الجزيرة. فقط أعط المال ولكن رجاءً انصرف من الباب الأمامي. لا تتدخل أبدا في سياسات القناة المتعلقة بتحرير الأخبار، وإلا فإن قناتك لن تجد من يشاهدها.

غياب الإعلام الحر وهيمنة الإعلام الموجه هو سبب لجوء الناس إما إلى نظرية المؤامرة أو إلى الشائعات لتفسير الأمور التي تدور حولهم ، فلم يكن هناك مصدر موثوق فيه. وما تسمعه من التليفزيون هو ما تريد الحكومات من الناس أن يصدقوه، فلم يفعلوا. وعندما جاءت الجزيرة، قدمت شيئا مختلفا... ولذا أعتقد أنه من المهم جدا والأسلم لنا جميعا حكاما ومحكومين أن نشجع الإعلام الحر وأن نتحلى بالانفتاح والشفافية.

الجزيرة الإنجليزية

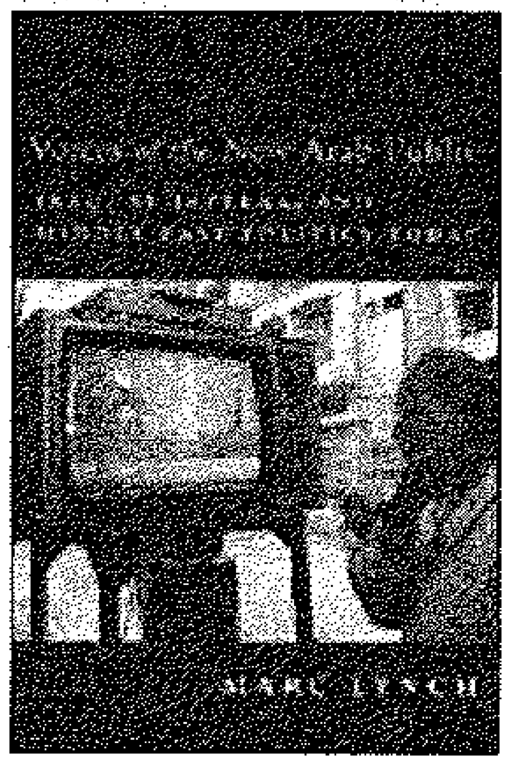
أود أن أختم حديثي، لأن عندي دقيقتين فقط، بكلمة عن الجزيرة الإنجليزية.

أتفق مع من قال بأن الجزيرة الإنجليزية هي تحد كبير؛ ولكنه تحد يمكن أن ينجح.

إن أهم ما نحتاجه كي نصوغ نظرة عالمية وشاملة للأخبار هو أن يكون لتلك النظرة منطلقها ، وأن تكون لها جذورها المنغرسة في مكان ما. وبغير ذلك، فالحديث عن النظرة الإعلامية العالمية الشاملة سيكون حديثا إنشائيا غير ذي جدوى، ولن يفهم معناه أحد. الجزيرة كاسم قوي، يضرب بجذوره في المنطقة... في الشرق الأوسط... في العالم النامي وإن شئت فقل... في الجنوب.

إني أرى فجوة في الإعلام الدولي فيما يتعلق بتغطية دول الجنوب المترامية الأطراف. ولأن الجزيرة الإنجليزية هي أول قناة إخبارية عالمية تنطلق من الجنوب، ولأنها ستبنى على نجاحات القناة العربية، فستكون الأقدر على تناول قضاياه السياسية والاقتصادية والتنموية؛ نحن نريد أن نقدم للعالم رؤية عالمية، منفتحة، تنطلق جذورها من الجنوب. إني أعلم أن هناك فجوة يمكن سدها، وأعلم أننا سننجح في ذلك، فللجزيرة الإنجليزية رؤية واضحة. وستوضع التفاصيل كشأن أي شبكة. فلن نخترع شيئا لا يعرفه أحد. وستكون هناك البرامج والأخبار، ولكن كما قلت، البرامج ستكون جذورها في مكان ما. وأحسب أننا قد بينا من أين تنبت هذه الجذور. ■

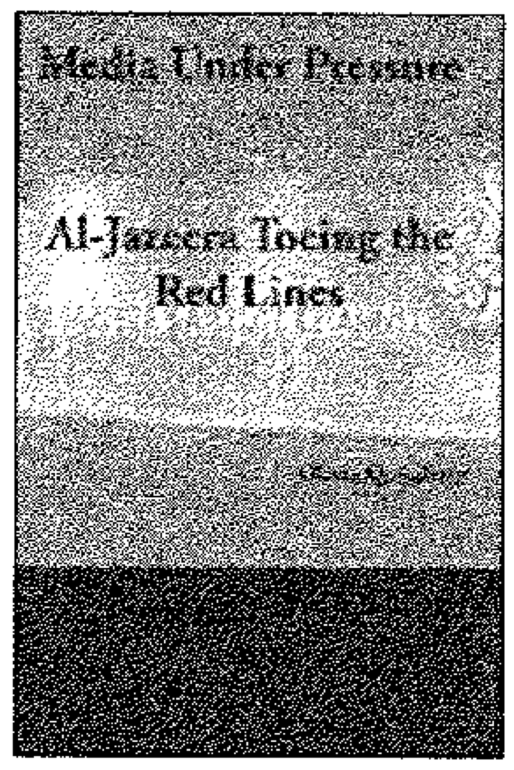
قناة الجزيرة



Voices of the New Arab Public: Iraq, al-Jazeera, and Middle East Politics Today
(أصوات الجمهور العربي الجديد: العراق، الجزيرة، وسياسة الشرق الأوسط اليوم)
Marc Lynch
Columbia University Press, $24.50, 320PP, 2005

نجحت الجزيرة والقنوات الفضائية العربية الأخرى في تحطيم سيطرة الحكومات العربية على الإعلام لعقود طويلة مما أدى إلى تأثير سياسي عربي، فالجزيرة وزميلاتها أعطت منبرا لأصحاب الأصوات المخنوقة لأعوام مضت مما ساعد على نمو المعارضة في الدول العربية على حد سواء.

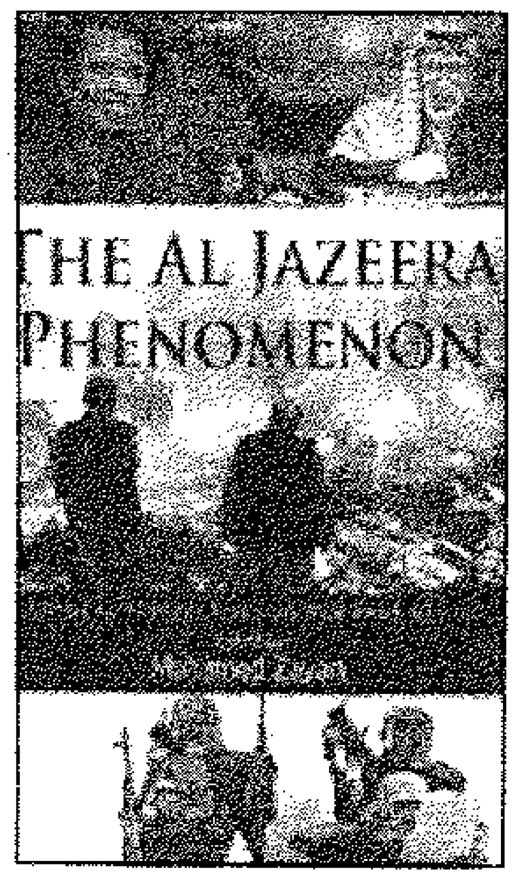
من خلال عدة مقابلات قام بها في الشرق الأوسط، واستطلاعات الرأي المختلفة يفحص «مارك لنتش» طبيعة وتطور الرأي العام العربي تجاه القضايا المختلفة وكيف أثرت قنوات مثل الجزيرة على هذا الرأي.



Media Under Pressure: Al-Jazeera Toeing the Red Lines
(أعلام تحت الضغط: الجزيرة تمس خطوطا حمراء)
Olivia Qusaibaty
BookSurge Publishing, $12.99, 82PP., 2006

كتاب صغير الحجم صدر بمناسبة العيد العاشر للجزيرة، يقدم البحث والتحليل للقناة العربية الأكثر إثارة للجدل.

الكتاب يتناول بحثا في مواقف الجزيرة المختلفة تجاه عدة قضايا عربية وعالمية، وتحليلا لتلك المواقف ولدور الجزيرة إعلاميا في صناعة الرأي العام العربي.

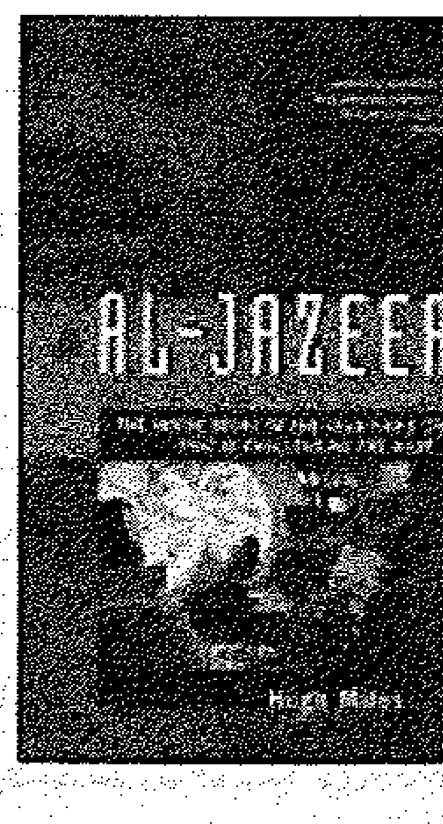


The Al Jazeera Phenomenon: Critical Perspectives On New Arab Media
(ظاهرة الجزيرة: وجهات نظر انتقادية)
Mohamed Zayani
Paradigm Publishers, $25.95, 223PP., 2005

أحد عشر مقالا مطولا عن الجزيرة لأحد عشر كاتبا، أحدهم هو «محمد زياني»، الذي كتب عن تناول الجزيرة للصراع العربي الإسرائيلي، ويأتي أيضا الصحفي الفرنسي «أوليفر دي ليج» الذي تناول العلاقات الأمريكية القطرية وكيف تهاجم الجزيرة أمريكا، في حين أن القيادة القطرية تساند أمريكا، مما يخلق توازنا سياسيا في العلاقات بين الدولتين.

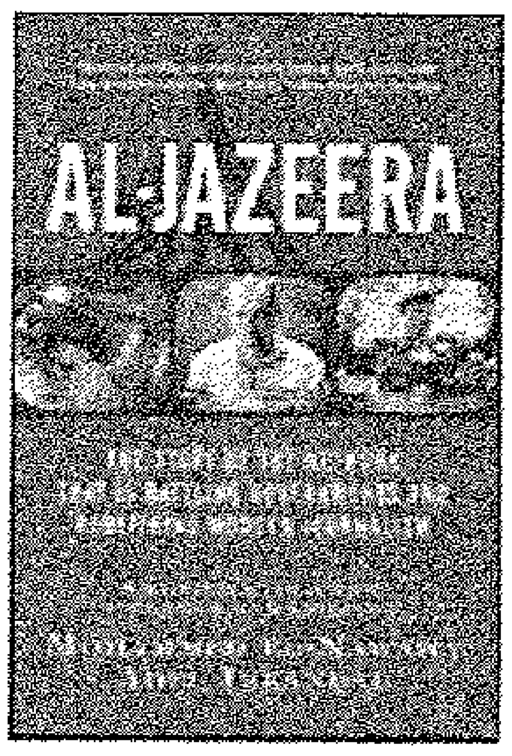
أما الكاتبة البريطانية «ناعومي صقر» فتحلل موقف الجزيرة تجاه تولية النساء السلطة.

الكتاب يقدم تحليلا لسياسة الجزيرة وجدول أعمالها وبرامجها، وتحليلها لأزمات المنطقة، وكيفية تناولها للغرب وتناول الغرب لها.



Al-Jazeera: The Inside Story of the Arab News Channel that is Challenging the West
(الجزيرة: قصة قناة الأخبار العربية التي تنافس الغرب)
Hugh Miles
Grove Press, $15.00, 448PP., 2006

خمسون مليون مشاهد حول العالم يتابعون قناة الجزيرة يوميا، ليجعلوها واحدة من أكثر القنوات الإخبارية مشاهدة في العالم، و«هيو ميلس» مؤلف هذا الكتاب يراها أيضا من أكثر القنوات المثيرة للجدل، مما دعاه إلى محاولة اكتشاف القصة الحقيقية وراءها.

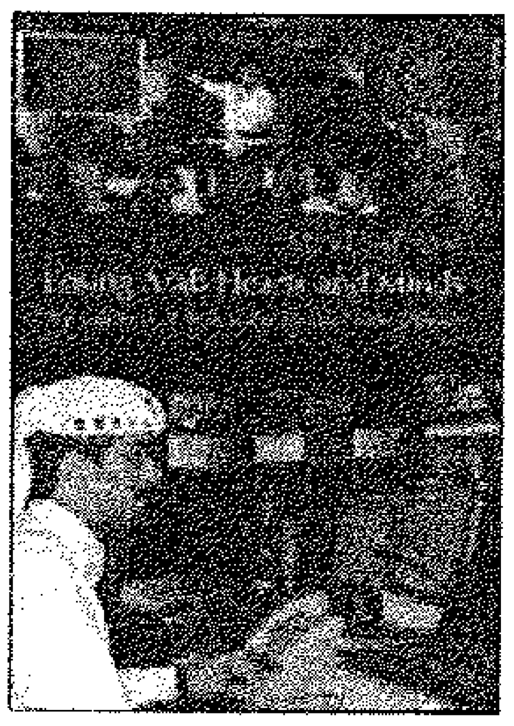


Al-Jazeera: The Story of the Network That Is Rattling Governments and Redefining Modern Journalism
(الجزيرة: قصة شبكة أخبار تهز الحكومات وتعيد صياغة الصحافة الحديثة)
Mohammed El-Nawawy, Adel Iskandar
Westview Press, $16.00, 240PP., 2003

«محمد النوادي» الصحفي الذي عمل من قبل للأسيوشيتيد بريس ووكالة أنباء الشرق الأوسط، و«عادل اسكندر» خبير أجهزة إعلام الشرق الأوسط، يحللان شبكة الأخبار العربية الأولى ودورها في العالم العربي.

ظهرت الجزيرة كلاعب أساسي في الأحداث السياسية بعد أحداث ١١ سبتمبر، حرب تُشن في أفغانستان، والجزيرة تسبق جميع التكتلات الإعلامية الغربية إلى الخبر: وتصل حصريا إلى أسامة بن لادن وأعضاء طالبان، وتحقق الانتشار العالمي عن طريق ظهور شعارها في لقطات مأخوذة منها بصورة شبه يومية على الشبكات الإخبارية الغربية.

الكتاب يهدف إلى تسليط الضوء على شبكة الجزيرة، كيف بدأت، تأثيرها على المشاهد العربي والرأي العام العربي، وردود الفعل الغربية والعربية على السواء تجاه سياسات الجزيرة، ونتائج هذا على الصعيد العربي والعالمي.

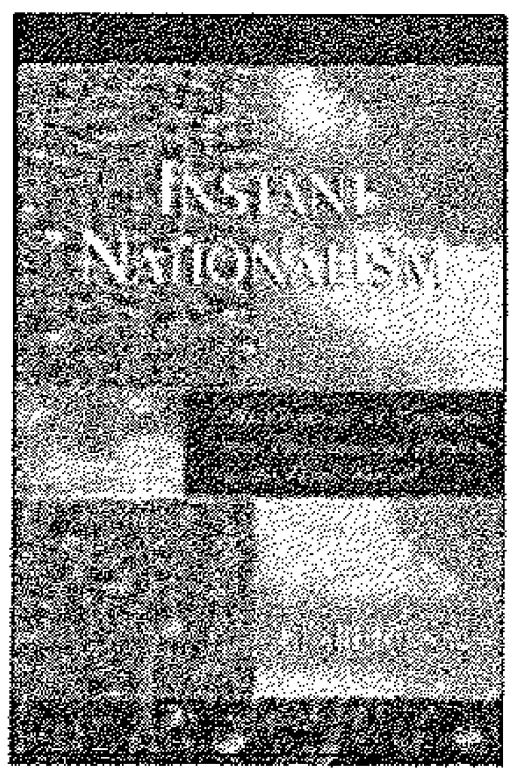


LOSING ARAB HEARTS AND MINDS: The Coalition, Al Jazeera and Muslim Public Opinion
(خسارة القلوب والعقول العربية: التحالف، الجزيرة، والرأي العام الإسلامي)
Steve Tatham
Front Street Press, $25.00, 256PP., 2006

من خلال تجربته المباشرة: وعمله كناطق رسمي باسم البحرية، ومشاركته في الحملة الإعلامية الضخمة التي صاحبت غزو العراق في الفترة من نوفمبر ٢٠٠٢ إلى مايو ٢٠٠٣، يشهد «ستيف تاتام» على محاولات الولايات المتحدة لكسب تأييد وتعاطف العرب.

الكتاب ينتقد طريقة المعالجة الأمريكية للإعلام، وممارستها للضغوط على الإعلام المحلي لعدم نشر صور الأسرى والموتى التي نشرها الإعلام العربي، وهو ما أدى إلى اتهام الاعلام العربي وبخاصة قناة الجزيرة بالتحيز ضد قوات التحالف.

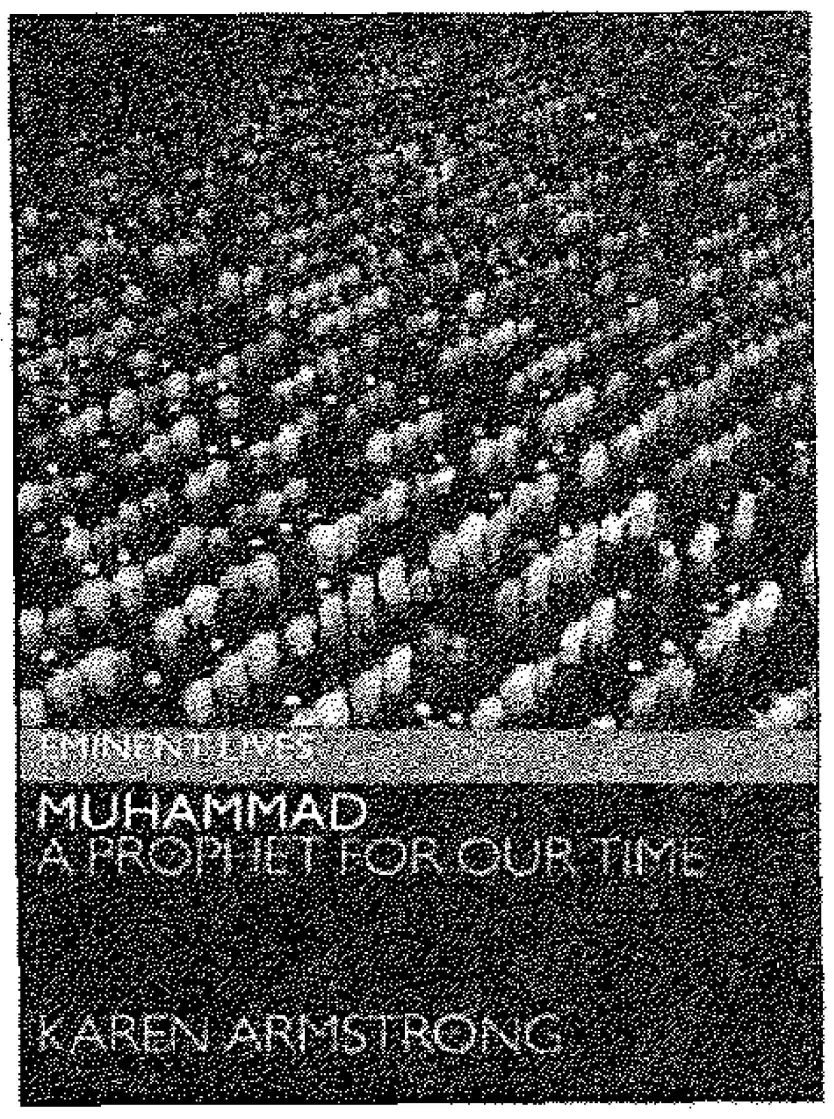
مثل تلك الاتهامات، ومحاولات تشويه السمعة، جعلت العديد من المراقبين يتساءلون حول ما إذا كان الرئيس بوش يقصد بقوله «انك إما معنا أو علينا» وسائل الإعلام أيضا بالإضافة إلى الدول.



Instant Nationalism: McArabism, al-Jazeera, and Transnational Media in the Arab World
(القومية اللحظية: الوحدة العربية، الجزيرة، وأجهزة الإعلام في العالم العربي)
Khalil Rinnawi
University Press of America, $29.95, 216PP., 2006

يناقش الكتاب دور أجهزة الإعلام العربية وبخاصة قناة الجزيرة الإخبارية في التأثير على المواطن العربي لخلق حالة تسمح بظهور نوع من الوحدة العربية، أطلق عليها الكاتب اسم «McArabism»، وهي تمثل تقارب الهويات المحلية والنظام العالمي، لتشكل صورة جديدة أو تصلح من صورة موجودة بالفعل للهوية العربية الجديدة.

الكتاب يستكشف ظهور ذلك التقارب وتأثيره على المجتمع العربي والقضايا المختلفة التي تشغله، كالصراع العربي الإسرائيلي والوضع في العراق والصراع الإسلامي الغربي.





كتـــــاب... وكـــــاتب

محمـــد

A Prophet for Our Time

كـــــارين أرمســــترونج

❝ الكتاب صدر قبل أسابيع فقط وبالتحديد فى السادس عشر من أكتوبر، ورغم أنه ليس الأول الذى يصدر فى الغرب عن نبينا الكريم، إلا أن توقيت صدوره بعد أيام فقط من محاضرة البابا الشهيرة، واسم كاتبته؛ الأشهر بين دارسى العقائد والأديان فى العالم كان كفيلاً بإثارة اهتمام من نوع خاص.

وهنا باب جديد ستخصصه «وجهات نظر» من حين لآخر للكتاب الذى يلقى اهتماماً «استثنائياً» وقت صدوره، أو الذى يتصدر قوائم المبيعات. وكذلك لصاحب القلم «الكاتب». والذى سيكون فى أغلب الأحيان «استثنائياً» هو الآخر والذى لن يكتمل التعريف به وبتطوره الفكرى إلا بعرض لأعماله كاملة (Bibliography) مرتبة زمنياً. مع بيان بالطبعات الجديدة المتوافرة حالياً. ❞

وجهات نظر

مقدمة كتاب:

Muhammad: A Prophet for Our Time

محمد: نبي هذا الزمان

Karen Armstrong

Harper Collins (October 17, 2006)

256 pages

ترجمة: داليا يوسف

■ يشكل تاريخ التراث الديني حوارا مستمرا بين الحقيقة الأسمى والوقائع الجارية في المجال الدنيوي إذ يستقرئ المؤمنون الماضي المقدس باحثين عن الدروس التي تخاطبهم بشكل مباشر فيما يتعلق بأوضاعهم الحياتية. لدى معظم الأديان شخصية رئيسية تعمل كنموذج بشري يعبر عن مثاليات هذه الأديان. فيرى البوذيون عبر تأمل سكينة بوذا الحقيقة الأسمى للنيرفانا[1] وهي الحالة التي يتوق لبلوغها كل منهم، وبالنسبة للمسيح يرتئي المسيحيون عبره الوجود الإلهي كقوة للخير والرحمة في العالم. تلقي هذه الشخصيات النماذجية الضوء على الأحوال المظلمة التي ننشد الخلاص منها في عالمنا المعيب، هذه الشخصيات تنبئ بالطريقة التي يمكن أن يكون عليها البشر.

وهذا ما يفهمه المسلمون فكتابهم «القرآن» يمنحهم دورا لبناء مجتمع عادل كريم يعامل كافة أعضائه باحترام. إن تحقيق الرخاء السياسي للمجتمع المسلم كان ولايزال أمراً بالغ الأهمية. ومثل أي مثال ديني غالبا ما يعد تحقيق ذلك أمرا صعبا ولكن بعد كل فشل يتعرض له المسلمون يحاولون إعادة الكرة ويبدأون من جديد، إن الكثير من الطقوس والفلسفات والمعتقدات والنصوص المقدسة والأضرحة نتاج تأملات موجعة وناقدة للأحداث السياسية في المجتمع الإسلامي.

حياة النبي محمد (٥٧٠ - ٦٣٢ ميلاديا) كانت حتمية فيما يتعلق بوضوح المثال الإسلامي كما هو اليوم، فمهمته تتعلق بكشف إبهام الحراك الإلهي في الأرض، ويفسر التسليم في صورته المثلى (في العربية إنما تقف كلمة «التسليم» مرادفا للإسلام) ذلك التسليم الذي ينبغي أن يظهره كل إنسان لله. بدءاً من زمن معاصرة النبي كان على المسلمين أن يجتهدوا لفهم معنى حياته وأن يطبقوها على حياتهم. بدأ المسلمون في جمع مجموعات هائلة من أقوال محمد (الأحاديث) وعاداته وأفعاله (السنة) والتي ستصبح أحد أسس شريعة المسلمين بعد ما يزيد عن مائة عام بعد وفاة محمد ومع استمرار الإسلام في الانتشار في مناطق جديدة وكسبه لمزيد من الأتباع. تعلم السنة المسلمون كيف يحاكون محمدا في الطريقة التي يتحدث ويأكل ويحب ويغتسل ويتعبد بها، وبالتالي فهم يعيدون إنتاج حياته على الأرض عبر كل تفصيلة دقيقة في الحياة اليومية وذلك أملاً في الوصول إلى تلك النزعة الداخلية بكامل التسليم لله.

وفي الحقبة الزمنية نفسها تقريبا (أي في القرنين الثامن والتاسع) بدأ المؤرخون المسلمون الأوائل في الكتابة عن حياة النبي محمد: محمد بن إسحاق (المتوفى ٧٦٧) محمد بن عمر الواقدي (المتوفى ٨٢٠) محمد بن سعد (المتوفي ٨٤٥) وأبو جرير الطبري (المتوفى ٩٢٣). ولم يعتمد هؤلاء المؤرخون بشكل تبسيطي على ذاكراتهم أو انطباعاتهم ولكنهم كانوا يحاولون تحقيق إحياء تاريخي جاد، فكانوا يضمنون رواياتهم وثائق قديمة ويتعقبون التراث الشفهي إلى حيث مصادره الأصلية وبالرغم من إجلالهم لمحمد كرسول من عند الله لم يكونوا عديمي النقد بشكل تام. وبفضل جهودهم - وإلى حد كبير - فإننا نعرف عن محمد أكثر مما نعرفه غالبا عن أي مؤسس منهج ديني رئيس. هذه المصادر الأولى لاغنى عنها لأي من كتاب سيرة حياة محمد وسأشير إليها مرارا في هذه الصفحات.

وغالبا لن يرضي مؤرخًا حديثًا عمل كُتاب سيرة محمد الأوائل إذ كانوا أبناء عصرهم وغالبا ما ضمنوا في أعمالهم قصصاً لها طبيعة إعجازية وأسطورية قد نفسرها بشكل مختلف في وقتنا الحالي. ولكنهم كانوا على دراية بدرجة تعقيد ما يكتبون، فهم لم يروجوا لنظرية أو تفسير للأحداث على حساب آخر وأحيانا ما كانوا يضعون روايتين شديدتي الاختلاف لحادثة واحدة جنبا إلى جنب ليعطوا لكل منهما الوزن

> **أدركت أن الكثير من الغربيين لم تسنح لهم الفرصة لمراجعة انطباعهم عن محمد ولذلك قررت كتابة رواية سهلة الفهم والانتشار لحياته لتتحدى وجهة النظر الحصينة تلك**

نفسه وبالتالي يتمكن القراء من إعمال عقولهم. ولم يكونوا دائما متفقين مع ما يروون ولكنهم كانوا يحاولون رواية سيرة نبيهم بأمانة وصدقية قدر استطاعتهم.

وقد يعتري رواياتهم بعض من الخلل فعمليا نحن لا نعلم شيئا عن حياة محمد المبكرة قبل تلقيه ما آمن به على أنه وحي من الله في سن الأربعين، لابد أنه قد نشأت قصص تحمل بعدا مثاليا عن ميلاد محمد ..طفولته وشبابه ولكنها تحمل قيمة رمزية أكثر مما تحمل كقيمة تاريخية ، كما يوجد عدد قليل من المواد عن حياة محمد السياسية المبكرة في مكة، إذ كان في ذلك الوقت شخصية مستترة نسبيا ولم يكن يظن أحد أن الأمر يستحق تدوين ما يقوم به من نشاطات. ومصدرنا الرئيس للمعلومات هو النص الذي أتى به للعرب . فلمدة ٢٣ عاما (٦١٠ - حتى وفاته في ٦٣٢) قال محمد إنه يتلقى الرسالة مباشرة من الله والتي جمعت في نص عرف باسم القرآن .

والقرآن بالطبع لا يحمل رواية صريحة لحياة محمد ولكنه يقترب من حياته شيئا فشيئاً: سطراً عبر سطر .. آية عبر آية وسورة عبر أخرى ، وأحيانا ما يعالج التنزيل موقفاً محدداً في مكة أو المدينة .في القرآن يجيب الله منتقدي محمد إذ يدحض حججهم ، ويشرح القرآن الدلالة الأعمق لمعركة أو صراع داخل المجتمع، وكلما أوحي إلى محمد بعدد جديد من الآيات يحفظها المسلمون عن ظهر قلب ويكتبها المتعلمون ، جاء أول جمع رسمي للقرآن تقريبا عام ٦٥٠ أي بعد عشرين عاما من وفاة الرسول وحقق وضعا شرعيا.

القرآن هو كلمة الله المقدسة وتبقى سلطته مطلقة ، ولكن المسلمين يعلمون أن التفسير ليس بالأمر السهل دائما ، لقد وضعت تشريعاته لمجتمع صغير ولكن بعد قرن من وفاة النبي حكم المسلمون إمبراطورية واسعة تمتد من الهملايا إلى جبال البرانس فاختلفت ظروفهم تماما عن تلك التي كان فيها النبي والمسلمون الأوائل ، وكان على رسالة الإسلام أن تتغير وتتكيف تبعا لذلك ، لقد كتبت الفصول الأولى من تاريخ المسلمين لمعالجة الارتباكات المعاصرة.

كيف يمكن للمسلمين تطبيق رؤى النبي وممارساته في أزمانهم؟

فحينما يقص كتاب السيرة الأوائل قصة حياته إنما يحاولون شرح بعض من أجزاء القرآن عبر إعادة إنتاج السياق التاريخي الذى تنزلت فيه آيات بعينها على محمد وعبر فهم ما استحثه تعليم قرآني معين يمكنهم الربط بينه وبين مواقفهم عبر وسائل عملية منضبطة من القياس التناظري.

إن مفكري ومؤرخي العصر يؤمنون بأن التعرف على نضال النبي ليسمع كلمة الله في القرن السابع سيساعدهم على الحفاظ على روحه في زمنهم. من البداية لم تكن الكتابة عن النبي محمد مجرد تعقب لآثاره ، الأمر الذي يستمر إلى اليوم.

بعض من المسلمين يؤسسون لأيديولوجياتهم «الجهادية» على حياة محمد. إذ يؤمن المتطرفون المسلمون أن النبي سيغفر لهم وحشيتهم ويعجب بهم. بينما مسلمون آخرون ينكرون هذه الادعاءات ويشيرون إلى التعددية الكبيرة في القرآن والتي تشجب العدوان وهم يرون أن كل الأديان الهادية مصدرها الله الواحد.

لدينا تاريخ طويل من «الاسلاموفوبيا» في الثقافة الغربية والتي يرجع تاريخها إلى الحروب الصليبية .في القرن الحادي عشر حيث أصر الرهبان المسيحيون أن الإسلام دين عنف انتشر بالسيف وأن محمداً كان دجالا[٢] فرض دينه على العالم مناوئ له بقوة السلاح . وقد أطلقوا عليه الداعر والمنحرف جنسيا . هذا السرد المشوه لحياة النبي أصبح من الأفكار التي تلقاها الغرب ودائما ما وجد الغربيون صعوبة في رؤية محمد في ضوء موضوعية أكبر.

استمر أعضاء اليمين المسيحي في الولايات المتحدة وشرائح أخرى من الميديا الغربية - منذ انهيار برجي التجارة العالمي في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ - في عدائهم التاريخي وادعوا أن محمداً كان مدمنا للحرب إدمانا غير قابل للعلاج، وبعضهم ذهب إلى أبعد من ذلك بادعاء أن محمد إرهابي ومولع جنسيا بالأطفال .

ولا يمكننا أن نساير أكثر هذا النوع من التعصب إذ سيكون ذلك منحة للمتطرفين الذين يمكنهم استخدام هذه العبارات لإثبات أن العالم الغربي يشن حروباً صليبية جديدة ضد العالم الإسلامي. فالحقيقة أن محمدا لم يكن رجل عنف ولابد أن نقترب من حياته بشكل متوازن من أجل تقدير إنجازاته المعتبرة . إن تشجيع تحيزات غير دقيقة تفسد التسامح والحرية والرحمة والتي يفترض أنها تميز الثقافة الغربية.

لقد وصلت لهذه القناعة منذ ١٥ عاما بعد فتوى آية الله الخميني التي حكمت على سلمان رشدي وناشر روايته بالموت لما تم اعتباره تقديم لشخصية محمد بشكل مسيء في روايته «آيات شيطانية». لقد بغضت هذه الفتوى ورأيت أن من حق سلمان رشدي نشر ما يروق له ولكن أزعجتني الطريقة التي انحرف بها مؤيدو رشدي الليبراليون من إدانة الفتوى إلى شجب ورفض متزايد للإسلام نفسه الأمر الذي لا يمت بصلة لحقائق الأمور.

يبدو من الخطأ الدفاع عن مبدأ ليبرالي عبر إحياء تحيز قروسطي ، إننا لم نتعلم شيئا من مأساة الثلاثينيات حينما جعل مثل هذا النوع من التعصب قتل ٦ ملايين يهودي على يد هتلر أمرا ممكنا . أدركت وقتها أن الكثير من الغربيين لم تسنح لهم الفرصة لمراجعة انطباعهم عن محمد ولذلك قررت كتابة رواية سهلة الفهم والانتشار لحياته لتتحدى وجهة النظر الحصينة تلك. وكان نتاج ذلك كتاب «محمد: سيرة النبي»(Muhammad: A Biography of the Prophet, ١٩٩١) والذي نشر لأول مرة في ١٩٩١ ولكننا نحتاج بعد ١١ سبتمبر إلى التركيز على جوانب أخرى من حياة محمد ولذلك فهذا كتاب جديد ومختلف تماما ، وآمل أن يخاطب بشكل أكثر مباشرة الحقائق المروعة في عالمنا ما بعد ١١ سبتمبر.

لدى محمد - كشخصية نماذجية- دروس هامة ليس فقط للمسلمين بل وللغربيين أيضا . لقد كانت حياته:جهادا ؛ ويجب علينا أن نفهم أن هذه الكلمة لا تعني «الحرب المقدسة» كما تم الترويج لها هنا وإنما تعني «الكفاح» ، لقد بذل محمد الكثير من المجهود ليجلب السلام إلى الجزيرة العربية التي مزقتها الحروب، إننا بحاجة إلى أناس على استعداد لفعل ذلك اليوم.

لقد أدرك محمد أن الجزيرة العربية كانت تمر بنقطة تحول وأن الطريقة القديمة في التفكير لن تفي بمطالب هذا التحول ولهذا فقد أضنى نفسه عبر طرق إبداعية ليخرج بحلول جديدة تماما . إننا ندخل لحقبة تاريخية جديدة في ١١ سبتمبر وعلينا أن نجتهد بدأب مساو لنخرج بمنظور مختلف.

الغريب أن الأحداث التي وقعت في الجزيرة العربية في القرن السابع تحمل لنا الكثير من الدروس للأحداث التي تقع في أيامنا بل وأكثر من ذلك عبر فهم دلالتها البينة الأكثر وضوحا من طنطنة السياسيين . لم يحاول محمد فرض عقيدة دينية - فهو لم يكن مهتما كثيرا بالميتافيزيقا - ولكنه كان مهتما بتغيير عقول وقلوب الناس.

لقد أطلق محمد على الروح الغالبة على عصره «الجاهلية» وعادة ما يفهم المسلمون ذلك على أنه يعني «زمن الجهل» وهي تلك الحقبة التي سبقت المعرفة بالإسلام في الجزيرة العربية . ولكن- وكما أشار البحث الحديث- استخدم محمد مصطلح الجاهلية لا للإشارة إلى حقبة تاريخية ولكن إلى حالة ذهنية تسبب العنف والإرهاب. ▩

هامش

(*) يستدعي العنوان الذي اختارته «كارين أرمسترونج» لكتابها عن النبي محمد شعارا ارتفع في أجواء مأزومة خلال الحرب العالمية الثانية، ففي العام ١٩٣٨ وصل «نيفل شامبرلين» Neville Chamberlain إلى المملكة المتحدة ومعه الاتفاقية الموقع عليها هتلر والتي تنص على عدم رغبة هتلر في الدخول في حرب مع بريطانيا ، وقتها رفع شامبرلين شعار It is Peace for Our Time ليحتفى به لأنه جلب السلام لأوروبا بتوقيع اتفاقية عدم الاعتداء مع ألمانيا.

(١) النيرفانا لفظ يستعمل لوصف حالة التيقظ التي تخمد معها العوامل التي تسبب الآلام (الشهوة، الحقد، الجهل) .

(٢) آثرنا أن نلتزم في ترجمتنا بالنص الأصلي رغم ما قد يكون فيه من تجاوز لا نقبله في الألفاظ (المترجم)

كاريـن أرمستــرونـج
الراهبة الهاربة



يعرفها البعض بأنها «الراهبة الهاربة» التي تركت حياة الدير لا لتفقد اهتمامها بالشأن الديني وإنما لتدلف إليه مرة أخرى عبر بوابة البحث في مقارنة الأديان وتصبح واحدة من أهم مقدمي سيرة رسول الله محمد لمجتمعها الغربي، تلك الأهمية التي لا تقتصر على خلفيتها المعرفية والأكاديمية ولكن تمتد إلى الأسباب التي دفعتها للكتابة عن سيرة رسول الله وعلى رأسها ضرورة «أن تمد القارئ الغربي بنظرة واضحة - يحجبها الغموض والخلط الفلكلوري - عن رجل كان نبيا بشرا .. غير من التاريخ الإنساني ويستمر - حتى هذا اليوم- في العمل كمصدر إلهام لمزيد من الناس». لقد تمنت كارين أرمسترونج عبر كتابتها عن سيرة محمد أن تساعد الغرب في فهمه للدين الإسلامي الذي تراه ينتشر عبر العالم.

ولدت كارين أرمسترونج في ١٤ نوفمبر ١٩٤٤ بإنجلترا لأسرة من أصول ايرلندية، والتحقت بجمعية «يسوع الطفل المقدس» للعمل كراهبة ١٩٦٢ - ١٩٦٩ضمن نظام تعليمي وتقدمت في عملها كراهبة مبتدئة ليتم إرسالها إلى كلية «سانت آن» في جامعة «أوكسفورد» حيث درست الأدب الإنجليزي، تركت أرمسترونج الدير في سنى دراستها معترفة بأنها لم تستطع أن تفي بمطالب حياة الرهبانية والتي كانت قد اختارتها .. تلك الحياة التي وصفت ضيقها ومحدودية الخبرات التي تمنحها في كتابها «عبر البوابة الضيقة» Through the Narrow Gate (١٩٨٢) لتكسب بذلك عداء الكثير من البريطانيين الكاثوليك رغم تصدر كتابها هذا قائمة الكتب الأكثر مبيعا في بريطانيا.

بعد تخرجها بدأت في العمل على إنهاء رسالتها للدكتوراة من جامعة أوكسفورد واستمرت في عملها حتى درست في جامعة لندن ولكن أطروحتها للدكتوراه رفضت على يد ممتحن خارجي لتترك المجال الاكاديمي قبل أن تكمل رسالتها للدكتوراة. . وفي العام ١٩٧٦ أصبحت مدرسة للغة الإنجليزية في مدرسة للبنات إلا أن وضعها الصحي حال بينها وبين الانتظام في عملها بالتدريس الذي تركته عام ١٩٨١.

وبتصدرها لمكانة مميزة في الحياة المعرفية والأدبية عبر كتاباتها دعتها القناة الرابعة في لندن عام ١٩٨٤ لعمل سلسلة من الافلام التسجيلية من ٦ أجزاء عن حياة وأعمال سان باول Saint Paul.

وكانت تلك نقطة تحول في حياة «أرمسترونج» المعرفية على أكثر من مستوى كان أبرزها أن العمل من أجل هذا الفيلم التسجيلي دفعها لأن تعود مرة أخرى للبحث في شئون الدين بالرغم من هجرها للعبادات الدينية بعد تركها للدير.

لقد اطلعت«أرمسترونج» بكثافة على «الأديان الابراهيمية الثلاثة» وهو أمر كانت قد بدأته خلال السنوات السبع التي قضتها في حياة الرهبانية والتي ضمت سنوات دراستها في اكسفورد، لم يقف أثر تجربة الفيلم التسجيلي عند هذا الحد إذ أن هذا التكليف استلزم سفر «أرمسترونج» إلى القدس عدة مرات وهناك بدأت في الملاحظة وطرح الأسئلة على من تعمل في أوساطهم.

كانت زيارتها الأولى إلى «إسرائيل» أثناء غزو لبنان في ١٩٨٢ ووقوع مذبحة صبرا وشاتيلا أما زيارتها الثانية فجاءت أثناء الانتفاضة الفلسطينية.

وعن هذا تقول: «لقد صدمني أن أسمع الاسرائيليين لا يدافعون فقط عن قتل الصغار الذي لا حول لهم ولا قوة بل ويعملون أيضاً على تسويغ هذا الأمر».

تضيف كارين عن هذه الفترة: «كنت في القدس حين سمعت مضيفي من الإسرائيليين يشيرون إلى العرب والدين الإسلامي بأكثر التعبيرات ازدراءً، لم أصدق - وأنا التي نشأت أستنكر فظائع الهولوكوست - كيف لأناس عانوا الكثير من الاضطهاد أن يتورطوا في مثل هذا النوع من العنصرية».

«كل هذا أتى لينبهني إلى أن أرى جانبا آخر من القصة عبر زيارة مناطق المسلمين في القدس، ومن هنا أدركت أن ثمة شيئا ما تم حذفه عمدا في أوروبا وربما في أمريكا أيضا وأن الشرق الأوسط والإسلام بحاجة لأن يتم تقديمهما بالشكل الصحيح بعد أن لطخت المبالغات والتشويهات صفحات تاريخ الكتابة عنهما في الغرب».

وكنتيجة لزيارتها للقدس واجهت أرمسترونج حالة جادة من التساؤل والأرق: «لقد أقلقني أن وعيا جديدا بدأ يقوض ما خبرته ونشأت عليه من ثقافة غربية متسقة ونظام قيمي ارتبط بتلك الثقافة»، وتضيف: «إننا نقدم مجتمعنا كمجتمع متسامح ورحيم ومع ذلك فإننا نصدر أحكاما من مواقع شديدة الجهل وتخلو من العقلانية».

كانت هذه هي الفترة التي بدأت خلالها «أرمسترونج» في اقتفاء أثر ما وصفته بالحكمة جديدة وتعيد البحث في مسائل اليهودية والمسيحية والإسلام. وحتى هذا الوقت كانت مصادر «أرمسترونج» الروحية والفكرية هي تعاليم الكنيسة والروافد التقليدية للإعلام والأكاديمية الغربية وقد أشارت أرمسترونج أن جميعها تعرض المسيحية واليهودية في ضوء أفضل بينما تعطي صورا سلبية لكل ما يتعلق بما هو عربي أو إسلامي.

من هنا جاء تركيز «أرمسترونج» الأساسي على أبناء حضارتها الغربية لتمدهم بفهم أفضل للإسلام ونبيه ومن ثم فقد قامت بتمشيط المكتبات واطلعت على أعمال مدارس مقارنة الاديان وحضرت الحلقات الدراسية لتعثر على ثروة من الكنوز البحثية والاعمال المفيدة إلا أنها لم تجد شيئا يناسب القارئ العادي الذي لم ينشأ في ظل الثقافة الإسلامية بما حثها على التفكير في تقديم جوانب من الدين الإسلامي وسيرة رسول الله بصورة تناسب القارئ الغربي العادي.

وكان من ضمن الاحداث التي دفعتها للكتابة عن حياة نبي الله «محمد» قضية سلمان رشدي وكتابه «آيات شيطانية» الذي استقبل بموجات من الغضب من قبل المسلمين لما اعتبر إساءة إلى رسول الله وآل بيته، وبينما استاءت «أرمسترونج» من تلك الفتوى التي

الترجمة بتصرف عن:

1. Karen Armstrong: A Profile in Literary Diversity, Washington Report on Middle East Affairs, February, ١٩٩٣
2. Karen Armstrong, Wikipedia, Free Online Encyclopedia
3. The Modern Library, Randomhouse (http://www.randomhouse.com/modernlibrary/karmstrong.html)

أصدرها الإمام الخميني والتي قضت بإباحة دم «سلمان رشدي» وناشر كتابه ولكن في الوقت ذاته لم يرق لها الطريقة التي تم بها التعامل مع قضية سلمان رشدي ومناقشتها في إنجلترا فتقول: «هؤلاء الصليبيون الجدد يدافعون عن الحق في حرية التعبير ولكن من موقع الجهل، لقد احتجوا على حرق آيات شيطانية كما لو كان المسيحيون لم يشعلوا حريقا من قبل في كتب اختلفوا مع محتواها ، لقد اضطررت أن أسأل أصدقائي لماذا قوانين الكفر والتجديف لا تطبق- في بريطانيا - إلا فيما يتعلق بالمسيحية فقط».

وسط هذه الاجواء من فقدان الوعي والتوتر الفكري قررت «أرمسترونج» سنة ١٩٩١ أن تكتب سيرة النبي محمد خصيصا للقارئ الغربي، وقد رأت آنذاك أن إسهامها وثيق الصلة بأن أنصار الشيوعية قد وضعوا أسلحتهم - في ذلك الوقت - وأن القلعة السوفيتية تهافتت بما يشير لمزيد من الإحياء الديني على جانبي الاطلسي وهو أمر يبعث - في رأيها - على ضرورة وجود توافق أكبر بين التراث المسيحي اليهودي والدين الابراهيمي الثالث: الاسلام.

ويتضح أن هناك مفهوما مركزيا في قراءة «أرمسترونج» للتاريخ وهو امتلاك الثقافات ما قبل حداثية لطريقين اثنين - متكاملين ولاغنى عنهما للتفكير والتحدث والمعرفة - وهما الأساطير والرموز.

ترى «أرمسترونج» أن الأساطير تتعلق بالمعنى .. إنها تمد الناس بالسياق الذي يعطي معنى لحياتهم اليومية وتوجه انتباههم إلى الأبدي والكوني أما الرموز فهي تتعامل مع الأمور العملية . وتجادل أرمسترونج في أن المجتمع الغربي فقد حسه بالأساطير والرموز إذ تنازل الغرب عن سلطة الروايات الأسطورية والطقوس والمعاني الملحقة بهم لصالح كل ما هو عقلاني براجماتي علمي ولكن ذلك لم ينجح - في رأيها - في تخفيف الألم الإنساني ولم يستطع تقديم إجابة حول القيمة العليا للحياة الإنسانية.

انطلاقا من هذا الفهم قدمت«أرمسترونج» مفتاحا لفهم الحركات الأصولية ونشأتها ورأت أنه لا يوجد شيء خاص بصعود الأصولية في أجزاء من العالم الإسلامي، ووصفت الأصولية بأنها «رد فعل عالمي على إرهاق الحياة المعاصرة ولا سبيل لربطها بالعالم الإسلامي»، وبعيدا عن الرفض الشامل للحداثي لصالح القديم - الذي يبدو أكثر توازنا - ترى «أرمسترونج» أن الأصولية وليدة الحداثة وأن الأصوليين هم حداثيون بالأساس.

داليا يوسف

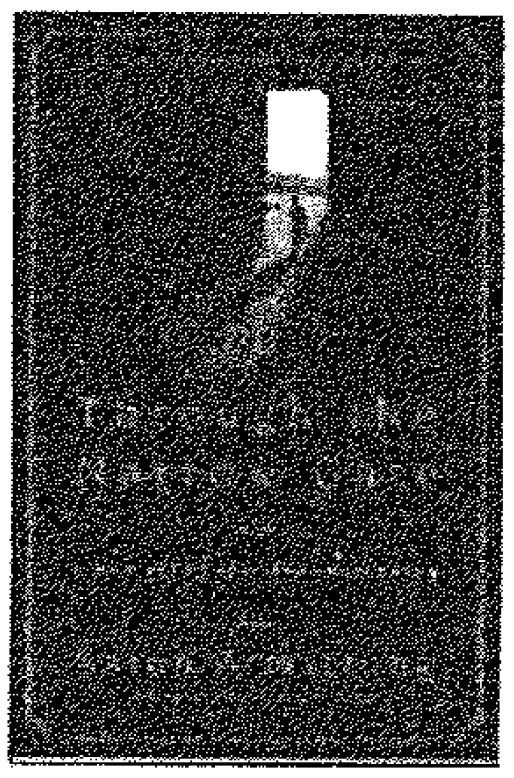
مؤلفات الكاتبة.. مرتبة زمنيا

Karen Armstrong, Bibliography

1. Through the Narrow Gate (1981), ISBN 0-333-31136-1
2. Beginning the World (1983), ISBN 0-333-35017-0
3. The First Christian: Saint Paul's Impact on Christianity (1983), ISBN 0-330-28161-5
4. Tongues of Fire: An Anthology of Religious and Poetic Experience (1985), ISBN 0-670-80878-4
5. The Gospel According to Woman: Christianity's Creation of the Sex War in the West (1986), ISBN 0-241-11449-7
6. Holy War (1988), ISBN 0-333-44544-9
7. Muhammad: A Western Attempt to Understand Islam (1991), ISBN 0-575-05012-8
8. The English Mystics of the Fourteenth Century (1991), ISBN 1-85626-023-2
9. A History of God: From Abraham to the Present, the 4000 Year Quest for God (1993), ISBN 0-434-02456-2
10. The End of Silence: Women and the Priesthood (1993), ISBN 1-85702-145-2
11. In the Beginning: A New Interpretation of Genesis (1996), ISBN 0-00-628014-5
12. Jerusalem: One City, Three Faiths (1996), ISBN 0-00-255522-0
13. The Battle for God: Fundamentalism in Judaism, Christianity and Islam (2000), ISBN 0-00-255523-9
14. Buddha (2000), ISBN 0-297-64625-7
15. Islam: A Short History (2000), ISBN 0-297-64372-X
16. Faith After September 11th (2002), ISBN 90-807191-1-0
17. The Spiral Staircase (2004), ISBN 0-00-712228-4
18. A Short History of Myth (2005), ISBN 1-84195-644-9
19. The Great Transformation: The World in the Time of Buddha, Socrates, Confucius and Jeremiah (2006), ISBN 1-903809-75-4

o published in the U.S. as The Great Transformation: The Beginning of Our Religious Traditions (2006), ISBN 0-375-41317-0

كــــارين أرمســـترونج



Through the Narrow Gate

(عبر البوابة الضيقة)

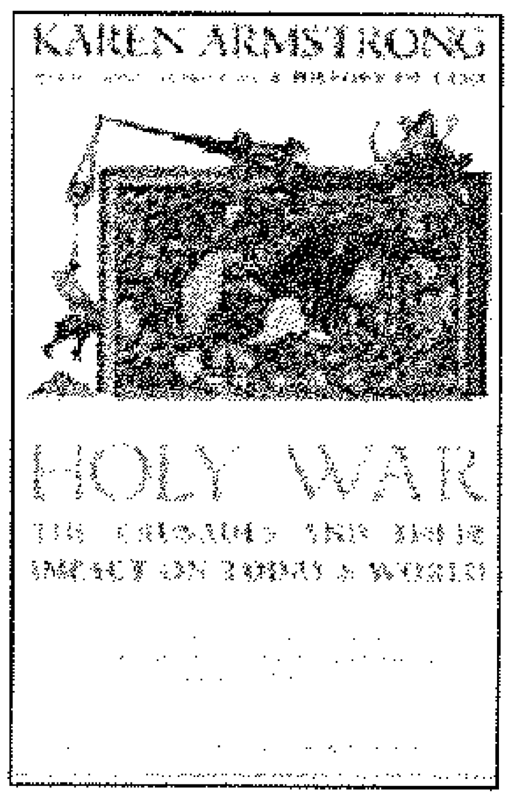
Karen Armstrong

St. Martin's Griffin, 2005, 304PP, 13.95 $

السيرة الذاتية التى كتبتها «كارين آرمسترونج» عن حياتها بالدير الكاثوليكى كراهبة لسبع سنوات كاملة بدءا من سن السابعة عشرة، وقصة بحثها المستمر عن الله.

فى أوائل الستينيات وفى السابعة عشرة من عمرها، التحقت «كارين آرمسترونج» بدير كاثوليكى كراهبة بحثا عن الله وهروبا من الحياة المدنية، ولكنها بعد سبع سنوات أحست بأن تلك الحياة لا تستهويها، وشعرت بعدم إيجادها لله بعد.

الكتاب يسرد تفاصيل حياتها داخل الدير، ومحاولاتها المستمرة فى البحث عن الله.



Holy War: The Crusades and Their Impact on Today's World

(الحرب المقدسة: الحملات الصليبية واثرها على العالم اليوم)

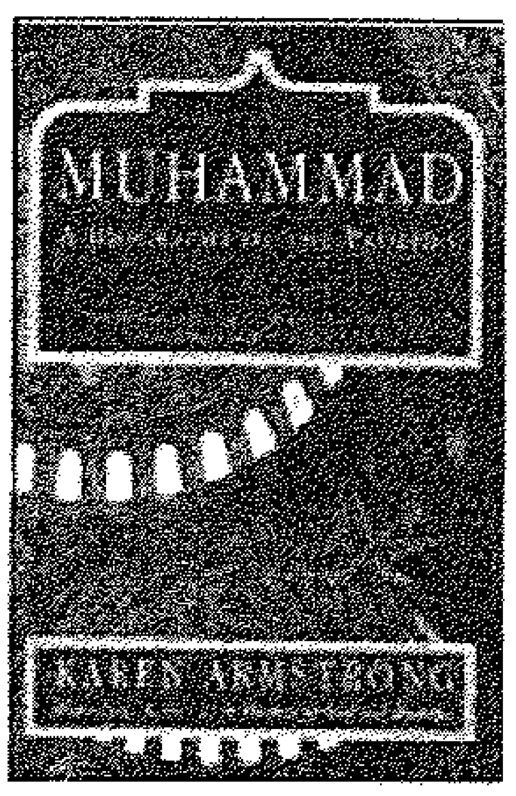
Karen Armstrong

Anchor, 2001, 672PP, 17.00 $

فى نهاية القرن العاشر، دعا البابا «أوربان» المحاربين المسيحيين إلى نصرة الصليب ومحاربة العثمانيين الذين كانوا قد أحكموا سيطرتهم على شرق أوروبا، كما دعاهم إلى استعادة المدينة المقدسة، مدينة القدس من أيدى المسلمين، لتبدأ بتلك الدعوة سلسلة من النزاعات الوحشية سمت بالحروب الصليبية، والتى وصلت لسبع حروب امتدت لما يقرب من مائة وخمسين عاما.

الحروب الصليبية كانت أول ما وحد الأوروبيين نحو عدو مشترك، وكانت بداية لظهور العنف الدينى الذى تطور بعد هذا ليصبح صراعا بين اليهودية والمسيحية والإسلام.

الكاتبة تصل بتأثير الحروب الصليبية إلى العصر الحديث مؤكدة أن قيام الدولة الإسرائيلية والحرب على العراق ما هما إلا امتداد لتلك الحروب الصليبية التى رسخت معانى العنف الدينى.



Muhammad: A Biography of the Prophet

(محمد «صلي الله عليه وسلم»: سيرة نبي)

Karen Armstrong

Harper San Francisco, 1993, 288PP, 15.00 $

فى مسعى دقيق لفهم الإسلام ونبيه، ومحاولة لدحض الصور التى لصقت بالإسلام سواء أنه انتشر بحد السيف قديما، أو ارتباطه بالإرهاب حديثا، يأتى هذا الكتاب الذى يعرض السيرة الذاتية لمحمد (صلى الله عليه وسلم).

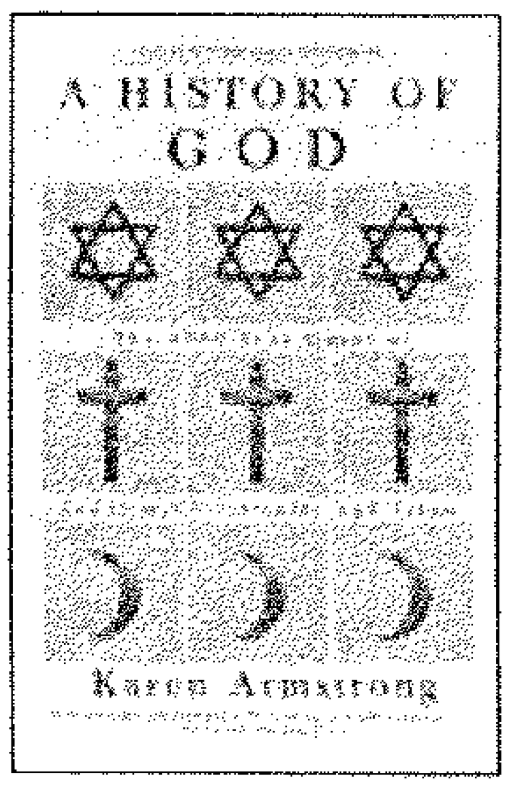
الكتاب موجه للقارئ الغربى، المحاط بالعديد من الأكاذيب حول الإسلام ونبيه، و«آرمسترونج» هنا تحاول الوصول بالقارئ إلى الحقيقة وإلقاء الضوء على حقيقة الإسلام كدين توحيدى يتفق عليه ما يقرب من مليار شخص حول العالم.

تؤكد الكاتبة أن الإسلام دين سمح يدعو إلى السلام ولم ينتشر بحد السيف كما يقال عليه، كما تؤكد على ضرورة فهم الطبيعة القبلية التى ظهر فيها الإسلام

كــــــــارين أرمســـــــترونج

قبل الحكم على تصرفات نبيه بالبربرية، وتهاجم الكاتبة كتاب «سلمان رشدي» آيات شيطانية مؤكدة أن إنكار الإسلام يعتبر عنادا لا مبرر له.

تتعرض أيضا الكاتبة إلى مفهوم الجهاد في الإسلام، الذي تعرض أيضا بدوره إلى اللغط الشديد، وتعرفه الكاتبة بأنه واجب كل مسلم أن يكافح من أجل مجتمع محترم وعادل.



History of God: The 4,000-Year Quest of A Judaism, Christianity and Islam

(تاريخ الله: ٤٠٠٠ عام من البحث، اليهودية والمسيحية والإسلام)

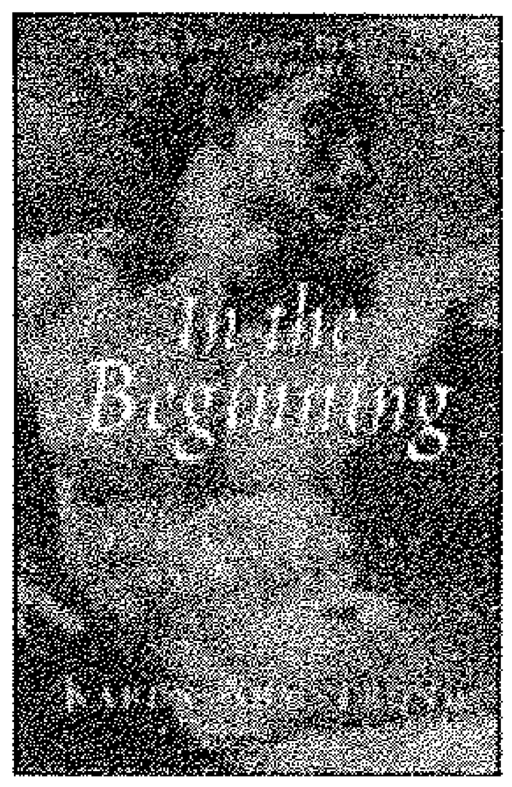
Karen Armstrong

Ballantine Books, 1994, 496PP, 15.95 $

بالرغم من تركها لحياة الراهبات في آخر الستينيات، إلا أن شغفها بالدين لم يهدأ، في كتابها (تاريخ الله) تحكي لنا «أرمسترونج» قصة ٤٠٠٠ سنة من التوحيد، وتؤرخ مساعي البحث عن الله التي بدأت باليهودية وانتهت بالإسلام.

ما طبيعة الله؟، ما صفاته؟، أين هو؟، محاولات عديدة لإيجاد إجابات أرسطو وأفلاطون، مفكرين وحاخامات يهود، فلاسفة مثل ديكارت وهيغل وكانط، علماء مسلمون ابن سينا والفارابي والأشعري والحلاج، وصولا إلى الأفغاني ومحمد عبده.

بحث روحاني مدهش في ماضينا، وتأريخ جديد لإدراك الإنسان وجود إله واحد، وتحليل للأديان الثلاثة التوحيدية، والترابط بينهم في فكرة التوحيد، ودراسة مقارنة بينهم.



In the Beginning: A New Interpretation of Genesis

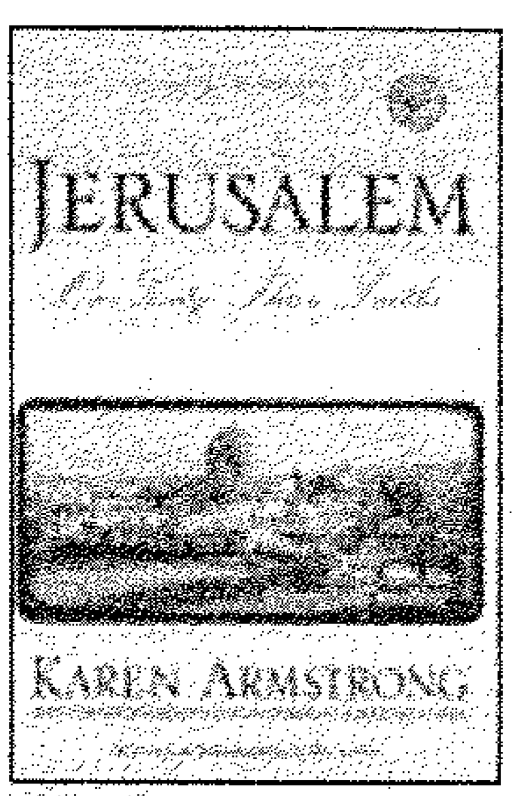
(في البداية: تفسير جديد لسفر التكوين)

Karen Armstrong

Ballantine Books, 1997, 208PP, 14.00 $

سفر التكوين هو أول أسفار التوراة، وهو يتحدث عن كيفية خلق الله للكون والإنسان، واختيار الله للنبي نوح لينقذ البشرية من الطوفان، ثم قصة إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وصولا إلى قصة يوسف ووصوله إلى أرض مصر لينتهي السفر بوفاة يوسف.

الكتاب يقدم قراءة جديدة مثيرة للجدل لسفر التكوين، وتفسيرا مختلفا له.



Jerusalem: One City, Three Faiths

(القدس: مدينة واحدة وثلاث عقائد)

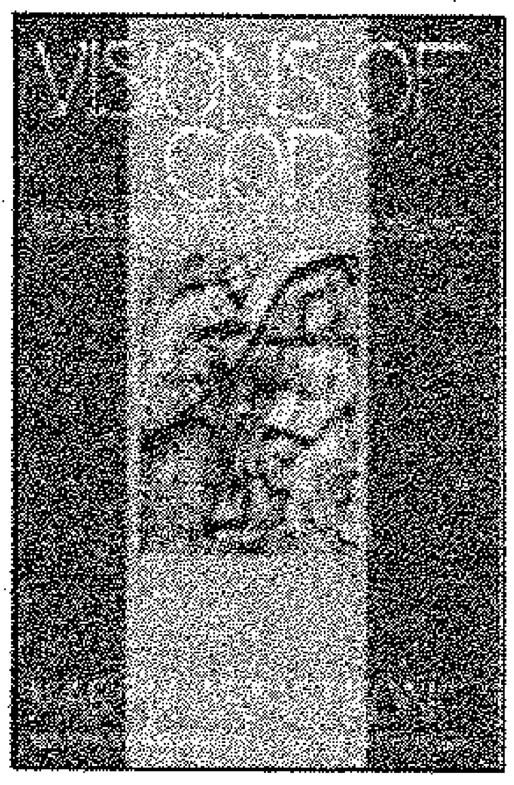
Karen Armstrong

Ballantine Books, 1997, 512PP, 17.95 $

الكتاب يدور حول تاريخ القدس، تلك المدينة المقدسة التي قدستها الأديان السماوية الثلاثة، واعتبرتها مكانا للعبادة، عبر طريق من أربعة آلاف عام، تقودنا «أرمسترونج» في رحلة عبر تاريخ القدس، من عهد الأسر البابلي، وهدم المعبد اليهودي، والاحتلال الروماني، مرورا بالفتح الإسلامي، والحملات الصليبية، ثم العهد العثماني، وصولا إلى قيام الدولة الإسرائيلية، والصراع العربي الإسرائيلي الحالي.

للقدس تاريخ دام لا تنافسها فيه أي مدينة أخرى، فهناك أنهار من دماء أريقت في سبيلها، وتفسر الكاتبة هذا بأن الفاتحين كانوا دوما لا يعترفون بأحقية أسلافهم في المدينة المقدسة، ويعتبرونها مدينتهم فقط، مما يعتبر فشلا في تطبيق مبادئ المحبة والسلام التي نادت بها وقامت عليها الأديان الثلاثة.

الكتاب أكثر من ساحر، وملىء بالمعلومات التاريخية المذهلة عن تاريخ المدينة المقدسة.



Visions Of God: Four Medieval Mystics and Their Writing

(رؤى الإله، أربعة صوفيين من القرون الوسطى وكتاباتهم)

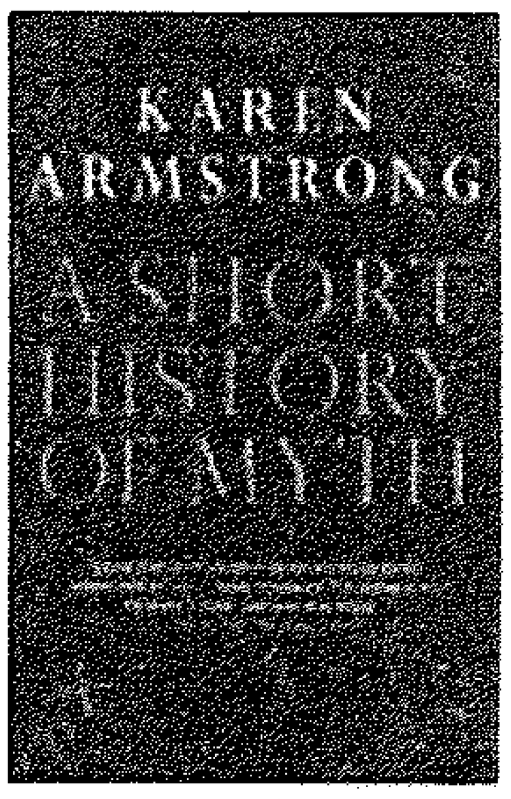
Karen Armstrong

Bantam, 1994, 256PP, 19.00 $

يتضمن هذا الكتاب مختارات من كتابات أربعة متصوفين إنجليز من القرن الرابع عشر (ريتشارد رول، والتر هيلتون، وجوليان النرويتشية، وكاتب مجهول).

الكتاب يتضمن تعليقات لكارين آرمسترونج توضح فيها خلفيات تاريخية حول تلك الحقبة وآراء شخصية لها حول تلك الكتابات.

الكتابات تجربة روحية فريدة تغوص داخل النفس البشرية الباحثة عن الإيمان، لذا شبهت «أرمسترونج» الكتاب الأربعة برواد الفضاء الذين اقتحموا دينا جديدا، ليصلوا إلى الله وإلى أعماق النفس البشرية.



Short History of Myth A

(مختصر تاريخ الأسطورة)

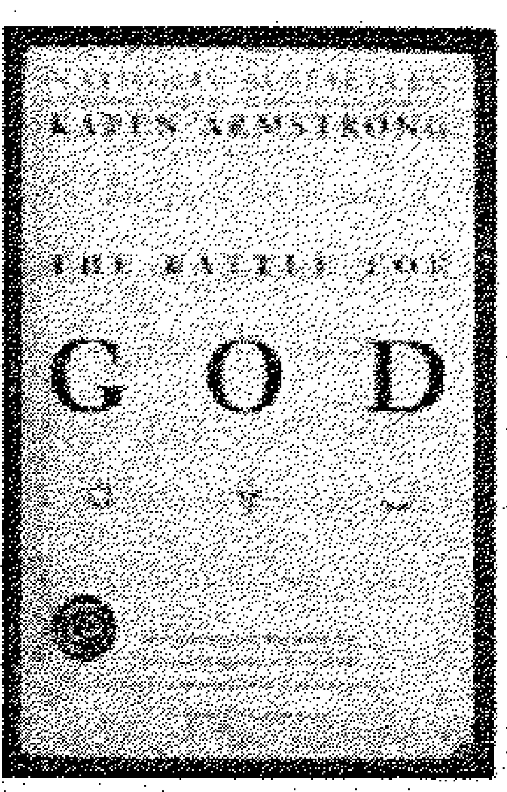
Karen Armstrong

Canongate U.S., 2006, 176PP, 12.00 $

الأساطير تجسد التاريخ والتراث الإنساني، وفي هذا الكتاب تتعرض «كارين آرمسترونج» لعلم الأساطير، ساردة التطور الذي طرأ على الأساطير، وبخاصة في الخمسة قرون الأخيرة التي شهدت التطور العلمي الرهيب.

ترى الكاتبة أن تأريخ الأسطورة هو تأريخ للإنسانية، فالأساطير ما هي إلا قصص ومعتقدات إنسانية، ومحاولات لفهم العالم والكون.

الكتاب يستعرض العديد من الأساطير الأكثر شهرة بالعالم، محللا أسباب ظهورها، وارتباطاتها الدينية المختلفة، وجوانبها الروحية والتثقيفية المختلفة.



The Battle for God

(الحرب من أجل الرب)

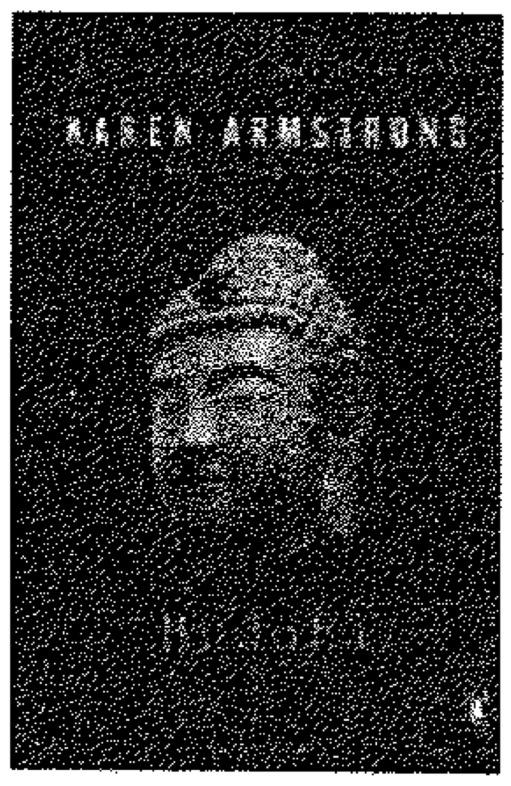
Karen Armstrong

Ballantine Books, 2001, 480PP, 14.95 $

في عالم علماني يُحكم بالتكنولوجيا والمنطق، ظهرت الأصولية كقوة ساحقة في كل دين في العالم، فلماذا؟، إجابة هذا السؤال هو ما يدور حوله هذا الكتاب (الحرب من أجل الرب)، موضحا أسباب انتشار الفدائية والعنف الديني كظاهرة انتشرت في تلك الأيام.

الكاتبة ترى أن الأصولية ليست كما يعتقد الأغلبية، ارتدادا إلى الشكل القديم للدين، لكنها بالأحرى رد فعل طبيعى على الأزمة الروحية التى نعيشها فى العالم الحديث، فانهيار التقوى إبان عصر النهضة جعل أصحاب الإيمان يتشبثون بأى طريقة للتدين، مما أدى إلى ظهور الأصولية.

فى كتابها، تركز «آرمسترونج» على ثلاثة نماذج للأصولية تتبع الثلاثة أديان الرئيسية، البروتستانتية فى أمريكا، والأصولية اليهودية فى إسرائيل، والأصولية الإسلامية السنية فى مصر والشيعية فى إيران، مستكشفة كيف تطورت كل منها لتنتج طريقتها الفريدة لمحاربة الحداثة.



Buddha

(بـــوذا)

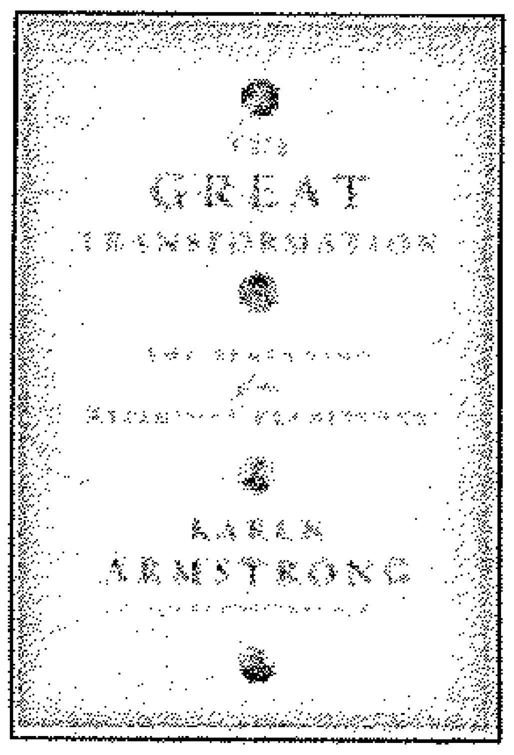
Karen Armstrong

Penguin, 2004, 240PP, 13.00 $

الكتب عن البوذية كثيرة جدا، وعلى الرغم من هذا ظلت سيرة بوذا نفسه غامضة بالرغم من تأثيره المستمر لخمسة وعشرين قــرنا، «آرمستـرونج» تقلب فى الكتب المقدسـة البوذية القديمـة، والسير الذاتية القديمـة، لتجمع تـلك السيرة الذاتية الغنية عن بوذا.

فى سن التاسعة والعشرين، انضم السيد «سيدهارثا غاوتاما» إلى مجموعة من الرهبان الباحثين عن التنوير الروحى، وترك منزلة وحياته ليعيش فى زهد وتقشف، باحثا عن حقيقة الكون وعن الروح، ثم ممضيا ٤٥ عاما فى الدعوة وتعليم الناس الوصول إلى الروحانية.

توفى بوذا فى سن الثمانين تاركا عددا قليلا من الأتباع، ولكنه بمرور الزمن يزداد عدد أتباع البوذية لتظل كديانة عالمية يدين بها الكثيرون.



The Great Transformation: The Beginning of Our Religious Traditions

(التحول العظيم، بداية تعاليمنا الدينية)

Karen Armstrong

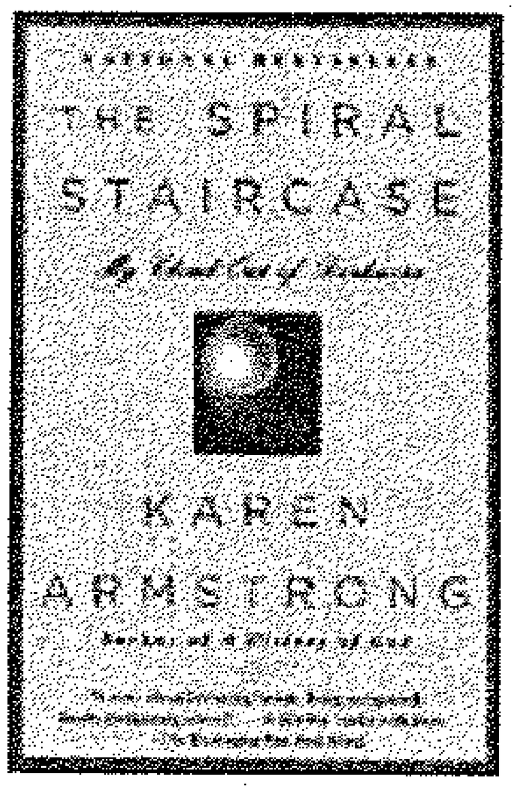
Knopf, 2006, 496PP, 30.00 $

فى (التحول العظيم) تتعرض (آرمستـرونج) لفترة عرفت بالعنف والحروب، كما كانت أيضا بداية لتحول دينى عظيم فى تاريخ البشرية، سبعة قرون كاملة استمرت من القرن التاسع إلى القرن الثانى قبل الميلاد.

فى تلك الفترة، نبذا للعنف ومحاولة لإنهاء قرون من الحروب، ظهرت أربعة اتجاهات مختلفة حول العالم، فكانت اليهودية فى الشرق الأوسط، والهندوسية والبوذية فى الهنـد، والكونفوشيـوسية فى الصـين، والمذاهب الفلسفية باليونان.

أربع مناطـق مختلفـة ظهـرت بها تعاليم متشابهة تدعو إلى نبذ العنف وإلى الحـب والإنسـانية ممـا يؤكد الاتجـاه الروحـى الفطــرى للجـنـس البشـرى.

الكتاب يستعرض كيف خلقت الظروف المحيطة بالإنسان الفلسفات والأديان التى اشتركت بنفس المخاوف ومن ثم التعليمات، ويسرد تطور الأربعة اتجاهات كل على حدة والترابط والتشابه بينهم، فى محاولة لفهم الفترة التى شهدت بداية التحول الدينى العظيم فى التاريخ البشرى.



The Spiral Staircase: My Climb Out of Darkness

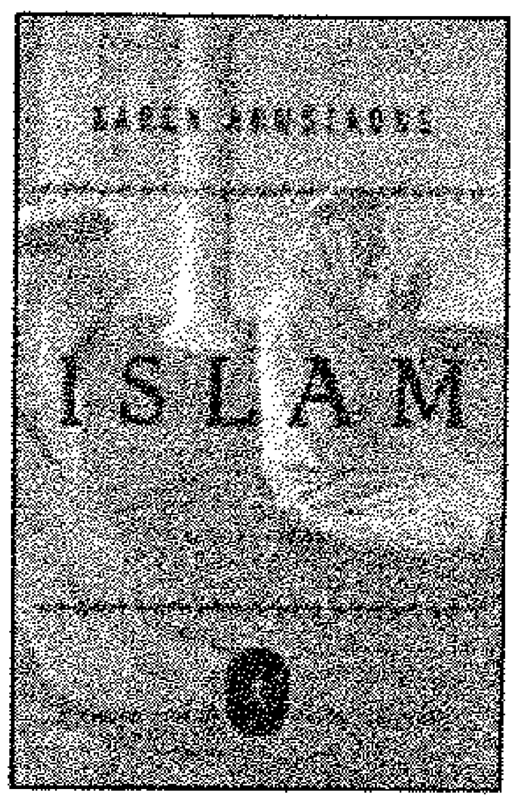
(السلم الحلزوني: خروجي من الظلمة)

Karen Armstrong

Anchor, 2005, 336PP, 14.00 $

سيرة ذاتية أخرى لكارين آرمستـرونج، فبعد كتابهـا الأول (عبر البوابة الضيقة) التى سردت فيه تجـربتـهـا فى الدير وأيامها الأولى بعد خروجها منـه، يأتـى هذا الكتاب ليسرد بتفاصيل أكثر حياتها بعد خروجها من الدير حتـى لحظة كتابة الكـتاب، تتويـج لخبـراتها وكتاباتها.

الكاتبة تحكى عن مرضها الذى لازمها دون أن تجد له تشخيصا لما يقرب من سبع سنوات، وما عانته خلال تلك السنوات، إلى أن شخص مرضها بالصرع عام ١٩٧٦. تحكى أيضا الكاتبة عن اهتمامها وشغفها بالأديان، وقصة نموها الروحى، الذى اكتسبته من الدير ثم من انغماسها فى الأديان.



Islam: A Short History

(الإسلام، تاريخ موجز)

Karen Armstrong

Modern Library, 2000, 272PP, 19.95 $

مسح سريع وشامل لما يقرب من ألف وخمسمائة عام هى تاريخ الإسلام، أكثر الأديان تعرضا للأقاويل وإساءة الفهم، تبدأ الكاتبة فى التعرض بموضوعية إلى السيرة النبوية، وأيام الإسلام الأولى التى شهدت محاولات عديدة لقتله فى مهده من قريش والقبائل العربية، ثم تنتقل الكاتبة إلى الهجرة إلى المدينة والظروف التى أحاطت بها، ثم الغزوات والحروب الإسلامية المختلفة وأخيرا حجة الوداع ووفاة الرسول، لترسم «آرمستـرونج» صورة حقيقية لبداية الإسلام. تنتقل الكاتبة إلى عصور الإسلام الأولى وبدايات انتشار الإسلام فى شمال أفريقيا وأسيا، وهو أيضا مـا صاحبه بدايـات الانشقـاق بين المسلمين إلى فرق سنية وشيعية، وظهور الصوفية، ثم المخاوف الأوروبية من الإسلام التى تبعت بالحملات الصليبية، منتقلة بعد هذا إلى عصور ازدهار الإمبراطورية الإسلامية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

تختم «آرمستـرونج» كتابها بتقييم للإسلام اليوم وعرض لتحدياته.



Muhammad: A Prophet for Our Time

(محمد: نبي هذا الزمان)

Karen Armstrong

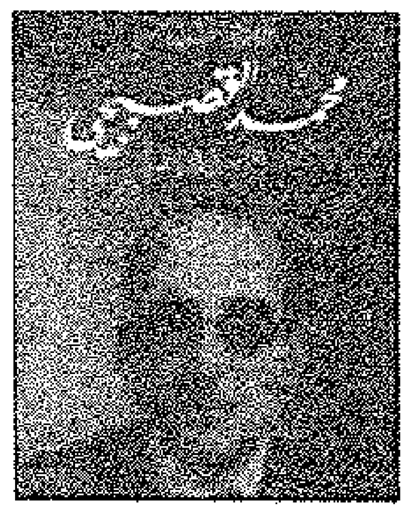
Eminent Lives, 2006, 256PP, 21.95 $

السيـرة الذاتيـة الثـانيـة التـى تـكـتـبـهـا «كـارين آرمستـرونج» حول نبـى الـلـه محمـد(صلـى الله عليه وسلم)، بعد كتابها الأول (محمد: سيرة نبى)، على حد تعبير «آرمستـرونج» فمحمد هو النبى الذى ترك لأتباعه مهمة خلق مجتمع عادل، يعامل كل أفراده بالمساواة، كما تصرف هو أثناء حياته، فمحمد وعلى الرغم من الطبيعة البدوية الصارمة التى ولد وعاش فيها، إلا أنه أبدى تسامحا محمودا تجاه اليهود والمسيحيين. تطرق الكاتبة أيضا لموضوع تعدد زوجات الرسول، وهى تفسر هذا بكونه قائدا كان يعيش فى مجتمع تقام فيه التحالفات عن طريق المصاهرة.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

محمد القصبجى

رتيبة الحفنى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٢٠٠ صفحة



بحسب رغبة والده، فقد كان مقدراً للفنان محمد القصبجى (١٨٩٢ - ١٩٦٦) أن يكون فقيهاً أو عالماً أزهرياً، وقد كان والده متشدداً دينياً وقارئاً للقرآن الكريم، لكن رغبة الأمر التى أرادت لولدها أن يكون «أفندياً» هى التى انتصرت فى النهاية، دعّمتها ميول الطفل نفسه الذى نشأ موهوباً، يعشق الموسيقى والغناء.

ولم يجد أبوه بداً من تشجيعه على هوايته التى ملكت عليه نفسه، واصطحبه مرات لسماع الشيخ سلامة حجازى الذى كان المدرسة التى تلقى فيها القصبجى أصول الغناء فى مرحلة مبكرة من حياته، لكنه مع ذلك واصل مسيرته فى مدرسة المعلمين، وبعد ما حصل على الشهادة وحانت لحظة التعيين، (ادعى الفتى أن بصره ضعيف للغاية فاستبعدوه، ليخلع للأبد العمامة والقفطان ويبدأ مرحلة جديدة من حياته بدءاً من العام ١٩١٧ ومن شارع محمد على بدأ مسيرته الفنية عازفاً على العود خلف هذه العالمة أو تلك: نعيمة شخلع، زوبة الكمسارية، عزيزة كهربة، وغيرهن.

وشيئاً فشيئاً اتجه للتلحين، الذى كان يعانى فى هذه المرحلة المبكرة حالة من الإسفاف والترف، حتى أن القصبجى نفسه لحن للشيخ يونس القاضى - الذى كان فارس هذا اللون من الأغانى الإباحية آنذاك - تلك الأغنية التى تقول كلماتها: بعد العشا يحلى الهزار والفرفشة/ انس اللى فات/ وتعالى بات/ ليلة التلات.. إلخ.

لكن القصبجى سرعان ما ابتعد عن هذا الطريق، وبدأت لقاءاته تتعدد بكبار الملحنين والمطربين، وتغنت بألحانه المطربة فتحية أحمد التى كانت منافسا قويا لأم كلثوم، كما غنت له منيرة المهدية التى عرفت بسلطانة الطرب، وبعدها تعرّف على داود حسنى، ثم بصوت عبدالوهاب ومن بعده أم كلثوم، وكانت انطلاقته الكبرى فى المسرح الغنائى، أما انطلاقته الأكبر، فكانت مع صوت أم كلثوم وكلمات أحمد رامى بدءاً من العام ١٩٢٤، وكان آخر ما غنت أم كلثوم من ألحانه أغنية «رق الحبيب» التى مثلت نقلة نوعية مهمة فى مسيرتها، وبعدها توقفت أم كلثوم عن قبول ألحانه وهو ما أصابه بعقدة نفسية جعلته يتوارى، مكتفيا بدوره عازفا على العود ضمن فرقتها الموسيقية ليحافظ على مورد رزقه الوحيد.

وقد كانت الأيام الأخيرة من حياة القصبجى أيام كد وشقاء، فقد تجاهله الإعلام وانصرف عنه المعجبون، وعانى من عدم الاعتراف به كملحن، وتوفى وحيداً إثر أزمة قلبية.

سيرة القصبجى ومسيرته وأعماله الفنية تحكيها المؤلفة تحت عنوان «الموسيقى العاشق».

■

الجماعة الإسلامية المسلحة فى مصر ١٩٧٤ - ٢٠٠٤

سلوى محمد العوا
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦، ٢٤٦صفحة



يمثل هذا الكتاب أول دراسة علمية فى تاريخ الجماعة الإسلامية فى مصر، وقد بنى على رواية الأحداث عن ستة من قادة الجماعة، من أعضاء مجلس شوراها وقادة جناحها العسكرى السابقين، الذين كانوا فى المعتقلات والسجون حتى وقت قريب، كما أنه يستند إلى روايات يكشف عنها النقاب للمرة الأولى، لرجال الأمن السابقين الذين اشتركوا فى المواجهات مع الجماعة فى مراحل الأحداث المختلفة تخطيطاً وتنفيذاً، إلى أن صدرت عن الجماعة مبادرة وقف العنف.

كما أنه يقوم كذلك على شهادات ومعلومات أدلى بها عدد من السياسيين والإعلاميين والصحفيين والمحامين ورجال القضاء، الذين عاصروا تلك الأحداث بحكم اهتمامهم أو عملهم، أو بحكم صلاتهم الشخصية بقيادات الجماعة، أو عضويتهم السابقة فيها أو فى تنظيمات العنف الأخرى.

وبينت الدراسة أن كلا من الطرفين كان ظالماً وضحية فى الوقت نفسه، وأن هذين العقدين من التطاحن لم يسفرا عن انتصار لأحد، وإنما عن خسائر لا يمكن تعويضها، وإن كان ثمة مكسب وحيد من هذا التاريخ الأليم، فهو ما تشير إليه المؤلفة بأن «النتائج السلبية»، وبعبارة أخرى، فإن نتائج الدراسات أشارت إلى أن أكثر عمليات القتل والقتال التى قامت بها الجماعة الإسلامية فى مصر فى الثمانينيات والتسعينيات لم تكن جهاداً فى سبيل إقامة دولة إسلامية، بقدر ما كانت سجالاً مع عدو سياسى بدا الانتصار عليه فى وقت ما هدفاً مسيطراً على توجهات أفراد الجماعة، وفى الخلاصة تقول المؤلفة إن الجانب الأكبر من تاريخ الجماعة الإسلامية قد تحكمت فيه المصادفات التى تغلب فيها سوء الحظ على دقة التخطيط، والفكرة الفردية العشوائية على الإرادة الجماعية المحسوبة، وتضيف: ولا تعنى مفارقة الأحداث للشرع على هذا النحو إدانة أشخاص لم يكونوا على دراية كافية بالشرع الذى اعتبروا أنهم ممثلوه، بل تعنى تبرئة الشرع، حتى بفهمهم الخاطئ له، من هذا التاريخ الأليم.

■

قضايا وطنية

حماد عبدالله حماد
القاهرة: مؤسسة روزاليوسف، ٢٠٠٦، ٤٥٦صفحة



يضم الكتاب عشرات المقالات والدراسات التى نشرها المؤلف فى صحيفة روزاليوسف اليومية، وتتضمن تعليقاته ووجهة نظره فى موضوعات عدة سياسية وعامة، من تعديلات الدستور إلى تعديل المادة ٧٦ الخاصة بالاقتراع على رئاسة الجمهورية، إلى الفساد، إلى الإعلام وبرامج التليفزيون، وغيرها من الموضوعات التى ينشغل بها الناس فى شأنهم اليومى.

وهذه الكتابات وإن فقد بعضها أهميته لارتباطه بحدث آنى أو بقرارات حكومية أو رئاسية صدرت فى حينها واستوجبت من صاحبها - كاتب العمود - أن يعلق عليها فى حينه، إلا أنها من ناحية أخرى تبقى سجلاً مع كاتبها أو ضده، والملاحظة الأساسية التى ربما اكتشفها من تابعوا مقالات المؤلف فى الصحيفة، أو قرأوها مجمعة فى الكتاب، هى أن المؤلف لا يترك مجالاً للمناورة أو أنصاف الحلول، فهو يشتبك مع كل القضايا على طريقة الأبيض والأسود، بوجهة نظر واضحة محددة لا تترك مجالاً للتوهمات، وهو أسلوب قد يرضى كثيرين من القراء، لكنه ربما أكسب صاحبه كثيراً من العداوات.

■

أرتيست

هاديا سعيد
بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٦، ٣٥٨صفحة



تحمل هذه الرواية الكثير من التأويل والتكهنات، من هى الفنانة سلمى حسن التى تدور فصول الرواية جميعها حولها، هل يمكن أن تكون هى نفسها الفنانة الراحلة سعاد حسنى التى لايزال لغز موتها محيراً ومدوخاً.

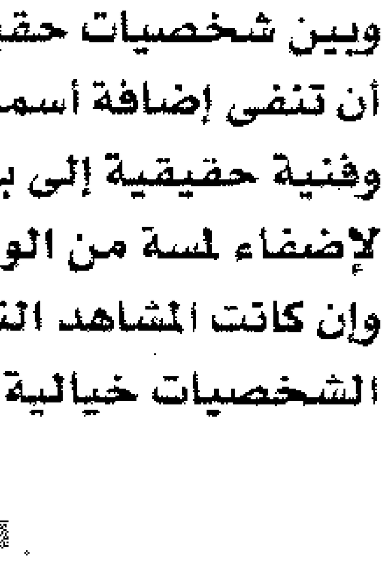
لا تبوح الرواية بتفاصيل كثيرة عن نسب سلمى حسن، ثمة أوجه شبه كثيرة بين سيرة سلمى حسن وسعاد حسنى، ولكن الرواية تصر على إبقاء الاحتمالات كلها مفتوحة، وتبقى هويتها الأصلية عرضة لكثير من الجدل، وتكتفى فقط، بتقصى بوليسى عن لغز موتها.

هل هى ماتت حقاً، أم انتحرت، أم ربما دفعت إلى موت ظل غامضاً بما يشبه حالة غريبة بين موت طبيعى وقتل غامض، ثم تستحضر الرواية بأسلوب بوليسى شخصية أخرى تسميها Miss X، وهى شخصية غامضة أيضاً وجدلية، ربما تكون صحفية، ولكنها تمثل كثيراً من الخفايا والأسرار عن حياة الفنانة الغامضة سلمى حسن، ربما تساعد على معرفة لغز موتها، كما لغز حياتها نفسها. ومع ذلك فإن المؤلفة تثبت فى مقدمة الرواية أن شخصياتها درامية، وأن أى تطابق بينها وبين شخصيات حقيقية هو صدفة، دون أن تنفى إضافة أسماء شخصيات أدبية وفنية حقيقية إلى بعض أحداث الرواية، لإضفاء لمسة من الواقعية على الأحداث، وإن كانت المشاهد التى ظهرت فيها تلك الشخصيات خيالية تماماً.

■

تنظيم وإدارة النقل

سعد الدين عشماوى
القاهرة: دار المريخ للنشر، ٢٠٠٦، ٤٠٠ صفحة



يناقش الكتاب بأسلوب علمى

واستناداً إلى خبرة عملية تتجاوز الأربعين عاماً واحدة من المشكلات المعقدة التى تواجه المجتمع المصرى والعربى، خصوصاً مع الكثافة السكانية المتزايدة، والحاجة إلى إحداث تنمية متسارعة يحتل النقل فيها موقعاً مهماً إن لم يكن الأهم على الإطلاق.

يتألف الكتاب من تسعة فصول وخاتمة، تناقش عدداً من العناوين المهمة: النقل والتطور الاقتصادى والاجتماعى، مقومات صناعة النقل وخصائصها، تخطيط وتنظيم النقل، تشغيل النقل والرقابة على الإيراد، تسعير وتسويق النقل، تكاليف وإحصاءات النقل، النقل وظيفة بالمنشأة، النقل والموقع الاقتصادى للمنشأة، تنظيم النقل داخل المدن.

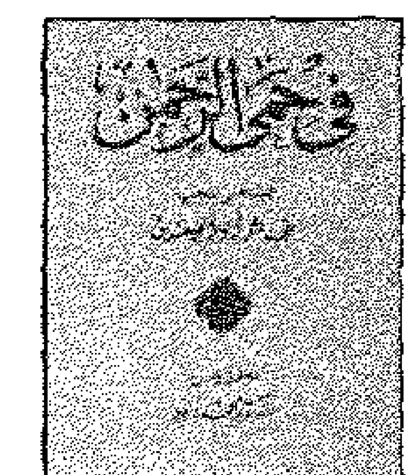
والميزة الأساسية للكاتب أنه يناقش قضايا النقل والمرور على مستوى تطبيقى، أى أنه يقترح الحلول من واقع المشكلات اليومية التى يواجهها الناس فى تعاملهم مع قطاع النقل والمرور، فهو يتحدث مثلاً عن أنسب الأماكن لتوطين الأجهزة الحكومية المركزية والإدارات العليا للمنشأة، ويستعرض خدمات النقل العام من حيث الكم والمستوى، ويقترح أساليب حديثة لتنظيم حركة المرور، ويعرض لحوادث المرور وتكلفتها الاقتصادية، وتأثير وحدات النقل العام على تدفقات المرور، وتجربة تملك الأجهزة الحكومية والمؤسسات والشركات لوسائل النقل الجماعى، وكذلك تجربة الميكروباص فى شوارع العاصمة، وكيفية تطوير أداء مترو الأنفاق فى إطار خطة متكاملة.

وجميعها موضوعات يعايشها ويعانى منها المواطن بشكل يومى.

فى حمى الرحمن (شعر)

خالد أبو العينين

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٤٧٢صفحة



ينتمى هذا المؤلف إلى الفكر الصوفى وما عرف بأدب المدائح النبوية، ذلك الباب الذى يحفظ أسماء من نوعية ابن الفارض (سلطان العاشقين) وأمير الشعراء أحمد شوقى والإمام البوصيرى وغيرهم كثيرون.

والتجربة الشعرية للشاعر لا تنفصل عن التجربة الصوفية، وكل شعره يدور حول معانى الحب لله والشوق إلى لقائه، ومديح النبى صلى الله عليه وسلم، وتأملات فى فيوضات الرحمن وحبه لعباده ورحمته بهم.

ففى الحب الإلهى كتب الشاعر قصائد متعددة تراوحت بين المقطوعات القصيرة والقصائد بالغة الطول التى تقترب من الملاحم، وأما القسم الخاص بالمدائح النبوية ومدح آل البيت فيضم أطول قصائد الديوان، وربما أطول قصائد الشعر العربى وهى قصيدة مدينة النور، وهى ملحمة شعرية تسجل لمحات من حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهى سجل حافل بالحب والانتماء لسيد الخلق سيدنا محمد، وتأريخ شعرى جميل لسيرته الشريفة. يقول الشاعر مثلاً فى مدح السيدة نفيسة:

أتيت أسعى لباب الحب مرتشفاً
من النفيسة إحساناً وإنعاما
فقد عشقت مدى الأيام موردها
فهى النفيسة تغذو القلب ما راما
حظيت من جدك المختار منزلة
فأنت منه ورثت العلم إلهاما
ونلت من ربك الفتاح منته
فكنت رحمة من سواك وسلاما

النسب والقرابة فى المجتمع العربى قبل الإسلام

محمد سعيد

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٦، ٦٢٢صفحة



هذه الدراسة فى الأصل هى أطروحة دكتوراة فى التاريخ جرت مناقشتها فى ٢٠٠٤ فى كلية العلوم الإنسانية بتونس، وهى تعنى بأدب الأنساب، وارتباط فكرة الأنساب والقرابة، بعديد من الظواهر السياسية والاجتماعية التى شكلت مجتمع ما قبل البعثة النبوية، حيث يشير المؤلف إلى أن الرواة فى مراحل مختلفة، حدثوا عن تاريخ المرحلة الجاهلية انطلاقاً من وقائع حادثة حملتها الذاكرة ودخلت دائرة الأدب المكتوب.. «ويبقى الوصول إلى تلك المضامين رهن إعادة الرواية لسياقها البيانى الأصلى داخل دائرة أدب كانت له جملة من الوظائف التمجيدية والسياسية والعقائدية».

وفى المستوى التاريخى كشفت الدراسة عن جوانب مهمة، فعناصر الشرعية التاريخية كلها كانت فى مرحلة أولى لجانب هاشم وبنى هاشم، هم الذين أسسوا التجارة وهم الذين خدموا البيت، وإليهم ينتمى الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وقد بقيت هذه الحجج متداولة حتى أزمنة متأخرة (مفهوم آل البيت)، ولم يكن بإمكان العشائر القرشية أن تشكك فى هذه العناصر، وكل ما يمكن تصوره أنه فى مرحلة تالية، قد تكون العصر الأموى، وبعد أن رسخت فكرة أن التجارة كانت الأصل والمنشأ، وكل ما يمكن إضافته للتاريخ التأسيسى الأصلى هو التأكيد على دور العشائر المكية فى التجارة القديمة، وهكذا حضرت عائلات وغابت أخرى، أدمجت بعض العائلات التى دخلت فى دائرة القرابة والتجارة مع بنى هاشم، لكن من بين هذه العائلات ذكرت بنى عبدالمطلب وأهملت بنى أسد بن عبدالعزى وبنى زهرة، كما ذكرت بعض العائلات التى نمت ثروتها بفعل التجارة مثل بنى عبد شمس، فيما أهملت أخرى مثل بنى مخزوم وبنى تيم.

ويشير المؤلف إلى أنه بعد ترسخ الإسلام وتحوله إلى ثقافة عالمية، لم يعد المتلقى يعى المضامين من زاوية أنها إخبار عن التاريخ، بقدر ما يعيها على أنها إخبار ثقافى عام يمهد لمحورية العقيدة، ولهذا ساندت الرواية أصالة الإسلام من خلال المحافظة على محورية مكة، أما مغزى الإخبار عن التجارة الجاهلية أمام الوعى الدينى المتأخر، فقد انحصر فى التدليل على سعى عرب الجاهلية للمال وعبادتهم للدنيا وحيدهم عن شريعة الحق الإلهى، وقد يكون فى هذا الوعى ما دفع بشكل مستمر إلى تبرئة هاشم من خلال التذكير بدوره فى خدمة الحرم.

المنهجية والمشاكل القومية المعاصرة

أحمد فرج أحمد فرج

القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٦، ١٦٣صفحة



لماذا تخلفنا وتقدمت دول بدأت معنا وربما بعدنا بسنوات مشاريع نهضتها، كيف صارت التجربة اليابانية والكورية أو حتى الماليزية نموذجاً نتمنى لو اقتفينا أثره دون أن نجد لذلك سبيلاً؟

الاجتهاد الذى يقدمه المؤلف هنا هو ما يسميه ثورة ثقافية منهجية، تعتمد أساساً على العلم وتنظيم الخدمات والأداء، بدلاً من العشوائيات فى الأداء العام والخاص، ولا يدعى أن فكرة المنهجية ابتكار خاص به، وإنما وجدت عند كثيرين من مفكرى السلف والمعاصرين، فى الأمور الدينية والدنيوية، لكنهم طرحوها للخاصة والمتخصصين، وكتبت بأسلوب علمى أكاديمى معقد، وما ينادى به المؤلف هو تبسيط المنهجية وجعلها فى متناول الأفراد العاديين، ولهذا السبب يقترح عدداً من المشروعات القومية ويطبق عليها رؤيته الجديدة فى المنهجية، ويبدأ بمشروع لإنشاء منظمة عربية للبحث العلمى والتكنولوجيا، حيث يستعرض أهدافه والكيفية التى تعمل بها المنظمة، ويقترح مصادر لتمويلها من حكومات ومنظمات أهلية، ويرفق دراسته بجداول علمية عن العاملين فى مجالات البحث العلمى والتكنولوجى فى دول العالم ونسب الإنفاق على البحث العلمى من الناتج المحلى الإجمالى.. إلخ.

فى الباب الثانى يطبق المنهجية على التعليم وارتباطه بالتنمية البشرية، محدداً المناهج المطلوب دراستها وسبل تقييم الطالب والمعلم، وكيفية الارتقاء بالمستوى التعليمى فى عمومه، ويخصص الباب الثالث للكيفية التى يمكن بها علاج مشاكل الخدمات الصحية فى مصر استناداً أيضاً إلى أسلوب المنهجية باعتباره أستاذاً للجراحة العامة فى طب قصر العينى بجامعة القاهرة، وهو يبدأ بتقييم النظام الصحى استناداً إلى دراسات وبيانات إحصائية معتمدة، ويعرض لنقائص كفاءة الإدارة والتمويل وتوظيف القوى البشرية، كما يقدم مشروعاً لتفعيل المجلس الأعلى للشئون الصحية، ويقدم فى الباب الرابع مشروعاً لتطبيق المنهجية فيما يتعلق بتجديد الخطاب الدينى الذى يراه واحداً من القضايا الشائكة.

الوصايا فى عشق النساء

أحمد الشهاوى

القاهرة: المكتب المصرى للمطبوعات، ٢٠٠٦، ١٧٠صفحة



هذا الكتاب هو الثانى الذى يحمل العنوان ذاته «الوصايا فى عشق النساء» وهو عبارة عن تأملات فى العشق مستلهمة من خبرات صوفية، ويستوفى النص دلالاته عبر التشكيل بالموروث، والعشق فى هذه الوصايا مبنى على مفهوم الحب الذى غايته الوصول إلى رضا المحبوب حتى يكشف للمحب الحجب التى تحول دونه ودون رؤية وجه المحبوب، فإذا انكشفت الحجب تحققت الرؤى، والعشق هنا هو الوجه الآخر للمعرفة والإدراك، معرفة الأنا على المعنى الباطن للوجود كله، وهو انفتاح مرهون بالقدرة على التواصل بين الأنا والكون الذى هى جزء منه.

وبشكل عام فإن أهمية الوصايا كما عبرت عن ذلك كتابات نقدية عديدة تناولت الجزء الأول منها، تأتى من سعيها إلى تعديل العلاقة التراثية بين الرجل والمرأة، حيث كان الرجل هو العاشق دائماً، والمرأة هى المعشوقة دائماً، وهو ما يعنى أن الرجل هو المتن والمرأة هى الهامش، والتعديل الذى قدمته الوصايا جعل المرأة

هى المتن بوصفها العاشقة، والرجل هو الهامش بوصفه المعشوق، وهناك حرص مبدئى على إيجاد شراكة فى العشق تجمع الطرفين على سبيل التوحد، وقد استلزم هذا التعديل أن تحرص مجموعة الوصايا على إعلاء الأنثى والارتفاع بها إلى آفاق نورانية، من خلال استحضار الأنثى الأم بوصفها المتلقية الأولى بداية ونهاية.

من أجواء الديوان:

اصفحى فى المحبة/ صلى من قطعك تُرفعى درجة/ وإذا أردت معاقبة العاشق اصمتى أياماً لا تكلميه إلا رمزاً/ فبالصمت تكون الهنية والراحة، ورب قول جوابه فى السكوت، لا تجعلى قلبك يرتاب فيه، إياك والظن، لا تصدقى ما تتوهمينه، أعطى بصمت وسخاء، لأن اليد العليا - فى العشق - خير من اليد السفلى.

■

قناة السويس

محمد طلعت حرب

القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٦، ١٤٠صفحة



وضع الاقتصادى الوطنى الكبير محمد طلعت حرب هذا الكتاب فى عام ١٩١٠، وفى هذا العام دار حديث عن محاولة شركة قناة السويس مد امتيازها لإدارة القناة أربعين عاماً بعد انتهاء مدة الامتياز الصادر لها، وكان مقرراً أن تكون نهاية الامتياز فى عام ١٩٦٨، وطالبت الشركة بمد الامتياز أربعين عاماً لينتهى فى ٢٠٠٨، وكانت شركة القناة والاحتلال البريطانى شريكين فى نظر المصريين كسلطتين أجنبيتين اغتصبتا حق مصر فى قناة السويس، ولم يكن متوقعاً أن تقف الحركة الوطنية مكتوفة الأيدى إزاء ما يحدث.

ولم يفت طلعت حرب أن يدلى بدلوه فى هذه المسألة وهو المشهود له بالوطنية والدفاع الصلب عن استقلال مصر الاقتصادى، وقد عرض فى الكتب لتاريخ قناة السويس وبين بالأرقام والإحصائيات أن المصلحة فى المد تستفيد منها شركة القناة وليس مصر، وأن الأربعة ملايين من الجنيهات التى وعدت بها الحكومة المصرية من الشركة يمكن تدبيرها ولو بقرض.. «لسنا نظن أن الحكومة مضطرة للمال اضطراراً يسوغ لها أن تقترض بهذه الشروط بدليل أن الأربعة ملايين جنيه لا تدفع إلا فى أربع سنوات من ١٥ ديسمبر ١٩١٠ والحصة فى الأرباح لا تبتدئ إلا من ١٩٢١، ولو سلمنا باضطرارها للمال فلا تعدم وسيلة لإيجاده من الخارج وأمامها مصلحة الدومين يمكن للحكومة أن تقترض عليها أربعة ملايين وزيادة(...) وعلى ذلك نرى المشروع من كل وجهة قلبناه عليها مشروعاً ضاراً لا تصح الموافقة عليه».

وكان لما كتبه طلعت حرب، ويتضمنه هذا الكتاب، دور فى نجاح الحملة التى قادها المصريون للتصدى لمد الامتياز.

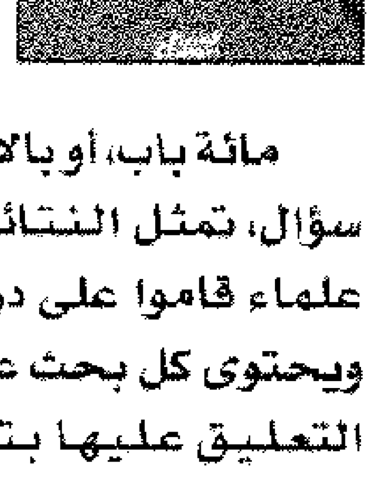
■

مائة سر بسيط من أسرار العائلات السعيدة

ديفيد نيفين

ترجمة: رنا النورى

الرياض: العبيكان، ٢٠٠٦، ٢٨٧ صفحة



مائة باب، أو بالأحرى مائة جواب لمائة سؤال، تمثل النتائج النهائية لأبحاث علماء قاموا على دراسة الحياة الأسرية، ويحتوى كل بحث على نتيجة رئيسية تم التعليق عليها بتوصية علمية، يبدأ الكتاب بدعوة أفراد الأسرة لأن يكونوا أصدقاء حميمين، وبالأخص أن يكون الأب والأم أقرب كثيراً لأبنائهما مما درجوا عليه، فالأسرة سلسلة من العلاقات الشخصية، وهذه العلاقات لها أهميتها فى حياة الشخص مثل أى علاقات أخرى خارج نطاق الأسرة، والنصيحة التى يقدمها الباحثون هنا هى أن تعامل أسرتك مثلما تعامل أى صديق، كما لو أنه تم اختيارك لتكون برفقتهم وتتمنى لو يتم اختيارهم ليكونوا برفقتك، وفى موضع آخر ينصح الباحثون الشخص المقدم على الزواج وتكوين أسرة أن يغير من سلوكياته التى كان يتمتع بها بمفرده، أن يغير ذاته، لكن هذا لا يعنى أن يلغى ذاته كليًا، أو أن يكون مختلفاً كليًا، لكن هذا يعنى أن تكون أسرته جزءاً منه، وهذه حقيقة لا سبيل للسعادة دون إدراكها.

ثمة توصية أخرى تتعلق بالبيت أو المكان الذى يختاره الفرد لإقامته مع أسرته، وبحسب النتيجة التى انتهى إليها الباحثون، فإن المكان الذى تعيش فيه له تأثير قوى على الخبرات والأفكار التى تبناها أفراد أسرتك، فالمجتمع الذى تعيش فيه إما أن يكون مجاملاً لسلوكياتك من أجل أسرتك وإما أن يكون مناقشاً، لذا ابحث عن مكان تعيش فيه يفى باحتياجاتك.

بالنسبة للأطفال، فإن غياب الاتصالات يعد أمراً بالغ الخطورة، فنحن عندما لا نقول شيئاً نترك الباب مفتوحاً لافتراض حدوث أسوأ الأمور، ولذا، فإن أسرتك تحتاج لأن تسمع منك.

وتؤكد دراسة أخرى على أن التزامنا نحو أسرتنا هو الذى يشكل حياة أطفالنا أكثر من أى تجربة سابقة، ولا يعنى أنك حظيت بطفولة سعيدة إن ذلك يجعل منك أباً مثالياً، ولا يعنى العكس أن تكون أبًا سيئًا، فنحن فى الحقيقة من نصنع نجاح أسرتنا.

نصيحة أخرى يقدمها الباحثون، مفادها أننا يجب أن نفكر فى أسرتنا فى كل الأوقات وليس فى وقت الحاجة إليهم فقط، ثم نتجاهلهم فى الأوقات الأخرى، فعندما تفكر فى احتياجات أسرتك حتى لو كانت تلك الاحتياجات قليلة، عليك أن توزعها قدر ما تأخذه من أسرتك.

■

تحطيم الأصنام

شريف الشوباشى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٢٢١صفحة



ما هي الأصنام التي يسعي المؤلف إلي تحطيمها، إنها ثقافة العصبية والقبلية، وكذلك ثقافة الأذن وثقافة اليقين، وكلتاهما تكبل العقل العربي وتعوقه عن الانطلاق وتحقيق ما حققته أمم أخرى تعرضت للسحق والانهيار، ثم قامت وتفوقت وتجاوزتنا بقرون، ومازلنا نحن أسري قضايانا ذاتها التي نلوكها منذ قرنين أو يزيد دون أن نحسم أيًا منها، لنقترب نحو ما ينشغل به العالم من شئون الحداثة والعصرنة.

الأمثلة التي يسوقها المؤلف عديدة، وما حققته اليابان وألمانيا برغم ما لقيتاه في الحرب العالمية الثانية يمكن أن يعد في خانات الأساطير أو المستحيلات، لكنه يبرهن علي أن الحضارة بما هي مكونات مادية وآثار معمارية وصناعية قد تتعرض للنكوص، لكن «نكوص» العقل أدهي وأمر، لأنه يعني النهاية أو عدم القدرة علي استعادة الذات من جديد.

في حالتنا العربية، فإن ما يكبل العقل العربي ليس هو الدين ولا تعاليمه كما يحلو للبعض أن يردد، فثمة أمم تدين بالإسلام لكنها حققت نجاحات مذهلة، ونموذج ماليزيا أوضح من أن يطمس، ما يكبلنا في الحقيقة هو أن ثقافة القبيلة مازالت هي الثقافة الحاكمة لعقولنا، وهي التي تحول بيننا وبين التوحد والقدرة علي الإنجاز والعمل المشترك. هذه القبلية والعصبية التي ربما أفادت مجتمعات الجزيرة العربية في بدايات تكوينها، تمارس دورها السلبي إلي اليوم في مجتمعاتنا، لأن ما تقوم عليه من قيم، يتنافي تماماً مع تلك التي تقوم عليها المجتمعات الحديثة، من عدالة وحقوق إنسان وتكامل ووعي بالمخاطر المحدقة بالبشرية في عمومها، بعيداً عن هذه الحالة من التقوقع حول الذات التي تخلقها ثقافة القبيلة، والتي سعي الرسول عليه الصلاة والسلام إلي محوها بنشر قيم جديدة تلخصها الآية الكريمة.. «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثي وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» صدق الله العظيم.

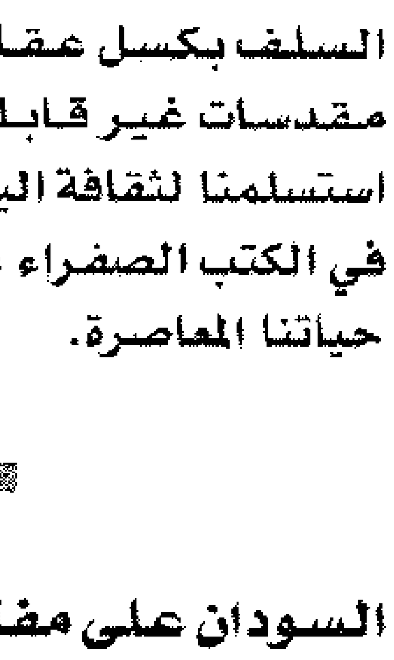
أما ثقافة الأذن، فمردها إلي أن ثقافة الجزيرة العربية، وهي المنطقة التي نزلت فيها الرسالة المحمدية، قامت أساساً علي الشفاهة، وحتي القرآن الكريم: لم يجمعوه إلا بعد سنوات من نزول الوحي به، ولولا أن الله سبحانه وتعالي حفظه من التحريف، لواجه ما واجهه المنتج الثقافي لهذه المنطقة من العالم من تشويش وتشويه، والخلاصة التي يقدمها المؤلف من استقرائه لحكايات الأدب ومعاركه في العقود الماضية (كالمعركة بين العقاد وشوقي علي سبيل المثال) أو قراءته للصحف والمجلات السيارة، إن ثقافة الأذن عودتنا علي الإطالة والمبالغة وعدم الدقة، ومازالت هذه العيوب جزءاً أساسياً من تكويننا العقلي والثقافي.

وفي مواجهة ثقافة الأذن، أو ربما استكمالاً لها، لدينا أيضاً ثقافة اليقين، ومبعثها في الحقيقة يقين النص الديني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذه حقيقة لا مراء فيها، لكن كثيرين - لأسباب مختلفة - عمدوا إلي توسيع دائرة اليقين، فصار يشمل تفسير هذا النص المقدس وتأويله والاجتهاد حسب الزمان ومقتضيات الحال حوله، علي الرغم من قول رسولنا الكريم «أنتم أدري بشئون دنياكم»، فكبلوا العقل وقيدوه، وقتلوا ملكات الاجتهاد والنقد في نفوس الناس، فبات أكثرنا يستعيد مقولات السلف بكسل عقلي مقيت وكأنها مقدسات غير قابلة للنقد، وهكذا استسلمنا لثقافة اليقين، وصرنا نبحث في الكتب الصفراء عن حلول لمشكلات حياتنا المعاصرة.

■

السودان على مفترق الطرق بعد الحرب.. قبل السلام

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ٢٨٧صفحة



البحوث التي يتضمنها هذا الكتاب تتناول حزمة القضايا المعبرة عن واقع

السودان الراهن.. وهى تحاول رسم الطريق بين قلب السودان ورمز سيادته، الخرطوم، وأطرافه الممتدة من كردفان ودارفور إلى أعماق الجنوب عند حدود جبال الأماتونج. إن تلك الجغرافيا المذهلة التى تمثل واحداً من أكثر البلدان فى العالم التى تمتزج فيها المناخات الصحراوية وشبه الصحراوية فى الشمال بمناطق السفانا الشاسعة والتربة الطينية الخصبة والسدود فى أعالى النيل والمناخ الاستوائى الرطب فى أقصى الجنوب، هى فى الواقع تعبيرات ثقافية أسهمت بشكل وآخر فى كل الأحداث التى عبرت عن تمزق السودان ووحدته فى آن واحد.

ومن هنا، فإن هذه البحوث شملت موضوعات معبرة عن مسعى الطموح لبناء السلام الوطنى المجسد لوحدة السودان وتقدمه، ومعالجة تداعيات قضية الجنوب وأزمة دارفور، والتصدى لسياسات التدخل الخارجى، وفى مقدمتها المخططات الأمريكية لإثارة النزاعات الداخلية، ومواجهة التحالفات الإقليمية من داخل القارة الأفريقية، لانتزاع أدوار على مائدة القضية السودانية، وصولاً إلى تناول موضوع الثروة، والتنمية، والمحور الاقتصادى والاجتماعى، وتأثيره فى مسيرة السودان، ووحدته واستقلاله وتقدمه.

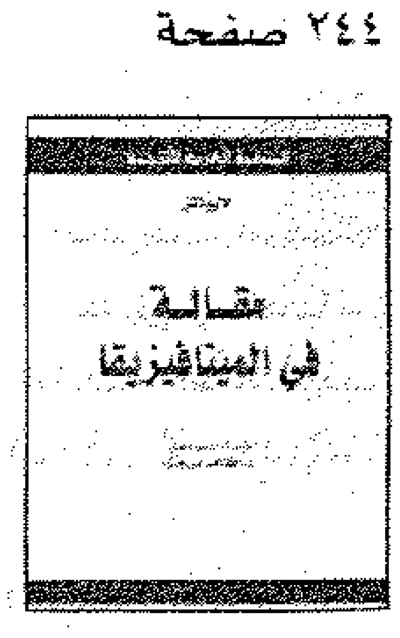
وكل تلك الموضوعات تلتقى على قاعدة جامعة تقود إلى التعريف وإشاعة الحقائق حول قضية السودان من جوانبها المختلفة، فالأرض العربية التى أرسل إليها نيرون قبل عشرين قرناً أولى بعثات الاستعمار طمعاً فى الثروات والنفوذ، تواجه اليوم عصر النيرون الأمريكى وأطماعه فى الهيمنة، وتقاوم، كما عرفت بذلك عبر تاريخها، من أجل ذات الثوابت، وفى سبيل حريتها وكرامتها.

■

مقالة فى الميتافيزيقا

جوتفريد فيلهلم

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٦، ٢٤٤ صفحة



عرض شامل ومكثف، فى آن واحد، للمبادئ العامة للميتافيزيقا التى كانت لا تزال، قبل هذه «المقالة»، موضوع بحث مشتت فى أعمال جزئية، إن فيها تأليفاً قوياً نعرف أن لايبنتز استوحى الكثير منه فى أعمال نضجه الكبرى التى اتسعت لمعارف متنوعة، من الرياضيات والفيزياء إلى اللسانيات، مروراً بالميتافيزيقا واللاهوت، وجعلت منه فيلسوفاً «كونياً».

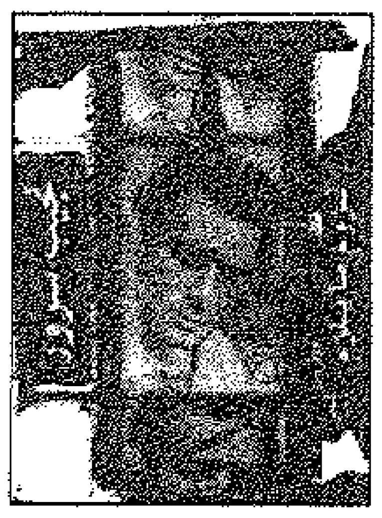
وهذه الترجمة هى نموذج لما يمكن أن يكون عليه نقل المعارف إلى اللغة العربية، لا من حيث الدقة العلمية فى نقل المعانى والمصطلحات فحسب، وإنما أيضاً من حيث الجهد الذى يبذله المترجم فى تقديم الكتاب تقديماً علمياً وفى إضافة التعليقات الواسعة المساعدة على فهم النص المترجم: إن ثلث الكتاب، تقريباً، مخصص للمقدمة وثلثه الثانى للحواشى وثبت المصطلحات بحيث لا يمثل نص لايبنتز المترجم أكثر من ثلث الكتاب.

■

لزوم ما يلزم

نجيب سرور

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦



على الرغم من سنوات عمره القصيرة، فإن نجيب سرور (١٩٣٢ - ١٩٧٨)، ملأ الدنيا وشغل الناس، أكثر من ١٠ مسرحيات شعرية ونثرية، وأكثر من عشرة دواوين، وما يزيد على ٥ كتب نقدية، وعشرات الدراسات والمقالات فى صحف مصرية وعربية.

كان نجيب سرور حالة فنية شاملة، فهو مؤلف وشاعر ومخرج مسرحى وممثل، اختار منذ البداية أن يكون فى الموضع المناهض للسلطة، ولهذا طورد وجاع وتشرد وفصل من عمله وأدخل مستشفى للأمراض العقلية، وهام على وجهه فى شوارع المحروسة يتسول بملابس ممزقة وجسد منهوك.

لكن ما تركه من آثار أدبية ومسرحية مازال باقياً، وسيظل لأجيال قادمة، وإذا كان الجيل الحالى لا يعرف من إنتاجه سوى «الأميات» وهى الهجائية التى انتشرت عبر شبكة الإنترنت، فإن من عاصروا فترة ازدهار المسرح المصرى فى الستينيات يذكرون كيف كان الشاعر الشاب العائد لتوه من بعثة علمية فى موسكو وبودابست، ملء السمع والبصر، ويتذكرون النجاح المذهل الذى حققته ثلاثية: «ياسين وبهية» و«آه يا ليل يا قمر» و«قولوا لعين الشمس»، وكذلك مسرحيته المستوحاة من الحكاية الشعبية «حسن ونعيمة»، ومن الأسطورة الفرعونية «إيزيس وأوزوريس» ونعنى بها مسرحية «منين أجيب ناس».

ويستحيل على من يتعرض لدراما نجيب سرور فى مسرحه وفى دواوينه الشعرية، أن يفلت من دراما حياته ذاتها،

كتاب الزاوية

الرأى العام

غسان تويني

ما هو الرأى العام، ومم يتكون؟ الفكر الحر، هو الرأى الذى لا يخاف، لا يتأثر، هو الرأى الذى يتكون صغيراً فينطلق ويتقدم وينمو حتى يستفيق الناس وإذا بهم يقولون به.. متى قرأوه أو ظنوا أنهم يسمعون أنفسهم ويقرأون ما تمنوا لو كان فى وسعهم أن يكتبوا. الرأى العام ليس مجموعة آراء المجموع، إنما هو جوهر الرأى الذى عليه يجتمعون. الرأى العام هو كل واحد منا إذا تحرر من الضواغط على رأيه، من ضواغط التعبير لا من قول الحقيقة، من كوابيس القول لا من كوابيس الإيمان. الرأى العام هو الحرية فى مظهرها التعبيرى الاجتماعى أى فى مظهرها الصحفى، حتى قبل وجود الصحافة.

ما هو القارئ؟ هل هو قارئ واحد؟ أعرف صحفاً تكتب لقارئ واحد، لا ضعفاً منها، إنما لأنها تتوجه، سواء أكتبت أسرار الآلهة أم أسرار الشياطين. أعرف صحفاً كذلك لا يقرأها إلا واحد، وهو الذى يكتب فيها. ولكن الصحافة اليوم إنما تؤخذ بشغف العدد، فإما أن تتوجه إلى العدد، إلى الجمهور، أو لا تكون صحافة. أما صحافة القلة، أى المتفوقين المثقفين الذين فوق العامة، هذه الصحافة باتت غير منسجمة مع رأى اليوم ومع متطلبات العصر ومع الحكم الشعبى الذى نريد أن نقيم اليوم فى لبنان، بفضل الصحافة الحرة. لأن الصحافة ليست كالكتاب ولا كالشعر، أو كالفلسفة.. الصحافة لا تكتب حتى تقرأ غداً أو بعد غد فتتصف فى التاريخ. الصحافة تكتب حتى تقرأ اليوم ويقرأها أكبر عدد ممكن من القراء.

(١٩٦٥)

كتاب الزاوية

صحافة «فوق» و«تحت»

غسان تويني

الآن، ما هى هذه الصحافة؟ وهل كل الصحافة زى كل الصحافة؟

نصل إلى ناحية حساسة هى التمييز بين ما يمكن تسميته الصحافة المنبثقة من تحت، والصحافة المفروضة من فوق، أى الصحافة التوجيهية والصحافة الإعلامية الحرة. فأسارع إلى القول إن هذا التمييز لا علاقة له بملكية الصحيفة. المهم ليس أن ترتبط الصحافة بالنظام الليبرالى مثلاً فتكون حرة، أو لا ترتبط بالنظام الليبرالى فتكون توجيهية أو موجهة. الموضوع هو موضوع ممارسة الصحفى لصحافته، أى أن يكون الصحفى هو فى ذاته صاحب حرية، أن يحس ويشعر بأن التزامه الأول هو تجاه القارئ الذى يخاطبه، القارئ الذى يتوسل الصحيفة لمعرفة أمرين أساسيين، لا صحافة من دونهما، هما الخبر والرأى. فماذا عن الخبر؟ وماذا عن الرأى؟

الصحافة مفروض فيها، حتى تكون أمينة، أن تقدم الخبر كل الخبر، المعرفة كل المعرفة، الحقيقة كل الحقيقة. وهنا تصطدم الصحافة دائمًا، وهذا تاريخها الحافل، بالأزمات. تصطدم دائمًا بالذين يقولون إن الحقيقة قد تكون ضارة مضرة. والحقيقة، أيها السادة، لا تضر أبدًا. والحقيقة معناها كل الحقيقة، ليس نصف الحقيقة ولا ربعها ولا ثلثها، وفى ذلك احترام للقارئ.

التزام الصحافة يجب أن يكون أولاً وأخيرًا الإنسان. فلا صحافة من أجل الآلة، ولا صحافة من أجل الصحافة فى المطلق. الصحافة حتمًا من أجل الإنسان.

(١٩٧٤)

ونهايته المأساوية التى بدأت عمليًا فى أعقاب هزيمة يونيو ١٩٦٧، والتى لم تتحملها نفسه شديدة الرهافة.

ولزوم ما يلزم، ديوانه الأشهر، الذى يتبدى فيه بوضوح وجه الشاعر الراديكالى الثائر، الذى عارض السلطة، ودفع الثمن حياته ذاتها، والديوان يقدمه صديقه المترجم والأديب والإذاعى شوقى فهيم، الذى رافقه سنوات عديدة.

القصاص وثقافات الشرف

وليام إيان ميلر

ترجمة: محمد عنانى

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٦، ٣٥٣صفحة



على مدى ١٢ فصلاً، يتتبع المؤلف فكرة القصاص فى المجتمعات التى أعطت للشرف مكانته الرفيعة، قبل الثروة والجاه والنفوذ، وهى منذ الأزل مجتمعات فقيرة تحكمها أعراف القبيلة أساسًا، لكن المؤلف يشير من ناحية ثانية إلى صياغة القصاص فى التوراة، والتى تضع أجزاء الجسد من روح وعيون وأيد وأسنان فى المقدمة، باعتبارها المقياس الحقيقى الذى تقاس به القيمة، ففى القصاص العين بالعين والسن بالسن والصاع بالصاع.

والقصاص - كما يشير - يعتبر التقييم جوهر العدالة، فهو يدور حول القياس، وأحيانًا ما لا تزيد على تعويضات كما هو معروف اليوم، وآنذاك - فى الماضى السحيق قبل ٢٥٠٠ سنة مثلاً - كان لأعضاء الجسد أسعارها، كما أن لها أسعارًا اليوم، فمن الأهداف التى يشيع التعبير عنها لقانون الضرر، تعويض الضحية حتى يعود «كاملاً»، بمعنى استكمال النقص الذى تعرض له، وذلك باستبدال النقود بالجزء الذى فقده من جسمه، تمامًا مثلما يسعى القصاص إلى أن يعيد للفرد اكتماله.

فالأفكار الخاصة بالتوازن والتساوى أو التعادل هى التى قادتنا إلى القصاص، ونقلنا القصاص إلى الأفكار الخاصة بالمقايسة، وكان القصاص أسلوبًا لتعليم المشاركة فى الإحساس والشعور.. «فإذا أخذت عينك ثمنًا مقابل أخذك عينى، فسوف أعرف أنك سوف تشعر بألمى، كما اعتدنا القول بأسلوب العصر الحديث، وسوف نستطيع أن نحدد لها ثمنًا عادلاً».

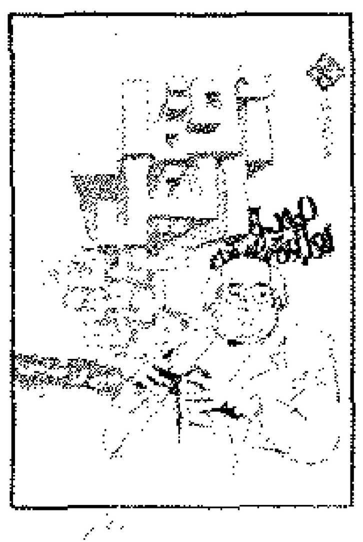
المؤلف كما يفصح بوضوح يتغنى بفضائل ثقافات الشرف، التى ماتت منذ زمن بعيد وتركت لنا آثارًا نموت من أجل بقائها اليوم، وهذه الثقافات هى التى حافظت على استمرار هذه المجتمعات قرونًا طويلة، وأنشأت مجتمعًا صالحًا قائمًا على القصاص، أى على العدالة والتوازن، وهو ما تفتقده المجتمعات المعاصرة المكتظة بالسكان اليوم.

والمدهش أن المؤلف يقطع بأن ما أحرزناه - كمعاصرين - من تقدم فى بعض فروع المعرفة، لم يجعلنا أكثر تقدمًا على أبناء هذه القرون البعيدة فى علوم النفس والاجتماع والتربية، ويضيف: وأشهد أننا فيما يتعلق بفهم الدوافع البشرية وفهم العدالة ومعنى تحقيق المساواة، لا نتمتع بالذكاء الذى كنا نتمتع به يوم كان الناس يبدون من القلق والحرص على شرفهم، أكثر مما يبدونه من الحرص على متعتهم.

أقمار النيل

خيرى شلبى

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠٦، ٢٩٨صفحة



صور فنية (بورتريهات) لوجوه مصرية فى الثقافة والأدب والسياسة، يغزل ملامحها بعناية ومحبة الأديب الكبير خيرى شلبى، ويختار لكل منها صفة دالة تلخص مشوار حياته التى يقدم المؤلف تفاصيل عديدة منها، بعضها يؤكد انسجام الشخصية مع أفكارها وصورتها العامة التى تبدت بها للناس، فيما يشير بعضها الآخر إلى حالة التناقض، التى قد نجد لها تبريرًا لدى المؤلف، بين ما بدت عليه الشخصية وما طوته تفاصيل حياتها، نقرأ عن «الحارث» نجيب محفوظ، و«المناور» أنور السادات، و«العفريت» أحمد رجب، و«حلاوتهم» سعاد حسنى، و«الناجى» سلامة أحمد سلامة، و«المزعج» يوسف شاهين، و«ذات الهمة» نعمات أحمد فؤاد، و«الكوكب» أم كلثوم، و«المتوازن» أحمد بهاء الدين، و«السياسى» البابا شنودة.. وغيرها من الشخصيات التى تركت آثارًا خالدة فى الإبداع والفكر العربى.

وهو مثلاً بعد أن يرسم ملامح الوجه والأسرة التى تلخص ذلك التعبير السياسى المدهش الذى انطلق فى زمن ثورة ١٩١٩ واستمر سنوات طوالاً «مصر للسودان والسودان لمصر» ينتهى إلى أن «المناور» أنور السادات شخصية أسطورية، وهى كذلك شخصية تراجيدية بمعنى الكلمة فى تركيبها الإنسانى والسياسى والثقافى، تبهرك بانضباطها وحنكتها وأهليتها،

وتؤسفك فى النهاية بالخطأ التافه الذى لخصه المأثور العربى بالقشة التى قصمت ظهر البعير. والمؤلف لا ينتهى إلى تلك الخلاصة إلا عبر استعراض لمسيرة حياة الشخصية وتقلبها بين أهواء السياسة وعواصفها، وانغماسها فى حياة العامة والدهماء وانصارها فى بوتقة خبرات إنسانية متفاوتة جعلته قادراً على مصارعة خلوية زمن الانفتاح، دون أن ينفى ذلك عن الزعيم عظمته أو ينكرها.

وهو حين يقرأ ملامح وجه البابا شنودة بما تنطوى عليه من رصانة وطيبة، وما تشعه من روح السلام والمحبة، يرى فيه «وجه فلاح مصرى صعيدى منحوتًا بأزميل مصرى، مبثوثًا فى نصله قبس من روح الله تبث بدورها فى المنحوت روحاً إنسانية، فكأن الحجر يشعر وينفعل، يبكى ويضحك ويغنى ويقيم الصلاة».

وبطبيعة الحال فإن هذا ليس كل شىء، فالمؤلف يكشف لنا عن الوجه الآخر لقداسة البابا، وجه السياسى الذى وقف بصرامة ضد رغبة الرئيس السادات فى «تسفير الأقباط إلى القدس واستخدامهم عربة جر فى قطار التطبيع».

أما الموسيقار محمد عبدالوهاب، فهو الذى عرف كيف يتعامل مع الحكام، كيف يجاملهم ويشترى خواطرهم، ويبادر بتقديم الخدمة فى وقتها المناسب باللباقة المناسبة، ويدلل المؤلف على وصف عبدالوهاب بـ «العقر» بحكايات عديدة، وهو لا ينفى موهبته الموسيقية الفذة، لكنه مع ذلك يؤكد على أنه «موسوعة فى معرفة تحقيق أهدافه»، فنية كانت أو اجتماعية، عبر طريق معاكس لكنه ملفوف.

على العكس تماماً تبدو لنا صورة أحمد بهاء الدين «المتوازن»، يقول المؤلف: لم يكن ثمة ما يفصل بين الإنسان أحمد بهاء الدين والمثقف أحمد بهاء الدين، كلاهما شخص واحد، أى أنه يتميز عن غيره من المثقفين الذين يستحقون هذا اللقب بالفعل، بأنه لا توجد تلك المساحة الفاصلة بين المثقف والإنسان.

على هذا النحو من القراءة الفنية والإنسانية يرسم المؤلف بورتريهات شخصياته.

رحــلات وأسرار

زاهى حواس

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ١٦٠ صفحة



يمتلك المصريون أعظم وأعرق حضارة عرفتها الإنسانية، لكن كثيرين من بيننا لا يقدرون تأثير هذه الحضارة على العالم. المؤلف الذى اختارته مجلة «تايم» الأمريكية بوصفه واحداً من أهم ١٠٠ شخصية فى العالم، يكشف لنا فى هذا الكتاب سحر الحضارة المصرية وتأثيرها على العالم كله، كما أنه يرد على عديد من المزاعم التى رددتها كتابات فى الغرب، منها مثلا ما يدعيه نفر من الإسرائيليين من أن اليهود هم بناة الأهرامات، إذ يدحض المؤلف هذه الكذبة بأسانيد علمية مؤكداً أن الأهرامات شيدت بالكامل بأيدى المصريين، وأن اليهود جاءوا إلى مصر بعد ٧٠٠ سنة تقريبا من بناء الأهرام، كما أن مقابر العمال بناة الأهرام هى لعمال مصريين، ولا يوجد اسم عبرانى واحد على جدرانها.

ويحكى المؤلف من خلال مصاحبته لعديد من الملوك والأمراء ورؤساء الدول الكبيرة، مثل بيل كلينتون وتونى بلير والأميرة ديانا وملكة إيرلندا وملكة هولندا وملكة أسبانيا ومستشار ألمانيا وملكة الدنمرك.. وغيرهم، كيف علت علامة الدهشة والانبهار وجوه الضيوف الأجانب، وكذلك الأثر الذى يتركه عرض الآثار المصرية خارج الحدود، مثل عرض آثار توت عنخ آمون فى سويسرا وألمانيا.

وكذلك هذا الولع الفرنسى بكنوز الآثار المصرية التى لا يخلو منها متحف أو تجمع فنى، وقسم المصريات ومتحف اللوفر خير شاهد على «الإجيبتومونيا» التى لا ينكرها الفرنسيون.

دوريــات

دبى الثقافية

دبى: دار الصدى للنشر والتوزيع



بانوراما العدد من كوريا الجنوبية، ومن سوق الملح قلب اليمن النابض منذ ألفى عام استطلاع آخر، ويكتب رجاء النقاش عن «أولاد حارتنا» تحت عنوان «أولاد حارتنا عاصفة فى رواية».

وفى باب الحوارات، حوار مع الشاعر الدكتور حسن فتح الباب، وآخر مع القاص العراقى محمود عبدالوهاب يقول فيه: قصة بلا امرأة.. قصة بلا حياة.

ومن دفتر أفكاره يكتب أدونيس حول الأصولية الثقافية العربية، كما يكتب الدكتور عبدالعزيز المقالح «فى مديح الصمت».

وبالعدد حوار مطول مع الإذاعى المصرى الرائد طاهر أبو زيد، وفى «ألوان وظلال» تحقيق عن المتحف الوطنى فى سوريا، وآخر عن جماعة الجمان التشكيلية فى دبى.

كما يكتب مجدى موسى من لندن عن التشكيلى الروسى كاندنيسكى بمناسبة احتفاء متحف لندن به، ودراستان عن الشاعر جميل صدقى الزهاوى، والمفكر الجزائرى مالك بن نبى، إضافة إلى موضوعات أخرى فى الفنون والموسيقى.

الشــــموع

القاهرة: دار لوتس للطباعة والنشر



بعد توقف عادت هذه المجلة الثقافية التى أسسها ورأس تحريرها عام ١٩٨٦ أحمد بهاء الدين للصدور من جديد برئاسة تحرير الشاعر أحمد الشهاوى.

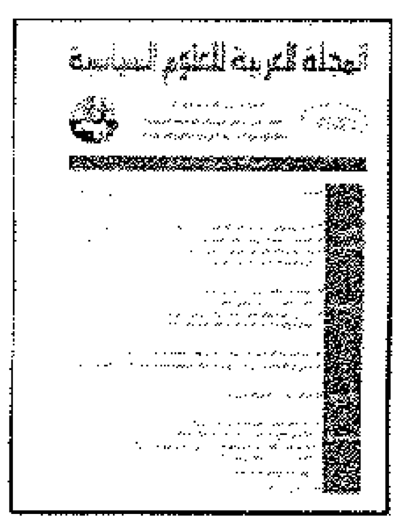
يتضمن العدد تحقيقاً موسعاً عن تزييف اللوحات الفنية بوصفه خطراً يهدد الفن التشكيلى فى مصر، وزيارة إلى معرض الشاعر الأمريكى اللاتينى بورخيس بمكتبة الإسكندرية.

وحوار مع الشاعر أحمد عبدالمعطى حجازى بمناسبة بلوغه السبعين، وحوار آخر مع الشاعرة والفنانة التشكيلية الإماراتية ميسون صقر، ويكتب الدكتور مرسى سعد الدين عن الفن حول العالم.

وحوار مع الحاج صبرى كاتب أحلام نجيب محفوظ، وحوار أدبى وسياسى مع الناقد محمود أمين العالم، بالعدد أيضاً ٤١ حكمة للإمام الشافعى، إضافة إلى أبواب وموضوعات أخرى عديدة.

المجلة العربية للعلوم السياسية

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية



صدر العدد الجديد الخاص بـ «خريف ٢٠٠٦» من المجلة العربية للعلوم السياسية، وتضمن افتتاحية رئيس التحرير على الدين هلال بعنوان: «علم عربى للسياسة أم مدرسة عربية فى علم السياسة؟» وملف «الإصلاح السياسى» الذى شارك فيه كل من: ثناء فؤاد عبدالله (الإصلاح السياسى.. خبرات عربية/ مصر، دراسة حالة) وفتحى العفيفى (الاستعصاء الليبرالى فى الخليج العربى)، وإسماعيل العبادى (أثر النظام الانتخابى فى تشكيل المجالس المحلية فى الجزائر فى ظل التعددية الحزبية).

أما باب دراسات فتضمن دراستين: الأولى: لخضر عباس عطوان (الرؤية الأخلاقية الغربية لقضايا النظام العربى: الصراع العربى - الإسرائيلى نموذجاً) والثانية لإبراهيم ابراش (التباس مفهوم وواقع التعددية فى النظام السياسى الفلسطينى: العلاقة الملتبسة بين المنظمة والسلطة وحركة حماس).

وفى باب آراء مساهمتان، الأولى لهناء صوفى عبدالحى (الديمقراطية التنافسية والديمقراطية التوافقية/ الحالة اللبنانية) والثانية لأخصاص خليد (مدى إفادة المغرب من جهاز تسوية النزاعات بمنظمة التجارة العالمية).

وفى العدد أيضاً عرض كتاب: «الوطن العربى وأمريكا اللاتينية»، الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية فى بيروت، تأليف: ماريا روزا دى مادارياكا، وترجمة عبدالواحد أكمير.

واختتم العدد بتقرير عن نشاطات الجمعية العربية للعلوم السياسية، و«يوميات عربية ودولية مختارة»، و«ببليوجرافيا مختارة».

وجهات نظر
رسائل وآراء

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

ملاحظة

فى العدد الثانى والتسعين (سبتمبر ٢٠٠٦) من «وجهات نظر» ورد فى مقال للكاتب عصام تليمة بعنوان (الإخوان: الثقافة.. والفن.. والأحزاب محاولة للفهم) أن الدكتور محمد أحمد خلف الله مؤلف كتاب (القصص الفنى فى القرآن الكريم) عضو فى المجمع اللغوى. وهو يقصد مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهذا ليس صحيحاً، ولا شك أن الكاتب اختلط عليه الأمر، فلم يميز بين الدكتور محمد أحمد خلف الله: وبين الدكتور محمد خلف الله أحمد (١٩٠٤ - ١٩٨٣) الذى كان عضواً عاملاً فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وكان عميداً لكلية الآداب بجامعة الإسكندرية، ومديراً لمعهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية. أما صاحب الكتاب الذى أثار ضجة هائلة فى الجامعة وفى الصحافة (الفن القصصى فى القرآن الكريم)، فقد كان لفترة وكيلاً لوزارة الثقافة بمصر، ولم يكن عضواً فى المجمع اللغوى.

وفى المقال نفسه وردت الإشارة إلى كتاب (إقامة الدليل على حرمة التمثيل)، دون ذكر الاسم الكامل للمؤلف، واكتفى بالإشارة إلى أنه أحد دعاة السلفية الشيخ الغمارى. وهذه معلومة ناقصة وغير دقيقة، إذ مؤلف هذا الكتاب (أو بالأحرى الرسالة) هو الشيخ أحمد بن الصديق الغمارى، أحد أعلام أسرة آل ابن الصديق فى مدينة طنجة المغربية والذى اقام فى القاهرة أزيد من أربعة عقود.

عبدالقادر الإدريسى
مسئول الاعلام بالاسيسكو

الاعتذار عن الماضى

لقد قرأت بإمعان مقالة الكاتب الكبير الأستاذ سلامة أحمد سلامة والمعنونة «الاعتذار عن الماضى.. أو تقشير البصل» وذلك فى عدد أكتوبر ٢٠٠٦ من مجلة «وجهات نظر»، وقد تجلى الكاتب الهمام وأبدع فى سرد المقال والذى تحدث فيه عن واقع الأدباء والمفكرين والكتاب الذين بلغوا ذروة فى الشهرة والمكانة المحلية والدولية وكيف أن هؤلاء أو بعضاً منهم عندما يبلغون قمة المجد والشهرة والنجومية قد يسترجعون ماضيهم وما علق بسيرتهم الذاتية أثناء حياتهم الماضية كيف بهم وقد يسترجعون موقفا من المواقف أو لحظة فاصلة فى حياتهم كانت تعتبر هفوة أو يرونها كبيرة من الكبائر، يرون فيها أنها نقطة مظلمة قد تشوب الثوب الأبيض الذى راهن الناس عليه واستمروا على ما هم عليه من الشهرة والنجومية حتى بلغ بهم العمر مبلغه عندئذ يجاهرون وتستيقظ ضمائرهم ويعلنون على الملأ خطأ هذا الموقف الذى اعتراهم فى حياتهم الغابرة. وسمى الكاتب هذا الاعتراف أنه أشبه بنزول النهر للتطهر عند طقوس الهندوس أو شعيرة الحج عند المسلمين. وذكر الكاتب مثلاً بالأديب الألمانى الحائز على جائزة نوبل فى الآداب وهو جونز جريس والذى أعلن خطأه فى انضمامه إلى صفوف الألمان فى الحرب وقد أسهب الكاتب وذكر الكثير من سطور المقال عن هذا الأديب واعترافه.

وقد تساءل الكاتب فى نهاية مقاله عن: هل أحد عندنا فى العالم العربى يملك من الجرأة والشجاعة على مواجهة ماضيه مثلما فعل هذا الأديب المعاصر ومن نافلة القول قول واضح للكاتب أنه من خلال قراءتى ومعايشتى لكثير من الكتاب والمفكرين والساسة فى عالمنا العربى يندر أن يحدث هذا الاعتراف لاعتبارات عدة قد يعرفها الكاتب ويعرفها الجميع، وهى من ضمنها أن الكثير منهم قد يكون بلغ به من النجومية والشهرة مما قد يعز فى نفسه أن يعترف عن موقف ما أو حدث معين قد اعترض مسيرة حياته. ثانياً: إن مجتمعاتنا لم تبلغ بها النضج الفكرى والعقلى أن يتقبل من نجم مشهور أن يعترف، فقد تلوكه الألسنة ويخرج من الملة وقد يقولون فعل هذا لأسباب معينة فى نفسه حتى الأديب الألمانى الذى اعترف بخطئه لم يتركوه فى مجتمعه الذى نراه ناضجاً، بل تناولته الألسنة وظلت به الظنون كما ذكر الكاتب، فما بالك بمجتمعاتنا المتخلفة، وحتى لا نبخس الناس أشياءهم قد نرى نفراً قليلاً تراجعوا عن مواقف فكرية أو أيديولوجية فى بلد كمصر مثلاً، ما رأى الكاتب فى مراجعة توفيق الحكيم وما سطره فى كتابه عودة الوعى والذى تراجع فيه عن مواقفه أيام الثورة ثم ماذا عن خالد محمد خالد الذى تبرأ وأناب وتراجع عن الكثير من أفكاره وعلى سبيل المثال قوله فى نعى ستالين: «طبت حياً وميتاً يا رفيق» رأينا كيف تراجع عن كل ذلك فى مذكراته التى نشرها فى آخر أيامه، ثم ماذا عن عودة طه حسين عن بعض ما قاله عن الإسلام فى كتاباته المشهورة حتى إن الكثير من الناس اتهموه بالمروق والكفر وقد علل توبته وصفاء سريرته عندما رآه أحد العلماء الذين رافقوه فى مؤتمر بالسعودية كيف كان طه حسين يبكى عند الحجر الأسود ويقبله وينتحب حتى استوقف الكثير من الحجيج من جميع الجنسيات ويتعجبون لهذا الشيخ الضرير الذى يبكى بكاء شديداً، ثم نهايته ماذا عن موقف فصيل كبير من جماعات العنف وهم كانوا من أكثر الشباب ثقافة وعلماً ماذا عن اعترافهم وتوبتهم ومراجعاتهم التى وصلت ٢٠ مرجعاً يعتبرون أنهم كانوا على خطأ وقالوا لو استدبروا من أمرهم ما قتلوا السادات وما فعلوا ما كانوا يفعلونه، أليس هذا اعترافاً يحسب لهم وعلاوة على اعترافهم خرج البعض ينهشهم ويشكك فى أمرهم حتى إن أحد الكتاب كتب مقالة فى الأهرام عن أحد قيادتهم وكان هذا القائد من قيادات الجماعة، أول من نادى بالمراجعة كتب عنه هذا الكاتب مقالة بعنوان: «كرم زهدى الذئب العجوز».

نخرج من كل هذا بأن العيب قد يكون فى الكل.. الكتاب والمفكرين ينكرون ويتكبرون أن يقولوا خطأ اعتراهم والعيب أيضاً فى عامة الشعب، بل ومثقفيه. إن الكل لم يسلم من الكل. ولكم تحياتى.

صابر محمد عبدالواحد
عضو اتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين
أخميم - سوهاج

قلادة محفوظ الحقيقية

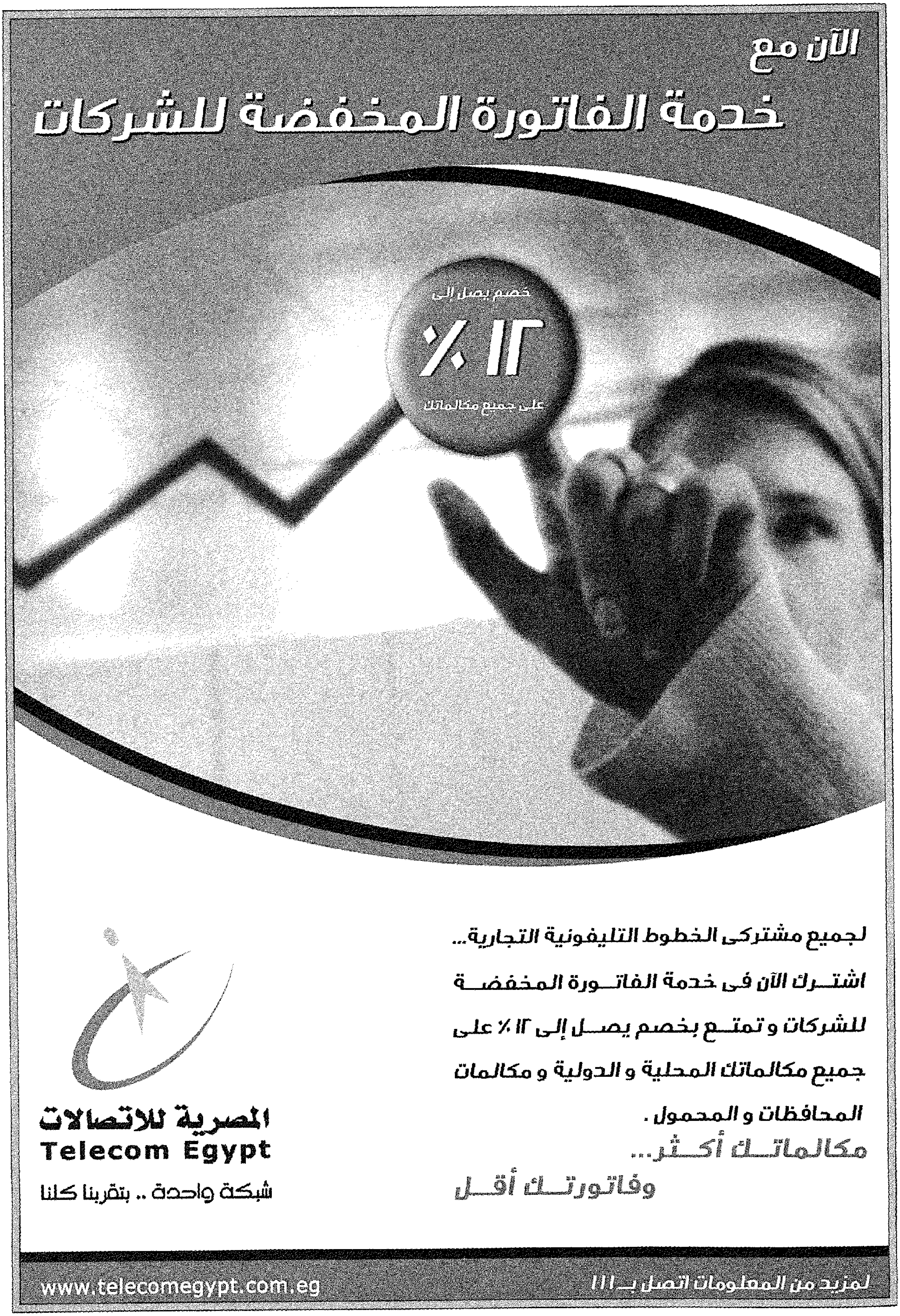
حين وقع نظرى على غلاف المجلة لشهر أكتوبر الماضى.. تملكتنى مشاعر جياشة قبل أن أتصفح العدد الذى اتخذت له المجلة عنواناً لها هذا الشهر وهو «ملف نجيب محفوظ».. تأملت الغلاف الذى يتصدره صورة فوتوغرافية على غير عادة المجلة حيث كان يتصدر الغلاف أحد رسوم الفنان التشكيلى المتميز الأستاذ التونى.. كانت الصورة لأديبنا الراحل نجيب محفوظ مولياً ظهره فى هدوء لخلفية بها بعض الأثاث المصرى العريق ويدلف مغادراً فى هدوء.. حيث يرحل تاركاً الظلام والبقايا إلى نور غامر ساطع هادئ شامل ليس له نهاية.

لم يدهشنى أن الذى التقط للأستاذ الراحل هذه الصورة هو تلميذه الأديب جمال الغيطانى الذى توحد مع أستاذه ومصريته الأصيلة.. وكان هذا الغلاف هذه المرة يستحق درجة الامتياز فعلاً.

وحين تصفحت العدد قفزت مرة أخرى إلى نفس الصورة فى مقال الحرفوش الآخر الشهير للأستاذ الدكتور يحيى الرخاوى غلبت عليه حرفيته كطبيب أمراض نفسية وغاص فى إبداعات الأديب الراحل عن أحلامه.

لكن الأغرب أن المقال الأخير بالمجلة الذى نشر بمجلة فرنسية قبيل أيام من رحيل الأستاذ نجيب ذكر فيه أن آخر الأحلام التى كانت تسكن رأسه كان حلماً رأى فيه الزعيم عبدالناصر يعطى له خبزاً مصرياً من الصعيد (العيش الشمسى).. فنجيب محفوظ كان يتمسك بمصريته وبساطته وأصالته، كما كان الزعيم الراحل جمال عبدالناصر.. وكان إعطاء الزعيم-المصرى خبزاً مصرياً صعيدياً أصيلاً للأديب المصرى هو فى رأيى واعتقادى أغلى وأعظم من قلادة ذهبية تحمل اسم النيل العظيم.. المصرى الأصيل يعشق تراب بلده وخبز بلده حتى لو وضع فى كفة.. والذهب فى كفة أخرى.. رحم الله الزعيم المصرى.. والأديب المصرى.

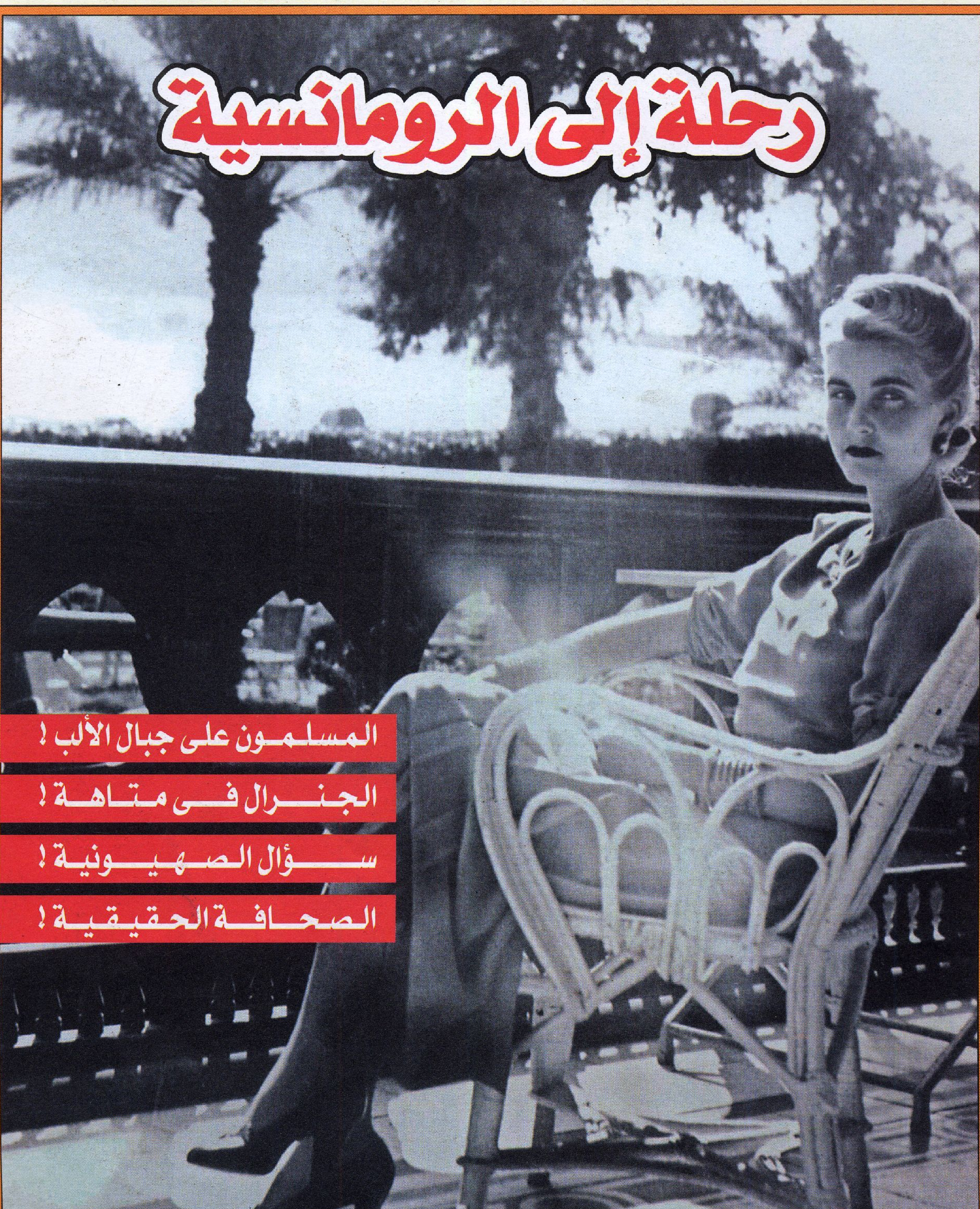
سعيد الرفاعى
العمار الكبرى - قليوبية

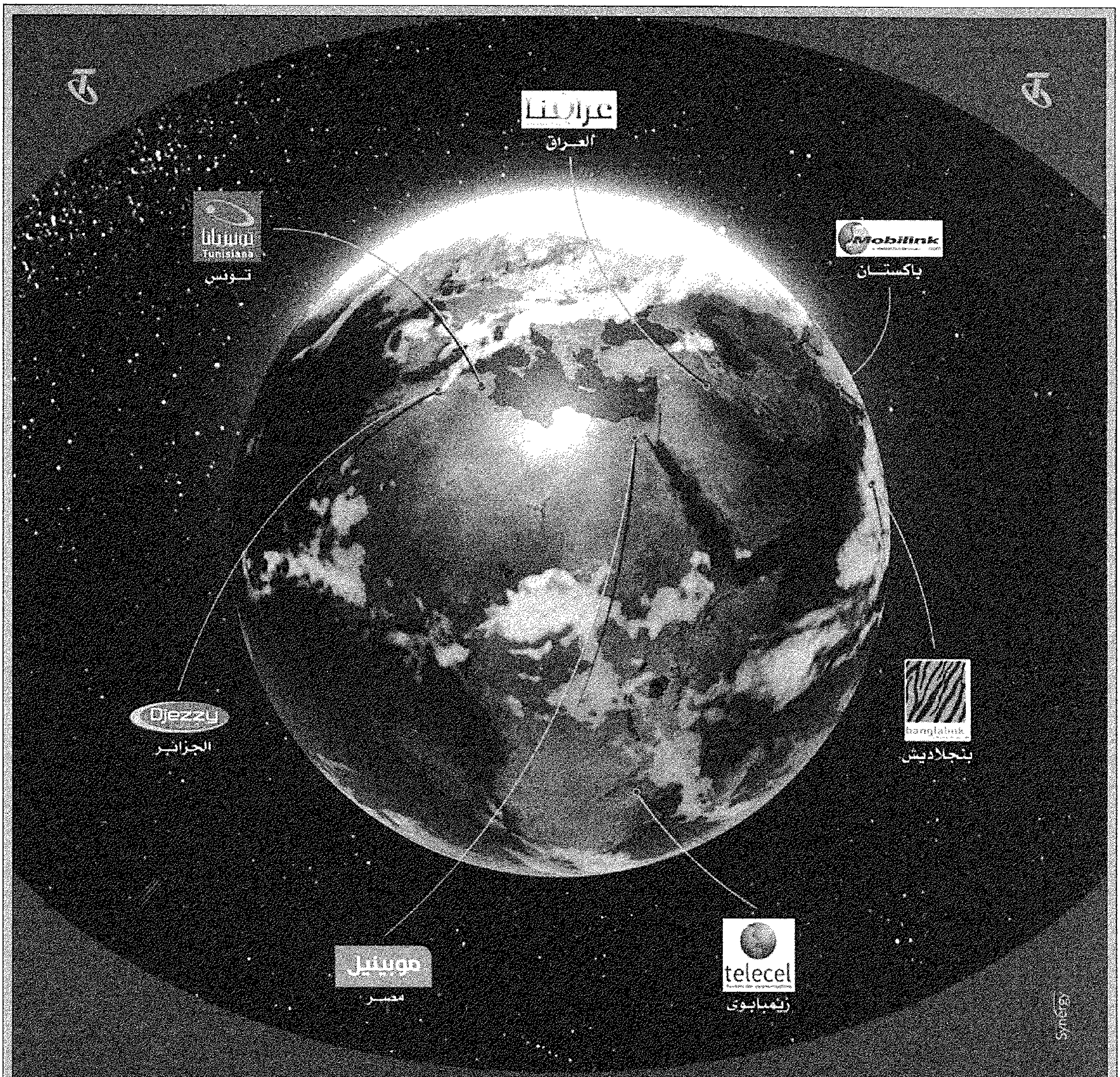

الآن مع
خدمة الفاتورة المخفضة للشركات
خصم يصل إلى
١٢٪
على جميع مكالماتك
لجميع مشتركى الخطوط التليفونية التجارية...
اشترك الآن فى خدمة الفاتورة المخفضة للشركات و تمتع بخصم يصل إلى ١٢٪ على جميع مكالماتك المحلية و الدولية و مكالمات المحافظات و المحمول.
مكالماتك أكثر...
وفاتورتك أقل
المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
شبكة واحدة .. بتقربنا كلنا
www.telecomegypt.com.eg
لمزيد من المعلومات اتصل بـ ١١١

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 97 - February 2007

مجلة شهرية. العدد السابع والتسعون. السنة التاسعة. فبراير ٢٠٠٧. الثمن عشرة جنيهات




عراقنا
العراق
تونسيانا
Tunisiana
تونس
Mobilink
باكستان
Djezzy
الجزائر
banglalink
بنجلاديش
موبينيل
مصر
telecel
زيمبابوى

السنة التاسعة
العدد السابع والتسعون
فبراير ٢٠٠٧

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

ـ آلان بلوتيه.. روائى فرنسى مهتم بالتاريخ المصرى القديم.
ـ أيمن الصياد .. صحفى.
ـ حلمى محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
ـ حمدى عزام .. دبلوماسى مصرى سابق.
ـ طارق على.. روائى وكاتب بريطانى من أصل باكستانى.
ـ عبد الوهاب المسيرى.. أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة.
ـ علاء الدين وحيد... كاتب.
ـ مازن النجار.. باحث وأكاديمى فلسطينى.
ـ محمد السماك .. كاتب لبنانى.
ـ محمد على شمس الدين.. شاعر وكاتب لبنانى
ـ معتز خورشيد.. مدير المجلس العربى للدراسات العليا والبحث العلمى ـ جامعة القاهرة
ـ وليم هـ.ماكنيل.. استاذ التاريخ بجامعة شيكاغو

رسوم العدد للفنانين
محمد حجى ـ سعد الدين شحاته ـ أحمد اللباد

المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٩٣٠٤٩٠/ ٢٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص ـ ب : ٢٢ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٢٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٢٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

الجنـــــــرال فى المتاهــــة!

طــــــارق عــــلى

بــرويــز مشــرف



إذا كانت هناك فكرة وحيدة سائدة فى مذكرات برويز مشرف فهى الاعتقاد المألوف بأن الباكستان أفضل حالا تحت حكم العسكر منها تحت حكم السياسيين. كان أول رهط من الجنرالات هم أبناء السلطة الكولونيالية المنقضية. كانوا قد نشأوا على إطاعة الأوامر واحترام هيكل القيادة فى الجيش مهما كان الثمن والتمسك بتقاليد الجيش الهندى البريطانى. كان الموظفون الذين حكموا باكستان فى أيامها الأولى نتاج عملية اختيار إمبريالى يهدف إلى تعيين موظفين مدنيين يتمتعون بالنزاهة ويرتدون قناع الموضوعية. ومازالت سلسلة القيادة العسكرية تحظى بالاحترام ولكن الخدمة المدنية تتكون الآن فى معظمها من موظفين فاسدين إلى أقصى الحدود. كانوا فيما سبق موالين للحكومة الإمبريالية وقد تحول ولاؤهم اليوم إلى الجيش.

كان أول حاكم عسكرى لباكستان هو الجنرال أيوب خان ضابط كولونيالى تدرب فى كلية ساندهرست، واستولى على السلطة فى أكتوبر ١٩٥٨ بتشجيع قوى من واشنطن ولندن اللتين كانتا تخشيان أن تأتى الانتخابات العامة الأولى بتحالف قد يجرف الباكستان خارج معاهدات الأمن إلى منظمة جنوب شرق آسيا SEATO أو باتجاه سياسة عدم الانحياز. وقد حظر أيوب كل الأحزاب السياسية وصادر صحف المعارضة وقال فى الاجتماع الأول لوزارته «فيما يتعلق الأمر بكم فإن هناك سفارة واحدة لها أهمية فى هذه البلاد: السفارة الأمريكية» وفى بث إذاعى إلى الأمة قال أيوب خان لمواطنيه المذهولين: «إننا يجب أن نفهم أن الديمقراطية لا يمكن أن تعمل فى المناخ الحار. فالديمقراطية تحتاج إلى مناخ بارد كما فى بريطانيا».

ربما يكون هذا النوع من الملاحظات وراء ازدياد شعبيته فى الغرب. فقد أصبح الوجه المفضل فى صحف بريطانيا والولايات المتحدة. وقد سحر مظهره الخارجى الودود كريستين كيلر (التى قفز معها إلى حوض سباحة فى كليفدن أثناء مؤتمر رؤساء وزارات الكومنويلث) كما دفع المبجل كنجسلى مارتن من صحيفة نيو ستيتمان إلى نشر حوار متواضع معه. وفى هذه

In the of Fire.. A Memoir
على خط النار.. مذكرات
Pervez Musharraf
Free Press. $ 18.48, 2006
بترتيب مع مجلة:
London Review of Books

ترجمة: بثينة الناصرى

الأثناء أخرست أصوات المعارضة وعُذب السجناء السياسيون. وقد مات حسن ناصر وهو شيوعى نتيجة لذلك. فى عام ١٩٦٢ - بعد أن رقى نفسه إلى فيلد مارشال (المشير) قرر أيوب أن الوقت حان لتوسيع قاعدة جاذبيته. خلع زيه العسكرى وارتدى الزى الوطنى وخاطب اجتماعا جماهيريا (وهو اجتماع لفلاحين من ملاك الأراضى جمعهم بالإكراه) وفيه أعلن أنه ستجرى قريبا انتخابات رئاسية مناشدا الشعب أن يدعمه . وقد رتبت الحكومة حزبا سياسيا باسم «رابطة المسلمين» وهرع المتسلقون إلى الانضمام إليه. أجريت الانتخابات فى ١٩٦٥ وزيفت الأصوات من أجل ضمان نصر الفيلد مارشال. وكانت منافسته فاطمة جنة (شقيقة مؤسس الدولة) قد جاهدت فى حملة انتخابية ناجحة ولكن بلا طائل . أما القليل من الموظفين الذين رفضوا المساعدة فى تزييف الانتخابات فقد أحيلوا إلى تقاعد مبكر.

والآن بعد أن أصبح انتخابه رسميا، فقد صار الرأى أن نشر مذكراته سوف يمنحه المزيد من الشرعية. وكانت مذكراته المعنونة (أصدقاء لا أسياد: سيرة حياة سياسية) قد ظهرت من مطبعة أكسفورد فى ١٩٦٧ ولاقت ترحيبا عظيما فى الصحافة الغربية وهيستريا منافقة فى الإعلام الباكستانى الذى تسيطر عليه الدولة. وكان وزير الإعلام فى حكومته ألطاف جوهار وهو رجل بلاط ماكر وخبيث هو الكاتب الخفى لكتاب بالغ الشناعة: كان أسلوبه جامدا وهابطا و فضفاضا وحافلا بأنصاف الحقائق. وهكذا فقد جاء بعكس التأثير المطلوب فى الباكستان وكان الطلاب فى رحاب الجامعات يسخرون منه بكتابات سرية يتداولونها بينهم. وكان أيوب قد دعا الباكستانيين «لدراسة هذا الكتاب وفهمه والعمل بموجبه.. إن مضمونه لخير الشعب» وكان أكثر من ٧٠٪ من السكان أميين ومن البقية لا يقرأ الإنجليزية إلا صفوة صغيرة. فى أكتوبر ١٩٦٨ وخلال احتفالات باذخة فى الذكرى العاشرة للدكتاتورية باعتبارها «عقداً من التطور» طالب الطلاب فى راولبندى بإعادة الديمقراطية، وانتشرت لجان العمل الطلابية فى أنحاء البلاد. واستجابت الدولة بقسوتها المعهودة بشكل اعتقالات جماعية وأوامر لقتل «المشاغبين» وقتل العديد من الطلاب خلال الأسابيع القليلة الأولى. وفى الشهرين التاليين اشترك فى الاحتجاجات العمال والمحامون وأصحاب المحلات والموظفون وحتى العاهرات. وأصبحت الكلاب الضالة المكتوب بالأصابع على ظهرها كلمة (أيوب) هدفاً خاصاً للشرطة المسلحة.

فى بث إذاعى إلى الأمة قال أيوب خان لمواطنيه المذهولين: «إننا يجب أن نفهم أن الديمقراطية لا يمكن أن تعمل فى المناخ الحار. فالديمقراطية تحتاج إلى مناخ بارد كما فى بريطانيا»





وفى مارس ١٩٦٩، تنازل أيوب عن الحكم إلى الجنرال السكير يحيى خان.

وعد يحيى بانتخابات حرة خلال سنة ووفى بوعده. وكانت نتيجة انتخابات ١٩٧٠ (وهى الأولى فى تاريخ الباكستان) نصراً كبيراً لرابطة عوامى وهم قوميون بنغاليون من باكستان الشرقية (بنجلاديش الآن). وكان البنغاليون يشعرون بالمرارة لسبب وجيه: فباكستان الشرقية حيث يعيش أغلبية السكان كانت تعامل كأنها مستعمرة وكان البنغاليون يريدون حكومة فيدرالية. فى حين أن الصفوة العسكرية السياسية الاقتصادية تأتى من باكستان الغربية ولهذا كانت ترى فى نصر رابطة عوامى تهديدا لمصالحها.

وكان ينبغى على ذو الفقار على بوتو قائد حزب الشعب الباكستانى الذين فاز فى الجزء الغربى من البلاد، أن يتفاوض على تسوية مع المنتصرين. بدلا من ذلك، غضب وطلب من حزبه مقاطعة اجتماع للجمعية العامة فى دكا، عاصمة باكستان الشرقية. وهكذا قدم للجيش مساحة للاستعداد لهجوم عسكرى. وقد منع يحيى زعيم رابطة عوامى مجيب الرحمن من تشكيل الحكومة وفى مارس ١٩٧١ أرسل قواته لاحتلال باكستان الشرقية. وحينها أعلن بوتو «الحمد لله لقد تم إنقاذ باكستان» مصطفا مع ماسيجىء. واعتقل رحمن وقتل عدة مئات من القوميين والمفكرين اليساريين والناشطين والطلاب فى مجازر منظمة. وقد أعدت قوائم الضحايا بالتعاون مع إصلاحيين إسلاميين كان حزبهم (الجماعة الإسلامية) قد خسر خسارة كبيرة فى الانتخابات. وتبعت المذابح حملة من الاغتصابات الجماعية. حيث كان يقال للجنود إن البنغاليين تحولوا إلى الإسلام حديثا فهم لم يكونوا إذن (مسلمين أصلاء) وعلى هذا يجب تحسين جيناتهم.

وقد دفعت الفظائع إلى نشوء مقاومة مسلحة وكانت هناك مناشدات للمساعدة العسكرية من نيو دلهى حيث أسست رابطة عوامى حكومة منفى. وقد انتهز الهنود هذه الفرصة، خشية من أن يتسبب اللاجئون البنغاليون فى ضعضعة استقرار بنغال الغربية التابعة للهند. فأرسلت جيشها الذى رحب به البنغاليون كجيش تحرير. وفى خلال أسبوعين حوصرت القوات الباكستانية واختار قائدهم الجنرال نيازى الملقب بالنمر الاستسلام بدلا من الشهادة مما أوغر صدور رفاقه الذين كانوا على بعد ألف ميل من ميدان المعركة. فى ديسمبر ١٩٧١ أصبحت باكستان الشرقية دولة بنجلاديش وانتهى ٩٠ ألفا من جنود باكستان الغربية فى معسكرات أسرى الحرب الهندية. وكان نيكسون وكيسنجر وماو جميعا قد (وضعوا ثقلهم وراء باكستان) ولكن بدون جدوى. كانت كارثة شاملة للجيش الباكستانى: لقد أدت أول مرحلة من الحكم العسكرى إلى تقسيم البلاد وخسارة أغلبية السكان.

وجد بوتو نفسه حينها مع جيش مهزوم ودولة مجدوعة. وكان قد انتخب حسب برنامجه الاجتماعى الديمقراطى الذى تعهد فيه بتوفير الغذاء والملابس والتعليم والسكن للجميع، إضافة إلى وعود بإصلاحات كبيرة فى الأراضى والتأميم. وكان الزعيم السياسى الوحيد الباكستانى الذى يملك السلطة والدعم الشعبى لتغيير البلاد ومؤسساتها بضمنها الجيش تغييرا جذريا. ولكنه فشل على كل الجبهات. التأميم لم ينتج سوى عن إحلال الموالين الفاسدين والموظفين الخانعين محل رجال الأعمال الجشعين. وحين هرع ملاك الأراضى للانضمام إلى حزبه، وضعت فى الأدراج كل الإصلاحات الزراعية الجذرية التى وعد بها. وكان الفقراء يشعرون بالفطرة أن بوتو إلى جانبهم (حيث إن الصفوة لم تغفر له أبدا) ولكنه لم يتخذ سوى إجراءات هزيلة لتبرير ثقتهم هذه. وكان أسلوب حكومته شموليا وكان ميله للانتقام ماحقا.

حاول بوتو أن يحارب المعارضة الدينية بارتداء ملابسهم: حظر بيع الكحول وجعل الجمعة عطلة رسمية وأعلن تكفير طائفة الأحمدية (وهو مطلب قديم للجماعة الإسلامية لم يلتفت إليه أحد من قبل) ولكن هذه الإجراءات لم تساعده بل دمرت البلاد بتشريع السياسة الدينية. ورغم مخاوفه من المعارضة الإسلامية فإن بوتو كان سيفوز بانتخابات ١٩٧٧ بدون تدخل الدولة وإن يكن الفوز بفارق صغير ولكن التدخل كان سافراً إلى درجة أدى بالمعارضة إلى الخروج إلى الشوارع ولم ينفعه لا قدرته على التهكم ولا ألمعيته فى هذه الأزمة.

ولأنه كان دائما لايحسن الحكم على الأشخاص فقد جعل من جنرال مغمور ومتحمس صغير العقل هو ضياء الحق رئيس هيئة

أركان الجيش. وبصفته رئيس البعثة التدريبية الباكستانية فى الأردن، قاد البريجادير ضياء هجوماً (أيلول الأسود) على الفلسطينيين عام ١٩٧٠ .

فى يوليو ١٩٧٧ ولاستباق اتفاق بين بوتو وأحزاب المعارضة كانت تتضمن انتخابات جديدة، ضرب ضياء ضربته. فاعتقل بوتو لعدة أسابيع وتعهد ضياء الحق بانتخابات جديدة خلال ستة أشهر بعدها يعود الجيش إلى ثكناته. بعد سنة أعيد اعتقال بوتو الذى مازال محبوبا من الجماهير التى كانت تحتشد لتحيته أينما ذهب، وفى هذه المرة وجهت إليه تهمة القتل وحوكم وشنق فى أبريل ١٩٧٩.

وعلى مدى السنوات العشر التالية، توحشت الثقافة السياسية فى الباكستان، حيث أصبح الجلد والشنق العلنى (للصحفيين المعارضين من بين آخرين) ممارسة مألوفة، وقد تحول ضياء نفسه إلى بطل الحرب الباردة بفضل الأحداث فى أفغانستان. ولم تجد الرابطة الدينية لتقليل عداء القادة الأفغان لجيرانهم. والسبب الرئيسى كان خط دوراند الذى فرض على الأفغان عام ١٨٩٣ لترسيم الحدود بين الهند البريطانية وأفغانستان والتى قسمت السكان البشتون فى المنطقة. بعد مائة عام (على طراز هونج كونج) سوف يعود إلى أفغانستان كل ما أصبح يسمى المحافظة الحدودية الشمالية الغربية للهند البريطانية، ولكن كل حكومات كابول رفضت خط دوراند بنفس مقدار رفضها السلطة البريطانية ثم فيما بعد الباكستانية على المنطقة.

فى ١٩٧٧ حين جاء ضياء إلى السلطة كان ٩٠٪ من رجال أفغانستان و٨٩٪ من نسائها أميين وكان ٥٪ من ملاك الأراضى يملكون ٤٥٪ من الأراضى المزروعة وكانت البلاد صاحبة أدنى دخل قومى فى آسيا. فى نفس السنة سحب شيوعيو بارشام الذين ساندوا الانقلاب العسكرى فى ١٩٧٣ الذى قام به الأمير داود حيث أعلنت الجمهورية بعد ذلك، دعمهم لداود وانضموا مرة أخرى إلى الجماعات الشيوعية الأخرى لتشكيل حزب الشعب الديمقراطى فى أفغانستان وبدأوا يدعون إلى حكومة جديدة. وتدخلت الأنظمة فى الدول المجاورة، وكان شاه إيران الذى يقوم بدور قناة اتصال مع واشنطن قد نصح بإجراء حاسم - توسيع نطاق الاعتقالات والإعدامات والتعذيب - ووضع وحدات من أجهزة التعذيب لديه تحت تصرف داود. كما قال الشاه لداود إنه إذا اعترف بخط دوراند كحدود دائمة فإن الشاه سوف يعطى أفغانستان ٣ بلايين دولار وإن باكستان سوف تتوقف عن الأعمال العدائية. وفى هذه الأثناء كانت أجهزة الاستخبارات الباكستانية تسلح المنفيين الأفغان وتشجع الانتفاضات العشائرية الهادفة لإحياء الملكية. وكان داود ميالا لقبول عرض الشاه ولكن الشيوعيين نظموا انقلابا استباقيا واستولوا على السلطة فى أبريل ١٩٧٨. وفى واشنطن حدث ذعر، ازداد عشرات الأضعاف حين أصبح واضحا أن الشاه أيضا كان على وشك أن يفقد عرشه أيضا. وهكذا أصبحت دكتاتورية ضياء الحق أداة الاستراتيجية الامريكية فى المنطقة ولهذا السبب أعطت واشنطن الضوء الأخضر لإعدام بوتو وأغمضت عينيها عن البرنامج النووى لباكستان. كانت الولايات المتحدة تبحث عن باكستان مستقرة بأى ثمن.

وكما نعلم الآن فإن الخطط (أو كما يسميها مستشار الأمن القومى سبجنيو بيرجنسكى «فخ الدب») قد وضعت لقلقلة استقرار حزب الشعب الديمقراطى الأفغانى على أمل استدراج حماته السوفييت، والخطط من هذا النوع تفشل دائما ولكنها نجحت فى أفغانستان والسبب الرئيسى هو ضعف الشيوعيين الأفغان أنفسهم: لقد جاءوا إلى السلطة من خلال انقلاب عسكرى لم يشتمل على أى تحريك خارج كابول ومع هذا فقد تظاهروا بأن هذه كانت ثورة وطنية. وكان تشكيلهم السياسى الستالينى يجعلهم حساسين لأى نوع من المساءلة ولم تخطر على بالهم أية أفكار مثل كتابة ميثاق حقوق ديمقراطية أو إجراء انتخابات حرة لجمعية دستورية. وقادت الصراعات العنيفة بين الفصائل فى سبتمبر ١٩٧٩ إلى إطلاق نار فى القصر الجمهورى بكابول على طراز عصابات المافيا حيث قتل خلالها رئيس الوزراء حافظ الله أمين الرئيس تاراكى. وكان أمين وهو ستالينى متشدد يزعم أن ٩٨٪ من السكان يدعمون إصلاحاته ولكن ينبغى تصفية الـ ٢٪ المعارضين. ونتيجة لذلك حدث تمرد فى الجيش وانتفاضات فى المدن وفى هذا الوقت كان كل ذلك لا علاقة له بالأمريكان أو الجنرال ضياء.

أخيرا بعد قرارين من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ضد التدخل، غير الاتحاد السوفيتى رأيه قائلا: إن لديه «وثيقة جديدة». مازالت هذه سرية ولكن لن يدهشنى أبدا إذا كان الدليل عبارة عن وثائق مزيفة تزعم أن أمين عميل لوكالة المخابرات المركزية. وعلى أية حال قررت اللجنة المركزية باستثناء يورى اندروبوف الذى صوت ضد القرار، إرسال قوات إلى أفغانستان. بهدف التخلص من نظام غير مرغوب فيه واستبداله بنظام أقل تنفيرا بشىء بسيط. هل يذكركم هذا بشىء؟

توحشت الثقافة السياسية فى الباكستان، حيث أصبح الجلد والشنق العلنى (للصحفيين المعارضين من بين آخرين) ممارسة مألوفة، وقد تحول ضياء نفسه إلى بطل الحرب البـاردة بفضــل الأحــداث فى أفغانســتان

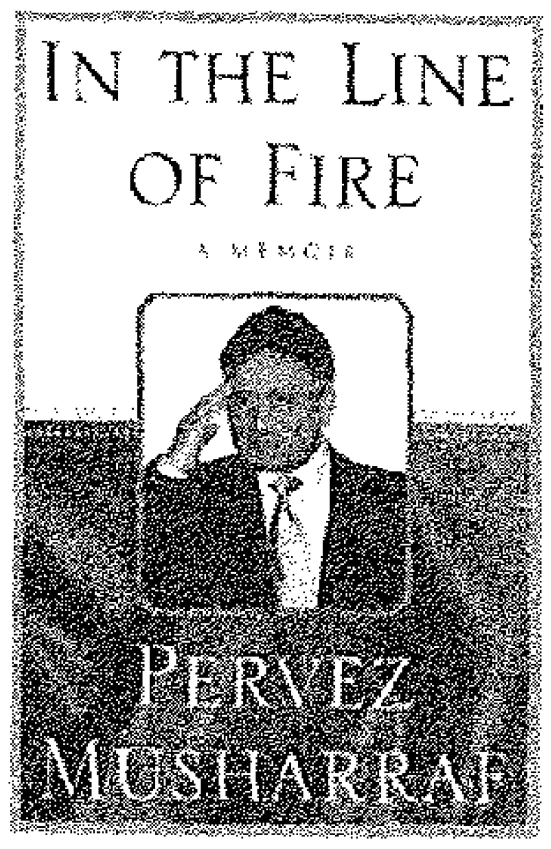
من ١٩٧٩ إلى ١٩٨٨ كانت أفغانستان بؤرة الحرب الباردة. وقد عبر ملايين من اللاجئين خط دوراند واستقروا فى معسكرات ومدن فى شمال غرب حدود الباكستان.

وكانت الأسلحة والأموال إضافة إلى الجهاديين تتدفق من السعودية والجزائر ومصر إلى الباكستان. وكانت ثمة مكاتب لكل وكالات الاستخبارات الغربية الرئيسية (بضمنها الإسرائيلية) فى بيشاور قرب الحدود. كانت أسعار الدولار واحدة فى السوق السوداء والسوق الرسمية . وكانت الأسلحة بضمنها صواريخ ستنجر تباع للمجاهدين بواسطة الضباط الباكستانيين الذين كانوا يسعون للثراء. وازدهرت تجارة الهيروين وازداد عدد المدمنين المسجلين فى الباكستان من بضع مئات فى ١٩٧٧ إلى بضعة ملايين فى ١٩٨٧. (أحد البنوك التى كانت مافيا الهيروين تغسل نقودها فيه هو بنك BCCI الذى كان أحد أهم مسئولى العلاقات العامة فيه فى الخارج موظفا مدنيا متقاعدا اسمه ألطاف جوهار).

أما بالنسبة لباكستان وشعبها فقد كانا يعيشان معاناة شديدة. خلال فترة حكم ضياء، كانت الدولة ترعى الجماعة الإسلامية التى لم تكن تستطيع الحصول على ٥٪ من أصوات الناخبين فى أى مكان فى البلاد. وكان قادتها يرسلون للقتال فى أفغانستان وكان جناحها الطلابى يشجع لإرهاب الجامعات باسم الإسلام، وكانت أيديولوجيتهم حاضرة أبدا فى التليفزيون المحلى. كما شجعت أجهزة الاستخبارات الداخلية أيضا تشكيل جماعات جهادية متطرفة أخرى كانت تنفذ أعمالا إرهابية فى الوطن وفى خارجه وتقيم المدارس الإسلامية فى كل أنحاء المحافظات الحدودية. وفجأة احتاج ضياء أن يؤسس حزبه السياسى الخاص به وكان له ما أراد: الرابطة الإسلامية.

ومع تصعيد ميخائيل جورباتشوف فى مارس ١٩٨٥ أصبح واضحا أن الاتحاد السوفيتى سوف يقبل الهزيمة فى أفغانستان ويسحب قواته. كان يريد







بعض الضمانات للأفغان الذين يتركهم وراءه، وكانت الولايات المتحدة - وقد أنهت مهمتها بنجاح - على استعداد لأن تلعب هذا الدور. ولكن الجنرال ضياء على أية حال لم يكن بنفس الاستعداد. فقد صعدت الحرب الأفغانية إلى رأسه (كما حدث مع أسامة بن لادن ورفاقه) وأراد أن ينصب جماعاته هناك. وحين اقترب انسحاب السوفييت، كان ضياء والاستخبارات العسكرية يخططون لما بعد التسوية.

ثم اختفى ضياء. فى ١٧ أغسطس ١٩٨٨ أخذ معه خمسة جنرالات إلى حضور تجريب دبابة أمريكية نوع ابرامز M-A/١-١ فى ميدان اختبار قرب باهاوالبور. كان حاضرا أيضا جنرال أمريكى والسفير الأمريكى أرنولد رافايل. لم تكن التجربة ناجحة وكان الكل منزعجا. عرض ضياء على الأمريكيين نقلهم فى طائرته الخاصة نوع سى ١٣٠ وفيها كابينة محصنة لحمايته من الاغتيال. بعد عدة دقائق من انطلاق الطائرة فقد الملاحون سيطرتهم عليها وتحطمت فى الصحراء. وقد قتل جميع الركاب. وكل ما تخلف عن ضياء كان عظم الفك الذى دفن فيما بعد فى إسلام أباد (الطريق غير المباشر القريب من المقبرة أصبح يعرف فى أوساط سائقى التاكسى هناك باسم «طريق عظم الفك»). ظل سبب تحطم الطائرة سرا، ويحوى الأرشيف القومى الأمريكى ٢٥٠ صفحة من الوثائق ولكنها جميعا سرية. وقد أخبرنى خبراء استخبارات باكستانية بشكل غير رسمى بأن هذا من عمل الروس الذين ثأروا لأنفسهم،، ولكن معظم الباكستانيين يضعون اللوم على وكالة المخابرات المركزية كالعادة. أما ابن ضياء وأرملته فقد كانا يهمسان بأن الفاعلين هم «من داخل جيشنا».

باغتيال ضياء انتهت المرحلة الثانية من حكم العسكر فى باكستان. ما تبعها كان تمهيدا مدنيا مطولا يسبق حكم مشرف. فعلى امتداد عشر سنوات كان أعضاء من السلالتين السياسيتين: آل بوتو وآل شريف يحكمون البلاد بالتبادل. وكان وزير الداخلية فى حكومة بنازير بوتو الجنرال نصير الله بابار هو الذى وضع - بالتعاون مع الاستخبارات العسكرية - خطة لإنشاء طالبان كقوة سياسية عسكرية يمكن أن تخترق أفغانستان، وهو تحرك ساندته السفارة الأمريكية بغير حماس. كانت واشنطن قد فقدت اهتمامها بأفغانستان وباكستان حالما انسحب السوفييت. وكان الطالبان (الطلبة) من أطفال اللاجئين الأفغان وعائلات باثان الفقيرة وقد تعلموا فى المدارس الإسلامية فى الثمانينيات: كانوا يشكلون نواة القوات ولكن يقودهم مجموعة من المجاهدين ذوى الخبرة أمثال ملا عمر وبدون مساعدة باكستان لم يكونوا يستطيعون السيطرة على كابول. مع أن الملا عمر كان يفضل أن ينسى هذا. كان فصيل عمر هو المسيطر ولكن الاستخبارات العسكرية الباكستانية لم تفقد السيطرة كليا على المنظمة. احتفظت إسلام أباد بهدوئها حتى حين أراد أنصار عمر أن يؤكدوا استقلاليتهم بمهاجمة السفارة الباكستانية فى كابول وقاطعت شرطته الدينية مباراة كرة قدم بين البلدين لأن اللاعبين الباكستانيين كانوا بشعور طويلة وشورتات قصيرة، وقد ضربوا اللاعبين بالعصى أمام الجمهور المصعوق وطردوهم إلى بيوتهم.

بعد سقوط بنازير، عاد الأخوان شريف إلى السلطة، ومرة أخرى قبل شاهباز وهو الشقيق الأصغر والأكثر ذكاء قرار العائلة وأصبح نواز رئيسا للوزراء. فى ١٩٩٨ قرر شريف أن يجعل برويز مشرف رئيس أركان الجيش مفضلا إياه على الجنرال الأكبر رتبة على كولى خان (الذى كان معى فى الكلية فى لاهور). وربما كانت أسباب شريف أن مشرف وهو من خلفية لاجئين من الطبقة المتوسطة مثله، سيكون طوع يمينه أكثر من على كولى الذى ينحدر من عائلة إقطاعية من باثان على الحدود الشمالية الغربية للباكستان . ومهما كانت الأسباب فقد اتضح أنها كانت خاطئة.

بناء على حث بيل كلينتون، دفع شريف باتجاه تحسين العلاقات مع الهند. تم التفاوض على اتفاقيات سفر وتجارة وفتحت الحدود البرية واستؤنف الطيران ولكن قبل الوصول إلى المرحلة الثانية، ابتدأ الجيش الباكستانى بالاحتشاد فى سفوح الهيمالايا. ادعت الاستخبارات العسكرية الباكستانية أن الهنود احتلوا نهر جليد سياخين فى كشمير احتلالا غير شرعى والهنود ادعوا العكس. وبعد المعركة التى اشتعلت بين الطرفين لم يستطع أحدهما ادعاء النصر ولكن الإصابات كانت مرتفعة خاصة فى الجانب الهندى (وقد ضخم مشرف من نصر باكستان) وتم الاتفاق على وقف إطلاق النار وعاد كل جيش إلى داخل حدوده.

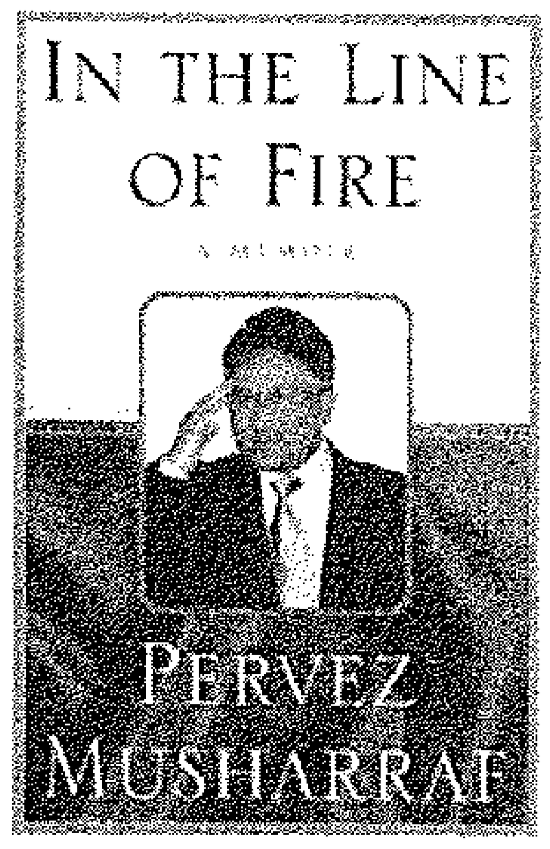
لماذا نشبت الحرب فى المقام الاول؟ فى المجالس الخاصة كان الأخوان شريف يبلغون حلفاءهما بأن الجيش كان يعارض سياسة الصداقة مع الهند وكان مصرا على تخريب العملية: لقد تصرف الجيش بدون إذن الحكومة. وفى مذكراته يصر مشرف على أن الجيش كان يطلع رئيس الوزراء فى تقارير شهر يناير وفبراير ١٩٩٩. مهما كانت الحقيقة فإن شريف أبلغ واشنطن بأنه حشر فى حرب لم يسع إليها، وبعد الحرب بوقت قصير قررت عائلة شريف التخلص من مشرف. حسب الدستور يملك رئيس الوزراء سلطة طرد رئيس أركان الجيش وتعيين بديل له كما فعل ذو الفقار على بوتو فى السبعينيات حين عين ضياء. ولكن الجيش حينذاك كان ضعيفا ومنقسما ومهزوما، وهذا لم يكن بالتأكيد الوضع فى عام ١٩٩٩م.

كان مرشح شريف لخلافة مشرف الجنرال ضياء الدين بوت رئيس الاستخبارات العسكرية الذى كان معروفا بفساده وعدم كفاءته. وقد أسرع بإرساله إلى واشنطن لفحصه وبيان قدرته، وبينما هو هناك يقال إنه تعهد بتقديم رأس بن لادن على طبق. لو كان شريف قد طرد مشرف كان سيجد فرصة أفضل للنجاح ولكن ما كان يفتقده من حكمة كان أخوه يصلحه بالحيلة. هل كان الأخوان شريف من الغباء حقا إلى حد الظن بأن الجيش لم يكن على دراية بخططهما، أم فقدا البوصلة بسبب إيمانهما الأعمى بأن أمريكا هى القوة الوحيدة فى الكون؟ وقد حذر كلينتون الجيش بأن واشنطن لن تقبل بانقلاب عسكرى فى الباكستان وأتذكر أنى فكرت فى وقتها أن هذه سابقة فى العلاقات الأمريكية الباكستانية. كان شريف يعتمد اعتمادا كليا على تحذير كلينتون.

ماحدث بعد ذلك كان مأساة - ملهاة وصفت وصفا معبرا فى كتاب مشرف. كان هو وزوجته يعودان بطائرة ركاب عادية من سريلانكا حين تسلم الطيار تعليمات بعدم الهبوط. وفيما كانت الطائرة تحوم فوق كراتشى، استدعى نواز شريف الجنرال بوت وأمام طاقم تليفزيونى حلّفه باعتباره رئيسا جديدا للأركان. فى هذه الأثناء كان هناك ذعر فى طائرة مشرف والوقود على وشك النفاد. استطاع أن يتصل بقائد حامية كراتشى، وهكذا سيطر الجيش على المطار وهبطت الطائرة بسلام. وفى نفس الوقت أحاطت وحدات عسكرية بمنزل رئيس الوزراء فى إسلام أباد واعتقلت نواز شريف. لقد أغتيل ضياء فى طائرة عسكرية ومشرف استولى على السلطة فى طائرة مدنية.

هكذا بدأت المرحلة الثالثة الممتدة من حكم العسكر فى باكستان والتى هلل لها كل







معارضى نواز شريف السياسيين والكثير من رفاقه. فى (خط النار) يسرد القصة الرسمية لما كان يحدث فى باكستان خلال السنوات الست الماضية وهو موجه للقارئ الغربى. وبينما حشر ألطاف جوهار هراء من كل نوع فى مذكرات أيوب، قام ابنه همايون جوهار الذى صحح هذا الكتاب بتجنب الفخاخ الأكثر وضوحا. على سبيل المثال، تم تقليل أثر أسلوب حياة الجنرال الخليعة ولكن ظلت هناك تلميحات فى الكتاب تبين أنه كان رجلا لا تردعه عن غيه التزامات دينية أو اجتماعية.

كان شرحه لطرق تسوية الثارات مع أعدائه فظا ولهذا السبب تسبب الكتاب بضجة فى باكستان. وثارت فى وسائل الإعلام مجادلات ساخنة وهو شىء لم يكن ليحدث خلال الفترات السابقة من حكم العسكر. وقد صدر نقد شديد من جنرالات سابقين (نشرت معظم الصحف رد على كولى خان) وسياسيين معارضين وشخصيات من كل نوع. فى الواقع أن تدخل الدولة فى الإعلام خلال حكم نواز شريف كان أكبر مما هو تحت حكم مشرف ومستوى الجدل كان أكثر مما فى الهند حيث يستحوذ على الطبقة المتوسطة هوس التسوق ومتابعة المشهورين من النجوم وقد أدى كل ذلك إلى تركيز التليفزيون ومعظم الإعلام المطبوع على التافه والهامشى من الأمور.

حين استولى مشرف على السلطة فى ١٩٩٩، رفض أن يغير سكنه مفضلا منزله المبنى على الطراز الكولونيالى فى راولبندى، على الرفاهية المريحة فى دار الرئاسة فى إسلام أباد، بأثاثها المذهب وديكورها الشنيع الذى يذكر ببذخ دولة خليجية أكثر منه بالتراث المحلى. والمدينتان قريبتان من بعضهما البعض ولكنهما مختلفتان تماما. إسلام أباد المصممة مثل شبكة مربعات تحيطها سفوح الهيمالايا، بناها الجنرال أيوب فى الستينيات. كان يريد عاصمة جديدة بعيدة عن الازدحام المخيف ولكن قريبة من مركز الحكومة فى راولبندى التى بناها البريطانيون كمدينة - حامية. بعد الانفصال، أصبحت المكان الملائم لتكون مقرا للجيش فى باكستان الجديدة.

كانت خطة إحدى الحملات الاستعمارية البريطانية فى القرن التاسع عشر لغزو أفغانستان (وكلها انتهت بكوارث) قد رسمت فى راولبندى. ومن هناك أيضا، بعد قرن ونصف، انطلق الجهاد بمباركة أمريكية ضد الشيوعيين الأفغان، وهناك أيضا نوقشت مطالب الولايات المتحدة باستخدام باكستان كقاعدة لعملياتها فى أفغانستان وتمت الموافقة فى سبتمبر ٢٠٠١. كان هذا قرارا حاسما لقادة الجيش لأنه يعنى تفكيك نصرهم الخارجى الوحيد: إيصال طالبان إلى السلطة فى كابول.

ازدحام المرور يجعل من الأميال العشرة من إسلام أباد إلى راولبندى رحلة عذاب، إلا إذا كنت الرئيس فيخلى لك الطريق لتأمين مرورك. وحتى عندئذ كما يكشف الكتاب ببعض التفاصيل، يمكن أن تربك محاولات الاغتيال جدول الرئيس. أولاها حدثت فى ١٤ ديسمبر ٢٠٠٣. بعد لحظات من مرور موكب الجنرال على جسر، انفجرت قنبلة قوية وأحدثت أضرارا كبيرة بالجسر، ولكن لا إصابات بشرية. وقد أنقذت حياة مشرف السيارة الليموزين المجهزة برادار ومضادات للقنابل، وكانت هدية من البنتاجون. وكان ثباته فى ذلك الوقت قد أدهش المراقبين. حيث ظل هادئا ومرحا يلقى تلميحات هازلة حول العيش فى زمن خطر. ولا عجب كانت استعدادات الأمن عالية.. مواكب زائفة وتغيير الطرق فى آخر لحظة.. إلخ - ولكن هذا لم يمنع محاولة أخرى بعد أسبوع فى يوم الكريسماس. هذه المرة كاد رجلان يقودان سيارتين محملتين بالمتفجرات أن ينجحا. أصيبت سيارة الرئيس بأضرار وقتل الحرس المرافقون له ولكن مشرف لم يصب بأذى. وبما أن طريقه المحدد وتوقيت مغادرته إسلام أباد كانت أمورا بالغة السرية فلابد أن الإرهابيين كانت لديهم معلومات من الداخل. إذا كانت أجهزة حمايتك تضم إسلاميين غاضبين يرونك خائنا ويريدون تفجيرك، إذن، كما يقول الجنرال فى مذكراته، لن يحميك إلا الله. وكان الله به رحيما.

تم التعرف على الجناة وعذبوا حتى كشفوا تفاصيل المؤامرة التى تورط فيها بعض ضباط الجيش الصغار، وقد حوكم هؤلاء فى السر وأعدموا. والرأس المدبر المفترض كان متطرفا جهاديا اسمه أمجد فاروقى وقد قتلته قوات الأمن.

ولكن ظل سؤالان يدوران فى أذهان المعنيين فى واشنطن ورفاق مشرف: كم من المتورطين لم يكشفوا بعد وهل سينجو هيكل القيادة العسكرية إذا نجح إرهابى فى المرة القادمة؟ لا يبدو مشرف قلقا، بل يتبنى نبرة واثقة وحتى مكابرة. قبل ٩/١١ كان يعامل فى الخارج كأنه منبوذ وفى الداخل كان مخنوقا بالمشاكل. كيف يمكن تقوية إرادة قيادة عليا يضعفها التقى والفساد؟ كيف يمكن التعامل مع الفساد والاختلاسات التى أصبحت معلما من معالم حكومتى شريف وبوتو؟ كانت بنازير بوتو قد اختارت منفى فى دبى وأعتقل الأخوان شريف. وقبل توجيه الاتهام إليهما رتبت واشنطن عرضا للجوء إلى السعودية.

كان الدعم اللامحدود الذى وفره مشرف للولايات المتحدة بعد ٩/١١ سببا فى أن يطلق عليه الساخرون من الباكستانيين اسم «بوشرّف» بدلا من مشرف «إشارة إلى علاقته بالرئيس (بوش)» (فى مارس ٢٠٠٥ وصفت كوندليزا رايس العلاقة الأمريكية الباكستانية منذ ٩/١١ بأنها «عريضة وعميقة»)، ألم يسع إلى إحباط نصر باكستان العسكرى الوحيد من أجل إرضاء واشنطن؟ كان الجنرال محمود أحمد الذى يرأس جهاز الاستخبارات العسكرية ضيفا على البنتاجون، ساعيا إلى إقناع وكالة الاستخبارات العسكرية بأن ملا عمر كان شخصا طيبا ويمكن إقناعه بنبذ أسامة، بعد حدوث هجمات ١١ سبتمبر. ولا يدهشنا أن المستمعين إليه أصيبوا بالصدمة. ويخبرنا مشرف بأنه وافق أن يتعاون مع واشنطن لأن نائب وزير الخارجية ريتشارد ارميتاج هدد بقصف باكستان وإعادتها إلى العصور الحجرية إذا لم يفعل ذلك. ولكن ما كان يقلق إسلام أباد حقا هو تهديد لم يذكره مشرف، كان مفاده أنه إذا رفضت باكستان التعاون فستلجأ الولايات المتحدة إلى استخدام القواعد الهندية.

معظم الباكستانيين يضعون اللوم على وكالة المخابرات المركزية كالعادة. أما ابن ضياء وأرملته فقد كانا يهمسان بأن الفاعلين هم «من داخل جيشنا»

مشرف كان فى الأساس محبوبا فى باكستان ولو كان قد قام بالإصلاحات الهادفة إلى توفير التعليم (على أن تكون الإنجليزية لغة ثانية إلزامية) لكل الأطفال، وتشريع إصلاح الأراضى كان سوف ينهى سيطرة الإقطاعيين على أراض شاسعة فى الريف. ولو كان قد عالج الفساد فى القوات المسلحة وفى كل مكان آخر وأنهى هروب الجهاديين

فى كشمير وباكستان كمقدمة لصفقة طويلة المدى مع الهند، إذن لاستطاع أن يترك علامة على البلاد. بدلا من ذلك قلد أسلافه العسكريين. فعلى شاكلتهم، خلع زيه العسكرى وبدأ يحضر اجتماعات منظمة فى السند ودخل السياسة. حزبه؟ الرابطة الإسلامية الحاضرة دائما وأبدا. أنصاره؟. نتف من نفس القطاعات الفاسدة القديمة التى حاربها بضراوة والتى طارد قادتها. رئيس وزرائه؟ شوكت عزيز الملقب بـ «اختصار الطريق» (اللعب على كلمتى شوكت وشورتكت (Shortcut) ـــ المترجمة)، وكان سابقا مديرا لسيتى بنك وله صلات حميمة مع ثامن أغنى رجل فى العالم الأمير السعودى الوليد بن طلال. وفيما أصبح واضحا أن لا شىء فى طريقه للتغيير غلفت البلاد غمامة من الشكوك واليأس.

يعتبر مشرف أفضل من ضياء وأيوب فى عدة جوانب؛ ولكن جماعات حقوق الإنسان لاحظت ارتفاعا حادا فى عدد حالات «اختفاء» الناشطين السياسيين: أربعمائة فقط فى هذه السنة بضمنهم القوميون السنديون وإجمالى ١٢٠٠ فى محافظة بلوشستان حيث يضع الجيش يده على الزناد فى كل مناسبة . لقد وفرت الحرب على الإرهاب الفرصة للكثير من القادة للتخلص من معارضيهم ولكن هذا لم يساعد على تحسين الأوضاع.

فى كتابه يعبر مشرف عن نفوره من المتطرفين المتدينين ويندم على جريمة قتل دانيال بيرل. ويشير إلى أن أحد المسئولين عن ذلك وهو الطالب السابق فى كلية لندن للاقتصاد عمر سعيد شيخ، كان عميلا لجهاز المخابرات البريطانى MI6 وقد أرسل لقتال الصرب فى البوسنة. كما أرسل مقاتلى القاعدة إلى هناك أيضا (مع موافقة أمريكية) وقد أقام شيخ صلات معهم وأصبح عميلا مزدوجا . الآن يجلس شيخ بانتظار الإعدام فى سجن باكستانى ويتحدث بود مع حراسه ويراسل بالبريد الالكترونى رؤساء الصحف فى باكستان مهددا أنه إذا أعدم سيتم نشر أوراق تركها خلفه لفضح تواطؤ الآخرين. قد تكون هذه خدعة أو ربما يكون عميلا مثلثا يعمل مع جهاز الاستخبارات الباكستانى أيضاً.

فى العام القادم ستجرى انتخابات وهناك شائعات تقول إن مشرف سوف يعرض على حزب الشعب الذى ترأسه بنازير بوتو صفقة تستثنيها . قبل عدة سنوات شوهدت فى فوجى بوتوم تنتظر وحيدة فى مكتب جنوب آسيا للالتقاء بموظف صغير فى وزارة الخارجية لمناشدته الدعم الأمريكى. كلما كانت تريده هو منصب وزارى فى حكومة مشرف حتى تظل حاضرة فى المشهد السياسى. مشرف أضعف الآن وقد تقرر بنازير أن تلعب معه فى هذا الوقت انتظارا لشىء أفضل.

ثم هناك أفغانستان، فرغم التفاؤل المزيف الذى يبديه بلير وزملاؤه فى الناتو فالكل يعلم أن هناك فوضى شاملة. لقد انبعثت طالبان مرة أخرى وهى تكتسب شعبية بمقاومة الاحتلال ومروحيات الناتو وجنوده يقتلون المئات من المدنيين زاعمين أنهم «مقاتلو طالبان» حميد كرزاى الرجل الذى يرتدى الشيلان الجميلة، ينظر إليه كعميل بلا حول أو قوة يعتمد اعتمادا كليا على قوات الناتو. وقد استعدى كلا من البشتون الذين يتحركون باتجاه طالبان مرة أخرى بأعداد كبيرة، وأمراء الحرب من التحالف الشمالى الذين يرفضونه علنا ويطالبون بأن الوقت قد حان لإعادته إلى الولايات المتحدة. فى أفغانستان الغربية ساعد التأثير الإيرانى فى الحفاظ على درجة من الاستقرار. إذا دُفع أحمدى نجاد لسحب دعمه فإن كرزاى لن يستمر أكثر من أسبوع. إسلام أباد تنتظر وتراقب. والاستراتيجيون العسكريون على قناعة بأن الولايات المتحدة فقدت اهتمامها وأن الناتو سيغادر قريبا. إذا حدث ذلك فلن تسمح الباكستان لتحالف الشمال أن يستولى على كابول. سيتحرك جيشها للتدخل مرة أخرى. لقد قال لى عسكرى باكستانى سابق اشترك فى حروب الأفغان هازلا: «آخر مرة أرسلنا اللحى؛ ولكن الزمن تغير. هذه المرة إن شاء الله سوف نلبسهم جميعا بدلات ماركة آرمانى تناسب الظهور على شاشات التليفزيون» ويظل الضباب يغلف المنطقة. كانت نهاية أول قائد عسكرى باكستانى بانتفاضة شعبية والثانى بالاغتيال فكيف تكون نهاية مشرف؟ ■

كتاب الزاوية

حياة الرافعى

محمد سعيد العريان

تلاميذه ومحبوه يقولون عنه إنه من أكبر الأدباء العرب فى كل العصور وهو من أكبر الشخصيات الأدبية العربية فى القرن العشرين. إنه مصطفى صادق الرافعى (١٨٨٠ ـ ١٩٣٧) الكاتب والشاعر والأديب والمؤرخ الذى استطاع خلال فترة حياته الأدبية التى تربو على خمس وثلاثين سنة إنتاج مجموعة كبيرة ومهمة من دواوين الشعر والكتب التى أصبحت علامات فى تاريخ الأدب العربى. وقد كان الرافعى شاعرًا مطبوعًا بدأ قرض الشعر وهو فى العشرين، ومن أشهر دواوينه النظرات ومن كتبه: «تحت راية القرآن»، «وحى القلم»، «تاريخ الأدب العربى»، «تاريخ آداب العرب»، «حديث القمر»، «رسائل الأحزان»، «السحاب الأحمر».

وقد دخل الرافعى فى معارك أدبية شهيرة بدأها بالمنفلوطى، ثم مع طه حسين والعقاد وزكى مبارك. وكانت المعركة مع العقاد هى أشهر وأقسى ما فى العربية من معارك. وللرافعى فيها كتاب «على السفود» الشهير.

وقد ألف كتاب حياة الرافعى تلميذه وصديقه الحميم محمد سعيد العريان «١٩٠٥ ـ ١٩٦٤» وقدم له العلامة محمود محمد شاكر. وأعادت الهيئة العامة لقصور الثقافة نشره ضمن سلسلة «ذاكرة الكتابة» عام ٢٠٠٤.

من ولاية الفقيه إلى خلافات الإصلاحيين والمحافظين

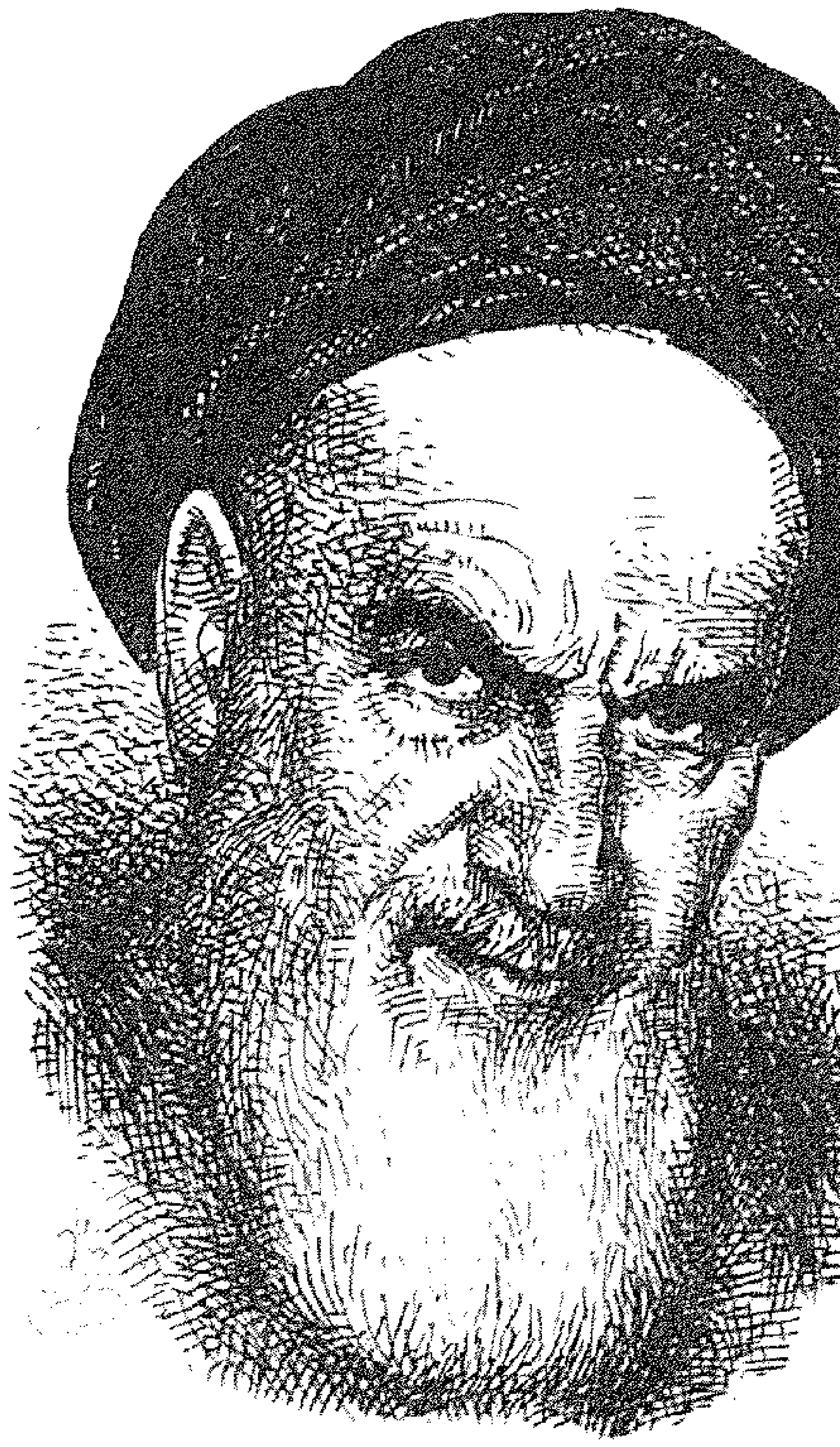
إيران بين الترويكا والدويكا!

مازن النجار

■■ لا شك أن الثورة الإيرانية حدث متميز فى تاريخ القرن الماضى، فقد أطاحت بنظام الشاه الذى كان رمزا عتيدا للقوة الإقليمية؛ بيد أنها لم تكتف باستبدال نظام جمهورى به فحسب، بل أقامت مكانه فكرة أو نظرية سياسية، ما زالت تهيمن بقوة وتفرض حضورها بفاعلية على المشهد الإيرانى.

ورغم قلة الأفكار التى تتمكن من الوصول إلى السلطة أو الاستمرار فيها بدون الاضطرار إلى تحولات هامة لصالح توجهات أو شعارات أخرى، فقد صمدت نظرية «ولاية الفقيه» فى وجه التحديات والمتغيرات واستمرت مهيمنة لأكثر من ربع قرن، منذ نهاية السبعينيات الماضية وحتى وقتنا الحاضر. خلال هذه الحقبة الطويلة، تغيرت صورة العالم الإسلامى من طنجة إلى جاكرتا: انقلبت أنظمة واختفت حكومات، فقد أعلنت الولايات المتحدة حربا عالمية ثالثة على «الإرهاب» عقب أحداث ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١، اختفى على أثرها نظام البعث فى العراق ونظام طالبان فى أفغانستان بفعل الغزو الأمريكى للقطرين، وأعادت معظم الأنظمة العربية النظر فى أولوياتها وتحالفاتها واصطفافاتها. ولكن إيران تحت نظام «ولاية الفقيه» لم تنقلب رغم أنها هدف معلن لذلك من قبل واشنطن، وأنجزت تسعة انتخابات لرئاسة الجمهورية الإسلامية منذ قيامها. ولم تنكفئ طهران على ذاتها إقليميا، بل يزداد حضورها فاعلية ووزنا فى المنطقة باعتبارها طرفا أساسيا فيها. تطرح هذه الدراسة لخلفيات وسيرورة وصيرورة نظرية «ولاية الفقيه» -كما تتمثل فى نظام الجمهورية الإسلامية- عددا من الأسئلة الرئيسة.

ما هى نظرية «ولاية الفقيه»؟ ما هو أساسها العقدى والفكرى؟ كيف وصلت إلى الحكم؟ كيف استطاعت هذه النظرية تنحية أو تحييد الاتجاهات السياسية الإيرانية الأخرى كالليبرالية والقومية والماركسية؟ كيف أمكن انتقال قيادة الجمهورية الإسلامية الإيرانية من مؤسسها، روح الله الخمينى، إلى السيد على خامنئى؟ ماهى الأسس الفكرية لخطاب الرئيس السابق السيد محمد خاتمى؟ ما حجم التأثير الذى تركه التيار الإصلاحى على البنى والتوازنات السياسية والاجتماعية فى إيران؟ هل يمكن جسر التناقضات البنيوية فى مفهوم ونظام «الجمهورية الإسلامية»؟ وماذا يخبئ المستقبل لإيران من تحديات؟



الخمينى

تفرض هذه الأسئلة وغيرها نفسها على القارئ العربى رغم مرور عقود على تأسيس «الجمهورية الإسلامية الإيرانية» على أساس نظرية «ولاية الفقيه»، وحضور السياسة أو الموقف الإيرانى فى المنطقة بشكل يومى ومتداخل. وما زالت هذه النظرية بجوانبها التاريخية والعقدية والسياسية، تمثل لغزا لدى كثيرين فى العالم العربى والإسلامى.

يشبه الكاتب البناء الفكرى والعقدى لنظرية «ولاية الفقيه» بهندسة المنازل الإيرانية التقليدية؛ إذ يبدو كلاهما منغلقا على نفسه، ولكنه عمليا يقوم بدور المصفاة. ففى حين يستعصى النفاذ إلى واقع إيران السياسى دون الإلمام بمختلف جوانب «ولاية الفقيه»، ينبغى أولا اجتياز تلك الأروقة الطويلة التى تفصل الفضاءات الخارجية للمنزل الإيرانى التقليدى عن فضاءاته الداخلية، قبل الولوج أخيرا، بتدرج وسلاسة، إلى مركز المنزل العابق بالأسرار والحرمات.

يحاول الكتاب الخروج من ثنائية «مع» أو «ضد» الطاغية على أغلب الكتابات السياسية، خاصة فيما يتعلق بإيران، لأن هذا النمط من الكتابات يصادر المطلوب منه سلفا، فضلا عن اختزال المعرفة فى نطاق ضيق. لكن الكتاب يقدم أيضا أفكاره ورؤاه حول نظرية «ولاية الفقيه»، ويبذل جهدا للتعريف بأبرز الآراء حول الموضوع رغم أنها قد تصب فى سياق «مع» أو «ضد». ويحاول المؤلف أن لا يخفى موقفه من نظرية «ولاية الفقيه» بوصفها أحد مفاتيح واقع إيران الحالى، وأساس نظامها وحجر زاويته. وفى وجه آخر، تعتبر نظرية «ولاية الفقيه» قضية فلسفية تتناول حياة الإنسان وعلاقته بالدولة والمجتمع.

اختار المؤلف «حدائق الأحزان» عنوانا لكتابه، نظرا لما تمثله حدائق إيران بتصميمها الفريد وعمارتها الخلابة، ولما يتركه حزن الإيرانيين الدائم فى النفس من أثر عميق، ويبدو هذا الحزن ركنا أساسيا فى وجدان المسلمين الشيعة عموما، والإيرانيين خصوصا. ولا تقتصر وظيفة الحدائق فى إيران على إمتاع النفوس والأبصار، فهى فى التراث الإيرانى الشعبى أو ممارسات الإيرانيين الاعتيادية جزء من الحياة اليومية، فيها يستريحون ويتنزهون ويتناولون العشاء بليالى الصيف.

يتكون الكتاب من خمسة فصول تعالج مختلف مناحى نظرية «ولاية الفقيه». يتناول الفصل الأول الخلفيات التاريخية للتشيع مرورا بعلاقة الفقهاء بالدولة الإيرانية؛ بينما يهتم الفصل الثانى بمبانى ومعانى «ولاية الفقيه»، وولادة النظرية ودور الإمام الخمينى فى تطوير مفهومها وبنيتها

حدائق الأحزان: إيران وولاية الفقيه
مصطفى اللباد
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦. ٣١٩ ص

نظرية «ولاية الفقيه» بوصفها أحد مفاتيح واقع إيران الحالى، وأساس نظامها وحجر زاويته. وفى وجه آخر، تعتبر نظرية «ولاية الفقيه» قضية فلسفية تتناول حياة الإنسان وعلاقته بالدولة والمجتمع

الفكرية. يتوقف الفصل الثالث عند مرحلة الوصول إلى السلطة والتطورات التى آلت إلى استبعاد التيارات الأخرى عن العملية السياسية وانفراد «ولاية الفقيه» بالسلطة فى إيران؛ فى حين يلقى الفصل الرابع الضوء على عملية انتقال السلطة بعد وفاة الإمام الخمينى إلى السيد على خامنئى وانعكاساتها على النظرية ذاتها وواقع إيران السياسى. ويتناول الفصل الخامس دور الرئيس السابق السيد محمد خاتمى فى تطوير الخطاب الدينى بإيران، وتغيير التوازنات السياسية هناك، مرورا بمفهوم «الجمهورية الإسلامية»، ثم أخيرا التحديات التى تواجهها.

الفقهاء والدولة فى إيران

منذ بدء الحقبة الصفوية، تداخلت الهوية الإيرانية والإسلامية الشيعية وامتزجتا معا حتى أصبح الوجدان الإيرانى خليطا فريدا من هذين العنصرين، فلا يمكن الحديث عن المسلمين الشيعة دون أن تستدعى صورة إيران إلى الأذهان، كما لا يمكن تناول إيران دون إبراز وجدانها الشيعى. أثرت هذه الحقيقة بشدة فى المهتمين بإيران من القديم، حتى أن المؤرخ المقريزى كان يعتقد بفارسية التشيع.

يتعرض الفصل الأول لعقائد المسلمين الشيعة، على أرضية موضوعية أساسها انتماء السنة والشيعة معا لحضارة الإسلام، وهو ما يقتضى التعريف بعقائد الشيعة، خاصة مع تعرضها أحيانا للتشويه المتعمد، حيث اختلط الأمر على كثير من المسلمين غير الشيعة. كما أن توحيد كلمة العالم الإسلامى يقتضى أن لا يتجاهل المسلمون السنة شطرا لا يستهان به من الأمة، هم الشيعة. ومن الصعب أن يحاول المرء الإبحار فى واقع إيران أو تاريخها دون التطرق إلى وجدانها الشيعى ومراحل تطوره بعد امتزاج الاثنين - إيران والتشيع- حتى صارا مزيجا متداخلا يصعب فصل مكوناته. وكما كانت الدولة الإيرانية القديمة مرتبطة برجال الدين، كان واقع إيران السياسى طوال تاريخها العريق، كالبحر فى حال مد وجزر بين الدولة ورجال الدين.

اصطلح على تسمية الفترة الواقعة من الغيبة الكبرى عام ٩٤١/٩٤٠ م وحتى عام ١٥٠١ م، حين أعلن الشاه إسماعيل الصفوى تشيع إيران رسميا، بأنها مرحلة الفقه الخاص وعلاقة المرجع بالمقلد دون ربط ذلك بالدولة ومؤسساتها. ومنذ بداية عصر «الغيبة الكبرى»، أصبح فقهاء الشيعة زعماء المذهب وقادة جماهير المؤمنين، واختصرت جماهير الشيعة الدين والدنيا فى الفقهاء، وكانت فتاواهم دستور المؤمنين فى عصر غيبة الإمام الثانى عشر ووكلائه الأربعة. واختص الفقهاء بشئون «المرجعية» والإفتاء فى أمور الدين والدنيا، خصوصا فى غيبة الأئمة المعصومين، بحسبان الفقهاء وكلاء الأئمة. وعلى هذا الأساس، برز بين الفقهاء من عرفوا بالمراجع، وهم رجال الدين الأعلام الذين يرجع إليهم فى كل الأمور، ويقلدهم المؤمنون باعتبار أنهم وارثو أسرار وعلم الأئمة من آل البيت. فى عهد لاحق، أضيف إلى مستودع الوجدان الشيعى عبارة «من مات ولم يعرف إمام زمانه فقد مات ميتة جاهلية»، وبذلك استطاع الفقهاء ترسيخ سلطتهم أكثر فأكثر لدى جماهير المؤمنين، بوصفهم سبيل معرفة إمام الزمان.



وكانت نسبة الخمس التى تقتطع من أرباح المؤمن الشيعى والمخصصة للفقهاء بمثابة الأساس المادى لنفوذ واستقلال الفقهاء. ومن الأخماس يوزع الفقهاء هذه الموارد على مستحقيها، ويصرفونها فى مصارفها الشرعية. وهكذا حفظ الخمس مكانة الفقهاء، وعززت استقلالهم عن السلطة الحاكمة، بل ومناهضة توجهاتها السياسية والاجتماعية إن لزم الأمر. ويلاحظ الرئيس السابق محمد خاتمى أنه «مازال الملتزمون دينيا حتى اليوم يدققون حساباتهم نهاية العام ويقصدون رجل الدين، فيقبلون يده ويقدمون له بطيب خاطر خمس أرباحهم، ولكن صاحب الحانوت نفسه الذى تنازل عن خمس ماله يحاول التهرب من دفع الضرائب الحكومية؛ ونعم ما فعل. فلم تكن الضرائب توظف لصالح الشعب. لقد كانت إتاوات يأخذها الأقوياء من الشعب».

صار المرجع، بفضل الخمس، رمزا للمذهب ومركزا لوحدة المنتمين إليه على اختلاف مطارح عيشهم. وتنوعت اهتمامات «دولة المؤسسة الدينية» بين الإفتاء فى أمور العبادات والمعاملات وتلقى الأخماس وإنفاقها فى مصارفها الشرعية، والإشراف على مؤسساتها الاجتماعية والرعوية، لتثبيت ولاء المؤمنين بصيغة «مرجع التقليد» الذى يحتكم المقلدون إليه فى أدق التفاصيل، لدرجة أن يقول الإمام الخمينى: «يبطل عمل العامى فى غير الضروريات، إذا صدر من غير تقليد».

جاء إعلان المذهب الشيعى الاثنى عشرى مذهبا رسميا للدولة الإيرانية فى القرن السادس عشر مواتيا للمؤسسة الدينية التى يقودها الفقهاء، فانتقلت نقلة نوعية كبيرة وأولى فى تاريخ التشيع. فقفزت مكانة المؤسسة الدينية نوعيا من «دولة متخيلة» أو «موازية» إلى دولة داخل الدولة بعد إعلان تشيع إيران على يد الصفويين.

لم يستطع الحاكم الصفوى أو القاجارى الاستقرار بدون مشروعية المؤسسة الدينية أو مباركة وتأييد الفقهاء. ورغم هذا التأييد، حرص الفقهاء وجماهير الشيعة على استقلالية جهازهم الاقتصادى- الاجتماعى عن تبعية الدولة، سواء الصفوية التى حالفوها أو القاجارية التى ناصبوها العداء. واستطاع الفقهاء تثبيت دورهم داخل الدولة الإيرانية على اختلاف الأسر الحاكمة. وبتعاظم المظالم والضغوط على المجتمع الإيرانى فى العهد القاجارى، دخل الفقهاء حلبة السياسة من باب الفتوى الدينية، لتكرس التحالف الوثيق الناشئ بين الفقهاء ورجال البازار. وكانت فتوى مرجع التقليد الأكبر آية الله الشيرازى بتحريم استعمال التبغ موجهة ضد المصالح الأجنبية المحتكرة لتبغ إيران، وبالتالى ضد مصالح الأسرة القاجارية الحاكمة، ومنحازة لرجال البازار الذين عانوا من أعباء الضرائب ومنافسة السلع الأجنبية نتيجة لخفض الجمارك عليها آنذاك.

شارك الفقهاء بدور رئيس فى الثورة الدستورية عام ١٩٠٦، والمعروفة بثورة «المشروطية» أى الدستور، وهدفت إلى تعيين حدود لصلاحيات الحكام وشرائطها وإقرار حقوق المواطنين القانونية. وتعد هذه الثورة هى النقلة النوعية الثالثة فى تاريخ علاقة الفقهاء بالدولة. تحققت النقلة الأولى بالخمس الذى يتلقاه المراجع من المقلدين واستقلال الفقهاء عن جهاز الدولة. وتحققت النقلة الثانية بتحالف الفقهاء مع الدولة الصفوية على قاعدة منحها مشروعية الحكم، وأنجزت النقلة الثالثة بنجاح الثورة الدستورية وتثبيت مكاسب الفقهاء فى الدستور الجديد.

عكست علاقة الفقهاء بالدولة الإيرانية فى عصر رضا شاه الأزمة العميقة التى عاشتها المؤسسة الدينية كنتيجة لعملية تحديث الدولة الإيرانية التى اعتمدها رضا شاه، والتى فككت إلى حد كبير التحالف بين الفقهاء والبازار، بطرق مختلفة منها استقطاب عدد كبير من الشرائح العليا والمتوسطة فى أجهزة الدولة. ومثل اتساع دور الدولة فى المجتمع وانخراطها فى حياة المواطنين خصما من الرصيد الاجتماعى لمؤسسة الفقهاء، التى لم تعد تمثل سندا اجتماعيا واقتصاديا هاما للجماهير، نظرا لقيام الدولة بذلك الدور. كما اصطفت الأحزاب السياسية إلى جانب رضا شاه بسبب توجهاته التحديثية ومحاولة الأحزاب الانخراط فيها مجاراة لنموذج الدولة العلمانية العصرية فى تركيا المجاورة.

فى عهد محمد رضا بهلوى، استمر الحضور الخافت نسبيا لرجال الدين، مقارنة بدورهم فى الثورة الدستورية. وانحصرت الحركة السياسية فى التيارات التحديثية والليبرالية واليسارية. وبرزت آنذاك حركة «فدائيان إسلام» بزعامة نواب صفوى، والتى اعتمدت العنف المسلح واغتيال رموز الدولة وسيلة للتغيير. ولا دليل واضحا على أن هذه الحركة كانت ذراعا للمؤسسة الدينية، بل ربما كان ظهورها مؤشرا على انزواء رجال الدين من الحياة السياسية وتضاؤل نفوذهم، رغم رعاية المرجع آية الله الكاشانى لصفوى ورفاقه عقب اغتيالهم رئيس الوزراء.

كان الدكتور محمد مصدق على رأس الجبهة الوطنية التى تكونت أواخر الأربعينيات من المثقفين والوطنيين الليبراليين. وأدت مطالبتها بتأميم النفط لاستقطاب الشارع الإيرانى، وانضم إليه الكاشانى، أحد أبرز رموز المؤسسة الدينية، تعبيرا عن احتجاجها على تهميش دورها فى المجتمع الإيرانى وقتذاك. لكنها كانت فى خلفية الحركة السياسية عندما تولى مصدق رئاسة عام ١٩٥١، وليس فى طليعتها كما كانت فى الثورة الدستورية عام ١٩٠٦ .

تصاعدت المواجهة بين مصدق والشاه: وأفتت مجموعة كبيرة من رجال الدين بأن مصدق معاد للإسلام والشريعة، وانسحب الكاشانى

من تحالفه مع مصدق. وأعلن معارضته له، لوقوف كتلة مصدق البرلمانية ضد تولى الكاشانى لرئاسة البرلمان. وانسحب الفقهاء مؤقتا من العمل السياسى بعد انفراط تحالف مصدق مع الكاشانى، وساعد على الانسحاب موقف المرجع الأوحد آنذاك، آية الله البروجردى، المناهض لاشتغال الفقهاء بالسياسة. ونجح انقلاب دبرته المخابرات الأمريكية فى صيف ١٩٥٣ فى الإطاحة بحكومة مصدق، وعوقب بالسجن والنفى إلى قرية أحمد أباد بشمالى إيران، حيث قضى بقية حياته حزينا فى «حديقة الأحزان» بمنزله هناك، حتى وفاته عام ١٩٦٧ .

فى الستينيات، تصدى رجال الدين لثورة الشاه البيضاء متخذين عدة لافتات للمعارضة، وكان على رأس المحتجين الإمام الخمينى، الذى حرض الشعب على الاحتجاج والتظاهر فيما يعرف بـ «ثورة ١٥ خرداد» التى صادفت ذكرى استشهاد الإمام الحسين بكربلاء. فتصاعدت التظاهرات وقتل فيها الآلاف. وأودع الخمينى السجن. اجتمع عندئذ كبار مراجع الشيعة، وأعلنوا ترقية الخمينى لدرجة آية الله العظمى؛ فاكتسب بذلك الحصانة التى تمنع سجن كبار المراجع احتراما لمقاماتهم الدينية. وتصاعد قمع جهاز السافاك للمعارضة، واستشهد تحت التعذيب فى السجون آية الله سعيدى وآية الله غفرى، لمعارضتهما النفوذ الأمريكى والإسرائيلى المتزايد فى إيران آنذاك.

ومع تصاعد الرفض الشعبى والمواجهات بين الشعب وقوات الشاه كان صوت الخمينى هو الأكثر راديكالية فى معارضة الشاه، إذ كان رافضا لبرنامجه الاجتماعى الاقتصادى، وتبعيته للولايات المتحدة، وعلاقاته المستفزة بإسرائيل. استقطبت راديكالية الخمينى شعبية متنامية بين الجماهير، وكان استدعاء الوجدان الشيعى فى مواجهة الشاه أمضى أسلحة التيار الدينى فى الثورة. وأثبت تلاحق الأحداث ونجاح الثورة الشعبية التى أطاحت بالشاه أهمية الوجدان والثقافة فى حياة الشعوب وخطأ تهميشهما لصالح السياسة أو الاقتصاد، رغم ارتباط مقدمات الثورة بالمصالح الاجتماعية لشرائحها الثائرة، وبالأجواء السياسية السائدة قبل الثورة.

نظرية «ولاية الفقيه»

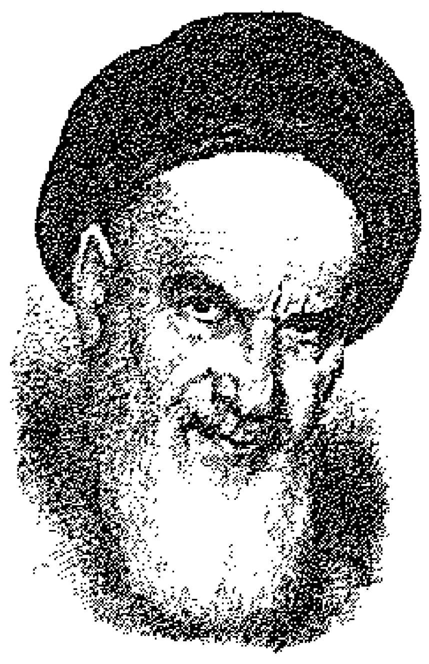
هى نتاج لتطور الفقه الشيعى منذ اختفاء الأئمة المعصومين وحتى ظهور النظرية، ولم يبعثها الإمام الخمينى من فراغ، بل سبقه علماء أصلوا لها واشتهروا بها. فقد انبرى فقهاء الشيعة منذ غيبة الإمام المهدى لتحليل النص الشرعى وسبر أغواره، وتطوير البحث الفقهى بما يبلور إطارا معرفيا للمذهب وترتيبا لأصوله وتفصيلا لفروعه. وابتكر فقهاء الشيعة مقولة النيابة عن الإمام، على الأقل، فى تحصيل الخمس من المؤمنين، وغيرها. ولكن استمرت حالة التيه السياسى حتى ولدت فكرة «ولاية الفقيه».

ظهرت إرهاصات الفكرة فى جبل عامل بلبنان، على يد محمد بن مكى الجزينى العاملى (ت ٨٧٦ هـ، ١٤٧١/١٤٧٢م)، حيث وسع نطاق عمل الفقهاء وتأثيرهم فى حياة المؤمنين. استند الجزينى على ما أسماه «نيابة الفقهاء العامة» عن الإمام المهدى المنتظر، وتشمل القضاء والحدود وإقامة صلاة الجمعة. وقدر الجزينى فى كتابه «اللمعة الدمشقية» أن الفقيه هو «نائب الإمام»، وأصبح كتابه من أشهر الكتب، لدى المسلمين الشيعة، بعد اكتشاف أنه أساس نظرية «ولاية الفقيه». ورغم ذلك، لم يقترب الجزينى من فكرة الحكومة الإسلامية بقيادة الولى الفقيه، بل قصد تحسين أوضاع عصر الانتظار حتى عودة الإمام المهدى المنتظر. وأورد الكتاب لأول مرة تعبير «نائب الإمام»، الذى أطلق على الخمينى لدى عودته من المنفى وانتصار الثورة.

وبعد الجزينى بأربعة قرون، جاء الشيخ أحمد بن محمد مهدى نراقى كاشانى، وقبل وفاته عام ١٢٤٨هـ، أخرج كتابه «عوائد الأيام فى بيان قواعد الأحكام»؛ حيث طور أفكار الجزينى باتجاه توسيع صلاحيات الفقهاء، واستخدم مصطلح ولاية الفقيه لأول مرة فى تاريخ الشيعة رافضا «التقية» و«عصر الانتظار». ودعا الشيخ نراقى لقيام الفقهاء بتولى زمام أمور الإدارة والحكم لجماهير الشيعة، رافضا نطاق صلاحيات الفقهاء الضيق. تبنى دعوة نراقى على الأساس الذى أرساه الجزينى قبل أربعة قرون، مع توسع فى صلاحيات الفقهاء يتجاوز اجتهاد الجزينى.

ذهب نراقى فى كتابه مدى أبعد، فقلد الفقهاء الإمامة الكبرى، وقال: «كل ما كان للرسول والإمام يؤول إلى الفقيه أيضا، إلا ما أخرجه الدليل من إجماع أو نص». تتلخص أطروحة نراقى فى أمرين: أولهما أن للفقيه، فى عصر الغيبة، حق الولاية فى جميع الأمور التى كان النبى والأئمة يملكون ولايتها والتصرف بها إلا ما استثناه الدليل الشرعى؛ وثانيهما: حق الولاية للفقهاء فى كل ما له ارتباط بدين ودنيا العباد. وتعرض نراقى لعشرة موارد فى شؤون ولاية الفقهاء منها: الإفتاء وإقامة الحدود، والحسبة على أموال الأيتام والمجانين والغائبين، والتصرف فى أموال المعصوم (الخمس). ثم بدأ الشيخ الأنصارى، تلميذ نراقى، من حيث انتهى شيخه؛ فأفتى ببطلان «عبادة تارك طريقة التقليد والاجتهاد»؛ مما يوجب على الشيعة تقليد المرجع الدينى أو الفقيه فى كل الأمور الحياتية والمذهبية. فتكرست عندئذ مرجعية الفقهاء ودورهم كنواب للإمام الغائب.

ثم جاء الإمام الخمينى ليحمل راية فكرة «ولاية الفقيه» فى الحوزة العلمية بمدينة قم، التى انتقل إليها مركز الثقل الفقهى فى إيران من حوزة أصفهان قبل ذلك بنحو قرن تقريبا. وبعد نفى الخمينى لخارج إيران، استقر الإمام فى النجف الأشرف بالعراق، وهناك وجد الفرصة ليصوغ أفكاره حول «الحكومة الإسلامية»، والتى ستطيح بسلطة الشاه الدنيوية، وتقيم «الجمهورية الإسلامية» على أساس نظرية «ولاية الفقيه»، فتغير وجه هذه المنطقة من العالم.



صار المرجع، بفضل الخمس، رمزا للمذهب ومركزا لوحدة المنتمين إليه على اختلاف مطارح عيشهم. وتنوعت اهتمامات «دولة المؤسسة الدينية» بين الإفتاء فى أمور العبادات والمعاملات

ويمكن تقسيم اجتهادات أعلام الفقه الشيعى حول علاقة الدولة بالولاية إلى قسمين أساسيين تبعا لمصدر المشروعية. فهناك اجتهادات تنطلق من قاعدة المشروعية المباشرة من الله، ويقابلها اجتهادات ترتكز على مشروعية الأمة فى حدود تعاليم الشرع الإسلامى.

تندرج تحت المشروعية الأولى أربعة اجتهادات. أولا: «ولاية الفقيه» فى ظل حكم ملكى لحاكم مسلم، وأبرز من نادى بها العلامة المجلسى (ت ١٦٩٨م) فى أواخر حكم الصفويين الذين سماهم «سلاطين الشيعة». ثانيا: الولاية العامة لجميع الفقهاء، وأبرز أعلامها الملا أحمد نراقى كاشانى، وآية الله بروجردى (ت ١٩٦١م)، وآية الله كلبايكانى (ت ١٩٩٣م)، ويذهبون إلى اختصاص الفقهاء عموما بالولاية، وليس فقيها واحدا فقط، أو حتى مجموعة محددة منهم، وينتمى لهذا الاجتهاد أغلب المراجع الشيعة فى إيران وخارجها. ثالثا: ولاية مجلس المراجع أو شورى الفقهاء، ومن أبرز المنظرين لها آية الله السيد محمد الشيرازى (ت ٢٠٠١م)، وتقتضى قيام مجموعة من المراجع الأكثر شعبية بمهام الولاية على أمور الناس الدينية دون استئثار فقيه واحد بالولاية على الأمة. رابعا: «ولاية الفقيه المطلقة»، ونادى بها الخمينى، وحصرها فى فقيه واحد حائز لشرائط معلومة.

وتندرج تحت المشروعية الثانية خمسة اجتهادات. أولا: «ولاية الفقيه» المقيدة بالانتخاب الشعبى، وعلم هذا الاتجاه آية الله حسين على منتظرى، وهو محاولة للحد من رقابة الولى الفقيه، وتقليص بعض صلاحياته التنفيذية. ثانيا: دولة مؤسسية تحت إشراف الفقهاء، وأبرز منظريها العلامة ميرزا حسين نائينى (ت ١٩٣٦م) الذى كان معارضا لانحياز بعض رجال الدين للاستبداد، ومؤيدا للثورة الدستورية. ثالثا: خلافة شعبية تحت رقابة المرجعية الدينية أو المرجعية الرشيدة، ومنظرها السيد محمد باقر الصدر (١٩٣٣-١٩٨٠م)، وفيها حقوق الشعب السياسية مستقلة عن الفقهاء، بشرط ممارسة الأمة لخلافتها بالاستناد إلى الشورى وولاية المؤمنين والمؤمنات بعضهم على بعض. رابعا: دولة إسلامية منتخبة شعبيا، وهو اجتهاد لبنانى المنبت أبرز رموزه الشيخ محمد جواد مغنية (ت ١٩٧٩م)

والشيخ محمد مهدى شمس الدين (ت ٢٠٠١م) صاحب نظرية «ولاية الأمة على نفسها»، ويوفق بين ثوابت الشريعة ومفهوم الدولة بالمعنى القانونى الحديث. خامسا: الولاية المشتركة بالتفويض، ومنظرها الدكتور مهدى حائرى يزدى وهو ابن مرجع التقليد الأكبر الراحل آية الله عبدالكريم حائرى يزدى وصهر الإمام الخمينى، ويعتقد الدكتور حائرى يزدى أن «ولاية الفقيه المطلقة» لا أساس لها فى الفكر الشيعى، ويقدم رؤية لولاية الناس بعضهم على بعض، قائمة على أساس وكالة الناس للحاكم.

«ولاية الفقيه» عند الخمينى

تركتز نظرية «ولاية الفقيه» للإمام الخمينى على كتابه «الحكومة الإسلامية»، وهو محاضرات ألقاها على طلاب الحوزة العلمية فى النجف الأشرف. يتكون الكتاب من قسمين: الأول «أدلة لزوم إقامة الحكومة»، ويؤكد على ضرورة وجود المؤسسات التنفيذية إذ أن وجود القانون المدون وحده لا يكفى لإصلاح المجتمع بل يحتاج الأمر لسلطة تنفيذية؛ والثانى «حقيقة قوانين الإسلام وكيفيتها» حيث ترتقى مرتبة «ولاية الفقيه» إلى مقام الفروض، وأن ولاية الأئمة هى ذاتها ولاية الفقيه العادل من حيث العموم والشمول، وأن وظيفتهما واحدة بالسلطة والولاية، رغم سمو منزلة الإمام «المعصوم» على منزلة الفقيه العادل.

تتلخص الفكرة الرئيسة فى الكتاب فى أن وظيفة السلطة التشريعية وهيئات سن القوانين هى مجرد التخطيط للوزارات والتشكيلات الحكومية المختلفة من خلال الأحكام الإسلامية، التى يكون الفقيه قيما ووصيا عليها وعلى تطبيقها. ورأى أن شروط الحاكمية التى وجدت فى صدر الإسلام إلى زمان الغيبة الكبرى للإمام المهدى قد جعلها الله لفترة الغيبة أيضا. وهى شرائط العلم بالشرع والعدالة، إضافة لخصال مطلوبة فى الحكام العادلين، على أن تكون ولاية الفقيه لكافة الأمور الدينية والدنيوية انعكاسا لأوامر إلهية. ويفرق الكتاب بين الولاية التشريعية للرسول والأئمة وبين الولاية التكوينية أو الاعتبارية للولى الفقيه، مسلما بأن الأخيرة لا نص عليها ولا عصمة لها.

لذلك، يمكن فهم أن النظرية باستدلالاتها وروحها لا يمكن تطبيقها إلا فى مجتمع غالبيته من الشيعة أولا، وأن تقبل هذه الغالبية بتفسير الشريعة الإلهية وفقا لمنظور الولى الفقيه ثانيا. وهذا يرجح مثلا أن مسألة تصدير الثورة غير ممكنة إلا إلى مجتمعات شيعية أو ذات غالبية شيعية، بسبب خصوصية العلاقة بين نظرية ولاية الفقيه والمذهب أو الفقه الشيعى ومراحل تطوره.

تستند نظرية «ولاية الفقيه المطلقة» فى حق الفقيه فى الحكم إلى تأويل البراهين الشرعية كالأدلة القرآنية والأحاديث النبوية أو روايات الأئمة، أما أدلة «ولاية الفقيه المطلقة» فتقسم إلى نوعين: أدلة عقلية وأدلة نقلية. وهى تستند إلى أربعة أركان: أولها، طبيعة ونطاق الولاية فهى شاملة وضرورية ودائمة وعامة؛ وثانيها: النصابة، أى تنصيب الولى الفقيه معقود للفقهاء ولا يتم ذلك بواسطة الشعب مباشرة، وتستمد شرعيتها من الولاية التشريعية؛ وثالثها: الإطلاق، أى أن سلطة الولى الفقيه تمتد لكافة شئون الحكم: فلا سيادة أو صلاحية تخرج عن إطارها، وهو مصدر شرعية الدولة، لأن صلاحيات الولى الفقيه فى الحكم هى ذات صلاحيات الرسول والأئمة من بعده؛ ورابعها: الفقاهة، وهى أهم الشروط الواجبة فى الولى الفقيه لإدارة المجتمع، فالنظرية تفترض للفقه دورا أساسيا فى تشكيل المجتمع، ويمتلك الفقيه القدرة على إرشاد وقيادة المجتمعات.

يلاحظ المؤلف أن الاجتهادات الأخرى حول ولاية الفقيه كتقييدها بالانتخاب أو بالدستور أو الرقابة عليها أو جعلها جماعية، هى تنويعات أو استجابات لقضايا عملية وإشكاليات نظرية ناجمة عن طبيعة وأركان النظرية الأصلية. فقد اجتهد الفقهاء الشيعة للتوفيق بين القيادة الشعبية وأركان النظرية الأربعة.

لدى وصول طائرة الإمام الخمينى مطار طهران مطلع فبراير/شباط ١٩٧٩، جسد نزوله إلى أرض وطنه عائدا من المنفى، مع المجموعة المرافقة، مركز ثقل الطبقة السياسية الإيرانية لحظة انتصار الثورة. فالتيارات السياسية الإيرانية، من اليمين إلى اليسار، شاركت بقدر متفاوت فى الثورة. لكن شكل السلطة عقب سقوط الشاه تناغم مع التحالف الجديد بين الخمينى ورجاله والتيار القومى الليبرالى من جهة أخرى.

بعد أيام، دعا الإمام لمؤتمر صحفى بمقر إقامته، أكد فيه على اختيار الشعب زعيما له، وأعلن عن تشكيل حكومة مؤقتة بدلا من حكومة شهبور بختيار، وحدد مهامها بالإشراف على انتخابات مجلس تأسيسى ثم انتخاب برلمان وتنظيم استفتاء على قيام «الجمهورية الإسلامية»، واعتبر معارضة الحكومة الجديدة معارضة لحكم الإله. وفى اليوم نفسه، بعث بخطاب تكليف بتشكيل الحكومة إلى مهدى بازركان، متوخيا إنهاء الفوضى العامة الناجمة عن وجود حكومة شهبور بختيار فى السلطة. كان اختيار الخمينى لبازركان بسبب ماضى بازركان النضالى الإسلامى والوطنى وليس لانتمائه الحزبى فى الجبهة الوطنية. وباعتبار الخمينى أعلى سلطة فى البلاد بعد انتصار الثورة، فهو من يعين الحكومة ومن يحدد وظيفتها التى ستتوج بإعلان «الجمهورية الإسلامية».

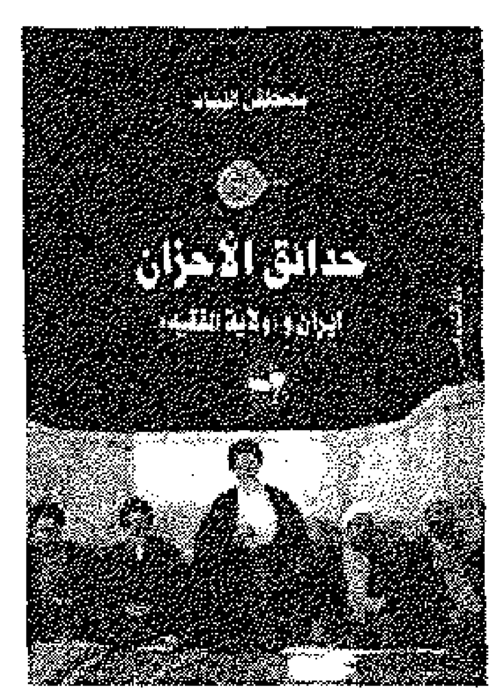
لم يكن الصراع على السلطة فى إيران بين أنصار ومعارضى ولاية الفقيه مقتصرا على السياسيين، بل كان أيضا داخل طبقة رجال الدين أنفسهم، وفى قمة هذه الطبقة أيضا داخل إيران وخارجها، فأحدث شرخا طوليا فى بناء المؤسسة الدينية، من مراجع التقليد وحتى طلبة الحوزات العلمية. فبعد عودة الإمام الخمينى منتصرا، أيد المراجع فى قم قيادته للثورة كدور سياسى. لكنهم - باستثناء آية الله منتظرى- عارضوا ولايته المطلقة كفقيه أو كمرجع تقليد أوحد. واستندوا فى معارضتهم لمبدأ «ولاية الفقيه المطلقة» إلى رؤيتهم العقدية القائلة بأن هذه الولاية جديرة بالإمام الغائب وحده. كما عارضوا الدستور الجديد، ورأى الأبرز فى المعارضة -آيات الله شريعتمدارى ومرعشى وكلبايكانى- أن إشراف الفقهاء على القضاء، على غرار تحالف الفقهاء والحركة الوطنية أبان «الثورة الدستورية» عام ١٩٠٦ كان لوصول الثورة إلى غاياتها.

على السطح، بدت معارضة مراجع التقليد للدستور المقترح كاختلاف طبيعى فى الاجتهاد التقليدى، لكن المعارضة تأسست فى العمق على مقاومة المراجع لتقليص صلاحياتهم إذا أصبح الإمام الخمينى قائدا للأمة الإيرانية دينيا وسياسيا، أو أن يصبح مرجعا أوحد مما يهمش حضورهم. وانتشرت معارضة مبدأ «ولاية الفقيه المطلقة» داخل الطبقة الدينية فى حياة الخمينى وتعددت مستوياتها داخل الحوزة، بل ذهب بعضهم، كالخوئى ومهدى حائرى يزدى، للقول بأن «ولاية الفقيه المطلقة لا أساس لها فى الفكر الشيعى».

وشأن كل الثورات، ظهر الصراع فى إيران الثورة بين «أهل الثقة» و«أهل الخبرة» فى مجال تسيير أمور الدولة. وبعد أسابيع من انتصار الثورة، ظهر مصطلح «الثورة الثقافية». وعلى نحو ما، كانت حكومة بازركان تمثل «أهل الخبرة» فى مواجهة «أهل الثقة» من رجال الإمام، مما رسخ المواجهة بينهما. وكانت هناك مواجهة أخرى بين رجال الدين ورجال السياسة للسيطرة على الدولة، ومواجهة ثالثة بين أنصار الدولة الدينية وبين أهل الكفاءة التكنوقراط.

فى ٢ أبريل/نيسان ١٩٧٩، أطل الإمام بطلعته المهيبة على الجماهير الإيرانية عبر التلفزة، وأعلن نتيجة الاستفتاء على «الجمهورية الإسلامية» وتأييد الإيرانيين لها بنسبة ٩٨ بالمائة، مدشنا قيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية. وبذلك، قطعت نظرية «ولاية الفقيه» شوطا طويلا على طريق التنفيذ، ولم يتبق إلا التمكين لها، وإفساح المجال لتشكلها وظهورها.

كان مهدى بازركان مثقفا متدينا يؤمن بدور الدين فى رسم الأهداف الكبرى للسياسة، ولكن دون انخراطه فيها نهائيا، ويقول فى ذلك:



جاء الخمينى ليحمل راية فكرة «ولاية الفقيه» فى قم، وبعد نفيه لخارج إيران، استقر الإمام فى النجف الأشرف بالعراق، وهناك وجد الفرصة ليصوغ أفكاره حول «الحكومة الإسلامية»

«إن الدين يحدد أصول السياسة ومبادئ وأهداف الحكم، لكنه لا يتدخل فى التفاصيل والجزئيات». فى الرابع من نوفمبر/تشرين الثانى، احتلت مجموعة من الطلبة الإيرانيين السفارة الأمريكية بطهران واتخذت العاملين فيها رهائن حتى تعيد واشنطن الشاه الهارب إلى إيران لمحاكمته وتعيد أموال البلاد التى هربها للخارج. استقالت حكومة بازركان لينتهى دورها فى دراما الثورة.

بعد أن أودت تفجيرات المنظمات المناوئة لنظام «ولاية الفقيه» بحياة بعض أهم الرموز المؤيدة للإمام، مثل مطهرى ومفتح وبهشتى ومنتظرى الابن وباهنر ورجائى، أصبحت النواة الصلبة للنظام ولمؤيدى الإمام تتكون من: آية الله حسين على منتظرى وحجج الإسلام السيد على خامنئى (ثالث رؤساء الجمهورية) والشيخ هاشمى رفسنجانى (رئيس البرلمان) والسيد أحمد الخمينى (مساعد الإمام). وكان الصف الثانى يضم حجج الإسلام على مشكينى (رئيس مجلس الخبراء) وموسوى أردبيلى (رئيس القضاء) ومحمدى ريشهرى (وزير الأمن). لم يعد رجال الدين يتحكمون بالدولة عن بعد فحسب، بل شغلوا قمتها بأنفسهم.

وهكذا أحكمت نظرية «ولاية الفقيه» قبضتها على الدولة ومراكز القرار بإيران لأول مرة فى تاريخها، بعد تحييد المعارضين، ورغم تغييب بعض أهم الرموز المؤيدة للإمام.

خلافة الإمام

فى خضم الأحداث والأخطار، لم تفت الإمام والمؤيدين لنظرية «ولاية الفقيه» ضرورة تعيين خليفة للإمام، مما يرسخ النظرية واستمرار قيادة النظام على أساسها. لم تتوافر فى الحلقة المحيطة بالإمام شخصية تصلح لشغل منصب خليفة القائد سوى آية الله منتظرى، فهو آية الله الوحيد بينهم. بيد أن الخلافات التى لم تظهر حول قيادة الخمينى نظرا لوزنه السياسى ودوره التاريخى فى انتصار الثورة، ظهرت للعلن مع اختيار منتظرى لخلافة الإمام فى قيادة الجمهورية. فعمد المعارضون فى قم لخلافته لترويج فكرة القيادة الجماعية المنصوص عليها بدستور الجمهورية قبل تعديله، باعتبارها حلا وسطا بين تيارات متعارضة.

لكن رجال الإمام رأوا أن التهديد الخارجى لإيران لا يسمح بقيادة جماعية، بل قيادة فردية يتأهل لها منتظرى الأقرب إلى فكر الإمام ونظرية «ولاية الفقيه». بدوره، رأى منتظرى الاحتكام للجماهير فى النزاع حول المرجعية قائلا: «ولاية أمر المسلمين يجب أن تكون بالانتخاب الشعبى». وهذا الرأى يعنى، رغم وجاهته، محاولة لحشد السياسة ورموزها فى طهران لحسم معارك فقهية تدور فى الحوزة العلمية بقم. لكن الأمور استقرت وقتها على توتر وحذر، مع بقاء منتظرى فى منصب خليفة الإمام.

استدعى قبول الإمام بقرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨ القاضى بوقف إطلاق النار، بين العراق وإيران بعد ثمانى سنوات من الحرب، اصطفافات جديدة على الجبهة الداخلية؛ فكان سكوت المدافع فاتحة لإعادة ترتيب المشهد الإيرانى من الداخل وعلاقات التوازن السياسى فى مرحلة ما بعد الحرب. لكن استمر تقسيم العمل بين رجال الإمام بعد نهاية الحرب. فآية الله منتظرى يرابط فى الحوزة للذود عن أفكار النظام، بينما يقوم حجتا الإسلام خامنئى ورفسنجانى بأدوارهما التنفيذية والتشريعية.

اختلفت أدوات وجبهات العمل لدى كل من ممثل خط الإمام فى قم ورجال الإمام فى طهران؛ وتضاربت بالتالى المصالح والأفكار. وقبل وفاة الإمام بشهرين، أطيح بمنتظرى من منصبه لأسباب عائلية محضة. فقد استخدم خصومه تحفظات على شخص السيد مهدى هاشمى، شقيق السيد محمد هاشمى، صهر منتظرى. وقدم مهدى هاشمى للمحاكمة بتهمة العمالة وأعدم إثر محاكمة سريعة. واستخدم ذلك لاحقا للنيل من مكانة منتظرى، وبالتالى تبرير إبعاده عن السلطة، باعتبار أن بطانته لم تعد فوق الشبهات.

وجاء إعفاء منتظرى من خلافة الإمام ليغير مسار تطور الدولة الإيرانية سياسيا ومذهبيا؛ فقد كان الإمام يملك المرجعية الدينية والثورية معا، وكان آية الله منتظرى أقرب رجاله لهذا التوصيف. فقد حاز كلاهما صلاحية الفتوى الدينية، أى صلاحية المرجع الدينى. وبعطف المرجعية السياسية على المرجعية الدينية، يكون موقع منتظرى هو الأقرب إلى مكانة الإمام الخمينى وشرائط الولى الفقيه. وبعزل منتظرى، بدأت مرحلة الفصل بين المرجعية السياسية والمرجعية الدينية، مما يضعف موقع خليفة الخمينى، خاصة فى الجانب الفقهى؛ لأن القائد السياسى القادم للجمهورية لن يكون هو المرجع الدينى، كما كان الخمينى.

أدى ذلك التغيير إلى أن يكون الإمام الخمينى هو أول وآخر مرشد للثورة يجمع، بلا منازع، بين المرجعيتين، وأن يرجح العامل السياسى على المذهبى بوضوح فى بنية وهياكل الدولة الإيرانية.

بعد رحيل الإمام، انعقد مجلس الخبراء لاختيار خليفة له. وكانت الآراء تتجه إلى تفكيك صلاحيات الولى الفقيه بعزل درجة مرجع التقليد (آيات الله العظام) عن ولاية أمر الجمهورية، أى فصل الولاية الروحية على المؤمنين عن الولاية السياسية على الجمهورية. وكان الإمام قبل وفاته بأسابيع قد أعلن أنه يكفى أن يكون المرشد مجتهدا؛ ذلك أنه منتخب من قبل الخبراء الذين انتخبهم الشعب أيضا. أى أن انتخاب الخبراء للمرشد نافذ لأنهم منتخبون من الشعب، وينوبون عنه فى اختيار المرشد.



شأن كل الثورات، ظهر الصراع فى إيران الثورة بين «أهل الثقة» و«أهل الخبرة» فى مجال تسيير أمور الدولة. وبعد أسابيع من انتصار الثورة، ظهر مصطلح «الثورة الثقافية»

باختصار، استند مجلس الخبراء فى اختيار السيد على خامنئى إلى خمس ركائز: الفصل بين القيادة السياسية والمرجعية الدينية؛ تزكية الإمام لاختيار السيد خامنئى كما شهد رفسنجانى وأحمد الخمينى؛ مشروعيته الثورية وتاريخه النضالى؛ توافر شروط الدستور بعد تعديله قبل وفاة الإمام؛ والبيعة (العقد بين الأمة والحاكم). كذلك، يؤول البعض صحة اختيار السيد خامنئى بأن الولاية فى إطار نظرية «ولاية الفقيه» لا تنحصر بفقيه معين، ولكن إذا أجمع أهل الحل والعقد الذين ترتضيهم الأمة على فقيه دون غيره، يصبح هذا الفقيه الجامع لشرائط ولاية الأمر واجب الطاعة؛ وتكون بيعته واجبة بالتعيين أيضا على كل المسلمين لدى طلبها، وهى منعقدة له حال انتخاب مجلس الحل والعقد له.

قاد الثنائى (الدويكا) خامنئى ورفسنجانى إيران بعد رحيل الإمام، فأعادا بناء الاقتصاد بعد حرب مع العراق دامت ثمانى سنوات، وحافظا على موقع طهران كطرف رئيس فى المنطقة. وراوغا الضغوط الأمريكية، ونجحت تحالفاتهما الإقليمية والدولية فى إفراغ سياسة الاحتواء المزدوج الأمريكية من محتواها. جسد الثنائى مصالح ومواقع ضمن النظام الذى لم يجد صعوبة فى إعادة إنتاج السياسات ذاتها، لكن الصعوبة كانت فى تجديد نفسه. فنشأت فجوة بين جماهير الشباب التواقة للانفتاح والإصلاح وبين رموز النظام، مما جعل سد هذه الفجوة ضرورة مصيرية. وبحلول منتصف التسعينيات، كان جيل الشباب الذى لم يعاصر الثورة يمثل تحديا كبيرا للنظام نظرا لتفاوت منظومة القيم بين الأجيال إضافة إلى تطلعاتهم نحو الانفتاح، مما أوجد حاجة إلى رمز إصلاحى جديد. على هذه الخلفية، كانت الأرضية مهيأة لظهور رمز إصلاحى تلتقى حوله التيارات الإصلاحية والمعارضة، لتنفيس الاحتقان وإبقاء هذه التيارات فى مربع الجمهورية الإسلامية. وكان أن أجاز النظام ترشيح السيد محمد خاتمى لرئاسة الجمهورية.

فى ١٩٩٧، شهدت إيران الانتخابات الرئاسية السابعة التى جاءت بالسيد خاتمى إلى رئاسة الجمهورية، حيث أطلقت سياساته رياح القوى الإصلاحية، فعرت تلك القوى مكامن ضعف المجتمع وجددت حيويته أيضا. ويعود فوز خاتمى لبرنامجه الفضفاض، المرتكز داخليا على مفاهيم متطورة وجديدة، كالمجتمع المدنى ودولة المؤسسات وسيادة القانون؛ وخارجيا بالانفتاح على دول الجوار والعالم وحوار الحضارات. استقطب تحالف خاتمى الإصلاحى أصوات الشباب والمتشوقين لهذه القيم، وضم مختلف الألوان السياسية من القوى الليبرالية إلى يسار

الوسط، ومن تكنوقراط جهاز الدولة إلى التيار الديني المستنير، إضافة لقوى اليسار بأطيافه المتعددة. وتناغم كل ذلك مع مرجعية الثورة الإيرانية.

واجهت رئاسة خاتمى صعوبات مؤسسية متعددة. ورغم ذلك، أحرز النظام الإيرانى نجاحات كبيرة إقليميا ودوليا، استنادا إلى التعددية والانفتاح اللذين مثلهما. وبرهنت رئاسته الأولى والتأييد الشعبى الجارف فى النصف الأول من الرئاسة الثانية على أن موقع رئيس الجمهورية يمكن أن يتناغم مع وتيرة العمل السياسى، ويتضافر مع تيارات سياسية متباينة، ليأخذ فعالية مجتمعية وسياسية تتخطى الإمكانات الدستورية المخولة لهذا المنصب. بيد أن مكمن القوة الأساسى يتمثل فى خطاب خاتمى المتميز عن الخطاب الدينى السائد قبله، بحيث يمكن القول -ببعض الاطمئنان- أن الخطاب الدينى لخاتمى هو التجديد الأبرز فى تاريخ الجمهورية الإسلامية.

وهكذا، شهدت إيران فى فترة رئاسة خاتمى ثلاثى حكم (ترويكا)، يتكون من المرشد السيد خامنئى ورئيس مجمع تشخيص مصلحة النظام الشيخ رفسنجانى ورئيس الجمهورية السيد خاتمى. وكان الأساس الموضوعى لدخول رئيس الجمهورية إلى الترويكا، هو تمثيله السياسى للتيارات الشعبية، ولكن دون أن يمثل مصالح اقتصادية بعينها أو شرائح اجتماعية محددة كحال شريكيه فى الحكم. بل إن عدم وضوح التوجه الاقتصادى للإصلاحيين أفقدهم التأييد الجذرى لشرائح اجتماعية بعينها، وجعلهم منبرا لمعارضة طوباوية أحيانا وتجمعا للناقمين على النظام أحيانا أخرى.

بدوره، وقف الرئيس خاتمى على أرضية الثورة الإسلامية، واستمد شرعيته منها. فهو السيد حجة الإسلام، والمحارب القديم دفاعا عن الثورة. ورغم أن التظاهرات والاحتجاجات كشفت عن فجوة بين إمكانات خاتمى الدستورية المحدودة وتطلعات المتظاهرين، كان خاتمى (الابن الشرعى للثورة) هو الفرصة الأخيرة للنظام السياسى الإيرانى للانتقال بمنظومته القيمية من شرعية الثورة إلى شرعية الدولة.

انحدرت الأغلبية الإصلاحية فى البرلمان إلى أقلية صغيرة منذ انتخابات ٢٠٠٤ النيابية، مقابل استفراد التيار المحافظ بالأغلبية. وتبدلت صورة المشهد السياسى أكثر فى ضوء انتخابات ٢٠٠٥ الرئاسية، من أجنحة مختلفة داخل النظام إلى أحادية سياسية (يونيكا) محافظة تحت عباءة مرشد الجمهورية. اكتسب انتخاب محمود أحمدى نجاد لرئاسة الجمهورية أبعادا خاصة بسبب الانقلاب الذى أحدثه فى التوازنات السياسية بين جناحى النظام الإيرانى، المحافظين والإصلاحيين. فشهد النظام السياسى منذ الانتخابات الرئاسية انقلابا على توازناته، يتمثل فى هيمنة تيار واحد على السياسة فى إيران.

يلاحظ المؤلف أن توصيفات «المحافظين» و«الإصلاحيين» لا تنطبق دائما -بالضرورة- على تيارات إيران السياسية، لأنها تفتقر للدقة، ولا تتطابق باستمرار مع الواقع الموضوعى. وينطوى حصر التصنيف فى معسكرين على تبسيط يتجاهل بروز تيارات أخرى، كالتيار القومى المتوزع بين المعسكرين، اللذين يموجان بتنوع داخلى مدهش، ولا يمثلان كيانا مصمتا سياسيا وأيديولوجيا. يضم معسكر المحافظين قسمين كبيرين: المحافظون التقليديون بزعامة المرشد السيد خامنئى، والمحافظون البراغماتيون بزعامة الشيخ رفسنجانى. وبين الكتلتين دارت المنافسة ليس فى انتخابات الرئاسة فحسب، بل فى تقاسم النفوذ والأدوار بمؤسسات الدولة.

ذهبت انتخابات ٢٠٠٤ البرلمانية بترويكا (خامنئى-رفسنجانى-خاتمى) لصالح دويكا (خامنئى-رفسنجانى)؛ ثم جاء فوز أحمدى نجاد بالرئاسة ليطيح بالدويكا لصالح يونيكا المرشد، لأن مجمع تشخيص مصلحة النظام الذى يترأسه رفسنجانى يختص بالفصل فى المنازعات بين رئاسة الجمهورية والبرلمان. وبما أن الرئاسة والبرلمان أصبحتا فى قبضة تيار المرشد، فالأرجح أن لا يجد رفسنجانى دورا هاما داخل المؤسسات الدستورية بعد الانتخابات.

تحديات المستقبل

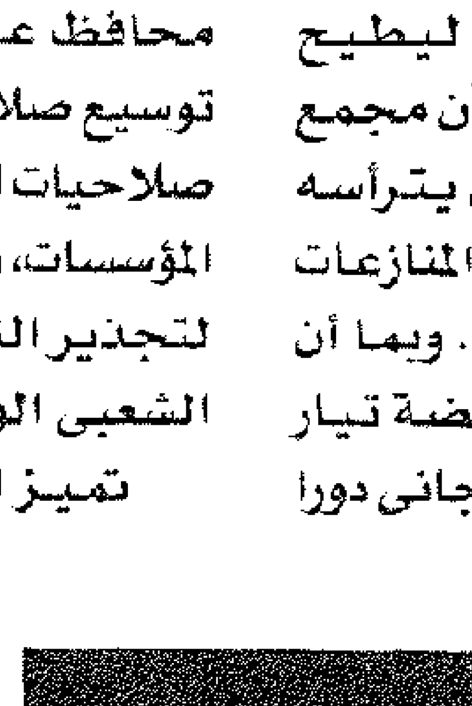
تواجه إيران أربعة تحديات رئيسة، تتوزع بين ضبط عمليات الحراك السياسى الداخلى؛ وتجديد النخبة الإيرانية وعلاقتها بتوازنات النظام السياسى؛ والتعامل مع مسألة القوميات؛ وأخيرا إثبات الحضور الإقليمى ومواجهة الأخطار الخارجية. ويتوقف مستقبل النظام على قدرته على التعامل مع هذه التحديات.

شهدت الجمهورية الإسلامية منذ قيامها تسعة انتخابات رئاسية وسبعة انتخابات برلمانية؛ أى أن الطابع الشعبى ركن أساسى لمشروعية نظام «ولاية الفقيه». وهى انتخابات تتمتع بنزاهة غير معتادة إقليميا. ويشهد الحراك السياسى الذى ساد خلال رئاستى خاتمى على حيوية المجتمع الإيرانى. وربما كانت تجربة خاتمى الإصلاحية محصلة شروط خارجية وداخلية معقدة بمرحلة تاريخية معينة من عمر النظام، مما يدفع للاعتقاد بصعوبة تكرارها. وفى ظل سيطرة تحالف محافظ على مقاليد الحكم، لا يتوقع توسيع صلاحيات رئاسة الجمهورية مقابل صلاحيات الولى الفقيه لإحداث توازن بين المؤسسات، وهو توسيع يمثل شرطا أساسيا لتجذير النظام الإيرانى ورفده بالقبول الشعبى الواسع.

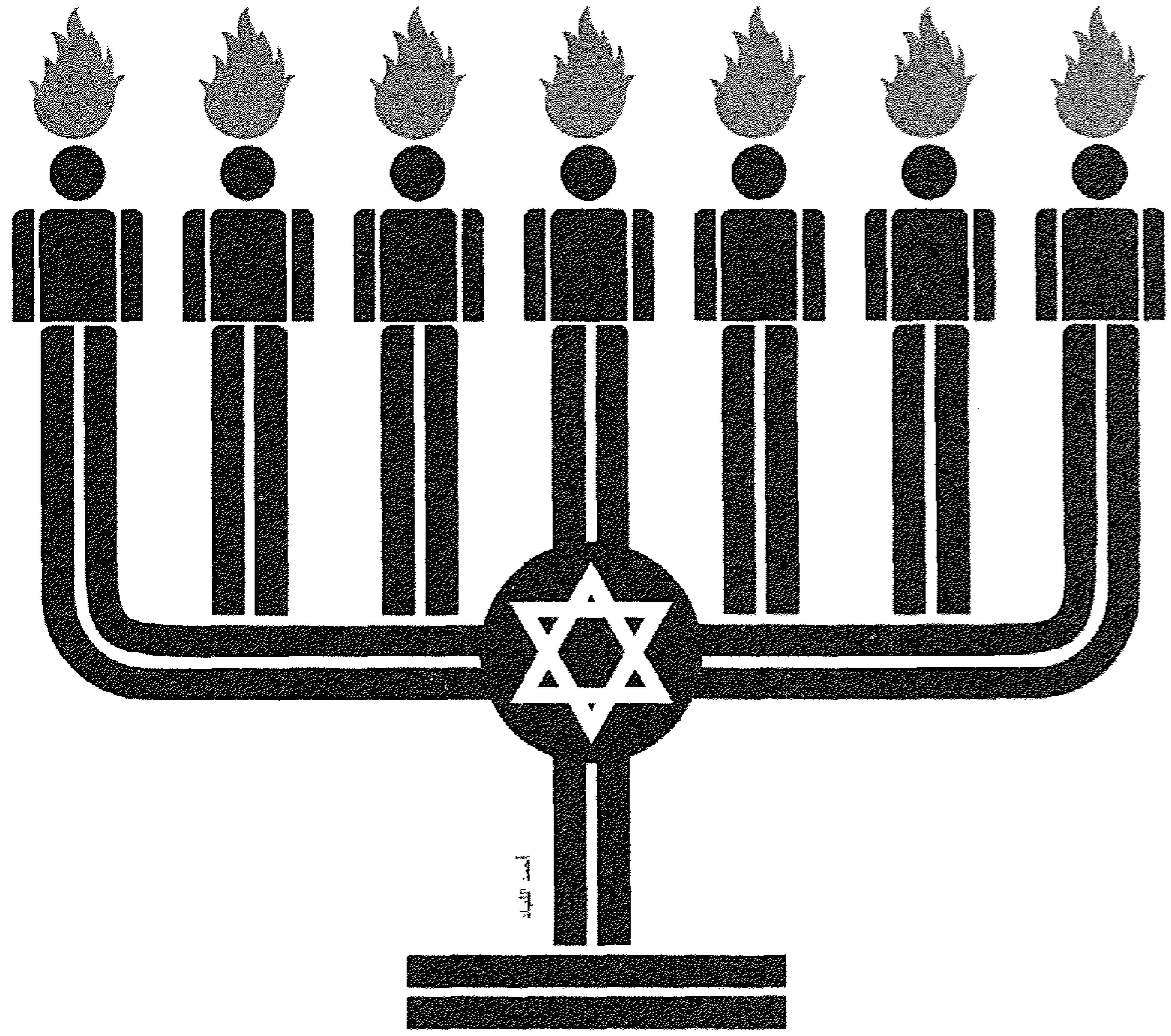
تميز النظام السياسى الإيرانى بالوحدانية والتنوع معا. وبفضل وجود الأجنحة فى قلب النظام، يراعى صنع القرار مصالح مختلفة ومتعددة؛ بما يجعله نقطة لتوازنات القوى، ويسبغ عليه طابعا جماعيا وشعبيا. وأضفى وجود الأجنحة حيوية على المشهد الإيرانى، وحقق إعجابا خارج إيران بنظامها السياسى. وساد التنوع منذ انتصار الثورة، واستمر بوجود تيارات متباينة تحت عباءة الثورة، فأصبح قرينا للنظام الثورى الإيرانى. ويمكن توقع تغيرات فى توازنات النظام تؤدى لاختفاء «يونيكا» المرشد لصالح «دويكا» جديدة بين التيار المحافظ بقيادة المرشد والتيار الأصولى الذى يمثله أحمدى نجاد المتحالف مع قسم هام من رجال الدين بقيادة آية الله جنتى. والتحدى هنا ليس فى قدرة النظام السياسى على تجديد نخبته، فقد أثبت قدرات معتبرة بهذا الصعيد، وإنما فى قدرة النخبة الجديدة على تغيير التوازنات السياسية داخل النظام، بما لا يعرضه للاهتزاز أو يكشفه أمام الخارج.

المركزية قدر إيران منذ القديم، إذ كانت مهمة حفظ الأقاليم المختلفة جغرافيا والمتنوعة قوميا المهمة الأساس للدولة عبر العصور. وقد استغرقت دولة «ولاية الفقيه» فى المركزية حتى فاقت سابقاتها، مما ساهم فى بقاء أقاليم الدولة موحدة. والحقيقة أن للقوميات المكونة للشعب الإيرانى حقوقا ثقافية وسياسية ما زالت تطالب بها، ولكن الدول المركزية متعددة الأعراق يسكنها أيضا هاجس التفتت مما يجعلها تتشدد فى مسألة القوميات. بيد أن مفهوم «الهيمنة الفارسية» على إيران ليس صحيحا على إطلاقه. ويتوقع أن يزداد إلحاح مسألة القوميات الإيرانية، بدخول المصالح الأمريكية على الخط وسعيها لرسم خرائط «جديدة» لشرق أوسط «جديد». وقد يكتسب هذا التحدى أبعادا جديدة مع استخدام أمريكا لورقة القوميات لزعزعة النظام لدى عدم الوصول لتفاهمات إقليمية معه.

كرس الطابع الأيديولوجى للدولة الإيرانية، والمرتكز على «ولاية الفقيه» حضور طهران إقليميا عبر خطابها السياسى والدينى، كما لم تتنازل الجمهورية الإسلامية عن أى طموح إقليمى للدولة الإيرانية الحديثة، وغدت مرجعية سياسية للشيعة فى العالم. ويمثل النظام الإيرانى إحدى قوى الممانعة الأساسية أمام التصورات الأمريكية لإعادة رسم الشرق الأوسط. ومع إحاطة قوات واشنطن بإيران فى ظل عدم وجود تفاهمات بينهما، يتوقع اندفاع الأمور نحو تصعيد أكثر. ويكمن التحدى الأهم فى قدرة إيران على تحقيق تفاهمات -حول دورها الإقليمى- مع واشنطن مع حماية دولتها وأيديولوجيتها. ■



اكتسب انتخاب نجاد لرئاسة الجمهورية أبعادا خاصة بسبب الانقلاب الذى أحدثه فى التوازنات السياسية بين جناحى النظام الإيرانى، المحافظين والإصلاحيين



هـــل الصهيـــونيـــة

عبد الوهاب المسيرى

يؤمن كثير من مؤرخى الأفكار بأن الفكر الأوروبى الحديث، رغم ثورته على الرومانسية، هو فى صميمه فكر رومانسى

أصبحت كلمة «موضوعية» مصطلحاً أساسياً فى خطابنا التحليلى. العلمى واليومى، وأصبحت عبارة «فلتكن موضوعياً» من أكثر العبارات شيوعاً، وهى تعنى أن على المرء أن يتحلى بالحياد والتجرد من الذاتية ومن قيمه المعرفية والأخلاقية وانتماءاته القومية والأيديولوجية حين يقوم بدراسة ظاهرة ما، فلا يقحم رغباته أو أهواءه أو انتماءاته أو القومية، وهذه أمور ولا شك إيجابية. ولكن أصبحت الموضوعية تعنى عند البعض تلقى المعلومات بشكل سلبى ورصدها رصداً تراكمياً وتدوينها دون أن يرى علاقاتها بعضها بالبعض («ويرص كلاماً / فوق كلام / تحت كلام» على حد قول صلاح الدين عبد الصبور)، وكأن المعرفة الحقة هى حشد المعلومات، وكأنه لا يوجد فرق بين الرؤية ونشرة الأخبار وبين التفسير والتدوين. إن الموضوعية فى تصور هؤلاء هى التجرد من الذاكرة والهوية والقيم والعواطف والأحاسيس، وهذا أمر بطبيعة الحال مستحيل: فهل يمكن للإنسان أن يرصد سقوط حجر من علٍ مثلما يرصد سقوط طفل؟ وهل يمكن أن ندرس سلوك اسرة من الدجاج مثلما ندرس سلوك أسرة من البشر؟ وهل يمكن أن نرصد مذبحة تقع فى فلسطين أو حادثة سقوط طائرة تحمل مائتى راكب فى المحيط مثلما نرصد زلزالاً وقع فى جزيرة غير مأهولة بالسكان؟

النموذج الإدراكى والتحليلى

لكل هذا أذهب إلى أنه من الضرورى أن نميز بين الموضوعية المتلقية السلبية من جهة، والموضوعية الاجتهادية الإيجابية من جهة أخرى. والموضوعية المتلقية هى التلقى المادى السلبى للمعلومات الذى يؤدى إلى تراكم المعلومات الصماء، المعلومة فوق الأخرى. ولكن المعلومة فى حد ذاتها لا تقول شيئاً، بل إنها قد تخبئ كثيراً من الرؤى والتضمينات الفلسفية والمعرفية المتحيزة. ولكن هل هذا يعنى أن نلجأ للذاتية المحضة؟ بالطبع لا: فالمعرفة النابعة من ذات الباحث وحدها دون العودة للواقع الموضوعى لا تفيد كثيراً بل إنها قد تضلله. كيف يمكن إذاً فك هذه العقدة التى يواجهها الباحث فى كل العلوم الإنسانية، بل وأحياناً فى العلوم التطبيقية؟ أذهب إلى أن ما أسميه التفسيرية قد يساعدنا على حل هذه الإشكالية عن طريق المزج بين القطبين (الذات والموضوع). فالتفسيرية ترفض كلاً من الموضوعية المادية المتلقية والذاتية المغلقة على نفسها، فهى تنطلق من تقبل ثنائية الإنسان والطبيعة/المادة وبالتالى ثنائية الذات والموضوع ولا تحاول إلغاءهما، وإنما تحاول الوصول إلى المنطقة التى تلتقى فيها الذات بالموضوع، فهى تستعيد الفاعل الإنسانى فى كل تركيبيته ككائن يعيش فى عالم الطبيعة والمادة رغم أنه متجاوز لهما. إن المنهج التفسيرى لا يهدف إلى حشد أكبر قدر ممكن من المعلومات ورصدها فى حد ذاتها بطريقة موضوعية سلبية متلقية (فالحاسوب يقوم بهذا على أكمل وجه).

كما أنها ترفض أن يحلق الباحث فى فضائه الأيديولوجى أو الأخلاقى (الذاتى) الخاص. تذهب التفسيرية إلى أن الحقائق غير الحقيقة. فالحقائق بطبيعة الحال هى نقطة البدء فى أى بحث ولكنها مجرد معطى مادى ومادة أرشيفية. أما الحقيقة فهى ثمرة عملية إبداعية يقوم بها العقل الإنسانى فيقوم بالربط بين المعلومات واستخلاص أنماط متكررة منها من خلال عملية تجريد إبداعية. إن التفسيرية تنطلق من إدراك أن ما يرصده الباحث بشكل مباشر هو مجرد مادة خام أولية، وبالتالى فالأرقام والإحصائيات والمعلومات والحقائق ليست نهائية. ولذا فالمنهج التفسيرى يحاول تجاوز المضمون الواضح المباشر والمعلومات المتراكمة ويهدف إلى تصنيف المعلومات وتنظيمها وتحديد الجوهرى والهامشى منها ثم وضعها داخل نمط متكرر، وأن يرصد العوامل المكونة للظاهرة الإنسانية فى تفاعلها. كل هذا يتم بهدف اكتشاف العلاقات المتشابكة التى تكوّن الظاهرة حتى يمكن تفسيرها (وهذا ما لا يمكن للحاسوب أن يقوم به)، وصولاً إلى بنية الفكر أو الظاهرة وأبعادهما المعرفية والعلاقات الكامنة التى تشكل هويتهما ومنحناهما الخاص. إن هدف العملية البحثية من منظور المنهج التفسيرى ليس حشد المعلومات وإنما تفسيرها، أى أن مركز العملية البحثية ينتقل من عالم الأشياء والمعلومات إلى العقل الإنسانى الفعال، بما فطره الله فيه من مقدرات وأفكار أولية.

والمنهج التفسيرى -كما أسلفنا- يهدف إلى وضع الحقائق داخل نمط متكرر. وهو ما نشير إليه بأنه النموذج. وأعرّف النموذج بأنه بنية تصورية يجردها الباحث من كمٍ هائل من العلاقات والتفاصيل والوقائع والأحداث، فيستبعد بعضها لعدم دلالتها (من وجهة نظر صاحب النموذج) ويستبقى البعض الآخر، ثم يرتبها ترتيباً خاصاً وينسقها تنسيقاً خاصاً بحيث تصبح (من وجهة نظره) مترابطة بشكل يماثل العلاقات الموجودة بالفعل بين عناصر الواقع. حينئذ تتكون صورة فى ذهنه يمكن أن نسميها خريطة إدراكية أو نموذجا إدراكيا. والنموذج ليس له وجود إمبريقى محسوس فهو كامن فى كل تفاصيل الظاهرة أو النص وفى أجزائهما، وهو بلا شك يتجاوزهما، ولكنه فى الوقت ذاته يمنح النص أو الظاهرة وحدتهما الأساسية ويربط بين عناصرهما المختلفة.

ومن يستخدم النموذج كأداة تحليلية لا يتلقى الحقائق فى سلبية وإنما سيقوم برصدها فى دقة بالغة ثم يقوم بعد ذلك بتفكيكها والربط بينها وتجريدها وتركيبها ووضعها داخل إطار ينتظم الظواهر المتشابهة (فإن كان الرصد عملاً موضوعياً، فالتجريد والتركيب عمل ذاتى اجتهادى توليدى). ومن خلال الأنماط المتكررة يمكن إدراك المعلومات لا كذرات متناثرة وإنما كشبكة علاقات ذات دلالة.

والنموذج لابد أن يكون له بُعد معرفى، ونحن نتحدث عن «النموذج المعرفى» أى النموذج الذى يحاول أن يصل إلى الصيغ الكلية والنهائية للوجود الإنسانى (وكلمة «كلى» تفيد الشمول والعموم، بينما تعنى «نهاية الشىء» غايته وآخره وأقصى ما يمكن أن يبلغه الشىء). وتدور النماذج المعرفية حول ثلاثة عناصر أساسية: الإله - الطبيعة - الإنسان. ونحن نركز على الإنسان (الموضوع الأساسى للعلوم الإنسانية)، ولكن من خلال دراسته يمكن أن نحدد موقف النموذج من العنصرين الآخرين (الإله والطبيعة).

وبعد تجريد النموذج الإدراكى المعرفى يمكن تحويله إلى نموذج تفسيرى تحليلى، يستخدمه الباحث فى قراءة النصوص والظواهر المختلفة قراءة تحليلية نقدية.

ولذا ففى الإطار التفسيرى بوسعنا أن نسقط كلمتى «موضوعى» و«ذاتى»، ولن يكون معيارنا الدقة أو كم المعلومات أو مدى مطابقة معلوماتنا للواقع وإنما المقدرة التفسيرية للمصطلح أو الأطروحة. فإن كان المصطلح أو الأطروحة قادراً على تفسير عناصر وأوجه كثيرة فى الواقع فهو «أكثر تفسيرية» (وهى عبارة تحل محل مصطلح «موضوعى»)، وإن أثبت المصطلح قصوره التفسيرى فهو «أقل تفسيرية» (وهى عبارة تحل محل مصطلح «ذاتى»). والمصطلحان اللذان أقترحهما أكثر انفتاحاً وعملية وتواضعاً من مصطلح «موضوعى وذاتى». فحينما أقول «إن ما أطرحه هو أكثر تفسيرية» فأنا أقول فى واقع الأمر «أن تفسيرى أنا للوقائع وللظاهرة»، أى أننى أحذر القارئ من العنصر الذاتى، وأدعو لاختبار أطروحتى على محك الواقع. أما إن قلت «أن هذا رأى موضوعى» فمعنى ذلك أنه ليس رأيى أنا، وإنما هو الحقيقة الموضوعية التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. وإن قلت «أن هذا هو رأيى الذاتى الذى توصلت له من خلال عبقريتى وعلمى الغزير، فعلى الجميع إذن قبوله دون مناقشة، فهم ليسوا عباقرة، أو علماء مثلى!»

وإذا كنا قد بدأنا فى العالم الموضوعى فنحن ننتهى فيه، إذ يمكن اختبار مقدرة النموذج التحليلى التفسيرية للنموذج التحليلى على محك الواقع، كما يمكن إثراؤه وزيادة تركيبيته ومقدرته التفسيرية من خلال اختباره على عدة حالات مماثلة، وبالتالى لا يوجد خوف من ذاتية التجريد والتفكيك والتركيب.

وصياغة النموذج التفسيرى التحليلى عملية مركبة وإبداعية تتضمن عمليات عقلية عديدة متنوعة. فالنموذج لا يوجد من العدم أو من أعماق الذات وثناياها وحدها (كما قد يتراءى للبعض)، وإنما هو- كما أسلفنا - ثمرة فترة طويلة من ملاحظة الواقع والاستجابة له ومعايشته والتفاعل معه ودراسته والتأمل فيه وتجريده. وحين يحاول الباحث أن يصوغ النموذج لا يستبعد خياله أو حدسه أو قيمه أو تحيزاته، فهو يحاول أن يستجيب بكل كيانه للظاهرة أو النص موضع الدراسة.

إن النموذج كأداة تحليلية يربط بين الذاتى والموضوعى، ولذا يمكن القول بأن عملية صياغة النموذج تجمع بين الملاحظة الإمبريقية واللحظة الحدسية، وبين التراكم المعرفى والقفزة المعرفية، وبين الملاحظة الصارمة والتخيل الرحب، وبين الفهم الحدسى للكل والدراسة التجريبية للأجزاء والتفاصيل، وبين الحياد والتعاطف، والانفصال والاتصال. وهو يفتح مجال البحث العلمى من خلال الخيال الإنسانى ومقدرته على التركيب وعلى اكتشاف العناصر والعلاقات الكامنة، ولكنه فى الوقت نفسه يكبح جماح هذا الخيال بأن يجعل النتائج خاضعة للاختبار، وهى مسألة تقع خارج ذاتية من صاغ النموذج. وذلك كفيل بأن يضع حلاً للمشكلة التى تواجه العلوم الإنسانية، أى الإفراط فى تصديق الحدس الذاتى المنفصل عن أى واقع، أو العكس، أى الإفراط فى الاهتمام بالتفاصيل والجزئيات المنعزلة عن أى مفهوم للكل (وهذا تبدٍ متطرف لإشكالية الذاتية والموضوعية). إن ذاتية الحدس ليست كافية، تماماً مثل موضوعية التجريبية، إذ لابد أن يكون هناك تفاعل بين الذات والموضوع وبين الكل والجزء وبين الحدس المباشر من جهة، ومن جهة أخرى التحليل العقلى والرصد الموضوعى الصارم. وبدون كل هذه العمليات المركبة، يحل محل النموذج التحليلى المركب فرضية اختزالية شائعة (أى نموذجا اختزاليا شائعا)؛ وتصبح الملاحظة عملية اختزال للواقع ويصبح البحث عملية توثيق أفقية مملة، هى فى جوهرها تأييد للأطروحات السائدة فى حقل ما. وهذا مع الأسف هو ما يحدث فى كثير من الدراسات التى يقال لها «علمية» التى تقوم فى جامعاتنا، والتى تسمى نفسها «بحوثاً»، وهى أبعد ما تكون عن «البحث»، فهى فى غالب الأمر عملية توثيق لبعض البديهيات أو لبعض الأطروحات الشائعة.

حـــركة رومانســية ؟

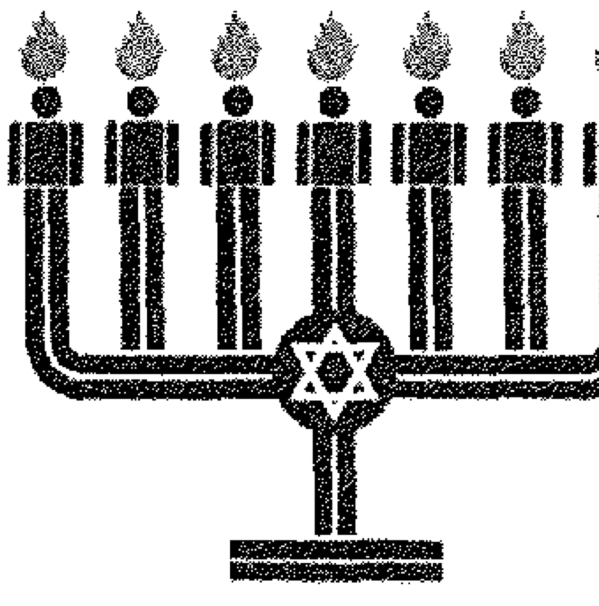
ولنحاول تطبيق بعض هذه الأفكار على موضوعين هما الرومانسية والصهيونية قد يبدوان لأول وهلة وكأنهما لا يمكن أن توجد أى نقط تشابه أو تماثل بين الواحد والآخر. وأنا هنا لا أتحدث عن «أثر» الرومانسية على الصهيونية وإنما أتحدث عن التماثل أو التشابه البنيوى بينهما. والتماثل أو التشابه البنيوى يعنى أن نقط التماثل والتشابه لا توجد فى المضمون المباشر أو الموضوع الظاهر وإنما توجد على مستوى أعمق، مستوى النموذج الكامن والعلاقات المختلفة بين كل التفاصيل، وهو مستوى لا يمكننا التوصل إليه إلا من خلال استخدام النماذج التحليلية. فالنموذج التحليلى يجعل بوسعنا أن ننتقل بقدر من السهولة من حقل معرفى إلى آخر، ومن عالم الاقتصاد على سبيل المثال إلى عالم الأفكار. ومن خلال مقارنتنا بين الرومانسية والصهيونية هذه سنحاول أن نبين المقدرة التصنيفية والتفسيرية للنماذج التحليلية.

وتعريف الرومانسية تعريفا جامعا مانعا أمر فى غاية الصعوبة، نظراً لأنه مصطلح فضفاض وخلافى يشير إلى عدد كبير من الاتجاهات والتيارات تتباين فى دعاتها وأزمنتها وأمكنتها. ولذا فلنحاول أن نقدم هذا المفهوم الفكرى (والسياسى والاجتماعى والتاريخى) عن طريق حصر بعض السمات الرئيسية التى تهمنا فى المقارنة التى سنعقدها. ومن أهم هذه السمات أن الرومانسية كانت ثورة ضد النفعية وكل الاتجاهات الآلية التى تحاول أن تختزل الظاهرة الإنسانية إلى عنصر مادى واحد: الاقتصاد، أو الجنس أو هذا العنصر المادى أو ذاك. كما أن الماديين يرون أن العالم فى حالة صيرورة دائمة، فهو لا ثبات فيه لأى شىء. ولذا حاول الرومانسيون أن يبحثوا عن حقيقة جوهرية كامنة وراء الأشياء، حقيقة ثابتة وراء التغير، حقيقة عميقة تتجاوز السطح. ومن هنا لم يعد العالم المادى بالنسبة إليهم شيئاً ميتاً، خاضعاً لقوانين المادة والآلة، وإنما شىء حى ينبض بالحياة، تسرى فيه الروح، يصلح كعلامة وكشاهد على وجود المطلق الذى كان يقرنه بعض الرومانسيين بالإله (وهذه هى خلفية البعث الدينى الذى حدث فى القرن التاسع عشر).

وباكتشافهم لهذا المطلق تصور الرومانسيون أنهم أعادوا الحياة للعالم بعد أن قتلته الثورة الصناعية والفلسفة النفعية المادية. فالمطلق هنا لم يكن أداة لتأكيد الذات وإنما وسيلة لتأكيد إنسانية الإنسان وانفصاله عن عالم الأشياء عن طريق ربطه بما هو متجاوز للعالم المادى.

ومن هنا يفهم حديث بعض مؤرخى الأفكار عن «الثورة الرومانسية». (ومع هذا يجب التحفظ بالقول أنه لا الرومانسية تؤدى إلى التدين ولا العقلانية تؤدى إلى العلمانية والمادية، فهناك ماديون رومانسيون مثل النازيين وبعض الماركسيين، وهناك متدينون عقلانيون مثل المعتزلة، وهناك كثير من المفكرين الغربيين المسيحيين العقلانيين فى القرن الثامن عشر، فالعلاقة بين الرومانسية والتدين ليست علاقة سببية صلبة وإنما علاقة ترابط اختيارى أو علاقة قربى بينهما).

ولكن كيف يتأتى لنا أن نصل إلى هذا المطلق الثابت، المتجاوز لعالم المادة والمحسوس؟ إن عالم الحواس مفلس، ولابد من طريقة جديدة للإدراك، ومن هنا كانت أهمية الخيال. فالخيال وحده هو الذى يمكّن الإنسان من تجاوز عالم المادة ليصل إلى الأعماق وإلى جوهر الأشياء، بل وإلى المطلق الثابت الذى لا يتحول. إن الخيال لا يبتدع صورا خرافية، لا علاقة لها بالواقع، وإنما يساعد على تخطى المعطيات الحسية بأن ينحت صورا مجازية دالة، تجسد هذا الواقع وعلاقاته، وتسهل إدراك جوهر الواقع المعيش.



هل الصهيونية حركة رومانسية

ولكن كيف يمكن للخيال أن يلعب دوره هذا؟ يجيب الرومانسيون بأن العاطفة هى التى يمكنها أن تفعل ذلك، فالإنسان فى حالته العادية وفى حياته اليومية، لا يستخدم سوى حواسه وعقله (بالمعنى الضيق والمباشر للكلمة). أما إذا جاشت عواطفه، فإنها ترهف حواسه وتعمق إدراكه بحيث يتجاوز السطح ليصل إلى الأعماق والمطلق وإلى جوهر الأشياء. إن العاطفة تهدم حدود الحواس والأشياء، ولذا فالصور الشعرية الخيالية تتسم بوحدة داخلية عضوية مختلفة تمام الاختلاف عن الوحدة الخارجية (المنطقية) التى تتسم بها الأشياء العادية. فالأولى مستقاة من منطق الروح الحى والثانية مستقاة من منطق الأشياء الميتة.

والإنسان الرومانسى الذى يتجاوز السطح ويصل إلى الجوهر عن طريق الخيال الذى تشحذه العاطفة، إنسان فردى متفرد - فردى لأن العاطفة -على عكس العقل- لا تخضع لقانون، ولذا فمن يعبر عن عاطفته إنما يعبر عن ذاته، ومن يعبر عن ذاته فهو يعبر عن فرادته التى لا يشاركه فيها أحد سواه.

لكل ما تقدم نادى الرومانتيكيون بالعودة إلى «الطبيعة»، والطبيعة هنا ليست مجرد أشجار وأنهار وجبال وتلال، وإنما هى حيز فسيح يتسم بالبساطة وغياب التفاصيل يمكن للمفكر أو الأديب الرومانسى أن يذهب إليه، بعيداً عن ضوضاء المدينة وتلوثها وتفاصيلها العديدة، ليتأمل ذاته دون عوائق ولتفيض عواطفه وينطلق خياله فيطور أفكاره الأصيلة التى تعبر عن هويته وشخصيته ورؤيته الفريدة الفذة وعن إنسانيته.

ويرتبط موضوع «العودة للطبيعة» بموضوع آخر وهو الحنين أو العودة للماضى والاهتمام بالأماكن والحضارات البعيدة the fare away and the long ago. وكما أن العودة للطبيعة هى شكل من أشكال التمرد على المجتمع الصناعى المادى، فكذلك كانت العودة للماضى والاهتمام بالأماكن والحضارات البعيدة. فالأديب الرومانسى الذى كان يعود للعصور الوسطى أو للأماكن والحضارات البعيدة كان يستلهم منهما صفات مثل التراحم والترابط الاجتماعى والإيمان الدينى التى يتجاوز علاقات التبادل المالى والتجارى. ولذا نجد أن العودة للأماكن أو الحضارات البعيدة أو للماضى لم تجعلهم ينصرفون عن الحاضر أو عن واقعهم، بل كانوا يستمدون منها معايير يمكنهم عن طريقها توجيه النقد لمجتمع أطبق عليه السقف المادى النفعى، لأنه يدور فى إطار اقتصاديات السوق.

ويمكن تلخيص الموقف الرومانسى بأنه يرى أن عقل الإنسان (بالمعنى العريض للكلمة) لا يستبعد العاطفة أو الخيال، والذى يعنى فى واقع الأمر كلية الكيان الإنسانى، وأن هذا العقل مبدع قادر على اختراق السطح المادى وصولا إلى الحقيقة الجوهرية للأشياء. ويمكن تفسير كل الموضوعات الرومانسية الأخرى فى هذا الإطار. فالعودة إلى الطبيعة وإلى الماضى هى عودة لعالم مركب، أعماقه غير خاضعة لقوانين المادة، يمكن للخيال الإنسانى أن يحلق فيه، ويمكن للعقل الخلاق أن يطلق لنفسه فيه العنان.

وينتظم كل الموضوعات الرومانسية خيط واحد، وهو التصور العضوى للعالم، أى أنه يشبه الكائن العضوى الحى (النبات أو الحيوان) فى تلاحم وتكامل أعضائه، ومن ثم لا يمكن أن تفصل الأجزاء عن الكل (فالعلاقة بينهم عضوية) وإن فصلت جزءاً أو عضواً عن الكل، فإن العضو يذبل ويموت وكذا الكل، أو على الأقل تتغير هويته تماماً. ويرى الرومانتيكيون أن ثمة وحدة عضوية فى العالم تربط الإنسان بالطبيعة والإله. ومصدر هذا الترابط العضوى هو حلول الإله فى كل من الإنسان والطبيعة، وهو بحلوله هذا يستعيد للعالم قداسته التى نزعتها عنه الثورة الصناعية وقوضتها النفعية المادية.

ولنتذكر أن الرومانسية كانت هى الرؤية الفلسفية السائدة فى أوروبا منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى بداية القرن العشرين. بل يؤمن كثير من مؤرخى الأفكار بأن الفكر الأوروبى الحديث، رغم ثورته على الرومانسية، هو فى صميمه فكر رومانسى. وقد ظهرت الصهيونية كفكر سياسى فى منتصف القرن التاسع عشر، وتبلورت فى العقدين الأخيرين منه، ووصلت أول دفعة من المستوطنين الصهاينة إلى فلسطين عام ١٨٨٢، أى إنها ظهرت فى وقت ساد فيه الفكر الرومانسى فى العالم الغربى، وكانت الرومانسية هى أساس رؤية الإنسان الغربى للكون Zeitgeist فى القرن التاسع عشر، أى شبكة من العلاقات بين الأفكار تشكل الإطار العام لذلك العصر وكل آثاره الإنسانية، سياسية كانت أو فلسفية أو جمالية.

إذا درسنا الظاهرة الصهيونية وحاولنا تجريد النموذج المعرفى الكامن وراء كثير من تفاصيلها وأفعالها ونصوصها سنجد أنه يحمل كثيراً من سمات وملامح الرومانسية. ولنأخذ السمة الأولى، أى البحث عن مطلق يتجاوز السطح، سنجد أن الفكر الصهيونى يدور حول مطلقات ثابتة غير خاضعة للتغيير مثل الشعب (اليهودى) المختار وحقوق الشعب اليهودى والأرض اليهودية المقدسة، فهذه كلها مطلقات تتجاوز التاريخ وسطحه وحدوده. ومصدر إطلاقها كلها هى أنها يهودية، أى أن المطلق الذى لا يتغير هو اليهود واليهودية. ولكن اليهود واليهودية يوجدان داخل الزمان، ومن هنا نلاحظ ما أسميه تداخل النسبى والمطلق فى كل الظواهر الصهيونية، بحيث تصبح كل الأشياء مطلقة بما فى ذلك أتفه التفاصيل: الدولة اليهودية، علم إسرائيل، نجمة داود، بطاقة الهوية الإسرائيلية. ولننظر إلى المصطلح السياسى الصهيونى وإلى موقف الصهاينة من ضم الأراضى. لا يمكن التفريط فى هذا الشبر لأن لليهود علاقة خاصة به، ولا يمكن التنازل عن قطعة الأرض تلك لأنها مقدسة، والحدود الآمنة هى فى الواقع الحدود المقدسة أو الحدود المطلقة، أى الحدود اليهودية. ويجب أن نشير هنا إلى أن الصهاينة، نظراً إلى أن معظمهم ملاحدة، يتحول المطلق عندهم إلى أمر ذاتى، فالمطلق هو ما يشاءون. أما بالنسبة إلى الأقلية الصهيونية المتدينة، ففى إطار الحلولية اليهودية ثمة مساواة فى وجدانهم بين الله والشعب اليهودى، وهذا هو أساس فلسفة بوبر الحوارية، أى الإيمان به بأنه لا توجد أى مسافة تفصل بين الخالق والمخلوق فيتوحدان حتى يصبحان كياناً واحداً، أو كما قال بن جوريون: «إذا كان الإله قد اختار الشعب (اليهودى)، فإن الشعب (اليهودى) قد اختار الإله!»، وبالتالى فالمطلق هو أيضاً ما يشاءون. وهكذا تتحول الذاتية الرومانسية التى كانت تهدف إلى تحرير الإنسان من إسار المادة إلى أداة بطش وطغيان.

وكما أسلفنا من الأفكار الرومانسية الأساسية، فكرة الهرب من عالم فاسد إلى عالم خير، من عالم المدينة والمدنية والصناعة والتلوث والفساد إلى عالم القرية والطبيعة والنقاء والطهر. ويرى المفكر الصهيونى الروسى ميخا جوزيف بيرديشفسكى أن الأيديولوجية الصهيونية دعوة إلى الهرب من عالم الأغيار الفاسد والعودة إلى البساطة اليهودية (أو العبرانية) الأولى: «إن الكون يدل على عظمة الله، والطبيعة تروى صنع يديه، لأن الطبيعة هى أم الحياة ومصدر كل الحياة، إنها منبع كل شىء... هى منبع كل ما يحيا وروحه... «وبعدئذ غنت إسرائيل أغنية الكون والطبيعة، أغنية السماء والأرض وما عليها، أغنية البحر وما فيه، أغنية التلال والمرتفعات، أغنية الأشجار والأعشاب، أغنية البحار والجداول. وبعد ذلك جلس كل إسرائيلى تحت كرمته أو تينته، ثم نبتت البراعم على التينة، وامتد سحر التلال الخضراء إلى البعيد». هذه هى إسرائيل الأصلية فى تصور بيرديشفسكى، ولكن حدث سقوط فى التاريخ إذ قام جيل إثر جيل يحتقر الطبيعة ويعتقد أن أعاجيب الله ليست سوى تفاهات نافلة». ولذا، فإن طريق الخلاص واضح جلى «ردوا إلينا شجراتنا الجميلة وعقولنا الجميلة! ردوا إلينا الكون». وهكذا تصبح العودة إلى الطبيعة البسيطة البريئة إلى رغبة فى الاستيلاء على فلسطين.

وهذه النزعة نفسها نحو العودة إلى البساطة الأولى تظهر فى قصيدة الشاعر الروسى الصهيونى شاؤول تشرنحوفسكى:

فلنكن مثل الأطفال الصغار،
مثل قطرة فى الفيضان، أو تنهدات البروج،
لا بحث، لا غاية، ولا قانون، ولا طغيان،
مثلما كنا فى الأيام القديمة، قبل أن نتحكم
فى الأرض والضياء، قبل أن نصيب الحكمة،
وقبل أن يرهقنا الأنبياء.

إن العودة للطبيعة هنا هى عودة إلى عالم لا حدود له ولا قانون فيه (إلا قانون الغابة)، وعادة ما تتحول جنة روسو

الفكر الصهيونى يمجد العاطفة ويرفض الفكر العقلانى الاستنارى الذى كان يدعو إلى اندماج اليهود فى المجتمعات التى يعيشون فيها

الفردوسية إلى غابة داروين المتوحشة، وهى عودة إلى ما قبل التاريخ اليهودى وقبل إرسال الأنبياء إلى بنى إسرائيل، وما كانوا يحملون من أخلاقيات إنسانية!

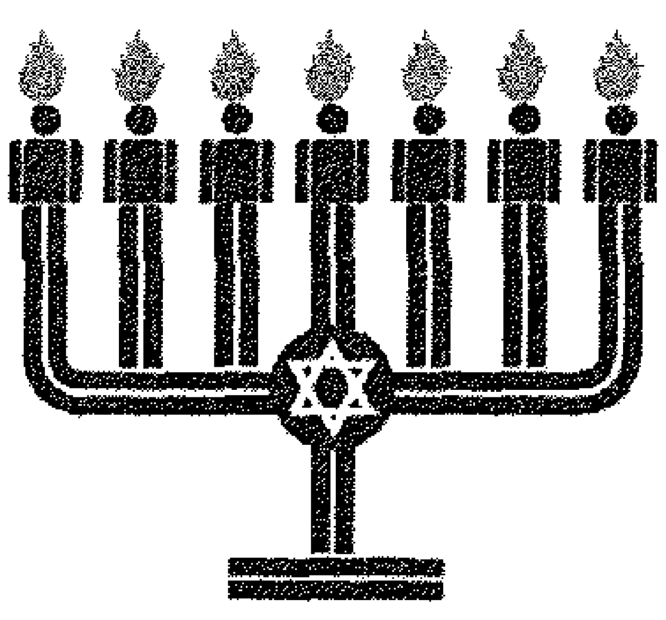
وأسطورة «العودة الرومانسية»، فى سياقها الثورى، هى صورة مجازية لتحطيم الحدود وعودة للأصول الإنسانية التى تضم كل البشر، أى أنها دعوة للمساواة والإخاء. ولكن أسطورة العودة عند الصهاينة تتبنى المفهوم الرومانسى لتبرر تمركز الهوية الصهيونية حول نفسها.

ولعل قصيدة تشرنحوفسكى الشهيرة «أمام تمثال أبولو» تبين المضمون السياسى العنصرى لأسطورة العودة عند الصهاينة. تبدأ القصيدة بالتغنى بأبولو إله الإغريق القدامى، فهو «جميل كالربيع، قهر الشمس، وعرف أسرار الحياة وفنونها الكونية». ويذهب تشرنحوفسكى إليه باعتباره اليهودى الذى سئم تاريخه الطويل فيقول:

أسجد وأنحنى أمام الخير والسمو
لكل ما هو مجيد فى هذا العالم
لكل ما هو رائع بين المخلوقات
لكل ما هو متسام فى ديانات الكون البدائية.

ولكننا نكتشف بعد قليل أن هذا اليهودى المتمرد الذى يعود إلى الطبيعة والبراءة يعود فى واقع الأمر إلى «رب البرية المليئة بالأسرار، رب الرجال الذين غزوا أرض كنعان العاصفة». فى هذا البيت الأخير، لا نسمع حفيف أجنحة الطيور ولا نرى العاصفة تتجمع لتطهر الأرض من الأوراق وإنما نسمع فى الواقع صليل السيوف التى ذبحت الأبرياء فى دير ياسين وقانا وجنين.

وفكرة العمل العبرى، وهى فكرة محورية فى الفكر الصهيونى، فكرة رومانسية حتى النخاع، إذ تحت هذا الشعار يطلب من اليهودى أن يعود إلى أحضان الطبيعة فى بلاده الأصلية، فيعيش ببساطة ويعمل بيديه، وهو حين يعمل بيديه (عملاً عبريا) فإنه سيعيد صياغة أرضه، وصياغة نفسه، ومن هذه العملية سيولد الإنسان العبرى الجديد (الذى لا يختلف عن الإنسان الطبيعى الذى بشر به الرومانسيون منذ روسو حتى الآن). ولكن ما تغيبه هذه الدعوة الرومانسية الرقيقة أن العمل العبرى يعنى طرد العرب من الأرض التى يفلحونها وإقصاءهم عن أى أرض يمتلكها اليهود. وقد قام المستوطنون من الصهاينة الذين كانوا يسمون أنفسهم «الاشتراكيين» بتنظيم لإضرابات ضد أى مستوطن يهودى يسمح للعرب بالعمل فى مستوطنته. إن صورة العودة الرومانسية المجازية تحولت إلى برنامج لاغتصاب الأرض وطرد سكانها، بعد أن صفيت الصورة من مضمونها الثورى ومن صفتها المجازية وحملت مضموناً حرفياً رجعياً (وهذه سمة أساسية فى الفكر الصهيونى، فكل الصور المجازية «الدينية» مثل فكرة «العودة إلى صهيون» تفسر بشكل حرفى حتى يمكن تحويلها



هل الصهيونية حركة رومانسية

إلى برنامج سياسى. وبدلاً من حب صهيون الدينى التقليدى الذى لا يختلف فى جوهره عن حب المسلم لمكة أو المدينة، يتحول هذا الحب إلى ارتباط «عرقى» وقومى وحتمى بفلسطين. الأمر الذى يبرر غزوها والاستيلاء عليها، وليس مجرد السكنى فيها بشكل مؤقت للتعبد والتبرك).

والفكر الصهيونى فكر يمجد العاطفة ويرفض الفكر العقلانى الاستنارى الذى كان يدعو إلى اندماج اليهود فى المجتمعات التى يعيشون فيها، والذى كان ينظر إلى اليهود باعتبارهم أقلية دينية أو إثنية مثل أى أقلية أخرى تعانى من الاضطهاد، ولكنها يمكنها أن تحصل على حقوقها عن طريق الكفاح من أجل تحقيق مزيد من العدالة الاجتماعية. والمفكر الصهيونى موسى هس يرى أن عودته لشعبه هى عودة للعاطفة وهرب من عالم العقل البارد: «لقد تبين لى أن العاطفة التى ظننت أنى فقدتها عادت إلى الحياة من جديد. هذه العاطفة نصف المخنوقة تتأرجح فى صدرى محاولة التعبير عن نفسها». هذه العاطفة «خير رادع للعقلانية الهدامة» وهى كيان صوفى غامض لا يمكن تصنيفه، إنها «التفكير فى وطنيتى التى ترتبط بتراث أسلافى وبالأرض المقدسة وبالمدينة الخالدة». وهكذا تصبح العاطفة أساساً لكل الأفكار الصهيونية التى لا يمكن أن يخضعها المرء للحوار العقلانى الرشيد. فحق اليهود فى العودة إلى فلسطين، على سبيل المثال، هو حق مطلق لا يمكن مناقشته وهو يجبُّ حق الفلسطينيين العودة إلى ديارهم.

والفكر الصهيونى، انطلاقا من لاعقلانيته، يرفض النظر إلى التاريخ المتعين ويفرض أسطورته الخيالية على الواقع. وقد صور برديشفسكى الأمة اليهودية فى نشأتها على أنها جماعة محاربة من الرعاة الوثنيين الغزاة، أى أنه يلى تاريخ يهود العالم وتاريخ العقيدة اليهودية ويعود بخياله إلى الأيام التى كانت فيها «رايات اليهود مرتفعة» وكانت الأرض عامرة «بالأبطال المحاربين». فى هذا الإطار تصبح فلسطين - بشعبها وتراثها وتاريخها وحضارتها التى امتدت آلاف السنين- أرضاً بلا شعب، أما الجماعات اليهودية المنتشرة فى كل أنحاء العالم، بكل ثرائها وعدم تجانسها وتنوعها، فهى تصبح «شعباً بلا أرض»، أى شعباً بلا تاريخ، يشكل وجوده فى المنفى انحرافاً عن التاريخ اليهودى الحقيقى.

أما موضوع الفرادة والفردية فإنه موضوع أساسى فى الفكر الصهيونى، وهو ولا شك مرتبط بفكرة المطلق. فالمطلق الصهيونى الذاتى، فريد قاصر على الصهاينة. وهم يتحدثون دائما عن التجربة التاريخية اليهودية باعتبارها تجربة فريدة لا يمكن أن يشارك فيها غير اليهود، بل لا يمكن أن يدركها غيرهم. ومن مظاهر فرادة التاريخ اليهودى أنه لا يمكن أن يستمر فى مساره الحقيقى خارج فلسطين، لذا، لابد من العودة إلى هذا المطلق أى الأرض المقدسة. ويفسر بعض الصهاينة معاداة السامية (أى معاداة اليهود واليهودية) على أنها رد فعل لفرادة اليهود (الميتافيزيقية أو الاجتماعية) لأن الكيان اليهودى الفريد يثير حفيظة الآخرين من الأغيار، ولذا يجب أن تكون لليهود دولتهم الفريدة التى يمارسون فيها فرادتهم بشكل فريد.

الفكر الصهيونى تفكير عضوى عنصرى متطرف. فالتصور الصهيونى لعلاقة اليهودى بأرضه تصور عضوى حتمى. فاليهودى تربطه رابطة عضوية حتمية بوطنه القومى، رابطة لا تنفصم عراها

والعقل البشرى المبدع الخلاق يتحول فى رؤية الصهاينة إلى العقل اليهودى الخلاق، القادر على إعادة صياغة الواقع، فالحديث عن الصحراء التى اخضوضرت والمستنقعات التى جففت هو حديث عن هذا العقل (وكأن الفلاحين الفلسطينيين لم يكونوا من أكثر شعوب الأرض إنتاجية وحرصا على أرضهم).

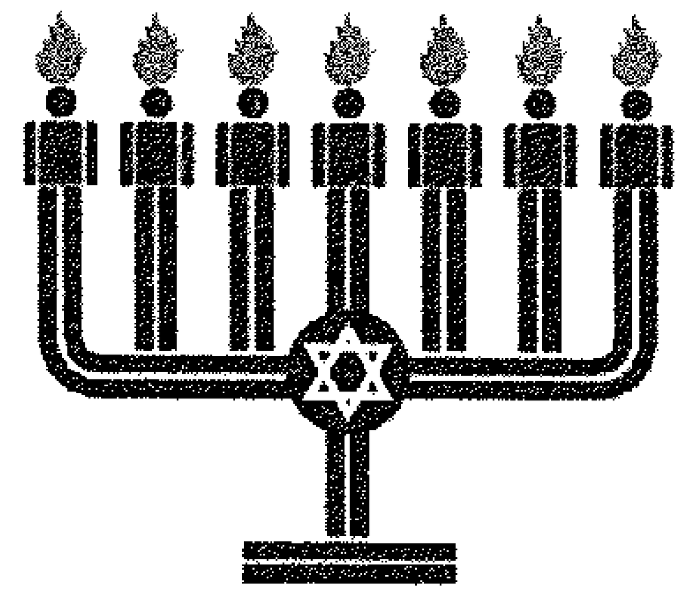
ومن الأفكار الأساسية الأخرى فى الفكر الرومانسى، (وفى الفكر الغربى خاصة منذ أواخر القرن الثامن عشر) فكرة الوحدة العضوية بين كل الأشياء والظواهر، التى أفرزت فكرة «الشعب العضوى» الفولك ein volk على حد قول هرتزل. والشعب العضوى هو الشعب الذى يترابط أعضاؤه ترابط الأجزاء فى الكائن العضوى الواحد والذى تربطه رابطة عضوية حتمية بأرضه وتراثه. ويشار إلى الفكر القومى، الذى يصدر عن مفهوم الشعب باعتباره الفولك أو الكيان العضوى المتماسك، بعبارة «الفكر القومى العضوى»، ويقال له أيضاً «القومية العضوية». والشعب العضوى مكتف بذاته ومرجعية ذاته، مقدس ومطلق، تنبع قداسته ومطلقيته من داخله، فهو موضوع الحلول والكمون، ورابطته العضوية بأرضه رابطة عضوية حتمية، يخضع لها أعضاء هذا الشعب، شاءوا أم أبوا.

وهذه الفكرة المحورية هى أيضاً فكرة أساسية فى التفكير (المحافظ والرجعى) الغربى. فالفكر الرجعى الغربى يرى أن أفراد المجتمع الواحد لا يدخلون فى علاقات إنسانية مركبة مبنية على التراضى (أو العقد) الاجتماعى، وإنما يدخلون أساساً فى علاقات عضوية تتخطى الإرادات والاختيارات الفردية. وبحسب هذه الرؤية، يصبح مواطنو أى دولة مجرد تعبير عن إرادة هذه الدولة وعن روح القومية التى ينتمون إليها. ومن الواضح أن التفكير العضوى ينكر فكرة التعددية والتدافع وحرية الإرادة أو ينظر لهذه المفاهيم على أنها فكرة هامشية. كما أن هذا التفكير ينحو نحو الإطلاق لأن الكيان العضوى كيان مكتف بذاته، تماماً مثل الزهرة التى لا تشير إلى شىء خارجها. والفكر النازى هو الآخر فكر عضوى يرى الأمة باعتبارها كياناً عضوياً له مجاله الحيوى الذى يحق لها وحدها أن تعيش فيه مستبعدة كل العناصر الأخرى.

والفكر الصهيونى تفكير عضوى عنصرى متطرف، فالتصور الصهيونى لعلاقة اليهودى بأرضه تصور عضوى حتمى. فاليهودى تربطه رابطة عضوية حتمية بوطنه القومى، رابطة لا تنفصم عراها. ولذا فاليهودى الذى يعيش خارج أرض الميعاد يعيش منفياً «منقسماً على نفسه، موزع الولاء، ممزقاً»، كما يقول بن جوريون. فحالة الكمال والتكامل العضوية التى تسم الكائن العضوى لا تتم إلا بعد العودة. وقد وصف ج.ل. هاكوهين فيشمان، أول وزير للشئون الدينية فى

إسرائيل، صلة اليهودى بأرضه بأنها صلة «مباشرة، سماوية وأبدية» لا تشبه صلة الأغيار بها، فهذه الأخيرة صلة «سياسية وعلمانية وخارجية وعرضية ومؤقتة» (والعلاقة العضوية تتسم دائماً بأنها علاقة داخلية ضرورية وصوفية لأنها تستعصى على الفهم التجريبى العادى). وتبين كلمات الفيلسوف أهارون جوردون أن المصطلح العضوى يختلط بالمصطلح الصوفى داخل عقله الصهيونى حين يقول: «جئت إلى الأرض فى منامى، فرأيتها جرداء ومقفرة، وقد أعطيت للغرباء، فحاق بها الدمار وشاع فيها فساد الحكم الأجنبى. والصلة الوحيدة التى تربط روحى بها وتذكرنى بأننى ولدها وبأنها أمى، هى أن روحى مقفرة مثل روحها». إن علاقة اليهودى بالأرض مثل علاقة الابن بأمه، ومن هنا التماثل بينهما. وكل هذه الشواهد تشير إلى أن العلاقة بينهما عضوية وأنهما ينتميان إلى الكل اليهودى المطلق نفسه. وهذا ما يسمى فى الفكر الغربى «الشعب العضوى».

ويرتبط بهذا المفهوم مفهوم آخر وهو «الشعب العضوى المنبوذ» pariah volk وهو مصطلح نستخدمه لنصف موقف الحضارة الغربية من أعضاء الجماعات اليهودية. فالجماعات اليهودية كانت تشكل فى معظم الأحيان جماعة وظيفية متماسكة عضوياً (مكتفية بذاتها) ولكنها فقدت وظيفتها فتم نبذها، فأصبحت شعباً عضوياً منبوذاً. وهذا المفهوم يشكل حجر الزاوية فى التفاهم بين الصهاينة وأعداء اليهود، فهم جميعاً يرون أن اليهود شعبٌ عضوىٌ واحد، لا ينتمى إلى الغرب أو إلى أى وطن لأنه يرتبط عضوياً بإرتس يسرائيل. والشعب يجب أن ينقل إليها إما بالقوة (كما يقول العنصريون من أعداء السامية، أى أعداء اليهود واليهودية) أو بطريقة منهجية سلمية (كما يقول الصهاينة). فالاختلاف بينهما ليس فى الرؤية وإنما فى الاجراءات المطلوبة لتحقيق الرؤية. (ولنلاحظ أن استخدام النموذج التحليلى قد جعلنا نرى العلاقة والتماثل البنيوى بين الصهيونية ومعاداة السامية). ولأن الشعب اليهودى العضوى مرتبط عضوياً بإرتس إسرائيل، فإنه لا يحق للآخر أن يعيش فيها. ولتفسير الشعار الصهيونى «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» فى ضوء الصورة المجازية العضوية، يمكننا أن نقول إنه إذا كانت العلاقة بين الشعب اليهودى والأرض علاقة عضوية مطلقة فإن علاقة الأغيار بهذه الأرض علاقة عارضة وتصبح الأرض وكأنها لا شعب عليها، لأن الشعب الوحيد الذى ينتمى لهذه الأرض والذى يرتبط بها برباط عضوى هو الفولك اليهودى أو الشعب العضوى اليهودى. لذا يمكن ترجمة الشعار إلى ما يلى: «أرض (شعب عضوى تربطه علاقة عضوية بها) بلا شعب (لأن السكان الأصليين لا تربطهم أى علاقة عضوية بها)، لشعب (عضوى) بلا أرض (فعلى



هل الصهيونية حركة رومانسية

رغم أنه أعضاء هذا الشعب يعيشون فى أوطانهم مثل الولايات المتحدة، إلا أنهم لا تربطهم أى رابطة عضوية بهذا الوطن)». وكما هو واضح، فإن الدائرية اللفظية للشعار هى انعكاس لتماسك الرؤية ودائريتها العضوية.

النيتشويه والصهيونية

من أهم أهم تبديات الفكر الرومانسى الرؤية الداروينية. فهى رؤية تطالب أيضاً بالعودة للطبيعة وباتخاذها معياراً وحيداً يحكم به الإنسان على كل النظم الأخلاقية والمعرفية. وجوهر المنظومة الداروينية أن العالم فى حالة تغير مستمر وتطور إلى الأرقى، وأن آلية التغير هى الصراع، وهو صراع يحسم لصالح الأقوى، ولذا فإن البقاء ليس دائماً للأصلح أخلاقياً وإنما للأقوى مادياً.

والفكر الصهيونى، مثله مثل الفكر النازى، ترجمة للرؤية الداروينية، فالصهاينة قاموا بغزو فلسطين باسم حقوقهم اليهودية المطلقة التى تجب حقوق الآخرين، كما أنهم جاءوا إلى فلسطين ممثلين للحضارة الأوربية يحملون عبء الرجل الأبيض وأسلحته المتطورة الفتاكة. وهم، نظراً لقوتهم العسكرية، يملكون مقدرة أعلى على البقاء. أى أنهم جاءوا من الغرب مسلحين بمدفعية أيديولوجية وعسكرية داروينية علمانية ثقيلة، وقاموا بتسوية الأمور من خلال الموقع الداروينى فذبحوا الفلسطينيين وهدموا قراهم واستولوا على أراضيهم، وهى أمور شرعية تماماً من منظور داروينى علمانى، بل وواجبة.

والنيتشوية هى الأخرى أحد التبديات المتطرفة والمتبلورة للرؤية الرومانسية، أو فلنقل إنها رومانسية عصر الإمبريالية والعنصرية، وهى الفلسفة الفردية والعدمية الغربية التى تعبر خير تعبير عن الأوضاع الحضارية والاقتصادية للمجتمع الغربى فى ذروة الثورة الرأسمالية والتوسع الإمبريالى. ويمكن أن نرى خطاً مستمراً من ميكافللى وهوبز والفلاسفة الماديين والنفعيين إلى أن نصل إلى نيتشه الذى عزف معزوفة العدمية على اعتبارها النتيجة الحتمية للفلسفة المادية. ويمكن القول إن النيتشوية هى التعبير الفلسفى عن الرؤية الداروينية. ولذا فإننا بدلاً من التعامل مع الداروينية والصهيونية سنكتفى بالحديث عن النيتشوية والصهيونية.

وقد تأثر كثير من المفكرين الصهاينة بفكر نيتشه بشكل مباشر كما هو الحال مع برديشفسكى ومارتن بوبر وآحاد هعام. كما تأثر العديد منهم بهذا الفكر بشكل غير مباشر عن طريق تشرب الموضوعات الرومانتيكية النيتشوية المختلفة التى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من نظرة الإنسان الغربى للكون فى هذه الفترة.

ويمكن أن نوجز نقاط التماثل أو التشابه البنيوى بين النيتشويه والصهيونية فيما يلى:

١- النيتشوية، مثلها مثل الصهيونية، ديانة علمانية ملحدة أو حلولية بدون إله، تعلن موت الإله («نعم لقد مات الإله وماتت الآلهة جميعاً»)، هى وحدة وجود مادية ترد الكون بأسره إلى مبدأ زمنى واحد هو إرادة القوة. وتتبدى إرادة القوة هذه عند نيتشه فى الإنسان الأعلى (السوبرمان)، أما فى الإطار الصهيونى فهى إرادة القوة اليهودية فهى وحدها التى تحقق بقاء الشعب اليهودى.

٢- النيتشوية، مثلها مثل الصهيونية، تعبير عن توثّن الذات حينما يحل المطلق فى الإنسان ويصبح كامناً فيه، فيعبد الإنسان ذاته أو يعبد أسلافه، أى الذات القومية المقدسة، باعتبارها تجسيداً لذاته. وإذا كانت الحلولية عند الرومانتيكيين محاولة لتجاوز السطح المادى واستعادة القداسة للعالم وللإنسان، فهى فى الإطار الصهيونى تخلع القداسة عن الشعب اليهودى والأرض اليهودية.

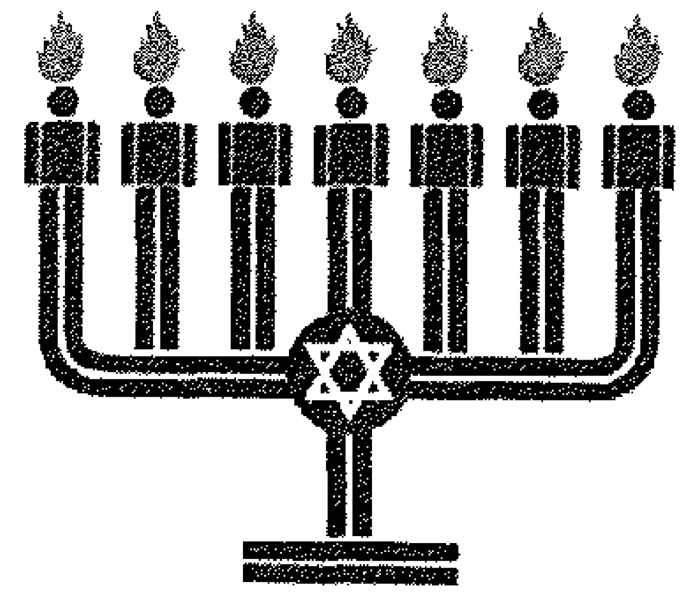
٣.النيتشوية، مثلها مثل الصهيونية، ديانة داروينية تسبغ نوعاً من الروحية والقداسة على قانون التطور وعلى حيوية الطبيعة، وتجعل من القوة الأساس الوحيد لأى نسق أخلاقى («القوة إذن هى الفضيلة السامية، والضعف هو النقيض فى الشر. الخير هو الذى يستطيع أن يحيا ويظفر، أما الشر فهو ما يخور ويهوى، هذه هى النتيجة اللازمة لمبدأ تفانى البقاء») وهو ما يُطلَق عليه فى المصطلح السياسى الإسرائيلى والغربى «فرض سياسة الأمر الواقع» و«خلق حقائق جديدة». كما أن فكرة الطبيعة التى تمور بالحياة، والحياة التى تتسم بالدينامية فكرة أساسية فى الكتابات الصهيونية.

٤.الحياة، بالنسبة للنيتشوية، توسُّع ونمو واستيلاء على الآخر وهزيمة له، وتمجيد لأخلاق السادة الأقوياء، وهذا هو جوهر الصهيونية التى لا يمكنها أن تعيش إلا على التوسع وعلى إلغاء الآخر. والآخر هو، أولاً، الفلسطينيون الذين يجب أن يختفوا من على وجه الأرض، ثم يهود الدياسبورا الذين يعملون بالأعمال الفكرية ويؤمنون بأخلاق الضعفاء والعبيد.

٥. وإذا كان نيتشه قد دعا الإنسان إلى أن يعود لحالة الحيوية والطبيعة المقدسة والتلقائية، ويكون كالحيوان المفترس الأشقر، وينبذ العقائد الدينية وأخلاق الضعفاء، فقد طرحت الصهيونية نفسها باعتبارها الأيديولوجية التى ستحول يهود المنفى الطفيليين الهامشيين المترهلين الذين يؤمنون بأخلاق الضعفاء إلى وحوش مفتولة العضلات تؤمن بأخلاق القوة وتحسم كل القضايا بالعنف اللاعقلانى المنفصل عن القيمة.

وهذه التلقائية والعودة إلى الفعل المطلق الذى لا تحده أى حدود إنسانية عقلانية أخلاقية يتضح فى محاولة الصهاينة إحياء تقاليد العنف الجسدى بين اليهود بعد أن أضعفته -فى تصورهم- سنوات طويلة من النفى. وقد رفض بيرديشفسكى التاريخ اليهودى الذى يسيطر عليه الحاخامات والمفكرون اليهود، ونادى بتفضيل الفعل على الفكر،

الفكر الصهيونى، مثله مثل الفكر النازى، ترجمة للرؤية الداروينية، فالصهاينة قاموا بغزو فلسطين باسم حقوقهم اليهودية المطلقة التى تجب حقوق الآخرين



هل الصهيونية حركة رومانسية

والسيف على الكتاب: «الكتاب ليس أكثر من ظل للحياة، هو الحياة في شيخوختها... السيف ليس شيئاً مجرداً يقف بعيداً عن الحياة. إنه تجسيد للحياة في أعرض خطوطها... وهو تجسيد جوهري ومحسوس يشبه الحياة إلى حد كبير». ولذلك أعاد الصهاينة كتابة التاريخ اليهودي، فركزوا على النقاط التي تجلى فيها العنف اليهودي الغريزي، مثل ثورة المكابيين أو حادثة ماسادا أو بطولات شاؤول وداود التوراتيين.

٦- الإنسان التلقائي الغريزي الديونيزي يفضل أن يعيش في خطر، وهذا بالضبط ما حققته الصهيونية للمستوطنين اليهود - خيامهم لم تضرب بجوار البركان وإنما في فوهته. وإذا كان «السيف مثل التوراة هما زينة الإنسان» كما يقول الحاخام أليعازر (وإذا كان السيف مثل التوراة تماماً «قد أنزلا علينا من السماء» كما جاء في خطاب لجابوتنسكي ألقاه على بعض الطلاب اليهود في فيينا) فإن كل شيء يصبح مرتكزاً عليه. ولذا فإن الإنسان النيتشوي الصهيوني يقف حاملاً سيفه دائماً. «هذا هو قدر جيلنا، وخيار حياتنا.. (إن) سقط السيف من قبضتنا، نزعت منا حياتنا» (كما قال ديان في جنازة أحد أصدقائه الذي قتله الفدائيون الفلسطينيون). إن الحياة الصهيونية هي «حياة في خطر»، ولذا فإن الفلاح لابد وأن يكون محارباً، والصانع لابد وأن يكون مقاتلاً، وكل المؤسسات لابد وأن تكتسب طابعاً عسكرياً. بل إن الافتراض القائم في إسرائيل هو أن حالة الحرب ضرورة حضارية حتى يمكن صياغة الأمة اليهودية الجديدة وصياغة الإنسان الإسرائيلي. والوضع نفسه أمر ضروري بالنسبة ليهود العالم خارج فلسطين، فهم أيضاً لابد أن يعيشوا في خطر دائم وإلا ابتلعهم الأغيار ووقعوا ضحايا الاندماج.

هذه هي بعض مواطن التماثل والتشابه البنيوي بين الفكرين الرومانسي والصهيوني. ولكن رغم هذا التماثل، ثمة نقط اختلاف بينهما أساسية وجوهرية. فبينما كان الرومانسيون يتحدثون عن الإنسانية جمعاء، عن إنسانيتنا المشتركة، كان الصهاينة يتحدثون عن الإنسان اليهودي. ولذا فبينما نجد أن علاقة الإنسان بالمطلق في المنظور الرومانسي هي علامة على إمكانية الإنسان أن يتجاوز عالم المادة وتأكيد إنسانيته، جعل الصهاينة المطلق مقصوراً على اليهود (وهذا امتداد للعناصر الحلولية الوثنية داخل العقيدة اليهودية التي تجعل من الإله إلهاً قومياً، إلهاً لليهود وحدهم). وبينما نجد أن التفرد من منظور رومانسي، والمقدرة على تجاوز السطح وصولاً إلى الأعماق، خاصية إنسانية، نجد أن الصهاينة جعلوها مقصورة على اليهود (ومن هنا يأتي حديثهم عن الشعب المختار وحقوقهم المطلقة التي تجبُّ حقوق الآخر)، تماما مثلما فعل النازيون إذ جعلوا نفس المقولات مقصورة على الألمان، ومن هنا كان حديثهم عن «ألمانيا فوق الجميع». وكلا الفريقين لا يختلف عن الإمبريالية الغربية التي جعلت المطلق غربياً، ومن هنا يأتي الحديث عن «عبء الرجل الأبيض» و«رسالته الحضارية»، وعن التقدم الحتمي والمستمر الذي يصل إلى ذروته في الحضارة الغربية. ومن هنا كذلك يأتي الحديث الإمبريالي عن «حق» الإنسان الغربي في غزو العالم، أي أن المطلق الذي كان أداة في تأكيد تركيبية الإنسان تحول إلى أسطورة جامدة تختزل الإنسان وتستخدم كأداة لسحق الآخر. (وهكذا من خلال النموذج التحليلي أمكننا أن نربط بين الصهيونية من جهة والنازية والإمبريالية من جهة أخرى).

وفي النهاية يمكننا القول إن السياق الأساسي للحركة الصهيونية هو الحضارة الغربية في القرن التاسع عشر والتشكيل الإمبريالي الغربي (والرومانسية كانت أحد روافد هذه الحضارة وكانت الفكر المهيمن آنذاك). أما الدين اليهودي فهو -في تصوري- لم يكن سوى مصدر لديباجات الصهيونية واعتذارياتها. وأما ما يسمى «التاريخ اليهودي» فهو شيء لا وجود له إلا في الكتب الصهيونية وكذلك في الكتب المعادية لليهود واليهودية -أو في كتابات بعض العرب الذين يرددون المفاهيم الغربية والصهيونية دون فحص أو تدقيق. ولعل أكبر دليل على أن الصهيونية ظاهرة غربية استعمارية، وليست ظاهرة يهودية عالمية، أنها لم تنشأ في صفوف اليهود العرب أو يهود إثيوبيا (على سبيل المثال)، كما أنها لم تنشأ في صفوف يهود الغرب إلا في القرن التاسع عشر، عصر الرومانسية والإمبريالية والعنصرية والتوسع.

ويمكننا أن نخلص إلى بعض النتائج ذات الطابع المنهجي والتي تنصب على طريقة التفكير والتحليل:

يجب أن نفصل وبحدة، على مستوى التحليل، بين الوصف والتقييم، فالوصف يتطلب نوعاً من التجرد من القيم ورفضاً لمحاكمة الأشياء والظواهر من أي منظور أخلاقي أو فلسفي، كما يتطلب الرؤية الدقيقة التي تحاول أن تصل إلى القوانين الخاصة التي تتحكم في الشيء والتي نطلق عليها منطق الظاهرة. ولذا فإنني أؤكد أنني لم أقرن الرومانسية بالصهيونية وأعادل بينهما في دراستي أو أنني توصلت إلى أن الرومانسية قد تسببت، بشكل أو آخر، في ظهور الصهيونية. أو أنني أشرت من طرف خفي إلى أننا يجب أن نقبل الصهيونية لأنها رومانسية، أو نرفض الرومانسية لأنها مقترنة بالصهيونية. كل ما قلته وهو أنني من خلال التحليل المتعمق والتصنيف الدقيق للنصوص الأدبية والوثائق التاريخية والفلسفية والاجتماعية وحركة التاريخ نفسها، وهما تحليل وتصنيف يتجاوزان المضمون الواضح والمباشر وصولاً إلى النموذج المعرفي الكامن في كل من الصهيونية والرومانسية، وهو نموذج يتخطى كلا من المضمون والشكل بالمعنى السطحي، ليصل إلى النقطة التي يكاد يصبح فيها المضمون شكلاً والشكل مضموناً. أقول أنني من خلال المنهج التحليلي التفسيري توصلت إلى أن ثمة تماثلاً وتشابهاً بين النموذج الكامن في كل من الصهيونية والرومانسية رغم الاختلاف الظاهري الواضح بينهما. وهو تماثل وتشابه متوقع باعتبار أن الرومانسية كانت تشكل أهم عناصر السياق العام للفكر الغربي في القرن التاسع عشر، والصهيونية هي إحدى الإفرازات العنصرية لهذا الفكر.

وفي تصوري أن إحدى مشاكل الفكر العربي أنه لا يزال فكراً مضمونياً، أي يتعامل مع المضامين المباشرة ولا يصل إلى العلاقات الكامنة، أو إلى النموذج الكامن. ويتسم التفكير المضموني الذي ينطلق من الموضوعية المتلقية أنه لصيق بالواقع لا يحاول تجاوزه يدور في فضاء التفاصيل والجزئيات، ولذلك نجد أن النظم التصنيفية ذات الطابع المضموني ليست جيدة ولا مفيدة. فالتفكير المضموني يبدأ عادة من الشواهد الملموسة والقرائن الجزئية، أي من مكونات أو عناصر المضمون المختلفة، ولذا فهو يظل حبيس هذا المضمون وحبيس الأجزاء، لا يمكنه أن يصل إلى الكل إلا بصعوبة بالغة، وحين يصل إلى هناك يصعب عليه أن يربط بين هذا الكل وكليات أكثر تجريداً لأن عيونه مستقرة دائماً على الشواهد والقرائن والاستشهادات الجزئية المتناثرة الملموسة. ولذلك فمثل هذا التفكير لا يمكنه أن يأتي بأطروحات جديدة خلاقة، ويمثل حجر عثرة في طريق الإبداع، فالإبداع هو أساساً اكتشاف علاقات جديدة بين الأشياء. بل إن الهوية الحقيقية لأي شيء لا توجد فيه في حد ذاته أو في عناصره المختلفة وإنما توجد داخل شبكة مركبة من العلاقات بين هذه العناصر لا يمكن التوصل لها إلا من خلال النماذج التحليلية.

ولكن بعد مرحلة الوصف والتصنيف والتعميم والتوصل إلى النموذج الإدراكي والمعرفي وتحويله إلى نموذج تحليلي، يمكننا بعد ذلك إطلاق الأحكام القيمية، وحينما نفعل ذلك يجب أن نكون واعين بما نفعل وبأن التقييم يختلف عن الوصف. كما يجب أن نكون مدركين لنسق القيم الذي ننطلق منه والفلسفة التي نصدر عنها، وأن نعرف أن الحكم القيمي هو في نهاية الأمر حكم يحوي داخله شرعيته، فإن كنت تحكم على الظاهرة من منظور إسلامي فأنت تفعل ذلك لأنك مؤمن بالإسلام، وبالتالي فمنطق الحكم (الذاتي) مختلف عن منطق الأشياء والظواهر (الموضوعي أي الذي يقع خارج الذات).

والله أعلم.

النيتشوية، مثلها مثل الصهيونية، ديانة علمانية ملحدة أو حلولية بدون إله. تعلن موت الإله «نعم لقد مات الإله وماتت الآلهة جميعاً»، هي وحدة وجود مادية ترد الكون بأسره إلى مبدأ زمني واحد هو إرادة القوة

ثـــورة

وليــــم.هـ. ماكنيــــــل

بدأ الكتاب بمقدمة وصفية تصور بإيجاز أربعا من الثورات التى حدثت منذ عام ١٥٠٠ ميلادية حتى الآن وهو التاريخ الممتد نفسه الذى اختاره ماكس بوت كى يتألف منه كتابه. وبالتالى انتهى الكتاب بحديث مبهم عن أسماء الأسلحة العسكرية التى لاتزال قيد الاستخدام مما فتح المجال للشك الدائر حول الثورات العسكرية المستقبلية : خاصة مع مدى الخطورة التى تنتج عبر الكثير والقليل من المتغيرات التى بينها بوت وحملها قدراً من الأسباب المقنعة التى تدعو للحديث عن التغيرات الفعلية التى حدثت فى التكنولوجيا و الإدارة العسكرية اللتين أثرتا فى التاريخ الأوروبى والعالمى.

كما أوضح بوت ذلك بالأمثلة والصور عبر ثلاث معارك وإن أردنا الدقة عبر حملات عسكرية محددة: أولى تلك الحملات «ثورة البارود» التى بدأت - حقيقة- فى الصين لكن ماكس بوت لم يُنوه لهذا الأمر، بل لم يناقشه، واستبدل ذلك بالتركيز على أوروبا عندما قال: بدأت «ثورة البارود» فى حدود عام ١٢٦٧ لكن تواجدها لم يلق أهمية كبرى واستمر هامشياً حتى عام ١٤٩٤ عندما زحف الجيش الفرنسى إلى إيطاليا، ومن ثم حاصرها وكانت بحوزتهم الأسلحة التى أثارت الهلع لبضع ساعات مرت مرعبة من هول القصف، مما أدى إلى الانسحاب دون مكسب يُذكر، كذلك خلف ذلك انتشار مرض الزهرى الذى عُدّ حدثاً جديداً آنذاك مما دعا إلى التراجع ثم الانسحاب.

أسهب ماكس بوت فى شرح واقع «ثورة البارود» كى يصور أولاً كيف أن الأسطول الإسبانى[1] قد هزم بوساطة الأسلحة الحديثة، فضلاً عن الوسائل العسكرية التى استخدمها الأسطول الإنجليزى عام ١٥٨٨ وكيف أن الجنود السويديين قد جنوا بصعوبة انتصاراً أثناء ثلاثين عاماً من الحروب فى ألمانيا فى برتين فيلد ولوتزن (١٦٣١-١٦٣٢). وقد كانت حسابات هذه المعارك ظاهرة ومحددة على نحو جدير بالإعجاب. ومن ثم، بات ذلك مألوفاً عند القراءة، كما عرضه بوت بشكل يوحى بفهم عميق. لكن يمكن أن يتعرض بوت لانتقاد أحد قرائه لأنه قد تغافل. مطلقاً. عن ذكر هدف الشخص الذى خطط وحارب بما يكشف تغطرس وادعاء من قرر أن معتقدات أولئك المخططين الدينية وآمالهم ومخاوفهم لم يكن لها أدنى علاقة بما حدث.

لقد تعلمت الكثير مما سرده ماكس بوت عن معركة «أساى» فى الهند والتى حدثت فى عام ١٨٠٣ وقد شملها الجزء الأول من كتابه، وقد استخدمها للكشف عن كيف أن «ثورة البارود» قد أضحت السبب الأمثل فى الهوة السحيقة بين أوروبا وآسيا عندما كان قائد المعركة السير آرثر وليسلى (الذى صار فيما بعد دوق ولنجتون) وقد قاد الجماعة البريطانية فى الهند الشرقية فضلاً عن القوات المسلحة التى تضمنت السباهى[2].

كانت سمعة آرثر وليسلى الحربية الحسنة قائمة على هزيمة القوة الهائلة للماراثاو[3]، وكان وليسلى لا يزال شاباً، لذا فقد اتسم سلوكه بالتهور والطيش والجرأة، لكن رجع الصدى للفوز سببه تفوق جنوده وإصرارهم على ضبط النفس. كما كانت معركة: «أساى» حسب وصف ماكس بوت «واحدة من أكثر المعارك تشابكاً ودموية من بين المعارك التى خاضها دوق ولنجتون» (أيضاً كانت معركة واترلو على الجانب الآخر) ومن ثم ظل يفتخر بذلك على مدار حياته. وفى النهاية، أثمر ذلك توسعاً ضخماً لسيطرة الإدارة البريطانية على مقاطعات عدة فى الهند. كما كان ذلك مؤشراً إلى نهاية المنافسة العسكرية بين جماعة الهند الشرقية والحُكّام الهنود الأصليين.

أكاد أزعم أن تأسيس السيادة العسكرية البريطانية فى الهند قد تحقق بعد الانتصار المُبكر لروبرت كلايف فى «بلاسى» فى عام ١٧٥٧ . لم يذكر بوت معركة بلاسى، لكن هدفه من ذكر معركة «آساى» أوضح أن انتصار كلايف السهل على الهنود الذين فاقوا جنوده عددا لم يكن خداعاً للحكّام الهنود وخصوصا مجموعة زعماء «ماراثا» فى غرب الهند الذين انبروا للدفاع عن «بلاسى» بصورة منهجية منظمة فى محاولة لتقليد الأوروبيين فى أسلحتهم وتدريبهم على أمل فى هزيمة البيض الدخلاء.

كان شراء الأسلحة الأوروبية متوفراً بسهولة وكذلك خبراء التدريب عليها يتضمنهم بضعة بريطانيين، وفى أقل من نصف قرن كان الـ «ماراثا» قادرين على إفراز جنود للمشاة ووحدات للمدفعية يتساوون مع عدد الجنود الهنود- المكرسين للخدمة البريطانية- من حيث التفوق والمهارة: لذلك كانت معركة «آساى» دامية جداً وقتالها عنيفًا والمُحصلة من الجنود لم تكن تعتمد على الهروب بالمقاييس الحربية او الخيانة كما حدث فى معركة «بلاسى».

واستمرت جيوش الـ«ماراثا» تعانى من بعض مواطن الضعف-كما أوضح بوت- مثل احتياجهم إلى قائد متفرد مثل أرثر وليسلى الذى يخضع الكل لأوامره. وذلك لأن زعماء الـ«ماراثا»، كانت تصرفاتهم تحمل أغراضاً متقاطعة فى المعركة، مما أدى إلى منفعة أعدائهم. علاوة على ذلك، إفتقارهم -فعلياً- إلى أبسط الخدمات كما أن معظم جنودهم لم يتسلموا راتبهم بانتظام. بينما كانت المشكلة الحقيقية تتمثل فى إعاقة[4] جيوش الـ«ماراثا» واحتياجها إلى ضباط وجيوش لهم طريقة حديثة فى القتال لتتغلب على القوة العسكرية الغربية الهائلة . ولتحويل واجهة جُل القوة العسكرية إلى الغربيين أو حتى إلى الهنود المتعلمين الغربيين يعنى ذلك ان يتخلوا عن سلطتهم الخاصة المُطلقة والتى لم يكن ليتنازل عنها رؤساء الـ«ماراثا» نهائياً.

عامة، إذا أردت أن تحارب مثل الأوروبيين فعليك أن تكون«أوروبياً» بمعنى أنه لا بُدّ أنْ تتبنى على الأقل بعضاً مِنْ الديناميةِ، وحب الاستطلاع الثقافى، والعقلانية، فضلاً عن الكفاءة التى اختص بها الغرب منذ حلول «عصر البارود». منذ أن كان العقيد بلامبس متفوقاً دائماً على الجميع وعادة ما تغلب على المبتكرين العسكريين، مُجسداً بشكل مبهم للقوات المُسلحة الأوروبية . لكن صعوبة تعادلهما (الأوروبيون وغيرهم) فى المعركة كانَ حقيقة وذلك ما أعطى الأوروبيين لأكثر من قرن قدراً من النجاحات اليسيرة، ومهابة واقعية منقطعة النظير واستثنائية فى القرن التاسع عشر وبداية العشرين .

الحقبة الزمنية التى تناولها بوت تجسد طرفاً من المحاباة والميل إلى تصوير التفوق العسكرى الأوروبى فيما بعد عام١٨٠٣ وذلك عبر سرد مقنع صور استسلام الصين للعدوان الأوروبى بعد حرب الأفيون بين أعوام ١٨٣٩و ١٨٤٢ .

بتجاوز التأريخ الذى حدده بوت يظهر تشوه الحقبة الانتقالية بين الثورة العسكرية الأولى (ثورة البارود) وبين «الثورة الصناعية» التى تلتها من حيث التكنولوجيا العسكرية . فالتاريخ يؤكد أن الثورة الصناعية نفسها بدأت فى بريطانيا العظمى مع النهضة الميكانيكية فى صناعة المنسوجات بين أعوام ١٧٣٣و١٧٩٣ ثم امتدت إلى جميع أنواع الصناعات بعدما اخترع جيمس واط آلة بخارية ذات كفاءة عالية فى عام ١٧٧٦ لكن ماكس بوت ادعى أن التطور العسكرى قد تلكأ وذلك حسب قوله:

«فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر، كانت أنظمة القيادة والسيطرة والتموين لا تستطيع أن تواكب النمو المتضخم للجيوش. حيث كانت الاستعدادات لذلك لاتزال بدائية حيث تُسحب الخيول: البنادق والمدافع والذخيرة، كما أن الزى الموحد للجنود لم يزل خاضعا لطريقة الصنع اليدوى من قبل الصنّاع الماهرين: أيضا يتم النداء عليهم بالأبواق، والصيحات، ثم الرسائل التى كانت تصل بعد أن تمتطى ظهور الجواد: أما قادة الجيوش فقد كان لا بد أن يعتمدوا على إطلاق العنان لجواسيسهم كى يتاح لهم فهم ما كان يحدث تحت رماد ساحة المعركة .

استحضر نابليون الأسلوب القديم فى الحرب وذلك فى ذروة حروبه الساحقة: وحينما ارتأى أنه لم يخترع أسلوباً جديداً يرسخ مهارته الحربية، لجأ . على الأغلب. لإذكاء حمية القومية، وبذلك احتدم العصر النابليونى سعياً لإحداث ثورة حقيقية فى الحرب عندما توسع فى إنتاج ما استطاع أن يمكنه من إرساء قاعدة موحدة للتجنيد».

بدأت «ثورة البارود» فى حدود عام ١٢٦٧ لكن تواجدها لم يلق أهمية كُبرى حتى ١٤٩٤ عندما زحف الجيش الفرنسى إلى إيطاليا، وحاصرها بالأسلحة التى أثارت الهلع والرعب

بترتيب مع مجلة
The New York review of books

ترجمة: عفاف عبد المعطى

البـــــارود!

هذا المزج الذى ادعاه ماكس بوت بدأ بحرب القرم بين أعوام ١٨٥٤ و ١٨٥٦، لكن مثل هذا الزعم يتجاهل التطور بعيد المدى الذى حدث فى المدفعية الفرنسية والبريطانية بعد عام ١٧٥٠ بناء على تطور علم المعادن، فاستحدثت آليات جديدة فى السبك، والتجويف، والتسديد، ونقل سلاح المدفعية، وضمها معاً فى أفران فحم الكوك، يضاف إلى ذلك الإدارة المنظمة جداً لمجموع العاملين فى خدمات الذخيرة، كل ذلك زاد من القدرة العسكرية لكل من البلدين بسرعة كبيرة.

علاوة على ذلك، أشار بوت قائلاً: «حدث إذكاء للحمية القومية فى النفوس» وقد تشابك ذلك مع ازدياد حدة الحرب مما يستحق أن يطلق عليه اتجاه ثورى. فضلا عن مزيد من التضافر الجماعى الذى وفره الفرنسى جاكوبينز فى عام ١٧٩٣ عندما عزز اتجاه علمانى جديد يعلن فيه «حقوق الرجل فى الحرية، المساواة، والأخوة». وفقاً لذلك، اتجهت الجيوش الفرنسية لتحمل شرف تحرير الأراضى عندما غزت ألمانيا ودول غرب أوروبا. ومن ثم، فقد رحب البلجيكيون والهولنديون والألمان بذلك بشدة أولا ولكن سرعان ما تحول قبول الفرنسيين لذلك إلى تكبر لإحساسهم بتفوقهم العسكرى. إضافة إلى ذلك، فقد طالب الفرنسيون بمساهمات مادية لدعم الجيوش المحتلة مما أثار الشعور العام ضدهم وهم الكل كى يجابههم، أولاً فى إسبانيا، ثم لاحقاً فى ألمانيا. لذلك، استنهضت الهمة القومية بسرعة وكثافة شديدة ضد الفرنسيين الذى أسقطوا نابليون وإمبراطوريته فى عامى ١٨١٤ - ١٨١٥، لإبعاد مثل هذه الانقلابات بينما تواصل نفس أسلوب الحرب يجعلنى أعاند كثيراً فى تصديق ما حدث.

كان بوت أيضاً يرجئ الإيمان بإنجاز «ثورته الصناعية الأولى» فى الإنتاج العسكرى كى يوضح أن تأثير ذلك بدأ منذ عام ١٨٦٦ فحسب، فيصف موقعة كونجرتز فى بوهيميا والتى حدثت بين بروسيا والنمسا فى عام ١٨٦٦، وكذلك معركة أم درمان فى السودان بين بريطانيا وقوات المهدى فى عام ١٨٩٨، والمعركة البحرية بين اليابان وروسيا فى مضيق تسيشما فى عام ١٩٠٥ . كى يؤكد أن هناك علامة حدود فاصلة معتادة وأن حجته كانت مقنعة واضحة للكل، وبدون مفاجآت. و سعياً وراء مزيد من الاعتراف بفضل الثورة الصناعية الأولى على الحرب يغفل عن التغييرات الحرجة فى الأسلحة التى لم تحدث فى القرن الثامن عشر فحسب، بل أيضاً فى أوائل القرن التاسع عشر، بما شمل القذائف المتفجرة، دفع بخار السفن الحربية الحديدية، فضلا عن نظم مساندة الحملات العسكرية عبر مسافات غير محددة بحراً.

أكثر فقرات كتابه المحملة بالمعانى ظهرت كفكرة هامشية عند مناقشته لأحداث موقعة كونجرتز:

«خلال أيام كونجرتز، كانت كل الجيوش فى أوروبا تسرع لشراء حامل المدفعية الخاص الذى يحمل البنادق، كان الكثير منها أرفع من البندقية إبرية الشكل العتيقة التى ظهرت منذ ثلاثين عاماً. بعد أربع سنوات، عندما دخلت بروسيا الحرب ضد فرنسا، ونتيجة لحمل تلك البنادق شعر جنود مشاتها بمواطن الضعف نتيجة لاستعمال تلك الأسلحة الخفيفة. . . . كما فعل المشاة النمساويون عند شحن البنادق البروسية



في ١٨٦٦. كذلك ذبحت البنادق الفرنسية العامرة مشاة بروسيا في عام ١٨٧٠، وعلى أية حال تغلب على بروسيا شعور بسخرية القدر بما فيه الكفاية، بسبب مدفعيتها بعد أن رأوا أن مدافعهم القديمة ما هي إلا بنادق مصنوعة من خامات رخيصة. مما دعا البروسيون إلى التخلص منها بعد عام ١٨٦٦ وتجهيز أنفسهم بحمولة من المدافع صنعت من الفولاذ المتين زهيد الثمن. كما واصلت فرنسا الاعتماد على حامل المدفعية البرونزية القديمة. ثم إن الأداء الحسن للمدفعية منح بروسيا إحساساً بالقوة في عام ١٨٧٠ بما أجاز لمدفعيتها إبادة الجيش الفرنسي من هدف معين بعيد المدى.

التغيير التقني المفاجئ بات أمرا شائعا في العصر الصناعي بعد أن انخفضت كلفة تصنيع المعدات الحربية مما ساعد على تزويد الجيش بمئات الآلاف في فترة بينية قصيرة إلى حد ما. في تلك الظروف بات مستحيلا لأي بلد أن تتبارى في التنمية والمحافظة على حد تقني متساو مع الخصم المُحنَّك. على الرغم من ذلك، فخارج أوروبا خولت التقنية الجديدة للرجل الأبيض أن يمارس ساديته في غزو العالم. وكان التصنيع يقوده إلى الشعور بالتكافؤ العسكري فيما بين البلاد الأوروبية بينما كان يثير هوة سحيقة بين الغرب ومن دونه من دول العالم.

يتجاوز ماكس فورت في كتابه أحداث الحرب العالمية الأولى كما قفز سابقا في الحديث عن التقدم في الأسلحة والاحتشاد الأيديولوجي الذي حدث ما بين أعوام ١٧٥٠ - ١٨٦٦، بالرغم من أن ذلك الصراع قدم تقنية جديدة في تصنيع المعدات الحربية مما زاد من كثافة التجنيد في الجبهة الداخلية بشكل متسارع وارتفاع ملحوظ فيها لا يمكن تخيله، لكن بوت فضل أن يلحق تطور الشئون العسكرية بالثورة الصناعية الثانية، وقد تزامن ذلك مع الحرب العالمية الثانية بعد أن أكد على اختراع ثلاث دبابات جديدة، وحاملة طائرات، ومتفجرات وقذائف ثقيلة بما يركز على هزيمة فرنسا في عام ١٩٤٠، ثم هجوم اليابان على مرفأ بيرل هاربر عام ١٩٤١، ثم القنبلة التي ألقتها أمريكا على طوكيو عام ١٩٤٥[٦].

سرد ماكس بوت الفصول التي ألقت الضوء على تلك الأحداث بشكل جيد، خاصة عندما عرض لأهمية الأسلحة الثلاثة الجديدة التي ابتُكرت للاستخدام في الحروب العالمية. وفي الوقت نفسه اعترف بتحيزه لاختراع الرادار، التحطيم بواسطة الشفرة، والهبوط البرمائي. فضلا عن التحسينات التي أجريت على التقنيات التكنولوجية القديمة مثل الغواصات الحربية وخطوط الإنتاج الصناعية مما أثر أيضا في صيرورة الحروب.

يقول ماكس بوت:

«إجمالا-على أي حال- حقق الحلفاء فخراً عزيز المنال بعد الحرب فاقت ما حققته دول المحور. أصيبت ألمانيا النازية بكارثة عضال عقب اتخاذ القرارات الهمجية لأدولف هتلر. والتي خلفت جوا من الفوضى والبيروقراطية والمشاكل الداخلية في ألمانيا بينما افتقرت اليابان إلى زعيم واحد يحقق لها سلطة.

لقد كان الصراع بين الدول أشبه بسباق عدو حربي يفتقر إلى التنسيق بين جيشه وأسطوله. البريطانيون والأمريكيون بالتباين شكلوا دمجًا موحداً للجنة من رؤساء هيئات أركان حرب على الرغم من بعض الاتفاق الحتمي الذي ربما نسق بينهما محاولة لتكريس مجهود حربي مشترك وهذا ما يؤكده الركض في القراءة الطولية في هذا المجلد: فامتلاك البيروقراطية بكفاءة جسَّد اتخاذ زمام القرار في بلاد استغلال الثورة العسكرية» لذلك السبب نفسه كانت جيوش الألمان قادرة على بلوغ بوابة موسكو. وجيوش اليابان وقفت عند حدود الهند قبل بدء الهزيمة من حلف المحور الذي نظم نفسه عسكريا بصورة جيدة قبل الحرب، مما أعطاهم فائدة أولية مهمة سمحت بتخطي سوء التقدير الهائل الذي يعيدنا للنظر إلى المُحركين الأوائل للثورة العسكرية التي لم تجعلهم بالضرورة فائزين لأجل بعيد.

تلك الملاحظة الأخيرة تجعلني أنحو إلى تقديم تحذير ربما أفاد صناع السياسة الأمريكية الذين يتعاملون باستمرار مع ثورة المعلومات حيث يؤرخ ماكس بوت منذ بداية التسعينيات للحرب التقنية المتقدمة التي مورست بقذائف صاروخية استهدفت مراكز الحاسوب وأنظمة الملاحة والطائرات التي سرت خلسة فباتت غير مرئية للرادار.

يعلن بوت أنه «لا تزال هناك كثير من الظُلمة» التي تؤثر على عصر المعلومات وهي حتى الآن جلية. فضلاً عن أن تعزيز الموقع التكنولوجي الأمريكي يفتح المجال لعدم منح أية أهمية إلى الأمم الأخرى التي تظهر أكثر تقليدية بل تخلفاً عنها.

تعد المدفعية الأمريكية في طليعة التطورات العسكرية العالمية مما يجنح بنا إلى تأكيد ذلك عبر ثلاثة من الاجتياحات الأمريكية المعاصرة أولها تلك الحاملات التي حدثت بقيادة الولايات المتحدة في الكويت والعراق في يناير وفبراير عام ١٩٩١ ثم أفغانستان في أكتوبر وديسمبر ٢٠٠١ ثم العراق من مارس ٢٠٠٣ حتى مايو ٢٠٠٥ وهي أطول مدد الاجتياح عن سابقتها. وقد أنهى ماكس بوت سرد تلك الأحداث بشكل غامض يتناسب مع تقدير النتيجة: «الدرس الذي أرادت الولايات المتحدة أن ترسخه في العراق مشابه للدرس الذي قدمته القوات العسكرية في ساحات المعارك الأخرى» حيث الميكنة العسكرية قد تم تكريسها لغرض واحد -مهما كان المبرر لذلك رائعاً لأصحابه أو مُرضياً- فالدرس الذي تعلمته أمريكا في حربها مع العراق ليس بهيّن؛ ألا و هو أن الأجهزة العسكرية من جيش ومدافع إنما جهزت لهدف لا يمكن إعادة توجيهه لهدف آخر مهما كان حجم تفوقها؛ فمثلا أسلحة أسبانيا التي تتناسب مع مياه هادئة مثل البحر المتوسط ليست بنفس الكفاءة لخوض غمار البحار الهادرة في شمال اوروبا .وفي ألمانيا تم تجهيز جيشها للهجوم وسط مساحات ضيقة جدا. لذا، لن يستطيع الهجوم في السهول الواسعة في روسيا ..

وفي حالة حرب أمريكا ضد العراق فإن القوات المسلحة مجهزة لخوض معارك أكثر مراوحة في الصحراء العربية او السهل الأوروبي ولذلك لم ينجح هذا الجيش في شوارع العراق وأزقتها .

وقد وجدتُ أن كتابة ماكس بوت تنحو الى عدم الاستقرار في تلك النقطة في قسم من الكتاب تحت عنوان «قوة أمريكا التي لا تُبارى» حيث كتب: «مع بداية سنوات القرن العشرين تمتعت الولايات المتحدة بتفوق عددي في الجيش مقارنة بأية أمة في التاريخ، وقد ترسخ ذلك عبر عقود ، فصارت الولايات المتحدة اليوم اكبر قوة على الأرض ، وفي البحر، فضلاً عن جبروت سلاحها الجوي بما لا يدع مجالاً لمنافس آخر، على الرغم من أن هيمنة القوات الأمريكية يمكن ألاّ تكون بالكفاءة نفسها إذا تماست مباشرة مع اي عدو على أرضه. إلا أنهم سادة-بلا شك- على جميع الأوجه (البحر- الهواء- الفضاء) بما يسمح لهم بتوجيه تلك القوة الى أي مكان في العالم في بُرهة قصيرة.

وفي عصر المعلومات استطاعت الولايات المتحدة أن تصنع لنفسها منزلة حربية عالمية صارمة ليس في الكم مثلما حدث أثناء العصر الصناعي الثاني، حيث كان كل من الجنود والمعدات هما الأفضل على وجه الأرض. لكن كيف يمكن قبول قدرتها على أن «تسلط نفودها على اي مكان في العالم؟» إذا كان الجنود الأمريكيون قادرين على التحدي عند التماس المباشر مع العدو على أرضه. ويمكن أن تتوقع الولايات المتحدة اكتشاف ثم هزيمة المجموعات العشوائية التي تطلق عليها «الإرهابيون» ومن ثم تلهب حمية الغضب وهي أشد وحشية من احتلال الأراضي البعيدة، هكذا تعهدت الحكومة الأمريكية!

إذا أردت أن تحارب مثل الأوروبيين فعليك أن تكون «أوروبياً» بمعنى أنه لا بُدَّ أن تتبنى على الأقل بعضا من الديناميية، وحب الاستطلاع الثقافي، والعقلانية، فضلا عن الكفاءة التي اختص بها الغرب منذ حلول «عصر البارود»



تنبؤ غير واعد بالنجاح

إذا لم تنسق الحكومة الأمريكية الزمن الصناعي للبيروقراطية مع

نفوذها و وتشكل منظمة متشابكة ستجد من يهيمن على أفضل التقنيات ويزود الحماية لخصومها من الدول. ويبقى السؤال الى أين يمكن توجيه الجيش الأمريكي؟ في الواقع يمكن لشبكة العمالة الميكانيكية المستقلة أن تتحكم بسهولة من المركز وتخاطر بتحويل القوات المسلحة الأمريكية الى نسخة طبق الأصل من الجماعة الرخوة المغامرة ذائعة الصيت والارهابيين العشوائيين الذى لا يمكن السيطرة عليهم.

الجزء الختامى من الكتاب يدور حول «ثورات الماضى- الحاضر- المستقبل» ويعانى من نفس الارتباك الذى عم باقى فصول الكتاب ، حيث حدد ماكس بوت التباين الهائل المحتمل بين الأسلحة الآلية ومنها حرب النجوم، الأسلحة المشعة: فيروسات الحاسوب، التكنولوجيا الدقيقة، والحرب الجرثومية ، وذلك عند استنتاجه: «أن التقدم البيولوجى وعلم الحرب الآلية يعدان بوضع كل شيء قيد إمكانية قصوى من التدمير على أيدى المجموعات القليلة التى تعمل على الانتشار المستمر للأسلحة النووية»، وفقاً لذلك، تكون الولايات المتحدة قد حققت مزيداً من التعويض عما ينقصها فى حروبها الوعرة ، لكن ذلك لا يعنى أنها يمكن أن تتغافل عن المخاطر العظمى للحرب القتالية أو قواعد التغير التكنولوجى؛ لذلك فابتكار وسائل التجديد فى الحروب ينبغى أن ينتظم بقدر تقنى، مما يحتاج للتركيز على التهديدات الكامنة عبر الرؤية الكُلية بدءاً من حروب العصابات الأولية حتى الصراعات الشديدة الحالية، لذا طبقاً لنظرة بوت يجب أن يتزايد تغير كل شيء بخطوة متسارعة مستمرة حسب مقياس لا محدود، لكنه لم يوضح كيف يتم ذلك عملياً؛ بل إنه لم يتساءل: كيف للمجتمع الأمريكى أو أى مجتمع إنسانى آخر أن يتحمل الانتشار المتواصل للمغامرة العسكرية ومن ثم الإنفاق عليها. بالتأكيد هناك نهاية لذلك حيث لن تستطيع الحكومة أن تستمر فى المزيد من المصاريف بشكل غير محسوب دون الاعتماد على قدر من المساعدات الخارجية لتمويل شراء بعض من احتياجاتها الحربية باهظة الثمن، وهو ما تقوم به الولايات المتحدة بالفعل الآن. وسوف يؤدى ذلك إلى استمرار الولايات المتحدة فى خوض مغامرة الحروب التى تشنها على العالم التى بدأت منذ عام ١٩٥٥ على فيتنام، مروراً بأفغانستان ثم انتهاء بالعراق التى ألهبت المعارضة الداخلية والخارجية ضد الولايات المتحدة، وبلا شك إذا تغيرت تلك السياسة الأمريكية العبثية ستتقلص بعض المعارك وتستعد الحكومة الأمريكية للتحضير بشكل نشط لمزيد من الحروب المستقبلية، وعندئذٍ سيحدث لها انهيار عام على المستويين الاقتصادى والاجتماعى مثلما حدث فعلياً فى الاتحاد السوفيتى، وذلك ما سيحدث لنا بالقطع عند التوسع بلا حدود فى مؤسساتنا العسكرية حسب منظور ماكس بوت المستقبلى.

لقد حدد بوت جيداً كيف تمت الجهود الفرنسية لنشر الحرية والمساواة مع من يجاورها من الأمم الأوروبية الذين تأثروا سلبياً بلا شك منذ عام ١٧٩٣ حتى عام ١٨١٥، ومن ثم انصبت ملاحظاته المستقبلية أكثر حول «الحرب على الإرهاب» التى ربما تكون الإجراءات حولها أكثر إقناعاً. بشكل عام إذا لم يعتقد بوت أن التقدم التقنى فى التسليح إضافة الى التعديلات الملائمة فى القيادة والتحكم سيضمن النجاح فى الحرب وكذا فهمه للماضى والمستقبلى من الحرب أكثر قبولاً.

على الأغلب، ظهر لى تأكيد ماكس بوت على أربع ثورات منفصلة متمايزة منذ القرن السادس عشر (بدءاً من عام ١٥٠٠) مع التركيز على التغير المستمر واسع الانتشار الذى ثبت فى حقب زمنية اتسمت بالتجديد العسكرى. وحسب اعتقاد بوت: من الأهمية بمكان عدم التعدى على شئون الحياة الإنسانية، لذا خطط قصة الثورات الأربع بإحكام، بعد أن قلل من واقع المفاجآت، مع فحص الواقع الإنسانى الأخلاقى والثقافى بالإضافة الى الاقتصادى والاجتماعى الذى يحدث فى إطار أى حروب قتالية، خاصة لدى المقاتلين المحترفين الذين لم تكن حياتهم الاجتماعية بمعزل عنهم - مثل الآخرين- ومن ثم يأخذون بعين الاعتبار محاولة فهم انهزاماتهم قبل انتصاراتهم . ■

هوامش

(١) Aramada أسطول حربى إسبانى عُرف بقدرته على محاربة الإنجليز وسُمى بالارمادا التى لا تُقهر. (م)

(٢) Sepoy السباهى وهو الجندى الهندى فى الجيش الانجليزى. (م)

(٣) Maratha الماراتاويون طائفة هائلة من الشعب الهندى يسكنون الغرب.(م)

(٤) Handicapped أتت فى النص بمعنى إعاقة بينما معناها الأصلى سباق العدل الذى تعطى فيه الأفضلية للضعيف على القوى بحيث تصبح فرص الكسب متكافئة. (م)

(٥) يقصد المأساة التى خلفتها القنبلة النووية على هيروشيما وانتهت معها الآثار المدمرة للحرب العالمية الثانية.(م)

كتاب الزاوية

حياة الرافعى

نسبه ومولده

الرافعى سورى الأصل، مصرى المولد، إسلامى الوطن: فأسرته من (طرابلس الشام) يعيش على أرضها إلى اليوم أهله وبنو عمه، ولكن مولده بمصر وعلى ضفاف النيل عاش أبوه وجده والأكثرون من بنى عمه وخئولته منذ أكثر من قرن؛ وهو فى وطنيته (مسلم): لا يعرف له أرضًا من أرض الإسلام ينتسب إليها حين يقول: وطنى. فالكل عنده وطنه ووطن كل مسلم؛ فأنت لم تكن تسمعه يقول: «الوطنية المصرية..» أو «الوطنية السورية..» أو «الوطنية العراقية..» إلا كما تسمع أحدًا يقول: هذه دارى من هذا البلد. أو هذه مدينتى من هذا الوطن الكبير الذى يضم أشتاتًا من البلاد والمدائن. وإنما الوطن فيما كان يراه لنفسه ولكل مسلم، هو كل أرض يخفق فيها لواء الإسلام والعربية؛ وما مصر والعراق والشام والمغرب وغيرها إلا أجزاء صغيرة من هذا الوطن الإسلامى الأكبر، ينتظمها جميعًا كما تنتظم الدولة شتى الأقاليم وعديدًا من البلاد.

وأم الرافعى كأبيه سورية الأصل، وكان أبوها الطوخى تاجرًا تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام، وأصله من حلب، وأحسب أن أسرة الطوخى لاتزال معروفة هناك، على أنه كان يتخذ مصر موطنًا له قبل أن يصل نسبه بأسرة الرافعى، وكانت إقامته فى (بهتيم) من قرى مديرية القليوبية وكان له فيها ضيعة، وفيها ولد الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى يناير سنة ١٨٨٠م.

المسلمون على جبال الألب

محمد السماك

هناك اعتقاد عام بأن المسلمين العرب بعد أن دخلوا إسبانيا فى عام ٧١١ وأقاموا فيما بعد دولة الأندلس خسروا معركة بواتيه Poitiers فى جبال البيرينيه Pyrenees فى عام ٧٣٢ وأن خسارتهم تلك تعود إلى كونهم «صحراويين» لا يتحملون البرد ولا الطبيعة الجبلية الوعرة بما فيها من غابات ووديان.

وهناك اعتقاد عام أيضا بأنهم بعد تلك الهزيمة التى لحقت بهم على يد شارل مارتل Charles Martel انغلقوا على أنفسهم فى الأندلس حتى دالت دولتهم بسقوط غرناطة.

هذه الدراسة تحاول أن تقدم وقائع علمية تثبت أن هذه الاعتقادات ليست صحيحة. كما تحاول أن تبين كيف أن المسلمين وصلوا إلى جنوب فرنسا واحتلوا مدناً مثل ليون وغرونوبل. كما وصلوا إلى سويسرا وحاصروا جنيف ولوزان وسيطروا على شمال إيطاليا، وأنهم أقاموا المستوطنات فى جبال الألب. وأشرفوا بصورة مباشرة ولمدة قرن تقريباً على الممرات الألبية الاستراتيجية فى الغرب وفى الشرق على حد سواء.

وثمة آثار تركها العرب المسلمون فى هذه المناطق جرى التعتيم عليها طويلاً، إلا أن العلماء بدأوا التنقيب عنها مؤخراً. ولا يقتصر التنقيب فى بقايا القلاع أو حتى الأديرة (التى كانت مساجد) فقط، إنما فى بعض العادات والتقاليد، ومنها مثلاً عادة الامتناع عن تربية الخنازير؛ وفى أسماء العديد من المواقع التى تقع فى عمق جبال الألب والمتداولة حتى اليوم.. وكذلك فى أسماء بعض العائلات من السكان الحاليين فى بعض الأودية الجبلية.

وتعتمد هذه الدراسة أساساً على بحث أعده البروفيسور مانفرد وينر Manfred Wenner أستاذ التاريخ فى جامعة اليونز الأمريكية ونشرته مجلة دراسات الشرق الأوسط Middle East Study فى عددها رقم ١٢ الصادر عام ١٩٨٠ تحت عنوان: «الوجود العربى - الإسلامى فى وسط أوروبة فى العصر الوسيط».

إن الوقائع التاريخية والتى لا يزال بعض آثارها قائماً حتى اليوم تثبت أنه بعد ثلاثة قرون على معركة بواتيه التى تعتبر بداية نهاية التوسع العربى - الإسلامى فى أوروبة، حافظ المسلمون على تواجدهم فى عدة مناطق من أوروبا خارج شبه جزيرة ايبيريا (إسبانيا والبرتغال). ومع أن هذا التواجد كان موضع إهمال أو تناسٍ فى إطار الصورة الأوسع للعلاقات الإسلامية - المسيحية خلال فترة القرون الوسطى، فقد تبين للباحثين المتخصصين فى القرنين التاسع عشر والعشرين أنهم تركوا وراءهم تراثاً أكبر بكثير مما كان يُعتقد من قبل.

ولعل أكثر مواقع التواجد إثارة للاهتمام تلك التى أسفرت عن سيطرة المسلمين العرب على الممرات الاستراتيجية فى سلسلة جبال الألب التى تربط إيطاليا ببقية أوروبة وذلك لعدة عقود فى القرن العاشر الميلادى.

إن هذه الدراسة هى إيجاز سريع لأحداث تلك المرحلة. وهى تحاول تحليل الدوافع التى أدت إلى التوغل الإسلامى فى أوروبا الغربية، وإلى أسلوب إدارة المسلمين لتلك المناطق التى لم تكن جزءاً من الدولة الإسلامية، وأخيراً إلى المشروعية الحديثة التى يمكن استخلاصها من تلك المرحلة عندما سيطرت القوات العربية - الإسلامية على جزء هام من طرق المواصلات الأوروبية الغربية.

فى الوقائع:

فى وقت ما حوالى عالم ٨٨٩ ميلادية، نزلت قوة صغيرة من المسلمين العرب (قوامها حوالى ٢٠ رجلاً) فى منطقة فرنسية على ساحل البحر المتوسط قريبة من منطقة تعرف اليوم باسم «سان تروبيز St. Tropez». وكانت هذه المنطقة تُعرف فى القرون الوسطى باسم «فراكسيناتوم Fraxinetum». أما اليوم فإنها تعرف باسم «فرينيه Frainet» وهى تقع فى إقليم الـ فار Var»، جنوب فرنسا.

ويبدو أن الموقع والمحيط العام كانا مناسبين للمسلمين العرب الذين أقاموا التحصينات الدفاعية، ومن ثم استقبلوا بعد عدة سنوات هجرات متلاحقة، بما فى ذلك هجرات من النساء والأطفال.

ووفر جبل مجاور للموقع يعرف اليوم باسم جبل الـ «مورMaures » (وهو الاسم الذى كان يطلقه الأوروبيون على عرب الأندلس) حجر الزاوية فى منظومة الدفاع ضد الهجمات البرية. ومع الوقت نمت هذه المستوطنة حجماً وسكاناً.

وما أن تمّ تحصين هذه المستوطنة ضد أى هجوم معاكس، حتى بدأ العرب المسلمون توسيع هيمنتهم إلى الممالك المجاورة، ومنها مملكة بورغوندى Burgundy، ومملكة إيطاليا Piedmont. ولما لم تبد تلك الممالك مقاومة تذكر، ولما كانت عائدات الهيمنة عالية، تمكنت المستوطنة العربية الإسلامية فى فراكسيناتوم Fraxinetum من جذب المزيد من موجات العرب المسلمين من إسبانيا الإسلامية (الأندلس).

واستناداً إلى مصادر معاصرة فإن السبب الرئيس الذى أدى الى توفير حرية الحركة نسبياً فى هذه المناطق، هو أنها كانت مقسمة الولاءات بين عدد كبير من الأمراء والنبلاء الأوروبيين الصغار. وكان الواحد منهم حتى يستقوى على الآخرين، لا يتورع عن التحالف مع المهاجمين العرب المسلمين.


وطوال العقود الثلاثة الأولى من القرن العاشر، أى حتى عام ٩٣٠ ميلادية، لم يقم القادة الأوروبيون المحليون بأى عمل مضاد يذكر. وخلال هذه السنوات نجح العرب المسلمون فى اقتحام أو تدمير جزئى أو كلى لعدد من المدن مثل مدينة «أستى Asti» ومدينة «أكوى Acqui» فى الشرق، وكذلك عدد من الأديرة فى «نوفاليز Novalise» و«أولكس Oulex»، و«أمبرون Embrun» «وفينّا Vienne» و«فالنسيا Valence » فى الغرب؛ كما شنوا هجمات أساسية على عدد آخر من المدن، مثل مدينة «اكس أون بروفانس Aix-en-Provence » و«مرسيليا Marseille» فى الجنوب.

وأهم من ذلك كله، تمكن العرب المسلمون فى ذلك الوقت من السيطرة على الممرات الثلاثة الأساسية بين فرنسا وإيطاليا. وهى: «سان برنارد St. Bernar»، وجبل «سانيس Mt. Cenis»وجبل «جنيف Mt. Geneve». وبذلك أصبحوا قادرين على السيطرة على طرق التجارة، وعلى التحكم بحركة الحجاج من المناطق الشمالية والغربية والذين يستخدمون هذه الممرات فى طريقهم إلى روما.

ويبدو أن هذا العامل الأخير هو الذى أدى إلى بذل أول جهد جدى لإخراج العرب المسلمين من مستوطنة «فراكسيناتوم Fraxinetum». ففى عام ٩٣١ هاجمت وحدات من الأسطول اليونانى البيزنطى المستوطنة من البحر. ولكن يبدو أن هذا الهجوم لم يكن مؤثراً، ذلك أن الوقائع عن أحداث ذلك العام، تثبت أن العرب المسلمين كانوا لا يزالون يسيطرون على الممرات الرئيسة فى جبال الألب الغربية. بل إن عملياتهم ازدادت حجماً وضراوة، ذلك أنه، وعلى سبيل المثال، كانوا وراء مقتل رئيس الأساقفة روبرت Archbishop Robert مطران تورز Tours، وهو فى طريق عودته من روما عبر أحد الممرات الغربية.

وفى العقد التالى، ازدادت بشكل كبير مساحة الأراضى الخاضعة لسيطرة العرب المسلمين.

خلال عهد الأمراء (لاحقاً الخلفاء) فى قرطبة، أصبح تقليداً القيام بغزوات متواصلة على المناطق التى تُعرف اليوم بفرنسا وإسبانيا.. وكانت تلك الغزوات تسمى بـ«الصيفية»



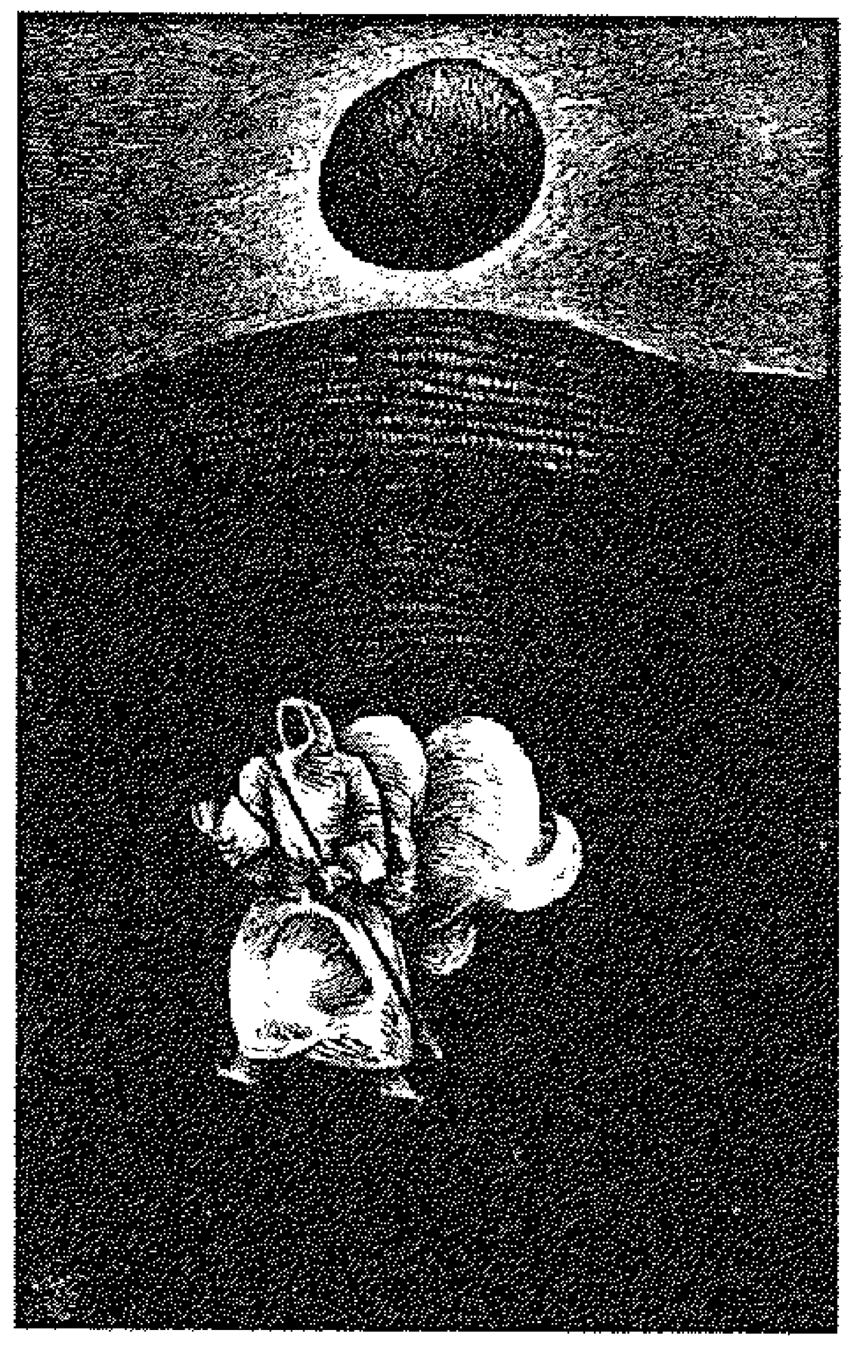
وتجاوزت عملياتهم شمال الألب ووصلوا إلى الدير الشهير فى سان موريس St. Maurice فى وادى الرون Rhone. وفى الوقت نفسه تركوا آثارهم حتى فى شمال الوادى (الرون) أيضاً. وغنموا مواقع المطرانية فى شير ريتيا Chur in Rhaetia.

ولأن الهنغاريين بدأوا فى ذلك الوقت غزواتهم واجتياحاتهم لوسط وغرب أوروبا، فإن الوقائع التى شهدتها تلك العقود من القرن العاشر تتسم بحالة من الإرباك، ولذلك لا يمكن الاعتماد عليها دائماً. من أجل ذلك فإنه ليس واضحاً تماماً أى طريق سلكه المسلمون العرب فى تقدمهم إلى ما يعرف اليوم بجنوب سويسرا، ثم إلى المناطق الشمالية الأبعد. إلا أن هناك ثلاثة طرق محتملة، لكل منها ما يبرر الاعتقاد بأنهم سلكوه. كما أن لكل منها من يشكك فيه. أول هذه الطرق المحتملة هى أن المهاجمين العرب المسلمين تقدموا بشكل منهجى مع وادى الرون Rhone Valley، واجتازوا ممر فوركا Furka Pass ومن هناك تابعوا خط الراين Rhine. ويقدم البعض دليلاً على ذلك أسماء عربية لبعض المواقع (مثلاً برج السراسين - أى برج المسلمين العرب) قرب مدينة فافى Vevey السويسرية، ووجود مقبرة فى منطقة جنيف للمسلمين العرب.

أما الطريق الثانى الذى يحتمل أن يكونوا قد سلكوه فهو طريق جبل سينيس Mont Cenis عبر السهول الإيطالية الشمالية، شمالاً حتى سويسرا اليوم عبر ممرى برناردين Bernardin وسبتيمر Septimer. غير أن عدم توفر سجلات عن آثار عمليات قام بها المسلمون العرب فى المدن المجاورة للممرين أو فى ضواحيهما، تلقى بعض الشك على هذا الاحتمال.

أما الاحتمال الثالث فهو التقدم عبر ممرّ سان برنار St. Bernard ومن ثم شمالاً عبر سلسلة أودية التلال الألبية، ومواصلة التقدم شمالاً عبر الممرات المتوفرة: جبل مورو Monte Moro (جبل المغاربة)، ثم لوقمانير Lukmanier (لقمان) وغيرها. وهذه الطريق وفرت لهم مواجهة الحد الأدنى من المقاومة، ثم إنها معززة بعدد كبير من أسماء المواقع التى قد توحى بأنها عربية الأصل.

على أى حال، وأياً كانت الطرق التى سلكوها، يبدو أنه فى العقد الثالث من القرن العاشر، استقر العرب المسلمون بشكل جيد فى بعض المدن الإيطالية الشمالية الواقعة فى وديان التلال الألبية (على سبيل المثال: فيرسيلى «Vercelli»).



السجلات الأوروبية عن تلك المنطقة تتضمن معلومات عن غزوات إسلامية فى المناطق الأوروبية بعد هزيمة بواتيه

وسيطروا على الأقل على الطرق الرئيسة فى الألب التى تربط الشمال بالجنوب. وهى: سان برنارد الكبير Great St. Bernard، وبيرنهاردين Bernhardin وسبتيمر Septimer، ومع احتمال سيطرتهم أيضاً على جبل مورو Mont Moro ولقمانير (لقمان)، وربما سيمبلون Simplon أيضاً.

مرة جديدة أدى توسع المسلمين العرب، وطبيعة العمليات التى كانوا يقومون بها، إلى بذل الجهد الأوروبى المشترك لتدمير فراكسيناتوم Fraxinetum، باعتبارها قاعدة العمليات. حاولت قوات تابعة للملك الإيطالى هيغو Hugo شنّ هجوم مشترك على المدينة بالاشتراك مع البيزنطيين.

واستناداً إلى وقائع معاصرة لتلك الفترة، فإن سيطرة اليونانيين على البحر من جهة، والهجوم البرى للملك هيغو عبر جبل مور Mont Maures من جهة ثانية، كان على قاب قوسين أو أدنى من النجاح. ولكن الملك هيغو الذى فوجئ بمنافس شديد المراس على عرشه، قرر توجيه اهتمامه نحو مصالحه الشخصية، أى نحو مستقبله على العرش الإيطالى.

ففى ذلك الوقت، ادعى بالعرش الكونت بيرينغار Berengar من ايفريا Ivrea وحشد لتأييد ادعاءاته. وحاول بشكل خاص الحصول على دعم هيرمان Hermann من صوابيا Swabia، واجتاز من أجل ذلك ممر سان بيرنار الكبير فى طريقه شمالاً للحصول على المساعدة الضرورية. هنا ألغى الملك هيغو هجومه على مستوطنة «فراكسيناتوم» القاعدة العربية، ودخل بدلاً من ذلك فى حلف مع المسلمين العرب. وبموجب هذا الحلف سيطر العرب المسلمون على جميع ممرات الألب من الغرب (جبل جنيفر Mont Genevre) إلى الشرق (ممر سبتيمر Spetimer).

وعلى الرغم من ان الأمور استقرت لهم، فإن المسلمين العرب استناداً إلى بعض الوقائع، شنوا مزيداً من الهجمات على المناطق الواقعة فى شمال الألب. وعلى سبيل المثال هوجمت شور Chur أكثر من مرة، كما هوجمت سان غالين St. Gallen التى تقع بالقرب من بحيرة كونستانس Constance وذلك فى عام ٩٥٤ ميلادية وهو العام نفسه الذى وقعت فيه أيضاً مدينة غرونوبل Grenoble فى الغرب بأيدى العرب المسلمين.

يبدو أن المسلمين العرب بلغوا فى تلك الفترة أوج قوتهم. وعلى الرغم من وجود وقائع تعود إلى عام ٩٧٢ (من هذه الوقائع بشكل خاص فرض ضريبة على سان مايولوس St. Maiolus فى كلونى Cluny) تؤكد سيطرتهم على سان برنارد St. Bernard، فإن الوقائع المعاصرة تتوافق مع التراجع العام فى عملياتهم.

(إضافة إلى ذلك هناك وقائع مسجلة عن اعتناق المسيحية من قبل عناصر من الوثنيين فى المناطق الجبلية. وهو أمر استمر حتى بدايات القرن الحادى عشر).

وفى أواخر عام ٩٦٠ استرجع الأوروبيون مدينة غرونوبل Grenoble من المسلمين العرب، كما أن مجموعة من الممرات الجبلية التى كان يعبرها ملوك أو شخصيات سياسية مرموقة لم تعد بيدهم أيضاً.

وفى عام ٩٧٥ جرت محاولة جديدة للسيطرة على القاعدة العربية - مستوطنة فراكسيناتوم، قام بها تحالف من النبلاء: وليهام Duke Wilhelm نبيل ارليز Arles، والكونت اردوين Arduin، نبيل ايفريا Everea وتورين Turin، وربما الكونت روبالد Robald، نبيل البروفنس Province.

هذه المرة نجحت المحاولة وتمت السيطرة على فراكسيناتوم. فتشتت سكانها المسلمون وطُرد بعضهم، وحُوّل بعضهم الآخر بالقوة إلى المسيحية، وأُجهز على بعضهم، وبيع البعض الآخر عبيداً فى سوق النخاسة. (وقد بقيت ذرية هؤلاء عبيداً فى المنطقة حتى بعد مرور أربعة قرون). ويبدو أن القليل جداً منهم تزوج واستقرّ محلياً.

الدوافع:

من الصعب الجزم بدقة فى أسباب إقامة مستوطنة فراكسيناتوم. فاستناداً إلى العديد من الكتّاب (بما فى ذلك وقائع تلك المرحلة)، كان غرب البحر المتوسط مسرحاً لهجومات مسلحة متبادلة بين المسلمين والمسيحيين، إلا أن اليد العليا كانت للمسلمين الذين وصفهم الكتّاب الغربيون والمؤرخون منهم بالقراصنة، واتهموهم بالتسبب فى زعزعة التجارة والحياة الاقتصادية المحلية. واستناداً إلى ذلك تكوّن اعتقاد بأن عاصفة هوجاء ربما تكون قد دفعت إلى الشاطئ المجموعة الصغيرة التى أقامت تلك المستوطنة. وهو اعتقاد يوحى بأن قيام مستعمرة فراكسيناتوم كان مجرد صدفة.

ولكن هناك نظرية أخرى تقول انه خلال عهد الأمراء (لاحقاً الخلفاء) فى قرطبة، أصبح تقليداً القيام بغزوات متواصلة على مناطق الحكام المسيحيين، وهى المناطق التى تُعرف اليوم بفرنسا وإسبانيا.. وكانت تلك الغزوات تسمى بـ«الصيفية» لأنها كانت تجرى خلال فصل الصيف. ويبدو أن الهدف الأساس من وراء تلك الغزوات الصيفية هو إظهار الالتزام الدينى بركن الجهاد، والذى لا يمارس إلا خارج حدود دار الإسلام.

وبما أن المشاركين فى الغزوات كانوا يحصلون على كميات كبيرة من الغنائم، فيبدو واضحاً أنه كان هناك هدف آخر وراءها، وهو زيادة الثروات الشخصية للطامحين والمغامرين. ولعل هذا ما يفسر على سبيل المثال، مشاركة مسيحيين ويهود فى تلك الغزوات، كما تؤكد تلك الوقائع. على أى حال الحقت «الصيفية» بالسكان المحليين صعوبات كثيرة. ذلك أنه بالرغم من المبالغات

المسيحية حول السلوك الإسلامي، فمن الواضح أن غزو وتدمير القرى الصغيرة والقضاء على المحاصيل الزراعية كان سلوكاً عاماً.

وهناك مؤشرات إلى أن بعض هذه الغزوات على الأقل، كان يُنفذ من أجل الحصول في الدرجة الأولى على أسرى من الرجال يطلق عليهم اسم «الصقالبة». وكانوا يُنقلون إلى إسبانيا ومن ثم ينضوون في الخدمة الشخصية للأمير / الخليفة. وبما أنهم كانوا يعتبرون رجالاً أشداء يمكن الاعتماد عليهم في القوات المسلحة والحرس الشخصي، وبما أنهم كانوا يُدرّسون ويُدرّبون في المعاهد الإسلامية من أجل هذا الهدف، فإن هذه العملية تشبه ما قام به سلاطين بني عثمان -فيما بعد- الذين كانوا يجندون ويوظفون السجناء المسيحيين (قوات الانكشارية). وفي الحالتين غالباً ما كان السجناء الذكور يُخصون.

وتشير كل من السجلات الإسلامية والمسيحية معاً إلى ممارسة عمليات الحصول على «الصقالبة» من مختلف المناطق، رغم انه يبدو أن المصدر المفضل كان وادي الرون Rhone وشمالاً حتى ميتز Metz وفردان Verdun.

ومن المثير للاهتمام هو أن اليهود في هذه المنطقة تصرفوا باستمرار كوسطاء بين الأسبان المسلمين والمصادر الأوروبية التي كانت تزودهم بالرجال. إن يهود منطقة براغ Prag، وهي مركز آخر للتزود بالرجال ساهموا تحديداً في هذا النوع من التجارة. مع ذلك فإننا لا نعرف ما إذا كان هؤلاء الوسطاء اليهود قد استقدموا من إسبانيا، أم انهم كانوا يقومون بنشاطهم التجاري كأعضاء في الجالية اليهودية من أبناء تلك المناطق.

إن مصدر كلمة صقالبة نفسه كان موضع جدال بين اللغويين. وذلك لأن الرحالة العرب في القرون الوسطى كانوا يطلقون على السلاف في أوروبا الوسطى اسم صقلبي للمفرد، وصقالبة للجمع. ولا يعرف ما إذا كان هذا اللفظ العربي مشتقاً من أصل لاتيني أي من كلمة اسكلافوس Esclavus ومعناها العبد، أو من الكلمة العربية للسلاف. ويبدو انه يمكن العودة بها إلى أي من المصدرين.

النماذج الإدارية:

من المتفق عليه بصورة عامة أن الجيوش العربية الإسلامية التي أقامت الإمبراطورية المترامية الأطراف في القرن الذي أعقب وفاة الرسول محمد (ص) كانت قد استحدثت مبادئ متطورة نسبياً لإدارة الأراضي والشعوب التي خضعت لاحتلالها. ورغم هذه المبادئ، يبدو أن العناصر المتقدمة من الجيوش المنتصرة كانت أقل اهتماماً بجماليات الإدارة العامة. فالقانون الذي استحدث أو الذي جرى تطويره للتعامل مع شعوب الأراضي الجديدة الخاضعة للإدارة الإسلامية، لم يكن باستمرار موضع التزام.

إذ أنه ما أن يثبّت الاحتلال أقدامه، حتى يبدأ العمل بالإجراءات الإدارية التي كانت تعكس قدراً كبيراً من التسامح مع الشعوب المحتلة ومع معتقداتها وممارساتها الدينية والاجتماعية. وليس هذا هو الموضع المناسب الآن للحديث - على سبيل المثال - عن الإنجازات الإدارية والثقافية للإدارة العربية في إسبانيا وصقلية أو في غيرهما من الأراضي التي جرى أسلمتها. غير أنه يبدو أن السؤال الهام في هذا الشأن، هو: متى ولأي سبب كانت الجيوش العربية وقادتها يقررون وضعية المنطقة الجديدة ووضعية سكانها، وبالتالي تحديد النماذج الإدارية التي كانت تطبق عليها؟ فبالرغم مما كان يتمتع به الخليفة في قرطبة من مواصفات كريمة وإيجابية، فإن السجلات الأوروبية عن تلك المنطقة تتضمن معلومات عن غزوات إسلامية في المناطق الأوروبية بعد هزيمة بواتيه Poitiers، وهي سجلات حافلة بتقارير عن سلوك معاكس. فإلى ماذا يمكن أن نعزو هذه النماذج البائسة من سلوك القوات العربية الإسلامية؟

من المؤكد أنه من الصعب التحقق بدقة في هذا الوقت المتأخر من صحة هذه الأحداث ومن نماذج السلوك التي كانت ترتبط بها. ولكن هناك ما يبرر بوضوح التعامل بشيء من الريبة والشك مع المصادر المسيحية المتعلقة بالمسلمين العرب. مع ذلك يبدو أنه بالإمكان التوصل إلى استنتاجات عامة، فمن اللافت للانتباه أننا لا نملك مصدراً عربياً واحداً معاصراً عن تلك الأحداث التي جرت هناك. علماً بأنه يمكن في المستقبل إلقاء الضوء على بعض هذه المصادر. ويبدو مشروعاً في هذه المرحلة، أن نستنتج بأن علية القوم في قرطبة، لم يكترثوا كثيراً للنشاطات التي كانت تقوم بها مستوطنة فراكسينتوم Fraxinetum. وفي الواقع فإنه رغم أن ثمة دليلاً يشير إلى أن أعداداً كبيرة من المسلمين العرب كانوا معنيين بنشاطات المستوطنة على مدى مائة سنة، فإن المعلومات الجغرافية والسياسية والاجتماعية عن أوضاع المنطقة التي سيطروا عليها لم تجد طريقها إلى أوروبا.

وعلى الرغم من أن هناك دلائل على وجود اتصالات تجارية متطورة وعلى الرغم من أننا نعرف من مصادر أوروبية وعربية أنه جرى على الأقل اتصال دبلوماسي واحد بين الأوروبيين المسيحيين (الملك اوتو الأول Otto) والخليفة في قرطبة (عبد الرحمن الثالث)، وعلى الرغم من أننا نعرف أن هدف هذا الاتصال كان التمني على الخليفة وقف مساعداته إلى مستوطنة فراكسينتوم Fraxinetum، فإن كل ما يتضمنه هذا العرض من الأحداث لم يأت المؤرخون المسلمون على ذكرها، كما أنها لم ترد في أي من وثائقهم.

ومن شأن ذلك أن يقدم لنا دليلاً حول الاستنتاجين التاليين:

١ - إن نشاطات مستوطنة فراكسينتوم كانت في كليتها أو في معظمها تقوم بها قوات غير نظامية. أي قوات متجمعة من القراصنة والمرتزقة (بمن فيهم مسيحيون ويهود ومسلمون) من دون أن يكون بينهم أحد من العلماء.

٢ - إن النظرة إلى نشاطات مستوطنة فراكسينتوم لم تكن تتعدى كونها رحلة «صيفية» ناجحة، أو ربما براءة للذمة الدينية في ممارسة «ركن الجهاد»؟!.

تؤكد الأدبيات المعاصرة، ولاحقاً الأدبيات الأوروبية، إن التفسير الوحيد لتراجع القوات العربية - الإسلامية من المناطق الألبية، يعود إلى غضب السكان المحليين الذي انفجر بعد السيطرة على سانت مايولوس St. Maiolus لفرض الخوة على السكان. ولكن في ضوء المحاولات غير المجدية التي جرت خلال العقود القليلة الأولى من وجودهم، فإن هذا التفسير يبدو غير مقنع. إن قراءة متأنية لملابسات توسع وتراجع مستوطنة فراكسينتوم تشير إلى احتمال وجود عامل آخر: قد يكون مهماً. وهو عامل غفل عنه الكتّاب السابقون، ويتعلق بدور الخليفة في قرطبة في رعاية أو حتى في دعم هذه «الصيفية».

ويبدو أن موت الخليفة عبد الرحمن في عام ٩٦١، واعتلاء ابنه الحَكَم الثاني العرش، شكل نقطة تحوّل جذرية. فالمستندات المعاصرة والحديثة تؤكد أن الحَكَم كان أكثر تسامحاً وحباً للسلام من والده؛ وأن سياساته الداخلية والخارجية، وكذلك سلوكه الشخصي الذي تشير إليه هذه المستندات، تجعل من الممكن القول أنه - أي الحَكَم - رفض مواصلة دعم «الصيفية» التي كانت تزعج مسيحيي أوروبا الوسطى.

ومن الممكن أن يكون قد أوقف الإذن بالسماح للقوات المساندة بالتوجه إلى مستوطنة فراكسينتوم من المرافئ الإسبانية. ولعله تأثر باتخاذ هذا القرار بالبعثة التي كان قد أوفدها الملك اوتو الأول Otto إلى قرطبة. وهكذا، وبانعدام هذا الدعم (المادي والبشري) بات من الطبيعي أن تصبح للسكان المحليين في المناطق الألبية اليد العليا.

وبما أنه يفترض أن يكون المسلمون قد منوا بخسائر في الأرواح من خلال اشتباكاتهم المتواصلة مع السكان المحليين، وبما انه يفترض أيضاً أن يكونوا قد منوا بمثل هذه الخسائر في المعارك التي خاضوها ضد الهنغاريين الذين كانوا يجتاحون المناطق الغربية من أوروبا، فقد كان من الضروري بالنسبة إليهم أن يكون هناك مصدر للدعم يعتمدون عليه. غير أن مراجعة أحداث منتصف القرن العاشر تشير إلى تراجع حاد في قوة قبضتهم بعد منتصف الستينيات من العام ٩٠٠، سيما إذا ما قورنت بسجل النجاحات الباهرة التي حققوها حتى ذلك الوقت. مع ذلك فإننا لا نملك أي مؤشرات على أن هذه القوات الإسلامية التي كانت تعمل في ممرات الألب عانت من انتكاسات أو هزائم على يد السكان المحليين. وإذا كان ثمة من أمر، فهو الإشارة إلى أنه كانت هناك عملية انسحاب عندما وقع حادث سانت مايولس St. Mailus في ممر سان برنارد الكبير St. Bernard. مما يؤكد أو يعزز الاحتمال بوجود تغيير في سياسات الخليفة، ويقدم بالتالي تفسيراً أكثر عقلانية لظاهرة اضمحلال الوجود الإسلامي العربي في المناطق الألبية.

وفي سجل الوثائق الرسمية الفاتيكانية أن البابا جون الثامن الذي اعتلى السدة البابوية في ٨٧٢/١١/١٣ خاض سلسلة معارك ضد العرب المسلمين (السراسين). وأنه تمكن بمساعدة سكان روما وحدهم من إلحاق الهزيمة بهم في تيراسينا terracina. غير أن الملك

تشارلز الكبير Charles the Gross وبعد أن اعتلى العرش أخل بوعده للبابا وأحجم عن مساعدته في مواصلة الحرب على العرب. فكانت النتيجة خسارته الحرب واضطراره إلى دفع تعويضات كبيرة إليهم. وقد استمر البابا جون الثامن - وكان إيطالياً من مواليد روما - في السدة البابوية مدة عشر سنوات ويومين. ولدى وفاته في عام ٨٨٢ دفن في الكهوف الخاصة بمقابر البابوات في الفاتيكان.

المؤشرات الأثرية واللغوية:

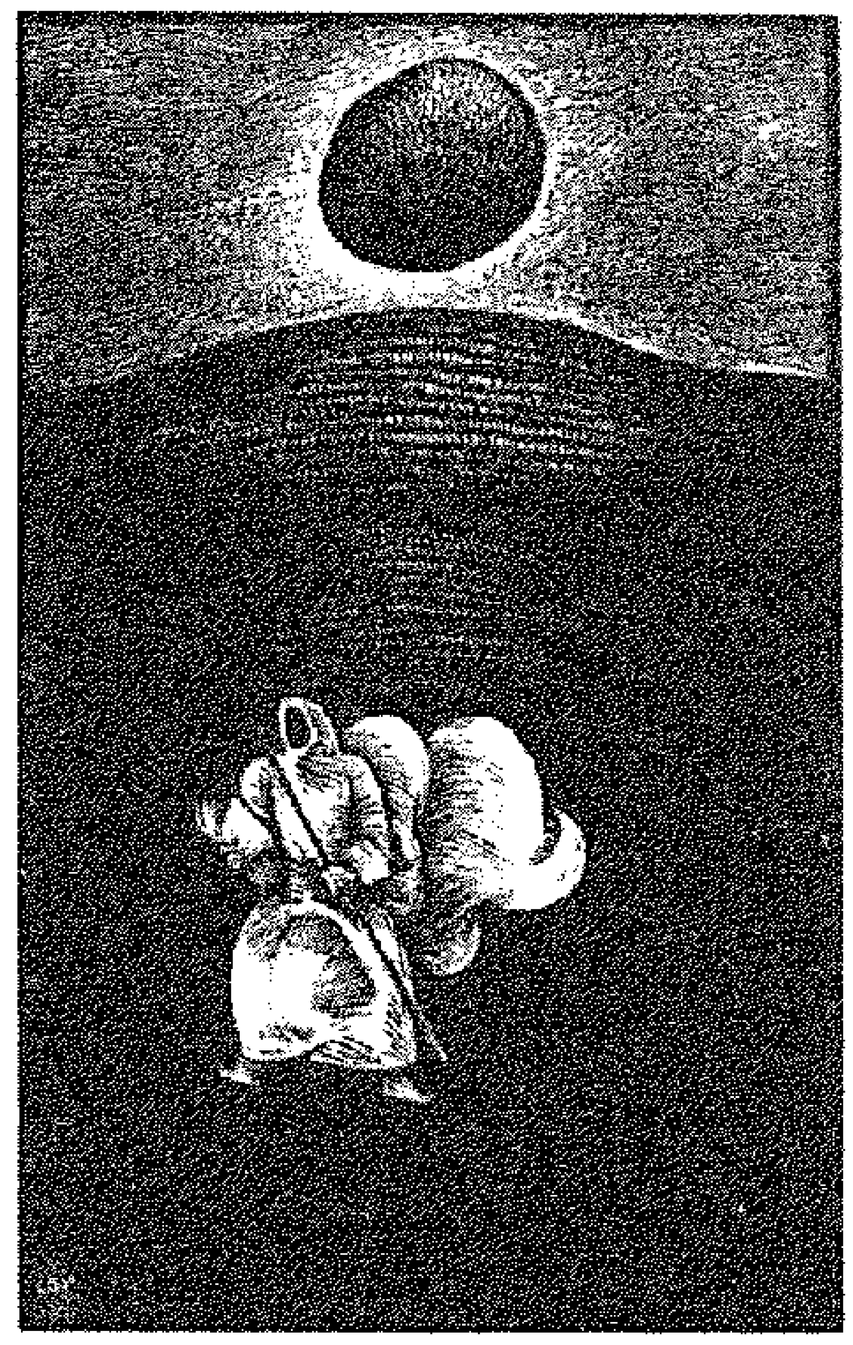
احتفظت هذه الممرات الألبية التي تفصل شمال وغرب أوروبا عن إيطاليا بقدر كبير من أهميتها الجغرافية حتى السبعينيات من عام ١٩٧٠. ولذلك من المفيد تلخيص وتحليل المتوفر من المعلومات التي تتعلق بهذا القرن من نشاطات المسلمين العرب.

يبدو أن البحث المنظم عن الآثار المتعلقة بالمسلمين العرب في جنوب فرنسا والمناطق الألبية لم يبدأ إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. فالكتّاب الأولون الذين أبدوا اهتماماً بتلك المرحلة، تفقدوا بصورة خاصة القلاع والتحصينات المختلفة التي تعود إلى المسلمين العرب، وذلك استناداً إلى الروايات المحلية وأحياناً إلى بعض المعلومات الموثقة، وإلى القليل جداً من المخطوطات.

استمر ذلك حتى قام جون لاكام Jean Lakam بأبحاثه المستفيضة عن الوجود العربي الإسلامي. وقد شمل ذلك المقابر والأسلحة، والنقود والآبار، والمباني، وأهم من كل ذلك، اكتشاف «المحراب» في جدران بعض الكنائس في جنوب فرنسا وخاصة في ناربون Narbonne . ومن الممكن كذلك أن تكون بعض الكنائس والكاتدرائيات القائمة اليوم في منطقة الفار Var ، ووادي الرون Rhone، قد بنيت أساساً كمساجد وتمّ تحويلها بعد ذلك. ومن سوء الحظ أن بحثاً مماثلاً لم يجر حول هذا الأمر في سويسرا.

ولعل الخلاف الأشد بشأن الوجود العربي الإسلامي في المناطق الألبية يقع في دائرة البحث اللغوي. ويعود عدم التأكد إلى عدة أسباب:

أولا: هناك خلافات كبيرة بشأن مصدر العديد من أسماء الأشخاص والمواقع في المناطق الألبية. وقد أدى ذلك



يبدو أن موت الخليفة عبد الرحمن في عام ٩٦١، واعتلاء ابنه الحكَم الثاني العرش، شكل نقطة تحوّل جذرية. فقد رفض مواصلة دعم «الصيفية» التي كانت تزعج مسيحيي أوروبا الوسطى

إلى اعتقاد عدد من العلماء والكتّاب في القرن التاسع عشر إلى أن بعضها يعود إلى أصول عربية. ومما لا شك فيه أن ذلك ترافق مع وجود عدد كبير جداً وبشكل غير طبيعي من أسماء المواقع في سويسرا التي تبدأ بـ«ال» التعريف العربية. والأمثلة على ذلك تتضمن أسماء مثل:

الماجل: Al magell

لبولا: Al bula

البانا: Al bana

البريس: Al bris

وهذا غيض من فيض.

ثانياً: هناك مواقع عديدة في شمال إيطاليا (وخاصة في وادي انزاسكا Anzasc) وفي جنوب سويسرا وفي شمال فرنسا تحمل لفظة مور Moor كجزء من الاسم. وعلى سبيل المثال جبل دي موراس Mont de Maures (في جنوب فرنسا).

وجبل مورو Mont Moro (على الحدود بين إيطاليا وسويسرا).

إن الأمر المثير حقاً في معظم هذه الحالات هو أن المواقع التي تحمل هذه الأسماء كانت إما مواقع للمسلمين العرب حيث أقاموا فيها حصوناً وقلاعاً، أو أنها تقع في طريق الممرات والطرق التي سيطروا عليها واستخدموها.

إن بحثاً لغوياً من هذا النوع هو بحث تخميني بدرجة عالية ومن المستحيل معرفة:

أ - أي لغة أو لهجة اعتمد المسلمون.

ب - كيف كان لفظ عدد من الكلمات الأساسية.

ج - أي تحوير طرأ على الكلمات العربية على مرّ القرون على يد المتحدثين الألمان والفرنسيين والإيطاليين.

وهناك المزيد من الإشكاليات التي تتعلق بهذه التخمينات. منها أن اسم أي موقع في سويسرا يبدأ بحروف أ - ل - ب يصبح موضع شك على الفور. ذلك أنه من المرجح أن الاسم المتداول هو ببساطة مشتق من الألب. لذلك لا يمكن إيلاء ثقة كبيرة بأن تكون أسماء هذه المواقع من مصادر عربية حكماً.

ولكن على الرغم من وجود أسماء أخرى يحتمل أن تكون مشتقة من أسماء عربية فإننا لا نملك أي منهجية علمية لتثبيت هذا الربط. وهذه لائحة مختصرة بأسماء المواقع التي يعتقد على نطاق واسع أنها مرتبطة بوجود المسلمين العرب والتي لا تزال مستخدمة حتى اليوم:

- جسر السراسينوروم pons Saracenorum (مدينة هامة على طريق ممر برنينا، تدعى اليوم Pontresina) أي جسر المسلمين العرب.
- المحل (قرية في وادي الساس) Almagell
- إلى العين (جبل قرب وادي الساس) Allain - Allalain
- العين (جبل في وادي الساس) Alp Aien
- مشايل ومشبل (سلسلة ينابيع مياه في وادي الساس واسمها الأصلي Mushbil Mushabil) Mischabel أشبال الأسد.

جابي - أي جامع الضرائب (قرية في الطريق إلى ممر سيملون واسمها الأصلي Jabi) Gstein- Gabi.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الاسم الأول فقط من هذه اللائحة موثق في المصادر المعاصرة. ومما لا شك فيه على الإطلاق أن مصدر اسم بونترسينا Pontresina هو الاسم الوصفي اللاتيني بمعنى جسر السراسين Saracens. وهذا ما يعطي الانطباع بأن السراسين (أي المسلمين العرب) أقاموا هناك جسراً هاماً. أكثر من ذلك، أن الاسم العائلي الأكثر تداولاً في المنطقة سراز Sarraz يرتبط بغطاء للسلاح يشبه شكل الجسر.

إضافة إلى ذلك هناك أسماء العديد من المواقع:

قصر سراسين Chateau Sarasim

جسر سراسين، إضافة إلى أسماء عدد من القرى الصغيرة في غرب سويسرا التي تتناثر شمالاً حتى برنر جورا Berner Jura (حفرة برنر) (السراس La Sara) والتي يعتقد أن أصولها تعود إلى المسلمين العرب (السراسين). وبما أن ثمة وثائق تؤكد أن هذه التسميات لم يكن لها أي ذكر إلا بعد وجود المسلمين العرب فيمكن القول أن ثمة علاقة تاريخية بينهما. مع ذلك ينقص الإثبات.

إن الأسماء التي يظن أنها مستخرجة من العربية تثير القدر الأكبر من الصعوبة.

ويمكن الاعتقاد بأن الصلة المنطقية بين تعبير معين باللغة العربية وما يدل عليه في الوقت الحاضر يؤكد صدقية هذا الادعاء. غير أن هذا المنطق يصطدم بصعوبات معينة. فالبحث في الأسماء العربية التي يفترض أن تكون محل استخدام في مثل هذه المناطق، (مثل: الثلج والجليد والممر والانهيار الثلجي والشقوق والحواجز والسيل، وسواها) ليست على تماثل مع الأسماء المتداولة. غير أن ذلك وحده لا يكفي بشكل كامل لاستبعاد أسماء هذه المواقع التي يعتقد أنها مشتقة من العربية. فهي تشير إلى صعوبة الاحتفاظ بأسمائها لمدة ألف عام من دون تغيير أو تحوير. أكثر من ذلك، ففي واحدة من المواقع التي أشرنا إليها أعلاه، مشبل Mushbail، ثمة من الأدلة ما يشير إلى أن الاسم مشتق في الحقيقة من لهجة محلية. وفي اعتقاد أحد المؤرخين المرموقين، فإن هذه السلسلة الجبلية بالذات تستمد اسمها من اسم محرف هو Mistgabel ومعناها (شوكة السّماد)، وهو اسم يشبه إلى حد كبير إحدى الأدوات الزراعية المحلية المستخدمة على نطاق واسع.

ومما يعزز هذا الاعتقاد أن وجود العديد من المواقع فى المنطقة التى لم تحمل أى اسم على الإطلاق حتى وقت متأخر. فبعض الأسماء المعروفة اليوم ربما تعود بشكل مباشر إلى الأحداث التى وقعت خلال السنوات الخمسين الماضية والتى لا يعرف مصدرها سوى المحليين من السكان (المسنّون منهم) الذين يتذكرون تلك الأحداث. (يبدو أن مصدر هذه التسمية ليس جزءاً من الفولكلور المحلى).

ومن جهة ثانية يجب أن نضيف إلى ذلك كله أن السكان المحليين فى هذه الوديان الجبلية يشعرون بحساسية مفرطة تجاه تصنيفهم بأنهم من أصول إسلامية - عربية. فقد رفضوا بأشد التعابير القول بأنهم ينحدرون من أصل عربى. وربما يكون ذلك قد أثّر على صحة المعارف المحلية، وساهم فى دفع الأمور نحو البحث عن تفاسير بديلة بما يدعم هذا الجدال الكلامى.

الدلائل الاقتصادية:

يعتقد بعض البحاثة أن العرب المسلمين ساهموا فى تطوير الحياة الاقتصادية للسكان الذين كانوا تحت سيطرتهم، وخاصة فى فرنسا وسويسرا. ففى فرنسا تتضمن هذه المساهمات:

أ - إدخال زراعة القمح وخاصة فى منطقة الفار Var. ويعرف هذا النوع من القمح فى فرنسا باسمين هما القمح الأسود Ble noir. ومما يؤكد على ذلك الاسم الثانى له وهو قمح السراسين (أى القمح العربى الإسلامى).

ب - إدخال زراعة شجر البلوط فى المنطقة المحيطة بمنطقة فرينيه Freinet، كما تشير إلى ذلك الروايات المحلية.

ج - إدخال الطريقة العربية فى تحويل لب خشب الصنوبر إلى قطران لتشغيل المراكب البحرية. ودعماً لذلك يشير هؤلاء الباحثون إلى أن الكلمة الفرنسية لقطران شجر الصنوبر هى قودرون Goudron، وهى مشتقة من الكلمة العربية قطران.

مع ذلك فإن هذا الدليل ليس مجرداً من الإشكاليات، انه يعتمد من جهة على الإشكاليات اللغوية، ومن جهة ثانية على التقاليد المحلية. فى الحالة الأولى فإن هذه الإشكاليات لا تظهر ارتباطاً عادياً بين الاسم والمسمى بشكل واضح، وفى الحالة الثانية فإن الروايات المحلية لا يمكن الاعتماد دائماً عليها.

إن لبعض الأدلة حضوراً أقوى، ويمكن الاعتماد عليها أكثر. ويبدو أن المسلمين العرب قاموا بأعمال منجمية (حفر مناجم بحثاً عن المعادن) وخاصة فى تاند Tende ولافيرييه La Ferrier قرب برشلونة Barcelonette، حيث صنعوا كما يبدو الأسلحة. وفى هذه الحالة جرى البحث التنقيبى فعلاً فى هذه المناجم.

أكثر من ذلك، ففى المناجم قرب تاند (وكذلك فى مناجم فالوريا Valuria) هناك معارض تحمل اسم «معرض المسلمين العرب» Gallerie Sarrasine، وذلك لأنهم (أى المسلمين العرب) هم الذين قاموا بحفرها (وهذه حالة مثبتة من خلال الآثار المتبقية).

أما فى سويسرا فإن الأدلة تبدو أقل جزماً. وفى الواقع فإن كل ما قدِّم من حجج يتوقف على روايات محلية، رغم أن بعض المظاهر الاستثنائية فى المناطق المشكوك فيها تستحق الاهتمام. مثالاً على ذلك، توجد رواية محلية فى أحد وديان الرون Rhone تقول إن المسلمين العرب عندما أقاموا فى هذا الوادى أدخلوا زراعة نوع معين من العنب، الذى لا يزال يزرع هناك حتى اليوم.

وفى الواقع فإن الخمر الذى يعصر من هذا العنب يعرف محلياً باسم Heiden Wein أى خمر الوثنيين، وذلك كمؤشر إلى أنه أدخل عن طريق غير المسيحيين. ويمكن اعتبار هذا الأمر مؤشراً فى حد ذاته.

وهناك من يعتقد أن المسلمين العرب هم الذين ادخلوا لحم الغنم كمصدر للحوم. كما أن امتناع السكان المحليين عن تربية الخنازير لا يمكن تفسيره إلا على انه يعود إلى فترة حكم المسلمين العرب.

وباختصار لا يمكن القول بأن ثمة مؤشرات كثيرة على النشاطات الاقتصادية التى قام بها المسلمون العرب، ولكن من جهة أخرى، فإن ما يتوفر لدينا من أدلة تشير إلى أنه كان لنشاطات مستوطنة فراكسيناتوم Fraxinetum أثر أكبر مما يبدو من خلال قراءة الوقائع المعاصرة.. ربما كانت نشاطاتهم أكثر تنوعاً وأبعد مدى مما كان يعتقد. ومن شأن ذلك أن يطرح السؤال حول ما إذا كان المسلمون العرب قرروا البقاء طويلاً فى هذه المناطق ثم تراجعوا عن هذا القرار بتوجيه من الخليفة (الحكَم) فى قرطبة، كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

المؤشرات العنصرية (الاثنية):

تعتبر هذه المؤشرات المصدر الأكثر جدوى، وهى فى الوقت نفسه، المساحة الأكثر اهتماماً لتأكيد الأحداث الماضية من خلال البصمات المعاصرة.

ففى الحالة الفرنسية، وجد الباحثون أن عدداً من الاستخدامات والعادات المثيرة للاهتمام فى بروفنسا Provence وفى وادى الرون Rhone تعود إلى زمن الاجتياح الإسلامى - العربى. ومن هذه العادات بعض الرقصات الشعبية - الفولكلورية، والاحتفالات الخاصة المتعلقة بخروج المسلمين العرب من القرى الصغيرة. هنا نجد أن بعض الباحثين يتعامل مع هذه المؤشرات بشىء من الشك، وذلك بحجة أن المساهمة العربية - الإسلامية، ربما تكون قد جاءت فى وقت متأخر وتركت بصماتها فى مرحلة لم يكن السكان القرويون يعرفون عنها الكثير.

ومن جهة ثانية وافق العلماء الاختصاصيون فى تلك المرحلة (مطلع القرون الوسطى) ومن زمن طويل، على أن الغزوات العربية الإسلامية، وان الوجود العربى الإسلامى فى جنوب فرنسا تركا آثاراً بعيدة المدى. والسؤال هو: إلى أى درجة؟ وثمة سؤال آخر مرتبط بالموضوع الحالى وهو: هل يمكن (أو هل من الضرورى) الفصل بين المؤشرات الواضحة عن الغزوات والاحتلالات التى وقعت فى منتصف القرن الثامن، عن تلك التى وقعت فى منتصف القرن العاشر؟

بالنسبة للجواب على السؤال الأول، فإن بعض العلماء يعتقد أن التأثير كان بنيوياً، وأنه غيّر بشكل كامل مستقبل أوروبة. وبالنسبة لعلماء آخرين فان تلك الاجتياحات دمرت الوحدة الثقافية والتجارية للبحر المتوسط وأدت إلى إعادة تجمع المراكز الثقافية الأوروبية فى الشمال. وهناك آخرون يعتقدون أن هذه الاجتياحات غيّرت العلاقات الدينية - السياسية القائمة بما مكّن السكان من التعامل عسكرياً مع التهديد العربى الإسلامى بأشكال أكثر فعالية.

من المؤكد أنه ليس بالإمكان فى إطار هذا البحث تقديم تلخيص وافٍ للاشكاليات المطولة والمعقدة والأدلة المتعلقة بها مع النظريات المختلفة حول مدى تأثير العرب المسلمين على جنوب أوروبة. مع ذلك، لا بد من ملاحظة أن أكثر هذه المؤثرات تداولاً تتناول اللغة والأساليب الأدبية والعادات فى بروفنس Provence. إضافة إلى ذلك فإن تحليل ومناقشة مثل هذه الأسباب المتعددة، وتأثيراتها (مثل دور التطوير التقنى فى الفروسية، وعلاقات التبادل التجارى، ومصادرة الأراضى وسياسات إعادة توزيعها، وحتى المصادر الأساسية لعبارة الأرض المقطعة والمقتطعة «Fief» (ولعل مصدرها فىء) من شأنه أن يحافظ على استمرار الاختلاف حول ما بعد الوجود العربى الإسلامى.

وفى الوقت نفسه، يبدو مستبعداً جداً أن تكون هناك حاجة إلى التمييز بين الأحداث التى وقعت فى الأوقات المختلفة التى أشرنا إليها. وبكلام آخر فان حجب معارف أساسية جديدة (أثرية وأدبية) لا يسمح لنا بأن نفعل ذلك.

وفى الحالة السويسرية، فان الدليل هو أشد ثباتاً وأكثر تنوعاً. فعلى سبيل المثال فإن العديد من البحاثة سجلوا ملاحظات حول المواصفات غير العادية لسكان وادى الساس Saas. وهو واد منعزل نسبياً يمتد جنوباً من مدينة فيسب Visp فى الرون Rhone وينتهى فى ممر نادر الاستخدام وهو ممر مونت مورو Monte Moro والذى يؤدى إلى وادى انزا Anza فى إيطاليا (عند مدينة ماكوغناغا Macugnaga). وقد سجل أحد هؤلاء البحاثة ملاحظات حول «السمات السامية» التى وجدها فى هذا الوادى وفى الوديان المجاورة له. ولاحظ باحث آخر كيف أن السكان بصورة عامة ذكّروه بالنماذج التى وجدت فى جنوب إيطاليا أو بين الأفريقيين الشماليين (أى عرب شمال أفريقيا).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الاختلافات المتجمعة فى السمات الجسدية والتى كثيراً ما كانت موضع حديث فى السابق، لا تزال واضحة حتى اليوم. أكثر من ذلك، هناك باحث واحد على الأقل

لاحظ نسبة عالية من الأسماء المتداولة فى جنوب وادى الرون Rhone والتى تتميز بنكهتها الشرق أوسطية أو الشمال أفريقية.

ولعل من أهم العادات التى لوحظت فى الأربعينيات من القرن العشرين والتى لا تزال مستمرة حتى اليوم:

١ - استمرار رفض سكان وادى الساس Saas تربية الخنازير على الرغم من أن لحمها هو مصدر تقليدى للحوم فى المناطق الأخرى من وادى الرون Rhone.

٢ - الطريقة الخاصة لذبح المواشى (من اجل تناول لحومها)؛ وكما لاحظ أحد البحاثة فان هذه الطريقة لم تسجل إلا لدى بربر (أمازيغ) شمال أفريقيا.

٣ - قلة وجود الغابات والمساحات المشجرة فى وادى الساس Saas، إضافة إلى وجود أدلة أثرية تثبت اعتماد نفس الأسلوب فى شواطئ شمال أفريقيا.

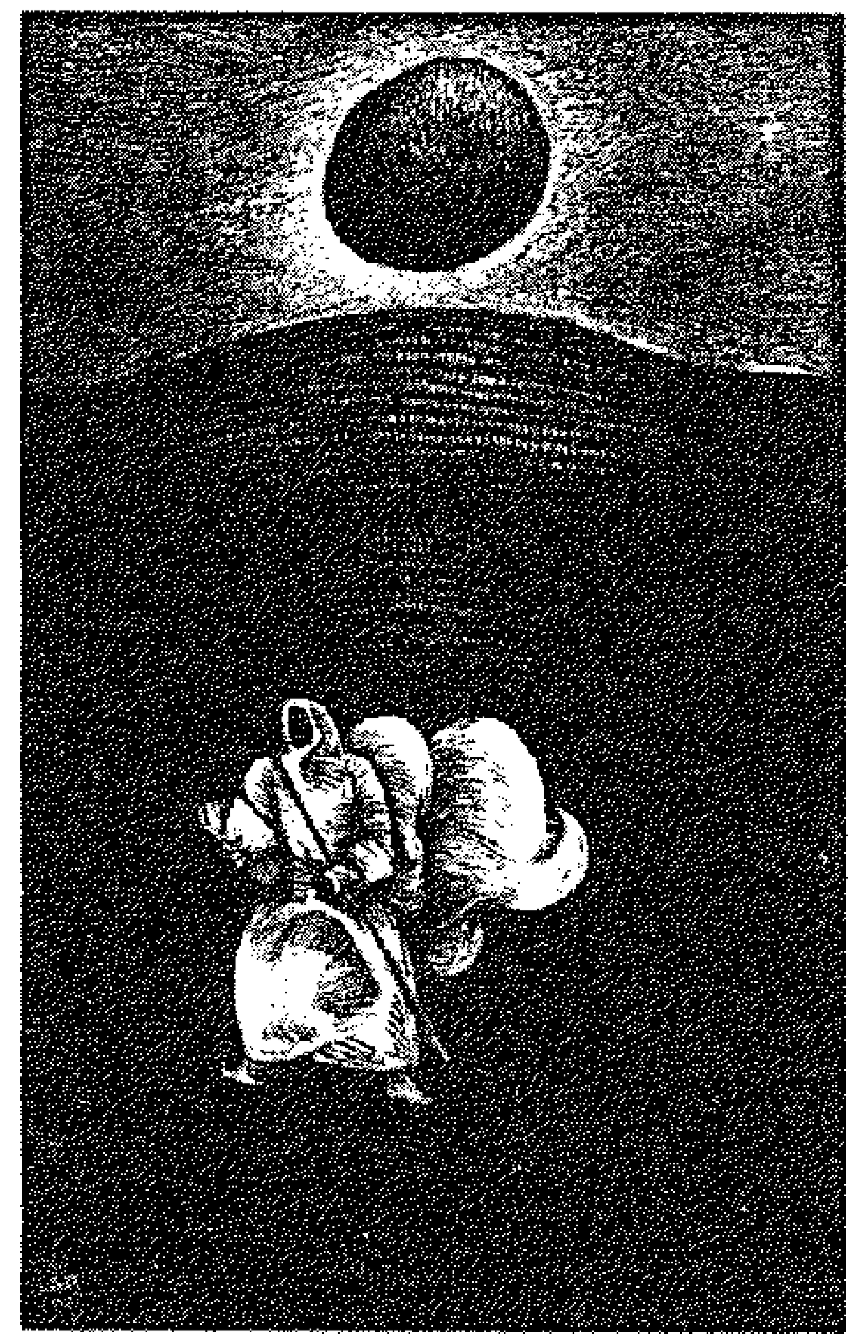
وفى الواقع فان عدداً من الاختصاصيين فى موضوع غزوات العرب المسلمين أشار إلى وجود عدد من المستوطنات فى المنطقة والى الزواج المختلط مع السكان المحليين؛ سواء فى فرنسا أو سويسرا وذلك قبل إزالة قاعدتهم نفسها فراكسيناتوم Fraxinatum.

وإضافة إلى الأدلة غير المباشرة هذه، فان من الصعب إثبات هذه الحجة، الأمر الذى يتطلب المزيد من البحث. وربما كان للزواج المختلط وللمستوطنات العديدة التى أقامها العرب المسلمون دور فى استمرار «فراكسيناتوم»، وفى استمرار هيمنتها على بعض المناطق من دون الحاجة إلى استقدام مهاجرين جدد من إسبانيا.

وبما أنه لا يوجد بحث منهجى (حول أصول الأجناس والخلايا الجينية والدم) بين السكان المحليين فى هذه الوديان والتى يمكن أن تساعد للإجابة على السؤال حول أصولهم، فإننا مضطرون فى الوقت الحاضر إلى توسل التخمين لتوضيح ما إذا كانت توجد بالفعل نماذج غير محلية.

المواصفات السياسية:

بما أن السجلات الأوروبية المعاصرة حول غزوات العرب المسلمين معنية بدرجة أساسية بإبراز الأدلة على تهمة «لا إنسانية وعلى فظاظة الغزاة المدمرة»، فإنه من الصعوبة بمكان التوصل إلى تقدير دقيق لمؤثرات تلك الغزوات على



«العرب المسلمون لم يكونوا يحملون سلاحاً ولم يكونوا مزعجين للسكان المحليين. وكانوا يشرفون على إدارة المدينة وضواحيها بيد خفيفة»

المناطق الألبية، وبصورة أقل على انعكاساتها البعيدة المدى. ثم إنه على الرغم من وجود سجلات وكتابات للمؤرخين العرب تغطى هذه الحقبة من التاريخ الإسلامى، فانه لا توجد أى إشارة محددة إلى التطورات المتعلقة بمستوطنة فراكسيناتوم أو إلى الضوابط الإدارية التى مارسها العرب المسلمون فى المناطق الألبية.

إن الدليل الوحيد الذى يشير إلى الوجود العربى هو أن العرب استخدموا عبارة جبل مونجو Jabul Monjaw اسماً لجبل الألب. وهو اسم مصدره الاسم اللاتينى الذى كان مستخدماً فى ذلك الوقت، وهو مون جوفيز Mons Jovis، أى (جبل جوبيتير) وكان هذا الاسم قد خصص تحديداً لتسمية منطقة ممر سان برنارد St. Bernard والتى لم تحصل على اسمها هذا - الحالى - إلا بعد العمليات التى قام بها (القديس) برنارد نفسه.

مع ذلك هناك بعض الأدلة من المصادر المعاصرة تشير إلى أن العرب المسلمين لم يكونوا قساة القلوب ولم يكونوا غير إنسانيين كما جرى تصويرهم (غالباً لأسباب سياسية محلية). فعلى سبيل المثال هناك واقعة تبدو ثابتة تماماً جرت مع مسافر فى مدينة فيرسيللى Verscelli فى شمال إيطاليا، فقد وصف العرب المسلمين بأنهم يعيشون مع وبين السكان المحليين بطريقة أوحت إليه بأنهم مستقرون تماماً. «فالعرب المسلمون لم يكونوا يحملون سلاحاً ولم يكونوا مزعجين للسكان المحليين. وكانوا يشرفون على إدارة المدينة وضواحيها بيد خفيفة».

ويبدو أن العرب المسلمين لم يتحولوا إلى جمع الضرائب والى المصادرة إلا بعد أن تبلغت مستوطنة فراكسيناتوم بأنها لن تلقى بعد الآن الدعم من إسبانيا. وقد أشار إلى ذلك بالتفصيل عدد من الكتّاب المعاصرين، ولان الأمر تناول رجلاً متديناً ومعروفاً فى ذلك الوقت، هو القديس مايولوس St. Maiolus من دير كلونى Cluny. ففى عام ٩٧٢ كان القديس مايولوس عائداً إلى الدير بعد رحلة إلى روما. فاستخدم طريق سان برنارد St. Bernard لاجتياز الألب. وبعد أن نزل من الجهة الشمالية إلى مدن الوادى الواقعة على الطريق الصعودى، اختطف مسلحون مجموعته. وطالب الخاطفون وكانوا من المسلمين العرب فدية مالية مقابل إطلاق سراحهم. دفع الدير الفدية وقدرها ألف جنيه من الفضة (بعد أن اضطر إلى بيع معظم موجوداته) وقد حددت قيمة الفدية بحيث توفر لكل عنصر من الخاطفين مبلغ جنيه فضى واحد.

كان لهذا الحادث أهمية خاصة لسببين:

١ - أنه يوفر لنا الدليل الوحيد على عدد المسلمين العرب الذين كانوا متواجدين فى المناطق الألبية فى ذلك الوقت. ويتمتع هذا العدد بشىء من الصدقية من خلال حقيقة أن أحداً لم يحاول بشكل جدى أن يقوم بعمل مسلح مضاد للمسلمين العرب، أى أن عددهم كان كبيراً لدرجة أن أى عمل بديل عن دفع الخوة لم يكن ممكناً.

٢ - إن هذا الحادث كان آخر الأحداث الكبيرة التى قام به المسلمون العرب فى منطقة الممر. وبكلام آخر، فإنه يقدم لنا بعض التأكيد إلى نوايا العرب المسلمين بالانسحاب الطوعى إلى قاعدتهم فى فراكسيناتوم. ويبدو أن هذه القوة بالذات كانت فى طريقها إلى فراكسيناتوم عندما وجدت فرصة سانحة للقيام بعملية الجباية الأخيرة.

وبالمحصلة، يبدو أنه فى الحالات التى تمكن فيها العرب المسلمون من أنفسهم، وحيث قرروا التواجد الدائم، اعتمدوا نظاماً للإدارة أقل وطأة من الأنظمة الاعتباطية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت.

ومن جهة ثانية، والى أن يتم إقرار بعض الإجراءات السياسية والإدارية (مثالاً على ذلك الاتفاق مع الملك هيغو Hugo) وبعد أن قررت قرطبة وقف دعمها لعملياتهم: كانوا (العرب المسلمون) يعتمدون بالفعل وبدرجة كبيرة على الإمكانات التقليدية التى يعتمد عليها عادة أى جيش غاز، فيأخذون ما هم فى حاجة إليه، عندما يكونون فى حاجة.. مع «قليل من الإضافة» لمصلحة المشتركين.

استنتاجات:

إن وقائع الأحداث والدلائل المتوفرة، تطرح عدداً من الأسئلة:

أولا: يلاحظ القارئ أن عبارة Saracen (العرب المسلمين) فُضلت فى الاستخدام على أى عبارة معاصرة أخرى (إلا فى حالات محدودة جداً). وقد جرى ذلك بصورة رئيسية لأنه ليس واضحاً تماماً مع من نتعامل. فالأدبيات الأوروبية لم تستخدم كلمة «عرب». واقتصرت على استخدام كلمة سراسن Saracen للدلالة على الغزاة. وفى حالات قليلة جداً استخدمت كلمة الاسماعيليين Ismaelites أو كلمة المور (المغاربة) Moors. والأمر المثير فى ذلك هو أن الوقائع المعاصرة تعترف وتميز بشكل واضح الأصل الإسبانى للمهاجمين. فالقسم الأكبر منهم إن لم يكونوا جميعهم، جاءوا من إسبانيا، وتلقوا تعليماتهم من الأمير / الخليفة فى قرطبة. مع ذلك وفى الوقت نفسه، فان بعض السجلات تشير إليهم بعبارة «الأفارقة». فمن كان السراسن Saracen حقاً؟

يمكننا الجواب بأنهم ربما كانوا من المسلمين البربر وليسوا من العرب. وقد تداول الباحثون المعاصرون مؤخراً كثيراً حول هذه الإمكانية، وهناك قدر من المنطق لقبول هذا التفسير.

وإضافة إلى المؤشرات التى ذكرناها أعلاه، يجب أن نذكر أن الأمراء / الخلفاء العرب فى إسبانيا كانوا يستخدمون القادمين الجدد من البربر فى خطوط المواجهة الأمامية للتصدى

للحملات الأوروبية عبر جبال البرينيه Pyrenees. ولذلك فإنه من المعقول جداً أنهم كانوا يشجعون البربر على القيام بالحملات الصيفية، لإبعاد أى شعور لديهم بالغبن نتيجة عدم مساواتهم مع عرب إسبانيا.

وتبعاً لذلك، فإنه من المنطقى أن نضيف توافق الكتّاب المعاصرين على تقدير المهارات العسكرية للمسلمين العرب فى المناطق الجبلية، وإلى تفضيل هؤلاء للمناطق الجبلية بشكل واضح.

ومع أن أى قوة صغيرة مسلحة فى أرض معادية تفضل التموضع فى مواقع دفاعية فى سفوح التلال والجبال، على مواقع لا يمكن الدفاع عنها فى السهول والأودية، فان هذه التوصيفات تعيد إلى الأذهان عدم الاكتراث العربى التقليدى لاختراق المناطق الجبلية. وللدلالة على ذلك، فإن معظم المناطق الجبلية فى العالم العربى لم تعرّب تماماً ولكنها تأسلمت جميعها. وأفضل الأمثلة على ذلك هى جبال العراق والمغرب والجزائر ولبنان وسوريا.

وثمة سؤال آخر يفرض نفسه فى هذا السياق، فلم يشر أى مصدر معاصر إلى وجود صعوبات لغوية بين العرب المسلمين والسكان المحليين. وبما أن المهاجمين تولوا إدارة الممرات الرئيسة لمدة جيل تقريباً، فإن ذلك قد لا يكون أمرا غير طبيعى، على الأقل بالنسبة لهذه المناطق. مع ذلك وبالرغم من أن كل السجلات المثيرة للاهتمام تتعلق بالغزوات اللاحقة، فإن هذا الموضوع لم يطرح على الإطلاق، لماذا؟.

إن الجواب على هذا السؤال تحديداً تتضمنه الحقيقة التالية: وهى أن مسيحيين ويهوداً من إسبانيا شاركوا فى «الصيفية». ورغم أن لدينا بعض الدلائل على أن اللاتينية وربما لغات محلية أخرى كانت تدرس فى إسبانيا العربية، فانه لا يبدو أن المشاركين فى «الصيفية» احتاجوا إلى أو كانوا بحاجة إلى خدمات لغوية. مع ذلك فان النجاح الذى لا ينافس لعدد من «الصيفيات» وخاصة لصيفية فراكسيناتوم Fraxinetum أدى إلى جذب «جنود الثروة» الذين كانوا متواجدين فى أرجاء المنطقة. فنحن على صواب عندما نعتقد أن العناصر غير العربية وغير البربرية التى شاركت فى الصيفيات من أجل مكاسب شخصية تصرفت بشكل عفوى كمترجمين ووسطاء بين العناصر الإسلامية والسكان المحليين فى الحالات التى كان التواصل فيها ضرورياً.

إضافة إلى ذلك ثمة اعتقاد بأنه فى المناطق التى تواجد فيها المسلمون العرب بكثافة، كانت هناك أعداد كبيرة من الناس الذين يعرفون العربية. وربما يكونون قد اكتسبوها نتيجة لتعايشهم لمدة قرنين مع العرب.

لا بد من بذل جهد كبير لمعرفة ما إذا كان الخليفة فى قرطبة، وأهم من ذلك، ما إذا كانت وجهة النظر الإسلامية العامة حول الإجراءات الإدارية فى الأراضى التى أصبحت بصورة مؤقتة جزءاً من دار الإسلام، قد تأثرت بوجودها لمدة قرن كامل بأوضاع المناطق الألبية أو إذا كانت قد فشلت فى تقديم أى دليل مادى على مثل هذا التأثر.

إن الافتقار إلى أى وصف تفصيلى أو تحليلى لهذه الأحداث من مصادر المؤرخين المسلمين العرب لا يترك لنا أى مجال آخر سوى الاعتماد على التخمين بأن الاحتلال أو الاجتياح العسكرى لشعوب أجنبية ليس معنياً بوضع إجراءات إدارية منظمة. ولكن عندما يتعلق الأمر بإدارة طويلة المدى للأراضى الجديدة تبرز مثل هذه الإجراءات المنظمة. فنحن لا نملك أى دليل على أن العرب المسلمين أقاموا سلطة إدارية حكومية باستثناء عملية جمع الضرائب والمكوس.

كما أننا لا نملك أى مؤشرات على وجود نظام قضائى أو أى شكل من أشكال متابعة الخلافات بين المسلمين العرب والسكان الأصليين.

وبما أن الخليفة فى قرطبة لم يعط أى إشارة إلى وجوب استتباع هذه المناطق بصورة دائمة بأرض الإسلام، فيبدو انه لم يكن هناك حافز للقيام بالعمليات التنظيمية والبنيوية الحكومية على النحو الذى عرفناه فى المناطق الأخرى التى كانت تحت الحكم الإسلامى.

وباختصار، إذن، فعلى الرغم من أن المناطق الألبية فى فرنسا وشمال إيطاليا وجنوب سويسرا قد تأثرت بشكل واضح بخضوعها المؤقت للحكام المسلمين، فان العالم الإسلامى لم يعتبر أبدا تلك المغامرة على أنها أكثر من «غزوة صيفية» ناجحة بامتياز، فى قلب أوروبة، فى الوقت الذى كان مشغولاً بأمور أكثر أهمية! ■

كتاب الزاوية

حياة الرافعى

علمه وثقافته

لأسرة الرافعى ثقافة يصح أن نسميها (ثقافة تقليدية)، فلا ينشأ الناشئ منهم حتى يتناولوه بألوان من التهذيب تطبعه من لدن نشأته على الطاعة واحترام الكبير وتقديس الدين، وتجعل منه خلفًا لسلف يسير على نهجه ويتأثر خطاه. والقرآن والدين هما المادة الأولى فى هذه المدرسة العريقة التى تسير هذه الأسرة على منهاجها منذ انحدر أولهم من صلب الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وعلى هذه النشأة نشأ مصطفى صادق، فاستمع إلى أبيه أول ما استمع تعاليم الدين، وحفظ شيئًا من القرآن، ووعى كثيرًا من أخبار السلف، فلم يدخل المدرسة إلا بعد ما جاوز العاشرة بسنة أو اثنتين. فقضى سنة فى مدرسة دمنهور الابتدائية، ثم نقل أبوه قاضيًا إلى محكمة المنصورة فانتقل معه إلى مدرسة المنصورة الأميرية، فنال منها الشهادة الابتدائية وسنه يومئذ سبع عشرة سنة أو دون ذلك بقليل، وكان الرافعى ردىء الخط لا يكاد يقرأ خطه إلا بعد علاج ومعاناة، وقد ظل خط الرافعى رديئًا إلى آخر أيامه.

وفى السنة التى نال فيها الرافعى الشهادة الابتدائية ـ وهى كل ما نال من الشهادات الدراسية ـ أصابه مرض مشف أثبته فى فراشه أشهرًا ـ وأحسبه كان التيفود ـ فما نجا منه إلا وقد ترك فى أعصابه أثرًا كان حبسة فى صوته ووقرًا فى أذنيه من بعد.

وكان لأبى الرافعى مكتبة حافلة تجمع أشتاتًا من نوادر كتب الفقه والدين والعربية؛ فأكب عليها إكباب النهم على الطعام الذى يشتهيه.



رحلة.. إلى الرومانسية

> الثرية الأمريكية
> باربرا هوتون
> (١٩٣٩)

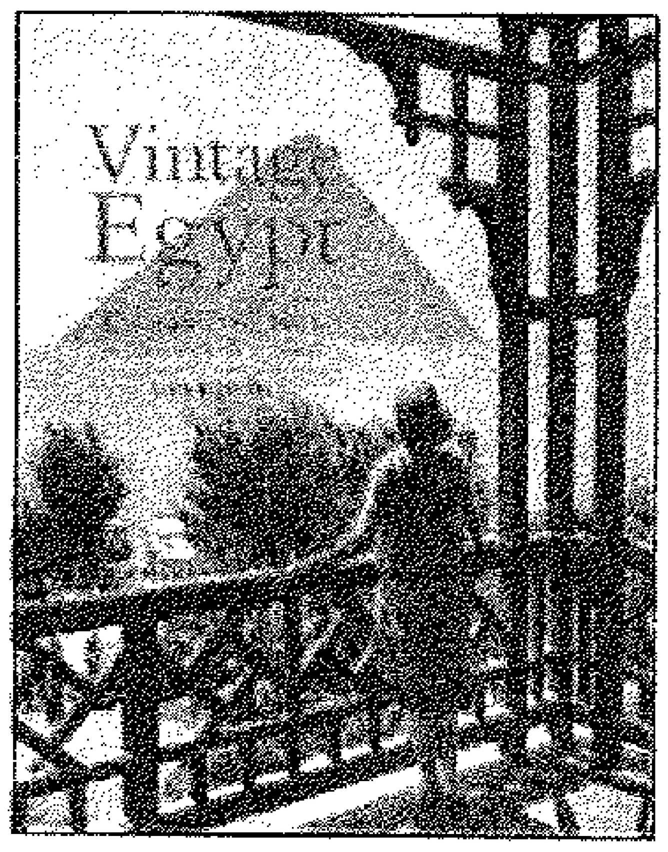
مصر أشهر بلاد الشرق يكفى اسمها لاستدعاء ألف صورة وعدد مماثل من الرغبات لم يتم إشباعها

> «٤٠ قرنا من الزمان..»
> استعادة نابليون





توماس كوك في مصر



آلان بلوتيه

في العام ١٨٦٩ دعا الخديو المصري إسماعيل ٦٠٠٠ ضيف وضيفة لاحتفالية أقامها بمناسبة تدشين الأعجوبة الهندسية في ذلك العصر: قناة السويس. وصلت القناة المائية بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر بطول ١٠٠ ميل (١٦٠ كيلومتراً) واستمر العمل فيها عقداً كاملاً. حضرت العشاء الاحتفالي الإمبراطورة أوجيني Eugenie وإمبراطور النمسا والمجر فرانز جوزيف Franz Joseph وأميرات ويلز وروسيا وهولندا والرجل الذي كان قد فاز بامتياز حفر القناة، المهندس الفرنسي فرديناند ديليسبس Ferdinand de Lesseps . وبين هذه الشخصيات اللامعة كان هناك رجل واحد كاد أن يكون خفيا - مع أن هذا الستيني البريطاني كان من المقدر له أن يغير مسار التاريخ المصري أكثر من أي شخص آخر من الموجودين. كان اسمه توماس كوك Thomas Cook. كان المؤسس والعقلية العبقرية التي وقفت خلف وكالة توماس كوك وولده للسفر والتي كان لها في ذلك الوقت العديد من الفروع حول العالم.

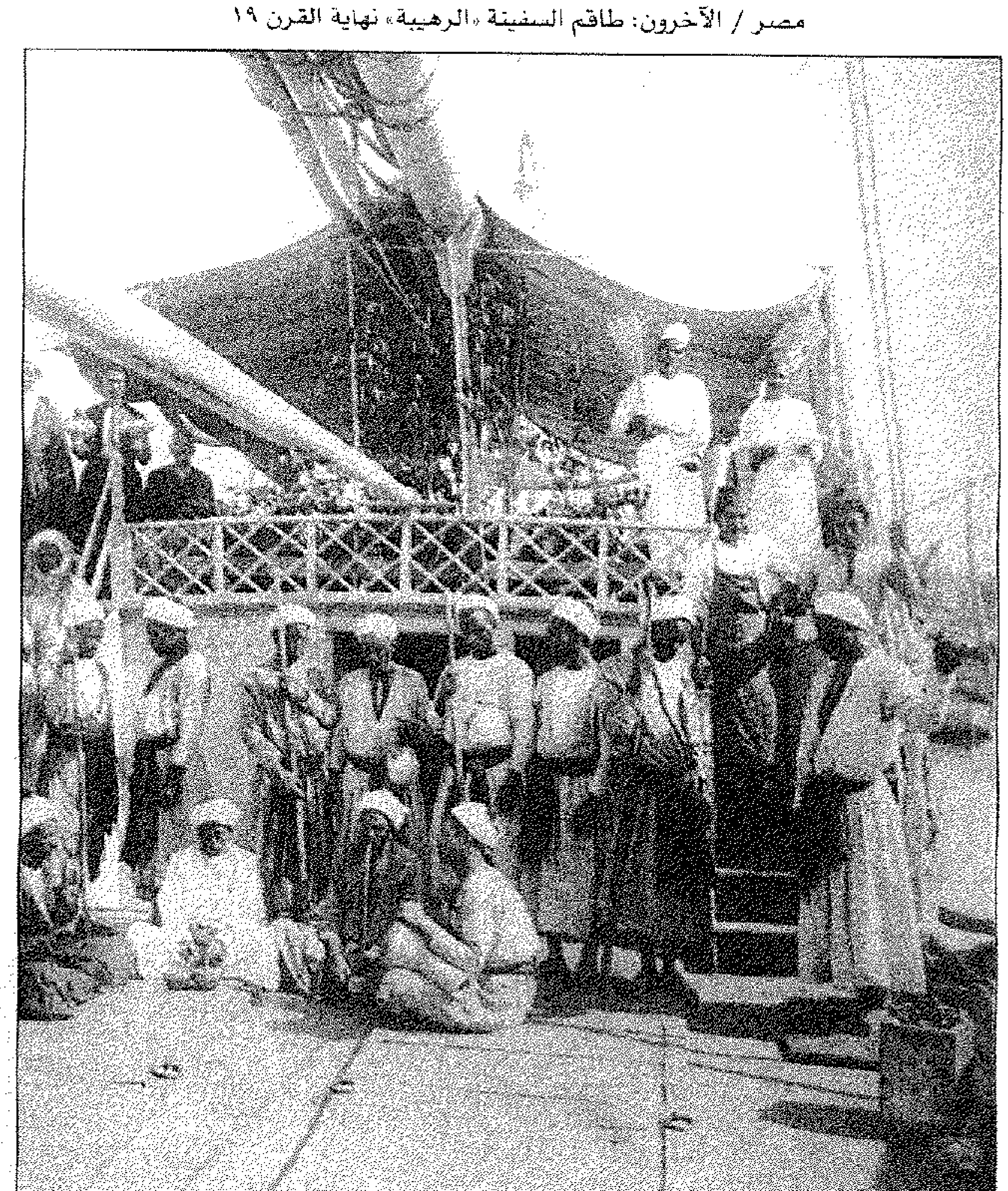
في ذلك اليوم من نوفمبر ١٨٦٩ حضر كوك عرض الألعاب النارية الرائع في سماء بورسعيد وفي اليوم التالي انضم بهدوء إلى مجموعة من السياح على إحدى المراكب الثماني والأربعين المصطفة خلف مركب الإمبراطورة اوجيني المعروفة باسم لايجيل. أبحرت المراكب في الرحلة التاريخية التي افتتحت القناة. كانت تلك رحلة توماس كوك الثانية إلى مصر فقد أتى إليها من قبل عام ١٨٦٨ لتنظيم رحلة إلى الأراضي المقدسة وعرض تلك الرحلة على زبائنه لأول مرة في ربيع عام ١٨٦٨ . قامت الوكالة التي يملكها باستئجار باخرتين لنقل زبائنه في رحلات نيلية وخلال احتفالات نوفمبر استغل كوك الفرصة في توطيد العلاقات التي سوف يبني عليها لاحقا في توسيع عملياته.

في العام التالي تم تعيين ابن توماس، جون مايسون كوك John Mason Cook الوكيل الرسمي لكل خدمات الرحلات النيلية وبعد ذلك بعشر سنوات منحت الحكومة المصرية لعائلة كوك الحقوق الحصرية المؤقتة لتلك الرحلات. كانت الشركة قد قامت بالفعل ببناء الفندق الأول في وادي النيل (بالأقصر عام ١٨٧٧). في بداية القرن العشرين عبر النيل أكثر من خمسين ألف سائح. سخر منهم بيير لوتي Pierre Loti في كتابه لا مورت دي فيليا La Mort de Philae وأسماهم الكوكيز Cookies (مشتقة من كوك وتعني البسكوت - المترجمة). في كل الأحوال أصبحت السياحة مهمة للاقتصاد المصري. ومع فجر القرن الجديد وجد المسافرون القلائل. هؤلاء الذين كانوا على قدر من الشجاعة سمحت له باتباع خطوات جوستاف فلوبير Gustave Flaubert ودايفيد

مقدمة كتاب:
Vintage Egypt
Cruising the Nile in the Golden Age of Travel
الرحلات النيلية في العصر الذهبي للسياحة
Alain Blottiere
Paris - Flammariam - 2003

ترجمة : نرمين نزار

مصر / الآخرون: طاقم السفينة «الرهيبة» نهاية القرن ١٩



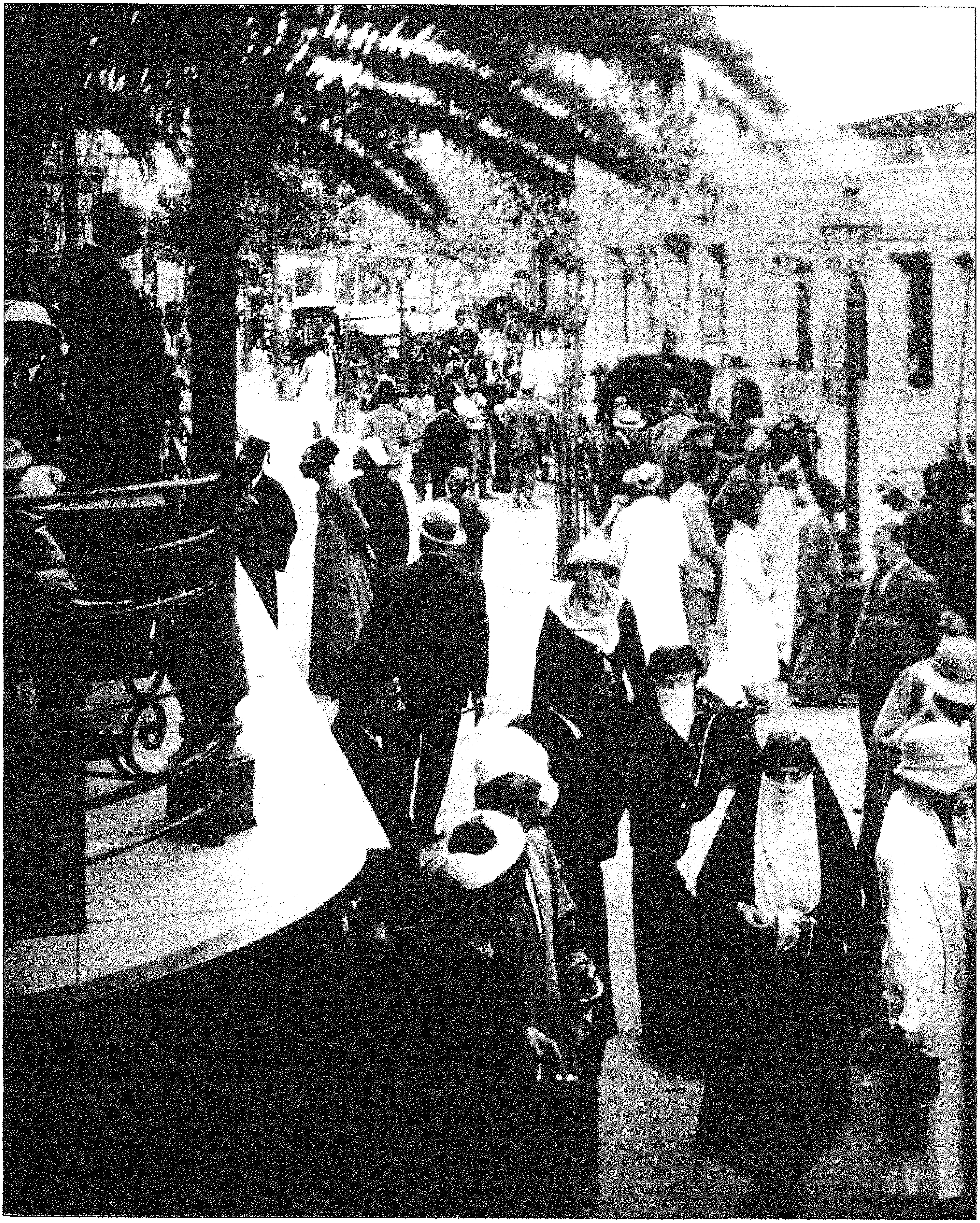
مصر / الأخرى: ترامواي ١٥ (١٩٣٦)


الخديو توفيق
فى معية جابو

<

سائحون.. مصريون فى شارع إبراهيم باشا (١٩٢٨)





روبرتس David Roberts وفريدريك كاليو Frederic Caillaud وفلورانس نايتنجيل Florence Nightingale- أنفسهم محاطين بجماعات من المرتحلين الذين اشتروا رحلات مجهزة فى لندن أو باريس أو برلين. بدا أن هذا النوع الجديد من السواح وراء كل عامود ويستولون على كل أثر. لقد بدأ عصر السياحة الجماعية.

لقد غدت أوهام «الرحلة إلى الشرق» الخيالية الأحلام الأوروبية لوقت طويل. أحلام ساحرة عن أراض غرائبية وأنماط حياة مرفهة، عن الحسية التى تكمن خلف الحجاب الذى يغطى الوجه وطقس دافئ ينسى التصلبات التى يسببها برد شتاء الشمال ويشفى الاعتلالات .... أضافت مصر ماضيها الفرعونى إلى تلك الروائع الكلاسيكية الجذابة، كما أضافت أنقاضها الرومانسية والشريط الملتف الذى يكونه نهرها الغارق فى ضوء الشمس. من بين كل أقطار الشرق كانت مصر بدون شك. بفضل نابليون بونابرت وعلمائه والمتخصصين فى المصريات الذين أتى بهم معه- أشهر بلاد الشرق وأسهلها على التخيل. يكفى اسمها وحده لاستدعاء ألف صورة وعدد مماثل من الرغبات التى لم يتم إشباعها. لم يكن السواح الأوروبيون الذين يجوبون الريفيرا بين مارسيليا Marseille ومانتون Menton عام ١٩٣٠ بحاجة إلى صور لتلهمهم. كانت تكفى كلمات «زوروا مصر...» على لوحات ملاصقة للسكة الحديد. حكى كلود أفلين فى كتابه بروموناد أجيبسيان (١٩٣٤) أضيف على بعض اللوحات «...

ابتسم فأنت فى ضيافة التاريخ

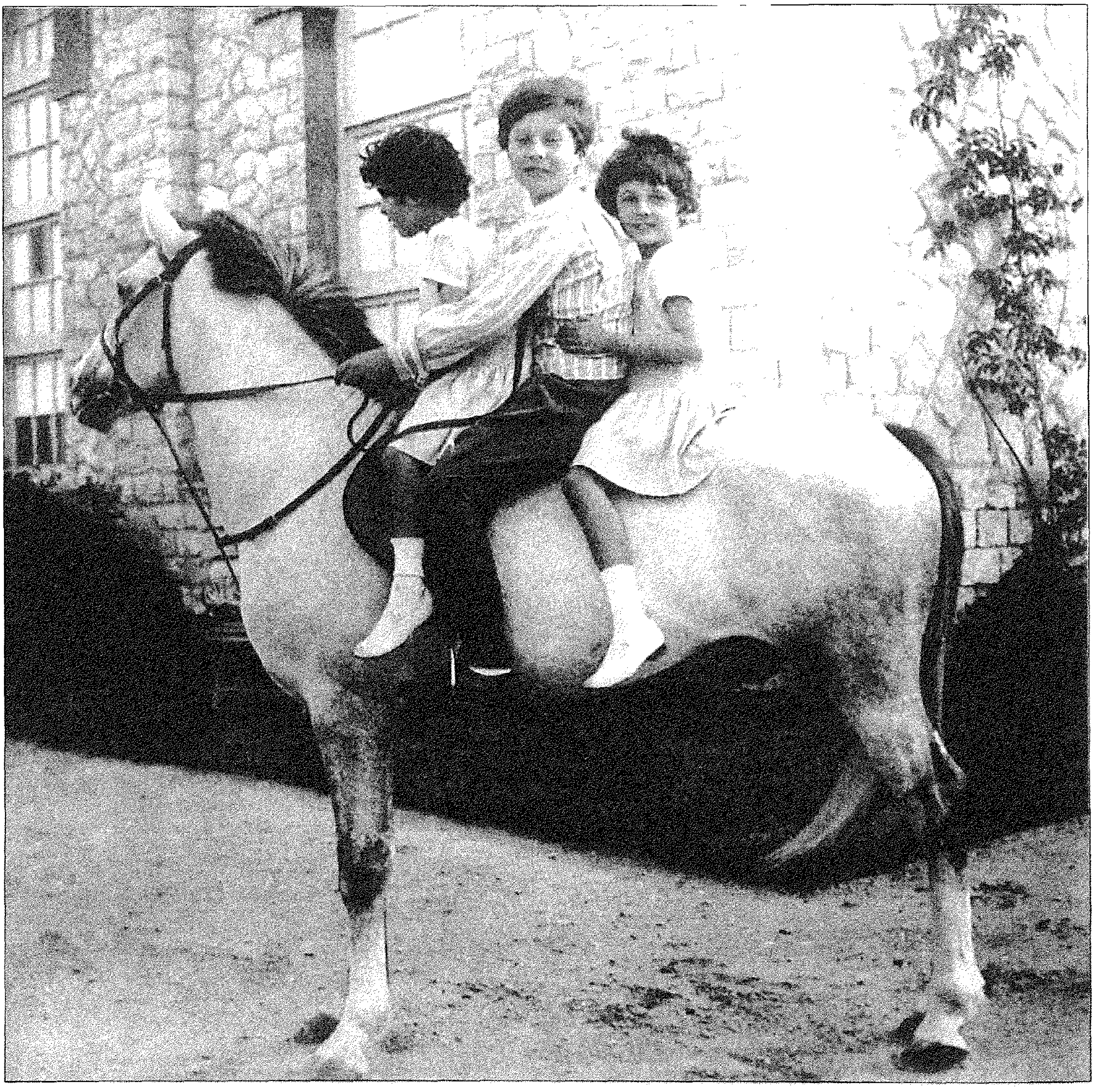


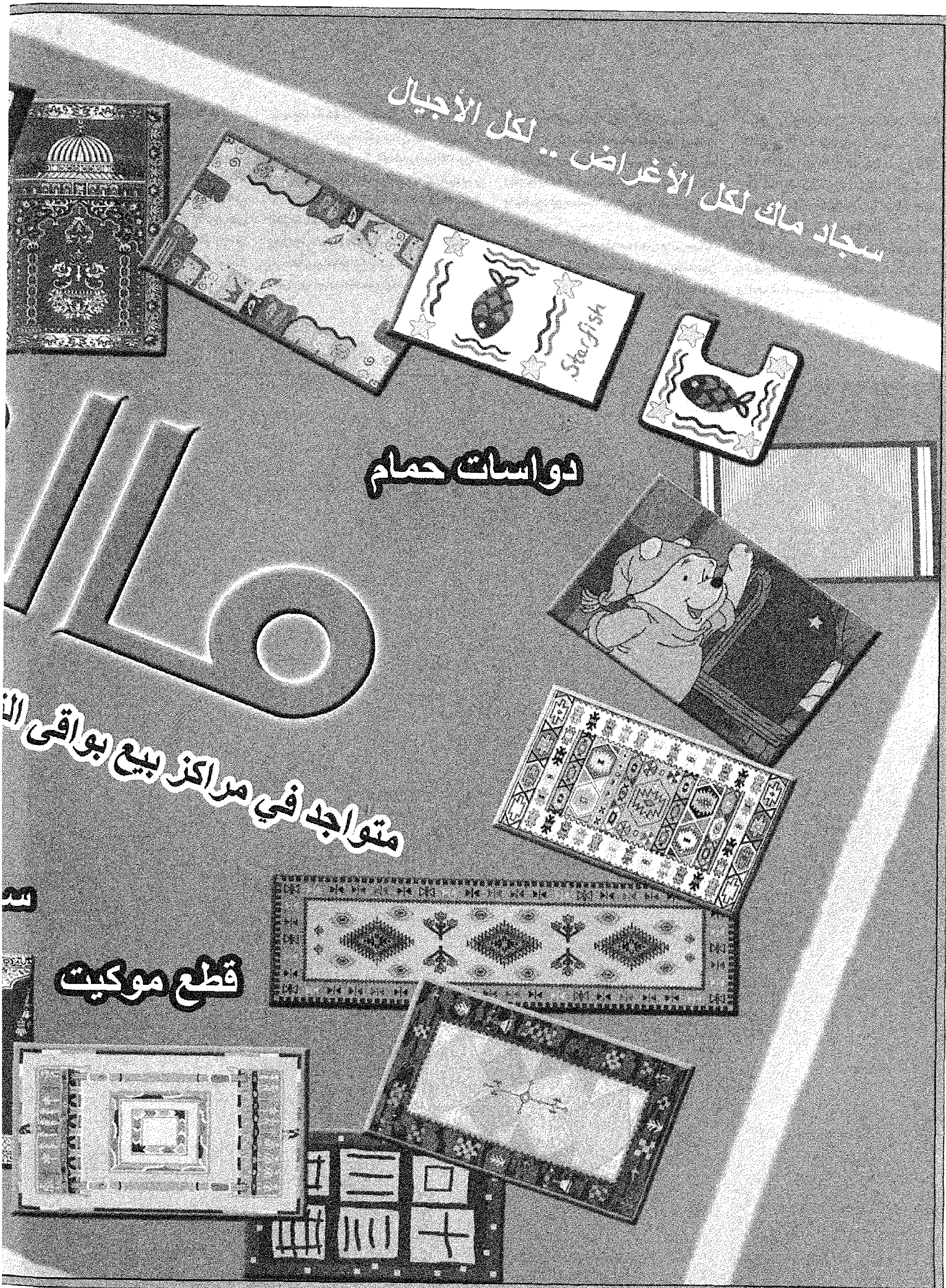
لضوء الشمس» وعلى بعضها الآخر «... للرومانسية».

سائح يجلس على ظهر جمل. سيارة بوجاتى Buggati تحت الأهرامات، شاى العصر يقدم فى حدائق مغطاة بالياسمين. تلك هى صور مصر خلال حكم الملوك الأواخر، فؤاد وفاروق فى النصف الأول من القرن العشرين. شهد هذا القرن ميلاد السياحة المنظمة على نطاق واسع تحت العبقرية الملهمة لتوماس كوك وخمسين ألفاً من المغامرين الأثرياء يركبون المراكب النيلية كل عام. من بين تلك الجموع كان هناك هؤلاء الذين لم يكتفوا بالتصوير أمام الآثار ثم يعودون إلى أوطانهم. كان هناك تجمع اجتماعى محدد يتكون فى بلد تتطلع إلى أوروبا و«تحميها» بريطانيا، وتحديدا فى القاهرة والإسكندرية. من خلال هذا العالم الكوزموبوليتانى ازدهرت السينما والمسرح التجريبى ونجوم مثل الراقصة سامية جمال والمخرج يوسف شاهين والممثل عمر الشريف.

ترك الكتاب المصريون والرحالة المشهورون كتابات مثيرة وطريفة عن تلك الأيام. تضمنت قائمة الرحالة المذكورين ريديارد كيبلينج Rudyard Kipling وجان كوكتو Jean Cocteau واندريه جيد Andre Gide، لاتزال توجد بيننا أيضا صور مميزة لسواح ببدل بيضاء وقبعات من القش أو راقصات محليات. تقدم تلك الكتابات والصور معا نظرة نادرة لعصر آخر وتعيد إحياء الرفاهية الهشة والحية لمصر تحت حكم آخر ملوكها. ■

فاروق صغيرا مع أختيه فوزية وفايزة (١٩٣٦)

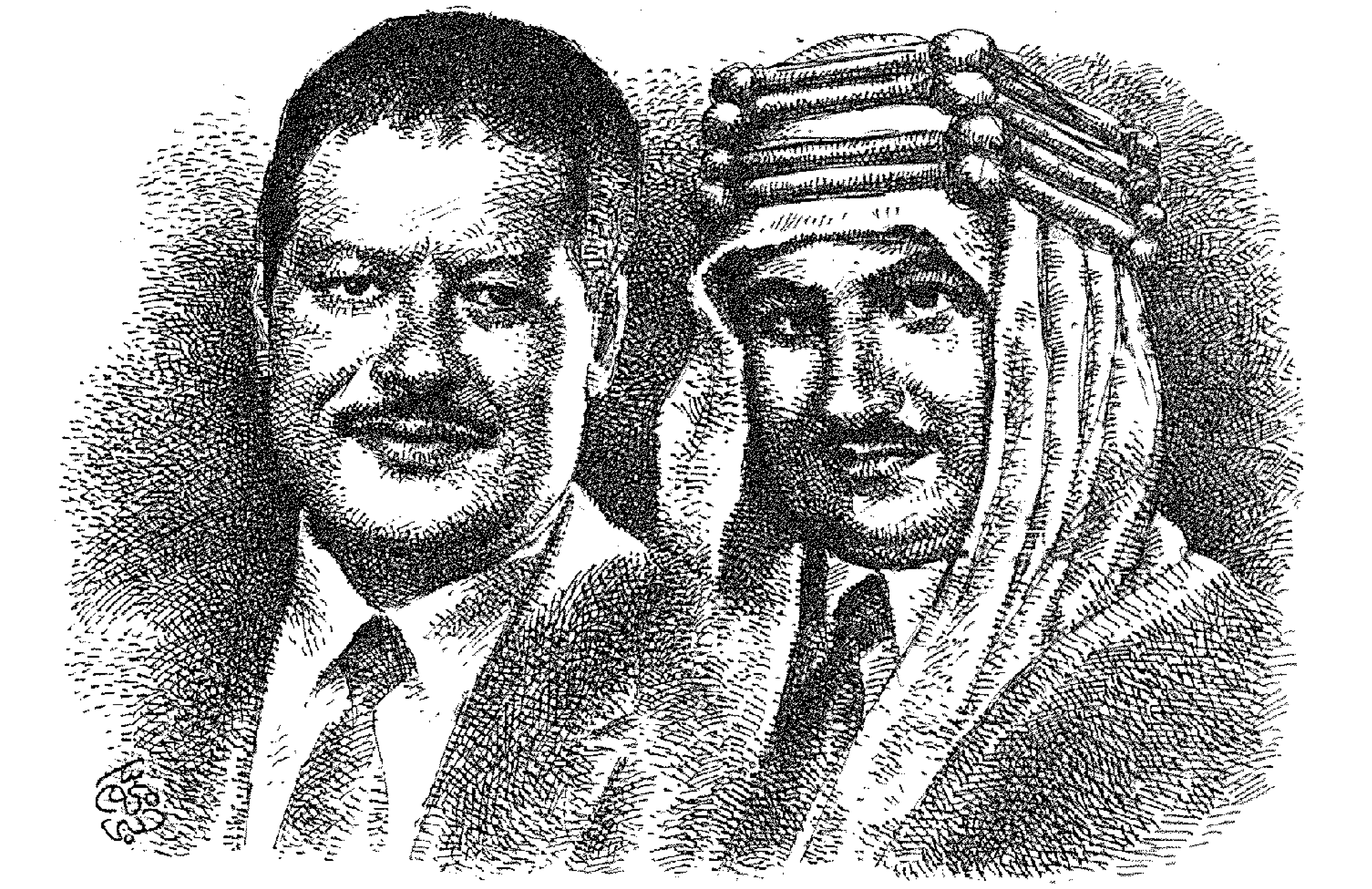




سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت



سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
SGS
صدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com



من الكهرباء إلى الفمتو

عربيــــــــان فى أمريكــــــــا

محمـد علـى شمـس الديـن

مع أفول عصر الحضارة العربية والإسلامية، انتقلت الحيوية العلمية لهذه الحضارة إلى أوروبا، ومن ثم إلى الولايات المتحدة ومراكز أخرى قليلة متطورة فى العالم (اليابان، الصين، الهند، ماليزيا.. إلخ)، لذلك فالعلوم الحديثة منقولة على جسر عربى إسلامى.. ذلك ما تعنيه عبارة «شمس العرب تسطع على الغرب» المعروفة بشبنجلر على الأرجح.

وهذه الشمس المعرفية التى أشاحت بوجهها عن الأرض العربية والإسلامية من حوالى أربعة قرون خلت، لاتزال مشيحة بوجهها عنهم حتى اليوم، فليست أسماء ومؤلفات ابن سينا وابن الهيثم وجابر بن حيان والرازى والخوارزمى وسواهم من العلماء العرب والمسلمين، سوى أسماء ومعالم لطريق علمى صاعد فى الغرب، والغرب الأمريكى، وثابت فى الشرق العربى والإسلامى.

ومع الطفرات العلمية التى شهدها القرنان الأخيران (التاسع عشر والعشرون) فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص، لم تكن أية حاضرة من الحواضر العربية والإسلامية، مهيأة لاحتضان وتطوير عقول علمية متفوقة فى هذه البلاد، نظراً لخلوها من مراكز البحث العلمى والمختبرات العلمية، فضلاً عن افتقار العالم العربى إلى قاعدة علمية وتكنولوجية متينة، وإلى نظام تربوى تعليمى وعلمى متطور.

إن بعضاً من الأرقام والإحصاءات يكشف عمق هوة التخلف العلمى والمعرفى هذه، فنسبة الأمية فى العالم العربى فى العلم والتكنولوجيا هى من أدنى المستويات.. فوفقاً لمعهد المعلومات العلمية، على سبيل المثال، بلغ مجموع الأوراق العلمية التى نشرت فى كافة أنحاء العالم خلال السنوات الخمس الأخيرة ٣,٥ مليون ورقة، نسبة مساهمة الاتحاد الأوروبى فيها ٣٧ بالمائة، والولايات المتحدة الأمريكية ٣٤ بالمائة، أما مساهمة العالم العربى الذى يعد حوالى ٢٨٠ مليون نسمة فى ٢٢ بلداً، فتراوح بين صفر بالمائة (اليمن)، و٠,٣ بالمائة (مصر)، و٠,٣ بالمائة (سائر البلدان العربية). فالعرب الذين كان لهم سبق ابتكار الصفر فى علم الجبر والحساب، انتهوا إلى صفر مخيف (صفر علمى) مع بدايات القرن الحادى والعشرين.

إن العالم العربى الغنى بموارده الطبيعية، متخلف علمياً، وبقاؤه فى مثل هذا التخلف، هو كما يقول الدكتور أحمد زويل (بقاء كالرحيل، ووجود كالعدم).

وهذا القول الذى ورد فى كتاب «عصر العلم» (دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٥) يدق به زويل من خلال الإحصائيات والأرقام، ناقوس الخطر للسنوات الخمسين القادمة، فمن دون العلم والتكنولوجيا، لا يستطيع العرب المساهمة فى بحوث العالم الحديث فى مجالات كالخلايا الأصل، والذكاء الاصطناعى، وتحوير المادة، والطب الجزيئى، وعلم الكونيات، والإلكترونيات الدقيقة، والمعلومات والاتصالات.. وسواها من علوم المستقبل.

والنتيجة المخيفة، هى أنه ليس ثمة من مجال لظهور ونبوغ أى عالم أو مخترع عربى فى البلاد العربية، نظراً لما تعانيه من فقر علمى، وانعدام للقاعدة العلمية الضرورية لاحتضان التفوق العلمى وازدهاره. يتبع ذلك نتيجة أخرى لا تقل خطراً عن الأولى، وهى هجرة الأدمغة العربية إلى البلاد المتطورة بجامعاتها ومختبراتها، لكى تروى شغفها بالعلم، ونشوتها به، وتلبى ذاك النداء الداخلى الذى يجعل من طالب العلم عاشقاً يتبع معشوقه فى أى مكان يجده فيه على الأرض، إنه باختصار، ما يسميه أحمد زويل بالذات «نزيف العقول».

أسئلة السيرة المقارنة

هذا النزيف مازال مستمراً، من حسن كامل الصباح (المخترع اللبنانى الذى أطلق عليه فى أمريكا تسمية «فتى الكهرباء»، المولود فى النبطية من الجنوب اللبنانى عام ١٨٩٥ والمتوفى بحادث سيارة فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٥) إلى أحمد زويل (العالم المصرى المولود فى دمنهور عام ١٩٤٦، والذى تفتحت موهبته العلمية والبحثية فى الجامعات الأمريكية، وأوصلته إلى نوبل فى العلوم

عصر العلم
أحمد زويل
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥

حسن كامل الصباح
سعيد الصباح
بيروت: دار آسيا، ١٩٨٥

إن العبقرية إذا لم تكرم، تنكفئ علي ذاتها وتيأس. لقد حصل زويل علي ما كان يرغب فيه من الدعم المالي لمشروعاته البحثية، كما حظي على اهتمام وتقدير جميع الجامعات التي تقدم منها بطلبات للتدريس أو مواصلة الأبحاث في الولايات المتحدة

عام ١٩٩٩، لاكتشافه تكنولوجيا الفمتو femto technology من خلال الفمتو ثانية، وهى جزء من ألف من مليون مليون من الثانية).

إن النظر فى السيرة المقارنة لهذين العالمين العربيين النابغين، على ما يفصل بينهما من مسافة زمنية وظروف تاريخية، يطرح أسئلة حيوية فى معنى النبوغ العلمى وشروطه، وفى معنى غربة العلماء والمخترعين الكبار، وهل صحيح ما قاله السير «همفرى دافى» فى عام ١٨٢٥ من أنه «لحسن الطالع أن العلم مثله مثل الطبيعة التى ينتمى إليها: لا يحده زمان أو مكان، وإنما هو (العلم) تراث مشترك للإنسانية جمعاء، ليس له وطن بعينه أو جيل بعينه»، أم أن التنافس السياسى والاقتصادى فى العلوم والتقنيات المتطورة (كالطاقة النووية على سبيل المثال) عدل من مقولة أن «العلم لا وطن له»، وأدخل عليها حمى الصراع على احتكار العلم والتفوق، من جاسوسية، وخطف علماء، واغتيال آخرين، وحروب (كحرب احتلال العراق التى لا تزال رحاها تدور حتى اليوم، والحرب المحتملة مع إيران) بشتى الذرائع.. فصار لزاماً أن يحضن كل وطن النابغين والمتفوقين من علمائه، ويوفر لهم القاعدة العلمية المحلية، والحماية الوطنية والقومية، لكى يمنع عنهم هذا «النزيف» و يحميهم من غوائل «الغربة».

إلى هذه الأسئلة، تضاف أسئلة أخرى تتداعى من جراء المقارنة السيرية بين الصباح وزويل، حول الهوية والانتماء، ومنفعة العلم، وهل ثمة من أخلاق للعلم؟.. إلى ما هنالك مما نحسبه حاضراً وضرورياً فى السؤال الثقافى العربى.

الفاصل الزمنى بين ولادة حسن كامل الصباح (١٨٩٥) وولادة أحمد زويل (١٩٤٦) هو ٥١ عاماً، وهذا الفاصل فى معظمه واقع فى النصف الأول من القرن العشرين، قرن التفتح العلمى وأمل البشر بالسعادة والتمتع بثمرات العقول، الذى ما لبثت الحروب الكونية أن أجهضته.

لقد ولد الصباح لأبوين عاملين رقيقى الحال مادياً.. والده تاجر متوسط حصل على مقدار من التعليم المحلى، ووالدته الحاجة آمنة رضا، ابنة الشيخ أحمد رضا المؤلف واللغوى المعروف.. وقد تربى الفتى على القيم الدينية والأدبية المتوارثة من بيئته، وكان صاحب عقل يقظ ومتفتح من صغره على أسئلة الوجود. يذكر يوسف مروة فى كتابه فى سيرة حسن كامل الصباح «عبقرى من بلادى» كما تذكر أحاديث أجريت مع أقاربه ووالدته، إنه حين كان يجلس على مصطبة البيت كل مساء، يتأمل السماء ونجومها، ويسأل عن أسمائها والأم تسمى له أسماء البعض منها مثل بنات نعش الكبرى، بنات نعش الصغرى، المجرة، وما إلى ذلك. وعندما بلغ سن السادسة، راح يسأل الأم قائلاً: لماذا لا تتصادم هذه النجوم بعضها بالآخر؟ وما الذى جعلها معلقة هكذا فى السماء؟ و فى هذه السن المبكرة أيضاً، أخذ بيضة ونقعها فى الخل، فلانت كعجينة، ثم أدخلها فى عنق الزجاجة.. دقائق مرت وعادت البيضة إلى حجمها الطبيعى فى قعر الزجاجة، فتعذر خروجها منها. وفى عام ١٩٠١ أدخله والده إلى المدرسة الابتدائية فى النبطية، فبرزت لديه موهبة علم الحساب والرياضيات. وفى أحد أيام ذلك العام، دخل إحدى غرف البيت، وبيده جرة من فخار، وأدوات من جص وحبر وأقلام ملونة وبعد ساعات معدودة، غادر الغرفة وفى يده الجرة الجميلة وهو يخاطب والدته قائلاً: انظرى يا أمى، هذه هى الكرة الأرضية بقطبيها وهذه محيطاتها وخلجانها، وجبالها وصحراؤها.. إلخ. لقد رسم الصبى كل ذلك على الجرة، مستنداً إلى كتب التاريخ والجغرافيا. وغالباً ما كان يسأل أمه: هل تشعرين بثقل فى رأسى؟ رأسى أثقل من جبل.

- وبماذا تفكر يا بنى؟

- بأشياء لا أعرفها.. بعيدة، بعيدة.

وتتابع الوالدة: كان يضع الرمل فى إناء، ثم يصب فوقه الماء، ويضعه على موقد النار يغليه ويطبخه وهو ينظر إليه طول الوقت.

أما نفس الصباح فكانت تميل إلى الانفراد والعزلة والتوحد والتأمل فى الوجود.

بنقلة فى الزمان والمكان إلى أحمد زويل من خلال ما سجله من سيرته الذاتية فى كتابه «عصر العلم»، خاصة فى الفصل المسمى «بين النيل والمتوسط.. البداية»، يذكر أنه من مواليد عام ١٩٤٦ فى مدينة دمنهور عاصمة محافظة البحيرة فى دلتا مصر، وهى مدينة فرعونية قديمة كانت تضم معبداً لإله الشمس حورس، لذا فقد أخذ زويل، كما يقول «نصيباً من شمس حورس». وبين دمنهور (مدينته ومدينة والده). والإسكندرية، ودسوق مدينة والدته، نشأ الصبى ومن ثم الفتى أحمد، نشأة دينية، حيث لمسجد سيدى إبراهيم فى دسوق ولقيم المسجد والعائلة والمحيط بصمات فى نفسه يقول «لمسجد سيدى إبراهيم الدسوقى أهمية خاصة فى حياتى، فقد حدد هذا المسجد معالم طفولتى المبكرة.. فقيم وأخلاقيات المسجد النبيلة قد أحاطت المجتمع والبيئة بأسرها بسياج من القيم والأخلاق الفاضلة.. كان أصحاب الدكاكين حول المسجد يعرفون اسمى كما يعرفون أبى وعائلتى، وكان بوسعى أن أشترى ما أريد من البقال على سبيل المثال وآخذه دون أن أدفع ثمنه على الفور».

لقد نشأ فى بيت فقير، لكنه تعلم من والده، كما يروى، حب العمل وفن الحياة والاستمتاع بها، ومن والدته الورع والتدين.

وقد كان اهتمامه مبكراً ومنصباً على الموضوعات التحليلية، مع الرغبة فى السؤال: لماذا؟ وكيف؟.. كان يسأل نفسه، على غرار الصباح: كيف تعمل الأشياء؟ ويروى تجربة مبكرة له، يقول: «ذات يوم وضعت قطعة صغيرة من الخشب فى أنبوبة اختبار وسددتها بسدادة من فلين أوصلتها بأنبوبة على شكل حرف L، ثم أحرقت قطعة الخشب كى ألاحظ خروج الغاز عند نهاية الأنبوبة، وكان معى فى غرفتى بالمنزل زميل يدعى فتحى جاويش، ثم أشعلت عود ثقاب لأحصل على لهب، وقد كان.. أى وجدتها، وكادت الغرفة تحترق ولاتزال أمى تذكرنى بهذه الحادثة حتى يومنا هذا».

نال فى دراسته فى مصر قبل الانتقال للجامعة، أعلى الدرجات فى الكيمياء والفيزياء والرياضيات.. كان يراوده حلم مبكر فى الصغر، أن يصل إلى أعلى الدرجات العلمية، حتى أن أهله كتبوا على باب غرفته «غرفة الدكتور أحمد».

وحين ذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية، «بلاد الأحلام» كما يسميها، قاصداً فيها استكمال تخصصه العلمى العالى فى جامعاتها ومختبراتها.. حمل معه فى صدره خزائن أحاسيسه وميوله الشرقية، كمصرى عربى مسلم، كعاشق لأغانى أم كلثوم، وسيد درويش، وكمحب لجمال عبدالناصر، وكمدرك لعظمة التاريخ الفرعونى القديم لمصر، من حيث إنه على شاطئ النيل، وتحت شمس حورس، تم ابتكار الآلات الأولى لتحديد الوقت والزمان، وأنه كان لمصر نصيب من ثمرات العقول العربية والإسلامية الوسيطة.. فلا نستطيع أن نقول إن أحمد زويل، خلال إقامته للتحصيل العلمى فى الجامعات الأمريكية، واحتكاكه بالمجتمع الأمريكى (الجامعى والعلمى على الأخص) وخلال بزوغ أنوار عبقريته البحثية والعلمية وانتشارها هناك، وصولاً لقطف جائزة نوبل فى العلوم.. لا نستطيع أن نقول إنه خرج من جلده المصرى والعربى والإسلامى الشرقى، ولا من روحه أيضاً.. ولكنه استطاع أن يوفق بين نزعتين، ومناخين، ويعطى مثالاً على تفاعل الثقافات أكثر مما هو مثال على تنازعها وصراعها (كما يرى هنتنجتون).

مأساة الصباح/ مجد زويل

لقد جنى أحمد زويل مجداً كبيراً، وتكريماً معنوياً ومادياً لا حدود له، بنتيجة تتويج جهوده العلمية، واكتشافه العظيم مع فريق عمله العلمى، فى الفمتو، على كرسى نوبل ١٩٩٩، فى السويد، ولكنه قبل نوبل، كان قد حاز على جوائز كثيرة ذات قيمة علمية ومادية بعضها عربى، البعض الآخر عالمى. لقد تمتع فعلاً بنشوة العلم، لكنه تمتع أيضاً بما رافق أبحاثه واختراعاته من نشوة التقدير وجوائز التكريم والاعتراف بالفضل والعبقرية. إن العبقرية إذا لم تكرم، تنكفئ على ذاتها وتيأس. لقد حصل زويل على ما كان يرغب فيه من الدعم المالى لمشروعاته البحثية، كما حظى على اهتمام وتقدير جميع الجامعات التى تقدم منها بطلبات للتدريس أو مواصلة الأبحاث فى الولايات المتحدة. يذكر على سبيل المثال، أنه فى خريف عام ١٩٧٥ تقدم بطلبات للعمل فى نحو عشر جامعات أمريكية وأجريت مقابلات فيها جميعاً، ومن تلك الجامعات جامعة شيكاغو، راى، هارفارد، برنستون، كالتك، نورست وست، وغيرها. وقد تلقى منها ردوداً بالقبول، وعروضاً بالعمل، ما خلا الجامعة التى كان يرغب فى الانضمام لهيئة التدريس فيها (كالتك) لأنها فى نظره الأهم علمياً.. ووقع فى حيرة من أمره، إلى أن جاءه بعد وقت قليل، هاتف من «هارى جراى» (من الجامعة) يقول (بأسلوبه المميز): «أحمد.. نحن فى حاجة ملحة إليك.. ومولعون بك أيضاً».

يضيف أحمد زويل: «أخذت أضحك فى مرح وسرور بالغين قائلاً: هارى.. ولكنكم سوف تدفعون الثمن غالياً، أموالاً طائلة.. فأردف



عربيـــــان فـي أمــريــكـــــــا

قائلاً: نحن في انتظارك». من بين العروض الكثيرة عليه، عرض جامعة شيكاغو، وكان مهماً بسبب برنامجها العظيم في الكيمياء والفيزياء.. وأقام رئيس الجامعة وزوجته احتفالاً تكريمياً وكذلك بقية الجامعات حيث قوبل بالود وكرم الضيافة وقد اصطحب أعضاء هيئة التدريس بجامعة رايس زوجاتهم معهم إلى حفل تكريمه.. حتى أنه شعر بجو حميم ودافئ ذكره بأهله وبلاده.. «إنه تكريم وحب للعالم» - كما يقول - إنه نظامهم وهو نظام رائع بالفعل.. ومحكم، ويكرم العالم اينما وجد (بمعزل عن انتمائه وأصله وعرقه ودينه).. لقد قدمت له جامعة كالتك مختبراً ومكتباً ملحقاً به وخصصت له ميزانية أبحاث، وسكرتيرة، وكانت كل الورش والخدمات الموجودة في الجامعة على استعداد لتلبية طلباته على الفور.. إلخ.

هذه العينة في سيرة زويل التي يرويها في كتابه «عصر العلم»، من اهتمام الجامعات الأمريكية والمجتمع الأمريكي (العلمي) به وبأبحاثه وكشوفاته، جعلته يعتبر أنه بالفعل، يقيم في قبلة العلم والعلماء، وأن جامعة «كالتك» هي مكانه الصحيح والمناسب.. وأنه ميال في قراره نفسه للبقاء في الولايات المتحدة وعدم الرجوع إلى مصر. سيما أنه كان قد تسلم إنذاراً من جامعة الإسكندرية التي كان يعمل فيها قبل مغادرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ينذره بالعودة، أو أن تتخذ الجامعة الإجراءات القانونية لفصله. يذكر أن المعاملات الإدارية المعقدة في مصر، وما يسميه زويل البيروقراطية، ويرمز إليه بالفيل الأبيض (الذي ينبغي قتله، كادت تمنعه من تحقيق حلمه بالالتحاق بالجامعات الأمريكية، لولا أن نائب رئيس الجامعة في حينه الدكتور عبدالرحمن الصدر فهم المشكلة بعد فحص أوراقه.. أومأ برأسه ثم قال: «سأوقع على هذه الأوراق، وسوف تسافر، ولكنك لن تعود ثانية».

لقد مر ببعض الإشكالات السياسية والاجتماعية، نظراً لانتقاله من مجتمع لآخر، مختلف عنه في قيمه وعاداته وأخلاقه، لكنه تجاوزها بهدوء. لقد تجاوز حاجز اللغة، باكتسابه الدءوب للإنجليزية، لغة العلم.. وتجاوز حاجز المظهر الخارجي، فقد كان حريصاً في بداية وجوده هناك، على المظهر الرسمي الأنيق، لكنه حين اكتشف أن لباس الناس جميعاً، بما في ذلك الباحثون والأساتذة والطلاب هو الجينز البسيط، لبسه.

وقد صدمته في البداية عادات أمريكية بين الطلاب، لا يألفها الجسم الجامعي في مصر، لهجة خطاب الطالب للأستاذ، على سبيل المثال، بلا تكلف.. فألف ذلك أيضاً، بل تفهم ما هو أغرب منه وأطرف: فقد دخل ذات مرة إلى الصف وبدلاً من أن يرى وجه أحد الطلاب، وجد رجليه ممدودتين أمامه على الطاولة.. فنبهه بلطف.. وفوجئ ذات مرة، في منتصف الليل، بشبح يركض عارياً تماماً في الكوريدور، وقد غطى وجهه بغطاء.. وحين سأل عن ذلك قيل له إنها عادة تسمى عادة الركض بسرعة البرق وبالعري التام، يمارسها طلاب الجامعة.. كإحدى عاداتهم العجيبة، وكثمرة من ثمرات الحرية المطلقة للمجتمع الأمريكي.. فتفهمها زويل، والأهم والأكبر، أنه استوعب وتفهم بعض النظرات العدائية للعرب والمسلمين، حين أبداها عدد قليل من أساتذة وزملاء صهاينة أو أمريكيين مؤيدين لإسرائيل.. إلا أن ذلك كله لم يشكل عائقاً أمام هدوئه الاجتماعي، وشغفه الذي لا يحد بالعلم.. فسعد بالنتيجة، وقطف أزهار نبوغه.. وكرمه المجتمع العلمي الأمريكي والمجتمع العلمي العالمي، وكان له من الأوساط الرسمية والشعبية في بلاده (مصر) نصيب من الحب والتكريم يصل لحد اعتباره معلماً كأبي الهول أو الأهرام أو ولياً من أولياء العلم المصريين.. طبعت صورته على طوابع البريد، ونال قلادة النيل، واعتبره الشعب المصري البسيط أعجوبته الجميلة والمحبوبة إلى العالم.. ومجموعة من الصور التذكارية التي ضمنها أحد زويل كتابه «عصر العلم»، تظهره بأجمل زي واقفاً مع أبرز شخصيات مصر والعالم، من ملوك ورؤساء دول، ورؤساء جامعات، من ملك السويد إلى رئيس مصر حسني مبارك، ومن الرئيس الأمريكي كلينتون إلى البابا جون بول الثاني، ومن الدكتور مهاتير محمد (رئيس ماليزيا) إلى سونيا غاندي، ومن رئيسة أيرلندا إلى ملك بلجيكا.. وهكذا وهكذا.. قطف الرجل ما يستحق من ثمار عقله. لقد سيده علمه».

هنا كان لابد لي من العودة لمخترع عبقري عظيم من جبل عامل (في الجنوب اللبناني): سيده عقله، لكن سيرته، على خلاف ما هي عليه سيرة زويل، تتسم بالمأساة، كذلك نهايته، علماً بأن كليهما طلع من طينة عربية شرقية إسلامية، ونبغ ولمع في الولايات المتحدة الأمريكية. الصور الفوتوغرافية المعروفة لحسن كامل الصباح، غالبا ما تظهره لابساً على رأسه الغطاء المعروف في مطلع القرن العشرين: العقال والحطة: وجه أسمر بعينين سوداوين لامعتين تحت حطة وعقال عربيين.

حسناً هو زي من أزيائه، كان على الأرجح، يرغب في ارتدائه أحياناً، وهو في الولايات المتحدة الأمريكية.. الزي العربي.

ويتبين من رسائله إلى أهله وأصدقائه، ومن مذكرات بعض معارفه الذين عايشوه في المغترب الأمريكي، أنه كان شديد الالتزام بطقوسه الدينية الإسلامية، وأنه كان عضواً عاملاً في الجمعيات الثقافية اللبنانية والعربية هناك.

يصفه الشاعر اللبناني المغترب إيليا أبو ماضي، مستعيداً شيئاً من ذكرياته معه في الجامعة الأمريكية في بيروت، يقول: «طالب عاملي، أسمر كالحنطة أو أغمق، سمهري القوام عالي الجبهة، في محجريه عينان سوداوان براقتان نافذتا النظر.. وشاع بيننا يومها أنه شيطان من شياطين العلوم الرياضية، كان رياضياً أصيلاً ومهندساً وباحثاً فيزيائياً ممارساً في آن واحد».

وقد تعرف إيليا أبو ماضي إليه عن كثب في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٢٩، فكتب فيه مقالاً في العام نفسه بتاريخ ١٥ حزيران، بعنوان: نبي في غير وطنه» نشره في مجلة السمير، سماه فيه «شاعر الأرقام»، وورد فيه: «هو رياضي كبير ومخترع قليل النظراء حتى في الوسط الأمريكي، إنما اسمه لايزال خفياً، كأنه مشمول بضباب كثيف، وذنبه أنه شرقي، وهذا يبرهن لنا فساد القول الشائع من أن العلم لا وطن له».

والسيرة المختصرة لحسن كامل الصباح، في الولايات المتحدة، تنطوي على عنصرين لعظمة وعبقرية العالم المخترع، الذي أقرت به اختراعاته في شركة جنرال الكتريك، والبراءات العلمية الممنوحة والمسجلة في واشنطن عاصمة أكبر دولة علمية في العالم. لكن، إلى ذلك، كان يعيش عنصراً تراجيدياً نظراً لغربته المركبة: فقد عاش الرجل غربته في وطنه، وغربته في المجتمع الأمريكي، وغربته في عقله.. فقد قال: «إن العقول كلما ارتفعت شعرت بالوحدة» فوحشة العقول أشد قسوة من وحشة النفوس وألم العقل أشد إيلاماً من ألم النفس والجسد.

لقد انتقل الصباح من بلدته النبطية إلى بيروت، فدمشق، فبيروت، فالولايات المتحدة الأمريكية بحثاً عن المعرفة العلمية التي كانت قلقه وحافزه وغايته. وقد التحق هناك في مختبرات شركة جنرال الكتريك لعبقريته العلمية كنجم ثاقب وأطفئت جذوته بحادث سير غامض، وهولا يزال في ريعان الشباب والنشاط. اشترى وقرأ وهو في المدرسة الإعدادية في بيروت عام ١٩٠٨، كتاب الجبر لقانديك وكتاب إقليدس. وبرع وهو في صف السوفومور في الكلية السورية الإنجيلية (عام ١٩١٤) في علوم التفاضل والتكامل والمثلثات في مجالي الرياضيات والجبر العالي.

ذهب للخدمة العسكرية خلال الحرب العالمية الأولى، انتقل إلى دمشق وعاد منها إلى بيروت عام ١٩٢١ حيث تعرف على رئيس الجامعة الأمريكية وتم تعيينه مدرساً للرياضيات في المدرسة الإعدادية في الجامعة.

استقال من الجامعة في تموز ١٩٢١ وتلبية لرغبته في السفر إلى الخارج لمتابعة الدراسة في مجال الهندسة الكهربائية. وبعد أن تلقى قبولاً من جامعة بوسطن في ولاية ماساتشوستس، غادر الصباح بيروت في ٣٠ آب ١٩٢١، ووصل إلى نيويورك في ١٤ تشرين الأول ١٩٢١ بعد مروره في الإسكندرية ومرسيليا، خالي الوفاض إلا من بضعة دولارات.

في صيف ١٩٢٢ اتجه نحو مختبرات شركة جنرال إلكتريك، ثم انتقل من جامعة لأخرى ليستقر عاملاً في الشركة المذكورة. وقد اعتبرته الشركة من حاملي شهادة الهندسة الكهربائية وأعطته عملاً شاقاً براتب لا يتجاوز ١٧ دولاراً في الأسبوع، رفعته بعد ذلك إلى ٢٥ دولاراً. ووقعت معه اتفاق إذعان التزم بموجبه أن تكون جميع اختراعاته ملكاً للشركة، وأن تنتفع من عائداتها هي وحدها. وبالمقابل فإن الشركة قررت منح الصباح مكافأة قدرها دولار واحد مقابل كل اختراع يسجل له (هذا العقد مؤرخ في ٢٣ آب ١٩٢٣).

اخترع مكونات مهمة قادت لاختراع التليفزيون عام ١٩٢٥، وسجل اختراعاً له فى الرؤية باللاسلكى، سجلته أيضاً الشركة فى اليابان وفرنسا وإنجلترا وبلجيكا وأفريقيا الجنوبية والهند.. ولم يستفد منه الصباح إلا بدولار واحد. راوده بعد عام ١٩٢٩ حلم بإضاءة الصحراء العربية من خلال تأسيس مصانع عظيمة فى الصحراء مستغلاً طاقة الشمس. وربما أرسل فى ٧ كانون الثانى ١٩٣٥ قبل وفاته بأشهر، على ما يروى يوسف مروة فى كتابه عنه، للملك عبدالعزيز آل سعود، يفاتحه على أساس بناء مزارع لتوليد الطاقة الكهربائية من الشمس فى صحراء الربع الخالى.

فى عام ١٩٣٣ تمت ترقيته من قبل المديرين فى شركة جنرال الكتريك ورفع من درجة عضو إلى رتبة «فتى» فى المؤسسة الأمريكية للمهندسين الكهربائيين، ومنح لقب «فتى العلم الكهربائى» وهى رتبة علمية لا يبلغها إلا المبرزون. وعلى الرغم من ذلك، فإن الشركة لم تزد راتبه أكثر من ذلك، كان يشعر الصباح فى أمريكا، وفى عمله بالذات فى الشركة بحصار مرير واضطهاد لا يوصف. فعلى الرغم من تسجيل ٣٧ اختراعاً باسمه فى الفيزياء والفيزياء الكهربائية والكهرباء الصناعية فى مكتب التسجيل الاتحادى فى واشنطن و١٥ اختراعاً مشتركًا مع باحثين آخرين، وعلى الرغم من نبوغه النظرى من خلال أبحاثه العلمية فى نظرية النسبية: فى الوقت النسبى Temps Relatif والفضاء النسبى Espace Relatif وفى الكتلة والطاقة وحتى فى هندسة الطيران.. وعلى الرغم من اعتراف جميع الأوساط العلمية فى أمريكا والعالم بنبوغه وتفوقه، فقد كان يعيش مأساة لجهة حصاره المالى بسبب تقتير الشركة عليه، وتخفيض راتبه عدة مرات بدلاً من زيادته، وخاصة لجهة محاصرته بالكراهية من قبل العاملين فى الشركة ومن قبل القيمين عليها.

يكتب فى رسالة لوالده فى الوطن بتاريخ ٧ تموز ١٩٣٠: «أما قدومى الآن فليس بممكن لأنى لا أملك شيئًا من المال» ويضيف «لقد شملنى الله بتوفيقه فى المباحث العلمية، والفنية، فعسى أن يتم نعمته علىّ بسعة العيش».

وفى رسالة أخرى لوالده مؤرخة فى ٥ آب ١٩٣٠ يقول: «إنى محاط بأناس أسافل منحطين، ورؤساء الشركة وكبارها لا يتمكنون من رفع شأنى لاعتراض أولئك الأسافل». ولكى تكتمل مأساة هذا العبقرى الغريب وبعد أن كتب لوالديه فى ٢٩ آذار ١٩٣٥ أنه «يستشعر بالخطر» يقع يوم الأحد فى ٣١ آذار ١٩٣٥ (أى بعد يومين من الكتاب آنف الذكر) حادث سير يقتل فيه الصباح: لقد أفلت من يده زمام قيادة السيارة فى الطريق بين مركز عمله ومركز مالون، وهوى إلى أعماق الوادى من علو ١٥ قدماً.

قبل أن يقفل باب التاريخ ويفتح باب المخيلة أو الأسطورة فى صعود وموت حسن كامل الصباح، يحسن أن نورد نص الرسالة التى بعث بها مدير شئون المستخدمين فى شركة جنرال الكتريك س. ج. مرسى إلى والد الصباح يتناول فيها بالتفصيل بالأرقام: ويستطرد فى رسالته إلى أن يضيف: «يكون الباقى له ٢٠ دولارا. هل أرسل إليكم حوالة مصرفية أم شيكا شخصياً أم حوالة بريد؟ نرجو أن يكون جوابكم على هذه الأسئلة دقيقاً ومضبوطاً لأنه أمر مهم لنا».

حسنًا: انتهى الكلام. والأسئلة كثيرة. وفاجأنى صديق له خبرة فى المجتمع الأمريكى إذ قال: هل لليهود ضلع فى المأساة؟ وقلت له: ولكن أين هو الوطن العربى للمخترع أو المبدع أو العالم؟



العولمة

تحديات سياسية واقتصادية وثقافية

حمدي عزام

شهد العالم مع نهايات القرن المنصرم وبداية القرن الواحد والعشرين اتساعاً وتداخلاً غير مسبوق في شبكة العلاقات والمصالح بين مختلف بقاع العالم ترتبت عليه تحديات وتغيرات متلاحقة ومعقدة فتحت آفاقاً جديدة واحتمالات غير محسوبة يصعب التكهن بأبعادها والتحكم في اتجاهاتها والسيطرة على نتائجها المستقبلية، فانتشرت مشاعر الخوف والقلق بين شعوب القارات الخمس وأصبح تحديد مفهوم العولمة مطلباً ملحاً والشغل الشاغل لمفكري العالم، مما أدى في نفس الوقت إلى شيوع وإفراط في استعمال كلمة العولمة وصفه البروفيسور جيرت كايزر بأنه «أصبح سوطاً ينهال علينا بمعالجات جزئية مبنية على المصالح الذاتية تفتقر إلى العمق والشمول والالتزام بالمسئولية الفكرية». ومع تزايد البطالة وتقليص الضمانات الاجتماعية ومحدودية الطاقة غير المتجددة اتجهت غالبية معالجات الغرب الصناعي إلى التركيز على الجوانب الاقتصادية والمالية لتعكس مخاوف من المساس بمستوى معيشة شعوبها المتميز الذي تفصله هوة سحيقة عن نظيره في باقي دول العالم، في حين تزايد قلق شعوب العالم النامي من ربط العولمة بالمفاهيم الفكرية والثقافية الغربية، مما يشكل تهديداً لهويتهم ومساساً بتقاليدهم ورصيدهم الحضاري يضيف إلى التفاوت الاقتصادي والعسكري غزواً ثقافياً وفكرياً يستكمل ويخدم مخططات الهيمنة.

وفي خضم هذا التباين ومظاهر الخوف والقلق صدر عام ٢٠٠٦ كتاب جديد بالألمانية للمستشار الألماني السابق هيلموت شميت عن دار النشر جولدمان بعنوان «العولمة» وعنوان جانبي «التحديات السياسية والاقتصادية والثقافية»، لقي اهتماماً كبيراً في الأوساط الثقافية والسياسية لعمقه في التحليل وتميزه بربط الجوانب الاقتصادية والسياسية الواقعية مع البعد الفكري والثقافي لظاهرة العولمة.

وقد سبق للمستشار شميت كأستاذ زائر إلقاء مجموعة من المحاضرات حول نفس الموضوع في جامعة هاينريش هاميه بوسلدورف نقلها التليفزيون الألماني في بث مباشر، مما أثار جدلاً ومناقشات في الدوائر الأكاديمية والسياسية دفعه إلى إصدار كتابه الجديد الذي يطرح أفكاراً أساسية ترفض توصيف العولمة كنظرية مبتكرة وتكتيك آني وتعتبرها ظاهرة ثابتة نتجت عن تطورات في المجتمع الدولي تختلف كلية ولا تقاس بتجارب العالم التاريخية السابقة، ولا يمكن وقف انطلاقها بإعادة عقارب الساعة إلى الوراء، كما لا تجدي مجابهة تحدياتها وأخطارها بانكفاء على المصالح الأنانية الذاتية أو الاتجاه إلى انغلاق وتقوقع، بل بفكر جديد يعتمد المسئولية العالمية التي تتضمنها وتشير إليها كلمة العولمة في حد ذاتها.. ويؤكد في إصرار دعوته للتفاهم والتسامح بين الشعوب وقبول الآخر في نقد لاذع لأفكار الهيمنة ولمواقف الغرب المتعالية التي تهمش مصالح الغير ومعتقداته ليذكره بأن «ما تضمنه تاريخ الغرب من حقب مظلمة وممارسات متطرفة وحشية لا يضفي مشروعية ولا يؤهله للعب دور المعلم وفرض القيم وفق معاييره على غيره من الشعوب، وأن التسامح لا يعني مجرد التجاوز والتغاضي عن الفكر الآخر، بل يعني بالضرورة معرفة واحترام فكر ومعتقدات الآخرين والاستفادة من قيمها وتجاربها».

ويرى في مجال تقييمه للقوى العظمى أن القوة والتفوق العسكري لم يعد المعيار الأوحد والأساسي وأن بداية القرن تشهد ثلاثية واقعية تضم بجانب الولايات المتحدة كلا من روسيا والصين وتفتح المجال لمزيد من القوى على اختلاف أوزانها كاليابان والهند والاتحاد الأوروبي وربما إندونيسيا والبرازيل.

لا شك أن بحث وتحليل العولمة هو موضوع جاف متشعب ومتشابك لواقع جديد يشهد انفجاراً عالمياً للسكان وتضاعف عدد المشاركين في الاقتصاد العالمي وتقدم وانتشار سريع للعلوم والتكنولوجيا مع ليبرالية اقتصادية غير مسبوقة، وتغيرات في موازين القوى الدولية، واتجاهاً لتقارب مستويات المعيشة، واحتمالات تصادم سياسي واقتصادي وفكري. ولذا كان المستشار شميت على حق في طرحه للتساؤل عن مدى عمق الإدراك والوعي بمضمون وأبعاد ومخاطر هذا التطور الهائل الذي غير وجه العالم وعما أعدته القيادات السياسية لمجابهة تحدياته وأخطاره أو ما يتيحه من فرص، ولم يبد في هذا تفاؤلاً بالمستقبل القريب على ضوء ما يلمسه من مواقف وتصرفات معاصرة قصيرة النظر مازالت أسيرة أفكار تقليدية تتمسك بالأمر الواقع وتتشبث بأوضاع قائمة للحفاظ في أنانية على مصالح ذاتية وقتية دون استيعاب لأبعاد التطور وخطورة التحديات.

ظاهرة العولمة ومخاطرها

يستهل الكاتب القسم الأول من مؤلفه بأمثلة مبسطة وملاحظات شخصية عما قد تعنيه العولمة بقوله «جلست في موسكو أشاهد قناة التليفزيون الألماني ZDF بعد وصولي من القاهرة، حيث تابعت الأخبار في غرفتي بالفندق على قناة الأخبار الأمريكية CNN ، ثم توجهت إلى فيينا متابعاً الأخبار عبر القناة اليابانية NHK وبعد وصولي إلى منزلي في هامبورج تنقلت بين أكثر من ٣٠ قناة أجنبية تغطي أخبار العالم، ويسرد في مثل ثاني أنه بعد هزيمة ألمانيا في الحرب منعت من صناعة السفن ثم أصبحت تحتاج إلى إذن خاص من الولايات المتحدة وبريطانيا حتى رفع الحظر في أواخر الخمسينيات، فانطلقت ألمانيا بحماس لإعادة بناء أسطولها التجاري، ولم يمض على ذلك بضع سنوات حتى توقفت غالبية أحواض السفن عن العمل، وأصبحت ناقلات البترول وسفن الحاويات الضخمة تصنع وتستورد من اليابان، ثم كوريا الأرخص سعراً لتنطلق عبر البحار تحت أعلام دول أجنبية وبطواقم مختلفة الجنسيات. ويتذكر أن السفن المنطلقة من ميناء هامبورج كانت تحتاج في العشرينيات إلى عدة أشهر للوصول إلى أمريكا الجنوبية للعودة محملة بالأملاح والمواد الأولية. واليوم تنطلق يومياً أعداد من الطائرات لتصل إلى سنتياجو دي شيلي في نفس اليوم، وفي مثال رابع يذكر أنه عندما انهارت بنوك إندونيسية وأغلقت بنوك استثمار يابانية أبوابها وحدث انهيار في أسعار عملات جنوب شرق آسيا وهبطت الأسعار بشكل حاد في بورصة طوكيو لم يتطلب الأمر سوى ثوان معدودة لينعكس على بورصات لندن ونيويورك وزيورخ وأمستردام، ومنذ خمسين عاماً لم يكن أحد يتصور أو يفكر في شراء أو بيع أوراق مالية يابانية ليحقق ربحاً أو تصيبه الخسارة.

Globorlisierung
Politische, okonomische und
Kultureue Hereusforderung
(التحديات السياسية والاقتصادية والثقافية للعولمة)
Helmut Schmidt
wilhelm Goldmann verlag -
munchen - 2006

ستزداد حدة الانفجار السكانى فى العالم مع تفاقم مشاكل البيئة وتغير المناخ والاحتباس الحرارى حاملة أخطاراً للمستقبل تهدد السلم العالمى

تشير هذه الأمثلة البسيطة إلى ما تحقق خلال القرن العشرين من قفزات هائلة فى حجم ونوعية الصلات والتشابك بين قارات العالم الخمس ودوله المائتين. وأن التقدم الحديث فى وسائل النقل وتكنولوجيا الاتصالات والتقنيات الجديدة للتجارة والتمويل قد غيرت وجه العالم بمفهوم العولمة وتطلبت لغة وأسلوب تخاطب ذا صبغة عالمية، فبعد أن كانت اللاتينية لغة العلم والتعليم فى أوروبا تلتها الفرنسية على الأقل كلغة السياسة والدبلوماسية، انتشر استعمال الإنجليزية الأمريكية فى التقنيات الحديثة، وقد تصبح الصينية مستقبلاً أكثر أهمية فى العالم من الإسبانية والألمانية وربما الفرنسية. وفى غضون السنوات القادمة لن يتمكن محام أو طبيب أو مهندس أو حتى ربات البيوت من ممارسة مهنهم ومجابهة متطلبات الحياة اليومية دون القدرة على استعمال الكمبيوتر.

الانفجار السكانى

لم يكن عدد سكان الأرض مع بداية التقويم الميلادى يزيد على ٢٠٠ مليون واحتاج إلى ٩١ قرناً ليتضاعف ثمانى مرات ليصبح ١٦٠٠ مليون. ومع تقدم الطب وانخفاض وفيات الأطفال ومقاومة المجاعات والأوبئة ارتفع عدد السكان عام ٢٠٠٠ أى خلال قرن واحد فقط إلى ٦٠٠٠ مليون نسمة، وبمعنى آخر أنه خلال القرن العشرين تقلص نصيب الفرد من المساحة الصالحة للعيش إلى ٣٠/١ مما كان عليه فى القرن السابق. ومازال الانفجار السكانى يتزايد خاصة فى آسيا وأفريقيا، بحيث أصبح مجموع سكان الهند والصين يفوق بمراحل إجمالى سكان العالم قبل جيلين، وأصبحنا نشاهد مشاكل التكدس فى المدن العملاقة كالقاهرة ومكسيكو سيتى وريودى جانيرو وشيكاغو غير القابلة للحل وستزداد حدة الانفجار السكانى فى العالم مع تفاقم مشاكل البيئة وتغير المناخ والاحتباس الحرارى حاملة أخطاراً للمستقبل تهدد السلم العالمى فى ظل تكدس وازدحام وتلاصق بشرى يؤدى إلى مشاكل اجتماعية واقتصادية وسياسية وعقائدية، وتنافس على الأسواق العالمية ومصادر الطاقة والمياه وهجرات غير منظمة.

عولمة الاقتصاد والتكنولوجيا

شهد العالم فى الماضى صلات تجارية بين القارات عبر طريق الحرير وطريق التوابل، ومن خلال نشاط البحارة العرب والهنود.. ومع بداية القرن العشرين شاع استعمال تعبير «الاقتصاد العالمى»، ولكن حتى وقت قريب كان الغرب يعنى بذلك اقتصاد الدول الصناعية الغربية OECD التى تضم أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية واليابان وأستراليا، أما باقى سكان العالم فكانوا يعيشون بالنسبة له فى عالم ثان هو الكتلة الشيوعية المنغلقة على نفسها، أو فى عالم ثالث من الدول النامية التى اعتبرها مجرد مصدر للمواد الأولية والبترول، وقد تحصل على قسم طفيف من إنتاجه الصناعى، ولم يستوعب الدروس من موقف دول الأوبك وأزمتى الطاقة فى السبعينيات ومن تحول كوريا وتايوان وهونج كونج وسنغافورة إلى دول صناعية، ومن انعكاسات أزمة المديونية فى المكسيك، لتنبهنا إلى بزوغ عصر جديد من الترابط والتأثير الاقتصادى المتبادل بين الدول، وإلى ظاهرة أخرى للعولمة هى تضاعف عدد الدول المشاركة فى الاقتصاد العالمى الذى لم يقتصر على ما أسميناه بالنمور الآسيوية الصغيرة ويشمل الدول التى تكونت بعد انهيار الاتحاد السوفيتى ودول أوروبا الشرقية والصين بسكانها ١٢٠٠ مليون نسمة، التى أصبحت شريكاً أساسيا فى منظومة الاقتصاد العالمى، والتى ستتبعها فى سرعة الهند وفيتنام وباقى دول آسيا التى تعمل بذكاء ونشاط وبأيد عاملة رخيصة وضمانات اجتماعية منخفضة.

أضف إلى ذلك ما يشهده الاقتصاد العالمى من ليبرالية وحرية التجارة وانتقال رؤوس الأموال والاستثمارات عبر الحدود، والإنتاج المشترك Joint Venture وفتح الفروع، مما أدى إلى إزالة الحواجز أمام انتشار وانتقال التكنولوجيا وأساليب الصناعة الحديثة إلى الدول الصاعدة التى استفادت من نتاج البحث العلمى والمخترعات وتطويرها بعد أن كانت حكراً على الغرب الصناعى، وأصبحت على سبيل المثال صناعة الإلكترونيات التى بدأت فى أوروبا قبل ثلاثين عاماً منتجاً متفوقاً تنتجه وتصدره اليابان وكوريا بجانب السيارات. وعلى غرارها صناعة البرمجيات فى بنجالور بالهند، بجانب غزو المنتجات الآسيوية من السلع الاستهلاكية للأسواق العالمية.

وفى نفس الوقت شهد العالم ثورة فى أساليب وتقنيات أسواق المال والعملات والبورصات والقروض والتأمينات بشكل عام يشكل أخطاراً فى تقلبات أسعار العملة، ويزيد من مخاطر التجارة خاصة الصفقات الآجلة، ازداد حدة بعولمة المضاربات، التى يبلغ حجمها اليومى أكثر من مائة ضعف حجم التجارة العالمية من السلع والخدمات فى نفس اليوم، وتسارعت الاندماجات بين كبرى الشركات الصناعية والبنوك لتتم بأساليب عنيفة unfriendly talceover، وظهور أيديولوجيات جديدة تتصل باتجاهات الأسواق المالية Financial derivatives وبنوعيات الربح Shareholder وضرورة الربح تحت أى ظروف Catch- as - Catch - can وهو ما يفضل شميت أن يطلق عليه تعبير «رأسمالية الوحوش الكاسرة».

ولا يقتصر أثر العولمة الاقتصادية على تشجيع انتقال الإنتاج وفرص العمل إلى الدول الأقل تكلفة وأجوراً، بل رافقها انتقال النقد ورؤوس الأموال والاستثمارات إلى دول ومناطق صغيرة ذات ضرائب منخفضة ورقابة بنكية شكلية تجتذب رؤوس الأموال الأجنبية. وستؤدى عولمة الاقتصاد تدريجيا إلى النيل من اختصاص وسلطات الحكومات الوطنية والمجالس التشريعية خاصة فى موضوع الضرائب، كما سيؤدى تواتر صعود الدول الصناعية الجديدة التى تحسن استخدام التقنيات الحديثة والاستفادة من فرص الأسواق العالمية إلى اتجاه لتقارب وتساوى مستوى معيشتها مع الدول الصناعية التقليدية القديمة وعلى حسابها.

العولمة والقوى العظمى

لم تحظ ظاهرة التغير فى موازين القوى العالمية باهتمام كبير ومتابعة لمظاهر تحولها، ولم تعد القوة العسكرية هى المعيار الوحيد والأساسى لتحديدها، وتعتقد الولايات المتحدة بأنها القوة العالمية الأوحد وتبذل جهداً كبيراً للمحافظة على هذه الصفة لعشرات السنين، ولكنهم مخطئون تماماً فى ذلك، فمن يسافر إلى كوريا أو اليابان أو جاكرتا وبانجوك وسنغافورة ومانيلا سيسمع فى إجماع من المسئولين ورجل الشارع فى قناعة مبررة أن الصين اليوم وبلا جدال هى قوة عالمية عظمى، وقد يحتاج الأوروبيون لبعض الوقت والأمريكان لوقت أطول، لاستيعاب والتسليم بهذه الحقيقة، كما أن روسيا ستظل قوة عظمى مهما احتاجت من وقت لتثبيت أوضاعها السياسية والاقتصادية وامتصاص الهزات المترتبة على انهيار النظام الشيوعى. وهى تملك مساحات شاسعة من الأرض الغنية بالمواد الأولية وكميات وأرصدة ضخمة من البترول والغاز ومجموعة فاعلة من العلماء والباحثين وعشرة آلاف من الرؤوس النووية.

الواقع يشير إلى وجود ثلاث قوى عالمية فى عصر العولمة هى الولايات المتحدة والصين وروسيا قد نضيف إليها قوة أصغر هى اليابان، باعتبارها أكبر دولة مصدرة لرؤوس الأموال فى العالم، ليلحق بها الاتحاد الأوروبى والهند وربما إندونيسيا والبرازيل فى المستقبل.

ليس لدى الولايات المتحدة سياسة واضحة تجاه روسيا أو تجاه الصين وهى غير مفهومة فى موسكو وبكين. ومع ذلك فلا يتوقع نشوب حرب بين القوى الكبرى مع بدايات القرن، ولكن المتوقع تزايد النزاعات الإقليمية والحروب المحدودة فى شرق ووسط آسيا وفى الشرق الأوسط وأفريقيا لأسباب الكبت السياسى وتردى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والتطرف العرقى والدينى.

العولمة وصدام الحضارات

هناك ظاهرة قد تشكل أخطاراً محتملة على السلم ويجب أخذها مأخذ الجد، وهى ما أطلق عليها صمويل هنتنجتون تعبير صدام الحضارات، وإذا ادعى أحد حتمية الصدام بين الغرب والإسلام فيجب أن نصفه بالجنون والخطورة، ولا ينفى هذا الأخذ بعين الاعتبار أن التشابك والانفتاح بين المجتمعات فى ظل العولمة يتضمن فى نفس الوقت تعدداً وتبايناً فى المعتقدات الدينية، فى عالم يضم أكثر من مليار مسلم ومليار مسيحى وأكثر من مليار ونصف ممن يعتنقون الكنفوشية ومليار من الهندوس عدا البوذية وغيرها من المعتقدات الدينية. وأن احتمالات التصادم بين الجماعات المتأثرة بالأفكار الأصولية الدينية المتطرفة هو احتمال قائم يجب أخذه بجدية ومجابهته.

والحقيقة أن مواطنينا فى الغرب لا يعلمون شيئاً عن الإسلام، كما لا يعلم الناس فى العراق وإيران والجزائر وتركيا أو ليبيا وسوريا الكثير عن أوروبا ذات الصبغة المسيحية، بل إن أكثرهم يعتبر أن ما يطلقه الغرب من دعايات عن حقوق الإنسان والديمقراطية بمفهومنا هى مجرد أدوات وأسلوب يستعمل لفرض سيطرة الغرب السياسية والاقتصادية على منطقتهم وبلادهم.

ولا تقتصر احتمالات الخطر على منطقة أو معتقدات معينة، بل هى ذات أبعاد عالمية جابهتها أوروبا فى مشكلة البوسنة وفى أيرلندا وتنطبق أيضاً على الصين المتأثرة قياداتها وشعبها بالكنفوشية التى سادت البلاد لآلاف السنين. ومازلنا نوجه لها النقد ونطالبها بتطبيق

العولمة



المفاهيم الأمريكية والأوروبية عن الديمقراطية وحقوق الإنسان، مما يحمل مخاطر التصادم.

إن مستقبل السلام فى العالم يرتبط بمدى استعداد الشعوب والدول لتطبيق مبادئ التسامح الفكرى والثقافى والدينى فيما بينها، وهو حقل متسع وهام، لا نتمتع فيه نحن الأوروبيين بسمعة طيبة لما قمنا به من حروب صليبية حاملين الإنجيل بيد والسيف فى اليد الأخرى فى حقبة تاريخية مظلمة من الأصولية المتطرفة التى لا تعبر عن العقيدة المسيحية، كما لا تعبر الأصولية المتطرفة والإرهاب عن جوهر العقيدة الإسلامية.

تحديات سياسية واقتصادية

يتناول شميت الموضوع ـ وبحكم انتمائه ـ من زاوية أوروبية وألمانية تأخذ فى الاعتبار ظاهرة الهيمنة والتصرفات المنفردة للقوى الأعظم التى شكلت عبئاً إضافيا فى مجابهة تحديات المرحلة. ولا يمكن إرجاع السلبيات والمشاكل إلى ظاهرة العولمة فقط، بل إن قسطاً كبيرا منها يرجع إلى تصرفات ومواقف سياسية واقتصادية خاطئة.

لقد كان من أسباب توحيد أوروبا الغربية إقامة حاجز يمنع انتشار الفكر والتوسع الشيوعى. وبعد زوال هذا الحاجز، أصبحت هناك قناعة بين دول القارة الأوروبية المكونة من دول صغيرة ومتوسطة الحجم بأن التوازنات الدولية لا تتيح لأى منها منفردة الحفاظ على مصالحها تجاه عمالقة السياسة العالمية، ومثال ذلك ما حدث فى مؤتمر المناخ فى كيوتو خريف عام ١٩٩٧ الذى بحث الحد من كمية الغازات المنطلقة من كل دولة لحماية طبقة الأوزون. واتخذت قوتان عالميتان هما الولايات المتحدة والصين خلاله موقفا رافضا ومتشددا ولو لم تتضامن دول الاتحاد الأوروبى فى موقف موحد لابتلعتها الدولتان الأعظم وأهدرت مصالحها وقد يتكرر نفس الموقف مستقبلاً فى ظل ثلاثية القوى الكبرى، وقد أدى تكامل واتساع السوق الأوروبية إلى تحقيق مصالح اقتصادية لأعضائه، مما دفع دولاً كالدانمارك والسويد وفنلندا والنمسا إلى الانضمام إلى الاتحاد تبعتها دول أوروبا الشرقية واعتبر توحيد العملة (اليورو) خطوة كبيرة لم ترحب بها الولايات المتحدة، ولم يتمكن الاتحاد الأوروبى من توحيد سياسته الخارجية وسياسته الأمنية، ويجابه مشاكل من التوسع فى عدد أعضائه، مما قد يؤخر صعوده للانضمام إلى مجموعة القوى الكبرى حتى نهاية الربع الأول من القرن الحالى. ويكرر شميت الإشارة إلى المخاطر التى يتضمنها المزيد من الاندفاع نحو ليبرالية التجارة التى تشجعها منظمة التجارة العالمية بضغوط أمريكية والتحرر شبه المطلق لانتقال النقد ورؤوس الأموال وعولمة المضاربات والاندماجات الكبرى ومضاربات أسعار العملة التى لم تعد حتى البنوك المركزية والحكومات تستطيع الإحاطة بكل جوانبها. مما يستوجب فى المستقبل إنشاء منظمة دولية للرقابة والمتابعة، بعد أن أصبح البنك الدولى وصندوق النقد الدولى غير مناسبين لتولى هذه المهمة.

ويعلق شميت على اتجاه بعض الدول والسياسيين إلى الحد من البطالة والركود الاقتصادى بتطبيق نظريات كينز John Maynars Keynes التى ظهرت فى الثلاثينيات بالصرف مع زيادة العجز Defecit Spending بمعنى توسع الدولة فى الصرف على برامج الاستثمار وتوفير فرص العمل، وتمويل ذلك عن طريق الاقتراض وزيادة مديونية الدولة، مع خفض للضرائب معتبرا ذلك علاجا غير فعال لخلق فرص عمل جديدة نتيجة لعولمة وليبرالية الاقتصاد وتشابكه بين دول العالم، وفى عرض مفصل يطرح عددا من المقترحات والآراء لمجابهة تحديات العولمة وآثارها. تعتمد أساسا على ديموقراطية المجتمعات وحرية مواطنيها، وإزالة العوائق التى تحد من انطلاق القدرات الخلاقة لأفرادها بسبب البيروقراطيات المتعفنة وإغراق المواطن بآلاف من مواد القوانين واللوائح والتنظيمات، والإجراءات القضائية البطيئة غير الفعالة، وتعدد وتضارب جهات الاختصاص، والثغرات القانونية والضرائبية والأوضاع الاستثنائية التى تفتح المجال لانتشار الفساد، ومركزية الدولة الشديدة ويؤكد أهمية وضرورة دعم وتشجيع البحث العلمى كأولوية مطلقة.

التحدى الثقافى والفكرى

يخصص الكاتب فصلاً كاملاً عن التحديات الثقافية للعولمة يتناول فيه دور الفنون والآداب ومهام المدارس والجامعات وأجهزة الإعلام فى التجديد ونشر المعرفة ويعطى اللغات القومية اهتماما خاصا، فبالرغم من انتشار لغات عالمية فى استعمالات التكنولوجيات الحديثة وهو وضع مقبول لا يجب محاربته، إلا أن حفاظ الشعوب على لغتها القومية واستخدامها فى التخاطب فى الحياة اليومية وفى الآداب هو أمر حيوى لها، إذ إن ضعفها أو زوالها يعنى فقدان جزء كبير من حضارتها وثقافتها وبالتالى هويتها.

وفى معالجة قوية يتناول المستشار شميت بما عرف عنه من صلابة كمفكر سياسى وبأسلوب صريح مباشر، موضوع فرض الثقافات والمفاهيم على الغير، وننقل فى هذا الصدد بعض فقراته بالنص باعتباره أمراً مطروحاً للنقاش فى عالمنا العربى فى الآونة الأخيرة.

فيقول فى مجال التحدى الثقافى للعولمة «هناك خطر على السلم العالمى مصدره الغرب، خاصة الولايات المتحدة.. وهو محاولة أن نفرض على غيرنا من الشعوب والثقافات والقارات مثلنا ومفهومنا للمدنية والديمقراطية وحقوق الإنسان، وعلينا أن نتذكر أنه لم يمض نصف قرن على النظام النازى العنصرى العدوانى فى ألمانيا، وأن تحرير العبيد تم فى الولايات المتحدة منذ قرن ونصف القرن بحرب أهلية دموية، فهل يؤهلنا هذا لفرض قيمنا الغربية على غيرنا».

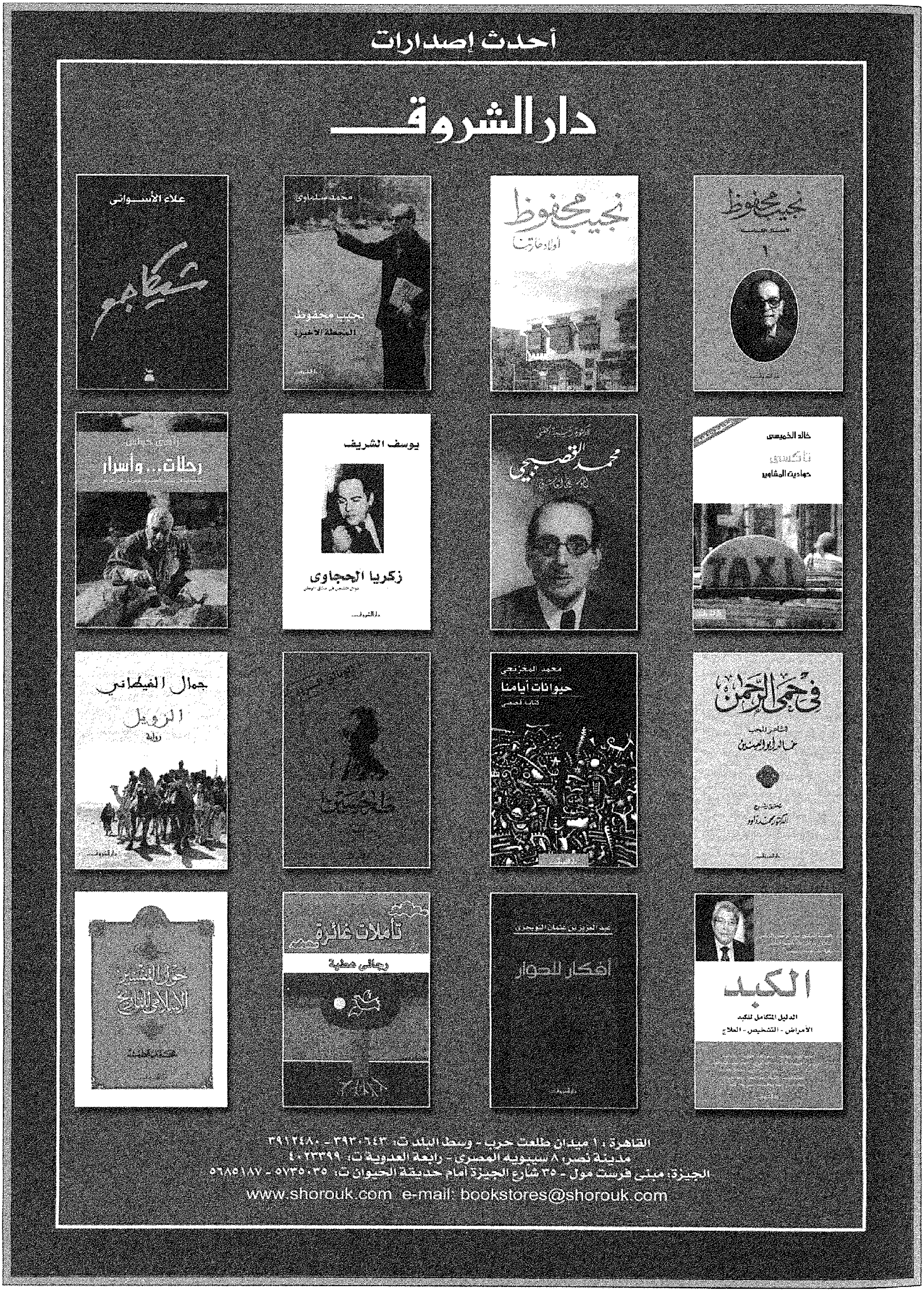
«لقد كان التعليم وتدريس التاريخ فى أوروبا وأمريكا مقصورا فى أنانية وانغلاق على التاريخ الأوروبى فقط، ولذا أصبح المواطن العادى لا يعرف شيئاً عن فلسفة وديانات الهند والصين لا الكنفوشية ولا الهندوكية أو البوذية، كما لا يعلم أى شىء عن الإسلام، ومع ذلك يسعى البعض فى أوروبا وأمريكا إلى إرغام مليارات من البشر الذين يعتنقون ويمارسون دياناتهم ومعتقداتهم منذ مئات، بل آلاف السنين على قبول مفاهيمنا الخاصة التى تتحدث عن الدستور والديمقراطية وحقوق الفرد، وتستعمل وسائل الإعلام ونظم الاتصالات الحديثة للمساعدة على تغيير أفكارهم ومعتقداتهم ويطبق البعض الآخر عليهم العقوبات الاقتصادية أو يصف دولهم المستقلة ذات السيادة وحكوماتها بالدول المارقة».

«يذكرنى هذا بنشر المسيحية بالعنف فى أوروبا الوسطى ومع استعمار أمريكا الجنوبية وبالحروب الصليبية، لقد أخطأت الكنيسة فى القرون الوسطى فى فهم الإسلام، ولم تنظر إليه كرسالة إلهية، ولم تكتف فى بلادها بحرق الساحرات ومن أسمتهم بالملحدين. وأضافت لذلك إرسال حملة صليبية بعد الأخرى، ماذا نسمى هذا بتعبيرات العصر وكلمات اليوم، إنها أعمال مسيحيه أصولية عدوانية، أذكر هذا لإيضاح ما سبق أن ذكرته من أننا لا نملك حقا أو شرعية لنفرض على غيرنا ما يجب عليهم الاعتقاد به وما يجب عليهم قبوله من مثل ومعايير أخلاقية».

«ولكن هذا لا يعنى بأية حال أن نقبل اعتبار ما حدث من تصرفات مسيحية أصولية عدوانية فى القرون الوسطى هو المسيحية أو يمثل المسيحيين تماماً، كما لا نقبل اعتبار بعض مظاهر إسلامية أصولية متطرفة هو الإسلام أو يمثل عقائد وطباع مليار مسلم بالعالم».

ومع ذلك فإن ظهور فكر متطرف لبعض المسلمين فى باكستان والجزائر ولبعض الهندوس فى البنجاب وبامير أو لبعض الكاثوليك فى أيرلندا هو أمر لا يجب إغفاله فى عصر الانفجار السكانى والعولمة، ولكن استمرار الحديث عن حتمية صراع الحضارات والترويج للاعتقاد بعدم إمكان تفادى الصدام هو فكر فى غاية الخطورة، قد يصبح رؤية مستقبلية لإرضاء الذات Salf-Fulfiling Prophesy يؤدى إلى صدام بين اتباع المعتقدات والديانات المختلفة، ولذلك فعلينا أن نبذل جهداً أكبر لمعرفة الآخر والتفاهم بين الشعوب ومن يبذل جهداً فى ذلك ستتكشف له القواسم الخيرة المشتركة.. وللقيادات السياسية والدينية ومؤسسات التعليم والإعلام والمثقفين دور أساسى فى ذلك. ففى عصر العولمة أصبح من لا يستطيع فهم واحترام تقاليد ومعتقدات ومصالح الآخر لا يصلح لتولى مسئوليات القيادة أو التعليم، وعلينا أن نتذكر مبدأ «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به».

لقد تناول المستشار شميت مفهوم العولمة وتحدياتها بنظرة عالمية شاملة ولفت النظر إلى أهمية استيعاب متغيراتها وإلى أن العولمة رغم مخاطرها ليست شراً مطلقاً، بل إنها تتيح خاصة للدول النامية فرص استفادة حقيقية للتطور فى الطريق إلى مجتمعات منظمة ديمقراطية حرة تفسح المجال لمواطنيها للمشاركة وإطلاق ملكاتهم الخلاقة، فى جرأة على التجديد والحداثة للتوافق مع متطلبات عصر العولمة.. وفى طرحه لتجربة الوحدة الأوروبية أكد عدم استطاعة أى من الدول الصغيرة والمتوسطة الحجم منفردة، مجابهة تحديات العولمة والحفاظ على مصالحها أمام تغيرات القوى الكبرى والتكتلات الدولية، ولعل فى ذلك ما يستحق التأمل فى عالمنا العربى المستهدف. ■



أحدث إصدارات
دار الشروق
علاء الأسواني
شيكاجو
نجيب محفوظ
المحطة الأخيرة
نجيب محفوظ
أولاد حارتنا
يوسف الشريف
زكريا الحجاوى
محمد القصبجي
خالد الخميسى
تاكسى
حواديت المشاوير
رحلات... وأسرار
جمال الغيطاني
الزويل
رواية
محمد المخزنجي
حيوانات أيامنا
في حي الرحمن
تأملات عابرة
رجائي عطية
أفكار للحوار
الكبد
الدليل المتكامل للكبد
الأمراض - التشخيص - العلاج
القاهرة : ١ ميدان طلعت حرب - وسط البلد ت: ٣٩٣٠٦٤٣ - ٣٩١٢٤٨٠
مدينة نصر: ٨ سيبويه المصرى - رابعة العدوية ت: ٤٠٢٣٣٩٩
الجيزة: مبنى فرست مول - ٣٥ شارع الجيزة أمام حديقة الحيوان ت: ٥٧٣٥٠٣٥ - ٥٦٨٥١٨٧
www.shorouk.com e-mail: bookstores@shorouk.com

حياة قصيرة وسيرة لم تكتمل

محمد تيمور

علاء الدين وحيد

■■ تختلف الموهبة الأدبية فى البيت الجاهل الفقير عنها فى البيت المثقف الغنى خاصة زمان، فهى فى الأولى تواجه منذ البداية العوائق والإحباطات ما يمكن أن يوقف حتى مسيرة تكوينها الثقافى ويعرقل خطاها ويسد عليها الطريق، لما يستلزمه الزاد الفكرى من حاجة مالية .. بينما هى فى الثانية ميسرة مشجعة، تتيح لصاحبها أن ينهل بسهولة من كافة المنابع وألوان المعرفة التى ييسر الثراء الحصول عليها، وكذلك وجدت موهبة الشاعر الأديب المسرحى الممثل المخرج محمد تيمور .. الطريق من هذه الناحية ممهداً.

ولد محمد تيمور (١٨٩٢-١٩٢١) فى بيت علم وفكر وأدب وثراء .. أحد هذه البيوتات الكبيرة التى كانت قائمة فى ذلك الحين -أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العشرين- ولم يعد لها مثيل فى أيامنا الراهنة، عندما كان الغنى يقترن بالقيم وجليل الأعمال والثقافة.

والأب هو العلامة أحمد تيمور باشا (١٨٧١-١٩٣٠) الذى يقول عنه أنور الجندى: «أكبر قارئ فى تاريخنا العربى المعاصر، فقد استطاع أن يجمع سبعة عشر ألفًا من المخطوطات والمؤلفات النادرة، ثم قرأها وفهرسها وعلق عليها وأولدها حصيلة من الدراسات تمثل موسوعة ضخمة».. كان الرجل عاكفاً على القراءة والمراجعة، مولياً موارده كلها لاستظهار المخطوطات العربية بالنقل أو بالفوتوغرافيا أو بالشراء من مختلف أنحاء العالم، فى سبيل خدمة فكر هذه الأمة (الفكر الإسلامى العربى) بإثرائه مرة أخرى بآثاره التى ذهبت.

«شغل نفسه فى هذا السبيل شغلاً لا حد له، أنفق فيه زهرة حياته وجل موارده. يدفعه إليه إيمان عميق باللغة العربية والتراث العربى الإسلامى، وكان فى سبيل ذلك كله قد فرغ نفسه من كل عمل، وتجرد لغايته».

ولم يكن الرجل مفكراً ذا اهتمامات عادية تشده إلى الوراء، بل من القلة المتطلعة إلى الأمام فى وقت تسود فيه القيم التقليدية والرجعية الحياة العامة والفكرية على السواء. ويكفى الإشارة إلى أن من أكبر اهتماماته .. الأدب الشعبى، فى زمن كانت الحياة الثقافية الرسمية وغير الرسمية تنظر إليه شزراً ومن عل غير معترفة به لأنه يتصل بالرعاع.

كان أحمد تيمور من أتباع الشيخ محمد عبده ومدرسته متفهما لضرورة التطور والتغيير وأن اليقظة فى كافة المجالات واستلهام روح الشعب، هى السبيل الأوحد لنصرة العرب والمسلمين. وهكذا جاء موقفه من الفنون بوجه عام القديمة والجديدة، لا يقتصر على التراثية منها بحجة أنها استوعبت كل شىء، بل تطلع إلى الاستفادة من الحديث، مما جعل عشقه للموسيقى الشرقية والتركية والغناء العربى لا يتناقض مع الموسيقى الكلاسيكية الغربية، وصلته بأوروبا والمستشرقين غير منقطعة يؤكدها إجادته للغات أجنبية بجانب علاقته الوثيقة الشخصية بمطربى عصره الذين كانوا يترددون على قصره.

ومن الطريف أن تيمور باشا كان متعدد الهوايات والمواهب الفنية، التى يكاد الكثيرون لا يعرفون عنها شيئاً رغم أنها وثيقة الصلة بتكوينه وثقافته وتعكس رحابة فكره .. منها حبه للرسم وأكثر من هذا ممارسته له! فعندما قام فى شبابه بزيارة طويلة إلى الصعيد، وانبهر بالآثار الفرعونية التى شاهدها .. بلغ حماسه لها كما يقول ابنه محمود تيمور: أن «دون خواطر الرحلة فى دفتر حلاه برسوم أجراها بيده».

ويستكمل عشقه للفن التشكيلى هواية جديدة على مستوى العالم هى التصوير. وافتتن أحمد تيمور به إلى درجة عدم الاكتفاء بالتقاط الصورة، بل تحميضها وطبعها بنفسه بعد أن أنشأ معملاً لها فى بيته.

ولعله أول من التفت فى العصر الحديث إلى ضرورة تدوين الأدب الشعبى من أفواه رواته قبل أن يندثر. وتسجيله على اسطوانات عندما ظهرت فى بداية القرن العشرين. وكانت تتيح لمن يملكون «الفونوغراف» التسجيل الخاص أيضاً .. وفعل أحمد تيمور .. «وقد أضاف إلى تسجيل الأغانى المشهورة طرائف من الأناشيد والأهازيج والمواويل، ونداءات العامة، والأذكار، وأغانى المداحين، وألحان رقاصى الودع، والمحاورات الفكرية بين المتصافعين «بتوع زمر» وما إلى ذلك مما يتصل بالتراث الشعبى فى عالم الطرب والتسلية».

وبجانب هذه الألوان الفنية كان هناك أيضاً أبو الفنون .. المسرح، الجديد فى عالم الفن الذى استنبته العالم العربى حديثاً. وقد عرفت مصر المسرح منذ وقت غير قصير حتى قبل مجىء الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت. يذكر الرحالة الدانمركى كارستين نيبر الذى زار القاهرة عام ١٧٨٠: «إننا لم نكن نتوقع مشاهدة تمثيل فى مصر. على أنه عند وصولنا إلى القاهرة، كانت ثمة فرقة تتألف من عدد من الممثلين، منهم المسلم والمسيحى واليهودى، وكان مظهرهم ينم عن النجاح الذى أصابوه فى هذه البلاد، فقد كانوا يتقاضون على ذلك أجراً زهيداً، وكانوا يمثلون فى الهواء الطلق، ويستخدمون فناء البيت كمسرح، كما كانوا يقيمون حاجزاً من «الكواليس» يبدلون وراءه ملابسهم».

ويتذوق أحمد تيمور الفن المسرحى خاصة عندما جاءت إلى مصر من الشام فرقة سليم خليل النقاش، وأبو خليل القبانى، واسكندر فرح. وتأكدت هذه الصلة مع مجىء القبانى سنة ١٨٨٤، الذى تعرف عليه علامتنا وتوثقت الصلات الشخصية بينهما. كان الأب يحجز مقصورة دائمة فى المسرح ويصحب أولاده الثلاثة عندما كبروا إلى المسرح. وكان أكثرهم افتتاناً به أوسطهم محمد، وهو فى ذلك الحين فى التاسعة من عمره، ويعيد فى اليوم التالى ما شاهده فى الليلة السابقة من أحداث المسرحية ومشاهدها وكلماتها .. فيمثلها هو وإخوته. ولما كان الثلاثة لا يمكن أن يشكلوا «جوقا» - كما كان يطلق على الفرقة زمان - فقد استعانوا بالخدم والأصدقاء .. فريقاً منهم ممثلين وفريقاً جمهوراً، مستعينين بالضرورى من أدوات التنكر، كى يكون تقمص الشخصية أقرب إلى الأصل وواقع الحياة.

يذكر شقيقه محمود تيمور هذه الواقعة عن المسرح المنزلى الخاص .. «ليلة والفرقة تؤدى رواية «عايدة»، والموقف حماسى حار، سمعنا صوت أبى يطلب أحد الغلمان فى شأن من الشئون، وكان أبى لا يدرى من أمر حفلتنا التمثيلية شيئاً، وكان الغلام فى هذه اللحظة يمثل دور «عم ناصر» والد عايدة فى لحيته الكثة، ووجهه المريد، فما كاد الغلام يسمع صوت أبى يناديه حتى قفز من المنصة دون وعى، مستجيباً للنداء، فلما أقبل فى هيئته وشاربه، أدرك أبى على الفور ما كنا منهمكين فيه، فيصرف عنه البطل الممثل والد عايدة، ليستكمل أداء دوره، وانتحى هو ناحية من الدار يشرف منها - دون أن يراه أحد - على تمثيلنا الصبيانى الأنيس»!

فى هذه الأجواء الثقافية والفنية وجد محمد تيمور نفسه، وكان من الطبيعى للموهبة الأدبية وسط العوالم المشجعة أن تتكون وتزدهر. وهكذا نشأ عشقه للمسرح .. رافداً أدبياً فكرياً، وليس مجرد تمثيل كما هو عند رائد مسرحى آخر هو يوسف وهبى. انبثقت هوايته الأدبية منذ صغره .. محصلة قراءات عصره. وتكون أول ممارسة فعلية لها إصداره هو وأخويه مجلة بيتية تحمل الأخبار - الأسرة والجيران - والانطباعات الشخصية هى «المنزل»، تطبع بوسيلة بدائية كانت منتشرة فى ذلك الحين - وإلى ستينيات

حياتنا التمثيلية
محمد تيمور
القاهرة : الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٤٦٦ صفحة، ٢٠٠٣.



القرن العشرين - هى «البالوظة» .. يكتب مؤسسها الثانى محمود تيمور عنها بعد أكثر من نصف قرن: «أنشأنا صحيفة ننشر فيها ما نهوى، كان توزيعها مقصوراً على أهل البيت أول الأمر، ثم أصابت حظاً من الرواج والانتشار من أهل الحى الذى نسكنه».

وتقود القراءة والثقافة والمسرح إلى الخطابة .. كان ذلك عندما التحق محمد تيمور بالمدرسة الخديوية الثانوية وانضم إلى جماعة الخطابة. كانت المدرسة المصرية فى ذلك الحين مدرسة بالفعل تعرف مسئولياتها وواجباتها، وتعد التلميذ إعداداً تربوياً وتعليمياً حقيقياً وتهتم بشأنه فى الحصص وخارج الحصص، وتتيح له أن ينمى مواهبه ثقافياً وفنياً ورياضياً. وكان العصر عصر خطابة ووطنية وزعيمها المتألق سعد زغلول - بجانب إسهامات تلميذنا فى جماعات الأدب والشعر والتمثيل، وكانت موهبته الشعرية قد بدأت فى الظهور، وأخذ ينشر قصائده بجانب مقالاته فى صحف عصره، التى اتسمت منذ البداية بالحس النقدى والاتجاه الإصلاحى والروح الرومانسية.

وفى غمرة انغماس محمد تيمور فى عوالمه الفنية الفكرية وكان فى نهاية دراسته الثانوية «البكالوريا» أى الثانوية العامة، يفاجأ الشاب الصغير أن عليه أن يقرر أمراً لا مندوحة منه .. التخطيط لمستقبله. وهو يظن أنه ليس فى حاجة إليه، لأنه بالفعل سائر فيه .. الكتابة فى الصحف وقول الشعر. وهل هناك مستقبل أروع من ذلك؟ نعم .. الحياة العملية فى مجتمع لا يعترف إلا بالتعليم العالى المحترم، وينظر إلى «الجرنالجى» نظرته إلى «الأديب الأدباتى» الأقرب إلى المتسول. ولم يكن فى الإمكان أن يحمل استنارة الأب فوق ما يطيق، فهناك الرأى العام الجامد ونظرته الضيقة إلى الأشياء .. إذن فلابد مما ليس منه بد. والكلية التى يتم اختيارها هى كلية طب جامعة برلين، ولهذا ما يكاد يحصل على «البكالوريا» حتى يسافر إلى ألمانيا.

وهذا الموقف يدهش كثيرين لأنه يناقض تكوين محمد تيمور النضالى ومقاومته للأوضاع المائلة .. اجتماعياً وفكرياً وفنياً. فكيف يرضخ لما يكره إزاء دراسته الجامعية التى لا تتصل من قريب أو بعيد بموهبته؟ ولكن كان هناك ما هو أقوى من تحقيق حلمه، وهو رعاية حقوق أبيه وعدم المساس بما يخدش قامته الفارعة فى المجتمع، بمهنة تأتيه من ناحية ابنه تصدم تقاليد هذا المجتمع .. خاصة والرجل يبذل أفضل ما فى وسعه لإسعاد أبنائه، ويكفى أنه ترمل مبكراً بعد وفاة أم أولاده ورفض أن يتزوج ثانية متفرغاً لتربيتهم.

ظن محمد تيمور بعد أن استقر به المقام فى برلين، أن نفسيته قد استقرت هى الأخرى بالنسبة إلى ما انتهى إليه أمره. ولكنه كان واهماً .. وهو يزداد ضيقاً وسأماً يوماً بعد يوم بما يدرس. فهو لم يحفل أو يحلم يوماً أن يغدو طبيباً. بجانب أن العاصمة الألمانية بدت له جهمة .. حتى فنونها ومسارحها لم يسترح لها ولم تجذبه .. وكان فى هذا فصل الخطاب. وقرر أن يترك المكان ويغير الدراسة كذلك، ويختار باريس هذه المرة وكلية الحقوق فى جامعتها عن اقتناع.

ولكن هل يعنى ذلك الانتظام فى الدراسة والاهتمام بها؟ لا! فقيم التقدم والحضارة ورقى الفكر والأدب والفنون، أذهلت الأديب الشاب القادم من القاهرة وهو يطلع عليها ويتذوقها. يصور زكى طليمات الأثر الكبير لهذا الاطلاع قائلاً: «.. فيتجلى له النقص المخيف فى الأدب العربى وكل فن جميل بمصر. كم من مبدأ كان يؤمن بصوابه وأفكار كان يتيه لخطورها برأسه، قد تلاشت. وكم من نماذج كان يقر بها احتراماً عميقاً ومحاولات صادقة للسير على منوالها قد تحطمت وعفت آثارها».

وهكذا أخذ ينهل من منابع الثقافة الفرنسية بوجه خاص - والغربية بشكل عام - ويتردد كثيراً على مسارح باريس، كأنه مكلف بما يقوم به تكليفاً .. مما لم يبق إلا القليل للقانون والنتيجة رسوبه عامين فى السنة الأولى. نفس ما يتعرض له بعد قليل شاب مصرى آخر، كانت له محاولات مسرحية فى مصر وجاء باريس للحصول على الدكتوراه فى القانون هو توفيق الحكيم. ولكن انغماسه الكلى فى الفكر الغربى والمسرح الفرنسى أبعده عن موضوع رسالته، فعاد إلى بلده كما جاء بلا دكتوراه.

ومن الطريف أن يتناول محمد تيمور مثل هذا الصراع فى شخصية بطل قصته «هو وهى» أحد أجزاء «مذكرات باريس»، الذى جاء من القاهرة إلى العاصمة الفرنسية هو الآخر والتحق بالحقوق أيضاً، فيصوره على هذا النحو: «جاء إلى باريس ليدرس الحقوق، وما كان بنفسه ميل لعلوم الشرائع، ولكن والده لم يسمح له بمغادرة القاهرة إلا ليلقى بنفسه فى أحضان تلك العلوم. فسافر وفى قلبه غصة، لكنه وطد النفس على الدأب والعمل جامعاً بين علوم الحقوق التى كانت تجشم نفسه ما لا تستطيع احتماله وبين علوم الآداب التى يرى فيها مسكة الأمل وقرة العين»!



وفى الرسائل المتبادلة بين الأخوين محمد فى باريس ومحمود تيمور فى القاهرة، أحاديث طويلة عن الأدب والمسرح والحياة الثقافية فى كل من فرنسا ومصر، والتى كان الأول وهو فى الغربة شديد الحرص على متابعتها ومقارنتها بما يحدث فى بلاد بره، مطالباً شقيقه الأصغر المزيد من تفاصيل الحياة الفكرية والفنية فى مصر، التى يغلب عليها التقليدية وعلى أدبها المحسنات اللفظية الجوفاء وعلى مسرحها الجمود والسذاجة، التى تقعد بها أن تعبر عن شىء حقيقى. ولكن من الأخبار الذى يبعث بها محمود إليه .. ما يبعث على الأمل ويجسد روحاً جديدة ودماء شابة تتمرد على الواقع الكئيب. وكان أهمها حدثين: الأول عودة ناظر محطة سيدى جابر الأسبق من بعثته المسرحية سنة ١٩١١ التى كانت على نفقة الخديو عباس حلمى الثانى وهو جورج أبيض. والثانى خلع عبد الرحمن رشدى روب المحاماة ليتفرغ للتمثيل، وهو حدث مزلزل هز المجتمع الراكد من الأساس.

ولم يكن حرص محمد تيمور على تقدم بلده من خلال الحركة الفكرية والمسرحية، هو وحده الذى يشغل باله فى الغربة، بل كانت أيضاً قضية بلاده الواقعة تحت نير الاستعمار البريطانى. وإذا كان من المعروف أن بيت تيمور لا يشتغل بالسياسة وينأى عن العمل السياسى، فلا يعنى هذا ألا يكون الهم الوطنى شاغل محمد تيمور. ومن هنا جاء انضمامه وهو فى باريس إلى جمعية وطنية أسسها الطلبة المصريون هى «أبو الهول المصرية» بإشراف الزعيم المنفى محمد فريد.

يقول آرثر ادوارد جولد سميث الابن .. «وفى ديسمبر كونت الجالية المصرية الكبيرة بجنيف نادياً وطنياً اسمته جمعية «أبو الهول». وأصبح هذا النادى نموذجاً لنواد مماثلة فى مدن أوروبية أخرى حيثما وجد عدد كبير من الطلاب المصريين. ففى ربيع سنة ١٩١٤ رأس فريد بنفسه حفلات افتتاح فروع «جمعية أبو الهول» فى لندن، وباريس، وليون، وليبج، وانتوريب، وبروكسل».

«ولم تكن «جمعية أبو الهول» مفتوحة الأبواب أمام أى مصرى فى بلاد بره، إذ تتطلب نوعية خاصة من المنتمين إليها .. يؤمنون رغم سواد الاحتلال الحالك .. ببلدهم .. وحقه فى الكرامة والحرية والاستقلال، مستعدين فى سبيل ذلك بالتضحية وبذل النفس. ولذلك فالمواطن السلبى أو اللامبالى بأمور بلده أو المتشيع بشكل أو بآخر للمحتلين .. مرفوض تماما من الجمعية ولا تقبله عضواً فيها».

وكان الزعيم محمد فريد يطالب المؤسسين بضرورة التشديد فى شروط قبول العضو بجمعية أبو الهول التى هدفها الأساسى استقلال مصر «بأن يعلن العضو استعداده لإعلان مبدئه فى كل وقت وتحت كل الظروف المختلفة حتى يعى العضو تماماً مبدأ التضحية بكل فائدة شخصية وفاء لمصر».

ويمضى محمد تيمور فى باريس حوالى ثلاثة أعوام، يعود فى كل عطلة صيفية إلى القاهرة ليقضى بين عائلته شهرين أو ثلاثة كالعادة، يتابع ويشارك فى الحياة الثقافية، ثم يعود إلى باريس. وكان آخر عطلة قضاها من هذا النوع قبل الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ والتى منعته من العودة .. وفى البداية ظن كما ظن الملايين فى العالم، أن الحرب المندلعة لن تلبث أن تضع أوزارها فى غضون أسابيع قليلة وتستقيم الأمور إلى سلامها السابق، ويتمكن هو من العودة إلى باريس ثانية كسابق عهده. ولكن الحرب كذبت الظنون واستمرت أربع سنوات. وعندما أدرك صاحبنا استحالة السفر وحتمية البقاء فى القاهرة، قرر أن يتوجه وجهة أخرى فى الدراسة الجامعية .. ولعل وعسى هذه المرة. والتحق بمدرسة الزراعة العليا، ومرة ثالثة خذله عزمه فى الدرس النظامى .. وعندئذ نفض يده تماماً من الدراسة العليا، متفرغاً للأدب والشعر والمسرح .. بادئاً مرحلة جديدة فى حياته، اتسمت بالنضج الفكرى الذى تبلور فى موقفين: الأول الإغضاء عن كل ما كتب من قبل ونشره والتخلص من أكثره بتمزيقه، بعد أن تغير رأيه فى كثير من الأشياء السابقة. والثانى إيمانه بأدب مصرى

صميم يعبر عن الروح المصرية الأصيلة في مواجهة السائد من الأدب المعرب والممصر والمترجم السائد، الذى يحاصر تطلعات الإنسان المصرى ولا يمكن الحس القومى من البروز.

وكان أهم ما استوعبه محمد تيمور من حياته في الخارج وقراءاته في الأدب الفرنسى، ما يتميز به ككل أدب حى من الروح القومية الصميمة التى تنتفض حياة، تجسد الأرض والإنسان والهموم والأحلام والقضايا جميعاً. وهى أشياء هامة وعظيمة يفتقدها الشاب المصرى في أدب بلده. وهكذا جاء تصميمه على أن يؤدى لوطنه هذه المسئولية ويعمل لها. وانبعثت الدعوة لتمصير الأدب .. أدب مصرى أصيل يعنى قبل كل شيء القوة لا الضعف، التماسك لا التخاذل، الحرية لا القيد، الاستقلال - الشخصية والوطن - لا العبودية .. ولذلك حملت كتابات محمد تيمور المختلفة شعره ونثره ومسرحياته هذه القيم. يكتب في نوفمبر ١٩١٣ هذه الكلمات تحت عنوان «الخوف من الحياة»: «ماتت في نفوسنا عزيمة المخاطرة في الحياة. الرجل خلق في هذا الحياة ليعمل، فإن نجح استحق الثناء والفخر، وإن خسر كان جزاؤه اللوم؛ وهو في الحالتين سعيد لأن التعس هو من قضى حياته دون أن يمدحه أو يلومه أحد».

ويلتفت محمود تيمور إلى جانب آخر في اتجاه شقيقه نتيجة سفره إلى الخارج: «إن تلك السنين التى صرفها تيمور في أوروبا وبالأخص في فرنسا كانت ذات أهمية كبرى في تكوينه النفسى، ولا نخطئ إذا عددناها عصر انتقاله، إن البيئة التى عاش فيها - بيئة الحرية والديمقراطية والمساواة، بيئة الاستقلال في الرأى والعمل والاعتماد على النفس، بيئة الثورة الفكرية والعمل والنقد الصحيح ممزوجة بتلك المناظر الرائعة التى لا عهد له بها - وقد أثرت فيه تأثيراً شديداً قامت على أثره في نفسه ثورة فكرية هائلة انتهت بذلك التطور الجديد الذى ظهر في كتاباته نثراً ونظماً فيما بعد ...».

ولم يكن غريباً في السنوات التى سبقت ثورة ١٩١٩ واليقظة تشمل كل شيء، أن يكثر إنشاء الجمعيات المسرحية التى يؤسسها الشباب المثقف. فظهر منها «جمعية رقى الآداب والتمثيل»، و«جمعية إحياء فن التمثيل» وغيرهما ينشئها هواة المسرح. يدفعهم إلى ذلك بالدرجة الأولى الحس القومى للمشاركة في بناء الوطن وتقدمه واستقلاله. ولذلك كان مما يتفق وطبائع الأشياء أن تصبح دعوة إحدى هذه الجمعيات التى انضم إليها المخرج محمد كريم في شبابه إلى حفلاتها المسرحية، قولها في إعلانها: «حيث إن التمثيل عليه رقى الأمم والشعوب وهو درس في الأخلاق والتاريخ، رأينا من الواجب علينا السعى في رقى هذا الفن..»!

ولأن مهمة الرائد صعبة ومتشعبة في الأرض الجدباء، فقد كان من الضرورى لمحمد تيمور أن يتحرك إزاء المسرح في أكثر من مجال .. أن يشارك في النشاط الفنى، ويسهم في النقد المسرحى، ويبدع في كتابة المسرحية .. أن يفعل ذلك وغيره في وقت واحد مؤصلاً هذا الفن الجديد، الذى بدأت بذوره تنبت في الأرض المصرية وتثمر ثماراً صالحة.

وهكذا انضم كاتبنا إلى «جمعية أنصار التمثيل» التى أنشئت قبل ذلك بحوالى العامين سنة ١٩١٢، وجمعت هواة المسرح من ممثلين وكتاب وشعراء مثل: محمد كريم، عبد الوارث عسر، أمين وهبة، عزيزة أمير، عبد الحميد زكى، فكرى أباظة، أحمد رامى، إبراهيم رمزى، فؤاد رشيد.

يقول دكتور محمد مندور: «وقبيل الحرب العالمية الأولى يمكن القول بأن فن التمثيل أخذ المصريون ينظرون إليه نظرة جديدة، ففى سنة ١٩١٢ تحدثنا جريدة الأهرام أن بعض الشبان قد عقدوا في أواخر ذلك العام اجتماعات بمكتب الأستاذ محمود خيرت المحامى وقرروا تأليف جمعية أنصار التمثيل وإخراج رواية «دافيد جرك» المنقولة عن الإنجليزية، وكان من بين أعضاء هذه الجمعية الأستاذ عبد الرحمن رشدى والأستاذ سليمان نجيب. إلا أن الجمعية صادفت صعوبات مالية كبيرة لم تستطع التغلب عليها فانسحب منها بعض الأعضاء في أوائل سنة ١٩١٤، بينما انضم إليها بعض الهواة أمثال محمد عبد الرحيم ومحمد تيمور وأحمد رامى وعبد المجيد البيلى ومصطفى عزلان، وكان أحمد حشمت ناظر المعارف العمومية رئيس شرف للجمعية. واهتم الأستاذ جورج أبيض بمجهودهم وأشرف بنفسه على إخراج الرواية التى مثلت في أواخر سنة ١٩١٤ لأول مرة».

ولم يقف جهد محمد تيمور إزاء جمعية «أنصار التمثيل» عند المشاركة في نشاطها، بل أقال عثرتها بعد وفاة منشئها محمد عبد الرحيم وعضدها بالمال عندما تعرضت للتوقف.

في ذلك الحين - منتصف العقد الثانى من القرن العشرين - كانت الأرض المصرية تشرئب روحها إلى الانطلاق من قيود الأسر الذى يكبلها به الاحتلال الإنجليزى، وكذلك قهر نظام الحكم غير الديمقراطى والدستورى. وتلهفت الجماهير وفي مقدمتها طليعتها المثقفة، إلى تغيير واقعها المتدنى في الكبيرة والصغيرة .. من كفاح طلعت حرب في سبيل إنشاء بنك مصرى صميم، وقيام محمود مختار ببعث النحت المصرى، ونضال محمد فريد وسعد زغلول ضد الاستعمار البريطانى المهيمن، إلى إلقاء الشباب المنولوجات الإصلاحية في حفلات سمر النوادى الرياضية .. مبلورة جميعاً الدعوة إلى الحرية وإصلاح الحال المائل في مختلف الميادين.



وجد عشاق الفن في إلقاء المنولوجات الخطوة الأولى إلى اعتلاء خشبة المسرح، وكان من أشهر هواة هذا اللون .. حسن فائق، يوسف وهبى، سليمان نجيب، عزيز عثمان، زكى طليمات وغيرهم. ويشارك الشاعر محمد تيمور في ذلك في حفلات النادى الأهلى. وكان لهذه الخطوة ما بعدها في مسيرة فناننا. وكان عالم الديالوجات والمنولوجات هذا، معبر محمد تيمور إلى خشبة المسرح، والخطوة الأولى التى خطاها ليكون ممثلاً وكاتباً مسرحياً معاً! وكان أديبنا يؤلف شعراً ما يلقى من محاورات، والتى تحوى أيضاً بعض المشاهد الصغيرة واللقطات التمثيلية، وامتازت كما امتاز شعره نفسه بالروح الرومانسية.

ومن الطريف أن أشهر المنولوجات التى قدمها الشاب الأرستقراطى وجسد شخصيتها وعنوانها «المال أو الغنى والفقير»، لم يكن بطلها ثرياً بل معدماً. وليجيد محمد تيمور تقمص دوره كان لابد له أن يرتدى ثياباً بالية مرقعة، لم يجدها في سوق الملابس المستعملة «الكانتو» بل عند صبى الطاهى في قصره.

شجع نجاح فناننا في منولوجاته شعراً وإلقاء واتصال الحضور الفنى بالجمهور المباشر على خشبة المسرح .. أشواق محمد تيمور لمزيد من الاندماج. ولم تكن فكرة ممارسة التمثيل بعيدة عنه، بل تطلع إليها منذ وقت غير قصير أيام «جمعية أنصار التمثيل»، خاصة عندما رشحه محمد عبد الرحيم لتمثيل أحد أدوار مسرحية «هملت» لشكسبير. ويوافق صاحبنا، ولكن موت مؤسس الجمعية يوقف البروفات.

والمسرحية الأولى التى مثلها محمد تيمور - ذات الفصل الواحد والمنظر الواحد - هى «عزة بنت الخليفة» التى عربها إبراهيم رمزى للشاعر الدنماركى هنريك هيرتز - عن ترجمة إنجليزية شعرية لأدموند فيليبس. وبالطبع أحدث المعرب تغييراً جوهرياً في ملامح المسرحية قلبت كيانها، وهو ينقلها من الجو الأوروبى إلى العربى، في الزمان والمكان والعصر والشخصيات .. ولتلائم ذوق المتفرج المصرى. يقول دكتور إبراهيم درديرى: «ومن الطبيعى أن تتسم مسرحية «عزة بنت الخليفة» بجميع الخصائص التى طبعت حركة التمصير والاقتباس في فترة الحرب الكبرى الأولى وما قبلها، فإن الفكرة الرئيسية في هذه المسرحية رومانسية خالصة تقوم على الخيال، وتكاد تنفصل عن الواقع اليومى انفصالاً تاماً، فهى عبارة عن موضوع غرامى ينشد المثال ويرتكز على الفضيلة، وينسلخ حتى عن الإدراك المؤلف من ثمرات الحواس التى تعين على التعاطف والنفور؛ بمعنى أن الحب أسمى وأعمق وأقوى من مجرد الإحساس الظاهرى بجمال الصورة، فهو من إلهام الروح أو الحدس، ومثل هذا الموضوع يلائم ذوق الجمهور المثقف في تلك الفترة لأنه يلتقى بتصوراته المثالية عن الحياة والحب والخير والجمال، ويحمل في أعطافه القيم الأخلاقية التى رددتها حكايات الحب العذرى وهو صالح للشعر والغنائية».

وينجح محمد تيمور في أداء دور البطولة الأمير سيف الدين، وكان من هيئته وشخصيته وإدراكه وشبابه، خير معوان له على الإجادة برغم أنه أقبل على تمثيله هاوياً يعرف أن هناك الكثير الذى ينقصه في الحرفة. لنستمع إلى الرأى في تمثيله من أحد المتفرجين المثقفين الفنانين الذى شاهد المسرحية، وهو صديقه زكى طليمات الذى يقول: «وأسعدته منحة صوته وحرارة عاطفته ورشاقة حركاته قبل سائر قواه الأخرى. فأخرجه محاطاً بفتنة الشباب ونبل الإمارة وجمال الشعر وسحر الموسيقى. كان في تمثيله

كما وصفه أديب فى نقده للرواية بمجلة «الأدب والتمثيل» على ما يجب أن يكون عليه الأمير الشاعر الذى لا يعرف الحياة إلا فى الحب والجمال. وأزيد - وهو ما شعرت به - أن القيثار الذى وقع كلام ذلك الأمير الشاعر المفتون بالأميرة عزة الجهراء كان له نغم روحى إلى سماء من الطرب لم يكن فى وسع الرواية وحدها بموضوعها الخيالى اللذيذ وأسلوبها السهل المنغم أن يوصلها إليه».

والعمل المسرحى الثانى الذى يؤديه فناننا هو «العرائس» للكاتب الفرنسى بيير وولف ترجمة إسماعيل وهبى - شقيق يوسف وهبى - فى دور المركيز روجيه دى مونكلار. أقدم محمد تيمور على تمثيله وهو يدرك أنه يضع نفسه فى مقارنة صعبة مع ممثل محترف سبقه إليه وهو عبد الرحمن رشدى (المحامى) من الفتيان الأول فى المسرح المصرى. ويوفق محمد تيمور ويصبح حديث الجماهير ومثار إعجابهم. ولعل العامل الأول فى إجادة تيمور وتأثيره فى المتفرجين، يرجع إلى أسلوبه المتفرد الذى لا يقلد أحداً من المشاهير. وقد التفت إلى ذلك زكى طليمات الذى يقول: «كان فى جميع وقفاته سواء على منصة الإلقاء بالنوادى أو على المسرح غير محتذ لأحد من ممثلينا فى طريقته، رغم ما كان متفشياً من حمى التقليد الأعمى بين الهواة بل والممثلين الذين يمثلون صوراً مشوهة من أبيض أو عزيز أو رشدى فى تمثيلهم. ولاشك أن اعتداده بمواهبه ونزعته إلى ألا يتقيد كثيراً بما يراه الغير جميلاً ما لم يقره ذوقه، زد على ذلك نجوته من فساد هذا الذوق وكساد القريحة .. كل هذا قصرت دوره فى تقليد الغير من الممثلين، هذا الدور الذى يعتبر الفجر الأول لصناعة الممثل، وكونت له شخصية بارزة المعالم هذبتها عين يقظة مشغوفة امتلأت بمشاهدات كثيرة لأتقن ما يبرزه فنان فى صناعة التمثيل».

وكان الرائد الكبير جورج أبيض كما تقول ابنته من المعجبين بأداء محمد تيمور على المسرح، «كان كاتبا مجيداً للروايات المسرحية كما كان ممثلاً متألقاً فى أدواره على المسرح».

ويعاد عرض «عزة بنت الخليفة» مرة أخرى فى الحفل السنوى الذى تقيمه الجمعية الخيرية الإسلامية على مسرح الأوبرا السلطانية تحت رعاية السلطان حسين كامل .. الذى يحضره تكريماً للأب أحمد تيمور باشا وتقديراً لابنه الفنان الشاب، وتودداً من ناحية أخرى للشعب الذى يكرهه، بسبب قبوله الحماية الإنجليزية على مصر التى أضاعت استقلال الوطن تماماً وأن المحتلين هم الذين جاءوا به إلى العرش .. مما عرضه لعدة محاولات اغتيال وعصيان مدنى عندما امتنع طلبة مدرسة الحقوق العليا عن الذهاب إلى معهدهم يوم زيارة السلطان. وكان حسين كامل يجهر بحبه لمستعمرى بلاده. يقول لمراسلى جريدة «التيمس»: «إنه واثق بإنكلترا تمام الثقة ويأتمنها»!

ويقابل مجىء السلطان من النظارة بجفاء وفتور واضحين، بينما استقبل محمد تيمور استقبالاً حافلاً .. مما اغضب حسين كامل غضباً هائلاً أنساه نفسه فصب جام غضبه على التيموريين: الأب والابن. يقول دكتور فؤاد رشيد الذى أرخ لهذا الحدث: «قابل الجمهور الرواية باستحسان بالغ حتى أن الستار الأخير رفع عدة مرات إجابة لتصفيق الجمهور وهتافه. ولكن السلطان لم يرقه شىء من هذا، والتفت إلى تيمور الأب غاضباً وقال: جرى إيه يا باشا يصح أن ابنك يعمل أراجوز؟ جرى إيه لأولاد الذوات؟ فارتبك تيمور ولم يسعفه النطق. فقال السلطان: إذا كنت مش قادر عليه، فأنا أقدر عليه، ولا يمكن أن أسمح لأولاد الباشوات بمثل هذا العبث»!

وتكون وسيلة التأديب التى انهال بها السلطان على الفنان الشاب شديدة القسوة بالنسبة للأخير .. تعيينه فى اليوم التالى مباشرة موظفاً «تشريفاتيا» فى القصر السلطانى. وكان معنى ذلك منعه تماماً من كل ما له صلة بالفن .. ووأد أحلامه ومستقبله أى استلاب روحه التى يتنفس. بجانب بغضه الشديد للوظيفة الحكومية - والأدهى وظيفة القصر - التى تلغى الشخصية وتجعل صاحبها عبد المأمور .. بلا رأى أو كرامة أو استقلال. ومع ذلك اضطر إلى الامتثال.

والذين يلومون فناننا على رضوخه لولى النعم، لا يفرقون بين العصر الإقطاعى والعصر الديمقراطى، خاصة أن الحاكم فى الأول يمثل بالنسبة إلى الطبقة الراقية، أو الإقطاعية رب الأسرة المطاع الذى لا راد لقضائه. والأهم من ذلك بالنسبة لممثلنا الأديب خشيته على أبيه الحبيب من غضب السلطان أو امتهانه له. وهكذا هجر المسرح واستقال من رئاسة «جمعية أنصار التمثيل».

فى هذه المرحلة من حياته عرف الطائر المحلق ما هو العذاب والتعذيب، وهو سجين القصر .. القفص الذهبى. ومع ذلك لم تمت روح المقاومة فيه، فإذا منع من الظهور على خشبة المسرح بإرادة ديكتاتورية، فإن روحه الفنانة تستطيع التحليق فى مجال آخر جديد تماما .. وهو القصة القصيرة. وهكذا ظهر كاتبها الرائد. ولا ريب أن المرارة التى صاحبت الوظيفة وما لابسها من ظروف، فتحت عين محمد تيمور على الحياة القاسية حوله حتى فى المستويات العليا من المجتمع التى يتعرض أفرادها أيضاً للمحن .. وأنه ليس بالرومانسية وحدها تنجلى الأشياء. مما دفعه رويداً رويداً إلى الواقعية.



يكتب عباس خضر: «فى سنة ١٩١٧ حينما ظهرت فى جريدة «السفور» قصة «فى القطار» لمحمد تيمور - وهى حسب استقرائنا - أول قصة مصرية حديثة مستكملة للعناصر الأساسية فى هذا الفن، ويلحظ فى هذه القصة كما فى بقية قصص محمد تيمور الاتجاه الواقعى الخالص، وإذا صح هذا، فإنها تكون أول قصة واقعية متكاملة فى أدبنا على الإطلاق».

ومن حسن حظ محمد تيمور أن الأجل لم يمتد بالسلطان طويلاً، فبعد حوالى العامين توفى حسين كامل فى ٩ أكتوبر ١٩١٧. وما كاد السلطان أحمد فؤاد يتقلد الحكم، حتى قدم إليه استقالته، ويصبح حراً مرة أخرى.

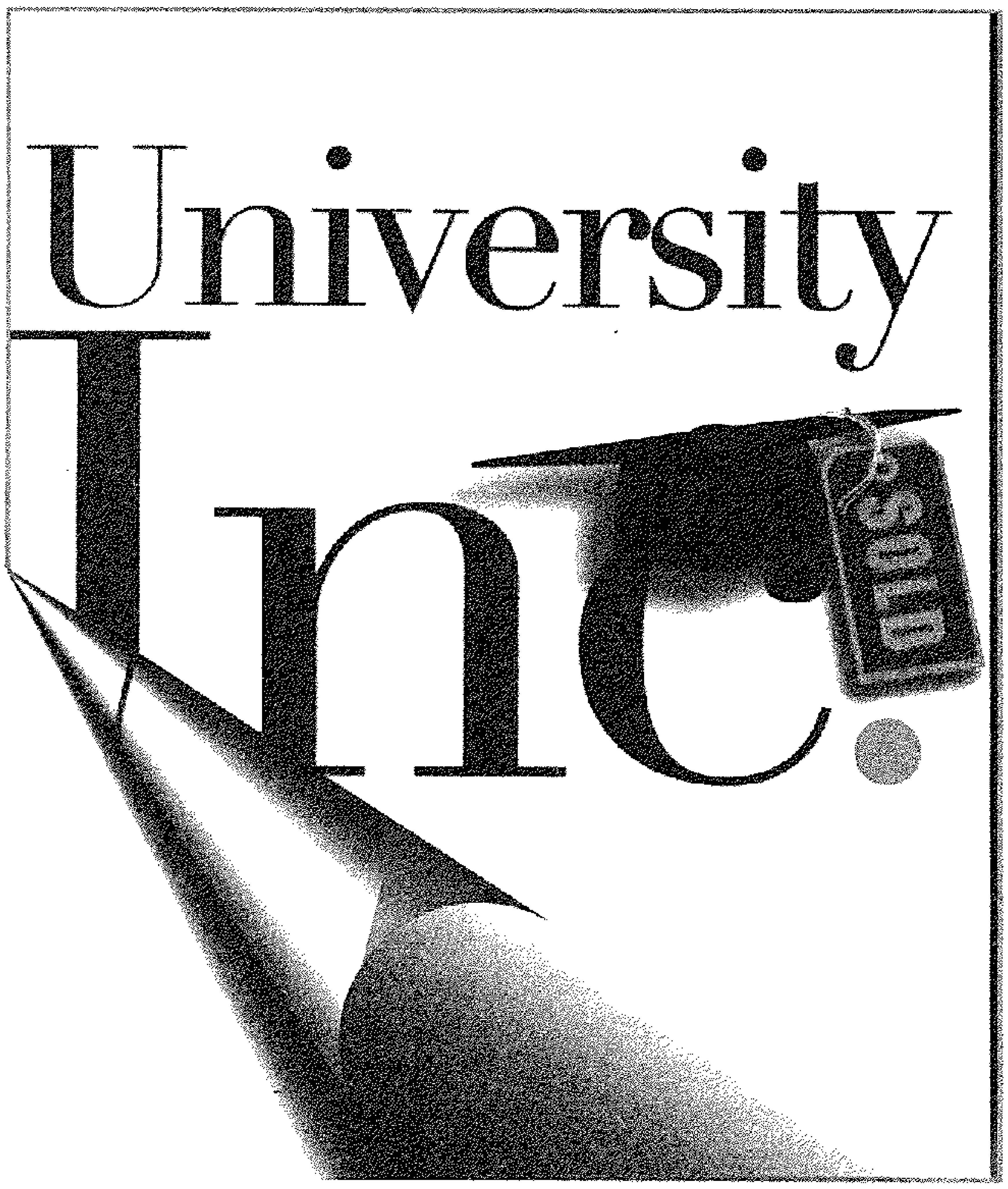
فى الفترة التى غاب فيها أديبنا عن المشاركة الفنية ذوت «جمعية أنصار التمثيل»، ووجد فناننا أن بعثها فى حاجة إلى دماء جديدة من الأوفق أن تضمها جمعية جديدة. وهكذا ظهرت جمعية «رقى الأدب والتمثيل» ضمت بين أعضائها عدداً من الجمعية السابقة.

ويتاح لمحمد تيمور تجربة جديدة فى الإخراج .. كانت الأولى عندما أخرج «الممثل دافيد جرك» بطولة محمد عبد الرحيم، أما الثانية فهى مسرحية عباس علام «عبد الرحمن الناصر» بتكليف من طلعت حرب، والتى افتتح بها مسرح حديقة الأزبكية فى يناير ١٩٢١.

ولا يلبث فناننا بعد قليل أن يبتعد عن التمثيل والإخراج معاً مع حبه لهما، فقد انشغل بما هو أهم حياتياً وفنياً .. الزواج والكتابة للمسرح التى تجعله واحداً من رواد المسرح المصرى الأصلاء. المسرحية الأولى «العصفور فى القفص» كوميديا مصرية ذات أربعة فصول مثلتها فرقة عبد الرحمن رشدى بمسرح بريتانيا أول مارس ١٩١٨. والثانية «عبد الستار أفندى» كوميديا مصرية إصلاحية ذات أربعة فصول، مثلتها فرقة منيرة المهدية بمسرح التمثيل العربى إخراج عزيز عيد فى ديسمبر ١٩١٨. والمسرحية الثالثة «العشرة الطيبة» تمصير بارع لمسرحية «ذو اللحية الزرقاء» للكاتبين ميلهاك وهاليفى، من إخراج عزيز عيد وأزجال بديع خيرى وإنتاج نجيب الريحانى، بمسرح كازينو دى باريس فى ١١ مارس ١٩٢٠ والرابعة «الهاوية» كوميدى درام ذات ثلاثة فصول مثلتها شركة ترقية التمثيل العربى (عكاشة وشركاه) - بمسرح حديقة الأزبكية فى ٦ أبريل ١٩٢١ بعد وفاة صاحبها بنحو شهرين.

وبموت عاشق المسرح وهو فى التاسعة والعشرين من العمر، بمرض غير خطير هو اليرقان .. تاركاً عدداً من المسرحيات لم تتم. كما أن لمحمد تيمور مسرحيات أخرى شبه مجهولة مثل «شهرزاد» و«البروكة». يقول عن الثانية فتوح نشاطى إنها تمصير لمسرحية «الدوقة الكبيرة جيرولتسين».. ويضيف محمود كامل مسرحيتين أخريين أيضاً هما: «الشرطة نور» و«السعد وعد». شاركه صادق يوسف فى كتابة الأولى، ويونس القاضى فى تأليف الثانية.

واليوم بعد مرور كل تلك السنوات على وفاة محمد تيمور، ندرك بوضوح حجم المسئولية التى اضطلع بها هذا الرائد فى وقت لم تبلور فيه شخصية المسرح المصرى، الذى كان يلفه الضباب والمترجمات وعدم احترام المجتمع لناسه .. لقد مهد كاتبنا الأرض بأظافره وذوب قلبه وحرق أعصابه، للأجيال التى جاءت بعده. يقول أحمد رشدى صالح فى كتابه «المسرح العربى»: إن ظهور تيمور - بصرف النظر عن صفاته الشخصية - كان إيذاناً بأن يتسع فن المسرح المصرى، فى السنوات التالية، أكثر فأكثر، لمن يستطيعون أن ينشئوا أدب مسرح مصرى، ذلك أنه هو نفسه كان يرى ضرورة تمصير هذا الفن، ولعل الموضوعات التى أدار حولها مسرحياته المؤلفة، قد حررت التأليف - فى زمانه - من البحث عن المتعة وحدها، إلى البحث فى حياة الناس أنفسهم.. ■



التعليم العالى فى مصر

من الإتاحة إلى الجودة

معتـز خورشيد

▪▪ تشهد الساحة التعليمية المصرية - فى الوقت الراهن - تغيرات غير مسبوقة فى شكل مقترحات جذرية للتطوير وإعادة الهيكلة من المنتظر - إذا تم الأخذ بها - أن تؤثر فى العديد من الثوابت والمسلمات التى استمرت حاكمة لنظم التعليم العالى بمصر لمدى زمنى ممتد.

وقد واكب هذه المقترحات لتطوير منظومة التعليم العالى وتعديل القوانين والتشريعات المنظمة لعملها، موافقة مجلس الشعب المصرى على قانون بإنشاء «هيئة قومية لضمان الجودة والاعتماد» ككيان مستقل يختص بتقييم أداء المؤسسات التعليمية وضمان جودة برامجها التعليمية والبحثية والخدمية المجتمعية ومنحها شهادات الاعتماد.

فقد قدمت لجنة التعليم بالحزب الوطنى - خلال اجتماعه الدورى مؤخراً - ورقة عمل تتمحور حول شعار «من الإتاحة إلى الجودة»، وتعكس رؤية الحزب الحاكم فى مستقبل التعليم ما قبل الجامعى والتعليم العالى بمصر. ومُجمل توجه الورقة أن السياسات التعليمية للدولة - خلال المرحلة المقبلة- يتعين أن تنتقل من التركيز على توفير أو إتاحة فرص تعليمية لقاعدة عريضة من السكان- حتى وإن لم تتحقق مستويات الجودة المرغوبة - إلى التوجه نحو تعليم يسعى إلى ضمان عناصر الجودة الشاملة لمنظومة التعليم، حتى وإن نتج عن هذا التوجه انعكاسات سالبة على معدلات الإتاحة الحالية. وقد ذهبت الورقة فى تحليلها لأوضاع التعليم بمصر إلى أن ذلك يمثل شرطاً ضرورياً لإنجاز مشروع مصر القومى للتنمية الاقتصادية والاجتماعية المستدامة والارتفاع بمستويات رفاهية المواطن، باعتبار أن الارتقاء بالعنصر البشرى يمثل أحد محاوره الرئيسية.

من ناحية أخرى، طرحت وزارة التعليم العالى رؤيتها لتطوير القوانين والتشريعات الحاكمة لمؤسسات التعليم العالى، حيث حددت الملامح العامة للتشريع الموحد لمنظومة التعليم العالى بمصر، بالاعتماد على خلفية فلسفية تركز على المبادئ التالية:

- تقنين جودة الخدمة التعليمية
- الإدارة الاقتصادية للمؤسسات التعليمية
- الفصل بين الملكية والإدارة
- مستويات شمول التشريع

وفى اعتقادى أن من أهم ملامح التشريع الموحد - من حيث تأثيره على مسار العملية التعليمية والبحثية بالجامعات- هو ما طرحه وزير التعليم العالى فى مداخلته القصيرة باجتماع الحزب الوطنى بأن الجامعات - فى ظل توجهها نحو مزيد من الاستقلال الأكاديمى والاقتصادى- ستحدد تكلفة تعليم الطالب التى تحقق مستوى مقنناً من الجودة، وعلى الدولة أن تسدد هذه التكلفة للجامعة فى إطار حفاظها على توفير التعليم وإتاحته لقاعدة عريضة من السكان. أى أن مجانية التعليم - كما يكفلها الدستور- ستتحقق من خلال العلاقة المباشرة بين الدولة والطالب.

كما يطرح التشريع المقترح أفكاراً جديدة تسعى إلى فصل ملكية مؤسسات التعليم عن إداراتها الأكاديمية والاقتصادية، وضم المجالس العليا للتعليم العالى- أى المجلس الأعلى للجامعات ومجلس الجامعات الخاصة- فى كيان واحد بغية الوصول إلى سياسات أكثر شمولاً واتساقاً.

أولاً: المعادلة الصعبة

تباينت ردود الأفعال حول هذه المقترحات، إذ يرى عدد من خبراء التعليم والبحث العلمى أن مقترح الحزب والحكومة يمثل اختياراً مناسباً للمرحلة التعليمية المقبلة فى ظل ضرورة التوجه نحو بناء كوادر بشرية قادرة على التفاعل مع معطيات الألفية الثالثة من تنامى لدور العلم والتكنولوجيا، والانتقال إلى مجتمعات المعرفة، وتزايد حدة المنافسة فى ظل المناخ الجديد للعولمة.

فى حين يرى البعض الآخر أن مقترح الحزب الحاكم يتضمن العديد من الأفكار والرؤى الجيدة. بيد أن المشكلة تكمن فى صعوبة تطبيق هذه الرؤية المستقبلية وعدم القدرة على تحقيق أهدافها فى ظل المناخ الاقتصادى والاجتماعى والثقافى المصرى الراهن. وبمعنى آخر فإن تقنين الجودة مع استمرار الإتاحة سيتعذر تحقيقه فى ظل الأعداد الكبيرة للراغبين فى الالتحاق بالمرحلة الجامعية. وأن النقص المتوقع فى الأعداد المقبولة بمؤسسات التعليم العالى - الذى سينتج عن تطبيق معايير ضمان الجودة - سيتعذر تعويضه فى ظل محدودية الإنفاق القومى على التعليم والبحث العلمى.

بينما يتخوف فريق ثالث من المهتمين بالقضايا التعليمية والمعرفية من أن ما تطرحه لجنة التعليم بالحزب وما يمكن استنتاجه من الإطار التشريعى الجديد للتعليم العالى يمثل - فى حقيقة الأمر - تراجعاً عن مبدأ التوسع فى إتاحة التعليم للجميع. نظراً لأن التوجه نحو ضمان الجودة - فى ظل المناخ التعليمى والتركيبة السكانية والظروف الاقتصادية والاجتماعية الراهنة- من الممكن أن يؤثر سلباً على هدف «ديمقراطية التعليم» وإتاحته للقاعدة العريضة من السكان. وأنه برغم أهمية الأخذ بضمان الجودة كمعيار حاكم لنجاح مؤسسات التعليم فى تحقيق أهدافها الاستراتيجية، فإن ذلك لا يعنى - بأى حال من الأحوال - التضحية بما تحقق خلال النصف الثانى من القرن الماضى من التوسع فى إتاحة التعليم للراغبين فيه. فقد أكدت المواثيق والأعراف الدولية بأن التعليم يتعين أن يكون حقاً للقادر وغير القادر على حد سواء. وأن مفهوم «ديمقراطية التعليم» يجب أن يتسع ليشمل طبقات اجتماعية أكثر اتساعاً وشمولاً. وعلى الرغم من أن الانتقال إلى «مجتمعات المعرفة» يتطلب موارد بشرية على مستوى عال من المهارات المعرفية والعلمية، فإنه يحتاج - إلى جانب ذلك- إلى التوسع فى التعليم والتثقيف للشعوب والأفراد من خلال توفيره وإتاحته على كافة المستويات.

يتخوف فريق من المهتمين بالقضايا التعليمية والمعرفية من أن ما تطرحه لجنة التعليم بالحزب وما يمكن استنتاجه من الإطار التشريعى الجديد للتعليم العالى يمثل - فى حقيقة الأمر - تراجعاً عن مبدأ التوسع فى إتاحة التعليم للجميع

وتأسيساً على ما سبق، فإن شعار «من الإتاحة إلى الجودة» بورقة الحزب الوطنى - والتى انعكست بشكل كبير فى الرؤية التشريعية الجديدة لوزارة التعليم العالى - يتعين أن يتم تعديله إلى «الإتاحة مع ضمان الجودة».

غير أن هذا الهدف الاستراتيجى - برغم قبوله على كافة المستويات - يمثل معادلة صعبة التحقيق أو معضلة تتطلب تضافر جهود العلماء والمفكرين وخبراء التعليم للبحث عن حلول غير تقليدية تتسم بدرجة عالية من التنوع والابتكار.

ثانياً: الهيئة القومية لضمان الجودة والاعتماد

فى إطار توجه الدولة الرسمى للانتقال من مرحلة إتاحة التعليم العالى لقاعدة عريضة من المجتمع إلى مرحلة ضمان الجودة الشاملة للمنظومة التعليمية، وفى ظل جهود وزارة التعليم العالى لتنفيذ الاستراتيجية المعتمدة لتطويرها وإعادة هيكلة إطارها المؤسسى، يصبح للقانون الذى تم إقراره من مجلس الشعب المصرى بإنشاء «هيئة قومية لضمان جودة التعليم والاعتماد» دور محورى فى تحقيق الأهداف الاستراتيجية للتطوير وضبط وتيرة الأداء التعليمى وضمان جودته. ويتضح من مراجعة أهداف الهيئة ومهامها التنفيذية أن دورها لا يقف عند حدود توكيد الجودة ومنح شهادات الاعتماد، ولكنه يسعى أيضاً إلى نشر الوعى بثقافة الجودة ودعم مؤسسات التعليم العالى فيما يخص تقويم الأداء وتطويره. ومن هنا فإن الهيئة من المتوقع أن تحتل موقعاً مركزياً فى منظومة التعليم العالى، كما ظهر جلياً فى الملامح العامة المقترحة لتشريعها الموحد.

وعلى الرغم من إقرار القانون من المؤسسات التشريعية وقرب الانتهاء من صياغة لائحته التنفيذية، فإن التحدى الرئيسى الذى ستواجهه الهيئة يكمن فى قدرتها على اختيار «النموذج المصرى الملائم لتقويم الأداء وضمان جودته». إذ يتعين على الهيئة المفاضلة - فى هذا المجال - بين عدد من البدائل لتحديد نموذج التقييم الأمثل الذى يلائم المناخ التعليمى السائد والخصائص الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المصرى والتطورات الدولية فى مجال التعليم والبحث العلمى.

ويتحدد نموذج التقييم المُطبق فى دولة ما من خلال تفاعل بعدين رئيسيين للتقييم هما: بعد نطاقات أو مستويات تطبيق نظم ضمان الجودة والاعتماد، وبُعد تركيبة المعايير التى سترتكز عليها الهيئة فى تقييم أداء مؤسسات التعليم العالى.

ففى إطار البُعد الأول يمكن حصر نطاقات أو مستويات التطبيق على النحو التالى:

١ - جودة منظومة التعليم العالى ككل من حيث تأمينها لسبل التحاق المواطنين الراغبين والقادرين على متابعة الدراسة، ونجاحها فى المواءمة بين المخرجات التعليمية واحتياجات سوق العمل وتحقيقها لمتطلبات التنمية الشاملة، ومدى مساهمتها فى تقدم المعرفة وتوسيع نطاقها ودعمها للبحث العلمى والتجديد والابتكار.

٢ - جودة المؤسسات التعليمية التى تختص بمعايير جودة الإطار المؤسسى للجامعات من حيث وضوح الرسالة والأهداف وجودة التخطيط وحسن تخصيص الموارد وملاءمة الهيكل القيادى ونظم الإدارة والخدمات المساندة، ومعايير الفعالية الأكاديمية المتمثلة فى كفاءة سياسات قبول الطلاب ووضوح أهداف برامج التعليم والتطوير والبحث العلمى والتأهيل والتدريب.

٣ - جودة برامج التعليم والبحث والتطوير وخدمة المجتمع وتنمية البيئة. وهى تختص بتقييم مدى حاجة المجتمع للبرنامج، ومواءمة البرنامج مع رسالة المؤسسة وأهدافها.

٤ - جودة عمليات التعليم والبحث والتطوير. وهى تختص بكفاءة إدارة العمليات وتنفيذ الأنشطة من خلال استخدام الموارد المتاحة لتعظيم مخرجات التعليم، وتقييم جودة المنهجيات العلمية المتبعة فى إجراء البحوث، وأسلوب إدارة المشروعات البحثية وأساليب التدريس وتكنولوجيات التعليم.

٥ - جودة المخرجات. وهى تختص بمدى تحقيق الطلبة للأهداف التعليمية المعتمدة، وجودة مخرجات البحث العلمى من حيث تأثيرها المجتمعى وإضافتها العلمية، وقدرة برامج خدمة المجتمع على الإسهام فى تطوير البيئة المحيطة بالجامعة.

أما البُعد الثانى لنموذج تقييم الجودة والاعتماد فإنه يختص بالأسس والمعايير الحاكمة للجودة والتى عرفها أستاذ علم النفس واختصاصى التعليم العالى د. رمزى سلامة «بالمقاربات المتعددة لمفهوم الجودة». وهنا يمكن تحديد ما لا يقل عن أربعة معايير أو مقاربات عامة لمفهوم الجودة:

١ - معيار التميز والتمايز العلمى. وهو معيار مقارن يعكس مدى تميز المؤسسة التعليمية بالمقارنة بأقرانها فى مجال التعليم والبحث العلمى.

٢ - معيار تحقيق الغايات والأهداف العامة. وهو معيار يعطى لمفهوم الجودة بُعداً داخلياً مستقلاً عن البيئة التعليمية المحيطة.

٣ - معيار تأمين رضى المستفيدين. وهو معيار يرتكز على أن التعليم يمثل خدمة مجتمعية تقدمها الجامعات والمؤسسات التعليمية الأخرى. ومن ثم فإن معايير الجودة يتعين أن تأخذ فى اعتبارها وجهة نظر المستفيدين طلاباً وأولياء أمور وأصحاب مؤسسات تشغيل وحكومات وسائر أصحاب الشأن المعنيين.

٤ - معيار تأمين الحد الأدنى للأداء. وهو معيار تتمثل فلسفته فى أن الاعتماد - فى تقييم الأداء وتطويره - على المواءمة مع الغايات أو رضى المستفيدين قد يغض النظر عن جانب هام من المعادلة يتعلق بالمواصفات والخصائص والمعايير الدنيا التى يتعين توافرها فى المؤسسة التعليمية لتأمين المستوى المرغوب من الجودة. ويتميز هذا المعيار عن المعايير الأخرى بكونه يعتمد على مجموعة من المعايير المحددة المتفق عليها دون أن يكون هناك مجال للمرونة أو التعديل وفق الحاجة أو بناءً على رأى المستفيدين أو بالأخذ فى الاعتبار واقع المؤسسة وما إلى ذلك من اعتبارات أخرى.

ثالثاً: النموذج الأمثل لتقييم الأداء

تأسيساً على ما سبق، وفى ظل النطاقات المتعددة للجودة ومعاييرها التى تتباين فى الفلسفة وسبل التطبيق والقياس، فإن الأمر يتطلب تحديداً واضحاً لسمات وخصائص نموذج تقييم الأداء الحاكم لنشاط الهيئة وتوجهات لتحقيق الأهداف التعليمية والبحثية والتنموية. ونقصد بذلك تحديد الوزن أو الأهمية النسبية التى ستعطيها الهيئة لدرجة شمول نطاقات تطبيق الجودة واختيار التركيبة المُثلى لمعايير تقييم الأداء فى ظل السمات الخاصة لنظام التعليم العالى والمناخ الاقتصادى والاجتماعى المصرى. وحيث إنه يصعب - فى هذا المجال - اقتراح نموذج بعينه للتطبيق على نظام التعليم بمصر فسأكتفى ببعض النقاط التحليلية التى من الممكن أن تدعم عملية اتخاذ القرار المناسب بهذا الشأن.

١ - برغم ما يوضحه القانون من توجه الهيئة أساساً إلى صياغة المعايير القياسية اللازمة لتأمين الحد الأدنى المقبول لجودة الخدمة التعليمية بمؤسسة ما، فإنها يجب أن تأخذ فى اعتبارها أيضاً المعايير (أو المقاربات) البديلة للجودة فى ظل ما تشهده الساحة التعليمية - فى الألفية الثالثة - من تعددية وتباين فى نظم التعليم وهياكلها المؤسسية وتوجهاتها التنموية.

٢ - إن التعامل مع الخدمة التعليمية من منطلق اقتصادى - وهو ما أكده مقترح التشريع الموحد لمنظومة التعليم العالى - يتطلب بالضرورة أخذ معيار تأمين رضى المستفيدين وسائر أصحاب الشأن المعنيين بالعملية التعليمية فى الحسبان عند تقييم الأداء. فهل من الممكن - على سبيل المثال - التعامل مع الجامعات الحكومية - المحدودة الموارد المالية والتى تحتضن الحجم الأكبر من الكوادر البشرية المدربة والكثافة الطلابية العالية - والجامعات الخاصة - التى تتميز بوفرة مواردها المالية ونقص أعضاء هيئتها العلمية واعتمادها على الجامعات الحكومية - بنفس المنطق الاقتصادى؟

٣ - على الرغم من التأكيد على البُعد القومى للهيئة ودورها الهام فى نشر ثقافة الجودة ودعمها لمؤسسات التعليم فى هذا المجال، فإنه يتضح من مهام القانون الجديد أنها ستركز فى عملها على تقييم مؤسسات التعليم وبرامجها الأكاديمية والبحثية أكثر من متابعتها لجودة منظومة التعليم ككل. كذلك فإنه يتعين على الهيئة تحديد الأهمية أو الوزن النسبى لنطاقات تطبيق الجودة للوصول إلى نموذجها المعتمد. فهل ستغطى المعايير القياسية للهيئة - على سبيل المثال - نطاق جودة العمليات التعليمية والأنشطة البحثية أم ستكتفى بنطاق جودة المؤسسات التعليمية وبرامجها ومخرجاتها؟. وكيف يمكن صياغة مؤشرات تقييم مركبة تأخذ فى اعتبارها المهام المتنوعة للجامعات من تعليم وتدريب وبحث وتطوير وخدمة مجتمع وتنمية بيئة ونشر الوعى الثقافى والعلمى؟

٤ - إن متخذ القرار بالهيئة سيواجه مشكلة الربط بين المقاييس المعترف بها دولياً والمعايير التى تعكس السمات

الخاصة لمنظومة التعليم العالى المصرية ومناخها الاقتصادى والاجتماعى. فقد يتعذر فى بعض الأحيان تطبيق المعايير والمواصفات المتعارف عليها دولياً نظراً لعدم ملاءمتها لخصائص نظم التعليم بمصر ومناخها الاقتصادى والاجتماعى والثقافى. وفى حالة انضمام مصر لاتفاقية الجات للخدمات ومن ثم السماح لمؤسسات أجنبية بإنشاء وحدات تعليمية وبحثية بها، فإن مشكلة المواءمة بين المواصفات الدولية والمعايير الوطنية ستصبح أكثر تعقيداً.

٥ - إن اكتساب الهيئة لمستوى ملائم من الفعالية ومرونة التنفيذ يعتبر أمراً ضرورياً فى ظل تعدد نطاقات التطبيق والمقاربات البديلة للجودة. إذ يمكن أن تقدم جامعة ما أوراقها لاعتماد برنامج دراسى محدد، فى حين تسعى جامعة أخرى إلى اعتماد مجموعة متكاملة من البرامج تخص أحد الأقسام العلمية أو الكليات، كما يمكن أن تطلب جامعة ما اعتماد أحد برامجها البحثية بما تتضمنه من موارد بشرية وبنية أساسية ومعامل وأجهزة علمية ونتائج بحثية متنوعة.

٦ - بما أن الهيئة القومية لضمان الجودة والاعتماد يرأس مجلس إدارتها رئيس مجلس الوزراء، كما أنها تخص الوزراء - كل فى مجال اختصاصه - بمتابعة تطبيق مواد القانون وتحديد آجال استيفاء المؤسسات التعليمية لمعايير الجودة ومن ثم التقدم للاعتماد، فإن مسئولية تقييم جودة نظام التعليم العالى والتعليم ما قبل الجامعى ككل يتعين أن تتم من خلال جهة محايدة ومستقلة. وحيث إن مراجعة أداء نظام التعليم ككل يعتبر أمراً ضرورياً لاستكمال جهود تقييم الأداء وضمان الجودة على المستوى القومى وتحقيق الأهداف التنموية والمعرفية، فإنه يقترح تشكيل لجنة مشتركة من مجلسى الشعب والشورى وخبراء التعليم والبحث العلمى للحكم على قدرة الدولة - ممثلة فى وزارتى التعليم العالى ووزارة التربية والتعليم - على تحقيق الجودة الشاملة للمنظومة التعليمية.

نخلص مما سبق إلى أن الهيئة القومية لضمان جودة التعليم والاعتماد يتعين أن توجه كافة جهودها - خلال المرحلة الأولى من بدء نشاطها - لإنهاء المهمة الصعبة والعاجلة المرتبطة بوضع الأطر والقواعد والأسس التى تسمح بصياغة النموذج الأكثر ملاءمة لتقييم جودة الأداء وتطويره.

رابعاً: مجانية التعليم واقتصاديات تمويلها

طرحت وزارة التعليم العالى رؤيتها لتطوير القوانين والتشريعات الحاكمة لمؤسسات التعليم الجامعى على الرأى العام ومجتمع المهتمين بقضايا التعليم والبحث العلمى فى ورقة تضمنت مجموعة من المفاهيم الحديثة التى من الممكن أن تساهم، عند الأخذ بها، فى إعادة هيكلة النظام التعليمى تجاه تحقيق مزيد من ضمان جودة الأداء والاستقلال الذاتى وحرية الإدارة الأكاديمية والاقتصادية للمؤسسات التعليمية. ويعتبر الجزء الخاص بالإدارة الاقتصادية لمؤسسات التعليم العالى من أهم ما طُرح فى هذه الرؤية التعليمية. إذ حددت الوزارة عدداً من المفاهيم الجديدة يمكن تلخيصها فى النقاط التالية:

- تقدم المؤسسة خدماتها التعليمية المقننة الجودة على أساس التكلفة الفعلية للعملية التعليمية والبحثية والخدمات الأكاديمية الأخرى.
- تحدد مؤسسة التعليم العالى التكلفة الفعلية لإعداد الطالب بالتنسيق مع الوزارة وفق كل قطاع أكاديمى/مجال تعليمى/تخصص علمى.
- تنفذ الدولة نظام مجانية التعليم - فى إطار التزامها الدستورى قبل المجتمع - عن طريق آليات للتعاقد بين الدولة والمؤسسة التعليمية، فى ضوء التكلفة الفعلية التى تسمح للطالب بالوصول إلى مستويات ضمان الجودة المرغوبة.

بناءً على ما سبق، تصبح مجانية التعليم علاقة مباشرة بين الطالب والدولة نظير ما تسدده الدولة مقابل تكلفة الطالب إلى المؤسسة التعليمية. وبذلك تكون علاقة الطالب بالمؤسسة التعليمية هى علاقة بين طالب الخدمة ومقدمها، مما يسمح بتفعيل قوى العرض والطلب فى إطار اقتصاديات سوق التعليم العالى.

وأول ما يخطر بذهن المتابع لنظام التعليم المصرى وسماته الخاصة، أن تطبيق هذا المفهوم الاقتصادى الجديد سيؤدى إلى تراجع دور الدولة فى ضمان مجانية التعليم. إذ إن تكلفة إعداد الطالب - وفق مستوى مُقنن للجودة - ستكون بطبيعة الحال أعلى بكثير من نصيب الطالب الواحد من الإنفاق العام على التعليم فى ظل العجز الحالى فى الموارد المالية الحكومية. وبناءً على ذلك فإن الدولة ستقوم بدعم نسبة محدودة من الطلاب - فى شكل منح دراسية - فى حين يضطر الجزء المتبقى منهم إلى البحث عن بدائل تعليمية أخرى مثل القطاع الخاص أو القطاع الأهلى أو المعاهد الفنية المتخصصة. وحيث إن معظم الجامعات الحكومية تساهم - فى الوقت الراهن - فى تمويل العملية التعليمية والبحثية بها من خلال مواردها الذاتية، فإن تمويل الجامعات الحكومية - ومن ثم مجانية التعليم - يتم فى واقع الأمر بالمشاركة بين الدعم الحكومى المخصص للجامعات - والذى يتحدد على مستوى مركزى من خلال السياسات المالية للحكومة - وبين ما توفره الجامعات من موارد ذاتية لتمويل استثماراتها وخدماتها التعليمية والبحثية. ومن الملاحظ أن الوزن النسبى للتمويل الذاتى للجامعات - من خلال صناديقها الخاصة - قد تزايد تدريجياً خلال السنوات الأخيرة.

مسئولية تقييم جودة نظام التعليم العالى والتعليم ما قبل الجامعى ككل يتعين أن تتم من خلال جهة محايدة ومستقلة

خامساً: الخبرات الدولية فى مجال اقتصاديات التعليم

بمراجعة التجارب الدولية فى مجال اقتصاديات التعليم العالى فى ظل توجه الدولة الاستراتيجى لإتاحة التعليم لقاعدة عريضة من السكان، وهو ما يتم الأخذ به - على سبيل المثال - فى كل من فنلندا وألمانيا وفرنسا، نجد أن توجه الدولة فى مجال ديمقراطية التعليم يتحقق بالارتكاز على الأسس التالية:

١ - تتعدد سياسة الدولة وتوجهها الاستراتيجى نحو ضمان مجانية التعليم وإتاحته بمستوى جودة يخدم متطلبات سوق العمل، فى إطار صياغتها لمشروعها القومى أو لخطتها الشاملة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية التى تسعى إلى الارتقاء بمستوى المواطن، وتحقيق النقلة النوعية المرغوبة فى العلم والتكنولوجيا سعياً إلى الانتقال إلى مجتمع المعرفة. فقد أقر البرلمان الفنلندى فى نهاية التسعينيات من القرن الماضى - على سبيل المثال - توجها استراتيجيا قوميا يحدد خطوات الوصول إلى مجتمع المعرفة من خلال الأخذ بالمبادئ التالية:

- اعتبار التعليم قيمة مجتمعية تتمتع بقدر عالٍ من الأولوية وخدمة يتعين توفيرها لقاعدة عريضة من السكان بمستوى جودة تنافسى متميز.
- تبنى استراتيجية قومية فى مجال التعلم مدى الحياة Lifelong Learning بغية الارتقاء بالمكون المعرفى لأفراد المجتمع طول حياتهم.
- زيادة حجم الاستثمار فى مجال البحث والتطوير والتنمية التكنولوجية.
- التوسع فى تطبيق تكنولوجيا المعلومات والاتصالات فى إدارة القطاعات الاقتصادية والخدمية الحكومية والخاصة على حد سواء.

٢ - أى أن الدولة تبدأ - فى مرحلة أولى - بتحديد نموذجها التنموى وموقع منظومة التعليم العالى به بما فى ذلك الدور المتوقع لكل من القطاع العام والمؤسسات الخاصة والأهلية فى توفير الخدمة التعليمية. وبناءً على ذلك يتم وضع الخطوط العريضة الخاصة بأسس إتاحة التعليم ومستويات تطبيق المجانية.

٣ - أكدت معظم الدراسات فى مجال التعليم العالى - التى تمت من خلال منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة والبنك

الدولى ومؤسسات التعليم الإقليمية والوطنية الأخرى. أن الدول التى نجحت فى تحقيق أهداف التنمية البشرية يتمتع نظامها التعليمى بتنوع فى الهياكل الأكاديمية للمؤسسات التعليمية وبرامجها العلمية وخدماتها المجتمعية. وأن مستويات التنوع فى مؤسسات التعليم العالى وبرامجها تتجه إلى التزايد مع ارتفاع معدلات النمو الاقتصادى والرفاهية الاجتماعية للمواطنين.

سادساً: بديل التمويل الملائم

يتضح مما سبق، أن سياسات إتاحة التعليم العالى وأسلوب تمويلها - فى ظل تقنين الجودة - تتم فى معظم الدول على مستويين متتاليين:

● مستوى الأهداف القومية والتوجهات التنموية للدولة فيما يخص معدلات إتاحة التعليم العالى وديمقراطيته فى ظل متطلبات الانتقال إلى مجتمع المعرفة بما يتضمنه من تنمية بشرية وابتكار بحثى وتطوير تكنولوجى.

● مستوى السياسات والبرامج الرامية إلى اختيار النموذج الأمثل لتمويل أنشطة التعليم والبحث العلمى وخدمة المجتمع بمؤسسات التعليم العالى وتحديد أسس وآليات دعم الدولة لهذه المؤسسات بما يضمن معدلات الإتاحة ومستويات الجودة المرغوبة.

فى ضوء المعطيات السابقة، فإنه يتعين إعادة النظر فى الجزء الخاص بالإدارة الاقتصادية لمؤسسات التعليم العالى - كما وردت فى مقترح وزارة التعليم العالى - لتكون على النحو التالى:

١ - تضمن الدولة حرية الجامعات واستقلال مؤسسات التعليم العالى اقتصادياً ومالياً، شريطة أن تضمن هذه المؤسسات جودة خدماتها التعليمية وفق المعايير والمواصفات القياسية التى تعتمدها الهيئة القومية لضمان جودة التعليم والاعتماد.

٢ - تحدد كل جامعة - بناء على ما يتوافر لديها من بنية مؤسسية وما تملكه من موارد بشرية ومادية وبحثية وخدمية - أعداد الطلاب الممكن قبولهم فى ظل معايير الجودة المعتمدة.

٣ - تقوم كل جامعة بتقدير تكلفة تعليم الطالب وإكسابه المهارات العلمية والثقافية المطلوبة وتحقيقه لمستويات جودة الأداء المعتمدة وزيادة قدراته التنافسية فى سوق العمل.

٤ - تشارك وزارة التعليم العالى الجامعة الحكومية فى إعداد ميزانيتها المالية أخذاً فى الاعتبار بالإمكانات الذاتية للجامعة وموارد التمويل المتاحة لديها وما يمكن أن توفره الدولة من دعم مالى، حتى يمكن تحقيق معدلات الإتاحة المطلوبة وضمان مجانية التعليم لغير القادر مالياً.

٥ - تُحصل الجامعات الخاصة والأهلية رسومها الدراسية بما يتناسب مع ما تقدمه من خدمات تعليمية وبحثية متميزة، وفى إطار ما توفره الدولة من دعم عينى أو مالى للجامعات الأهلية وذلك بالتنسيق والتكامل مع وزارة التعليم العالى فى ظل الخطة الاستراتيجية الشاملة لمنظومة التعليم العالى ككل.

٦ - بما أن متطلبات ضمان الجودة يصعب تحقيقها فى ظل الزيادة المتوقعة فى أعداد الطلاب وما يتم فى الوقت الراهن من آليات لتوزيع خريجى الثانوية العامة على الجامعات الحكومية (من خلال مكتب التنسيق)، فإنه يتعين على الدولة أن تقوم بمراجعة استراتيجيتها الخاصة بزيادة الطاقة الاستيعابية لمؤسسات التعليم العالى العامة والخاصة بمصر بهدف توفير بدائل تعليمية تسمح باستيعاب الطلاب الذين لم يتمكنوا من الالتحاق بالجامعات الحكومية ولا يملكون القدرة المالية التى تسمح لهم بالالتحاق بالجامعات الخاصة والأهلية.

تأسيساً على ما سبق، فإن نجاح الدولة فى الارتقاء بمستويات جودة التعليم العالى مع عدم التضحية بالمكتسبات التى تحققت فى مجال إتاحة التعليم لقاعدة عريضة من السكان يتوقف على ما يمكن تحقيقه على ثلاث جبهات رئيسية:

١ - قدرة الحكومة على توفير الاستثمارات اللازمة للتوسع فى عرض الخدمات التعليمية وتوفير متطلبات الجودة الشاملة.

٢ - قدرة الجامعات الحكومية على تنويع مصادر تمويل أنشطتها التعليمية والبحثية والخدمية المجتمعية.

٣ - قدرة المجتمع على إيجاد بدائل حقيقية لاستكمال الطاقة الاستيعابية لمؤسسات التعليم العالى من خلال إنشاء جامعات عامة وخاصة وأهلية ومعاهد عليا فى شتى مجالات العلم والمعرفة.

سابعاً: ازدواجية التعليم العام والخاص

تُقدم خدمات التعليم العالى بمصر من خلال الجامعات الحكومية والخاصة والأهلية والمعاهد العليا والأكاديميات التى تمنح درجات علمية متخصصة. وبرغم إنشاء جامعة القاهرة كجامعة أهلية فى بداية القرن السابق - قبل تحولها إلى جامعة حكومية - فإن تجربة الجامعات الخاصة والأهلية فى مصر تعتبر حديثة إلى حد كبير، حيث بدأت بأربع جامعات فى بداية التسعينيات ثم تزايدت تدريجياً لتصل إلى تسع جامعات فى بداية الألفية الثالثة، ثم إلى نحو ١٥ جامعة فى عام ٢٠٠٦. وحيث إن التجارب الناجحة فى نظم التعليم العالى بالدول النامية تؤكد الاتجاه نحو أنساق تعليمية يُشارك بها كل من القطاعين الخاص والعام على حد سواء، فإن المرحلة التعليمية المقبلة بمصر ستتطلب - بالضرورة - دوراً أكثر فعالية للجامعات الخاصة والأهلية بُغية استكمال الطاقة الاستيعابية للتعليم العالى وتحقيق معدلات الإتاحة المطلوبة.

بيد أن تجربة النظام التعليمى المشترك - الذى يتكون من جامعات حكومية ومؤسسات تعليمية خاصة وأهلية - قد أفرزت عدداً من الاختلالات الهيكلية والازدواجية فى نظم التعليم يتعين على متخذ القرار التقليل من آثارها السلبية حتى يمكن صياغة الخطط الاستراتيجية الملائمة لتطوير التعليم العالى ومقابلة متطلبات أسواق العمل فى الألفية الثالثة:

١ - إن الجامعات الحكومية مازالت - بحكم إمكاناتها البشرية وأعداد طلابها وخريجيها - تقوم بالدور الرئيسى فى منح الدرجات العلمية وتوفير الكفاءات المهنية التى يتطلبها سوق العمل المصرى والإقليمى العربى ومازال دور الجامعات الخاصة محدوداً فى هذا الشأن.

٢ - تُقدم الجامعات الحكومية خدماتها التعليمية والبحثية للطلاب برسوم رمزية لا تتناسب - بأى حال من الأحوال - مع التكلفة الحقيقية لإعداد الطالب وإكسابه المهارات العلمية والمهنية وفق مستوى مقنن للجودة. غير أنها - برغم ذلك - قد نجحت فى الحفاظ على معدلات إتاحة للخدمة التعليمية بالشكل الذى يدعم التوجه السياسى المصرى والعالمى - نحو تحقيق «ديمقراطية التعليم»، وتوفيره للراغبين فيه من أفراد المجتمع بغض النظر عن إمكاناتهم المادية.

٣ - فى ظل الزيادة المطردة فى أعداد الطلاب، وارتفاع تكلفة إعداد الطالب وفق مستويات الجودة المرغوبة، وقصور الموارد المالية بالجامعات الحكومية - بفعل تراجع معدلات الدعم الحكومى والقصور فى توفير متطلبات التمويل الذاتى - فقد تراجعت مستويات الأداء بالجامعات الحكومية، ومن ثم مستوى جودة خريجيها.

٤ - ستظل الجامعات الحكومية - ولفترة زمنية ممتدة - تمتلك الكوادر البشرية التعليمية والبحثية الأكثر عدداً وكفاءةً وقدرةً علمية على تحقيق متطلبات جودة الأداء ومازالت تمثل المصدر الرئيسى لاستكمال الموارد البشرية بالجامعات والمعاهد الخاصة.

٥ - تتسم الجامعات الخاصة بوفرة الموارد المالية والمادية ولكنها تعانى من قصور فى عدد أعضاء هيئتها العلمية مما يساهم فى استمرار اعتمادها على الجامعات الحكومية لاستكمال مواردها البشرية.

٦ - فى ظل استمرار الأوضاع الراهنة لمناخ التعليم العالى بمصر، من تعاظم دور الجامعات الحكومية فى مواجهة الطلب المجتمعى المتزايد على خدمات التعليم والبحث العلمى على حساب مستويات الجودة المستهدفة، مع

تصبح مجانية التعليم علاقة مباشرة بين الطالب والدولة نظير ما تسدده الدولة مقابل تكلفة الطالب إلى المؤسسة التعليمية. وبذلك تكون علاقة الطالب بالمؤسسة التعليمية هى علاقة بين طالب الخدمة ومقدمها

استمرار الدور المحدود للقطاع الخاص فى هذا الشأن. وبالأخذ فى الاعتبار عدم كفاية الإنفاق الاستثمارى العام على قطاع التعليم والبحث العلمى، فإنه سيكون من الصعوبة بمكان تحقيق الزيادة المخططة فى «القدرة الاستيعابية» لمنظومة التعليم العالى مع ضمان مستوى مقنن للجودة.

نخلص مما سبق إلى أن السياسات التعليمية - خلال المرحلة المقبلة - يتعين أن تسعى إلى تكامل واتساق منظومة التعليم العالى وتحقيق مستوى ملائم من التناغم بين كل من الجامعات الحكومية والخاصة والأهلية من خلال التركيز على التوجهات التالية:

١ - مراجعة التشريعات المنظمة لمنظومة التعليم العالى وتحديثها بهدف الوصول إلى إطار متكامل لتطوير الأداء يعتمد على تفعيل دور الهيئة القومية لضمان الجودة والاعتماد، وتطبيق المنطق الاقتصادى السليم فى تحديد تكلفة العملية التعليمية والعائد المتوقع منها.

٢ - الحد من الازدواجية بين قطاعى التعليم الخاص والعام من خلال تشجيع الجامعات الخاصة على استكمال مواردها البشرية - الأكاديمية والإدارية - واتباع سياسات من شأنها ربط ما تحصله الجامعة من رسوم دراسية بما تحققه من جودة فى معدلات الأداء وتنوع فى الخدمات التعليمية والبحثية التى تقدمها، وتعظيم سبل تعاونها العلمى والثقافى مع الجامعات الحكومية، وتوجه الجامعات الحكومية إلى تنويع مصادر تمويل أنشطتها التعليمية والبحثية من خلال تفعيل وسائل اتصالها بقطاعات الإنتاج والخدمات على المستويين المحلى والعالمى.

٣ - قيام الدولة - ممثلة فى وزارة التعليم العالى والبحث العلمى - باتخاذ السياسات والتدابير التى من شأنها تحقيق تكامل منظومة التعليم العالى واستقلالية مؤسساتها وضمان جودة مخرجاتها من خلال تشجيع مشاركة مؤسسات المجتمع المدنى لإنشاء جامعات ومعاهد عليا مع دعم توجهها إلى تحقيق معدلات استيعاب شرائح طلابية أكثر اتساعاً.

ثامناً: إشكالية أعضاء هيئة التدريس

١ - إن تطوير أداء المعلم الجامعى يمثل أحد العناصر الرئيسية المؤثرة فى منظومة الجودة الشاملة لمؤسسات التعليم العالى. ومن هنا فإن الارتقاء بقدرات أعضاء هيئة التدريس وإكسابهم التنوع العلمى والثقافى المرغوب لتحقيق أهداف ورسالة الجامعات يعتبر أمراً ضرورياً خلال المرحلة التعليمية المقبلة.

٢ - إن تحسين أداء الجامعات بشكل عام - والأستاذ الجامعى بشكل خاص - يتطلب تفرغه للعملية التعليمية والبحثية بالجامعة من ناحية، وتحسين أوضاعه المالية والاجتماعية بما يتناسب مع جودة الأداء المرغوبة من ناحية أخرى.

٣ - إن التطبيق السليم لمفهوم اقتصاديات التعليم لا يرتكز فقط على تحديد التكلفة الحقيقية لإعداد الطلاب أكاديمياً ومهنياً، ولكنه يتطلب أيضاً تصحيح هيكل المرتبات والمكافآت المالية التى يتقاضاها أعضاء الهيئة العلمية والإدارية بالجامعة.

٤ - إن نجاح الخطة المقترحة لتطوير منظومة التعليم العالى فى تحقيق استقلالية الجامعات اقتصادياً وأكاديمياً - بما يسمح بتعظيم مواردها المالية مقابل التكلفة الحقيقية لتقديم الخدمات التعليمية والبحثية - سينعكس بالضرورة على مستوى الدخل المالى لأعضاء هيئة التدريس.

٥ - إن حصول المعلم الجامعى على حقوقه المالية والرعاية الصحية والاجتماعية المناسبة له ولأسرته لابد أن يقابلها تحديد واضح ودقيق لمهامه ومسئولياته للارتقاء بجودة العملية التعليمية والبحثية والتزامه بأخلاق وآداب الممارسة المهنية.

نخلص مما سبق إلى أن تحسين أوضاع هيئة التدريس والهيئة المعاونة بالجامعات الحكومية والخاصة على حد سواء يعتمد - بشكل كبير - على ما يمكن اتخاذه من سياسات تنظيمية وأكاديمية ترتكز على المحاور التالية:

١ - قدرة الحكومة على تصحيح هيكل المرتبات للأستاذ الجامعى فى ظل ما يحققه من معدلات أداء أكاديمى وبحثى فى ظل منظومة الجودة الشاملة.

٢ - قدرة الجامعات الحكومية - المتمثلة فى مواردها البشرية والتنظيمية والبحثية والمعلوماتية - على تنويع مصادر تمويل أنشطتها المتعددة من خلال تعظيم العائد الذى يمكن تحقيقه من المشروعات البحثية التعاقدية والخدمات التعليمية والتدريبية التى تقدمها للمجتمع.

٣ - قدرة الخطة الاستراتيجية للتعليم العالى المقترحة لتحقيق الإدارة الاقتصادية المثلى للجامعات واستقلالها الإدارى والمالى والأكاديمى بما يسمح بحصولها على المقابل المادى الذى يتواءم مع ما تقدمه من خدمات تعليمية وبحثية مرتفعة الجودة.

٤ - توجه الجامعات الخاصة إلى بناء كوادرها البشرية وتحقيق الارتباط المرغوب بين مستوى جودة أداء الأستاذ الجامعى وما يتقاضاه من مقابل مادى.

٥ - توجه الجامعات إلى تنمية قدرات أعضاء هيئتها العلمية والإدارية بما يمكنها من تحقيق الانفتاح المرغوب على القطاعات الاقتصادية والخدمية المحلية والأجنبية.

ناقش هذا المقال السياسات والبدائل المتاحة لتطوير منظومة التعليم العالى بمصر وإعادة هيكلة مؤسساتها فى ظل ما نشهده - فى الوقت الراهن - من رؤى لتعديل التشريعات والقوانين المنظمة لعملها وضمان جودة مخرجاتها التعليمية والبحثية، وفى إطار إقرار مجلس الشعب لقانون بإنشاء «هيئة قومية لضمان جودة التعليم والاعتماد».

وقد خلصت إلى أن مقترح وزارة التعليم العالى الخاص بصياغة تشريع موحد لمنظومة التعليم العالى، وما صاحبه من رؤية مستقبلية - تمثلت فى ورقة لجنة التعليم بالحزب الوطنى - يعتبر توجهاً أولياً مرغوباً يتعين مراجعته وإعادة صياغة عناصره ومكوناته، ودراسة تأثيره المباشر - وغير المباشر - على المسار المستقبلى للعملية التعليمية والبحثية بالجامعات بشكل أكثر عمقاً وشمولاً واتساقاً.

وقد سعيت إلى التأكيد على أن السياسات التعليمية - خلال المرحلة المقبلة - يجب أن تتوجه نحو ضمان عناصر الجودة الشاملة لمنظومة التعليم العالى مع الاستمرار فى توفير التعليم وإتاحته لقاعدة مجتمعية عريضة. وأن تحقيق هذا الهدف الهام يتطلب صياغة خطة استراتيجية متكاملة تراعى التنوع - غير المسبوق - فى هياكل مؤسسات التعليم العالى وبرامجها الأكاديمية وأنشطتها البحثية والثقافية، وتتناغم مع المناخ العالمى الجديد للتعليم العالى والبحث العلمى، وتتواءم مع البيئة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المصرية.

بيد أن المشكلة لا تكمن فى طرح أفكار ورؤى للتطوير - قد نتفق أو نختلف حولها - ولكنها تكمن أساساً فى تحديد بدائل التطبيق وآليات التنفيذ والسياسات الممكن اتباعها فى هذا الشأن، ومن هنا فقد ركزت الورقة على تحليل السياسات والتوجهات البديلة للتعامل مع القضايا التعليمية التالية:

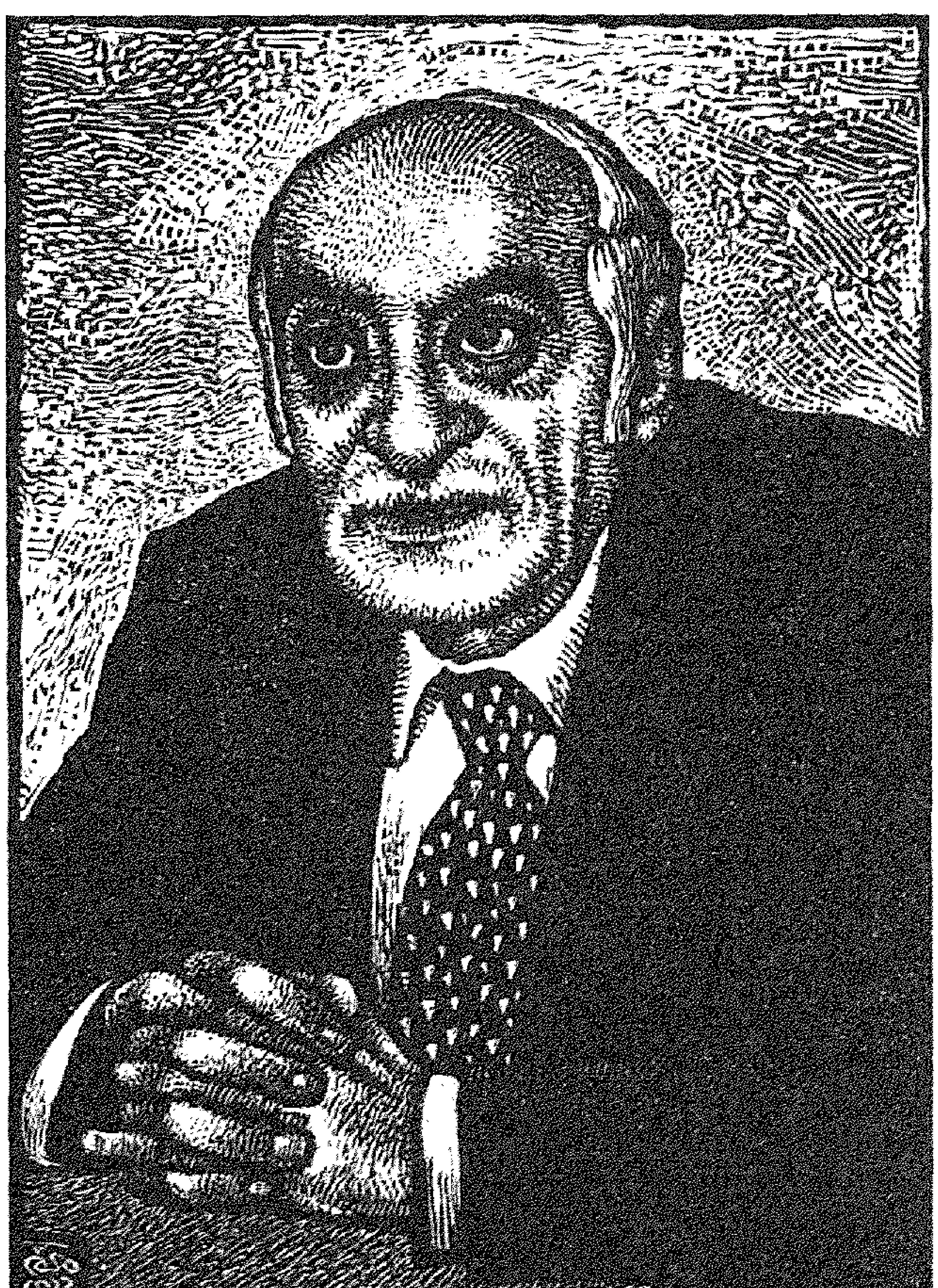
- الإدارة الاقتصادية المثلى لموارد الجامعات التعليمية والبحثية والمالية فى ظل ضمان الجودة واستمرار الإتاحة.
- عناصر نموذج تقييم الأداء التعليمى والبحثى للجامعات ومدى ملاءمته للمناخ التعليمى الوطنى السائد والخصائص الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمجتمع المصرى والتطورات الدولية فى مجال التعليم والبحث العلمى.
- البدائل المقترحة لإعادة هيكلة منظومة التعليم العالى والحد من اختلالاتها الهيكلية وتحقيق سبل التكامل بين الجامعات الخاصة والعامة فى ظل التوجه نحو صياغة تشريع موحد. ■

ستظل الجامعات الحكومية - ولفترة زمنية ممتدة - تمتلك الكوادر البشرية التعليمية والبحثية الأكثر عدداً وكفاءةً وقدرةً علمية على تحقيق متطلبات جودة الأداء

حلمى محمد القاعود

حسين مجيب المصرى

عالم نسيناه وشاعر جهلناه!



ذات يوم طُرح اسم «حسين مجيب المصرى» للفوز بإحدى جوائز الدولة. فقال مسئول ثقافى رسمى: ومن هو حسين مجيب المصرى؟ إن أحدا لا يعرفه!

من المفترض أن هذا المسئول الثقافى، قارئ جيد، ولديه احتكاك بالواقع الثقافى المصرى والعربى، يجعله يعرف الرجل، ويدرك قيمته، خاصة أن الرجل من الندرة التى تمتلك وعيًا لغويًا ومعرفيًا بعدد من اللغات الشرقية والغربية، أهله ليكون من أبرز الدارسين لآدابها وثقافاتها، وكان أستاذا جامعيًا معروفًا له نشاطه وإنتاجه فى الوسط الثقافى والأدبى، وعرفته المجلات الأدبية على مدى نصف قرن (النصف الثانى من القرن العشرين)، مؤلفًا ودارسًا ومترجمًا وشاعرا..

المسئول الثقافى معذور، وإن كان لا يعذر، فالحياة الثقافية، والمعرفية بصفة عامة، صارت تخضع للإلحاح الإعلامى الذى يقوم على العلاقات العامة، والانتماء الفكرى لتيارات بعينها، ولذا نجد كاتبًا أو مفكرًا معينًا، يكاد «يموت» من الاهتمام الإعلامى «القاسى» به، وآخر، ربما كان أفضل منه «يموت» من التجاهل الإعلامى «القاسى» أيضا. وقد رحل كثير من الأعلام الممتازين على مدى القرن العشرين، ولم يهتم بهم أحد، ولم يذكرهم أحد، مع أن جهودهم الأدبية والفكرية والعلمية تصل إلى مرتبة عالية من الجودة والرقى والتميز، غير مسبوقة.

وإذا عرفنا أن قضية المعرفة، قد تراجعت فى النصف الثانى من القرن العشرين بصفة عامة لصالح أنشطة هامشية أخرى، وقضايا ثانوية أو فرعية، فى ظل مناخ طارد للعلم والثقافة والأدب؛ أدركنا أن الاهتمام بأدبائنا ومفكرينا ومثقفينا الحقيقيين بات ضربا من تضييع الوقت فيما لا يفيد ولا يجدى.. مع أن قضية المعرفة والاهتمام بها تعد من القضايا الأساسية أو الرئيسية أو الاستراتيجية التى يفترض أن يقوم عليها البناء الحضارى للأمة؛ بل هى أساس التنمية فى المجتمعات المختلفة.

هل كان الاهتمام بالعلم والمعرفة والثقافة فى العالمين: الرأسمالى والشيوعى على مدى القرن العشرين ضربا من العبث وتضييع الوقت؟ كلا.. فالفريقان على تباين معتقداتهما وتوجهاتهما أدركا القيمة الحقة للبناء العلمى المعرفى الثقافى، ولم يكن غريبًا فى المجتمع الشيوعى وهو الذى كان يوزع الطعام على المواطنين بالجرام. أن يستثنى العلماء من هذا النظام، ويقيم لهم مدنا علمية تتوفر لهم فيها كل مستلزمات الحياة والرفاهية من أجل الإنتاج العلمى والبحثى، بل وصل الأمر إلى حد تخصيص حسابات مفتوحة للعلماء كى ينفقوا منها كما يشاءون.. وهو ما رأينا نتائجه فى التفوق الواضح الذى صبغ المجالات العسكرية والصناعية والتجارية وغيرها..

وللأسف، فإن الواقع العلمى والمعرفى والثقافى فى بلادنا العربية تحول إلى صورة مشوهة تمس الواقع العربى جميعه، وتشير إلى تخلفه المزرى، وبؤسه المخزى، مع أنه يملك من الإمكانات والطاقات، ما يجعله يتفوق ويشارك فى صنع الحضارة الإنسانية، كأحسن ما يكون التفوق وأفضل ما تكون المشاركة..

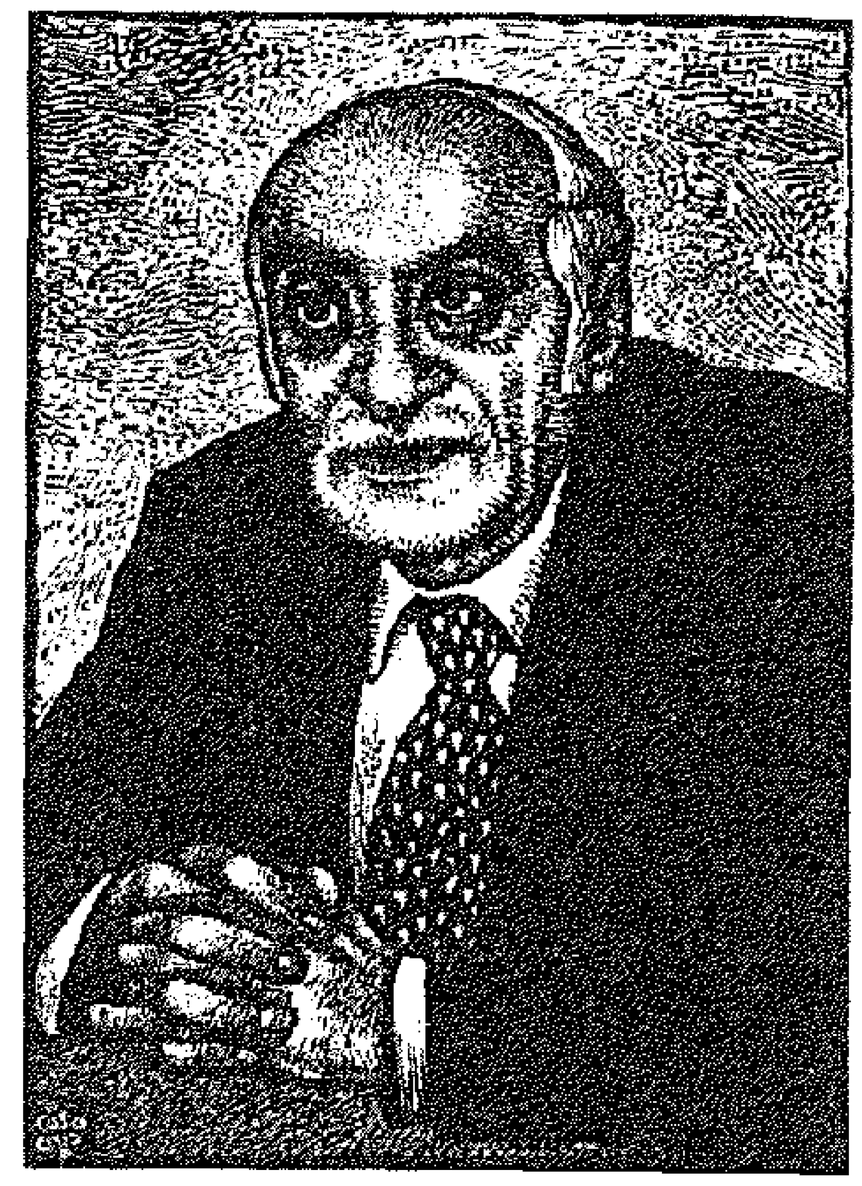
إن الاهتمام الحقيقى والجاد بأهل العلم والمعرفة والثقافة، على اختلاف مناهجهم وتوجهاتهم وتياراتهم، أساس من أسس التطور والانطلاق.. وهذا الاهتمام لا ينحصر أو يقتصر على المجال الدعائى أو المعنوى، ولكنه ينبغى أن يكون اهتماما ماديًا أيضا، فالحياة الراهنة صارت تفرض على العلماء والمفكرين والأدباء التزامات مادية، لا يصبر عليها إلا أولو العزم من الناس، ومعنى ذلك أن تهيئة المناخ المادى والمعنوى الملائم يحول دون تسرب الطاقات المعرفية إلى الدول الأجنبية بالهجرة أو التعاقد للعمل خارج الحدود، أو الفرار من الميدان إلى مجالات أفضل عائدا وأكثر استقرارا..

وحين اختارت «وجهات نظر» فى عدد (يوليو ٢٠٠٦) كتاب من «أدب الفرس والترك» لحسين مجيب المصرى، الذى صدر لأول مرة عام ١٩٥٠، وأعيد نشره عام ١٩٩٩؛ فقد نبهت إلى قيمة علمية وفكرية وأدبية فى واقعنا الثقافى، وأثارت قضية تجاهل هذه «القيمة» وأمثالها إلى حد «الموت» إلى الحد الذى يقول فيه المسئول الثقافى الرسمى: إن حسين مجيب المصرى لا يعرفه أحد!

لقد وصفت «وجهات نظر» حسين مجيب المصرى بأنه رائد الأدب الإسلامى المقارن فى العالم العربى، وأضيف: بل هو رائده فى العالم الإسلامى أيضا، لتعمقه فى آداب الشعوب الإسلامية، ودراستها

حسين مجيب المصرى، أيامى بين عهدين: سيرة ذاتية، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ٢٦٧ صفحة، قطع متوسط.

يا له من رجل ذى عزيمة قوية.. فى مثل هذا العمر ويصر على مواصلة القراءة والكتابة؟ أين هو، بل أين منه أشباه الأميين الذين صاروا أساتذة جامعيين وأدباء ومثقفين، وبعضهم لا يقرأ حتى الجريدة اليومية، فضلاً عن القراءة العامة والقراءة المتخصصة؟



دراسة منهجية، توصلت إلى الخطوط الرئيسية التى تجمع مفكرى الأمة الإسلامية وأدباءها ومثقفيها على اختلاف لغاتهم وتوجهاتهم واهتماماتهم..

وكان من المفارقات أن الأمة العربية لم تدرك قيمة الرجل فى حياته، بل إنه يوم رحيله (١١ من ديسمبر ٢٠٠٤م)، لم ينشر خبر وفاته إلا فى ثلاثة أسطر باهتة داخل عمود محشور فى عمق صفحة أدبية لا تهتم الصحيفة التى تنشرها بإخراجها وتنسيقها! فى الوقت الذى قامت فيه حكومات إسلامية عديدة بتكريم الرجل وهو حى، ومنحته أوسمتها وشهاداتها، واستقبله رؤساؤها على النحو الذى سيأتى إن شاء الله.

يوم رحل الرجل، فجعنى الواقع الثقافى بتجاهله، فكتبت عنه بعض المقالات القصيرة التى نشرتها فى صحف محدودة التوزيع، لأن الصحف الكبرى مشغولة بما هو أهم فى نظرها، كان الرجل يمثل بالنسبة لى نموذجًا فريدًا فى الإخلاص للعلم والمعرفة والأدب. وما بالك برجل قارب التسعين من عمره، وكفّ بصره، ووهنت صحته، وتكالبت عليه أمراض الشيخوخة، ومع ذلك، مازال مخلصًا لمسألة القراءة والكتابة التى يراها البعض لا تسمن ولا تغنى من جوع، وأنها حرث فى البحر، أمام ركلة كرة من قدم شاب صغير يتقاضى فى مقابلها عشرات الألوف من الجنيهات، أو أغنية سخيفة الكلمات، والمعانى يكسب صاحبها الملايين.. رجل شيخ فى مثل هذه الحال يستأجر من يقرأ له، ويكتب ما يمليه عليه، يستحق منا أن نجله ونبجله ونحترمه ونقدره، ونعرف به فى عصر ماتت فيه قيم العمل الجاد الشاق المضنى..

قبيل رحيله، كتب إلىّ رسالة، أو أملى رسالة إلىّ، يطلب فيها كتابى «محمد صلى الله عليه وسلم فى الشعر العربى الحديث»، لأنه يريد الاستفادة منه فى بحث له حول المدائح النبوية فى الآداب الإسلامية. أرسلت له نجلى ومعه الكتاب، وإذا به يرسل إلى رسالة مترعة بما لا أستحقه من الثناء.. ولا أدرى هل أنجز بحثه أم أن الموت منعه من إتمامه!

يا له من رجل ذى عزيمة قوية.. فى مثل هذا العمر ويصر على مواصلة القراءة والكتابة؟ أين هو، بل أين منه أشباه الأميين الذين صاروا أساتذة جامعيين وأدباء ومثقفين، وبعضهم لا يقرأ حتى الجريدة اليومية، فضلاً عن القراءة العامة والقراءة المتخصصة؟

لقد كان الرجل ملاذًا لطلاب العلم، وكان شارع الملك الأفضل فى الزمالك الذى يسكنه يستقبل طلابًا وباحثين وأساتذة من كل دول العالم الإسلامى، يطلبون منه المساعدة فى القضايا العلمية أو ترجمة النصوص الأدبية أو الإمداد بكتب ومراجع فى موضوعات يكتبونها أو يبحثون فيها.

وكان من دأب الرجل أن يعطى بلا مقابل، ولا يضيق بطالب علم، بل كان يسخر كل جهوده العلمية ومعارفه الثقافية لمن يطرق بابه، وأذكر أنه كان يحدثنى عن كتبه التى ينشرها بلا مقابل، اللهم إلا بعض النسخ التى يمنحها الناشر هدية للمؤلف، وحين كانت تنفد، كان يشترى نسخًا أخرى من جيبه ليهديها للطلاب والباحثين..

كان يجد لذة فى تقديم المعرفة، ولكنه كان لا يجيد فن العلاقات العامة، وخاصة مع وسائل الإعلام وأجهزة الثقافة الرسمية، فتجاهله الناس!

حين أنجز تسعة وخمسين كتابًا، وأغلبها من الكتب الضخمة، كان كتابه الستون سيرته الذاتية وجعل عنوانه: «أيامى بين عهدين..» ونشر طبعته الأولى عام ١٤١٩ هـ ١٩٩٩م، وأهداه إلى من بلغه الكبر، وأحس دنو الأجل، فشاقه أن يلتفت إلى ماض من عمره، كأنما يخيل إليه أنه عمره الفقيد يستعيد، ومن يمضى على جناح الذكريات إلى ما من الزمان فات، علّه أن يجد فى ذلك من ضيق فرجًا ومن سأم مخرجًا.

لقد وصفه الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى بأنه شخصية جامعية كبيرة، قامت بما يشبه المعجزات فى البحث الأدبى والعلمى والجامعى على امتداد أكثر من ثمانين عامًا.

وبعد أن يتناول مراحل حياته وجهوده يرى أن سيرته الذاتية وثيقة فريدة من وثائق العصر، وتمثل حديثًا مبسوطًا عن التاريخ المصرى قبل ١٩٥٢ وما بعدها، والتفكير العلمى فى جامعاتنا، والشباب ودوره فى تكوين الوعى الوطنى والاجتماعى فى مصر على امتداد القرن العشرين.

ووصف خفاجى لسيرة المصرى صحيح إلى حد كبير، فحياته رحلة من التطور الإنسانى والحضارى لمصر فى العصر الحديث، إذ تكشف العديد من الجوانب السياسية والفكرية والعلمية والأدبية، وتعالجها من خلال منظور بعيد عن الهوى والغرض، وإن كان يحمل طابعًا ذاتيًا، لا يمكن فصله عن صاحبه، ولا عن القضايا التى يناقشها.

يصف «حسين مجيب المصرى» ليلة مولده واستقباله للدنيا، فيقول فى صياغة أدبية راقية: «ليلة من ليالى فبراير عام ١٩١٦، أرسلت السماء فيها مدرارًا على غير المعهود، ولانهمار المطر قطرات كأنهن همسات وهمسات، والمطر منذ طويل زمان آية على الخير، وحسن الرزق، فيه الأرض تخضر وتهتز لتؤتى من كل الثمرات، كما أن فى خضرتها بسمة الأمل».

وكما نرى فإنه يربط بين ميلاده وانهمار المطر قطرات دلالة على العطاء والخصب والأمل، مما يعنى أنه يضع حياته فى هذا الإطار مع قسوة الظروف والصعاب والمنغصات التى واجهته على امتداد ثمانين عامًا.

وولد «حسين مجيب المصرى» فى حى شبرا بمنزل جده لأمه «محمد ثاقب باشا، وزير الأشغال فى عهد الخديو إسماعيل، وكانت جدته لأمه. ابنة محمد ثاقب. من كريمات ذلك الزمان، حيث قيل عنها إنها كانت تدعو فقيرات النساء ليطعمن فى بهو من أبهاء قصرها، وتقف لتشاهدهن وهن ينعمن بالطيبات فتطيب نفسًا بذلك وتقر عينًا، وبلغت فى التواضع حدًا أن كانت تناولهن صحاف الطعام وجرار الماء. لقد أوقفت أربعة وثلاثين فدانًا من أجود الأراضى بالقرب من المنصورة على البر والخيرات، كما أوقفت مالاً على مدفن والدها الذى ألحق به مسجد ومكتب لتعليم الصبيان، وسبيل يقف عنده عابر السبيل.

نشأ المصرى مدللاً، وكانت له مربية «نمساوية» علمته الفرنسية، ولا يذكر أباه إلا طيفًا من خيال، كان اسمه «على حسنى المصرى» ناظر دار العلوم العليا، وكانت هى الجامعة المصرية على الحقيقة، وأكبر معهد علمى فى مصر، وخاصة أن الجامعة المصرية لم تكن قد اكتملت تأسيسًا.

دخل الطفل مدرسة شبرا الابتدائية، وتفوق فى اللغة العربية واللغة الإنجليزية إلى حد بعيد، ولكنه تخلف فى الرياضيات، ولازمه هذا التخلف إلى انتهاء مرحلة دراسته الثانوية. ومن الطرائف التى يحكيها المصرى عن المرحلة الابتدائية أن مدرس اللغة العربية طلب من التلاميذ أن يأتوا بكلمة «نال» فى جملة مفيدة، فقال حسين: «نال الشرطى ملابسه الصيفية من الحكومة المصرية» فبادر المدرس إلى منحه الدرجة النهائية، لأنه أدرك أن الطفل جاء بسجعة فى كلامه، مما يبشر أنه سيكون شاعرًا فى يوم ما. لقد تفوق حسين فى كتابة الإنشاء، وهو ما جعل أحد مدرسيه يقول له: «يا مصرى ستكون أديبًا عظيمًا»، وكان المدرس يقرأ موضوعاته على الطلاب ويقول لهم: سأقرأ عليكم ما كتب المصرى».

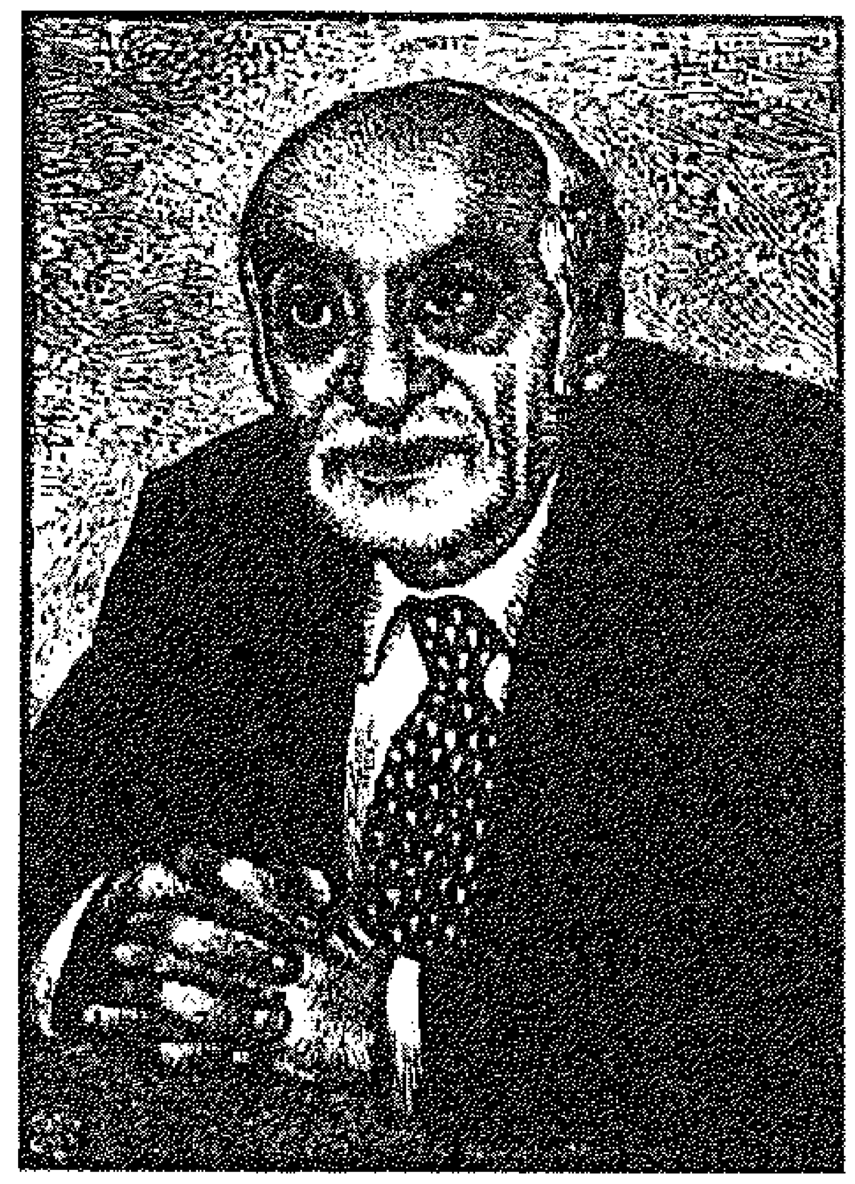
وكان أمام قصره فى شبرا دكان لحلاق لبنانى شيخ، وكان أمر هذا الحلاق عجبًا. إنه لم يدرس فى مدرسة، وكان يقول: «لم أدرس نحوًا ولا صرفًا»، إلا أنه كان يحب الشعر حبًا جمًا، وفى بيته من الدواوين النادرة مجموعة وفيرة. إنه على الدوام ينشد الشعر القديم والحديث، ويلحن فى الإنشاد، ولكنه يتذوق.

وقد لازم حسين هذا الحلاق فى دكانه، ويسمع منه ما يقول، وكان هذا الحلاق اسمه «نقولا جبرا»، يحب شعر عمر بن الفارض لما فيه من صناعة، خاصة الجناس، مع أنه لم يفهم معانيه.

لقد أفاد حسين من هذا الحلاق اللبنانى كثيرًا، وعرف منه أسماء الشعراء الجاهليين والإسلاميين والمحدثين، وأسماء كتب الأدب العربى الأمهات، والكتب الحديثة مما أثار دهشة معلمه الشيخ إمام وغيره من معلمى المدرسة الابتدائية.

ومن حينها جعل يطالع كتب الأدب قديمها وحديثها، فقرأ لجبران، ومى زيادة، ومصطفى صادق الرافعى على صعوبة لغته، وحفظ كثيرًا من الشعر العربى قديمه وحديثه، وبذلك أدركته حرفة الأدب.

وفى مدرسة السعيدية الثانوية، كان ينال الدرجات



النهائية فى الإنشاء حتى إن الشيخ الطاهر عبدالله الذى كان يدرس له اللغة العربية فى الصف الأول الثانوى استدعى يوماً وكيل المدرسة ليقرأ على الطلبة موضوعاً قرأه وساوره الشك أن يكون قد كتبه بنفسه، أو أن أحداً فى بيته كتبه له، لأنه كان رفيع المستوى إلى حد بعيد.

وقد تفوق فى اللغة الفرنسية لأنه كان يتكلمها مع مربيته الأجنبية دائماً، كما كان يجيد الإنجليزية أيضاً، ووصل إتقانه للغات الثلاث: العربية والفرنسية والإنجليزية: أنه كان ينظم الشعر بالفرنسية، وكان مدرسها يصحح له ما ينظمه. أيضاً كان يترجم شعراً بالإنجليزية إلى العربية، فضلاً عن كونه وهو فى الصف الخامس الثانوى، نظم أول قصيدة له باللغة العربية فى رثاء قريبة له ماتت فى شبابها، ونشرت القصيدة فى مجلة المدرسة السعيدية، ومنها:

يا ناى اشعلت الأسى بجنانى
وعلى القتاد رميت بالوجدان
وكأن نوحك نوح قلب واله
زينته بسواحر الألحان..

وفى المرحلة الثانوية توفر «حسين مجيب المصرى» على قراءة كتب الأدب العربى والفرنسى والإنجليزى وتأثر كثيراً بالأديب «زكى مبارك»، وكان هذا التأثر سبباً فى شحذ همته لمواصلة القراءة والاطلاع. وقد تعرف على صاحب مكتبة الجامعة فى شارع محمد على، يشترى منه الكتب الجديدة والقديمة، ودامت صحبته له أعواماً طوالاً حتى وافاه الأجل، ففقد صديقاً حميماً وأخاً كريماً وشعر بفراغ موحش، ولكن الله عوضه بصحبة شقيق الرجل الذى ظل على صداقته أكثر من ستين عاماً.

وفى المرحلة الجامعية، كان زكى مبارك، قدوة لحسين مجيب المصرى، وأراد أن يتشبه به فى الحصول على الدكتوراة ثلاث مرات.. ولكنه تمرس بتجربة خاصة، حيث وجد أن من يدرسون له من الأعلام على غير ما كان يسمع ويعلم. فهم أعلام بلا ريب، ولكن الألفة بينهم وبين الطلبة كانت مفقودة، وهذا ما لم يعجبه منهم، وفى مقدمتهم زكى مبارك نفسه!

كان حسين مجيب المصرى فى قسم اللغة العربية واللغات الشرقية، وأحزنه ما يجرى بين بعض الأساتذة من شحناء وبغضاء، ويفيض فى الكلام عن هذا الأمر المحزن، لأنه يرى أن الجامعة ليست علماً وكفى.. إنها المثل والقيم التى يتلقاها الطالب فى المجتمع الجامعى الذى يصير فيه الأستاذ موجهاً من الطراز الأول.

انفتح المجال أمام المصرى ليتتلمذ على أستاذ سويسرى فى اللغة الألمانية الذى درس له هذه اللغة لفائدته وفائدة العلم جميعاً، كما قال له، وظلت هذه المقولة تؤثر فى عقله الباطن، وتدفعه لمساعدة الباحثين من تلاميذه وغيرهم بترجمة النصوص الألمانية التى يحتاجونها لرسائل الماجستير والدكتوراة وسواها.

وهناك أيضاً فى قسم اللغة العربية واللغات الشرقية الذى انتسب إليه المصرى درس اللغتين الفارسية والتركية، وتفوق فيهما.

تعرف المصرى إلى شخصية «نجيب محفوظ» فى السنة التمهيدية للماجستير، وكان أسن منه، إلا أنه تخلف عن الحضور بعد مدة يسيرة لأنه لم يكن ميالاً لدراسة اللغات، وانصرف إلى كتابة القصة، كما تعرف إلى صاحب مكتبة الأنجلو المصرية الشهيرة عام ١٩٣٥ بحكم أن لديه الكثير من الكتب فى اللغات الشرقية، وصار ناشر كتبه الرئيسى، ويتنازل له عن حقوق التأليف عن طيب خاطر نظير أن تظهر كتبه إلى النور..

بعد عام ١٩٣٩ عقد «حسين مجيب المصرى» العزم على الرحيل إلى أوروبا للحصول على الدكتوراة ففاجأته الحرب العالمية الثانية، ولكن إنشاء معهد الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة مهد له الطريق لمزيد من الدراسة، وأتيح له أن يدرس الإيطالية، ويترجم عنها بحثين فى أثناء دراسته بالمعهد، لأحد أساتذته، وهما: أسباب سقوط الدولة الساسانية، والشعوب المسيحية فى عهد الساسانيين للمستشرق الإيطالى «كاتيانى».

وبعد حصوله على دبلوم معهد الدراسات الشرقية، أعلنت جامعة فاروق بالإسكندرية (جامعة الإسكندرية الآن) عن حاجتها إلى من يدرس الفارسية، فكتب الدكتور عبدالوهاب عزام، رسالة إلى عميد الكلية، يقول فيها:

«حسين مجيب المصرى أفندى، أعلم من عرفت فى مصر من تلاميذنا وغيرهم بالفارسية والتركية وأرى أن تطلبوه من جامعة القاهرة لتظفروا به».

ولكن صرخة عبدالوهاب عزام ذهبت فى واد.. وفضلوا عليه زميلاً له لصلة قرابة بينه وبين من بيدهم الأمر.. ولكن المصرى ازداد رغبة فى التحصيل، وجعل يفكر فى رسالة الدكتوراة، ووقع اختياره على شاعر تركى عاش فى العراق فى القرن السادس عشر، كان ينظم وينشر بالتركية والعربية، وضاعت معظم أخباره، واختلف أهل العلم من الأتراك والأوروبيين فيه، كما خفيت معظم المراجع اليسيرة الشحيحة التى أوردت له ذكراً، فرآه أجدر ما يكون بالدراسة. هذا الشاعر اسمه «فضولى البغدادى»، وكان الأوحد الذى نظم الدواوين والأشعار بالعربية والفارسية والتركية..

فى رحلة البحث عن الدكتوراة والحصول عليها مر «حسين مجيب المصرى» بظروف متباينة، كان بعضها قاسياً ومؤلماً، ولكنها فى النهاية تكشف عن رغبته الحميمة فى البحث، وإخلاصه النادر للعلم والمعرفة والثقافة.

ويمكن أن نشير إلى أنه ظل عشر سنوات يجرى هنا وهناك، بحثاً عن مصادر رسالته للدكتوراة دون أن يعثر على ما يشفى الغليل، ودون أن يجد وظيفة تناسب تخصصه فى اللغات الشرقية، حتى قيض الله له فرصة الانتداب لتدريس الفارسية والتركية فى معهد اللغات الشرقية الذى تخرج منه، ثم انتدب لتدريس الفارسية فى معهد الآثار الإسلامية، وقد وجد المصرى غيرة بشعة ممن يدرسون هاتين اللغتين تمثلت فى صور من الحقد والحسد والتضييق، يردها المصرى إلى رقة فى الدين وضعف فى الإيمان..

فى عام ١٩٥١ رحل المصرى إلى استانبول لجمع مادة الدكتوراة، وأحس بانتعاش، وجرت سفينته بريح طيبة، فعكف على المطالعة فى المكتبات العامة والخاصة، واطلع على مخطوطات نادرة لا وجود لها إلا فى قليل منها، ووجد قذى العين من قراءة خطوطها التى لا يقتدر على قراءتها إلا خبراء الخطوط، ولكنه أقدم ولم يحجم.. وواصل حتى أصيب بغتة بالانفصال الشبكى فى عينه بعد أن جمع مادة بحثه أو معظمها، وأمره الطبيب بالرجوع إلى مصر بعد أن دعا له بالشفاء.

لقد عانى بسبب الانفصال الشبكى عناءً كبيراً، حتى أتيح له السفر إلى سويسرا لإجراء جراحة فى عينه، وعاد ليواصل عمله فى المعهدين العاليين، وكتابة رسالته التى كابد من أجلها ما كابد، وأصيب من أجلها بما أصيب، إلا أنه أحس بالسكينة تغمر قلبه، والرضا يملأ نفسه. وكانت رسالة الدكتوراة التى تقدم بها من أوائل - إن لم تكن أول - الرسائل فى الأدب التركى قدمت إلى جامعة القاهرة عام ١٩٥٥، كما كانت الأولى فى مادتها.

وواجه الرجل متاعب فى تعيينه مدرساً بالجامعة الأم، فعمل فى جامعة

ولد فى حى شبرا بمنزل جده لأمه «محمد ثاقب باشا» وزير الأشغال فى عهد الخديو إسماعيل، وكانت جدته لأمه تدعو فقيرات النساء ليطعمن فى بهو من أبهاء قصرها

أحزنه ما يجرى بين بعض الأساتذة من شحناء لأنه يرى أن الجامعة ليست علمًا وكفى.. إنها المثل والقيم التى يتلقاها الطالب فى المجتمع الجامعى

عين شمس، وأسس قسمًا للغة التركية.. وكأنه كان على موعد مع المتاعب والمكائد التى دبرها الزملاء الذين لا يعملون ولا يتركون غيرهم يعمل.. وانتهى حديث المتاعب والمكائد فى آداب عين شمس إلى تركها مرغمًا بعد إلغاء قسم اللغة التركية!!

بيد أنه انتدب للتدريس فى كلية البنات بعين شمس بعد أن رد إليه اعتباره، فدرس الفارسية وآدابها، بالإضافة إلى نصوص إنجليزية وفرنسية فى قسم الفلسفة، والتصوف لطالبات الدراسات العليا.

يمثل صراع أعضاء هيئة التدريس فى الجامعة نقطة ضعف خطيرة فى مسيرة التعليم الجامعى، وخاصة فى الجامعات التى أنشئت بعد الجامعة الأم، ولم تتوفر لها التقاليد والقيم التى عرفتها الأخيرة، فضلاً عن تدنى مستوى الأجور والمكافآت، مما يدفع بعض الأعضاء ممن جعلوا مهنة التدريس «سبوبة»، وليس طريقًا إلى العلم والمعرفة، والتقاليد والقيم، يتهافتون على المال والبحث عنه بأية وسيلة، ولو كان الطريق إلى ذلك تدمير زملائهم المتفوقين الجادين تدميراً معنويًا وإنسانيًا، ولعل ما كان يتحدث عنه «حسين مجيب المصرى» فى زمانه يمثل قطرة فى بحر مما يحدث الآن، حيث صار المتسلقون وأشباه الأميين، ممن استوعبتهم بعض الجامعات وخاصة فى الأقاليم، يمثلون سرطانًا خطيراً ينخر فى الجسد الجامعى، ويحطم هيكله المعرفى والخلقى جميعًا، و هو ما يفرض على من يعنيهم الأمر من المخلصين أن يتصدوا لهذا المرض الخبيث الذى يفتك بالجامعة والجامعيين، ويؤصل للتخلف البشع الذى جعل جامعاتنا فى مؤخرة الجامعات العالمية، بل الأفريقية التى أنشئت على هدى الجامعات المصرية وتأثرت بها فى زمن مضى..

لست أريد الوقوف عند أسباب هذا السرطان القاتل، وعناصر علاجه واستئصاله، ولكنى أود الإشارة إلى أن رجلاً مثل «حسين مجيب المصرى» كان يمكن لو أتيحت له الفرصة كاملة لأثرى الجامعة فى تخصصه، وحقق أضعاف ما أنجزه، وهو مجرد ضيف «منتدب» يدرس بعض المقررات وينتهى دوره..

لقد كان إخلاصه للعلم وتفوقه فى اللغات وآدابها (تجاوزت عشر لغات شرقية وغربية)، عنصر جذب، دفع إليه مئات الباحثين والأساتذة والطلاب، كى يستفيدوا بعلمه وقدرته على الترجمة الأدبية من العربية وإليها، وهذا فى حد ذاته يمثل إنجازاً علميًا لا يتوفر إلا للقلة المخلصة التى تعكف على العلم والمعرفة والقراءة..

وبالإضافة إلى ما سبق، كان يبذل «مكتبته» التى جمعها على مدى سبعين عامًا، لكل من يطلب الإعارة من كتبها - وبعضهم استباحها ولم يرد ما استعاره - وكان يردد بينه وبين نفسه «إن هذا هو صدقة العلم، وإن الله يوم القيامة إذا سأله ماذا عمل من صالح قال: تعلمت العلم وعلمته، وكان ذلك منى قربة واحتسابًا».

لم يتوقف نشاط الرجل على العمل الأكاديمى، ولكنه امتد إلى الصحافة الأدبية، فنشر كثيراً من المقالات والأشعار فى الصحف والدوريات المصرية والعربية، بدءاً من «اللواء الجديد»، و«منبر الشرق»، و«الراديو».. حتى «قافلة الزيت»، و«الأديب اللبنانية»، و«الورود» السورية، ومن خلال ثلاثين جريدة ومجلة أو أكثر، عرف بالآداب الفارسية والتركية والفرنسية والإنجليزية وغيرها.

وقد وصل صيته إلى خارج مصر، فدعى أستاذاً زائراً بجامعة بغداد، وكرمه الأساتذة العراقيون والتركمان هناك، ودعاه الأساتذة الأتراك إلى استانبول، وأقاموا له ندوة حاشدة أنشدوا فيها شعره، وفعلوا ذلك أيضًا فى جامعة مرمرة، كما استضافوه فى جامعتى أنقرة وقونية للتدريس، وذهب إلى باكستان ثلاث مرات مدعوا للاشتراك فى مؤتمرات أدبية، وألقى فى أحدهما بحثًا عن «إقبال والقرآن»، وفى المرة الثالثة، أقام له وزير الإعلام الباكستانى حفل عشاء بفندق شيراتون، واحتفى به الباكستانيون حفاوة كبيرة توجت بتقليده «وسام الجدارة» من جانب رئيس الدولة «ضياء الحق» الذى صافحه وعانقه بعد أن وضع الوسام على صدره.

وفى إيران، شارك فى حفل بمناسبة تأسيس الدولة القديمة وألقى بحثًا بالفارسية، نشرته السفارة الإيرانية فى مصر بعد ترجمته إلى العربية.

ودعى إلى قرطبة بإسبانيا، وكان المشارك المصرى أو العربى الوحيد، وألقى ارتجالاً بحثًا بالإنجليزية عن إقبال والتصوف.

لقد أدرجت موسوعة إسلامية فى استانبول، مادة عنه وعن مؤلفاته، وفى عام ١٩٩٦ منحته جامعة مرمرة الدكتوراة الفخرية، ودعته لتقدمها إليه، ولكنه اعتذر عن عدم السفر لفقدان نعمة البصر، فسلمت إليه فى السفارة التركية بمصر فى حفل كبير ألقى فيه قصيدة نظمها بالتركية مع ترجمتها إلى العربية.

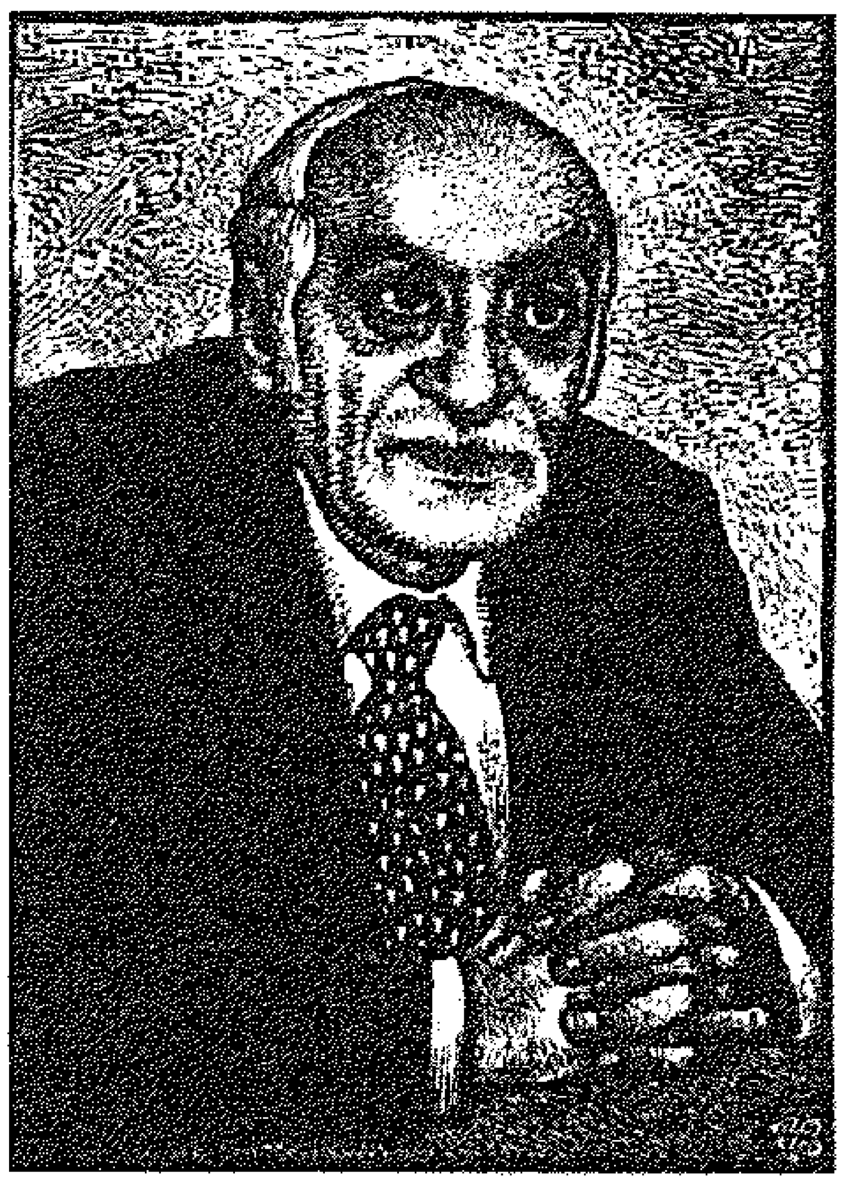
كان أول كتاب له بعنوان «فارسيات وتركيات» وظهر عام ١٩٤٨، ويتناول الأغانى الشعبية وموضوعات أخرى متنوعة، منها: الصدق والكذب فى إيران القديمة، وحريم السلطان، وغرام شاعرتين: إيرانية وتركية، والشاعر القتيل، وخديجة الشركسية.

وبعده أخرج كتاب «من أدب الفرس والترك»، ويشبهه فى مادته وطريقة العرض، ويتضمن فصولاً أطول، وزاد فى مجال المقارنة بين الأدبين فتناول المقارنة بين شاعرين سجينين، وشاعرين ضاحكين، وغضبة الأرض.. والكتابان بصفة عامة باكورة المقارنات فى الأدب الإسلامى، التى أضاف إليها فيما بعد: الأدب العربى، والأدب الأوروبى.

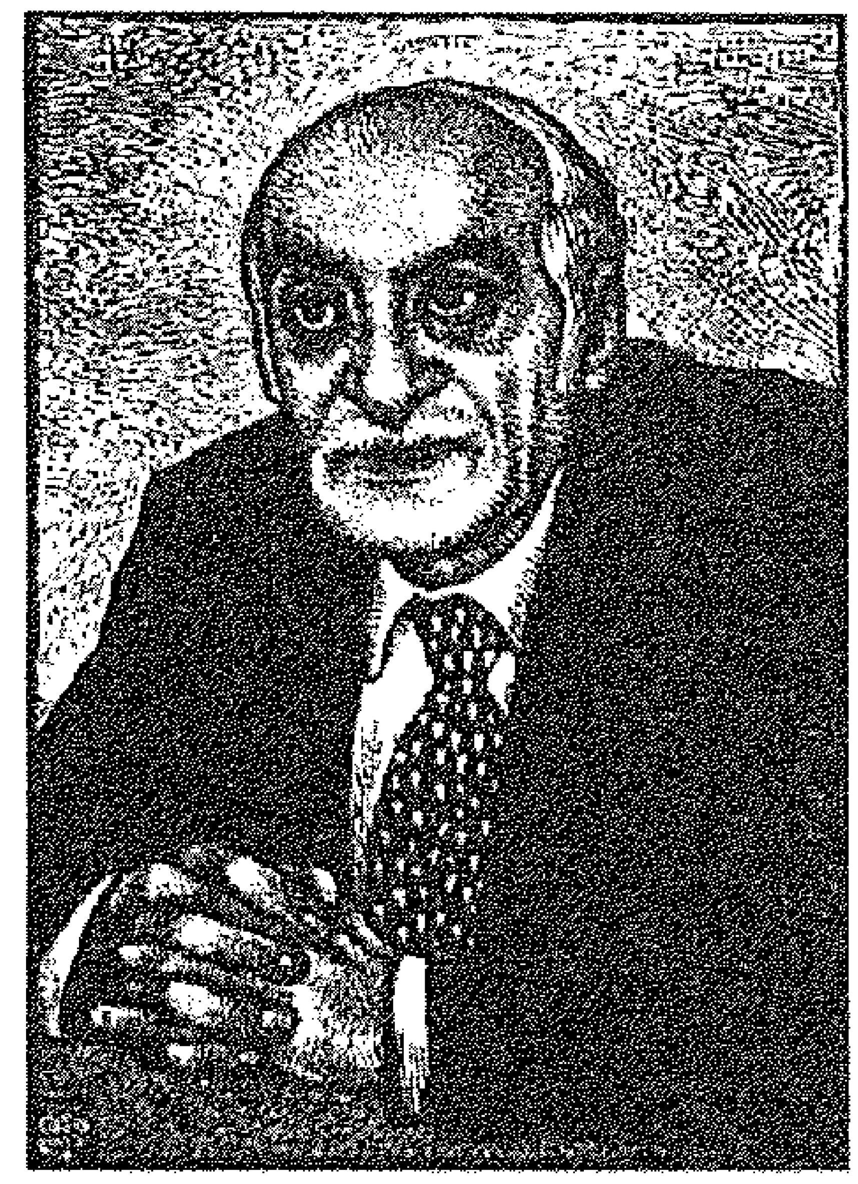
ومن أهم كتبه فى هذا المجال: «بين الأدب العربى والتركى»، وتناول: الترك والشعر العربى، والغزل فى الشعر العربى والتركى، والرثاء عند العرب والترك، والطبيعة فى الشعر التركى والعربى، ليلى والمجنون عند العرب والترك، مولد النبى فى العربية والتركية، الهجاء فى الشعر العربى والتركى، التصوف فى شعر العرب والترك، الأدب الشعبى عند العرب والترك، الشعراء الملوك عند الترك والعرب.

أيضًا له كتاب «رمضان فى الشعر العربى والفارسى والتركى»، و«سلمان الفارسى بين العرب والفرس والترك»، و«أبو أيوب الأنصارى عند العرب والترك»، و«فن الأدب الشعبى الإسلامى المقارن»، ويعالج الفصل الأول فيه شخصية جحا الأسطورية التى تبين أنها ثلاث شخصيات وليست شخصية واحدة. و«بين الأدب العربى والفارسى والتركى»، و«مصر فى الشعر التركى والفارسى والعربى»، و«المرأة فى الشعر العربى والفارسى والتركى»، و«الأسطورة بين الأدب العربى والفارسى والتركى»، و«المسجد بين شعراء العربية والفارسية والتركية»، و«الأندلس بين شوقى وإقبال»، و«غزوات الرسول بين شعراء الشعوب الإسلامية»، و«أشجار وأزهار وأطيار فى الشعر العربى والفارسى والتركى»، و«الفلاح فى الشعر العربى والفارسى والتركى»..

وهذه الكتب كما نرى، تمثل قاعدة قوية وممتدة فى مجال الأدب الإسلامى المقارن، أسسها ورسخها «حسين مجيب المصرى»، وتكاد تغطى كل الأنشطة والموضوعات التى تناولها الشعر والنثر فى الآداب الثلاثة، مما يجعل الرجل بحق رائد الأدب الإسلامى المقارن: وهو مجال لم يقترب منه إلا قلة من الباحثين توفرت لها



كان يعلل انطوائيته وانعزاليته عن المجتمع والناس، وربما مثاليته فى القراءة والبحث والاستذكار، بتربيته المنزلية، وارتباطه بالمربيات الأجنبيات اللاتى علمنه اللغات التى يتكلمن بها، وخاصة الفرنسية والإيطالية



أدوات البحث فيه، وهي أدوات صعبة على كل حال.

ويمكن القول إن الرجل امتد بنشاطه إلى اتجاه آخر يخدم مجال المقارنة، وهو التاريخ، فكتب عام ١٩٥١ «تاريخ الأدب التركي»، ولعله أول كتاب في المكتبة العربية يعالج منهجياً هذا الموضوع، وقد ترجم إلى الفارسية دليلاً على أن المكتبة الفارسية تفتقد وجود كتاب في الموضوع، ولعل هذا ما جعله ينتشر في جمهوريات آسيا الوسطى التي تعتمد الفارسية، أو تنتمي إلى جذور تركية.

وكتب المصري كتاباً آخر في هذا السياق بعنوان: «في الأدب الإسلامي: فضولي البغدادي أمير الشعر التركي القديم»، و«أثر الفرس في حضارة الإسلام»، وهو فصل من كتاب مشترك بعنوان «دراسات في الحضارة الإسلامية»، ولقد اهتم المصري بشاعر تركيا الأشهر «محمد عاكف» الذي وفد على مصر وعشقها وكتب عن نيلها وآثارها ووصفها وصفاً رائعاً. كما اهتم بشاعر الإسلام العظيم «محمد إقبال» فكتب عنه «إقبال والعالم العربي» وترجم كثيراً من أشعاره. ولاحظ أنه لا يكاد يعرف داعية إسلامياً من غير العرب بلغ مبلغ إقبال في فرط تعلقه بالعرب والعالم العربي. كما كتب عنه «إقبال والقرآن».

ويعد حسين مجيب المصري نفسه لغوياً بسليقته واستعداده وميله، بحكم أنه درس إحدى عشرة لغة يجيد منها ثماني لغات، كما أنه كان عضواً خبيراً بالمجمع اللغوي على مدى يزيد على ثلاثين عاماً حتى رحيله، ولهذا استطاع أن ينشئ خمسة معاجم هي:

- «المعجم الأوسط» (أوردو - عربي) بالمشاركة مع أستاذ باكستاني.
- «المعجم الفارسي العربي الجامع»، ويشمل مفردات لغة الأدب والعلم والصحافة والمعرّب والأمثال والعبارات المجازية والمصطلحات الصوفية، وما دخل الفارسية من العربية وتغير مدلوله فيها..
- «معجم الدولة العثمانية»، ويحتوي من الأسماء ما تنعقد صلته بالأتراك العثمانيين على امتداد تاريخهم، مع الشرح والتأصيل بحيث تبدو صورة لحياتهم في شتى جوانبها، وحضارتهم الإسلامية في أخص مظاهرها، وفيه تراجم لرجالاتهم من الأعلام في تاريخ الإسلام.
- «أثر المعجم العربي في لغات الشعوب الإسلامية»، وفيه ثبت بالألفاظ العربية التي دخلت الفارسية والتركية والأردية، وتغير مدلولها كلية.
- «معجم السلطان قابوس للأسماء العربية»، وفيه يتقصى المصنف الأسماء غير العربية في المشارق والمغارب، ويؤصلها وهي في مدن الخليج فارسية وأردية، وفي مصر والشمال الأفريقي تركية وفارسية..

ويتصل بهذا الجانب اللغوي لدى حسين مجيب المصري، ما قام به من ترجمات لكتب وأبحاث وموضوعات مهمة، ومنها على سبيل المثال، ما ترجمه عن الألمانية بعنوان «الأدب الفارسي القديم» لباول هورن، وما ترجمه عن الفرنسية لمحمد إقبال بعنوان «ما وراء الطبيعة في إيران» وهو رسالة الدكتوراة التي تقدم بها إقبال إلى جامعة ميونيخ عام ١٩٠٨، وما ترجمه عن الإنجليزية لبيلي بعنوان «الأدب الإسلامي في شبه القارة الهندية».. بالإضافة إلى ترجمات أخرى كثيرة عن التركية والإيطالية والروسية والأردية، ظهر بعضها مطبوعاً، وظل بعضها مكتوباً بالآلة الكاتبة حتى اليوم.

وفي السياق اللغوي أيضاً تجدر الإشارة إلى أن المصري نظم شعراً بالفارسية والتركية وترجمه إلى العربية، وله ديوان فارسي بعنوان «صبح»، وآخر تركي بعنوان «صولغون بركل»، وقد ترجمهما شعراً منظوماً أيضاً إلى العربية.

ويبدو أنه حريص على صفة «الشاعر»، حيث خصص معظم سيرته الذاتية التي سرد فيها حياته للحديث عن دواوينه، وشرح قصائده، وتوضيح مناسباتها، والإشارة إلى من تأثر بهم من الشعراء، والصور التي استخدمها في أبياته، والحالات النفسية والشعورية التي غلبت عليه، والظواهر التي تشيع في شعره..

لقد أصدر المصري ستة دواوين باللغة العربية لها عناوين ثنائية هي: شمعة وفراشة، وردة وبلبل، حسن وعشق، همسة ونسمة، شوق وذكرى، موج وصخرة، بالإضافة إلى ديوانين أحدهما بالفارسية والآخر بالتركية، سبقت الإشارة إليهما. ونلاحظ أن أسماء دواوينه تنتسب إلى الطبيعة وما فيها من كائنات ونباتات وجمال ومشاعر، وأحاسيس وظواهر، بالإضافة إلى استخدامه للألفاظ «المنكرة» بدلاً من المعرفة في عناوين دواوينه، بل في عناوين قصائده جميعاً، ويفسر ذلك بتأثره بالفارسية والتركية، لأن أداة التعريف «ال» لا تدخل على الأسماء في الفارسية والتركية والأوردية، ولا ريب أن قارئ شعر المصري يجد توافقاً بين نزعته الرومانتيكية.. وقد نشأ في عصر ازدهار الرومانتيكية في مصر والعالم العربي - مع نزعة الشعر في الآداب الشرقية، وخاصة الفارسية، فامتلأ شعره بالحزن الشفيف، وذكر الطبيعة ومفرداتها، والميل إلى التصوف بمعناه الإيجابي، وبروز التعبير الذاتي العاطفي، وجيشان الشعور والإحساس، ولعل في مقدمة ديوانه «همسة ونسمة» ما يكشف لنا عن بعض هذه المعالم، يقول:

للفجر طال انتظاري
وعز حتى اصطباري
في وحشتي لست أدري
ما ليلتي من نهاري
في حيرتي ضاع عمري
والعمر كالسيل جاري
يا فجر بدد ظلامي
وفكني من إساري
الليل سجن أمامي
يمتد جدران قار
وأفعواني يحامي
عن جحره باعتصاري
يا فجر واكشف غمامي
عن لمحة لسداري

وقصائده بصفة عامة تميل إلى الطول، ولديه قدرة واضحة على النظم وفق جميع البحور، خاصة البحور المهجورة، أو التي لا ينظم عليها إلا القلة من الشعراء الموهوبين، فضلاً عن تمكنه من القافية تمكناً يكشف عن استيعاب عميق للغة ومفرداتها..

ومن المؤكد أن شعره يحتاج إلى دراسات طويلة ومتشعبة، تكشف عن معالمه الفنية والإنسانية، والمؤثرات التي تظهر من خلاله، وخاصة ما استوعبه من شعر فارسي وتركي وأوردي، سواء في المضامين أو الصور أو الهياكل.

لقد لاحظت أن الحركة النقدية بصفة عامة، لم تلتفت إلى شعر المصري، حتى من يعرفونه ربطوه بدراسة الآداب الشرقية أو لغاتها فحسب، ولكن أحداً في المجال الأدبي - حسب علمي - لم يتناول شعره بشيء من التعليق أو التقويم، أو الدراسة، كذلك فإن الجامعات، لم تتوجه إلى هذا الشعر في رسالة ماجستير أو دكتوراة، مع أنه شعر غني، يستحق الدرس والقراءة، والبحث النقدي، والتناول المقارن.

في سيرة حسين مجيب المصري الذاتية يمكن أن نلاحظ ما يلي:

❖ أنه لم يشر إلى أسرته الصغيرة إشارة وافية، لقد أشار إليها إشارة سريعة في سياق عام من قبيل أنه سافر مع زوجته إلى بلد (كذا)، أو دعي مع زوجته إلى احتفال (كذا)، فلم نتعرف كيف بني

لقد كان إخلاصه للعلم وتفوقه في اللغات وآدابها (تجاوزت عشر لغات شرقية وغربية)، عنصر جذب، دفع إليه مئات الباحثين كي يستفيدوا بعلمه وقدرته على الترجمة الأدبية من العربية وإليها

أسرته، أو كيف تزوج. ولم ندر شيئًا عن ذريته أو أولاده، ولم يتكلم عن طبيعة حياته الأسرية فى ظل ظروفه الصعبة التى عانى فيها من الانفصال الشبكى، ثم ضياع الإبصار تمامًا فى أواخر حياته، ولعل ذلك يرجع إلى تأثره بالتقاليد التى ترفض الحديث عن الحياة الخاصة.

❖ فى مقابل ذلك فقد تحدث عن جدته لأمه، وعن أمه حديثًا مستفيضًا، وسبقت الإشارة إلى ما ذكره عن جدته وكرمها وإحسانها إلى الفقراء، وتدينها، وحجها إلى بيت الله الحرام، كما أشار إلى أمه واتباعها نهج جدته فى الكرم والإحسان، وتعامل الاثنتين مع الخدم الذين كانوا ينتسبون إلى جنسيات مختلفة (النمسا، الحبشة، السودان)، تعاملاً طيبًا بوصفهم أفرادًا من الأسرة.

بيد أنه لم يشر إلى أبيه، إلا إشارة سريعة بوصفه ناظر دار العلوم العليا، الذى أثر فى عدد من خريجيها، فأشادوا به عندما عرفوا أن «حسينًا» ابنه يدرس فى المدرسة التى يعملون بها.

كذلك لم نتعرف على جدته لأبيه، أو أى من أفراد أسرة أبيه: فهل كان ذلك يرجع إلى تواضع أسرة أبيه أمام أسرة أمه التى كان ربها وزيرًا للأشغال فى عهد الخديو إسماعيل؟ ربما..

❖ كان يعلل انطوائيته وانعزاليته عن المجتمع والناس، وربما مثاليته فى القراءة والبحث والاستذكار، بتربيته المنزلية، وارتباطه بالمربيات الأجنبيات اللاتى علمنه اللغات التى يتكلمن بها، وخاصة الفرنسية والإيطالية..

كما يشير إلى طبيعته الحزينة المتشائمة التى تتبدى فى أشعاره خاصة، وإلى مثاليته التى جعلته يصطدم بسلوكيات الناس وشراستهم، فى الوقت الذى تربى فيه مدللاً ملتزمًا بقيم عليا ومثل وأخلاق تربى عليها ولا يحيد عنها.

❖ استخدم فى سرد سيرته الفعل الماضى وضمير الغائب، وكأنه يتحدث عن شخص آخر، فيقول: ذهب حسين، وفعل حسين، ولكن حسينًا، و... وراح، وعاد، وانتدب، و... ولم يستخدم ضمير المتكلم أبدًا، ولعل ذلك يرجع إلى طبيعته التى تؤثر التواضع على النرجسية أو الإحساس بتضخم الذات.

ولعل تعمق المفاهيم الإسلامية فى وجدانه هو الذى جعله ميالاً إلى التواضع، كارهًا للتكبر والاستعلاء، وكثيرًا ما نلمح وراء تصرفاته وسلوكه إيمانًا دينيًا عميقًا، يفسر الأحداث ويواجه الأقدار.. وهذا التفسير ينطوى على الرضا بالقضاء والقدر، والنظر إلى الجانب المشرق من الحياة، والاعتراف بنعم الله التى تظهر فى الجوانب الأخرى.

❖ ثمة مشكلة لازمته، وخاصة فى النصف الثانى من القرن العشرين، وهى ما جرى له ولأسرته من تحديد للملكية الزراعية، بوصف عائلته من الإقطاعيين. فقد كان شديد الألم لما يسمعه حين يصفه البعض بأنه «إقطاعى». وقد ازداد ألمه حين اتخذت هذه الصفة مدخلاً لتدبير بعض المكائد والدسائس من جانب بعض زملائه الذين نفسوا عليه تفوقه وامتيازه فى الجانب العلمى، وكان ما كان من إيذائه وإبعاده عن الجامعة ردحًا من الزمان.

لا ريب أن إحساسه بأنه شخص عادى متواضع، يحب العلم والمعرفة والناس، ويجد فى الحلاق اللبنانى الذى لا يحمل شهادة صديقًا له يتعلم منه الشعر والأدب، قد جعل وصفه بالإقطاعى جرحًا غائرًا فى أعماقه لازمه إلى يوم وفاته.

والمفارقة، أنه عاش - كما أعلم - بقية عمره، منذ إحالته إلى التقاعد، على معاش هزيل، بعد أن فقدت عائلته ثروتها، وبدد ما تبقى لديه على المعرفة ومستلزماتها!

❖ ومن المؤكد أن التراث الذى خلفه «حسين مجيب المصرى»، فى مجال الأدب الإسلامى المقارن أو التاريخ الأدبى للآداب الشرقية أو الترجمات التى قام بها عن اللغات الكثيرة التى يتقنها، أو المعاجم التى ألفها فى هذه اللغات، أو الشعر الذى نظمه بالعربية والفارسية والتركية أو الجهود التى بذلها مع طلابه، أو الكتابات التى نشرها فى الصحف والدوريات، أو الأبحاث التى ألقاها فى المؤتمرات والمنتديات أو غير ذلك من نشاطات بذلها وهو فى غاية الرضا والإخلاص، تجعله واحدًا من الأعلام الأفذاذ فى اللغة العربية، بل فى اللغات الشرقية جميعًا، وتضعه فى مقدمة الذين يجب أن تحتفى بهم الأمة، وتقدرهم حق قدرهم فى حياتهم وبعد مماتهم.

ولعل هذا يفرض على كل صوت مخلص أن يقدمه وأمثاله إلى الأجيال الجديدة، لترى فيهم مثالاً بارزًا للدأب والإخلاص والإصرار على استقبال العلم والمعرفة والثقافة، مهما كانت الصعوبات والمعوقات. ■

كتاب الزاوية

حياة الرافعى فى الوظيفة

فى أبريل سنة ١٨٩٩ عين الرافعى كاتبًا بمحكمة طلخا الشرعية، بمرتب شهرى أربعة جنيهات، وأعانه على الظفر بهذه الوظيفة ما كان لأبيه وأسرته من جاه فى المحاكم الشرعية، وما كان الرافعى ليجهل جاه أبيه وأسرته فى هذه المحاكم، وما كان منكورًا لديه أن لهم يدًا على كل قاض فى القضاء الشرعى، فنشأ بذلك نشأة الدلال فى وظيفته، لا يراها إلا ضريبة على الحكومة تؤديها إليه عمل أو لم يعمل، لمكانة أسرته من النفوذ والرأى، ولمكانته هو أيضًا.. ألم يكن يرشح نفسه ليكون أديب هذه الأمة؟.. هكذا كان يرى نفسه من أول يوم، وظل كذلك يرى نفسه آخر يوم..

وكانت إقامته بطنطا فى هذه الحقبة. فمنها مغداه وإليها مراحه فى كل يوم، يتأبط حقيبة فيها غداؤه وفيها كتابه، وما كان أحد يستطيع أن يلفته إلى ضرورة التبكير إن جاء فى الضحى، أو يسأله الانتظار إذا دنا ميعاد القطار ولم يفرغ من عمله.

لم يكن يرى الوظيفة إلا شيئًا يعينه على العيش، ليفرغ لنفسه ويعدها لما تهيأت له، فما انقطع عن المطالعة والدرس يومًا واحدًا، وما أكثر ما كان ينقطع عن وظيفته.

وقضى الرافعى فى طلخا زمنًا ما، ثم نقل إلى محكمة ايتاى البارود الشرعية، ثم إلى طنطا، وفى طنطا انتقل من المحكمة الشرعية إلى المحكمة الأهلية بعد سنتين، لأنه رأى المجال فى المحاكم الأهلية أوسع وأرحب، والعمل فيها أيسر جهدًا وأكثر أجرًا، وظل فى محكمة طنطا الأهلية إلى يومه الأخير.

عندما تكون اللاسامية سلاحًا وعقابًا

كان قد آن الأوان ليظهر كتاب يتناول التعسف فى استغلال اللاسامية كسلاح سياسى. اليوم، وجد هذا الكتاب كاتبه: نورمان فنكلشتاين. لم يخف هذا الكاتب من التحديات الخطيرة التى تنتظره وبرهن، كما يبدو جليًا فى كتابه، أنه على مستوى التحدى. فالدقة والاحتراف فى أبحاثه وتحليلاته مبهرة.

يفرد السيد فنكلشتاين الجزء الأول من دراسته لموضوع استغلال اللاسامية من قبل اللوبى الأمريكى والأوروبى المؤيد لإسرائيل بهدف دعم سياسة الدولة الإسرائيلية. ففى كل مرة يظهر فيها خطر حقيقى من ارتفاع حدة ضغوط المجتمع الدولى على إسرائيل لتنسحب من الأراضى التى تحتلها وفق القانون الدولى، نشهد للمرة الألف، كما لو كان بالصدفة، إطلاق حملة ترتكز على اللاسامية: «وها هو هوس إعلامى منظم بدقة يظهر للمرة الألف مدعيًا أن العالم محاصر باللاسامية».

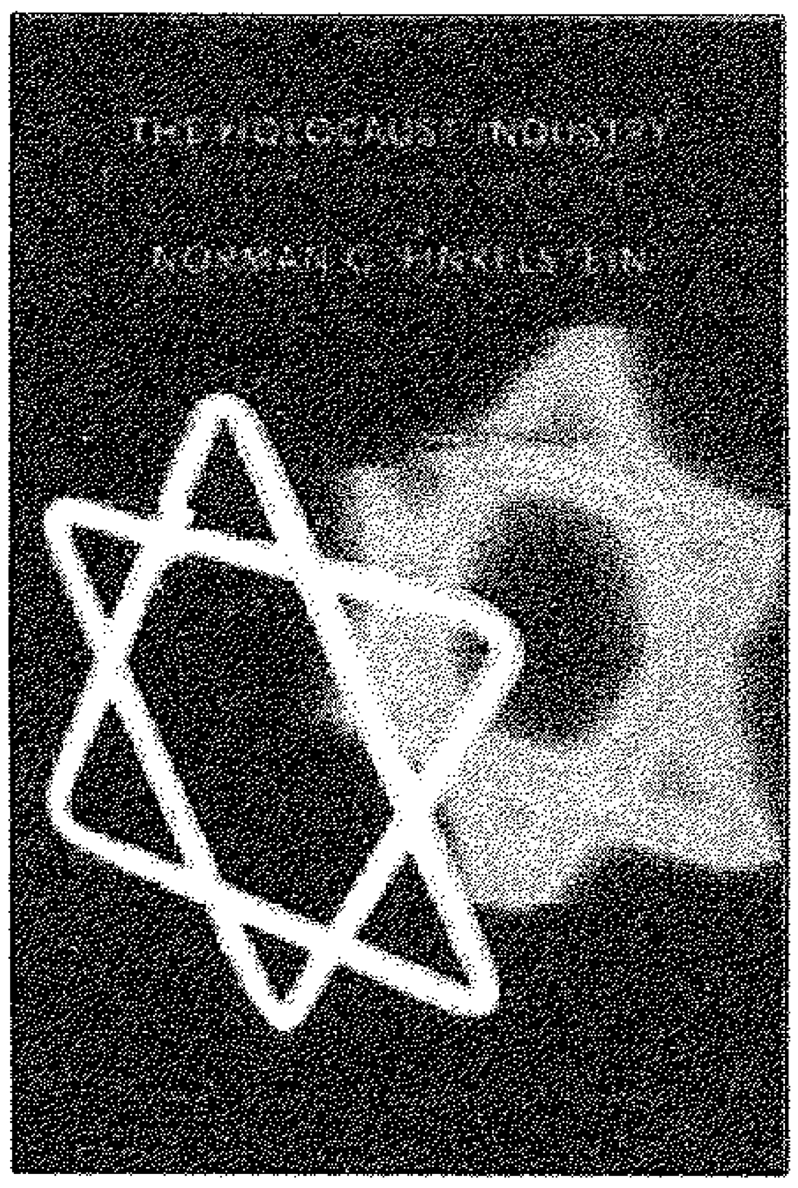
تحاول النخبة اليهودية الأمريكية من خلال هذه الادعاءات إقناع الجميع أن كل من يحتقرون إسرائيل هم فى الحقيقة لاساميون متخفون. وتبقى كل معلومة حول ما تعنيه الحياة تحت الاحتلال بالنسبة للفلسطينيين، وكل معلومة حول الاضطهاد الذى يخضعون له والمعاناة التى يعيشونها فى عداد التابوهات. إسرائيل، وإسرائيل وحدها، تملك حق الظهور بمظهر الضحية. وهكذا، تعكس الحقيقة بطريقة تؤمن لإسرائيل دوام التمتع بالإفلات من العقاب.

الهستيريا فيما يخص تلك «اللاسامية الجديدة» تؤدى ليس فقط لفرض الصمت على أى نقد مشروع لإسرائيل، بل أيضًا إلى تحويل نظر الجمهور العريض عن خرق القانون الدولى والحقوق الإنسانية الأساسية. هكذا يتحول مثلاً رفض المشاركة فى حرب عدائية ضد العراق إلى كره لليهود!

فى يوم السابع عشر من فبراير عام ٢٠٠٣، قال الكاتب «إيلى فيزل»، الناجى من معتقل أوشفيتس والحائز على جائزة نوبل للسلام لجورج بوش إن العراق دولة إرهابية وأن ذلك يستدعى واجبًا معنويًا للتدخل. فلو كان الغرب قد تدخل فى أوروبا عام ١٩٣٨، حسب تحليل فيزل، لكان من الممكن تجنب الحرب العالمية الثانية والمحرقة اليهودية.

«كانت لحظة بالغة الأهمية بالنسبة لى». صرح بوش بعد فترة: «لأنها كانت بمثابة تأكيد على ما كنت أفكر فيه».

وقد أدان رئيس المجمع اليهودى المركزى الألمانى «بول شبيجل» بشدة الموقف الألمانى المعارض للحرب على العراق مستندًا إلى حجج من نفس نوعية حجج فيزل. ولسوء حظه، جاء صدى حججه معاكسًا، حيث تظاهر الملايين ومن بينهم الكثير من اليهود، فى ألمانيا وفى العالم أجمع ضد الحرب.



إن معاينة نوعية الحلفاء الذين توجه هذا اللوبى لاستمالتهم من اليمين المتطرف فى ألوان الطيف السياسية تبدو مرعبة: سيلفيو برلسكونى وجيانفرانكو فينى من التحالف الوطنى الذى يمثل الفاشية الجديدة فى إيطاليا، جان-مارى لو بن من بين آخرين فى فرنسا. أما بالنسبة للأصوليين المسيحيين فى الولايات المتحدة، فقد لجأ اللوبى المذكور للحجة القائلة بأن عدم تسامح الأصوليين الذى طالما ضرب به المثل لم يعد بذات الخطورة التى كان عليها سابقًا وبأن ما يحسب لهم قبل كل شىء موقفهم المؤيد لإسرائيل...

يهمنى أن أشارك القارئ تجربتى الشخصية فى ألمانيا كيهودية إسرائيلية وكناجية من الهولوكوست. زوجى، ماسيو، اختبر فى حياته المرور بخمسة معسكرات اعتقال نازية، وهو الناجى الوحيد فى عائلته من الهولوكوست، وقد نجا بمعجزة. أنا ووالدتى عشنا فى الاتحاد السوفيتى بعد أن أعدم كل أفراد عائلتنا. نعيش أنا وزوجى فى ألمانيا منذ خمسة عشر عامًا وقد أصبح هذا البلد بالنسبة لنا اليوم وطنًا محبوبًا. لم نواجه طوال السنوات الماضية أى نوع من معاداة السامية. هذا يستحق الذكر، فزوجى قضى سنوات حياته يحاضر فى مدارس ألمانيا عن معاناته خلال الحقبة النازية ومن استمعوا لمحاضراته يعدون بالآلاف. إلا أننى لا أنكر تمامًا وجود اللاسامية وكره الأجانب فى ألمانيا.

ففى هذا الصدد، كانت تجربتنا الأولى عام ١٩٩٠: لاحظت يومها وجود «سفاستيكا»، (الصليب المعقوف) مرسومة بالأسود على حائط مركز تجارى فى «توبنجن».

و لم يستطع جمال المكان نفسه والمحيط الممتع لذلك المركز التجارى أن يطغى على تلك اللطخة السوداء ويمحوها. فقررنا أنا وزوجى أن نذهب ونمحو الرسم وعدنا للموقع مساء لنكتشف أن أحدًا ما قد سبقنا بعدة دقائق ومحاها. أحد استفزه ذلك الرمز النازى مثلما استفزنا.

كان هذا أول لقاء لى مع معارض مجهول فى ألمانيا. هؤلاء المعارضون المتحفظون هم حلفاؤنا فى ألمانيا فى حربنا ضد اللاسامية الحقيقية وكره الأجانب وأيضًا ضد نضالنا ضد الحرب وضد سياسة إسرائيل المدمرة تجاه الشعب الفلسطينى. تلك السياسة المدمرة التى يتطرق هذا الكتاب إليها.

نورمان فنكلشتاين يفضح استغلال اللاسامية من قبل بعض الناس كسلاح سياسى. ما يشغله هو استرداد الضحايا لكرامتهم وما يقوم به هو ما يفرضه إرثهم علينا للقيام به. أنا وزوجى ماسيو نتفق مع السيد فنكلشتاين على هذه الثوابت. وأصر هنا على تكرار ما كنت قد نشرته فى مطبوعات أخرى حول هذا الإرث: على مر السنين، تشربنا أنا وزوجى إرث من قتلوا، وهذا الإرث فى نظرنا يعنى ما يلى: عدم السكوت بتاتًا على أى جريمة أو ظلم بل النضال المستمر ضد كل وأى شكل من أشكال العنصرية واللاسامية، والدفاع عن كرامة وحقوق البشر، مهما كانوا. هذا هو واجب الألمان الأبدى، ولكنه ليس واجب الألمان وحدهم.

وفى إطار تكريم ذكرى هؤلاء الضحايا وروح إرثهم الأوحد - الذى ليس سوى الإنسانية - أنا أرفض منذ عقود الاضطهاد الذى يتعرض له الفلسطينيون على يد إسرائيل والظلم الذى ألحقته إسرائيل ولا تزال تلحقه بهم حتى اليوم.

يقول نورمان فنكلشتاين، وهو على حق فى ذلك، أنه على اليهودى الراغب فى محاربة اللاسامية الحقيقية أن يدين قبل أى شىء اللاسامية المزعومة اليوم لبطلانها: قولوا الحقيقة، وناضلوا من أجل العدالة: هذه هى الإستراتيجية الفعالة، التى تم اختبارها على مدى السنوات، فى محاربة اللاسامية كما فى محاربة كل أشكال التطرف الأخرى.

الانسحاب الإسرائيلى الكامل من الأراضى التى احتلت عام ١٩٦٧ سيحرم اللاساميين الأصليين الذين يستغلون التعنت الإسرائيلى كحجة لإدانة كل اليهود - ومن يشك فى وجود هذه الفئة من اللاساميين الأصليين- من سلاح فتاك وسيكشف للعالم حقيقة نواياهم.

ومن ناحية أخرى، كلما توصلت المعارضة اليهودية للاحتلال الإسرائيلى إلى إثبات وجودها، كلما قل عدد غير اليهود الذين يخلطون ما بين السياسات الإجرامية لإسرائيل والدعم غير المشروط (عمليًا، التشجيع الحقيقى) الذى تقدمه لهم الجمعيات اليهودية التوافقية وبين الرأى العام الذى يعتنقه اليهود فعليًا. ليس لدى ما أضيفه على هذا التصريح الواضح والصريح.

فى الجزء الثانى من الكتاب نتعرف على وضع حقوق الإنسان فى إسرائيل/ فلسطين. إن ملف إسرائيل، فيما يخص حقوق الإنسان، يبدو «بشكل عام، مثاليًا» كما يؤكد «آلان ديرشوفيتس»، المحاضر فى كلية الحقوق فى جامعة هارفرد، فى كتابه «الدفاع عن إسرائيل».

هدف هذا الكتاب، كما يقول الكاتب «هو المساهمة فى تنقية الأجواء، عبر

The Holocaust Industry
صناعة الهولوكوست
Norman G. Finkelstein
Verso

ترجمة: رنا حايك

نورمان فنكلشتاين كاتب أمريكى من أصول يهودية، أستاذ مساعد فى جامعة «دو بول»، كلية العلوم السياسية. معروف بكتاباته حول الصراع الفلسطينى- الإسرائيلى، وبنقده للطريقة التى تستغل بها بعض المجموعات اليهودية الهولوكوست.

صدر له خمسة كتب أهمها:

- الصورة والواقع فى الصراع الفلسطينى الإسرائيلى
- صناعة الهولوكوست: تأملات حول استغلال المعاناة اليهودية
- ما بعد الوقاحة: استغلال اللاسامية واستباحة التاريخ.

فيليسيا لانجر

إعطاء براهين مباشرة وحقيقية، دفاعًا عن الاتهامات الباطلة».

سجل كتاب ديرشوفيتس أعلى أرقام المبيعات فى الولايات المتحدة. وزعته الجمعيات اليهودية الأمريكية بكثرة فى الجامعات واشترى وزير الخارجية الإسرائيلى آلاف النسخ منه بغية توزيعها.

بصفتى كرست ثلاثًا وعشرين سنة(١٩٦٧-١٩٩٠) فى الدفاع عن الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة وبصفتى أول محامية قامت بذلك، لدى الكثير لأدلى به بخصوص الحقوق الإنسانية للفلسطينيين الذين يعيشون فى الأراضى المحتلة والانتهاكات الصارخة لهذه الحقوق من قبل إسرائيل.

أشكر نورمان فنكلشتاين لإدانته أكاذيب ديرشوفيتس فى كتابه ولتقديمه للقارئ معلومة أساسية مصدرها مختلف جمعيات حقوق الإنسان، الإسرائيلية والفلسطينية والدولية تفضح بالإجماع وبقوة - الشىء الذى اختار ديرشوفيتس تجاهله- انتهاكات الحقوق الإنسانية من قبل إسرائيل، تلك الانتهاكات التى تشكل معظمها جرائم حرب فعلية.

أنا أيضًا أفضحها، وأفضحها بصفتى شاهدة على عصر وبصفتى شاهد عيان. أفضح كل الحكومات الإسرائيلية، من أى طيف سياسى كانت.

إن الصفحات التى خصصت فى هذا الكتاب للجرائم التى ارتكبها الإسرائيليون خلال انتفاضة الأقصى- الجرائم التى ينفى ديرشوفيتس وجودها- منهكة نفسيًا. وتظهر كيف أن تحفظ الإعلام الألمانى فى عرض الجرائم الإسرائيلية، وتعتيمه على الحجم الحقيقى للقمع الإسرائيلى فى الأراضى المحتلة يجعلانه مضللاً.

أحد فصول الكتاب مكرس لما يسمى بـ «التصفيات» (وعلى سبيل الذكر، هذا مصطلح اخترعه النازيون) أى اغتيال الإسرائيليين «لمشتبه بهم» فلسطينيين. «تصفيات» يوافق عليها ديرشوفيتس. لكن أعلينا إعلان ذلك؟

سابقًا، خلال الانتفاضة الأولى(١٩٨٧-١٩٩٣) قامت كتائب الموت المبتذلة باستعمال حقها فى القتل بكثرة. وخلال الانتفاضة الثانية، هذه الاغتيالات كانت قد أصبحت السياسة الرسمية لإسرائيل. إلا أن الإعدام غير القضائى ليس عملاً إرهابيًا فحسب، بل إنه يعد أيضًا، بحسب اتفاقية جنيف الرابعة (عام ١٩٤٩)، جرمًا من جرائم الحرب الفعلية.

خلال محاضرة كنت قد ألقيتها فى ٢١ أغسطس ٢٠٠٢ فى فيينا، ذكرت اجتياح إسرائيل الإجرامى لأراضى ٦٧ التى يتكلم عنها نورمان فنكلشتاين أيضًا فى كتابه، والتى يسميها على سبيل التورية «ترس الحماية». تكلمت عن الإعدام وعن الجرائم التى ارتكبت فى جنين. لكننى أيضًا آثرت إمكانية إيجاد حل سلمى للصراع. وسرعان ما حشد المجتمع اليهودى فى فيينا أعضاءه لنشر الفوضى خلال المحاضرة، ولشتمى ونعتى باللاسامية وبالخائنة ولتنظيم مظاهرات صاخبة تنادى بـ: «النازيون إلى الخارج!» وعندما بدأت الأمور بالخروج عن السيطرة، قطعت المحاضرة. لم يطق الفرع النمساوى من اللوبى اليهودى سماع الحقيقة، فلجأ لسلاح اللاسامية المزعومة.

الفصل المخصص للتعذيب، وعنوانه «أبو غريب الإسرائيلى» أثار بشكل خاص اهتمامى. عندما رأيت الصور المأخوذة فى سجن أبو غريب فى العراق على شاشات التلفزة، تذكرت موكلى الفلسطينيين اللذين تعرضا للتعذيب، وأعلنت على الملأ: «إنها الأساليب الإسرائيلية لإذلال السجناء. الفرق الوحيد هو أنه فى السجون الإسرائيلية ليس هناك من صور وللأسف ينعم المعذبون هناك بالإفلات من العقاب».

فكرت فى سامى إسماعيل- ونورمان فنكلشتاين يثير قضيته- وفى ديرشوفيتس، الذى كان قد كذب منذ عام ١٩٧٨ لتبرئة إسرائيل من أساليبها العنيفة ومن تعذيبها. رأيت جروح موكلى بعينى. وأرسلت التماسًا للمحكمة العليا: ولم أتوصل لشىء. فى بعض الحالات، تسبب التعذيب لدى الضحايا باضطرابات نفسية حادة، بعض موكلى، مثل عوض حمدان، من الضفة الغربية، الذى توفى عام ١٩٨٧؛ ومحمود المصرى، الذى توفى فى قسم الأمن العام فى سجن غزة فى مارس ١٩٨٩؛ فقدوا حياتهم. أوصى بقراءة هذا الفصل عن كثب، لأن إسرائيل استأنفت التعذيب المعتاد مع معتقليها، وفى السجون الإسرائيلية، هذه الفظاعات المذكورة فى الكتاب تشكل الحقيقة المريعة.

يبحث نورمان فنكلشتاين أيضًا هدم المنازل كعقاب جماعى. خلال الانتفاضة الثانية، لجأت إسرائيل بكثرة لهذا الإجراء القاسى. تشرد آلاف الفلسطينيين، ومعظمهم كان يتشرد للمرة الثانية أو الثالثة فى حياته.

هذه السياسة تنتهك القانون الدولى وقد سبق وأدانها المجتمع الدولى. ومع ذلك، ديرشوفيتس يبررها. يوضح السيد فنكلشتاين فى كتابه، مستندًا إلى تقارير خاصة بحقوق الإنسان، أن فلسطينيين دفنوا أحياء تحت أنقاض منازلهم. ومهما حاولت، لن أستطيع نقل صورة كاملة عن محاولاتى المستمرة والمجهضة خلال كل تلك السنوات لدفع المحكمة العليا الإسرائيلية إلى إلغاء أو على الأقل إلى تعليق هذا النوع من العقاب الجماعى غير الشرعى من وجهة نظر القانون الدولى.

يصف السيد فنكلشتاين أيضًا هدم البيوت المبنية بشكل غير «قانونى» من قبل فلسطينيين. أعلن هنا أيضًا، أننى حاولت، على مدى سنوات، وفى معظم الأحيان دون جدوى، استخراج رخص بناء للفلسطينيين. فإسرائيل تعتمد سياسة حصار ونورمان فنكلشتاين توصل لنفس الاستنتاج الذى توصلت إليه: هدف هذه السياسة هو الحصول على أقصى مساحة من الأراضى الصالحة لبناء مستوطنات يهودية، ومنع القرى والمدن الفلسطينية من التوسع.

«تعد المحكمة العليا الإسرائيلية من أشهر المحاكم عالميًا، حيث إنها عاقبت عدة مرات الجيش والحكومة وفرضت عليهما التصرف وفقًا للقانون». ينفى ديرشوفيتس؛ مستندًا إلى تقارير عن حقوق الإنسان وإلى خبرات إسرائيلية، نورمان فنكلشتاين يبين الطابع المضلل لهذه المقولة العبثية.

وأنا أشارك السيد فنكلشتاين رأيه: فبدلاً من أن تبحث عن الحق، لطالما لجأت المحكمة العليا الإسرائيلية إلى شرعنة الظلم، وإكليل الورد الذى يجدله ديرشوفيتس لها يبدو فى غاية الوقاحة.

أشهد على ذلك بصفتى أول «محامية رائدة» تملك ثلاثة وعشرين عامًا من الخبرة فيما يخص الالتماسات الموجهة للمحكمة العليا، باسم الفلسطينيين وضد قوات الاحتلال. والكثير من زملائى الإسرائيليين يستطيعون أن يشهدوا مثلى على ذلك. فمهما كان الموضوع- هدم منازل، مستعمرات ومصادرة أراض، ترحيل، تعذيب، رفض تجمع عائلى، حجز إدارى- كانت المحكمة تلجأ لرفض التماساتى بروتينية منهكة، خارقة فى معظم الأحيان بنودًا تخلو من أى غموض فى القانون الدولى.

وقد اتخذت قرارى بإغلاق مكتبى للمحاماة فى القدس بعد نشاط دام ثلاثة وعشرين عامًا احتجاجا منى على كل هذه السنوات من جمود المحكمة فى اتخاذ أى قرار من شأنه إدانة ظلم وشراسة النظام العسكرى فى الأراضى المحتلة. وأود التأكيد على أن هذا لا يعنى أبدًا أننى اعترفت بهزيمتى، بل بالعكس تمامًا: فأنا مستمرة فى اقتناص أية فرصة تتيح لى كشف الحقيقة.

نورمان فنكلشتاين يسعى جاهدًا على المستويين التاريخى والسياسى لكشف التشابك البيانى المصطنع المحاك حول الصراع الإسرائيلى- الفلسطينى ويبرهن أن هذا الصراع ممكن أن يحل وفقًا للقانون الدولى. فهو يصف «الحل فى الدولتين». لقد سبق وأعلن الفلسطينيون منذ زمن بعيد أنهم قد يقبلون بالاكتفاء بالحصول على عشرين بالمائة من فلسطين التاريخية، لكن يظل السؤال مطروحًا حول الأسلوب الذى سيعتمد لحل مشكلة اللاجئين وفقًا للقانون الدولى؟ إسرائيل، من جهتها، تستمر فى الاستيطان وفى احتلال الأراضى بشكل غير قانونى، وتبنى حائط الفصل العنصرى الذى يوغل فى أعماق الضفة الغربية وترفض الاعتراف بأية مسئولية فى خلق المأساة التى يعيشها اللاجئون الفلسطينيون.

السيد فنكلشتاين يجسد صوتًا له وقعه، صوت يملك الضمير والإنسانية، صوت يهودى مغاير، يمثل البركة للفلسطينيين ولليهود على حد سواء.

بالنسبة لى، شكل يوم ١٠ مايو ١٩٧٦ يومًا تاريخيًا. ألقيت يومها محاضرة فى المركز العلمى فى جامعة هارفرد، كامبريدج، فى الولاية الأمريكية ماساتشوستس. وبسبب تهديدات غاية فى الخطورة، خضعت المحاضرة وشخصى المتواضع لحراسة بوليسية. المقاطعات والصراخ والتنديدات كانت لا تحتمل.

فـ «الراوديز»، هؤلاء الطلبة الصهاينة «الصاخبون» (هكذا يسمون أنفسهم)، كانوا يصرخون: «لن ندعها تتكلم هنا!» بعد المحاضرة، جاءت امرأة تكلمنى وأهدتنى بورتريه عنى رسمته بيدها. كان عنوان البورتريه: «تبارك صناع السلام».

بالنسبة لى، كان هذا دليلاً على أن «الراوديز» لم ينجحوا.

اسمحوا لى أن أقول لكاتب هذا الكتاب: «تبارك صناع السلام». ■

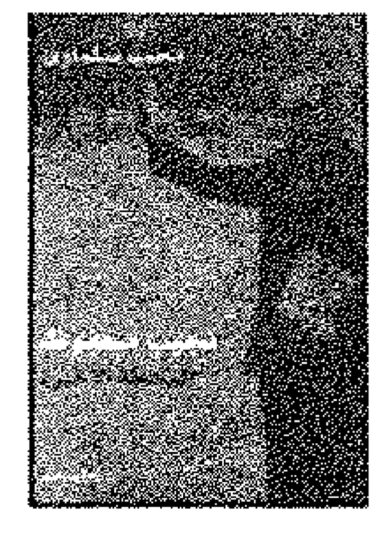
فنكلشتاين يجسد صوتًا له وقعه، صوت يملك الضمير والإنسانية، صوت يهودى مغاير، يمثل البركة للفلسطينيين ولليهود على حد سواء

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

نجيب محفوظ.. المحطة الأخيرة

محمد سلماوى

القاهرة: دار الشروق. ٢٠٠٦. ١١١صفحة



لا يقدم هذا الكتاب تأريخًا للفترة التى أمضاها نجيب محفوظ داخل المستشفى حتى رحيله (من الأحد ١٦ يوليو حتى الخميس ٣١ أغسطس ٢٠٠٦) فحسب، وإنما يقدم من خلال هذه المحطة الأخيرة للأديب الكبير صورة صادقة لعلاقة ممتدة مع المؤلف بدأت قبل ثلاثين عامًا وتوطدت فى الاثنى عشر عامًا الأخيرة، حين وقعت محاولة اغتيال محفوظ فى ١٤ أكتوبر ١٩٩٤، والتى تركت أثرًا فى يده أعاقه عن الكتابة بنفسه، وهو ما استدعى ـ حسب طلبه ـ أن يتحول مقاله الأسبوعى بالأهرام، إلى جلسة حوارية يجريها المؤلف معه ويلخصها فى مقال.

والكتاب الذى يبدأ منذ إصابة محفوظ فى رأسه إثر سقوطه بمنزله وتعرضه لنزيف استدعى نقله إلى المستشفى، يكشف كيف أن الأمور تدهورت بسرعة غير متوقعة، إثر سقوطه مرة ثانية من فوق سرير المستشفى، وهى السقطة التى عجلت بالنهاية على النحو الذى كان مفاجئًا حتى بالنسبة لفريق الأطباء المعالجين، وبين ما يكشفه المؤلف عبر تسجيله ليوميات محفوظ بالمستشفى، هذا التقدير الكبير الذى حظى به محفوظ على المستوى الرسمى والشعبى والدولى، ينقل لنا المؤلف ما قاله له الكاتب الفرنسى الكبير روبير سوليه.. «أنت الحكاء الأكبر فى العالم، ولقد أثرت ليس فقط فى القراء، وإنما أيضًا على الكتاب»، وإصرار الكاتب البرازيلى السفير باولو كويلهو على تقبيل يده حين التقاه، واشتراط «نادين جورديمير» الكاتبة الجنوب أفريقية الحائزة على جائزة نوبل لقبولها زيارة مصر أن تلتقى محفوظ، والتقدير الكبير الذى حظيت به أحلام فترة النقاهة وهى آخر ما كتب محفوظ فى الغرب، حتى أن مدير النشر فى دار لوروشيه قال إنه لم يقرأ مثيلاً لهذا اللون الأدبى من قبل، ويحكى المؤلف قصة الأحلام، كيف كان يحفظها محفوظ ويمليها على الحاج صبرى الذى اعتاد أن يقرأ له الصحف، وكيف كان الحلم الأخير الذى نشر بمجلة «نصف الدنيا» بمثابة نبوءة بالرحيل.

واحـة الغـروب

بهاء طاهر

القاهرة: دار الهلال. ٢٠٠٦. ٢٩٠صفحة



يعود بهاء طاهر فى «واحة الغروب» إلى نهايات القرن التاسع عشر، وهى السنوات التى شهدت الاحتلال الإنجليزى لمصر بعد مواجهات عنيفة مع جيش عرابى، وقد ظل النظر إلى عرابى وصحبه متأرجحًا بين كونهم «عصاة» تمردوا على مولانا الخديو وقادوا البلد إلى نكبة الاحتلال (وهى رؤية المستر هارفى الإنجليزى والضابط الشركسى وصفى) أو باعتبارهم وطنيين دافعوا عن بلدهم ضد المستعمر الأجنبى، وهى رؤية محمود عبدالظاهر بطل الرواية، وهو ضابط من البوليس المصرى، وقد استقى المؤلف سماته من شخصية حقيقية تدعى محمود عزمى كان مأمورًا لواحة سيوة فى تلك الفترة، وأما محمود عبدالظاهر فيحمل بداخله تناقضات عديدة، إذ لم يكن فى بداية حياته معنيًا بالتظاهرات ولا بمواجهة المحتل، كان يعيش حياة لاهية يتردد على الحانات ويصادق الجوارى وبنات الليل، إلا أنه استمع مرة إلى الشيخ جمال الدين الأفغانى يخطب فى الناس فى مقهى متأثيا، ويبصرهم بوحشية الاحتلال وبضرورة المقاومة لطرد المستعمر الذى يستغل خيرات البلاد ويستنزفها، فتنقلب حياته رأسًا على عقب، لكنه يبقى دائمًا عاجزًا عن اتخاذ موقف واضح وصريح فى مواجهة المحتل وأعوانه من رجال السلطة المحلية الذين ينظرون إليه باعتباره متواطئًا مع «العصاة»، فيقرروا إرساله إلى واحة سيوة وهم يدركون أنها مهمة قد لا يعود منها أبدًا، يسافر محمود إلى سيوة بصحبة زوجته الأيرلندية «كاثرين» الشغوفة بالآثار والتى تبحث بدأب عن مقبرة الإسكندر، وتتواصل أحداث الرواية بين صراعات ناس الواحة من جهة، والمأمور بوصفه ممثل السلطة من جهة ثانية، أو بين أهل الواحة أنفسهم المقسمين بين شرقيين وغربيين، وتقاليدهم البدائية التى تنهى حياة «مليكة» زينة فتيات الواحة بعد أن أجبروها على الزواج من شيخ فى سن جدها.

تعتمد الرواية على أصوات متعددة لعدد من الرواة يتناولون الحدث ذاته بأكثر من رؤية، كما أن ظل الإسكندر بما ينطوى عليه من جموح وطموح وبأس وغرور وقسوة ورغبة فى تشييد المجد، يبقى حاضرًا ومتماسًا مع عديد من شخوص الرواية وخصوصًا محمود وكاثرين.

رواية بديعة تدور فى عالم شديد الثراء والخصوصية، وفى زمن اختلطت فيه معانى الغدر والخيانة بآيات الحب والبطولة.

السوبر أصولية

حسن عجمى

بيروت: الدار العربية للعلوم. ٢٠٠٦. ٢٠٠ صفحة



الفكرة الأساسية التى يسعى المؤلف إلى تأكيدها هى أن فلسفة اللغة هى العامل الأساسى فى تحديد الآراء فى علم الكلام وفى التفسير الدينى والفلسفى، وهو قول لا يصدق على الإسلام فحسب، وإنما على كافة الأديان، وهو ما يعنى أن المذاهب المختلفة فى اللاهوت والتفسير الدينى تعتمد أساسًا على فلسفة اللغة، وهو ما يعنى أيضًا أن المذاهب تعبر عن فلسفة اللغة لا عن الدين الإسلامى نفسه.

والنتيجة المباشرة لهذه الفرضية هى أنه لا يوجد مذهب إسلامى أو فكرى يمكن القول إنه هو المذهب الصحيح فى الإسلام، فكل المذاهب مقبولة ومتساوية.

أما السوبر أصولية التى يدعو إليها المؤلف، فإنها تعتبر أن الأصول المعرفية والدينية قائمة فى المستقبل فقط، وبذلك فإن السوبر أصولية هى الأساس فى بناء السوبر مستقبلية والسوبر حداثة.

ومن أهم فضائل السوبر أصولية حسبما يشير المؤلف، هو أنها تنجح فى تفسير، لماذا البحث المعرفى هو عملية تصحيح مستمرة.

يسعى المؤلف إلى إثبات فكرته تلك عبر فصول الكتاب الأربعة، والتى تتضمن دراسة وتحليلا لآراء عدد من الفلاسفة والعلماء والمتكلمين الإسلاميين منهم الزمخشرى والسيوطى والإسنوى والسيرافى والفارابى وابن سينا والغزالى والمعرى وابن رشد وابن عربى وابن خلدون والشيرازى، وغيرهم.

ثلاث رسائل فى نظرية الجنس

سيجمند فرويد

ترجمة: محمد عثمان نجاتى

القاهرة: دار الشروق. ٢٠٠٦. ٢٠٩صفحات



الرسائل الثلاث التى يشير إليها العنوان هى «الانحرافات الجنسية» و«الجنس عند الأطفال» و«تحولات البلوغ»، ومنذ البداية يشير المترجم وهو أستاذ أكاديمى متخصص فى علم النفس إلى الاعتراضات والانتقادات الكثيرة التى واجهتها نظرية فرويد وآراؤه فى الجنس عمومًا، وبالأخص آراؤه فى الجنس عند الأطفال وتوسيعه لمفهوم الجنس، إذ لم يعد مقصورًا على المعنى الشائع وهو النشاط الجنسى الذى يحدث أثناء المراهقة وبعدها، بل إنه أدخل تحت مفهوم الجنس كثيرًا من أنواع السلوك الطفلى.

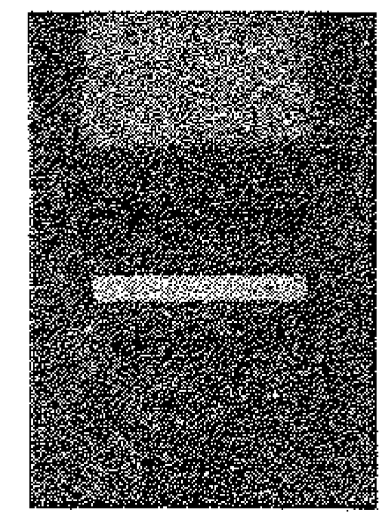
وتعالج الرسالة الأولى من الكتاب موضوع الانحرافات الجنسية، وتحاول تفسيرها وشرح العوامل المختلفة التى تساعد على حدوثها، إذ تبين لفرويد أن للعوامل التى تؤثر فى السلوك الجنسى أثناء مرحلة الطفولة أهمية فى تكوين هذه الانحرافات، وفى الرسالة الثانية يدرس السلوك الجنسى عند الأطفال والعوامل التى تؤثر فيه، وفى الرسالة الثالثة يتابع تحولات البلوغ.

وقد حاول فرويد من خلال هذه الدراسات الثلاث أن يبين اتجاه النمو السوى، والعوامل المؤثرة فيه، وأن يشرح العوامل المختلفة التى تؤثر فى هذا النمو والتى يمكن أن تعطله وتقود إلى الانحرافات الجنسية، ويشير المترجم إلى ما انتهى إليه فرويد من عدم وجود علاقة وثيقة بين الغريزة الجنسية وموضوعها، كما أن الغريزة الجنسية مركبة من عدة غرائز جزئية متحدة فى الوظيفة التناسلية السوية، وأن الانحرافات هى كبت للنمو الجنسى السوى من جهة، ولتفكك الغريزة الجنسية إلى أجزائها من جهة ثانية، كما أنها ـ الغريزة الجنسية ـ مرتبطة بمناطق شبقية معينة، وهى المناطق التى تسهم فى إحداث اللذة التمهيدية الضرورية لحدوث اللذة النهائية الناتجة عن العملية الجنسية.

الدولة والمجتمع المدنى فى ليبيا

محمد زاهى المغيربى

ليبيا: عراجين، ٢٠٠٦، ١٨٣ صفحة



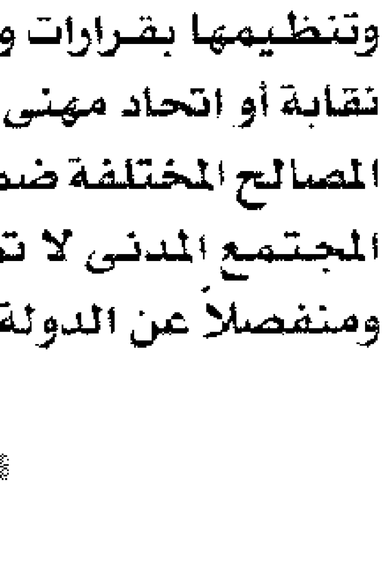
يتضمن الكتاب عدداً من الدراسات التى تحلل الواقع السياسى والاجتماعى فى ليبيا وتبدأ بدراسة عن التأثيرات المختلفة للتغيرات العلمية والتقنية كما برزت فى أدبيات التحديث والتنمية السياسية، حيث تحلل مدى انطباق ذلك على التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية خلال العهد الملكى فى ليبيا (١٩٥١ - ١٩٦٩)، وخصوصاً التحديث على مستوى المشاركة السياسية والدرجة التى تطورت بها المؤسسات السياسية، وانعكاس ذلك على شرعية واستقرار النظام الملكى فى ليبيا، وما سببته من تغيرات فى البنى الاجتماعية خلال الخمسينيات والستينيات، ودورها فى أزمة الشرعية وعدم الاستقرار التى ميزت النظام الملكى الليبى بالذات فى أواخر الستينيات.

أما الدراسة التى يشير إليها عنوان الكتاب والتى تختص بالمجتمع المدنى، فينتهى المؤلف منها بعدة استخلاصات، أن الأحزاب السياسية محظورة منذ السنوات الأولى لثورة الفاتح من سبتمبر، وقد اعتبر القانون تكوين الأحزاب السياسية جريمة ضد الثورة وضد الشعب عقوبتها الإعدام، إن النقابات والاتحادات والروابط المهنية فى ليبيا غير تنافسية، وأنها يتم حلها وخلقها وتنظيمها بقرارات ولوائح رسمية، وأن كل نقابة أو اتحاد مهنى يحتكر عملية تمثيل المصالح المختلفة ضمن فئته، وأن منظمات المجتمع المدنى لا تمثل مجالاً مستقلاً ومنفصلاً عن الدولة.

حامد ندا.. رائد السريالية الشعبية

إيناس حسنى

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦، ١٨٦ صفحة



عرف الفنان الكبير حامد ندا (١٩٢٤ - ١٩٩٠) بوصفه فنان السريالية الشعبية، وربما كانت نشأته فى بيئة دينية، حيث كان أبوه مشرفاً على أحد المساجد بحى السيدة زينب، وكذلك مولده بحى القلعة أعرق أحياء القاهرة، وقضائه سنوات الصبا والشباب بقصر جده بحى البغالة، واستماعه إلى حواديت العجائز اللائى كن يتوافدن إلى المنزل ليحكين لأمه حكايات حمام السعد والديك والخمس فرخات، وغيرها مما أثرى خياله، كان لذلك كله أثر كبير فى تكوينه الأولى وتشكيل خياله الذى استلهم هذه الحكايات فى لوحات ذات طبيعة سريالية مميزة فيما بعد، طبعت أسلوبه الفنى حتى النهاية بين رفقائه من جماعة الفن المعاصر، التى ضمت أيضاً حسين يوسف أمين وعبدالهادى الجزار، ويلاحظ النقاد أن أم الموتيفات التى استخدمها ندا كانت هى أفراد الفرقة الشعبية: الطبال، الزمار، النحاسيات، البيانولا، قلة السبوع، الزير، المقاهى الشعبية الخشبية، المجاذيب، وغيرها. وهو لم ينقل عالم الاحتفالات الشعبية بما ينطوى عليه من هذه الموتيفات نقلاً حرفياً: لكنه صنع منه نسيجاً خاصاً كيفما قادته حريته فى التعبير، وبدت لوحاته فى النهاية مثل جدار قديم رسمت عليه الموتيفات متناثرة ومتآكلة بفعل الزمن. تتابع المؤلفة مسيرة حياة ندا الأكاديمية والعملية، وسفره إلى إسبانيا فى عام ١٩٦٠ لدرسة التصوير الجدارى والتصميمات، وتأثره بفنون البدائيين، واقترابه من خصائص الفن الفرعونى بعد سنة أمضاها فى الأقصر زار خلالها المعابد وعاش بين ملوك الفراعنة وجدارياتهم فى المعابد، ثم التأثيرات الأدبية التى ساهمت فى تشكيل وعيه الثقافى، خصوصاً عبر الجمعية الأدبية المصرية التى ضمت طه حسين وسهير القلماوى وعزالدين إسماعيل وصلاح عبدالصبور.

فى حضرة الغياب

محمود درويش

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٦



جديد محمود درويش أنه ليس ديوان شعر، وقراء الشاعر الكثر على امتداد الوطن العربى الذين طالما اختلفوا وسألوا: شعراً نقرأ أم نثراً، ربما يجدون الجواب فى هذا الكتاب وربما يزدادون حيرة معه:

النثر جار الشعر ونزهة الشاعر/

الشاعر هو الحائر بين النثر والشعر/

هذا فى الشكل، أما المضمون فلا يحد فى كلمات: غياب وحضور ورحيل ومنفى وموج وأغنية.. وشعر ونثر.. إلخ.

ومن الكتاب نقتطف:

هناك، عرفت من آثار النكبة المدمرة ما سيدفعك إلى كراهية النصف الثانى من الطفولة. فإن كنزة صوف واحدة، منتهية الصلاحية، لا تكفى لعقد صداقة مع الشتاء. ستبحث عن الدفء فى الرواية، وستهرب مما أنت فيه إلى عالم متخيل مكتوب بحبر على ورق. أما الأغانى، فلن تسمعها إلا من راديو الجيران. وأما الأحلام فلن تجد متسعاً لها فى بيت طينى، مبنى على عجل كقن دجاج، يحشر فيه سبعة حالمين، لا أحد منهم ينادى الآخر باسمه منذ صار الاسم رقماً. الكلام إشارات يابسة تتبادلونها فى الضرورات القصوى، كأن يغمى عليك من سوء التغذية، فتداوى بزيت السمك.. هبة العالم المتمدن لمن أخرجوا من ديارهم. تشربه مكرهاً كما تُكره الألم على إخفاء صوته فى ادعاء الرضا.

تاريخ الجامعات المصرية

عبدالمنعم الجميعى

القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٦، ٣٢١صفحة



كان أول من اقترح إنشاء جامعة فى مصر هو جورجى زيدان، الذى ولد فى بيروت عام ١٨٦١ واستقر فى مصر ١٨٩٢، حيث أصدر مجلة الهلال، وتوفى فى يوليو ١٩١٤. إذ كتب فى مجلته مقترحاً إنشاء كلية لتثقيف الشبان المصريين بدلاً من إرسالهم للتعليم فى أوروبا، وبين الحاجة إلى تعليم الشعب المصرى معنى الحرية والاستقلال، كما طالب بتشكيل لجنة لجمع الأموال لهذا الغرض، غير أن الدعوة إلى إنشاء جامعة مصرية لم يكتب لها الذيوع إلا حين تلقفها الزعيم المصرى مصطفى كامل وبدأ يدعو لها على صفحات جريدة اللواء بدءاً من أكتوبر ١٩٠٤، وسعى إلى استنهاض همم الأمراء والأغنياء للاكتتاب لهذا الغرض، غير أن المشروع توقف بسبب معارضة الخديو له. إلا أن الدعوة لإنشاء الجامعة تجددت بعد ذلك وصارت مطلباً قومياً، وتبناها عدد من المصلحين الكبار وعلى رأسهم الإمام محمد عبده وآزرها تلاميذه وعلى رأسهم سعد زغلول، حيث قرروا تشكيل لجنة لجمع التبرعات بدأت أعمالها فى أكتوبر ١٩٠٦، وكانت هذه هى البداية التى تولدت عنها الجامعة المصرية.

المؤرخ الدكتور عبدالمنعم الجميعى يتابع إنشاء الجامعات المصرية من خلال عدد كبير من الوثائق أهمها وثائق الجامعة المصرية القديمة ثم الجامعة المصرية الحكومية ثم جامعة فؤاد الأول، فوثائق جامعة القاهرة وجامعات الإسكندرية وأسيوط وعين شمس والجامعات الإقليمية.

زكريا الحجاوى.. موال الشجن فى عشق الوطن

يوسف الشريف

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ١٨٥صفحة



رحل زكريا الحجاوى عن دنيانا فى ١٩٧٥، وهو وإن كان أديباً وناقداً وواحداً من ظرفاء وكتاب عصره المرموقين، إلا أن جهده الرئيسى الذى تميز به عن رفقائه، كان سعيه إلى جمع المأثور الشعبى من حكايات وقصص وأساطير ومواويل من جميع أنحاء مصر، فجاب قراها ونجوعها ومدنها من أقصاها إلى أقصاها، كى يجمع هذا المأثور، واعتبر أن هذه هى رسالته الكبرى: حفظ الذاكرة الشعبية.

كان الحجاوى مثقفاً موسوعياً على دراسة واسعة بجماليات اللغة العربية، وقد لفت النظر إليه حين قدم أوبريت «يا ليل يا عين» بأصوات جديدة قوية باهرة وبأزياء شعبية تميز المناطق التى استقى منها مادة الأوبريت، ويشير المؤلف إلى تأثير النشأة على مسار الحجاوى، فقد ولد فى «المطرية» ببحيرة المنزلة التى اشتهر أهلها بالصيد والغناوى المصاحبة لهذه المهنة ذات المواصفات الخاصة، ثم تأثير فنان الشعب سيد درويش على عشق الحجاوى للموسيقى والفنون عموماً، وانجذابه بشكل خاص إلى الموسيقى ذات الينابيع الشعبية، وكذلك التأثير الكبير للمداحين بما يشيعونه من جو صوفى وما يطرحونه على أسماع جمهور مستمعيهم من تواشيح وأدعية، وسرد منغم لسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، ومعاشرته لهم ومعرفته الدقيقة بتفاصيل حياتهم، ثم كان تلقيه لدروس العلم الأولى فى مدينة بورسعيد بما تحمله من سمات فريدة، ثم التحاقه أثناء الدراسة بمدرسة إيطالية حرة لتعليم الموسيقى، وفيها تعلم العزف على البيانو وكتابة النوتة الموسيقية، وانتقاله بعد ذلك إلى القاهرة، حيث درس فى مدرسة الفنون والصناعات الملكية، وفى العاصمة تفتح وعيه على ثقافات وشواغل سياسية وفنية شتى، وبدا تردده على المسارح وصالات المنوعات ليضيف روافد جديدة إلى ثقافته الفنية والموسيقية.

الكتاب إلى ما يضمه من سيرة زكريا

الحجاوى، يتضمن عشرات المواقف والرؤى والحكايات التى تشير إلى شخوص آخرين من علامات ذلك الزمان، ممن كان لهم تأثير كبير على مسيرة الثقافة المصرية والعربية. ومازالت آثارهم باقية إلى اليوم، فضلاً عن عشرات المواقف الفكاهية التى امتاز بها ظرفاء ذلك الزمان.

اليابان فى المستنقع العراقى

محمد إبراهيم الدسوقى

القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠٦، ١٦١صفحة



اختارت اليابان منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فى ١٩٤٥ أن تعيش فى سلام، وارتضت نزع أنيابها العسكرية، وأدرك قادتها العسكريون أن القوة العسكرية لبلدهم يمكن أن تتحقق بتقوية الاقتصاد وبتحقيق طفرات متلاحقة فى التقدم التكنولوجى والعلمى وليس بما يمتلكه من أسلحة دمار شامل، خصوصاً أنها كانت الدولة الوحيدة التى جربت القنبلة النووية حيث ألقيت عليها قنبلتان دمرتا مدينتى هيروشيما ونجازاكى فى نهاية الحرب العالمية الثانية لإجبارها على التسليم.

وقد فوجئت الشعوب العربية قبل السلطات، بانضمام اليابان إلى قوات التحالف الغربية التى غزت العراق لخلع صدام حسين.

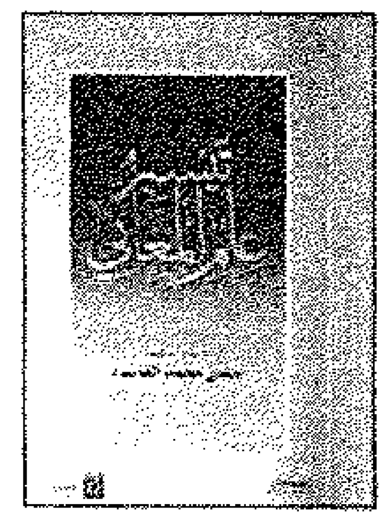
يبدأ المؤلف فى كشف التغيرات والتحولات الجوهرية فى السياسة الخارجية اليابانية على مدى الخمسة عشر عاماً الماضية، وكيف كانت حاسمة فى تجاوزها لعهود طويلة من التردد الذى ميز أداءها وأبقاها دائماً ممسكة بالعصا من المنتصف، والدور الذى لعبته هجمات الحادى عشر من سبتمبر فى التسريع بهذه التحولات، ثم كيف أفصحت عن نفسها كقوة عسكرية عملاقة فى عالمنا المعاصر، ثم يعرض فى الفصل الثانى للعلاقات بين اليابان ودول الشرق الأوسط، ثم تنامى علاقاتها بإسرائيل اقتصادياً وسياسياً، خصوصاً بعد توقيع اتفاقات سلام بين إسرائيل وبعض الدول العربية.

وفى الفصل الثالث يبحث المؤلف فى جذور العلاقة بين اليابان والعراق، ويكشف كيف كان البترول عاملاً حاسماً فى القرار اليابانى بالمشاركة فى قوة التحالف التى غزت العراق، ليحرسوا نصيب طوكيو من كعكة البترول العراقية.

تيسير علم المعانى

حلمى محمد القاعود

الرياض: دار النشر الدولى، ٢٠٠٦، ٢٨٦صفحة



دراسة تقترب من الغايات البلاغية بوصفها جوهر علم المعانى، يقدم من خلالها المؤلف أمثلة عديدة من الدراسات القديمة والحديثة، وهو يبدأ بالحديث عن الفصاحة والبلاغة، والأولى تطلق على معان كثيرة أبرزها البيان والظهور، يقول العرب: أفصح الصبح إذا أضاء وبان النور، وأفصح الغلام فى منطقه إذا بان وظهر كلامه، وأما الفصاحة فى المصطلح فتعنى الكلام الذى تتوفر فيه شروط الفصاحة ويخلو من العيوب التى أشار إليها علماء البلاغة الذين يعرفون علم البلاغة بأنه مطابقة الكلام لمقتضى الحال، إلا أن علم المعانى يختص بما يميزه عن علمى البيان والبديع.

وفى هذا الإطار يقدم المؤلف تعريفات لعلم البلاغة لعديد من النقاد وعلماء اللغة القدماء، أبرزها تعريفان للخطيب القزوينى الذى يرى أن علم المعانى هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال.

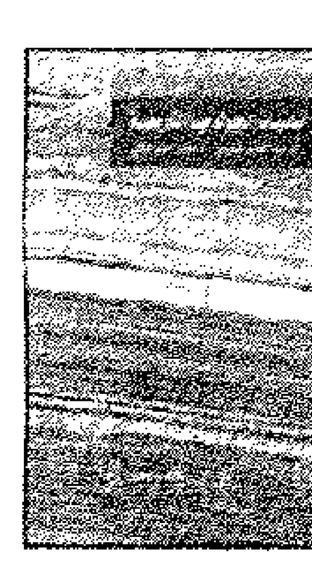
وتعريف السكاكى الذى يرى أن علم المعانى هو: تتبع خواص تراكيب الكلام فى الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليتحرز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما تقتضى الحال ذكره.

على هذا المنوال يدرس المؤلف وهو أكاديمى متخصص - علم المعانى، ويقدم أحد عشر فصلاً فى التعريف والتنكير والتقديم والتأخير والقصر والتخصيص والإنشاء والفصل والوصل والمساواة والإيجاز والإطناب وغيرها.

أساسيات الجيولوجيا التاريخية

عبدالجليل هويدى - محمد أحمد هيكل

القاهرة: مكتبة الدار العربية، نهضة مصر، ٢٠٠٦، ٥٨٠ صفحة



يدرس الكتاب قصة كوكب الأرض منذ أن خلقها الله قبل ٤٦٠٠ مليون سنة حتى الآن، ويشتمل على التغيرات التى تحدث فى القشرة الأرضية وعلى سطحها الخارجى وفى غلافها الجوى، وكذلك الحياة التى عاشت عليها.

ويرى المؤلفان أنه إذا كان التسجيل البشرى هو السبيل لمعرفة تاريخ الإنسانية خلال الحقبة التاريخية تعنى بحقبة ما قبل التاريخ، والتى تشمل بقية تاريخ الأرض. وتعتمد تلك الحقبة الطويلة فى قراءتها ليس على المدونات المكتوبة، وإنما على ما سجل على وجه صخور وطبقات القشرة الأرضية من أحداث متتالية. ويتوجب على دارس تاريخ الأرض أن يضع الترتيب الزمنى للأحداث الجيولوجية المختلفة، قبل أن يفكر فى الأسباب الحقيقية لتلك الأحداث.

ويتكون الكتاب من سبعة عشر فصلاً، تتناول ديناميكية عمل الأرض وتصنيف الكائنات الحية، وتطور الحياة على الأرض، وعمر الصخور والزمن المطلق وطرق قياسه، وأصل الأرض والحياة، وتاريخ الثدييات حتى ظهور الإنسان.

الأمن القومى الفلسطينى

حسين آغا - أحمد سامح الخالدى

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٦، ١٢٩ صفحة



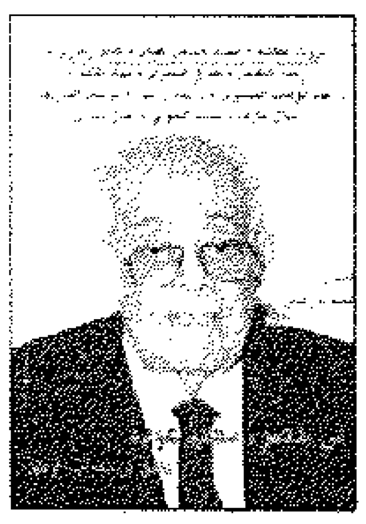
يواجه الفلسطينيون مع مطلع كل شمس اختباراً جديداً للحياة ومعناها، فهم لم يتمكنوا من تأسيس دولة مستقلة، كما أنهم ليسوا حركة تحرر وطنى بالمعنى الحقيقى للكلمة. ومن هنا تبرز أهمية بلورة هيكل عام للأمن القومى الفلسطينى كأداة لترتيب الأولويات الاستراتيجية والسياسية الفلسطينية، ومعبراً فى الوقت نفسه عن حاجات الفلسطينيين إلى الأمن ومساعدتهم إلى بلوغ أهدافهم. وعقيدة الأمن الفلسطينى على هذا النحو ينبغى أن تكون مرتبطة بالواقع الذى يواجهه الفلسطينيون حاضراً ومستقبلاً، ولا يخفى الباحثان وجود بعض المشاكل المنهجية التى تؤثر فى مسار بحثهم عن الأمن القومى الفلسطينى، ومنها غياب صفة الدولة والذى يمكنها من وضع أولويات لأمنها القومى وفقاً لرؤى واضحة محددة.

يتضمن الكتاب أربعة فصول وعدداً من الملاحق والوثائق والخرائط.

فى حضرة محمد عودة

محمد بدرالدين (المحرر)

القاهرة: منتدى محمد عودة، ٢٠٠٧، ٣٢٥صفحة



يمثل محمد عودة واحداً من جيل الآباء فى الصحافة المصرية، خصوصاً فى النصف الثانى من القرن العشرين، وهو نموذج للمهنة الرفيعة والارتباط الشديد بالآمال الوطنية للمصريين.

كان عودة الذى رحل عن عمر يناهز التسعين محباً مؤمناً بحق أمته فى حياة كريمة، كان مفتوناً بثورة يوليو ١٩٥٢، مدركاً مع ذلك لأخطائها وعثراتها، لكنه بمحبة صادقة سعى إلى التقويم.

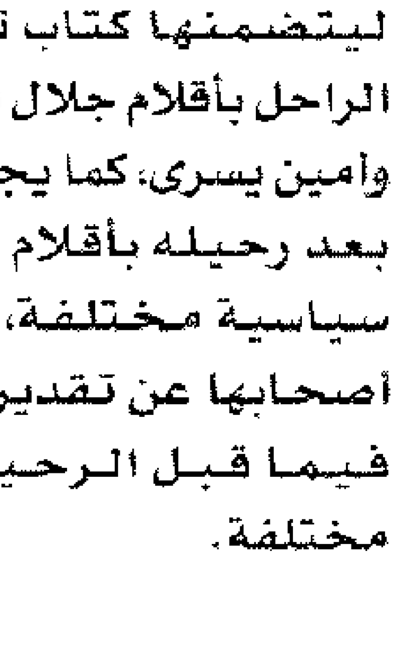
وحين اشتد الهجوم من قبل البعض على الثورة وتوجهاتها، كان عودة هو أول المدافعين عن هذه المبادئ والتوجهات، وهكذا رد على كتاب توفيق الحكيم «عودة الوعى» بكتابه «الوعى المفقود»، كما كتب «ميلاد ثورة»، وهذا الافتراء على الناصرية».

الكاتب يضم شهادات كُتبت خصيصاً ليتضمنها كتاب تذكارى عن الكاتب الراحل بأقلام جلال أمين وطارق البشرى وأمين يسرى، كما يجمع ما كُتب عن عودة بعد رحيله بأقلام كتاب من اتجاهات سياسية مختلفة، وكتابات عبر فيها أصحابها عن تقديرهم لكتاباته وكتبه فيما قبل الرحيل وفى مناسبات مختلفة.

الحرب الإسرائيلية على لبنان

مجموعة باحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ٤٥٦ صفحة



لم يكن حدث العدوان الإسرائيلى على لبنان فى ١٤ أغسطس ٢٠٠٦ حدثاً عسكرياً وسياسياً عادياً فى مجرى يوميات الصراع فى المنطقة، كان حرباً مدمرة، ولكن ليس كالحروب السابقة فى النتائج وإن شابهتها فى الأهوال.. ففى النتائج، بدت حرباً عالية الكلفة بالنسبة إلى إسرائيل. كلفتها خسائر بشرية فى جندها

والمستوطنين لم تكن قد ألفتها فى حروبها السابقة مع العرب أجمعين. وكلفتها هيبة عسكريتها التى مرغها أبطال المقاومة.. وكلفتها «أمنها القومى» الذى استباحته صواريخ المقاومة وهزته بعمق.

أما لبنان فقد قرابة الألف وثلاثمائة شهيد، وأصابه دمار المساكن والبنى والمقدرات، وتهجير قسرياً حوالى مليون لبنانى من أبناء الجنوب والبقاع والضاحية، وفرض عليه قرار دولى مجحف (القرار ١٧٠١) لم يترجم ما حققته المقاومة من نصر فى الميدان، بل أعطى إسرائيل سياسياً بعض ما لم تقو على انتزاعه عسكرياً.

أمام هذا الحدث أعد مركز دراسات الوحدة العربية ندوة دراسية بعنوان: «الحرب الإسرائيلية على لبنان: التداعيات اللبنانية والإسرائيلية وتأثيراتها العربية والإقليمية والدولية» عقدها فى بيروت فى نهاية أغسطس الماضى، شارك فيها ستون من الباحثين والمعقبين والمناقشين، وكانت حتى صدور هذا الكتاب الذى يضم كل وقائعها هى الندوة الوحيدة فى الوطن العربى التى تناولت هذا الحدث بالبحث العلمى.

■

من سيرة الهر المنزلى

لقمان ديركى

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٦



مجموعة قصص قصيرة، تمثل مشاهد واقعية حضرها الكاتب وعاينها وشارك فى أحداث معظمها. القصص فيها الكثير من الواقعية وأسماء الأشخاص والأحياء والمدن. نقلها إلينا بأسلوب ساخر وبلسان لاذع، عبر مشاهد كاريكاتورية كثيراً ما تنتزع الضحكة من القارئ وإن كان يضيع أحياناً بين الجد والهزل والقسوة والفكاهة والنقد والدعاية.. والواقعية والخيال.

نقرأ:

وكان الأستاذ يختبئ مع الأنسة ربما بين الأشجار، وعندما كانا يظهران كان فم الأنسة ربما يصبح أحمر مثل جمر أركيلة الشيخ خضر.

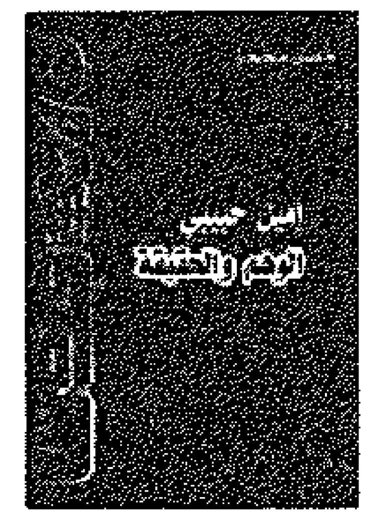
ثم قال لنا الأستاذ: «لا تسبحوا فى النهر لأن فيه برامات، وسبح هو والأنسات وأصدقاؤه.

■

إميل حبيبى: الوهم والحقيقة (دراسة فى النقد الثقافى)

خضر محجز

دمشق، بيروت: قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦، ٤٤٢صفحة



يتعامل هذا المؤلف المهم مع مسألة حساسة للغاية فى الساحة الفلسطينية ألا وهى موضوع الأديب الفلسطينى الراحل إميل حبيبى الذى حاز على (جائزة الإبداع الإسرائيلية) فى عام (١٩٩٥م) وتسلمها من رئيس وزراء الكيان الصهيونى حينئذ اسحق شامير. وهو إذ يبحث فى كل جوانب شخصية الأديب ومواقفه السياسية، يحاول الوصول إلى إجابة عن بعض الأسئلة المهمة المرتبطة به وبمؤلفاته الأدبية، وعلى نحو خاص، ثلاثية المتشائل، وسبب تأثيرها الإيجابى فى الساحة الأدبية العربية مع ما تحمله من رسائل خطرة إلى المتلقى. وقد خلص الكاتب إلى:

لماذا أحببنا «المتشائل» بعد كل ما علمناه عنه؟. لقد قرأنا الرواية وتعاطفنا مع البطل المهشم ومنحنا لإميل حبيبى جوائزنا وإعجابنا. فلماذا الآن نقول فيه ما نقول؟. وقد أجاب البحث على هذا السؤال الأهم، بأننا أحببنا الصنعة، ولكننا لم نحب المصنوع. وعندما التبس الأمر على الصانع، وتماهى فى المصنوع، كرهناه. لقد أحببنا الجمال فى لوحة ترسم كيف يسيطر القبح على أرواح بعض الناس، ويحولهم إلى أعداء لأنفسهم؛ ولم نحب أبداً هؤلاء البعض، ولم نتمن أن نكون مثلهم، مهما تقلبت بنا الأيام. وقد أرجع الباحث سبب ذلك إلى فعل النسق المتجذر فى تاريخ التلقى العربى للأدب. ذلك النسق الذى ظل محكوماً بالنزعة الجمالية، التى صرفته عن قراءة الأدب، باعتباره درساً إنسانياً عظيماً. وألهته من ثم عن فضح تأثيراته السلبية، على مجمل الوعى العربى، حيث تكرس الفصل المبكر، بين المحتوى الفلسفى الأخلاقى للشعر والأدب، والبلاغة اللغوية، التى سُمح لها بأن تقول ما تشاء، ما دام قولها محروساً بالجمال التصويرى .

ويعرف الكاتب بنفسه على النحو الآتى: ولدت فى خيمة من خيام الأمم المتحدة فى (مخيم الشوا) بمدينة غزة، لأبوين مهاجرين من جنوبى فلسطين. ناشط سياسى سابق، وغير مؤمن بالعولمة، ولا بالحداثة، ولا بالماركسية، ولا بالليبرالية، ولا بالإسلام السياسى، ولا بالشورى على طريقة حماس.

■

يوميات العدوان الإسرائيلى على لبنان



الوعد الصادق

يوميات الحرب السادسة

محمد حسين بزّى

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦، ٨١٦صفحة

إن للحرب قوانينها الخاصة ووقتها الخاص وعيش هذا الوقت يختلف عن عيش سواه من الأوقات بطريقة جذرية، وذلك على كافة مستويات المعاش، ولعل الشاعر العربى أفصح عن هذه الحقيقة فى عيش زمن الحرب قبل غيره من علماء السياسة والاجتماع والنفس وكذلك المؤرخين بقوله المأثور:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وليست هى بالحديث المرجم

الحرب فى هذا العلم والذوق بالمعنى الذى يعطى للذوق كحاسة بعيدة الأثر، إن الذوق ملكة حسية وملكة عقلية وقلبية والذاق بالحس كما فى النظر والسمع والعقل والقلب وسوى ذلك من أنواع الأحاسيس.

لقد ألحق الشاعر علم الحرب بذوق الحرب وهو أصاب فى ذلك إلى درجة كبيرة لا يفقهها إلا الذين علموا الحرب وذاقوا ويلاتها على الحقيقة..

ما الذى تقصده يوميات الحرب، وما هو المنهج الذى اتبعه المحرر فى جمع مادتها وتبويبها، وهل هى قادرة على إيصال رسالتها الإعلامية، إلى الناس؟

لم يخل يوم واحد من أيام الحرب من العمليات العسكرية فى ساحة الميدان المباشر على ثغور الجنوب، الأرض المقدسة عند أهلها والتى بارك الله من حولها، وجارة فلسطين وثغر من ثغور المسلمين والخاصرة العلمية الثقافية الأدبية الاجتماعية، الاقتصادية أرض جبل عامل، موطن أبى ذر الغفارى، والشهيد الأول والشهيد الثانى، والتى مشى فى جنازة واحد من علمائها سبعون عالماً ومجتهداً يعلمون الأصول والآداب والأخلاق إلى جانب علوم القرآن والحديث والتصوف والزهد والعرفان والجهاد الأكبر والأصغر، والإيثار والشجاعة والتضحية يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، أرض الصلاة والدرس. جبل عامل حاضرة الإسلام على مذهب أهل الحق، وكل المذاهب، كانت هى الميدان المباشر لهذه الحرب بالعدوانية التى شنها الكيان الصهيونى الغاصب لفلسطين والقدس، والمؤيد من الولايات المتحدة الأمريكية، بالمال والسلاح والسياسة، والإشراق والتوجيه، وربما المباشرة فى بعض عمليات القصف الاستراتيجى، عبر الصواريخ الذكية من البوارج الحربية التى تجوب مياه البحر المتوسط، قبالة لبنان، وداخل مياهه الإقليمية.

اليوميات تتضمن الأعمال الحربية، فى ثغور الجنوب، فى عيتا الشعب وبنت جبيل وعيترون ومارون الراس والطيبة والخيام وصور، ومرجعيون إلى تخوم صيدا وأعالى مرتفعات إقليم التفاح، فى هذه المعارك المباشرة للاشتباك بين قوات المشاة والمدرعات وقوات النخبة الخاصة كانت الحرب ذات طابع خاص، فى منطقة وسطى بين حرب الغوار، والحرب التقليدية كانت حرباً حقيقية، كما وصفها سماحة الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله حرب بين رجال النخبة استطاع فيها مجاهدو المقاومة الإسلامية فى لبنان، كسر وحدات نخبة جيش الغزاة الصهاينة، وفى ذلك تنبيه لأمر فى غاية الأهمية وهو قدرة الإنسان المؤمن المسلح بالعقيدة، وحب الله والوطن والشعب، والذى أعد نفسه بإتقان وهمة عالية لهذه المواجهات للانتصار والشهادة. إنه ينال فى كليهما غايته فى الوصول إلى معشوقه الأبدى. إن المجاهد فى المقاومة الإسلامية، ومنهم من طلاب الثانويات والجامعات والدراسات العليا ومن العمال والمزارعين والتجار والصناعيين، وطلاب الحوزات العلمية، والمقاتلين فى سبيل الله وسبيل الإنسان والحرية والعدالة كانوا قد حصلوا مراتب عالية فى تزكية النفس وتحق لهم النصر المؤزر على العدو، بفضل وعد الله - سبحانه وتعالى - لعبادة العارفين بالنص وصدق وعده - سبحانه وتعالى - كان بالفعل نصيراً إلهياً، بهذا المعنى ومفاده أن الإنسان الذى صنعه، كان مؤمناً بالله، عابداً، عاشقاً، زاهداً يزكى نفسه بالتخلية والتحلية والتجلية، فرسان النهار وعباد الليل، الجامعون لقيم الصلاة والدرس والجهاد شد فى عزيمتهم هذا العشق الإلهى. الإنسان يقاتل من أجل من يحب هذه القاعدة، إنسانية عامة، وإذا كان مجاهدو المقاومة، من العاشقين الإلهيين، فإن نصرهم بهذا المعنى هو نصر إلهى. وعليه يستطيع من يفهم من أهل الذوق حقق مجاهدو المقاومة انتصارات تاريخية واستراتيجية ، وكان انتصارهم يسجل فى صفحات التاريخ يوماً بعد آخر، وفى هذه اليوميات، يجد القارئ المتلقى.

ومصادقو هذا الانتصار كما أرخته الصحافة، ورجال الفكر والمؤرخون ووسائل الإعلام الأخرى مجموعة من كتاب، تتكون بدورها، إثباتاً للحقيقة، وتحفيزاً للذاكرة ومحلاً للتبصر والتأمل والدرس والاعتبار.

طراد حمادة

القدس فى العصر الحديدى (١٣٠٠ - ٧٠٠ ق م)

مارجريت شتاينر
ترجمة: رزق الله بطرس، زياد منى
دمشق، بيروت: قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦



يحوى هذا الكتاب محصلة اكتشافات عالمة الآثار الهولندية، مارجريت شتاينر، التى كلفت بإتمام التنقيبات فى منطقة القدس وتقويم النتائج التى وصلت إليها رائدة التنقيب هناك عالمة الآثار الإنجليزية كاثلين كُنين فى ستينيات القرن الماضى قبيل سقوط بقية فلسطين «الانتداب» فى قبضة الاحتلال الصهيونى.

وبخصوص النتائج العلمية التى وصلت إليها عالمة الآثار، مؤلفة الكتاب، فإنها كتبت: «فى أثناء الحفريات الكثيرة التى جرت فى القدس وحولها، لم يعثر على أى أثر لمدينة محصنة: لا أسوار كبيرة ولا بيوت ولا حتى أى قطع من أوان فخارية سائبة . . يبدو أنه لا يمكننى إلا الاستنتاج أنه لم تقم أى «مدينة» فى القدس فى أثناء فترة (رسائل العمارنة). ومن الناحية الأثرية، لم تكن القدس، ببساطة، مأهولة فى أثناء العصر البرونزى المتأخر. يبدو لى هذا واحداً من الأمثلة الكثيرة التى يبدو فيها أن النصوص (التوراتية، ز م) وعلم الآثار يناقض أحدهما الآخر.

المصادر التاريخية لبداية العصر الحديدى (العصر الحديدى الأول) غير موجودة تقريبًا، باستثناء المراجع التوراتية التى لم يكتب معظمها إلا فى وقت لاحق، لكنها غالبًا ما تستخدم دليلاً تاريخيًا. لذلك تكون الصورة التقليدية للقدس فى هذه الفترة، والتى تقدمها معظم الكتب، هى أنها كانت مدينة صغيرة محصنة جيداً يسكنها اليبوسيون، ومركزاً لدولة-مدينة مستقلة . . لكن ما عُثر عليه بالواقع يحكى حكاية مختلفة.

وكان وضع القدس فى بداية العصر الحديدى الثانى موضوعاً لكثير من الكتب والمقالات، ومعظمها يصور المستقرة مدينةً كبيرةً، وغيرها يصورها عكس ذلك . . لكن على أساس تحليل المادة الأثرية . . لم تكن القدس مدينة كبيرة ولا مدينة إقليمية صغيرة . .

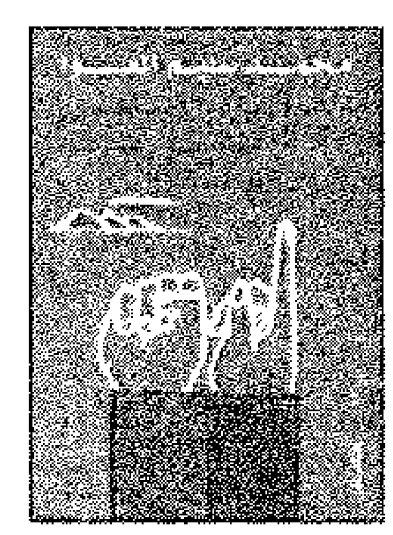
واستناداً إلى الدلائل الأثرية يمكن وصف القدس فى القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد بأنها مدينة صغيرة محصنة لا يزيد حجمها عن (١٢ هكتارا)، ومن الممكن أنها كانت تتسع لسكنى ألفى نسمة . . لكن يبدو من غير المحتمل أن هذه القدس كانت عاصمة لدولة كبيرة مثل عاصمة «المملكية المتحدة» المذكورة فى النصوص التوراتية».

هذا الكتاب ينقض الرواية التوراتية عن مدينة القدس فى العصور القديمة، ولذا فقد أثار حفيظة الدوائر الأصولية العالمية، وفى الولايات المتحدة والكيان الصهيونى على وجه الخصوص، حيث شنوا على العالمة الهولندية هجمات لم تتوقف ما يوضح عدم براءة أبحاثهم من خلفيات دينية أصولية وسياسية وعصبية.

لكن هذا الكتاب يعد أيضاً مرجعاً رزيناً فى التنقيب الأثرى حيث تبين شروحات المؤلفة أصول البحث الأثرية والتاريخى، ما يجعله مرجعاً علمياً بامتياز.

«القاضى والسلطان»: الأزمة القضائية المصرية

محمد سليم العوا
القاهرة . دار الشروق . ٢٠٠٦



بمناسبة مقابلة تلفزيونية حول الكتاب شاركت فيها المؤلف على قناة «العالم» الفضائية وجدت نفسى، وأنا القاضى اللبنانى السابق، أبحث عن الأزمة القضائية التى شهدتها مصر فى الصيف الماضى، ومن خلال هذه الأزمة الولوج إلى عمق التركيبة القضائية، لا بل عمق التركيبة السياسية المصرية فى مناسبة أحداث رافقت الانتخابات التشريعية فى هذا البلد العربى الكبير واحتلت الصفحات البارزة ليس فى الصحافة المصرية فحسب، بل وخصوصا فى الصحافة العربية والدولية، لأنها، أى الأزمة، أبرزت مرة جديدة جدلية السياسة والقضاء، جدلية السلطة وحدودها.

ولعل عنوان الكتاب يشير إلى الصراع التاريخى غير المستجد فى بلدان لم تبلغ أنظمتها بعد حد اعتبارها دولة الحق حيث لا سلطة تعلو على سلطة القاعدة الحقوقية وحيث سلطان القانون من أول تطبيقاته انصياع الدولة إلى القانون لأن سيادة القانون هى أساس الحكم فى الدولة. كما أنه يشير بدقة إلى صراع السلطان مع القاضى بقلم العارف بالسلطان وشئونه وبالقضاء وشجونه.

وبالفعل، يبدو المؤلف فى هذا الكتاب عاكسا بالواقع تعدد المواهب والاختصاصات. فهو، من جهة، المحامى شريك القاضى فى تحقيق العدالة، ونشر الحق، ومن جهة ثانية المثقف ذو البعد العالمى، ولكن، وخصوصا، الفقيه والعالم. وهو من جهة أخيرة الإنسان المحاور الذى يقر بحق الاختلاف ولا يتنازل عن الأساسيات.

أما الكتاب فى ذاته، المقسم إلى تقديم وثلاثة فصول أولها: عرض لأصل القضية المحدد بالإشراف القضائى على الانتخابات، وثانيها: توضيح الواضحات: المحاكمة والحكم، وثالثها: القضاء إلى أين: مشروع القانون الجديد، بالإضافة إلى فقرة عما يطرح فيها مشروع القانون المعروض أمام مجلس الشعب والملحق الذى فيه بيان الجمعية العامة لقضاة مصر بتاريخ ٢٠٠٦/٦/٢٣ .

نظرة المؤلف إلى القضاة تستعيد صفات القضاة: الأول فى الدولة الإسلامية، إذ ينظر إليهم بمثابة الأولياء ويتصفون «بهدوء العابدين وزهد أصحاب اليقين وصدق الأبطال المجاهدين».

وهم وفق المؤلف «أغنياء عن الثناء مبرأون من المذمة. فهم، فى تجردهم لإحقاق الحق، لا يجوز تناولهم بالمدح ولا بالقدح». وفيه أيضا دعوة هادئة لإدخال تعديلات على القوانين المتصلة بالسلطة القضائية بما ينسجم وأحكام الدستور ويتيح للقضاء الإشراف على الانتخابات، مع ما يمثل ذلك من ضمانة للناخبين وللديموقراطية والسلام الداخلى. وقد اناط الدستور بالقضاء هذه المهمة.

على أن معنى الإشراف على الانتخابات وفق المؤلف هو إشراف فعلى وليس صوريا باعتبار القضاء السلطة الأعلى المهيمنة على ما سواها وما دونها، وهذه السلطة ترتكز على مهمتين اثنتين: ولاية الفصل فى الخصومات، وان أفراد السلطة القضائية محصنون غير قابلين للعزل.

ولعل المواقف التى سرد بعضاً منها تبين حالات تدخل السلطة ومحاولة منع القضاة عن القيام بمهماتهم الاشرافية ومضايقتهم حتى يترددوا فى مواجهة رجال الأمن. ويعتبر المؤلف أن مهمة اصلاح القضاء هى مدخل لما هو أبعد من ذلك، للوصول إلى إصلاح النظام السياسى المصرى. وما نراه وما نسمعه من نقاش عام فى مصر يتصل بهذه الناحية حيث المطالبون باصلاح النظام السياسى يزدادون يوماً بعد يوم.

لفتنى فى الكتاب الحس المرهف للمؤلف فى توصيفه للقاضى، وإن كان أحيانا يقسو على تصرفات بعض القضاة، «فالقاضى الذى قضى بالهوى فهو فى النار» وإن كان أحيانا يفرق ما بين هذه الفئة وآخرين «أئمة تجب لهم النصيحة».

فالقاضى الذى يحمل أمانة العدل لا يستطيع أداءها إلا إذا كان مستقلا الاستقلال الحقيقى، المادى والمعنوى، عن سلطات الدولة كافة وعن وسائل الترغيب والترهيب على السواء. القاضى لا يخضع لغير كلمة الحق ولا يسجد لغير الله سبحانه وتعالى ولا يبتغى بعمله كله الا وجهه وحده. كما كتب المستشار زكريا عبد العزيز فى تقديم كتاب القاضى السابق والمستشار المفكر العربى الكبير طارق البشرى أحد مؤسسى الفريق العربى للحوار الاسلامى المسيحى، فى كتابه «القضاء المصرى بين الاستقلال والاحتواء».

نوه العوا باستجابة الحكومة المصرية لبعض مطالب القضاة، وهذه الاستجابة «حسنة تحمد لها».

ظهر المؤلف فى كتابه الغنى بالاحداث والتحليل والعبر. وفيه أيضا استعادة لبعض الأحكام الفقهية ومدى تكييفها مع واقع الحال التشريعية والممارسة القضائية فى مصر. «فالمفسدتان إذا اجتمعتا وجب ارتكاب أهونهما»، والشران أو الضرران إن كان لا بد من أحدهما وجب اختيار أهونهما «والعارف والمعروف لا يعرفان» و«توضيح الواضحات من أصعب المشكلات»، «ولا ينسب لساكت قول» و«السكوت لا يفيد حكماً»، «وما لا يدرك كله لا يترك جله» كما يقول الإمام الشافعى.

هذا عدا عن تعريفات لمبادئ أساسية فى الدستور كالسلطة «وهى القدرة على التحكم وانفاذ ما يريد صاحبها على الناس» و«الولاية هى إنفاذ القول على الغير» والحرية هى «حق الناس فى الاختيار عن القدرة عليه» وهى حق أصيل وبالفطرة عن الإنسان.

يخلص المؤلف إلى اعتبار الأزمة فى مصر أزمة قضاء وليس أزمة قضاة، وأن هذه الأزمة هى انعكاس للأزمة السياسية التى يدعو إلى معالجتها، وخاصة بالاحتكام مجددا إلى الدستور والغاء القوانين التى تخالف هذا الدستور ووقف عدوان السلطة على القضاء والسعى إلى احتوائها بجعلها وظيفة إدارية وليس سلطة مستقلة.

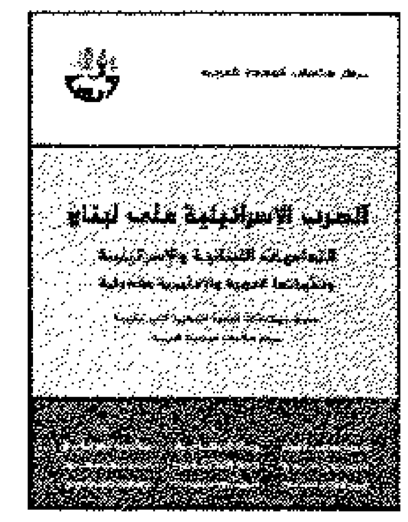
إنها دعوة صادقة إلى الإصلاح وذلك لمنع الثورة. وعلى كل حال أن انتفاضة القضاة فى مصر وصفت فى أحيان كثيرة بأنها ثورة القضاة. فهلا يتوقف أهل السلطان عند تحرك القضاة؟ ما أحوجنا فى بلادنا العربية إلى مثل هذا التحرك لوقف طغيان السلطة وتحكم السياسة على حساب حقوق المواطنين وحرياتهم.

القاضى عباس الحلبى
رئيس الفريق العربى للحوار الاسلامى - المسيحى

الحرب الإسرائيلية على لبنان

مجموعة باحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ٤٥٦ صفحة



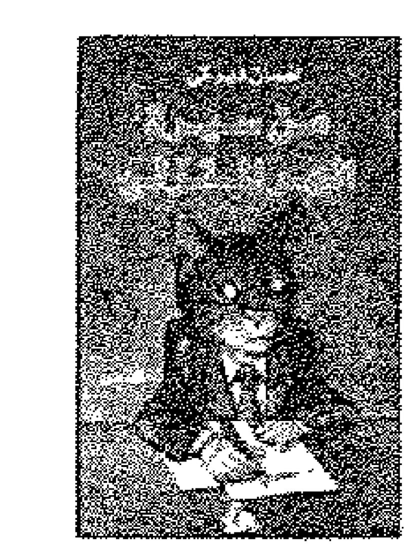
لم يكن حدث العدوان الإسرائيلي على لبنان في ١٤ أغسطس ٢٠٠٦ حدثًا عسكريًا وسياسيًا عاديًا في مجرى يوميات الصراع في المنطقة، كان حربًا مدمرة، ولكن ليس كالحروب السابقة في النتائج وإن شابهتها في الأهوال.. ففي النتائج، بدت حربًا عالية الكلفة بالنسبة إلى إسرائيل. كلفتها خسائر بشرية في جندها والمستوطنين لم تكن قد ألفتها في حروبها السابقة مع العرب أجمعين. وكلفتها هيبة عسكريتها التي مرغها أبطال المقاومة.. وكلفتها «أمنها القومي» الذي استباحته صواريخ المقاومة وهزته بعمق. أما لبنان فقد قرابة الألف وثلاثمائة شهيد، وأصابه دمار المساكن والبنى والمقدرات، وتهجر قسريًا حوالي مليون لبناني من أبناء الجنوب والبقاع والضاحية، وفرض عليه قرار دولي مجحف (القرار ١٧٠١) لم يترجم ما حققته المقاومة من نصر في الميدان، بل أعطى إسرائيل سياسيًا بعض ما لم تقو على انتزاعه عسكريًا.

أمام هذا الحدث أعد مركز دراسات الوحدة العربية ندوة دراسية بعنوان: «الحرب الإسرائيلية على لبنان: التداعيات اللبنانية والإسرائيلية وتأثيراتها العربية والإقليمية والدولية» عقدها في بيروت في نهاية أغسطس الماضي، شارك فيها ستون من الباحثين والمعقبين والمناقشين.

من سيرة الهر المنزلي

لقمان ديركي

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٦



مجموعة قصص قصيرة، تمثل مشاهد واقعية حضرها الكاتب وعاينها وشارك في أحداث معظمها. القصص فيها الكثير من الواقعية وأسماء الأشخاص والأحياء والمدن. نقلها إلينا بأسلوب ساخر وبلسان لاذع، عبر مشاهد كاريكاتورية كثيرًا ما تنتزع الضحكة من القارئ وإن كان يضيع أحيانًا بين الجد والهزل والقسوة والفكاهة والنقد والدعابة.. والواقعية والخيال. نقرأ: وكان الأستاذ يختبئ مع الآنسة ريما بين الأشجار، وعندما كانا يظهران كان فم الآنسة ريما يصبح أحمر مثل جمر أركيلة الشيخ خضر.

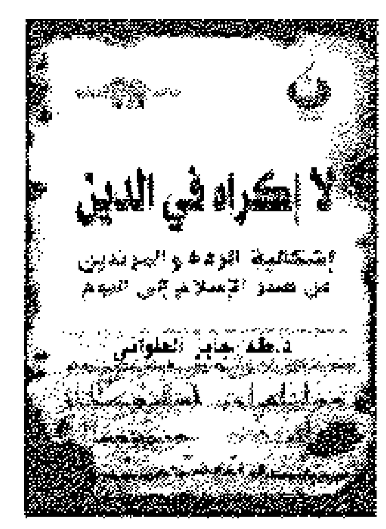
لا إكراه في الدين

إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم

د. طه جابر العلواني

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦

١٩٨صفحة



كتاب استغرق إعداده ما يزيد على عقد من الزمان ليجيب عن مجموعة مهمة من التساؤلات الخطيرة!!

منها: هل شرع الله - تعالى - عقوبة دنيوية (والعقوبات في الإسلام مكفرات) هي «القتل حدًا» على من يتغير اعتقاده من البشر؟! وهل جاء كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - بحد أو عقوبة شرعية بقتل من تغير اعتقاده لأي سبب من الأسباب؟! وهل قتل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من ارتد ولم يرتكب شيئًا آخر في مكة أو المدينة طيلة حياته؟! ولمَ أجاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من اقترح عليه قتل بعض المنافقين الذي تآمروا عليه وآذوه بقوله: «لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»؟! وهل أجمعت الأمة على وجوب قتل «المرتد أو من تغير اعتقاده» في عصر الإجماع؟! وهل حارب الصديق - رضي الله عنه - «المرتدين» لمجرد كونهم غيروا اعتقاداتهم القلبية، أو لأنهم - إضافة لذلك - قد حملوا السلاح، وحاولوا الخروج على النظام العام، وتدمير وحدة الأمة الناشئة، وتفتيت الجماعة المؤمنة؟! وهل يمكن تحقيق «الاعتقاد القلبي» أي اعتقادا كان بسيف القهر والإكراه؟!

هذه الأسئلة وكثير غيرها تمثل محاور هذه الدراسة التي هي حلقة من سلسلة دراسات تقوم على مراجعة إشكاليات تراثنا الإسلامي من منطلق الالتزام به والتمسك به، ومراجعته في نور هداية المصدر المنشئ: القرآن المجيد وبيانه الملزم في صحيح السنة النبوية المطهرة باعتبار ذلك أهم مناهج المراجعة والإحياء والبعث والتجديد لتراثنا من داخله.

كتاب الزاوية

حياة الرافعي

أغاني الشعب

لم يوفق شاعر من شعراء العربية توفيق الرافعي في تأليف الأناشيد، ولم يكتب لنشيد وطني أو طائفي من الذيوع والشهرة والانسجام مع الألحان ما كتب لأناشيد الرافعي، فهو بذلك خليق أن نسميه شاعر الأناشيد.

وقد ولع منذ نشأته في الشعر بالأناشيد الوطنية والأغاني الشعبية، يفتن في نظمها، ويبدع في أوزانها وأساليبها، ففي سنة ١٩٠٣ أخرج من الجزء الأول من ديوانه بضع قصائد وطنية، تفيض عاطفة وتشتعل حماسة، واشتهر من بينها قطعته (الوطن) التي يقول في مطلعها:

بلادي هواها في لساني وفي دمي

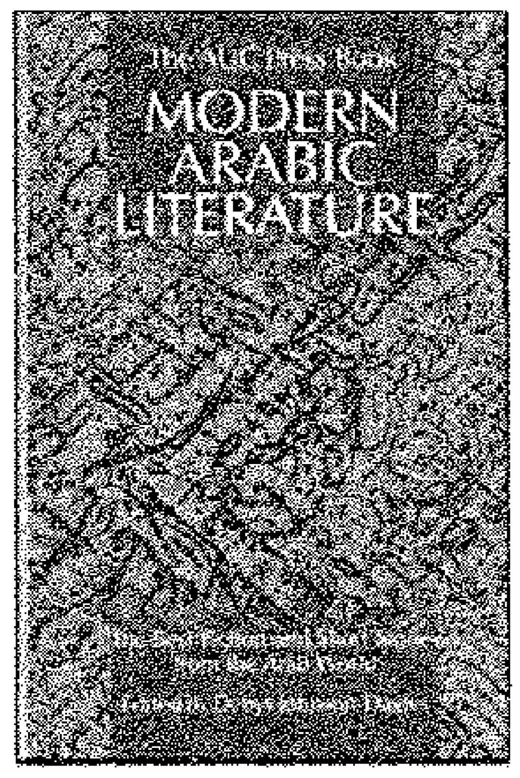
يمجدها قلبي ويدعو لها فمي

وذاعت على ألسنة تلاميذ المدارس، يحملهم المعلمون على استظهارها في دروس المحفوظات إلى يومنا هذا، كما اشتهر كثير من قصائده الوطنية وأغانيه الشعبية. وجاء في هامش ديوانه بعد تمام هذه المقطوعات: «قد تمت القطع التي نظمت للنشء من تلامذة المدارس، وقال ناظمها: إنه إذا وجد الناس أقبلوا عليها أقبل هو على نظم غيرها مما هو أرقى، غير مبال بوعورة هذا المسلك الذي لم يسلكه قبله أحد، فها نحن أولاء ننتظر من الصحفيين وشبان العصر أن يأخذوا بيده في هذا المشروع، حتى لا يغيض ما بقي في ذلك الينبوع».

ثم دأب على نظم أمثال هذه الأغاني، ينشر منها طرفة رائعة في كل جزء من ديوانه، فنشر نشيد الفلاحة المصرية، وأرجوحة سامي، وغيرها، وأشهر أناشيده:

«اسلمي يا مصر» و«إلى العلا إلى العلا بني الوطن» و«حماة الحمى» ولكل نشيد تاريخ.

روايات عربية بالإنجليزية



The AUC Press Book of Modern Arabic Literature
Edited by Denys Johnson- Davies
AUC press, 512PP, 150 LE

من أقصى شمال الوطن العربى إلى أقصى جنوبه، ومن أقصى شرقه إلى أقصى غربه، ثمانون كاتبا لامعا عربيا، من أربع عشرة دولة، تجتمع أعمالهم - التى يتراوح وقت كتابتها من ثلاثينيات القرن العشرين إلى العقد الحالى - بين ضفتى هذا الكتاب الفريد، الذى حرره فى أكثر من ٥٠٠ صفحة. وترجم محتواه «دينيس جونسون دافيس» الذى قال عنه ادوارد سعيد «رائد الترجمة إلى العربية فى العصر الحالى».

معظم الأعمال بالكتاب كلاسيكية بالدرجة الأولى، وتقريبا نصف كتابه مصريون، مما يعكس خلفية «دافيس»، فهو أقام فى القاهرة لفترة إبان الأربعينيات، حين كانت بدايته مع ترجمة بعض من القصص القصيرة للكاتب المصرى محمود تيمور، ليصل مجموع ما ترجمه إلى أكثر من ٣٠ كتابا فى العقود الستة التالية.

كل قصة أو مقتطف من رواية فى الكتاب يبدأ بنبذة عن كاتبها والذى يعد فى حد ذاته أمرا مثيرا للاهتمام، فكاتب مثل اليمنى «محمد عبد الوالى»، صاحب قصة (يا خبير)، ولد بإثيوبيا، وتشرب الماركسية بمصر، ثم درس بروسيا، وعمل كدبلوماسى يمنى بموسكو وبرلين، حتى اختلف مع الحكومة اليمنية، مما أدى لسجنه، ثم خرج من السجن ليلقى حتفه فى حادث تحطم طائرة، وهو لا يزال فى الثالثة والثلاثين من عمره.

يبدأ «ديفيس» الكتاب بمقتطف من رواية الكاتب المصرى «إبراهيم عبد المجيد» (لا أحد ينام فى الإسكندرية) التى تحكى قصة مدينة الإسكندرية خلال الحرب العالمية الثانية عبر سرد للتلامس الحادث بين مصائر مجموعة من الأشخاص العاديين فى وقت الحرب، حين تتوحد مخاوفهم وتجاربهم.

ويبحر «ديفيس» فى الرواية والقصة العربية، ملتقطا رواية (العلامة) للكاتب المغربى «بن سالم حميش» ليضع مقتطفات منها توضح الخلفية الإسلامية للرواية التى روح مقتطفها لكون الحب والصلاة توءمين ملتصقيان، فالفرد إذا لم يحط نفسه بواحد منهما، خسر الآخر وخسر الله.

ومن الكتابات المصرية نجد أيضا مقتطفا من رواية (دنجلة) للكاتب المصرى «ادريس على»، التى تحكى عن العاصمة النوبية القديمة المفقودة فى مياه النيل خلف السد العالى، كما نجد مقتطفا من رواية (عمارة يعقوبيان) لعلاء الأسوانى التى جسد فيها المجتمع المصرى بطبقاته المتعددة فى سكان عمارة بمنطقة وسط البلد، أقدم مناطق القاهرة.

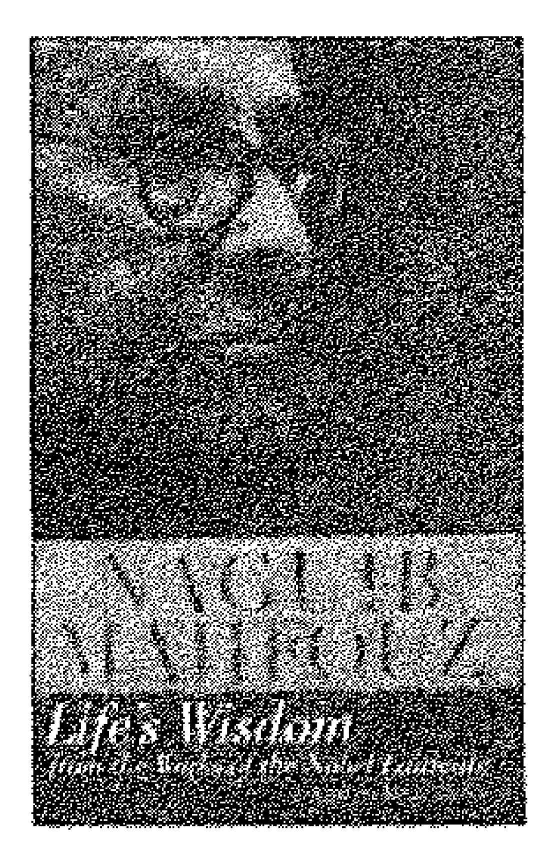
يعود «ديفيس» إلى القصة المغربية مع الكاتبة «ليلى أبو زيد» صاحبة قصة (الساخطون) التى تصور لمحة من موقف يمر بين ابنىَ عم أحدهما فقير والآخر غنى. ثم ينتقل إلى الشرق مع الكاتب السورى «إبراهيم صامويل» وقصته (زميلى المسافر) والكاتبة «غادة السمان» وقصتها (غجرية بلا مرفأ).

كتاب مثل «الطيب صالح»، و«بهاء طاهر»، و«غسان كنفانى»، و«إلياس خورى»، و«محمد خضير»، و«محمد المخزنجى»، و«بثينة الناصرى»، و«علية ممدوح» لا يخلو الكتاب من قصص قصيرة لهم ومقتطفات من أعمالهم الروائية.

أيضا هناك مقتطفات من بعض الروائع الأدبية العربية مثل «ليالى ألف ليلة» لنجيب محفوظ، و«يوميات نائب فى الأرياف» لتوفيق الحكيم، و«قنديل أم هاشم» ليحيى حقى، و«بيت من لحم» ليوسف إدريس، و«الزينى بركات» لجمال الغيطانى، و«ذات» لصنع الله إبراهيم.

Life's Wisdom

(حكمة الحياة)

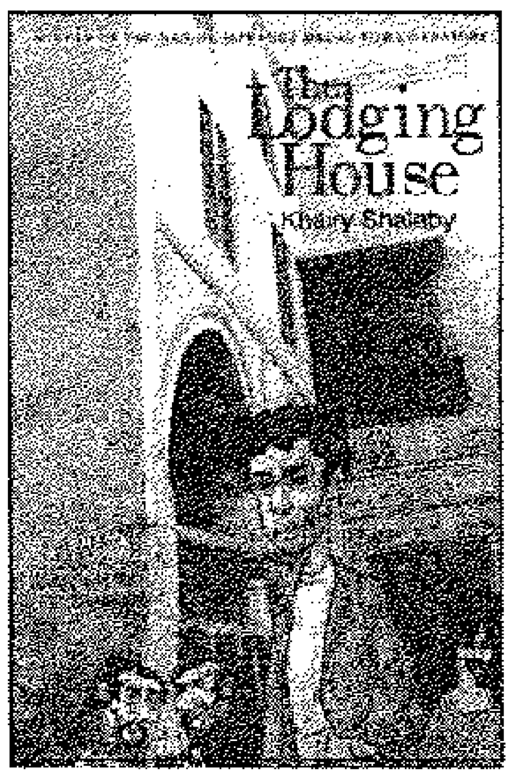


Naguib Mahfouz
Edited by Aleya Serour
AUC Press, 136PP, 75 LE

نجيب محفوظ، الحاصل على جائزة نوبل فى الأدب عام (١٩٨٨)، والذى أمضى سبعين ربيعا من عمره متخذا الكتابة عملا له، ليترك ما يقرب من خمسين مؤلفا بين روايات ومجموعات قصصية.

طفولته التى أمضاها فى حى الجمالية، وتنقله بين أحياء العباسية والحسين والغورية، وكلها أحياء مصرية شعبية، ودراسته للفلسفة، وعمله النظامى بالحكومة بمجال السينما، كلها أشياء أثرت فى بصيرته وبالقطع فى أعماله فأضفت عليها طابعا فلسفيا، وجعلتها مليئة بحكم الحياة.

«علية سرور» تجمع مجموعة من الاقتباسات الحكيمة والمعبرة، التى اختارتها من أعمال محفوظ الأدبية، لتبحر بالقارئ فى الحياة ناقلة له الحكمة من كلمات نجيب محفوظ المليئة بالحكم الحياتية المختلفة المواضيع والاتجاهات، والتى منها حكم عن (الطفولة والشباب، والحب والزواج، والحياة والموت، والآخرة والروح والخلود).



The Lodging House

(وكالة عطية)

Khairy Shalaby
Translated by Farouk Abdel Wahab
AUC Press, 480PP, 90 LE

الرواية الحاصلة على جائزة نجيب محفوظ الممنوحة من الجامعة الأمريكية بالقاهرة لعام ٢٠٠٣ للكاتب «خيرى شلبى»، وهى الرواية التى تجسد الأبعاد الملحمية للعالم السفلى، الذى تسكنه العديد من الشخصيات المهمشة فى المجتمع وإن كانت حياتهم تعد بحق نوعا من الغرائب والأساطير.

الرواية تحكى على لسان بطلها - الراوى الذى يظل مجهول الاسم طوال الرواية - الذى يفشل فى دراسته بعد طرده من معهد المعلمين نتيجة مهاجمته لأحد أساتذته الذى يمارس التمييز والعنصرية ضده نظرا لفقره، وبعد طرده ولحاجته للمال، يبدأ بطل الرواية فى الهبوط تدريجيا إلى عالم الجريمة السفلى، إلى أن يصل فى نهاية رحلته إلى وكالة عطية، ذلك المبنى الأثرى العتيق الذى تحول إلى مأوى للمشردين والأشقياء الذين يعيشون حياة مهمشة لا تختلف كثيرا عن حياة البطل.

خيرى شلبى هو كاتب وروائى مصرى، ألف ما يقرب من سبعين كتابا، ويطلق عليه «رائد الفانتازيا التاريخية فى الرواية العربية المعاصرة»، حولت بعض أعماله إلى أعمال درامية، كمسلسل الوتد، الذى يعد من أشهر أعماله، بالإضافة إلى ثلاثية الأمالى ورواية زهرة الخشخاش.

The Loved Ones

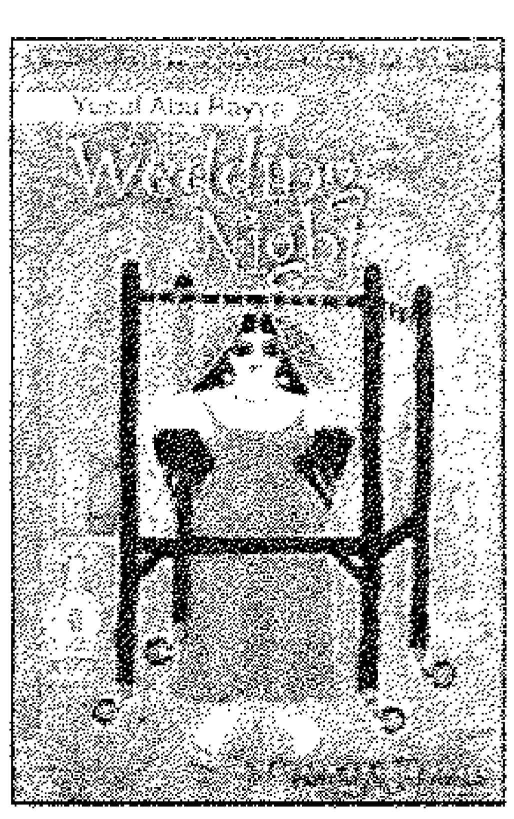
(المحبوبات)



Alia Mamdouh
Translated by Marilyn Booth
AUC Press, 288PP, 90 LE

الرواية السابعة لمؤلفتها العراقية «علية ممدوح»، الحاصلة على ليسانس علم النفس من بغداد، والمستقرة حاليا بباريس بعد رحلة طويلة قاربت العشرين عاما مع المنافى العربية والأوروبية، وهى الرواية التى حصلت على جائزة نجيب محفوظ الممنوحة من الجامعة الأمريكية بالقاهرة لعام ٢٠٠٤. أنتهت علية من كتابة روايتها عام ٢٠٠٢، وتدور أحداثها بين فرنسا وكندا، عن حكاية امرأة عراقية، أدت ظروف بلدها الصعبة إلى هجرتها هى وابنها الصغير إلى فرنسا، لتصبح فى منفى اختيارى لها ولأبنها، الذى يكبر ويصبح رجلا بمرور أحداث الرواية، ليهاجر بدوره إلى كندا تاركا أمه بباريس. فراق الوطن والابن، لا يعوضهما شىء، ولكن الصديقات يهون من أثر ذلك فى نفسها، فالغربة والحنين إلى الوطن يجمعها معهن فى تيار واحد.

تدخل «سهيلة» إلى المستشفى فى غيبوبة تامة، فيعود على أثرها ابنها إلى باريس، ليجلس بجوار جسد والدته المسجى يتذكر تفاصيل حياتهما، لتدور معظم الأحداث على لسانه.



Wedding Night

(ليلة الزفاف)

Yusuf Abu Rayya
Translated by R. Neil Hewison
AUC Press, 144PP, 80 LE

فى نقد جرىء للحياة المصرية المعاصرة، ونقل متقن لكل جوانب الحياة فى إحدى البلدات الصغيرة لدلتا مصر، يقدم لنا «يوسف أبو ريه» روايته ليلة الزفاف، الحائزة على جائزة نجيب محفوظ الممنوحة من الجامعة الأمريكية بالقاهرة لعام ٢٠٠٥. الكاتب «يوسف أبو ريه»،

مصـرى وله سـت مجمـوعات من القصص القصيرة وخمس روايات، وعدة كتب للأطفال.

فى قرية صغيرة بدلتا مصر، يعيش حوده الأصم الأبكم، والذى يعمل كصبى جزار مبتدئ.

وبالرغم من صممه وبكمه، الا أنه يكتشف العديد من الأسرار فى بلدته الصغيرة، وهو يكشف تلك الأسرار بلغته المتمثلة فى الإشارات.

ويحكى عن المحظور والمخفى فى مدينته، وليزعزع هدوءها الظاهر لكونها مجتمعا ريفيا، ولكن تلك الرغبة العارمة التى تعتريه بفضح مجتمعه، يعدها أهل البلدة خروجا على التقاليد.

حينما يعلم الجزار صاحب المحل الذى يعمل فيه حوده بانتهاكه لحرمة منزلة وفضح أسراره، يستعين بالشيخ سعدون الصوفى المدّعى، ليساعده فى وضع خطة تجعل من حوده موضع سخرية لأهل البلدة جميعا.



Muntaha

(منتهى)

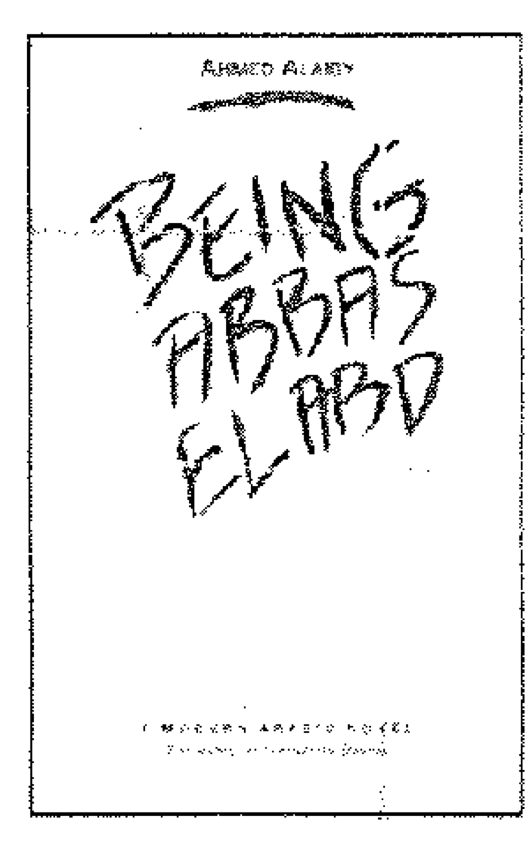
Hala El Badry
Translated by Nancy Roberts
AUC Press, 272PP, 90 LE

فى أواخر الأربعينيات من القرن الماضى، تلك الفترة المؤثرة فى التاريخ المصرى التى شهدت حرب ١٩٤٨ والسنوات الأخيرة من الوجود الإنجليزى فى مصر، وجد أهالى قرية «منتهى» أنفسهم فى دوامة الأحداث العالمية رغما عنهم، واختفت منهم حياتهم الهادئة التى طالما ألفوها وأحبوها.

الرواية مليئة بالتفاصيل الدقيقة عن الحياة الريفية، والمحيط الطبيعى الذى يحيط بها، من صيد السمك وحصد القطن.

كما أبدعت الكاتبة فى وصف الاحتلال وآثاره على القرية المصرية البسيطة، ومقاومتهم الباسلة للاحتلال.

الكاتبة هالة البدرى مدير تحرير مجلة الإذاعة والتلفزيون، وصاحبة أربع روايات، والحاصلة على جائزة أفضل رواية بمعرض القاهرة للكتاب (٢٠٠١).



Being Abbas el Abd

(أن تكون عباس العبد)

Ahmed Alaidy
Translated by Humphrey Davies
AUC Press, 144PP, 70 LE

فى رواية قالت عنها «الديلى ستار» بأنها «بصيص من الأمل لعصر نهضة حقيقى للقصة»، يقدم «أحمد العايدى» الكاتب الساخر، الذى يكتب لصحيفة الدستور المصرية رسوما كاريكاتيرية سياسية، روايته الأولى (أن تكون عباس العبد).

الرواية تُحكى على لسان صديق لعباس العبد بطل الرواية، الذى لا تروق له حياة عباس، فيتهكم عليها، بل ويتمرد عليها فى بعض الأحيان ويحاول الانتقام من طريقة حياة عباس عن طريق الذهاب بدلا منه لملاقاة فتاتين كان يحاول عباس استدراجهما.

نجح العايدى فى تجسيد حالة الشباب المصرى المهمش فى بلده بشكل متقن وبارع، ناقلا حالة الاغتراب أو الفصام التى يعيشها هذا الجيل.

فعباس والراوى، شخصان داسهما قطار البطالة، وعاشا كل مساوئ المجتمع المصرى، وطالهما الفصام والاغتراب، حتى أصبحوا لا يكترثون لشىء، فهم كما قيل على لسان راوى القصة (احنا جيل ماعندناش حاجة نخسرها).

كتـــاب الـــزاويـــة

حياة الرافعى

على السفود

إن الخصومة العنيفة بين الرافعى والعقاد قد تجاوزت ميدانها الذى بدأت فيه، ومحورها الذى كانت تدور عليه، إلى ميادين أخرى جعلت كلا من الأديبين الكبيرين ينسى مكانه ويغفل أدبه ليلغ فى عرض صاحبه ويأكل لحمه من غير أن يتذمم أو يرى فى ذلك معابة عليه. وكان البادئ بإعلان هذه الحرب هو الرافعى فى مقالاته على السفود.

وكان بدء هذه المعركة هو ذلك الحديث الذى دار بين الرافعى والعقاد فى دار المقتطف، حول حقيقة إعجاز القرآن، وكتاب إعجاز القرآن. وكان للعقاد فيهما رأى غير رأى الرافعى، فكانت غضبة الرافعى الأولى لكرامة القرآن والعقاد ينكر إعجازه، ولكتابه والعقاد يجحد فضله، ثم كانت الغضبة الثانية للتهمة التى رماه بها العقاد حين جبهه بأنه افترى كتاب سعد ونحله منه فى تقريظ إعجاز القرآن، ليروج عند الشعب.

ولكن كتاب «على السفود» مع ذلك لا يتناول مسألة المسائل فى هذا الخلاف، فلا يتحدث إلا عن شعر العقاد وديوان العقاد، ثم عن أشياء خاصة تعترض فى فضول القول وحشو الكلام، فأين هذا مما دارت عليه المعركة من أسباب الخصام؟ الرافعى يقول: هذا أسلوب من الرد قصدت به الكشف عن زيف هذا الأديب والزراية بأدبه، حتى إذا تقررت منزلته الحقيقية فى الأدب عند قراء العربية، لا تراهم يستمعون لرأيه عندما يهم بالحديث عن إعجاز القرآن. وهل يحسن الحديث عن إعجاز القرآن من لا يستقيم منطق العربية فى فكره، ولا يستقيم بيانها على لسانه؟.. هكذا يقول الرافعى!

ومن ثم بدأت المعركة على أعين القراء.

The Best Life Diet
(أفضل حمية غذائية)

Bob Greene
Simon & Schuster, $26.00, 304PP, 2007



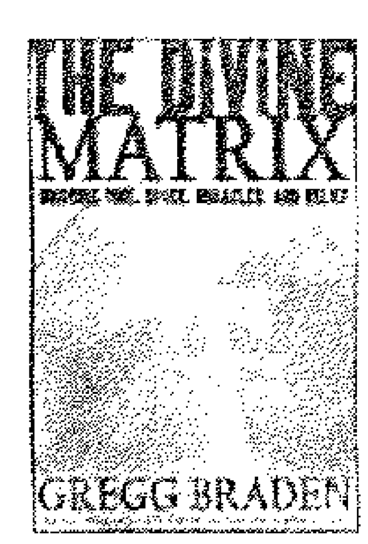
بعد أن ساعد المذيعة الشهيرة «أوبرا» على التخلص من وزنها الزائد، يحاول «بوب جرين» مساعدتك أنت أيضا فى تخفيض وزنك والمحافظة عليه مثاليا، بأقل جهد ممكن وأقل قيود ممكنة. فمع هذا الكتاب تستطيع أن تأكل طعامك الشهى كما تحب، وتعيش حياتك كما ترضاها. فباستخدام هذا الكتاب، تستطيع الحصول على خبير تغذية معك دائما، يساعدك أن تعيش حياة أفضل وبصحة جيدة.

يعترف «جرين» أن عملية تخفيف الوزن صعبة للغاية، فكثير ممن حاولوا تخفيض وزنهم نجحوا، ولكن لم يدم نجاحهم طويلا، فسرعان ما زادت أوزانهم ثانية فى فترة قصيرة. لذا فيحاول «جرين» أن يكون واقعيا فى كتابه واضعا خططا مريحة طويلة المدى تؤدى إلى نتائج باهرة.

من خلال الكتاب تستطيع، بالإضافة إلى معرفة أفضل أساليب الحمية الغذائية، معرفة وصفات مذهلة للعديد من الأطعمة المغذية اللذيذة التى تناسب حميتك الغذائية.

The Divine Matrix
(المصفوفة المقدسة)

Gregg Braden
Hay House, $24.95, 240PP, 2007

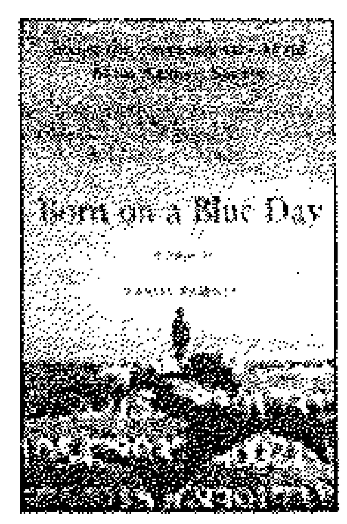


بين عامى ١٩٩٣ و٢٠٠٠، أفضت سلسلة من التجارب الرائدة إلى اكتشاف شبكة من الطاقة الروحية تربط بين كل شىء فى حياتنا وعالمنا، المصفوفة المقدسة تتحكم فى كل شىء: من شفاء أجسادنا إلى مستقبلنا الوظيفى وحتى السلام بين الأمم. هذا الاكتشاف يقيم الدليل على امتلاكنا جميعا للقوة التى تتيح لنا التعامل مع القوة الرابطة لكل شىء، اكتشاف القوة التى تخلق البهجة، وتزيح معاناتك، وتخلق سلامك الداخلى، هو أمر أصبح فى متناول يديك وتستطيع التحكم فيه، لتخلق لنفسك حياة مختلفة ومبهجة.

انضم لجريج جاردن فى تلك الرحلة الروحانية خلال عالم المصفوفات المقدسة.

Born On A Blue Day
(ولد بيوم أزرق)

Daniel Tammet
Free Press, $24.00, 240PP, 2007



أولى الرحلات داخل عقل شخص من خمسين شخصا يعيشون اليوم فى العالم يجمعهم الإصابة بمرض يدعى العبقرية الانطوائية، «دانيل تاميت» الشاب البريطانى ذو السبعة والعشرين عاما، الموهوب بالقدرة على التفكير المجرد، والابتكارى، والفاقد للقدرة على التفاعل والتواصل مع الآخرين.

مهارته الأساسية هى قدرته على الحساب، فهو يقوم بالعمليات الحسابية الضخمة بسرعة ودقة الحاسوب، ولديه مهارات لغوية عظيمة فقد تعلم اللغة الأيسلندية فى أسبوع واحد فقط، وأستطاع أن يسرد ٢٢٥١٤ متوالية من الثابت الرياضى (النسبة التقريبية ط) محطما للرقم القياسى العالمى.

على الرغم من مرضه، إلا أن بارى استطاع الاستقلال ماديا وذلك من خلال موقع على الانترنت يمتلكه، كما استطاع بناء علاقة رومانسية طويلة المدى.

Power, Faith, and Fantasy
(القوة والإيمان والوهم)

Michael B. Oren
W. W. Norton, $35.00, 672PP, 2007



فى كتاب مذهل، وغنى بالمعلومات الفريدة، يقدم «مايكل أورين» مسحا للتدخل الأمريكى فى الشرق الأوسط لقرنين ونصف تقريبا من الزمان، بدءا من عام ١٧٧٦ وإلى الآن.

المصالح الأمريكية طالما لامست المصالح الشرق أوسطية خلال تلك الفترة، باعتباره مركزا للعالم القديم، فمنذ أوائل القرن التاسع عشر بدأ التدخل الأمريكى بالقوة فى الشرق الأوسط حينما أرسل الرئيس جيفيرسون أسطوله البحرى ليجابه القراصنة البربريين على مقربة من الساحل الشمالى لأفريقيا، والتى أعقبها العديد من صور التدخل الأخرى التى كانت نتائجها جميعا مزيجا من النجاح والفشل والهزل.

الجزء الأفضل من الكتاب هو ما يتعرض فيه الكاتب للتدخل الأمريكى فى القرن العشرين الذى كان محركه الأول البترول، بدءا من الحربين العالميتين الأولى والثانية وصولا إلى حرب العراق، معتبرا الولايات المتحدة الأمريكية قد حلت مكان الإمبراطورية البريطانية فى الشرق الأوسط.

Palestine: Peace Not Apartheid
(فلسطين: السلام وليس التفرقة العنصرية)

Jimmy Carter
Simon & Schuster, $27.00, 288PP, 2007

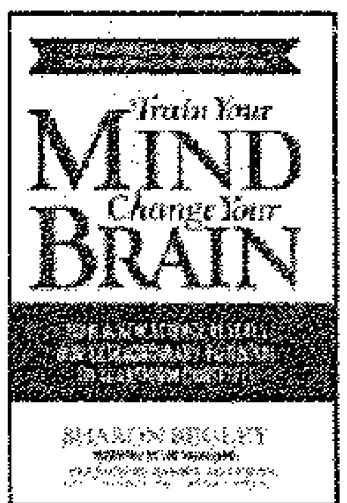


الرئيس الأمريكى السابق «جيمى كارتر» الذى توج فترته الرئاسية باتفاقية كامب ديفيد بين الجانبين المصرى والإسرائيلى، والحاصل على جائزة نوبل للسلام عام ٢٠٠٢، يعود ثانية بعد كونه مهندسا لاتفاقية كامب ديفيد، بهذا الكتاب إلى القضية الفلسطينية ومسألة السلام.

كارتر لا يزال يرى أن هناك أملاً فى الحل السلمى، وهناك طرق عدة لحل هذا الصراع الدائر، فمن خلال كتابه يستعرض القضايا المختلفة محل النزاع، محاولا إيجاد طرق وسبل عدة لحلها، ملقيا اللوم الأكبر فى فشل عملية السلام على الجانب الإسرائيلى، الذى قوضت حكومته عملية السلام على مر السنين بإصرارها على الاحتلال غير الشرعى للأراضى العربية المحتلة من بعد عام ١٩٦٧، وملقيا أيضا اللوم على الحكام العرب الذين لم يستطيعوا أحيانا التعامل بحكمة كافية مع معطيات الموقف.

Train Your Mind, Change Your Brain
(درب عقلك، غير مخك)

Sharon Begley
Ballantine Books, $24.95, 304PP, 2007



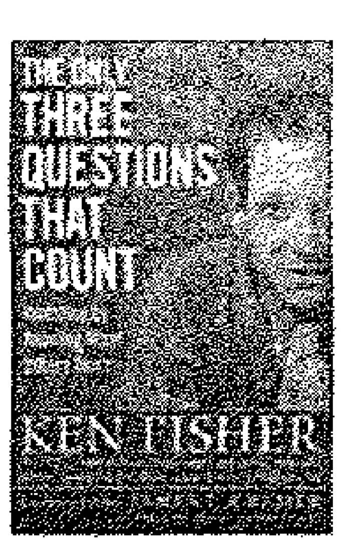
هل من الممكن تغيير بناء ووظيفة المخ؟ الإجابة تأتى من خلال هذا الكتاب بنعم قاطعة، استنتجها العلماء من خلال دراسات عدة قاموا بها فى أواخر ٢٠٠٤ عندما زارت مجموعة منهم الدلاى لاما فى بيته بالهند، ومكثوا معه بعض الوقت ليدرسوا أدمغة الراهبين البوذيين والآثار العصبية التى تحدث نتيجة للطقوس الروحانية.

لعقود طويلة، كان الاعتقاد السائد لعلم الأعصاب بثبات أجهزة الدماغ وعدم تجددها، ولكن «بيجلى» من خلال هذا الكتاب يستعرض التجارب الأولى الرائدة فى علم ليونة الأعصاب- هذا العلم المستحدث الذى يبحث فى إمكانية مرور المخ بتغيرات واسعة-كاشفا أن المخ لا يستطيع فقط تعديل تركيبه وإنما أيضا بناء خلايا عصبية جديدة، حتى فى سن الشيخوخة، فالمخ دوما يستطيع التكيف والشفاء والتعويض بعد الصدمات العصبية.

فى محاولة لفهم العقل الإنسانى والتفاعل بينه وبين المخ، وكيفية التحكم فيه، ومن خلال ربط الممارسات البوذية الكلاسيكية بالعلم الحديث، يأتى هذا الكتاب الثورى مقدما معنى جديدا للإنسانية.

The Only Three Questions That Count
(الأسئلة الثلاثة المؤثرة)

Kenneth L. Fisher, Jennifer Chou, Lara Hoffmans. James J. Cramer
Wiley, $27.95, 480PP, 2007



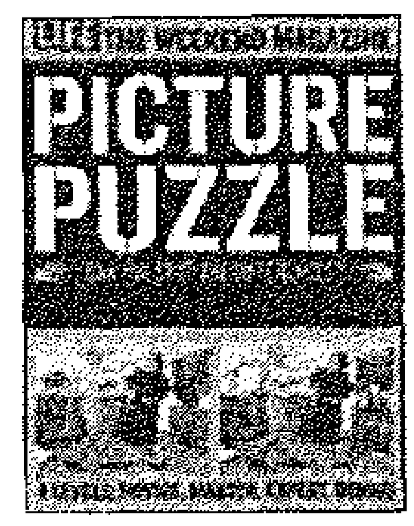
الكتاب الوحيد الذى يتيح لك الاستثمار بناء على معرفتك بما لا يعرفه

الآخرون، فهو دليل ذكي يقدم لك مفاتيح الأسئلة التي لابد أن تطرحها قبل أي فرصة استثمار تظهر أمامك.

في الأسئلة الثلاثة المؤثرة، يقدم المؤلفون طرقا غير تقليدية، متحدين النظريات التقليدية للاستثمار، ومفجرين اعتقادات جديدة حول المال والأسواق.

الكتاب مليء بأكثر من ١٠٠ صورة ورسم توضيحي، والعشرات من الإحصائيات المختلفة لأسواق المال.

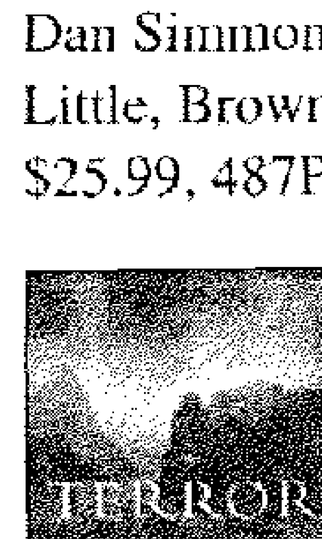
Life: Picture Puzzle
(الحياة: لغز الصورة)
LIFE MAGAZINE EDITORS
Life, $7.99, 144PP, 2007



من أكثر ما يميز العدد الأسبوعي من مجلة «الحياة» الصفحة الأكثر شعبية بأمريكا، لغز الصورة، التي تكاد أن تكون نشاطا أساسيا في حياة ١٣ مليون عائلة من قراء المجلة، وبناء على طلب المئات من القراء، أصدرت المجلة كتابا للغز الصورة.

الكتاب يحتوي على العديد من الصور التي احتلت مكانا من قبل بالمجلة مرفقة بخبر ما، أو تحكي قصة ما، كما يحتوي على ثلاثة مستويات مختلفة من الاختلافات بين الصور وهو ما لم تكن المجلة تقدمه من قبل.

The Terror
(السفينة «تيرور»)
Dan Simmons
Little, Brown and Company, $25.99, 487PP, 2007

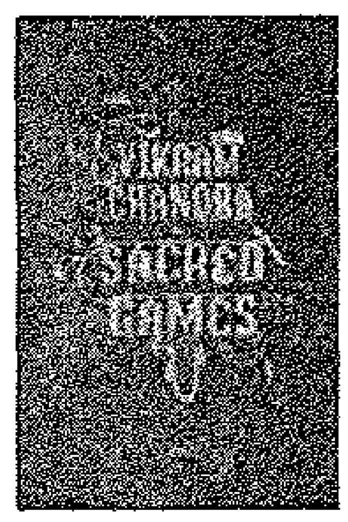


«دان سيمونز» الروائي الشهير والغزير الإنتاج، يكتب ولأول مرة قصة تاريخية، والتي تسرد قصة بعثة «فرانكلين» المفقودة في العقد الثالث من القرن التاسع عشر.

القصة تدور حول إبحار أكثر من ٢٠٠ رجل على متن السفينتين «تيرور وإريباس» في رحلة استكشافية في القطب الشمالي بحثا عن الممر الشمالي الغربي، ولم يعثر لهم على أثر بعد ذلك، حتى عثر في وقت قريب على بقايا بعض الناجين.

«سيمونز» يتخيل الأحداث التي مرت بطاقم السفينتين في وقت لم يكن أحد ليعرف أنهم على قيد الحياة: كيف ظلوا على قيد الحياة في القطب الشمالي، وكيف تساقطوا الواحد تلو الآخر نتيجة انهيارات ثلجية، مجاعات وانخفاض درجات الحرارة.

Sacred Games
(اللعبة المقدسة)
Vikram Chandra
HarperCollins, $27.95, 928PP, 2007



رواية عنيفة ومخيفة وحزينة ومضحكة ومركبة ولا تقاوم، كالهند التي تدور فيها أحداث الرواية، فقط اترك نفسك مع الرواية لتكتشف كيف تبقى الهند ذات نسيج واحد على الرغم من تعدد الأديان ومئات اللهجات واتساع البلاد والفساد المنتشر في كل مكان.

الأحداث الرئيسية للقصة تحدث بين مفتش شرطة مومباي السيخي «سارتاج»، وأحد أشهر رجال العصابات «غانيش»، الرواية تدور حول مطاردة الشرطة لرجل العصابات المختبئ في أحد الملاجئ.

تحتوي رواية «شاندرا» كبيرة الحجم على تصوير للحوار بين الخير والشر، وإظهار للفساد المنتشر، وتسير في جولة حول شوارع الهند، مصورة للمجتمع الهندي الحديث.

Too Soon to Say Goodbye
(قريبا من قول الوداع)
Art Buchwald
Random House, $17.95, 208PP, 2007

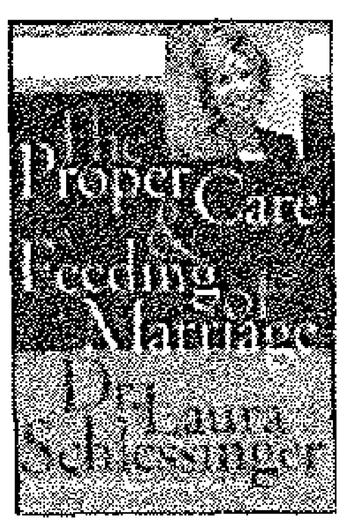


الكاتب الساخر «أرت بوشوالد» الحائز على جائزة بوليتزر والذي رحل مؤخرا عن عالمنا، واجه متاعب صحية بكليته في أوائل عام ٢٠٠٦، مما يستدعي إجراء غسيل مستمر للكلية، لذا قرر الانتقال إلى إحدى دور رعاية المسنين بواشنطن، وهناك شرع في كتابة هذا الكتاب الذي ربما يكون آخر كتبه.

الكتاب يأتي ساخرا، يصف فيه حياته في دار المسنين ناقلا بين الحين والآخر لمحات من حياته السابقة، متعرضا لمختلف قضايا نهاية العمر، مثل وصيته، وتصوره لجنازته، بل وتخيله لما قد يجده في الجنة.

الكتاب وبالرغم من أسلوبه الساخر إلا أنه قد يبكي القارئ في بعض الأحيان بسبب مشاعر «بوشوالد» المرهفة، وأيضا يجعل القارئ مبهورا بشجاعته وقوته أمام الموت.

The Proper Care and Feeding of Marriage
(العناية الصحية وإشباع الزواج)
Dr. Laura Schlessinger
Harper Collins, $25.95, 240PP, 2007

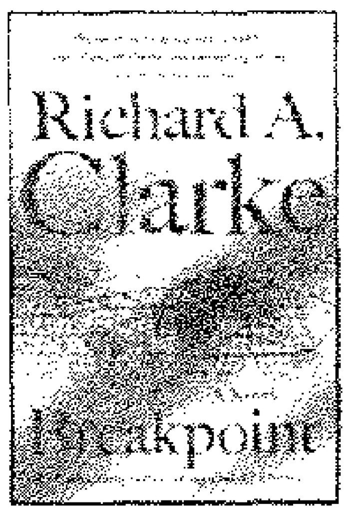


الطريق الأفضل لإنجاح الزيجات في رأي «لورا شليسينجر» - المضيفة لبعض البرامج الحوارية والمعلقة الصحفية - هو تفهم الرجال والنساء لمفهوم الذكورة والأنوثة وتقدير اختلاف الخصائص بين الجنسين.

تقول المؤلفة أنه لابد من الاعتراف بين الأزواج بالاختلافات بين الطبيعة الذكورية والأنثوية، ومعرفة أن لكل منهم قوته وتحكمه في العلاقة، ولكل منه حاجاته المختلفة التي تهدف لإشباع شخصي. وتعطي المؤلفة حلولا واقعية لإنجاح الزيجات مستوحاة من قصص واقعية عايشتها من خلال برنامجها الإذاعي.

ترى أيضا المؤلفة أن إنجاح العلاقة الزوجية بيد الجنس اللطيف أكثر مما هو بيد الرجال، فالنساء بطبيعتهن الأنثوية قادرات على توطيد العلاقة بأزواجهن وترويجها، كما تؤكد المؤلفة على وجوب احترام تقسيم الأعمال بين الطرفين واحترام منزلة المرأة كربة البيت.

Breakpoint
(نقطة التوقف)
Richard A. Clarke
Putnam Adult, $25.95, 320PP, 2007



في كتابه «ضد كل الأعداء» حذر «ريتشارد كلارك» الخبير الأمريكي في مكافحة الإرهاب، من الطريقة التي تدور بها الحرب ضد الإرهاب.

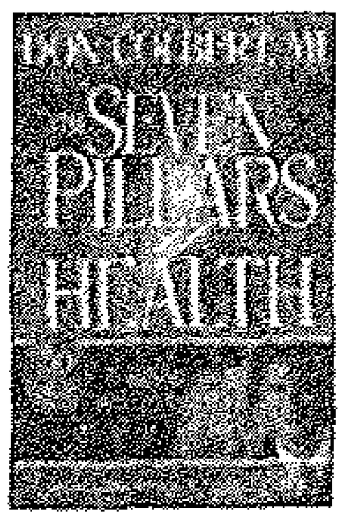
وفي روايته الأولى «بوابة العقرب» أوضح ما قد يحدث، والآن في «نقطة التوقف» يخمن ما قد يحدث بعد ذلك.

القرية العالمية، المجتمع الشبكي الذي يربط كل اقتصاديات وحكومات العالم بعد خمس سنوات من الآن، تسعى مجموعة إرهابية محترفة إلى تدمير العالم، عن طريق تدمير ذلك المجتمع الشبكي والأقمار الصناعية وشركات التقنية الكبرى.

تبذل العديد من محاولات تعقبهم، ويبحث الأمريكيون في كل اتجاه، جماعات اليمين المتطرف، ومنظمات الجريمة المنظمة، والجهاديين، وجميع الأعداء المحتملين، ولكن لا أمل في الوصول إليهم.

تتزايد الهجمات الالكترونية أكثر، وتكاد الشبكة أن تصل إلى نقطة التوقف التي بعدها ينهار اقتصاد العالم كله.

The Seven Pillars of Health
(سبع دعامات للصحة)
Don Colbert, Mary Colbert
Siloam Press, $19.99, 295PP, 2007

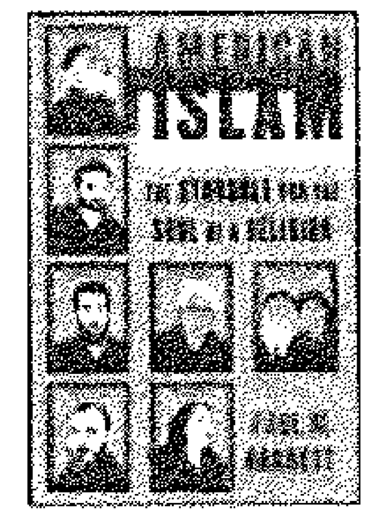


يجب عليك أن تفعل كل ما بوسعك للحفاظ على صحتك، فأكثر الأمراض أسبابها تعود إليك، وإلى أسلوب حياتك، فالغذاء غير الصحي، وقلة التمرينات الرياضية، والإجهاد الناتج عن الضغط العصبي، وعدم انتظام النوم أو نقصه، كلها مسببة للأمراض.

فى هذا الكتاب سبع دعامات أساسية ستمكنك من الاستمتاع بالحياة بصحة أفضل، وهم (الماء، النوم والراحة، الغذاء الملائم، التمارين الرياضية، إزالة السموم بالجسم، تحمل الإجهاد، وبعض المكملات).

American Islam
(الإسلام الأمريكى)

Paul M. Barrett
Farrar, Straus and Giroux,
$25.00, 320PP, 2007



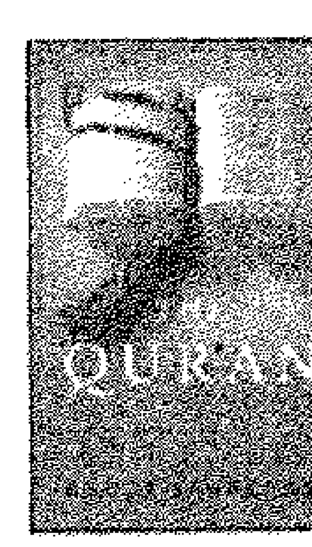
قرب انتهاء «باريت» من هذا الكتاب، شهد مسجد كاليفورنيا نقاشا داخليا ساخنا حول إمكانية استضافة ألعاب نارية يوم الرابع من يوليو (عيد الاستقلال)، ولكن ما حدث فى الرابع من يوليو كان إنارة لمئذنة وقبة المسجد للحظات بألوان العلم الأمريكي الأحمر والأبيض والأزرق. وهذا الموقف يبلور العديد من التوترات التى يتحدث عنها هذا الكتاب.

يوضح «باريت» كيف يكافح العديد من المسلمين الأمريكيين من أجل أن يجمعوا بين كونهم مسلمين مخلصين، ووطنيين فى نفس الوقت، والمعاناة التى يواجهونها فى المجتمع الأمريكى الحديث، ثم يستطرد عن التنوع الأيديولوجي والعرقى بين المسلمين الأمريكيين.

الكتاب دراسة جيدة للمجتمع الإسلامى الأمريكى، خصائصه ومشاكله، ومحاولات الاندماج فى المجتمع.

The Qur'an
(القرآن)

Bruce Lawrence
Atlantic Monthly Press,
$20.95, 256PP, 2007



فى إطار تلك السلسلة من الكتب التى تستعرض الكتب التى غيرت العالم، يكتب «بروس لورانس» أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة الدوق، سيرة ذاتية للقرآن، الكتاب السماوى الذى ظهر قبل أكثر من أربعة عشر قرنا.

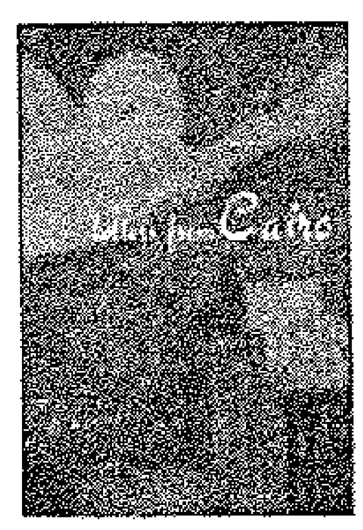
يحاول «لورانس» أن يستعرض أهم معانى القرآن الكريم وتفسيرا لها، ويعرف القارئ بالقرآن الكريم، موضحا مدى انتشاره، وعدد المؤمنين به، وتوحده فى اللغة والشكل ضاربا مثلا بأن الكلام المنقوش على المساجد فى كل أنحاء العالم هو كلام واحد بلغة واحدة.

الكاتب يستعرض أهمية القرآن للمسلمين وكيف يتم استخدامه كشفاء للأمراض.

بل وكيف يتم تفسيره على عدة أوجه، محللا فى سياق الحديث استخدامات أسامة بن لادن لمقتطفات من القرآن فى خطاباته.

Letters from Cairo
(خطابات من القاهرة)

Pauline Kaldas
Syracuse University Press,
$19.75, 136PP, 2007



عندما سافر زوجها لتدريس الأدب الأمريكى بجامعة القاهرة، بدأت «بولين» رحلتها فى العودة إلى الوطن.

فهى ولدت بمصر، ثم هاجرت إلى الولايات المتحدة فى الثامنة من عمرها، والآن تعود إليها مع أطفالها.

«بولين» تكتب هذا الكتاب كعربية أمريكية، يمتد على مدى هويتين ووطنين مختلفين، تسجل «بولين» فى هذا الكتاب مجموعة من الرسائل التى أرسلتها إلى أصدقائها فى الولايات المتحدة، وبعض المقالات والمقالات التمهيدية لبعض المجلات، لتسجل صورة مفصلة عن كيفية العيش بالقاهرة.

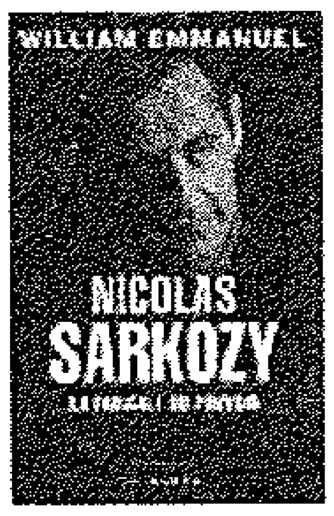
تعكس الكاتبة فى كتابها تأملا جميلا فى معنى الوطن والعائلة والجذور.

كما تصور المؤلفة تعقيدات الثقافة المصرية وصدامها معها والقضايا المصرية المختلفة السياسية والتعليمية.

أكثر ما فى الكتاب سحرا، رسائل أطفالها ورسوماتهم، والصور العديدة التى يضمها الكتاب بين دفتيه.

Nicolas Sarkozy. La fringale du pouvoir
(نيكولا ساركوزى.التعطش إلى السلطة)

William Emmanuel
Paris, Flammarion, 2007,
412pp, 22 euros.



فى عينى نيكولا ساركوزى، المرشح الأقوى فى الانتخابات الرئاسية الفرنسية، بوسعك أن تقرأ سطورا طويلة من كتاب «الأمير» لمكيافيللى. لكن هذه السيرة الشخصية التى يقدمها الكاتب الفرنسى ويليام إيمانويل، الصحفى بوكالة رويترز، تطمح الى تقديم صورة متوازنة لمرشح حزب «التجمع من أجل حركة شعبية»، فى وقت لم يعد خافيا على أحد قوة الدفع التى يتحرك بها الرجل للوصول إلى سدة الحكم. ويصور هذا الكتاب الجديد بلدا يعانى من فقدان بوصلته: يبدو فيه ساركوزى وكأنه رجل الساعة الذى سيتحقق على يديه «التغيير»، وتتخذ معه سياسة البلاد منحى آخر. إذ تبين استطلاعات الرأى استحواذه على ثقة قطاع عريض من كتلة الناخبين، وتبدو وسائل الإعلام وكأنها تكتشفه للمرة الأولى رغم تواجده داخل أروقة السلطة منذ عام ١٩٧٠. لذلك يسعى الكاتب إلى العمل -بغير أحكام مسبقة- على رصد مسار الرجل الطامح إلى الاستقرار فى قصر الاليزيه. فمن هو حقا ذلك الرجل الذى عرف عنه إدمانه للعمل وإجادته لفنون الخطابة واللعب بالكلمات، والذى طالما نجح فى خداع جاك شيراك وهو يقنع الجميع بأنه يحاول أن يتشبه به، قبل أن يقرر هجره للانضمام إلى فدوار بالادور عام ١٩٩٥، ليناصب الرئيس منذ ذلك الوقت ندية صريحة وتنمرا صامتا؟ ما هو المحرك النفسى لهذا المرشح العجول المهووس بطلب السلطة، ذلك السياسى الذى درس المحاماة فتعلم ألا يتردد فى استخدام كل الحجج وسلك كافة السبل للوصول إلى أهدافه، حتى وإن اضطر لإقحام حياته الشخصية على مسرح الأحداث؟ وبعد، ما هى انجازات الوزير الأكثر بروزا فى الإعلام الفرنسى على مدار أعوام الجمهورية الخامسة بأسرها- سواء حين كان وزيرا للاقتصاد أو فى توليه لوزارة الداخلية؟ هل من تناقض بين وعوده والوقائع؟ كيف يمكن تقييم مساره؟ ومن هم الأشخاص المحيطون به؟ وهل هو فى المحصلة رجل الأقوال لا الفعال؟

تلك هى الأسئلة التى يحاول الكتاب الإجابة عليها بشىء من الحيادية وكثير من المعلومات الموثقة فى محاولة لمعرفة المفاتيح الرئيسية لفهم شخصية نيكولا ساركوزى. لكن الكتاب لا يناقش من قريب أو بعيد ما يمكن أن يعنيه الحماس الدائم وغير المشروط الذى يعلنه المرشح الفرنسى الطموح إزاء السياسة الأمريكية، الى الحد الذى حمله على انتقاد سياسة بلاده أثناء زيارته لواشنطن منذ أشهر، بصورة تمثل أوج التناقض بين أبجديات الهوية الفرنسية وتبعات الهوى الأنجلوساكسونى. هذا ويغفل الكاتب فكرة إعداد قسم خاص لأهم التصريحات التى شنف بها ساركوزى آذان جماهيره، لاسيما تصريحه العنصرى الشهير إبان أزمة الضواحى الفرنسية عام ٢٠٠٥، حين أعلن رغبته فى سحق «الحثالة» المتسببة فى إشعال أعمال الشغب و«كنسها» من البلاد، مفجرا بذلك مشاعر الغضب لدى العرب والمسلمين فى العالم، ومثيرا موجة من الاستنكار المحلى وصلت إلى حد مطالبة أحزاب اليسار الفرنسى باستقالته من منصبه كوزير للداخلية. وبعد، لا يشرح الكتاب كيف يمكن أن يكون ساركوزى، وهو فى الأصل ابن لعائلة من المهاجرين المجريين، هو نفسه المسئول عن قوانين الهجرة الانتقائية المتعسفة؟ كما يقف الكتاب دون شرح كيفية ورود اسم ساركوزى فى قائمة المتورطين فى قضية الفساد Clearstream وما من أثر فى الكتاب للتعريفات البرجماتية البراقة التى يزخر بها قاموس ساركوزى لتفسير فعل «الخيانة»، خيانة المعلم والصديق والرفيق والمبدأ. لكن الأهم هو إمساك الكتاب عن إبراز الموهبة الكبرى التى يتحلى بها نيكولا ساركوزى فى التوليف بين المتناقضات: كأن يجتهد طوال عمله الحكومى فى زرع الفرقة وإثارة نزعة الفئوية بين الفرنسيين، ليأتى فى الرابع عشر من يناير الماضى ليطرح خطته الانتخابية تحت شعار توفيقى «معا كل شىء ممكن» فى احتفالية مسرحية باهظة التكاليف، حضرها أكثر من مائة ألف شخص، تبنى فيها ساركوزى كل الأفكار وأضدادها، ونثر خلالها وعودا برخاء كان قد أخفق فى تحقيقه حين كانت له حقيبة الاقتصاد، وتحدث فيها عن ضمانات لحريات مازال يتلاعب بها من موقعه كوزير للداخلية. ولكون «كل شىء ممكن» مع ساركوزى، فقد أدلى المرشح اليمينى بتصريحات تقترض من فكر اليسار، وتستعير من برنامج مرشحة الحزب الاشتراكى للرئاسة سيجولان رويال، وتقتبس من عبارات الزعيم الاشتراكى الرمز جان جوريس. كما تراجع عن كثير من مواقفه السالفة (مثلا فيما يتعلق بتعديل الدستور)، بل انه قد ذهب فى خطابه إلى تحية غريمه اللدود شيراك، وإمعانا فى إخفاء هواه الأمريكى، أيد ساركوزى موقف فرنسا فى رفض الإستراتيجية الأمريكية فى العراق. واستجابة لمقتضيات الأداء المسرحى، تخلى الخطيب عن صورته المألوفة كآلة سياسية صماء، وانتحل فى إطلالته الجديدة ملامح إنسانية طلقة، شفعها بنبرة حميمة جد مؤثرة وعينين تكاد تلمح فيهما التماع الدمع...

وفى قاعة المؤتمر الشاسعة، أطلت «وجوه» ساركوزى على الشاشات العملاقة التى أحاطت تماما بالحاضرين، وتراقصت الأضواء وهفهفت الأعلام وعلت موسيقى الحماس، فى أجواء استعراضية صاخبة الترف، تنتمى إلى عالم الـ «شوبيزنس» الأمريكى.

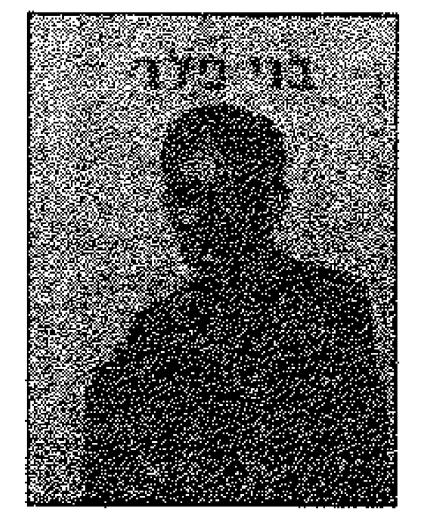
السيدات والسادة، الأطفال من جميع الأعمار، لا تقرءوا الكتاب الذى أقدمه لكم اليوم! فقط أنصتوا لرياح التغيير...

فقد تهب هذه المرة على الأراضى الفرنسية عبر الأطلسى، فى سلسلة من التغيرات المناخية الدراماتيكية، التى تهدد مظاهر الحياة على كوكب الأرض.

داليا توفيق سعودى

كـــتب عبـــريـــة

(رجل فى الظلال)
افرايم هليفى
مطر، ٢٢٣ صفحة، ٢٠٠٦
אדם בצל
אפרים הלוי
מטר
225 עמודים
2006



يعتبر إفرايم هليفى، الرئيس السابق لجهاز المخابرات الإسرائيلى للعمليات الخارجية «الموساد» واحداً من أكثر الشخصيات التى أثرت على عملية صنع القرار فى الدولة العبرية سيما فى كل ما يتعلق بعلاقات هذه الدولة مع العالم الخارجى، وتحديداً مع العالم العربى. هليفى فى كتابه الجديد «رجل فى الظلال: الأزمة فى الشرق الأوسط فى نظر الرجل الذى قاد الموساد» يتحدث عن الكثير من الفرص التى أهدرتها الحكومات الإسرائيلية للتوصل لاتفاقيات وتسويات كان من الممكن أن تدفع باتجاه تحسين الأوضاع الأمنية داخل إسرائيل. ويكشف هليفى فى كتابه النقاب عن أنه قبل أيام معدودة من قيام إسرائيل بمحاولة اغتيال رئيس المكتب السياسى لحركة حماس خالد مشعل فى عمان فى صيف العام ١٩٩٧، نقل الملك حسين إلى رئيس الحكومة الإسرائيلية فى ذلك الوقت بنيامين نتنياهو اقتراحاً من قيادة حماس بالتوصل إلى هدنة مع إسرائيل تصل إلى ٣٠ عاماً. ويستدرك هليفى أن الاقتراح وصل إلى نتنياهو بعد محاولة اغتيال مشعل الفاشلة، الأمر الذى جعل الاقتراح غير ذى صلة. ويتوسع هليفى فى الحديث عن ظروف محاولة الاغتيال الفاشلة التى تعرض لها مشعل وتداعياتها، وذلك عندما قام أربعة من عناصر «الموساد» بوضع السم فى أذن مشعل، وإلقاء القبض على اثنين منهم من قبل أحد حراس مشعل الذى قام بتسليمهم إلى الأمن الأردنى. ويشير هليفى إلى أن الملك حسين غضب فى حينه غضباً شديداً، واعتبر ما جرى خيانة إسرائيلية له، لا سيما أن هذه العملية جاءت فى ظل العرض الذى نقله إلى إسرائيل من حماس قبل أيام. وأضاف هليفى الذى كان فى ذلك الوقت نائب رئيس الموساد أن نتنياهو طلب منه التوجه لعمان لتهدئة الملك. هليفى يقول إن حسين كان هائجاً لدرجة أنه درس إمكانية اقتحام مقر السفارة الإسرائيلية فى عمان والقاء القبض على بقية عناصر الموساد الذين شاركوا فى تنفيذ محاولة الاغتيال. وفى المداولات التى أجريت فى جهاز «الموساد» حول سبل تهدئة الملك طرح اقتراح أن تقوم إسرائيل بتزويد الأردن بأجهزة للرؤية الليلية وتطوير الطائرات الحربية التابعة لسلاح الجو الأردنى، إلا أن هليفى فكر بطريقة أخرى حيث اقترح إطلاق سراح الشيخ احمد ياسين زعيم ومؤسس حركة حماس ونقله إلى الأردن، وبعد ذلك يطلب الملك حسين من إسرائيل إعادته إلى قطاع غزة. ويكشف هليفى أن إسرائيل حذرت الملك حسين خلال حرب الخليج الأولى فى العام ١٩٩١ من إمكانية أن تشن ضده حملة عسكرية قوية فى حال واصل السماح للطائرات العراقية بالتدريب غرب الأردن، سيما فى المنطقة القريبة من منطقة النقب، وفى موازاة المفاعل الذرى الإسرائيلى بديمونا. ويشير هليفى إلى أنه كان المسؤول عن العلاقات بين إسرائيل والملك حسين فى عهد حكومة رابين الثانية. ويذكر أن الملك حسين كان منزعجاً من الاتصالات السرية التى كان يجريها الرئيس الفلسطينى الراحل ياسر عرفات وإسرائيل قبيل التوصل لاتفاقية أوسلو. ويضيف هليفى انه عندما تبين للملك حسين وجود هذه الاتصالات طلب من إسرائيل تفسيرات حول ذلك. ويقول هليفى أن الملك حسين كان يرى فى الاتصالات بين إسرائيل وعرفات خيانة، حيث إنه كان يخشى أن تسمح إسرائيل لعرفات بزيارة القدس.

(لمن يقدم المجلس المشورة)
ابيعازر يعارى
مركز يافا للدراسات الاستراتيجية، جامعة تل أبيب، ٢٠٠٦

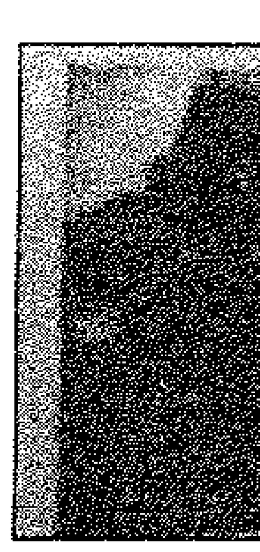
למי מייעצת המועצה
אביעזר יערי
מרכז יפה למחקרים אסטרטגיים
2006



فى العام ١٩٩٩ أصدر رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق بنيامين نتنياهو قراراً بتشكيل مجلس للأمن القومى فى إسرائيل، بحيث يتبع مباشرة ديوان رئيس الوزراء ويختص فى تقديم المشورة والنصح له فى كل ما يتعلق بمجالات الأمن القومى المختلفة. كتاب «لمن يقدم المجلس المشورة» الصادر حديثاً عن «مركز يافا للدراسات الإستراتيجية» التابع لجامعة تل أبيب لمؤلفه الجنرال ابيعازر يعارى، يدلل على أن هذا المجلس قد اعتراه الصدأ، لأن أحداً لا يحتاج لخدماته فى الواقع. يعارى الذى شغل فى السابق مناصب مرموقة فى شعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية وقاد «كلية الأمن القومى» التابعة لهيئة أركان الجيش الإسرائيلى، يؤكد أن الحرب الأخيرة فى مواجهة حزب الله أثبتت أن هذا المجلس لا قيمة له وأنه مؤسسة لا تؤدى عملاً ذا تأثير. يعارى أجرى لقاءات مع جميع قادة مجلس الأمن القومى منذ تأسيسه وحتى الآن، وقد اجمع هؤلاء وجميعهم جنرالات متقاعدون فى الجيش والمخابرات والموساد، على أن ديوان رئيس الحكومة الإسرائيلية الذى يجرى فيه اتخاذ القرارات بالغة الأهمية والخطورة لا يقوم بعمليات إعداد مناسبة قبل اتخاذ هذه القرارات، ولا يكلف مجلس الأمن القومى الذى يتبعه بدور مناسب فى عملية صنع القرار. وهكذا فإن العناصر الأكثر تأثيراً على اتخاذ القرارات بقيت أساساً منحصرة فى الوزارات والجيش وجهاز الأمن، لأنها الأجهزة الأكثر قوة ونفوذاً فى المنظومة العامة. وفى الواقع فإنه منذ إقامة مجلس الأمن القومى، فى العام ١٩٩٩، تجاهلت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة واجبها المنصوص عليه فى القانون المتعلق بهذا المجلس، وهو أن تُشرك مجلس الأمن القومى فى عملية اتخاذ القرارات الأمنية، وأن تراه جهة ذات وزن رئيس فى مجالات الأمن القومى. وليس هذا فحسب وإنما أيضاً قام رؤساء الحكومات بكل شىء من أجل جعل مجلس الأمن القومى قزماً، ومن أجل عدم إشراكه فى مسارات اتخاذ القرارات الرئيسة التى تتصل بأمن الدولة العام.

(حساب مفتوح)
اهارون كلاين
يديعوت احرونوت، ٢٠٠٦، ٢٢٢صفحة

חשבון פתוח
אהרון קליין
ידיעות אחרונות
222 עמודים
2006



كثير من الكتب صدرت وتتناول الجرائم التى اقترفها جهاز الاستخبارات الإسرائيلية للمهام الخارجية «الموساد» ضد الفلسطينيين والعرب. مؤخراً انضم كتاب آخر لهذه القائمة من الكتب. فكتاب «حساب مفتوح» لمؤلفه اهارون كلاين يلقى الضوء للمرة الأولى على عدد من عمليات الاغتيال التى ارتكبها «الموساد» ضد قادة النضال الوطنى الفلسطينى. يفسح الكتاب مجالاً واسعاً للحديث عن قيام «الموساد» باغتيال وديع حداد، القيادى البارز فى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فى العام ١٩٧٨. الكتاب يشير إلى أنه توجد لدى جهاز الموساد معلومات تؤكد ولع حداد الذى كان مقيماً فى ذلك الوقت فى بغداد بالشيكولاتة، وسيما البلجيكية. فأمر الموساد أحد عملائه من الفلسطينيين من الذين استطاعوا التسلل إلى داخل الجبهة الشعبية بأن يحمل من أوروبا إلى بغداد شيكولاته بلجيكية مسمومة. والسم الذى تم إدخاله إلى الحلوى هو مادة بيولوجية تعمل على انهيار الجهاز المناعى فى الجسم بالتدريج فيموت الشخص الذى يأكلها فى غضون عدة أسابيع، وهذا ما حدث بالفعل لحداد الذى وقع فى الشرك الذى نصبه له رجال الموساد وأكل من الشيكولاتة. ويشير الكتاب لأول مرة إلى مسؤولية الموساد عن تصفية المفكر الفلسطينى وائل زعيتر الذى ترجم «ألف ليلة وليلة» إلى الإيطالية، وذلك بزعم أنه كان قاد منظمة «أيلول الأسود» التى تبنت مسئولية تنفيذ عملية «ميونيخ»، التى قتل فيها أحد عشر إسرائيليا. وينوه الكتاب إلى أن رئيسة الوزراء الإسرائيلية غولدا مائير قامت بالتوقيع على أمر تصفية زعيتر على اعتبار أنه زعيم «منظمة أيلول الأسود»، مع العلم أن مائير وبناء على مشورة مستشارها الأمنى اهارون ياريف أصدرت قرار عاماً بتصفية كل من له علاقة بهذه المنظمة. ويتطرق الكتاب إلى عدد من عمليات الاغتيال التى قام بها «الموساد»، ومنها تصفية عاطف بسيسو مسئول الأمن فى حركة «فتح»، الذى تمت تصفيته فى فرنسا. وأشار المؤلف إلى أن معظم عمليات الاغتيال التى نفذها الموساد نفذت بحجة منع عمليات فى المستقبل ضد أهداف إسرائيلية. وضمن العمليات التصفية التى قام بها الموساد كان اغتيال محمد بودية، وهو ممثل وصاحب مسرح فى باريس. ويذكر أن عمليات التصفية التى يقوم بها الموساد تعتمد بشكل أساسى على معلومات استخبارية دقيقة يتم جمعها من قبل عملاء الموساد حول الأشخاص المرشحين للتصفية، وبعد ذلك يتم تكليف فرق الموت التابعة للموساد بتنفيذ العملية.

قراءة

أيمن الصياد

هناك «حقيقة» خلف كل ستار

الصحافة الحقيقية



«المختلف»..

الوصف أطلقه «روجر كوهين» في الهيرالد تريبيون قبل سنتين على الصحفي الأمريكي الأكثر احتراما «سيمور هيرش»، معتبراً: «أننا.. نحن الصحفيين الغربيين، أو معظمنا على الأقل أصبحنا دون أن ندري عبيدا للـ MSM وهو اختصار بات شائعا لـ Main Stream Media . صحفي واحد ربما - يقول كوهين - وللمرة الثانية خلال ٣٥ عاما يثبت أنك «كصحفي .. يمكن أن تكون مختلفاً».

كان كاتب الهيرالد يتحدث عن كيف فضح سيمور هيرش فضائح سجن أبو غريب، في وقت كان الأمريكيون فيه مزهوين بما بدا انتصارا في العراق، ومخدرين بدعاوى ترويج الديموقراطية و«حقوق الإنسان»، بالضبط كما فعل أواخر الستينيات حين كشف بالأدلة مذبحة May Lai (حيث قامت مجموعة من الجنود الأمريكان لمدة يوم كامل بإبادة جميع سكان قرية فيتنامية تدعى «صن ماي» عرفت على خرائط الجيش الأمريكي بـ My Lai 4).

في الواقعتين كان الإصرار، والعمل «الحقيقي» الدءوب، والرغبة في الحصول على التفاصيل الدقيقة الصحيحة، والقدرة على الإنصات والاستعداد لسماع كافة الأطراف، والشجاعة في مواجهة أصحاب النفوذ، وراء السبق الصحفي الذي حققه هيرش، وقدرته على كشف ماأراد له البعض أن يظل خافياً. واستطاع هيرش بالحاسة الصحفية والعمل الجاد والعقل المتسائل،اجتياز الحواجز والوصول إلى الحقيقة: التي هي دائما - للأسف - خلف ألف ستار.

سيمور هيرش..

قبل سنوات كنا قد صدرنا هذه المجلة بتعريف للرجل. ولكن - لأن البعض بدا أنه لم يقرأ - ربما كان مفيداً اليوم بعض من التذكرة: دخل سيمور هيرش عالم الصحافة من بابه الحقيقي: «الحوادث». حيث اكتسب خبرة ميدانية ربما كانت ضرورية ليصبح «صحفيا حقيقيا». وفي أقسام البوليس: حيث يحدث أحيانا - كما تعودنا في شرقنا العربي - أن يغتر بالقوة من يملك سطوتها فتأخذه العزة بالإثم، اكتشف الصحفي المبتدئ حقيقة الأفكار الفاسدة الكامنة خلف ستار براق لامع. ذهب هيرش إلى أحد مخافر الشرطة لتغطية حادثة مصرع سجين أسود خلال محاولته الهرب، وهناك سمع أحد ضباط الشرطة يحكي لزميله «متباهيا» كيف أوهم السجين أنه قد أفرج عنه ثم أطلق النار عليه من الخلف وهو يبتعد، مدعياً أنه كان يحاول الهرب. ومع أن هيستريا التفرقة العنصرية السائدة في ذلك الوقت لم تسمح له بنشر كل الحقيقة، إلا أنه بدأ طريقه في تحدي حالات الصمت المتعمد ليكشف - على مدى تاريخه المهني - بعض أخطر قضايا عصره. ولم يأت عام ١٩٦٩ إلا وكان قد كتب أول تقرير عن مذبحة «ماي لاي» في جنوب فيتنام، ليصبح بعد ذلك أهم صحفيي التحقيقات في أمريكا.

وفي عام ١٩٧٠ بعد تسع سنوات فقط من بداية عمله بالصحافة فاز هيرش بجائزة بوليتزر، أهم جائزة على مستوى العالم في مجال الصحافة وإحدى أهم جوائز الكتابة على الإطلاق. عن كتابه: My Lai 4: A report on the massacre and its aftermath. والذي أتبعه بكتاب أخطر كشف فيه تواطؤ الجيش الأمريكي بهدف تغطية مسؤولية ضباطه عما ارتكبوه.

ولم تكن تلك هي المرة الوحيدة التي اصطدم فيها هيرش مع مؤسسة الحرب الأمريكية فقد ساهم في كشف قضية المرض الغامض الذي أصاب بعض الجنود الذين خاضوا حرب الخليج الثانية في كتاب حمل عنوانا دالاً عن الحرب بين محاربي أمريكا المرضى و حكومتهم: Against All Enemies Gulf War Syndrome: The War Between America's Ailing Veterans and Their Government. ثم كان أن نشرت له النيويوركر مقالا في ٢٥ ألف كلمة احتل صفحات عدد بأكمله من المجلة الشهيرة (توزع ٤٥٠ ألف نسخة أسبوعيا) عرض فيه تفاصيل الوقائع التي حققها بنفسه - عبر العديد من المقابلات والرحلات - للمذبحة التي ارتكبها الجنرال ماكافري قائد الفرقة ٢٤ الأمريكية يوم ٢٠ مارس ١٩٩١ «بعد وقف إطلاق النار» في حرب الخليج الأولى، والتي راح ضحيتها مئات من العراقيين، ليس فقط من بين الجنود الذين كانوا قد شرعوا في الانسحاب ولكن أيضاً بين الجرحى والأسرى المدنيين الذين كانوا على متن سيارات الإسعاف. وهو الاتهام الذي يعد بكل المقاييس جريمة حرب.(المقال نشرته «وجهات نظر» فى عدد يوليو ٢٠٠٠).

وعلى مدى أكثر من أربعين عاماً يستمر هيرش في صدماته للمجتمع الأمريكي وفى اصطياده للجوائز الصحفية (أكثر من ١٢ جائزة من أهم الجوائز الصحفية بما في ذلك جائزة جورج بولك أربع مرات) كما يستمر في نشر كتب هامة مثل: Prince of power عن دور هنري كيسنجر في إدارة نيكسون. وThe Dark Side of Camelot عن كيف أثّر الجنس والجريمة والفساد لعائلة كنيدي على السياسة الأمريكية. وكذلك مقالاته عن دور الـ CIA في مساندة انقلاب الجنرال بينوشيه في تشيلي عام١٩٧٣ والذي أطاح بالرئيس المنتخب سلفادور الليندي وقضى على أهم تجربة ديمقراطية فى أمريكا الجنوبية.

وعن ترسانة إسرائيل النووية والسياسة الخارجية الأمريكية نشر هيرش كتابه The Samson option والذي أثار عداء اليهود له. ثم كان أن نشر في ٢٠٠٤ آخر كتبه (الأشهر ربما في عالمنا العربي) Chain of Command: The Road from 9/11 to Abu Ghraib

مازالت أمام الصحفيين قصص عظيمة - الكلام لسيمور هيرش - ولكن المشكلة «أن جيل صحفيي ووترجيت الحقيقيين قد ترك المجال لآخرين يحبون حضور الحفلات والكتابة في الغرف المكيفة».

التعليق يذكرني بما وصفته به مجلة SALON فهو «في عُرف مجتمعات العاصمة ليس رجلاً لطيفاً.. لا يحضر حفلات الاستقبال، كما أنه لا يعرف آليات العلاقات العامة ولا كيف يجامل.. إنه فقط أفضل صحفي تحقيقات على وجه الأرض ويتوقع أن تتحدث أعماله عن نفسها».

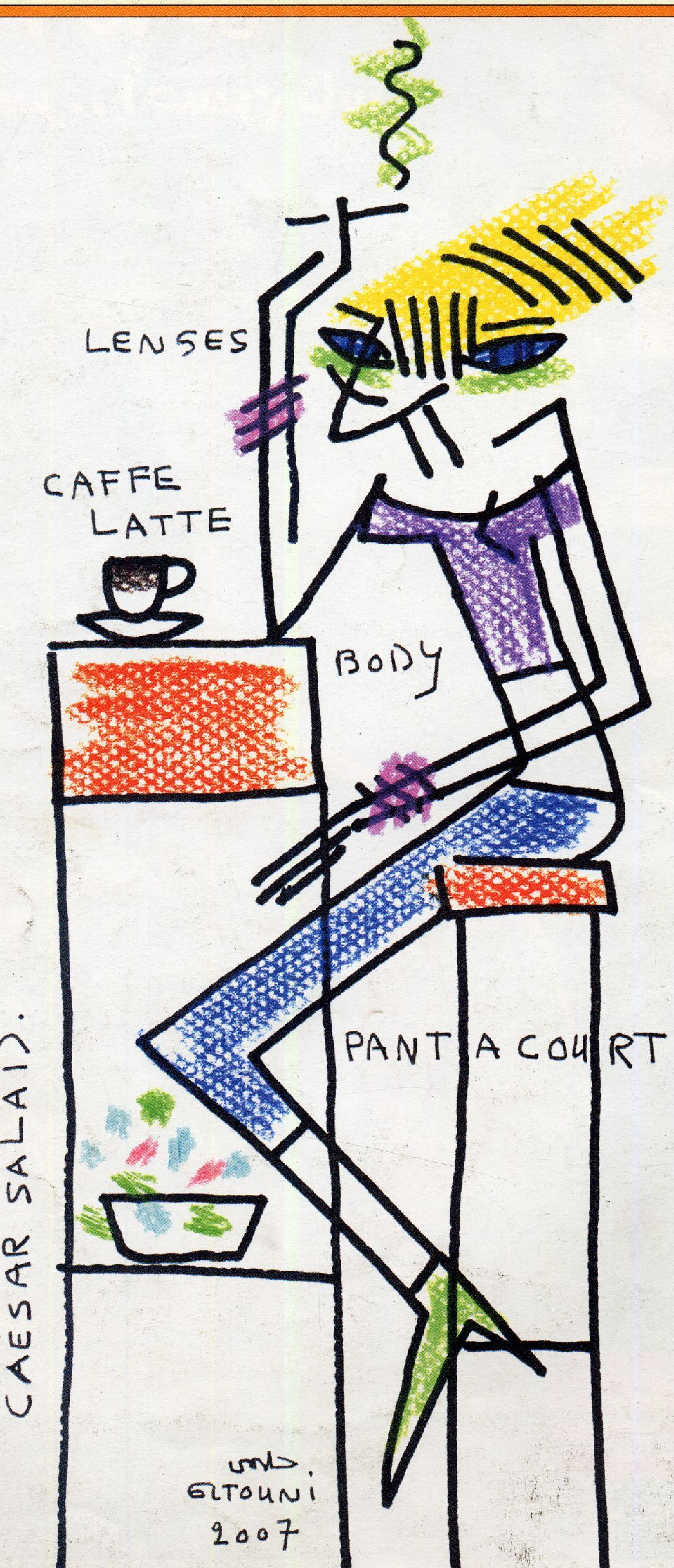
بعد أيام فقط من إحالة المقدم ستيفن لي جوردان: مدير عمليات الاستجواب في سجن أبو غريب إلى المحاكمة العسكرية (وهو أرفع ضابط أمريكي يُحاكم في هذه الفضيحة) يكون سيمور هيرش الصحفي الشهير الذي كشف الفضيحة، وصاحب التقرير الذي أطاح يوماً بصقر الإدارة الأمريكية ريتشارد بيرل، قد وصل إلى القاهرة في ضيافة «مؤسسة محمد حسنين هيكل للصحافة العربية» ليفتتح مشروعا طموحا لتدريب جيل جديد من الصحفيين العرب على «الصحافة الحقيقية» التي لاتعرف حفلات الاستقبال ولا المجاملة ولا تكترث بالعلاقات العامة.. والتي - بحكم التعريف - ترى ماوراء اللافتات البراقة.

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 98 - March 2007

مجلة شهرية . العدد الثامن والتسعون . السنة التاسعة . مارس ٢٠٠٧ . الثمن عشرة جنيهات

الانتهاء "الكوزموبوليتانى" فى القاهرة



عودة الشعر الضال
خيرى منصور

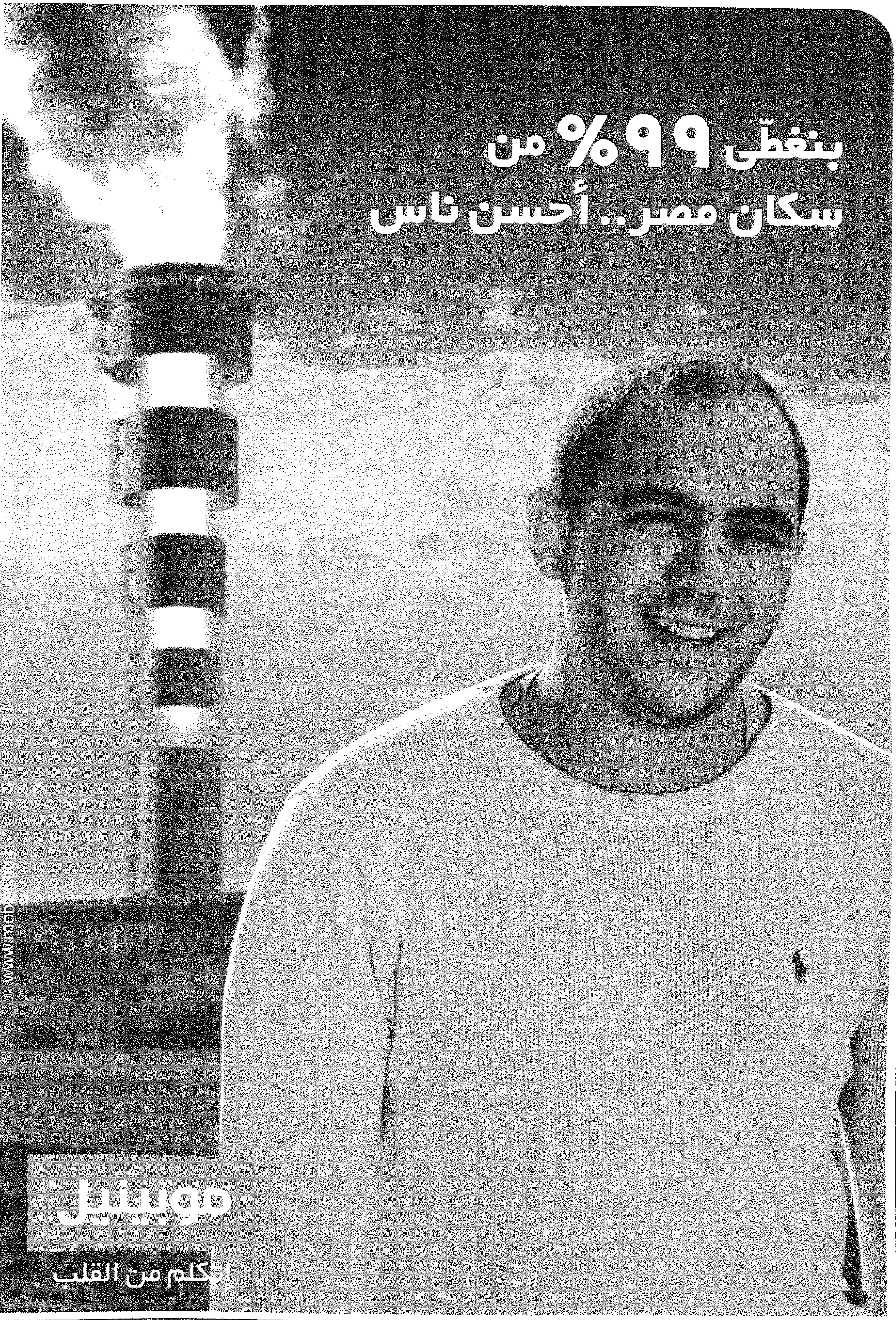
الأدب الفلسطينى إلى العبرية
رحيلة مزراحى

مايكل مور.. الحكمة والجنون
محمد يوسف عدس

إشكالية الردة والمرتدين
عبد الله بن الشيخ المحفوظ بن بيّه

فى العقل والعقلانية
محمد عمارة

صحافة الصوت والصدى
سلامة أحمد سلامة


بنغطّي ٩٩% من
سكان مصر.. أحسن ناس
www.mobinil.com
موبينيل
إتكلم من القلب

السنة التاسعة
العدد الثامن والتسعون
مارس ٢٠٠٧

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد عبدالسلام سليم.. استاذ بكلية التجارة ـ جامعة الإسكندرية
- أميمة عبداللطيف.. صحفية مصرية مقيمة فى لبنان.
- أنوك دى كونتج.. باحثة بالمعهد الملكى الهولندى لدراسات الكاريبى وجنوب شرق آسيا ولها دراسات عن القاهرة.
- خيرى منصور .. كاتب عربى.
- راحيلا مزراحى.. تدرس علوم الكمبيوتر وتعد رسالتها فى الأدب العربى فى جامعة تل أبيب.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- عبدالله بن الشيخ المحفوظ بن بيه .. وزير العدل الموريتانى الأسبق وعضو المجمع الفقهى الدولى فى جدة وأستاذ الفقه جامعة الملك عبدالعزيز، وعضو المجمع الفقهى الأوروبى.
- عز الدين محمود.. باحث سودانى.
- فكرى أندراوس .. كاتب مصرى مقيم بالولايات المتحدة.
- كرستيان كاريل.. صحفى بمجلة نيوزويك الأمريكى.
- محمد عمارة.. كاتب ومفكر إسلامى.
- محمد المهدى.. مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت.
- محمد يوسف عدس .. باحث فى التاريخ والشئون السياسية مقيم فى إنجلترا.
- مينا بديع عبد الملك .. أستاذ الرياضيات بالجامعة الأمريكية فى القاهرة.

رسوم العدد للفنان
محمد حجى

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٢٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

نون

سلامة أحمد سلامة

صحافة الصوت والصدى..

أجزني إذا أنشدت شعراً فإنما
بشعري أتاك المادحون مُردداً
ودع كل صوت غير صوتي فإنني
أنا الصائح المحكي والآخر الصدى

بهذه الأبيات من القصيدة الشهيرة التي مدح بها أعظم شعراء العربية أبوالطيب المتنبي أميره سيف الدولة الحمداني، وضع الأساس قبل عدة مئات من السنين لطبيعة العلاقة الملتبسة بين المثقف والحاكم، عندما كان الشاعر يقوم بوظائف متعددة.. فهو وزير الإعلام، والمتحدث الرسمي، والمثقف التابع، والمستشار الأمين، والصحيفة الرسمية، وجهاز الإعلام الحكومي..

وقد حاول الشاعر في قصيدة تعد من أصدق قصائد المديح التي عرفها الشعر العربي، أن يقنع الأمير بمؤهلاته حتى يكون الجزاء بقدر العمل.. فهو وحده الذي يملك طلاقة اللسان، ونصاعة البيان، وقوة الحجة.. حتى ليصدقه كل الناس فيسيرون وراءه، ويقتنعون بآرائه. أما الآخرون فهم مجرد أصداء تتردد، وأصوات تأتي وتذهب، فلا أحد يصدقها أو يحاكيها. بل هم على الأرجح مرتزقة لا يعرفون غير فنون الابتزاز والتشهير، يروجون الأكاذيب والشائعات. وما أسهل ما تسقط الأقنعة من على وجوههم بمجرد أن يحصلوا على الثمن، ومن ثم فلا يصدقهم أحد وليس لهم وزن ولا تأثير، وليس لكلماتهم قيمة ولا قدرة على الإقناع.

في العصر الحديث، وفي العقود الأخيرة من القرن العشرين، اختفت الحاجة إلى مناصب وزير الإعلام في الدول الديمقراطية، التي يقوم النظام فيها على أساس حرية التعبير وحرية تداول المعلومات والحصول عليها، حيث أصبحت وسائل الإعلام تعبر عن ضمير المجتمع، وتنوب عنه في رقابة الشأن العام، وتقوم بمهمة الإعلام والتثقيف والتنوير، ومن ثم لم يعد من حق الدولة أو السلطة التنفيذية أن تتحكم في نشر المعلومات أو حجبها، اللهم إلا في حالات الضرورة القصوى التي تتعرض فيها الأمة لأخطار فادحة مثل حالة الحرب أو التعرض لهجوم خارجي عدواني.

وما إن سقطت القيود، واختفت الرقابة، وانطلقت الحريات بغير حدود، حتى اشتدت حمى المنافسة بين وسائل الإعلام على اختلافها، ولا سيما بعد دخول الفضائيات والشبكة الإلكترونية حلبة السباق. فتماهت الحدود بين العام والخاص، وأصبحت الشخصية العامة جزءاً من الاهتمام العام، من حق الرأي العام أن يعرف كل شيء عنها وعن مصادر ثرواتها، ويكيل لها المديح بقدر ما يوجه إليها اللوم. لا فرق في ذلك بين السياسي ونجم السينما ولاعب الكرة وكل من دخل عالم الأضواء، كما أصبح من حق الرأي العام أن يحصل على المعلومات التي تمكنه من الإحاطة بحقائق الأمور، مهما اتسمت بالسرية والخصوصية، وبالأخص إذا تعلقت بمشكلة أو قضية عامة. إذ بناء على ما يصدره الجمهور من حكم، تمنح الثقة لنائب أو حزب أو مرشح لمنصب عام تحسم نتائجها في الانتخابات البرلمانية أو النقابية أو غيرها من أشكال التمثيل الديمقراطي.

غير أن هذا المنظور الذي زاد من إيقاعه سهولة الانتقال وثورة الاتصالات والتفاعل بين الوسائط الإعلامية المتعددة، لم يجعل الحصول على المعلومات ونشرها أقل خطراً أو أيسر في التناول والتداول، بل أدى إلى أن تسعى مصادر المعلومات التي يهمها إبقاء القرارات الحساسة والأسرار المحرجة والاتصالات الخفية تحت السيطرة في خزائنها، فلا تذاع إلا في الوقت المناسب.. ربما بعد عشرات السنين، أو بعد أن تفقد أهميتها، أو بعد أن يخرج المسئول من منصبه ويفلت من الحساب والعقاب، أو يتدخل القدر لإنقاذه بالموت.

وفي السنوات الأخيرة، وخاصة بعد حربي أفغانستان والعراق، وما سمي بالحرب على الإرهاب، ظهرت أساليب جديدة في إخفاء المعلومات أو تلوينها وتشويهها، بحيث تؤدي إلى تحقيق أهداف بعينها. وهو ما عرف باسم التضليل الإعلامي misinformation أي إذاعة معلومات كاذبة غير دقيقة، في ثوب معلومات صحيحة بحيث يسهل خداع المتلقي وتضليله. وقد استخدمت واشنطن هذه الوسيلة على نطاق واسع وبأكثر الأساليب إقناعاً وخداعاً في حرب العراق، حين أقنعت أجهزة الحرب النفسية في البنتاجون قطاعات واسعة من الرأي العام الأمريكي والرأي العام العالمي بامتلاك العراق لأنواع من أسلحة الدمار الشامل تهدد الأمن العالمي. وقدم كولن باول وزير الخارجية الأمريكية أمام أعضاء مجلس الأمن عرضاً مثيراً لمعلومات موثقة عن هذه الأسلحة، ثبت كذبها باعترافه فيما بعد.

هذه الطريقة الأمريكية لم تكن ملائمة للعقلية الأوروبية، التي ابتدعت أسلوباً آخر، قد يختلف في الشكل، ولكنه لا يختلف في المضمون والهدف، وهو ما يعرف بفريق «الملفقين» Spin Doctors. وهم عبارة عن مجموعة من المستشارين الذين يحيطون برئيس الوزراء، مهمتهم تبرير السياسات وتلفيق الأخبار والحقائق، وتسريبها إلى الصحافة والرأي العام بما يساعد على تجميل الصورة العامة للحكومة وبرامجها وسياساتها الخارجية أو الداخلية. وينطوي عمل «الملفقين» الذين يعتمدون على دراسة نفسية الجماهير ومشاعرهم وتطلعاتهم، على النفاق وتزوير المعلومات.. وعلى مدى السنوات الأخيرة برز هذا الدور بصورة واضحة في تلفيق الوقائع والأحداث التي اعتمد عليها توني بلير رئيس وزراء بريطانيا في تبرير الحروب والمجازر والجرائم التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط، سواء في العراق أو في لبنان وفلسطين باعتبارها مخاضاً لولادة عالم جديد في هذه المنطقة، جرياً وراء الأوهام والمزاعم التي روجها أمراء الظلام من المحافظين الجدد في واشنطن والسياسات الفاشلة التي انتهجتها إدارة الرئيس بوش.

وما بين «التضليل الإعلامي» على الطريقة الأمريكية و«خداع الملفقين» على الطريقة البريطانية، يظل حجم الخداع الإعلامي وإخفاء الحقائق وأساليب الابتزاز، محصورة في نطاق زمني محدود لا يستمر طويلاً، وداخل الدوائر الإعلامية الوثيقة الصلة والمتعاونة مع مراكز صنع القرار والتي تتحمل مهمة الترويج والنشر في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمطبوعة، بهدف تخدير الرأي العام وحمله على تصديق ما يلقى إليه من أخبار ومعلومات، بحيث يسهل بعد ذلك تصوير الهزيمة انتصاراً والفشل نجاحاً والشر خيراً.

وفي وسائل الإعلام التي تعيش وتعمل في ظل مناخ ديمقراطي حقيقي، يصعب مهما اشتدت أساليب التضليل الحكومي أو التلفيق الإعلامي، إخفاء الحقائق لفترات طويلة أو شراء ذمم الصحفيين المحترفين دون فضحهم واستبعادهم. إذ سرعان ما ينجح الصحفيون المحترفون والمحترمون في اختراق أستار التزييف والتضليل، ليصلوا إلى جوهر الحقيقة أو الجانب الأكبر منها. يساعد على ذلك أن تداول السلطة في النظم الديمقراطية، لا يترك للحكومات أو الأحزاب الحاكمة فرصة المواربة أو المداراة على الأسرار أو إخفاء الوثائق، فضلاً عن تفعيل عنصري الشفافية والمحاسبة أمام المجالس النيابية.

ومن هنا نمت وترعرعت في صحافة الغرب أساليب الاستقصاء والتنقيب والغوص في العمق لكشف الأسرار والخبايا، وجمع الأدلة والبراهين والوثائق المؤيدة، وعدم الاقتصار في رواية القصة الصحفية أو الخبرية على طرف واحد، بل الجري وراء كل سؤال والاستماع إلى كافة التفاصيل دون اكتراث بأصحاب النفوذ بحثاً عن الحقيقة. وهو ما ضاعف من مصداقية الصحافة الغربية، وجعل ما ينشر فيها ميزاناً يستشهد به في وسائل الإعلام العربية.. مهما كانت ميولها السياسية وانحيازاتها الثقافية والعقائدية.

ولهذا ظهرت في أفق الإعلام العالمي نجوم زاهرة لامعة من أمثال بوب وودوارد وسيمور هيرش وروبرت فيسك وعشرات غيرهم، لكل منهم طريقته ومنهجه في جمع الحقائق وفرزها واختبارها، اعتماداً على قدراته الخاصة ورؤيته المستقلة والالتزام بالموضوعية، كما أضحى للبرامج التليفزيونية نجومها المرموقون، وبالأخص أولئك الذين يصلون بالصورة والصوت إلى أدق الأسرار في أشد الظروف خطورة وحرجاً. ويعرضون حياتهم

الصحافة في مصر، تسير الآن على وتر مشدود بين الانطلاق إلى آفاق رحبة من الحرية والمؤسسية والحداثة التي تستجيب لشروط العصر من ناحية، وبين الارتداد إلى أحضان الدولة، أو الوقوع تحت سيطرة رجال الأعمال، أو الغرق في مستنقع النميمة والابتزاز من الناحية الأخرى

لأخطار جسيمة في سبيل نقل صورة حية واقعية يصعب تزويرها.

والسؤال الذي ينبغي أن نسأله لأنفسنا: أين نحن من ذلك كله؟ وهل استطاع الإعلام العربي أن يقطع الحبل السري بينه وبين السلطة.. أيا كانت، ممثلة في الحاكم أو النظام أو الحزب أو صاحب رأس المال؟ أم أن القوة تظل لها في حياتنا اليد العليا في صنع الحقيقة وإخفائها أو الكشف عنها؟

لابد من الاعتراف بأن الصحافة ووسائل الإعلام في العالم العربي عموماً مازالت تشق طريقها بصعوبة بالغة وسط صخور ومعوقات كثيرة، بسبب غياب الديمقراطية، وامتهان الحريات، ومازالت تخضع لضغوط التقاليد السلطوية أو الطائفية أو الاثنية التي لم تبرأ منها حتى اليوم. وهو ما انعكس على أدائها المهني وتخلفها عن مجاراة أساليب الإعلام المتطورة التي استخدمت التقنيات الحديثة في وسائل الاتصال لتحقيق أكبر قدر من التفوق والقدرة على المنافسة. وسوف نلاحظ أنه حتى في بعض الصحف العربية والفضائيات التي اخترقت حاجز المنافسة العالمية، وأصبح لها تواجد معترف به في الساحة الدولية، إلا أن أي واحدة منها لا تخلو من خطوط حمراء تحرص على عدم الاقتراب منها. ويرجع السبب في ذلك إلى شكل الملكية وغياب الضوابط والتقاليد التي تحكم العلاقة بينها وبين السياسة التحريرية. فضلاً عن أن صناعة الإعلام تطورت وتعقدت ودخلت فيها عناصر كثيرة، أسقطت الفواصل بين النشر الطباعي الورقي والنشر الفضائي التليفزيوني والنشر الإلكتروني.. وأصبحت تقوم عليها مؤسسات تخضع لنظم الإدارة الحديثة.. صغيرة كانت أو كبيرة.

يضاف إلى ذلك أن مشكلة التمويل مازالت تمثل إحدى العقبات الرئيسية التي لم يتم التغلب عليها. فأكثر قناتين ناجحتين مملوكتان للدولة، أو الأمير أو الحكومة مهما كانت مظاهر استقلالهما. وينطبق نفس القول على صحيفتين أو ثلاث في العالم العربي.

غير أن أضعف حلقة في الإعلام العربي هم الصحفيون والإعلاميون بصفة عامة. فمع انتشار وسائل الإعلام انتشاراً هائلاً، تعددت معه الصحف وتضاعف عددها، وزادت القنوات التليفزيونية إلى أكثر من مائتين، لم تستطع الكوادر الصحفية والإعلامية أن تواكب التطورات العالمية، وترتقي بأدائها المهني لتكتسب المصداقية لدى الرأي العام، وتكتسب الاستقلالية والموضوعية وإتقان الصنعة.

لقد نشأت في ظل هذه الأوضاع حالة من السيولة الإعلامية في الوطن العربي. تنتقل عدواها من المطبوع إلى المرئي، ومن الصحافة إلى التليفزيون وبالعكس، مما فتح الطريق أمام كثيرين من قليلي الموهبة، محدودي الخبرة للصعود إلى مراكز الصدارة في ظل ظروف سياسية بالغة التعقيد تلم بالعالم العربي، وتعكس حالة التدهور والانهيار فيه على صعد سياسية واجتماعية وفكرية. وظهر ذلك بشكل واضح في كل من مصر ولبنان اللتين كانتا في طليعة الدول العربية التي قادت نشأة الصحافة أولاً ثم التليفزيون ثانياً.

ففي لبنان الذي تعرض لمحنة الطائفية والحرب الأهلية طوال العقود الثلاثة الأخيرة، بحيث لم يكن يلتقط أنفاسه من أزمة حتى يغوص في أخرى، توارت رموز وأقلام لامعة وانطفأت شعلة صحافة يومية وأسبوعية حافظت على حيويتها واستقلاليتها بين المعسكرات العربية المتصارعة، فلم يبق فيها غير قليلين يعدون على الأصابع. أما الباقون فقد انصرفوا إلى الصحف المهاجرة والفضائيات الخليجية الثرية بأموال النفط وطفرة النمو الاقتصادي. أفضت إلى ظهور أخلاقيات وممارسات مهنية تخضع لمنطق المادة وتتوارى معها كثير من القيم الصحفية.

أما الصحافة في مصر، فهي تسير الآن على وتر مشدود بين الانطلاق إلى آفاق رحبة من الحرية والمؤسسية والحداثة التي تستجيب لشروط العصر من ناحية، وبين الارتداد إلى أحضان الدولة، أو الوقوع تحت سيطرة رجال الأعمال، أو الغرق في مستنقع النميمة والابتزاز من الناحية الأخرى.

وبين هذين الطرفين تشهد الصحافة في مصر الآن معارك وحروبا إعلامية، ليس على التفوق المهني والسبق الصحفي واحترام ذهنية القارئ، ولكن على تحقيق فرقعات إعلامية مثيرة، تحاول اختراق السقف الواطئ لصحافة اعتادت الخضوع والتملق، أو للاستئثار برضا الحاكم ومسايرته وإثبات الولاء له، مستفيدة من اتساع مجال الحريات وانطلاق السعي نحو إقامة نظام ديمقراطي تتوافر في ظله ضمانات العدل والحرية والحكم الرشيد.

وعلى الرغم من أن الصحافة في مصر شهدت في حقب سابقة سادت خلالها سيطرة المركزية السياسية وغياب التعددية والديمقراطية، مدارس صحفية اتسمت بقدر عال من المهنية والكفاءة وسمو لغة التخاطب والنقاش، وأنجبت أقلاماً لعمالقة أبحروا بسفينة الصحافة وسط الأنواء السياسية والاجتماعية داخلياً وخارجياً، إلا أن الصحافة القديمة لم تستطع أن تطور أداءها بطريقة إيجابية في مواجهة الأشكال الجديدة من الصحافة، مستفيدة من هامش الحرية الواسع الذي انفتح أمامها، ومن أساليب الإعلام الحديث الذي تفجرت تقنياته لترتفع بمستوى الوعي العام للقارئ، وتستجيب لاحتياجاته السياسية والثقافية، وتنير الطريق أمام عملية التطور السياسي والنظم التي تعمل في خدمتها.

وفي مصر الآن ثلاثة أنواع من الصحافة:

●● صحافة تؤثر السلامة، سلامة القائمين عليها بزعم الحفاظ على سلامة القارئ نفسه، فهي كالقاطرة التي تسير على قضبان لا يملك معها سائقها أن يتجه يميناً أو يساراً. وهو نوع من السلامة البلهاء.. التي تخشى الجديد، وتعادي التغيير، وتقلق من الحرية بغير نص رسمي، لأنها تنطوي على مفارقة ومخاطرة غير مأمونة العواقب في رأيهم. وهي صحافة مثقلة بالديون، غارقة في الفساد وسوء الإدارة. تبتز الحكومة رؤساءها لأنها هي التي تعينهم وتقيلهم وتملي عليهم ما يعن لها. فهم عيالها ورجالها في آن، وهم كتبتها ومروجو سياستها. تقوم المنافسة بينهم ليس على اجتذاب القارئ وإرضائه، ولكن على الفوز برضاء الرؤساء والمسئولين في ترويج الأفكار وتسويق القيادات وضرب الخصوم.. تعتمد أسلوب النفاق والرياء، ولا ترى من العالم المحيط بها غير قضبان القفص الذي تجلس فيه، والحارس الذي يملك مفتاحه.

●● وعلى الضفة الأخرى من النهر، تظهر الصحافة الشعبوية بألوانها الزاعقة، وعناوينها المارقة، ولغتها البسيطة الدارجة.. تحاول اختراق السدود والوصول إلى الأسرار والخفايا، واجتذاب الشباب والأجيال الصاعدة التي سئمت صحافة الآباء والأجداد، وباتت تبحث عن خطاب آخر أكثر صدقاً ومصارحة، وانشغالاً بمشاكلهم واهتماماتهم، بما في ذلك الإنترنت وما يتبادلونه فيما بينهم على صفحات البلوجرز (المدونات).

●● ويأتي بين هذا وذاك فريق ثالث من الصحافة الجديدة المستقلة، أو الصحافة الخاصة، التي تهتم بالخبر أو القصة الخبرية وتفرد لها مساحات كبيرة، تقدمها على صفحات الرأي، ولكنها لا تهمل تنوع الآراء والاتجاهات. ولا تلقي بالاً لإرضاء السلطة أو تملقها على حساب القارئ إلا بقدر ما يحافظ على سلامتها واستمراريتها بدرجة ما من المواءمات الضرورية. وما زال هذا اللون من الصحافة محدود التأثير ولكنه يحتل يوماً بعد يوم مكانة متقدمة، اعتماداً على ما تقدمه من أخبار موثوق بها، ودفاع عن مصالح الناس، وسعي حثيث لاكتساب ثقة القارئ.

في قلب هذه التيارات المتلاطمة، وما تعكسه من فوضى، هل مازال الإعلام العربي يردد الأصوات الحقيقية أم الأصداء الزائفة؟ وهل آن الأوان لكسر قيود القافية ووضع الإعلام المطبوع والمرئي في مكانه الصحيح، متحرراً من الطغيان السياسي والثقافي والاجتماعي الذي يكبل الإنسان العربي في عالمه المعاصر؟

منذ بواكيره، نافس فيه الناشر الشاعر، وكان توأمه، وإذا كان لكل فنان نبع يغذيه على امتداد العمر كما قال البير كامو وهو يمتدح تكرارات تشتسوف الأصيلة، فإن نبع محمود درويش لم يكن كما أحبَّ النقد

في حضرة الغياب
محمود درويش
بيروت ـ دار رياض الريس للكتب والنشر ـ ٢٠٠٦

بقسوة بالغة أن يختزله، مجرد موضوعة وطنية بالمعنى النشيدى الكلاسيكى، فهو لم يشاطر الفلسطينيين المنفيين فى صباه حنينهم إلى الماضى وإلى العودة، لأنه عائد منذ الولادة، ومقيم فى لحم الأرض كما قال فى قصيدة مهداة إلى الراحلة فدوى طوقان، إنه بالفعل فى حلٍّ من التذكار، فالكرمل فيه وعلى أهدابه عشب الجليل....

نعرف أن صدور كتاب لشاعر مثل محمود درويش هو بحد ذاته مناسبة، وغالبا ما تستثمرها الصحافة الأدبية فى مقاربات أفقية، تمسِّد ريش الطائر لكنها تكسر البيض فى العش، لأنها مسبوقة بطوية ينقصها الفضول المعرفى، وإن كان حبرها يسيل كاللعاب على التغطية الفورية.

وعندما قرأت الكتاب للمرة الأولى، أحسست بأن الشاعر قرر منذ السطر الأول بل منذ القنديل الذى علّقه على مدخل الكتاب، وهو قول لمالك بن الريب سليل القطا الضالّ فى سماء محتقنة بالزفير، وأصداء الاستغاثات الرسولية، أن يحتشد بكامل طاقته فى نص تلتبس هويته على هواة النمذجة والتنميط الذين فضّلوا أن يصبوا البحر فى زجاجات كى يسهل تدجينه ونزع تياره الراعف، الموت، فى الصميم من هذا النص، لكن القيامة هاجس مناوئ للموت، بل هى الدرع السحرى الذى اتقى به الشاعر الغياب، وللعنوان الذى اصطفاه دلالة تتجاوز المفارقة، فالغياب يتلاشى تحت سطوة الحضور الساطع، والذاكرة المسلّحة بسيرة فذّة من الشعر

عــــــودة الشــــــعر



لا تشكم الخيال بقدر ما ترضعه وتغذيه وتحرضه على المزيد من الجموح............

وكتاب درويش هذا، من عائلة لم تبلغ القبيلة لقلّة أفرادها، يغرى قارئه حتى لو قرر الاستقراء بالانتشاء، وبالتالى بمستوى من التصادى هو أقرب إلى المشاركة فى الشهيق.

ولا أدرى كم سأخسر من انتشائى بهذا النص إذا جهرت بما تغلغل منه فى داخلى، لأننى عندئذ سأبحث عن معادل موضوعى قد لا أعثر عليه بيسر لما هو ذاتى وانطباعى ومعايشة عن كثب، والسؤال الذى يتشكل منه مبتدأ هذه القراءة أو الاستقراء هو: هل ضاق الشعر فاتسع النثر أم العكس؟ وهل تجلّت ثنائية النفّرى التى أساء الكثيرون فهمها فى صيغة أكثر إشكالية، وأكثر عصيانا على الفهم!

هذه المرة... هذا النص انبثق الشعر من فائض النثر.. إذا صح لنا مثل هذا التقسيم الإجرائى لتضاريس الكتابة، بحيث تغدو كالخرائط ذات خطوط طول شعرية وخطوط عرض نثرية...

وهنا سأعترف ولو على حساب أنانية شخصية بأن نص محمود درويش فى حضرة الغياب قدم لى مناسبة طالما بحثت عن مثيلاتها، للبوح بهاجس مزمن.. هو ما أسميه الشعرية الضالة..

الشعرية الضالّة هى باختصار عقوق الشعر، إزاء الوالدين الصارمين، وهما الوزن والقافية، إذا نحينا نية النظم، وهى الأقنوم الثالث فى ديوان العرب، فهى مبثوثة فى نصوص قد لا يجازف الناقد المدرسى بتصنيفها شعراً...

وبقيت هذه المساحة مهملة ومسكوتاً عنها إلى أن اقترب من تخومها كولومبوس قصيدة النثر، وهو الباحث عن جذر تراثى لشرعية الشعر غير الموزون والمحرر من القافية.

وأتاح لنا البحث عن جذور لشرعية شعر قصيدة النثر قراءة نصوص هى من صميم الشعر رغم أنها لا تقع ضمن ملكوته الرسمى الذى وضع له الحدود النقاد الاتباعيون.

وقد تعلق هذا بنصوص محمود

الشعرية الضالة هي باختصار عقوق الشعر، إزاء الوالدين الصارمين، وهما الوزن والقافية، إذا نحينا نية النظم، وهي الأقنوم الثالث في ديوان العرب، فهي مبثوثة في نصوص قد لا يجازف الناقد المدرسي بتصنيفها شعراً...

الضـــــال!

خيـــري منـــصـــور

درويش التي تتحدى الكسل النقدي والنحل الشغوف بالرحيق الداجن في حدائق البيوت، فإن شعريته تسربت بقوة إلى نثره منذ يوميات الحزن العادي لكنها مكثت بقوة في ذاكرة للنسيان، وهو عنوان يتجاوز المفارقة أيضا لصالح جدلية آسرة، تقطع المتواليات الرتيبة، وتفسد على الحاسوب النقدي الأصم جداوله وخاناته...

فالذاكرة مضادة للنسيان وفق منطق مألوف، لكنها تنقض على وظيفتها وتتحول إلى خيال يتغذى من مساحة النسيان، فما من خيال عديم الجذور في الذاكرة وترابها، إنه يعيد إنتاجها بعناصرها، وبالمرئي والمحسوس والمشموم والمسموع فيها.

مزيد من النسيان، يعني مزيداً من التخييل، والنسيان في هذا السياق هو نقيض التناسي، لأنه يتم عفويا واستجابة لنزوع عنيف نحو إعادة الخلق، أو ما يسمى في المعاجم الجمالية تصحيح الخلق.

إن المخاطب في هذا النص هو المؤلف ذاته، والمونولوج الطويل لا يتقطع إلا عند منعطفات ينبثق فيها الواقع بكل صلابته ويضغط على الأصابع، وقد تكون الصفحات التي ينبثق فيها الواقع في بعده الحدثي وأحيانا بملامحه الجغرافية كما في الطريق إلى غزة، مونولوج يفلت من المخيلة عائدا نحو الذاكرة، فالأمكنة، والمنتج السياسي الذي يلقي ظلاله على المشهد البشري هي بالتحديد معرفة وبالتالي فهي استدعاء قصدي لما يتطلب من الشاعر موقفا أخلاقيا... وهذا ما يتكثف بعبارة واحدة... هي أنه سيلقي بضميره إلى القطط إذا لم يعبأ بما يرى، وبما يشهد عليه من شروط باهظة تحاصر الناس الذين هو من صلبهم!

العلامات الفارقة في النص بين موت وموت وأب وابن، وشعر ونثر تصاعدت وغلت حتى بلغت ذروة الاعتراف بالطلاق بين الشاعر والإنسان العادي الذي لا يصدق بأن واحدا زائد واحد... قد يساوي مليونا...

أب الشاعر مات بضربة شمس في رحلة الحج، والابن ليس لديه كل هذا التعلق الفطري بالحياة... لهذا فهو يموت بضربة قمر... وأنا أعلم جيدا أن هناك بشرا يتصبب العرق على أصداغهم تحت شعاع القمر، لكنه عرق آخر لا يرشحه الجسد، بل ترشحه مسامات الروح لفرط الشفافية...

إن الموت بضربة شمس لا قيامة عاجلة تعقبه، أما الموت بضربة قمر، فهو القيامة العاجلة ذاتها لأنه مجرد وعكة عابرة، ومحمود درويش عاد من الموت مرتين... أعرف إحداهما خارج الكتابة، وأعرف الثانية من خلال الجدارية التي خرج فيها الشاعر ليواجه موته موتا لموت... ويندر أن نجد شاعراً ظل يطارد الموت كي يدجنه ويحوله إلى يوم ثامن في أسبوع الحياة كدرويش، فقد رأى البياض البكر ذات موت عابر، لكن منابع السواد تحتاج إلى رحلة أخرى، لا يتقنها إلا من امتطوا موتهم كما لو كان دابة... ولكزوه بالقدم كي يعدو بهم عائدا إلى المهد! أو جلدوه بالسوط كما كان يفعل محيي الدين بن عربي عندما تنوء دابة الجسد بحمولة الروح!

إن جموح هذا النص نحو قطع المتواليات الأليفة والرتيبة، يصل أقصاه عندما تحل الذاكرة في الرائحة وليس العكس، فمن المعروف أن الروائح هي قرائن الماضي، وهي التي تستدعيه مثلما استدعت الكعكة المغموسة في الشاي لدى مارسيل بروست مليون كلمة.

وامتياز ما أسميه قطع المتواليات الأليفة في هذا النص ولدى محمود بشكل خاص هو ليس ما شاع في معاجم الحداثويين العرب الذين افتتنوا بالثلج الأسود، وما يماثل هذه المفارقة لأن المسألة انتهت إلى رتابة أخرى مضادة، وأصبح الثلج بحاجة إلى العودة نحو بياضه كي يصبح استخدامه شعريا، ولافتا وقاطعا للمتواليات...

يكتب محمود درويش ص٩٩:

في ظنك أنك تخطيت العتبة الفاصلة بين الأفق والهاوية، وتدربت على فتح الاستعارة لغياب يحضر وحضور يغيب بتلقائية تبدو مطيعة وتعرف أن المعنى في الشعر يتكون من حركة المعنى، في إيقاع يتطلع فيه النثر إلى رعوية الشعر، ويتطلع فيه الشعر إلى أرستقراطية النثر...

في هذه الجملة الأخيرة يتجلى القصد، ويضاء المونولوج الذي يتخلله الغموض بشكل سخي، أرستقراطية النثر... مقابل رعوية الشعر، إنه فهم جمالي يذكرنا بتعريف جورج لوكاتش للرواية باعتبارها ملحمة البرجوازية لكن في أوروبا وحدها... ولأنني أعرف شغف محمود درويش بالنثر، الذي يصفه أحيانا بأنه رحلة برية بالجينز وعلى جواد بلا لجام، فإن ما يسميه أرستقراطية النثر هو تاريخ هذا النوع، الذي لا يزدهر إلا في أزمنة يصبح فيها الإنسان أقرب إلى نفسه، بل يصبح هو نفسه كما يقول الوجوديون الذين شكلت فلسفتهم مظاهرة صاخبة ضد الاستلاب، وضد أن يكون الإنسان سواه!

يضيق الشعر أيضا فيصبح ملاذا وليس منفيا، وقد شعرت بهذا لأول مرة عند محمود درويش عندما قرأت قصيدة أحمد الزعتر قبل ثلاثين عاما، فقد اتسع الشعر في ذلك النص للقادمين من الصناعات الخفيفة، وللحصان الذي ضاع في طريق المطار، ولعبارات ما كان لها أن تندمج في نص شعري لولا فائض الشعرية القادرة على هذه الحمولة، وقد تبدو بعض قصائد محمود درويش بالنسبة لقارئ لا يعرف أوزان الشعر وموسيقاه قصائد نثر، لا بسبب غياب الإيقاع بل بسبب القدرة على إخفائه، وقد يكون هذا هو ما أبقى محمود درويش في نطاق قصيدة التفعيلة، لأنه قال فيها ما هو مرشح كمضمون لقصيدة النثر حسب التعريفات العربية الحديثة، والشاعر الذي يسوس أحصنة قصيدته وأحيانا كلاب زلاقته التي تزيد على الأربعين قد لا يحتاج إلى الكتابة باليد الأخرى،

بعكس الشاعر الذي تسوسه الإيقاعات وتستدرجه نحو أفخاخ الغنائية الصوتية المطفأة، لهذا تبدو «أدلجة» شكل شعري واقتراحه نموذجا بمثابة نذير بالنهاية وليس بشيراً كما يتوهم البعض بالبداية، ونحن في غنى عن التذكير بأمثولات في تاريخ أدلجة الشعر، والغلو المفرط في تطريز أكفانه وتوابيته، ويكفي أن نتذكر بأن أشد غلاة المستقبلية في الشعر التي ظهرت في بدايات القرن الماضي في إيطاليا وروسيا كان بيريلوك الذي انتهى إلى تأليف وصفات في فن الطبخ بخلاف زملائه الأقل تطرفا وغلوا مثل مارتيني الإيطالي ومايكوفسكي الروسي!

ميدوزا الشعر وميداسه!

لأن الأساطير، خصوصا الإغريقية فاضت عن أزمنتها فهي تبدو أحيانا مفاتيح سحرية تدار في أقفال الواقع.

ميدوزا كانت تحول كل ما تنظر إليه إلى حجر، ولو كانت شاعرة لأدرجها النقد العربي الكسول في قائمة شعراء المقاومة، عندما تحول الحجر إلى وثن شعري في الانتفاضة، وكأنه مكتف بذاته كسلاح وليس مجرد رمز..

وثمة سلالة شعرية تفعل ما كانت تفعله ميدوزا بحيث تنظر إلى العتبة فتحولها إلى حجر وإلى الجسد البشري الراعف بالحياة فتحوله إلى تمثال، فالبعض ممن أدركتهم هذه الحرفة، وربما هم الذين أدركوها، يفقرون العالم بدلا من إثرائه، ويتوهمون بأن الشعرية هي تعبير مباشر عن الذات وليست محاولة للهرب منها، كما أجمع على ذلك اثنان متباعدان في كل شيء، هما كيتس الرومانسي و ت. س. إليوت .

إن تحجير الكائنات ليس من صلب هذا النشاط البشري، ولا هو من عوامله التي تؤبد العابر وتجوهره.. لكن على نحو مضاد لفقه التحجير والتوثين.

إن حجر محمود درويش حتى في نصوصه الشعرية ذات العناوين المكرسة للمقاومة سرعان ما ينبت له جناحان ويتحول إلى حجل، والشاعر لا يبهظ الآخرين بشروط لا يقوون على احتمالها لأنه يبشر بالعادي بديلا للبطل، فالعادي من لحم وعظم، والبطل تجريد لا يقبل اللمس، ولا يترجل من النص أو المعجم إلى التراب.

وفي هذا النص، يصبح المجرد ملموسا بالأصابع، فالعشب عشب ولا شيء آخر، والغزالة غزالة ولا شيء آخر، أما الحب فهو محرر من رومانسيته التي أنتجها فائض المكبوت الجسدي، فلا تضيع حتى حصة النمش على صدر امرأة من نص يتصبب منه العرق.

نقيض ميدوزا الشعر هو من يحول الحجر إلى كائن حي ينبض، فيضيف إلى الحياة بدلا من أن يفقرها، وهذا كله يعيدنا إلى مفارقة الحضور والغياب، حيث يتجلى الحضور في أقاصي الغياب، وحين جعل محمود درويش من الزمان مكانا هو بيروت

عودة الشعر الضال!

ومن المكان زمانا هو يوم من أيام آب ١٩٨٢، لم تكن هذه التبادلية مجانية أو تلبية لهوى شعري يضيق بالمنطق وثنائياته.

ثمة تجربة أعادت إلى الفوضى نسقها السري لكن عبر أداء شعري يتجاوز بلاغة الأذن ويتعمد كسر القافية خشية أن تتحول إلى فخ يستدرج بطعمه الشهي الأذن الأمية وغير المدربة.

ميداس الشعر من طراز آخر، فهو يلامس الحجر فيحوله إلى ذهب، وكذلك القصدير والتراب، لكنه يموت جوعا في النهاية غير السعيدة لهذه الأسطورة الباذخة، فالخبز يتمعدن وكذلك الطعام... وحتى الماء..

ميداس الشعر الصافي، على الأقل بالمعنى الذي أراده بول فاليري. لم يحول محمود درويش النثر شعرا بلمسة ميداسية ساحرة، بل خلق تبادلية موازية لتبادلية الزمان والمكان والحضور والغياب، واخترق الحاجز الوهمي بين أرستقراطية النثر ورعوية الشعر، ما دامت اللغة بكل جمالياتها والوعي بتوظيف مفرداتها تستطيع أحيانا اجتراح تعبير عصي على التصنيف النقدي.

كتب محمود درويش في هذا النص ص ٧٦ يقول:

في القاهرة الساحرة الساهرة تحلم بأنك في الجنة، فتقوم في الليل وتفتح النافذة لتتأكد من صحة الأبدية كلما رأيت النيل، لماذا نزلت عن الكرمل؟ يغيب السؤال عن الآخرين ويحضر فيك وحدك، سريا وخفيا كآلام الشبح التي يوقظها عضو مبتور فتقول كفى هذا وتنام؟

لم يفقد مؤلف النص عضوا من جسده كي يستشعر هذه الحالة التي توشك أن تكون حكرا على من يعانونها، فمن تبتر يده أو ساقه، يعاني من شبح العضو المبتور أكثر مما يعاني من ألم البتر..

هذه عبارات قابلة للتأويل، ويمكن قراءتها على نحو متعدد، فالوطن وبالتحديد مسقط الرأس له مثل هذه المراوحة الشبحية في ذاكرة المنفي. لكن ما يحول دون هذا الاستطراد هو خروج النص عن ثنائية المنفى والملكوت. فالمنفى تاريخ أيضا، والوطن له تجليات غير جغرافية تماما، إنه أحيانا لحظة افتراق معرفي، وقد يكون مجرد نقيض لشيء آخر غير المكان، ولا أدري لماذا يختزل البعض من الشعراء ونقادهم المنفى إلى اسم إشارة فقط هي... هناك مقابل هنا... ودرويش الذي قارب ذات نص شعري بين ايثاكا والطريق إليها، لم يكن يبشر بالإقامة الأبدية في المسافة، لكنه



أدرك أن الحلم يبقى أهم من المحلوم به، وأن الإنسان هو الكائن الذي علمه امتياز الضجر أن يبتكر ما هو أبعد دائما.

يقول في هذا النص ص ٩٢:

ضع قمرا على كل صفصافة، وفتاة على كل نافذة، وغزالا على كل نبع، ودع القصيدة تبني الجهة الجنوبية من العدم... إن أوجعك المنفى ولم يقتلك.

هنا، يتبدى الهاجس الوجودي لكن عبر غلالة من لغة برية، تليق بحنين وحشي إلى ما يحول العدم إلى شبه جزيرة، بحيث تبقى جهة ما مفتوحة على الأبدية، أو على أي معنى يجعل الحياة جديرة بأن تعاش بدلا من أن تتحول إلى أحجية.

إن شجرة الصفصاف والنافذة والنبع هي عينات من واقع لا يكتفي بذاته، وإضافة القمر إلى الصفصافة والفتاة إلى النافذة والغزال إلى النبع ليست مجرد استكمال لشرط شعري، بل هي الحياة ذاتها وقد أكسبت هذه الأشياء معنى إنسانيا، ولو شئنا المجازفة أكثر لقلنا إن الفن بعامة وليس الشعر فقط هو ما يضيف إلى الشجرة قمرا والنافذة فتاة والنبع غزالا.

وبالعودة إلى موضوعة المنفى، فإن محمود درويش يفهمه على نحو مغاير للشائع الشعري، تماما كما فهم الوطن ذاته على نحو أقل رومانسية وتجريدا من معظم الشعراء الذين تناولوه.

وطنه بسيط، وإنساني، تتدلى من سقوف بيوته جدائل الثوم، والناس فيه عاديون يحلمون بنهار حر، وظهيرة غير معتقلة، وهذا ما عبر عنه في إحدى قصائده حين قال:

لنصاب بالوطن البسيط، وباحتمال الياسمين

والشرط لتحقيق هذه الإصابة هو الذهاب بعيدا وعميقا في الدم والطحين، وهما العنصران الخالدان اللذان يمثلان طرفي معادلة الوجود: الحرية والضرورة، وكان درويش قد قال في نص آخر:

إننا نحب الورد، لكننا نحب القمح أكثر.

وحين اقترب أكثر فأكثر من تعريف للوطن يحرره من التجريد، جعل لأحد دواوينه عنوانا بالغ الدلالة هو: ورد أقل...

المنفى إذن هو أيضا مضياف الاختلاف والائتلاف، لكن شكر المنفى، ومديحه بشهامة يشترط عودة المنفى إلى الملكوت، وهو ملكوت مزدوج لأن مثل هذا المديح للمنفى لا يكون إلا تحت الشجرة في مسقط الرأس، فالوطن زمان أيضا، وهو الصبا المهدور الذي لا يستعاد إلا بالإبداع، تماما كما أن النهر لا يقطع مرتين إلا بسباحة أخرى لا علاقة لها بالجسد ومهاراته في قطع الأنهار...

إن القراءة البروكوستية المتعسفة لمحمود درويش غالبا ما انتهت إلى بتر ساقي الغزال والإبقاء على صورته خارج الغابة، كنقش على إناء كما قال كيتس.

والتأويل الذي يركن إلى معجم مقرر وسائد يعوق القراءة الحرة، فالمنفى ليس واحدا للجميع... وكذلك الوطن.

إن ما سميته الشعرية الضالة يتجلى في تعريفات أسرة لثمار وأشجار اختزلها العروضيون والنحاة إلى نشارة خشب، ولنقرأ على التوالي هذه التعريفات التي تعيد الحدائق الداجنة إلى الغابة الأم:

● التفاحة عض الشكل بلا عقوبة المعرفة.

● الأجاصة نهد مثالي التكوين لا يزيد عن راحة اليد ولا ينقص.

● العنب نداء الشكر أن اعتصرني في فمك أو في الجرار.

● التين انفراج الشفتين بإصبعين لتلقي المعنى الايروسي دفعة واحدة.

● التين الشوكي.. دفاع العذراء عن كنزها.

● الكرز اختصار المسافة بين شهوة العينين وصورة الشفتين.

● السفرجل مشاكسة الأنثى للذكر تترك غصة في حلق الخائب.

● الرمان اختباء الياقوت في التورية.

إن هذه ليست فواكه الجنة، ولا هي قائمة يسيل لها لعاب الصحراء... إنها أنسنة لما هو معزول قسريا عن الإنسان، وفي حذف الفاصل الوهمي بين وجود ووجود، تكون الشعرية الضالة قد امسكت طرف الطريق، لكن ليس من أجل السير عليه، بل لأداء رقصتها بجلال صلاة وثنية وشبقية ربيع ينبض فيه حتى الرخام!

القصيدة الناقصة

ما من نص مكتمل، وما من خبر يشبع المبتدأ تماما وينهي الجملة إلى الأبد، يقول درويش في هذا النص (وتبقى القصيدة ناقصة)، ألهذا يتدفق النثر من الجهة الأخرى، وقد استدعي كاحتياطي تعبيري؟ أيهما يستجير بتوأمه: الشعر أم النثر؟

تذكرت عندما قرأت جملة (وتبقى القصيدة ناقصة) ما قاله اليوت في قصيدة أغنية حب للعاشق بروفروك... فقد انتهى إلى رأي حاسم في الشعر عندما قال: إنه لمن المستحيل أن أعبر عما أريد.

نعرف أن الشعر ليس في النهاية تعبيرا عما يراد وقد يكون بعكس ذلك تماما، لأنه ينشأ أثناء الكتابة لا قبلها، لكن الضيق الذي يشعر به بعض الشعراء ممن ضاعف التاريخ والوعي حمولاتهم هو ما يدفعهم إلى القفز عن الحدود، وهي حدود وهمية على أية حال، ما دام النظم قد يكون نقيض الشعر وليس صفته الخالدة.

إن الذبابة الوهمية التي تلمحها العين الكليلة في النعاس، هي من ابتكار هذه العين، وكذلك الفأر الوهمي الذي يلوح ويختفي في النص، وقد يكون للقصة جذر واقعي، لكن الفأر يتحول إلى شيء آخر تماما، لعله الترميز اللاواعي لوجود صدوع في سور البيت أو سياج الذاكرة، انه لمن عانوا مثل هذا الهاجس حالة من تسرب العدم عبر ثقوب الحياة لهذا تتصاعد وتيرة الأسئلة التي لا إجابة عنها على الإطلاق إلى أن تصل ذروة الميتافيزيقا كأن يسأل المؤلف نفسه قبل قارئه لماذا خلق الله الذباب؟ وكان الشاعر كرورانسوم قد أوشك أن يتوقف عن الكتابة عندما سأله عامل في مزرعته سؤالا مماثلا لهذا!

إن الاحتراز الذي غالبا ما يدفعني إلى تغليب الانتشاء على النقد والتحويل وأنا أقرأ كتبا من هذه العائلة قد يكون سببا في البحث عما يختبئ وراء الكلمات، خصوصا إذا كان مؤلف النص شاعرا شغوفا بالإيحاء، ونازعا على الدوام لإتاحة الفرصة أمام قارئه أن يكون شريكا في رقصة أو قبلة لا يمكن للفرد أن ينفذها بمفرده إلا إذا أطبق شفتيه على المرايا...

إن نص محمود درويش في حضرة الغياب دفاع لا تنقصه البسالة عن نثر مفترى عليه، وإعادة اعتبار لشعرية عصية على التدجين في أسرة أو توابيت، فالشجرة الحالمة بالريح والثلج والأعشاش لا تعيش في قارورة.

والحصان لا يعدو في غرفة..

إن هذا النص مناسبة تغري بفتح ملف نقدي طواه الكسل، وحولته الاتباعية إلى مقدس متحفي، وهو آفاق الشعرية وتجلياتها في الكتابة، فالشكل المقترح للقصيدة سواء كانت عمودية أو تفعيلة أو قصيدة نثر هو أشبه بالثكنات

التى ينتهى عند مداخلها الشعر ليدخل طورا آخر، وكأنه شعر لمجرد أنه نقيض التعريف المدرسى السكولائى للنثر.

يقول درويش ص٣٨ من النص:

وتسأل ما معنى لاجئ، سيقولون هو من اقتلع من أرض الوطن، وتسأل ما معنى كلمة وطن؟ سيقولون هو البيت وشجرة التوت وقن الدجاج وقفير النحل ورائحة الخبز والسماء الأولى... وتسأل: هل تتسع كلمة واحدة من ثلاثة أحرف لكل هذه المحتويات... وتضيق بنا؟

تعيدنا هذه التساؤلات، بل المساءلات المعرفية لهواة الاختزال، إلى زنزانة الشكل، وضيق اللغة، ويدورنا تتساءل: هل تكفى كلمة شعر وأحرفها الثلاثة لكل هذا.. ولنا أيضا؟

وبالمقياس ذاته هل تتسع كلمتا حب وحرب لهذا التاريخ المفعم بالتراجيديا حتى أظافره؟

إن للصمت بلاغته أيضا، فهو يتقطر كالكلام من خبرة عميقة، لكنه أيضا له صفة الثرثرة إن كان مجرد موت أو متاخمة للموت، لقد قال حمزاتوف فى كتاب ينتمى إلى هذه العائلة التى أنجبت فى حضرة الغياب، إنه تعلم الكلام والنطق به فى سن الثالثة، لكنه لم يتعلم الصمت ويتقنه إلا بعد الستين من العمر...

الوطن إذن، فائض عن حاصل أى جمع للعناصر سواء كانت التراب والماء.. ورائحة الخبز وقن الدجاج، أو المعابد والمدارس والبيوت والذكريات، تماما كما أن رائحة الوردة ليست جزءا عضويا من نسيجها فى التشريح.

وهذا الوعى لدى درويش بمفهوم الوطن مفارق بامتياز لمفهوم يأسر التاريخ كله فى ثلاثة أحرف، فالوطن ليس ذكريات أو نوستالجيا تخص الفردوس المفقود، إنه أيضا حنين إلى المستقبل، وأحيانا استذكار لهذا المستقبل فهو فردوس قادم لكن عبر تجليات إنسانية وأرضية، وقد يتبدد العجب إذا قرأنا آلاف النصوص المدججة بكلمات كالحجارة الكريمة، تعزل الوطن عن الناس والزنبقة عن الدودة، والحمامة عن الغراب ثم انتهينا إلى أنها تفقر الوطن وتقترض منه بدلاً من أن تسلفه وتثريه وتضاعف كائناته ومحتوياته فنيا!

إن الوعى بمختلف أبعاده، حتى الاقتصادى منها ينقذ النص من الرخاوة والهلامية، ويحرره من الأفقية، لهذا لا يمكن لوعى مطابق للسائد أن يجترح نصاً مفارقا له.

ما الذى يستطيع الشاعر أن يفعله أمام جرافة التاريخ غير أن يحرس شجر الطرقات القديمة؟ ونبع الماء المرئى وغير المرئى وأن يحمى اللغة من ركاكة التراجع عن خصوصيتها المجازية!

هذه الكلمات التى يقدمها درويش كجملة معترضة فى كتاب تضع النقاط الضالة أو المحذوفة على الحروف، فهو يذكّرنا بعبارة أثيرة لدى مالارميه، وهى (إن مقاومة الشاعر تبدأ من خندق اللغة حين يقاوم الصدأ الذى يتراكم عليها، وكانت وصية مالارميه هى على الشاعر أن يمحص لغة القبيلة.

يوحى درويش للمرسل إليه بأن الركاكة التى تسوغها أطروحات النقد المداجى والداجن الذى ينافق الواقع بدلاً من الاشتباك معه هى فى النهاية انحياز لجرافة التاريخ، وليس لمحراثه ومعوله، فالنص الردىء يسىء إلى القضية التى يحتج لها، فيصبح كما لو أنه يحتج عليها، لكن هذا لا بد له من معيار آخر غير الذى رسخه المدرسيون، والذين صدقوا أن الطبشورة بيضاء لأن اللوح أسود!

وثمة على ما يبدو مقتربان لفهم ظاهرة مزمنة فى الشعرية العربية، أحدهما يتعهد التضييق والاختزال والقضم، والآخر يتولى التوسيع والتعميق والعافية.

إن وطنا صغيرا يتشكل من حانوت وزقاق وذكريات شاحبة قد لا يصلح وطنا شعريا إلا إذا مهرته الأصابع النازفة بما يجعله بسعة كوكب أو مجرة.

وقد يبدو هذا تعويما لتعريف الأوطان كما حددتها أدبيات المنفى الكلاسيكية، لكنه فى حقيقة الأمر إعتاق للوطن من النشيد الضيق، ومن طابور الصباح المدرسى ليصبح مرادفا للحرية، إن لم يكن الحرية ذاتها...

ومن يدرى لعل المفاهيم القاصرة للوطن، هى ما أدت إلى تحويله إلى منفى، على الأقل فى هذه المنطقة العربية التى تسقط فيها العواصم العريقة خلال أيام فقط!

إن محمود درويش ينكأ جرحا غير قابل للاندمال فى ثقافتنا، ولديه من الشكوك ما يكفى لتحصينه من اليقين الببغاوى، فالإجابات عن أسئلته قد تقع فى جهة خامسة.

لو صدق الشاعر ما قاله الدبلوماسى العربى فى السيارة التى هربته من بيروت إلى دمشق عام الاجتياح لكفر باللغة العربية... لكنه كما قال شرق بحروف العلة وكانت المرة التى لم يستطع فيها البكاء، رغم جدارة الواقعة بالنواح ذلك لأن النار والدمع لم يجتمعا فى عينى محمود درويش، وهو الخارج للتو من بيروت ليعلن للملأ أن صبرا وشاتيلا هما فضيحة عصرنا حتى الأبد...

إن الذاكرة فى هذا النص ليست للنسيان، بقدر ما هى لتقطير أحداث لم يشأ الشاعر سردها على نحو روائى مألوف، فالجراحة الجسدية ومراوغة القلب بين سرير ممغنط بطاقة هائلة من الإقبال على الحياة... وطبيب يوشك أن يسدل الستار، والبياض البكر الذى يندف فى الذاكرة، وصورة الأم وهى تلوح وتختفى، وحوار المطارات فى زمن تساقطت فيه الأجنحة كلها وتسلحف حتى صقر الأعالى، لفرط ما فاض من جاذبية الأرض.. كل هذه الوقائع تتخلى عن برودة السرد والنثرية الوظيفية، كى تلتئم فى نسق هو شعرى بامتياز، بالمعنى الذى أشرت إليه من قبل وهو عودة الشعرية الضالة إلى الغابة الأم وإلى برارى ما قبل رسم التضاريس وخطوط الطول والعرض.

فى الطريق إلى رام الله... يتوثب القلب كما يقول صاحبه ككلب الصيد، وتسرى قشعريرة الشاعر فى أنساغ قارئه غير المحايد، الذى يستشعر نباحا جريحا فى صدره..

هناك، على الجسر الذى لا نهر تحته كما يقول لأن مياهه تعرضت للنهب.

لا يكون الفلسطينى فى هذه اللحظة هو نفسه، وقد لا يكون المرء على الإطلاق ما كانه قبل قليل... لأن غزاة الماء واليابسة والهواء يفتشون حتى المسامات بحثا عن عرق مهرب.

اخلع حذاءك، واخلع ساعتك، فك حزامك، وانزع نظارتك، وادخل فى الجهاز...

لكأن درويش يوحى للمرسل اليه، بأن خلع الحذاء هو خلع القدمين، ونزع الساعة هو نزع التاريخ، وفك الحزام هو استباحة الجسد ونزع النظارة هو خلع عينى أزرق اليمامة لا زرقاءها هذه المرة....

أما الدخول فى الجهاز فهو الدخول إلى كوكب ضاق مثل زنزانة.

ولا يرن فى الجهاز غير القلم الفاخر، لهذا يقرر صاحبه الذى كتب به تراجيديا الإغريق الجدد أن لا يحمله... وحقيقة الأمر أن رنينا آخر كان سيدفع الضابط الإسرائيلى لإعادة تفتيش جسد محمود درويش، وهو رنين القلب الذى شهد أربعة عقود على الأقل... ونبض بأضعاف طاقته، وحين غضب منه صاحبه ناداه ذات منفى ساحلى قائلا: أيها القلب الكلب فكف عن الدلال واستجاب، لأن الرحلة طالت وقد تطول.. فى زمن ندر فيه الشهود والشعراء، يقول درويش ص١٥٢ من هذا النص:

وإن سألوك عن قوة الشعر قل ليس العشب هشاً كما نرى، ولا ينكسر منذ أخفى ظله المتواضع فى سر الأرض، وفى العشب على الصخر إعجاز الكلام النازل من غيب، بلا ضجيج وأجراس، العشب نبوءة عفوية لا نبى لها إلا لونها المضاد لليباب، والعشب نجاة المسافر من بشاعة المنظر، ومن جيش يطوق الطريق إلى المكن، والعشب شعر البديهة السلس الممتنع السهل والسهل الممتنع، ودنو اللغة من المعنى واقتران المعنى بضيافة الأمل...

هذه عينة من حبر مصفى، ومن رهان الفراشة على البقاء على قيد اللهب رغم انقراض سادة الغاب حيث ما من قفص للفراشات فى حدائق الحيوان رغم أن الضوارى تعض القضبان حنينا إلى براريها.

إن رهان محمود درويش الشعرى، لا يعتريه ندم، رغم القبح واللزوجة اللذين يتسللان إلى الشعر كما تطن البعوضة على كفل الحصان...

لهذا قطع درويش العمر شعرا، وسيقطع الباقى منه وهو لا يقاس بالتقاويم الصماء شعرا أيضا، غير عابئ بالحد الفاصل بين غزال أبيض وغزالة بلون الحناء...

أيهما فاض عن الآخر؟؟ شعر رمى سرجه وقطع اللجام وصهل حتى أيقظ الجبل من سباته الكرملى، أم نثر يحاول التحرر من التسمية التى حاولت نزع شعريته من محارات ظنها البحارة المبتدئون حصى؟

الإجابة عن هذا السؤال ممتدة من الفاتحة حتى الختام فى نص ضاق عليه قميص النوع الأدبى، فخلعه، وحين قرر أن يعدو خلع الحذاء المدرسى الذى قرره النقد الداجن صفة للصبى المهذب، الذى لا يقترب من الخط المرسوم بغبار الطباشير بين شعر وشعر.. كى لا نقول بين شعر ونثر، وبين غزالة درويشية بيضاء وأخرى بلون الحناء!!!

قطع درويش العمر شعرا، وسيقطع الباقى منه وهو لا يقاس بالتقاويم الصماء شعرا أيضا، غير عابئ بالحد الفاصل بين غزال أبيض وغزالة بلون الحناء


אמיל חביבי
האופסימיסט
باب الشمس
מחמוד דרוויש
ציור קיר

الأدب الفلسطينى إلى العبرية

أيديولوجيا الترجمة!

راحيلا مزراحى

■■ تقول راحيلا مزراحى إنها ابنة لعائلة يهودية - عربية، وأنها معادية للصهيونية، وتتمنى عودة المهجرين الفلسطينيين إلى بلادهم التى طردوا منها، كما عادت هى إلى اللغة العربية التى طردت منها والمهجر واحد.

وعما إذا كانت تعد نفسها فلسطينية، قالت: أتمنى ذلك. ولكن تمتعى بكل الامتيازات العنصرية المخصصة لليهود لا يسمح لى. ■

المحرر

■■ رفض سمير نقَاش، الكاتبُ العراقى اليهودى، طوال حياته، الكتابةَ باللغة العبرية. وهو يقول فى مقابلة مع عاميئل إلكالاى (عاميئل إلكالاى. ص ١١٦): «بسبب الأواصر المُبالغ فيها بين اللغة والإيديولوجية، يبدو أنَ شيئًا ما فى الغالب مفقودٌ فى كثيرٍ من النثر العبرى المعاصر؛ شيئًا يجعل من الصعب على الكتّاب التعبيرَ عن أنفسهم بطريقةٍ ذاتية بحتة. لا تخاطب أعمالُهم الوضعَ البشرى، بل تنتهى إلى كونها برنامجية (programmatic). أفكّر هنا فى أشياء كالألم، والتى لا يتمَ التعبيرُ عنها بشكلٍ ذاتىَ بحت ضمن إطارٍ ما يُعتبر إجماعًا. أعتقد أنّ العديد من الإسرائيليين نشأوا، وبشكلٍ يكاد يكون حكرًا، على ما يسمّى «الأدبَ الصهيونى»، بمعنى الأدب العبرى المعاصر فى مرحلته المبكّرة... لهذا السبب أردتُ أن أتحدّث عن كتابتى كنقيض للأدب الإسرائيلى.

يعبّر هذا الكلام عن وجهة نظر «نقّاش» حيال القصة العبرية المعاصرة، وكونها مقيَّدةً بالإيديولوجية الصهيونية. ولكنْ هل يمكن استخلاصُ نتائج أوسع لهذا الكلام حول توجّه الكتابة العبرية المعاصرة بشكل عامّ، بما فى ذلك ترجمةُ أدب اللغات المختلفة إلى اللغة العبرية؟.

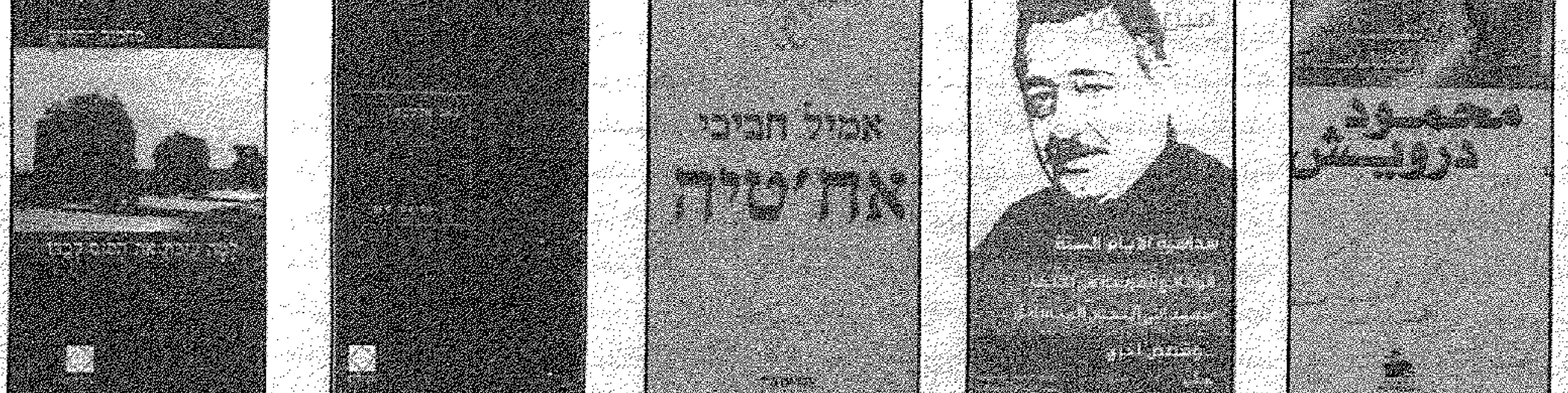
يتناول هذا البحث ترجمةَ الأدب الفلسطينى إلى العبرية، ويحاول أن يطرح أسئلةً عمّا إذا كان هناك، على حد زعم نقّاش، استخدامٌ للُغةٍ ذات دلالاتٍ صهيونيةٍ فى الكلمات والمصطلحات، أو لغة لها ظلالُ معانٍ ذاتُ دلالاتٍ صهيونيةٍ فى ترجمات الأدب الفلسطينى إلى اللغة العبرية؟ وإذا صحّ وجودُ علاماتٍ للمعجم الصهيونى فى تلك الترجمات، فهل هناك اصطداماتٌ دلاليةٌ بين اللغتين؟ وما هو تأثير هذه الاصطدامات فى النتاج الأدبى من جهة، أو فى لغة الترجمة للعبرية المعاصرة من جهة أخرى؟.

يشترك فى عمل الترجمة، إضافةً إلى الأدباء الأصليين، عاملان على الأقل: المترجم ودارُ النشر. ومع أنَ هذا البحث لا يتناول هذين العاملين، وإنّما يركّز على تحليل لغة النص ذاته ودلالاتها، فإنّه تجدر الإشارةُ إلى هوية المترجمين وهم: الفلسطينيّان أنطون شمّاس[1]، مترجمُ أدب إميل حبيبى؛ ومحمد حمزة غنايم[2]، مترجمُ شعر محمود درويش؛ والعراقى موشيه حاخام[3]، مترجمُ رواية باب الشمس لإلياس خورى (تحرير الترجمة: أنطون شمّاس). نرى هنا حضورًا بارزًا للمترجمين الفلسطينيين، مقارنةً بسنواتٍ سابقةٍ سيطر فيها مترجمون يهودٌ من أصلٍ عربى.

قبل أن أتوجّه إلى التحليل أودّ التنويه إلى أربع قضايا هامة من خارج النص، وتتعلّق بالترجمة كمنظومةٍ قوة

١) قضية الترجمة كوسيلةٍ لمعرفة العدوّ. الترجمة وسيلةٌ للسيطرة، إذ يوضع النصُ الأدبى فى مكانٍ معروفٍ سلفًا، مكانٍ لا خوف فيه ولا خطر، مكانٍ لا يُمكن العبثُ به. يقول إدون جنتسلر فى هذا الصدد: «كانت الكولونيالية والإمبريالية، ولا زالتا، ممكنتين لا عن طريق القوة العسكرية أو المصلحة الاقتصادية وحدهما، وإنما أيضًا عن طريق المعرفة.» ولكنّه يقول أيضًا: «... يمكن أن تُستخدم (الترجمة) على يد الخصوم كتجسُّسٍ مضادّ، بهدف التآمر والتمرّد».

٢) قضية الترجمة بوصفها عملية تملُّكٍ للإنتاج الفلسطينى من طرف الثقافة العبرية. فلو أخذنا مثلاً «جائزةَ إسرائيل» التى نالها إميل حبيبى، فسيلفت نظرَنا قولُ الناقد السورى صبحى حديدى مناقشًا قبولَ حبيبى إيّاها عام (١٩٩٢): «إنّها تُمنح فى إطار الاحتفالات بما تسمّيه الدولةُ العبرية عيدَ الاستقلال، تشديدًا على موضوعى البطولة والدفاع فى الجانب العسكرى والقتالى المحض عمومًا.» ثم يقتبس من كلام وزير التربية والثقافة عام (١٩٥٦) ما يلى: «إنّ ثقافة إسرائيل كانت هاديةً لنا فى حرب التحرير، والتوراة والشعر العبرى جزءان لا يتجزّءان من الأسلحة الفردية لمقاتلينا». وعليه، فإنّ منحَ جائزة إسرائيل، أو



أيديولوجيا الترجمة!



أى تمويل آخر لإنتاج فنى فلسطينى لمبدعى أراضى (١٩٤٨)، يسمح لإسرائيل بالقول إن الممنوح إنتاج إسرائيلى.

٣) هل الترجمة عملية تنوير إنسانية متعددة الثقافات، أم ثوب يغطى أفكاراً عكسية؟.

٤) قضية دور النشر: فمثلاً تنتسب دار نشر «سيفريات بوعاليم» (مكتبة العمال) إلى حركة الاستيطان اليسارية الصهيونية «ها-شومير ها-تسائير» (الاستيطان داخل حدود ١٩٤٨)، ودار النشر «عام عوفيد» (شعب عامل) كانت منتسبة إلى تنظيم العمال الصهيونى (الهستدروت)، وصدرت عنهما أعمال إميل حبيبى. «بابل» و«أندلس» دارا نشر خاصتان، وصدرت عنهما أعمال محمود درويش. كما صدرت باب الشمس عن «أندلس» أيضاً. على أى حال، يمنح تمويل الترجمة للممول قاعدة اقتصادية من خلال الامتيازات الاقتصادية التى تأتيه دائماً على خلفية حجبها عن الإنسان الفلسطينى. وعليه، فإن كل ترجمة على يد إسرائيلى لإنتاج فلسطينى، أو كل بحث إسرائيلى فى الإنتاج الفلسطينى، يستبطن ضمنه عملية تملك . . . بما فى ذلك البحث الذى بين أيديكم!.

ينتمى هذا البحث إلى المنهج الأدبى، محاولاً فحص العلامات اللغوية ودلالاتها الثقافية فى اللغة العبرية. ولا أتناول هنا عجز اللغة العبرية عن ترجمة مصطلحات من اللغة العربية، ولا كيفية الترجمة، وإنما أتناول عجز المعجم العبرى المعاصر عن التخلص مما حدده له الإطار الإيديولوجى الصهيونى من المعانى وظلال المعانى.

فى الجزء الأول سأبحث عن هذه العلامات فى ترجمات الأدب الفلسطينى، مركزة على ترجمات أعمال محمود درويش الشعرية الجديدة، ورواية (باب الشمس) للكاتب اللبنانى إلياس خورى[4] وروايات إميل حبيبى الثلاث. وسأصنف هذه العلامات إلى أربعة مستويات أو نماذج:

١) علامات ذات صراع مكشوف ومعلن

٢) مصطلحات مقيدة بالخطاب الصهيونى بشكل غير مباشر

٣) علامات ما وراء النص (subtext).

٤) مبان نموذجية للعبرية الأوروبية الأشكنازية الصهيونية التى «تكتب من الشمال إلى اليمين»[5]، كما يقول أنطون شماس، بدل العبرية الشرقية المستقاة من العربية.

فى الجزء الثانى من هذا البحث سأتطرق إلى تحليل النتائج، وسأبحث تأثير اصطدام نتاجات درويش وحبيبى وخورى فى النتاج الأدبى أو اللغة العبرية.

العلامات

أ) مصطلحات عليها صراع مكشوف ومعلن

فلنأخذ مصطلحاً أساسياً فى الفكر الصهيونى، وله أيضاً أهمية سياسية بالغة، خاصة على المستوى الدولى، وهو مصطلح «الضحية». يكتب درويش فى المجموعة الشعرية (حالة حصار):

«(إلى قاتل): لو تأملت وجه الضحية
وفكرت، كنت تذكرت أمك فى غرفة
الغاز، كنت تحررت من حكمة البندقية
وغيرت رأيك: ما هكذا تستعاد الهوية!».

هنا يحاول المتكلم محاورة القاتل الإسرائيلى، طالباً منه تأمل وجه الضحية («هكوربان» بالعبرية) الفلسطينى، فيتوقف القاتل - نتيجة لذكرى ضحايا «المحرقة» - عن استعمال العنف والقمع ضد الضحية الفلسطينية. ولكننى أعتقد أن الإسرائيلى، عندما يتأمل وجه الضحية الفلسطينى، لا يستطيع إلا أن يلجأ إلى الخطاب الذى يقول العكس تماماً وهو: إذا لم أستعمل القوة، فسيصبح مصيرى مصير الضحية. فالحال أن ربط «المحرقة» بالمأساة الفلسطينية داخل المجتمع الإسرائيلى قد يؤكد الحاجة إلى القوة ضد العدو، سواء أكان هذا العدو ألمانياً، أم أوروبياً، أم عربياً، أم فلسطينياً بالتحديد.

فالحق أن مصطلح «الضحية» فى الإطار الصهيونى «محجوز» لليهودى، وتنبع منه امتيازات سياسية كثيرة، خاصة من جانب أوروبا ما بعد «المحرقة». وحتى إذا وافق القارئ الإسرائيلى على مصطلح «الضحية الفلسطينى»، فإن اليهودى دائم الشعور بأنه هو الأكثر ضحية، ودائم الشعور بأن تهجير الفلسطينى والاحتلال الإسرائيلى بكل ما يتضمنانه من عنف وقتل لا يساويان إطلاقاً إبادة ستة ملايين يهودى. من هنا أعتقد أن هذا التصادم المباشر عند القارئ الإسرائيلى يؤدى إلى تأكيد خطاب المحرقة الصهيونى. وحتى لو وافق القارئ الإسرائيلى على منطق درويش، فسيشعر دوماً بأن المحرقة أكبر من النكبة، وأنه إن لم يكن قوياً فسيتحول إلى ضحية.

وعلى الجانب الثانى من الضحية، هناك «المقاتل». تستعمل الترجمة العبرية لكتاب إلياس خورى، باب الشمس، كلمة «لوخيم/ لوخاميم»، وهى المفردة التى كانت سابقاً مخصصة للجندى الإسرائيلى. ونجد هذا المصطلح كثيراً فى الكتاب، وخاصة فى وصف شخصية البطل الجذاب يونس. ومع أن فى المعجم الإسرائيلى مصطلحات سلبية تستعملها الصحافة الإسرائيلية مثل «فدائيون» و«مخابيل» (إرهابى)، فإن كلمة «لوخيم» طبيعية ومقبولة لدى القارئ الإسرائيلى فى كل سياقاتها فى الرواية. وربما يعود ذلك، من جهة، إلى تضامن القارئ مع البطل الجذاب يونس، ويعود من جهة أخرى إلى تراجع موقع المقاتل الإسرائيلى فى المجتمع الإسرائيلى فى الثمانينيات مقارنة بموقعه بعد عام (١٩٦٧) بسبب عدم الإجماع داخل المجتمع الإسرائيلى على مسألة الأراضى التى احتلتها وكذلك إزاء حرب لبنان. ويعلق خورى مباشرة على قضية الاستخدام الإسرائيلى لمصطلح إرهابى «مخابيل» («المخربون») مع الاقتراب من نهاية الرواية، ولكنه استطاع تفكيك هذا المصطلح وتبديله بمصطلح «لوخيم» للقارئ الإسرائيلى خلال الرواية.



فى ترجمة المتشائل لإميل حبيبى نرى فى كلمة «الدولة» تصادماً «جاحظياً» ذا وجهين: جد وهزل. فحين يدخل سعيد مدينة حيفا، يقول سائق سيارة الجيش: «أهلاً وسهلاً فى مدينة إسرائيل»، فيعتقد سعيد أن مدينته الحبيبة حيفا قد أصبحت إسرائيل، ولكن كلمة «مدينة» العبرية تعنى «دولة» بالعربية! ويكتشف سعيد ذلك فى ما بعد، وهذا اكتشاف مضحك بسبب سوء التفاهم، ولكنه كئيب لأن فلسطين كلها (لا حيفا وحدها) قد ضاعت. وأعتقد أن الجد والهزل كليهما يخلق لدى القارئ العبرى شعوراً بالتضامن مع البطل: فكلاهما يكتشف هنا الهوة أو الثغرة المؤلمة بين اللغتين (بالنسبة لبطل الرواية شعبه، وأيضاً للقارئ الذى يتضامن مع البطل)

ب) مصطلحات مقيدة بالخطاب الصهيونى بشكل غير مباشر

يكتب درويش فى حالة حصار:

«(إلى شاعر): كلما غاب عنك الغياب
تورطت فى عزلة الآلهه
فكن «ذات» موضعك التائهه
و«موضوع» ذاتك،
كن حاضراً فى الغياب.»

ترجمت كلمة «غياب» إلى «نيفكادوت.» غير أن لهذه الكلمة علاقة بتركيب هام عند «عرب ٨٤» هو «نوخاخيم-نيفكاديم»، أى الحاضرون-الغائبون. والمقصود بهؤلاء هم الفلسطينيون الذين هجروا خلال حرب (١٩٤٨) وعادوا ولكن السلطات الإسرائيلية لم تعترف بوجودهم. وكان محمود درويش فى طفولته «حاضراً-غائباً» وفق السلطات الإسرائيلية. وأعتقد أن غنايم اختار هذا العنوان لأنه يشعر أيضاً كالحاضر-الغائب فى الثقافة الأخرى، أى الثقافة العبرية التى تجهله (الحاضر-الغائب فى الثقافات الأخرى. الكرمل ٦٠/٢١١، ٢٢٦).

وإضافة إلى أن كلمة «نفكادوت» تعنى «الغياب» على نحو عام، فإنها تعنى شيئاً محدداً أيضاً فى الواقع الإسرائيلى: وهو غياب جندى بشكل غير متوقع من الجيش بسبب تهربه من «الواجب الوطنى.» والواقع أن تلك الكلمة تنطبق بشكل نموذجى على حالة الجنود الفقراء اليهود من أصل عربى الذين لا ينجحون فى الوجود فى إطار عسكرى لأسباب اجتماعية وثقافية وشخصية. ويبدو أن هذا المعنى قوى عند القارئ الإسرائيلى الذى يعيش فى مجتمع يشكل الجيش فيه جزءاً من حياة كل فرد. هكذا تدخل هنا، بسبب كلمة «نفكادوت»، مسألتان خارجيتان لا علاقة لهما بالقصيدة - العسكر وقضية اليهود الشرقيين - فتخربان التجربة الشعرية.

فى (باب الشمس) يروى إلياس خورى قصة ولادة «ناجى»، الذى قابلته أم حسن فى «الرحلة الأخيرة»، وأسمته كذلك. ويأتى خورى بنقطة لإنهاء الجملة. أما فى الترجمة فيأتى المترجم بفاصلة ويضيف ترجمة عبرية للاسم: «وأسمته ناجى، يعنى ها-نيتسول.» غير أن كلمة «نيتسول» مركزية فى خطاب المحرقة اليهودية! وليس هناك فرق أن تأتى الكلمة وحدها أو كجزء من الإضافة

أيديولوجيا الترجمة!



«نيتسول-شواه» (ناجى (من) كارثة). حتى يمكن القول إنّ كلمة «نيتسول» وخاصةً عندما تأتى مع «ها» التعريف أو بصيغة الجمع «ها-نيتسوليم» أصبحت وافرةَ الوجود. وإذا قيل عن شخص إنّه «نيتسول» فلا شكّ أنّه ناجٍ (من المحرقة)، وعلى هذا النحو تأتى هذه الكلمة (ناجى = «نيتسول») فى ذهن القارئ الإسرائيلى. المشكلة هى أنّه إذا لم يُضِف المترجمُ التفسيرَ فلن يَعلم القارئُ معنى الكلمة. ولكنَّ الفخَّ هو أنَّ إضافة التفسير الأصحّ للكلمة تثير فوراً مسألةَ المحرقة. فهل يمكن هنا استعمالُ ما يسمّى فى نظرية الترجمة بـ«درجة صفر فى الترجمة» (zero-translation)، أى عدم الترجمة؟ ربما!.

ج) علامات ما وراء النص (subtext).

سنبحث الآن إحدى العلامات المثيرة فى ترجمة لماذا تركت الحصان وحيداً إلى العبرية، وهى فى نظرى ترجمةٌ استطاعت نقل التجربة الشعرية ومثالٌ جيد على إشكالية قضية هذا البحث. يقول درويش:

أمى تعدُّ أصابعى العشرين عن بُعدٍ

تمشطنى بخصلةِ شعرها الذهبى.

تَبْحث

فى ثيابى الداخلية عن نساءٍ

أجنبياتٍ

وترفو جوربى المقطوع . . .

فكيف تُرجم تركيب «ثياب داخلية»؟ هناك التعبير العبرى الشائع «تاختونيم فيغوفييا»، الموجود فى سياق كوميدى فى المتشائل، ولكنّه تعبيرٌ خشنٌ ومضحكٌ لا يناسب هذه القصيدة. وأما كلمة «ليفانيم»، وتعنى «بيض»، فبدت ملائمةً لأنّها نظيفةٌ ورفيعة.

ولكنْ، فى قراءة مجدّدة، ظهرتْ ظلالُ معانٍ لهذه الكلمة. فأنا أعتقد أنّ كلمة «ليفانيم» استُعملتْ خاصةً فى «بيوت الأولاد» فى «الكيبوتسات»، بل يمكن إرجاعُ أصلها إلى هناك. وكان «بيتُ الأولاد» هو البيت الذى نشأ فيه الولدُ منذ ولادته وسط عشرين إلى ثلاثين ولداً وبنتًا آخرين. وهكذا أخذتْ تجربةُ الشاعر الفلسطينى ظلال لغةَ الكيبوتس، الذى هو مشروعُ الاستيطان الصهيونى. وهذا اصطدامٌ قد يخرّبُ التجربةَ الشعرية الفلسطينية.

فى باب الشمس يقول خليل ليونس: «قلت إنّنى أردتُ خنقَك... كأنّه إنسان آخر يعيش معى، يقفز من داخلى، ويجعلنى قادراً على القتل وتدمير كلّ شىء» فى النسخة العبرية تُرجمتْ عبارةُ «القتل وتدمير كل شىء» بتعبيرٍ جاهزٍ يُستخدم عاماً بعد عام فى خطابات «يوم المحرقة» وهو: «ليرتزواخ ليأبيد أوليهاشميد.» بيْد أنّ ثمة تغييراً بسيطاً فى هذا التعبير الجاهز لم يُلْحظْ تقريبًا «ليرتزواخ ليأبيد أولاهاروس»، مع أنّ هذا التغيير فى التعبير يثير فوراً عند القارئ الإسرائيلى السياقَ المقتصرَ على «المحرقة.» وهنا يُطرح السؤال: لماذا استعمل المترجمُ هذا التعبيرَ المحصورَ بخطابات يوم المحرقة بشكلٍ خاص، مع أنّه لم تكن ثمة حاجةٌ ملحّةٌ إلى ذلك الاستعمال؟

فى سرايا بنت الغول يذكر إميل حبيبى «...الصنوبر، الأبكم الأصمّ.»، ويقول إن «تكلّم صنوبر الكرمل . . نواح كلب سائب على قمر...» المعلوم أنّ أشجار الصنوبر فى الخطاب الفلسطينى هى التى تَحْجب القرى المهجّرةَ عن العيون. وأما «أشجار الصنوبر» عند الإسرائيلى العادى والجاهل لظلال المعانى فتذكُره بغابات مؤسّسة «كيرين كايميت ليسرائيل». ولكنْ إذا كان القارئ الإسرائيلى واعيًا فقد يَعْلم أنّ «كيرين كايميت ليسرائيل» هى «المؤسسة الصهيونية لغرس الغابات فى البلاد غير المأهولة.» وقد يعرف قصة غابات الصنوبر التى تغطّى القرى المهجّرة بفضل القصة المشهورة للكاتب الإسرائيلى المعروف أ ب يهوشوع بعنوان (أمام الغابات) (صدرت عام ١٩٦٣ وتناقش هذا الموضوع)(٦).

إذن، القارئ الإسرائيلى العادى لن يحسّ بأىّ اصطدام فى المعانى. وأما القارئ الواعى العالم بقضية غابات الصنوبر فقد يجد اصطداماً يَنْتج عنه اعتراضُه على النص أو قبوله به.

استعمال مبان نموذجية للعبرية الأوروبية

سيكون هذا الجزء تجريبياً إلى حد ما، وسأحاول أن أطرح فيه عاملاً أعتقد أن له أهمية بالغة عندما نبحث العلاقات بين اللغتين: العربية والعبرية، وهو التمييز بين اللغة العبرية الرسمية المعاصرة ذات السمات الأوروبية التى نشأت مع الحركة الصهيونية ومن أجلها، والعبرية التى تستقى من اللغة العربية والتى يستعملها اليهود الشرقيون وهى قريبة من العربية بالمبنى النحوى وبالمعجم. أعتقد أن العبرية الأوروبية الأشكينازية الصهيونية تصطدم بقوة مع كل ما هو عربى حين تنسجم العبرية العربية، أو الشرقية أن مع العربية. لطرح هذه القضية فى مجال الشعر سأستعين بمجموعة للشعر الدينى المعاصر ليهود الشرق تحتوى على حوالى (٧٠٠) نشيد معاصر نُظمت بالعبرية الشرقية لألحان عربية خلال النصف الثانى للقرن العشرين. لطرح هذه القضية فى مجال القصة سأستعين بترجمة كتاب سمير نقاش (يوم حبلت وأجهضت الدنيا). ترجمت هذا الكتاب أخت الكاتب روت نقاش، التى تتكلم العبرية الأوروبية ولكن هذه أساسًا ترجمة الكاتب ذاته. لقد ترجمه سمير نقاش شفوياً



وكتبت ترجمته أخته بسبب عدم معرفتها قراءة اللغة العربية ويمكن لأسباب أخرى. مع أنه فى الكتاب أجزاء فى اللغة العبرية الأوروبية واضح أن اللغة المسيطرة هى اللغة العبرية الشرقية المستقاة من اللغة العربية بالمعجم بالنحو وبالأسلوب.

يستخدم المترجمون الثلاثة، أساسًا، مبانى نموذجية للعبرية الأوروبية الأشكينازية الصهيونية التى «تُكتب من الشمال إلى اليمين» كما يقول أنطون شمّاس، وليس العبرية الشرقية.

سأستعين بمثال من ترجمة جديدة لتفسير هذه القضية فى الشعر. يكتب طه محمد على فى القصيدة (نبيذ أمسيات الأحزان المعتقة. ترجمة: أنطون شمّاس):

فى المساء يكبر الحزنْ

يترعرع مع كلِ نفسٍ

ينشط مع كلِ ذكرى

ومع كل نوبة حنينٍ

يربو ويزدهر.

تمت ترجمة «يربو ويزدهر» إلى (يلافليف لو فيفراخ) «يربو له ويزدهر». «لو» هى كلمة حشو.

نلقى الآن نظرة على أغنية مأخوذة من مجموعة للشعر الدينى المعاصر ليهود الشرق أغنية «يفراح ويربى» يعنى (يزدهر ويربو) للحن أغنية إفرح يا قلبى لمحمد عبد الوهاب:

يزدهر ويربو شعب كريم

كسمك البحر يربو حبيب

رب اشفِ قلبى اسمح لى

اغدق على بحسناتك

جمّع شعبك داخل حدودى

كسمك البحر يربو حبيب

ساعد أيها الرحمن شعبًا وحيداً

لأنه بدونك ليس له صديق

ابعث له ملك بن داود

كسمك البحر يربو حبيب

نرى أن اللغة مختلفة تماما. «لو» (= له) التى استُعملت فى ترجمة قصيدة طه محمد على كلمة حشو وكانت كناية تعود إلى (الحزنْ)، وهو الفاعل تكون هنا كناية تعود إلى المفعول به. استعمال كلمة (لو) ككلمة حشو تعود إلى الفاعل نموذجى لأغان إسرائيلية صهيونية التى تستعمل العبرية الأوروبية(٧). التركيب يزدهر ويربو ترجم هناك لتركيب مأخوذ من أسلوب الأغنية الوطنية الإسرائيلية: «يلافليف لو فيفراخ». وهنا فى القصيدة الدينية مترجم إلى التركيب «يفراح ويربى». لا توجد كلمة «يربى» فى هذه الدلالة فى العبرية المعاصرة، ولكنها متوافرة جداً فى مجموعة للشعر الدينى المعاصر ليهود الشرق. كذلك تتوافر كلمات ليست موجودة فى معجم الشعر العبرى المعاصر: «يا» و«قلبى» و«حبيب» و«حسين» كلمات غريبة عن اللغة العبرية المعاصرة وحتى محتقرة فى الشعر العبرى المعاصر، ولكنها مشتركة بين اللغتين. مع أن المضامين لهذا النشيد دينية وحتى شبه قومية، تكون اللغة ذات أسلوب نحوى ومعجمى بعيد عن اللغة العبرية المعاصرة الأوروبية الصهيونية.

نجد فى ترجمة شعر محمود درويش (سرير الغريبة، تدبير منزلى) التعبيرات التالية:

هل نحن ننجو نجاة الغبار من

النهر. مَن كان فينا الضحيةَ فليحلم

الآن أكثرَ من غيره، بيننا.

فليحلم الآن ترجم إلى «شياخلوم لو أخشاف» (فليحلم له الآن). «لو» هى كلمة حشو.

نرى أن كلمة «لو» كما فى ترجمة قصيدة طه محمد على هى كلمة حشو وكناية عائدة إلى الفاعل كما هى فى الأغانى الوطنية الصهيونية.

أيديولوجيا الترجمة؟



سأستعين بأمثال من ترجمة كتاب سمير نقاش (يوم حبلت وأجهضت الدنيا) لتفسير القضية فى مجال القصة. نجد فى ترجمة نقاش ميلاً لاستخدام الضمائر المتصلة أو المستترة كما نجد فى اللغة العربية ومحاولة بارزة لعدم استخدام الضمائر المنفصلة:

تَرجم نقاش: «لم يتحقق وعندما يتحقق»، وليس كما هو مألوف فى العبرية الأوروبية: «لم يتحقق وعندما هو يتحقق» (لوء هتغشيم قودم لخن وكاءشير (هو) هتغشيم).

تَرجم نقاش: «ذكرنى»، وليس كما هو مألوف فى العبرية الأوروبية: «هو ذكرنى» ((هو) هيزكير لى).

تَرجم نقاش: «كانوا يقولون عنهم (متواضعون)»، وليس كما هو مألوف فى العبرية الأوروبية: «كانوا يقولون عنهم أنهم متواضعون» (ناهاغو لومار عليهم (شهم) صنوعيم).

على حين نجد فى ترجمة خورى استخداماً مبالغاً فى الضمائر المنفصلة كما نجد فى اللغة الإنجليزية:

تُرجم: «ولكن أنا أردت ألا تموت (but I wanted)»، بدلاً من: «ولكن أردت ألا تموت» (باب الشمس) (أفال أنى راتسيتى شلو تاموت).

تُرجم: «هو قال أنه سعيد (He told that he is happy)»، بدلاً من: «قال إنه سعيد» (باب الشمس) (هو أمار شيهو ميؤوشار).

فى باب الشمس، تُرجم: «أنا لا أعلم متى (do not know when I)»، بدلاً من: «لا أعلم متى» (أنى لوء يودياً ماتاى).

لم يستخدم نقاش بتاتا التركيب «أنا لا = «ءنى لوء»» (أنا لا، وأيضاً: هى لا، هو لا، هم لا، هن لا) وإنما كلمة لست «ءيننى، ءينى» (لست، وأيضاً: ليس، ليست)، على حين نجد فى ترجمة خورى استخداماً مبالغاً لـ(أنا لا) وهى ترجمة مباشرة للتركيب الإنجليزى (am not I) وهو شائع أيضا فى اللغة اليومية المعاصرة. مثلاً:

فى (باب الشمس): «البيوت لا مهدمة» (بدلاً: البيوت ليست مهدمة) (ها-باتيم لوء هاروسيم) بدلاً من: (ها-باتيم أينام هاروسيم).

فى (باب الشمس): «انت لا من عين زيتون» (بدلاً من: لست من عين زيتون)، (أتا لوء ميئين زيتون) بدلاً من: (أينخا ميئين زيتون).

ومن ناحية الأسلوب: إذا استخدمت ترجمة نقاش التركيب «شرب القهوة» فتستخدم ترجمة خورى التركيب «(شرب) كأس القهوة» (كوس كافيه)، وهو تركيب شائع فى اللغة العبرية المعاصرة وترجمة مباشرة للتركيب الإنجليزى (cup of coffee a (drink). يبدو أسلوب الترجمة نموذجياً للغة العبرية الأشكينازية.

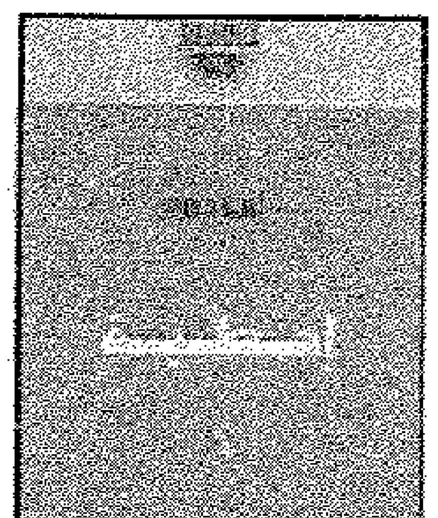
نجد فى ترجمات أدب إميل حبيبى سيطرة نفس الميل إلى استخدام اللغة الأشكينازية ولكن هناك أمثلة لاستخدام تعابير من اللغة العبرية الشرقية. مثلاً (اخطية): فى وصف أسلوب كلام امرأة يهودية من سكان طبريا الأصليين: قالت الطبرية: «كانوا يلبسون الأولاد لهم ...»، بدلا «هم كانوا يلبسوا».

أدعى أن ترجمات الأدب العربى بما فى ذلك الأدب الفلسطينى، بل الأدب الفلسطينى تحديداً، تحاول أن تبتعد عن العبرية الشرقية، اللغة العبرية التى تستقى من اللغة العربية وما فى ذلك من السمات العربية داخل هذه العبرية. هناك جهود كبيرة فى ترجمة النص إلى اللغة العبرية الأشكنازية اللا-شرقية إلى الحد الأقصى محاولةً جذب القارئ الأشكينازى. وإذا استعرنا مصطلحاً معاصراً: هناك بناء جدار فصل رفيع بين اللغتين، وقطع تام للخيوط بين اللغتين التى عبرت من خلال اللغة العبرية الشرقية. وهذا الابتعاد يبرز خاصة فى ترجمة (باب الشمس) أو فى ترجمات دارى النشر (بابل) و(أندلس)، أو فى الترجمات المتأخرة، ولا أدرى إذا كان ذلك بسبب المادة الأدبية الأصلية أو بسبب دور النشر أو بسبب اختفاء هذه اللغة مع الستين عند المثقفين، أو بسبب الفترة وما فيها من التطورات السياسية. ولربما السبب هو أن جمهور الهدف هو (أشكينازى) أساساً يحتقر هذه اللغة، ودور النشر تحاوره فقط. وأعتقد أن هناك أيضاً ميلا واضحاً للابتعاد عن العبرية الشرقية فى ترجمة الشعر بشكل عام، واتجاهاً إلى اللغة العبرية اللا-شرقية. وها هى اللغة العبرية الشرقية التى يحاول العودة إليها فى السنوات الأخيرة شعراء من أبناء اليهود العرب (الميزراحيم، شعراء مثل إيريز بيتون، حبيبة بدايا، سامى شالوم شطريت وآخرون) كعملية احتجاج سياسية.

تأثير الاصطدام الدلالى فى النتاج الأدبى فى اللغة العبرية

١) محمود درويش

نرى أن ترجمة شعر محمود درويش إلى اللغة العبرية تسبب تصادماً عنيفا يفتت التجربة والمتعة الشعرية ويفكك الخطاب الفلسطينى. يمكن القول إنه نادرة هى المرات التى تنجح فيها الترجمة فى تفكيك المصطلح الصهيونى أو حتى التعايش معه. فى أغلب الأحيان تفتت اللغة العبرية المتعة الشعرية وتفكك الخطاب الفلسطينى.يبدو ألا مفر من هذه الاصطدامات، وحتى إمكانية «الصفر ترجمة» التى يمكن استعمالها فى ترجمة النثر، يصعب استعمالها فى ترجمة الشعر.



٢) إلياس خورى

يمكن تقسيم قضية تأثير الاصطدام الدلالى فى النتاج الأدبى فى (باب الشمس) إلى قسمين: عندما يتناول الكاتب مصطلحات متعلقة بالمحرقة يمكن القول إنها نادرة المرات التى تنجح فيها الترجمة فى تفكيك المصطلح الصهيونى، فى أغلب الأحيان يفكك المحرقة الخطاب الفلسطينى.

عندما يتناول إلياس خورى مصطلحات غير متعلقة بالمحرقة، وإنما بالنضال الفلسطينى يمكن القول إنها نادرة المرات التى ينجح فيها المصطلح الصهيونى فى تفكيك الخطاب الفلسطينى، ويبدو أن قبول القارئ العبرى للمصطلحات المتعلقة بالنضال الفلسطينى ينبع أساساً من تضامن القارئ مع البطل يونس ونضاله.

٣) إميل حبيبى

لم تنجح ترجمة كتب إميل حبيبى فى التخلص من التأثير الصهيونى للعلامات فقط وإنما يَغلِبُ عليها بسهولة. ويفكك نتاج حبيبى المعجم الصهيونى.

وحتى هناك حالات تفكك الترجمة الخطاب الصهيونى للمحرقة.

من أين ينبع نجاح ترجمة نتاج إميل حبيبى؟. من الأسلوب الساخر؟. من الجهود المباشرة لتفكيك هذه المصطلحات؟. من كون هذه الاصطدامات جزءاً «طبيعياً» من الحياة اليومية لحبيبى وللمترجم؟.

علامات المعجم الصهيونى

إذا حاولت الإجابة عن السؤال الأول من هذا البحث فهناك استخدام واضح للغة ذات دلالة صهيونية فى الكلمات والمصطلحات وفى المعانى وظلال المعانى وحتى فى المبنى. وهناك علامات كثيفة للمعجم الصهيونى فى ترجمات الأدب الفلسطينى إلى العبرية. ربما هذه نتيجة كون اللغة العبرية المعاصرة مقيدة بالخطاب الصهيونى بشكل عام. وربما كثافة وجود هذه العلامات تشبه كثافتها فى أدب آخر باللغة العبرية وإن كان عبرياً أو مترجماً، ولكن العلامات فى الترجمة من الأدب الفلسطينى بارزة جداً. إن اللغة العبرية فى ترجمات الأدب الفلسطينى إلى العبرية مقيدة بالمعجم الإسرائيلى الصهيونى.

هذه العلامات فى الترجمة من الأدب الفلسطينى يمكن أن تبرز بسبب الاصطدامات الدلالية، وحتى اصطدامات دلالية عنيفة فى حالات، بين الكلمات والمصطلحات والمعانى وظلال المعانى كما تظهر فى ترجمة الأدب الفلسطينى، وكما توجد فى مفاهيم القارئ الإسرائيلى الذى نشأ من خلال جهاز التربية ووسائل الإعلام الإسرائيلية.

يبدو من الجزء الثانى لهذا البحث أن تأثير الاصطدامات الدلالية فى كثير من الحالات تصيب المعنى الأصلى الفلسطينى من خلال التجربة الأدبية ومن خلال المضامين. وإذا رجعنا إلى كلام سمير نقاش، الذى يفكر فى أشياء كالألم، فيبدو لنا أن خطاب المحرقة هو الأصعب للتفكيك، ويفكك تقريباً كل محاولة لطرح الفلسطينى كضحية وعرض الكآبة الفلسطينية وعرض الإسرائيلى كمضطهد.

نجاح ترجمات أدب إميل حبيبى فى تفكيك المعجم الصهيونى يبرز، ربما لأسباب متعلقة بماهية النص: الأسلوب الساخر، الجهود المباشرة لتفكيك المصطلحات، وربما لكون هذه الاصطدامات ومواجهتها جزءاً «طبيعياً» من حياة إميل حبيبى اليومية.

أيديولوجيا الترجمة!



يبرز التفكيك التام تقريباً الذى تسببه قيود المعجم الصهيونى لشعر محمود درويش. هل يكون التفكيك بسبب ترجمة فاشلة؟. لا أعتقد. عندما حاولت استبدال كلمات مصطدمة وجدت أنه ليس هناك كلمة أكثر ملاءمة إن كان ذلك فى ترجمة كلمات مثل (شهيد) أو (ضحية) أو حتى فى كلمات «عادية» كما فى الترجمة المتميزة لقصيدة (تعاليم حرية) ترجمت فيها كلمة ثياب داخلية إلى «ليفاتيم»، أو حتى فى ترجمة الاقتباس من سفر (الجامعة) فى التوراة: «كل نهر سيشربه البحر» إلى القول العبرى الأصلى من التوراة. ومن هنا أعتقد أن أسباب التفكيك متعلقة هنا أيضاً بماهية النص؛ كونه شعراً، يطرح الخطاب الفلسطينى من خلال التجربة الفلسطينية، ويستهدف أساساً تكوين التجربة الفلسطينية.

نجد فى رواية (باب الشمس) حالة معقدة فيها نجاح انتقال خطاب النضال الفلسطينى وفيها نجاح تفكيك المصطلحات الصهيونية المتعلقة بالمناضل الفلسطينى وحتى نجاح تفكيك المصطلحات الصهيونية المتعلقة بالمقاتل الإسرائيلى. ولكن الترجمة فشلت عندما حاولت استخدام مصطلحات متعلقة بالمحرقة استخداماً مبالغاً فيه. ولكن إلياس خورى نجح فى طرح الفلسطينى الضحية فى سياق مجزرة صبرا وشاتيلا أساساً، ربما لصداها الواسع فى أوساط الجمهور الإسرائيلى، ولأن كثيرين من الإسرائيليين يعتبرون أن المجزرة ليس بالضبط من أعمال الإسرائيليين وأسباب أخرى طرحتها آنفاً. توجد هنا حالة غريبة، يكون فيها الفلسطينى مضطهَد ولكن لم يكن دائماً من الواضح تماماً: من المضطهِد؟.

أستطيع القول إن انطباعى العام من خلال هذا البحث هو أن الأدب الفلسطينى خاسر كثيراً فى الترجمة للعبرية من حيث التجربة الأدبية ومن حيث المضامين ومن هنا من حيث إمكانية التعبير السياسى: فإن القيود الصهيونية للغة فى أغلب الأحيان تسبب تفكيك التجربة الأدبية والمضامين والتعبير السياسى الفلسطينى.

يقول دوغلاس روبنسون فى مقاله (Dis) Abusing Translation, P. ١٣٢) مقتبسا فيليب لويس محاولة تفسير المصطلح استغلال فى سياق الترجمة، خارجا فى ذلك الحيوط النظرية: «(...) الاستغلال هو بشكل نمطى تأثير الضرر الجسدى أو النفسى فى شىء آخر حى/ abuse is typically the (...) influencing of physically or psychological damage on another living thing».

ويتساءل دوغلاس روبنسون فى ما يلى من المستغل؟: «(...) من المستغل؟ المؤلف صاحب لغة الأصل، النص، الثقافة؟ المؤلف صاحب اللغة المستهدفة، النص، الثقافة؟ كلاهما، أم بعض الدمج للجوانب المختلفة من الاثنين».

يبدو أنه كان لدى المترجمين شماس وغنايم (وربما موشيه حاخام أيضاً) حافزاً قوياً لتعبير الخطاب الفلسطينى سياسياً وتقديم نتاج أدبى رفيع، ولكن آلية القوة التى تقيد اللغة العبرية المعاصرة بالمعجم الصهيونى قد انحرفت أو حتى قلبت نوايا المترجمين فى حالات كثيرة، ولأسباب تتعلق أساساً بلقاء بين ماهية النص ذاته واللغة العبرية المعاصرة، المختزلة فى إطار إيديولوجى ضيق.



ربما يجب أن يكون هذا السؤال أوسع، فى سياق ترجمة أدب فلسطينى إلى اللغة العبرية:

من المستغَل؟ المؤلِّف صاحب لغة الأصل، النص، الثقافة، المترجم؟.

ربما سؤال استغلال المترجم هو جزء من سؤال استغلال ثقافة المصدر.

يقول شمعون بلاص فى مقابلة أجراها معه محمد حمزة غنايم: «النقد الأكاديمى العبرى يتعامل مع الترجمات الأدبية العربية كوسيلة لمعرفة المجتمع العربى وثقافته وأفكاره. لا أكثر. وهو لم يهتم بمعرفة النص الإبداعى، قدر اهتمامه بمعرفة الشخصيات التى يقدمها، والمجتمع الذى يقف وراءها. حاول النقد الأكاديمى تسخير الإبداع لمعرفة العدو. لا أكثرا بحث عن كل شىء فى النص، عدا النص نفسه (الكرمل، ٦/ ٢٢٩). هل يمكن قول نفس الكلام عن القارئ العبرى؟

وإذا أضفنا إلى ذلك عاملى الترجمة من أجل معرفة العدو والتملك اللذين طرحتهما فى المقدمة وعدد القراء الهامشى لهذا الأدب، فتطرح علامة استفهام كبيرة حول إمكانية ترجمة أدب فلسطينى إلى اللغة العبرية المعاصرة فى هذه اللحظة التاريخية. ■

الهوامش

١) أنطون شماس. شاعر كاتب وصحفى. ولد عام (١٩٥٠) فى قرية فسوطة. محاضر للثقافات الشرقية فى جامعة ميشيغين (حانا عاميت كوخافى، ص ٣٥٩).

٢) محمد حمزة غنايم، شاعر، (٢٠٠٤-١٩٥٣) ولد فى قرية باقة (حانا عاميت كوخافى، ص ٣٥٦).

٣) موشيه حاخام، ولد عام (١٩٥٠) فى العراق. هاجر إلى إسرائيل/فلسطين عام (١٩٥١) (حانا عاميت كوخافى، ص ٣٥٢).

٤) وهنا يمكن السؤال: ما الأدب فلسطينى؟ هل هو أدب كتبه فلسطينى، أم وجهة نظره فلسطينية، أم موضوعه فلسطينى؟.

٥) (أنطون شماس. ص ١٩) (دلنى كل من د محمود غنايم ود محمود كيال على هذا الاقتباس).

٦) أصبحت القصة فيلماً عام (١٩٩٩ م) أخرجه دانى فاكسمان.

٧) (Chatman, Seymour. p. ١٥١).

المصادر

١) درويش، محمود، الأعمال الجديدة، رياض الريس، لبنان، ٢٠٠٤ (١٩٩٥-٢٠٠٤).

٢) حبيبى، إميل، الوقائع الغريبة فى اختفاء سعيد أبى النحس المتشائل، دار الجليل، دمشق، ٢٠٠٠ (١٩٧٤).

٣) حبيبى، إميل، إخطية، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ٢٠٠١ (١٩٨٥).

٤) حبيبى، إميل، سرايا بنت الغول، دار عربسق، حيفا، ١٩٩١ (١٩٩٠).

٥) خورى، إلياس، باب الشمس، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٨.

المراجع العربية

١) بكار، يوسف حسين، الترجمة الأدبية إشكاليات ومزالق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠١.

٢) حديدى، صبحى، «فى ذكرى إميل حبيبى»، القدس العربى ٢٠٠٦/٠٥/٢٩.

٣) زقطان، غسان (محرر)، «شاعر ممتاز واحد يكفى» (محمد حمزة غنايم)، محمود درويش، المختلف الحقيقى: دراسات وشهادات. دار الشروق، تونس، ١٩٩٩.

٤) غنايم، محمد حمزة: «الحاضر-الغائب فى الثقافة الأخرى» (مقابلة مع شمعون بلاص). الكرمل، رام الله: ١٩٩٦/٦٠.

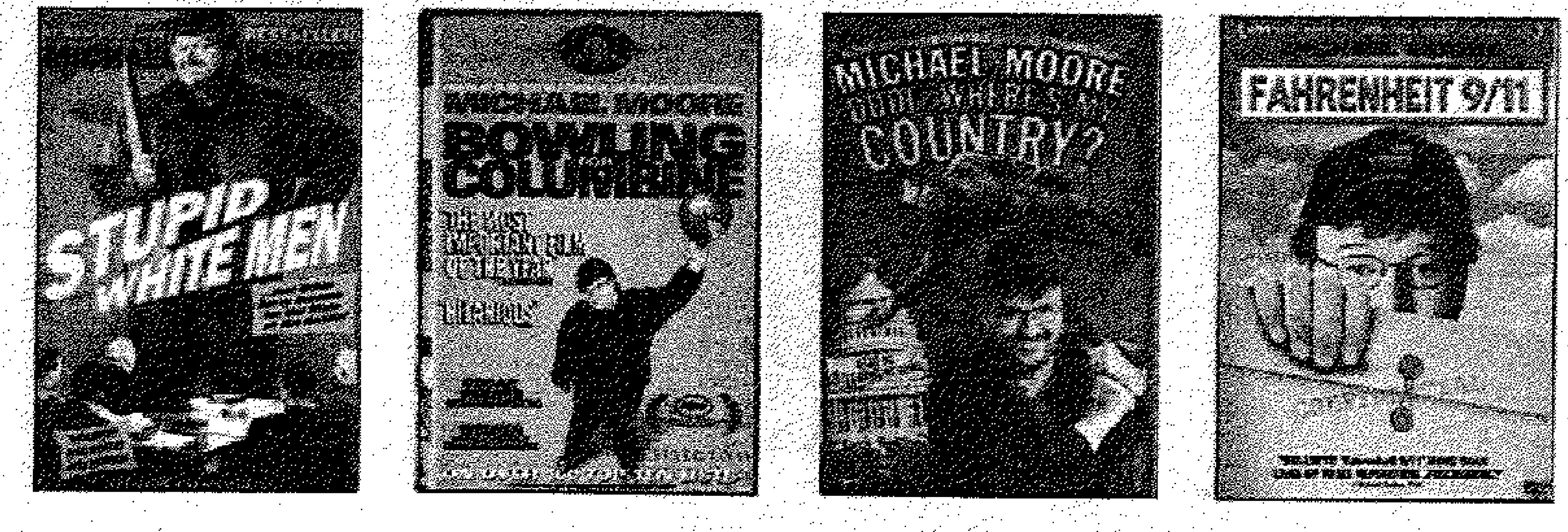
٥) نقاش سمير، يوم حبلت وأجهضت الدنيا. القدس، ١٩٨٠.

المراجع الإنجليزية

- Alcalay Ammiel (ed). "Signs in the Great Disorder: An Interview with Samir Naqqash", Keys to Garden, New Israeli Writing, City Lights Books, San Francisco, 1996, (pp ١٠٠-١٣٢).
- Amram, Uri (ed) , Shira Hadasha, Zimrat Ha'Aretz Institute, Brooklyn NY, Second edition, ٢٠٠٢.
- Chatman, Seymour. "Story and Discourse", Ithaca, New York: Cornell University Press, ١٩٧٨.
- Robinson, Douglas. What is translation?, Kent: Kent State University Press, ١٩٩٧.
- Tymoczko, Maria. Gentzler, Edwin. Translation and Power, University of Massachosettes Press, ٢٠٠٢.

المراجع العبرية

- درويش، محمود. سرير الغريبة، بابل، ٢٠٠٠، ترجمه للعبرية: محمد حمزة غنايم.
- درويش، محمود. لماذا تركت الحصان وحيداً، أندلس، ٢٠٠٠، ترجمه للعبرية: محمد حمزة غنايم.
- درويش، محمود. حالة حصار، أندلس، ٢٠٠٣، ترجمه للعبرية: محمد حمزة غنايم.
- درويش، محمود. جدارية، أندلس، ٢٠٠٦، ترجمه للعبرية: محمد حمزة غنايم.
- حبيبى، إميل. الوقائع الغريبة فى اختفاء سعيد أبى النحس المتشائل، ها-كيبوتس ها-ميؤوخاد، ١٩٩٥، ترجمه للعبرية: أنطون شماس (ترجم لأول مرة فى دار النشر ميفراس عام ١٩٨٤ وصدر مرة أخرى بعد اتفاقيات أوسلو لدار النشر ها-كيبوص ها-ميؤوخد).
- حبيبى، إميل. إخطية، عام عوفيد، ١٩٨٨، ترجمه للعبرية: أنطون شماس.
- حبيبى، إميل. سرايا بنت الغول، ها-كيبوتس ها-ميؤوخاد، ١٩٩٣، ترجمه للعبرية: أنطون شماس.
- خورى، إلياس. باب الشمس، أندلس، ٢٠٠٢، ترجمه للعبرية: موشيه حاخام، تحرير الترجمة: أنطون شماس.
- نقاش، سمير. يوم حبلت وأجهضت الدنيا، سيفريات بوعاليم، ها-كيبوتس ها-أرتسى ها-شومير ها-تساعير، ١٩٨٥، ترجمته للعبرية: روت نقاش.
- على، طه محمد، قصائد، أندلس، ٢٠٠٦، ترجمه للعبرية: أنطون شماس.
- أميت-كوخافى حانا. ترجمات أدب عربى إلى اللغة العبرية: خلفيتهم التاريخية-الثقافية وميزاتهم، بحث لنيل لقب الدكتوراه فى مجال الفلسفة.
- شماس، أنطون. «عن يمين وشمال فى الترجمة»، إتون (جريدة) ٧٧/ ٦٥-٦٤ (١٩٨٥)، ص ١٩-١٨.



كان على «مور» أن يسلك طريقاً آخر: أن يثابر على إطلاق صيحات مدوية شديدة الإخلاص لعلها تصل إلى الجماهير التي غيب عقلها الإدمان على إعلام مضلل استنزف وعيها بسيل من الأكاذيب والأخبار والصور المفبركة

محمد يوسف عدس

مايكل مور.. الحكمة

■ مايكل مور مؤلف وممثل ومخرج أفلام حازت شهرة عالمية وحظيت بجوائز عالمية أيضاً، عرفناه نحن من خلال فيلمه الوثائقي الذي أثارت شهرته ضجة في كل مدن العالم غرباً وشرقاً.. ذلك هو فيلم «فهرنهايت ١١ ٩»، رسم عنوانه بهذه الطريقة ليوحي إلينا بفكرة الفيلم كأنه يريد أن يقول عند هذه الدرجة من الحرارة تذوب الحقائق الخفية وراء حادثة برج التجارة العالمي في ٩/١١/ ٢٠٠١. ولكن مور في هذا الفيلم يكشف لنا عن حقائق مثيرة، وعلاقات مالية وصداقة استمرت ربع قرن من الزمان بين أسرتي بوش وبن لادن.

ولم تكن كتب مايكل مور أقل حظاً في الشهرة والانتشار من أفلامه.. ففي خضم الحرب الإعلامية التي شنها «جورج دبليو بوش» على «الإرهاب» وقد تمكن من حشد تأييد شعبي ودولي وراءه . صدر كتاب مزلزل لمور بعنوان «رجال بيض أغبياء» يسخر فيه سخرية لاذعة من الرئيس بوش، ويتهكم على شخصيته ويفضح أكاذيبه. فإذا بالكتاب يثير اهتماماً جماهيرياً واسعاً وتباع منه ملايين النسخ في العالم، خصوصاً في أمريكا وبريطانيا وكندا واستراليا.

أما كتابه الأخير الذي سنعرض له بشيء من التفصيل فعنوانه «ديود.. أين بلادي؟»، عندما نشر في بريطانيا سنة ٢٠٠٤م حقق مبيعات هائلة، بلغت مليون نسخة في ثلاثة أسابيع فقط، وبذلك ارتفع إلى قمة أكثر الكتب مبيعاً.. وقد حظي بتعليقات واسعة من الكتاب والصحفيين البريطانيين الذين أذهلتهم جرأته وعفويته، حتى إن الجارديان قالت عنه: «لو لم يوجد مايكل مور هذا لكان من الواجب على العالم إيجاده».

من المعروف تقليدياً أن الإنجليز يعتبرون الإنجليزية الأمريكية لغة ركيكة مقارنة بلغتهم الإنجليزية الأصلية الرصينة.. ولكن يبدو أنهم أخذوا بجرأة مور وسخريته اللاذعة وخروجه عن المألوف في التعبير اللغوي العنيف، حتى في استخدامه للحروف الكبيرة أحياناً للتأكيد على أفكار بعينها وتنبيه القارئ لأهميتها.. استوعب القراء الإنجليز كل هذا وسامحوا مايكل مور في كثير من تجاوزاته اللغوية والتعبيرية.

مور في كتاباته وفي أفلامه ليس كاتب قصص خيالية.. حتى إنه اتخذ من الفيلم الوثائقي أداته الرئيسية في التعبير الفني.. إنه يغترف من الواقع ويغوص وراء الحقائق المستورة، ويعتمد في أحيان كثيرة على الأرقام والإحصاءات، ولكنه يمزج هذا كله بنبرة واضحة من السخرية اللاذعة والتهكم.. وتشعر في ثنايا كتاباته بدفقات من العاطفة والانفعال ولكنه يصيب كبد الحقيقة ولا ينحرف عنها.

يصف بعض النقاد مور في أفلامه بالجنون، أليس هو الصحفي الذي أقام جنازة ساخرة كتب على صندوق النعش فيها اسم رجل مريض كان قد تقدم إلى مركز للعناية الصحية بطلب لإجراء عملية نقل كلية لإنقاذ حياته لأنه فقير فرفض طلبه.. وضع مور النعش أمام المركز وشرع يتلقى العزاء، وجاءت الصحافة والإعلام تسجل الواقعة مما اضطر المركز، منعاً للفضيحة، أن يوافق على العملية.. وهو مخرج فيلم Bowling for Columline الذي ذهب فيه إلى محلات «كي مارت» ومعه طفلان لا تزال في جسميهما رصاصات أطلقت عليهما عشوائياً، فالأسلحة النارية متوفرة لدى الأمريكيين حتى الصبيان منهم. ذهب مور ومعه الطفلان ليطلب من «كي مارت» إرجاع هذه الرصاصات واسترجاع ثمنها.. وكانت النتيجة أن محلات كي مارت توقفت نهائياً عن بيع المقذوفات النارية.

أما كونه سياسياً نشطاً ومجادلاً قوي الشكيمة وصحفياً جسوراً فإن مايكل مور يشغل حيزاً متميزاً في الإعلام الأمريكي.. ليس لأنه معارض فقط، ففي أمريكا أصوات معارضين كثر وإن كنا لا نسمع عنهم كثيراً.. ولكن حاز على هذه المكانة المتميزة لأنه يقول ما يفعل ويفعل ما يقول، ويتطابق كلامه دائماً مع أسلوبه في التعبير سواء في التليفزيون أو في أفلامه أو في كتبه، ويبدو في كل أعماله كأنه فرقة كاملة لا فرد واحد.. وفي هذا السياق يقول عنه «جاري يونج» من «الجارديان» البريطانية: «مايكل مور يعمل وكأنه جوقة في شخص واحد بلا مجموعة تسانده بالصوت أو العزف». وهذه نقطة مهمة ندع جاري يونج يوضحها لنا بتفصيل أكثر، حيث يقول: «إن لمور نظراء في النقد والتهكم في الجناح اليميني ولكن لهؤلاء الصحفيين جوقة تساندهم في الإدارة الأمريكية وفي الكونجرس والإعلام، كما أن له نظراء في بريطانيا من اليساريين والثوريين.. ولكن هؤلاء يتحركون ضمن شبكة ليبرالية راسخة التقاليد في بريطانيا.. يدعمها فهم جماهيري يتذوق إنشادهم ويعزز مواقفهم النقدية».. أما مور فلا يستند إلى مناخ ثقافي مماثل، ولذلك يبدو وكأنه ظاهرة غريبة في ثقافة أمريكية لم تنتج أمثال «جون بلجر» أو «بول فوت» أو «توني بين».. ثقافة لم يقدر لها، عبر التاريخ، أن تنتج حزباً للعمال، فحزب الجمهوريين وحزب الديمقراطيين في نظر مايكل مور نفسه ليسا إلا وجهين لعملة واحدة غايتهما النهائية هي خدمة المصالح الرأسمالية لنخبة مسيطرة على الاقتصاد والمال والسياسة والصناعة جميعاً.

ومن هنا كان على «مور» أن يسلك إلى الجماهير طريقاً آخر: أن يثابر على إطلاق صيحات مدوية شديدة الإخلاص صادقة المنزع لعلها تصل إلى الجماهير التي غيب عقلها الإدمان على إعلام مضلل استنزف وعيها بسيل من الأكاذيب والأخبار والصور المفبركة، فيما يسمونه بـ «صناعة الرأي العام»!

ظل مور يطرق الآذان بصيحات عالية الرنين.. كان من أعلاها وأوفرها حظاً في جذب الانتباه إليه كتابه «رجال بيض أغبياء» ثم فيلمه الوثائقي «بولينج فور كولبين».. هذان العملان رفعاه على أكتاف مجموعة كبيرة من الجماهير المحبة ليخترق الأسوار الحصينة في عالمي

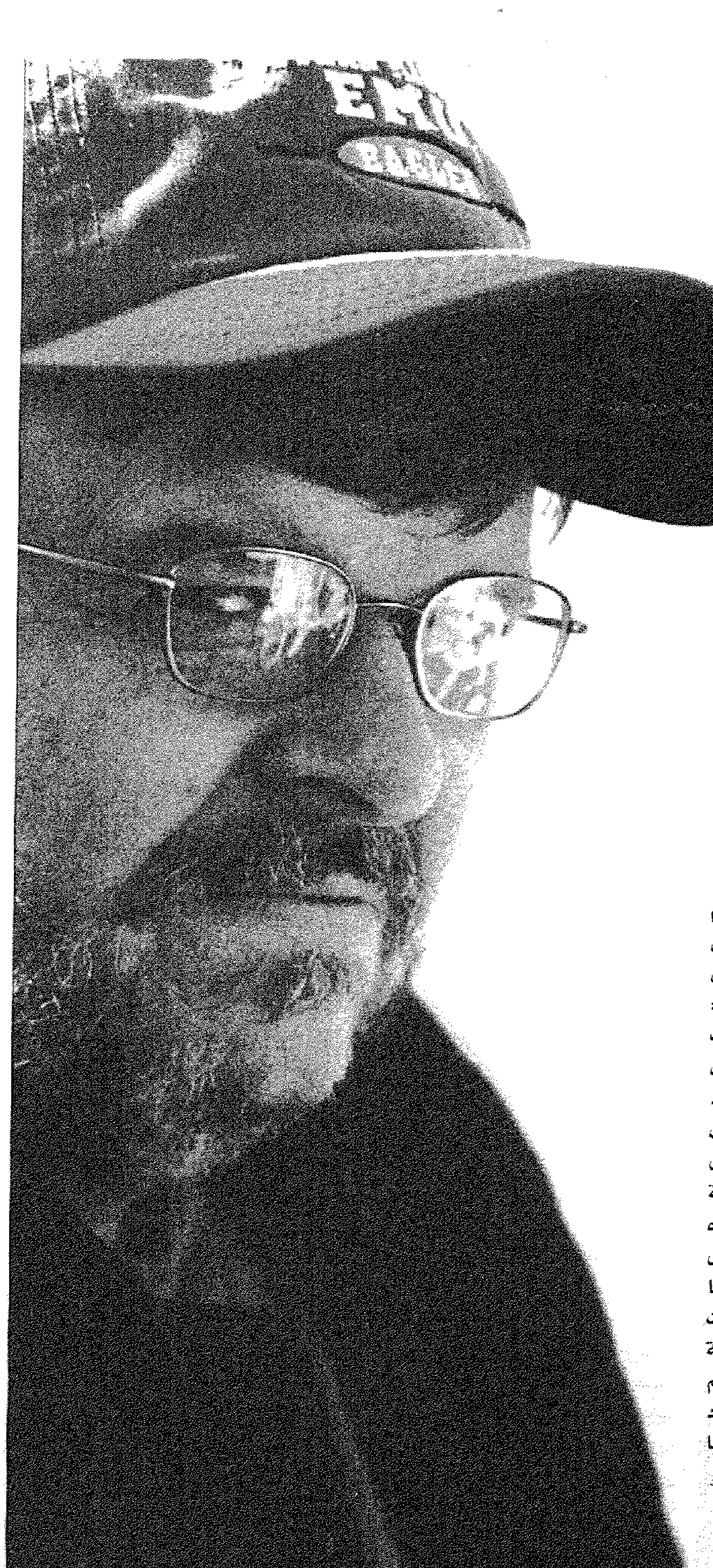
Dude, Where is my Country?
(يا فتى، أين بلدي؟)
Michael Moore
Warner Books, 2004

السياسة والثقافة والتى كانت تحول بينه وبين الوصول إلى جمهور أوسع من الأمريكيين، الذين يكنون فى قلوبهم رفضًا ومقاومة، ولكن كانت أصواتهم خافتة وصفوفهم مشرذمة، وكان هذا بالنسبة لمور نصرًا سياسيًا وليس مجرد إنجاز شخصى.

صدر كتاب مور «رجال بيض أغبياء» فى لحظة بدا فيها الرأى العام الأمريكى والعالمى محتشداً خلف بوش، فكان بمثابة الطلقة الأولى فى صدر أكبر أكذوبة فى التاريخ.. ومن ثم نهض كتاب السلطة وكلابها الحارسة، يحطون من قيمة الكتاب ويستهزءون بصاحبه.. فوصفه بعضهم بأنه «تشومسكى الأطفال».. ولكن الناس لم يستسيغوا هذا النقد لأنهم يرون الحقيقة أمام أعينهم، فتشومسكى على ذيوع شهرته

المعتادين، فقد جاء الاحتفال بعد ثلاثة أيام فقط من الغزو الأمريكى للعراق، ولعل هذا كان هو السبب الذى جعل منظمى الاحتفال يهملون بسط السجادة الحمراء.. وجعل عدداً من الفنانين والفنانات يُحجمون عن دخول قاعة الاحتفال، ولم يُعْن الذين حضروا بارتداء الأزياء الجديدة المبهرة.. فقد كان الاعتقاد المسيطر عليهم أن المناسبة لا تحمل مظاهر الفرح والبهجة، فى وقت كان الشبان الأمريكيون فى طريقهم إلى مذبحة العراق ليموتوا أو يقتلوا العراقيين فى بلادهم.

توجه أحد المسئولين إلى الفنانين الذين وقع عليهم الاختيار فى



والجنـــون!!

تصل كتبه إلى عشرات الآلاف من القراء، أما «مور» فإنهم يرونه يصل. من خلال كتبه وأفلامه - إلى عشرات الملايين.

ونستطيع باطمئنان أن نقول إن أعمال مايكل مور كلها فى السنوات القليلة الماضية كانت كلها حملات ناقدة لسياسات بوش وبطانته الحاكمة، وأنها أثارت موجات إعلامية حامية الوطيس بين المؤيدين والمعارضين.. ثم جاءت رحلاته داخل الولايات المتحدة وفى بريطانيا لتضيف إلى هذه الحملات وقوداً من القوة والحيوية.. ولتفسح له مجالاً أوسع للتواصل الشخصى والمباشر مع قطاعات كبيرة من المثقفين والجماهير فى كل مكان.. وأثناء رحلاته فى بريطانيا دعا البريطانيين لكى يقوموا بواجبهم لحمل حكومتهم على شن هذه الحرب لولا تشجيع تونى بلير له.. أما «مور» فقد رأى أن رسالته الأولى فى بلاده هى أن يقوم بتثوير الشعب الأمريكى ضد نزعات حكومته الإمبريالية وإجبارها على وقف حربها على الإرهاب المزعوم.. لأنه يؤمن أن الإرهاب الحقيقى هو الإرهاب الأمريكى للشعوب الضعيفة، وأن هذا الإرهاب هو الذى أحدث ردود أفعال مقاومة بين الشعوب المغلوبة على أمرها فى مواجهة الغزو الأمريكى.

الذين حضروا احتفالات الأوسكار لسنة ٢٠٠٣ لاحظوا أن الأوسكار فى ذلك العام كان يفتقد البهجة والإبهار

القاعة لنيل الجائزة حتى يستعدوا ويتنبهوا عند نداء الأسماء.. عندئذ علم مور بأنه أحد المرشحين، ومالت «كاثلين جلين» زوجة مور على أذنه تهمس له: هل أعددت كلمة لهذه المناسبة؟ فأجاب مور: طبعًا لا، فأنا لم يخطر ببالى أن أكسب هذه الجائزة. والحقيقة أن الخبر كان مفاجئًا له.. ومن ثم لم يفكر فى إعداد كلمة. يقول: عندما تلبست بالموقف كان كل ما فى ذهنى أن أقول شيئًا عما يجرى على الساحة السياسية فى الآونة الأخيرة.. ولكنى لم أكن أعرف حتى هذه اللحظة ماذا أقول! إنه نفس الشعور الذى انتابنى من قبل فى مناسبة مماثلة وأنا أتوجه إلى المسرح لاستلام الجائزة.. كنت أنظر حوالى وأرى تحت الأضواء المتدفقة حشداً من كبار القوم والنجوم.. عيونهم جميعًا معلقة بالمسرح تتابع صعود الفائزين واحداً بعد الآخر.. شعرت وقتها أن على أحد كتفى ملاكًا وعلى الآخر شيطانًا.. يقول لى الملاك: مايكل.. اشكرهم فقط ثم ألق إليهم بقبلة وانزل من المسرح بسلام.. ولكن الشيطان كان يوسوس لى: لا يا مايكل.. أمامك واجب عليك أن تؤديه.. فيعترض الملاك قائلاً: إنها لحظته التاريخية.. لحظة الأوسكار.. اعتصر نفسك حبًا.. فى هذه المرة شعرت بأن كل عظمة فى بدنى كانت تواقة لأن أقول - بحب شديد - شكرًا لكم.. ثم أنصرف.. ولم يزل مور متحيرًا تتنازعه

الأفكار المتعارضة حتى اقترب من الميكروفون.. وفجأة وجد نفسه يردد عبارات انبثقت على الضور من ذاكرته.. قال مور: «لقد أصبحت الأفلام غير الخيالية بالغة الأهمية.. وذلك لأننا نعيش فى زمن تنتج فيه الانتخابات الأسطورية رئيساً أسطورة.. إننا نعيش فى زمن يحكمنا فيه رجل يرسلنا إلى جبهة الحرب لأسباب أسطورية». وهنا ضجت القاعة بالضحك، فقد كانت الإشارات واضحة الدلالة.. وإذا بمور يفجر قنبلته الشهيرة التى عبرت القاعة لتصل إلى أسماع العالم بأسره.. صاح مور قائلاً: إننا ضد هذه الحرب العبثية المشتعلة فى العراق.. عار عليك يا مستر بوش.. عار عليك ألف مرة..!

وإذا كانت كلمة مور هذه فى حفل الأوسكار تكشف لنا الكثير عن شخصيته فإن ردود الأفعال عليها تكشف لنا عن المزاج السياسى الذى كان سائداً فى ذلك الوقت.. فقد انهالت عليه سهام النقد والسباب المقذع من كل جانب وفتحت عليه وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمنظورة أبواب جهنم.. ولكنه لم يكن ليعبأ كثيراً بحملات التشهير والسباب التى وجهت إلى شخصه بقدر ما كان قلقه على أحبائه وأقرب الناس إليه أنه عرضهم لمخاطر لم تكن منظورة.. فخلال الأسابيع والشهور التى أعقبت حفل الأوسكار لم يمر يوم إلا وقد تعرض له شخص ما فى الطريق بالأذى.. يقول: وأنا سائر فى الطريق أفاجأ بشخص لا أعرفه يعترض طريقى صارخاً فى وجهى ليختلق مشادة معى، فإذا لم أستجب لمشاغبته انطلق لسانه بالشتائم والسباب الجارح، وفى مطار «لوجارديا» بنيويورك اقتربت منى سيدة وقالت لى كان ينبغى أن تنفى من البلاد.. وفى الطائرة رفض رجل أن يجلس بالمقعد المجاور لى». أما منزله فى متشجان فقد تعرض لعمليات تخريب عدة مرات، ووضعت لافتات كبيرة على كل الأشجار أمام المنزل مكتوب عليها بالبنط العريض «خائن»، وهكذا انفتحت على مور أبواب الجحيم.

مع كل ذلك عندما ينظر مور إلى الوراء لا يشعر بالندم على ما قال، ويحمد الله أنه لم ينشغل بإخراج أفلام عن الطيور والحشرات والروايات التافهة حتى يتجنب السياسة وينجو بنفسه، وإنما توجه بأفلامه إلى المعترك السياسى ليخوض فيه بجرأة غير عابئ بالعواقب.

يقارن مور بين حال أمريكا فى عهد بوش وبين ألمانيا سنة ١٩٣٦ فيجد تشابهاً عجيباً بين الحالتين لا يمكن إنكاره.. إنه لا يشبه بوش بهتلر، ولكنه يعتقد أن التشابه يأتى من ناحية حالة الديمقراطية الأمريكية التى أصبحت فى أزمة حقيقية بسبب سلوك بوش وتوجهات إدارته الفاشية.. ويرى تماثلاً واضحاً بين هذه الحالة وبين ما حدث فى ألمانيا خلال السنوات التى أعقبت حريق الرايستاخ الألمانى.. يقول مور: «لقد استغلت إدارة بوش حادثة ٢٠٠١/٩/١١ لتبرر اختراقها لدستورنا وحرياتنا المدنية.. وأنا أعتقد بصدق أن وقوع مثل هذه الحادثة مرة أخرى.. سوف يؤدى إلى إعلان الأحكام العسكرية وتحويل أمريكا إلى دولة بوليسية.. وينقلب كل شىء رأساً على عقب.. أنا لا أتحدث عن بوش وبطانته.. فهؤلاء لن يحتاجوا إلى إطلاق رصاصة واحدة، وإنما أتحدث عن ملايين الأمريكيين الذين سيهبون مطالبين بتطبيق الأحكام العسكرية، ويحاصرون كل الأصوات المعارضة ويطلبون تصفية أصحابها.. لن يحدث هذا بثورة مسلحة ولكن بهدير أصوات أمة مفزعة تملكها رعب قاتل».

لذلك يعتقد مور أن الدفاع عن الديمقراطية ضد بوش وبطانته، الذين لا يكنون احتراماً للدستور أو الديمقراطية أو حرية الرأى. هذا الدفاع - عن مور - له أولوية مطلقة، ويجب أن يكون هذا هو موقف كل الأمريكيين الذين يدركون حقيقة ما تبينه بطانة بوش من شر للديمقراطية. ومن ناحية أخرى يؤكد مور أن الشعب الأمريكى فى عمومه شعب طيب والأمة فى أعماقها أمة عادلة منصفة.. ولكن نقطة الضعف عند الأمريكان هى سذاجتهم وميلهم إلى تصديق حكوماتهم التى ضللتهم بالأكاذيب.. وواجب المفكرين والمثقفين أن يناضلوا لتوصيل المعرفة الصحيحة والحقائق إلى هؤلاء الناس.

جنة الأحرار أم جنة الأغبياء: هذا عنوان الفصل التاسع من كتاب مور «ديود.. أين بلادى؟».. ضمنه نتائج استطلاعات الرأى الأمريكية التى تكشف عن انقسام ثقافى حاد بين النخب الليبرالية والمحافظة.. أما بقية الجماهير فتبدو حائرة تائهة لا تكاد تعى ما يدور حولها، كأنها قد انتكست إلى الطفولة فأصبحت عاجزة عن التفكير السليم أو التصرف بمقتضى مصالحها، ويرجع هذه الحالة المزرية إلى الإعلام الأمريكى المضلل وإلى القيادات السياسية والدينية السيئة التى أقنعت الناس بأن العراق كان على صلة بالقاعدة وبأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.. ثم يتساءل: لا شك أنهم مضللون، فهل هم أيضاً أغبياء؟ ثم يرد على تساؤله متعجباً: إذا لم يكونوا أغبياء فكيف نفسر إيمانهم بأنهم ما داموا يعيشون فى أقوى دولة بالعالم فإن من حقهم أن يسيطروا على الدول الأضعف، وينهبوا ثرواتها الطبيعية.. ومن ثم يحصلون على بترول رخيص ويحافظون على مستوى معيشى مرتفع.. بحسب فهم هؤلاء الناس: إذا أصبح العالم أكثر عدلاً فإن الأمريكيين يصبحون أكثر فقراً!.. فهل وصلوا إلى هذا الفهم لأنهم مضللون فقط؟!

يثير مور نقطة مهمة وكأنه كان يتنبأ بفوز الديمقراطيين الذى حدث فى انتخابات ٢٠٠٦م.. يقول: «لقد خيب الحزب الديمقراطى أمل الكثير من الأمريكيين (فى الانتخابات السابقة).. وهم لم يستوعبوا هذا الفشل بعد.. ولكنى شديد التفاؤل، فأنا أعتقد أنه إذا توفرت للناس المعرفة الصحيحة وتولى قيادتهم أناس مخلصون ليس أكبر همهم تحقيق مصالحهم الشخصية.. أناس يؤمنون بما يقولون ولديهم الجرأة الكافية - فسوف يحقق الديمقراطيون أغلبية تسمح بحملهم إلى مقاعد الكونجرس أولاً ثم إلى البيت الأبيض فى مرحلة لاحقة».

وفى حياته الاجتماعية لا يكاد مور يكف عن الضحك والإضحاك حتى لتظن أنه لم يعرف الجد أبداً.. ولكنه فى أعماله الفنية والفكرية ومنها السياسة - يمزج بين الجد والسخرية.. وعندما يكتب يصور بكلماته الساخرة الأشخاص والمواقف كأنه رسام كاريكاتير.. وهو يدخر أشد ما فى جعبته من تهكم ونقد ساخر للشخصيات القيادية.. فكلما ارتفع موقعها فى سلم القيادة كلما كان حظها من السخرية أوفر.. ورغم التزامه فى كتاباته السياسية بالحقائق الموضوعية إلا أنه عادة ما يعبر عن أفكاره بأسلوب عاطفى حتى ليشعر القارئ بتسارع نبضات قلبه وارتفاع نبرة انفعالاته، وهنا تنفلت منه الكلمات والعبارات غاضبة جارحة كالرصاص المنطلق فلا يعبأ بكبحها.. ربما لأن مور يعتبر نفسه صاحب رسالة، لذلك فهو لا يكتفى بالإقناع فقط، وإنما يحاول التأثير فى جمهوره لحفزه على الفعل والثورة على الواقع.

وهو فى كل الأحوال ليس مستبداً برأيه ولا متغطرساً، وعادة ما يقبل على الحوار بعقل مفتوح. وأفكار مور واضحة ومباشرة إلا أنها تفتقر فى بعض المواقع إلى العمق.. وقد اعترف هو بذلك فقال: «إننى لازلت أفكر وأطور فى أفكارى». لقد شغلت القضية الفلسطينية عقل مور بقوة حتى إنه أهدى كتابه إلى «راشيل كورى» الأمريكية الشابة التى سحقها جندى إسرائيلى بدبابته عندما وقفت أمامه تمنعه من هدم منزل فلسطينى.. ومع ذلك لم تحظ هذه القضية إلا بصفحة واحدة من كتابه.. وعندما سأله «جارى يونج» عن سبب هذا القصور قال مور: «إننى رغم انتقادى المختصر للتصرفات الإسرائيلية اعترض على الناشر وقال لى بأنه كان نقداً شديد القسوة! وسبب هذا الموقف أن معاييرنا فى الولايات المتحدة بالنسبة لإسرائيل تختلف عن معاييركم فى بريطانيا.. فالإعلام الأمريكى يتجاهل تجاهلاً تاماً كل ما ترتكبه إسرائيل من أخطاء وجرائم.. وفى نفس الوقت يضخم كل ما يقع عليها من اعتداءات ويتوقع الجميع منك أن تسير على نفس هذا الخط من التفكير»، ثم أضاف مور: «سوف تجد هذا النقص عندى فى فيلم «بوليج فور كولمبين» فقد أتيت على تاريخ العنف الأمريكى فى أنحاء العالم، ولكننى تجاهلت تماماً ما فعلناه فى الشرق الأوسط عندما اتصل الأمر بالإسرائيليين والفلسطينيين».

وربما يهم القارئ أن يعرف أن مور قد أصبح من الأغنياء، فقد جاءته الثروة فى سن متأخرة من بيع كتبه وأفلامه الناجحة.. ورغم ثورته فإنه لايزال بسيطاً شديد التواضع، ويفسر هو ذلك بأنه ظل محافظاً على أصدقائه السابقين الذين عرفهم منذ نعومة أظفاره، وقد نشأ فى بيت متواضع لأسرة من الطبقة العاملة.. ولم تطرق الشهرة بابه ولم تهبط عليه الثروة إلا بعد بلوغه سن الخامسة والثلاثين، عند هذه السن تكون أوضاع الإنسان الاجتماعية قد تم تشكيلها واستقرارها وتحددت دائرة

قال مور: «لقد أصبحت الأفلام غير الخيالية بالغة الأهمية.. وذلك لأننا نعيش فى زمن تنتج فيه الانتخابات الأسطورية رئيساً أسطورة.. إننا نعيش فى زمن يحكمنا فيه رجل يرسلنا إلى جبهة الحرب لأسباب أسطورية»

الأصدقاء فيها.. أما الإضافات اللاحقة مهما اتسعت دائرتها فيمكن إطلاق صفة الزمالة أو المعارف عليها.. لذلك لم تغير الشهرة ولا الثروة من سلوكه أو مواقفه، فهو حسبما يعترف.. يقول: «لقد قلصت احتياجاتى المادية فى الحياة إلى أضيق الحدود، ولا أجد فى نفسى الرغبة فى أشياء كثيرة، مما يستهوى الآخرين.. فأنا رجل لا أتعاطى الخمر ولا حتى القهوة.. ولكن أهم ما حققته النقود لى أنها أعطتنى مساحة واسعة من الحرية والاستقلال فى مجالى السياسة والصحافة.. فلأنى أملك هذه الثروة لا أحد يستطيع أن يأتى إلىّ ويقول: عليك أن تحذف هذا الجزء من فيلمك أو من كتابك.. لأننى حينئذ سوف آخذ الكتاب وأنشره على نفقتى الخاصة.. وسوف أصنع فيلمى كما أحب، وأقول له لا حاجة بى إلى مالك.. وهذا حلم كل شاب ينتمى إلى الطبقة العاملة فى حياة حرة.. أن تملك المال الذى تستطيع به أن تقول لرئيسك عندما يحاول مصادرة حريتك: اذهب إلى الجحيم!».

يقول مور عن كتابه «ديود.. أين بلادى؟»: هذا الكتاب فى أساسه عن بوش وحادثة ٩/١١ وما يتصل بها من أمور أخرى لم يتناولها الإعلام الأمريكى ولم يحاول بحثها بجدية، ومن ذلك علاقة إدارة بوش بطالبان، وما كان يدور بين هذه الإدارة وبين الأسرة السعودية الحاكمة، وعلاقة أسرة بوش الوثيقة بأسرة بن لادن على وجه الخصوص، وهى علاقة حميمة استمرت لمدة ربع قرن على الأقل.. وكيف استخدم بوش حادثة ١١/٩ ومقتل ثلاثة آلاف أمريكى فيها كستارة دخان لتنفيذ أجندة الجناح اليمينى المتطرف فى السياسة الأمريكية.. وتطرق إلى علاقة «تونى بلير» رئيس وزراء بريطانيا ببوش، حيث اعتبره بمثابة السجادة التى كان يجب سحبها من تحت أقدام بوش حتى يتوقف عن مزيد من التورط فى حرب العراق.

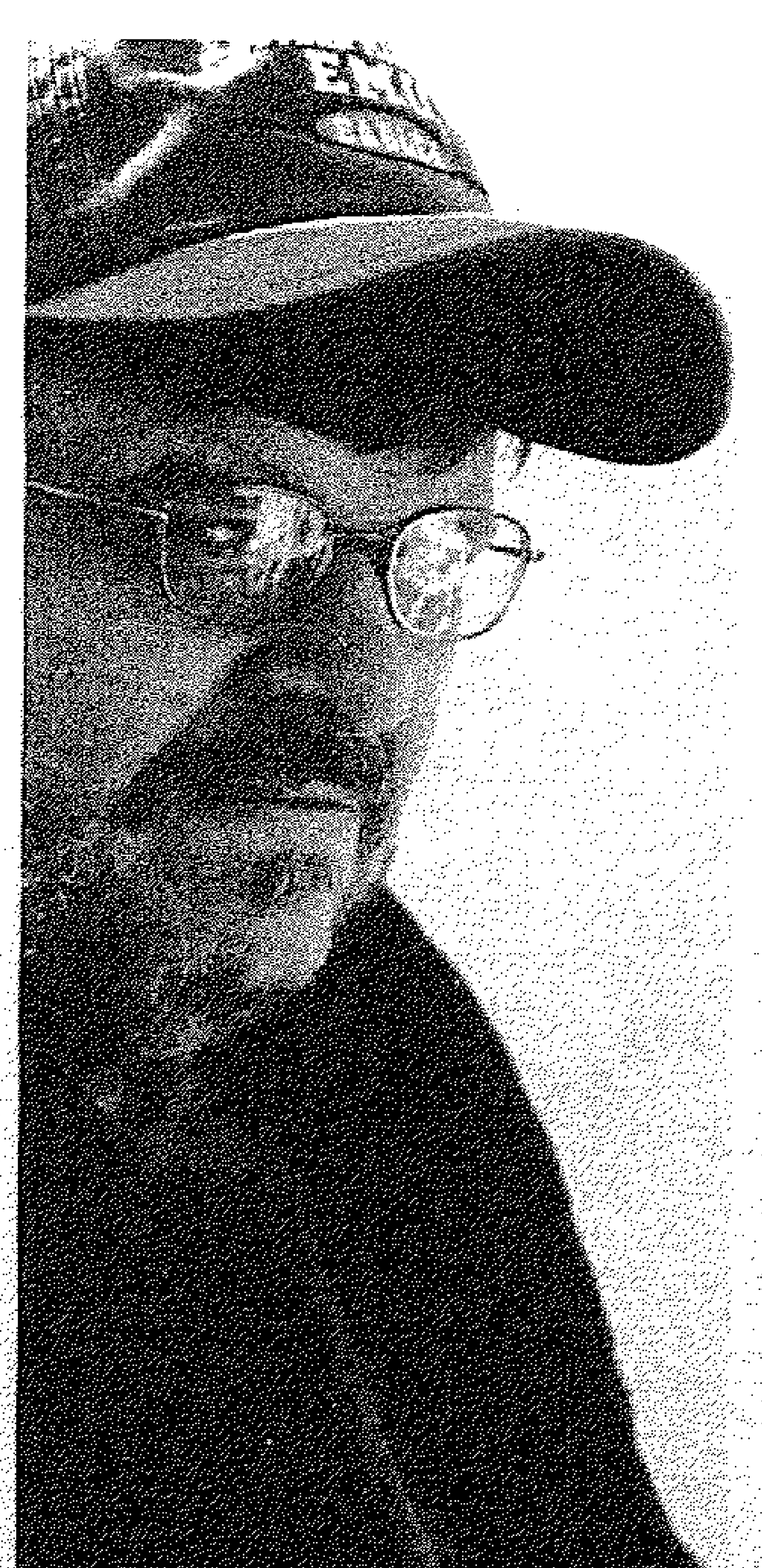
كيف توقفون الإرهاب؟.. توقفوا أنتم عن الإرهاب!، هذا عنوان الفصل الخامس من كتاب مور المؤلف من أحد عشر فصلاً. يبدأ مور هذا الفصل بتقرير قاطع عندما يقول إن برنامج بوش للأمن القومى لن يحقق أمناً لأمريكا.. ثم يخاطب الأمريكيين قائلاً: «إذا كنتم تريدون أمناً حقيقياً فاستمعوا إلى نصائحى ونفذوها».. يورد بعد ذلك ثمانية عشر نصيحة يمتزج فيها الجد الصارم بالسخرية اللاذعة.. من أبرز هذه النصائح:

١ - عندما تقومون بانقلاب ضد زعيم دولة منتخب ديمقراطياً - افعلوها صح - فلا تفرضوا على شعوب هذه البلاد ديكتاتوراً من صنعكم يسومها سوء العذاب كما فعلتم فى شيلى وإندونيسيا وجواتيمالا.

٢ - عندما تحاولون قتل رئيس دولة كوبا مرة ثانية تأكدوا أولاً أن السيجار الذى ستهدونه إليه محشو بنوع جيد من المتفجرات حتى لا تتكرر المهزلة!

٣ - عندما تساعدون شركاتكم على نهب ثروات البلاد الأجنبية فلا تنسوا أن هذا سيجعل شعوب هذه البلاد تكرهنا من الأعماق.

٤ - لكى تكونوا جادين فى دعوتكم لنشر الديمقراطية فى العالم لا تحاربوا النتائج التى أفرزتها الديمقراطية فى بعض البلاد.. (كفلسطين مثلاً..!).



٥ - توقفوا عن مساندة الأنظمة الدكتاتورية المستبدة لأن الشعوب لن تغفر لنا هذا الموقف أبداً.

٦ - عندما يقتلون مدنيين منا تقولون هذا إرهاب، أما إذا قتلنا منهم عشرات الألوف كما فى العراق وأفغانستان تقولون إنها عمليات اضطرارية.

٧ - يخاطب بوش فيقول: «عندما تعلن أن مهمتك قد أنجزت وانتهت الحرب.. كان عليك أن تتأكد أولاً.. فإنجاز المهمة لا يكون إلا بانسحاب القوات الأمريكية من العراق.

٨ - فيم هذا الضجيج حول الأسلحة النووية!.. لقد قتلنا نحن بهذه الأسلحة أكثر مما فعلته أى دولة فى العالم، وأول من يجب تدمير أسلحته النووية هو نحن.

٩ - يجب أن نتوقف عن لعب دور شرطى العالم.. فنذهب إلى مناطق إنتاج البترول ونقول لهم ارفعوا أيديكم.. سلموا البترول!

١٠ - ماذا لو حاولنا مساعدة الآخرين؟ ماذا لو كففنا عن إرهاب الناس ونهب ثرواتهم وتسخيرهم كالعبيد لخدمة مصالحنا؟.. علينا أن نعترف بأننا نحن الذين صنعنا الإرهاب بسلوكنا الأنانى تجاه العالم.. ولن يتحقق لنا أمن إلا إذا تأكدنا أن كل الناس يحصلون على احتياجاتهم الحيوية ويحلمون بحياة أفضل.. لنتأكد على الأقل أننا لسنا الذين يسرقون أحلامهم..!

وضمن نصائح مور للأمريكيين لوقف الإرهاب فى العالم تأتى نصيحته عن إسرائيل السادسة فى ترتيب قائمة النصائح الثمانى عشرة، يقول فيها: ربما يكون من المناسب أن تعرفوا لماذا فاض الكيل بمئات الملايين من شعوب العالم بالقارات الثلاث على امتداد الأرض من مراكش على المحيط الأطلسى إلى الفلبين على المحيط الهادى بسبب ما تفعله إسرائيل فى فلسطين.. كُفوا عن ترديد تلك الأسطوانة المشروخة عن «اللاسامية».. فأنا أتحدث عن حقيقة أننا نحن الأمريكيين نساند إسرائيل فى حربها ضد الشعب الفلسطينى.. والآن دعونا نتساءل: من أين جاء العرب بفكرة المظلومية هذه؟ يقول مور رداً على تساؤله: ربما حدث هذا عندما تطلع طفل فلسطينى إلى السماء فرأى طائرة أباتشى أمريكية تطلق صاروخاً يسقط فى غرفة نوم أخته الطفلة فيمزق جسدها مزقاً!

بعض الأمريكيين سيقول لك معترضاً: هل يكفى هذا سبباً ليرقص الفلسطينيون فى الشوارع فرحاً عندما هوجم مركز التجارة العالمى وقتل تحته ثلاثة آلاف أمريكى؟! ثم يتابع: لقد قتل كثير من الأطفال الإسرائيليين أيضاً بيد الفلسطينيين.. وأقول: ألا يجعل هذا كل إسرائيلى يرغب فى إبادة العالم العربى كله؟.. ولكن الإسرائيليين العاديين (فيما يزعم مور) ليس لديهم رد الفعل هذا - فلم ذلك؟ يجيب مور: لأن هؤلاء الإسرائيليين يعلمون أنهم مخطئون وأنهم سوف يفعلون ما يفعله الفلسطينيون لو كانوا فى مكانهم.. ثم يقترح مور الآتى: «هناك طريقة لإيقاف القنابل البشرية.. امنحوا الفلسطينيين بعض طائرات أباتشى قاذفة الصواريخ.. وكما تعطون إسرائيل أربعة مليارات من الدولارات سنوياً أعطوا الفلسطينيين أيضاً نفس المبلغ من المال.. ثم دعوا الفلسطينيين والإسرائيليين يتقاتلون حتى يُفنى بعضهم البعض.. وبذلك تنتهى المشكلة.. ودعونا نستريح!

يتضح من كلام مور رغم صدق إشاراته أنه لم يتعمق القضية الفلسطينية كما ينبغى له.. وربما كان هذا التناول السريع والسطحى لها وسيلة لتجنب الخوض فى حقل ألغام أمريكى لا نجاة منه..

أما الفصل السادس من الكتاب فقد كنت أتمنى أن يحذفه المؤلف، وإذا كان قد رأى أنه ضرورى تمنيت أن يكتبه بحذق أكثر وخفة أقل.. ولكن من يعرف مايكل مور لا يستطيع أن يطلب منه هذا المستحيل، فهو يكتب أى شىء يأتى على خاطره مهما كانت حساسية الموضوع الذى يتعرض له.. ولذلك كنت قد هممت أن أهمله فلا أتطرق إليه فى عرض الكتاب.. ولكنى رأيت أن هذا لا يتلاءم مع مسئوليتى تجاه القراء فحزمت أمرى وحاولت أن أعرض هذا الفصل ملتزماً بأفكاره الأساسية مستهدفاً الغاية منه متجنباً العبارات والأوصاف النابية، واستغفرت الله أولاً وآخراً.. كما دعوت لمايكل مور بالهداية..!

تخيل مور أن الله قد تدخل أثناء تأليف هذا الكتاب ووضع هذا الفصل بنفسه، ولأن الله علمه مباشر ويقينى، فلا يمكن سؤاله عن مراجعه.. ولذلك خلا هذا الفصل من الإشارات المرجعية..

قال: دأب واحد من البشر على إشارتى فى الآونة

يخاطب مور الأمريكيين إنهم لن يتركوا لكم حتى أطباقهم الفارغة كى تلعقوها!

الأخيرة بتقديم نفسه إليكم على أنه رسولى الشخصى إليكم.. أذكركم بأننى السميع البصير الذى لا تغرب عنه مثقال ذرة فى السموات والأرض.. وهذا ما سمعته من هذا الرجل الدعى: «لم يكن فى إمكانى أن أصبح حاكمًا لـ «تكساس» لو لم أكن مؤمنًا بأن خطة إلهية تجاوزت كل الخطط البشرية هى التى أرادت ذلك» وقال أيضاً: «أنا أومن بأن الله يريدنى أن أكون رئيسًا».. لطالما سمعت هذا البوش يدعى أنه يتصرف فى الأرض نيابة عنى.. وها أنا ذا أقول لكم قولاً قاطعاً: إن هذا الشخص لا يتحدث باسمى ولا باسم أى واحد هنا فى السماء.. إننى عندما أريد أن أتحدث إلى البشر فإننى أبعث بنبى حقيقى بكلامى.. وأنا لم أبعث جورج دبليو بوش بأى رسالة على الإطلاق.. إننى لم أرسله للقضاء على صدام حسين.. ولم أرسله لمحاربة أى محور للشر.. ولم يكن من المفترض أصلاً أن يصبح هذا البوش رئيسًا أبداً.. واعلموا أننى استجبت لدعواتكم وأزحت أباه من الرئاسة.. فلما ظهر ابنه هذا بعد ذلك بثمانى سنوات استجبت لدعائكم مرة أخرى فجعلت ذلك الشخص المسمى «آل جور» يحصل على أغلبية الأصوات.. ولكن تدخلت محكمتكم العليا فأفسدت نتائج الانتخابات..

الحق أقول لكم: فى بادئ الأمر لم آكن معنيًا كثيرًا بهذا البوش الصغير لأنه وفق خطتى الإلهية.. مخلوق ليكون واحداً من أبناء الذوات الذين يملأون الحفلات الليلية صخبًا ولعبًا ومرحًا.. هؤلاء الأولاد لهم أهمية كبيرة لكم لأنهم يضحكونكم ويدخلون السرور عليكم ويخففون عنكم هموم الحياة.. ولكن قد يحدث أن يقتل أحدهم شخصًا فى الطريق بسيارته وهو فى حالة سُكر.. وهذا قضاء وقدر..! كان جورجى الصغير هذا يؤدى دوره حسب الخطة على ما يرام حتى وقع فى أيدى من أفسدها وجعله يتوب عن الإدمان والصعلكة وإذا به يصبح حاكمًا لتكساس، ثم بعد ذلك رئيسًا لأمريكا.

إننى أخاطب القلة منكم الذين لايزالون يؤمنون بى فأقول لهم: إننى الله ربكم أما هو فإنه ابن جورج بوش وليس ابن الله.. وعندما ينتهى أجله فسأجعله بين عمال النظافة الذين يشرفون على سيارات كبار الأثرياء والساسة عندما أضع يدى عليهم وأجعلهم فى نار جهنم خالدين فيها أبداً.. إننى لم آمر هذا البوش بغزو أى دولة.. لا أفغانستان ولا العراق ولا غيرهما.. والآن كفاكم هذا الصياح الفارغ: «حفظ الله أمريكا»..! ما الذى جعلكم تعتقدون أنكم احتكرتم بركتى دون بقية البشر؟! أنا ليس عندى (خيار وفقوس).. كلكم عندى سواء.. هل سمعتم أحداً فى جيبوتى يقول «حفظ الله جيبوتى» أو «حفظ الله بوتسوانا».. لا تستخدموا اسمى أبداً لتبرير توجهاتكم العنصرية باعتقادكم أنكم أفضل مخلوقاتى.. أنتم لستم كذلك.. وفى الحقيقة أنتم مصنفون عندى بين أغبى الشعوب على هذا الكوكب الأرضى..!

لقد صرح جورج دبليو بوش فى الكاتدرائية الكبرى بعد أيام قليلة من حادثة ٩/١١ بأن رسالته الآن هى أن يطهر العالم من الشر.. واعتقد الناس أنه سيفعل ذلك.. ولكنه لم يفعل ولن يفعل.. فإذا كنتم تريدون حقًا أن تتخلصوا من بعض الشرور فابدأوا بأنفسكم أولاً: إن ترككم للناس هائمين فى الشوارع بلا مأوى شر.. وترك ملايين الأطفال جوعى شر وخطيئة.. إذا كنتم تريدون أن تحاربوا صانع الشر! أغلقوا على أنفسكم أبواب غرفكم واضربوا أنفسكم لمدة ساعة ضربًا لا هوادة فيه.. ثم اخرجوا جميعًا لهزيمة ذلك الشرير القابع فى البيت الأبيض الكبير..

هذه هى رسالتى إليكم فإن تقاعستم عن تنفيذها فسأشويكم فى نارى بلا رحمة.

يتحدث مور عن الخوف ببصيرة نافذة فيقول: إذا تمكن الخوف من قلوب الجماهير البسيطة ينكسر فيهم ذلك الرادار الفطرى الذى يميز بين الخطأ والصواب، وبذلك يصبح الإنسان عاجزًا عن التمييز بين ما هو حقيقى وما هو زائف.. ويعجب مور لكل هذه الافتراءات والأكاذيب التى صنعتها الحكومتان الأمريكية والبريطانية فيقول: لماذا ذهبت حكومتنا كل هذا المشوار فى اختلاق الأكاذيب وتلبيس الأمور علينا لإقناعنا بأن حياتنا أصبحت فى خطر؟!..

ولا يجد مور تفسيرًا مناسبًا لذلك سوى أن هذه الحكومات قد تآمرت لكى تحكم العالم وتسيطر على موارده.. ورأوا أن ذلك ممكن فقط بتخويفنا والسيطرة علينا، ثم دفعنا لمساعدتهم فى الاستيلاء على باقى هذا الكوكب.. وقد يبدو الأمر على هذا النحو ضربًا من الجنون المطبق.. أليس كذلك؟! وقد يبدو وكأنه سيناريو فيلم من أفلام الرعب!.. وإنه لكذلك.. فقد تملك الخوف أمريكا بعد ٩/١١، ووجد بوش وتشينى وأبالسة المال فى وول ستريت فرصة هبطت عليهم من السماء، فانقضوا عليها كما تنقض الحيوانات الجائعة على فريستها.

ينمى المؤلف هذه الفكرة ويتابعها فى مجال التطبيق العملى بتفاصيل أكثر فى الفصل السابع تحت عنوان غريب هو: هوراشيو ألجر يجب أن يموت: يرى مايكل مور أن أكبر نجاح لما سمى بالحرب على الإرهاب هو أنها اتخذت كذريعة لصرف انتباه الشعب الأمريكى عن حرب الشركات على الولايات المتحدة نفسها وعلى شعبها.. فخلال العامين التاليين لهجوم ٩/١١ انطلقت منظومة رجال المال والأعمال مدعومة بالمنظومة الحاكمة فى البيت الأبيض - تعربد بوحشية لتطرح الملايين من الأمريكيين أرضًا وقد جردتهم من مدخراتهم ونهبت معاشاتهم وحطمت آمالهم فى حياة كريمة.. فلما ضج الناس بالشكوى كانت إجاباتهم أكثر استفزازًا من صنيعهم.. فقد تنصلوا من مسئولياتهم ونسبوها إلى الإرهاب تارة وإلى إدارة كلينتون السابقة تارة أخرى، بل قلبوا لنا ظهر المجن وقالوا: بل لوموا أنفسكم فأنتم السبب فيما لحق بكم وأنتم السبب فى الأزمة الاقتصادية.. والحقيقة - فيما يرى مور - هى أن الشركات الجشعة والحكومة المتواطئة معها هما السبب فيما لحق بأمريكا من أزمات اقتصادية وسياسية واجتماعية.. وهنا يصيح مور قائلاً: يا أصدقائى.. الشركات لديها خطة مشتركة لاغتيالكم.. إننا أمام كائنات بشعة تسعى للسيطرة على حياتنا ومصائرنا.. وإذا استمر الأمر على هذا المنوال فلسوف تصل بنا الحال إلى أن نقسم قسم الولاء لا للوطن ولا للعلم الوطنى، وإنما لجنرال موتورز وسيتى جروب وجنرال إليكتريك.. ولن يبقى سوى أن يتخذ هذا الأمر الواقع صيغة قانونية حيث يتم إعلان اسم السلطة الجديدة فى الولايات المتحدة لتكون «الشركات الأمريكية المتحدة».



يؤكد مور أن هذا التحول «يحدث تحت أنظارنا ونحن لا نحرك ساكنًا وكأن الأمر لا يعنينا».. وهنا يصل إلى نقطة بالغة الأهمية مفادها كما يقول: «هو إننا نعطى كل يوم نوعين من العقاقير لهما قدرة فائقة على تخدير وعينا، بينما هم يقومون بنهب أموالنا ويتلاعبون بمصائرنا».. تأثير هذين النوعين من المخدرات هو إحداث الخور والتقاعس والشعور بالاستسلام الكامل.. أحدهما هو الخوف والثانى هو ما يسميه مخدر «هوراشيو ألجر».. أما الخوف فقد أشرنا إليه وألمحنا إلى وظيفته وكيف تستغله الشركات الجشعة فى قهر الناس واستنزافهم.. ويتحدث مور فى هذا السياق على لسان هذه الشركات فيقول:

«إن هنالك أناسًا أشرارًا إرهابيين متعطشين لدمائكم، ويجب أن تضعوا فينا (نحن قادة الشركات) ثقتكم، فنحن أقدر على حمايتكم وخدمة مصالحكم، ولأننا نعرف ما يضركم وما ينفعكم.. فلا تسألونا كثيرًا عما نفعل.. عليكم فقط أن توقعوا بالموافقة دائمًا على قوانين تخفيض الضرائب عنا.. ولا تعارضوا عندما نقلص الخدمات الصحية أو نرفع أسعار المساكن.. وإذا لم تغلقوا أفواهكم ثم تصطفوا خلفنا طواعية أو كرهًا، فسوف نطردكم من

وظائفكم، ثم حاولوا البحث عن مصدر آخر لتوفير العيش لكم ولأسركم إن استطعتم!.. فلن تجدوا أمامكم فى نهاية المطاف إلا أن ترفعوا راياتنا وتهتفوا معنا: بالروح بالدم نحن وراءك يا ريس فى حربك على الإرهاب»!

أما النوع الثانى من المخدرات فهو أسطورة «هوراشيو ألجر».. وكان هوراشيو هذا أحد كُتاب القرن الثامن عشر الأمريكيين.. اشتهر بكتاباته القصصية التى عرض فيها شخصيات من الطبقة الكادحة استطاعوا بكفاحهم وجهودهم أن يحققوا لأنفسهم ثروات طائلة ويرتفعوا إلى أعلى الطبقات الاقتصادية والاجتماعية. والرسالة التى تروج لها قصص «هوراشيو ألجر» هى أن الأرض الأمريكية منجم فرص لا ينضب، ويستطيع كل إنسان أن يغترف منه إذا اجتهد..

يقول مور: «لاتزال هذه الأسطورة تداعب خيال كل الأمريكيين حتى اليوم.. وقد رأت النخبة الغنية المسيطرة أن تستخدمها جزرة تلوح بها أمام الطبقات العاملة، حتى لا يرتفع صوتها بأى معارضة للامتيازات والصلاحيات التى يحصلون عليها من الدولة.. بحيث تنتقل إليهم السلطة الحقيقية فى البلاد تدريجيًا، إلى أن يتمكنوا من السيطرة الكاملة عليها.. بينما الطبقات العاملة مستمرة فى استرخائها تجتر أحلام الثروة بلا معارضة، عسى أن يأتى يوم ويتحقق فيه هذا الحلم.. وعندئذ يمكنهم أن يشاركوا فى الاستمتاع بهذه الامتيازات».

ويرى مور أن تأثير هذا الحلم على الطبقات العاملة بالغ الخطورة، فعندما فتح الأغنياء الطريق سهلا أمام الأغبياء للمضاربة بمدخراتهم فى البورصة، وأغروهم بشراء الأسهم للمشاركة فى هذه اللعبة المربحة.. وضع الأغبياء كل ما لديهم من مدخرات وراحوا يلهثون وراء السراب، بينما يحثهم الأغنياء على شراء مزيد من الأسهم.. وفى نهاية اللعبة تحولت هذه الأموال إلى جيوب الأغنياء.. وهبطت الكارثة فجأة على الفقراء وإذا بكل مدخراتهم تتبخر فى الهواء. لقد ذهبت هذه المضاربات بأكثر من أربعة تريليونات دولار هباء، كما ضاع فيها تريليون دولار من صندوق معاشات العمال.. والغريب أنه بعد هذا كله.. وبعد أن حصد الأغنياء كل هذه الأموال يحصلون من الكونجرس على موافقة جديدة لتخفيض ضرائب الشركات.

ويعلق مور مخاطبًا الأمريكيين قائلاً: أيها السذج المخدوعون إنهم لن يتركوا لكم حتى أطباقهم الفارغة كى تلعقوها!

كتاب مور حافل بالوقائع المذهلة والقصص المثيرة عن جشع أصحاب المال والشركات الأمريكية.. وتلاعبها بالناس.. ويكشف عن أسرار وفضائح الشركات التى جرى التعتيم عليها فى الإعلام الأمريكى.. فى هذا السياق يتحدث مور مثلاً عن أسرار انهيار شركة إنرون وعن علاقاتها الوثيقة بالرئيس بوش ونائبه ديك تشينى.. كما يتحدث عن أشياء أخرى يصعب على العقل، بل الخيال استيعابها، منها - على سبيل المثال - أن بعض الشركات اخترعت للعاملين فيها وثيقة تأمين تدفع أقساطها من أجورهم، ولكن لا تصرف قيمتها عند وفاة العامل لورثته، وإنما للشركات ليتمتع بها الرؤساء الكبار ولينفقوا منها دون حسيب أو رقيب.. هذه الوثيقة تسميها الشركات «وثيقة تأمين على موتى الفلاحين»!

يقول مور معلقًا: «انظر.. أنت عندهم لست أكثر من فلاح أجير.. وحياتك لا تساوى عندهم شيئًا، فأنت ميت عندهم أفضل منك حيًا..»!.

هكذا يمضى مايكل مور فى محاولته لإيقاظ الأمريكيين من حلم الثراء الذى لا يتحقق أبداً للفقراء.. ولحشد صفوفهم لتحطيم أسطورة أخرى، هى أسطورة الأقلية الفاشية من الجمهوريين الأصوليين، الذين يسيطرون على البيت الأبيض فهم لا يمثلون غالبية الشعب الأمريكى الذى يميل إلى الفكر الليبرالى وإلى التسامح والرغبة فى مساعدة الآخرين..

يحاول مور فى كتبه وأفلامه جميعًا تغيير أفكار الأمريكيين وحفزهم على العمل لتغيير الإدارة الإمبريالية المتعصبة، وإحلال إدارة أخرى ليبرالية تمثل إرادة الشعب الأمريكى متحررة من الخوف والخنوع.. وهذه هى الرسالة التى حملها مور على عاتقه، وعبر عنها بأساليب إبداعية فى كتبه وأفلامه، التى حازت من الانتشار والشهرة درجة لا يمكن لمثقف جاد معنى بالقضايا العالمية أن يتجاهلها. ■

كتاب الزاوية

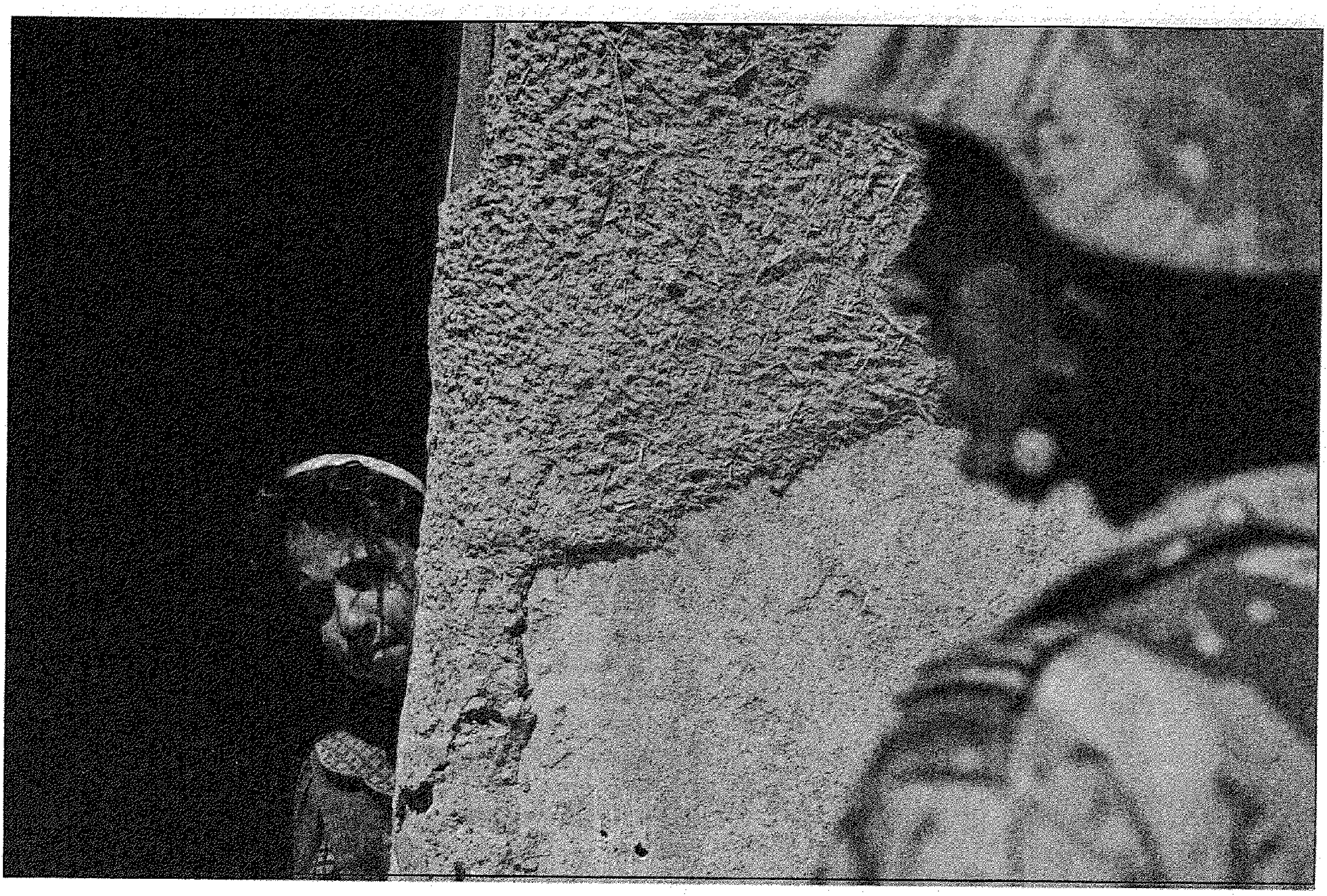
قيم وتقاليد القضاء

القضاء أسمى مهنة عرفتها البشرية منذ وعت، فبه تعصم الدماء وتسفح وتطلق الحريات وتقيد، وتحفظ الأموال وتنزع، ويعلم ما يجوز من المعاملات وما يحرم.

ولا يحمد قضاء ما لم يكن العدل مبناه ولا عدل إلا بقضاء ولا صحة لقضاء إلا بالعدل، وبالعدل يقدس الوجود ويصلح أمر الدنيا. فكان ضياء كل حضارة رسخت وهو قوام الآخرة، وما العدل إلا اسم من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته جل سبحانه، استخلف فيها القاضى وأوصى بالعدل أنبياءه حين استخلفهم القضاء فى الأرض. قال تعالى: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) الحديد: ٢٥ . (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) ص: ٢٦ .

ومنذ قيام الدولة التى تعددت فيها السلطات وإذا كان القضاء إحدى سلطاتها، قامت له القيم والتقاليد التى تتحكم فى تلك السلطة وتحكم أمر رجال القضاء القائمين عليها.

وقد نشر المستشار سمير ناجى نائب رئيس محكمة النقض ومساعد وزير العدل ومدير المركز القومى للدراسات القضائية (مصر) الجزء الثانى من دراساته وأبحاثه فى القانون الجنائى بعنوان «بحوث فى الشئون القضائية» وتركز حول قيم وتقاليد القضاء وتأهيل القضاة وآداب المرافعة ولغة الأحكام. واخترنا مقتطفات من هذا الكتاب الصادر عن دار النهضة العربية عام ٢٠٠٦ .



1 - Baghdad Burning: Girl Blog from Iraq
(بغداد تحترق: مدونة فتاة عراقية)
Riverbend
Feminist Press, 286pp., $14.95

2 - Baghdad Burning II: More Girl Blog from Iraq
(بغداد تحترق«٢»: المزيد من مدونة فتاة عراقية)
Riverbend
Feminist Press, 190pp., $14.95

3 - Night Draws Near: Iraq's People in the Shadow of America's War
(الليل يقترب حثيثا: الشعب العراقى فى ظل حرب أمريكا)
by: Anthony Shadid
Picador, 507PP., $15.00

4 - In the Belly of the Green Bird: The Triumph of the Martyrs in Iraq
(انتصار الشهداء فى العراق)
by: Nir Rosen
Free Press, 264pp., $26.00

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books

ترجمة بثينة الناصرى

أحيانا لا شىء يأخذ الألباب مثل مواضيع الحياة اليومية. تأملوا «بغداد تحترق» اليوميات التى تكتبها شابة بغدادية على الإنترنت والتى تسمى نفسها «ريفربند» تبدأ قصتها فى صيف ٢٠٠٣ بعد خمسة أشهر تقريبا على الغزو الأمريكى وفى نهاية الكتاب الذى جمع هنا بمجلدين، تقدم لنا أوسع مشهد عراقى للحرب حتى هذه اللحظة. فى إحدى اليوميات تصف محاولاتها المأساوية الهزلية لمحاربة الملل وهى ترافق شقيقها وابن عمها فى مهمة لملء خزان السيارة بالوقود من محطة البنزين القريبة.(وتروى لنا أنها استسلمت بعد أول ست ساعات، واضطر الشابان للبقاء سبع ساعات أخرى). وهى توثق جولات الشراء حيث تلاحظ ازدياد عدد النساء اللاتى بدأن يرتدين الحجاب أو تتحدث عن الجهد اليومى للتكيف مع انقطاع القوة الكهربائية مثل تشكيل كتيبة جرادل لملء خزان المياه فى سطح المنزل. وتقدم تعليمات حول كيفية التصرف إذا لاحظت جنودا يحاصرون شارعكم:

أسهبت عمتى فى لعناتها ضد المداهمات والقوات والنهب ثم هدأت وقررت أنها لن تخفى الذهب هذه الليلة: بل سوف نرتديه أنا وابنتها. تسمرت فى مكانى وفمى مفتوح، فمن يستطيع منعهم من انتزاعه منا؟ هل كانت مجنونة؟ كلا لم تكن مجنونة، سوف نرتدى القلائد ونخفيها تحت ملابسنا والبقية فى جيوبنا.

واستمررنا فى نشاطاتنا المسائية المعتادة، تقريبا.. كانت عمتى تريد أن تستحم ولكنها كانت خائفة أن يقرروا مداهمة البيت فجأة وهى فى الحمام. فى النهاية قررت أن تدخل الحمام ويقف أخى (ى) فوق السطح لمراقبة الطريق وفى اللحظة التى تدخل فيها مركبة مدرعة أو دبابة شارعنا عليه أن يحذر عمتى لتسرع بارتداء ملابسها.

ها نحن الآن فى الساعة العاشرة مساء.. بدون كهرباء وفى كامل ملابسنا لأننا لا نريد أن يداهمونا ونحن فى بيجاماتنا. لم أرتد بيجامة فى الأشهر الستة الأخيرة.

يمكن أن نغفر للأمريكان تصديقهم بأننا نعرف شيئا عن الحالة فى العراق. إننا نسمع عنها كل يوم وبتفاصيل دقيقة ولكن فى الواقع ما نعرفه عن حياة الأفراد العراقيين لا يذهب إلى أبعد من رأى سريع مقتبس أو إحصائيات إصابات المدنيين. ليس لدينا (كأمريكيين) سوى القليل عن انطباعنا عن العراقيين كبشر يحاولون أن يعيشوا حياة أكبر وأعقد من الحرب التى تحيطهم وفى كثير من الأحيان ننتهى بأن ننظر إليهم على أنهم مجرد توابع للصراع. وقد ساعدت اللغة التجريدية للسياسة الخارجية والالتزام باللياقة إلى حجب الحقائق من جانب الصحافة والتليفزيون حيث يحظر عرض صور الموت اليومى المقززة إلى حد لا يصدق. تخبرنا ريفربند أن أحد جيرانها كان مفقودا منذ أن قاد سيارته فى أحد أيام أبريل أثناء دخول الأمريكان مدينة بغداد. وقد قضت عائلته الأشهر الخمسة الأخيرة فى محاولة معرفة مصيره الأخير:

... تتبعوا طريقه من البيت إلى حى الجامعة حيث يعيش أبواه، وكانوا يتوقفون عند كل سيارة محروقة لفحصها وسؤال الناس فى المناطق المحيطة إذا ما كانوا قد شاهدوا سيارة تويوتا موديل ١٩٨٥ يقودها رجل فى الأربعين من عمره؟ ربما أطلقت عليها دبابة النيران؟ ربما قصفتها أباتشى؟ كان الناس يبدون العطف ولكنهم عاجزون عن المساعدة. لم يروا تويوتا بيضاء.. بل كيا بستة ركاب وسيارة فولكس واجن فيها أم وأب وطفلان.. ولكن لم ير أحد سيارة تويوتا بيضاء، وفى كل مرة كان الناس يشيرون إلى المقابر الجماعية المتناثرة على امتداد الطرق الرئيسية والتى دفنوا فيها ضحايا الغزو..

بعض تلك القبور عليها لافتات من ورق مقوى مغروزة بين كوم صخور لمساعدة أفراد العائلة إذا جاءوا للبحث عنهم، مكتوب عليها: ذكر بالغ، أنثى بالغة، طفلان فى سيارة مرسيدس سوداء. ذكر بالغ، طفل صغير فى بيك آب أبيض.

أخيرا وجدوه هذا الصباح. فى منطقة خارج طريقه المعتاد. كانت سيارات عديدة محروقة وقد سحبت إلى أرض مترية، وليس بعيدا عن المقابر تقبع سيارة تويوتا موديل ١٩٨٥ وقد تحولت

يمكن أن نغفر للأمريكان تصديقهم بأننا نعرف شيئا عن الحالة فى العراق.
إننا نسمع عنها كل يوم وبتفاصيل دقيقة ولكن فى الواقع
ما نعرفه عن حياة الأفراد العراقيين لا يذهب
إلى أبعد من رأى سريع مقتبس أو
إحصائيات إصابات المدنيين

... وماذا عن العراقيين؟

كرستيان كاريل

مقاعدها إلى هيكل عظمى. وقريبا منها وجدوا قبره مكتوباً عليه (ذكر بالغ فى سيارة تويوتا بيضاء) وبمساعدة أهل المنطقة المتعاطفين تم نبش قبر أبو رعد للتعرف عليه.

بالتأكيد هناك الكثير من السياسة فى يوميات رفريند، فهى معارضة متحمسة ضد الاحتلال وكتابتها تتقد بالغضب والإحساس بالكرامة. وبما أنها قارئة جيدة للصحافة والانترنيت فهى تدرك تفاوت وجهات النظر الأمريكية حول الحرب. وهى لديها وجهة نظر خاصة (أن يكون الاحتلال قد أطلق تعدد وسائل الإعلام التى استفادت منها ريفريند هو أحد المفارقات الكثيرة التى تنطبق على قصتها).

حين تسمع بأن القوات الأمريكية فى العراق يقاتلون «الإرهابيين» تكتب أن الحكومة المعينة من قبل أمريكا تتضمن عدة أعضاء بارزين من حزب الدعوة الإسلامية الذى كان وراء سلسلة من التفجيرات التى قتلت مدنيين عراقيين فى الثمانينيات.

(كثير من الدول الغربية تشارك تقييم ريفريند عن الجماعة فى بدايات الثمانينيات). وحين تسمع أن واشنطن تطمح إلى زرع الديمقراطية فى العراق، تشير إلى اضمحلال حقوقها كامرأة تدريجيا بصعود التطرف الدينى الذى ترعاه نفس الأحزاب السياسية التى جاء بها الأمريكان للسلطة وحين يتحول الحديث إلى «الأضرار الجانبية» تؤكد أن «الذاكرة الممتدة تقتصر على الآثار النفسية الأمريكية»، أما بقية العالم فيجب أن «يضعوا الماضى خلف ظهورهم» و«يتحركوا إلى الأمام» و«يكونوا براغماتيين» و«يتغلبوا عليه».

إنه حكم قاس ولكن من الضرورى الاستماع إليه. والمفارقة الواضحة فى كل هذا واضحة. إن كاتبة هذه الكلمات شابة تعمل مبرمجة كومبيوتر (وعمرها الآن ٢٧) ولغتها الإنجليزية الماهرة (التى اكتسبتها من وجودها فى الخارج لمدة طويلة فى طفولتها) يمكن أن تخجل الكثير من الأمريكان. ومعرفتها بالثقافة والمبادئ الأمريكية تطفو باستمرار على السطح. وبالتأكيد فإن وعيها العميق بالجدل والخطاب السياسى الأمريكى هو الذى يتصدر كتاباتها. وإذا كان أى عراقى يمكن أن يعى الخطة الديمقراطية الكبيرة المرسومة للعراق فهى هذه الفتاة. ومع ذلك، وكما يوضح كتابها بشكل كبير ربما تكون هى ومحتلوها يقيمون مؤقتا فى نفس البلاد، ولكنهم يستمرون فى العيش فى عالمين مختلفين.

فى نهاية مايو ٢٠٠٣ بعد وقت قصير من بدء الاحتلال رسميا، باشر مراسلان للواشنطن بوست فى تجربة مهمة. ففى حين كان مراسل البنتاجون توماس ريكس مؤلف كتاب Fiasco: The American Military Adventure in Iraq Penguin, 2006 يرافق دورية أمريكية فى جولاتها حول أحياء الطبقة المتوسطة فى بغداد، كان زميله عربى الأصل انطونى شديد، يتبع خلفه يسأل العراقيين حول رأيهم بتواجد الأمريكان. قال جندى من لويزيانا لريكس بثقة: «الكل يحبنا». فى هذه الأثناء وكما يروى شديد فى كتابه (الليل يقترب حثيثا):

... عند زاوية الشارع كان هناك رجل اسمه محمد إبراهيم يقف على الرصيف أثناء مرور توم ودورية من عشرة جنود.

وقد وصف الحضور الأمريكى بكلمة «حقير» كان الرجل البالغ أربعاً وثلاثين سنة يرتدى دشداشة بيضاء وقد تجهم حين مرت الدورية، تسعة منهم كانوا يحملون بنادق آلية معلقة على صدورهم والعاشر كان طبيبا. كان تجهم إبراهيم يعكس إحساسه بالإهانة. «نحن ضد الاحتلال. إننا نرفض الاحتلال ليس مائة بالمائة ولكن ألفا بالمائة. إنهم يمشون على قلبى. أحس كأنهم يسحقون قلبى».

وخلال مقابلات شديد تعرف على بعض المواطنين الذين يرحبون بالأمريكان «على أمل أن يقدموا نوعا من الحماية بعد أسابيع من النهب» آخرون يعبرون عن ارتياح للإطاحة بصدام. وسرعان ما اصبح واضحا أن الاختلاف فى الرأى يعود إلى اختلافات طائفية: كان السنة ضد الاحتلال والشيعة اقل رفضا له. امرأة شيعية أبلغت شديد بأنها تخشى ما سيحدث إذا غادرت القوات الأمريكية: «إذا انسحب الأمريكان سوف تحدث مجازر بين العشائر والأحزاب وبين السنة والشيعة طبعا». ثم أسرعت بالقول «لا أحد يقبل باحتلال وطنه والجميع يريدون الحرية».

كانت المرأة البغدادية فى ذلك الشارع فى حى اليرموك تعرف شيئا حول مشاعر مواطنيها الأساسية وهشاشة مجتمعها ولكن هذا قد خفى ليس فقط على الجنود الأمريكيين الذين يتجولون فى الشارع ولكن كما يبدو على مخططى الغزو أيضا. لقد انصب الاهتمام داخل الولايات المتحدة على فشل إدارة بوش قبل الغزو فى فهم الوضع الحقيقى لبرامج صدام لتطوير أسلحة دمار شامل. ومع ذلك كان هناك الكثير من التحليلات السطحية لعجز الحكومة الفاضح لتكوين صورة واضحة للرأى العام العراقى وترددها لدراسة تاريخ وثقافة البلاد التى كانت على وشك المبادرة بأكثر تجارب بناء الدول طموحا منذ الحرب العالمية الثانية.

حين قام بول بريمر وهو رئيس حكومة الاحتلال حتى نقل السيادة الاسمية إلى العراقيين، بحل حزب البعث والجيش العراقى بسرعة وبهذا فكك الدولة العراقية بضربة واحدة، أدرك الكثير من العراقيين بأنهم وصلوا إلى خط تاريخى فاصل. ولكن الأمر استغرق من واشنطن والرأى العام الأمريكى وقتا أطول لإدراك

... وماذا عن العراقيين؟

هذه الحقيقة. فى بعض الوقت غازل بريمر فكرة التلاعب بالانتخابات المدبرة من أجل السماح لمشاركة سنية اكبر كوسيلة لتهدئة (المتمردين) ولكن مستشاريه فوجئوا تماما حين دعا آية الله على السيستانى وهو المرجعية الروحية للشيعة العراقيين، إلى الاحتجاج العام الذى قتل الفكرة فى مهدها. كما أن الأمريكيين لم يتوقعوا صعود مقتدى الصدر رجل الدين الشيعى الشاب الذى برز من ظلال النسيان ليصبح أكبر خطر مفرد يهدد نجاح الاحتلال حتى الآن. ويروى انطونى شديد كيف أن أحد خبراء واشنطن العرب المهمين فى بغداد قلل من أهمية الصدر باعتباره «مثير شغب صغير».

يرجع هذا الخطأ فى القراءة إلى الكثير من الأسباب. واحد منها هو طبيعة انتقاء الخبراء الإقليميين الذين استعانت بهم الإدارة فى خططها. فالمنفيون العراقيون أمثال أحمد الجلبى وإياد علاوى كانوا يبلغون صانعى السياسات بما يريدونه وما يتوقعون أن يسمعوه بأمل الحصول على السلطة السياسية ثمنا لخدماتهم. أما المنتقدون الخارجيون فلم يحظوا بأى فرصة للإنصات إليهم. أما خبراء الحكومة الذين يتناقض تفكيرهم مع أيديولوجية الإدارة فقد تم تجاهلهم (أشهر قضية كانت جمع الخطط الهائلة التى أعدتها مجموعة من محللى وزارة الخارجية والمهاجرين العراقيين). كما أن أحد الأسباب أيضا اللامبالاة التى تسود الجو العام تجاه ثقافة العالم الإسلامى وكل ما هو غير إسرائيلى فى الشرق الأوسط. وكما أشار مقال افتتاحى فى واشنطن بوست مؤخرا، بعد خمس سنوات على أحداث ١١ سبتمبر مازال مكتب التحقيقات الفدرالى لديه ثلاثة وثلاثون خبيرا فقط يستطيعون التحدث بالعربية ومعظمهم ليس بطلاقة. («ما لا يعرفه مكتب التحقيقات الفدرالى» الواشنطن بوست ١٦/١٠/٢٠٠٦).

والبنتاجون ووكالة المخابرات المركزية ليسا أفضل حالا. (انظر مثلا «هل تستطيع التمييز بين السنى والشيعى؟» بقلم جيف شتاين، نيويورك تايمز ١٧/١٠/٢٠٠٦ وقد أوردت المقالة أمثلة على كيف أن مسئولى ونواب الحكومة الأمريكية فى مواقع القيادة فى الحرب على الإرهاب يجهلون بعض أكثر الحقائق الأساسية عن الإسلام.)

ولهذا لا ندهش إذا كان الخطاب الأمريكى حول الحرب ينتهى عادة بالكلام عن السياسات الداخلية الأمريكية أكثر من العراق ذاته. داخل الولايات المتحدة، يتجادل السياسيون والمعلقون بحرارة حول قضية ما إذا كان ما يحدث هناك يعتبر (حربا أهلية). وفى العراق ليس هناك جدل مشابه حسب علمى. ويمكن للمرء أن يفترض أن مثل هذا الجدل، سيكون فى غير محله حين يموت مائة عراقى (فى دولة من ٢٩ مليون نسمة) كل يوم من عنف متبادل. وفى دولة بمثل عدد سكان أمريكا فإن الخسائر المعادلة ستكون أكثر قليلا من ١٠٠٠ شخص كل يوم أو بما يعادل مجزرتين من (١١ سبتمبر) كل أسبوع. وقد قامت سابرينا تافيرنيس الصحفية فى نيويورك تايمز التى قضت معظم السنوات الثلاث الأخيرة فى العراق بتعقب آراء العراقيين العاديين وتجاربهم اليومية، وقد كتبت بعد قليل من الانتخابات النصفية الأمريكية بأن عدداً كبيراً من طبقة السياسيين الجدد فى بغداد رغم أنهم يؤكدون أهمية الانتخابات ولكنهم يعتبرونها غير ذات صلة بمصير بلادهم. («التحول السياسى الأمريكى فيما يتعلق بالحرب يقابله تجاهل من صفوة بغداد» نيويورك تايمز ١٠/١١/٢٠٠٦ . ليس هناك نقص فى الاهتمام بالأصوات القادمة من العراق. وحين أسأل قراء مطبوعتى نيوزويك، ما هو أكثر شىء يفتقدونه من التغطية الراهنة، يكون الجواب مفاجئا عادة «بماذا يشعر العراقيون العاديون؟» والى جانب المصادر المذكورة فى هذه المقالة، فالعلاج بالتأكيد هو تكاثر مدونات العراقيين. انظر مثلا عدد المدونات العراقية فى iraqblogcount.blogspot.com وأشهر مدونة إلى جانب رفريند هى مدونة سلام باكس وللأسف لم يكتب فيها منذ فترة. وبعض كتاباته موجودة فى كتابه (اليوميات السرية لعراقى عادى) (جروف برس ٢٠٠٣).

إن الجملة البسيطة «علينا أن نستمع للأصوات العراقية» تطرح سؤالا مهما. فى بحثنا عن وجهات نظر عراقية أصلية، لمن نستمع؟ من يستطيع أن يدعى أنه يتحدث على لسان مواطنى بلاده حيث نجد حواجز الفهم - تبعا للاختلافات فى المعتقدات الدينية والعرقية والطبقية معقدة جدا؟ فى حالة رفريند، يحدث ذلك وأخطاء الفتاة البغدادية الشابة وحدودها هى التى تجعل نصوصها تستحق القراءة. هى ابنة عائلة من الطبقة الوسطى العليا، وهى مسلمة تقدمية وعراقية وطنية مثالية مصممة على أن توضح لقرائها الأمريكان المستوى العالى للتطور الثقافى والاقتصادى فى العراق. وهى فى نفس الوقت جاهلة بالجوانب المظلمة فى نظام صدام (كما تعلمنا بنفسها فبعض المراسلات على بريدها الإلكترونى تتهمها بأنها بعثية وهذا ما تنكره بشدة. وأنا أصدقها. كان هناك الكثير من العراقيين الذين استفادوا من نظام صدام بدون الانضمام إلى الحزب).

فهى تقول فى أحد نصوصها «البعض قد يقول إن الكرد كانت لهم حقوق كاملة حتى قبل الحرب». وفى مكان آخر تقول «أغلبية العراقيين لديهم احترام كامل للثقافات والأديان الأخرى»، وتدين السياسات الأمريكية التى تبدو لها تهدف لتقسيم العراقيين إلى مجتمعات عرقية وطائفية وتؤكد بتفصيل عن أصول عائلتها المختلطة سنة وشيعة.

وفيما القصة تستمر: تتبدى الحقيقة. يخرج الشيعة إلى الشوارع بطقوس حدادهم وجلد أنفسهم التى منعتها حكومة صدام. وبالنسبة لرفريند، فإن هذا منظر فظيع قائلة:

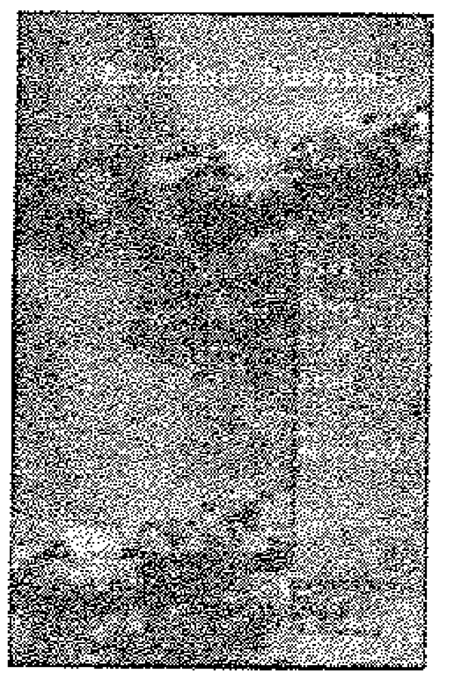
هذه المواكب كانت محظورة فى الماضى وبصراحة أتمنى أن تكون محصورة فى مناطق معينة. إن منظر كل هذا العنف (حتى لو كان تجاه الذات) يثير شيئا من الفزع، هذا بالنسبة للجانب الشيعى من أصلها المختلط.

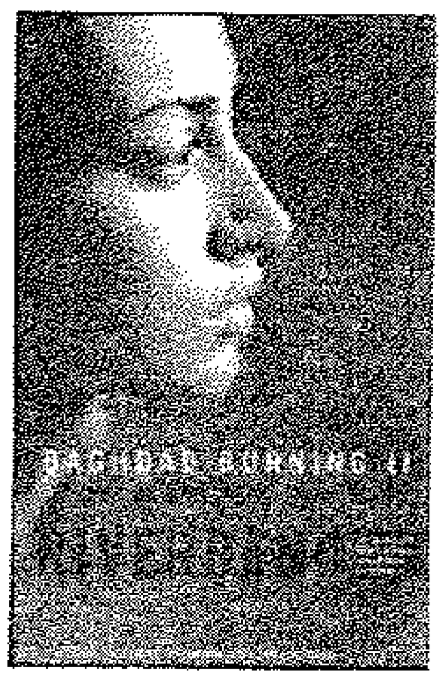
وبنفس الطريقة تشعر بالاحتقار للنواب الشيعة الذين صعدوا إلى السلطة تحت الاحتلال. وهى تحتقر المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وهو الحزب الشيعى المرتبط بإيران وهى تعتبره عميلا إيرانيا. ولكنها تتجاهل أن قادته وبضمنهم رجال دين يتحكمون فى طاعة عدد كبير من السكان الشيعة. كما أنها لا تعير شأنا لآية الله السيستانى وهو المرجع الروحى للشيعة باعتباره إيرانياً. مثل هذا الاحتقار كما يفعل الكثير من العراقيين الذين يشاطرونها الرأى يستهين بالتأثير العميق للانتخابات التى رعتها سلطات الاحتلال. وقبل إجرائها توقعت ريفريند أن تكون الانتخابات ورقة التين للسلطة الأمريكية فى حين أنها كانت لحظة مهمة للكثير من الذين أدلوا بأصواتهم.

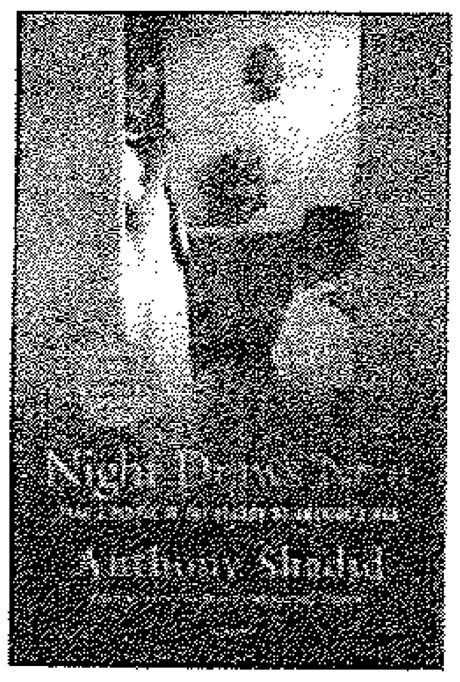
وبهذه الاستهانة، تذكرنى ريفريند بالوطنيين السوفييت الذين فشلوا فى فهم الأحداث التى سارعت بنهاية الاتحاد السوفيتى. الكثير منهم عاشوا معيشة طيبة فى ظل النظام وكانوا غير قادرين على رؤية جرائمه على حقيقتها مما جعلهم ينكرون أو لا يفهمون حين بدأ المقموعون فى التعبير عن مطالبهم السياسية.

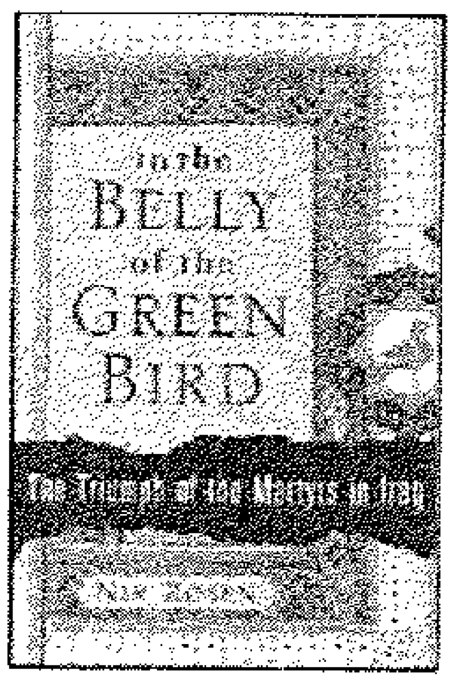
فى ٢٠٠٣ دخل التحالف الذى تقوده أمريكا العراق الذى أنهى قرنا من الاستعمار والثورة والاضطراب الاجتماعى والانقلابات المتعددة (المشهورة بالقتل العلنى للزعماء السياسيين) وحكومة شمولية حتى قبل أن يصل حزب البعث إلى السلطة فى ١٩٦٣ ثم فى تموز ١٩٦٨ وبعد وصول صدام للرئاسة فى ١٩٧٩ دخلت البلاد

إذا كان أى عراقى يمكن أن يعى الخطة المرسومة للعراق فهى هذه الفتاة. ومع ذلك، وكما يوضح كتابها ربما تكون هى ومحتلوها يقيمون مؤقتا فى نفس البلاد، ولكنهم يستمرون فى العيش فى عالمين مختلفين









حكما شموليا لمدة اثنتين وعشرين سنة. وشملت أحداث هذه الفترة حربا لمدة ثمانى سنوات مع إيران وهجمات على الأكراد وإرهابا سياسيا استهدف الزعامة الدينية الشيعية والمؤسسات الدينية. وغزو الكويت والهزيمة فى عملية عاصفة الصحراء واثنى عشر عاما من عقوبات ما بعد الحرب التى أفقرت العراق ودمرت البنى الاجتماعية التى كانت محط الحسد فيما مضى. وكان الحظر الذى تفرضه الدولة أحيانا على المناقشات السياسية قد أعاق التعامل مع تأثيرات كل هذا التاريخ مما أدى فى مستويات عدة إلى تشظى المجتمع الذى لم يعد يعرف نفسه. ويقول كل من شديد ونير روزن فى كتابه (فى بطن الطائر الأخضر) إن الكثير من العراقيين من السنة العرب الذين يصادفونهم يؤكدون بشدة أن السنة يشكلون ٦٠٪ من السكان.

هذا لا يعنى أن منظور رفربند يجعلها بلا قيمة (إنها اعترفت بنفسها أن يومياتها ليس المقصود منها أن تكون بديلا للتاريخ. انظر مقالة فراس الأطرقجى (مدونة عراقية توثق التاريخ) الجزيرة نت ٦ أبريل ٢٠٠٦).

على العكس فإن حماستها هى سر قوتها. وتكمل قصتها بقوة عراقية أخرى تكتب يومياتها وهى أمل سلمان، فتاة شيعية تشكل نصوصها العمود الفقرى لكتاب انطونى شديد المهم. ومما يزيد من قوة نصوص أمل هو خلفيتها: حين يقابلها شديد قبل الغزو الأمريكى كانت فى الرابعة عشرة من عمرها، واحدة من ثمانية أطفال لامرأة قوية اسمها كريمة سلمان تناضل من أجل إعالة أسرتها الفقيرة فى ظل التهديد القائم بالحرب الوشيكة. وفى يومياتها تكشف أمل أفكار طفلة تجابه الحيرة أمام وحشية الحرب. وحين تتحول الحرب إلى احتلال، تتحول الفتاة من أسلوب «حماسة المخلص» إلى طرح الأسئلة فتقول «اعتدنا أن نضع ثقتنا بالرئيس صدام حسين ولكن الآن لا نعرف بمن نثق».

وسرعان ما يمتلئ السوق بأفلام فيديو تصور (فظائع) النظام:

«عدى ابن صدام حسين كان أكثر شخص فاسد على وجه الأرض» كتبت ذلك بعد مشاهدة الأفلام لمدة يومين ما بين انقطاعات الكهرباء. «أى فتاة كان يريدها يأخذها. لم يكن أحد يستطيع أن يقول شيئا لأنه ابن الرئيس. وابنه الآخر قصى كان قاسيا أيضا مثل أبيه».

وبعد شهر من انهيار حكومة صدام، تذهب إلى المدرسة لأول مرة بعد الغزو. وتطلب منها المدرسات ومن زميلاتها أن يمزقن صور صدام من الكتب - ثم يحذرهن ألا يلبسن بنطلونات ضيقة «لأن هناك من يختطف الفتيات» ثم تصاب أختها هبة فى انفجار سيارة مفخخة فى شارعهم. إن قوة شديد كصحفى هى قدرته على تشجيع من يلتقيهم على حكاية قصصهم أينما كان ذلك ممكنا وبطريقتهم الخاصة وفى نهاية كتابه تتكون لدينا صورة واضحة وكاملة لامرأة شابة تجد صوتها وسط الفوضى والخراب.

هذا التناقض بين التمكين والتعامل بوحشية يسرى فى كتاب شديد البانورامى الذى يسجل خبرات من كل نوع وتتراوح من فترة ما قبل الحرب وإلى نهاية السنة الأولى من الاحتلال. يصف مثلا جنازة ولد قتل فى قصف أمريكى، وهو يعيد بناء عالم ودوافع أحد أوائل أعضاء (التمرد) السنى، رجل ريفى يدفعه إسلامه العميق إلى الموت فى هجمة غير مدروسة على قوات أمريكية. كما يروى شديد قصة أب يجبر بالعرف العشائرى على قتل ابنه الذى اتهم بالتعاون مع الأمريكيين. وفى جامع فى مدينة الصدر الفقيرة فى بغداد يراقب شديد رجل دين شيعياً موالياً لمقتدى الصدر وهو يتعامل مع أصحاب عرائض وهو دور جديد لرجال الدين لم يكن معروفا فى عراق صدام.

والطلبات تتراوح بين المادى والمعنوى - فهناك من يطلب معدات لصنع طابوق وآخر يريد مساعدة فى معرفة العثور على شاحنته المسروقة وآخر مساعدة لإعادته إلى وظيفته، ومن يطلب السماح لفتح صيدلية وأسئلة حول الضرائب الدينية (الخمس). وكانت النقود تتدفق على رجل الدين، من مائة دينار إلى عشرة آلاف اعتمادا على نوع الطلب.. وعلى عكس الإداريين الأمريكان والذين يلومهم العراقيون بأنهم يعدون أكثر مما يحققون، كان شويلى حذرا. لا يعد بشىء لا يقدر عليه.

شديد الذى قضى سنوات يكتب من الشرق الأوسط قبل عمله فى العراق، يشير إلى أنه رأى مثل هذا النوع من الممارسات الإسلامية سابقا فى أماكن تمتد من أحياء اسطنبول الفقيرة إلى مخيمات اللاجئين فى غزة. لقد استمرت هذه المعاملات على مدى سنوات وعقود ولكن فى العراق أجد نفسى أراقبها تبزغ فى خلال أيام وأسابيع، إن الاستماع إلى الأصوات العراقية، وهى استراتيجية بسيطة لا يجيدها سوى القلة من الأمريكان، مكنت شديد من إيجاد وتتبع عناصر هذا الدور الاستثنائى فى العراق. وإذا أردنا فهم العراق. يجب أولا أن تكون لنا القدرة على إدراك التحول الجذرى الذى حدث فيه.

هذا جانب من المشكلة التى تتجاهلها التغطية الإعلامية للحرب غالبا، ولكن العراق اليوم هو بلاد فى قبضة تغيير ثورى. لقد أطاح الاحتلال الأمريكى بمؤسسات نظام صدام بدون أن يقدم بدائل جديدة. لقد ازدهرت تعددية فى التعبير (بضمنها الفضائيات والصحف المتنافسة والهواتف الخلوية) مما سمح للعراقيين بمناقشة مشاكل مجتمعهم بحرية مازالت نادرة فى العالم العربى (أصبحت حرية الصحافة الآن تحت ضغط شديد من الأحزاب السياسية والميليشيات ولهذا فقد قتل الكثير من الصحفيين ولهذا هناك شك حول ضيق المدى الذى تستطيع أن تغطيه وسائل الإعلام الآن).

فى حين فشل الاحتلال فى تقديم الخدمات الأساسية أو التعامل مع البطالة المنتشرة. وقد نظم انتخابات ديمقراطية وحث نمو المجالس المحلية بدون معالجة الأوضاع التى تمنع هذه المؤسسات التشاركية الجديدة من ممارسة سلطة حقيقية - وراقب بعجز أشكالا أخرى من تأكيد الذات الاجتماعية تقوم بأدوارها مثل رجال الدين الذين كتب عنهم شديد. ولكن الأكثر كارثية كان عجز حكومة الاحتلال من توفير أدنى مستويات الأمن للعراقيين - مما أدى إلى توسع وانتشار الميليشيات الموجودة أصلا وشجع على نمو أخرى جديدة.

يفترض الكثير من المعلقين الأمريكيين خطأ أن الحريات الديمقراطية التى جاء بها الأمريكان سمحت بمكامن الضعف فى المجتمع العراقى أن تظهر إلى السطح (انظر مثلا فؤاد عجمى الذى يعكس فى كتابه الأخير أن فوائد الاحتلال هى «عطية» لا يستطيع العراقيون الجاحدون تقبلها (عطية الأجنبى: الأمريكان والعرب والعراقيون فى العراق) فرى بريس ٢٠٠٦).

لقد كان المجتمع العراقى مقسوما دائما بعمق ضد نفسه ولكن مع الاحتلال انقلب رأسا على عقب. فالطبقة المتوسطة تغادر البلاد بسبب هجمات المجرمين والأيديولوجيين القتلة. وطبقا لمعهد بروكنجز، فإن السلطات قد أصدرت مليونى جواز سفر منذ أغسطس ٢٠٠٥. ويقدر أن ٤٠٪ من الطبقات المهنية المثقفة العراقية قد غادرت البلاد (www.brookings.edu/fp/saban/iraq/index.pdf).

وقد حلت محلهم صفوة جديدة. باستخدام العنف أحيانا، وهكذا يمكن القول إن هذا ليس نوع المجتمع المدنى الذى كان يرجوه الأمريكيون. وهناك شواهد، مثلا، على أن بعض الأحزاب الشيعية قد تورطت بحملات اغتيالات منظمة ضد المسئولين البعثيين الكبار بضمنهم الشرطة السرية وضباط القوة الجوية الذين قاتلوا ضد إيران فى الحرب العراقية الإيرانية فى الثمانينيات.

لا شىء يوضح هذا أفضل من صعود مقتدى الصدر، رجل الدين الشاب الذى استفاد من مرارات وأحلام المقهورين الشيعة ليصبح الرجل الأقوى والأكثر إثارة للجدل فى العراق اليوم. وهو ابن أحد آيات الله العظمى وكان قد اغتيل فى عهد صدام عام ١٩٩٩. والصدر الأصغر يشغل رتبة دينية متواضعة ولكنه استطاع أن يستثمر امتداده العائلى (باعتباره متحدرا من آل الرسول محمد. وهو أيضا صهر محمد باقر الصدر الذى عذب وقتل فى عام ١٩٨٠ ومما يثير الاهتمام أنه ابن شقيق محمد الصدر أحد قادة ثورة العشرين ضد الاحتلال البريطانى فى ١٩٢٠). ويقدم الصدر نفسه كمناهض للاحتلال من البداية مما أدى إلى اكتسابه ميزة سياسية فى وضعه ضد صفوة المرجعية الشيعية القائمة والتى تسمى الحوزة فى النجف التى تظل أحد مراكز الشيعة الروحية. وقد صمتت هذه الصفوة عن الوجود الأمريكى فى مقابل الأمل فى أن تأتى الانتخابات بالنفوذ السياسى للأغلبية الشيعية. وكما يلاحظ نير روزن فى صفحات كتابه (فى بطن الطائر الأخضر) «عرفت عائلة الصدر بثوريتها ونشاطها

السياسى عكس صمت القيادات التقليدية فى الحوزة، وفى بعض الأحيان يطلق أتباع الصدر (المعروفون باسم الصدريين) على معسكرهم اسم (الحوزة الناطقة) فى مقابل (الحوزة الصامتة) للسيستانى الذى يلتزم بتقليد شيعى ينأى به عن التدخل المباشر بشكل واضح فى السياسة.

الصدر يعلن بدون مواربة وطنيته العراقية وأنصاره يحتضنون بفخر العلم العراقى فى مقارنة واضحة مع رايات الأحزاب الشيعية الأخرى التى تؤكد على رمزية المذهب. وحين صعد الصدر وجيش المهدى إلى الواجهة ضد الأمريكيين فى عام ٢٠٠٤، قدم الكثير من السنة دعما حماسيا لتمرده. والصدر الذى بقى فى العراق رغم تنكيل صدام حسين بعائلته، سعيد بأن يلعب على الشكوك المنتشرة على انتماءات خصومه الشيعة الذين لجأوا إلى إيران ويسمون لذلك بالصفويين (نسبة إلى شاه إيران إسماعيل الصفوى) الذى أجبر السنة فى العراق على التشيع حسب مذهبه فى بداية القرن السادس عشر). أما آية الله العظمى السيستانى وهو المرجعية الروحية لمعظم شيعة العراق فقد ولد فى مدينة مشهد الإيرانية ولايزال يتكلم العربية بلكنة فارسية ولكن لا شىء فى سيرته يشى بأنه كان عميلا لإيران. من جانب آخر يعتبر الصدر، اكثر شعبية وهو يعبر عن آرائه بلهجة عراقية موغلة بالعامية مما يجعله نقيضا مدروسا للأناقة الكلاسيكية لخصومه الأكثر ثقافة.

قضى روزن وهو صحفى أمريكى آخر يتقن اللغة العربية، معظم وقته يستمع إلى مصلى الجمعة فى الجوامع حيث يشحن القادة الروحيون المؤمنين العراقيين بالخطب ضد الأمريكيين. وهو أحد قلائل الصحفيين الغربيين الذى يتغلغل داخل (التمرد) السنى وكتابه يحوى صورة لا تنسى، من بين أشياء أخرى، عن الفلوجة تحت حكم المجاهدين فى الأيام التى سبقت استيلاء المارينز عليها فى هجوم مدمر فى نوفمبر ٢٠٠٤. ولكن روايته لصعود الصدر هى أهم ما فى الكتاب. فى أحد جوامع بغداد يستمع إلى المؤمنين الشيعة وهم يضيفون إلى الدعاء التقليدى «الصلاة على محمد وآل محمد» «وعجل فرجه (المهدى) ولعن عدوه ونصر ابنه مقتدى! مقتدى! مقتدى!» (المهدى هو الإمام الثانى عشر فى مذهب الشيعة والإيمان بعودته مثل قصة عودة المسيح. وقد اختفى فى عام ٨٧٤ ويتوقع عودته لتخليص العالم من الظلم).

فجأة كان التركمان الشيعة يرددونها فى تظاهرات أمام مقرات سلطة التحالف المؤقتة وكذلك فى كركوك. وبدأ أتباع مقتدى فى ترديدها فى صلاتهم اليومية.

وقد لاحظ روزن أمثلة طريفة أخرى حول رغبة الصدر فى تغيير قواعد اللعبة وقد غطى مؤخرا اندلاع العنف بين الصدر والسنة (انظر مقالته فى بوسطن ريفيو نوفمبر /ديسمبر ٢٠٠٦). فعلى عكس ما جرى اتباعه احتفظ الصدر لوالده بوضع المرجعية وكأنه حى ويقول روزن «بإبقاء الصدر على مرجعية والده المتوفى فقد غير مقتدى قاعدة أخرى من قواعد اللعبة» ورغم أن شديد الذى حظى بمقابلة نادرة مع الصدر يقدم لهجة اقل تشددا من روزن (وكان كتابه فى ذلك الوقت يشبه تفريغ ملاحظات صحفية من الدفاتر) فقد نجح روزن فى التقاط بعض اللقطات الحية تعكس بعض رؤية الصدريين:

على جدران مكتب الصدر، وجدت إعلانات تحث الناس على دعم الشيعة وزرع الأشجار والحفاظ على الحشائش. وفى دكان قريب كانت تباع ملصقات توضع على كتب تلاميذ المدارس وفيها فراغات لكتابة اسم الطفل والفصل والمدرسة والعنوان. كانت ملونة بألوان براقة ومزدانة بالزهور وكل منها يصور مقتدى بطريقة لم أرها من قبل. كان مبتسما ودودا وحتى يحتضن الأطفال. وكل ملصق يحوى أحد أقوال مقتدى مثل «إذا كان المدرس جيدا فالطالب بالتأكيد يكون جيدا». كما يبيع الدكان أيضا سلاسل مفاتيح بشكل قلوب مطبوع عليها صورتا والد وعم مقتدى. وهناك ملصقات للسيارات تصور مقتدى وجيشه على خلفيات طبيعية إحداها كانت فى صحارى جنوب غرب أمريكا وأخرى فى مناطق أدغال وواحدة عند ساحل محيط ما، وهلالان فى السماء (ربما كان مقتدى فى كوكب آخر).

وكما استطعت أن أرى فى زيارتى الأخيرة إلى بغداد فإن حديث الأمريكان عن (حل) الميليشيات مثل جيش المهدى (وهو مطلب نسمعه كثيرا فى واشنطن هذه الأيام) لا يترك صدى فى المجتمعات التى يتجذر فيها هذا الجيش خاصة فى مدينة الصدر وهى مدينة فقيرة يقطنها الشيعة وتقع إلى شمال شرق بغداد حيث تسود منظمة مقتدى السياسية بدون مناقشة. ولا يملك أحد من خصومه أن يدعى أنه مركز قوة مماثلة فى التصاق اتباعه به وطاعتهم له. ولهذا فكثير من العراقيين يعتقدون أن مقتدى قد يصل إلى السلطة فى عراق يحكمه الشيعة.

الكثير من الشيعة فى مدينة الصدر وغيرها يرون فى رجال الصدر الحماية الوحيدة لهم ضد هجمات أعدائهم الطائفيين. كما قال رجل فى مدينة الصدر «جيش المهدى تاجنا. بدونه سيدمر الإرهابيون المدينة. أعضاء الجيش إخواننا وأولاد أعمامنا» وفى حين يستمر آية الله السيستانى فى الدعوة للاعتدال حتى فى وجه الهجمات الإرهابية على السكان الشيعة، فإن الصدر وجيشه اتخذوا موقفا اكثر تشددا وهم يقودون حملات إرهابية خاصة بهم. هذا كان العنصر الرئيسى فى نمو قوة وسلطة جيش المهدى (بعد حادث سيارة مفخخة فى مدينة الصدر، يقال إن رجال جيش المهدى اختطفوا عددا من السنة بشكل عشوائى من أماكن متفرقة من المدينة ثم أعدموهم فى موقع الحفرة التى تسببت بها القنبلة).

وكما يحدث فى الأوضاع التاريخية المقارنة، فإن الخط الفاصل بين البلطجة وتطبيق القانون يضمحل. وقد قال لى ضابط فى الجيش العراقى وهو من أهل مدينة الصدر بأن الميليشيا تتكون من «طيبين وأشرار». «الأشرار يخطفون ويرتكبون كل أنواع الجرائم» أما الطيبون؟ «إنهم يحاربون العادات السيئة مثل المخدرات والدعارة ويمنعون الإرهابيين من الدخول إلى المدينة. هذا هو الجانب الجيد. أما قتل السنة لمجرد أنهم سنة، فهذا هو السيئ».

ويظهر عمق التغيير على أشده فى أحياء بغداد التى كانت فيما مضى مختلطة. فإن موجات الإرهاب الطائفى والتطهير العرقى الذى استولى على بغداد ومناطق أخرى من العراق منذ الاعتداء على ضريح شيعى فى فبراير الماضى اقتلعت مجتمعات كاملة. وحتى أغسطس تحول نصف مليون عراقى إلى لاجئين داخل بلادهم. وفيما كنت أتجول فى بغداد بصحبة دورية أمريكية قابلت بغداديين لا يعرفون جيرانهم، وهو شىء لم يكن ممكنا حتى وقت قريب. فأحياء المدينة كانت أماكن متشابكة بشكل قوى حيث يتشارك الجيران المعلومات والمساعدات متجاوزين خطوط العرقية والطائفية. الآن يجد المهجرون أنفسهم فى أماكن لا تربطهم بها سوى الطائفة. فى الرصافة وهى نصف بغداد التى تقع إلى شرق نهر دجلة قابلت شيعة من أماكن أخرى من المدينة حيث هجرتهم ميليشيات سنية باستخدام التهديد بالاغتيال. (التقيت كذلك بأشخاص من الشيعة انتقلوا إلى المدينة من المناطق الريفية وقد سمح لهم بوضع اليد على أراض خالية. ومن الصعب تخمين مقدار التشجيع الذى تقدمه الأحزاب السياسية الشيعية لهذا. ولكن الكثير من البغداديين يعتقدون أن القيادة الشيعية تعمل على تغيير ديموجرافية الرصافة فى صالحهم).

وخوفا من القتل والتعذيب وبسبب إجبارهم غالبا على ترك أعمالهم وتجارتهم التى تقيم أودهم لم يجد الوافدون الجدد سوى اللجوء إلى الجوامع وأحزابهم السياسية. وكان جيش المهدى يمد سيطرته على الأماكن التى نجح فى (تطهيرها) من الأعداء وقد أصبح فى نظر الكثير من الشيعة، منظمة تقدم المؤن والمأوى. هل تحتاج إلى غاز رخيص للطبخ؟ اذهب إلى رجال المهدى. هل يرفض زوجك زير النساء أن يطلقك؟ سوف يضربه جيش المهدى حتى يستعيد صوابه. وماذا عن الثأر من النواصب (المقاتلين السنة) الذين

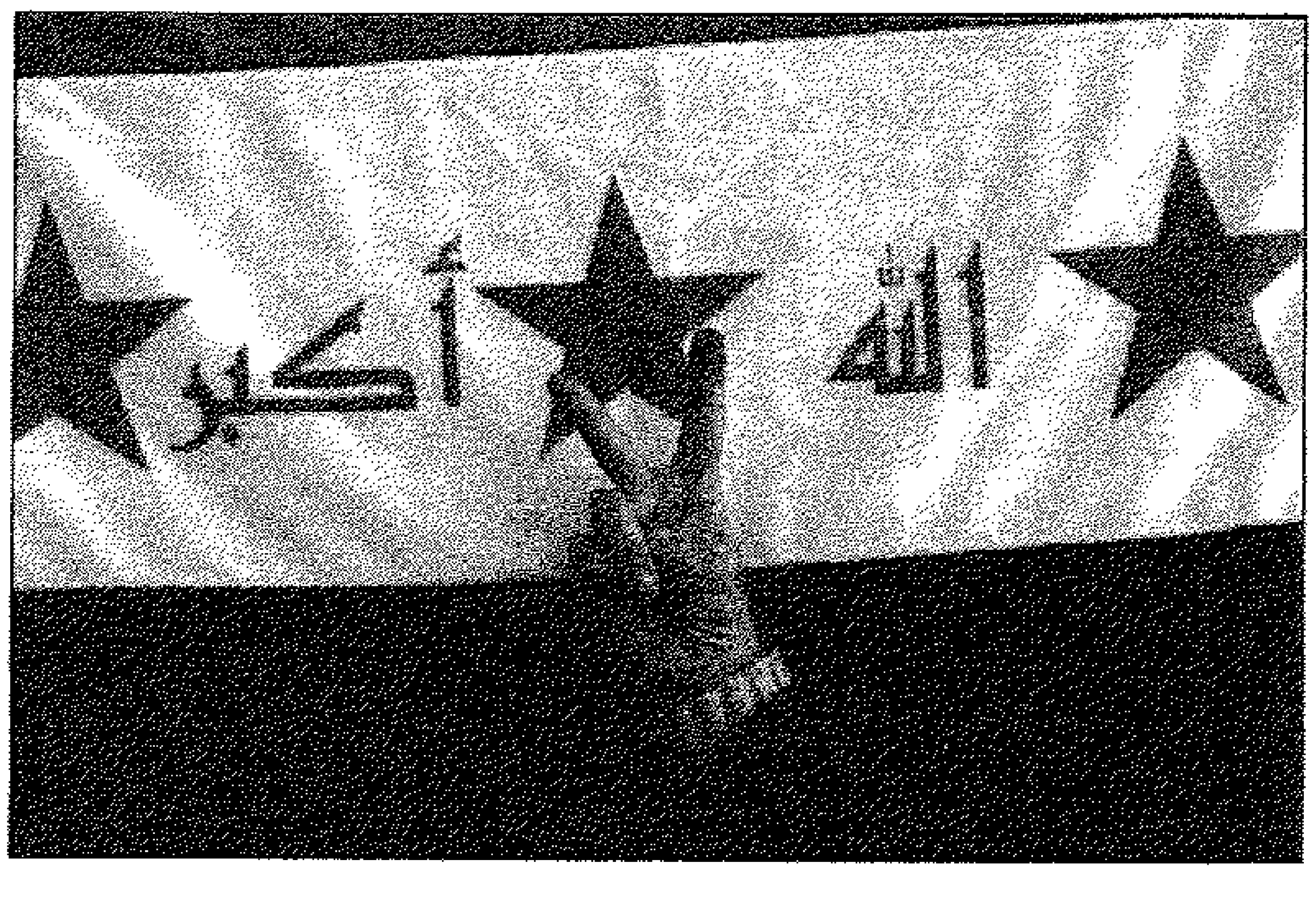
«عدى ابن صدام حسين
كان أكثر شخص فاسد على وجه الأرض»،
«أى فتاة كان يريدها يأخذها. لم يكن أحد يستطيع
أن يقول شيئا لأنه ابن الرئيس. وابنه الآخر
قصى كان قاسيا أيضا مثل أبيه»

«من مدونة عراقية»

طردوك من منزلك؟ سيتم ذلك بدون مناقشة.

وهكذا تستمر دائرة الغضب والثأر. فى منطقة الدورة فى جنوب بغداد كان فى انتظارى مفاجأة. كان السنة الذين قابلتهم وهم عادة مناهضون للاحتلال، يكيلون المديح لجهود الجيش الأمريكى لتطويق الحى بعد أن اجتاحها فى الصيف أسوأ أنواع العنف الطائفى. قال لى رجل عجوز «لا نريد أن ينسحب الأمريكان». (وعند تبادل الحديث معه عرفت أنه من أشد مؤيدى صدام حسين). السبب واضح: حين تغادر القوات الأمريكية، سيجد السنة أنفسهم على أكثر احتمال لقمة سائغة لأعدائهم الطائفيين. ويمكن أن يرغم الانسحاب الأمريكى السنة إلى إيجاد حماة لهم من دول المنطقة مما يوسع الصراع فى الشرق الأوسط. فى أواخر نوفمبر كتب نواف عبيد وهو مستشار للحكومة السعودية معبرا عن أفكاره (الخاصة) فى واشنطن بوست، حيث قال «أول الآثار لانسحاب الأمريكان سيكون التدخل السعودى الواسع لإيقاف الميليشيات السنة المدعومة من إيران من ذبح السنة العراقيين» (انظر «الخطو داخل العراق» فى واشنطن بوست، ٢٩ نوفمبر فى ٢٠٠٦ . فى ١٢ ديسمبر نشرت نيويورك تايمز بأنه فيما أنكرت الحكومة السعودية تصريحات عبيد وطردته من عمله ولكنها كانت قد قدمت تحذيرات مماثلة إلى نائب الرئيس ديك تشينى فى أواخر نوفمبر) ومع ذلك حتى حين أخبرنى سكان الدورة بهذا كانوا يدركون القيود التى تمنع الأمريكان من ممارسة قوتهم ويستشعرون بأنه آجلا أم عاجلا، لابد للقوات الأمريكية من الانسحاب.

وأنا أستمع إلى هذه الأصوات العراقية، لم أستطع مغالبة الشعور بأننا نحن الأمريكيين قد أصبحنا بلا فائدة لمستقبل هذه البلاد. وفى حين يستمر الناس فى واشنطن فى التجادل حول التغير المقبل فى الاستراتيجية ويثير تقرير بيكر احتمالية انسحاب متدرج، يقوم العراقيون بتقييم المحنة القادمة ويرتبون أوضاعهم تبعا لذلك. جرت محادثاتى مع أولئك البغداديين اليائسين فى أمسية تحتشد سماؤها بالغيوم التى تنذر بوصول موسم المطر. كان اليوم الذى أعلنت فيه المحكمة العراقية الحكم بالموت على صدام حسين، وقد استقبلها البعض بإطلاقات رصاص تسمع على البعد. ولكن كثيرين لم يبالوا بالخبر فقد كان همهم ينصب على إنقاذ أنفسهم. ■



■ ■ انتهيت لتوى من سماع تسجيل صوتى لحوار أجرى مع كريستيان كاريل (مراسل نيوزويك) وهو فى بغداد فى خريف ٢٠٠٦ وكانت زيارته الثانية بعد الأولى فى خريف ٢٠٠٣ . وقد سأله المذيع عن الفرق بين الزيارتين، فقال إنه فى الأولى كانت الأوضاع خطرة ولكن كان يمكن على الأقل القيام بجولة فى شوارع بغداد والحديث مع عراقيين، أما الآن فإن القيام بجولة لمدة عشر دقائق تتطلب تخطيطاً وكأنها رحلة إلى أدغال الكونغو، عليه أن يخطر حراسه الأمنيين قبل أربع وعشرين ساعة ليستعدوا ويضعوا خطة للسير ويختاروا أنواع الأسلحة والسيارات العسكرية المرافقة وأن عليهم حين العودة تدارس تنفيذ الخطة وماذا نجح فيها وماذا لم ينجح، وأكد أنه لم يعد ممكناً الحديث مع العراقيين .

ولهذا فإنى أشكك كثيراً فى مدى قدرته على الإجابة عن سؤال: «ماذا عن العراقيين؟» حيث تبدو بعض ملاحظاته التى أوردها فى مقالته هذه منفصلة عن الواقع، أقلها أنه يعتقد أن فهم العراقيين «يختلف باختلاف المعتقدات الدينية والعرقية والطبقية»، وكأنه يتحدث عن شعوب وليس عن شعب واحد لم تمنعه اختلافاته هذه عن وحدة المصير منذ آلاف السنين، مفترضا أن المجتمع العراقى «كان مقسوماً دائماً بعمق ضد نفسه ولكن مع الاحتلال انقلب رأساً على عقب».

مشكلة الكثير من المعلقين والإعلاميين الغربيين أنهم يضعون افتراضات جاهزة قائمة؛ إما على سوء فهم أو قلة معرفة وبالتالى يصلون إلى استنتاجات باطلة بسبب خطل المقدمات.

لا أريد أن أنتقص من شأن الكاتب الذى سبق له أن عمل فى روسيا واليابان وكوريا وألمانيا وأفغانستان وأخيرا العراق وقد كان أحد المرشحين عام ١٩٩٩ لجائزة دولية للصحافة التحقيقية بسبب تقاريره (المتميزة) كما وصفت حينذاك. ولكن الرجل كما يبدو من هذه المقالة لم يستطع أن يكون موضوعيًا تمامًا . وقد بدا ذلك واضحاً فى تعقيبه على يوميات العراقية رفريند، فهو مثلا يعتقد أن (الاحتلال قد أطلق تعدد وسائل الإعلام التى استفادت منها ريفريند) ويقصد الإنترنت مع أنه كان موجودا فى العراق فى التسعينيات قبل الاحتلال ودليل هذا انتشار مدونة (سلام باكس) العراقى الذى كان يسجل يومياته بالإنجليزية من داخل بغداد قبل الاحتلال، وهو الذى أشار إليه الكاتب نفسه فى موقع آخر من المقالة . كما أنه يتناولها بالنقد لأنها تصور فى يومياتها (المستوى العالى للتطور الثقافى والاقتصادى فى العراق قبل الاحتلال) معتبرا إياها (جاهلة بالجوانب المظلمة فى نظام صدام) ولا ادرى ما علاقة هذا بذاك، فالنهضة العلمية والصناعية والحضارية التى شهدها العراق فى العقود الماضية شيء لا يمكن أن ينكره أحد، كما لا ينكر أحد أن مسيرة حكم تستمر ثلاثة عقود لا يمكن أن تخلو من مظالم أو أخطاء . وعلى نفس النسق، يعتقد الكاتب أن رفريند تناقض نفسها حين تتحدث عن (احترام العراقيين للثقافات والأديان الأخرى) وتتحدث عن أصولها المختلطة شيعة وسنة، فى حين أنها تزدرى طقوس الشيعة فى مواكب جلد الذات التى يسيل فيها الكثير من الدماء، متناسيا أن الكثير من الشيعة المثقفين أنفسهم يستهجنون هذه الطقوس باعتبارها دخيلة على الإسلام . كما يعتبر احتقارها النواب (الشيعة) ولا مبالاتها بالمراجع الدينية مثل السيستانى وللانتخابات بشكل عام والتى صعدت بالشيعة إلى الحكم، دليلا آخر على تناقضها، بل إنه يشبهها بالوطنيين السوفييت الذين (عاشوا معيشة طيبة فى ظل النظام وكانوا غير قادرين على رؤية جرائمه على حقيقتها مما جعلهم ينكرون أو لا يفهمون حين بدأ المقموعون فى التعبير عن مطالبهم السياسية)، وأنا أرى أن الكاتب نفسه غير قادر على فهم أن حقيقة الصراع فى العراق ليست بين الشيعة والسنة وإنما بين وطنيين واحتلال وتبعاته وأتباعه، وأن ريفريند نفسها والتى تعكس آراء معظم الشعب العراقى الذى لم يستطع الكاتب - بسبب الأوضاع الأمنية التى خلقها الاحتلال - أن يستطلع آراءه، قد أدانت بنفس الطريقة (السنة) الذين شاركوا فى شرعنة الاحتلال بالحكومات التى نصبها، أما الحديث عن الانتخابات فالكل قد شهد كيف جرت وبأى الوسائل سيقت الجماهير إلى صناديق الاقتراع وماذا كانت نتيجتها .

ومن الجدير بالملاحظة أن الكاتب فى حين تصدى لكل كلمة كتبتها ريفريند بالنقد الصريح والمبطن والإشارة إلى (استفادتها من النظام) وهى التهمة العقيمة التى يراد منها إسكات كل حجة، استقبل حديث فتاة أخرى وردت فى كتاب (شديد) هى (أمل) التى انتقدت صدام حسين وابنيه، بدون أى تعليق سوى الإشادة بقدرة (شديد) على دفع من يلتقى بهم إلى قص حكاياتهم .

ولهذا لم يكن أيضاً مستغربًا أن يعمد الكاتب إلى استعراض ما حدث خلال ٣٥ سنة قبل الاحتلال استعراضاً شمل أحداثاً سياسية منتقاة (حكم شمولى وحرب إيران وهجمات على الأكراد وإرهاب سياسى وغزو الكويت) ولم يقل أنه كان فى خلال هذه الفترة أيضاً: تأميم نفط ومحو أمية ونهضة صناعية وعلمية وثقافية ورفاهية اقتصادية وتأمين صحى للجميع وتحرير طاقة المرأة وحكم ذاتى للأكراد.

أما قصور فهمه لحركة مقتدى الصدر، فهذه حكاية أخرى. ■

بثينة الناصرى

لبنان.. الطائفية

أميمة عبد اللطيف

Civil and Uncivil Violence in Lebanon, A history of the internationalisation of communal conflict

(العنف المدنى«الأهلى» وغير المدنى فى لبنان.. تاريخ تدويل الصراع الطائفى)

Samir Khalf
Columbia University press,
New York, pp368

عن أمل لا شفاء منه
فواز طرابلسى
رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الثانية، يناير ٢٠٠٧

على الدرج المؤدى لحضانة الفردوس المجاورة لمنزل رئيس الوزراء اللبنانى الراحل رشيد كرامى بحى الباشورة الذى يبعد خطوات عن ساحة رياض الصلح كانت الأوراق البيضاء متناثرة كما النفايات. «قتل الشيعة حلال» هكذا استهل المنشور الذى استيقظ عليه سكان الحى البيروتى العتيق ذات صباح أوائل ديسمبر الفائت. يدعو البيان السنة - من دون أن يسميهم - إلى «ملاحقة ومراقبة تحركاتهم-يقصد الشيعة- داخل هذه المنطقة وقتلهم وتشريدهم منها ومن كل لبنان الحبيب كى نحمى أعراضنا ونساءنا من مغتصبى حرية سيادة لبنان وعليكم بمساجدهم التى جعلوها مخازن السلاح ونقاط تخريج الانتحاريين» ويحذر البيان اللبنانيين من «القائد المنافق» - أيضا من دون أن يسميه - الذى يريد أن يجعل لبنان «جمهورية إسلامية ذات تبعية إيرانية».

لم تكن تلك هى المرة الأولى التى تظهر فيها منشورات كتلك فى شوارع بيروت. بعد اغتيال وزير الصناعة بيار الجميل ظهر منشور يذكر بـ «نيسان ١٩٧٥» ذكرى وقوع الحرب الأهلية اللبنانية والتى استمرت لـ ١٥ عاما. وكان ذات المنشور الذى يحلل دم الشيعة قد ظهر فى البقاع قبل أن يجد طريقه لبيروت. وقتها نفت أوساط تيار المستقبل الذى يرأسه سعد الحريرى أن تكون لها أى علاقة به على طريقة يكاد المريب.

غير خاف أن اللغة التحريضية التى كتب بها البيان تشبه فى تركيبتها وألفاظها وتوصيفاتها تلك العربية الركيكة التى كانت إسرائيل تصوغ بها رسائلها إلى اللبنانيين أثناء حرب تموز وربما فى كل الحروب التى خاضتها ضد لبنان وإن كانت عادة ما تختم منشوراتها بـ «دولة إسرائيل». هذا المنشور لم يكن ممهورا بتوقيع جماعة ما وقد لا يكون أمرا ذا أهمية كبرى إذا عرفنا أن الثابت والمثير للقلق هو أن ما ورد فى ذاك المنشور. على تطرفه ومقته. قد صار يسمع بصوت عال بين أوساط السنة ممن يمثلون التيار العام والهوامش فى بيروت وطرابلس ومنطقة البقاع وجلهم من الموالين لتيار المستقبل.

قد تبدو تلك المنشورات نتاجا حتميا لحالة الاحتدام السياسى التى تلف البلاد منذ اغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريرى فى فبراير ٢٠٠٥. غير أن هذا الجدل السياسى خلف حالة من الاصطفاف الطائفى ذى منحى مذهبى لا يمكن تجاهله عبر انقسام سنى شيعى غير مسبوق وهو الأكثر حدة منذ انتهاء الحرب الأهلية.

كان لازما أن تستحضر تلك المنشورات وغيرها من ردات الفعل العنيفة. آخرها ما نقلته شاشات التلفزة من مشاهد غير مسبوقة لما يشبه الاقتتال الأهلى فى محيط منطقة الجامعة العربية يوم الخميس ٢٥ يناير الماضى- مناخات الحرب الأهلية اللبنانية. فالبلد. فى كل الأحوال . يسكنه هاجس الحرب الأهلية لكثرة ما مر عليه من حروب اقتتال أهلى حتى قبل أن يصار إلى الكيان اللبنانى كما هو الآن.

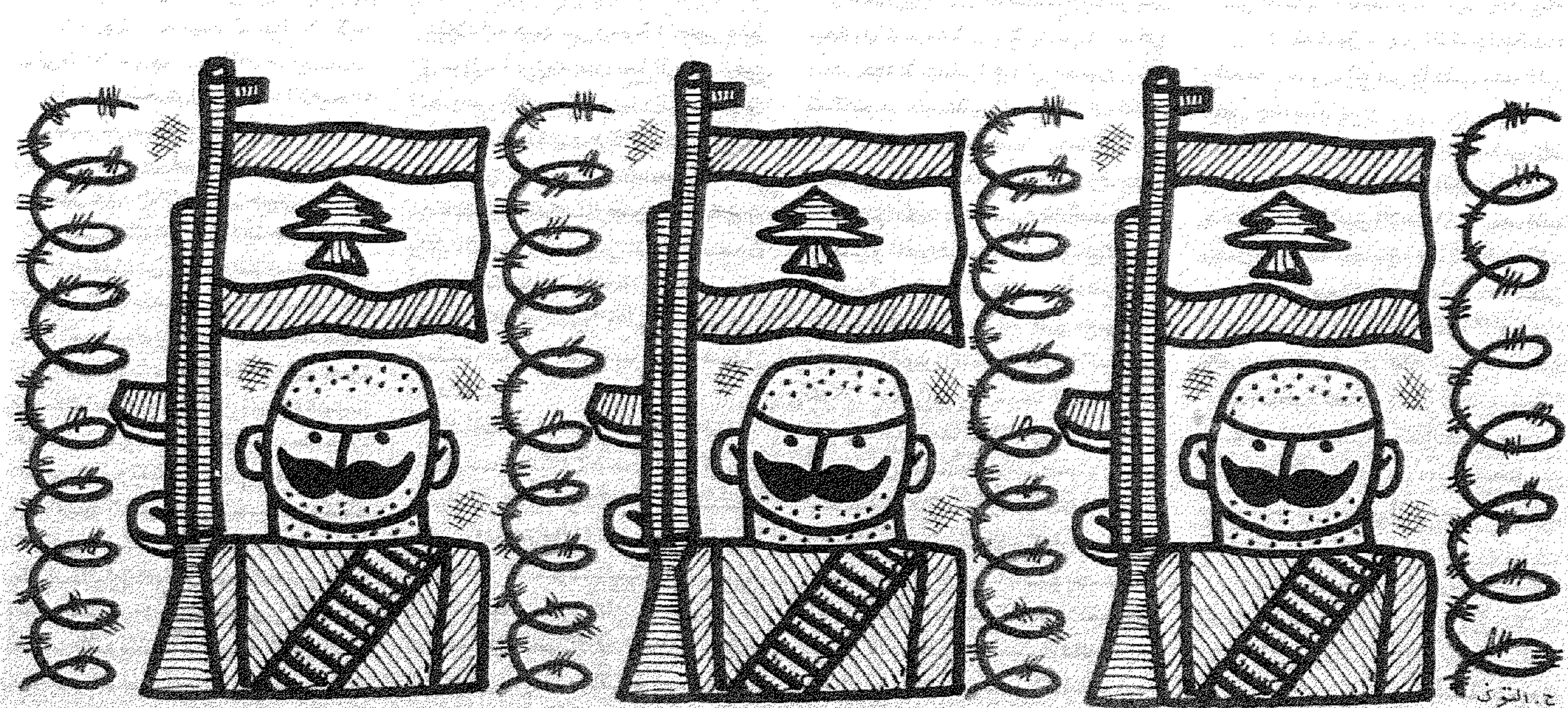
الثابت الآن أن هاجس الحرب الأهلية لم يكن بقوة ما هو عليه اليوم فى لبنان. خلال الخمسة عشر عاما الماضية كانت هناك احتقانات ومشاحنات وصراع سياسى، غير أن ثمة شواهد ونذر خطر لم يعد من الممكن تجاهلها. سيما وأن هذه النذر أوردتها العديد من المؤلفات التى بحثت فى تاريخ الحروب الأهلية اللبنانية ومسبباتها وظواهرها.

يقول اللبنانيون إن فهم ما يدور الآن يستدعى إعادة قراءة تاريخ لبنان. وقد لا يتطلب الأمر سوى العودة لسنى الحرب الأهلية وما قبلها لمحاولة فك شفرة الحدث اللبنانى سيما أن هذه المرة ثمة تداخل لا يمكن إغفاله بين المحلى والإقليمى والدولى. وهو الأمر الذى تؤكد عليه الدراسة الاجتماعية التى عمل عليها سمير خلف حول العنف الأهلى فى لبنان والتى اعتبرت أن هذا التداخل هو أحد أهم السمات التى قد تصنع لبنان أو تقضى عليه فى آن واحد. فتحرك المعارضة اللبنانية الأخير واعتصامها - وإن كان مطلب حكومة الوحدة الوطنية الذى اتخذته عنوانا لحركتها الاحتجاجية هو ذو مشروعية سياسية - غير أنه لا يمكن قراءة الحدث بمعزل عن الأزمة الإقليمية التى صنفت كلا من إيران وسوريا فى تحالف يضم حزب الله وحماس ضد «حلف الاعتدال» الذى تمثله الولايات المتحدة وإسرائيل ومعهما دول «الاعتدال» العربى.

وهو ما لا يمكن فهمه كذلك بمعزل عن الصراعات الدولية التى تدور رحاها اليوم. ذلك أن لبنان حين يكون محورا لصراعات القوى الدولية يصبح من الصعب حمايته من العواقب المؤثرة على استقراره (لاحظ كيف أن لبنان يدفع ثمنا من استقراره نتيجة الخصومة السورية السعودية من ناحية والعلاقات المتدهورة بين سوريا وفرنسا من جهة أخرى).

تبدو الحاجة ملحة - والحال كذلك - للعودة لقراءة ما كانت عليه الأوضاع قبل وأثناء الحرب الأهلية الأخيرة التى انطلقت شرارتها ١٣ أبريل ١٩٧٥ ولم تنطفئ جذوتها إلا بعد خمسة عشر عاما. وهى وإن كانت لا تفسر واقع حال الصراع السياسى الحالى وإنما تقدم خطوطا عريضة يمكن خلالها تلمس ربما طريق للنجاة مما تنذر به الأوضاع حاليا فى لبنان.

يستهل سمير خلف مؤلفه بما يعتبره ثلاث حقائق أصبحت من سمات التاريخ اللبنانى ولا يمكن إنكارها بأى حال. أولاها



أن التاريخ الاجتماعى والسياسى للبنان كان دوما يتسم بـ«هبات» متعاقبة من الفتن الأهلية والعنف السياسى وربما تكون وحشية الحرب الأخيرة والتى استمرت لقرابة العقدين قد طغت وفاقت ما سبقها من حروب. فتاريخ لبنان-كما يقول- ليس سوى فترات من العنف المتقطع. فتاريخ الحروب الأهلية بدأ منذ ١٨٤١ ثم تواصل فى سنى ١٨٤٥ ، ١٨٦٠ ، ١٩٥٨ ثم الحرب الأخيرة التى استمرت من ١٩٧٥- ٩٢ وراح ضحيتها ١٧٠ألف شخص بينما أصيب أضعاف هذا العدد وتعرض ثلث السكان لعمليات تهجير من أماكنهم.

استمرارية هذه الهبات الطائفية يعكس مدى هشاشة الديمقراطية التوافقية ويعتبر خلف أن لبنان أكثر حساسية للخلافات العربية العربية وخلافات القوى الدولية بسبب نقاط الضعف تلك والتناقضات. وقد أخذ العنف فى البدايات منحى الصراع الداخلى بين قوى اجتماعية والعائلات الإقطاعية. ثانيا أن لبنان كان وسيظل دوما ضحية ثنائية الداخل والخارج. كما أن الصراعات الإقليمية المعلقة كانت تجد أرضا خصبة فى لبنان والنقلات الأيديولوجية للنظم المجاورة ما بين البعث والاشتراكية والإسلامية كلها وجدت صدى لها فى لبنان. بل وكلها ساهمت بشكل ما أو بآخر فى تعميق حدة التوترات الطائفية. ثالثا أن التدخل الخارجى الذى حاولت الجماعات السياسية اللبنانية على اختلافها الاحتماء تحت مظلته كان دوما يسعى لتأكيد الاصطفاف والاستقطاب ويعمق مصادر العداء بين تلك الجماعات.

وهناك ملامح واضحة للتدرج الذى يأخذه العنف حتى يصل لأن يعرف بكونه حربا أهلية وهى أمور من المهم بمكان التنبه لها ورصد ما يدور من تحولات فى المجتمع اللبنانى اليوم. أولا هناك الفتنة الاجتماعية وهى نتاج غير مباشر لعدة عوامل التباينات الاقتصادية والحرمان النسبى والصراعات الأيديولوجية وهى تعبر عن نفسها فى صورة غير عنفية وإنما من خلال الاحتجاجات الجماعية والتعبئة السياسية. ثانيا إذا ما استمرت تلك التباينات ولم يتم معالجة العداءات الناتجة عنها يصبح الغضب والصراع أكثر حدة والشرخ أعمق وإذا ما اقترن مع تلك التباينات إذكاء للولاءات الطائفية واستحضار تراث الاقتتال الطائفى هنا ينزلق الغضب الاجتماعى إلى عنف طائفى وهى أيضا المرحلة التى تتحول عندها الفتنة الطائفية إلى حرب أهلية.

وأهلية هذه الحرب لا تظل كذلك دائما إذ إنه غالبا مايتحول الشكوك حيال الآخر وإحياء الولاءات القبلية مقترنة بالصراعات الإقليمية والدولية إلى حروب بالوكالة.

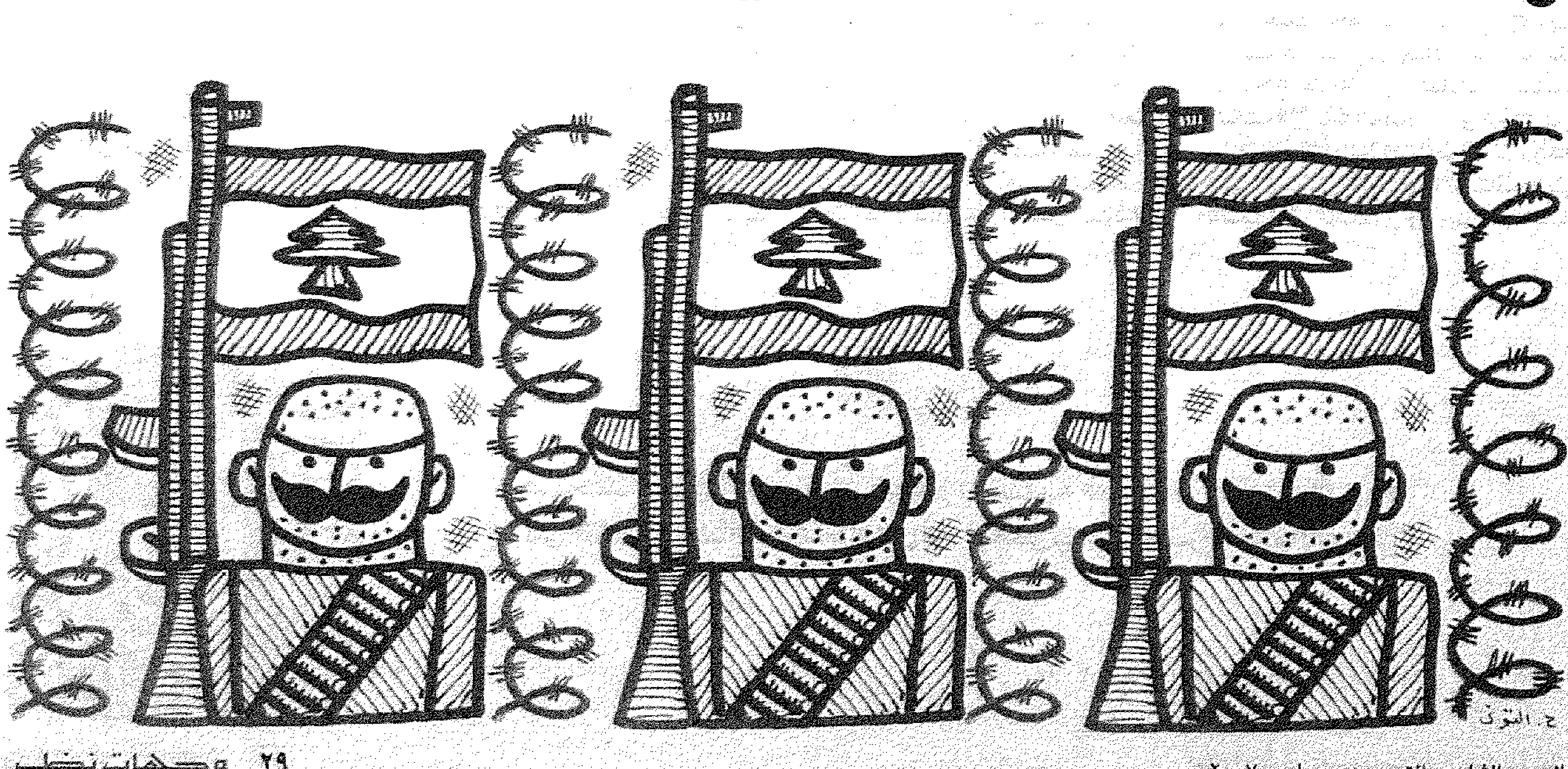
ويفتتح خلف دراسته بتساؤل عن الظروف التى تتحول بمقتضاها الاحتقانات الاجتماعية والاقتصادية والاحتجاجات السياسية الطبيعية إلى أشكال من العنف المسلح. وبشكل تبسيطى أكثر لماذا وكيف تحولت لبنان فى وقت الحرب الأهلية إلى ساحة للاقتتال ولحروب الآخرين؟ وفيما كان هذا واحدا من أهم الأسئلة التى حاول من خلالها المؤلف تفكيك ديناميكيات الحرب الأهلية والاقتتال الذى وقع إلا أنه وبعد انتهاء الحرب بما يقارب العقدين من الزمان يكاد السؤال ذاته يتردد الآن فى كل الأحاديث اللبنانية: لماذا على لبنان أن يكون ساحة صراع لحروب الآخرين لماذا حين تريد الولايات المتحدة محاربة إيران بالوكالة تكون الأراضى اللبنانية هى الساحة؟ ولماذا حين تريد إسرائيل أن تؤدب سوريا أو أن تختبر القوة الصاروخية لها يكون الأمر على الأراضى اللبنانية ولماذا حين تريد سوريا إرسال رسائل للعالم يكون عبر السيارات المفخخة فى لبنان. يستعين المؤلف لمحاولة الإجابة على السؤال بكتابات رينيه جيرار عن تصريف العداءات التى لا يتم تحييدها. فهو يعتبر أنه حين لا يتم تحييد مشاعر الغضب تكون عندئذ لديها القابلية لأن تستهدف أهدافا بالوكالة لا علاقة لها بالأسباب التى استفزت العداءات فى الأصل.

وتبدو ثنائية الداخل والخارج واحدة من أهم الثنائيات عند أى محاولة لفهم ما يحدث فى لبنان وهى تنطبق اليوم بحذافيرها وأحد أهم مفاتيح فهم ما يدور اليوم بنفس ما كان الأمر عليه منذ ثلاثين عاما .الأمر الآخر الذى يعد واحداً من أهم محددات فهم السياسة اللبنانية هو الهويات الطائفية. هذه الهويات التى يصفها المؤلف بأنها المصدر الحيوى للمساندة الاجتماعية وهى أيضا مصدر المنافع وشبكة الامتيازات فكيف تتحول هذه الهويات إلى مصدر للتعبئة الراديكالية وتحت أى ظروف تصير المخاوف والتهديدات من الآخرين أكثر حدة وتتعمق الهويات الطائفية بما يؤدى لتعميق الكراهية والعداء ضد الجماعات الأخرى.

ثمة تباين بين الانقسامات الأفقية والرأسية التى تعمق وتدفع الهويات الطائفية لأن تكون أكثر تطرفا. فالصراعات الاجتماعية والاقتصادية - والتى عادة ما يكون سببها هو الشعور بالغبن وفقدان الأهمية والامتيازات المادية - تظل ذات طبيعة أقل عنفا إلا إذا تحولت إلى عداءات طائفية والانقسامات العمودية تتعمق من خلال أمور تتعلق بالتهديد لوجود الطائفة بالأساس وتتمثل فى فقدان الحرية والتراث حينها ينتقل الصراع من صراع على «البضائع التى يمكن تقاسمها» إلى «البضائع التى لا يمكن تقاسمها».

أحد فصول الدراسة يتناول واحدة من أهم النقاط المتعلقة بتحول الصراع من اقتتال أهلى إلى حرب غير محددة الهدف لا تفرق وتعتمد القتل والتدمير العشوائى غير المنظم كآلية واحدة ووحيدة. بمعنى آخر كيف يمكن لمجتمع مثل المجتمع اللبنانى بحوزته تاريخ مدهش من التعددية القابلة للعيش والعيش المشترك يمكن أن يتم تعبئته للانزلاق فى هذه البربرية والوحشية كما كان عليه الحال أثناء الحرب

والطائفيون



ح. التونى

الأهلية. يتوقف المؤلف فى أحد فصول الكتاب ليحلل ظاهرة العنف ذاتها ويصل لنتيجة مؤداها أن الظروف التى تؤدى بالجماعات المهمشة والمقموعة لأن تلجأ للعنف السياسى قد لا تكون هى ذاتها الظروف التى تجعل هذا العنف متواصلا وتحدد ماهيته ووجهته ونتيجة الصراع.

فى أحد فصول الكتاب ينبه خلف-كمن يتنبأ بما ستؤول إليه الأوضاع لاحقا- إلى ضرورة ألا ننخدع بمظاهر الإعمار والإحساس بالتفاؤل والحيوية القومية التى مر بها اللبنانيون فى فترة التسعينيات. وهو أيضا حذر من الانخداع بمظاهر الاستقرار السياسى الظاهرة خلال تلك الفترة لأن هذا الاستقرار- كما يقول هو لم يكن قائما على أسس قوية أو على إجماع وطنى حول القضايا الأساسية مثل السيادة الوطنية والمصير السياسى للبلد. يبدو هذا التحذير صحيحا أكثر من أى وقت مضى. ذلك أن الاستقطاب الاجتماعى والثقافى يبدو جليا فى الاختلافات فى القيم والعادات والتوقعات وأسلوب الحياة واستعراض الثروة والامتيازات الاجتماعية فى المجال العام وكذا فى الهويات الطائفية. هذه الهويات الطائفية المتجددة كما يوصفها خلف تمنح حائزيها على المأوى والسند الاجتماعى والنفسى والطريق للرفاهية والامتيازات ولكنها فى ذات الوقت ترفع درجة العداء للجماعات التى يتم تصويرها على أنها «مختلفة». يتحول المجتمع اللبنانى شيئا فشيئًا من مجتمع مفتوح حيث الامتيازات لا تمنح فى كل الأحوال فقط بسبب الدين أو القرابة أو العرق إلى مجتمع مغلق (ثمة حديث عن انتقال السكان السنة من الضاحية الجنوبية إلى أماكن ذات غالبية سنية فى بيروت رغم أنه لم يتم بعد أى فرز جغرافى بشكل طائفى سيما بين مسلمى لبنان. فالطريق الجديدة ذات الغالبية السنية بها سكان شيعة والضاحية ذات الكثافة الشيعية العالية بها مسيحيون وسنة. كذلك بدا استنفار زعيم الدروز وليد جنبلاط لمجرد أن أحد المقاولين الشيعة قرر بناء مجمع سكنى فى جبل لبنان وهو ما اعتبره محاولة لإحداث تغيير ديموجرافى فى المنطقة رغم أن بالجبل بلدات شيعية مثل بلدة كيفون القماطية والوردانية).

إن القوى الإقليمية والدولية لها دور فى إذكاء العداءات الطائفية ولكنها تتدخل أيضا حين يصل العنف لمستوى من شأنه أن يؤدى مصالحها. فمقولة وزير الخارجية الأمريكى الأسبق جون فوستر دالاس الشهيرة «لبنان ليست مهمة فى حد ذاتها» استكمالها يعنى أنها أهميتها تنبع من كونها ساحة للمصالح الإقليمية الكبرى فقط. لقد كان التدخل الخارجى عنصرا حاسما فى تسوية الصراع الداخلى فى لبنان حيث الدولة من الضعف والهشاشة بحيث تستطيع القوى الإقليمية والأجنبية أن تلعب دور الوسيط لحل النزاعات الداخلية بمعنى آخر أن تأخذ دور الدولة. عدم قدرة الدولة على تحصين نفسها كان يعنى أنها تتنازل عن مسئولياتها المتعلقة بالأمن القومى للقوى الإقليمية والدولية(الأمر ذاته حاصل اليوم حيث الرئاسات الثلاث فى لبنان فى حالة خصومة سياسية حادة بحيث انقطع حبل الوصل بينها وانتهى الأمر بعمرو موسى أن يكون مرسالاً بين القوى السياسية اللبنانية التى لا يفصلها عن بعضها البعض بضع مئات من الأمتار وصارت قصة الوساطة الدولية والعربية ومصيرها يتصدر صفحات اليوميات اللبنانية). الحاجة الاستراتيجية التى توفرها لبنان هو أنها قدمت وظيفة كونها صمام الأمان الذى يمكن من خلاله تصريف توترات الصراع العربى الإسرائيلى من دون حدوث مواجهة كبرى بالضرورة.

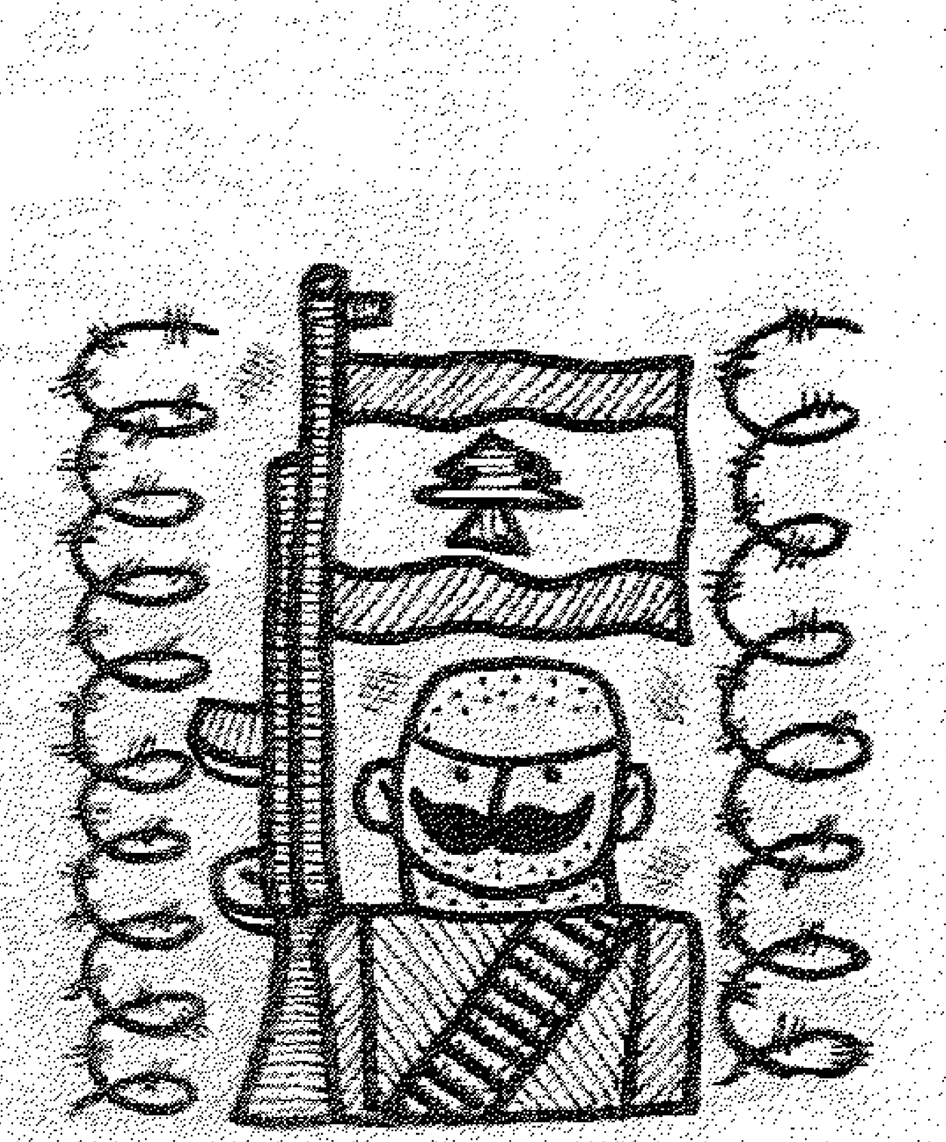
كان غسان توينى هو أكثر من روج لنظرية كون لبنان هى ساحة قتال لحروب الآخرين أولا أثناء رئاسته لوفد لبنان بالأمم المتحدة وعبر مقالاته فى النهار. شارل عيساوى كان أيضا أحد المروجين لنظرية كون لبنان ضحية صراعات الآخرين وهو يقول بأن لبنان نموذج ناجح للديمقراطية والتعددية الاقتصادية وهو أمر لا تحتمله منطقة أدارت ظهرها لكلا المبدأين.

تبدو الفصول التى يتناول فيها خلف الأسباب التى تؤدى بالعنف لأن يصل لمرحلة الاقتتال الأهلى هى الأكثر أهمية. فهو يضع ما يمكن وصفه بخارطة طريق يمكن من خلالها تتبع الشرارات الأولى للاقتتال الأهلى. وهو عبر كل فصل لا ينى يؤكد على ثلاثة عناصر يعتبرها هو متداخلة بشكل قوى فى التأسيس للفتن الأهلية وهى التدخل الخارجى وإذكاء الهويات الطائفية وتصاعد العنف. ما يسميه البعض إعادة القبلية للبنان يرد عليه خلف قائلا بأن آخرين يرون بأن القبلية لم تغادر لبنان أبدا لتعود إليها وأنها كانت دائما موجودة. والمعضلة الأساسية هى أن القوى التى بإمكانها أن توفر الدعم للتجانس الاجتماعى هى ذاتها التى بإمكانها أن تمزق المجتمع إربا وتذكى الصراع والتوتر والفوضى المدنية فالروابط التى تجمع هى ذاتها الروابط التى تفرق. لقد تحولت الهويات الطائفية إلى الوسيلة التى يمكن من خلالها المرء تأكيد حضوره فى المجال العام فأفكاره وآراؤه يصبح لها معنى فقط من خلال هويته الطائفية وهى أيضا بمثابة الدرع الواقى الذى يحميه من تهديدات الجماعات الأخرى ولا يهم إن كان هذا التهديد حقيقيًا أم متخيلاً. ويبدو حديث الهويات واستحضارها جزءا أساسيا فى خطاب القادة السياسيين والمعبرين عن هذه الجماعات وكذا المواطنون العاديون وهو موجود فى سلوكهم اليومى ويتم تفعيله واستحضاره بشكل دائم فى عمليات التفاوض للحصول على الامتيازات والمنافع. حتى تلك الجماعات التى كانت ذات طبيعة جامعة ولم تكن تتعاطى مع الشأن العام باعتبارها الطائفى مثل طائفة الأرثوذكس والكاثوليك والسنة. هذه الجماعات بدأت تعمل على إعادة تصنيع تراثها الخاص والاشتغال على العناصر التى تشكل هويتها الخاصة بها.

ويبدو التراجع جليا وعملية «إعادة بلقنة» لبنان واضحا حين نعرف أنه فى فترة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى كان اللبنانيون يخجلون من أن يعرفوا أنفسهم عبر هوياتهم الطائفية وفى وقت كانت الأيديولوجية القومية والعلمانية هى السائدة فى العالم العربى كان اللبنانى يعرف نفسه عبر هويته الأيديولوجية. أما اليوم فإن استحضار هوية المرء الطائفية أو المذهبية صارت أمرا طبيعيا فى النقاش العام بل إن البعض يعيد اختراع هذه الهويات عبر مزاعم بوجودها. وهكذا لا نجد جامعة أو محطة تليفزيون أو راديو أو جمعية خيرية أو مركز بحث أو جريدة إلا وتعرف حالها عبر هويتها الطائفية (ربما فيما عدا تليفزيون النيو تى فى الذى يملكه تحسين خياط اليسارى وإن كان فريق ١٤ آذار يحسبه على فريق ٨ آذار وجريدة الأخبار التى يعمل بها فريق عمل يضم المتعاطفين مع حزب الله والتيار الوطنى الحر والقوات والجماعة الإسلامية والسفير التى تحاول أن تقف فى مسافة فى المنتصف وإن كانت محسوبة على قوى ٨ آذار). وينطبق الأمر كذلك حتى على الأنشطة الثقافية والفكرية والجوائز وحتى الأنشطة الإنسانية مثل الرياضة تحولت إلى أنشطة ذات طبيعة طائفية (فريقا كرة القدم اللبنانية الأشهر النجمة وهو محسوب على الشيعة والأنصار محسوب على السنة وفى أحداث العنف الأخيرة تم إحراق مقر نادى الأنصار ربما من قبل أناس محسوبين على حزب الله وأمل على اعتبار أنه أحد المؤسسات الرياضية الموالية لتيار المستقبل).

وبالمعنى ذاته لا ينظر للدين على أنه أمر روحى فى حد ذاته، وإنما هو صيغة من صيغ التعبئة الأيديولوجية والطائفية وهو أحيانا الوسيلة الوحيدة التى يمكن للأفراد من خلالها تأكيد هويتهم المهددة. بهذا المعنى يمكن أن يفسر الطريقة التى استخدمت بها قيادة تيار المستقبل مفتى الجمهورية محمد رشيد قبانى فى دعم شرعية حكومة فؤاد السنيورة. غير أن الخطورة تكمن فى أن دخول المفتى السنى على خط الصراع السياسى بين المعارضة بقيادة حزب الله والحكومة بقيادة فريق ١٤ آذار قد أضفى بعدا مذهبيا بغيضا على صراع هو بالأساس سياسى. سيما وأن المفتى اعتبر فى تصريحات رسمية أن «رئاسة الوزراء خط أحمر» وتحدث عن بيروت وكأنها «مدينة السنة» وهو بفعلته تلك شحن الهمم المذهبية داخل الطائفة السنية ولكنه فى ذات الوقت خلق نوعا من الانقسام داخل الطائفة التى اعتبر فريقا منها أن مفتى الجمهورية اللبنانية صار مفتيا لتيار المستقبل ولفريق من السنة

استحضار هوية المرء الطائفية أو المذهبية صارت أمراً طبيعيا اليوم فى النقاش العام فى لبنان بل إن البعض يعيد اختراع هذه الهويات



وليس لكل السنة وتعالت أصوات طالبته بعدم التدخل.

ذات الشيء يتكرر في مواقف البطرك الماروني مارنصرالله بطرس صفير والذي دوما ما يؤم السياسيون دارته في بكركي للحصول على «البركة السياسية» وهو أيضا لا يتوانى عن أن يدلي بدلوه في السياسة في عظته الأسبوعية. وبكركي كان لها عدة مواقف سياسية حادة أهمها البيان الذي صدر بالعام ٢٠٠٠ يطالب السوريين بإنهاء وجودهم وأخيرا دخلا على خط المبادرات السياسية فأطلقت مبادرتها الأخيرة والتي استحسنها حزب الله.

العداءات بين الجماعات الطائفية المختلفة لم تنعكس دوما في صورة أعمال عنف وإنما اتخذت صورا لاعنفية تمثلت في مشاعر الاحتقار والاتصالات الحذرة واتخاذ مسافة من الجماعات الأخرى. حينما تتحول الخلافات والصراعات السياسية إلى خلافات طائفية (مثلما هو الحال الآن حيث لا يرى من مطالب المعارضة إلا أن حزب الله الشيعي يريد إسقاط حكومة السنيورة السني) هنا يصير مستوى العنف أكثر وحشية ويصبح عندئذ من الصعوبة بمكان حل النزاع بشكل سلمي. طالما ظل لدى المجتمع القابلية للعودة للاقتتال الطائفي فهذا يعني أن اللبنانيين لم يتعلموا شيئا وإن شيئا لم يتغير في المجتمع اللبناني.

حين قررت المعارضة اللبنانية اللجوء للشارع والاعتصام فيه للتعبير عن غضبتها ورفع الشعار عاليا بحكومة الوحدة الوطنية كانت ثمة نوع من الاستنفار والترقب الشديدين لأن الشارع وقتها كان على درجة من الاحتقان بشكل أنه أي نزاع شخصي بسيط كان يمكن أن يتحول بسرعة شديدة إلى فتنة أهلية تقضي على الأخضر واليابس. لذا حين قتل «شهيد المعارضة» الشاب العشريني احمد محمود في محلة قصقص بالطريق الجديدة -منطقة ذات غالبية سنية ومحسوبة على تيار المستقبل- حبس اللبنانيون أنفاسهم. فمقتل محمود المحسوب على حركة أمل كان يمكن أن يفتح بابا لفتنة مذهبية وتشبع شهية شارع متعطش لهكذا حادث لولا أنه تم تطويق الأزمة في حينها ولأن الطرف الشيعي (حزب الله بالأساس وحركة أمل) أرادا قطع الطريق على أن يتطور الأمر. ويفسر خلف نقلا عن بيتر جاي بأن الجماعات التي تحكمها نزعة الانتقام الدموي لا تلجأ عادة للعنف لكي تثأر لحادثة بسيطة وإنما هي بالأساس تسعى لأن تفتعل الحادثة (ربما كان ذلك هدف من افتعلوا المشاكل مع المتظاهرين وهو في طريقهم لساحة رياض الصلح كما أن بعض السنة يتهم المتظاهرين بسب سعد الحريري والخليفة عمر بن الخطاب ويتهم بعض الشيعة السنة بسب السيد حسن نصرالله وفي حادثة الجامعة العربية اتهم نصرالله السلطة ممثلة في تيار المستقبل ومحازبي وليد جنبلاط و سمير جعجع بالسعي لافتعال حادث ما للرد على ما صار يوم الثلاثاء يوم الإضراب العام) كما أن الحساسية المفرطة تجاه الإهانات اللفظية أو الجسدية تستفز دائما الرغبة للانتقام بشكل يكاد يفوق حجم الإهانة.

كما يمتلئ خطاب الساسة والإعلام بمايسميه خلف «الثنائيات الشيطانية» «هم» و«نحن» حيث يتم شيطنة العدو ويتم تصوير الصراع كأنه بين قوى الظلام والتنوير (لاحظ كيف أستبطن بعض من الساسة اللبنانيين خطاب الرئيس جورج بوش الميسيانيك حول قوى الخير والشر فوليد جنبلاط مثلا يتحدث عمن ينشرون ثقافة الموت والسواد في حين هم أي قوى ١٤ آذار «يحبون الحياة») لا يتطلب الأمر سوى أن يقرأ المرء ويراجع الخطاب السياسي لبعض الساسة والتصريحات اليومية لهم التي تعمل على «شيطنة» جزء من المجتمع اللبناني والتشكيك بلبنانيتهم وحتى عروبتهم أحيانا وتصويرهم كأنهم غرباء وكيف أن هذا النوع من الخطاب يتسرب إلى بقية أفراد المجتمع ومن هنا نفهم ظهور المنشورات التي تنضح بعداء غير خاف للشيعة وتحلل قتلهم وتلك التي تذكر بالحرب الأهلية وكذلك خطب الجمع التي لا تخلو من تحريض مذهبي ومن رجال دين سنة أخذوا على عاتقهم إيقاظ فتنة نائمة وعظات الأحد التي تنعى التهميش الذي يتعرض له المسيحيون على يد السنية السياسية والرسوم والكتابات على جدران الشوارع في بيروت واللافتات المؤيدة والمعارضة وكذا حملات الكراهية التي تمتلئ بها وسائل الإعلام حيث كل جماعة تصور الأخرى على أنها محل كل الأخطاء والأمراض في المجتمع. والعدو هنا يخيف ولكنه في ذات الوقت محتقر ويتم التعامل معه على أنه في مرتبة أدنى (كان ثمة خطاب شديد الطبقية تبنته وسائل إعلام ١٤ آذار حيال المعتصمين بالساحتين وتصويرهم على أنهم في فقر مدقع وغير حضاريين ومتريفين) هذه الخطابات عملت على خلق صورة للمعتصمين باعتبارهم غزاة همجيين لوسط بيروت التجاري قرة عين البيارتة وجوهرة التاج التي يجب حمايتها وهكذا ربما كان الهدف من خلق تلك الصورة هو نزع الإنسانية عن أولئك المعتصمين لتسهيل ممارسة العنف بحقهم. وهكذا حصل.

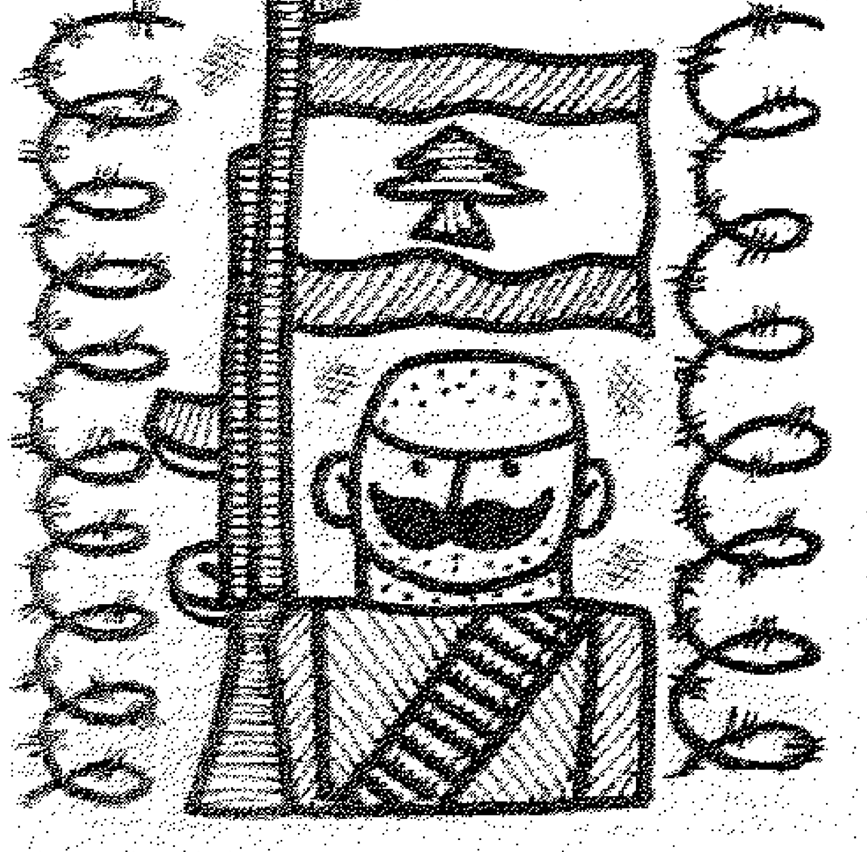
في فصل أخير يتحدث المؤلف عن احتمالات المستقبل وهو يشير إلى أنه في حين أن كل الحروب الأهلية شريرة إلا أن الحرب الأهلية اللبنانية الأخيرة كانت ربما الأسوأ في تاريخ الحروب الأهلية بسبب عبثية الحرب التي لم تكن من أجل قضية ما ولأنها لم تحل أيا من الموضوعات والقضايا التي كانت سببا في إثارة الصراع بالأساس. هي كانت بمثابة موعد مع حفلة «خوات» أي حفلة جنون وعنف جماعي لم يفض إلى شيء. وتبقى النتيجة الحتمية التي تلخص دراسة خلف هي أن بقاء العداءات الطائفية على حالها يعني شيئاً واحداً أن لا شيء يتغير في لبنان.

ينبه فواز طرابلسي قراءه بأن اليوميات كتبت على «دفتر أخضر» ونشرت دون أي إضافة أو تعديل لتظل تعبيرا فوريا وعفويا عن الانفعال والتفكير خلال أيام حصار بيروت. وكأن طرابلسي شعر بحاجة لتذكير قرائه أن ما يقرءونه مكتوب منذ خمسة وعشرين عاما أي منذ زمن الاجتياح الإسرائيلي لبيروت ١٩٨٢. ذلك أن القارئ يكاد لا يحس بالاختلاف بين يونيه ١٩٨٢ ويولية ٢٠٠٦ . بعض فقرات من اليوميات تكاد تكون خطت أيام حرب تموز وكم المتشابهات يذهب بالعقل. فحديقة الصنائع في قلب بيروت تحولت لخيمة تؤوي المهجرين والقنابل الفوسفورية والعنقودية التي قتلت أطفال لبنان بـ ١٩٨٢ هي ذاتها التي استخدمت - وإن بوفرة - بـ ٢٠٠٦.

والتواطؤ الأمريكي والخذلان العربي والرئيس العاجز والقصف الإسرائيلي الذي يؤدي لوقوع «ما يشبه المجزرة» و«راعي بقر مهووس بمطاردة الهنود الحمر وقد لبسوا لبوس الإرهاب الدولي» في إشارة لرونالد ريجان غير أنها تنطبق بالتأكيد على الجالس بالبيت الأبيض اليوم. أما «الإرهابي البولوني» أي شارون آنذاك فقد استبدل بإرهابي آخر هذه المرة من روسيا «ايهود أولمرت» وثمة عبارات من قبيل «بيروت تتعرض لأعنف قصف بري وبحري وجوي» كم مرة كتبت وقرأت خلال حرب تموز الفائتة والمناشير التي تحض اللبنانيين على ترك قراهم. كأن شيئا لم يتغير. يدرك طرابلسي تلك الحقيقة حين قرر نشر الطبعة الثانية من كتابه «عن أمل لا شفاء منه» ليس فقط لنفاد الطبعة الأولى وإنما أيضا احتفالا بمرور ٢٥ عاما على الغزو الإسرائيلي للبنان صيف ١٩٨٢ .

تبدو يوميات طرابلسي ربما أكثر حميمية وشخصية وهي القصص الصغيرة والتفاصيل الدقيقة التي نسج منها صورة لما كانت عليه الأوضاع ببيروت من دون تكلف أو دراما. ورغم أن بعض اليوميات ليس سوى عناوين للأخبار في ذاك النهار أو تسجيل ملاحظة ما إلا أن بعض اليوميات تحمل لغة نثرية. فهو يحكي عن البنايات التي أفرغت من سكانها وقصص بعض الجيران وعن «الخبز الأسود والنادر» وعن الذي يقضي نهاراته باحثا لأمه المقعدة عن «خضرة طازجة» شيء ما يشبه ما كانت عليه بيروت يوم الإضراب العام الذي دعت إليه المعارضة بـ ٢٣ يناير.

ويسأل طرابلسي السؤال ذاته الذي يتردد على ألسنة كل اللبنانيين اليوم كما كان الحال منذ خمسة وعشرين عاما «ماذا يعدون لهذا البلد؟» كرر طرابلسي السؤال عبر الكتاب أكثر من خمس مرات وجاءت الإجابة في ثنايا قصص المعاناة والحزن والكآبة والتي لا تزال إلى اليوم حاضرة بكل تفاصيلها في المشهد اللبناني . كأن شيئا لم يتغير في لبنان. ■



يمتلئ خطاب الساسة والإعلام بـ «الثنائيات الشيطانية» «هم» و«نحن» حيث يتم شيطنة العدو وتصوير الصراع كأنه بين قوى الظلام والتنوير



لا إكراه فى الدين

عبد الله بن الشيخ المحفوظ بن بيّه

طالعت باهتمام تأليف العلامة الفاضل الشيخ الدكتور طه جابر العلوانى بعنوان: (لا إكراه فى الدين - إشكاليّة الردّة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم).

وقد راجعتُ هذا التأليف لثلاثة أسباب:

أولاً: أنَّ فضيلة الدكتور طلب منّى مراجعته لإبداء الرأى وأنه يعزّ علىّ أن أعرض عن طلبه لما أشعر به نحوه من الود ولما ألمسه من الإخلاص.

ثانياً: أن الدكتور طه ليس علمانياً يبحث عن هدم الدين بمعاول التشكيك والتفكيك، بل هو رجلٌ مدافعٌ عن هذا الدين قولاً وعملاً منذ نعومة أظفاره، وقد ابتُلىَ فى هذه السبيل - ضاعف الله أجره - وما صدّه ذلك عن الدعوة وإقامة الحجة.

ثالثاً: أنَّ الشيخ طه ليس من نوعية المفكرين أو المثقفين الذين يعالجون قضايا الإسلام والشريعة من خلال منظومات فكرية خارجة عن المناهج المعتمدة عند علماء المسلمين، بل هو عالمٌ أصولى ضليع يتعامل مع موضوعاته بواسطة الأدوات المتعارفة تعضيداً وتفنيداً وجرحاً وتعديلاً وتفريعاً وتأصيلاً.

والشيخ عالمٌ من علماء الشريعة، وكونه عالماً من علماء الشريعة يقتضى حق الحرمة ولا يقضى باستحقاق العصمة.

لهذه الأسباب أردت أن أكتب هذا التعليق، مع الاعتذار بأنى لم أعطِ هذا الموضوع ما يستحق؛ لكثرة الشواغل والصوارف التى لم تسمح لى بإنعام النظر والإمعان فى البحث حتى يكون على مستوى ما يتوقع فى قضية لها أهمية. قضيةُ الردّة والخروج عن الدين.

وسبق لى أن أعرضتُ عن عروض بعض وسائل الإعلام للنزول فى حلبة الجدل الدائر فى جملة من القضايا، ومنها هذه القضية؛ لا نكوصاً عن إظهار ما أعتقده صحيحاً فيها، ولكنْ لأنَّ هذا الجدل تَعُوزه السكينة، ويعوزه الإنصاف، ويدخل أحياناً فى دائرة الاتهام والصخب والإسفاف.

إنّ هذا التأليف الذى قدّم هذا الموضوع من جميع جوانبه وزواياه التاريخية والحالية ومآلاته المستقبلية، وتوقف طويلاً مع الدليل وما يعتريه من أوجه العلل والقوادح وأقوال الفقهاء، ولهذا فقد أثار جملة غير يسيرة من القضايا، وإنْ كانت الغاية التى يرمى إليها والهدف الذى يتوخَّاه وهو حكم المرتد فى شريعة الإسلام إلاَّ أنَّه مهّد له بما يشبهُ تحقيق المناط.

وإنى أتفقُ مع الكثير مما أورده فى تلك المقدمات الممهدات، وبخاصة فى سوء استغلال الشرع العزيز فى مسألة التكفير ودعوى الارتداد. وقد كنت شخصياً معنياً بهذا الموضوع منذ سنوات؛ حيث نُشر لى بحثٌ فى مجلة (البحوث الفقهية المعاصرة) فى الموضوع نفسه، ونشرت أخيراً عدة مقالات فى جريدة (الشرق الأوسط)؛ تركزت حول خطورة ظاهرة تكفير الناس ومنافاتها للدليل؛ وأنها فى مآلاتها تؤدى إلى الفتنة والضياع، مما حمل بعض المعلقين على القول بأنى لا أوجبُ قتل المرتد غير أنى لا أجسر على قول ذلك! وقد لا يكون الأمر كذلك ولهذا فالهم مشترك.

كما أنى أوافقه على سوء استغلال الطرف المقابل لفتاوى التكفير؛ حيث يصبحُ ضحاياها أبطالاً فى بيئة عالمية، انعدمتْ فيها الخصوصية وغاب فيها التسامح الثقافى، وبخاصة من قبل أولئك الذين يدّعون أنهم دعاة التسامح والتعايش.

كلُّ تلك المعانى التى أشار إليها فضيلته لا أختلف معه فى دلالاتها ولا فى المآلات التى تفضى إليها الفتاوى والتصرفات، والتى ينبغى أن تؤثر على الفتوى الفقهية فى الزمان والمكان.

قد يكون من المناسب ونحن فى المقدمات أن نشير إلى ثلاث نقاط:

النقطة الأولى: ما يتعلق بمصطلح (الحد)، فقد لا أتفق مع ما ذكر من أنه عدولٌ عن المصطلح القرآنى، بل هو قصرٌ للمصطلح القرآنى على بعض أفراده؛ وذلك مبرر لسببين: السببُ اللغوى: وقد أشار إليه فضيلته، فإنَّ الحدَّ هو الفاصلُ بين شيئين الحاجز بينهما، وضرورة التعريف والتفريق بين العقوبات المحدودة بالنص وبين العقوبات المتروكة للاجتهاد تبرِّر هذا المصطلح.

السبب الثانى: استعمال كلمة (الحد) فى الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة، كقوله - عليه الصلاة والسلام - لأسامة: (أتشفع فى حد من حدود الله). وعليه فإنى أرى أنَّ الفقهاء ما عدلوا عن المصطلح القرآنى بل تصرّفوا فيه بما تقتضيه ضرورات (التقنين الفقهى).

النقطة الثانية: ما يتعلق بالتراث اليهودى، وإنى أتفق مع فضيلته فى أنَّ هذا التراث حاول التسرب إلى الشريعة، ولكن علماء المسلمين انتبهوا لذلك منذ وقت ليس بالقصير؛ فقد قرَّر أهلُ الحديث: أنَّ

لا إكراه فى الدين
إشكالية الردة والمرتدين
من صدر الإسلام إلى اليوم
د. طه جابر العلوانى
مكتبة الشروق الدولية والمعهد العالمى للفكر الإسلامى ٢٠٠٦

نصوص القرآن والسنَّة تتضامن وتتكامل، وأنَّ كليات القرآن هي نفسها الكلياتُ التي أكَّدتْ عليها السنَّة وزادتها بيانًا.

(ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرا)

الصحابي أو التابعي الذي ينظر في كتب أهل الكتاب لا يُعتبر كلامُه من نفسه في أمور الغيب مرفوعًا إلى النبي (وقالوا: إذا عُرف الصحابي بالنظر في الإسرائيليات، كعبد الله بن سلام وغيره من مسلمي أهل الكتاب، وكعبد الله بن عمرو بن العاص؛ فإنه حصل في اليرموك كثيرًا من كتب أهل الكتاب؛ فكان أصحابه يقولون له حدثنا عن النبي (ولا تحدثنا من الصحيفة. قال السخاوي في فتح المغيث بعدما ذكر ذلك: فمثل هذا لا يكون حكمُ ما يخبر به من الأمور الغيبية الرفعَ لقوة الاحتمال.

أما أهل الأصول فاشترطوا في مسألة كون شرع من قبلنا شرعًا لنا - على القول به - أن يكون ثبت بشرعنا، وإلا فلا يعتد به، وهو أمر مؤيد بقوله - تعالى -: (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب). ومع ذلك فقد بقيت أخبار هؤلاء في كتب التفسير مأخوذة من كتبهم أو مرويةً عن أخبارهم.

وأحسبُ أنَّ تأثيرها في فروع الشريعة كان ضئيلاً وإن كانت قد أثَّرت إلى حدٍّ ما في الثقافة وفي المقولات الكلامية.

النقطة الثالثة: وهي مسألة هيمنة القرآن على السنة. وهي مسألة تحتاج إلى توضيح: فالقرآن والسنة من مشكاة واحدة هي مشكاة النبوة (من يطع الرسول فقد أطاع الله)، وهذا الإشكال لم يُطرح في الصدر الأول إلا من زاوية الثبوت، فالقرآن متواترٌ محفوظ، والسنة قد ترد آحادًا، وبالتالي تضعفُ الثقة في نسبتها إليه - عليه الصلاة والسلام - ومن هنا جاء قول عمر - رضي الله عنه - في قضية فاطمة بنت قيس: (لا نترك كتاب الله لقول امرأة لا تدري أحفظت أم نسيت)، وقول عائشة - رضي الله عنها وأرضاها - في رد حديث ابن عمر (إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه) إنه عليه الصلاة والسلام لم يقل هكذا محتجةً بقوله - تعالى -: (ولا تزر وازرة وزر أخرى).

ومن هنا اختلفتْ أنظارُ العلماء في التعامل مع خبر الآحاد إذا خالف القواعد أو القياس أو عمل أهل المدينة إلى آخر ما في المباحث الأصولية. وعندما دوَّن الشافعي أصول الفقه ووضع اللبنات الأولى لقواعد الاستنباط وترتيب الأدلة؛ جعل القرآن والسنَّة في مرتبة واحدة؛ مستدلاً بالآيات التي جعلت طاعة رسول الله (طاعة لله، إلا أنه أشار إلى أن السنة مبيِّنة للقرآن، وما أخالُ البيان يختلف كثيرًا عن الإنشاء في فهم الأوائل كما سنذكره.

وقد تعامل العلماء مع نصوص السنَّة تعاملهم مع القرآن إذا ثبتت ثبوتًا لا يرتقي إليه شك بالتواتر أو الاستفاضة مع وضوح الدلالة، وبخاصة السنة العملية في الصلاة والصوم والحج، إلا في حالات ليست بالكثيرة كموقف أحمد من عدم إمكان نسخ السنَّة للقرآن، ونحوها من القضايا المبثوثة في كتب الفقه والأصول.

وإن كانت قد حصلت مواقف من بعض الطوائف الإسلامية في موضوع السنَّة إلاَّ أنَّ هذا هو المنهج العام والطريق اللاحب.

هذا من باب الإشارة إلى موضوع لا أشكُّ أنكم أدرى به.

وفي رأيي أنَّ نصوص القرآن والسنَّة تتضامن وتتكامل، وأنَّ كليات القرآن هي نفسها الكلياتُ التي أكَّدتْ عليها السنَّة وزادتها بيانًا. (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرا). فكلُّ ذلك من عند الله إلاَّ أنَّ بعض الكليات يعتريه التخصص، وأحيانًا تظهر فروع تتجاذبها كلياتٌ فتترجح بينهما، وبعض الكليات الأخرى لا يعتريه تخصيصٌ. وقد أشار الشاطبي إلى ذلك في العام حيث يقول: (المسألة السابعة): العمومات إذا اتَّحد معناها، وانتشرت في أبواب الشريعة، أو تكرَّرت في مواطن بحسب الحاجة من غير تخصيص؛ فهي مجراة على عمومها على كل حال، وإن قلنا بجواز التخصيص بالمنفصل.

والدليل على ذلك الاستقراء؛ فإن الشريعة قررت أن لا حرج علينا في الدين في مواضع كثيرة، ولم تستثن منه موضعًا ولا حالاً، فعده علماء الملة أصلاً مطردًا وعمومًا مرجوعًا إليه؛ من غير استثناء، ولا طلب مخصص، ولا احتشام من إلزام الحكم به، ولا توقف في مقتضاه، وليس ذلك إلا لما فهموا بالتكرار والتأكيد من القصد إلى التعميم التام.

وأيضًا قررتْ (ولا تزر وازرة وزر أخرى). فأعملت العلماء المعنى في مجاري عمومه، وردوا ما خالفه من أفراد الأدلة بالتأويل وغيره؛ وبينت بالتكرار أن (لا ضرر ولا ضرار)؛ فأبى أهل العلم عن تخصيصه، وحملوه على عمومه، وأنَّ (من سن سنة حسنة أو سيئة كان له ممن اقتدى به حظ؛ إن حسنًا وإن سيئًا). وأن (من مات مسلمًا دخل الجنة ومن مات كافرًا دخل النار).

وعلى الجملة: فكل أصل تكرر تقريره وتأكد أمره وفُهم ذلك من مجاري الكلام فهو مأخوذ على حسب عمومه. وأكثر الأصول تكرارًا الأصول المكية: كالأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي وأشباه ذلك.

فأما إن لم يكن العموم مكررًا ومؤكدًا ولا منتشرًا في أبواب الفقه؛ فالتمسك بمجرده فيه نظر؛ فلا بد من البحث عما يعارضه أو يخصصه، وإنما حصلت التفرقة بين الصنفين؛ لأنَّ ما حصل فيه التكرار والتأكيد والانتشار صار ظاهرة باحتفاف القرائن به إلى منزلة النص القاطع الذي لا احتمال فيه، بخلاف ما لم يكن كذلك فإنه معرض لاحتمالات؛ فيجب التوقف في القطع حتى يعرض على غيره ويبحث عن وجود معارض فيه.

وعلى هذا يُبنى القولُ في العمل بالعموم، وهل يصح من غير المخصص أم لا؟

فإنه إذا عُرض على هذا التقسيم؛ أفاد أن القسم الأول غير محتاج فيه إلى بحث؛ إذ لا يصح تخصيصه إلا حيث تخصص القواعد بعضها بعضًا.

ولهذا فإن (الظرفية) التي تتطرق إلى جملة من الأحاديث والتصرفات النبوية، والتي عبر عنها العلماء كالقرافي بتعبيرات مختلفة: تارة لكونه تصرفًا بالولاية العامة للمسلمين أو بالقضاء، وتارة باعتبار المسألة من قضايا الأعيان إبقاء للكلي على كلِّيته، كما يشير إليه كثير من أصوليي المالكية، ومنهم الشاطبي حيث يقول: (فإذا ثبت بالاستقراء قاعدة كلية ثم أتى النص على جزئي يخالف القاعدة بوجه من وجوه المخالفة؛ فلا بد من الجمع في النظر بينهما؛ لأن الشارع لم ينص على ذلك الجزئي إلا مع الحفاظ على تلك القواعد؛ إذ كلية هذا معلومة ضرورة بعد الإحاطة بمقاصد الشريعة؛ فلا يمكن والحالة هذه أن تخرم القواعد بإلغاء ما اعتبره الشارع، وإذا ثبت هذا؛ لم يكن أن يعتبر الكلي ويلغى الجزئي).

والقاعدة المقررة في موضعها أنه إذا تعارض أمر كلي وأمر جزئي؛ فالكلي مقدم؛ لأن الجزئي يقتضي مصلحة جزئية، والكلي يقتضي مصلحة كلية، ولا ينخرم نظام في العالم بانخرام المصلحة الجزئية، بخلاف ما إذا قُدم اعتبار المصلحة الجزئية؛ فإن المصلحة الكلية ينخرم نظام كليتها؛ فمسألتنا كذلك؛ إذ قد علم أن العزيمة بالنسبة إلى كل مكلف أمر كلي ثابت عليه، والرخصة إنما مشروعيتها أن تكون جزئية وحيث يتحقق الموجب، وما فرضنا الكلام فيه لا يتحقق في كل صورة تفرض إلا والمعارض الكلي ينازعه؛ فلا ينجى من طلب الخروج عن العهدة إلا الرجوع إلى الكلي وهو العزيمة.

ولكنهم قد يعارضون العموم بقاعدة السبب، وهي التي تقول: إن خصوص السبب يمنع عموم الحكم، عكس الشائع؛ من أنَّ خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم. قال: المازري في شرحه للبرهان: وشذ بعض أصحابنا وهو أبو الفرج، فقال: بقصره على سببه، ورده عن دلالته على العموم، وقال به أيضًا من أصحاب الشافعي المزني والدقاق والقفال، وبه قال أبو ثور، وحكاه أبو حامد الإسفراييني عن مالك وأشار ابن خويز منداد إلى اختلاف قول مالك في هذا؛ استقراء من اختلاف قوله في غسيل الآنية التي ولغ فيها كلب وفيها طعام فقال مرة: أن يغسل في الماء وحده قصرًا منه لعموم اللفظ، وهو قوله عليه السلام: (إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم).

ولهذا فإن ظرفية السنة وإطلاق القرآن وهيمنته يمكن أن تعوض بهيمنة الكليات الحاكمة في الشريعة، المستفادة من التكرار والتأكيد المعروف من القرآن ومن السنة، على ضوء النصوص التي أشرنا إليها.

وأخيرًا فإن موضوع هيمنة القرآن على السنة موضوع يحتاج إلى شرح أطول وبيان أوسع وتطبيق أوضح، وهو موضوع لم نصل فيه بعد إلى تصور كامل شامل لا يحدث قطيعة مع المناهج المسددة من قبل الأمة، ولا يحدث انفراطًا لعقد المنظومة الأصولية.

أما بالنسبة للموضوع: عقوبة الردة فقد ركزت الدراسة على أربع نقاط:

أولاً: أن القرآن الكريم أكد على قيمة الحرية، ولم يذكر عقوبة دنيوية.

ثانيًا: أنه - عليه الصلاة والسلام - لم يطبق حد الردة.

ثالثًا: مناقشة حديث (من بدل دينه فاقتلوه).

رابعًا: مذاهب الفقهاء.

ولعلي هنا أمر بسرعة على هذه النقاط مكتفيًا بالإشارة إلى وجهة نظري وفاقًا أو اختلافًا.

فبالنسبة للنقطة الأولى: أتفقُ مع ما ذكر فضيلته من أن القرآن أكد على قيمة الحرية ولم يذكر عقوبة دنيوية إلا أنني أود أن أشير إلى عدد من الأمور: أولاً: أن النفي للإكراه ورد في صيغة عموم؛ هي النكرة المنفية مركبة مع (لا)، وهذه من صيغ العموم المتفق عليها بين الجمهور، بمن فيهم القرافي الذي خالف في اعتبار النكرة المنفية دالة على العموم إلا في سياقات، هذا منها، وهو معروف لا نطيل به لكن العموم لا بد أن يدل على فرد من أفراده فهو قطعي فيه. وهنا دلَّ على أنه لا يجوز إكراه شخص على اعتناق الدين والانتقال من دين إلى دين.

ولهذا اعتبر المفسرون أن الإكراه على البقاء ليس كالإكراه على الابتداء وقد عبر عن ذلك ابن عاشور في التحرير والتنوير.

ثانيًا: لو أعملنا هذا المنطق في عدم الإكراه على البقاء في الدين لكانت فروض الدين الأخرى معرضة للتحلل منها دون زاجر، كالصلاة والصوم والزكاة. وكذلك ارتكاب المحرَّمات التي ليس فيها سوى حق الله كالخمر، ولخرجت حقوق الله من دائرة الزواجر، وأصبح المسلم وغيره في الوضع نفسه.

(معلوم أن غير المسلم لا يعاقب فيما يختص بحق الله - تعالى - عند الأحناف طرداً لقاعدة عدم الإكراه فمن لم يُكره فى الأصل لا يكره فى الفرع).

ثالثاً: إن ذكر عقوبة الآخرة فقط فى النصوص القرآنية ليس دليلاً قاطعاً على عدمها، وإنما هو من باب إشارة النص. كما يقول الطوفى فى مسألة القتل عمداً. وإشارة النص لا عمل عليها مع وجود النص وهو الحديث، وبالتالى لا يفترض وجود التعارض.

رابعاً: إن الوفاء بالعهد والعقد أمر مطلوب ومقصد من مقاصد الشريعة؛ وعهده - تعالى - أحق بالوفاء، والدولة فى الإسلام مسئولة عن المحافظة على الدين الذى يقع على رأس قائمة الضرورات فى سلم المقاصد.

النقطة الثانية: أما كونه - عليه الصلاة والسلام - لم يطبق حد الردة؛ فهذا صحيح؛ ولكن تطرق الاحتمال قد يمنع من صحة الاستدلال مع ورود حديث أخرجه الدارقطنى والبيهقى فى شأن أم مروان ارتدت فأقام عليها - عليه الصلاة والسلام - الحد، ولكنه ضعيف. وكذلك حديث عائشة أن امرأة ارتدت يوم أحد... إلى آخره. وهى أحاديث ضعيفة.

وأنا أتفق مع فضيلته فى أنه كان يعرف المنافقين، وقد عينهم القرآن أحياناً كقوله تعالى: (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة)... ولا يوجد أدنى شك لدى المسلمين فى أن ابن أُبى كان المراد بذلك كما أبهمهم أحياناً أخرى.

ولكن هل كان حدُّ الردة قد فرض؟ هل تصرفه - عليه الصلاة والسلام - بالولاية فى عدم إقامته نظرٌ فى المآلات؟ وهل كان ذلك من قضايا الأعيان؟ أم أن توبتهم الظاهرة كانت سبباً فى عدم إقامته؟

إلا أن تطبيق الصحابة له دون نكير كما فى الأثر أن الصديق - عليه رضوان الله - أقام الحد على أم قرفة والصحابة متوافرون ولم ينكروا عليه. أخرجه الدارقطنى والبيهقى مما جعل الأمر من السنن العملية، واستمرار الأمة على ذلك جعله من القضايا التى لا تكاد تسمع للاختلاف فيها ركزاً.

ولهذا فإن أكثر العلماء لم يذكروا الخلاف فى موضوع الردة إلا فى حالتين هما:

أولاً: هل يستتاب المرتد أو لا يستتاب؟ وحملوا ما ورد عن عمر - رضى الله عنه - دالاً على الاستتابة، وليس مناهضاً لأصل حد الردة.

ثانياً: مسألة تطبيق حد الردة على المرأة، ومن المعروف أن الجمهور يقولون بتطبيقه على المرأة. وخالفهم أبو حنيفة وابن شبرمة والثورى وعطاء والحسن؛ فقالوا: لا تقتل المرأة المرتدة؛ واحتجوا بنهيه - عليه الصلاة والسلام - عن قتل النساء فى الجهاد.

ولم يذكروا خلافاً آخر سوى ما أشار إليه فضيلتُه من ذكر بعضهم لرأى إبراهيم النخعى الذى قال: (يستتاب المرتد أبداً) كما فى نيل الأوطار للشوكانى وغيره.

أما ما ذُكر عن أمير المؤمنين عمر - رضى الله عنه - فالروايات عنه مضطربة: فتارة تدل على الاستتابة، وتارة تدل على الحبس والسجن فلا تقوم بها حجة.

وفى رأيى أن موقفه يرجع إلى حرصه على عدم تنفيذ حدِّ القتل. فقد ذكر ابن فرحون فى تبصرته أنه كان يأمرُ ولاتَه بمراجعته قبل تنفيذ أحكام القتل.

النقطة الثالثة: حديث (مَن بدل دينه فاقتلوه) إنَّ الدراسة ذكرت طرقَ الحديث وكثيراً من شواهده ومتابعاته بقدرٍ غير يسير من المناقشة الحديثية، إلا أنَّ بعض الشواهد لم تحظ بقدرٍ كافٍ من النقد، وهى:

حديث بريدة فى قصة معاذ وأبى موسى وفيه قول معاذ: قضاء الله ورسوله.. إلى آخر الحديث. متفق عليه. وفى رواية لأحمد: (قضى الله ورسوله أنَّ من رجع عن دينه فاقتلوه).

وحديث عثمان وفيه: وارتدَّ بعد إسلامه فعليه القتل. أخرجه النسائى وصححه الألبانى وغيره.

وحديث آخر لعثمان وفيه: كفر بعد إيمان. أشارت إليه الدراسة ص ١٤٢ .

هذه الأحاديث لم تحظَ بما تستحق من النقد، وهى بالإضافة إلى ما ذكر فضيلته من الآثار عن الصحابة والتابعين دليل قوى على استفاضة الحديث إن لم نقل تواتره؛ بحيث يصبح تأثير العلل المشار إليها ضعيفاً.

أما حديث ابن مسعود وفيه: (التارك لدينه المفارق للجماعة).. فهو قد يشهد لما ذهب إليه فضيلته من أن الجرم سياسى يتعلق بنظام الدولة، وليس بسبب تبديل الدين، وتحمل أحاديث الإطلاق عليه حملاً للمطلق على المقيد، ولكنه سبيل لم يعرج عليه أحد من فقهاء الأمة.

النقطة الرابعة: مذاهب الفقهاء وقد سردها فضيلته بدقة واختصار، وأريد هنا أن أؤكد ما أشار إليه فضيلته من أن المذهب الحنفى تعرض لقضية الردة فى كتاب السير، وليس فى كتاب الحدود.

ويمكن أن نستنتج عدة نتائج من موقف الأحناف ومن يوافقهم فى التفرقة بين الرجل والمرأة:

أولاً: أن الأحناف قد يكونون متأثرين بمذهب إبراهيم النخعى - رحمه الله تعالى - فى عدم وجوب حد القتل على المرتد؛ لأنه لو وجب ما كان للتفرقة بين الرجل والمرأة وجه.

ثانياً: أن من يقولون بالتفرقة بين الرجل والمرأة ضاقت بهم سبل التعليل حتى صرح بعضهم بأن القتل ليس للردة؛ وقد صرح فخر الإسلام البزدوى بذلك

كما ذكره ابن قاضى سماوة فى جامع الفصولين حيث يقول: ارتداد الصبى العاقل يصح عندهم، إلا أنه لا يقتل إذ القتل يجب بالحرب لا بعين الردة ولم يوجد فأشبه ردة المرأة.

ولعل هذا يؤيد ما ذهب إليه فضيلة الدكتور طه إلا أنَّ هذا التعليل يرجع إلى اعتبار الرجل الكافر محارباً بالقوة ولو لم يكن محارباً بالفعل. وفيه صعوبة وإشكال لا يخفى.

ويمكن اعتبار الإجماع منعقداً منذ أواخر القرن الثانى الهجرى على حكم قتل الرجل المرتد، وهو إجماع يعتمد على السنة القولية وعلى عمل الصحابة وأقوالهم وأقوال التابعين.

وقد اختلف العلماء فى انعقاد الإجماع بعد الاختلاف كما هو معروف فى أصول الفقه.

والذى يظهر لى:

١ - أن حكم قتل المرتد ثابت بالسنة القولية، وأن ذلك لا يعارض النصوص القطعية للقرآن، بل يخصص عمومياته، وبخاصة أن السنة صحبها عمل الأمة وإجماعها النطقى والعملى، وذلك طيلة أربعة عشر قرناً إلا تلك الأقوال القليلة التى أشارت إليها الدراسة.

٢ - أن تصنيف هذه العقوبة فى خانة التعزيرات التى تراعى فيها المآلات والظروف والمتغيرات يقبل أن يكون محل اجتهاد لما أشارت إليه الدراسة من الاختلاف، وبخاصة أن تعليل الأحناف بالحرب لا بالردة أمر يشير إلى تأثرهم بمذهب إبراهيم النخعى - رضى الله عنه.

٣ - أن مسألة العقوبات الشرعية ليست من قضايا فقه الأقليات، فكل الأحكام السلطانية لا يطالبون بها، وقد رجحنا فى ذلك مذهب أبى حنيفة.

٤ - وفى ظل العولمة فإن البلدان الإسلامية وفقهاء الشريعة مدعوون إلى مراجعة فتاواهم ومواقفهم من كثير من القضايا على ضوء التداعيات العالمية المعقدة. وقد ثبت عن خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم تعليق بعض الحدود لمقتضيات المصالح والضرورات.

٥ - فيما يتعلق بمنهجية هيمنة القرآن على السنة فإن هذا يشير إلى افتراض تعارض، والمفروض أن تكون نقطة البداية: أنه لا يوجد تعارض بين القرآن والسنة، فكما

يقول الشافعى: إنه لا تخالف له سنة أبداً كتاب الله، إن سنته وإن لم يكن فيها نص كتاب لازمة.

وقد شرح الشافعى شرحاً طويلاً السنة وبيانها للقرآن تارة واستقلالها تارة. وأثبت أن القرآن هو الحكم عند اختلاف السنة قائلاً: قلت: أن يكون أحد الحديثين أشبه بكتاب الله فإذا أشبه كتاب الله كانت فيه الحجة.

وقد أشرت إلى الهيمنة التى مردها إلى الثبوت أو إلى الظروف ولها جذورها فى أصول الفقه. وإنى أخشى أن تكون الدعوة إلى هيمنة القرآن سبيلاً لانفراط سلك الشريعة، وطريقاً لمن لا يحسن التعامل مع الأدلة، ولم يرتض على الجزئيات والكليات ومقاصد الشريعة: أن يدعى فهماً من القرآن لا يناسب المقام، ولا تساعده القواعد اللغوية أو الأصول الكلية، أو يحكم مصالح ملغاة.

ولهذا فإنى حريص على الاستناد على القواعد التى ضبطها العلماء، مع توسيع أوعية الاستنباط ومولدات الأحكام وبخاصة فى القضايا المستجدة.

٦ - إن أزمة الأمة فى معظمها أزمة عجز فى استيعاب الفكر الإنسانى: من فلسفة وتاريخ بشرى وسنن كونية؛ للانخراط فى الحضارة من جديد، وإزالة عقد الفساد والاستبداد، ولا ينكر أن ضحالة التفقه تشكل وجهاً من الأوجه التى تعرفونها جيداً.

٧ - إنى أخشى أن تخضع مقولاتنا لعوامل الضغط الحضارى؛ لترمى ريشنا كلما هبت ريح زعزع من الغرب أو من الشرق، وتغير ثوابتنا.

وأخيراً: فإنى أرجو من فضيلة الأخ العزيز العلامة الفاضل الشيخ الدكتور طه جابر العلوانى أن لا يرى فيما كتبت إلا إخلاصاً لما أعتقده، ومحضاً للنصح، ووفاء للأخوة، مع اعترافى بجو الاستعجال الذى كتبت فيه الخواطر لتسجيل أفكار للتذاكر معكم. ■

يمكن اعتبار الإجماع منعقداً منذ أواخر القرن الثانى الهجرى على حكم قتل الرجل المرتد، وهو إجماع يعتمد على السنة القولية وعلى عمل الصحابة وأقوالهم وأقوال التابعين

من المقدمة

يسعدنى أن أقدم لأمتى المسلمة، ولفقهائها خاصة، وللباحثين عن الحقيقة عامة كتابى (إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم). فى طبعته الثانية . التى بذلت جهدى فى أن أفى فيها بما وعدت به قرائى الكرام من استكمال نواقص الكتاب، ومنها الموضوعات التى لم أتمكن عند إعداد الطبعة الأولى من استيفائها بشكل يمنحنى الرضى والقناعة بها. وبفضل الله وقوته قد من الله . جل شأنه . على باستكمال ما فات، وتناول ما لم أتناوله فى طبعة الكتاب الأولى بعد مرور ثلاث سنوات على صدورها.

إن من أهم ما اشتملت عليه هذه الطبعة الجديدة مبحثين هامين: الأول تناولت فيه الأحاديث والآثار والسنن القولية ذات العلاقة بالموضوع، وقد حاولت دراستها ومناقشتها لبيان أن عدم وجود حد شرعى للردة لم يرد ما يعارضه من السنة القولية

. أيضاً . إضافة إلى ما كنا قد أثبتناه من عدم وجود حد فى السنة الفعلية؛ وبذلك تتضافر الأدلة . كلها . على نفى الدليل على وجود حد شرعى منصوص عليه لجريمة تغير الاعتقاد الدينى أو تغير التدين من غير انضمام أى فعل جرمى آخر إليه.

فلا وجود لهذا الحد فى القرآن المجيد وهو المصدر المنشئ الأوحد لأحكام الشريعة: «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً» (المائدة: ٤٨)؛ «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون» (آل عمران: ٢٣).

ولم نجد واقعة واحدة من وقائع عصر النبوة تشير إلى ما يمكن أن يقوم دليلاً على قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتطبيق عقوبة دنيوية ضد من يغيرون دينهم؛ مع ثبوت ردة عناصر كثيرة عن الإسلام فى عهده صلى الله عليه وسلم ومعرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم: «إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا» (النساء: ١٣٧). وذلك ينفى وجود حد للردة فى السنة الفعلية التطبيقية. وباستقرائنا لما ورد من سنن قولية لم نجد . كذلك . ما يمكن أن يقوم دليلاً على وجود حد شرعى دنيوى لهذه الفعلة.

وأما المبحث الآخر فقد عرضت وناقشت فيه مذاهب الفقهاء، خاصة أن جمهرة أهل الفقه قد استندوا فيما ذهبوا إليه من وجوب قتل المرتد إلى السنة القولية والإجماع، فكان لا بد من الوقوف على تلك المذاهب مذهباً مذهباً، ومعرفة أقوالهم تفصيلاً، وأدلتهم التى بنوا عليها تلك الأقوال، ومناقشتها تفصيلاً. وقد تبين أن الفقهاء كانوا يعالجون جريمة غير التى نعالجها؛ إذ كانوا يناقشون جريمة مركبة اختلط فيها السياسى والقانونى والاجتماعى، بحيث كان تغيير المرتد دينه أو تدينه نتيجة طبيعية لتغيير موقفه من الأمة والجماعة والمجتمع والقيادة السياسية والنظم التى تتبناها الجماعة، وتغيير الانتماء والولاء تغييراً تاماً.

كذلك ناقشنا دعوى الإجماع وثبت لنا وأثبتنا أنه لم يكن هناك إجماع على وجود حد أو عقوبة شرعية ثابتة بالقرآن مبينة بالسنة للردة بالمفهوم الذى أوضحنا.

وبذلك ثبت أن الإنسان . فى الإسلام . يملك حرية اختيار الدين الذى يتدين لله به، وهى حرية ذاتية ائتمنه الله . تعالى . عليها؛ ولذلك كانت هذه الحرية مناط المسئولية الإنسانية، فالمكره خارج من دائرة التكليف لا يحمل مسئولية ما يكره عليه أو يلجأ إلى فعله مهما كان، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

وحين تنتقص حريته فى الاختيار تنقص مسئولياته بقدر ما ينقص من حريته. وكل ما أمر الله الإنسان به، أو نهاه عنه ربطه بوسع الإنسان وطاقته: «لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا» (الطلاق: ٧). أى: ما آتاها من الطاقة والقدرة وحرية الاختيار.

وترك الله . تعالى . الإنسان فيما يسأل عنه ومشيئته الإنسانية الحرة: «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا» (الكهف: ٢٩).

وأعمل الله إرادة الإنسان، وأعطاها الفاعلية التامة فى مجال الاختيار: (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحورا. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا» (الإسراء: ١٨: ١٩).

وفرق سبحانه فى المسئولية بين جزاء الخطأ وجزاء العمد. كما فرق بين الخطأ الحاصل عن إهمال، والخطأ الحاصل عن عمد وقصد، وبين الإصرار على الخطأ والاستمرار فيه، وبين التراجع عنه، والتوبة منه. وهذا . كله . وكثير معه يؤكد على حرية الإنسان فى إرادته وقصده وفكره وتعبيره وفعله. وسوف يتضح ذلك بجلاء فى هذا البحث الذى أردنا أن نقدمه نموذجاً للمراجعات الجادة لتراثنا . التى على أهل العلم أن يقوموا بها لتنقية تراثنا الخصب الغنى المتنوع مما لحق به فى بعض الفترات التاريخية لعوامل كثيرة.

طه جابر العلوانى



فى العقل والعقلانية الإسلامية

محمد عمارة

بالعقل عرف الخلق الله، وشهدوا عليه بالعقل الذى عرفوه به من أنفسهم بمعرفة ما ينفعهم ومعرفة ما يضرهم.. وبه أقام الله على البالغين للحلم الحجة

إن المشهد المعاصر، إزاء «العقل والعقلانية» - محلياً.. وعالمياً - يشهد بتعدد المواقف - وأحياناً تناقضها - إزاء العقل والعقلانية.. سواء فى الموقف المبدئى.. أو فى المقصود والمراد من هذه المصطلحات..

وإذا شئنا تصنيفاً إجمالياً للمواقف والمذاهب المعاصرة إزاء «العقل والعقلانية».. فإننا واجدون:

١ - تياراً نصوصياً: يقف أصحابه عند ظواهر النصوص، ويتنكرون للنظر العقلى.. بل يخلطون بين «العقل» وبين «الهوى»!.. كما لا يميزون بين مفاهيم «العقل والعقلانية» لدى مختلف المذاهب والفلسفات والديانات والحضارات..

٢ - وتياراً باطنياً: يدعى التصوف.. لكنه أقرب إلى «الغنصوية - الباطنية»، التى اعتمدت على «الحدس»، دون العقل والنقل والتجارب الحسية.. ولذلك تنكر هذا التيار الباطنى للعقل والعقلانية، كما اعتمد - فى التعامل مع النصوص الشرعية - على التأويل العبثى، الذى لا ينضبط بضوابط اللغة وثوابت الاعتقاد والمحكم من النصوص.

٣ - تياراً حداثياً غربياً: له امتدادات متغربة فى واقعنا العربى والإسلامى.. ذهب إلى تأليه العقل، فجعل شعاره: «لا سلطان على العقل إلا للعقل وحده»!.. وبذلك أضفى على سلطان العقل وقدراته طابع «الإطلاق»!.. مخالفاً بذلك دعوته إلى «النسبية» - التى أراد لها أن تشمل الوحى والدين!

ولقد قاد هذا «الغرور العقلانى» هذا التيار التغريبى إلى مخاصمة النص الدينى الإسلامى، وافتعال معركة وهمية بين «العقل» و«النقل»، وذلك تقليداً لما عرفته المسيرة الحضارية الغربية، دون إدراك للتمايز الدينى والحضارى الإسلامى، الذى جاء «النقل» فيه معجزة عقلية.. والذى تقرر لغته العربية أن المقابل «للعقل» ليس «النقل»، وإنما هو «الجنون»!

٤ - وتيار ما بعد الحداثة: الذى يحاول التمدد على أنقاض الحداثة الغربية، داعياً إلى تفكيك منظوماتها ومسلماتها الكبرى حول «العقل» و«العلم» و«التقدم».. والذى لا يقدم للإنسان سوى «العدمية» و«الفوضوية» - ذات المنطلقات التلمودية!! - التى تصيب الإنسان بالشك العبثى فى كل شىء.. ومن ثم تحرمه من أى لون من ألوان «الأمل» و«الطمأنينة» و«اليقين»!!

٥ - أما التيار الخامس: الذى تتميز مواقفه إزاء «العقل والعقلانية»، فهو تيار الوسطية الإسلامية، الذى يقيم عقلانيته على كتابى «الوحى» و«الوجود».. على نور الشرع ونور العقل، لتكون عقلانيته هذه عقلانية مؤمنة متوازنة، العقل فيها هو الأساس، والدين فيها هو البناء على هذا الأساس.

وفى هذه الدراسة التى نقدم بين يديها، إسهام يحاول إبراز معالم هذه القضية، التى تمثل المدخل الأساسى والشرط الأول لحسن التعامل مع الدين والدنيا.. ومن ثم المنهاج العلمى الذى نجدد به ديننا الإسلامى لتتجدد به دنيا المسلمين.

والله نسأل أن ينفع بهذه الدراسة.. وأن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه.

مما يلفت النظر فى تراث الإسلام شيوع الإعلاء لمقام العقل والعقلانية فى تراث الأغلبية العظمى لمذاهب الإسلام.. فباستثناء «أهل الحديث» الذين برعوا فى صناعة «الرواية» وتحفظوا كثيرا على النظر العقلى و«الدراية» ومن ثم حرموا الاشتغال بعلم الكلام - فإننا واجدون للعقلانية الإسلامية مقاماً عالياً ومكاناً ملحوظاً ووضعاً متميزاً وممتازاً فى عموم تراث مذاهب الإسلام، على امتداد تاريخ هذا التراث، وعلى تنوع مذاهب أئمته وأعلامه..

حدث ذلك فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية.. وفى عصر الإحياء والتجديد الذى بدأت به أمتنا عصرها الحديث.

وإذا شئنا إشارات - مجرد إشارات - إلى شهادات الأئمة والعلماء والأعلام التى تعلى من مقام العقل والعقلانية، فإننا واجدون أنفسنا أمام تراث تباهى به أمتنا من عداها من الأمم والحضارات.. وعلى سبيل المثال:

١ - لقد دار حوار بين الإمام على بن أبى طالب (٢٣ ق. م - ٤٠ هـ ٦٠٠ - ٦٦١م) كرم الله وجهه - وبين أحد السائلين.. بدأه الإمام على بقوله:

- ألست تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم؟

- فقال السائل: بلى.

- فقال الإمام على: تعرف تفسيرها؟

- فقال: لا يا أمير المؤمنين، علمنى مما علمك الله.

- فقال الإمام: إن العبد لا قدرة له على طاعة الله إلا بالله، ولا على معصيته إلا به عز وجل، يا سائل اعقل عن الله.

- فقال: عقلت.

- فقال له: الآن صرت مسلماً، قوموا إلى أخيكم المسلم وخذوا بيده.. فالعقل عن الله هو دليل الإسلام!

٢ - أما الحسن البصرى (٢١ - ١٠٠ هـ ٦٤٢ - ٧٢٨م) - الذى كان إمام عصره، والذى خرج تيار العقلانية الإسلامية - (أهل العدل والتوحيد) - من تحت عباءته ومن مجلس علمه، فإنه هو القائل: «ما تم دين الرجل حتى يتم عقله، وما أودع الله عز وجل امرءاً عقلاً إلا استنقذه به يوماً ما».

٣ - فإذا جئنا إلى هذه الدراسة العقلية، التى مثلت فرسان العقلانية الإسلامية.. والتى حاورت أصحاب المذاهب غير الإسلامية - الدينية منها والفلسفية - وردت شبهاتهم.. ونشرت الإسلام فى الحواضر التى كانت فيها المواريث الفلسفية القديمة والمؤسسات الدينية غير الإسلامية - وهى مدرسة المعتزلة - أهل العدل والتوحيد - فإننا نجد أنفسنا بإزاء عقلانية مؤمنة، انطلقت - ربما لأول مرة فى تاريخ الفلسفة - من الدين.. وجعلت مهمتها الأولى الدفاع عن الدين بالبراهين العقلية..

وفى هذه المدرسة نجد:

● الشك المنهجى: علماً من العلوم.. يجب تعلمه للوصول إلى اليقين.. وعنه يقول الجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥هـ ٧٨٠ - ٨٦٩م):

«فاعرف مواضع الشك، وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له. وتعلم الشك فى المشكوك فيه تعلما، فلو لم يكن فى ذلك إلا تعرف التوقف، ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه.. فلم يكن يقين قط حتى كان قبله شك، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك.

والعوام أقل شكوكا من الخواص، لأنهم لا يتوقفون فى التصديق والتكذيب، ولا يرتابون بأنفسهم، فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق المجرد، أو التكذيب المجرد، وألغوا الحالة الثالثة من حال الشك، التى تشتمل على طبقات الشك، وذلك على قدر سوء الظن بأسباب ذلك، وعلى قدر الأغلب..».

فالشك المنهجى علم من علوم العقلانية الإسلامية.. وهو غير «الشك العبثى» الذى يشكك فى كل شىء - كحال عدمية ما بعد الحداثة الغربية وتفكيكها العبثى - فالشك له مواضع، وله حالات توجيه.. والهدف منه هو الوصول إلى اليقين الراسخ، الذى لا سبيل إليه - أحياناً - إلا عبر هذا الشك المنهجى..

ولقد أسست هذه المدرسة الفلسفية الإسلامية هذا العلم على المنطق القرآنى، الذى يؤسس العقائد على الحوار المفضى إلى اليقين.. ومثلوا لذلك بحوار خليل الله إبراهيم - عليه السلام - مع ربه - سبحانه وتعالى -: (وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم). البقرة: ٢٦٠.

فمن هذا الحوار نتعلم منهج الشك: السؤال.. وتأسيس اليقين على التجريب..

كما استندت هذه العقلانية الإسلامية، فى تأسيس هذا الشك المنهجى، على منهاج النبوة الذى تعامل به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع الذين

في العقل والعقلانية الإسلامية



اعتراهم الشك، وطرأت عليهم الوساوس - من الصحابة - فاستعظموا ذلك.. وذهبوا إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - باحثين عن اليقين..

فلقد روى الإمام مسلم والإمام أحمد: «جاء ناس من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - فسألوه:

- إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به؟!

- قال - صلى الله عليه وسلم -: وقد وجدتموه؟

- قالوا: نعم.

قال: ذاك صريح الإيمان.. محض الإيمان»..

فهنا.. تأسس صريح الإيمان - محض الإيمان - اليقين الإيماني عبر الشك الذي جعلوه طريقاً إلى اليقين..

● كذلك يتحدث الجاحظ عن هذه العقلانية الإسلامية التي جمعت - لأول مرة - بين «التوحيد - الإيمان الديني» وبين «الطبائع.. والأسباب الطبيعية» المودعة في الكون والاجتماع.. وكيف أن هذا الجمع والتأليف هو العلامة على بلوغ العقل والفكر درجة التمكن من «صناعة الفلسفة».. فيقول:

«وليس يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام، متمكناً من الصناعة، يصلح للرياسة، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة. والعالم عندنا هو الذي يجمعهما، والمصيب هو الذي يجمع تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقها من الأعمال. ومن زعم أن التوحيد لا يصلح إلا بإبطال حقائق الطبائع فقد حمل عجزه على الكلام في التوحيد، وكذلك إذا زعم أن الطبائع لا تصلح إذا قرنها بالتوحيد، ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام في الطبائع. وإنما ييأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفر على التوحيد إلى بخس حقوق الطبائع، لأن في رفع أعمالها رفع أعيانها، وإذا كانت الأعيان هي الدالة على الله، فرفعت الدليل، فقد أبطلت المدلول عليه!.. ولعمري! إن في الجمع بينهما لبعض الشدة!؟.. وأنا أعوذ بالله تعالى أن أكون كلما غمز قناتي باب من الكلام صعب المدخل، نقضت ركناً من أركان مقالتي، ومن كان كذلك لم ينتفع به!..».

فهنا - ولأول مرة في تاريخ الفلسفة والتفلسف - تتأسس فلسفة على العقلانية المؤمنة.. فتجمع بين الدين وبين الفلسفة.. بين التوحيد الإيماني وبين «الطبائع»، معطية كل ذي حق حقه..

● وفي هذا الإطار نفهم قول الإمام المعتزلي أبو علي الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٤ هـ ٨٤٩ - ٩١٦م):

«إن الواجب الأول على الإنسان هو النظر».

● وقول الإمام أبو هاشم الجبائي (٢٤٧ - ٣٢١ هـ ٨٦١ - ٩٣٣م):

«إن الواجب الأول على الإنسان هو الشك»!.

● فإذا جئنا إلى قاضي القضاة عبدالجبار بن أحمد الهمداني (٤١٥هـ - ١٠٢٤م) - وهو الذي أنقذت أعماله الفكرية، مذهب الاعتزال وعقلانيته من الضياع - وجدناه يقول:

«إن الأدلة، أولها: دلالة العقل، لأن به يميز بين الحسن والقبيح، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة، والإجماع.

وربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم، فيظن أن الأدلة هي: الكتاب، والسنة، والإجماع، فقط. أو يظن أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر، وليس كذلك، لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة، والإجماع، فهو أصل في هذا الباب، وإن كنا نقول: إن الكتاب هو الأصل، من حيث إن فيه التنبيه على ما في العقول، كما أن فيه الأدلة على الأحكام.

وبالعقل يميز بين أحكام الأفعال وبين أحكام الفاعلين، ولولاه لما عرفنا من يؤاخذ بما يتركه أو بما يأتيه، ومن يُحمد ومن يُذم، ولذلك تزول المؤاخذة عمن لا عقل له.

ومتى عرفنا، بالعقل، إلهاً منفرداً بالإلهية، وعرفناه حكيماً، نعلم في كتابه أنه دلالة، ومتى عرفناه مرسلاً للرسول، ومميزاً له، بالأعلام المعجزة، من الكاذبين، علمنا أن قول الرسول حجة. وإذا قال - صلى الله عليه وسلم -: «لا تجتمع أمتي على خطأ.. وعليكم بالجماعة».. علمنا أن الإجماع حجة..».

● ولذلك.. وانطلاقاً من هذا الإنجاز غير المسبوق: تأسيس «فلسفة - دينية» و«عقلانية - مؤمنة» نظر المستشرقون الذين فقهوا هذه الحقيقة إلى هذا الإنجاز غير المسبوق بإعجاب واستغراب.. فقال المستشرق الإنجليزي «ألفريد جيوم»:

«إن قوة الحركة الاعتزالية مردها جهود أولئك الذين حاولوا أقصى ما في طوقهم إقامة علم الكلام الإسلامي على أسس ثابتة من الفلسفة، مصرين في الوقت نفسه على أن تكون تلك الأسس منطقية، ثم الانسجام بينها وبين الفلسفة التي يجب أن تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية».

وبعبارة المستشرق «جب»:

«.. فلقد استطاع المعتزلة أن ينشئوا الفلسفة الأخلاقية المستمدة من القرآن»..

جعل الله العقول معادن الحكمة، ومقتبس الآراء، ومستنبط الفهم، ومعقل العلم، ونور الأبصار، إليها يأوي كل محصول، وبه يستدل على ما أخبر به من علم الغيوب

٤ - فإذا انتقلنا إلى «شهادة» أخرى.. لشاهد آخر، هو الإمام الحارث بن أسد المحاسبي (١٦٥، ٢٤٣ هـ - ٧٨١ - ٨٥٧م) - الذي عاش وأبدع في القرن الثاني الهجري، والذي جمع في عقله ووجدانه وإبداعه بين التصوف.. وعلم الكلام (الفلسفة).. والسلفية - وجدنا مقام العقل عنده يتألق عالياً.. حتى ليقول فيه:

«العقل: غريزة وضعها الله سبحانه في أكثر خلقه.. ونور في القلب كالنور في العين.. يولد العبد بها، ثم يزيد فيه معنى بعد معنى بالمعرفة بالأسباب الدالة على العقول..

والمعرفة عن العقل تكون.. وهو صفوة الروح.. ولقد سمي العقل لباً، ولب كل شيء خالصه، وقال الله عز وجل: (إنما يتذكر أولو الألباب) - الزمر: ٩ - ...

وبالعقل عرف الخلق الله، وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه به من أنفسهم بمعرفة ما ينفعهم ومعرفة ما يضرهم.. وبه أقام الله على البالغين للحلم الحجة.. وإياهم خاطب من قبل عقولهم، ووعد وتوعد، وأمر ونهى وحض وندب..

ولقد روي في التفسير لما قال الله تعالى لموسى عليه السلام: (فاستمع لما يوحى) - طه: ١٣ - .. «اعقل ما أقول لك»..

فالفهم والبيان يسمى عقلاً، لأنه عن العقل كان.. والله عز وجل يقول: (وتعيها أذن واعية) - الحاقة: ٢١ - ... أي أذن عقلت عن الله تعالى، يعني عقل عن الله ما سمعت أذناه، مما قال أو أخبر..

وإذا تم عقل المؤمن عن ربه أفرده عز وجل بالتوحيد له في كل المعاني.. ولا غناء بالعبد عن التفكر والنظر والذكر ليكثر اعتباره، ويزيد في علمه، ويعلو في الفضل.. فمن قل تفكره قل اعتباره، ومن قل اعتباره قل علمه، ومن قل علمه كثر جهله، وبان نقصه، ولم تجد طعم البر، ولا برد اليقين، ولا روح الحكمة.. فما أقربه في حياته من حياة البهائم التي لا تعرف إلا ما باشرته بجوارحها..

ولقد جعل الله العقول معادن الحكمة، ومقتبس الآراء، ومستنبط الفهم، ومعقل العلم، ونور الأبصار، إليها يأوي كل محصول، وبه يستدل على ما أخبر به من علم الغيوب، فبها يقدرون الأعمال قبل كونها، ويعرفون عواقبها قبل وجودها، وعنها تصدر الجوارح بالفعال بأمرها، فتسارع إلى طاعتها، أو تزجرها فتمسك عن مكروهها.

ولقد استخلص الله من عباده خالصة من خلقه، فهمت عنه قوله بعقولها، فاتسع لها ما خفي عن الأبصار..

وأعظم العاقلين عند الله عز وجل العارفين عقلاً عنه ومعرفة به، الذين أقروا بالعجز أنهم لا يبلغون في العقل والمعرفة «كنه معرفته»..».

٥ - وفي القرن الثالث الهجري يقول الإمام أبو الحسن الماوردي (٣٦٤ - ٤٥٠هـ، ٩٧٤ - ١٠٥٨م):

«إن السبب المؤدي إلى معرفة الأصول الشرعية.. والعمل بها شيئان:

أحدهما: علم الحس، وهو العقل، لأن حجج العقل أصل لمعرفة الأصول، إذ ليس تعرف الأصول إلا بحجج العقول..

وثانيهما: معرفة لسان العرب، وهو معتبر في حجج السمع خاصة».. «وإن لكل فضيلة أساً، ولكل أدب ينبوعاً، وأس الفضائل وينبوع الآداب هو العقل، الذي جعله الله تعالى للدين أصلاً وللدنيا عماداً، فأوجب التكليف بكماله، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه، وألف به بين خلقه، مع اختلاف هممهم ومآربهم، وتباين أغراضهم ومقاصدهم، وجعل ما

تعبدهم به قسمين: قسماً وجب بالعقل، موكده الشرع، وقسماً جاز فى العقل، فأوجبه الشرع، فكان العقل لهما عماداً..».

٦ ـ أما الراغب الأصفهانى (٥٠٢ هـ ١١٠٨م).. الذى تألق بضبط المفاهيم لمفردات غريب القرآن الكريم.. وبالتأليف فى محاسن الشريعة الإسلامية ومكارمها.. فإنه هو القائل عن العقل والعقلانية الإسلامية:

«لله عز وجل فى خلقه رسولان: أحدهما: من الباطن، وهو العقل، والثانى: من الظاهر، وهو الرسول.

ولا سبيل لأحد إلى الانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدمه الانتفاع بالباطن، فالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر، ولولاه لما كانت تلتزم الحجة بقوله: ولهذا أحال الله من يشكك فى وحدانيته وصحة نبوة أنبيائه على العقل، فأمره بأن يفزع إليه فى معرفة صحتها.

فالعقل قائد، والدين مدد، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقياً، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائراً، واجتماعهما ـ كما قال الله تعالى ـ: (نور على نور) ـ النور: ٣٥ـ».

٧ ـ فإذا جئنا إلى حجة الإسلام أبو حامد الغزالى (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م) الذى مثل ـ منذ القرن الخامس الهجرى وحتى الآن ـ «ظاهرة فكرية» غطت ميادين: الفقه.. والأصول.. والفلسفة.. والمنطق.. والكلام.. والتصوف.. والأخلاق.. فإننا سنجد له صياغات كثيرة وبديعة وعميقة ـ بل وفنية ـ حول مقام العقل.. ودور الوسطية الإسلامية فى تميز العقلانية الإسلامية المؤمنة ـ تميزها عن الغلو النصوصى، الذى يقف أصحابه عند «الأثر».. وعن الغلو العقلانى، الذى يصطنع أهله التناقضات بين العقل والشرع.. وفى ذلك يقول الغزالى:

«إن مثال العقل: البصر السليم عن الآفات والأذاء.

ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء.

فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء، المستغنى بأحدهما عن الآخر، فى غمار الأغبياء.

فالمعرض عن العقل، مكتفياً بنور القرآن، مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضاً للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان.

فالعقل مع الشرع نور على نور.

وأنى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر البحث والنظر؟! أو لا يعلم أنه لا يستند للشرع إلا قول سيد البشر، صلى الله عليه وسلم؛ وبرهان العقل هو الذى عرف به صدقه فيما أخبر.

إن العقل أولى باسم النور من العين، بل بينهما من التفاوت ما يصح أن يقال معه إنه أولى، بل الحق أنه يستحق الاسم دونها.

وعند إشراق نور الحكمة يصير الإنسان مبصراً بالفعل بعد أن كان مبصراً بالقوة. وأعظم الحكمة كلام الله تعالى، فيكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة، إذ به يتم الإبصار، فبالحرى أن يسمى القرآن نوراً، كما يسمى نور الشمس نورا، فمثال القرآن: نور الشمس، ومثال العقل: نور العين، وبهذا يفهم معنى قوله تعالى: (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا).. التغابن: ٨ ـ».

«ولا يبعد ـ أيها المعتكف فى عالم العقل ـ أن يكون وراء العقل طور آخر يظهر فيه ما لا يظهر فى العقل، كما لا يبعد كون العقل طوراً وراء التمييز والإحساس ينكشف فيه غرائب، وعجائب يقصر عنها الإحساس والتمييز، فلا تجعل أقصى الكمال وقفاً على نفسك»..

«والأصل فى ذلك أن وراء ما يتصوره العقلاء أموراً ورد الشرع بها، ولا يعلم حقائقها إلا الله تعالى والأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده».

«وما قضى العقل باستحالته، فيجب فيه تأويل ما ورد السمع به، ولا يتصور أن يشمل السمع على قاطع مخالف للمعقول».. «والوحى الإلهى والشرع الحق لا يرد بما ينبو عنه العقل.. وليس كل ما لا يدركه العقل محالاً فى نفسه.. وفرق بين البعيد والمحال، فإن البعيد هو ما ليس بمألوف، والمحال ما لا يتصور كونه..».

«وأما اتباع العقل الصرف، فلا يقوى عليه إلا أولياء الله تعالى، الذين أراهم الله الحق حقاً وقواهم على اتباعه. ولهذا كان رأس مال كل السعادات العقل..».

«ولقد تحقق أهل السنة أنه لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، وعرفوا أن من ظن من الحشوية ـ (الظاهرية) ـ وجوب الجمود على التقليد واتباع الظواهر، ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر، وأن من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة فى تصرف العقل حتى صاموا به قواطع الشرع، ما أتوا به إلا من خبث الضمائر، فميل أولئك إلى التفريط، وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط».

٨ ـ أما الفيلسوف الفقيه الطبيب المتكلم.. الذى كان الناس يفزعون إلى فتواه فى الفقه كما يفزعون إليها فى الطب.. والكلام.. والذى اجتمعت الدنيا على أنه الشارح الأكبر لأرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق ـ م) ـ حكيم اليونان.. الذى تميزت شروحه بتخليص فلسفة أرسطو مما شابها من الشرائح السابقين والآخرين.. أما أبو الوليد ابن رشد (٥٢٠ ـ ٥٩٥هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م) فإنه هو القائل ـ فى العقلانية الإسلامية المؤمنة: ـ

«إن الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل، وتطلب معرفتها به، فذلك بين فى غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى، مثل قوله تعالى: (فاعتبروا يا أولى الأبصار). الحشر: ٢ ـ وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلى، أو العقلى والشرعى معاً.. فواجب أن نجعل نظرنا فى الموجودات بالقياس العقلى..

وإذا كانت هذه الشريعة حقاً، وداعية إلى النظر المؤدى إلى معرفة الحق، فإنا، معشر المسلمين، نعلم، على القطع، أنه لا يؤدى النظر البرهانى إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له..

ونحن نقطع قطعاً أن كل ما أدى إليه البرهان، وخالفه ظاهر الشرع، أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربى.. بل نقول: إنه ما من منطوق به فى الشرع، مخالف بظاهره لما أدى إليه البرهان إلا إذا اعتبر وتصفحت سائر أجزائه، وجد فى ألفاظ الشارع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل، أو يقارب أن يشهد..

ومبادئ الشرائع لا يشك فى وجودها، وكيفية وجودها أمر إلهى معجز عن إدراك العقول الإنسانية.. والصواب: أن تعلم الفرقة من الجمهور التى ترى أن الشريعة مخالفة للحكمة... أنها ليست مخالفة لها.

وكذلك الذين يرون أن الحكمة مخالفة لها، من الذين ينتسبون للحكمة، أنها ليست مخالفة لها، وذلك بأن يعرّف كل واحد من الفريقين أنه لم يقف على كنههما بالحقيقة، أعنى لا على كنه الشريعة ولا على كنه الحكمة، وأن الرأى فى الشريعة الذى أعتقد أنه مخالف للحكمة هو رأى إما مبتدع فى الشريعة، لا من أصلها، وإما رأى خطأ فى الحكمة، أعنى تأويل خطأ عليها.

إن الحكمة هى صاحبة الشريعة، والأخت الرضيعة.. وهما المصطحبتان بالطبع، المتحابتان بالجوهر والغريزة..

٩ ـ فإذا جئنا إلى إمام الفقه والإفتاء وأبرز المجددين فى تاريخنا الوسيط.. وفيلسوف السلفية.. وأعمق نقاد المنطق الأرسطى.. وصاحب الجهود المتميزة فى النظر الفلسفى، وتميز الفلسفة الإسلامية بالعقلانية المؤمنة.. شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م).. فإننا واجدون لديه كتاباً يلخص عنوانه مذاهب الإسلام فى العقلانية: (بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول).. وفيه يقول:

«إن ما عرف بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه منقول صحيح قط. وقد تأملت ذلك فى عامة ما تنازع الناس فيه فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع. وهذا تأملته فى مسائل الأصول الكبار، كمسائل التوحيد والصفات ومسائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك.

ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط، بل السمع الذى يقال إنه يخالفه إما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة فلا يصلح أن يكون دليلا لو تجرد عن معارضة العقل الصريح، فكيف إذا خالفه صريح المعقول؟

ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمحالات العقول، بل يخبرون بمجازات العقول، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته..

والقول كلما كان أفسد فى الشرع كان أفسد فى العقل، فالحق لا يتناقض، والرسل إنما أخبرت بحق. والله فطر عباده على معرفة الحق، والرسل بعثت بتكميل الفطرة لا بتغيير الفطرة. قال الله تعالى: (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق).. فصلت: ٥٣ ـ فأخبر أنه سيريهم الآيات الأفقية والنفسية المبينة لأن القرآن الذى أخبر به عباده حق، فتتطابق الدلالة البرهانية القرآنية والبرهانية العيانية، ويتصادق موجب الشرع المنقول والنظر المعقول..».

هكذا تألقت العقلانية الإسلامية فى عصر الازدهار لحضارة الإسلام..

وهكذا سادت مناهج التفكير فى معظم مذاهب المسلمين، باستثناء «أهل الحديث»، الذين غلبت عليهم «صناعة الرواية» أكثر من «ملكة الدراية».. والذين وصف أبو حامد الغزالى رائدهم الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١هـ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م) بأنه «لم يكن ممعناً فى النظر العقلى».

فباستثناء هذا التيار النصوصى، سادت العقلانية الإسلامية معظم تيارات الفكر فى حضارة الإسلام.

تراجع العقلانية الإسلامية

فى خط سير الحضارات هناك دورات، وتبادل للمواقع.. بين التقدم والتخلف.. بين النهوض والهبوط (وتلك الأيام نداولها بين الناس). آل عمران: ١٤٠ . (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجزبه ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً). النساء: ١٢٣ .

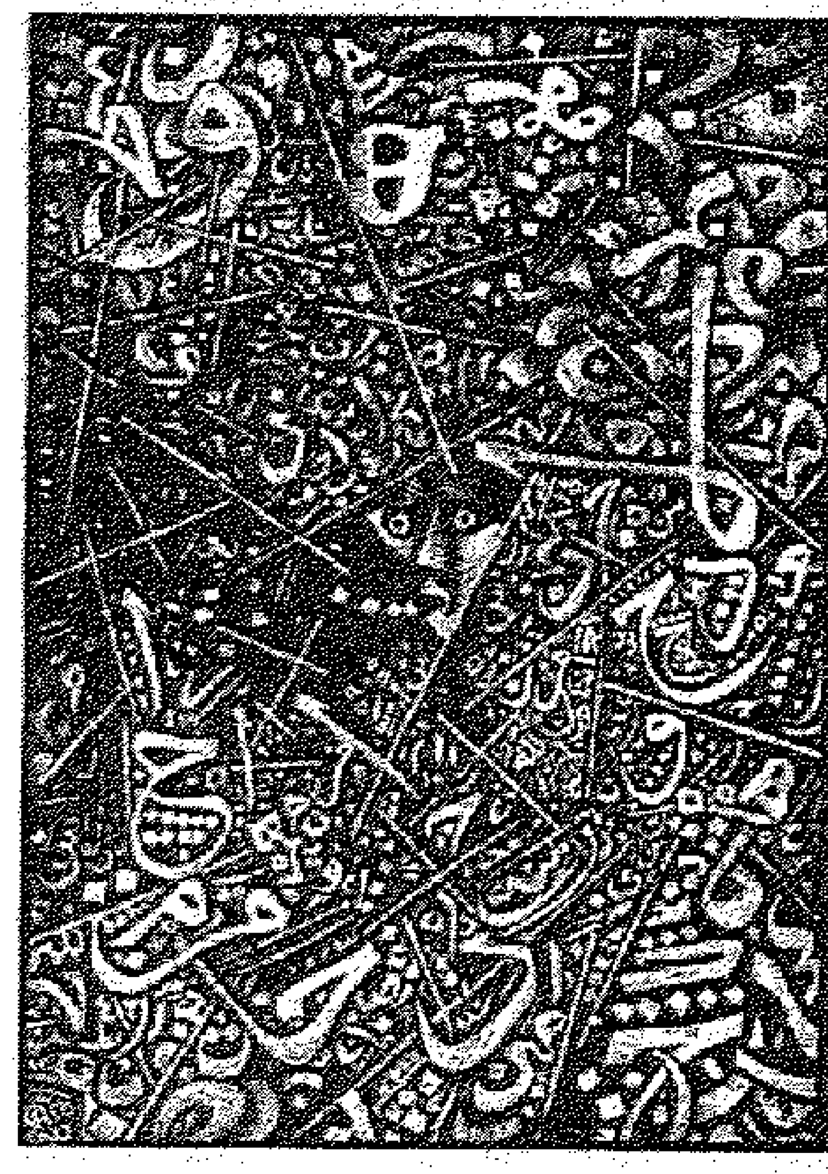
وفى تقرير هذه السنة الاجتماعية ـ سنة التداول والدورات فى خط سير الأمم والحضارات ـ يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

«لا يلبث الجور بعدى إلا قليلاً حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شىء ذهب من العدل مثله، حتى يولد فى الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتى الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شىء ذهب من الجور مثله، حتى يولد فى العدل من لا يعرف غيره» ـ رواه الإمام أحمد ـ.

ولقد جاء حين من الدهر تراجعت فيه العقلانية الإسلامية، ضمن ظاهرة التراجع الذى أصاب الحضارة الإسلامية.. فسادت الركاكة لغتنا العربية.. وطغت المحسنات الشكلية على شعرنا العربى.. وحل الجمود والتقليد محل الاجتهاد والتجديد فى مذاهب الفقه الإسلامى.. وانتشرت البدع والخرافات بدلاً من التصوف الحقيقى.. وتراجع علم الكلام الإسلامى، وشاعت مقولة: «من تمنطق فقد تزندق»!

وكانت لهذا التراجع الحضارى ـ الذى شمل العقلانية الإسلامية ـ أسباب عديدة، منها الداخلية والخارجية:

● لقد تصاعد الصراع بين «الشعوبية الفارسية» وبين الطابع العربى للخلافة والحضارة.. فحسب الخليفة العباسى المعتصم (١٧٩ ـ



العقل قائد، والدين مدد، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقيًا، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائرًا، واجتماعهما - كما قال الله تعالى: (نور على نور)

٢٢٧هـ ٧٩٥ - ٨٤١م) أن الحل هو تكوين جيش الدولة والخلافة من المماليك الترك المجلوبين من وسط آسيا، بحسبانهم قوة محايدة بين الفرس والعرب، تكون طيعة فى يد الخلافة، لا ولاء لها نحو الفرقاء المتصارعين..

ولقد اختار المعتصم مدينة «سامراء» معسكرًا لهذا الجند المماليك.. لكن تضخم هذه المؤسسة العسكرية المملوكية قلب الموازين.. فبدلاً من أن تكون أداة طيعة بيد الخلافة فى بغداد، غدت الخلافة «لعبة» بيد هؤلاء العسكر المماليك.. بل وأصبحت «سامراء» هى العاصمة بدلاً من «بغداد»!..

ولقد عبر الشاعر عن هذا الانقلاب، فقال:

خليفة فى قفص
بين «وصيف» و«بغا»
يقول ما قالا له
كما يقول الببغا!!

وتحدث عنه المسعودى (٣٤٥ هـ ٩٥٦م) فقال عن خلفاء ذلك التاريخ: «إنهم كانوا كالمولى عليهم، لا أمر ينفذ لهم!».

ولعجمة هؤلاء العسكر المماليك، وغربتهم عن روح الحضارة الإسلامية وعقلانيتها بدأ التراجع لهذا الطابع الذى ميز هذه الحضارة.. حتى كان الانقلاب الفكرى الذى تم - بواسطة العسكر المماليك - فى عهد المتوكل العباسى (٢٠٦ - ٢٤٧هـ ٨٢١ - ٨٦١م)، والذى حلت فيه السلفية النصوصية محل العقلانية - والذى انتهى بقتل هؤلاء المماليك للمتوكل ذاته!.. وتحول الخلافة إلى لعبة فى يد قادة المماليك.

فلما جاء عهد الخليفة «القادر بالله» (٣٨١ - ٤٢٣هـ ٩٩١ - ١٠٣١م)، الذى حرم - بمرسوم غريب عن روح الإسلام.. سمى «الاعتقاد القادرى» -.. حرم مقولات العقلانية الإسلامية.. وعلم الكلام.. وفكر العدل والتوحيد.. كان هذا الانقلاب على العقلانية الإسلامية قد أخذ طريقه إلى ميادين الفكر فى بلاد الإسلام..

ولقد وصف الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) هذا «الانقلاب» على العقلانية الإسلامية وروحها العربية، وصفًا عبقريًا، أشار فيه إلى أبعاده الثقافية والحضارية، عندما قال:

«انظر، كيف صارت مزية من مزايا الإسلام - (تسامح المساواة) - سببًا فيما صار إليه أهله!

كان الإسلام دينًا عربيًا، ثم لحقه العلم فصار علمًا عربيًا، بعد أن كان يونانيًا، ثم أخطأ خليفة - (المعتصم العباسى) - فى السياسة، فاتخذ من سعة الإسلام سبيلاً إلى ما كان يظنه خيرًا له، ظن أن الجيش العربى قد يكون عونًا لخليفة علوى، لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبى - صلى الله عليه وسلم - فأراد أن يتخذ له جيشًا أجنبيًا من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التى ظن أنه يستعبدها بسلطانه ويصطنعها بإحسانه، فلا تساعد الخارج عليه، ولا تعين طالب مكانه من الملك - وفى سعة أحكام الإسلام وسهولته ما يبيح له ذلك.

هناك استعجم الإسلام وانقلب أعجميًا!..

خليفة عباس أراد أن يصنع لنفسه، وبئس ما صنع بأمته ودينه، أكثر من الجند الأجنبى، وأقام عليه الرؤساء منه، فلم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء، واستبدوا بالسلطان دونهم، وصارت الدولة فى قبضتهم، ولم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الإسلام، والقلب الذى هذبه الدين..»!!

ومنذ ذلك التاريخ - وفى بطء.. كما هو شأن التطورات الحضارية والتغيرات الفكرية - بدأ تراجع القسمة العقلانية فى تاريخ الإسلام..

• ثم جاءت مخاطر الحملات الصليبية، التى دامت قرنين من الزمان (٤٩٨ - ٦٩٠هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١م).. ومعها - وأثناءها - الحلف الذى أقامه الصليبيون مع الوثنية التترية، التى اجتاحت المشرق الإسلامى والعربى، وأحدثت بهما من الدمار المادى والفكرى ما فاق التصورات.. وكذلك نزعات «الاستقلال» التى انتشرت فى أطراف الدولة الإسلامية.. جاءت كل هذه المخاطر لتهدد وجود الدولة والأمة والحضارة، الأمر الذى جعل الأمة تسلم القياد للعسكر المماليك. وتمنح الزمام - مضطرة - «للعضلات» بدلاً من «العقل والعقلانية».. فطال عصر العسكرة التى سادت الدولة، وانعكست على الحياة الفكرية والعلمية والحضارية، الأمر الذى أحل التراجع الحضارى محل الازدهار، وأصاب العقلانية الإسلامية بالنزيف الذى جعلها تتراجع، وتكاد أن تتوارى طوال حكم العسكر المماليك.. والعسكر الانكشارية العثمانيين.

ولقد ظل الحال كذلك حتى «صدمة» الاحتكاك الغربى العنيف بالشرق الإسلامى، تلك التى تمثلت فى غزوة «بونابرت» (١٧٦٩ - ١٨٢١م) لمصر (١٢١٣هـ ١٧٩٨م).. الأمر الذى استنفر فى الأمة عوامل المقاومة، فبدأت تحيى مواريثها فى العقلانية، لتجدد بها حياتها، ولتقطع الطريق على التغريب والغزو الفكرى والعقلانية الوضعية اللادينية التى أخذت فى التسلل إلى بلادنا فى ركاب الغزاة الغربيين..

وبذلك أخذت أمتنا تمسك بخيوط النهضة واليقظة والتقدم من جديد..

عقلانية الإحياء الإسلامى الحديث

١ - كان الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م) التلميذ النجيب لشيخ الأزهر الشيخ حسن العطار (١١٨٠ - ١٢٥٠هـ ١٧٦٦ - ١٨٣٤م) الذى احتك بعلماء الحملة الفرنسية.. وأدرك ضرورة التجديد الفكرى لمواجهة التغريب القادم فى ظلال عسكرية الغزاة.. ولقد أعلن ذلك عندما قال:

«إن بلادنا لابد أن تتغير، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها»!

ولقد رشح العطار رفاعة كى يذهب إلى باريس، إمامًا للبعثة التعليمية التى أرسلها محمد على باشا (١١٨٤ - ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) إلى هناك (١٨٢٦ - ١٨٣١م).. وأوصاه أن يكتب مشاهداته فى تلك البلاد، لمعرفة ما لدى «الآخر»، وللتفاعل الحضارى اللازم لنهوض بلاد الإسلام..

ولقد رأى الطهطاوى فى باريس - بعين العالم المسلم -:

١ - علوما طبيعية، وتطبيقات لهذه العلوم الطبيعية، قد غدت «مدنية» تقيم العمران المزدهر للواقع المادى فى تلك البلاد.. وأدرك أن هذه العلوم - التى سماها «العلوم الحكمية».. علوم التمدن المدنى» هى مشترك إنسانى عام، بل أدرك الأصول والجذور لهذه العلوم فى حضارة الإسلام وتراث المسلمين..

٢ - وفلسفة وضعية، وعقلانية لا دينية، مليئة بالحشوات الضلالية، ومخالفة لكل الكتب السماوية - جعلت الفرنسيين - كما سبق وأعلن «الجبرتى»:

«دهرية معطلين، وللمعاد والحشر منكرين، وللنبوة والرسالة جاحدين.. ولقد خالفوا النصارى والمسلمين»!

فكتب الطهطاوى داعيًا إلى أخذ العلم الطبيعى وتطبيقاته عن الحضارة الغربية.. وإلى رفض عقلانيتهم الوضعية اللادينية، وإحياء العقلانية الإسلامية - المؤسسة على الشرع والعقل - لتكون البديل الإسلامى فى هذا الميدان.. كتب فقال:

أيوجد مثل باريس ديار
شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح
أما هذا، وحقكم، عجيب!

فهذه المدينة، كباقى مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية.

إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع دينه، ولا غيرة له عليه، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون: «إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب»، ولذلك فهو لا يصدق بشىء مما فى كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية.

ولهم فى الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب السماوية..

إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشارع.. والتكاليف الشرعية والسياسية، التى عليها مدار نظام العالم، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية من الموانع والشبهات، لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التى يعلم حكمتها المولى سبحانه، وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه..

ولا عبرة بالنفوس القاصرة الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التى ركنوا إليها تحسينًا وتقبيحًا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدى الحدود،

فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة..».

هكذا بدأت الدعوة إلى إحياء العقلانية الإسلامية، المؤسسة على الشرع والعقل.. في مقابل العقلانية الوضعية المادية الغربية، التي هي حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب السماوية..

فعقلانيتنا الإسلامية لا تتنكر للتحسين والتقبيح بالعقل، وإنما ترجع إلى الشرع.. أيضاً.. في هذا التحسين والتقبيح.. لتكون عقلانية مؤمنة، قائمة على ساقي «العقل» و«الشرع»، كما هو طابعها دائماً وأبداً..

نعم.. لقد تجلى هذا الوعي بتميز العقلانية الإسلامية في فكر الطهطاوي، الذي كان أول عين إسلامية رأت النموذج الحضاري الغربي في العصر الحديث.

٢ ـ فإذا انتقلنا إلى رائد مدرسة الإحياء والتجديد في عصرنا الحديث، تلك التي جددت وجاهدت لإخراج أمتنا من مرحلة التراجع الحضاري.. ورسمت معالم المشروع الحضاري للبعث الإسلامي الحديث.. جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) فإننا واجدون لديه صياغات متميزة وممتازة في مقام العقل والعقلانية الإسلامية.. وفيها يقول:

«إن الدين الإسلامي يكاد يكون متفرداً بين الأديان بتقريع المعتقدين، بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون، وتبكيت الخابطين في عشواء العماية، والقدح في سيرتهم..

هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم، وكلما خاطب خاطب العقل، وكلما حاكم حاكم إلى العقل. تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة.. وقلما يوجد من الأديان ما يساويه أو يقاربه في هذه المزية، وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة.. إن العقل مشرق الإيمان، فمن تحول عنه فقد دابر الإيمان.

وإن فرقاً بين ما لا يصل العقل إلى كنهه، فيعرفه بأثره، وبين ما يحكم العقل باستحالته، فالأول معروف عند العقل، يقر بوجوده، ويقف دون سرادقات عزته، أما الثاني فمطروح من نظره، ساقط من اعتباره، لا يتعلق به عقد من عقوده، فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه؟!

لقد بدأ الإنسان بداية لا تميزه عن غيره من الحيوانات، لكن نقطة الافتراق كانت قوته العاقلة.. والله قد جعل قوة العقل للإنسان محور صلاحه وفلاحه.. والحكمة، وآلتها العقل، هي مقننة القوانين، وموضحة السبل، وواضعة جميع النظامات، ومعينة جميع الحدود، وشارحة حدود الفضائل والرذائل، وبالجملة، فهي قوام الكمالات العقلية والخلقية.. فهي أشرف الصناعات.

إن الإنسان من أكبر أسرار هذا الكون، ولسوف يستجلي بعقله ما غمض وخفي من أسرار الطبيعة، وسوف يصل بالعلم وإطلاق سراح العقل إلى تصديق تصوراته، فيرى ما كان من التصورات مستحيلاً قد صار ممكناً، وما صوره جموده بأنه خيال قد أصبح حقيقة..

إن أول ركن بني عليه الإسلام: صقل العقول بصقال التوحيد، وتطهيرها من لوث الأوهام.. وسعادة الأمم لا تتم إلا بصفاء العقول من كدرات الخرافات وصدأ الأوهام، فإن عقيدة وهمية لو تدنس بها العقل لقامت حجاباً كثيفاً يحول بينه وبين حقيقة الواقع ويمنعه من كشف نفس الأمر، بل إن خرافة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية، وتدعوه بعد ذلك أن يحمل المثل على مثله، فيسهل عليه قبول كل وهم، وتصديق كل ظن، وهذا مما يوجب بعده عن الكمال، ويضرب له دون الحقائق ستاراً لا يخرق، وفوق ذلك ما تجلبه الأوهام على النفوس من الوحشة وقرب الدهشة والخوف، مما لا يخيف والفزع مما لا يفزع.

إن دين الإسلام قد فتح أبواب الشرف في وجوه الأنفس.. وقرر المزايا على قاعدة الكمال العقلي والنفسي لا غير، فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة.. وعقائد الأمة، وهي أول رقم ينقش في ألواح نفوسها، يجب أن تكون مبنية على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة، وأن تتحامى مطالعة الظنون في عقائدها، وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها، فإن معتقداً لاحت العقيدة في مخيلته بلا دليل ولا حجة قد لا يكون موقناً، فلا يكون مؤمناً.. وأولئك المتبعون للظن، القانعون بالتقليد تقف بهم عقولهم عند ما تعودت إدراكه، فلا يذهبون مذاهب الفكر، ولا يسلكون طرائق النظر، وإذا استمر بهم ذلك تغشتهم الغباوة بالتدريج، ثم تكاثفت عليهم البلادة حتى تعطل عقولهم عن أداء وظائفها العقلية بالمرة، فيدركها العجز عن تمييز الخير من الشر، فيحيط بهم الشقاء، ويتعثر بهم البخت، وبئس المآل مآلهم، هذا هو الإسلام..».

٣ ـ أما المهندس الأكبر لفكر اليقظة الإسلامية الحديثة.. الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) فلقد كونت نصوصه في العقلانية الإسلامية عملاً نفيساً، مثل ـ بعد أن جمعناه ونشرناه في كتابنا (الإصلاح بالإسلام) ـ ديواناً لهذه العقلانية الإسلامية المؤمنة.. ولقد قال فيه ـ ضمن ما قال:

«إن الإنسان كون عقلي، سلطان وجوده العقل.. والعقل هو الفرقان الذي يفرق بين الحق والباطل.. وهو جوهر إنسانية الإنسان، وأفضل القوى الإنسانية على الحقيقة.. بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها.. والكون جميعه صحيفته التي ينظر فيها، وكتابه الذي يتلوه، وكل ما يقرأ فيه فهو هداية إلى الله وسبيل الوصول إليه..

ولقد تآخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس، على لسان نبي مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل، وتقرر بين المسلمين كافة ـ إلا من لا ثقة له بعقله ولا بدينه ـ:

إن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا عن طريق العقل، كالعلم بوجود الله، وبقدرته على إرسال الرسل، وعلمه بما يوحي إليهم، وإرادته لاختصاصهم برسالته، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة، كالتصديق بالرسالة نفسها.. كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم، فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل..

أول أساس وضع عليه الإسلام: هو النظر العقلي، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح، فقد أقامك منه على سبيل الحجة، وقاضاك إلى العقل، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه؟

بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة: إن الذي يستقصي جهده في الوصول إلى الحق، ثم لم يصل إليه، ومات طالباً غير واقف عند الظن، فهو ناج، فأي سعة لا ينظر إليها الحرج أكمل من هذه السعة؟

اتفق أهل الملة الإسلامية، إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل، وبقي في النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله في علمه، والطريق الثانية: تأويل النقل، مع المحافظة على قوانين اللغة، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل.

ولا يقين مع التحرج من النظر، وإنما يكون اليقين بإطلاق النظر في الأكوان، طولها وعرضها، حتى يصل إلى الغاية التي يطلبها بدون تقييد.

فالله يخاطب في كتابه الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولا حد، والقرآن قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم.. فهو معجزة عرضت على العقل، وعرفته القاضي فيها، وأطلقت له حق النظر في أنحائها، ونشر ما انطوى في أثنائها.. فالإسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري، فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية.

والمرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به، فمن ربي على التسليم بغير عقل، والعمل، ولو صالحاً، بغير فقه، فهو غير مؤمن، لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان، بل القصد منه أن يرتقي عقله وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته في دينه ودنياه، ويكون فوق هذا على بصيرة وعقل في اعتقاده.. فالعاقل لا يقلد عاقلاً مثله، فأجدر به أن لا يقلد جاهلاً دونه..

وبهذا الأصل، الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي صلى الله عليه وسلم، مهدت بين يدي العقل كل سبيل، وأزيلت من سبيله جميع العقبات، واتسع له المجال إلى غير حد..».

● «لكن العقل البشري وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته في هذه الحياة.. وقد يكون من الأعمال ما لا يمكن درك حسنه، ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قبحه، وهذا النوع لا حسن له إلا الأمر ولا قبح له إلا النهي.. إن مجرد البيان العقلي لا يدفع نزاعاً، ولا يرد طمأنينة.. وإذا قدرنا العقل البشري قدره، وجدنا غاية ما ينتهي إليه كماله، إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني.. أما الوصول إلى كنه حقيقة فمما لا تبلغه قوته..

ومن أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشري أن يصل إليه وحده.. لهذا كان العقل محتاجاً إلى معين يستعين به في وسائل السعادة في الدنيا والآخرة..

فالعقل هو ينبوع اليقين في الإيمان بالله، وعلمه، وقدرته، والتصديق بالرسالة.. أما النقل، فهو الينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيب، كأحوال الآخرة، والعبادات..

والذي علينا اعتقاده: أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد، لا دين تفريق في القواعد.. والعقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوى أركانه..

لقد منح الله الإنسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعادته:

١ ـ هداية الوجدان الطبيعي والإلهام الفطري.

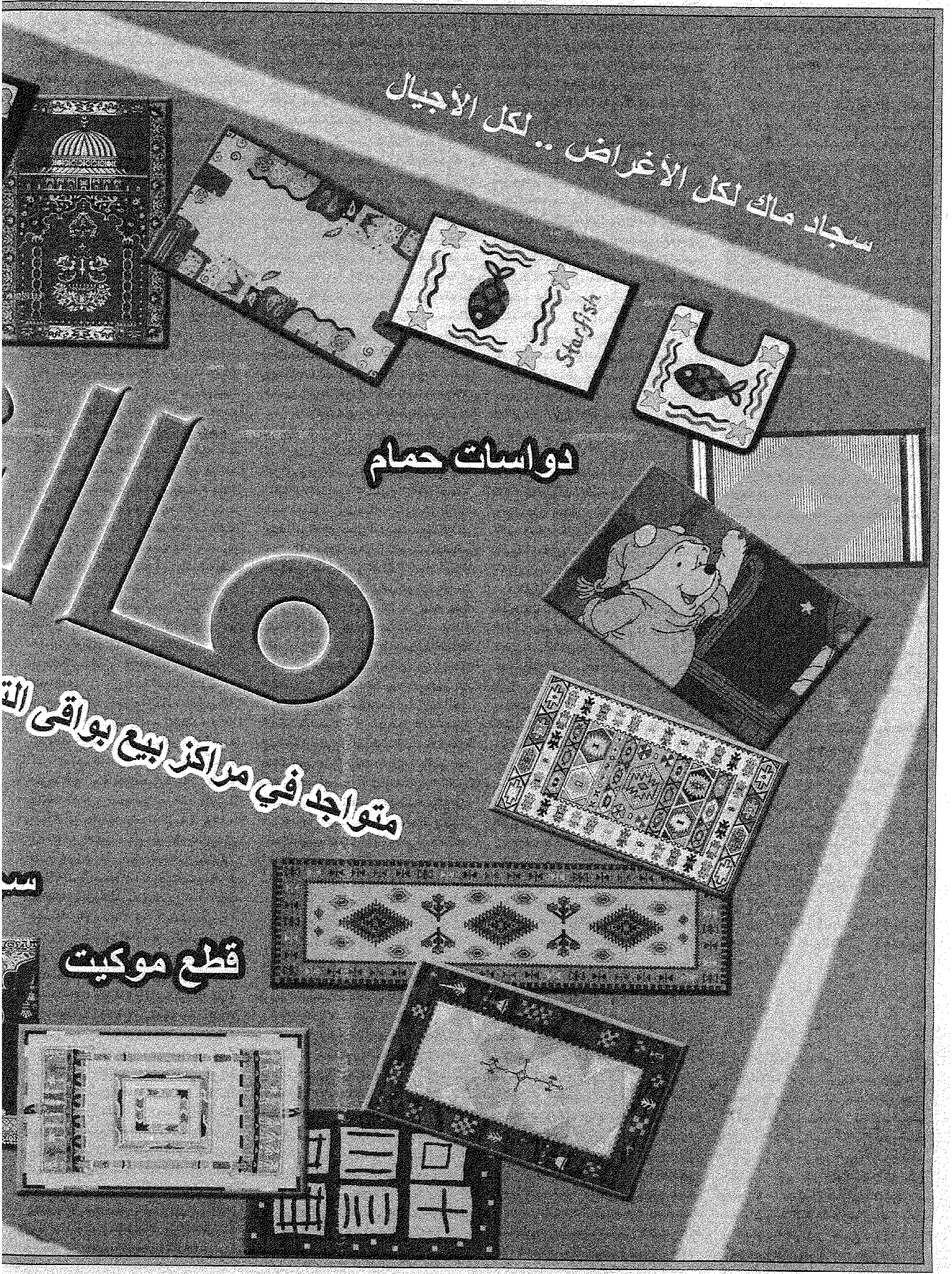
٢ ـ وهداية الحواس والمشاعر.

٣ ـ وهداية العقل.. التي هي أعلى من هداية الحس والإلهام..

٤ ـ وهداية الدين.. التي تضبط وتصحح وتكمل أخطاء ونواقص غيرها من الهدايات..

وبهذا تتكامل في المعرفة الإسلامية، هدايات: العقل.. والنقل.. والتجربة.. والوجدان..».

تلك لمحات.. مجرد لمحات.. وإشارات مجرد إشارات ـ على امتياز الإسلام بالعقل والعقلانية التي مثلت مع الوحي الإلهي، الرسولين اللذين تجسد فيهما «اللطف الإلهي» بالإنسان، الذي خلقه الله فسواه، ونفخ فيه من روحه.. وفضله ـ لذلك ـ حتى على الملائكة المقربين.. والذي عمل أمانة الاختيار والمسئولية في عمران هذا العالم وفق «الكتاب» و«الحكمة»، أي نور الشرع ونور العقل، لتكون حياة الإنسان نوراً على نور. ■


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقي
قطع موكيت


سجاد أطفال
ISO 9001:2000
SGS
ISO 14001
SGS
ISO 18001
SGS
صدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
جادة صلى
www.maccarpet.com



من مسرحية «كليوباترا»



سارة برنار في أمريكا

محمد المهدى

▪▪ يلتقى الشاب (فيجارو) بسيدة الكونت صدفة، بعد طول انقطاع فى طرقات أشبيلية المظلمة، ويشكو كل منهما همه. الكونت يريد الزواج من فتاة تسكن المنزل المقابل.. يراها من النافذة ولكن لا يعلم عنها شيئا. وفيجارو ابن البلد الفقير الذكى المثقف لا يجد فرصته. ويسأل السيد تابعه السابق ماذا تعمل هذه الأيام ؟.. لقد طردت من عملى لأنهم يشكون فى أمرى، فأنا أكتب فى الصحف، وأكتب المسرحيات والسادة يريدون تابعا مستكينا.. أنت منهم وأنت تعرفهم.. إننى أعمل الآن حلاقا.

ويضحك السيد ويقول لفيجارو إن لديه عملا له، وهو تدبير الزواج من هذه الفتاة التى تسكن فى المنزل المقابل. ويقول فيجارو إنه يعرف أمر هذا المنزل، والفتاة هى (روزين).. يتيمة مسكينة واقعة فى براثن عجوز متصاب، تولى إنباتها وتربيتها وحينما أينعت يريد قطفها.. يريد الزواج منها. ويستطيع فيجارو بذكائه وحيله إنقاذ الفتاة وتزويجها من الكونت.. ولكن تبدأ مشكلة (فيجارو) نفسه: لقد أحب الفتاة (سيزان) تابعة السيدة (روزين) التى تزوجها الكونت ولكنه يعرف من حبيبته أن الكونت لا يهمد عن مطاردة الفتيات... لقد طمع السيد فى حبيبة فيجارو، وبالتالى جاء دوره لينال نصيبا من ألاعيب فيجارو. جعل السيدة تقابل الكونت فى ملابس خادمتها، فيطارحها الغرام، ثم يرى الكونت الخادمة التى تلبس ملابس سيدتها تقابل «فيجارو» فيشك فى زوجته. ويكشف فيجارو أمام الجميع اللعبة.. لعبة الذكاء، أو البطولة الفردية، فى حل المشاكل... ويهمد الكونت.

هذه هى مسرحية أو أوبرا «زواج فيجارو» أو «حلاق أشبيلية» التى كتبها «بومارشيه» قبيل الثورة الفرنسية إسقاطا من قصة تدور أحداثها فى إسبانيا على الوضع فى فرنسا... ابن البلد الذى يحل المشاكل بالحيل والذكاء، والبطولة الفردية. وبثت إحدى محطات التليفزيون ذات مرة إعلانا يعرض فى مقدمته لمحة من هذه الأوبرا، ثم ينتقل إلى عرض لتصنيع سيارات الفيات الإيطالية، بصورة آلية تماما، دون تدخل من عمال، أو مهندسين، أو موظفين. وكأنه يقول إن هناك «فيجارو» جديدا فى هذا العصر.. هو العلم.. هو شريحة السليكون، أو السر فى التصنيع الآلى الكامل.

سارة برنار في أمريكا

شريحة السليكون المعدنية لها مواصفات علمية خاصة، لا يتعدى حجمها عقلة الإصبع لكنها تستطيع أن تقوم مقام غرفة كاملة من أجهزة الكمبيوتر البدائى. ويقال إن لوح السليكون سيؤدى فى المستقبل إلى الاستغناء الكامل عن رجال الرياضيات أو المحاسبين، والمراجعين وسعره غير مرتفع، تستطيع أن تحصل على لوح به خمسة آلاف معلومة بدولار واحد.

وعندما ظهر النول الآلى فى القرن التاسع عشر أضرب العمال، بل قاموا بعمليات تخريب لهذه الشياطين التى التهمت أرزاقهم. وانتهى الأمر إلى المصالحة بين الإنسان والآلة. وفى العصر الحديث تحاول نقابات العمال أن تهيئ نفسها لمستقبل أسوأ من مستقبل النول الآلى. يقول اقتراح إن الدولة تستطيع أن تقدم معاشا مناسبا لكل صاحب خبرة كل حسب مستواه، ويقام لذلك صندوق خاص يمول من فارق الربح الهائل الذى ستحصل عليه الصناعة من استخدام لوح السليكون. وهذا معناه أن العمال سيصبحون عاطلين بالميراث من الدولة. وبالتالى سيصبح تعبير العمل اليدوى شرفا غير ملائم. وسيصبح من يريد عملا خاملا عليه بالدراسات العلمية أو العملية. وستصبح الدراسات النظرية اكثر إرهاقا. وسيهجر كما نأمل حاليا - ولكن فى غير حينه - طلبة القسم الأدبى فى الثانوية العامة، إلى القسم العلمى بحثا عن راحة البال.. وسيصبح.. وسيصبح.

ولكن للوح السليكون مهمة أخرى اكثر خطورة. إنك تستطيع أن تزرعه فى جسم الإنسان لصغر حجمه دون أن يدرى. ويصبح بالتالى رقيبا عليه أينما سار أو قام أو نام، يسجل خطواته وأحاديثه وينقلها إلى جهاز استقبال. ولك أن تتصور أى الأنظمة ستسارع إلى الإكثار من إنتاج هذه الألواح السحرية... وما هى النتائج ؟

لوح السليكون كما قلت هو «فيجارو» هذا العصر. هو البطولة الفردية لهذا العصر. يحل المشاكل وحده، بذكائه وألاعيبه وحيله. الفارق أن حيل السليكون معدة ومهيأة لكل الاحتمالات، ورغم أنه من صنع الإنسان فإنه من الصعب على الإنسان طعنه بالسيف، أو القضاء على بطولته بقرار إدارى، أو أمر اعتقال، أو محاكمة «ثورية». ولكن يمكن احتكاره (وادى السليكون بولاية كاليفورنيا). أما فيجارو القديم فإنه إذا تجاوز حدوده من الطرافة والذكاء إلى الجدل والتحدى لسيده، فإنه يستطيع أن يلغيه بتوقيعه، أو يعجنه بحقده. وهذا ما دعا الإنسان لاكتشاف البطولة الجماعية فى المنظومة الاشتراكية. فيجارو.. وفيجارو.. وفيجارو.. وهكذا.

ولكن ماذا عن فيجارو الجديد؟ ماذا عن شريحة السليكون؟ لقد انتج فيجارو الكبير فيجارو الصغير، وصار الصغير كبيرا، بل أكبر، ووقف الابن يتحدى الأب. وكأننا عدنا إلى أيام البطولة الفردية. ولكنها ليست بطولة اللحم والعظم، إنما بطولة اللوح والسلك.

ونعرف الممثلة «سارة برنار» Sarah Bernhardt. قرأت مؤخرا تفاصيل رحلتها إلى أمريكا، حدث هذا منذ أكثر من قرن وربع بالضبط عام ١٨٨٠ . أى فى زمان عبادة البطولة الفردية فى السياسة والأدب والفن والاقتصاد.. و.. زمان بقايا الفيجارو وكتاب «كارليل» الأبطال، وتفسيره التاريخ بكل طوله وعرضه وعمقه على أساس من البطولة الفردية. قصة (سارة) فى أمريكا تجرى فى زمن تحولات مفصلية تحمل ملمحا مبكرا للنهج الأوروبى الهادئ الوقور، مفارقا وناقدا للنهج الأمريكى السطحى العجول.







سـارة برنـار فى أمريكـا

دعـوة أمـريـكـيـة

يبدأ السيناريو كما جاء فى مذكراتها عندما عرض عليها رجل أعمال يدعى جاريت Jarrett، مشروع رحلة فنية إلى أمريكا لتقديم عروضها المسرحية الشهيرة «باللغة الفرنسية». مقابل خمسة آلاف فرنك، بالإضافة إلى نصف دخل الحفلات الذى قدر بخمسة عشر ألف فرنك، مع ألف فرنك أسبوعيا لتكاليف الفنادق. ولها الحق فى اختيار العروض والممثلين المشاركين.

وتقبل سارة. فيبلغها رجل الأعمال بقية التفاصيل قائلا: «ليس هذا كل شىء، لقد خصص لك قطار خاص لرحلاتك الفنية داخل أمريكا يشمل العديد من الغرف والملاحق مع صالون به بيانو خاص. ولك فى هذا القطار أربعة أسرة، وأربعة طباخين لإعداد الطعام الخاص أثناء الرحلة».

وقعت سارة العقد. وبدأت حملات الدعاية الأمريكية تتركز حول سارة برنار الممثلة، والشخصية، والإنسانة، والفاجرة، والعاهرة. وكنوع من الدعاية التقط الأمريكيون قصة «سارة» مع ذيل النمر. لقد صرحت سارة فى لحظة من لحظات هذيانها الفنى أنها تتمنى أن تركب ذيل نمر فى مؤخرتها. واستمرارا فى الهذيان بالبطولة، أو الإعجاب بسارة أعلن طبيب أمريكى بشكل جاد انه يستطيع أن يركب لسارة ذيل نمر بعملية جراحية «زرع الأعضاء قبل الأوان». واشترك أحباء سارة وأصدقاؤها فى الحوار وكان اشد ما يخشونه هو أن تفسد العملية الجراحية ظهر أو مؤخرة نجمتهم الفريدة. أما سارة فقد قالت:

إن ذلك سيكون مسليا. أستطيع فى بعض الأحيان أن أجره «الذيل» بهدوء ودلال تحت ثوبى. وعلى العكس فإننى أستطيع فى لحظات الغضب أو الثورة أن ارفعه فى فخر وتحد، سيرتفع معه طرف ثوبى وكأنه سيف مشرع.

وأخذت سارة تناقش ماذا ستقدم من عروض. وكان التركيز على دورها «غادة الكاميليا» La, dame, aux, camélias. بدأت الرحلة، واستغرقت اثنى عشر يوما فى البحر. وصحبت أو اختارت الشاب «انجلو» le, bel, angelo ليقوم معها بدور الفتى الأول فى عروضها، وليقوم معها بدور العشيق فى لحظات الراحة. وقضت الرحلة داخل غرفتها تدرس وتعيد أدوارها بالجدية التى جعلت منها الأسطورة الفريدة آنذاك.

بدأت الدعاية فى أمريكا بكتاب كان ينادى عليه الباعة ليل نهار «اقرأ قصص حب سارة برنار.. الجزء بـ ١٥ سنتا». وتعرف أهل أمريكا على سارة العاشقة قبل سارة سيدة المسرح. تردد أن لها أربعة أطفال من أربعة آباء. البابا «بيو» الرابع، ونابليون الثالث. وحلاق مجهول. ومحكوم عليه بالإعدام لاتهامه بقتل أبيه. وفى مؤتمر أثارت صحفية هذا الموضوع فقالت سارة:

- إنه شىء عجيب، أليس ذلك أفضل مما يحدث فى هذا البلد.. أربعة أزواج للمرأة دون أطفال!

وظهر إعلان كبير يصور سارة فى صورة هيكل عظمى كتب عليه «سارة عند وصولها أمريكا». وعلى الجانب الآخر يصورها فى صورة ممتلئة كتب عليه «سارة بعد استخدامها منتجاتنا لمدة ستة أشهر» كان استقبالها عند الوصول استقبال الملوك والملكات. سفينتان محملتان بالصحفيين. وضجة عظيمة يختلط فيها نثر الزهور، بالأصوات، بعزف المرسيليز، اللحن الوطنى الفرنسى، بالعديد من الايدى تمتد تريد مصافحة سارة. ووابل من الأسئلة المختلطة المتداخلة.. هل تتشاءمين ؟ هل تتفاءلين؟ بكم تقدر مجوهراتك ؟ هل صحيح أنك لا تحفظين أدوارك إلا فى حمام يغلى ؟.. هل.. هل.. وأغمى عليها، ولحقتها مساعدتها بزجاجة «اثير».. وأفاقت ولكن رائحة الاثير انتشرت فى القاعة فكادت أن تفرغ معدتها، أبعدوا الصحفيين وقام «جاريه» منظم الجولة بتصفيتهم. أو اختيار خمسين منهم لتقابل كل واحد على انفراد. و«جاريه» هذا أو ما أصبح رجل الأعمال فى زمانه كان متشردا، اختلف ذات مرة مع مفاوض لأحد الممثلين فقال له «جاريه» أن هذه العين تستطيع أن تقرأ ما لا تصرح به. فأجابه المفاوض بأن أخرج مسدسه وأطلقه قائلا: إن عينك سيئة الرؤية لأنها لم تر هذا وجاءت الطلقة فى صدغ جاريه. فاخرج بدوره مسدسه قائلا: هكذا يجب أن يكون الرد حتى ينتهى كل شىء. وأطلق مسدسه فى جبهة غريمه وأرداه قتيلا.

الدعاية والعروض

تولى «جاريه» تنظيم الدعاية واستغلال الفرص. وإثارة خيال الجماهير المجنونة بالنجوم. كانت مرحلة تعرف إعلاميا بالصحافة الصفراء. أو الصحافة المعتمدة على السؤال المفاجئ، والأفضل السؤال الجارح، والإجابة السريعة اللافتة للنظر، أو الخفيفة الظل، والأفضل الجارحة أيضا. كان اتجاه لا تزال بقاياه تثير إعجاب الناس بالبريق الخاطف فى المسلسلات الفجة أو اللقاءات السخيفة، مع من يسمون بالنجوم والكواكب والأفلاك والمجرات بطريقة صاروخية استعراضية.

وانبرت صحفية وطرحت سؤالا أو استعرضت كلمة طويلة جدا تتكون من ستين حرفا تريد بها إرباك سارة. وارتبكت سارة وتوقف العرض «الصحفى» الاستعراضى، وانبرى صحفى متطوع وشرح لسارة معنى الكلمة الطويلة، أو التساؤل.. هل أنت يهودية، كاثوليكية، بروتستانتية، إسلامية، بوذية، ملحدة، موحدة، أو مؤمنة بعدة آلهة ؟

وكل ما استطاعت أن تعلق به سارة هو: أهكذا ستسير الأمور فى كل مدينة أزورها ؟ وأجاب رجل الأعمال: لا تنسى أن إجابتك توزع فى الحال تلغرافيا فى كل أنحاء أمريكا.

وفى يوم دخلت سارة إلى المسرح فوجدت مجموعة من رجال فى هيئة زرية يقفون استعدادا لتفتيش حقائبها. أفرغوها جميعا فى همجية، واختلط الفراء، بالستان بالمخمل، بالدانتيل... وخرجوا. لقد كانوا رجال الجمارك جاءوا يراجعون محتويات حقائب سارة بعد دخولها، واشترت سارة خمسمائة متر من الشاش جمعت فيها محتويات الحقائب وألقتها فى الزبالة.

وكانت قصة أعجبت رجال الدعاية فى أمريكا.

ووقف أحد رجال الدين وبدأ سلسلة من المواعظ أعلن فيها أن «هذه العاهرة الفرنسية جاءت إلى أمريكا لتقوض دعائم أخلاق اليانكى» أى الأمريكى. وأرسل إليه «جاريه» قائلا: «لقد اعتدت أن أنفق على الدعاية فى هذه المدينة ٤٠٠ دولار، وبما انك قدمت لى هذه المرة الدعاية الواجبة فإننى أرسل لك ٢٠٠ دولار لفقرائك»، وبدأت لحظات الجنون الجماهيرى بعد أن قدمت سارة عروضها. قدمت فى المرحلة الأولى ٢٦ عرضا. وكانت الجماهير التى لم تشهدها على المسرح تنتظرها فى البرد أمام مدخل الفندق بالورود والهتاف والمارسيليز، ولا تنصرف إلا عندما تخرج إليهم سارة وتطل عليهم من شرفتها فيرتفع هتافهم.. مساء الخير يا سارة. مساء الخير يا سارة. جنان. ارتفع اكثر بعد عرض مسرحيتى «فيدر» ثم «غادة الكاميليا». وظهرت فى الأسواق ماركة «س. ب» سارة برنار... قفازات سارة برنار. مشابك كرفتات سارة برنار. نظارات سارة برنار.. وأشياء أخرى ماركة «س.ب».

وخرجت سارة ذات مرة من المسرح فوجدت خمسة آلاف شخص فى انتظارها للتحية والهتاف. وتراجعت، وخرجت بدلا منها أختها بملابسها حتى ينصرف المجانين.

فى بدء جولة سارة بقطارها الخاص المزين بالورود والأعلام، اتجهت إلى مدينة بوسطن. توقف القطار عند قرية صغيرة اسمها «منلوبارك» Menlo-park فى منتصف الليل، حيث كان يقيم «توماس اديسون». استضاف رجل الاختراع الأمريكى الشهير اشهر شخصيات العصر المسرحية. وقدم لها عرضا خاصا لمخترعاته، المصباح الكهربائى، وانبهرت. وبعد فتح الشهية قدم الطبق الأول. أمسك بكاس فضية وقربها من فمه قائلا: هالو. وأجاب صوت آخر خرج من كأس آخر: هالو. هكذا تروى سارة تجربتها مع جهاز التليفون. ثم جاء الاستعراض الكبير. قرب «اديسون» فمه من بوق وأطلق صوته بنشيد حزين، ثم أشار لبعض مساعديه فانطلقوا معه فى غناء مرثية أمريكية معروفة لديهم باسم جثة «جون براون» John, Brown's, body وحبست سارة الرغبة فى الضحك. ولكن حينما وصل اديسون إلى المقطع الأخير قام وجماعته يرقصون رقصة وطنية.. وضحكت سارة ثم ابتلعت ضحكتها وتحولت إلى الاندهاش أو الذهول بعد أن سمعت صوت اديسون وأعوانه يتردد فى الجهاز مسجلا كل ما دار. صدر الصوت «حادا، منغوما، مشروخا يذكر بصوت القراقوز».. وكان هذا استعراضا لجهاز الفونوجراف. واختلطت الأصوات بالأضواء فى رأس سارة وداخت.. وغابت عن الوعى.

السخافة الأمريكية

أثناء استئناف الطريق إلى بوسطن بالسيارة فوجئت برجل يتعلق بالسيارة وتدفعه فيكاد أن يسقط، ثم يلتقط أنفاسه، ويلح فى محادثتها. ويقول بفرنسية سليمة: متى تذهبين غدا لتركبى الحوت. ما هذا الجنون.. أى حوت.

يجب أن تذهبى إليه غدا قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. إنه شىء عجيب. بل يجب أن تذهبى الليلة. وبعد قليل قفز رجل آخر إلى السيارة بملابس بهلوانية وجلس فى صمت. وعند وصولهم الفندق

سارة برنار في أمريكا

فهمت القصة. الرجل الثانى هو هنرى سميث، (Henry Smith) متخصص فى صيد الأسماك، اصطاد آخر مرة حوتا ضخما.. سحبوه عدة أميال ووضعوه فى الميناء، ينزف باستمرار من خطافين فى جنبه، ويلح الرجل على سارة لتشاهد أعجوبته قبل أن تستنفد دماءها وتموت. وتذهب سارة وتعتلى ظهر الحوت، ويلح عليها من جديد حتى تسحب من جسد الحوت إحدى صفائح فكه التى يصنع منها عادة مشدات السيدات. وتفعل سارة بعد تردد وخوف.

بعد عدة أيام تلتقى بالرجل فى مدينة «نيوهافن»، وتسأله عن سبب وجوده بالمدينة، وقبل أن تتلقى الرد تسمع ضجة قوية، وأصواتا موسيقية متنافرة عنيفة، وتطل من النافذة فتكاد أن تفقد الوعى. وجدت سيارة ضخمة مجللة بالسواد عليها إعلان ضخم جدا ملون، يعرض صورة سارة واقفة فوق ظهر الحوت، حوت ملئ بالحيوية والنشاط، وهى تنزع إحدى صفائح فكه. يقول الإعلان (تعال لتشاهد الحوت الذى قامت سارة برنار بنزع صفائح فكه، لتصنع منها مشداتها وتقوم السيدة ليلى نويل بهذه الصناعة فى مقرها فى...) وقام بعض الرجال المصاحبين للحملة الدعائية بتحريك أعلام بأيديهم، فتقرأ سارة فى إحداها (الحوت فى حالة نضرة.. إنه حى. فى داخل معدته ٥٠٠ دولار من الملح. وكل يوم يتم تغيير الثلج الذى يرقد فيه بمائة دولار).

التفتت سارة فى عصبية إلى سميث وصفعته كفين، وتحركت صارخة معلنة أنها تريد العودة حالا إلى أوروبا.. لقد سخر الرجل منها، وأهان ذكاءها سخرية مهينة بادعاء أن حوته ميت، وسخرية مريرة باستغلال اسمها فى الدعاية والمكسب. وبعد أن هدأت لم يرحمها الرجل. فقد كان يتبعها بسيارته السوداء، وحوته، وإعلانه وضجته أينما ذهبت تقدم عروضها.. وربح من ذلك الآلاف. وفى كل مرة كان يرسل إليها باقة ورد تحمل كلمة الود. وكادت تجن، وعرضت الكثير حتى تتخلص منه دون فائدة. ولم ينزعج كثيرا ممولو مسرحها وعروضها، ففى الأمر دعاية طريفة أسطورية تلهب خيال الجماهير المسحورة بالنجوم.


وتتعرض سارة لمحاولة سرقة فيها خيال أو افتعال. وتدخل مغامرة مع قطارها الخاص، وتنهى رحلتها بعد تقديم ١٥٦ عرضا خلال ستة أشهر، وتكون الحصيلة ٢,٧٦٦,٠٠٠ فرنك، نصيب سارة منها ٦٢٠,٠٠٠ فرنك.

بريشة روبرت جولد



سارة برنار نموذج لنجومية القرن قبل الماضى، أو نغمة من العزف المنفرد التى ذهبت مع قفزات القرن العشرين والواحد والعشرين المتسارعة، لا تستمر سوى شهور وفى تكرار فج فى أكثر من مكان.. لقد غابت النجوم الأرضية فى عصر الكواكب الكونية.. ذهب فيجارو الهادئ الواثق وجاء عصر الجماهير القلقة المذهولة. ذهبت سارة برنار الأوروبية الوقورة وجاء السليكون الأمريكى العجول وعلى الجماهير فى الغرب أن تدبر أمرها مع البطل الجديد. ■

الكـــو



■ من الصعب أن نتخيل العالم بدون وسائل المواصلات الحديثة، بدون الصناعات العديدة التى تنتج آلاف السلع ويستخدمها الملايين من البشر، بدون السينما والتليفزيون والكومبيوتر، وبدون الأجهزة الطبية والعقاقير، أو حتى بدون مطاعم الوجبات السريعة. لقد ساهمت «الكوربوريشن» فى كل ذلك، وأكثر من ذلك بكثير. لقد ذهب البعض إلى القول بأن «الكوربوريشن» هى أهم اختراع فى العصور الحديثة. هذا هو الوجه الوردى «للكوربوريشن»، ولكن كل ربح وراءه خسارة، وكل إنجاز يصحبه ضياع - الوجه الآخر «للكوربوريشن» هو موضوع هذا المقال.

ما أعنيه «بالكوربوريشن» هو الشركات الكبرى التى لها أسهم تُتداول فى بورصة الأوراق المالية وتخضع لقوانين معقدة. هناك أنواع أخرى كثيرة من «الكوربوريشن» ولكن هذا لا يعنينا فى هذا المقال. بعض هذه «الكوربوريشن» لديها ميزانيات وتأثير أكبر من الكثير من دول العالم. العديد من هذه الشركات تدير أعمالاً وتملك شركات أخرى فى عديد من بلاد العالم، وهذا يختلف عن العولمة والتى تعنى أساساً تسهيل عمل تلك «الكوربوريشن» فى العالم وإسقاط الحواجز المعيقة لذلك. مسئولية أصحاب «الكوربوريشن» أو مديريها تجاه الشركة مسئولية محدودة، فمثلاً قد تُفلس الشركة لسبب أو لآخر، ولكن الأملاك الخاصة لأصحابها أو المسئولين عنها لا تُمس. فى هذا المقال سأستخدم «الكوربوريشن» أو «الشركة» ليؤديا نفس المعنى، رغم ما فى ذلك من تجاوز.

لقد أصبحت تلك الشركات تتحكم فيما تأكل ونشرب ونلبس، ما نقرأ من أخبار، ما نشاهد على شاشات التليفزيون وفى السينما، وباختصار أصبحت تلك الشركات تؤثر فى العديد من أنشطة الإنسان فى كل مكان. ولم يكن ذلك التأثير كله جيداً، بل إن العديد منه لم يكن ضرورياً، بل حتى إن بعضه ذو أضرار جسيمة. لقد خلق البعض هذه «الكوربوريشن». لويس براندیس Lewis Brandis سنة ١٩٣٣ (وهو أحد قُضاة المحكمة الدستورية العليا بأمريكا) شبّه «الكوربوريشن» بالوحش «فرانكشتين» الذى خلقه أحد العلماء وانتهى الأمر بالمخلوق إلى قتل خالقه. لقد خلقت «الكوربوريشن»

The Corporation
(الشـركة)
Joel Bakan
Free Press, 2003.

ربوريشن

فكرى أندراوس

الحديثة فى أحضان النظام الرأسمالى والصناعى منذ حوالى ١٥٠ سنة وتحولت بمرور الزمن - رغم العديد من منافعها - إلى وحش يدمر البيئة ويستنزف العديد من الموارد الطبيعية ويكاثر العديد من الأمراض المستعصية ويزيد من ثراء قلة ومن فقر الكثيرين. هذا ما كان عناه «لويس برانديس» سنة ١٩٣٣، أما الآن فالوضع قد يكون أسوأ - وإن أصبح هناك دراية أكثر بما يحدث - وهناك اتجاه لتحسين مسار ذلك «الوحش» وترويضه ليخدم دون أن يُستخدم.

فى هذا المقال سنستعرض كيف بدأت هذه الشركات، كيف استخدمت النظام الديمقراطى لصالحها لتحقيق الربح وغالبًا دون سواه، بعض الأضرار التى سببتها تلك الشركات، كيف حاربها البعض بغرض ترويضها، ما هو دور تلك الشركات فى الدول الفقيرة، كيف أثّرت الكوربوريشن على الإعلام، وأخيرًا كيف أثّرت الكوربوريشن على الاقتصاد .

تنشأ «الكوربوريشن» نتيجة عقد بين مجموعة أشخاص وبين الحكومة لمزاولة أعمال معينة فى حدود معينة وتخضع لأحكام الحكومة. أُنشئت «الكوربوريشن» فى القرن الثامن عشر لأجل المنفعة العامة مثل إقامة الطرق والكبارى وشق القنوات ولم تنشأ لغرض الربح . بدأ الترخيص «للكوربوريشن» التى تعمل بغرض الربح بعد ذلك. مشاريع إنشاء وتشغيل السكك الحديدية فى إنجلترا وأمريكا فى منتصف القرن التاسع عشر كانت من أوائل «الكوربوريشن» التى أُنشئت بغرض الربح. كانت السكك الحديدية تخضع لأحكام الحكومة فيما تتقاضاه نظير خدماتها، ولم يكن ذلك محل رضا أصحابها رغم ما كانت تحققه من أرباح. بدأ أصحاب السكك الحديدية يلجئون للقضاء للتحرر من قيود الحكومة. وقد قال «توماس جيفرسون» (أحد واضعى الدستور ورئيس أمريكا) : «أتمنى أن تُسحق هذه «الكوربوريشن» أثناء ولادتها. إنها تتحدى قانون الدولة».

بعد الحرب الأهلية لتحرير العبيد فى منتصف القرن التاسع عشر، والتى لم تكن بعض الولايات راضية عنها، أُضيف بند للدستور الأمريكى ليكفل حقوق الإنسان (المقصود هنا بإشارة حقوق الإنسان أى العبيد المحررين، البند المضاف هو البند رقم ١٤) بذلك يمنع تشريع أى قانون يحد من حرية الإنسان والتى أصبح يكفلها الدستور للجميع. حتى ذلك الوقت كانت صفة «الكوربوريشن» القانونية صفة غير شخصية - وإن كان لها كيانٌ قانونى. استغل المحامون الإضافة رقم ١٤ وطالبوا أن تحصل «الكوربوريشن» على الصفة الشخصية الاعتبارية، حيث إنها تبيع وتشترى وتدفع ضرائب كأى إنسان. خلال سنين قليلة تمكنوا من تحقيق بعض من ذلك، بذلك تمكنت السكك الحديدية مثلاً من أن تتقاضى ما تراه مناسبًا نظير خدماتها دون أية مضايقة من مُشرعى الولايات.

استغل الإضافة رقم ١٤ فى أوائل عهدها (١٨٩٠-١٩١٠) ١٩ من السود و٢٨٨ من الشركات الكبرى. ما زالت الصفة الشخصية «للكوربوريشن» محل نقاش وعرض على القضاء، حيث إنه إذا كان «للكوربوريشن» صفة شخصية فهل يعطيها هذا الحق فى أن تدفع الملايين للمرشح الذى تريده (أو بالأحرى الذى تشتريه)؟ وإذا كان لها صفة شخصية لماذا لا يفلس أصحابها أو المسئولون عنها إذا أفلست الشركة كما يحدث للأشخاص؟ سنة ١٩٠٧ منع الكونجرس «الكوربوريشن» من تمويل الحملات الانتخابية؛ إلا إنه كانت هناك - ولا تزال - طرق كثيرة للتلاعب بذلك. ورغم إعطاء الصفة الشخصية الاعتبارية «للكوربوريشن» فمازال من حق الولاية أن تلغى قرار إنشاء «الكوربوريشن» أو أن تحولها للمحكمة أو أن تحولها لقطاع عام، أحيانًا يحدث ذلك، ولكن غالبًا مع الشركات الصغيرة والتى ترتكب مخالفات قانونية جسيمة.

كبرت الشركات وترعرعت وطرحت الأسهم فى الأسواق وساهم فيها الكثير من صغار المستثمرين ومتوسطو الدخل. أصبح «للكوربوريشن» الكثير من النفوذ السياسى وأزاحت عن طريقها بعض المشاكل وجعلت آخرين - أو العالم أجمع - يتولونها! مثل تلوث البيئة وانتشار أمراض السرطان وأمراض ضعف المناعة وأشياء أخرى من هذا القبيل، فالهدف الأول - والأخير فى أحيان كثيرة - كان - وغالبًا لايزال - هو الربح المادى. وحيث إن الهدف الأول لتلك الشركات هو تحقيق الربح؛ ارتكب بعض رؤساء الشركات أعمالاً قد تكون قانونية ولكنها غير أخلاقية يظهر بعضها أحيانًا على السطح مثل المكافآت الفلكية التى يحصل عليها البعض، أو فصل أعداد كبيرة من العاملين؛ أو قد يرتكب بعضهم أعمالاً غير قانونية بل تدخل فى نطاق النصب والاحتيال والتزوير مثل ما حدث مؤخراً مع شركة (إنرون) للطاقة والتى أفلست بين يوم وليلة رغم حجمها الهائل.

فى بداية حياة «الكوربوريشن» تداركت إنجلترا مدى إمكانية فساد هذه المؤسسات حين انهارت بعض الشركات ومن ضمنها الشركة الكبيرة South Sea Company فمنعت منح تراخيص للكوربوريشن ما بين عامى ١٧٢٠ و١٧٧٠ وقد قال الاقتصادى والعالم الشهير فى ذلك الوقت «آدم سميث» : «إن تصميم «الكوربوريشن» يؤدى إلى الفساد»، وقد حذر فى كتابه الشهير (ثروات الأمم) من أن رؤساء الشركات لا يمكن أن يوثق بهم لما لديهم من نفوذ. بدأت إنجلترا تمنح تراخيص «الكوربوريشن» مرة أخرى تحت ضغط ذوى النفوذ.

إذا نظرنا باختصار شديد إلى بعض الأعمال الضارة التى زاولتها أو تسببت فيها بعض الشركات الكبرى فى أمريكا مثلاً نجد أنه فيما بين عامى ١٨٨٨ و١٩٠٨ قُدّر عدد الموتى فى حوادث الصناعة بحوالى ٧٠٠,٠٠٠ قتيل؛ أى بمعدل ١٠٠ عامل فى اليوم فى زمن لم يكن فيه للعمال نقابات أو أية قوة تذكر. إذا نظرنا لبعض الشركات الأمريكية المعاصرة نجد أن شركات التبغ أضافت مواد كيميائية إلى السجائر لتزيد من إدمان المدخنين رغم علم الشركات أن التدخين يُسبب سرطان الرئة، وقد تمكنت تلك الشركات من إخفاء ذلك عن العامة وعن الكونجرس الأمريكى لمدة طويلة إلى أن قام بعض العاملين بالشركة بإفشاء السر. دفعت شركات السجائر تعويضات هائلة نتيجة تضليل الناس ولكنها لم تدفع أى تعويض لمن هم خارج أمريكا. إن مصاريف علاج السرطان باهظة ولا يقدر عليها الفقراء داخل أو خارج أمريكا. شركات الكيماويات تسبب العديد من المشاكل الصحية وخصوصًا أمراض السرطان وتدهور المناعة وولادة أطفال مشوهين أو معاقين عقليًا، بالإضافة إلى تلويث البيئة. المبيدات التى تستخدم فى الزراعة والهرمونات التى تُعطى للمواشى أو الدواجن للتسمين أو لزيادة إنتاج الألبان ينتقل جزء منها للإنسان مسببًا العديد من الأمراض. أمراض السرطان والتى تعود للتدخين والكيماويات التى صنعها الإنسان تصيب حوالى ٣٥٪ من البشر، هذا خلاف ١٥٪ من الرجال يصابون بسرطان البروستاتا نتيجة كبر السن. النباتات المعدلة وراثيًا تسارع الشركات بتسويقها دون معرفة تأثيرها على المدى الطويل، وفى أمريكا لا يُعلن عن وجودها فى قائمة المحتويات وحاش لله أن يُذكر ذلك فى الدول النامية! أما فى أوروبا وكندا وبعض الدول الأخرى فالقانون يلزم المنتج بإعلان وجود المواد المعدلة وراثيًا للمستهلك رغم معارضة أمريكا الشديدة لذلك. أما البذور المعدلة وراثيًا، فحتى تمنع الشركة المنتجة من استخدامها مرة ثانية يُضاف إليها ما يسمى «جين الانتحار» والذى يجعل البذور تنتج محصولاً مرة واحدة. بذلك يصبح المزارع معتمداً على الشركات المنتجة ليزيد ربحها ويقل ربح المزارع. إذا انتقل «جين الانتحار» أو بعض الجينات الأخرى المضافة إلى نباتات أخرى عن طريق حبوب اللقاح التى ينقلها الهواء قد تسبب كارثة فظيعة لبعض المحاصيل.

شركات الأدوية تحقق أرباحاً عالية، ومع ذلك فبعض الأدوية لا يستطيع محدودو الدخل شراءها، ولا يهم تلك الشركات أن تبتكر وتنتج أدوية خاصة بالبلاد الفقيرة ؛ حيث إن ذلك لن يكون مربحا، هذا بالإضافة إلى الإعلان المباشر للمستهلك عن بعض الأدوية والتى تمارس شركاتها المنتجة ضغطا على الأطباء لوصفها للمرضى. العالم المتقدم ينفق حوالى ٤٠٠ بليون دولار على الإعلان للتأثير على القوة الشرائية. لقد أصبحت شركات الإعلانات شيئًا من الصعب الاستغناء عنه

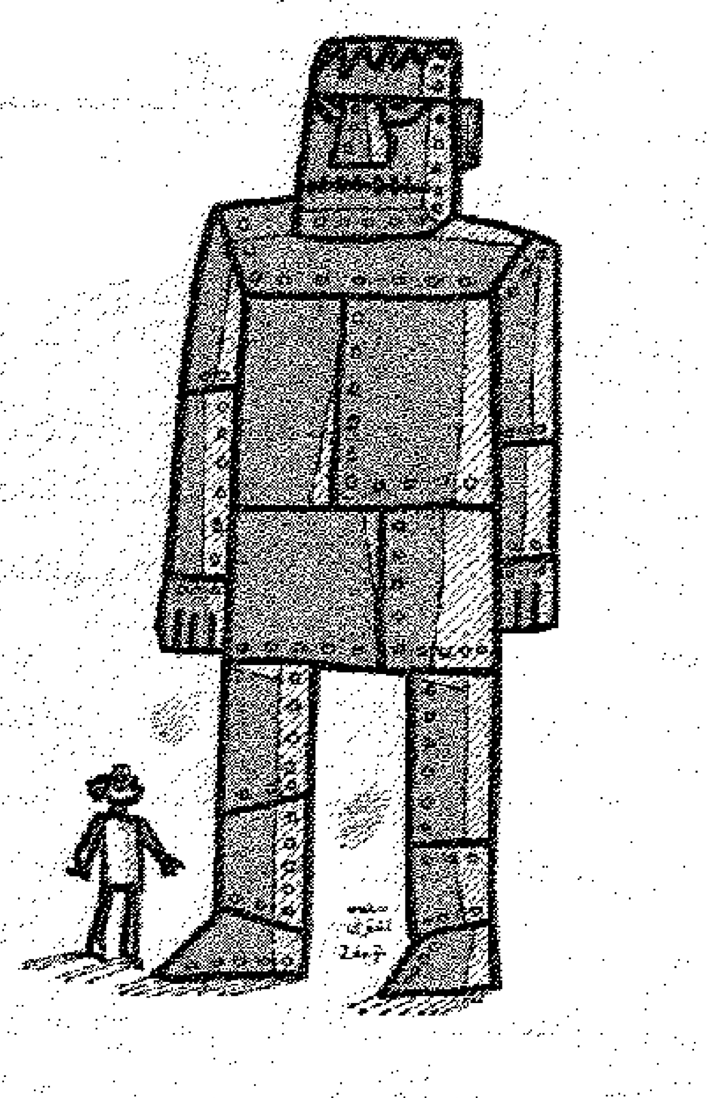
كبرت الشركات وترعرعت وطرحت الأسهم فى الأسواق وساهم فيها الكثير من صغار المستثمرين ومتوسطو الدخل وأصبح للكوربوريشن الكثير من النفوذ السياسى

خصوصا بالنسبة للمنتجات الجديدة.

أما شركات الوجبات السريعة مثل ماكدونالد وما على شاكلتها فبالإضافة إلى استخدامها مواد غذائية معدلة وراثياً وبها هرمونات ضارة، فإن ما تقدمه من مأكولات يعد غير صحي ويسبب السمنة المفرطة وما يتبعها من أمراض، وهوما يُعد من أبرز المشاكل الصحية التى تواجه المجتمع الأمريكى والمجتمعات الأخرى التى يكثر بها ذلك النوع من المطاعم. هذه بعض الأمثلة لما يحدث فى بعض الشركات بغرض الربح السريع. هناك آلاف المقالات والكتب والأفلام التسجيلية عن هذا الموضوع .

لقد حذرّ ثلاثةٌ من أفضل أساتذة التجارة ومفكريها فى بيان مشترك عام ٢٠٠٢ (Simon .R، من هارفارد، Mintzberg.H، من McGill، و K. Basu، من أكسفورد) من أن النظام الرأسمالى يواجه أزمة اقتصادية تهدد بتدمير نظام التجارة ذاته. إن رؤساء الشركات لا يأبهون سوى بتحقيق أقصى ربح ممكن . ورغم الربح الهائل الذى تحققه بعض الشركات- خصوصاً فى أمريكا- فإن سُدس أطفال أمريكا يُعدون فقراء، ٢٦٪ من القوى العاملة تحقق دخولاً ضئيلة، تجعلهم يعيشون على خط الفقر أو بالقرب منه، و٣٠٪ من الأمريكيين لا تتعدى ممتلكاتهم أكثر من ١٠٠٠٠ دولار، بينما قلة قليلة تتمتع بثراء يصعب تصديقه. إن متوسط دخل رؤساء أكبر ٢٣ شركة ما بين عامى ١٩٩٩ و٢٠٠١ هو ٢٠ مليون دولار فى العام لكل منهم، «Lawrence Ellison» رئيس شركة Oracle كان دخله فى عام ٢٠٠١ حوالى ٧٠٦ ملايين دولار أى بمعدل ٢ مليون دولار فى اليوم. والغريب حقا أنه حتى عندما يفشل رئيس الشركة فى مقابلة ما هو متوقع من تحقيق أرباح ويضطر إلى الاستقالة، فإن بعضهم يحصل على مكافآت خيالية. رئيس شركة Home Depot وهى شركة لأدوات البناء، ورئيس شركة فايزر للأدوية حصل كلاهما على حوالى ٢٠٠ مليون دولار نظير تقديم استقالاتهم!! هذا هو الحال فى أغنى بلد فى العالم وأقواها، ولك أن تتخيل باقى العالم وأغلبه فقير! هذا نظام لا يمكن أن يستمر.

الرئيس إبراهام لنكولن (١٨٠٩-١٨٦٥)، والذى خاض الحرب الأهلية ليحرر العبيد، قال قبل اغتياله بفترة قصيرة : « لقد تُوجت مجهودات الكوربوريشن، تزامن ذلك مع فساد بعض المناصب الكبرى بالحكومة، سوف تحاول قوة المال أن تسيطر على الناس حتى يتجمع المال فى أياد قليلة لينتهى الأمر بتدمير الجمهورية». لقد قال الرئيس الأمريكى «رادرفورد هايس» - Rutherford Hayes (1822-1893) : «لم



دفعت شركات
السجائر تعويضات هائلة
نتيجة تضليل
الناس ولكنها لم تدفع أى
تعويض لمن هم
خارج أمريكا. إن مصاريف
علاج السرطان
باهظة ولا يقدر عليها
الفقراء داخل
أو خـــارج أمـــريـــكـــا

تعد هذه الحكومة من الشعب بالشعب للشعب، لقد أصبحت حكومة الكوربوريشن بالكوربوريشن للكوربوريشن. لقد حذّر الرئيس «دوايت آيزنهاور» فى خطاب انتهاء مدة رئاسته (١٩٥٩) من سيطرة الشركات الكبرى المنتجة للسلاح وبسط نفوذها على الحكومة! تلك الشركات هى نفسها التى تنتج الطائرات والعربات التى يستخدمها المدنيون (مبيعات شركات الأسلحة تُقدّر بحوالى ٤٠٠ بليون دولار، أمريكا وحدها تُصدر ما يقرب من نصف الأسلحة المباعة فى الأسواق العالمية) .

كيف تحصل الكوربوريشن على هذه القوة الهائلة والتى لا يستطيع حتى بعض الرؤساء حيالها شيئاً؟ وهل هذا معقول؟ لقد قال الكاتب الأمريكى الشهير «مارك توين» (١٨٣٥- ١٩١٠) « إن أمريكا لديها أفضل كونجرس يشتريه المال». أعتقد أن هذه هى الإجابة. إن هناك خللاً كبيراً فى النظام الديمقراطى الأمريكى. إن نظام الانتخابات والذى يُموله مادياً أصحاب المصالح ويتحكم فيه الإعلام بدرجة كبيرة -والذى تملكه أيضاً الشركات الكبرى - هو أُس البلاء. إن ٩٦٪ من الأمريكيين لا يساهمون فى تمويل الانتخابات. فإذا علمنا أنه فى عام ٢٠٠٠ صرف المُرشحون حوالى ٣ بلايين دولار على الحملات الانتخابية، فلك أن تتخيل من دفع هذه المبالغ وما تأثير ذلك على النظام الديمقراطى.

إن رؤية رؤساء أمريكا المعاصرين تكاد تماثل رؤية رؤساء «الكوربوريشن». ويرجعنا ذلك إلى ما قاله الرئيس الأمريكى رادرفورد : «لقد أصبحت حكومة الكوربوريشن بالكوربوريشن للكوربوريشن». أصبحت «الكوربوريشن» هى الكاهن الأكبر، أما الإله فهو الدولار- كما قال الشاعر «أحمد فؤاد نجم» .

إن ٧٠٪ من الأمريكيين يعتقدون أن «الكوربوريشن» تسيطر على أوجه عديدة من حياتهم، وأن رؤساء الشركات يحصلون على أكثر مما يستحقون ويزاولون سلطتهم على الحكومة، ولذلك فإن ثقة الأمريكيين فى الكونجرس ضعيفة للغاية. لا أعتقد أن الأمريكيين يختلفون فى كراهيتهم «للكوربوريشن» عن باقى شعوب العالم، بل قد يكونون أكثر كراهيةً لها لأنهم أكثر دراية بها، يبدو أن القيادات السياسية - ليس فى أمريكا فقط، بل فى كثير من بلاد العالم- لم تعد قادرة على أكثر من انتقاد القيادات المعارضة .

فى أوائل الثلاثينيات كان النظام الرأسمالى مهدداً من الداخل، فكان الانهيار الاقتصادى . لجأ الرئيس «فرانكلين روزفلت» Franklin Roosevelt إلى الحد من نفوذ «الكوربوريشن» وأصدر قوانين لحماية العمال وإعفاء المزارعين من بعض الديون، وتولت الحكومة بعض الإنشاءات لتشغيل العمال بنفسها بدلاً من «الكوربوريشن» وأصبح هناك شفافية فى أداء الحكومة بعد أن كانت هناك كما قال «روزفلت» « أياد خفية تتلاعب بالاقتصاد». وافق بعض الرأسماليين على برنامج «روزفلت»، والذى سُمى صفقة جديدة «New Deal»، ولكن البعض الآخر لم يكن راضياً، ودبروا مؤامرة للخلاص من «روزفلت» ولأن هذه القصة قد يصعب على الكثيرين تصديقها - ومن ضمنهم الأمريكيون - فإننى سأذكرها باختصار شديد، وهى منشورة فى مرجع رقم ١ ص ٨٥-٩٥ :

كان بعض الرأسماليين معجبين بالنظام الفاشى فى إيطاليا والنازى فى ألمانيا . لقد أعطت تلك النظم حرية كبيرة للشركات، ومنها IBM وجنرال موتورز، وقد حققت تلك الشركات أرباحاً كبيرة. حاول البعض من كبار رجال الصناعة والمال استمالة جنرال متقاعد اسمه «سميدلى بتلر» Smedley D. Butler ، وكان ذا شهرة واسعة وعلى اتصال بكثير من العسكريين ؛ ليساعدهم فى الخلاص من «روزفلت». من بين من تورطوا فى هذه المؤامرة رئيس بورصة نيويورك، ورؤساء شركات مورجان ترست، جود يير، دوبونت، حديد بيت لحم، وآخرون . طُلب من «بتلر» أن يجهز نصف مليون عسكرى وكان هناك حوالى ٣٠٠ مليون دولار جاهزة لتلك العملية. إلا أن «بتلر» لم يكن الشخص الذى يقبل الاشتراك فى مؤامرة من هذا النوع. كان «بتلر» قد دخل حروباً عديدة وحاز الكثير من التقدير، ولكنه اكتشف أنه كان يخوض تلك الحروب لصالح بعض الشركات وبيوت المال . قال «بتلر» : « لقد دخلت المكسيك لصالح شركات البترول، والدومينيكان لصالح شركات السكر، وهاييتى وكوبا ونيكاراجوا لصالح البنوك، وهندوراس لصالح شركة الفواكه الأمريكية» . قال الجنرال بتلر : « لقد اغتصبت ستاً من دول أمريكا اللاتينية لصالح رجال بورصة المال، أما الصين فقد دخلتها لصالح شركات الغاز».

فى ١٣ فبراير سنة ١٩٣٥ كشف «بتلر» عن المؤامرة للكونجرس. هذا ما حاول بعض الرأسماليين عمله ولكنهم لم يوفَقوا. لقد أوضح الجنرال «بتلر» دور الجيش الأمريكى فى خدمة الشركات الأمريكية، ومازال هذا يحدث للآن. قبل انتقال السلطة (؟) من جيش الاحتلال الأمريكى إلى الحكومة العراقية، قام «بريمر» الحاكم الأمريكى للعراق (كان قبل ذلك مدير Kissinger & Associates) .. فرض حوالى ١٠٠ قرار على الحكومة العراقية لضمان التحكم فى جميع مفاصل الحياة الاقتصادية العراقية لصالح الشركات الأمريكية .

استمر «روزفلت» فى سياسته الإصلاحية، ولقى قبولاً كبيراً من الأمريكيين وتخطت أمريكا الانهيار الاقتصادى. استمرت بعض قرارات تلك الفترة إلى أن جاءت «مارجريت تاتشر» فى إنجلترا عام ١٩٧٩ و«رونالد ريجان» فى أمريكا عام ١٩٨٠ ليزيلا العديد من العقبات من أمام «الكوربوريشن» لتندمج العديد من الشركات ولتقل المنافسة، ليحقق بعضها أرباحاً خيالية ويختفى البعض الآخر تحت راية «تحرير الاقتصاد».

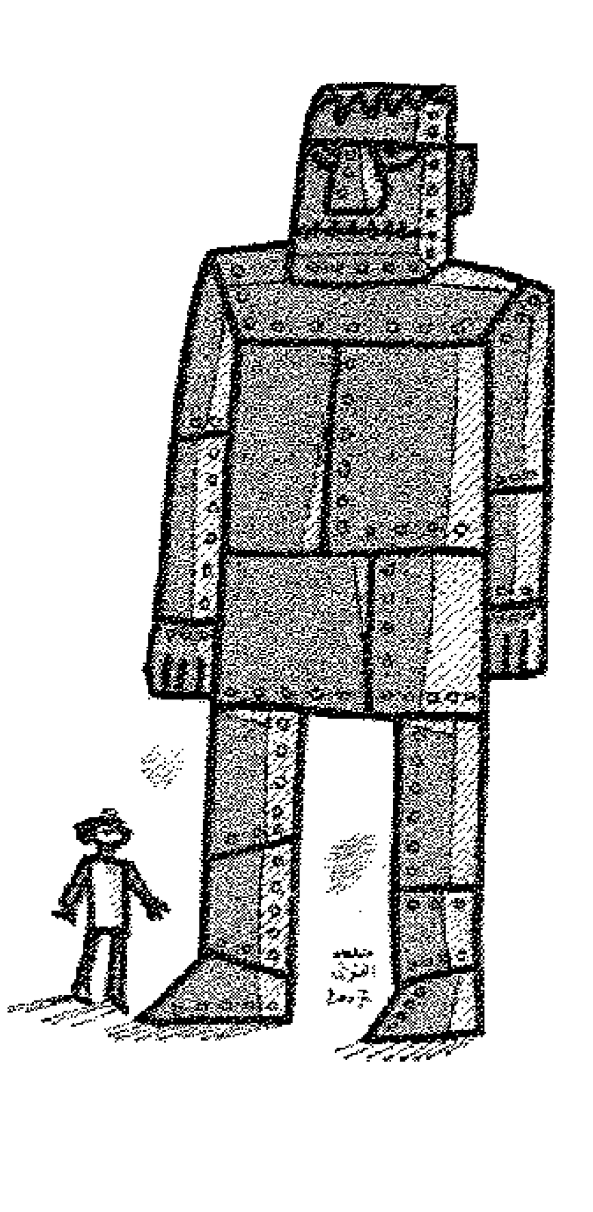
بعد سقوط الحواجز من طريق «الكوربوريشن» بدأت الشركات تنظر لأفضل أماكن التسويق والعمل. من بعض العوامل التى تؤثر فى ذلك رخص العمالة، وتوافر الكوادر الفنية، والميزات المادية من ضرائب، وأسعار الأراضى، وسهولة التخلص من

نفايات المصانع ومدى الالتزام بقوانين البيئة، المناخ، ووجود نقابات للعمال أو عدمه، والاستقرار السياسى. شركة BMW للسيارات أرادت بناء مصنع جديد فبحثت فى ٢٥٠ موقعاً فى ١٠ بلاد، استقرت الشركة على ولاية شمال كارولينا بأمريكا. الولاية من ناحيتها أخلت ١٠٠٠ فدان بتكلفة قدرها ٣٧ مليون دولار من المال العام وأجَّرتها للشركة بدولار واحد فى العام، بالإضافة إلى تحمُّل مصاريف تدريب العمال والموظفين. مكسب الولاية يعود من الضرائب التى تُحصَّل من الشركة والعاملين بها. هذا ما يحدث إذا اختيرت الشركة فى دولة متقدمة، أما إذا اختيرت فى إحدى الدول النامية فالأمر يختلف. بعض الشركات الأمريكية انتقلت للعمل قرب الحدود المكسيكية ومنها جنرال إليكتريك، فورد، RCA وهانى ويل. استخدمت تلك الشركات حوالى نصف مليون عامل مكسيكى. كان أجر العامل فى بعض هذه الشركات فى أمريكا هو ١٦ دولار فى الساعة، أما فى المكسيك فأصبح أجر العامل ١.٦ دولار فى الساعة، كانت مساكن العمال متواضعة للغاية وكان بعضها خالياً من المياه الصالحة للشرب ودورات المياه، واعتبرت الشركة ذلك ليس من مسئوليتها. ولم تكن المكسيك ملتزمة بقوانين البيئة كأمريكا. كانت بعض الشركات تستخدم أطفالاً فى بعض الأعمال وهو ما لا يسمح به القانون الأمريكى أو الدولى. قررت شركة فورد فى المكسيك أن تفصل ٣٤٠٠ عامل، وأن تُخفض رواتب باقى العمال بنسبة ٤٥٪. فثار العمال. أرسلت الحكومة عساكرها ليطلقوا الرصاص بطريقة عشوائية على الثائرين، وهكذا أصبحت وظيفة الحكومة حماية الشركات بدلاً من حماية شعوبها.

إذا نظرنا إلى السلفادور والدومنكان مثلاً نجد أن عمالة القميص تتكلف ٣ سنت (حوالى ١٨ قرشاً) ويباع للمستهلك الأمريكى بحوالى ١٥ دولاراً ويصنع فى ٦.٦ دقيقة. الجاكت يتكلف ٧٤ سنتاً ويباع للمستهلك بمبلغ ١٧٨ دولاراً. النمو السريع فى البلاد الفقيرة يؤدى إلى تحسين المطارات والطرق ومكيفات الهواء ووسائل التصدير. هذا النوع من التقدم يتم لخدمة التصدير الذى يعود بالعملة الصعبة والتى تنعكس فى المحلات الكبيرة والأزياء الحديثة والفنادق والمطاعم الفاخرة التى تخدم القلة المقتدرة. التفاوت الكبير فى توزيع الثروة - وخصوصاً فى الدول الفقيرة - يؤدى إلى الانحلال، والذى يظهر بعض أعراضه فى الهجرة العشوائية وانتشار الدعارة. يقدر عدد من يتعيشون من الدعارة من الأطفال فقط فى كلٍ من تايلاند وسيريلانكا والفلبين بحوالى نصف مليون طفل بعضهم يمول عائلاتهم. يعتقد العديد من السياسيين والبنك الدولى، وصندوق النقد الدولى، منظمة التجارة العالمية، منظمة التعريفة الجمركية والتجارة، وبعض الاقتصاديين والشركات الكبرى أن التنمية الاقتصادية هى المفتاح لحل مشاكل الفقر. بعض من يعارض هذا الرأى لا يُعتد بهم كثيراً. ولكن هناك حدوداً للتنمية الاقتصادية. التنمية الاقتصادية مهمة إذا أنتجت سلعاً ذات فائدة حقيقية، وإن لم تعمد إلى استنزاف مواردنا الطبيعية. الحقيقة أن معدل النمو GDP (أى معدل سريان المال فى الاقتصاد) لا يأخذ فى الاعتبار أياً من ذلك، حيث إن معدل النمو قد يزداد دون أن يؤثر ذلك على الفقراء. فى كتاب (Common Good) وجد المؤلفان (H. Daly & J. Copp) أنه بين عامى ١٩٦٩ و١٩٨٦، وبعد الأخذ فى الاعتبار الزيادات التى أدت إلى زيادة حقيقية فى تحسين المعيشة، أنه لم تحدث زيادة حقيقية فى دخل الأمريكيين، بل إن الدخل الحقيقى لأغلب الأمريكيين قد قلَّ. (مرجع رقم ٤ صفحة ٤٦). ومن ناحية أخرى وجدت منظمة الأمم المتحدة للتنمية أنه ليس بالضرورة أن ينعكس تحسن الاقتصاد على احتياجات الإنسان الضرورية، فمثلاً نسبة الأمية فى سيريلانكا أقل من المملكة السعودية رغم أن معدل الدخل فى السعودية أكبر من سيريلانكا ١٥ مرة. ومعدلات الوفيات فى البرازيل أربعة أضعاف تلك التى فى جامايكا. لقد قال الاقتصادى البريطانى «R. Butler» عام ١٩٥٤: «إنه بزيادة سنوية قدرها ٣٪ سيتضاعف الاقتصاد خلال ٣٠ عاماً». وفى عام ١٩٨٩ حاول «R. Douthwaite» أن يدرس كيف أدت مضاعفة الدخل إلى تحسين أحوال الناس؟ ووجد أن كل المؤشرات الاجتماعية قد انحدرت: الأمراض زادت، الجرائم زادت، البطالة زادت، ونسب الطلاق زادت أيضاً، رغم العديد من مظاهر التقدم التكنولوجى. وينطبق هذا على أغلب بلاد العالم.

إن مجرد النظر إلى معدل النمو الاقتصادى لا يعكس بالضرورة واقع معيشة الناس واحتياجاتهم المعيشية من مياه صالحة للشرب، صرف صحى، معدلات استهلاك الأطعمة، مستوى التعليم والصحة العامة. ولكن معدل النمو قد يعكس مدى توفيق «الكوربوريشن» فى التجارة والصناعة وتحقيق الأرباح. لقد تعرض «جلال أمين» فى كتابه (خرافة التقدم والتأخر) لبعض مما تحاول الدول الغنية فرضه على الدول الفقيرة بحجة التنمية.

هناك مشاريع كثيرة لتحسين أحوال الفقراء، ليس بالضرورة عن طريق العمالة لدى الشركات الكبرى، لقد كرمت لجنة نوبل هذا العام الاقتصادى «محمد يونس» لتبنيه مشروعاً لمساعدة النساء عن طريق منحهم قروضاً بسيطة مصحوبة ببعض المساعدات التكنولوجية. بدأ المشروع فى بنجلاديش، بعد عشر سنوات أعانت تلك المشاريع ٢.٧ مليون عائلة فى ٢٢ بلداً. هناك مشاريع أخرى مشابهة تتبناها مؤسسات مختلفة. «الكوربوريشن» لن تُحسن حال الفقراء؛ فهذا ليس من ضمن أهدافها.



قال الرئيس الأمريكى الراحل «رازرفورد هايس»: لم تعد هذه الحكومة من الشعب بالشعب للشعب، لقد أصبحت حكومة الكوربوريشن بالكوربوريشن للكوربوريشن

أهم ما يؤثر فى قيمة «الكوربوريشن» هو أرباح الشركة الحقيقية والمستقبلية. إذا انخفضت قيمة الأسهم كثيراً تبدأ الشركات الأقوى فى الاستيلاء على الشركات الضعيفة بالاتفاق أو بشراء قدر من الأسهم يكفل ذلك. إنها حرب ضروس يستولى فيها القوى على الضعيف. لهذا لا تستطيع بعض الشركات أن تخطط للمستقبل البعيد لأن هذا مكلف ويؤثر على أرباح الشركة والتى تُعلن كل ثلاثة أشهر. وهنا يجب أن نلاحظ أن الشركات فى الماضى كان مؤسسوها يمتلكون جزءاً كبيراً من أسهمها، وكان فى إمكانهم أن يخططوا للمستقبل. أما الآن فأغلب الشركات تُدار بكوادر فنية نمت فى أحضان تلك الشركات، وهؤلاء لا يملكون من أسهم الشركة ما يجعلهم ذوى نفوذ قوى. إن قوتهم تعود إلى ما يحققونه من أرباح، ورواتبهم ومكافآتهم تعتمد على ذلك، وبقاءهم كرؤساء للشركة غالباً لا يزيد كثيراً على خمس سنوات.

نتيجة عدم قدرة العديد من الشركات على التخطيط ينتهى الأمر بذوبانها فى شركات أخرى. عادةً ما يكون ذلك مصحوباً بالاستغناء عن بعض أو كثير من العاملين. فى العقدين السابقين أصبحنا نسمع عن شركات تذوب فى كيانات أخرى أو تختفى تماماً كما اختفت شركتا (بان اميريكان) و(TWA) وقد كانتا من أكبر شركات الطيران فى العالم. ومن الطبيعى أن يعانى من ذلك كثير من العاملين.

نتيجة ضعف بعض الشركات الأمريكية تلجأ بعض تلك الشركات إلى الاستغناء عن كثير من العاملين فيما يسمى بالتصغير (Down Sizing) لأن ذلك يزيد مما يبدو ربحاً فورياً للشركة. ولا يعتبر ذلك فى نظر البورصة دليلاً على فشل الشركة بل على العكس تزداد قيمة الأسهم. فى عام ١٩٩٦ قررت شركة التليفونات (AT&T) أن تفصل ٤٠،٠٠٠ من العاملين فزادت قيمة الأسهم وارتفعت قيمة أسهم رئيس الشركة إلى ٤٥ مليون دولار، وكان راتبه السنوى خمسة ملايين دولار. أمثلة أخرى من هذا القبيل أصبحت جزءاً من النشرات الإخبارية، أى أنها أصبحت شيئاً عادياً فى المجتمع الأمريكى رغم أن الشعب الأمريكى لا يتقبله. هذه هى الديمقراطية الأمريكية.

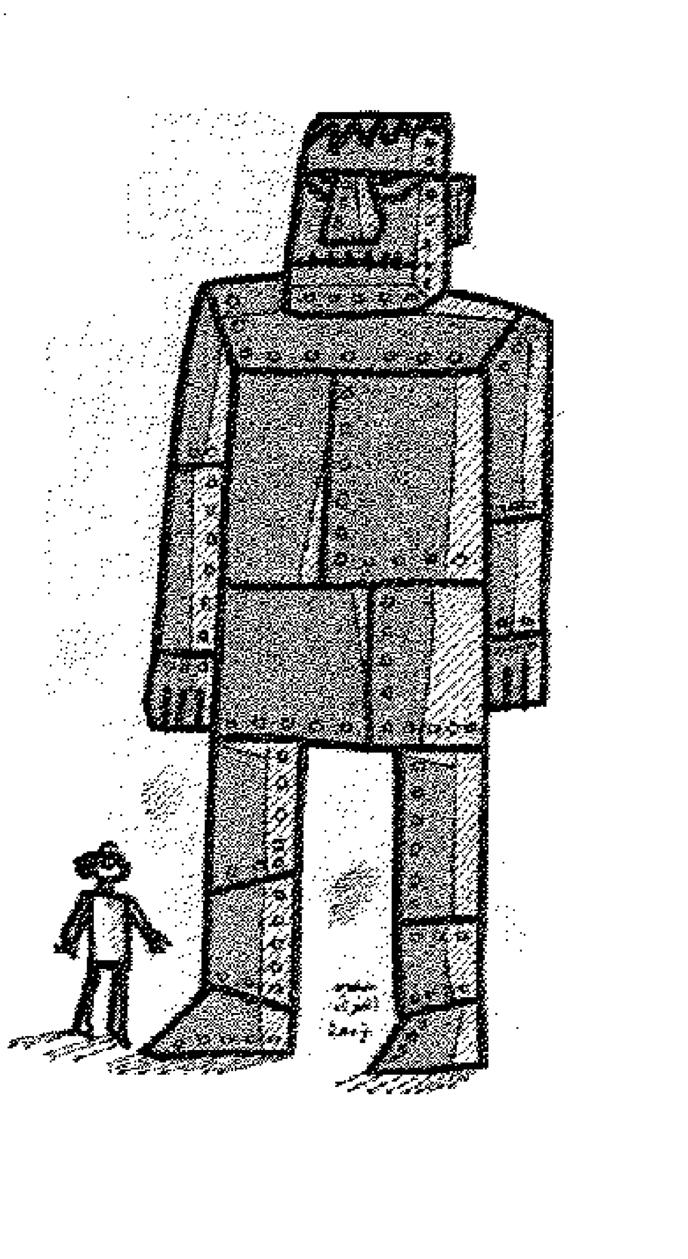
يجب أن تلفت النظر هنا إلى أن بعض «الكوربوريشن» الأمريكية بدأت تفقد قدرتها على الابتكار والجرأة فى تمويل مشروعات كبيرة - عكس نظيرتيها الأوروبية واليابانية. حتى عام ١٩٦٩ كانت أمريكا تملك ٨١٪ من أكبر ٥٠ شركة فى العالم، عام ١٩٧٤ أصبحت تملك ٥٧٪، وفى عام ١٩٩٣ أصبحت تملك ٣٦٪ فقط. يتضح هذا أيضاً من مبيعات أوروبا واليابان التى تزداد، بينما مبيعات أمريكا تنكمش. ومع ذلك فمرتب ومكافآت رؤساء الشركات الأمريكية أعلى بكثير من نظرائهم فى أوروبا واليابان، بل وتستمر فى الزيادة. فى تقرير لمجلة (Business Week) كان راتب رئيس الشركة فى المتوسط هو ١.٩ مليون دولار عام ١٩٩٠ ثم قفز إلى ١٠.٦ مليون دولار عام ١٩٩٨. فى نفس الفترة تضاعفت قيمة

الشركة مرة واحدة، ولم تزد أجور العاملين الحقيقية.

وهناك مشكلة أخرى فى «الكوربوريشن» الأمريكية. ذلك أن العديد من رؤساء الشركات يكون اهتمامهم الأول بالشئون المالية والقانونية، وقليل منهم لهم اهتمامات بشئون الإنتاج. أهم مركز بعد رئيس الشركة الأمريكية هو رئيس الشئون المالية والمهتم بقيمة الأسهم وبورصة المال، وكذلك المكافآت والعلاوات . إذا قارنّا ذلك باليابان نجد أن أهم مركز بعد رئيس الشركة هو لشئون الأفراد والاهتمام بشئون العاملين. أما فى ألمانيا فأهم مركز بعد رئيس الشركة هو للإدارة الفنية التى تبنى وتُطوِّر المصانع.

الإعلام الذى تملكه الدولة أو الذى تسيطر عليه الشركات الكبرى أصبح يُمثِّل من يملكه أكثر من أن يُقدِّم أخباراً حقيقية تهم الناس وتكون غير منحازة . فإذا نظرنا إلى أمريكا مثلاً نجد أنهُ فى عام ١٩٤٦ كان ٨٠ ٪ من المؤسسات الصحفية يكاد أصحابها أن يكونوا مستقلين، أما الآن فأصبحت ٨٠٪ من الصحافة تملكها شركات كبرى. أما شركات التليفزيون فأصبح يملك أغلبها شركة جنرال إليكتريك أو شركة ديزنى (Disney) . إن رؤساء شركات الإعلام يحققون دخولاً فلكية والإعلام الغنى ماديا يتبعه فقر الديمقراطية. شركة فوكس FOX مثلاً والتى يملكها «روبرت موردوش» Rupert Murdoch تملك العديد من محطات الراديو والتليفزيون فى بلاد عديدة، خلاف الصحف والمجلات . «موردوش» له اتجاه سياسى يمينى قوى ينعكس فيما تبثه وتنشره شركاته الإعلامية . عندما حاول بعض مخرجى البرامج من العاملين فى فوكس أن يعرضوا فيلماً تسجيلياً عن أضرار استخدام الهرمونات التى تزيد من إدرار المواشى للألبان والذى تنتجه شركة «مونسانتو» تحت اسم (Posilac). لم تسمح الشركة بعرض الفيلم تحت ضغط من مونسانتو. انتهى الأمر بفصل المخرج وفصل كل من رفض الإذعان لقرار فوكس Fox بعدم العرض. لم تعرض الفيلم أية محطة تليفزيون، رغم أن العديد من البلاد الأوروبية ترفض استخدام هذه الهرمونات لما تسببه من أضرار للإنسان.

رغم قوة الشركات الكبرى وتأييد العديد من الحكومات لمطالبها، إلا أنه هناك مقاومة تتماسك وتقوى بمرور الزمن فى عديد من الدول - سيان الغنية أو الفقيرة - وإن كانت تلك المقاومة تبدو غالباً فى صورة مظاهرات سلمية تتجه للعنف أحياناً إلا أنها وسيلة ديمقراطية لإبداء الرأى لا يستهين بها المسئولون وتزيد وعى عامة الناس. ينتج عن هذه المظاهرات أيضاً تكوين جمعيات غير حكومية، وهذا فى غاية الأهمية. لقد كان الناس يلجئون



٧٠٪ مـــن الأمريكيين يعتقدون أن «الكوربوريشن» تسيطر على أوجه عديدة من حياتهم، وأن رؤساء الشركات يحصلون على أكثر مما يستحقون ويزاولون سلطتهم علـــى الحكـــومـــة

للحكومة فى الماضى لتخفيف حدة معاناتهم، أما الآن فيصر رجال الأعمال وبعض الاقتصاديين أنه لا دخل للحكومة فيما يختص بالصناعة والتجارة. فإذا كان الحال كذلك فلابد للمنظمات غير الحكومية أن تكتسب قوة للضغط على المسئولين. هناك أمثلة عديدة ناجحة لمقاومة سيطرة الكوربوريشن منها بعض الهيئات الحكومية، مئات الجمعيات والمؤسسات التى تراقب وتقاضى تلك الشركات. ما بين عام ١٩٩٩ وحتى عام ٢٠٠١ كان هناك ٢٤ قضية كبيرة ضد شركة جنرال إليكتريك كلفت الشركة أكثر من ٥٠٠ مليون دولار . هناك قضايا مماثلة ضد كل الشركات الأمريكية الكبيرة تقريباً وإن كان أشهرها قضايا شركات التبغ والتى سبق الإشارة إليها.

فى بوليفيا كانت شبكة المياه متآكلة ويلزم تجديدها، تحت ضغط من البنك الدولى خصخصت الحكومة شركة المياه للحصول على قرض لتجديد شبكة المياه. بيعت شركة القطاع العام لشركة (باكتل) الأمريكية. رفعت الشركة الجديدة سعر المياه ثلاثة أضعاف وتحت ضغط من الشركة أصدرت الحكومة قرارات بمنع الناس من تجميع مياه الأمطار أو استخدام مياه البحيرات والأنهار!! بدأت الجماهير معارضة منظمة تحت قيادة واحد منهم اسمه «أوسكار أوليفيرا» التف حوله حوالى مائة ألف مواطن، وطالبوا الشركة بمغادرة بوليفيا بعد مواجهات عديدة مع القوات الحكومية راح ضحاياها البعض، اضطرت الشركة لمغادرة بوليفيا وسقطت الحكومة التى تورطت مع الشركة. قال «أوسكار» : «إن الناس شعروا بقوتهم وقدرتهم على اتخاذ القرار. إن قدرة الجماهير على اتخاذ القرار هى الديمقراطية» . أعيدت شركة المياه للقطاع العام، وكُوِّنَ مجلسُ إدارةٍ جديد به ممثلون من المسئولين ونقابات العمال.

الهند تعطينا مثالاً آخر لمقاومة الشركات الكبرى : تحاول «مونسانتو»، والتى تملك ٧٠-١٠٠٪ من سوق البذور المُعدلَة وراثياً أن تغزو السوق الهندية، الفلاح الهندى الفقير غير قادر على دفع ما تطلبه الشركة . لقد انتحر بعض الفلاحين الهنود لعدم قدرتهم على دفع الديون . نظَّمَ بعض الهنود جمعيات غير حكومية لمقاومة مونسانتو. كانت المقاومة فعَّالة، واستطاعت أن توقف أحياناً نشاط الشركة بالهند. أوقفت الهند استعمال بذور القطن المُعدَّل وراثياً وبعض بذور الغذاء. إن قانون براءة الاختراع يمنع إعادة تشكيل الحياة، ولكن الحكومة الأمريكية لا تعترف بذلك لصالح الشركات. إن ضغط الحكومة الأمريكية لصالح مونسانتو لا يحتمله البعض، لقد قال بوش «إن من يقف فى طريق البذور المُعدَّلة وراثياً يقف عقبةً فى طريق القضية العظمى لإنهاء الجوع»!! رغم الضغط الأمريكى إلا أن بعض الدول تعارض - ولأسباب جيدة - ولا تستخدم الأغذية المُعدَّلَة وراثيا. من ضمن هذه الدول كل الدول الغنية وبعض الدول الفقيرة مثل البرازيل، زامبيا، الهند والمكسيك. قد تكون البذور المُعدَّلة وراثياً ذات فائدة جليلة، ولكن يجب ألاَّ تُترَك فى أيدى الشركات التى تسعى للربح السريع دون تقدير لما قد يحدث فى المستقبل.

قد تضطر الكوربوريشن لدفع تعويضات نتيجة ما تسببه من أضرار. شركة PG&E الأمريكية دفعت ٣٣٣ مليون دولار تعويضاً إلى ٦٣٤ عائلة تقطن بجوار الشركة التى لوثت المياه الجوفية بمادة كروميم ٦ وهى أحد منتجات الشركة. أما فى الدول الفقيرة فإنها قصة أخرى، شركة مونسانتو استخدمت المبيد Orange Green والذى تسبب عنه حوالى ٥٠٠٠٠ ولادة مشوهة و١٠٠٠٠٠ حالة سرطان. دفعت الشركة لحكومة فيتنام ٨٠ مليون دولار فقط!! أعتقد أن ذلك لا يحتاج لتعليق.

نتيجة الشعور العام بعدم الثقة فى الشركات الكبرى بدأت بعض الشركات تحاول أن تُحسِّن من صورتها العامة. شركة التبغ (ABT) قررت أن تنشىء المركز الدولى للمسئولية الاجتماعية للشركات بتكلفة قدرها ٧ ملايين دولار. شركة شل أعلنت أنه يجب على الشركات أن تلتزم بمعاهدة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان. شركة الغاز البريطانية (P.B) أعلنت وجوب الالتزام ببروتوكول كيوتو للأمم المتحدة للإقلال من الغازات التى سببت ثقب الأوزون .وهناك أمثلة أخرى كثيرة من هذا القبيل؛ فالشركات تحاول بطرق مختلفة أن تُحسِّن من صورتها، ولكن هدف الشركة الأول من ذلك هو تحقيق الربح. بعض الشركات قد تكون جادة فى محاولتها للإصلاح - وهذه أعتقد أنها قِلَّة، أما الأغلبية فينطبق عليها المثل الشعبى «تحلف لى أصدقك، أشوف أمورك استعجب»!

أعتقد أن النظام الشيوعى فشل لعدم مرونة النظام للتغيير. ولقد اعتقد البعض أن النظام الرأسمالى نجح بسبب فشل النظام الشيوعى، ولكن فى رأيى أن النظام الرأسمالى أيضاً قد فشل، خصوصاً فى أمريكا، ولكن لوجود بعض المرونة وبعض الديمقراطية فإنه مستمرٌ لفترة أطول. ولكن ما لم يتطور النظام الأمريكى للتغلب على مشكلة الرأسمالية الأساسية وهى الجشع فإنه سوف يدمر نفسه . إننا فى حاجة إلى ثورة أخرى لإصلاح العديد من مشاكل الثورة الصناعية، ثورة سلمية تبث روحاً جديدة فى نفوس البشر وعقولهم. ثورة تعتمد على ديمقراطية مستنيرة لا تستغلها الشركات الكبرى .

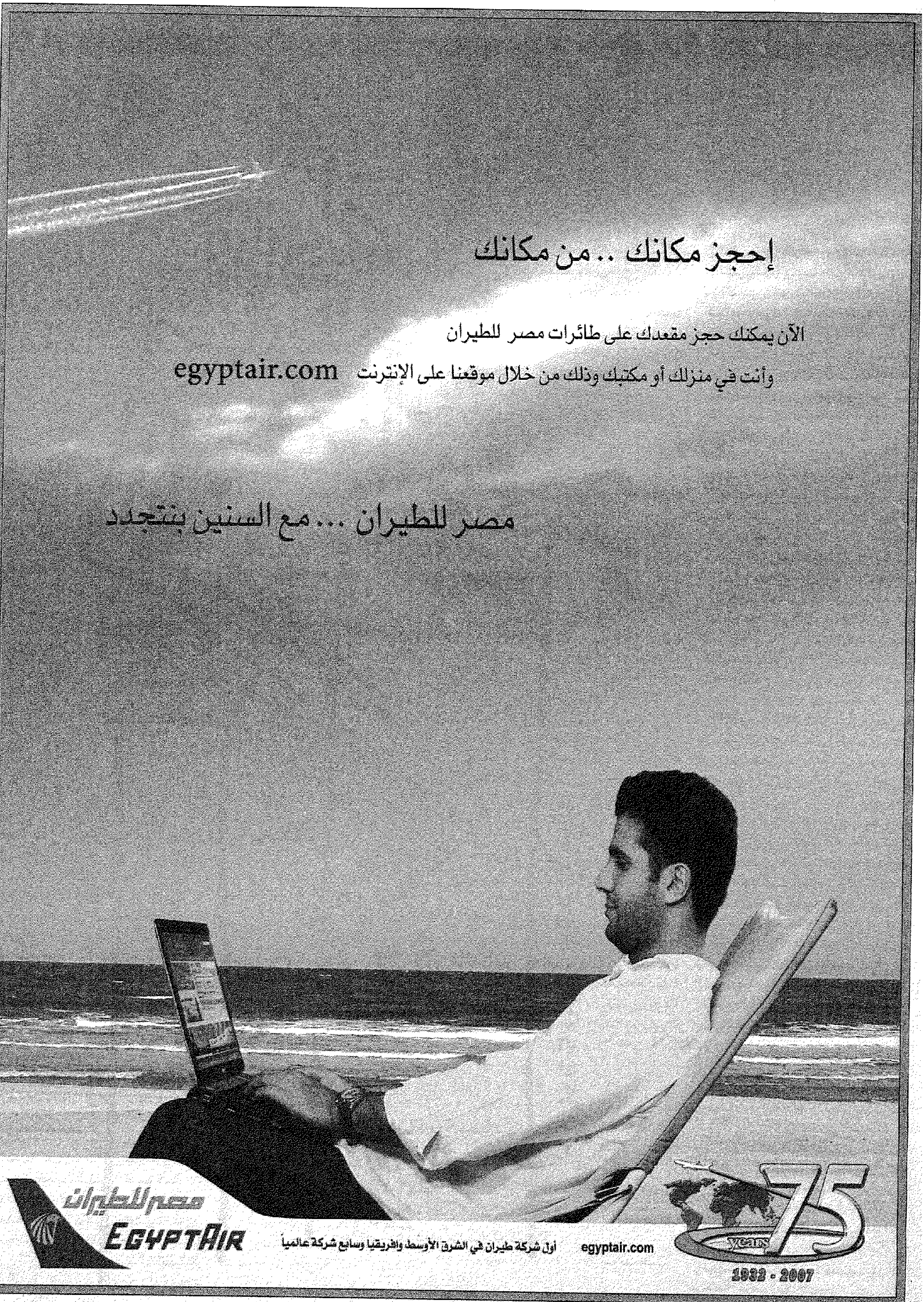
لقد قال «جبران خليل جبران» فى كتاب «النبى» : «إن الأرض تؤتيكم ثمارها فتكفيكم الحاجة، لو عرفتم كيف تملئون منها أيديكم. فإن أنتم تبادلتم نعمها نلتم الرخاء، وطابت بذلك نفوسكم، فإن لم يجر بينكم التبادل بالحب والعدل الرفيق شرهت منكم نفوس وجاعت أُخرى».

المـــــراجـــــع

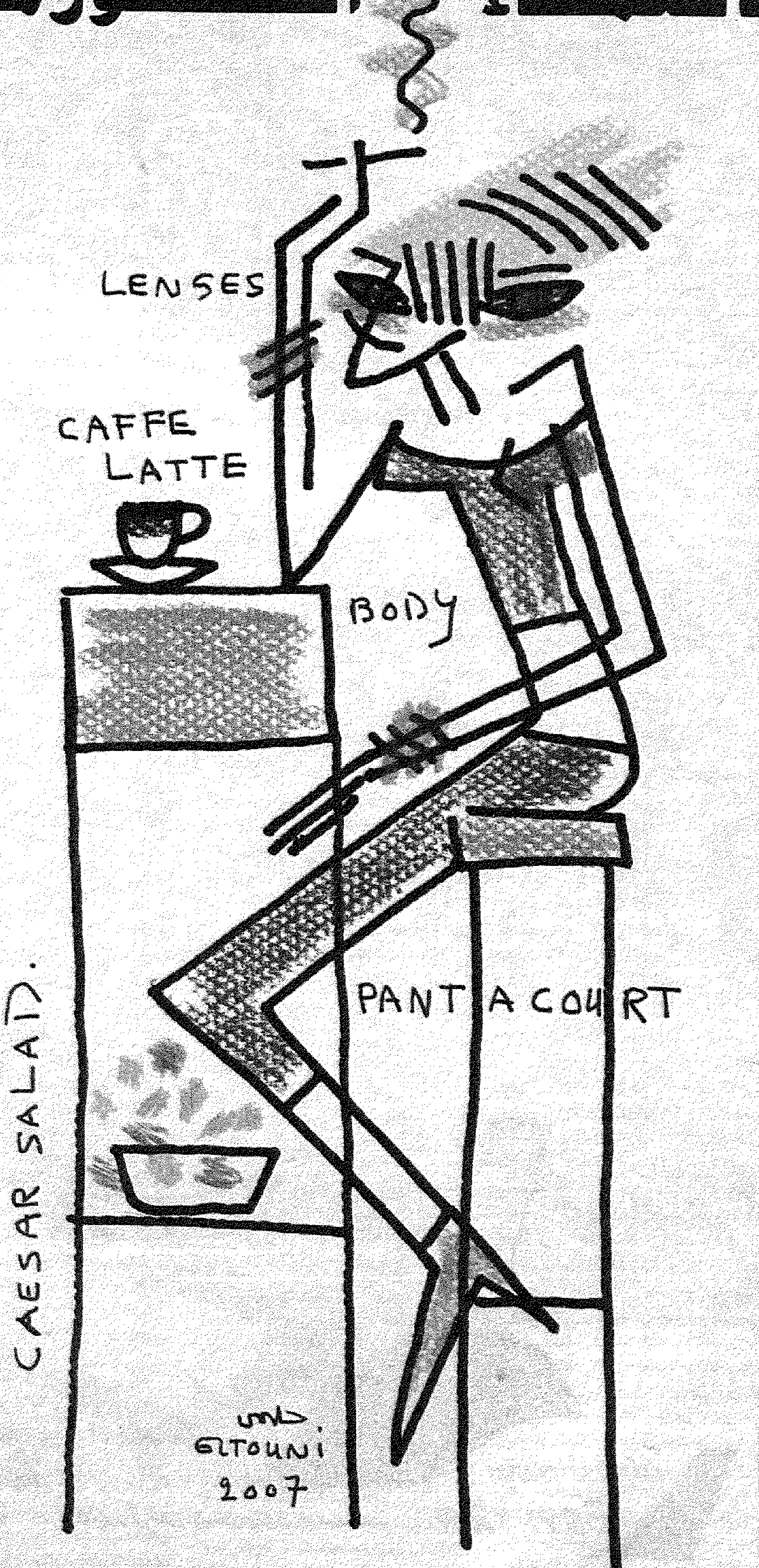
1 - Colossus, "When the Corporation Changed America", Edited by Jack Beatty Broadway Books. 2001.

2 - "When the Corporation Rule The World", David C. Kurten, Kumarian Press, 2001.

3 - "How Corporations Hurts Us All, Dann Butts, Trafford Publishing, 2003.


إحجز مكانك .. من مكانك
الآن يمكنك حجز مقعدك على طائرات مصر للطيران
وأنت في منزلك أو مكتبك وذلك من خلال موقعنا على الإنترنت egyptair.com
مصر للطيران ... مع السنين بنتجدد
مصر للطيران
EGYPTAIR
أول شركة طيران في الشرق الأوسط وافريقيا وسابع شركة عالمياً
egyptair.com
75 years
1932 - 2007

الانتماء فى الكوزموبوليتانى



■■ فى يوم عادى من صيف عام ٢٠٠٤ سألتقى بدينا وميساء فى مقهى ريترو بالمهندسين لإجراء حوار حول المقاهى. خلال بحثى كانت المقاهى الراقية مثل ريترو والتى أصبحت جزءاً أساسيا من الروتين اليومى لجميع أصدقائى ومعارفى المنتمين إلى الشريحة العليا من الطبقة الوسطى، قد أصبحت مألوفة بالنسبة لى. لقد غيرت المقاهى الراقية مثل ريترو من النسيج المدنى للأحياء المرفهة. إن الاستمتاع بكافيه لاتيه Cafe Latte أو سلطة القيصر Caesar salad قد أصبح روتيناً شبه يومى لعديد من الشباب القاهريين من أصحاب مستوى الحياة المرتفع نسبيا. هذه الأماكن يشار لها باللفظ الإنجليزى «كوفى شوب» ولا يمكن الخلط بينها وبين «القهوة البلدى»، أو مقهى الرصيف الذى يسيطر عليه الرجال والذى تشتهر به القاهرة. لقد أصبحت المقاهى المتنوعة نقاط التقاء مكانية، بالإضافة إلى كونها محددات اجتماعية لانتماء ما ولإحساس ذاتى بالطبيعية.

لقد نشأت ثقافة ترفيه جديدة ومميزة فى تلك المقاهى وحولها يتبناها بشكل رئيسى مهنيون شباب غير متزوجين مثل دينا وميساء. ولكن المقاهى الكافيه ظاهرة جديدة. بدأت فى الظهور فى نهاية التسعينيات فى مناطق مركزية وراقية مثل الزمالك والمهندسين وفى ضاحيتى هليوبوليس والمعادى. تفتتح الكافيهات الجيدة بشكل دورى مما يسبب زحاما فى الشوارع ويحول المناطق السكنية إلى وسط تجارى حيوى.

أجد دينا وقد اقتسمت طاولة مع صديقتنا المشتركة ميساء. إن هؤلاء النساء، فى أوائل الثلاثينيات ولديهن وظائف فى قمة السلم الاقتصادى، وهن جزء من طبقة جديدة من المهنيين تتميز

فصل من: Cairo Cosmopolitan
Politics, culture and urban space in the new globalized Middle East
(القاهرة الكوزموبوليتانية.. السياسة والثقافة والمساحات المدنية فى شرق أوسط معولم جديد)
Ed. Diane Singerman and Paul Amar
AUC Press, 2006

ترجمة: نرمين نزار

فى مقاهى القاهرة

أنوك دى كونج

بعلاقاتها وتطلعاتها الدولية. ومثل النساء الأخريات فى رترو، ترتديان سراويل قطنية ضيقة أو بنطلونات جينز وقمصانا مماثلة فى الضيق ومع ذلك فهن ضمن الحد الأدنى للاحتشام حيث إن جميع أجزاء أجسامهن مغطاة باستثناء الأذرع. تصميم المقهى الصغير، والأعمال الفنية المعروضة به وبألوانه الهادئة وأثاثه الخشبى الحديث، يعطيان إحساسا بالحداثة مع شعور دافئ يستعيد راحة المنزل. وتضع موسيقى تميل إلى الجاز منها أعمال لبونا فيستا سوشال كلوب Buena Vista Social Club ونورا جونز Nora Jones اللمسات النهائية.

قبل أن نبدأ فى حوارنا نطلب بعض السلطات والساندويتشات من قائمة رترو الطويلة من «المأكولات المبتكرة» (هكذا تقول دينا) ونعطى طلباتنا لأحد الشبان الذين يرتدون زى رترو: جينز أسود وبولو شيرت تحمل اسم المقهى. يتحول حوارنا بسرعة إلى المدى الذى تتيح به المقاهى مساحات لقاء علنية جديدة خاصة للنساء. يقولون «نجحت المقاهى فى أن تجمع الفتيات والنساء من بيوتهن والنادى». إن الوجود الطاغى للنساء فى أغلب المقاهى الراقية هو أحد الملامح الملحوظة للحياة الاجتماعية التى تتبدى فيها. الاختلاط الاجتماعى غير المراقب بين الجنسين ووجود نساء بمفردهن فى أماكن اللهو هى أمور عادة ما تحاط بالمحظورات والشكوك. ومع ذلك تمثل النساء المحجبات وغير المحجبات أكثر من نصف زبائن المقاهى الراقية. وقد اعتادت العديد من النساء المهنيات غير المتزوجات قضاء جزء كبير من وقتهن فى مقاهى مثل ريترو.

بعد نصف ساعة تتم مقاطعة حوارنا عندما تنضم للطاولة صديقتان ويصل عدد متزايد من الأصدقاء والمعارف الذين تتم تحيتهم بحماس. لقد بدأت الحياة الاجتماعية فى رترو تصل إلى ذروتها بعد انتهاء يوم العمل. يتحول حوارنا إلى خليط مرح من الحكايات الغريبة والأخبار المسلية التى تميز التسلية فى المقاهى. لمقهى رترو الصغير نسبيا عدد كبير من الزبائن الدائمين مثل شلة (كلمة من النص الأصلى) ميساء التى تأتى بشكل شبه يومى ليلتقوا بأصدقاء ومعارف. تقول دينا التى تربطها صداقة بصاحب المقهى وتعرف أسماء كل العاملين فيه أن ريترو يمثل لها منزلاً ثانياً.

سبكترا كافيه هو مكان آخر ذو شعبية، يقع على بعد بضعة شوارع خلف جامع مصطفى محمود الشهير فى قلب المهندسين وقد زين بذوق رفيع بأثاث خشبى وينقسم إلى جزءين. يتيح الجزء الأمامى الهادئ أماكن جلوس للمجموعات الصغيرة بينما تحوى الغرفة الخلفية مساحات للمجموعات الكبيرة على طراز المطاعم الأمريكية بـBenches خشبية تسمح بجلوس ستة أشخاص على الأقل حول الطاولة. تعرض مجموعة من شاشات التليفزيون فيديوهات موسيقية من إحدى القنوات الموسيقية العربية الجديدة الشهيرة مثل ميلودى هيتس Melody Hits وإم تى فى MTV اللبنانية. بينما تشكل أغان عربية وأجنبية مماثلة، الخلفية الموسيقية.

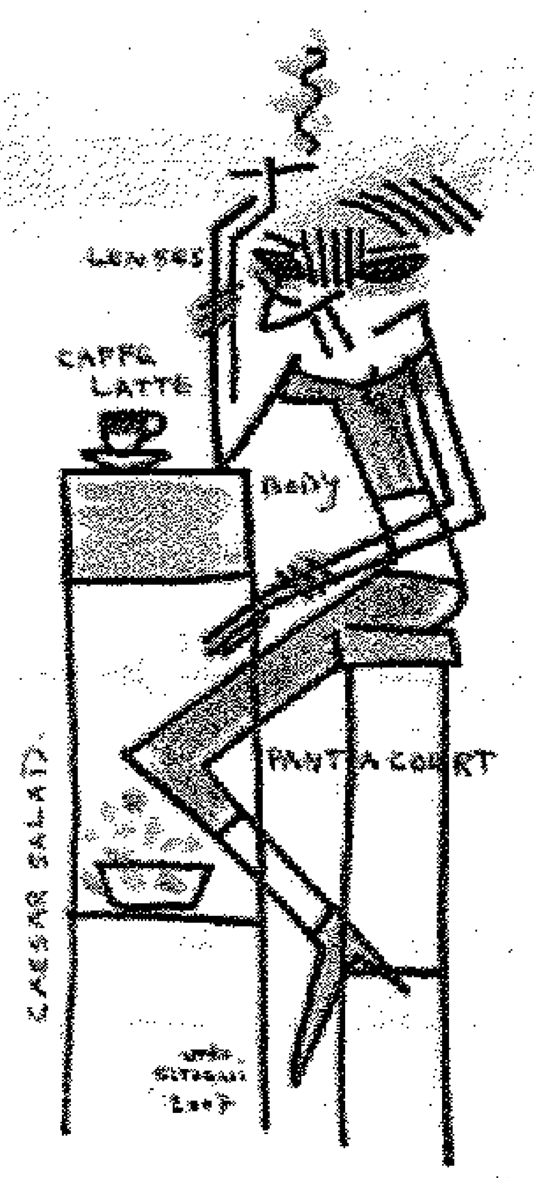
مساء أحد الأيام كان لدى موعد مع أحمد، مهنى شاب فى منتصف العشرينيات، للكلام حول الكافيات. عندما وصلت كان قد احتل طاولة فى الغرفة الخلفية مع أخته وصديقة واثنين من أبناء عمومته. كان المكان مكتظا بشلل مختلطة من الشباب. صمت الجميع فجأة عندما جلست بجوار أحد أبناء عمومة أحمد ثم جاءت أخته وطلبت منى أن أبتعد قليلا عن جارى. قالت لى إنه شخص شديد التدين ولا يرتاح لجلوسى بجواره. عندما أصبحت وحدى مع أحمد وصديقته أتيحت لنا الفرصة أن نتحدث عن الكافيهات. شرح لى أنه يحب سبكترا بسبب مستوى زبائنه «أشخاص نظيفين ومحترمين» وبسبب طبعه الراقى وجودة الطعام والخدمة. قال أحمد إنه لم يكن مقبولا أن يقضى الشباب وقته فى المقاهى، أما الآن وحتى إذا أصبحت الأزياء أكثر احتشاما فهناك المزيد من الحرية. وقد بدا أن الجمهور فى سبكترا يؤيد كلامه ملاحظاته. اختلف سبكترا عن ريترو فى أنه يجذب عدداً كبيراً من الزبائن المحجبات. قالت لى صديقة أحمد التى تغطى رأسها، بمرح، إن الحجاب هو ببساطة إلزامى للمسلمين. ولكن ذلك لا يعنى أن أسلوب حياتها يجب أن يكون مختلفاً عن زميلاتها ممن لا يرتدينه. فيما بعد لفتت انتباهى لفيديو كليب يتم فيه التركيز على ثلاث فتيات طويلات يرتدين ملابس كاشفة ويرقصن بإغواء لإرضاء المشاهدين. قالت لى «هذا هو المفضل عندى».

إن المعادلة الانتقالية للمقهى الراقى تقحم نفسها فى المجالات المهمة محليا والخلافية غالبا للترفيه والمجال الاجتماعى. فى القاهرة، وقد مثلت المعرفة بالخارج (بلاد برة) وتبنى الأساليب الكوزموبوليتانية الصريحة، مؤشرات للوضع الاجتماعى الراقى. إن الاختلاط الاجتماعى فى أماكن الترفيه هو إحدى علامات نمط الحياة الكوزموبوليتانى. ولكنه أيضا مصدر للقلق والخلاف. فى هذا الفصل أبحث فى الأسلوب الذى يخلق به المقهى الراقى مساحة للانتماء الكوزموبوليتانى. وهذه المساحات تعكس التفاوت الطبقى فى القاهرة الحديثة وتوضح كيفية تغير أنماط الاختلاط الاجتماعى بين الجنسين خاصة فى الشرائح العليا من الطبقة الوسطى.

المساحات المقسمة

فى بداية القرن الجديد تتميز القاهرة بدرجة عالية من التقسيم فى مجالات الإنتاج والاستهلاك. يجب على أغلب القاهريين أن يستهلكوا المنتجات والخدمات التى تتناسب مع قدراتهم الشرائية المحدودة فى وقت ترتفع فيه التكلفة وتنخفض الضمانات الاجتماعية، كما أن معدلات البطالة مرتفعة وفترات الركود ممتدة. فعلى القاهريين إما أن يبحثوا عن الضمانات الاجتماعية المتاحة فى نظام الدعم أو شراء منتجات عبر الأسواق غير الرسمية وعادة ما تكون تلك بضائع صينية رخيصة. مع ذلك وفى نفس الوقت تكشف أن المشهد فى المدينة يحكى عن وجود قاهرة أخرى بدأت فى الازدهار فى ظل الانفتاح (سياسة الانفتاح الاقتصادى التى بدأت فى منتصف السبعينيات) والتى شجعت الواردات والاستثمارات الأجنبية فى مصر. وقد نمت تلك القاهرة الأخرى بشكل كبير خلال فترة إعادة التكيف الهيكلى والسياسات النيو ليبرالية والسعى للاندماج فى الأسواق العالمية فى التسعينيات. فبينما يستمر معظم القاهريين فى مواجهة الانخفاض المستمر للأجور الحقيقية وانحصار الدعم الحكومى فى مجالات متنوعة مما يجعل الحياة مكلفة بشكل متزايد، تشهد القاهرة أيضا صعود برجوازية جديدة من المهنيين الأثرياء الذين ينتمون للشريحة العليا من الطبقة الوسطى. وفى وسط بطالة منتشرة بين خريجى الجامعة ومرتبات ميدئية شديدة الانخفاض، يعمل مهنيون شباب من أمثال دينا وميساء فى الجزء الصغير، ولكنه المميز وذو التطلعات الدولية، من سوق العمل. فى هذا الجزء من سوق العمل تكون المرتبات فى الغالب ثلاثة إلى خمسة أضعاف ما يتم دفعه للمهن المماثلة فى القطاعات «الأقل حداثة» من الاقتصاد الرسمى بما فى ذلك القطاع العام الواسع والخدمات الحكومية. إن العلامات على التحول إلى النيو ليبرالية والأسواق محفورة فى المشهد القاهرى. ترتفع فنادق الخمس نجوم والمبانى التجارية اللامعة فى الأحياء التجارية الجديدة. تبنى المجمعات السكنية المغلقة فى الصحراء حول القاهرة وتمتلئ شوارع القاهرة بالسيارات الفاخرة يتم استبدال منطقة وسط البلد تدريجيا بحى المهندسين الراقى كـ«وسط بلد» جديد لمن يملكون القدرة المالية. تقوم مناطق تتسم بالثراء مثل الزمالك والمهندسين وهليوبوليس والمعادى بخدمة المجموعات القادرة

المشهد فى المدينة يحكى عن وجود قاهرة أخرى بدأت فى الازدهار فى ظل الانفتاح (سياسة الانفتاح الاقتصادى التى بدأت فى منتصف السبعينيات) والتى شجعت الواردات والاستثمارات الأجنبية فى مصر



ماديا. يقوم عدد متزايد من المدارس الخاصة والمؤسسات والجامعات والمستشفيات بتقديم خدماتها للعائلات التى تقدر على ترك الخدمات الحكومية المتداعية. فى نفس تلك الأحياء توفر متاجر براقة مثل مترو وألفا ماركت المنتجات الضرورية لحياة مرفهة. يستطيع المرء أن يجد هنا محلات ملابس أنيقة لا تمتلئ عن آخرها توفيراً للمساحة كما هو الحال فى محلات وسط المدينة التى لم تعد عصرية. على العكس فإن المحلات الراقية الحديثة تقدم منتجاتها وكأنها قطع فنية تنضح بالوعود بأناقة كوزموبوليتانية. تتميز كل تلك الأماكن الراقية بالمرجعية الكوزموبوليتانية للبضائع والخدمات المقدمة - من الكافية لاتيه إلى الأثاث الإيطالى والشهادات الدراسية الأمريكية- وبأسعارها المرتفعة نسبيا. أن المقاهى التى تخدم الشرائح العليا من الطبقة الوسطى تتقاضى أكثر من خمسة جنيهات لفنجان القهوة (بما فى ذلك ٥ ٪ ضرائب و ١٢٪ خدمة) ويفرض أغلبهم حداً أدنى من الطلبات. قارن ذلك بالخمسين قرشاً أو الجنيه الواحد التى تتكلفها القهوة أو المشروب البارد فى أى مقهى بلدى.

ملاعب الترفيه

لقد أخذ المقهى وضعا جديدا فى خرائط الترفيه المتنوعة عبر العالم. إن طعم الكابتشينو أصبح علامة دولية قوية على الارتقاء بالأذواق فى التقسيمات المتنوعة والمختلفة للأنماط الثقافية. ومع أن المكانة التى يحتلها المقهى فى الخارطة المحلية وشكل التميز الذى يمنحه الاعتياد على الكافية لاتيه هى بالأساس أمور محلية إلا أن قدرتها على التحديد وإكساب التميز والخصوصية يرجع إلى تجذرها فى التيارات العالمية. وبالرغم من أن للعديد من المقاهى ملاكاً محليين إلا أنها تحمل بوضوح الطابع الأمريكى بما فى ذلك المأكولات والمشروبات المقدمة فيها. إن العديد من المقابلات مع الملاك والعاملين بالمقاهى تشير إلى أن المقاهى أنشأها فى البداية شباب قاهريون من أصحاب الخبرة الواسعة بالغرب.

وكما أخبرونى فإن المقاهى هى مشاريع قليلة التكلفة ولكن عالية الربحية وهو السبب الذى يؤكده انتشارها السريع فى السنين الأخيرة. عبر التجربة والخطأ تحولت سلسلتا المقاهى الأكثر انتشارا، سيلنترو والروسترى من فروع صغيرة متخصصة فى القهوة الفاخرة والأطعمة الخفيفة إلى نمطهما الحالى بمقاعد وثيرة ومريحة وقائمة طلبات أوسع تشمل الأطباق والمشروبات غير الكحولية لتناسب المفهوم المحلى عن النزهة.

يعجب البعض بالديكورات المنزلية الطابع والنمطية نوعا ما بينما يفضل الآخرون حداثة واختلاف سيلانترو بلمعان المعدن الطاغى عليه والوسائد المربعة بألوانها الأساسية أو النمط الأنيق والشاب لريترو بدفئه وحميميته. وبرغم اختلافها فى الطراز وقوائم الطلبات والجمهور إلا أن المقاهى الراقية تمثل أبرز أماكن الترفيه التى يسهل التعرف عليها وتمييزها عن الأماكن الأخرى التى تقدم بدورها مأكولات ومشروبات. بيد أن هناك قوانين ضمنية وحداً أدنى من المتطلبات ينبغى توفرها لجذب زبائن معينين والحفاظ على المرتبة الراقية. من أكثر تلك المتطلبات أهمية وجود عاملين ونادلين من الشباب جيد التدريب ومهذب وأنيق كما يجب وجود أنماط وإشارات للانتماء إلى العالم الأول. تتميز وتبتعد تلك المناطق بشكل لا يقبل اللبس عن الأماكن الأخرى وعن محيطها بطرازها الغربى ونظافتها المفرطة والصيانة المدهشة لمساحتها الداخلية كما يميزها التكييف الذى يكسبها جوا مريحا بشكل مستمر. لقد أصبحت هذه الأماكن جزءاً لا يتجزأ من خرائط الأشخاص وحياتهم. يخدم بعضها المجموعات المميزة وتخدم أخرى المجموعات الأصغر سنا. بعضها يعتبر مناسبا بينما ينظر إلى أماكن أخرى من ضمنها على أن روادها جمهور جرىء، وكما سأحلل لاحقا فإن تلك التقسيمات لا تعكس إشارات إلى تفضيل طراز معين أو اختلاف منبعه السن فقط ولكن أيضا قلق منبعه مفاهيم حول ما هو مناسب لكل جنس وبالذات ما يعتبر محترما فيما يخص النساء.

تحمل العديد من المقاهى أسماء أجنبية مكتوبة دائما بالحروف الأجنبية وتسيطر اللغة الإنجليزية على قوائم الطعام بدءا من قائمة بسيطة بالإنجليزية (تتضمن أخطاء مطبعية) حتى قوائم تكتب بالإنجليزية فقط مع شرح للأصناف يكتب بأسلوب شديد الكلاسيكية. وتشير تلك الاختيارات إلى نوع خاص من الزبائن يرغب صاحب المقهى فى استقطابهم. استخدام اللغة الإنجليزية وادعاء ارتباط مباشر أو غير مباشر بمنشآت مماثلة فى أمريكا الشمالية يضفى إحساساً بالكوزموبوليتانية والخصوصية على المكان وطعامه وشرابه وزبائنه. يقول سميث إن تذوق أنواع معينة من القهوة فى المقاهى الأمريكية ما هو إلا ثقافة جديدة يسهل الوصول إليها. وفى مقاهى القاهرة يظهر التناقض الكبير بين المأكولات والمشروبات الأجنبية والمحلية. إن الشخص الذى طور تذوقه بأى شىء من الكابتشينو إلى دوبل اسبرسو يقف على النقيض من هؤلاء المتمسكين بقهوتهم المضبوطة أو الزيادة. إن التميز هنا لا يكمن فى معرفة وتذوق خصائص القهوة المتخصصة ولكن فى الإحالة الكوزمبوليتانية للمأكولات والمشروبات وللمكان وزبائنه. وعلى نسق القوائم فإن اللغة المستخدمة فى المقاهى هى هجين من العربية والإنجليزية والتى تميز المهنيين الشباب المنتمين إلى الشريحة العليا من الطبقة الوسطى فهى تختلط بشكل جيد بالديكور وقوائم الطعام التى تستمد إلهامها من العالمية.

إن كل الإشارات الأمريكية للمقاهى والمطاعم تحدد مدى ارتباط تلك المساحات بالجغرافيا المتغيرة للسلطة. إن المكونات المحلية للانتماء الكوزموبوليتانى لها تاريخ طويل فى القاهرة. فى زمن أبعد كانت أوروبا وفرنسا تحديدا هى مقياس كل ما هو أنيق، وكانت محلات كثيرة من التى تخدم الشرائح العليا من الطبقة الوسطى تحمل أسماء فرنسية وتبيع أحدث المنتجات والأزياء الفرنسية. كانت المنشآت الراقية فى ذلك الوقت مثل جروبى والأمريكيين توحى بالانتماء الكوزموبوليتانى والتميز المحلى وكانت باريس هى المقياس الذهبى لهم. أما اليوم وكما قال أحد أصحاب المقاهى «يرغب الشباب فى الشرق الأوسط فى الطراز الأمريكى».

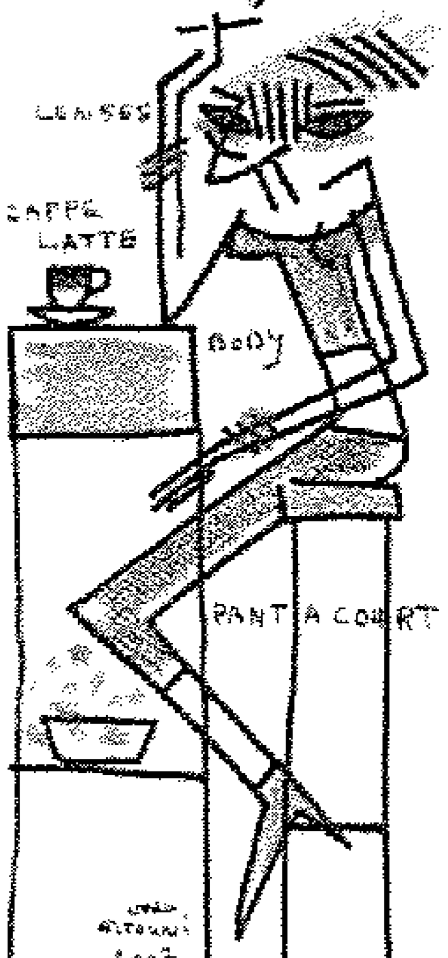
لا يشير استخدام الإنجليزية فى الأسماء وقوائم الطعام والتواصل الاجتماعى فقط إلى أن المقاهى تبتكر سلعا جديدة ولكن أيضا أنها تقسم. فبينما هى تخلق إحساسا بالانتماء الكوزموبوليتانى إلا أنها فى نفس الوقت تزيد من ابتعادها عن الأماكن المحيطة بها وعن أغلبية القاهريين «إلـ.. ما عندهمش لغة» بمعنى أنهم لا يتحدثون بلغة أجنبية. فى القاهرة الحديثة أصبح «امتلاك» لغة أجنبية وبالذات الإنجليزية يشكل انقساما كبيرا فى صفوف الطبقات الوسطى المتعلمة. إن من درسوا فى مدارس لغات ويتحدثون لغاتهم بطلاقة قد ولدوا وتربوا فى عائلات «أفضل» ويستطيعون التطلع إلى العمل فى الشرائح العليا من سوق العمل. ويتم إعادة إنتاج تلك الفروق على مستوى المدينة فى أماكن مثل المقهى.

«كأنك لست فى مصر» تقول سيدة فى الثلاثينيات وهى ترشح لى بحماس حانة فى المهندسين وهى تزور أوروبا بشكل متكرر، فهى إذاً تعرف عما تتحدث. كان من الممكن فعلا أن تكون تلك الحانة فى لندن الأنيقة أو فى باريس أو نيويورك بديكوراتها القليلة والمقاعد الجلدية الزرقاء والإضاءة الخافتة وأنواع الكوكتيلات المعروضة. بينما لا يزال وجود حانة مصدرا للدهشة والفرح كونها تنتمى إلى العالم الأول فى القاهرة، إلا أن العكس صار منتشرا. إن الأماكن والمتاجر الراقية التى تعرض كل الأصناف الموحية بالكوزموبوليتانية أو المجمعات التجارية الخاصة لم تعد تسبب أى تعجب أو تعليقات من شباب الشريحة العليا من الطبقة الوسطى الذين قابلتهم خلال بحثى. فى خلال بضعة أعوام أصبحت تلك هى الأماكن التى تتكشف فيها حياة الشرائح العليا من الطبقة الوسطى. إن مقاهى مثل رترو وبينوز وتباسكو تشير إلى عضوية فى مساحة كوزموبوليتانية تتسم بكونها محلية وقاهرية ومصرية وفى نفس الوقت جزءاً من مجال أوسع ينتمى للعالم الأول. هى أماكن لمشاريع طبقية محلية حيث تحدد دلالات كوزموبوليتانية واضحة الانتماء إلى الدوائر الأعلى من الإنتاج والاستهلاك.

أماكن جديدة، اجتماعيات جديدة

إن الاجتماعيات المختلطة وأفعال المهنيين من الشرائح العليا من الطبقة الوسطى الذين يرتاحون للتواجد فى مقاهى القاهرة تبدو غير متكلفة. إلا أن تلك الاجتماعيات المميزة - اختلاط الشباب والشابات- لا تمثل نمطاً متفقاً عليه. لقد شكلت ممارسات الصفوة الترفيهية بعض أوضح الإشارات التى توحى بالحداثة وبالانحلال، حسب

الانتماء الكوزموبوليتانى فى مقاهى القاهرة



اعتقاد من يعلق. إن القضية الخلافية الأساسية فيما يتعلق بالممارسات الترفيهية لدى الصفوة هى طبيعتها المختلطة: اختلاط الرجال والنساء فى الأماكن العامة. لقد نجحت المقاهى فى جذب جمهور مختلط أوسع وإلى حد ما أقل خصوصية. إن تلك التجمعات تصبح مثيرة للاهتمام لو أخذنا فى الاعتبار الطبيعة الإشكالية للتجمعات المختلطة بعيدا عن رقابة العائلة والمحظورات المعتادة حول وجود السيدات وحدهن فى أماكن لهو عامة دون تبرير عملى من نوع العمل أو الدراسة.

بالمقارنة بالمقاهى فى البيئة الغربية والتى تختص بنوع محدود من النشاط ووقت محدد من اليوم فإن المقاهى القاهرية تستضيف ثقافة ترفيه شاملة شبيهة بثقافة الترفيه الليلية فى المدن الغربية. وبالنسبة للكثير من نساء الشريحة العليا من الطبقة الوسطى، فإن تلك هى الأماكن الوحيدة، التى يمكن وجود حياة اجتماعية بها خارج نطاق العائلة. فى مساء الخميس تصبح بعض المقاهى على نفس درجة زحام الحانات مساء السبت فى المدن الغربية. تلتقى «شلل» من الشباب لاستعراض آخر صيحات الملابس وتبادل الغزل الخفيف. لقد نجحت المقاهى إلى درجة كبيرة فى تقديم إحساس بالعالم الأول بين أفراد الشريحة العليا من الطبقة الوسطى بينما تتفادى أى ارتباطات مشينة بالترفيه الليلى فى المدن الغربية. إن غياب المشروبات الكحولية ووجود محددات طبقية وجنوسية متأصلة فى المعادلة الانتقالية تساعد على تحديد المقهى كمساحة محترمة ومتميزة، تعرف بأنها آمنة ومحترمة للاجتماعيات المختلطة.

وتستمر تلك التجمعات فى العادة حتى العاشرة أو الحادية عشرة ليلا وهو الوقت الذى يتوقع فيه عودة النساء غير المتزوجات إلى بيوتهن. قد قيل لى بمزاح «كلنا عندنا شبشب فى البيت» وهى عبارة شائعة تستدعى إلى الذهن صورة آباء غاضبين ينتظرون أولادهم بأحذيتهم فى أيديهم ومستعدون لضرب من تخالف موعد عودتها إلى المنزل. إن الرقابة العائلية هى سمة مهمة فى حياة نساء الشريحة العليا من الطبقة الوسطى غير المتزوجات اللائى يعشن مع عائلاتهن بلا استثناء تقريبا. إن المسئولية تجاه العائلة والمساءلة من قبلهم حول سلوكها، هى أمور لا تنتهى بمجرد أن تصبح الفتاة بالغة أو تحصل على دخل مستقل. قالت لى العديد من الشابات إن مواعيد العودة إلى المنزل ليلا وضعت لتحمى سمعة العائلة أمام الجيران. وترى هذه الرقابة عامة كجزء أساسى من المسئولية العائلية فى حفظ البنت من الانحراف وبالتالى حماية سمعتها ومستقبلها.

بينما يملك الرجال بعض المساحة لاختيار الأماكن التى يقضون فيها أوقات الترفيه إلا أن هذا ليس هو الحال بالنسبة للنساء. إن حضور النساء فى الحياة العامة المهنية والترفيهية أصبح لازما بالنسبة لنمط حياة الشريحة العليا من الطبقة الوسطى، ولكنه حضور هش حدث فقط فى مساحات مغلقة تتضمن طبقة واحدة من المجتمع ويكون الاحترام والحماية هما شرطا دخول النساء هذه الأماكن. إن مسارات شابات الشريحة العليا من الطبقة الوسطى اللاتى تعرفت إليهن فى القاهرة تعتمد على خرائط طبقية. الأماكن المناسبة للنساء هى أماكن راقية. فقط فى هذه الأماكن يمكن للنساء أن يكن على «راحتهم» بما فى ذلك أن يرتدين ويختلطن اجتماعيا كما يشأن دون أن تتم مضايقتهن أو ينظر إليهن كسيئات السمعة.

إن الأسعار المرتفعة فى المقاهى والحد الأدنى للطلبات يساعدان على منع دخول من لا ينتمون إلى الطبقة «المرتاحة». إن هذا النوع من الاختيار الاجتماعى أساسى بالنسبة لمظهر المقهى. من المتوقع أن يكون كل الزبائن من مستوى ثقافى مماثل ويلتزمون بمعايير اجتماعية وأخلاقية مماثلة. لا يرغب العديد من الزبائن أن يشاهدوا فى أماكن تتردد عليها «ناس بيئة» وهو لفظ ازدرائى يطلق على من ينتمون إلى «طبقة اجتماعية أقل» بأذواقهم الرخيصة والقديمة. وعادة ما تدعم تلك المعايير الاقتصادية، سياسة للدخول. ويعتبر أحد مديرى المقاهى تلك المعايير الانتقائية على أعلى درجة من الأهمية عندما قال «لدينا سياسة دخول لأننا لا نريد زبائن غير مؤهلين» وقال إنه يعنى بغير المؤهلين الشباب الذين يرتدون ملابس تبدو رخيصة أو من يغازلون الآخرين أو من مثيرى الشغب والصخب. إن الخوف المستمر من جذب من ينتمون لمستوى اجتماعى أقل لا ينبع فقط من أهمية الحفاظ على المحددات الطبقية ولكن يحركه أيضا الخوف من اعتقاد أن هؤلاء الرعاع لن يلتزموا بالقواعد الضمنية للاختلاط الاجتماعى. إن الشباب الذين يبهرهم وجود النساء قد يغازلون أو يتحرشون بالزبائن أو قد تأتى بعض النساء بهدف مصاحبة الزبائن الأثرياء. إن تلك المخاوف تعكس اعتقادات حول أماكن اللهو المختلطة الأقل نخبوية والتى يعتقد عامة أنها أسواق للعلاقات السهلة التى قد يتضمن بعضها تبادل النقود. إن الطابع الاجتماعى النخبوى للمقاهى يخلق مجتمعا مظهريا ويخلق إجماعا على عادية نخبوية غالبا ما تتكون من معايير طبقية للاختلاط الاجتماعى. إن المحددات الطبقية للمكان وزبائنه تحدد بالتالى قواعد الاختلاط الاجتماعى وتواجد نساء غير متزوجات والملابس العارية نوعا ما- مينى جيب وبودى (قميص ضيق) أو قمصان بدون أكمام- كجزء من سلوك طبقى معتاد وبالتالى محترم.

ولكن حتى ضمن نطاق المقهى فإن الاختلاط بين الرجال والنساء- وأنماط الأنثوية المصاحبة- ليست بالاعتياد أو الإجماع البادى فى أول وهلة. إن قراءة ما بين السطور فى الدردشات والأداء المعتاد فى المقاهى تساعد على ملاحظة قلق مستمر وتوتر حول مسائل الاحترام. فبينما توافق زبونات المقاهى اللاتى أعرفهن على أغلب المقاهى الراقية فإنهن يستمررن فى مراقبة تلك الأماكن لبيان أى خرق لقواعد الاحترام. فى ربيع ٢٠٠٢، كان مقهى ريترو الذى افتتح للتو حديث المدينة فى دوائر الشريحة العليا من الطبقى الوسطى التى كنت أتحرك ضمنها. فبينما خلقت المقاهى والمطاعم الأخرى جزءا من الخصوصية لتجتمع بها شلل مكونة مسبقا إلا أن التصميم الداخلى لريترو والذى تضمن طاولة طويلة ومساحة جلوس مريحة ومشتركة تسمح بالمزيد من الاختلاط العابر. قررت هالة، وهى آنسة فى نهاية العشرينيات وزبونة دائمة للمقاهى أن تتوقف عن زيارة هذا المقهى بالذات. كما قالت «هذا المكان يجذب الفتيات اللاتى يبحثن عن علاقات. انظرى كيف يتقربن من بعضهن البعض؟» إن استمرارها فى ارتياد هذا المكان سيضعها فى مواقف محرجة. فما الأمر بالنسبة لمن سيراها هناك؟ هل يظنون أنها أيضا منطلقة «وسهلة» إلى هذه الدرجة وبالتالى أقل احتراما؟

تشارك هالة الكثيرات من غير المتزوجات فى هذه المخاوف حول الاحترام. إن سمعة الشابة الجنسية لها أهمية قصوى بالنسبة لمكانتها فى المجتمع وفرصها المستقبلية فى الزواج. إن هذه السمعة هى المضمون الأساسى للنميمة وللقلق الدائم. تقترب الحوارات فى المقاهى بشكل فكاهى من قضية الاحترام والعفة بالذات فى المجموعات المختلطة. إن تكرار الإشارات اللاهية إلى أمور مثل الأخلاق والقواعد المفترضة عند لقاء الأصدقاء من الرجال أو على سبيل المثال ارتداء السباحة مايوه مثير للدهشة بسبب طبيعتها العلنية المتعمدة. فهذه المواضيع تثار فى وجود أصدقاء ومعارف من الرجال لإيضاح المخاوف حول الاحترام علانية كى لا يعتقد هؤلاء الرجال أن وجود المرأة فى مجموعة مختلطة بالمساحة الترفيهية التى هى المقهى، يجعلها «متاحة» نوعا ما.

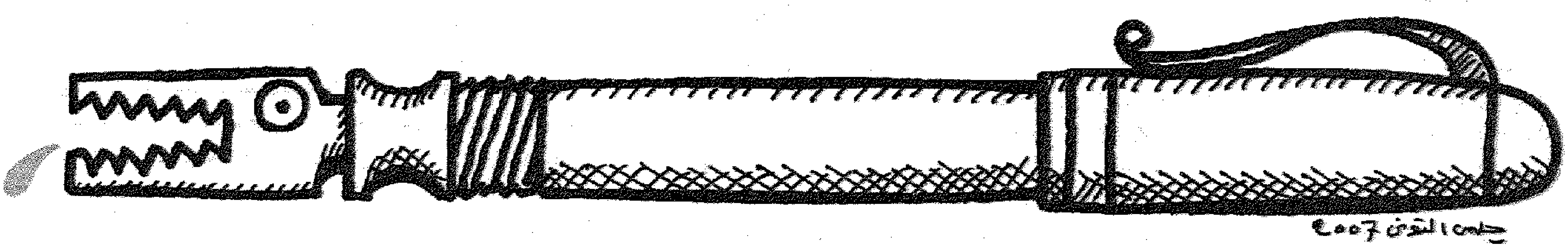
القرب والبعد

إن تكوين مجتمع محلى كوزموبوليتانى من المهنيين الشباب رواد المقاهى يعيد رسم خريطة الألفة والانتماء. إن رأس المال الكوزموبوليتانى ينال تقديرا عاليا كرأس مال ثقافى يفتح أبواب أفضل الوظائف والدوائر الاجتماعية ويؤكد أن الفرد ينتمى للرفاهية النسبية وسلاسة الحياة والأناقة الكوزموبوليتانى. إن المقاهى جزء من دائرة راقية أوسع من المنتجات والخدمات والأماكن والتى أصبحت بمثابة حقائق مكتفية ذاتيا داخل المدينة. بينما يشكل من هم أدنى مباشرة فى المرتبة من حيث الثقافة أو القدرة المادية أكثر نقاط المقارنة وضوحا إلا أن أشخاص وأماكن القاهرة الأخرى تتحول إلى مجهول كامن وعالم خيالى خارجى. يمكن لمشاعر مثل الخوف والتجنب والقلق والتعاطف أن تكون جميعها جزءا من الموقف من هذا الآخر. وبغض النظر عن كونها إيجابية أو سلبية فإن هذه المواقف توحى بعدم تعارف ومسافة كبيرين جدا. إن أغلبية القاهريين الذين يرون قاهريا آخر «يركن» سيارته بجوار باب مطعم أنيق يبدون بعيدين جدا عن الاستمتاع بكوب الكابتشينو وهى تجربه تشترك أنت فيها، على النقيض، مع ملايين حول العالم. إن المنتجات التى تنتمى إلى الثقافة العالمية تأتى بمتلازماتها من البعد، تعيد تشكيل المساحات الأخرى جميعا وتحيلها إلى مجهول كامن وغير حقيقى.

الفساد.. الغش.. التجارة

وثقافة التعليم فى مصر

أحمد عبدالسلام سليم



يلعب التعليم بمراحله المختلفة دوراً محورياً فى تكوين وتشكيل رأس المال البشرى، ويعتبر رأس المال البشرى بدوره من أهم عوامل النمو الاقتصادى والعنصر الحرج فى عمليات الإنتاج. ولقد أوضحت الدراسات التى قام بها شولتز وبيكر فى مجال الاقتصاد أن الموارد البشرية هى أحد عوامل الإنتاج الرئيسة التى تساهم بنسبة كبيرة فى زيادة الإنتاجية وعلى مستوى المنظمات يلعب رأس المال البشرى دوراً فعالاً فى تحسين أداء المنظمات. كما يلعب دوراً مهماً فى الرقى بالمجتمع وتحديد موقعه بين دول العالم.

وطبقاً لنظرية رأس المال البشرى، فإن الاستثمار فى العنصر البشرى من قبل الأفراد والمنظمات والحكومات يعمل على زيادة الإنتاج والإنتاجية ليس فقط للعنصر البشرى نفسه ولكن لبقية العناصر الإنتاجية الأخرى سواء فى المنظمات أو على مستوى المجتمع ككل، ذلك أن الاستثمار فى العنصر البشرى يتيح مزيدا من فرص العمل أمام الأفراد، كما يسمح بزيادة حركية عنصر العمل نحو القطاعات الإنتاجية الجذابة (OEC 1996). ومن هنا تبرز أهمية التعليم فى تشكيل وتكوين رأس المال البشرى للنهوض بأداء المؤسسات ودعم الميزة التنافسية بها وكذلك تحسين الأداء الاقتصادى على المستوى القومى.

ورغم أن ما تنفقه الدولة على التعليم والبحث العلمى فى مصر يعد هزيلاً للغاية، فقد بلغ الإنفاق على البحث العلمى فى مصر ١.٧ مليار فى عام ٢٠٠٤، والمفروض أن تصل إلى ٣ مليارات وهو ما يعادل ٣٪ من الدخل القومى. هذا ويعمل الأفراد والأسر فى المجتمع المصرى جاهدين على تعليم أولادهم والاستثمار فى التعليم قدر المستطاع، إلا أن الملاحظ أن هناك ظواهر سلبية كثيرة قد أصابت قطاع التعليم بمختلف مراحله، وهو ما يقف عقبة فى سبيل تحقيق التعليم للأهداف المرجوة منه فى تحسين معدلات النمو الاقتصادى، وتحسين متوسط دخل الفرد والمساهمة فى بناء مواطن صالح يعمل على خدمة الوطن وعلى مدار السنوات الماضية، أجريت العديد من الدراسات على الفساد فى التعليم، وأجمعت تلك الدراسات على أن الفساد فى التعليم يؤدى إلى ضعف فى مخرجات العملية التعليمية. وقد أوضحت بعض الدراسات أن الفساد فى التعليم يرتبط بظهور عدد من المؤشرات السلبية مثل تكرار رسوب الطلاب وزيادة معدل التسرب من المدارس وزيادة نسبة الأمية (Gupta, Davoodi, and Tiongson, 2002). كما أوضحت دراسة حديثة أجريت على بعض الدول مثل بلغاريا وكرواتيا ومولدوفا وصربيا أن الفساد فى التعليم قد أدى إلى تخفيض جودة الخدمات التعليمية، كما أشارت الدراسة إلى أن تكلفة الفساد فى التعليم العالى صاحبها تدهور فى إنتاجية الجامعات، وأكدت ذات الدراسة على أن المستويات العالية من الفساد فى التعليم قد أدت إلى تخفيض الآثار الاقتصادية للتعليم العالى فى هذه الدول بنسبة ٥٠٪ (Heyneman, Anderson, and Nuraliyeva,2006).

مفهوم وأنواع الفساد

طبقاً لتعريف البنك الدولى، يشير الفساد بصفة عامة إلى سوء استخدام السلطة الممنوحة للموظفين العموميين لتحقيق مصالح خاصة (Mauro, 1998). ولهذا يشكل الفساد بمعناه الواسع انحرافاً على القواعد القانونية والأخلاقية وكذلك الثقافة المؤسسية السوية بصفة عامة. ويشير الفساد فى مجال التعليم إلى مجموعة التصرفات أو الأفعال غير القويمة التى تقوم بها الأطراف المشاركة فى العملية التعليمية بهدف تحقيق مصالحها الخاصة. وهناك نوعان من الفساد هما الفساد الكبير Grand Corruption والفساد الصغير Petty Corruption، ويعد الأخير هو الأكثر شيوعاً بين أطراف العملية التعليمية، ويظهر فى بعض التعاملات اليومية والروتينية التى تتم إبان التفاعلات والمعاملات بين هذه الأطراف.

وترى دراسة قام بها البنك الدولى فى روسيا (Indem Foundation, 2001) أن الفساد الصغير ينقسم إلى فساد فى أوجه الحياة اليومية Everyday Life Corruption ويزداد فى مجال الصحة والتعليم والإسكان والتأمينات الاجتماعية وغيرها من الخدمات، والفساد فى مجال الأعمال Business Corruption ويتعلق بالتعامل مع الأجهزة الحكومية وغيرها لإنجاز وإتمام الصفقات والمعاملات مع هذه الجهات. ويضيف البعض (Amundsen,) أن الفساد ينقسم إلى فساد الحاجة Corruption of Need، وفساد الجشع Corruption of Greed ويأخذ الفساد أشكالاً عديدة ومتنوعة مثل الرشوة والمحسوبية والابتزاز والإكراه والاختلاس والتواطؤ، علاوة على المحاداة أو التمييز وما يتضمنه ذلك من تهاون فى تطبيق معايير الكفاءة واستبدال المعايير الموضوعية بمعايير شخصية إذا تعلق الأمر بالأصدقاء أو الزملاء أو الأقارب (Ashour, ٢٠٠٤).

ومن منظور التنمية المجتمعية، يعد الفساد فى التعليم هو الأخطر على الإطلاق مقارنة بممارسات وصنوف الفساد فى قطاعات أخرى مثل الجمارك والضرائب والبوليس أو غيرها، ذلك أن معظم الفساد فى مجال التعليم يقع ضمن فئة سوء السلوك المهنى Professional Misconduct، وهو سلوك ينطوى على كسر وخرق للمعايير المهنية وهو ما يشكل اهتزازاً كبيراً للمنظومة المهنية والأخلاقية الحاكمة لكافة مؤسسات المجتمع الأخرى، على اعتبار أن المؤسسات التعليمية تغذى هذه المؤسسات بالخريجين الذين يعملون كقادة وموظفين وغيرها (Braxton and Bayer, ١٩٩٩).

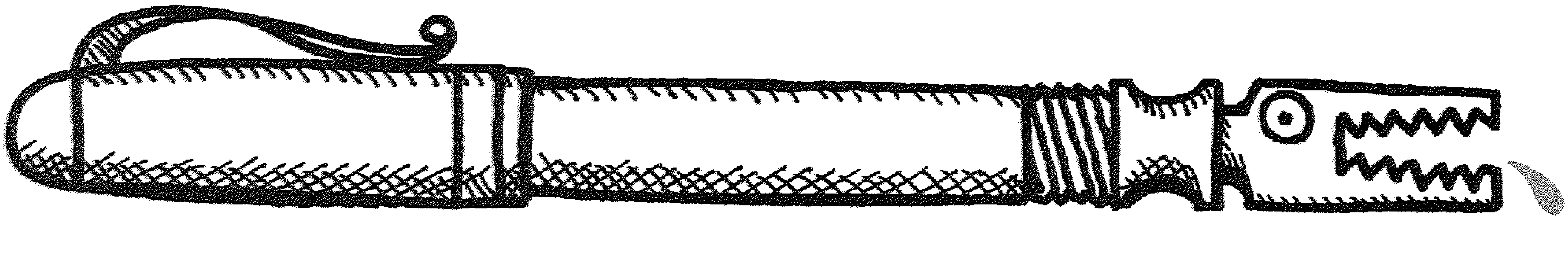
عينة الدراسة

يتمثل مجتمع الدراسة الحالية فى طلاب جامعة الإسكندرية ويبلغ عدد طلاب جامعة الإسكندرية ١٥٧١٧٨ طالبا وطالبة فى عام ٢٠٠٥، كما يبلغ عدد أعضاء هيئة التدريس ٣٩١٥ عضو هيئة تدريس، ويبلغ عدد المدرسين المساعدين والمعيدين ٢٤٠٢ عن نفس العام، ويبلغ عدد مفردات العينة التى شاركت فى الدراسة الحالية ١٩٨ طالبا وطالبة من طلبة المجمع النظرى (الآداب والتجارة والحقوق والتربية والسياحة) البالغ عددهم ٨٣٣٤٧ طالبا وطالبة، أى بنسبة ٢,٣٪ من مجتمع الدراسة. وقد بلغت موازنة جامعة الإسكندرية مبلغ ٩٢٢، ١١٢، ٧٠٣ فى عام ٢٠٠٥، وبقسمة رقم الموازنة على عدد طلاب الجامعة البالغ ١٧٨. ١٥٧ يتضح أن نصيب الطالب من موازنة الجامعة ٤٤٧٣ جنيها.

وهذا هو العدد الذى أبدى تعاونه وموافقته على المشاركة فى الدراسة، ووحدة المعاينة فى الدراسة هى الطالب وتعد هذه العينة حكمية وصغيرة الحجم ولكنها تعتبر ممثلة للطلاب المستفيدين من الخدمات التعليمية التى تقدمها الجامعات (الطلاب الذين يواظبون على المحاضرات وقاعات البحث). وكان تركيز وحدة المعاينة بصورة أكبر على طلاب السنة الرابعة الأكثر خبرة بنظام التعليم فى الجامعة.

ورقة مقدمة إلى ورشة عمل (الشفافية فى قطاع التعليم فى مصر) التى نظمها منتدى الإصلاح العربى فى مكتبة الإسكندرية فى ١٢ فبراير ٢٠٠٧

يتناول البحث الحالى عرضاً وتحليلاً لنتائج الدراسة الاستطلاعية التى استهدفت استطلاع بعض أوضاع ثقافة التعليم السائدة فى مصر من وجهة نظر متلقى الخدمات التعليمية وهم الطلاب باعتبارهم أحد أهم الأطراف المستفيدة من العملية التعليمية بغرض الإحاطة الكاملة بأبعاد الواقع الفعلى لمنظومة التعليم من خلال معلومات تمكن من تحليل أبعاد مظاهر الخلل فيها



توصيف عينة الدراسة

جدول (١) بعض خصائص عينة الدراسة

محاور التوصيف	العدد داخل العينة	النسبة المئوية
أولا: نوع التعليم فى المرحلة قبل الجامعية		
١ - مدارس حكومية	٩٨	٪٤٩,٤
٢ - مدارس خاصة (عربى)	٣٦	٪١٨,١
٣ - مدارس خاصة (لغات)	٣٨	٪١٩,٢
٤ - مدارس تجريبية	١٠	٪٥,٠
٥ - مدارس قومية	٧	٪٣,٥
٦ - مدارس أخرى	٩	٪٤,٥
ثانيا: السنة الدراسية		
١ - السنة الرابعة	١٣٢	٪٦٦,٧
٢ - السنة الثانية	٦٦	٪٣٣,٣
ثالثا: الجنس		
١ - ذكر	١٤٠	٪٧١
٢ - أنثى	٥٨	٪٢٩

يتضح من الجدول السابق رقم (١) أن ٦٣٪ من الطلاب المستقصى منهم تلقى تعليمه فى مدارس حكومية، و١٩,٢٪ من مدارس خاصة لغات، و١٨٪ من مدارس خاصة عربى، و٥,١٪ مدارس تجريبية، و٣,٥٪ من مدارس قومية، و٤,٥٪ من مدارس أخرى مثل المدارس الألمانية وغيرها، علاوة على ذلك فإن ٦٦,٧٪ من العينة من طلاب السنة الرابعة و٣٣,٣٪ من طلاب السنة الثانية.

استراتيجية البحث

يعتمد اختيار استراتيجية البحث على طبيعة وأهداف الدراسة، ولتحقيق أهداف الدراسة الحالية، اعتمدت الدراسة على استراتيجية المسح الميدانى لمجموعة من متلقى الخدمة التعليمية وهم الطلاب.

القياس وتجميع البيانات وتحليلها:

قام الباحث بتطوير قائمة استقصاء استناداً إلى ما ينشر ويتداول عن الممارسات والسلوكيات المرتبطة بنظام التعليم بصورته الحالية فى مصر، كما استند قياس بعض محاور الدراسة إلى الأدبيات المنشورة فى مجال الفساد فى التعليم (Heynema, Anderson, and Nuraliyeva, 2006; Ti India Center for Media Studies, 2004) وتم تجميع بيانات الدراسة باستخدام قائمة الاستقصاء التى تم تطويرها لهذا الغرض، والتى أشارت فى مقدمتها إلى أنه لن يتم التعرف على هوية أو شخص المشاركين فى الدراسة، ذلك أن تحليل البيانات سوف يتم بصورة تجميعية، أما الفترة الزمنية لتجميع هذه البيانات، فكانت نوفمبر ٢٠٠٦، واعتمدت الدراسة فى تحليل البيانات بعض أساليب الإحصاء الوصفى البسيطة مثل التوزيع التكرارى، والوسط الحسابى، والانحراف المعيارى.

عرض نتائج الدراسة الاستطلاعية

مصادر المعرفة والتحصيل التى يعتمد عليها الطلاب

يعرض هذا الجزء من الدراسة وبصورة مركزة ومختصرة لأبرز نتائج الدراسة الميدانية، حيث أوضح المسح الميدانى اعتماد طلاب جامعة الإسكندرية على عدة مصادر لتحصيل المعرفة فى مرحلة ما قبل الجامعة وفى المرحلة الجامعية.

يوضح الجدول رقم (٢) التوزيع التكرارى لمصادر المعرفة التى يعتمد عليها الطلاب.

جدول (٢) التوزيع التكرارى لمصادر المعرفة التى يعتمد عليها طلاب العينة فى الدراسة والتحصيل فى مرحلة ما قبل الجامعية وفى المرحلة الجامعية

المصادر	المرحلة قبل الجامعية		المرحلة الجامعية	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة
١ - المحاضرات (قاعات الدرس/ الحصص)	٧٥	٪٣٧,٩	١٦٨	٪٨٤,٨
٢ - الكتاب الجامعى	٧٧	٪٣٨,٩	٧٧	٪٣٨,٩
٣ - الدروس الخصوصية	١٥١	٪٧٦,٣	٣٥	٪١٧,٧
٤ - مجموعات التقوية	٣١	٪١٥,٧	١٧	٪٨,٦
٥ - الملخصات الخارجية	١٠٥	٪٥٣	١٤٨	٪٧٤,٧
٦ - المراجع المتخصصة	٧	٪٣,٥	١٢	٪٦,١
٧ - مصادر أخرى	٩	٪٤,٥	٩	٪٤,٥

يتضح من الجدول أن ٨٤,٨٪ من الطلاب فى المرحلة الجامعية يعتمد على المحاضرات و٧٤,٧٪ من الطلاب يعتمد على استخدام الملخصات الخارجية المتاحة بالمكتبات خارج أسوار الجامعة، و٣٨,٩٪ من الطلاب يستخدم الكتاب الجامعى، فى حين بلغت نسبة الطلاب التى تعتمد على الدروس الخصوصية ١٧,٧٪، أما تلك التى تعتمد على مجموعات التقوية فهى ٨,٦٪، أما نسبة الطلاب التى تعتمد على المراجع المتخصصة فهى متدنية للغاية بنسبة ٦,١٪.

هذا ونود الإشارة فى هذا الصدد إلى أن هذه الدراسة أجريت على الطلاب الذين يحضرون المحاضرات فقط، ومن المعروف أن نسبة كبيرة جداً من الطلاب لا تحضر المحاضرات من الأساس وقد تصل هذه النسبة فى بعض الحالات إلى ٧٠٪ من الطلاب.

أما فى مرحلة ما قبل الجامعة فنلحظ انخفاض نسبة اعتماد الطلاب على قاعات الدرس (الحصص المدرسية)، حيث تبلغ ٣٧,٩٪، واللافت للنظر أن نفس نسبة الطلاب التى تعتمد على الكتاب المدرسى هى نفس نسبة الطلاب التى تعتمد على الكتاب الجامعى، أما نسبة الطلاب الذين يعتمدون على الدروس الخصوصية فتبلغ ٧٦,٣٪ وهى تزيد كثيراً عن نظيرتها فى الجامعة، أما نسبة الاعتماد على الملخصات الخارجية فتبلغ ٥٣٪ وهى تقل كثيراً عما يحدث فى المرحلة الجامعية.

يشكو الطلاب من كبر حجم الكتاب وكثرة المعلومات الموجودة به وربما الحشو والتكرار فى بعض الحالات

مستوى جودة الخدمة التعليمية

أوضحت نتائج الدراسة الميدانية أن متوسط جودة الخدمات التعليمية التى يحصل عليها الطلاب تبلغ ١.٦٧ بانحراف معيارى مقداره ٠.٥٧ وذلك على مقياس من ثلاث درجات حيث تشير الدرجة (١) إلى جودة منخفضة، أما الدرجة (٢) فتشير إلى درجة متوسطة، وتشير الدرجة (٣) إلى درجة عالية.

جدول (٣) الجودة المدركة للخدمات التعليمية من قبل المستفيدين

مدركات مستوى جودة الخدمة التعليمية	عدد مفردات العينة	النسبة المئوية
جودة عالية	٩	٤.٥٪
جودة متوسطة	١١٧	٥٩.١٪
جودة منخفضة	٦٨	٣٤.٣٪

يتضح من الجدول السابق أن ٥٩.١٪ من الطلاب يدرك أن مستوى جودة التعليم متوسطة فى حين أن ٣٤.٣٪ من الطلاب يدرك أن مستوى الجودة منخفض، ويدرك ٤.٥٪ من الطلاب أن مستوى جودة التعليم مرتفعة.

الفساد فى التعليم بصفة عامة

أظهرت نتائج المسح الميدانى أن درجة فساد قطاع التعليم بصفة عامة فى مصر تبلغ ٨.٢٪ بانحراف معيارى ١.٦٢ وذلك على مقياس من ١٠ درجات، حيث تشير الدرجة (١) إلى عدم وجود أى فساد على الإطلاق فى قطاع التعليم، أما الدرجة (١٠) فتشير إلى أن هناك فسادا كبيرا جداً فى قطاع التعليم.

جدول (٤) توصيف مؤشرات مدركات الفساد بين الطلاب

عدد مفردات العينة	الانحراف المعيارى	المتوسط	الحد الأدنى	الحد الأقصى
١٩٦	١.٦٢	٨.٢٥	٣	١٠

وكما يظهر هذا الجدول، فإن قطاع التعليم فى مصر حصل على ٨.٢٥ درجة من إجمالى (١٠) درجات على مقياس الفساد، وهى نسبة كبيرة جداً.

طريقة إنجاز الأعمال الإدارية

جدول (٥) طريقة إنجاز الطلاب لأعمالهم إبان التعامل مع الأجهزة الإدارية

الطريقة	المرحلة قبل الجامعية		المرحلة الجامعية	
	العدد	النسبة داخل العينة	العدد	النسبة داخل العينة
١ - الطريقة الرسمية	١٤٨	٧٤.٧٪	١٦٥	٨٣.٣٪
٢ - تقديم هدايا/ دفع الرشاوى	٧	٣.٥٪	٥	٢.٥٪
استخدام النفوذ والمعارف	٣٩	١٩.٧٪	٢٦	١٣.١٪

يتضح من الجدول السابق أن الغالبية العظمى من الطلاب الذين شملهم الاستقصاء تعتمد فى المرحلة الجامعية على الطريقة الرسمية فى إنجاز أعمالها مع الأجهزة الإدارية بنسبة ٨٣.٣٪، فى حين تعتمد ١٣.١٪ على استخدام النفوذ والعلاقات الشخصية والمعارف، أما نسبة من يقدمون هدايا أو يدفعون رشاوى فهى نسبة محدودة للغاية.

أما فى المرحلة ما قبل الجامعية، فإن نسبة ٧٤.٧٪ من الطلاب يؤدون أعمالهم باستخدام الطريقة الرسمية، فى حين يستخدم ١٩.٧٪ من الطلاب النفوذ والعلاقات الشخصية فى إنجاز أعمالهم، كما أن نسبة من يقدمون هدايا أو يدفعون رشاوى محدودة للغاية وتبلغ ٣.٥٪.

المواقف التى يضطر فيها الطلاب إلى دفع (إكراميات - بقشيش - هدايا - رشاوى) لإنجاز أعمالهم:

جدول (٦) التوزيع التكرارى للمواقف التى يضطر فيها الطلاب لتقديم هدايا أو دفع رشاوى أو إكراميات لإنجاز أعمالهم

المواقف	المرحلة ما قبل الجامعية		المرحلة الجامعية	
	العدد	النسبة داخل العينة	العدد	النسبة داخل العينة
١ - شراء الامتحان	١	٠.٥٪	صفر	٠.٠٪
٢ - التلاعب فى النتائج	١	٠.٥٪	١	٠.٥٪
٣ - الغش أثناء الامتحان	٧	٣.٥٪	٦	٣٪
٤ - التعامل مع الأجهزة الإدارية	٢٦	١٣.١٪	٢١	١٠.٦٪
٥ - معرفة النتائج من الكنترول	٦١	٣٠.٨٪	٦٩	٣٤.٨٪
٦ - مواقف أخرى	٢	١٪	٤	٢٪

يتضح من الجدول السابق أن أكثر المواقف التى يدفع فيها الطلاب رشاوى أو تقدمون هدايا هى معرفة النتائج من الكنترولات، حيث تبلغ هذه النسبة ٣٠.٨٪، أما فى الجامعة فتبلغ ٣٤.٨٪، وعادة ما تكون فى شكل مبالغ بسيطة جداً ويتعارف عليها فى الثقافة المصرية (حلاوة النجاح)، ويحصل عليها العمال الذين يستخدمون نفوذهم فى الكنترولات لاستخراج النتائج مبكراً، هذا وتبلغ نسبة الطلاب الذين يدفعون رشاوى. تقديم هدايا أثناء التعامل مع الأجهزة الإدارية ١٣٪، فى المرحلة قبل الجامعية، و١٠.٦٪ فى المرحلة الجامعية، أما نسبة الطلاب الذين يدفعون رشاوى أو يقدمون هدايا من أجل الغش فى الامتحان فتبلغ ٣.٥٪ فى المرحلة ما قبل الجامعة، و٣٪ فى المرحلة الجامعية، وتشير النسب والأرقام السابقة إلى أن التعليم فى مصر مازال بخير.

الغش فى الامتحان

جدول (٧) التوزيع التكرارى لبعض مظاهر الغش فى الامتحانات

المظاهر	العدد	النسبة
١ - الشعور بتأنيب الضمير بعد الغش فى الامتحان	٩٧	٤٩٪
٢ - نية الطلاب فى الغش دون الوقوع تحت طائلة القانون	١٠٠	٥٠.٥٪
٣ - الطلاب الذين يشاهدون زملاءهم يغشون أثناء الامتحان	١٩٤	٩٨٪
٤ - الشعور بالرضا والسعادة بعد الغش فى الامتحان	٣٥	١٧.٧٪

يتضح من الجدول السابق أن ٤٩٪ من الطلاب يشعرون بتأنيب الضمير بعد الغش فى الامتحان، فى حين يشاهد ٩٨٪ من الطلاب زملاء لهم يقومون بالغش فى الامتحان، أما نية الطلاب فى القيام بالغش فى الامتحان طالما لا يقعون تحت طائلة المساءلة القانونية فتبلغ ٥٠.٥٪، ويشعر ١٧.٧٪ من الطلاب بالرضا والسعادة بعد الغش فى الامتحان.

مدى غلبة الطابع التجارى على العملية التعليمية

جدول (٨) مدركات الطلاب عن الطابع التجارى للعملية التعليمية

المواقف	المرحلة ما قبل الجامعية		المرحلة الجامعية	
	العدد	النسبة داخل العينة	العدد	النسبة داخل العينة
مدى إدراك الطلاب أن العملية التعليمية تجارية	١٦٩	٨٥.٤٪	١٤٤	٧٢.٧٪

أشارت نتائج الدراسة إلى إخفاق نظام التعليم بالجامعات فى تعليم الطلاب قيما وأخلاقيات قويمة

يتضح من الجدول السابق أن طلاب المدارس وطلاب الجامعات يدركون أن العملية التعليمية على أنها مسألة تجارية فى المقام الأول.

مدركات الطلاب لعدالة الدرجات والتقديرات التى يحصلون عليها

جدول (٩) التوزيع التكرارى لمدركات الطلاب لعدالة الدرجات والتقديرات التى يحصلون عليها

	العدد	النسبة
١ ـ التقديرات أو الدرجات تعكس الأداء فى الامتحان	٧٨	٣٩,٣٪
٢ ـ الحصول على تقدير أعلى مما يستحق	٣٠	١٥,٢٪
٣ ـ الحصول على تقدير أقل مما يستحق	١١٨	٥٩,٦٪

يوضح الجدول السابق أن ٣٩.٤٪ من الطلاب يحصلون على درجات وتقديرات تعكس أدائهم فى الامتحان، فى حين يحصل ١٥,٢٪ من الطلاب على تقديرات أعلى مما يستحق، أما نسبة الطلاب الذين يحصلون على تقديرات أقل مما يستحقون فتبلغ ٥٩,٦٪.

اغتراب العملية التعليمية

جدول (١٠) التوزيع التكرارى لمدى اغتراب ما يتعلمه الطلاب

	العدد	النسبة
الشعور بالاغتراب	١٥٦	٨٣,٣٪

يوضح الجدول السابق أن ٨٣.٣٪ من الطلاب يشعرون بالاغتراب بين ما يتعلمونه بالجامعة وما يرونه من ممارسات من حولهم

تأثير نظام التعليم على سلوكيات الطلاب

جدول (١١) التوزيع التكرارى لبعض سلوكيات الطلاب المرتبطة بنظام التعليم الحالى

المفاهيم	العدد	النسبة
١ ـ نظام التعليم الحالى أداة لتعليم الطلاب الخداع والتحايل على المؤسسات التعليمية	١٤٠	٧٠,٧٪
٢ ـ مساهمة نظام التعليم فى الحد من الفساد	٢٩	١٤,٦٪
٣ ـ تعليم الطلاب سلوكيات وأخلاقيات حميدة بالجامعة	٧٤	٣٧,٤٪

يوضح الجدول السابق أن ٧٠,٧٪ من الطلاب يعتبر أن نظام التعليم بصورته الحالية أداة لتعليم الطلاب الخداع والتحايل على المؤسسات التعليمية بدلاً من بث قيم النزاهة والشفافية والعدالة والموضوعية فى نفوسهم وممارساتهم. أما نسبة الطلاب الذين يعتقدون أن نظام التعليم بصورته الحالية فى مصر يساهم فى الحد من الفساد فهى ضئيلة وتبلغ ١٤,٦٪.

مدى وجود قانون فى مصر لمكافحة الفساد

جدول (١٢) التوزيع التكرارى لمدركات الطلاب لمدى وجود قانون فى مصر لمكافحة الفساد

المفاهيم	العدد	النسبة
١ ـ يوجد قانون	٢٩	١٤,٦٪
٢ لا يوجد قانون	٦٧	٣٣,٨٪
٣ ـ لا أعلم	٩٦	٤٨,٥٪

يوضح الجدول السابق أن ١٤,٦٪ من الطلاب المشاركين فى الدراسة يعلم بوجود قانون لمكافحة الفساد فى مصر، فى حين أن ٣٣.٨٪ من الطلاب المشاركين لا يعلم بوجود قانون لمكافحة الفساد، ولا يعلم ٤٨,٥٪ من الطلاب ما إذا كان يوجد قانون فى مصر لمكافحة الفساد فى مصر أم لا، والحقيقة أنه لا يوجد الآن قانون لمكافحة الفساد فى مصر، وإن كان هناك مجموعة من التشريعات التى تجرم الإخلال بالنظام والقانون بصفة عامة. ومن المعلوم أن العبرة ليست بوجود القانون، ولكن بتطبيقه بعدالة وموضوعية.

أسباب فساد التعليم فى مصر

جدول (١٣) التوزيع التكرارى لأسباب فساد التعليم فى مصر من وجهة نظر المستفيدين من الخدمة التعليمية

المفاهيم	العدد	النسبة
١ ـ انخفاض أجور ومرتبات العاملين	١٥٠	٧٥,٨٪
٢ ـ عدم وجود روادع قوية ضد الفاسدين	١٤٦	٧٣,٧٪
٣ ـ الروتين والجمود والبيروقراطية	١٥٨	٧٩,٨٪
٤ ـ عدم الثقة فى عدالة النظام التعليمى	١٢٩	٦٥,٢٪
٥ ـ عادات وسلوكيات موروثة بين الناس	١٠٣	٥٢٪
٦ ـ عدم الجدية فى تطبيق القانون بوجه عام فى مصر	١٣٩	٧٠,٢٪
٧ ـ الطالب نفسه	٨٦	٤٣,٤٪
٨ ـ الأسرة	٥٧	٢٨,٨٪

يوضح الجدول السابق أن الجمود والروتين والبيروقراطية هى من أهم أسباب فساد التعليم فى مصر بنسبة ٧٩.٨٪، ويليها انخفاض أجور ورواتب العاملين بنسبة ٧٥.٨٪، ويأتى بعد ذلك عدم وجود روادع قوية ضد الفاسدين بنسبة ٧٣,٧٪، ثم عدم الجدية فى تطبيق القانون بنسبة ٧٠,٢٪، وعدم الثقة فى عدالة النظام التعليمى بنسبة ٦٥,٢٪، يلى ذلك العادات والسلوكيات الموروثة لدى الناس بنسبة ٥٢٪، ثم الطالب نفسه بنسبة ٤٣,٣٪، والأسرة بنسبة ٢٨.٨٪.

الطرف الأكثر استفادة من الفساد فى التعليم بالجامعة

جدول (١٤) التوزيع التكرارى للطرف الأكثر استفادة من الفساد فى التعليم بالجامعة

المفاهيم	العدد	النسبة
١ ـ الطالب نفسه	٣٣	١٦,٧٪
٢ ـ المعيدون والمدرسون المساعدون	١٠٦	٥٣,٥٪
٣ ـ الأساتذة	٣٥	١٧,٧٪
٤ ـ الدولة (ممثلة فى الحكومة)	٧٦	٣٨,٤٪
٥ ـ أطراف أخرى	٣٢	١٦,٢٪

يوضح الجدول السابق أن الطرف الأكثر استفادة من الفساد فى التعليم بالجامعة هم المعيدون والمدرسون المساعدون بنسبة ٥٣,٥٪، فى حين يرى ٣٨,٤٪ من المشاركين فى الدراسة أن الطرف الأكثر استفادة هو الدولة ممثلة فى الحكومة، بينما يرى ١٧.٧٪ من الطلاب أن الأساتذة هم الطرف الأكثر استفادة، وأخيراً يرى ١٦,٧٪ من الطلاب أن الطالب نفسه هو الطرف الأكثر استفادة من الأوضاع الحالية فى مجال التعليم.

تفسير نتائج الدراسة وأبرز مضامينها:

استناداً وتأسيساً على النتائج السابقة، ينبغى أن تخضع منظومة

ثقافة التعليم فى مصر

التعليم فى مصر لمجموعة من الإصلاحات بحيث تشمل الجوانب السلبية التى أسفرت عنها نتائج الدراسة.

١. أشارت نتائج الدراسة إلى عزوف الطلاب عن استخدام الكتاب المدرسى والكتاب الجامعى، حيث بلغت نسبة الطلاب الذين لا يعتمدون على الكتاب فى المرحلتين ٦٨.١٪، كما أشارت الدراسة إلى اعتماد ٧٤.٧٪ من طلاب الجامعة على الملخصات الخارجية، واعتمد ٥٣.٥٪ من طلاب المرحلة ما قبل الجامعية على الملخصات الخارجية، كما أن نسبة اعتماد الطلاب على المراجع المتخصصة متدن للغاية، ولهذا ينبغى إعادة النظر فى الكتاب المدرسى والكتاب الجامعى بصورته الحالية، وربما تبسيطه وإعادة هيكلته للعمل على زيادة ثقة الطلاب فى الكتاب ومحتواه، فعادة ما يشكو الطلاب من كبر حجم الكتاب وكثرة المعلومات الموجودة به وربما الحشو والتكرار فى بعض الحالات، علاوة على ذلك، ينبغى إعادة النظر فى المنظومة الكلية للتعليم بحيث تتيح أنظمة التعليم وتقدر رجوع الطلاب إلى المراجع المتخصصة وارتياد المكتبات ودراسة الموضوعات، وبالذات فى المرحلة الجامعية، ومن أكثر من زاوية أو وجهة نظر لتعميق الفهم والاستيعاب وبناء عقلية الطالب بطريقة سليمة.

هذا ويلاحظ من نتائج الدراسة انحسار نسبة الطلاب الذين يلجأون إلى الدروس الخصوصية فى المرحلة الجامعية والتى بلغت ١٧.٧٪، فى حين تبلغ هذه النسبة فى المرحلة قبل الجامعية ٧٦.٣٪، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى الظروف المحيطة بالثانوية العامة والسباق المحموم بين الطلاب لدخول كليات بعينها، علاوة على ذلك فإن الدراسة الحالية أجريت على الطلاب الذين يحضرون المحاضرات وربما كان ذلك سبباً فى أن معظمهم لا يستخدمون الدروس الخصوصية، وغنى عن البيان كما أشارت الدراسة فى موضع سابق إلى عزوف الطلاب عن الدخول إلى المدرجات وقاعات البحث فى عدد غير قليل من الجامعات المصرية بصفة عامة.

٢. أشارت الدراسة إلى تدنى مستوى الجودة المدركة للخدمة التعليمية التى يحصل عليها الطلاب، ولهذا ينبغى على الدولة وعلى القيادات الجامعية إعادة النظر بصورة كلية فى جودة الخدمة التعليمية، والعمل على تحسين مستوى الجودة من خلال الاهتمام بمدخلات العملية التعليمية المتمثلة فى الطالب والأستاذ والموارد المتاحة والمكتبات والأجهزة الإدارية الداعمة، وكذلك الاهتمام بالعملية التعليمية وبالذات فلسفة التعليم والتحول من التعليم السلبى الذى يعتمد على التلقى والحفظ والتذكر إلى التعليم الإيجابى الذى يعتمد على التفاعل بين الطالب والأستاذ والآليات المؤسسية الموجودة بالجامعة مثل الاتحادات الطلابية والأسر والجمعيات العلمية والمنتديات الفكرية، علاوة على تطبيق الأساليب التى تعتمد عليها الجامعات العالمية المرموقة مثل المشروعات البحثية والحالات العملية و الجوانب التطبيقية، والعمل الجماعى وفرق العمل بين الطلاب وغيرها من الأساليب التى تشجع على الإبداع والابتكار والتخيل لدى الطالب، بالإضافة إلى الاهتمام بمخرجات العملية التعليمية ذاتها مثل رعاية الطلاب المتفوقين ودعمهم وتسهيل طريق استكمال دراستهم وربما تنمية مسارات تميز لرعايتهم، هذا ونود الإشارة إلى ضرورة تفعيل وتدعيم المبادرات التى ترعاها الدولة بخصوص إنشاء وحدات للجودة داخل الكليات وهيئات للجودة، وربما يكون من الأنسب التحول التدريجى نحو هيئات الجودة والاعتماد الدولية، ولا يأتى ذلك إلا من خلال فتح مزيد من الاستقلال وحرية الإدارة للوحدات الجامعية بحيث تستطيع العمل فى هذا الاتجاه وما يتطلبه من تعديل فى منظومة القوانين والتشريعات واللوائح الحاكمة لعمل الجامعة أو بالأحرى إصلاح المنظومة المؤسسية الحاكمة بالجامعة، وما نود الإشارة إليه فى هذا الإطار أنه لا ينبغى إعادة اختراع العجلة بل يتطلب الأمر ببساطة دراسة تجارب الجامعات المرموقة فى العالم والاستفادة بها، وكيف استطاعت تحسين الجودة بها من خلال الالتزام بالمواصفات العالمية المتعارف عليها فى التدريس والإدارة والتكنولوجيا والتقييم وغيرها.

٣. أشارت نتائج الدراسة إلى أن مؤشر مدركات الفساد فى قطاع التعليم ٨.٢٥ وهو مؤشر مفزع، ويعنى أن قطاع التعليم فى مصر غارق فى بحر من الفساد، ورغم ذلك يرى الباحث أن هذا التقدير مبالغ فيه إلى حد ما، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى حالة الإحباط السائدة بين الشباب فى المجتمع المصرى بسبب عدم توافر فرص عمل وارتفاع مستويات الأسعار والغلاء وغيرها، وربما بسبب عدم تعود الطلاب فى مصر على ثقافة الاستقصاءات والمسوحات الميدانية، مما جعل بعض من شملهم الاستقصاء يسأل عن مصير هذا الاستبيان، وهل سوف ترسل نتائجه إلى القيادات العليا فى الدولة وهل سوف يؤخذ على محمل الجد، وربما دفعهم هذا إلى المبالغة فى تقدير درجة الفساد لجذب الأنظار إلى ما وصلت إليه حالة التعليم فى مصر، ومع ذلك ينبغى على الدولة وعلى القيادات العليا فى قطاع التعليم وفى الجامعات أخذ هذه الأرقام على محمل الجد، والعمل على اقتلاع الفساد من جذوره والضرب بيد من حديد على مظاهر الفساد وعلى عدم الالتزام بالمواصفات، وتفعيل قوانين ولوائح المؤسسات التعليمية سواء فى مرحلة الجامعة أو المرحلة قبل الجامعية وتطبيقها بحزم على الجميع دون استثناء حتى تسترد قوانين ولوائح المؤسسات التعليمية هيبتها فى كافة جوانب العملية التعليمية.

٤. أشارت نتائج الدراسة إلى أن ٧٤.٧٪ و٨٣.٣٪ من الطلاب فى المرحلة ما قبل الجامعية، وفى المرحلة الجامعية على الترتيب يؤدون أعمالهم باستخدام الطرق الرسمية وهذا مؤشر إيجابى، وأن نسبة من يدفعون رشاوى أو يقدمون هدايا أو يدفعون رشاوى محدودة للغاية وهذا أيضاً مؤشر إيجابى للغاية، أما نسبة من يستخدمون نفوذهم ومعارفهم وعلاقاتهم الشخصية لإنجاز التعامل مع الأجهزة الإدارية بالجامعة فهى ١٣.١٪ فى حين كانت ١٩.٧٪ فى المرحلة ما قبل الجامعية، وربما يشير هذا إلى أن الأنظمة الحاكمة لعمل الجامعة أكثر إحكاماً من نظيرتها السائدة فى المرحلة قبل الجامعية.

٥. أشارت الدراسة إلى المواقف التى يضطر فيها الطلاب إلى تقديم هدايا أو دفع رشاوى لإنجاز أعمالهم، وكانت هذه المؤشرات مشجعة للغاية واتضح أن الموقف الوحيد الذى يضطر فيه الطلاب إلى دفع بقشيش هو الحصول على النتائج من الكنترول، وكما أشارت الدراسة، فإن هذا أمر طبيعى جداً فى الثقافة المصرية ويدخل فيما يسمى (حلاوة النجاح) التى تدفع للعمال الذين يأتون بالنتيجة من الكنترول وربما يمكن القضاء على هذا المظهر بسهولة مع التقدم والرقى فى استخدام أنظمة الحاسب الآلى فى الكنترولات واستخراج النتائج وإتاحتها على الإنترنت وهو ما يؤدى إلى زيادة الشفافية وتوافر المعلومات لدى الطلبة، واللافت للنظر أن هذه النتيجة والنتيجة السابقة لها مباشرة بصفة عامة إيجابية، وتشير إلى أن الفساد فى التعليم ليس كبيراً جداً كما أشار مؤشر مدركات الفساد فى النتيجة السابقة مباشرة، اللهم إلا إذا كانت هناك مؤشرات أخرى للفساد لم تتطرق إليها الدراسة الحالية.

٦. بالنسبة للغش فى الامتحانات، فقد أشارت نتائج الدراسة أن ٥٠.٥٪ من الطلاب يبيتون النية للغش فى الامتحانات ما دام الطالب لن يقع تحت طائلة القانون، كما أن ٤٩٪ من الطلاب يشعرون بتأنيب الضمير بعد الغش فى الامتحان، كما يشعر ١٧.٧٪ بالرضا والسعادة بعد الغش، واللافت للنظر أن ٩٨٪ من مفردات العينة شاهدت زملاء لهم يقومون بالغش، وهنا علامة استفهام تتعلق بأن كل الطلبة تقريباً يتم مشاهدتهم وهم يقومون بالغش، وذلك على الرغم من أن نسبة كبيرة من مفردات العينة نفت القيام بالغش.

٧. مدى تجارية العملية التعليمية، فقد أشارت نتائج الدراسة إلى أن الطلاب يدركون أن العملية التعليمية يغلب عليها الطابع التجارى، وهذا معناه ضرورة إعادة النظر فى العديد من الظواهر السلبية التى تجعل العملية التعليمية تبدو وكأنها تجارية بحتة علاوة على ضرورة تطبيق القوانين واللوائح بطريقة صارمة بين الأطراف القائمة على العملية التعليمية، حتى لا يضطروا إلى استخدام نفوذهم وتحقيق مكاسب ومصالح مادية من وراء العملية التعليمية، والشق المهم فى هذه النتيجة هو ضرورة تحسين الأوضاع المادية للقائمين على العملية التعليمية سواء فى المدارس أو الجامعات بما يضمن لهم حداً أدنى للمعيشة الكريمة التى تمكنهم من العطاء والتفانى فى العمل والإخلاص فيه.

٨. بالنسبة لمدركات الطلاب لعدالة التقديرات التى يحصلون عليها، فقد أوضحت النتائج أن ٦٠.١٪ من الطلاب يعتقدون أن الدرجات التى يحصلون عليها لا تعكس الأداء فى الامتحانات، كما يرى ٥٩.٦٪ من الطلاب أنهم يحصلون على تقديرات أقل من توقعاتهم، ويرى ١٥.٢٪ من مفردات العينة أنهم يحصلون على تقديرات أعلى مما هو متوقع، ورغم أهمية هذه النتائج إلا أنها لا تحمل دلالات قوية لأن الطالب عادة ما يكون متحيزاً لنفسه وتوقعاته.

٩. مدى اغتراب العملية التعليمية، فقد أوضحت الدراسة أن ٨٣.٣٪ من مفردات العينة يشعر بانفصام ومفارقة بين ما يتعلمونه بالجامعة وما يقرأونه فى الكتب والمواد العلمية التى تدرس إليهم، وبين ما يرونه من حولهم من ممارسات وتصرفات وأساليب شائعة فى التعامل والحياة بصفة عامة، وتدعم هذه النتيجة وجهة النظر التى تؤكد على وجود مفارقات كبيرة فى نظام التعليم بصورته الحالية.

١٠. تأثير نظام التعليم على سلوكيات الطلاب، فقد أشارت نتائج الدراسة إلى إخفاق نظام التعليم بالجامعات فى تعليم الطلاب قيما وأخلاقيات قويمة حيث يرى ٧٠.٧٪ من الطلاب أن نظام التعليم بصورته الحالية هو أداة لتعليم الطلاب الخداع والتحايل على المؤسسات التعليمية والقائمين عليها، وكذلك يرى ٨٥.٤٪ من الطلاب أن نظام التعليم لا يساهم فى تعليم الطلاب الحد من الفساد، كما أن نسبة الطلبة التى ترى أنها تتعلم أخلاقيات وسلوكيات قويمة من الجامعة بلغت ٣٧.٤٪ وهى نسبة ضئيلة فى مجتمع مثل المجتمع المصرى الذى يفترض فيه أنه يستمد منظومة القيم

والأخلاقيات من الدين والثقافة العربية الغنية أصلاً بالقيم والأخلاقيات النبيلة، وتلفت هذه النتائج الانتباه إلى ضرورة الاهتمام بمنظومة القيم والأخلاقيات، وربما يقتضى الأمر تدريس بعض المقررات الخاصة بأخلاقيات المهنة وأخلاقيات الموظف العام وأخلاقيات الأعمال والإدارة والقيادة الأخلاقية وغيرها على حسب تخصص الطالب.

١١ . وجود قانون لمكافحة الفساد فى مصر، فقد أشارت نتائج الدراسة إلى أن ٤٨,٥٪ من مفردات عينة الدراسة لا تعلم إذا ما كان يوجد فى مصر قانون لمكافحة الفساد، و أن ٨٣٪ أقرت بعدم وجوده، و١٤,٦٪ أقرت بوجوده، وتوضح هذه النتائج أن الغالبية العظمى من المستقصى منهم لا تعرف أصلاً ما إذا كان يوجد قانون لمكافحة الفساد فى مصر أم لا، وهذا فى حد ذاته إخفاق فى نظام التعليم الذى عجز عن إمداد الطلاب حتى بمثل هذه المعلومة.

١٢ . أسباب فساد التعليم فى مصر، تشير نتائج الدراسة إلى ضرورة إعادة النظر فى الأنظمة البيروقراطية الحاكمة لنظام التعليم لأنها تشجع على الفساد وتشكل ستاراً يحمى الفاسدين، كما أشارت نتائج الدراسة إلى أن انخفاض الأجور والرواتب هى السبب الثانى لانتشار ممارسات الفساد فى التعليم وربما للمساعدة فى سد الاحتياجات الضرورية الملحة للعاملين فى هذا القطاع مثله فى ذلك مثل معظم قطاعات الدولة.

وأشارت نتائج الدراسة أيضاً إلى ضعف الروادع ضد الفاسدين، وكذلك عدم جدية أجهزة الدولة فى تطبيق القانون، ولهذا ينبغى أن تقوم الدولة والقيادات المسئولة فى قطاع التعليم بإيجاد آليات وروادع قوية وسريعة وحاسمة لكل من تسول له نفسه أن يعبث بنظام صناعة العقول فى مصر، علاوة على ضرورة اتخاذ التدابير اللازمة لتطبيق القانون وتنفيذه على الجميع دون استثناء أو تمييز حتى تسترد الدولة والأنظمة القانونية الحاكمة لها هيبتها، أما السبب الخامس لانتشار الفساد فى مجال التعليم من وجهة نظر الطلاب فهو عدم عدالة النظام التعليمى، ولهذا ينبغى على المسئولين وصناع القرار العمل على سيادة منظومة العدل وبالذات فى نظام التعليم لما له من دور مهم فى تشكيل وتكوين المنظومة الأخلاقية لأفراد المجتمع، أما السبب السادس لفساد التعليم من وجهة نظر الطلاب فهو العادات والسلوكيات الموروثة لدى الناس، وهذا جانب ثقافى فى المجتمع، على سبيل المثال يشعر بعض الناس بالفخر الكبير وعلو المكانة والرفعة والمنزلة الاجتماعية إذا قاموا بكسر القوانين والحصول على أشياء لا يستحقونها أو الحصول على معلومات تمكنهم من اكتساب بعض المكاسب السريعة، أما السبب السابع فهو الطالب نفسه، فقد تلعب سلوكيات الطلاب وممارساتهم دوراً فى إفساد العملية التعليمية، على سبيل المثال قد يقلد الطالب زملاءه وقد ينشرون الشائعات ويمشون فى الدهاليز غير القانونية أو غير المشروعة أو حتى غير الأخلاقية.

١٣ . بالنسبة للطرف الأكثر استفادة من الفساد فى التعليم، فقد أشارت نتائج الدراسة إلى أن المعيدين والمدرسين المساعدين هم الطرف الأكثر استفادة من فساد التعليم بنسبة ٥٣,٥٪، يليها الحكومة بنسبة ٣٨,٤٪ يليها الأساتذة بنسبة ١٧,٧٪ والطالب نفسه بنسبة ١٦,٧٪.

واستناداً إلى هذه النتائج، ينبغى بلورة رؤية استراتيجية مستقبلية تحدد الأهداف الاستراتيجية وراء القضاء على مظاهر الفساد فى التعليم، وكذلك الأطراف الرئيسية التى تساهم فى الحد من الظواهر السلبية التى أسفرت عنها الدراسة، كذلك تفعيل دور بعض الأطراف الاستراتيجية المهمة ذات العلاقة بقطاع التعليم بحيث تعمل على ممارسة أدوار رقابية للحد من الظواهر السلبية فى هذا القطاع الحيوى مثل الشركات والمؤسسات التى توظف خريجى التعليم، ومنظمات المجتمع المدنى مثل النقابات والجمعيات الأهلية والمهنية وغيرها، والتى يمكن أن تقف بالمرصاد لممارسات المؤسسات التعليمية، كما ينبغى على الدولة وعلى الجامعات القيام بإصلاح وتطوير أنظمة الإدارة، وذلك أن التطور المؤسسى البطىء الذى تشهده الأنظمة والممارسات الحاكمة لعمل المؤسسات يعوق تقدمها وانطلاقها نحو الإصلاح ومعالجة الخلل القائم، وأيضاً اتباع استراتيجيات لإصلاح التعليم والتعامل مع القضايا والإشكاليات التى أفرزتها الدراسة، كما أسلفنا علاوة على ضرورة تبنى استراتيجيات شاملة ومتكاملة لإصلاح المؤسسات التعليمية من منظور استراتيجى يعمل على إعادة هيكلة المؤسسات التعليمية والتخلص من الأنظمة التقليدية وتبنى مبادرات مثل الجامعات الافتراضية والتعليم الإلكترونى وغيرها من الأدوات التى وفرها التقدم فى مجال تكنولوجيا المعلومات والإنترنت والتى قد تؤدى إلى القضاء على العديد من المظاهر السلبية والفساد الذى أصاب منظومة التعليم فى مصر.

كتاب الزاوية

قيم وتقاليد القضاء

استقلال القضاء

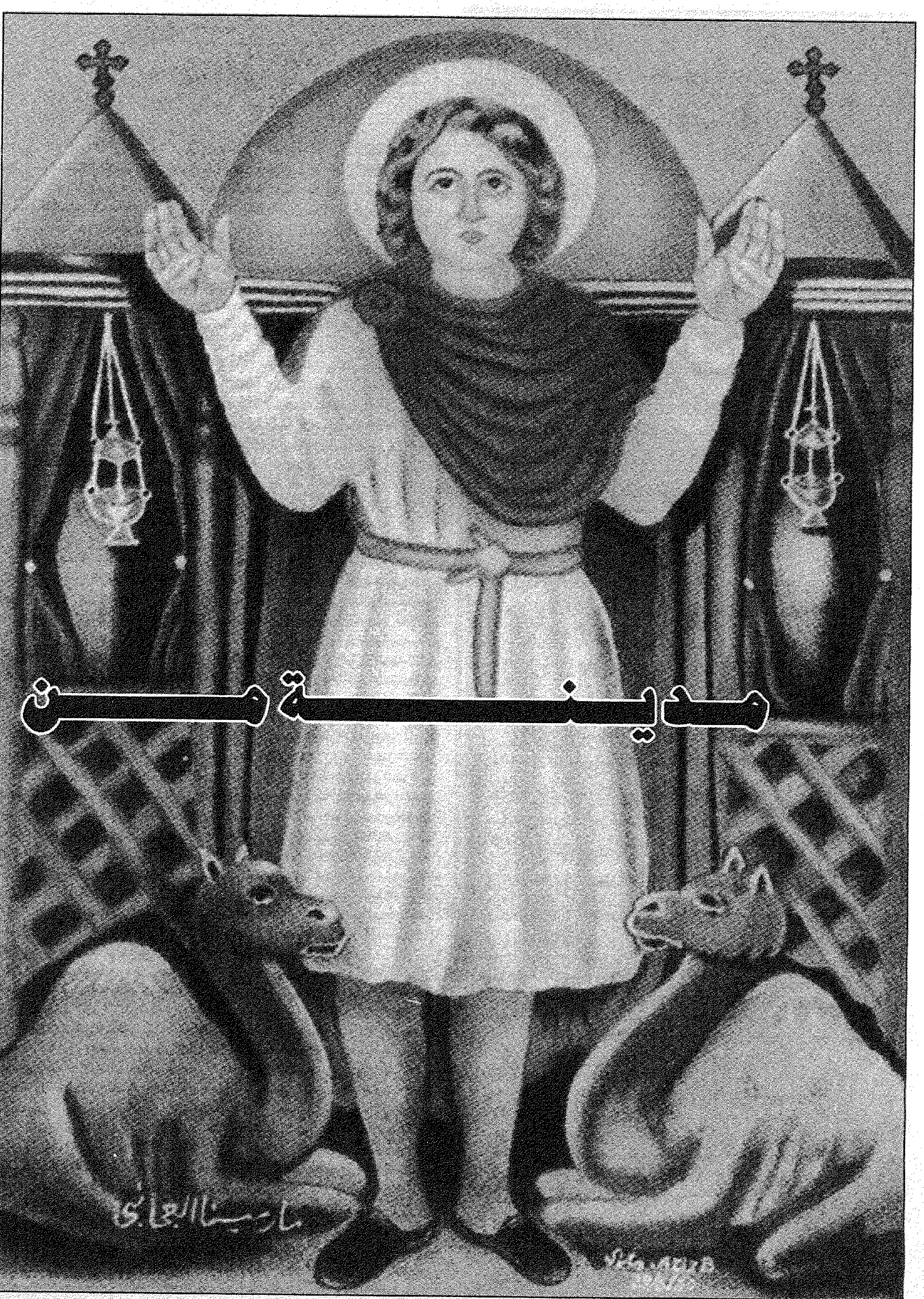
طبيعة القضاء أن يكون مستقلاً والأصل فيه أن يكون كذلك، وكل مساس بهذا الأصل من شأنه أن يعبث بجلال القضاء وكل تدخل فى عمل القضاء من جانب أية سلطة من السلطتين التشريعية والتنفيذية يخل بميزان العدل ويقوض دعائم الحكم، فالعدل كما قيل قديماً أساس الملك.

قيام القاضى بأداء وظيفته حراً مستقلاً، مطمئناً على كرسيه آمنًا على مصيره أكبر ضمانة لحماية الحقوق العامة والخاصة. أليس هو الأمين على الأرواح والأنفس والحريات؟ أو ليس من حق الناس أن يطمئنوا إلى أن كل ما هو عزيز عليهم يجد من كفالة القضاء أمنع حمى وأعز ملجأ؟ أو ليس من حق الضعيف إذا دناه ضيم أو حاق به ظلم أن يطمئن إلى أنه أمام قضاء قوى بحقه، عزيز بنفسه مهما كان خصمه قويًا بماله أو بنفوذه وسلطانه؟ فمن الحق أن يتساوى أمام قدس القضاء أصغر شخص فى الدولة بأكبر حاكم فيها وأن ترعى الجميع عين العدالة.

وتستمد هذه المبادئ أصولها من طبيعة القضاء نفسه، ومن أعماق نفوس القضاة، فخير ضمانة للقاضى هى ما يستمدها من قرارة نفسه وخير حصن يلجأ إليه هو ضميره، فقبل أن تفتش عن ضمانات القاضى فتش عن الرجل تحت وسام الدولة، فلن يصنع الوسام منه قاضياً إن لم يكن بين جنبيه نفس القاضى وعزة وكرامة القاضى لسلطانه واستقلاله.

المذكرة الإيضاحية لقانون السلطة القضائية رقم ٦٦ لسنة ١٩٤٣

مدينة من



رخـــام..

مينا بديع عبد الملك

في ٧ يوليو من عام ١٩٠٥م توصل عالم الآثار الألماني كارل. ماريا كاوفمان Kaufmann (١٨٧٢ - ١٩٥١) ومعه مساعده ايوالد فولز Falls إلى اكتشاف المدينة الرخامية بمنطقة مريوط غرب الإسكندرية والمعروفة باسم منطقة «بومنا» أي منطقة «القديس مينا» الذي يعد من أشهر الشهداء الأقباط في القرن الرابع الميلادي (٢٨٦ - ٣٠٩م).

بدأ كاوفمان رحلته الاستكشافية في عالم الآثار بزيارته إلى الصحراء الليبية والتي رافقه فيها مساعده فولز للبحث عن آثار مسيحية في منطقة «سيرين» وهضبتها بليبيا، إلا أن مصاعب سياسية واجهت البعثة مع حاكم ليبيا، مما دفع البعثات الأثرية التي جاءت إلى الشرق أن تتجه صوب منطقة مريوط.

معالم على الطريق

إلى المدينة الرخامية

كان أهم ما استرشد به كاوفمان وفولز، الطريق الذي سلكه البابا بنيامين الأول البطريرك ٣٨ (٦٢٣ - ٦٦٢م) إلى برية شيهيت، وأيضًا وصف الرحالة البكري - أحد الجغرافيين العرب - الذي زار المنطقة وشاهد بقايا المدينة القديمة عام ١٠٨٦م وكان «كاترمير» Quatremere قد قام بترجمته إلى الفرنسية. كذلك اعتمد على مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس ويعود تاريخه إلى القرن الحادي عشر الميلادي.

لم يكن وصول كاوفمان إلى المدينة صعبا لدرجة ما، إذ إن الذين سبقوه في تلك المحاولة قد ألقوا ضوءاً واضحاً عليها، خاصة ما قام به الرحالة كارفر Carver.

فأول رحالة ذكره التاريخ على أنه زار كرم «بومنا» أو «أبو مينا» هو باخو Pacho وكان ذلك عام ١٨٢٤م حين مر صدفة بالمنطقة وهو في طريقه من أبو صير إلى قصر القطاجي Qatagi، جاء بعد ذلك الرحالة يونكرز Junkers.

في عام ١٩٠٤ نشر الأدميرال «بلومفيلد» Blomfield مقالاً بعنوان (مار مينا الإسكندري) بمجلة جمعية آثار الإسكندرية تحدث فيها عن أواني القديس مينا الفخارية التي صنعت في مدينة أبو مينا، ثم حدد أيضًا مكان كنيسة مار مينا الكبرى على أنها تقع في أقصى الجنوب. ثم طلب من جمعية آثار الإسكندرية (التي تأسست عام ١٨٩٣م) أن تقوم بالبحث عنها.

نظم أيضًا العالم الإيطالي د. بريشيا Breccia رحلة في عام ١٩٠٤ لاستكشاف الصحراء الغربية بحثًا عن مدينة أبو مينا، وظل يجول هناك حتى تقابل مع البعثة الألمانية بقيادة كاوفمان، فكتب بريشيا يقول: (... واضطررنا للانسحاب بكل تواضع أمام البعثة التي كان يقودها الأسقف كاوفمان الذي جاء إلى مصر بغية الوصول إلى نفس الهدف، إذ إنه كان لدى هذه البعثة الكثير من الإمكانيات المادية والاستعدادات الطبية مما لم يكن في استطاعتي الحصول على مثله).

رغم كل المحاولات السابقة للوصول إلى هذه المنطقة والاستعدادات الضخمة التي كانت لبعثة كاوفمان - كما ذكر د. بريشيا - فإن البعثة واجهت صعوبات جمة في عملها حتى سقط كاوفمان مريضًا، وفكر مع أعضاء البعثة الألمانية في العودة إلى بلادهم بعد أن تملك منهم اليأس!!

بداية الكشف عن المنطقة

في تلك الأثناء حضر أحد الصبية البدو ومعه آنية كاملة من أواني القديس مينا - ذات الشهرة العالمية - وقدمها إلى «فولز» مساعد كاوفمان وأخبره أنه وجدها في أحد أفران الفخار القديمة بالقرب من المكان الذي ينقبون فيه. وأخيرًا أرشدهم أحد البدو إلى مكان يدعونه «قلعة الخليفة»، وهو كوم من الحجارة المتراكمة، وفي الحقيقة لم تكن قلعة الخليفة هذه بعد البحث والتنقيب سوى مكان كنيسة البابا ثاؤفيلس الأثرية. كان هذا اليوم - ٧ يوليو ١٩٠٥ - بمثابة أسعد أيام حياة كاوفمان.

أما تفاصيل هذا الحدث فيسجله كاوفمان بنفسه في كتابه النفيس عن مدينة مينا بمريوط فيقول:

بعد مسيرة ٣٠ يومًا على ظهر الإبل في دروب الصحراء الليبية وصلت البعثة الاستكشافية من وادي النطرون مخترقة صحراء أولاد علي، إلى مجمع آثار «أبو مينا»، عادوا بعدها إلى المعسكر وهم مجهدون، خائرو الهمة، معتقدون أنهم فشلوا في بلوغ هدفهم. وأقاموا مدة يومين في خيام يرفرف عليها العلمان المصري والألماني والتي وضعتها الحكومة المصرية تحت تصرفهم. وودعوا الدليل البدوي بعد أن أمضوا عامين تحت شمس ليبيا المحرقة على أمل العثور على المدينة الأثرية.

قابلت البعثة العديد من الأطلال التي لم تمسسها يد قط في كرم «أبو مينا». وعندما سقط كاوفمان مريضًا في معسكر أبو مينا أهداه أحد أفراد قبيلة «أبو علي» شقفات (أوستراكات) عثر عليها أثناء تجواله لأول مرة في منطقة الآثار. فاعتقد كاوفمان أن هذا يؤدي إلى احتمال اكتشاف آثار «أبو مينا». وقد تعزز هذا الاحتمال عندما أهداه صبي بدوي قنينة (قارورة) عليها كتابات يونانية ثم قاده إلى المكان الذي عثر عليها فيه وكان عبارة عن بقايا فرن لعمل الفخار). وهنا كان اكتشاف المنطقة الأثرية.

كانت ضخامة المدينة التي عثروا عليها قد فاقت كل توقعاتهم. وقد جاءت فرحتهم بالاكتشاف عقب الحالة السيئة التي كانوا عليها. وعلى الفور أسرعوا بقدر الإمكان بعمل الرسومات الكروكية للمنطقة والتقاط بعض الصور الفوتوغرافية والتي بلغت في الكتاب الذي وضعه كاوفمان عدد ١٠٢ صورة بالإضافة إلى ٦٨ رسمًا كروكيًا وهندسيًا وبعض الصور التاريخية الأخرى.

المباني الدينية بالمدينة المقدسة

سجل بعد ذلك كاوفمان وصفًا دقيقًا لما كانت عليه المباني الدينية في تلك المدينة المقدسة، فيقول:

عند بدء التنقيب المنظم في أواخر نوفمبر ١٩٠٥ أثارت انتباهنا ثلاث نقاط. أولاها منخفض على شكل حوض شبه دائري يبلغ أصغر أقطاره أربعين مترًا في اتجاه الشمال بالقرب من مركز الأطلال، وهو حوض ماء يرتبط بالحمام المقدس لمدينة مينا وذلك لسد حاجة الزوار والرهبان من الماء. وفي موقع ثان بالقرب منه وجدت قمينة للفخار أعطت البعثة الاستكشافية احتمال إعادة اكتشاف مدينة مينا المطمورة. وهنا ظهرت للعيان بالقرب من المبنى الضخم المكتشف سلسلة من القمائن وقنوات لتوصيل المياه وصهريج رائع. فكانت حصيلتنا من فخاريات القديس مينا وفيرة. ثم جاء الحدث الثالث والذي أكد اكتشاف المدينة المقدسة وهو وجود تراكم دائري من الأحجار غير منتظم يحتل مركز المدينة. وقد تطلب الأمر أولاً تدريب العمال على مهمتهم الشاقة فلم نبدأ أعمال التنقيب إلا في نهاية ديسمبر. وبعد أن أزلنا طبقة عظيمة من الركام بدأنا في عمل حفر تجريبية بدءًا من الشرقية الرئيسية ثم طولاً من الشرق إلى الغرب وعرضًا من الجنوب إلى الشمال، وظهرت فورا أجزاء معمارية



Die Menasstadt und das Nationalheiligtum der Altchristichen Aegypter in der Westalexandriischen
(مدينة مينا ومقدسات المصريين المسيحيين القدامى في الصحراء الغربية للإسكندرية)
كارل - ماريا كاوفمان
ترجمة: يوسف زكي بطرس
كلية الهندسة - جامعة الإسكندرية



وقواعد أعمدة، وشقافات منقوشة وبعدها بعض تيجان الأعمدة الجميلة مزينة بالصلبان وباسم السيد المسيح، مما لا يدع مجالاً للشك أن الكاتدرائية العظيمة كانت فى هذا المكان الذى يرقد فيه جسد القديس مينا. وأظهرت الحفائر التالية أنها كانت التوسعات التى أقامها الإمبراطور أرديوس Arcadius وأن المقصورة الشهيرة تقع إلى الغرب مباشرة تحت الكاتدرائية القديمة. وفى عمق كومة ارتفاعها من مترين إلى ثلاثة أمتار وجدت شقافات من الموزايكو، وزجاجات المصابيح، وأباريق مينا الصغيرة وعملات من القرن الخامس الميلادى.

اكتشاف قبر القديس مينا

يعتبر اكتشاف قبر القديس مينا من أكثر مراحل التنقيب إثارة. ففى بداية شهر يناير ١٩٠٦ وبينما كان العمال يقومون بإزالة أكوام الأحجار فى مبنى أركاديوس اصطدموا، على بعد ٥٠ متراً من نهاية أحد خطوط الحفر، بالدرجة العليا لأحد السلالم. ووجدت بالقرب منها مباشرة بقايا عمودين يحددان المدخل. وبالرغم من زوال كساء الدرجة العليا، إلا أن الدرجات أسفلها احتفظت بألواحها المرمرية فى حالة جيدة كما احتفظت الجدران بطبقة سميكة من المصيص. وفى نفس وقت اكتشاف هذا الدرج وأثناء تخليصه من التراكمات أبلغنا البدو عن وجود بئر فى الجوار مباشرة أمكننا من خلاله مشاهدة كل ما فى العمق. فرأينا قبة تغطى نفقاً أو قاعة ممتلئة عن آخرها بالأحجار والأتربة. وتتكون القبة من قوالب صلبة تربطها ببعضها البعض طبقة سميكة من الملاط (المونة). وفى أحد الأماكن طوق من الأحجار من الواضح أنه يناظر الحوائط الموجودة فوق سطح الأرض.

رويداً رويداً انفرج أمامنا الرواق الجميل، الذى أعجب به كل من زار مدينة أبو مينا، وبدأ الأمل يراودنا بأننا بالقرب من قبر القديس مينا. وجمال ورونق تجهيزات الدهليز وقطع المرمر التى عثرنا عليها تشير إلى أننا نسير تجاه قبر القديس مينا نفسه. وطوال تقدمنا بحماس فى هذا الدهليز كنا نفحص الجدران باحثين عن أى نقوش حتى وصلنا إلى منتصفه فقابلنا نقش على الحائط الأيمن عبارة عن صلاة من العصر القبطى والعربى موجهة إلى القديس مينا.

وقد وصف الرحالة العربى «البكرى» القبر بأنه «القبر الرخامى الأكبر» لما كان يكسو جدرانه بألواح الرخام وأرضيته بالصفائح المعدنية. فقد كان يبلغ ارتفاع الحائط الغربى ٢.٥ متر وهو مغطى برقائق من الحجر الجيرى مكسوة بالملاط وفى وسط الحائط يرتفع إطار كبير تبلغ أبعاده ١.٨×١.٨ متر للوح من المرمر تتوسطه أيقونة للقديس مينا بين جملين. وتعد هذه الأيقونة النموذج الفريد لصورة القديس والتى نقشت على القوارير فى العصر المسيحى الأول. وقد وجدت لهذه الأيقونة نسخ أخرى بمنطقة الدخيلة إحداها موجودة حالياً بالمتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية وأخرى بالمتحف القبطى بالقاهرة والتى يظهر فيها القديس مينا بدون زيه العسكرى وسط الجملين، كما وجد لها مثيل آخر منقوش على العاج فى إطار فاخر بمتحف الآثار القديمة بمدينة ميلانو بإيطاليا.

فى النصف الأخير من القرن الرابع الميلادى أقيمت كنيسة القبر وفيه تنفتح مغارة القبر إلى أعلى على شكل نصف دائرة بحيث تحتفظ الأعمدة القديمة بمكانها.

وكتوسعة لكنيسة القبر أقيمت كنيسة أركاديوس حتى تستوعب الأعداد الغفيرة من الزوار وكانت تحمل اسم «السيدة العذراء» ويبلغ طولها حوالى ٦٠ متراً، وهذا البناء الضخم يرتفع على ٥٦ عموداً من المرمر كما طعمت جميع أجزائها وحوائطها بأنقى أنواع الرخام المستورد



DIE MENASSTADT
UND DAS NATIONALHEILIGTUM DER ALTCHRISTLICHEN AEGYPTER

AUSGRABUNGEN DER FRANKFURTER EXPEDITION AM KARM ABU MINA

VON KARL MARIA KAUFMANN

ERSTER BAND

من الجزر اليونانية، ويتجه بابها الرئيسى نحو الجنوب.

فى عام ١٩٠٧ اكتشفت البعثة الأثرية الألمانية الحمامات وكنيستها كما عثروا على الحمام الضخم الذى كان يجاور الكنيسة، كما عثرت البعثة أيضاً على آبار كثيرة متفرقة، ووجدت هناك عدة منازل وحوانيت، مما جدد صورة المنطقة الرخامية كمدينة كاملة متسعة.

المجهودات المتتالية للكشف عن المدينة


توالت بعد ذلك المجهودات التى قام بها المتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية (١٩٢٥ - ١٩٢٩م)، والعالمان الألمانيان دايشمان وجيركان (١٩٣٦م)، والعالم البريطانى بركنز (١٩٤٢م) الذى أعاد دراسة كنيسة مار مينا الكبرى على أسس دقيقة معتمداً على ما جاء بالمدينة القديمة التى كانت للقديس وقد نشرها جيمس دريشر عام ١٩٤٦ ثم أعمال المتحف القبطى (١٩٥١ - ١٩٥٢م). ومنذ عام ١٩٦١ يقوم المعهد الألمانى للآثار بالقاهرة بأعمال التنقيب فى منطقة أبو مينا بصفة منتظمة برئاسة د. بيتر جروسمان.

إلا أنه فى عام ١٩٤٣ نقرأ عن راهب يحمل اسم القمص مينا البراموسى المتوحد (صار فيما بعد البابا كيرلس السادس (البطريرك ١١٦) عام ١٩٥٩ وتوفى فى ٩ مارس ١٩٧١) يترك مكان توحده فى طاحونة هواء بمنطقة مصر القديمة وينزل إلى الإسكندرية ويتوجه إلى المتحف اليونانى الرومانى بها لمقابلة مفتش الآثار الأستاذ بانوب حبشى ويعرض عليه فكرة أن يقيم بصفة دائمة بالمنطقة الأثرية ويقيم بها الشعائر الدينية إحياءً لتاريخ هذه البعثة المقدسة، وفعلاً تكللت مجهودات الأستاذ باتوب حبشى بالنجاح، إذ وافقت هيئة الآثار المصرية على ترميم الكنيسة الأثرية بمنطقة القديس مينا بمريوط.

وفى ١٠ مايو ١٩٥٩عندما تم اختيار هذا الراهب المتوحد ليكون بطريركاً للكنيسة القبطية باسم البابا كيرلس السادس استهل فترة بطريركيته هذه بزيارة المنطقة الأثرية بمريوط فى يوم الجمعة ٢٢ يونيو ١٩٥٩ وأقام الشعائر الدينية بها. وفى يوم الجمعة ٢٧ نوفمبر ١٩٥٩ وضع حجر أساس الدير الحديث للقديس مينا بمريوط ثم فى عام ١٩٦١ وضع حجر أساس كاتدرائية ضخمة بالدير الحديث، ثم استكمل هذا العمل بحماس شديد خليفته البابا شنودة الثالث البطريرك ١١٧ حتى تم افتتاح هذه الكاتدرائية يوم ٩ يناير ٢٠٠٥م باحتفال مهيب.

ولكن هذا الكشف المسيحى العام - الذى أدرجته اليونسكو عام ١٩٧٩ ضمن قائمة التراث العالمى - تهدده حالياً مياه الصرف الزراعى التى حولت المنطقة الأثرية إلى بركة من المياه!! مما حدا بدكتور جروسمان إلى القيام بردم هذه الاكتشافات الأثرية حتى يتم سحب هذه المياه وإعادة المنطقة إلى ما كانت عليه من جفاف.

إنه بالحقيقة أثر مهم من آثارنا المصرية نعتز به ونحافظ عليه، إذ إنه مركز جذب الكثيرين من الأجانب الذين يدركون القيمة التاريخية والروحية لتلك المدينة المقدسة.. المدينة الرخامية. ■


النساجون الشرقيون
Oriental Weavers
مجموعة النساجون الشرقيون أكبر
صناع السجاد بالعالم
نحن مجموعة متطورة ونشطة فى نظام صناعى متكامل فى صناعة
السجاد والموكيت وانتاج الخامات اللازمة لهذة الصناعة ولا تقتصر مواقع
الانتاج على مصر بل تمتد الى امريكا والصين وانجلترا واستراليا
بالاضافة الى شركات التسويق و التجارة الدولية التى تغطى العالم
Corporate Office : 8 El Shaheed Zakaria Khalil Street. Heliopolis Cairo Egypt
tel. : 02 - 2672121 fax . 02 - 2672241 e-mail owc@orientalweavers.com
النساجون الشرقيون
Oriental Weavers

قـنـــاة جــونجـلــى .. حـقــائـق ومـؤامـرات

■■ هذا مشروع يستحق أن يكون على رأس الأولويات وأن تبذل من أجله مصر والسودان الغالى والتمين حتى يتحقق ويكتمل.

إنه مشروع قناة جونجلى الذى يمكن أن يكون قاطرة للتنمية فى جنوب السودان وأن يفتح مجالات عمل للنازحين العائدين إلى الجنوب بعد إتمام اتفاقية السلام لجنوب السودان. كما أنه شديد الفائدة لمصر على كل المستويات سواء من حيث خلق فرص عمل للمصريين أو استفادتها من نتاج المشروع، ثم تأكيد دورها فى دعم السودان الشقيق.

إن جنوب ولاية الينوى ولاية أنديانا وجزءا من ولاية أوهايو كانت مستنقعات مليئة بنبات «الكات ديل» Cat Tail ، وهى أعشاب طويلة تنتشر فيها الضفادع وجحافل الناموس.

وقد تم تجفيف ٩ (تسعة) ملايين فدان بحلول عام ١٩٠٠ بالولايات الثلاث، ونقول للذين يتباكون على البيئة هل تجفيف المستنقعات من أجل التنمية حلال فى أمريكا حرام على السودان؟

المعروف أن بأمريكا اليوم أكثر من ٤٥٠ مليون فدان للإنتاج الزراعى كانت أغلبها مستنقعات فى الماضى.

وقد صرح سيلفاكير نائب رئيس الجمهورية السودانى ورئيس حكومة جنوب السودان فى زيارته مؤخراً للقاهرة بأنه لا مانع من استئناف العمل فى المشروع وأن الأمر يحتاج إلى دراسات إضافية، قائلاً: إن المسألة فنية وليست سياسية.

---

(١) African Unification Front "AUF"
Article On Nile Basin & Jonglei Canal *
Dated 13 March 2005.
بحوث جبهة توحيد أفريقيا تقرير بتاريخ ١٣ مارس ٢٠٠٥ – بعنوان حوض النيل Nile Basin .

(٢) Jonglei Canal Project
مشروع قناة جونجلى
Shiller Institute Washington D.C
By Marcia Mary Bekar **
عرض معلوماتى – نشرة للتنفيذيين – ٩ يونيو ١٩٩٥
إعداد: مارسيا ميرى بيكر، معهد شيلر، واشنطن دى سى

حصل المترجم والمعلق على إذن الترجمة

وفيما يلى تقريران مهمان عن المشروع وتطوراته وأهميته ثم تعليقان عليهما:

التقرير الأول وهو صادر عن African Unification Front "AUF" بعنوان «حوض النيل» ويقدم بحثا وافيا عن هذا الموضوع نورد أجزاء منه كما يلى:

حوض النيل: يبلغ طول نهر النيل ٦٨٠٠ كم، (ستة آلاف وثمانمائة كيلو متر) يتم تغذيته من مصدرين:

أولا: النيل الأبيض: مصادره من بحيرات الهضبة الاستوائية (بوروندى، رواندا، تنزانيا، كينيا، الكنغو ويوغندا).

ثانيا: النيل الأزرق: مصادره من الهضبة الأثيوبية.

تقع المصادر فى المناطق الرطبة حيث متوسط هطول الأمطار أكثر من ١٠٠٠ ملم فى العام.

المناطق الجافة: تبدأ فى السودان وهو أكبر قطر فى أفريقيا (مليون ميل مربع)، يمكننا تقسيم المناخ فيه إلى ثلاث مناطق:

(١) أقاصى الجنوب حيث تتراوح كميات الأمطار فيه بين ١٢٠٠ – ١٥٠٠ ملم فى العام.

(٢) الأراضى الخصبة فى أواسط السودان بمتوسط ٤٠٠ – ٨٠٠ ملم فى العام.

(٣) الصحراء الشمالية حيث تنخفض النسبة إلى ٢٠ ملم فى العام، ثم تنخفض إلى أقل من ٢٠ ملم كلما اتجهنا شمالا نحو مصر.

إن حوض النيل يمثل ١٠.٣ فى المائة من جملة مساحة أفريقيا ويمتد إلى ١٣ قطرا. دولة الكنغو تمثل جزءا بسيطا من الحوض ولكن بوروندى، رواندا، أوغندا، السودان ومصر، داخله بالكامل فى الحوض.

بحيرة فيكتوريا – أوغندا

إن مستوى بحيرة فكتوريا يتأثر بشدة بالنسبة للتغييرات التى تحدث فى مستوى هطول الأمطار فى منطقة البحيرة وفروع الأنهر حولها كما يتأثر المستوى أيضا بنسبة التبخر التى تكاد تكون متساوية تماما مع متوسط هطول الأمطار فى السنوات العادية.

المخرج من بحيرة فيكتوريا:

إن المخرج الوحيد للبحيرة هو عند شلالات ريبون «Ripon Falls» أو خزان شلالات أوين Owen Falls فى يوغندا، ثم يبدأ نيل فيكتوريا «Victoria Nile» الذى يصب عن طريق بحيرة كيوقا فى بحيرة البرت Albert التى تسمى أيضا بحيرة لوتا انزقى Lutta Nzige. تتلقى هذه البحيرة أيضا مياها من نهر سمليكى الذى يأتى من جبال «موفو مبيرى» فى الكونغو ثم ينساب عن طريق بحيرة إدوارد Edward إلى بحيرة لوتا انزقى Albert تتجمع المياه فى نهرى السميلكى، ونيل فيكتوريا وتترك بحيرة البرت فى الجزء الشمالى حيث تصبح بعد ذلك نيل البرت «Albert Nile» الذى يواصل انسيابه نحو السودان.

مشروع قناة جونجلى

كان من المتوقع أن تنتهى المرحلة الأولى لهذا المشروع مع بداية عام ٢٠٠٠ ليضيف ٢-٣ مليارات من المياه فى العام لكل من السودان ومصر، ولكن تعثر المشروع نسبة لنشاط التمرد فى الجنوب بين الجيش الشعبى لتحرير السودان Sudan Peoples Libertation Army «SPLA» وحكومة الجبهة الإسلامية Sudan Islamic Front SIF .

يصبح نيل البرت عند دخوله السودان «بحر الجبل» الذى يصب فى منطقة السدود The Sudd Region منطقة المستنقعات الواسعة من قنوات، بحيرات وسدود التى تصب فيها أيضا مياه من بحر الزراف، (بحر الغزال) الذى يأتى من جنوب غرب السودان.

إن أقل من نصف كمية المياه التى تدخل منطقة السدود سنويا تصب فى النيل الأبيض بينما يضيع ما تبقى بين تبخر أو تسرب داخل الأرض.

قناة جونجلى حسب تصميمها المفروض أن تتفادى منطقة السدود، وتحمل جزءاً من المياه الضائعة نحو مجرى النيل الأبيض. يبلغ طولها ٣٦٠ كم من مدينة بور إلى مدينة ملكال. القناة سوف تتحكم فى انسياب المياه فى النيل الأبيض بكفاءة عالية تزيد نسبة العائد ٥-٧ فى المائة داخل السودان ودلتا مصر تؤمن استخدامها فى مشاريع الرى فى البلدين.

بالإضافة إلى ذلك سوف تؤمن القناة للجنوب أراضى شائعة يمكن استخدامها للمراعى، المواصلات والزراعة (أكثر من ٢٠٠ ألف فدان) ومن المؤكد سوف تساعد فى اختفاء أماكن توالد الناموس، وديدان الكبد والذبابة التى تصيب الماشية والفيروسات.

فى عام ١٩٨٠ تمت عمليات بالتنسيق بين صندوق النقد الدولى IMF ، البنك الدولى World Bank ودوائر من لندن London Circles لإنهاء المشروع. تم الإيعاز للمؤسسات الأهلية فى الجنوب بالتظاهر وإطلاق الشائعات بأن القناة مشروع مصرى/ سودانى شمالى يلحق الضرر بالبيئة ويحرم السكان من مصادر صيد الأسماك وأراضى الرعى... إلخ وجندت المؤامرات الدنيئة ضد السودان.

فى عام ١٩٩٤ أعلن الرئيس عمر البشير رغبته فى السير قدماً لتنفيذ المشروع لخدمة التنمية فى المنطقة.

تـعـلـيـق:

استمرت الهجمات ضد المشروع وتأليب القوى الأجنبية والمهتمين بحماية البيئة ضده وصور على أنه سوف يؤثر على البيئة بشكل سلبى وسوف يؤثر على الأحياء المائية والطيور المهاجرة... إلخ، مع إغفال تام لأى ميزات سوف يجلبها المشروع للمنطقة.

سوف تؤمن القناة للجنوب أراضى شائعة يمكن استخدامها للمراعى، المواصلات والزراعة (أكثر من ٢٠٠ ألف فدان) وستساعد فى اختفاء أماكن توالد الناموس وديدان الكبد

التقرير الثانى: The Jonglei Canal وكتبته مارسيا ميرى بيكر

فى منطقة السدود والمستنقعات العظيمة حيث تتجمع مياه أعالى النيل الأبيض فى ولاية جونجلى. تقف قناة صناعية من صنع الإنسان يبلغ طولها مائة وثمانين كيلو مترا – ١٨٠ كم. هى الجزء الشمالى لقناة

عز الدين محمود

جونجلي». THE JONGLEI CANAL»، هذه القناة عند اكتمالها المفروض أن تحول جزءا من المياه التى تصب حاليا فى مناطق السدود وتحولها رأسا ولمسافة ثلاثمائة وستين كيلو مترا، من الجنوب إلى الشمال، من بور إلى ملكال، وتتحقق بذلك منافع بيئية واقتصادية للمنطقة ذاتها بالإضافة للأراضى الواقعة من منبعه إلى مصبه.

فى عام ١٩٩٤م أعلن عمر البشير رئيس جمهورية السودان إلتزام حكومته السعى لإتمام المشروع.

بدأت عمليات الحفر فى عام ١٩٧٨ م بعد أن وقعت حكومة السودان اتفاقية (تم تعديلها عام ١٩٨٠م)، مع «شركة الإنشاءات العالمية الفرنسية » (CCI) وقد تم جلب ماكينة الحفر العملاقة المشهورة المعروفة باسم «ROUE-PELLE» أو «عجلة الغرافات» للسودان من باكستان حيث أكملت حفر قناة «شازما جهليم » بطول مائة وواحد كيلو متر- كقناة تربط بين نهرى الأنديز - وجهليم.

لقد تم بناء هذا الحفار الجبار للمشروع الباكستانى من قبل الشركة الألمانية ومقرها لوبيك LUBECK واسمها «ORENSTEIN UND KOPPIL TAGEBAU SCHIFFS TECHNIK»، وقد استعانت فى تصميمها بنموذج حفار يعمل فى مناجم الفحم المفتوحة بالقرب من مدينة كولون.

وبفضل المبادرة المقدمة لمهندس الرى السودانى يحيى عبد المجيد، هذا الحفار الذى بدأ العمل فى باكستان عام ١٩٦٨م تمت صيانته وجهز للعمل وشحن إلى السودان. إنه أكبر حفار فى العالم يزن ٢.١٠٠ طن يتكون من ١٢ مغرافاً ضخماً سعة ٣ أمتار مكعبة لكل مغراف، مثبتة على عجل ضخم قطره ١٢.٥ متر، تحفر التربة ثم تلقى بحمولتها على سير دائرى يرمى هذه الحمولة على جانبى القناة، الحفار، يملك محركاته الخاصة به. فى عام ١٩٨١ عندما كان يعمل بطاقته الكاملة كان يحفر ٢ كيلو متر فى الأسبوع بمعدل حفر ٢٥٠٠ - ٣٥٠٠ متر مكعب فى الساعة. كانت هنالك ٣ ورديات كل وردية ٨ ساعات قوامها ٢٥ عاملا للوردية الواحدة من جنسيات مختلفة، أتوا من باكستان، فرنسا والسودان. هذه الآلة العظيمة تستهلك وتحتاج إلى أربعين ألف لتر من الجازولين كل أربع وعشرين ساعة.

فى عام ١٩٨٤ أوقف العمل فى مشروع حفر القناة ويرقد هذا الحفار معطوبا بعد أن اعتدت عليه قوى التمرد المناهضة والمعارضة لأى مبادرات لمشاريع التنمية فى أفريقيا، ولمثل هذا المشروع وغيره من المبادرات.

صمم المشروع ليحول ٢٥ مليون متر مكعب من المياه التى تنساب من الجنوب من مياه النيل الأبيض شمال مدينة بور لتصب فى قناة طولها ٣٦٠ كم لتورد عند ملكال ٧.٤ مليار متر مكعب فى العام. هذا يعنى إضافة ٣.٨مليار متر مكعب سنويا لمناطق النيل التحتية عندما تحسب عند خزان أسوان (بعد خصم الكميات المهدرة أثناء العبور). تنص اتفاقية المشروع على أن تقتسم الكميات الإضافية هذه بين السودان ومصر بنسبة ٥٠ فى المائة لكل منهما (المترجم: وتقتسم التكاليف بنفس النسبة).

إن سحب ٢٥ مليون متر مكعب يوميا من المياه المغذية للسدود سوف يترتب عليه خفض مساحة المستنقعات بنسبة ٣٦٪ (ستة وثلاثين فى المائة) من المعدل السنوى لها المقدر بـ ١٦.٩٠٠ كيلو متر مربع (٨٠-١٩٠٥) إلى ١٠.٨٠٠ كيلو متر مربع. سرعة انسياب المياه بنسبة ٣.٥ كيلو متر فى الساعة سوف تمنع نمو الأعشاب حسب التصميم المعتمد.

صمم القنال لتتفاوت مواصفاته على أن يكون عرضه مابين ٢٨ - ٥٠ مترا وعمقه يتراوح ما بين ٤ - ٧ أمتار حتى يكون صالح لحركة الملاحة، ومن المقرر أن يتم بناء طريق برى محاذ للقناة صالح للاستعمال طيلة فصول السنة ومشاريع ذات الصلة من جسور ومعديات وأعمال مدنية للعبور واللوائح التى تحقق انسياب الأعمال وتخدم مشاريع البنية التحتية.

المقترحات والبحوث التى قدمت لمشروع قناة جونجلى تمتد إلى أجيال كاملة مثلها مثل مشاريع عديدة لمنطقة السدود وحوض النيل، وكان المهندسون الأجانب تحت الحكم البريطانى متحمسين جداً لتلك المشاريع ويدافعون عنها كمشاريع ضرورية لتحسين المشاريع القائمة ولكن اصطدمت جميعها بالسياسة المائية الإمبريالية وجمدت تنفيذ كل مبادرات التنمية فى كل منحنى.

كمثال ففى عام ١٩٠٤ اقترح سير وليام كارستن المفتش العام للرى فى وزارة الأشغال العامة المصرية، عمل قناة على النيل الأبيض ولكن هذا الاقتراح وكل ما قدم بعده من تصميمات قد جمدت، حتى نال السودان استقلاله وتولى مسئولية هذا الأمر.

فى عام ١٨٧٦م اقترح المهندس الجنرال ف. ح. راندال عضو الهيئة البريطانية الملكية للمهندسين بناء سد عال عند أسوان ولكن لم ير هذا المشروع النور إلا فى ظل سياسة التنمية فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر.

تعليق

● منطقة السدود من بور، بحر الجبل إلى بحر الزراف تسكنها قبائل الدينكا، النوير والشلك، التى تتحول إلى قبائل رحل، حيث البيئة الصالحة لهم ولمواشيهم، عندما تتحول منطقة المستنقعات من جراء الأمطار والفيضانات إلى منطقة وبيئة طاردة مليئة بالحشرات خاصة الناموس والذباب الحامل للأمراض للإنسان والحيوان على حد سواء.

● تسقط الأمطار فى الفترة من أبريل حتى ديسمبر كل عام، لا يمكث هؤلاء القوم فى قراهم سوى أربعة أشهر، ويرحلون إلى حيث المرعى ومصادر المياه الموسمية فى غرب السودان فى فصل الخريف، يهاجرون ويسوقون مواشيهم راجلين «طبعا» لمسافات بعيدة تتعدى مئات الأميال حتى يصلوا بحر العرب فى الغرب.

● مصادمات دامية يروح ضحيتها المئات نتيجة للاشتباكات مع القبائل العربية، المسيرية والرزيقات التى ترحل هى الأخرى مع مواشيها مع بداية فصل الخريف لترعى فى نفس المناطق عند بحر العرب، ذلك بسبب التنافس على المرعى ومصادر المياه الموسمية.

● مع بداية العام تعود هذه القبائل الجنوبية ومعها حيواناتها البائسة راجلة، قاطعة مئات الأميال مرة أخرى بعد نهاية فصل الخريف فى الغرب، مما يجعل لحوم هذه المواشى عديمة القيمة الغذائية، لتحولها لعضلات وعصب نتيجة لهذا المشوار الكبير. وأيضا عدم استيعابها لأى غذاء يمكن أن يقدم لها وعدم مقدرتها على تحويله إلى لحم وشحم صالح للاستعمال الآدمى. صحيح أن القبائل لا تبيع هذه المواشى أو تحتفظ بها كعمل تجارى، ولكن كمصدر عزوة ومكانة فى القبيلة ولكن لا أحد يستفيد منها كثروة حيوانية ذات عائد اقتصادى لمنفعة الوطن أو أصحابها بنفس القدر.

● الحكومات المحلية. وبدون أى رغبة فى الدفاع عنها، لا يمكن أن يتخيل أحد مقدرتها على تقديم أى خدمات أو مشاريع تنمية لقبائل فى ترحال مستمر حتى حكومة الجنوب نفسها. فوائد مشروع قناة جونجلى يمكن تلخيصها فيما يلى: -

١ - تجفيف المستنقعات واستصلاح ٢٠٠ ألف فدان صالحة للزراعة.

٢ - توطين هذه القبائل فى مشاريع استقرارية وتقديم الخدمات لهم من صحية وتعليم وإدخال الحيوان فى الدورة الزراعية، مشاريع استزراع سمكى....إلخ.

٣ - إقامة مشاريع للتصنيع الزراعى، سكر، أرز تبغ وأناناس للتعليب.. إلخ فى جنوب القنال، (ذرة وحبوب زيتية وأعلاف) فى شمال القناة.

٤ - صلاحية قناة جونجلى للملاحة اختصار زمن الرحلة من ١١ يوما من كوستى إلى جوبا إلى ٧ أيام ومن جوبا لكوستى (مع التيار من ٧ أيام إلى ٣ أيام). مع احتمال استعمال الهوفركرافت لاختصار الرحلة لأقل من هذا.

٥ - التكامل بين الجنوب وغرب السودان عندما يمد الجنوب الغرب بالأعلاف والامباز (الكسب) لإحداث ثورة فى تنمية الثروة الحيوانية هناك.

٦ - إقامة طريق برى دائم على جانبى القنال لتأمين سبل المواصلات بين الجنوب والشمال ولنقل السلع المنتجة إلى أنحاء العالم.

٧ - بعد الانتهاء من مشروع قناة جونجلى لتأمين ٥ مليارات متر مكعب من المياه للاستفادة منها مناصفة بين مصر والسودان يمكن التفكير فى مشاريع مماثلة لتحويل مستنقعات بحر الزراف كمرحلة لاحقة لتطوير كل المنطقة.

٨ - اكتشاف البترول فى منطقة بانتيو بنفس منطقة القناة سوف يوفر الطاقة اللازمة لإنجاز هذا المشروع العظيم وأيضا لتسيير الآلات الزراعية الضخمة التى سوف تستخدم لتنمية الأراضى الزراعية الواسعة، ومشاريع التصنيع الزراعى مستقبلا.

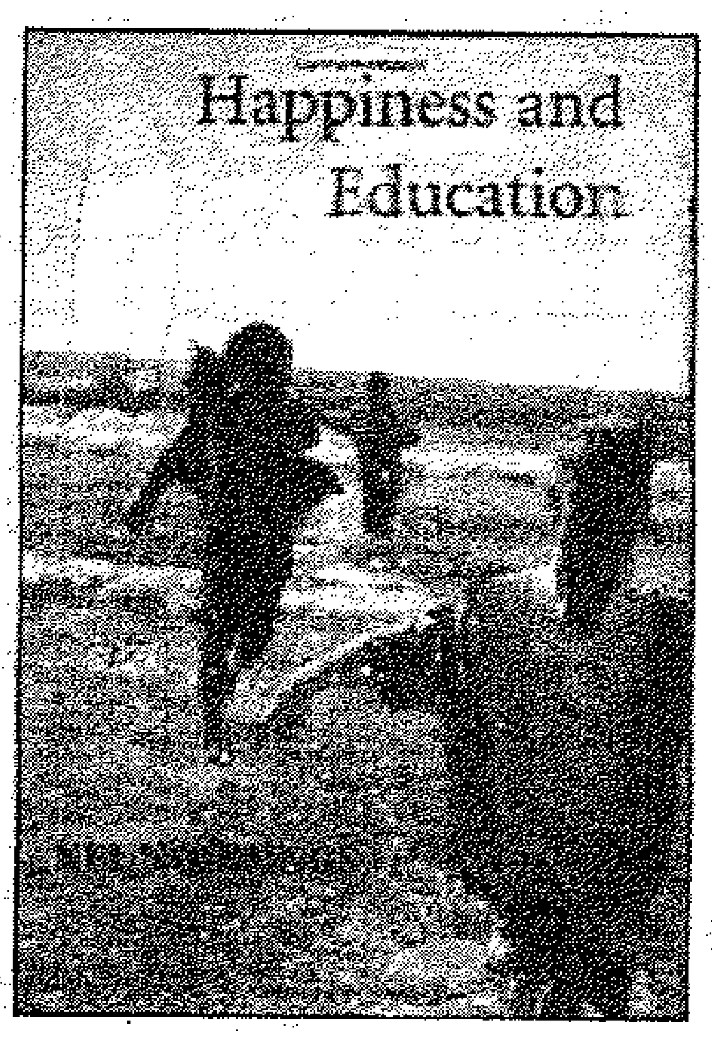
ولا أدرى إن كان فى العمر بقية حتى تتاح لنا مشاهدة هذه الأحلام تتحقق على أرض الواقع ولكنها دون شك تطلعات وطموحات مشروعة للأجيال القادمة. ■

فى عام ١٩٨٤ أوقف العمل فى مشروع حفر القناة ويرقد هذا الحفار معطوبا بعد أن اعتدت عليه قوى التمرد المناهضة والمعارضة لأى مبادرات لمشاريع التنمية فى أفريقيا

تعليم بلا دموع

نل نودينجز





ت: د. فاطمة نصر

مقدمة كتاب:
السعادة والتربية: تعليم بلا دموع
نِل نودينجز

القاهرة - اصدارات دار سطور - ٢٠٠٧

■■ فى الأشهر القليلة الماضية، حينما كنت أقول للناس إننى أكتب عن السعادة والتربية، كانوا يجيبون، وقد تملكتهم الحيرة «لكنهما لا يتوافقان!». وحقاً، فأحد دوافعى لمعالجة هذا الموضوع هو حقيقة أن الاثنين يبدوان اليوم، بتزايد، متناقضين. السعادة والتربية وثيقا الصلة ببعضهما: يجب أن تكون السعادة هدفاً للتربية، ولابد للتربية الجيدة أن تُسهم إسهاماً كبيراً فى السعادة الشخصية والجمعية.

ومع تزايد اهتمامى بكتابات سير الأفراد، تزايدت أيضاً عنايتى بالروابط بين السعادة، التعاسة، الملل، والتعليم. ما سبب أن كثيراً من اللامعين والمبدعين كرهوا المدرسة؟ ومع علمنا بتلك التعاسة جيدة التوثيق، لماذا نثابر فى تبريرها بذات الذريعة القديمة «ستشعر بالامتنان لى، يوماً ما، على هذه التعاسة؟ يثابر الآباء والمربون فى موقفهم هذا، جزئياً، لأن كثيراً من أطفالهم الناضجين يثنون عليهم لما يحققونه من نجاح ملموس - رغم كونه نجاحاً مشكوكاً فى أمره أحياناً - ويعزونه إلى بؤسهم المبكر. من ثم، نجدهم مستعدين، بل متحمسين، لإنزال دورة جديدة من التعاسة بغيرهم. وحقاً، يخشى آباء ومدرسون كثيرون عدم اضطلاعهم بهذه المهمة لتوجسهم من أن ينشأ أطفالهم مدللين، غير معدين، لا يتبعون نظاماً، وغير ناجحين، من ثم ينتهى أمرهم إلى التعاسة فى الكبر.

كان إحباطى فى تربيتى المسيحية بين العوامل الأخرى التى حفزتنى. طورت بغضاً تجاه تمجيد المعاناة المهيمن على العقيدة المسيحية، تجاه ما تؤمر به، ترهيباً، بأن نكون أخياراً، وتجاه عادة تأجيل السعادة إلى زمن قادم. ربما أسرع قراء كثيرون وأشاروا إلى أن الديانات الرسمية - حتى المسيحية - تأتى للكثيرين بالسعادة أيضاً، وأن مفهوم الفرح مركزى فى الحياة الدينية. حاولت، فى نقاش للدين، مقارنة مختلف تلك التوجهات.

لاحظت، طوال ما يربو على خمسة عقود من التدريس والأمومة، أن الأطفال (ومعهم الكبار) يتعلمون أفضل وهم سعداء. لا يعنى هذا أن الأساليب الجافة ليست فاعلة فى إنجاز استظهار دونما فهم، كما أنه لا يعنى أن حياة التلمذة السعيدة تخلو من فترات ضيق متقطعة، أو من الفشل العرضى. بل العكس، فالتحدى والنضال جزء من المسعى للمعرفة والكفاءة. وبما أن النضال شق لا يمكن تلافيه من العملية التعليمية، فلا يجوز لنا، نحن المربين، أن نبتدع مشاق جديدة لطلبتنا. إن الطلبة الذين يشعرون، بعامة، بالسعادة فى دراستهم، يستطيعون تحميل الفترات الصعبة بالمعنى، ويتجاوزونها بقدر من الإرضاء.

ثمة أمر ذو صلة وثيقة بحقيقة أن الطلبة السعداء يتعلمون أفضل من التعساء، واعتبره بالغ الأهمية، فنادراً ما يتصف السعداء بالخبث والعنف والقسوة. لكننى وقد قلت هذا، وأعتقد أنه حقيقى إلى حد كبير فى حالة الأفراد، أجد أنه يصبح مشروطاً لدى الحديث عن المجموعات والمجتمعات، فنحن نلاحظ أن بإمكان المجموعات بل مجتمعات بأكملها أن تكون سعيدة فى الوقت الذى يعانى آخرون من استغلالها لهم وإهمالها إياهم. سيكون علينا، إذن، أن نسأل بأى معنى يكون مثل هؤلاء سعداء. لكننى سأؤكد على زعمى البدئى: نادراً ما يتصف الأفراد السعداء بالعنف والقسوة تجاه غيرهم من البشر أو تجاه الحيوانات. من ثم يجب أن يكون توجيهنا الأساسى للتربية الأخلاقية هو الالتزام بإقامة عالم يكون فيه من الممكن للأطفال، ومن المرغوب فيه، أن يكونوا أخياراً - عالم فيه الأطفال سعداء.

هذه هى الملاحظات الأساسية التى أدت بى إلى دراستى عن السعادة والتربية. لكن ثمة أموراً أخرى أقل شأناً. لماذا نُثبط أهدافنا دائماً باختيارنا وسائل تتنافى مع ما نسعى لتحقيقه؟ مثلاً، حينما نُدرس الشعر على أمل أن يكون مصدراً للحكمة والبهجة مدى الحياة، لماذا نُضجر الطلبة بتحليلات لا نهاية لها وبالتركيز على التعبيرات الفنية؟ لماذا نطلب من الأطفال بذل ما بوسعهم ثم نعطيهم درجات منخفضة حينما يكون ما بوسعهم أقل مما بوسع الآخرين؟ بل لماذا نستخدم الدرجات بإطلاقه؟

تعجبت أيضاً، لماذا لم يكتب سوى القلة القليلة من المُنظرين التربويين عن السعادة؟ تحدث إيه. إس. نيل عن الموضوع، لكن معظم المعنيين بشئون المدارس يجدونه مفرطاً فى تساهله، حتى أنا، أفضل أن يوجه التلاميذ بأكثر مما يوصى به نيل. أيضاً يجعل التربوى اليابانى تسسابوره ماجيكوشى من السعادة هدف التربية الأول، كما أن مماهاته السعادة بخلق القيمة تثير الاهتمام، لكن بؤرة نظريته تبدو غريبة

للقراء الغربيين. يتبنى روبن بارو نهجاً آخر ويطرح تحليلاً للسعادة ويؤسس صلة بين بعض تضمينات ذلك التحليل وبين التعليم فى المدارس. وكتابه، مثل كتابى نيل وماجيكوشى، جدير بالقراءة، لكن ربما وجده بعض القراء على درجة مفرطة من التجريد. وجدت، أثناء بحثى، أن البعض قد ناقشوا السعادة وارتباطها بالتربية، لكن ليس من المحتمل لنا أن نجد أى ذكر للسعادة فى الكتابات الراهنة المكرسة لإصلاح المدارس.

فى فصول الكتاب، أبدأ بمناقشة بعض التعريفات المهمة للسعادة وأوصافها. هل السعادة عرضية، متقطعة، أم أن بالاستطاعة وصف حياة بأكملها بأنها سعيدة؟ هل الملمح الرئيسى للسعادة هو اللذة؟ هل الأخيار فقط هم من باستطاعتهم أن يكونوا سعداء حقاً؟ وماذا يعنى أن تكون خيراً؟ هل يوجد ما يمكن أن نطلق عليه شخصية سعيدة؟ ليس ثمة حاجة لأن يتوافق التربويون حول ما يُشكل السعادة على وجه التحديد من أجل أن يتوافقوا على وجوب إتاحة الفرصة للتلاميذ لتعلم وجهات النظر المتنوعة. ما هو أكثر أهمية من أن يقوم التلاميذ بغربلة تلك الآراء ليعثروا على آرائهم الخاصة بهم أو ليعدلوها؟

لا يجوز أن يقوم المدرسون بتعريف السعادة لتلاميذهم، ورغم أننى أفضل وصفاً معقداً للسعادة، بل فضلت أن أترك هذا المفهوم مفتوحاً لاكتشاف لا يتوقف. وبالمثل، لم أحاول أن أفصل بين الأسئلة المتعلقة بوصف السعادة، وتلك المتعلقة بكيفية تحقيقها، إن فهم الإمكانيات وتأملها، لابد، أن يسهما، بحد ذاتهما، إسهاماً كبيراً فى العثور على السعادة.

وفيما أمضى فى النقاش، أواجه، عن كثب، موضوعات تتطلب مزيداً من التحليل. مثلاً، يبدو أن أحد ملامح السعادة هو غياب الألم والمعاناة. أرفض تمجيد الألم الذى كثيراً ما يوجد فى الموروثات الدينية، لكنى أؤكد أن السعادة الحقة تتطلب القدرة على المشاركة فى التعاسة؛ أى أنه من أجل أن نُصبح سعداء حقاً، لابد أن نُدفع، بوازع منا، للتخفيف من البؤس المحيط بنا. كما ينبغى علينا أن نسأل عما إذا كان ثمة أوقات لابد أن يصبح فيها الإنسان السعيد بائساً. بيد أن ما أقدمه من تحليل لن يكون منظوراً للزهد واستعذاب الألم. فإننى، مثل الفيلسوف دافيد هيوم، لا أكن كثيراً من الإعجاب لفضائل الزهد واستعذاب الألم إلا إذا كان هذا ضرورياً لسعادة الآخرين، ونادراً ما يكون كذلك.

كى يصبح البشر سعداء، فهم بحاجة لإرضاء احتياجات مهمة، وحينما نتفحص تلك الاحتياجات تُثار كثير من الأسئلة الآسرة: إلى أى حد يكون على الوالدين والمدرسين إرضاء الاحتياجات المُعبر عنها؟ وإلى أى مدى ينبغى علينا أن نضغط لترسيخ الاحتياجات المتكهن بها أو المستنبطة وإرضائها؟ كيف لنا أن نميز بين الرغبات والاحتياجات؟ أن نعرف ما يجعلنا سعداء؟ أثمة أشياء لابد أن تجعلنا سعداء؟

سأشير، طوال تلك الفصول، إلى مجالين كبيرين نبحث فيهما عن السعادة - الخاص (الشخصى) والعام (المهنى بشكل أساسى) - وأيضاً إلى عدد من مصادر السعادة. بالمثل، يبدو أن الطبيعة الخيرة تسهم إلى حد كبير فى كل من السعادة الشخصية والمهنية. بيد أننى فصلت هذين المجالين الواسعين برغم تشابكهما من أجل سهولة التحليل. يبحث الجزء الثانى من الكتاب الحياة الشخصية بشكل أساسى، فيما يبحث الجزء الثالث الحياة العامة.

قبل مناقشة مصادر السعادة فى الحياة الشخصية، أبحث سؤالاً جوهرياً بالنسبة للتربية - أى الغايات. لا أقتصر فقط على اقتراح وجوب أن تكون السعادة هى غاية التربية، لكنى أيضاً أشجع على العودة إلى حديث/ الغايات. فى الماضى، كرس عظام المربين كثيراً من الفكر لقضية الأهداف والغايات، أما الآن فلا نسمع هذا الجدل كثيراً. يبدو الأمر وكأن مجتمعنا قد قرر ببساطة أن هدف التعليم اقتصادى - تحسين أحوال الأفراد المادية والدفع قدماً بازدهار الأمة. من ثم، يكون على الطلبة الإجادة فى الاختبارات المعيرة (الخاضعة للمعايير العامة والموحدة)، أن يقبلوا فى كليات متميزة، أن يحصلوا على وظائف عوائدها مرتفعة، وأن يشتروا أشياء كثيرة.

....

ليست السعادة الهدف الوحيد للتربية أو للحياة، لكنها هدف مركزى، ويمكن استخدامها شاشة تقييم يمكننا من خلالها الحكم على كل شىء نفعله. باستطاعة مثل هذا التقييم تغيير حياة المدرسين والطلبة معاً. ■

كتاب الزاوية

قيم وتقاليد القضاء

نخبة من رجال الأمة

إن الديمقراطيات التى لم ترسخ لها قدم فى الحكم الديمقراطى الصحيح هى فى أشد الحاجة إلى رقابة القضاء، ذلك أن كل ديمقراطية ناشئة لم تتضح فيها المبادئ الديمقراطية ولم تستقر هذه المبادئ عندها فى ضمير الأمة تكون السلطة التنفيذية فيها أقوى السلطات جميعاً، تتغول السلطة التشريعية وتسيطر عليها وتتحيف بالسلطة القضائية وتنقص من استقلالها، والدواء الناجع لهذه الحالة هو العمل على تقوية السلطة القضائية، فهى أدنى السلطات الثلاث إلى الإصلاح، إذ القضاة نخبة من رجال الأمة أشربت نفوسهم احترام القانون، وانغرس فى قلوبهم حب العدل وهم بطبيعة وظيفتهم يؤمنون بمبدأ المشروعية ولا يقدر لهذا المبدأ قيام واستقرار إذا لم يجد إلى جانبه قضاء حراً مستقراً، يحميه من الأعداء، ويدفع عنه الطغيان.

الفقيه القانونى عبدالرزاق السنهورى

مجلة مجلس الدولة/ يناير ١٩٥٢ .

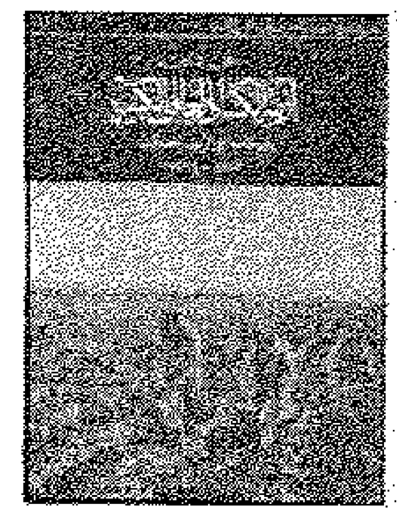
إصـــــدارات جـــديـــدة

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

أزمة الكساد العالمى الكبير

علي شلبي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٢٢٦صفحة



فى عام ١٩٢٩ شهد العالم كارثة اقتصادية كبيرة عرفت فى التاريخ الاقتصادى العالمى بفترة الكساد الكبير، وكان السبب الرئيسى لهذه الكارثة هو الانهيار المالى الضخم فى بورصة الأوراق المالية فى نيويورك، وكما أثرت هذه الكارثة على العالم، أثرت كذلك على مصر، وكان الريف، وهو الأفقر والأقل حظًا من الثروة ومشروعات التنمية هو الأكثر تأثراً بهذه الفاجعة، خصوصاً أن مصر كانت تحت الاحتلال الإنجليزى وعملتها مرتبطة بالجنيه الاسترلينى صعوداً وهبوطاً.

ولما كانت مصر آنذاك دولة زراعية أساساً، وكان القطن هو محصولها الرئيسى للتصدير ومصدر إعاشة قطاعات واسعة من أبناء الريف، فقد شهدت أسعار القطن انهياراً كبيراً تبعاً لانهيار أسعار القطن الأمريكى فى السوق العالمية، وعاش أهل الريف معاناة غاية فى القسوة والشدة، واتخذت الحكومة المصرية بعض التدابير بهدف التخفيف من حدة الأزمة، حيث تدخلت كمشتر للقطن من المزارعين بأسعار معقولة، وفرضت تعريفة جمركية لحماية النشاط الاقتصادى وأنشأت بنك التسليف لإقراض المزارعين ومدهم بمستلزمات الإنتاج، ومع ذلك فإن الأحوال لم تتحسن كثيراً، ومازاد من سوئها أن البلاد كانت تمر بمرحلة اضطراب سياسى كبير، أعقب صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وما تلاه من صدور دستور ١٩٢٣ واختلاف القوى السياسية حوله، وصراعها بين مناصر للقوى الوطنية الداعية إلى الاستقلال، والقوى المؤيدة لأتوقراطية الملك والسيطرة الاستعمارية الإنجليزية، وقد بلغت الأزمة حداً مريعاً، حتى إن الدولة أنشأت مطاعم للفقراء (مطاعم الشعب) لإطعام غير القادرين، وظهرت أشكال وأنماط من الجرائم لم يعرفها المجتمع المصرى طوال تاريخه، وزادت نسبُ الطلاق وعم الانحلال والفساد الأخلاقى فى دوائر العمل فزادت الرشوة والسرقات. كما اتسعت دوائر تجارة المخدرات والشحاذة والتسول وعمليات السرقة بالإكراه والسطو المسلح وزادت محاولات الانتحار ودخلت إلى سوق البغاء عديد من الفتيات والسيدات، ليعلن أسرهن ويسددن رمقهن، أما أكثر ما كان يشغل الاحتلال البريطانى، فهو الحفاظ على أمن رعاياه وتأمين استثماراتهم فى مصر، وما أن انقشعت الأزمة فى ١٩٣٤ حتى بدأت القوة الوطنية سعيها لمواجهة الإنجليز والقصر، فاستعادت دستور ١٩٢٣ الذى ألغاه إسماعيل صدقى فى انقلابه الدستورى الشهير عام ١٩٣٠، وأعادت الحياة النيابية للبلاد، وتمكنت من عقد معاهدة ١٩٣٦ التى كانت خطوة على طريق الاستقلال.

تأملات فى العقل المصرى

طارق حجي

القاهرة: مؤسسة أخبار اليوم، ٢٠٠٧، ١٩٢صفحة



يدور الكتاب حول قيمة التقدم بصفة عامة وبمعناه الواسع.. والذى يرجع ـ كما يرى المؤلف ـ إلى مجموعة من القيم أكثر مما يرجع لتوفر ثروات من أى شكل ونوع، وإننا حينما نعتبر تقدم مجتمعنا حلماً بعيد المنال، فإننا نخالف العقل والمنطق، وذلك استشهاداً بأمم ومجتمعات سبقتنا فى سلم التقدم بأقل مما نملك نحن الآن.

يتضمن الكتاب فصلين.. يتناول الأول بالشرح والتحليل قيم التقدم وأهميتها وعلاقتها بالهوية والخصوصية الثقافية ودورها فى بناء مجتمع قوى، يخرج منها الكاتب بأن حل مشكلات مصر الاقتصادية والاجتماعية هو أمر لا يحققه إلا مناخ عام مشرب بقيم التقدم، وعندئذ فإن دور مصر عبر الحدود يصبح حتمية لا يقدر أحد على تجاوزها، لأن مصر هى الدولة العربية والشرق أوسطية الوحيدة المؤهلة لدور «الدولة الأكبر» فى المنطقة.

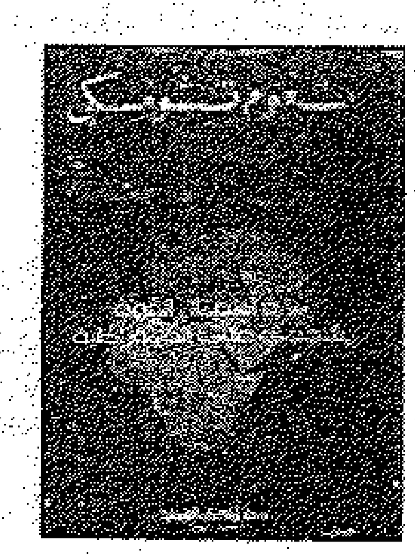
ويسلط الفصل الثانى من الكتاب الضوء على عيوب تفكيرنا المعاصر، والعلل التى تعوق تحقيق قيم التقدم، التى منها المغالاة فى مدح الذات وثقافة الكلام الكبير دون فعل والاعتقاد فى نظرية المؤامرة والتفكير النمطى وخلافه.

يقول المؤلف إن الإنسان بصفته مورداً بشرياً سيكون هو عماد الحركة المجتمعية المستقبلية بوجه عام والحركة الاقتصادية بشكل خاص، وهو ما يعنى حتمية العمل الجاد من أجل خلق إنسان أكثر تحرراً من عيوب التفكير الموصوفة فى هذا الكتاب، حتى يكون إنساناً تنافسياً فعالاً يملك القدرة على خلق مكان متميز فى عالم الواقع الجديد، حيث ينفتح المجال على مصراعيه أمام التنافس بكل ما تحمله الكلمة من معان.

الدولة الفاشلة

نعوم تشومسكى

بيروت: دار الكتاب العربى، ٢٠٠٧، ٣٦٠ صفحة



الدولة الفاشلة بحسب تشومسكى، هى الدولة غير القادرة أو غير الراغبة فى حماية مواطنيها من العنف، والتى تعتبر نفسها فوق القانون، وهى وإن امتلكت شكلاً ديمقراطياً، إلا أنها تعانى من قصور وعجز ديمقراطى خطير يجرد مؤسساتها من أى جوهر حقيقى للديمقراطية.

وفق هذا التعريف، يرى المؤلف أن الولايات المتحدة الأمريكية دولة فاشلة، وهى تشكل خطراً متعاظماً على دول العالم وعلى كوكب الأرض كله.

يميط المؤلف اللثام هنا عن خطط واشنطن لعسكرة الكوكب الأرضى، وهو ما يفاقم إلى حد بعيد مخاطر نشوب حرب نووية، كما يكشف عن سعى واشنطن الدائم لإعفاء نفسها من كافة المعايير والالتزامات الدولية، بما فى ذلك ميثاق الأمم المتحدة واتفاقيات جنيف ومبادئ القانون الدولى المعاصر وبروتوكول كيوتو، كما يكشف أيضاً عن الطريقة التى تم بها إعداد النظام الانتخابى الأمريكى بهدف إقصاء البدائل السياسية الحقيقية، وبما يحول دون قيام ديمقراطية حقيقية.

تشومسكى يواصل فى هذا الكتاب مشروعه الذى بدأه مع كتابه المهم «الهيمنة أم البقاء» وغيره من الدراسات المهمة، التى تفكك المشروع الإمبريالى الأمريكى، خصوصاً مع الصعود المشبوه للمحافظين الجدد، ويحلل نقاط الضعف القاتلة لدى القوة الأعظم فى العالم، والتى ادعت منذ أمد طويل، أن لها الحق أن تعيد تشكيل العالم وفق هواها، وأن من حقها كذلك أن تزيح رؤساء وتستبدل بهم ملوكاً وأباطرة آخرين، بل أن تفتت دولاً قائمة وتعيد تشكيلها وفق رؤيتها الاستقلالية للعالم الجديد، بادعاء أنها تقصى النظم الديكتاتورية لصالح الأنظمة الديمقراطية، ولم يدر بذهنها أن تسائل نفسها: وهل هى فعلاً دولة ديمقراطية؟

رئيس لمدة دقيقة

جمال الشاعر

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧، ١٥٠ صفحة



يطرح المؤلف عبر مقالاته التى يضمها هذا الكتاب سؤالاً بسيطاً وعميقاً فى آن: ماذا تفعل لو كنت رئيساً لمصر، رهان المؤلف الذى يكشف هنا عن وجه مغاير لذلك الذى عرفه الناس عنه بوصفه شاعراً وإعلامياً مرموقاً، أن حصيلة الإجابات ستقدم ٧٠ مليون فكرة، هذا فى حالة ما إذا أجاب المصريون جميعاً عن سؤاله انطلاقاً من فرضيته التى يطرحها فى سطور الكتاب الأولى.. «منصب الرئاسة هو فرض كفاية، ولكن تفكير المرؤوسين فى صناعة مستقبل مصر هو فرض عين، هذه ليست بلد الحكومة إنها بلدنا نحن».

ويزيد: افتحوا شبابيك الأمل للأجيال وانصتوا إلى المواطن المصرى جيداً، فهو لديه أفكار مبهرة حتى لو كان أمياً، فالمثل الأفريقى يقول: عندما يموت شيخ كبير فى أدغال أفريقيا، فهذا معناه أن مكتبته قد احترقت.

بلغة بسيطة لا تخلو من سخرية، ولا تخلو أيضاً من أرقام وإحصاءات، يجول المؤلف بين تجارب إنسانية عديدة، بادئاً بتجربة مهاتير محمد فى ماليزيا، التى تحولت على يديه من دولة تنتمى إلى دول العالم الثالث إلى الدولة رقم ١٧ فى قائمة الدول المتقدمة، والرجل لم يجرب وصفات جاهزة من تلك التى يوزعها صندوق النقد الدولى، وإنما عرف قدرات بلاده وطاقات شعبه، واستطاع أن يوظفها توظيفاً دقيقاً، وأن يلهب حماس الناس ويحذرهم من البيروقراطية والقيود التى تكبل إبداعهم وانفتاحهم على العالم، ويقدم فى عدة مقالات متتابعة أفكاراً قابلة للتحقق لشباب يئن تحت وطأة البطالة والتجاهل الحكومى لقدراته، ويعيب فى الوقت نفسه على الشباب استمساكه بالوظيفة الميرى.. «فهى مثل الفزاعة أو خيال المآتة فى الحقل، تجعل عقل الإنسان يدور فى حلقة مفرغة من التفكير التقليدى». ويشير إلى «عفاريت الإنترنت» الآف من الشباب المصرى الذين يجيدون التعامل مع الشبكة العنكبوتية ببراعة فائقة، وإن كانوا لم يفيدوا بعد من قدراتهم تلك بصورة إيجابية.

وفى أكثر من مقال يستخدم مقولة

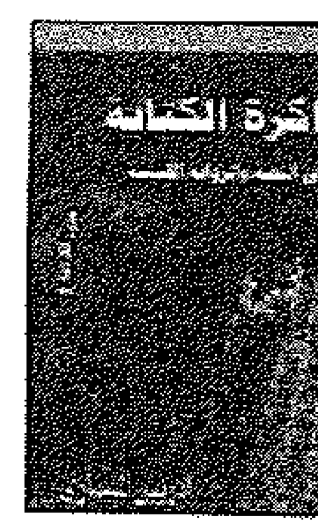
جمال حمدان الشهيرة: إن مصر «رأس كاسح وجسد كسيح»، فما الذى يحرر هذا الجسد وينشط أطرافه، إنه الإيمان بقيمة العمل وفتح باب الأمل للأجيال الشابة والتفكير العلمى الذى يجب أن يسود حياتنا كلها وإصلاح حال التعليم وربطه بسوق العمل، والأهم تجاوز الأطر التقليدية فى حل المشاكل التى استفحلت إلى درجة أنه لم يعد مجدياً معها أن تعالج بالطرق المعتادة.

وبرغم الانتقادات الحادة التى يوجهها المؤلف للحكومة وأجهزة الدولة وللشباب، فإن نغمة الأمل تتردد بين سطور الكتاب فلا تغيب أبداً.

ذاكرة الكتابة فى القصة والرواية الليبية

إدريس المسمارى

ليبيا: مجلس الثقافة العام، ٢٠٠٦، ١٠٣ صفحات



يقدم المؤلف قراءة نقدية فى عدد من الإبداعات لروائيين وكتاب ليبيين، ويبدأ برواية أحمد إبراهيم الفقيه «سأهبك مدينة أخرى»، وهى الجزء الأول من ثلاثية يتناول فيها المؤلف سيرة البطل خليل الإمام فى عالم الغرب، والجزءان الآخران هما «هذه تخوم مملكتى» و«نفق تضيئه امرأة واحدة»، والجزء الأول يمكن إضافته إلى هذا النوع من الروايات الذى عرف بروايات الاغتراب.

قراءة نقدية أخرى يقدمها المؤلف لرواية صالح السنوسى «غداً تزورنا الخيول».

«محطات» للكاتب كامل المقهور هو النص الثالث وهى سيرة ذاتية فى سياق أدبى وفنى رفيع، تقدم مستويات عدة للقراءة والمعرفة، أما «ليالى نجمة» للروائى خليفة حسين مصطفى، فهى السادسة له، وفيها يرصد التاريخ السياسى والاجتماعى الليبى خلال فترة الخمسينيات والأربعينيات من القرن الماضى كخلفية للعلاقة بين أبطاله.

يقدم المؤلف أيضاً قراءة نقدية لمجموعة «خديجار» للقاص سالم العبار، وهى قصص تتكئ فى معظمها على خيال الطفولة الخصب الذى يقدمه القاص فى إطار سردى، ويتوقف المؤلف عند ثلاثة نماذج من المجموعة هى: الفارس، الحج، الرصد.

وعبر ثلاث تيمات هى الصحراء، الأسطورة، الموت، يقرأ المؤلف نص الكاتب إبراهيم الكونى «وطن الرؤى السماوية»، يقول المؤلف: إن الكونى فى نصه هذا يعيد صياغة أسطورة الخلق كما نسجتها مخيلة الإنسان فى حضارات الشرق القديم من منظور يعمل على تفكيكها وإعادة تشكيلها وفق مفردات قوانين الانبعاث الصوفى.

كأن العمر ما كانا

فاروق جويدة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ٨٠ صفحة



الديوان الأخير للشاعر الكبير فاروق جويدة، الذى عرف بقصائد الرومانسية الفائقة، وقدرته على اللعب بأوتار القلوب ومشاعر الأحباب بانسيابية ورهافة، لا يضم سوى قصيدة وحيدة من هذا النوع، هى قصيدته الأخيرة «لا وقت للغفران» والتى جاءت من الشعر العمودى، وفيها من العتاب والسخط والغضب أكثر مما فيها من حكايا العشق والعشاق، يقول الشاعر:

لا وقت للغفران قومى وارحلى
لا لن تفيدك ثورتى وعتابى
إنى طردتك من مفاتن جنتى
وعليك حقت لعنتى وعقابى
يا كذبة العمر الجميل تمهلى
ولتقرئى قبل الرحيل كتابى
سطر وحيد بالدماء كتبته
أقسى الجراح خيانة الأحباب

أما بقية القصائد فهى سياسية، غاضبة احتجاجية، باستثناء قصيدته الأولى التى يهديها إلى روح أمه التى رحلت قبل عامين وقد تركته لعالم تغيرت قسماته وملامحه وتبدلت أطيافه وطبائعه، فما عاد ممكناً لقلب الشاعر الرقيق ولما علمته الأم من معانى المحبة والتسامح أن يتواءم مع هذا العالم الوحشى، يقول:

يا جنة العمر يا روحى التى رحلت
لا تسألى القلب هل أضناه ما لاقى
من لى بصدر حنون لا يساومنى
ولا يرى فى الهوى ذلاً وإشفاقاً
يمضى بى العمر قلب الأم يسكننى
ولا أرى بعده حباً وأشواقاً

أما بقية القصيدة فهى مهداة إلى أطفال العراق «من قال إن النفط أغلى من دمى»، وإلى صبايا بغداد فى سجن أبوغريب «ما عاد يكفينا الغضب»، وإلى الجيش حامى الوطن. تقرأ فى قصيدة «اغضب، ولا تسمع أحداً»:

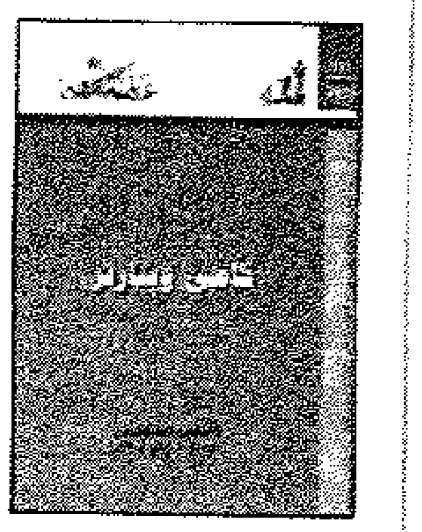
اغضب.. فإن الله لم يخلق شعوباً تستكين
اغضب.. فإن الأرض تحنى رأسها للغاضبين
اغضب: فإن الريح تذبح سنبلات القمح
تعصف كيفما شاءت.. بغصن الياسمين
اغضب.. ستلقى الأرض بركاناً
ويغدو صوتك الدامى نشيد المتعبين
اغضب فإن حدائق الزيتون
لا تؤوى كلاب الصيد
لا تنسى دماء الراحلين

كامى وسارتر

رونالد أرونسون

ترجمة: شوقى جلال

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٧، ٣٣٧صفحة



يحكى هذا الكتاب بالوثائق واستناداً إلى شهادات معاصرين وسير ذاتية وكتابات منشورة، قصة التحالف والصراع بين اثنين من أشهر مبدعى القرن العشرين، صاغ عديداً من أفكاره التى دار فى فلكها مبدعون ومثقفون فى جميع أنحاء العالم، إنهما جان بول سارتر والبير كامى، اللذان تعددت أوجه أنشطتهما الإبداعية ومواقفهما تجاه السلطة والعالم فى زمانهما، فكتبا فى السياسة والفلسفة والرواية والمسرح، إضافة إلى مقالات صحفية ألهبت خيال المحيطين بهما ودوائر أوسع خارجها.

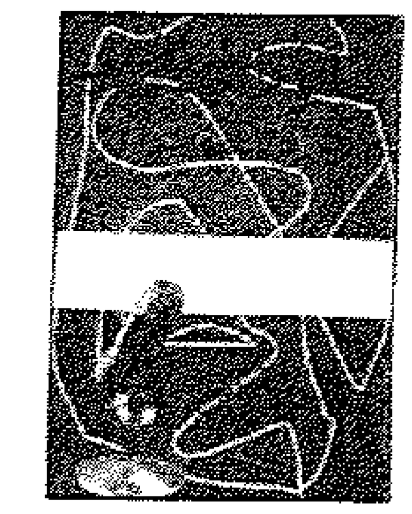
دارت بين الاثنين معارك فكرية صاخبة، اتفقا وتحالفا واختلفا وتباعدا، ومثلت معاركهما معاً شهادة على هذا العصر وتحولاته أثناء الحرب العالمية الثانية، وكذا فى سنوات الحرب الباردة، والأسئلة التى طرحها الصراع بين الاثنين مازالت مطروحة - ربما بصورة أشد - حتى اليوم، وهى ثنائيات من نوع: المثقف والالتزام السياسى، البعد الأخلاقى فى العمل السياسى، الإبداع والثورة، الحرية والفوضى، الغاية والوسيلة، وغيرها مما لم يجد بعد إجاباته الحاسمة.

والمعروف أن سارتر عاش بعد كامى نحو عشرين عاماً، وهو ما منحه فرصة أن تكون له الكلمة الأخيرة فى قصة الصراع بينهما، وبعد وفاة كامى ظل سارتر على موقفه النقدى منه، يسخر من المستوطنين الفرنسيين فى الجزائر، وقد قدمت سيمون دى بوفوار رفيقة سارتر فى عام ١٩٦٣ شهادتها عن نهاية العلاقة بين الصديقين: كان كامى مثالياً، أخلاقياً، مناهضاً للشيوعية، واضطر فى لحظة إلى الخضوع للتاريخ، وحاول بأسرع ما يمكن الانسحاب منها، وجاهد سارتر منذ عام ١٩٤٥ لإنكار المثالية، ولكى ينتزع نفسه بعيداً عن نزعته الفردية الأصيلة والعيش فى التاريخ، كان كامى يكافح من أجل مبادئ عظيمة، واعتاد أن يرفض المشاركة فى الأعمال المحدودة والتفصيلية التى الزم سارتر نفسه بها.

أنا والأمريكان

إبراهيم عابدين

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٧، ٥٠٨ صفحات



يتضمن هذا الكتاب بعضاً من ذكريات مراسل إذاعى عمل بإذاعة صوت أمريكا لنحو سبعة وعشرين عاماً، وهو يبدؤها من سنوات عمله بوكالة أنباء الشرق الأوسط مراسلاً حربياً على جبهة القتال أيام حرب الاستنزاف، وخصوصاً فى مدينة السويس، وبعض ما حققه من إنجازات هى بمثابة سبق صحفى، إضافة إلى مقالات رأى سجلها فى الكتاب حول موضوعات عامة، وقسم يتحدث فيه عن شخصيات أثرت فى حياته وفى مسيرته الصحفية والإذاعية، بينهم جلال الدين الحمامصى ونجيب محفوظ والفنان التشكيلى حامد سعيد والمثال الرائد محمود مختار وزعيم حركة حماس الفلسطينى الثائر الشيخ أحمد يس الذى اغتيل بيد الغدر الصهيونية.

ويلفت النظر فيما كتبه عن تجربته فى إذاعة صوت أمريكا، تلك المواقف التى التزم فيها أقصى درجات الحسم مع رؤسائه الأمريكيين، والتى وضع فيها دائماً استقالته فى كفة والمساس بكرامته المهنية والإنسانية فى كفة الميزان الأخرى. وفى واحدة من أصعب هذه الأزمات، طلب أحد نواب رئيس إذاعة صوت أمريكا الاستغناء عن بعض العاملين بالقسم العربى بالقاهرة، فرفض المؤلف بصرامة وهدد بتقديم استقالته إذا ما تم الاستغناء عن هؤلاء العاملين الذين يعملون تحت رئاسته والذى يفترض أن تتم استشارته قبل اتخاذ أى إجراء بشأنهم، وحين رفض رئيس المكتب استلام رد المؤلف الذى يتضمن هذا المعنى مكتوباً، أرسل نسخاً منه إلى رئيس إذاعة صوت أمريكا مباشرة وإلى السفارة الأمريكية بالقاهرة، وهو ما سبب انزعاجاً شديداً فى مقر الإذاعة بواشنطن وفى وزارة الخارجية الأمريكية ذاتها، وقرر رئيس الإذاعة تشكيل وفد على مستوى رفيع لبحث القضية على الطبيعة، وسعى هذا الوفد إلى إثبات أى تعقيد إدارى أو مهنى أو مالى ارتكبه المؤلف، إلا أنه فشل تماماً فى ذلك، فعاد الوفد إلى واشنطن وقد سجل الملاحظات كلها ليتم اتخاذ قرار بشأنها، فماذا كان القرار؟

تم استرضاء العاملين الذين كان مطلوباً الاستغناء عنهم ورفع رواتبهم، أما المؤلف فقد عوقب على موقفه بسحب كافة الاختصاصات الإدارية منه، وتعيين مدير إدارى يتولى هذه الاختصاصات، وهكذا تم إقصاؤه عن كل ما يخص العاملين المصريين، كما تم تجميد وضعه بما يحرمه من أى ترقية استثنائية. يقول المؤلف: كنت فى علاقتى مع جميع الأمريكيين الذين عملت معهم أضع كرامتى فوق كل شىء وقبل أى شىء، وكلهم كان يحسب حسابه عند الحديث معى، كنت فى مواجهتهم قوياً لا أخشى شيئاً واعتمدت فى ذلك على الله سبحانه وتعالى وعنصرين مهمين: أننى كنت أحب عملى وأقوم به على أفضل صورة، وثانياً: نظافة اليد والدقة فى الحساب وفى الميزانيات.

المفكرون العرب والصهيونية وفلسطين

حلمى النمنم

القاهرة: رؤية للنشر، ٢٠٠٧، ٢٠٤صفحات



يدحض هذا الكتاب الفكرة الشائعة من أن اهتمام الكتاب والمثقفين العرب بالموضوع الفلسطينى جاء فى أعقاب وعد بلفور عام ١٩١٧، وأن الاهتمام المصرى على وجه الخصوص جاء تالياً لأحداث ثورة المصريين فى عام ١٩١٩، وتحديداً بعد صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وحصول مصر على استقلال شكلى، أما قبل ذلك، فقد كان المصريون مشغولين بقضيتهم الوطنية والكفاح من أجل تحقيق استقلال بلدهم، فلم ينتبهوا إلى ما يجرى على الجانب الشرقى.

المؤلف عبر قراءة فى الصحف والمجلات المصرية التى صدرت خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وخصوصاً كتابات رشيد رضا وشكيب أرسلان وشبلى شميل وجورجى زيدان، يكشف عن الاهتمام المصرى المبكر بالقضية الفلسطينية، والانتباه إلى خطورة الهجرات اليهودية إليها، والنزعة الصهيونية الاستيطانية التى بدت بوضوح فى أعقاب مؤتمر بازل عام ١٨٩٧، فهو يشير مثلاً إلى ما كتبه جورجى زيدان عقب رحلة قام بها إلى فلسطين، حين قال إن الأمور لو تركت على ما هى عليه، فسوف تضيع فلسطين نهائياً خلال عدة عقود، ودعا رشيد رضا إلى ضرورة التفاهم مع هؤلاء المهاجرين الجدد للحد من هجراتهم إلى فلسطين، كما يشير المؤلف إلى الرسائل المتبادلة بين واحد من أعيان فلسطين هو يوسف ضياء الخالدى، والذى كان رئيساً لبلدية القدس وسفيراً للدولة العثمانية فى النمسا، وهرتزل فى عام ١٨٩٩ والتى وردت فى كتاب للدكتور عادل مناع عن تاريخ فلسطين فى أواخر العصر العثمانى، والتى أكد فيها الخالدى على الحق التاريخى لليهود فى فلسطين، وأن الصهيونية فكرة طبيعية وعادلة، لكن لا مجال لتحقيق المشروع الصهيونى على أرض فلسطين لأسباب أفاض فى شرحها فى رسالته، والحل هو أن تبقى فلسطين «بحق الله والسلام»، وقد رد عليه «هرتزل» بالتأكيد على أن هجرة اليهود إلى فلسطين فيها خير للمنطقة كلها، لأنها تعنى جلب الخبرة والموهبة والإمكانات المادية الضخمة بما سيؤدى إلى إنعاش البلد والمنطقة كلها وتحقيق درجة أعلى من الرفاهية للأهالى.. إلخ.

هذه مجرد نماذج لمواقف مثقفين تصدوا مبكراً للفكرة الصهيونية، إلا أن الحكومات لم تنتبه حتى صار الكابوس الصهيونى البغيض، واقعاً يمشى على قدمين.

أنتعل الغبار وأمشى

مى منسى

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٦، ٢٥٦صفحة



الرواية أشبه بالسيرة الذاتية مروية بلسان بطلتها، فصول قصيرة بلا عناوين. طفولة بائسة: فقر ونزوح وإعاقة جسدية، يقابلها عصامية مبكرة وحب المعرفة وعناد ومقاومة. فقدان الحبيب، وأب من عصر الجاهلية و... يقابلها صداقات حميمة وصبر. لكن ثمة فى الرواية بوح جرىء بالعواطف ونزعة إنسانية جميلة ولغة شفافة تنساب فيها الكلمات برقة وعفوية.

من الرواية نقرأ:

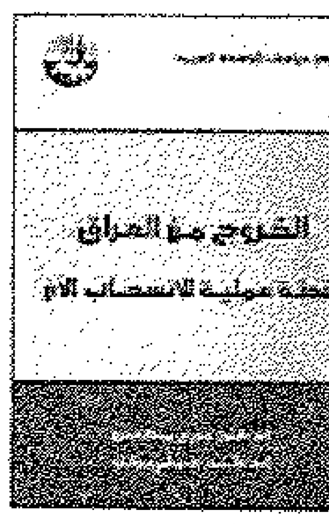
«كنت فى قرارة نفسى بحاجة ماسة إلى الانفراد بدفترى السرى. كلما سنحت الظروف. بينى وبين ورقتى كنت أستعيد حقيقتى ولو مغبشة، مستقيلة من طبيعتى الأخرى، المواربة، المتحايلة على الواقع للفوز برضى الآخرين وعطفهم. هذا الدفتر المخول دون سواه كتم اعترافاتى، كنت أخبئه نهاراً تحت فراشى وأعود إليه ليلاً حين الكل نيام، أصب فيه عصارة مكبوتاتى.

كنت أتحول ليلاً إلى شيطان رغبات مقموعة أحررها كتابة بشعور من يقترف الخطيئة بلذة. كنت، وقلمى منساب برفق من وحيى الخصب، على اقتناع بأن الوقوع فى الحب ينبغى أن يكون على مثال الحكايات، لا تحيا فيه المرأة العاشقة إلا إذا ذاقت عذاب الجحيم واحترقت فى نعمة اللذة حتى الهلاك».

الخروج من العراق: خطة عملية للانسحاب الآن

جورج ماكغفرن ووليام بولك

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧، ١٣٦ صفحة



هذا الكتاب وثيقة على درجة عالية من الأهمية فى التاريخ العسكرى - السياسى الأمريكى للحقبة الراهنة. اشترك فى تأليفه علمان من أعلام تيار المعارضة للسياسة الخارجية الأمريكية: السناتور ومرشح الرئاسة الأمريكية الأسبق (١٩٧٢) جورج ماكغفرن، وعالم السياسة والمسئول البارز فى المؤسسة الدبلوماسية الأمريكية وليام بولك. وقد وضعا فى كتابهما المشترك محصلة خبرات السنين، بالإضافة إلى توجههما الشخصى المتميز بالنزعة الإنسانية، وليس بالنزعة البراجماتية التى كثيراً ما أبعدت السياسة الخارجية الأمريكية عن جذور القيم الأمريكية الأصلية.

ولعل أقرب وصف لمضمون هذا الكتاب هو أنه بيان واضح لبرنامج عمل بشأن مشكلة بالغة الخطورة فى السياسة الخارجية الأمريكية وفى الاستراتيجية العسكرية على السواء.

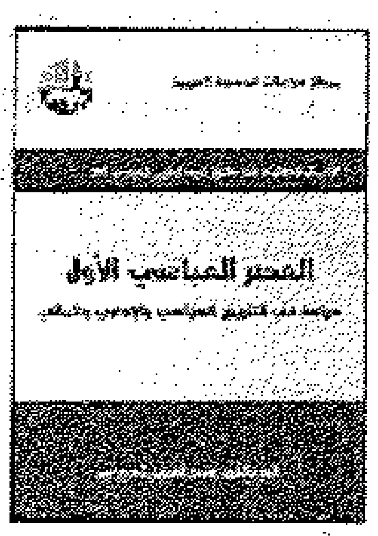
يقدم المؤلفان فى كتاب الخروج من العراق حلاً عملياً لمعضلة أمريكا فى العراق، استناداً إلى خبرتهما السياسية العملية وقدراتهما الفكرية بوضع مقدمات صحيحة أوصلتهما إلى استنتاجات سليمة بشأن كيفية الانسحاب، والأهم بشأن ما يمكن أن تكون النتائج إذا لم يتم هذا الانسحاب. إن طرح السؤال: «ماذا لو لم تنسحب أمريكا من العراق؟» يميز هذا الكتاب ربما عن كل الكتب الأخرى التى تعرضت لهذا الموضوع.

وبعد أن يجيبنا بالتفصيل يأتى السؤال: «هل تستحق مواصلة الطريق كل هذه النفقات؟» والإجابة: إن رجالاً عسكريين وكذلك دبلوماسيين متزنين وضباط مخابرات متعقلين لا يعتقدون أن الولايات المتحدة تملك أى أمل فى تحقيق ما يظل الرئيس بوش يدعوه «النصر».

العصر العباسى الأول: دراسة فى التاريخ السياسى والإدارى والمالى

عبدالعزيز الدورى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ٣٠٤ صفحات



هذا هو المجلد الثالث من سلسلة الأعمال الكاملة للمؤرخ العربى الدكتور عبدالعزيز الدورى، وكان قد صدر منها المجلد الأول فى يونيو ٢٠٠٥ بعنوان: «مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام»، والمجلد الثانى فى سبتمبر ٢٠٠٥ بعنوان: «نشأة علم التاريخ عند العرب».

ويدرس هذا المجلد نشوء الدولة العباسية وظروف انتشار الدعوة إليها، حيث يقول د. الدورى: «نشأت الدولة العباسية على اثر دعاية واسعة النطاق دامت حوالى ثلث قرن، فضمت إلى صفوفها كل من عادى الأمويين، وتركت آثاراً مهمة فى نفوس المسلمين (من غير العرب)، وبخاصة الفرس. ولكى نفهم هذه الدعوة علينا أن ندرس أوضاع الأماكن التى انتشرت فيها من الناحيتين المالية والاجتماعية. هذا إضافة إلى دراسة نشوئها وأساليبها ومبادئها التى بشرت بها.

وقد انتشرت الدعوة العباسية الأولى بين الموالى (المسلمين من غير العرب) فى العراق وخراسان، إذ أسرعوا وانضموا إليها رغبة فى التخلص من أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية السيئة. كما انضم بعضهم لتحقيق آراء كانوا يدينون بها.

دارفور أرض السحرة والقرآن

حمدى الحسينى

القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠٧، ١٧٧صفحة



فجأة صار إقليم دارفور ملء السمع والبصر، صار مسرحاً لواحدة من أكبر الكوارث التى عرفتها الإنسانية فى العصر الحديث. وتحول نصف سكان الإقليم تقريباً (٢ مليون نسمة) إلى مشردين ولاجئين بلا مأوى، وتحول ما يجرى هناك إلى موضوع للسجال فى الإعلام العالمى، ومادة مثيرة تتم متابعتها بالصوت

والصورة، ومساحة لتصفية الحسابات بين قوى إقليمية ودولية.

تحولت أرض القرآن، هكذا يعرفون دارفور في السودان، إلى ساحات من العراك والدم بين الأشقاء، فقد حمل بعض أبناء دارفور السلاح في مواجهة السلطة، تمردوا عليها بطريقتهم، غير أن الأمور وصلت إلى ذرى غير محسوبة، حيث عمل البعض على تأجيج الخلاف ليكتسب طابعاً عنصرياً بغيضاً، فقد تحول إلى صراع بين العرب والأفارقة، وكانت فرصة امتدت إليها أياد خارجية، فتمت استضافة الزعماء الأفارقة المتمردين في دول أفريقية مجاورة، وقدم لهم دعم سخي للاستمرار في تمردهم وعمل الإعلام الغربي على تعميق شعور قادة التمرد بأنهم يخوضون حرباً مقدسة لتحرير أبناء الزرقة من المسلمين الأفارقة، من قبضة حكام السودان المسلمين وأيضاً المنحدرين من أصول عربية، وقد كانت التربة ممهدة بطبيعة الحال لإذكاء صراع من هذا النوع، فساد وبيروقراطية عفنة وتجاهل تنموي مريع وتوزيع غير عادل للثروة وغياب كامل لأبسط الحقوق السياسية وحريات التعبير، وكان لافتاً أن اهتمام الصحف الأجنبية ووكالات الإعلام الغربية بما يجري في دارفور يتجاوز بما لا يقاس الاهتمام الإعلامي العربي، والأنكى أن كثيراً من السودانيين حتى من أبناء الإقليم نفسه اعتمدوا في فهم ما يجري وتفسيره على هذه المصادر الغربية، وقد رصدت جهات رسمية سودانية أكثر من ١٧ مليون قصة عن دارفور على شبكة الإنترنت.

الكتاب يسجل رحلة قام بها المؤلف إلى دارفور نقل فيها ما يجري هناك من وقائع مؤلمة في إقليم جميع أهله مسلمون يتكلمون العربية.

■

صمت الطواحين

يوسف أبو رية

القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٧، ١٧٢صفحة



القرية هي العالم الأثير للمؤلف الذي تدور بين أطرافه قصصه القصيرة ورواياته، وهو هنا يواصل الاحتفاء بتفاصيل هذا العالم، حيث يلتقط منه ما يوشك أن ينزوي، الطواحين، تلك التي كانت واحدة من مفردات القرية في أزمنة ولت، والآن غابت أو كادت، فمن خلال الطاحونة يحكي لنا المؤلف عن عائلة الحاج أبوالمعاطي متتبعاً سيرتهم منذ كانوا أجراء يعملون في أراضي الإقطاعيين القدامى قبل قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، وبقيام الثورة ومصادرة أراضي الملاك الكبار، تبدلت أحوال عائلة أبوالمعاطي، إذ حصلوا على أملاك نفر من الأجانب الذين دفعتهم عمليات التأميم الواسعة إلى الهروب خارج مصر والعودة إلى بلادهم، متنازلين عن أملاكهم بأبخس الأسعار، ويتمكن الحاج أبوالمعاطي الذي لم يكن له دراية سابقة بكيفية تشغيل الطواحين من امتلاك أكثر من طاحونة بعد أن تعلم دقائق تشغيلها، متجاوزاً أبناء عمومته الذين أضاعوا ثروتهم على مباذل شتى، ومن خلال هذه العائلة سيكون متاحاً أن نتعرف على تحولات اجتماعية وسياسية عصفت بمصر منذ ما قبل يوليو ١٩٥٢ وحتى نهاية السبعينيات، أحالت الطاحونة كما أحالت غيرها من المفردات التي ميزت هذه الحقبة إلى متحف التاريخ، كما نتعرف من خلال شخوص الرواية المتعددين على مئات التفاصيل الإنسانية والسلوكية لأفراد ينتمون إلى بيئات مختلفة: نور وعليوة صبيان الحاج أبوالمعاطي، يونس وأبوالعلا أخويه، فرح ابنه، شهدة زوجته الصبية الثانية، والتي كانت زوجة لطه الغمراوي بائع الجاز، وشاهيناز ابنة البهوات وسليلة القصور التي تتزوج من طه ثم تجبر على الطلاق منه لكي يبقى حتى النهاية وفياً لحبها.

نهاية العائلة كما سجلها المؤلف في نهاية الرواية هي في حقيقتها نهاية لهذا العالم الذي سعى المؤلف إلى رصد تفاصيله وتناقضاته وتشوهاته، عالم صار في طي النسيان.

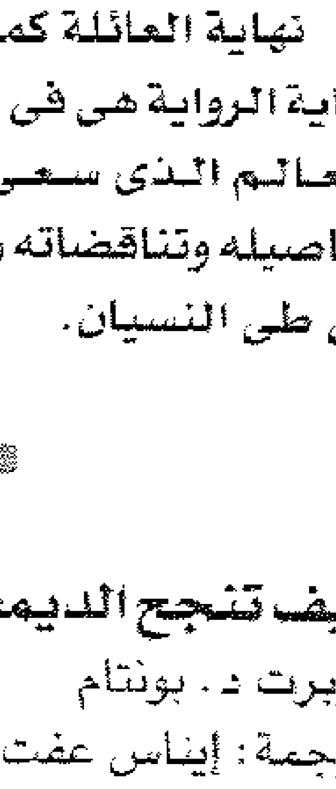
■

كيف تنجح الديمقراطية؟

روبرت د. بوتنام

ترجمة: إيناس عفت

القاهرة: الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، ٢٠٠٦، ٣٠٠ صفحة



لماذا تنجح بعض الحكومات الديمقراطية وتفشل أخرى في تحقيق أهدافها؟ هذا ما سعى المؤلف للإجابة عنه في إطار بحث جماعي شاركه فيه آخرون، الذين قدموا أدلة تجريبية عن أهمية المجتمع المدني في تطور المؤسسات الناجحة وكيفية تأثيرها في السياسة والحكم، وقد تركز بحثهم على التجربة الإيطالية الفريدة في الإصلاح والتي بدأت في عام ١٩٧٠، حيث أنشأت إيطاليا

بنك القرية البنغالى



تجربة بنك الفقراء

الحائز على جائزة نوبل للسلام لعام ٢٠٠٦

د. مجدى على سعيد

بيروت: الدار العربية للعلوم وإسلام أون لاين. ط ٢، ٢٠٠٧، ٢٧١ صفحة

من الطبيعي أن يتساءل القارئ حول السبب الذي يجعل شخصاً حاصلاً على دكتوراة في الاقتصاد والبنك الذي أسسه يفوزان مجتمعين بجائزة نوبل للسلام وليس جائزة الاقتصاد التي تمنحها نفس المؤسسة مثلاً. إن الفكرة وراء بنك جرامين والتي قد تبدو بسيطة وبديهية لغير المتخصصين قد نجحت في إنقاذ أعداد كبيرة من القرويين في بنجلاديش من الاستمرار في حالة الفقر المدقع. بدأت تجربة بنك جرامين (وهو يعني بنك القرية باللغة البنغالية) كامتداد لأبحاث يونس ومشروع الاقتصاد الريفي بجامعة تشيتاجونج ببنجلاديش. ففي عقب المجاعة التي أودت بحياة حوالي مليون ونصف مليون مواطن من بنجلاديش عام ١٩٧٤ اكتشف محمد يونس أستاذ الاقتصاد بجامعة تشيتاجونج أن الفقراء في الريف البنغالي غير قادرين على كسر دائرة الفقر رغم مهاراتهم الإنتاجية لأن البنوك ترفض إقراضهم رأس المال اللازم لبدء مشاريعهم الخاصة مما يدفعهم للاقتراض من المرابين بفوائد تبتلع أغلب أرباحهم. رفض البنك المركزي والبنوك التجارية الأخرى الاقتناع بفكرة محمد يونس أن الفقراء سيتمكنون من سداد قروضهم وإدارة مشروعات ناجحة إذا تمكنوا من الحصول على القروض بدون ضمانات أو فوائد. عندها قرر محمد يونس وتلامذته، بدأوا التجربة بأنفسهم فأقرضوا مجموعة من الفلاحين من القرى المحيطة بالجامعة مبالغ متناهية الصغر بدون ضمانات أو فوائد لاستخدامها في الحرف التقليدية أو أي نشاط آخر يدر دخلا عليهم. وقد حدد بنك جرامين ١٦ شرطا على المقترضين الالتزام بها بشكل جماعي حيث تخلق الالتزامات وعيا مغايرا لدى القرويين ومن أول تلك المبادئ أن تلتزم القرية بمبادئ الاتحاد والشجاعة والعمل الجاد. كما تتضمن النقاط الأخرى اشتراطات خاصة بالنظافة الشخصية ونظافة المساحات العامة في القرية والاهتمام بصيانة البيوت وبتعليم الأبناء في التعليم النظامي مع إكسابهم المهارات المختلفة الخاصة بنمط إنتاج كل قرية. تلك الروح الجماعية مترسخة في جميع أنظمة قروض ومشاريع البنك التي تشجع المسئولية المشتركة للأسر بقيادة المرأة عادة أو للمجموعات القروية التي ينتخب المسئول عنها بشكل دوري. وقد نمت تلك الأساليب مفاهيم المشاركة السياسية والاجتماعية فعليا بين القرويين مما حدا بالبعض منها إلى التقدم بالترشيح للمجالس المحلية. وقد حطمت تجربة بنك جرامين مفاهيم راسخة لدى العاملين في الحقل البنكي حول جدوى الإقراض للطبقات الأشد فقرا ونفت البديهيات القديمة والتي تقول إن من لا يملك ضمانات لقرضه لن يسدده. وقد لا يتعجب القارئ لو لاحظ أن من أهم منتقدي سياسات بنك جرامين مؤسسة ميسيس Mises Institute وهي هيئة مرتبطة فكريا باليمين الجديد في الولايات المتحدة الأمريكية.

ورغم أن كتاب «تجربة بنك الفقراء» للدكتور مجدي سعيد يقدم عرضاً وافياً ليس فقط للبنك ولكن للمؤسسات التي نشأت عنه ولتأثيره في حياة القرويين ولهيكله الإداري والذي هو في حد ذاته تجربة خاصة جدا ومبتكرة إلا أن سلاسة الكتاب تأتي لموضوعه الشيق وليس للغته التي بدت أقرب للترجمات. كما أن الكتاب يكاد يخصص مقطعا مطولا في كل فصل لمناقشة التجربة ومفرداتها من منظور إسلامي مستشهدا في الفصل المعنون «التركيز الشديد على قضية الفقر» بأحاديث نبوية وآيات قرآنية وكتابات للشيخين محمد الغزالي ويوسف القرضاوي لتحديد من هو الفقير وما هي الالتزامات المجتمعية تجاهه، كما أنه يقدم آلية اتخاذ القرار في فلسفة البنك على أنها آلية مبنية على الشورى وهي مرجعية لا تتناقض مع فكرة التشاور والقرارات الجماعية، ولكنها فكرة ذات صبغة دينية بحتة غير مشار إليها في موقع البنك على شبكة الإنترنت ولا على المواقع المتفرعة منه. بل إن فروع البنك ومؤسساته تنتشر في دول عديدة لا يوجد بها جالية إسلامية كبيرة، ولكن الأمر مفهوم بالنظر إلى أن الكتاب تم نشره بالتعاون بين الدار العربية للعلوم (ناشرون) وبين موقع إسلام أون لاين.

نرمين نزار

حكومات جديدة في أقاليمها العشرين، ثم بدأت بعد مرور عقدين على تقييم التجربة وتحليل فعالية هذه الحكومات ومستويات أدائها، وانتهوا إلى أن أنماط تكوين الجمعيات والثقة والتعاون هي التي تسهل الحكم الجيد وتوفر الرخاء الاقتصادي.

وربما تكون النتيجة الأهم التي انتهى إليها الباحثون هي أن فترة العقدين قد تكون كافية لتتبع آثار الإصلاح المؤسسي على السلوك السياسي، ولكنها غير كافية لتتبع تأثيراته على الأنماط الأعمق للثقافة والهيكل الاجتماعي. والمهتمون بالديمقراطية والجنوب عليهم أن يقيموا مجتمعاً أكثر مدنية وأن ينظروا لما هو أبعد من النتائج الفورية، ويؤكد الباحثون على أن الظن بإمكانية تغيير منطقة الجنوب (العالم النامي) من الخارج وبروشتة إصلاح جاهزة ليس صحيحاً، فالتغيير قد يستفيد من تجارب أخرى في العالم كله، لكنه لابد أن ينطلق من رؤية شاملة وعميقة للظرف الآني ولواقع كل دولة على حدة، ويؤكد الباحثون أيضاً على أن بناء رأس المال الاجتماعي لن يكون سهلاً، لكنه يبقى المفتاح الذي يجعل الديمقراطية تعمل.

الفلاحون وتحديات القرن الواحد والعشرين

إشراف: سمير أمين

القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٦، ٢٣٠صفحة



تدحض الدراسات التي يتضمنها هذا الكتاب عن الفلاحين في الصين والهند وسريلانكا والفلبين ومصر وأثيوبيا وغرب أفريقيا وزيمبابوي وجنوب أفريقيا والبرازيل وبولندا والمكسيك، المقولات بأن الرأسمالية هي السبيل الوحيد للتنمية في العالم كله، خصوصاً بعد الانهيار المدوي للاشتراكية التي كان الاتحاد السوفيتي السابق هو موطن تجريبها عملياً، وقد استغرق العمل في هذه الدراسات جميعاً ما يقرب من ثلاث سنوات، انتهت إلى تكذيب الادعاءات التي يروجها الخطاب الرأسمالي باعتباره منقذ البشرية وأملها الوحيد للنجاة في طور تطورها الأخير، فهذا الخطاب يناقض تماماً ما يراه الناس على أرض الواقع من حالة دمار إنساني شامل أبيدت فيها شعوب بكاملها، وشهدت عملية إنتاج الثروة وتوزيعها عبر العالم أسوأ وأخطر عملية استقطاب، وسعت الهوة كثيراً بين دول الشمال المتقدم ودول الجنوب النامي، وإن كان السعي نحو تخفيف حدة هذا الوضع قد وجد طريقه خلال فترات التقنين الشديد من تاريخ الرأسمالية، كما يقول الدكتور سمير أمين، الذي يشير أيضاً إلى أن الخطاب الليبرالي السائد يستثمر حالات فشل الأنظمة السياسية في دول العالم الثالث للتأكيد على تفرد الخيار الرأسمالي، حيث يعمد إلى طمس الأبعاد التدميرية المقترنة بعمليات تراكم رأس المال، أو يزعم أنها آثار مؤقتة، كي ينسى الناس أن هذا المؤقت كان هو القاعدة الأساسية منذ خمسة قرون، وقد بلغت طوراً من شأنه تهديد استمرار الحضارة الإنسانية ذاتها، وهو الأمر الذي يبدو جلياً في المجتمعات الزراعية بالعالم النامي، بل وفي الغرب المتقدم ذاته، وهو وضع يمكن أن نطلق عليه شيخوخة الرأسمالية التي قد يمكن تجاوزها - بحسب سمير أمين أيضاً - نحو اشتراكية عالمية لم تعرف خصائصها بعد، أو الانتكاس نحو نظام عنصري يتجه بطبيعته إلى إبادة الشعوب.

دوريات

دبي الثقافية

دبي: دار الصدى للنشر والتوزيع



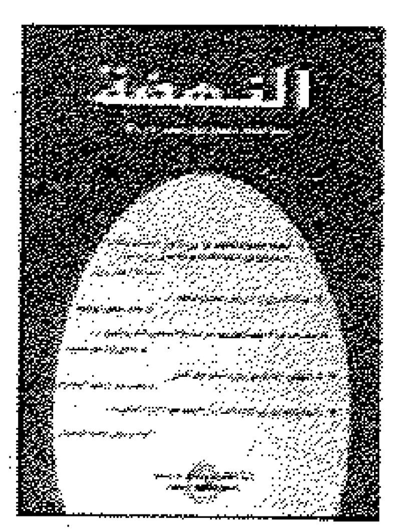
يحذرنا كتاب سودانيون في هذا العدد من أن الثقافة السودانية ستنقرض، والسبب كما يشير التحقيق الثقافي الذي تحدث فيه عدد من الأدباء السودانيين، أنه لا سينما ولا مسرح ولا دور نشر في السودان، كما أن الدولة لا تقدم دعماً للكتاب من أي نوع وتعتبر أن نشر الثقافة ليس من اهتماماتها.

يكتب رجاء النقاش أيضاً عن الأديب المصري عادل كامل الذي رافق نجيب محفوظ في بداياته، ثم توقف بعد روايتين ومسرحية، بالعدد أيضاً حوار مطول مع الشاعر اللبناني سعيد عقل وآخر مع الروائي الليبي أحمد إبراهيم الفقيه، وثالث مع الفنان المصري جميل راتب، ورابع مع المخرج المسرحي والأكاديمي العراقي عقيل مهدي.

وحوارات فنية وأدبية أخرى عديدة ومقالات لأدونيس وجابر عصفور وأحمد عبدالمعطي حجازي وصلاح فضل وعبدالعزيز المقالح وآخرين.

النهضة

القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة



صدر عدد جديد من هذه المجلة الفصلية التي تعنى بنشر البحوث النظرية والميدانية في علوم الاقتصاد والإحصاء والسياسة والإدارة العامة، ويرأس تحريرها الدكتور علي الدين هلال وزير الشباب المصري السابق. يتضمن العدد الجديد بحوثاً عن الفجوة العلمية والتكنولوجية بين الدول المتقدمة والنامية وانعكاساتها على النمو الاقتصادي، جدلية الصراع في إسرائيل بين الفكرة والوجود، كما تطرح قضية الإصلاح الإداري للمناقشة.

وتحظى عديد من المؤتمرات التي عقدت خلال الفترة الأخيرة بتغطية وافية، منها مؤتمر مخاطر وتداعيات الانتشار النووي الذي عقد بالبحرين في سبتمبر ٢٠٠٦، ومؤتمر الأبعاد السياسية لتشريعات مكافحة الإرهاب الذي عقد في نفس الفترة تقريباً بجامعة القاهرة، وكذلك الندوة التي نظمها المركز الدولي للدراسات المستقبلية وناقشت الأبعاد الاستراتيجية والانعكاسات الإقليمية للمشروع النووي الإيراني.

قضايا إسرائيلية

رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية



يتضمن العدد الرابع والعشرون من هذه الفصلية دراسة لدان ياهف يتساءل فيها: هل دولة إسرائيل ديمقراطية.

ويكتب مهند مصطفى عن نظام الحكم والاستقرار السياسي في إسرائيل، ويطرح أودي أديب تساؤلات مكملة في موضوعه وجهات نظر نقدية: إسرائيل كدولة ومجتمع.

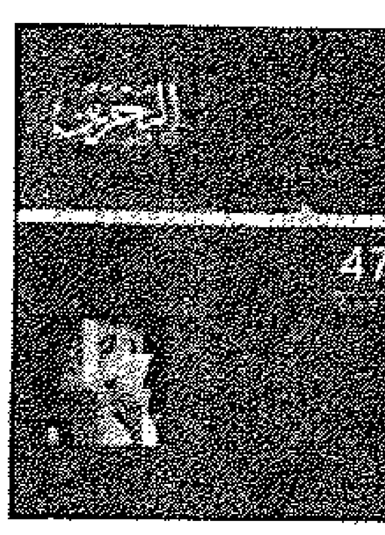
ويحلل كمال علي حسان مراكز الفكر الإسرائيلي ودورها، ويتناول إسماعيل أبوسعد صورة العرب في الكتب الدراسية الإسرائيلية.

ويقدم راؤبين أبارجيل وسمادارلفي شهادتهما التي يمكن اعتبارها تصويراً عميقاً لواقع إسرائيل العنصري بعيون يهود إسرائيل الشرقيين.

ويقرأ برهوم جرايس تقريرين لم ينشرا بعد على الملأ، وهما تقرير لجنة الخبراء التي كلفها رئيس الدولة بدراسة نظام الحكم في إسرائيل، وتقرير المعهد الإسرائيلي للأبحاث حول الفقر والحرب.

البحرين الثقافية

البحرين: وزارة الإعلام



يتضمن العدد الجديد من المجلة ملفين، الأول عن أديب نوبل نجيب محفوظ، يشارك فيه باحثون وأدباء عرب، والثاني عن التشكيلي البحريني الذي رحل مؤخراً ناصر اليوسف، والذي يعد أحد أكبر الرواد المؤسسين للتعبيرية المحلية في البحرين بحسب ما يصفه الناقد التشكيلي اللبناني أسعد عرابي.

ويتضمن قسم السينما حواراً مطولاً مع المخرج السينمائي الهندي ساتياجيت راي وهو واحد من أهم المخرجين في السينما الهندية المعاصرة.

وفي المسرح دراسة عن مسرحية سرفانتس الشهيرة «دون كيخوتة» التي يقول عنها نادر القنة إنها رسالة إسبانيا إلى العالم منذ أربعة قرون.

يتضمن العدد أيضاً دراسات نقدية وأدبية ومراجعات لكتب حديثة ونصوص شعرية وقصصية لمبدعين من مختلف الأجيال.

أدب التعبير والتفسير فى رواية «علاقة مستحيلة»

عــاطــف الــعــراقــى

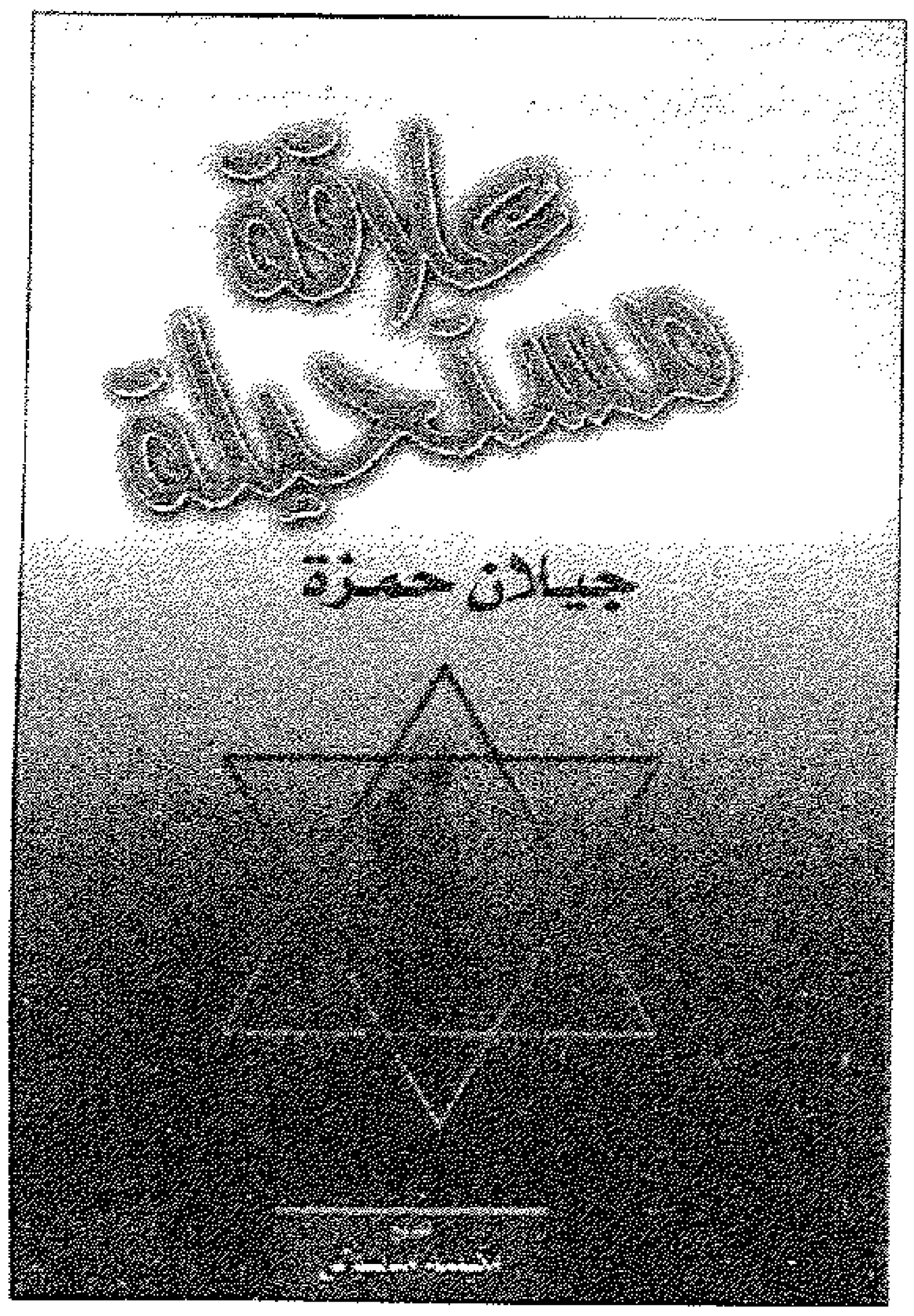
إن صح تقديرى، فإن رواية «علاقة مستحيلة» والتى تعد آخر رواية قدمتها الأديبة جيلان حمزة إلى مكتبتنا العربية، ستحتل مكانة كبيرة فى تاريخ أدبنا الروائى المعاصر.

ونود فى البداية أن نشير إلى بعض أحداث الرواية بإيجاز شديد، وذلك قبل أن نقدم رؤيتنا النقدية لهذه الرواية؛ والتى بذلت فيها مؤلفتها - كما نبين - جهداً ملحوظاً تنقسم الرواية إلى قسمين: تدور أحداث القسم الأول والذى يقع فى ١٧٥ صفحة، فى مصر، أما القسم الثانى والذى يقع فى ١٥٠ صفحة، فتقع أحداثه بأمريكا.

ونجد فى القصة مجموعة كبيرة من الشخصيات، استطاعت المؤلفة أن تدير حواراً خصباً بين هذه الشخصيات وما أكثرها: نجد سعاد الشخصية الرئيسية فى القصة وتدور حولها أكثر أحداث الرواية سواء فى قسمها الأول، أو فى قسمها الثانى. ومنى وكريم الابنة والابن لسعاد، وكريم أصغر من منى بسنوات قليلة. ورشيقة هانم والدة سعاد، وعطيات بنت العم، وشادى ابن منى وتبدأ القصة بولادة منى له. وأشرف زوج منى، وأصيلة هانم والدته. وحسن عم منى وكريم، وسنجد دوره واضحاً ومؤثراً فى القسم الثانى من الرواية. والسفير كمال محمود، وهو الذى أعان كريم ابن سعاد، على العودة لوزارة الخارجية، بعد تركه لها، والأمريكى هارت سترونج واليهودى يوسف بجيه أو يوسف عبجى، ونجده الشخصية المحورية إلى حد كبير فى القسم الثانى من الرواية، بل تنتهى أحداث الرواية، بخطاب منه إلى سعاد التى أحبها حباً جماً، وخطاب من سعاد إليه تكتبه ثم تغادر أمريكا عائدة إلى موطنها القاهرة، وكان هو المشرف على رسالة كريم ابن سعاد لدرجة الدكتوراه بأمريكا، وهى الرسالة التى تدور حول (شخصيات إسلامية كالغزالى أبو حامد وحسن البنا والمودودى)، وجهاد القسام، ووليد القسام وهما من فلسطين.

كما نجد بالإضافة إلى الشخصيات الرئيسية ذكراً لبعض الشخصيات أثناء تسلسل القصة البنائى، ومن بينهم، الملك فاروق، ومحمد نجيب، وجمال عبد الناصر، وصلاح سالم، وأنور السادات، ومارتن لوثر، وموشى ديان، وبيجن، وجولدامائير.

ونود الإشارة إلى أن أحداث الرواية، تعد أحداثاً واقعية إلى حد كبير، بل إن شخصية سعاد فى كثير من جوانبها، قد تعد معبرة عن شخصية المؤلفة جيلان حمزة، ولكن هذا لا يعنى أن الروائية جيلان حمزة تكتب سيرة لحياتها، إذ أن الأديب حين يكتب رواية من الروايات أو قصة من القصص، قد يلجأ إلى الحذف والتعديل والإضافة، وهذا يعد شيئاً منطقياً لأن وظيفة الأديب تختلف عن وظيفة رجل الشرطة حين يسجل الأحداث فى قسم الشرطة ويكتبها كما حدثت بكل تفصيلاتها. وما نقصده هو القول من جانبنا بأننا نستطيع التعرف على شخصية جيلان حمزة من تحليلها لشخصية سعاد، تماماً كما نجد توفيق الحكيم من خلال بعض رواياته، ونجد نجيب محفوظ من خلال شخصيات العديد من رواياته ومن بينها الثلاثية، أى بين القصرين (عصر الجد) وقصر الشوق (عصر الأب) والسكرية (الابن أو الحفيد).



ولكى نستطيع أن نتفهم بدقة وقائع هذه الرواية المهمة، لابد من أن نشير أولاً إلى أن الرواية تجمع بين ما نسميه أدب التعبير، وما يسمى أدب التفسير، النوع الأول من الأدب، أى أدب التعبير، وظيفته إحداث لذة فى النفس أو الشعور والوجدان، ولكنه لا يقدم رؤية للواقع ومشكلاته ونظرة الأديب لهذا الواقع كأشعار البحترى على سبيل المثال. أما النوع الثانى من الأدب، أى أدب التفسير، فإننا نستطيع من خلاله الكشف عن رؤية الأديب أو الفنان للواقع الذى يعيش فيه، ونظرته إلى الحياة ومشكلاتها، ونجد هذا عند كثيرين، من بينهم المتنبى وأبو العلاء المعرى وابن الرومى، بالإضافة إلى كثير من الأدباء والشعراء كما نجده عند بعض أهل الفن.

بل إننا نجد عند بعض الأدباء وبعض الفنانين، روايات وسيمفونيات يمثل بعضها أدب التعبير، وينطبق على البعض الآخر أدب أو فن التفسير، نجد هذا واضحاً غاية الوضوح عند شكسبير فى مسرحياته، وعند بيتهوفن فى روائعه السيمفونية.

ويمكن أن نقول مع الأديب الكبير توفيق الحكيم، إن النوع الأول، أى أدب التعبير يمثل اللؤلؤة، فهى جميلة لذاتها، ولكن لا يتخطى جمالها ذاتها، أما النوع الثانى، فانه يمثل الماسة. إنها تتخطى جمالها، وبحيث تصدر إشعاعات على المكان الذى توجد فيه، أى تتخطى ذاتها، إلى الآخرين، إن هذا النوع الأخير هو أدب التفسير.

وإذا تتبعنا أحداث الرواية، فإننا نجدها فى القسم الأول والقسم الثانى، تمثل إلى حد كبير نوعى الأدب أو الفن، التفسير والتعبير وإن كنا نرى أن التعبير يعد ظاهراً وغالباً فى القسم الأول، فى حين أن التفسير يعد أكثر وضوحاً فى القسم الثانى ولكننا لا نستطيع القول إذا تأملنا فى كل سطر من سطور كل قسم من قسمى الرواية، أن نقصر التعبير على الجزء الأول، ونقصر التفسير على القسم الثانى من الرواية ودليلنا على ذلك أن الجانب العاطفى أو الرومانسى أو الوجدانى والذى يمثل أدب التعبير لا نجده فى القسم الأول فحسب، بل نجده أيضاً فى القسم الثانى.

فسعاد، الشخصية الرئيسية، تناجى نفسها، وتتأمل فى الداخل أكثر من تأملها فى الخارج الواقعى، وتهتم بالجانب العاطفى الرومانسى، بل إنها أحياناً تفضل الحديث مع الزهور والأشجار، وترى أن ذلك أفضل من الحديث مع الآدميين. كما أنها تجد ذاتها حين تقوم برسم اللوحات. كل هذا يكشف عن جوانب أقرب إلى التعبير. ونجد هذا ليس فى القسم الأول الذى دارت أكثر أحداثه، إن لم يكن كلها بمصر، بل نجده أيضاً بعد سفر سعاد إلى أمريكا وإقامتها بها فترة من الزمان للاطمئنان على ابنها الذى يدرس بأمريكا كما أشرنا منذ قليل.

ونظراً لأن المناقشات كانت مستمرة خلال وجود سعاد بأمريكا، بحيث كادت أن تكون كل ليلة، فإن من الطبيعى أن نجد تنوعاً خصباً وعديداً لموضوعات المناقشات. إنها بالإضافة إلى ما سبق، تناولت موضوع اغتيال السادات، والحديث عن الديمقراطية وكيف أن الديمقراطية ليست ديمقراطية الانتخابات فحسب، بل إنها سلوك وطريقة حياة شاملة وفى كافة الميادين والمجالات وفى طريقة التعامل طوال حياة الإنسان. وأيضاً نجد مناقشات رائعة تتناول كل شئون مصر وعلاقتها بالعالم الغربى، وكيف طلبت دول عربية من فرنسا أن توقع الحجز على مصر بعد فشلها فى سداد ديونها.

نعم إنها مناقشات رائعة وتتناول بالحديث أكثر دول العالم، وخاصة مصر، وهذا يعد شيئاً طبيعياً ومنطقياً من الروائية، لأن سعاد وابنها وشقيق زوجها وغيرهم فى مصر، والآخرون إما زاروا مصر أو درسوا أحوالها. إن المناقشات تمتد وتستمر وبحيث تتناول موضوعات أخرى شتى، ومن بينها موضوع التطرف الإسلامى والليبرالية، ودول الشرق الشيوعى والغرب الرأسمالى، وكيف أن الحروب تقف مانعاً فى وجه التواصل بين الناس عن طريق شرورها، وبحيث نقول من جانبنا إن الإنسان يجب أن تكون وظيفته الوصل وليس الفصل، والحروب فصل وليست وصلاً.

وتتسم المناقشات بقدر كبير من الموضوعية والصراحة، وليس أدل على ذلك من الأدلة التى يغلب عليها التشاؤم من جانب الأمريكى هارت سترونج حول إمكانية أن تفقد أمريكا سيطرتها على العالم لأن كل دولة الآن تريد أن تتخلص من الهيمنة الأمريكية فى مجال الاقتصاد والاستراتيجية، وأن أمريكا لديها اكتفاء ذاتى منذ القرن التاسع عشر، وانفتاح أمريكا على الاستثمارات الأوروبية.

وكل ما أرجوه من الروائية إذا فكرت فى طبع روايتها: طبعة أخرى وهى تستحق الطبع والنشر على أوسع نطاق، بل يجب أن تترجم إلى أكثر من لغة، أقول، إن كل ما أتمناه أن تقوم الروائية جيلان حمزة بحذف العديد من التفصيلات سواء فى القسم الأول، أو القسم الثانى من روايتها؛ التفصيلات التى لا نجد الرواية فى حاجة إليها، وحذفها لن يؤدى إلى الإخلال بالرواية وتخلخل بنائها الدرامى ولولا النطاق المسموح به للدراسة، لكنت قد ذكرت قائمة بهذه التفصيلات التى أجد أن حذفها يعد أفضل من وجودها فى الرواية الرائعة التى بين أيدينا.

يضاف إلى ذلك أنه من الضرورى، القيام بالتصحيحات اللغوية، والأخطاء المطبعية وذلك لأنها عديدة. كما أنه من الضرورى تصحيح القول بأن الغزالى (أبو حامد) قد ولد عام ١٢٢٩م (ص ٣٠١ من الرواية) فإن هذا يعد خاطئاً، إذ كيف يولد الإنسان بعد أن وقعت وفاته. أقول هذا لأن الصحيح والثابت أن الغزالى ولد عام ٤٥٠هـ = ١٠٥٨م، وتوفى ٥٠٥هـ = ١١١٦ ميلادية، ومعنى هذا أن التاريخ المذكور بالرواية وبالصفحة التى أشرنا إليها من الرواية ليس تاريخاً صحيحاً سواء بالنسبة لمولد الغزالى، أو وفاته.

وهذا كله لا يقلل بأى حال من الأحوال من عظمة الرواية.

علاقة مستحيلة (رواية)

جيلان حمزة

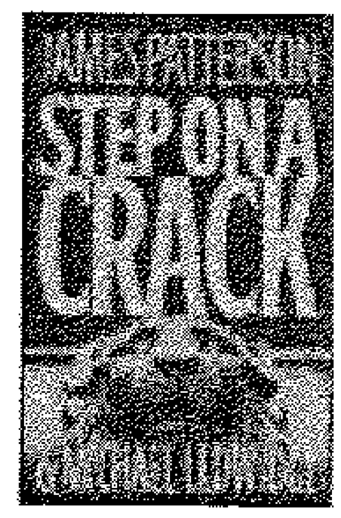
القاهرة: عربية للطباعة والنشر، توزيع: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٦، ٢٤٠صفحة

Step on a Crack

(الاقتحام)

James Patterson & Michael Ledwidge

Little, Brown and Company, $27.99, 400PP, 2007



فى رواية جديدة تدور أحداثها فى قلب حى مانهاتن بنيويورك، يقدم الثنائى «باترسون وليدويدج» بطلا جديدا، ربما يكون بداية لسلسلة من قصص المغامرات، المحقق «مايكيل بينيت»، الذى لا يشغل تفكيره سوى كيف سيمر عيد الميلاد القادم على عائلته، فهو وأبناؤه العشرة المتبنون يواجهون مرض زوجته وأمهم البديلة بالسرطان القاتل.

أزمة مفاجئة تحدث فى جنازة سيدة أولى سابقة بإحدى كنائس مانهاتن، مجموعة من الرجال يقتحمون الكنيسة ويأخذون مئات الرهائن، ثم لم يلبثوا أن أطلقوا الكل إلا بعض الأشخاص المشهورين، كالعمدة وممثل كوميدى مشهور ومذيعة تلفزيونية مشهورة ونجم بوب شهير.

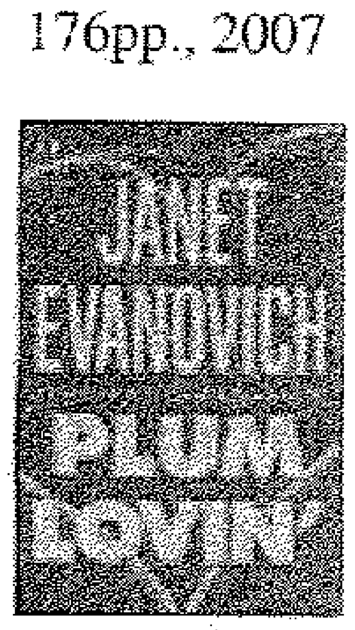
يجد مايكل نفسه فجأة مسئولا عن حياة بعض من أشهر شخصيات نيويورك، وفى مواجهة قاتل دموى، وتاركا لزوجته فى المنزل تصارع الموت.

Plum Lovin'

(محبة بلوم)

Janet Evanovich

St. Martin Press: $ 16.95, 176pp., 2007



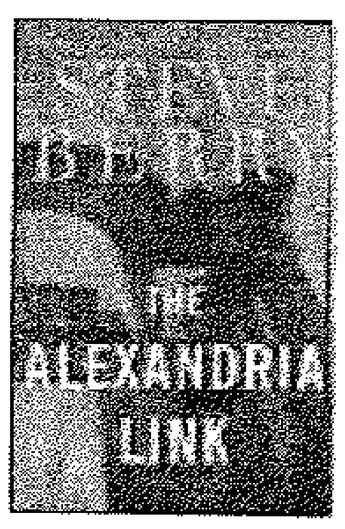
من اللافت للنظر أن نسبة كبيرة جداً من كتاب الجريمة الناجحين من النساء، بل إن أشهرهن على الإطلاق، أجاثا كريستى وبى دى جيمس ربات بيوت لا تتضمن حياتهن الشخصية أى مغامرات (باستثناء ربما اختفاء أجاثا كريستى لبعض الوقت، وهو الحادث الذى رفضت تقديم أى تفسير له حتى مماتها). على هذا الأساس لا يكون من المستغرب أن تتصدر كاتبة جريمة أخرى هى جانيت ايفانوفيتش قائمة النيويورك تايمز لأكثر الأعمال الأدبية مبيعاً هذا الشهر. تمزج ايفانوفيتش فى كتابتها بين التشويق المعتاد فى روايات الجريمة وبين الفكاهة النابعة من طبيعة حياة الشخصية الرئيسية المستمرة فى أغلب الروايات وهى شخصية ستيفانى بلوب المرتبطة برجلين فى نفس الوقت. وستيفانى شخصية مبتكرة فى أكثر من جانب، إذ إنها ليست محققة أو طبيبة شرعية كما جرت العادة، ولكنها عميلة فدرالية مختصة بتتبع ومراقبة من يتم الإفراج عنهم بكفالة خلال النظر فى القضايا التى يتم اتهامهم بها. وقد وعدها صديق لها بمساعدتها فى إيجاد المرأة التى تعمل كإخصائية فى العلاقات على شرط أن تساعدها ستيفانى فى إيجاد شركاء مناسبين لزبائنها. الرواية خفيفة ومسلية ولكن فى اغلب الأحيان هذا كل ما يمكن أن تجده على قوائم الكتب الأكثر مبيعاً، فللأدب الرفيع عدد أقل بكثير من القراء.

The Alexandria Link: A Novel

(صلة الإسكندرية، رواية)

Steve Berry

Ballentine Books: $25.95, 480pp, 2007



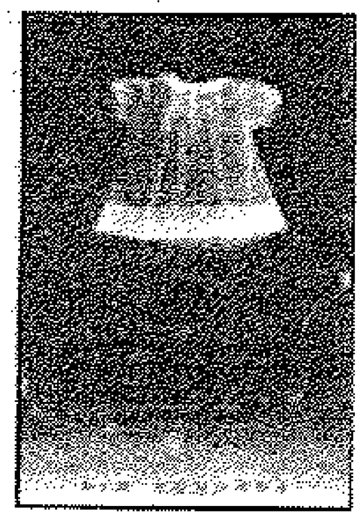
منذ النجاح الأسطورى لرواية شفرة دافنشى ظهرت روايات أخرى عديدة ومتفاوتة فى المستوى تعتمد فى أحداثها على معلومات أو ألغاز تاريخية. على قائمة اكثر الكتب مبيعا هذا الشهر رواية من نفس النمط للكاتب ستيف بارى. تدور أحداثها حول كوتون مالون الذى تقاعد من عمله فى هيئة من هيئات وزارة العدل الأمريكية مختصة بتعقب القضايا الدولية شديدة الحساسية، ثم رحل إلى كوبنهاجن حيث افتتح مكتبة للكتب النادرة. تبلغه زوجته السابقة فجأة بخبر اختطاف ابنه ثم يثبت له الخاطفون جديتهم بإحراق مكتبته. يطالبه الخاطفون بمساعدتهم فى العثور على مفتاح اللغز فى موقع مكتبة الإسكندرية القديمة، وهو مع معرفته بمفتاح هذا اللغز لديه أيضا أسباب تمنعه من الكشف عنه. تدور أحداث هذه المغامرة فى فصول صغيرة شديدة التشويق وفى مواقع متعددة حول العالم.

The Memory Keeper's Daughter

(ابنة حافظ الذاكرة)

Kim Edwards

Penguin: $14.00, 432pp, 2006



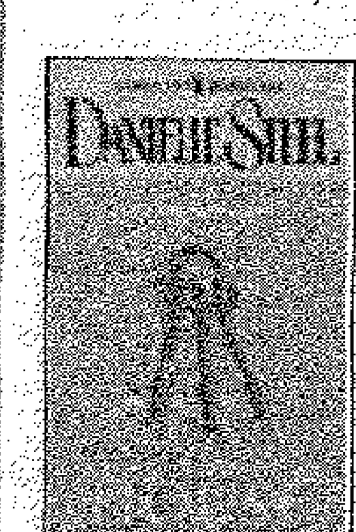
يبدو أحيانا أنه لا روايات على قوائم أكثر الكتب مبيعاً سوى الروايات البوليسية، ولكنه فى أحيان ليست نادرة تأتى رواية مثل هذه. تبدأ الأحداث بعاصفة ثلجية تمنع نورا هنرى من الوصول إلى المستشفى لتلد طفليها التوءم، ولكن زوجها الجراح وممرضته ينجحان فى إتمام عملية الولادة فى المنزل. تلد الأم طفلاً بصحة جيدة وطفلة يعرف أبوها من أول نظرة أنها مصابة بمتلازمة داون، فيكلف الممرضة بنقلها بسرعة إلى ملجأ ويخبر الأم عندما تستيقظ من أثر المخدر أن الطفلة قد توفيت. لا تلتزم المرضة بتعليمات الأب ولكنها تهرب لتبدأ حياة جديدة تعتنى فيها بالطفلة وتصارع نظاماً تعليمياً لم يكن قد اعترف بعد بحقوق المعاقين. تتتبع الرواية حياة عائلة هنرى أيضا والتى أصابها نوع من الفتور الغامض على أثر إحساس الأب بالذنب وإحساس الأم بالفقد وإحساس الأخ باحتياج غامض لأخته. هذه هى الرواية الأولى للكاتبة التى نشرت من قبل مجموعة قصصية ومع أنها تتصدر قائمة أكثر الروايات مبيعاً إلا أنها تتلقى انتقادات من القراء والكتاب فى مواقع عروض الكتب على اعتبار أن رومانسيتها مفرطة وإيقاعها غير محكم بالذات فى منتصف الكتاب، حيث تمر الأحداث بسرعة عبر عدد كبير من الأعوام المتتالية.

The House

(البيت)

Danielle Steel

Dell: $7.99, 416pp, 2007



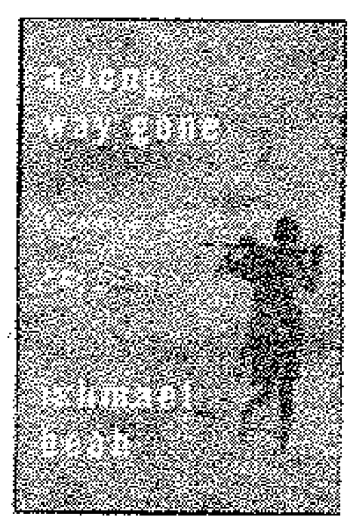
لقد ظهرت كتب دانييل ستيل على قوائم أكثر الكتب مبيعاً بشكل دورى لدرجة أن هناك شكاً أن أى قائمة قد خلت من كتبها منذ بدأ مشوارها كروائية. والغريب أن هذا الأمر يحدث رغم أن أحداث رواياتها أصبحت متوقعة جدا. النهايات السعيدة غالبة على أعمالها، وهناك دائما من يرشد الأبطال للراحة التى كانت قريبة منهم دون أن يدركوا ذلك. فى هذا الكتاب الأخير تقدم لنا ستيل إحدى بطلاتها التقليديات. امرأة قوية ولكنها تعيسة فهى محامية ناجحة تعمل ساعات طويلة وتحيا وحيدة فى شقة ممتلئة بأثاث لم يتغير منذ أن كانت صاحبته طالبة جامعية. يتوفى أحد عملائها الكبار فى السن ويترك لها ثروة طائلة بشرط أن تنفقها فى الاستمتاع بحياتها وعدم التفكير فى العمل فتقوم هى بشراء قصره المتهالك، خاصة بعد أن تكتشف أن جدها هو المهندس الذى بناه وتسعد بذلك جدتها وأمها. من المؤكد أن لدانييل ستيل قراء جدداً كل فترة، فلا يوجد تفسير آخر لبقاء رواياتها على قوائم أكثر الكتب مبيعا كل تلك السنوات.

Long Way Gone A

(ذهب الطريق الطويل)

Ishmael Beah

Farrar, Straus and Giroux, $22.00, 240PP, 2007



«إسماعيل بياه»، كان طفلا عاديا، من سيراليون يعشق موسيقى الهيب هوب الأمريكية ويرقص على أنغامها، ويفر مع عائلته من قرية إلى قرية فى دولة أدمتها الحرب الأهلية الوحشية الدائرة بين الثوار وقوات الجيش المحلى، ولكنه فى سن الثانية عشرة جُر إلى مستنقع الحرب الدائرة، وإلى عالم يدمن الذبح الجماعى.

وجد إسماعيل نفسه مجندا فى صفوف الجيش، بينما هو فى الثانية عشرة من عمره، كان يطلب منه حمل السلاح والقتل بلا هوادة أو تمييز.

فى الخامسة عشرة من عمره، أُخذ إسماعيل إلى معسكر إعادة تأهيل تابع لليونيسيف يشارك فيه العديد من منظمات العمل المدنى، وبمرور الأيام تساعده مواهبه المتعددة ليصبح الناطق الرسمى عن المعسكر، حتى بعد إعادته إلى الحياة المدنية فى العاصمة.

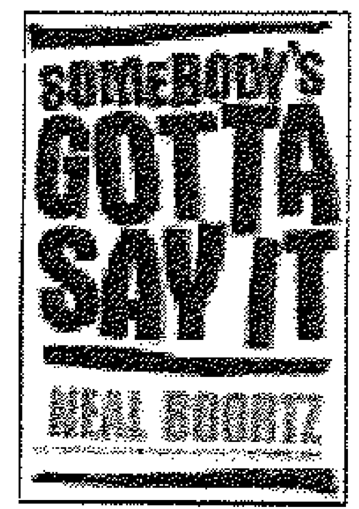
لم تلبث الحرب أن ابتلعت العاصمة، ليفر إسماعيل ثانية فى سن السابعة

عشرة، ولكن تلك المرة إلى خارج البلاد، إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث يعيش الآن.

وصف مذهل يتجاوز أفضل الجهود الصحفية لكشف حياة وعقل طفل جر إلى مستنقع الحرب الأهلية فى سيراليون.

Somebody's Gotta Say It
(لابد أن يقولها أحد)

Neal Boortz
HC, $25.95, 336PP, 2007



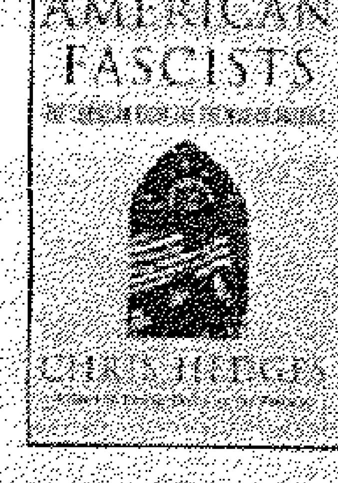
«لقد اكتشفت أن خمسين بالمائة من الأمريكيين البالغين جاهلون ولا يستحقون العيش فى مجتمع حر، ربما تعتقد أنى أهذى، ولكن مع مرور كل يوم يثبت لى نصف سكان هذه البلاد قولى».

«نيل بورتز» الإذاعى المخضرم، ورئيس أساقفة كنيسة الحقيقة المؤلة، بعد كتابه (الضرائب العادلة) يعود بكتابه الجديد (لابد أن يقولها أحد)، ليحطم العديد من الثوابت الأمريكية، ويكشف ما خلف المجتمع الأمريكى الحر من الاتجاهات المدمرة المخفية خلف كتب الأطفال إلى الغش باسم الفن.

فى مستهل حديثه عن السياسة الداخلية الأمريكية، يقدم «بورتز» ضربة استباقية لانتخابات عام ٢٠٠٨، قائلا أن الفكرة الرئيسية التى سيبنى عليها الديمقراطيون حملتهم ستكون «الصالح العام»، وهو يعارضها قائلا أن الحكومة وجدت لتحمى حقوقه، لا لتقود حياته.

American Fascists
(الفاشيون الأمريكيون)

Chris Hedges
Free Press, $25.00, 272PP, 2007



منذ خمسة وعشرين عاما، عندما تحدث «بات روبرتسون» عن تحول الولايات المتحدة إلى دولة مسيحية تهدف إلى بناء إمبراطورية مسيحية عالمية، كان من الصعب أخذ تلك المقولة على محمل الجد، ولكن اليوم لابد من التوقف عند مثل تلك العبارات التى أصبحت تهدد وبشكل خطير الحرية الأمريكية.

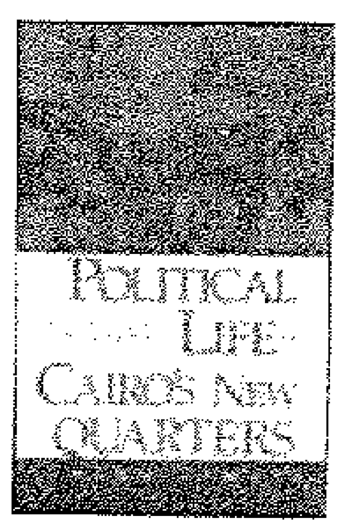
«تشريس هيدجس» فى هذا الكتاب يعارض ويشكك فى شرعية اليمين المسيحى قائلا عنه أنه فى الأساس حركة جماهيرية وقودها القومية المنفلتة والكراهية للمجتمعات المفتوحة.

الكاتب يدين التوغل اليمينى المسيحى فى السياسة الأمريكية، مشيرا إلى المئات من أعضاء مجلس الشيوخ الذين كسبوا تأييد من ٨٠ إلى ١٠٠ بالمائة من أكبر ثلاثة تكتلات مسيحية يمينية بالولايات المتحدة، كما يهاجم محاولاتهم لهدم الحائط الفاصل بين الكنيسة والدولة، مشيرا إلى توغل المسيحية اليمينية إلى بيوت أكثر من عشرة ملايين أسرة أمريكية عن طريق ضخها خلال التلفاز والإذاعات المسيحية المختلفة، إضافة إلى المناهج التعليمية المحقونة بأفكار اليمين المسيحى.

الكتاب يكشف عن أصول الحركة اليمينية والدوافع المحركة لها ودعائمها الأيديولوجية، مشبها إياها بالحركات الفاشية الإيطالية والألمانية فى أوائل القرن الماضى.

The Politically Incorrect Guide to Global Warming
(الدليل السياسى الخاطئ إلى ظاهرة الاحتباس الحرارى)

Christopher C. Horner
Regnery Publishing, Inc.,
$19.95, 288PP, 2007



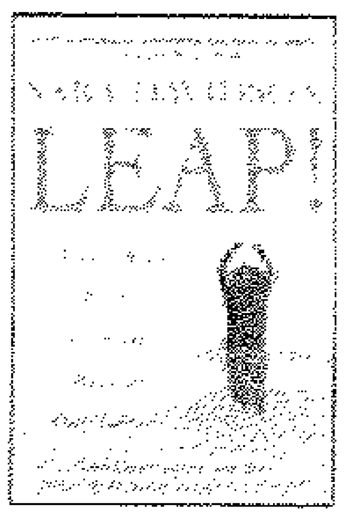
لعقود طويلة، كانت البيئة الحجة الأكبر لليسار للسيطرة على حياتنا بطريقة أو بأخرى، ولكن حتى الآن مخاوف موت البيئة التى اخترعوها لم تكن كافية لفرض أسلوب حياة مختلف على البشر، والآن مع ارتفاع درجات الحرارة فى العالم، يستطيع نشطاء منظمة السلام الأخضر أن يجادلوا بأن الغازات المنبعثة من ولاية أوهايو الأمريكية تهدد حياة الناس بباريس، وهو أمر فى رأيهم لا يستطيع أحد معالجته سوى الحكومة العالمية على حد تعبير الرئيس الفرنسى جاك شيراك.

فى هذا الكتاب يجادل «كريستوفر هورنر» بأن القضايا البيئية تتعرض لتلاعب سياسى كبير من اليسار، وأن الاحتباس الحرارى الذى يدعونه ما هو إلا كذبة كبيرة، وليس علما حقيقيا، مقدما دلائله على ذلك قائلا أن «الجور» ورفاقه من النخبة الإعلامية ونشطاء الأمم المتحدة، يدعون أن الاحتباس الحرارى كارثة عالمية لم يسبق لها مثيل، ولكن هذا الادعاء هو مجرد حلم لديهم، فمثل ذلك الحلم هو حلم مثالى لكل من يكره الرأسمالية، كما يوضح «هورنر» أنه إذا كان الخطر كبيرا بتلك الدرجة التى يصرون عليها، فلا سبيل لمواجهته على الإطلاق ولا شىء يمكن فعله لمواجهته.

يلقب «هورنر» منظمة السلام الأخضر فى كتابه «خضر من الخارج، دمويون حتى النخاع»، متهما إياهم بمعاداة الرأسمالية وأمريكا والإنسانية.

Leap!
(القفـــــزة)

Sara Davidson
Random House, $25.95,
336PP, 2007



«سارة ديفيدسون» الصحفية اللامعة وكاتبة السيناريو المعروفة، وصلت إلى خمسينيات عمرها لتبدأ الإحساس بأن حياتها التى اعتادت عليها تؤخذ منها، فهى لا تستطيع إيجاد عمل يناسبها، كما رحل عنها أبناؤها فجأة لالتحاقهم بالجامعة، كما انفصلت عن شريك حياتها، لتجد نفسها ولأول مرة وحيدة تماما.

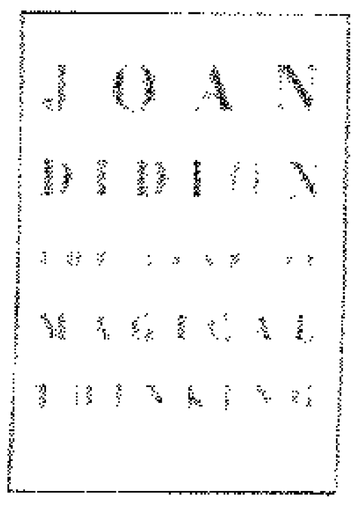
فى كتابها، تحاور سارة العديد من المشاهير أصحاب العمر المتقدم لتكشف أبعاد أزمة تقدم العمر لدى الجنس البشرى، كما تحاور العديد من الأطباء النفسيين والزعماء الدينيين والروحانيين لإلقاء الضوء على الأزمة من الناحية الدينية والروحانية.

ترى «سارة» أن السن المتقدمة هى سن القفزات والتغير الأكبر فى الحياة، فهناك من سيحس بالحرية لأول مرة فى حياته، وهناك من سيبدأ فى البحث الروحى والدينى، وآخرون سيجعلون من الإبداع هدفا لهم، ولكن هناك البعض سيتوارون بانتظار غروب شمسهم.

كتاب «القفزة» هو نداء لكل من شاخ به العمر، ألا يفقد الأمل أو الإحساس بالحياة، فهناك أشياء عديدة بالتأكيد لم تُفعل بعد.

The Year of Magical Thinking
(عام من التفكير الساحر)

Joan Didion
Vintage, $13.95, 240PP, 2007



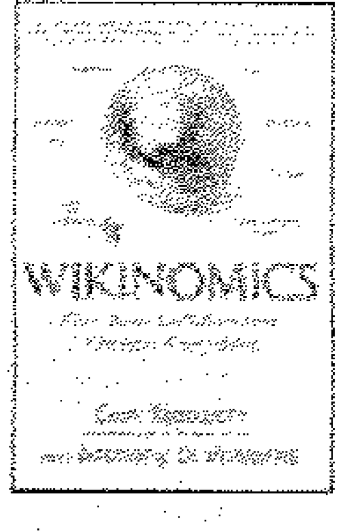
«جوان ديديون» الكاتبة والروائية الأمريكية، تدون فى هذا الكتاب قصة عام من شعورها العميق بالحزن، بدأت محنتها مع قدوم أعياد الميلاد من عام ٢٠٠٣، عندما علمت هى وزوجها الكاتب «جون دونى» بدخول ابنتهما إلى المستشفى مصابة بداء الرئة، مما أدى إلى إصابتها بصدمة أدخلتها فى غيبوبة طويلة، وبعد خمسة أيام، وبعد عودتها من المستشفى، وبينما يتناولون عشاءهم، أصيب زوجها بانسداد فى الشريان التاجى، مما أدى إلى وفاته على الفور.

على الرغم من حبها الشديد له، وحياتهما التى استمرت لأربعين عاما، لم تستطع «ديديون» أن تترك نفسها للحزن، فلا زالت ابنتها بالمستشفى فى غيبوبتها، وحالتها تتطور من سيئ إلى أسوأ.

الكتاب ينقل تجربة عاطفية رائعة عن الحزن والحب والأمومة، وكيف يؤثرون على التفكير العقلانى، ليجعلوه تفكيرا سحريا.

Wikinomics
(ويكينوميكس)

Don Tapscott , Anthony D. Williams
Portfolio Hardcover, $25.95,
320PP, 2007



كلمة «ويكى» تستخدم لتدل على السرعة فى هاواى، وهناك موسوعة «ويكيبيديا» على الإنترنت، وهى تُكتب وتُؤلف وتعدل وتُنقح، بواسطة «أشخاص عاديين من متصفحى الإنترنت».

ولعل هذا مثال يوضح ما يطلق عليه الشبكة الجديدة، وهى تختلف عن الشكل المعهود الذى تعارفنا عليه، فهى تتيح التعاون الجماعى لإنتاج محتوى شبكى جديد، مما يتيح وجود أنظمة مفتوحة

المصدر تستطيع تقديم خدمات أسرع وأوسع نطاقا من أى شىء عهدناه من قبل.

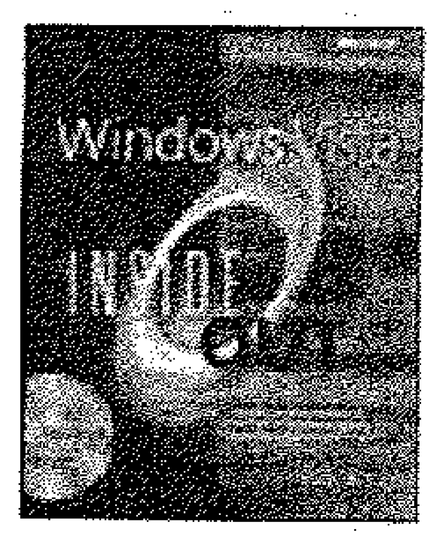
يلقى المؤلفان الضوء أيضا على نظام التشغيل «لينكس» المفتوح المصدر، الذى قارب على القضاء على نظام التشغيل «ويندوز» فى نطاق أجهزة الخادمات، مشيرين إلى التأثير الاقتصادى لذلك.

يرى المؤلفان أن الأنظمة مفتوحة المصدر ستكون بداية لعصر معرفى ذهبى جديد، قد يماثل عصر النهضة فى العصور الوسطى، أو عصر ارتفاع الديمقراطية بأثينا.

Windows Vista Inside Out

(ويندوز فيستا)

Ed Bott , Carl Siechert ,
Craig Stinson
Microsoft Press, $49.99,
1132PP, 2007



مع طرح الإصدار الجديد من نظام التشغيل ويندوز (ويندوز فيستا)، يأتى هذا الكتاب من إصدارات شركة مايكروسوفت، لتوضيح المميزات الجديدة به.

الكتاب يحتوى على المئات من حلول توفير الوقت باستخدام نظام التشغيل الجديد، والعديد من تلميحات استخدامه وحل مشاكله، وعرض لأهم أدواته والتطبيقات الجديدة التى تأتى معه.

الكتاب يأتى مرفقا بأسطوانة عليها العديد من الكتب الالكترونية وشروح لاستخدام نظام التشغيل واعداده، وبعض من التطبيقات والأدوات المفيدة التى يمكن استخدامها معه.

Power of the Soul

(قوة الروح)

John Holland
Hay House, $24.95, 240PP,
2007



هذا الكتاب يقدم لك عدة وسائل للسيطرة على واحدة من أضخم القوى فى الكون (روحك).

خطــوة بخطــوة يأخـــذك هذا الكتاب لتصل إلى الطريق الصحيح لروحك وإلى تطوير إدراكك بالقوانين الروحية بداخلك التى تستطيع إثراء حياتك.

الكتاب يساعدك على التخلص من القيود التى خلقت حولك.

ويمكنك من تحرير روحك من القيود النفسية التى تمنعها من إدراك إمكانياتك الكاملة.

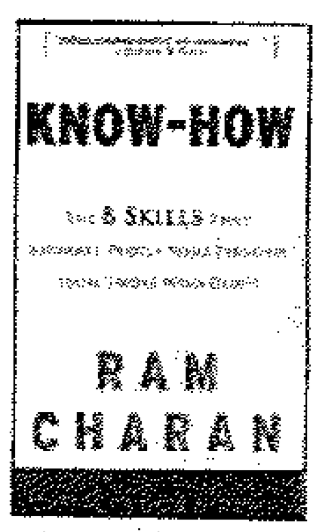
وبمساعدة هذا الكتاب تستطيع أن تصل إلى سبع نقاط فى هذا الطريق، هى: اكتشاف قدراتك الحقيقية والوصول إليها، توجيه نفسك بدرجة وعى أعلى، إزالة حواجزك النفسية والروحية، إيجاد نفسك عن طريق فهم الطبيعة ووظائف الروح.

كما تستطيع صنع وخلق طريقة لك فى الحياة، استعمال طاقتك الروحية فى إشفاء نفسك والآخرين، وتزيين جسمك وعقلك وروحك لتستطيع العيش فى تناغم.

Know-How

(المعرفة)

Ram Charan
Crown Business, $27.30,
304PP, 2007



نظرية جديدة فى القيادة من «رام تشاران»، تبنى على ربط المعرفة بالمهارات الشخصية والسيكولوجية للقادة.

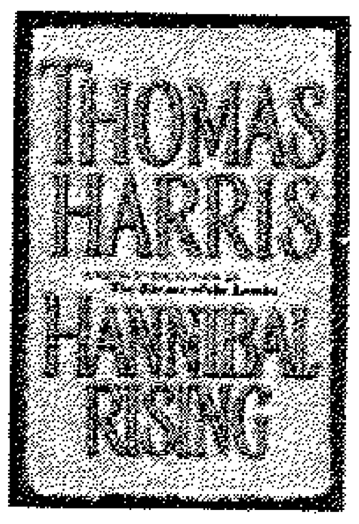
فمما لا شك فيه ضرورة وجود صفات مثل الذكاء والبصيرة الثاقبة والقدرة على الاتصال مع الآخرين فى القائد الناجح، ولكن علينا الا ننسى أحد أهم الصفات وهى القدرة على إدارة الأعمال.

لأربعة عقود كاملة عمل «تشاران» كمستشار لعدة شركات كبرى، مما أتاح له التعامل مع القيادات العليا فى الشركات، ومن ثم استطاع الحكم على وسائل الإدارة المختلفة ومعرفة سمات القيادى الناجح. ليصل فى كتابه إلى ثمانى مهارات رئيسية لا بد من توفرها فى القيادى الناجح، ليقود شركته على الطريق الصحيح.

Hannibal Rising

(نشأة هانيبال)

Thomas Harris
Delacorte Press, $27.95,
336PP, 2007



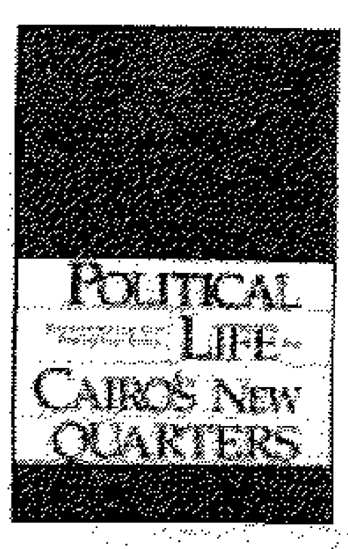
الكتاب الرابع فى سلسلة تتحدث عن شر دكتور هانيبال ليكتر، وهى السلسلة التى شهدت تحول كتبها الأربعة إلى خمسة أفلام سينمائية عالمية هم (المطارد، صمت الحملان، هانيبال، التنين الأحمر، وأخيرا نشأة هانيبال)، وهى الأفلام التى حصدت بعضا من أهم الجوائز العالمية فى السينما، ولعل أهمها جائزة الأوسكار لأحسن ممثل وممثلة ومخرج ونص سينمائى عن فيلم صمت الحملان.

فى هذا الكتاب نكتشف جذور الشر فى دكتور هانيبال ليكتر ونشأته، فى كتاب ربما يكون من أكثر الكتب إمتاعا وإثارة هذا العام، وهو الذى تحول إلى فيلم سينمائى ربما أيضا يكون من أكثر الأفلام إثارة لهذا العام.

Political Life in Cairo's New Quarters

(الحياة السياسية فى القاهرة الجديدة)

Salwa Ismail
Univ Of Minnesota Press,
$22.30, 264PP, 2007



من السبعينيات، والقاهرة تشهد نموا هائلا وتغيرا ضخما، فهناك الآن ما يربو على الثلاثة ملايين نسمة يعيشون فى مجتمعات عمرانية جديدة تحيط بالقاهرة من كل جانب، العديد منها عشوائى، يميزها النشاطات الاقتصادية السرية، والوجود اللافت للإسلاميين.

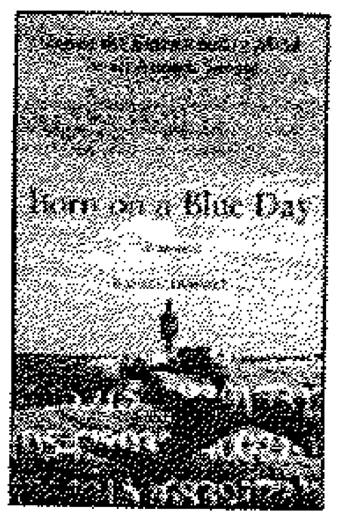
«سلوى إسماعيل» تتفحص فى هذا الكتاب تأثير تلك التغيرات على الحياة السياسية المصرية، من خلال معرفتها الوثيقة بالقاهرة وعملها السابق بها.

فى كتابها، تجرى «سلوى» أحاديث مع سكان المناطق المحيطة بالقاهرة سواء كانت عشوائية أو من المدن الجديدة، لتصف لنا حياتهم اليومية بالتفصيل، ولتصف لنا النشاطات الاقتصادية المميزة لهم، وصدامهم الدائم مع الحكومة المصرية.

Born on a Blue Day: Inside the Extraordinary Mind of an Autistic Savant

(مولود فى يوم أزرق: داخل العقل الاستثنائى لعالم متوحد)

Daniel Savant
Free Press: 240pp, $24, 2007



التوحد من أصعب الاضطرابات العقلية خاصة بالنسبة للمحيطين بالمصاب بسبب أهم أعراضه وهو تعطل المقدرة على التواصل. يعانى المصاب بالتوحد من عدم القدرة على التفكير بشكل مبتكر، فهو لا يفهم الدعابات بالتالى، ولا يستطيع التعبير عن مشاعره أو الخروج عن الأنماط المتكررة فى الحركة والسلوك. ويكتسب المتوحد مهارات حسابية خارقة وغير مفهومة تماما فهو يستطيع أن يقوم بعمليات حسابية معقدة فى رأسه بنفس سرعة الكمبيوتر. وتتسم حالة التوحد بالغموض الشديد على كل المستويات. حتى إن الأطباء يعتمدون إلى حد كبير على التجريب فى محاولة التعامل معها. لهذا يعتبر ما أنجزه دانييل تاميت بتأليفه كتابا عن حياته كمتوحد، فى حد ذاته عملا خارقا. ولكن دانييل حالة استثنائية من جوانب متعددة فهو يرتبط بعلاقة عاطفية منذ فترة طويلة وهو شىء شديد الندرة والتعقيد فى مثل حالته. كما أنه مستقل ماديا حيث يمتلك شركة على الإنترنت مختصة فى التعليم كما أنه قام بالتدريس فى ليتوانيا فى تحد كبير لحالته حيث يتطلب الأمر منه مواجهة عدد من الناس والتفاعل الخلاق معهم. ولكن دانييل فى نهاية الأمر متوحد فعلا ولم يتم شفاؤه بشكل كامل وهو بالتالى يقرأ كثيرا ولكنه لا يقرأ الأدب أبدا، كما أنه يميل إلى العزلة وينفر من الضجيج كما يفضل الروتين والكلام المباشر فى معناه. ويقول دانييل انه لم يتعلم معنى مرافقة الآخرين إلا بالتدريج وفى عمر متأخر بما فى ذلك إدراكه لأخواته الثمانية.


من أول مارس..
رقم تامن زيادة .. يعنى راحة فوق العادة
هنبقى
السبع أرقام هتبقى تمانية
رقم تامن زيادة ..
وفي الزيادة إفادة
لكي تستطيع المصرية للاتصالات أن تقدم شبكة أكبر و خدمات أكثر سوف يتم
إضافة رقم ثامن إلى أرقام التليفونات في القاهرة الكبرى .
المرحلة الأولى
يضاف رقم ٢ إلى يسار ترقيمات السنترالات الآتية
الزاوية الحمراء - روض الفرج - المرج - النزهة ١ - شيراتون - التجمع الأول
يضاف رقم ٤ إلى يسار ترقيمات السنترالات الآتية
شبرا الخيمة ١ - شبرا الخيمة ٢ - شبرا الخيمة ٣ - القناطر
لمزيد من المعلومات اتصل بـ ١١١
المصرية للاتصالات
Telecom Egypt

الكتب

وجهات نظر

في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 99 - April 2007

مجلة شهرية. العدد التاسع والتسعون. السنة التاسعة. إبريل ٢٠٠٧. الثمن عشرة جنيهات



هل هم حقا سادة العالم ؟!

رَبَّات القصَاص !

سياسة الموالد !

انسحاب الدولة ليس حلّا !

"دالي الدينامو !"



٤٠ فرع
فى خدمتكم

المركز الرئيسى
١٠ شارع طلعت حرب - برج ايفرجرين.
١- فرع طلعت حرب
٨ شارع طلعت حرب، وسط المدينة.
٢- فرع عدلى
٩ شارع عدلى - وسط المدينة.
٣- فرع القاهرة
١٠٨٧ كورنيش النيل - جاردن سيتى.
٤- فرع جاردن سيتى
٤ شارع أحمد باشا - الدور ١٢.
٥- فرع مبنى اتحاد الاذاعة و التلفزيون
كورنيش النيل - ماسبيرو.
٦- فرع شبرا
٤٩ شارع شبرا.
٧- فرع حلوان
١٠٠ شارع المنصور.
٨- فرع المعادى
١/٤ ش اللاسلكى - المعادى الجديدة.
٩- فرع الزمالك
٥ شارع أبو الفدا، برج أم كلثوم.
١٠- فرع الدقي
٧ شارع السد العالي.
١١- فرع المهندسين
٤ شارع سوريا.
١٢- فرع الجيزة
٣٢ ب شارع مراد.
١٣- فرع فيصل
٧،٦ مساكن المنصورية - كفر نصار - نهاية فيصل.

١٤- فرع القرية الذكية
الكيلو ٢٨ طريق مصر اسكدرية الصحراوى - مبنى ١١٥ ب.
١٥- فرع الشيخ زايد
١٠١ منطقة الإدارة - مجمع الكرامة - مدينة الشيخ زايد.
١٦- فرع ٦ أكتوبر
٤٣ ب المنطقة الصناعية الثالثة.
١٧- فرع جامعة ٦ أكتوبر
مدينة الثقافة والعلوم - مجمع معاهد قناة السويس للتكنولوجيا.
١٨- فرع نزيه خليفة
٥٢ شارع نزيه خليفة.
١٩- فرع الطاهرة
١٢ ميدان سراى القبة - أمام قصر الطاهره.
٢٠- فرع روكسى
٨٠ شارع الخليفة المأمون.
٢١- فرع مدينة نصر
١٣ شارع أبو داوود الظاهري.
٢٢- فرع جنينة مول
٤٩ شارع البطراوى - مدينة نصر.
٢٣- فرع العاشر من رمضان
المركز التجارى - مدخل ١.
٢٤- فرع ميناء الأسكندرية
مبنى رجال الأعمال - باب ١٤ - هيئة ميناء الأسكدرية.
٢٥- فرع باتريس لومومبا (الأسكندرية)
٢ شارع باتريس لومومبا - باب شرق.
٢٧- فرع سموحة (الأسكندرية)
٣٨ شارع توت عنخ أمون - سموحة.

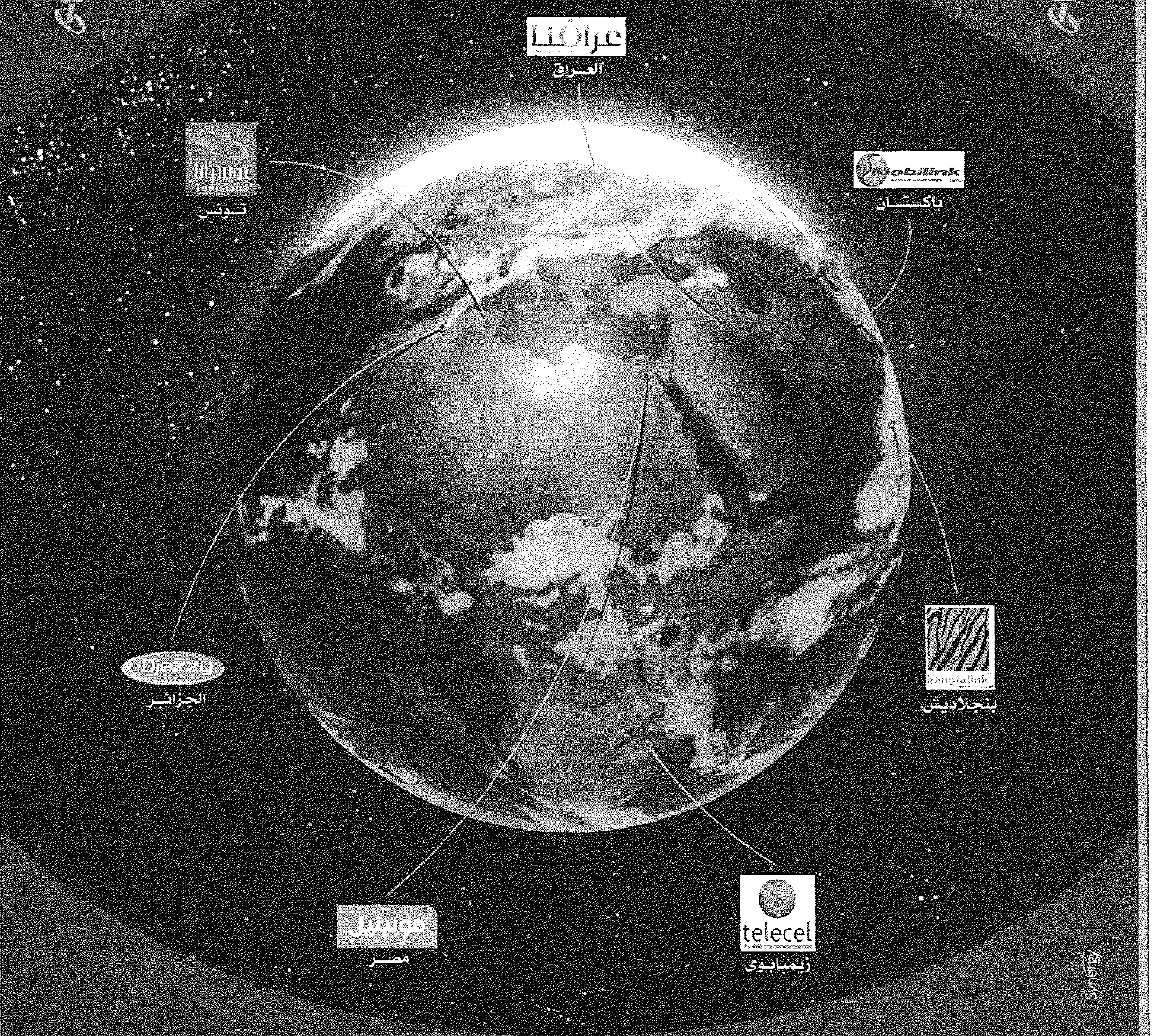
٢٧- فرع العطارين (الأسكندرية)
١٥ شارع محمود عزمى - العطارين.
٢٨- فرع قرية بدر (الساحل الشمالى)
الكيلو ٨٣ - الساحل الشمالى.
٢٩- فرع قرية غزالة (الساحل الشمالى)
الكيلو ١٤٢ - الساحل الشمالى - قرية خليج غزالة.
٣٠- فرع السويس
١ شارع البرج - تقاطع ٢٣ يوليو.
٣١- فرع بور سعيد
ناصية شارع جمهورية ودمياط وحافظ إبراهيم.
٣٢- فرع دمياط
منطقة زاهر - كورنيش النيل - طريق دمياط - رأس البر.
٣٣- فرع الغردقة
طريق النصر - مركز الغردقة التجارى - الغردقة.
٣٤- فرع الهضبة (شرم الشيخ)
شارع صلاح الدين - فندق هوليداى أمفورس.
٣٥- فرع خليج نعمة ١ (شرم الشيخ)
محل رقم ٢ مركز مرجانة التجارى - منطقة الخدمات السياحية - خليج نعمة.
٣٦- فرع نعمة ٢ (شرم الشيخ)
فندق نيوكاتاركت - خليخ نعمة.
٣٧- فرع نبأ (شرم الشيخ)
جنوب نبأ، ساحل خليج العقبة.
٣٨- فرع أسيوط
برج الهدى - شارع التحرير - متفرع من يسرى راغب.
٣٩- فرع الأقصر
شارع معبد الكرنك - أمام الإدارة التعليمية.
٤٠- فرع أسوان
٨٢ شارع التحرير - بندر أسوان.

PIRAEUS BANK
بنك پيريوس - مصر

البنك بنكك

إتصل بـ 19322

animation:ADVERTISING



حول وجه الكرة الأرضية تختلف الوجوه والانطباعات والأحاسيس ونسعى جاهدين لنجعل جميع الأفراد في مختلف الدول متواصلين لأنهم يستحقون أن نسمعهم ويسمعونا ويسمعون بعضهم البعض ويستحقون منا أن نجعل هذا التواصل متواجد دائما.

أوراسكوم تيلكوم تفكر .. تخطط .. وتعمل ليل نهار لنجعل هذا التواصل دائما موجود ومستمر. بناء شبكات الاتصالات هو ما تقدمه أوراسكوم تيلكوم في سبع دول : الجزائر (جازى) و مصر (موبينيل) و باكستان (موبيلينك) والعراق (عراقنا) وبنجلاديش (بنجلالينك) وتونس (تونيزيانا) وزيمبابوى (تليسيل زيمبابوى).

أوراسكوم تيلكوم دائما تبحث عن التطور المستمر في عمليات الـ GSM لتوفر أقصى مستويات الجودة في عالم الاتصالات وتقديم أحدث تكنولوجيا الاتصالات. خدمات أوراسكوم تيلكوم تغطي ٥٠ مليون مشترك وتجعلهم متواصلين مع بعضهم البعض وتجعلهم يتحدثون عن أمانيهم و مخاوفهم و طموحاتهم المختلفة ومن خلال الشركة الأم Weather Investments استطعنا أن نحقق التواصل بين أكثر من ١٥ مليون مشترك في إيطاليا فقط.

أوراسكوم تيلكوم يعمل بها أكثر من ٢٠ الف موظف يعملون يوميا ليتأكدوا أن العالم متواصل مع بعضهم البعض ويسمع كل منهم الآخر ونعدكم بأننا لن ندخر أي جهد ليحظى العالم أجمع بأفضل خدمات في عالم الاتصالات.

نعطـــى العالـــم صوتـــا

أوراسكوم تيلكوم

السنة التاسعة
العدد التاسع والتسعون
أبريل ٢٠٠٧

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- آنا ماديوف.. باحثة جغرافية مهتمة بالدراسات الاجتماعية فى العالم العربى.
- باقر ياسين العزيز.. مفكر سياسى عراقى.
- تونى جوت.. أستاذ الدراسات الأوروبية بجامعة نيويورك.
- داليا توفيق سعودى.. مدرس اللغويات الفرنسية والترجمة بكلية الألسن.
- سانفورد شفارتز.. أكاديمى متخصص فى الثقافة الأمريكية.
- صلاح العمروسى.. باحث اقتصادى.
- قدرى حفنى.. أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس.
- كوفى أنان.. أمين عام الأمم المتحدة السابق.
- لينين الرملى.. كاتب ومسرحى مصرى.
- مصطفى المرابط.. باحث بمركز الجزيرة للدراسات - الدوحة - قطر.
- وليام فاف.. كاتب صحفى أمريكى.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجى - Daryl Cagle - Mitt Priggee

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

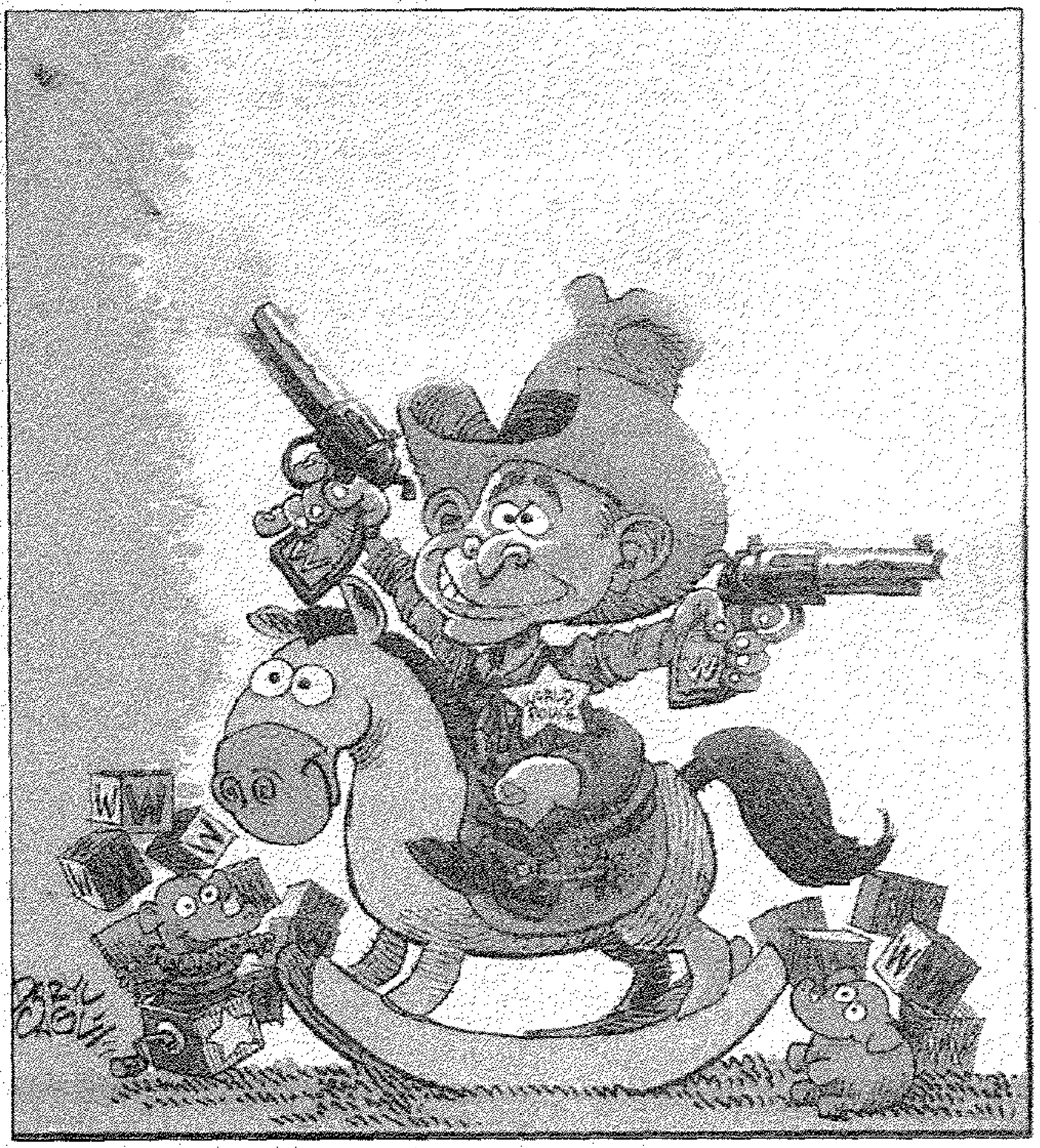
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة



هل هم سادة العالم حقا!؟

ويليام فاف

السياسات الاقتصادية والسياسية الأمريكية الحالية تعتمد على ادعاء - غير مستحق - بالامتياز، وهو «الإيمان بالاستثنائية الأمريكية التى ترى الغالبية من غير الأمريكيين - ببساطة - عدم مصداقيتها»

The Case for Goliath: How America Acts as the World's Government in the Twenty-first Century

(حالة العملاق: كيف تتصرف أمريكا كحكومة للعالم فى القرن الحادى والعشرين)

Michael Mandelbaum
†PublicAffairs, 2005.

The New American Militarism: How Americans Are Seduced by War

(العسكرية الأمريكية الجديدة: كيف تغرى الحرب الأمريكيين)

Andrew J. Bacevich
Oxford University Press, 2005

بترتيب مع:
The New York Review Of Books

ترجمة: عادل فتحى

قرر الرئيس جورج بوش ألا يلقى اهتماما للرسالة السياسية التى تضمنتها الانتخابات النصفية عام ٢٠٠٦ وضغوط الكونجرس من أجل نهاية قريبة للتورط الأمريكى فى العراق، وكذلك مقترحات لجنة «بيكر- هاملتون Baker-Hamilton». وتتعرض قرارات الرئيس لمعارضة قوية، ولكن تلك المعارضة لن تصمد طويلا على ما يبدو. فقد عجز خصوم بوش عن اقتراح خطة للانسحاب لا تعد اعترافا سياسيا محرما بهزيمة أمريكا ولا تغامر بمزيد من العواقب الوخيمة فى العراق وربما فى المنطقة كلها، حتى لو أدى تأخير الانسحاب إلى الأسوأ على كافة الأصعدة. إن معظم منتقدى بوش فى الكونجرس والصحافة والتليفزيون وأوساط السياسة الخارجية هم رهائن مساندتهم السابقة لسياسته وإخفاقهم فى تحليل الفرضيات السياسية والفكرية التى قامت عليها.

إن هذا الوضع هو نتيجة لفشل فكرى أكبر. فلعدة سنوات لم يكن هناك تحليل نقدى يذكر للأسباب والكيفية التى مكنت السياسة الأمريكية المحدودة والمحددة والناجحة فى النهاية فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، والتى عرفت بـ«الاحتواء الصبور اليقظ الحازم للنزعات التوسعية السوفيتية، والضغط على المؤسسات الحرة فى العالم الغربى» (كما صاغها «جورج كينان George Kennan» آنذاك)، من التحول عبر ستة عقود إلى مشروع هائل لـ «القضاء على الاستبداد فى العالم».

إن إدارة بوش تدافع عن سعيها لتحقيق هدف غير مضمون، وذلك عن طريق هجمات وقائية أحادية الجانب لا تتمتع بالشرعية الدولية ضد بلدان أخرى، مع اعتقالات عشوائية وممارسة للتعذيب والادعاء بأن الولايات المتحدة تتمتع بمنزلة استثنائية بين الأمم تفرض عليها مسئوليات عالمية خاصة وامتيازات استثنائية للوفاء بتلك المسئوليات.

هنا تكمن المشكلة. لقد قام بنفس الادعاء زعماء أمريكيون آخرون قبل جورج بوش، وفى قضايا أقل أهمية. إن الأمر أشبه بهراء وطنى لو افترضنا أن الولايات المتحدة لا تتمتع بمكانة أخلاقية فريدة تخولها أن تلعب دورا محوريا فى تاريخ الأمم وبالتالى فى شئون العالم المعاصر. فى الواقع أن ذلك الافتراض صحيح.

إن هذا الوهم الوطنى هو النتيجة المنطقية للمعتقدات الدينية لمستعمرى «نيو إنجلاند» الأوائل (المنشقين عن مذهب الكالفينية (نسبة إلى المصلح الدينى الفرنسى الكاثوليكى «جون كالفن John Calvin» ١٥٠٩-١٥٦٤، المترجم) والذين تحركهم الطموحات الألفية ومبادئ الحاكمية الدينية) والتى أقنعتهم أن مستوطناتهم المتقشفة فى البرية تمثل بداية جديدة لقصة البشرية. مع ذلك، كانت المستوطنات الأولى فى «فيرجينيا» تجارية مثلما كانت مستوطنات الهولنديين، بينما كانت المستعمرات الممنوحة فى «بنسيلفانيا» و«ماريلاند» تابعة لجمعية الأصدقاء (Quakers) جماعة دينية نشأت فى إنجلترا فى القرن السابع عشر، المترجم) والكاثوليك، ولم تكن لديهم مثل تلك الأفكار. وعلى نفس المنوال كانت المستعمرات الأولى للأسبان فى «فلوريدا» و«الجنوب الغربى»، والفرنسيين عند «البحيرات العظمى» والـ «ميسيسيبى».

إن نبالة المداولات الدستورية للمستعمرات فى أعقاب «حرب الاستقلال»، وصياغة الفكر الجديد للتنوير فى مؤسسات الحكم التى أنشأتها، قد ساهما فى الإيمان بالتفرد القومى. ذكر «توماس بين Thomas Paine» (مفكر ثورى بريطانى هاجر إلى أمريكا، ١٧٣٧-١٨٠٩، المترجم) فى كتاباته أن وضع أمريكا وظروفها يتشابهان مع بداية العالم. وليست لدينا الفرصة للتنقيب عن المعلومات فى العالم الغامض للأزمنة الغابرة، أو للمجازفة بالتخمين. فنحن كأنما نعيش فى بداية الزمان.

بل إن واحدا من المحافظين الجدد العائدين مثل «فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama» (كاتب ومفكر

أمريكى معاصر من أصول يابانية تقترب أفكاره من المحافظين الجدد، المترجم) اعترف فى أحد كتبه الأخيرة أن السياسات الاقتصادية والسياسية الأمريكية الحالية تعتمد على ادعاء - غير مستحق - بالامتياز، وهو «الإيمان الأمريكى بالاستثنائية الأمريكية التى ترى الغالبية من غير الأمريكيين - ببساطة - عدم مصداقيتها». يضيف «فوكوياما» أن هذا الادعاء لا يمكن أيضا الدفاع عنه حيث إنه «يفترض مسبقا مستوى عالياً جدا من الجدارة» لا تبرهن عليه أحوال البلاد.

ومع ذلك فإن هذا الاعتقاد قديم وقوى للغاية. وقد كتب الناقد «إدموند ويلسون Edmund Wilson» (١٨٩٥ - ١٩٧٢) قبيل نهاية حياته الطويلة، وهو بالكاد يعد «شوفينيا» (مغالياً فى الوطنية، المترجم)، كتب من منطلق الحنين للوطن عن «الفكرة القديمة لأمة مختارة تؤدى عمل الله فى الأرض» على الرغم من أنه استنكر فسادها فى زمانه بسبب «الانحراف الخلقى». إن الأمريكيين - بإنشائهم الجمهورية - جعلوا من أنفسهم بالفعل خلفاء للممالك الحاكمة فى أوروبا (رغم أن الجمهورية الهولندية والاتحاد السويسرى قد سبقانا). أما الادعاء بأن الله قد ساهم فى ذلك ورشحنا كشعبه المختار وائتمننا على رسالة أرضية، فإن ذلك ما زال يحتاج لمزيد من التفسير، وقد يرى عالم لاهوت منصف فى هذا الادعاء إثما خطيرا نظرا لغطرسته.

إن الادعاء بفضيلة سياسية متفوقة هو ادعاء بالسلطة، وهو مطلب قد تتنازل عنه دول أخرى طواعية فى سبيل تحقيق ما تعتبره واشنطون مصالح عالمية. منذ العام ١٩٨٩، عندما أصبحت الولايات المتحدة «القوة العظمى الوحيدة» بعد انتهاء الحرب الباردة، ترددت مثل تلك الأفكار كثيرا ونوقشت فكرة السطوة أو الإمبراطورية الأمريكية العالمية الكريمة (أو حتى الحتمية)، أى سلاماً أمريكياً (بعد الحروب العالمية، المترجم) يرث السلام البريطانى (بعد معركة واترلو عام ١٨١٥، المترجم). ورغم أن مثل تلك الأفكار لم ترد صراحة فى الخطاب الرسمى، إلا أنها تبدو أمرا مسلما به بصورة أو بأخرى - فى الدوائر السياسية العالمية.

فى صيف عام ٢٠٠٣ قدمت «كوندوليزا رايس»، وكانت وقتئذ تشغل منصب مستشار الرئيس بوش للأمن القومى، أكثر التفسيرات الرسمية اتساقا وقبولا لمثل هذا المنطق، أثناء حديثها فى لندن فى الاجتماع السنوى للمعهد الدولى للدراسات الإستراتيجية. فقد ذكرت أن الوقت قد حان للتخلى عن مبدأ توازن القوى بين الدول ذات السيادة والذى أرسته «معاهدة ويستفاليا Treaty of Westphalia» عام ١٦٤٨. وأن اتفاق «ويستفاليا» أنهى الحروب الدينية بإقرار مبادئ التسامح الدينى والسيادة المطلقة للدولة. وأن الأمم المتحدة هى تجسيد معيب للسلطة الدولية لأنها عبارة عن تجمع عشوائى لكل دول العالم، ويجب - كما تقول - استبدالها بائتلاف أو تحالف للديمقراطيات يكون هو السلطة الدولية المطلقة. هذا هو التيار السائد الآن فى الدوائر المحافظة فى واشنطون.

ذكرت «رايس» أيضا لأعضاء المعهد أن الوقت قد حان لشجب أفكار تعدد الأقطاب وتوازن القوى فى العلاقات الدولية. وكانت تلك إشارة إلى الفرنسيين والحجج الأخرى المؤيدة لنظام دولى تعمل فيه عدد من الدول أو مجموعات الدول (مثل السوق الأوروبية) باستقلالية لتحقيق التوازن مع القوة الأمريكية. وكان ذلك فى أعقاب الجدل الدائر فى ذلك الوقت بشأن إخفاق مجلس الأمن فى تأييد الغزو الأمريكى للعراق. قالت «رايس» إن توازن القوى فى الماضى ربما «أبقى الحرب غائبة» ولكنه لم يحقق سلاما دائما. وأضافت إن «تعدد الأقطاب هو نظرية للمنافسة والمصالح المتعارضة و- على الأسوأ - القيم المتضاربة. لقد حاولنا ذلك فى الماضى، مما أدى إلى الحروب العالمية».

من المؤكد أن السياسات الخارجية القائمة على توازن القوى كانت رد فعل لنشوء الدول-الأمم ذات القوى والطموحات المتباينة، والتى لم يكن لديها بديل - لحماية استقلالها والحفاظ على مصالحها الوطنية - سوى السياسات التى «وازنت» علاقاتها وتحالفاتها مع الآخرين لاحتواء المصالح المنافسة والطموحات المتصارعة. إن البديل الوحيد الواضح لتلك السياسة هو خضوع الجميع لقوة مهيمنة. إن الثقة البادية لـ «رايس» بأن تلك الصراعات والمنافسات لن تخلق مشاكل فى أى تنظيم دولى جديد للديمقراطيات قد تبدو مفرطة فى التفاؤل. ومع ذلك، يبدو عموما أن الأوساط الاحترافية للسياسة الخارجية والرأى العام الأمريكى يعتبرون أن النظام الدولى يتم توجيهه «طبيعيا» نحو تحالف حتمى تقوده أمريكا للهيمنة الديمقراطية على الشئون العالمية.

أثناء المائة والخمسين عاما الأولى من تاريخ الولايات المتحدة كان تأثير الأسطورة الوطنية للاصطفاء والتكليف الإلهى غير ضار عموما باعتباره وهما مطمئنا ملهما. وقد بقيت البلاد خلال تلك الفترة منعزلة إلى حد كبير عن الشئون الدولية. وقد انعكست الأسطورة فى فكرة «التوسع الاستعمارى» فى أراضى القارة، بما فى ذلك ضم الأراضى المكسيكية شمال «ريو جراند» دون الحاجة لذريعة التفويض الإلهى.

ولكن كل ذلك تغير مع «وودرو ويلسون Woodrow Wilson» (الرئيس الثامن والعشرين للولايات المتحدة، ١٨٥٦-١٩٢٤، المترجم). فقد تحولت الأسطورة الوطنية إلى فلسفة للعمل الدولى وبقيت كذلك. وأثناء الأزمة الكبرى للحرب العالمية الأولى تولت الولايات المتحدة و«ويلسون» شخصيا مهام عالمية تشبه العناية الإلهية. فقد صرح «ويلسون» بأنه آمن أن الله قد اختاره لقيادة أمريكا لإرشاد «أمم العالم لكيفية سلوك طريق الحرية». وقد قوضت مذابح وعبث الحرب بدرجة كبيرة النظام الأوروبى القائم وزعزعت الثقة فى الحضارة الأوروبية. وقد رحب الحلفاء الأوروبيون بحماس بالتدخل الأمريكى عام ١٩١٧ والذى قلب الميزان العسكرى، كما لقيت خطة ويلسون للسلام ذات النقاط الأربع عشرة قبولا لدى كل من شعوب قوى المحور والحلفاء والمحايدين.

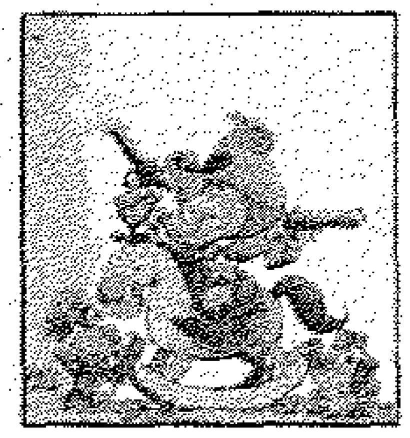
وعلى أية حال فإن خطة «ويلسون» لم تثبت نجاحا. فالمبدأ الشامل بحق كل دولة فى تقرير مصيرها لم يحل مشاكل أوروبا وإنما زادها تعقيدا، حيث خلق مآسى عرقية وإقليمية جديدة استغلتها لاحقا القوى الفاشية. وقد اعتبر «هارولد نيكولسون Harold Nicolson» الدبلوماسى البريطانى وأحد شهود مفاوضات «فرساى»، «ويلسون» رجلا «يستحوذ عليه ويسيطر عليه الإيمان بأن ميثاق عصبة الأمم هو رؤياه الشخصية والخلاص لكل مشاكل البشرية». وقد أدى إخفاق مجلس الشيوخ الأمريكى فى التصديق على معاهدة عصبة الأمم (التى تخيلها «ويلسون» كأول حكومة عالمية) إلى اقتناع غالبية الأمريكيين بفضيلة العزلة الوطنية والتى واصل الرأى العام الأمريكى - فى معظمه - تأييده لها حتى وقعت معركة «بيرل هاربر».

عندما انتهت الحرب العالمية الثانية كان الانحياز للعزلة ما زال باقيا، وكانت السياسة الخارجية إحدى قضايا انتخابات عامى ١٩٤٦ و١٩٤٨. وفى عام ١٩٤٩ اعترض السيناتور «روبرت أ. تافت Robert A, Taft» أحد رموز الحزب الجمهورى على معاهدة «منظمة حلف شمال الأطلنطى NATO»، حيث قال إنها تتضمن التزامات لا يمكن التكهن بها (لا يسعنا الآن سوى أن نتصور ماذا سيكون رد فعله تجاهها فى أفغانستان اليوم). ومن جهة أخرى كان «تافت» مؤيدا لـ «قانون دولى يحدد واجبات والتزامات الأمم، ومحكمة دولية، وقوة عسكرية مشتركة تطبق القانون وقرارات تلك المحكمة». وقد شعر بأن الأمم المتحدة لم تحقق هذا الهدف حتى الآن «وإن كانت قد خطت خطوات كبيرة فى هذا الاتجاه».

إن هذا الوضع المتناقض ظاهريا يعكس بالفعل تضارب المشاعر الأمريكية تجاه العلاقات الخارجية: فهى - من جهة - متوجسة خشية التورط فى «سياسات قوة» دولية، ومن جهة أخرى ترحب بالإصلاح المثالى بشرط تأكيد المكانة الخاصة التى طالما ادعتها الولايات المتحدة. ورغم تحفظاته بشأن الالتزامات العسكرية للولايات المتحدة فى الخارج وغريزته الانعزالية، فقد أقر «تافت» الرؤى المثالية العالمية لـ «ويلسون» و«فرانكلين روزفلت Franklin Roosevelt».

وقد وفرت الحرب الكورية والمواجهة السياسية المتزايدة مع روسيا السوفيتية فى أوروبا مبررا إضافيا للانخراط الأمريكى عالميا، كما يتضح من العبارات شبه اللاهوتية لـ «جون فوستر دالاس John Foster Dulles» وزير خارجية «دوايت د. أيزنهاور Dwight D. Eisenhower» وهو محام ورئيس كنيسة كهنوتى (وكالفينى مثلما كان «ويلسون» والمهاجرون التطهريون). لقد أدرج مفهوم الولايات المتحدة كأمة للعناية الإلهية ضمن السياسة الخارجية الأمريكية أثناء خدمة «دالاس»، حتى أن «جورج دبليو بوش» فسر - تلقائيا - عام ٢٠٠١ حربه العالمية على الإرهاب بمحاكاة مفهوم «دالاس» للحرب الباردة (حتى بالتصوير الآنى لإرهابيى الحادى عشر من سبتمبر كعملاء لتهديد عالمى منظم ضد الحرية). وقد لقيت تلك الصياغة قبولا غير متحفظ فى معظم الدوائر السياسية والصحفية وغالبية الأوساط السياسية الاحترافية.

إن سياسة إدارة بوش ما زالت تعكس تأثير عقيدة الحرب الباردة، والتى كشفت فى حالة «دالاس» تأثير كل من الفكر التاريخى العالمى للعدو الماركسى والافتراضات الدينية الشخصية حول معنى التاريخ. وبالنسبة للتأثير الفكرى المحافظ الجديد (الويلسونية الجديدة) على طريقة تفكير بوش، بأن مسار التاريخ يتجه نحو



ديمقراطية عالمية. فقد تأكد هذا التأثير فى لقائه عام ٢٠٠٤ مع «ناتان شارانسكى Natan Sharansky» المنشق السوفيتى السابق. إن تأكيد «شارانسكى» على أن التوازن الدولى لن يتحقق إلا تحت حكم الديمقراطية انعكس فى خطاب تنصيب «بوش» لولايته الرئاسية الثانية حيث أعلن أن هدف السياسة الخارجية الأمريكية قد أصبح «القضاء على الاستبداد فى العالم». ويمثل ذلك تشبيها ساذجا بما أطلق عليه الفيلسوف السياسى البريطانى-النمساوى «كارل بوبر Karl Popper» «الموثوقية التاريخية historicism» والتى تعنى الإيمان بـ «القوانين» الشاملة للتطور التاريخى. إن بوش يرى صراعا هائلا بين الديمقراطية وسعى «الإرهابيين» لإقامة خلافة إسلامية قمعية على نطاق عالمى (إن الكيفية التى سيحققون بها ذلك رغم معارضة الغرب الصناعى وآسيا غير المسلمة تحتاج لمزيد من التفسير المقنع).

وهكذا فإن إدارة بوش والمتعاطفين معها يعتقدون أنهم يدعمون القوة المهيمنة فى تطور التاريخ. فإذا كان المسار الطبيعى للتاريخ هو فى اتجاه الديمقراطية، فإن سياسة الولايات المتحدة - ببساطة - سوف تعجل المحتوم. وإذا اتضح أن الأمر ليس بذلك القدر من البساطة - كما حدث فى العراق - فمن الممكن استدعاء بديل سياسى لنظرية الاقتصادى «جوزيف شومبيتر Joseph Schumpeter» حول «الدمار الخلاق»، والتى تقول بأن الدمار - فى ظروف معينة - يمهد الطريق للتقدم. إن «شومبيتر» هنا يصف آلية لاقتصاد السوق، ولكن عند تطبيقها على تطور المجتمع الإنسانى فإنها تنحدر لمجرد إيمان علمانى بالتقدم، وذلك أمر يتعلق بالإيمان وليس البرهان.

إن الولايات المتحدة تعتبر اليوم - بكثير من المعايير التقليدية، إن لم يكن معظمها - القوة العالمية الرائدة. وبحيازتها لأقوى اقتصاد فى العالم وأكبر ترسانة أسلحة وأكثرها تطورا، فإنها تعتبر كذلك وتمارس نفوذا واسعا تبعا لذلك. ومع ذلك، فمن طبيعة العلاقات السياسية أن يؤدى السعى لترجمة منزلة للتفوق المادى إلى نفوذ على الآخرين، إلى إثارة المقاومة وربما يحقق فشلا قد يكون مكلفا. وفى حالتنا الراهنة فإن ذلك يشير إلى إخضاع الآخرين وخاصة الديمقراطيات الأخرى التى يتوقع أن تقبل بزعامة الولايات المتحدة لنظام عالمى جديد، وربما تكون هناك مقاومة لذلك للعديد من الأسباب الوجيهة. فى الماضى نجحت المجتمعات الأكثر تطورا من ناحية التنظيم السياسى والاجتماعى، أو القدرة الاقتصادية أو العسكرية، أو حتى فى مجالات ضيقة كالملاحة البحرية، نجحت فى إقامة إمبراطوريات. ولكن فى العصور الوسطى وبدايات العصور الحديثة لم تكن القوى الإمبراطورية بالضرورة متفوقة تكنولوجيا أو عسكريا على الدول الخاضعة لها. فإمبراطورية «هابسبيرج Hapsburg» (أسرة حكمت النمسا بين عامى ١٥٢٦-١٩١٨، المترجم) كانت نتيجة للزواج الملكى والتحالفات الدينية.

أما اليوم، فإن الديمقراطيات الرئيسية كلها مجتمعات متقدمة؛ ويكون ذلك أحيانا طبقا للمعايير الاجتماعية والتوزيع العادل للثروة وفرص التقدم وتأمين الرعاية الصحية الشاملة والتعليم المجانى أو الرخيص وبعض التقنيات والصناعات، والكثير من تلك المجتمعات أكثر تقدما من الولايات المتحدة نفسها. وتلك المجتمعات على استعداد للتعاون مع الولايات المتحدة فى مجالات الاهتمام المشترك - كما كان الحال طوال نصف قرن - ولكن ليس للخضوع لواشنطون. وهم يدركون أن جهود الإدارة الأمريكية الحالية لإقامة نظام يضم الدول التابعة لها فى وسط آسيا والشرق الأوسط (الشرق الأوسط الكبير) قد أسفرت بالفعل عن حربين مدمرتين مستمرتين وزادت الأوضاع سوءا فى لبنان وغزة والمناطق الفلسطينية وإسرائيل.

وقد تساءل «مايكل ماندلباوم Michael Mandelbaum» مدير البرنامج الأمريكى للسياسة الخارجية فى جامعة «جونز هوبكنز Johns Hopkins» مؤخرا عن السبب فى غياب أى جهد لإقامة حلف عسكرى: «إذا كانت الأمم الأخرى تعارض فعلا الجهود الأمريكية لإقامة سطوة عالمية جديدة، فلماذا لا توجد محاولات لبناء تحالف عسكرى يقاوم ذلك؟». يصف «ماندلباوم» الولايات المتحدة بأنها تهيمن على العالم فعلا، مثلما يهيمن الفيل (فى مقارنة رقيقة) على أراضى السافانا العشبية فى أفريقيا: إن العملاق العشبى الهادئ يبقى الحيوانات المفترسة على مسافة ملائمة، بينما يعيل «أنواعا عديدة من الكائنات الأخرى مثل الثدييات الأصغر حجما والطيور والحشرات، بتوفير التغذية لها أثناء قيامه بتغذية نفسه». يضيف «ماندلباوم» أن الجميع يعلمون أن الولايات المتحدة ليست قوة مفترسة ولذلك فإنهم يستفيدون من الاستقرار الذى يحققه الفيل على حساب دافع الضرائب الأمريكى.

من المعلوم عن الأفيال أيضا أنها تطأ الناس وتتلف المحاصيل والحدائق وتطيح بالأشجار والمنازل وتصاب بالجنون فى بعض الأحيان (مثل «الدول المارقة»). بل إن الأمريكيين فى الحقيقة مفترسون. لقد اعتدت الإدارة الأمريكية على النظام العالمى القائم برفض المعاهدات والاتفاقيات التى لا تناسبها واستعادة التعذيب والاعتقال العشوائى وغير محدد المدة إلى الحضارة الحديثة. أين الاستقرار الذى يخبرنا «ماندلباوم» أن تلك التعبئة العسكرية والسياسية الأمريكية قد حققته؟ إن الحرب الاختيارية المأسوية والمدمرة فى العراق، والفوضى المستمرة والمتصاعدة فى أفغانستان عقب حرب أخرى مشابهة، والحرب بين إسرائيل وحزب الله فى لبنان، وبين إسرائيل وحماس فى غزة، وكذلك بين حماس وفتح، مع استمرار الأزمات فى فلسطين، وهواجس حروب أمريكية اختيارية جديدة ضد إيران أو سوريا، وظهور كوريا شمالية نووية - كل ذلك يكشف عن اضطراب دولى خطير.

أثناء المائة والخمسين عاما الأولى من تاريخ الولايات المتحدة كان تأثير الأسطورة الوطنية للاصطفاء والتكليف الإلهى غير ضار عموما باعتباره وهماً مطمئناً ملهماً

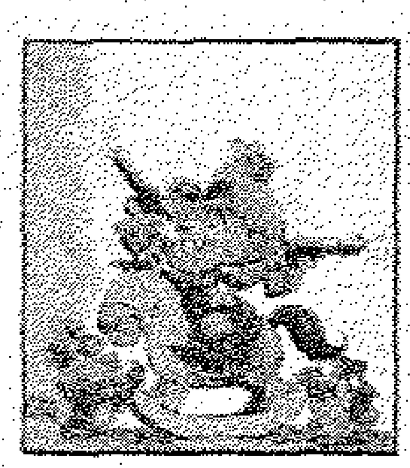
إن الجهود الأمريكية لتحرير الاقتصاد العالمى وتسويق العولمة - مهما كانت فوائدها - كانت أعظم قوة مسببة للخلل السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى عرفها العالم منذ الحرب العالمية الثانية، حيث أدت إلى ما يشبه كثيرا «الثورية المستمرة للإنتاج، والإخلال الدائم بكل الظروف الاجتماعية، والشك والاضطراب الأبديين» الذى تكهن به «ماركس Marx» و«إنجلز Engels» فى «البيان الشيوعى The Communist Manifesto».

إن تساؤل «مايكل ماندلباوم» عن إمكانية استخدام التحالفات العسكرية لاحتواء القوة الأمريكية يبدو وكأنه من عصر آخر. لقد اختلفت جدوى التحالفات العسكرية عما كانت عليه فى السابق، وهو ما تدركه الولايات المتحدة تماما. لا يمكن لعاقل اليوم أن يعتبر الحرب التقليدية مع الولايات المتحدة ردا مفيدا - أو مطروحا - ضد القوة الأمريكية، على الرغم من أن كوريا الشمالية وإيران - وغيرهما بالتأكيد - قد توصلوا إلى أن الردع النووى ضد ما يعتبرونه تهديدا من الولايات المتحدة هو استثمار مفيد.

إن العسكرية الأمريكية الجديدة - كما يصفها «أندرو باسيفيتش Aandrew Bacevich» (أستاذ العلاقات الدولية بجامعة بوسطون) تدعو لتبنى مفاهيم بالية بشأن القوة القائمة على التفوق العسكرى الكمى. إن القوة تأتى الآن - أساسا - من المقومات والهيمنة الاقتصادية والمالية والصناعية والسياسية والثقافية، علما أن تلك المقومات فى الولايات المتحدة لا تحقق لها المناعة. وإذا ما كانت السطوة الأمريكية العالمية تشكل تهديدا، فلدى المجتمع الدولى من الوسائل السياسية والاقتصادية ما يكبحها، ناهيك عن الصور غير التقليدية للمقاومة العسكرية والتى تم توظيفها بنجاح فى العراق، وفى لبنان فى الصيف الماضى، وقبل ذلك بوقت طويل فى فيتنام.

إن ما يسبب الحروب الآن هو القومية والمذاهب الدينية أو السياسية. وتبقى القومية والكوميونية (نظرية تقول بأن الدولة عبارة عن اتحاد بين كوميونات (وحدات إدارية صغيرة) مستقلة، المترجم) المدافعتان عن هوية واستقلال المجتمع، قوى سياسية مؤثرة بارزة، كما كان الأمر فى فيتنام منذ عقود ثلاثة. إن التطورات الأخيرة فى لبنان والعراق والشيشان والانتفاضة الفلسطينية والدول غير المستقرة وذكرى حرب فيتنام وشبح حيازة الدول المارقة لأسلحة نووية، كل ذلك يجعل من التدخلات العسكرية فى العالم غير الغربى احتمالا غير جذاب.

هل هناك من سياسة بديلة؟ عند



وفاة «جورج كينان» عام ٢٠٠٥، كان الكثير قد تحقق بالفعل نتيجة لسياسة الاحتواء - التى كان هو مهندسها - إبان الحرب الباردة، والتى ثبت نجاحها - كما توقع - بانهيار الاتحاد السوفيتى بسبب التعفن الداخلى. لم يكتب الكثير عن رؤية «كينان» لطبيعة العلاقات بين الدول والتى كانت تتناقض جوهريا مع سياسات وافتراضات الحكومة الأمريكية الحالية وخاصة فيما يتعلق بسياسة واشنطون الخارجية. لقد ضم كتاب «كينان» عن خواطر سيرته الذاتية «حول التل الوعر Around the Cragged Hill»، والذى نشر عام ١٩٩٣ عندما كان فى التاسعة والثمانين، ضم خواطره الحكيمة حول الموضوع، وكذلك أفكاره تجاه السياسة الخارجية الأمريكية.

لم يعتقد «كينان» أن الديمقراطية عبر حدود أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية يمكن أن تسود عالميا. يقول «كينان»: «لتحقيق حكم ذاتى حقيقى، يجب أن يفهم الشعب ماذا يعنى ذلك وأن يريده وأن يكون مستعدا للتضحية فى سبيله. إن كثيرا من أنظمة الحكم غير الديمقراطية غير مستقرة بطبيعة الحال. ولكن ماذا فى ذلك؟ نحن لسنا - ولن نكون أبدا - أوصياء عليهم (لم يقل أننا قد نحاول يوما أن نكون). اقترح «كينان» ترك المجتمعات غير الديمقراطية كى تحكم أو يساء حكمها وفقا للعادات والتقاليد، وأن نطلب من زمراتهم الحاكمة فقط أن يحافظوا - من خلال علاقاتهم الثنائية معنا ومع بقية المجتمع العالمى - على الحد الأدنى من العلاقات الدبلوماسية المتحضرة».

مع انتهاء الحرب الباردة، لم ير «كينان» حاجة لاستمرار أى وجود للقوات الأمريكية فى أوروبا، مع الحاجة للقليل منها فى آسيا بما يتناسب مع المتطلبات الأمنية لليابان المتحالفة مع الولايات المتحدة من خلال معاهدة. وقد استهجن «كينان» غزارة البرامج الاقتصادية والعسكرية وتعقيداتها «والتى تتجاوز مجرد السهو الرسمى والخاص». وتساءل عن السبب فى قيام الولايات المتحدة عام ١٩٩٢ بتقديم مساعدات عسكرية لعدد ٤٣ دولة أفريقية و٢٢ - من أصل ٢٤ - دولة فى أمريكا اللاتينية: «ضد من يمكن أن تستخدم تلك الأسلحة؟ من المفترض أنها ستستخدم ضد جيرانهم أو - فى الصراعات الأهلية - ضد أنفسهم. هل من واجبنا أن نعدهم لذلك؟».

فى أواخر الخمسينيات، دخلت أنا وزميلى الراحل «إدموند ستيلمان Edmund Stillman» (المدير السابق للقسم الأوروبى فى معهد هدسون بباريس، المترجم) فى مناقشة تحولت فى النهاية إلى مقال فى مجلة ثم كتاب، تشير إلى أن الهاجس الأمريكى تجاه النفوذ الشيوعى السوفيتى كان يحول الولايات المتحدة إلى نسخة أمريكية من الموثوقية التاريخية الماركسية واليسوعية الفكرية. لقد ذكرنا أن واشنطون وقعت تحت تأثير «السياسات الفكرية للثلاثينيات والحماسة المعنوية للحرب العالمية الثانية»، عندما افترضت أننا كنا نتصارع مع روسيا السوفيتية - إذا جاز القول - حول جوهر هذا العالم.

كنا نرى أن العكس تماما هو الصحيح. وذكرنا أن المنطق السليم بالنسبة لطبيعة المصالح الحقيقية لروسيا والصين يشير إلى أن الوقت ليس فى صالحهم، وأن سياسة «كينان» لاحتواء القوى الشيوعية الرئيسية، إلى أن يؤدى إلى تقويضها ما كان يمكن أن يطلق عليه «ماركس» تناقضاتهم الداخلية، كانت هى السياسة السليمة. إن مصلحة الصين الأساسية كانت فى إضعاف الاستقواء السوفيتى فى العالم الشيوعى. كانت روسيا نفسها فى حالة انحدار مادى، كما خبت يسوعيتها. وكانت حيوية أوروبا الغربية واليابان وأمم آسيوية أخرى فى ازدياد، وربما تطالب باستعادة نفوذ ما قبل الحرب. وقد توصلنا إلى أن الخمسينيات كانت بالفعل زمن مراكز القوى العديدة والمصالح المتعددة، وهو نظام يعبر فيه ممثلو الدول المستقلة - أكثر من الماضى - عن النفوذ والطموحات الدولية، نظام تستطيع من خلاله الولايات المتحدة أن تزدهر بينما لن يستطع الاتحاد السوفيتى ذلك على المدى الطويل. وكان اقتراحنا فى النهاية هو التحلى بالصبر.

كان ذلك يتعارض مع كثير من أفكار ذلك الزمان. وإذا ما استعدنا تطور الأحداث، فتلك هى حكاية الخاسر الذى يصف طريقا لم يسلكه أحد. وربما لا يبدو ذلك قليل الأهمية الآن لو أن التوجه الذى تم انتهاجه لم يثبت فشله الذريع كما حدث بالفعل. ربما يبدو من المفزع تصور أن الإدارة الأمريكية الحالية تستطيع التحول عن السياسات العسكرية والسياسية التدخلية التى استمرت طوال العقود السابقة، ناهيك عن النسخة العدائية جدا من تلك السياسات منذ عام ٢٠٠١، إلا إذا اضطرت لذلك عند وقوع كارثة فى الشرق الأوسط، وهو أمر محتمل جدا. والسؤال المطروح الآن هو: هل ستقوم الإدارة الأمريكية الجديدة القادمة بعد عامين بالتحول عن تلك السياسات؟

مع ذلك، لا توجد الكثير من الدلائل على وجود تحد فى السياسة الخارجية الأمريكية يناقش مبادئ وافتراضات التدخلية الدولية التى يدعو إليها الإيمان برسالة وطنية خاصة. ربما تجد البلاد نفسها عام ٢٠٠٩ تحت إدارة جديدة تتبنى نسخة أقل خشونة وأكثر لياقة من سياسة السعى الأمريكى نحو التسلط على العالم، ولكن مثل تلك السياسة سيكون مقضيا عليها حتما باستحالة النجاح.

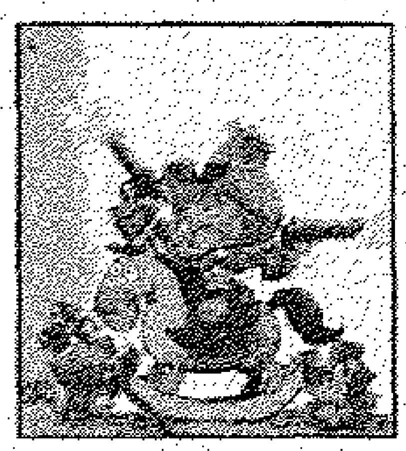
سيكون من العسير التراجع عن الالتزامات الفكرية والمادية الناتجة عن الاستثمارات الأمريكية العسكرية والإدارية والفكرية فى التدخلية العالمية طوال نصف القرن الماضى. إن الطبقة السياسية فى واشنطون على قناعة تامة بأن الولايات المتحدة توفر البنية الضرورية للأمن الدولى، وأن انسحاب القوات الأمريكية من شبكة القواعد العسكرية عبر البحار والتى تزداد انتشارا، أو التراجع عن التدخلات الأمريكية الحالية فى شئون العشرات من دول العالم، سوف يخل بالنظام العالمى ويؤدى إلى عواقب غير مقبولة للأمن القومى الأمريكى. ونادرا ما يفسر لنا أحد لماذا يجب أن يكون الأمر هكذا.

ما هو التهديد الذى تواجهه أمريكا؟ إن الصين وروسيا لا تمثلان تهديدا مباشرا لمصالح الأمن الغربى، على الأقل فى رأى معظم الحكومات عدا واشنطون. ومن الواضح أن لكل الأمم الكبرى احتياجات للطاقة والموارد الأخرى ولديها مصالح متقاطعة ومتصارعة، ولكن ليس هناك ما يدعو للاعتقاد بأن كل ذلك وغيره من المشاكل المتوقعة غير قابل للتفاوض. إن الأفكار النارية من النوع الذى نسمعه أحيانا عندما يتحدث المحافظون الأمريكيون عن الصين أو روسيا - ناهيك عن إيران - هو نتيجة لفكر الهيمنة على العالم، وهو ضار بالمصالح الأمريكية الحقيقية. إن حرب أمريكا المزعومة ضد الإرهاب لم تنقذ حلفاءها من العنف. إن أوروبا تنظر لمشكلة الإرهاب عموما باعتبارها تخص النظام الاجتماعى المحلى واندماج المهاجرين - وهو أمر يحتاج معالجة سياسية واحتياطات أمنية - وتتعلق بأزمة دينية وسياسية داخل الثقافة الإسلامية المعاصرة لا تستجيب لأى علاج أجنبى. لا ينظر الكثير من الزعماء خارج الولايات المتحدة - باستثناء تونى بلير - إلى تهديد الإرهاب باعتباره مؤامرة عالمية من قبل من «يكرهون الحرية» - وهو قول صبيانى - أو يؤمنون بنجاح رد الفعل العسكرى الحالى له. لقد كانت النتائج الإيجابية ضئيلة، بينما كانت العواقب السلبية للعلاقات مع الدول الإسلامية كارثية. لقد أصبح منهج الولايات المتحدة - فى نظر الكثيرين - حربا ضد «القومية» الإسلامية باعتبارها إعادة تأكيد للهوية - والانفصالية - الثقافية والسياسية التى تبنت - مثل معظم القوميات - المنظمات الإرهابية المقاتلة، مثلما فعلت قومية أخرى بلا أمة - وقتها - وهى الصهيونية.

إن البديل غير التدخلى للسياسات المتبعة فى الولايات المتحدة منذ الخمسينيات هو الإقلال - إلى الحد الأدنى - من التدخل فى شئون المجتمعات الأخرى وقبول وجود نظام عالمى لتعددية من القوى والمصالح المشروعة والمتعددة. قد يظن المرء أن مسئولية الأمم عن نفسها وأن التدخل العسكرى الأمريكى فى شئونها غالبا ما يعقد المشاكل بدلا من حلها، هى رؤية قد تروق لجمهور أمريكى يؤمن بالمسئولية الفردية واستقلال السوق، ويعتبر نفسه معاديا لعقيدة سياسية معينة - رغم أنه لا يعى تماما عقيدته هو - ويرضى أن يحكمه نظام دستورى ومذهب براجماتى (عملى/ذرائعى) وأسلوب الحلول الوسط.

إن سياسة عدم التدخل تتجنب المذاهب الفكرية وتركز بدلا من ذلك على الآراء

الجهود الأمريكية لتحرير الاقتصاد العالمى وتسويق العولمة - مهما كانت فوائدها - كانت أعظم قوة مسببة للخلل السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى عرفها العالم منذ الحرب العالمية الثانية



هل هم سادة العالم؟!

البراجماتية والاستقرائية لمصالح واحتياجات هذه الأمة وغيرها، مع الاعتماد على الدبلوماسية والاستخبارات التحليلية والاهتمام خصوصا بالتاريخ. حيث إن معظم المشاكل الخطيرة بين الأمم هى متكررة أو تتضمن عناصر متكررة هامة. إن كل الأزمات الحالية فى أفغانستان والعراق ولبنان وفلسطين-إسرائيل وإيران، تعود جذورها للحقبة الاستعمارية أو ما بعدها، وهو ما يتجاهله الجدل السياسى والإعلامى الأمريكى.

إن سياسة عدم التدخل تلك تعتمد أساسا على التجارة والسوق لتوفير الموارد والطاقة لاحتياجات الولايات المتحدة بدلا من السيطرة الإقليمية أو الإرهاب العسكرى. إن العمل السياسى والدبلوماسى سيكون هو الأداة الأساسية والضرورية للعلاقات والمفاوضات الدولية، بينما يأتى العمل العسكرى فى المرتبة الأخيرة والأسوأ كدليل على الإخفاق السياسى. وسوف يعاد التفكير فى الانتشار العسكرى بالخارج مع الاهتمام الخاص بإمكانية أن يؤدى بالفعل إلى وضع العراقيل أمام حل الصراعات أو زيادة تشدد الحراك المعقد للعلاقات بين الأمم مثل الكوريتين والصين وتايوان واليابان، حيث لا يمكن الوصول لحلول نهائية سوى عن طريق التسويات السياسية بين الفرماء.

لو اتبعت سياسة عدم التدخل فى الستينيات لما وقعت الحرب الأمريكية فى الهند الصينية. كان الصراع هناك - كما تأكد بالفعل - سينظر إليه باعتباره ذا دوافع قومية وغير قابل للعلاج القادم من الخارج ومحدوداً بطبيعته فى عواقبه الدولية مهما كانت. ولم تكن الولايات المتحدة ستلقى أبدا الهزيمة أو يتعرض جيشها لفساد الخلق أو يتجه طلابها للتطرف. ولم يكن ليكون هناك غزو أمريكى لكمبوديا، والذى عجل بعمليات الإبادة التى قامت بها قوات الخمير الحمر. ولما وقعت - غالبا - المحن التى تعرض لها أفراد القبائل فى لاوس.

لم تكن الولايات المتحدة لتعانى التبعات الكارثية لما كان فى الأصل أزمة داخلية فى إيران عام ١٩٧٩، والتى ما زالت تسمم شئون الشرقين الأدنى والأوسط، لولا الاستثمار الأمريكى الهائل والاستفزازى فى نظام الشاه باعتباره «الشرطى» الأمريكى فى المنطقة، مما أدى إلى التضحية بالشاه والتعجيل بالانقلاب الأصولى ضد حركته التحديثية العلمانية.

وبدون الدخول أكثر فيما يمكن أن يتحول سريعا إلى جدل عقيم لما كان «ممكنا» أو «غير ممكن» فى نصف القرن الماضى، يمكننا بالتأكيد أن نجادل بأن «ولايات متحدة» لا تتدخل فى شئون الغير لم تكن لتصبح فى حالة حرب بالعراق الآن. ورغم الاهتمام الواضح لواشنطون بالتدفق الحر لنفط الشرق الأوسط، كان بإمكانها الافتراض أن الدول المستهلكة للنفط ستشترى بترولها من السوق وأن منتجى النفط سيتوجب عليهم البيع حيث لا يوجد أمامهم ما يفعلونه ببترولهم غير ذلك، وأن التدخل على أساس سياسى فى السوق من قبل منتجى النفط سيكون مصيره الفشل على المدى المتوسط والطويل، مثلما حدث بعد ارتفاع أسعار نفط الأوبك عام ١٩٧٣ .

إن إسرائيل - بأسلحتها التقليدية وغير التقليدية - قادرة على ضمان الدفاع عن نفسها ضد العدوان الخارجى، وإن كانت قد اكتشفت مؤخرا محدودية قدرتها على قتال القوات غير النظامية. وهى لا يمكن أن تتوقع أمنا كاملا بدون حل سياسى للقضية الفلسطينية، وهى مشكلة لا يمكن حلها سوى بالانسحاب من المناطق الفلسطينية - بالتفاوض - إلى ما يقترب من حدود ١٩٦٧. والمشاركة الدولية - عن طيب خاطر - ستكون بالتأكيد ضرورية للوصول لحل. إن أربعين عاما من التدخل الأمريكى قد ساعدت أساسا - للأسف - فى السماح لإسرائيل بتجنب مواجهة الحقائق، مما ساهم فى تطرف المجتمع الإسلامى.

ربما أخذت واشنطون فى الاعتبار أيضا - ولها مبرراتها - أن ضحايا الطغاة المحليين، مثل العراقيين قبل ٢٠٠٣، مسئولون عن إيجاد حلول لأنفسهم وقادرون عادة على القيام بالثورة إذا أرادوا ذلك حقا. فالعراق لم تحتله قوة أجنبية وتفرض ديكتاتورية صدام حسين. إن التمرد العراقى الحالى ضد الاحتلال العسكرى والحكومة المفروضة أمريكيا، مع تزايد الصراع الطائفى، يضعفان الآن التماسك الهش بالفعل للقوات الأرضية الأمريكية هناك. من الأفضل ترك «تغيير النظام» للشعب نفسه الذى يعرف ماذا يريد ومن الذى سيستفيد أو يعانى من عواقب التغيير.

إن النظرية العملية لمسئولية الشعب نفسه ربما تبدو غير مقبولة عندما يشاهد جمهور الـ «سى إن إن CNN» المذابح الجماعية فى دارفور وسيراليون وليبيريا ورواندا والبوسنة. فرغم أن سياسة خارجية تدخلية تتدخل بموجبها الولايات المتحدة بعدوانية فى الدول الأخرى لترتيب شئونها وفقا للمصلحة والعقيدة الأمريكية، فإن ذلك لا يشبه إطلاقا اتخاذ إجراءات تجاه الجرائم الفظيعة ضد الإنسانية.

قد يبدو التعامل مع الأمر الأخير أكثر بساطة نسبيا، مثل حالة «تشارلز تايلور Charles Taylor» الذى كان رئيس ليبيريا فى الماضى (بين عامى ١٩٩٧-٢٠٠٣) والمسئول عن العديد من الصراعات الدموية البشعة فى غرب أفريقيا، والذى تجرى الآن محاكمته فى «لاهاى» بتهمة ارتكاب جرائم حرب. بالمثل، كان التدخل البريطانى الحكيم الذى أنهى الإضطرابات والصراعات المدنية فى سيراليون خدمة للإنسانية، مثلما كان إحلال السلام فى ليبيريا.

هناك حدود لإمكانيات التدخل الإنسانى. فمن الممكن أن يخلق مشاكله الخاصة، مثلما تعترف الآن الجماعات غير الحكومية. فجهودهم وجهود الأمم المتحدة لإطعام ومساعدة اللاجئين قد تفسح الطريق - بإبعادها الضحايا عن متناول المعتدى - للعدوان، مثلما حدث فى بداية التدخل فى يوغوسلافيا، عندما حدد مجلس الأمن مهمة قوات الأمم المتحدة بـ «حماية» المدنيين بينما كانت تدور رحى حرب طائفية وإقليمية هناك. وفى النهاية، أدى التدخل العسكرى إلى التوصل لاتفاق «دايتون Dayton» الذى - رغم ذلك - ترك كوسوفو والموقف المتوتر للشتات الإقليمى فى «ألبانيا» بلا حل.

إن الأزمات الإنسانية هى فى العادة انعكاس معاصر لمحن تاريخية مستحكمة، مثلما كان الحال فى يوغوسلافيا السابقة وفى رواندا حيث فرض الـ «توتسى Tutsi»، وهم فى الأصل رعاة ماشية «حاميون» (نسبة إلى «حام» أحد أبناء «نوح» المترجم) هاجروا منذ قرابة أربعة قرون إلى منطقة بحيرة «كيفو» قادمين - فى الغالب - من أثيوبيا، حكما ملكيا أرستوقراطيا على الـ «هوتو Hutu» المتحدثين لغة الـ «بانتو Bantu» رغم أنهم (الهوتو) يشكلون الغالبية العظمى من السكان. وقد تركت السلطات الاستعمارية الألمانية والبلجيكية الوضع كما وجدته، واستمر الحال على ما هو عليه حتى تحقق الاستقلال فى الستينيات عندما أدى سعى الـ «هوتو» لإقامة حكم ديمقراطى إلى اندلاع الصراعات فيما بعد، مما أدى فى النهاية لوقوع إبادات عام ١٩٩٤ ضد الـ «توتسى» والتى انتهت بعودتهم مرة أخرى إلى سدة الحكم.

عادة ما تزداد حدة تلك الأزمات بسبب التطورات المادية، مثل نوبات الجفاف التى ضربت الساحل الأفريقى شبه القاحل فى السنوات الأخيرة، والمنطقة الجغرافية المناخية من السنغال إلى أثيوبيا والتى تفصل الصحارى الساحلية الأفريقية عن المناطق العشبية فى الجنوب. ومعظم قاطنى تلك المنطقة هم من الرعاة الرحل المعروفين باسم «العرب» بخلاف الفلاحين السود الذين يزرعون الجنوب الأكثر خصوبة. وقد انخفضت مساحة الأراضى الصالحة للزراعة مما أدى إلى وقوع صراعات ونزوح للسكان واضطرابات سياسية فى تلك الدول الهشة. والضحايا فى دارفور هم لاجئون من الصراع السياسى فى السودان، وقد انتقلت محنتهم إلى تشاد وجمهورية أفريقيا الوسطى، مما يهدد بوقوع اضطرابات فى أماكن أخرى.

من الواضح أن موقفاً كهذا لا يمكن علاجه عن طريق التدخل العسكرى الأجنبى. ومع ذلك، فإن الجيش الأمريكى يسعى لإقامة قيادة أفريقية جديدة تتخذ - ربما - من جيبوتى قاعدة لها، مع «قوات متقدمة» مستعدة للتعامل مع «صعود أفريقيا كحقيقة إستراتيجية» كما ذكر فى ديسمبر الماضى الجنرال «جيمس جونز James Jones» القائد السابق للقوات الأمريكية فى أوروبا. ويحدد الإعلان الإستراتيجى الأمنى القومى الأمريكى «الدول المضطربة» فى أفريقيا وكذلك «الدول المارقة» باعتبارها تمثل تهديدا للمصالح الأمريكية.

يشير الدعم الأمريكى للتدخل الأثيوبى فى الصومال والذى أطاح

لا ينظر الكثير من الزعماء خارج الولايات المتحدة - باستثناء تونى بلير - إلى تهديد الإرهاب باعتباره مؤامرة عالمية من قبل من «يكرهون الحرية». إنه قول صبيانى!

بالحكم الإسلامى فى تلك «الدولة المضطربة»، وكذلك المطالبات فى الولايات المتحدة وأوروبا بالتدخل العسكرى ضد «العرب» المسلمين المسئولين عن لاجئى دارفور، إلى أن الدوائر الحكومية والرأى العام أصبحوا يخلطون بين الأزمات الإنسانية الأفريقية وبين الحرب الأمريكية الأكبر على الإرهاب أو باعتبارها جزءا منها. إن هذا خطأ فادح ويهدد بوضع الولايات المتحدة على طريق من التدخلات العسكرية العقيمة التى لا نهاية لها ضد المحن الأفريقية - «حرب طويلة» فعلا.

لقد أصبح انتشار الأسلحة النووية الآن - بعد المزاعم النووية الأخيرة لكوريا الشمالية - هاجسا أمريكيا أكثر من أى وقت مضى. إن أهم حافز لدى كوريا الشمالية وغيرها للحصول على أسلحة نووية هو ردع التدخل العسكرى الأمريكى (أو الإسرائيلى فى الحالة الإيرانية). إن الميزة التى يوفرها امتلاك مثل تلك الأسلحة هى ردع الدول المجاورة ومنع التدخل الأجنبى. ومن جهة أخرى - وكما هى الحال فى إيران - فإن السعى لامتلاك أسلحة نووية قد يمثل دعوة لهجوم أجنبى وقائى، ولذلك فإن خيار الانتشار النووى يحمل مخاطره الخاصة.

وفى واشنطون، ينظر إلى امتلاك إيران أسلحة نووية عادة باعتباره تهديدا لإسرائيل أو للقواعد أو المصالح الأمريكية فى المنطقة أو حتى لأوروبا. وبالنظر إلى قدرة كل تلك الدول على الثأر سواء بالوسائل التقليدية أو النووية، فلا يبدو مقنعا أو حتى معقولا أن تبادر إيران بمثل هذا الهجوم، أو حتى أن تتصور تحقيق أى عائد من ورائه.

إن حيازة الأسلحة النووية توفر - أساسا - قوة رمزية، حيث إن استخدام تلك الأسلحة ينطوى على عواقب غير متوقعة ولا يمكن السيطرة عليها، وفى الوقت نفسه يساهم ذلك الشك فى زيادة تأثيرها الرادع. إن صناعة واختبار سلاح نووى يجعل أى دولة أكثر أهمية ظاهريا، أو أسوأ سمعة وأكثر مهابة على الساحتين العالمية والإقليمية، ولكن الاستغلال الإيجابى للوضع النووى - ولو بهدف الابتزاز - ليس بالأمر الهين.

إن التهديد النووى ليس بالأمر الذى يمكن تصديقه تلقائيا، حيث إن تنفيذه لا يتناسب أبدا مع أى استفزاز يمكن تصوره. ومهما كانت الدوافع، فإن أى هجوم نووى ضد دولة غير نووية لا تملك أى وسيلة للردع أو الانتقام سوف يثير هياجا وقلقا دوليا هائلا ويدعو إلى تدخل إحدى - أو كل - الدول النووية القديمة وكذلك الأمم المتحدة والمنظمات العالمية الأخرى ويجلب عارا دوليا هائلا على الدولة المستخدمة للسلاح النووى، وسيوحى ذلك بالتأكيد لأى حكومة فى المنطقة تشعر بأنها يمكن أن تتعرض للتهديد أن تسعى للحصول على رادعها النووى.

هل - على سبيل المثال - ستستفيد الولايات المتحدة أو إسرائيل شيئا من استخدام أسلحة اختراق نووية ضد المنشآت النووية الإيرانية، مخترقة بذلك الهدنة النووية التى استمرت منذ هيروشيما وناجازاكى؟ هل سيضيف ذلك إلى الدوافع التى قد تشعر بها السعودية وسوريا ومصر وتركيا وربما دول فى الخليج الفارسى ودول أخرى معينة فى الشرق الأقصى، للسعى نحو الرادع النووى؟ ألن يوفر ذلك مبررا للأوروبيين لإعادة النظر جديا فى موقفهم؟

وكما تشير الدراسات الإستراتيجية النووية خلال الأعوام الستين الماضية، فإن قيمة تلك الأسلحة لأى غرض آخر غير الردع تبدو ضئيلة. وهناك شك كبير فيما يتعلق باستخدامها للإكراه أو الابتزاز، ما لم يكن هناك ضمان بإمكانية توجيه ضربة ثانية لردع الثأر من النوع الذى كان بحوزة الدول النووية إبان الحرب الباردة، وذلك خارج إمكانيات الدول المرشحة الآن للنادى النووى.

إن التاريخ لا يوفر للأمم أمنا دائما، وحتى عندما يبدو أنه يقدم سطوة مهيمنة فذلك فقط - فى العادة - كى يأخذها ثانية وبطرق غير سارة غالبا. لقد حالف الحظ الولايات المتحدة عندما تمتعت بعزلتها النسبية لوقت طويل. إن قناعة الأمريكيين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بأن وطنهم كان بمأمن من المصير الشائع، تلاها فى القرن الحادى والعشرين إصرار أمريكى على الحرب (أو «النصر» كما يؤكد الرئيس) ضد ظروف الحياة التى يوفرها التاريخ الآن بالفعل. وذلك يضع أمامهم وهما لطيفا بأن القوة سوف تسود دائما، رغم أن ذلك غير صحيح بالتأكيد.

علق «شومبيتر» عام ١٩١٩ بأن الحركة الاستعمارية تنطوى بالضرورة على عداء لا تكمن أسبابه الحقيقية فى الأهداف المؤقتة المنشودة، بل عداء من أجل العداء، مثلما انعكس فى مصطلحات مثل «السطوة» و«الهيمنة على العالم» و«توسع من أجل التوسع» وغير ذلك. يقول «شومبيتر»: «إن هذا التصميم لا يمكن تفسيره بأى من الذرائع المقدمة، أو بأى من الأهداف التى يبدو أنه كان يكافح فى سبيلها. إن الهدف من ذلك التوسع لم يكن سوى التوسع».

ربما ينطبق ذلك على الحالة الأمريكية، وقد تجاوزنا الإيمان بالاستثناء الوطنى لإنشاء مذهب للتقدم والزعامة العالمية ضمن تبريرنا الأخلاقى لسياسة القوى التوسعية. وفى تلك الحالة فإننا قد دخلنا إلى منطق تاريخى انتهى فى الماضى دائما بمأساة. ■

كتاب الزاوية

رسائل فارسية

مونتسكيو

مونتسكيو من أبرز فلاسفة عصر التنوير فى فرنسا، فقد أسهم مع غيره من فلاسفة هذا العصر، أمثال فولتير وروسو، فى إحداث ثورة عقلية وفكرية وأدبية وفنية، تجسدت فى أول دائرة معارف عرفتها فرنسا، وهى التى أسهم مونتسكيو فى كتابتها.

ويعد كتاب رسائل فارسية من أهم كتاباته، إذ جمع أهم العناصر التى تميز بها القرن الثامن عشر فى فرنسا، فهو ينقد المجتمع الفرنسى فى هذا العصر نقداً لاذعاً، يستوى فى ذلك نقده للحكومة والسياسة والدين، أو لعادات المجتمع نفسه من نفاق وتفاهة وتناقض واحتقار لكل ما هو أجنبى. وعلى المستوى الفنى، تناول النقد الجدل الأدبى السفسطائى والتسرع فى الحكم على الأشياء والسخرية من الشعراء والأدباء المدعين. ويتجسد هذا النقد اللاذع عبر أسلوب مونتسكيو الساخر ولجوئه للتهكم الذى تشوبه المرارة أحياناً.

ولم يكن لجوء مونتسكيو للإطار الفارسى مجرد إسقاط للنيل من حكم لويس الرابع عشر الشمولى وستاراً لنقد المجتمع الفرنسى فى ذلك الوقت، بل أراد أيضاً أن ينفتح على عوالم ومجتمعات أخرى غير أوروبية كنوع من الاعتراف بالآخر واحترامه والاستفادة منه، والتأكيد أن الحضارة الأوروبية بصفة عامة والفرنسية بصفة خاصة ليست هى النموذج الأمثل الذى يستوجب التعالى على الآخرين. لذلك يعد كتاب رسائل فارسية لمونتسيكو من أهم معالم القرن الثامن عشر فى فرنسا. وقد ترجم الكتاب إلى العربية أحمد كمال يونس ونشرته دار سعاد الصباح وهذه مقتطفات من طبعته الثانية التى صدرت ١٩٩٢.

الأمم المتحدة لحظة كسوف!

هل مصير الأمم المتحدة هو الفشل، لتلقى بالتالى مصير عصبة الأمم المتحدة التى أساءوا إليها بدون وجه حق؟ ربما لا يكون الأمر كذلك

تونى جوت



■ الأمم المتحدة موضوع مثير للنزاع والاختلاف على نحو غريب. وما إن يذكر اسمها فى الولايات المتحدة (وبالأخص فى واشنطن) حتى تُحال على الأرجح

The UN Exposed: How The United Nations Sabotages America's Security and Fails the World
(كيف خربت الأمم المتحدة الأمن الأمريكى وأفشلت العالم)
by Eric Shawn

The Parliament of Man: The Past, Present, and Future of the United Nations
(برلمان البشرية)
by Paul Kennedy

The Best Intentions: Kofi Annan and the UN in the Era of American World Power
(النوايا الأفضل.. كوفى أنان والأمم المتحدة فى عصر الهيمنة الأمريكية)
by James Traub

بترتيب مع مجلة:
The New York Review of Books

ترجمة: أحمد محمود

إلى «الفضيحة» و«التبديد» و«الفشل»، وإلى الصورة الشعبية الخاصة بالزائدة الدولية باهظة التكلفة، ومنبت الجمود، والمناصب التى لا يستحق شاغلوها ما يحصلون عليه من أجر، والانتهازيين، والعقبة التى تقف فى سبيل السعى النشط لتحقيق المصالح القومية الأمريكية. والأمم المتحدة داخل تلك الدوائر، فى أفضل الأحوال، فكرة جيدة ضلت الطريق إلى حد كبير.

غير أنه من المرجح كذلك أن يذكروك فى أماكن أخرى بمدى نفوذ الأمم المتحدة: فمن خلال وكالاتها العديدة فى مجالات السكان والبيئة والزراعة والتنمية والتعليم والطب ورعاية اللاجئين، بالإضافة إلى أشياء كثيرة أخرى، تعالج الأمم المتحدة المشكلات والتحديات التى لا يمكن لمعظم أهل الغرب أن يبدأوا فى تصورها.

ثم إن هناك حفظ السلام: فبين جنودها ذوى البيريهات الزرقاء، ومراقبى الحدود التابعين لها، ومدربى أفراد الشرطة، ومراقبى الانتخابات، ومفتشى الأسلحة، وغيرهم، تحشد الأمم المتحدة قوة تحقيق سلام وحفظ سلام ليست أصغر بكثير من مجموع القوات العسكرية الأمريكية فى العراق. وعند النظر إليها من هذه الزاوية سيبدو العالم حتماً مكاناً أسوأ بكثير لو لم تكن الأمم المتحدة موجودة.

وربما كان مؤسسو الأمم المتحدة، خاصة الأمريكيين منهم سيفاجأون من الجدل المثار حولها حالياً. وإذا عدنا إلى عام ١٩٤٥ لوجدنا أنه كان هناك حماس شديد للمشروع الذى بدت أغراضه والمبرر من إنشائه جلية لا تحتاج إلى توضيح. وكان حجم الكارثة التى جلبتها الدول القومية فى العالم على أنفسها هو الذى مهد الأرض للتفاؤل؛ فمن المؤكد أنه سيكون لدى الحكومات والشعوب من المعرفة ما يجعلها لا تسمح بحدوث ذلك مرة أخرى. وسوف تكون الأمم المتحدة وميثاقها ووكالاتها الوسيلة المختارة للوقاية. وسوف تعالج أوجه القصور الخاصة بعصبة الأمم، وسوف تعمل الدول القوية ذات السيادة من خلال الأمم المتحدة ولن تتحايل عليها أو تعمل ضدها.

من المؤكد أن الأمم المتحدة تعانى من المشاكل بعد ستة عقود. وإحدى هذه المشاكل موجودة منذ البداية. ففى أعقاب سقوط النازية التى حوكم قادتها الذين بقوا على قيد الحياة فى نورمبرج لارتكابهم جريمة «التخطيط لحرب عدوانية والإعداد لها والشروع فيها وشنها»، أكد مؤسسو الأمم المتحدة على تأمين الدول ذات السيادة ضد التدخل الخارجى، بما فى ذلك تدخل الأمم المتحدة نفسها، إلا فى الظروف غير العادية إلى حد كبير. وينص البند السابع من المادة الثانية على أنه «ليس فى هذا الميثاق ما يُسوّغ للأمم المتحدة أن تتدخل فى الشئون التى تكون من صميم السلطان الداخلى لدولة ما».

غير أن الأمم المتحدة كانت تعتزم كذلك أن تكون أكثر استباقاً من عصبة الأمم حين يتعلق الأمر بمنع الحكام والحكومات من الإساءة إلى المواطنين وغيرهم من الأشخاص داخل حدودهم. وبمرور الوقت ظهرت توقعات ملحة فيما يتعلق بحقوق الإنسان ومعاملة الأقليات .التى يمكن أن تكون الإساءة إليها دافعاً للتدخل الدولى. وتفاقم هذا التناقض الواضح بين السيادة والنزعة الدولية مع تزايد عدد الدول، التى يسئ الكثير منها إلى رعاياه بطبيعة الحال؛ وكذلك مع زيادة عدد الدول الفاشلة، حيث تصبح طبيعة السيادة نفسها غير واضحة.

فى تسعينيات القرن العشرين فى هايتى والصومال والبوسنة ورواندا، واليوم فى العراق والسودان، من الذى ينبغى على الأمم المتحدة أن تتعامل معه فى الواقع؟ مع الزعيم المحلى المجرم؟ أم مع النظام نفسه المسئول عن الأزمة فى البداية؟ فى عصر العولمة، ومع ظهور الشركات متعددة الجنسيات وغيرها من الكيانات الاقتصادية التى ليست دولاً

بحال من الأحوال ولكنها فاقت الكثير من الدول في الثروة والنفوذ، وحين تكون أشد الإساءات في الغالب من صنع الجهات الفاعلة التي ليست دولاً، تصبح الوظائف الجوهرية للدولة التقليدية مضطربة ويكون من غير الواضح من الذي ينبغي عليه القيام بتلك الوظائف، وكيف يقوم بها. في تلك الفترات، ما دور الأمم المتحدة، باعتبارها فكرة ومؤسسة متأصلة الجذور كما يوحي اسمها، في عصر الدول القومية؟

مقارنةً بتلك المآزق الطارئة، قد تفترضون أن المشاكل التي واجهتها الأمم المتحدة وتواجهها باستمرار (شأنها في ذلك شأن أية بيروقراطية ضخمة الحجم)، عند العمل بكفاءة والقضاء على المحسوبية والرشوة، لن تسيطر على الجدل الدائر بشأن دور المنظمة في العالم. ولكنكم قد تكونون مخطئين في افتراضكم هذا. فمنذ حكم ماكارثي على الأمم المتحدة بأنها عميل للنفوذ الشيوعي وهناك من المعلقين الأمريكيين من يجد سعادة شديدة في تلطيخ سمعة هذه المؤسسة. وصاحب أحدث وأسوأ هجوم ضمن سلسلة الهجمات هذه هو إيريك شون الذي يدعي لنفسه صفة «الصحفي».

يزعم شون، شأنه في ذلك شأن الكثير من منتقدي الأمم المتحدة العنيدين، أنه يتمنى الخير لهذا المكان: «إنني أنضم إلى كثيرين في تحررهم إلى حد كبير جداً من الوهم، ذلك أن النموذج المثالي النبيل تحول إلى معقل للغطرسة، وفي أحيان كثيرة مرتعاً للكسل والتراخي». ولكن هذا الهراء الملطف سرعان ما يحل محله «تحقيق» لاهث حول سجل جرائم الأمم المتحدة. فالأمم المتحدة «تزخر بالعجز الشديد» و«يتمتع سفراء الأمم المتحدة وهيئة العاملين فيها بأساليب الحياة الفخمة والمعفاة من الضرائب في مانهاتن وغير ذلك من الامتيازات». وهنالك اهتمام شهواني بأخبار «صانعي السلام... الذين يغتصبون الفتيات اللائي في الثانية عشرة من أعمارهن ويمارسون الجنس معهن». وقد لُخص ذلك على «چاكت» الكتاب على هذا النحو: «كيف أحال العاملون بالأمم المتحدة مراراً وتكراراً الأطفال إلى فرائس جنسية لهم». وهنالك نبرة ازدراء في كل إشارة إلى كوفي أنان «رئيس عصابة عالم الأمم المتحدة».

غير أن وراء هذا الكلام المطوَّل الممل، الذي تعيد نبرته وبإخلاص فوكس نيوز التي يعمل بها مستر شون، غرضاً خطيراً. والأمر الذي يمقته شون وزملاؤه بشأن الأمم المتحدة هو العقبة التي مثلتها أمام الأهداف الأمريكية، وعلى رأسها غزو العراق. ذلك أن أية دولة أو مجموعة من الدول تجرؤ على معارضة اتجاه أمريكا نحو الحرب يغضب مستر شون. ويثير غضبه كذلك أن يصبح من الواجب على عضو معين من أعضاء مجلس الأمن. فرنسا. أن يعترض على جهود واشنطن التي توقع المجتمع الدولي في مأزق: فرفض فرنسا ودول أخرى إرسال ١٠٠ ألف جندي آخرين «لمساعدة العراق على تحقيق الاستقرار التام» يعد «خيانة للشعب العراقي»، كما أنه «أوضح مثال على عدم التناسب الأخلاقي والسياسي مع ما تمثله الأمم المتحدة».

لا يقتصر الأمر على الفرنسيين بطبيعة الحال. ذلك أنه حسبما يقوله شون، فإن الأمم المتحدة بكاملها مجهزة على أساس الحصول على الأموال الأمريكية في الوقت الذي تدعم فيها أعداء أمريكا وتضر بمصالحها. فكبار موظفي الأمم المتحدة معادون بالفطرة لأمريكا. والأدلة المؤيدة التي سيقت في حالة الإنجليزي مارك مالوك براون، نائب الأمين العام للأمم المتحدة، توضح بدقة منهج المؤلف. ففي عام ١٩٨٣ وقف مالوك براون (دون أن يوفَّق) مرشحاً لعضوية البرلمان عن الحزب الديمقراطي الاجتماعي. وبعد عشرين عاماً، في عام ٢٠٠٣، صوت الحزب الديمقراطي الليبرالي البريطاني، خليفة الحزب الديمقراطي الاجتماعي الذي حُلَّ، ضد قرار توني بلير الخاص بإرسال قوات إلى العراق. فقد كان المكان يعج بكثيرين على شاكلة مالوك براون لديهم ماضٍ ملوث مماثل:

«لا ينبغي أن تغفر للأمم المتحدة بسبب دورها في الحرب لمجرد أن الانتخابات الديمقراطية أُجريت مؤخراً في العراق. فمن حق الأمريكيين تلقي الإجابات من شاغلي ذلك المبنى المستطيل المطل على النهر الشرقي في مدينة نيويورك».

تظهر كراسة شون حاملةً مظهر الجدارة بالاحترام: فهي منشورة بدعم من كتب پنجوين، وتحمل تقريظاً بقلم رودولف چيولياني عمدة نيويورك السابق. ويفخر المؤلف بذكر صلاته برجال مثل تشارلز هيل، الدبلوماسي المتقاعد المقيم بجامعة يل ومصدر بعض عبارات شو المقتضبة الأكثر حقداً. ولكن «فضح الأمم المتحدة» هو في واقع الأمر مجرد ممارسة لاغتيال الشخصية والغل المتنكر في صورة صحافة. فلو كان إيريك شون جاداً بشأن بحث مشاكل الأمم المتحدة لشغل نفسه على نحو أكثر فائدةً بالحديث مع پول كنيدي بدلاً من چيولياني عند زيارته لنيو هافين.





لحظة كسوف

أحدث كتب پول كنيدى وعنوانه «برلمان البشرية» مقدمة شاملة ويسهل فهمها لتاريخ الأمم المتحدة ومهامها ومآزقها. وهو دراسة جذابة وجادة بقلم باحث لم يغب نظره عن الحقيقة الأكبر التى تتضمنها عباراته الختامية، بالرغم من تجميعه لأحزان المنظمة. فهو يقول إن «الأمم المتحدة جلبت منافع عظيمة لجيلنا، وسوف تجلب المنافع كذلك لأجيال أبنائنا وأحفادنا، وبالعزم والسماحة المدنيين من جانبنا نحن جميعًا الذين يمكننا الإسهام بالمزيد فى عملها».

الانطباع الأول الذى يخرج به المرء من قراءته لكتاب كنيدى، وكذلك من رواية چيمس تراوب الممتازة لما وقع فى السنوات الأخيرة من فترة تولى أنان لمنصبه هو أن كبار موظفى الأمم المتحدة خدموها خدمة جيدة على نحو لا يخفى على أحد. وفى السنوات القليلة الماضية قلت جودة المناصب الكبرى فى الخدمة المدنية والمعينين فى مناصب دبلوماسية فى كثير من الدول الغربية، حيث تغرى الرواتب وفرص العمل فى القطاع الخاص الشباب والشابات بالانصراف عن الوظائف العامة. ومع ذلك فقد ظلت الأمم المتحدة تعتمد على موظفى الخدمة المدنية الذين هم على قدر غير عادي من الموهبة والالتزام. وكان ذلك صحيحًا فى أيامها الأولى، حين كان يديرها ساسة من قبيل داج همرشلد ورالف بانش وكانت تجتذب أصحاب النزعة المثالية كبرايان أوركهارت وكان أول ضابط بريطانى يدخل بيرجن بيلسن وهو معسكر الاعتقال الذى أقامه النازيون جنوب مدينة هامبورج الألمانية ورينيه كاسان (القاضى الفرنسى الذى وضع مسودة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان).

وما زال ذلك يصدق على وقتنا هذا. فالأمناء العامون أنفسهم معينون سياسيون من نوعيات مختلفة (لم يصنع أى من كورت فالدهايم أو بطرس بطرس غالى لنفسه مجدًا). ولكن أية حكومة يمكنها التباهى بخدمات الأخضر الإبراهيمى (رئيس مهمة الأمم المتحدة فى أفغانستان فى الفترة من أكتوبر ٢٠٠١ حتى يناير ٢٠٠٥)، أو محمد البرادعى (المدير العام لوكالة الطاقة الذرية منذ عام ١٩٩٧)، أو مارى روبنسون (المفوضة السامية لحقوق الإنسان، ١٩٩٧-٢٠٠٢)، أو لويز أربو (خليفتها وكبيرة المحققين السابقة فى المحكمة الجنائية الدولية ليوجوسلافيا السابقة ورواندا)، أو الراحل سيرجيو فييرا دى ميللو، أو چان مارى جيهينو (رئيس عمليات حفظ السلام منذ أكتوبر عام ٢٠٠٠). أو فى الواقع كوفى أنان نفسه، أكثر الأمناء العامين إثارة للإعجاب منذ داج همرشلد.

فما الذى أنجزته الأمم المتحدة؟ أول ما أنجزته الأمم المتحدة هو أنها بقيت على قيد الحياة. ففكرة الوكالة الدولية الخاصة بحل الصراعات ومعالجة المشاكل فكرة قديمة، حيث تعود جذورها إلى أحلام القرن الثامن عشر الكانطية الخاصة بالسلام الأبدى. وكانت التجسيدات المبكرة والجزئية، جمعية الصليب الأحمر الدولية (تأسست عام ١٨٦٤)، ومؤتمر لاهاى للسلام فى عامى ١٨٩٩ و١٩٠٧ واتفاقيات جنيف التى أدى المؤتمر إلى ظهورها، وعصبة الأمم نفسها. تفتقر إلى الشرعية والقدرة على التنفيذ فى عالم من الدول القومية المتحاربة. فى المقابل استفادت الأمم المتحدة من تعادل القوى خلال عقود الحرب الباردة وعصر إنهاء الاستعمار، حيث كان كل منها ساحة ومنتدى طبيعيًا للجدل حول القضايا الدولية؛ وكانت تباركها منذ البداية وحتى وقت قريب مساندة الولايات المتحدة.

استفادت الأمم المتحدة كذلك، إن صح التعبير، من الزيادة المطردة فى حجم المسئوليات الدولية التى لم يرغب سواها فى تحملها، أو كما يقول كنيدى «كانوا يلقون بالأطفال اللقطاء على باب الأمم المتحدة فى وسط الليل»: من الكونغو فى عام ١٩٦٠ مرورًا بالصومال وكمبوديا ورواندا والبوسنة فى التسعينيات وصولاً إلى سيراليون وإثيوبيا-إريتريا، والكونغو (مرة ثانية) فى الوقت الراهن. وقد فشل الكثير من تلك المهام، وتكلفت جميعها الكثير من المال. ولكنها تذكارات حية للسبب الذى وراء ضرورة وجود منظمة دولية من نوع ما. وهى تمثل أكثر مشروعات الأمم المتحدة وضوحًا فحسب.

نظرًا لوجود أكثر من أمم متحدة فى واقع الأمر، فإن فروعها السياسية والعسكرية (الجمعية العامة، ومجلس الأمن، وعمليات حفظ السلام) هى وحدها الأكثر شهرة. وهذه بعض الفروع الأخرى فحسب: اليونيسكو (منظمة التعليم والعلوم والثقافة التى تأسست فى عام ١٩٤٥)، واليونيسيف (صندوق الأمم المتحدة لرعاية الطفولة، ١٩٤٦)، ومنظمة الصحة العالمية (١٩٤٨)، والأونروا (وكالة غوث وتشغيل اللاجئين، ١٩٤٩)، والمفوضية السامية للاجئين (١٩٥٠)، والأونكتاد (مؤتمر التجارة والتنمية، ١٩٦٣)، والمحكمة الجنائية الدولية الخاصة بيوجوسلافيا السابقة (١٩٩٣). ولا تشمل هذه الوحدات المتعدية للقوميات البرامج البيحكومية التى تُدار تحت رعاية الأمم المتحدة، كما أنها لا تغطى الكثير من الوكالات الميدانية التى أُنشئت لمعالجة أزمات بعينها. والنجوماب (وهى مهمة المساعى الحميدة فى أفغانستان وباكستان التى أشرفت بنجاح على الانسحاب السوفيتى من هناك، والأونامسيل (مهمة سيراليون، ١٩٩٩)، والأونميك (مهمة كوسوفو، ١٩٩٩)، والكثير من المهام السابقة واللاحقة لها.

جزء كبير من العمل الذى تؤديه تلك الوحدات عمل روتينى. والمهام «اللينة» التى تقوم بها الأمم المتحدة. معالجة مشكلات الصحة والبيئة ومساعدة النساء والأطفال الذين يعانون من أزمات، وتثقيف المزارعين، وتدريب المعلمين، وتوفير القروض الصغيرة، ومراقبة انتهاك الحقوق. تؤديها فى بعض الأحيان على نفس القدر من الجودة الوكالات القومية أو غير الحكومية، وإن كان ذلك لا يجرى إلا بتحريض من الأمم المتحدة وفى أعقاب مبادرة برعاية من المنظمة الدولية. غير أنه فى عالم تفقد فيه الدول المبادرة لمصلحة الكيانات الفاعلة من غير الدول كالاتحاد الأوروبى والشركات متعددة الجنسيات، هناك أشياء كثيرة لن تحدث بالمرة ما لم تقم بها الأمم المتحدة أو ممثلوها. اتفاقية حقوق الطفل التى ترعاها اليونيسيف فى هذه الحالة. وبينما تكلف هذه المنظمات المال، ينبغى أن نتذكر أن ميزانية اليونيسيف، على سبيل المثال، أقل كثيرًا من ميزانية العديد من الشركات الدولية.

وتعمل الأمم المتحدة كأحسن ما يكون عندما يعترف الجميع بمشروعية دورها. فعند مراقبة الانتخابات أو الهدنة أو الإشراف عليها، على سبيل المثال، غالبًا ما تكون الأمم المتحدة المحاور الخارجى الوحيد الذى تعترف الأطراف المتصارعة جميعها بنواياه الحسنة وسلطته الشرعية. وحيثما لا يكون الحال كذلك. كما فى سربرينتسا فى عام ١٩٩٥، على سبيل المثال. تكون النتيجة مفجعة، حيث لا يمكن لقوات الأمم المتحدة استخدام السلاح للدفاع عن نفسها ولا تستطيع التدخل لحماية الآخرين. وبذلك فإن شهرة الأمم المتحدة فيما يتعلق بالنزاهة وحسن النية هى أهم أصولها طويلة المدى. وبدونها تصبح المنظمة مجرد أداة أخرى من أدوات دولة أو أكثر من الدول القوية، وكانت ستثير الاستياء على ذلك النحو. وهكذا فقد حال رفض مجلس الأمن فى عام ٢٠٠٣ التصريح بالحرب المفجعة على العراق الأمم المتحدة دون فقدان الثقة المحتمل فى المنظمة الدولية بشكل نهائى فى أعين جزء كبير من سائر العالم.

منذ حكم ماكارثى على الأمم المتحدة بأنها عميل للنفوذ الشيوعى وهناك من المعلقين الأمريكيين من يجد سعادة شديدة فى تلطيخ سمعة هذه المؤسسة

من السهل حصر المشاكل العملية التى تواجهها الأمم المتحدة فى تحقيق التوقعات المنتظرة. فكل شىء تفعله يكلف مالاً، ولا يكون لدى الأمم المتحدة مال إلا عندما تقدمه الدول الأعضاء. ولا بد أن نتذكر أن الأمين العام وهيئة العاملين معه لا ينفذون إلا رغبات الأعضاء فحسب. وليس لدى الأمم المتحدة جيش أو قوات شرطة خاصة بها. وفى الماضى كانت هولندا واسكندنافيا وكندا («الشمال المهموم») إلى جانب حفنة من الدول الأخرى مثل بولندا وإيطاليا والبرازيل والهند، تمد الأمم المتحدة بالجنود المدربين والمجهزين لتحقيق أغراضها. أما فى الوقت الراهن



لحظة كسوف

فإن القوة العسكرية التابعة للأمم المتحدة توفرها على الأرجح دول فقيرة من إفريقيا أو آسيا بحاجة إلى أموال الأمم المتحدة، غير أن جنودها يفتقرون إلى الخبرة والنظام ودائماً لا يُحسب لهم حساب على نحو جيد من جانب هؤلاء الذين أتوا لحفظ سلامهم. وبطبيعة الحال لا بد من جمع قوة عسكرية جديدة لكل أزمة.

ومن الواضح أنه إذا كان لا بد للأمم المتحدة من ممارسة «مسئولية الحماية» الطارئة الخاصة بها. التى لم تكن جزءاً من تصميمها الأصلى. فهى بحاجة إلى جيش خاص بها (وهو ما اقترحه برايان أوركهارت وآخرون). وتبعاً لما عليه الحال فى الوقت الراهن، حتى عندما يوافق مجلس الأمن على السماح بمهمة عسكرية، لا بد للأمين العام من بدء جولة لا تنتهى من المفاوضات والتزلف من أجل الحصول المال والجنود وقوات الشرطة والممرضات والسلاح والشاحنات والإمدادات. فبدون هذه المساعدة الإضافية تصبح المنظمة لا حول لها ولا قوة. وقد حدث فى عام ١٩٩٣ أن تعدت مصاريف حفظ السلام وحدها ميزانية الأمم المتحدة السنوية بالكامل بنسبة تزيد على ٢٠٠ بالمائة. ولذلك فسوف تظل تدخلات الدولة الواحدة (الفرنسيون فى كوت ديفوار أو تشاد، والبريطانيون فى سيراليون)، أو التحالف البديل للأمم المتحدة، كهجوم الناتو على صربيا فى عام ١٩٩٩، الحلول الأسرع والأكثر فاعلية فى الأزمات من الأمم المتحدة.

مجلس الأمن، وهو اللجنة التنفيذية للأمم المتحدة، هو نفسه إحدى المشاكل التى تستعصى على الحل. فمعظم الدول الأعضاء تتناوب على عضويته، ولكن هناك خمسة أعضاء دائمون لم يتغيروا منذ عام ١٩٤٥. والوضع الخاص للولايات المتحدة والصين وروسيا (اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية سابقاً) يثير الاستياء ولكنه ليس موضع شك فى واقع الأمر. غير أن دولاً كثيرة تعبر فى الوقت الراهن عن ضيقها من المزايا التى لا تزال بريطانيا العظمى وفرنسا تتمتعان بها. فلم لا تكون ألمانيا بدلاً منهما؟ أو لم لا يكون هناك مجرد مقعد «أوروبى» تتناوب عليه الدول؟ ألا ينبغى أن يكون هناك عضو جديد واحد على الأقل: على سبيل المثال البرازيل أو الهند أو نيجيريا، مما يعكس التغيرات التى طرأت على العالم منذ عام ١٩٤٥؟ لقد اكتسب الفرنسيون لأنفسهم مهلة مؤقتة بفضل موقفهم الذى يحظى بشعبية على المستوى الدولى ضد الحرب العراقية، ولكن هذه الشكاوى لن تختفى.

ولأن الاتفاق على إصلاح مجلس الأمن أمر يصعب التوصل إليه. فلا أحد يريد التخلى عن حق النقض (الفيتو)، كما أن إضافة أعضاء جدد يتمتعون بحق النقض سوف يجعل الأمور أشد سوءاً. فإن هناك بعض المشاكل المتوطنة. فما دامت الصين (وأحياناً روسيا) تختار حماية حقوق «السيادة» الخاصة بالأنظمة المثيرة للجدل كالسودان الذى تقوم بينها وبينه أعمال تجارية، فسوف تعجز الولايات المتحدة عن التدخل لمنع أعمال الإبادة الجماعية فى دارفور. وما دامت الولايات المتحدة تمارس حق النقض على قرارات مجلس الأمن التى فيها إحراج لإسرائيل، فسوف تكون الأمم المتحدة عاجزة فى الشرق الأوسط. بل إنه عندما يصوت مجلس الأمن بالإجماع. كما فعل فى شهر أغسطس الماضى فى دعوته إلى وقف إطلاق النار فى لبنان. فإن رفض عضو قوى واحد (هو الولايات المتحدة فى هذه الحالة) لإجبار الدولة التابعة له على الإذعان للقرار يكفى لإضعاف إرادة المجتمع الدولى كله.

سوف يرد منتقدون كثيرون بأن ذلك مرجعه إلى أنه ليس هناك مجتمع دولى. فآليات مجلس الأمن والجمعية العامة (برلمان الأمم المتحدة)، حسبما يقول جيمس تراوب المتعاطف بصفة عامة، «مشلولة». ذلك أن ممثلى دول العالم يأتون إلى نيويورك كى يعلنوا ويعرضوا، ولكنهم لا يشكلون «مجتمعاً» ذا مصالح وأهداف مشتركة؛ وحتى إذا شكلوا ذلك «المجتمع»، فإن الأمم المتحدة ستكون عاجزة عن تحقيق تلك المصالح والأهداف المشتركة. ومن ثم تتزايد الدعوة إلى «الإصلاح». ولكن ما الذى يعنيه ذلك؟ إن ما يعنيه هو أن الأمم المتحدة بحاجة إلى أشياء كثيرة. فلا بد لها من امتلاك قدرات خاصة بها لتجميع المعلومات الاستخباراتية، إذ من المؤكد أنه من الأفضل لها توقع حدوث الأزمات وتحليلها. ولا بد أن تصبح أكثر كفاءةً فى اتخاذ القرارات وتنفيذها. ويمكنها الحد من لجانها وبرامجها المتداخلة، وترشيد لوائحها وتشريعاتها ومؤتمراتها وإنفاقها. ولا بد أن تكون أكثر وعياً مما هى عليه حتى الآن بالعجز والفساد. وكما اعترف كوفى أنان نفسه، فإن إدارة الأمم المتحدة «مشكلة... بحاجة إلى إصلاح».

ولكن إصلاح ممارسات الأمم المتحدة سوف يعنى إصلاح سلوك الدول الأعضاء فيها. فالكل ابتداءً من الولايات المتحدة حتى أصغر دويلة فى إفريقيا جنوب الصحراء لها أجندتها ومصلحتها الثابتة، وقليل من الأعضاء من سيضحى بما له من مزايا من أجل الأهداف للمجتمع بعمومه. وهكذا فإن التأكيد الدائم على «التوزيع الجغرافى العادل» (وليس القدرة) عند تحديد عضوية اللجان أمر له مزاياه؛ فهو يساعد على حماية الدول الصغيرة الهامشية من استبعاد الدول الغنية وتحالفات القوى لها. ولكنه أفرز كذلك لجنة حقوق إنسان تضم السودان باعتباره عضواً من حقه التصويت، وأتى بإعلان اليونيسكو الشهير فى عام ١٩٧٨ الداعى إلى فرض قيود على حرية الصحافة. وحذر كوفى أنان نفسه مؤخراً من أن مجلس حقوق الإنسان (الذى يضم حالياً من بين أعضائه أذربيجان وكوبا والمملكة العربية السعودية) سوف يشوه سمعته على الفور إن هو ركز بشكل كبير على انتهاكات إسرائيل للحقوق بينما يتجاهل «الانتهاكات الخطيرة التى تقوم بها دول أخرى كذلك». ولكن العقبات تظل قائمة.

من المحزن أن كبرى العقبات جميعاً هى الدولة الأقوى فى الأمم المتحدة والممول الرئيسى لها، أى الولايات المتحدة. وكان هناك اهتمام كبير فى السنة الماضية بالشخصية غير المتعاطفة على نحو كبير للمندوب الأمريكى فى الأمم المتحدة جون بولتون الذى تخلى الرئيس بوش على مضض عن محاولة تجديد تعيينه المؤقت، وكان بولتون عقبة كبيرة فى سبيل عمل الأمم المتحدة بسهولة ويسر على مستويات عدة. وكما يوضح جيمس تراوب، فإن الجهود المخلصة من أجل الإصلاح المؤسسى والإجرائى على امتداد العامين الماضيين كان يقضى عليها بولتون والفريق الذى يعمل معه، حيث كان يطالب بـ«إصلاح إدارى ضخم» فى حين أنه كان يحول دون التوصل إلى أية تسويات قد تحقق ذلك بالفعل.

الواقع أن بولتون كوّن تحالفاً فعلياً مع زيمبابوى وروسيا البيضاء وغيرهما من الدول التى لها أسبابها الخاصة ببقاء الأمم المتحدة غير فعالة وبعيدة عن شئونها الداخلية. ولأن الولايات المتحدة رفضت التنازل قيد أنملة فى المفاوضات الأخيرة بشأن إصلاح مجلس حقوق الإنسان، أو إنشاء لجان بناء السلام، أو النظام الدولى الجديد لنزع السلاح، فلم تجد الدول التى كان من الممكن أن تتراجع عن موقفها لولا ذلك (إيران وباكستان على وجه الخصوص) أية غضاضة فى رفض القيود الأشد صرامة على انتشار الأسلحة النووية، على سبيل المثال. أما الدول الأعضاء (الأوروبية فى الغالب) التى كانت تبحث عن سبل لمبادلة السيادة القومية بنظام قانونى دولى أكثر فاعلية أو مجموعة من القواعد القابلة للتطبيق الخاصة بالعمل الجماعى فقد وجدت نفسها ضمن أقلية دائمة.

لم يعارض بولتون الإصلاح الفعال للأمم المتحدة فحسب، بل انتهز كل فرصة لازدراء المؤسسة نفسها، حيث وصفها مراراً بأنها «عاجزة» و«لا تتناسب مع مقتضى الحال». وقد وضع بذلك بلده ضمن صحبة غريبة بلا شك. فبعد أن صوتت الولايات المتحدة فى ديسمبر من عام ٢٠٠٦ على قرار مجلس الأمم الذى يدين إسرائيل لقتلها تسعة عشر مدنياً فلسطينياً فى بيت حانون، وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة (حيث لا وجود فيها لحق النقض) على نص يعبر عن «الأسف» على تلك الوفيات. ولكن الولايات المتحدة عارضت حتى تلك الخطوة، حيث انضم إليها فى ذلك حلفاؤها المعتادون. إسرائيل وبالاو وجزر مارشال. وأستراليا فى تلك المرة. وفى وقت حق من ذلك العام، عندما وصلت فى آخر

تعمل الأمم المتحدة كأحسن ما يكون عندما يعترف الجميع بمشروعية دورها. فعند مراقبة الانتخابات أو الهدنة أو الإشراف عليها، غالباً ما تكون هى المحاور الخارجى الوحيد الذى تقدره جميع الأطراف



لحظة كسوف

المطاف المقترحات الخاصة بإصلاح مجلس حقوق الإنسان إلى قاعة الجمعية العامة، صوتت ١٨٨ دولة لصلحة تنفيذها. وكانت هناك أربعة أصوات ضدها، وهى إسرائيل وجزر مارشال والولايات المتحدة. وروسيا البيضاء.

ربما كان أسلوب بولتون الشخصى مميزاً، ولكن تصويته كان يجرى نيابة عن رؤسائه فى واشنطن. وقد سرت لبعض الوقت شائعة تقول إن كره بولتون الشديد للأمم المتحدة لا يمثل فى واقع الأمر الرأى الأمريكى الرسمى: فكوندوليزا رايس «ركنت» بولتون على شاطئ النهر الشرقى بنيويورك لمنعه من إحداث دمار فى واشنطن. ولكن حتى إذا كان ذلك صحيحاً، فإنه يبين فحسب أن وزيرة الخارجية الأمريكية وزملاءها أقل احتراماً للأمم المتحدة مما كان يُفترض من قبل: ذلك أن تعيين بولتون فيها فُسر على نطاق واسع باعتباره تعبيراً ينم عن الاحتقار.

والواقع أن بولتون لم يكن المشكلة ذاتها، بل كان أحد أعراضها فحسب. ذلك أن «السلوك العدائى الاستباقى» التى اتسم به، ووصفه للأمم المتحدة بأنها «منطقة الغسق»، وعادته الخاصة بتسمية المعاهدات «الالتزامات السياسية» بدلاً من الالتزامات القانونية، على سبيل المثال، قد لا تبدو سوى استفزازات خطابية يتفوه بها بلطجى محترف؛ ولكن الواقع أنها تعكس تغيراً مزلزلاً فى علاقات أمريكا مع سائر العالم. إذ كان الرؤساء الأمريكيون منذ ترومان حتى كلينتون يقدرون بصورة عامة أن بإمكان الولايات المتحدة الحصول على الكثير جداً من الأمم المتحدة. الدعم السياسى، والإذعان الدولى، والتغطية القانونية. مقابل ذلك القدر اليسير الذى تتحمله من الأموال والحلول الوسط. أما اليوم فنحن نعارض أدنى حد من التنازل. وهذا أمر مستجد. وإذا ما عدنا إلى الحرب الباردة سنجد أن خروشوف دق بحذائه على طاولة الأمم المتحدة؛ فقد كانت موسكو هى التى تفرض القيود على كل مبادرة من مبادرات الأمم المتحدة وتعارض بشدة أية قيود على «الحقوق» السيادية الخاصة بها. أما الآن فواشنطن هى التى تقوم بهذا الدور. وهو مؤشر دال ليس على القوة وإنما (كما فى الحالة السوفيتية) على الضعف.

إن دولة مشاكسة مثل الولايات المتحدة تتوقع من الأمم المتحدة إزالة آثار ما أحدثته وعمل المعجزات الدولية بصورة عامة ولكنها تعارض بشدة تزويدها بالوسائل التى تمكنها من ذلك وتعقد النية على تقويض مصداقيتها فى كل منحى من المناحى، لهى عقبة كأداء ومصدر أساسى لكل العيوب التى يستهجنها المعلقون الأمريكيون فى الوقت الراهن. وفضائح الأمم المتحدة التى فاحت رائحتها فى الماضى القريب. وبالأخص فضيحة «النفط مقابل الغذاء». تافهة ولا أهمية لها؛ فمن المؤكد أنها أحدثت ضرراً أقل (وحققت قدراً أقل بكثير من المكاسب الخفية) من أى عدد فضائح الشركات الكبرى فى الولايات المتحدة وأستراليا وأماكن أخرى؛ ناهيك عما لم يتم حسابه بعد من فساد وسرقة نشأت عن حرب العراق وما أعقبها. أما الفضائح الكبرى. معالجة الأمم المتحدة الرعناء لمأساة البوسنة، وعجزها فى رواندا، وعدم اتخاذها أى إجراء بشأن دارفور. فيمكن إرجاعها جميعاً على نحو مباشر إلى التردد (أو ما هو أسوأ من ذلك) الذى تتسم به الدول الكبرى، ومنها الولايات المتحدة.

فهل مصير الأمم المتحدة هو الفشل، لتلقى بالتالى مصير عصبة الأمم المتحدة التى أساءوا إليها بدون وجه حق؟ ربما لا يكون الأمر كذلك. غير أن مصير عصبة الأمم يذكرنا بتردد الولايات المتحدة المستمر فى استيعاب دروس المائة سنة الأخيرة من التاريخ. وعلى أية حال، فإن القرن العشرين مضى فى مصلحة الولايات المتحدة إلى حد كبير. وعادة افتراض أن ما نجح فى الماضى سوف يستمر نجاحه فى المستقبل عادة مغروسة بعمق فى التفكير الأمريكى. وفى المقابل فليس من قبيل المصادفة أن حلفاءنا الأوروبيين. الذين كان القرن العشرون بالنسبة لهم فاجعة أحدثت فى نفوسهم صدمة مروعة. مجبولون على قبول أن التعاون، وليس الصراع، هو الظرف الضرورى للبقاء. حتى ولو كان ذلك على حساب بعض من استقلال السيادة الرسمى. فقد فاقت الخسائر العسكرية البريطانية فى معركة باشنديل التى وقعت فى عام ١٩١٧ وحدها خسائر الولايات المتحدة فى الحربين العالميتين الأولى والثانية معاً. وخسر الجيش الفرنسى فى قتال استمر ستة أسابيع فحسب فى عام ١٩٤٠ ضعف ما خسرته الولايات المتحدة فى فيتنام من القتلى. وفقدت بولندا وألمانيا وروسيا كلها عدداً من الجنود والمدنيين فى الحرب العالمية الأولى. ثم مرة ثانية فى الحرب العالمية الثانية. يزيد على ما خسرته الولايات المتحدة فى كل حروبها الخارجية مجتمعةً (فى حالة روسيا كان العدد عشرة أضعاف فى كل من الحربين). ومثل هذه التناقضات هى التى تجعل طريقتكم فى رؤية العالم مختلفة إلى حد كبير.

وهكذا فإننا الآن فقط يمكن أن نلمح دبلوماسياً أمريكياً وهو يقول، أو حتى يظن، أن «العالم مكان يتسم بالفوضى ولا بد لشخص ما من تنظيفه»، كما قالت السيدة رايس. أما الإجماع الدولى الأوسع فهو يرى على وجه الدقة أنه بما أن «العالم مكان يتسم بالفوضى». وبفضل التجارب المرعبة مع من عينوا أنفسهم «منظفين». فكلما كان ما ننشره من شبكات الأمان أكثر ومن المكانس الجديدة أقل، كانت فرص البقاء أفضل. وكانت تلك فى يوم من الأيام كذلك رؤية النخبة الدبلوماسية الأمريكية. جيل جورج كينان ودين أتشسون وتشارلز بولن(*). التى كانت على معرفة بالواقع الدولى والرؤى الأجنبية على نحو يفوق ما يعرفه الرجال والنساء الذين يديرون السياسة الخارجية فى الوقت الراهن.

لقد فهم أنان ومعاصروه أمراً فات على من خلفوهم. ففى عالم ترى فيه معظم الدول والشعوب، أغلب الوقت، فائدة فى الامتثال للقوانين والاتفاقيات الدولية، فإن من يحتقرون القوانين أو ينتهكونها قد تكون لهم ميزة عابرة. حيث يفعلون ما لا يفعله غيرهم. ولكنهم يعانون من خسارة بعيدة المدى؛ فهم يصبحون منبوذين أو. كما فى حالة الولايات المتحدة. مكروهين بشدة ولا يثق فيهم أحد حتى ولو كان وجودهم أمراً لا يمكن تحاشيه. وبذلك يتلاشى نفوذهم، سواء داخل المؤسسات الدولية التى يؤثرون فيها أو يتجاهلونها أو خارج تلك المؤسسات، مما لا يُبقى لهم شيئاً سوى القوة التى يقنعون بها منتقديهم.

إذا كان لا بد من إعادة الولايات المتحدة إلى رشدها. وإذا كان لابد من استعادة الولايات المتحدة لقيادة المجتمع العالمى التى فقدتها، كما قال كوفى أنان فى كلمة الوداع التى ألقاها فى مكتبة ترومان بإندبندانس بولاية ميزورى. فحينئذ لا بد لها من البدء بالاعتراف، حسب كلمات أيزنهاور، بأنه «رغم كل العيوب، ورغم كل مرات الفشل التى يمكننا تسجيلها ضدها، لا تزال الأمم المتحدة تمثل أفضل أمل منظم للبشر فى الاستعاضة عن ميدان المعركة بطاولة المؤتمرات». ففى أوروبا، لم يتأصل هذا الإدراك إلا بعد أن أمضى الأوروبيون ثلاثين سنة فى تعذيب وقتل عشرات الملايين من الأوروبيين الآخرين؛ أما عندما كانوا يعذبون «السكان الأصليين» فى المستعمرات فحسب ويقتلونهم فلم تكن المواقف تتغير كثيراً.

هنا فى الولايات المتحدة، أثناء كتابة هذا الكلام، ترك مقتل أكثر من ثلاثة آلاف جندى أمريكى فى العراق أثره على الجمهور؛ ولكن قتل مئات الآلاف من العراقيين لم يترك أى أثر بالمرة. والواقع أن أحدث قول مبتذل لحفظ ماء الوجه فى واشنطن هو أن ذنب الكارثة التى استشرت فى العراق يقع على العراقيين أنفسهم؛ فنحن فعلنا ما فى وسعنا ولكنهم خذلونا. وبينما تستمر الولايات المتحدة (بموافقة الكونجرس التامة) فى «تسليم» المشتبه فيهم فى «الحرب ضد الإرهاب» وتعذيبهم، فمن غير المرجح أن نغير آراءنا بشأن قيم المحكمة الدولية أو سيادة القانون الدولى.

إذا أخذنا هذا كله فى الاعتبار، فحينئذ يبدو من غير المرجح أن تغير حتى هزيمة حرب العراق المهينة آراء الكثير من الأمريكيين بشأن مزايا التعاون الدولى. ولكن شيئاً آخر هو وحده الذى قد يغير آراءهم. ذلك أن هناك تجربة دولية مشتركة خاصة بالقرن الحادى والعشرين لا يمكن للمواطنين والساسة الأمريكيين تحاشى مشاركة سائر الأرض فيها، مهما قل ما يعرفونه عن العالم الخارجى، ومهما كانت آراؤهم المتراكمة والمتحيزة بشأنه. وخلال فترة حياة الكثيرين من قراء هذا المقال، سوف ينحدر العالم على نحو أسرع من أى وقت مضى إلى كارثة بيئية.

وليس من قبيل المصادفة أن الدولتين المسئولتين أكثر من غيرهما عن هذا الاحتمال. وهما الصين والولايات المتحدة. هما كذلك عضوا مجلس الأمن الأقل استجابةً للعمل الجماعى بصورة عامة؛ كما أنه ليس من المستغرب أن الرجل الذى اختاراه ليخلف كوفى أنان أميناً عاماً للأمم المتحدة هو بان كى مون الكورى الجنوبى، وهو حتى الآن ليس شخصاً معروفاً بالأجندات الملحة التى يصعب تحقيقها أو يتكلم كلاماً لا يتناسب مع المقام. ولم تكن تصريحاته الأولى، وخاصة الكلام الملتبس الذى قاله بشأن لياقة إعدام صدام حسين، تبعث على الاطمئنان. ولكننا فى العقود المقبلة سوف تواجه كوارث «طبيعية»، وجفافاً، ومجاعات، وفيضانات، وحروباً على الموارد، وتنقلات للسكان، وأزمات اقتصادية، وأوبئة إقليمية على نطاق لم نعهده من قبل.

لن يكون لدى الدول منفردة الوسيلة ولا السلطة العملية. بسبب العولمة. كى تحد من الضرر أو تعوض الخسائر. وسوف تكون الجهات الفاعلة ما دون

الدول، كالصليب الأحمر وأطباء بلا حدود، الأفضل قدرةً على تقديم الإسعافات الأولية. ولن يكون «العمل مع الآخرين». التعويذة التى ستظهر بعد بوش. كافياً على الإطلاق؛ فسوف تكون تحالفات الراغبين (أو الخاضعين) لا حول لها ولا قوة. وسوف نضطر إلى الاعتراف بسلطة وتوجيه هؤلاء الذين يعرفون ما يجب عمله. باختصار، سيكون على العمل من خلال الآخرين: بالمشاركة، وبالتعاون، وبدون اعتبار كبير للمصالح أو الحدود القومية المنفصلة التى سوف تفقد فى أى الأحوال الكثير من معناها. ويقول پول كنيدى إنه بفضل الأمم المتحدة ووكالاتها العديدة، كمنظمة الصحة العالمية، قد تمكنا بالفعل من «خلق آليات دولية للتقييم والرد والتنسيق من أجل الوقت الذى تتلاشى فيه الدول أو تنهار». وسوف يكون علينا تعلم تطبيق ذلك على الظروف التى لا تكون فيها الدول هى من يواجه الانهيار أو الفشل وإنما المجتمعات بكاملها، وحيثما لا يكون للأمريكيين حتى الخيار المطمئن الخاص بمحاربتهم «هناك» كى لا يُضطروا لمحاربتهم «هنا».

الولايات المتحدة، «الفريدة التى لا يمكن استبدالها»، هى كل ما حققناه بواسطة القدرة الجماعية على التعامل مع تلك الأزمة عندما وعيناها أخيراً. ولو لم تكن لدينا مثل هذه المنظمة لكان من المحتمل ألا نعرف كيف نخترعها فى الوقت الراهن. ولكنها موجودة لدينا وفى السنوات المقبلة سوف نعتبر أنفسنا محظوظين بوراثتنا قرارات مؤسسيها، إن لم يكن تفاؤلهم. وبذلك يكون الخبر السار هو أنه على المدى البعيد سوف تقدم الحجة على ضرورة وجود الأمم المتحدة. فالواقع أنه سوف يتضح إذا اضطر مقر الأمم المتحدة لمغادرة ضفة النهر الشرقى فى مانهاتن (الأمر الذى سيريح إيريك شون وأصدقاءه كثيراً)، حيث سترتفع المياه المحيطة بمدينة نيويورك على نحو لا سبيل لمنعه. أما الخبر السيئ فهو بالطبع أننا جميعاً على المدى البعيد سنكون قد متنا. ■

● چورج كينان مخطط سياسات الخارجية الأمريكية فى الأربعينيات وهو الذى وضع سياسة الاحتواء. ودين اتشسون وزير الخارجية فى عهد الرئيس هارى ترومان. وتشارلز بولن ساعد فى صياغة السياسة الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة، وكان مستشاراً لجميع الرؤساء الأمريكيين فى الفترة من ١٩٤٣ حتى ١٩٦٨. (المترجم)

كـــوفـــى أنـــان

نصيحتى للإسرائيليين والفلسطينيين*

■■ أحد أكثر جوانب الصراع الإسرائيلى الفلسطينى إحباطًا هو ذلك العجز الواضح الذى يتسم به أشخاص كثيرون على الجانبين عن فهم موقف الطرف الآخر، وعدم استعداد البعض ولو لمحاولة الفهم. وبصفتى صديقًا ومعينًا للجانبين، أود توجيه رسائل صريحة لكل منهما.

إنه أمر صحيح ومفهوم تمامًا أن تسعى إسرائيل ومؤيدوها إلى ضمان أمنها وإقناع الفلسطينيين، والعرب والمسلمين على نطاق أوسع، بتغيير موقفهم وسلوكهم تجاه إسرائيل. إلا أنه من غير المرجح أن ينجحوا فى مسعاهم لو لم يدركوا هم ويعترفوا بالشكوى الأساسية التى يشكوها الفلسطينيون، وهى أن إقامة دولة إسرائيل انطوى على نزع ملكية مئات الآلاف من العائلات الفلسطينية وتحويلهم إلى لاجئين؛ وأعقب ذلك بعد تسع عشرة سنة أخرى احتلال عسكرى وضع مئات الآلاف من الفلسطينيين الآخرين تحت الحكم الإسرائيلى.

من حق إسرائيل أن تتباهى بديمقراطيتها، وبجهودها لبناء مجتمع يقوم على احترام حكم القانون. غير أن ديمقراطية إسرائيل لا يمكن أن تربو وتزدهر إلا إذا انتهى احتلالها للشعوب الأخرى. وقد اعترف رئيس الوزراء السابق أريئيل شارون بذلك. وقد مرت إسرائيل بتحول ثقافى كبير منذ أيام أوسلو؛ فكل الأحزاب السياسية الإسرائيلية الكبيرة تقر بضرورة إنهاء إسرائيل للاحتلال، من أجل ذلك فى حد ذاته ومن أجل مصلحة أمنها القومى.

ومع ذلك فما زال الآلاف من الإسرائيليين يقيمون فى الأراضى التى احتُلت فى عام ١٩٦٧. ويضاف إليهم ألف أو أكثر آخرون كل شهر. وبينما يرى الفلسطينيون هذا النشاط، فإنهم يرون كذلك الجدار العازل يُبنى فى أراضيهم مما يعد انتهاكًا للرأى الاستشارى لمحكمة العدل الدولية، ويرون كذلك أكثر من خمسة آلاف معبر للتحكم فى تحركاتهم، إلى جانب الوجود المكثف لقوات جيش الدفاع الإسرائيلى. ويأسهم من الاحتلال يزداد فحسب، كما يزداد عزمهم على مقاومة ذلك الاحتلال. ونتيجة لذلك



يميل البعض إلى استثمار جزء كبير من ثقتهم فى هؤلاء الذين يتبعون الكفاح المسلح وليس عملية السلام التى لا يبدو أنها ستحقق هدف الدولة المستقلة المنشود.

أتفق مع إسرائيل ومؤيديها على أن هناك فرقًا - أخلاقيًا وقانونيًا كذلك - بين الإرهابيين، الذى يتعمدون استهداف المدنيين، والجنود النظاميين الذين يجرحون المدنيين أو يقتلونهم دون قصد أثناء العمليات العسكرية، بالرغم من جهود تحاشى وقوع مثل تلك الخسائر. ولكن كلما زاد عدد القتلى والجرحى من المدنيين أثناء تلك العمليات، وكلما كانت الاحتياطات التى تتخذ لتحاشى تلك الخسائر على نحو أكبر من الروتينية كان تلاشى هذا الفرق أكبر. ذلك أن استخدام القوة العسكرية فى المناطق ذات الكثافة المدنية أداة صريحة لا ينتج عنها سوى المزيد من الموت والدمار والتفرقة والانتقام. وكما رأينا فإنه لا يفيد كثيراً فى تحقيق الهدف المنشود الخاص بوقف الهجمات الإرهابية. وقد يرد الإسرائيليون على ذلك بأنهم يحمون أنفسهم فحسب من الإرهاب، وهو الأمر الذى لهم الحق كل الحق فى القيام به. ولكن هذه الحجة تصبح أقل قوة حين يصبح الاحتلال فى الضفة الغربية أشد وطأة ويستمر التوسع الاستيطانى. وسوف تَلْقَى إسرائيل قدراً أكبر من الفهم إذا كانت أفعالها مصممة على نحو يساعد على إنهاء الاحتلال وليس تكريسه.

سوف نعمل جميعاً من أجل تجاوز الوضع القائم التعيس وبلوغ إنهاء يتم التفاوض عليه للاحتلال يقوم على مبدأ الأرض مقابل السلام....

إن تأييد الشعب الفلسطينى الذى عانى كثيراً أمر صائب ومفهوم تماماً. غير أن الفلسطينيين ومؤيديهم لن يكونوا فاعلين بحق إن هم ركزوا فقط على التعديات الإسرائيلية، دون الاعتراف بأى حق أو مشروعية لهموم إسرائيل نفسها، ودون أن يكون لديهم الاستعداد للإقرار بأن خصوم إسرائيل أنفسهم ارتكبوا جرائم مخيفة وغير مبررة. فليست هناك مقاومة للاحتلال تبرر الإرهاب. ولا بد أن نكون موحدين فى رفضنا الذى لا لبس فيه للإرهاب كأداة من الأدوات السياسية....

وربما يشعر البعض بالرضا من موافقة الجمعية العامة المتكررة على قرارات أو عقد مؤتمرات تدين سلوك إسرائيل. إلا أنه ينبغى التساؤل عما إذا كانت تلك الخطوات تأتى للفلسطينيين بأى نوع من الارتياح أو الفائدة الملموسة. فقد مرت عقود من القرارات. وكان هناك نشر للجان الخاصة والجلسات وأقسام الأمانة العامة ووحداتها. فهل كان لأى من هذا كله أى أثر على سياسات إسرائيل سوى تقوية الاعتقاد داخل إسرائيل، وبين الكثير من مؤيديها، بأن هذه المنظمة الكبيرة على قدر من التحيز لا يسمح لها بالقيام بدور مهم فى عملية السلام فى الشرق الأوسط؟

بل إن الأمر الأسوأ هو أن بعضاً من الخطاب المستخدم فيما يتصل بالقضية يوحى برفض الاعتراف بشرعية وجود إسرائيل نفسه، ناهيك عن مشروعية مخاوفها الخاصة بالأمن. ويجب ألا ننسى أن اليهود لديهم من الأسباب التاريخية الوجيهة ما يجعلهم يأخذون أى تهديد لوجود إسرائيل مأخذ الجد. فما فعله النازيون لليهود وغيرهم يظل مأساة فريدة فى تاريخ البشرية لا سبيل إلى إنكارها. واليوم كثيراً ما يواجه الإسرائيليون بكلمات وأفعال يبدو أنها تؤكد خوفهم من أن هدف خصومهم هو القضاء على وجودهم كدولة، وكذلك كشعب.

ولذلك فإنه ينبغى على من يريدون أن يُستمع إلى ما يقولونه بشأن فلسطين ألا ينكروا ذلك التاريخ أو يقللوا من شأنه، أو ينكروا أو يقللوا من شأن تلك الصلة التى يشعر بها يهود كثيرون نحو وطنهم التاريخى. بل إنه ينبغى عليهم الاعتراف بهموم إسرائيل الأمنية، ويوضحون أن انتقادهم لا يقوم على الكراهية أو التعصب، بل على رغبة فى العدل، وتقرير المصير، والتعايش السلمى. ■

● الخطاب الأخير لكوفى أنان عن الشرق الأوسط أمام مجلس الأمن

بترتيب مع مجلة:
The New York Review of Books

ترجمة: أحمد محمود



الفتاة الروسية زويا كوزمودميانسكايا لحظة اعدامها على يدى النازى فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤١ فى قرية قريبة من موسكو، وقد تحولت إلى رمز للمقاومة السوفيتية وأصبحت أسطورة فى أعين الدعاية السوفيتية. (صورة من وكالة الانباء الفرنسية).

من المحرقة إلى شوارع بيروت

ربّات القصاص!

«.. قَالَ يَاوَيلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ..»

(سورة المائدة- الآية٣١)

قبل أشهر قليلة، بثت وكالات الأنباء صورتين متزامنتين متناقضتين تناقض الشرق والغرب...

الصورة الأولى أظهرت الرئيس الإيرانى محمود أحمدى نجاد جالسا إلى منصة«المؤتمر العالمى لمراجعة الهولوكوست»، وسط كوكبة من المؤرخين الداعين إلى إعادة النظر فى «أسطورة المحرقة النازية».

أما الصورة الثانية فكانت لكاتب أمريكى شاب من أصل يهودى يدعى جوناثان ليتل، راح ينفث دخان السيجاريو لأعلى، فى غير مبالاة على طريقة جان بول سارتر أمام عدسات المصورين، بعد أن فاز عمله الروائى الأول* (Les Bienveillantes» المترفقات») بأكبر جائزتين أدبيتين فى فرنسا (جائزة الأكاديمية الفرنسية وجائزة جونكور٢٠٠٦). وفى ظهر الصورة ترد ملحوظة قصيرة مفادها أن الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية فى تسعمائة صفحة من القطع الكبير، والتى وزعت فى ستة أشهر حوالى ثمانمائة ألف نسخة، تصور لحظة بلحظة مأساة الـ «شواه» (وهو الاسم العبرى للإبادة النازية لليهود). الصورة الأولى احتفال للإنكار، أما الثانية فهى احتفاء بالذكرى.

ولو كنت ممن يصدقون الصور، ويرون بعين الهوى، ويحكمون وفقا للجزء الظاهر من جبل الجليد على صفحة الماء الوادع، فستحمد جهود أحمدى نجاد، حتى وإن كان مؤتمره العالمى محض مغازلة انتخابية، وستنفر فى المقابل من المدعو جوناثان ليتل، لأنه أمريكى يحصد الجوائز الفرنسية، ولأنه يهودى يكتب عن الهولوكوست، ولكون اللغة التى يخاطبك بها وجهه فى الصورة تقلقك. ففى الصور القليلة التى جاد بها ليتل على مصوريه، تبدو ابتسامته وكأنها محض تقلص فى عضلات الوجنتين يصحبه ارتخاء فى عضلات الشفتين، أما العينان فترسلان فى جمودهما نظرة غامضة، كأنها نظرة اتهام، قد يسارع البعض إلى إدراجها فى إطار الاستعلاء المهذب، ذلك الذى يصيب الشباب عادة حينما يأتيهم النجاح هائلا ومباغتا ومستحقا، قبل أن تشتعل فى رأس الواحد منهم شعرة بيضاء.

لكن المظاهر - كما تعرف - خادعة.

فإن أردت الحقيقة، فاعلم أن النظرة الجامدة على وجه ليتل هى تلك النظرة التى يعود بها غالبا الإغاثيون والصحفيون - إذا ما قدرت لهم العودة - من نقاط الحروب والنزاعات الساخنة. هى نظرة من اقترب ورأى، فأفزعته تجليات الطبيعة البشرية فى أحط صورها، وأرهبته قسوة الجنون قبل أن تسلبه بسمة عينيه إلى الأبد. فقبل أن يكتب ليتل عن الإبادة أتيح له أن يطالعها وجها لوجه، فى البوسنة وفى الشيشان وفى رواندا وفى الكونغو وفى سيراليون وفى أفغانستان، حيث عمل متطوعا لأكثر من سبع سنوات ضمن حركة «العمل من أجل مكافحة الجوع» الإغاثية.

نعم، المظاهر خادعة. وإن أردت الحقيقة، فاعلم أن رواية «المترفقات» تعمد إلى إعادة جرائم الإبادة النازية إلى أبعادها التاريخية والحضارية الحقيقية. فهى تسحب البساط من تحت كثير من الأقدام التى استمرأت دور الضحية وأرادت احتكاره لنفسها دون غيرها؛ وفى ذات الوقت، تمسك هذه الرواية القاسية بخطافات من حديد لتسحب بها، إلى داخل قفص الاتهام، أطرافا كانت تحلق بأجنحة البراءة فوق مسرح الجريمة. ذلك أن «المترفقات» تعبث فى غير ترفق بأيقونة الهولوكوست «المقدسة»، وتعيد تفسير العلاقة بين الضحية وجلادها من منظور إنسانى عالمى يدين منظومة الحضارة الغربية الحديثة، المنفصلة عن القيمة، المستندة إلى العلمانية المادية المتطرفة. بل إن رواية ليتل تذهب، على هامش مساءلة ميتافيزيقية كبرى حول انزلاق الإنسان إلى الشر، إلى تحديد نقاط الالتقاء الفكرى والبنيوى بين النازية والصهيونية، وتعرض فيما تعرض وسط دهاليز بيروقراطية الإبادة، لمحة مختلسة من أحد فصول التعاون السرى بين النازيين والصهاينة. وهو ما لم يشر إليه أى ناقد غربى من قريب أو بعيد. فكلهم أرادوا اختزال هذه الرواية الملحمية الضخمة بهدف تحويلها إلى لبنة أخرى من لبنات «ياد فاشيم»... فكانت محاولات القراءة المتصهينة المبتسرة، وكانت ردود أفعال القلق المكتوم، وكان الاحتفاء المفتعل الصاخب. ذلك أن بعض الهامات لا يصلح دفنها إلا وسط السحاب.

ثلاث إناث جسيمات، مجنحات، شعرهن دغل من الأفاعى، وعيونهن جمرات الجحيم، فى يد كل منهن شعلة موقدة، وأصواتهن تبعث على الجنون. أولئك هن ربات القصاص فى الميثولوجيا الإغريقية، اللاتى ظهرن فى تراجيديا إيسخيليوس(٥٢٥ ق.م.-٤٥٦ ق.م.) كأدوات للقدر فى إرساء العدالة، يتربصن بمن يرتكبون جرائم ضد الضمير الإنسانى، فيطاردنهم فى كل مكان إلى أن يهلكنهم. ولشدة بأسهن، أطلق عليهن العامة اسم «المترفقات»، خوفا من بطشهن ودرءا للأذى.

هو إذن عنوان مقترض من عالم الأسطورة ذلك الذى اختاره جوناثان ليتل لعمله الأدبى الأول، الذى ظل يفكر فى موضوعه طوال اثنتى عشرة سنة، منذ أن حركت خياله صورة فوتوغرافية قديمة لما تبقى من جثمان «زويا كوسمودميانسكايا»، المناضلة الروسية الشابة، التى اتخذتها الدعاية الستالينية أيقونة للحرب، بعد أن شنقها النازيون فى مدينة «خاركوف» بأوكرانيا، وألقوا بها وسط الثلوج، حيث نهشتها الكلاب المستذئبة...

تناقض عميق حملته الصورة بين جمال الفتاة الربانى وبشاعة ما تصنعه يد الإنسان. تناقض حفلت به يوميات الإغاثى الأمريكى الشاب حين كانت مهامه تضطره للتعامل مع قتلة ومجرمين من عينة نيكولا كوليفيتش نائب رئيس جمهورية الصرب إبان أزمة البلقان، الذى كان يحفظ أشعار مسرحيات شكسبير، ويهوى الموسيقى الكلاسيكية والفنون الجميلة، ويمارس التطهير العرقى بمنتهى الهدوء والالتزام.

وعلى طريقة ستوديو الممثل، حيث تُستعار التجربة الذاتية فى التشخيص، وبعد عامين من البحث الوثائقى الدقيق فى سجلات الأرشيف الضخم الذى أتيح إثر تفكك الاتحاد السوفيتى، وبعد تفقد التوبوجرافيا الواقعية للأحداث ما بين أوكرانيا وبولندا وبلاد القوقاز، كتب ليتل قصة الجنون النازى من منظور مركب، يحيط

داليا توفيق سعودى

Les Bienveillantes

(المترفقات)

Jonathan Littell

Gallimard, 2006, 904pp, 25 euros.

بكتابات راؤول هلبرج وكريستوفر براونينجوايان كرشو التاريخية،ويحاور فلسفة «اعتيادية الشر» الشهيرة المخيفة لعالمة الاجتماع حنا آران،ويفند فكرة دوستويفسكى حول «الجرائم العظيمة»،ويأسف لضياع المزاوجة الأثيرة لتولستوى مابين الحرب والسلام، ولا يعترف حتى بصراع قوى الخير والشر الخارقة داخل الإنسان على طريقة نورمان ميلر. فبالرغم من كلاسيكيتها الظاهرة، وانحصار أحداثها ما بين عامى ١٩٤١و١٩٤٥، تبشر رواية «المترفقات»بحالة رفض المرجعيات التى تعيشها الحضارة الغربية اليوم.



«إخوتى البشر..»

فى تسعمائة صفحة من القطع الكبير- كما أسلفنا-اختفت منها الفراغات البينية، وافتقر النص المطبوع عليها إلى التقسيم إلى فقرات،و صفت الجمل الحوارية فيها الواحدة لصق الأخرى على نفس السطر، تعتقلك رواية «المترفقات»، بحيث لا ترتاح العين فوق مساحة بيضاء، أو يستسلم العقل لحظة للسكون. فالمبنى على قدر المعنى،والمعنى ارتجاع لمعتقل كبير، يتردد فيه صدى صوت بطل الحكاية، الجلاد الراوى «ماكسميليان آو»، المثقف العاشق للآداب والفلسفة والموسيقى، الحاصل على شهادة الدكتوراه فى القانون الدستورى والضابط النازى فى قوات الصاعقة الـ «اس اس»، الذى شارك فى كتائب الموت لتصفية أعداء الرايخ الثالث، وشارك فى التنفيذ الممنهج لخطة «الحل النهائى» للمسألة اليهودية،وشهد الحرب على الجبهة الشرقية،وأصابته رصاصة فى رأسه فى معركة «ستالينجراد»، رصاصة لم تقتله وإنما فتحت فى أعماقه تساؤلات أخلاقية حول غائيات الحرب ومرجعيات القتلة، تساؤلات لم تمنعه عن الإشراف على تحسين «القدرة الإنتاجية للمخزون البشرى» فى معسكرات الاعتقال، أو عن السعى إلى «ترشيد فاعلية سلسلة العمل» فى معسكرات الإبادة، قبل أن يهرب إلى فرنسا بعد سقوط برلين، وبعد أن انحدر إلى أسفل درجات السلم الإنسانى، حيثما فضاء العدم ولا قاع تحت القاع. ليجلس بعد خمسين عاما ليكتب مذكراته، فى سبعة فصول، اختير لكل فصل منها اسم نسق موسيقى، وكأننا بصدد معزوفة «فاجنرية» تردد بين السطور إيقاعات رقصة الموت.

«إخوتى البشر، دعونى أقص عليكم كيف حدث ما حدث. لسنا بإخوتك، هكذا سيأتينى جوابكم، ولا نريد أن نعرف كيف حدث ما حدث، هكذا ستقولون.(..) لكن الأمر يعنيكم: سترون بأنفسكم أن الأمر يعنيكم»[1] (ص١١). بهذا الخطاب الذى يشير إلى رابطة الدم الأزلية بين البشر بقدر ما يذكر بالدم الذى يلوث هذه الرابطة منذ الأزل، تبدأ الرواية. وها هو الراوى يعلن منذ البداية أن الحديث لن ينصب فقط على «ما حدث»، بل سيمتد بظلاله إلى ما يحدث.

وعلى غرار فورست جامب فى الفيلم الأمريكى الشهير، يشهد ماكس آو أهم الأحداث التاريخية التى تمر بها بلاده تحت الحرب العالمية الثانية، ويقابل أبرز الشخصيات السياسية والعسكرية التى تكونت منها العصابة النازية. وهو لن يكتفى بمقابلتهم ومصافحتهم مثلما فعل بطل فيلم روبرت زمكيس، وإنما سيعمل معهم وسيرسم لكل منهم بورتريه متحرك داخل سلسلة القيادة النازية، بملابسهم العسكرية البنية وخوذاتهم التى تحمل شارتى النسر والجمجمة. فها هو هنريش هملر مدير الجستابو والقائد الأعلى لقوات الصاعقة، بنظارته المستديرة وعينيه المتقاربتين، الذى يستبطن بهدأة بال الفلسفة المادية النفعية، وأدولف آيخمان التكنوقراطى ذو العقل الأداتى محدود الذكاء، الذى يفهم العامل الأخلاقى لـ «كانط»على أنه دعوة لتحقيق حرية الإرادة الإنسانية من خلال إتباع الأوامر العليا والالتزام بحرفية التعليمات. وأيضا ها هو ألبرت شبير، وزير التسلح المراوغ،وها هما الشرس والقبيح: راينهارد هيدريتش رئيس المكتب المركزى لأمن الرايخ، وخليفته ذو الوجه المشوه ارنست كالتنبرونر، وها هو هانز فرانك الحاكم العسكرى لبولندا،صاحب فكرة إنشاء حديقة انثروبولوجية ترفيهية لعرض نماذج حية من الشعوب المنقرضة، ورودولف هوس قائد معسكر أوشفيتز، شديد الانضباط الذى يكسو زوجته وأولاده بملابس المعتقلين المصادرة قبل تصفيتهم. وبالطبع لا يكتمل هذا «الكاستينج» الجهنمى من دون ظهور أدولف هتلر شخصيا، وخطبه الحماسية وخصلة شعره الحائرة فوق جبينه، ويديه المنفعلتين،وشاربه الصغير.

وتغرى شخصية ماكس آو بالتحليل النفسى الفرويدى. فهو ابن لأب غائب، يكره أمه، ويرتبط فى صباه بعلاقة غير طبيعية بأخته التوأم « أونا »،ويتعرض للتحرش فى المدرسة الداخلية، ليصبح من ثم شاذا جنسيا. ومع انغماسه فى أوحال الحرب، يكره آو النساء والرجال على حد سواء ليتحول إلى آلة للقتل، يقتل بوعى وغير وعى، حتى أنه لا يذكر كيف ومتى قتل أمه وزوجها...

نعم، كان فرويد ليسعد بتحليل هذه الشخصية النموذجية للانحرافات السلوكية. لكن مفتاح الرواية ليس موجودا فى علم النفس بقدر ما هو موجود فى علم الاجتماع. فالرواية لا تقدم سلوكا فرديا لقاتل - أو حتى لمجموعة من القتلة- بقدر ما تفسر الإبادة من منظور مجتمعى، صار القتل وفقا له بمثابة غريزة أساسية، بعد أن تم تحييد حسه الأخلاقى، وتحويل كل فرد فيه إلى ترس صغير فى آلة الفتك العظمى، وتجريد فعل كل فرد من بعده الإنسانى. ففى مقدمته الشديدة الاقتحام، يكتب الراوى ماكس آو: «إن الآلة (الإبادية)للدولة مكونة من نفس نوعية أكوام الرمل الهش الذى تطحنه حبةً حبة. فهذه الآلة موجودة لأن الجميع قد ارتضوا وجودها(..). ففى غياب رجال من نوعية هوسوآيخمانوجوجليدز وفيشينسكى، وأيضا فى غياب محولى القطارات، وصناع الاسمنت، ومحاسبى الوزارات، يصبح ستالين أو هتلر مجرد قربة ممتلئة بالكراهية وبالإرهاب العاجز. فلقد صار من نافلة القول اليوم أن نذكر أن الغالبية العظمى لمنفذى إجراءات الإبادة لم يكونوا ساديين أو غير أسوياء. (..) فالخطر الحقيقى إنما يكمن فى الناس العاديين الذين تتكون منهم الدولة. الخطر الحقيقى على الإنسان هو أنا وأنت» (ص٢٧-٢٨).

ويظل ماكس آو يردد: «أنا إنسان كغيرى من البشر، أنا إنسان مثلكم تماما». ويقول: «لست شيطانا. فكل ما فعلته كانت وراءه ذرائع، وسواء كانت ذرائع صالحة أم طالحة، فهى فى المحصلة ذرائع إنسانية. فالقاتل إنسان، تماما مثلما أن القتيل إنسان،وهذا هو المخيف»(ص٣٠).

لكن مهلا! فـ«الهر دكتور آو» ليس إنسانا عاديا، فهو مرآة مجتمع تطرف فى اعتناق العلمانية الشاملة، وانزلق ولاؤه من الإيمان بمطلق ثابت متجاوز للمادة والتاريخ، إلى تقديس الفوهرروعبادة «الفولك»(الشعب العضوى). ويعترف الراوى بهذا الانزلاق العقائدى المتدرج فيقول: « ..كانت المرجعية الأسمى التى بقيت طويلا فى المخيلة هى فكرة الإله، ذلك الإله الخفى ذو الجبروت، ولقد انزلقت تلك المرجعية لتحتل الكيان المادى للملك، بصفته ممثلا للحق الإلهى؛ وعندما فقد الملك رأسه، انتقلت السيادة إلى الشعب أو إلى الأمة، واستندت إلى «عقد» متخيل، ليس له أساس تاريخى أو مادى، وعلى ذلك فهو مجرد مثل فكرة الإله. لكن الاشتراكية القومية الألمانية أرادت أن تثبت دعائم المرجعية فى فكرة الشعب العضوى «الفولك»، وهو ما يعد حقيقة تاريخية، فالسيادة لـ«الفولك»، والفوهرر يعبر عن هذه السيادة أو يمثلها أو يجسدها. ومن هذه السيادة يستقى القانون.(..) وليس مستغربا أن المناهضين القلائل الذين عارضوا النظام كانوا فى الغالب من المؤمنين بالله، الذين احتفظوا بمرجعية أخلاقية مغايرة لمرجعيتنا، فكان أن

**قبل أن يكتب ليتل عن الإبادة
أتيح له أن يطالعها وجها لوجه،
فى البوسنة وفى الشيشان وفى رواندا
وفى الكونغو وفى سيراليون
وفى أفغانستان**

ربـات القصاص!

تمكنوا من التفرقة بين الخير والشر تبعا لسند آخر غير الفوهرر..»(ص٥٤٤-٥٤٥)

وفى مجتمع كفر تماما بالإله، يفقد الشيطان وظيفته، وتنتفى أسباب وجوده، لأن الصراع بين الخير والشر يختفى. وبالفعل تنتهى رواية «المترفقات» بأن يقتل ماكس صديقه توماس، (لاحظ معى الجناس اللفظى بين الاسمين «ماكس وتوماس» لاسيما أن اسم توماس يعنى باللغة الآرامية القرين أو التوأم). توماس هو إذن قرين ماكس فى رحلته الى الهاوية، هو ذلك «الساحر» الباسم المتأنق الذى يجيد فنون الإغواء، والذى يظهر دائما فى الوقت المناسب فى المكان المناسب لكى ينقذ بطل الرواية، بينما هو فى الواقع يزيده انغماسا فى الوحل. وتوماس هو بعد الشخص القادر على الإتيان بالعجائب: فهو يصاب على ميدان معركة ستالينجراد إصابة خطيرة فى بطنه، حتى أن أحشاءه تخرج كاملة من الجرح الغائر، فيلملم أحشاءه بيده ويمشى بجوار صاحبه دون أن يفقده الألم ابتسامته. وفى مشهد آخر نراه يهادن طفلا مسلحا اسمه «آدم» بأن يتيح له إجراء مكالمة هاتفية مع هتلر شخصيا عبر هاتف مصنوع من علب الأغذية المحفوظة.

وفى المشهد الختامى للرواية، التى تنتهى فى حديقة الحيوان، مثل رواية «عنبر مرضى السرطان» لسولچنيتسين، يمسك ماكس آو بقضيب حديدى ويهوى به فوق رأس الشيطان توماس هاوزر، فيرديه قتيلا، لينزع عنه زى عمال السخرة الفرنسيين وبطاقة الهوية الفرنسية المزورة ومبلغا كبيرا من المال، بها سيتمكن ماكس من الهرب عبر الحدود، وبها تجاوز جريمته كل الحدود. وهناك، وسط الحيوانات المحتضرة والميتة، وسط الجثث المتناثرة، وآثار الدمار، عثرت عليه ربات القصاص، المترفقات. فكان عقابه أن يحيا مابين وحدته الأبدية وألم الخزى والتذكر وحزنه الذى لن يبرد أبدا، هاربا من الأيام، مستترا برداء مسروق من الشيطان.

عن الضحية والجلاد:

حينما عُرض مخطوط رواية «المترفقات» على دار نشر «كالمان ليفى» الفرنسية المعروفة بتوجهاتها الصهيونية الصريحة، قوبل بالرفض. ولقد فسر مدير الدار جان إتيان كوهين ذلك القرار قائلا: «إن ذكرى ضحايا اليهود قد طمست تماما فى رواية ليتل بينما يعد إحياء تلك الذكرى من صميم المهام التى نضطلع بها فى مؤسستنا».

والحق أن السيد كوهين محق تماما فيما ارتآه. فيهود «المترفقات» كومبارس يكاد يكون صامتا فى كثير من المشاهد المؤلمة التى يساقون فيها إلى القتل ضمن فئات أخرى قمعها النظام النازى. فلقد اختار ليتل أن يحلل الإبادة النازية خارج الحدود التى فرضها الخطاب الغربى الصهيونى على عملية إدراك تلك الحادثة، بحيث لا يفتعل التعاطف مع اليهود وحدهم، فهو لا يسعى لأن تكون روايته بكائية أخرى من عينة «مذكرات آن فرانك». فالمذبحة الأولى التى تظهرها لنا الرواية مذبحة اقترفها اليهود فى مدينة «لوتسك» بأوكرانيا قبل أن ينسحب منها الروس. ويشرح لنا ليتل، على لسان ماكس الراوى، كيف كوّن اليهود هناك جماعة وظيفية مثلت الذراع الضارب للحكم الستالينى للقضاء على البولنديين ولاستغلال الفلاحين الأوكرانيين. وبسقوط تلك الأراضى السوفيتية فى أيدى الألمان، يروى لنا ماكس كيف ترك الغزاة الباب مشرعا أمام ربات القصاص، ممثلة فى الشعب الأوكرانى، الذى راح ينتقم بجنون من اليهود فى كل مكان، فى انتفاضة محمومة تثأر لسنوات طويلة من القمع والبطش والاستغلال.

هذا ويرفض ليتل الرؤية الاختزالية التى تجعل من اليهود وحدهم ضحية للجرائم النازية، فيقول على لسان الراوى:«أرجو ألا تفاجأوا كثيرا لكونى أعمد هكذا إلى التقليل من أهمية اللاسامية كسبب رئيسى لقتل اليهود: فلا تنسوا أن سياساتنا كانت تذهب لأبعد من ذلك.(..) فضلا عن اليهود، كنا قد انتهينا أيضا من تدمير كافة المعوقين جسديا وذهنيا من الألمان الميئوس من شفائهم، وكذلك من الغالبية العظمى للغجر، ومن ملايين من الروس والبولنديين»(ص٦١٥). وفى مشهد حول رقعة الشطرنج بين مولر وآيخمان، حيث الوحشية الباردة المرشدة تتبارى مع العقلية البيروقراطية العمياء، يدور الحديث عن «الحل الاجتماعى النهائى» لكل مشكلات الدولة النازية. فيشرح مولر كيف يزمع الجهاز المركزى لأمن الرايخ (RSHA) التخلص من المجرمين والمهمشين والمشردين ومدمنى الخمر والشواذ جنسيا والعاهرات ومرضى السل ومرضى القلب إما بقتلهم أو بتعقيمهم حتى لا يتسببوا فى إضعاف صفات الدم الآرى النقى؛ حتى الجرحى الألمان فى الحرب، عرف ماكس كيف كانوا يؤخذون من على الجبهة إلى حافلات الغاز وهو ما جعله يكتب: «إن تدمير قوم موسى بفعل جهودنا لم يكن نابعا تماما من الكراهية العمياء لليهود (..) بل كان مرجعه بالأساس قبول راسخ ومقنن لمبدأ الالتجاء الى العنف بغية حل مختلف مشكلاتنا الاجتماعية. (..) ولو أمعنا تدبر ذلك لأمكن لنا إدراك أن ذلك العزم، أو فلنقل تلك القدرة على القبول بمقاربة جذرية للمشكلات إنما تولدت بفعل ما تجرعناه من هزائم فى الحرب العالمية الأولى». (ص٦١٦).

لكن ماكس يعلم جيدا أن هذا العنف العنصرى الدامى الذى اتفقت عليه الأمة الألمانية خلف قائدها ليس انحرافا تنفرد به دون غيرها من القوى الاستعمارية الغربية. إذ يؤكد الراوى النازى قائلا: «من الخطأ الفادح أن نظن أن الحس الأخلاقى للقوى الغربية يختلف كثيرا عن حسنا ..» (ص٦١٥) والأمثلة لا تنضب على لسان ماكس: «لنتذكر-كما يقول- عمليات الإبادة الهائلة التى قامت بها بلجيكا فى الكونغو وسياسة البتر المنظم التى انتهجتها هناك، أو لنتذكر السياسة الأمريكية، الرائدة والنموذج الأول لنا، التى بشرت بفكرة خلق مجال حيوى عن طريق القتل والتهجير القسرى، فنحن كثيرا ما ننسى أن أمريكا لم تكن حقا تلك «الأرض العذراء»، بيد أن الأمريكيين قد نجحوا حيثما أخفقنا نحن. وهذا هو ما يصنع كل الفرق. حتى الإنجليز، (..)، فقد أتقنوا شيئا فشيئا كيفية اللعب بالعصا والجزرة على التبادل، لكن علينا ألا ننسى أنهم لم يهملوا أبدا اللجوء إلى العصا، مثلما أتيح لنا أن نرى ما حدث فى مذبحة «أمريستار» وعندما قصفت كابول، وغير ذلك من الحالات التى لا تُحصى بقدر ما تُنسى». (ص٥٤٣). ولا ينسى الراوى تذكير القارئ بممارسات الاستعمار الفرنسى فى الجزائر، وبالانتهاكات الأمريكية لحقوق الإنسان لضمان سلامة مصالحها الاقتصادية، أو للسيطرة على بؤر النفوذ الشيوعى. كل تلك الأمثلة إنما يضربها الراوى لا للدفاع عن جرائم ألمانيا الهتلرية، وإنما ليقرر حقيقة أن الحقبة النازية لم تكن سوى بقعة أخرى وسط بقع لا حصر لها على ثوب الحضارة الغربية الملطخ بالدماء.

وعلى شفا خندق مقبرة جماعية، وقف ماكس ليطلق رصاصة الرحمة على طفل صغير يتلوى من الألم، وعندما سقط الولد عند قدميه، فاتحا عينين زجاجيتين صوب السماء، تذكر ماكس مشهدا من طفولته، حين كان يلعب مع صديق له وهما فى مثل عمر هذا الولد، لعبة رعاة البقر والهنود الحمر...

وهنا، لنخرج قليلا عن النص لنتعرف على رأى الكاتب فى الصورة الحضارية لوطنه، الولايات المتحدة الأمريكية. إن جوناثان ليتل، الذى يحاول منذ سنوات الحصول على الجنسية الفرنسية، لأنه يشعر «بالانتماء إلى النموذج الأوروبى» ولأن جواز سفره الأمريكى لم يجلب له سوى المتاعب خلال أسفاره أثناء مهامه الإنسانية، لا يخفى انتقاداته بهذا الصدد. فالبلد الوحيد الذى يرفض ليتل الإقامة فيه، والذى يكره عاداته وعقليته وأخلاقياته ولوبيهاته وسياسته الخارجية ورئيسه، هو الولايات المتحدة. فهو ينتقد بشدة فضيحة سجن أبى غريب، ويصفها بأنها «اللحظة التى حررت التعذيب من القيود المفروضة عليه عالميا». وفى حوار لدورية «لا روفو ليتيرار» (La Revue Littéraire) يشرح ليتل كيف أتاحت له النظرة الجلية التى يتمتع بها بطله ماكسميليان آو، فرصة فهم وتشريح كل أنواع الجلادين الذين كانوا من حوله داخل الرواية، ولكن هذا الفهم برأيه لن يغير فى الأمر شيئا، فهو يقول: «إن مزيدا من الفهم لن يمنع الأمريكيين من ارتكاب الجرائم الجسيمة التى يرتكبونها- (..) فهم لا يملكون فقط القوة العسكرية وإنما لديهم أيضا جيوش من المشرعين الذين تلقوا تعليما أرفع من تعليمى ويقبضون رواتب ضخمة، فى مقابل أن يشرحوا للناس أن أعمال التعذيب والاعتقال

يظل ماكس آو يردد:
«أنا إنسان كغيرى من البشر، أنا إنسان مثلكم تماما». ويقول: «لست شيطانا. فكل ما فعلته كانت وراءه ذرائع، وسواء كانت ذرائع صالحة أم طالحة، فهى فى المحصلة ذرائع إنسانية»

ربـــــات القصـــــاص!

والسجن المتعسف وغيرها إنما هى أعمال قانونية مشروعة.(..) إن مزيدا من الفهم قد يفيد، لكن يأتى بعد ذلك دور العامل السياسى: فالعامل الاجتماعى الممثل فى الجماهير. والجماهير لا تسلك بالضرورة الاتجاه السليم. ففى الولايات المتحدة الأمريكية، صوتت الجماهير مرة ثانية لصالح بوش، إذ يبدو أنها تحبه كثيرا، وأنها ترى فيه صورتها، مهما فعل. فهو متدين ومؤمن بالله،وليس فى الإمكان أبدع مما كان. فما الذى يملكه المرء حيال ذلك؟ أنا، عن نفسى، اخترت ببساطة أن أرحل لأعيش فى الخارج»(عدد ديسمبر ٢٠٠٦).

لا غرابة إذن فى أن يكون ألمان «المترفقات». بخشونتهم وعتادهم الثقيل ـ يشبهون الى حد كبير الجنود الأمريكيين فى العراق، أو تراهم أقرب شبها الى جنود جيش «الدفاع الإسرائيلى»؟

● «كلنا ألمان»، يجيب ليتل فى حديث إذاعى.

● وفى الرواية تجيب «أونا»:« إن أسوأ ما يمكن أن يحدث هو أن اليهود(..) لو عاشوا بعد هذه الأزمة، فسينسون معنى كلمة يهودى، وسيسعون بكل قوتهم لأن يكونوا ألمان..».

● وفى تصريح لوكالة الأنباء الفرنسية(AFP) ؛ يقول منوشهر متقى وزير خارجية إيران: «إن الذين يدعون اليوم أنهم مناهضون للنازية، هم أنفسهم عنصريون واستعماريون، وما اقترفته أيديهم لا يختلف عن جرائم النازيين».

● و.. ملحوظة عابرة: الطريقة التى وصفها ليتل فى الرواية لتصفية اليهود على أيدى النازيين هى ذاتها الطريقة التى اتبعها اليهود بقيادة بنيامين بن اليعازر قائد وحدة شاكيد فى الجيش الاسرائيلى لقتل الأسرى المصريين عام ١٩٦٧: الأسرى فى ملابسهم الداخلية يحفرون قبرهم بأيديهم، على أن يكون القبر خندقا متسعا، ثم يصطف عشرة من الأسرى على حافة الخندق، وجوههم قبل القبر، ومن ورائهم اثنين من القناصة، ثم تمر لحظات تسمع فيها الشهادتان أو مناجاة للمسيح(فى حالة أسرانا) أو عبارات مبتورة من القادش أو نحيب (فى وصف ليتل)، ومع هدير الطلقات يسقط القتلى فى الحفرة، ثم يؤتى بعشرة آخرين، يصطفون على الحافة، وجوههم قبل القبر،ولكن القبر هذه المرة لن يكون خاليا، ففيه يصطرخ السابقون وهم يعانون سكرات الموت، ثم يعود عواء الرشاشين. وهكذا دواليك. الفارق الوحيد بين النازيين والإسرائيليين هو أن الأوائل كانوا يتجشمون عناء إطلاق رصاصات الرحمة



على قتلاهم، إذ يصف ليتل كيف كان قائدهم يأمر الجنود أن ينزلوا الى الخندق ليخوضوا وسط الدماء والوحل والفضلات الآدمية لكى ينتهوا من مهمتهم بـ«نظافة». أما أسرانا- يا سادة يا كرام- فكانوا يدفنون أحياء.

ما بين النازية والصهيونية:

فى مشهد أثار حنق النقاد، يحضر «ماكس آو» خطبة يلقيها هتلر، فتصور له عيناه أن الفوهرر يرتدى فوق ملابسه العسكرية زى حاخامات اليهود.فمن الأسباب الرئيسية التى تسوقها الرواية لتفسير «الهولوكوست» هو التماثل الفكرى الواضح بين الألمان واليهود، وهو تماثل يتخطى فكرة التشابه الإنسانى بين الضحية والجلاد ليأخذ شكل تطابق يظهر جليا بين أسس الاشتراكية القومية التى تبنتها الحركة النازية والملامح العقائدية العنصرية التى قامت عليها الحركة الصهيونية[2]. ففى لقاء «ماكس آو» مع الدكتور «ماندلبرود»، صديق جده وأحد أهم «الوسطاء» المسئولين عن تحويل أفكار أدولف هتلر إلى نتائج ملموسة، نقرأ على لسان هذه الشخصية النازية المريبة هذا المونولوج:

« هل تعلم أن مصطلح «الاشتراكية القومية» قد تم صكه فى الأصل من قبل رجل يهودى، من رواد الصهيونية، يدعى موسى هس؟ عليك بقراءة كتابه يوما ما، «روما والقدس »، وسترى بنفسك. فهو كتاب مفيد للغاية.والأمر ليس مجرد مصادفة عابرة: فأى شىء أقرب إلى فكرة القومية العضوية من الصهيونية؟ فهم مثلنا يعرفون أنه ما من سبيل لوجود الشعب العضوى والدم النقى من دون وجود الأرض، لذلك رأوا وجوب إيصال اليهود إلى الأرض الموعودة، اريتس يسرائيل المطهرة من كل الأعراق الأخرى.وبالطبع، تلك كلها أفكار يهودية قديمة. فاليهود هم حقا الاشتراكيون القوميون الأوائل، (..) فكل أفكارنا الكبرى جاءتنا من اليهود، وعلينا أن نتحلى بقدر من البصيرة لكى نعترف بذلك:ولنتذكر مثلا فكرة الأرض بوصفها وعد واستيفاء، ومفهوم الشعب المختار من بين كل الشعوب، وكذلك مفهوم نقاء الدم. (..) وعلى ذلك، فاليهود هم من بين كل أعدائنا الأسوأ والأخطر، فهم وحدهم من يستحقون منا عناء الكراهية. لأنهم وحدهم منافسونا الحقيقيون.(..). فما من مكان على هذه الأرض إلا لشعب مختار واحد، مقدر له أن يسيطر على الشعوب الأخرى..»(ص٤٢٠ -٤٢١)

غير أن جوناثان ليتل لم يكتف بنشر فكرة التشابه بين الألمان واليهود عبر صفحات الرواية، بل جعل من بين شخصياتها أحد زعماء الحركة الصهيونية الذين تعاونوا مع النازيين لتهجير عدد من يهود المجر إلى فلسطين،وهو رودولف كاستنر(١٩٠٦-١٩٥٧)[3]. وفى «المترفقات»، يظهر كاستنر كشاب متأنق يعامل آيخمان بندية، ويتعاون مع الألمان فى صفقة سميت «الدم مقابل البضائع»، قضت فى الظاهر بمقايضة عشرة آلاف شاحنة مجهزة للجنود الألمان فى مقابل إخلاء سبيل مليون يهودى . وهنا يعلق الراوى تعليقا مهما، إذ يقول: «و كأن بضع شاحنات كان يمكنها أن تغير مسار الحرب.وكم من الشاحنات أو الدبابات أو الطائرات كان باستطاعة مليون يهودى أن يصنعوها لو أننا يوما كان لدينا مليون يهودى داخل المعسكرات؟ » (ص٧٣١).

وتتكاثف فكرة التماثل النازى-الصهيونى، حتى تظهر فى ذلك التماهى الذى رصده الراوى بين شخصيتى آيخمان النازى المتطرف وكاستنر الصهيونى الحاد، إذ يقول: «كان آيخمان مأخوذا ببرود كاستنر وبصرامته الأيديولوجية،وكان يرى أن كاستنر لو كان ألمانيا لصار ضابطا ممتازا فى شرطة أمن الدولة، وهو ما كان فى رأيه أعظم إطراء ممكن. ولقد قال لى آيخمان يوما: « إن كاستنر يفكر مثلنا تماما .فهو لا يكترث إلا للقدرة البيولوجية لعرقه، وهو مستعد للتضحية بكل العجائز لكى ينقذ الشباب،والأقوياء، والنساء الخصيبات. إنه يفكر فى مستقبل عرقه. ولقد قلت له: «أنا، لو كنت يهوديا، لكنت اخترت أن أكون صهيونيا. وصهيونيا متشددا، مثلك يا كاستنر» . » (ص٧٣٣).

ومن حكمة المقادير، التى شاءت أن تكرس هذا التطابق النازى الصهيونى، أن جاءت نهاية آيخمان كنهاية كاستنر. فالأول أعدمته إسرائيل عام ١٩٦٠ بعد أن اختطفته مخابراتها من الأرجنتين حيث كان ملجأه بعد الحرب،والثانى دبرت اغتياله عناصر فى الحزب الحاكم الإسرائيلى بعد أن كاد تورطه فى صفقات مشبوهة مع النازيين أن يفضح أسماء مهمة فى الوكالة اليهودية فوضته فى هذا التعاون ثم قتلته عام ١٩٥٧ .

وفى لقاء إذاعى أجراه جاك لوازو مع الكاتب على قناة «فيفر إف إم»[4]، تطرق جوناثان ليتل إلى ذكر اتفاقات سرية بين يهود الهاجاناه والحكومة النازية أثناء عمليات إبادة يهود شرق أوروبا،وشرح كيف سرت هذه الاتفاقات وفق آليات شديدة التعقيد، عبر دهاليز خلفية، فضمنت للصهاينة الحصول على قروض ضخمة من الحكومة النازية فى مقابل غض الطرف عن الممتلكات التى كانت تصادر من يهود أوروبا قبل تصفيتهم. كانت تلك- كما يؤكد ليتل فى الحديث نفسه- وسيلة لإجبار اليهود على الهجرة إلى فلسطين. فما من دولة كانت لتقبل توطين يهودى مجرد من كل ما يملك إلا الدولة الصهيونية التى مثلتها فى ذلك الوقت الوكالة اليهودية. فمن أتى «الأرض الموعودة» من يهود أوروبا كان يهنأ بقروض النازيين، أما من رفضوا الهجرة فلقد واجهوا مصيرهم المعروف، قربانا وثنيا لقيام الدولة العبرية الوليدة.

هكذا تتراءى النازية والصهيونية فى الرواية كوجهين لعملة واحدة: عملة

فى مجتمـــع كفـــر تمامـا بالإله، يفقـد الشيطان وظيفتـه، وتنتفى أسباب وجوده، لأن الصراع بين الخير والشر يختفى. وبالفعـــل تنتهـى روايـــة «المترفقـات» بأن يقتل ماكس صديقه توماس

ربـــات القـــصـــاص!

الحداثة الداروينية النيتشوية التى يُعرفها باقتدار الدكتور عبد الوهاب المسيرى كاتبا: «حينما تسود النسبية ويتحرر العالم من القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية، تظهر قيمة واحدة قادرة على حسم الأمور، وهى القوة! ولذا فنحن نسمى الحداثة المنفصلة عن القيمة بأنها الحداثة الداروينية. ونحن نذهب إلى أن كلا من الصهيونية والنازية هما تعبير عن هذه الحداثة. »(٥)

وفى فقرة بديعة من الرواية، فى ليلة أطل فيها «ماكس آو» على الهوة السحيقة التى تشرف عليها بلاده، والتى توشك أن تقع فيها الإنسانية جمعاء، يرى ماكس فى منامه نباتا شيطانيا بالغ التوحش يلتهم الأرض بما عليها من كافة مظاهر الحياة والتاريخ والحضارة، (لاحظ معى المغزى الحداثى للصورة التمثيلية التى تشير إلى انسحاق الذات الإنسانية فى عالم نُزعت عنه القداسة). وعندما يصحو ماكس من سباته يتراءى له العالم وكأنه غابة الذئاب التى بشر بها توماس هوبز، حيث «الجميع ضد الجميع»، فينخرط فى هذا المونولوج الداخلى: «..هذا هو قانون الحياة، فنحن أقوى من الأحياء الأخرى، ويملكنا أن نتحكم فى حياتها ومماتها كيفما شئنا، فالبقر والدجاج وسنابل القمح إنما وجدت على الأرض لمنفعتنا، ومن الطبيعى أن نتصرف -نحن البشر- فيما بيننا باتباع نفس النهج،ومن الطبيعى أن ترغب كل طائفة بشرية فى إبادة من ينازعونها الأرض والماء والهواء، فلم إذن نعامل اليهود أفضل مما نعامل البقر أو بكتيريا كوخ، طالما كان ذلك فى استطاعتنا، ولو أصبح ذلك فى استطاعة اليهود فسيفعلون بنا أو بغيرنا، نفس الشىء، ليضمنوا بقاءهم، إن هو إلا القانون السارى على كل الأشياء، قانون الحرب المستدامة، حرب الجميع ضد الجميع، أعلم أن تلك الفكرة ليست جديدة،وأنها محض تكرار للداروينية البيولوجية أو الاجتماعية، لكن فى تلك الليلة،وأنا أكابد الحمى، صفعتنى صحة هذه الفكرة أكثر من أى وقت مضى، (..)، فتحت وطأة هذا التدافع لا قيمة لتلك الحواجز الهشة التى يقيمها البشر فى محاولة لتنظيم الحياة العامة، كالقوانين،والعدالة،والأخلاق،والآداب، فمع أقل إحساس بالخوف، أو مع أبسط نزعة غريزية تتهاوى تلك الحواجز وكأنها سد من قش، ولكن عندئذ على الذين بادروا بالعدوان ألا يعولوا على أن يحترم الآخرون العدالة والقوانين، إذا ما جاء دورهم للرد،وداهمنى شعور بالخوف، لأننا كنا فى طريقنا إلى خسارة الحرب.» (ص.٧٤٢-٧٤٣) (التأكيد على العبارة للكاتبة).

وسقطت برلين.

فكان انتقام ربات القصاص مروعا وهنا صفحات لا يمكن أن يكتبها إلا من عاين الحرب وخبرها، فعرف ساحات المدن المنكوبة، وشهد المشانق المعلقة فى لوحات الإعلان وأعمدة الكهرباء والكبارى والأشجار وباحات المنازل، ورأى الأشلاء المتناثرة بين الأنقاض، أو مر بجوار الجثث الطافية فوق مياه الصرف الصحى التى أغرقت الشوارع بفعل القصف، فهاله تحرك أوصالها العائمة بفعل الموجات التى يحدثها مرور السيارات على صفحة الماء، وشهد تماثيل الزعماء وهى تنكس وتُسحل فى الطرقات (هل تذكرون تمثال صدام؟). وبينما برلين المنهزمة جاثية وسط حرائقها وموتاها وعمائرها المهدمة، وتحت قنابل اللهبو الفسفور، عُلقت لافتات جوبلز الدعائية: «شكرا للفوهرر على كل ما قدمه للشعب الألمانى»، هدية مقدمة بمناسبة عيد ميلاد هتلر! (هل تذكرون دعايات الصحّاف؟). وبمناسبة ذكرى ميلاد لينين أيضا، راح الروس يكثفون القصف على المدن الألمانية إلى أن سُويت بالتراب. هنا صفحات إبداعية تتخطى الزمان والمكان.

فـــى لـــبـــنـــان

لكن المدهش، هو أن جوناثان ليتل قد أعرض عن كل مظاهر الاحتفاء الإعلامى، فلم يحضر مراسم تسليم الجائزتين ولم يظهر فى أية مقابلة تلفزيونية، وحين اختارته مجلة «لوفيجارو ماجازين» رجل العام٢٠٠٦، ظهر على غلافها وقد أشاح بوجهه متجنبا النظر إلى العدسة، فهو إنسان لا يعبأ بالبُهرج والأضواء، ويعلم إلى ذلك ما تحمله عيناه من قلق واتهام. وحين سألته صحيفة «لوموند» عن تفسيره الشخصى للنجاح الذى حققته الرواية فى فرنسا، أجاب قائلا: «فلننتظر لنرى كيف سيتم تلقى الكتاب فى إسرائيل، وفى الولايات المتحدة، وفى ألمانيا..».

وبينما الندوات الإذاعية والتلفزيونية تكثف سحائب الجدل حول الكاتب والكتاب، حمل جوناثان ليتل حقيبته الصغيرة وطار إلى لبنان.

الهدف المعلن للزيارة كان حضور مهرجان «تواصل مع الكتاب» ليقدم ليتل روايته للجمهور اللبنانى، ولكن هل يعبأ ليتل بالمهرجانات؟

منذ ١٩٨٢، حلم جوناثان ليتل بالمجىء الى لبنان، ليشاهد الحرب التى راحت تمزق أوصاله، وتزرع العداوة بين إخوة فرقاء، ليكتب عنها بمثل ما كتب المراسل مايكل هر عن فيتنام لمجلة اسكواير. فلقد انجذب جوناثان منذ طفولته لأدب الحرب، لاسيما وأن والده هو روبرت ليتل مراسل مجلة نيوزويك فى موسكو والروائى الشهير بنجاحاته الأدبية الكبيرة التى تدور فى عالم الحرب الباردة. لكن ليتل الابن كان يعلم جيدا أن النجاح الأدبى لا يعرف التوريث، لأن النجاح الأدبى ذو طابع ديمقراطى، يستند بالضرورة إلى شرعية الموهبة وقوامه الأخلاقى هو قبول الجماهير. فأراد الفتى أن يصنع أسطورته بنفسه.

وفى٢٠٠٧، راح جوناثان ليتل يجوب ساحات بيروت المشرفة على الهاوية، مرتديا معطفا جلديا أسود طويل، يطيل النظر الى الصور العملاقة للرئيس رفيق الحريرى وجبران توينى وسمير قصير وبيير الجميل. يزور فندق ألكسندر الذى اتخذه آرييل شارون مقرا عاما للقيادة أثناء الغزو الإسرائيلى فى ٨٢، بل ويسأل عن رقم الغرفة التى كان ينزل بها. وفى المساء، يسير ليتل وسط حشود المعارضة المعتصمة فى ساحة الشهداء ويسجل هتافاتها الغاضبة ضد حكومة السنيورة،وينصت الى تكبيرات الرجال التى تهز الأرض تحت الأقدام،وفى الصباح الباكر، خرج ليتل من الفندق كأنه شبح، وراح يجوب المدن اللبنانية: صور وصيدا وبعلبكوبيبلوس، وارتقى الجبل حيث أشجار الأرز والمسيحيون وحصينة سمير جعجع ومقابر الفينيقيين وسط الصخور.

ولكن، هل أبصر جوناثان ليتل ربات القصاص التى تجوب لبنان فى كل مكان شاهرة شعلاتها الموقدة تطلب العدالة والحقيقة؟ لا أحد يعلم. لكنه قد سجل كل ما رآه وسمعه وتكشف له فى مفكرة صغيرة يحتفظ بها فى جيبه. ويبدو- مما تشير إليه كل القرائن- أن «للمترفقات» جزءا آخر، يحكى الصراع العربى الإسرائيلى ويبدو أن قدرنا أن نستورد حتى من يقصون مأساتنا. ليكن ذلك إذن. ولكن هل سيستمسك ليتل هذه المرة بحياده الإكلينيكى وضميره الحى الذى نما واستعظم بمعايشة مآسى البشر وشرور المجتمعات؟ هل سيفلح فى وصف مذابح دير ياسين واللد والرملة وصابرا وشاتيلا وقانا الأولى والثانية وجنين وعين الحلوة وغيرها مثلما برع فى تصوير أوشفيتز وسوبيبور وتربلينكا وكلمنوويلزك ؟ أم تراه سيعجز هذه المرة عن رؤية أبعاد مأساة «فلسطينية الكلمات والصمت..فلسطينية الصوت.. فلسطينية الميلاد والموت»؟

الإجابة فى علم الغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله.



جوناثان ليتل مؤلف الرواية

الـــهـــوامــــش:

(١) الاقتباسات من الرواية من ترجمة الكاتبة.

(٢) انظر الدراسة القيمة والوافية بهذا الشأن، للأستاذ الدكتور عبد الوهاب المسيرى: «النازية والصهيونية (الأصول الفكرية المشتركة والتماثل البنيوى)، والنازية والصهيونية (العلاقة الفعلية)، ومعاهدة الهعفرام(الترانسفير)»، فى موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الموسوعة الموجزة، القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٥، ج. ١، ص.١٩٧ إلى ٢٠٥ .

(٣) انظر الترجمة الكاملة لرودولف كاستنر فى المرجع السابق ص ٢١١ .

(٤) أجرى اللقاء بتاريخ ١١نوفمبر٢٠٠٦، ويمكن سماع اللقاء كاملا على العنوان الإلكترونى: http://bloghandicap.fr/fichiers%2audio/novembre/littell.mpr

(٥) عبد الوهاب المسيرى، دراسات معرفية فى الحداثة الغربية، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، يناير ٢٠٠٦، ص٢٤٧ .

كوميديا الشرق

لينين الرملى

■■ يذكر الجبرتى المؤرخ المصرى الذى عاصر الحملة الفرنسية («إن الفرنسيين أحدثوا فى منطقة الأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة يجتمع فيها الرجال والنساء للهو والخلاعة)، وكان بهذا يصف المسرح، وذكر بعدها أن المصريين كانوا يسترقون البصر للفرجة، والسلفيون الآن ينظرون للكوميديا والمسرح، بل والفنون على أنها شر أكثر من كونها مجرد لهو وخلاعة فقط.

أما رفاعة الطهطاوى الذى كان إمام بعثة أرسلها محمد على لباريس فقد قال فى كتابه (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) بعد أن رأى المسرح هنالك أن «هذه الألعاب جد فى صورة هزل».

لافت للنظر أن أول مسرحية اقتبست عن الغرب عام ١٨٤٧ كانت كوميديا، عندما عرض مارون النقاش التاجر اللبنانى الثرى مسرحية البخيل لموليير فى بيته ودعا لها الأصحاب وعلية القوم وخطب فيهم قائلاً: (وها أنا متقدم دونكم إلى قدام، محتملاً فداء عنكم إمكان الملام) لاحظوا جملة «فداء عنكم»، فالفداء من الفدائى الذى يضحى بنفسه فى الحرب من أجل وطنه!

أما مسرحيته الثانية (أبو الحسن المغفل) فكانت عربية اقتبسها بتصرف من قصة فى ألف ليلة وليلة باسم (النائم واليقظان) ومثل شبان مرد أدوار النساء اللاتى لم يكن جنسهن ضمن الجمهور، وبين فصول المسرحية مثلت هزلية تتحدث عن خيانة امرأة لزوجها وكان بين الحضور المفتى الذى انزعج وأخذ ينتقد بشدة إجرام الزوجة وبلاهة الزوج وراح ينبهه بصوت عال بخطط زوجته، وكان بذلك أول رقيب فى هذا المجال. وعرفت مصر فرقاً من الممثلين الجوالين (المحبظاتية) الذين يقدمون مواقف فكاهية مرتجلة تتميز بالفحش بل والحقارة على حد تعبير المستشرق الإنجليزى إدوارد لين الذى عاش فى مصر بين ١٨٢٠ و١٨٣٠ فى كتابه (عادات وتقاليد المصريين المحدثين)، وهو يتحدث عن هزلية شاهدها فى قرية مصرية.. وهذا الاتجاه مازال سارياً حتى الآن فى أغلب العروض التجارية.

ومع افتتاح قناة السويس عام ١٨٩٦، افتتحت أول دار أوبرا فى أفريقيا بتكليف من الخديو إسماعيل لتقدم الأوبرات الغربية. وفى العام التالى وفى نفس المنطقة وعلى مسرح صغير قامت أول فرقة أهلية لتقدم أول مسرحية مصرية على النمط الأوروبى، لكن فى جو شعبى صميم وكان ذلك على يد يعقوب صنوع الذى لم يقدم غير الكوميديا متأثراً بموليير، وقيل إن الخديو أعجب بعمله وأطلق عليه لقب موليير مصر، لكنه قدم مسرحيات تناولت المشاكل الاجتماعية والسياسية ولجأ فى ذلك إلى استخدام الرمز وبمعنى آخر، لجأ إلى التحايل. ولكن التحايل لم ينفعه، فقد كان الوقت مازال مبكراً وغضب عليه الخديو وانتهى الأمر بهربه شبه منفى إلى باريس.

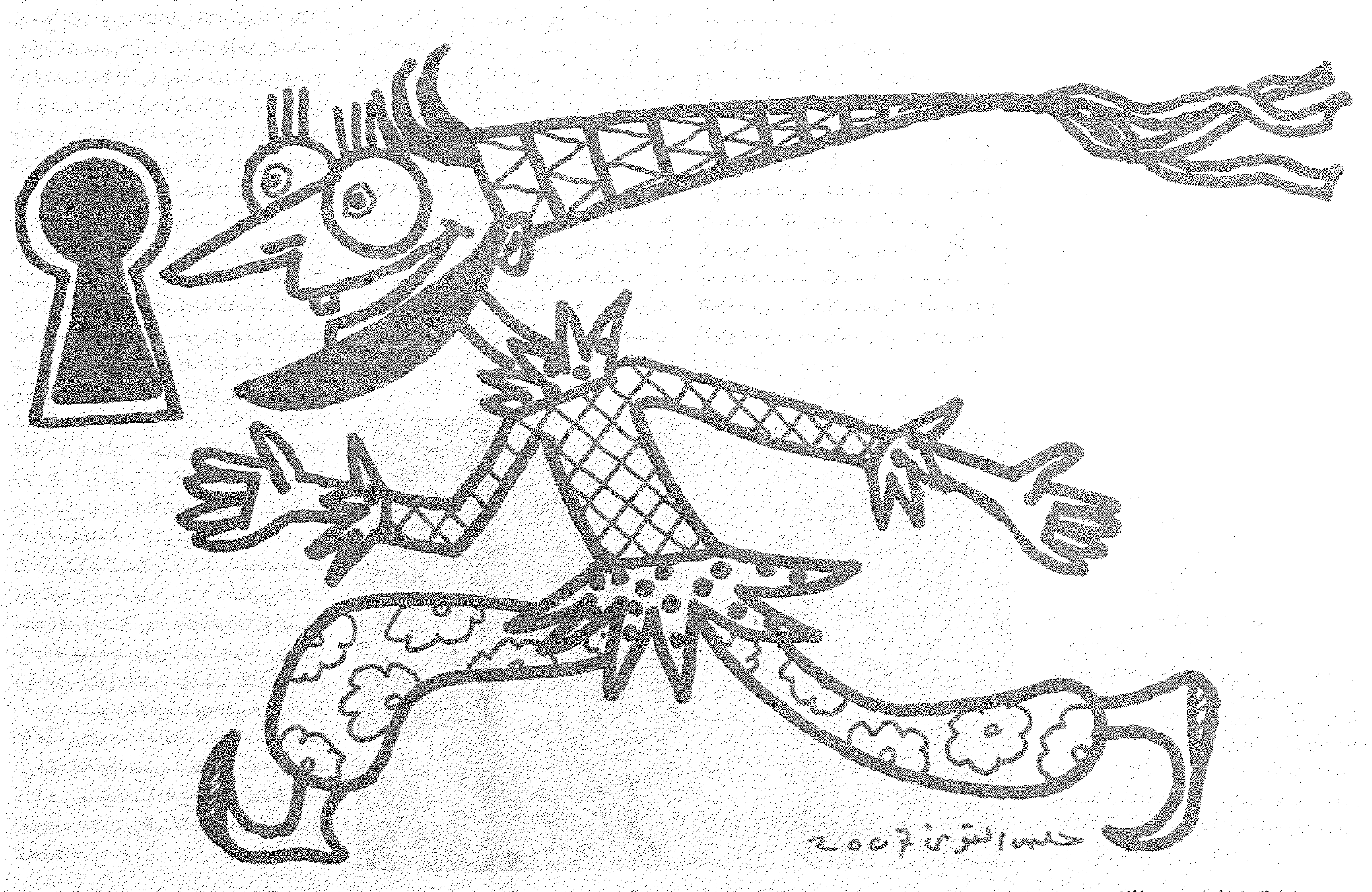
وبعدها ظل الشرق وغالبًا من القاهرة يقتبس ويستلهم كوميديا الغرب، خاصة موليير والفودفيل الفرنسى.

ثم ظهرت السينما وجعلت الشرق يشاهد الكوميديا الغربية من أصحابها مباشرة.

وقد شاهدت أفلام شارلى شابلن صغيراً ورأيت أطفالاً حفاة يشاهدونه وهم يفترشون الأرض يضحكون ويصفقون له من قلوبهم.

لماذا نجح عندنا أكثر من باقى نجوم الكوميديا الغربيين؟ كان شارلى صامتًا لا يتحدث بلغة أجنبية عنهم، وكان فقيراً، والشرق فقير أيضاً، إذن فهو منهم. وكان عاطفياً كأهل الشرق وكان مطارداً على الدوام، يتلقى الضربات ممن هم أقوى منه وينهزم كثيراً.

والشرق ضعيف ومهزوم دائماً، حقًا كان شارلى ينتصر فى النهاية بأن يتحايل على كل ظروفه. وهذا ليس واقع الشرق، ولكنه النصر حلم الشرق فلا بأس أن



فن التحايل

ظل مسرح أو سينما الشرق يقدم «يقتبس» كوميديا الغرب أو يستلهمها، ولكن بعد مضى جيلين أو ثلاثة على ظهورها. فما ينتهى ويصبح ماضياً فى الغرب يبدأ كحاضر فى الشرق

ينتصروا ولو فى الخيال. مع شارلى بشكل خاص لم يكن هناك أى تباين ثقافى بين الشرق والغرب.

استخدم شارلى فن التحايل بالصورة ليقول أشياء أكثر من التى تقولها الكلمات وأحس الشرق - ولا أقول أدرك - بما يريد توصيله. أما فى أمريكا فلم ينفعه التحايل، فقد أدركت الحركة الماكارثية - ولا أقول شعرت - أشياء أكثر مما قصدها هو، وكما هرب صنوع إلى فرنسا هرب شارلى إلى سويسرا، وثبت بذلك أن الوقت كان مازال مبكراً فى أمريكا أيضاً.

ظل مسرح أو سينما الشرق يقدم «يقتبس» كوميديا الغرب أو يستلهمها، ولكن بعد مضى جيلين أو ثلاثة على ظهورها. فما ينتهى ويصبح ماضياً فى الغرب يبدأ كحاضر فى الشرق وهو ما أسميه باختلاف التوقيت الثقافى.

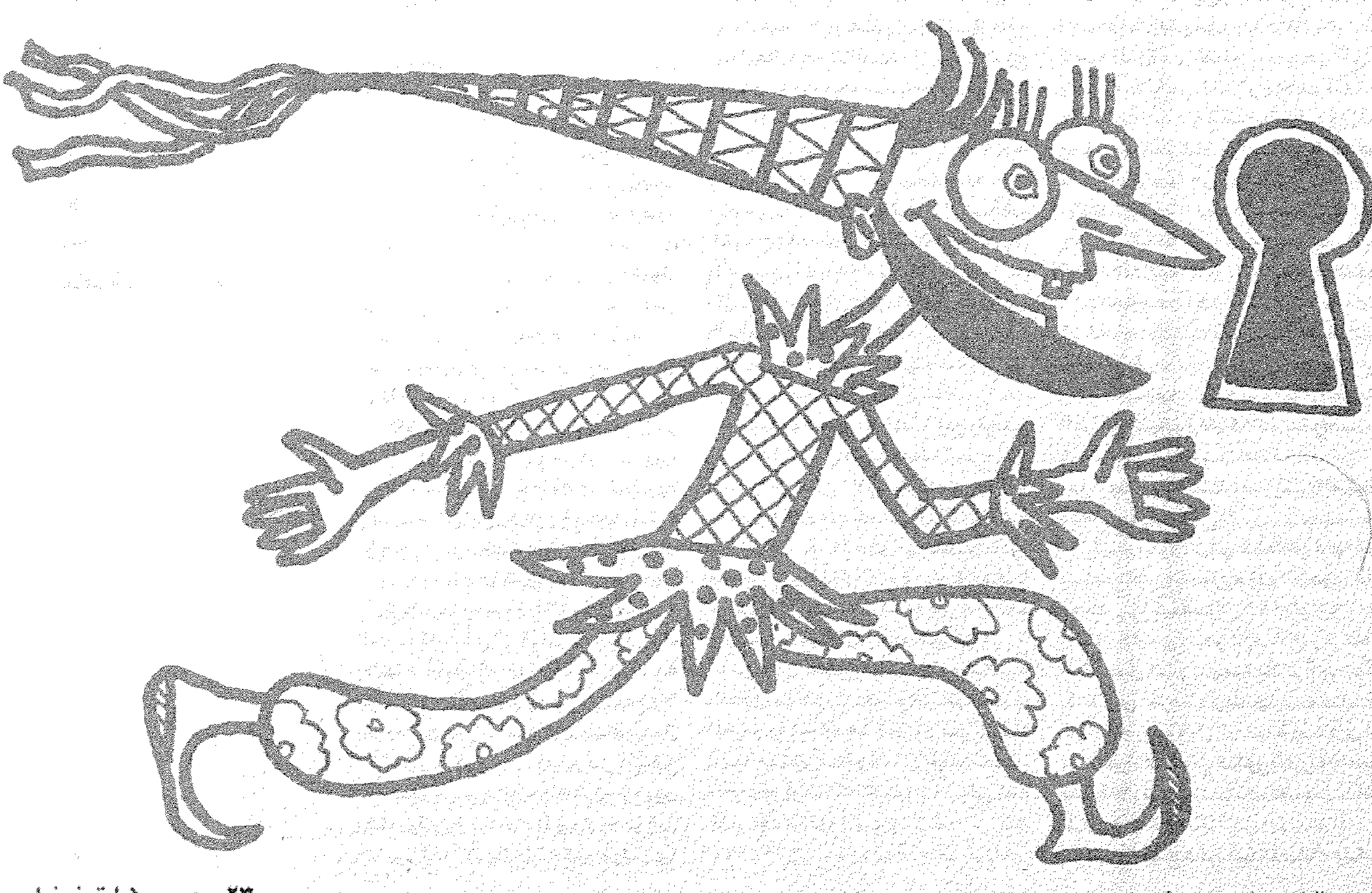
وكان ذلك يبشر بأن التباين الثقافى سيأخذ فى الاضمحلال تدريجياً مع نمو مجتمعات الشرق. لكن المفارقة أن العجلة توقفت مع بداية تحول العالم إلى قرية صغيرة، فقد ظهرت فى الشرق تيارات تدعو للابتعاد عن ثقافة الغرب والعودة لتراثه الخاص وحده، بل أطل من جديد تفكير العصور الوسطى وتراجعت مساحة الحرية والديمقراطية التى كانت بوادرها تلوح فى الأفق وتباعدت المسافة الحضارية بين الشرق والغرب. وهكذا لم يعد من السهل استلهام كوميديا الغرب بدءاً من السبعينيات تقريباً، سواء عن رفض ذاتى أو خوفاً من الرقابة والرأى العام.

بالأمس كان من الممكن استلهام روميو وجولييت مثلاً، ولكن من الصعب أن يكون هناك عمل يناقش زواج روميو بروميو آخر، أو يكون هناك عمل لا يخنق فيه عطيل ديدمونة بل يسامحها، أو مسرحية بطلها من الجنس الثالث أو مناقشة أية موضوعات دينية، إسلامية كانت أو مسيحية، أو كوميديا تنطلق من فكرة أن العلماء مثلاً نجحوا فى خلق إنسان، أو المناداة بالقتل الرحيم، لا يمكن أن تستلهم عملاً يسخر من بوش أو بلير وتستبدله بحاكم عربى، بينما ترحم بعرضه كما هو.. أصبحت حياة الغرب غريبة عن حياتنا، فعلاقة الرجل والمرأة مازالت مؤثمة بلا زواج، وتكاد تخلو الأفلام الحديثة من القبلات، والأعمال المأخوذة عن تاريخنا لابد أن تمجد شخصيات الماضى، وتصبح الكوميديا غير مقصودة عندما ترى عبدالناصر فى فيلم مصرى يتحدث أن أمنيته أن يلف العالم كسائح بعد أن يخرج للمعاش! ففى الشرق يستمر الموتى يحكمون وكل ما هو ماضٍ مقدس.

هل كانت صدفة أن ينشأ فن المسرح بديمقراطية أثينا؟ جوهر الدراما هو الصراع الداخلى، والديمقراطية هى الاعتراف بالصراع داخل المجتمع الواحد، ولكن مجتمعات الشرق نظراً لتراث تاريخى طويل لا تعترف بالديمقراطية وبالتالى لا تفهم الدراما القائمة على الصراع داخل النفس الواحدة، وإذا ظهر هذا الصراع فى المجتمع - رغم محاولة إنكاره - سارع الحكام بوضع الطرف المعارض فى خانة الأعداء ليبدو الصراع خارجياً. فى الشرق نرحب بهاملت الدانماركى عندما يناجى نفسه (أكون أو لا أكون) لكن إذا أصبح هاملت عربياً وتساءل مثلاً (أحارب أو لا أحارب؟) سيكون عميلاً فى نظر الأغلبية حتى الذين لن يحاربوا أبداً.

وهكذا صارت الكوميديا خالية من الصراع الداخلى باعتباره مضراً بالصحة مثل الكوليسترول، أو دراما نصف دسم فى أحسن الأحوال، وهى عبارة عن قصة مكررة فى مناظر جديدة تربطها سلسلة من النكت غير المترابطة، والتى لا تحمل أى معنى، يطلقها هزلى واحد - لا كوميدى. لا يمثل شخصية أو حتى نمطاً بقدر ما يمثل نفسه، فيصبح هو المؤلف والمخرج، وهو انعكاس طبيعى فى مجتمعات يحكم فيها المسئولون على هواهم وتصبح الإدارة شخصية لا موضوعية.

حقاً تسمح الحكومة فى

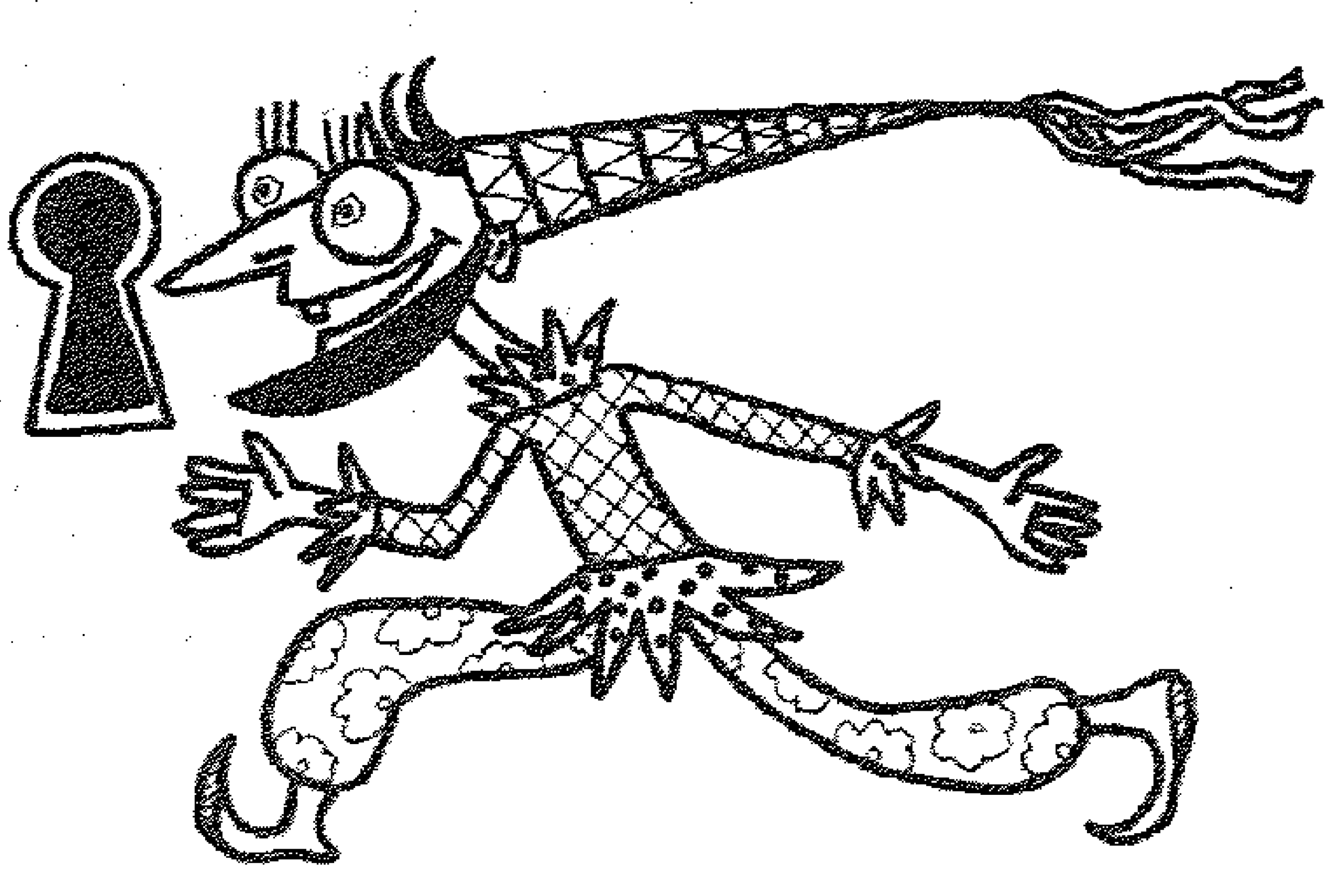


مصر منذ فترة بنقدها ونقد بعض المسئولين، ولكن السماح بهامش الحرية هذا جاء بعد حرث الأرض لتيارات الجهل والتسلط باسم الدين، ويعانى الكاتب وسط هذا الجو من إرهاب اجتماعى أيضاً كنتيجة لتدنى المستوى التعليمى مما يجعل مهمته شاقة عند معالجة الأمور الفكرية الأساسية، فتهمة الإلحاد والإباحية والعمالة للغرب تنتظره من طابور طويل من الصحفيين والكتاب والمحامين.. إلخ. والنتيجة أن يجتر الفن نفس أفكار المجتمع القديمة دون أن يناقشها، فالشرود عن القبيلة مغامرة غير آمنة.

ولكنها أسهل للشاعر وكاتب القصة والرواية ومؤلف الكتاب لأنه يمكن نشر النصوص خارج الوطن (والآن عبر الإنترنت) لكن المسرح أو السينما شىء يعرض بموافقة السلطة والمجتمع، فضلاً عن الفنانين الذين يساهمون فى تقديمه. فكاتب الدراما كالأعمى مستطيع بغيره.

كان أغلب كتاب مسرح الستينيات يعملون فى وظائف فى إطار السلطة التى كانت تدعمهم وتنتج أعمالهم. وبعد هزيمة ٦٧ رفضت الرقابة كل مسرحياتهم تقريباً.

وكان أغلب كتاب مسرح الستينيات يعملون فى وظائف فى إطار السلطة



التى كانت تدعمهم وتنتج أعمالهم بنفسها لأنها لم تتقاطع مع أهدافها، بل غالباً ما كانت تدعو لها. وبعد هزيمة ٦٧ رفضت الرقابة كل مسرحياتهم تقريباً، فما بالكم بكاتب مستقل أصلاً عن السلطة ولا يعمل فى إطارها؟ وهكذا كان الحل الوحيد أمامى هو اللجوء للتحايل، والتحايل أمر مقبول فى الشرق لأن الحكام يتحايلون على القوانين ولأن المجتمع كله يفعل نفس الشىء ويصبح القانون هو: ويل لك إن لم تتحايل.

فن التحايل تجده بنسبة أكبر فى الأعمال التى تعالج مواقف جنسية ويقل أو ينعدم فى الموضوعات الفكرية والسياسية والدينية

لكن فن التحايل تجده بنسبة أكبر فى الأعمال التى تعالج مواقف جنسية ويقل أو ينعدم فى الموضوعات الفكرية والسياسية والدينية، ويرجع هذا بسبب الإحجام عن دخول عش الدبابير أو بسبب ضحالة الفكر وقلة الموهبة، وهو بالطبع سبب يجب بقية الأسباب فى هذه الحدود كان على أن أقول وجهة نظرى أو بعضاً منها، والكوميديا وسيلة عظيمة فى هذا المجال، خاصة والناس عندنا لا تقاوم الضحك، فنحن شعب يتذوق الفكاهة. الكوميديا تعلو عن الواقع لتضبطه متلبساً بالحقيقة، تجرح دون دماء، وتراوغ بادعاء الهزل وهى فى منتهى الجدية، والنكتة كذبة ولكنها تشير إلى جانب من الحقيقة أو توحى بها. اسمحوا لى أن أقدم شهادتى من موقعى ككاتب درامى ومن واقع بعض أعمالى نفسها وكيف كان على أن ألجأ إلى فن التحايل على عدة مستويات:

١ - التحايل على ظروف الإنتاج والظروف الفنية الموجودة.
٢ - التحايل على الرقابة.
٣ - التحايل على الرأى العام السائد فى المجتمع.
٤ - التحايل على الجمهور.
٥ - وأخيراً.. التحايل على نفسى!!

مشهد ١

التحايل على ظروف الإنتاج الفنى

كان مسرح الحكومة واقعاً تحت سيطرة البيروقراطيين والمنتفعين الذين ينتظرون أن يتقدم الكتاب لهم بطلب على عرضحال دمغة لينتجوا لهم مسرحيات ميتة فى الأغلب. فى حين أن القطاع الخاص كان يبحث بنفسه عن النصوص - لا الكتاب - وكان أغلب ما يقدمه من نوع الفارس الذى لا معنى له. بقايا الأراجوز وخيال الظل والفكاهة الشعبية المرتجلة مع الغناء الشعبى والرقص الشرقى أو استعراضات تعبيرية. أى خليطاً يجمع بين سهرة شعبية وسهرة بورجوازية بملهى ليلى (سامر فلاحى مصرى + قعدة عثمانية داخل علبة إيطالية) وهى تركيبة يقبلها كثير من المصريين وكذلك العرب الزائرين من طبقات مختلفة، ولكنها لا تعكس حقيقة أوضاعهم. وكان على أن أخترق هذه المنظومة، فحاولت أن أستغل نفس الروح الشعبية مسلحاً بخبرتى فى دراسة الأشكال المتنوعة للمسرح فى العالم لأعبر عن هموم اجتماعية وفكرية وأطمح أن أتخطاها لبعد إنسانى، معتقداً أن كل الأساليب الغربية فى الكتابة للمسرح لا تتناقض مع ذوق وإحساس جمهورنا، لكن الممثلين لم يقبلوا مسرحياتى بسهولة لاختلافها عن السائد. وعندما قبلوا بعضها، قدموها بطريقتهم التقليدية فنجحت مادياً ولا تعجبنى فنياً.

ووضعت خطة فكونت مع زميلى بقسم التمثيل فى معهد المسرح وهو محمد صبحى ثنائياً، ولأنه كان جديداً ومغموراً كان من السهل أن يتكيف مع أسلوب هذه المسرحيات. وبعد مسرحيتين فقط، أصبح بالفعل نجماً معروفاً فحرضته لتكوين فرقتنا الخاصة عام ٨١ وقدمنا من خلالها ٦ مسرحيات لفتت النظر إلى إمكانية التغيير، فهذه المسرحيات جلبت الجمهور ثم أيدها الكثير من النقاد أيضاً، ولكنى أفخر بأننى حصلت على الجمهور أولاً، لقد كنت دائماً على ثقة بهم، وقد وثقوا بى.

مشهد ٢

التحايل على الرقابة

من أعمالى الأولى عام ١٩٧٢ كتابة سيناريو وحوار فيلم للمخرج الكبير صلاح أبوسيف، لكن الرقابة رفضته. كان الخطأ الأول للمخرج أنه سمى الفيلم «مدرسة الجنس» وكان كلمة الجنس على أفيش فى الشوارع. ولا تزال. من الصعب قبولها وكأن الفيلم يتعرض لمشكلة فشل العلاقة الجنسية بين زوجين نتيجة اختلاف تربية كل من الرجل والمرأة فى مجتمعنا. لم يكن بالفيلم مشاهد عارية، فالمخرج أراد أن يخاطب عقل الجمهور لا إثارة غرائزه، وكان التركيز على مناقشة المشكلة بشكل مباشر، وكانت هذه غلطته الثانية. وظل المخرج يعيد تقديم السيناريو للرقابة كلما تغير مديرها وظلت الرقابة ترفض لمدة خمسة وعشرين عاماً حتى ظهر أخيراً عام ٢٠٠٢ ولكن من إخراج ابنه! وخلال ذلك ظهرت عشرات الأفلام التى عرضت لمواقف جنسية قصد منها الإثارة صرحت بها الرقابة لأنها كانت توحى وتلمح ولا تناقش.

وقد وعيت هذا الدرس، خاصة وقد رفضت لى رقابة التليفزيون عدة أعمال قبل ذلك. كان لدى قصة عن مؤسسة للمكفوفين تعمل إدارتها على استغلال عاهة نزلائها لكى تسرق حقوقهم بدلاً من أن تخدمهم وتحمس صلاح أبوسيف لإخراجها فيلماً وأخذنى لندور على معاهد المكفوفين ونلتقى بمديرها وبعدها صارحنى أنه لم يلحظ أن أى إدارة تسىء للنزلاء وبالتالى يعتذر عن إخراج الفيلم. ولكنى كنت أرى الأمر بشكل مختلف لا علاقة له بالواقع ولكن بحقيقة أكبر كنت أرى نزلاء المؤسسة يمكن أن يكونوا من هذا الشعب العربى أو ذاك. وعاهة العمى = الجهل بما يدور حولهم. أما الإدارة فهى السلطة التى تحكم هذا الشعب، وبدلاً من أن تساعدهم على تجاوز عجزهم استغلت عاهتهم لمصلحتها. وهكذا صنعت مسرحية باسم «وجهة نظر».

سألت زوجتى مديرة الرقابة بعد البروفة النهائية هل هناك اعتراضات؟ فردت بحيرة بأنه - أى أنا - يكتب كل ما يريد بطريقة لا تجعل فى الإمكان الاعتراض عليه.

كانت المديرة على ثقة من أنها لن تحاسب على التصريح للمسرحية، فلا يوجد بها شعب ولا حكام أو وزراء ولا تدخل خارجى يدعو للإصلاح، ولا كافة التفاصيل التى يفهمها المتفرج ويضيق المكان عن ذكرها، فن التحايل يمكنك أن ترتكب جريمة قول الحقيقة علناً دون أن تترك وراءك دليلاً، فتفوز بالبراءة لعدم كفاية الأدلة، ولكنك تصنف فى خانة المشبوهين للأبد!

استخدمت فكرة الفيلم الأمريكى

المأساوى (جامع الفراشات) لأحولها إلى مسرحية تراجيكوميدى باسم (الحادثة). رجل معقد انطوائى وخجول يحب فتاة لم تره، يخطفها فى سيارة ويحبسها فى مكان منعزل بدعوى أنه يمنحها بذلك فرصة لكى تحبه بعيداً عن تأثير الآخرين. وهى حالة سيكولوجية غربية لا يعرفها مجتمع الشرق، الذى يفهم أن يخطف رجلاً امرأة ليغتصبها لا ليعطيها فرصة لتحبه!

لكن من قال إن المسرح يعرض الواقع فقط ويدير وجهه عن الحقيقة؟

والحقيقة هنا أنها حبكة شرقية تماماً إذا نظرت للخاطف كمعادل موضوعى لأى حاكم يخطف بلده ذات صباح مستخدماً دبابة ويعزلها عن كل التيارات واثقاً بجنون عظمة مريض أن الشعب سيحبه إذا أسكت الآخرين لأنه يرى نفسه أكثر الناس حباً لوطنه وبالتالى أصلحهم لحكمه. نجحت المسرحية رغم عدم واقعيتها لأن الجمهور رآها معبرة عن الحقيقة، ونجحت فى بيروت أيضاً. وعندما ذهب النص لبلد عربى قريب تمهيداً لعرضه هناك لم ترد الرقابة بالموافقة ولا بالرفض طبعاً!

ضمن مسرحية (تخاريف) يظهر جنى لشخص اسمه «سنيل» ويسأله عن أمنية يحققها له، فيختار السلطة، ويضعه الجنى على رأس بلد يدعى (أنتيكا) وبينما يصعد سلم قصر الحكم يرى معركة وقتلى فيسأل الجنى محتجاً: هل ستضعنى فى الحكم بواسطة انقلاب؟ ويرد الجنى: وهل هناك طريقة أخرى لتصبح حاكماً بلا سبب؟ وفى أقل من نصف ساعة يرى الجمهور كيف يتصرف الحاكم على مدى عشرين سنة. لم أفكر فى مسرحية تنتهى قيمتها بزوال هذا الحاكم أو ذاك، ولكنى كنت أصف طريقة التفكير - قبل السلوك - التى سيتبعها بلا شك حكام كثيرون سيأتون لعدد من السنين!

فى (تكسب يا خيشة) يموت رئيس ناد عين نفسه لسنوات طويلة وتجرى انتخابات لأول مرة ويتقدم لها مرشحون فاسدون. ويسخر منهم عضو فاسد مثلهم فيرشح (خيشة) فراش النادى ويساعده بكل السبل، وتنقسم الأصوات ويعطى البعض صوته عنداً للفراش، فيصبح رئيساً منتخباً. وتصبح زوجته الفراشة سيدة النادى الأولى ويتسبب بجهله وجنون العظمة الذى أصيب به فى خراب النادى. قال بعضهم إنى قصدت السادات. دائماً تشغلهم السياسة، بينما كنت أقصد المنهج الفكرى الذى يسود منطقتنا شعوباً وحكاماً.

مشهد ٣

التحايل على الرأى العام السائد

أقصد بالرأى العام هنا ما يشبه أعراف القبيلة. ولم أطمع يوماً فى كسب كل الأطراف، لكنى لم أسع أيضاً لخسارة كل القبيلة مادام التحايل قادراً على فضح تفكير القبيلة مع تجنب النفى خارجها. فالمسرح لا يوجد أبداً فى الصحراء.

كتبت ثلاثة مشاهد فى مسرحية (بالعربى الفصيح) مجموعة من الطلبة من ١٤ بلداً عربياً يعيشون فى بنسيون بلندن ويختفى أحدهم فيعتقدون أنه خطف وتعتقد الشرطة الإنجليزية أنه إرهابى حرق مكتبة وهرب. والمسرحية تناقش منهج التفكير العربى وعلاقتنا بالغرب، لكنى توقفت عن مواصلة الكتابة. قلت إن الرقابة لن توافق وكذلك لن يوافق مجموعة الطلبة العرب المقيمون بالقاهرة على تمثيلها. ثم أكملت كتابتها فيما بعد وأنتجتها بنفسى بهواة كلهم من المصريين، ولفت ما بها من نقد ذاتى انتباه المراسلين الأجانب، فكتبوا عنها ما يزيد على أربعين مقالاً فى صحفهم، وقالت بعض عناوينها إن المصريين أو العرب وأحياناً المسلمين (يضحكون لهلاكهم). كان غريباً أن يروا جمهور الشرق يضحك فى مسرحية تسخر بمرارة من انكساره وكذبه وضعفه وغباء منهجه الخرافى فى التفكير، واعتبرها أحد النقاد العقائديين (جلداً للذات) ولكن الناس ضحكت بشدة ورأيت مراراً بعض المتفرجين يضحكون ودموعهم تسيل فى نفس الوقت، وخرجت متفرجة منهكة من الضحك والبكاء معاً تشكرنى على السهرة وتلومنى لأننى قسوت عليهم.

وهذا ما يجعلنى أفكر أن الكوميديا فعل مقاومة إنسانية ضد دواعى البكاء وما أكثرها فى حياتنا. وبهذه المناسبة هل يرفض الغرب مثل هذا النقد القاسى؟ لا أعرف. ولكن أحد المراسلين الغربيين الذين قابلتهم قال لى إن ما فعلته ربما كان صعباً أيضاً عندهم. المهم أن الطريقة التى كتبت بها المسرحية جعلت من الصعب على الرقابة أو الرأى العام رفضها فهى لا تتحدث عن الحكام العرب وإنما عن طلبة عرب، وسألنى كل المراسلين الأجانب هل يمكن عرض المسرحية فى بلد آخر غير مصر؟ وكنت أرد انتظروا وسنعرف النتيجة. ورشحت وزارة الثقافة المسرحية للعرض فى مهرجان قرطاج بتونس وشاهدها رئيس المهرجان بالقاهرة، فأكد أنها ستنال الجائزة الأولى، لكن المستشار الثقافى التونسى أبلغ بلده أن بها شخصية طالب تونسى، وحاولوا إقناعى أن أحذف هذه الشخصية ليقبلوها فرفضت ولم تعرض، وتعاقد رئيس مهرجان جرش بالأردن لعرضها هناك، ثم اتصل بى يطلب حذف شخصية الأردنى وتكرر رفضى.

أما رقيب التليفزيون المصرى فقد رفض إذاعتها، فهل ثقافتنا يعبر عنها موقف وزارة الثقافة التى وافقت على المسرحية، بل ورشحتها لتمثل مصر، ثم اشترت حق تصويرها تليفزيونياً؟ أم ثقافتنا يعبر عنها موقف وزارة الإعلام؟ هذه هى التعددية كما نفهمها عندنا ولكن الغرب لا يفهمها! أو لا يفهمنا! نسيت أن أقول إنى بدأت كتابة المسرحية عام ١٩٧٠ وعرضت فى ٩١ ومازالت تتكرر عروضها سنوياً بكثرة فى مسارح الجامعة والثقافة الجماهيرية وفرق الهواة والشركات. السبب أن الموقف على أرض الواقع لم يتغير!

فى مسرحية (أهلاً يا بكوات) يجد صديقان نفسيهما وقد عادا للماضى قرنين أى قبيل دخول نابليون مصر، ويحاول أحدهما أن يغير التاريخ مستنداً على معرفته بحقائق اليوم، ولكنه يفشل فى إقناع أهل الماضى بالتغيير حتى بعد أن يخبرهم بما سيحدث ويمدهم بمخترعات وأفكار لمقاومة نابليون، بل تقوده أفكاره للسجن. بينما يجارى صديقه أهل الماضى فى جهلهم فيفوز بمركز مرموق. وفى نهاية المسرحية يتكرر منظر حارة مصرية فى الماضى سبق أن رآه المتفرج، لكن البطل يسمع نداءات باعة صحف وأغانى تنبعث من راديو. فيختلط الزمن فى ذهنه، والواقع أن الزمن يختلط فى ذهن المتفرج نفسه



ويكتشف أن المشهد يحدث الآن فى الحاضر، وأنه لا توجد مفاجأة أو خلط، فشكل الحارة فعلاً لم يتغير منذ قرنين. التحايل هنا بصرى أيضاً. والرسالة واضحة، فالبطلان لم يعودا للماضى لأننا مازلنا نعيش فيه. فكرة المسرحية تعود لعام ٨٢ وعرضت فى يناير ٨٩ وكانت التيارات السلفية تستعد لتعلن عن نفسها بوضوح. وصلت للمسرح خطابات تهدد بحرقه وشد رئيس الوزراء على يدى بعد العرض، وقال لى: خد بالك من نفسك! أما وزير الداخلية فصعد على المسرح بعد عرض فى حفلة أخرى وخطب فى الجمهور قائلاً: إن المسرحية تثبت أن عندنا حرية رأى!

فازت المسرحية بتأييد كل النقاد تقريباً. لكن ما أسعدنى أنها أكثر مسرحية فازت بجمهور منذ تأسيس الفرقة عام ٨٥ وحتى هذه اللحظة وأعيد تقديمها أربع مرات.

دعتنى الدكتورة مارينا كوتزمانى وهى يونانية تقوم بالتدريس فى جامعة أمريكية لكتابة مقال عن كيف أتخيل مسرحية «ليسستراتا» لإريسطوفانيس على المسرح العربى الآن. كتبت المقال وضمنته تصوراً لمعالجة المسرحية ثم وجدت نفسى أكتبها فعلاً باسم (سلام

سألت زوجتى مديرة الرقابة بعد البروفة النهائية هل هناك اعتراضات؟ فردت بحيرة بأنه - أى أنا - يكتب كل ما يريد بطريقة لا تجعل فى الإمكان الاعتراض عليه.

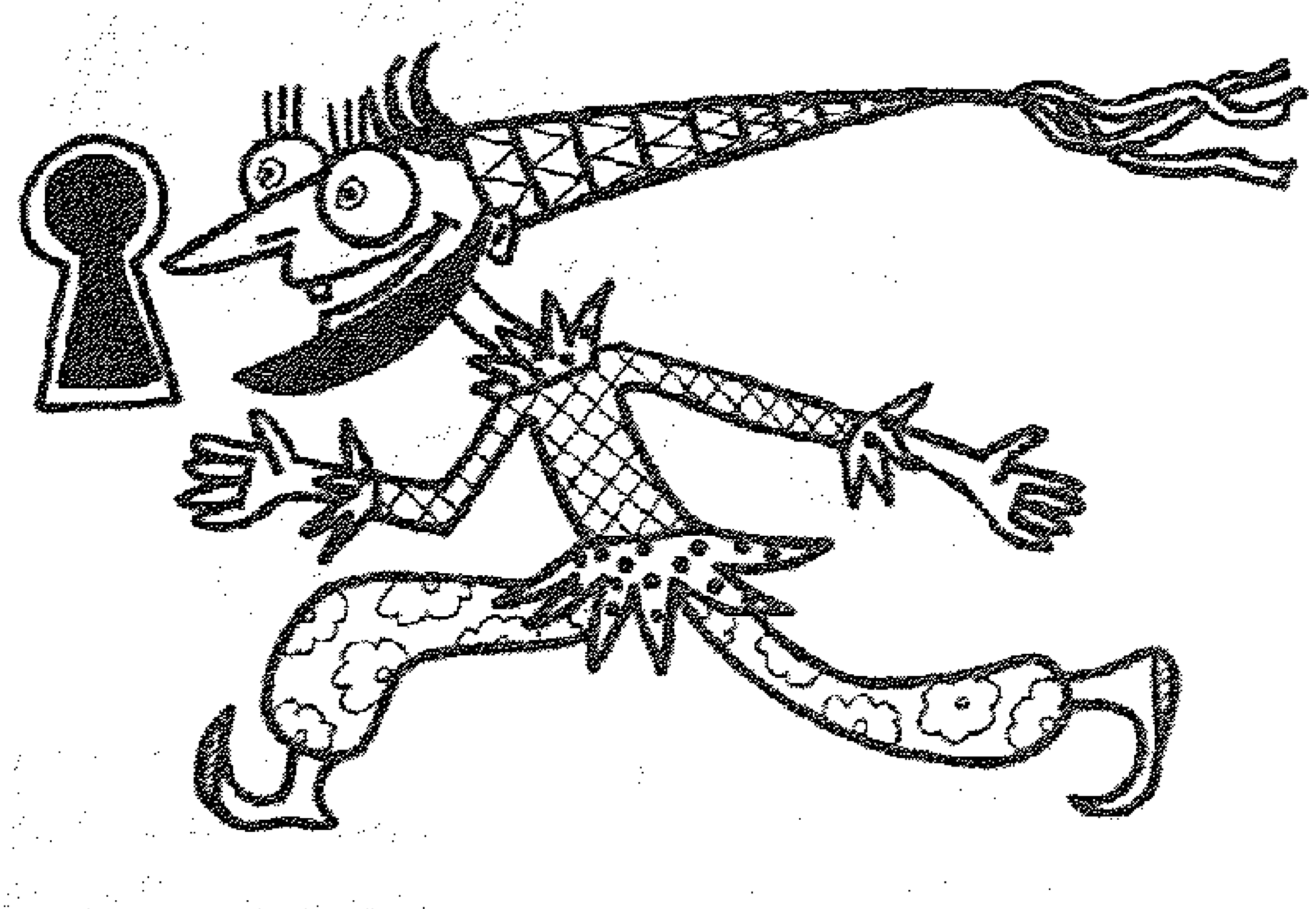
لم أطمع فى كسب كل الأطراف، لكنى لم أسع لخسارة كل القبيلة مادام التحايل قادراً على فضح تفكير القبيلة مع تجنب النفى خارجها. فالمسرح لا يوجد أبداً فى الصحراء

كوميديا الشرق

صعد وزير الداخلية على المسرح بعد العرض وخطب فى الجمهور قائلاً: إن المسرحية تثبت أن عندنا حرية رأى!

النساء) بلا هدف سوف تقديمها للرقابة لكى تكون إجابتى على بعض أسئلة مارينا واقعية. وجعلت الأحداث فى بغداد قبيل الحرب الأمريكية على العراق وجعلت البطلة عراقية تتفق مع سيدات من أمريكا وبلاد غربية أخرى جئن للتظاهر ضد الحرب - كما حدث فى الواقع - وبدلاً من جوقة الرجال العجائز عند اريسطوفانيس أصبحوا جوقة من قوات مكافحة الشغب.

رحبت بالمناقشات الطويلة بين جوقة الرجال والنساء فى المسرحية الإغريقية حول أفضلية كل منهما، فهو موضوع الساعة فى الشرق وأضفت عليه المنطق السارى الآن، ولكنى فى مسرحيتى لم يتفق المسئول العراقى مع نظيره الأمريكى على السلام. بل اتفقا ضد نساء البلدين. أما نساء الشرق والغرب



كان أمراً كوميدياً أن يأتى الهجوم من المعارضة اليسارية. قالوا بثقة إن الحكومة كلفتنى بكتابة الفيلم (الإرهابى). هل هو التباين الثقافى بين الشرق والغرب؟

فرغم اتفاقهما على السلام وتجاهلهما الخلافات السياسية فقد تعاركا حول الشروط الثقافية. ويمكن أن تسمى أيضاً الأخلاقية. إنه الواقع الحادث الآن.

كانت مارينا قد سألتنى: هل توافق الرقابة على المسرحية وهل يمكن أن أستعين بفكاهات أريسطوفانيس الجنسية؟

الإجابة نعم ولا، فهنا بعض التباين الثقافى ليس لأن الناس عندنا أكثر أدباً. ولكن لأن بعض الجمهور لا يحب أن يسمع فى المسرح ما يقوله الناس أو يقوله هو شخصياً فى الحياة. عدت إلى نص المسرحية المترجم للعربية ووجدت أن المترجم قام بالفعل بتهذيب بعض جمل الحوار التى رآها غير مهذبة فاعتبرتها نوعاً من الرقابة ألزمت نفسى به.

واستعنت ببعض فكاهات أريسطوفانيس وهذبت بعضها متحصناً باللغة الفصحى التى كتبت بها للمرة الأولى. لأن تجريدها تجعلها توحى بالمعنى أكثر مما تصرح به.

ولكنى لم أفرغ المواقف الجنسية من معناها، وحتى فى الحركة استخدمت التلميح بدلاً من التصريح وقد وصل المعنى للمتلقى، ووافقت الرقابة بعد أن استعانت بلجنة من المثقفين والأكاديميين.

كان من المستحيل أن توافق فرق القطاع الخاص على عرض مسرحية مثل هذه وكان من الصعب أيضاً أن تقبل فرقة من فرق الدولة الموافقة على عرضها. لكن المستشار الثقافى اليونانى بالقاهرة عرض أن تتكفل الجالية اليونانية بإنتاجه. وكان منطقياً أن أتصدى لإخراج العمل بنفسى وأقدمه بمجموعة من الهواة. وهنا عرفت الرد على أسئلة مارينا الخاصة بالعرض. ومنها سؤال هل أجد ممثلات يقبلن بتمثيل أدوارها؟ كان من الصعب أن أجد بين الممثلات الهواة - خاصة فى أدوار الأجنبيات - من ترضى أن تظهر بملابس تظهر أجزاء كثيرة من جسدها. وحتى لو وجدت فهناك حد ستعترض الرقابة عنده. لذلك فعلت ما كان يحدث فى المسرح الإغريقى وأسندت أدوار النساء الأجنبيات لممثلين رجال! وقد قال لى بعض المثقفين إننى بتقديمى الأجنبيات بملابس عارية رسخت الصورة المشوهة للغربى فى ذهن جمهورنا. فقلت إنى أعلم أنها ليست الواقع تماماً، بل إن من سافرن للتظاهر ضد الحرب - بصفة خاصة - يلبسن غالباً ملابس خشنة، ولكنى تعمدت أن أساير صورة المرأة الغربية فى ذهن المتفرج لكى أعادل منطقها عندما تدافع عن حرية المرأة العراقية أكثر من العراقيات! والحقيقة أن من تدافع عن حقوق المرأة لا يمكن أن تستثنى حقها فى اختيار ملابسها.

كان اختيارى اللغة الفصحى لكتابة الحوار هو فى حد ذاته فارق ثقافى داخلى - إن صح التعبير - فلا يتقنها حتى أغلب المتعلمين. حقاً إنهم يترجمونها للعامية فى أذهانهم، لكن عملية الترجمة العقلية تقلل من خشونة وقعها على الأذن باللغة المتداولة، فى الواقع كان الرأى العام ضد الحرب الأمريكية على العراق، وهو موقف سليم فى رأيى، ولكنه لم يأخذ أى موقف ضد صدام حسين طوال فترة حكمه، وهو موقف متناقض. وكذلك تسمية عمليات القتل المسلحة التى تفتك بالعراقيين قبل الأمريكيين، أعمال مقاومة. وفى هذا الجو تصبح الدعوة للسلام نوعاً من الخيانة. لكنى ارتديت قناع اريسطوفانيس لأطرح المسألة بشكل مختلف. كانت مارينا قد سألتنى هل مسرحية اريسطوفانيس سياسية أم جنسية؟ وأعتقد أنها لو كانت سياسية لما عاشت كل هذه القرون. وقد حاولت أن تكون مسرحيتى فكرية مثل مسرحيته، لا سياسية.

ورغم إعجاب الجمهور والنقاد بالمسرحية، لكنها لم تسلم من بعض العقائديين. كتب أحدهم يسأل لماذا أتدخل فى شئون العراق؟ والمضحك أن أمثاله يعتبرون أن بلد عربى شقيق إلى حد أنهم يظهرون الحماس للحرب فى صفة باعتبارها قبيلة واحدة. أما كبير المراسلين الغربيين الذى يعيش فى مصر من عام ١٩٥٤ وهو ألمانى فقد قال لى «لقد جرحت الكل هذه المرة، الغرب والشرق معاً ولم تترك أحداً» كانت شخصية المرأة الألمانية فى العرض تحتضن كلبها دائماً كأنها استغنت به عن الرجال.

هل رأى المراسل يعد شوفينيه غربية؟ أم ترى سببها إقامته فى مصر لنصف قرن؟

مشهد ٤

التحايل على الجمهور

اعتبر الجمهور هو الجزء غير النشط من الرأى العام. كيف أكتب لهم ما أريده بحيث أحصل على اهتمامهم قبل إعجابهم وأمسكهم فى مقاعدهم وأحبس أنفاسهم وأدفعهم إلى الضحك والأسى وبعدها لا يهم إذا أيدوا وجهة نظرى أم لا؟ وقد وصف كاتب شهير هو أنيس منصور طريقتى فقال (إنه يزغزغ المتفرج بسكين).

فى فيلم الإرهابى عاش المتطرف فترة وسط أسرة لا تعرف حقيقته وفى لحظة كان منفرداً مع شابة من الأسرة راحت تلاعبه الورق مرتدية شورتاً ساخناً وبعقل مريض ظنها تدعوه لممارسة الجنس، ولكن بمجرد أن مد يده نحوها صفعته بقوة، فتراجع مذهولاً. كنت أتوقع ما قاله بعض المشاهدين بضيق من أن الفتاة مخطئة لأن الشورت كان ساخناً. لكنى واثق أنهم سينسون الفيلم بعد قليل، بينما اللقطة سابحة فى الذاكرة فى مؤخرة الدماغ، وعندما يشاهدون فتاة مثلها لن يحكموا بسرعة على أخلاقها ولن يفكر أحدهم أن يمد يده نحوها. لن يتذكروا الصفعة تحديداً ولكن من المؤكد أنها ستكون عندئذ السبب.

كان القلق أن يخاف الجمهور من الذهاب للسينما أصلاً. فالإرهاب كان يحرق بعض دور السينما والتاجر التى تبيع أشرطة الأفلام، لكن الناس راحت بكثرة وضحكت بالفعل. وقفزت إيرادات النجم عادل إمام إلى الضعف تقريباً. ونال جائزة أفضل ممثل لأول مرة. واعتبرته الميديا بطلاً بكل المقاييس. لكن

الأمر لم يسلم من هجوم البعض، ولكن على المؤلف وحده! وكان أمراً كوميدياً أن يأتى الهجوم من المعارضة اليسارية. قالوا بثقة إن الحكومة كلفتنى بكتابة الفيلم (الإرهابى). هل هو التباين الثقافى بين الشرق والغرب؟ وماذا لو قلت إن ناقداً أمريكياً كتب فى مجلة تصدر عن الجامعة الأمريكية مردداً خلف جوقة اليسار نفس القول؟

مشهد ٥

التحايل على النفس

عندما بدأت الميديا تخلط بين الكلمات ومن يؤدى الكلمات وصدقها المؤدى، وقع الانفصال بينى وبين شريكى الممثل. فقد أراد أن يمثل دور الكوميديان ودور المؤلف أيضاً كباقى النجوم. وواصلت أنا الإنتاج وحدى من عام ٩٣ بل قدمت عدداً أكثر من المغامرات المسرحية والتجريبية وكان الدخول أحياناً مجاناً. وتحملت خسائر كثيرة. لماذا؟ ربما من قبيل التحايل على نفسى. لكى أحصل على رضاها واحترامها.

وكنت قد عرفت أن أفضل وسيلة للتحايل على نفسى ألا أكون كاتب مسرح، فهى مجرد مهنة، ولكن أن أكتفى بأن أكتب مسرحيات حقيقية وهى عمل غير دائم ولكنها طريقة لاحتمال العيش فى الدنيا. واكتشفت أن الكتابة تكون حقيقية عندما أشعر بالحيرة لا باليقين الكامل فيدفعنى قلقى بأن أجسده مسرحياً وأنقله إلى الجمهور بطريقة يتحملها.

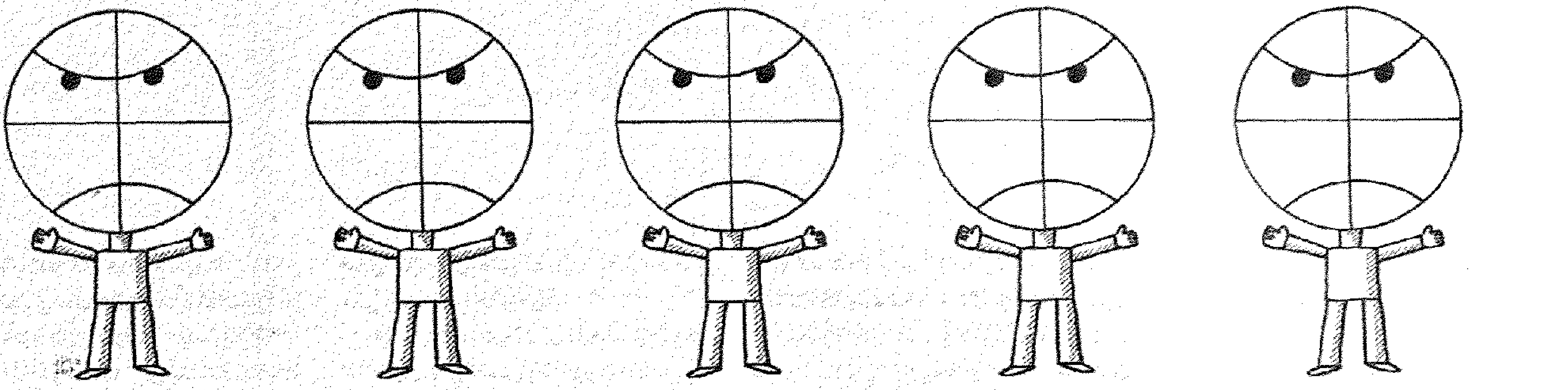
بعد عرض لمسرحية (أهلاً يا بكوات) سألت أحد النقاد عن رأيه فرد بأنه يحتاج أن يرى العرض ثانية. وتكرر هذا من عدة نقاد. وعرفت السبب عندما كتب أحدهم أن وجهة نظرى مهزوزة ومشوشة وأن هناك ارتباكاً فكرياً فى العمل. عندئذ فهمت أنهم كانوا يشاهدون العرض ثانية لأنهم لم يتأكدوا من البطلين فى المسرحية هو لسان المؤلف. وكان أحد البطلين مثالى والآخر نفعى. وعندئذ ابتسمت فى رضاء، فالمتفرج العادى لا يسأل هذا السؤال، لأنه قد شعر بصدق ما رآه يسأل نفسه أسئلة كثيرة لكن حول حياته وحول الحياة بشكل عام. ولأنى لم أطمع أن أضم المتفرج لعقيدة أو لحزب ما، فإن إثارة الأسئلة تكفينى، فلقد قررت منذ زمن بعيد ألا أفكر فى تغيير العالم.

خروج

فى عام ٨٧ بمهرجان فيفاى بسويسرا للأفلام الكوميدية منح الجمهور الأوروبى - وليس لجنة تحكيم - الجائزة الأولى وهى عصا شارلى شابلن الذهبية لفيلم (البداية) الذى كتبت له السيناريو والحوار. واندهشت، فالجمهور شاهده مترجماً للفرنسية، وبالتالى فاتهم الكثير من المعانى التى تثير الضحك ولكنها تستعصى على الترجمة. لكن بما أنهم ضحكوا ومنحوا الفيلم الجائزة، فمعنى هذا أنهم فهموا ما يكفى ليتجاوزوا التباين الثقافى.

بقى أن أقول إن الفيلم قبل أن يحرز الجائزة الذهبية فى سويسرا، وجائزة النقاد من مهرجان فينسيا وجائزة الشرف من المركز الكاثوليكى المصرى.

إذن البشر هم البشر بغض النظر عن تباين الثقافة والمبادئ. فقد عندما نخاطبهم فنياً كبشر، فالبشر وجدوا قبل أن يكون لهم ثقافات محددة ما تلبث أن تتغير من زمن لآخر. وفن الكوميديا وسيلة عظيمة لتجاوز هذا التباين. ومجالها ليس هو التحديد الثقافى أو الأيديولوجى. وليس هو الدعوة إلى قيم معينة بشكل مباشر مهما كان نبلها. إنما الصدق هو ما يضحك، رغم أن وسيلته هى الخيال واللامعقول، والكوميديا وهى تثير فينا الضحك - والأسى أيضاً كما ينبغى لها - توحى وتلهم وتحرك فينا مشاعر عميقة وبركاناً من الأسئلة وهى تصور الإنسان، ذلك المخلوق الذى يثير فينا الإعجاب به. وفى نفس الوقت مشاعر الخوف والشفقة عليه، فيحدث التطهير الذى تحدث عنه أرسطو فى كلامه عن التراجيديا. والتراجيديا هى خلفية اللوحة القاتمة التى تتناثر فوقها كل ألوان الكوميديا. ■



لاهو «كــون نيــوتن» ولا «إنســان داروين»

لاهوت الأرض

مصطفى المرابط

تبدو مطالع القرن الواحد والعشرين فترة مخاض، ترتب فيها القسمات النهائية لوجه الحضارة المعاصرة. إن ما حبلت به من أحداث، والتي كانت في كثير منها امتدادا لما عرفه القرن الماضي من تحولات، عجلت بالكشف عن معالم وملامح عالم الغد. إنها مرحلة يمكن اعتبارها الخلاصة النهائية لتجربة الغرب التاريخية، بمعنى أنه لا يمكن أن نحسن قراءة مجريات هذه الأحداث إذا بترناها عن سياقها التاريخي. فما يموج به عالمنا من تحولات وأزمات لا يمكن فهم أسبابها إذا تجاهلنا جوهرها وطبيعة الحضارة المعاصرة. إن مجموع هذه الأسباب تجد جذورها في طبيعة النظام الدولي الذي أرسى الغرب أسسه منذ خمسة قرون على الأقل.

لم يعد من العسير ملاحظة وجهة العالم المعاصر، حيث يتحدث عنها تيار كبير من حكماء العالم بنبرة تشاؤمية حادة ولا يترددون في وصف مآلها بالمأساوية أو الكارثية، وحتى بالانتحار الكوني، إذا استمرت وتيرة التطور في هذا السياق وعلى هذا المنوال. من هنا تبدو أهمية تلك المراجعات الشاملة التي تعرفها الثقافة الغربية على كل المستويات الفكرية والفلسفية والعلمية والفنية، وما صاحبها من مطارحات ومناقشات حول الجذور المعرفية والأيديولوجية للثقافة المعاصرة والتي غالبا ما تشير بأصابع الاتهام إلى الأسس الإبيستمولوجية والآليات الذهنية التي ترتكز عليها المنظومة المعرفية الغربية.

إن الإنجازات التاريخية المهمة التي راكمتها التجربة الأوروبية والتي كانت وراء ولادة الحضارة الغربية، دفعتها إلى أن توجد نظاما يعطي معنى لهذه التراكمات ويفسر ويبرر هذه الإنجازات، لأن النموذج الأوروبي، كما يلاحظ وليد نويهض، قد «تراكم تاريخيا حتى تكونت الصورة واكتشفت أوروبا نفسها بالنموذج الذي كونته». إن هوية أوروبا لم تصبح ممكنة إلا بعد أن انتظمت تراكماتها التاريخية في نسق نظري سمح لها بأن تحدد معالم شخصيتها وتحدد لنفسها مشروعا ذا نزعة عالمية، تهدف من خلاله إلى إعادة إنتاج العالم (الكون والطبيعة والإنسان) على صورتها ومثالها.

إن هذا الأساس المعتقدي النظري هو الذي سيشكل المحضن الثقافي لولادة الإنسان المعاصر. إن المشروع الذي ولد في خضم التحولات التاريخية التي عرفتها أوروبا سيجعل منها حالة استثنائية في تاريخ تشكل الحضارات.

إن الدراسات الإثنولوجية أوضحت لنا أن لكل ثقافة خصوصيتها في تشكيل تمثلات تهيكل رؤية الإنسان للعالم، وهذه التمثلات تترسب في قاع «العقل الجمعي» لتشكيل ما نسميه ببنيات المتخيل الجمعي أو المخيال بالمعنى الذي أعطاه له كاستريادیس، حيث لا يعتبر المخيال صورة أو انعكاسا لشيء ما، بل ذلك الذي «يخلق بشكل متواصل ولا محدود الأشكال والصور .... إن ما نسميه الحقيقة أو العقلانية هما من نتاج هذا المخيال». إن استنطاق المخيال الغربي هو الذي سيمنح لنا مفتاح فهم الصورة التي كونها عن نفسه والتي سمحت له بأن يعيد صياغة العالم بما يتناسب واتجاهه العام.

كيف تشكل هذا المخيال؟ ما هي الروافد التي ساهمت في بنائه؟ كيف يشتغل؟ ...إنها جملة من الأسئلة قد تكون حافزا يساعدنا على فهم طبيعة الحضارة المعاصرة وسياق تطورها، والوقوف على مصادر التحيز ومستوياته، لأنه إذا أردنا أن نفهم «العالم فهما صحيحا، فمن المهم أن نعرف المصدر الحقيقي للأفكار التي تحكم هذا العالم وان نفهم معانيها».

سنحاول من خلال هذا الموضوع أن نركز على بعض اللمسات الأساسية التي ساهمت في بناء وتحديد هوية لأوروبا، والتي نعتبرها كاشفة لمعالم التحيز، في شكل ترسيمات مختصرة.

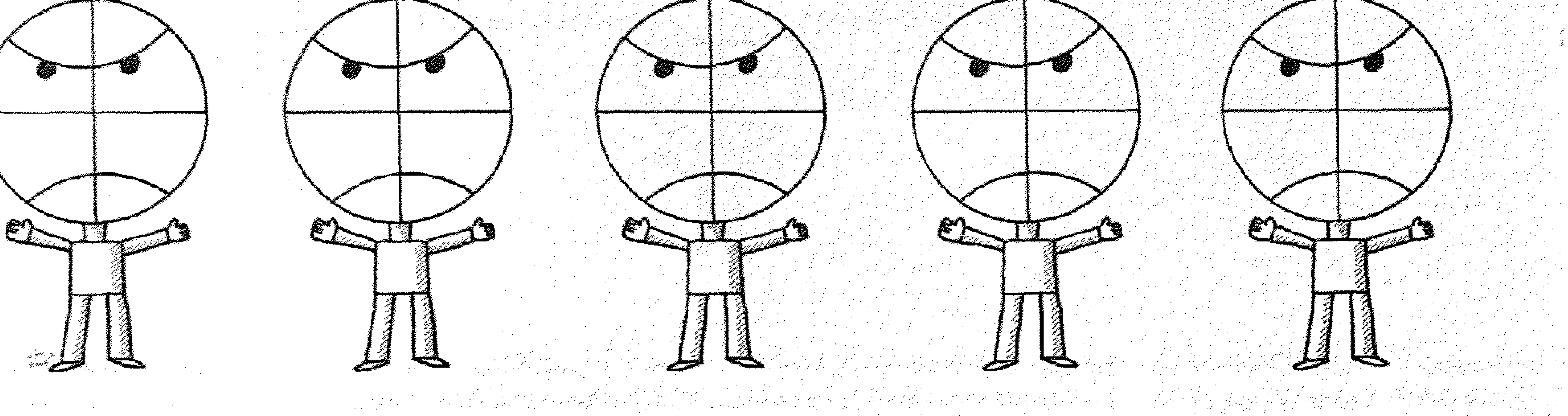
سيعمل الغرب في بداية تأسيس ذاتيته على استعادة التراث اليوناني ليجعل منه قاعدة صلبة وأساسية لحمل مشروعه. تبرز لنا من خلال هذا التراث قاعدة شهيرة، تقول بأن الإنسان مركز ومقياس كل شيء، وستحدد هذه القاعدة رؤية هذا المشروع لطبيعة ومكانة الإنسان وعلاقته بالأطراف. وستقفز إلى الواجهة مقولة الصراع كثابت من ثوابت هذا المشروع، تحدد طبيعة هذه العلاقة في عناوين ثلاثة:

- صراع الإنسان مع الله
- صراع الإنسان مع الطبيعة
- صراع الإنسان مع الإنسان

معالم في تشكل النظام

إن الإنجازات التاريخية التي راكمتها أوروبا حتى القرن السادس عشر (الاكتشافات الجغرافية، «فتح» أمريكا، سقوط الأندلس، تراكم الثروات، انطلاق حركات الإصلاح الديني، اكتشاف الآلة البخارية، التحولات الاجتماعية والسياسية..) جعلتها تكتشف في نفسها قوة عالمية لا محدودة، مما سيسمح لها بعدئذ بالعمل على اختراع صورة وهوية سيتم تفصيلها على مقاسات متطلبات المرحلة. إن هذه القوة «الماردية» التي استيقظت من أنقاض الظلام والجهل والاستبداد والتجزيء والاستعباد، وهي المعالم التي وسمت مرحلة ما يسمى بالقرون الوسطى في أوروبا، ستجد طموحاتها محدودة بسقف الكنيسة ومكبلة بنظامها. ويعتبر هذا الأمر أحد العوامل الأساسية التي عجلت بنشوب الصراع بين القوى الصاعدة والكنيسة.

إن هذه التحولات التي عرفتها أوروبا، ستبين أن الكنيسة باعتبارها سلطة روحية وزمنية قد استنفدت أغراضها، ولم تعد قادرة على التعبير، لا عن متطلبات المرحلة الجديدة، ولا عن طموحات القوى الجديدة الصاعدة. إن هذه المعركة الحاسمة التي تعتبر نقطة فاصلة في تاريخ أوروبا، ستلقي بظلالها على مجمل أبنية المجتمعات الأوروبية، العقدية والفكرية والنفسية. إن نتائج هذه المعركة التي حسمت لصالح القوى الصاعدة على حساب الكنيسة، ستسمح بإعادة ترتيب البيت الداخلي، وذلك بإكمال هيكلة البنيات الذهنية. فقد تم تطليق صورة العالم، عالم الكنيسة، لتحل محله صورة جديدة لا تمت بصلة إلى العالم القديم. إن هذا لا يعني أن القوى الجديدة قد ألغت الكنيسة وقطعت معها، بل العكس هو الصحيح، إذ أن الثورة ضد الكنيسة لم تكن تقويضا وإلغاء لثوابتها، بل إنقاذا لها؛ لأن الكنيسة، كما لاحظنا، في ظل تلك التحولات كانت قد استنفدت أغراضها، ولم تكن الأحداث والتطورات اللاحقة إلا إيذانا باقتراب موتها وانتهائها. فلم يكن الصراع مع الكنيسة إلا من أجل استعادة تلك الثوابت منها وإنقاذها بتوظيفها في سياق الحركة التاريخية الجديدة، ولعل هذا ما



توحى به أبعاد الحركة البروتستانتية (القرن السادس عشر) التى بدأها لوثر ثم كالفن. فلم تكن هذه الثورة إذن قطيعة مع تلك الثوابت، بل كانت وسيلة لاستمرارها فى إطار جديد وسياق مغاير. ولقد لاحظ حسن الضيقة فى قراءته لتجربة الإصلاح الدينى بأن اللوثرية أصبحت «على ضوء مقولتها الجديدة هذه، محاولة لإنقاذ المسيحية فى ظل الوضع التاريخى الجديد الذى ولجته أوروبا الحديثة، فقد قبلت اللوثرية بالانسحاب من مملكة الأرض لصالح قوى المجتمع الجديدة، مكتفية بالدور الموكل إليها فى صيانة المولود الجديد وسد ثغراته المختلفة على مستوى توفير أيديولوجية قاعدية حاضنة لقوى السلطة الجديدة.

إن الذى تم القطع معه، هو تلك الأشكال التى كانت تتمظهر من خلاله تلك الثوابت وتعبر بها عن نفسها. لقد انسحبت من الواجهة لتستقر فى الكواليس، ومن دنيا الناس وواقعهم إلى أعماق الوعى الجمعى ومخيالهم. إن الذى يجب التأكيد عليه فى هذه الحالة، أن «بنيات دين الكنيسة (المسيحية) اكتسبت حركية عميقة وابتدائية إلى درجة أنها استمرت فى طبع مصير الثقافات الأوروبية والتأثير فيها»، وهو نفس المعنى الذى «ذهب إليه هيجل، حيث يرى أن دخول المجتمعات العقلانية فى الأزمنة الحديثة، أزمنة العلوم والتقنيات والتصنيع، لا يعنى اختفاء المسيحية بقدر ما يعنى تجذرها»، وذلك ما سيبرز من خلال الوظيفة التى أسندت إلى المسيحية فى إطار مشروع أوروبا الجديد، حيث ستتحول من دين إلى أيديولوجية تبريرية فى خدمة إرادة السيطرة. ومع هذا الانقلاب فى وعى المجتمعات الغربية فيما يخص مسألة الدين، سيمهد الطريق نفسيا وفكريا لولادة دين جديد بإله جديد، يحل محل دين الكنيسة وإلهها. ففى هذا السياق ستسعى أوروبا إلى إعادة بناء عالم الكلمات والأشياء، من هنا سيلتفت إلى الإنسان لإبراز تفرده وتميزه بخاصية العقل. أليس العقل هو الذى جعل من الإنسان مركزا ومقياسا لكل الموجودات؟

إن الإيمان اللامحدود بقدرة العقل وقوته، والذى كان يطلق عليه نيتشه بحق صنم الفلاسفة الأكبر، سيدفع الغرب إلى أن يجعل منه إلها جديدا ليحقق بذلك الحلم الفاوستى الذى بشر به مارلو بصرخته المشهورة: «أيها الإنسان، بدماغك القوى كن إلها، ومعلما وسيدا لكل الموجودات».

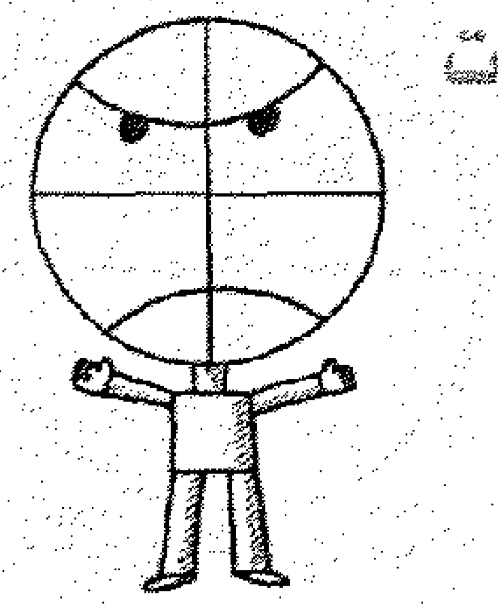
سيعمل هذا الإله الجديد على الحفاظ على نفس الطقوس التى كانت الكنيسة تحيط بها الله، ونسبتها إليه وإدراجها لصالحه، بحيث يحق لنا القول بأن «عبادة العقل فى الغرب أصبحت شكلا لائكيا للدين». عندما تربع العقل عرش الألوهية، أصبح روحا لهذا العالم ومحيطا به، فهو وبمن فيه ملك له، فلا يستطيع أحد أن يحيط بشىء إلا بواسطة قدرته، إنه بكلمة، أصبح روح الثقافة الجديدة ومحورها، ونفخ فيها روح الاكتفاء، بمعنى أنها لم تعد فى حاجة إلى مدد خارجى أو الاستعانة بأى مصدر آخر. فقد تمت «وضعنة» هذه الثقافة أو بالأصح علمنتها، عندما قُطعت عن مصادرها المتعالية. فعملية العلمنة جوهرية فى تشكيل النظام الغربى، فهى ملازمة لانفراد العقل بمركز الإله. فبعد تحطيم البنى الذهنية التقليدية الكبرى، تمكن العقل/الإله من خلال العلمنة أن يجرد الطبيعة من أبعادها الروحية والسامية، وينفخ فى الإنسان مجموعة من الاستيهامات، أبرزها الاستقلال والاكتفاء. وفى هذا السياق فإن العلمنة، حسب عبد الوهاب المسيرى «ليست مجرد فصل بين الدين والدولة كما هو ذائع فى الكتابات الغربية والعربية، إنها بالأحرى إبعاد للقيم المطلقة، إبستمولوجية وأخلاقية عن العالم، إلى حد أن هذا العالم بأكمله، الإنسان والطبيعة على السواء، يصبح هدفا نوعيا يستعبد وينتفع به». إن روح الاكتفاء هذه، ستخترق كل نسجة الثقافة الجديدة، لتستقر فى أعماقها ولتطبع بعدئذ كل تجلياتها على كل المستويات. ونذكر فى هذا الصدد تلك المحاورة المشهورة التى دارت بين نابليون ولابلاس، عندما أهدى هذا الأخير لنابليون مؤلفه الشهير «la mécanique celeste»، قال نابليون: «قمت بكل هذا العمل العظيم دون أن تذكر ولو مرة اسم مؤلف (أى مبدع هذا الكون)». فبادره لابلاس بهذا الجواب: «لم أكن يا سيدى بحاجة إلى هذه الفرضية».

سنجد أن هذا التصور كان قاسما مشتركا بين جهابذة فكر النهضة، مرحلة التأسيس، ليستمر بعد ذلك فى التمظهر بشكل أو بآخر على مدى التاريخ الحديث والمعاصر. هكذا نجد داروين مثلا يستعيد هذا التصور ليعيد توظيفه فى تفسير عالم الكائنات الحية، الذى ظل لقرون مستعصيا على تطويعه لمنطق الإله الجديد الذى يلغى اللجوء إلى الغايات لتفسير الظواهر الطبيعية، فهو يرى (أى داروين) أنه «من العبث الاستناد إلى فكرة الله»، لتفسير هذه الظواهر. يبدو إذن، أن المهمة الأساسية فى تجذير ألوهية العقل، تتجلى فى إقصاء الأبعاد الغائية من الطبيعة، والقطيعة مع النظرة التى تستحضر الغايات لتفسيرها، وإضفاء المعنى على الحياة، ذلك ما سيعبر عنه سبينوز بشكل جذرى، حينما يرى أن «فى الإيمان بنوع من الغائية أو القصدية التى تدير الطبيعة وتوجهها، يكمن العائق الأساسى أمام المعرفة العلمية». إن دور العقل الذى تمخض عن الثورة العلمية التى عرفها القرن السابع عشر، لم يقتصر على تفسير وحل رموز الكون فى لغة علمية، بل تحول إلى إله لا يقبل بغيره فى الإحاطة بكل شىء. فدور العقل وأهميته ليس جديدا ابتدعته الحضارة الغربية، فقد سبق أن عرفته الحضارات الأخرى بشكل أو بآخر. بل الجديد مع الحضارة الغربية هو إضفاء سمة الألوهية على العقل الذى جردته من الأبعاد الغائية، وفصلته عن العالم المتعالى. إن الأمر لا يتعلق بابتكار فكرة العقل ووظيفته، إنما «باستعمال وتوظيف جديدين للعقل، يستوجب طرد وإزالة الأسباب الغائية».

يتحدث داريوش شايغان عن مآلات هذا المشروع بدقة ملفتة، حيث لاحظ أن «هذه الحضارة مسئولة منذ خمسة قرون عن النمو السرطانى للملكات الذهنية للإنسان، والتى عملت على كبت صوت الروح بإقصائها وإلقائها فى كواليس اللاوعى. إن هذا الكبت جعل من الإنسان كائنا عصابيا، أحيانا لطيف ومجامل، ولكنه غالبا ما يكون خطيرا».

إن هذا الإنجاز، الذى يعتبر سابقة فى تاريخ الحضارات، لم يستكمل شروط الألوهية إلا بإيجاد واسطة تتجسد فى مؤسسة جديدة، تعبر عن إرادة العقل/ الإله وقدراته وقوته. لابد من وحى جديد ليترجم عقيدة هذا الإله الجديد. لذلك سوف لا يتوانى فكر النهضة فى استنفار كل إمكانياته لتثبيت هذا الأساس الفلسفى للحضارة المعاصرة. سيلتقط فكر النهضة العلم، ذلك الطارئ الجديد، ليجعل منه وحيا جديدا يتحدث من خلاله العقل/ الإله. سيصبح العلم فى هذا السياق مؤسسة كهنوتية تحل محل الكنيسة. إنه الدين الذى سيوحى به العقل/الإله. ومع هذه الانعطافة ستصبح هذه الديانة الجديدة مصدرا وحيدا للمعرفة. فمنذ ما يزيد على ثلاثة قرون، يقول على الشامى، «والعقل الغربى يتجه بصورة ملحوظة لإلغاء أى معرفة لا تصدر عنه، فالعقل الإنسانى هو الأصل والوحى هذيان وبديهى أن ترتكز مقولة رجحان العقل على السببية الإلهية على العلم بوصفه أداة هامة يستخدمها العقل لإثبات غياب الحضور الإلهى عن العالم». إن العلم لم يعد يقتصر فقط على التأمل والتنظير والتفكر والملاحظة والتجريب، بل يقوم أيضا وأساسا على التحكم والمراقبة وإعادة بناء عالم الأشياء. إن هذا العلم عندما تحول إلى مؤسسة معتقدية (ما سيطلق عليه بالعلموية)، كان قد غادر ذلك الإطار الذى كانت تضعه فيه الثقافات السابقة لفكر النهضة، حيث كان مسددا بفكر المقاصد والحكمة. وبتحوله إلى علموية، أصبحنا أمام خرافة أو أسطورة تتصف بنوع من التمامية (integrism) حسب تعبير رجاء جارودى، وتزعم «أنها قادرة على حل كل المشاكل، وما لا يخضع للقياس والتجريب والتنبؤ فهو غير موجود. إن هذا العلم الوضعى الاختزالى يقصى أبعاد الحياة الأكثر سموا كالحب والإبداع الفنى والإيمان». وبهذا المعنى يعتبر العلم بدون منازع «أقوى وسيلة ابتكرها الإنسان لينافس بها الله». واستمرارا على هذا التصور، يكون العلم قد ابتكر هوية وجودية تتمحور حول المادة، بمعنى أن المادة هنا ليست ذلك المكون الأساسى للأشياء، بل هى كل شىء، وليس هناك غير المادة. إنها جوهر الوجود، بل هى الوجود نفسه، فهى تشكل إذن العالم الوحيد الذى يحظى باعتراف الديانة الجديدة (العلم)، لأنها تمتلك لغة التواصل، التى لا يعرف العلم غير سواها من قياس ووزن وتكتل وتجسيم ... إن المادة فى تصور الديانة الجديدة أصبحت محورا استقطابيا يتحكم فى بنية العلموية، بحيث تصبح كل مكونات هذه البنية مربوطة إلى هذا المحور، وبهذا تكون المادة قد اكتسبت مرتبة شرفية جديدة. إنها، بكلمة، أصبحت «أم كل الأشكال». من هنا تبدو أهمية مركزية مفهوم المادة فى الحضارة المعاصرة، فهو الذى يمنح لها انتماء وبدونه تفقد هذه الحضارة معنى وجودها. وذلك ما خلص إليه جان بول شارتى حين قال: «إن المادية أو بمعنى آخر الاعتراف بالمادة أصبح ثابتا من ثوابت الغرب».

بعد إرساء هذه الأسس



العقدية سينطلق الغرب لإعادة بناء العالم وفق تلك المقاسات التى حددناها سابقا: العقل/الإله، العلم/الديانة، المادة/الوجود. إن مشروع العقل الغربى الذى ستحمله مؤسسة العلم، سيعمل على إعادة تفسير العالم لضبطه والتحكم فيه وامتلاكه، وبالتالى إخضاعه لإرادة الإله الجديد، «ولم يكن بالإمكان إدخال الضبط والتحكم فى العالم الموضوعى الذى حدده العلم إلا إذا تم، وبشكل منهجى، إفراغه من أى معنى ومن أى نظام خارج الإنسان، سواء كان نظاما متيافيزيقيا أو دينيا. وبالتالى يجب استبدال تلك الروح التى كانت تملأ العالم بنظام إنسانى جديد وإدخاله فى كل مكونات هذا العالم».

فما هو إذن هذا النظام الإنسانى الجديد الذى سيحل محل النظام الإلهى؟

الولادة الثقافية

إن إقصاء الله عن حياة البشر وتربع الإنسان بعقله مكانه، وإقصاء الدين / الوحى كواسطة بين الله والإنسان، وتعويضه بمؤسسة العلم باعتبارها مصدرا وحيدا للمعرفة، وإفراغ العالم من المعنى والغايات، وملئه بالمادة كـ«روح» يصدر عنها كل شىء. كانت النتيجة المنطقية لهذا المسلسل هى إعلان موت الإنسان. فموت الإنسان هو نتيجة حتمية لموت الإله، وموت الإنسان هذا يعنى تجريده من كل الأبعاد الأخرى غير البعد المادى، وبمعنى آخر، إن الذى مات هو ذلك الإنسان المتسامى الذى بشرت به كل الرسالات السماوية. وهذا لم يكن ممكنا إلا بعد أن تم انتشاله من النظام الإلهى الذى كان يضفى عليه تميزه وتفرده، ليرتمى به فى أحضان نظام إنسانى جديد أطلق عليه نيتشه اسم العدمية «nihilism».

إن دين العلم الذى تستند إليه العدمية لا يعترف إلا بحيوانية الإنسان، أى البعد المادى فيه، ومن هنا إصراره على تدمير أعز ما كان يملكه الإنسان، البعد المتسامى. قد لا نجد أوضح من القاموس القرآنى فى وصف أبعاد الإنسان الشاملة، وباستعارتنا له يمكن أن نلخص فعل العدمية، والذى يتجلى فى فصلها نفخة الروح عن قبضة الطين وبالتالى ألغت الأولى وتصدرت الثانية مسرح الحياة. هكذا تبدو لنا العدمية تعبيرا عن «تراجع وتفسخ القيم الميتافيزيقية، ثم تفتت القيم الكونية وكذلك غياب أى غاية وأى كلية وأى وحدة. وهى المقولات التى كانت تستند إليها نظرتنا للعالم»، لأن هذه المقولات «مقولات الغاية والوحدة، التى بفضلها أضفينا على العالم قيمة، قد تم انتزاعها». ويخلص شايغان إلى اعتبار «العدمية هى ذلك الشرخ أو الانفصام الذى يحول بين الإيمان والمعرفة». وهذا لا يمكن أن يقودنا إلا إلى تعميم الظلامية التى تفصح عن نفسها فى أكثر من علامة والتى تعتبر، حسب فون بادر، كما يذكر شايغان، نتيجة حتمية لـ «نفى الله والعالم المتسامى وظهور الإنسان الأعلى، الذى بفضل سلطته المطلقة، حل محل الله».

إن ظهور هذا الإنسان، الذى تحدث عنه هربرت ماركوز وباسهاب، واصفا إياه بالإنسان ذى البعد الواحد، ستصاحبه إشكالات جمة، ولعل أخطرها، الإشكال الوجودى. التى ستعمل نظريات التطور، خاصة الداروتية، على الالتفاف على هذا الإشكال وطمسه، بمحاولتها بناء وضعية علمية تمنح هوية جديدة لهذا الإنسان الجديد، وتبرر بها ولادته. بمعنى أن الداروتية ستعمل على بناء مشروعها وفق الأنموذج السابق ذكره، ستسعى إلى أن تقعد وتؤصل علميا ولادة الإنسان ذى البعد الواحد. فهذا الكائن، وفق الرؤية الداروينية، ينتمى إلى عالم الحيوان، ولا يختلف عنها إلا فى درجة التطور، فهو يخضع لنفس المنطق ويستجيب لنفس القوانين. وإذا كان هناك من هدف لوجود عالم الحيوان، فإنه قطعا، هدف من اجل البقاء. والبقاء هذا مرتبط بالحصول على الغذاء، وبما أن مصادر الغذاء تنمو وفق متتالية حسابية مقابل تكاثر الحيوانات التى تتبع متتالية هندسية (وهى الفكرة التى استعارها داروين من مالتوس)، فإن البقاء يكون للأقوى. وبالتالى فإن القانون الذى يجب أن يسود هو الصراع من اجل البقاء. ولكى تضمن الحيوانات، بما فيها الإنسان، البقاء يجب أن تطور قدراتها وإمكاناتها، وتستعمل كل الوسائل المتاحة للحصول على الغذاء. فعلى أساس هذه القاعدة، يتم الانتخاب الطبيعى، الذى كان يحلو لداروين أن يسميه بـ «عقيدتى الجديدة». وإذا كانت الداروتية قد وضعت الأساس العلمى لظهور الإنسان الجديد، بتحديدها الهدف من الوجود وقوانين الانتخاب والبقاء، فإن السؤال الذى يطرح نفسه هو حول تداعيات هذه التطورات على المستوى الاجتماعى، وعن تجلياتها على المستوى الحضارى.

ليس بغريب إذا كانت الأجوبة على هذه الأسئلة قد فصلت فى رحم البيولوجيا التطورية، لتعمم بعد ذلك، تلك القوانين الطبيعية على الاجتماع الإنسانى، لتظهر إلى الوجود ما يسمى بالداروتية الاجتماعية والسوسيوبيولوجيا.

إن الترسانة المعرفية الغربية ستستجمع كل قواها لتوفير المحضن المناسب لولادة هذا الإنسان، ولتأكيد شرعية لاهوت الأرض الجديد: الإله/ العقل، العلموية/الدين، المادة/الوجود. وتأكيد الشرعية هذه، يقتضى إثبات القدرة على ضمان البقاء الذى يرتبط بدوره بتوفير كل ما يشبع ذلك البعد المادى. وسينجح هذا اللاهوت من خلال طفرة فريدة فى تحقيق تركيبة تتوفر فيها كل الشروط التى تلبى رغبات هذا الإنسان. هذه التركيبة هى الصياغة التشريعية للدين الجديد: إنها الرأسمالية، التى أبت إلا أن تجعل من نفسها شريعة لاهوت الأرض. إن هذه الرأسمالية هى تلك التى تتمثل فى «المجتمع الذى خلق الإنسان الغربى ذى البعد الواحد، ذلك الذى ينتظر من نمو العلوم والتقنيات نموا لا نهائيا كى يروى غله وإرادته فى السيطرة والربح». إن إرادة الإله الجديد / العقل هى إرادة تتسم بالربح والسيطرة، وتلك ميزة شريعة الرأسمالية. ويلاحظ جارودى، أنه «بعد الدين الذى يبشر بالصبر، جاء دين ضمنى قوامه تحريض الرغبة تحريضا دائبا».

وبالفعل ستعمل الرأسمالية على تأطير الإنسان وإقناعه بأنها النظام الوحيد القادر على تلبية كل رغباته. إذا أراد هذا النظام أن يثبت جدارته فى انه دين يحل محل دين الكنيسة، فلابد أن يوجد انماطا للحياة، على شكل طقوس وشعائر، توقظ الحيوان فى الإنسان من خلال تحريض غرائزه. ويبدو هذا الإنسان فى أحضان الرأسمالية كائنا بيولوجيا نام فيه كل شىء إلا غرائزه، إنسان شره لا يعرف لنهمه حدودا.

إن هذه الطقوس والشعائر هى التى «سعت إلى تحويل الإنسان إلى منتج أكثر فعالية، وإلى مستهلك أكثر جشعا ونهما فيما يخص ملذاته، كائن محرك بدافع المصلحة الفردية وحدها فقط».

إن محدودية مصادر الحياة مقابل لا محدودية نهم الإنسان، أصبح يهدد مشروعية الديانة الجديدة. فالتوقف عن تلبية رغبات الإنسان الغريزية هو تشكيك فى هذه الديانة وكفر بإلهها. فكيف يمكن أن يضمن هذا النظام وفرة مصادر الحياة واستمرار تدفقها بشكل مطرد؟ إن التعاطى مع هذه الإشكالات دفع النظام الغربى إلى البحث عن مخارج لهذا المأزق، وقد تم تحقيق هذا الأمر عن طريقين:

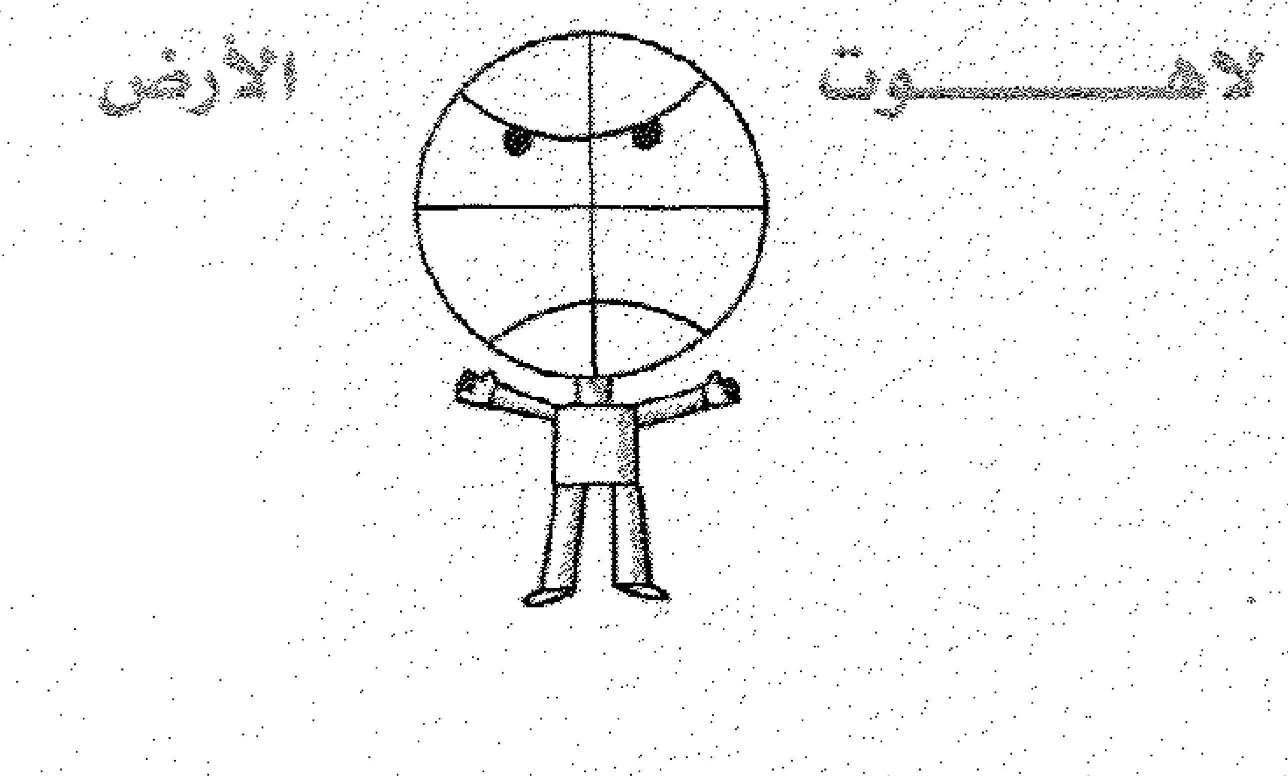
الطريق الأول: من «الانتخاب الطبيعى» إلى «الانتخاب الإنسانى»: إذا كانت الداروتية قد فسرت التطور من خلال غريزة البقاء، بحيث أن الطبيعة تنتخب الأقوى وتلغى الضعيف، فإن الرأسمالية أدخلت هذا القانون على الاجتماع البشرى وأسندت مهمة الانتخاب هذه المرة إلى الإنسان، لتصبح الرأسمالية بذلك «حرب الجميع ضد الجميع»، على حد تعبير هوبز. كان الاستعمار أرقى تعبير عن هذه الفلسفة، ليجسد فعليا مهمة الانتخاب وليقرر فيمن له الحق فى البقاء.

الطريق الثانى: تحويل نمو الثروات الطبيعية من متتالية حسابية إلى متتالية هندسية: ستعمل مؤسسة العلم على استجماع إمكانياتها لإيجاد وسائل تتحكم فى الثروات الطبيعية وتعمل على إنمائها وتطويرها. تتلخص هذه الوسائل فى التقنية التى أصبحت خاصية للعلم. إن العلموية جعلت من التقنية مبشرا، رأت فيه أفضل وسيلة لتأكيد صفة الديانة على هذه المؤسسة. «إن التقنية كانت أداة قوية لاستعمار الأبدان والعقول»، وهذا لم يكن ممكنا لولا «أن التقنية أصبحت شعبة من شعب الإيمان على المستوى الكونى. إنها النتيجة الملموسة والحضور الواقعى للديانة الجديدة، العلم». لقد تمكنت التقنية أن تبهر الإنسان بمعجزاتها واستطاعت أن تغير حياته ومحيطه.

عبر هذين الطريقين والتزاوج بينهما، أى بين الاستعمار والسيطرة على الخارج من جهة والتقنية من جهة أخرى، تكون الرأسمالية قد ضمنت استمرار وفرة متطلبات وحاجيات هذا الإنسان، وبالتالى أصبحت أرقى نظام يشفى غليل إرادة هذا الإنسان فى السيطرة والربح. وقد سبق لداريوش شايغان، عندما تعرض لمفهوم العدمية أن تناولها من خلال مرحلتين:

«ليـــس الإنســـان
مفصــــلا عــــلى طـــراز
داروبـــــن ولا الكـــون مفصـــــلا
عـــــلى طـــــراز نيـــوتــــن»

على عزت بيجوفتش



- مرحلة العدمية السلبية، والتى ارتبطت بتجريد العالم من المعنى والتى كانت تقتضى «إدراك ووعى أن كل شىء عبث وتافه».

- ومرحلة العدمية الفعالة، والتى يحددها لنا من خلال وجهة نظر نيتشه بأنها «علامة قوة طاغية ومتصاعدة للروح التى تبلغ أوجها على شكل قوة عنيفة تدميرية».

يتبين لنا من خلال هاتين المرحلتين تطور نظام لاهوت الأرض الذى يلخص مسيرة الغرب الحضارية، والذى خرجت من أحشائه صورة جديدة للعالم، بعدما أعيدت صياغتها فى شكل غاب، البقاء فيه للأقوى. وفى أحضان هذا المحيط سيترعرع الإنسان الجديد الذى حددت مكانته ومهامه، وحددت كذلك طبيعة علاقاته الاجتماعية، من خلال فرضية هوبز، كما يوردها غارودى، الإنسان ذئب بالنسبة للإنسان الآخر: فمن علاقات التنافس والتضارب، كما هو الحال فى اقتصاد السوق، إلى علاقات الصراع، كما هو الحال فى قانون الغاب، مرورا بالعلاقات بين الأفراد والجماعات، كما تعكسها السينما والألعاب الرياضية وعلاقات الأسياد والعبيد بين «الداخل» و«الخارج»، وصولا إلى المستوى المعاصر حيث تتمظهر هذه العلاقات فيما يسمى بتوازن الرعب.

فى علاقة الإنسان بالطبيعة:

لقد تبين فيما سبق أن مشروع النظام الغربى كان يرمى إلى إعادة بناء نظامه وفق المرتكزات العقدية التى حاولنا تحديدها. كما تبين لنا أن العلم تحول إلى مؤسسة معتقدية، أى إلى علموية والتى يعرفها جارودى بأنها «هى تلك الخرافة التى، بفصلها العلم عن الحكمة والوسائل عن الغايات، لم تجعل من المعرفة فضيلة فى خدمة تحقيق الذات والتغلب عليها، ولكن جعلت منها سلطة فى خدمة إرادة القوة اتجاه الطبيعة واتجاه الناس الآخرين».

فالسيطرة على الطبيعة والتحكم فيها تقتضى معرفتها. إن المعرفة هنا كما فى غيرها، حددت وظيفتها فى السيطرة. وتلك هى خاصية العلم الحديث الذى يهدف إلى أن يجعل من الإنسان «سيدا ومالكا للطبيعة»، كما أرادها ديكارت. فعندما حددت هذه الأهداف انطلق الغرب مبكرا لاستكشاف العالم والطبيعة والإنسان، ودراستهم دراسة موسوعية شاملة، فتم تطوير المناهج والأدوات، وتنويع التخصصات لتشمل جميع الميادين. وهكذا يتبين «أن التحكم فى الطبيعة مشروع شامل، لا بل هو شمولى». فكيف تمكنت العلوم من بناء معرفتها حول العالم والطبيعة والإنسان؟

إن النظرة التى كونها الإنسان عن الطبيعة وعن الكون هى وليدة تلك التحولات التى رافقت تشكل النظام الغربى، والتى تجذرت فى بنيته الذهنية ومخياله الجمعى، كما سبقت الإشارة إلى ذلك: فأفرزت صورة تؤطر مفهوم الواقع والحقيقة، وأصبحت سائدة ابتداء من القرن السابع عشر. إن هذه النظرة ترتكز على اعتبار أن «المادة هى أساس الوجود، والعالم المادى عبارة عن عدد كبير من الأجزاء المنفصلة، والتى تكون مجتمعة آلة ضخمة»، مثل كل الآلات التى يصنعها الإنسان ويتعايش معها. إن صورة العالم فصلت على الآلة التى صنعها الإنسان. فجاءت نظرة العلم حبيسة هذا النموذج.

ونتيجة لهذا التصور يصبح بالإمكان فهم الظواهر المعقدة، بتحويلها إلى عناصرها الأساسية، والبحث عن الآليات التى تتفاعل من خلالها وتشتغل بها. إن هذه النظرة الاختزالية هى التى ستطبع المعرفة العلمية وستصبح سمة أساسية للثقافة المتفرعة عنها. إن ديكارت، مثل غيره من أقطاب مرحلة النهضة الأوروبية، يعرض بوضوح فى كتاباته أصول النظرة الاختزالية هذه، حيث يرى أن دراسة أى حقيقة كيفما كانت يجب أولا تفكيكها إلى أجزاء مختلفة، ثم تفكيك هذه الأخيرة إلى مكوناتها، وهكذا إلى أن نصل إلى أصغر مستوى حيث العناصر الأولية.

إن هذا التصور الذى يختزل الكون فى الآلة، والذى تأسس عليه المنهج العلمى، سيصبح القاسم المشترك بين كل العلوم والمعارف، وسيتم بعد ذلك تصريف هذا التصور وتعميمه على كل ما يحتويه هذا الكون: الطبيعة وعالم المادة وعالم الحيوانات بما فيه الإنسان. فكل شىء تمت مماثلته بالآلة. فلكى «نخصص مثلا مكانة للكائنات الحية ونتمكن من تفسير وظيفتها، فليس هناك إلا بديل واحد: إما أن نعتبر هذه الكائنات آلات حيث لا نأخذ بعين الاعتبار إلا الأشكال والأحجام والحركات؛ وإما أنها لا تخضع لقوانين الميكانيكا وعندها يجب أن تعدل عن أى وحدة وأى تماسك فى العالم. أمام هذا الاختيار، فإن العلماء سواء كانوا فلاسفة أو فيزيائيين أو أطباء، لم يترددوا فى تبنى مقولة: كل الطبيعة آلة وكل الآلة طبيعة».

إن التصور السابق لفكر النهضة كان يرتكز على مفهوم الأرض، الأم المرضعة؛ وعلى الرؤية العضوية للطبيعة. هذا التصور سيعرف انقلابا جذريا بعد أن حولت الثورة العلمية الكون إلى آلة عملاقة. إن هذه الثورة ابتدأت عندما رفض كوبرنيك نظرية مركزية الأرض التى كانت سائدة فى أوروبا، والتى انحدرت من بطليموس وتبنتها الكنيسة. وسيستمر على هذا الخط كيبلر، الذى سيعمل بدوره على تعميق تلك النظرات.

لكن الزلزال الحقيقى الذى سيحدث ثورة فى الوعى العلمى، هو الذى قاده جاليلى والذى يعتبر بحق أبا العلم الحديث، ذلك انه سيزاوج بين التجريب العلمى واللغة الرياضية لبناء قوانين الطبيعة. فحسب غاليلى، فإن الفلسفة (بالمعنى القديم للمفردة، أى تلك التى تشمل كل المعارف بما فيها العلم)، مكتوبة فى كتاب كبير هو الطبيعة، مفتوح أمام أعيننا إلا انه يستحيل فهمه ما لم نتعلم أولا وقبل كل شىء اللغة والرموز التى كتب بها. إن اللغة هنا هى الرياضيات، والرموز هى المثلثات والدوائر والأشكال الهندسية الأخرى. ولكى نصف الطبيعة رياضيا ينصح جاليلى العلماء أن يقتصروا على دراسة الخصائص المهمة للأجسام المادية فقط: الأشكال والأعداد والحركة، أى كل الخصائص التى يمكن قياسها.

وفى نفس الوقت كان فرانسيس باكون فى انجلترا يضع اللمسات الأخيرة للمنهج الامبريقى للعلم. إن هدف العلم، حسب باكون، هو بلورة معرفة تمكننا من السيطرة على الطبيعة والتحكم فيها. فيجب أن نطاردها ونقاوم زيغها، بكلمة يجب أن نستعبدها ونخضعها. إن دور العالم بالنسبة لباكون، هو أن ينتزع من الطبيعة أسرارها، فليس غريبا بعد ذلك أن يصيح برتولو(Bertholot)) بذهول «لم يعد الكون يملك أسرارا».

نلاحظ أن مرادفات القاموس الذى يستعمله هؤلاء الرواد تتسم بنوع من العنفية والصراع. وهو ما يعكس الخلفية العقدية والفلسفية التى تأسست عليها الحضارة الغربية، كما تطرقنا إلى ذلك سابقا.

إن هذا الخط سيكمله، وبشكل مدهش، كل من نيوتن وديكارت بعد نجاحهما فى إيجاد صياغة تركيبية لأفكار جاليلى. فالعلم الحديث يرتكز أساسا على النظرية الرياضية لنيوتن وفلسفة ديكارت والمنهجية التجريبية التى وضعها فرانسيس باكون، أنه علم يستند إلى ثابتين أساسيين:

١ - النظرة الآلية إلى الكون والطبيعة والإنسان

٢ - قانون الحتميات

انطلاقا من هذا البناء النظرى، الذى نجد خلاصته واضحة عند ديكارت، سيعاد تشكيل الوعى العلمى وذلك بالعمل على تقويض الآليات الذهنية القديمة، التى كانت تقوم على العلاقة العضوية، والمفاهيم المرافقة لها مثل الحكمة والتآلف والانسجام مع النظام الطبيعى؛ لتُباشر بعد ذلك عملية استبدالها بآليات جديدة تقوم على الحتمية والوضعية (إفراغ الكون من أى معنى، وعزله عن البعد المتسامى)، والتضاد والنظرة الميكانيكية للطبيعة. يمكن أن نخلص إلى أنه «خلال مرحلة النهضة عوّضت الصورة الآلية للكون الصورة الحيوية التى كانت سائدة من قبل».

إن النظرة الآلية التى تشكل الهيكل العظمى للعلم تعتبر فلسفة طبيعية قائمة على ميدأين أساسيين:

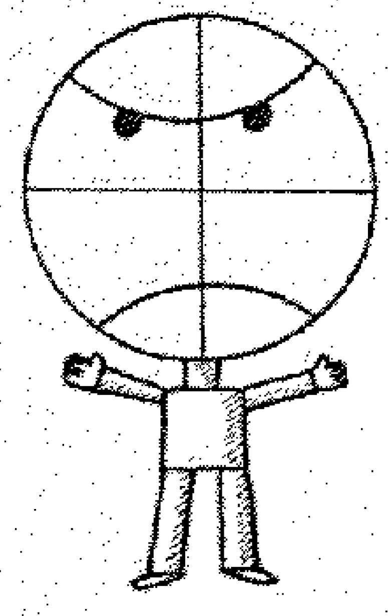
- مبدأ وضوح المفاهيم الأولية: هذا المبدأ الذى ابتدأ مع جاليلى واتضح أكثر مع ديكارت، يوضح أن العلم يمكن أن يبنى على قاعدة مجموعة من الأفكار الواضحة والبسيطة فقط، بحيث تبدو بديهية لكل عقل ولا تحتاج إلى برهان.

- مبدأ الانقسامية بطريق الفكر: وهو المبدأ الذى ينفرد به ديكارت، وقد سبقت الإشارة إليه. هذا المبدأ يفيد بضرورة تفكيك كل الأشياء، على الأقل فكريا، إلى الأجزاء الأولى المكونة لها، على غرار نموذج الآلة.

إن هذه الفلسفة الطبيعية لم تكسب متانتها وتستكمل بناءها إلا بعد أن طور ديكارت نظراته الفلسفية وعمقها حول علاقة الإنسان بالطبيعة، ذلك أن «الوحدة العضوية لفلسفة النهضة ستتحول مع ديكارت إلى

قبلت اللوثرية بالانسحاب من مملكة الأرض لصالح قوى المجتمع الجديدة، مكتفية بالدور الموكل إليها فى صيانة المولود الجديد وسد ثغراته المختلفة على مستوى توفير أيديولوجية قاعدية حاضنة لقوى السلطة الجديدة

لاهـــوت الأرض



ثنائية الروح والمادة ووحدة الوجود والثنوية».

إن هذا الفصال الذي قام به ديكارت بين الروح والمادة، والنفس والجسد، وبين الإنسان والطبيعة، وبين العقل والعواطف، سينعكس على كل مستويات الحياة. بل يذهب كابرا أبعد من ذلك عندما يعتبر «أن القاعدة الفلسفية لعلمنة الطبيعة، تعود إلى التقسيم الديكارتي بين الروح والمادة. ومن نتائج هذا التقسيم، اعتبار العالم نسقاً آلياً (ميكانيكيا) يمكن وصفه موضوعياً دون الإشارة إلى الملاحظ، الذي هو الإنسان»، وهذا ما سيؤدي في نظرنا إلى إفراز مجموعة من الأعراض تطاول مجمل مراتب الوجود الإنساني، النفسية والذهنية والمعرفية والتي يسميها جارودي بالمرض التحليلي، حيث إن هناك شغفا بتقسيم كل شيء إلى اثنين، «ثنائية النفس والجسد، والمادة والروح، والزمن والخلود، والنهائي واللانهائي، والحتمية والحرية، والإنسان والله، والضرورة والعفو، لنصل إلى أفظع الحماقات: تضاد المادة والمثالية، وهو المشكل الفلسفي الذي خرج مسلحا بالثنوية الديكارتية التي تجعل من الإنسان روحا مركبة على آلة ميكانيكية أو جثة مربوطة بشبح».

إن أول امتحان سيتعرض له نموذج العلم الحديث هو اكتشاف قوانين الديناميكية الحرارية التي ستطرح إشكالا علميا، وتظل لغزا دون جواب داخل الفيزياء الكلاسيكية إلى أن يجئ بولتزمان (Boltzman) ليفتح ثغرة في هذا المأزق النظري بإدخاله مفهوما جديدا، ألا وهو مفهوم الاحتمال (الطاقة الكامنة Potential energy).

ومع بداية القرن العشرين ستعرف الفيزياء عدة هزات نظرية، ستكشف عن محدودية النظرة الآلية والاختزالية للعلم، كما ستبين كذلك عجز لغة الفلسفة الميكانيكية عن استيعاب الاكتشافات والتطورات الجديدة. وهذا ما سيدفع العلماء إلى ضرورة القيام بمراجعات نظرية لكل الجهاز المفاهيمي الذي تأسس عليه العلم الحديث. وسيتوج هذا المسار بالثورتين العلميتين، وما أفرزتاه من مفاهيم جديدة ونظرات مغايرة وجدالات ساخنة، يتعلق الأمر بالنظرية النسبية والفيزياء الكوانتية. إن هاتين الثورتين ستقلبان كل المفاهيم التقليدية حول المادة والزمن والمكان، إلى درجة أن اينشتاين نفسه لم يستطع أن يتمثل هذه التحولات: «كان الأمر بالنسبة لي، يقول إينشتاين، كأن الأرض تنشق تحت أقدامنا، دون أن يكون هناك شيء ملموس يمكن الاتكاء عليه أو البناء فوقه».

فمن أحشاء مؤسسة العلم نفسه، بدأت الإرهاصات الأولية تطل برأسها مؤذنة بانقلابات جذرية في نظرتنا للعالم. فالمقولة التي اعتبرت المادة جوهر الوجود وثابتا من ثوابت الرؤية الحضارية، قد أصبحت عارية من دون سند. إن مفهوم الموضوع/الشيء القائم بذاته والمفصول عن الأشياء والإنسان، قد انهار في نظام الفيزياء الكوانتية (الكمية - Quantum physics)، فالموضوع/ الشيء غير مستقر ولا يوجد إلا في علاقة، أي لا يستمد قيمة وجوده إلا من خلال العلاقات التي ينسجها مع محيطه. فنظرية النسبية قد كشفت لنا أن الكتلة أو الجسم، ليست إلا مظهرا من مظاهر الطاقة، والمادة لا تنكشف إلا من خلال نشاطها وحركيتها. أما الكون، فلم يعد آلة ضخمة مكونة من عدد من الأشياء المفصولة، كما كانت تقدمه العقلانية الديكارتية، بل أصبح « كلا متجانسا غير قابل للانقسام أو التجزئ، إنه عبارة عن شبكة من علاقات دينامية تتضمن الملاحظ ومشاعره بشكل أساسي». ألا يفسر هذا ذهول اينشتاين وهو يعيش التجربة «المأساوية» للزلزال الذي ضرب العقلانية وقويض أسس الفيزياء الكلاسيكية؟.

أمام هذه التحولات، وجد العلماء أنفسهم مضطرين للتخلي عن المقعد الوثير الذي كان يمنحهم الثقة والطمأنينة في مؤسسة العلم وعلى قدرتها على حل رموز وألغاز العالم. كما تبين انه آن الأوان لتخفت تلك الأصوات، وما أكثرها، التي كانت تدعي أن الكون لم يعد يملك أسرارا. فنحن أمام كون لا نملك عليه من العلم إلا ما يعرف الطفل عن ما في أعماق البحر، كما كان يردد اينشتاين. إن الشظايا التي تتطاير من هذه الاختمارات داخل العلم تتسارع لصياغة نظرة جديدة للعالم والطبيعة والإنسان، كما أنها تنبئ بثورة معرفية جديدة لا علاقة لها بمرتكزات لاهوت الأرض. يذكر كستلر كلمة مأثورة لجيمس جون القاها سنة ١٩٧٣: «أصبحنا اليوم نعتقد بصفة عامة، والفيزيائيون بصفة خاصة، بأن تيار المعرفة يقودنا نحو حقيقة غير آلية. إن الكون بدأ يظهر لنا بأنه يشبه فكرة كبيرة أكثر من آلة كبيرة».

إن خطوط التمايز والفواصل بين العلم والعلموية، أي بين العلم والجذور العقدية، تبرز أكثر فأكثر. كم هي المحاولات التي يكشف فيها العلم عن نيته في مغادرة تربته والانسلاخ من جذوره، لينغرس في تربات أخرى وبجذور جديدة. إن الرحم الذي فصلته العلموية لمولودها لم يعد يسعه، فهو أكبر من أن يستوعبه النظام الاختزالي. إن الحبات (المادة والطبيعة والإنسان والحقيقة) التي من أجلها صنعت الطاحونة لم تعد قابلة للطحن. إن المادة لم تعد تحدد بالمعايير الملموسة، فهي في تحول دائم ومستمر، فهي تارة طاقة وتارة أخرى معلومة. أما الحقيقة فهي غير موجودة لذاتها، وحواسنا وأدواتنا لا تلتقط إلا تمظهراتها الخارجية. وكما يقول هايزمبيرغ: «إن الذي نراه ليست الطبيعة بعينها، إنما شكل من أشكال الطبيعة المعروضة أمام أدوات التقصي والبحث»، بمعنى آخر، «فإن تجاربنا لا تكشف لنا الحقيقة في ذاتها، إنما ظواهرها فقط». لذلك أصبح لزاما على العلم أن يتخلى عن المادية التي كانت سائدة. يجب أن نقر بوجود حقيقة ظاهراتية يسمح لنا العلم بمقاربتها، أما ما بعد الظواهر «فإن الحقيقة النهائية تبقى محتجبة»، يعجز العلم عن استنطاقها، لأنه عمليا لا يستطيع أن يلتقط إلا انعكاساتها أو أصداءها. وعلى ضوء هذه المعطيات يبدو أن العلم يتجه نحو اعتبار النظريات العلمية مجرد مقاربات تخمينية للطبيعة الحقيقية للواقع، وبالتالي فإن كل نظرية لا تصلح إلا لعدد محدود من الظواهر. لذلك نتفهم كارل بوبر عندما يقول «إن النظريات العلمية ليست إلا ابتكارات ذهنية يجب أن تخضع بشكل دائم ومستمر للمراجعة». قد سبق أن أشار بريغوجين إلى أن الطبيعة «تجيبنا» حسب الأسئلة التي نطرحها عليها.

إن المعرفة في تفاعلها مع هذه النظرات الجديدة، ما عليها إلا أن تتخلى عن قدسيتها وإطلاقيتها، لتتسم بالنسبية والتواضع، «فلم يعد هدف المعرفة هو اكتشاف سر العالم في كلمة جامعة مانعة إنما الهدف هو التحاور مع لغز العالم».

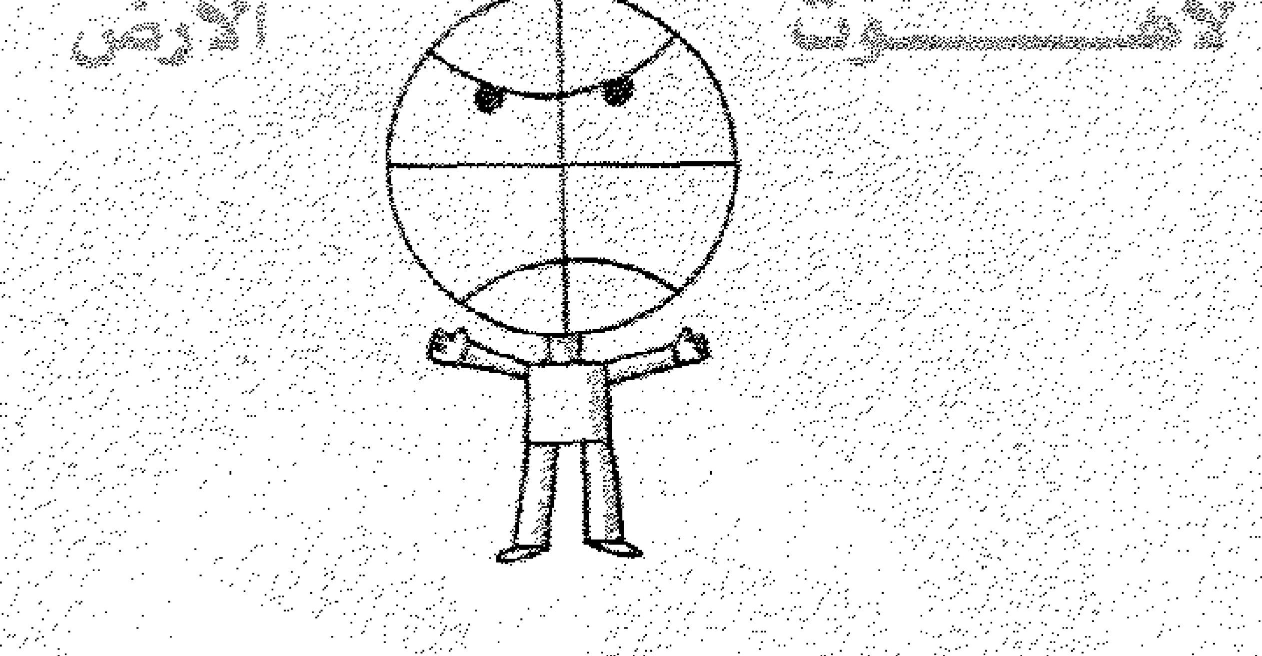
لم يعد العالم إذن مجرد مشهد أو عرض مسرحي معروض أمام أنظار فارغة وجامدة، بل إنه عالم ينبض بالحياة ونحن جزء منه نتماهى معه في علاقات حميمية، علاقات التكامل والحوار الدائم.: «إن العلم يبدو أكثر من أي وقت مضى كشكل من أشكال الحوار الأكثر جاذبية وسحرا يعقده الإنسان مع الطبيعة». لم تعد الطبيعة إذن، موضوعا ماديا وجامدا يستوجب الصراع معه لإخضاعه وانتزاع أسراره، بل هو كائن ينبض بالحياة، يبادل الإنسان الأفكار والمشاعر، والعلم واسطة لترجمة هذا التحاور، فهو (أي العلم) «يحتل مكانة فريدة للإنصات الشعري للطبيعة». فكم تبدو يتيمة قولة جاك مونود: «إن الإنسان قد أدرك أخيرا أنه وحيد في هذا الكون وأنه ظهر فيه بالصدفة».

يبدو من خلال هذا العرض أننا على مشارف تحولات جذرية تطاول كل مرافق الحضارة المعاصرة، إلا أنها لن تكون ذات جدوى ما لم تشمل أسس البنيات الذهنية والمخيال الذي يفرز وينتج تلك التصورات المحددة عن الطبيعة والعالم والإنسان. ويبدو من الرجات التي تزلزل أبنية العقلانية الغربية أن هناك إدراكا لعمق الأزمة وجذورها، كما أن هناك عوائق تمنع نفاذ وانتشار آثار التحولات التي يعرفها العلم المعاصر. فالمقاومة التي يبديها نظام لاهوت الأرض إزاء كل محاولة لتخليص العالم والإنسان من الضيق ومحدودية آفاقه، تعكس تجذره وجبروته. «إن ظهور الفكر العلموي في القرن التاسع عشر حطم في لحظة واحدة تلك النظرة القديمة التي كانت تتسم بالوحدة والعضوية، وفصلت جوهر الذات والموضوع عن الذات و«أ» عن «ب». إن هذا الحدث شكل صدمة تعتبر الأكثر مأساوية في تاريخ الإنسانية، صدمة ضد الفكر وضد طبيعة الواقع وضد أسس الحياة. هذا الفكر العلموي الثنوي احتجز العقل في مستواه البسيط جدا باسم موضوعية مزيفة، غير متسامحة للغاية وعدوانية تجاه أي شكل من أشكال الفكر والعقل المغاير».

إن بسط هذه الصورة تسمح لنا بالتقاط مستويات ثلاثة تدعونا للتفكير من خلالها في عمق هذه الأزمة البنيوية:

- المستوى الأول: والمتعلق بمركزية الإنسان. إن اعتبار الإنسان مركز ومقياس لكل شيء، عائق أمام إدراك شساعة وضخامة الكون الذي يتسم بالتعقد والتشابك. إن مقاربة هذا التعقد على

إن الإيمان اللامحدود بقدرة العقل وقوته، والذي كان يطلق عليه نيتشه بحق صنم الفلاسفة الأكبر، سيدفع الغرب إلى أن يجعل منه إلها جديدا



مستوى العالم والطبيعة والإنسان، من خلال مقاييس ومعايير الإنسان نفسه، لا تسمح بتكوين صورة متكاملة وسليمة، فهى اقرب إلى الذاتية منها إلى الموضوعية. لأنها إسقاطات ذهنية على الواقع، فالعلوم اليوم وخاصة الفيزياء وبيولوجيا الأعصاب، تبين لنا محدودية إدراكات عقل الإنسان، وأنه لا يستطيع أن يحتوى الطبيعة، ولكن الطبيعة هى التى تحتويه. فلا يستطيع أن يفكر إلا من خلال الموجود، فهو خاضع لمجموعة من القوانين، لا يستطيع أن يتعالى عليها. فكيف يمكن أن يسمح لنفسه بان يتقمص دور الإله؟

إن تجاوز هذا المستوى يتطلب نزع صفة الاطلاقية والكونية على العقلانية، فهذه الأخيرة هى بطبيعتها نسبية وشكل من أشكال المعرفة، وأكثر من ذلك، فهى ذات طبيعة متعددة. لكل معرفة منطقها، كما أن لكل ثقافة عقلانيتها، لذلك «لا نجد أى مبرر أو سبب موضوعى يسمح لنا بتفضيل العلم والعقلانية الغربية على الثقافات الأخرى». هذا من جهة ومن جهة أخرى يقتضى التجاوز البحث عن نظام معايير لا يتخذ الإنسان مقياسا لإنتاج صورة عن الطبيعة والعالم والإنسان، ولا لمقارية الخطأ والصواب والخير والشر. نحن فى حاجة إلى نظام يشمل العقل ولا يشمله العقل.

– المستوى الثانى: اعتبار اللغة الرياضية هى اللغة الوحيدة للتواصل مع الكون، واعتبارها مفتاح حل أسرار وألغاز الطبيعة. إن هذا التصور يسجن العقل والحقيقة معا: فاللغة الرياضية هى نظارات تسمح لنا بالإطلال على جزء من الواقع، بينما تحجب عنا البقية.

فالاكتفاء بزاوية النظر هذه، والزعم بأنها تمثل صورة العالم، يكون بمثابة النظر إلى العالم من خلال ثقب باب. فالصورة التى سيكونها تكون مفصلة على مقاس ثقب ذلك الباب، فيكون العالم مختزلا فى حجم وشكل ثقب الباب. إن الكون يتحاور ويتواصل معنا بأشكال متنوعة من اللغات. فهو يبعث إلينا الإشارات والرموز، وعلى الإنسان أن يترجمها إلى منظومات قابلة للفهم، وكلما تعددت أدوات الإنصات ولغات الترجمة إلا كان هناك استيعاب اكبر لنظام الإشارات والرموز التى يبعثها الكون. فاللغة الرياضية هى واحدة من هذه اللغات المؤهلة للإنصات المنطقى، كما أن اللغة الشاعرية هى كذلك واحدة من تلك اللغات المؤهلة للإنصات الشعرى، تماما كما أن اللغة الفنية مؤهلة للإنصات الجمالى... وهكذا تتوالى مختلف اللغات فى تكامل وتجانس للتواصل مع الكون. ولكن هذه الآفاق تبقى محكومة بسقف العقلانية الديكارتية التى تأبى إلا أن تجعل الحقيقة هى حقيقتها وان ليس هناك صورة للعالم والطبيعة والإنسان إلا تلك التى تنتجها. فكيف يمكن تجاوز هذا السقف؟ إن هناك اليوم وعيا فى تزايد مستمر، يدرك أن هذا التجاوز لن يتحقق إلا بتقويض أسس هذه العقلانية، لأنه «ليس هناك مسرح ديكارتى إلا فى دماغنا»، لذلك ليس غريبا أن تتوالى التأكيدات حول ضرورة تجاوز الديكارتية، لأنها «سجنت الإنسان فى عقله، فنسينا طريقة التفكير مع جسدنا بكامله، ولم نعد نعرف كيف يمكن أن تجعل هذا الجسد يساهم بكليته فى إنتاج المعرفة. وبموقفنا هذا انقطعنا كذلك عن محيطنا الطبيعى ونسينا طريقة التقرب والتماهى والتعاون مع كائناتها الحية المتنوعة والغنية».

– المستوى الثالث: يتعلق بكونية الثقافة الغربية، التى تقدم دائما مرادفة للعقلانية والعلم. وهذا ما دفع الغرب إلى تعميم أنموذجه وفرضه على العالم كله، مع ما يستتبعه ذلك من اجتثاث للثقافات المغايرة، وتجفيف منابع التجارب الثقافية والروحية الأخرى. فلنستمع إلى مقاطع من مرافعة صودق عليها فى اجتماع فانكوفر: «إن التصور العلمى فى شكله الاختزالى والذرى، دفع بالإنسان إلى اعتبار الطبيعة والكون بئرا من الثروات اللا محدودة، وبالتالى استغلاله بروح سلطوية وتملكية انتحارية» ...«إن هذا السلوك الذى هو ضد الطبيعة والحياة، دفع بالإنسان إلى تفضيل نمط واحد للتنمية على حساب التشابك الثقافى والاقتصادى والروحى والاجتماعى الذى يشكل النسيج الحقيقى النابض بالحياة». وبعد رصد طبيعة الواقع، ينتقل التقرير للحديث عن النظرة الجديدة: «هذه النظرات الجديدة تعيد التشكيك فى مجمل مفاهيمنا ونماذجنا الحالية، بالقدر الذى يجعل البقاء على الحياة أمرا مرتبطا بالنظرة الشاملة والتوحيدية للحقيقة. تلك النظرة التى تنبع فى نفس الوقت من التجارب التراثية الكبيرة والخلاصات الأخيرة للفيزياء» ... «وختاما، لا بد من ضرورة إحداث تغيير جذرى لنماذجنا التنموية والتربوية والحضارية. لا بد من الاعتراف بتعدد النماذج والثقافات والتجارب الروحية والتنوعات السوسيو-اقتصادية واحترامها».

وإذا كنا أثرنا فى المستوى الثانى مسألة تعدد الأدوات العلمية واللغات للتواصل مع الطبيعة، فإننا نضيف إلى هذا التعدد، مستوى آخر نعتبره مكملا، وهو التعدد الثقافى. لأن نظام الإشارات والرموز الذى تخاطبنا به الطبيعة معقد ومتشابك، ويحتاج إلى شاشات متعددة لينعكس عليها. فلا يمكن لثقافة واحدة أن تلم بلغة الإشارة هذه، لأن الثقافة هى التى ترسى الأسس النفسية والذهنية لأفرادها، وبما أن هذه الأسس تختلف من ثقافة إلى أخرى، فانه من مصلحة الإنسانية أن تستدعى هذا التنوع للإحاطة، قدر الإمكان، بلغات الطبيعة. وكلما كان التعدد حاضرا على مستوى اللغات وأنماط التفكير والأذواق والتصورات، كلما أزاحت الطبيعة عن وجهها «الحجاب» أكثر فأكثر وانكشفت لنا أسرارها بجلاء ووضوح.

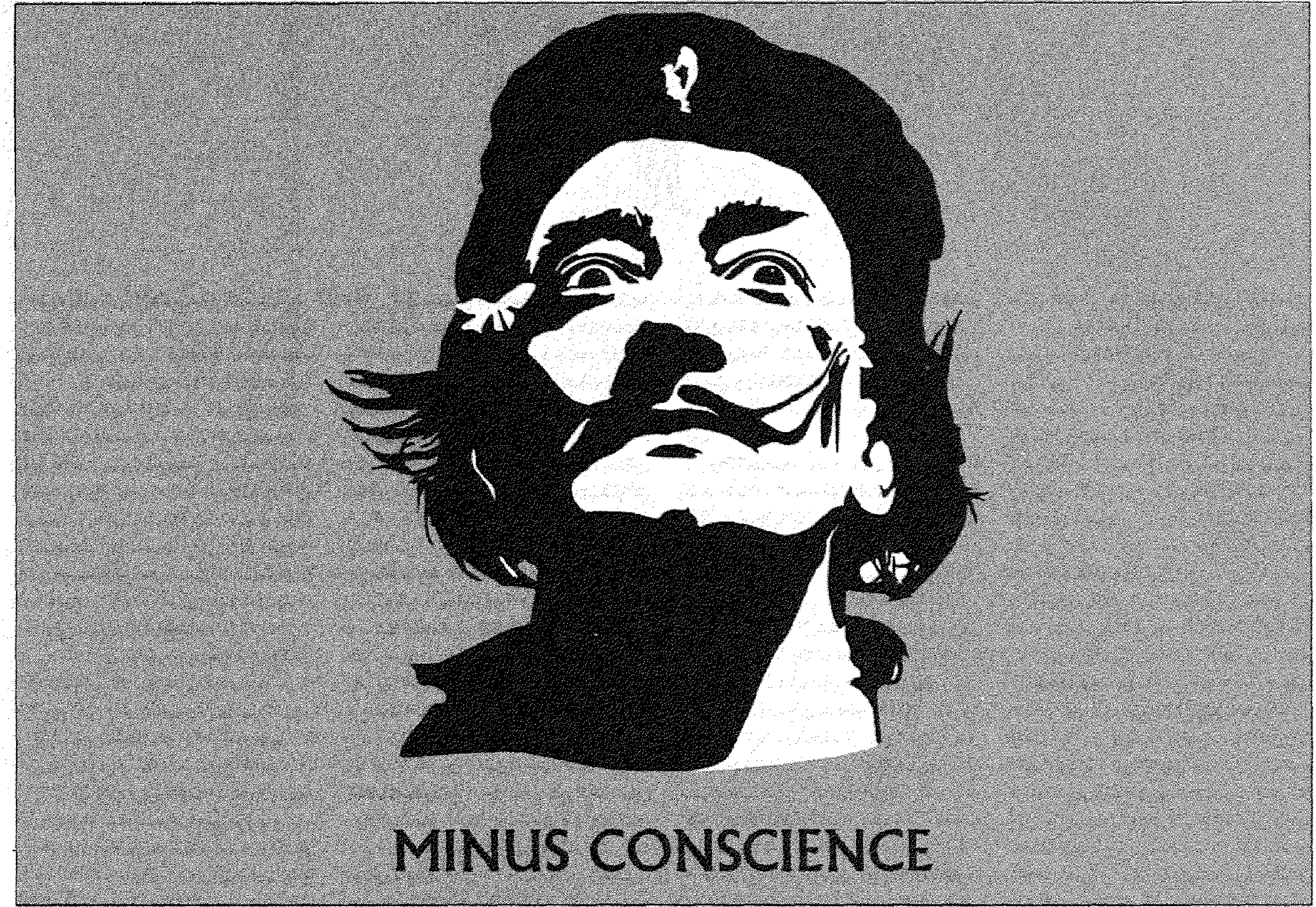
لقد تبين أن نظرية النسبية لا يمكن إدراكها وفهمها خارج المعادلات الرياضية، وتجد العقلانية الديكارتية صعوبة فى ترجمتها إلى اللغة العادية، ولعل هذا ما توحى به المحاورة التاريخية بين اينشتاين ونيل بور (Niles Bohr) حول مسألة الواقع. فاينشتاين كان من المؤمنين بوجود موضوعى للواقع أو الحقيقة، عكس اعتقاد بور، الذى كان يرى أنه لا نستطيع معرفة حقيقة الواقع، ولكننا نلتقط فقط انعكاساتها. وقد علق كابرا على هذا الخلاف بقوله: إن إينشتاين ساهم بشكل أساسى فى تقويض نظام نيوتن وديكارت. وإذا كان اينشتاين بنظرية النسبية قد تمكن من تجاوز نيوتن، فإنه على مدى التصور لم يتجاوز ديكارت. فى حين أن بور استطاع أن يتجاوز ديكارت. وعندما نتساءل عن سبب نجاح بور وفشل اينشتاين، نجد أن السبب الرئيسى يكمن فى قضية التعدد الثقافى. فبينما ظل اينشتاين حبيس نمط التفكير العقلانى الديكارتى، نجد أن بور استطاع أن يتحرر من هذا الإرث الوضعى، وينفتح على التراث والفلسفة الصينية التى منحته مفاتح مقاربة إشكالية الواقع والحقيقة.

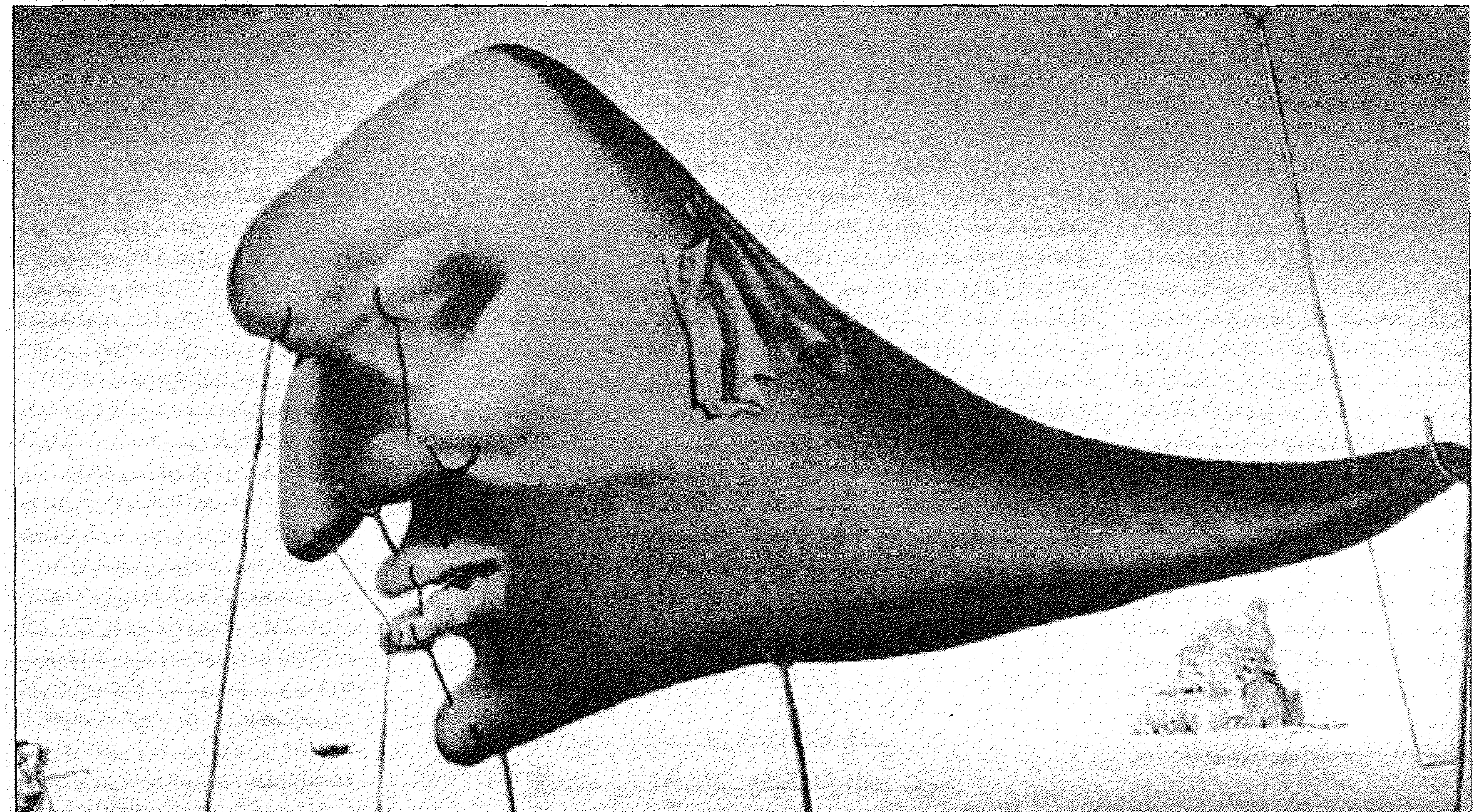
ونجد نفس الأمر يتكرر مع اللسانى (عالم اللغويات) لى وورف (Lee Worf)، الذى كان يشتغل فى أمريكا اللاتينية لحل وفك لغات حضارة المايا. فقد لاحظ بأن قبائل الهنود تقارب العالم وفق تصور نسبى (استنادا إلى النظرية النسبية) وليس وفق التصور الحتمى. ويعلق بقوله: «لفهم نسبية اينشتاين، يجب على الإنسان الغربى أن يتخلى عن لغته المعتادة ويتبنى اللغة الرياضية، بينما يملك إنسان المايا اللغة المناسبة... لذلك يستطيع أن يتمثل الزمن والمكان فى نفس الوقت لتحديد حدث ما، لأنه يعرف أن هذين العاملين لا يوجدان منفصلين».

هكذا يصبح التعدد الثقافى مفتاح البقاء بالمعنى البيولوجى والانتربولوجى للكلمة، كما يصبح ضرورة لإنقاذنا من المأزق الذى وضعتنا فيه العلموية، وذلك بتوسيع دائرة التحاور والتواصل مع الكون. «إن العلم ينفتح على العالمية عندما يكف عن إنكار غربته عن انشغالات المجتمعات، وعندها فقط، يكون قادرا على التحاور مع شعوب كل الثقافات وقادرا على احترام تساؤلاتهم». ولا يسعنا فى هذا المقام إلا أن نتساءل مع المهدى المنجرة: «كيف يمكن للعلم والاتصال أن يعيدا للثقافة مهمتها الأصلية، التى تتجلى فى الإبداع والسخاء والتضامن والحب؟». ولنترك له الإجابة: «إن هذا السؤال يطرح عدة مشاكل منها ما هو أخلاقى ومنها ما هو سياسى وسوسيو-اقتصادى وتكنولوجى. إنه يحدد نظرتنا للمستقبل ويدعو إلى تغيير جذرى لبنياتنا الذهنية: يجب تحسين أشكال التواصل الثقافى، لأنها أداة السلم الأكثر فعالية».

إن نظام لاهوت الأرض قد استنفد أغراضه ولم يعد قادرا على أن يستوعب هذه التحولات. فقد تبين من خلال الاختمارات التى تعرفها مختلف العلوم محدوديته وصموده فى مقاومته لأى مبادرة فى اتجاه التغيير. إنه لأول مرة فى التاريخ تجد البشرية نفسها أمام مأزق وجودى: إما الانتحار الكونى أو التغيير الجذرى!

بعد إرساء هذه الأسس العقدية سينطلق الغرب لإعادة بناء العالم وفق تلك المقاسات: العقل/الإله/العلم/الديانة/المادة/الوجود


MINUS CONSCIENCE



دالــى

"الدينامو"

اشتهر «سلفادور دالى Salvador Dali» عالميا منذ ما يزيد على نصف قرن بسبب لوحاته التى يسودها الجنس والتمرد، وبسبب شخصيته التى تتسم بغرابة الأطوار والبهرجة والعظمة المتكلفة، وكذلك بسبب حياته المستهترة التى دمر فيها الحدود الفاصلة بين الإبداع والرواج التجارى. لقد كان «دالى» حقا شخصية عظيمة. وكان عادة ما يقول - بأسلوبه الذى أتقنه تماما والذى يجمع بانسجام بين التفاخر والسخرية ونقد الذات - أن «شخصيته» هى أعظم إنجازاته. وفى أحيان أخرى كان يصرح للعالم بأن كتاباته هى إنجازاته الحقيقية، وأن لوحاته لم تعبر إلا عن أقل القليل من شخصيته. ومع ذلك، فإن أكثر خصائص «دالى» رسوخا وواقعية تتسم بالخصوصية الشديدة والبساطة النسبية: وهى التوهج الخاص الذى يميز أسطح لوحاته التى يغطى مساحات كبيرة منها لون واحد نابض، وإحساسه بالضوء الخافت الذابل للفجر أو الغسق، وبالضوء المتألق القوى لأصيل يوم صيفى مشمس على شاطئ البحر المتوسط، وكذلك قدرته المدهشة على التعبير عن القوة الكامنة فى مجموعات دقيقة ملتفة بإحكام من الخطوط أو النقاط أو الأشكال، ونقل كل ذلك إلينا.

إن عالم لوحات ورسوم «دالى» بالتأكيد ملىء بأغرب التصورات وأجراها وأكثرها إجفالا. فعلى سبيل المثال، نرى فى لوحته «المستمنى الكبير The Great Masturbator» (١٩٢٩) وجه امرأة يداعب فخذ رجل، مع بروز أعضائه الجنسية. وفى لوحته «بناء رخو مع فاصوليا مسلوقة (هاجس الحرب الأهلية)» (١٩٣٦) يقوم كائن عملاق يعانى العذاب بتمزيق نفسه بقوة هائلة لدرجة أننا لا نتخيل كيف كان لهذا الكيان جسد واحد. وفى لوحته «هاجس الذاكرة The Persistence of Time» (١٩٣١)، والتى ربما كانت أفضل لوحاته المعروفة، تنسدل ساعات حائط رخوة فى أنحاء مكان قاحل. إن لوحات «دالى» تنتمى لعالم الأحلام، ويمكنها أن تتسلل إلى عقلك وأن تنخر فيه، أو أن تصرخ معبرة عن نفسها، كما لو أنها مفاتيح لمعان أعمق لتجربة معينة. كما أن صوره، مثل كثير من الأحلام، عديمة الوزن وقابلة لعدة تأويلات ومتبخرة. وتغوص لوحات «دالى» بسهولة فى العقل - مع استثناءات معينة - ولكن كلما شاهدت المزيد من تلك اللوحات ينجلى لك أكثر فأكثر تركيب ودرجات الضوء فيها والأسلوب الذى يجمع به بين اللمعان والنعومة، وبين المجعد والرقيق.

وقد تجدد الآن الحديث عن «دالى» فى الذكرى المئوية لمولده عام ١٩٠٤. ويتسم المعرض الذى أقيم فى متحف فيلادلفيا من ١٦ فبراير وحتى ١٥ مايو الماضى عن دالى بالوقار والاتزان - مع التركيز على أعماله الأولى - مما يتسق مع الاعتقاد الشائع بأن أهم وأجمل لوحاته رسمت بداية من أواخر العشرينيات من القرن العشرين وانتهاء بعام ١٩٣٨ تقريبا، حينما كان لا يزال شابا لم يكمل بعد عامه الخامس والثلاثين. وقد عرض هنا الكثير من أقوى لوحاته تأثيرا من تلك الفترة. أما أعماله الفنية اللاحقة فقد تم تقديمها لإعطاء فكرة واضحة عن فكر هذا الفنان فى أواخر حياته. توفى «دالى» عام ١٩٨٩، ولكنه توقف عن الرسم عام ١٩٨٣. وبإمكاننا أن نرى كيف كان مهتما بإعادة رواية الأساطير أو التعبير عن رأيه فى الطاقة الذرية والمسيحية والتصوير المجسم وموضوعات أخرى كثيرة. ولكن «دالى» الذى كان الشك يحيط بسمعته الفنية لمدة طويلة، لم يكن ليروقه مثل هذا المعرض.

إن معرض «فيلادلفيا» كبير أكثر مما يلزم. فلسنا بحاجة لأن نرى - بمثل هذا التفصيل - أعماله كمراهق وكشاب، حيث أنه انتهج مبكرا أساليب جديدة متطورة الواحد تلو الآخر فى محاولة لإيجاد طريقه الخاص. وقد أسرف المعرض أيضا فى عدد اللوحات من عقد الثلاثينيات. وفى الوقت نفسه، لم يعرض أى من بورتريهاته الرائعة لمعارفه من تلك الحقبة، مثل صور الشاعر السريالى «بول إلوارد» (الذى كان متزوجا من «جالا Gala» التى تركته لاحقا وتزوجت من «دالى»)، أو راعيته «فيكومتيس دو نويل»، كما لم يرد أى منها فى الكتالوج الهائل للمعرض. ورغم أن المعرض يضم رسوما توضيحية لـ «دالى»، إلا أن المرء يشعر أنه لم يتم تقديمها بصورة وافية. فتهور «دالى» وتفكيره الذى لا يمكن التنبؤ به وواقعيته الفوضوية، والذى لا يظهر كثيرا فى لوحاته المتقنة قسرا، يمكن إدراكه بسهولة فى رسومه التوضيحية التى أنتجها فى مراحل حياته المختلفة.

وهناك أيضا ما يعوق عرض الأعمال المتأخرة لـ «دالى» بطريقة مناسبة، رغم أن عملية حصر أعمال الفنان بداية من أوائل الأربعينيات قد تشكل صداعا لكل من يتصدى لتنظيم مثل هذا المعرض.

وفى خلال تلك السنوات، ارتد «دالى» من الملل إلى الشذوذ، ومن المصطنع إلى الباطنى، ومن المهلهل - ببساطة - إلى ما لا يمكن تصديقه، وذلك من خلال رؤاه الجديدة التى تجمع بين الورع والبهرجة، والشائنة عادة، فى لوحات مثل «العشاء الأخير Last Supper» أو «الصلب Crucifixion» (والمعروضتين فى المعرض)، أو مفاهيمه الطنانة لـ «كريستوفر كولومبوس Christopher Columbus» لاكتشافه أمريكا، أو لـ «سانت جيمس Saint James» ممتطيا صهوة جواد يقف على قدميه الخلفيتين. ومع ذلك، فقد تمكن «دالى» بين الحين والآخر ومن خلال بعض اللوحات والرسوم التى تتميز بشىء من الاتساق، أن يخرج علينا بصور لا تقل إثارة للدهشة عن لوحاته المبكرة، ولكن لم يصل من تلك الصور إلى معرض «فيلادلفيا» إلا القليل. ومن العار، على سبيل المثال، أن يخلو المعرض من لوحة زيتية صغيرة وغريبة للغاية تعود إلى ١٩٥٨-١٩٦٠ وتحمل اسما طويلا لدرجة تنافى العقل يبدأ بـ «كاداكس تبصق Cadaques Spitting»، وهى عبارة عن مشهد مروع لرجل وامرأة ملتويين، أو أن تغيب لوحة ضخمة مثل «مصارع الثيران المهلوس Hallucinogenic Toreador»، والتى رسمت بعد ذلك بعشر سنوات، وهى جمع يشبه المهرجان لكثير من الصور المبكرة لـ «دالى» (كلتا اللوحتين موجودتان بمتحف سلفادور دالى فى سان بترسبرج بولاية فلوريدا، وهما مستنسختان فى الكتالوج). كما غابت - وافتقدت أيضا - لوحاته اللاحقة الطبيعية للحياة على الشواطئ الأسبانية حيث كان يعيش، والتى اتسمت برقة العاطفة. إن «دالى» ليس فنانا عظيما للدرجة التى يحاول هذا المعرض أن يظهره بها لمجرد هذا العدد المعروض من لوحاته. ومع ذلك فهو فنان أكثر - ولو قليلا - إحساسا وجاذبية مما توحى به تلك المجموعة من اللوحات.

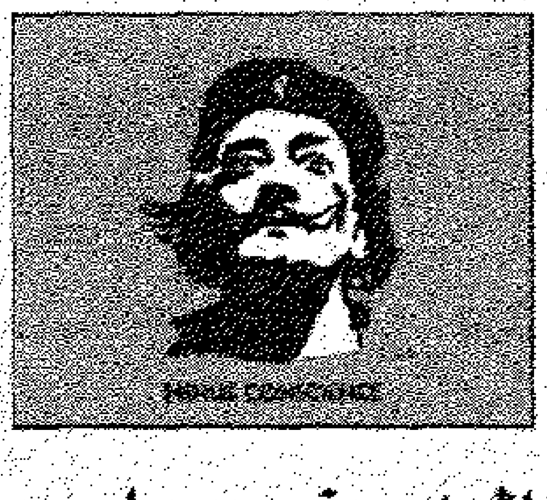
إن ما سبق ذكره لا ينكر أن الأهمية التاريخية التى يستحقها «دالى» تكمن فى أعماله الأولى كشاب يعمل تحت مظلة السريالية. وكما لخص «إيان جيبسون» مؤلف كتاب «الحياة المشينة لسلفادور دالى The Shameful Life of Salvador Dali» (طبعة

سانفورد شفارتز

لكن أحدا لم يجسد السريالية كما فعل «دالى». فمن خلال اللوحات التى أعلن بها عن نفسه، انفتح أمامه الباب إلى اللاوعى، وما خرج من ذلك الباب كان صورا إستحوذت على الإعجاب

بترتيب مع مجلة:
New York Review of Books

ترجمة: عادل فتحى



الديـنـــــامـو

نورتون Norton ١٩٩٨)، وهو أحدث السير الذاتية للفنان وأكثرها توثيقا، الأمر بإقناع، فإن الحركة السريالية، بنزعتها الصادمة وتقديمها للا عقلانى والمكبوت، قد أعطت الضوء الأخضر لفنان شاب متقلب بطبعه وطموح ويمتلك المعرفة اللازمة، لكى يصنع فنا لكل ما يراوده من خيالات مجنونة وأحلام يقظة فاسدة وكوابيس. كما ألهمت الحركة أيضا - والتى اهتمت بالكلمة قدر اهتمامها بالفن البصرى - كلا من «ماجريت Magritte ١٨٩٨-١٩٦٧» (رسام بلجيكى) و«إيف تانجوى Yves Tanguy، ١٩٠٠-١٩٥٥، (رسام أمريكى فرنسى المولد) للتعبير عن نفسيهما، بينما تأثر كلا من «ميرو Miro ١٨٩٣-١٩٨٣» ، رسام أسبانى) و«إرنست Ernst ١٨٩١-١٩٧٦» (رسام ونحات ألمانى) اللذين كانا أكبر سنا - كثيرا بإصرار الحركة السريالية على الصراحة الجنسية وعلى دور الصدفة والتنافر المجرد فى صنع الصورة. وقد صنع الشاب «جياكوميتى Giacometti ١٩٠١-١٩٦٦» (نحات سويسرى) بعضا من أروع تماثيله المبكرة، بما فى ذلك «إمرأة مذبوحة Woman with Her Throat Cut» و«شىء بغيض Disagreeable Object» منطلقا من إيمان السريالية بمواجهة المشاهدين بأفكار مزعجة، بل ومؤلمة أيضا.

ولكن أحدا لم يجسد السريالية بنفس القوة كما فعل «دالى». فمن خلال اللوحات التى أعلن بها عن نفسه لجمهور أوروبى عريض فى عام ١٩٢٩ الذى شهد انطلاقته الكبرى، انفتح أمامه الباب إلى اللا وعى، وما خرج من ذلك الباب كان صورا تمكنت من الاستحواذ على الإعجاب. وبإمكاننا فى لوحات مثل «الأيام الأولى للربيع» و«احتواء الرغبة» و«اللعبة الكئيبة»، أن نرى رجلا وقد لطخ نفسه، أو امرأة رأسها عبارة عن عضو أنثوى أحمر كبير يعج بالذباب، أو مجرد حشود معربدة. وعادة ما تتشابك أيدى الشباب فى تلك اللوحات لتغطى وجوههم، كما لو كانوا يشعرون بالعار، ويمكن - فى صورة أو اثنتين - أن نميز رجلا بلحية يبدو وكأنه «فرويد Freud» نفسه (١٨٥٦ . ١٩٣٩)، (عالم النفس الشهير)، والذى كان بطلا بالنسبة لـ «دالى» الذى قرأ عددا من أعماله.

وقد استبدلت اللوحات التى رسمها «دالى» فى أوائل الثلاثينيات، الوضوح القوى المتألق لأعماله المبكرة، بالضوء المتوهج المكبوت، كما أنه خفف من مناخها المهووس. وفى الصور اللاحقة قل ظهور السكاكين والدم المتدفق والأعضاء الأنثوية المتوعدة، ولكن ساد مناخ عام من الغرابة الشهوانية. فاحتوت الصور على أعضاء ذكورة على وشك القذف، وحلمات مثارة حتى أصبحت كالصوارى الصغيرة، وأرداف واضحة، والبعض من ذلك يظهر فى صور مشوهة غريبة مستحيلة. وعندما نعجز عن إدراك ماذا يجعل الصورة مزعجة أو شديدة الغرابة، فإن الأسماء التى يخلعها «دالى» على اللوحات - مثل «جمجمة مناخية تمارس اللواط مع بيانو كبير Atmospheric Skull Sodomizing a Grand Piano» - تكون ذات دلالة.

وقد اتضح أن «دالى» هو أكثر من مجرد فنان سريالى. لقد كان «كيانا سرياليا». وبمجرد أن حصل على تصريح بالإعلان عن كل ما يعرض له، سواء كان هاجسا أو حلما أو حدسا أو ولعا أو ذكرى، أو حتى ذكرى زائفة (كما ذكر هو بنفسه فى سيرته الذاتية التى كتبها عام ١٩٤٢ بعنوان «الحياة السرية لسلفادور دالى The Secret Life of Salvador Dali»، لم يعد بإمكانه العودة إلى القمقم. وقد تحول «دالى» إلى وحش خالص، برغبته الجامحة - كما يبدو - لاستعراض معارفه، والإعلان عن عبقريته، والكشف عن واحد أو أكثر من مبادئ الوجود الكامنة منذ زمن، وبتصميمه أن يلطخ - بالبراز - كل ما يستطيع أن يصل إليه. وبالنسبة للمشاهدين الذين يتذكرون «دالى» منذ الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، فمن المستحيل الفصل بينه وبين لوحاته.


وقد لعب «دالى» دور أستاذ شيطانى للعربدة المعتوهة، مسلحا بشاربه الشائك وعصاه الحاضرة دائما وحلله الرسمية التى يغلب عليها اللون الداكن. وكانت إلى جانبه زوجته «جالا» التى تشبه أبى الهول، والتى كان يعتبرها راعيته ومصدر إلهامه وشقيقته وشريكته، بل ونصفه الآخر. وهى التى أدخلته عالم الجنس وقت أن كان فى الخامسة والعشرين بصورة أثارت اهتمامه بهذا الموضوع إلى درجة كبيرة، ويبدو أن جزءا كبيرا من حبه العبودى الشديد لها فيما بعد يعود إلى شعوره البسيط نحوها بالعرفان لأنها منحته الإحساس بالرجولة (وهو موضوع كان يؤرقه دائما). ومنذ أوائل الخمسينيات ولمدة ثلاثة عقود (أو حتى لم تعد سنهما أو حالتهما الصحية تسمح لهما بذلك)، كان الزوجان ينظمان وقتهما بطريقة ثابتة. فطوال نصف العام تقريبا كانا يقبعان فى منزلهما المتواضع على الساحل الأسبانى، حيث كان «دالى» منهمكا مع لوحاته معظم الوقت. أما بقية العام فكانا يقضيانه فى فنادق باريس ونيويورك، حيث كان الفنان يركز اهتمامه فى الترويج لنفسه، وكان ذلك يتضمن منتجات تحمل اسمه، بما فى ذلك المجوهرات والعطور والملابس. وبمرور الوقت، أصبح أهم دور تلعبه «جالا» هو دور المدير التجارى لأعماله.

وإلى درجة ما، ظل «دالى» على اتصال بالفكر السريالى التقليدى، بمعنى أنه كان يهدف فى أعماله - أو أفعاله كما يسميها - والتى يمكن أيضا أن يطلق عليها قطع من الفن الأدائى، أو مخاطرات، إلى تخريب الحقائق اليومية والمشاعر الطيبة. إن سلوكياته المتهورة لم تكن تختلف كثيرا عن تلك الخاصة بـ «إخوان ماركس Marx Brothers» (خمسة إخوة أمريكيين كونوا فريقا فنيا تمثيليا) الذين كان يحب أعمالهم. وعادة ما كانت أعماله تتضمن حيوانات ونساء شبه عاريات وأناسا غافلين قد يضبطون فى ممارسات لا منطقية. وقد يظهر «دالى» لإلقاء محاضرة وهو يرتدى معدات الغطس العميق (والتى كانت تصيبه بالاختناق)، أو يقدم نظرية مبهمة فى حديقة الحيوان بباريس تتضمن كركدن وأحد أعمال «فيرمير Vermeer ١٦٣٢-١٦٧٥» (رسام هولندى)، أو مجرد أن يسبب الفوضى فى عرض أزياء. وقد آمن «دالى» - مثله فى ذلك مثل «هاربو ماركس Harpo Marx» الذى كان الأقرب إليه من بين باقى الإخوة، كما أنهما تطلعا فى وقت ما للتعاون فى عمل فيلم سينمائى - بأن تهريج الفنان يتضمن عنصرا متهورا وماديا جدا.

ويمتلك «دالى» أيضا جانبا أدبيا لا يستهان به. فبإمكانه الإفصاح عن سخافات لاذعة دائمة التذمر، أو أن يشير إلى «ماتيس Matisse» (١٨٦٩ . ١٩٥٤)، (رسام ونحات فرنسى)، على سبيل المثال، على أنه «رسام الطحالب الشهير»، أو أن يعلن: «أنا أكره البساطة بكافة أشكالها»، أو أن يقول أنه لم يعد يخشى الموت لأنه اكتشف أن «الله صغير جدا». وقد أعلن «إدموند ويلسون» (١٨٩٥ . ١٩٧٢)، (ناقد وكاتب أمريكى) أن رواية «دالى» «وجوه مختبئة» التى نشرت عام ١٩٤٤ هى رواية فاشلة، رغم أنها «مسلية»، كما أن سيرة «دالى» الذاتية التى كتبها بنفسه، والتى تبدو بلا نهاية، كانت ممتعة جدا وحازت عددا كبيرا من القراء، مثلها فى ذلك مثل رواية «الأسرار الخمسون لمهنة السحر» التى نشرت عام ١٩٤٨. ويقول «جيبسون» صاحب التعليقات النقدية القيمة جدا عن «دالى» الكاتب، أن صراحته بشأن الاستمناء والعار ليس لها مثيل فى النثر الأسبانى. كما كتب «دون أديس Dawn Ades» المؤرخ الفنى الذى يمكن اعتبار معرفته بفكر «دالى» دقيقة وموثقة (وهو أيضا راع رئيسى فى كتالوج فيلادلفيا)، كتب أن الدراسة التى قام بها «دالى» عام ١٩٣٤ للوحة «ميليت Millet ١٨١٤ . ١٨٧٥ رسام فرنسى، صلاة التبشير The Angelus» هى أحد أروع التفسيرات التى كتبت عن لوحة على الإطلاق.

وبينما تقدم العمر بـ

أكثر أعمال «دالى» نبضا بالحياة هى تلك التى يملأ فيها المشهد بشخصيات صغيرة خرقاء بل وبدائية، لها وجوه ذات أعين جاحظة. وأولئك الحمقى المقهقهون المقتبسون من الكتب الهزلية



سيدة النافذة
(١٩٢٥)



الدينــــامو

«دالى» أصبح من الصعب معرفة ما إذا كان هو صاحب السطوة أم الضحية فى المعركة الضارية التى شعر أن عليه أن يشنها ضد ما هو تقليدى ومنطقى. ونظرا لازدرائه لفكرة الكمال الفنى، فلم يؤرقه أبدا أنه وقع عددا ضخما من الأوراق البيضاء فى مناسبات عديدة للانتهازيين لكى يصنعوا منها نسخا أصلية لـ «دالى» بأى طريقة يريدونها. وبينما تركزت اهتمامات «جالا» أكثر فأكثر فى جمع المال واللهو مع الشباب، أصبح الرسام، الذى لم يؤمن أبدا بفكرة الصداقة (مع استثناء واحد أو اثنين) ألعوبة - أكثر وأكثر - فى أيدى مرتزقة يناورون لاستفادتهم الشخصية. وبالنسبة لكاتب هذا المقال، فقد حدثت نكسة فى حياة «دالى» عام ١٩٧٩، عندما تم قبوله رسميا كعضو فى «أكاديمية الفنون الجميلة» التابعة لـ «المعهد الفرنسى». فبعد إلقائه لخطاب قبوله، والذى أجفل فيه الحضور بملاحظات عابرة عن «شعر العانة»، صرح لأحد المراسلين بأن فنه «محض هراء». ولكن كانت هناك الكثير من النكسات فى انحداره الطويل، ليس أقلها صورة الفنان فى سنواته السبع الأخيرة بعد وفاة «جالا» عام ١٩٨٢، حيث أصبح وحيدا تماما وبانتظار الموت.

ومع ذلك، فرغم أن «دالى» سينظر إليه دائما وبلا شك من منظور سريالى، إلا أن المرء ليتساءل إن كانت هناك سبل أشمل لاستيعاب أعماله والتمتع بها. وعندما يستعرض النقاد بكل اهتمام لوحاته من عقد الثلاثينيات، فإنها تمر وكأنها سجل توضيحى للسريالية أو النظرية الفرويدية (نسبة إلى فرويد)، أو دراما مكثفة من الغضب الأوديبى، أو خوف من الإخصاء، وهى بانتظار أن يتم تفسيرها. ولكن الكتابات من هذا النوع تخلع على اللوحات قيمة لا تستحقها فى بعض الأحيان. فالكثير من خيالات «دالى» النفسية الخاصة بالزمن، وخاصة تلك التى تدور حول هواجسه بالنسبة لأسطورة «ويليام تل William Tell» على سبيل المثال، والتى يراها عملا مشئوما غير محترم، أو مجموعة من الأعمال التى تتعلق بالهواتف، لا تستحق عادة أن تتحول إلى لوحات.

إن ما يمنح فن «دالى» الحيوية ليس معرفته وإنما مهارته كرسام وعدم صبره على إتباع أسلوب واحد. وكثيرا ما تعقد المقارنة بينه وبين «بوش Bosch ١٤٥٠-١٥١٦» (رسام هولندى) وواقعية منمنمات القرن الخامس عشر، حيث أنه يأتى بالرهيب والعجيب فى تفاصيل مرسومة بإحكام، مستخدما فى العادة صورا صغيرة الحجم للغاية. ورغم أن من الواضح أنه تجاوب مع فن المنمنمات فى حد ذاته، كما فعل «ميرو» و«تانجوى» و«جياكوميتى»، إلا أن لوحاته فى الثلاثينيات لم تكن تشبه كثيرا لوحات «بوش». فبإمكانه أن يكون طبيعيا (نسبة إلى مذهب الطبيعية) فى إحدى لوحاته مظهرا الملمس الحقيقى لأحد الشواطئ، بينما يسود اللوحة التالية أسلوب اصطناعى يشبه رسما فى أحد كتب الأطفال. أما لوحة «الحلم» (١٩٣١)، والتى تحتوى أساسا على صورة شبه زخرفية لامرأة مغمضة العينين، ويسودها اللونان الأسود والأبيض، فلها القوة الهادرة لـ «مارسدين هارتلى» ١٨٧٧-١٩٤٣، (رسام أمريكى) أو شيئا من «راؤول» (١٨٧١-١٩٥٨)، رسام فرنسى.

أما أكثر أعمال «دالى» نبضا بالحياة فتلك التى يملأ فيها المشهد بشخصيات صغيرة خرقاء بل وبدائية، لها وجوه ذات أعين جاحظة. وأولئك الحمقى المقهقهون المقتبسون من الكتب الهزلية ومن رسوم صحف ومجلات مجهولة، قد يمثلون - حرفيا - شرور العقل الباطن، ولكنها تمثل للناظر إليها مصدرا للبهجة والسعادة. أما أفضل تحويرات «دالى» لنوع من التواصل مع الجمهور فهى أعماله الفوتوغرافية. ففى أوائل الثلاثينيات قام برسم نسخ قليلة جدا عن صور فوتوغرافية تعرضت - عمدا - أثناء التقاطها لكمية زائدة قليلا من الضوء، وكانت «جالا» هى موضوع العديد من تلك الصور. ورغم صغر حجمها الشديد إلا أن تلك الصور تعد من بين أكثر أعمال «دالى» إثارة على الإطلاق.

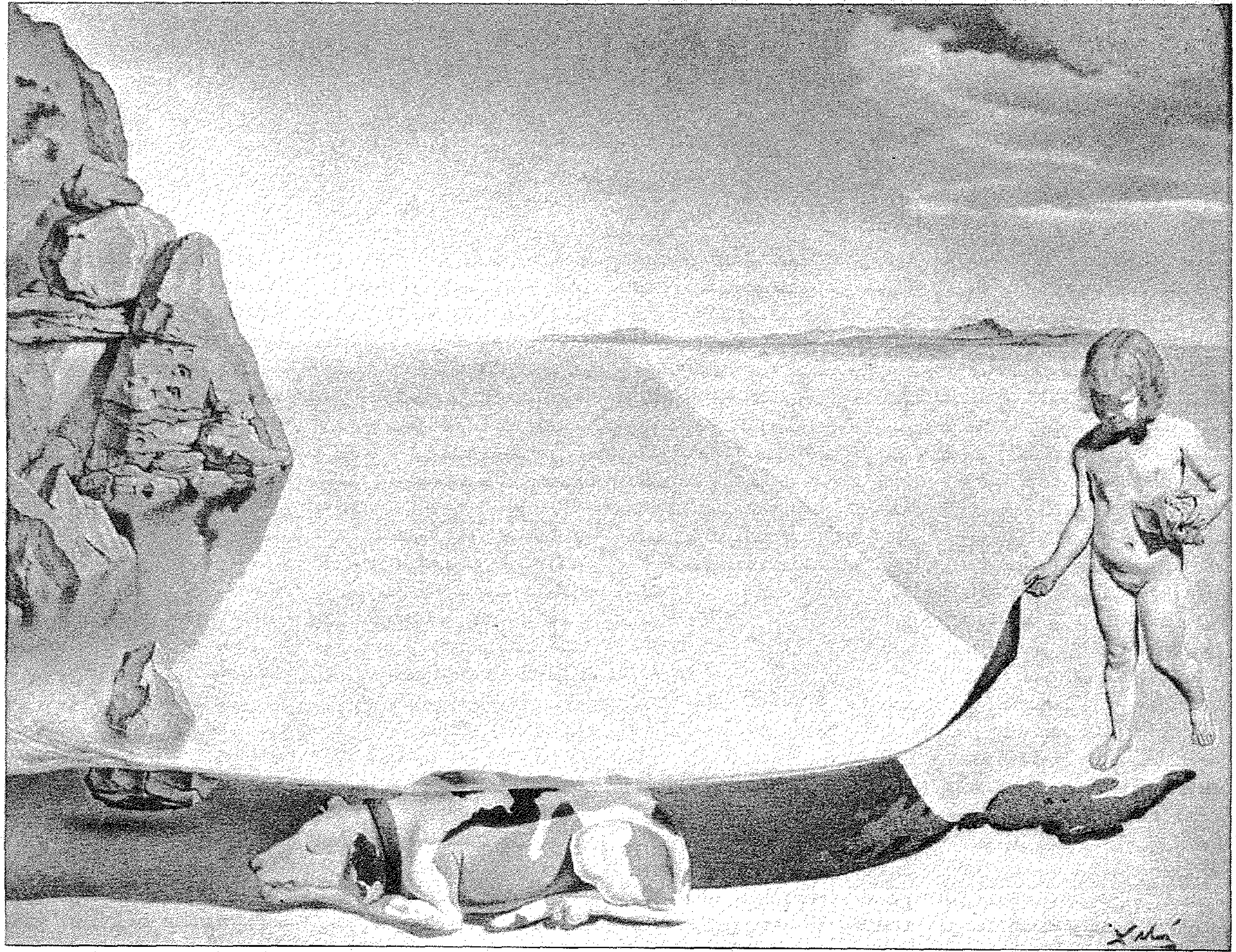
ومزاجيا، كان «دالى» صانع رسوم متحركة، بمعنى أن لوحاته كانت أقرب إلى أن تكون صورا ساكنة من فيلم رسوم متحركة، أو بمعنى أشمل وأكثر غموضا، كان يود أن يعيد الحياة إلى شخص أو شىء ما. وقد ذكر «بيكاسو Picasso» (رسام ونحات أسبانى) أن مواطنه الأصغر يشبه محرك الزورق الخارجى الذى لا يتوقف عن الدوران، وعندما تستوعب الكثير من فن «دالى» وتقرأ عنه كشخص، ملتقيا أثناء ذلك مجنون العظمة الذى لا يستطيع التوقف عن قذف جمهوره باستنتاجاته التى تدور حول الدوافع الجنسية والعلاقة بين الأجسام الصلبة والرخوة والطاقة الذرية ونظرية الفوضى والمسيحية والحامض النووى والمعانى الخفية للصور والأساطير، عندئذ تظهر لك طاقته الذاتية كموضوعه الأساسى. ويمكن أيضا رغم ذلك أن يبدو - فى مراحل مختلفة من حياته - وكأنه قد وصف تلك الطاقة حرفيا، كلحظة سكون للحركة أو كضوء متقطع أو أى كيان مسنن أو فوار أو يشبه الدماغ أو مجدول.

وتقوم أعمال «دالى» على إدراكه لطبيعة الضوء المتغير والمناظر الطبيعية لمكان معين من العالم. وقد نشأ فى مدينة «فيجويرس» التى لا تبعد كثيرا عن شاطئ البحر المتوسط، وكانت عائلته تنتقل فى كل صيف إلى مدينة «كاداكيس» الساحلية القريبة. وقد رسم «دالى» عددا هائلا من لوحاته بجوار شاطئ البحر. وتتميز حافة الشاطئ فى ذلك الجزء من شمال شرق أسبانيا بصخور الأديم الجيولوجية ذات النتوءات الحادة، ومن المؤكد أن جانبا محوريا من المنظر الطبيعى كان متعلقا من وجهة نظر «دالى» بطريقة سقوط الضوء على الألسنة الصخرية الممتدة داخل البحر والتى تمتلئ أسطحها بعدد لا يحصى من الصدوع المجعدة الصغيرة. كان «دالى» يرى فى الصباح المبكر أو الشفق تأثيرا هائلا، عندما تسقط أشعة الشمس على الصخور، وهى لحظات كان عادة ما يسجلها فى أعماله. وربما تظهر الأجسام الصلبة كما لو أنها غير مادية، وقد يتجسد الضوء نفسه فى شكل مصهور.

وكان الإحساس بالطاقة التى على وشك الانطلاق، أو بالحركة المقيدة، هو الذى يرغب «دالى» - فى جميع الأحوال - فى عرضه باستمرار. ويظهر ذلك فى أماكن غير متوقعة. فكثيرا ما رسم المستطيلات الضيقة نظرا لتشابهها مع عضو الذكورة. ولكنه رسم أيضا الخبز فى أشكال أخرى، لأن قشرة الرغيف - عندما يسقط عليها الضوء - لها حضور متموج على وشك التحرك، وذلك كما ظهر فى لوحة زيتية جميلة عام ١٩٢٦ اسمها «سلة خبز». ويبدو أن توقير «دالى» لـ «فيرمير» له أيضا علاقة بالأسلوب الذى يلمح به بخوف إلى الحركة الاستهلالية من خلال الضوء. إن إحساس «دالى» بانطلاق الطاقة يكمن وراء رسومه العاجلة أحيانا، والتى تعود إلى جميع مراحل حياته، للانفجارات أو الانفصامات عند لحظة معينة، وكذلك وراء محاولاته - الأقل نجاحا - فى السبعينيات مع الصور والمجسمات ثلاثية الأبعاد.

والأهم من ذلك، أن سعى «دالى» وراء الحركة ساعده - جزئيا - فى تجاربه مع الصور المزدوجة. واللوحة التى تحتوى على صورة مزدوجة أو صور متعددة هى تلك التى يظهر فيها - حرفيا - شىء مختلف تماما إذا ما نظر إليها بطريقة مختلفة. وعلى سبيل المثال، ففى لوحته «سوق العبيد مع التمثال النصف المختفى لفولتير»، نرى - ضمن أشياء أخرى - عددا من البشر يهيمون فى الأطلال. ولكن بعض النساء فى اللوحة يمكن - طبقا للأسلوب الذى رسم به «دالى» ملابسهم ووجوههم - أن يشكلوا ملامح لوجه الكاتب الفرنسى «فولتير»، كما تبدو - فى نفس العمل - أرداف امرأة فى اللحظة التالية وكأنها قطعة فاكهة فى طبق.

تعد لوحة «طيف وجه» إحدى أعظم لوحات البورتريه الشبحية فى القرن العشرين، بما نحسه فيها من حضور إنسانى قوى. وإن كان غير محسوس. ينبع من شاطئ حريرى ومنظر طبيعى كبير فى الخلفية



ظلال البحر (١٩٥٠)

ويبدو أن رسم الصور المزدوجة كان عملا مثاليا بالنسبة لـ «دالى» الذى تجاوز الحدود - فى سعيه للحط من قدر كل الأفكار التقليدية المبالغ فى فنيتها - وأصبح مصدرا للبدع المبهرجة. ومع ذلك، فهناك فنانين، مثل «ليوناردو» أو «آرشيمبولدو»، ممن كان لهم- منذ قرون - باع فى الخيالات أو الخدع البصرية، مثل الصور المزدوجة. إن فكرة احتواء اللوحة على فخ يسقط فيه المشاهد هى جزء من ولع السريالية بإرباك الجمهور وإثارة حيرتهم. وقد خاض «إرنست» تلك التجربة، كما نجح «ماجريت» فى ذلك نجاحا باهرا فى لوحته «متنزهات إقليدس The Promenades of Euclids»، والتى يبدو فيها طريق وبرج مخروطى وكأنهما - للوهلة الأولى - برجين.

إن انخراط «دالى» فى الصور المزدوجة، والذى يعود إلى أوائل الثلاثينيات، يترنح من التكلف إلى الروعة الأصيلة. وقد انتقد «بريتون» تلك الصور ووصفها بـ «أحاجى الكلمات المتقاطعة». إن النظر إلى الصور الموهة يعطى فعلا الإحساس بأن الصورة قد اختزلت نفسها. ومما يسبب الإزعاج والضيق - للحظة - اكتشاف أن الكائن العملاق وبلا رأس الذى يظهر أمام الطفل فى لوحة «شبح الجاذبية الجنسية The Spectre of Sex Appeal» له رأس يتجسد فى الصخور المجاورة. ولكن من المزعج فى النهاية أن ندرك أنه لا يمكن النظر إلى اللوحة بعد ذلك دون أن تظهر لنا فجأة رأس الشبح.

ومع ذلك، ففى بعض محاولات «دالى» استطاعت الصور الكامنة أن تشكل - بنجاح - لوحة أكثر إثارة للحيرة. ففى لوحة «أحجية بلا نهاية Endless Enigma» الكئيبة (١٩٣٨)، والتى يشكل فيها وجه وكلب وإنسان مستلق وعناصر أخرى مشهدا ضخما، فإن الصور الشبحية المتشابكة تخلق عالما مستترا دائم التغير يجعل الصورة تشبه - بشكل متناقض - عملا تكعيبيا، بل عملا تجريديا، وهو بالضبط نوع الصور الذى كان «دالى» يستهجنه.

وتمثل لوحة «أحجية بلا نهاية» أيضا ارتياد «دالى» - ربما بغير قصد - لعالم عاطفى يتناقض مع شخصيته. وتلك اللوحة هى أحد أعمال الصور المتعددة التى رسمها «دالى» وقت انتشار عروض «فيديريكو جارسيا لوركا Federico Garcia Lorca ١٨٩٨-١٩٣٦»، (شاعر ومسرحى وموسيقى أسبانى) الصديق المقرب لـ «دالى» فى شبابه، والذى قتل فى ظروف غامضة عام ١٩٣٦ فى مسقط رأسه «جرانادا» على يد الفاشيين قبيل بداية الحرب الأهلية الأسبانية. وقد بذل «دالى» فى تلك اللوحة جهدا كبيرا، ولكنها تبدو باهتة بجانب بقية أعماله بالمعرض مثل لوحة «طيف وجه وطبق فاكهة على شاطئ» (١٩٣٨ أيضا)، والتى تعد من أقوى لوحات «دالى» على الإطلاق. وتحتوى تلك اللوحة على شاطئ طويل ممتد يمكن أن ينظر إليه أيضا كسطح مائدة، وبه طبق أبيض يشبه الكأس به فاكهة. ويشكل الكأس - مقترنا بامرأة تجلس على الشاطئ - وجها ضخما ينظر إلينا. ونكتشف فى الخلف، فى المنظر الصخرى الساحلى المتصل، كلبا ضخما طوقه عبارة عن قناة، وهكذا.

وتبدو تلك اللوحة مزدحمة أكثر مما ينبغى، ولكن العناصر كلها تتلاحم بروعة حول وجه مهيب مغر، بل وداعر قليلا. إن تصوير الوجه معجزة إبداعية. كان تشكيل إحدى العينين من جرة بعيدة بديعا على نحو خاص، بينما الحيوان المكشر الذى يشبه القناع مقبول على نحو طبيعى. وكانت جبهة «لوركا» ضخمة فعلا بهذا الشكل بحيث تجعل عينيه فى الظل. كان «لوركا» - وهو شاذ جنسيا - محبا جدا لـ «دالى» فى العشرينات، عندما كان - مثله فى ذلك مثل «دالى» و«لويس بونويل» - طالبا فى نزل الطلاب بمدريد. وكان «دالى» - الذى عاش طوال حياته يخشى على ما يبدو أن يصبح شاذا جنسيا - يرفض باحتقار تلميحات «لوركا» الجنسية، ولكنهما بقيا على صلة وثيقة لمدة طويلة فيما يتعلق بأعمالهما



الديـنـــامـو

وكذلك بالنسبة للأحداث الفكرية الجارية عموما. وحتى بعد أن افترقا وانطلق كل منهما فى طريقه، واقترن «دالى» بـ «جالا»، فقد ظل كل منهما فخورا بإنجازات الآخر. وقد لمح «جيبسون» إلى أن مشاعر «دالى» تجاه «لوركا» ربما كانت أعمق من مشاعره تجاه أى شخص آخر عرفه فى حياته.

ومن الغريب أنه لم يرد لدى «جيبسون» أو فى كتالوج معرض «فيلادلفيا» أى تعليق حول وجود كلب فى لوحة «طيف وجه وطبق فاكهة على شاطئ» وكذلك فى اللوحات الأخرى التى تدور حول وجه «لوركا». ومع ذلك، فهذا الحيوان، بحضوره الظريف، هو - على الأقل - عنصر هام لنجاح لوحة «طيف وجه» على الأقل، وليس من الصعب أن ندرك أن «دالى» كان يبعث برسالة معينة باختياره لهذا الحيوان. وعند عرضهما لفيلمهما «الكلب الأندلسى»، كان «بونويل» و«دالى» يقرران - بطرافة - أن «لوركا» هو موضوع الفيلم. فبطل الفيلم مخنث فاشل، وقد جاهد «بونويل» - الذى كان مشتهيا للجنس الآخر - خلال تلك السنين لفطم «دالى» عن علاقته بـ «لوركا» الموهوب الجرىء ذى الجاذبية الشديدة. بل أن طلاب النزل القادمين من جنوب أسبانيا كانوا عادة ما يطلق عليهم - مثل «لوركا» - كلاب أندلسية. وقد أكد «بونويل» علنا أن عنوان الفيلم الذى أنتجه مع «دالى» لا يدل على شىء، حيث لم يظهر بالفيلم أى أندلسى أو أى كلب. ومع ذلك، فعندما استرجع «دالى» ذكرى «لوركا» بعد وفاته، بدا من مشاعره العديدة المختلطة وكأنه يقول: «نعم، لقد كان كلبا أندلسيا».

وتعد لوحة «طيف وجه» إحدى أعظم لوحات البورتريه الشبحية فى القرن العشرين، بما نحسه فيها من حضور إنسانى قوى - وإن كان غير محسوس - ينبع من شاطئ حريرى ومنظر طبيعى كبير فى الخلفية. ويعد البورتريه غير المباشر أحد إنجازات «دالى» التى لم تلق كثيرا من التقدير. فهو لم يعرف كرسام بورتريه، والمثال الوحيد الواضح لهذا النوع من الرسم فى المعرض هو اللوحة الزيتية لـ «إيزابيل ستايلر-تاس Isabel Styler-Tas» (١٩٤٥)، وهى عبارة عن لوحة ساكنة رغم أنها تشبه الأصل تماما. وفضلا عن ذلك، فإن الوجه الذى نراه كثيرا وبوضوح فى لوحات «دالى» يعود إلى «جالا»، وفى حين أن لوحاته الصغيرة لها، والتى تشبه الصور الفوتوغرافية هى مستوحاة، فإن صوره العديدة اللاحقة لها، والتى تظهر فيها صراحة أو مدثرة فى الملابس، ممثلة لـ «ليدا» أو «مريم العذراء» كانت جامدة. فقد فشل «دالى» فى أن يجعل من وجه زوجته رمزا أو ملمحا لأى عاطفة معينة.

ومع ذلك، فإن أجمل لوحات «دالى» على مدى تاريخه - مثل «طيف وجه» - هى صور مستترة أو غير ملموسة لأفراد، رجال فى العادة. والكثير من أفضل لوحاته فى أوائل الثلاثينيات، مثل «المستمنى الكبير» و«النوم» و«لغز الرغبة» تتضمن - خلسة - بورتريهات لـ «دالى» نفسه متخذا شكل كائن متهدل يشبه حيوان الخلد وله وجه منكمش وأنف مستدق الطرف، وهو شكل يرتكز إلى صخرة معينة فى منطقة «كاداكيس». ويمثل تصور «دالى» الكاريكاتيرى لنفسه فى تلك الأعمال، بعينيه المغلقتين بإحكام ورموشه الطويلة، الحالم الذى يحلم بنفس الصور التى ننظر إليها. وترتكز أجمل لوحات «دالى» فى نهاية الثلاثينيات أيضا على الأشخاص الفرادى المتضمنين - أو المستحضرين - للمشاهد الأكبر التى تحيط بهم، والذين بقوا على مسافة منا. أما لوحة «انطباعات من أفريقيا Impressions of Africa» التى تتميز بألوانها المتوهجة من الأحمر والبنى وتصميمها الأنيق، فتظهر «دالى» نفسه منحنيا على حامل اللوحة، وهى حالة نادرة جدا فى أعماله. ومع ذلك، فإن اللوحة شديدة التعقيد لدرجة أن معظم وجهه محتجب عن المنظر.

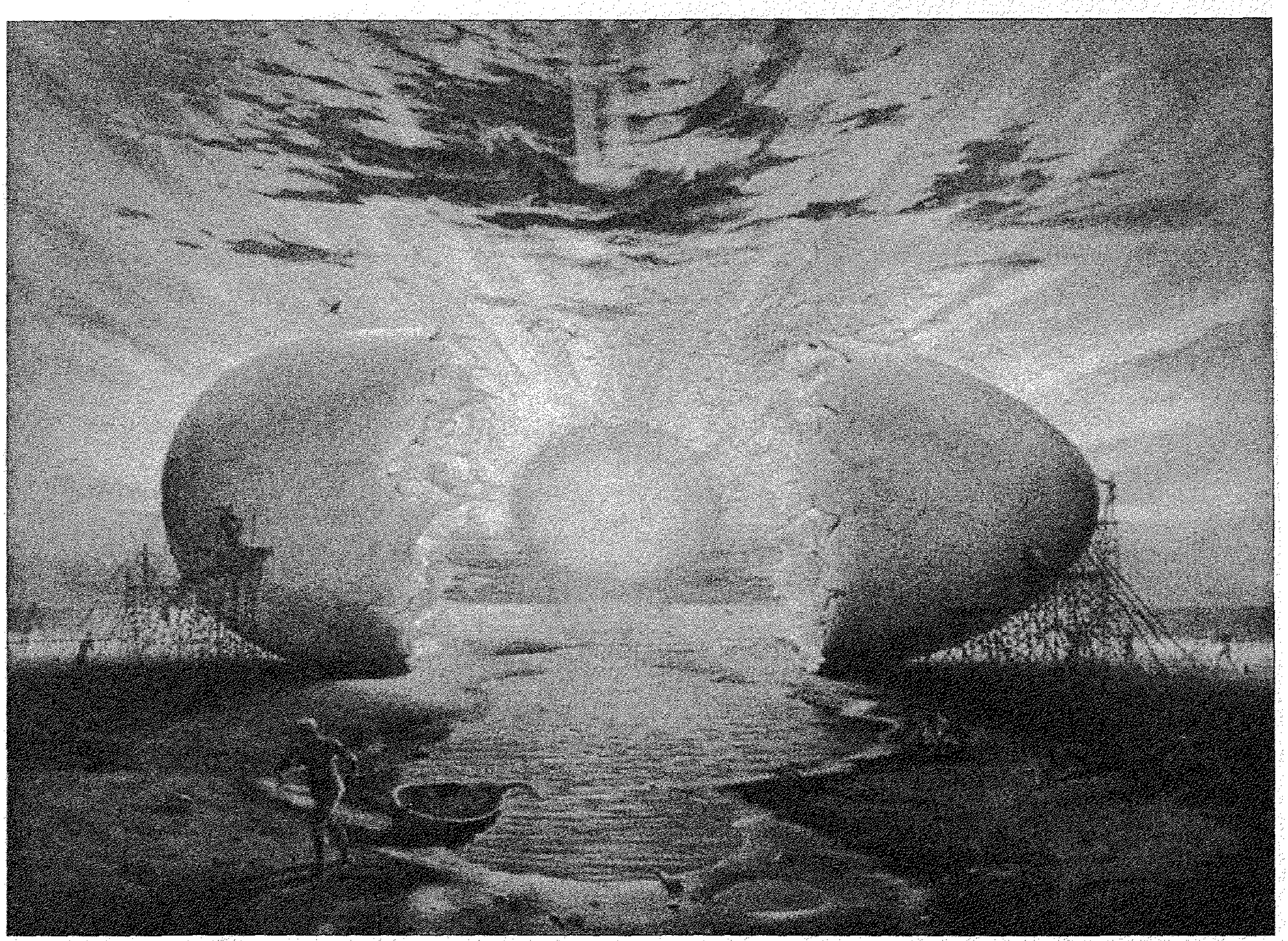
وفى لوحة «تحول النرجس» (١٩٣٧) يصعب فى البداية العثور حتى على البطل، فى مشهد محموم يوحى بصليب بين القمر و«فيرمونت» فوق كومة من أوراق الخريف. وترمز تلك الصورة إلى احترام الذات حيث لا نتمكن من رؤية وجه البطل أو انعكاسه. وفى لوحة «بناء رخو مع فاصوليا مسلوقة (هاجس الحرب الأهلية)»، فبينما ننظر إلى كائن مخبول يمزق نفسه، فإن ما يمنح تلك اللوحة تأثيرها الدائم له علاقة بالطريقة التى يقتلع بها وجه الشخص خارج الصورة. إننا نبذل جهدا لنرى ذلك.

ولم تعد قدرات «دالى» على الابتكار هى نفسها بعد انقضاء عقد الثلاثينيات، ولكنه بين الحين والآخر كان يخرج علينا بلوحات تؤثر فينا تأثيرا مباشرا، وهى ليست مجرد تعبير عن هواجسه فى لحظة معينة. ومن أفضل تلك اللوحات «بورتريه أخى الميت» (١٩٦٣) و«مصارع الثيران المهلوس» (١٩٦٨-١٩٧٠) وكلتاهما حول رؤية مخادعة لأشخاص. وفى تلك اللوحات الضخمة ليس من الواضح حتى من الذى ننظر إليه. فشقيق «دالى» الأكبر والذى كان يدعى «سلفادور» توفى قبل سن الثانية، ولذلك فمن الصعب أن يكون الشاب فى لوحة «بورتريه أخى الميت»، والذى يطوف وجهه الوسيم - والغامض أيضا - عبر منظر طبيعى شكله حاجز منقط يختلط عند الأطراف مع مشاهد لأناس صغار، هو شقيقه الفعلى. وقد ذكر «دالى» أنه رأى ذلك الوجه فى خصر تمثال «فينوس دو ميلو Venus De Milo». إن هذا العمل الملىء بالأوهام البصرية، والذى صنعه «دالى» ليضم تلك الصورة المزدوجة، يحتوى - ضمن عناصر عديدة أخرى - على عدد من شخصيات «فينوس دو ميلو» ورأس صغير طاف لـ «جالا» وسرب من النحل. ولسوء الحظ، كان للوجه الضبابى لمصارع الثيران مسحة استسلامية تدمغ العمل كله بنبرة عاطفية. ولكن طريقة مجىء وذهاب وجه الرجل - أحيانا يكون واضحا تماما وأحيانا يبدو وكأنه اختفى فى ذلك العالم من الأحلام المسرفة فى ألوانها - تجعل من الصورة وكأنها إحدى لحظات التلاشى فى فيلم سينمائى. وكلحظة تحول، تتميز تلك اللوحة بالرشاقة والصفاء مثل غيرها من لوحات «دالى»، ويبدو العمل كله - ليس مصادفة على الأغلب - وكأنه كان آخر مهمة رئيسية له.

ومع ذلك، فقد كان الوجه المألوف لـ «دالى»، والذى يطل علينا بمهابة، هو الإعلان الوحيد عن معرض «فيلادلفيا». وتلك الصورة هى إحدى الصور الفوتوغرافية العديدة لـ «دالى» التى التقطها «فيليب هالسمان». وقد عمل الرجلان معا لسنوات، وبعض اللقطات التى ابتدعاها، والتى نرى فيها «دالى» فى حلته الداكنة أو يتقافز عن الأرض، أو مع الحلى، أو القطط، أو أناس آخرين، أو مع نوافير الماء السابحة أو المتجمدة فى الهواء، تعبر تماما عن حاجته لتقديم الطاقة المطلقة. ولكن صورة «هالسمان» الفوتوغرافية المعروضة حاليا هى لـ «دالى» ذى الشخصية غريبة الأطوار والتى تدفعنا للتساؤل هل ستكون شخصيته أبدا ذكرى بعيدة؟ ومتى يمكن أن يحدث ذلك؟ وهل ستكون للوحاته حياة بذاتها؟

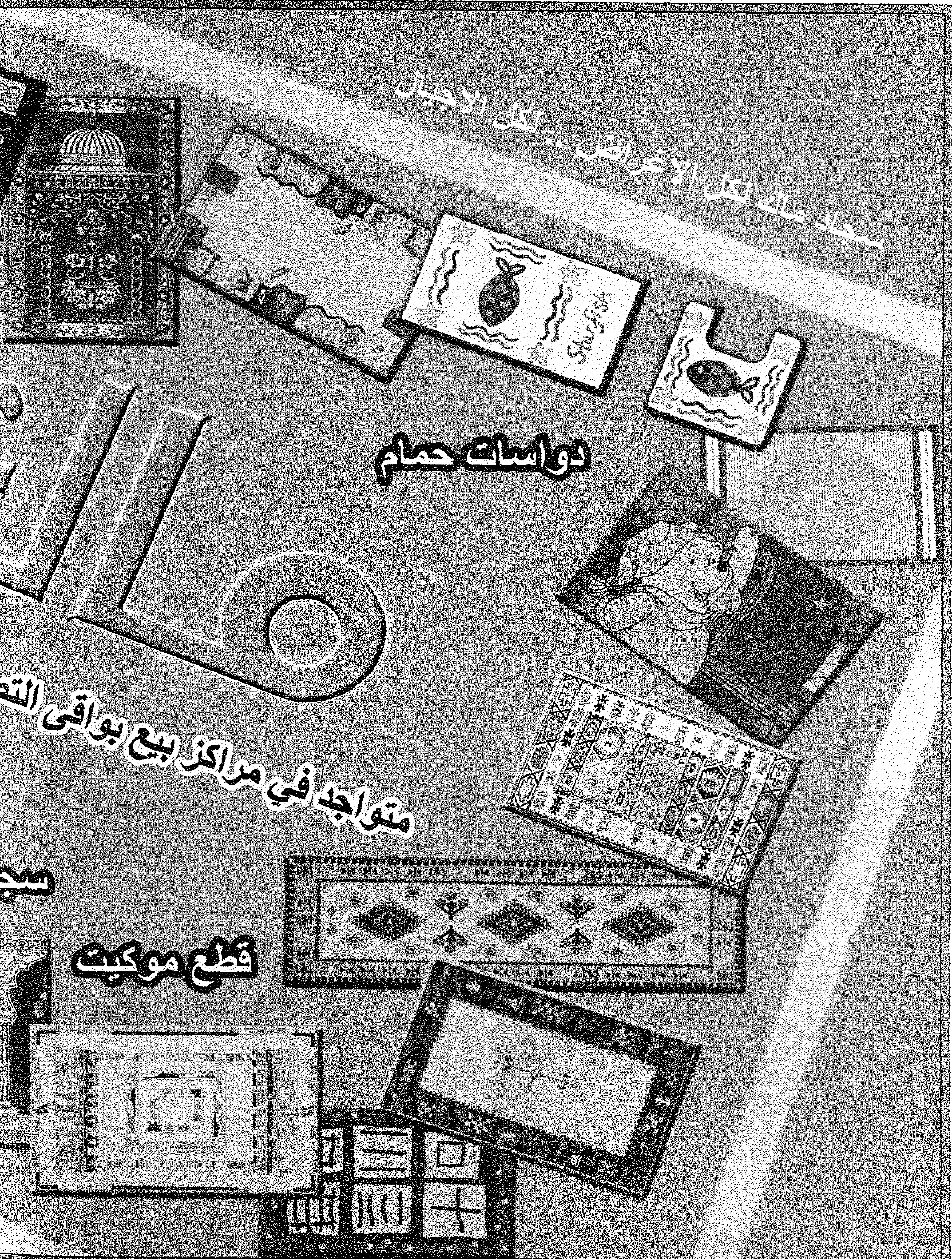
وحتى مع غياب مدير الحلبة، فإن لفن «دالى» بالتأكيد مناخ السيرك، ومحاولة إدراك سبب إنتاجه لكل تلك الخردة ستؤدى بنا دائما مرة ثانية إلى شخصه. ولكن بدون أن نقتنع تماما بالشخصية، فيمكننا أن ندرك بوضوح أكثر أن العديد من أقوى لوحات «دالى» - وربما الوحيدة المحركة للمشاعر - هى تلك التى تدور غالبا حول أشخاص ووجوه تنسحب فى خجل بعيدا عنا، أو لا يمكن رؤيتها إلا تدريجيا، ولا تستطيع الاعتماد على نفسها فقط. وربما كان إدراكنا أنه بداخل مجموعة من أكثر الصور بهرجة لفنان من القرن العشرين، تكمن بعض صور البشر الأكثر إنطوائية ورقة فى القرن نفسه، هو فى حد ذاته أفضل أعمال «دالى» من الصور المزدوجة. ■

لم تعد قدرات «دالى» على الابتكار هى نفسها بعد انقضاء عقد الثلاثينيات، ولكنه بين الحين والآخر كان يخرج علينا بلوحات تؤثر فينا تأثيرا مباشرا








سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت



سجاد أطفال
SGS
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
صلى
www.maccarpet.com

سياسة "الموالد"!

آنـــا مـــاديـــوف

■■ عندما يبدأ شهر ربيع الثانى فى القاهرة، يعلم الجميع أن الاحتفال بمولد سيدنا الحسين أصبح وشيكا (يعرف هذا الاحتفال فى مصر بالـ «مولد» (عيد الميلاد) والجمع «موالد». ولكن بدلا من مجرد الإشارة للذكرى السنوية لتاريخ الميلاد أو الوفاة بالتحديد، فإن المولد يشير ببساطة إلى يوم الاحتفال بصاحبه). ويحيى هذا المولد ذكرى ميلاد سيدنا الحسين حفيد النبى محمد (عليه الصلاة والسلام). ومع ثبات تاريخ هذا الاحتفال حسب التقويم القمرى الإسلامى، فإن موعد الاحتفال يتقدم كل عام حوالى عشرة أيام مقارنة بالتقويم الشمسى العالمى. وهذا الاحتفال الشعبى المقام حول المسجد الكبير بالقاهرة والذى يحمل اسم الحسين الذى يسبغ عليه الصوفيون قدسية خاصة، يجتذب المقيمين والزوار من جميع أنحاء مصر، باعثين النشاط طبقا لطقوس المولد فى كافة أرجاء الحى الذى يحمل نفس الاسم، ومبدلين نظام ووتيرة المكان (فى النسختين الفرنسية والإنجليزية لهذا الكتاب الذى يتناول تبجيل الأولياء الصالحين من النساء والرجال وأحفاد الأنبياء فى الإسلام الصوفى والطقوس اليهودية الموازية غالبا ما يشار إلى تلك الشخصيات كـ «قديسين»). ويثير هذا المصطلح حساسيات أرثوذكسية معينة، حيث إن اليهودية والإسلام لا يقدسان تلك الشخصيات بنفس مفهوم المسيحية. ولكن الباطنية الصوفية أو الاندماج فى الموالد لا يهتمان بمراعاة الخصائص الأرثوذكسية. من هذا المنظور فإننا سوف نتبادل استخدام تعبيرى «قديسين» و«أولياء الله الصالحين» للتحدث عن الشخصيات الروحانية التى تقام لها الموالد والمبجلين المدفونين فى الأضرحة التى يؤمها زوار الموالد). وفى سياق المحاولات الحمقاء لقوات شرطة العاصمة والحكومة المحلية لإغلاق المكان أمام الاحتفالات الصوفية الشعبية الضخمة، كوسيلة لقمع أى تجمعات جماهيرية حاشدة - وخاصة بعد التظاهرات الشعبية الضخمة فى القاهرة إبان الغزو الأمريكى للعراق عام ٢٠٠٣ - فإن هذا الفصل يهدف لشرح المعانى الخاصة والممارسات والمباهج التى تتسم بها موالد القاهرة. ورغم أن الموالد ليست أمرا سياسيا تماما، إلا أنها لا تزال تشكل كيانا متضامنا جماهيريا حضريا بديلا، كما تقف عائقا أمام المحاولات الفكرية والجغرافية والدينية لاحتوائها.

يقدم هذا الفصل قراءة للطرق التى يتم من خلالها الاحتفال بالمناسبات العامة فى القاهرة - أو على الأقل المتميزة منها - أثناء الظروف الخاصة التى تخلقها تلك الاحتفالات أو الموالد (هذا الفصل قائم على العمل الميدانى فى القاهرة بين عامى ١٩٩٨ و٢٠٠٣ أثناء الاحتفالات بمولدى الحسين والسيدة زينب - وهما أهم الموالد على الإطلاق - وكذلك أثناء موالد «يونس السعدى» و«أبو العلا» و«فاطمة النبوية» و«عائشة النبوية»). إن تلك الأحداث تشكل مناسبات زمانية مكانية مقدسة خاصة معروفة الحدود، حيث إنها احتفالات شعبية وأضرحة مقدسة فى الوقت نفسه. وأثناء البحث عن الطرق الممكنة لتفسير طبيعة المناسبات العامة، سوف أعود إلى التعريف المقتضب - وإن كان موحيا - لـ «حنا آرينت» لها باعتبارها «ظهور مساحة ممكنة بين أناس يمارسون طقوس وآخرين يتحدثون». وعندما نتعرض لذلك فى سياق الاحتفالات، فإن اللغة ليست كلمات فقط ولكنها تتكون كذلك من إيماءات وسلوكيات ورموز وطريقة إخراج. وبالإضافة لذلك، تتميز تلك الاحتفالات ليس فقط من خلال الحوار والتواصل ولكن أيضا من خلال امتزاج الطبقات والأنماط الاجتماعية والرموز المكانية والسلوكيات. هناك شكليات معينة لتواجد الناس معا - تجاورات ومواقف ومواجهات - لا تتوافر إلا فى الموالد وضمن حشود احتفالية عارمة.

وفيما يتعلق بالجانب التحليلى لمنهجنا، فإننا بحاجة لأن نحدد الفرضيات الأساسية لمشروع البحث ونتنبه إلى احتياطات معينة. نحن لن نترصد المظاهر والآثار الدائمة الشائعة التى يستحيل تغييرها تحت ذريعة أننا نتعامل مع مجال غريب، ولن نبالغ كذلك فى إظهار النواحى اللاهوتية الخالصة لتلك الطقوس الشعبية الجماعية.

وبالمثل، فمن غير المجدى أن نجتهد لعمل تصنيف رسمى لما هو دينى ومقدس وما هو احتفالى، أو عمل نوعين لفصل عناصر تلك المجموعة المتشابكة من المواقف والمشاهد غير القابلة للتفكك. لا يوجد مولد بدون جماعة صوفية، بالضبط كما لا يوجد مولد بلا ساحة وملاه وأكشاك تجارية. بل إننا - بدلا من محاولة الفصل بين مظهرى العيد - سوف ننظر إليهما باعتبارهما جزءا من كل. وهناك بالفعل منطق وراء التوزيع المكانى لهاتين السمتين، ولا يشارك كل من هو موجود بالضرورة فى كل نواحى الاحتفال. ولكن العيد عبارة عن مناسبة، عن نظام كل ما فيه مباح تماما، والتنوعات المتغيرة والمتبدلة يخطط لها عدد كبير من الأفراد والفاعلين. وسوف نتعامل مع مظاهر الاحتفال ومع المقدسات عن طريق تقديم تسلسلات زمنية ومكانية مختلفة عديدة، اعتمادا على الملاحظات التى تم جمعها أساسا من أكبر مولدين بالقاهرة وهما مولدا الحسين والسيدة زينب.

سوف ننظر إلى المكان المقدس كبناء فراغى أقيم حول خيال أولئك المشاركين فى المولد، كمكان حقيقى ضمن منظومة جماعية من الإقليمية «التخيلية» النشطة. ويجب أن نؤكد حقيقة أن المولد لا يأتى فجأة من الفراغ، ولكنه حدث يلتحم بثقافة وتقاليد سكان الحى ضمن منطقتهم. وعندما يحتفل المولد بأحد أهم الأولياء مثل الحسين أو السيدة زينب أو السيدة عائشة فإن ثقافة وتقاليد ومشاركة الأتباع من جميع أنحاء القطر تتدفق إلى القاهرة متعلقة بالمكان. ويعرف المقيمون - وخاصة النساء - مواقع أولياء الله من الرجال والنساء فى أحياء المدينة ويقومون بتحديد تواريخ الاحتفال بهم على التقويم. وعلى سبيل المثال، فقد لاحظت نوال المسيرى فى دراستها لأزقة «السكرية» عام ١٩٧٩ أن مقابر الأولياء تعد من أهم العناصر التى تقوم عليها الجغرافية الأنثوية للقاهرة. ولو نظرنا للمولد باعتباره مناسبة زمانية للذاكرة الحية، فمن الضرورى أن نتذكر أن تلك الذاكرة هى ظاهرة حالية دائمة وهى صلة حية بالحاضر الخالد.

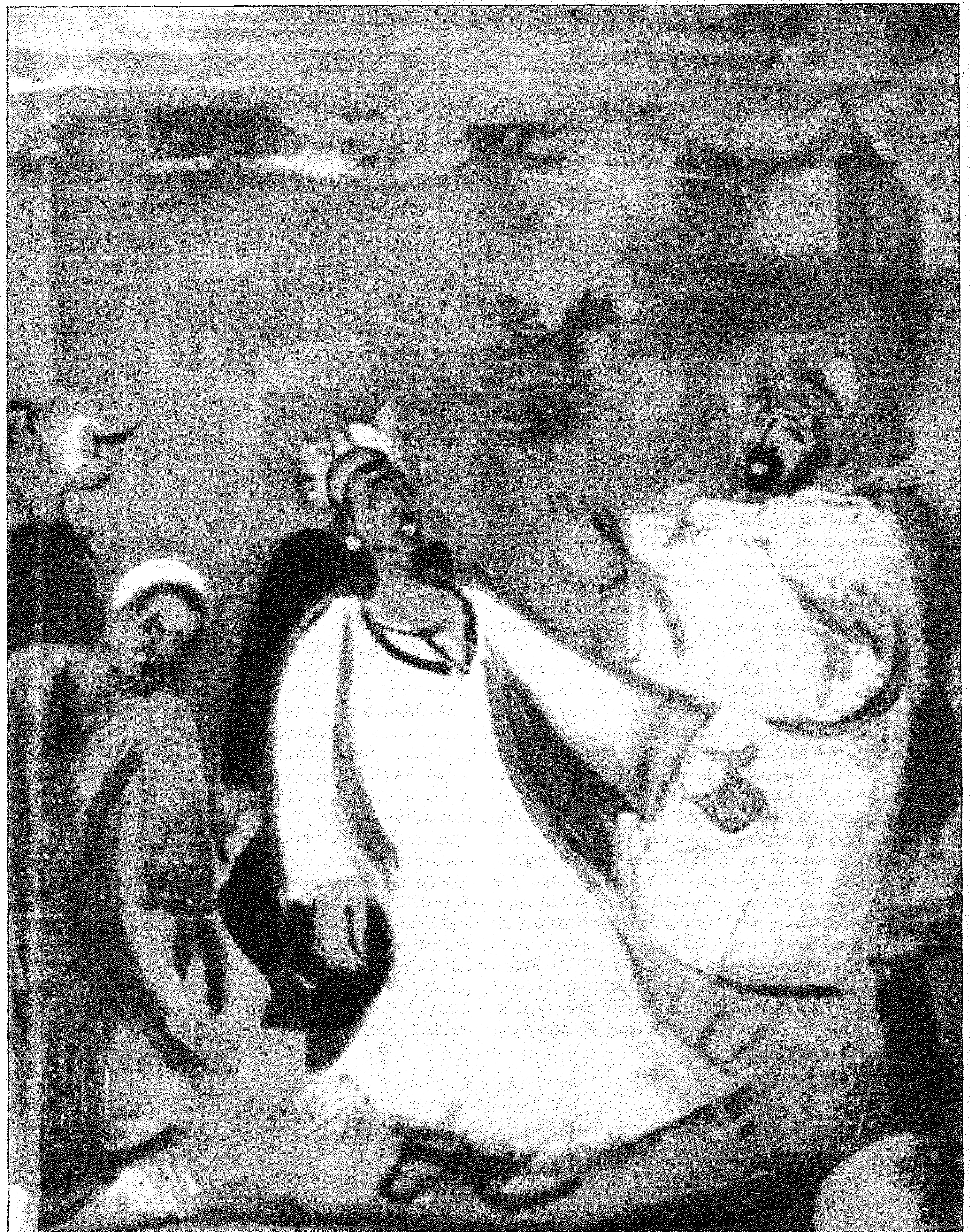
احتفالات الموالد فى المدن
أنها أحداث مزعجة وشعبية
ومعترف بها دينيا ولكنها - نسبيا -
غير متهورة وغير متشددة
وغير سياسية

فصل من كتاب:
Cairo Cosmopolitan
Politics, Culture, and Urban Space
in the New Globalized Middle East
(القاهرة الكوزموبوليتانية)
Edited by: Diane Singerman and
Paul Amar
AUC Press, Cairo- New York

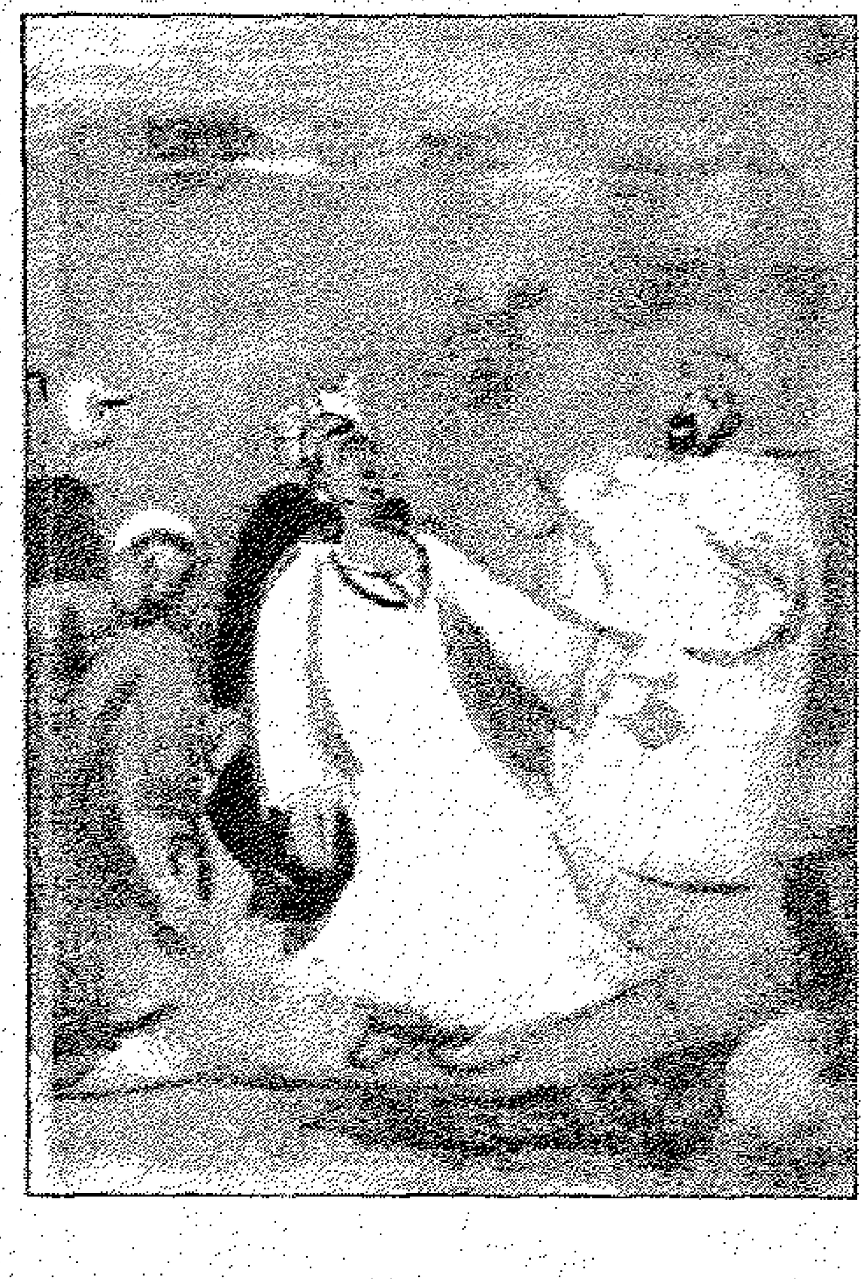
ترجمة: عادل فتحى السيد

الأعياد المصرية

الأعياد هى احتفالات دورية تحدد إيقاع العام للعديد من المرتبطين بالزراعة ولأفراد الطبقة الشعبية بالقاهرة وممثلى المجتمع المدنى الشعبى الذى يشكل أهمية قصوى، مع منظمات الحركة السياسية والطرق الصوفية المصرية. وتلتقى



سـياسـة «الموالد»!



الجماهير ضمن تلك الفعاليات المقدسة للاحتفال بمولد النبى محمد (عليه الصلاة والسلام) وآل بيته، وكذلك بموالد الأولياء والقديسين من المسلمين والمسيحيين (وحتى اليهود حتى عهد قريب). وتتراوح أعداد الحضور فى كل تلك الموالد الهامة بين عشرات ومئات الآلاف من الناس. وتقام فى القاهرة أكثر تلك الموالد أهمية على الإطلاق، بجانب موالد منطقة دلتا مصر (سيد البدوى فى طنطا وإبراهيم الدسوقى فى دسوق). وطبقا لوزير الأوقاف، يقام فى مصر أكثر من أربعين احتفالاً بموالد الأولياء، بينما يقدر المجلس الصوفى عدد احتفالات موالد مؤسسى الطرق الصوفية بما لا يقل عن ثمانين. ويجب إضافة عشرات من الاحتفالات الصغيرة إلى أرقام تلك الإحصائيات. إن إقامة الاحتفالات واستمرارها يرتبطان بوضوح بالشعبية الهائلة والمكانة الاجتماعية للطرق الصوفية. ولا يقل أعضاء تلك الطرق فى مصر عن ستة ملايين موزعين على أكثر من ١٢٠ طريقة صوفية تتمتع ٧٣ منها بالاعتراف الرسمى. وتنضم الجماعات الصوفية الصغيرة تحت لواء مختلف الطرق الصوفية الرئيسية، ومن أهمها الخلوتية والأحمدية والبرهامية والشاذلية والرفاعية والقادرية.

تقدر الصحف المصرية أن مليون زائر يشاركون فى الاحتفالات الكبرى بمولدى الحسين وشقيقته السيدة زينب، وهو رقم يعد جزافيا ورمزيا فى الوقت نفسه. فقاطنو القاهرة يشاركون بأعداد هائلة فى تلك الاحتفالات، ولكن الزائرين أيضا يأتون فى جماعات من جميع أنحاء مصر تحت رايات العديد من الطرق الصوفية. ويهتم المؤرخون بتلك الاحتفالات اهتماما خاصا باعتبارها مادة للدراسة وخاصة فيما يتعلق بدراسة الصوفية وتنظيمات الجماعات ووظائفها الاجتماعية والسياسية والثقافية وأسرار النشوة والقدسية الصوفية. وسوف نركز هنا على الوظائف الجغرافية والدلالية الحضرية نظرا لأبعادها الهامة المهملة.

ربما بدأت المؤلفات الحديثة حول احتفالات المولد بكتاب «الخطط التوفيقية الجديدة» الذى وضعه «على باشا مبارك» فى نهاية القرن التاسع عشر، أو الإحصاء الوصفى للاحتفالات الذى قام به «مكفرسون» عام ١٩٤١ . ويوفر كتاب الصور الذى علق عليه «بيجمان» مجموعة متنوعة من مشاهد الاحتفالات المصرية. وتتضمن روايات الرحالة أحيانا معلومات حول تطور احتفالات معينة فى مناطق محلية محددة. وفى النهاية، فإن المؤلفات المصرية المعاصرة. الروايات «يحيى حقى، ونجيب محفوظ، وعبد الحكيم قاسم «وخاصة السير الذاتية «طه حسين ، وسيد عويس». تستخلص المعانى والقوة من الروابط الاجتماعية والشخصية والحضرية والمكانية المتلاحمة جميعا فى محيط المولد.

ومع ذلك، فهناك نقص فى المؤلفات «الجغرافية الحضرية» الخاصة بتلك الأحداث، رغم أنه فى بلاد أخرى مثل المغرب تلقى تلك الاحتفالات التى تعقد فى صور أخرى وتحت مسميات مختلفة (مواسم) اهتماما أكبر، وخاصة فى مجالات دراسات علم الإنسان وعلم الاجتماع. ومن الجدير بالذكر أن الصوفية وطرق عرضها الاحتفالية المنتشية الغامضة كانت منذ عهد بعيد موضع نقد شديد من قبل الدولة والسلطات الدينية والطبقة الوسطى. ومن المؤكد أنه بعد النهضة الإسلامية تعرضت تلك الثقافة بكاملها للاتهام بالجاهلية ونظر إلى عدد من الممارسات الاجتماعية باعتبارها بالية وأخذت بالفعل طريقها إلى الاندثار. من الممكن النظر إلى الاحتفالات باعتبارها صورا من التعبير عن الإسلام التقليدى الشعبى غير المتشدد - وربما المتساهل - والذى يتعرض للتجاهل والإهمال، حيث يركز الباحثون اهتمامهم على إسلام الطبقة الوسطى النظرى الجهادى السياسى المتشدد. ومن مفارقات احتفالات الموالد فى المدن أنها أحداث مزعجة وشعبية ومعترف بها دينيا ولكنها - نسبيا - غير متهورة وغير متشددة وغير سياسية. وإنى أؤكد فى هذا الفصل أن الموالد كان ينظر إليها من قبل الدولة حتى وقت قريب باعتبارها لا تشكل نوعا من المقاومة السياسية أو التهديد الشعبى. ربما ترجع تلك النظرة إلى أن تلك الاحتفالات تنحصر داخل مناطق محددة داخل مدينة القاهرة القديمة والمدن الرئيسية وتقام فى إطار خيالى مؤقت قصير الزمن. وربما لا يكون لها على السطح تأثير مباشر على الأمور السياسية، ولكنها تعج باحتمالات وقوع قلاقل وتحالفات وخسائر.

نظام بديع وعملى

ينشأ المولد ويتطور متفاعلا مع الشخصية المكانية والثقافية والتنافسية للحى الذى يقام فيه. فهو يعيد تشكيل المكان فى صورة مراسم نمطية أصيلة تقوم على الرقص الإيقاعى وتتضمن جلب وترتيب وتكوين عناصر الزخرفة ذات المعنى الملائم للمناسبة. ورغم أن الإعداد للمولد يتم عادة بوسائل اقتصادية للغاية، إلا أنه يحقق تأثيرا رائعا. وتنبض الديكورات بالحياة ويكثر استخدام الجدران الزاهية والأضواء الملونة. وتتكرر نفس الصورة فى محيط المكان. وتستكمل المنازل والأكشاك الصورة الإجمالية للمكان بالألوان والأشكال المنسجمة مما يخلق تناغما عاما. فالقمم العالية لمآذن المسجد/الضريح تكللها حبال من الأضواء الملونة المتقطعة ويتزين المسجد الذى يطلق عليه «عروس الاحتفال». وتنساب حبال الأضواء من المسجد متعرجة فوق الشوارع والأزقة وتطوق تضاريس البنايات المجاورة مشكلة مظلة متذبذبة من الإضاءات المائلة. وتصنع الخيام المستطيلة التى تكسو هياكل خشبية من نسيج سميك ترصع ألوانه الحمراء أشكال هندسية وتصميمات متشابكة. وتحتل تلك الخيام كافة المساحات الممكنة من الجناح الشرقى لمسجد الحسين أو ميدان مسجد السيدة زينب إلى أزقة وساحات المناطق السكنية المحيطة. وتمتلك الجماعات الصوفية الخيام الكبيرة البديعة بأضوائها الداخلية المعلقة وأرضيتها المفروشة بالسجاجيد الشرقية. ويجد أعضاء تلك الجماعات المأوى داخل تلك الخيام التى تعزف فيها الموسيقى وتمارس فيها الطقوس. وتعلو الخيام رايات تعبر ألوانها عن انتمائها لجماعات صوفية معينة (الأسود للرفاعية، والأحمر للأحمدية، والأخضر للبرهامية) وعن الأصول الجغرافية للزوار من محافظات مصر. وبذلك تشهد تلك الرايات على تمثيل المناطق الريفية فى قلب العاصمة: «البرهامية من دسوق» و«الأحمدية من المنيا» إلخ. وتنتشر أيضا الملاجئ المصنوعة من قماش القنب الخام لتؤوى المزيد من الزوار والمحتفلين والبطالات والعائلات كثيرة الأفراد. وتعسكر تلك الجماعات وسط الشوارع وخاصة المحيطة بالمسجد، أو تحت سلالم البنايات أو فى مداخلها أو على أسطحها أو على الأرصفة أو - فعليا - فى أى مكان يمكن إقامة تجهيزات مؤقتة به. وتتكدس فوق المنصات المزينة أكوام من الحلوى والحمص، وتحمل عربات اليد المتجولة الطراطير والأقنعة والتنورات والزخارف والحلى والتمائم الجالبة للحظ. وهناك أكشاك أخرى فى الشوارع مخصصة للأطفال فقط وتحوى كافة أنواع الألعاب والملاهى مثل الرماية بالبندقية، ولكنها تقدم أيضا عروض الرقص والموسيقى وعرائس الأراجوز. وأحيانا تكتمل مشاهد التسلية بساحات صغيرة للسيارات المتصادمة والأراجيح الدوارة.

ويتفاوت ضجيج وزحام الاحتفالات من يوم إلى يوم (متزايدا باتجاه اليوم الأخير من زمن الاحتفال)، ومن ساعة إلى ساعة (يصل للذروة حوالى الساعة الحادية عشرة مساء أو بحلول منتصف الليل)، وكذلك حسب المكان داخل النطاق غير المنظم للمولد. ويشبه المولد فى ضجيجه وأضوائه قطار الملاهى: فهناك فرقعة إطلاق بنادق اللعب للتصويب على الجوائز، وصرير الأراجيح البندولية وقعقعة الصنوج والطبول المصاحبة

لا تتوقف الحياة الحضرية للقاهرة أثناء أيام المولد. فالناس يأتون ويذهبون ويتابعون شئونهم ويعملون ويمرون خلال مكان الاحتفال وبجواره

للأراجيح الدوارة، ونداءات الباعة المتنافسين لاجتذاب الزبائن، وأصوات الصفير من جماعات الأطفال، وصراع عرائس المسرح المتشاجرة، والترتيل المنتظم لآيات القرآن، وأغانى الموسيقى الشعبية، ويختلط كل ذلك مع الأناشيد الإيقاعية للذكر الصوفى المنساب من الخيام ومكبرات الصوت. ويسمع المرء أيضا أصوات العشرات من سيارات النقل الصغيرة التى تغزو الحى محملة بمعدات إقامة الخيام مع السجاجيد والكراسى ومولدات الكهرباء والتوصيلات الكهربائية وأجهزة الصوت وكذلك ضروريات الحياة اليومية مثل الطعام ومفارش الطاولات والأسرّة وأدوات المطبخ وغير ذلك. وتستمر عملية نصب الخيام وتركيب المعدات وإعداد الساحات عدة أيام. وتبدو الأحياء المضيفة للموالد وكأنما قد انفصلت تماما عن المدينة وتحولت إلى عالم مزدحم يندمج فى إيقاع الاحتفال.

وعندما تتغير معالم هذا الجزء من المدينة ويتزين للمولد فإن معالمه الدائمة من بنايات رأسية ومساحات أفقية لا تبقى كما هى. ويتوقف التمييز بين هذين البعدين، مما يخلق تواصلا بصريا من التدفقات والأضواء المتقطعة التى تشبه أجواء الملاهى. ويتحقق أيضا تواصل مؤقت: يلتحم الليل والنهار بالبهجة والضوضاء والحيوية. ويعد المولد احتفالا ليليا فى الأساس، ويتم فى الليلة الأخيرة للاحتفال الإعلان على الملأ عن موعد المولد فى العام المقبل. ورغم تباين الليل والنهار واختلاف إيقاعهما وارتياد كل منهما بنمط مختلف من الرواد المتحمسين، إلا أنهما مزدحمان بنفس القدر. ويبدو المولد من تلك الزاوية كاحتفال هجين لا يستطيع المرء أن يفصل فيه ما بين المقدس والدنيوى. وأكثر ما يحقق المناخ العام البهيج للمولد هو الحيوية والفرحة واللعب. ومن هذا المنطلق، لا يبدو أن المولد عبارة عن حشد مشوش. فالتوزيع المكانى للعناصر التى يتكون منها المولد حسب ارتباطها بالمقدس والدنيوى، يتناسب مع المنطق الحضرى والمكانى المترابط البديل للمولد. ويتضح كل ما سبق فى التفاصيل ويراه كل المشاركين فى الاحتفال وبنفس الطريقة تجمع الموالد بين المتناقضات: أماكن مغلقة وأخرى مفتوحة، مناطق صاخبة وأخرى للتأمل، للتوسع وللتركيز. إن المولد عبارة عن منطقة. فلها مركز وبها مواقع محددة للعروض مضاءة جيدا وصاخبة ومنظمة، وبها أيضا ممرات جانبية وزوايا وأركان وطرق مسدودة ومناطق مضاءة وأخرى ظليلة. وتنصهر أطراف المنطقة فى الغموض، فى أماكن رثة ليس فيها إلا بقايا هالات من الأصوات والأضواء تتمدد بينما ينتقل المولد إلى المدينة ذات البنية المنظمة.

كل مولد فريد فى نوعه، ولكن جميع الموالد لها كثير من الخصائص العامة المشتركة. فهى دخيلة على مكان موجود بالفعل، وهى تستحوذ عليه وتشوشه جزئيا. وهى تقدم مجموعة من الخصائص السائدة التى تخلق النقيضين فى وقت واحد: مناخا فريدا ومبتذلا، ومنظرا طبيعيا أصيلا ومألوفا. وعندما يذهب المقيمون والزوار ضمن هذا السياق إلى المولد فربما يشعرون أنهم فى رحلة مثالية إلى مكان يجمع بين الحيرة والثقة فى آن واحد، ورغم توقع المكان والزمان إلا أن هناك دائما احتمالاً لعدم الاستمرار أو وقوع مفاجآت. وتبقى التغيرات المحتملة لتضاريس خلفية المكان وترتيبات الاحتفال بلا حدود وحافلة بالفوارق الدقيقة.

وقد يتوقع المرء لتحقيق الترويح عن النفس مع الحفاظ على المناخ المقدس - أن تنتهج الموالد خطة ضوئية مليئة بالظلال والإضاءات الصامتة. ومع ذلك، فالتأثير العكسى هو السائد. فالإضاءة مركزة جدا: وتتميز إضاءة اللمبات متعددة الألوان و-أكثر منها - إضاءات النيون بالسطوع واللمعان الشديدين. ويبدو أن الضوء والضجيج يتنافسان إلى درجة الوصول إلى سياق مشترك والاندماج فى ذروة الانصهار. ولا يصبح الليل هنا من الناحية النوعية مضادا لنهار المدينة. وهو يكشف - بدلا من ذلك - عن نفسه بقوة كامتداد للنهار: فهناك المزيد من الناس والأنشطة والضوضاء والأضواء أكثر مما يجده المرء أثناء النهار.

من الذى يتردد على الموالد؟ كل أنواع البشر كما هو واضح، وخاصة الذين ينتمون للمستويات الاجتماعية التى تصنف كطبقات شعبية (هناك مؤشر غير علمى - ولكنه يكشف عن القوة الشرائية - يوجد فى نعال المشاركين فى المولد، حيث يرتدى جزء كبير منهم (رجال ونساء وأطفال) نعالاً مفتوحة (صنادل بأشرطة من البلاستيك المقولب أو الجلد) تنتمى إلى قاع التسلسل الهرمى للأحذية). إن الاحتفال يجمع المصريين والقاهريين، الباحثين عن اللذة والتقاة، ويحفز إمكانيات أخرى للاختلاط الاجتماعى. ومع ذلك فالاختلاط الأوضح - والأوضح غموضا - هو اختلاط الرجال والنساء. وفى هذا السياق فإن الرجال والنساء يجدون أنفسهم جنبا إلى جنب فى المناسبات العامة حيث ما يتم عادة الحفاظ على المسافات بين الجنسين وحيث يقل إلى الحد الأدنى الاتصال البدنى والتلامس بين الرجال والنساء، وحيث تكون هناك رقابة لصيقة على وجود النساء وخاصة الشابات منهن.

احتفال وغاية

كيف نتصور أن يدرك المرء المولد باعتباره كيانا جغرافيا؟ كيف يفهم ويحلل الحركة الأبدية داخل مثل هذا السياق محدود المكان والزمان؟ إن الاحتفالات التى تدوم أياماً قلائل لا توفر للباحث وقتا كافيا ليقدم تحليلا كاملا. إن الطبيعة المؤقتة للاحتفال تدفع الباحث للتنقيب عن الأجزاء الصغيرة. ويبدو أثناء الاحتفال أن كل فرد يعيش ويعمل بأسلوب متعجل يجعل من استيعاب تزامن المواقف والمشاهد أمرا مستحيلا. ولذلك فقد قمنا بتجربة تعديل مناهج البحث الاجتماعية الجغرافية لتطبيقها على المشهد الحافل المتنوع للمولد، والتحصيل الفورى للبيانات المجمعة أثناء التجوالات العرضية. وقد قررنا - على مضض - قبول الطبيعة العاجلة للمولد وتعديل إستراتيجيات البحث القائمة على جمع عينات الانطباعات. ومع ذلك، فهناك أيضا مجال أوسع أمام الباحث لمزيد من التحليل الاستقرائى، لأن الاحتفال هو أيضا نتاج طويل الأمد لنماذج تنظيمية اجتماعية حكومية حضرية شبه دائمة ونزاعات ثقافية سياسية. فالمولد عرضة للتناظر وإصدار الأحكام والصراع والتخطيط والموافقة ورقابة الشرطة والتنظيم. ورغم أن التحليل الذى نقدمه فى هذا الفصل لا يأخذ تلك الجوانب فى الاعتبار، إلا أننا نقر أن البحث المستقبلى لتلك الظواهر من الممكن أن يستكمل دراسات الأعراض والدراسات الاجتماعية الجغرافية لهذا الفصل. وباختيارنا الأسلوب العابر فإننا كنا انتقائيين تماما وقمنا بعزل عناصر الموالد بصورة عشوائية.

ولذلك فإننا نكتشف وننقل هنا بعض المشاهد التى صادفناها أثناء الرحلات غير المنتظمة أثناء الموالد، والرسومات التخطيطية المقدمة كصور بلا إطار والتى - بناء على ذلك - قد تظهر كأحداث وقعت عمدا نظرا للطبيعة العاجلة للحظة. وكل ذلك يخولنا أن ننظر إلى الطرق التى تظهر من خلالها التفاصيل الدقيقة وأن تكشف الغطاء الخارجى للأحداث الجسيمة. ويمكن لهذا الأسلوب فى قراءة المدينة أن يضفى على لحظات الحدث فعالية خاصة آخذا فى الاعتبار - انتقائيا - أكثر المواقف تكرارا ويضعها فى سياقها الحقيقى.

إن فضاء الحى أثناء إقامة المولد يبدو حافلا بالاحتمالات والتأويلات. وهو يتألف من «لا نهائية» من الزوايا الصغيرة التى تسودها وتميزها ممارسات متغيرة معدلة. ويتجسد حضور الزائرين أثناء المولد من خلال انتشار الأشياء الموجودة فى الشوارع وعلى الجدران وعلى حواف الأرصفة وغيرها. وعند مراقبة الأماكن المكشوفة والمستترة بالتفصيل، يلحظ المرء وفرة من الأشياء والمؤثرات. وإذا كان ميدان الحسين الواقع أمام المسجد الكبير مغلقا أمام الجمهور فإنه ليس كذلك بالنسبة للأغراض. فداخل الساحة المنيعة على طول السور المنخفض الذى تعلوه الحواجز المحددة له، تظهر مساحة مخصصة للأمتعة: صف من الحقائب والأجولة وشنط التسوق وأكوام وأحمال، تترك هناك وتؤخذ لاحقا عبر مد الأيدى - بكل بساطة - داخل الساحة. حتى النافورة المركزية (الجافة) امتلأت بأمتعة الزوار. وتستخدم الأعمدة الحديدية المستدقة على بوابات مسجد الحسين لتعليق المعاطف، ويتكوم

جمهور المولد هو تشكيل اجتماعى يختلف عن «الغوغاء» فى مفهوم علم الاجتماع القديم أو «التجمعات» من وجهة نظر دراسات الحراك الاجتماعى



فوق كل منها ملابس وأكياس مدلاة. أما قواعد البوابات فتستعمل كخزانات لأباريق الشاى والأكواب والصوانى والكؤوس وغير ذلك. وتمتلئ أعتاب نوافذ المسجد بأكوام من الأغراض والأكياس. أما الأشجار القليلة بالحى فتستخدم أيضا كمساند وتكتسى أفرعها بالأغراض. كما توضع الأكياس أيضا حول قواعد أعمدة الإنارة. وتتحدد الأرصفة وأطراف الشوارع بالحصير المفروش على الأرض والذى تحتله جماعات متباينة وتغطيه المستلزمات المستخدمة للأكل والنوم. وعلى نفس المنوال تستغل ممرات ومداخل البنايات السكنية للإقامة والتخزين.

أما وسائل التسلية العامة والخاصة فتختلط وتمتزج جزئيا بينما يعاد تعريف وظيفة كل مكان. يصير الحى مزدحما، ولكن الأشياء منظمة ويستقر كل شخص فى مكانه. وهناك صور أخرى من الدعاية تشمل اللافتات التى تمتد على واجهات المبانى الدينية والسكنية حيث تقطن الجماعات الصوفية، أو تتدلى من النوافذ والشرفات، أو تعلق عبر الشوارع خلف مكبرات الصوت. وتعمل تلك اللافتات كعلامات مرئية ورنانة ترشد إلى أماكن الطرق الصوفية المختلفة. ويضاف إلى ذلك أيضا اللافتات الدعائية للتجارة ورجال الأعمال من أهل الحى.

تستغل جميع المساحات بفضل الحيل العملية الكثيرة التى تضطر إليها الحاجة وكذلك وفقا للابتكار والخيال غير المحدود، حيث يستفاد من مساحات المدن من خلال تعدد أبعادها وأحجامها وبنيتها. ويستهلك كل ذلك من موارد المدينة، ناهيك عن المساحات المشغولة الجديدة التى تجعل المكان أكثر ازدحاما وتعيد تشكيله صانعة منظورا معماريا جديدا. وكذلك يعد تشكيل التفاصيل الحضرية الدقيقة المتعددة - وبصورة فردية - مثل أعتاب النوافذ والأركان المختلفة والأرصفة والأعتاب وغيرها لتصبح من خصائص ودعائم المولد. وتلك الأشياء التى لا تعد شيئا أثناء الأوقات العادية حيث لا يلحظها أحد، تتحول عن وظيفتها المعتادة بسبب الاحتفال. وهكذا يجرى اختيار ألف طريقة وطريقة لترتيب الأشياء ووضعها فى فتحات ومزجها مع ما يحيط بها. ومن بين كافة الاستخدامات المحتملة للمدينة وكل الممارسات المحددة، سنركز على أمر أكثر شيوعا وهو السعى للحصول على مطالبة صغيرة بركن على أحد الأرصفة: فعندما يقوم شخص ببسط قطعة مربعة من القماش ويفرشها فوق رصيف، ربما لا تبدو تلك حيلة ذكية جدا. ولكن لابد أن ذلك القماش يستحضر شيئا من قوة السحر، لأن عائلة من ستة أفراد سوف تقضى أسبوعا كاملا بأيامه ولياليه تعيد اكتشاف هويتها الشخصية الحضرية الطبقية الروحانية وتأكل وتشرب وتنام وتحافظ على كرامتها وتعيد التفاوض حول الحدود وتعايش المولد كأكثر أحداث العام إثارة للبهجة، كل ذلك أثناء احتلالها قطعة مربعة من القماش على الرصيف الأسمنتى.

حركات وتوازنات

لا تتوقف الحياة الحضرية للقاهرة أثناء أيام المولد. فالناس يأتون ويذهبون ويتابعون شئونهم ويعملون ويمرون خلال مكان الاحتفال وبجواره. وليس هذا المكان مطلقا ولكنه حضور يقظ نراه هنا وهناك من خلال الديكور والمناظر والسلوكيات التى تدون عمدا فى سجل المولد. وكما يقول «بيير سانسوت»: «إن المكان العام يتأرجح بين الحياة اليومية والاحتفال». ويترجم هذا التردد من خلال الطبيعة المسامية للبيئة الحضرية ومن خلال سلوكيات المولد. فبعض الناس يسيرون بينما يجلس آخرون أو يراقبون أو لا يفعلون شيئا، ولكن الجميع هناك معا مرتبطون بعالم المولد فى المدينة. كيف يمكن أن يرتبط المرء بمشهد واحد أو عمل واحد ثم ينفصل عنه كى يندمج فى قصة أخرى موازية؟ يحدث ذلك ببساطة بالتحول عن المكان سواء بالنظر فى اتجاه آخر أو بمغادرته فعليا. وبتلك الطريقة، تجتمع مستويات عديدة من الاندماج فى مشهد واحد أو أكثر وفى وقت واحد أو أكثر، من الحصرى إلى المتفاوت ومن الخضوع إلى اللامبالاة ومن التجربة العميقة إلى السطحية.

فى عصر أحد أيام الاحتفال بمولد الحسين (يونيو ٢٠٠٣) عند الحافة الشرقية للمسجد، استضاف أحد المقاهى المكشوفة فرقة موسيقية. وقام الزبائن الجالسون فى الصف الأول على مقاعد مخملية (وهم من رواد المقهى على ما يبدو) بتحية الفرقة الموسيقية بأوراق من فئة الجنيهات العشرة. يقوم المغنى بشكرهم ورد التحية بمشاركة مالك المقهى. وهناك فى كل مكان زبائن آخرون يجلسون على مقاعد خشبية. وبالخلف توجد صفوف من المتفرجين الواقفين المولعين بالموسيقى وبتوزيع الناس الذى يستثير التعليقات من الجميع. ويوجد خلف المقهى شارع مزدحم تمر به السيارات من حين إلى آخر. وكل سيارة تنجح ببراعة فى المرور فإنها تسترعى انتباه بعض المشاهدين بل يتطوع بعضهم لإرشادها. وفى العادة فإن صوت بوق السيارة هو الذى يقرر مدى تراجع بعض المشاهدين الذين يغادرون المكان بعد اكتفائهم من السمر لمتابعة طريقهم مرة أخرى. وبنفس الطريقة ينتشر أثناء المولد عدد من باعة أشرطة الكاسيت ويبثون الموسيقى. وهناك الكثير من الناس ممن يعبرون تلك المواقع يفسحون طريقهم بواسطة الصفير وطرقعة الأصابع. وبتلك الطريقة تتكرر الكثير من التجوالات الفردية وتلتحم معا أو تذوب تماما من خلال تعاقب متغير غير محدود من الحقائق والمشاهد والنطاقات ذات المغزى على طول خط السير لكل شخص طبقا لحجم الإغواءات وخصوصا إيجابية كل مشارك فى تلك الرحلات والوقت المتاح له. وهكذا تتطور إيقاعات المدينة التى تكون موجهة وشاردة فى الوقت نفسه. ويحدث أثناء المولد اختلاف فى النبرات نتيجة التدافع والطموحات الأبدية غير المتوقعة.

إن جمهور المولد هو تشكيل اجتماعى يختلف عن «الغوغاء» فى مفهوم علم الاجتماع القديم أو «التجمعات» من وجهة نظر دراسات الحراك الاجتماعى. إن جمهور المولد يجمع بين المجهولية والهوية ويقبل باستعراض وتظاهر المشاركين فى آن واحد. كما أنه يسمح للغرباء بالقيام بالزيارة والاختلاط الاجتماعى الحميمى أو - بنفس الحميمية - ينسى تماما وجود أناس آخرين. إن شخصية من يمشى أثناء النوم كما فسرها «إسحق جوزيف» تتشكل كشخص اجتماعى يشبع هويته وشوقه الحضريين بالانغماس فى المناسبة العامة والجمهور (يمكن أيضا الرجوع إلى «باتستى Battesti» فى هذا الكتاب وطرحه للطرق التى يحتفل بها الجمهور الزائر لحديقة الحيوانات بالجيزة بازدحامها، حيث يجادل بأن «الناس هم الذين يوفرون نسيم الحياة والروح للمكان»). ومن داخل المولد تبرز شخصية مجازية متكررة، وهى شخصية «الماشى على الحبال»: فهو يقتحم الألوان حسب مسار متلعثم حافل بالتردد والإغراء واتخاذ القرارات المجازفة. والماشى على الحبال هو أيضا خبير بالتوازن يحتاج فى تقدمه عادة لعمود توازن أو مظلة أو شىء آخر يساعده للحفاظ على الحركة اللازمة ويحدد العمل الكاشف. والأغراض التى يحملها المشاركون فى المولد تساعدهم فى أعمال التوازن المنغمسة فى تلك الحشود: وتعيد تلك الأغراض إلى الذهن أو تستثير دورا أو سلوكا أو عملية معينة ذات مغزى اجتماعى أو روحانى أو جنسى أو مكانى كما سنرى لاحقا فى هذا الفصل.

الليلة الأخيرة

يبدو أنه فى حالة الموالد عندما يشغل المرء فراغا مزدحما بآخرين، يشعر البعض بإدراك كامن. فكل فرد يواجه موقفا يتوقف عليه دائما، بل يعتمد بدلا من ذلك على ماهية أو كيفية الشخص سواء كان امرأة أو - ربما - شخصا ضعيفا. وأثناء تلك الليلة الأخيرة لأى مولد، وخاصة فى الميدانين الكبيرين للحسين والسيدة زينب، يكون تردد وتحفظ البعض (رجالا ونساء) واضحا،

أثناء الليلة الأخيرة لمولد
السيدة زينب يصطف الباعة الجائلون
بعرباتهم عند أطراف الحشود ويتدخلون
لمساعدة النساء اللاتى
يتعرضن للمضايقات

سياسة «الموالد»!

بينما تكون بهجة البعض الآخر بنفس الوضوح. وهكذا تنسحق الأفعال والشخصيات معا بأسلوب شبه منظم يركز على أدوار تكميلية: الذين يلمسون والذين يتعرضون للمس، والذين يتدافعون والذين يتعرضون للدفع. إن تلك الصور الفورية للاتصال تكون مستساغة أو مفروضة، مقبولة أو مرفوضة، ولكنها تفيد فى تقرير التقلبات الدائرة التى تحدد الجماعات المستقرة نسبيا (العائلات والشباب ومجموعات الزائرين وغير ذلك). يبدو أن كل شخص له قراءته الغريزية للجمهور وتركيبته وللتكوينات التى تنساب منه، وهو نوع من التأويل الفورى يدفع الأفراد إلى الدهاليز ويوجههم وفقا لتلك الاستدلالات وليس حسب تقديرهم لأقصر مسافة بين نقطة وأخرى. ويجرى داخل الحشود قياس وتمييز مستويات من العمق والانغماس والتوجه طبقا لمرجعيات راسخة (بعد أو قرب الحوائط والأرصفة وغيرها).

ورغم الحشود والزحام، يعد هذا التصنيف ناجحاً نسبياً ويبدو أن الجميع يتكيفون معه. ومع ذلك، فهناك أماكن أو ممرات ضيقة معينة تخل بهذا النظام وتسبب الحيرة: فمن هذا المنطلق تعتبر نقاط عنق الزجاجة مناطق فوضوية يختلط فيها الجميع فى غموض كلما غادروا أو دخلوا الميدان. وعند تلك الممرات الصعبة يتمركز رجال الشرطة. وهم يحاولون السيطرة على انسياب الحشود، بل ويوجهون بعض الضربات بالعصى، ليس بطريقة عشوائية وإنما يميلون إلى استهداف الفتيان لإجبارهم على التقدم والمرور سريعا مستخدمين أذرعهم للحماية حتى يتفادوا الضربات. والهدف من هذا العنف هو كبح شهواتهم الكامنة للمس النساء وردع من يحاول التلكؤ هناك. وفى تلك الأماكن، يعمد الفتيان الذين يراقبون الوضع جيدا إلى انتظار مرور الفتيات كى يندفعوا وراءهن. ويتراوح رد فعل الفتيات بين التردد والضحك والصياح والذهاب هنا وعدم الذهاب هناك، ويزداد التدافع.

وأثناء الموالد الهامة الأخرى ذات السياق التضاريسى المشابه، يقوم بدور الشرطة هنا المدنيون الذين يتصرفون وفقا لنفس الإجراءات. وأثناء الليلة الأخيرة لمولد السيدة زينب يصطف الباعة الجائلون بعرباتهم عند أطراف الحشود ويقفون فوق الصناديق يتفحصون حركة الجمهور ويتدخلون لمساعدة النساء اللاتى يتعرضن للمضايقات. فينثرون الماء على المتحرشين ويصيحون فى الرجال والنساء الذين يحاولون مغادرة الزحام لإرشادهم إلى الطريق للوصول إلى أطراف الميدان وأفضل نقاط المرور.

وهناك طريقة أخرى للحفاظ على المسافات تستخدم أثناء الليلة الأخيرة لمولد السيدة فاطمة النبوية حوالى الساعة الحادية عشرة مساء. يقوم حوالى خمسين شخصا بالرقص حول فرقة موسيقية فوق منصة أحد المقاهى المكشوفة. ومن الصعب أن نحدد بدقة تامة طبيعة هذا الرقص، حيث إن كلمات الأغانى دينية بالطبع بينما الموسيقى يعزفها المصاحبون لحلقات الذكر. ولكن الذكر فى الأساس هو ممارسة جماعية منظمة. يشمل الذكر بالضرورة حركات ميل جانبية عديدة وخفيفة للجسد يقوم بها الرجال والنساء معا. تكون الأرجل مستقيمة بينما تتأرجح الذراعان ويترنح الرأس من جانب إلى جانب. وهناك حشود أخرى من الناس خارج منطقة الرقص المكشوفة المفروشة بالسجاد يرقصون بطريقة أكثر فردية دون الانتباه للآخرين مع مراعاة التوافق مع الإيقاع المشترك. وحتى لو كانت حركاتهم تنتمى بوضوح لنوع آخر من أنواع التعبير، فإن إيماءاتهم وسلوكياتهم تجد فى الذكر ما يشبعها.

وهناك كثير من النساء من بين المشاركين بعضهن فتيات صغيرات. ويتحلق حولهن الكثيرون للمشاهدة، ويحدق الكثير من الرجال فى أجساد النساء العارية التى تضفى عليها حركات الرقص الحيوية. ولكن كل أولئك النساء يبقين عيونهن مغلقة، بينما تكون وجوه بعضهن مرهقة فى حين تهيمن تعابير البهجة الغامرة على البعض الآخر. وسواء كانت لا مبالاتهن حقيقية أو زائفة فإنها تبدو مطلقة: فلا توجد أى خلاعة فى إيماءاتهن أو أى إيحاءات متعمدة فى حركات أجسادهن أو استعراضاتهن. ويستمر هذا المشهد الذى يتطور مع التجديد الجزئى والمستمر لأبطاله عدة ساعات. وعلى غرابة هذا الموقف، فرغم أن النساء يرقصن فى الشارع بلا ضوابط طوال الليل، فلا توجد أبدا أى فرصة لتبادل النظرات. فالسياق لا ينفصل عن المولد، والموسيقى التى تحفز على الرقص هى ذات طبيعة دينية. ومن الصحيح أيضا أنه ليست هناك لا مبالاة بشأن تعرى أجساد النساء، لأنهن لا يغادرن المكان ولا ينظر الرجال إليهن طوال الوقت ويمكن النظر إليهن من زوايا مختلفة وفى أوضاع مختلفة. إن تلك النساء يحركن أجسادهن ولكنهن لا يستعرضنها، ولا يسمحن لأحد بلمس أجسادهن أو إتاحة الفرصة لأى اتصال ممكن.

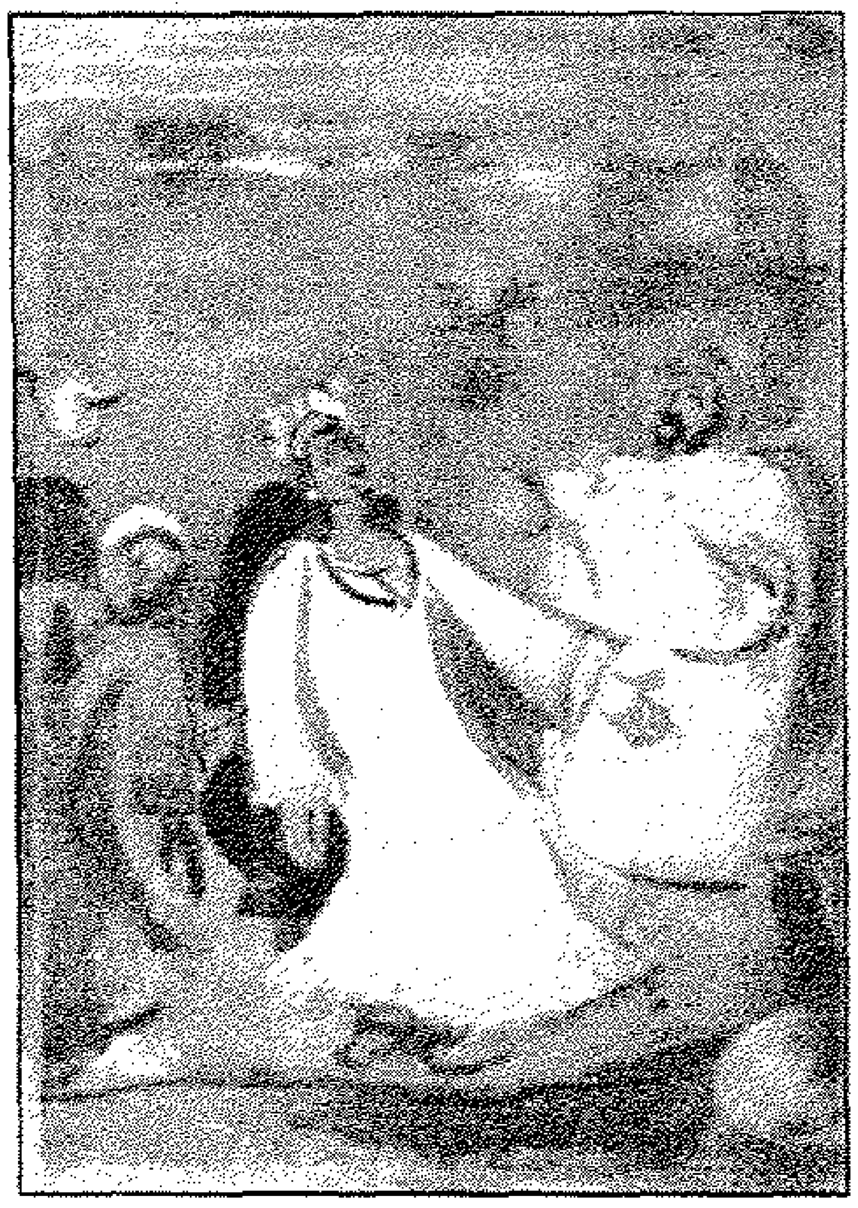
إن قراءة تلك الموالد قد تساهم فى اعتبار المدينة مكانًا مفعماً بالحيوية، مكانًا تسوده - إلى حد كبير - الروحانية والرمزية، ولكنه ملىء أيضا بحضور مادى وملموس للديكور والأجساد والأشياء. إن مواسم الموالد فى القاهرة هى مناطق وسيطة تتم فيها وتمارس الاتصالات بين الناس، بل أيضا بين الأشياء والمواقف. وبسبب تلك الحقيقة فمن المناسب أن يوجه المرء اهتمامه إلى الأماكن والأفراد وإلى الأشياء سواء كانت ثابتة أو مائلة. والأشياء فى تلك السياقات الحضرية الاحتفالية تكون فاعلة وتحرك الناس وتوفر المحفزات للنشاط. فعدد لا حصر له من المسابح تلتف حول المعاصم فى حركة لا تتوقف ويمسك الرجال والنساء بمقابض الأقداح بلا توقف لتقديم الشاى للأصدقاء والمارة، ويتعلق الأطفال المحمولون أو المترجلون بجوانب ملابس النساء أو أغطية رؤوسهن. وفيما يتعلق بكثافة الحشود، فإن التقارب المركز يكون أمرا مفروضا. ولكن المشاركين فى المولد يجمعون على زيادة تلك الكثافة بالتماسك فيما بينهم، الذراع بالذراع أو اليد باليد أو احتضان الأكتاف أثناء سيرهم فى جماعات من اثنين أو ثلاثة أو فى صفوف. هل الاتصال بالآخرين يقل أو ينخفض أو يزداد عندما يغوص المرء فى تلك الحشود من الجنسين؟ وهل يعد التشبث بذراع أحد أفراد العائلة أو صديق إشارة للآخرين ضد التوتر الذى يشعر به الفرد وسط الزحام؟ أو هل يعد ذلك محاولة متناقضة للهروب باستعراض الروابط لعدم الإحساس بالوحدة وسط حشد كبير من البشر الآخرين؟ أو هل تلك طريقة لدمج النفس فى هذا التجمع الجماعى للأجساد مع تأكيد الذات من خلال إيماءة مؤثرة ملموسة؟

تعد الموالد من اللحظات الهامة فى حياة الطرق الصوفية. فالطقوس المنتشية التى يمارسونها تزيد من تلاحم المريدين وتشجع الناس على الانضمام إليهم

تلك هى سنة الحياة!

إن زمن الاحتفال الرائع بالمولد هو فترة تتضاءل فيها السيطرة على العائلة والمجتمع وما يحيط بالمرء، ويطلق العنان للسلوكيات التى قد يعاقب عليها أو تختفى خارج سياق المولد. إن الاندماج والحشد والظروف الاستثنائية، كل ذلك يحقق درجة من المجهولية. إن مثل تلك اللحظات التى يميل المرء فيها إلى الاهتمام بشئونه تؤدى إلى تحولات فى السلوك. فكثير من الأفعال التى ترتكب علنا تبقى مجهولة أو يمكن التغاضى عنها: فهى تصبح مقبولة أثناء تلك اللحظات الخاطفة وضمن هذا الحيز المغلق الذى يعد مكانا مثاليا و- جدلا - ضروريا للانتهاك والاستثناء والتساهل تحت غطاء من الاحتفال الدينى. وهكذا يصبح من الممكن التحرش بالفتيات اللاتى يسرن بمفردهن فى تلك المناسبات، وهو فعل جرىء يحدث دون ملاحظة فى ظل ظروف مجهولة، وإن كان من الصعب ارتكابه فى مكان يمكن التعرف فيه عليهن. وينطبق ذلك أيضا على الاتصال الجسدى والرقص وتعاطى الكحوليات والمخدرات وارتداء الملابس المبهرجة والاستهزاء والسخرية من «ثوابت» مثل الزواج والطبقة الاجتماعية ورموز الدولة والهوية الجنسية المعتادة. وفى السيدة عائشة، ينظم الشباب المحليين موكبا لعربات اليد عصر آخر أيام المولد. وفوق تلك العربات يقومون بأداء مشاهد مختلفة يقلدون فيها جرسون المقهى وضابط الشرطة واللص ورجال يتنكرون فى ملابس النساء، ويحاكى بعضهم بطريقة ساخرة الزواج وصور موحية غير شرعية للاتصال الجنسى.

ويجب علينا فى جميع الأحوال أن ننوه إلى أن تلك الأنماط من التسلية ليست منهجية أو حاضرة فى جميع الموالد. فكل مولد له مزاجه الخاص. ومثل تلك الغرائب تتقرر فقط بمبادرات محلية ذاتية. ويعد المولد - كمناسبة للكشف عن المستور - لحظة هامة فى حياة الحى، حيث يفسح المجال للفرق الاجتماعية المختلفة للتعبير عن نفسها وتأكيد



ذاتها. إن الفتيان فى ملابس النساء وفى مختلف أنواع الأزياء - والذين يسيرون فى طابور عربات اليد - يمثلون بالتأكيد استفزازا. ويستولى جرسونات المقاهى (الحقيقيون) طوال طريق الموكب على حقوق الحديث حيث يمسكون بمكبرات الصوت ويطلقون التعليقات على الأزياء وعلى الاستعراض بالشارع مع الدعاية أيضا لأعمالهم. وإذا سلطنا الضوء على الأطفال نجدهم متقلبى المزاج ومدللين. وتأتى عائلات بكامل أفرادها للتنزه بينما تطلق الفتيات قدراتهن الإغوائية وينفقن بسخاء على تصفيف شعورهن ومستحضرات التجميل مركزين وكاشفين عن نقاط القوة لديهن.

وتعد الموالد من اللحظات الهامة فى حياة الطرق الصوفية. فالطقوس المنتشية التى يمارسونها تزيد من تلاحم المريدين وتشجع الناس على الانضمام إليهم. وتستغل الاحتفالات الكبرى - على مختلف المستويات - كندوات أو مجالس عامة. ومن الملحوظ تماما فى الخيام المتميزة المقامة فى الميدان نفسه وجود ممثلى الدولة وأعضاء المجلس الصوفى وكبار أعضاء الطرق الصوفية والشيوخ المؤثرين وذوى النفوذ.

محاصرة المولد

نظرا لعجزها عن منع تلك التجمعات - ناهيك عن تنظيمها - قد تلجأ السلطات لاستخدامها فى أغراض سياسية. ففى ديسمبر ١٩٩٤ جرى استغلال مولد السيدة زينب كقاعدة للحملة الانتخابية. وكان من أبرز خصائص هذا الاحتفال العدد الضخم والعرض السخى للأضواء والألعاب النارية المستمرة والتى ترجع إلى بذخ «فتحى سرور» عضو البرلمان عن تلك المنطقة. وقد كشفت صوره واللافتات باسمه فى الاحتفال بالمولد عن نيته للترشيح فى الانتخابات التشريعية المقبلة المزمع إجراؤها فى خريف ١٩٩٥. كما أكد ذلك على حضور الدولة وتواجدها فى الحى حيث أن «فتحى سرور» هو أيضا رئيس مجلس الشعب.

وفى صدام مع قوات الشرطة، قتل ثلاثة من الإسلاميين فى نفس حى السيدة زينب فى فبراير ١٩٩٤. ولكن صلات رجل السياسة وقاعدته السياسية فى السيدة زينب أمنت استمرار الاحتفال رغم إلحاح جهات أخرى من الدولة بوجوب إغلاق المنطقة. وبعد ذلك بعام (فى ديسمبر ١٩٩٥) جرت إقامة مولد أكثر روعة وإضاءة من أى وقت مضى، للتأكيد على نجاح «سرور» فى الانتخابات السابقة. ومن الأدلة الأخرى اللافتات الموالية التى تهنئ «سرور» والتى أقامها تجار ووجهاء المنطقة الذين جاملوا الحى بتمويل الإضاءة. ومن الواضح أن تلك الرعاية ترجمت إلى ارتفاع مكانتهم الشخصية وتحقيق الشهرة لهم ولأعمالهم. وباعتبار المولد حلقة وصل بين الأعياد العامة والخاصة فإنه لا يفيد فقط كثيرا من الشخصيات الرئيسية من خلال الاتصالات التفاعلية، وإنما يوفر لهم أيضا مكاسب محتملة ودرجة من الحماية تضمن أحيانا - إن لم يكن دوما - استمرار الاحتفال الشعبى.

بعد قمع الاحتجاجات واسعة النطاق فى القاهرة ضد الغزو الأمريكى للعراق فى ربيع عام ٢٠٠٣، مارست الحكومة درجة عالية جدا من السيطرة على الميدان الكبير أمام مسجد الحسين. وقامت قوات الشرطة باحتلال الميدان بصفة دائمة. وأثناء الاحتفال بالمولد التالى (يونيو ٢٠٠٣) تمت مصادرة المساحة العامة المفتوحة الكبيرة أمام المسجد. ولم يسمح بدخول خيمة واحدة أو أى لعبة أو عربة يد أو تخصيص باحة لمطعم أو مقهى. ولم يتمكن أحد من البقاء داخل المكان للراحة أو الصلاة، ولكن كان يسمح فقط بالمرور المباشر. وبسبب إغلاق المساحة المفتوحة الكبيرة لميدان الحسين والتى تعودت معظم الطوائف على التجمع فيها، كان على المولد أن يتمدد ويتلوى خلال الشوارع والأزقة، لقد تبعثر المولد ولكنه لم يختف.

وقد أضفى هذا الإخلاء من المركز إلى المناطق المحيطة، ومن الفسيح إلى المحصور، أضفى على المولد مناخا أكثر تشوشا وأقل اتساقا. لقد بدا وكأن المولد قد تهدم. وبعد إقصائها إلى الأزقة المزينة أصبحت مقار الجماعات الصوفية غير مرئية تقريبا. ولكنهم جاهروا بوجودهم من خلال توصيل صوتهم باستخدام مكبرات الصوت الموجهة ناحية الميدان. وطوال فترة المولد لم تتوقف قوات حفظ النظام المكونة من حوالى عشرين شرطيا موجودين باستمرار فى طوق أمنى دائم عن ردع كل من يحاول الجلوس أو يستند إلى الأسوار الحديدية للميدان. وبعد الظهر كانت عربة مياه تقوم برش الأرصفة الحارة لمنع الناس من الجلوس. وعلى نفس المنوال منعت الشرطة الناس من إيقاف سياراتهم هناك. وكانت تتم مصادرة الطاولات والكراسى والمفارش والأطباق من المقاهى والمطاعم التى تستخدمها بالمخالفة للقواعد الجديدة، ويلقى كل ما يتم مصادرته فى سيارات نقل. وكان على مالكى تلك الأشياء دفع غرامة مالية لاستردادها. ومع ذلك، فكل يوم مع تقدم الليل تدريجيا واقتراب المولد من الليلة الأخيرة، أصبح من الأصعب تطبيق تلك القيود والإجراءات القهرية وأصبحت أقل حزما. وعلى الرغم من تعزيزات الشرطة تمكن الناس فى الليلة الأخيرة من التغلب على الحظر، باستثناء الحظر على الدخول إلى مركز الميدان أثناء الصلاة والذى قام نطاق من قوات الشرطة بالمحافظة عليه.

وبحلول موعد آذان العشاء يوم الجمعة السابق على الليلة الأخيرة لمولد الحسين (١٩ يونيو ٢٠٠٣) كان المسجد قد امتلأ تماما. واستقرت الحشود الزائدة أمام المدخل الجنوبى بجانب المسجد.

بعد قمع الاحتجاجات فى القاهرة ضد الغزو الأمريكى للعراق عام ٢٠٠٣، مارست الحكومة درجة عالية من السيطرة على الميدان أمام مسجد الحسين. وقامت قوات الشرطة باحتلال الميدان بصفة دائمة

وقد دفع ضيق المكان بعض الرجال لتسلق الأسوار الحديدية للميدان وخلع أحذيتهم للانتظام فى الصلاة فوق النجيل. وقامت زمرة رجال الشرطة بإيقاف المجموعة الأولى من الرجال الذين قاموا بتلك المحاولة. وقد حاولوا دفعهم للعودة، ثم استسلموا فى النهاية بعد أن لاحظوا الأعداد الغفيرة للواصلين للمكان. وتشكلت سريعا صفوف عديدة من المصلين. بل انضم إليهم بعض رجال الشرطة لأداء الصلاة التى أقيمت فى النهاية فى الميدان العام الذى امتلأ عن آخره رغم أن الدولة أمرت بإغلاقه وإخلائه. وبعد أداء الصلاة غادر الجميع باستثناء رجال الشرطة. وقد تكرر نفس المشهد فى الأيام التالية حتى الليلة الأخيرة.

توفر الموالد الكبيرة المكان اللازم لالتقاء الريفيين والحضريين والقرويين والقاهريين والجماعات الأخرى حول اهتماماتهم التى تزيد من تلاحمهم وتؤكد هوية الطوائف الاجتماعية الموجودة. كما أنها تساعد فى توفير المناخ المناسب لتأكيد الشعور بالانتماء لطبقات تلك الجماعات (الطرق الصوفية، والقرية، وأحياء القاهرة، وشبكات الأعمال، وغير ذلك)، وكذلك توفير الفرصة لتجميد معايير السيطرة الاجتماعية وتخليد شعائر الصداقة المكانية الروحانية. وتعد الموالد فترات ضرورية للفرد والمجتمع. كما أن المولد هو مكان وزمان يتيح فرص لا حدود لها للشفاعة الروحانية (أو المدد) والتعبير عن آمال ورغبات وأمنيات جديدة. ومن المفترض مسبقا أن النبى (عليه الصلاة والسلام) يكون موجودا ويشار إلى معجزاته المختلفة. وبخلاف الكثير من الأحداث المتكررة والتى يتميز تاريخها بالحنين الشديد، ينظر للموالد من قبل المشاركين فيها باعتبارها خالدة ودائمة ولا يمكن مقارنتها بسواها. وهكذا فإن المولد - بالتحديد - ناجح دائما ويتم تقييمه عامة وعلى الدوام باعتباره «كان جيدا جدا هذا العام كما هو دائما».

هل ستتمكن جماهير موالد القاهرة - مثل السائرين على الحبال فى الملاهى - من التغلب على موجات القمع الجديدة وتدخلات الشرطة؟ إن إصرار الطبقات الشعبية على استمرار الموالد واهتمامهم المتزايد بقوة الاحتفال والصلاة ومرونتهم فى التوافق مع المستجدات يقدم دليلا على استحالة كبت الموالد تماما.



النساجون الشرقيون
Oriental Weavers
مجموعة النساجون الشرقيون أكبر
صناع السجاد بالعالم
نحن مجموعة متطورة ونشطة فى نظام صناعى متكامل فى صناعة
السجاد والموكيت وأنتاج الخامات اللازمة لهذة الصناعة ولا تقتصر مواقع
الأنتاج على مصر بل تمتد الى امريكا والصين وانجلترا واستراليا
بالاضافة الى شركات التسويق و التجارة الدولية التى تغطى العالم
Corporate Office : 8 El Shaheed Zakaria Khalil Street, Heliopolis, Cairo, Egypt
tel. : 02 - 2672121 fax : 02 - 2672241 e-mail owc@orientalweavers.com

قدري حفني

في الصراع العربي الإسرائيلي أين يقف فرويد؟

أشرت في تقديمي لأطروحتي للحصول على الدكتوراه في علم النفس في مطلع عام ١٩٧٤ إلى أن اهتمامي بمعرفة إسرائيل كان نتيجة مباشرة لهزيمتنا في يونيو ١٩٦٧، إذ قررت بوضوح في أول سطور التقديم، وتحت عنوان إقرار بالفضل واعتراف بالتقصير.

«بدأ اهتمامي بموضوع هذه الدراسة أثر هزيمة يونيو سنة ألف وتسعمائة وسبع وستين، أي بعد أن مضى على قيام الكيان الإسرائيلي ما يقرب من ربع القرن. وتلك نقيصة لا يخفف إقراري بها من إحساس بوطأتها. ولا يجدي أي تبرير قد أصطنعه لها في التقليل من مسئوليتي عنها. وكل ما آمله هو أن يسهم اعترافي بها في الحيلولة بيني وبين التقاعس من جديد، وفي دفع غيري من أبناء جيلي نحو المحاولة في هذا المجال، وفي تعويض جيل الباحثين والدارسين الجدد من وصمة التقاعس عن دراسة العدو».

ولم أكن وحدي من بين المشتغلين العرب بالعلوم النفسية الذي دفعته هزيمة يونيو إلى إعمال تخصصه العلمي في محاولة فهم ما جرى. وسوف أشير في هذا السياق إلى نموذجين فحسب من المحللين النفسيين المصريين، مصطفى زيور، وصبري جرجس.

أما الأول مصطفى زيور فقد كان وظل محللا نفسيا فرويديا أرثوذكسيا حتى النهاية، ورغم أن المحللين النفسيين في العالم الغربي بحكم صهيونية غالبيتهم وقفوا بعلمهم إلى جانب نشأة إسرائيل الدولة، ودافعوا بقدر ما وسعهم الجهد عن مبررات تلك النشأة، وكان طبيعياً والأمر كذلك أن يجد المتأمل في سير حياة العديد من أقطاب حركة التحليل النفسي أن الخيوط متداخلة متشابكة بين ممارستهم العملية للنشاط الصهيوني والتحليل النفسي. ورغم ذلك فقد اختلفت توجهات مصطفى زيور رائد مدرسة التحليل النفسي في مصر عن نظيرتها في بلدان العالم الغربي من حيث الموقف من قضية الاستعمار الصهيوني لفلسطين.

مصطفى زيور

لم يكن قد مضى وقت طويل على كارثة ١٩٦٧. كانت مصر مازالت تلملم جراحها، ومازال السؤال ملحاً: كيف حدث ما حدث؟ ولماذا؟. في تلك الحقبة المبكرة من معاناة الوطن، نشر مصطفى زيور في أغسطس ١٩٦٨ مقالاً ضافياً عن الشخصية الإسرائيلية. اختتم زيور مقاله بدعوة وجهها إلى شباب علماء النفس العرب «أن ينهضوا إلى مستوى المسئولية. إن عليهم واجباً وطنياً وقومياً، وأمامهم رسالة علمية لا بد أن يضطلعوا إليها، وهي إسهامهم في إجراء البحوث السيكولوجية المتصلة بقضية المصير العربي». ولعله من المناسب أن نطل معاً إطلالة موجزة على أهم ملامح رؤيته لطبيعة الصراع العربي الإسرائيلي، مقتصرين على ملامح ثلاثة:

الملمح الأول: أن مصطفى زيور يختلف اختلافاً قاطعاً مع تعاطف غالبية المحللين النفسيين مع التجربة الصهيونية. فيشير في مقاله إلى ما انتهى إليه الطبيب النفسي اليهودي منكوفسكي من أن الكثير من الأطفال اليهود الذين أدت خبرة القهر النازي التي عاشوها مع ذويهم في معتقل بوخنفالد الشهير إلى العديد من مظاهر الاضطراب النفسي، قد استطاعوا أن يستعيدوا بعض الاتزان حين انتقلوا للعيش في إسرائيل. ويقف زيور ببصيرة المحلل النفسي الفرويدي، وبحس العربي الوطني ليقرر «إن الاتزان الذي تحدث عنه منكوفسكي لا يعدو أن يكون تنظيماً للتوحد بالمعتدي في المجتمع الإسرائيلي في مواجهة العرب، أي أن التوحد بالمعتدي أصبح شيئاً مشروعاً، بل مطلوباً مستحسناً لدى المواطن الإسرائيلي».

الملمح الثاني: حرص زيور على ألا ينزلق إلى منزلق مازال يغري الكثيرين من المشتغلين بعلم النفس من حيث النظر إلى الصراع العربي الإسرائيلي باعتباره صراعا نفسياً فحسب، محدداً بدقة دور العوامل النفسية في هذا المجال. يقول زيور: «وغني عن البيان أنني أطرح هذا السؤال في نطاق علم النفس وحده، أي أنني أبحث عن الدوافع النفسية وراء هذه الظاهرة وهذا لا يعني أنني لا أريد أن أقيم وزناً للعوامل غير النفسية (السياسية - الاقتصادية - الإمبريالية) التي ساهمت في انبثاق هذه الظاهرة».

الملمح الثالث: استطاع زيور بحدسه النادر أن يكتشف، ونحن مازلنا نلعق جراح الهزيمة، أمراً ما زال الكثيرون منا يجدون غضاضة في تقبله فضلاً عن التعبير عنه، إنه حرص أصحاب القرار في إسرائيل على استمرار مناخ الحرب، ونفورهم من الدعوة للسلام. يقول زيور «إن الحرب الفعلية لا تترك للفرد الإسرائيلي فرصة مواجهة نفسه، تلك المواجهة التي يخشى أن تفضح هويته المستعارة».

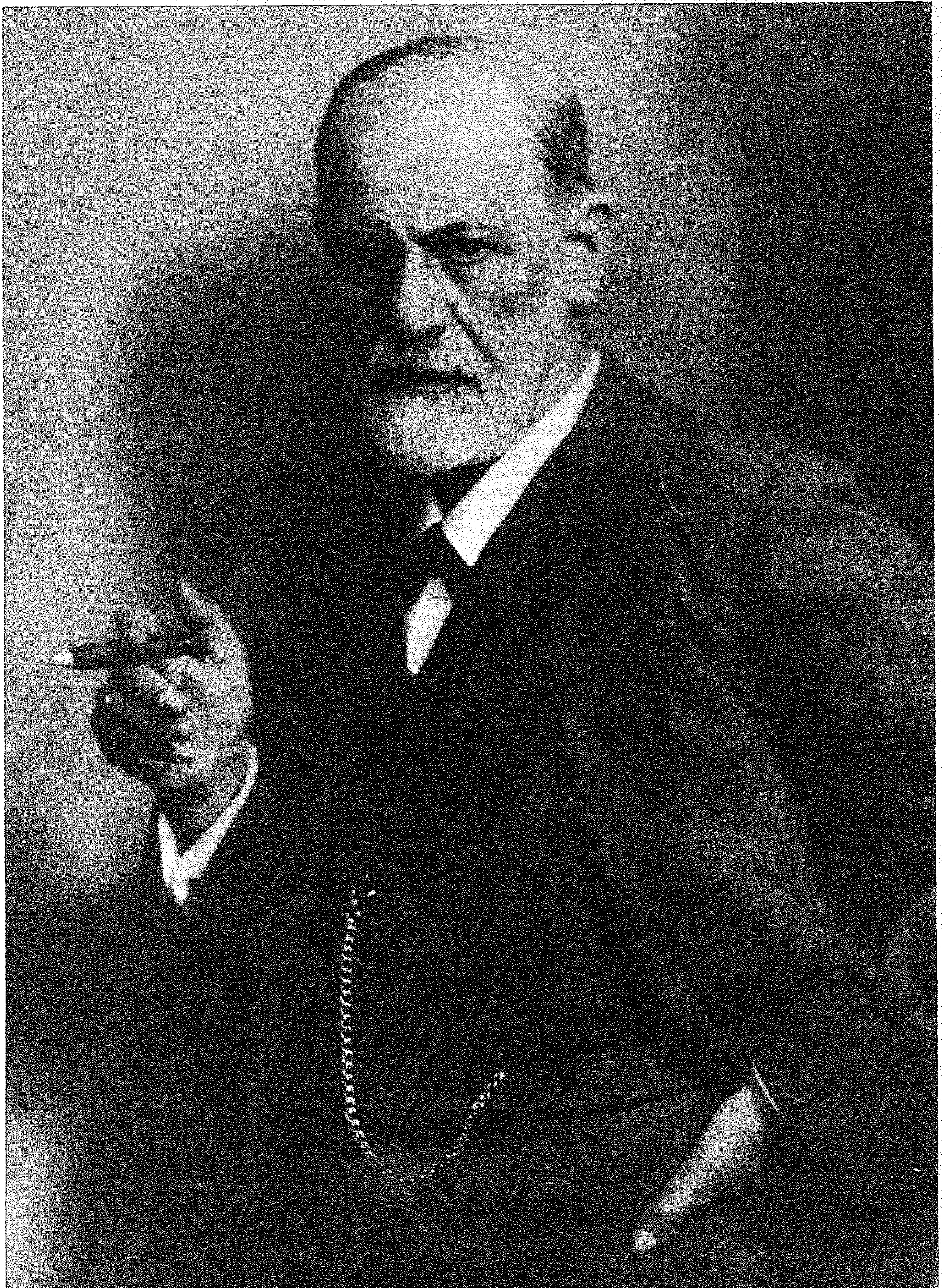
كانت تلك هي استجابة زيور لكارثة يونيو. دفعته إلى الاختلاف اختلافا جذريا مع توجهات مجمل المحللين النفسيين الغربيين، ولكنها لم تدفعه إلى خلع رداء التحليل النفسي، أو حتى إدانته سياسيا.

صبري جرجس

والنموذج الثاني الذي اخترناه لتسليط الضوء عليه هو صبري جرجس. في أبريل ١٩٦٩ انتهى صبري جرجس من إعداد كتابه المعنون «التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي: أضواء على الأصول الصهيونية لفكر سيجموند فرويد»، ورغم أن الكتاب يحمل تاريخ نشر ١٩٧٠، إلا أنه كان متاحا بالفعل في أواخر ١٩٦٩، وقد قام عبد الجليل حسن بتقديم عرض نقدي للكتاب في العدد الصادر في أكتوبر ١٩٦٩ من مجلة الكاتب المصرية، ولم يلبث صبري جرجس أن علق على ذلك العرض النقدي، وبادر عبد الجليل حسن بكتابة تعقيب نهائي يجمل ما دار حوله الحوار اختار له عنوانا «الصهيونية وليس فرويد»(١) ولعل إيراد النص الكامل لذلك التعقيب يجسد ما أثارته تلك القضية من جدل بين المثقفين المصريين آنذاك. يقول عبدالجليل حسن:

«قبل أي شيء آخر أود أن أشكر الدكتور صبري جرجس على اهتمامه بالرد على ما كتب عن كتابه الهام «التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي» في العدد الأسبق. وأشهد أنه كان بارعاً في رده وفي عرض وجهة نظره وموضوعياً في مناقشته الهادئة، ولا يسعني إلا أن أخجل من عبارات الثناء التي وجهها إلي - لطفاً منه وفضلاً. والمهم أن هذا الرد المستفيض قد أتاح للقارئ العربي فرصة ثمينة لتوضيح الخطوات الفكرية والمسيرة الشخصية التي رافقت هذه الدراسة. وأني أدرك - بتعاطف شديد - أن فكرة الكتاب لم تنبثق في سهولة ويسر، فقد ظلت ميول هذا الطبيب النفسي البارز الذهنية والوجدانية لسنوات طويلة مع التحليل النفسي، وبعد تردد وصراع داخلي حاد، دعاه الواجب العلمي والقومي إلى إخراج هذه الدراسة الجادة. وهذا الموقف الشجاع من المؤلف من موقع علمي ووطني جدير بالتقدير بل والإشادة. والمقال الذي كتبه في العدد الماضي بمثابة وثيقة مكملة للكتاب ولا غنى له عنها.

وأني أؤكد لعالمنا النفسي اللامع أن ذلك ليس رداً على رده بقدر ما هو محاولة لاستيضاح بعض النقاط التي أراها هامة بل بالغة الأهمية. والدكتور الفاضل يعرف قبل أي باحث آخر أن كتابه لابد أن يثير الجدل والنقاش والخلاف الطويل. وهناك الكثير جداً الذي نتفق حوله بل أني أوافقه تماماً على كل ما قاله فيما يتصل بخشية إثارة شبهة معاداة السامية. ولكن تبقى بعض القضايا العامة والتفصيلية التي ينبغي التعرض لها حتى يمكن حسمها أو توضيحها على الأقل، مثل القضية التي سماها الأستاذ المؤلف بالتوجيه الحضاري للتحليل النفسي والفكر الفرويدي وهي نظرة تقييمية أساساً ولكنها مع هذا قضية هامة ينبغي للمشتغلين بالتحليل النفسي الفرويدي عندنا والذين يدرسونه ويعلمونه صباح مساء وينشئون له الأقسام بالكليات مناقشتها لأنه مسألة تعنيهم أساساً ويترتب عليها مواقف عملية من التحليل النفسي دراسة وتدريساً. فهذا عالم نفسي كبير من جلة علمائنا يدين التحليل النفسي الفرويدي بأدلة لا يستهان بها ولا





يمكن مواجهة خبرته ودراسته هذه بالصمت. وعلى كل فليس يعنينا بحال من الأحوال التعرض لمثل هذه القضية أو الدفاع عن فرويد كما سبق أن قلت فى العدد الأسبق.

ولكن القضية التى أريد طرحها والتى أرجو أن نصل إلى اتفاق حولها، ليقينى بأهميتها واتصالها أساساً بتحديد وتوضيح موقفنا من الصراع المصيرى الطويل، هى قضية تمحيص دعوى الصهيونية وزعمها العلاقة العضوية بينها وبين الديانة اليهودية والتراث اليهودى. ولكى أوضح هذه القضية فيمكننا أن نصوغها فى السؤال التالى: هل الصهيونية هى التعبير السياسى الحديث عن الديانة اليهودية؟ وبعبارة أخرى، هل الصهيونية هى الصيغة السياسية «القومية» للديانة اليهودية والتراث اليهودى؟

تحرير اليهودية والأفراد اليهود فى الدول الأخرى من الصهيونية الآن لا يمكن أن يتم إلا بتحريرهم من «دولة» إسرائيل وتصفية هذا الكيان الصهيونى، مصدر العدوان المستمر علينا

من الواضح أن هذه القضية مازالت غير واضحة بشكل كاف. فنحن نتصور أننا نجيب بالنفى عن هذا التساؤل حين نفرق بين الدين اليهودى واليهود وبين الصهيونية والصهيونيين غير أن هذا لا يكفى، فليست هذه التفرقة دليلاً على أننا نجيب بالنفى لأننا ننقضها حين نسلم ونناقش ونؤمن بأن «شواهد التاريخ اليهودى كله والفكرة الصهيونية منذ نشأت عقب الغزو البابلى فى القرن السادس قبل الميلاد تشير إلى أنه ليس من الحكمة والاستهانة بالأساس الدينى للصهيونية واستبعاده لمجرد رغبتنا فى تجنب الخلط بين الاثنين.

وأن العديد من الأبحاث والدراسات فى العالم العربى (راجع مثلاً كثيراً من الكتب التى يصدرها معهد الدراسات العربية تلجأ عند دراسة الصهيونية إلى دراسة التاريخ اليهودى منذ الغزو البابلى وقبله وتدرس ما تسميه الجانب التوراتى والتلمودى الصهيونية. وبذلك فإن هذه الدراسات جميعاً التى تتحدث عن أصول الصهيونية فى الدين اليهودى، واليهود فى التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، وكما يصورهم التلمود... إلخ تحمل إجابة ضمنية أو صريحة بالإيجاب على السؤال الذى ذكرناه، وهى إجابة خاطئة ولا تخدم قضيتنا. وهذه الدراسات جميعاً وبلا استثناء تستهدف غاية ونية طيبة وتحاول الكشف عن سيئات هذا التاريخ وما حفل به من ألوان الغدر والالتواء والنفاق والعنف والدموية، إلا أنها جميعاً أيضاً فى نهاية الأمر تجيب على السؤال الذى وضعناه بالإيجاب بل وتؤكد هذا الجواب، وهى بذلك تؤيد - عن غير قصد طبعاً - وجود علاقة تاريخية طويلة، من التلاحم العضوى الوثيق بين الصهيونية وبين الدين اليهودى والتراث اليهودى أو بعض عقائده الرئيسية على الأقل. ويترتب على هذا بشكل ضمنى الاعتراف بدعوى الصهيونية أنها «التعبير السياسى الحديث» عن الديانة اليهودية. فالديانة كانت حجتها الظاهرة وصيحتها العالية لتجميع اليهود وإقامة «دولة» يهودية على أرضنا واغتصاب فلسطين بالذات واستيطانها بوهم أنها أرض الميعاد، وأن هناك «وحدة تاريخية طويلة» تجمع يهود العالم أى أنها حولت هذه الديانة إلى قومية .. ولذا فإننا عندما ننساق فى التأكيد على مناقشة أصول الصهيونية فى الديانة اليهودية وتراثها نبدو كما لو كنا نسلم - ضمنا - بادعاء الصهيونية نفسها بأنها هى (التعبير السياسى الحديث والوحيد) عن اليهودية وعن الأفراد المنتشرين فى العالم الذين يدينون بهذا الدين، والذين تسميهم بالشعب اليهودى أو الأمة اليهودية، وبذلك تساهم فى عدم التشديد على الحقيقة الجوهرية التى ينبغى التأكيد عليها فى كل أعلامنا وفى موقفنا إزاء عدونا وهى أن الصهيونية حركة سياسية استعمارية استيطانية حديثة لا علاقة لها حقيقة، قوية أو غير قوية، بما يسمى بالحنين اليهودى التاريخى لأرض الميعاد، فهى حركة حديثة اصطنعت قومية واستغلت الديانة اليهودية للتوصل إلى هدف استعمارى محدد فى فلسطين. وأن الإجابة بالإيجاب التى تحملها مثل هذه الدراسات التى أشرنا إليها إنما تلقى شيئاً من الضباب وعدم وضوح الرؤية على التصور والتصوير الصحيح للصهيونية وطبيعتها الاستعمارية وبالتالى على طابع معركتنا التحريرية لأرضنا فى فلسطين .. فالصهيونية «حركة سياسية» وليدة الربع الأخير من القرن التاسع عشر وتحمل طابعه الاستعمارى وتعبر عنه، وهى صيغة خاصة من صيغ السياسة الاستعمارية لهذه الحقبة، وتلك هى الحقيقة التى لا يمكن إغفال إبرازها بحال من الأحوال وهى نقطة المقتل فى الحركة الصهيونية.

والبحث فى أصول الصهيونية هام جداً وحيوى للغاية ومطلوب باستمرار، ولكن لا ينبغى التماسه فى تاريخ الديانة اليهودية أو التراث اليهودى - التوراتى أو التلمودى أو السرى أو الباطنى أو التصوفى (ولا يعنى هذا ألا تدرس بكل استفاضة مثل هذا التراث دراسة علمية) وإنما يلتمس فقط فى منشئها القريب وظروف القرن التاسع عشر السياسية، وسياسته الاستعمارية على التحديد، تلك السياسة التى لجأت إلى كل أساليب استغلال التفتيت والتفرقة الطائفية واستخدام النزاعات الدينية ولجأت أيضاً كنظير للطائفية ومقابل لها إلى أسلوب التجميع واستغلال ما كان يسمى (بالمسألة اليهودية). فكما حاول الاستعمار الأوروبى أن يستغل الطائفية والتفرقة الدينية فى الهند وفى العالم العربى لتحقيق أغراضه فى السيطرة، نجح كذلك فى استغلال المسألة اليهودية فى تجميع اليهود. وقد وفرت له الدعوة الصهيونية الزعامة والباعث - من داخل «الجيتو الصغير» فى حوارى المدن الأوروبية ودفعهم إلى «الجيتو العدوانى الكبير» فى العالم العربى فوق أرض فلسطين ليشكلوا، كما قال هرتزل نفسه» جزءاً من السد الأوروبى بوجه آسيا ومركزاً طليعياً للمدنية فى وجه البربرية. وعندما كان هرتزل يتحدث على هذا النحو لم يكن يتبنى لغة الاستعمار فى القرن التاسع عشر فقط - كما كتب أورى أفنيرى الصهيونى عضو الكنيست الإسرائيلى (راجع مقاله فى كتاب من الفكر الصهيونى المعاصر - سلسلة كتب فلسطينية - ص ٣٤١) - ولكن الاستعمار كان قد تبناه والتحم بهذه الدعوة التحاماً عضوياً وثيقاً. فالصهيونية تاريخياً ولدت فى القارة الأوروبية «وانحدرت من يقظة القوميات، وكانت مظهراً من مظاهر الاستعمار الغربى فى نزعه الأخير» على حد تعبير أفنيرى نفسه، ولكنه كصهيونى يجعل الصهيونية «مظهراً ثانوياً» لهذا الاستعمار ويزعم أنها بدأت كحركة بعث قومى واجتماعى يهودى. فالصهيونية تقدم بالنسبة للتاريخ الاستعمارى نموذجاً فريداً لسياسة استغلال الدين، وقد كتب الكثير عن سياسة استغلال الاستعمار الغربى للطائفية ولكن لم يلتفت بما فيه الكفاية للوجه المقابل لهذه السياسة أعنى تجميع أصحاب الدين الواحد لخدمة أغراضه أيضاً. ومن هنا كان تبنيه دعوى الصهيونية (الدينية) وتحويلها إلى (قومية سياسية) يهودية ثم رسم مخطط مدروس لزرعها فى الأرض العربية فى فلسطين تحت ستار أرض الميعاد. فالتلاحم الحقيقى والرئيسى اذن ليس بين الصهيونية والديانة اليهودية ولكنه بين الصهيونية والاستعمار الغربى وكان التدشين الرسمى لهذا التلاحم فى إعلان وعد بلفور أما المظهر الثانوى هنا فهو تعبير الصهيونية عن اليهودية والتراث اليهودى، فلم تكن هى تعبيراً عنه بقدر ما كانت استغلالاً له فقط باعتبارها حركة فاشية رجعية فى مضمونها واستعمارية استيطانية توسعية فى طبيعتها وهدفها وإمبريالية فى ارتباطها ومنشئها واستمرار

وجودها. ومن هنا تتحدد بالقطع أيديولوجية المواجهة العربية وهى أيديولوجية حركات التحرير الوطنية المسلحة.

وقد يحسن هنا أن نشير إلى الاتجاه اليهودى الذى يناوئ الصهيونية ويرفض أن تكون تعبيراً عن اليهودية ويرى أن اليهودية دين وليست قومية. ويمثل هذا الاتجاه المجلس الأمريكى اليهودى، ويتزعم هذه الدعوة الحاخام المريرجر صاحب كتاب «اليهود دين لا قومية»، وهؤلاء وغيرهم من اليهود الذين يعارضون الصهيونية يتمسكون بمساواتهم فى الحقوق شأنهم شأن سائر المواطنين فى دولهم وأن اليهودية دين لا علاقة لها بالسياسة ... ولا يخدعنا من هذا المجلس مناوئته للصهيونية فهو يعارضها على أساس دينى ومصلحة محلية لليهود الأمريكان ولا يخفى هذا المجلس نشاطه فى مساعدة إسرائيل فى كل بياناته، ولم يعارض هذا المجلس قط وجود دولة إسرائيل وهو فقط ينظر على إسرائيل كدولة أجنبية ويتعاطف معها وهو يسعى إلى أن تكون دولة إسرائيل جزءاً من الشرق الأوسط ! وكل ما يعمل له هو الدعوة إلى الانفصال بين إسرائيل واليهود الذين يعتبرون مواطنين فى دول أخرى .. فالمشكلة الصهيونية أذن لا تكفى مناوءتها ومعارضتها حتى من جانب اليهود ولا يبحث عن أصولها من جانبنا فى الدين اليهودى وإنما توضع أساساً فى إطارها الاستعمارى، وتحرير اليهودية والأفراد اليهود فى الدول الأخرى من الصهيونية الآن لا يمكن أن يتم إلا بتحريرهم من «دولة» إسرائيل وتصفيه هذا الكيان الصهيونى، مصدر العدوان المستمر علينا، ومظنة الضمان من الاضطهاد بالنسبة لليهود التى تمنعهم من الاندماج فى المجتمعات التى يعيشون فيها كمواطنين عاديين وتظل تعزلهم فى مجتمعاتهم.

وأما القضية الثانية التى تتصل فعلاً ومباشرة بدراسة الدكتور صبرى جرجس الطريفة وهدفها المحورى فهى قضية العلاقة بين الصهيونية وفكر سيجموند فرويد ويمكن صياغتها فى هذا السؤال: هل الفكر الفرويدى تعبير عن التراث اليهودى؟ وبعبارة أخرى هل كان التحليل النفسى الفرويدى هو الصيغة النفسية للتراث اليهودى الصهيونى؟ ... فإننى لا أرغب فى معالجة هذه القضية الآن، لأن البحث فى أصول التحليل النفسى ورده إلى مصادره سواء فى التراث اليهودى أو بالأحرى فى التراث الغنوصى الباطنى الشائع فى مختلف الأديان وربط ذلك بالأفق الحضارى للنظريات «العلمية» مسألة اكتفى فقط بإثارتها وبما أشرت إليه من رأى سابق حولها وأن ذلك ليس خاصاً بهذا التراث وحده دون غيره ولن نتوسع فى هذه النقطة.

ولم أكن بعيدا عما يجرى من جدل فكرى صاخب بهذا الشأن، فحاولت من قبل يونيو ١٩٦٧ أن أناقش تصدى التحليل النفسى للعديد من القضايا الثقافية والحضارية العامة، وبلورت رؤيتى لطبيعة العلاقة بين التحليل النفسى والصهيونية فى مقال نشر فى مجلة شئون فلسطينية فى مايو ١٩٨٩ بعنوان «سيجموند فرويد والصهيونية»، وبعد مضى ما يزيد على عشرة أعوام أعدت طرح الفكرة بشكل أكثر تفصيلاً فى فصل بعنوان «فرويد بين العلم والصهيونية» ضمن فصول كتاب «لمحات من تاريخ علم النفس» الذى أصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠٠٠. كانت الوثائق والكتابات المتوافرة آنذاك ترجح بوضوح أن فرويد ينتمى إلى الفكر الصهيونى ويتعاطف مع المنظمات الصهيونية القائمة فى ذلك الوقت.

كنت أظن بعد أن انتهيت إلى ما انتهيت إليه فى كتاباتى السابقة أننى قد أغلقت ذلك الملف بالنسبة لى بعد أن قلت ما لدى معتمدا على ما أتيح لى من وثائق وكتابات آنذاك، ومضت السنوات فإذا بالجديد من الوثائق المحجوبة يزاح عنها الستار لتضيف إلى الصورة العديد من التفاصيل التى تضعها فى إطار جديد تماما. لقد كان فرويد منتميا بالفعل لفكر صهيونى بل ومتعاطفا مع تيار صهيونى بعينه، ولكنه لم يكن التيار الصهيونى «المنتصر» الذى أقام دولة إسرائيل التى نعرفها. كان تيارا صهيونيا آخر سرعان ما تلاشى بعد اغتيال أبرز قادته.

ليس أصعب على الكاتب من إعادة فتح ملف انتهى منه خاصة إذا كان ما سيضيفه إلى ذلك الملف يتناقض بدرجة أو بأخرى مع ما سبق أن خلص إليه. ولكن لم يكن بد من المراجعة، خاصة إذا كان الرجوع إلى الحق لا يعنى إنكار الماضى أو التنكر له.

نظرة جديدة: فرويد مازال يتحدث

كنت أتجول كعادتى خلال أبريل ٢٠٠٣ بين مواقع شبكة الإنترنت، ومررت عابرا على موقع شهير من مواقع الشبكة يحمل اسم «متحف فرويد»، ولم أكن أتوقع جديدا. صحيح أن وفاة فرويد فى سبتمبر ١٩٣٩ لم تكن نهاية للتحليل النفسى، ولا حتى بداية لذبوله. لقد ظل التحليل النفسى حتى اليوم قائماً متطوراً سواء على مستوى النظرية أو الممارسة أو حتى التنظيم، وفى المقابل ظل النقد للتحليل النفسى مستمرا. كل ذلك صحيح بل وقد لا يستوقف النظر. ولكن الجديد، وهو ما شدنى للتوقف أمام ذلك الموقع هو أن يتردد صوت فرويد بعد مضى ستون عاما على وفاته معلقاً على أحداث جارية مثل الانتفاضة الفلسطينية وحرب الصحراء واستشهاد الطفل الفلسطينى محمد الدرة والعمليات الاستشهادية وما إلى ذلك.

يحتل متحف فرويد -الذى يحمل الموقع اسمه- ذلك المنزل الذى كان يقيم فيه فرويد وعائلته حين فروا من ملاحقة النازى لهم إثر احتلال النمسا عام ١٩٣٨. تلك الملاحقة التى أدت إلى مقتل إخوة فرويد الأربعة الأكبر منه فى معسكرات الإبادة النازية.

و ظل المنزل مقرا لإقامة فرويد وممارسته للتحليل النفسى حتى وفاته عن ٨٧ عاماً فى ١٩٣٩/٩/٢٣، واستمر المنزل مقرا لإقامة أسرة فرويد حتى عام ١٩٨٢ حين توفيت صغرى بناته وهى المحللة النفسية الشهيرة أنا فرويد بعد أن عاشت فى المنزل ٤٤ عاما بعد وفاة والدها، وأوصت بأن يتحول بعد وفاتها إلى متحف يختص بتجميع كل ما يتعلق بحياة فرويد من مقتنيات ووثائق ومخطوطات. ويكفى لتصور حجم تلك الوثائق والمخطوطات أن نشير إلى أن عدد الخطابات المتبادلة بين فرويد وآخرين والتى يضمها أرشيف المتحف تتجاوز ٦٠٠٠ خطاباً.

و تحول المنزل بالفعل إلى متحف تولت اريكا دافيز Erica Davis مهمة إدارته، وتولى ميشيل مولنار Michael Molnar مسئولية الأرشيف، كما تولى المحلل النفسى البريطانى ايفان وارد Ivan Ward إدارة قسم التعليم بالمتحف. وأنشأ وارد ضمن المواقع التى يضمها قسم التعليم موقعاً يحمل اسم «فرويد اليوم: وجهات نظر شخصية»، ويعرف ايفان وارد ذلك الموقع الذى بدأ ممارسة نشاطه منذ نوفمبر ٢٠٠٠ بقوله: «سوف يحتوى ذلك القسم من موقع المتحف على الشبكة مواد تتعلق بما يجرى فى العالم من أحداث قد تبدو خطيرة أو تافهة. وسوف تتضمن تلك المواد أيضاً بعض فقرات من السير الذاتية. وسوف يكشف ذلك كيف كان يمكن لفرويد شخصيا أو لأسلوب التحليل النفسى فى التفكير أن ينظر إلى المواقف اليومية والأحداث المعاصرة. وبذلك فإن ما يحتويه الموقع لا يعبر بحال عن أى موقف رسمى لمتحف فرويد. وكافة المواد المطروحة قد قام بكتابتها ايفان وارد مدير قسم التعليم بالمتحف، إلا إذا تمت الإشارة إلى غير ذلك. والقراء مدعوون للإسهام بتعقيباتهم الموجزة التى تربط بين أفكار فرويد والقضايا الاجتماعية المعاصرة، أو أية أمور أخرى تثير اهتمامهم. لقد أثار أسلوب عرض بعض الفقرات شيئا من الغموض. إننى أو غيرى حين نستخدم عبارات من مثل «لعل فرويد قد يقول آنذاك ...» أو «لعل فرويد قد يحس...» فإن ذلك لا يعدو أن يكون تشبيها يجسد فكرة «فرويد اليوم». وينبغى قراءة تلك الفقرات كما لو كانت «إننى أعتقد أن فرويد كان سيقول ....».

وبدأت نشرات الموقع بنشرة تحمل تاريخ سبتمبر-نوفمبر ٢٠٠٠ واستمرت تتوالى على فترات غير منتظمة إلى أن بلغت ثمانى نشرات لتحمل آخرها حتى اطلاعى على الموقع تاريخ أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٣، وهو التاريخ الذى تم بعده إغلاق الموقع.

ولعل استعراضاً سريعاً لعناوين بعض ما تضمنته تلك النشرات من موضوعات قد يساعد على تبين توجهها، بل وقد يلقى الضوء على مبرر إغلاقها. لقد كان ضمن عناوينها على سبيل المثال «الصراع العربى الإسرائيلى»، «أن تكون صديقا للعرب»، «حاملو القنابل الانتحارية»، «المستوطنون اليهود الجدد»، «أمهات الحرب»، «الدين»، «يوم ذكرى ضحايا الهولوكوست»، «محمد المسكين» والمقصود به محمد الدرة الطفل الفلسطينى الشهيد، وكان عددها الأخير يتضمن: «فوائد الحرب»، «النيران الصديقة».

ولم يمض ما نشره ايفان وارد فى هدوء، ولقد رصدت جريدة هاآرتس تلك الأصداء العنيفة التى أحدثها المقال والتى تتالت إلى أن تم إغلاق الموقع. فى مقال بقلم شارون ساديه Sharon Sadeh نشر فى هاارتس بعنوان «هفوة فرويدية معادية لإسرائيل فى لندن»[2] جاء فيه أن المحلل النفسى Lewis Aron من جامعة نيويورك قد صدم ولم يصدق عيناه حين تصفح الموقع المشار إليه، وأعلن أنه قد تم تسخير اسم الموقع وكلمات فرويد للسخرية من إسرائيل وتشويه سمعتها من خلال افتراءات تنضح بالحقد، وقام على الفور بنشر بيان احتجاج على شبكة الإنترنت[3] سرعان ما وقع عليه ٤٠٠ شخص خلال أسبوع واحد.

ويشير آرون -وفقا لمقال الهاارتس- إلى ما نشره الموقع متعلقا بالهولوكوست حيث يقرر إيفان وارد أن تلك الجريمة التى وقعت فى مجتمع أوروبى متطور لم تكن لتحدث لو لم ينجح النازيون فى إقامة آلة بيروقراطية منظمة دفعت الملايين للإقدام بحماس على ارتكاب مذابح الهولوكوست دون أى مبرر اقتصادى أو سياسى أو حتى عسكرى، وينتقل إيفان وارد بعد ذلك مباشرة للإشارة إلى أنه ليس أفضل لإحياء لذكرى الهولوكوست من الإشادة بموقف أولئك



الجنود الإسرائيليين الذين رفضوا الانصياع لأوامر قادتهم بإطلاق النار على الفلسطينيين خلال الانتفاضة دون الانزلاق إلى تلك الكذبة المغرية: إننا ننفذ الأوامر فحسب. ويرى آرون أن إيفان وارد بتلك المقارنة إنما يشبه إسرائيل بألمانيا النازية.

ولم يشفع لإيفان وارد دفاع ابريكا دافيز عنه وعن مشروعية نشر مقالات تعبر عن وجهات نظر أصحابها، ولم يشفع له كذلك ما عبر به عن صدمته مما أثارته كتاباته من ردود فعل غاضبة حادة، وأنه حين أشار إلى رفض الجنود الإسرائيليين إطاعة أوامر قادتهم إنما كان يبرز صورة مناقضة لما أقدم عليه النازيون من انصياع أعمى.

تم ترشيح فرويد وكذلك اينشتاين للتدريس فى الجامعة العبرية. واعتذر فرويد عن قبول ذلك العرض شأنه شأن العديد من كبار المثقفين اليهود آنذاك

فرويد وانتفاضة البراق ١٩٢٩

لقد صدرت أولى نشرات موقع «فرويد اليوم: وجهات نظر شخصية»، مع اشتعال انتفاضة الأقصى على الأرض الفلسطينية إثر زيارة شارون للمسجد الأقصى، وتحمل النشرة خطابا يحمل تاريخ ٢٦ فبراير ١٩٣٠ وجهه فرويد من فيينا إلى حاييم كوفلر ممثل إحدى المؤسسات المعنية بمساندة اليهود والتى انتشرت فى أوروبا إثر انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول. كان كوفلر قد طلب من فرويد باعتباره من صفوة اليهود التوقيع على بيان يدين المظاهرات العربية العنيفة التى اندلعت فى فلسطين عام ١٩٢٩، والتى كان ضمن ضحاياها ١٠٠ مستوطن يهودى.

ولنبدأ بعرض النص الحرفى للخطاب.

فيينا فى ٢٦ فبراير ١٩٣٠

سيدى العزيز

إننى لا أستطيع تلبية طلبك، إذ ليس فى مقدورى التغلب على إحساسى بالنفور من إرهاق الرأى العام بوضع توقيعى على الوثيقة، وذلك فضلاً عن أن الوقت الحرج الراهن لا يبدو مشجعا للإقدام على ذلك. إن من يرغب فى التأثير على الجماهير ينبغى أن يقدم لهم ما هو مثير وملتهب، ومن ثم فإن تقييمى المتوازن للصهيونية لا يبدو مناسباً لتحقيق ذلك. ليس من شك فى أننى أتعاطف مع أهداف الصهيونية، كما أننى فخور بجامعتنا فى أورشليم، وسعيد بازدهار استيطاننا. ولكننى من ناحية أخرى لا أظن أن فلسطين يمكن أن تصبح دولة يهودية، فالعالمين المسيحى والإسلامى ليسا على استعداد لوضع أماكنهم المقدسة تحت حماية يهودية. إن ما يبدو لى معقولاً هو تأسيس وطن قومى يهودى على أرض تكون أقل تشبعاً بالتاريخ. ولكنى أعلم أن وجهة النظر المنطقية هذه لن تلقى حماساً من قبل الجماهير، ولا دعماً ماليًا من جانب الأغنياء. ومن ثم فإننى أخلص مع الأسف إلى أن ذلك التعصب الذى يبديه شعبنا دون أن يستند إلى أساس إنما يتحمل جانباً من المسئولية عن إثارة عدم الثقة لدى العرب. إننى لا أتعاطف مطلقاً مع تلك الطاعة غير الرشيدة للآباء والتى تتحول معها قطعة من الحائط الهيرودوتى إلى أثر قومى، مما يمثل تحدياً لمشاعر أبناء البلد.

و الآن فلتحكم بنفسك إذا ما كان لمن له مثل هذه الرؤية الناقدة، أن يكون الشخص المناسب لمساندة شعب مأخوذ بأمل خادع

خادمكم المطيع

فرويد

ولعلنا لاحظنا كيف أن فرويد قد اتخذ موقفين قد يبدوان متناقضين إذا لم نضع فى اعتبارنا تعدد وتصارع التيارات داخل صفوف الصهيونية. إنه يعلن بوضوح قاطع أنه متعاطف مع أهداف الصهيونية، وأنه فخور «بجامعتنا فى أورشليم، وسعيد بازدهار استيطاننا»، ثم يستدرك مستبعداً إمكانية أن فلسطين «يمكن أن تصبح دولة يهودية، فالعالمين المسيحى والإسلامى ليسا على استعداد لوضع أماكنهم المقدسة تحت حماية يهودية»، ثم يعلن ما يبدو له منطقيا من وجهة نظره مقررا «إن ما يبدو لى معقولاً هو تأسيس وطن قومى يهودى على أرض تكون أقل تشبعاً بالتاريخ» أى أنه كان أقرب إلى فكرة إقامة دولة يهودية على غير الأرض الفلسطينية، وهى الفكرة التى ترددت فى الأوساط الصهيونية قديما حول إقامة الدولة اليهودية فى سيناء أو فى أوغندا، واندثرت تلك الأفكار تماما. ويبدو فرويد مدركا تماما لتلك الحقيقة إذ يقرر «لكنى أعلم أن وجهة النظر المنطقية هذه لن تلقى حماساً من قبل الجماهير، ولا دعماً ماليًا من جانب الأغنياء». ويختتم فرويد خطابه بفقرة بالغة الدلالة يحدد فيها بوضوح أن التعصب اليهودى يتحمل جانبا من المسئولية عما حدث فى انتفاضة ١٩٢٩ واصفا العرب بأنهم أبناء البلد natives إذ يقول «إننى أخلص مع الأسف إلى أن ذلك التعصب الذى يبديه شعبنا دون أن يستند إلى أساس إنما يتحمل جانباً من المسئولية عن إثارة عدم الثقة لدى العرب. إننى لا أتعاطف مطلقاً مع تلك الطاعة غير الرشيدة للآباء والتى تتحول معها قطعة من الحائط الهيرودوتى إلى أثر قومى، مما يمثل تحدياً لمشاعر أبناء البلد».

لعله من المناسب قبل أن نمضى فى تحليل موقف فرويد أن نلقى نظرة سريعة على أحداث فبراير ١٩٢٩، أو ما يعرف بانتفاضة البراق

ماذا حدث فى فبراير ١٩٢٩؟

شهدت فلسطين خلال العشرينيات ثلاثة اضطرابات هامة بين العرب والصهيونيين هى اضطرابات القدس فى إبريل ١٩٢٠، واضطرابات يافا فى مايو ١٩٢١، واضطرابات البراق فى أغسطس ١٩٢٩. ويرجع محمد بديع شريف فى كتابه المعنون مدخل لدراسة مطامع اليهود فى فلسطين قديما وحديثا بداية اضطرابات البراق إلى أنه «فى ٢٣ ايلول ١٩٢٨ جاء اليهود بأدوات جديدة إلى حائط المبكى وأقاموا ستاراً يحجز الرجال عن النساء». ويورد ناجى علوش فى كتابه المعنون «الحركة الوطنية الفلسطينية أمام اليهود والصهيونية ١٨٨٢-١٩٤٨» الصادر عن مركز الأبحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية ورابطة الأدباء فى الكويت عام ١٩٧٤ تفصيلاً لما حدث:

تتلخص القضية فى أن اليهود اعتبروا أن الحائط الغربى من المسجد الأقصى هو من بقايا الهيكل. وكانوا يقومون بزيارته فى المناسبات الدينية. ولم يكن لدى العرب عموماً والهيئات الإسلامية خصوصاً أى مانع فى ذلك، شريطة عدم إحداث تغييرات. وكان الموضوع محسوماً فى زمن السيطرة العثمانية، ولكن الوضع تغير بعد السيطرة البريطانية على فلسطين وصدور تصريح بلفور. وكان أن بدأت الهيئات اليهودية، صهيونية وغير صهيونية، تسعى لتغيير الأمر الواقع فيما يتعلق بحائط المبكى.

وأخذ اليهود يحاولون التغيير تدريجياً بممارسة الطقوس الدينية، وبإحضار مقاعد وما شابه، أى أنهم حاولوا أن يجعلوا من المكان معبداً، وكادت تحدث مشكلة فى أيلول ١٩٢٥، مما دفع السلطة إلى اتخاذ قرار يحظر فيه على اليهود «أن يجلبوا إلى الحائط كراسى ومقاعد، حتى ولو كانت الغاية منها جلوس الطاعنين فى السن والعجزة عليها».

وأنشأ اليهود سنة ١٩٢٨ لجنة للدفاع عن حائط المبكى، أخذت تقوم بنشاطات لهذه الغاية. وبدأت سنة ١٩٢٨ الاحتكاكات من جديد. فقد اضطر أحد موظفى الحكومة البريطانية أن يرفع ستاراً وضعه اليهود بالقوة فى ٢٤/٨/ ١٩٢٨، وهو يوم عيد الغفران، فأرسلت

المراجع اليهودية شكاوى إلى الحكومة البريطانية وإلى الأمم المتحدة.

وتوجه المجلس الملى اليهودى بعد شهرين تقريباً (تشرين الثانى) برسالة إلى الطائفة الإسلامية جاء فيها:

«وعليه فإننا نصرح هنا بالحقيقة التى لا تشوبها شائبة، وبإخلاص تام، بأنه لن يخطر ببال أحد من اليهود المساس بحقوق المسلمين فى أماكنهم المقدسة. ولكن يجب على إخواننا العرب أن يعترفوا هم أيضاً بتلك الحقوق التى لليهود على أماكنهم المقدسة فى البلاد».

وتضيف الرسالة أن البراق الذى يقدسه اليهود كان «مكاناً لتأدية الصلاة والزيارة بدون أية ممانعة أو أقل معارضة، جيلاً بعد جيل. ولذلك فإن من البديهى أن الشعب اليهودى لا يميل إلى أقل تساهل فى هذا الحق المقدس الذى ثبت له على مر العصور والأجيال. وهكذا فإن أى محاولة ترمى إلى إلغاء أو تحديد هذا الحق، والتدخل فى أنظمة الصلاة والتقاليد اليهودية تعتبر مساساً عظيماً بعواطف الأمة اليهودية، وطعنة نجلاء فى صميم قلبها . . . ».

وتذهب الرسالة إلى أن ما يطلبه المجلس الملى اليهودى ما هو إلا «عبارة عن طلب طبيعى باحترام حق اليهود لا أكثر ولا أقل. . . » ثم تدخلت اللجنة التنفيذية الصهيونية، فقدمت احتجاجاً إلى حكومة فلسطين «بشأن البناء الذى أخذ المسلمون يشيدونه فى الطرف الشمالى من حائط المبكى ...»

وحين طلب من الطرفين أن يقدموا وثائقهم، قدم العرب ما يلزم أما هيئة الحاخامين فقررت «أن إبراز البيانات الكتابية قد يضعف الحقيقة الناصعة بأن للطائفة اليهودية حق السلوك إلى الحائط وإقامة الصلاة فيه. . . » وكان أن أوقف البناء، وحولت القضية إلى مستشارى التاج. وبعد أن تسلم المندوب السامى قرارهم كتب رسالة إلى المراجع العربية وأخرى إلى المراجع الصهيونية، وجاء فى رسالته إلى المفتى أنه يحق لليهود أن يقيموا صلواتهم دون أن يلحق بهم إزعاج، وبناء عليه جرى السماح باستئناف البناء.

وانعقد المؤتمر الصهيونى السادس عشر فى الفترة ما بين ٢٨ يوليو، و١١ أغسطس ١٩٢٩ فى زيوريخ، وكان موضوع حائط المبكى من ضمن المواضيع التى ناقشها. وخلال انعقاد المؤتمر، أصدرت «جمعية حراسة المسجد الأقصى والأماكن الإسلامية المقدسة» بياناً جاء فيه: «عاد اليهود منذ انعقاد المؤتمر الصهيونى فى زيوريخ إلى الاعتداء المتوالى على البراق الشريف .. ويقوم المؤتمر الصهيونى الذى سيستمر إلى ٨ آب ١٩٢٩ بمحاولات واسعة النطاق لاستثارة اليهود فى العالم، مبديا السخط على الكتاب الأبيض الذى أصدرته الحكومة البريطانية فى مسألة البراق...» وقامت لجنة الدفاع عن حائط المبكى بإصدار بيان مماثل بعنوان «نداء إلى شعب إسرائيل فى جميع أنحاء العالم» جاء فيه: «لئن سكتنا أو اعتمدنا على سياسة زعمائنا خسرنا حائط المبكى، ذلك المقام الوطنى المقدس، الذى هو من أنفس مقتنياتنا ... هلموا إلى مساعدتنا، وعاونونا فى هذا الكفاح العادل لاسترداد هذا الحائط، ولا شك أن النصر سيكون حليفنا».

وجاء عيد يوم الغفران اليهودى الخميس ١٥ أغسطس ١٩٢٩ حين قادت منظمة بيتار اليهودية المتطرفة مظاهرة اتجهت إلى الحائط فى محاولة للاستيلاء عليه، وعلت الهتافات «الحائط حائطنا» وتم رفع العلم الصهيونى على الحائط وأنشد المتظاهرون نشيد الهاتيكفا. وخلال صلاة الجمعة فى الأسبوع التالى مباشرة أى فى ٢٣ أغسطس، أحس الخطباء أن الجو ينذر بالخطر ولذلك عمدوا إلى محاولة تهدئة الجماهير، ولكن بعض الحضور صعدوا إلى المنبر ودعوا الجميع إلى عدم الاهتمام بما قاله الخطباء، لأنهم غير مخلصين لقضية المسلمين. وخرج المصلون إثر الصلاة فى مظاهرة غاضبة، وبدأت الاشتباكات الدموية.

فرويد وانتفاضة الأقصى ٢٠٠٠

ذلك ما حدث آنذاك عام ١٩٢٩، وحين أعاد ايفان وارد نشر خطاب فرويد القديم أشفعه بتعليق قال فيه:

«فيما يتعلق بالموقف الراهن (سبتمبر ٢٠٠٠) فإننا نستطيع افتراض أن فرويد سوف يسعد عند سماعه أنباء تفيد أن غالبية سكان إسرائيل يعتبرون أنفسهم يهوداً علمانيين (كما كان فرويد يعتبر نفسه)، وأنهم يتعاطفون مع تزايد الدعوات داخل إسرائيل للانسحاب من المناطق المحتلة. ولعله لن يندهش على أية حال من أن اليهود الأصوليين المتدينين لا يولون اهتماماً كبيراً بما تنص عليه الكوديشيم سيدرا Kedoshim sidra والتى يعتبرها البعض بمثابة «جوهر الديانة اليهودية»: أحب جارك كنفسك».

ولم يمض تعليق ايفان وارد فى هدوء، فسرعان ما تلقى تعقيباً ناقداً من المحللة النفسية يوديت يونج Yudit Jung بعنوان «فرويد والصهيونية: مزيد من الحوار» جاء فيه:

«قبل أن أصبح محللة نفسية، كنت أعمل فى السلك الأكاديمى بحثاً وتدريساً فى ألمانيا، وإسرائيل، والولايات المتحدة. وكان موضوع أطروحتى: «تطور الهوية القومية لدى الطبقة العاملة فى روسيا، وبولندا، وفلسطين فى الفترة من ١٨٨٩-١٩٢٩». واقتضى منى ذلك أن أكون على معرفة وثيقة بجذور الصهيونية، وكذلك بالحركة الثقافية غير الصهيونية المعروفة باسم البوند The Bund. لقد أمضيت ثلاث سنوات أبحث فى أرشيف الدولة فى أورشليم عن السياسات التى أدت إلى تأسيس دولة إسرائيل، حيث أتيح لى الاطلاع على الوثائق الأصلية والمصورة الخاصة بوزارة الخارجية البريطانية O.F، وملفات المخابرات المتعلقة بالأنشطة السياسية لكل من المستوطنين اليهود والأهالى العرب. لقد كان الاطلاع على تلك الوثائق محظوراً منذ ١٩٣٨-١٩٦٨ نظرا لما تتضمنه من «معلومات سياسية حساسة»، ورفعت جولدا مائير ذلك الحظر عام ١٩٦٨، ولم يلبث أن فرض الحظر من جديد عام ١٩٧٣ ولمدة خمسين عاماً جديدة باعتبارها مازالت تتضمن معلومات تعتبر شديدة الحساسية للرأى العام.

ومن بين العديد من الخطابات الأخرى، تضمنت تلك الوثائق صوراً من المناقشات التى جرت بين فرويد ورفاقه من اليهود الألمان فى إسرائيل وخارج إسرائيل من الذين كانوا يودون إغراءه بقبول منصب فى الجامعة العبرية التى جرى إنشاؤها آنذاك. لقد تم ترشيح فرويد وكذلك اينشتاين للتدريس فى الجامعة العبرية. ولقد اعتذر فرويد عن قبول ذلك العرض شأنه شأن العديد من كبار المثقفين اليهود آنذاك. إن الخطاب الذى نشره «متحف فرويد» ينبغى أن يفهم فى سياق صداقة فرويد لقادة الييشوف Yishuv عامة، وأولئك المنتمين لحزب «السلام» بوجه خاص. إن المهاجرين اليهود القادمين من بلاد تتحدث الألمانية، والذين تعرف الكثير منهم على بعضهم البعض فى الجامعات الأوروبية، قد انضووا معا تحت قيادة حاييم أورلوسوروف Chaim Orlosoroff لإقامة «حزب السلام» الذى ضمت صفوفه العديد من المثقفين اليهود البارزين من ذوى الأصول الألمانية مثل مارتن بوبر Martin Buber.

لقد حظى النقاش الذى كان يدور حول الملاءمة العملية للصهيونية العلمانية بمشاركة واسعة من أبناء الجماعة اليهودية الأوروبية، وليس فحسب من أعضاء الييشوف، بل أولئك المستوطنون الذين قدموا مؤخرا من أوروبا إلى فلسطين. ولم يكن فى مقدور مثقف يهودى بارز مثل فرويد المقيم فى فيينا موطن تيودور هرتزل Theodor Herzl إلا أن يكون مشاركاً فى ذلك الجدل الجارى آنذاك. ولكن فى حدود معرفتى فإن فرويد لم يتخذ أبدا على الإطلاق موقفاً رسمياً معادياً للصهيونية، بهدف الحيلولة دون مزيد من التطور للدولة الإسرائيلية. كذلك فإنه لم يقطع قط روابطه بجذوره اليهودية وظل محتفظاً بعضويته فى جماعة بناى برث Bnei Brith طوال حياته.

لقد أشار فرويد بوضوح فى الخطاب الذى نشره المتحف إلى «... أن تقييمى المتوازن للصهيونية لا يسمح بذلك... إننى أتعاطف مع أهدافها (كذا) وفخور بجامعتنا فى أورشليم، وسعيد بازدهار استيطاننا». لقد كانت لدى فرويد شكوك فيما يتعلق بالإمكانية العملية لمشروع الييشوف، ولكن ليس فيما يتعلق بأخلاقيات أهداف المشروع.

صهيونى من نوع خاص

لقد بدأت الصورة تتضح. إن الصهيونية لم تكن أبدا نسيجا واحدا، وكان التباين بين تياراتها شديدا وما زال كذلك، وكان فرويد متعاطفا مع واحد من التيارات الصهيونية النشطة آنذاك، وبالتالى فقد كان معارضا لتيارات أخرى. ولم تكن تلك الحقيقة متاحة لى آنذاك.

ترى ما هى ملامح ذلك التيار الصهيونى الذى كان الأقرب لفكر فرويد؟ يبدو أنه ذلك التيار الذى أشارت إليه يوديت يونج مطلقة عليه اسم «حزب السلام»، وغنى عن البيان أنه مجرد تشبيه، فليس ثمة حزب من الأحزاب الصهيونية يحمل هذا الاسم. إنه تحديدا فريق حاييم أورلوسوروف. ترى من هو حاييم أورلوسوروف؟

العديد من شوارع المدن الإسرائيلية تحمل اسمه، فضلا عن كيبوتز جيفات حاييم، ومستوطنة كفار حاييم، ومستوطنة كيريات حاييم وغيرها. حاييم أورلوسوروف أحد رواد الصهيونية الأوائل. ولد فى روسيا عام ١٨٩٩، ونزحت أسرته إلى ألمانيا حيث نشأ ودرس فى جامعة برلين التى حصل منها على درجة الدكتوراه فى الاقتصاد. هاجر إلى فلسطين عام ١٩٢٤. رأس حزب الماباى وكان صديقا حميما لحاييم وايزمان الذى شاركه فى تبنى العديد من آرائه وأفكاره. لقد تبنى فكرة أنه ينبغى أن تتسع الوكالة اليهودية لعضوية غير الصهاينة باعتبار الصهيونية تيار داخل حركة يهودية أشمل. كان ينادى بضرورة الاعتراف



كان فـــرويـــد إذن أقرب إلى ذلك التـيار الصهيـــونى الذى لا ينطلق من رؤية توراتية لأرض الميعاد ولشعب الله المختار. تيار يرى ضرورة أن تكون لليهود دولتهم دون قهر لشعب آخر

بالآمال القومية للعرب، ورغم أنه عايش فترات الاضطرابات العنيفة بين العرب واليهود إلا أنه ظل مؤكدا إمكانية التواصل بين الصهاينة والعرب، حتى أنه اجتمع فى أبريل ١٩٣٣ مع حاييم وايزمان وأصدرا بيانا يدعو إلى تعاون ثنائى القومية Bi-national بين العرب واليهود.

وكان طبيعيا أن يلاقى مثل ذلك التوجه رفضا عنيفا من العناصر الصهيونية المتطرفة وعلى رأسها تيار زيف جابوتنسكى. ولم يعش حاييم أورلوسوروف طويلا بعد بيان أبريل ١٩٣٣، فقد أطلق عليه شابان يهوديان الرصاص فى يونيو من نفس العام، ورغم أنهما قد نفيا ارتكابهما الجريمة إلا أن المحكمة أدانت أحدهما ويدعى ابراهام ستافسكى وحكم عليه بالإعدام إلا أن المحكمة لم تلبث أن نقضت الحكم وأفرجت عنه لعدم كفاية الأدلة. ولقد صرح أحد قادة تيار جابوتنسكى إثر واقعة الاغتيال بأنه «ينبغى أن نعتبر ذلك الشاب الذى أطلق الرصاص على أورلوسوروف فى عداد القديسين»[٤].

كان فرويد إذن أقرب إلى ذلك التيار الصهيونى الذى لا ينطلق من رؤية توراتية لأرض الميعاد ولشعب الله المختار. تيار يرى ضرورة أن تكون لليهود دولتهم دون قهر لشعب آخر، وبصرف النظر عن إمكانية ذلك أو استحالته، فقد كان فرويد فى نهاية الأمر صهيونيا ولكن من نوع خاص؛ كما كان أيضا يهوديا من نوع خاص.

ويهودى من نوع خاص

يتفق ما سبق من موقف خاص لفرويد من الصهيونية، مع كون فرويد ليس باليهودى التقليدى، بل كان أقرب إلى ذلك الفريق من اليهود العلمانيين. لقد كان يهوديا ينتمى لتاريخ اليهود فى أوروبا، بل وفى ألمانيا بالتحديد، يشعر بمشاعر الأقلية اليهودية التى عانت ما عانت من اضطهاد المجتمع الأوروبى، ولكنه لم يكن مؤمنا بالديانة اليهودية ولا بغيرها من الديانات. لقد كان يهوديا من نوع خاص.

فى عام ١٩٨٧ صدر لبيتر جاى Peter Gay كتاب يحمل عنوانا بالغ الدلالة «يهودى لا يؤمن بإله: فرويد، والإلحاد، وخلق التحليل النفسى»، وإذا كان عنوان الكتاب يستوقف الانتباه، فإن المؤلف، بل ودار النشر يستحق كلاهما وقفة.

المؤلف مؤرخ معروف، أستاذ للتاريخ فى واحدة من أشهر الجامعات فى الولايات المتحدة الأمريكية هى جامعة يال Yale، فضلاً عن تخصصه فى التحليل النفسى الذى درسه فى معهد وسترن نيو انجلند للتحليل النفسى Western New England Psychoanalytic Institute، كما أنه عضو شرف بالرابطة الأمريكية للتحليل النفسى American Psychoanalytical Association. ولقد استثمر المؤلف جمعه بين تخصصى التحليل النفسى والتاريخ فى أن يحتل مكانة بارزة كمؤرخ للتحليل النفسى ولمؤسسه سيجموند فرويد على وجه التحديد، فقد صدر له عام ١٩٧٨ كتابه المعنون «فرويد، واليهود، وغيرهم من الألمان: سادة وضحايا» Freud, Jews, and other Germans: Masters and Victims، كما صدر له عام ١٩٨٤ المجلد الأول من كتابه «الخبرة البرجوازية: من فكتوريا إلى فرويد» The Bourgeois Experience: Victoria to Freud وقد حمل هذا المجلد كعنوان فرعى «تربية الحواس» Education of the senses، وصدر المجلد الثانى من الكتاب عام ١٩٨٦ يحمل عنوانا فرعيا «العاطفة الغضة» The tender passion، وفى عام ١٩٨٥ صدر له كتاب «فرويد لدى المؤرخين» Freud for Historians، وفى عام ١٩٨٨ صدر له كتابه الفريد «فرويد: حياة من أجل عصرنا» Freud: A life for our time

تولت نشر الكتاب جامعة يال بالاشتراك مع كلية الاتحاد اليهودى فى كنكيناتى، وهو الأمر الذى يستوقف النظر إذ يوحى بأن هدف المؤلف قد يكون إثبات يهودية فرويد، وهو ما يتنافى مع توجهات المؤلف كما تفصح عنها بقية مؤلفاته فضلا عن العبارة التى انتقاها المؤلف من مراسلات فرويد ليستهل بها كتابه، بل ويقتبسها فى عنوان الكتاب: «ترى لماذا لم يتمكن أى من المؤمنين من خلق التحليل النفسى؟ لماذا كان علينا انتظار يهودى لا يؤمن بإله على الإطلاق؟» ولم تكن تلك المفارقة لتفوت على صاحب الكتاب، فهو يشير فى مقدمة كتابه إلى أن مادة الكتاب قد تبلورت خلال سلسلة من المحاضرات ألقاها بدعوة من كلية الاتحاد اليهودى فى ديسمبر ١٩٨٦، ويعلق قائلاً:

«قد يبدو موضوع تلك المحاضرات غريبا بالنسبة لمعهد لاهوتى، إلا أن رجال اللاهوت قد دابوا حقيقة وطيلة قرون على الاستمتاع بمحاجاة غير المتدينين، ربما لشحذ مهاراتهم الجدالية».

ثم يمضى قائلا:

«فى إحدى مقالاته عن فنيات العلاج يروى فرويد قصة طريفة عن مندوب وثائق تأمين على الحياة، ورجل دين. ويسوق فرويد هذه القصة هجوما على أولئك المعالجين النفسيين الذين يقبلون بتنازلات فيما يتعلق بأساسيات ممارساتهم الفنية سعياً لحلول توفيقية، ولكن القصة تكشف فى نفس الوقت الحاد فرويد. مرض مندوب وثائق تأمين على الحياة معروف بإلحاده مرضا شديدا، ووافق تحت إلحاح أسرته أن يستقبل كاهنا، وكانت الأسرة تأمل أن يتمكن الكاهن من كسب المريض إلى صفوف المؤمنين قبل أن يموت، واستمر لقاء الكاهن بالمريض فى غرفة مغلقة مدة طويلة. واستبشر الأهل بذلك خيرا إذ أن مريضهم الملحد لم يطرد الكاهن. أخيرا خرج الكاهن من الغرفة مجهدا معلنا إنه لم يتمكن من هداية المريض المحتضر، بل إن المريض أقنعه بالتوقيع على وثيقة تأمين على الحياة».

لقد كان فرويد يهوديًا من نوع خاص. كان ملحداً لا يكف عن إعلان الحاده، وفى نفس الوقت يعتز كل الاعتزاز بأصوله الحضارية اليهودية. لقد حرص على استمرار عضويته فى جماعة بناى بريث (أبناء العهد) اليهودية حتى وفاته. ومع ذلك قد أورد ارنست جونز كاتب السيرة المعتمد لحياة فرويد، ورفيق دربه فى مسيرة التحليل النفسى، فى الصفحة ٢٤٦ من صفحات المجلد الثالث من سفره الشهير المعنون «حياة سيجموند فرويد وأعماله»، أنه فى صبيحة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٣٩ أى بعد مضى ثلاثة أيام على وفاة فرويد قد تم إحراق جثمانه، كما تم الاحتفاظ بالرماد فى إحدى الجرار الإغريقية الأثرية التى كان يفضلها فرويد من بين مقتنياته. وغنى عن البيان مدى تعارض ذلك مع التقاليد الدينية اليهودية إلى حد أن إحدى الفتاوى اليهودية المنشورة على شبكة تنص على أنه «إذا ما طلب يهودى حرق جثمانه فينبغى إهمال الطلب، فإذا ما نفذ طلبه فمن نفذوه يشاركونه العقاب الإلهى» كان فرويد كذلك صهيونياً لا جدال، ولكنه كان صهيونيا من نوع خاص.

كذلك فقد أورد جونز فى الصفحات ١٣٧-١٣٨ من نفس المجلد المشار إليه، أن فرويد قد تلقى قبيل وفاته بشهر واحد دعوة لكى يتولى رئاسة مؤسسة YIVO وهى مؤسسة بحثية يهودية شهيرة تأسست فى بولندا عام ١٩٢٥ ثم انتقل مقرها الرئيسى إلى نيويورك منذ عام ١٩٤٠ وهى تهتم أساسا باليهود الأشكنازيم من حيث التاريخ والمجتمع والثقافة وكان رئيسها موزوس جاستر Moses Gaster قد توفى قبيل أن يعرض المنصب على فرويد. وقد أملى فرويد رده

بالإنجليزية على هذه الدعوة، ويشير جونز إلى هذا الرد باعتباره الخطاب الوحيد من خطابات فرويد الذى لم يكتبه بيده. الخطاب مؤرخ فى ١٩/٨/١٩٣٩ يعتذر فيه فرويد عن قبول المنصب، مرجعاً اعتذاره بالإضافة إلى حالته الصحية إلى «تلك المعارضة العنيفة التى أثارها كتابى عن موسى والتوحيد فى الدوائر اليهودية، يجعلنى أشك فى أنه قد يكون من صالح مؤسسة YIVO أن تحمل اسمى كرئيس لها».

لقد كتب فرويد إلى شارلز سنجر خطابا يحمل تاريخ ٣١ أكتوبر ١٩٣٨، أى قبيل عام من وفاته يقول فيه «إننى لم أخف عدم إيمانى قط سواء فى كتاباتى، أو فى حياتى الخاصة».

التحليل النفسى اليوم فى العالم العربى والإسلامى

شهد قصر اليونسكو فى بيروت فى مايو ٢٠٠٥ ندوة تحت عنوان «التحليل النفسى فى العالم العربى والإسلامى»، وقد عرضت جريدة السفير موجزا أعده اسكندر حبش لما دار فى هذه الندوة فى عددها الصادر فى التاسع من مايو ٢٠٠٥، حيث استهلت عرضها بالإشارة إلى أنه فى أحد التأويلات التى تطلق عادة على التحليل النفسى، أنه شهد تموضعه وانطلاقته فى البلدان التى عرفت نظاماً ديمقراطياً كاملاً. من هنا يأتى السؤال، هل ثمة تحليل نفسى فى العالم العربى والإسلامى؟:

«قد يكون هذا السؤال حاضراً فى أعمال الندوة التى شهدها قصر اليونسكو خلال الأيام الثلاثة الماضية (الجمعة والسبت والأحد)، والتى دعت إليها الجمعية اللبنانية للتحليل النفسى» وأشرف عليها، علمياً، كل من اللبنانى شوقى عازورى والفرنسية إليزابيث رودينسكو، وبمشاركة باحثين ومحللين نفسيين من فرنسا والعالم العربى، فى ظل رعاية السفارة الفرنسية متمثلة بالبعثة الثقافية فى بيروت.

إشارة الديمقراطية هذه كانت واضحة بشكل كبير فى كلمة شوقى عازورى الافتتاحية التى اعتبر فيها «أن التحليل النفسى هو الديموقراطية»، وربما كنا نستطيع أن نذهب إلى أكثر من ذلك، حين نجد أن مجتمعنا يرزح تحت نظم شمولية: سياسية ودينية، كما نجد الكائن وهو مغيب بشكل كبير، لمصلحة هذه «النحن» الجماعية التى تملك «حلولا جاهزة» لجميع مشكلاته الفردية حتى وإن كانت لا تتقاطع أبداً مع «تركيبته» العصابية. هل بهذا المعنى نفتقد الديمقراطية، أى نقع فى الخوف، ليس فقط من إطلاق المكبوت، بل أيضاً فى مواجهة «السلطات النفسية» التى تمارس رقابتها علينا، أو التى نجعلها تراقبنا بشكل لا واع؟ ربما كان الدين كسلطة يمارس حضوره الطاغى، إذ يكفى أن نعود إلى العرب الأقدمين الذين عالجوا مشكلة النفس، لكنهم فى لحظة حاولوا أن لا يتخطوا النص الدينى، أى تركوه السقف الذى حدد نقطة وصولهم. بهذا المعنى نستطيع أن نؤول كلمة جان دكروييه الرئيس الشرفى للجامعة اليسوعية الذى تحدث عن «اكتشافات التحليل النفسى والإيمان الدينى» وقد قصد الأب اليسوعى، «المصالحة» التى حدثت ما بين التحليل النفسى والكاثوليكية والتى تبنتها الكنيسة عبر أحد الباباوات السابقين. من هنا قد تكون النقطة الغائبة عن مؤتمر الجمعية اللبنانية هذا، الاستماع إلى وجهة نظر رجل دين مسلم فى قضية التحليل النفسى، لتفسير علاقة الإسلام بهذا الفرع المعرفى.

على كل، لم يدر المؤتمر كله حول التحليل النفسى، بالمعنى الضيق والحرفى للكلمة، بل تعداه إلى فروع معرفية أخرى، كالفكر والفلسفة والتاريخ والسياسة ووضع المرأة الراهن فى علاقتها بالعالم العربى والإسلامى. ربما هذا التنوع، هو ما أعطى للمؤتمر اتساعه ومعناه الثقافى الواسع، أى كانت للمشاركات المعرفية الدور فى عدم الوقوع فى زاوية ضيقة ومحددة، بل جعلته ينفتح على آفاق لا بد زادت الكثير من المعرفة للمستمع الذى تابعه، وإن كان هذا المستمع قليل العدد نسبياً، إذ لم يأت الكثيرون بسبب عدم إلمامهم باللغة الفرنسية، لذلك كان من الضرورى إيجاد ترجمة فورية للعربية، على الأقل، لو عملنا بمتن التحليل النفسى الذى يقول بأنه يرتكز على الكلام، أى على اللغة، لغة المجتمع.

إنها على كل ملاحظة لا تعنى الانتقاص من قيمة ما حدث، فبعض الأوراق التى قدمت، كانت على جانب كبير من الأهمية، كتلك التى قدمها المحلل التونسى فتحى بن سلامة الذى بحث فيها ما بين «الغير والآخر» انطلاقاً من كتابات ابن عربى، وورقة كريستيان جامبى «خطابات السلطة الأربعة فى الإسلام»، أو كتلك التى قدمتها الباحثة الجزائرية سعاد أيادا «الحجاب ونزع الحجاب: التمثيل فى الإسلام»، وقد عالجت الباحثة موضوعها انطلاقاً من وجهة نظر فلسفية، وقالت إنها اختارت هذا الموضوع «لأن الحجاب لا يزال حاضراً على مفترق العديد من نقاشاتنا». وقد لجأت أيادا إلى استقراء الآيات والأحاديث التى تناولت هذا الموضوع. هذه الورقات التى قدمت فى اليوم الأول، سرعان ما جعلت المؤتمر يسلك طريقا شد إليه الحضور، الذى عاد وتابع اليوم الثانى، بالحماسة ذاتها.

بداية اليوم الثانى كانت مع جليل بنانى الذى تحدث عن «كيفية إبداع التحليل النفسى مجددا فى المغرب». وانطلاقاً من تجربته الشخصية، كمحلل نفسى، يدخلنا إلى تفاصيل المجتمع المغربى، من خلال عرضه لبعض الحالات العيادية. هذه الحالة العيادية، إذا جاز التعبير، كانت حاضرة بقوة فى «شهادة» اللبنانية أنيسة الأمين «امرأة معاصرة وشيعية». نص مكتوب بلغة شعرية، من حيث الظاهر، لكنه يرسم مساراً عميقاً لكيفية اكتشاف «وعى» لهذه المرأة التى مرت بعدد من الحالات المختلفة، قبل أن «تكتشف» موقعها الفعلى، الذى تريده لنفسها. تلعب الأمين فى نصها على خطين، ارتباطها بكربلاء كظرف تاريخى واجتماعى وثقافى ولحظة اغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريرى، بكونه لحظة راهنة، أتاحت لها بأن تعيد سؤال تاريخها كله. شهادة الأمين من النصوص الجميلة التى تدخلنا إلى قلب وضع «المرأة» المعاصرة، من هنا اختلافها عما قدمته المغربية صوفى بسيس فى اليوم الأول حول «أوضاع النساء فى المغرب: مجازفات المجتمع والانكسارات الاجتماعية». الاختلاف يبدأ بهذا العرض التأريخى، الذى لم يصل إلا لهذه البديهية «أوضاع المرأة أوضاع صعبة فى المجتمع العربى بأسره لا فى المغرب فقط»!!!

بشىء من «يوتوبيا» حوار الثقافات والحضارات جاءت ورقة اللبنانى أنطوان قربان (على الرغم من جمالها وأهميتها)، حول «الحجاب والقناع». من خلال مقارنة لمفهومى القناع فى الغرب والحجاب فى الشرق، حاول المحاضر أن يقرأ المجتمعين بسيرة «معكوسة» عبر رسومات متفرقة للقديس جاوجريوس (أو الخضر فى الدين الإسلامى) وهو يصارع التنين. من خلال قراءة هذه الأعمال الفنية للقديس، وهى موزعة ما بين رسومات روسية ومصرية (الفيوم) وإيطالية الخ، يبرهن كيف أن المفهوم الغربى كان أكثر ارتباطا بمفهوم القناع الذى يخفى الوجه، ليخلص إلى الهدف الذى بحث عنه: «كم كان فى الثقافة الإسلامية الكثير من الثقافة البيزنطية، وكم كان هناك فى الثقافة الغربية الكثير من الثقافة الإسلامية».

الحلقة الأخيرة التى دارت بعد ظهر أمس، جاءت أكثر تاريخية سياسية، إذ قدم فيها كل من جو باحوت ورقة حول «الإسلام والغرب: الغيرية المستحيلة؟»، وسمير قصير «الفرد وعصر الأنوار فى العالم العربى المعاصر». انطلق المحاضر الأول من حملة بونابرت على مصر الذى يحددها بالصدمة الأولى، وليعرض مشقة هذه العلاقة بين الشرق العربى والغرب، ليصل انه من المستحيل ان تكون هناك علاقة بين الاثنين فى ظل مفهوم الانغلاق والخضوع الذى لا يزال يتحكم بها. فى حين تحدث قصير عن دور النهضويين فى عملية صوغ فكر جديد، وإن لم يستمر فى ظل حالات سياسية، أعادته إلى الوراء.

التحليل النفسى فى العالم العربى والإسلامى «أكثر من أن يكون مؤتمرا حول التحليل النفسى، لقد نحا إلى معالجة العديد من الجوانب الثقافية، وربما هنا تكمن أهميته المعرفية، التى من المفيد أن تتكرر»[٦].

خـــاتـمـــة

لعله ليس مألوفا أن يقدم كاتب على إعلان مراجعته لما سبق أن انتهى إليه، ولا أجد حرجا فى أن أعبر عما أحسست به من مفاجأة حين اكتشفت أننى حين كتبت ما كتبت كان ثمة تفاصيل غائبة آنذاك، ولكنى لم أجد بدا من الإقدام على إعادة النظر، ولعل ما شجعنى على ذلك، أن ما اكتشفته مؤخرا وإن عدل من حقيقة انتماء فرويد للصهيونية، فإنه لم يفسر إقدام فرويد على إضفاء تلك الغلالة من السرية على تنظيم التحليل النفسى. ذلك ما قد تكشفه وثائق جديدة أو رؤية جديدة ما زالت فى علم الغيب. ■

---

١ - الكاتب، السنة التاسعة، العدد ١٠٥، ديسمبر١٩٦٩

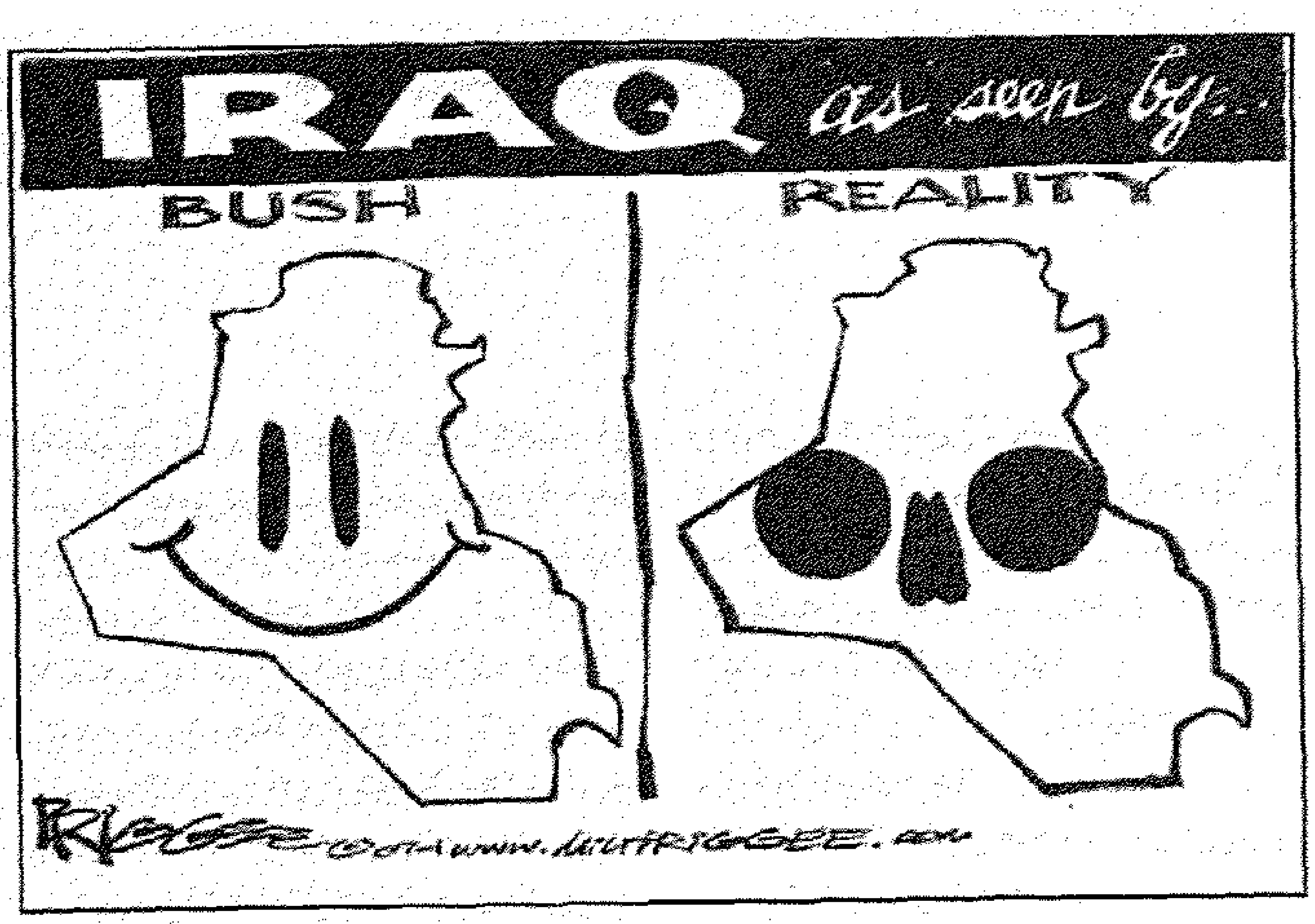
2 - Sadeh, Sharon "An antiIsrael Freudian slip in London", Haaretz, July ٣٠، ٢٠٠٧

3 - http://www.ipetitions.com/petition/Protest_Freud_Museum/

4 - "Yitzhak Rabin Remembered", Sermon given November 30, 2001, by Rabbi Samuel M. Stahl

5 - Gay peter, A godless Jew: Freud, atheism, and the making of psychoanalysis, Yale University press, New Haven and London, in association with Hebrew Union College Press, Cincinnati, 1987

٦ - اسكندر حبش، التحليل النفسى فى العالم العربى والإسلامى- ندوة قصر الأونيسكو: مفترقات تاريخية وثقافية كبرى، ٩ مايو ٢٠٠٥



انتحار المدن!

باقر ياسين العزيز

الليل فى بغداد لا ينتظر حلول الظلام،
لقد بدأ الناس يتركون المدينة ويعودون إلى بيوتهم
بينما الساعة تقترب من الخامسة عصراً

بعد سقوط النظام عام ٢٠٠٣ عدت للعراق لأزور من بقى حياً من الأهل والأقارب والأصحاب وكان ما شاهدته من خراب عميم فى كل مكان فى العراق قد شكل عندى صدمة فاجعة وقد أثار ما شاهدته مفارقات حزينة سأحاول وصف بعضها تحت عناوين منفصلة:

العبور مشياً على مجزرة الجسر القديم فى بغداد

رغم انتشار الموت الاعتباطى فى كل مكان من بغداد إلا أن الحنين لمشاهدة الأماكن القديمة واستعادة الذكريات التى تثيرها تلك الأماكن هى التى دفعتنى أن أعبر الجسر القديم مشياً على الأقدام متجهاً من جانب الكرخ إلى الرصافة دون أن أفكر بالمخاطر والعواقب لغريب مثلى منقطع عن بغداد ما يقرب من أربعين عاماً.. وبدأت المشى فى تلك المنطقة التى وجدتها كالحة، بائسة، موحشة، مخربة، متخلفة، بعد أن كانت تزهو وتعج بمحلاتها ومخازنها ومقاهيها الشعبية وحركة السكان فى شوارعها وأزقتها الفرعية... بينما ينتصب الآن وسط الساحة الواقعة فى نهاية الجسر من جهة الكرخ تمثال ضخم لوزير الدفاع العراقى فى النظام السابق الفريق عدنان خير الله طلفاح، وهو ابن خال الرئيس صدام ورفيقه وصديق صباه وعمره.

إن تمثال عدنان بقى واقفاً فى مكانه دون أن يخرب أو يدمر بينما أبيدت كل التماثيل التى أقامها النظام السابق فى كل أنحاء العراق..

ولهذا التمثال قصة تقول: إن عدنان خير الله قد أنقذ حياة أحد رجال الدين الشيعة المعروفين واسمه الدكتور أحمد الوائلى عندما طلب منه فى السر أن يترك العراق، لأن صدام كان قد قرر قتله... ولهذا لم يقترب أحد من تمثال عدنان ولم يمسه بسوء.

وعلى كل حال فالتمثال لا يوحى بشىء هام بل الجسر الهرم الموحش هو موضع الذكرى الحزينة الموحية للخواطر.

لقد كان هذا الجسر هو المسرح الذى جرت فوقه المذبحة الشهيرة عام ١٩٤٨ والمعروفة بمذبحة الجسر ويسميها البعض انتفاضة الجسر وكانت تلك المذبحة قبل وقوعها عبارة عن مظاهرة للاحتجاج ضد إبرام معاهدة بورتسموت التى وقعها النظام الملكى مع إنكلترا والتى اعتبرتها الحركة الوطنية بأنها معاهدة استعمارية تمس باستقلال البلاد... وقد أصرت الشرطة فى ذلك اليوم على منع المظاهرة من عبور الجسر بينما أصر المتظاهرون على عبور الجسر وعندما امتلأ الجسر بالبشر وغصت جوانبه بالمتظاهرين انهمر رصاص الشرطة على المتظاهرين دون رحمة ودون توقف.

ومنذ خطواتى الأولى التى بدأتها فوق الجسر بدأت أتذكر ما قرأته قديماً من كتابات ونصوص فى وصف مذبحة الجسر كان أحدها يقول: «وما أن وصلت صفوفهم الأمامية بالكاد إلى الضفة الغربية حتى فوجئت بنيران لا رحمة فيها أطلقت عليهم من فصيل عربات مدرعة... وقتل العديد من المتظاهرين على الفور أو جرحوا... وكان نزيف الجماهير مريعاً وتناثرت الجثث فى كل مكان وكان بعضها معلقاً على سور الجسر وسقط بعضها الآخر تحت الجسر وجرفه التيار...». ودون إرادة منى وجدت نفسى أتحسس سور الجسر بيدى وأقترب من طرف السور لألقى نظرة إلى الأسفل البعيد وأسمع هدير الماء المرعب لنهر دجلة تحت الجسر الشاهق، فلعل هنا فى هذا الموضع بالضبط وحيث تمسك يدى بالسور مات أولئك العراقيون الوطنيون وتعلقت جثثهم على هذا السور فى عام ١٩٤٨ عندما خرجوا للاحتجاج على المعاهدة السياسية التى وقعها النظام مع بريطانيا... لقد كانت تلك المذبحة أحد الدواعى الهامة التى تسببت فى ذلك التمرد العسكرى الهائل الذى قاده الجيش العراقى بعد ذلك بعشر سنوات ليفجر ثورة العراق عام ١٩٥٨ التى سحقت النظام الملكى بأكمله وأبادت أكثر المسئولين من مؤيديه وأتباعه...

إن العنف الدموى فى العراق يتوالد ويتضاعف بمتوالية مرعبة تتواصل فيها المقدمات بالنتائج فى دوران تصاعدى مخيف لا يتوقف عبر السنين والقرون...

وفى الطرف الآخر من الجسر على الضفة الأخرى كان يلوح أمام ناظرى بناء المدرسة المستنصرية وهو بناء عباسى أنشأه الخليفة المستنصر بالله العباسى ولا أعلم كيف استطاع هذا البناء أن يفلت من موجات الدمار الشامل المتكرر التى تعرضت لها بغداد... ولعلها المصادفات وحدها هى التى أبقت هذا البناء واقفاً حتى اليوم...

كانت المدرسة المستنصرية تقف على طرف النهر تتفرج صامتة وهى جاثمة عند نهاية الجسر على جهة اليمين ولعلها مثلى تستذكر وتستعرض الأحداث وتفكر بما جرى ويجرى لكنها أطول منى عمراً بمئات الأضعاف فهى لابد أن تستذكر ليس مجزرة الجسر التى نفذتها شرطة النظام الملكى عام ١٩٤٨ الميلادى فحسب بل حتى مجزرة المغول التى نفذها هولاكو فى ذات المكان عام ١٢٥٨ للميلاد عندما اجتاح بغداد وقتل المستعصم آخر الخلفاء العباسيين وأحرق المدينة وأقام فيها المذابح والخراب.

كانت خطواتى رتيبة ومتسارعة بعض الشىء بسبب الخوف من انفجار أو صدام مسلح أو رصاص ينطلق بسبب أو بدون سبب ليقتل أى شخص مبهم بدون سبب وقد أكون أنا ذلك الشخص المبهم...

وفى منتصف الجسر عادت بى

إن العنف الدموى فى العراق يتوالد ويتضاعف بمتوالية مرعبة تتواصل فيها المقدمات بالنتائج فى دوران تصاعدى مخيف لا يتوقف عبر السنين والقرون...

الذكرى لواقعة جزئية مثيرة جرت بين وقائع تلك المذبحة تذكرها الكتابات التى دونت أحداث ذلك اليوم والتى أتذكر منها النص التالى: «بعد دقائق انهمر سيل من طلقات الرصاص ولم يتمكن أحد من عبور الجسر سالماً إلا فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها تدعى عدوية الفلكى أما رفاقها الأربعة الذين كانوا بجانبها وآخرون وراءهم فقد سقطوا. وتوقف إطلاق النار ولم يعد الجسر الآن إلا صدى تمتمات الألم وصرخات الحزن».

لقد انصرف ذهنى للتفكير بمصير تلك الفتاة الصغيرة. عدوية الفلكى وهل ما زالت على قيد الحياة؟ إن عمرها الآن أكثر من سبعين عاماً، ولقد سمعت قبل مدة إن إحدى الإذاعات أو الفضائيات قد أجرت مقابلة مع تلك الفتاة العجوز التى بقيت على قيد الحياة بعد أن أفلتت من بين أصابع الموت صدفة وفى لحظات من الزمن الضائع من عام ١٩٤٨ وعليك أن لا تستغرب إذا عرفت أن الكثيرين فى العراق ممن هم على قيد الحياة قد أفلتوا مصادفة من الموت المنتشر فى كل مكان فى هذه البلاد المسكونة بالعنف والموت القسرى.

وفى زحمة الخواطر والذكريات التى تعبر سريعة فى مخيلتى وأنا مازلت أمشى فوق الجسر القديم تنبهت أن السيارات والناس والمشاة قد أصبحوا مسرعين أكثر وأكثر وكأنهم يريدون مغادرة المكان على عجل ولم يكن هناك ما يستوجب العجلة لكننى تذكرت أن الليل فى بغداد فى هذه الأيام يبدأ عند العصر وقبل مغيب الشمس على غير ما هو معروف فى كل مدن العالم لأن الليل فى بغداد يعنى الخوف والموت والرعب والخطف والتسليب والانفجارات.

لذلك فالليل فى بغداد لا ينتظر حلول الظلام، لقد بدأ الناس يتركون المدينة ويعودون إلى بيوتهم بينما الساعة تقترب من الخامسة عصراً.

منائر سعيد بن جبير الشاهقة

كنا متجهين بالسيارة من بغداد إلى البصرة.. وفى منتصف المسافة يبدأ الطريق يقترب من مدينة الكوت التى هى فى الأصل مدينة بنيت فى الموقع القريب من موقع مدينة واسط التى كانت عاصمة الحجاج والتى ذاع صيتها فى العصر الأموى حيث انطلقت منها كل الجيوش الإسلامية التى فتحت بلدان آسيا فى الشرق وصادف أن الطريق الرئيسى الذاهب إلى البصرة مقطوع بسبب أعطال فى أحد الجسور مما اضطر السائق وهو من أهل المنطقة أن يسلك طريقاً أخرى باتجاه منطقة الغراف والسير بمحاذاة الأهوار الجنوبية.. ومنذ أن بدأنا السير باتجاه السهول المنبسطة الواسعة الشديدة الخصوبة أصبحت المنطقة بمناظرها الفسيحة الساكنة مثيرة وموحية ليس لأنها جميلة وشاعرية بل لأنها كانت تحتضن مدينة واسط عاصمة الحجاج التى انطلقت منها الجيوش العربية باتجاه قارة آسيا بأكملها حتى حدود الصين. إن المنطقة الآن ساكنة هادئة صامتة ليس فيها صليل للسيوف ولا جلبة للجيوش ولا زحامات للقادة والقبائل على دار الإمارة لتقابل أمير العراق ذى السطوة والجبروت الحجاج بن يوسف الثقفى.

وفى مستوى الأفق البعيد فى نهاية أحد الطرق الزراعية الفرعية بدت لنا منائر شاهقة تحيط بقبة زرقاء تتلجلج فى الأفق البعيد وكأنها تغرق بالسراب ثم تطفو...

كان الصمت يلف الجميع داخل السيارة ربما بسبب الخوف الذى يشعر به الجميع حيث تشيع فى المنطقة حوادث التسليب والخطف والقتل... ولم يكن أحد يتحدث داخل السيارة بكلمة واحدة...

وفجأة قطع السائق ذلك الصمت قائلاً: يا أستاذ: (موجهاً الكلام لى) هل شاهدت تلك المنائر البعيدة؟. قلت: نعم...

قال: هذا مقام الصحابى سعيد بن جبير. صحت بدون تردد: توقف أرجوك وخذنى إلى هناك. قال: يا أستاذ لا أستطيع... المنطقة خطرة وفيها تسليب وقتل وخطف والوقت جاوز الظهر، ويجب أن نصل قبل المغيب..

قلت: أرجوك توقف وخذنى إلى هناك!.. ورضخ لإصرارى ورجائى وعندما كانت السيارة تتجه نحو قبر سعيد بن جبير الصحابى المفكر الفقيه المسالم الذى أعدمه الحجاج ظلماً كنت أستجمع ذاكرتى لعلى أتذكر ما كان يقوله الحجاج وفق ما تنقله المصادر قبل وفاته ندماً على إعدامه لابن جبير حيث تجمع الروايات أن الحجاج عندما مرض مرضه الأخير الذى توفى فيه كان يرى سعيد بن جبير كل يوم فى المنام وهو يعاتبه ويلومه عما فعله به وبالناس من ظلم ومظالم وتذكر الروايات أن الحجاج كان يردد أمام زواره أنه خائف كيف سيواجه سعيد بن جبير يوم القيامة، وكيف سيتحمل وزر دمه وكان يلهج بهذه الكلمات حتى وفاته...

وكان سعيد بن جبير الرجل التقى الورع المسالم ينصح الحجاج ويلومه ويوجهه دائماً ويحاول أن يثنيه ويمنعه عن المظالم وقتل الناس وسفك الدماء لكن الحجاج لم يستجب.. وحين أثيرت الشبهات والوشايات عن تعاطف بن جبير مع ثورة عبد الرحمن ابن الأشعث التى كادت أن تطيح بحكم الحجاج والتى سحقها الحجاج فيما بعد بمعركة دير الجماجم وقتل جميع المشتركين فيها لم يتردد عن استدعاء سعيد بن جبير وإعدامه على الظن وبقرار متسرع.

بعد انتهائنا من زيارة ضريح ابن جبير ذى القبة الكبيرة والمنائر العالية. كان من البديهى أن أسأل ويسأل كل إنسان.. وأين قبر الحجاج؟.. كان الجواب ليس للحجاج قبر وبالفعل ليس للحجاج قبر فى العراق... عاد الصمت سيد الموقف.. وكان من الطبيعى أن أصمت طويلاً بعد ذلك الجواب الصاعق ونحن نواصل سيرنا متجهين نحو مدينة العمارة على تخوم الأهوار الموحشة لأن المفارقة الصارخة كانت أكثر تعبيراً عن أى كلام يمكن أن يقال... فهذا ما بقى من الحجاج وحكم الحجاج...

يوم الجمعة ببغداد

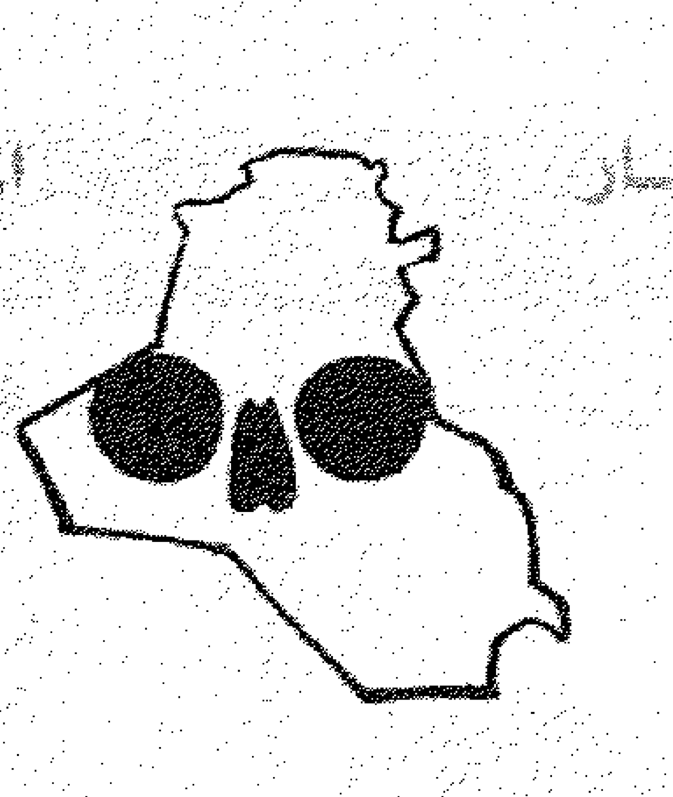
فى العراق يمكنك أن تواجه الخراب وأخبار الموت وقد عششت حتى فى الهوامش وفى الثنايا الحياتية الصغيرة.

شارع المتنبى فى بغداد يتحول يوم الجمعة إلى مهرجان للكتب ويباع فيه كل شىء حتى المخطوطات الثمينة المنهوبة والمسروقة... كنت فى ذلك السوق وكنت عائداً من الخارج وأنا محكوم بالإعدام غيابياً من قبل سلطات النظام الذى رحل والذى أصبح يسمى بالبائد وقعت عينى على كتاب بعنوان: (مذكرات الفريق طونزند) مطروحاً على الأرض ولا أحد يلتفت إليه فاشتريته فوراً والفريق طونزند هو قائد الحملة البريطانية لاحتلال العراق عام ١٩١٤ والذى أسرته القوات العثمانية فى معركة الكوت جنوب بغداد واقتيد مشياً على الأقدام إلى الأستانة وتعرض لأنواع من الشدائد والمخاطر، أما مؤلف الكتاب فهو اللواء حامد أحمد الورد كان ضابطاً مقرباً من النظام ثم أعدمه النظام كغيره ممن أعدموا... لكن المفارقة المثيرة أن هذا اللواء وعند انتهائه من تأليف الكتاب وقبل أن يلقى مصيره كان قد أهدى نسخة من الكتاب بخط يده وهى ذاتها النسخة التى وقعت بين يدى صدفة وقدمها إلى الفريق حسين كامل وزير الدفاع وزوج ابنة الرئيس صدام حسين وهو الرجل المعروف الذى صال وجال فى العراق ثم أعدم وقطعت رأسه فى بغداد أيضاً... وهكذا اجتمعنا نحن الأربعة فى هذه اللحظة أنا المحكوم بالإعدام ومازلت حياً بالصدفة وطونزند الذى لاقى ما لاقى منذ دخوله إلى العراق ومؤلف الكتاب المعدوم والمهدى له الكتاب حسين كامل المعدوم ومقطوع الرأس أما خامسنا فهو الكتاب ذاته المنهوب من أحد البيوت أو القصور التى انقلب الزمان على أهلها فى العراق الذى مازال يدور ويدور فى دوامة العنف والموت والانقلابات منذ خمسة آلاف سنة. (وللأسف تعرض شارع المتنبى فى مارس الماضى لتفجيرات دموية راح ضحيتها العشرات واختلطت دماؤهم بحبر الكتب التاريخية والفريدة.. المحرر).

أخبرك يا بدر...
خرب المهربون قرية جيكور

فى البصرة وبعد أن زرت بيت بدر شاكر السياب المهجور والمهمل فى النسيان فى بساتين أبى الخصيب جنوب البصرة ذهبت لقبر السياب الموجود قرب ضريح الحسن البصرى بمقبرة الزبير بن العوام وأخبرته بأن المهربين قد أنشأوا ميناء للتهريب على شط العرب قريباً من جيكور القرية التى طالما تغنيت بها وتنقلت صيتها لكل أنحاء العالم... فمعذرة يا بدر لا نستطيع أن ندعو أحداً لزيارة جيكور فكل شىء هناك يغرق فى الخراب...

إذا أردنا أن نقدم الأدلة ونسوق الأمثلة على تواصل العنف الدموى فوق أرض الرافدين عبر قرون عديدة، فبإمكاننا أن نستعرض عدد المرات التى سقطت فيها مدينة بغداد أو تعرضت فيها للاحتلال منذ تأسيسها عام ٧٦٢ ميلادية وحتى سقوطها الأخير على يد الأمريكان فى عام ٢٠٠٣ للميلاد رغم أن عمر مدينة بغداد منذ تأسيسها وحتى اليوم لا يزيد عن خمس المدة التى نريد أن نرصد فيها أحداث العنف الدموى فى بلاد الرافدين والبالغة خمسة آلاف سنة.



إن مدينة بغداد التى أنشأها الخليفة المنصور عام ٧٦٢ م / ١٥٤ هـ قد سقطت إحدى وعشرين مرة وفى كل مرة تعاد فيها وعلى نحو متكرر ذات المشاهد والوقائع والمآسى والمصائب وتكاد كتب التاريخ تكرر ذات الكلمات والعبارات التى تصف الأحداث المحزنة والمشاهد فالروائح الكريهة المنبعثة من الجثث الآدمية المكدسة فى الشوارع والأزقة والساحات والحرائق المشتعلة فى جميع الأحياء وأعمال النهب والسلب والسطو المسلح تشاهد فى كل مكان من المدينة، بينما الدمار والخراب يشمل المساكن والمنازل والمقرات الحكومية فى الوقت الذى تتحول فيه المدينة إلى ساحة حقيقية للمعارك الطاحنة التى تسفر فى نهاية الأمر عن منتصرين جدد يصرون على الانتقام والثأر وهم يبحثون عن رجال الحكم السابق وأتباعهم وأنصارهم السابقين الخائفين المنهزمين المختفين فى بيوت المدينة وحاراتها وفى كل مرة عندما يجلجل صوت العنف والموت فى أرجاء المدينة يغيب ويسكت فيها صوت الرحمة والشفقة والتسامح والتآخى... وتخصص الجوائز والمكافآت الثمينة لمن يدلى بمعلومات عن المختفين والهاربين الذين تطلب رؤوسهم. وفى ذات الوقت يشيع بين العامة الحماس والنشاط لارتكاب المظالم فتكثر الوشايات الكيدية وتنشط الإخباريات المغرضة من أجل التنكيل والاقتصاص من الهاربين المحسوبين على النظام السابق الذى يسمونه عادة بالنظام البائد وفى العراق اليوم هناك خمسة أنظمة يسمى كل واحد منها بالنظام البائد ابتداءً من النظام الملكى وانتهاءً بنظام الرئيس صدام حسين..

وخلال الفوضى والتغيير يجرى فى كل مرة نهب المؤسسات العامة وتدمير الكنوز والآثار والشواهد الثمينة.

إن هذه المشاهد وهذه الوصوفات قد تكررت أكثر من عشرين مرة فى بغداد منذ تأسيسها.

ولعل من المفيد أن نذكر بأن سقوط بغداد على يد المغول بقيادة هولاكو لم يكن هو السقوط الأول بل هو السقوط الثانى حيث إنها سقطت فى المرة الأولى على يد المأمون ابن الرشيد الذى كان ولياً للعهد ووالياً على خراسان وبعد أن استفحل الخلاف بينه وبين أخيه الأمين الذى أزاحه عن ولاية العهد زحف المأمون على المدينة بجيشين وطوقها من كل جانب وضربها بالمنجنيق وأقام الحرائق فيها ودام حصاره لبغداد مدة عام كامل وفى النهاية استسلم الخليفة الأمين وابن الرشيد أيضاً الذى كان بداخل المدينة وطلب مقابلة أخيه المأمون لعله يجد طريقاً للصلح، لكن قائد الجيش الذى كان يطوق بغداد طاهر بن الحسين رفض ذلك وقتل الأمين وقطع رأسه وأرسل الرأس للمأمون واجتاح المدينة فسقطت بغداد لأول مرة بقوة الجيش القادم من الخارج...

وكان ذلك عام ٨١٣ ميلادية أى قبل سقوطها على يد المغول والذى جرى عام ١٢٥٨م بأربعمائة وخمسة وأربعين عاماً... ثم توالت السقوطات حتى كان آخرها فى عام ٢٠٠٣ للميلاد على يد الجيش الأمريكى ودول التحالف...

وهناك مؤشر أو دليل آخر يؤكد تواصل منهج العنف الدموى فى بلاد الرافدين ذلك هو أن الغالبية العظمى من حكام العراق قد ماتوا قتلاً ولم يموتوا موتاً طبيعياً أو على الفراش عدا بعض الاستثناءات القليلة النادرة. وهذا الأمر ينطبق على جميع الذين تولوا الحكم فى بلاد الرافدين ابتداء من الحاكم السومرى لوكال زاكيزى الذى حكم عام ٢٣٦٥ قبل الميلاد وحتى صدام حسين. كما أن جميع قادة المذاهب الإسلامية ورواة الحديث والشعراء والأدباء يتعرضون للعنف الدموى العراق. وفى صفحة محزنة من التاريخ العراقى يمكننا أن نرصد من خلالها ما تعرض له عدد كبير من قادة المذاهب الإسلامية والأئمة ورواة الحديث والشعراء والكتاب والأدباء من اضطهاد وتنكيل وقتل وسجن واغتيالات. ولعل ما يلفت النظر ويؤكد القناعة بشمولية منهج العنف فى وادى الرافدين هو أن ذلك الاضطهاد والتنكيل وقطع الرقاب لم يقتصر على مذهب أو اتجاه أو رأى أو اجتهاد دون آخر بل شمل جميع المذاهب والاجتهادات على تباينها واختلافها ويمكننا أن نستشهد بمقتل الزبير بن العوام وطلحة فى البصرة ومقتل الإمام على بن أبى طالب فى الكوفة وجرح الإمام الحسن بن على وتعرضه للتطاول والإهانة فى الكوفة ومقتل الإمام الحسين بن على فى كربلاء ومقتل سعيد بن جبير فى واسط وتعرض الصحابى عبد الله بن عمر بن الخطاب للتهديد بالقتل فى الكوفة ومقتل زيد بن على بن الحسين مؤسس المذهب الزيدى وإرسال رأسه إلى الشام وصلب جثته بالكوفة، وكذلك مقتل مصعب بالزبير وقطع رأسه فى العراق ومقتل إبراهيم بن عبد الله وهو من أحفاد الإمام الحسن بن على بالبصرة وإعدام الإمام أحمد بن نصر الخزاعى أبرز رواة الحديث فى العصر العباسى...

أما قادة المذاهب الإسلامية الأربعة الكبرى المعروفون فقد تعرضوا جميعاً دون استثناء إلى صنوف الأذى والقهر والإذلال والإهانة والتعذيب ولم يسلم أحد منهم من ساطور العنف فى العراق. فالإمام أبو حنيفة النعمان بن بشير(٧٠٠ . ٧٦٧م) قد تعرض إلى الإهانة والجلد والحبس فى العراق بأوامر من مروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية لأنه رفض أن يتسلم منصب القضاء، كما أن المنصور العباسى وضعه فى السجن حتى وفاته عام ٧٦٧م. أما الإمام مالك بن أنس الأصبحى (٧١٣ . ٧٩٥م) وهو مؤسس المذهب المالكى فقد أهين بالجلد والحبس أيام الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور لأنه أفتى بجواز الخروج على بيعة المنصور. أما الإمام الشافعى محمد بن إدريس الشافعى (٧٦٧ . ٨٢٠ م) وهو مؤسس المذهب الشافعى فقصته المثيرة تتلخص بما يلى: بعد القضاء على ثورة العلويين التى انطلقت فى مكة أيام هارون الرشيد جىء بعدد من الأسرى وأحضروا أمام الرشيد فأمر بقطع رؤوسهم جميعاً غير أن الفضل بن الربيع وزير هارون الرشيد طلب من الرشيد أن يعفى أحد هؤلاء المعتقلين قائلاً للخليفة: يا مولاى أتأذن لى بهذا؟، قال له: خذه، فأخرجه الفضل بين الربيع وأبعده جانباً ثم قطعت رؤوس الآخرين على الفور... كان ذلك الرجل الذى استثناه الربيع من الإعدام فى تلك اللحظة الحاسمة هو الإمام الشافعى..!!. وبعد نجاته من ذلك المغطس الدموى العراقى هاجر الإمام الشافعى إلى مصر وعاش فيها حتى وفاته ودفن فى الفسطاط وفيها قبره. أما الإمام أحمد بن حنبل (٧٨٠ . ٨٥٥ م) وهو مؤسس المذهب الحنبلى وإمام المحدثين فقد أهين بالضرب والحبس أيام المعتصم بعد أن رفض القبول بنظرية خلق القرآن التى شاعت فى العصر العباسى.

أما الشعراء فقد شملهم التنكيل والقتل فى العراق على نطاق واسع وللاستشهاد نذكر من أولئك الشاعر طرفة بن العبد الذى قتله الملك عمر بن هند حاكم العراق فى الحيرة قبل الإسلام والشاعر أعشى همدان الذى قتله الحجاج فى الكوفة والشاعر الكميت بن زيد الأسدى الذى قتل فى بلاط حاكم العراق يوسف بن عمر الثقفى فى الكوفة فى عهد الأمويين والشاعر سديف بن ميمون الذى قتل بأمر الخليفة أبى جعفر المنصور والشاعر بشار بن برد الذى قتله الخليفة المهدى ثم بكى عليه بعد أن تأكد من براءته من تهمة الزندقة والشاعر أبو نخيلة الذى قتله عيسى بن مدى ولى عهد الخليفة المنصور والشاعر بن الرومى الذى قتله الوزير العباسى القاسم بن عبيد الله بالسم والشاعر صالح بن عبد القدوس الذى قتله هارون الرشيد والشاعر دعبل الخزاعى الذى هجا الخلفاء العباسيين فقتلوه والشاعر على بن جبلة الذى قتله الخليفة المأمون بقطع لسانه من الحنجرة، والشاعر المتصوف الحسين بن منصور الحلاج الذى أعدمه الواثق بجلده ألف جلدة وقطع يديه ورجليه ثم قطع رأسه وإحراق

كانت خطواتى رتيبة ومتسارعة
بعض الشىء بسبب الخوف من انفجار
أو صدام مسلح أو رصاص ينطلق بسبب أو بدون
بسبب ليقتل أى شخص مبهم بدون سبب
وقد أكون أنا ذلك الشخص المبهم



جثته وإلقاء الرماد فى نهر دجلة، والشاعر المتنبى الذى قتل ونهبت أمواله وخيله وحاجياته والشاعر الفضل بن سهل وزير المأمون الذى اغتاله الخليفة المأمون ذاته والشاعر محمد بن عبد الملك الزيات الذى قتله المتوكل داخل تنور من حديد وإلى آخره.

أما الكتاب فتعرض عدد كبير منهم للقتل وقطع اللسان.

إن أولئك الذين ذكرناهم لم يعيشوا فى عصر واحد ولم ينتموا إلى مذهب واحد أو رأى أو موقف أو فكر واحد فأى عنف دموى شمولى يجلجل فى العراق ذلك العنف المتواصل الذى سحقهم جميعاً بعجلاته الشرسة التى لا ترحم؟ عبر كل تلك القرون.

وإضافة إلى ذلك فإن عدداً غير قليل من أولئك القادة والأئمة لم يسلم من الأذى والاعتداء حتى بعد مماته فقد روى أن جثمان الإمام على قد نقل من قبره إلى قبر آخر حتى لا يتعرف الخوارج على مكانه خوفاً أن ينبشوه ويعبثوا به، أما قبر الحسين بن على فقد هدمه الخليفة المتوكل بعد ما يقرب من مائة وسبعين عاماً من استشهاده.

أما قبر الإمام أبو حنيفة النعمان بن بشير فقد هُدِم وخُرِب وأُزيل من الوجود فى بغداد بعد وفاته بحوالى ثمانمائة وخمسين عاماً (٨٥٠ سنة) وكان ذلك فى عام ١٦٢٣.

كما تعرض قبر الشيخ عبد القادر الكيلانى للهدم والتخريب والاعتداء وقد تم تحويله فى فترة من الفترات إلى إسطبل للحيوانات كذلك هُدِم قبر طلحة وقبر الزبير بن العوام فى البصرة فى القرن الثامن عشر للميلاد بعد أكثر من ألف عام على وفاتهما...

غير أن تلك القبور التى تعرضت للإهانة قد أعيد بناؤها وعلى نحو مبالغ فيه من التقدير والإجلال والتعظيم والاحترام وفى فترات متفاوتة أخرى من الزمن... فقد أعيد بناء تلك الأضرحة والقبور وأقيمت فوقها مراقد ومزارات فخمة عظيمة تعتبر من آيات الفن الإسلامى والهندسة المعمارية وصور فائقة للإبداع والزخرفة الهندسية فى العالم. إن عظمة المقامات الموجودة الآن فى العراق وفخامتها مثل مقام الإمام على بن أبى طالب فى النجف والإمام الحسين فى كربلاء ومقام أبى حنيفة النعمان والشيخ عبد القادر الكيلانى وموسى الكاظم فى بغداد ومقام طلحة والزبير بن العوام فى البصرة وغيرها كثير ما هى إلا شواهد تؤكد فى وجه من الوجوه صورة التناقض والازدواجية فى معالم الشخصية العراقية ببعدها الاجتماعى والنفسى والسلوكى تلك الشخصية المتسرعة المسرفة فى سيرها المتناقض نحو البغض والمحبة، نحو الانتقام والتسامح، نحو القسوة والرقة، نحو البخل والكرم، نحو الهدم والبناء، نحو الموالاة والرفض... وقد لخص الشاعر العراقى محمد مهدى الجواهرى كل ذلك ببيته المشهور عندما قال:

تريك العراقى فى الحالتين
مسرفٌ فى شحه والندى

انعكاسات منهج العنف الدموى
المتوارث على ثقافة الفرد العراقى
وبنيته السلوكية المعاصرة

ما أصعب الكتابة تحت هذا العنوان وبالأخص على كاتب عراقى يريد أن يقول الحقيقة ويرفض أن يكتب فى الكذب والرياء والتدليس والدجل والعنجهية.

ولعل السعى نحو إيجاد المخرج والحلول اللازمة للمصائب الراهنة هو العذر والعزاء الذى يسوغ لنا التفتيش والتنقيب والكتابة فى طبيعة البنية النفسية والسلوكية والفكرية للفرد العراقى والتدقيق فى الجذور التاريخية لثقافته وآرائه ونزعاته بوضوح وبتشخيص محايد.

فإذا نحن اليوم دققنا فى سلوك الفرد العراقى المعاصر وفى بنيته النفسية بتبصر وحرص وموضوعية شديدة سنجد عدداً من المزايا الإيجابية الجيدة فى هذه الشخصية الإشكالية، مثل الكرم الفائق والطيبة والشجاعة والوضوح والجدية والقدرة الاستثنائية على إتقان المهارات الصعبة والفنون الحياتية الدقيقة والمعقدة، وكذلك السرعة فى تلقى واستيعاب الخبرة العالية فى الاختصاصات المهنية والعلمية والفكرية، إضافة إلى الصلابة وقوة الاحتمال والتماسك الذاتى أمام المحن والشدائد.

لكننا فى ذات الوقت سنجد بين تلك الصفات الجيدة والإيجابية صفتين سلبيتين بارزتين خطيرتين تلازمان وترافقان الإنسان العراقى فى سلوكه ويومياته وثقافته الاجتماعية والسياسية، وهما:

أولاً ـ صفة النزعة الفردية:

وتتمثل هذه الصفة بمجموعة من المفردات نجدها واضحة فى سلوك وتصرفات الفرد العراقى مثل التسرع الانفعالى المباشر فى رد الفعل، والتفرد فى اتخاذ القرار حتى فى القضايا المصيرية، الميل لانتهاج أسلوب المواجهة والتحدى عند امتلاكه وسائل القوة القاهرة، حدة فى الطبع وافتقاد المرونة وضعف القدرة على التواصل مع الفرقاء والعزوف عن الاستمرار فى التفاعل مع الآخرين عند ظهور بوادر ودلائل الخلاف والتباين معهم فى المواقف والآراء، الميل الفطرى والرغبة القهرية نحو التظاهر بالقوة والسطوة والغلبة عند تحقيق النجاح أو الانتصار، الميل الدائم لإظهار المبالغة فى الكرم الفردى وبالأخص فى الولائم الجماعية لاستجلاب الاهتمام وتكريس مظاهر الذات الفردية وتأكيد قوة ومكانة الذات الشخصية.

ثانياً ـ القسوة والميل للحسم بوسائل العنف الدموى:

وهى الصفة التى نطلقها تعويضاً عن مجموعة من المفردات المتفرقة والمعانى المختلفة فى المدلولات السلوكية التى تصادفنا فى تصرفات الفرد العراقى اليومية بشكل عام فهو فى الغالب ميال للحزم والحسم فى كل الأمور وبسبب ذلك فهو أقرب إلى حالة التذمر وعدم الرضى. كما أنه سريع الاستثارة، شديد الغضب، متطرف فى رد الفعل، ثأرى النزعة مع مبالغة فى الاقتصاص، يكره الحلول التصفية أو التوافقية ويراها من دلائل الضعف والميوعة، يفضل الحسم للوصول إلى النتائج ولو بمحصلة ضعيفة، واضح ومباشر فى عرض مطالبه ولا يجيد المناورة، وهو مفاوض غير بارع فى استحصال حقوقه بالوسائل السلمية لأنه قصير النفس فى الحوار والإقناع، وشديد التطير تجاه التحدى أو مواقف الغدر والاستغفال الموجهة ضده وفى هذه الحالة يلجأ دون تردد للانتقام والعنف والاقتصاص الشرس والتنكيل المفرط، كما أن استعمال القوة والعنف بما فى ذلك العنف الدموى هو أفضل أشكال استرداد الحقوق لديه دون النظر إلى النتائج مهما كانت ولعله لا يتبصر بالعواقب ولا يهتم بها ولا يحسب لها حساباً حين لجوئه لاستخدام العنف، وعندما يستخدم العنف غير الضرورى وغير المبرر فإنه يوجد لنفسه المتعالية التبريرات والأعذار والدوافع الأخلاقية لتفسير سلوكه غير اللائق.

غير أننا لابد لنا من الإشارة أن هاتين الصفتين، صفة النزعة الفردية وصفة القسوة والميل للحسم بوسائل العنف الدموى قد لحقتا بالإنسان العراقى والتصقتا به كنتيجة للظروف الخارجة عن ذاته وإرادته بسبب التاريخ المشحون بالأحداث الدموية والمجازر المتواصلة على مدى قرون عديدة. لذلك فهما ليستا ـ فى الغالب ـ صفتين فطريتين فى طبعه، بل صفتان مكتسبتان دخيلتان عليه لكنهما طبعتا سلوكه العام بطابعهما ودخلتا فى بنيته النفسية والروحية بالتدريج بسبب تواصل تطبيق المنهج الدموى للدكتاتوريات الحاكمة المتعاقبة فى العراق. فالنزعة الفردية وصفة العنف الدموى هما الصفتان البارزتان اللتان كانتا أكثر حضوراً فى التاريخ العراقى على مدى خمسين قرناً، لذلك فإن الفرد العراقى ما دام وريث تلك الثقافة فهو تربة مناسبة وخصبة لنمو وظهور صفات ومعالم الشخصية الدكتاتورية ولعل العراقى المعاصر لا يعى هذه الحقيقة ولا يدركها ولا يعترف بها وربما ينكرها ويستغربها ويستبعدها عن ذاته لكنها

مدينة بغداد التى أنشأها
الخليفة المنصور عام ٧٦٢ م / ١٥٤ هـ
سقطت إحدى وعشرين مرة وفى كل مرة تعاد
فيها وعلى نحو متكرر ذات المشاهد
والوقائع والمآسى والمصائب

كتاب الزاوية

رسائل فارسية

مدينة مسيحية

أبحرنا أربعين يومًا وصلنا فيها إلى ليفورن، وهى مدينة جديدة وهى دليل على عبقرية دوقات توسكانيا الذين جعلوا من قرية مملوءة بالمستنقعات أعظم مدن إيطاليا ازدهارًا.

والنساء فيها يتمتعن بحرية واسعة: إنهن يستطعن رؤية الرجال من خلال بعض النوافذ التى تسمى غَيْرات (Jalousies): ويستطعن الخروج كل يوم مع بعض العجائز: ولا يضعن على وجوههن إلا قناعًا شفافًا (لا يستر ما وراءه سترًا تامًا) وإخوان أزواجهن وأعمامهن وأخوالهن والأحفاد يستطيعون رؤيتهن، دون أن يستنكر الزوج من ذلك شيئًا.

إنه لمشهد رائع أن يرى مسلم لأول مرة مدينة مسيحية. ولن أتحدث عن الأشياء التى تسترعى الانتباه كاختلافنا فى المبانى والملابس والعادات الأساسية: إن فى جميع ما أرى حتى فى التنزهات شيئًا طريفًا يجعلنى أشعر شعورًا غريبًا لا أستطيع التعبير عنه.

سنرحل غدًا إلى مرسيليا، ولن نطيل فيها الإقامة، وخطتى أنا وريكا أن نتجه بلا توقف إلى باريس التى هى قاعدة الإمبراطورية الأوروبية.

إن المهاجرين يؤمون دائمًا المدن الكبيرة التى تعتبر كموطن عام لجميع الأجانب. وداعًا. وكن على يقين من أننى مقيم على حبك.

من ليفورن فى ١٢ من شهر صفر سنة ١٧١٢.

التغيير الحاد فى المزاج والتقلب المفاجئ غير المتوقع فى المواقف والنزوع الدائم شبه القهرى نحو التمرد والانشقاق ونقض العهود والخوض فى وقائع حدثت وحصلت كثيراً فى التاريخ العراقى

تبدو مفروضة عليه عندما تنعكس عفوياً وتلقائياً وعلى نحو لا إرادى فى سلوكه وتصرفاته اليومية سواء على الصعيد الاجتماعى أو السياسى.

ولعل هذا الوصف والتحليل بما احتوى من قسوة أو شراسة يمكن أن يساعدنا على تفسير كل التصرفات والمواقف العامة أو الخاصة التى اتخذها ويتخذها العراقيون الحكام أو الأفراد أو الجماعات فى شتى المواضيع والمجالات فى الحاضر والماضى والتى بدت للكثيرين منّا بأنها غريبة واستثنائية أو متناقضة وغير معقولة أو لعلها خارج المنطق والمألوف.

إن توارث مثل تلك الوصوفات المتنافرة واجتماعها فى شخصية واحدة لابد وأن يخلق منها شخصية إشكالية وازدواجية شرسة متمردة وحادة ومتقلبة المزاج ومثيرة للحيرة وطموحه جموحة فى أغلب الأحيان.

ما قيل فى العراق والعراقيين

وبناء على ما ذكرناه فى الفقرات السابقة فقد حيرت هذه الشخصية العراقية الإشكالية المزدوجة العنيدة الصعبة المستعصية المتقلبة الكثير من الحكام والقادة والملوك والخلفاء والأمراء والكتّاب والمفكرين والغزاة والمحتلين.. فعجزوا عن فهم هذه الشخصية أو ترويضها كما عجزوا عن تفسير الكثير من مواقفها السلوكية والنفسية المثيرة والمفاجئة، كما أخطأوا فى تقدير أو حساب الكثير من التوقعات والنتائج خصوصاً فى الأحداث الفاصلة أو خلال الانقسامات والانشقاقات والفتن.

فالتغيير الحاد فى المزاج والتقلب المفاجئ غير المتوقع فى المواقف والنزوع الدائم شبه القهرى نحو التمرد والانشقاق ونقض العهود والخوض فى السجالات والخلافات والانشغال فى الجزئيات وتسجيل المواقف والمزايدات فى الأوقات الحرجة الفاصلة هى وقائع حدثت وحصلت كثيراً فى التاريخ العراقى. وكان لها نتائج كارثية غيرت مسار الأحداث وأوقعت المصائب فى كثير من المرات... والمجال لا يتسع هنا لاستعراض العشرات وربما المئات من تلك الوقائع المثيرة والصادمة، لكننا لابد لنا من الاستشهاد ببعضها لكى لا نبقى فى العموميات وفى الإطلاق العام للأحكام غير المفسّرة وغير المحددة. وسنقتطع هنا حيزاً صغيراً لنذكر فيه بعض الشواهد بتركيز مشدد لعلنا نستوفى توضيح الفكرة التى تحدثنا عنها فى السطور السابقة وسنختار الشواهد دون ترتيب زمنى أو عقائدى...

ففى حرب صفين التى تواجه فيها جيشان، جيش معاوية وجيش أهل العراق بقيادة الإمام على بن أبى طالب وعند وقوع خديعة التحكيم التى أدارها معاوية وعمرو بن العاص بدهاء وكفاءة عالية انقسم جيش الإمام على على نفسه فوراً وتوزع إلى كتل وشيع وأحزاب وفرق متناحرة ودخلوا فى سجالات ونقاشات فكرية وبيزنطية عقيمة فاستعصى على الإمام على جمع كلمتهم أو توحيد صفوفهم بأى حال من الأحوال وتدهورت الأمور إلى أسوأ الحالات بسبب المبالغة والغلو حتى اضطر الإمام إلى مقاتلة بعض المنشقين من جيشه من أهل العراق.. وكانت النتيجة فيما بعد اغتيال الإمام على ذاته فى الكوفة وإذا أردنا الاستشهاد بما عاناه الإمام على من أهل العراق فإن علينا أن نستذكر بعض أقواله فى خطبه الكثيرة المشحونة بالغضب والتقريع والأحكام القاسية بحق أتباعه من أهل العراق الذين أتعبوه وخذلوه بعنادهم وفرقتهم وتشتتهم حتى تمنى لو لم يرهم ولم يعرفهم حيث يقول فى إحدى خطبه «لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم، معرفة والله جرت ندماً وأعقبت سقماً، قاتلكم الله لقد شحنتم صدرى غيظاً وأفسدتم علىّ رأيى بالعصيان والخذلان».

أما موقف أهل العراق من تحرك الإمام الحسين وسلوكهم المتناقض والمتقلب تجاهه إنما يمثل ويؤكد مشهد الشخصية المتقلبة المزدوجة فقد نقضوا عهودهم له ورفضوا الوقوف معه أو مناصرتهم له فوجد نفسه محاصراً



ومطوقاً عندما وصل إلى العراق، ولم يجد معيناً أو ناصراً.. وبقية القصة معروفة...

أما ما حصل لمصعب بن الزبير فى العراق فى عام ٦٩٣ ميلادية فلا يخرج كثيراً عما حصل للإمام الحسين وحين وصل خبر مقتله وقطع رأسه إلى أخيه عبد الله بن الزبير فى مكة خطب فى الناس وقال: «وما مصعب إلا عبد من عبيد الله وعون من أعوانى، إلا أن أهل العراق أهل الغدر والنفاق أسلموه وباعوه بأقل ثمن».

كذلك فإن ما حصل لزيد بن على بن الحسين إمام المذهب الزيدى لا يخرج عن هذا الإطار ولا يختلف عن هذه الدلالات حين استجاب لإصرار وإلحاح أهل الكوفة عليه بإعلان الثورة وحين أعلن الثورة وبدأ الصدام مع الجيش الأموى بقيادة يوسف بن عمر تفرقوا عنه وكانت النتيجة مقتله وقطع رأسه...

وقد أثارت النزعة المتناقضة فى الشخصية العراقية تعجب واستغراب الصحابى عبد الله بن عمر حيث تشير الرواية المنقولة عن الترمذى: «أن رجلاً من أهل العراق سأل ابن عمر عن (حكم) دم البرغوث يصيب الثوب فقال ابن عمر: انظروا إلى أهل العراق يسألون عن (حكم) دم البرغوث وقد قتلوا ابن بنت محمد صلى الله عليه وسلم».

والتاريخ العراقى القديم والحديث يعج بمثل هذه الأحداث التى تصب فى هذا الاتجاه وفى العصر الحديث فقد استعصى سلوك التقلب السياسى الحاد فى مواقف السياسيين العراقيين على الكثيرين من الأجانب فأصيب العثمانيون بالذهول من تلك المواقف خلال الحملة الإنكليزية لاحتلال العراق عام ١٩١٤، كما سبب ذلك الحيرة والاستغراب أيضاً لدى الدبلوماسية البريطانية السيدة (مس بيل) التى رافقت الحملة وكانت مستشارة للحاكم البريطانى فسألت الملك فيصل الأول مستفسرة عن أسباب هذا السلوك المتناقض الذى تشهده يومياً عند السياسيين العراقيين الذين لا يستقرون على موقف سياسى واحد.

وإذا أردنا الاستشهاد بما جرى للرئيس العراقى السابق صدام حسين فبإمكاننا أن نقول بأن مَنْ أوشى به ودلّ على مكان وجوده هو أقرب المقربين إليه، بينما كان قابعاً فى تلك الحفرة التى ربما يعجز حتى إبليس عن اكتشافها...

وأخيراً وعلى الرغم من كل ما قلناه وما سمعناه وما عرفناه، وما قاله ويقوله ويعرفه الآخرون عن الشأن العراقى فإن عوامل تقدم ونهوض هذه البلاد العظيمة بشعبها العريق مازالت قائمة وموجودة!..

غير أن ذلك لا يمكن أن يتحقق دون القيام بعملية تثقيف منهجية كبرى تشمل جميع أهل البلاد من أجل تغيير الثقافة الدكتاتورية المتوارثة والمعشعشة فى أعماق الفكر المخزون فى العقل العراقى.

كذلك فإن عوامل وإمكانية توفير الثراء والرخاء والتقدم والسعادة والحرية للشعب العراقى موجودة ومتوفرة من خلال وجود الثروات الهائلة المتعددة المصادر فى العراق ومن خلال التاريخ الحضارى ليس فى رفع المستوى المعاشى والاقتصادى والحياتى لشعب العراق فحسب بل فى تغيير الثقافة السلوكية والنفسية والاجتماعية للفرد العراقى خصوصاً إذا ترافقت ببرنامج منهجى للإصلاح الاجتماعى والنفسى مع أهمية توفير الاستقرار السياسى لفترة معقولة وتوفير الحريات الحقيقية غير المستنسخة وغير الموجهة لا أمنياً ولا حكومياً، وإضافة إلى كل ذلك بل أهم من كل ذلك إقامة سلطة القانون والعدل التى يمكنها أن تفتح المجال وتعطى الفرصة لملايين الزهور المعطرة أن تتفتح وتنمو وتنشر عطرها وجمالها فى كل اتجاه.

كما أن الأصالة العريقة والتراث الحضارى الهائل لهذه البلاد سيشكلان أساساً متيناً لأى نجاح يمكن أن يحققه الشعب والمجتمع العراقى المجاهد. ■

كتــاب الزاويــة

رسائل فارسية

الفرنســيـون

لقد حللنا بباريس منذ شهر، كنا فيه فى حركة دائبة. فالمرء قبل أن يسكن فى حاجة إلى إعداد تام، وإلى أن يجد الناس الذين يتجه إليهم، وإلى أن يؤثث مسكنه بالأشياء الضرورية التى يحتاج إليها دائماً.

باريس كبيرة كإصطفهان، فالمنازل فيها عالية إلى درجة أن الناس يحلفون أنها لم تعمر إلا بالفلكيين. ومن السهل أن تدرك أن مدينة مبنية فى الهواء، فيها ستة بيوت أو سبعة بعضها فوق بعض، غصت بالسكان، إذا خرج جميع سكانها فى الشارع فإنه يضيق بهم.

قد لا تصدقنى فى ذلك، فمنذ شهر من وجودى هنا؛ كنت لا أجد أحدًا يسير فى المدينة. ليس فى الدنيا أناس يستغلون أجسامهم كالفرنسيين، إنهم يجرون، بل يطيرون، فعربات آسيا البطيئة، وخطى جمالنا المنتظمة، تصيبهم بدوار. وأنا الذى لم أتعود مطلقًا هذا الانطلاق، أغدو وأروح على قدمى دون أن أغير مشيتى. أنطلق أحيانًا كما ينطلق المسيحى فلا أكاد أسير حتى أتلطخ من رأسى إلى قدمى، ولا أستطيع أن أغفر ما ينالنى من ضربات الأذرع المتتالية بانتظام. وحدث أن رجلاً كان آتيًا من ورائى، فصدمنى صدمة أدارتنى نصف دائرة، وصدمنى آخر من الناحية الأخرى فأوقعنى فجأة حيث صدمنى الأول، ولم أسر إلا مائة خطوة حتى تحطمت كأنى سرت عشرة فراسخ.

من باريس فى ٤ من ربيع الآخر سنة ١٧١٢

خرافة المزايا النسبية

صلاح العمروسى

تعانى الأغلبية الساحقة من البلدان النامية (عدا دول النمور الآسيوية، والصين، وعدد آخر من البلدان الصناعية الجديدة) من ضعف حاد فى معدلات النمو، وفى المحل الأول فى معدلات النمو الصناعى، وذلك على مدى ما يقرب من ربع القرن.

وهذه فترة طويلة كانت كفيلة فى حالات أخرى. كما فى كوريا وتايوان بشكل خاص. بتجاوز كبير لعوامل التخلف وردم جانب كبير من الفجوة بينها وبين البلدان الرأسمالية الصناعية المتقدمة، أو التحول إلى مصاف البلدان الصناعية الجديدة.

ويكفى أن نذكر أن البلدان منخفضة ومتوسطة الدخل معا (التى تندرج فيها الأغلبية الساحقة من البلدان النامية) لم يتجاوز معدل نمو الصناعة (التى من المفترض أن تمثل القطاع الأكثر ديناميكية فى الاقتصاد) ٣٫٦٪ فى عقدى الثمانينيات والتسعينيات وحتى بداية القرن الحالى.

ولم تكن المؤشرات فى مصر أحسن حالا من ذلك المتوسط العام حيث لم تحقق الصناعة فى العقدين المذكورين سوى ٣٫٣٪، ٤٫٦٪ على التوالى.

وتتضح كم هى فداحة الفرصة الضائعة الناجمة عن ذلك الأداء الفاشل، من المقارنة مع الأداء الناجح، بشكل ملفت للنظر، لبلدان شرق آسيا التى حققت نموا صناعيا عاليا وصل إلى ٨٫٤٪، ١٠٫١٪ فى العقدين المذكورين، ولكن الأداء الصينى كان أكثر لفتا للنظر، حيث وصل إلى ١١٫١٪، ١٣٫١٪ على التوالى (جميع البيانات السابقة مأخوذة من مؤشرات التنمية العالمية World Development Indicators WDI) الصادر عن البنك الدولى).

وبالطبع لا يقتصر الأمر على تلك المعدلات الكمية، فهذه المعدلات لم تكن لتتحقق لولا التحولات النوعية فى تطور الصناعة المحلية، التى تشمل اكتساب قدرات محلية تكنولوجية وعلمية ومعرفية فى سياق التطوير النوعى للهيكل الصناعى من الصناعات الاستهلاكية والخفيفة إلى الصناعات الثقيلة لإنتاج السلع الوسيطة والرأسمالية (أى صناعة الآلات والمصانع).

وهذه الصناعات الأخيرة يطلق عليها الصناعات القاعدية لأنها تمكن الصناعة فى أى بلد من النهوض والتطور على أقدامها الخاصة، ومن ثم التحول إلى ما يسمى البلدان الصناعية الجديدة.

ويلاحظ أن نزعات الاكتفاء الذاتى حينما أحاطت بتجارب التطوير النوعى للهيكل الصناعى والقدرات التكنولوجية قد أضرت فى التحليل الأخير بمحاولات التطوير نفسها، حيث أدت إلى تخلف فى المستوى التكنولوجى عن المستويات العالمية.

ومن هنا ضرورة الاستمرار فى التفاعل الإيجابى مع منجزات البلدان الصناعية الأخرى، لاسيما الأكثر تقدما ورسوخا. ويلاحظ أن هناك بلدانا أخرى مثل الهند والبرازيل والمكسيك الخ، اتجهت نفس الوجهة نحو التحول إلى بلدان صناعية جديدة، وذلك على الرغم من أن منجزاتها كميا ونوعيا كانت أقل زخما عن بلدان شرق آسيا والصين.

وفى المقابل، فإن البلدان العربية والأفريقية، مع بلدان نامية أخرى، تعتبر الأسوأ أداء فى العالم فى مضمار التطور الصناعى، والتى يمكن تصنيف أغلبيتها الساحقة بين ما يسمى «العالم الرابع».

ويكاد يكون هناك إجماع من الدارسين غير المتحيزين على أن الأداء الصناعى والتنموى الناجح فى الأغلبية الساحقة من قصص النجاح الآسيوية، على خلاف مزاعم الاقتصاديين النيوكلاسيك والبنك والصندوق الدوليين، يرجع إلى تدخل الدولة فى الاقتصاد، والذى اتخذ تاريخيا أشكالا عديدة.

وفى المقابل ارتبط الأداء الصناعى الفاشل فى البلدان النامية المشار إليها، بانسحاب الدولة من قيادة التنمية وترك الأمر برمته إلى يد السوق الخفية، وذلك وفقا لبرامج التكيف الهيكلى التى فرضها البنك والصندوق الدوليان على مختلف بلدان العالم النامى.

وتنطلق تلك البرامج من الاعتقاد بأن التجارة الحرة هى محرك النمو لكل البلدان سواء كانت بلدانا متخلفة أو متقدمة، ومن ثم فإن الآليات العفوية للسوق العالمية، أى يد السوق الخفية، هى التى تحدد خصائص التخصص العالمى، الذى يحدد لكل بلد ما ينتجه، أى دوره فى تقسيم العمل الدولى وفقا لنظرية «المزايا النسبية».

وحول هذه النظرية يدور هذا المقال، من أجل إيضاح أن منطقها الداخلى ينطوى على ذلك الفشل الصناعى، أو بعبارة أخرى لم ينجم ذلك عن مجرد أسباب عملية أو عن رداءة الأداء، وإنما نشأ عن أسباب تتعلق بالسياسة الاقتصادية وأسسها النظرية.

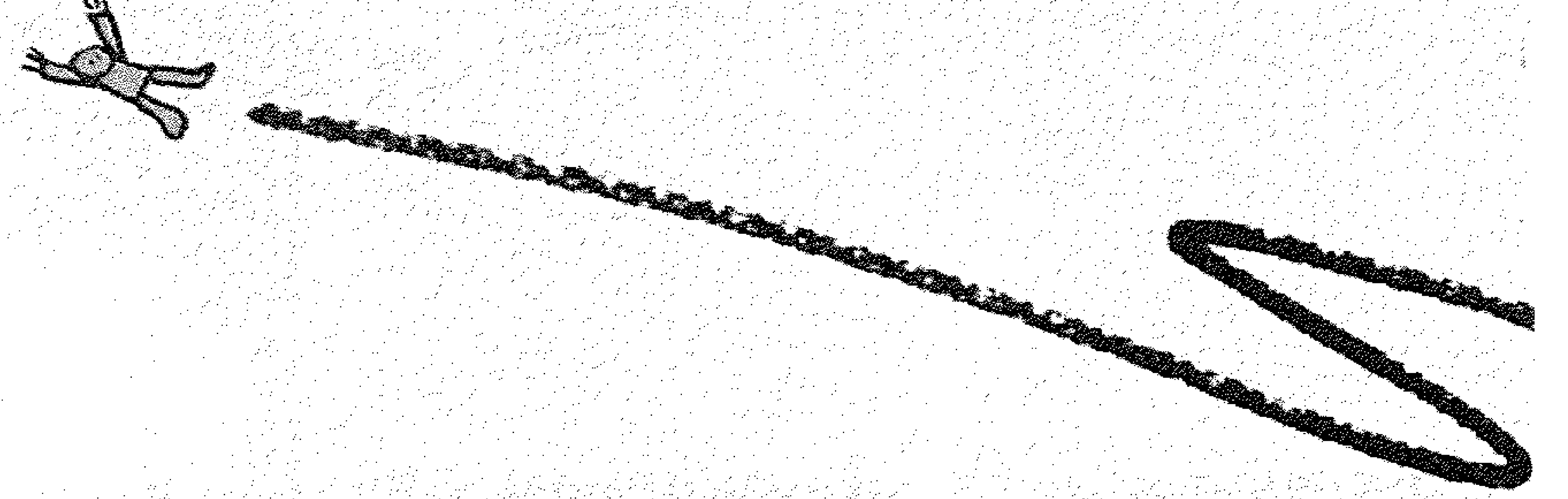
بين المطلق والنسبى

ترجع نظرية المزايا النسبية comparative advantages، فى صياغتها الأولى إلى الاقتصادى الكلاسيكى الشهير ديفيد ريكاردو، قبل أن يدخل عليها اقتصاديو مدرسة النيوكلاسيك تطويرات لاحقة.

وقد يتصور البعض أن تلك النظرية بتعديلاتها تعبر عن حقيقة لا يطولها الشك، على حين أننا لسنا سوى إزاء نظرية من النظريات، بل لعلها تمثل وجهة نظر أيديولوجية تزيف الواقع بأكثر مما تظهر أو تكشف علاقاته الحقيقية، حيث تؤدى إلى تقنيع المصالح التوسعية للرأسمالية المتقدمة التى تستهدف السيطرة على الاقتصاد العالمى.

وكثيرا ما يجرى الخلط بينها وبين نظرية أخرى، أقدم منها، وتتناقض معها فى جانب من جوانبها، ونعنى بها نظرية المزايا المطلقة absolute advantages وهى ترجع إلى آدم سميث الذى ينتمى إلى نفس مدرسة الاقتصاد الكلاسيكى.

وعلى الرغم من أن نظرية المزايا المطلقة، مثلها مثل المزايا النسبية، تروج



وتدافع عن التجارة الحرة باعتبارها محرك النمو، إلا أنها على ما يبدو لم تكن قادرة على تقديم تبرير ملائم لميول السيطرة والهيمنة مثلما فعلت لاحقتها.

لهذا تبنى منظرو النيوكلاسيك نظرية ريكاردو فى المزايا النسبية، وأدخلوا عليها تطويرات فى نفس الاتجاه، على حين تجاهلوا نظرية المزايا المطلقة، وتحدثوا عن أن آدم سميث ليس منظرا كبيرا للتجارة الخارجية.

تنطلق نظرية المزايا المطلقة، من افتراض أن نظرية القيمة/ العمل تنطبق على السوق العالمية بمثل ما تنطبق على السوق الداخلية، لهذا فهى ترى أن تقسيم العمل الدولى والتخصص العالمى، ومن ثم التجارة الدولية، تقوم على التفوق المطلق لكل بلد فى سلع بعينها على سائر بلدان العالم.

فطالما يتمتع بلد ما بتفوق مطلق فى الإنتاجية فى سلعة بعينها، فإنه سيكون قادرا على إزاحة البلدان الأدنى إنتاجية من السوق العالمية فى ظل سيادة حرية التجارة.

ويؤدى مثل ذلك التخصص العالمى، القائم على تلك الأسس، إلى فائدة متبادلة لكل الأطراف المشتركة فى السوق العالمية، حيث إن كل بلد سينفق وقت العمل بفعالية قصوى، وسيوفر الوقت الذى كان يهدر فى إنتاج سلع بفعالية متدنية، ومن ثم يوجهها إلى إنتاج المزيد من السلع التى يتفوق فيها، ومن ثم تكون أرخص.

وهكذا متى سادت حرية التجارة فإنه سينشأ تخصص عالمى يتوافق مع تلك المزايا المطلقة لكل بلد، وفى مثل هذه الحالة سينتج كل بلد، ومجموع البلدان بالتالى، سلعا أكثر وأرخص مما كان ينتج قبل التخصص الذى خلقته حرية التجارة.

وتعانى نظرية المزايا المطلقة، مثلها مثل المزايا النسبية، من المنهج السكونى، حيث إنها لم تراع تغير الشروط فى المستقبل، وعلى رأسها التطورات التكنولوجية التى من شأنها أن تغير المزايا المطلقة لكل بلد. ومع ذلك، يبدو أن تلك النظرية تفترض أن تقسيم العمل الدولى يقوم بين أنداد فى المستوى العام للإنتاجية مادام كل بلد يجد ما يتفوق به على الآخر فى هذه السلعة أو تلك.

نظرية المزايا النسبية

أما نظرية المزايا المقارنة (أو النسبية) فهى تنطلق أولا من أن السوق العالمية لا تخضع لتطبيق نظرية القيمة التى ينحصر عملها فى السوق الداخلية فقط، وذلك بسبب عدم حركية رأس المال والعمل على الصعيد العالمى.

كما تنطلق أيضا من افتراض مناقض تماما، أى من بلدان غير متساوية فى المستوى العام للإنتاجية، بعضها متفوق بشكل مطلق والبعض الآخر يعانى من القصور بشكل مطلق، أى تركز هنا على تقسيم العمل العالمى، أو التخصص العالمى، بين ما أصبح يعرف اليوم البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة.

ويتمثل الجوهر الأساسى لتلك النظرية فى أنها ترى أن بالبلدان المتخلفة يمكن أن تملك ميزة تنافسية فى بعض السلع، ومن ثم تزيح البلدان المتقدمة من السوق العالمية فى مثل تلك السلع، على الرغم من أن البلدان المتقدمة يمكن أن تنتج نفس تلك السلع بإنتاجية أعلى، ومن ثم تكلفة أرخص.

فكيف تجرى البرهنة على تلك النتيجة التى تبدو مناقضة لطبيعة الأشياء؟. الحقيقة أن تلك البرهنة هى إلى حد ما معقدة ومتكلفة sophisticated، سنحاول تبسيطها قدر الإمكان:

افترض ريكاردو نموذجا من بلدين (البرتغال وإنجلترا) وسلعتين (الخمر والقماش)، وافترض أيضا أن البرتغال متفوقة (يلاحظ أن تلك افتراضات، ولا يغير من الأمر شيئا أن إنجلترا هى على العكس المتفوقة فى الواقع) فى كلتا السلعتين بشكل مطلق على إنجلترا (تكلفة الوحدة معبرا عنها بوقت العمل أو تعبيره النقدى، فى البرتغال ٨٠ للخمر، ٩٠ للقماش، وفى إنجلترا ١٢٠، ١٠٠ على التوالى).

وتقوم المزايا النسبية على التمايز الداخلى فى صناعة كل بلد، حيث يكون كل بلد أكثر تفوقا فى سلعة قياسا إلى السلعة الأخرى.

بعبارة أخرى فى المزايا المطلقة تكون هناك تمايزات بين البلدان فى هذه السلعة أو تلك، أما فى المزايا النسبية فتكون التمايزات بين السلع فى داخل البلد الواحد.

فإنتاجية البرتغال أفضل فى الخمر قياسا إلى إنتاجيتها هى من القماش (تكلفة وحدة الخمر ٨٠ مقابل ٩٠ لوحدة القماش)، على حين أن إنتاجية إنجلترا فى القماش أفضل قياسا إلى إنتاجيتها هى من الخمر (١٠٠ مقابل ١٢٠)، وبهذا المعنى يمكن أن نتحدث عن أن البرتغال تملك ميزة نسبية فى الخمر، وأن إنجلترا تملك ميزة نسبية فى القماش، على الرغم من أنها لا تزال أدنى من البرتغال.

وسوف يكون من النافع للبلدين أن يتخصص كل بلد فى السلعة التى ينتجها بشكل أكثر إنتاجية، ومن ثم يستورد السلعة الأخرى، التى يحول الوقت المخصص لها إلى إنتاج كمية أكبر من سلعة التخصص.

وعلى ذلك سوف ينتج البلدان بعد التخصص بنفس التكلفة كمية أكبر مما كانا ينتجانه من السلعتين قبل التخصص، ومن ثم تكون أرخص.

ويوجه النقد لتلك النهاية السعيدة للقصة انطلاقا من أنها تعبر عن منافع الحالة الساكنة، ومن ثم لا تشجع أو تحرم البلد المتخلف من التطور التكنولوجى، أى البحث عن منافع أخرى أكثر اتساعا وشمولا. ومع ذلك فتلك الحالة الساكنة نفسها يحوطها الشك أيضا.

تأثير النقود

التخصص العالمى المرتبط بتلك الحالة الساكنة وما يرتبط به من منافع مزعومة، لن يتحقق مباشرة نتيجة للمحاكمة العقلانية للرأسماليين فى البلدين، فلما كان البلد المتخلف. إنجلترا فى مثالنا السابق. ينتج القماش بتكلفة أعلى من التكلفة التى ينتج بها فى البلد المتقدم، أى البرتغال (١٠٠ مقابل ٩٠).

لهذا لابد أولا أن يعرض بسعر أرخص، أى تحويل القصور فى الإنتاجية disadvantage of productivity إلى ميزة فى السعر advantage of price. وحتى يتحقق ذلك تخلى ريكاردو عن نظرية القيمة - العمل وقام بتطبيق النظرية الكمية فى النقود على التبادل فى السوق العالمية. ففى البداية سوف يصدر البلد المتقدم (البرتغال) السلعتين، بحكم تفوقه فيهما الاثنتين، إلى البلد المتخلف (إنجلترا).

ويؤدى ذلك إلى تدفق عكسى للنقود من إنجلترا إلى البرتغال. ونتيجة لذلك يحدث تأثير تضخمى inflationary فى البرتغال يرفع المستوى العام للأسعار، على حين يحدث على العكس تأثير انكماشى deflationary فى إنجلترا يخفض المستوى العام للأسعار، وذلك حتى الوصول إلى نقطة يصبح فيها القماش أرخص فى إنجلترا عن البرتغال.

ومن ثم تصدر إنجلترا القماش إلى البرتغال، ليتحقق التوازن فى النهاية من خلال تخصص إنجلترا فى القماش والبرتغال فى الخمر.

ولكن تلك النظرة الكمية فى النقود والآلية السحرية التى تنطلق منها. التى تحول بلدا لا يملك ميزة تنافسية فى إنتاجية إحدى السلع إلى بلد يملك ميزة تنافسية سحرية. تعانى من نقطة ضعف أساسية، وهى أنها لا تضع فى حسبانها أن النقود التى تتدفق من بلد إلى آخر نتيجة للتجارة الخارجية لا تظل بالضرورة فى مجال التداول كوسيلة تبادل، حيث يمكن أن تسحب منه بغرض الاكتناز، أو بغرض التحول إلى رأس مال.

ومن ثم لا يحدث بالضرورة التأثيران التضخمى والانكماشى المشار إليهما.

وبطبيعة الحال يمكن لبلد منخفض الإنتاجية أن ينافس بلداً مرتفع الإنتاجية من خلال انخفاض مستوى الأجور، أى أن الأجور المنخفضة يمكن أن تعوض انخفاض الإنتاجية.

ولكن ذلك يحدث بصفة مؤقتة فقط، ذلك أن الإنتاجية لا تتوقف عن النمو نتيجة للتحسينات التكنولوجية المستمرة، التى من شأنها أن تبطل ميزة انخفاض الأجور، اللهم إلا إذا تعرضت الأجور إلى ضغط متواصل لتخفيض جديد فى الأجور وبمعدلات تكفى لتعويض التقدم التكنولوجى.

وهو حل شبه مستحيل، بل على العكس هو الصحيح. حيث ستنشأ مع توسع النشاط الصناعى حركة عمالية تطالب بتحسين الأجور.

قد أدخل الاقتصاديون النيوكلاسيك (هيكشر - أولن Heckscher - Ohlin) تعديلات مهمة على نظرية ريكاردو السابقة، ومن المعروف أنهم يستبعدون نظريته فى القيمة التى تنظم أسعار السلع فى السوق الداخلية، بعد أن استبعد هو نفسه تطبيقها على السوق العالمية.

وعلى حين افترض ريكاردو وجود تباينات فى التكنيك، ومن ثم فى الإنتاجية بين البلدان، افترضوا أن التباينات فى مستوى التكنيك قائمة بين السلع أيا كان البلد الذى تنتج فيه، وافترضوا أيضا وجود فوارق عالمية فى المواهب الطبيعية فى عوامل الإنتاج factor endowments ، حيث يكون لكل بلد عند نقطة معينة من الزمن رصيد مختلف من العمل ورأس المال.

ومن خلال ما يسمى بدالة الإنتاج production function يمكن أن تنشأ توليفات مختلفة من كثافة العمل أو رأس المال التى تقوم على أساسها المزايا المقارنة. وعلى ذلك فالبلدان المتقدمة التى تتمتع بوفرة رأس المال وندرة العمل تتخصص فى السلع كثيفة رأس المال، أما البلدان المتخلفة التى تتمتع على العكس بوفرة العمل وندرة رأس المال، فإنها تتخصص فى السلع كثيفة العمالة.

ويمكن أن تنشأ تدرجات فيما بين هذين التطرفين الأقصيين. ويسمح ذلك بتحديد أسعار السلع بتكلفة عوامل الإنتاج من العمل ورأس المال، ويجرى تحقيق «المزايا النسبية» لأى بلد من خلال تكيف مستويات الأجور والأسعار وأسعار الصرف. ويلعب سعر الصرف هنا دورا مشابها لحركة النقود المعاكسة لحركة السلع فى التجارة الخارجية عند ريكاردو، أى إحداث تغيير فى مستوى الأسعار من أجل استعادة التنافسية دون أى تغيير فى مستوى الإنتاجية.

وهذه الصيغة تعانى من نفس المنهج السكونى، على الرغم من الادعاء بعكس ذلك كما سنرى، كما تعانى أيضا من نفس قصور النظرية الكمية فى النقود التى تتصدى لتحسين القدرة التنافسية من خلال التأثير فى مستوى الأسعار من خلال سعر الصرف.

وأخيرا تقوم دالة الإنتاج نفسها على افتراضات منقولة من دالة الاستهلاك، التى قد تصلح على مجال الاستهلاك لكن لا تصلح للتطبيق على مجال الإنتاج.

ومن ثم تعالج رأس المال المناظر لكل وحدة من العمل مجرد معالجة كمية (تلك التى قد تصلح على الاستهلاك) مع إغفال البعد النوعى فى المعدات الرأسمالية العينية التى لا يمكن ببساطة تكوين بدائل لها على أساس كمى (فكما يستحيل تجزئة الآلات كذلك يستحيل تجزئة رأس المال المعبر عنها). وفضلا عن ذلك إغفال عدم إمكانية الفصل بين العمل ورأس المال، حيث لا يدخل أى منهما عملية الإنتاج مستقلا عن الآخر.

على أية حال تسمح الصيغة الجديدة لنظرية «المزايا المقارنة» بمحاولة ما لتفادى النقد الذى يصفها بالسكونية. فقد حاول بعض منظرى النيوكلاسيك إدخال عنصر ديناميكى فيها من خلال فكرة «مقاربة المراحل فى المزايا النسبية» stages approach to comparative advantages .

وقد أخذت اليابان مثالا على ذلك، حيث تحولت من الصادرات كثيفة العمالة غير الماهرة إلى الصادرات كثيفة العمالة الماهرة وكثيفة رأس المال الفيزيائى، ثم التوسع المتزايد فى الصادرات كثيفة التكنولوجيا.

أما ما يحدد التغير من مرحلة إلى أخرى، فهو تلقائية السوق العالمية، أو اليد الخفية لتلك السوق. وقد لاحظ النقاد أن «مقاربة المراحل» تلك تمثل فكرة ديناميكية فقط حينما تأخذ التغير الزمنى فى عين الاعتبار، لكن تظل أسس النظرية بلا مساس، تلك التى تقوم على منهج سكونى عند قياس «المزايا النسبية» لكل مرحلة، أى عند نقطة معينة من الزمن.

اليابان مثالاً

والحقيقة أن المراحل المذكورة لا تتطابق مع تطور الاقتصاد اليابانى إلا من حيث الظاهر فقط، فهى توجه النظر إلى تطور هيكل الصادرات فقط، لا إلى بنية الاقتصاد اليابانى، وبالتحديد بنية الصناعة، وكيف تطورت ثم كيف انعكست فى النهاية فى هيكل الصادرات. فأولا لم تتطور بنية الصناعة اليابانية من خلال الآلية التلقائية ليد السوق الخفية، وإنما من خلال تدخل الدولة المباشر.

وثانيا تطورت بشكل مناقض تماما لمنطق التعاقب الخطى لتلك المراحل. فوفقا لهذا المنطق تتوافق بنية الصناعة مع المزايا النسبية الثابتة فى كل مرحلة، ولا تنتقل إلى مرحلة لاحقة إلا بعد أن تكون قد حدث تحول عضوى فى تركيبة الوفرة والندرة لعوامل الإنتاج (العمل ورأس المال). ولكن السياسة الصناعية لوزارة التجارة والصناعة اليابانية كانت مخالفة تماما لهذا المنطق.

ففى أعقاب الحرب العالمية الثانية كانت بنية الصناعة اليابانية، ومن ثم بنية الصادرات، تتكون من النسيج والصناعات الخفيفة، وفى نفس الوقت كانت لا تزال هناك وفرة من العمل الرخيص فى ذلك الوقت، ومن ثم فوفقا لمنطق «المزايا النسبية» كان يجب الاستمرار فى إطار تلك البنية حتى تتحول عوامل الإنتاج من وفرة العمل إلى وفرة رأس المال.

لكن وزارة التجارة والصناعة اليابانية رأت أن تلك البنية غير قابلة للحياة على المدى الطويل. فقررت، وفقا لشهادة نائب وزير فى وزارة التجارة اليابانية، أن تقيم الصناعات التى تتطلب توظيفا كثيفا لرأس المال والتكنولوجيا، فى وقت كانت فيه وفرة فى العمل، أى أقامت صناعات مناقضة تماما لمنطق «المزايا النسبية»، وذلك مثل صناعات الصلب، وتكرير البترول، والبتروكيماويات، والسيارات، والطائرات والآلات الصناعية من جميع الأنواع، والإلكترونيات شاملة الحاسبات.

وعلى النقيض من المقولة التى ترى أن الصناعات كثيفة العمل هى التى تكون قادرة على خلق الوظائف على نطاق شامل، فإن التجربة أثبتت أنه كان من الصعب توظيف ١٠٠ مليون من السكان ورفع مستوى معيشتهم إلى المستوى الأوروبى والأمريكى من خلال الصناعات الخفيفة وحدها، حيث لعبت الصناعات الاستراتيجية كثيفة رأس المال والتكنولوجيا دورا حاسما فى ذلك المجال.

وكما أنه فى المجال العسكرى يكمن سر الاستراتيجية الصحيحة فى تركيز القوة المحاربة على أرض المعركة الرئيسية، فقد ركزت اليابان رأسمالها الضئيل فى الصناعات الاستراتيجية. ويمكن أن نضيف هنا أن تلك الصناعات الاستراتيجية بإنتاجيتها العالية كانت وراء رفع معدلات الادخار، ومن ثم الاستثمار، التى تؤدى إلى توسيع نطاق الاقتصاد بما فى ذلك الصناعات الخفيفة، ومن ثم القدرة الشاملة للهيكل الصناعى ككل على خلق الوظائف.

وقد اتبعت كوريا الجنوبية نفس المنطق فى سياستها الصناعية، أى منطق خرق قانون «المزايا النسبية». فقررت فى السبعينيات. أى فى الوقت الذى كانت تتمتع فيه بفائض هائل فى العمالة.

ومن ثم تكون الصناعات القائمة (المنسوجات وغيرها من الصناعات الخفيفة هى المرشحة للاستمرار وفقا لنظرية المزايا النسبية) تنفيذ خطة الصناعات الثقيلة والكيماوية (الصلب، المعادن غير الحديدية، البتروكيماويات، السفن، الإلكترونيات، الآلات).

وهذه الخطة التى نفذت بدعم حكومى هائل، أو حتى ملكية الدولة لبعضها هى التى أرست أسس الثورة الصناعية فى كوريا، والتى بدونها ما كان من الممكن الحديث عما يسمى «المعجزة الآسيوية» فى كوريا.

وفى المقابل، ووجهت تلك الخطة بمقاومة من مؤسسات التمويل الدولية، التى تعمل بذهنية مدرسة الاقتصاد النيوكلاسيكى. فقد رفض البنك الدولى وكونسرتيوم المشروعات الأوروبية تمويل إقامة إحدى

الصناعات الثقيلة، وهى صناعة الصلب التى أسست من أجلها شركة بوسكو POSCO الحكومية. ووصفت بعثة البنك فى السبعينيات المشروع بأنه «غير ناضج، ويفتقد للجدوى الاقتصادية».

وقد حققت تلك الصناعات نجاحا باهرا، حتى أن شركة بوسكو على سبيل المثال، أصبحت فى بداية التسعينيات ثالث أكبر شركة صلب فى العالم والشركة الأولى فى معدل الربح.

ولكن على الرغم من ذلك النجاح وصف البنك الدولى فى تقرير ١٩٩١ تلك السياسة الصناعية بالفشل، مستغلا المشكلات التى أصابت الاقتصاد الكورى فى بداية الثمانينيات فى ظل انعكاسات الأزمة العالمية وارتفاع أسعار البترول فى ذلك الوقت.

وقد أدت ضغوط البنك والصندوق الدوليين، فضلا عن الضغط الأمريكى، إلى سحب الدعم الحكومى للصناعات الثقيلة والكيماوية. وفى تقريره عن المعجزة الآسيوية، الذى يفترض فيه مواقف أكثر اعتدالا إلى حد ما، لم يعترف البنك الدولى سوى بالنجاح الجزئى لتلك الخطة الصناعية، واستمر فى التعبير عن موقفه السلبى منها، فنسب إليها إحداث اختلالات خطيرة (World Bank، East Asian Miracle1993, p129)، وبطبيعة الحال لا يمكن أن يحدث تحول تاريخى كبير كالذى حدث للصناعة الكورية دون أن يمر باختلالات خطيرة، والشىء الوحيد لتجنبها، هو التخلى أصلا عن الطموح الصناعى.

ويمثل ذلك بالفعل أحد أسس منطق إصلاحات التكيف الهيكلى، الذى يدفع البلدان النامية للتخلص من الاختلالات فى ميزانية الدولة، والاختلالات السعرية، والنقدية الخ، ولكن على حساب النمو، وتعميم الركود طويل الأمد، كما هى الحالة فى مصر، وفى معظم البلدان النامية منذ أن جرى تعميم روشتة التكيف الهيكلى فى الفترة الأخيرة.

ومن وجهة نظر ناقدة لمدرسة الاقتصاد النيوكلاسيكى، وسياسات وممارسات البنك والصندوق الدوليين، أن «المزايا النسبية» (أو بالأصح المزايا المطلقة) ليست معطى، وإنما «تصنع».

ومن ثم فهى تتطلب تدخل الدولة. فمن كان يمكن أن يقرر على أساس عامل المواهب الطبيعية factor endowment مثلا أن اليابان أو كوريا، أو تايوان، أو حتى الصين يمكن أن تملك قدرات تنافسية فى صناعة السيارات أو السفن أو الإلكترونيات أو الحاسبات.. إلخ.

خلاصة القول أن روشتة (أو سياسة) البنك والصندوق الدوليين هى وراء الفشل الصناعى الذى تعانى منه الأغلبية الساحقة من البلدان النامية، وأن نظرية «المزايا النسبية» هى نظرية تحافظ وتؤبد وضع التخلف للبلدان النامية ولا تنصح بتغييره، مادامت تعد بأن النقيصة (أى التخلف الصناعى) يمكن أن يتحول إلى ميزة تتحقق منها المكاسب.

ويمكن القول أيضا أن نفس السياسة ونفس أسسها النظرية تهدد بعملية لنزع التصنيع de-industrialization ، أى هدم ما هو قائم من صناعات، وليس فقط الحيلولة دون تطور عملية التصنيع. فالشرط الأولى لتصنيع ناجح فى البلدان النامية هو اتباع سياسة صناعية نشيطة مناقضة لمنطق التكيف الهيكلى و«مزاياه النسبية». ■

مراجع مختارة

David Ricardo _ The Priciples of ،Political Economy And Taxation London: Dent & Sons LTD original (1817) 1933

Mehdi Shafaeddin Free Trade or Fair Trade? An enquiry into the causes of failure in recent trade negotiations UNTAD, discussion papers No. 153 December 2000

- SHAIKH ANWAR Foreign Trade and the Law of Value
Part I (Science & Society, Fall, 1979)
Part II (Science & Society, Spring, 1980)
The Laws of International Exchange, in Growth, Profits and Property in Edward J. Nell (ed.). Cambridge Cambridge 1980

- World Development Indicators (WDI) Various Issues

كتاب الزاوية

رسائل فارسية

الحدث الجليل

إن الملك (يقصد لويس الرابع عشر الذى توفى أول سبتمبر ١٧١٥) الذى حكم عهداً طويلاً جداً لم يعد له وجود. لقد جعل الناس يتحدثون عنه فى حياته، وهاهم أولاء جميعًا قد صمتوا عند موته. لقد كان حازمًا شجاعًا فى لحظته الأخيرة، فلم يبد مستسلمًا إلا للقدر. وهكذا مات الشاه عباس العظيم بعد أن ملأ الدنيا باسمه.

ولاتظن أن هذا الحدث الجليل لم يحدث إلا عبرًا خلقية، إذ إن كل شخص فكر فى أعماله، وفيما يستفيده من هذا التغيير، فالملك ابن حفيد الملك الراحل لم يتجاوز الخامسة من عمره، وكان مقررًا أن يكون خاله الأمير وصيًا على العرش.

وقد أعد الملك الراحل وصية تحدد سلطة الوصى، ولكن هذا الأمير اللبق عرض على البرلمان حقوقه التى يرثها عن نسبه الملكى، فهدم ما أعده الملك الذى أراد أن يعيش بعد وفاته، وحاول أن يظل حاكمًا بعد موته.

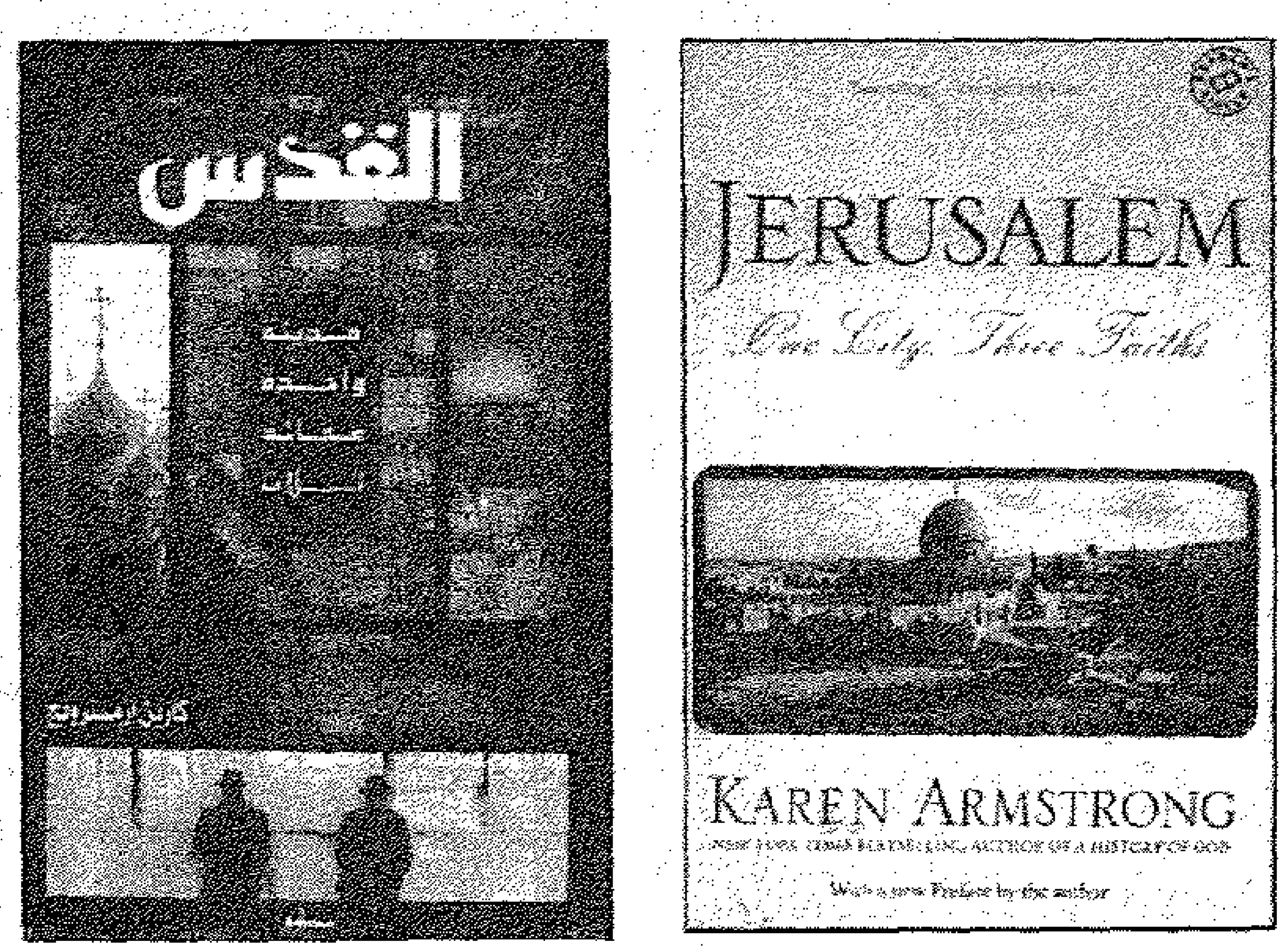
إن المجالس النيابية أشبه بالخرائب التى يطؤها الناس بأقدامهم، لكنها تذكر دائمًا بالفكرة القائمة عن بعض المعابد المشهورة للديانة القديمة للشعوب. إنها لا تهتم قط بأن تحقق العدالة. وسلطتها دائمًا مضمحلة إلا إذا حدثت أمور ليست فى الحسبان تمنحها القوة والحياة.

هذه الهيئات الكبيرة تبعت مقادير الأمور الإنسانية: إنها استسلمت للزمن الذى يدمر كل شىء، وللفساد الخلقى الذى يضعف كل شىء، وللسلطة العليا التى تقهر كل شىء.

باريس فى ٤ من رجب سنة ١٧١٥ .

القدس.. مدينة واحدة.. عقائد ثلاث

كارين أرمسترونج



ت: د. فاطمة نصر ود. محمد عنانى

مقدمة كتاب:
القدس: مدينة واحدة.. عقائد ثلاث
كارين أرمسترونج
القاهرة: دار سطور، ١٩٩٨، ٦٨٢ صفحة

Jerusalem: One City.. Three Faiths
Karen Armstrong
Ballantine Books, 2005

يتجلى التاريخ فى القدس أكثر مما يتجلى فى أى مكان زرته، باعتباره بعداً من أبعاد الحاضر، وقد يكون شأنها فى ذلك شأن كل منطقة مثار نزاع، ولكن ذلك الإحساس دهمنى دهماً عندما ذهبت أول مرة للعمل فى القدس عام ١٩٨٣، إذ دهشت أولاً لقوة وقع تلك المدينة فى نفسى، وكان من الغريب أن أسير فى مكان ظل يشغل بقعة خيالية من حياتى منذ أن كنت طفلة ضئيلة الجرم أصغى إلى قصص الملك داود أو المسيح.

فعندما كنت راهبة صغيرة علمتنى معلماتى أن أفتتح تأملات الصباح بتصور المشهد الذى سوف أتأمله على نحو ما رسمه الكتاب المقدس، فكنت أرسم فى خيالى صوراً لضيعة جثيمانى (مرقس ١٤/٣٢) أو جبل الزيتون أو طريق الأحزان. أما الآن، فقد اكتشفت وأنا أقوم بعملى اليومى بين هذه المواقع نفسها أن المدينة الحقيقية صاخبة مضطربة، تبعث على الخلط والتخبط.

فكان علىَّ، على سبيل المثال، أن أستوعب الواقع الماثل أمامى وهو أن المدينة بالغة الأهمية لليهود والمسلمين أيضاً، وعندما رأيت اليهود يرتدون قفاطينهم أو الجنود الإسرائيليين الغلاظ وهم يقبلون أحجار الحائط الغربى، وعندما شاهدت حشود أسرات المسلمين وهى تتدفق فى الطرقات فى أبهى حللها قاصدة الحرم الشريف لأداء صلاة الجمعة، أدركت للمرة الأولى مدى التحديات الكامنة فى التعددية الدينية. إذ ربما تفاوتت نظرات الناس إلى الرمز نفسه تفاوتاً بيناً.

لم يكن ثمة شك فى مدى تعلق أى من هؤلاء الناس بمدينتهم المقدسة، ولكنهم لم يكونوا يشغلون أى مكان فى القدس التى تصورتها أنا.

ومع ذلك فقد ظلت القدس تحتفظ بصورة المدينة التى صورها خيالى أيضاً، إذ كانت صور الكتاب المقدس التى ارتسمت فى ذاكرتى تبرز فى كل آن لتقابل الصور التى أشاهدها مباشرة فى أورشليم القرن العشرين.

كانت المدينة قد ارتبطت ببعض الأحداث ذات الأهمية البالغة فى حياتى، فأصبحت على نحو ما جزءاً لا يتجزأ من هويتى.

لكننى كنت مواطنة بريطانية، ولم تكن لى من ثمَّ مطالب سياسية فى المدينة، على خلاف زملائى وأصدقائى الجدد فى القدس. ومع ذلك، فبينما كنت أستمع للإسرائيليين والفلسطينيين وهم يعرضون ما لديهم من حجج علىَّ، راعنى أن أحداث الماضى تبدو لعينى حاضرة نابضة بالحياة.

كان الجميع يستطيعون رواية أحداث الماضى، وبتفاصيلها الدقيقة أحياناً، وهى التى سبقت إنشاء دولة إسرائيل فى عام ١٩٤٨ أو حرب الأيام الستة فى عام ١٩٦٧.

وكثيراً ما لاحظت أن صور الماضى كانت تتركز على السؤال التالى: من الذى سبق الآخر إلى فعل شىء ما: من الذى لجأ أولاً إلى استعمال العنف: الصهيونيون أم العرب؟ من الذى أدرك أولاً إمكانيات فلسطين فسبق الآخر إلى تنميتها؟ من الذى كان يقيم فى فلسطين أصلاً: اليهود أم الفلسطينيون؟

وعندما كان الإسرائيليون والفلسطينيون يناقشون الأوضاع الراهنة المضطربة، كانوا يتحولون، كأنما بالغريزة، إلى الماضى.

وكانت الحجة التى يقيمونها تجرى بسهولة فى مضمار يبدأ فى العصر البرونزى، ماراً بالعصور الوسطى، حتى يصل إلى القرن العشرين.

وكنت أشعر كذلك أثناء تجوالى فى المدينة، والإسرائيليون والفلسطينيون يشرحون لى معالم مدينتهم، أن الآثار نفسها قد أصبحت جزءاً من النزاع القائم بين الطرفين.

وفى صبيحة أول يوم أقضيه فى القدس، طلب منى زملائى الإسرائيليون أن ألحظ الأحجار التى استعملها الملك هيرود، بأطرافها المائلة التى تميزها عن غيرها، والتى كانت منتشرة فيما يبدو فى كل مكان، كيما تذكر الرائى على الدوام بالتزام اليهود تجاه القدس والذى يرجع تاريخه (فى هذه الحالة) إلى القرن الأول قبل الميلاد، أى قبل ظهور الإسلام بحقبة مديدة.

وكان الزملاء يذكروننى كلما مررنا بعمال البناء فى المدينة القديمة، بأن العثمانيين قد تجاهلوا القدس تماماً أثناء حكمهم لها، وبأنها لم تعد إلى الحياة إلا فى القرن التاسع عشر، وبأن الفضل الأكبر فى ذلك يرجع إلى الاستثمارات اليهودية، فتلك هى الطاحونة الهوائية التى بناها السير موسى مونتيفيورى، وتلك هى المستشفيات التى مولتها أسرة روتشيلد، وبأن الفضل فى ازدهار المدينة الذى لم يسبق له مثيل يرجع إلى إسرائيل.

وأطلعنى أصدقائى الفلسطينيون

على صورة للقدس تختلف اختلافًا شاسعًا عن تلك الصورة، فكانوا يشيرون إلى روائع الحرم الشريف، والمدارس الإسلامية الباهرة التى بناها المماليك حول حدود المدينة، قائلين إنها أدلة على التزام المسلمين تجاه القدس.

واصطحبونى إلى مزار النبى موسى بالقرب من أريحا، وهو الذى بُنى للدفاع عن القدس ضد المسيحيين، والقصور الفذة التى بناها بنو أمية بالقرب منه.

وعندما مرت السيارة بنا فى مدينة بيت لحم، أمر مضيفنا الفلسطينى السابق بالوقوف عند ضريح راحيل على جانب الطريق، واندفع يقول بحرارة: إن الفلسطينيين لم يكفوا على امتداد قرون طويلة عن رعاية ذلك الضريح اليهودى المقدس، ولم يكن جزاؤهم على هذا الإخلاص والورع سوى الجحود والنكران.

أما الكلمة التى صافحت سمعى مرارًا وتكرارًا طيلة الرحلة فهى كلمة «مقدسة»، بل إن أشد الآخذين بالعلمانية من الإسرائيليين والفلسطينيين كانوا يقولون: إن أورشليم مدينة مقدسة لشعبيهما، بل إن الفلسطينيين يطلقون اسم «القدس» على المدينة.

وإن كان الإسرائيليون ينكرون ذلك بازدراء قائلين: إن أورشليم هى المدينة المقدسة لليهود أولاً، وأنها لم تكن تمثل للمسلمين الأهمية التى تمثلها مكة أو المدينة المنورة.

ولكن ترى ماذا تعنى كلمة «المقدسة» فى هذا السياق؟ كيف يمكن لمدينة وحسب، حافلة بالبشر الخطائين، وغاصة بالأنشطة الدنيوية بل والدنيئة، أن تكون مقدسة؟ لماذا كان أولئك اليهود الذين يجاهرون فى تحد بإلحادهم يحرصون على المدينة المقدسة ويشعرون شعورًا عميقًا بانتماء الحائط الغربى لهم؟

لماذا هاجمت كوامن ذلك العربى غير المؤمن ففاضت دموعه عندما وقف أول مرة فى المسجد الأقصى؟

كان من السهل علىّ أن أدرك سبب قداسة المدينة فى أعين المسيحيين، إذ شهدت أورشليم موت المسيح وبعثه، كما شهدت ميلاد الدين نفسه، ولكن الأحداث التى أدت إلى نشأة اليهودية والإسلام وقعت بعيدًا عن القدس، إذ وقعت الأولى فى شبه جزيرة سيناء، والثانية فى الحجاز فى بلاد العرب، لماذا كان اليهود مثلاً يرون أن جبل صهيون فى القدس مكان مقدس بدلاً من طور سينين، وهو المكان الذى أنزل الله فيه الناموس على



موسى وقدم العهد لبنى إسرائيل؟ واتضح لى أننى أخطأت حين افترضت أن قداسة مدينة ما تعتمد على الوشائج التى تربطها بأحداث تاريخ الهداية والخلاص، أو بالروايات المنسوخة حول تدخل الرب فى شئون البشر. ومن ثم اعتزمت أن أبحث عن معنى تعبير المدينة المقدسة، فقررت أن أكتب هذا الكتاب.

واكتشفت أنه على شيوع استعمال صفة «القداسة» وإطلاقها على القدس دون تحرز كأنما كان معناها واضحًا بديهيًا، فإن معناها فى الواقع مركب معقد.

فكل دين من أديان التوحيد الثلاثة قد وضع بعض التقاليد الخاصة بتلك المدينة، وهى تتشابه فيما بينها تشابهًا كبيرًا، كما اكتشفت أن الإخلاص لمكان مقدس أو لمدينة مقدسة يكاد يمثل ظاهرة عالمية. إذ وضع الناس ما يسمى بالجغرافيا المقدسة، وهى خريطة لا علاقة لها بالخريطة العلمية للعالم، ولكنها ترسم صورة الحياة الباطنة حتى ليصبح ما على الأرض من مدن وغياض وجبال رموزًا للحياة الروحية.

ولا يخلو من ذلك مكان على ظهر البسيطة، ومن ثم فهو، فيما يبدو أنه يستجيب لحاجة إنسانية عميقة، مهما تكن صورة إيماننا بالله أو إيماننا بما وراء الطبيعة. وقد أصبحت أورشليم تشغل مكان القلب فى الجغرافيا المقدسة لليهود والمسيحيين والمسلمين، وإن تباينت الأسباب، مما يجعل من العسير عليهم أن ينظروا إلى المدينة نظرة موضوعية، إذ ترتبط بمفهوم كل منهم وتصوره لذاته وللحقيقة القصوى. وهى التى يطلق عليها أحيانًا لفظ الجلالة «الله» أو القداسة، وهى التى تهب حياتنا الدنيا معناها وقيمتها.

وسوف ترد فى الصفحات التالية ثلاثة مفاهيم مترابطة أولها هو فكرة الله أو القداسة بصفة عامة. ولقد درجنا فى العالم الغربى على النظر إلى الله بطريقة تضفى عليه صفات الإنسانية وتجنح إلى تشخيصه، وقد نجم عن ذلك أن أصبحت فكرة القداسة تبدو غير متسقة وتستعصى على التصديق. ولما كانت كلمة الرب قد فقدت مصداقيتها عند الكثيرين بسبب السذاجات والبغائض التى يزعمها الناس ويفعلونها باسمه، فقد يكون من الأيسر استخدام تعبير «القداسة» بدلاً من الرب، فالناس دائمًا ما يشعرون عند تأمل الدنيا بوجود قوة متعالية ولغز عميق فى قلب الوجود نفسه.

ودائمًا ما يحسون بأن تلك القوة ترتبط ارتباطًا عميقًا بذواتهم وبالعالم الطبيعى، ولو أنها أيضًا تتجاوز ذاتهم والعالم الطبيعى جميعًا.

ومهما يكن التعريف الذى نختاره لها (إذ أطلق عليه اسم الرب أو براهما أو نيرانا) فإن ذلك التعالى يعتبر حقيقة من حقائق حياة البشر. ولقد مررنا جميعًا بأحاسيس مماثلة، مهما تكن آراؤنا اللاهوتية، عند سماعنا قطعة موسيقية رائعة، أو قصيدة بديعة، فأحسسنا بأن شيئًا ما يمس شغاف قلوبنا ويرفعنا ولو للحظة عابرة إلى ما يتجاوز ذواتنا.

ونحن نحاول أن نمر بهذه التجربة، فإذا لم يهيئها لنا مكان معين: مثل الكنيسة أو المعبد اليهودى، نشدناها فى مكان آخر. وتجربة الإحساس بالقداسة ذات ضروب متنوعة، فهى قد توحى بالخوف، أو بالرهبة، أو بالثراء النفسى، أو بالسكينة، أو بالهلع، أو بضرورة القيام بعمل أخلاقى معين، هى تمثل لونًا أكثر اكتمالاً وأرفع شأنًا من الوجود، لا بد منه لاستكمال ذات الإنسان

والإنسان لا يشعر بالقداسة باعتبارها قوة قائمة «خارج كيانه» فحسب، بل يشعر بها أيضًا فى أعماقه. ولكن الإحساس بالقداسة، شأنه فى ذلك شأن أى تجربة جمالية، يتطلب الغرس والتنمية، وهو مطلب لا يتمتع دائمًا بالأولوية فى مجتمعنا العلمانى الحديث، ولذلك انتهى الأمر بحاسة القداسة إلى الذبول، وهو ما تنتهى إليه كل طاقة معطلة.

أما المجتمعات التقليدية فهى تعتبر القدرة على إدراك القداسة قدرة ذات أهمية أساسية، بل إن الناس كثيرًا ما كانوا يشعرون أنه لولا حاسة القداسة لما أصبحت الحياة جديرة بأن نحياها.

ويرجع ذلك، إلى حد ما، إلى أن البشر دائمًا ما أحسوا أن الدنيا دار عذاب وعناء، فنحن نتعرض للكوارث الطبيعية، والفناء، والانقراض، وظلم الإنسان وقسوته، والسعى إلى الدين عادة ما يبدأ عندما يدرك الإنسان حدوث خلل ما، أو كما يقول بوذا «إن الوجود قد انحرف».

فإلى جانب الصدمات التى تصيب البشر جميعًا بحكم ضعفهم البشرى، فإن هناك لونًا من الأسى على المستوى الفردى يستطيع أن يجعل من النكسات الطفيفة فى ظاهرها مصدر هم وغم جارف، فإحساس المرء بأن شيئًا ما قد تخلى عنه يحيل بعض التجارب البشرية أحيانًا، مثل وفاة أحد الأقرباء، أو الطلاق، أو فقد أحد الأصدقاء، أو حتى ضياع شىء يعتز به، إلى مظهر من مظاهر شر باطن فى الوجود وسائد فى الكون.

وكثيرًا ما يتميز هذا القلق الباطن بإحساس بالفراق والفقد، إذ يبدو أن هناك ما نفتقده فى حياتنا، وأن وجودنا أصبح ممزقًا مشتتًا ناقصًا، وتتشكل فى نفوسنا نطفة الإحساس بأن الحياة ما ينبغى أن تكون على هذه الصورة، وأننا فقدنا ما هو جوهرى لسعادتنا، حتى إن استعصى علينا تفسير ذلك تفسيرًا عقلانيًا.

وقد تجلى هذا الإحساس بالفقد فى عدة صور، منها الصورة التى رسمها أفلاطون، وهى صورة النفس التوأم التى انفصلنا عنها عند مولدنا، وفى الأسطورة العالمية للفردوس المفقود. وكان الرجال والنساء فى القرون الغابرة يلجأون إلى الدين لتخفيف حدة ذلك الألم، وكانوا يجدون الشفاء فى تجربة الإحساس بالقداسة.

وأحيانًا ما يلجأ الناس اليوم فى الغرب إلى التحليل النفسى الذى يفصح بمصطلحاته





القدس.. مدينة واحدة.. عقائد ثلاث

العلمية عن ذلك الإحساس بالفراق الأول، إذ يربط بينه وبين ذكريات الحياة فى رحم الأم والصدمة النفسية الرهيبة التى يحدثها المولد.

ومهما تكن الزاوية التى نختار أن ننظر منها، فإن فكرة الفراق والشوق إلى لون ما من ألوان المصالحة تقع فى صلب التعلق والإخلاص لمكان مقدس.

والمفهوم الثانى الذى علينا أن نناقشه هو مسألة الأسطورة، فعندما حاول البشر الحديث عن القداسة أو عن ألم الوجود الإنسانى، لم يتمكنوا من التعبير عن تجربتهم بصورة منطقية عقلانية، بل اضطروا إلى اللجوء إلى الأسطورة، بل إن فرويد ويونج، اللذين كانا أول من رسم صورة البحث العلمى فى النفس، قد استعانا بأساطير العالم القديم أو بالدين عندما حاولا وصف الأحداث الباطنة، كما وضعا أساطير جديدة من تأليفهما. وقد تدنى موقع كلمة «الأسطورة» اليوم فى ثقافتنا، فهى تستعمل بصفة عامة للدلالة على ما هو غير حقيقى، إذ يقول الناس إن حادثة ما لم تقع، وأنها «أسطورة» فحسب. ويصدق ذلك بالتأكيد على المناظرة الدائرة حول القدس: فالفلسطينيون يقولون: إنه لا توجد آثار على الإطلاق تدل على قيام مملكة يهودية على يدى الملك داود، كما لم يعثر أحد على أثر من آثار معبد سليمان، وإن مملكة إسرائيل لم يرد لها ذكر فى أى من النصوص المعاصرة، بل فى الكتاب المقدس فقط.

ومن الأرجح إذن أنها «أسطورة» فحسب. كما ينكر الإسرائيليون قصة معراج النبى محمد من الحرم الشريف فى القدس إلى السماء، قائلين إنها أسطورة تشغل موقع القلب من تعلق المسلمين بالقدس، وأن العقل لا يقبله. ولكننى غدوت أعتقد أن ذلك دليل على عدم إدراك القصور، فلم يكن الهدف من الأسطورة يومًا ما أن تصف أحداثًا تاريخية وقعت فعلاً ويمكن التحقق من صحتها، بل أن تكون محاولة للتعبير عن دلالتها الباطنة أو لفت الأنظار إلى حقائق تستعصى على المناقشة المنطقية المتسقة.

ومن التعريفات الجيدة للأساطير أنها صورة قديمة لعلم النفس، لأنها تصف الأصقاع الباطنة للنفس، وهى التى تكتنفها الألغاز والأسرار، ومع ذلك فهى ذات جاذبية وسحر لا يقاوم. وهكذا فإن أساطير «الجغرافيا المقدسة» تعبر عن حقائق الحياة الباطنة. إذ تمس المصادر المبهمة لآلام الإنسان ورغباته، ومن ثم فهى قادرة على إطلاق عواطف جائحة من عقالها. وهكذا فيجب ألا ننبذ القصص التى تروى عن القدس باعتبارها أساطير «وحسب»، بل أن نهتم بها لهذا السبب عينه وهى أنها أساطير.

ومسألة القدس مسألة متفجرة لأن المدينة قد اكتسبت كيانًا أسطوريًا. وكثيراً ما يدعو طرفا الصراع الراهن، بل ويدعو المجتمع الدولى نفسه - وهو مما لا يثير أى دهشة - إلى إجراء مناظرة عقلانية حول الحقوق والسيادة لا تؤثر فيها القصص المثيرة للمشاعر، وليت ذلك كان ممكنًا.

وهيهات لنا أن نزعم أننا قد تجاوزنا حاجتنا إلى الأساطير. ولكم حاول الناس استئصال شأفة الأساطير من الأديان فى الماضى، على نحو ما فعله الأنبياء والمصلحون فى إسرائيل القديمة مثلاً، الذين كانوا يحرصون حرصاً بالغًا على الفصل بين دينهم وبين أساطير الكنعانيين الأصليين، ولكنهم لم ينجحوا فى ذلك، إذ عادت القصص والأساطير القديمة إلى الظهور بقوة فى الطرق الصوفية القبالية، فيما وصف بأنه انتصار للأسطورة على الأشكال العقلانية للدين، وسوف نرى فى تاريخ القدس أن الناس كانوا يلجأون كأنما بالغريزة إلى الأسطورة فى اللحظات التى تضطرب فيها أحوالهم، بحيث يستحيل عليهم أن يجدوا العزاء والسلوى فى النظم الفكرية العقلانية.

وكانت الأحداث الخارجية تعبر أحيانًا تعبيراً محكمًا عن الواقع النفسى لشعب من الشعوب، مما أكسبها على الفور منزلة أسطورية وأطلق لديهم فورة من الحماس الأسطورى. وكان من بين هذه الأحداث حدثان بارزان: الأول هو اكتشاف قبر المسيح فى القرن الرابع، والثانى هو الفتح الإسرائيلى للقدس فى عام ١٩٦٧.

ففى الحالتين كان من يعنيهم الأمر يتصورون أنهم قد تخلوا وابتعدوا تماماً عن أسلوب التفكير البدائى، ولكن سير الأحداث كان أقوى منهم، ولقد كانت الكوارث التى نزلت بالشعبين اليهودى والفلسطينى فى هذا القرن ذات أبعاد هائلة، ولذلك لم ندهش حين رأينا الأساطير وهى تبرز من جديد لتحتل مكان الصدارة.

ولذلك فمهما تكن النتيجة، لا بد لنا من بحث أساطير القدس، ولو كان الهدف مقصوراً على إلقاء الضوء على رغبات وسلوك الناس الذين أثر فيهم هذا اللون من النزعة الروحانية.

والمصطلح الأخير الذى علينا أن ننظر فيه قبل الشروع فى خوض تاريخ القدس هو الرمزية. فنحن نعيش فى مجتمع ذى توجه علمى ولم نعد من ثم قادرين على أن نستعمل الصور والرموز بصورة طبيعية فى تفكيرنا، بعد أن وضعنا منهجاً للتفكير يتسم بالمزيد من الطابع المنطقى العقلانى.

فنحن ننحى دور الخيال عند النظر إلى الظواهر المادية، ونجرد الشىء من الخصائص العاطفية المرتبطة به، ثم نركز أبصارنا على الشىء فى ذاته. وقد أدى ذلك إلى تغيير فى التجربة الدينية لدى الكثيرين فى الغرب، قد بدأ هذا الاتجاه، كما سوف نرى فى القرن السادس عشر. فنحن نقول إن شيئًا لا يزيد على كونه رمزاً فحسب، بمعنى أنه يختلف فى جوهره عن الحقيقة الغامضة التى يمثلها، وهو ما لم نكن نقوله فى الأيام التى سبقت مقدم عالمنا الحديث. إذ كنا آنذاك نعتبر أن الرمز لا ينفصل عن الحقيقة التى يمثلها، وهكذا كان الرمز الدينى يتمتع بالقدرة على إدخال العابدين فى عالم القداسة.

ولم يكن أحد على مر التاريخ يستطيع أن يخبر القداسة مباشرة، اللهم إلا عدداً بالغ الضآلة من الأفذاذ، فكان الإنسان دائمًا ما يدرك القداسة من خلال شىء آخر. وكان الناس مثلاً يخبرون القداسة من خلال إنسان ما، رجلاً كان أم امرأة، ويرون أنه تجسيد للقداسة أو أن القداسة قد حلت فيه، أو يرون أن القداسة قد حلت فى نص مقدس، أو شرعة قانونية، أو مذهب عقائدى.

وكان المكان من رموز القداسة الأولى وأكثرها انتشاراً، إذ كان الناس يرون القداسة فى الجبال والغياض والمدن والمعابد، فكانوا يشعرون عندما يسيرون فى تلك الأماكن أنهم قد دخلوا فى بعد مختلف من أبعاد العالم المادى الذى يعيشون عادة فيه، فهو منفصل عنه وإن كان يتفق فى طابعه معه. وكان اليهود والمسيحيون والمسلمون ولا يزالون يرون فى القدس مثل هذا الرمز للقداسة.

وليس ذلك مما يحدث بصورة تلقائية، فعندما يشعر العابدون أن مكانًا ما ذو طابع قدسى، مهما يكن لونه، وأنه قادر على فتح باب القداسة أمام الإنسان، فإنهم يبذلون قدراً كبيراً من طاقاتهم الخلاقة لمساعدة الآخرين على تنمية ذلك الإحساس فى نفوسهم.

وسوف نرى أن النظام المعمارى للمعابد والكنائس والمساجد له أهميته الرمزية، إذ إنه كثيراً ما يرسم خط الرحلة الباطنة التى لا بد للحجاج من القيام بها للوصول إلى الله. وتشترك الطقوس والشعائر كذلك فى تعميق الإحساس بقداسة المكان. وكثيراً ما يبدى الناس فى الغرب الذى يدين بالبروتستانتية تشككهم فى الشعائر الدينية، وهو التشكك الذى يتوارثونه ويرون أنها ضرب من رطانة الشعوذة.

وقد يكون من الأدق أن ننظر إلى الطقوس باعتبارها لونًا من ألوان المسرح القادر على تمكين الناس من الإحساس بالقداسة ولو كان ذلك فى غضون سياق علمانى محض. ولقد نشأت الدراما الغربية فى كنف الدين، فى الاحتفالات الدينية فى اليونان القديمة، واحتفالات عيد القيامة فى كنائس وكاتدرائيات أوروبا إبان القرون الوسطى. ولقد وضعت كذلك بعض الأساطير للتعبير عن المعانى الباطنة للقدس وما بها من مزارات مقدسة.

ومن هذه الأساطير أسطورة وصفها ميرسيا إلياد، الباحث الرومانى الأمريكى الذى توفى منذ عهد قريب، بأنها أسطورة العودة الأبدية، والتى اكتشفت أنها مشتركة بين جميع الثقافات تقريباً.

ويقول هذا الخط الفكرى: إن جميع الأشياء المادية التى نلقاها على الأرض لها نظائرها فى عالم القداسة أو عالم الروح، والواضح أن هذه الأسطورة تحاول التعبير عن الإحساس بأن حياتنا فى الدنيا هنا تتسم بالنقصان، وبالانفصال عن لون آخر من الوجود،

فى مكان آخر، يتميز بالكمال، ويبعث على الرضا. ومعناها أيضاً أن جميع الأنشطة والقدرات البشرية لها صور أولية فى عالم القداسة، فإذا قام الإنسان بمحاكاة الأرباب استطاع أن يشاركهم حياتهم القدسية.

وما زال الناس يراعون مبدأ محاكاة الأرباب حتى اليوم، فهم لا يزالون يستريحون فى اليوم السابع من الأسبوع، أو يأكلون الخبز ويشربون النبيذ فى الكنيسة. وهى أفعال لا معنى لها فى ذاتها. لأنهم يعتقدون أن الرب قد فعل ذلك يوماً ما.

والطقوس التى يؤديها الناس فى المكان المقدس صورة أخرى من صور محاكاة الأرباب والدخول إلى عالم الوجود الأكمل والأقوى. وهذه الأسطورة نفسها ذات أهمية أساسية لتفهم قداسة أى مدينة مقدسة، إذ يمكن اعتبارها نظيراً لمنزل الأرباب فى السماء، ويعتبر المعبد نظيراً للقصر السماوى الذى ينزل فيه رب من الأرباب.

فإذا قام الإنسان بمحاكاة الصورة السماوية القديمة للمعبد فى السماء، بأكبر قدر من الدقة، فربما استطاع أن يجعل المعبد بيتاً للرب هنا على الأرض.

ولن يسخر من هذه الأساطير إلا من ينظر إليها بعين الحداثة العقلانية الباردة، متجاهلاً أن الناس لم يضعوا هذه الأفكار أولاً ثم طبقوها على مكان «مقدس» بعينه. لكنها كانت تمثل محاولة لتفسير تجربة مروا بها وخبروها. ودائماً ما تسبق التجربة التفسير اللاهوتى لها فى أى دين.

كان الناس يشعرون أولاً أنهم قد أدركوا القداسة فى غيضة معينة أو على قمة جبل بعينه، وأحياناً ما كانت تساعدهم فى هذا الخصائص الجمالية للعمارة والموسيقى والطقوس التى كانت ترفعهم إلى ما يتجاوز ذواتهم وكانوا بعد ذلك يحاولون تفسير هذه التجربة باللغة الشاعرية للأساطير، أو بالرموز الخاصة بالجغرافيا المقدسة.

وكان أن أصبحت القدس من الأماكن التى «نجحت» فى ذلك سواء بالنسبة لليهود أو المسيحيين أو المسلمين لأنها فيما يبدو فتحت أمامهم باب الإحساس بالقداسة.

ولابد من إبداء ملاحظة أخيرة هنا، وهى أن الممارسات الدينية وثيقة الصلة والقرابة بالممارسات الفنية، فالفن والدين كلاهما يحاول استخلاص معنى أقصى من هذه الدنيا المعيبة الغاصة بالكوارث، وإن كان الدين يختلف عن الفن لأنه لابد أن يتخذ بعداً أخلاقياً. وربما كان من الممكن وصف الدين بأنه شرعة جمالية أخلاقية.

فتجربة الإحساس بالقداسة أو بالكيان المتعالى لا تكفى، بل يجب بعد ذلك تجسيد تلك التجربة فى سلوكنا تجاه الآخرين. فجميع الأديان العظيمة تصر على أن محك قياس الروحانية الحقة هو التراحم الفعلى. وقد قال بوذا ذات يوم: إن الإنسان عليه بعد أن يخبر التنوير أن يترك قمة الجبل ويعود إلى السوق لممارسة التراحم والتعاطف مع جميع الكائنات الحية. وينطبق ذلك أيضاً على روحانية أى مكان مقدس. إذ كان من أهم عناصر قداسة القدس منذ البداية عنصر الإحساس الفعلى والعدالة الاجتماعية. ولا تصبح المدينة مقدسة إلا إذا كانت تتسم أيضاً بالإنصاف والرحمة تجاه الضعفاء والفئات المستضعفة. ولكن الناس كانوا ولا يزالون يتجاهلون ذلك الالتزام الأخلاقى، إذ ارتكبوا أفظع الفظائع عندما قدموا الرغبة فى طهارة القدس والوصول إلى قداستها العظمى على السعى لتحقيق العدالة والإحسان.

لقد كان لكل من هذه التيارات الأساسية دورها فى تاريخ القدس الطويل المضطرب. ولن يحاول هذا الكتاب وضع قانون حول مستقبل القدس، ففى ذلك ما فيه من التطاول واتباع الظن.

ولكن الكتاب لا يعدو أن يكون محاولة لإدراك ما يعنيه اليهود والمسيحيون والمسلمون عندما يقولون إن المدينة «مقدسة» لهم، والإشارة إلى بعض ما يترتب على قداسة القدس فى تقاليد كل دين من هذه الأديان. ويبدو لى أن ذلك لا يقل أهمية عن البت فيمن كان يقيم فى المدينة أولاً وفيمن أصبح من حقه، بناءً على ذلك، أن يملكها، خصوصاً بسبب الغموض الشديد الذى يكتنف الأصول الأولى للقدس. ■

كتاب الزاوية

رسائل فارسية

الملك والحرب

ندر فى الخلاف بين شعب وشعب أن يُحتاج إلى شعب ثالث ليقضى بينهما، لأن موضوعات النزاع فى أكثر الأحوال تكون دائماً واضحة، ومن السهل أن يفصل فيها. لأن مصالح شعب تتميز عن مصالح شعب آخر، ولا يحتاج من يفصل فيها إلا أن يحب العدالة فيجدها. ولا يمكن قط أن يتوقع الإنسان ما يحدث فى حالته الخاصة به.

وليس الحال كذلك فى الخلاف الذى ينشأ بين الأفراد، فهم إذ يعيشون فى مجتمع، فإن مصالحهم ممتزجة، ومتشابكة أشد اشتباك، وتنشأ لذلك أنواع كثيرة من الخلاف تحتاج إلى طرف ثالث يكشف الحق الذى يحاول طمع طرفى الخصومة أن يطمسه.

ليس بين الحروب ما هو حق إلا حربان: أولاهما تلك التى تكون لصد عدو مغير، وأخراهما تلك التى تكون لمساعدة حليف مهاجم.

وليس من العدالة فى شىء أن تقوم حرب من أجل خصومات خاصة بالملك ما لم يكن قد ارتكب هو أو الشعب ما يستحق من أجله الموت: مثلاً لا ينبغى أن يشن الملك الحرب لأنه لم يكرم التكريم الواجب له، أو لأن تصرفات غير مقبولة حدثت لسفرائه، أو أى شىء يشبه ذلك. ولا ينبغى لشخص أن يقتل من يرفض صدارته فى مجلس، أو أن يتقدم فى محفل، والعقل يوجب أن يكون إعلان الحرب عملاً مشروعاً. ولتكون العقوبة على قدر الخطأ ينبغى أن نرى: هل من نعلن عليه الحرب يستحق الموت؛ لأن إعلان الحرب ضد شخص ما معناه أننا نريد أن نعاقبه بالموت.

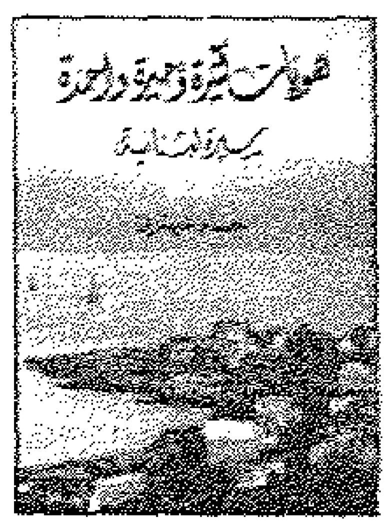
من باريس فى ٤ من ذى القعدة سنة ١٧١٦م

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

هويات كثيرة وحيرة واحدة

حسام عتياني

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٧، ٢٤٥صفحة



٨٦ عاماً مضت منذ إعلان لبنان الكبير كانت حافلة ليس بما يقرب حاملى الجنسية بعضهم من بعض ويذيب الفروق فى انتماءاتهم السابقة على الانضمام للوطن الجديد، بل إن الكثير مما فعله اللبنانيون كانت نتائجه تصلب الهويات الفرعية الطائفية. هذه النتيجة هى التى دفعت المؤلف للبحث فى الهوية اللبنانية وأصول المسألة الطائفية بهذا القدر من العمق والرغبة فى اكتشاف أسباب الفرقة والتمزق. والمؤلف فى هذا الصدد يستدعى الكتابات والدراسات المهمة التى دارت حول موضوع الهوية على اختلاف توجهات أصحابها، فينقل عن إدمون رباط قوله إن الانتماء للطائفة هو شرط المواطنة اللبنانية، لابد لكل لبنانى أن يكون منتمياً إلى طائفة معينة، الأمر الذى يجعل الروح الطائفية ملتصقة بشخصه وأسرته، ويجعل كل عمل سياسى كالانتخاب والمنافسة فى اقتناص الوظائف العامة والوزارات مستمراً طبيعياً فى خضوعه لروح طائفته.

وينقل عن كمال الحاج قوله: الأرض والسماء تزولان والطائفية لا تزول من لبنان. وعن جورج قرم: الهوية الطائفية هى أيديولوجيا ذات طبيعة فاشية وكلية وهى لا تعكس فى المجتمع أى تنوع من الانقسام الاثنى الحقيقى القادر على شرعنة سلوك الأجهزة الطائفية، خارج حقيقة واحدة وهى أنها تمثل بنى مخفية للسلطة.

وعن فواز طرابلسى: الطوائف اللبنانية تشبه مجموعة من القنافذ فى ليلة باردة، إذا اقترب بعضها كثيراً من بعض، تبادلت الأجساد وخز الشوك، وإن تباعدت ماتت برداً.

هذه هى الحقائق التى ترسم ملامح الدولة اللبنانية وتفسر أسباب الصراعات بين الطوائف والأجنحة السياسية والقبلية المختلفة، ووسط هذا المناخ، كما يقول المؤلف تظهر عبادة الجماعة التى تستعير الشعائر الدينية وتوظفها فى مهمة مختلفة عن مهمتها الدينية، وتفسر ظاهرة عبادة الجماعة ازدحام دور العبادة والكثافة الاستثنائية فى المشاركة فى الاحتفالات الدينية فى الأعوام التى تكون فيها طائفة مهددة فى مصالحها الحيوية وفى أدواتها السياسية.

المؤلف يعرج بطبيعة الحال على الحرب الأهلية اللبنانية ومخاطر الانزلاق إليها فى ظل الصراع الدائر منذ اغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريرى.

■

دفاعاً عن المرأة

جابر عصفور

القاهرة: مؤسسة أخبار اليوم، ٢٠٠٧، ٢٠٦ صفحات



يأتى هذا الكتاب والعالم يحتفل بيوم المرأة العالمى، ومنذ السطور الأولى يشير المؤلف إلى المكانة التى احتلتها المرأة فى الإسلام: فقد كرمها ومنحها حقوقاً لم تحصل عليها من قبل، وأحاطتها الشريعة الإسلامية برعايتها، ومنحتها نصيباً فى الميراث تتصرف فيه كيفما شاءت، وأنصف الإسلام المرأة فى حقوقها المدنية فسمح لها أن تزوج نفسها أو تخلع زوجها، وأعطاها أهلية للبيع والشراء والتملك، بوصفها كائناً إنسانياً كرمه الله بالعقل وليس تابعاً ذليلاً.

بعد ذلك يفند بعضاً مما أورده المتزمتون بشأن المرأة فى كتاباتهم التى لا تستند على نص قرآنى أو حديث صحيح، وإنما تهويمات وكلمات مبعثرة تصف جميعها المرأة بالنجاسة والمكر والدهاء والدونية، ومن ذلك ما كتبه ابن قتيبة فى «عيون الأخبار»، ثم يبدأ هو - المؤلف - فى التأصيل لفساد هذه الرؤية تاريخياً، مشيراً من ناحية ثانية إلى نماذج نسائية مضيئة فى التاريخ الإسلامى فى عمومه، وفى التاريخ المصرى والعربى على وجه الخصوص، وما كتبه قاسم أمين فى «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة»، والكيفية التى كان رائد التنوير رفاعة الطهطاوى يعامل بها زوجته والوثيقة التى كتبها على نفسه قبل زواجه منها، يتعهد فيها بألا يتزوج غيرها، وإن فعل فهى حرة. ولم يكن الطهطاوى مضطراً إلى كتابة مثل هذه الوثيقة فى وقت كان الرجال يستمتعون لا بالزوجات فحسب، وإنما بالجوارى أيضاً.

ويشير كذلك إلى مذكرات هدى شعراوى وما تضمنته من حديث عن دور المرأة فى ثورة ١٩١٩، ويستفيض فى المظاهرة النسائية التى قادتها الرائدة النسائية وحشدت حولها مئات من النساء من مختلف الطبقات فى تحد سافر لسلطات الاحتلال الإنجليزى، والدور المهم الذى لعبته رائدات الحركة النسائية من أمثال نبوية موسى وسيزا نبراوى لإعلاء شأن المرأة المصرية فى المحافل الدولية، وبطبيعة الحال فإن سهير القلماوى ولطيفة الزيات وهما أستاذتان تتلمذ عليهما المؤلف بشكل مباشر تحظيان باهتمام خاص إلى جانب ما يسطره عن المرأة العربية المبدعة.

■

شىء من هذا القبيل

إبراهيم أصلان

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٣٢صفحة



لوحات تشبه المذكرات أو هى «من هذا القبيل»، يرسم بعضها صورة لطفولة المؤلف وبداياته العملية وخياراته الفنية وصداقاته، وبعضها يشتبك مع قضايا معاصرة يعبر عنها صاحب «بحيرة المساء» و«وردية ليل» و«مالك الحزين» و«يوسف والرداء» بطريقته، التى يغلب فيها الفنى على الصحافى، برغم أن هذه المقولات نشرت بجريدة الأهرام فى زاوية الكاتب الأسبوعية.

يحدثنا الكاتب عن الكيت كات وإمبابة، وهى المنطقة الشعبية التى نشأ وظل مقيماً بها حتى وقت قريب، قبل أن يقرر النزوح منها للإقامة بمنطقة المقطم.. «أنزع الآن عن إمبابة، كما تنزع قطعة لحاء جافة وإن كانت حية، عن جذعها الطرى، كيما تلتصق بجذع آخر، لكن أشياء كثيرة تغيرت فى إمبابة تجعل الترحال ممكناً، بل وضرورياً فى بعض الأحيان»، فلم يعد النهر هو النهر ولا الماء هو الماء»، وفى مرحلة الطفولة تلك وبدايات التعلم والمدرسة الابتدائى، ثمة ذكريات ينقلها إلينا الكاتب بعين ذكية لاقطة كما فى «تعويذة»، «قلم أبنوس»، «قلم كوبيا»، «مدرس» وغيرها، كما سنرى رأياً ورؤية فى شواغل كبيرة ومهمة مثل مسألة العلاقة بين المسلمين والأقباط لكن بطريقة فنية، كما هو الحال مثلاً فى «الكنيسة نورت»، حيث يروى لنا كيف كان هو والأطفال من سنه ينتظرون مدفع الإفطار على شاطئ النيل بإمبابة ويتأكدون تماماً من قدوم المغرب حين تضاء الكنيسة بالضبط فى هذا التوقيت، فما الذى جرى، يقول أصلان:

فى كل عام لم نكن نخلف موعدنا، ولا النور أخلف ميعاده.

ولكن النهر غاض واعتقل وراء أسوار وأسوار، وغامت العلاقة ما بين الشاطئ والشاطئ، والصديق إدوار الخراط اتصل يقول: كل سنة وانت طيب. وأنا سألته عن اسم تلك الكنيسة التى كان يمكن رؤيتها من إمبابة، زمان، وهو قال إن الزمالك حيث يقيم لا يوجد بها إلا كنيسة العذراء بالمرعشلى.

قلت: لم أعد أراها، قال: ربما أن المبانى حجبتها.

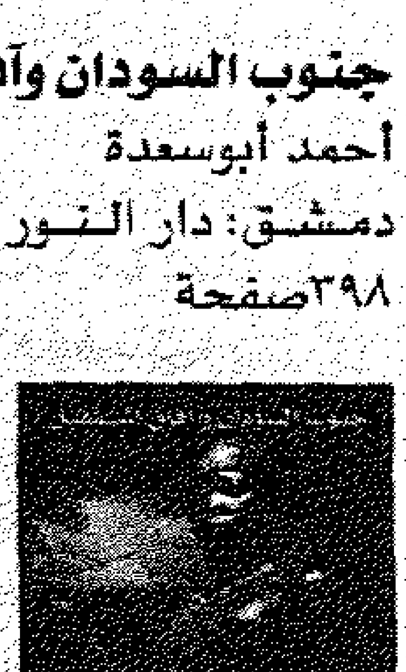
كيف اختار أصلان أن يكون كاتباً للقصة القصيرة، وكيف كتب روايته الأولى «مالك الحزين»، نعرف من إحدى المقالات أن المؤلف اكتشف طريقه لكتابة القصة القصيرة بالذات عبر صديق يكبره سناً وزامله لفترة حين كان أصلان يعمل «موزعاً» للبريد فى بداياته العملية، وقال لصديقه إنه يريد أن يكون كاتباً، فأشار عليه بأن يقرأ ويقرأ، وحين فعل ووقعت عيناه على «تشيكوف»، عرف أن هذا هو عالمه، وأن موهبته هنا لا أكثر ولا أقل، أما كتابه «مالك الحزين» فقد دفع إليه دفعاً حين أوصى نجيب محفوظ عليه فى المجلس الأعلى للفنون والآداب كى يحصل على منحة تفرغ تعينه على الإبداع بعيداً عن شواغل الوظيفة، وحين حصل عليها عرف أنه لن يكون مستحقاً لها ما لم يكتب رواية، وهكذا فكر فى أن يكتب «مالك الحزين» التى صارت فيما بعد فيلماً ناجحاً عنوانه «الكيت كات» أخرجه داود عبدالسيد ولعب بطولته محمود عبدالعزيز، ولا تغيب عن اللوحات الفنية الجميلة التى كتبها أصلان أن يتابع مصائر أبطاله «الشيخ حسنى» ورواد قهوة عبدالله والفرارجى الذى اشترى الحارة والهرم بائع المخدرات فيحدثنا عما آلت إليه أحوالهم فى بعض المقالات.

■

جنوب السودان وآفاق المستقبل

أحمد أبوسعدة

دمشق: دار النور للثقافة، ٢٠٠٦، ٢٩٨صفحة



يمثل هذا الكتاب الخير الأول من مجلد فى جزءين عن جنوب السودان الذى انشغل به المؤلف لفترة طويلة، بدأت منذ العام ١٩٦١، ومن يومها صار واحداً من المهتمين بالقارة السمراء وبالشأن السودانى على وجه الخصوص، وهو ما

دفعه إلى زيارة السودان فى أعقاب توقف القتال عام ٢٠٠٥، وبداية مرحلة السلام، وهو سلام مازال موضع شك كبير.

وعلى الرغم من أن عنوان الكتاب يشير إلى أن موضوعه الأساسى هو الجنوب، فإن المؤلف يقدم دراسة كاملة عن السودان جغرافياً وحضارياً وسياسياً فى اثنى عشر باباً يبدؤها بتعريف السودان الحديث ويناقش فيه جنوب السودان والمسيحية والرق وبدايات فصل الجنوب عن الشمال، ثم يعرض فى الباب الثانى لجذور التمرد فى الجنوب، ويناقش محاولات البريطانيين حكم جنوب السودان فى الباب الثالث ودور مجلس الكنائس فى هذه المسألة، ثم يعرض لتاريخ الجنوب فى الفترة من ١٩٣٠ وحتى ١٩٤٥، ويكشف فى فصل تال عن اليد الصهيونية التى عبثت بالمسألة السودانية ومصالحها فى القارة السمراء، مشيراً إلى اقتراح اليهودى واريوت الذى قدمه إلى اللورد كرومر عام ١٩٠٠ لتوطين اليهود فى السودان، ويتابع بعد ذلك نشأة الأحزاب السودانية ومواقفها من القضايا المختلفة، ويعرج على الحركات الانفصالية والانقلابات العديدة التى شهدها السودان ومنها انقلاب جعفر نميرى وحكومة الرئيس عبود ثم سقوط النظام العسكرى، وهى الدورة المعتادة فى النظام السياسى السودانى، حيث يحدث انقلاب عسكرى يستولى على الحكم ثم يعود الحكم المدنى لسنوات قبل أن يحدث انقلاب عسكرى آخر وهكذا.

ويكشف المؤلف فى الباب العاشر عن دور اليهود فى جنوب السودان والدعم الإسرائيلى للمتمردين ونتائجه، وفى الحادى عشر يكشف عن الدور الأمريكى النشط فى المسألة السودانية، خصوصاً مع اكتشاف النفط هناك، محللاً أسباب الغضب الأمريكى على السودان، ويختتم بجهود السلام التى جرت فى عدة عواصم أفريقية قبل أن يشير إلى الدور العربى الغائب فى أزمة الجنوب، ويلمح إلى وجود سلاح عربى بأيدى المتمردين متسائلاً: من أين جاء هذا السلاح ولمصلحة من يعبث البعض بأمن السودان واستقراره.

■

التفكير السياسى العربى

صلاح سالم

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٦، ٢٩٨ صفحة



الخلاصة التى يقدمها المؤلف لنا بعد فصول ستة يدرس فيها الفكر السياسى العربى، وبعد استعراض نقدى لمنعطفاته الأساسية ومآزقه الثقافية، هى أن السجال الدائر حول تغيير المجتمعات العربية منذ احتلال العراق، يتمحور حول القضايا ذاتها التى برزت إلى الواجهة فى أعقاب هزيمة يونيو ٦٧ وانتكاسة المشروع الناصرى، وهى أيضاً التى أثيرت عقب هزيمة عرابى وخضوع مصر للاحتلال البريطانى.

أكثر من ذلك فإن هذه القضايا وعناوينها الرئيسية هى العقلانية والديمقراطية والقومية والعلاقة مع الآخر وكيفية تحقيق النهضة، كانت هى أيضاً موضع تساؤل الفكر العربى ونزوعه النهضوى منذ حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨م.

ماذا يعنى هذا؟ يعنى أن هذه الإشكالات جميعها لم تلق حلاً، وأنها بقيت تراوح مكانها فى وضع دائرى، حيث يتم استعادتها بين فترة وأخرى، أو بتعبير المؤلف فإن الفكر يجادل الفكر والواقع منعزل راكد.

ويشير المؤلف إلى أن مازاد من حالة الركود العربية تلك هو توافر ثلاثة أمور: أولها: الشعور بالمرارة إزاء البنيتين التاريخيتين اللتين أحاطتا به وعمقتا من أزمته، وهى البنية العثمانية المنتمية فى أغلب ملامحها إلى القرون الوسطى، والبنية الغربية الكولونيالية المنتمية إلى العصر الحديث.

وثانيها: حالة التلفيق التى آل إليها المشروع التوفيقى بين البنيتين، وهو ما أدى إلى إهدار نحو قرن من الزمان دون تحقيق تقدم حقيقى، وهو مازاد من فجوة التخلف وضاعف الجهد المطلوب لردمها أو حتى تضييقها.

وثالثها: ما يسميه المؤلف بالتفاعلية الشديدة بين هذه القضايا التى شكلت أسئلة النهضة الأساسية بما يجعل غياب أحدها مؤثراً على غيره، فالعقلانية والفردانية والديمقراطية والقومية والعلاقة مع الآخر، كلها تتفاعل معاً كما لو كانت حزمة واحدة من المشكلات مطلوب حلها جميعاً فى اللحظة ذاتها.

■

ذاكرة الاستخبارات

غسان شربل

بيروت: دار رياض الريس للنشر، ٢٠٠٧، ٣٤٥ صفحة



لا يكفى وقف إطلاق النار لدفع الحرب إلى التقاعد، ولا يكفى إبرام تسوية سياسية لضمان عدم تكرارها. لا تعاقب الحرب بالنسيان بل بإعادة قراءة أسبابها ومجرياتها واستجلاء غموضها، تعرية الحرب من هالاتها شرط لتجاوزها.

بهذه الكلمات يبرر المؤلف إقدامه على إجراء حوارات مع أربعة من مسئولى الأمن والمخابرات فى لبنان فى فترات مختلفة من تأريخها المعاصر المليء بالحروب الأهلية والتطاحنات القبلية والمساومات السياسية والتدخلات الخارجية هم:

جونى عبده الذى رأس مديرية المخابرات فى الجيش اللبنانى فى عهد الرئيس الياس سركيس (١٩٧٦ ـ ١٩٨٢)، والذى كان ضمن الحلقة السياسية الصغيرة المسماة بمطبخ القرار، وقد انتهت هذه السنوات بالاجتياح الإسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢.

وجابى لحود الذى كان رئيساً للمكتب الثانى فى عهد الرئيس شارل حلو (١٩٦٤ ـ ١٩٧٠)، كما كان لاعباً بارزاً فى المكتب الثانى فى عهد الرئيس فؤاد شهاب (١٩٥٨ ـ ١٩٦٤).

ومحمود مطر، الضابط بسلاح الجو اللبنانى وصاحب القصة الشهيرة التى حاولت فيها المخابرات السوفيتية تجنيده لخطف طائرة ميراج فرنسية تابعة للجيش اللبنانى.

وجميل السيد المدير العام للأمن العام فى عهد الرئيس إميل لحود، والذى اتهمه المتظاهرون ضمن قادة أمنيين آخرين باغتيال الرئيس رفيق الحريرى، وكان جميل السيد هو الرجل القوى فى مديرية المخابرات فى عهد الرئيس الياس الهراوى (١٩٨٩ ـ ١٩٩٨)، وهو الذى خطط لوصول إميل لحود إلى الحكم باتفاق وتطابق كاملين مع السوريين.

وقد استقال جميل من منصبه عقب اغتيال الرئيس الحريرى فى ١٤ فبراير ٢٠٠٥م.

وأهمية هذه الحوارات ليس فقط كونها تفسر كثيراً من الحوادث الغامضة باعتبار أن أصحابها ممن يمكن أن يوصفوا بأنهم عليمون ببواطن الأمور ومطلعون على أدق الأسرار، وإنما أيضاً لأن فى روايات أصحابها ما تناقضه روايات أخرى عن الحادثة ذاتها.

كما أن أصحابها الآن هم خارج دوائر صنع القرار وبعيداً عن قيود المنصب، ومن ثم، فإنهم يفتحون خزائن أسرارهم بحرية مطلقة بعد أن ظلت لسنوات طويلة مغلقة.

الميزة الأهم لهذه الحوارات أيضاً أنها تكشف عن التدخلات الخارجية فى المسألة اللبنانية والعلاقات التى تربط اللاعبين الخارجيين بالشأن الداخلى، وتصفح ضعف البنية الداخلية للدولة اللبنانية وتفسخ صيغتها التوافقية، التى تجعلها عرضة دائمة لاهتزازات متوالية تهددها فى الصميم.

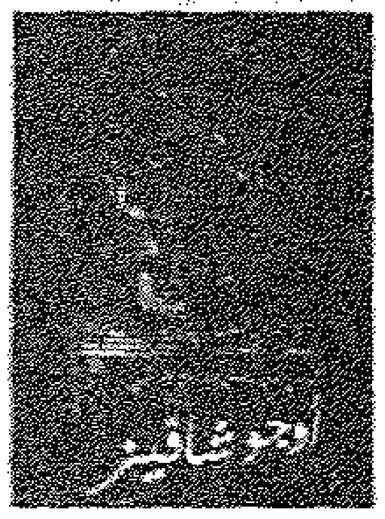
■

أوجو شافيز

نيكولاس كوزلوف

ترجمة: فاطمة نصر

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٧، ٢٧٢صفحة



منذ انتخابه عام ١٩٩٨، ظل شافيز يتحدى المبادرات التى تقودها أمريكا، الحرب على العراق، حرب المخدرات فى أمريكا اللاتينية وغيرها، بل وسعى إلى تطوير علاقاته مع كوبا كاسترو، العدو التقليدى الصامد ـ حتى الآن ـ فى وجه المخططات الأمريكية فى جنوب القارة، وأصر على تزويدها بالوقود فى مقابل مزايا تقنية وعلمية، وزاد من الضرائب المفروضة على منشآت النفط الأمريكية التى تعمل فى فنزويلا فى محاولة منه للاستفادة من عائدات النفط لتحسين مستوى معيشة الناس فى بلاده، وقد استخدم هذه العائدات بالفعل فى عديد من المشروعات الاجتماعية الطموحة، فى التعليم والإسكان والصحة وبرنامج الإصلاح الزراعى الذى أثار جدلاً واسعاً، ويسعى شافيز إلى قيادة تكتل داخل دول أمريكا الجنوبية يواجه به النفوذ الأمريكى فيها، أما أكثر ما يهدد البيت الأبيض فهو إقامة شركة نفط أمريكا الجنوبية الجديدة لمواجهة الاستغلال الأمريكى لنفط القارة، كما أطلق شافيز قناة فضائية خاصة بنصف الكرة الجنوبى لمواجهة الإعلام الأمريكى الذى يسعى للتغلغل والتأثير على بلاده.

هذا كله جعل من شافيز رمزاً للثورة ضد مصالح الولايات المتحدة الأمريكية السياسية والاقتصادية فى جميع أنحاء أمريكا الجنوبية.

والمؤلف الذى عمل لفترة فى فنزويلا، وكان يعد لرسالة دكتوراة يجمع مادتها الميدانية فى كراكاس، انشغل بالزعيم الفنزويلى الثائر الذى يسعى للتماهى مع القائد الملهم سيمون بوليفار، البطل العظيم الذى حرر القارة الجنوبية من الاستعمار الإسبانى، وبدأ يتابعه فى خطاباته السياسية التلقائية، وفى برنامجه التليفزيونى «الو رئيس الجمهورية»، وحين جرى الانقلاب عليه، رأى المؤلف بعينه كيف تحرك طوفان من مئات الألوف من الفقراء والمعدمين لمحاصرة القصر الجمهورى فى كراكاس حتى أجبروا حكومة الانقلاب على حل نفسها.

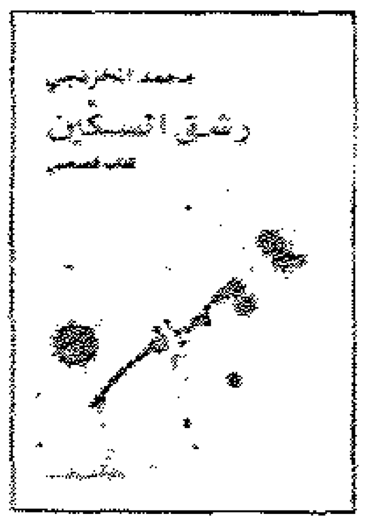
إلى ذلك، يشير الكتاب إلى المناخ الاجتماعى الآخذ فى الانتشار فى أنحاء أمريكا الجنوبية، والذى يعود إلى شافيز الفضل الأساسى فيه.

■

رشق السكين

محمد المخزنجي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٠٦ صفحات



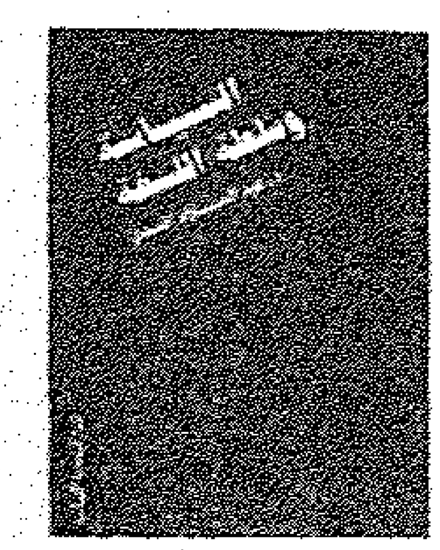
هذه هي المجموعة الثانية للمؤلف بعد مجموعته الأولى «الآتي» (١٩٨٣)، وقد صدرت هذه المجموعة ضمن مختارات فصول عام ١٩٨٤، وهي تشير بقوة إلى عالم الأديب، تماماً مثل «سفر» مجموعته الرابعة التي صدرت عام ١٩٩٠، أما مجموعته «الموت يضحك» ١٩٨٦، فكانت مغايرة نوعاً ما، إذ كانت القصص فيها أطول نسبيًا بعكس المجموعات الثلاث الأخرى، التي اعتمدت درجة عالية من التكثيف الشعوري واللغوي، مع قدر كبير من الإفصاح والإبانة، وهو ما يدهش في أسلوب المخزنجي شديد الاختزال والتكثيف، والذي يغوص بمهارة في النفس الإنسانية (وهو طبيب نفسي حائز على الدكتوراة في هذا التخصص، كما ينجح في تشكيل خبراته الذاتية بمهارة فنية واضحة، دون ادعاء باختراق «موضوعات كبيرة»، برغم أن ما يناقشه وإن بدا ذاتياً فإنه عام وأحياناً كوني.

تضم المجموعة ٣٢ أقصوصة موزعة على عناوين عدة: هذه اللحظة، مدينة الاختناق، سفر الشجر، بشر الأقفاص، حيوانات وطيور، ملامح شتوية، في المقهى، في المنيا، مجرد لمس، نفسيات.

السياسة وسلطة اللغة

عبدالسلام المسدّي

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧، ٣٦٦ صفحة



يرى المؤلف أن السياسة واللغة قرينتان متلازمتان، حيثما رأيت الواحد بدا لك الآخر، وليس من قول في السياسة إلا خلفه فعل سياسي، وما في فعل سياسي إلا وهو ينتج بالضرورة خطاباً (...) كان الفعل في السياسة هو الذي يجر اللغة إليه جراً، فهي أبد الدهر محكومة به، ولكن الوضع قد تغير وتوشك الأدوار أن تنقلب، والسبب أن سياسة أمور الناس داخل الأوطان قد كانت هي الأصل وهي المبتدأ، وتأتي بعدها سياسة الروابط بين الوطن وسائر الأوطان في الأرض المعمورة، ثم حصل الانقلاب على مدار العقود، فأصبحت سياسة الوطن محكومة بشبكة العلاقات المعقدة القائمة بينه وبين سائر الأوطان.

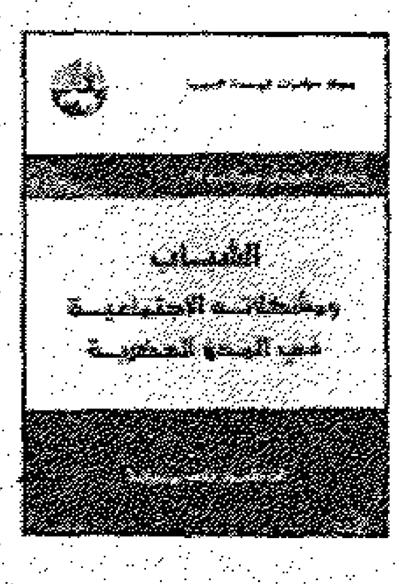
بسبب هذا التلازم والتطورات والتحولات التي صاحبته، يتابع المؤلف أقوال الساسة وأهل السياسة، كاشفاً عما وراءها من فعل سياسي أنتج هذا الخطاب بالذات دون غيره، مستشهداً بمئات الأمثلة دولياً وعربياً، وفاضحاً المضمر خلفها ودلائلها القريبة والبعيدة، وهو ما يتبدى بوضوح صارخ في الفصل الحادي عشر الذي حمل عنوان «بلاغة السمع وفصاحة الهجاء»، والذي يتضمن مواجهات حادة بين الساسة العرب كان مسرحها مداولات جامعة الدول العربية وتعددت أطرافها بين ليبيا والسعودية والعراق ولبنان ومصر وسوريا، وقد شهدت الأجواء العربية مراحل من السخونة دفعت القذافي إلى تشبيه الحشد الأمريكي في الخليج العربي بالغزو الأمريكي الفاشل لكوبا في الخمسينيات، والذي تمركز في خليج الخنازير، ليرد عليه الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد آنذاك قائلاً: الكذب أمامك والقبر قدامك، أو أن يخاطب أحدهم نظيره بالقول: أنت تتقيأ سماً، فيرد عليه تعلم كيف تتكلم إلى الكبار، فيرد بدوره: أنا أعلم عشرة من أمثالك، أو أن يصف الرئيس السوري بشار الأسد رئيس الوزراء اللبناني فؤاد السنيورة بأنه عبد مأمور لعبد مأمور.

هذه مجرد عينة لاقتران اللغوي بالسياسي وما يمكن أن ينتج عن هذا الاقتران.

الشباب ومشكلاته الاجتماعية في المدن العربية

علي بو عناقة

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧، ٢٩٦ صفحة



تحتل قضايا الشباب ومشكلاته حيزاً واسعاً، في الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية والإعلامية، نظراً إلى أهمية هذه الشريحة في حياة أي مجتمع، ودورها في التغيير والتطوير.

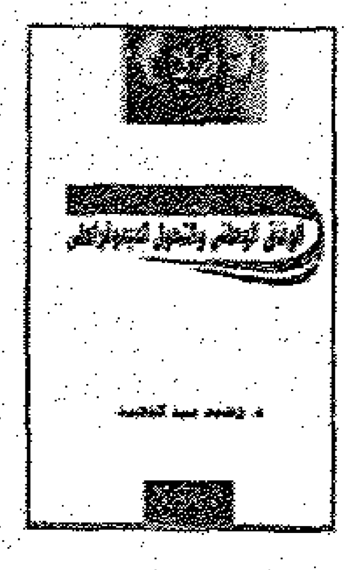
الباحث يتناول في كتابه هذه القضايا الشبابية مركزاً على الجمع المنهجي بين الأطر النظرية والتحقيقات الميدانية، وإذا كان قد اختار الجزائر كحالة للدراسة، فإن ما توصل إليه، وما رصده من أفكار وسلوكيات يقدم مساهمة كبيرة يمكن أن يفيد منها باحثون آخرون يهتمون بشئون الشباب في حالات ونماذج أخرى من الوطن العربي.

إن ما يميز منهج هذه الدراسة هو التركيز على تحليل مشكلات الشباب ربطاً بخصائص البيئة التي يعيشون فيها، إذ لا يمكن عزل هذه المشكلات عن الظروف الاجتماعية، والمكونات الثقافية، وبالتالي فإنه إذ درس حالة الجزائر، ساهم في الوقت نفسه في تسليط الضوء على مشكلات مشابهة في حياة الشباب العرب.

الوفاق الوطني والتحول الديمقراطي

وحيد عبدالمجيد

القاهرة: دار مصر المحروسة، ٢٠٠٧، ١٠٦ صفحات



يفترض هذا الكتاب أن المأزق الرئيسي في حياتنا السياسية يعود إلى غياب التوافق العام حول أهم مقومات الدولة، مثل العلاقة بين الدولة والدين، وبين السياسة والدين، وقد كان المؤلف مع آخرين من الرموز الفكرية الوطنية في مصر قد خاضوا تجربة الحوار حول ميثاق للوفاق الوطني امتدت عامي ١٩٩٤ - ١٩٩٥، إلا أنها انتهت بصدام بين الدكتور سعيد النجار (بوصفه علمانياً) والمرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين المستشار مأمون الهضيبي رحمهما الله، وهكذا لم يكتب لهذا الميثاق أن يرى النور برغم الجهود التي بذلها كثيرون من المفكرين المستنيرين الذين شاركوا في الحوار حوله ومنهم المستشار طارق البشري والدكتور محمد سليم العوا والكاتب الصحفي فهمي هويدي، وزعيم حزب التجمع خالد محيي الدين وزعيم حزب الوفد فؤاد سراج الدين والدكتور ميلاد حنا وغيرهم.

المؤلف يؤرخ لهذه التجربة من ناحية، ويشير من ناحية ثانية إلى أن الاتفاق على الإصلاح السياسي مع أهميته القصوى، غير كاف لتحقيق تقدم مطرد في الطريق إلى الديمقراطية ما لم يرافقه تراض عام على أسس النظام الديمقراطي، وهذا التراضي العام هو ما يستلزم توافقاً وطنياً على عدد من القضايا الكبرى مثل العلاقة بين الدولة والدين وطبيعة النظام الاقتصادي الاجتماعي وآليات تداول السلطة بطريقة ديمقراطية وضمانات الحفاظ على هذه الديمقراطية.

وما يقدمه المؤلف هنا هو مدخل نظري إلى مفهوم التوافق الديمقراطي وتمييزه عن الديمقراطية التوافقية، مشيراً إلى أن هذا التوافق ينقل الحياة السياسية خطوة كبيرة إلى الأمام، ويغير أنماط التفاعلات السياسية ويخلق ديناميكية جديدة، وهذا التوافق لا يمكن تحقيقه دون حوار وطني جامع لا يستثني أحداً.. بل يضعنا جميعاً أمام مسئوليتنا الوطنية ويمثل اختباراً لمصداقية السلوك الديمقراطي.

التلصص

صنع الله إبراهيم

القاهرة: دار المستقبل العربي، ٢٠٠٧، ٣٠٣ صفحات



بعد عدة روايات طغى فيها الجانب التوثيقي أو كاد على النص الأدبي (شرف، بيروت بيروت، ذات)، يعود صنع الله إبراهيم إلى كتابة نص أدبي خالص، صحيح أنه يستفيد من التاريخ ووقائعه لكنها تأتي ضمن نسيج النص الذي ينهل من ذاكرة الطفولة ومصر في السنوات الأخيرة من الأربعينيات، فالحكاء هنا طفل في الثامنة أو العاشرة على أقصى تقدير، والأرجح أنه صنع الله إبراهيم نفسه، ينقل لنا الطفل بحياد يشبه عين الكاميرا التي تسجل اللقطات من زوايا رؤية مباشرة دون أن يكون لصاحبها وجهة نظر فيما يراه أو تنقله العدسة، وهي مسألة ينجح فيها المؤلف بدرجة كبيرة جداً، فلا نعثر على مشاهد كثيرة يتخلى فيها الطفل عن طفولته ويترك للراوي «المؤلف» مساحة للرؤية والتقييم وإصدار الأحكام.

يصاحبنا الطفل وأبوه منذ سطور الرواية الأولى إلى نهايتها، وخلال هذه الرحلة نتعرف على الأم التي انتهى بها الحال إلى مستشفى للأمراض العقلية، وقد كانت الزوجة الثانية لأب عمل بالجيش قبل أن يحال إلى التقاعد.

كما نتعرف على أخوات الطفل وجيرانه وأصدقاء أبيه.

والأهم على أحوال مصر السياسية والاجتماعية في السنوات التي سبقت مباشرة قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، وكيف كانت الأحوال قد تردت سياسياً واجتماعياً وأمنياً إلى حد أنذر بالفعل بحدوث ثورة لإنقاذ البلد مما يعانيه.

ذاكرة الطفل التي تنقل لنا هذا كله،

لا تتوقف عند هذه الأحداث باعتبارها أحداثًا جساما، لكنه يحدثنا عنها بحيادية وكما رآها، وحتى المواقف التى سمح له بمشاهدتها باعتباره طفلاً ولا خوف منه، مثل تنظيف «ماما تحية» والخادمة «فاطمة» لجسدها باستخدام «الحلاوة»، وهى عارية تماماً، ينقلها إلينا كما رآها وكما شعر بها فى حينه، وباستثناء مشاعر الطفل الذى يحزن حين يضطر إلى أن يخرج أول أيام العيد وقد ارتدى بيجامة، أو حين يشعر بقدرة رفقائه على ممارسة لهو يعجز هو عنه بسبب اعتلال صحته وفقره، فإن ما يراه ويتابعه و«يتلصص» عليه يحدثنا عنه كما رآه، وحتى أقصى درجات انفعاله وغضبه حين يضبط أباه عارياً يضاجع الخادمة لا تخرج عن لفظة يطلقها سريعاً ويجرى «يلعن أبوكم».

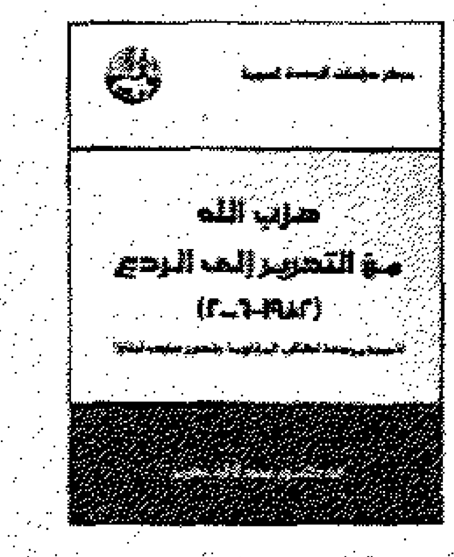
التلصص تجربة فى الحكى وبلاغة الاقتصاد فى اللغة التى تأتى على شكل جمل قصيرة للغاية، تنقل إلينا عالماً تتمنى جميعاً لو نستعيده بمشاعرنا ذاتها لحظة حدوثه.

■

حزب الله من التحرر إلى الردع

عبدالإله بلقزيز

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧، ١١٠ صفحات



حققت المقاومة اللبنانية وفى القلب منها حزب الله ما عجزت عن تحقيقه المنطقة العربية كلها طوال سنوات اشتباكها مع إسرائيل منذ ما يزيد على نصف قرن، فقد ألحقت هزيمة مذلة بالعدو الصهيونى ودفعته لأول مرة فى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى إلى الانسحاب من الأرض بالقوة المسلحة دون مفاوضات.

يقول المؤلف: إذا كان لابد من تفسير لهذه المفارقة، فالأوجب البحث عنه فى عامل آخر غير ميزان القوى وهو المختل اختلالاً كاملاً لصالح العدو، ونزعم أن ما ينبغى الانصراف إلى بحثه والتماس تفسيره، هو العامل الغائب فى الوعى السياسى العربى، والمقولة التى تكاد تكون مجهولة فى أدبياته نعنى: ميزان الإرادات، وهو الميزان الذى صنع انتصار الثورة الجزائرية على الاحتلال الفرنسى، وانتصار الثورة الفيتنامية على الجيش الأمريكى، والذى سوف يصنع بعد الانتصار اللبنانى، انتصارات عربية أخرى على الدولة الصهيونية.

استناداً إلى هذا الإدراك يتتبع المؤلف مسيرة حزب الله وانغماسه فى المقاومة اللبنانية ضد العدو الصهيونى وفقاً لرؤى أيديولوجية محددة تعلى من شأن الشهادة فى سبيل الله والوطن، ويشير إلى تمايزاته عن القوى المقاومة الأخرى طوال تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى خصوصاً فى لبنان، كما يشير إلى ثلاث نتائج حققها انتصار المقاومة اللبنانية على إسرائيل فى حرب الثلاثة وثلاثين يوماً فى الصيف الماضى وهى: أن الانتصار أنعش فكرة الوطن الجامع فى المخيال اللبنانى بعد الذى أصابها من شروخ طوال فترة الحرب الأهلية، وأن وقف الحرب الأهلية أعاد ترتيب أولويات الصراع بين اللبنانيين، فلم تعد الأولوية بالنسبة للكثيرين صراعاً على توزيع حصص السلطة على الطوائف، بل صراع من أجل استعادة وطن قضمه الاحتلال، وأن المقاومة باتت تستطيع أن تنطلق بثقة بعد أن اطمأنت إلى وقف الحرب الأهلية وقيام السلم المدنى الذى يجعل ظهرها محمياً.

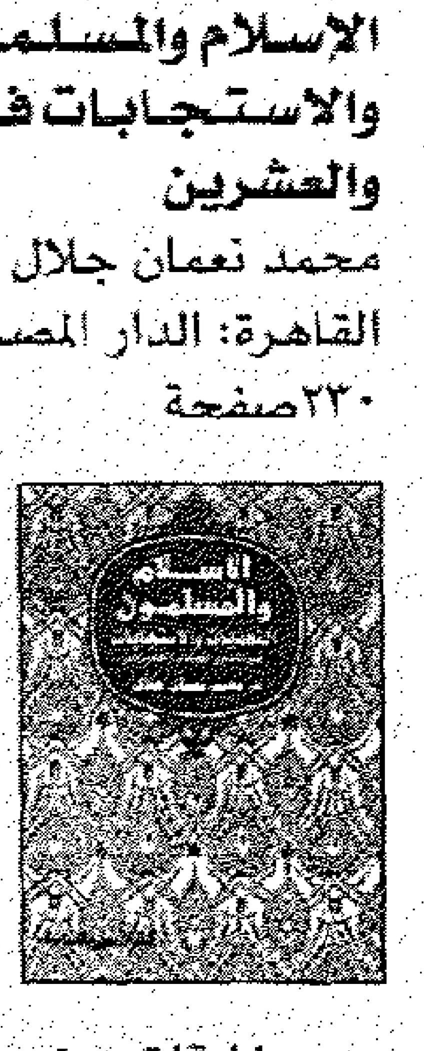
ويؤكد المؤلف فى سياق استعراضه لنشأة حزب الله والمراحل التى يمر بها المنتمون إليه، إلى أن حزب الله فى عز اندفاعاته العقائدية لم يكن مفتقراً أبداً إلى حساسية سياسية واقعية وبرجماتية، يقول: وحدهم الذين يعتقدون ذلك يفتقدون إلى الوعى السياسى.

■

الإسلام والمسلمون.. التحديات والاستجابات فى القرن الحادى والعشرين

محمد نعمان جلال

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧، ٢٣٠صفحة



مفارقات مضحكة، مبكية، لكنها لا تخلو من دلالة جارحة، تلك التى وقف أمامها ورصدها السفير د. محمد نعمان جلال، فى كتابه.

وهى مفارقة توضح حال الأمة الإسلامية الراهن، إنها الفرق بين مطلع القرن العشرين، ومطلع القرن الحادى والعشرين.

ذلك أن القرن العشرين قد بدأ - بالنسبة لتاريخ الإسلام والمسلمين - بشخصيات مثل: جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، وأحمد لطفى السيد، وطه حسين وآخرين فى شتى المجالات، فى حين بدأ القرن الحادى والعشرون بشخصيات مثل: أسامة بن لادن، وأيمن الظواهرى، والملا عمر، وأبو مصعب الزرقاوى، وشتان الفارق بين النوعين من الشخصيات، ففى الوقت الذى كان فيه الأفغانى ومحمد عبده، يناضلان بالكلمات والدعوة الحسنة لتحرير أوطانهم من الاستعمار والتخلف، ويلجآن إلى الغرب للدفاع عن تلك القضايا العادلة، نجد الآن المسلمين فى الغرب يثيرون المعارك حول ملابس المرأة المسلمة ويشعلون النيران فى السيارات والأملاك الخاصة والعامة.

إن النظر إلى طبيعة القضايا التى يثيرها المسلمون الآن فى علاقتهم بالغرب توضح المدى المتدهور الذى يمثلونه فى سلم الحضارة العالمية، التى تمضى بخطى متسارعة، وفاتنا أن نلتحق بها، فنثير الغبار حول معارك وقضايا لا يهتم بها غيرنا.

فهل يرجع تخلفنا هذا إلى ديننا الحنيف الذى يأمرنا بالعمل ويحثنا على العلم والتقدم؟ أم يرجع السبب إلينا نحن أتباع هذا الدين؟

وفى المسافة الفاصلة بين الدين كقيمة حضارية وإنسانية، وبين الاتباع تكمن القضايا التى يدرسها ويناقشها المؤلف، فهو يرى أن المسلمين منذ أمد بعيد يعانون الانفصام رباعى الأبعاد، حيث الدين العظيم فى قيمه ومبادئه من ناحية، والحضارة الإسلامية العريقة التى اتسمت بالانفتاح على حضارات عالمها المعاصر آنذاك، من ناحية ثانية، ثم فترة طويلة من التخلف والجمود الثقافى والفكرى والعلمى، بل والاقتصادى والاجتماعى من ناحية ثالثة، ثم مرحلة ممتدة من الاستبداد الذى يتعارض مع كل المبادئ الإنسانية ويتحدى منطق التطور، وهو ما جعلنا فى نظر العالم تهديداً للحضارة ومصدراً للإرهاب.

عظمة الإسلام.. وتخلف عقل المسلمين، هى.. إذن.. الحقيقة التى يتأملها بأسى، ساعده فى ذلك خبرته كدبلوماسى، فجاء كتابه هذا دراسة فى السياسة وفى الاجتماع وفى الأخلاق وفى الفكر والثقافة الإسلامية، وفى فلسفة الدين، وسبل تطور الشعوب والأمم، وذلك بالتعايش بين الثقافات والأديان، بديلاً للأفكار الوقتية مثل حوار الأديان وصدام الحضارات.

ومن هنا يصبح الكتاب سياحة فكرية، تعتمد على خبرة واقعية، فى الأحداث العالمية التى كان الإسلام والمسلمون طرفاً فيها.

الكتاب أخيراً محاولة للإجابة عن سؤال غاية فى الأهمية، وهو: لماذا تقدم الآخرون، وتأخر العالم الإسلامى؟ وهو سؤال سبق وطرحه العديد من المفكرين والمهمومين بمصير العالم العربى والإسلامى، وكل منهم طرح رؤيته، ورؤية المؤلف هنا تكمل هذه الأطروحات ولا تتناقض معها.

شخابيط

نبيل خلف

القاهرة: سنابل ٢٠٠٧، ١٤١ صفحة



ديوان جديد من شعر العامية المصرية يتضمن مجموعة من القصائد التى تعكس عالماً من البراءة الكاملة، وتطلعاً إلى دنيا تختفى فيها الشعارات الكبيرة والأفكار الثورية لصالح اليقين وتوق الإنسان إلى الحرية بمعناها النقى .. «أنا حلمى مالوش دعوة براسمال/ ولا استغلال/ وفائض القيمة والعمال/ ولا بماركس ولا بسقراط/ أنا بحلم بنوع بشرى بسيط جداً/ بيعرف يعنى إيه يضحك/ بدون ما يدلك العضلات/ عشان ما يفتح الشفتين/ ويتبسم/ بدون شمة من الكوكايين/ أو الهيروين».

وفى قصائد عديدة يتبدى لنا وجه الشاعر الطفولى وخبراته المتراكمة فى الكتابة للطفل، إذ سبق له أن كتب مسرحيات وكتبا عديدة للأطفال حازت جوائز عالمية ومحلية، وهو يستدعى فى هذه القصائد تلك الروح بما تنطوى عليه من تشبث مبهر بعالم الأساطير والحكايات القديمة .. «ياعروسة البحر ياكركوبة/ أنا بحلم ولا فى غيبوبة/ أنا تحت البحر سعيد وقنوع/ عيل مسروع/ يحضنى الجوع/ يقطم تفاحتى المعطوبة».

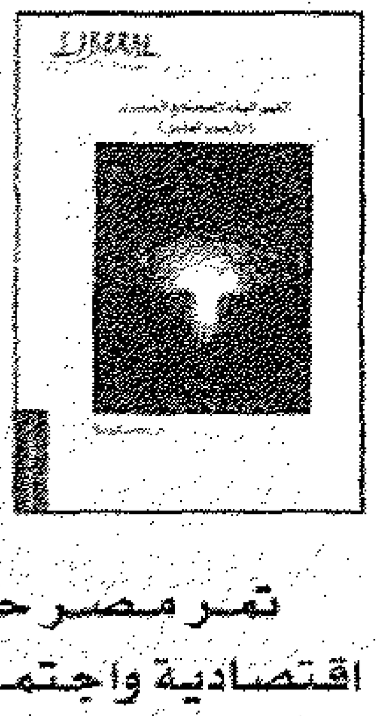
ونقرأ فى قصيدة أخرى: «يا هلالى ياحدوة لحصانى/ دى حلاوة القلب/ على لسانى/ إنما وطنى فى حجرى/ لما أجرى/ ومانيش راسمالى/ ولا أجرى».

■

الليبرالية والمجتمع المصرى (الأزمة والدليل)

د. رفعت لقوشة

تم طبع هذا الكتاب بدعم من مؤسسة فريدريش ناومان الألمانية بالقاهرة



تمر مصر حاليا بالتحولات اقتصادية واجتماعية وسياسية التى حاليا تتمثل فى التوجه نحو اندماج الاقتصاد المصرى فى الاقتصاد العالمى وثورة من التشريعات المؤثرة على الحرية

السياسية والممارسة الديمقراطية، من هنا وجب مناقشة الفكر الليبرالى بالإضافة إلى تقييم دوره فى المرحلة السابقة وتحديد نقاط القوة والضعف فيه والكتاب يدافع عن الفكر الليبرالى وينقده من منطلق تحسين الأداء فى هذا الاتجاه. من أهم القضايا والتساؤلات التى يثيرها الكاتب ما يلى:

أولاً: ما الأهمية النسبية للفكر الليبرالى فى مصر، وهل نجح الليبراليون المصريون فى طرح هذا الفكر بما يخدم قضايا التنمية فى مصر؟

ثانيا: ما هى المحاور التى تجعل الليبراليون أكثر قرباً لتحقيق مطامع القاعدة السياسية بما يسهم فى تعظيم الاستفادة من الليبراليين فى خدمة قضايا التنمية فى مصر؟

ثالثاً: هل لدى المواطن المصرى الوعى الكافى بالفكر الليبرالى ودوره فى التأثير على حياته؟

رابعاً: ما العلاقة بين المجتمع المدنى والفكر الليبرالى؟

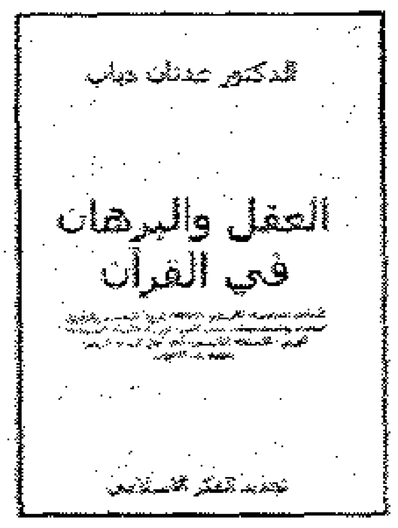
خامساً: ما أولويات الأجندة الليبرالية فى مصر، هل اختيار بديل لدعم المجتمع السياسى الليبرالى أم تبنى أحزاب ليبرالية؟

سادساً: ما هى طبيعة العلاقة بين الليبرالية والإسلام؟

العقل والبرهان فى القرآن

عدنان دياب

بيروت: المؤلف، ٢٠٠٦، ٤١٧صفحة



منذ بدء الخليقة، كان البحث عن علة الوجود وغايته سؤالاً مؤرقاً، ولهذا كانت الديانات وكان الرسل، وقد اضطلع الدين والفلسفة بدور مهم فى الإجابة عن تلك التساؤلات أو محاولة الإجابة عليها كل بطريقته الخاصة.

ومع التقدم العلمى المذهل والتوصل للعديد من الإجابات حول أسرار الجسم البشرى والكون فى عمومه، دخل العلم طرفاً فى المعادلة، وصار ممكناً له أن يقدم جانباً آخر من الصورة استناداً إلى التجريب وإلى التفكير العلمى فى صورته التى نقلت العالم من الظلام إلى النور.

ولأن حقائق العلم نسبية وحقائق الدين مطلقة، فقد وضع الدين دائماً فى مواجهة العلم، وحمل بعض من رجال الدين الراية لمعاداة العلم وتنبيه الناس له باعتباره رجساً من عمل الشيطان، ويروى لنا التاريخ عن كثير من العلماء الذين أوذوا وسجنوا وقتلوا لأنهم خرجوا بنتائج علمية لم يستوعبها رجال الدين فى حينها، واعتبروها هرطقة ومعاداة للدين.

وما يؤكد عليه المؤلف هنا، وهو طبيب أساساً، أن العلم فى ذاته دين يعلم الناس كيف يكتشفون الخالق فى خلقه، وهو يبحث عن فهم العالم لتفسيره، وهو وسيلة القرآن التى اختارها رب العالمين للبرهان على وجوده، وهو محاولة - كما يقول المؤلف - لفتح باب أُغلق منذ زمن طويل، مفاده أن لا حقيقة خارج العلم المادى ونظام العقل فى الطبيعة، والدين لا يهاب دخول العقل عليه، بل هو على العكس من ذلك لأن الله أنزله ليحاور به عقول الناس.

والكتاب عبارة عن اثنى عشر باباً، على النحو التالى: الديانات الجاهلية، الإسلام، الثقافة، حقيقة الروح فى القرآن، التفسير والتأويل والتشابه، عذاب القبر، السنة، عصمة الأنبياء، الشفاعة، العرش والاستواء والكرسى، آدم، وباب أخير يضم فصولاً شتى: أهل البيت والرجم والقضاء عن الأموات وآمين.

دوريـات

أدب ونقد

القاهرة: حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى



يتضمن العدد الجديد من هذه الدورية مقالاً للشاعر أدونيس تحت عنوان «أهل البدع.. أهل الإبداع»، وهى رؤية يناقش فيها الشاعر العربى الكبير المشكلات التى ترتبط بالنشاط الفكرى وبالآراء السياسية للمبدع، ويشير إلى وقائع محددة جرت فى أسبوع اليمامة الثقافى فى نوفمبر الماضى.

تقدم هناء إبراهيم أيضا شهادتها عن الحجاب الذى أجبرت عليه حين كانت فى بداية المرحلة الثانوية، وكيف انتهى بها الأمر الآن، وكيف دفعها ذلك إلى الاهتمام بأشكال الحجاب ودرجاته وأزيائه.

بالعدد أيضاً دراسة نقدية عن رواية نعيم صبرى روبابيكيا الصادرة عام ٢٠٠٥، ودراسة عن شعر نزار قبانى وأخرى عن رواية صنع الله إبراهيم الأخيرة تلصص وحوار مع الشاعر محمد آدم، إضافة إلى إبداعات شعرية وقصصية وأبواب المجلة الثابتة.

دبى الثقافية

دبى: الصدى للصحافة والنشر والتوزيع



بانوراما العدد عن مهرجان مسقط ويركز بالذات على التراث العمانى، وأيضاً من تونس تحقيق عن قصر النجمة الزهراء، ومن موسكو تحقيق آخر عن الكرملين.

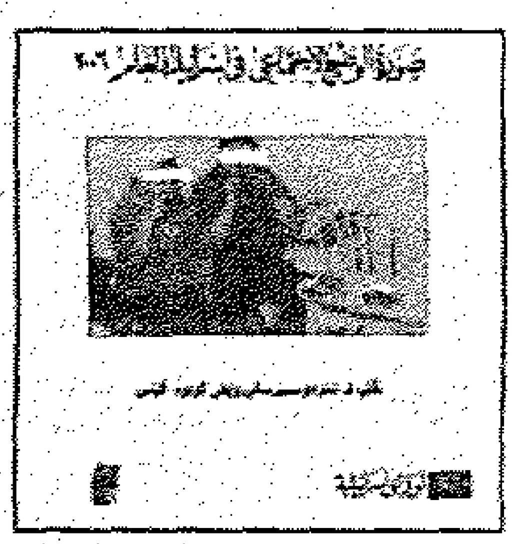
يتضمن العدد أيضاً تحقيقاً عن شاعرات لبنانيات أصدرن مئات القصائد ونشرنها فى صحف ومجلات لكنهن يرفضن نشرها فى دواوين.

ويكتب رجاء النقاش مقالاً عن القاص عادل كامل الذى بدأ مع نجيب محفوظ وكان موهبة واعدة لكنه توقف تماماً بعد ثلاث تجارب إبداعية مهمة فى العام ١٩٤٢ ولم تكن سنه قد تجاوزت بعد السادسة والعشرين.

بالعدد حوارات مع الكاتب الإماراتى عبدالخالق عبدالله والمفكر المالى ماماود دوكورو وثالث مع المخرج السورى نبيل المالح، وفى المسرح موضوع عن المسرح اللبنانى، وفى السينما لقاء مع الأب الشرعى للسينما التونسية عمار الخليفى، إضافة إلى مقالات أحمد عبدالمعطى حجازى وأدونيس وعبدالعزيز المقالح وغيرهم.

مـــدار

رام الله: المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية عدد ٣٧

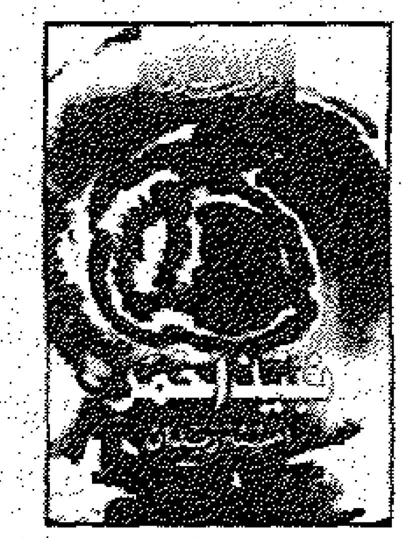


يشتمل هذا العدد من «أوراق إسرائيلية» على وثيقتين أعدهما مركز أدفا - معلومات حول المساواة والعدالة الاجتماعية فى إسرائيل: الأولى حول صورة الوضع الاجتماعى فى إسرائيل العام ٢٠٠٦، والثانية حول الموازنة الإسرائيلية فى العام ٢٠٠٧ التى تضمنت تغطية تكاليف الحرب على لبنان.

والنتيجة التى يتوصل إليها هذا المركز، فى وثيقته الثانية الوثيقة الصلة بالأولى، هى أن العقد الأول من القرن الحادى والعشرين الحالى بات من شبه المؤكد أن يرتسم بكونه عقداً اجتماعياً مفقوداً من ناحية إسرائيل. فالتقليصات المقررة العام ٢٠٠٧ فى الخدمات الاجتماعية وشبكة الضمان الاجتماعى بحجة تغطية تكاليف الحرب، وتلك المتوقعة العام ٢٠٠٨، تضاف إلى تقليصات عميقة فى الموازنة تم تنفيذها فى الأعوام ٢٠٠١-٢٠٠٤ . وإذا ما تم ربط كل هذه التقليصات فإن الخلاصة المطلوبة هى أن العقد الحالى سيكون عقداً كاملاً من الانكفاء الاجتماعى فى مجالات التعليم، التعليم العالى، الصحة، السكن و الرفاه والضمان الاجتماعى.

الهـــلال

القاهرة: دار الهلال



الملف الرئيسى لهذا العدد عن الدين والسياسة، وهى الاشكالية التى مازالت مثارة مع بدايات القرن الحادى والعشرين، كلما كانت كذلك فى بدايات القرن الماضى.

يكتب فى الملف الدكتور محمود إسماعيل عن تسييس الإسلام، ويكتب د. رمسيس عوض عن محاكم التفتيش وعبدالمعطى بيومى «التفسير بالنص»، ويكتب الأمين العام لحزب التجمع الدكتور رفعت السعيد «جماعة الإخوان مرجعية متأسلمة»، ويكتب وائل غالى «خطر على الثقافة المصرية».

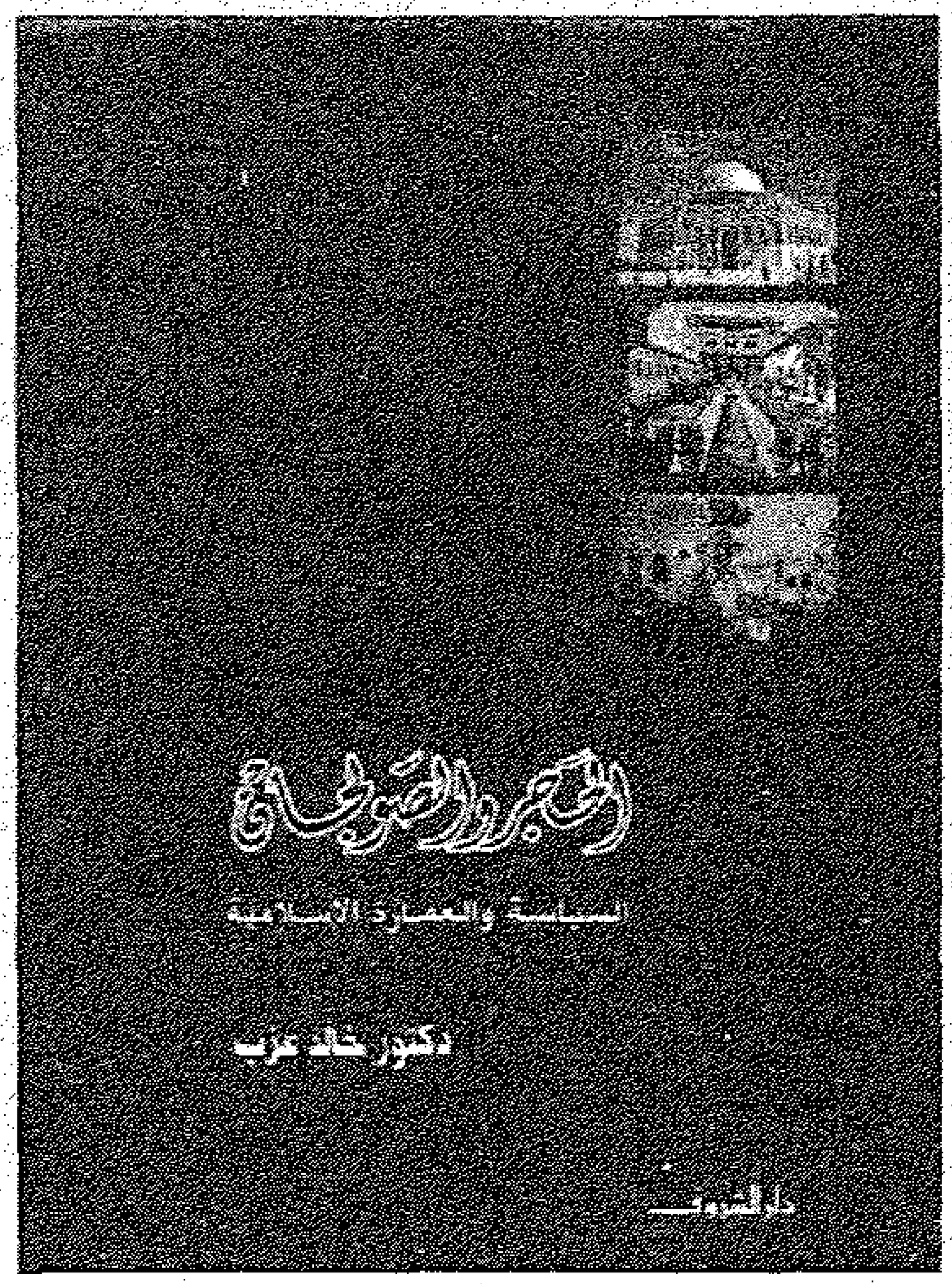
إلى ذلك يتضمن العدد موضوعات أخرى بينها دراسة للشاعر محمد إبراهيم أبوسنة عنوانها «رؤية نقدية للشعر العربى»، وأحمد حسين الطحاوى عن «مى وعشاقها»، إضافة إلى إبداعات شعرية وقصصية ونقدية.

الســـياســـة والعمـــــارة

■■ خروجًا عن المعتاد يجيء كتاب «الحجر والصولجان.. السياسة والعمارة الإسلامية» ليقدم لنا رؤية للعلاقة البينية بين السياسة والعمارة، لاشك أنها جريئة وتشكل حدثًا يستحق أن نقف عنده كثيرًا، المؤلف ذكر في مقدمة كتابه أن جدلاً ثار حول مادة هذا الكتاب حينما قدمها كجزء من أطروحته لمناقشتها كاد يفضى إلى عدم مناقشة الرسالة، حيث أصرت لجنة التحكيم على حذف كافة فصول هذا الكتاب، ينطلق من إثارة تساؤلات حول العمارة الإسلامية والسلطة بمكوناتها المختلفة.. السلطان ورجاله.. المجتمع وقواه الفاعلة والخاملة.. المبادئ الحاكمة للعلاقة بين الطرفين، تفاعلات متبادلة تعكس روح كل عصر وطبيعته. فجدلية العلاقة فرضت وجود مؤسسة الأوقاف التى من المفترض أنها تؤدى دورًا مهمًا، يوازى بعض أدوار الدولة المعاصرة حاليًا، وبعض أدوار المجتمع المدنى المعاصر، لكن انظر كيف كان وعى أهل الصولجان لكيفية توظيف هذه المؤسسة لتأمين معاش دائم لذريتهم، حيث إن الأوقاف محرم شرعًا مصادرتها، ومن ناحية أخرى لتوظيف العلماء ليكونوا موظفين لدى السلطة يأتمرون بأمر الواقف صاحب السلطة، هكذا جاءت العديد من المنشآت الدينية لتعبر فى الوقت ذاته عن هيبة الدولة وعظمتها وقوتها، كما نرى فى مدرسة السلطان حسن وجامع محمد على.

كانت الأوقاف هى المحرك الوحيد لحركة العمران داخل المجتمع والواسطة بين السلطة بثرائها، والتجار وثرائهم، وبين الفقراء من خلال تقديمها للخدمات الاجتماعية إلى المجتمع: فلم يكن فى القديم للدولة دور فى تقديم الخدمات الاجتماعية بل يتوقف دورها عند حفظ الأنفس وإقامة المشاريع الكبرى التى تضمن زيادة ريع الدولة من الضرائب كشق الترع وإقامة الجسور والسدود وتأمين الطرق، ولما كانت الأوقاف تنبع من المجتمع وإليه فقد حقق المجتمع استقلالية نسبية فى شئونه.

فى هذا الكتاب سيجد القارئ محاولة لاستكشاف معامل القيمة ودوره فى العمارة الإسلامية، فهذا المعامل هو أخلاقى رفيع نراه فى أحكام طبقت من خلال فقه العمارة، فأنتجت صياغات جمالية من حيث مظهرها، لكن هذه الجمالية الشكلية تحمل فى طياتها مضمونًا قيميًا غير ظاهر للعيان، لكن الدراسة الدقيقة تكشف عنه، وعلى هذا فالفرد المتلقى للعمارة هو إنسان مرهف الحس يدرك ما تحمله من معان مركبة، وسيجد القارئ تارة نفسه بين طرز معمارية مختلفة من دولة لدولة كل منها يحمل بين جنباته سمة هذه الدولة أو تلك، وتعكس العمارة هيبة الدولة وقدرتها



بل تعكس قدرة الدولة الاقتصادية وإرادتها السياسية. هكذا تتحدث العمارة فهى ليست حجرًا بل رداء للحياة وذاكرة حية للمجتمعات.

تعددت المناهج التى درست العمارة الإسلامية، ومعظمها درس من منظور بسيط غير مركب، وهو ما أدى إلى أحادية النظرة لهذه العمارة، وبالتالى قصور فى إدراك ماهيتها. وكانت معظم الدراسات خلال العقود الماضية تركز على الدراسة الوصفية التى ترسم الشكل المعمارى من خلال الكلمات، دون البحث عن البنية التى صاغت هذه العمارة ونحتت زخارفها المبهرة نحتًا يخطف الأبصار، أو تأصيل عناصرها المعمارية و الزخرفية إلى أن تصل أحيانًا بها إلى عمارة ما قبل الإسلام، دون أن يدرك هذا المنهج التأصيلى أن هناك بوتقة صهرت فيها هذه العناصر، وأعيد إنتاجها مرة أخرى بما يتوافق مع روح الحضارة الإسلامية، بطريقة تحمل فى أغلب الأحوال إبداعًا يفوق ابتكار العنصر نفسه، إذن فنحن أمام عدد من مستويات الدراسة ومحدداتها لكى نستطيع أن ندرس العمارة الإسلامية، وأول هذه المحددات هو تحديد بنية العمارة الإسلامية، ونحن نقصد هنا بالبنية العلاقة المتشابكة بين المكونات المادية والفكرية للعمارة، فالبنية هنا تربط بين الكل الواقعى أو تجمع أجزاءه، لذا فهى تعد القانون الذى يضبط هذه العلاقة.

يجب هنا التمييز بين (البنية السطحية) و(البنية العميقة)، فالبنية السطحية هى كل هيكل الشىء ووحدته المادية الظاهرة، أما البنية العميقة فهى كامنة فى صميم الشىء، وهى التى تمنح الظاهرة هويتها وتضفى عليها خصوصيتها. وعادة ما يعى المرء إدراك البنية السطحية المادية المباشرة، فإدراكها أمر متيسر، أما إدراك البنية الكامنة فهو أمر أكثر صعوبة، يتطلب استخدام الحواس وإعمال العقل والخيال والحدس. لذا عادة ما يعيش البشر داخل بُنى اجتماعية وتاريخية واقتصادية يستنبطونها فتؤثر فى سلوكهم وتشكيل رؤيتهم للكون وتحدد خطابهم الحضارى دون وعى منهم.

لذا لكى نصل إلى بنية العمارة الإسلامية، يجب أن نفك هذه العمارة، ونعيد تركيبها مرة أخرى، وعبارة فك الشىء تعنى فصله وفرق أجزائه بعضها عن بعض، وعكسها (ركب الشىء) أى جعل الشىء بعضه فوق بعض وضمه إلى غيره- وهذه العملية تهدف إلى فصل مكونات العمارة، ثم إعادة ضمها إلى بعضها من خلال نموذج تفسيرى يوضح هذه العملية، وبذلك يمكن الوصول إلى ماهية العمارة الإسلامية.

وتعتمد هذه الدراسة فى بناء النموذج التفسيرى على دراسة العلاقة بين التحول السياسى، والذى يعنى انتقال السلطة من جماعة سياسية إلى أخرى، وهو ما يطلق عليه ابن خلدون العصبية السياسية التى تقوم عليها الدول، على نحو ما حدث من انتقال للسلطة من الأيوبيين إلى المماليك فى مصر، ومن المماليك إلى العثمانيين ثم إلى محمد على وأسرته.

وهذا الانتقال عادة ما يصاحبه تغير فى نمط أو طرز العمارة وفى تخطيط المدن، ولا يكون مثل هذا التغير سريع الحدوث، بل يأخذ وقتًا من الزمن، وهذا ما عبر عنه ابن خلدون (فى أن رسوخ الصنائع فى الأمصار، إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها). ونستطيع أن نترجم هذه العبارة معماريًا بأن الطراز المعمارى المميز لأى عصر لابد له من وقت لكى تتضح معالمه، وهذا التميز المصاحب لأى طراز لابد أن ينشأ فى ظل استقرار سياسى يتيح للمعمارى الإبداع.

وهناك مستويات من البنى تحدد العلاقة بين العمارة والسياسة:

المستوى الأول: العمارة كشاهد سياسى، وهو يمثل البنية السطحية، وفى هذا المستوى تكون العمارة سجلاً للعديد من الأحداث السياسية التى مرت عليها، أو حدثت فى المنشأ المعمارى، أو تركت أثرها عليها، ومن أمثلة ذلك باب زويلة الذى شيد فى العصر الفاطمى ليكون أحد أبواب حصن القاهرة مقر حكم الفاطميين بالعاصمة المصرية، وكان ذا وظيفة حربية، إذ إنه كان يغلق على الحصن الذى كان يضم قصور الفاطميين ومسجدهم الجامع وجندهم ومواليهم.

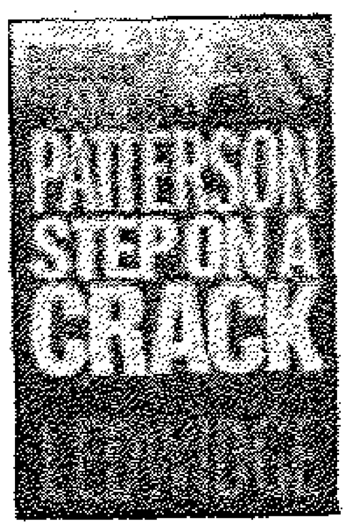
المستوى الثانى: الرمزية السياسية للعمارة، وهو يمثل أحد جانبى البنية العميقة. فى هذا المستوى تجسد العمارة قوة الدولة وتوجهاتها السياسية. ومثل هذا النوع من العمائر شاع فى العمارة الإسلامية. تتمثل هذه الرمزية فى عدد من المدلولات المعمارية،يحمل بعضها مضمونًا حضاريا وبعضها الآخر مضمونًا سلطويا سياسيا، ويجمع بينهما أحيانا بعض العمائر ذات الدلالات المتعددة. تعد قبة الصخرة والحرم القدسى الشريف حولها أبرز العمائر التى تحمل مضامين حضارية. يعود تشييد القبة إلى العصر الأموى، الذى شهد نزاعا حضاريا بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية على السيطرة على العالم القديم، اتخذ هذا النزاع صورا متعددة. منها تعريب طراز أوراق البردى التى كانت تصنع فى مصر.وتعريب للنقود فى إطار سياسة رسمها عبد الملك بن مروان الهدف منها إرضاء الشعور الدينى والسياسى للمسلمين، ورغبته فى إعادة حق ضرب النقود إلى الخلافة فى شخص الخليفة كمظهر من مظاهر الملك والسلطان بعد أن انتزع حق ضرب النقود كثير من الولاة والثائرين فكان الإصلاح النقدى سببا مهما فى القضاء على الفوضى السائدة تحقيقا للاستقرار السياسى. فضلا عن أن النقد العربى الخالص يعبر عن سيادة الدولة وخروجها من تحت عباءة النفوذ الاقتصادى البيزنطى، لذا اتجه عبد الملك إلى الاستقلال الاقتصادى بتعريب النقود، فضلا عما يتيحه هذا من توحيد النظام النقدى فى دولة تمتد عبر مساحات شاسعة من الأراضى.

اتجه عبد الملك بن مروان فى إطار هذا المخطط الشامل إلى العمارة التى ترمز إلى سيادة الدولة واتجاهها الفكرى، ففى القدس تبنى مشروعا ذا طابع سياسى دينى حضارى، يرتكز على الاهتمام بعمارة الحرم القدسى الشريف خاصة قبة الصخرة والمسجد الأقصى، ولما كانت عمارة الحرم آنذاك بسيطة لا تتناسب مع ما حولها من كنائس، خاصة كنيسة القيامة المقدسة لدى المسيحيين، وما قد تحدثه عمارة الكنائس فى نفوس بعض المسلمين، ورغبة عبد الملك فى إثبات الهوية الحضارية الجديدة للمدينة. تبنى مشروع عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى. ■

الحجر والصولجان.. السياسة والعمارة الإسلامية

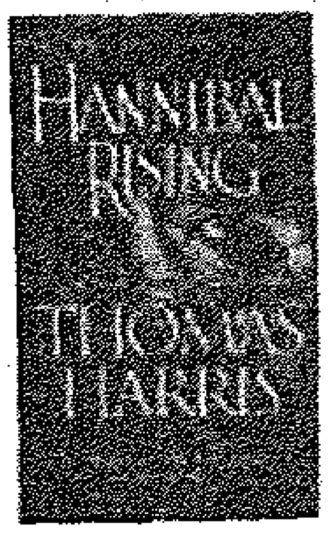
خالد عزب - دار الشروق، ٢٠٠٧، ٢٩٠ صفحة.

Step on a Crack
(أخطو فوق الشرخ)
James Patterson & Michael Lediwdge
Little, Brown and Company: 400pp, $27.99, 2007



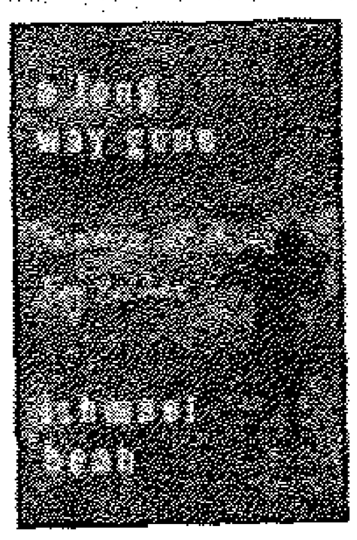
اشترك كاتبان في كتابة هذه الرواية البوليسية التي تدور حول احتجاز مجموعة من المسلحين لجميع الحاضرين في جنازة زوجة رئيس سابق للولايات المتحدة. يتولى مسئولية القضية أحد ضباط الشرطة المختصين بقضايا القتل مهمة المفاوضة مع المختطفين الذين يطلقون سراح الجميع ما عدا بعض المشاهير ويطلبون بضعة ملايين من الدولارات من كل شخص من المحتجزين. يفاوضهم رجل الشرطة مايكل بين زياراته لزوجته التي تحتضر في المستشفى وبين زياراته لأولاده العشرة الذين تبناهم هو وزوجته والذين ينتمون للعديد من الأعراق والجنسيات. رواية بوليسية ودرامية في نفس الوقت. يستحوذ جيمس بيترسون وحده على كل الإطراء والنقد فيما يخص هذه الرواية مع انه اشترك في كتابتها مع مايكل لودويج إلا أن شهرة بيترسون كانت هي الطاغية.

Hannibal Rising
(هانيبال يصعد)
Thomas Harris
Delacorte Press: 336pp, $27.95, 2006



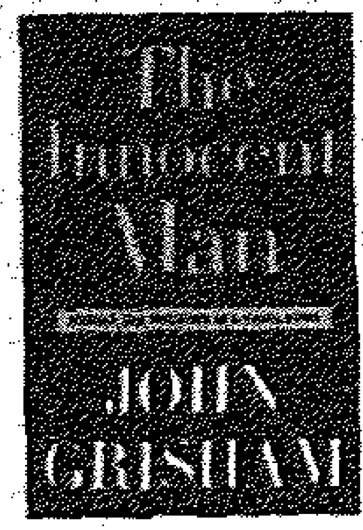
هانيبال لكتر من أكثر الشخصيات الروائية إثارة للخيال ومن أشرسها وأكثرها شرا على الإطلاق. كتب عنه كتابان في السابق تحولا إلى أفلام شهيرة. هذا الكتاب هو الثالث في السلسلة ولكنه الأول زمنيا، حيث يصف نشأة هانيبال ليكتر والعوامل النفسية والحياتية التي أدت إلى تحوله إلى آكل لحوم البشر الشهير. تصف الرواية الجديدة مقتل شقيقة هانيبال لكتر الصغيرة والتي كان يحبها جدا، خلال الحرب العالمية الثانية بقدر كبير من التفاصيل المزعجة كما يصف حب لكتر لزوجة عمه اليابانية. تتابع الرواية مسيرة لكتر في الانتقام من يرى أنهم مسئولون عن مقتل شقيقته وتعتمد في سرد الأحداث على ذاكرته التي أسقط منها الكثير، كما تعتمد على سجلات الشرطة والحرب والشهادات الشخصية وتقارير الطب الشرعي. لا يحمل هذا الجزء الكثير من تشويق الأجزاء السابقة كالعادة في السلاسل الناجحة. ودائما ما تبدو أجزاء السلسلة، خاصة بداية من الجزء الثالث وكأنها مجرد استثمار للنجاح السابق.

Long Way Gone: Memoirs A of a Boy Soldier
(طريق طويل تم قطعه: مذكرات جندي طفل)
Ishmael Beah
Farrar, Straus & Giroux: 240pp, $22, 2007



يكتب إسماعيل بيا عن تجربته كأحد الجنود الأطفال في سيراليون. وهو ليس حالة نادرة أو استثنائية فظاهرة خطف الأطفال وتحويلهم إلى جنود في حروب أهلية اتسمت بشدة القسوة هي ظاهرة انتشرت بكثرة مخيفة في عدة دول أفريقية. ويشكل كتاب بيا شهادة نادرة يحكي فيها كيفية تحوله من طفل عادي مغرم بموسيقى الهيب هوب الأمريكية إلى لاجئ فقد عائلته ويتنقل بشكل عشوائي من قرية إلى أخرى. تختطفه إحدى المليشيات بيا وتجبره على التحول إلى أحد الأطفال المقاتلين الذين يعيشون تحت تأثير المخدرات ويرتكبون أفظع جرائم الحرب ولكنه يصل بشكل ما إلى مركز من مراكز إعادة التأهيل بعد ثلاث سنوات وهو في الخامسة عشرة من عمره ثم يجد عائلته ويرحل معهم إلى العاصمة حيث يعيشون جميعا مع أحد أقاربهم. في عمر السابعة عشرة تنتقل الحرب الأهلية إلى العاصمة فيصبح على بيا الهرب مرة أخرى حيث ينتهي به الحال كلاجئ في الولايات المتحدة الأمريكية. ولا تكمن أهمية الكتاب في التجربة التي يرصدها فقط وإنما في الأسلوب الأدبي الواضح الذي نجح بيا في استخدامه وفي رؤيته للحياة التي تتسم بالتفاؤل برغم التجربة شديدة القسوة التي مر بها

The Innocent Man: Murder and Injustice in a Small Town
(الرجل البريء: القتل والظلم في بلدة صغيرة)
John Grisham
Doubleday: 3368pp, $28.95, 2006



يكتب جون جريشام، كاتب الروايات البوليسية الشهير، كتابه الأول خارج مجال الأعمال الأدبية ولكنه لا يبتعد عن مجاله فالكتاب تحقيق صحفي مطول عن اتهام لاعب البيسبول رون وليمسون بجريمة اغتصاب وقتل قضى بسببها عشرين عاما في السجن بانتظار تنفيذ حكم بإعدامه قبل أن تظهر براءته. ولقد زاد من معاناة وليمسون إصابته باضطراب عقلي مما جعل الكتاب رغم أسلوبه التقريري لا يقل تشويقا عن روايات جريشام التي تتصدر قوائم أكثر الكتب مبيعا بشكل دوري. ويستغل جريشام دراسته للقانون وعمله السابق كمحام في القضايا الجنائية لإعادة ترتيب أوراق القضية ومحاولة استخلاص معلومات جديدة. كما أنه زار البلدة التي عاش بها وليمسون أغلب حياته والتي وقعت فيها الجريمة وأجرى العديد من المقابلات مع أطراف كانت لهم علاقة بالجريمة ومازالوا على قيد الحياة. ويقول جريشام إن العمل على هذا الكتاب لفت نظره إلى حجم الكارثة في الأحكام الخاطئة ولأهمية التأهيل النفسي لمن تصدر ضدهم أحكام ظالمة وهو ما لم ينتبه له بنفس الدرجة عندما كان يعمل بالمحاماة

Nineteen Minutes: A novel
(تسع عشرة دقيقة)
Jodi Picoult
Atria, $26.95, 464PP., 2007

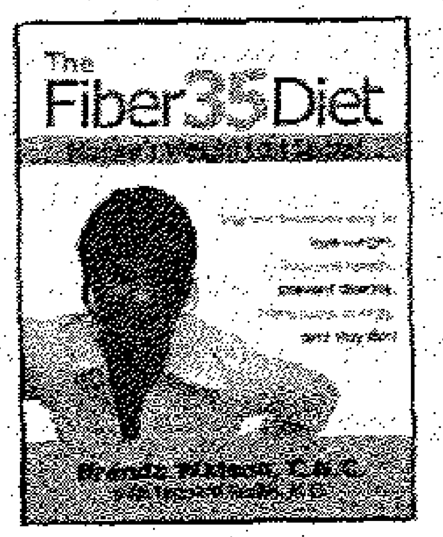


الكاتبة الروائية «جودي بيكولت»، صاحبة الأعمال الرائجة (مراقب أختي والدائرة العاشرة)، تأتي برواية جديدة ترتبط في بعض الشخصيات مع رواياتها القديمة. بلدة صغيرة بأستراليا، تعيش حياة هادئة، لا تعرف الجريمة ولا تعتاد العنف، في تسع عشرة دقيقة فقط، كان هناك عشرة قتلى، وتسعة عشر جريحا، نتيجة لإطلاق نار عشوائي على مدرسة ثانوية بها، لتهتز البلدة الصغيرة نتيجة لهذا العمل الوحشي.

الجاني، «بيتر» هو مجرد طالب من طلاب المدرسة، يقبض عليه المحقق القادم من روايات «بيكولت» السابقة «باتريك دوشارم»، ليقدمه للمحاكمة، وليتقدم المحامي «جوردون مكافي» للدفاع عنه.

«أليكس كورنير» القاضية، تحاول المحافظة على موضوعيتها، في مواجهة شهادة ابنتها صديقة «بيتر» منذ الطفولة، والتي تعمد عدم إيذائها بينما كانت وسط الحشد، وإن كان قد قتل صديقها.

The Fiber35 Diet
(حمية الألياف)
Brenda Watson , Leonard Smith
Free Press, $26.00, 320PP, 2007



شهدت الحميات الغذائية تحولا كبيرا في العقود الأخيرة، وأصبح أساس الحمية هو الأطعمة المنزوعة الدسم وذات السكريات المصفاة، وبعد الناس عن الأطعمة الطبيعية المليئة بالألياف من فاكهة وخضروات وبقوليات وحبوب.

في هذا الكتاب تدعو الكاتبة «براندا واتسون» إلى حمية غذائية تبنى على الألياف فقط، فهي، بالإضافة إلى مساعدتها في الوقاية من معظم أمراض العصر مثل السكر والسرطان وأمراض القلب، تساعد على الشبع وتقليل الإحساس بالجوع، كما تقلل أيضا من مستوى السعرات الحرارية.

حمية «واتسون» الغذائية تضمن تقليل الوزن بأقل مجهود، إذا ما واظب المرء على أكل ما يحتوي على خمسة وثلاثين جراما من الألياف يوميا، فقد ثبت طبيا أن تلك الجرامات ستساعد على تقليل الوزن في وقت قياسي، كما ستساعد على الحفاظ عليه مثاليا.

الكتاب يحتوي على وصفات متعددة لوجبات اليوم المختلفة، مع وصفات أخرى تعتمد على قدر الوزن المراد تقليله.

In an Instant
(في لحظة)

Lee Woodruff, Bob Woodruff
Random House, $25.95,
304PP., 2007



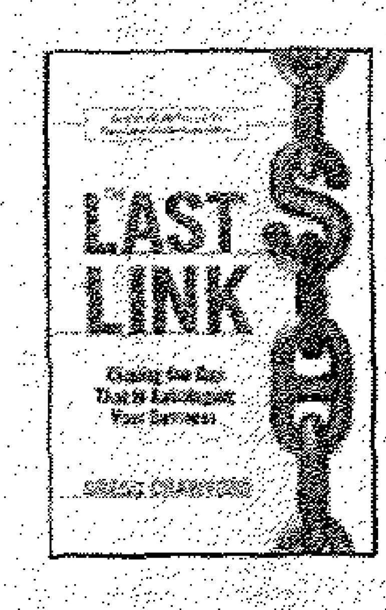
في يناير من عام ٢٠٠٦ كان الزوجان «بوب» و«لي» يعتبران نفسيهما من أسعد الأزواج في العالم، «بوب» عين كمراسل لشبكة «ايه بي سي» في العراق، مما كان يعتبر ترقية له، ورقيت أيضا زوجته «لي» في عملها في العلاقات العامة، ولكن، ومع أول أيام بوب في العراق، فُجرت قنبلة بجانب العربة التي كان يستقلها هو والمصور المصاحب له، كادت أن تتسبب في قتلهما، ولكنها أصابته إصابة غائرة في المخ.

لم تكن عودة «بوب» إلى بيته نهاية مأساتهما، بل كانت البداية الحقيقية لها، ففي لحظة تحولت حياتهما تماما، فبوب يحتاج إلى فترة طويلة كي يتعافى من إصابته، وهو بالقطع يحتاج إلى مساندة زوجته، التي تواجه في الوقت نفسه تحديات في العمل وتحدي أمومتها لأربعة أطفال.

الكتاب مليء بالمشاعر العميقة، وقصة كفاح قوية، اعتمدت على محاولة الصمود أمام كل الضغوط.

The Last Link
(الرابطة الأخيرة)

Gregg Crawford
Greenleaf Book Group Press,
$21.95, 224PP., 2007,



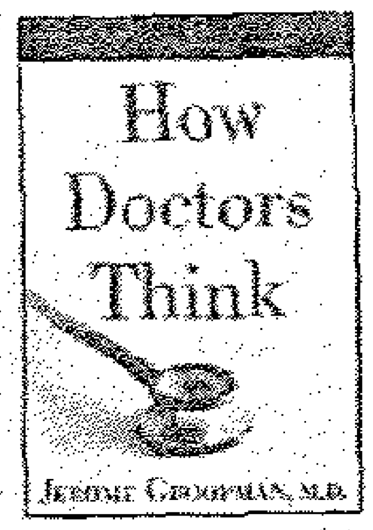
يحجب اسم الكتاب المبهم حقيقة ما يدور حوله، فهو يدور حول كيف يستطيع رجال المبيعات ومديروهم دعم استراتيجيات شركاتهم عن طريق زيادة المبيعات.

طور «كراوفورد» نموذجا جديدا ثلاثي الأبعاد لمحاولة جعل المبيعات تتفق مع الاستراتيجيات العامة للشركة وتحقق أهدافه المحورية، ويتكون هذا النموذج من المعلومات والحوار والتدرب على إنهاء الاتفاقات.

الكتاب ينتهي بمجموعة من أكثر الأخطاء انتشارا بين رجال المبيعات وطرق تفاديها.

How Doctors Think
(كيف يفكر الأطباء)

Jerome Groopman
Houghton Mifflin Company,
$26.00, 320PP, 2007



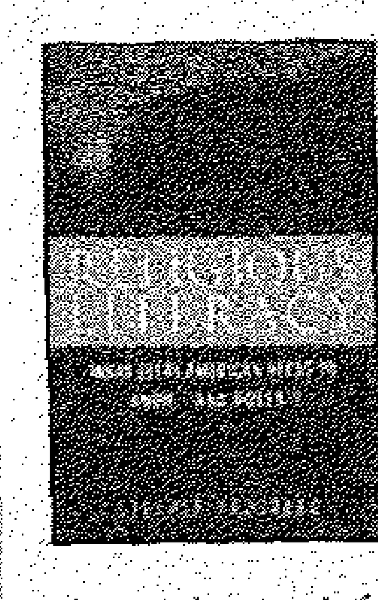
لماذا يخطئ بعض الأطباء أحيانا، ولماذا يصيب البعض، وكيف تتدخل أحيانا شخصية الطبيب الخاصة بشكل لا يدركه في تشخيص الأمراض، في هذا الكتاب طبيب مخضرم يكتب عن طريقة الأطباء في تشخيص الأمراض وإعطاء العلاج والإرشادات.

هل للمريض دور في صحة تشخيص الطبيب لمرضه، وكيف يمكن للمريض أن يصف أعراض مرضه بأدق طريقة ممكنة.

العديد من القصص الحقيقية، والتجارب الفنية، ومحاولة لتحليل شخصية الطبيب، كتاب مفيد لكل من الأطباء والمرضى على حد سواء.

Religious Literacy
(محو الأمية الدينية)

Stephen Prothero
HarperSanFrancisco, $24.95,
304PP., 2007



الولايات المتحدة من أكثر الدول تدينا، ولكنها أمة جاهلة دينيا، فعلى سبيل المثال: لا يستطيع تسعون بالمائة من المراهقين تسمية الأديان الخمسة الرئيسية في العالم، بل ويصل الأمر إلى أن خمسة عشر بالمائة لا يستطيع ذكر دين واحد من الخمسة.

أيضا يعتقد ثلثا الشعب الأمريكي بأن الإنجيل يحمل كل أجوبة أسئلة الحياة اليومية، على الرغم من أن نصف الشعب الأمريكي لا يستطيع ذكر اسم واحد من الأناجيل الأربعة، ونتيجة لتلك الثقافة الدينية الضحلة، تفقد معظم العبارات الدينية المقحمة في خطابات السياسيين معانيها، ويساء فهمها.

عالم الدين «ستيفن بروثيرو» يقول في كتابه «أمامنا مشكلة مدنية رئيسية» وينادي لحلها عن طريق إعادة تدريس الدين في المدارس العامة الأمريكية.

Someday
(يوما ما)

Alison McGhee (Author),
Peter H. Reynolds (Illustrator)
Baby-Preschool, $14.99,
40PP., 2007

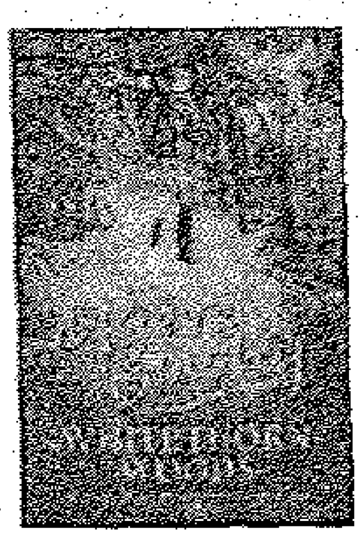


كتاب جديد للأطفال مفعم بالمشاعر المرهفة، يصور قصة حب أم لابنتها في سرد مصور للحظات يومية تعيشها الأم مع طفلتها.

حلم الأم، وكل أم، لابنتها أن تعيش وتحس متعة الحياة، سبيل تحقيقه الوحيد هو الحب.

Whitethorn Woods
(غابة وايتثورن)

Maeve Binchy
Knopf, $25.95, 352PP., 2007



«روزمور» قرية أيرلندية هادئة صغيرة تتاخم حدود غابة وايتثورن، وتكتسب شهرتها القليلة بسبب قربها من بئر القديس آن وضريحه الذي يقصده العديد من الآملين والمؤمنين بالمكان وقدرته على تحقيق المعجزات.

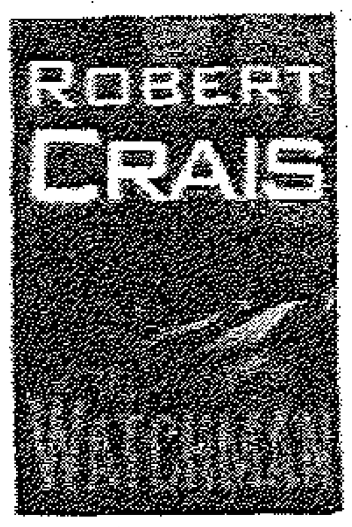
ولكن هدوء القرية يختفي نتيجة انقسامهم بين مؤيد ومعارض لفكرة إنشاء طريق سريع يمر عبر الغابة، مما سيؤدي إلى تدمير الضريح، لذا تندلع الصراعات بين المؤمنين بالضريح وبين المشككين فيه.

الضريح يوجد في أبرشية الأب «بريان فلين»، راعي أبرشية القديس «أوغسطين»، الذي لا يعرف إلى أي الجانبين يجب أن ينضم، مما يدفع به إلى الذهاب إلى الضريح ليصلي علّه يسمع صوتا يوجهه.

الروائية «مايف بنشي» تجسد الصراع الديني العلماني في روايتها، كما تأخذنا في رحلة مليئة بالمشاعر الصادقة، وعالم من المعجزات.

The Watchman
(الحارس)

Robert Crais
Simon & Schuster, $25.95,
304PP., 2007



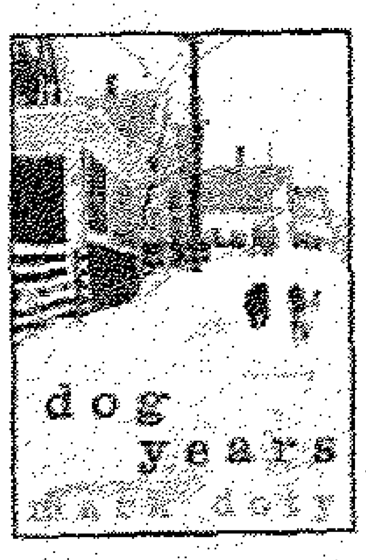
«لاركين باركيلي» سيدة أمريكية من عائلة غنية تعيش بلوس أنجلوس، تجد نفسها تحت الحماية الفيدرالية، بعد نجاتها من محاولة قتلها في حادث سيارة خطير تعرضت له نتيجة مشاهدتها لشيء كادت مشاهدته أن تكلفها حياتها.

ورغم الحماية إلا أنها تتعرض لمحاولة أخرى للقتل، نتيجة تعاون أحد الرجال المكلفين بحمايتها مع العصابة التي تحاول قتلها، مما يدفع المباحث الفيدرالية إلى استئجار «جوي بيك» الجندي السابق بالبحرية الأمريكية ليقوم بحمايتها، فيهرب بها ويخفيها بعد محاولة أخرى لقتلها خلفت ثلاثة قتلى من المهاجمين.

«الفيس كول» المحقق الخاص وصديق «جوي» يبدأ في التنقيب عن أي خيط يقوده للقتلة، ويكتشف العديد من المفاجآت المثيرة في العالم السفلي لتجارة المخدرات.

Dog Years
(سنوات كلب)

Mark Doty
HarperCollins, $23.95,
224PP, 2007



قصة حقيقية وعمل رائع، يعكس المشاعر نحو الحيوانات والدروس التي تُعلمنا إياها حول الحياة والحب، ويتأمل في الطاقة والبهجة التي تجلبها لحياة المرء.

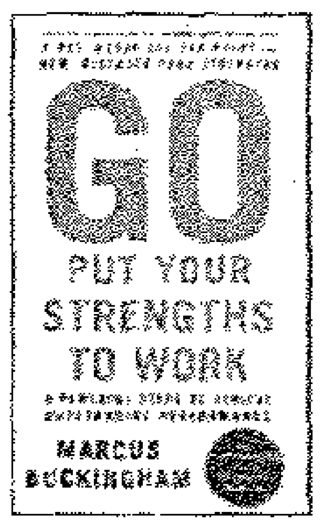
Egypt as a Woman
(مصر كامرأة)
Beth Baron
University of California
Press, $24.95, 302PP., 2007



هذا العمل التاريخى، يوضح تأثير الفروق الجنسية فى التاريخ المصرى من القرن التاسع عشر مرورا بثورة ١٩١٩ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

الكاتبة «بيث بارون» تقسم كتابها إلى قسمين، الأول يحلل صورة الأمة والفروق الجنسية فيها، والثانى يوضح النشاطات السياسية القومية للمرأة المصرية، ومن خلال القسمين توضح كيف أنه على الرغم من استبعاد النساء من الحكومات المختلفة التى حكمت مصر فى ذلك الوقت، إلا أن الساحة كانت مليئة بالعديد من الرموز النسائية اللاتى كافحن من أجل استقلال وطنهن.

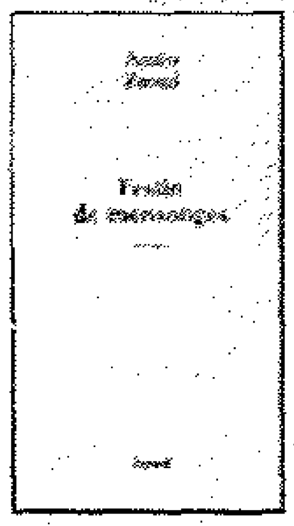
Go Put Your Strengths to Work
(ضع قواك فى العمل)
Marcus Buckingham
Free Press, $30.00, 320PP., 2007



أثبتت الإحصاءات أن فقط سبعة عشر بالمائة من القوة العاملة يعتقدون أنهم يبذلون كل قواهم فى العمل بينما لا يبذل الباقون كل قواهم بالعمل لأنهم لا يستطيعون توظيفها لتخدم سير العمل.

فى هذا الكتاب يحاول «ماركوس بيكنجهام» دفعك لبذل قواك كلها فى العمل من خلال ست خطوات تستطيع تنفيذها فى ستة أسابيع. من خلال هذا الكتاب تستطيع أن تعرف لماذا قواك ليست ما أنت ماهر فيه ولماذا نقاط ضعفك ليست ما أنت سيئ فيه، وكيف تستطيع تحديد قوتك، وما هى الخطوات التى يمكن أن تتخذها كل أسبوع لتدفع وقتك تجاه النشاطات التى تقويك فيه، كما يعلمك كيف تتكلم عن نقاط قوتك أمام مديرك وزملائك بدون أن تبدو انك تتفاخر.

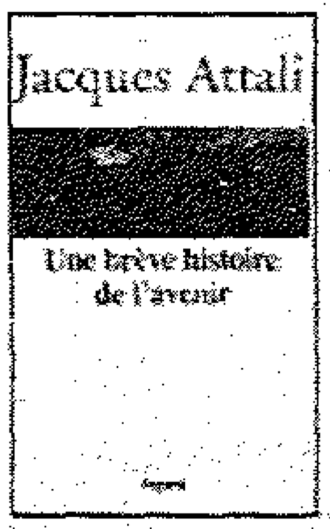
Festin de Mensonges
(وليمة كذب)
Amin Zaoui
Fayard



أفضل ممارسة الغرام مع النساء الناضجات، ولعل ذلك نتيجة علاقتى بخالتى التوأم التى فضت بكارتى. فى الشونة التى كنا نلتقى فيها. كانت تكبر بصوت مرتفع عند بلوغ الذروة. التقيت الكثير من النساء وكانت كل واحدة تعلمنى شيئا جديدا. الكحول، السجائر، كتب جلال الدين الرومى. بالإضافة للجنس، كنت أحبهن حبا كبيرا. إلا أن ذلك لم يكن يروق للآخرين. كانت الجزائر مازالت فى بداية استقلالها عندما أخذ نفوذ الإخوان المسلمين القادمين من مصر أو من فلسطين يزداد قوة.

وليمة الكذب سرد من نوع جديد غامض ومحير حيث إن التمزق والذكريات تأخذ حيزا أكبر من الحقيقة يحكى المراهنة على نضج المراهق الجزائرى الذى يقرأ ويهوى الألم خفية ولكنه يحفظ القرآن عن ظهر قلب، والذى يحب النساء بورع وخشوع لا يوازيه إلا حب الله.

Une brève histoire de l'avenir
مختصر تاريخ المستقبل
Jacques Attali
Fayard



يكشف الستار عن الطريقة التى تتطور من خلالها العلاقات بين الأمم وكيف سيؤثر الانفجار الديموغرافى وتنقل الشعوب والتغير المناخى والإرهاب والعنف والتطرف الدينى على حياتنا اليومية ويستقرئ كيف ستؤثر التكنولوجيا على كل النواحى الحياتية، العمل والتعليم والصحة والثقافة والأنظمة السياسية. كما يبين انه بإمكاننا الحصول على كل الأشياء وبالتالى إلغاء الفقر وتقسيم الثروات بفضل التكنولوجيا والمحافظة على البيئة للأجيال المقبلة.

أسطورة من هوليوود!

Great Big Beautiful Doll: The Anna Nicole Smith Story
(دمية كبيرة عظيمة وجميلة: قصة انا نيكول سميث)
Eric Redding
Barricade Books: 256pp, $16.95, 2007





Train Wreck: The Life and Death of Anna Nicole Smith
(حطام: حياة وموت أنا نيكول سميث)
Donna Hogan & Henrietta Tiefenthater
Phoenix Books:240pp, $25.95, 2007

من الصعب فهم كيف تتحول بعض الشخصيات إلى ظواهر دون أن يكون لهم أى إسهام مهم فى أى من مجالات الحياة. ومهما حاولنا الادعاء أن نيكول سميث مجرد ظاهرة هوليوودية تافهة إلا أننا لا يمكن أن ننكر أن تفاصيل حياتها قد استحوذت على الكثير من الاهتمام على المستوى الشعبى من بداية ظهورها كفتاة بلاى بوى للعام سنة ١٩٩٢ وحتى وفاتها المفاجئة والغامضة يوم ٨ فبراير ٢٠٠٧ .

ولدت فيكى لين مارشال فى نوفمبر ١٩٦٧ فى ولاية تكساس وغيرت اسمها إلى ان نيكول سميث عام ١٩٩٣، انفصل والداها بعد ولادتها مباشرة وعاشت لفترة مع أمها وزوجة خالها قبل أن تنتقل إلى منزل خالة لها فى مدينة أخرى من ولاية تكساس حيث بدأت دراستها الثانوية والتى توقفت عنها بعد سنة. تزوجت فيكى من بيلى واين سميث الذى كان يعمل طاهياً فى المطعم الذى عملت هى فيه كنادلة. عندما ولد ابنها الوحيد دانيل كانت فيكى فى الثامنة عشرة من عمرها وكان والد الطفل فى السابعة عشرة، وسرعان ما انفصلا لتحاول العمل كنادلة و بائعة فى متجر كبير لتنفق على ابنها ولكنها لم تنجح فى كسب ما يرفعها هى وابنها فوق خط الفقر إلى أن بدأت عملها كموديل. عام ١٩٩٢ اختارها هيو هيفنر مؤسس مجلة بلاى بوى لتظهر على غلاف المجلة لتقلب موازين الجمال حيث إنها كانت ممتلئة القوام فى وقت كانت الموديل المثالية فيه شديدة النحافة. عام ١٩٩٣ استقرت على اسم آن نيكول سميث وأصبحت وجه ماركة جس للجينز بدلا من السوبر موديل كلوديا شيفر. واستغلت شركة جس الشبه بين آن نيكول وبين نجمة الإغراء القديمة جين مانسفيلد فى الإعلانات التى قامت ببطولتها ولكن آن نيكول نفسها طالما صرحت بأنها تتشبه بمارلين مونرو.

وبينما كانت آن نيكول تعمل كراقصة فى ملهى ليلى عام ١٩٩١ قابلت الملياردير جى هاورد مارشل ورافقته لمدة سنتين قبل أن تطلق رسميا من زوجها وتتزوجه عام ١٩٩٣ . توفى مارشال بعد زواجهما بثلاثة عشر شهراً وبدأت معركة قوية بين آن نيكول وبين أبناء مارشال حول إرثه مستمرة حتى الآن بعد وفاتها ووصلت القضايا إلى المحكمة الدستورية التى حكمت بأحقية آن نيكول سميث فى المطالبة بنصيب ما فى الثروة التى تركها زوجها.

مثلت آن نيكول فى بضعة أفلام وأنتجت فيلماً واحداً ولكنها لم تلق أى نجاح نقدى بل كانت مادة مستمرة للسخرية بالذات فى البرامج الكوميدية الليلية وفى عام ٢٠٠٢ قامت ببطولة أحد برامج الواقع حيث كانت تتصرف بفجاجة مثيرة للدهشة والذى حازت حلقته الأولى على أعلى نسبة مشاهدة فى تاريخ القناة المنتجة.

فى يوم ١ يونيو ٢٠٠٦ وضعت آن نيكول سميث ابنتها دانى لين التى تقول شهادة ميلادها الصادرة من جزر البهاماز إنها ابنة محامى آن نيكول وصديقها الأخير هاورد سترن بينما رفع صديقها السابق لارى بيركهيد قضية يطالب فيها بإثبات أبوته لدانى لين. يوم ١٠ سبتمبر ٢٠٠٦ توفى دانيل ابن آن نيكول بينما كان يزورها فى المستشفى ودفن فى جزر الباهاماز وفى فبراير من العام التالى وجدت ان نيكول ميتة فى غرفتها بأحد الفنادق.

وتستمر آن نيكول فى تصدر الأخبار الفنية بعد وفاتها. لم يتم إلى الآن حسم سبب الوفاة ولا نسب ابنتها ولا سبب موت ابنها تحديدا. قد يتم نسيان آن نيكول بعد عشر سنوات من الآن وقد تستمر فى إثارة التساؤلات وتتحول لأسطورة فيبدو أن لا مقياس ثابتا فى هذه الأمور.

العدد 100

وجهات نظر

الكتب

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 100 - Mayl 2007

مجلة شهرية . العدد المائة . السنة التاسعة . مايو ٢٠٠٧ . الثمن عشرة جنيهات

هيّا بنا .. غرباً !!

فاروق الباز

حواجز عزمى بشارة ..

إلياس عطا الله

العَرب .. عصُور التحوّل !

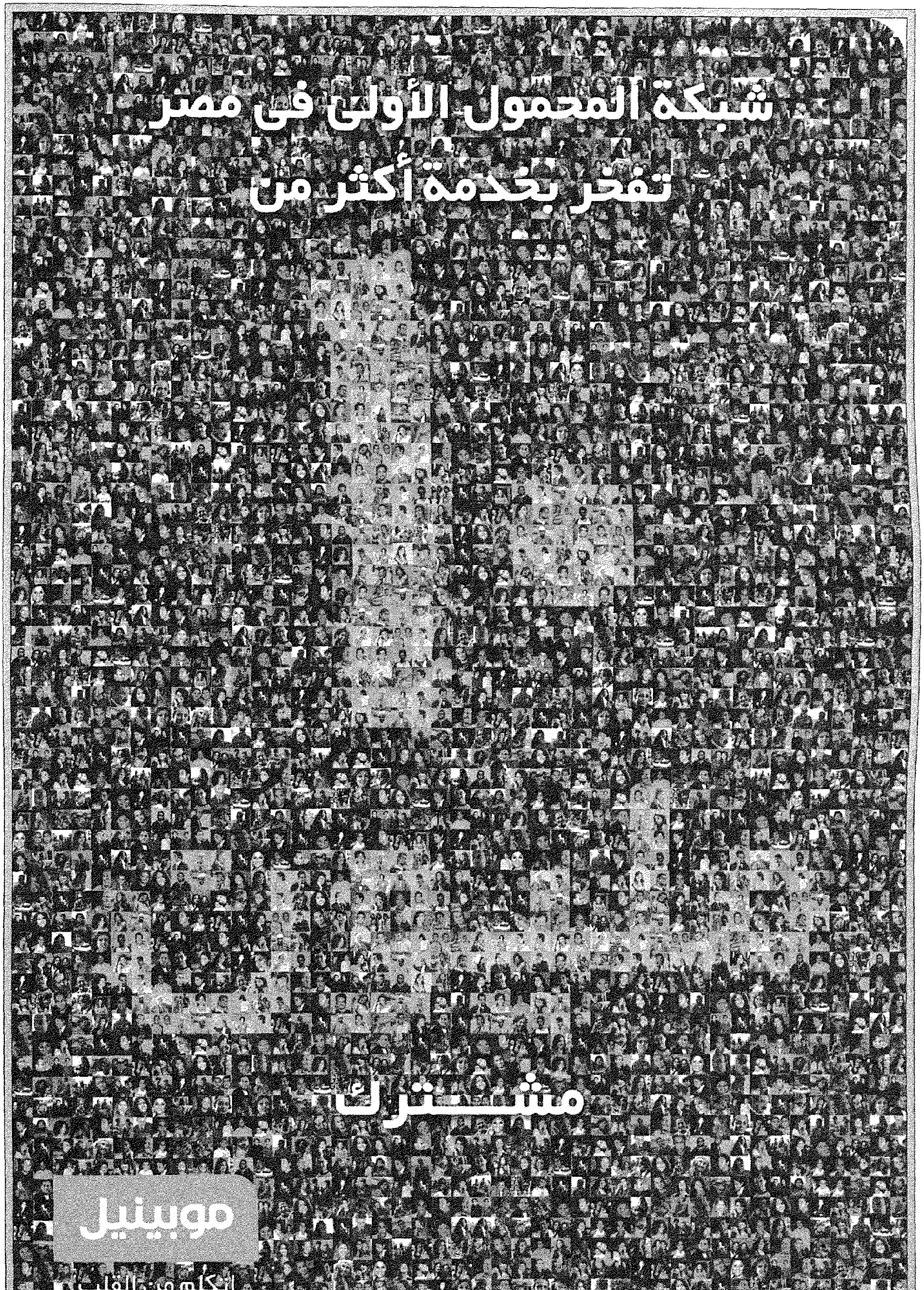
إريك هوبزباوم

فى البحث عن مصر .. لماذا التوهان ؟

أنور عبد الملك




إسبيرانزا ...
إنطلاقة تجسد طموحك


شبكة المحمول الأولى فى مصر
تفخر بخدمة أكثر من
مشـــترك
موبينيل
اتكلم من القلب

السنة التاسعة
العدد المائة
مايو ٢٠٠٧

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتاب العدد :

- اريك هوبزباوم.. مؤرخ بريطانى بارز.
- إلياس عطا الله.. محاضر جامعى من فلسطين
- اليزابيث أ. سميث.. أستاذ دراسات الأنثربولوجيا والسوسيوثقافية بمركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة كاليفورنيا.
- أنور عبدالملك.. مفكر مصرى.
- حلمى محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- راى تكية.. باحث بارز فى مجلس العلاقات الخارجية الأمريكى.
- صالح محمد النعامى.. صحفى من فلسطين.
- صبرى قنديل.. شاعر وناقد.
- صفاء الليثى.. مونتيرة وناقدة.
- فاروق الباز.. مدير مركز الاستشعار عن بعد فى جامعة بوسطن.
- مصطفى الحمارنة.. باحث بمركز الدراسات الاستراتيجية بالجامعة الأردنية.
- يوسف الشريف .. صحفى.

رسوم العدد للفنانين

محمد حجى - سعد الدين شحاتة - أحمد اللباد - ديفيد ليفين

المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٢ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٢٩٣٠٤٩٠/ ٢٩٣٠٤٩٢/ ٢٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٢ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

أمـــريـــكـــا

راى تـــكـــيـــــة

■■ بعد خمس سنوات من تعهد إدارة بوش بتغيير الشرق الأوسط، حدث بالتأكيد تغير عميق بالمنطقة: مغامرة واشنطن الفاشلة فى العراق وإذلال الغطرسة الإسرائيلية فى لبنان وصعود الشيعة المهمشين وبزوغ الأحزاب الإسلامية. كل ذلك دفع بالشرق الأوسط إلى حافة الفوضى.

وفى وسط هذه الفوضى تقف الجمهورية الإسلامية فى إيران.

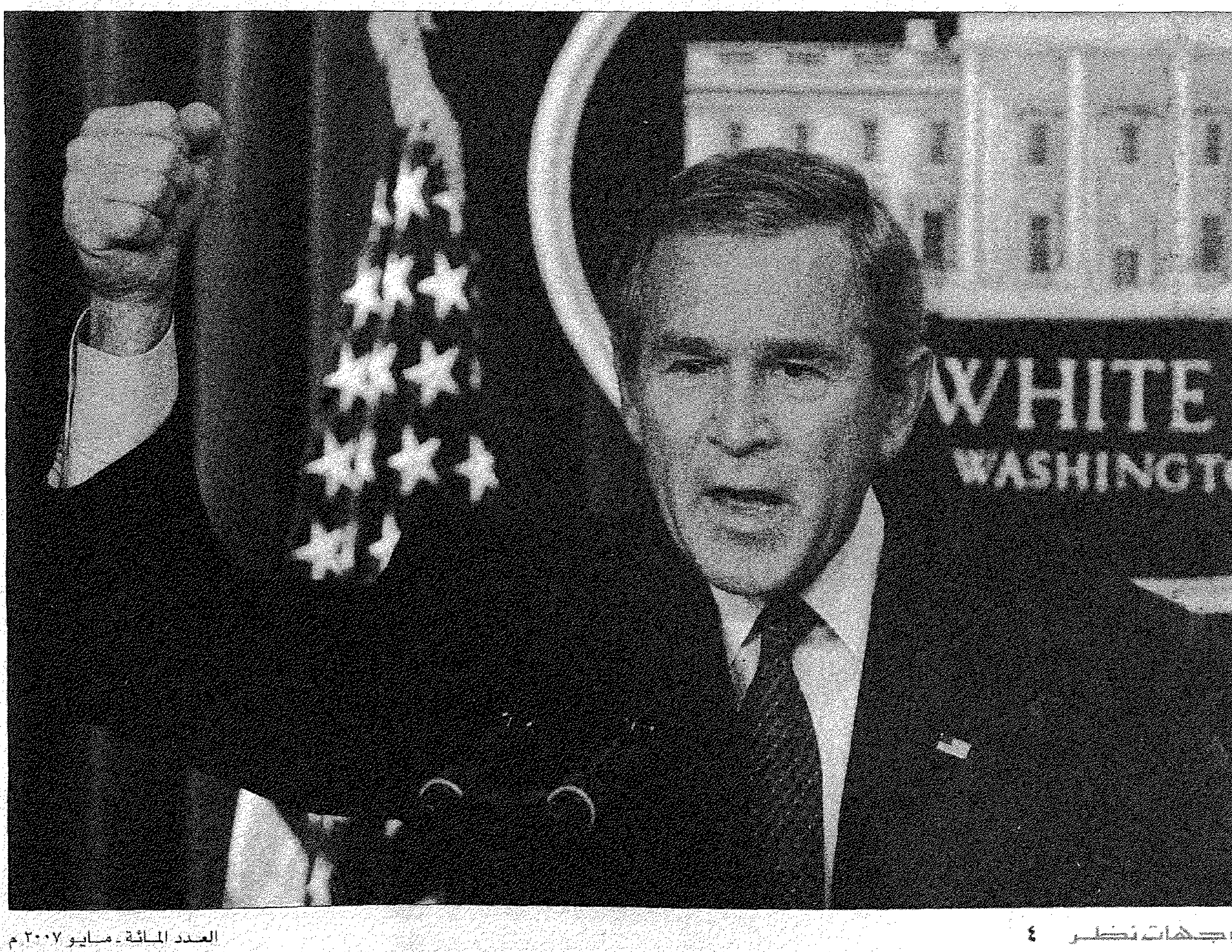
ترجمة: بثينة الناصرى

عن: Foreign Affairs

فنظامها لم ينج من هجمة أمريكية فحسب وإنما استطاع أن يمد نفوذه فى المنطقة. إيران تقع الآن فى مركز المشاكل الرئيسية للشرق الأوسط - من الحروب الأهلية التى تطل برؤوسها فى العراق ولبنان إلى تهديد أمن الخليج الفارسى (العربى).. ومن الصعب تخيل حل لأى مشكلة بدون تعاون طهران. فى هذه الأثناء، تتصاعد قوة طهران بثبات يدعمها برنامجها النووى الذى لم يعرقل تقدمه أى شىء رغم الاحتجاجات المنتظمة للمجتمع الدولى.

وقد وضع هذا التطور الأخير واشنطن فى ورطة. منذ الثورة التى أطاحت بالشاه فى ١٩٧٩، اتبعت الولايات المتحدة سلسلة من السياسات غير المفهومة تجاه طهران. محاولة مرة الإطاحة بالنظام، ملوحة أحيانا بعمل عسكرى. ساعية فى أحيان أخرى إلى إجراء محادثات فى قضايا محدودة، رامية فى كل محاولاتها إلى احتواء إيران والحد من نفوذها فى المنطقة. ولكن هذه المقاربات كانت بلا جدوى خاصة سياسة الاحتواء وهى السياسة المفضلة تجاه إيران.

إذا كانت الولايات المتحدة تريد ترويض إيران فعليها أن تعيد النظر فى استراتيجيتها من الصفر. فالجمهورية الإسلامية لن تختفى فى القريب العاجل ولا يمكن الحد من نفوذها الإقليمى المتنامى. وعلى واشنطن تجنب الخيارات العسكرية التى تبدو جذابة على السطح، وعليها كذلك تجنب وضع شروط للمحادثات ونبذ سياسة احتواء إيران، والأجدى لها أن تلجأ إلى بحث سبل التعاون، وعلى الأخص، منح البراجماتيين فى إيران فرصة استئناف العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية. وهكذا وفى منظور قيام علاقة جديدة مع الولايات المتحدة سيتمكن البراجماتيون من تهميش الراديكاليين فى طهران وقلب ميزان القوى الداخلى إلى صالحهم. وكلما أسرعت واشنطن فى إقرار هذا الواقع والبدء بتطبيع العلاقات مع اكبر أعدائها فى الشرق الأوسط، كان ذلك أفضل.



وإيـــــــــــــران

وفــــــاق لا احتـــــواء

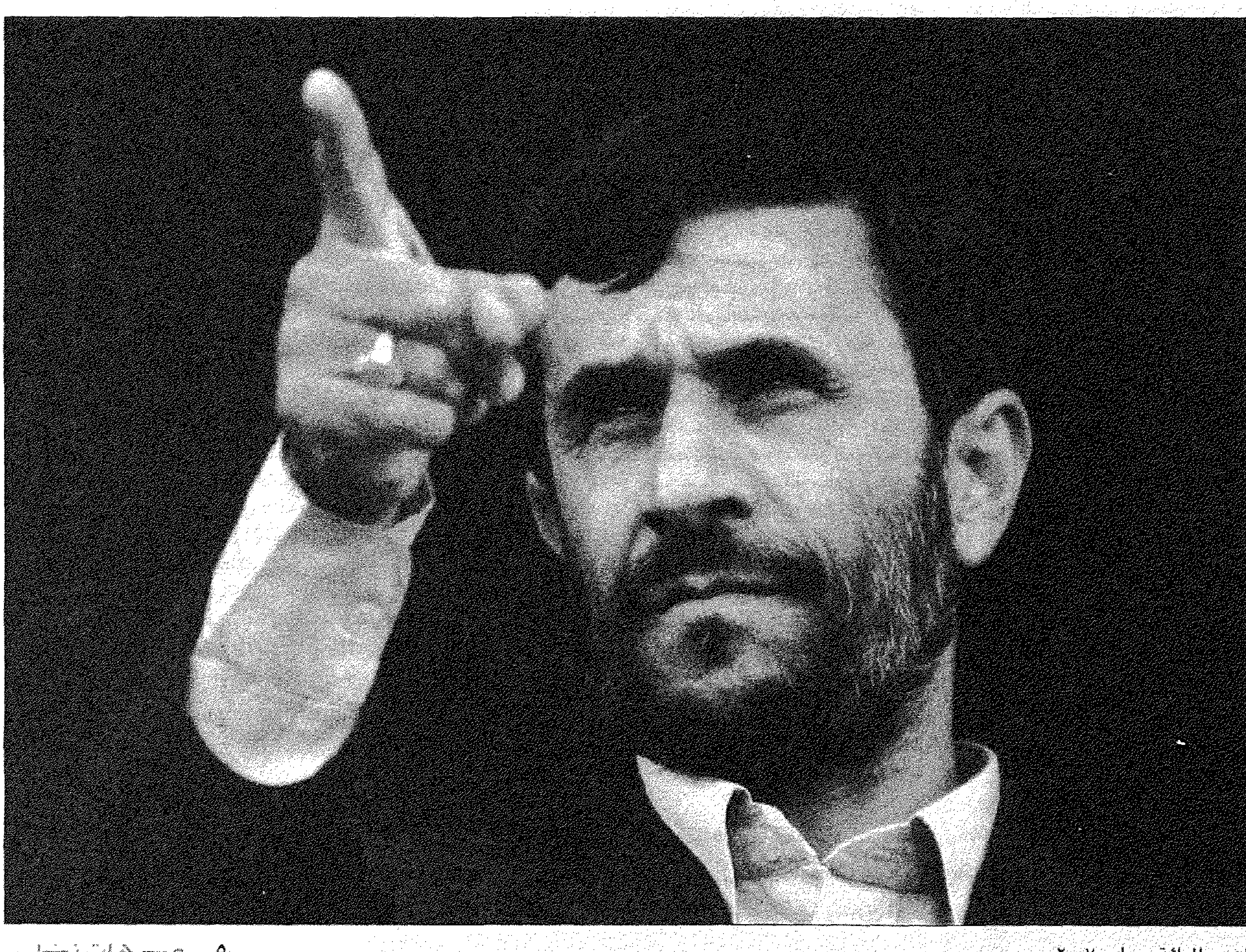
لا خـيـارات جـيـدة

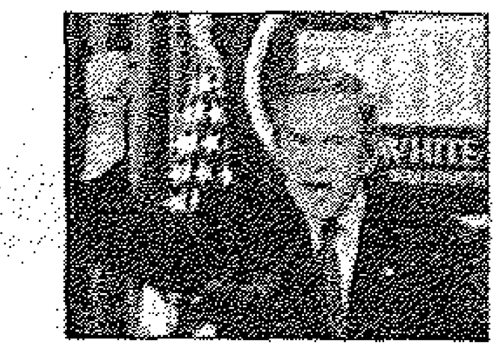
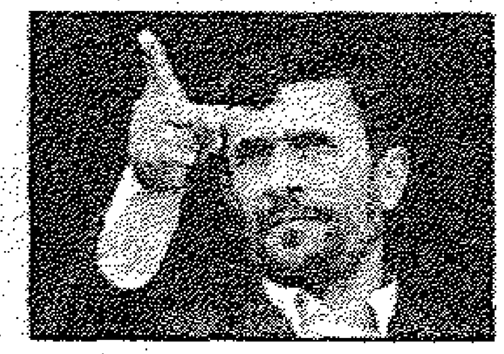
حين يناقش موضوع إيران يصر الرئيس جورج بوش عادة على أن «كل الخيارات مطروحة على المنضدة» وهو تذكير لا شىء من الذكاء فيه، بأن واشنطن قد تستخدم القوة ضد طهران إذا فشلت الخيارات الأخرى. ويتجاهل هذا التهديد حقيقة أن الخيار العسكرى ضد إيران ليس بالأمر الهين فمن أجل حماية مرافقها النووية ضد ضربة أمريكية محتملة، قامت إيران بتوزيعها فى كل أنحاء البلاد ودفنها على عمق كبير تحت الأرض. وهكذا قبل أى عمل عسكرى أمريكى لابد أولا من معالجة التحديات الاستخباراتية (كيف نجد المواقع) والتحديات اللوجستية الشائكة (كيف نضربها) (ولا يغيب عن البال أن الاستخبارات الأمريكية كما أظهرت مجريات العراق لا يمكن الوثوق بها دائما). وحتى الهجوم العسكرى الناجح لن ينهى طموحات الملالى النووية، بل سيزيد من حماستها لإعادة بناء ما دمر من مرافق نووية مع الاستهانة التامة بالتزامات إيران بموجب المعاهدات الدولية.

وماذا عن إجراء حوار مشروط؟ مثل ذلك الذى اقترحته وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس؟ فى مايو ٢٠٠٦ خطت رايس خطوة واسعة نحو الأمام حين أعلنت رغبة الولايات المتحدة فى المشاركة بمحادثات متعددة الأطراف مع إيران حول المسألة النووية إذا علقت إيران أنشطة تخصيب اليورانيوم. ولكن التصريح صور الخلاف بين الولايات المتحدة وإيران وكأنه مشكلة بسيطة حول نزع السلاح، فى حين أن الخلافات السياسية والاستراتيجية بين البلدين أعمق من ذلك بكثير وتتطلب مقاربة أوسع.

إن فكرة احتواء إيران ليست جديدة، فقد كانت، بشكل أو بآخر، السياسة الفعلية للولايات المتحدة منذ إنشاء الجمهورية الإسلامية، وقد تمتعت بدعم واسع من الحزبين فى واشنطن. ومع ذلك فإنه من أجل الموافقة على هذه السياسة بضمير حى اليوم، على المرء أن يطرح سؤالين مهمين: هل يمكن حقا احتواء دولة تمد نفوذها عبر دعم الإرهاب وتمويل العملاء والارتباط بأحزاب شيعية خارجية؟ هل لدى الدول الأخرى فى المنطقة الرغبة فى مساعدة الولايات المتحدة فى عزل إيران؟

إذا نظرت واشنطن بعقلانية إلى البدائل أمامها، سوف تدرك بسرعة بأن جواب السؤالين هو كلا. ولكن هناك شكا متجذرا فى السياسة الأمريكية تجاه طهران. خلال الأيام العصيبة التى تلت ثورة ١٩٧٩ كانت عاصفة إيران الإسلامية تبدو فى ذروة عنفوانها وتأججها وكانت الصفوة الدينية الحاكمة تنظر إلى حدود إيران باعتبارها ارث إمبراطورية قديمة ممتدة



أمريكا / إيران

وبدت وكأنها تريد تصدير الثورة. ومع ذلك فإن النظام الإقليمى أثبت أنه أكثر صمودا مما توقعه الملالى وتقوضت معظم أحلام إيران الثورية على أرض المعارك مع العراق فى الثمانينيات. وقد أجبرت الحرب المكلفة مع بغداد الصفوة الحاكمة فى إيران على فهم حدود قوتها واستحالة تحقيق طموحاتها. وفى حين استمرت طهران فى إطلاق خطابها الكونى، اكتسبت سياستها الخارجية بعدا براجماتيا. ومع ذلك فقد تجذر فى المخيلة الأمريكية أن إيران مثيرة للقلاقل ولم تزل هذه الفكرة سائدة حتى بعد تحول إيران - منذ زمن طويل - من دولة تعمل على نشر ثورتها الإسلامية إلى قوة متوسطة الحجم تطمح إلى الهيمنة الإقليمية. بتعبير آخر، لم يعد الاحتواء صالحا منذ زمن لأن إيران لم تعد دولة ثورية تسعى لتصدير نموذج نظامها بالقوة.

فى الواقع، لقد فشل الاحتواء سابقا وفرص نجاحه مستقبلا أقل حظا. وقد وثقت إخفاقات تلك السياسة فى التقارير السنوية لوزارة الخارجية التى تصف بالتفصيل الدعم الإيرانى المستمر للإرهاب وتحذر من سعيها لامتلاك برنامج نووى. كما فشلت العقوبات وأشكال الضغوط الأمريكية الأخرى فى دفع إيران إلى تحسين سلوكها. والأنكى من ذلك أن الخطوات التى اتخذتها إدارة بوش مؤخرا، جردت الاحتواء من تأثيره. لقد جاء غزو واشنطن الشائن للعراق فى مصلحة إيران حيث مكن الأحزاب الشيعية المحلية المتعاطفة مع طهران من السلطة. وقد ولى زمن وجود عراق قوى يحكمه السنة، يعمل كمعادل للقوى الشيعية فى إيران. ومع أن شيعة العراق ليسوا كتلة واحدة ولكن الحزبين الشيعيين الحاكمين اليوم وهما الدعوة والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية فى العراق على صلة وثيقة مع طهران، وهذا لا يعنى أن حكام العراق الجدد يرغبون فى تفضيل المصالح الإيرانية على مصالحهم ولكنهم أيضا، على أكثر احتمال، لن يقفوا فى مواجهة الجمهورية الإسلامية بأوامر من واشنطن.

كما أنه من غير المحتمل أن تقف أية دولة أخرى فى الشرق الأوسط فى وجه إيران اليوم. فقد تعودت المشيخات العربية فى الخليج على شراء أمنها من الإمبراطورية البريطانية ثم من الولايات المتحدة مما وفر لها، تاريخيا، درجة من الاستقلال أمام جارها الفارسى القوى، ولكن سلوك إدارة بوش المتهور وفشله فى إخضاع العراق قوضا ثقة تلك الدول فى القدرة الأمريكية. والعداء الشعبى المتنامى الواسع لأمريكا جعل من الصعب على حكومات المنطقة أن تتعاون مع واشنطن أو تسمح بتواجد القوات الأمريكية على أراضيها. قد تتمكن الولايات المتحدة من الإبقاء على قوات بحرية فى عرض البحر وقواعد صغيرة فى دول موثوق بها مثل الكويت ولكن من غير المحتمل أن تحتفظ بوجود مهم فى المنطقة. والى جانب كراهية جماهير المنطقة للولايات المتحدة، فإن أخطاءها المتلاحقة مع الصفوة الحاكمة دفعت العديد من دول الخليج إلى الثقة بالموقف الإيرانى أكثر من ثقتهم بمواقف واشنطن المثيرة للاضطراب والقلاقل، وهكذا، كلما تنامت قوة إيران ازداد احتمال تقارب المشيخات المحلية معها بدلا من مواجهتها.

ويبدو كذلك أن المجتمع الدولى لا يبالى نسبيا بأفعال إيران. فى العام الماضى استطاعت إدارة بوش إحراز عدد من النقاط الإجرائية ضد طهران: على سبيل المثال، تحت ضغط واشنطن، أدان مجلس الأمن إيران وحثها على تعليق برنامجها النووى. ورغم هذه النجاحات الرمزية فإن القليل من القوى العظمى يدعم الآن فرض عقوبات مشددة على الجمهورية الإسلامية. ليس هذا لأن الفرنسيين جبناء أو أن الروس بلا مبادئ ولكن لأن حلفاء واشنطن لا يوافقونها على أن إيران تشكل خطرا كبيرا ووشيكا. فهم ينظرون إلى طموحات إيران النووية وحتى رعايتها للإرهاب على أنها أخبار تثير القلق ولكن يمكن معالجتها بدون اللجوء إلى القوة أو الإجراءات الاقتصادية الصارمة. خلال الأيام الأولى للحرب الباردة كان فى استطاعة الولايات المتحدة الحصول على دعم واسع لاحتواء الاتحاد السوفيتى لأن معظم الشركاء الأوروبيين كانوا يخشون السوفييت. والأمر ليس كذلك مع إيران اليوم، حيث يبدو أن الكثير من أصدقاء الولايات المتحدة - ما عدا إسرائيل - لا يشعرون بقلق شديد من إيران.

قضية للذكرى

من أجل تطوير سياسة اكثر ذكاء وتأثيرا تجاه إيران، على القادة الأمريكيين أن يتقبلوا أولا بعض الحقائق المرة.. مثل صعود إيران كقوة إقليمية وقدرة نظامها على الصمود، ثم يبحثون طرق التكيف معها. ورغم خطابها الملتهب وادعاءاتها المتبجحة، فإن الجمهورية الإسلامية ليست ألمانيا النازية. إنها قوة انتهازية تسعى إلى تأكيد هيمنتها على جيرانها بدون اللجوء إلى الحرب. ومع الإقرار بصعود قوة إيران، على الولايات المتحدة فتح حوارات من أجل خلق إطار لتنظيم نفوذ إيران، وإظهار رغبة فى التعايش مع إيران مع العمل على الحد من شطحاتها. بتعبير آخر ينبغى على واشنطن تبنى سياسة استرخاء لا احتواء.

بقدر ما تبدو هذه الدعوة بعيدة عن الواقعية، فإن الولايات المتحدة لديها فعلا تجربة التعامل مع قوى مماثلة. فى أواخر الستينيات، ومع تضاؤل الوجود الأمريكى فى آسيا بدأت الصين فى استعراض عضلاتها بين جيرانها. ولم يكن رد فعل الرئيس ريتشارد نيكسون ومستشاره للأمن القومى هنرى كيسنجر هو إنكار حقيقة القوة الصينية. بل باشرا فى التحدث مع بكين، وكسبا بذلك مساعدة الصين فى إنهاء الحرب الفيتنامية وتحقيق استقرار شرق آسيا. وبنفس الطريقة نجحت سياسة الاسترخاء التى طبقها نيكسون تجاه الاتحاد السوفيتى ليس فقط فى تفادى الصراع مع موسكو ولكن أيضا فى كسب تعاونها فى قضايا ضبط التسلح.

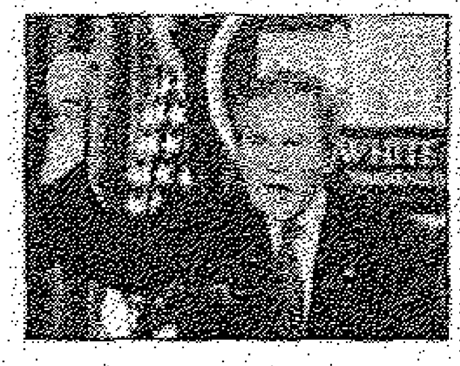
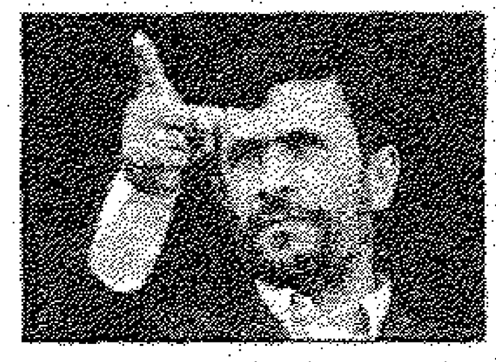
ليس واضحا تماما الآن ما إذا كانت إيران ترغب أن تكون شريكا مفاوضا مثلما كانت الصين والاتحاد السوفيتى، ولكن هناك سبباً للتفاؤل. فالتطورات الأخيرة فى الشرق الأوسط وقلاقل الوضع الإيرانى الداخلى يضع طهران فى مفترق طرق. وإذا كان لإيران أن تكون القوة الأعظم فى الخليج فعليها أن تحدد موقفها وتختار إما التحرك باتجاه التعايش أو المواجهة مع الولايات المتحدة.

خلال المحاولات السابقة لإجراء مفاوضات مع واشنطن، كانت الحكومة الإيرانية تفضل أن تكون المحادثات شاملة بدلا من التركيز على قضية مفردة. وفى رد فعلها الأخير على العرض المشترك من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى فى الصيف الماضى، أكدت طهران استعدادها «لتعاون طويل المدى فى مجالات الأمن والاقتصاد والسياسة والطاقة من أجل تحقيق الأمن فى المنطقة وأمن الطاقة طويل المدى» وترى إيران أنه من أجل حل القضية الراهنة بشكل دائم «ليس ثمة بديل سوى الاعتراف بجذور الأسباب العميقة التى أدت بالطرفين إلى الوضع المعقد الراهن وإزالتها».

قد يتطلب تجاوز هذا «الوضع المعقد» من واشنطن الاهتمام الجدى بالتحولات الأخيرة فى طهران: حاجة إيران إلى سياسة خارجية أكثر تكيفا مع التحولات فى الشرق الأوسط، والطائفية الحتمية التى تميز النظام، والأهم من ذلك صعود جيل جديد من القادة فى طهران، كل هذا أطلق جدالا مهما داخل النظام. وإذا لعبت الولايات المتحدة أوراقها جيدا قد تصبح محكما مهما فى تلك المجادلات.

يميل الغربيون إلى النظر إلى السياسة الداخلية الإيرانية على أنها صراع بين المتشددين والبراجماتيين. وقد انشغلوا طويلا - على أمل دمقرطة السياسات الإيرانية - بالصراع بين الرئيس السابق هاشمى رافسنجانى والقائد الروحى الأعلى على خامنئى، إلى جانب متابعة توالى تيارات مد وجزر حركة الإصلاح. ولكن هؤلاء المراقبين فشلوا

رغم خطابها الملتهب وادعاءاتها المتبجحة،
فإن الجمهورية الإسلامية ليست ألمانيا النازية.
إنها قوة انتهازية تسعى إلى تأكيد هيمنتها على جيرانها بدون اللجوء إلى الحرب.

أمريكا / إيران

تماما فى إدراك أن النمط القديم من صراع الليبراليين ضد المحافظين لم يعد قائما. إن النظام الإيرانى فى حالة تحول، بتأثير جماعة صاعدة من المحافظين الشباب. مازال الحراس القدماء يحتفظون بسلطاتهم، ولكنهم يستجيبون لمبادرات يطلقها تلاميذهم الأكثر تشددا. لم يعد هناك خط رئيسى رفيع يفصل بين اليسار واليمين. اليوم هناك فجوات فى طهران تفصل بين الشيوخ والشباب وبين شباب اليمين الجديد.

وقد امتنع هؤلاء القادة الجدد، حتى الرئيس الإيرانى المستفز محمود احمدى نجاد - على عكس سابقيهم خلال الثمانينيات - عن إدانة حكام الخليج والأنظمة الموالية للغرب فى مصر والأردن، أو التآمر لإطاحتها. إنهم الآن أكثر اهتماما بعلاقات هذه الدول الخارجية من تكويناتها الداخلية. كما أنهم امتنعوا عن تصدير الثورة الإسلامية إلى الأرض الخصبة فى العراق. متوقعين معارضة كبار رجال الدين الشيعة فى العراق لمثل هذه المحاولات، وبدلا من ذلك انصب اهتمام المسئولين الإيرانيين على القضايا العملية. فرغم أنهم يريدون جارا متعاطفا، لكنهم لا يتوهمون إمكانية إذعان شيعة العراق لأوامر طهران. وإذ يستمرون فى دعم الأحزاب الشيعية فى العراق، فليس ذلك من أجل تثبيت عملاء إيرانيين فى الحكومة وإنما بقصد منع قيام نظام سنى معاد.

ليس القصد من هذا الإيحاء بأن اليمين الجديد لا يسعى لإحداث تغييرات مهمة فى علاقات إيران الدولية. ولكن الجدل الذى يسيطر على طهران اليوم يتركز على كيفية تقوية نفوذ النظام وتوسيع محيطه وما هو الاستغلال الأفضل لتمكين إيران كقوة إقليمية مهيمنة صاعدة.

أدت الإطاحة بطالبان فى أفغانستان وصدام حسين، وتورط أمريكا فى العراق، بالرجعيين فى إيران إلى الترحيب بالفرص الفريدة المهيأة لصعود بلادهم. إيران ترى نفسها الآن دولة لا غنى عنها فى الشرق الأوسط.

نقف منقسمين

كما هو المعتاد فى أى فصيل يقود السياسة الإيرانية، يسود الانقسام اليمين الجديد فى إيران. وإحدى القضايا التى تختلف عليها المواقف هى: ما هو الأفضل لمصلحة إيران؟ التعايش مع الولايات المتحدة أم محاربتها؟. على أحد طرفى الطيف هناك الراديكاليون وممثلهم الأكثر بروزا هو الرئيس أحمدى نجاد ولكن هناك أيضا آخرين فى مناصب حساسة مثل مرتضى رضائى نائب قائد الحرس الثورى ومتجبى هاشمى سمارة نائب وزير الداخلية. ولا يمكن تجاهل الراديكاليين الذين يستمدون قوتهم من الحرس الثورى (خاصة جهاز مخابراته) قوات الباسيج، وجماعات مثل تحالف تطوير إيران الإسلامية والرابطة الإسلامية للمهندسين. ورغم أن الكثير من كبار رجال الدين لا يقيمون وزنا لادعاءات أحمدى نجاد الدينية، ولكنه استطاع كسب دعم مجموعة ضيقة من رجال الدين خاصة آية الله محمد تقى مصباح يزدى وهو المرشد الروحانى لكثير من المحافظين الشباب.

لم تكن ثورة ١٩٧٩ هى التجربة السياسية التى شكلت فكر الراديكاليين، ولكنها الحرب ضد العراق فى الثمانينيات التى ولدت لديهم احتقارا للولايات المتحدة والمجتمع الدولى وخلقت لديهم هوس الاعتماد على الذات. وطبقا لهؤلاء المحاربين القدماء فإن الحرب أوضحت استحالة ضمان مصالح إيران بالالتزام بالمعاهدات الدولية أو الارتكان للرأى الغربى. وهم - خصوصا أحمدى نجاد وحلفاؤه - يرون فى الولايات المتحدة «الشيطان الأكبر» ومصدر التلوث الحضارى والقوة الرأسمالية الجشعة التى تسعى لنهب موارد السكان الأصليين. الولايات المتحدة - فى نظرهم - هى سبب كل مصائب إيران من نظام الشاه إلى غزو العراق لبلادهم فى عهد صدام حسين. ولكنهم أيضا يرون فى الولايات المتحدة قوة على وشك الانهيار. وقد قال الجنرال حسين سلامى قائد الحرس الثورى فى مارس ٢٠٠٦ «لقد قيمنا القوة القصوى للغطرسة الكونية وعلى هذا الأساس ليس هناك ما نخشاه».

ورغم اعتقاده الدينى العميق فإن أحمدى نجاد ليس مبشرا يدعو لنظام عالمى جديد، بل هو مستغل ماكر يحاول أن يثير مشاعر الجماهير فى المنطقة التى تغص بالفوضى. إنه يفهم أن المذابح فى العراق والعراقيل التى تواجه عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية وعجز الحكام العرب عن مواجهة واشنطن قد خلق شعورا بالعداء ضد أمريكا يجتاح الشرق الأوسط وأن هناك احتياجا شعبيا لقائد يقف متحديا إسرائيل والولايات المتحدة. وهو يريد أن يكون هذا القائد. ومن أجل هذا الهدف استخدم خطابا ملتهبا حول الهولوكوست وإسرائيل ودعم حزب الله ودعا إلى التضامن الإسلامى للتغلب على الانقسامات الطائفية، وبفضله أصبحت بلاده الفارسية الشيعية ملتقى أنظار حتى العرب السنة.

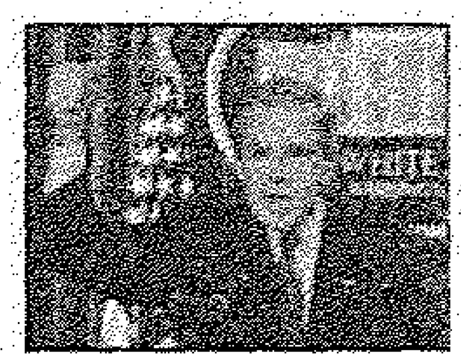
ولكن أهم من ذلك كله، فإن أحمدى نجاد وحلفاءه ينظرون إلى الحصول على الأسلحة النووية على أنها مسألة حيوية لتدعيم مركز إيران ومساعدة البلاد فى إنهاء النفوذ الأمريكى فى المنطقة، وهى جائزة تستحق المعاناة والعقوبات من أجل نيلها. وفى هذا الشأن أعلن آية الله مصباح يزدى بأن تلك المهمة هى (اخ بار من الله) وقالت صحيفة كيهان الناطقة باسم اليمين المتطرف بأن «المعرفة والقدرة لصناعة أسلحة نووية ضرورية للاستعداد للمرحلة المقبلة فى ميدان المعركة». وبسبب انعدام ثقتهم بواشنطن فإن المتشددين يفترضون أن معارضة الولايات المتحدة لطموحهم النووى لا علاقة له بعملية مواجهة انتشار الأسلحة النووية وإنما باستغلال القضية لاستدرار تعاطف حلفاء أمريكا ضد إيران. وكما وصفها أحمدى نجاد «إذا حلت هذه المشكلة، فسوف يثير الأمريكان قضية حقوق الإنسان. وإذا حلت قضية حقوق الإنسان فربما يثيرون قضية حقوق الحيوان».

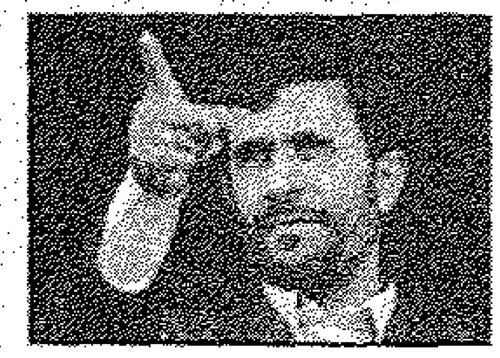
وقد نجحت شطحات أحمدى نجاد فى أن يكون بؤرة الاهتمام الدولى خلال العامين المنصرمين مما أدى إلى أن يغفل المراقبون الخارجيون تصاعد معسكر مهم آخر داخل اليمين الإيرانى الجديد. وهى مجموعة محافظة، تميل إلى تغليب القومية الإيرانية على الهوية الإسلامية وتفضيل البراجماتية على الأيديولوجية. من بين قادة هذا المجموعة على لاريجانى رئيس المجلس الأعلى للأمن القومى وعباس محتاج قائد البحرية الإيرانية وعزة الله زرقامى رئيس هيئة إذاعة جمهورية إيران الإسلامية وكلهم قوميون تشكلت تجربتهم السياسية - مثل الراديكاليين، بتأثير الحرب العراقية الإيرانية ولكنهم يتوصلون إلى استنتاجات مختلفة.

خلال التسعينيات حين استولى الإصلاحيون على الكثير من مؤسسات الدولة الإيرانية، تراجع هؤلاء المحافظون إلى مراكز الأبحاث وخاصة جامعة الإمام الحسين من أجل إعادة تقييم علاقات إيران الدولية. ومن خلال كتاباتهم وخطبهم يبدو أنهم توصلوا إلى استنتاج أن نهاية الحرب الباردة والموقع الجغرافى الفريد جعلتا من إيران قوة إقليمية طبيعية وأن صعود إيران قد تأخر بسبب التطرف الأيديولوجى للنظام وعدائه غير الضرورى للغرب، وأن الطريق الوحيد لإيران لتحقيق قدراتها، فى رأيهم، هو بالتصرف الحكيم وهذا يعنى الحد من استعراض نفوذها والالتزام ببعض التقاليد الدولية والتفاوض على معاهدات مقبولة مع خصومها. فى السنتين الأخيرتين صعد الكثير من أعضاء هذا الفصيل البراجماتى إلى مناطق النفوذ داخل المجلس الأعلى للأمن القومى وأجهزة المخابرات والجيش. وباستخدام صلاتهم مع شبكة رجال الدين التقليديين وصلاتهم القوية بالقائد الأعلى، يحاولون انتزاع سلطة العلاقات الدولية الإيرانية من العسكر.

الأهمية الحقيقية لانتخابات البلدية فى إيران

حتى الآن، نجح البراجماتيون فى حث خامنئى باتجاه القبول بمفاوضات محتملة مع الولايات المتحدة حول قضايا ذات اهتمام مشترك. ولكن المشهد السياسى الإيرانى يتغير بسرعة، الفشل الأمريكى فى العراق وانتصار حزب الله ضد إسرائيل فى الصيف الماضى





فى ديسمبر ٢٠٠٦ والتى أحرز فيها معسكر أحمدى نجاد نسبا مخيبة للآمال لا تكمن فى إحياء الحركة الإصلاحية ولكن فى الحقيقة أن الكثير من المحافظين الشباب ممن لا يرتاحون لسياسات أحمدى نجاد هم الذين كسبوها.

لا شىء يفرق الجماعتين من اليمين الجديد أكثر من نظرتهم إلى الولايات المتحدة. يرى البراجماتيون بأن هيمنة إيران لا تتحقق بدون علاقات أكثر عقلانية مع واشنطن. وفى مقابلة بأواخر ٢٠٠٥ قال لاريجانى «قد نكون على يقين بأن الأمريكان أعداؤنا، ولكن العمل مع العدو هو جزء من العمل السياسى». وأضاف «استراتيجية كبح وتقليل الاضطرابات وتطبيع العلاقات لها فوائدها على المدى البعيد» ومثل الصقور فإن لاريجانى وحلفاءه يرون بأن الوجود الأمريكى فى الشرق الأوسط مصيره الزوال، ولكن على عكس الصقور، يخشون أنه يمكن أن يستمر فى عرقلة تقدم إيران. وفى رأيهم أن تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة سوف يمهد الطريق أمام إيران لزيادة نفوذها فى المنطقة.

ويوافق المعتدلون مع الراديكاليين فى أن توسيع نفوذ إيران يحتاج إلى قدرات نووية. وكما أشار نائب رئيس المجلس الأعلى للأمن القومى على حسينى تاش «البرنامج النووى فرصة لنا لبذل محاولات للحصول على مركز استراتيجى وتدعيم هويتنا القومية» ولكن المعتدلين يؤمنون أيضا بالتروى. فهم يدعون إلى استمرار التزام إيران بمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية والتأكيد على أهمية اتخاذ خطوات بناء الثقة مع المجتمع الدولى، ويأملون أنه بتحسين علاقات طهران مع واشنطن سوف يمكنهم طمأنة المخاوف الأمريكية حول تطوير القدرات النووية الإيرانية بدون الحاجة إلى التخلى عن البرنامج.

ويهيمن على هذا الجدل القائد الأعلى الذى لم يحسم موقفه بعد، والذى دعم حتى الآن مطلب البراغماتيين للتفاوض مع الولايات المتحدة. فى جانب، يبدو خامنئى وهو أيديولوجى شديد التشكك بالولايات المتحدة، وكأنه يوافق على خطب أحمدى نجاد النارية ضد الغرب والتأكيد على إسلاميته، ولكن من جانب آخر يفتقر خامنئى إلى المؤهلات الدينية التى يتطلبها منصب رئيس السلطة الدينية وهذا الضعف قد اضطره إلى الاعتماد على العناصر المحافظة لتدعيم سلطته؛ ومع ذلك لم تكن علاقة خامنئى مع المتشددين سلسة دائما فهم يشككون بقدرته على الحسم فى أوقات الأزمات. ومن أجل أن ينجو من مؤامرات السياسة؛ عمد خامنئى إلى موازنة الاطياف المختلفة بدون تمكين أى منها على الأخرى.

حتى الآن، نجح البراجماتيون فى حث خامنئى باتجاه القبول بمفاوضات محتملة مع الولايات المتحدة حول قضايا ذات اهتمام مشترك. ولكن المشهد السياسى الإيرانى يتغير بسرعة، الفشل الأمريكى فى العراق وانتصار حزب الله ضد إسرائيل فى الصيف الماضى ونجاح دبلوماسية التحدى النووية لأحمدى نجاد أثبتت صحة موقف من يدعو للمواجهة. والقائد الأعلى يتردد فى تسوية الجدل الداخلى فى طهران بشكل حاسم.

الطريق الموحد

إن أفضل ما تستطيع واشنطن أن تفعله لحسم هذا التردد لصالحها هو ابتداع دبلوماسية جديدة فالوضع لا يتطلب نقلة دبلوماسية فحسب وإنما نقلة نموذجية.

فى السابق كان صانعو السياسة الأمريكان يرون - طبقا لمبدأ الاحتواء - أن تطبيع العلاقات هو النتيجة النهائية لعملية طويلة من المفاوضات. ولكن مع السياسة الجديدة المقترحة هنا، يجب أن يكون التطبيع منطلقا للمحادثات، بما يمهد طريق المناقشات حول قضايا مثل الأسلحة النووية والإرهاب. وسوف تقدم الاستراتيجية الرامية لخلق شبكة من ترتيبات دعم الأمن والاقتصاد المتبادل أفضل الفرص لربط إيران بالأوضاع الراهنة فى المنطقة. وهذا الوضع الجديد سوف يؤدى بطهران إلى إدراك أن علاقتها بواشنطن اكثر فائدة لمصالحها من علاقتها مع حزب الله أو من سعيها للحصول على الأسلحة النووية.

من أجل تحفيز مثل هذا التغيير، يجب أن تدعم واشنطن البراجماتيين فى طهران برفع الحصار وإقامة علاقات دبلوماسية. إن اعتراف واشنطن بالوضع الإقليمى لإيران وتعميق روابطها الاقتصادية مع الغرب قد يمكن فى النهاية البراجماتيين من دفع خامنئى لتهميش الراديكاليين الذين يصرون على أن المواجهة مع الولايات المتحدة هى وحدها التى ستسمح لإيران بتحقيق أهدافها.

ولكن إذا أعادت الولايات المتحدة النظر فى سياساتها تجاه إيران، عليها أن تتخلى عن فكرة منح طهران ضمانات أمنية. فالرأى المتوارث فى دوائر السياسة بواشنطن والذى يقول بأن حل أحجية إيران لا يكون إلا إذا تعهدت إدارة بوش بعدم مهاجمة إيران، هو تفكير خاطئ يعكس سوء فهم أساسى لنظرة الجمهورية الإسلامية لقوتها ومكانتها فى الشرق الأوسط.

إن حراس النظام الثيوقراطى لا يخافون الولايات المتحدة. انهم لا يقدمون أنفسهم للمجتمع الدولى من موقع ضعف استراتيجى، وطهران لا تطلب الآن تأكيدات ضد ضربة عسكرية أمريكية وإنما تريد اعترافا بوضعها ونفوذها.

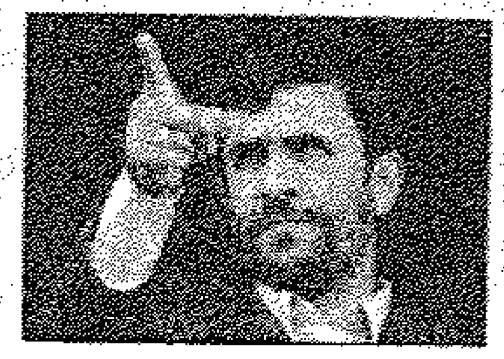
تحتاج الولايات المتحدة إلى إحداث تغييرات مهمة فى مقاربتها لإيران فى الشكل والمضمون. وبسبب الطبيعة الثيوقراطية للنظام الإيرانى والبارانويا التى تسيطر عليه، ينبغى على واشنطن أن تتبنى خطابه. فلم يعد باستطاعة المسئولين الأمريكان إدانة إيران باعتبارها «قاعدة للطغيان» أو «الممول الرئيسى للإرهاب» فى لحظة ثم اقتراح المفاوضات فى اللحظة التالية. مثل كل الأنظمة التى ولدت من رحم ثورة، تصر طهران على أن يعترف المجتمع الدولى ليس بمصالحها فحسب وإنما بشرعية قوتها أيضا. ولا يتفرد حكام إيران فى هذا المطلب. تذكروا أنه على مدى عقود من السنين طلب السوفييت من الولايات المتحدة أن تعترف رسميا بحدود أوروبا الشرقية ما بعد الحرب. إن الاعتراف رسميا بسلطة الجمهورية الإيرانية هو شرط نجاح أية سياسة أمريكية جديدة باتجاه إيران.

بهذه الروحية، يجب على واشنطن أن تتخلى عن سياستها العقيمة فى تغيير النظام بضمنها تخصيص مبلغ ٧٥ مليون دولار للمتفيين الإيرانيين ولإقامة إذاعة موجهة إلى إيران. والسبب هو أن هذه المثالية فى غير موضعها. وعلى عكس أوروبا الشرقية فى الثمانينيات، فليس لدى إيران حركة معارضة واضحة راغبة فى استلام توجيهات وتمويل من الولايات المتحدة. ومن ناحية أخرى تأتى الدعوات لتغيير النظام بنتائج عكسية حيث إن تقديم واشنطن المساعدة لمعارضة ديمقراطية (غير موجودة) أقنع الكثير من المتشددين الإيرانيين بأن عرض واشنطن للتفاوض ما هو إلا محاولة لإضعاف النظام فى طهران ولهذا يسارعون لإدانة أى جهد يقوم به المعتدلون للتواصل مع الولايات المتحدة، باعتباره إذعانا لخطط الشيطان الأكبر. إيران سوف تتغير بالتأكيد ولكن حسب شروطها وتوقيتها. والولايات المتحدة لديها مصلحة فى تشجيع حكومة أكثر تسامحا فى طهران ولكن لن تساعد نفسها بإذاعة الأكاذيب المستقاة من الإيرانيين فى المنفى أو من دعوات بوش لجماهير ايرانية غير مبالية. بل إن دمج إيران بالاقتصاد العالمى والمجتمع الكونى سوف يساهم كثيرا فى تسريع تحولها الديمقراطى.

قواعد الاشتباك

إن أفضل طريقة باتجاه علاقة مؤثرة مع إيران هى أن تفتح واشنطن مفاوضات مباشرة على قضايا ذات أهمية حيوية على أربعة مسارات منفصلة. طالما أن الهدف من المحادثات سيكون تطبيع

إن حراس النظام الثيوقراطى لا يخافون الولايات المتحدة.
إنهم لا يقدمون أنفسهم للمجتمع الدولى من موقع ضعف استراتيجى، وطهران
لا تطلب الآن تأكيدات ضد ضربة عسكرية أمريكية وإنما تريد اعترافا بوضعها ونفوذها

العلاقات فإن أول مسار يجب أن يتناول وضع جدول زمني لاستئناف العلاقات الدبلوماسية ينهي تدريجيا العقوبات الأمريكية ويعيد الأرصدة الإيرانية المجمدة. إن تقديم محفزات مثل هذه سوف يسهل حدوث مناقشات مثمرة على المواضيع الأكثر صعوبة وسوف يشجع النوايا الحسنة تجاه الولايات المتحدة لدى الشعب الإيراني.

وبسبب التقدم الحاصل في البرنامج النووي الإيراني، فإن هذه القضية تستحق أولوية في محادثات المسار الثاني. وليس من المحتمل أن تتأثر الجمهورية الإسلامية بالنموذج الليبي وتدمر بناها التحتية النووية بشكل كامل. وهكذا فإن مهمة المفاوضين في هذه القضية ستكون تصور إجراءات تتخذها طهران لاستعادة ثقة المجتمع الدولي مثل وضع نظام تفتيش نشيط لضمان عدم تحويل البرنامج النووي السلمي إلى الأغراض العسكرية. يجب أن تحصل إيران على حقوقها بموجب معاهدة عدم الانتشار لتطوير قدرات محدودة لتخصيب اليورانيوم وبالمقابل يجب أن تخضع إلى إجراءات المراقبة مثل التفتيش الفجائي وتسمح بوجود عناصر دائمة من وكالة الطاقة الذرية الدولية وعليها أن تقدم تقارير شفافة عن أنشطتها السابقة. قد يكون هدف إيران البعيد هو إنتاج أسلحة نووية ولكن قضية العراق توضح بأن عملية المراقبة والتفتيش التي يدعمها المجتمع الدولي يمكن أن تعرقل مثل هذه الطموحات.

المفاوضات على المسار الثالث يجب أن تركز على العراق. في ضوء تقرير بيكر - هاملتون، انهمك الكثير من صانعي السياسة في واشنطن بتقديم أسباب تبرر امتناع إيران المحتمل عن المساعدة. ولكن كثيراً من هذه المبررات غير حقيقية. أول أسطورة هي أن طهران تفضل بقاء القوات الأمريكية متورطة في العراق طالما أن تزايد عدد قتلاها سوف يردعها عن المجازفة بمغامرة غير محسوبة أخرى. في الواقع بعد أربع سنوات من حرب فاشلة يعتقد المسئولون الإيرانيون أن الطموحات الإمبريالية للولايات المتحدة قد انهارت وأن العملاق لا يحتاج إلى المزيد من الاستنزاف. والأسطورة الثانية تقول إن الحصول على تعاون إيران سيتطلب رفع عقوبات الأمم المتحدة. ولكن مثل هذا التفكير يفترض مقدما أن هناك عملية فعالة للأمم المتحدة تحتاج إلى إيقافها ولكن هذا غير دقيق. ومثل نظرائهم الأمريكان يرى القادة الإيرانيون صلة واهية بين سياستهم في العراق وسياستهم النووية. والإجماع السائد في طهران اليوم هو أن احتلال أمريكا للعراق يمنع التقدم السياسي المحسوس هناك وإن الطريقة الوحيدة لإعادة الاستقرار في العراق هي انسحاب القوات الأمريكية تدريجيا.

مهما تكن مفاهيم ودوافع طهران فإن تأثيرها في العراق يجعلها شريكا لا غنى عنه. ورغم أن إيران كانت مشغولة بتشجيع حظوظ حلفائها الشيعة العراقيين وتسليح ميليشياتهم واتهام واشنطن لها بذلك، لكن الحكومتين لديهما الكثير من الأهداف المشتركة. طهران مثل واشنطن معنية بتهدئة الحرب الأهلية الدائرة والحفاظ على وحدة العراق. وتؤمن الصفوة الحاكمة في إيران أن أفضل الطرق المناسبة لتحقيق أهدافها هي من خلال انتخابات تصعد بالأغلبية الشيعية. وأن دولة عراقية فاعلة سوف تسهل رحيل القوات الأمريكية وتحييد التمرد وتستقطب السنة المعتدلين إلى العملية السياسية. وكل الأهداف تخدم مصالح إيران والولايات المتحدة.

بدلا من النواح على نفوذ إيران في العراق، يجب على صانعي السياسة الأمريكان التركيز على كيفية إدارة تلك القوة بشكل بناء. إن من شأن الاعتراف بالنفوذ الشرعي لإيران وتأسيس إطار عمل لتنسيق سياسات البلدين، أن يمهد الطريق لواشنطن لإملاء طلباتها على إيران. ستكون واشنطن في مركز أفضل للضغط على طهران، مثلا من أجل ترويض ميول الانفصاليين الشيعة العراقيين وكبح جماح اللاعبين العصاة مثل مقتدى الصدر. وأكثر من ذلك فإن إيران اليوم هي من أكبر شركاء التجارة في العراق. وعلى الولايات المتحدة تسهيل هذه التجارة لأنها تساعد على استقرار جنوب العراق. وكلما أسرعت واشنطن بإدراك أن طهران يمكن أن تلعب دورا مفيدا في العراق كانت أقدر على منع تشظي العراق وبالتالي المزيد من عدم الاستقرار في الخليج.

المسار الرابع من المفاوضات وهو الأصعب، يتناول عملية السلام الإسرائيلية - الفلسطينية التي تعارضها طهران بشدة وغالبا بواسطة دعم الإرهاب. إن عداء طهران لإسرائيل قائم على الأيديولوجية الإسلامية التي تنكر شرعية المشروع الصهيوني. ودعم إيران لحزب الله وحماس يمنح طهران ذراعا في منطقة تبعد عن مداها العسكري. ومع انتصار حزب الله وزيادة شعبيته بعد الحرب مع إسرائيل في الصيف الماضي، تصلب موقف إيران. سوف تحتاج واشنطن إلى تغيير هذا الموقف. إذا حاولت إيران والولايات المتحدة تطبيع علاقتهما، سوف تدرك إيران في النهاية أن موقفها المتعنت تجاه إسرائيل يؤدي إلى خسارتها منافع حقيقية.

تكشف النظرة الفاحصة لتاريخ إيران بأن سلوكها يمكن أن يتغير إلى الأحسن. في التسعينيات مثلا أقنعت الحوافز المناسبة طهران بالتوقف عن اغتيال معارضيها الإيرانيين في أوروبا وقطع الدعم عن بعض الأنشطة الإرهابية في الخليج. في عام ١٩٩٧ أدانت محكمة ألمانية عناصر من الحكومة الإيرانية باغتيال قادة معارضة أكراد في مطعم في مدينة برلين قبل خمس سنوات من تاريخ الحكم، وسحبت حكومات أوروبية قائدة بعثاتها من طهران وفرضت تحديدات على التجارة معها. وعلى اثر ذلك، سارعت الجمهورية الإسلامية بنبذ ممارسة استهداف المعارضين في المنفى، وفي نهج مماثل وافقت السعودية ودول الخليج بتطبيع علاقاتها مع إيران في التسعينيات بشرط توقفها عن دعم العناصر الراديكالية داخل تلك الدول. وفي هذه الحالة أيضا أقنعت الفوائد الاستراتيجية للاسترخاء طهران بتغيير أساليبها.

ينبغي على واشنطن أن تستفيد من تلك الدروس الآن. وعندما تحاول الولايات المتحدة وإيران حل الاختلافات، سوف تؤدي القوة الدافعة لتلك الحركة بطهران إلى التخلي عن معارضتها لعملية السلام في الشرق الأوسط، وتحالفها مع الإرهاب. ويجب مساعدة هذه النقلة بحوافز دبلوماسية واقتصادية. والفكرة هي ليست بإقناع طهران للتخلي عن حزب الله، مثلا، ولكن للضغط على طهران حتى تعمل بالتالي على إقناع حزب الله أن يلعب دورا بناء في السياسة اللبنانية والتوقف عن مهاجمة إسرائيل.

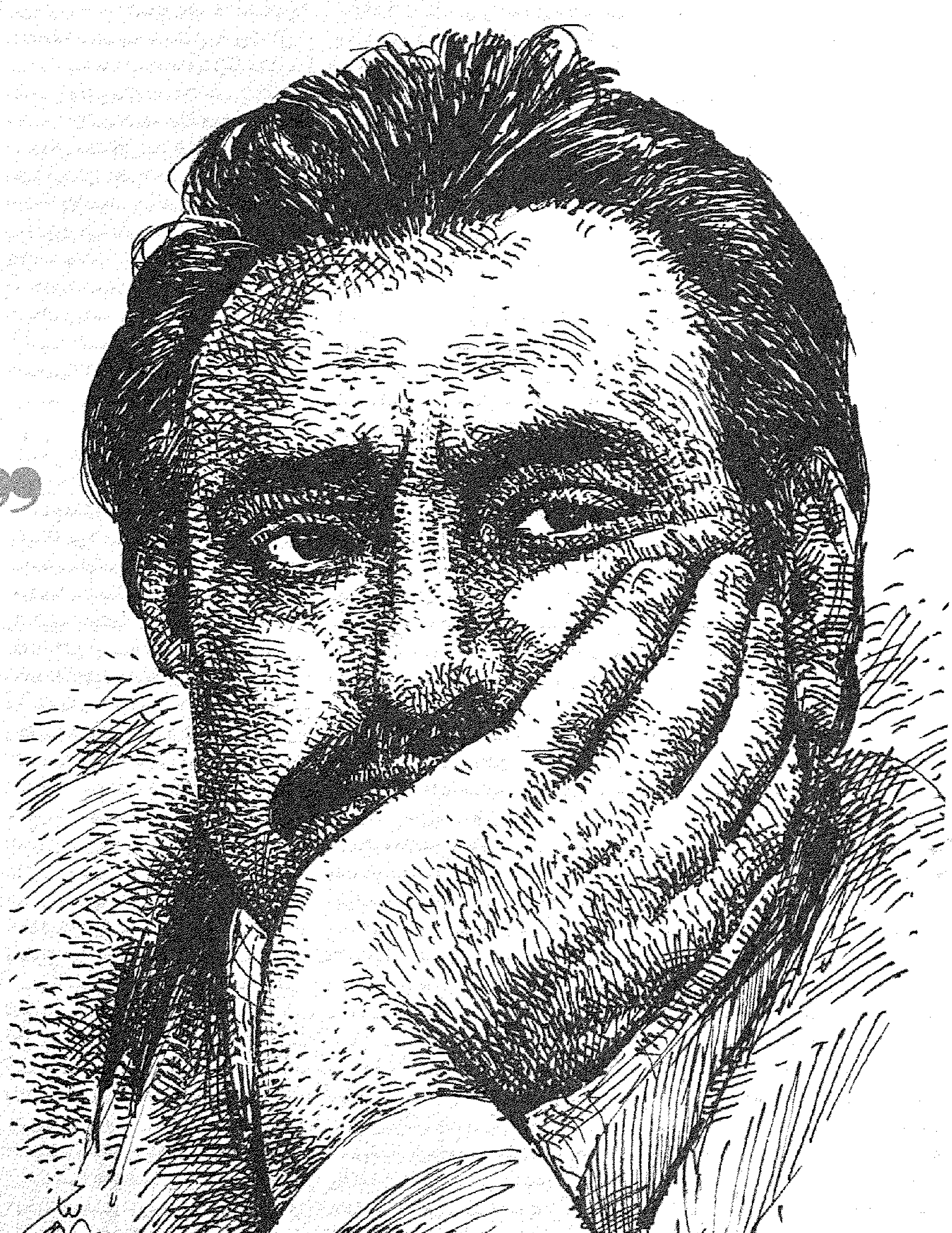
على مدى ثلاثة عقود عرقلت المشاعر الصارخة والخطاب غير المسئول تطور علاقة عقلانية بين الولايات المتحدة وإيران. وفي أحيان كثيرة تمت التضحية بالبراجماتية على مذبح الأيديولوجية وأهيل على المصالح المشتركة تراب المرارات التاريخية. اليوم هناك في إيران، فصيل قوي - البراجماتيون في اليمين الجديد - يرغب في التعايش مع واشنطن. وإذا استجابت واشنطن باستراتيجية استرخاء شاملة ستتمكن إيران والولايات المتحدة من التغلب أخيرا على العداء المتبادل بينهما.

النموذج الجديد لا يمنع التوتر أو حتى الصراع، ولكنه قد يقنع طهران بأن قمعها الطوعي لميولها الراديكالية سيقدم خدمة أفضل على المدى البعيد لمصالحها في المنطقة. وبالنسبة للولايات المتحدة تظل إيران مشكلة في المستقبل القريب. السؤال هو: أي الطرق أفضل لإدارة تعقيداتها وتناقضاتها؟ إذا قدمت الولايات المتحدة عرضا بتطبيع علاقاتها والبدء بمحادثات حول كل القضايا المتعلقة بين الدولتين، فسوف يكون أمام إيران فرصة اختيار: إما أن تكون أمة تدافع عن أهدافها الشرعية أو أخرى تقودها أوهامها إلى التهلكة. ولأول مرة منذ عشرات السنين، ثمة مؤشر على أن إيران سوف تفضل الخيار الأول. ■

يجب على واشنطن أن تتخلى عن سياستها العقيمة في تغيير النظام بضمنها تخصيص مبلغ ٧٥ مليون دولار للمنفيين الإيرانيين ولإقامة إذاعة موجهة إلى إيران

حواج

الحوار بطلُ الأسلوب فى رواية عزمى بشارة، وهو بطل غير مألوف بهذه الكثافة النوعيّة والكميّة فى هذا الجنس الأدبى، ولعل تقنيّة التشات فرضته سيدًا، أو لعل عُمرَ الواحد الموزّع فى اثنين جعله ضربا من المناجاة المنشطرة



إلياس عطا الله

الاجتياز الأول: الحاجز

بعد «الحاجز»، جاءت رواية عزمى بشارة «حبٌ فى منطقة الظلّ» سِفرَ خروج من الحاجز، ذلك الحاجز الذى بأّر حياة الفلسطينى وشظّاها فى آن، بأّر المكان والزمان وشظّاهما فى آن، ولم يفلح الكاتب، كشعبه، فى تجاوز الحاجز، الذى عشّش فيه، ولاحقه حيث حلّ، وكتب له أجندة تنفُسِه. وإن كان الكاتب فى روايته الثّانية قد تجاوز الحاجز أو هزمه، فإنّه حمل معه من الحاجز عقابيل دائه المتجسّدة بالظّلال، ظلال تستحضر أوفيد والعهد القديم متمثّلَين بمسخ الكائنات وسفر التّكوين، والحاجز فى المستحضَرَين ربّ الصّباؤوت أو ربّ الأرباب، يصوغ الأشياء كما يشاء، ولا رادّ لمشيئته، ظلال وُلدتْ ظلالا قبل الحاجز، وأخرى، كانت الظّليّة هاجعةً فيها، وجاء الحاجز فتململت، وفقست لها ظلالا، أرادت أن تربو وتتكاثر لتملأً مناطق الحاجز الفاعل، ومناطق المفعول الحاجزىّ، نزولا عند ما أمر به الربّ بملء الأرض الخربة الخاوية، وأن تمتثل إلى مشيئته: «أثمروا واكثُروا واملأوا الأرضَ وأخضعوها وتسلّطوا على سمك البحر وعلى طير السّماء وعلى كلّ حيوان يدبّ على الأرض...»، ورأى الله أنّ ما عمله حسَنٌ، فكان ملءٌ للأرض. وكان إخضاعٌ. وكان تسلّط. وحملت الحيوان دلالتها المعجميّة كاملة، وكان مساءٌ. وكان مساء آخر... ولم يأت يوم سابع، فلا هو سبتَ، ولا هم سبتوا... وصار دخولٌ فى سبات عميق.

ليس باليسير اجتياز الحاجز «المحسوم»، فقد تغلغل فينا، وانتقل إلى لغة أهلنا فى الضّفّة والقطاع، الذين طوّعوه لقوالب العربيّة وجعلوه على زنة مفعول مفردا، وعلى مفاعيل جمعا «محاسيم»، وهذه الكلمة سيّئة الأصل ليست عبريّة بامتياز. لغةً، ولكنّها عبريّة حصريًا بالتّنفيذ: هى ساميّة، يلتقى معها الأثل العربى «حسم» فى كلّ دلالاته الآثمة: بدءا بدلالة القطع والمنع والحرمان، مرورا بقطع اللبن عن الرضيع، وانتهاء بدلالة الشرّ التى جاءت فى التنزيل العزيز: «سَخَّرها عليهم سبعَ

حبٌّ فى منطقة الظلّ
عزمى بشارة
القاهرة - دار الشروق - ٢٠٠٦

ليالٍ وثمانية أيام حسوماً... وها هي العربية تصف فعلة الحاجز قبل أن يصير كابوس الفلسطيني، ولن يزول إلا بالاستئصال، والاستئصال من معاني الحسم أيضا... أو لا تكفي المحسوم دلالات المنع وتقطيع الأوصال والتشتيت والتجويع والشر هذه ليظل الفلسطيني «ينعم» في أجواء نكبته؟

الاجتياز الثاني: بنية الرواية

تُحدَّد عناصر أو مقومات الرواية بين أهل الأكاديميا والنقد الأكاديمي- في بلادي على وجه التحديد، وفي نظريات بعض النقاد - وفقا لمعايير تليق بمبحث التمييز (تمييز المقادير) في النحو العربي، أو وفق وصفات الطبيخ (كمية المقادير)، وعلى هذه المعايير المختلف فيها تصنف أنواع الرواية، ويفترض النقدة أن تشتمل الرواية على دعائم يسمونها: «حدث»، «تصوير المجتمع»، «تصوير العالم الخارجي»، «أفكار»، «أهداف»، «نقد»، «العنصر الشاعري»، «اللغة»...

عشر، أو عند زينب لمحمد حسين هيكل (١٩١٤)، أو حتى عند ثلاثية نجيب محفوظ النوبلية (١٩٥٦- ١٩٥٧)... حقيقة الوقوف عند هذه الأوليات/ الأوليات أو «الإبداعات» تجعلنا أسرى حاجز ولد قبل دولة الحاجز الفاعلة غير التاركة. وحقيقة الانجماد عند هذه الإبداعات كحقيقة أن نتوقف عند هندسة الشعر العربي في عصر البارودي، هندسة البناء المقيس بالمسطرة طولا وعرضا وصوتا، وهندسة العمارة وما يخاصرها من المنمنمات التي يفتح تناغمها وتضادها مصاريع الأبيات والأغراض لا أبواب الجمال... أعجب وقد مارسنا كرما دونه حاتم بقبول ثورة النواسي والموشح وقصيدة التفعيلة، وقصيدة النثر على هيكلية القصيدة الأعرابية والعربية وحشوتها، وأعجب وقد قبلنا بحلم دونه قيس بن عاصم المنقري القصة القصيرة والقصيرة جداً وتلك القزم جداً جداً، أعجب، لم ننظر بدهشة إلى الخروج عن المألوف في موضوعة الرواية؟ ألفلسطينيتها؟ أم لأن الحواجز تعشش فينا؟ أم لأن وقاحة

ما تقف عند ثنائية الصوت diaphonic المتمثلة بالحوار بين عمر ودنيا، وقد ترى أن الحقيقة هي وجود أحادية صوت monophonic، فدنيا هي عمر الحامل لوظائف أخرى.

لم يكن الحوار وحده، عند بشارة، هو الخارج عن المألوف، إذ تأبط لغةً تليق به، هي مزيج بين الفصيح والمحكي والعامي وغير العربي كلياً، وكأني بالكاتب يُسَيْنِم (من السينما) روايته أو يمسرحها، ولا إخال السينما أو المسرح قادرَين- على إمكاناتهما- على التعامل مع كثافة هذا النص الحواري، المقطوع بالسردية بشكل فجائي. أما أن يكون الحاجز الموظف للتشظية والتفتيت والإبعاد لاطئا وراء اللجوء إلى الحوار، فأترك أمره للكاتب والقارئ.

هذه الرواية الفلسطينية... إبداعة مفصلية في تاريخ الرواية العربية عامة. وإن كان الروائي الفلسطيني (عزمي

في بلاد الحواجز: بشارة في «حب في منطقة الظل». صحيفة الدستور الأردنية، الجمعة ٢- ١٢- ٢٠٠٥)، ولئلا نقع في الخطإ أو الخطيئة، ولئلا نقول شططا، نفترض أن يكون مرد العزوف إلى كون الرواية مرهقة، لا في لغتها، بل في كم الموضوعات المضغوطة المكثفة فيها، المنقولة بأسلوب حواري يقطعه السرد- تماما كما لو كان الحوار يمثل فرح الفلسطيني وبوحه وحبه ووصاله وتنفسه وفشة خلقه أو إفلاتته من الحاجز وأهله، والسرد الممثل للواقع بأوزاره، يندس ضربا من الحاجز ليقمع حتى فرحة الحوار الحلمية المختلسة-، وفي أن قارئها مضطر إلى أن يقطع الاسترسال مع النفس الروائي ليتوقف عند فيض من القضايا الفلسفية الفكرية، ليعود إلى القراءة التي ستُقطع مع صفنة تتربص به. هذه الرواية لا تُقرأ بالعاطفة- رغم أنها تضج بها- بل تقرأ بالقلب والعقل معا، وهذا سر الإرهاق فيها. ودفعا للظلم لي- ولست بالإخصائي في هذا المجال- وللآخرين المختصين بالنقد الأدبي، أقول إن «حب

ــز" عزمي بشارة!

عناصر قد تجدها في رواية ما، ولكنها قد تختص بنوع الرواية، فيما لا تحتاج بعض الروايات إليها رزمة واحدة، وعليه، أوجدوا معايير لكل نوع روائي: الرواية التاريخية، الرواية البوليسية التحقيقية، الرواية التعليمية، رواية الرعب، الرواية السياسية، الرواية العاطفية، الرواية المحلية، الرواية الإقليمية، الرواية التصورية، الرواية المقنعة، الرواية النفسية، الرواية النهر/ المتدفقة/ السيالة... وحول هذه الجداول الرياضية النظمية التمييزية تتبنى الأحكام النقدية الأكاديمية، ويُفرد القمح عن الزؤان، وفي هذه المعادلات والجداول يُمتحن الطلبة، ويحترف بعضهم النقد لاحقا، إلا أولئك الذين يصبحون نقادا بعد المحاضرة الأولى... وما أكثرهم!

عن أي رواية نتحدث و«حب في منطقة الظل» بين أيدينا، أو فلنقل ونحن بين يديها؟ وأين تتموضع روايتنا بين هذا الحشد؟ ولنا أن نسأل: هل من جنس روائي يجب الجثو عند قدميه ومحاكاته؟ لنتخيل أن روائيي العالم وقفوا عند رواية مدام لا فاييت «أميرة كليف - La Princesse de Clèves» المكتوبة عام ١٦٧٨، أو عند دون كيخوته- Don Quixote لسيرفانتس- Miguel de Cervantes منذ مطلع القرن السابع

الخروج لا تشرعن وترقى إلى الصدق والإبداع والفضيلة إلا بعد عقود؟

لم يكن الحوار- والذي سنعود إليه لاحقا- مما يعول عليه في الرواية بمقاديرها الموصوفة. رأيناه- أي الحوار- يؤسس لأسلوبية المسرحية، ويطل هنا وهناك في القصة بمقاييسها، أما في الشعر، فإنه يظهر بخفر وعلى ندرة، ولذا تعددت أسماؤه عند المختصين في صنعتي الشعر والبلاغة، وإن ارتاح عدد منهم إلى تسميته ترجيعا ومراجعة، وآخرون إلى القول بالموجب، وغيرهم إلى الأسلوب الحكيم وإلى المغالطة، على اختلاف وتعدد دلالات هذه المصطلحات.

قد يكون الحوار بطل الأسلوب في رواية عزمي بشارة، وهو بطل غير مألوف بهذه الكثافة النوعية والكمية في هذا الجنس الأدبي، ولعل تقنية التشات فرضته سيدا، أو لعل عمر الواحد الموزع في اثنين جعله ضربا من المناجاة المنشطرة... وقد يكون الكاتب متأثرا بمنهج دوستيفسكي، فهذا المنفتح على تعدد الشخصيات وإتاحة الفرصة أمامها للحديث، جعل رواياته، كما يرى باحثين، ذات سمة حوارية أو متعددة الأصوات polyphonic، لن أعجل في جعل «حب في منطقة الظل» رواية متعددة الأصوات، فالقراءة المتأنية تدفع إلى الاختزال الصوتي، وإلى محورية الكاتب، إذ سرعان



بشارة) يستحضر الزمن الجميل بحنينية وشغف طاغيين، فإن الكريه القائم هو الفاعل، أو فلنقل من باب التعميم إن عودتنا إلى الجميل شرط تنفس وتنفيس في عصر استشراء القبيح... ولا أصدق من فلسطيني يتحدث عن القبح المطلق! أعجب- وقد تابعت ما كتب عن الرواية- من أن الذين تناولوها ليسوا من نقاد الداخل، رغم أن عددا من الباحثين والأدباء -هنا- كتب عنها، وعلى جليل أو جميل عمل هؤلاء، تظل دراسة الدكتور فيصل دراج الفلسطيني- وليسكن حيث شاء- الأشمل والأعمق (الكابوس الفلسطيني

في منطقة الظل» لا تتناولها إلا دراسة/ رسالة بحث أكاديمية، أما ما تكتبه في حدود وسائل الإعلام فيظل مبتورا، غير منصف للناقد وللرواية وصاحبها معا، ويقتصر على جانب واحد من جوانبها.

ليس بشارة أول فلسطيني يخوض تجربة الرواية، فقد سبقه الكثيرون، ولكن الجديد في روايته أنه تجاوز أو اجتاز النكبة الجسد بأحداثها وإسقاطاتها المرئية المعيشة التي تناولها الروائيون السابقون: الرحيل/ الهجيج/ الكب على الحدود/ التشرد، التدمير والذبح، صور قوافل النازحين المقتلعين الحاملين لكواشين الملكية في عب القمباز، وما تيسر حمله من أثاث وفراش البيوت الثكلى ومفاتيحها، وما صاحبها من تصوير رحلة العذاب في كل الجهات بعيدا عن المتوسط... صور الصفيح والخيام والجوع والبرد وإنسانية وكالة الغوث والإخوة العرب... إلى النقلة الفنية في تصوير النكبة ووجع اللجوء والحنين إلى البيت، ممثلة بسجين يقف عند شباكه سجين أو معتقل يطل على الوطن ولا يدري أين السجن الحقيقي، حيث هو أم حيث ينظر؟ أو بعصفور/ دوري عرف طريق العودة لتنغرس في جسمه الغض أسلاك شائكة، أو لتمزقه رصاصة حضارية من

«حـــواجـــز» عــزمـى بشــارة



«أصحاب» البيت الجدد، أو بقبضة جبارة تنطلق نحو السماء مفتتة الحديد والقيد، أو بحياة الباقين فى سنوات ما بعد «عيد استقلال» الدولة، وما جبههم من عبثيات بدءا بتغير الأحوال وتشتت الشمل، وانتهاء بتغير اللغة، ولا أقسى من أن يعيش إنسان فى وطنه وقد هجت لغة الوطن لتنزوى فى مخيم، أو فى عاصمة عربية قريبة غريبة، بعد أن هجت مدنه أيضا... وإن كان بعضهم - إميل حبيبى أنموذجا- قد روى الأمر بالأسلوب الساخر الشخصانى المحض المصور أيضا لبعض أبطاله...فإن كل ذلك كان تصويرا للنكبة بجسدها المرئى النازف عام النكبة وسنوات الانتقال القسرى القليلة بعدها... أما أشلاء ما انولد عن النكبة من المكان والزمان والإنسان، وما آلت إليه، وما نخر فيها- تراكميا- ولما يزل... فهى من خصوصيات «حب فى منطقة الظل» إكمالا لما ورد فى «الحاجز» من قبل... إلى أن يفجأنا الراوى بعمل روائى جديد قد يكون التنبؤ به شكلا ومضمونا نوعا من العبث.

قرأ الكاتب النسج الاجتماعى بكل ما عمل ويعمل فيه من مؤشرات ومتغيرات... قرأ شخوصه أفرادا ومجموعات، وقرأ قيمه وتصرفاته، وصاغ قراءته هذه بأدواته الخاصة ليولد نصا يكتب عن النص الأول المعيش، مصورا ومقوضا، بانيا ماسخا، مسكونا بالحنين والاستشراف، موظفا الاسترجاع للاستشراف أو للرؤيا، متنقلا بين الماضى المستعاد عبر رموزه الكثيرة، إلى الآتى، منطلقا من الحاضر الذى غيب حضوره وجعله مسرح أحداث... أما المكان فقد أعاد إليه أصالته وحقيقته، وكل ما عدا الأصيل فهو ظل وباطل وعابر، عادت الأصالة عبر تداعيات فكرية مروية بتفاصيلها الدقيقة، وعبر الخشب الذى تفوح رائحته على مساحة الرواية رمزا لخضرة الماضى/ الوطن، ولحضور أصحاب هذه الخضرة رغم التغييب، وعبر زاهى ألوانه، وصلابته وعقده وهشاشته وأسمائه وقابليته للبناء، وعبر شخوصه الذين أوجدهم الخالق قبل الحاجز وأصحاب الحاجز، وبهذا ربط الكاتب بين الزمان والمكان، والأصل والظل، وجسمهما عبر استراتيجيات ذهنية سخرها آلات لكتابته، وهى فى الوقت نفسه ملك للقارئ، وليس بالضرورة أن تكون الأمور استنساخا، إن هى إلا حوار بين النص والقارئ، والخرونوتوبوس/ الزمكانية تعنى من ضمن ما تعنى الوعاء الحافظ للبعد التاريخى الاجتماعى فى حقبة ما وفى مكان ما. وإن كان باختين وهو صاحب مفهوم الزمكانية قد انطلق من أن لكل جنس أدبى أو صورة أدبية زمكانيتها، كزمكانية الملحمة اليونانية، والعهد الجديد، أو روايات وقصص الأسر الريفية، والسيرة الذاتية، وإن كان قد ظلل اللغة ودلالة مفرداتها بالزمكانية... فإنها فى حب فى منطقة الظل تتفحص، إلى جانب ما أورده باختين، زمكانية النكبتين: النكبة العلم، والنكبة التى انولدت عن الأولى متمثلة بسلوكيات وعقائد ومناهج وموبآت وموبقات جسدتها الظلال وظلال الظلال... مع استرجاع للنقيض الأصيل - ولا أريد أن أقول «الأصلانى» - عبر بعض الشخوص كصاحبى الحوار وعمو صلاح مثلا.

يقف بشارة عند حدود الوصف
والتصوير للنكبة وما أفرزت من مقابح،
حيث إنه ما حلل الأمور وهى فى منأى عن
الذات، بل حلل الذات نفسها
بعد أن صارت فى وعيه

على هذا الصعيد، استثمر الكاتب الحالة الشوهاء المقززة الظلية المسرفة فى عدميتها وهلاميتها، وركز عليها فكره التحديقى التسريرى أو السحقى، وما جاءت السخرية أو الهجاء من أجلهما حصريا، بل من باب الإقلاق الذى ولده قلق الكاتب، والمفضى فى النهاية إلى تدمير القبح، وإن لم يكن بمقدور الكاتب، مهما كانت سلطة الكاتب وسلطة النص، فإن إزالة الرعب منه بإعمال مشرطه/ قلمه فيه ضرب من العبث الذى يفش الخلق... أو ربما أمل فى إعادة البناء، ولئلا أضلل نفسى أعرف أن القبح باق، لأنه جزء من الكوميديا البشرية، ولن يزول إلا بزوال البشر... وعندها لا تكون حاجة إلى الحديث عن أى شىء... إذ ليس ثمة من يتحدث.

الرواية فيض من الكرنفالية والقبح/ grotesque- carnivalesque (ينظر: عودة الظل إلى مسقط رأسه، وحوار عمر مع دنيا حول الجمهور، وظل الظل)... يحضر القبح عندما يصبح التشوه أو التشويه سيدى الأشياء، وحين نصاب بحالة الغثيان والتقزز لعبثية ما نرى وما نعيش، متمثلا لنا بشرا غير سوى فى الظلال وظلالها التى تجسد النشاز، ولا تملك فى هذه الحضرة إلا أن تحيل قلمك مدية أو معولا، فتترصده مزيلا أقنعته- فعلة فأرة النجار فى نزع القشرة/ القناع عن جوهر الخشب- ناسفا قماءة استراتيجية سلوكه، ومن هذا المنطلق - كما أرى- وجدنا هذا الكم من عينات القبح المتولد بالغريزة أو بفعل الحاجز و«حضارة» الحاجز وظلال الحاجز... قبح يخاصر كرنفالية ميخائيل باختين، التى قد نوظفها لفضح أو نسف القائم، إما لمجرد نسفه حتى لو بقيت الأرض خرابا يبابا، أو لإرساء الأسس لما ينبغى أن يكون، كرنفالية معززة بمينيبية (Menippean نسبة إلى مينيبوس القيسى- من أم قيس الأردنية حاضرا، السورية تاريخا) مسخية تتجاوز الأشخاص لتصل إلى السلوك الاجتماعى العام، والظواهر الفكرية القبيحة التى تحلل كل محرم وقمىء، مستمنية سلوكها على الآخر، شعبا كان أو قضية.

فى قراءته هذه، لم يقف بشارة عند حدود الوصف والتصوير للنكبة وما أفرزت من مقابح، حيث إنه ما حلل الأمور وهى فى منأى عن الذات، بل حلل الذات نفسها بعد أن صارت فى وعيه، والكاتب، وفقا للفينومينولجى الهوسرلى(نسبة إلى الألمانى Husserl)، لا يكفيه أنه واع، إذ عليه أن يكون واعيا بالشىء الذى عنه يكتب، واستبطان النكبة ووجعها وظلالها على رحب الزمان والمكان الحاضنين للرواية، شأن جلل.

الاجتياز الثالث: التشات والشتات

إن كان التشات وعاء الحوار غير المألوف فى بنية الرواية، فإنه فى المسألة الفلسطينية المتجسدة فى النكبة، ذو أبعاد خاصة، يضفى عليها عمر الموزع بين أناه هنا وأناه البعيدة هناك، وحقيقة الشتات الفلسطينى ومعاناة الناس، عمقا خاصا. وأمر التشات كامن فى ثلاث حقائق: الأولى اللعبة اللغوية بين التشات والشتات، والثانية فى أن التشات الوسيلة الحصرية للم الشتات السابق لحق العودة، الذى لا يعتد بالحاجز ولا بالحدود ولا بجواز السفر وتأشيرة الدخول، وكلها واقع مانع قامع... وحين صار يخشى على سقوط حق العودة من الثوابت فى عصر ظلال الحاجز فى الجانب المفعول، يرقى لم الشتات العصرى إلى درجة قصوى من الأهمية. والثالثة متجلية فى أن التشات/ الحوار، الحب، المسبغة عليه الحالة الفلسطينية الفردية والجمعية، أهم وأرقى- لما فيه من صدق وتوق- من كل الحوارات اللاشيئية السائدة فى عصر صناعة الأشياء لا صنعها: حوار الحضارات، حوار الثقافات، حوار الأديان، الحوار العربى اليهودى... وصولا إلى الحوار الفصائلى الفلسطينى، فهذه «المهن» جميعا ضرب من الامتهان والثرثرة واللغو، وإمعان بالابتعاد عن الجوهر، هى انشغال بالقشور البشرية المتصارعة، المساومة،

المسـقطة لاختـلاف مصالحها كلّ فشلها أو إخفاقاتها أو أطماعها على المطلق الحضارة/ الثقافة/ الدين/ الحق.

يحتاج الفلسطينى إلى الحكى والبوح احتياج المخلوقات الحيّة إلى التنفس، وإن كان بشارة قد رأى فى التشات متنفّسا، فإنّه فى غيبـة التـشـات - كأمـهـاتـنـا الفلسطينيات- يخلق مخاطبا: حبيبا غائبا، طيرا منعتقا من الحاجز، نجمة الصبح، وطنا، هواء غربيّا يحمل «ريحة الحبايب»... شيئا من بكائيات الحنين التى لا يعرفها إلا المنكوبون، مما سمّاه هو نواحا وندبا وتهاليل أم... هذا النواح الذى جاء فى خاتمة الرواية، ليس حشوا ولا فضلة ولا استـعـراض عضلات ذاكراتى، إنّه التشات/ المناجاة قبل ولادة التكنولوجيا... إنّه الحنين الفلسطينى لكلّ بعيد... وما أبعد الوطن! وما أبعد الأهل!

لا تعرف- وأنت تقرأ الرواية- متى سيقطع الراوى الحوار، عائدا إلى السرد والاستطراد، وكل سردية تبدأ حيث انتهت سابقتها، أمّا الحوار فمحلّق مشتّت مشتّت كزحمة القبح والظلال... تسعد وأنت تقرأ بوحا عاطفيّا عاشقا، وسرعان ما يأتى البتر، والبتر لا ينهى حوارا أو فصلا فى الرواية فحسب، إنّه بتر لتحويل موضوع الحوار إذا ما ذُكرت لفظة الحبّ! أهو إشارة إلى أنّ الفرح والفلسطينى محرّمان/ محرومان كلاهما؟ أم صحوة من الاستغراق فى حلم موجع؟ أم مركّب فى شخصيّة الراوى؟ أم عودة إلى الصفنة المريحة المرهقة؟ أم إرهاق من الثرثرة والاستطراد مع الأنا الآخر؟ ألعلّه هذه الأمور مجتمعة؟

الاجـتـيـاز الـرابـع:

لعبة الأنا المنشطرة

رغم هيمنة الظلال، مفردة وأجساما على مساحة الرواية، فإنّ الكاتب خلق أناه الآخر/ الأخرى، ولم يدرجها فى الظلال لأنّها نقيض الظلال، ولذا شكّل من أناه الثانية(دنيا) طيفا- والطيف الجسد الماثل فى حضرة الغياب- خلقه من الحب، وجعله عاشقه أو سميره أو نديمه، يستحضره ليتواصل معه، ليحبه... أهى أناه أم عُمر أناها؟ وقد «تستقرأه يداه بلمس» كفعلة البحترى مع صورة أنطاكية فى إيوان كسرى.

ولأنّ دنيا هى عمر نفسه، وربما عمر هو دنيا نفسها، وإن شئتم شخوصا هى امتداد لواحد، ولها وظائف شتّى تنبنى على السياق: تمارس وظيفة المستفز، فيسترسل هذا مكدّسا كلّ التفاصيل، وهو ليس بحاجة لاستفزاز أصلا. وتلعب دنيا لعبة الرقيب الذاتى، أو الضمير لتسكته، ويكفى أن تجنح إلى العاطفة لتفلح، تثير مواجعه حسّا وفكرا، تغيظه، تفتّح أمامه كوى للحديث فى مواضيع يريد هو أصلا أن يتحدّث فيها بإسهاب، ولكنّه يؤثر هذه الدمائة البروتوكوليّة التشاتيّة، تعينه فى اندفاق غزير معلوماته عن الأحوال فى الخارج مدركة أنّ تواضعه يتطلّب سؤالا أو استيضاحا، توصل الخارج بالداخل نوعا من لمّ الشمل... وربما تتحكّم هى به كما يتحكّم بها إذ تصنع رواية وتجعله راويه.

دنيا التى ترمز للوطن الململم بالتشات، هى فى النهاية السوداء تظل الدنيا التى لا تريد لعمر وطنا إلا فى التشات، فلا هى قدمت كرغبته، ولا هو خرج كرغبتها، ولذا، رأيناها غائبة مغيبة التشات معها فى إطلالة الفصل قبل الأخير. قالت له دنيا: «عندما تقرر إذا كنت تريدنى فعلا فسوف تجدنى». وقال هو لها: «عندما تقررين أن تأتى فسوف تجدينني». (حياة بدون تشات)، وكانت هذه إيذانا بالنهاية، وإن التقاها فى الحلم فى لحظة هلوسة اختصرت الصدق: «... غربته عن المكان خاصّة وعينيّة، أمّا غربتها فعامّة مجرّدة... وأحسّت دنيا لأوّل مرّة بضياع حبيبها فى شظايا المكان وبغربة عمر وضيقه فى هذه الديار. إنهما غريبان ها هنا».

ولم يبق من دنيا إلا اتصال للتعزية، وبيت مفتوح للعزاء فى بيروت... ولم يبق من عمر، عصىّ الدمع، إلا التفرّغ لترتيب أوراق عمّو صلاح فى البيت القديم فى حيفا... قصة الفلسطينى، يُقتل ويُقبر هنا، أو هناك، وهنا وهناك كلاهما حاجز... وتُفتح بيوت للعزاء فى أقطار الأرض، فالدنيا، لا فلسطين، ما زالت الوطن... ويبقى عمر النجّار- هى أمنية-... وماذا تريد منه؟ إعادة بناء المنزل أو المحلّ لكلّ المرتحلين والمرحّلين؟ أم اقتناص لحظة لـ «التركيز والتأمّل... والانعزال الشرعى والتأمّل» أم خلق مسيح جديد؟ أنا لا أعرف... أو لربّما أنا أعرف إلى درجة اليقين، ولكنّ اليقين يرعبنى فأتدثّر بالشكّ أو بالتساؤل. ■

كتـــاب الـزاويـــة

مقال فى العبودية المختارة

أيتن دى لابوُيسيه

مقال فى العبودية المختارة هو أحد أشهر النصوص السياسية والفكرية فى التاريخ الأوروبى التى تعالج قضايا الطغيان ودور رجل الشارع العادى فى دعم الطغيان وإتاحة الفرصة له كى يزدهر ويستمر.

مؤلف هذا المقال هو الفرنسى أيتن دى لابويسيه الذى ولد فى نوفمبر ١٥٣٠ ودرس القانون فى الجامعة وحصل على تصريح من الملك هنرى الثانى يبيح له حق العمل قاضيًا فى برلمان يوردو. وكانت تلك الفترة التى ظهر فيها دى لابُويسيه مرحلة صراع دينى شديد فى فرنسا بين الكاثوليك والهجنوت (وهو الاسم الذى أطلق على أشياع كالفن بفرنسا. وتعرض الهجنوت لعقوبات صارمة بلغت حد الحرق.

ويناقش المؤلف فى كتابه سلوك الطغاة وسلوك الناس وطاعتهم المختارة للطاغية. ويرفض لابويسيه دور الدولة الحديثة التى تسحق الجماعات ولا تترك لها حرية أو استقلالاً فى تصريف أمورها بنفسها.

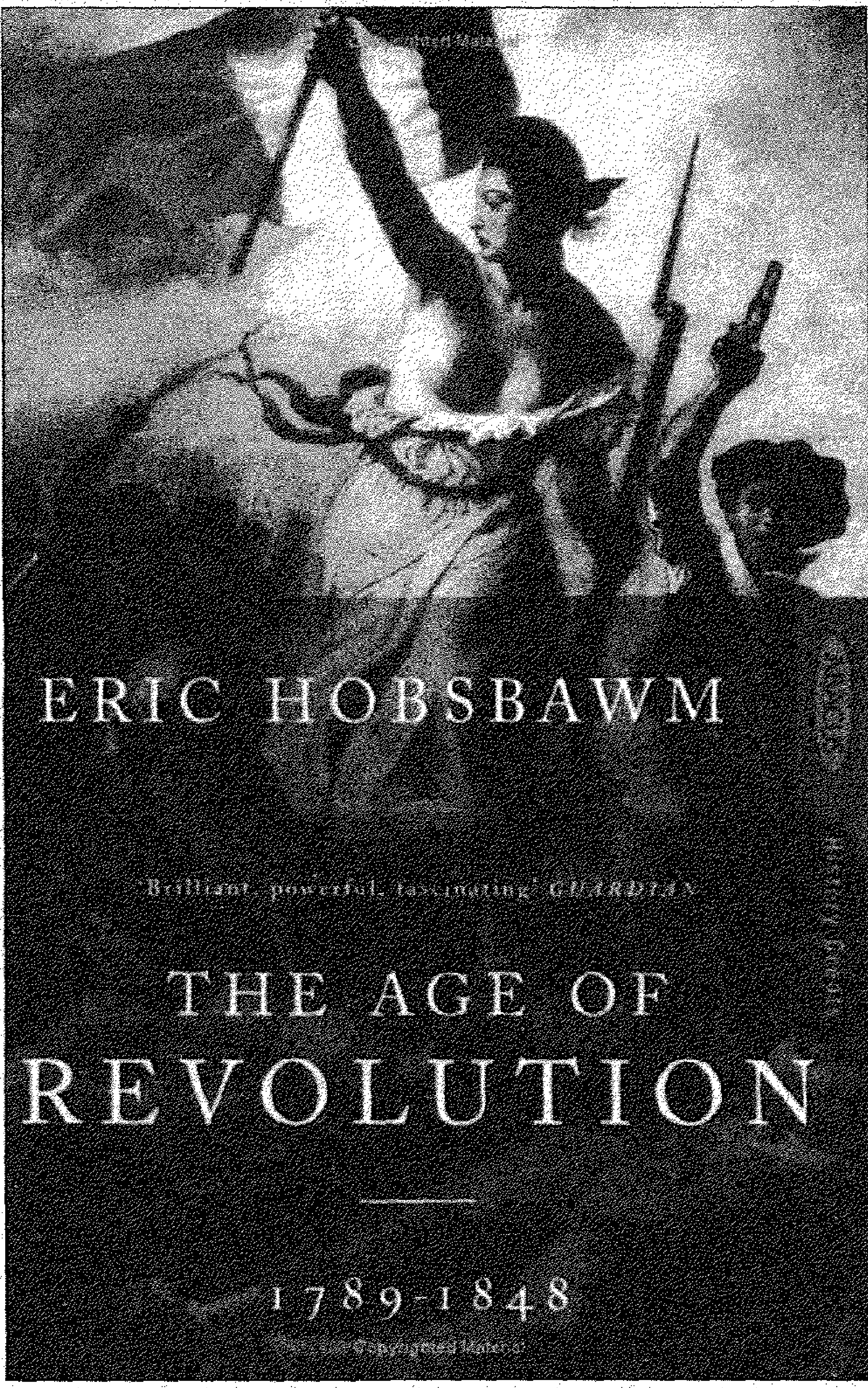
وظل الكتاب مثارًا للاهتمام فى أوروبا وفرنسا بشكل خاص مع قيام الثورات ضد الملوك من أجل تحقيق الحرية.

ونظرًا لأهمية هذا الكتاب الفريد قام الدكتور مصطفى صفوان بترجمته وكتابة مقدمة وهوامش ضافية وصدر باللغة العربية عن مكتبة مدبولى عام ١٩٩٠م.

الثورة

رأس المال

الإمبراطورية



إريك هوبزباوم

العرب..

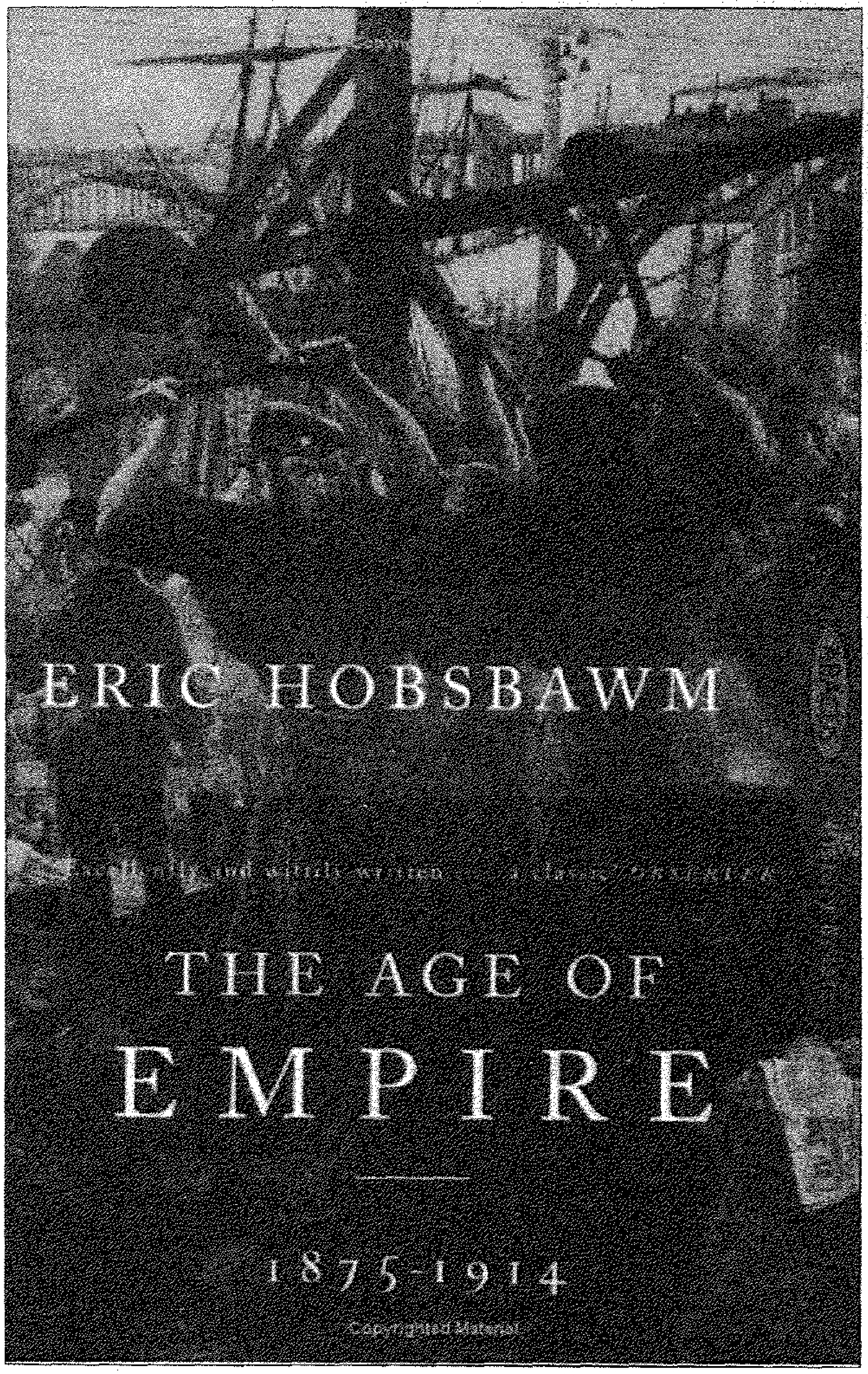
اصطدم توسع الأوروبيين الاقتصادى والعسكرى بعالم إسلامى كان لايزال يمر بمرحلة من التوسع المستمر، ولا سيما فى أفريقيا، والمناطق الوسطى والجنوبية الشرقية من آسيا. إلا أن هذا العالم كان يعانى نزاعات داخلية

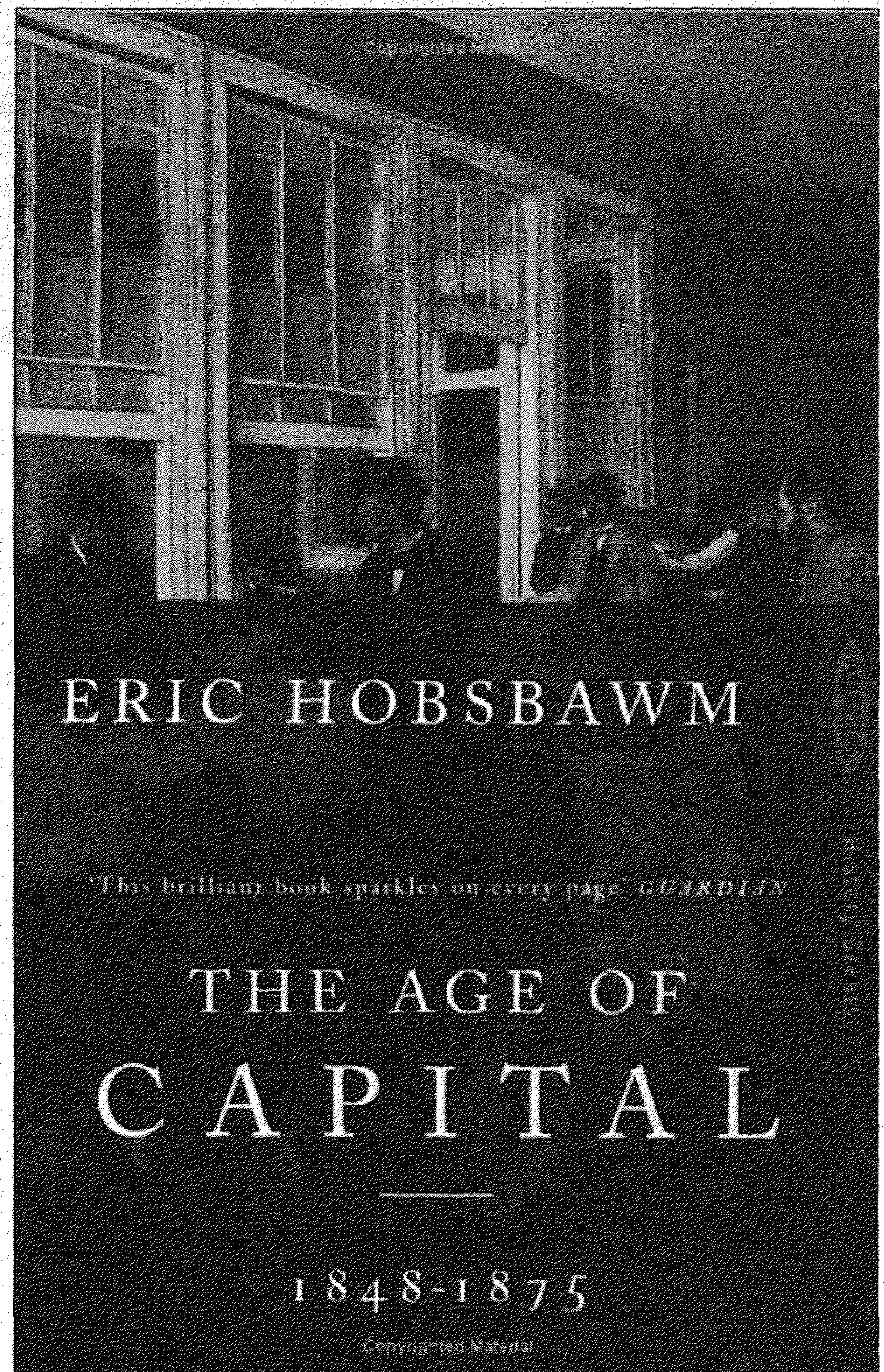
وضعت هذه المؤلفات الثلاثة، التى استكملتها بكتاب رابع عن تاريخ العالم منذ الحرب العالمية الأولى حتى سقوط الاتحاد السوفيتى، ليقرأها، كما تقول مقدمة الكتاب الأول، «المواطن الذكى المتعلم الذى لا يسعى إلى إشباع فضوله لمعرفة الماضى فحسب، بل يريد أيضاً أن يفهم كيف ولماذا أصبح العالم على ما هو عليه الآن، وإلام سيؤول».

وتعالج هذه المؤلفات الأربعة كلها الفترة الأكثر أهمية فى تطور البشرية منذ ما اصطلح على تسميته «ثورة العصر الحجرى الحديث»، قبل نحو عشرة آلاف سنة، التى شهدت بدايات الزراعة، واستخدام المعادن، ونشوء المدن، والسجلات المدونة للنشاط والفكر الإنسانيين. إن التقسيم الزمنى لمراحل التاريخ البشرى عملية مختصرة بمعايير علوم الإحاثة، والآثار، وطبقات الأرض. بيد أن الفترة التى تتناولها هذه المؤلفات، على مدى قرنين ونصف القرن تقريباً، تغطى أجيالاً بشرية قليلة، وهى مدة قصيرة على نحو كاف لأن تستوعبها ذاكرة عائلة واحدة.

وقد لا تكون ثمة حاجة لإيضاح التحول المثير الذى طرأ على الحياة الإنسانية خلال هذه الحقبة، حتى قبل أن تتسارع خطوات التغيرات التاريخية العالمية فى التعبير عن السرعة، خلال

مقدمة المؤلف للطبعة العربية
عصر الثورة: أوروبا (١٧٨٩ - ١٨٤٨)
إريك هوبزباوم
ترجمة: فايز الصايغ
بيروت: المنظمة العربية للترجمة
توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية
٦٣٩ صفحة . ٢٠٠٧





عصـــور التحـــول

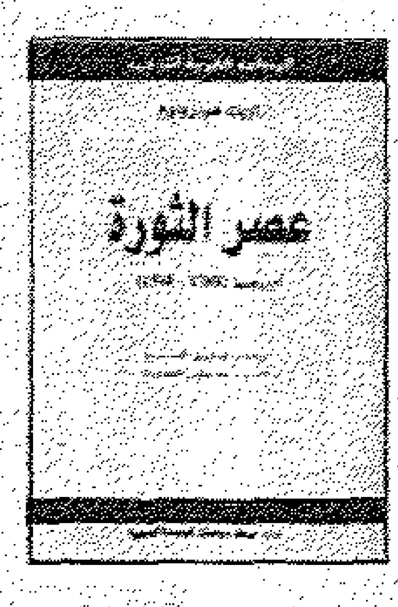
نصف القرن الماضى، إلا أن بوسعنا أن ندلل على ذلك بواحد من أقدم الأنشطة التقليدية فى العالم الإسلامى، هو الحج إلى مكة. فقد كان، قرونًا عديدة، يتم بصورة أساسية براً بواسطة القوافل أو سيراً على الأقدام. غير أن تقانة القرن التاسع عشر - الممثلة فى قناة السويس، والسفن البخارية والسكك الحديدية، وافتتاح سكة الحجاز عام ١٩٠٨ (بالتقويم الزمنى الغربى) التى بنيت أساساً لتيسير أداء فريضة الحج - قد تضافرت جميعها لإنهاء عهد القوافل. ذلك أن آخر القوافل المهمة غادر القاهرة عام ١٨٨٣ (بالتقويم الغربى). كما أنها يسرت لمسلمى جنوب شرقى آسيا أن يشاركوا فى الحج مشاركة فاعلة مهمة من الوجهة السياسية. وبحلول العام ١٩٠٠، كان عدد الحجيج قد وصل إلى ما يتراوح بين ثمانين ألفاً ومائة ألف فى السنة، وهو رقم لم يكن ممكنًا تصوره حتى ذلك الحين. وبعد الحرب العالمية الثانية، كانت الآثار التى تركتها تقانة القرن العشرين على المواصلات البرية، وبصورة خاصة الخطوط الجوية، أكثر ثورية؛ إذ ارتفع عدد الحجيج إلى ما يتراوح بين مليونين وثلاثة ملايين حاج فى السنة.

ليس ثمة نشاط بشرى خارج نطاق الابتكار، فمنذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر، يسرت الطباعة والانتشار السريع للكلمة المطبوعة فى أرجاء الشرق الأوسط عملية تطوير لغة حديثة نموذجية للمتعلمين الناطقين بالعربية، مقابل اللغة الفصحى من جهة، واللهجات المحلية المتعددة التى يصعب التواصل بها من جهة ثانية. وحيث إن الأفلام والتلفاز ينبغى أن تكون مفهومة فى أوساط الملايين من الناس على امتداد بلدان عديدة، فإنها قد خلقت، ربما للمرة الأولى فى التاريخ، لغة محكية مفهومة عموماً فى أرجاء بلدان المغرب والشرق الأوسط.

وبما أن التغير والتحول قد أصبحا من الخصائص المميزة لهذه البلدان، فليس من المستغرب أن تكون حتى الحركات المنادية بحماية التراث أو العودة إليه تطورات تاريخية مستجدة. ومن الخطأ الاعتقاد أن السبب فى اختلاف بلدان العالم الإسلامى كثيراً عن الديمقراطيات الدستورية فى الاتحاد الأوروبى، مع استثناءات هامشية، هو أن هذه البلدان لم تتغير. فقد كان «الإخوان المسلمون» فى مصر، وسيظلون، «حزبًا سياسيًا حديثًا»، له شكل من التنظيم السياسى ونهج فى اجتذاب الأنصار، وبرنامج سياسى حافل بالفرضيات المستقاة من ميدان العمل السياسى الوطنى، خلافاً لكل ما قام به العالم الإسلامى منذ قرنين، حتى وإن كانت أهدافه تتمثل فى إقامة نظام اجتماعى قوامه الشريعة الإسلامية. وقد رأى البعض أن نهجًا تقليديًا فى ظاهره مثل «الحكومة الإسلامية» التى اختطها آية الله الخمينى، قد غدت قابلة للتصديق والتصور «بفعل شروط الدولة والعمل السياسى» التى لم تكن موجودة فى العالم الإسلامى قبل الثورة الفرنسية.

إن هذه المؤلفات تصف مرحلة حرجة فى تحول هذا الكوكب، بفعل النسق الاجتماعى - الاقتصادى المستجد، تاريخيًا، الذى سماه كارل ماركس «المجتمع البورجوازى»، وكان أول من أدرك منطوياته الثورية على الصعيد العالمى. ويبدأ التاريخ الذى أتناوله هنا بالاختراق المزدوج الحاسم الذى وقع فى أواخر القرن الثامن عشر، والمسمى «الثورة الصناعية» فى بريطانيا. فهى التى مهدت الطريق للنمو

العرب.. عصور التحول



الاقتصادى الرأسمالى، وللتغلغل العالمى، وللثورة السياسية الفرنسية ـ الأمريكية التى طرحت نموذجاً مثالياً متقدماً لمؤسسات المجتمع البورجوازى. وقد تحددت الملامح العامة لتاريخ المائتين والخمسين سنة الماضية جراء الآثار العالمية المتزايدة لهذا النسق، وبنمطه المتميز بالتنمية من خلال عدم الاستقرار، وبفترات متتالية من النمو السريع الذى يؤدى إلى وقوع الأزمات، وإلى إعادة الهيكلة، وإلى الثورة فى بعض الأحيان. وقد كان حجم النمو العالمى لهذا النسق متواضعاً فى القرن التاسع عشر، ولم تعترضه، بالمقارنة مع مقاييس لاحقة، أية تحديات. فالحقبة التى تلت العام ١٩١٤ هى التى أثبتت إمكانية خلق التصدع والزعزعة فى العالم. وهذه المرحلة من الأزمات، والانهيارات، وإعادة الهيكلة، هى موضوع كتاب التاريخ الرابع الذى وضعته بعنوان عصر التطرف.

لم يكن ممكناً قيام نظام عالمى، بالمعنى الحرفى للكلمة، إلا فى فترة كولومبوس وماجلان، عندما قام التجار وقادة الحملات الوافدة من «العالم القديم» فى أوراسيا وأفريقيا باكتشاف ما يسمى «العالم الجديد» فى نصف الكرة الغربى، وغزوه. وعندما تم الدوران حول الأرض بحراً، وعلى مدى أربعة قرون ونصف القرن منذئذ، هيمنت على التاريخ تطورات اقتصادية وسياسية وثقافية وفكرية نابعة من أوروبا. وترابط التغلغل الاقتصادى والغزو السياسى اللذين مارستهما حفنة من الأقطار الأوروبية، ثم مارسته، بعد سقوط تلك البلدان، الولايات المتحدة الأمريكية، وهى دولة أقامها المستوطنون الأوروبيون، واستلهمت التراث الأوروبى. وخلال القرن العشرين، انتهت الحقبة الأوروبية فى تاريخ العالم. ويبدو، فى مستهل القرن الحادى والعشرين، أن استمرار هذه الحقبة، برعاية الولايات المتحدة، لن يدوم طويلاً.

وحيث إن هذه المؤلفات تقدم صورة عامة لتاريخ العالم منذ «الثورة المزدوجة»، فإن تغطية المناطق المختلفة فى العالم كانت متفاوتة جداً. وقد أوضحت أسباب ذلك فى مقدمة عصر الثورة. ومع ذلك، فإن من المحبذ أن نتحدث فى هذه الإصدارة لجمهرة الناطقين بالعربية، بشكل محدد، عن دور منطقتى المغرب والشرق الأوسط، والعالم الإسلامى بصورة عامة، فى الفترة التى تبدأ فى أواخر القرن الثامن عشر. وقد استشرفنا عدداً من هذه الموضوعات فى عدة مواضع من عصر الثورة.

لقد ارتبطت المنطقة الوسطى من العالم الإسلامى، وهى التى احتلتها الإمبراطورية العثمانية فى أواخر القرن، بشبكة من الوشائج مع أوروبا، سواء عن طريق التجارة أم عن طريق الغزو. وكان محتماً أن تمر التجارة بين الغرب والشرق الأقصى عبر هذه المنطقة. وعلى مدى ألف عام، كان الغزاة يأتون من الشرق، لا من الغرب. كانوا، منذ القرن السابع، ينتسبون إلى شعوب وحكام ممن اعتنقوا الإسلام. وبحلول أواخر القرن الثامن عشر، كانت آخر تلك القوى الشرقية الغازية، وهى الإمبراطورية العثمانية، تعانى ضعفاً واضحاً، داخلياً وخارجياً، تحت وطأة الضغوط التى مارستها عليها الإمبراطوريتان الروسية والنمساوية، وكانت تتراجع فى أوروبا وشمال البحر الأسود. لكن المناطق غير الأوروبية التى يقطنها سكان مسلمون أساساً لم تتعرض قط للاحتلال من جانب حكام غير مسلمين، باستثناء الغزوات الصليبية القصيرة نسبياً.

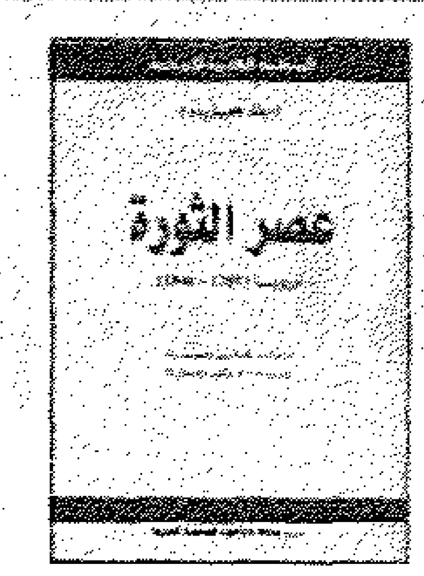
وقد اصطدم توسع الأوروبيين الاقتصادى والعسكرى بعالم إسلامى كان لايزال يمر بمرحلة من التوسع المستمر، ولا سيما فى أفريقيا، والمناطق الوسطى والجنوبية الشرقية من آسيا. إلا أن هذا العالم كان يعانى نزاعات داخلية. فمن الوجهة السياسية، كانت القوى المركزية للإمبراطوريات العثمانية والفارسية والمغولية، قد اندثرت أو أوشكت على الاندثار. وراحت حركات إصلاحية دينية فى الهوامش الخارجية للحضارة الإسلامية، مثل الوهابية فى الجزيرة العربية، والسنوسية فى ليبيا، والمريدية فى القوقاز، والحركة الجهادية بزعامة عثمان دون فوايو فى شمال نيجيريا، نقول إن هذه الحركات راحت تدعو إلى العودة إلى الإسلام النقى، وسرعان ما أخذت تذكى المقاومة ضد الاعتداءات الأجنبية.

كان للتحولات المثيرة فى أوروبا أثر مزدوج على العالم الإسلامى، إذ إنها أذكت روح المقاومة والإصلاح فى آن معا. فقد أصبح الإسلام، من جهة، قوة لحشد المقاومة ضد غير المسلمين الذين غدوا الآن فى موقع يمكنهم من غزو أراضى المسلمين واحتلالها، سواء من الروس شمال البحر الأسود وشرقه، أو من جيوش فرنسا الثورية التى وصلت إلى مصر وسوريا، واستعادت النظام الملكى الفرنسى الذى سيطر على الجزائر. (وفى تلك الأثناء، كانت الصيغة البريطانية، التى جمعت بين التجارة والرفاه والدبلوماسية، تؤسس وتوسع الحكم البريطانى فى الإقليم، على أنقاض إمبراطورية المغول المتهافتة). ومن جهة أخرى، أظهر التفوق الغربى قوة الأفكار وأساليب العمل الغربية والحاجة إلى التعلم منها. وقد تجسد ذلك، لحسن الحظ، فى الثورة الفرنسية، وهى النهضة الأعظم الأكثر تأثيراً على الصعيد العالمى فى ذلك العصر، كما أنها، بالتأكيد، أول حركة للأفكار الأوروبية تترك آثارها على العالم الإسلامى، لأنها لم تعد تمثل نزعات دينية فى المسيحية الغربية.

وفى القرن التاسع عشر، كانت تأثيرات الإصلاح هى الأعمق وقعا فى مصر، التى حققت ما يشبه الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية فى عهد محمد على. ففى عهده، ومن خلال الاستعانة بمستشاريه الفرنسيين والإيطاليين الذين استوحوا اتجاهاتهم من الدعاة الثوريين حتى من أوائل الاشتراكيين، أصبحت مصر أول دولة إسلامية تدخل مرحلة التحديث بصورة منظمة، وأول دولة غير أوروبية تسعى إلى سلوك سبيل التحديث للخروج من التخلف الاقتصادى. فقد احتفى محمد على بالتصنيع، وبالتقانة الغربية، وبالإنتاج الذى يستهدف التصدير إلى أسواق (غربية)، وعكف على إعادة تنظيم الإدارة والتعليم والاقتصاد، وفرض سيطرة الدولة على المؤسسات الدينية فى بلاده، وتصدى لمساعى الوهابيين للسيطرة على مكة والمدينة. واكتسبت مصر، فى واقع الأمر، البنية التحتية للمجتمعات الحديثة، وعناصر النخبة الاقتصادية الجديدة العازمة على التحديث، بمن فيها المسلمون والمسيحيون واليهود فى مصر، والوافدون من أنحاء العالم. وقدمت هذه النخبة، فيما بعد، الدعم لأوائل الدعاة الذين نادوا بتحديث الإسلام فى الشرق الأوسط، مثل جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، وطرحت، فى وقت لاحق، مفهوماً علمانياً لمجتمع مصرى مستقل. وقد ظلت مصر، فى أكثر من ناحية، تحتل مكان الصدارة فى مساعى التحديث، منذ انتفاضة الضباط التقدميين بزعامة عرابى عام ١٨٨١ لإقامة حكومة دستورية، وحتى بعد ثورة الضباط الأحرار وجمال عبدالناصر عام١٩٥٢. وبما أن مصر، بثروتها الزراعية وموقعها الاستراتيجى، وقعت ضحية للقوة الاستعمارية الاقتصادية العسكرية المتفوقة، فقد اتخذت موقع الريادة فى معاداة الاستعمار، وأصبحت (هى وايرلندا) أول دولتين تابعتين ترغمان الإمبراطورية البريطانية على التراجع عام١٩٢٢. إن نظرة استرجاعية لأحداث الماضى تدلنا على أن الأثر الإصلاحى لعصر الثورة فى الأجزاء الرئيسية للإمبراطورية العثمانية كان أكثر عمقاً، غير أن ذلك لم يكن ظاهراً على هذا النحو فى القرن التاسع عشر: فقد بدأ

فى القرن التاسع عشر، كانت تأثيرات الإصلاح هى الأعمق وقعًا فى مصر، التى حققت ما يشبه الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية فى عهد محمد على

العــرب.. عصـــور التحـــــول



الإصلاح مبكراً فى عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧)، الذى أدرك الضعف الواضح الذى كانت الدولة العثمانية تعانيه فى وجه التوسع الأوروبى، على الرغم من أن التحالف بين هيئة العلماء والقوات الانكشارية وضع نهاية لحكمه. وقد أحيا محمود الثانى (١٨٠٧ ـ ١٨٣٩) هذا البرنامج الإصلاحى الذى طرح، فى عدة صور، قضية إعادة التنظيم، أو ما سمى «التنظيمات» التى انتشرت بعده فى أوساط البيروقراطيين والمفكرين الساعين إلى التحديث حتى عام ١٨٧٦، مع أنها لم تترك غير أثر قليل على الناس. وعلى الرغم من ذلك، استمر التفكك فى الإمبراطورية العثمانية، بفعل آثار التمرد فى الأقاليم، والقوة العسكرية الأجنبية. ومع نهاية القرن التاسع عشر، كانت الإمبراطورية العثمانية قد فقدت جميع توابعها الأفريقية، وأكثر توابعها الأوروبية، وقدراً كبيراً من سيطرتها على الشرق الأوسط الذى ظل عثمانياً بالاسم فحسب، كما انخفض عدد سكانها بأكثر من الثلث فى مرحلة تميزت بالنمو الديموجرافى. وفى عهد السلطان الطاغية الذى أخذت سلطته بالتضاؤل، مع أنه اعتمد على الدعم الإسلامى، قامت حركة الاتحاد والترقى (التى عرفت باسم «تركيا الفتاة») بحشد تحالف بين الساخطين فى أوساط العسكريين والمدنيين، وتولت، فى أعقاب الثورة الروسية الأولى، زمام الحكم عام ١٩٠٨ . ومن نتائج ذلك أن حركة «تركيا الفتاة» كانت، خلافاً لمحاولات الإصلاح الإسلامية السابقة، علمانية بصورة لا هوادة فيها. وواقع الأمر أن الثورة التركية بزعامة مصطفى كمال (أتاتورك) استطاعت، تحت تأثير الحرب العالمية وبعدها الثورة الروسية، أن تحول ما تبقى من الأراضى العثمانية إلى دولة قومية حديثة علمانية فعالة اتحد سكانها بعد ذلك، لا بوصفهم مسلمين يحكمون مجموعة من الملل من ديانات أخرى، ويتسامحون معها، بل باعتبارهم أتراكاً يتمتعون بالوعى القومى (غير المتسامح قومياً). وفى عهد أتاتورك كانت تركيا، ومثلها الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى آنذاك، تمثل نموذجاً متطرفاً لنخبة من المصلحين الذين فرضوا فى العالم الإسلامى التحديث العنيف المغاير للتقاليد وللإسلام. وليس واضحاً إطلاقاً ما إذا كان شكل التحديث الذى انتهجه أتاتورك سيحالفه النجاح، أو أنه سيكون مثالاً يحتذى فى البلدان الأخرى ذات الأغلبية المسلمة. بيد أن هذه التساؤلات، شأنها شأن عهد أتاتورك نفسه، تتصل بتاريخ القرن العشرين.

ولا بد من أن نتطرق، باختصار، إلى تيار تحديثى ثالث فى الشرق الأوسط، هو حركة الإحياء الثقافى فى المناطق الواقعة إلى الشرق من سواحل البحر الأبيض المتوسط، ولاسيما لبنان وما حوله. وحيث إن المنطقة كانت تضم جماعات دينية متعددة، وأنها شهدت، بالمصادفة، تدخلاً كبيراً فى المجالات الدبلوماسية والتعليمية من جانب القوى الأوروبية التى تذرعت بمزاعم دينية، فإن اللغة العربية، لا الإسلام، هى الوسيلة التى جمعت ووحدت الصفوة المحدثة التى كانت تضم النخب التجارية الدينامية. وربما كان لبنان هو البلد الوحيد فى الشرق الأوسط الذى هاجر أبناؤه بأعداد كبيرة ناجحة جداً من الوجهة الاقتصادية فى العهد العثمانى إلى مختلف القارات: إلى الولايات المتحدة اعتباراً من خمسينيات القرن التاسع عشر، والبرازيل من العام ١٨٨٠، وغربى أفريقيا من العام ١٨٩٢، ومازال يطلق عليهم اسم «توركوس = الأتراك» فى أمريكا اللاتينية. وفى هذه المنطقة، ولدت القومية العربية، بل القومية الجامعة لكل العرب، التى ينتسب إليها كل من المسلمين والمسيحيين ومن لا شأن لهم بالدين. وقد تصدت، أول الأمر، للحكام العثمانيين، ولكنها، خلال فترة السيطرة البريطانية ـ الفرنسية بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، أبدت مقاومة متزايدة ضد القوى الإمبريالية الأوروبية. وقد داخلتها، عند تعاظمها فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، بعض الأفكار الاشتراكية، غير أن إسهامها الرئيسى، قبل العام ١٩١٤، كان فى الميدان الثقافى.

فكيف نستطيع أن نلخص الآثار التى خلفتها تطورات القرن التاسع عشر على العالم الإسلامى؟ لقد أصبح الموقع الاستراتيجى للشرق الأوسط فى غاية الأهمية فى زمن الثورة الفرنسية، وبقى كذلك منذ ذلك الحين. وقد تجلى ذلك فى دوره خلال الحربين العالميتين. وقد تعزز هذا الدور بأهمية النفط المركزية للاقتصاديات الصناعية الحديثة، وأدى ذلك، بالإضافة إلى انهيار الإمبراطوريات العثمانية والإسلامية القديمة الأخرى، إلى مواجهة مباشرة بين عالم إسلامى واثق فى نفسه، متزايد الاتساع من جهة، والإمبراطوريات الأوروبية المتعدية، التى سبقت ما حدث لأجزاء أخرى من العالم غير الأوروبى. وعلى الرغم من ذلك، فإن أغلبية العالم الإسلامى، الواقعة غربى الهند على الأقل، بقيت خارج مجال الحكم الاستعمارى الغربى حتى القرن العشرين، مع أن المناطق التى ظلت مستقلة، من الوجهة الفنية، كانت إما ضعيفة أو خارج نطاق تيار التطورات الرئيسية فى القرن التاسع عشر، أو كليهما. ومن جهة أخرى، فإن الهيمنة أو السيطرة الأوروبية خلال تلك المرحلة المبكرة من العولمة الاقتصادية لم تترك أية آثار ملموسة على أكثرية سكان (الأرياف) فى تلك المناطق، عدا القمع الذى يمارسه حكامهم المحليون. وكان الحكام الغربيون يميلون إلى معاملة الدين الإسلامى باحترام، بسبب قدرته الواضحة على تعبئة الجماهير وإذكاء الروح القتالية فيها. وباستثناء بعض الظروف الخاصة (مثل الغزو العسكرى المباشر، كما حدث فى الجزائر)، فإن الحوافز لمقاومة التوسع الأوروبى كانت ضعيفة، وقد خفف منها شعور الأقليات السياسية التى يمثلها البيروقراطيون المستنيرون، من نخب الضباط والمدنيين على السواء، بأن المقاومة ستبوء بالفشل، ما لم يكن ثمة تحديث مسبق لمجتمعاتهم التى كانت تغط فى سبات عميق. وقد اكتسب التحديث صفة الاستعجال والإلحاح بفعل تزايد العولمة فى عصر الإمبراطورية، وتعاظم ضغوط الأوروبيين الاستعمارية، والأزمة الختامية للإمبراطورية العثمانية. وفى تلك المرحلة، التى تميزت ببروح الإسلام المحافظة، والافتقار إلى الوعى السياسى فى أوساط الجماهير الورعة، أخلى دعاة تحديث الإسلام السبيل لدعاة الإصلاح الراديكالى على النهج الغربى من جانب الأقليات المستنيرة التى كانت تتعامل بصورة فوقية مع شعوبها المتشبثة بالتقاليد. ولم يكن من قبيل المصادفة أن أيديولوجيات التحديث الغربية التى تبنتها الطلائع المستنيرة، وفرضتها من أعلى، أصبح لها نفوذها فى العالم الإسلامى، مثلما كان لها تأثيرها على أنظمة الحكم غير الأوروبية التى كانت تسعى للتخلص من التخلف الاقتصادى. ومن هذه الأيديولوجيات فلسفة أوجست كونت الوضعية (التى كانت لها أصداء فى البرازيل والمكسيك، وكذلك فى الإمبراطوريات العثمانية)، وتراث السان سيمونيين فى مصر. وقد استبدلت هذه التيارات فى العشرينيات بنوع جديد من الأيديولوجيات الطليعية المستوحاة من الثورة الروسية. وقد استحدث القرن العشرون عنصرين أساسيين جديدين فى تاريخ العالم الإسلامى هما: انهيار القوى والإمبراطوريات الأوروبية، والتعبئة السياسية للجماهير المسلمة الآخذة بمزيد من التحضر. ويقع هذان العنصران خارج النطاق الزمنى لهذه المؤلفات الثلاثة: عصر الثورة، وعصر رأس المال، وعصر الإمبراطورية. وعند اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، لم يكن هذان العنصران ظاهرين للعيان. ■

استحدث القرن العشرون عنصرين أساسيين جديدين فى تاريخ العالم الإسلامى هما: انهيار القوى والإمبراطوريات الأوروبية، والتعبئة السياسية للجماهير المسلمة الآخذة بمزيد من التحضر

لـم يســـاوم ولـم يتنـــازل!

هــوبــزبــــــاوم.. المــــــؤرخ

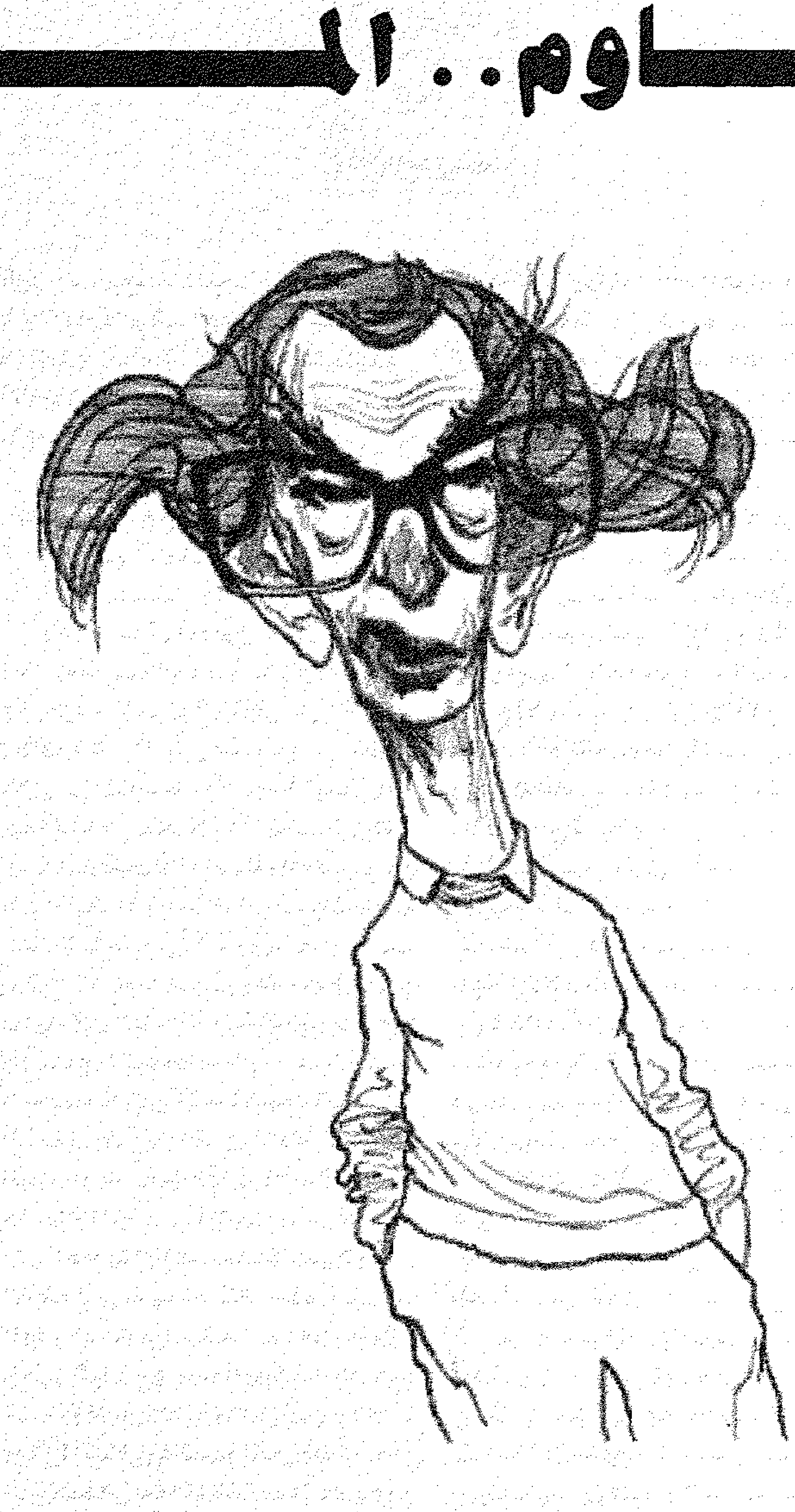
■ ثمة ما يشبه الإجماع فى أوساط الدارسين المعاصرين على اعتبار إريك جون بلير هوبزباوم واحداً من أشهر المؤرخين المعاصرين فى بريطانيا وأوروبا، بل إن الباحثين اليساريين ينزعون إلى اعتباره أبرز مؤرخى هذه الأيام فى العالم أجمع، أو أفضل مؤرخى القرن العشرين. وتميل الفئة الأولى إلى التركيز على جدارته العلمية، ونهجه الموضوعى المعمق الشامل المتعدد الأبعاد فى دراسة التاريخ الحديث، بينما تضيف الفئة الأخيرة من المراقبين سلسلة أخرى من السمات التى تميز منهجه الفكرى، ومن بينها منظوره الماركسى المادى الجدلى فى تحليل الظواهر التاريخية، والتزامه التعايش مع واقع العالم المعاصر السياسى والاجتماعى، واستمراره، حتى وهو على مشارف التسعينيات من عمره، فى التعبير عن مواقفه وآرائه الجريئة إزاء أحداث الساعة.

ولا بأس، فى معرض الحديث عن منظور هوبزباوم ودراسته، من الإشارة إلى أننى تعرفت عليه، فكريًا، منذ بواكير دراساته المنشورة، أيام كنت طالب دراسات عليا فى قسم التاريخ فى جامعة جورجتاون منذ أكثر من خمس وعشرين سنة. ففى خريف عام ١٩٧٩، إذا لم تخنى الذاكرة، كنت أعد دراسة عن الحركات الفلاحية، وكان كتاب هوبزباوم «المتمردون البدائيون» (Primitive Rebels) المنشور عام ١٩٥٩، مصدراً أساسيًا للبحث الذى كنت أقوم به. وقد بهرنى ذلك المؤرخ منذ تلك الأيام، وتواصل اطلاعى المعمق ودراستى لمؤلفاته منذ ذلك الحين حتى سيرته الذاتية أزمة لافتة: حياة فى القرن العشرين: (Interesting Times: (2000) A Twentieth Century Life) وعلى الرغم من أن هوبزباوم كان شيوعيًا فى ذلك الوقت. لقد كان ماركسى المنهج، لكنه أنتج دراسات مختلفة عن الكتابات اليسارية المألوفة آنذاك، فهو لم يكن كبعض أقرانه من الماركسيين الذين يحملون كتاباتهم نصوصًا أيديولوجية للتدليل على واقعة أو ظاهرة تاريخية ما، بل إن هوبزباوم كان يستعمل الأدوات والمفاهيم الماركسية فى إطاره النظرى بسهولة ومرونة وذكاء، مما يجعل تأثيره على القارئ عميق الوقع.

وولد هوبزباوم فى الإسكندرية عام ١٩١٧ لأب بريطانى وأم نمساوية، وانتقل إلى فيينا بعد وفاة والده ليعيش مع والدته، ولمتابعة دراسته فى برلين. واضطر للرحيل إلى بريطانيا عام ١٩٣٣، إثر تعاظم النزعة النازية الفاشية فى ألمانيا، والنمسا، وإيطاليا، ومناطق أخرى فى أوروبا الوسطى، وكان لمعاصرته صعود الفاشية، وفشل الليبرالية أثر كبير فى تكوين آرائه السياسية اليسارية واقترابه من الماركسية، كما أن هذه التجربة أثرت فى اهتماماته البحثية لموضوع الهويات وظواهر التعصب العرقى والدينى والاثنى.

وفى لندن، أكمل دراساته الجامعية وحصل على الدكتوراة فى التاريخ من كينغز كوليج فى جامعة كامبريدج. وعمل محاضراً فى جامعة لندن. كلية بيربك، وأصبح أستاذاً للتاريخ الاقتصادى الاجتماعى عام ١٩٧٠، وزميلاً فى الأكاديمية البريطانية عام ١٩٧٨م.

ويعمل هوبزباوم الآن رئيسًا لكلية بيربك. جامعة لندن، وأستاذاً زائراً فى عدد من كبريات الجامعات الأوروبية والأمريكية والآسيوية.



مـصـطـفـى الحـمـارنـة

منهج هوبزباوم

درج إريك هوبزباوم على التأكيد فى المقدمات التمهيدية لكل أعماله على أنه لا يسرد التاريخ، ولا يعيد صياغته، ولا يؤرخ لوقائعه أو يصف أحداثه كما تفعل جمهرة «المؤرخين، من قدامى ومحدثين على السواء». إنه، كما يقول، إنما يتوجه القارئ والمراقب والباحث الذكى المتعلم فحسب، فيدرس ظواهر التاريخ الأساسية والأحداث الكبرى المؤثرة فى حياة الناس فى المجتمعات البشرية، ويحلل أسبابها ونتائجها المباشرة وغير المباشرة، ويربط بعضها ببعض على نحو متكامل، فى المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية دون استثناء، بحيث تكون الحصيلة النهائية صورة نابضة بالحياة للواقع البشرى فى مرحلة معينة، تتسلسل على نحو جدلى مع ما يسبقها وما يليها فى مراحل.

وفى سياق الإطار الفكرى الجدلى العام الذى يتحرك فيه هوبزباوم، فإنه يستهل أول مؤلفاته المهمة «المتمردون البدائيون» بمقولة أعتقد أن المؤرخين العرب المحدثين هم فى أمس الحاجة إليها لدراسة الماضى والحاضر على حد سواء. فهو يرى فى هذا الكتاب أن الحركات الاجتماعية التى حدثت فى غرب أوروبا وجنوبها فى القرنين التاسع عشر والعشرين، وقام بها فلاحو الأندلس فى إسبانيا، وعمال المناجم فى درهام فى بريطانيا، وحتى المافيا فى صقلية، لم تكن وقائع لا يمكن التكهن بها، أو أحداثًا منبتة الصلة بما قبلها وبعدها وحولها. كما أنها ليست من التفاهة إلى حد دفع أكثر المؤرخين إلى تهميشها أو اعتبارها فورات عرضية وحالات عابرة من التمرد التلقائى الفاشل. (وتلك، فيما أرى، هى المقاربة التى ناقش بها أغلب المؤرخين العرب ظواهر مهمة فى التاريخ العربى الإسلامى قبل حركة القرامطة، وثورة الزنج وغيرهما). ويرى هوبزباوم أن الحركات، سواء ما نشأ منها عن أصول ريفية أو فلاحية أو برز فى المراحل ما قبل الحضرية وقبل الصناعية، تمثل احتجاجًا عنيفًا على القمع، والفقر. إنها صرخة للثأر من الطغاة ومن أصحاب الثروة والجاه، وحلم غامض لتقليم أظافرهم وانتزاع أنيابهم، وإزالة أخطائهم وخطاياهم ضد الناس البسطاء العاديين. وكان طموح هذه الحركات، فى جوهره، غاية فى البساطة، وهو أن يعيش الناس لا فى عالم جديد متكامل، بل فى عالم تسوده روح العدل والإنصاف ويعامل فيه الناس على قدم المساواة. إلا أن هذه الحركات التى تتشابه، من حيث طبيعتها، مع جوانب من حروب العصابات الحديثة، كانت جميعها تفتقر إلى عنصرين جوهريين لازمين هما: أيديولوجية متماسكة تهدد الأهداف والمرامى القريبة والبعيدة، وتنظيم مترابط يضم أطراف الحركة ويحدد مسئوليات الأعضاء فيها ودرجات انتمائهم وأساليب عملهم.

وعلى الرغم من ذلك كله، فإن هذه الحركات تظل مسالك جانبية ومؤشرات

ترتكز منهجية هوبزباوم فى التحليل السياسى الاجتماعى على قاعدة معرفية موسوعية حول جميع مناحى الحياة فى أوروبا وبقاع كثيرة من العالم فى الفترة الممتدة بين بدايات القرن السابع عشر ومطلع القرن الحادى والعشرين

بارزة على مسيرة المجتمعات فى المستقبل، ومكونات رئيسية فى القوة الدافعة التى تحرك مسارات التاريخ البشرى. والأهم من ذلك كله أن هذه الحركات الاجتماعية «البدائية» على ما بينها من اختلاف، تمثل آخر الأمر روافد مؤثرة تعزز التوجه نحو التغيرات الكبرى التى تتجلى فى التاريخ الحديث فى سلسلة من المنعطفات والثورات الحاسمة فى العالم، ومنها الثورات الصناعية، والفرنسية، والأمريكية، وأخيراً الروسية. ويعتقد إريك هوبزباوم، فى هذا السياق، أن ما قاله المفكر الإيطالى اليسارى أنطونيو غرامشى عن الحركات الفلاحية فى جنوب إيطاليا فى العشرينيات من القرن التاسع عشر، يصدق على كثير من الجماعات فى عالمنا المعاصر. لقد كانت جماهير الفلاحين، فى نظره، «فى حالة دائمة من الاختمار، بيد أنها بصفتها كتلة جماعية، كانت تفتقر إلى قوة مركزية تعبر عن تطلعاتها واحتياجاتها».

وقد سلك هوبزباوم هذا النهج الاستقصائى المتكامل نفسه فى دراساته اللاحقة التى تناول فيها انتفاضة العمال الزراعيين فى جنوب وشرق إنجلترا عام ١٨٣٠ (الكابتن سوينج (Captain Swing) ١٩٦٩)، والسير السياسية والفكرية لعدد من ثوار القرن العشرين ثوار: مقالات معاصرة (Revolutionaries: Contemporary Essays ١٩٧٣)، وسلسلة من الدراسات عن الحركات العمالية فى بريطانيا وأوروبا.

وفى جميع هذه الدراسات التحليلية للحركات والأوضاع والظروف الممهدة للتغيرات الاجتماعية الكبرى فى التاريخ الحديث، يكون إريك هوبزباوم قد ارتاد سبيلاً جديداً فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى، تبلور بعد ذلك فى مقاربات جيل من أبرز العلماء الاجتماعيين فى الستينيات والسبعينيات من القرن الماضى لقضايا التغير الاجتماعى والحركات الاجتماعية والتحليل التاريخى المقارن، ومن بين هؤلاء: تشارلز تيللى (Charles Tilly)، وثيدا سكوكبول (Theda Skocpol)، وأنتون بلوك (Anton Blok). وينطلق هؤلاء وغيرهم، على العموم، من عدد من المفاهيم التحليلية التى أرسى هوبزباوم دعائمها فى الدراسات التحليلية، ومن بينها مفهوم «العصيان الاجتماعى»، وما كان، بموجب التعريف «الرسمى»، يدعى «الجريمة الاجتماعية». ويفسر هذان المفهومان كثيراً من الأنماط المختلفة السائدة فى التاريخى والاجتماعى والسياسى لمجتمعات متباينة وفى عصور مختلفة. وكانت معظم ظواهر العصيان هذه تعرف، حتى عهد قريب، وفق المنظور التقليدى، حتى فى المؤسسات التعليمية، بأنها حركات تمرد تقوم بها جماعات من اللصوص أو المجرمين أو المهمشين من طفيليات المجتمع. وجاءت هذه المدرسة الفكرية الجديدة فى العلوم الاجتماعية لتخرج هذه الحركات من نطاق الرؤية التقليدية، وتدخلها فى عداد مظاهر الرفض والاحتجاج على جوانب محددة فى الواقع الاجتماعى المؤسسى، وفى سياق تاريخى محدد.

ترتكز منهجية هوبزباوم فى التحليل السياسى الاجتماعى على قاعدة معرفية موسوعية حول جميع مناحى الحياة فى أوروبا وبقاع كثيرة من العالم فى الفترة الممتدة بين بدايات القرن السابع عشر ومطلع القرن الحادى والعشرين فى مجالات الاقتصاد، والسياسة، والثقافة، والفنون. وهو يرى أن مهمة المؤرخ هى «اكتشاف الأنماط والآليات التى حولت العالم من حال إلى حال». ولا تقتصر هذه المهمة، فى رأيه، على اكتشاف الماضى، «بل تتجاوز ذلك إلى تفسيره، ومن ثم إيجاد رابطة تشده إلى الحاضر».

وفى هذا الإطار الذى يتحاشى السرد الوصفى، ويركز على التفسير الاجتماعى لحركة التاريخ، أى «من الأسفل للأعلى»، تمكن هوبزباوم منذ عقود من وضع سلسلة من الدراسات العلمية فى تحليل التاريخ الحضارى لأوروبا. وإلى جانب هذه الدراسات، نشر هوبزباوم مخطوطة كارل ماركس (Karl Marx) التشكيلات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية (Formen, die der Kapitalistischen Produktion Vorhergehen) ١٩٦٤، مترجمة إلى الإنجليزية، بعد أن وضع لها مقدمة نظرية وتحليلية موسعة عن أنماط الإنتاج قبل الرأسمالية. وكانت هذه المقدمة وتلك الوثيقة إضافة نوعية متميزة إلى الأدبيات الماركسية لتحليل المشاعات الاجتماعية القديمة وتبيان أثرها على البنية الاجتماعية. كما أنها كانت تمثل خروجاً عن إطار الماركسية السوفيتية التى حولت إلى نماذج جامدة متحجرة أنماط الإنتاج الخمسة المعهودة (وهى: المشاعية البدائية، ونمط الرق والسخرة، والنظام الإقطاعى، والنظام الرأسمالى، وهذه الأنماط هى التى قامت قبل حلول النظام الخامس المنشود: الاشتراكية والشيوعية).

وقد تخللت هذه المؤلفات دراسات مهمة من بينها الصناعة والإمبراطورية (Industry and Empire) (١٩٦٤) عن الثورة الصناعية فى بريطانيا، والأمم والقومية منذ العام ١٧٨٠ (١٩٩٠)، وكتب أخرى. إلا أن إنجاز هوبزباوم الأهم والأكثر شهرة وذيوعاً فى الأوساط الفكرية والأكاديمية فى العالم يتمثل فيما أصبح يسمى «الثلاثية» عن التاريخ الحضارى لأوروبا منذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر حتى مطالع القرن العشرين، واشتمل ذلك على ثلاثة مؤلفات مرجعية هى عصر الثورة: أوروبا ١٧٨٩ ـ ١٨٤٨ (١٩٦٢)، وعصر رأس المال ١٨٤٨ـ ١٨٧٥ (١٩٧٥)، وعصر الإمبراطورية ١٩٧٥ــ ١٩١٤ (١٩٨٧). وفى عام ١٩٩٤ استكمل هوبزباوم هذه السلسلة، التى تحولت إلى «رباعية» بإصدار عصر التطرف: القرن العشرون القصير ١٩١٤ ـ ١٩٩١، عن تاريخ العالم منذ الحرب العالمية الأولى حتى انهيار الاتحاد السوفيتى وأنظمة الكتلة الشرقية فى أوروبا، وتغول الهيمنة الأمريكية على الساحة الدولية.

وفى كتابه عصر الثورة، يتتبع هوبزباوم التحولات التاريخية الجسيمة البعيدة الخطر التى طرأت على أوروبا بخاصة والعالم عموماً بين العام ١٧٨٩ والعام ١٨٤٨، فى أعقاب ما يطلق عليه اسم «الثورة المزدوجة»، أى الفرنسية التى تستهل بها هذه الفترة ومعاصرتها الثورة الصناعية فى بريطانيا. وانسجاماً مع منهجه التحليلى الذى أشرنا إليه، يتطرق هوبزباوم فى الجزء الأول من الكتاب إلى التطورات الأساسية التى شهدتها هذه الفترة على الصعيدين الأوروبى والدولى. ثم يتحول فى القسم الثانى إلى مناقشة المعالم البارزة لطبيعة المجتمع الذى أنتجته تلك الثورة المزدوجة، مع ربط كل واحد من أبعادها وجوانبها بالآخر. وبعد أن يتحدث عن الخطوط العريضة لهاتين الثورتين، وما تلاهما من حروب، بما فيها الحروب النابليونية، وثورات وحركات سياسية فى مختلف أنحاء أوروبا، ينتقل إلى تضاريس مجتمع ما بعد الثورة الجديدة، ويتحدث، بأسلوب موسوعى شامل، عن التغيرات الجذرية التى طرأت بعد الثورة المزدوجة على البنية الطبقية والتنظيم السياسى فى أوروبا، والتحولات التى تجاوزت مجالات الصناعة والاقتصاد والسياسة لتشمل الجوانب الأيديولوجية (بما فيه الدين والنزعة العلمانية)، ثم العلوم والآداب والفنون. ويمضى بنا هذا الكتاب ليضعنا على أعتاب النصف الثانى من القرن التاسع عشر، عندما كان هدير الموجة الثانية من الثورات يتصاعد من أعمق أعماق الأرض فى الممالك الأوروبية كافة، توطئة للانفجار العظيم عام ١٨٤٨م.

وعصر الثورة، شأنه شأن عصر رأس المال وعصر الإمبراطورية، له جدارته وأهميته، كما أن له قيمة معرفية لا حدود لها. بيد أن له لدى القارئ والباحث والدارس العربى قيمة متميزة، لسببين على الأقل.

يتجلى الأول فى حرص المؤلف على استعراض الآثار والتداعيات التى انداحت على بقاع العالم الأخرى، وبخاصة على المنطقتين العربية والإسلامية، جراء الثورة الفرنسية، والثورة الصناعية، وحملات نابليون، والتوسع الاستعمارى الأوروبى، وبدايات التفاعل

ولد هوبزباوم فى الإسكندرية عام ١٩١٧ لأب بريطانى وأم نمساوية، وانتقل إلى فيينا بعد وفاة والده ليعيش مع والدته، ولمتابعة دراسته فى برلين. واضطر للرحيل إلى بريطانيا عام ١٩٣٣

كتاب الزاوية

فى العبودية المختارة

كفى سيد واحد، ملك واحد

بهذه الكلمات خطب أوليس القوم فى هوميروس. ولو أنه وقف عند قوله: كثرة الأمراء سوء، لأحسن القول بما لا مزيد عليه. لكنه حيث وجب تعليل ذلك بالقول بأن سيطرة الكثيرين لا يمكن أن يأتى منها الخير مادامت القوة المسندة إلى واحد، متى تسمى باسم السيد، صعبة الاحتمال منافية للمعقول راح يعكس الكلام، فأضاف: كفى سيد واحد، ملك واحد.

بيد أن أوليس ربما وجبت معذرته إذ لم يكن له مفر من استخدام هذه اللغة حتى يهدئ ثورة الجيش مطابقًا بمقاله المقام بدل مطابقة الحقيقة. فإن وجب الحديث عن وعى صادق فإنه لبؤس ما بعده بؤس أن يخضع المرء لسيد واحد يستحيل الوثوق بطبيعته أبدًا مادام السوء فى مقدوره متى أراد. فإن تعدد الأسياد تعدد البؤس الذى ما بعده بؤس بقدر ما نملك منهم. وما أريد فى هذه الساعة طرق هذه المسألة التى كثر الجدل فيها: إذا ما كانت أشكال الجماعة الأخرى تفضل حكم الواحد.

فأما الآن فلست أبتغى شيئًا إلا أن أفهم كيف أمكن هذا العدد من الناس، من البلدان، من المدن، من الأمم أن يحتملوا أحيانًا طاغية واحدًا لا يملك من السلطان إلا ما أعطوه ولا من القدرة على الأذى إلا بقدر احتمالهم الأذى منه، ولا كان يستطيع إنزال الشر بهم لولا إيثارهم الصبر عليه بدل مواجهته. إنه لأمر جلل حقًا وإن انتشر انتشارًا أدعى إلى الألم منه إلى العجب أن نرى الملايين من البشر يخدمون فى بؤس وقد غلت أعناقهم دون أن ترغمهم على ذلك قوة أكبر بل هم «فيما يبدو قد سحرهم مجرد الاسم الذى ينفرد به البعض».

الثقافى والعلمى والسياسى الحديث بين العرب وأوروبا.

أما السبب الثانى، فهو ما يؤكد هوبزباوم فى المقدمة التى وضعها خصيصاً لهذه الترجمة العربية لكتاب عصر الثورة وللسفرين الآخرين اللذين سيصدران بالعربية تباعًا فى هذه السلسلة. فمنذ القرن السابع للميلاد، وعلى مدى ألف عام، كان «الغزاة» يداهمون أوروبا من الشرق لا من الغرب، وعلى الرغم من أن التبادل التجارى كان موصولاً بين الطرفين، إلا أن التحولات المثيرة فى أوروبا منذ اندلاع الثورتين الفرنسية والصناعية قد عكست اتجاه الغزو. فمع توسع الأوروبيين الاقتصادى والعسكرى، تصاعدت فى أرجاء العالم الإسلامى دعوات تذكى روح المقاومة للغزو الأجنبى، وتحض على الإصلاح الداخلى والتحديث فى آن معاً، وذلك ما سيتطرق له هوبزباوم بمزيد من التفصيل فى كتابيه الآخرين: عصر رأس المال وعصر الإمبراطورية.

ترك إريك هوبزباوم بصماته الفكرية والمنهجية على علم التاريخ الحديث، وأسهم إسهاماً كبيراً فى تطوير أساليبه وتوسيع آفاقه. وقد حقق إنجازاته فى هذا المجال فى أجواء أكاديمية أوروبية لا ترحب، بالضرورة، بأمثاله من المفكرين، بل تواجههم بالعزوف أحياناً، بل بما يشبه العداء فى أحيان أخرى. إلا أن هوبزباوم، على الصعيدين المنهجى والموضوعى فى كتابة التاريخ، كان ولايزال موضع احترام وتقدير كبيرين فى الأوساط العلمية كافة.

ومقابل هذا الاحترام والتقدير لإنجازه العلمى، عانى هوبزباوم الكثير بسبب آرائه السياسية، فعلى سبيل المثال، تأخرت ترقيته الأكاديمية إلى رتبة أستاذ حتى العام ١٩٧٠، على الرغم من إنتاجه العلمى الرصين وقيامه بالتدريس لمستويات جامعية متقدمة أكثر من عقدين.

ولايزال هوبزباوم يواجه حتى اليوم صنوفاً شتى من النقد لا شأن لها بالنزاهة الأكاديمية أو الأمانة العلمية. وتصدر هذه الانتقادات لأسباب واعتبارات سياسية فى التحليل الأخير، ومن مصدرين قد يبدوان متعارضين فى الظاهر، إلا أنهما يتقاطعان ويلتقيان فى أكثر من ناحية.

المصدر الأول هو بعض الأوساط الفكرية اليمينية والليبرالية التى تأخذ على هوبزباوم اعتناقه للشيوعية منذ شبابه، ورفضه الانسحاب من الحزب الشيوعى رغم شجبه للمواقف السوفيتية أكثر من مرة. ويأخذ عليه البعض كذلك أنه لم يندد «بما فيه الكفاية» بفظائع ستالين فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى. وتتلخص حجة هوبزباوم ضد هذه الانتقادات بأن الحركة التى انتمى إليها هى التى أدت، فى المقام الأول، إلى اندحار الفاشية والنازية فى أوروبا. ويضيف أنه لا يستطيع، على الصعيدين الشخصى والإنسانى، أن يتنكر لماضيه النضالى، لأن كثيراً من رفاقه ضحوا بأنفسهم وقضوا نحبهم - وعلى أيدى رفاقهم أحياناً - فى سبيل قضية شريفة ومُثُل عليا، وهو لا يستطيع أن يضرب عرض الحائط بما قدموا من تضحيات. وقد اتسعت الفجوة بين هوبزباوم وهذا الفريق من النقاد بعد انهيار نظم الحكم الشيوعية فى روسيا وأواسط أوروبا، وتزايد معارضته للسياسة والهيمنة الأمريكية فى الساحة الدولية.

أما المصدر الآخر للنقد الموجه إلى هوبزباوم فإن دوافعه السياسية لا تخفى على أحد، فهو، باعتباره مفكراً علمانياً وتقدمياً بالدرجة الأولى، يحمل منذ زمن موقفاً معروفاً ومشهوداً من إسرائيل والصهيونية؛ وخلال السنوات الأخيرة، أدى تشدده فى موقفه من إسرائيل إلى تعاظم الحملات الصهيونية ضده. ففى لقاء مطول أجرته معه صحيفة «الأوبزرفر (observer) البريطانية فى سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠٢، يقول هوبزباوم بمنتهى الصراحة والوضوح: «لم أكن صهيونياً قط، ولكن بعد أن قامت إسرائيل واستقر فيها اليهود، لم تعد فكرة إزالتها وإزالتهم واردة. ولم أكن أبداً من الداعين إلى تدمير إسرائيل أو إذلالها. نعم، إننى يهودى. ولكن ذلك لا يعنى أن على أن أكون صهيونياً ولا مؤيداً بأى شكل من الأشكال للسياسات التى تنتهجها الآن حكومة إسرائيل، وهى سياسات كارثية شريرة: إنها سياسات ستؤدى بطبيعتها إلى التطهير العرقى فى أراض محتلة. والسياسات الرسمية للأحزاب اليهودية التى تحكم إسرائيل الآن تعتبر منطقتى اليهودية والسامرة جزءاً مما أعطاه الله للإسرائيليين، وأعتقد اعتقاداً جازماً أن على اليهود أن يقولوا إن بوسع المرء أن يكون يهودياً دون أن يكون مؤيداً لإسرائيل».

وبين هذا الفريق من النقاد وذاك، يمضى إريك هوبزباوم قدماً فيما تبقى من أيامه الحافلة بالإنجازات العلمية والفكرية والمواقف السياسية. ويظل، فى كل وقت، يردد عبارته المشهورة: «لقد أنجزت ما أنجزت دون أن أقدم أية تنازلات أو أساوم على الإطلاق». ■

فى البحث عن مصر

أنور عبد الملك

البحث عن مصر فى مطلع هذا القرن الجديد، ستون عاماً بعد أيام الثورة المصرية عام ١٩٤٦، يصطدم بجو غامض يطرح بعناد سؤالاً ملحاً: لماذا الضياع؟ من نحن؟ وإلى أين؟ إن التنقيب عن الظاهرة المصرية فى عالم اليوم، يتم فى مطلع مرحلة تغيير العالم وبدايات صياغة عالم جديد، بدأنا نستشعر خطاه بقوة وإيقاع يتزايدان بشكل لافت، من آسيا الشرقية إلى أمريكا اللاتينية، مروراً ببزوغ حماس، وإصرار المقاومة فى العراق وفلسطين على كسر العدوان، وكذا وقفة إيران الشامخة المصرة على السيادة والعزة.

لسنا وحدنا فى «القرية الواحدة» التى يقولون إنها حلت محل الأمم والقوميات والثقافات والحضارات فى عصر «نهاية التاريخ». لسنا وحدنا - بطبيعة الأمر - ولكننا، معشر الناس اللى تحت - المطحونين - وكذا الناس اللى فوق أدعياء الريادة، نستشعر شيئاً غامضاً وكأننا وحدنا، أو لعلنا فى متاهة. وفى هذا الجو، تتصاعد مفاهيم وعبارات هذه المرحلة المطحونة المعاصرة من تاريخ الوطن، ومن بينها «الضياع» و«التوهان» و«فقدان الاتجاه». الحزن يعم، يجمع قلوب الشعب، بينما قالوا إن الشعب مفكك لا يجتمع على شىء اللهم إلا الانتفاع. ثم، تأتى ساعات الفوز فى كأس الأمم الأفريقية ٢٠٠٦، وإذا بنفس الشعور العارم يجمع قلوب المصريين. عب الأمة إذن بخيره لم يفرط فى صدق مشاعره، رغم تباين الأحداث، ما زال يتجاوب بشكل جماعى بكل ما يصيب الأمة أو يفرج عنها، مؤكداً بذلك أنه حقيقة - كما كان دوماً - «بيت من لحم»، وهى العبارة التى وصف بها مصرنا رائد القصة المصرية فى القرن العشرين يوسف إدريس، فى كلمات لا نذكر أنها وردت فى وصف الشعوب الأخرى، وكأنها وقف على سلالة بناة الأهرام والكرنك حتى السد العالى.

موجات التوهان - أو بعبارة أدق: التتويه - أغرقت جريمة العبارة السلام ٩٨ بعد سلسلة العبارات وعلى متنها ألف من المصريين الضحايا، ومن قبلها مسلسل احتراق قطار الصعيد، ومسرح بنى سويف - ضحايا الفوضى المجتمعية العارمة الناتجة عن تفكيك المجتمع المصرى، وانصراف الدولة عن مسئولياتها المركزية فى كافة مجالات حياة الشعب منذ ١٩٧٣ لا سؤال عنها ولا إدانة ولا عقاب، دعنا من المحاسبة السياسية - بينما يتحول انتصارنا فى كأس أفريقيا إلى ما يشبه الملحمة، يحتفل بها الإعلام، بل وحتى مجلس الشعب، كما لو كان حقيقة عبوراً ثانياً بعد عبور أكتوبر.

العالم يتغير على عدة محاور، وكلها تتشابك فى اتجاه رفع شأن الأمم والشعوب المهمشة منذ نظام القطيعة الثنائية الغربية عام ١٩٩٠، بينما تضعف مكانة دولة الهيمنة التى فقدت القسط الأكبر من تأثيرها المعنوى واحترام العالم فى مسلسل التعذيب والعجز العسكرى والتراجع الاقتصادى تحت وطأة الديون.

مصر فى قلب العاصفة. ما دام التحول عملية جدلية تاريخية هائلة لا تعرف السكون ولا السكينة. ورغم هذا يسود فقدان الاتجاه ويعم التوهان، بل وتعود السلبية السياسية إذ يشتد الحصار بغية إجهاض الحراك الشعبى الوطنى الذى هز أركان الظلم والطغيان فى مصر عام ٢٠٠٥، ولفت أنظار العالم أجمع إلى طاقات شعب مصر الهائلة من أجل الاستقلال والحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والشعوب.

كيف يكون البحث عن مصر - إذن - فى قلب هذه الأوضاع الغامضة المتردية؟ أفلا يجدر بنا - أولا وقبل كل شىء - أن نسعى إلى البحث عن أسباب هذا الركود، بل والتردى الذى كاد يصل إلى درجة الاختناق؟ وإن كان الأمر كذلك من حيث المنهج العقلانى المعمول به فى الديار، وكذا بين الأمم، يصبح لزاماً علينا أن نتساءل بإصرار، الموجة تلو الموجة من مستويات التساؤل: كيف يمكن الوصول إلى الجذور بوصفها الأسباب التكوينية لما تحياه مصر اليوم؟ المنهج العقلانى المعروف بين الناس إنما هو: الرجوع إلى تاريخ تطور مجموعة العوامل التى صاغت الموقف الحاضر، إذ تكشف لنا المسيرة التاريخية كيف تمت صياغة هذه العوامل التكوينية، وعبر أية قنوات حفرت مسيرتها، بحيث أصبحت قاعدة واقعية مؤثرة لما نشهده ونحياه اليوم.

المسيرة التاريخية، وكذا الصياغة التاريخية تقتضى أن يعى الباحث - ومن حوله عموم الناس - كيف كانت الأمور، وأين كانت بؤر التلاحم، وكذا أسباب التفجير؟ ثم ما هى القوى والعناصر الفاعلة عبر المسيرة التاريخية المعاصرة؟ أسئلة واجبة، ومنهج قويم دون جدال، وإذا به يقودنا إلى ساحة واسعة من بهتان المعالم، وضياع ذاكرة التاريخ، وتقطع المسيرة الجدلية للمجتمع والأمة منذ عدة عقود. وكأننا - إذ نبحث عن التوهان والضياع - نصل إلى ساحة متقطعة تكاد كبرى معالمها أن تنزوى، بينما تظل عوامل تكوينية أخرى مهمشة أحياناً إلى حد التغييب.

البحث عن مصر فى هذه المرحلة القاسية يجعل لزاماً علينا إذن - أولا وقبل كل شىء - أن نعى من وكيف كنا؟ وكيف ولماذا تم التحول إلى ما نحن عليه؟ أى الإجابة على السؤال الذى طرحه المفكر الوطنى الرائد الدكتور جلال أمين فى كتابه الفاتح عام ١٩٩٨: «ماذا حدث للمصريين؟».

من هنا - إذن - نبدأ تدوين هذا المدخل المتواضع لمسألة الوطنية فى وطننا المصرى فى مطلع القرن الواحد والعشرين، وعلى وجه التحديد فى بداية شتاء عام ٢٠٠٦.

مصر فى قلب العاصفة.
ورغم هذا يسود فقدان الاتجاه ويعم التوهان، بل وتعود السلبية السياسية إذ يشتد الحصار بغية إجهاض الحراك الشعبى

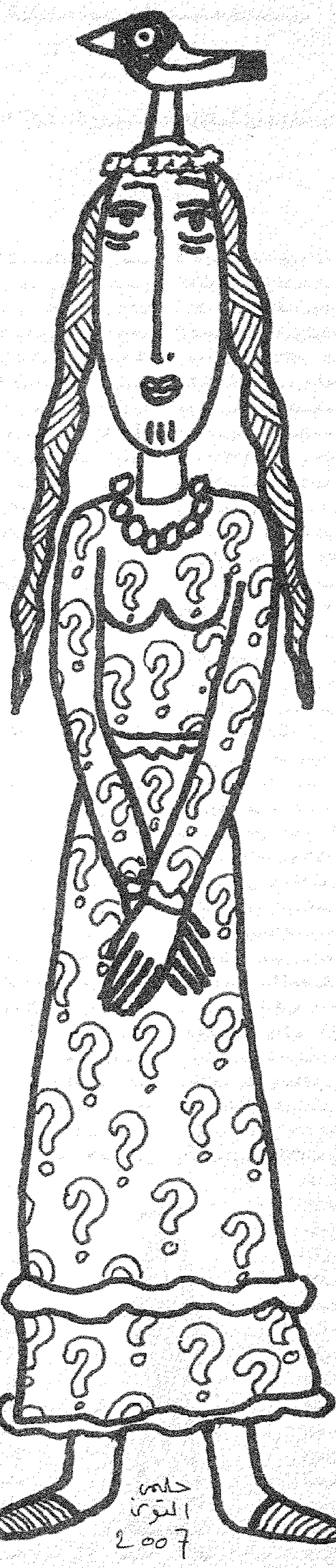
فبراير ١٩٤٦ - ستون عاماً

ستون عاماً مضت على وقفة شباب مصر يوم ٢١ فبراير عام ١٩٤٦ يعلن الثورة الوطنية الشعبية ضد الاحتلال والتبعية والانكسار. ستون عاماً مضت على علامة سنة ١٩٤٦، تجمعت فيها خيوط الفكر والعمل على اتساع الحركة الوطنية كلها أو تكاد، متخذة شكل الجبهة الوطنية المتحدة بقيادة شباب مصر من الطلبة والعمال، وفى مقدمتهم طلائع مختلف فصائل الحركة التقدمية المصرية، حول الحركة الشيوعية المصرية، وشباب الوفد، واتحادات نقابات عمال مصر.

ستون عاماً مضت على بدء ثورة مصر التى استطاعت أن تشل سياسات حكومات الأقلية والتبعية فى عصر الاحتلال، وفتح الطريق أمام قيادة شعبية وطنية تقدمية كان فى مقدورها أن تحقق برنامج «أهدافنا الوطنية» الذى وضعه شهدى عطية الشافعى، وعبد المعبود الجبيلى من قاعدة «دار الأبحاث العلمية»، وهى المبادئ التى ألهمت حركة «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» من انتخابها فى فبراير سنة ١٩٤٦، حتى حلها مع جملة الصحف ودور النشر والنوادى الثقافية والسياسية الوطنية يوم ١٠ يوليو ١٩٤٦ بقرار إسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء، رئيس اتحاد الصناعات آنذاك، الذى رأى فيها ما أسماه «المؤامرة الشيوعية الكبرى»، وهو الاتهام الذى رفضه قضاء مصر بشكل حاسم.

من ١٠ يوليو ١٩٤٦ الذى استهدف الطليعة الثورية للحركة الوطنية إلى حريق القاهرة على أيدى تنظيمات ظلامية، وفى غياب المسئولين المتعمد فى ذلك اليوم الأسود، يوم الجمعة ٢٦ يناير ١٩٥٢، تم تقسيم فلسطين العربية بقرار الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة فى ديسمبر ١٩٤٧، واندلعت حرب فلسطين الأولى التى مكنت العصابات الصهيونية المسلحة المدعومة من الغرب من إقامة الدولة اليهودية على أرض فلسطين بعد طرد معظم سكانها الأصليين. هكذا اكتمل مخطط تقويض أركان الحركة الوطنية المصرية وطليعتها الثورية على أيدى الإمبريالية

لماذا التوهان؟



والصهيونية مع الرجعية المحلية بعد الحرب العالمية الثانية. ضربة وجهت إلى قلب العالم العربي والشرق الأوسط ودائرة المتوسط من المغرب إلى جنوب غرب آسيا على حدود إيران - الهند.

وقد تلا هذه الضربة الاستباقية الكبرى بعد الحرب العالمية الثانية اندلاع موجة من الانقلابات أدت إلى قيام أنظمة بقيادة قطاعات ثائرة من القوات المسلحة في مصر وسوريا والعراق والأردن واليمن والسودان، مصحوبة بظهور موجة الوحدة العربية خاصة بقيادة حزب «البعث» وحركة «القوميين العرب»، بينما اتسع انتشار الإسلام السياسي - بدءا من حركة الإخوان المسلمين في مصر - بين القطاعات الشعبية على اتساع ساحة العالم العربي.

حريق القاهرة، عاصمة المحروسة أم الدنيا، كان في حقيقة الأمر إحراق الثورة المصرية في الصميم. استمرت مصر، وكذا استمرت محاولات فتح الثغرات وشق قنوات تواصل الثورة رغم تردي الأوضاع بشكل جذري. وبالفعل - ورغم شهور الأحكام العرفية بدءاً من حريق القاهرة - استطاع تنظيم «الضباط الأحرار» أن يحقق انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢، معلناً بدء الثورة، ثم - وعلى التوالي - إلغاء أو تغييب تاريخ الثورة المصرية قبل حريق القاهرة، ثم تغييب تاريخ مصر منذ تولي محمد على منذ ١٨٠٥ حتى يوليو ١٩٥٢، واصفاً هذه المرحلة بأنها «العهد الغابر» ثم تتالت موجات إقصاء تاريخ مصر، بدءاً من بهتان التاريخ الحديث منذ الفتح الإسلامي حتى محمد على، ثم إلغاء مرحلة مصر القبطية إلى حد تغييب ٥٠ قرناً من حضارة مصر الفرعونية الشامخة، إلى أن تصاعدت مفاهيم العروبة والأمة العربية والقومية العربية حتى زال اسم «مصر» منذ الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨ حتى نهايتها عام ١٩٦١، وقد تحولت أم الدنيا إلى «الإقليم الجنوبي».

عملية تاريخية شديدة التناقض جمعت بين القضاء على الطبقة الوسطى المصرية بكافة أجنحتها السياسية ومدارسها الفكرية، وكذا كبرى المؤسسات الوطنية، بل وإعدام القياديين النقابيين الشهيدين الخميسي والبقري دون ذنب في خريف ١٩٥٢ من ناحية، مع إنجازات وطنية كبرى بدءاً من تأميم قناة السويس حتى إقامة صرح صناعة شامخة وقوات مسلحة استطاعت أن تتخطى نكسة ١٩٦٧، حتى جاء يوم عبور أكتوبر عام ١٩٧٣، وفي قلب هذا كله بناء السد العالي الذي صان استمرار حياة المصريين صيفاً شتاء، وأتاح لمصر الطاقة والكهرباء وانتظام الزراعة. عملية هائلة اتسمت بالجمع بين الإنجازات الشامخة وتفتيت طاقات الثورة المصرية المتقدة قبل حريق القاهرة، خاصة في مجالات العلم والتعليم وتكوين الكادر رفيع المستوى. المجتمع المصري كان من حقه أن يصبو إلى النهضة. وفي قلب هذا كله ترتفع قامة جمال عبد الناصر الذي شهدنا له يوم وفاته بأنه «الباعث المطعون لمصر الناهضة»، والذي كان وسيظل رمز ثاني كبرى محاولات إقامة معاني القوة والتحديث لوطننا المصري بعد المحاولة الكبرى الرئيسة الأولى التي قادها محمد على لتحقيق نهضة حضارية شاملة في مطلع القرن التاسع عشر، أكثر من نصف قرن قبل صحوة كبرى دول الشرق الحضاري في اليابان والصين وإيران وتركيا، والهند، وهو ما غيبته ثقافة الأمية وإعلام احتفاليات العلاقات العامة عن وجدان شعبنا المصري.

إذن: من أين التوهان؟ كيف نفسر حالة الركود، الجمود، هذا المزيج المحبط من العجز والضياع وانعدام الرؤية؟ في محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات الحيوية المصيرية بالنسبة للوطن الجريح المحاصر تحتاج إلى جهد جماعي لطلائع الفكر والعمل المنغمسة في إيقاع الشارع المصري، والمستشعرة بالتالي لمعاناته وأحلامه الدفينة. ولعل واجب الانضباط وكذا التواضع يجعل لزاماً علينا أن نركز أضواء التحليل الكاشفة على عدد من المحاور - المداخل - بحيث يمكن أن نتقدم بخطى حثيثة، دون تردد، وكذا دون مصادرة من جوهر المسألة المصرية في هذا القرن الجديد الذي نحياه، والذي هو أيضاً اللحظة التاريخية لانتقال نظام العالم من أجيال المركزة الغربية منذ القرن السادس عشر حتى منتصف القرن العشرين إلى نظام عالمي جديد بدأ يمسك فيه الشرق الحضاري بمفاتيح المبادرة التاريخية، وقد كاد الإجماع يتحقق حول إدراك أن مركز هذه المبادرة التاريخية بدأ من دائرة الأطلنطي إلى دائرة الصين - المحيط الهادئ.

من أين التوهان؟ كيف نفسر حالة الركود، الجمود، هذا المزيج المحبط من العجز والضياع وانعدام الرؤية؟

المكان، ثم اللحظة التاريخية

المكان مألوف، ما دام هو الذى يحيا شعب مصر فى رحابه منذ القدم. ولكنما تحديد خصوصيته تجلى بشكل ساطع على أيدى أجيال متعاقبة من مفكرى مصر وعلمائها منذ صحوة مصر فى عصر محمد على حتى عبور أكتوبر ١٩٧٣: يذكر الوطنيون فى بلادنا سجلا حافلا: إبراهيم باشا، سليم حسن، حسين فوزى، صبحى وحيدة، إبراهيم عامر، حتى جمال حمدان، الذى توج المسيرة بعمله الموسوعى «شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكان». «مصر هبة النيل» كما أدركها كبير مؤرخى اليونان هيرودوتس فى القرن الخامس قبل الميلاد. ولكنها - وفى الوقت نفسه - تتواجه فى تقاطع قارات ثلاث (أفريقيا، أوروبا، آسيا) وتلاقى دائرة المحيط الأطلنطى والبحر المتوسط مع المحيط الهندى والمحيط الهادئ عبر البحر الأحمر، ثم فوق هذا أو ذاك كانت مهد فلسفة التوحيد والإيمان بالحياة البعدية منذ أخناتون و«كتاب الموتى»، ومن أرضها وفى دائرتها انطلقت الأديان السماوية الثلاثة منذ موسى وإبراهيم على أرض سيناء، ثم عيسى المسيح من أرض فلسطين، ثم محمد رسول الإسلام من قلب الجزيرة، عليهم جميعًا السلام.

وهكذا أصبحت مصر - من حيث عبقرية المكان - تقع اليوم فى قلب منطقة تلاقى المسيحية فى الغرب أساسًا، والإسلام من المغرب إلى جنوب آسيا، حيث تلتقى الدائرة الإسلامية بدائرة الحضارة الصينية الكونفوشية.

ما قبل «النظام العالمى» - وما بعده

ما قبل وما بعد هذا النظام العالمى غير واضح فى أذهان شعوب العالم العربى. خمسون قرنًا قبل الميلاد قامت حضارة مصر الفرعونية الكبرى من ناحية فى تواز مع الحضارة الفارسية العظيمة على جوار حضارة ما بين الرافدين. هذا بينما احتلت الحضارة الصينية نفس المقام فى دائرة شرق آسيا. ضعفت حضارة مصر الفرعونية، وتشعبت حضارة ما بين النهرين، بينما انطوت الحضارة الفارسية مؤقتًا. هذا بينما برزت حضارة يونان فى القرن الخامس قبل الميلاد، ثم تلتها إمبراطورية روما العظيمة على الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط، وانطلقت جيوش الإسكندر وقيصر إلى مصر والشام وبلاد الفرس والهند والسند. وقد تلتها موجة توسع إمبراطورية روما المسيحية الكاثوليكية فى أوروبا الغربية، حتى دخلت القارة الأوروبية فى «العصور السوداء» بين انحدار إمبراطورية روما حتى عصر النهضة (من القرن الخامس حتى بداية القرن السادس عشر)، بينما انطلقت الرسالة المحمدية كالبرق منذ القرن السابع الميلادى حتى أصبحت ثانى أكبر دوائر الشرق جنبًا إلى جنب مع حضارة الصين، وأقامت نهضة مشرقة فى الأندلس، واتجهت إلى قلب فرنسا حتى انكسار بواتييه عام ١٤٩٢ .

إلى هنا وهذه الأمور - أو بعضها - مألوف.

ولكنما الغموض يحيط ببزوغ بوادر قوى جديدة على الساحة العالمية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. موجة الحركات والثورات والحروب التحريرية والوطنية فى الشرق، التى كان لمصر مكانة مرموقة فى ريادتها. جنبًا إلى جنب مع الصين وإندونيسيا وبورما والهند وكمبوديا وغانا خاصة وهى الحركة التى أعلنت معالم العالم الجديد فى مؤتمر باندونج الأفروآسيوى التاريخى فى أبريل ١٩٥٥، رافعة شعار المبادئ الخمسة التاريخية التى أعلنها شواينلاى رئيس وزراء الصين لأول مرة عام ١٩٥٤: مبادئ التعايش السلمى والاحترام المتبادل لكل الدول فى حدودها، عدم التدخل فى شئون الدول الأخرى، عدم الاعتداء، التعايش السلمى خاصة..



لم تكن دائرة العالم الإسلامى والعربى فى منأى: قامت الثورات والحروب التحررية فى مصر والشام والجزائر والعراق واليمن، ثم إيران حول وجود جمال عبد الناصر وأحمد بن بيلا، وزعماء القوميين العرب والبعثيين فى سوريا والعراق، وكذا محمد مصدق، وآية الله روح الله الخمينى، وفى قلب الساحة القومية الثائرة كلها انتفاضة شعب فلسطين الباسلة بقيادة ياسر عرفات. ساحة واسعة جمعت بين الطبقات الوسطى الوطنية وطبقات الفلاحين والعمال يدًا فى يد مع الجيوش الوطنية وطلائع الإسلام السياسى. أقام الغرب الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ فى قلب العالم العربى والإسلامى لتكون القاعدة الإستراتيجية والتكنولوجية لتكسر هذه الموجة التحريرية الثورية تهددها ليل نهار بالسلاح النووى والاستراتيجى التكتيكى المتأهب. وما أن عبرت جيوش مصر وسوريا فى أكتوبر عام ١٩٧٣، حتى انفرد الغرب باستمالة القيادة المصرية إلى اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨، بداية انكسار الثورة فى عقر دارها، ومحاولة تغييب الدولة العربية الرئيسية لإضعاف التحرك فى القلب، وقد تلا ذلك إثارة الحرب بين العراق وإيران، ثم الحرب العدوانية الأولى ضد العراق عام ١٩٩١، ثم - وبعد فرض الحصار الخانق على شعب العراق سنوات - انطلاق «حرب التدمير والترويع» الأمريكية، بإيعاز القوى الصهيونية المتمركزة فى قلبها، ومشاركة بريطانيا وبعض الحلفاء لتدمير قوى العراق الحية فى كافة المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية، وتفتيت وحدته إلى دويلات عرقية مرتقبة - المخطط الذى بدأ ينتقل اليوم إلى لبنان لمحاصرة سوريا الشقيقة، بهدف إجهاض قوة إيران الطالعة، بشكل مباشر. هذا بينما حدد المخطط الإستراتيجى الأمريكى بالاستناد إلى منظمة حلف شمال الأطلنطى هدفًا تاريخيًا حضاريًا بعيد المدى، ألا وهو: القضاء على بوادر صعود أى مركز عالمى جديد، بعد تفكيك الاتحاد السوفيتى الأسبق، وذلك على ساحة «الكتلة الأرضية» الآسيوية تجاه أوروبا، وفى قلبها وفى طليعتها الصين الجديدة، ومن حولها دائرة آسيا الشرقية من سيبيريا وكوريا واليابان شمالا حتى إندونيسيا جنوبًا.

مدخل إلى تغيير العالم

اللحظة التاريخية التى يحياها العالم فى مطلع القرن الواحد والعشرين الميلادى إنما هى على وجه التحديد لحظة تغيير العالم، أى بداية تفكك النظام العالمى القائم حتى الحرب العالمية الثانية منذ القرن السادس عشر، عصر المركزة الغربية حول أوروبا أولا، حتى اتساع الدائرة وانتقال مركز القيادة إلى الولايات المتحدة من نهاية القرن الثامن عشر حتى بداية القرن العشرين. وفى مقابل ذلك، وفى تداخل جدلى معه يزداد تشابكًا وتوترًا منذ سنوات صعود الصين - أو على حد تعبيرها «الصعود السلمى» لمجتمعها المتناسق - نصف قرن بعد صعود اليابان، وكذا صعود دائرة آسيا الشرقية وامتدادها إلى جنوب ووسط آسيا حيث يحيا ثلثا البشرية، بشكل مطرد وبإيقاع متزايد لنسبة التنمية السنة بعد السنة، هذا بينما عمت الصحوة القومية التوجه الاشتراكى الغالبية العظمى من ساحة وبلدان أمريكا الوسطى والجنوبية اللاتينية. وكذا تحاول أوروبا الغربية أن تحقق صيغة من الوحدة تمتد من السوق المشتركة، إلى سياسة خارجية متميزة إلى حد ما. وقد برزت روسيا القومية العريقة وريثة الاتحاد السوفيتى بقيادة بوتين بعد تفكك الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩١، حتى بدأت تستعيد مكانة الدولة الكبرى مستندة إلى صحوة قومية عارمة، وإعمال ما تمتلك من موارد هائلة من النفط والغاز، وكذا الصناعات العسكرية، بينما تصاعدت أهمية دول وسطى فى الساحة الآسيوية - الأوروبية، وخاصة الهند وإيران وتركيا وألمانيا. هذا بينما انغمست القوى الضاربة العسكرية الأمريكية فى مستنقع العراق الدامى بفضل مقاومة شعبها وكوادر جيشها الباسل.

فهل يعقل - مثلاً - فى «أم الدنيا» أن يتساءل إنسان، وكذا الملايين من الناس: من نحن؟ وما هى شخصيتنا؟ هذا السؤال المذهل يؤكد أن هناك شيئًا ما أصابه بالزلزال فى داخل النفوس.

أركان الشخصية، دوائر التحرك

ومن هنا يصبح لزامًا علينا أن نسلط الأضواء الكاشفة على الثنائية المغمورة منذ عقود، ألا وهى: الشخصية من

فى البحـــث عــن مصـــــر..

هل يعقل - مثلاً - فى «أمّ الدنيا» أن يتساءل إنسان، وكذا الملايين من الناس: من نحن؟ وما هى شخصيّتنا؟

ناحية، والتّحرك من ناحية أخرى، أى بوجه أدق: دوائر الشخصية المصرية، ودوائر التّحرك المصرى.

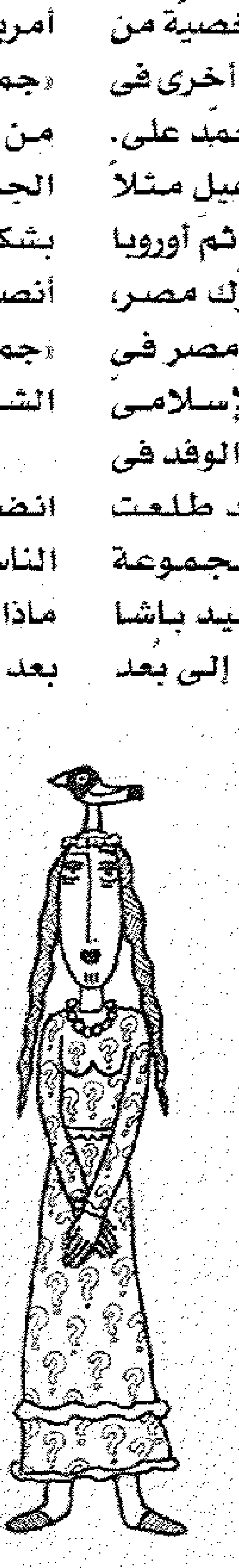
الثنائية القائمة الآن بين الشخصيّة والتّحرك - أو بالأحرى الخلط بين الشخصية والتّحرك - تعود إلى عاملين يجب أن نواجههما بصدق وبدون مواربة. العامل الأول هو: قرار قيادة الضباط الأحرار بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بتحديد هويّة مصر بأنّها عربيّة، وبأنّ الوطن إنّما هو الوطن العربى، وكذا الأمّة، بحيث اختلطت المفاهيم الثلاثة: الوطن، أى المجتمع القومى بوصفه الأمّة المصرية؛ الدائرة الثقافية، وهى الدائرة العربيّة؛ والإطار الحضارى الأعمّ الذى يمكن أن يجمع بين أفريقيا والإسلام والدائرة الحضاريّة الشرقيّة الكبرى. وقد تأكّد معنى مصر الوطن - الأمّة من نهضة محمد على، وخاصة على أيدى عبد الرحمن الجبرتى، ورفاعة رافع الطهطاوى، ثم تأكّد وتعمّق بشكل مطرد، حتّى حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢، فى عروة وثقى جمعت بين ولاة مصر، دون انقطاع، وخاصة إسماعيل وفؤاد وفاروق من ناحية، وقيادات الحركة الوطنيّة لثورات أحمد عرابى وصحبه عام ١٨٨١ ثمّ الحزب الوطنى فى مطلع القرن العشرين، ثم - وعلى وجه التخصيص - ثورة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى ومصطفى النحاس، ثم الحركات الثوريّة فى منتصف الثلاثينيات بقيادة مصر الفتاة وطلائع الحزب الوطنى الجديد حتّى الثورة الوطنيّة التحريريّة فى الأربعينيات حول «اللجنة الوطنية للعمّال والطلبة». وقد التفّت الأجيال المتتالية لشعب مصر حول هذا المعنى الرفيع، الذى لم يسمح أحد لنفسه أن يتشكك فيه على أرض الأهرامات والكرنك والدير البحرى، أرض النيل الخالدة، إذ تعرفت جماهير شعبنا على عمق أصالتها القوميّة الحضاريّة فى تمثال «نهضة مصر» الذى نحته الفنان العظيم محمود مختار بقلبه ووجدانه، فأقامته الدولة - رمزًا للوطن والأمّة والحضارة - أمام مدخل جامعة فؤاد الأول - القاهرة، الأم.

كان - وما زال - من واجب مصر الأمّة أن تحدد موقفها من العالم المحيط، ثم سلّم أولويّاتها فى دوائره المختلفة - أى فى كلمة - دوائر تحركها فى العالم، التى تتميّز من حيث الطبيعة عن دوائر شخصيّتها الحضاريّة كما صاغها تاريخها السبع ألفى المتفرّد بين الأمم.

وبالفعل، حدّد محمد على لدولة نهضة مصر أن تكون قاعدة بعث الحياة فى أركان دولة الخلافة العثمانيّة المتهالكة بغية تحقيق إحياء للحضارة الإسلامية فى مطلع القرن التاسع عشر، بينما أضاف إبراهيم باشا نجله وقائد جيوشنا بُعد اللغة والثقافة العربيّة بعد أن أدرك أنّه من واجب هيئة ضباط الجيش - ومعظمهم من سلالة الأتراك والشراكسة آنذاك - أن يتعلّموا العربيّة لو أرادوا أن يستمروا فى مراكزهم ما دام جنود مصر وصفّ ضباطها من الفلاحين لا يعرفون إلا اللغة العربيّة كما تبيّن إبراهيم باشا فى حروبه على ساحة الشام الكبرى المتّجهة صوب إسطنبول. وفى هذه الملحمة التى هزت أركان النظام العالمى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر لم يهتزّ مفهوم مصر الوطن - الأمّة - بينما تأكدت دوائر تحركها إلى الساحة العربيّة والدائرة الإسلاميّة، وكذا الأفريقية التى عادت إليها تحركات الجيش المصرى.

واستمرّ الأمر على هذا النحو، من حيث التمييز بين أركان الشخصيّة ودوائر التحرك، أو بوجه أدق بين الشخصيّة من ناحية ودوائر التحرك من ناحية أخرى فى عصر ولاة وملوك مصر بعد محمّد على.

وقد اختار سعيد ثم إسماعيل مثلاً دائرة البحر المتوسط وأفريقيا ثم أوروبا لتحتل مكانة الأولويّة لتحرّك مصر، بينما أعاد إليها كلّ من حكام مصر فى عهدى فؤاد وفاروق البعد الإسلامى الأوسع، إلى أن اتّجه قادة حزب الوفد فى منتصف الثلاثينيات - محمد طلعت حرب باشا رئيس بنك مصر ومجموعة شركاته الكبرى، ثمّ مكرم عبيد باشا السكرتير العام آنذاك للحزب - إلى بُعد الدائرة العربيّة الذى بلغ ذروته بإنشاء جامعة الدول العربيّة فى عهد مصطفى النّحاس فى القاهرة عام ١٩٤٥.



دوائر ومحاور التّحرك - إذن - تنوعت حسب خطط سياسة مصر الخارجيّة فى تعاملها مع المراحل المتتالية للنظامين الإقليمى والعالمى من ١٩٠٥ حتى ١٩٥٢ - ولكنّما أحد لم يجرؤ فى طرح ازدواجيّة - أيّا كانت - لتعريف شخصيّة مصر، دعنا من تهميشها حتّى التغييب:

ألم يلتفت الغافلون إلى المثل الرائع الذى ضربه مفكّر مصر العبقرى فى موسوعته عن «شخصية مصر: دراسة فى عبقريّة المكان»، وهو المعروف بتمسكه بالوحدة العربيّة ومكانة الحضارة الإسلاميّة فى عصرنا؟

ثمّ لماذا لم يتساءل عقلاء الناس عمّا يدور حولنا فى العالم المتحضّر المُعترف به؟ ماذا لو أطلق أنصار الوحدة الأوروبيّة فى فرنسا على وطنهم - حاشاهم الله - تسمية «جمهورية فرنسا الأوروبيّة» أو «الإقليم الغربى لجمهوريّة فرنسا الأوروبيّة»؛ أو مثلاً وبالإشارة إلى الجذور اللاتينيّة لعدد من لغات أوروبا (إيطاليا، فرنسا، إسبانيا، البرتغال، وكذا جزئيًا سويسرا... وبلجيكا وبريطانيا، وكذا مقاطعة كيبك فى كندا، بل وجميع دول أمريكا الوسطى والجنوبيّة اللاتينيّة) «جمهوريّة فرنسا اللاتينيّة» أو غير ذلك من التسميات التى قد تستفزّ ثورة الجماهير فى المدن والقرى الفرنسية بشكل كاسح؟ أو - مثلاً -: ماذا لو أطلق أنصار التحرك تجاه آسيا فى الصين لقب «جمهوريّة الصين الآسيويّة» أو «الإقليم الشرقى لجمهوريّة آسيا المتحدة»؟

ومن دواعى التساؤل الجادّ بعد أن انضبطت الأمور إلى حدّ ما أن يتساءل الناس اللىّ تحت، وكذا الناس اللىّ فوق: ماذا حدث فى قيادة ثورة مصر الوطنيّة بعد السويس والسدّ العالى، إذ تغلّب بُعد دوائر التحرك المصرى - وأولها العربيّة، ثمّ الأفريقية فالإسلاميّة - على حتمية تأكيد شخصيّة مصر بقبول تسميتها المتعارف عليها بين الأمم منذ بداية التاريخ بأنّها «مصر» (كما هو الحال مثلاً فى اليابان) أو «جمهوريّة مصر الديمقراطية أو الشعبية أو الاشتراكية» كما هو الحال فى الصين وفيتنام. أو - وفى تعبير سلس لا غبار عليه - «جمهوريّة مصر» كما فى دستور (١٩٥٦) ما دام أنّ الذى تغيّر فى وصف مصر إنما هو انتقالها من النظام الملكى إلى النظام الجمهورى (وهل يذكر الآن أحد أن تسمية مصر الرسمية قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ كانت «مملكة مصر» كما هو الحال فى بريطانيا إلى اليوم.. إلخ؟). وقد يذكر أبناء الجيلين السابقين - وكذا المؤرخون - تلك المعارك المفتعلة التى أقامها بعض فقهاء الخمسينيات والستّينيات من القرن العشرين باسم ضرورة إقامة «أيديولوچية عربيّة» إلى حد إطلاق تسمية «الإقليم الجنوبى» على مصرنا المحروسة أيام «الجمهوريّة العربيّة المتّحدة»، بينما كان من الممكن الاحتفاظ بهذه التسمية لأعمال الدولة الاتحاديّة المركزيّة (مثل تسمية الاتحاد الأوروبى) فى حدود اختصاصاتها حسب دستور الوحدة مع الاحتفاظ بتسمية «مصر» أو «جمهورية مصر» جنبًا إلى جنب مع تسمية «سوريا» أو «جمهورية سوريا». وقد تناسى المسئولون عن هذا الخلط أنهم دفعوا بالآلاف من صفوة الوطنيين إلى المعتقلات لأنّهم تمسكوا بشخصيّة مصر يدًا فى يد مع حتميّة الوحدة العربيّة لمواجهة الاستعمار والصهيونيّة. ثمّ: هل نسينا - أو تناسينا - باسم من عبرت جيوش شباب مصر القنال فى أكتوبر ١٩٧٣؟ أفلم يكن اسم «أم الدنيا» المحروسة بإذنه تعالى هو الذى ألهم الأبطال المظفرين - أم ماذا؟

تفكيك القاعدة الاقتصادية التاريخية

الموجات المتتالية لعمليّة - بل وما يمكن أن نسمّيه إستراتيجية - تهميش مصر إلى حد التغييب تحقيقًا لهدف تغلغل التوهان والضياع إلى نفوس المصريين لم تتحرك فى فراغ، بل تمّت - وما زالت تدار - على أساس اهتزاز القاعدة الاقتصاديّة لحياة المصريين إلى حد التفكيك.

من تريـيف مصـر...

حياة المصريين - عبر تاريخهم السبع ألفى - تمحورت حول النيل؛ ذلك أن النيل كان دومًا - وما زال - شريان الحياة بكل معانى الكلمة.

فى البحث عن مصر..

انتقلت مصر من الاقتصاد الوطنى، إلى عصر السماسرة عملاء العدو، والاعتماد على المساعدات والمنح الأجنبية

النيل يروى أراضى الصعيد المحاصرة بين الصحارى والصخور، وكذا يتدفق لإثراء أراضى الدلتا الخضراء التى يجنى الفلاح حصادها ثلاث مرات كل عام، وهو رقم قياسى بكل المعايير. الأرض الزراعية تقيم حياة المصرى بشكل كريم، احتفلت به مصر الفرعونية، وما زال شعبنا حتى القرن الحادى والعشرين فى يوم شم النسيم رمز الثراء والسعادة والإشراق والتآخى لبنات وأبناء الوطن أجمعين.

ثم يتحول جزء من محاصيل الأرض - وخاصة القطن - إلى الصناعة التى تشعبت منتجاتها على أوسع ساحة من المأكولات الشعبية. استطاعت هذه القاعدة الصناعية التى بلغت أوجها فى عصر الأسر الفرعونية عبر عهود أسرها الثلاث. ثم محمد على، حتى مجموعة شركات بنك مصر، فالسد العالى والقطاع العام - أن تقدم سيلاً من الصادرات المعروفة بجودتها للأسواق العالمية. هكذا كانت ثلاثية الاقتصاد الوطنى المصرى عبر تاريخنا السبع ألفى، ترتفع قامته أو تتأزم حسب الضغوط الخارجية ونظم الحكم فى الداخل، ولكنها على الدوام أساس متين مترابط يؤمن فى آن واحد حياة المصريين وسيادة قرار دولتهم، أى مكانة مصر بين الأمم.

إلى أن تم عبور أكتوبر ١٩٧٣ يتحدى الإمبريالية العالمية وصنيعتها وقاعدتها العنصرية، الدولة الصهيونية فى منطقتنا. كان لا بد من ترقب الهجوم المضاد. وقد تم بالفعل فى اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨.

لم تتمركز، كما صورها الإعلام المنافق فى مجرد زيارة الرئيس السادات إلى القدس، ثم الاعتراف بالدولة الصهيونية التى يرفرف علمها على سفارتها فى القاهرة، بينما لا يمثل إيران وكذا العراق - حتى وقت قريب - إلا مكتبا تمثيل المصالح، وإنما كان جوهرها ومركزها العميق الدفين الإجرامى فى حق مصر إنما هو وقف الإنتاج المصرى، باستثناء الصناعات الخفيفة، تمهيداً لتفكيك القطاع العام واستبدال الإنتاج بالاستيراد، أى نقل السلطة المجتمعية من رأسمالية الدولة إلى جماعات رأسمالية رجال الأعمال السمسارية وكلاء الاحتكارات الإمبريالية والصهيونية.

هكذا انتقلت مصر من الاقتصاد الوطنى، قاعدة السيادة، إلى عصر السماسرة عملاء العدو، وانتقلت - فجأة - إلى مصاف الدول المعتمدة على المساعدات والمنح الأجنبية السنة تلو السنة، حيث ارتفع الدين العام إلى أرقام خرافية، بينما تم تهريب عشرات البلايين من الدولارات إلى الخارج، وتصاعدت أبراج السماسرة الأثرياء الجدد، وازدادت معاناة الشعب العامل، بل والطبقة الوسطى، حتى بلغت الضيق والفقر بشكل لم تشهده مصر منذ عقود.

... إلى التصحير

وليت مأساة كامب ديفيد توقفت عند هذا الحد، وإن كان التسول لا يصلح قاعدة لاستقلال القرار والسيادة الوطنية، ولكنما علامة ١٩٧٨ السوداء جاءت بعد خمس سنوات مما أحدثه عبور أكتوبر ١٩٧٣ من زلزال فى الاقتصاد العالمى. ذلك أن دماء شهداء مصر وسوريا الأبطال فى حرب التحرير دفعت بالدول العربية المنتجة للنفط إلى رفع ثمن البرميل من ثلاثة ثم عشرين ثم ثمانية وعشرين دولاراً بعد ١٨ أكتوبر عام ١٩٧٣، بينما تحول البترول العربى من سلعة راكدة تحت الصحارى إلى سلاح يتحدى استقرار فائض القيمة التاريخى بين أيدى دول الغرب الصناعية الكبرى، وهو الأمر الذى يتناساه بعماء لافت ملاك الأبار - ولو شكليا - بشكل يستفز العقلانية، مرة أخرى بهدف تغييب مكانة مصر مركزاً للعالم العربى، وقطباً رئيسياً فى دائرة الحضارة الإسلامية إلى جانب إيران الشقيقة. تراكمت الثروات بشكل مباغت، وارتفعت إلى قمم قياسية فى الجزيرة والخليج، بينما انحسر الاقتصاد المصرى، وارتفعت البطالة إلى أرقام قياسية، ومن هنا جاء تدفق ملايين شباب مصر لكسب العيش فى دول البترول الثرية حتى بلغ عددهم أكثر من أربعة ملايين ونصف مليون فى السنوات الأخيرة. ارتفع دخل قوة العمل المهاجرة إلى أرقام لم يعرفها أشقاؤهم على أرض الوطن من قبل، تدفقت تحويلات المصريين من دول البترول إلى مصر، بحيث لم يعد هناك منزل مصرى واحد لم يصله رافد كبير أو متواضع، أو أكثر من رافد من عوائد البترول، حسب قول المفكر الاشتراكى الكبير الراحل، الأستاذ الدكتور فؤاد مرسى.

مرة أخرى جاء اعتماد قطاع واسع من المصريين فى قوت يومهم على تحويلات ملايين المهاجرين العاملين فى دائرة البترول العربى، مدخلاً يتسع يوماً بعد يوم لنشر الأيديولوجية - السائدة فى صحارى الجزيرة والدول البئر إلى أرض مصر العطشى الزراعية - المدنية بعد أن دفعت بها شروط اتفاقية كامب ديفيد إلى الانحسار الاقتصادى وانتشار الفقر فى المدن والقرى من النوبة إلى ساحل المتوسط. هكذا دخلت أفكار وعادات الفكر السلفى إلى قلب المجتمع المصرى وانتشرت كانتشار النار فى الهشيم، وقد رحبت بها بادئ ذى بدء شخصية مصر المؤمنة، وطبيعة شعبها المضياف. وإن جاز التعبير: لم يعد المحمل يتحرك من ديار المحروسة كما فى شبابنا إلى أرض الحرمين، بل أصبحت تحويلات العمالة المهاجرة تنتقل من هناك، ومعها منظومة متكاملة من الأفكار والتقاليد والمعاملات السلفية مثلت فى جوهرها ما يمكن تسميته بتصحير مصر، التى كانت وطن معان وقيم وعادات وتقاليد وممارسات المجتمع الريفى النيلى والحضارة المدينية من الإسكندرية إلى أسوان حول القاهرة المضيئة.

تداخلت إذن أمواج الأيديولوجية الاستهلاكية العدمية للعولمة الأمريكية الصهيونية وسادت قيم السوق محل قيم الوطنية. هذا من ناحية، بينما تغلغلت الأيديولوجية ومعها سلوك السلفية الرجعية إلى أعماق نسيج المجتمع المصرى تشارك فى محاولة حرف وجدان المصريين عن الوطنية المشتعلة دوما فى قلوبهم قاعدة للمواطنة والولاء الأوحد للوطن، لاستبدالها بمرجعية ولاء لدائرة حضارية أوسع تجتمع فى رحابها شعوب وأمم ودول متنوعة.



اهتزت القاعدة الاقتصادية بفضل تفكيك كوكبة الاقتصاد الوطنى. وتغلغلت أمواج الأيديولوجية العدمية وقد تشابكت بالسلفية الرجعية. هكذا اجتمع نسيج التوهان والضياع والانغلاق ينشر جو الإحباط واليأس والعجز على أرجاء وفى أعماق المجتمع المصرى، وتسوق ملايين الناس فى بلادنا إلى قبول العجز والتبعية والانبطاح إلى حد الخروج من التاريخ.

هكذا كانت - وما زالت - إستراتيجية العدو الحضارى لضرب أركان نهضة مصر بعد عصر الثورات والحروب، مستندة إلى تناقضات وثغرات والخطايا التاريخية لما تم ضد العقل المصرى وطلائعه منذ ١٩٤٥.

أهل الكفاءة، وأهل الثقة

إن كان تراكم هذا الزحف من موجات التفكيك والتغيير التى يشعر بها الناس فى أعماق قلوبهم قد بلغت هذا المدى المشين، يرتفع إلى الأفق تساؤل صارخ: أين الصفوة الفكرية قبل السياسية من هذه الأزمة الكبرى؟ كيف يمكن تفسير السكوت على التوهان والتغاضى عن التغييب؟ لماذا لم نر صفوف المثقفين والمفكرين، دعنا ممن يتصورون أنهم فى مقام المشاركة فى صياغة القرار - يمتثلون بالمفكر الرائد الدكتور جلال أمين - يكتفون الجهد لتعميق المدخل الذى حفره بلباقة نادرة سعياً لفهم «ماذا حدث للمصريين؟» توهان؟ أو تشتت أفكار؟ أو تراضٍ باسم الواقعية؟

إنصافاً للمثقفين المصريين وتاريخهم المشرف فى طليعة الحركة الوطنية المصرية على الدوام وحتى كامب ديفيد يجب إرجاع الأمور إلى نصابها. حريق القاهرة يوم الجمعة الحزينة ٢٦ يناير ١٩٥٢ على أيدى عصابات مجهولة - أو متجاهلة حتى الآن - فتح الطريق إلى انهيار النظام الملكى ومعه منظومة أحزاب الطبقة الوسطى المدينية، وكذا ملاك الأرض المتمتعين بالحكم منذ ثورة ١٩١٩ وبعد دستور ١٩٢٣. القيادة الجديدة بعد استيلاء «الضباط الأحرار» على الحكم صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أعلنت منذ البداية أنها - وحدها - صاحبة القرار والسيادة والسطوة منذ الإقدام على إعدام الزعيمين النقابيين الخميسى والبقرى شنقاً فى دمنهور دون أدنى جريمة اللهم

إلا قيادتهم لمطالب عمّال مصر العادلة من قيادة جديدة أعلنت أنها جاءت لخدمة الشعب ضد الطغيان، حتى تقويض أركان الحركة الديمقراطية فى ربيع ١٩٥٤ وما صاحبها من حل جميع الأحزاب والمنظمات السياسية، والقضاء على جميع الصحف الحزبية والمستقلة، وحل مجلس الدولة العريق، ثم طرد أكثر من سبعين من كبار أساتذة جامعات مصر لإرهاب هيئات التدريس الجامعى وكسر شوكتها الاستقلالية، ثم بدء الحملة ضد الأحزاب والمنظمات السياسية من الشيوعيين إلى الإخوان المسلمين، والعمل المتصل لاستعمال التعذيب فى المعتقلات والسجون للقضاء على كوادرها. صفحة متصلة سوداء حققت الهدف المطلوب، ألا وهو القضاء على الطبقة الوسطى المصرية المتحضرة بكافة أجنحتها وتنظيماتها، وإحلال جماعات موالية للنظام الجديد. وقد تم ذلك فى جو محتقن ألهبته دعوة كتبة النظام الجديد الذين أعلنوا «أزمة المثقفين» بين ١٩٥٤ و١٩٦١ معلنين ضرورة الخيار بين «أهل الكفاءة» و«أهل الثقة»، مؤكدين أن على «أهل الكفاءة» - أى فئة المثقفين المصريين - أن يلحقوا بركب أدوات الحكم الجديد باسم الثورة.

هكذا بدأ عصر سيادة الجهالة والطغيان على الكفاءة وحرية الرأى والريادة الفكرية والسياسية. هكذا بدأ الطريق إلى تقدم آلاف مؤلفة من أنصاف المتعلمين وأدعياء ثقافة النقل وفكر التبعية إلى الصفوف الأولى بوصفهم «أهل الثقة»، يطردون إلى خارج دائرة المشاركة فى قيادة البلاد وإدارة شئونها كافة مدارس الفكر والعمل التى تخرجت من الجامعة المصرية الجريحة قبل ١٩٥٤، عندما كانت جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) إحدى الجامعات العشر الأولى بين ترتيب جامعات العالم، بينما تدحرجت جامعات مصر والعالم العربى إلى حد أنها خرجت جميعاً من قائمة الجامعات الخمسمائة الأولى فى العالم عام ٢٠٠٥. الطغيان، القضاء على أهل «الكفاءة» باسم العهد الجديد، أتاحا لفئة «أهل الثقة» من أنصاف المتعلمين فى الريف والمدن على السواء يداً فى يد مع عصابات الأجهزة التنفيذية تملك مفاتيح القرار والإدارة، بل والثقافة والفكر، فى مجتمع كان يتحرك تجاه ثورة تحريرية ديمقراطية شعبية، وتنمية وطنية امتدت - رغم القمع - بعد ١٩٥٢، وخاصة بعد أن عادت قيادة جمال عبد الناصر إلى الجبهة الوطنية والتوجه الاشتراكى عام ١٩٦٥، ودخلت بذلك مرحلة الثورة الوطنية والاجتماعية بكل معانى الكلمة، ومن هنا كان لا بد من توقع ضربة مضادة جاءتنا على صورة حرب الأيام الستة الغادرة فى يونيو ١٩٦٧، والنكسة الكبرى بعد أن اتضحت خيانة وعجز قطاع كبير من القيادة التى استولت على مصائر البلاد. استمرت المسيرة الوطنية والاجتماعية الجادة، خاصة فى مرحلة حرب الاستنزاف بفضل كوكبة من قادة جيوش الشمس، وعلى رأسهم عبد المنعم رياض، حتى استطاع شباب مصر المحارب أن يعبر قناة السويس فى الساعة ١٤٠٠ من يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣، ويرفع ألوية الشرف المخضبة بدمائه العزيزة فوق خط بارليف المهدم على الضفة الشرقية من القنال تجاه تحرير سيناء.

ولكن تضحيات شباب مصر وجيشنا الوطنى، ما كان لها أن تلغى فى أسابيع قلائل من البطولة والذكاء الإستراتيجى والتكتيكى الخارق ربع قرن من تدمير الطبقة الوسطى المصرية ومؤسساتها، قاعدة تكوين الكادر السياسى والفكرى، الذى يمثل على الدوام وفى كل المجتمعات والعصور عصب المجتمع المؤهل لتحقيق مهام التعبئة الوطنية وحشد تراكم ميراث الأمة وقدرات المجتمع من «أزمة المثقفين» إلى انكسار كامب ديفيد عام ١٩٧٨. الطريق واحد وواضح، وحلت على جانبيه الدموع محل الورود، بينما ارتفع شأن المنافقين حملة شعار «أنا المشروع، والمشروع هو أنا».

من أين إذن التوهان؟ وهل يمكن حقيقة كسر الانكسار والعودة إلى النور والأمل والعمل؟

هل انتهى المطاف؟ مطاف الاقتراب من حقيقة أسباب التغييب والتوهان، التوهان الذى يؤدى إلى التغييب، أو تغييب العالم الذى تسبب فى التوهان؟ هل وصلنا إلى جوهر الموضوع ونهاية المطاف؟ ■

فصل من كتاب:
الوطنية هى الحل
أنور عبد الملك
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧

كتاب الزاوية

فى العبودية المختارة

قتال الأحرار والعبيد

ضع خمسين ألف رجل مدججين بالسلاح. وضع مثلهم بالجانب الآخر. دعهم يصطفون للمعركة ثم يلتحمون، بعضهم أحرار يقاتلون دفاعًا عن حريتهم والبعض الآخر بغية سلبهم إياها. ترى من تظنك تعد بالنصر؟ من تظن أنهم ذاهبون إلى ساحة القتال بخطى مقدامة؟ من يأملون الاحتفاظ بحريتهم جزاء على عنائهم أم أولئك الذين سواء كالوا الضربات أو تلقوها لم ينتظروا أجرًا عليها سوى استعباد الغير؟ الأولون يضعون دائمًا نصب أعينهم سعادة الحياة الماضية وتوقع نعيم يماثلها فى المستقبل ولا يفكرون فى القليل الذى تلزم مكابدته زمن المعركة بقدر ما يفكرون فيما سيفرض عليهم أبد الدهر، هم وأولادهم وجميع ذريتهم. فأما الآخرون فلا حافز لهم إلا وخز من الطمع لا يلبث أن يسكن أمام الخطر ولا يمكن أن يبلغ التهابه حدًا لا تطفئه أول قطرة من الدم تنض بها جروحهم. خذ المعارك المشهودة والتى مازالت تحيا فى صفحات الكتب وذاكرة البشر حتى اليوم كأن رحاها لم تدر إلا بالأمس على أرض الإغريق، من أجل الإغريق ومن أجل أن تكون مثلاً للدنيا قاطبة: ما الذى فى زعمك أعطى فئة قليلة قلة الإغريق إذ ذاك لا أقول القوة بل الجرأة على الصمود فى وجه أساطيل بلغ من حشدها أن ناء بثقلها البحر وعلى أن يدحروا أممًا بلغ من كثرتها أن كتيبة الإغريق بأسرها ما كان يكفى جنودها تزويد أعدائها ولو بالقواد ليس غير؟ ماذا سوى أن المعركة لم تكن فى هذه الأيام المجيدة معركة الإغريق ضد الفرس بقدر ما كانت تعنى انتصار الحرية على السيادة وانتصار العتق على جشع الاسترقاق؟

يبدأ المونتاج مع كتابة السيناريو حيث ينتقل الكاتب فى المكان والزمان وفى ذهنه إيقاع متخيل على الورق يتعامل معه المخرج.

قطع ولصق

أصابع نسائية سينمائية

صفاء الليثى

هل المونتاج مهنة تابعة أم إبداع خلاق؟

يعمل الدماغ البشرى عملا كبيرا فى تلقى المعلومات والتعامل معها، فبالنسبة لمركز الذاكرة يقوم بتخزين وحفظ وإعادة ترتيب المدخلات من خلال عدد كبير من العمليات الكهربية والكيميائية . وجدانيا فى الجانب المتعلق بالمشاعر والأفكار يشبه عمل المخ عمل المونتاج السينمائى إذ يقوم بإلغاء أجزاء وحفظ أجزاء أخرى وإخراج أشياء ثالثة؛ إنه يؤلف طبقا لمصالحه، احتياجاته، رغباته ودبلوماسيته، مخاوفه وحساباته، مرونته ومحاولاته للتوافق ... ولنتأمل أى فكرة تدور فى الرأس، تُقلب، يُعاد ترتيبها، يتم البوح بجزء منها، ويحتفظ أو يلغى أو يؤجل جزء آخر .. وهكذا، المخ يعمل بالفطرة والخبرة المكتسبة .وعن الإبداع يقول أحد العلماء «فوستيه Fustier » (يعمل الدماغ كآلة معطوبة قياسا على «الكومبيوتر» الدقيق جدا فى عمله، لكنه فى هذا العطب والذى هو نتاج التعقيد الكبير الناتج عن التراكم التاريخى للوظائف اللا متجانسة، يمتلك كل قوته الإبداعية أو المجددة ... فهو يعمل على أساس المحاولة والخطأ ..وقدراته مبدعة - فهو قادر على إيجاد حل، واستراتيجية فهو قادر على دمج مجموعة من القرارات فى ضوء غاية أو هدف - ومجددة فهو قادر على القيام بتركيبات جديدة، وباختصار قادر على خلق النظام انطلاقا من الفوضى) .

وهذه الأعمال تحديدا تشبه إلى حد بعيد عمل المونتاج:

١ - المحاولة والخطأ وتشبه خاصية القطع واللصق ثم التراجع عنها «Undo».

٢ - القدرة على إيجاد حل بإعادة ترتيب المواد للخروج بمعان متنوعة .

٣ - القدرة على دمج مجموعة من القرارات فى ضوء غاية أو هدف لتحقيق المعنى الذى قصده المخرج والمؤلف ولتحقيق الفكرة الأساسية التى يهدف إليها العمل .

٤ - إمكانية التجديد بمعنى أن المونتاج يمكن من الإتيان بتركيبات جديدة وخلق معنى مختلف كل مرة.

القدرة على خلق النظام انطلاقا من الفوضى التى تمت بها عملية التصوير.

والمخ أو العقل فى وعينا التلقائى وفى اللغة العربية مذكر وفى أغلب اللغات التى تؤنث وتذكر مثل الفرنسية فهو مذكر أيضا Le Brain ، وإذا كنا سنتفق على عظمة وإبداع عمل المخ فيما يخص الذاكرة فيمكننا القول بثقة إن أعظم مونتير فى العالم ذكر .

الإبداع لا علاقة له بنوع صاحبه ذكر أو أنثى ولا بكل الفوارق الاجتماعية الأخرى- الدرجة العلمية كمثال -الفن لا يفرق بين حاملى الشهادات الذين درسوا أكاديميا وبين من تتلمذوا فى حقل العمل وتشربوا المهنة من فنانين أكبر، من «أسطوات» أو من أساتذة، الفن إبداع حر غير مقيد بقواعد صنعها المحافظون من البشر .



المونتاج يعطى الشخصية حقها فى الانتقالات التى تكشف عن ملامحها وظروفها بالصورة أولا دون الحاجة لجمل حوارية.

هيبة المونتاج

بدأت السينما بتسجيل ما يحدث أمامها دون تدخل - تصوير الواقع - ثم استمر الرواد فى تطوير عملهم لكى تحكى السينما حكاية تنتقل فى الزمان والمكان وتستغرق مدة أطول من خزانة الكاميرا -٤ دقائق فى المعتاد- فظهرت الحاجة للمونتاج لأسباب ميكانيكية تطورت إلى أسباب درامية ثم ظهرت مدارس المونتاج الروسية والأمريكية وتحول المونتاج إلى فن خلاق أرسى قواعد الفن السابع وحدد له مقومات تختلف عن غيره من الفنون الستة السابقة. وفى مرحلة السينما الصامتة كانت محاولات التعبير فى تطور مستمر وظهرت إبداعات رائعة مازلنا نتمتع بمشاهدتها. والمونتاج كمهنة مكملة لعملية الإخراج وللرباط العضوى مع السيناريو الذى يكتب لجمهور - عايز كده - يقوم بترسيخ هذه الأساليب ويتحرك طبقا لمفاهيم تقليدية تفرض تصورها وإيقاعها ومن هنا فأغلب الأعمال التى سنتناولها تعكس المفاهيم الفنية السائدة باستثناء تجربة «رحمة منتصر» مع «شحاذون ونبلاء» الفيلم الأول لأسماء البكرى.

من هنا فإن الحديث عن مونتاج خلاق لا يمكن فصله عن سيناريو مبتكر وإخراج بديع، وكلما كانت المادة المصورة ثرية ومتنوعة كلما ازداد دور المونتاج وبرز عمل المونتير الموهوب، ولكن مع فقر المادة المصورة، وضعف مكوناتها، لا يمكن الحديث عن دور للمونتاج إلا فى البراعة - الشطارة - لتلافى العيوب وتغطيتها قدر الإمكان.

المونتاج لا يبدأ لحظة وصول المادة المصورة إلى طاولة المونتاج (الموفيولا، أو الكومبيوتر) بل يبدأ مع كتابة السيناريو الذى ينص على وسيلة الانتقال - القطع أو المزج - الكاتب ينتقل فى المكان والزمان وفى ذهنه إيقاع متخيل على الورق يتعامل معه المخرج وينقذه بعد تحليله وتفريغه إلى مواقع ومشاهد ولقطات وفريق تمثيل وفريق فنيين يضم مصورا ومهندس ديكور وآخرين يساعدون على تحقيق رؤية الكاتب والمخرج. وعادة يستغرق التصوير عدة أسابيع بينما تستغرق أعمال المونتاج والمكساج وطبع النسخ أى مرحلة التشطيب عدة شهور قد تمتد إلى عامين، مما يوضح دور المونتاج كحرفة تهدف لتجويد المنتج وأحيانا كفن خلاق يشعر به كل المشاهدين دون أن يتمكن غالبيتهم من تحديد دور المونتاج أو الإخراج أو التأليف والتى تتضافر جميعها لكى يصبح لدينا عمل جيد.

المقومات التى ينبغى توفرها لدى من يقوم بعمل المونتاج - رجلا كان أم امرأة - يمكن تلخيصها فى الآتى:

أولا: الفهم القائم على منطق الدراما المصورة وفن السينما.

ثانيا: الحس النقدى ليتمكن من اختيار أفضل الإعادات من بين المادة المصورة.

ثالثا: الإحساس بالإيقاع الذى يناسب وظيفة اللقطة ودورها مع غيرها من اللقطات للمحافظة على الإيقاع العام للفيلم. فلكل فيلم زمنه المتخيل فى ذهن صاحبه - المخرج - ويحققه المونتير بفنه وحرفته.

ذكورية المناخ

عند الحديث عن فن السينما يرشح الرجال المرأة للعمل فى المونتاج متحدثين عن الحساسية والقدرة على الصبر المعروفة لدى النساء بشكل أكبر فالمونتاج كما يرددون يتطلب صبرا وحساسية وقدرة على الابتكار. عمليا، كل هذه الملكات ليست حكرا على نوع دون آخر، فليس سعيد الشيخ بأقل حساسية من رشيدة عبد السلام وليست رحمة منتصر أقل إبداعا من عادل منير، ولا تتسم انتقالات منى ربيع بالنعومة بينما تتسم انتقالات خالد مرعى بالحدة وقد يكون العكس صحيحا، وسنتناول بالتحليل أسلوب عدد من فنانات المونتاج ذات اللمسات القوية والانتقالات الحادة الفنية جدا فى الحقيقة، فليس المونتاج الخلاق ناعما بالضرورة ويتطلب بالضرورة لمسة أنثوية. والأمثلة كثيرة على تفوق الرجال فى حقل المونتاج على مستوى مصر والعالم مثلما نسمع عن أساتذة طهى الطعام من الرجال على مستوى العالم.

والقول بأن المونتاج عمل يناسب الإناث أكثر يندرج تحت مفهوم النوع والقيم المجتمعية التى درجت على تقسيم العمل بحيث تحصر المرأة فى القيام ببعض الأعمال فى مقابل الحديث عن كفاءة الرجل فى كل المجالات. والمعنى أن فن المونتاج لا يرتبط بالضرورة بالمرأة ككائن بل يتطلب مهارات توجد عند البعض وتمتنع على البعض الآخر بصرف النظر عن نوعه ذكرا كان أم أنثى.

نعود لسؤال آخر هل المونتاج مهنة تابعة أم أنها إبداع خلاق؟ وهل بالمونتاج ملامح فنية خاصة بالمرأة؟.. هذا ما تحاول هذه الورقة الإجابة عليه أخذاً فى الاعتبار أن هناك حاليا ١٠ نساء يعملن فى المونتاج، بينما لا تعمل فى الإخراج سوى ثلاث أو أربع على الأكثر.

المرة الأولى التى التقيت فيها «رشيدة» كانت تحتضن الموفيولا بجرمها الكبير، يُمكنها كرسيها العالى من إحكام السيطرة على جهاز المونتاج وترويضه لتفرض إيقاعها على شريط الفيلم، كان الكرسى الذى تجلس عليه قد أعد خصيصا لها وهى حامل حيث أضاف لها عمال الاستديو قاعدة ترفعه ليستريح بطنها المنتفخ بالحمل على حديد الموفيولا، هذا المشهد بالإضافة لجلستها كما المعلم أمام الدكان تشرب قهوتها الصباحية قبل أن يهل الزبائن ويبدأ العمل. كان المشهد أكثر سحرا بالنسبة لى كطالبة مونتاج من كثير مما أدرسه فى المعهد من نظريات المونتاج الخلاق عند جريفث وايزنشتين ومدرعته بوتمكين.

كانت بكرات الفيلم تخرج إلى الصالة لمشاهدة نسخة العمل، أو ترسل لحجرة النيجاتيف ليتم تقطيع النيجاتيف أو توضع الشرائط فى صالة المكساج لعمل مزج الأصوات، والعمل دائر كما الفرن البلدى لا يتوقف ليل نهار مع أفلام يوسف شاهين، وحسين كمال ثم محمد عبد العزيز ومرة واحدة مع المخرجة «إيناس الدغيدى» فى ثالث عمل لها «قضية سميحة بدران».

وتبدو المخضرمة رشيدة عبد السلام بعد تاريخ حافل مع كبار المخرجين، مع مخرجة مازالت تخطو خطواتها الأولى متفقتين فى أسلوب العمل وهما معا تمثلان نموذجا صارخا للسينما السائدة كما أرسى قواعدها الرجال بإيقاع يلهث ليسرد قضية من ملفات صفحات الحوادث مع إلباسها ثوباً من تورية زائفة تحاول أن تبدو مع أنوثتها مشاركة فى قضايا المجتمع وتحارب الفاسدين من الرجال والنساء، وتنتصر فى النهاية بمساندة ضابط الشرطة المتخفى على الرجل الجذاب الشرير والمرأة اللعوب الشريرة، العالم مقسم إلى أخيار وأشرار ملائكة وشياطين والمخرجة تساعدها المونتيرة يصرخان بكل هذا فى وجوهنا.

حركة كاميرا مستمرة، حدة فى الأداء التمثيلى، فجاجة فى الحوار ورسم الشخصيات، الحدة مشتركة ومتفق عليها بين المخرجة والمونتيرة، موسيقى زاعقة مستمرة لفترات طويلة، وعادة تكون هذه الجزئية مسئولية المونتاج والمكساج.

لم تكن تجربة ناجحة لكلتيهما وستعود المخرجة للعمل مع سلوى بكير وتستمر رشيدة عبد السلام مع باقة المخرجين الرجال، كبارا وصغارا تعطيهم من فنها وخبرتها حتى يومنا هذا.

آخر أعمالها كان فيلم يوسف شاهين «سكوت حنصور» حصلت عنه على جائزة أفضل مونتاج من مهرجان جمعية الفيلم، وفيلم الساحر للراحل «رضوان الكاشف».

أما أستاذة المونتاج فى معهد السينما، فهى سيدة هادئة جدا صوتها يكاد لا يسمع، مختلفة تماما عن «شوشو» التقيتها فى ورشة عمل أخرى فى استديو نحاس «النيل» حيث أستاذ الكرسى المتصوف «شادى عبد السلام» ونحن طلبة معهد السينما نحج إليه كالمريدين نستمع منبهرين لمشاغبته لنا عن غيره من المخرجين، أساتذتنا الذين لا تنقطع أعمالهم. بينما هنا فى مركز الفيلم التجريبى يسير العمل فى إيقاع هادئ يشبه صاحبه وتلامذته ومنهم رحمة منتصر المونتير المساعد فى فيلمه «المومياء».

كانت مع الأستاذ - وكان هذا لقبا كافيا لشادى عبد السلام - يعملان فى «جيوش الشمس» ويجربان طرقا فنية باستخدام وسائل معملية لعمل مؤثرات حربية بالصورة، تجارب شادى لم تكن تتوقف فى المونتاج وكانت «رحمة منتصر» بهدوئها نموذجا للصورة التى حدثنا عنها أستاذنا سعيد الشيخ عن المونتير الهادئ الصبور، وخاصة عند التعامل مع مخرج من نوعية شادى عبد السلام، قد يفكر عدة أيام فى لقطة تستغرق ثوانى على الشاشة ليقرر المكان المناسب للقطع.

بعد حياة «شادى عبد السلام» القصيرة نسبيا مع فن السينما انتقل عدد كبير من تلامذته للعمل مع أستاذ آخر وهو يوسف شاهين والتقت «رحمة منتصر» مع المخرجة أسماء البكرى فى عملها الأول والمختلف عن السينما السائدة «شحاذون ونبلاء» بأسلوبه المختلف وذوقه الخاص والذى ناسبه مونتاج «رحمة منتصر» بإيقاعه الذى يعطى اللقطة زمنها المطلوب فيكون متمهلا عند الرغبة فى التأمل، حادا وسريعاً لإحداث معنى المفاجأة وتحقيق التأثير المطلوب.

شحاذون ونبلاء

هو العمل الأول لمخرجته أسماء البكرى به طزاجة الأعمال الأولى، وبدائية الحرفة أحيانا ومع جمال الموضوع المعتمد على قصة لأديب مصرى يكتب بالفرنسية، تمكنت من صياغة سيناريو بمشاهد

تشبه فصول كتاب . المشاهد فى فيلم «شحاذون ونبلاء» قليلة ومكثفة تعكس على بساطتها فكرة عميقة عن أثر الحرب العالمية على مدينة القاهرة، مركزا على موقع واحد لمنطقة شعبية - حى الجمالية -، الحارة بشخوصها المتنوعة والمرسومة بشكل لم نعهده فى السينما السائدة، الفيلم مصاغ فى بناء موسيقى بوحدات مشهدية يمكن تقسيمها إلى ثلاث وحدات رئيسية: الافتتاحية، الأزمة، ثم الحل .

يبدأ الفيلم بعد دقة موسيقية تبدأ بها موسيقى كلاسيك مع العناوين المكتوبة بخط عربى جميل باللون الأحمر على خلفية سوداء مترجمة فى لوحة واحدة، اللقطة الأولى لورقة من جريدة تقرأ بوضوح، هواء خفيف يبعد الورقة بعد وقت كاف يسمح باستيعاب المكتوب «الحلفاء ..» يتسع الكادر ليكشف عن المكان، شارع هادئ ومبنى إسلامى - جامع- وعربة كارو تتقدم من العمق، اللقطة الثانية بائع الفول فى حارة ضيقة ينادى على بضاعته يسير فى عمق الكادر وتأتى عربة الزبال من المشهد السابق، قطع إلى بلكونة فى حجم متوسط، المرأة تلقى بشىء يسقط على الزبال نشاهده من زاوية علوية - تمثل وجهة نظر المرأة - عدة لقطات يداعب فيها الزبال المرأة، الحوار والأداء يكشف عن طبيعة عملها «رايحين للست الطاهرة»، وتبقى بنت فى البيت «أرنبة» هل هى سندريلا ؟ الموقف يشى باحتمال حدوث أمر ما .

المشهد الأول الافتتاحى يقدم مواقع الأحداث، الحارة، وبيت العالمة - منزل الحدث فيما بعد - الإيقاع هادئ يناسب بداية الفيلم؛ الانتقالات تتمهل، أو تتأخر بعض الشىء، بالعامية اللقطة مريحة، عندما تنادى المرأة على الفتاة «يا أرنبة بت يا أرنبة» لا تقطع رحمة منتصر جزءا من النداء على اللقطة التالية التى تبدأ بالباب ثم تظهر الفتاة «أرنبة» التى تتحرك ببطء «حاضر يا معلمة» الإيقاع يشبه الشخصية، الكادرات التى توجد قبل الحركة وبعدها، يختلف طولها من مونتير إلى آخر، رحمة متمهلة غالباً، المشهد مستمر بعد انصراف النساء، الزبال و يؤديه محمد هنيدى نجم السنوات الأخيرة فى دور ثانوى ظريف يجمع القمامة وهو يغنى أغنية من أغنيات الفترة.

المشهد الثانى يبدأ بلقطة عامة متوسطة لشخص نائم على الأرض، ينهض وقد أحس بمياه تغرقه، يقول: «فيضان بصابون» اللقطة الثانية ينهض فيها ويعلو صراخ نسوة، لقطة قريبة لوجه غير حليق «صلاح السعدنى» يعلو معها الصراخ، المياه كثيفة من عقب الباب، قطع إليه يمسك برأسه، لقطة عامة من الخلف نجده جالسا على الكرسى الوحيد فى الحجرة، يفتح الباب فى لقطة متوسطة ضوء الشمس يزعجه، اللقطة التالية من وجهة نظره نساء فى السواد، تتحرك الكاميرا من وجهة نظره؛ قطع إليه يسير فى ممر المكان بيت من الطراز القديم عدة حجرات مطلة على ممر مثل مبانى المدارس، قدم المتوفى وغسيل الميت، الأمر أصبح واضحا مات جار للبطل، يعود إلى حجرته يتأمل الجرائد المبتلة فى الأرض، مع ارتفاع تدريجى للموسيقى واختفاء للأصوات العديدة. الكاميرا تتمهل بما يسمح بقراءة المكتوب، بالإنجليزية الجندى الجيد، ثم بالعربية قوات الحلفاء ... الوقت كاف للقراءة . يلبس الجاكيت والطربوش ويحمل عصاه ثم نشاهده فى موقع آخر أصوات المكان أكثر حيوية وحركة الشخصية أيضا، يتوقف ويمسك برأسه تختفى الموسيقى وتسيطر مؤثرات المكان، نداء باعة وضجيج سوق، الشخصية فى حركتها تكشف الأمكنة وأجواءها . المخرجة لا تضيع الوقت فى تفصيلات فرعية والمونتاج يحقق إيقاعه بتركيبات الصوت المعبرة عن العالمين العالم المحلى بالحوار والمؤثرات والخلفية العالمية بالموسيقى الكلاسيكية حيث تعبر عن أجواء الحرب.

المونتاج يعطى الشخصية حقها فى الانتقالات التى تكشف عن ملامحها وظروفها بالصورة أولا دون الحاجة لجمل حوارية فنحن لا نسمع «هوه أنت نايم على الأرض، ما عندكش سرير» إلا فى النهاية من الضابط كتعبير عن اندهاشه من نبذ الشخصية لكل الراحة التقليدية، المونتاج يسمح بتأمل الصورة وتفسيرها .

مع المشهد الثالث يتم تقديم شخصية أخرى للتورى «الكردى / محمود الجندى» حيث يقابله البطل «الأستاذ جوهر / صلاح السعدنى» والمشهد الذى يليه يقدم الصديق الثالث يقوم به «يكن / أحمد آدم» فى كاركتر ظريف أيضا «أربعة مشاهد فقط تم فيها تقديم الشخصيات والجو العام فى بناء يشبه السلسلة كل حلقة تؤدى إلى الحلقة التالية، الانتقالات مخدومة منذ مرحلة الكتابة والمونتاج يقوم بعملية التضفير والتشبيك بالقطع واستخدامات الموسيقى والمؤثرات .القاعدة التى تقول بأن المونتاج يبدأ من السيناريو متحققة بشكل واضح .

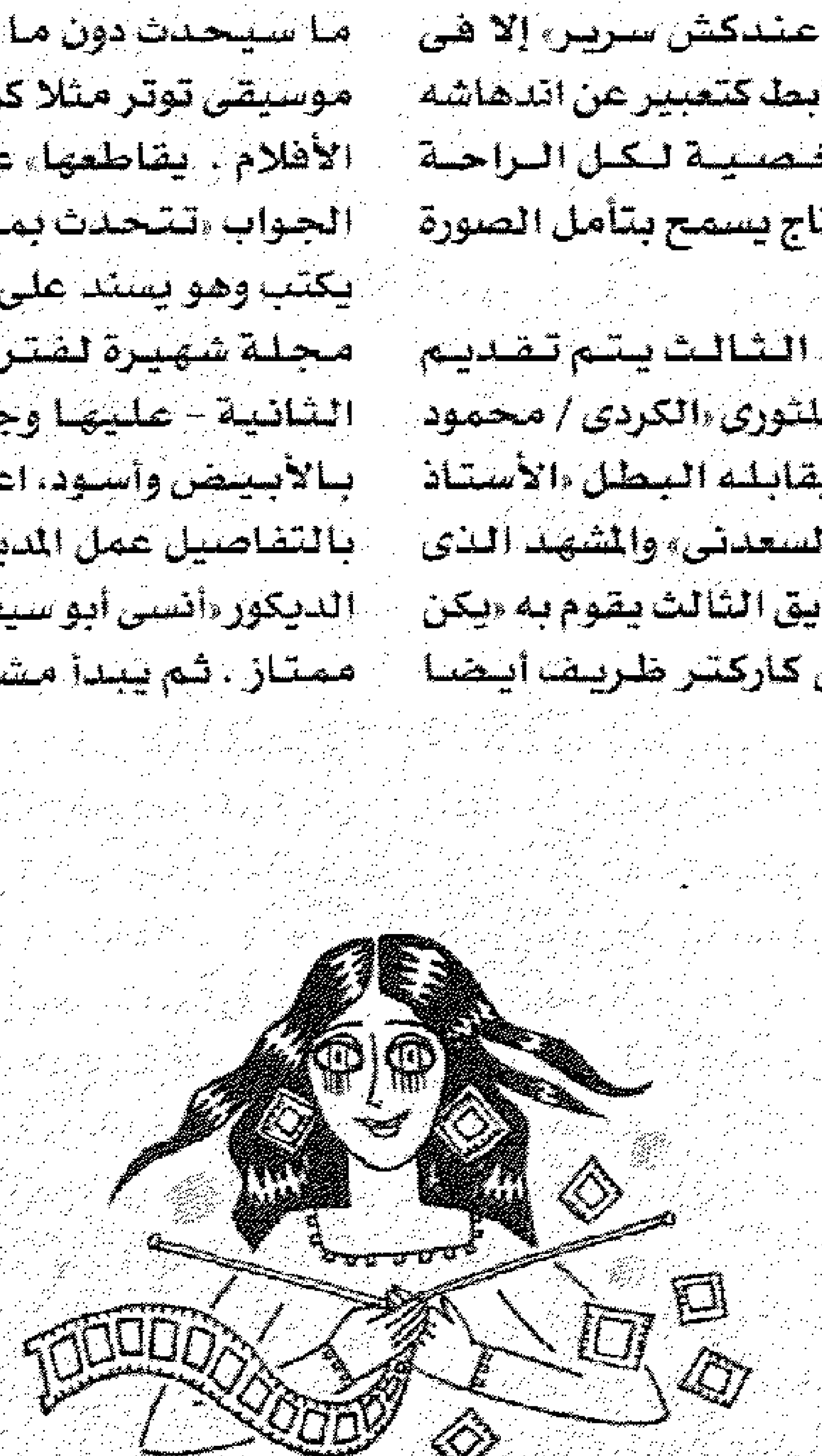
الحـــدث / الـــذروة

الأستاذ جوهر «صلاح السعدنى» بعد أن تشكلت بوضوح معالم شخصيته ينتظر صديقه يكن «أحمد آدم» فى بيت العالمة، يبدو الأمر كحجة نستشعرها وتقول بها «أرنبة» التى بقيت فى المنزل بمفردها، تمارس دلالها على الرجل تطلب منه كتابة خطاب «وحأدفعلك»، رغم احتقاره لها ينساق إليها وهى تجره للداخل: «تعالى جوه أحسن» حيث حجرة النوم والسرير النحاسى، الأستاذ جوهر يخشى ضوء الشمس، يزعجه النور - كما حدث فى المشهد الثانى - يطلب منها أن تغلق النافذة «اقفلى الشيش» الملمح الخاص بشخصيته يتأكد «عيشه فى الظلام وانزعاجه من ضوء النهار الساطع»، البنت تحدثه بينما تمشط شعرها المبتل وتسأل «يكن بيكتب شعر بصحيح؟ هما الشعراء بياخدوا فلوس من النسوان؟ جوهر يبتسم وكأنه يعرف ألاعيب صديقه، أحجام اللقطات يتسع لكليهما والجو العام يهيئنا لأمر ما سيحدث دون ما حاجة لاستخدام موسيقى توتر مثلا كما يحدث فى بعض الأفلام . يقاطعها» عايزة تقولى إيه فى الجواب «تتحدث بما تريد بالعامية» يكتب وهو يسند على مجلة «الاثنين» - مجلة شهيرة لفترة الحرب العالمية الثانية - عليها وجه امرأة جميلة بالأبيض وأسود، اعتناء الجميع بالتفاصيل عمل المدير الفنى ومهندس الديكور «أنسى أبو سيف» واضح وأكثر من ممتاز . ثم يبدأ مشهد هام جدا فى المونتاج يؤسس إيقاعه اللقطات القريبة مع الأصوات الحية التى تدخل الموسيقى فى طياتها ثم تسيطر على المشهد كالتالى: لقطة ليد الفتاة تحرك غوايشها فى رتابة ودلال، لقطة مكبرة لعين جوهر، عودة للذراع والغوايش «وقوله كمان ..» قطع متبادل بين لقطة مكبرة جدا لعينيه وذراعها الذى تلعب بغوايشها بيدها الأخرى، لقطة واسعة تضمهما وهى تتحرش به تضع يدها فى صدره: تعالى امضى، ما أعرفش، ما دخلتيش مدرسة؟، هى المدرسة كانت حتوظفنى هنا!، «تعالى» تجذبه للسرير، يسقط الطربوش على الأرض لا نرى فى اللقطة سوى الطربوش، بينما نسمع صوتيهما دون أن نشاهدهما يمضى وقت والأصوات ملتبسة، قد تعكس العنف أو ممارسة الحب، مازال الطربوش على الأرض تمتد يد وتأخذه تتحرك الكاميرا لتتسع الرؤية فنشاهد رأس الفتاة «أرنبة» متدلية من حافة السرير الموسيقى التى وصلت لذروتها، قطع حاد مع أقدام ضابط بلباسه الأبيض يعبر الكادر عرضيا .

«رحمة منتصر» وجدت لديها مادة للعب بها من أحجام اللقطات وزواياها أداء صامت معبر، وجمل حوارية دالة، عناصر الصورة مخدومة فنيا، الموسيقى موجودة طوال الوقت ولكن درجة علوها وانخفاضها تأليفا وأثناء عملية المكساج قدمتها فى أروع أشكالها، الأسلوب الذى أخرجت به المخرجة مشهد القتل مؤثر دون عنف فج بعد أن أعدت له مسرح الحدث جيدا .

التحقيق يتم فى صالة البيت «بيت الدعارة» يفد عليه الزبائن وكلهم موضع شك ماعدا الفاعل «الأستاذ جوهر/ صلاح السعدنى» مؤديا دوره بامتياز ومعه «الضابط/ عبدالعزيز مخيون» الذى سيقاسمه البطولة منذ ظهوره المتأخر بعض الشىء حتى نهاية الفيلم التى يحدث فيها تحول فى شخصيته لينضم إلى مجموعة أبطال الفيلم «الشحاذون النبلاء».

وبعد أن يفشل «الضابط /عبد العزيز مخيون» فى الوصول إلى الجانى- الذى يعرفه المشاهدون - يمارس عنفا من اليأس مع «يكن / آدم» بواسطة عساكره يسبه ويلقى بطربوشه فتأتى المسبة على وجه الملك «غور من وشى يا ابن الكلب» فى لقطة واحدة تتابع الكاميرا الطربوش الطائر الذى يسقط فوق لقطة لصورة الملك على حائط حجرة المكتب، المشهد السابق سريع الإيقاع فى لقطات قصيرة وموسيقى عالية تعكس الحالة المنهارة للضابط الذى فشل فى عمله - الوصول للأدلة على ارتكاب الجناية - ثم لقطات



أرشيفية وصوت إذاعي يتحدث عن القنبلة النووية والرئيس «ترومان»، الإذاعة مستمرة على شارع مزدحم ومبنى عليه لافتة قسم بوليس الجمالية، والبشر في رواحهم وغدوهم فجأة يظهر مخيون من عمق الكادر، وقد أصبح في هيئة تشبه «الأستاذ جوهر / صلاح السعدني» بذقن غير حليقة وبدلة مهترئة، بلا طربوش أو زيه الرسمي . جوهر جالسا على المقهى في لقطة عامة، قطع للقطة مكبرة لمخيون يبتسم، قطع مماثل للسعدني يبتسم ويشير بيده على المقعد أمامه بما يعني «مكانك ينتظرك» الابتسامة معناها واضح ألم يقل في بداية الفيلم للثوري المتحمس «محمود الجندي» العالم كله بينتحر...لم لا تنتحر أنت أيضا» .

الموسيقى مستمرة منذ التحقيق مع يكن وإعلان أنباء الحرب والقنابل حتى النهاية وعناوين الفيلم .

رحمة منتصر في انتقالاتها ولحظة القطع داخل المشهد، وانسيابية المشاهد وترابطها عبر الفيلم كله تحافظ على أسلوب محدد على مدى الفيلم كله يعكس فهما لقضية الفيلم المركبة التي تتحدث عن أثر الحرب العالمية على قاع المجتمع المصري من خلال شخوص لا تملك إلا الانتحار الصامت في انتظار انفراج الأزمة .

الحل لا يبدو ورديا ولكنه حل منطقي لكل ما نسجته المبدعتان من وضع يعكس أزمة عالمية ومحلية وأزمات البشر الشخصية اختاروا الاستغناء عن الثروات والبقاء كشحاذين يملكون نبلا داخليا رغم اليأس.

الذوق الخاص للفيلم، النبرة الهادئة وعدم الصراخ، الموسيقى في مكانها فقط، الممثلون من غير النجوم، التركيز على أبطال غير مزيفين، لا توجد قصور فخمة وبدل ومعارك سينمائية، الجمال ينبع من الذوق حتى في بيت الدعارة، لا سوقية في الألفاظ ولا جنس مباشر ولكن تعبير مكتوم وقوى عن كافة الأشياء: السياسة والكبت الجنسي وكراهية الشر في العالم والنفس الإنسانية، كل هذا غريب على المشاهد الذي تربى على أسلوب زاعق وثنائيات الخير والشر، كافة الأنماط، غريب على من تعود على أفلام كلها صراخ وحدة وضجيج وصخب يشترك فيه عادة الكتابة مع الأداء التمثيلي والإخراج، وهو غير موجود في «شحاذون ونبلاء» للسيدتين المبدعتين «رحمة منتصر» و«أسماء البكري».

ظلم فيلم «شحاذون ونبلاء» ليس من الجماهير فقط ولكن أيضا من بعض من يدعون فهمهم لسينما خاصة حيث اتهمه البعض بالإساءة لسمعة مصر والبعض الآخر لم يتفاعل وجدانيا مع هدوئه .

وما يهمنا في هذا البحث التأكيد على كون المرأة تبدع أحيانا بعيدا عن مشاكل قضايا الأحوال الشخصية وغيرها من القضايا النسوية .

المرأة المبدعة مخرجة ومونتيرة مهمومة بمشاكل العالم والبشر، هنا بالتحديد في فيلم «شحاذون ونبلاء» تتناول المخرجة شخصيات الفيلم الرئيسية من الرجال ممن يرفضون السياسة التدميرية، لم تتناول بطلا مغوارا أو شخصية تاريخية، بل أناسا ضائعين رفضا لما يحدث من بطولة مزيفة تسبب الحروب . وكم يبدو الفيلم هاما هذه الأونة والرجال يشعلون حروبا في العالم تحت كثير من الدعاوى .

ثلاث جبهات

تخرجت رحمة منتصر من قسم مونتاج معهد السينما الدفعة الثانية بعد من تخرج من الدفعة الأولى «عادل منير وأحمد متولي»، حصلت على دبلوم في السينما من لندن وعادت لتشارك في تأسيس قسم المونتاج مع المونتير الكبير «سعيد الشيخ» والآن تعمل مدرسا في قسم المونتاج بالمعهد العالي للسينما .

تقول رحمة: «تكنيكيا استفدت من سعيد الشيخ ومساعده الأول محيي عبد الجواد، لم أستمر طويلا في مهنة المساعد الثاني، هو «مرمطون» بالفعل، كان سمير عوف ويحيى عزمي أصدقائي قد بدءوا التحضير للعمل كمساعدين مع شادي عبد السلام في المومياء، شعرت بالغيرة منهم «وكنت حتجنن» أريد أن أعمل معهم، كان يحيى عزمي قد اضطر لدخول الجيش ولم يكمل، عملت ملاحظ سيناريو «سكريبت جيرل» في «المومياء» ثم عملت في المونتاج، كنت موجودة في فريق الفيلم قبل المونتير «كمال أبو العلا» استفدت منه كثيرا وعملت معه مساعد مونتاج أول، صدره رحب وترك لي مساحة كبيرة للعمل . اكتسبت مهارات تركيب شريط الصوت منه، وللأسف حرمت من المراحل الأخيرة حيث سافر شادي ومعه «كمال أبو العلا» لعمل مراحل تشطيب الفيلم في الخارج . كان فهم كمال أبو العلا لمخرج جديد إنجازا عظيما، تمت بيني وبينه صداقة وعملت معه مساعدة في ثلاثة أفلام حيث أكملت معه «الفلاح الفصيح» ثم «آفاق» الذي كان دوري به أكبر لانشغال «كمال أبو العلا» في أعمال أخرى . حدثت مشكلة وضاعت شرائط الصوت فأعيد الصوت بالكامل وأنهيت الفيلم . انفردت بعمل «جيوش الشمس» وكان تجربة صعبة جدا، ثقافة شادي عبد السلام وخبرته لهما نوعية خاصة، ليس لديه ترتيب مراحل، قد يبدأ في العمل في الصوت في البداية .

عملت معه بعد ذلك كل أفلام الآثار باستثناء فيلم واحد قام به «عادل منير» الذي تربطني به زمالة قوية، نتبادل الآراء بشكل هائل، في أحد الأفلام لم أكن راضية عن النتيجة النهائية، استشرته قال لي «التعديل بعد النسخة الاستاندارد يهزك في السوق»، ولكنني كنت متخلصة من المخاوف التقليدية، وجودي في المعهد حماني من التكالب على السوق، تعلمت من شادي عبد السلام عدم التنازل عن المستوى، أعدل حتى آخر لحظة، أمضيت حياتي مستمتعة منذ ١٩٦٩ حتى وفاته في ١٩٨٦، تعلمت منه الكثير، وفي المعهد أشعر بالحرية، آخذ قراراتي ليس لي رئيس، أصحابي في العمل كلهم رجال «مجدي كامل، عادل منير، سمير عوف، يحيى عزمي، كامل القليوبي وداود» العمل مع الستات أصعب، كانت لي تجربة مع مخرجة ولم نتآلف في العمل، أرتاح أكثر في التعامل مع الرجال، أسماء لا تتعامل على أنها ست، لديها ثقافة رفيعة وذوق حلو، حضرت شغلها كويس بنسبة تصوير أكبر قليلا من المعتاد في السينما المصرية، لديها تكنيك بسيط، امرأة راقية كانت تخاطبني رسميا «يا مدام رحمة» مشكلتي معها كانت في وصولي متأخرة عن مواعيدي نظرا لمسئولية المعهد وأمور البيت . أسماء أحيانا تصر على رأيها، أنا لا أنفذ «القطعة» التي لا تعجبني أجعل المساعد ينفذها، وتظل تضايقني كلما شاهدتها .

أحمد داود عمل معي مساعدا وله دور قوي، هو أمهر تقنيا مني، أمنتج وأفسد التزامن «السنكرون» وهو يصلح ما أفسده، وهو شاطر جدا في تركيب المؤثرات الصوتية، حتى لو لدي شغل ولا يعمل معي كنت أستعين به وخاصة في مرحلة شريط الصوت النيجاتيف إذا تطلب تصليحات .

محمد مصطفى المخرج المساعد في «شحاذون ونبلاء» لديه خبرات عملية كبيرة، كان معنا أنا وأسماء أثناء المونتاج وكان وجوده مساعدا جدا .

فيلم «شحاذون ونبلاء» لم ينجح تجاريا، وحتى في الجو السينمائي، كانت هناك عيوب بالسيناريو ينبغي دراستها أولا . عدم وجود نجوم بالفيلم أعطاه مذاقا خاصا وأنا أحب ذلك، وهو ما حدث أيضا في فيلمي التالي مع يسري نصر الله «سرقات صيفية» الممثلين غير المحترفين يفيدون العمل ويعطونه مذاقا خاصا .

عندما لا أحب المادة المصورة قد أعتذر عنها، خوفي من أن أوضع محل نقد من طلبتي جعلني أحرص على مستوى شغل جيد، وقتي مقسم بين المعهد والبيت ومهنة المونتاج أوزع طاقتي بين المسئوليات الثلاث، المعهد قضيتي الأولى، أرسي مناهج أعلم طلبة، تجري الدموع في عيني مع كل دفعة تتخرج، ومنهم خالد مرعي ومنى ربيع وداليا الناصر وغادة جبارة، لدي ما عوضني عندما لا يوجد فيلم أعمل به، وعملي في الأفلام آخر تقدمي في المعهد، توزعي بين الجهات الثلاث أرهقني، لم ألتفت إلى النقود والآن أعتقد أنه خطأ، أحن لعمل الأفلام الطويلة فالمونتاج هو جبهتي المفضلة .



سلوى بكير

الصورة التي تلح على عند ذكر اسم «سلوى بكير» هو مشهدها وهي تجر وعاء المخلفات «سبت الديشاهات» الذي يضم قصاصات شرائط الصورة والصوت من نسخة العمل التي يتم قصها أثناء عمليات المونتاج، كانت تجر السبت من حجرة التقطيع إلى حجرة المونتاج ودموعها تنهمر فقد أضاعت جزءا من المخلفات ووبخها أستاذها سعيد الشيخ على ذلك، وعلى الموفيولا أخذت تسمع القصاصات التي تملأ السبت لتصلح خطأها ويرضى عنها «الأستاذ» الذي ارتبطت

بالعمل معه وهى شابة صغيرة تكاد تكون طفلة قبل الالتحاق بمعهد السينما وقبل أن تعمل مساعده معه فى عدد لا يحصى من الأفلام . عشقت سلوى مهنة المونتاج وكانت تقضى كل أوقاتها فى الاستديو حتى أنها كانت تحضر معها الطعام البيتى - صنع ماما - فى علب وتدعو كل من حولها لمشاركتها الطعام اللذيذ، لا أنسى «سعاد حسنى» وهى تلتهم قرنا من الفلفل الحار من بين طعام سلوى وتلتهم بالخبز «وتغمس بالعيش» السبانخ المسبكة وهى تقوم بعمل الدوبلاج لفيلم «أميرة حبى أنا» الذى تدربت فى العمل به مع سلوى بكير، كان المتدرب يتعامل مع المساعد وبالكاد يرى المونتير القدير سعيد الشيخ وهو يصيد الكادرات حتى لا تهرب وتسبب خللا فى الإيقاع .

تتلمذت سلوى بكير على يد أستاذ المونتاج سعيد الشيخ ومساعده «محيى عبد الجواد»، حتى امتلكت حرفة المونتاج تماما بالإضافة للدراسة الأكاديمية فى معهد السينما الذى تخرجت منه عام «١٩٧٠» بتفوق وعملت كمعيدة مع الأستاذ سعيد الشيخ واستمر مشوارها فى تقدم لتقوم بعمل المونتاج لعدد كبير من الأفلام وتتقدم أيضا فى سلك التدريس الجامعى لتحصل على الدكتوراه وتتثبت أقدامها فى المعهد .

عائق واحد وقف أمام تقدمها هو مونتاج الكومبيوتر فهى مثل كثيرين ممن عملوا فى المونتاج بالطريقة القديمة ارتبطوا بحميمية مع معدات المونتاج التقليدية من الموفيولا، وجهاز التزامن ومنضدة التقطيع والبرس «اللاصق الاسبليسر» .

وما يهمنا فى مقام الحديث عن عمل سلوى فى مونتاج أفلام المرأة المخرجة نجد الكثير مما يمكن قوله، فقد قامت سلوى بكير بعمل مونتاج كل أفلام «إيناس الدغيدى» حتى عام ٢٠٠٠، ويبدو أن هجمة الكومبيوتر على أجهزة المونتاج كانت وراء عدم استمرارهما فى العمل معا رغم ما سنوضحه من اتفاقهما الفنى وتفاهم كلتيهما، ليس فقط مع أول فيلم تخرجه «إيناس» ولكن قبل ذلك عندما كانت تعمل كمساعدة إخراج فى أفلام عملت فيها سلوى بالإضافة لكون سلوى معيدة بينما كانت إيناس طالبة تدرس فى المعهد قسم إخراج حيث تخرجت بعد «سلوى بكير» بخمس سنوات عام ١٩٧٥ .

عفوا ... أيها القانون

العمل الأول الذى جمع «سلوى بكير» مع «إيناس الدغيدى» «عفوا ... أيها القانون» الذى أعدته المخرجة قبل العمل بشكل جيد وساعدها فيه الكثيرون طبقا لرواية المونتيرة «سلوى بكير» . كتب لها السيناريو المخرج والسيناريست «إبراهيم الموجى» خريج المعهد دفعة ١٩٦٨ وهو أحد تلامذة «شادى عبد السلام»، طبقا لعناوين الفيلم القصة اشترك فيها مع المخرجة وكتب هو السيناريو والحوار كاملا، وفكرة الفيلم هم نسوى بالدرجة الأولى قضيته الأساسية والتى تتفق مع عنوان الفيلم تناقش أحد القوانين التى تفرق بين الرجل والمرأة، وإن كان الفيلم قد بدأ بقضية تخص العجز الجنسى لعريس شاب يحب زوجته، ثم اتجه لقضية أخرى وهى الخيانة الزوجية التى أدت إلى حادثة قتل الزوجة لزوجها متلبسا فى سريرها مع امرأة لعوب يحكم على الزوجة - التى قامت بدورها نجلاء فتحى - بخمس عشرة سنة سجنا، بينما حكم على والد الزوج - الممثل الكبير فريد شوقى - فى قضية مماثلة بشهر واحد دون نفاذ .

الفيلم بهذا الطرح ضل الطريق لمناقشة قضية أهم وهى العلاقة الزوجية الخاصة بقدر من العمق بعيدا عن جو الحوادث وملفات القضايا، ذلك القالب الجماهيرى الذى يلجأ إليه من يرغب فى جذب الجمهور ومتابعة أحداث غير عادية، والمشكلة ليست فى جريمتى الزنى ثم القتل ولكن فى تصوير الأمر وكأنها تطالب بالمساواة مع الرجل فى أمر جرى العرف عليه «القتل دفاعا عن العرض» رغم مخالفته للقانون .

بدأت المخرجة أول أعمالها فى مناقشة قضايا ساخنة واستعانت بفريق عمل من المحترفين أمام الكاميرا وورائها فقدمت عملا على مستوى جيد من الحرفة فى إطار السينما السائدة التى تعتمد على تنميط الشخصيات وجمل الحوار المباشرة والإلحاح على الفكرة بالتزيد فى التفاصيل الخاصة بالمشاكل الثلاث المعروضة، وتفاصيل خاصة أيضا بالشخصيات التى تساند الأبطال الثلاثة الزوج والزوجة والعشيقة - يقال عنهم المثلث التقليدى - والشخصيات الثانية وهى زوج العشيقة، والد الزوج، الطبيب والمحامية .

هناك توازن فى مساحة الاهتمام بدور كل من الزوج «محمود عبد العزيز» والزوجة «نجلاء فتحى» حتى فى السنيدة، شخصان لكل منهما وهو توازن يناسب النجمين ويسمح لهما ببطولة متكافئة .

دائما يقال عن عيوب العمل الأول تشعب الموضوعات وهذا موجود فى العمل الأول للمخرجة، ولكنه ليس العمل الأول للمونتيرة التى بذلت جهدا حرفيا ملحوظا لعمل الترابط «وشد الفيلم» أى ضبط إيقاعه .

كان لابد من هذه المقدمة التى تخص السيناريو والإخراج حتى نتفرغ لمناقشة أسلوب المونتاج بتناوله عبر المشكلات الثلاث التى يمكن التعامل معها كبديل للبداية والوسط والنهاية أو كتعبير عن المقدمة، ثم التفاعل، ثم النتيجة، الفيلم يبدو كمعادلة رياضية تؤدى فيه المقدمات إلى نتائج محددة ويقينية .

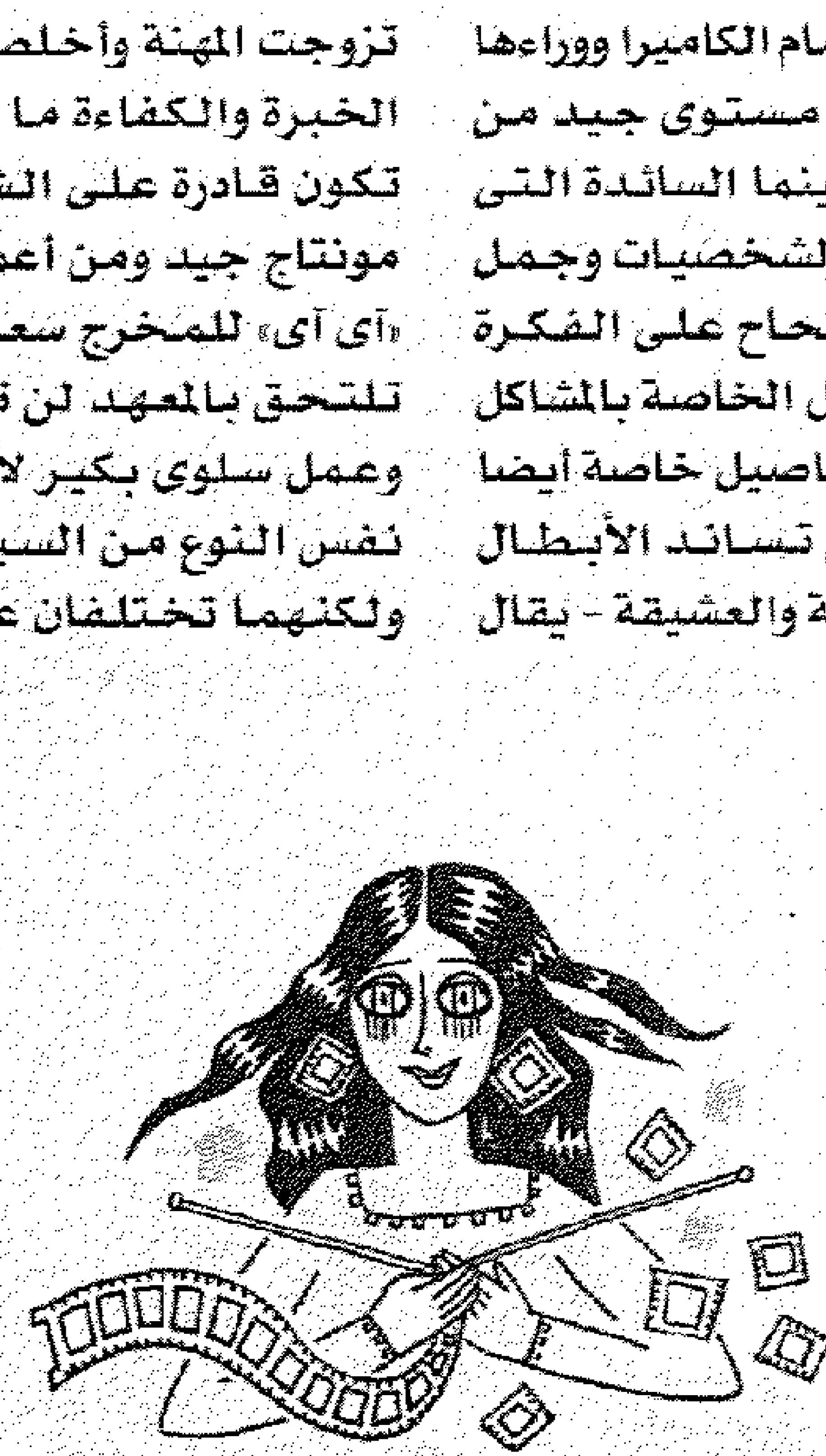
مونتاج المرأة فى مصر

يستريح المخرج أكثر فى العمل مع المرأة مونتيرة والسمة الغالبة لمونتيرات عملن بالخبرة إتقانهن الحرفة بشكل عال جدا ومعرفتهن لأسرار وتفاصيل العمل السينمائى ككل، الرائدات المعاصرات «نادية شكرى» و«رشيدة عبد السلام» يتعاملن بالإحساس والخبرة المكتسبة ومعهن «عنايات السايس» التى تزوجت المهنة وأخلصت لها تمتلك من الخبرة والكفاءة ما يجعلها - دون أن تكون قادرة على الشرح - على عمل مونتاج جيد ومن أعمالها الهامة فيلم «آى آى» للمخرج سعيد مرزوق ودون أن تلتحق بالمعهد لن تفرق بين عملها وعمل سلوى بكير لأنهما يعملان فى نفس النوع من السينما الجماهيرية ولكنهما تختلفان عن رحمة منتصر التى لا تشارك إلا فى سينما ذات توجه مختلف .

الخلاصة أن الحديث عن إبداع المرأة فى المونتاج لترسيخ فن سينمائى يختلف عن إبداع الرجال يفترض شروطا غير موجودة فى مصر، حيث لا يتحمس المنتجون، ولا يسمحون أيضا بسينما حقيقية ذات توجه نسوى ، تعبر عن الحياة كما تراها النساء ويقدم نماذج فاعلة وإيجابية للبطلة المرأة . قد يوجد هذا فى التليفزيون مع أعمال تكتبها نساء مثل «فتحية العسال» أو تخرجها نساء عن سيدات مختلفات مثل «إنعام محمد على» وعملها عن أم كلثوم .

والنموذج الحقيقى لسينما المرأة فى فيلم التونسية «مفيدة تلاتلى» «صمت القصور» بداية من كتابته وأسلوب إخراجه واختيار بطلاته وأبطاله وبشكل خاص التعامل مع جسد المرأة الذى يتضح فى مشهد هام بالفيلم وهى ترقص كذبيحة رقصا شرقيا نعم ولكنه بعيد عن هز البطن والإثارة الرخيصة وصلت فيه المخرجة بزوايا الكاميرا وتوجيهها لبطلتها إلى مستوى راق فى التعامل مع جسد المرأة لا أعتقد أنه موجود حتى فى سينما تحاول أن تبعد عن السائد ولكنها تتفق مع السينما التجارية فى تناول صورة المرأة ولا أستثنى الفيلم الهام لسيد سعيد «القبطان»، ولا أفلام داود عبد السيد مع قدر قليل من الاستثناء مع محمد خان ومجدى أحمد على .

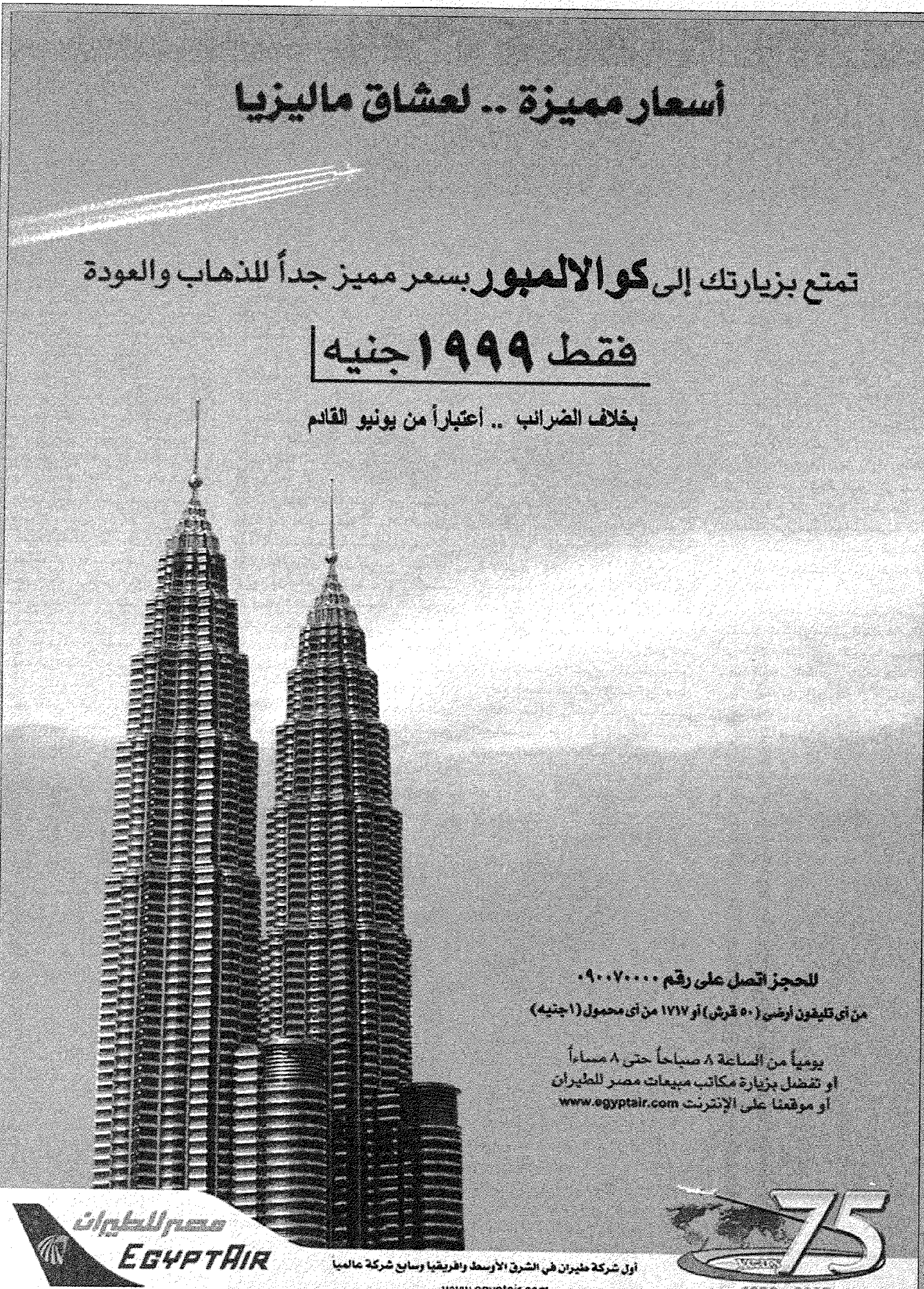
لكى تكون لدينا سينما للمرأة لابد من البدء مع الموضوعات المكتوبة التى تفرض شكل إخراجها وأتوقع لو سمح المنتجون لمخرجاتنا الشابات هالة خليل ورشا الكردى ونادين خان ونوارة مراد من شابات التسعينيات والألفية الثالثة، وغيرهن أن يكون لدينا سينما حقيقية للمرأة يسانده مونتاج المبدعات وكتابة المبدعات الموجودات دون أن يقبل المنتجون أعمالهن وهم يرددون بتأكيد إن جمهور السينما غالبيته العظمى من الشباب الذكور، ولو أضفنا المناخ الذكورى السائد الذى عادت فيه المرأة لارتداء غطاء الشعر المسمى بالحجاب لأدركنا أنها ليست مسئولية المنتجين فقط بل المجتمع ككل والنساء فيه بشكل أكثر تحديدا . ■



الهوامش

(١) المعاصرات فى حقل المونتاج هن: رشيدة عبد السلام، نادية شكرى، رحمة منتصر، سلوى بكير، عنايات السايس، نفيسة نصر، داليا الناصر، مها رشدى، منى ربيع، رباب عبد اللطيف، وداليا هلال، ودينا فاروق .

(٢) عملت رحمة مع «أسماء البكرى» فيلمها التسجيلى الهام «المتحف اليونانى» بالإضافة لعينة البحث «شحاذون ونبلاء».


أسعار مميزة .. لعشاق ماليزيا
تمتع بزيارتك إلى كوالالمبور بسعر مميز جداً للذهاب والعودة
فقط ١٩٩٩ جنيه
بخلاف الضرائب .. أعتباراً من يونيو القادم
للحجز اتصل على رقم ٠٩٠٠٧٠٠٠٠
من أى تليفون أرضى (٥٠ قرش) أو ١٧١٧ من أى محمول (١ جنيه)
يومياً من الساعة ٨ صباحاً حتى ٨ مساءاً
او تفضل بزيارة مكاتب مبيعات مصر للطيران
او موقعنا على الإنترنت www.egyptair.com
مصر للطيران
EGYPTAIR
أول شركة طيران في الشرق الأوسط وافريقيا وسابع شركة عالميا
www.egyptair.com
75

ماس - كاجنا

هناك وعى شعبى من قِبل المصريين عن النوبة كمكون ثقافى نابع من إفريقيا جنوب الصحراء الكُبرى

في جمعية أرمينًا في حي عابدين، أحد أحياء القاهرة، يوجد السيد على سالم[1] وهو محاسب متقاعد يبلغ من العمر ثمانين عاماً يتكلم اللغات اليونانية والفرنسية والإنجليزية والعربية بالإضافة إلى الفدكا لغته الأساسية التي أشرف على تعليمها لمن استخدموها شفاهياً كي يتمكنوا منها كتابة باستخدام الحروف الهجائية للأبجدية النوبية التي استُخدمت منذ العصور الوسطى.

عندما وصلت إلى مقر الجمعية في مساء أحد أيام الأسبوع قبل نهاية شهر رمضان ديسمبر/كانون الأول عام ٢٠٠١، حدث أن تكلم السيد على مع فؤاد وهو أيضاً محاسب ويدرس لغة الفدكا قائلاً: إذا كان بإمكانه فتح جمعية التراث النوبي الواقعة في الشقة المجاورة على أن تكون مقراً لاجتماع خاص مساء الأربعاء. دعا السيد على الكاتب والمثقف المصري المعروف خيري شلبي وكذلك أربعة من روائيي النوبة[2] لجلسة وديّة لتسوية خلاف، فما الذي أدى إلى جلسة الصلح تلك التي أُطلق عليها «ونسة»، وقد ضمت الزملاء من المثقفين الأصدقاء لحل النزاع في جلسة لاحتساء الشاي؟ حيث ظل السيد على منتظراً نحو عدة أسابيع لعقد تلك الجلسة. منذ أن كتب المثقف خيري شلبي في عموده الأسبوعي بجريدة الأسبوع المصرية مقالاً عن الإرهاب في مصر حيث ذكر حادث التفجير الذي وقع في عام ١٩٩٣ في ساحة القاهرة المركزية التي يُطلق عليها ميدان التحرير. استرجع شلبي ما وقع في مقهى «وادي النيل» التي تُلقب بـ«قهوة البرابرة». «حدث أن زلّ قلم كاتبنا خيري شلبي وكتب قهوة البرابرة» هكذا قال الروائي حجاج أدول «ثم استطرد .. فغضب الكثير من النوبيين ولهم أن يغضبوا» (أدول ٢٠٠١)[3]. استخدام خيري شلبي لكُنية البرابرة المُعلن أشعل كثيراً من ردود الأفعال المتباينة الغاضبة من عدة كُتّاب نوبيين عارضوا ذكر تلك الكُنية. على الرغم من اعتذار شلبي ونهاية تلك الحادثة بالصلح بعد جهود أدول في الكتابة بما أنهى الأمر بجلسة صُلح بعد الاجتماع في جمعية التراث النوبي.

نشأ كُتّاب النوبة أساساً في منطقة تمتدُ عبر جنوب مصر وشمال السودان مما أطّر اعتراضاتهم على تعبير البرابرة (مفردها بربري) الذي يجنح عنصرياً إلى اللون وحقوق المواطنة التي تجلب في أغلب الأحيان اعتراضات النوبيين المتصورة عامة. استخدم وصف بربري تعبيراً عن الازدراء ويستخدم فيما يُسقط على نوع من الإهانة تحيل إلى اللون لكنه يمكن تطبيقه أيضاً على أي شخص - نوبي أو غيره - كإحالة إلى الهمجية أو الحماقة. وتاريخياً استخدم وصف البربري للشخص النوبي أو السوداني الأجوف النازح للعمل في العاصمة، ممن يعملون كمجموعة عُمال مهاجرين في العاصمة المصرية.

النوبيون ذوو بشرة قاتمة أكثر من المصريين، وقد تكون إحدى لهجات لغتهم النوبية نابعة من لغتهم الرئيسية الأم. وقد تمت لهم الهجرة من النوبة إلى مدن مصر الشمالية للعمل بداية في الخدمات العادية لقرون بينما ظلت النساء في الجنوب يسكن بيوت القرية(جيزر١٩٨٦). على أية حال، أثناء بناء السد العالي بأسوان رحلت الحكومة المصرية أربعاً وأربعين قرية من قرى النوبة القديمة لقرى جديدة شمال مدينة أسوان في عامي ١٩٦٣-١٩٦٤ أثناء القرن العشرين. وقد ربح النوبيون اقتصادياً ونالوا الحظوة التعليمية عبر النقلة الحضرية الكبيرة إلى المدينة، ومن ثم الارتحال إلى مكان جديد بينما - في الوقت نفسه - حدثت مأساة تتمثل في نقص الزراعة المثمرة في النوبة، فضلاً عن الفقد المُحقق لبيوتهم وقراهم كمحصلة نهائية لفيضان السد العالي.

كانت المناقشة عن مقهى البرابرة - تحديداً - وكذلك المناقشات التي تماثلها ضمن سياق المواطنة والحقوق. جزء من النوبيين المتحضرين المثقفين يعارضون دمج اللون والطبقة والأصول الجغرافية وهيمنة ذلك التأثير المضطهد المزدوج لهم الذي يجعلهم في انتظار «تأشيرة تبيح لك أن تكون مصرياً».

أولاً: تُظهر الأفكار السائدة عن النوبيين - خاصة - وجودهم كطبقة أدنى أو كجنس تابع ووضعهم داخل الأمة في موقع يجعلهم يمارسون الأعمال الخدمية خاصة حراسة المنازل.

ستستمر دراستي في طرح بعض الأفكار العنصرية الشائعة التي تقدم تصورات عن النوبيين ناتجة عن عدم الاعتراف بهويتهم المصرية حيث ارتباطهم بتاريخ العبيد في جنوب الصحراء الأفريقية الكبرى. وفي مصر هناك وعي شعبي من قبل المصريين عن النوبة كمكون ثقافي نابع من إفريقيا جنوب الصحراء الكُبرى. على الرغم من الموقع الجغرافي في القارة يتصل بالمناقشات التي تدور حول النوبيين المعاصرين من حيث منزلتهم الاجتماعية وذلك ليس بمنأى عن عملهم في الأعمال الخدمية (كما سلف) كما أن اقتران العبودية بهم كأفارقة وضعت النوبيين آنياً ضمن أمة متكاملة وحددت مكانتهم في وضع التابع.

قضيت عامين من العمل الميداني الاثنوجرافي[4] لتصوير حالة النوبيين فزرت متحف النوبة وكذلك قمت ببعض الجولات السياحية بين أعوام ١٩٩٧ - ٢٠٠٢. وفي أغلب الأحيان كنت أصادف المناقشات في مثل هذه الأمور وأعلم أنني سأجد بعض التصورات العنصرية التي تعترض وجود النوبيين بصورة حسنة في وسائل الإعلام مما يعيد صياغة وفهم واقع النوبيين وفق شروطهم الخاصة دون التوقف أمام المزاعم التي تؤكد أو ربما ترفض وجود التمييز العنصري الذي يهمش النوبيين على الرغم من الطنطنة اليومية التي تظهر في الصحف شبه الرسمية المصرية التي تؤكد وحدة الوطن وأن مصر ليست دولة عنصرية وليس لديها انتماءات عرقية أو أقليات. في مثل تلك الظروف تبرز المناقشات العالمية حول الجنوسة[5] الانتماء العرقي، والأقليات ومثل الديمقراطية التي تفرض مبدأ المساواة بين المواطنين. في مثل تلك المناقشات تبرز مصر من بين الأمم - على سبيل المثال - مجسدة تاريخ التمييز العنصري الحقيقي (كالولايات المتحدة وجنوب أفريقيا)، وخطر العرقية، والحركات الانفصالية (مثل المقاومة الكردية في الولايات المتعددة) أو الفعلية مثل الحرب الأهلية في السودان. عامة، تلك النماذج - بكل تأكيد - تطغى على كل المناقشات حول موضوع العنصرية الذي يمارس ويتكرس تجاه النوبيين في مصر. على الأرجح، أتمنى إمعان النظر في الأمور المعقدة آنياً وعدم غض الطرف عن التطور التاريخي الذي تمثل في تجسيد المناقشات العنصرية التي استندت أساساً على التلازم التاريخي الاجتماعي بين النمط النوبي الظاهري واللغة والثقافة التي زاوجت بين الطبقة الاجتماعية والجنس.

للمزيد من التوضيح، لون البشرة المصرية يمثل أساس الكشف عن الهوية الشخصية الجماعية مثل «الأسود» - «الأبيض» أو أي لون آخر. والأكثر أهمية الطبقة الاجتماعية، الإقليم، الدين ثم الأصول العائلية العريقة. والكثافة السكانية أصلاً في منطقة النوبة تحوي اختلافاً شاسعاً في لون البشرة وقسمات الوجه، مثل كثير من الملامح التي تسم بقية سكان أقاليم مصر. بدءاً من بهتان اللون حتى توسطه سمار (ما يطلق عليه اللون القمحي) مروراً بالاسم وانتهاء باللون الأسود. وتلك الاختلافات تجعل بعض النوبيين يمتعضون من أن يُنعتوا بالأسود عوضاً عن الأسمر أو أي لون آخر.

النوبيون على امتداد مصر من القاهرة حتى أسوان لا يُنظر إليهم إلا كحاملي البشرة السوداء بما ينتسب إلى من يُقال عنه زنجي أو إفريقي الملامح، على سبيل الذلة أو المبالغة أو الابتذال أو الأفكار الشائعة التي تدل - ضمناً - على أنهم أفارقة غير مصريين مع دوام التجاهل لوجودهم وحجب الأصول النوبية عن التعريف بها. فضلاً عن أنهم يرفضون التسليم جدلاً بأن اللون القاتم يكشف عن البدايات الأفريقية. ومفهومهم هنا يندرج تحت الانتساب إلى الصحراء الأفريقية الكبرى وليس إلى مصر.

فصل من كتاب:
Cairo Cosmopolitan
Politics, Culture, and Urban Space in the New Globalized Middle East
(القاهرة الكوزموبوليتانية)
Edited by: Diane Singerman and Paul Amar
AUC Press, Cairo- New York
ترجمة: عفاف عبدالمعطى

.. لعلك بخير ـ أحزان نوبية!!

اليزابيث أ. سميث



زلة قلم

تعد منطقة عابدين بوسط مدينة القاهرة محور التواجد الاجتماعى للجيل الأول من النوبيين مثل السيد على الذى ولد وترعرع فى إحدى القرى النوبية العتيقة التى وجدت قبل عام ١٩٦٠ ثم انتقل كثير من النوبيين إلى الإقامة فى القاهرة منذ النصف الأول من القرن العشرين عندما هاجر آباؤهم وأجدادهم من النوبة سعياً إلى مدن الشمال الوثيرة.

عادة عمل المهاجرون النوبيون الأولون فى الوظائف الخدمية كأن يكونوا حراس عقارات أو طهاة فى قصور الأحياء الراقية أو فى العمارات السكنية الفارهة أو فى الفنادق فى المدينة التى كان معقلها آنذاك فى يد السلطة السياسية. أما الآن، فيجتمع النوبيون فى عابدين حيث التجمعات الثقافية النوبية ، وكذلك جمعية قرية أرمينا الأهلية التى نشأت بمبدأ الاعتماد على الجهود الذاتية فضلا عن تقديم مساعدات خدمية مادية للنوبيين مثل المساعدة فى إخراج جنازة أو تقديم بعض الأشياء الترفيهية أو المساعدات التربوية مثل تعليم دروس العربية والإنجليزية. فهو مكان للتجمع الاجتماعى والسعى للتعاون المتبادل بين أبناء النوبة.

الجمعيتان(أرمينا والتراث النوبى) كانتا ـ لمدة طويلة ـ معقلا لإيواء الجماعات النوبية المنشقة التى لا تحمل هوية رسمية والتى فرت من النوبة هرباً من فيضان السد وكتعويض مناسب لها ومن العمل فى الأعمال الخدمية مثل المدارس النوبية ـ رويداً ـ منذ العشرينيات من القرن الماضى (صالح ـ ٢٠٠ ـ ص٢٥٩ ـ ٢٦٠) .

تأسست الجمعيتان كمركزين مستقلين قبل أن توجد وزارة الشئون الاجتماعية الحالية التى تسجل كل الجمعيات الأهلية الآن بوساطة مراقب منها مع تقديم إشعار رسمى بدعم مالى بسيط من قبل الوزارة. تقع الجمعيتان بين منطقتين رئيسيتين ارتبطتا إبان عهد الخديو إسماعيل فى القرن التاسع عشر فى منطقة قصر عابدين ومنطقة ميدان

التحرير بوسط مدينة القاهرة، فى مبنى سكنى بعد عدد من المقاهى المزدحمة والمتاجر وكذلك المسجد[6].

حدث اللقاء الذى دعا إليه السيد على جميع المتخاصمين (خيرى شلبى والكتّاب النوبيين) فى جمعية التراث النوبى وكان أحد الحضور الروائى النوبى عضو الجمعية حجاج أدول الذى اعتذر لخيرى بشكل شخصى فى مقال تحت عنوان (خيرى الجميل .. لعلك بخير) أو بالنوبية (خيرى آشرى.. ماس ـ كاجنا) (أدول ٢٠٠١). دافع أدول فى مقاله عن خيرى شلبى كأحد المثقفين المصريين القلائل الذين يحظون باحترام النوبيين عندما كتب أوائل عام ١٩٩٠ عن الأدب النوبى[7] ومن ثم كان أول من استخدم هذا الاصطلاح مشيراً إلى نصوصهم، بينما لم يذكرهم نقاد الأدب المصريون سوى بشكل عدائى ومن هنا نُعت هذا الأدب بالعنصرى والانفصالى (أدول ١٩٩٣) وقد اعتذر عن شلبى الذى نعت قهوة النوبيين بقهوة البرابرة ، وقد اعتبر ذلك الخطأ مجرد زلة قلم ذلك لأن خيرى شلبى نفسه على خلاف آخرين من المثقفين لم يكن عنصرياً ، وعلى ذلك لم يقصد -فعلاً- أن يؤذى مشاعر النوبيين.

على أية حال، استطاع أدول أن يبرئ شلبى كما جعل أدول ذلك الحدث فرصة لإثارة الانتباه إلى ثلاث قضايا طالما ظلت مؤرقة باستمرار للنوبيين. الأولى؛ استنكاره للاستعباد لأى بشر يحملون البشرة الداكنة (سمراء كانت أم سوداء) خاصة فى وسائل الإعلام المصرية. الثانية، ناقش اتهام النوبيين بالانفصالية لأنهم يتكلمون وينمون إحياء إنعاش اللغة النوبية. الثالثة، انتقد أدول إخفاق الحكومة فى تعويض النوبيين الذين فقدوا مأواهم فى القرى النوبية ومن ثم بدأ ترحيلهم منذ ١٩٦٠.

خلال مقالته انتقل حجاج أدول للحديث عن ثلاث قضايا فى لغة معبرة تحمل قدرا من الانفعال بالقضية التى يطرحها عن حقوق المواطنة للنوبيين ذلك الحق الذى تجسد . على حد سواء . مع التحكم الرسمى الإعلامى الذى يتغافل عن لون البشرة ؛ وحقوق اللغة النوبية على سبيل الاعتراف بها كجزء من التراث الوطنى وحقوق النوبيين المدنية وكذلك التعويضات التى كان يجب أن تمنح لهم من قبل الحكومة المصرية نظراً لفقد مأواهم.

أولا أشار مقال أدول فى استهلاله إلى أوائل الستينيات حيث كان التلفزيون المصرى يقع تحت سُلطة وزارة الإعلام قائلاً هل شاهدت مذيعاً أو مذيعة سوداء فى تليفزيون مصر؟ منذ نشأة تليفزيون ماسبيرو الفاضل وحتى الآن لم يقبل أى من أصحاب البشرة السوداء ليعمل كمذيع أو مذيعة. ربما من هو أسمر خفيف، لكن السود، لا. وكأن اللون الأسود عورة تجلب العار على مصر وتفضح افريقيتها. (أدول ٢٠٠١) . لقد انصب جداله على أن لون البشرة الداكن إنما يدل ضمناً على الانتساب لأفريقيا ، مما يؤول إلى خلل اجتماعى مُخز يجلب العار على مصر وكأن اللون الأسود يجلب الخزى لها ويفضح افريقيتها ثم يستمر أدول قائلاً «علينا أن نصمت وكأننا لسنا مواطنين مصريين، علينا فقط أن نضحى من أجل الوطن الكبير مصر ونؤدى ما علينا من واجبات لكن ليس من حقنا أن نأخذ مالنا من حقوق؟ أو أننا لسنا من نفس المستوى الذى عليه أصحاب اللون القمحى أو الأقرب إلى البياض؟» (أدول ٢٠٠١).

استمر أدول معرباً عن قلقه لأن بقاء اللغة النوبية مرهون بالترجمة وكأن فى ذلك ميولا انفصالية تؤدى إلى الهجوم على اللغة العربية وتقسيم وعزل النوبة إيذاناً باستقلالها. لكن ذلك ـ حقيقة ـ نوع من «الكلام المُرسل» وفى النهاية شدد على أن الحكومة المصرية يجب أن تلتزم بوعدها الذى يبلغ من العمر أربعين عاماً متمثلاً فى تعويض أولئك الضحايا الذين رحلوا عن مأواهم بالنوبة جراء بناء السد العالى بعد أن انهال عليهم الفيضان مما حال دون استقرارهم آنئذ. ومن ثم، عُرفوا بالمغتربين أو المهاجرين الرحّل، ثم لم يتسلموا مأوييهم ويرتحلوا الى النوبة الجديدة على الرغم من الوعود الأولية التى ألت بها الدولة على نفسها.

قرر أدول أن إلصاق صفة البرابرة بالمقهى (قهوة البرابرة) إجحاف مشابه لعدم ظهور ذوات البشرة الداكنة فى وسائل الإعلام التى لم تكن بمنأى عن حقوق المواطنة ووطنية النوبيين الذين ضحوا ببيوتهم ووطنهم من أجل الأمة ، ولم يكن جزاؤهم سوى الاتهام بالانفصالية[8].

يقع المقهى[9] الذى حدده خيرى شلبى فى مقاله بميدان التحرير الذى يرتبط بشارع ممتد حتى ميدان عابدين وأيضاً يقع فى منطقة مركزية إلى جوار أحياء مهمة منها قصر النيل والأزبكية وكذلك بولاق حيث يذكر التاريخ نزوح معظم النوبيين إليها من أجل العمل والإقامة (جيزر١٩٨٦) . عامة أطلق على هذا المقهى«مقهى البرابرة» نظراً لتردد العُمّال النوبيين والسودانيين عليه، إضافة الى قربه من أماكن عملهم بوسط المدينة وكذلك بأماكن إقامتهم. هكذا تم تداول مُسمى «قهوة البرابرة» وقد دمغه استقرار مجموعة من النوبيين مكانياً وعنصرياً فى الطريق المؤدية إليه؛ بما يجعل التنافس -حتى اليوم- علنياً لإثبات وجودهم ومن ثم تجاوز تلك الفكرة.

على الرغم من أن الرجال النوبيين المهاجرين كانوا يعملون كأجريين[10] فى الأحياء المصرية المتمدنة وذلك بعد أن انتهى[11] زمن الرقيق/ الاستعباد مع نهاية القرن التاسع عش ، ثم حل النوبيون محلهم فى أماكن الخدمة كأجريين حيث حافظت الطبقة الأرستقراطية نفسها على أن يكون لديها النظام الخدَمى السابق لكن بوساطة النوبيين. ثم أن شَغل النوبيين لتلك الوظائف والظهور عبرها ارتبط فى الوعى الشعبى العام أو فى العقلية المصرية السائدة بالعبودية أو بما يشبه الرقيق. لذلك، بات طبيعياً «التلازم» بين الاستعباد والأشغال الشاقة فى الذهن العام بما يتناسب بشكل خاص مع ذلك العمل (فيرنا وجيرسير ١٩٧٣-ص٣٦-٣٧).

إن تسمية «البرابرة» ترتبط ليس طبقاً للموقع الجغرافى الحضرى للقاهرة فحسب؛ بل أيضاً فى الإسكندرية ومُدن القناة كعلامة على وضع الطبقة الدُنيا فى موقع الخدم لدى الأغنياء والشغل لدى الأرستقراطيين والمحتلين الأجانب.

صورة النوبيين التى أناقشها هم الذين تبعوا نهج البرابرة ، العبيد، الأفارقة أو السود وقد استفحل إنتاج تلك الصورة خاصة فى الأماكن المتحضرة التى ترتكز فى القاهرة، وتكرسها وسائل الإعلام والجرائد الرسمية وكذلك المتاحف. وفيها يتم مناقشة الحيز الأساسى الذى يحتله هؤلاء النوبيون فى المدن وكذلك فى الجمعيات الثقافية، على أية حال، فما سأراه هو الذى سيبين إن كان النوبيون مع أو ضد أوضاعهم مفاضلة حسب شغر أماكن إقامتهم وكذلك الطبقة الاجتماعية والجنس.

لا يعزف النوبى على لحن العبودية

هناك لغتان يتحدثهما النوبيون عموماً هما الكنوز والفدكا وهى التى تمثل العلامة البارزة للاختلاف النوبى فى مصر، بالإضافة إلى بشرتهم القاتمة وتجربتهم المشتركة فى الهجرة والترحال.

حجم الكثافة السكانية فى مصر كان أساسيا فى صعوبة تقدير عدد النوبيين العجائز ولا يوجد مصدر إحصائى يشير بوضوح إلى أن النوبيين معدودون حسب الإحصاءات السكانية المصرية قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ . بينما مثّلوا نصفا فى المائة من عدد السكّان الكُلّى فى مصر عام ١٩٦٠ وقد خمّن جيسر أن العدد التقريبى للنوبيين المصريين كان ١٥٠ ألف نسمة عام ١٩٧٠ (جيسر ١٩٧٣-ص٨٦-٥٩) بينما يمكن أن يُقدر عددهم عام ١٩٩٣ ثلاثمائة ألف نسمة.

ولأنهم يتكلمون لغتى الكنوز والفدكا لذلك فاللغتان لا قيمة لهما من حيث التداول القواعدى والتاريخى بين النوبيين وغير النوبيين. مقابل تداول اللغة العربية فى مصر، على الرغم من أن بعض النوبيين قد يتكلمون بهما منذ دخول الإسلام إلى النوبة خلا الثلاثة عشر أو الخمسة عشر قرناً الماضيين، بينما استبدلت الأبجدية النوبية بأسلوب الكتابة بالعربية فى عام ١٩٨٠، على الرغم من أن أستاذة العلوم الإنسانية عالية رشدى قد وجدت السواد الأعظم من النوبيين يتحدثون بشكل ثنائى اللغة (نوبى/عربى) إلا أنها لاحظت تغيرا شديدا فى أسلوب نطق اللغة العربية الفصحى لديهم (رشدى١٩٩١).

إن مجموع الذين يعرفون اللغتين النوبيتين (الكنوز/ الفدكا) قراءة وكتابة قضوا طفولتهم المبكرة فى النوبة القديمة فنشأوا طليقى اللسان فى إجادة الكلام بلغتهم الأصلية، أغلب هؤلاء الرجال. الذين يعملون فى وظائف منهم المحاسبون ورجال الأعمال والروائيون ـ جاءوا إلى القاهرة أساساً للدراسة فى المرحلة الثانوية أو للتعليم الجامعى. ربما يكون قبل أو أثناء عامى ١٩٦٣- ١٩٦٤ . ارتحلوا ، تزوجوا من النساء النوبيات ثم استقر لهم المُقام كأسر فى القاهرة. لذا، بات قلقهم شديداً لأن لغتهم الشفوية مُحيت لأنها لا تستخدم سوى فى المنازل، كما أن الأجيال الصاعدة منهم لا تتعلمها. لذلك، تعلم الكتابة النوبية لا يحتفظ بوجودها فحسب، بل يثبت بالفعل أنها كانت دارجة فى الاستخدام وليست مجرد لهجة عارضة .

تعلم اللغة النوبية هو المشروع الأول من نوعه فى مصر الذى بلغ ذروته لمدة خمس سنوات من قبل اثنى عشر متحدثاً من مصر والسودان وقد انتعش استخدام اللغة كمستند دال على النوبة فى العصور الوسطى أساساً عند الأقباط واليونانيين

، والكتاب الذى ذكر ذلك انتهى عام ١٩٩٩ تحت عنوان «تعلم اللغة النوبية بالدكا والكنوز على التوالى». وكان فى الأصل أطروحة لنيل رسالة الدكتوراه للدكتور مختار خليل كبارة، وفى الأساس كانت أطروحة كبارة عن المصريات ونالها من مدينة بون بألمانيا ومصادره التى استخدمها كانت المخطوطات المسيحية التى ظهرت فى العصور الوسطى ومن ثم تناولت النصوص النوبية كى تكشف عن أن الأبجدية يمكن أن تتاح للكتابة بكل اللهجات المعاصرة.

دعانى بهجت يوسف -يعمل محاسباً- وبشير عبد الغنى وهو الآن موظف حكومة متقاعد إلى جمعية أبو سمبل حيث تحدثنا واحتسينا الشاى. ضم معبد أبو سمبل جدارية عملاقة تغطى الحائط فى الغرفة الرئيسية وكانت تصور الفرعون رمسيس الثانى صاحب المعبدين فى أبو سمبل.

فى عام ١٩٦٠ نقلت هيئة اليونسكو المعابد القارة فوق المياه المتدفقة خلف سد أسوان، وفى الآن نفسه ارتحل النوبيون المصريون لقرى جديدة فى شمال أسوان على مرأى من حملقة رمسيس لجمعية أبو سمبل التى تحوى أعضاء وأصدقاء يجتمعون على تدخين النرجيلة ولعب الطاولة أثناء مشاهدة التليفزيون القابع أمامهم. وفى إحدى ليالى رمضان فى ديسمبر ٢٠٠١ جلسنا فى غرفة الاستقبال فى المكتب مستمتعين باحتساء الشاى أنا وبهجت وبشير وأخذت أشرح لهما طبيعة ما أقوم به من بحث ثم جاء أحد أعضاء الجمعية ليرحب بى ثم ذكر عضواً آخر من أعضاء الجمعية أنه أرسل مؤخراً خطاباً يحوى شكوى لمحطة التلفزيون المصرى الأولى مدارها حول إذاعة إحدى مسلسلات رمضان التلفزيونية فى رمضان وكانت قصة المسلسل إحدى مؤلفات الروائى المصرى نجيب محفوظ الذى فاز بجائزة نوبل وكانت تحت عنوان «حديث الصباح والمساء»، قصتها تدور زمنياً فى القرن التاسع عشر، بطل المسلسل أرستقراطى فاسق تزوج آخر حياته من خادمته السمراء المسماة «جواهر»، بينما ترك زوجته الأرستقراطية وأولاده. وعلى ما يبدو كان احتجاج نادى النوبيين المقدم إلى قناة التلفزيون نظراً لظهور شخصية جواهر على الشاشة بشكل غير لائق، كما كانت الخلفية الموسيقية للمسلسل موسيقى من الترانيم النوبية . طبيعة اعتراض الجمعية هو حقيقة أن النوبيين لم يستعبدوا هكذا، فضلاً عن أن شخصية جواهر لم تكن نوبية. لذا، فقد تصرف مبدعو المسلسل بشكل غير لائق إثر بتهم للموسيقى النوبية كخلفية للمسلسل المعروض على الشاشة.

مثل حجاج أدول وبعض المثقفين النوبيين الذين حضروا إلى جمعية التراث النوبى وأعربوا عن قلقهم الكبير لعرض صورة النوبيين وتكريسها بشكل سيئ فى وسائل الإعلام التى تظهرهم فى أعمال مهنية أدنى كحراس منازل أو خدم بما يعكس تأدب ذوى الياقات البيضاء الشديد كيف يكون؟. ولتقدير درجة قابلية طبقة النوبيين للهجرة مثل الكثير من الريفيين وخلال مرحلة التعليم دخل ذوو الياقات البيضاء إلى المهن المختلفة مثل غيرهم من المهاجرين وفى داخلهم إيمان بتصحيح الصورة المشوشة عن النوبيين كأحد أبناء صحراء أفريقيا الكبرى و/ أو باعتبارهم فى الأصل عبيداً بدلا من كونهم أبناء وادى النيل، وفى موازاة ذلك يأتى اعتراضهم على إلصاق صفة البرابرة بهم.

يريد النوبيون -أيضاً- أن يمحوا الأفكار الإعلامية التى تتكرر دوماً عنهم فى الأفلام المصرية القديمة التى تصور الفترة ما قبل ثورة ١٩٥٢، كما يعاد الأمر نفسه دوليا أكثر عبر تلفزيونات القمر الصناعى. تجسد هذه الأفلام تاريخ النوبيين على أنهم فى المنزلة الأدنى خلال الحرف التى يعملون بها فى الأعمال الخدمية داخل سياق حياة المدينة. إن ارتباط فعل الاستعباد بالنوبيين أنفسهم كخدم مرفوض على مستويات عدة كما سبق أن أسلفنا، فقد اعتبر النوبيون مناسبين أكثر للعمل فى الأعمال الخدمية بسبب الاقتران التاريخى بالمحو (أى إلغاء وجودهم) وأيضاً نظراً للمهن التى يعملون بها فى المدن.

شارك النوبيون أنفسهم فى تجارة العبيد كمالكين لهم، وقد أدى ذلك الدور كبار السن من أجيال النوبة الأولى فى أواخر القرن التاسع عشر، اثنان من البرابرة من قرية «أبريم» فى النوبة كانوا المسئولين عن توريد العبيد إلى الشمال حيث مدينة القاهرة، كما كونا سوقاً للعبيد فى الإسكندرية (واليز-١٩٧٨- ص٢٤٧) .

استجلب النوبيون العبيد بشكل خاص من مناطق النوبة الجنوبية من بين «الكشاف»، وقبائل ملاك الأراضى التى تؤرخ أصولهم إلى الاحتلال العثمانى للنوبة الذى كان فى القرن السادس عشر، مما سمح بالتزاوج بينهم



قرر أدول أن إلصاق صفة البرابرة بالمقهى (قهوة البرابرة) إجحاف مشابه لعدم ظهور ذوات البشرة الداكنة فى وسائل الإعلام

وبين سكان الأرض الأصليين (فراز وجارسترز١٩٧٣- ص١١ . ١٢).

العائلات المستعبدة وكذلك سلالاتهم شكلوا جزءاً من صغار المزارعين الأجريين بلا أرض (حامد ١٩٩٤) حتى مرحلة الانتقال فى عام ١٩٦٠ كانت التجمعات النوبية تمثل مصالح الأسر من ملاك الأرض فى المدن (حامد ١٩٩٤- ص١٣٩) هكذا كان مجتمع امتلاك العبيد لديه نفسه إجحاف تاريخى عميق حيث حدد أماكن العبيد الحاليين والمزارعين السابقين ذوات الأصول الإفريقية فى وضع اجتماعى أدنى(للمزيد عن موضوع العبودية فى النوبة انظر فرناند وجاستر ١٩٧٣-ص ٣٦، والـ «كاتشا» ١٩٧٨- وكينيدى ١٩٧٧- ١٩٧٨ ووالز ١٩٧٨) .

أيضاً كان الاعتراض النوبى على المسلسل التليفزيونى الرمضانى هدفه المعنى غير الدقيق الذى يجعل النوبيين أنفسهم كانوا مستعبدين مثل الآخرين، كما أن استخدام الموسيقى النوبية قد سهل للمشاهدين إدراك ذلك الأمر فى حد ذاته بما أحدث إساءة للنوبيين فى صورتهم المقدمة عبر شخصية الخادمة.

إن ترسيخ صفة الخدم للنوبيين فكرة شاعت فى الأفلام القديمة، وقد ساعد وجود وجهة النظر نفسها فى وسائل الإعلام كعامل مهم ومؤثر فى تشكيل صورة عامة عن النوبيين فى المجتمع المصرى بينما تستنهض الجمعيات الأهلية النوبية نفسها عبر الزمن والجهد لمواجهة التصورات الإعلامية التى يرسخها الإعلام المصرى. لذلك يستقرون على مقربة من مبنى الإذاعة والتلفزيون المصرى فى قلب مدينة القاهرة. وهناك -أيضاً- مقار عدة صحف رئيسية مصرية. الأحاديث الإعلامية والمناقشات حول صورة النوبيين كلها تأخذ موضع النقاش فى الجمعيات الأهلية، والعدد القليل من الأعضاء قد يظهر أو يساهم فى التليفزيون والبرامج الإذاعية كلما أتيح له الحديث فى ذلك. وللمزيد من المساعدة يوفرون لمعدى البرامج الإعلامية مجالاً يسيراً للاتصال بالعائلات النوبية والأصدقاء فى أسوان وكذلك فى مواطنهم ببعض القرى.

فضلاً عن تنظيم المقابلات والعمل كمستشارين عندما يسألون عن العادات والتقاليد واللغة النوبية إلى جانب تنظيم الزيارات والأعمال المنزلية.

ليست مناقشات الأعضاء المستمرة -بشكل ثابت- الوحيدة المعبرة عن جهودهم الخاصة، لكن الصورة الإعلامية المنتجة عنهم تحدث دونما يتدخلون . ففى الزيارات

التى شهدتها على مدار صيفين فى ١٩٩٧-١٩٩٩، وكذلك أثناء عملى ٢٠٠١-٢٠٠٢ ناقش الأعضاء قاعدة يرسخونها أسبوعياً لمناقشة ما يُقدَّم من برامج إذاعية دقيقة وموثوق بها. لذلك فى الروايات والأفلام وأداء الرقصات الشعبية والمسرح والمقالات الصحفية المتعددة فى الجرائد التى تعرض لصورة النوبيين أو موضوعات عن النوبة فى أغلب الأحيان يتذمر النوبيون من عملية البث الإعلامى.

لذا استحث أعضاء الجمعيات الأهلية النوبية بعضهم البعض على استنهاض المسئولية دائماً لتصوير تراث النوبة بدقة لمنتجى الأعمال الدرامية عن النوبة، هذا وإلا يمكن أن يبحثوا عن أى رجل أسمر كبير السن يتلو تاريخهم[١٢].

ظهور الأفريقيين فى التليفزيون

تؤثر جماليات لون البشرة ليس فقط على الأزواج النوبيين لكن أيضاً على جنسيتهم فى مصر، الجمعيات النوبية الأهلية مقصورة بشكل خاص على الحيز الاجتماعى الذى شغله الرجال ومكان العمل، بينما تحضر النساء اجتماعات الجمعيات أحياناً لكن العضوية تُحسب أساساً بقدر الرجال المعيلين (جيزر ١٩٨٦) على أية حال، فى الاجتماعات المنتظمة لجمعية التراث النوبى يركز الأعضاء على تعلم اللغة النوبية على أن يكون الرجل فى الجمعية سفيراً -فى العضوية- لكل من السيدة والأسرة. وعلى الأغلب لا توجد زوجات ولا أمهات ولتجسيد صورة بنات القرية النوبية الجديدة عموماً والقرى النوبية فيها الواقعة عند مدينة أسوان، فقد ظلت مصادر للعادات والتقاليد النوبية التى من الضرورى أن تُحمى. وفى ظل غياب البؤرة الجغرافية منذ عاش أهل النوبة كبار السن الأصليون فى المكان ظهر الحنين إلى الأصالة النوبية الريفية التى تشعر بها نساء القرى أنفسهن اللاتى يمثلن صورة مجسدة للتقاليد واللغة وطريقة الحياة النوبية القديمة، بينما الرجال -وهم يخوضون غمار الحياة المدنية المتسارعة- يشعرون بالحنين إلى الحياة النوبية الأصيلة فى الريف التى تجسدها نساء القرية أنفسهن.

كانت زينة إحدى المصادر الحقيقية للعادات والتقاليد النوبية التى يتعلم عنها أعضاء الجمعية بالقاهرة بشكل مُغرم بها، كانت رقيقة يبدو عليها أمارات الذكاء على الرغم من أنها تبدو صغيرة فى بدايات العشرينيات تعيش فى مدينة أسوان، تدرس زينة فى جامعة جنوب الوادى[١٣] التى تقع فى منطقة وسطى بين القاهرة وأسوان لأبوين من كنزى وفدكا وذلك نادر، غادرت زينة أسوان ولم تستقر نهائياً فى قرية نوبية، ولم يكن لديها رغبة لتعلم قدر من اللغة النوبية الدارجة.

أثناء عيد الأضحى فى فبراير ٢٠٠٢ الذى يأتى بعد شهر رمضان بشهرين تكلمت زينة عن الاحتجاج الذى قام به النوبيون نتيجة للخلفية الموسيقية التى وضعت فى المسلسل التلفزيونى الذى أذيع فى رمضان مترافقاً مع شخصية جواهر الجارية فى المسلسل.

سافرتُ من القاهرة إلى أسوان لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع زينة وأسرتها. بينما كنا نستمتع بمشاهدة التلفزيون فى اليوم الثانى من العطلة إذا بعرض إعلان جديد عن مسحوق منظف يدعى «اريال» تمثل فى الإعلان امرأة نوبية تعمل خادمة فى أحد فنادق أسوان السياحية. وبأسلوب عمل الشركات متعددة الجنسيات لابد أن يرسخ وجود مسحوق «اريال» وأن لا يكون هناك بديل عنه كمنظف أوحد، وتليفزيون توشيبا يعرض الإعلانات التى ترسخ تلك الأفكار التى يجب ان تشيع فى كل أقاليم مصر. فى إعلان مسحوق «إريال» التجارى عبرت الخادمة النوبية عن النظافة الهائلة التى جعلت ملابسها وملابس أسرتها وخلوها من البقع بعد استعمال نوع مسحوق «إريال» كما يقال فى النوبة أى كل شىء جميل قالت هى بالنوبية كله (آشرى).

عندما بدأ إذاعة إعلان مسحوق «إريال» التجارى سألتنى زينة: هل رأيت إعلانات أخرى، قلت رأيت إعلان سمن «روابى» حيث كانت النسوة النوبيات يغنين ويرقصن فوق مركب يتحدثن شاكرات فى مذاق الطعام بعد الطبخ بـ«روابى»! لا .. قالت زينة مشيرة إلى الرجل النوبى الذى يرتدى زى الرقص الشعبى النوبى، كان يرقص ويطبل مغنياً بالنوبية «ايكا ديللى» أى «أنا أحبك».

قالت زينة «إنها أثناء الدراسة فى أسيوط عندما كانت هى وبعض زميلاتها فى الغرفة من غير النوبيات اللاتى أتين من مدن مصر العليا شاهدن التليفزيون فى بيت الطالبات وعند الإعلان قالت إن زميلاتها استمررن يقلن بأسلوب يؤكد ان التليفزيون يقدمهن كأفريقيات، وأن زميلاتها لا يفهمن أى شىء، ولأنهن جهلة جداً، فقد أردت أن أخبرهن ما الذى آل بنا إلى هذا الحال؟ لأننا كُنّا كنوز وكيشاف لكن كيف أفهمهن التفاصيل وهن حتى لا يعرفن أين تقع كل من أسوان والنوبة على الخريطة وبأنهما جزء حقيقى من مصر. من المفترض أن ينشأ جيل من الشباب الذى يعلم كل ما حوله».

تنهدت زينة بعد ما سردت لى تلك القصة، فما أفرز هذا الحال الإعلان المتعلق بأسلوب الشركات متعددة الجنسيات، فضلاً عن استعمال اللغة النوبية التى ربما تشير إلى أن النوبيين غير مصريين. استمر كلام زينة حيث إن زميلاتها -أثناء عرض المسلسل الرمضانى- كُنّ يدعونها بـ«جواهر» نسبة إلى بطلة المسلسل السوداء، بدون سبب لم تُرد أن تسبر أغوار هذا السلوك. لم يكن فى غرفة زينة فى سكن الطالبات تليفزيون فضلا عن أن دواعى الدراسة كانت تشغلها كثيراً عن متابعة الكثير من برامج ومسلسلات التليفزيون فى رمضان، لكنها قالت: «خلال الشهر وجدت إحدى زميلاتى تدعونى «جواهر» ولم أعرف لماذا؟ اعتقدت أنها ربما تريد أن تنسبنى إلى «جواهر» مطربة الأغنيات الشعبية السودانية، لكنها ليست نوبية، إنها سودانية، وبالطبع هناك اختلاف كبير، أخيراً سألتها لماذا تنادينني بـ«جواهر»؟ قالت: «ألا تشاهدين المسلسل التلفزيونى؟» إنها الخادمة التى تزوجت من سيدها الأرستقراطى» .. اعتقدت أن زميلتى كانت تنادينى بذلك إيماناً منها بأنها بيضاء وجميلة جداً بينما لأننى سمراء فلست كذلك».

وعند المواجهة مباشرة مع تلك الفتاة-شريكتها فى الغرفة- غيرت صورة التلازم الذى يطابق بين جواهر/ الجارية التى تُشاهد كخادمة فى المسلسل التليفزيونى، مع تواصل مشاهدة وسائل الإعلام اكتشفت زينة خطأ المطابقة الذى تعقده زميلاتها بينها وبين جواهر بما يسمها بأنها إفريقية من أصول العبيد أو التعبير صراحة عن القبح نظراً لسواد بشرتها.

لقد باتت تشرح يومياً سوء فعل المطابقة الذى يحدث نتيجة لهذا الخلط والذى يرجع الى الجهل بالتاريخ واللغة والتحيز للون البشرة باعتباره دلالة على الجمال. عندما أعادت علىّ ذكر الحكاية بدا على زينة قدر من الامتعاض من جهل زميلاتها بالأصول النوبية، كما اشمئزت من التقييم الذى يتم داخل غرفتهن المشتركة والقائم على أن البياض هو مقياس الجمال الخاص، كما اعتبرت زينة أن هذا التصرف من قبيل التفكه (النكتة) نظراً لأن قاعدة الاعتراف بها يستند تقييمه على لونها. مع افتراض أن كل شخص قاتم اللون مثل جواهر يقترن بصورة ما بتاريخ العبودية أو بالأفارقة بشكل عام. رغم أن زينة انزعجت -أيضاً- نظراً لعدم معرفة زميلاتها بموقع النوبة الجغرافى فى مصر ومن ثم معرفة تفاصيل تاريخها كما لا يعرفن مطلقا أين تقع النوبة على الخريطة؟ بما يشكل جزءاً من مصر. كما حدد حجاج أدول حجته حول موضوع قهوة البرابرة من حيث حقوق المواطنة كذلك اضطربت زينة من زميلاتها اللاتى لا يعرفن بأنهن جميعاً مواطنات مصريات.

ليس إفريقياً .. بل نوبياً

ربما يشترك النوبيون -أيضاً- فى التقييم السلبى لكل حاملى البشرة القاتمة عامة بين المصريين، فأثناء الاحتفال نصف الشهرى بجماعة الفدكا شاهدت فى تلك السنة الروائى يحيى مختار الذى أهدانى روايته الصادرة أخيراً «جبال الكُحل» ٢٠٠١، وقد اخبرنى عن الحافز الذى دفعه لكتابة هذه الرواية، وغيرها من النصوص وثيق الصلة بالارتحال وحياة الأجداد النوبيين على مقربة من سد أسوان وذلك من أجل مستقبل الأجيال التالية عليهم جيلا بعد جيل، لكن مقام النوبيين الكبار لم يعد له وجود.

رواية مختار «جبال الكُحل» تنتقد تصرف الحكومة تجاه انتقال النوبيين من قراهم متضمنة الصورة المتخيلة للروائى حيث تجسد رؤية النوبيين فى الصحف الرسمية، تصور الرواية الترحال من خلال شخصية المدرس النوبى «على محمود» عبر المفكرة التى يدون فيها فترة تعليمه فى القاهرة وقبلها سنوات المرحلة الثانوية التى قضاها فى المدرسة الحكومية «عنيبة» فى النوبة القديمة.

أعطاه عمه كُتيبا يدعو الى الانتقال من منطقة الإقامة فى النوبة، وقد نُشر قبل الرحيل منذ أكتوبر ١٩٦٣ حتى يونيو ١٩٦٤ بوزارة الشئون الاجتماعية المصرية ضم غلاف الكتاب صورة لثلاثة وجوه لرجل وامرأة وطفل صُورت من الجنب

(بروفيل) وهم يرتدون الملابس النوبية كرؤية رمزية للواقع الاشتراكى الحديث، أصدرت إدارة العلاقات العامة بوزارة الشئون الاجتماعية الكُتيب الذى اكتسى بثلاثة ألوان الأسود والأسمر والأخضر الذى يحمل رمز الصقر والاتحاد الاشتراكى، كُتب العنوان بنمط الأحرف الكبيرة:

آن الأوان للذهاب

إلى النوبة الجديدة

قرأت: «حان وقت العمل الثورى» تحت العنوان كانت صورة رجل وامرأة وابنهما رمزاً للأسرة النوبية ، ثلاثتهم كانوا يبتسمون، لكن وجوههم لم تكن نوبية ، بل كانت قسماتهم إفريقية مثل الزنوج تماماً، شفاه سميكة جدا وأنوف مُسطَحة، بقية الغلاف كان عبارة عن أشكال لمجموعة من البيوت النوبية الفقيرة الموجودة فى كوم أمبو. جمعت الصورة مثالا للقرية النوبية الجديدة التى تضم المدرسة-المصنع-المسجد-المستشفى ويطوّق كل ذلك حقل أخضر.(مختار ٢٠٠١ ص ٦٥)

صدر الكتيب الحكومى لتعبئة النوبيين معنوياً للتطلع إلى الحياة الفارهة عبر الانتقال ضمن إطار اجتماعى للرحيل طبقاً لمحددات ثورة جمال عبد الناصر الجديدة، انتقد يحيى مختار الوجوه الثلاثة على غلاف الكتاب دلالة على الإنسان الزنجى أو معالم الأفارقة السود (شفاه عريضة - أنوف واسعة - لون البشرة الأسود) بما يُفهم بأنهم نوبيون بينما هم ليسوا كذلك.

طبقاً لرؤية مختار تمثل هذه الصور قدرا من جهل السلطات الحكومية المصرية التى أصدرت ومن ثم نفذت النقل الذى يعتبر النوبيين أفارقة بدائيين ، وبذلك يكونون غرباء اجتماعيا وغير مصريين بطريقة ما.

فى غرب أسوان حدث مع أسرة أخرى عندما كانت نورا أولى الحفيدات تبلغ من العمر ستة أشهر سمعت نشيجها «الطفلة الرضيعة سوداء» تؤكد ذلك كلمات امرأة كانت فى منزل نورا فى ذلك الوقت .. أشارت «حسناً .. ماذا نتوقع» تنظر إلى أبويها ثم تعاود النظر إلى نورا الابنة ذات البشرة الأكثر سواداً ، وكذلك إلى صهرها . تقدير نورا كونها الحفيدة الحبيبة أولاً أما التقييم السلبى للون بشرتها الأسمر جدا الذى يطلق عليه(الأسود)بدلاً من الأسمر وذلك كنوع من التقليل الجوهرى لجاذبية اللون للمرأة أكثر من الرجل ، مما يعرّض البنت لمصير يعتبر فرص زواجها غير إيجابية ، مما يُلزم بشعور بالرثاء لنورا. حدث أيضا فى المتحف النوبى أن اعترضت امرأة من غرب أسوان على التجسيد غير الدقيق للنوبيين على أنهم «زنوج» أو «أفارقة».

تحددت القرية التى تقع فى عرض النيل بالقرب من محطة القطار فى مدينة أسوان فوق كل السدود ، لذا لم يتم نقلها سالفاً مع من انتقلت من القرى. ولم أقابل امرأة فى غرب أسوان تعرف يحيى مختار أو يمكن للقلائل منهن أن يجدن القدرة أو الوقت لقراءة روايته، هذا إذا عرفن كيف يقرأن؟ لكن الكل سمع عن متحف النوبة الذى بُنى فوق الهضبة كجزيرة عبر النيل فى أسوان وكذلك زاروه. بنى المتحف بالتعاون بين اليونسكو والمجلس الأعلى المصرى للآثار منذ عشر سنوات حيث تم افتتاحه آخر عام ١٩٩٧فى المتحف المصرى تستقر آثار كثيرة من النوبة كما يظهر الوصف الاثنوجرافى للحياة النوبية القديمة، كتجمع النوبيين الذى يضم الأعضاء فى جمعية التراث النوبى بالقاهرة، مما شكّل قدراً من الاستشارة للمسئولين فى الحكومة عند التخطيط لظهور المتحف الاثنولوجى.

قال أحد أعضاء جمعية التراث النوبى فى مقابلة لى معه فى ٢٠٠١ «نحن مجرد متراس، لا تصدقى ما يُقال» بما يُظهر إحباطه واشمئزازه مما حدث من الدولة واليونسكو.

أكثر النساء المتزوجات اللاتى تعرفت بهن كن ربات منازل لم يشتغلن خارج المنزل، مثل نورا وابنة عمها زوبة اللتين استضافتا مجموعة كبيرة من السائحين لزيارة القرية كجزء مستقطع من يوم الرحلة لأسوان. أثناء زيارة منطقة غرب أسوان عام ١٩٩٨ بعد افتتاح المتحف ، شهدت إحدى النساء شَجب زوبة للعرض الاثنوجرافى لوضع إحدى النسوة العجائز قائلة: «إن النساء النوبيات كبيرات السن كن أجمل من أولئك المعروضات»، كما قالت بأن القائمين على المتحف يصممون التماثيل أكثر سواداً وقبحاً لأنهم يعتقدون أن النوبيين سود إلى جانب ترافق ذلك مع القبح، نماذج تماثيل الشمع المعروضة استندت على صور النوبيين العامة فى أسوان لكن صناعتها تمت فى شركة فى إنجلترا.



هناك لغتان يتحدثهما النوبيون عموماً هما الكنوز والفدكا وهى التى تمثل العلامة البارزة للاختلاف النوبى فى مصر، بالإضافة إلى بشرتهم القاتمة وتجربتهم المشتركة فى الهجرة والترحال

ثم تمت كسوتها بوساطة المسئولين عن المتحف. هذه المرأة وأخريات ممن يعشن فى أسوان أو غربها حضرن لمشاهدة ٢١ مليونا من التحف لتركيز الرؤية الفعلية الجديدة لتاريخ النوبة وثقافتها. الذى غاب إثر استفحال الكثافة السكانية فى مصر.

عامة، اعتبروا تصوير النوبيين بدرجة سواد أشد للبشرة إهانة وهو ما يعزز التصورات المصرية حول أن النوبيين أفارقة وليسوا مصريين. بينما بعض النساء فى غرب أسوان انتقدن ظهور العارضات فى المتحف لمجموعة (سيرينا) من النساء الشابات النوبيات. زرن المتحف وأعجبن كثيراً بالطفرة الحضارية التى أنتجها البحث الحفرى منذ ما قبل التاريخ حتى العصر المسيحى المبكر. كما قدّروا التوازى بين تاريخ مصر الفرعونية بما يُحدثه من ألفة مع الزوار الذين لا يحملون سوى الكتب التعليمية النظرية. وتاريخ النوبة الذى تجسده العصور القديمة.

بعد عيد الأضحى أثناء زيارة للمتحف فى مارس ٢٠٠١ كانت بعض العائلات قد أتت من قرية نوبية فى منطقة «كلابشة» وظهر أن الإفادة من المتحف إنه يعرفنا بالتاريخ الاجتماعى الذى يحدد موقع النوبة من الناحية التاريخية ضمن نطاق التاريخ المصرى الذى يساعد على تمييز النوبيين عن الأفارقة. إحدى النساء الشابات قالت: «بعض الناس باستثناء من ينتسبون الى أسوان.. أولئك من غير النوبيين عامة ، بينما بقية المصريين يتعاملون معنا كأننا من إفريقيا، ولسنا مصريين مثلهم، شعروا بأن المتحف قد يُعرِّف بالنوبيين على أنهم من أصول مصرية، وتلك الحضارة قد بدأت من هنا، من الحضارة النوبية».

قدّرت هؤلاء البنات مزاعم المتحف بأن النوبيين حالياً ودائماً كانوا مصريين بما يحقق بقوة التصورات السلبية بأن النوبيين أفارقة غير متحضرين بهذا المعنى منح المتحف الهوية المتساوية للمصريين والنوبيين فى مواجهة المزاعم الإفريقية عامة.

ولمزيد من التعريف بالقياس الاجتماعى لعدم التمدن النوبى تتصل صفة «الخادم» أو «البربرى» بالمهن التى شغلها آباء النوبيين وأجدادهم بدلاً من نظر المجتمع إلى إنجاز الذى حققه خلفاؤهم، كما أن التصورات التى قرّت فى الذاكرة الاجتماعية عنهم أنهم فى الماضى كانوا فى منزلة أدنى، لكن آخرين يؤكدون أن كل

كتاب الزاوية

فى العبودية المختارة

طمع الطغاة

إن الشرارة تستفحل نارها وتعظم، كلما وجدت حطبًا زادت اشتعالاً ثم تخبو وحدها دون أن نصب ماء عليها، يكفى ألا نلقى إليها بالحطب كأنها إذا عدمت ما تهلك تهلك نفسها وتمسى بلا قوة وليست نارًا. كذلك الطغاة كلما نهبوا طمعوا، كلما دمروا وهدموا، كلما موناهم وخدمناهم زادوا جرأة واستقووا وزادوا إقبالاً على الفناء والدمار. فإن أمسكنا عن تموينهم ورجعنا عن طاعتهم صاروا، بلا حرب ولا ضرب، عرايا مكسورين لا شبه لهم بشىء إلا أن يكون فرعًا عدمت جذوره الماء والغذاء فجف وذوى.

إن الشهام لا يخشون الخطر من أجل الظفر بمطلبهم كما أن الأذكياء لا يحجمون عن المشقة. أما الجبناء والمغفلون فلا يعرفون احتمال الضرور ولا تحصيل الخير وإنما يقفون عند تمنيه، يسلبهم الجبن قوة العمل عليه، فالرغبة فى امتلاكه إنما تلصق بهم بحكم الطبيعة. هذه الرغبة، هذه الإرادة الفطرية أمر يشترك فيه الحكيم والملتاث ويشترك فيه الشجاع والجبان. به يودون تلك الأشياء التى يجلب اكتسابها السعادة والرضى. شىء واحد لا أدرى كيف تركت الطبيعة الناس بلا قوة على الرغبة فيه: الحرية التى هى مع ذلك الخير الأعظم والأطيب حتى إن ضياعها لا يلبث أن تتبعه النواكب تترى وما يبقى بعده تفسده العبودية وتفقده رونقه وطمعه. الحرية وحدها هى ما لا يرغب الناس فيه لا لسبب فيما يبدو إلا لأنهم لو رغبوا فيها لنالوها، حتى لكأنهم إنما يرفضون هذا الكسب الجميل لفرط سهولته.

شخص يذكر كلمة «بربرى» بشكل غير متعمد حتى لا تكون إحالة عليهم.

فى ربيع ٢٠٠٢ زارت زينة وأمها وشقيقتها القاهرة من أجل المتابعة الطبية، حاولت إقناع الأم بقبول دعوتى لهن لأن يبقين فى ضيافتى بدلا من الفندق ، بينما شددت الأم على رفضها وتمسكت به ، ثم شكرتنى كثيراً ثم قالت: «أنا عنيدة، امرأة بربرية، لا يمكن إثنائى عن رأيى» مستخدمة تعبير «معقدة» إشارة إلى نفسها.

كلام عائلتى كل من زينة ونورا فى غرب أسوان، والسيد على ويحيى مختار وحجاج أدول فى القاهرة وكل التجارب المعقدة التى تخلط بين لون البشرة القاتم والانتقال الاجتماعى والمكانى من إفريقيا إلى مصر ومن قرى الجنوب إلى مدن الشمال يجابهه تكرار التأكيد على عكس ذلك.

على الرغم من تفحصى للنقاش حول وسائل الإعلام التى لا تعتبر أن لون البشرة ليس وحده فحسب مقيماً للجمال ذلك من ناحية الفتنة والانجذاب تجاه شخص أسمر(فيرنيا ورشدى ١٩٩١–٢٠٠) كان اللون أيضاً مصدرا أساسيا كعلامة على طبقة النوبيين الحالية والسالفة والمفترضة، وكذلك كان مصدراً لشغل الأعمال الخدمية . أحياناً يمكن أن يحدد الأصول الإفريقية للشخص سابقاً أو حالياً سواء كان من أهل العبيد السود على مدار التاريخ أم كان من الصحراء الكُبرى الإفريقية المعاصرة وليست أصوله من مصر أو من وادى النيل.

إن الخلط بين اللون والعبودية والسُلالة الإفريقية المفترضة تضع - فى كفة واحدة- الكُنية النوبية والآخرين، كما تتم المناقشات والخبرات بشكل مختلف حول تلك العائلات اللاتى هاجرت من النوبة إلى القاهرة فى النصف الأول من القرن العشرين . آنذاك لم تكن لترتحل تلك القرى أبداً، والأجيال النوبية المتحضرة الصغيرة التى نشأت فى المدن ربما لم تكن لتعرف النوبيين الأول أو اللغة النوبية.

مراجع الموضوع

١ . فيرنيا روبرت أ- جورج جيستر ١٩٧٣ «النوبيون فى مصر: تعايش البشرى- اوسترن- منشورات جامعة تكساس.

٢ ـ فيرنيا، روبرت أ- عاليا رشدى.١٩٩١«النوبيون فى مصر المعاصرة». النوبيون فى المصريات، تحرير اليزابيث ورنوك و روبيرت أ فيرنيا ١٨٣- ٢٠٢.

٣ ـ جيزر، روبرت ١٩٨٦ النوبيون المصريون دراسة فى التكافل الاجتماعى القاهرة- إصدارات قسم النشر بالجامعة الأمريكية

٤ ـ حمدى، السيد ١٩٩٤ «النوبة الجديدة: دراسة انثربولوجيا فى المجتمع المصرى» القاهرة عين للعلوم الإنسانية والدراسات الاجتماعية.

٥ . الكتشا، سميحة.١٩٧٨ تغيرات مراسم الزواج النوبى فى حياة الاحتفائية النوبية: دراسة فى زمنية الإسلام والتغير الثقافى - تحرير جون. ج. كينيدى، ١٧١-٢٠٢، بيركلى جامعة كاليفورنيا.

٦ . كينيدى. ج. جون.١٩٧٧ النضال من أجل تغير الطائفة النوبية «الفردية فى المجتمع التاريخ» -باللو التو: مايفيلد.

٧ ـ ـــ١٩٧٨، المعالجة النفسية لمراسم الزار«فى الاحتفالات النوبية دراسات فى دراسة فى زمن الإسلام والتغير الثقافى» تحرير جون. ج. كينيدى، ٢٣-٢٠٣، بيركلى جامعة كاليفورنيا.

٨ . مختار، يحيى ٢٠٠١ جبال الكُحل -رواية من النوبة . القاهرة دار الهلال.

٩ . تعليم اللهجة النوبية . القاهرة . مركز الدراسات والوثائق النوبية ١٩٩٩.

١٠ . أدول، حجاج «حول مصطلح الأدب النوبى» مجلة القاهرة . نوفمبر.

١١ . ـــ ٢٠٠١ رسالة حب الى الأديب الكبير خيرى شلبى- جريدة الأسبوع- ديسمبر.

١٢ . بيسشكا، رومان ١٩٩٦ «النوبيون فى مصر والسودان» الإكراهات واستراتيجيات الحجارة «ساربوركن، المانيا، فيرلدج فوج انتوكلنجز-بولتيك- سيبروكين.

١٣ . هلبة، رشدى ١٩٩١- النوبيون ولغة النوبة فى مصر المعاصرة: دراسة فى الحالة الثقافية والاتصال اللغوى- ليدن- بيرل.

١٤ . صالح، محيى الدين ٢٠٠٠ «من عالم النوبة فى القرن العشرين» الجزء الأول- القاهرة- النسر الذهبى للطباعة.

١٥ . والز، تيرينز ١٩٧٨، «التجارة بين مصر وبلاد السودان(١٧٠٠-١٨٢٠) القاهرة - المعهد الفرنسى للحفريات الشرقية .



يريد النوبيون -أيضاً- أن يمحوا الأفكار الإعلامية التى تتكرر دوماً عنهم فى الأفلام المصرية القديمة التى تصور الفترة ما قبل ثورة ١٩٥٢

هوامش:

(١) ذكر لى الكاتب حجاج أدول أن اسم الرجل النوبى المُعمّر الذى جمعهم للصلح هو محمد سليمان جد كاب وهو من أهم الحاملين للتراث النوبى والمحافظين عليه. (المترجمة)

(٢) الروائيون النوبيون كانوا حجاج أدول وإدريس على ويحيى مختار وخليل كلفت كما ذكر حجاج أدول فى مقاله الذى رد به على خيرى شلبى. (المترجمة)

(٣) نُشر رد الروائى النوبى حجاج أدول فى مقال تحت عنوان رسالة حب الى الأديب الكبير «خيرى أشرى.. ماس-كاجنا» باللغة النوبية بمعنى «خيرى الجميل.. لعلك بخير» فى جريدة الأسبوع العدد ٢٤٩ فى ٢٦ نوفمبر. (المترجمة)

(٤) استخدم مصطلح «اتنوجرافيا» أو البحث الميدانى فى فرنسا حتى الحرب العالمية الثانية إشارة إلى واحد من العلوم الإنسانية الذى يميل- حصريا- الى دراسة المجتمعات البدائية، وعلى الانتربولوجيا مهمة إجراء التحليل المقارن للمجتمعات والثقافات. للمزيد راجع معجم الاثنولوجيا والانتربولوجيا-المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر-بيروت-ط١-٢٠٠٦-ص٢٤. (المترجمة)

(٥) Gender بمعنى جنس والجذر الثلاثى لفعل جَنس له دلالات متنوعة ويُشتق منه عدد من المعانى التى استقرت دلالاتها التى ترتبط بمفاهيم عرقية (كالاجناس البشرية) ومنطقية كالجنس الأعم من النوع، وغريزية كالجنس الشبق، وبلاغية كالأجناس الشعرية، لكن مصطلح الجنوسة يؤدى معنى التشكيل الثقافى والاجتماعى للذكورة والأنوثة. راجع مجلة ألف الصادرة عن الجامعة الأمريكية العدد ١٩ سنة ١٩٩٩ . (المترجمة)

(٦) لعلها تقصد جامع ودار مناسبات طلعت القواس اللصيق بالجمعية أو جامع كخية بشارع قولة امتداد التحرير بمنطقة عابدين . (المترجمة)

(٧) كتب خيرى شلبى عن شخصية داريا سكينة وهى أهم شخصيا، رواية الشمندورة، للكاتب النوبى خليل قاسم . (المترجمة)

(٨) كتب سلامة أحمد سلامة فى مقاله اليومى بجريدة الأهرام تحت عنوان «حق لأبناء النوبة» قال: إننى أضم صوتى الى أصوات أبناء النوبة فى ضرورة إعطاء الأولوية لأبنائهم؛ إذ لا تنمية حقيقية بغير جهد حضارى وتراثى من أصحابه الأصليين. (المترجمة)

(٩) يطلق عليه مقهى وادى النيل نظراً لمن يضمهم من السودانيين والمصريين وربما يكون بالفعل وجود النوبيين به أطلق العنان لمن سموه كذلك. (المترجمة)

(١٠) عامل بالأجرة اليومية. (المترجمة)

(١١) يقصد بكلمة outlawed الخارج عن القانون أو سقوط الحق المدنى فى قضية ما لكنها أتت فى السياق بمعنى انتهاء فعل ما (المترجمة)

(١٢) أسوة بمن لا يزالون يسردون سيرة أبى زيد الهلالى فى بعض المقاهى. (المترجمة)

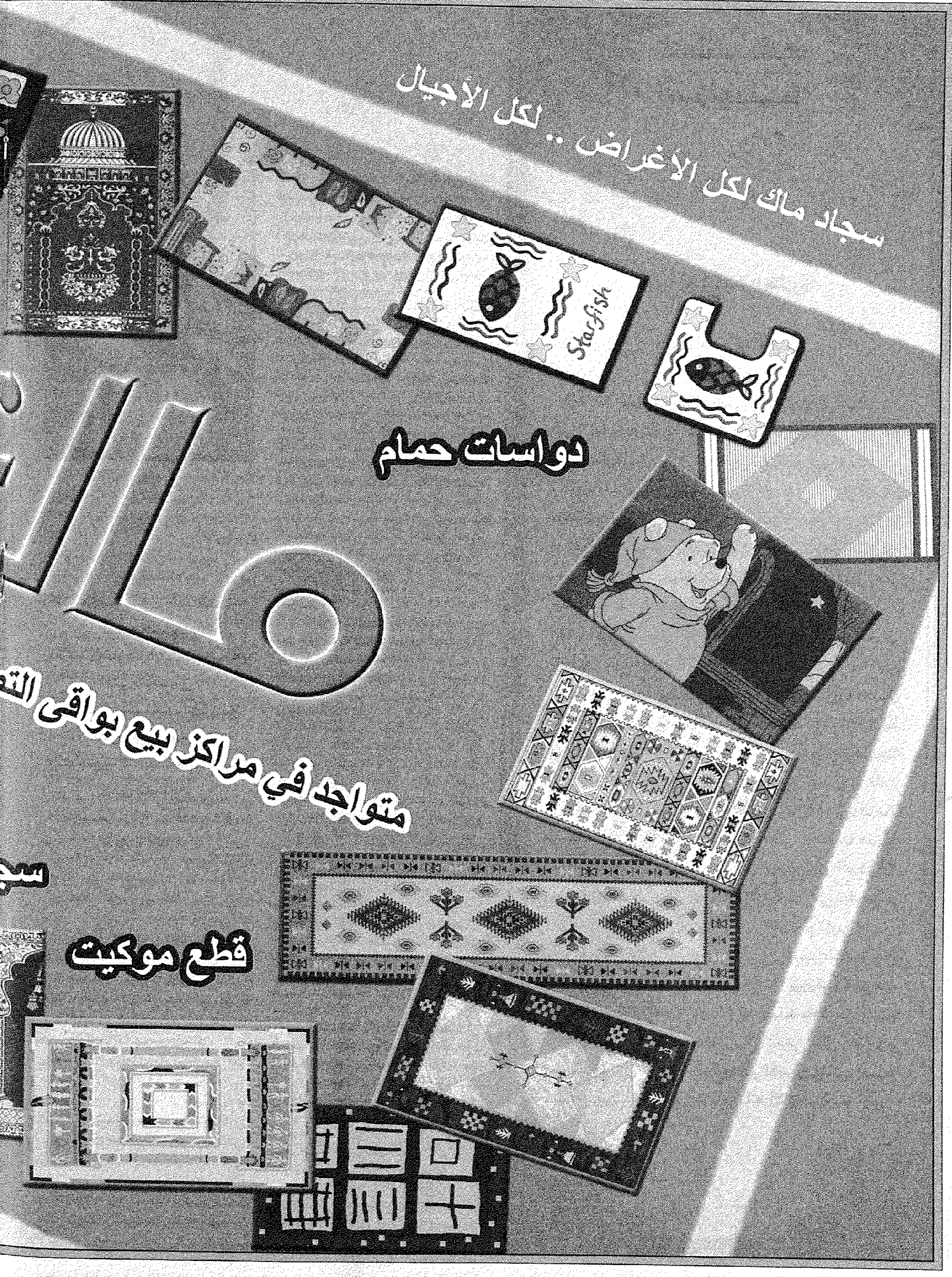
(١٣) تقع فى مدينة أسيوط ولم يذكرها النص صراحة، بل ذكر أنها فى منطقة جنوبية على مقربة من المدينة الإقليمية أسوان. (المترجمة)

كتاب الزاوية

فى العبودية المختارة

صناعة الطاغية

يا لذل شعوب فقدت العقل ويا لبؤسها، يا لأمم أمعنت فى أذاها وعميت فى منفعتها، تسلبون أجمل مواردكم وأنتم على السلب عيان. تتركون حقولكم تنهب ومنازلكم تسرق وتجرد من متاعها القديم الموروث عن آبائكم! تحيون نوعًا من الحياة لا تملكون فيه الفخر بملك ما حتى لكأنها نعمة كبرى فى ناظركم لو بقى لكم ولو النصف من أملاككم وأسركم وأعماركم، وكل هذا الخراب، هذا البؤس وهذا الدمار يأتيكم لا على يد أعدائكم بل يأتيكم يقينًا على يد العدو الذى صنعتم أنتم كبره والذى تمشون إلى الحرب بلا وجل من أجله ولا تنفرون من مواجهة الموت بأشخاصهم فى سبيل مجده. هذا العدو الذى يسودكم إلى هذا المدى ليس له إلا عينان ويدان وجسد واحد، ولا هو يملك شيئًا فوق ما يملكه أقلكم على كثرة مدنكم التى لا يحصرها العد إلا ما أسبغتموه عليه من القدرة على تدميركم. فأنى له بالعيون التى يتبصص بها عليكم إن لم تقرضوه إياها؟ وكيف له بالأكف التى بها يصفعكم إن لم يستمدها منكم؟ أنى له بالأقدام التى يدوسكم بها إن لم تكن من أقدامكم؟ كيف يقوى عليكم إن لم يقو بكم؟ كيف يجرؤ على مهاجمتكم لولا تواطؤكم معه؟ أى قدرة له عليكم إن لم تكونوا حماة للص الذى ينهبكم، شركاء للقاتل الذى يصرعكم، خونة لأنفسكم؟ تبذرون الحب ليذريه. تؤثثون بيوتكم وتملأونها حتى تعظم سرقاته. تربون بناتكم كيما يجد ما يشبع شهواته. تنشئون أولادكم حتى يكون أحسن ما يصيبهم منه جرهم إلى حروبه وسوقهم إلى المجزرة ولكى يصنع منهم وزراء مطامعه ومنفذى رغباته الانتقامية.

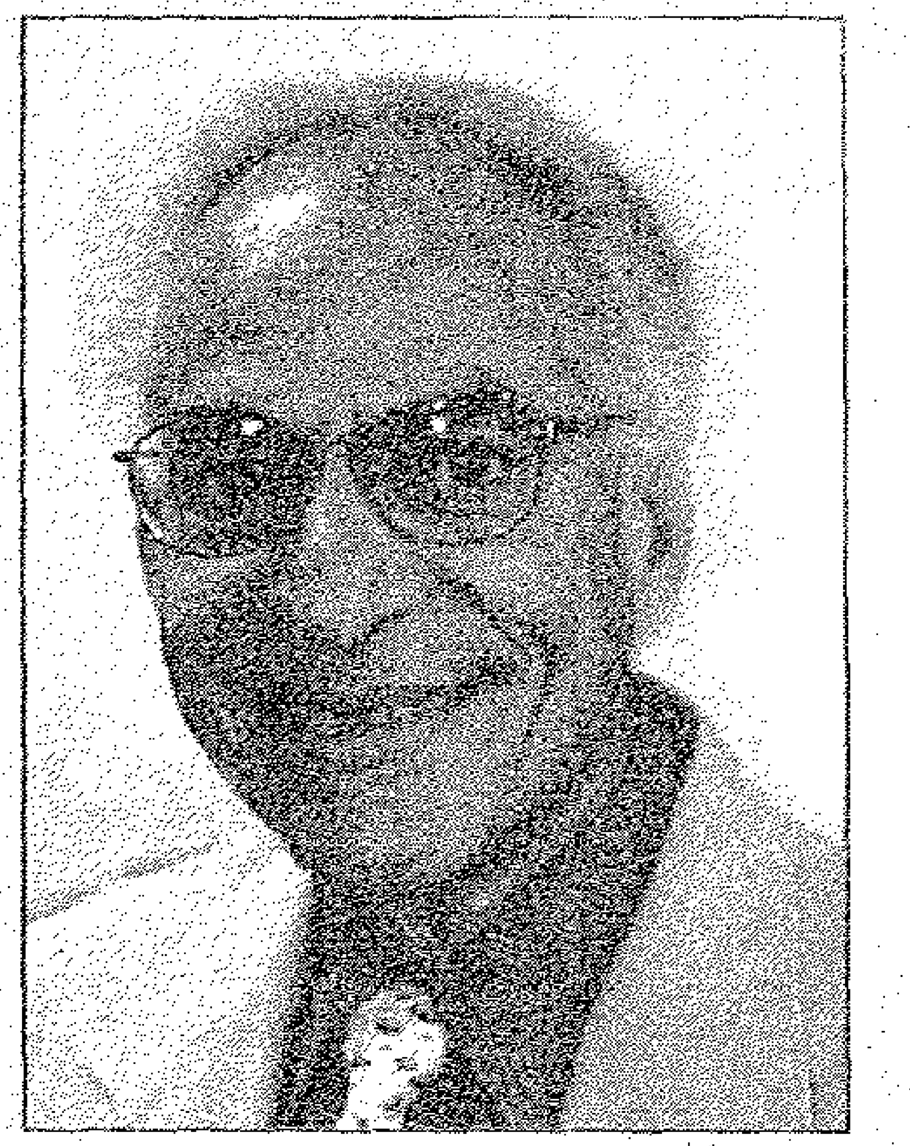


سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقي التـ
سجـ
قطع موكيت


سجاد أطفال
ISO 9001:2000
ISO 14001
ISO 18001
صدير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
ادة صلى
www.maccarpet.com

ممر التنمية والتعمير

هيا بنا



فاروق الباز

■■ بدأت فى دراسة صحارى مصر منذ ثلاثين عاماً، وأعتقد أنها يمكن أن تؤهل حياة كريمة لعدد كبير من السكان. لذلك لا يصح أن تبقى مدن مصر مكتظة بالسكان فى نطاق وادى النيل الضيق ودلتاه. ينتج عن هذا التكدس مصاعب حياتية كثيرة منها ضياع الوقت فى التنقل وعدم توفر الغذاء الصحى وتكدس المدارس إضافة إلى الآثار البيئية السيئة. إذاً يجب علينا أن نبحث عن سبل تؤهل جذب نفر غفير من أبناء مصر للعيش الكريم خارج هذا النطاق الضيق، فى كل من صحراء سيناء والصحراء الشرقية والصحراء الغربية.

لا يتم جذب السكان إلى أماكن جديدة إلا إذا توفرت فرص العمل فى ميادين مختلفة مع وجود المسكن الملائم وسبل المعيشة الهادئة الآمنة. فقد تعلمنا من مشروع الوادى الجديد فى الواحات الخارجة والداخلة والفرافرة وكذلك مشروع تعمير سيناء وحديثا من مشروع توشكى أن الغالبية العظمى من الشعب المصرى لن تفضل العيش الدائم بعيداً عن بلد الأصل. فيسافر المصرى باحثاً عن عمل فى أى مكان طالما أنه يخطط إلى العودة إلى بلده وأهله. لذلك يجب التفكير فى فتح آفاق عديدة لجذب السكان بالقرب من مدن وقرى وادى النيل والدلتا ليشعر الناس أنهم ما زالوا بالقرب من بلد الأصل.

ويتفق الجميع أن الوضع قد تفاقم كثيراً خلال نصف القرن الماضى لعدة أسباب، ولم يتمكن أولو الأمر من القيام بما يلزم من مبادرات تعنى بالوصول إلى الغرض المنشود ألا وهو ازدهار الاقتصاد الوطنى.

فى نفس الوقت ازداد عدد السكان ازدياداً مطرداً فى عدم وجود ما يكفى من فرص العمل أو إعداد المواطنين والمواطنات من الشباب لما تتطلبه سوق العمل فى العصر الحديث. نتج عن ذلك ركود فى الإنتاجية مما أضر بالاقتصاد الوطنى أكثر فأكثر وبقيت مصر فى موقع لا يليق بها بين باقى الأمم.

تقدمت بلاد كثيرة مثل كوريا وماليزيا وإندونيسيا وتركيا وجميعها يتصف بكثرة عدد السكان. نتج نجاحها من وضع سياسات أهلت التقدم الإنتاجى وفتحت آفاقا جديدة لشعوبها لكى تتنافس مع مثيلاتها. أما فى مصر فما زال الشعب يعانى من مشاكل كثيرة سدت طرق التقدم والرفاه.

فى وضعنا الحالى لا يكفى إقامة مدينة جديدة هنا ومركز صناعى هناك، أو إنشاء طريق يسهل الوصول إلى موقع ما. لابد أن تكون هناك خطة شاملة متكاملة لفتح آفاق فى ميادين كثيرة فى كل من الدلتا والصعيد والنوبة. طبعا لا يتم ذلك بين عشية وضحاها، ولكن يلزم التخطيط له حتى إذا تطلب الأمر عشرات السنوات. هكذا الحال فى المقترح الذى أقدمه فى هذا الكتاب والذى نتج عن معرفتى بمواصفات الصحراء الغربية فى مصر.

تؤهل هضبة الصحراء الغربية القيام بما يتطلبه تعزيز واقع التنمية والتعمير بموازاة نهر النيل. لذلك فلقد اقترحت ممر التنمية والتعمير منذ عشرين عاما وأعيد طرحه الآن لازدياد أهميته. ولقد آثرت إعداد هذا الكتاب لتكون المعلومات الأساسية فى يد كل قارئ يهتم بمستقبل بلاده. ويحدد ما جاء فى هذا الكتاب ملامح برنامج التوسع العمرانى والزراعى والصناعى والتجارى والسياحى رويداً رويداً على مسار ١٢ محورا يصل طولها الكلى إلى ١٢٠٠كيلو متر، تبدأ من مراكز التكدس السكانى وتمتد غرباً حتى تصل إلى طريق من ساحل البحر المتوسط شمالاً حتى بحيرة ناصر فى الجنوب بطول ١٢٠٠ كيلو متر تقريباً وعلى مسافة تتراوح بين ٢٠ و ٣٠ كيلو متراً من حافة هضبة الصحراء الغربية. يفتح هذا الممر بأكمله آفاقاً جديدة للامتداد العمرانى والزراعى والصناعى والتجارى والسياحى حول مسافة تزيد عن ٢٠٠٠كيلو متر. لم تتمكن الحكومات فى الماضى من الأخذ بالمشورة لأسباب مختلفة. ولأن مصر فى حاجة ماسة إلى مخرج من الوضع الاجتماعى الصعب فى الوقت الحالى بالذات، فإننى أعيد طرح المقترح ليتم النظر فيه بمشاركة الناس، وربما للتنفيذ بأموال مستثمرين من القطاع الخاص الوطنى أولاً ثم العربى ثانياً ثم العالمى ثالثاً.

يُعتبر النقل من أساسيات التقدم والازدهار على مر العصور، ونحن نعلم أن قيام الدولة المصرية القديمة منذ أكثر من خمسة آلاف عام اعتمد على النيل كطريق يربط شمالها بجنوبها حيث كانت تنتقل من خلاله الناس والأخبار والغذاء والمنتجات والبضائع ورجال الأمن وجامعو الضرائب وكل ما يمثل كيان الدولة وسر بقائها. كذلك اعتمد الإغريق والرومان والعرب على تسهيل وتأمين النقل فى جميع أرجاء حضاراتهم. وفى العصر الحالى نمت أوروبا بعد إنشاء شبكات الطرق السريعة فيها. وكذلك تفوقت أمريكا على باقى العالم الغربى باستخدام ثرواتها الطبيعية أحسن استخدام، مما استدعى إنشاء شبكة متميزة من السكك الحديدية والطرق فى جميع أرجائها.

وبالنسبة لنا فى مصر لا يصح إنشاء شبكة طرق جديدة فى وادى النيل والدلتا لأن فى ذلك اعتداء على الأرض الزراعية المُعتدى عليها أصلاً نتيجة النمو الكبير للكتل السكانية العشوائية وغير المُرخص لها فى أغلب الأحيان. هذه الأراضى الخصبة رسبها نهر النيل العظيم على مدى ملايين السنين. ولقد تكدس سكان مصر فى مساحة محدودة منها نتيجة الزيادة المستمرة فى عدد السكان، ولا يعقل أن نستمر فى العيش على ٥٪ من مساحة أرضنا مع الاستمرار فى البناء فوق التربة الزراعية. لذلك فلابد من فتح آفاق جديدة للتوسع العمرانى والزراعى والتجارى خارج نطاق وادى النيل الضيق.

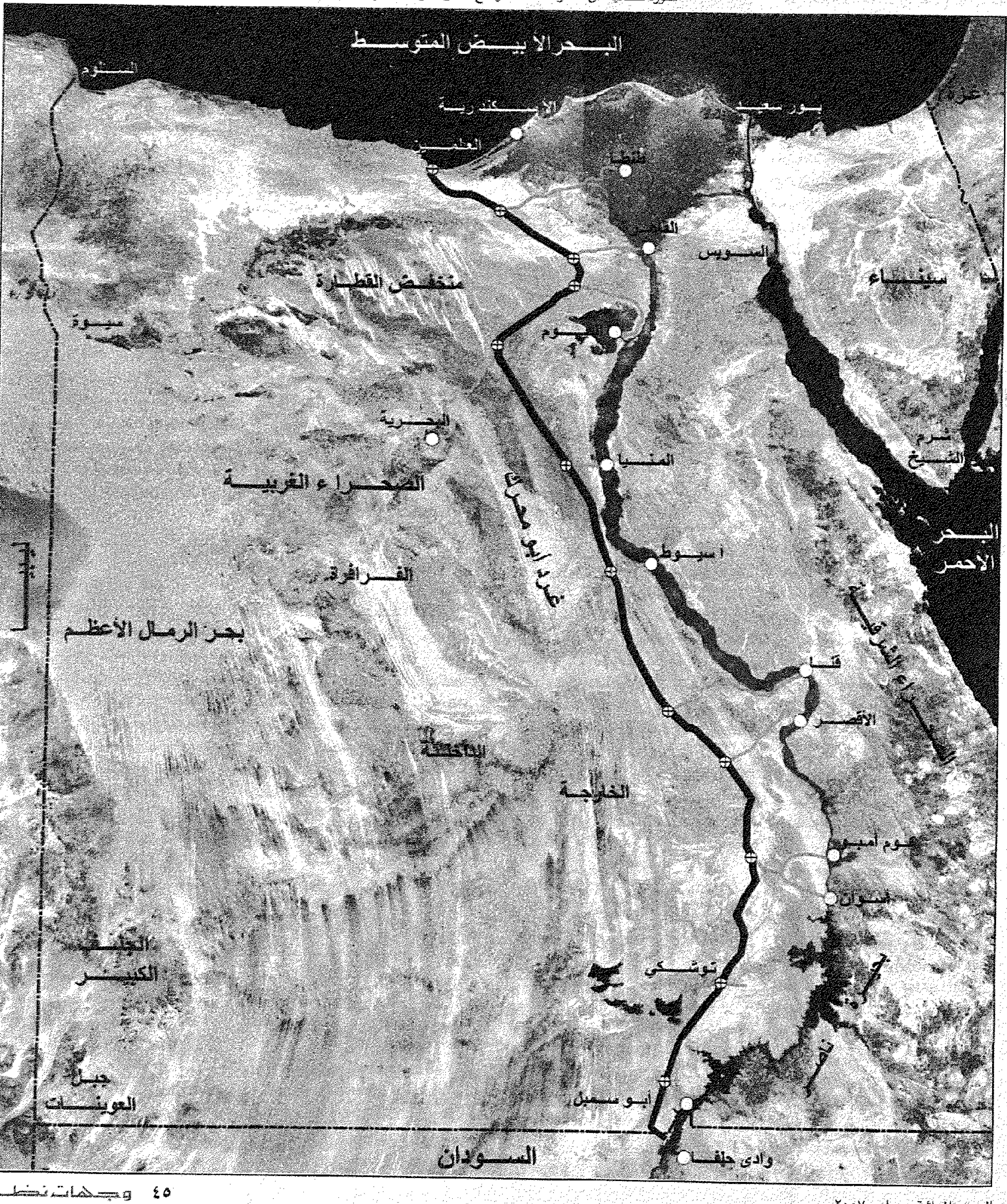
يؤهل المقترح الحالى، إضافة إلى تسهيل النقل بين

لابد أن تكون هناك خطة شاملة متكاملة لفتح آفاق فى ميادين كثيرة فى كل من الدلتا والصعيد والنوبة

صفحات من كتاب:
ممر التنمية والتعمير وسيلة لتأمين مستقبل الأجيال القادمة فى مصر
فاروق الباز
يصدر هذا الشهر عن دار «العين للنشر». القاهرة.

.. «غـــربـــا»

صورة فضائية من أقمار لاندسات توضح مسار ممر التنمية والتعمير



أطراف الدولة، الحد من التوسع العمراني في وادي النيل والدلتا بفتح آفاق جديدة للنمو بالقرب من التجمعات السكانية الكبرى ومجالات لا حصر لها في استصلاح أراض صحراوية وإنشاء مشاريع جديدة للتنمية في مجالات الصناعة والتجارة والسياحة. كما يعطى المقترح أملاً جديداً لأجيال المستقبل باستخدام أحد عناصر الثروة الطبيعية وأقربها إلى التجمعات السكانية الحالية وهو الشريط المتاخم لوادي النيل في الصحراء الغربية.

لقد أختير هذا الجزء من الصحراء الغربية بناء على خبرة في تضاريس مصر وإمكاناتها التنموية. يتكون الشريط المتاخم لوادي النيل من هضبة مستوية بميل بسيط من الجنوب إلى الشمال بموازاة النيل. ولا تقطع المنطقة أودية تهددها السيول كما هو الحال في شرق النيل أو كثبان رملية متحركة كما هو الوضع في المنخفضات غرب المنطقة. كذلك تتواجد مساحات شاسعة من الأراضي التي يسهل استصلاحها لإنتاج الغذاء إضافة إلى احتمالات تواجد المياه الجوفية.

الصحراء وتاريخ تطورها

يقطع مسار الممر المقترح الصحراء الغربية في مصر من شمالها إلى جنوبها بموازاة الدلتا ووادي النيل. لذلك يلزم في بادئ الأمر التعرف على تضاريس الصحراء على وجه العموم وعلى تاريخ تطور صحراء مصر الغربية على وجه الخصوص. وسوف ألخص ما تعلمته عن هذه الأمور من خلال مشاركتي في التخطيط للتصوير من الفضاء ثم دراسة الصور ثم الرحلات الميدانية التي تعرفت فيها على تضاريس صحارى العالم بأجمعه.

منذ أن اضطررت للعمل خارج الوطن في عام ١٩٦٧ شاركت أولا في مشروع أبوللو لاستكشاف القمر. كنت مسئولاً خلال الست سنوات الأولى عن تدريب رواد الفضاء في الملاحظات العلمية والتصوير من مدار القمر، وكذلك اخترت سكرتيراً للجنة اختيار مواقع هبوط سفن أبوللو على سطح القمر. لزم لذلك اختيار وإعداد ما يلزم من أجهزة التصوير ودراسة الصور دراسة مستفيضة للتعرف على تضاريس القمر تعرفاً يسمح باختيار المواقع الآمنة والمهمة علمياً.

ونجحت رحلات قمرية هبط في كل منها رائدان على سطح القمر وعادا سالمين بما جمعاه من صور وعينات صخرية ومعلومات كثيرة.

أصرت وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» على تطبيق ما تعلمناه خلال رحلات أبوللو في كيفية دراسة الأرض وكواكب المجموعة الشمسية الأخرى من المدار. تم في عام ١٩٧٢ البدء في مشروع المعمل السماوي «سكاي لاب» لمدار الرواد حول الأرض. كذلك بدأ مشروع «لاندسات» للأقمار غير المأهولة بالرواد لتصوير الأرض وبثها آلياً من الفضاء. كذلك بدأ التخطيط لرحلة أبوللو. سيوز الأمريكية - الروسية المشتركة والتي انطلقت إلى مدار الأرض في يوليو ١٩٧٥. اختارتني ناسا لإعداد رواد الفضاء لتصوير الأرض على غرار ما فعلناه من مدار القمر في مشروع أبوللو. اشتمل التخطيط على تصوير أجزاء كثيرة من صحارى العالم. وكانت الصحراء الغربية أحد المواقع الرئيسية التي كلفت الرواد بتصويرها لأن معارفنا عنها كانت قليلة.

أوضحت الصور الفضائية الكثير من التضاريس بتفصيل غير مسبوق. وللتأكد من الدقة في تفسير هذه الصور قمت بزيارات ميدانية في الصحارى بشمال أفريقيا وشبه الجزيرة العربية والأمريكتين واستراليا والهند والصين.

الأهم من ذلك كله بدأت منذ ثلاثين عاماً مشروعا بحثيا لدراسة الصحارى المصرية والصحراء الغربية على وجه الخصوص. تمركز المشروع في جامعة عين شمس بمشاركة أساتذتي وزملائي بقسم الجيولوجيا في كلية العلوم. شارك في الرحلات الميدانية خبراء من هيئة المساحة الجيولوجية ومركز الصحراء ووزارة الزراعة واستصلاح الأراضي والجامعات المصرية والمحافظات.

حددت الصور الفضائية مسار هذه الرحلات الميدانية. وفي كل مرة تجوب أقدامنا في هذه الصحراء الواسعة التي تشتمل على ثلثي مساحة مصر تعلمنا الجديد. ومع أن هذه الصحراء الجذابة ما زالت تحتفظ بأسرار لا حصر لها عن تضاريسها وتاريخ تطورها مع الزمن، فلقد علمتنا الكثير. في مبدأ الأمر علمتنا الصحراء الغربية كيف نفسر تضاريس الأرض الجافة على سطح كوكب المريخ الذي مر بنفس مراحل التطور. علمتنا هذه الصحراء المعطاءة كيف يلزمنا مقارنة ما نراه في سهولها مع تضاريس مشابهة في أراض جافة أخرى على سطح الأرض. علمتنا هذه الصحراء العتيقة أنه يجب التمعن في دراسة الصحراء لأننا لا نعرف عن الصحراء إلا القليل.

أثناء اهتمامي بدراسة الصحراء الغربية وما توضحه لنا تضاريسها، اختارني الرئيس الراحل محمد أنور السادات مستشاراً علمياً، وفي بداية عام ١٩٧٨ سألني أن أركز على إمكانية التنمية في صحارى مصر وخاصة الصحراء الغربية. لذلك كنت أخصص القسط الأكبر من ملاحظاتي العلمية أثناء الرحلات الميدانية على ما يمكن الإفادة منه تنموياً واقتصادياً. ركزت في هذه الملاحظات على احتمال التوسع في الإعمار للحفاظ على أراضي وادي النيل والدلتا، واستصلاح الأراضي الصحراوية الصالحة للزراعة لإنتاج الغذاء، وكذلك الاستخدام الأمثل للثروات المعدنية.

هذه الصحراء الجذابة
ما زالت تحتفظ بأسرار
لا حصر لها عن تضاريسها
وتاريخ تطورها مع الزمن،
فلقد علمتنا الكثير

اتضح من الأبحاث في الصحراء الغربية أساسيات كثيرة يمكن تطبيقها على باقي الصحراء العربية في شمال إفريقيا وشبه الجزيرة العربية. يهم الحديث عن ممر التنمية والتعمير بعض هذه الأساسيات مثل ما يلي:

أولاً: أصبح حزام الصحراء العربية في صورته الحالية منذ حوالي ٥٠٠٠ عام (أي منذ وقت انبعاث الحضارة المصرية القديمة). أما الحقبة ما بين ٥٠٠٠ عام وحوالي ١١.٠٠٠ عام فكانت تتميز بهطول أمطار غزيرة كانت تغذي أنهاراً عديدة تصب أكثرها في بحيرات كبيرة. سبق هذه الحقبة الممطرة حقبة جافة ثم حقبة ممطرة أخرى ثم حقبة جافة وهكذا الحال. دامت كل حقبة من هذه الأحقاب المتتالية من ٦ إلى ٣٠ ألف سنة، واستمر هذا الحال على الأقل طوال نصف المليون سنة الأخيرة.

ثانياً: نتجت رمال الصحراء من تفتيت الصخور في أعالي الهضاب إلى الجنوب بواسطة مياه الأمطار أثناء الأحقاب الممطرة السالفة الذكر. تحركت حبات الرمال مع المياه الجارية على السطح إلى الشمال في أودية حيث تجمعت في منخفضات وترسبت في قاع البحيرات. معظم الصخور التي جاءت منها الرمال تتكون من «الحجر الرملي النوبي» نسبة إلى كثرته في بلاد النوبة أي جنوب مصر شمال السودان. واسم النوب جاء أصلا من المصرية القديمة ويعني الذهب لأن جبال المنطقة غنية بالذهب.

ثالثاً: نتج عن تغيير المناخ منذ ٥٠٠٠ عام أن قلت الأمطار وجفت مياه الأنهار وكذلك البحيرات. عندئذ بدأت الرياح تتفاعل مع الرسوبيات التي تعرضت للهواء. ومن المعروف أن الرياح في الصحارى العربية تأتي من الشمال. لذلك فلقد نتج عن حركة الرياح من الشمال إلى الجنوب تصنيف هذه الرسوبيات تبعا لحجم المكونات إلى التراب الذي يقل حجم حبيباته عن ٠.٢ ملليمتر يندفع مع الهواء ويصلنا على شكل عواصف ترابية مثل رياح الخماسين في الربيع. الحصى الذي يزيد حجم حبيباته عن ٢ ملليمتر لا تستطيع الرياح زحزحته ويبقى على سطح الصحراء. الرمال التي يتراوح حجم حبيباتها من ٠.٢ إلى ٢ ملليمتر تتجمع نتيجة زحزحة الرياح لها على شكل كثبان رملية. تتكون كثبان عديدة في الصحراء الغربية وخاصة في بحر الرمال العظيم وهي

طولية الشكل وفى أماكن أخرى تقل فيها كمية الرمال تتكون الكثبان الهلالية الشكل. ولقد قيست حركة الأخيرة فى الواحات الخارجة والداخلة واتضح أنها تتراوح ما بين ٢٠ و١٠٠ متر فى السنة (أصغر الكثبان أسرعها) ولا يغير من مسار الكثبان إلا الطبيعة الطبوغرافية، لذلك فتجنب مسارها فى أى عمل إنمائى مهم للغاية.

رابعاً: لأن الرمال قد جاءت أصلا مع المياه التى تجمعت فى بحيرات، فإن أماكن تجمع الرمال كانت المياه تتسرب فى باطنها أثناء الأحقاب الممطرة. يتم هذا التسرب إما من خلال المسامية الأصلية أى الفجوات بين حبيبات الصخور أو المسامية الثانوية التى تؤهلها الشقوق والفوالق فى الصخور والتى تسهل مرور السوائل فى مساراتها.

يعنى هذا أن الرمال فى الصحراء الغربية تكونت نتيجة لأمطار غزيرة فى الماضى، وانتقلت من الجنوب إلى الشمال (تماما كما يصلنا نهر النيل اليوم حاملا، قبل السد العالى، الطمى والرمال من الهضبة الأثيوبية فى كل صيف). ترسبت حبات الرمال مع الطمى فى قاع البحيرات التى انتهت إليها الأنهار وروافدها. بعد أن تغير المناخ إلى الجفاف واختفت المياه من مسارات الأنهار، بدأت الرياح فى تكوين الكثبان الرملية واستمرت فى نقلها جنوباً. يدل ذلك على أن الأماكن التى تكثر فيها الكثبان الرملية (مثل بحر الرمال العظيم) هى ما تحتوى على الأكثر من المياه الجوفية.

مع أن هذا الكلام علمى بحت يشرح توزيع الكثبان الرملية فى الصحراء المصرية ولكن له تطبيقات هامة جدا فى الحديث عن التنمية والمهم أيضا أن هذه النظرية قد أثبتها حفر الآبار فى كل من بحر الرمال العظيم ومنتصف مسطح رمال سليمة.

فى حالة بحر الرمال العظيم قامت وزارة البترول بحفر بئر استكشافية بعمق يزيد عن كيلو متر فى كل من جنوب واحة سيوه وجنوب غرب واحة الفرافرة (فى غرب الموهوب) أى على حدود بحر الرمال العظيم الشمالية والشرقية. لم يتم استكمال البئرين لاندفاع كميات هائلة من المياه الجوفية، مما يدل على تواجدها بكميات هائلة تحت الكثبان الرملية.

فى حالة مسطح رمال سليمة بالقرب من الحدود مع السودان تم حفر أكثر من



٥٠٠ بئر فى منطقة «شرق العوينات». كذلك تمت زراعة وحصد كل من القمح والحمص فى المنطقة وكسبت الشركات المنتجة لها. يؤكد ذلك أن ما تبوأ به العلم فيه فائدة للناس فى هذه الصحراء التى تبدو لأول وهلة أنها جافة ولا يمكن أن تنطوى على حياة.

ما هو ممر التنمية والتعمير؟

يشمل مقترح ممر التنمية والتعمير على خمسة مكونات رئيسية هى:

١- محور طولى للسير السريع بالمواصفات العالمية يبدأ بالقرب من العلمين ويستمر حتى حدود مصر الجنوبية بطول ١٢٠٠ كيلو متر تقريباً.

٢- اثنا عشر محوراً من الطرق العرضية التى تربط الطريق الرئيسى بمراكز التجمع السكانى على طول مساره بطول كلى حوالى ١٢٠٠ كيلو متر.

٣- شريط سكة حديد للنقل السريع بموازاة الطريق الرئيسى.

٤- أنبوب ماء من بحيرة ناصر جنوباً وحتى نهاية الطريق على ساحل البحر المتوسط لاستخدام الإنسان على طول المحور الطولى.

٥- خط كهرباء يؤمن توفير الطاقة فى مراحل المشروع الأولية لحين تيسير مصادر الطاقة المتجددة للمشروعات الإنمائية مستقبلاً.

يجب فى دراسات الجدوى الاقتصادية للمشروع النظر فى هذه المكونات على أساس الأولويات التى تؤهل الاستفادة السريعة لكل منها. مثلا لا يعقل أن يبدأ العمل فى المحور الطولى من الشمال إلى الجنوب الذى يبعد كثيراً عن مواقع التكدس السكانى فى الوادى والدلتا. بدء العمل فى المحاور العرضية يؤهل تواجد مخرج للإنماء الفورى بالقرب من المدن والقرى ويسمح بالتوسع العمرانى غرباً فى أوائل البدء فى المشروع.

كذلك عند إرساء مخطط المحور الطولى من الشمال إلى الجنوب يمكن تقسيمه إلى عدة أجزاء أو البدء فيه من نقطة فى الشمال أو الوسط ونقطة أخرى فى توشكى مثلا لكى يبدأ ربط المنطقة بمحافظات الصعيد لتسهيل سفر العاملين فى المشروع إلى بلادهم.

طبعا يعتمد ذلك على نتائج دراسات الجدوى التفصيلية وما توضحه من منافع اقتصادية.

لابد أن يشمل تحديد الأولويات فى دراسات الجدوى على أحسن السبل لإقامة باقى مكونات المحور الطولى من سكة حديدية وأنبوب ماء وخط كهرباء. ربما كان من الأفضل البدء فيها جميعاً فى نفس الوقت مع الطريق لإقلال التكلفة. وربما كان من الأحسن أن يتم إنشاء بعضها فى أول الأمر وإكمال الأخرى فى وقت لاحق. المهم أن ينظر فى المشروع بأكمله ويتم التخطيط السليم لكل مكوناته لينتج عن ذلك مخطط مدروس من النواحى الاقتصادية والاجتماعية والإنمائية تسمح بجمع ما يلزم له من مال الاستثمار الخاص بدعم من التشريعات الحكومية اللازمة.

إضافة إلى ذلك يجب عرض تسمية المشروع ومكوناته جميعا على الناس. لابد من مشاركة المواطنين فى هذا العمل منذ بداية المشروع. يشمل هذا ليس فقط اسم المشروع أو المحور الطولى ولكن أسماء المحاور العرضية وخاصة المدن والقرى التى تنشأ على جوانبها. ربما أقيمت مسابقات فى المدارس والجامعات لمشاركة الطلبة والطالبات فى اقتراح أسماء لكل هذه وإشهار الجوائز الرمزية والمالية لأحسن المقترحات بناء على قبول أهل كل منطقة بالمقترحات. مشاركة الناس فى مثل هذا العمل يشعرهم بأن المشروع منهم ولهم.

يا حبذا لو بدأت محافظات مصر المعنية بالنظر فى هذا الأمر داخل حدودها. أى مبادرة فى النظر بجدية فى المشروع لها عائد، ولا يصح أن ينتظر الناس أن يقوم آخرون بكل عمل يهم مستقبلهم. المشاركة فى تحديد مسار المستقبل هى من أهم أسس الديموقراطية. كذلك فالحرية الشخصية لابد أن يوازيها الشعور بالمسئولية تجاه المجتمع والعمل للصالح العام.

بناء على ما سلف فإنى أقترح على كل معلم فى مراحل التعليم المختلفة أن يختار موضوعاً مهما لمناقشته مع الطلاب وسؤالهم التفكير فيه ودراسته لإعطاء الرأى عنه أمام باقى الطلبة أو الطالبات بغض النظر عن نتائج مثل هذا العمل بالنسبة للمشروع فأهميته فى خلق روح المشاركة لها وقع

على نفوس الشباب وازدياد شعورهم بالمسئولية والولاء والانتماء.

يقع مسار ممر التنمية والتعمير فى مسطح مستوى من الصحراء الغربية بموازاة مسار وادى النيل. أهم صفات هذا الشريط هو خلاؤه من الجبال والتلال والمنخفضات. إضافة إلى ذلك تقل الرمال فى هذا الشريط حيث لا تتقاطع معه خطوط الكثبان الرملية إلا فى القليل النادر. وكما هو الحال فى باقى الصحراء الغربية تشتد أشعة الشمس والرياح مما يسمح باستخدام هذه المصادر للطاقة المتجددة فى المستقبل، أى الطاقة الشمسية وطاقة الرياح، وذلك فى المشروعات الإنمائية الجديدة.

يشرح ما يلى المكونات الأساسية للمقترح ابتداء بأهمها وذلك للنقاش العام حولها فى مؤسسات الدولة ووزاراتها المختلفة وبواسطة أخصائى دراسات الجدوى وبين المهتمين فى الجامعات ومراكز البحوث وفى المحافظات المعنية وبين عامة الناس.

١ - المحاور العرضية:

يشتمل المقترح على اثنى عشر محوراً عرضياً يمتد ثمانية منها فى الصعيد من مواقع المدن الكبرى وثلاثة منها فى مواقع رئيسية بالدلتا وآخر فى منخفض الفيوم. تسمح هذه المحاور أو المسارات العرضية بالامتداد العمرانى غرباً رويداً رويداً. هذا يعنى أن أهميتها أنها تضيف بعداً جغرافياً لعدد من المحافظات التى تعانى من الاختناق فى الوقت الحالى. يجب فى هذا الصدد التذكير بأهمية التخطيط السليم للإنماء على طول هذه المسارات، فلا يصح النمو العشوائى فى تلك المناطق بل لابد من التخطيط لتنظيم النمو والخدمات بصورة حضارية.

لأن المحاور العرضية هى الأماكن التى ينتظر أن تتم فيها أول المشاريع للتنمية المختلفة يمكن أن تبدأ دراسة المقترح بأولوية البدء فى إرساء مسارات هذه الطرق وتحديد آفاق التنمية فيها، لأن الإنماء تختلف متطلباته فى الإعمار والزراعة والصناعة والسياحة، إلخ.

٢ - المحور الطولى:

يمثل المحور الطولى من الشمال إلى الجنوب العنصر الفقرى لممر التنمية والتعمير يبدأ المحور على ساحل البحر المتوسط فى موقع يتم اختياره بالقرب من العلمين، ويؤهل إنشاء ميناء عالمى جديد يُضاهى الموانئ العالمية الكبرى فى المستقبل. يؤخَذ فى الاعتبار الحاجة إلى توفير استخدام تكنولوجيا المعلومات الحديثة فى التعامل السهل السريع مع الصادرات والواردات والبضائع المؤقتة. ويُعيد مثل هذا الموقع المكانة المرموقة للإسكندرية بين الموانئ العالمية.

يتكون الطريق الرئيسى من ثمانية ممرات على الأقل، اثنين لسيارات النقل واثنين للسيارات الخاصة ذهاباً وإياباً. كما يلزم أن يُمهد الطريق وفق المواصفات العالمية التى تسمح بالسير الآمن السريع دون توقف إلا فى حالات الطوارئ ومحطات الاستراحة والوقود ومراكز تحصيل رسوم السير. وربما يستدعى تأمين صلاحية الطريق إنشاء مؤسسة خاصة تقوم بتحصيل الرسوم اللازمة لهذا الغرض على مشارف الطرق العرضية.

٣ - السكة الحديدية:

يشتمل ممر التعمير المقترح على شريط سكة حديدية للنقل السريع بموازاة الطريق الرئيسى. تؤهل هذه الوسيلة نقل الناس والبضائع والمنتجات من جنوب مصر حتى ساحل البحر المتوسط لا سيما أن السكة الحديدية الحالية تُعانى من الكهولة. كما لا يصح إنشاء سكة حديدية جديدة داخل وادى النيل لأن فى ذلك تعديا على الأراضى الزراعية.

تؤهل السكة الحديدية للنقل السريع شحن الأسماك من بحيرة ناصر التى تذخر بالثروة السمكية إلى مواقع التكدس فى شمال وادى النيل. كذلك تُمكن الوسيلة من الاستخدام الأمثل فى الصناعات الثقيلة كصناعة الحديد والأسمنت. فتواجد السكة الحديدية الجديدة سوف يجعل النقل من الميناء إلى المصنع ثم نقل المُنتج من المصنع إلى السوق يتم فى سهولة ويسر وبتكلفة أقل، هذا بالإضافة إلى الحد من الزحام الناتج عن حركة الشاحنات على الطريق الصحراوى أو الزراعى الحالى. ويصح أن تكون السكة الحديدية هى آخر مراحل المشروع إكمالا لأن الحاجة القصوى لها تتضح بعد إنشاء المصانع وبدء إنتاجها.

٤ - أنبوب الماء:

يلزم توفير الماء الصالح للشرب بطول الطريق الرئيسى فوق هضبة الصحراء الغربية. يُفضل نقل الماء من بحيرة ناصر أو قناة توشكى داخل أنبوب لمنع البخر أو تسرب الماء فى الصخور. ويشمل التخطيط لمشاريع التنمية المختلفة على طول الممر استخدام المياه الجوفية فى الزراعة والصناعة، ولكن الحاجة إلى الماء للاستخدامات البشرية خلال المراحل الأولى للمشروع يتطلب توفير الأنبوب المذكور وخاصة على مسار الطريق الرئيسى وكذلك على مسار محور الأقصر لاستخدام الماء فى المنتجعات السياحية كما يلى الذكر.

ربما يلزم المشروع خلال تلك المرحلة أنبوب قطره متر واحد أو متر ونصف. وهذا ليس بكثير لأن ليبيا قد أقامت النهر الصناعى العظيم لنقل الماء العذب من آبار صحرائها فى الجنوب إلى مدنها على ساحل البحر المتوسط فى أنبوب قطره أربعة أمتار وبطول ٢٠٠٠ كيلومتر. وكما هو الحال فى ليبيا، بعد ضخ الماء إلى مستوى الهضبة يتم نقله من الجنوب إلى الشمال بالميل الطبيعى لسطح شمال أفريقيا.

٥ - خط الكهرباء:

يلزم للمقترح إنشاء خط كهرباء للإنارة والتبريد على طول الطريق الرئيسى، وخاصة لأن مسار الطريق يمر فى منطقة صحراوية لا تتواجد فيها متطلبات التنمية الأساسية، خلال المراحل الأولى للمشروع. فى نفس الوقت يجب تشجيع مشاريع التنمية العمرانية والزراعية والصناعية والسياحية المُنظمة واستخدام مصادر الطاقة المستدامة كالطاقة الشمسية وطاقة الرياح.

لابد فى هذا المجال من الإشارة إلى أن مصر سوف تبدأ فى استخدام الطاقة الشمسية لإنتاج الكهرباء بعد تدشين مشروع كبير فى عام ٢٠٠٧ أو ٢٠٠٨. إضافة إلى ذلك يمكن استخدام الطاقة الشمسية فى تسخين الماء وتبريد الهواء فى المبانى الجديدة. كذلك يمكن استخدام طاقة الرياح فى ضخ المياه الجوفية كما كان الحال بطول الساحل الشمالى فيما مضى. ومع ارتفاع أسعار النفط فى الوقت الحاضر علينا أن نحافظ على هذه الثروة للتصدير واستخدام ثرواتنا الطبيعية الأخرى.

كنت قد تطرقت فى مقالة نشرتها قبل حوالى العام إلى أهداف جيلى والتى شملت تحقيق أمانى الشعب العربى التالية:

أولا: وحدة الدول العربية: حيث آمنا بأن المؤسسات الرئاسية سوف تعمل على جمع شملها فى كيان واحد يرفع من مقامها بين باقى الأمم.

ثانيا: تحرير فلسطين: مع اعتقادنا بقدرة المؤسسات العسكرية على ذلك بدلا من السعى إلى إقناع الضمير العالمى بإعادة حقوق الفلسطينيين.

ثالثا: تحقيق العدالة الاجتماعية: حيث ساد تطبيق «الاشتراكية العربية» التى نتج عنها سوء الإنتاج وتدهور الاقتصاد الوطنى وتفشى الفساد.

رابعا: محو الأمية: وهنا اعتقدنا أن الوزارات يمكنها تدريب طلبة الجامعات فى فصل الصيف لتعليم الأميين فى المدن والقرى والواحات.

أقر مرة أخرى بأن جيلى قد فشل فشلا ذريعا فى تحقيق أى من هذه الآمال. إذا ما اتضح ذلك، فلا مكان لجيلى فى قيادة هذه الأمة ويجب أن يتنحى. يلزمنا جيل أكثر حيوية ونشاطاً أقل سناً يتصف بالشجاعة والقدرة على الريادة لينتشل الوطن من الوضع المأسوى الحالى. شق طريق جديد يستلزم رؤية جديدة لجيل شاب. لذلك يلزمنا أولاً أن يعترف جيلى بالفشل ويحدد الأخطاء التى أدت إليه لكى يستطيع جيل جديد نشيط من المضى فى طريق آخر.

بدلاً من الاعتماد على المؤسسات كما هو الحال فى بلدنا يلزمنا بناء الفرد الذى يستطيع أن يطور المؤسسات ويقودها خروجاً عن مسارها الحالى. يجب أن نضع ثقتنا فى الإنسان، نُعده للعمل لصالح الأمة ونثق بالفكر والابتكار والتجديد. لا يتم ذلك إلا فى وجود الاحترام الكامل للإنسان رجلاً كان أو امرأة، ليضيف الفرد ما هو أحسن فى جو يسوده تبجيل الفكر والمعرفة وتشجيع المبادرة وتقدير الامتياز فى واقع تسود فيه الشفافية واحترام المبدعين.

لن أكون مبالغاً إذا ما ذكرت أن العرب فى كل مكان ينتظرون رفعة مصر لأن فى ذلك رفعتهم جميعاً. ولم يكن للعرب مكانة فى أى وقت من الزمان إلا فى وجود مصر القوية كالعمود الفقرى الذى تلتف حوله البلدان العربية كلها. لذلك يلزم أن يبدأ الإصلاح والتجديد فى مصر على أسس علمية صحيحة لصالح الوطن وباقى أمة العرب من المشرق إلى المغرب.

هذا يعنى أننا نحتاج إلى جيل يتصف بالثقة بالنفس والشجاعة الأدبية. أى تقدم فى أى مجال يستلزم الثقة بالنفس، وهذه لا تأتى إلا من خلال العلم والمعرفة والتدريب الدائم. من يثق بنفسه يحترمه الآخرون وهذا الاحترام يحث على المزيد من المعرفة وهكذا ترقى المجتمعات المتحضرة.

اقتناء العلم والمعرفة لا يتم بسهولة. فهو يستلزم احترام الوقت والتفانى فى

يلزمنا جيل أكثر حيوية ونشاطاً أقل سناً يتصف بالشجاعة والقدرة على الريادة لينتشل الوطن من الوضع المأسوى الحالى

العمل. يجب أن يعتبر العمل المضنى شرفاً كبيراً وليس حملاً ثقيلاً. لابد أيضاً من تغيير فكر من يلهث للوصول إلى الثروة المالية فى أسرع وقت وأسهل وسيلة. الجيل الذى نحتاجه جيل يحترم العمل للصالح العام ولا يسيطر عليه فكر جمع المال وكثرة المقتنيات. معنى هذا أننا نحتاج إلى تجميل النفس البشرية فى بلادنا لكى ينهض الجيل الصاعد ويحيى الوطن من جديد ليحتل مكانة لائقة بين الأمم كما فعل أجدادنا.

أطفالنا وأحفادنا يشعرون بذلك وبينهم من يتعجب للوضع المتدنى الذى وصلنا إليه. على سبيل المثال، عادت حفيدتى ياسمين (١٠ سنوات) من مدرستها فى واشنطن لتخبر أمها أن المُدرسة ذكرت اسم مصر فى أول درس من دروس التاريخ، وأضافت أن المُدرسة قالت أن التاريخ يعيد نفسه وسألت أمها هل هذا صحيح؟ فعندما أجابتها الأم بالإيجاب سألت بحماس شديد: هل هذا يعنى أن مصر يمكن أن تعود عظيمة مرة أخرى؟

الإجابة على سؤال هذه الصغيرة، التى تعيش بعيداً ولكنها تحتفظ بذكرى مصر فى قلبها وعقلها، يستدعى التفكير الثاقب والعمل الدءوب فى سبيل رفعة هذا البلد الذى يستحق موقعاً متقدماً بين الأمم.

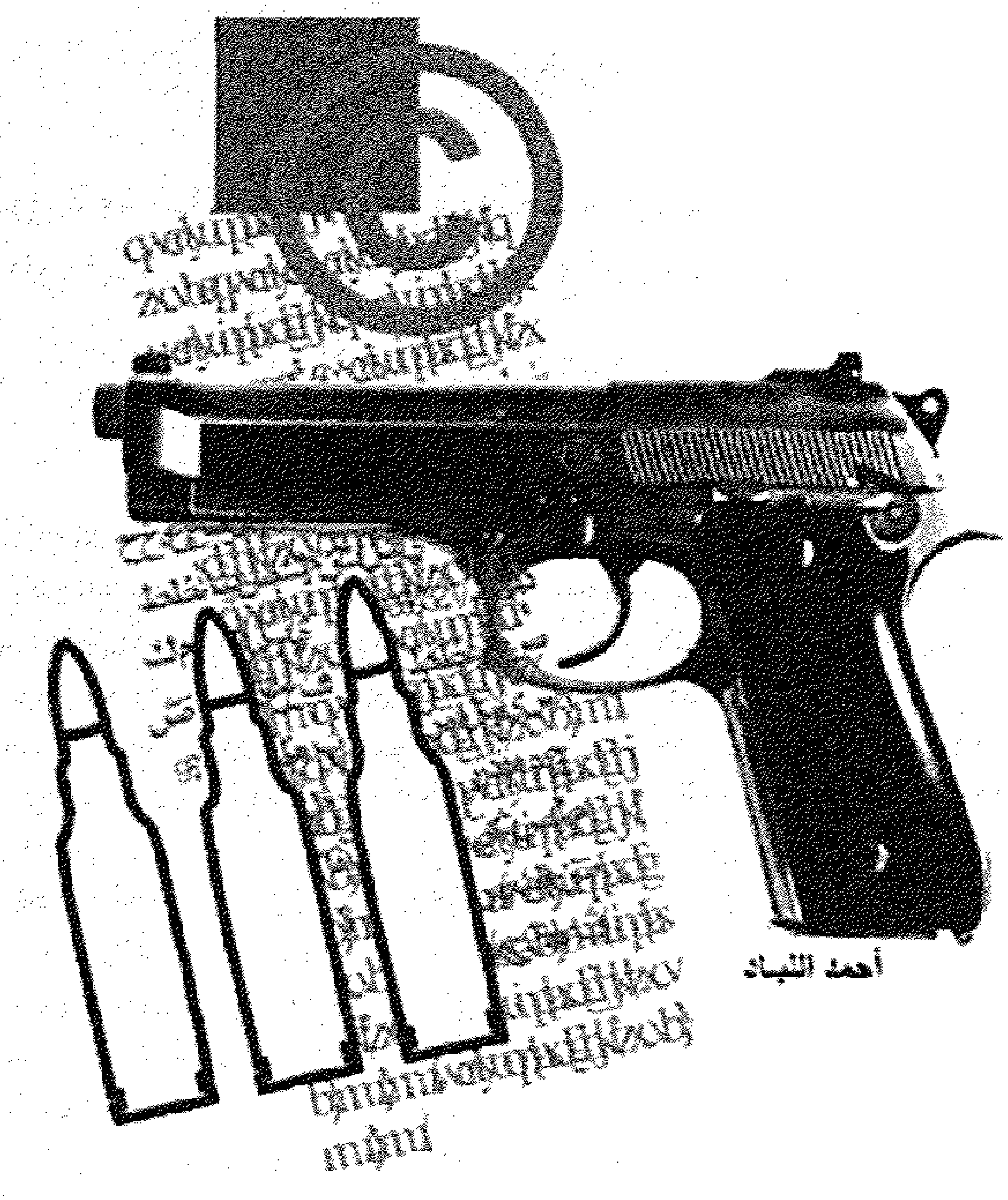
فمصر كانت على مدى العصور منبعاً للحضارة والفكر والعلم والثقافة والفن والبناء وحسن الأداء. ولكن بين آونة وأخرى تخبو فيها شعلة الحضارة وينطوى شعب مصر على نفسه وكأنه فى غيبوبة لا يعى بما يدور حوله فى العالَم، ولكن سرعان ما يفيق هذا الشعب العظيم من الغثيان وينتفض بكل حيوية ونشاط لكى تتوهج شعلة الحضارة مرة أخرى فى أرض مصر.

لقد أثبت تاريخ الأمم أنه منذ خلق الله الإنسان على سطح الأرض ازدهرت الحضارة بين أى مجموعة من الناس إذا توافرت فى مجتمعهم ثلاثة مقومات أساسية هى: إنتاج فائض من الغذاء (مما يجعل الناس تنمو أجسادهم قوية ومخيلاتهم صحيحة) وتقسيم العمل بين أفراد المجتمع تقسيماً مناسباً (الذى يستدعى ترقية أهل الخبرة والمعرفة وحسن الإدارة وليس أهل الثقة) وتأهيل الحياة الكريمة فى المدن (لكى يتمكن البعض منهم من الإبداع والابتكار فى عملهم).

إذاً لن تعود مصر دولة عظيمة إلا إذا تحسنت أوضاعنا بالنسبة إلى المقومات الثلاثة. وبناءً على مزايا ومنافع ممر التعمير المقترح بموازاة الدلتا ووادى النيل فى الشريط المتاخم من الصحراء الغربية يمكنه أن يؤهل الوصول إلى الغرض المنشود خلال عقد أو عقدين من الزمان على الأكثر. كما أن من شأنه أن يُخرج مصر من الوضع الحالى بمآسيه المختلفة. لذلك فإننى مقتنع تماماً أن المشروع المقترح يمكن أن يعيد الحيوية والإنتاجية لشعب مصر ويؤهل لهذا البلد الطيب المعطاء الوصول إلى موقع متميز بين أعظم بلدان العالم مرة أخرى.

فى نهاية المطاف، أود أن أؤكد على الملأ أنه ليس لى غرض شخصى أو منفعة من أى نوع فى عرض مقترح ممر التنمية والتعمير. لقد نبعت الفكرة من معرفتى بمعالم الصحراء الغربية والتى اكتسبتها خلال رحلات كثيرة مع زملاء فى مهنتى. أما استمرار دعوتى للمشروع فتنبع من تعاليم والدى (رحمة الله عليه) بأن من يتعلم ما فيه منفعة للناس، عليه أن يعلم الناس، وإلا فلا نفع فى علمه.

الغرض الأول والأخير لهذا المقترح هو الإشارة إلى سبل الاستخدام الأمثل للجزء المتاخم لوادى النيل والدلتا من صحراء مصر الغربية. الأمل هو تمهيد الطريق أمام الجيل الصاعد للنهوض بالوطن. يؤهل المقترح ذلك بفتح آفاق جديدة للعمل فى بيئة صالحة تسمح بالإبداع والابتكار لمواكبة العالم المتحضر المتقدم، والله الموفق. ■



عسكرة التعليم فى إسرائيل

صالح النعامى

انطلق قادة الحركة الصهيونية ومؤسسو دولة إسرائيل من قناعة مفادها أن هذه الدولة تعيش فى أزمة وجود كيانية سترافقها للأبد، على اعتبار أنها تعيش فى قلب محيط عربى لا يمكن أن يسلم بوجودها، ويقبل شرعيتها.

لذا فقد كان الاستنتاج الذى توصل إليه قادة الحركة الصهيونية هو أن الصراع بين العرب ودولة إسرائيل هو صراع وجود وليس صراعاً على حدود أو أرض أو موارد طبيعية؛ من هنا كانت الإستراتيجية التى اعتمدها الصهاينة من أجل تحقيق الحسم فى هذا الصراع هو القوة، والقوة فقط القائمة على المنعة العسكرية، الأمر الذى أدى الى سيادة الطابع العسكرى للمجتمع الإسرائيلى برمته، لدرجة دفعت رئيس وزراء إسرائيل الأول دفيد بن جوريون للقول أن «إسرائيل عبارة عن مجتمع للمحاربين».

ويعبر وصف بن جوريون هذا بشكل أمين وصادق عن مظاهر تأثير العسكرة على المجتمع الإسرائيلى. فهذا المجتمع الذى يقدس القوة، لا يحترم إلا القيم التى تعكسها، من هنا فإن المجتمع الإسرائيلى يمر بعملية عسكرة متواصلة، فالساسة هم جنرالات متقاعدون، ومدراء المؤسسات الاقتصادية هم من خريجى الجيش، والصحف ووسائل الاعلام تبحث عن معلقين من كبار الضباط المتقاعدين.

وضمن هذه العملية المتواصلة، فقد تمت عسكرة التعليم أيضا فى الدولة العبرية. وكما تقول الباحثة والكاتبة الصحافية الإسرائيلية إرنا كازين «فإن من يطلع على مناهج التعليم فى المدارس الإسرائيلية فى جميع المراحل لا بد أن يلفت انتباهه التوجه العام القائم على التنشئة التربوية على روح العسكرة والتطوع للجيش وإعداد الطفل حتى يكبر ليصبح مقاتلاً، لتكريس الروح الاسبارطية».

ولقد سادت هذه الروح منذ قيام إسرائيل فى العام ١٩٤٨، وقد تغلغلت فى جميع الأجهزة الرسمية وغير الرسمية الإسرائيلية ضمن محاولة لخلق «الإسرائيلى الجديد»، الإسرائيلى اليهودى الذى خرج منتصراً ضد سبعة جيوش عربية وأقام دولة «بعد ألف عام»، كما يحلو لواضعى فلسفة التعليم الإسرائيلى أن يكرسوا ذلك فى أذهان الأطفال والشبيبة، وإلى غير ذلك من المزاعم الأسطورية.

ولا خلاف بين الباحثين فى الدولة العبرية على أن هذه الروح تعززت بعد حرب العام ٦٧، والانتصار الساحق الذى حققته اسرائيل فى هذه الحرب على كل من مصر وسوريا والأردن.

وقد تجسدت عملية عسكرة التعليم فى الدولة العبرية فى مظاهر ثلاثة أساسية:

أولاً: زرع مفاهيم العسكرة والقوة فى نفوس الطلاب.

ثانياً: تكليف العسكر بإدارة مؤسسات التعليم وممارسة مهنة التعليم بأنفسهم.

ثالثاً: ظهور المدارس الدينية العسكرية؛ والتى تعتبر أخطر مظاهر عسكرة التعليم الإسرائيلى، لأن الطلاب هناك تتم تربيتهم على العسكرة وعلى التطرف الدينى فى صوره الأكثر سوداوية.

زرع قيم العسكرة

التربية على العسكرة فى إسرائيل تتم بوسائل مختلفة ومتعددة، ويحاول جهاز التعليم فى إسرائيل صبغ وعى الطفل الإسرائيلى بالعسكرة ومفاهيمها منذ نعومة أظفاره.

ففى رياض الأطفال تقوم إدارات هذه الروضات بتنظيم رحلات للأطفال لقواعد الجيش الإسرائيلى، وتحرص هذه الإدارات على أخذ صور تذكارية لكل طفل وهو يقف فوق دبابات الجيش، وبعد ذلك يتم توزيع رايات ألوية الجيش على الأطفال لكى يقوموا بتثبيتها على رياض الأطفال؛ فى الوقت الذى لا يتم فيه لفت نظر هؤلاء الأطفال إلى قيم الديموقراطية والمساواة التى تدعى الدولة العبرية أنها قيم «مقدسة» لديها.

وتقوم إدارات المدارس الثانوية بتنظيم رحلات لطلابها إلى مواقع الجيش، حيث يشاهد الطلاب مناورات وتدريبات بالنار الحية، فى حين يتم تنظيم رحلات إلى مواقع المعارك بين الجيش الإسرائيلى والجيوش العربية.

وتعمل إدارات المدارس على حث الطلاب على إرسال هدايا للجنود، سيما الجنود من المهاجرين الجدد الذين وفدوا على الدولة بدون ذويهم فى الوقت الذى لا تبذل إدارات المدارس أى جهد فى إقناع الطلاب بإرسال مثل هذه الهدايا للفقراء والمعوزين والمرضى وغيرهم.

فى نفس الوقت يقوم الطلاب بإرسال رسائل إلى الجنود لشكرهم على «الجهود التى يبذلونها لحماية أمن الدولة والشعب».

ومن ضمن مناهج التعليم يتم تدريس تاريخ الحروب العربية الإسرائيلية، إلى جانب دراسة السير الذاتية لكبار القادة العسكريين الذين حققوا «إنجازات» خلال هذه الحروب، حيث يطلب من الطلاب عادة كتابة مواضيع إنشاء حول هؤلاء القادة.

وأحد الأمثلة التى تجسد عسكرة التعليم فى إسرائيل بشكل واضح، وهو كتاب الرياضيات للصف الخامس الابتدائى الذى ألفه مردخاى فاشستوم، حيث إن المسائل الحسابية التى تتكون منها التدريبات التى يطلب من الطلاب الإجابة عليها تدور حول الجيش وألويته. فمثلاً يرد فى الكتاب السؤال التالى: من بين ٦٣٤٠ جندياً مدرباً، طلب من ٢٠٧٠ الانضمام إلى وحدة المظليات، و١٧٤٥ إلى سلاح المشاة، كم بقى من الجنود؟

وضمن المناهج اللامنهجية التى تكرس العسكرة قيام مؤسسات التعليم بتنظيم رحلات للطلاب للمعارض الفنية التى تخلد ذكرى الجنود الذين قتلوا فى حروب إسرائيل، سيما متحف «ياد لبنيم».

وتقول الباحثة فى مجال التربية الدكتورة فيرد شمرون «بهذه الطريقة يتم تجنيد الفن من أجل التغطية على بشاعة الحرب». وتضيف شومرون أنه فى خارج أسوار المدرسة يشاهد الطلاب الإعلانات التجارية التى تقدس الجيش. فمثلاً شركة «تنوفا» للألبان تقوم بلصق ملصقات دعائية حول الجبن، تقول فيه (٥٠٪ للمظليين، ٥٠٪ للواء جولانى، ١٠٠ للعائلة).

فى نفس الوقت، وضمن برامج

فى رياض الأطفال تقوم إدارات هذه الروضات بتنظيم رحلات للأطفال لقواعد الجيش الإسرائيلى، وتحرص هذه الإدارات على أخذ صور تذكارية لكل طفل وهو يقف فوق دبابات الجيش، وبعد ذلك يتم توزيع رايات ألوية الجيش على الأطفال لكى يقوموا بتثبيتها على رياض الأطفال

الإذاعة المدرسية، يقوم الطلاب باستضافة جنرالات وكبار الضباط فى الجيش والمخابرات وإجراء مقابلات معهم، ويترك لبقية الطلاب توجيه أسئلة لهم.

إلى جانب كل ذلك تقوم ألوية الجيش والوحدات المختارة بلصق لوحات دعائية لها فى المدارس الثانوية لحث الطلاب فى المرحلة الثانوية على التطوع فى صفوفها بعد تجندهم الإجبارى للجيش، لأنه على الرغم من أن الخدمة العسكرية فى الجيش إجبارية فى الدولة العبرية، إلا أنه يترك للجنود عادة الانضمام للوحدات التى يرغبون بالانضمام إليها.

إلى جانب ذلك، فإن المدارس تتعاون مع قسم القوى البشرية فى هيئة أركان الجيش فى تنظيم دورات تجنيد للطلاب خلال المرحلة الثانوية، وذلك لإعداد الطلاب لمرحلة الجيش.

وتشير الباحثة فى مجال التربية الدكتورة ريلى مزالى إلى أن الضباط والجنود يدخلون إلى غرف التدريس ويتحدثون للطلاب عن الفظائع التى يرتكبها الجيش دون أن يثير ذلك أى تحفظ لدى أولياء أمور هؤلاء الطلاب.

العسكريون وجهاز التعليم

أحد أبرز مظاهر عسكرة التعليم فى إسرائيل هو تولى كبار ضباط الجيش فى الاحتياط مناصب إدارية مهمة فى جهاز التعليم وإدارة المؤسسات التعليمية.

فوزارة التعليم فى إسرائيل تقوم بتمويل مشروع يطلق عليه «تسافتا»، ويهدف هذا المشروع إلى تأهيل الضباط المتقاعدين من الجيش والمخابرات للانخراط فى سلك التعليم.

وقام المشروع بتخريج ٣٠٠ ضابط، حيث تم دمجهم فى المؤسسات التعليمية. بعض هؤلاء الضباط درس لعام واحد ونال رخصة لممارسة التدريس، ومنهم من عين فوراً فى وظائف إدارة فى المدارس، ومن الضباط من عينوا فى وظائف تربوية.

ومن الضباط من تولوا وظائف مرموقة فى جهاز التعليم بدون أى إعداد تربوى، مثل رون خلوداتى الرئيس الحالى لبلدية تل أبيب، والذى سبق له أن كان مديراً لمدرسة «جمناسيا هرتسليا»، ودرور الونى. ومن الضباط الذين تولوا مناصب فى جهاز التعليم ومارسوا التعليم ضباط كان لهم سجل إجرامى واضح ضد أبناء الشعب الفلسطينى، مثل العقيد ايلان باتمان الذى كان حاكماً عسكرياً لكل من رام الله وجنين.

اللافت للنظر، والمثير للاستهجان هو أن القائمين على جهاز التعليم فى إسرائيل يعلنون أنهم لا يستعينون بخدمات الضباط فى التدريس لأغراض تربوية وتعليمية، بل لتكريس قيم العسكرة لدى الطلاب.

فها هو موطى ساجى، مدير مشروع برنامج إعداد الضباط فى جهاز التعليم الإسرائيلى يقول مدافعاً عن الاستعانة بالضباط فى التدريس قائلاً: «لدينا فى الجهاز التعليم لا يبحثون عن معلمين مهنيين، بل عن قياديين، فضباط الجيش المتقاعدون يتمتعون بميزات خاصة وقدرات ضخمة».

ويتحدث عن مزايا الضباط كمدرسين «هؤلاء الضباط فى عيونهم بريق وإحساس بأداء الرسالة». ويضيف «يقف أمام الطلاب رجل برتبة عقيد، بشخصيته القوية، فيحقق نجاحاً كبيراً، عندها يقف الطلاب لينشدوا النشيد الوطنى، وهكذا يتبين أنه ينقل إليهم العديد من القيم ولديه ما يسوقه لهم، أنه قادم من مدرسة لا مثيل لها: الجيش، أنه ليس كالمدرسات من خريجات كليات إعداد المدرسين».

وتفسر الدكتورة سيغال بن بورات، أستاذة التربية فى جامعة حيفا، ميل جهاز التعليم للاستعانة بخريجى الجيش، بقولها: «أن تكون مواطناً جيداً فى إسرائيل، يعنى أن تخدم فى الجيش وتندمج فى سوق العمل». وتضيف أن مصطلح المواطنة الجيدة يخلو تماماً من المضامين الديموقراطية والإنسانية. وتستذكر أن جهاز التعليم فى الدول الديموقراطية يجب أن ينمى مواطنين وليس جنوداً ولا عمال.

مناهج لتكريس العنصرية

الذى يفاقم تأثير العسكرة فى نظام التعليم فى إسرائيل هو حقيقة أن مناهج التعليم الإسرائيلية تكرس منهجاً يدعو لمواصلة حالة الصراع.

فحسب بحث أعده الباحث الإسرائيلى ايلى بوديا المحاضر فى جامعة حيفا فإن كتب التدريس الإسرائيلية حالت دون تحقيق السلام مع العرب.

وحسب البحث فإن كتب التعليم فى إسرائيل ساهمت طيلة نصف القرن الماضى فى إشعال جذوة الصراع الفلسطينى العربى، وكرست حالة الحرب، وحالت دون التوصل للسلام بين العرب واليهود. ووصف بوديا مناهج التدريس اليهودية بـ «المنحرفة»، منوهاً إلى أن هذه المناهج تتميز بطغيان الصورة النمطية والأفكار المقولبة حيال العرب، وزرع كراهيتهم فى نفوس التلاميذ الإسرائيليين إلى حد الاستنتاج بأن ما جرى داخل جدران المدارس الإسرائيلية قد أثر إلى مدى بعيد فى قرار الحرب والسلام لدى قادة الدولة العبرية.

وأشار البحث الذى جاء تحت اسم «الصراع الإسرائيلى فى كتب التاريخ المدرسية العبرية».

والصادر عن مؤسسة مدار لدراسة الشئون الإسرائيلية فى رام الله، إلى أن الكتب المدرسية الإسرائيلية رعت نوعاً من الصراع الصامت بين الطرفين وحافظت عليه، وقادت بطريق غير مباشر إلى إثارة الصراع المسلح.

وأكد بوديا، أن جهاز التعليم الإسرائيلى قد اختار النهج القومى الذى يخضع الماضى لاحتياجات الراهن والمستقبل على حساب الحقيقة والموضوعية! فى كتابة التاريخ بهدف خلق ذاكرة جماعية متميزة، منوهاً إلى أن ثلاثة أرباع الكتب التى تستخدم فى المدارس الإسرائيلية ليست مجازة ما يعنى انكشاف التلاميذ إلى مواد أكثر خطورة.

وأكد الباحث أن كتب التاريخ الإسرائيلية التى أخضعها للبحث انشغلت بتعميق القيم الصهيونية ورعاية الأساطير والتمجيد بأبطالها ضمن صهر المهاجرين فى بوتقة وذاكرة جماعية واحدة.

ولفت إلى أن تلك الكتب وصفت الصراع بطريقة تبسيطية أحادية الأبعاد ومشبعة بعدم الدقة إلى حد التشويه.

وأوضح الكاتب أن هذه الكتب سعت لشيطنة العرب وتجريدهم من إنسانيتهم، ما أدى إلى ترسيخ صورة نمطية لدى الإسرائيليين الذين ظهروا دائماً بصورة الغربيين المتحضرين صانعى السلام مقابل صورة العرب «الخونة العدوانيين المتخلفين والمجرمين والخاطفين القذرين والمبادرين دوماً نحو التدمير». وحول تناول هذه الكتب لأول مواجهة مع المسلمين التى حدثت فى المدينة المنورة، فإن هذه الكتب تصف القبائل اليهودية فى تلك الفترة بأنها «شريفة ومحترمة وشجاعة، بينما وصف العرب بأنهم ماكرون وخونة وبأنهم هزموا اليهود بالخدعة والمؤامرة».

ونوه الكاتب إلى أن تعابير مثل متوحش ومحتال ومخادع ولص وسارق وإرهابى، كانت كثيراً ما تستخدم فى وصف العربى بينما ما يرتكب ضد اليهود يسمى عداوات ومذابح ومجازر بغية خلق صلة بين العرب وبين اللاسامية المتأصلة فى تجارب التاريخ اليهودى فى أوروبا، مشيراً إلى أن العرب يوصفون بأنهم النسخة الحديثة من العماليق، ألد أعداء الإسرائيليين فى التوراة.

ويؤكد الكاتب أن كتب التدريس عززت عملية ابتعاد اليهود عن العرب، وهذا بدوره زاد من مستوى أسطرة الصراع وعزز الميل إلى تجريد العرب من إنسانيتهم.. ونوه الكاتب إلى أن التحامل الإسرائيلى ضد العرب كان إسقاطاً للموقف اليهودى تجاه الغريب فى الشتات.

ويقتبس الباحث قول الباحث اليهودى سيغريد ليحمان، الذى قال: «نحن كيهود نميل إلى رؤية العربى كغير اليهودى كأحد الأغيار، نحن كأوروبيين نراه آسيوياً خصماً لتطلعاتنا القومية وكاشتراكيين نحن نراه كممثل لأشد أنماط الرجعية سواداً»..

وأشار بوديا، إلى أن ردة فعل غريبة جاءت فى إسرائيل على زيارة الرئيس المصرى الراحل أنور السادات، حيث حرص كبار المسئولين فى الدولة على الدعوة إلى تعميق القيم الصهيونية على حساب ثقافة السلام.

واقتبس من كلام الوزير التعليم السابق زيولون هامر قوله: هناك زعماء عرب يظنون أنهم إن لم يكونوا قادرين على القضاء علينا فى ميدان المعركة، فإنهم سينجحون فى فعل ذلك عن طريق عملية «السلام».

ويؤكد الباحث أن كتب التدريس الإسرائيلية تحاول أن تكرس قناعة مفادها أن السلام مع العرب «يهدد إسرائيل المهزوزة ويستلزم تحصين الناشئة بتقوية الوعى الصهيونى».. ويؤكد البحث أنه عندما حاول وزير التعليم السابق اسحاق نافون إحداث تقارب بين التلاميذ العرب واليهود داخل إسرائيل، لم يشارك فى هذه الأنشطة إلا ٢٪ من المربين اليهود، منوهاً للموقف الصارم للمؤسسة الدينية اليهودية الرافض لعقد مثل هذه اللقاءات، بحيث إن ذلك يثبت أن الذاكرة الجماعية لليهود كضحايا لمخططات

الاضطهاد والإبادة جعلتهم «سجناء ماضيهم الخاص»..

ويؤكد الباحث أن الإسرائيليين كانوا يعرفون عن الإسكندينافيين أكثر مما يعرفونه عن جيرانهم العرب، وهو ما ساهم في تعقيد الصراع كما ساعد في خلق أرضية بررت استخدام القوة ضد العرب.

ونوه إلى أن ١,٤٪ فقط من الوقت المحدد للتاريخ في المدرسة الإسرائيلية قد خصص للتاريخ العربي، لافتاً إلى موافقته على رأي باحثين أجانب بأن اليهود نقلوا صورة الأغيار من الشتات إلى إسرائيل وسلطوها على العرب بشكل خاطئ.

من ناحيته يقول الكاتب والناقد أنطوان شلحت، الذي كتب مقدمة للبحث أن السنوات التي تلت العام ٢٠٠٠ قد شهدت صعوداً يمينياً متطرفاً إلى رأس هرم جهاز التعليم في الكيان، بعد تسلم ليمور لفنات من حزب الليكود حقيبة التعليم.

واقتبس شلحت الباحث سامي شالوم، الذي رأى بفترة وزيرة التعليم السابقة ليمور لفنات الأكثر خطورة بالنسبة للتعليم الإسرائيلي، باعتبارها «قاب قوسين أو أدنى من الفاشية التامة».

ونوه إلى أن ليفنات قد أخرجت كل ما ليس مستمداً من الرواية الصهيونية التاريخية، والتي تعتبر أن فلسطين كانت خالية من السكان عدا قلائل هربوا عام ١٩٤٨ .

المدارس الدينية العسكرية

«يشيفوت هسدير»

ينقسم المتدينون في إسرائيل إلى تيارين أساسيين:

١- التيار الديني الأرثوذكسي: وهو التيار الذي توصلت مرجعياته الروحية مع مؤسس الدولة دافيد بن جوريون إلى اتفاق يقضي بإعفاء المنتسبين إليه من طلاب المعاهد والمدارس الدينية من الخدمة العسكرية، والتفرغ لدراسة الدين، مع العلم أن أتباع هذا التيار يشكلون حوالي ١٨٪ من اليهود في إسرائيل.

٢- التيار الديني الصهيوني: وهو التيار الذي اعتبر نفسه منذ البداية جزءاً لا يتجزأ من الدولة، واعتبرت مرجعياته الروحية الخدمة العسكرية ليس مجرد واجب تقتضيه المواطنة، بل فريضة دينية يتوجب القيام بها على أكمل وجه.

ويشكل اتباع هذا التيار فقط من ٧-١٠٪ من عدد اليهود، وذراعهم السياسي حزب «المفدال» الديني، وينتمي معظم المستوطنين إلى هذه الشريحة.

حتى أواخر السبعينيات من القرن الماضي ظلت نسبة المتدينين الصهاينة في الهيئات القيادية في الجيش حتى أقل من النسبة التي يمثلونها من حيث تعداد السكان.

فحتى ذلك الوقت ظل القادمون من القرى التعاونية «الكيبوتسات» - التي تمثل قلاع العلمانية الإسرائيلية - ينفردون بتبوؤ المواقع القيادية في الجيش، لدرجة أن الانتماء لـ «الكيبوتس» كان رديفاً للانتساب للوحدات المختارة في الجيش، مع أنه يمثل هذا الانتساب تفتح الطريق أمام هؤلاء الضباط والجنود لتبوؤ المواقع القيادية في الجيش والدولة مستقبلاً. لكن منذ ذلك الوقت حدث تغير دراماتيكي متلاحق ولافت للنظر.

فقد قلت نسبة خريجي «الكيبوتسات» الذين يلتحقون بالوحدات المختارة بسبب تحلل الكثير من هؤلاء من الإيمان بـ «واجب التضحية من أجل الدولة». في المقابل حدثت عملية عكسية تماماً، حيث كانت توجيهات المرجعيات الروحية للتيار الديني الصهيوني لأتباعها بأن عليهم يتوجهوا تحديداً للانخراط في الوحدات المختارة والسريات النخبوية في الجيش، من أجل قيادة الجيش وبالتالي التحكم في المشروع الصهيوني.

الذي سهل على الصهاينة المتدينين تحقيق هدفهم هو وجود ما يعرف بالعبرية بـ «يشيفوت هسدير»، وهي مدارس دينية عسكرية - يمولها الجيش - و التي ينضم إليها حصراً أتباع التيار الديني الصهيوني بعد تخرجهم من المدرسة الثانوية.

فأواخر السبعينيات توصلت المرجعيات الروحية للتيار الديني الصهيوني إلى اتفاق مع هيئة أركان الجيش الإسرائيلي تم الاتفاق بموجبه على أن تتولى المدارس الدينية التابعة لهذا التيار مهمة إعداد الشباب الذين ينتمون لتيار الصهيونية الدينية لمرحلة الجيش.

بحيث يتولى الحاخامات الذين يشرفون على هذه المدارس محاولة زيادة الدافعية لدى هؤلاء الشباب للتطوع للخدمة في الوحدات المقاتلة والمختارة في الجيش وذلك عبر زرع قيم التضحية من أجل الوطن وغيرها من القيم في نفوس هؤلاء الطلاب، إلى جانب إعدادهم بشكل مهني لمرحلة الجيش؛ بحيث يتم إعداد هؤلاء الطلاب عسكرياً عن طريق ضباط يقوم الجيش بإرسالهم إلى هذه المدارس ليتولوا تدريب الطلاب على استخدام السلاح، وبعض التدريبات العسكرية داخل إطار المدرسة.

ويتولى الجيش دفع مستحقات التعليم في هذه المدارس، إلى جانب دفع رواتب الحاخامات الذين يتولون التدريس فيها، لكن الجيش في نفس الوقت لا يتدخل في منهاج التعليم غير العسكرية، حيث يحظى الحاخام الذي يدير المدرسة بحرية عمل كاملة. فنظام التعليم فيها مستقل تماماً وتتحكم فيه المرجعيات الروحية للتيار الديني الصهيوني دون أي قدر من الرقابة على مضامين مناهج التعليم فيه إلى جانب مظاهر العسكرة الصارخة التي تقوم عليها هذه المدارس، فإن الطلاب فيها يتلقون تعليماً دينياً بالغ التطرف ويقوم على العنصرية وكراهية الآخر بشكل فج. ويكفي أن تعرف أن معظم هذه المدارس تقع إما في المستوطنات، أو في القدس المحتلة ويشرف عليها مدراء هم من أكثر الحاخامات تطرفاً. وإلى جانب العسكرية، فإن هذه المدارس تربي طلابها بصراحة على رفض القيم الديموقراطية.

يقضي هؤلاء ثمانية عشر شهراً في هذه المدارس، يمارسون خلالها تعليمهم الديني وفي نفس الوقت يؤدون الخدمة العسكرية، مع العلم أنه بعد تخرجهم منها يقضون ثلاثين شهراً إضافية في الخدمة العسكرية.

يبلغ عدد هذه المدارس اثنتين وأربعين مدرسة، والشعار الذي ترفعه هذه المدارس أن «الخدمة العسكرية والروح القتالية هي مهمة جماعية يفرضها الدين بهدف قيادة المشروع الصهيوني».

من هنا كان كل طالب في هذه المدارس لا ينظر خلال تأديته الخدمة العسكرية أنه يؤدي خدمة إجبارية تنتهي بعد ثلاث سنوات، بل إنها بوابة واسعة لممارسة التأثير على مستقبل الدولة وعلى عملية صنع القرار فيها.

وعلى الرغم من أن الخدمة العسكرية في إسرائيل إلزامية، إلا أن الانتساب للوحدات المختلفة داخل الجيش هي أمر اختياري وطوعي.

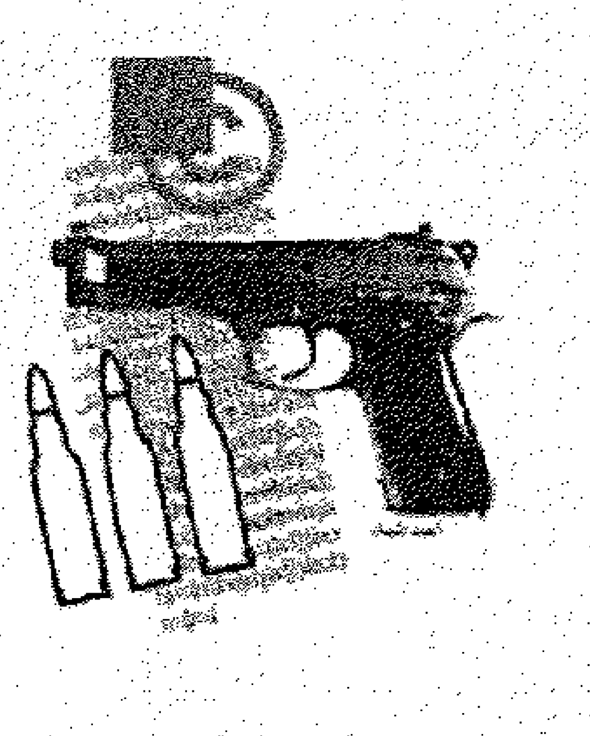
وبفعل التثقيف والتعبئة التي يتعرضون لها داخل «يشيفوت هسدير»، فإن أتباع التيار الصهيوني الديني يتجهون للانتساب للوحدات المختارة، وسرايا النخبة في الجيش.

شيئاً فشيئاً أصبح معظم قادة الوحدات المقاتلة هم من المتدينين .

ومعظم القادة والمنتسبين للوحدات المختارة مثل «سرية وحدة الأركان»، و«ايجوز»، «دوفيدفان»، و «يسام»، هم أيضاً من المتدينين. ليس هذا فحسب أن المتدينين يحتكرون الخدمة في ما يعرف بـ «سرايا النخبة» التابعة لألوية المشاة، فمثلاً ٦٠٪ من القادة والمنتسبين لسرية النخبة في لواء المشاة «جفعاتي» هم من المتدينين.

تغلغل المتدينين الصهاينة في المواقع القيادية للجيش دفع الجنرال يهودا دونيدينان الذي كان مسئولاً عن قسم «الشبيبة» في وزارة الدفاع للقول أن أتباع التيار الديني الصهيوني

ردة فعل غريبة جاءت في إسرائيل على زيارة الرئيس الراحل أنور السادات، حيث حرص كبار المسئولين في الدولة على الدعوة إلى تعميق القيم الصهيونية على حساب ثقافة السلام



أصبحوا يشكلون «العمود الفقارى» للجيش.

لا يقتصر اندفاع المتدينين خريجى «يشيفوت ههسدير» نحو المواقع القيادية فى الجيش، بل أيضاً فى الأجهزة الاستخبارية. فعلى الرغم من أنه لا يعلن عادة عن هوية الذين يخدمون فى الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية، إلا أن التسريبات الصحافية تؤكد أن المتدينين أصبحوا يمثلون ثقلاً متصاعداً داخل جهاز المخابرات الداخلية «الشاباك»، وهو أكثر الأجهزة الاستخبارية تأثيراً على دوائر صنع القرار فى الدولة.

وما ينطبق على الجيش والمخابرات ينطبق على الشرطة وحرس الحدود. وهذا كله بالطبع بفضل وجود المدارس الدينية العسكرية.

مدرسون ومرجعيات للإفتاء

اللافت للنظر أن معظم المدراء والمعلمين فى المدارس الدينية العسكرية هم من الحاخامات، وبعضهم يعتبر مراجع هامة للإفتاء، وفتاوى هؤلاء يتم تدريسها فى هذه المدارس للطلاب ويتم التعامل معها بقدسية الكتب المقدسة.

ويكفى هنا أن نطلع على بعض الفتاوى التى يدرسها هؤلاء الطلاب حتى نتعرف على نوعية التعبئة والتثقيف التى يتلقاها هؤلاء الطلاب. ففى هذه المدارس يتم تدريس عدد كبير من الفتاوى التى تعمل على تكريس ثقافة الكراهية وتدفع الشباب اليهودى إلى تبنى مواقف عنصرية ظلامية من العرب والمسلمين. وأكثر من ذلك، تمهد الطريق أمام ارتكاب المجازر ضد الفلسطينيين.

ولعل أخطر الفتاوى التى يتعلمها ويتلقنها طلاب المدارس الدينية العسكرية هى الفتاوى التى يصدرها الحاخام مردخاى الياهو، الحاخام الأكبر السابق للدولة العبرية، وأهم مرجعية دينية للصهاينة المتدينين الذين تتبع لهم «يشيفوت ههسدير حصرا».

وتتحول فتاوى هذا الحاخام إلى مادة دراسية وعلمية يتنافس المدرسون من الحاخامات على تدريسها. فقد أصدر هذا الحاخام فتوى تدعو لإبادة الفلسطينيين بشكل كامل. مردخاى قال فى فتوى تم تعميمها على جميع المدارس الدينية العسكرية، ونشرتها وسائل الإعلام الإسرائيلية، وحظيت باهتمام خاص من قبل وسائل الإعلام الدينية وتم تضمينها المئات من المطبوعات التى توزع داخل الكنس اليهودية فى الدولة العبرية أنه يتوجب قتل جميع الفلسطينيين حتى أولئك الذين لا يشاركون فى القتال ضد الاحتلال.

لم يكتف الحاخام البارز بذلك، بل اعتبر أن هذه ليست مجرد فتوى، بل «فريضة من الرب يتوجب على اليهود تنفيذها».

بعد ذلك بأسبوع قام الحاخام اليعازر ملميد مدير المدرسة الدينية العسكرية فى مستوطنة «تفوح»، بإصدار فتوى تبيح لطلاب مدرسته سرقة محاصيل المزارعين الفلسطينيين، على اعتبار أنهم جزء من «الأغيار الذين يجوز لليهود استباحة ممتلكاتهم».

بالفعل فقد تم تطبيق فتوى الحاخام وقام تلامذته بنهب المحاصيل الزراعية للفلسطينيين فى شمال الضفة.

دوف ليئور الحاخام الأكبر لمستوطنة «كريات أربع»، شمال شرق مدينة الخليل، ورئيس مجلس المستوطنات فى الضفة الغربية، والذى يدير فى نفس الوقت مدرسة دينية عسكرية أصدر فتوى تبيح للمستوطنين تسميم مواشى ودواب وآبار المياه التى يملكها المزارعون الفلسطينيون فى البلدات والقرى المجاورة للمستوطنة. وأيضاً هنا لم يتردد المستوطنون والطلاب فى تنفيذ الفتوى، فلا يكاد يمر يوم فى الفترة التى تلت إصدار الفتوى، دون أن يستيقظ سكان هذه البلدات والقرى، إلا ويجدوا الكثير من دوابهم قد نفق بفعل السموم التى يرشها المستوطنون على المراعى التى تقصدها ماشية الفلسطينيين.

وفى السابع من أيلول من عام ٢٠٠٥ وجه كبار الحاخامات اليهود، رسالة تتضمن فتوى دينية إلى رئيس الحكومة الإسرائيلية السابق ارييل شارون، حثوه فيها على عدم التردد فى المس بالمدنيين الفلسطينيين خلال المواجهات المندلعة فى الأراضى المحتلة، وجاء فى الفتوى التى وقعها الحاخامات المسئولون عن المدارس الدينية، وفى المقدمة منهم الحاخام دوف لينور، ما نصه: «نحن الموقعون أدناه، ندعو الحكومة الإسرائيلية والجيش الإسرائيلى إلى العمل حسب مبدأ، من يقم لقتلك، سارع إلى قتله . وأضافت الرسالة: «لا وجود فى العالم لحرب يمكن فيها التمييز بشكل مطلق، بين المدنيين والجيش، لم يحدث ذلك فى الحربين العالميتين، ولا فى حرب الولايات المتحدة فى العراق، وحرب روسيا فى الشيشان، ولا فى حروب إسرائيل ضد أعدائها، قومية تحارب قومية، قومية تنتصر على قومية»، على حد تعبير الرسالة .

وأردف الحاخامات: «والسؤال المطروح أمامنا هو هل نحارب العدو من خلال هجوم يقتل خلاله مدنيون من صفوفه،! أو نمتنع عن الحرب بسبب المدنيين فنخاطر بذلك بالمدنيين لدينا؟ الجواب على السؤال نجده ببساطة لدى الحاخام عكيفا (أحد مرجعيات الإفتاء لليهود فى العصور الغابرة، الذى قال: حياتنا أولى». واعتبر الحاخامات أن هذا ما درج عليه ملوك إسرائيل على مر التاريخ، مضيفين: «هكذا تصرف شعب إسرائيل منذ أيام النبى موسى، الذى حارب أهل مدين، وهكذا تصرف يفتاح الجلعادى، شاؤول، داود، وكل قادة إسرائيل على مر العصور، وهكذا تصرفت دولة إسرائيل فى حرب الأيام الستة، وهكذا هو المتعامل به فى القانون الدولى، لا حاجة ولا فائدة من انتظار المهاجم حتى يبدأ هجومه، بل يجب استباقه ومنعه من تنفيذ مآربه»، كما جاء فى نص الفتوى .

وحذر الحاخامات مما سموه التقليد النصرانى فى التعامل فى النزاعات القائل «أدر خدك الثانية»، وفى إشارة إلى نشطاء السلام الإسرائيليين قال البيان «لن نتأثر بمن بلغوا الدرك الأسفل منطقيا وأخلاقيا من خلال تفضيلهم لحياة الأعداء على حياتنا . وما يهم هنا أن هذه الفتوى تم تدريسها فى حينه لطلاب المدارس الدينية العسكرية فى جميع أرجاء الدولة العبرية.

هذه الخلفية تفسر العديد من فتاوى الحاخامات، التى تدرس فى «يشيفوت ههسدير»، التى تستهين بحياة العرب وتتعامل معهم بازدراء شديد.

فمثلاً يتعلم طلاب المدارس الدينية فتوى الحاخام دوف لينور التى حظر فيها تبرع اليهود بأعضائهم للأغيار، لكنه أباح لهم عند الضرورة تلقى تبرعات مماثلة من أولئك الأغيار.

وأمام احتجاج رابطة تبرع الأعضاء فى إسرائيل غير الحاخام فتواه قليلا، بحيث أباح لليهودى أن يتبرع بعضو لشخص يحتاج فى حالة الضرورة وقال إن اليهود إذا ما امتنعوا عن التبرع للأغيار، فإن هؤلاء الأخيرين لن يعطوهم شيئا بالتالى، وهذا قد يسهم فى الإضرار باليهودى الذى قد يحتاج إلى الحصول على عضو بديل ينقذ به حياته، ومن ثم فإنه اعتبر أن السماح بتبرع اليهودى لأى واحد من الأغيار، هو فى حقيقة الأمر احتياط هدفه تحقيق مصلحة اليهودى فى أى فترة لاحقة، غدا أو بعد غد.

ومن المواد العنصرية التى تدرس فى هذه المدارس التفوهات العنصرية الصادرة عن الزعيم الروحى لحزب «شاس» عودفاديا يوسف الذى قال «عندما يأتى المسيح المنقذ، فإنه سيرسل كل العرب إلى جهنم».

وأضاف: «لماذا لا يفعل ارييل شارون ما يجب فعله؟ إنه يخاف من شعوب العالم، لكن المسيح المنقذ حين يأتى فإنه لن يخشى أحدا، وسيرسل كل هؤلاء العرب إلى جهنم» .

ويصف يوسف العرب بـ «الثعابين» ويدعو إلى عدم الوثوق بهم على الإطلاق.

إلى جانب مظاهر العسكرة الصارخة التى تقوم عليها هذه المدارس، فإن الطلاب فيها يتلقون تعليماً دينيا بالغ التطرف ويقوم على العنصرية وكراهية الآخر بشكل فج

ويقبل طلاب هذه المدارس على الاطلاع على كتب دينية ذات طابع عنصرى مقيت، مثل الكتاب الذى أصدره الحاخام اسحاق غينزبرج بعنوان «باروخ البطل» جاء تخليدا لاسم باروخ جولد شتاين، الذى نفذ مجزرة الحرم الإبراهيمى فى العام ١٩٩٤ .

ويعتبر هذا الحاخام أن جولدشتاين قد قام بعمل «جليل ومجيد». وهكذا فإن جميع طلاب المدارس الدينية يتربون على أن جولدشتاين هو فى مرتبة القديسين، وجعلوا من قبره مزاراً يتبركون به.

وفى المدارس الدينية يتم التهجم على الإسلام ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم. فها هو الحاخام ايلى الباز، الذى يحاضر فى العديد من المدارس الدينية، والذى يعتبر من أبرز الحاخامات الشرقيين، لا يفوت فرصة دون التهجم على دين الإسلام والتعرض لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالذم.

ليس هذا فحسب، بل إن هذا الحاخام المجرم يصر على التندر أمام مستمعيه بترديد النكات التى تمس بالمسلمين والفلسطينيين ويستخدم عبارات نابية فى مهاجمة المسلمين. أما الحاخام الياهو ريسكين، والذى يدير المدرسة الدينية العسكرية فى مستوطنة «افرات» القريبة من بيت لحم ويعتبر أحد كبار حاخامات المستوطنين فيسخر من الدعوات لإجراء حوار بين حاخامات اليهود والقائمين على المؤسسة الدينية الرسمية فى العالم العربى.

ويرى ريسكين أن لغة الحوار الوحيدة بين المسلمين واليهود هو «الرصاص»، معتبراً أنه بدون إقناع العرب بشكل عام والفلسطينيين بشكل خاص أنه لا يمكن فرض تسوية على «إسرائيل» بالقوة، فإنه لا طائل من مثل هذه الحوارات.

من ناحية نظرية بحتة، ولكون دولة إسرائيل دولة علمانية، فإنه لا توجد مكانة قانونية للفتاوى التى يصدرها كبار الحاخامات فى الشئون السياسية والعسكرية، باستثناء الشئون الدينية التى تنظم شئون الفتوى بخصوصها مؤسسة الحاخامية الكبرى، والتى تمثل أكبر هيئة دينية فى الدولة. لكن من ناحية عملية، فإن الثقافة السائدة فى الدولة العبرية تجعل لهذه الفتاوى، سيما الصادرة عن مرجعيات الإفتاء الكبيرة فى الدولة أهمية قصوى وتأثيراً بالغاً ليس فقط على قطاعات واسعة من اليهود، وعلى رأسهم طلاب المدارس الدينية، بل على دوائر صنع القرار فى الدولة العبرية. صحيح أن المتدينين سواء الذين يتبعون التيار الدينى الصهيونى أو التيار الدينى الأرثوذكسى يشكلون حوالى ٢٨٪ من مجمل المستوطنين فى الدولة، إلا أن أكثر من ٥٠٪ من سكان هذه الدولة يعرفون أنفسهم كمحافظين، وهؤلاء يولون أهمية كبيرة لما يصدر عن المرجعيات الدينية فى أرجاء الدولة.

لكن مكمن الخطورة فى تأثير هذه الفتاوى العنصرية التحريضية يكمن - كما أسلفنا - فى تأثيره على المتدينين، وعلى وجه الخصوص طلاب المدارس الدينية العسكرية الذين ينطلقون بشكل كبير لتولى المناصب العليا فى الجيش والأجهزة الاستخبارية.

فحسب دراسة أعدها قسم العلوم الاجتماعية فى جامعة «بار ايلان» التى يسيطر عليها المتدينون، تبين أن أكثر من ٩٩٪ من طلاب المدارس الدينية العسكرية، و٩٠٪ من المتدينين بشكل عام يعتقدون أنه فى حال تعارضت قوانين الدولة وتعليمات الحكومة مع فحوى الفتاوى الصادرة عن الحاخامات، فإن عليهم أن يتجاهلوا قوانين الدولة وتعليمات الحكومة والعمل وفق ما تنص عليه فتاوى الحاخامات.

ولا خلاف بين علماء الاجتماع السياسى فى الدولة العبرية وكذلك الجنرالات المتقاعدين على أنه لن يكون ذلك اليوم بعيداً الذى تنتقل فيه قيادة الجيش بأكملها إلى اتباع التيار الدينى الصهيونى.

تكريس النزعات الانفصالية:

لكن وجود هذه المدارس أشعل الأضواء الحمراء لدى الكثير من النخب فى الدولة العبرية التى باتت ترى فى هذه المدارس تهديداً للنظام الديموقراطى الإسرائيلى ونقطة انطلاق لتشجيع النزعات الانفصالية عن الدولة.

ففى النظم الديموقراطية ينحصر دور المستوى العسكرى فقط فى تنفيذ السياسات التى تقررها الحكومات التى تفرزها الانتخابات. ويعد عدم التزام العسكر بتعليمات الحكومة تقويضاً عملياً لتلك الديموقراطية. هنا يكمن الخطر فى تبوؤ المتدينين للمواقع القيادية فى الجيش، الذى تضمنه لهم «يشيفوت ههسدير».

فالقائد والجندى المتدين فى الجيش الإسرائيلى قد تمت تربيته على أنه عندما يفرض عليه الاختيار بين تنفيذ الأوامر العسكرية الصادرة عن قيادته وحكومته المنتخبة، وتعليمات مرجعياته الروحية، فإنه لا يتردد فى تلبية تعليمات المرجعيات الدينية.

ولعل المثال الأكثر وضوحاً على ذلك هو ما قاله الجنرال يسرائيل فايس كبير حاخامات الجيش الذى قال مؤخراً أنه يفضل خلع بزته العسكرية على تنفيذ أى أمر يصدر عن قيادة الجيش ويتعارض مع تعليمات الحاخام إبراهام شابيرا، ثانى أهم مرجعية روحية للتيار الدينى الصهيونى.

المفارقة أن مدراء «يشيفوت ههسدير» من الحاخامات الذين يحرصون على تذكير طلابهم الذين يعدونهم لقيادة الجيش والدولة أنه لا مصدر أكثر قدسية من تعليمات التوراة والكتب المقدسة اليهودية، وأن أى تعليمات تصدرها قيادة الدولة يجب أن تفقد شرعيتها فى حال تعارضت مع تعاليم الدين التى تحتكر المرجعيات الروحية للتيار الدينى الصهيونى الحق فى تفسيرها.

فمثلاً جميع المرجعيات الروحية للصهيونية الدينية دعت أتباعها من القادة والجنود إلى رفض تعليمات قيادة الجيش بالمشاركة فى تنفيذ خطة «فك الارتباط».

ولعل الذى يعكس صدقية المخاوف من تأثير وجود هذه المدارس الكبير هو حقيقة أن معظم الذين شاركوا فى الاحتجاجات ضد عمليات إخلاء المستوطنات هم من طلاب وخريجى المدارس الدينية العسكرية. ليس هذا، بل إن حاخاماً بحجم إبراهام شابيرا دعا أتباعه من طلاب المدارس الدينية العسكرية للانشقاق عن الجيش فى حال تمت تنفيذ خطة «فك الارتباط».

بعض حاخامات الصهيونية الدينية من الذين يديرون بعض المدارس الدينية العسكرية دعوا طلابهم وأتباعهم إلى إطلاق النار على أفراد الأمن الإسرائيلى الذين يشاركون فى إخلاء المستوطنات، كما أفتى الحاخام حاييم دروكمان الذى هو نفسه مدير لإحدى «يشيفوت ههسدير» فى منطقة الخليل.

وحسب استطلاع لآراء الضباط والجنود المتدينين أشرف عليه مركز هرتسليا متعدد الاتجاهات ونشر العام الماضى، تبين أن أكثر من ٩٥٪ من الجنود والضباط المتدينين يرون أنهم سينفذون تعليمات الحكومة المنتخبة وقيادتهم فى الجيش، فقط فى حال توافقت مع الفتاوى التى يصدرها كبار الحاخامات والمرجعيات الدينية. وكما يقول الجنرال شلومو غزيت، رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية سابقاً فإنه «لا يختلف اثنان فى إسرائيل على أن الجندى المتدين الذى يتخرج من المدارس الدينية العسكرية يرى فى الحاخام الذى يدرسه أو يدير المدرسة التى يتعلم فيها هو قائده الأعلى وليس قائده العسكرى».

من هنا فقد كان تحذير رئيس «الموساد» الأسبق الجنرال دانى ياتوم واضحاً وقاطعاً، فإمكانية أن يحدث انقلاب عسكرى على الحكومات المنتخبة فى إسرائيل أصبحت أمراً وارداً بسبب التثقيف التى تمنحه المدارس الدينية العسكرية لطلابها الذين يتجهون بقوة إلى تبوؤ المواقع القيادية فى الجيش.

قام الحاخام ملميد مدير المدرسة الدينية العسكرية فى مستوطنة «تفوح»، بإصدار فتوى تبيح للطلاب سرقة محاصيل المزارعين الفلسطينيين، على اعتبار أنهم جزء من «الأغيار»



وإن كان مثل هذا السيناريو ظل ينظر إليه فى إسرائيل حتى وقت قريب على أنه محض خيال، فإن المخاوف على استقرار النظام السياسى بسبب اندفاع المتدينين الصهاينة نحو المواقع القيادية فى الجيش أصبحت حديث الساعة فى الدولة العبرية. فإلى جانب ياتوم فإن هناك عدداً كبيراً من الجنرالات المتقاعدين والساسة، فضلاً عن الباحثين والصحافيين من يرى فى تغلغل طلاب المدارس الدينية العسكرية من أتباع التيار الدينى الصهيونى الواسع فى الجيش أكبر خطر يهدد النظام «الديموقراطى» فى الدولة العبرية، لدرجة أن هناك من دعا إلى التوقف عن استيعاب المتدينيين الصهاينة فى الوحدات القتالية، وسد الطريق أمام تبوؤهم المراكز القيادية فى الجيش.

ويضيف ياتوم «قبل عامين كنت أعتقد أن هذا السيناريو وهم وخيال، لكنه أصبح واقعياً فى ضوء الأحداث الأخيرة التى نشهد فيها مظاهر العصيان فى الجيش، والتشكيك فى شرعية الحكومة والبرلمان» من قبل حاخامات الصهيونية الدينية، وتحديداً الذين يديرون المدارس العسكرية الدينية.

ويرى المفكر الصهيونى يامبى شيلغ أن الغرور أعمى أتباع التيار الدينى الصهيونى من خريجى وطلاب المدارس العسكرية الدينية بحيث لم يعودوا يستسيغون أن يتم حسم القرارات المصيرية للدولة خارج عباءة رجال الدين.

ويصل شيلغ إلى القول أن هذا الغرور قد أدى إلى ظهور النزعات الانفصالية لهذا التيار عن الدولة ومؤسساتها.

ويصل الكاتب يارون لندن إلى نفس النتيجة محذراً من تفاقم النزعات الانفصالية لدى التيار الصهيونى الدينى. اللافت للنظر أنه وعلى الرغم من تحذير النخب العلمانية من خطورة المدارس الدينية العسكرية، والحاخامات الذين يديرونها على النظام الديموقراطى فى الدولة، إلا أن مؤسسات حفظ القانون والنظام فى الدولة العبرية لم تحاول ولو مرة واحدة التعرض لهؤلاء الحاخاما أو مساءلتهم عن هذا التحريض العنصرى الذى لا يوازيه تحريض.

ليس هذا فحسب، بل إن الحاخامات المتورطين فى هذا التحريض يحظون بثقل متزايد فى السياسة الإسرائيلية، ويتنافس صناع القرار السياسى فى الدولة العبرية على استرضائهم والتقرب منهم، والتزلف إليهم.

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: لماذا هذا الصمت إزاء هذه الفتاوى القاتلة، ولماذا الكيل بمكيالين؟.

الذى يثير المرارة أن أحداً فى العالم العربى لم يحاول الاهتمام بما يصدر عن المرجعيات الدينية الكبرى فى الدولة العبرية من فتاوى ويحاول اطلاع الرأى العام والعربى والعالمى على هذا التثقيف على الحقد الأعمى فى المدارس الدينية العسكرية التى تمثل النبع الآسن من الكراهية.

لا شك أن المعطيات السابقة يجب أن تشعل الأضواء الحمراء لدى دوائر صنع القرار فى العالم العربى، إن كان هناك ثمة من يلقى بالاً لما يحدث فى إسرائيل. فعسكرة التعليم فى إسرائيل وتبوؤ المتدينين المراكز القيادية فى الجيش سيؤثر مستقبلاً بشكل كبير على طابع العلاقات بين إسرائيل مع العالم العربى. فالجيش الذى سيكون تحت قيادة المتدينين هو غير الجيش الحالى، على الرغم من أن معظم القادة الحاليين ذوو نزعات عنصرية متطرفة. الجيش الإسرائيلى تحت قيادة المتدينين سيدفع الحكومة إلى سياسات أكثر تصادماً مع العالم العربى، فضلاً عن أنه سيتجاهل مظاهر الغزل التى تبديها أنظمة الحكم العربية تجاه الدولة العبرية، وذلك بفعل تأثرهم الشديد بالأفكار الخلاصوية التى توغل فى نفيها للآخر العربى وازدرائه.

المراجع:

(١) امنون ليفى، «المتدينون الجدد»، ماجناس، تل أبيب، ١٩٩٢ .

(٢) ايلى بودايا، الصراع فى كتب التاريخ المدرسية العبرية، المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية: رام الله، ٢٠٠٥ .

(٣) دانى ياهف، «ما أروع هذه الحرب»، المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية: رام الله، ٢٠٠٦.

(٤) مجلة قضايا إسرائيلية، السنة الأولى، العدد ٣، صيف ٢٠٠١ .

(٥) مجلة قضايا إسرائيلية، السنة الثانية، العدد ٨، خريف ٢٠٠٢ .

(٦) معاريف ٢٠٠٥/٣/٢٤ .

(٧) معاريف ٢٠٠٣/٦/١٦ .

(٨) يديعوت أحرونوت ٢٠٠٢/٧/٥ .

كتاب الزاوية

فى العبودية المختارة

سذاجة الشعوب

كان ملوك آشور ومن بعدهم ملوك ميديا لا يظهرون علانية إلا بعد وقت متأخر بقدر المستطاع ليتركوا الجمهور فى شك: أهم بشر أم شىء يزيد. وليسلموا لهذه الأحلام أناسًا لا ينشط خيالهم إلا حيث يعجزون عن الحكم على الأشياء عيانًا. هكذا عاشت فى ظل الإمبراطورية الآشورية شعوب متعددة ألفت خدمة هذا السيد الغامض وخدمته طائعة بمقدار جهلها أى سيد يسودها. لا بل هى كانت لا تكاد تعلم إن كان لمثل هذا السيد وجود فخشيت جميعها بعين الاعتقاد واحدًا لم يره أحد قط. كذلك ملوك مصر الأوائل كانوا لا يظهرون علانية إلا وقد حملوا على رءوسهم حينًا قطًا وحينًا فرعًا وحينًا نارًا، تقنعوا بها وتبرجوا كالمشعوذين وبذا أثاروا بغرابة المنظر المهابة والإعجاب فى نفوس رعاياهم، وكان أجدر بالناس لولا فرط حمقهم وعبوديتهم ألا يروا فى هذا كله، على ما أعتقد، إلا مدعاة للهو والضحك. إنه لأمر يدعو إلى الرثاء أن نسمع بأى الوسائل تذرع الطغاة حتى يؤسسوا طغيانهم وإلى أى الحيل التجأوا دون أن تتخلف الكثرة الجاهلة فى كل زمان عن ملاقاتهم فلا يرمون شبكة إليها إلا ارتموا فيها وخلا تغريرهم بها من المشقة حتى إنهم إنما ينجحون فى خداعها أكبر النجاح حين يسخرون منها أكثر السخرية.

مأساة مي..!

يوسف الشريف

لاشك أن مي كانت بحكم ولادتها الفلسطينية، وتربيتها اللبنانية، ثم إقامتها ووفاتها بمصر، الرائدة القومية السباقة إلى إنصاف المرأة وفك عزلتها حتى تتبوأ المكانة التي تستحقها، في وقت كانت ظلاً مهمشاً للرجل في شتى المجتمعات العربية!

على أن اسم «مي» مسبوقاً بوصفها آنسة، على مدى الخمسة والخمسين من عمرها، كان اختصاراً لاسمها الكامل «مي ماري زيادة»، ولاتزال منذ رحيلها في أكتوبر ١٩٤١ - الأسطورة الجميلة التي انتهت بمأساة عبثية، فهي كانت مثيرة للجدل، حين أكدت حضورها الطاغي في مجتمع القاهرة، وصالت وجالت على مسرح الحياة الأدبية في مصر، كاتبة، وأديبة، وشاعرة متميزة واسعة الاطلاع، شجاعة وواثقة من نفسها وذات حضور غامر إلى حد اجتذاب الزعماء والعلماء ونجوم الإبداع والمفكرين إلى صالونها الأدبي بمنزلها رقم ٢٨ بشارع عدلي اليوم - شارع المغربي عصر كل ثلاثاء، حيث كان يدور الحوار بينهم ثريا وممتعاً حول شتى القضايا، ومنهم من بثها الإعجاب أو الغرام، بينما لا يزال السؤال يراوح نفسه عن الحبيب المعلوم أو المجهول الذي شغفت به وبادلته العواطف المشبوبة!

على أن دورة حياتها العريضة التي صادفت اتهامها بالجنون وصحبة المجانين في مستشفى «العصفورية» بلبنان، كانت بمثابة عقدة الذنب لدى الكثير من النقاد وتأنيب ضمير الذين خالطوها من الأقارب والأصدقاء، وتقاعسوا عن إنقاذها وإنصافها ورد اعتبارها، ولعله يفسر مبادرة البعض منهم إثر رحيلها، إلى استجلاء صورتها الوضيئة، وتسليط الضوء على إبداعاتها وعطائها الزاخر، ودحر الشائعات الباطلة التي لصقت بسمعتها العفيفة، عبر الكم الهائل من الكتب والدراسات والمقالات التي حاولت الإحاطة البانورامية بمشوار حياتها العريض على مدى ٥٥ عاماً!

ولا نعتقد أن المطلوب في هذه الإطلالة على سيرة مي الذاتية إعادة ما تناولته جملة هذا الزخم من الكتابات، وإنما سبر أغوارها عبر التحري والتحليل، والكشف عن أسرارها وخباياها، والسيناريوهات الدرامية التي انتهت بمأساتها، واعتماد النهج المقارن بين تعدد الرؤى والروايات حول هذه الشخصية المتفردة، بكل ملامحها وخصائصها، وتألقها وانكساراتها!

صالون الآنسة

هنا يلزم البوح بالسر وراء متابعتي الدءوبة لسيرة حياة مي، وقراءة معظم ما كتب أو روى عنها، إذ كان أستاذنا الشاعر الكبير كامل الشناوي لا غيره صاحب الفضل، عبر حكاياته الشائعة التي تناولت ذكرياته عن مي وذكريات أصدقائه الذين كانوا يتحلقون حولها في صالون الثلاثاء، وهو ما ضمنته كتابي عنه بعنوان: «آخر ظرفاء ذلك الزمان»!

لم يكن صالون مي أول صالون أدبي لسيدة في تاريخ الأدب العربي - على حد قول كامل الشناوي - فقد سبقها مجلس السيدة سكينة بنت الحسين رضي الله عنها، وكانت وهي العابدة المتبتلة تجالس الأجلة من قريش، ويجتمع إليها الشعراء، ويذكر أنها كانت تصفف شعرها باحتشام تصفيفاً جميلاً عرف باسم «الجمة السكينية»، وعندما رأى عمر بن عبدالعزيز رجلاً يصفف شعره على طريقة السيدة سكينة أو بجلده وحلق شعره، وعندما سمعت جرير يروى عن صاحبه بيتاً من الشعر:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
وقت الزيارة فارجعي بسلام

قالت له: وأي ساعة أحلى من الطروق؟.. قبح الله صاحبك وقبح شعره!

وكانت سكينة تطرب للغناء وتجيز المغنين، وكذلك مي التي كانت تهوى سماع الموسيقى وتهفو إلى العزف على البيانو والعود، وأحياناً ما كانت تستبقي طه حسين ومحمد حسن المرصفي بعد انصراف صالون الثلاثاء، حتى تغني لهما بصوتها الجميل «يا حنينه» من الفولكلور اللبناني!

قبل صالون مي كانت هناك صالونات أدبية أخرى للنساء، أشهرها صالون الأميرة نازلي الأرستقراطي بقصر عابدين، وكان من أبرز رواده سعد زغلول وقاسم أمين والشيخ محمد عبده، وكان الحديث بينهم يدور حول قضايا السياسة والإصلاح الاجتماعي والديني!

وقد ظهرت مي لأول مرة على الساحة الأدبية بعد ظهور أديبتين مصريتين هما عائشة التيمورية وكان لها ديوان من الشعر، والأخرى «باحثة البادية» ملك ناصف كريمة القاضي الأديب حفني بك ناصف، وكانت تنشر المقالات وتثير العديد من القضايا الأدبية والاجتماعية في الصحف والمجلات، لكن عائشة وملك كانتا تتحدثان مع الرجال من وراء حجاب، ولم تظهرا في المجتمعات ولم تخطبا في حفلة، وذلك أن اختلاف الظروف والبيئة والثقافة والدين أفسح الطريق أمام مي، وخلفت من الآثار الأدبية ما يكفل لها في تاريخ الأدب العربي مكانة مرموقة، بينما سدت المنافذ في وجهي عائشة وملك!

والشاهد أن مي التي ولدت في مدينة الناصرة الفلسطينية عام ١٨٩٠ على أب لبناني وأم فلسطينية، وشاءت تصاريف القدر أن تصحب والديها في رحلة النزوح إلى لبنان ولم تزل طفلة صغيرة، حيث تلقت دراستها في داخلية مدرسة الراهبات بعين الحلوة، فما أن شبت عن الطوق حتى بزغت موهبتها الأدبية، ثم ذاعت شهرتها ولم تزل في العشرين من عمرها، فكانت تكتب آنذاك بالعربية والفرنسية، فضلاً عن إتقانها الإنجليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية، إذ كان دأبها الاطلاع على شتى الآداب والثقافات، وهكذا صدر لها في تلك الفترة المبكرة ديوان من الشعر بالفرنسية وقصص قصيرة بالعربية.

وبقدر ما كانت تحلق مي بذكريات الحنين إلى طفولتها السعيدة، حيث اختارت لنفسها اسم «كنار» والمعايشة البريئة في ملاعب الصبا مع ابن عمها «نعوم» وصديقه يوسف خايك الذي أصبح في شبابه نحاتاً شهيراً، بقدر ما كانت تجتر أحزانها لأن ابن عمها تخلى دون سبب معلوم عن وعده بالزواج بها، وتلك كانت باكورة عثراتها العاطفية التي خلقت ندوباً غائرة في قلبها!

وإلى مصر كان النزوح الثاني مع أسرتها والإقامة في القاهرة منتصف عام ١٩٠٧، وقد بدأت كتابة المقالات الأدبية والاجتماعية والنقدية في صحيفة «المحروسة» التي أصدرها والدها الياس زيادة، بالتزامن مع التحاقها لدراسة اللغة العربية وآدابها في الجامعة المصرية القديمة، ويروى الدكاترة زكي مبارك عن تلميذته مي، أنها كانت الفتاة الرشيقة، الجميلة المحيا، الحلوة العبارة وذات الصوت الساحر المنغم كما الموسيقى، وكانت سمراء في لون البن أو التمر هندي، كما يقول الشعراء، وكالمسك على حد وصف متيم ليلى العامرية، وكانت تتدلل وتتباهى بسحرها بشكل تلقائي، وتستمتع بوصف المعجبين بها دون أن تبين، وربما من هنا تعلقت بها أحلام زملائها الطلبة!

اختارت مي لنفسها أسماء مستعارة كانت توقع بها باكورة إبداعاتها الأدبية، وبينها «إزيس كوبيا» الذي وقعت به قصائدها بالفرنسية، ثم عربتها ووقعتها باسم «عائدة»، وعلى ما يبدو أنها كانت مترددة في الإفصاح عن نفسها، ورأت في الأسماء المستعارة بالونات اختبار لإبداعاتها وردود أفعالها لدى النقاد والقراء، ثم أبانت عن نفسها ووقعت باسم «مي» تارة و«الصغيرة» تارة أخرى منذ خاطبها جبران خليل جبران في إحدى رسالاته بهذه الصفة إذ كانت تصغره بست سنوات!

لم تقف مي في معظم مقالاتها موقف الواعظ فحسب، بل أخذت تتحدث إلى الجنس اللطيف بأسلوب رقيق ومقنع ينفذ إلى القلب، وهو ما تجلى واضحاً في سلسلة مقالاتها بعنوان «إلى كل فتاة مصرية»

الكاتبة

وجهت مي عنايتها ونذرت فكرها وجهدها لقضية تحرر المرأة العربية، وكان كتابها عن



مأساة مي...!

المدهش أن مي لم تكن تستعمل المساحيق لكونها جميلة، وأنها كانت تواظب على الصلاة في الكنيسة، وتمارس رياضة اليوجا وكتبت عنها وفائدتها النفسية بالهلال، وقد قرظتها على غلاف المجلة

ملك ناصف أول الغيث على هذا الصعيد، مع التنوير عبر عشرات المقالات الاجتماعية بالمناضلات الرائدات اللاتي حملن عبء الدفاع عن حقوق المرأة، وبينهن لبيبة هاشم صاحبة أول مجلة نسائية، والشاعرة عائشة التيمورية، وهدى شعراوي مؤسسة الاتحاد النسائي، ورفيقة دربها سيزا نبراوي، وكانتا قد خلعتا الحجاب إثر عودتهما من أوروبا وشاركتا في مؤتمر دولي حول المرأة، وكذا نبوية موسى التي قاطعها شقيقها حين التحقت للدراسة بالمجان في مدرسة السنية، وعلقت قائلة باستخفاف: لقد نقص من أقاربي واحد.. ولا ضير في ذلك، ثم واصلت التحدي والتحقت بمدرسة الحقوق العليا عام ١٩١٢، وصدر لها كتاب «المرأة العاملة» عام ١٩٢٠ فندت في صفحاته مختلف الآراء المعارضة لعمل المرأة!

ولم تكتف مي بإنصاف المرأة العربية عبر الكتب والمقالات فحسب، ولكنها وجدت في الندوات والمحاضرات متسعاً لكسب الأنصار لدعوتها، وفي الحلقة ١٨ من سلسلة التوثيق التاريخي لصحيفة الأهرام «ديوان الحياة المعاصرة» ينقل الدكتور يونان لبيب رزق الكثير عن مي بعد أن أصبحت كاتبة معتمدة في الأهرام، ويسلط الأضواء على مقالاتها عن حرية المرأة، وكيف تألقت في إحدى محاضراتها عن نهضة المرأة في قاعة ايوارت بالجامعة الأمريكية، وحضرها جمهور غفير من العلماء والكتاب والأدباء ونحو ١٢٠٠ من السيدات والآنسات، ونقل المحرر الذي شهد المحاضرة عن مي، حديثها الضافي عن دور نبوية موسى، وإشادتها بجمعية المرأة الجديدة، ثم توقفت طويلاً عند الفلاحة المصرية وواجب الأمة في تحريرها وانتشالها من وهدة الفقر والجهل والمرض، فهي التي أعطت الأمة خيرة عظمائها وأبطالها المكرمين، وأشارت إلى أن الزعيم سعد زغلول قال في الكلمة التي ألقاها بفندق سميراميس وجاء فيها «أيها السادة.. أملي أن أقول قريباً «أيها السادة والسيدات» في مناشدة حارة للمصريين بتوجيه عنايتهم الخاصة من أجل نهوض المرأة و.. صفق الحاضرون طويلاً لمي!

الطريف - بالمناسبة - أن الأهرام وهي كانت صحيفة محافظة وقتئذ، لم تجد غضاضة في نشر العديد من الرسائل وقصائد القراء الذين يبدون فيها إعجابهم الشديد وإبداعاتها، ومنها قصيدة قسطنطين بك داود كبير مترجمي السكك الحديدية ومطلعها:

شرفت جنسك في العلوم والأدب
يا من اعترف بها كل العرب

قصيدة أخرى نظمها شيخ الخطاطين نجيب هواويني يقول فيها:

أضحي بيانك باسق الأغصان
في روضة أهل العلم والعرفان

ندوة أخرى لمي نشرتها الأهرام في ٢١ فبراير ١٩٢٨ وكانت بعنوان «ميزانية العائلة»، تبعتها محاضرة ألقتها مي في مؤتمر دولي بروما، وفيها اعتبرت الفقر مرضاً وخمولاً وعبودية، ولا صحة لمجتمع أفراده مرضى، ولا استقلال لوطن أبناؤه الأرقاء والعبيد، وإذا كانت الإحصائيات الدولية تؤكد على أن ٦٠٪ من الإيراد العام قيد تصرف المرأة، فعليها إذن أن تحسن التصرف في ميزانية العائلة، وإذا كان الاعتدال مطلوباً، فالتبذير أمر ممقوت يلاشي ثروة العائلة كما يقضي على راحتها وهنائها، لكن التقتير لا يقل عنه مقتاً، وإذا كان على الإنسان أن يهيئ لنفسه ضرورة الحياة المباشرة، فعليه أن يتناول من الكماليات ما يحسن منظره ومنظر عائلته وينمي موهبته وموهبة ذويه، ويجمل منزله ويحيط نفسه بآثار الكياسة والذوق والجمال!

صورتها على غلاف الهلال

في مجلة «الهلال» الشهرية، ظلت مي تنشر مقالاتها على مدى ١٨ عاماً، ومعظمها كان دفاعاً حاراً وصادقاً عن حرية المرأة العربية، وكان آخرها عام ١٩٣٥ مقالاً بعنوان «الأدب النسائي»، والملاحظ أنها كانت دوماً معتدلة في آرائها الاجتماعية ولا تؤمن بالطفرة، وفي مقالة مثيرة عن فن إرضاء الرجل تقول: «لا أقصد بذلك إرضاء من الوجهة الجنسية، وإنما الواجب على المرأة أن تهيئ له وسائل الراحة في البيت، وأن ترقى بفكرها إلى مستواه، ليأتنس بها ولا يهرب إلى البارات والقهوات!».

ولم تقف مي في معظم مقالاتها موقف الواعظ فحسب، بل أخذت تتحدث إلى الجنس اللطيف بأسلوب رقيق ومقنع ينفذ إلى القلب، وهو ما تجلى واضحاً في سلسلة مقالاتها بعنوان: «إلى كل فتاة مصرية» وجاء فيها: الحياة أمامك أيتها الفتاة الصغيرة، ولك أن تكوني ملكة أو عبدة.. عبدة بالكسل والاغتياب والتطفل والتبذل. ولك أن تكوني ملكة بالاجتهاد والترتيب وحفظ اللسان والصدق وطهارة القلب والفكر والعفاف والعمل المتواصل.. إلخ.

ولا شك أن أفكار مي كانت سابقة لعصرها ونقيضاً للظروف العقيمة والتقاليد البالية التي كانت لا ترى للمرأة مكاناً خارج البيت.. ولادة ومربية ومدبرة وظلاً للرجل فحسب.

على أن الحضارة الإسلامية واستجلاء معالمها وآثارها كانت المحور الثاني في اهتمامات مي الثقافية التي بثتها في سلسلة مقالاتها للأهرام، من زاوية إزالة جهل المرأة المعرفي بتراثها الحضاري، إذ كانت تنطلق في جولات دءوبة بين ربوع المعالم الأثرية، وقد وصفت جامع أحمد بن طولون بأن مساحته توازي ضعفي مساحة جامع عمر بالقدس، ثم تطوف بالقارئ بين أروقته العريضة السامقة، حتى تتوقف بالشرح التاريخي لدور المرأة في بناء ذلك الأثر الكبير، وكيف كانت قاعات القصر الملحق بالمسجد حافلة بالزينات الذهبية البارزة، وكذا صور المغنيات والجواري، ومنظر بالحجم الطبيعي لخمارويه جالساً في عز بين الخدم والحشم.

وعلى هذا النحو المعرفي طافت مي عبر مقالاتها بنحو ٥٠٠ جامع، عرضت لتاريخها وطرز بنائها، وملحقاتها من المدارس و«البيمارستانات»، وهو كان اسم المستشفيات عهدئذ، ثم لا تنس وصف حضورها شخصياً حلقات الذكر في التكايا، ومشاهد الدراويش وتقاليدهم وموسيقاهم ورقصهم وتهاليلهم!

ثم نخلص في النهاية إلى خمس رسائل شهيرة كانت مي قد بعثتها إلى الأديب محمد لطفي جمعة رداً على رسائله التي استطلع من خلالها موقفها ورؤاها من قضايا المرأة، وتصدت في حماس وقوة للعادات الشرقية الضارة المتخلفة، واستنكار الولع بزواج الشرقيين بالغربيات، وأخذت على المرأة خضوعها لبعض مظاهر المدنية الغربية التي تتنافى مع وقار الشرق وأصالته.

والمدهش أن مي لم تكن تستعمل المساحيق لكونها جميلة، وأنها كانت تواظب على الصلاة في الكنيسة، وتمارس رياضة اليوجا وكتبت عنها وفائدتها النفسية بالهلال، وقد قرظتها على غلاف المجلة وأشادت بنبوغها ومقالاتها التي تنم عن أدب الكاتبة وجمال تعبيرها وسعة اطلاعها وبعد خيالها، مصحوبة بنشر صورتها لأول مرة بناء على طلب القراء واستجابة لرجاء رئيس التحرير إميل زيدان.

كانت مي تؤمن بوجود مدنية مشتركة بين الشعوب، ولا ترى غضاضة من اقتباس العرب ما يناسبهم من النظم الأوروبية والمنافع العلمية وأساليب العمران، وترى من الخير للعرب وواجبهم ألا يتخلفوا عن الانتفاع بأي نشاط أو تقدم أو أفكار مميزة أياً كانت جهتها!

وعندما اضطربت الأوضاع السياسية والأمنية في لبنان، نشرت مقالاً بالهلال في أكتوبر ١٩٢٢ تحدثت فيه عن هويتها: يقولون «أنت لست منا» لأنك من جنس آخر، فلماذا أكون دون سواي.. تلك التي لا وطن لها، ولدت في بلد، وأبي من بلد، وأشباح نفسي تنتقل من بلد إلى بلد، فلأي هذه البلدان أنتمي، وعن أي هذه البلدان أدافع؟

ثم تتساءل في حسرة: «لماذا قدر علي أن أكون ابنة وطن تنقصه شروط الوطنية فأمسي تلك التي لا وطن لها؟ و.. حتى تختتم مقالها الشفيف الدال على ما كانت تعانيه من الهواجس السياسية، وما كان يعتمل في عقلها ووجدانها من تساؤلات ممضة تقول: إنما أريد وطناً لأموت من أجله، أظنها كانت تعني وطنها العربي الكبير!

فولتير وعشرة آلاف رسالة

كانت مي قد تعرفت إثر إقامتها بالقاهرة على أستاذ الجيل لطفي السيد والشيخ الأديب مصطفى عبدالرازق، وبفضل رعايتهما وتوجيهاتهما توثقت درايتها باللغة العربية والإلمام بنحوها وصرفها واستبيان جمالياتها، فكان طريقها سالكاً للكتابة بالفصحى في العديد من الصحف والمجلات المصرية وبينها المقطم والزهور والهلال والأهرام، كما صدر لها عدة كتب اختارت لها عناوين مثيرة، بينها «ظلمات وأشعة» وكتب مقدمته عباس محمود العقاد، و«بين المد والجزر»، و«دمعة وابتسامة»!

يروى المفكر العلماني سلامة موسى أن مي كانت تتحدث بثقة وعن علم وإدراك للنزعات والمذاهب الأدبية والفلسفية، وأنها تأثرت في إبداعاتها إلى حد كبير بأسلوب الشاعر الإنجليزي بايرون، وفي شهادتها الشخصية على أطياف خيالها كقاصة تقول: «لا أستطيع

القول إن هذا الخيال يفرض نفسه علىَّ فرضاً. فقد يكون موضوع القصة ذكرى قديمة تثيرها رؤية أو منظر أو حادثة، وقد يكون إيحاء مما أشعر به وأراه فى حياتى الحاضرة، فتدفعنى هذه الذكرى ويستفزنى هذا الإيحاء، إلى الكتابة، وأجدنى مدفوعة إلى تأليف القصة، وقد استيقظت فى الفجر، ولا ألبث حتى أرى نفسى أمام مكتبى أؤلف القصة»!

كان من عادة مى أن تضع تصميماً أولياً لموضوع أو خاطرة، ثم تعود إليه فى وقت لاحق والشروع فى بناء القصة وصياغتها، وربما من هنا كانت تعتقد أنه ليست هناك قصص خيالية فيما كتبه الأدباء، بل كان واقعياً بنظرها كسائر ما تسمع به من حواديت الحياة. تقول: إن المؤلف القصصى لا يبدع من خياله ما ليس موجوداً، بل هو يستمد من الحياة كل ما يكتب، وإلا لما كان لقصته أى أثر إذا كان يتحدث إلى الناس بما يستحيل أن يقع فى مجتمعهم، ومن هنا كان ما كتب عن القصص القيمة، إنما تصوير لبعض جوانب الحياة لا وهماً من الأوهام التى لا نصيب لها من حقائق الحياة!

ولكن بالرغم من هذا النهج الذى يتسم بالواقعية فى كتابة القصة عند مى، إلا أنها كانت غاية فى شطحاتها الرومانسية التى تستمدها من وحى الخيال والشعور العاطفى، ولعل فى رسائلها لأصدقائها وأحبائها مجال واسع للتحرى عن مشاعرها الحقيقية، والتأريخ لعلاقاتها العاطفية التى نالت نصيبها الوافر من الرصد والدراسة، وبينها على سبيل المثال رسائلها التى جمعها ونشرها جميل الجسر فى كتابى «رسائل مى» و«مى وجبران»، وغيرها من الرسائل التى جمعتها الباحثة أمل داعوق وكانت محور أطروحتها الأكاديمية التى ناقشتها لجنة ضمت الشيخ عبدالله العلايلى والدكتور الشيخ صبحى صالح، ثم نشرتها فى كتاب «فن المراسلة عند مى زيادة»، وتظل هناك العديد من رسائل مى المحجوبة عن النشر لدى ورثتها!

وعلى ما تبدو الشواهد أن مى تنتمى إلى طائفة من الأدباء الذين دأبوا على التنفيس عن مكنوناتهم والبوح بشواغلهم وأسرارهم أو عواطفهم إلى حد الإدمان أحياناً، وعلى سبيل المثال فقد خلف فولتير وراءه عشرة آلاف رسالة كان قد بعث بها إلى نحو سبعمائة شخصية، فكانت مجالاً رحباً موثقاً وشاهداً على سيرة حياته ورؤاه ومخبوءاته الشخصية!

الشاعر الموسيقار

والحقيقة أنه يصعب حصر المقالات التى كتبتها مى فى أربعة أرجاء الصحافة المصرية، كما أنه لا غنى لأى باحث حول سيرتها وإبداعاتها من قراءة صديقها الأديب طاهر الطناحى سواء فيما كتبه عنها بمجلة الهلال أو كتابه القيم «أطياف من حياة مى»، وكتاب كامل الشناوى «الذين أحبوا مى»، وكتاب سلمى الحفار الكزبرى «مى زيادة وأعلام عصرها»، ثم كتابها الثانى «مى زيادة ومأساة النبوغ»، و«مى أديبة الشرق والعروبة» للأستاذ محمد عبدالغنى، والكتاب الصادر للدكتور محمد عبده البخارى عن دار الحرمق بدمشق و«باقات من حدائق مى» لفاروق سعد، و«مى وحياتها المضطربة» لجميل جبر، ثم كتب صادق الرافعى الثلاثة «أوراق الورد و«السحاب الأحمر» و«رسائل الأحزان»، وهى تشى ولا تبين عن حبه لمى لكونه عالما إسلاميا وتجنب غيرة أصدقائه الشعراء كالعقاد وطه حسين، وأخيراً وليس الأخير كتاب الأديبة الصحفية نوال مصطفى «مى أسطورة الحب والنبوغ»، كما لا يفوتنى التنويه بالمقالات المهمة التى كتبتها عن مى الأديبة غادة السمان فى مجلة «الحوادث اللبنانية» ومقالات الأديبة الناقدة صافيناز كاظم فى الهلال والمصور، وحظيت مى بموهبة الشعر الغنائى المنثور وقدمت منه عدة نماذج، وثورتها الاعتراضية على محاولات نقل رفاتها من المقابر المارونية بمصر القديمة إلى لبنان، نافية عنها الجنسية اللبنانية، مؤكدة على عروبتها ومصريتها، حيث عاشت معظم عمرها فى مصر التى شهدت عطاءها وتألقها!

وقد وجدت صعوبة فى حصر أسماء أعلام الفكر والثقافة والأدب الذين تقاطروا على صالون مى منذ افتتاحه لأول مرة عام ١٩١٣ واستمر زهاء ربع قرن، وكان ساحة للحوار والمؤانسة بين مختلف المذاهب، نذكر منهم أحمد لطفى السيد وطه حسين وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم وشبلى شميل والمازنى والتابعى وشيخ القضاة عبدالعزيز فهمى وشيخ الصحافة داود فرحات والأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبدالرازق، وكانوا جميعهم يضمرون الحب والإعجاب بمى، ولا يفصحون إلا شعراً أو نثراً بشكل ضمنى غالباً وصريحاً أحياناً!

وكان مصطفى صادق الرافعى قد طارحها الغزل النبيل، ولم تصده أو تستنكره، وردت تتجاوب مع مشاعره النبيلة فى قصيدة مطلعها:

زمانك قبلى انتهى
وهل يرجع المنتهى
فحسبى أن اشتهى
وحسبك أن تشتهى

الشاعر الكبير إسماعيل صبرى كان يكن عاطفة الأبوة نحو مى وقال فيها:

روحى على دور الحى حائمة
تظامئ الطير إلى ماء
إن لم أمتع بمى ناظرى غداً
أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء (موعد صالون مى)

ويقول الشاعر الرومانسى الكبير إبراهيم ناجى:

أحببت «مية» حباً لا يعادله
حب وأفنيت فيها الحب أجمعه
أحب عمرى الذى فى قربه مى
قد مر من دونها ما كنت أقصعه

كانت مى تصف أحمد شوقى بالشاعر الموسيقار، إذ كان يجلس فى صالونها بجسمه فقط، تاركاً العنان لفكره وخياله. ويوماً تجرأ وبثها إعجابه أمام رواد الصالون عندما ألحوا عليه أن يبوح بمشاعره نحوها وقال:

أسائل خاطرى عما سبانى
أحسن الخلق أم حسن البيان
رأيت تنافس الحسنين فيها
كأنهما لـ «ميه» عاشقان
إذا نطقت صبا عقلى إليها
وإذا بسمت إلى صبا جنانى
أم أن شبابها راث لشيبى
وما أوهى زمانى من كيانى
وما أدرى أتبسم عن حنين
إلى بقلبى أم عن حنان

أما الشاعر الأديب خليل مطران فكان يغار على مى، ويوماً رآها تودع إحدى صديقاتها بحرارة، لسفرها إلى حلوان، فاصطنع البكاء.. فسألته مى عن السبب؟ قال: أبكى سفر صديقتك!.. قالت: لكنها مسافرة إلى مكان قريب.. إلى حلوان! فقال مطران: مادام المكان قريبا فلم هذا الوداع الحار؟!

على أن مى كانت تكن تقديراً وعاطفة جياشة للعالم المفكر يعقوب صروف، وكان قد بثها أبياتاً من الشعر يقول فيها:

شوق تكامل أدنى الوجود إلى
أعلى فأعلى إلى أعلى أعاليه
حتى تنامى وقلب المرء تلهبه
نار من الحب يذكيها وتذكيه

وكان صروف قد أسمع مى قصيدة أخرى أعجبتها يقول فيها:

هو الحب أكسير الحياة بلا مرا
ولولاه ما كان الوجود كما ترى

ضحكت مى وقالت صدقت، لكننى أعترض بشدة على كلمة «بلا مرا» إذ أخشى على القراء «ميمها»، وكانت واحدة من سخرياتها العذبة!

كانت مى تخاطب صروف تارة بذى التاج والصولجان، وتارة أخرى بـ «أستاذى توت المستبد» وكانت تعنى توت عنخ آمون، إذ كان دائم الكتابة عن حضارة المصريين القدماء، وحين كتب يرثى الأديبة ملك ناصف، كتبت إليه تتنبأ بمصيرها: «أتمنى أن يأتى بعد موتى من ينصفنى، ويستخرج من كتاباتى الصغيرة المتواضعة، ما فيها من روح الإخلاص، والصدق، والحمية، والتحمس لكل شىء حسن وصالح وجميل»، ثم تواصل البوح قائلة: «إذا كانت لى صفة فهى تنحصر فى هذا: وأنا سعيدة بها، لأنها كل شخصيتى، بل أتمنى أن أموت فى حياتك أنت، لتقوم لى بذلك العمل المبارك، فأكون خالدة بخلودك».

فى رسالة أخرى تعترف لصروف بالقدوة والريادة كاتباً وأديباً «إذا كان هناك من يستحق الملام، فأنت هو، أنت الذى تنصلت من الأسجاع والحواشى والزوايد يوم كانت روح العصر، لو أردت أن أقلد أحدا لقلدتك، لكنى أكره التقليد وأنا أحب أن أكون أنا. أنا فى كتاباتى.. يا لطيف ما هذا الظلم والاستبداد؟ وهكذا أجيبك أنا»!



وإذا كان العقاد الوحيد الذى ظهر فى صورة مشتركة مع مى، ودأب على الحفاوة بإبداعاتها الأدبية، فقد أكد كذلك فى حديث صحفى أجراه معه كامل الشناوى أنه أحب مى وأحبته، بل ولديه بعض من رسائلها العاطفية إليه، إلا أن الذين كتبوا سيرتها الذاتية لا يستبعدون عنتريات العقاد وكبرياءه المعروف وراء هذا الادعاء، خاصة أنه لم يأت بدليل يؤكده، أو لأن مى استبعدته من المنافسة على حبها مع اثنين غيره من الشعراء تباعاً.

كان الأول هو الشاعر الشاب المتمرد والنابض بالألم ولى الدين يكن، ويروى أنه حدثت بينهما جفوة لم تدم غير بضعة أيام فقال يعاتبها:

تمسين ناسية، وأمسى
ذاكرا

مأساة مي..!

كانت مي تصف أحمد شوقي بالشاعر الموسيقار، إذ كان يجلس في صالونها بجسمه فقط، تاركاً العنان لفكره وخياله، ويوماً تجرأ وبثها إعجابه أمام رواد الصالون عندما ألحوا عليه أن يبوح بمشاعره نحوها

عجباً أشاعرة تهاجر شاعرا
إن الملائكة لا يكن هواجرا
إن كنت لا أسعى لدارك زائرا
فلكم سعى فكري لدارك زائرا

وقد مات ولي الدين يكن قبل رحيل مي بثمانية عشر عاماً، وبكته بعينيها وقلبها وقلمها، وعلى ما يبدو أن فواجع مي لم تأت فرادى، فقد كانت فجيعتها في رحيل والدها ثم والدتها تباعاً وأصبحت بعدها وحيدة تفتقر إلى صلات القربى الحميمة، وكانت تقيم في مصر آنذاك، وسبقتها فجيعتها في ابن عمها الذي تنصل من حبه لها ومن وعده لها بالزواج في مقتبل شبابها، نهاية بفقدان الأمل.. وإلى الأبد.. في تتويج حنينها وأشواقها وحبها بالزواج من الشاعر جبران خليل خبران، وكان الشاعر الثاني الذي جذبها أو جذبت نفسها إلى مرمى شباكه العاطفية كما لو أنها مسحورة أو منومة، ولا شك أنها علاقة عاطفية مبهمة وغير مسبوقة، فهي لم تلتق به أبداً إلا عبر الأشواق الهائمة وسبع وعشرين رسالة متبادلة، هي في القاهرة وهو في المهجر، تفصل بينهما البحار والمحيطات وعلى بعد آلاف الأميال، وهو الوحيد الذي باحت بحبها له في صراحة، وحاولت جهدها وبكل ما أوتيت من ذكاء وأدب ولباقة وثراء أن تغريه بالمجيء إلى القاهرة عبر حكاياتها عن النيل والأهرامات وسحر مصر الأسر، لكنه واجه عاطفتها الجياشة وعشقها المشبوب بلطف دون أن يعدها بشيء يغريها على استمرار الأمل إلى ما لا نهاية، وكان هو لا هي الذي حسم النهاية، حين بعث لها برسالة زينها بلوحة رسمها بريشته لرجل وامرأة كل منهما يعطي ظهره للآخر.. قال فيها:

حبيبتي مي.. خاطبت الناس جميعهم باسم الحب.. فقلت لهم: فلتكن هناك فسحات تفصلكم بعضكم عن بعض في حياتكم المشتركة، ولتدعوا رياح السماء تتراقص فيما بينكم، أجل فليحب أحدكم الآخر، لكن لا تقيدوا الحب الذي يؤلف بين قلبينا.. يا مي.. يا نسمة روحي وعطر حياتي ودنيا أشواقي!

وهكذا قفلت مي راجعة بهمها وكل اهتمامها إلى مجتمعها الرجولي في صالون الثلاثاء، وقد تبددت آخر أحلامها العاطفية، وحتى فاتها قطار الزواج، وبعد أن كانت سعيدة بلقب «الآنسة» بات اللقب يثير مخاوفها من التساؤلات المكتومة بعد أن أصبحت «عانس»، لكنها ظلت تتحصن بعفافها خشية الجموح والشطط العاطفي المدمر، ويكفيها فخراً ورضا، فقد خرج من صالون الثلاثاء الكثير من قضايا الأدب والمجتمع، أو على حد وصف العقاد: لو جمعت الأحاديث التي دارت في ندوة مي، لتألفت منها مكتبة مصرية تقابل مكتبة العقد الفريد والأغاني في الثقافتين الأندلسية والعباسية!!

والقصة بعد ذلك باتت معروفة بكل تفاصيلها المأساوية، حين اضطربت أحوالها النفسية إثر تهديدها بالاغتيال على يد الفاشيين، عندما هاجمت نهجهم وسلوكهم بعنف خلال زيارتها روما ولقائها وحوارها مع بابا الفاتيكان، بل وصبت لعناتها على موسيليني، حيث نصحها دبلوماسي عربي بمغادرة روما فوراً، وأن تأخذ حذرها كذلك من دعاة الفاشية بمصر.. وهكذا صدقت نبوءة العقاد حين وصف رحلتها مسبقاً إلى إيطاليا بالشؤم، وهي كتبت تهاجم الزعماء الذين أشعلوا نار الحرب العالمية، وتمنت أن تحكم المرأة العالم حتى تنتهي المنازعات وتتوقف الحروب ودمارها.

في القاهرة كان بانتظارها ابن عمها يوسف زيادة، وهو خوري أي قسيس وكان نائباً في محكمة البداية بلبنان عام ١٩٣٨، ونجح في استدراج مي بدعوى زيارة الأهل والاستجمام في لبنان، وهناك كان قد أعد لها مؤامرة دنيئة وأدخلها مستشفى العصفورية غصباً، ثم فرض عليها وصايته واستولى على ثروتها الضخمة التي ورثتها عن أبيها، وراح يبددها تباعاً بدعوى الصرف على علاجها.

أضربت مي عن الطعام احتجاجاً عدة شهور، فكانوا يطعمونها بالقوة ويمنعون عنها متعتها الوحيدة في التدخين ونقص وزنها إلى ٢٨ كيلو جراماً، وظلت هكذا على حالها صابرة وصامدة دون أن تقرأ كتاباً أو تكتب، وانتظرت شهوراً وكلها ألم وحسرة حتى يهب أصدقاؤها الأدباء والكتاب إلى إنقاذها وتبرئتها من تهمة الجنون، ولكن دون جدوى، وحتى علم بمأساة مي الأديب أمين الريحاني، وجاء خصيصاً من أمريكا إلى لبنان، وخاض حملة إعلامية واسعة في الوطن العربي حتى نجح في إنقاذها وخروجها من المستشفى بعد الوفاء بتكلفة علاجها!

خرجت مي من المستشفى وكأنها تشهد ولادتها من جديد، مؤكدة للجميع على سلامة عقلها وصمودها بنجاح في وجه المحنة عبر محاضرة ضافية ألقتها بالجامعة الأمريكية في بيروت في حضور المئات الذين هتفوا بحياتها وانتصارها على الظلم الذي لحق بها، قالت: أحرم على أحد من أقارب والدي ومن أقارب والدتي أن يمثل أمام جثتي.. هؤلاء الذين مزقوا حياتي!

بعدها ألقت أربع محاضرات، وصدر لها كتاب عن حياتها بعد خروجها من المستشفى بعنوان «في بيتي اللبناني» ثم رواية بالفرنسية بعنوان «المنقذون»، وكتاب مزيج بين الأدب والتاريخ بعنوان «علاقة فينيقية بمصر» ويتضمن مشاهداتها وجولاتها وأسفارها، ثم «مذكراتي» ويضم أشعارها وذكرياتها عن رواد ندوتها، وأخيراً «ليالي العصفورية» وتحكي فيه عن محنة اتهامها بالجنون، ولاتزال معظم هذه المؤلفات بانتظار التحقيق والنشر!

هكذا شقيت مي بنبوغها، وتآمر ابن عمها، وتجاهل خيرة أصدقائها، وكانت قد شقيت من قبل بتخلي ابن عمها عن وعد الزواج بها، ومن بعد كان شقاؤها برحيل حبها الأول الشاعر ولي الدين يكن، وحبها المبهم للشاعر جبران خليل جبران، فيما كانت إضافة البعض من الباحثين في سيرة حياتها شقاءها بفقد صديقتها الحميمة، وهي جارتها الأوروبية الجميلة، وقصة تعلقها الغامضة بالفنان الإيطالي ايتوري روسي الذي سافرت للقائه بروما في يونيو ١٩٢٥.

ويوم تأبينها بالقاهرة في حفل ضخم في ذكرى الأربعين، وتقاطر عشرات الساسة والأدباء والمفكرين على الخطابة والإشادة بمي وعطائها الزاخر، ووقف العقاد يرثيها في قصيدة حارة:

أين مي في المحفل يا صاح
عودتنا هاهنا فصل الخطاب
قولها المنبر مرفوع الجنان
مستجيب حين يدعو مستجاب
أين مي.. أين مي؟



وقال طه حسين: مي تمثل في نفسي بداوة البادية وحضارة الحاضرة وثقافة العرب الأقدمين وثقافة المحدثين، وكل ما كان يتمنى المثقف أن يصل إليه..

وقال الشيخ مصطفى عبدالرازق: «طلعت مي على حياتنا الأدبية تحيط بها هالة من ذكائها المتأجج وشبابها النضير وأدبها الناشئ المتسامي إلى الكمال، وودعت مي هذه الحياة محاطة بهالة من آثار وذكريات هي أكبر من ذكاء ومن كل شباب»!

الدكتورة عائشة عبدالرحمن «بنت الشاطئ» التي مهدت لها مي طريق الكتابة في الأهرام.. قالت: غيري يسكب الدمع على حياة مي، وما حياتها إلا قصة استشهاد طويل!

رحم الله مي.. وأسفاً على زمانها الجميل! ■

حلمى محمد القاعود

ارفعوا أيديكم عن الجامعة!

هناك فريق تدفعه سطحية التكوين العلمى وهشاشته، إلى المسارعة نحو قطار السلطة أو قطار الحزب، فهو هناك سيجلس مستريحًا

يحكى أن شيخًا معممًا، كان أستاذًا بكلية دار العلوم، جاء من يخبره أن دولة رئيس الوزراء - وكان ذلك قبل الثورة - يوصيه بابن أخته الطالب لديه. فهم الشيخ الرسالة التى جاءت وقت الامتحانات، فطلب ورقة امتحان الطالب، وأمسك بالقلم الأحمر، وشطب على المجموع، وأنزله درجة واحدة.

كان الأستاذ الشيخ معتادًا على منح الطلاب جميعًا درجة زائدة فوق ما يستحقون، كى يضمن أنه لم يظلم أحدًا، ولم يعطه أقل مما يستحق.

نقل ما حدث بالضبط إلى دولة الرئيس؛ الذى بادر على الفور بالاتصال بالأستاذ الشيخ معتذرًا، ومكررًا الاعتذار، وشارحًا أنه لم يقصد تمييز ابن أخته على بقية الطلاب، ولكنه كان يريد أن يحظى الطالب بنوع من رعايته ومتابعته.

دلالة الحكاية لا تخفى، فالجامعة - يوم كانت جامعة - كانت فوق السياسة والسياسيين، لها هيبتها وكرامتها، من خلال هيبة الأستاذ الجامعى وكرامته، واستطاع رجال فيها أن يقدموا استقالاتهم عندما تدخلت السلطة فى شئونها. وسمعنا رجلاً مثل أحمد أمين يصف نفسه بأنه «أكبر من عميد وأصغر من أستاذ» أى أنه فوق منصب العمادة، ولكنه يظل طالب علم وباحثًا عن المعرفة.

فى ذلك الزمان كانت الجامعة المصرية تمثل قيم المجتمع وتقاليده وتؤصل لمستقبله وآماله، وتقود حركة الفكر والوعى، ويفاخر من ينتسب إليها بأنه درس فى الجامعة المصرية، سواء كانت فى القاهرة أو الإسكندرية أو عين شمس أو أسيوط. كانت شعوب أفريقيا وآسيا، تتطلع لإرسال بنيها للدراسة فى الجامعة المصرية، لأنها كانت فى المقدمة: علمًا وخبرة وتنظيمًا وإدارة، وقبل ذلك وعيًا وحرية.

وفجأة، فجع الناس مؤخرًا فى مصر والبلاد العربية، بأن الجامعة المصرية لم تظهر ضمن الخمسمائة جامعة على مستوى العالم، ولا ضمن المائتين على مستوى قارة أفريقيا، فقد سبقتها جامعات أنشئت حديثًا قبل عقدين من الزمان أو ثلاثة.

وكان الجدل الذى ثار على صفحات الصحف، يدور حول النتائج، ويترك الأسباب، بل إن بعض المنتمين إلى الجامعة، تجاهل واقعها المأساوى، وراح يجادل بغير حق، ويدعى أن الجامعة المصرية بخير، وهى ليست كذلك بشهادة الأغلبية الساحقة ممن يعنيهم الأمر الجامعى، داخلها أو خارجها، وإذا كانت الجامعة فى كل بلاد الدنيا، تعد قاطرة التقدم والتطور والانطلاق، فإن واقع الجامعة المصرية ليس كذلك. لقد تحولت بحكم التراكمات السلبية، إلى مجرد مدرسة متواضعة، لا تمنح أبناءها ما يحتاجونه، من علم وفكر وقيم وتقاليد ومثل وأخلاق وروح وثابة نحو الغد المأمول.

لقد ضعفت أطراف العملية التعليمية فى الجامعة، وتقلص دورها، بعد أن تراجعت مكانتها وهيبتها، وتحولت بفعل ظروف شتى إلى مجرد أداة فى يد السلطة تحركها بالطريقة التى تريد، وليس بالمنهج العلمى الذى يفترض أن يقودها تلبية لاحتياجات المجتمع ومتطلباته.

ولا ريب أن المجتمع المصرى تأثر تبعًا لذلك، مما انعكس على أدائه فى مجالات العمل كافة، بدءًا من الزراعة والصناعة والإدارة حتى التعليم والثقافة والإعلام.. إن مصر تعانى عناء واضحًا بسبب تراجع دورها على المستويات المحلية والإقليمية والدولية، وذلك نتيجة لمأساة الجامعة التى يفترض أن تكون غير قائمة، حتى لو افترضنا جدلاً أن الأزمة تشمل بعض القطاعات الاجتماعية، فقد كان يجب أن تكون الجامعة بمنأى عن ذلك، بل تكون وسيلة لحل هذه الأزمة!

الواقع يشير إلى مأساة وأزمة للطرفين: الجامعة والمجتمع، وهو ما يجعل الأفق ملبدًا بغيوم قاتمة، لا يدرى أحد متى تتبدد، أو تنجلى.

ومعالجة هذا الأمر فى تلك السطور من قبيل النقر على الباب، لتنبيه من فى داخل البيت، ليفكروا معًا بصوت مسموع فى النجاة من مشكلة تهدد حياتهم، أو على الأقل تجعلهم مضغة فى أفواه الجيران، وخاصة عندما تستمر دون أن يصلوا إلى قرار.

إن مأساة الجامعة وانعكاساتها على المجتمع، تحتاج إلى جهد كبير، ووقت طويل، وتضافر جهود المخلصين - وليس المصفقين - لإنقاذ ما يمكن إنقاذه فى الوقت الراهن على الأقل، ووضع خطة على المدى غير القريب للإصلاح والاستقامة على الجادة.

وإذا افترضنا أن أطراف العملية التعليمية تتمثل فى الأستاذ والطالب والمؤسسة، فسنجد أن هذه الأطراف جميعًا تدخل دائرة المعاناة لسبب أو آخر، ولا تستطيع أن تنهض بدورها الطبيعى فى ظل الأوضاع القائمة، ويمكن أن نشير فى عجالة إلى وضع كل طرف منها، لندرك إلى أى مدى وصلت المأساة بالنسبة لما يفترض أنه قاطرة المجتمع إلى التقدم والتطور والرخاء والأمان.



المدرجات والقاعات مكتظة بزملائه وزميلاته، فلا فرصة كى يتعرف إلى أستاذه، أو يتعرف إليه أستاذه. ثم إنه قد لا يجد الأستاذ فى معظم الأوقات، لأن الأستاذ مشغول بعمله الخارجى، أو منصبه الإدارى

أولاً ـ الأستاذ:

ويتكون الأستاذ عادة من الخريج المتفوق الذى يحوز أعلى الدرجات فى امتحانات الليسانس أو البكالوريوس، ويزكيه مجلس القسم العلمى ليكون معيداً، فمدرساً مساعداً فمدرساً، ثم أستاذاً مساعداً، ويصل إلى قمة الهرم بالأستاذية، حيث تبدأ الثمار الناضجة تؤتى أكلها، ومعها العطاء السخى، وخاصة فى مجال البحث والدراسات العليا والتخطيط لما سيأتى من أيام بحثية أو تعليمية أو اجتماعية تخص الوطن بأسره بل الأمة بأسرها.

ويفترض فى هذا «الأستاذ»: الاتزان والموضوعية، والالتزام بالحكم العلمى حتى لو جاء على غير هواه، فضلاً عن السلوك الخلقى الراقى الذى يبعد به عن سفاسف الأمور، والتصرفات غير اللائقة التى تحط من قدره أو تزرى به، أو تعرضه للمهانة.

كما يفترض أن الجامعة توفر له الحد الأدنى من متطلبات الحياة التى تعينه على البحث والدرس والإنتاج، وتجعله فوق المسألة والحاجة، فلا يمد يده خارج جامعته، ولا يلهث وراء لقمة مغموسة بالذل والهوان، ولا يفكر فى الهروب من الوطن تحت مسمى «إعارة» أو «تعاقد» أو «هجرة»!

الأستاذ بهذه الصورة «قدوة» يضعها أمامه الجيل الجديد والأجيال التالية، وهذه «القدوة» تحظى بالوقار والتكريم فى أرجاء المجتمع وبين طبقاته المختلفة وفئاته المتنوعة، بوصفه أكبر من الأطماع الصغيرة، والتهافت على المتاع الزائل.. إنه يشبه «العابد» فى محرابه، و«الراهب» فى صومعته، لا يعنيه شىء من عرض الدنيا، بقدر ما يعنيه العطاء والبناء.

هذه بإيجاز هى الصورة «المتخيلة» للأستاذ الجامعى.. فهل هى كذلك؟

من المؤكد أنها ليست كذلك، وأنها تحولت إلى شىء آخر أقرب إلى «البيزنس» فى عمومها وشمولها. ولا ريب فهناك نماذج عطرة يستضىء بها المجتمع والتاريخ فى بلادنا، بعيداً عن العناصر التى شوهت هذه الصورة، وقبحتها..

والعنصر الأول فى تشويه الصورة وتقبيحها يرجع إلى السلطة التنفيذية فى الدولة التى لم تدرك أو تجاهلت الخلل الاجتماعى ـ الاقتصادى الذى أصاب السلك الوظيفى فى المجتمع تحت ظلال النظام الرأسمالى الجديد الذى يحكم السوق، وقد وصفته بـ «الجديد» لأنه لا يمت للنظام الرأسمالى المعروف فى الغرب، كما أنه لا علاقة له بالعدل الاجتماعى.. هو نظام تحكمه اسما لغة «الاستثمار» وهى فى الحقيقة لغة «الشطار»، فبينما تجد موظفاً صغيراً فى بنك استثمارى، أو مسئولاً صغيراً فى بعض الوزارات أو الشركات يتقاضى مرتباً يبلغ أضعاف مرتب الأستاذ الجامعى، فإن الأخير كى «يوفق أوضاعه» فى توفير نفقاته المنزلية والضرورية ـ لا داعى للعلمية ـ يحتاج إلى ما يسمى «بحرق المراحل» من خلال التهافت على أكبر عدد من ساعات التدريس داخل كليته، والكليات الإقليمية، واستخدام وسائل «غير مقبولة» لتوزيع أكبر كميات من الكتب (مجازاً تسمى كتباً)، والصراع مع زملائه على الإشراف العلمى على طلاب الماجستير والدكتوراه بوصفه «سبوبة» ذات عائد، ولو كان ضعيفاً، فضلاً عن التحايل فى تشكيل لجان الممتحنين للوصول إلى أقصى حد فى مكافأة الامتحانات.

هناك من يفضلون طرقاً أخرى أكثر خزياً ومهانة، حين ينعطفون نحو «الدروس الخصوصية»، حيث يسقط الطالب هيبة أستاذه، فهو الذى يعطيه والأستاذ يمد يده، وهناك من يرفض «الترقية» ليبقى فى الدرجات الأدنى من الأستاذية ليضمن استمراره فى تحقيق المكاسب المادية من وراء الدروس الخصوصية، ولا يبالى بما يقال أو يجرى من تسريب للامتحانات أو اللعب فى التقديرات أو غير ذلك مما يمكن أن يتخيله الناس.

وإذا كانت آلية «حرق المراحل» قائمة غالباً فى الكليات النظرية، وبعض الكليات العملية، فهناك آلية أخرى، يلجأ إليها فريق آخر، أقل ضراوة وشراسة من فريق «توفيق الأوضاع».. هذا الفريق يبحث عن «إعارة» أو «عقد عمل» فى بلد عربى، أو يخصص وقته وجهده للعمل فى «عيادة» أو «صيدلية» أو «مكتب محاماة» أو «مكتب استشارى» أو «مكتب محاسبة» أو نحو ذلك. وهذا لا يعنى نفسه غالباً بأمر الكلية أو الطلبة أو المحاضرات، لأنه مشغول بما هو أهم وأجدى.

هناك فريق ثالث، تدفعه سطحية التكوين العلمى وهشاشته، إلى المسارعة نحو قطار السلطة أو قطار الحزب، فهو هناك سيجلس مستريحاً، تترى عليه الأموال من مناصبه السياسية المختلفة، أو اللجان التى يشارك فيها، والقوم فى السلطة لا ينظرون عادة إلى الكفاءة العلمية أو الخبرة الفنية بقدر ما ينظرون إلى الوفاء والإخلاص ـ بمفهومهم طبعاً ـ والأمر فى كل الأحوال لا يخرج عن التأييد والتصفيق لقرارات السلطة ورغباتها، بدءاً من حالة الطوارئ حتى الانتقال إلى جدول الأعمال، بعد إسقاط كل الاستجوابات ولو كانت تمس حياة الملايين مثل «استجواب تلوث مياه الشرب»!

ويلاحظ أن «الأستاذ» المعار أو المتعاقد، يعيش غالباً، فى ظل ظروف مهينة، أبسطها بُعده عن الوضع الملائم لمواصلة أبحاثه ودراساته، وأعقدها أنه يظل رهينة لإرادة «الكفيل» ومشيئته! ومع ذلك، فهناك من يفضل هذا الوضع، ويبقى غريباً حتى آخر العمر، مفضلاً «الغربة» على الوطن الذى لا تعنيه «الكفاءات» بقدر ما تعنيه «الولاءات».

ولا شك أن أحوال «الأستاذ» الجامعى بهذه الصورة، أفرزت سلبيات عديدة، تتناولها الصحف وأجهزة الإعلام، مثل السرقات العلمية، بيع الامتحانات، السعى لدرجة الصراع من أجل المناصب الإدارية، الانضواء تحت راية الأمن، تحول المجالس العلمية إلى ميادين قتال لتعطيل مصالح أو تسويق مصالح..

بيد أن أبرز ما أنتجه تدخل السلطة التنفيذية فى شئون الجامعة المصرية، كان إرساء منهج التمييز العنصرى بين الأساتذة، فهناك الآن ثلاثة أنواع منهم:

النوع الأول: الأستاذ العامل: وهو الذى لم يبلغ الستين، وله حق التدريس فى مرحلة الليسانس أو البكالوريوس، مع الدراسات العليا. ويحظى هذا النوع بأفضلية نسبية، حيث يوزع كمية أكبر من الكتب، ويتمتع بعائد أفضل.

النوع الثانى: الأستاذ المتفرغ: وهو الذى تجاوز الستين ولم يصل السبعين، وله حق التدريس فى الدراسات العليا فحسب. ويمكن للقسم أن يسند إليه ساعة أو أكثر فى مرحلة الليسانس أو البكالوريوس إذا كان القسم يحتاج إليه.. وبالطبع فهذا النوع عائده أقل.

النوع الثالث: الأستاذ غير المتفرغ: وهو الذى تجاوز السبعين، ويدرس فى الدراسات العليا فقط، ويحصل على مكافأة مقطوعة، تمثل مبلغاً مقطوعاً فى العام، وهو مبلغ متواضع للغاية لا يكفى بدل سفر من القاهرة إلى الإسكندرية أربع مرات فى الشهر!

وهذا التمييز تم تصفية لحسابات بين بعض أطراف السلطة فى وقت سابق، ولكنه أصاب غيرهم من الأساتذة المرموقين.

ومن المفارقات أن السلطة تسعى إلى مد سن الإحالة إلى التقاعد للقضاة إلى ما بعد ٦٨ سنة، ولكنها فى الوقت ذاته تسعى إلى استئصال الأساتذة بعد الستين تحت حجج واهية، بل الأدهى من ذلك أنها تسعى إلى استئصال من هم دون الستين بدعوى التعاقد الموسمى كل فترة زمنية على الوظائف المتاحة فى الأقسام العلمية.

من المفترض أنه كلما كبر الأستاذ فى السن، ازداد خبرة ونضجاً بحكم أبحاثه ودراساته وقراءاته، ويفترض أيضاً، أنه سيفيد الطالب أكثر من ذى قبل، ولكن السلطة تريد الاستغناء عنه وعن غيره لأسباب غير علمية بكل تأكيد.

ومن المفارقات أن بعض الدول العربية الفقيرة أدركت مبكراً قيمة «الأستاذ» الجامعى، وأهميته بالنسبة للمستقبل، فجعلت له الأولوية، ووفرت له الحياة الكريمة من خلال «راتب» يعينه على التفرغ لمهمته الأساسية وهى البحث والدرس والقراءة.. الأردن مثلاً لا تجد فيها أستاذاً واحداً منسوباً إلى جامعة رسمية، يعمل خارج بلاده. لماذا؟ لأن الملك حسين، قبل رحيله بسنوات رفع مرتبات أساتذة الجامعات ـ دون تمييز ـ إلى مستوى نظرائهم فى دول الخليج، وقامت سوريا مؤخراً برفع رواتب أساتذة جامعاتها بنسبة كبيرة، أدت إلى استقالة كثير من المعارين والمتعاقدين خارجها. والأمر نفسه بالنسبة للمغرب وموريتانيا.. ولكن أم الدنيا تصر على شىء آخر.

ثانياً ـ الطالب:

يأتى الطالب من مدرسته الثانوية إلى الجامعة، حاملاً قصور التعليم العام ومشكلاته منذ المرحلة الابتدائية، ومشبعاً بروح الحفظ والتلخيص والكتاب المقرر والدروس الخصوصية والزحام وسوءات الامتحان من غش وفهلوة ومحفوظات.

يأتى الطالب لا يفكر فى الحصول على المعلومة من مرجع، ولا فى فهمها، فليس لديه وقت كى يتعب ويقلب بين المراجع، ولم يتعود على ذلك فى المراحل السابقة، ثم إنه مشبع بروح الإحباط واليأس من الحصول على «وظيفة» بعد تخرجه، فقد سبقه آخرون، ومازالوا بلا وظيفة، يناموز النهار ويسهرون الليل، وقد يمارس بعضهم سلوكيات مشينة كى يملأ فراغه الروحى والزمنى.. فلماذا يتعب نفسه فى البحث والكشف؟

ثم إن المدرجات والقاعات مكتظة بزملائه وزميلاته، فلا فرصة كى يتعرف إلى أستاذه، أو يتعرف إليه أستاذه، ثم إنه قد لا يجد الأستاذ فى معظم الأوقات، لأن الأستاذ مشغول بعمله الخارجى، أو منصبه الإدارى، أو أنه غير متفرغ له كأن يأتى من جامعة أخرى بعيدة كلما أتيح له ذلك.

المهم، أن يشترى كتاب الأستاذ، الذى يأتى فى آخر الفصل ليحدد صفحات الامتحان، ويخرج الطالب من امتحان الفصل الأول إلى امتحان الفصل الثانى إلى امتحان التخلفات، فالكليات فى امتحانات معظم العام بما يترتب عليها من تصحيح وكنترول ورصد للدرجات وإعلان للنتائج..

وبالطبع، فالذين طبقوا نظام الفصلين فى الجامعة المصرية، كان هدفهم إشغال الطلاب عن المشاركة فى أى نشاط سياسى، يمكن أن يزعج السلطة، ولذا رأوا أن

نظام الفصلين وما يترتب عليه، وسيلة ناجعة لإبعاد الطلاب، ولو اقتضى ذلك أن تكون أيام التدريس الحقيقية فى كل فصل أقل من شهرين، لا يستطيع فيهما أى أستاذ أن ينجز مقرره تدريساً بصورة مرضية..

وفى هذه الفترة الزمنية القصيرة، يصعب على الطلاب أن يمارسوا أنشطة ثقافية أو غيرها بصورة فعالة.. وإذا عرفنا أن معظم الأنشطة مرهونة ممارستها بموافقة جهاز الأمن، وهو غالباً لا يوافق إلا على الأنشطة الترفيهية مثل الغناء والرقص، فإن الطالب لا يستفيد بعداً معرفياً أو اجتماعياً فى الغالب.

إن اتحادات الطلاب تأتى من خلال تزكية جهاز الأمن، ولذا فإن هذه الاتحادات لا تحقق الثمار المرجوة، بل العكس فإن أفرادها فى العادة هم عيون الأمن على أساتذتهم وزملائهم من الطلاب، وهو ما يجعلهم مرفوضين من معظم الطلاب، ويكون وجودهم مجرد هيكل تنظيمى أجوف للظهور فى الحفلات التى تنظمها الأجهزة الرسمية فى بعض المناسبات، لا أكثر.

وهذا الوضع خلق رغبة لدى الطلاب الآخرين فى إنشاء اتحادات حرة أو موازية تعبر عن الطلاب تعبيراً حقيقياً، وهو ما أوجد صراعاً بين جهاز الأمن وهؤلاء الطلاب، فكانت اعتقالات ومجالس تأديب، وحرمان من الدراسة أو الامتحانات، فضلاً عن صدامات وظواهر ليس للجامعة بها عهد، اللهم إلا فى أيام الاحتلال البريطانى، وكان ذلك يتم خارج أسوار الجامعة، أما الآن فإنه يتم داخل الأسوار، وبين من؟ بين أبناء الوطن الواحد!

إن تعبير الطلاب عن أنفسهم تعبيراً حقيقياً، فضلاً عن إلغاء نظام الفصلين، يخدم العملية التعليمية فى الجامعة، مع القصور الراهن، ويخدم الوطن أيضاً، لأنه يتيح للطلاب فرصة الاهتمام بقضايا وطنهم ومشكلاته من خلال المحاضرات الجادة، والندوات الرصينة، والفنون المحترمة، كما يبرز مواهبهم الدفينة، ويحرك فيهم شعلة الأمل، للنظر إلى المستقبل نظرة تفاؤل وإقبال لا نظرة تشاؤم وإدبار.

وأول خطوة فى هذا الاتجاه تقضى بإلغاء اللائحة الطلابية التى وضعها خصوم الحرية والوطن، وإقرار لائحة جديدة تتجاوز لائحة ١٩٧٩ التى ينادى البعض بإعادتها، ليتعلم أبناؤنا فن الحوار الجاد الخلاق، مهما اختلفت توجهاتهم وتباينت رؤاهم.. فهم الأمل، وهم المستقبل.

ثالثاً ـ المؤسسة:

مؤسسة التعليم الجامعى أو إدارته، هى المخ الذى يقود الجامعة ويوجهها نحو الأهداف والغايات الرئيسة للمجتمع، من خلال بحث القضايا والموضوعات المختلفة، والمؤسسة مرتبطة اقتصادياً بالدولة، وليس بالسلطة، هذا هو المفترض. أما الواقع فإن المؤسسة مرتبطة بالسلطة لا الدولة، إذ إن الدولة هى مجموع مؤسسات المجتمع التى تخصص للجامعة ميزانيتها المالية ومقار الكليات والإدارات والمكتبات والمعامل ومراكز البحوث. وهذا الدور للدولة يفترض أن يحقق للمؤسسة الجامعية استقلالاً كاملاً فى مجال الرأى والفكر والبحث العلمى وإقامة الهياكل الإدارية والعلمية، والأمنية أيضاً.

الواقع يقول إن السلطة ـ لا الدولة ـ فرضت هيمنتها على المؤسسة الجامعية فى جميع المجالات، فهى التى تصنع القيادات الجامعية، وتتدخل فى تعيين المعيدين عن طريق الأمن، وتهيمن على الأنشطة الثقافية والاجتماعية والترفيهية للجامعة، بل إنها تتدخل فى مجال البحث العلمى، وخاصة فى الكليات النظرية بمقاومة أو استبعاد بحوث بعينها، وتعويق الباحثين الذين يقومون بهذه البحوث، بل إنها تسيطر على المؤسسة الجامعية سيطرة كاملة عن طريق الأجهزة الأمنية التى تبدأ من باب المؤسسة حتى أعمق أعماقها، حيث يحتل «رجل الأمن» مكاتب فخمة واسعة، قد تفوق مكاتب الأساتذة والعمداء ورؤساء المؤسسة أنفسهم!

ونتيجة للوضع المزرى مادياً ومعنوياً للأستاذ الجامعى، فقد صار الهيكل الإدارى للمؤسسة بدءاً من رئيس القسم مروراً بوكيل الكلية وعميدها ووصولاً إلى رئيس الجامعة ونائبه، رهناً برضا المؤسسة الأمنية، حتى لو كان المعنى بالمنصب غير مؤهل علمياً أو إدارياً، أو غير كفء على الإطلاق.

قبل هيمنة السلطة على المؤسسة الجامعية، والتسرب إلى أدق تفاصيلها ومفرداتها، كانت هناك أساليب أخرى لتكوين الهياكل الإدارية، منها الأقدمية، والانتخاب، وهى أساليب كانت ناجعة، فى تحقيق استقلال الجامعة، وتفرغها لأداء رسالتها فى صورة مقبولة ومعقولة، حتى لو كانت الإمكانات المادية محدودة.

ومن المؤسف أن السلطة فى ظل هيمنتها على المؤسسة الجامعية، أغدقت على رؤسائها الكبار، تحت مسميات مختلفة، وغلت يدها عن الأساتذة والبحوث، فالأستاذ ـ كما سبقت الإشارة ـ أدنى دخلاً من نظيره فى أى بلد عربى، بل فى أى بلد فقير فى العالم. والبحوث لا تنال من الميزانية إلا النزر اليسير، وبالمقارنة مع الكيان الصهيونى فى فلسطين المحتلة، فإن هذا الكيان يصرف على البحث العلمى ٣٪ من ميزانيته، أما أم الدنيا، فلا يتجاوز ما تخصصه ٠,٣٪، لذا نجد الفارق الهائل فى التقدم العلمى هناك، والتخلف «بل الموت» العلمى هنا. ولسنا فى حاجة إلى المقارنة بين ميزانية الأمن الداخلى، وميزانية البحث العلمى، لأن الفارق مرعب، ومع ذلك لم يتحقق الأمن الداخلى، ولم يتحقق التقدم العلمى!

إن الحديث حول انهيار البحث العلمى، وعدم الاستفادة من البحوث العلمية التى تم إنجازها، وسعى الدول الأخرى، ومنها دول معادية إلى استثمار بحوثنا وعلمائنا، حديث يطول، وقد تناوله كثيرون، ولا أجد داعياً لتكراره.

ومن المفارقات العجيبة، أن كل المهن والحرف فى المجتمع لها نقابات وروابط ونواد، تدافع عن أصحابها وعن المهنة وترقيتها، وتصد العدوان عليها أياً كان شكل العدوان وطبيعته، إلا المؤسسة الجامعية، فلا توجد لها نقابة أو رابطة تطالب بحقوق الأساتذة والطلاب والبحث العلمى، وترعى العملية التعليمية والقائمين عليها. وكانت نوادى هيئات التدريس قبل عقدين من الزمان تحاول أن ترفع صوت الأساتذة والمؤسسة ـ مجرد رفع صوت ـ ولكن رجال السلطة ممن تولوا المسئولية التنفيذية، حولوا هذه النوادى إلى مجرد مقاه يتناول فيها الأساتذة الشاى، ويتقابلون فى مقارها.

ومن الطرائف التى صدرت عن بعض هذه الأندية ـ المقاهى، أن أحدها أراد أن يثبت ولاءه المطلق للسلطة، فطلب مؤخراً الفتوى الشرعية من مفتى الديار المصرية حول تشكيل الاتحادات الطلابية: هل هو حرام أم حلال؟

والقصد من وراء هذا الطلب، أن يقول مفتى الديار إنها حرام، لأن بعض الطلاب يعارضون السلطة، وينشغلون بغير العلم والدرس!

ولا ريب أن قهر المؤسسة الجامعية وإذلالها وامتهانها بالتدخل البوليسى المباشر، وقبض اليد عن تخصيص الميزانية اللائقة للأستاذ والبحث العلمى، هو الذى يقود المجتمع إلى الانهيار وليس الأزمات، لأن المؤسسة الجامعية، يصعب عليها فى ظل هذا الوضع المهين أن تقدم خريجاً صالحاً يعمل ويخلص فى عمله أو يتقنه، لأنه خريج قاصر بالضرورة.

تأثير وتأثر:

ذات يوم استدعانى وزير سابق، بوصفه الرئيس الأعلى للجامعات، ليناقش معى، ما كنت أكتبه حول انهيار المؤسسة التعليمية بصفة عامة، وأقول «يناقش» ولا أقول لفظاً آخر يعبر عن المعنى الحقيقى لاستدعائى الذى هز أركان الجامعة التى أنتمى إليها من أصغر مسئول إلى رئيسها الذى استدعانى هو الآخر عقب مقابلتى للوزير ليطمئن على نفسه وعلى منصبه!

كان أول وأبرز ما قاله لى الوزير السابق:

هل قمت بعمل استبانة تؤكد على ما تذهب إليه فى مقالاتك؟

قلت له: نعم.

قال: أين؟

قلت له: أوراق امتحان طلاب اللغة العربية فى الفرقة الرابعة «الليسانس» فى مادة «كذا»، بكلية «كذا». هذه الأوراق تثبت أن أغلبيتهم الساحقة لا تصلح للعمل فى مجال التعليم أو الإعلام أو الثقافة.. بل وزارة الأوقاف!

كانت إجابتى مباغتة للرجل، الذى قلت له: إننى عملت بجميع مراحل التعليم العام والجامعى، داخل البلاد وخارجها، وأعلم جيداً كيف يكون مستوى طلابى الذين أدرس لهم، فأنا أتكلم عن تجربة لا عن هوى!

استمر الحوار بينى وبين الوزير السابق، وتشعب، وبدا أنه فى أعماقه يؤمن بما أقول، ولكنه كان كمن يقول: إن الأمر أكبر منى.. والتمست للرجل عذراً.. ولكنه ليس أى عذر!

والشاهد فى هذه الحكاية هو أن ضعف مستوى الخريج ينعكس على المجتمع بالسلب، كما أن قوته تنعكس بالإيجاب، وإذا رأينا خريجى اللغة العربية لا يستطيعون النهوض بمهامهم فى مجالى التعليم والإعلام والثقافة والأوقاف.. ومثلهم من يتخرجون فى الطب والصيدلة والزراعة والتجارة والتربية والهندسة والتقنية.. وبقية المجالات، فإن المجتمع يعيش أزمة خانقة، وتخلفاً مريعاً، يجعل من حق الدول حديثة الولادة، أن تفخر بنظمها



التعليمية، وسيرها على طريق التطور الطبيعي، ويفرض علينا، ونحن أبناء السبعة آلاف سنة، كما يردد البعض، أن نرثى لحالنا، ونبكى على واقعنا، ونأسى على تعليمنا غير الرشيد.

لقد أحدث انهيار التعليم خللاً فى المجتمع، فاق كل التصورات، حيث لم يعد العلم والتجويد فيه وسيلة للرقى والحراك الاجتماعى الصحيح، ولكنه صار حرفة المتواضعين المطحونين الذين يتمسكون بصلابة القيم وثبات الأخلاق.

لقد ذابت الطبقة المتوسطة التى كانت عماد المجتمع، وأساس بنائه (أغلبية الشعب اليابانى المتفوق طبقة متوسطة)، وصار لدينا طبقتان؛ الأولى تمثل طبقة ضئيلة العدد وتملك كل شىء (الملايين والمليارات)، وطبقة كبيرة تمثل الأغلبية الساحقة لا تملك أى شىء.. لأن سبيل الحراك الاجتماعى الراهن، هو الاقتراب من السلطة: الإدارة، الحزب، الأمن، المؤسسات التشريعية والتنفيذية.. وهذا الاقتراب، لا يتطلب علماً، ولا جودة، ولا جهداً حقيقياً، بقدر ما يتطلب من الولاء والتأييد والهتاف؛ وهذه تفتح الطريق أمام التملك، وما يسمى بالاستثمار، والاحتكار، وأشياء أخرى.

ولأن الطالب الجامعى من الأغلبية الساحقة يعلم أنه لا أمل فى المستقبل، ولا وظيفة، ولا زوجة، فإنه يتعامل مع العلم بمفهوم آخر.. هو «تكبير الدماغ» وفق اللغة الشبابية أو السوقية الشائعة، مما يجعل الجدية والجودة لا وجود لهما فى حسبانه، وكثيراً ما تسمع من الطالب أنه لا يريد أن يتخرج من الجامعة، لأن تخرجه سيجعل أسرته تقطع عنه «المصروف»، وترى فيه كياناً زائداً عن الحاجة، مما يدفع به إلى أحد طريقين: الهروب من الوطن بحجة العمل فى الخارج، ولو ركب البحر المتوسط وغرق فى أحشائه، أو الهروب من الواقع بالإدمان أو الغيبوبة أو الجريمة.

طبعاً سعداء الحظ من أبناء الأقلية التى تملك كل شىء، لا يجدون عناءً فى توفير الوظائف التى تملكها السلطة، أو تملكها الطبقة نفسها، حيث يعينون بسهولة، ويتقاضون مرتبات تفوق مرتبات أساتذتهم فى الجامعة بمراحل كبيرة.

لقد تحول المجتمع من الإنتاج إلى الاستهلاك، لأن الطبقة الجديدة التى تمثل الأقلية لا يعنيها أمر العمل الجاد المثمر، والذى يعنيها بالدرجة الأولى، هو الكسب الكثير المقنع، ولذا لم تجد غضاضة فى فتح باب الاستيراد على مصراعيه، بدءاً من مستلزمات رغيف الخبز حتى الكافيار والسيمون فيميه!

هل هو أمر استثنائى ألا تجد كليات الزراعة طلاباً يقبلون عليها، اللهم إلا من هوى بهم المجموع العلمى إلى الحضيض؟

لو كان التعليم الجامعى بخير، لخصص مثلاً مساحة لاستصلاح الأراضى وتعميرها فى سيناء، ينقل إليها كليات الزراعة جميعاً، تسمى «الجامعة الزراعية»، وملك خريجيها مساحة معقولة مع بيت صغير، فى بيئة تتوفر فيها الطرق والمواصلات والاتصالات والمدارس العامة والأسواق والمستشفيات.. أعتقد أن الآلاف بل عشرات الآلاف، سيقبلون على هذه الجامعة التى لا تحتاج إلى كثير من الميزانية، بقدر ما تحتاج إلى ترشيد الميزانية العامة للدولة.. وعندئذ سنحقق أهدافاً أساسية عديدة، أولها امتصاص جزء كبير من البطالة، وتوفير محاصيل أساسية وعلى رأسها القمح، وثروة حيوانية وداجنة، ومشتقات الألبان، فضلاً عن تعمير جزء عزيز وغال من الوطن، تركناه خالياً على مدى سبعة آلاف عام، فطمع فيه الغزاة منذ الهكسوس، حتى الصهاينة، الذين مازالوا ينظرون إليه بوصفه متنفساً يحققون من خلاله أطماعهم وأطماع سادتهم فى الغرب وأمريكا.

إن مأساة الجامعة المصرية تتفاقم مع أزمة المجتمع بنشوء ما يسمى الجامعات الخاصة، وهى فى أغلبها مجرد شقق مفروشة تبيع الشهادات لمن يدفع من أبناء الطبقة الجديدة التى تمثل الأقلية وأشباههم، والذين خذلتهم مجاميعهم فى الوصول إلى كليات القمة فى الجامعات الحكومية.

وكنت أفهم أن تشجع السلطة ما يعرف منذ تأسيس الجامعة المصرية، بالجامعات الأهلية، وهى التى يشارك أبناء الشعب فى تأسيسها، وتلبى حاجات المجتمع، خاصة فى المجالات العلمية الحديثة، على أن تقدم للمؤسسين الأرض اللازمة، فى أماكن صحراوية بعيدة عن العمران، فتنشئ مجتمعات جديدة، وتخفف عن كاهل الميزانية العامة للدولة أعباء كثيرة.. ولكن القوم يعنيهم أمر المستثمرين أو من يسمون كذلك، وهى مسألة تحتاج إلى دراسة واستجابة.

حلول:

من المؤكد أن من يعنيهم الأمر يعلمون جيداً طبيعة المأساة التى تعيشها الجامعة، وأزمة المجتمع التى تمسك بخناقه، وتزداد ضراوة بمضى الوقت، نتيجة لعدم وضع الحلول الناجعة موضع التنفيذ. وأعتقد أن استمرار الوضع على ما هو عليه، لن يفيدهم - ولاة الأمر - على المدى البعيد، ولكنه سيضر الأمة بأسرها، ويضعها فى موضع حرج، قد لا تخرج منه بعد قرن أو يزيد.

الأمر يتصل بصورة ما بالإطار العام الذى تعيشه الدولة، وهو ما يفرض على السلطة إن كان لديها بعض الرغبة فى إنقاذ المجتمع من ورطته، أن تتخلى عن الهيمنة والسيطرة على الجامعة المصرية، وأن تسعى إلى الاستفادة منها فى تغيير الوضع القائم إلى الأفضل والأحسن حرصاً على المستقبل. وأتصور أن ذلك لن يتحقق إلا من خلال النقاط الآتية:

١ . قانون جديد للجامعة المصرية، يقوم على تحريرها واستقلالها، ويرسى القيم الجامعية والتقاليد الجامعية، من خلال حفظ كرامة الأستاذ الجامعى مادياً ومعنوياً، برفع راتبه إلى الحد اللائق الذى يساعده على استمراره فى بحوثه ودراساته، ومنحه الحصانة ليواجه الاستباحة من جانب أجهزة وقوى معادية لحرية الجامعة واستقلالها.. وما يقوله بعض المسئولين عن إخضاع الجامعة للسلطة لأنها تمنحها الميزانية المالية، هو نوع من الكلام الذى لا يقبله العلم ولا المنطق، فالسلطة لا تمنح، ولكنها الدولة بمجموع مؤسساتها أو أفرادها الذين يدفعون الضرائب.. والاستقلال لا يعنى الانفصال، وعندما نقول استقلال القضاء مثلاً، فذلك لا يعنى انفصاله عن المجتمع أو مؤسساته، ولكن يعنى استقلاله عما يؤثر فى سلامة أحكامه، أو خضوعه للهوى الذى يأتى من السلطة أو غيرها.

وأتصور أن القانون الجديد سيوحد بين الأساتذة، ولا يقيم «أبرتايد» - فصلاً عنصرياً - بين الأستاذ العامل، والمتفرغ، وغير المتفرغ.. وسيحقق أفضلية العلم قبل أفضلية المنصب الإدارى الذى يجب أن يكون آخر شىء يفكر فيه الأستاذ الجامعى.

٢ . لابد من رفع يد الأمن عن الجامعة وإخراجه منها إلى الأبد، وتوجيهه إلى مهمته الأساسية وهى حفظ الأمن الاجتماعى، ومواجهة المنحرفين فى الشارع والطريق، والحفاظ على المال العام، وأرواح المصريين فى البر والبحر والجو.

إن الجامعة المصرية قادرة على تشكيل أجهزة أمن خاصة بها، تنفق عليها من ميزانياتها، وترتدى لباساً خاصاً بها، وتأتمر بأوامر رؤسائها..

لقد عانت الجامعة كثيراً من تدخل أجهزة الأمن فى شرايينها، حتى صرنا نرى الأستاذ الأمنى والطالب الأمنى، والموظف الأمنى، والعامل الأمنى.

وآن الأوان أن يرحل الأمن عن الجامعة، حتى تنتخب هياكلها الإدارية بمعرفتها، وتعين أساتذتها بمعرفتها، وتبنى طلابها علمياً وثقافياً بمعرفتها.

٣ . إن صدور لائحة طلابية جديدة أمر ضرورى، وذلك لبناء طالب جديد، يتدرب على الحركة الاجتماعية والفكرية السليمة، ويتاح له - أياً كان وضعه - أن يشارك فى الأنشطة المختلفة، ويختار الطالب الزميل الذى يمثله فى اتحاد الطلاب، دون أن يشطبه الأمن أو الخاضعون لرجال الأمن.

بعض الناس يريد إلغاء اتحاد الطلاب، ويراه حراماً، وهذا سلوك أمنى بغيض، لأنه يكرس السلبية، ويبعد الطالب بعد تخرجه، عن المشاركة فى قضايا الوطن، ويحرمه من التفاعل مع زملائه بالفكر والحوار والمشاركة.

والأمة تريد طالباً يكون أساساً لمواطن المستقبل، وهو مواطن يجب أن يتشرب الحرية والمشاركة والتفكير المستقل.

٤ . إنشاء الجامعات الأهلية، يجب أن يكون الغاية الأولى فى التوسع الجامعى، لخدمة المناطق المقفرة، وتعميرها، وتخفيف العبء عن ميزانية الدولة، والإضافة إلى الخبرات الفنية والتقنية لدى المجتمع.. وليت من يعنيهم الأمر يتوقفون عن التصريح بإنشاء جامعات خاصة، فهذه الجامعات - فى معظمها - لا تخدم المجتمع ولا تفيده، بقدر ما تفيد أصحابها أولاً، والطبقة الجديدة التى تمثل الأقلية ثانياً، ولا تضيف جديداً فى ميدان الخبرات الفنية والتقنية ثالثاً.. وما أكثر ما كتبت الصحف وتناول الإعلام مشكلاتها وسلبياتها.

٥ . لن تتقدم الجامعة المصرية، إلا إذا تم إصلاح التعليم العام، وتخليصه من الأفكار الغريبة الواردة من وراء البحار، واعتماد المناهج العملية التى تراعى الواقع الثقافى للأمة، وإمكاناتها المادية، مع توحيد هذا التعليم، وتلك ضرورة قومية تخص الأمن القومى - فى مناهجه ومقرراته.. فلا نجد مدارس تقوم على مناهج أجنبية، ومدارس تعتمد مناهج محلية، ومدارس بين بين.. إن توحيد المناهج والمقررات، وتدريسها جميعاً بجدية وجودة، مع التخلص من المواد الصورية، خطوة أساسية فى طريق الإصلاح.

اتحادات الطلاب تأتى من خلال تزكية جهاز الأمن، ولذا فإن هذه الاتحادات لا تحقق الثمار المرجوة، بل العكس فإن أفرادها فى العادة هم عيون الأمن على أساتذتهم وزملائهم من الطلاب

عـــالــم نعمـــات



أحيانًا يتحول الاجتهاد النظرى حول مفهوم ما، خاصة إذا كان وثيق الصلة بعلاقة المرأة بالرجل والعكس، إلى صك اجتماعى يتم تداوله عبر تاريخية متوترة وملتبسة تضفى عليه ظلالها، كما لو أنه صار حقيقة أو واحداً من المسلمات المعرفية التى يحتكم إليها الجدل، حسماً لوضعية هذا المفهوم أو ذاك فى السياق المرجعى العام، وبالتالى يصعب على الآراء النظرية المتوقدة بالوعى وهى تسعى للتصحيح ورفع الالتباس، أن تغير فى وقت وجيز ما ترسخ فى السياق الوجدانى من انعكاسات أصبحت من مفردات الديالوج اليومى.

لكن الفن عموماً والإبداع الأدبى خصوصاً قادران على الولوج إلى داخل النفس البشرية، وقراءة أدق التفاصيل فى وضعيتها الطبيعية، ثم تجسيد هذه القراءة فى منظومة تؤصل العلاقة ما بين الأصل والصورة، أى ما بين ما تنطوى عليه الذات من حقائق قد لا تراها الذهنية المجردة إلا عندما يقدمها الإبداع فى صورتها المنظورة، وبين تلك الصورة المتكلسة على أغاليط لا تنحاز للرجل على حسابها بقدر ما تكرس لتثبيت ما تعكسه هذه الصورة من مجسم نفسى اجتماعى للتخلف.

لذلك فإن عملية التأمل المحايد والتحليل الصادق يدفعان تجليات الإبداع إلى الغوص والكشف عما لا تدركه ظاهرية الوعى الاجتماعى، ويمنحانها القدرة على الدخول فى حوار حميم مع ذات التلقى لتفعيل الوعى والنظر للواقع برؤية مغايرة، تنقيه من شوائبه وتطهره من مزاعمه التى تراكمت على مفاهيم خاطئة تبنتها مراحل التخلف وخاصة أن الصورة هنا لا تحمل ملامح الأصل بقدر ما تحمل من ادعاءات منسوبة له.

فى إطار هذه المفاهيم تتمحور التجربة الإبداعية للكاتبة (نعمات البحيرى)، وتنطلق من عالم يضىء ذاته بالشاعرية والعذوبة ونصاعة الرؤية، وهو عالم حافل بالإنسانية الشجية التى شكلت قدرة الكاتبة على التوغل والتحليل، وتشكيل صور دالة فى تعبيرها عن كل هذه الجوانب، من تفاصيل صغيرة تمر عليها النظرة العادية بإهمال، أو تجاهل بفعل الروتينية والاعتيادية.. إلخ، إذ يعتمد منهجها الإبداعى فى القصة والرواية على أن الإنسان هو مركز الكون سواء كان رجلاً أم امرأة.

ويبدو حرصها شديد الإنسانية دون اللجوء إلى صيغ تعليمية، أو صكوك معرفية مقحمة على النص مجردة من عنصرها الإنسانى، وهى تبحث فى معالجة القضايا الملازمة لوجدان الحياة وتخليصها من كل ما يعوق مساراتها.

كما أن المكون الرومانسى للمرأة جعل

عالم حافل بالإنسانية الشجية التى شكلت قدرة الكاتبة على التوغل والتحليل، ورسم صور دالة فى تعبيرها عن كل هذه الجوانب، من تفاصيل صغيرة تمر عليها النظرة العادية بإهمال، أو تجاهل بفعل الروتينية والاعتيادية

البحيرى

صبرى قنديل

الذات عندها نبعاً فياضاً يمثل روح النص، لأن الكاتبة حتى وهى تتوغل فى تفاصيل معالجاتها لتناقضات الواقع تجاه المرأة مأخوذة دائماً بالأحلام، وترتكز على المشاعر الإنسانية فى كل نصوصها، بدءاً من عناوين مجموعاتها القصصية - ارتحالات اللؤلؤ، ضلع أعوج - حتى عناوين القصص تحمل دلالات ترتبط كلها بذات المرأة وهى تقاوم ما يحاصرها.

ففى مجموعة (ارتحالات اللؤلؤ) تمور الرؤية فى نسق أنثوى حالم يتمثل يوتوبيته الخاصة، ويبحث عبر شاعريته عن وجوده الذاتى، إذ أن الكاتبة ترتحل من أجل ذلك مع اغتراب النفس، وتتوغل مع أبطال قصصها داخل الانعكاسات الإنسانية فى مستويات مختلفة، وهو ما يكشف وفقاً لتتابع النشر أن هذه المجموعة تمثل مقدمة بالغة العذوبة لرواية (أشجار قليلة عند المنحنى)، حيث يأخذ هذا الاغتراب فى التشكل التدريجى حتى يأخذ صورة الوطن.

لقد جعلت الكاتبة مقدمة المجموعة إشارة بالغة التأثير ابتداء من عنوانها (مقدمة لا لزوم لها) ثم قولها منذ البداية.. (من بين أنقاض الوطن المثقوب بقوى كثيرة خارقة، دخلت هذه المدينة السكنية الجديدة، أحمل فى قلبى انكسارات العمر والوطن).

وتمثل - الذات الأصل - حضوراً طاغياً، لأن اللؤلؤ الذى يرتحل هو كل هواجس هذه الذات التى تعتصر فى إطار قسوة هذا الاغتراب، وهى فى كل الأحوال تفضى إلى صورة أكثر روعة للحياة، حتى ولو كانت قفراً مثلما كانت عليه المدينة الجديدة التى ارتحلت إليها هرباً وبحثاً عن تلك اليوتوبيا، والتى ربما لا تجدها حتى ولو ضجت المدينة بكل صور الحياة المعتادة.

كما تلازم هواجس المرأة المثقفة هذه الذات ملازمة تعكس ما تمتلئ به نفس الكاتبة من أحلام، للخروج من أسر ذلك القمع المطارد للحياة حتى فى تشكيلها المبكر، وفى ذلك تتكئ الكاتبة على رؤية جمالية عالية للفن التشكيلى، والذى حرصت أن يأتنس عالمها ببعض إبداعاته لفنانين لهم حضورهم المتوهج، لإقامة علاقة توحد مع ما يختلج به وجدانها وتحلق فيه رؤيتها.

والمقدمة التى رأت أنها لا لزوم لها لا تقل فى صياغتها إبداعاً ولا جمالاً عما تتألق به القصص، خاصة أن اللغة تتدفق شلالاً رقراقاً من الشعر، وهو ما بدا جلياً حتى على مستوى شكل كتابة القصص، وكأنها بالفعل قصائد شعر تأخذ كل واحدة لقطة تتلاحق وراء بعضها البعض، لكى تقيم عالماً مدهشاً يرى فيه المتلقى بعضاً من ذاته وبعضاً من أشجانه التى تثقل مشاعره بأشياء كثيرة.

تضم مجموعة (ارتحالات اللؤلؤ) الصادرة عام ١٩٩٧ عن سلسلة - أصوات أدبية - بهيئة قصور الثقافة سبع لوحات قصصية هى (صورة ليست من الطائرة، بورتريه للمرأة الوحيدة، صور عائلية، ارتحالات اللؤلؤ، صور احترقت فى المعمل، من قلب الوهج، امتلاء)، ويقوم بناء كل لوحة منها على عدد من المشاهد أو اللقطات التى تأخذ كل واحدة منها عنواناً يحدد شكلها فقط، لكنه لا يفصلها عن ديناميكية اللوحة.

وفى كل اللوحات تعتمد الكاتبة (نعمات البحيرى) على التأمل والرصد عبر ذات مثقفة كما سبقت الإشارة، نستطيع أن نقول إنها ذات الكاتبة، وهى بوعيها المتوقد ترى الحياة وفق منظورها هذا، لكنها فى نفس الوقت لا تقمع الحياة وهى تدينها، أو تصادر على تفاصيلها التى تعريها رغبة فى تصحيحها.. ففى (صورة ليست من الطائرة) والتى تتجسد فى ثلاث عشرة لقطة تتراتب وفق ما تحرص عليه الكاتبة من تشكل تأملى دلالى للمنظور القصصى، فأول لقطة بعنوان (المدينة) ترسم بالمشاعر شكل هذه المدينة الحزينة، التى تحول الظلام فوق سكانها إلى حشرة كبيرة.. (معالم الطريق إليها مستشفى لعزل الأوبئة ومعسكرات لتدريب الجنود ومقابر للصدقة لا تعرف من الزهور سوى الصبار والوحشى).

ثم ترى فى اللقطة الثانية بعنوان (انصراف) هؤلاء السكان، كما لو أنهم كائنات مبتذلة يحتكرون الصمت والبلاهة، لكنها تقف فى اللقطة الثالثة أمام نموذج امرأة تحت نفس العنوان المجرد - امرأة. تلك الغائبة التى تبحث عنها فى سؤالها الدال.. (أين هى الآن المرأة التى جاهدت للتخلص من غطيط حماتها فى الغرفة المجاورة).

واختلافهما معاً عند الحكم على أتفه الأشياء.

وغيرة حماتها حين يغلق عليها وزوجها الباب.

هى الآن تسكن إحدى شقق المدينة المصممة على شكل متاهة.

وإذا كانت الكاتبة قد ارتكزت على التجريد فى قصص هذه المجموعة، فإنها عبر الرسم بالمشاعر مالت إلى الاتكاء على بعد سريالى، جعل الدلالة أكثر حدة فى تأثيرها، وهو ما بدا على سبيل المثال فى لقطة (أغنية).. (تأتى من الغرفة الداخلية، تنظر إلى زوجها وفى عينيها صمت وكلام.. تقول - أتريد أن أغنى لك.. سأغنى لك.. سأغنى لك. وإذا بها تصرخ فى كل أرجاء الشقة الجديدة ذات الأثاث القديم.. بعدها تتهاوى إلى جواره).

وكذلك فى لقطات أخرى مثل (صورة بانورامية) فى قصة (صور عائلية) وغيرها، وهو ما يؤكد أن هذه المجموعة - قصيدة قصصية طويلة - تحمل عبر نبضها تغريدة إنسانية تتدفق بمشاعر المرأة.

أما مجموعة (ضلع أعوج) الصادرة أيضاً عام ١٩٩٧ عن الهيئة العامة للكتاب سلسلة مختارات فصول، فتبدو فيها المرأة فى منظور دلالة الموروث الذى يعكسه العنوان ساخراً، على غير ما تحفل به تفاصيل القصص من إضاءات ومفارقات، لأن (نعمات البحيرى) ظلت مشغولة بإبراز إنسانية المرأة على صورتها الصحيحة كما سبقت الإشارة متكئة على شاعريتها، حتى فى تصحيح المفاهيم النفسية عند الرجل، لتؤكد أن الاعوجاج ليس فى تكوين المرأة، لكنه فى الفكر الذكورى الأحادى الذى ينظر إليها على هذا النحو، فإن الكاتبة لا ترى انتقاصاً وهى تتحدث تحت هذا العنوان لأنها أرادت أن تبرهن على الحضور الإنسانى للمرأة فى صور متعددة، لتقول هذا أصل الصورة التى وصمتموها بالاعوجاج.

فى قصة (جرح الوردة) تنساب حالة التأمل بعذوبة من خلال ذات تروى عن الحياة بحب لحد العشق.. (لا أستطيع أن أتصور المرأة وهى تتخلى عن أماكنها فى الشرفة مع الزرع وغية الحمام، والقطط والجيران، لا أتصور البيت إلا بهذا البهاء. وفجأة ونحن فوق سلالم الدرج تركت يدى وعادت مسرعة لتفتح الشقة، وكأنها نسيت شيئاً، دخلت مسرعة إلى أنبوبة الغاز لتغلقها جيداً، وكذلك فعلت مع محبس المياه كما أخرجت كيس القمامة خارج الشقة).

تدخل الكاتبة عبر هذه الرومانسية الواعية والحاكمة لسياق القصة إلى عمق الفكرة، لتناقش طريقة تربية الأولاد والتى تميزهم على البنات وتزرع فيهم الأنانية، فحماة الزوجة ربت ابنها ماجد على حساب شقيقته، بينما ربتهما الأم على الخنوع لأنهما إماء، فانعكست سلبيات هذه الطريقة الخاطئة على علاقة الزوج بزوجته حتى انتهت بالانفصال.

كما تحفل القصة بالمفارقات الإنسانية التى تمسك بخيوطها الذات النسوية، لتعكس دلالات المرأة ممثلة فى مجايلة قصصية - الأم والبنات والزوجة - فى مواجهة هذا الكائن المسيد عليهن دون مبرر سوى جهالة نظام التربية، الذى جعله يحب المال ونفسه أكثر من أسرته مع أنه مدرس، تقابله والدة بدرجة عالية من الإنسانية التى تتوحد مشاعرها مع القطة فى معاناة الولادة، ورعايتها لها والدعاء الدائم للبنتين.

هذه الذات تتأمل الحياة على هذا النحو من داخلها بوعى ورؤية، تحرص وفق هذه الشاعرية المتدفقة على عدم خدش شفافية هذه الحياة، حتى وهى تتوقف عند ظلالها الداكنة، فى نفس الوقت تقيم منظومة من علاقة الزهد التى تحفظ بنية المرأة سواء داخل الأسرة ضد المحن والعواصف، وتقاوم الوحشة بالتواصل بعد مضى السنوات الطوال مع ذكرياتها الزوجية، وفى نفس الوقت تفتح الكرتونة التى سمتها الكاتبة فى دلالة رائعة - وثيقة ضمان ضد الموت - وهى تحتوى على كفنها، لأن هذه المنظومة الاجتماعية وما تعكسه على تشكيل الذات من إيمان صارم بأن الموت هو النهاية الحتمية لكل صور الحياة، فتحولت حالة إعداد الكفن هذه علامة استعداد دائم لهذه النهاية الحتمية، وانعتاق مرتقب من قبضة الفقر التى ربما تخون، حتى فى تلك اللحظة مثلما تخون فى كثير من المواقف العصيبة فى الحياة.

ومن الشاعرية تنتقل الأديبة (نعمات البحيرى) إلى تصورها الفلسفى لزاوية أخرى من زوايا تناول معاناة المرأة، من خلال قصة تحتوى فى دلالتها الحياة بداية من عنوانها (الحبل السرى) وكل ما يتعلق به مصير الإنسان على هذه الأرض - رجل وامرأة - عبر العلاقات المتشعبة، وقد تجسد تصور

تعتمد الكاتبة على التأمل والرصد عبر ذات مثقفة، وهى بوعيها المتوقد ترى الحياة وفق منظورها هذا، لكنها فى نفس الوقت لا تقمع الحياة وهى تدينها



الكاتبة عبر هذا النموذج النسوى، وهى تلك المدرسة الواقفة فى الممر المعتم بظلها الحزين بعدما انقطع حبلها فى مدلوله المادى المباشر مع زوجها بالطلاق، لأنها لم تنجب ولم تفلح كل محاولاتها فى التكيف والقبول بما لم تكن ترضاه، فانتهت بحرمانها من حياتها الطبيعية فى بيت جميل أنيق دافئ بجوار الرجل الذى أحبته.. (كنت أوقن أن العالم حولى يرزح تحت فيض من كوارث ونكبات، كما أوقن أنى ولا فخر جزء لا يستهان به من هذا العالم وهو إحساس خاص بى داخل حركة الأيام والحياة، لذا فقد أسلمت حزنى للريح ومثل السنابل المتعالية أحنيت رأسى للعاصفة وقلت للمرأة التى تشبهنى وعبرت الممر المعتم بعد الطلاق عشت فى غرفة صغيرة بأحد البلوكات التى تمنحها الحكومة للذين تتهدم بيوتهم وقت الزلازل والسيول والكوارث الكبرى. ثم عدت إلى عملى كموظفة مثل بعض نساء الأرض، وصار من الضرورى أن أفتح نافذتى للنهار الحتمى الذى سيطلع عاجلاً أم آجلاً. دفقة الصباح الممزوج بصياح ووجوه الأطفال يثير أشجانى).

وهو نفس الحبل السرى المعنوى الذى أزال من حلقها بمرور الوقت مرارة ذلك الفطر، لأنها تنتصر بالصبر على المحن حتى تمر، وقد تأججت داخلها المشاعر الإنسانية تجاه هؤلاء الأطفال البؤساء، الذين لا يكفون كل يوم عن الإقبال عليها مثل الفراشات النحيلة - (وفى عودتى تلقانى نفس الوجوه الشاحبة والنحيلة والمتسخة، لتزفنى فى موكب جليل حتى باب غرفتى، موكب من جماجم، لا تنصرف إلا بباكوات النعناع التى أحرص على شرائها من أجلها)، وقد كان واحد منهم يمكن أن ينقذها فيحقق لها الحلم الفسيولوجى ولا يقطع حبل الحلم مع الزوج والبيت.

وفى معايشتها للحالة تستدعى الكاتبة من وعيها وحشية بوكاسا آكل لحوم البشر، فيسيطر عليها ارتياح بأنه فى صوره الممتدة فى الحياة قد يأنف من أكل هؤلاء الأطفال، لأنه كان يحب - الأطفال الملظلظة - والأصح - الملظلظين - وإن كانت الكاتبة تستخدم اللفظ الدارج على ألسنة العامة، وكأن هؤلاء هم خيط الأمل الذى يربطها بالحياة، رغم أن القسوة والوحشية ظلت هى الرجل ذلك النموذج الذى أفرزته تلك الظروف الاجتماعية، فى حين أن هذا القاسى المتوحش هو أيضاً الحبيب والزوج ومركز الحركة نحو الأفضل داخل الأسرة، حتى إن حنين الأمومة تحول عندها إلى حنين طفولى تمارس من خلاله الطقس العبثى، وتتناول الطعام بطريقة الأطفال، وهو ما فعلته مع شيرين بنت جارتها، كأن هذه اللحظات تعطيها قدرة خاصة على اقتلاع ذلك الفطر وتجاوز مرارته، لكن طوفان البؤس الذى يتدافع مع هؤلاء الأطفال يدفع إلى ظهور فطر غريب ينمو فى موضع قريب من عقلها، فيملأها بالفزع والخوف، وهى لمحة فنية تنبه المجتمع إلى سرعة تدارك الخطر قبل أن يطال زهوره، ولا يزال حنين الأمومة المفتقد يلازمها فى إيقاع تعادلى لتأملاتها للكائنات البشرية والحيوانية، هذا الحنين عاشته مع صديقتها فاتن وابنيها مروان وعمر وهى تقوم بإطعامهم والطقوس التى تمارسها معهم.. (كنت أطرب إذ يتناغم صوت الطفلين مع حركة الملعقة فى الطبق الصينى المنقوش بزهور)، كذلك «فلة» كلبة عم جابر التى أنجبت خمسة جراء وهى تراقب فلة تلعق صغارها فأخذها المشهد لتلقى لها بقايا الطعام بل وتحاور عم جابر حول أسماء الكلاب.

لقد برعت الكاتبة (نعمات البحيرى) ليس فى إقامة بيئة تصويرية لهذه القصة، لكنها استغرقت فى الإمساك بالتفاصيل الصغيرة لتشكل لقطات فنية دالة بالغة الدقة والتأثير، متصلة ظاهرياً بلغة رقيقة معبرة، بل إنها غاصت داخلياً عبر تحليل نفسى واستقراء التحولات داخل الشخصية، وما تعكسه هذه التحولات من ظلال تؤثر على مسارها وسلوكها، كما أن العلاقة النفسية والجمالية بين - الحبل السرى. كعنوان دال ومضمون القصة الذى تحلقت الكاتبة حوله من زاوية إنسانية جمالية، فأقامت حالة قصصية جمعت بين الإحكام الإبداعى والتأثير النفسى.

وعبر الذكريات التى تعتمد (نعمات البحيرى) عليها فى تشكيل عمق البناء القصصى، تتذكر البطلة تلك العقدة التى نشأت داخلها نتيجة لذلك التمييز غير المبرر، الذى خص الأب به الأخ دون الأخت، فحين جاء الولد أقام له حفلاً بالطبل البلدى فى السبوع، بينما لم يفعل ذلك لأخته التى جاءت قبله.. (وتزاحم الرجال والنساء والأطفال وظلوا يتحركون فى البيت وأنا أتدافع بجوار سيقانهم، حتى أدركت باب جارتنا الطيبة، فأسكتت بكائى وسيل مخاطى بجزرة حمراء. وحين انتهيت من أكلها كنت قد شعرت بأننى كائن فائض عن الحاجة، فكرهت أبى كرهاً شديداً).

يمتد القهر إلى ابنة الأخ الذى يمارس مع زوجته ديمقراطية مصطنعة، فابنته سارة بدأت تكرر شكاواها من القلق والاغتراب الذى بدأ يحاصرها فى بيت أبيها، هذا التتابع الراصد تمزجه الكاتبة فى براعة وحساسية بين الدراما والشاعرية، فى إطار هذا الموروث من الأحزان والأشجان لمواجهة الآلية الاجتماعية والثقافية التى استسلمت لتسيد هذه الأحادية المخلة، والتى شكلت ثقافة ذكورية لا تقل إلا منهج السيطرة المعكوس.

ولأن الأديبة (نعمات البحيرى) تواصل اكتشاف ذات المرأة، فقد حشدت كل قدراتها بعدما أصبحت قضيتها الإبداعية والإنسانية، فتحولت بدافعية الذات الأصل إلى نبع فياض يتدفق معها ويلازمها حتى فى كتابتها للمقال، حيث نقلت عبره صوراً واقعية لذلك النموذج المحاصر بالقسوة والوحشية والاغتراب، سواء على المستوى العام أو الخاص، ومضى معها كذلك إلى الرواية التى بحثت فى باكورتها (أشجار قليلة عند المنحنى) عن الرومانسية الإنسانية الضائعة بين المادة والروح، هذه الثنائية تناقشها الكاتبة كقضية وجود جوهرى؛ فالمادة تتمثل فى الوطن بامتداده الواقعى والدلالى، الذى يؤكد ذلك الوجود من خلال الروح، التى تعانى من صراع الاغتراب والانتماء على مستوى الفهم والشعور، عبر رؤية تواصل التأكيد على أن صحراء الروح أخطر بكثير من صحراء الجغرافيا التى تحاصر الإنسان العربى، فتتساءل الكاتبة بعذوبة شجية فى معنى الاغتراب. هل هو اغتراب الجسد عن المكان المسمى بالوطن، أم فى اغتراب الروح عن موطن العشق الإنسانى؟ -، هو سؤال طرحته أشجان المصرى بطلة الرواية - ولاحظ الاسم - من أول سردها للحكاية من المفتتح وحتى النهاية.

عاشت أشجان مرحلة من حياتها فى حالة فقدان توازن، وهى لا تعرف كيف ولماذا عاشت هذه المرحلة على هذا النحو.. (الحكاية أننى عشت هذه الحياة ولم أفهم جيداً لماذا حدث ما حدث ولماذا كنت تلك المرأة التى كنتها، ولماذا كان هو ذلك الرجل الذى كان؟.. أحياناً تبدو الحكاية كلها مثل كرة من الصوف، فكها طفل على امتداد الخيوط، وحين جمعها مرة واحدة، صارت شديدة التقاطع والتداخل والتعقيد).

لهذا رأت أشجان أن تجلس بعيداً لتفك الخيوط عن بعضها واحداً واحداً، فربما فهمت وربما فهم ذلك الرجل وربما فهم الآخرون، وهى لا تناقش علاقتها بعالمها عن بعد، بل إنها تكشف وتصحح وتواجه وهى داخل السياق، وهو ما يعنى أننا أمام منظومة سردية تطلق فيها الذات لنفسها العنان وهى تبوح بكل التفاصيل التى وضعتها فى ذلك الموقف الحائر، والذى تداعى عليها بالصدمات والأحزان والإحباطات لتجسد الكاتبة بذلك الوجه الآخر لقهر المرأة.. (حين تزوجت «عائد» كنت أرغب فى جغرافيا وتاريخ آخرين ليشر هذه المساحة الممتدة بامتداد الحلم. يخفف من وطأة الصحراء هذا الميل الحاد للطائرة إلى الجانب الأيمن حين أنزلت الستائر. كان بإمكاننا أن نقلل صحراء الروح التى أقامتها أبى ممتدة بينى وبين الرجال منذ جئت إلى الدنيا. كنت أطمح أن يرحم «عائدى» حكام الصورة الضارية فى أبعاد الروح والعين والقلب، غير أن نطاقاً صحراوياً امتد ليشمل كل شىء).

ورغم أنها أمضت هذه المرحلة من حياتها إلا أن هذه المنظومة الروائية علقت السؤال دون إجابة محددة، تقطع ولو بيقين نسوى يطوف فى عالم المبالغة، لكنها بوعى فنى عال سردت ما سردت وتركت للمتلقى فرصة أن يتأمل ويعمل عقله ويحدد إجابة، لأنه سؤال إنسانى مجرد من خلال تجربة ذاتية، لكنها جزء أصيل من هذه الحياة التى جرت فى سياقها الوقائع.

تحتوى رواية (أشجار قليلة عند المنحنى) الصادرة عن سلسلة روايات الهلال (ديسمبر عام ٢٠٠٠) على ثلاثة عشر فصلاً تمتد بامتداد الأحداث وتقصر وفقاً للضرورة الفنية، وتبدأ بهذا المفتتح المهم، والذى يمسك بجوهر النص ليدفع بالمتلقى إلى الدخول فى المتن مع تفاصيل الحكاية، وقد انطلقت الأحداث من الحركة الدرامية فى تشكيل سينمائى، فأشجان هاربة من زوجها وفق ما تداعت به الأحداث، وتحتاج لمن يساعدها، وقد دفعها السائق المصرى الذى كان يقود بها تلك السيارة الرديئة التى تشبه عربات الكارو، وتسير على عجل يتحرك بدون حماس لكى تحكى له حتى يعينها على الفرار من مدينة الحزن والحر والحرب وأشياء كثيرة تبدأ بحرف الحاء، فقد تحول هذا السائق إلى صورة للوطن الغائب أو المبعدة هى عنه بنفس فعل القهر الذى يقع على المرأة العربية فى كل مكان وفى كل بلد.

عـــالـم نعمـــات الـبـحـيــــرى

تفر أشجان من الحرب التى امتدت بين العراق وإيران، وقد تركت آثارها على نفوس البشر وسريت إليهم حالة عصبية تتجاوز ما هو مألوف فى الحياة اليومية، لدرجة أنها تدفع الإنسان إلى الهروب السلبى داخل ذاته، واللجوء إلى صور احتجاج تنال منه أكثر مما تؤثر فى ذلك الواقع المنقسم على نفسه، وبالتالى تنقطع علاقاته الحسية مع حتى أقرب الناس إليه، وهو ما فعله زوج أشجان وهو يتصور أنه بذلك يهرب من هزيمته مع الواقع، دون أن يدرى أنه يوقع الهزيمة القاسية بنفسه وزوجته.

والمفارقة هنا فى حالة الهروب إلى الذات الأصل تجسيداً لصورة معمقة فى واقعيتها وموضوعيتها، أن أشجان وصل بها الحال بعد أن استحالت الحياة مع زوجها الذى تجسد صورة باهتة لذات متصدعة البنية تكرست داخلها ديكتاتورية حتى أقامت حالة أسطورية للخوف، وهى ما بدت واضحة فيما حدث من الجدل المتصاعد حول صفحة الجريدة التى سقطت فى ماء الحمام وعليها صورة الرئيس، وحالة الفزع التى أصابت زوجها ثم تحول تصوره الوهمى بإمكانية رؤية أجهزة الأمن وتعقبهم لكل همسة وسكنة إلى حقيقة، حين وجدت أشجان رجال هذه الأجهزة ينتشرون فى كل مكان بالشقة بعدما كانت قد رتبتها وجملتها، وحتى نهاية ذلك بفصل الزوج من الصحيفة التى يعمل بها إلى الهروب أو العودة إلى مصريتها، ففرت إلى عالم ظلت تبحث له عن صورة أفضل فى احتجاجاتها على ما يفرضه على المرأة بشكل مباشر كأنثى، أو بشكل غير مباشر من خلال وصايته الاجتماعية فى عمومها، أى أنها تفر بذاتها من صورة لم يستطع زوجها أن يقيم لها برواز الحلم والاستقرار، إلى صورة ما تزال فى نظرها بلا برواز، أى أنه هروب من الحزن إلى الحزن، ومن الشجن إلى شجن مماثل.. (وها أنا أعود بقلب ينطوى على بعض الثقوب وكثير من المرارة ولفيف من أشباح الحزن وتهاويم الذكرى الحمقاء. حتما سأحاول أن أرمم ما انكسر، سأرد نفسى إلى عالمى البسيط الهادئ، كامرأة حالمة لم تزل، رغم المرارة وحمق النوايا الحسنة).

لكن الهوية المصرية حتى فى بعدها المعنوى تحولت إلى القشة التى تتعلق بها الغريقة - أشجان المصرى - بامتداد أحداث الرواية التى تدفق نصها عبر الذكريات، بداية من مشهد لهفة الانتظار بفستان الزفاف فى المطار الذى استحضرته كهاجس للأمس المعلق فى أحبال المجازفة واستعجال الإجراءات، حتى تحط الطائرة فى مطار العراق وتلحق بعريسها الذى ترى فيه حلمها، إلى النهاية التى راهنت فيها أشجان على النجاة بنفسها من هو له، باعتبار أن الموت قد يكون هو الخلاص الأفضل منه.. (ظلت مرارة الغربة طوال فترة زواجى منه مثل جرح ينزف طوال الوقت، حضرة واطئة فى الروح، تتعمق بأحاسيس الشجن والحنين إذا ما سمعت أغنية مصرية أو رأيت وجهاً مصرياً. الغريب أنهم كانوا يعمقون من إحساسى بالغربة، أغلبهم من فئات العمالة الرخيصة فى كل المهن.. زبالون وحمالون وسائقون وماسحو أحذية وباعة ثابتون وجائلون. كان من الممكن أن استأنس بكل هذه الوجوه لولا غيرة «عائد» وأحراش سوء الفهم والتقدير التى دخلناها معاً).

فى إطار النظر لذات المرأة بين الأصل والصورة وما ينتج عنها من امتدادات تخيلية مقحمة عليها، أو تحريف بعض زوايا الصورة من أجل قطع الوضوح فى علاقة الأصل بالصورة، نجد أن تجربة الأديبة (نعمات البحيرى) الإبداعية فى مجال القصة والرواية تعكس التأكيد على أن الكاتبة قد وجدت ضالتها فى جعل الذات مركز العالم والمرجع الذى تقيم عليه معيارية النظر للحياة فى تفاصيلها المختلفة.

والذات هنا ذات امرأة لاذت بها الكاتبة بتجاربها فى الواقع، فتوحدتا لحد الامتزاج، كأن كل منها كانت تبحث عن الأخرى فى هذه التيه المترامى، وقد خرجت الذات الأصل من شخصا نيتها الضيقة، إلى الانفجار بكل الهموم التى تلازم المرأة كإنسانة وكأنثى وكأم.. إلخ، وهو ما تشى به إصدارات (نعمات البحيرى) منذ عام ١٩٨٤ بداية من مجموعة (نصف امرأة) مروراً بـ (العاشقون) و(ضلع أعوج) و(ارتحالات اللؤلؤ) وانتهاء برواية (أشجار قليلة عند المنحنى) حتى الأعمال التى لم تصدر بعد مثل مجموعة (مدن الطاعة) أو شاى القمر وروايتى (خيط حرير) و(مدينة النساء).

إنه عالم إبداعى تجسدت فيه ذات المرأة فى كل صراعاتها سواء مع شريكها الرجل، سعياً لتصحيح شكل العلاقة معه ومع الحياة، رغبة فى الوصول فيها إلى مكان ومكانة تستطيع عبرها أن تكون حرة الحركة وقادرة على العطاء والإبداع. ■

نعمات البحيرى.. ماذا فعلت بنا؟

بثيــــنــــة الـنـاصــــرى

■ ■ وأنا أقلب كتاب نعمات البحيرى الجديد «يوميات امرأة مشعة» الصادر عن مكتبة الأسرة، وقبل أن أخطو خطواتى الأولى فى مدارجه، أجدنى محاصرة بجدران عديدة:

على الغلاف وصف العمل بأنه «رواية» فى حين أنه كما يقول عنوانه «يوميات» واليوميات هى شكل من أشكال الإبداع الأدبى المتعارف عليها ولا ينقص من قيمة العمل أن نقول إنه ليس فى خانة الرواية. الجدار الثانى والثالث والرابع: توطئة - تقديم - مفتتح . علينا أن نزيح أو نتفادى كل هذه العقبات قبل أن ندخل مباشرة إلى رأس نعمات لنقرأه .

كما يتصدر الكتاب إهداء خاطئ وجهته نعمات «إلى كل الذين امتدت أياديهم البيضاء لنجدتى من بين مخالب الوحش»، وكان يجب أن يهدى الكتاب إلى نعمات ذاتها لأنها هى التى قامت بعملية إنقاذنا من أوهامنا ومخاوفنا وضعفنا . فكما ترنح بطل كافكا على خشبة المسرح بعد أن أصيب بجرح قاتل، كما تقتبس نعمات من كافكا، تترنح بطلتنا فى فصول يومياتها بين التموجات البنفسجية والطابق الخامس وحالات الاستعداد القصوى ومراثى صدرها والأيام المغايرة والأحلام واللغات المستحيلة والوجوه الغائمة وأمها ورجل الأمن ويوسف والولد بعربة وحمارين والألم مرة أخرى والتحاليل والحنان الرسمى وبيانها الأخير ضد الموت .

يوميات امرأة مشعة
نعمات البحيرى
القاهرة - مكتبة الأسرة

ونحن نتابع بلهفة وقلق وخوف وارتياح أحيانا، نجد المفارقة فى أن ترنح نعمات بين الرجاء واليأس والمقاومة والإحباط، يصلب عودنا ويجعلنا - ربما لأول مرة - ننظر فى عينى الوحش ونسميه باسمه دون أن نشيح بوجوهنا فزعا. يوميات نعمات البحيرى.. المرأة المشعة التى واجهت الوحش وقطعت أشلاءه فى فصول كتابها .. أول نص عربى درامى أقرأه لقتل الوحش الأسطورى وهو ينمو فى داخلنا وليس قادما من خلف ضباب رمادى أو منبثقا من بحيرة غامضة أو من تحت الصخور أو هابطا من كوكب مجهول. تعرفون أن أهم ما يثير غضبنا - نحن النساء الكاتبات - أن ينظر القراء الرجال (وأحيانا النساء أيضا) إلى قصصنا ورواياتنا باعتبارها يومياتنا الحقيقية، وهم يتتبعون سطورنا بعين المخبر، ويمتعض أزواجنا أو أولادنا أو آباؤنا وحتى أمهاتنا ويشعرون بالخزى إذا تطرقت الكاتبة للمحظورات الاجتماعية، ولهذا فالكاتبة - فى جيلى على الأقل - كانت فى حالة دفاع عما تكتبه، مذكرة القراء دائما أن هذه الرواية أو هذه القصة هى محض خيال.

وهكذا كانت «يوميات» نعمات فتحا شجاعا، حيث لم تكتف الكاتبة بسرد أدق ما جرى لها وإنما استخدمت نفس الأسماء الحقيقية لأبطالها الواقعيين، وهكذا نجد بين طيات الكتاب صديقاتنا المشتركات الرائعات: وفاء حلمى وهالة البدرى وسهام بيومى وشوقية الكردى وأخريات وآخرين: أشقاءها و جيرانها وأصحابها . وهى فى اطلاعنا على عوالمها القديمة والجديدة من ذكريات طفولتها إلى حاضرها .. وقفت أمامنا - إذا جاز القول - عارية من كل الأقنعة . ولهذا لا يحتاج القارئ الفضولى أن يتشكك فى أن الكاتبة هى بطلة اليوميات، فهى تقف أمامه لتقول بتحدٍ: لا تتعب نفسك .. أنا هى!

لم تكن هذه الشجاعة هى الفتح الوحيد للكاتبة . فمن يتصفح اليوميات يجد شيئا عجيبا ورائعا يحدث له، فكأن نعمات هى الطبيب المعالج ونحن المرضى- وحين تغلق الكتاب على آخر كلماتها، تجد نفسك تتساءل:« الله .. هل مقارعة السرطان بهذه السهولة إذن؟ علام كان خوفنا الدائم منه؟».

ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة بالتأكيد، فقد كانت تجربة الكاتبة التى نقلتها إلينا بكل تفاصيلها المريرة، مصهورة بالنار ومغموسة بالألم . ومع ذلك فهى تأخذ بيدنا الآن كما تأخذ الأم بيد طفلها المرتعش لتجول به داخل أرجاء غرفة مظلمة لتريه أن لا شىء يستدعى الخوف .. لا وجود للوحش فى الغرفة، فقد قتلته، ولا تترك طفلها إلا بعد أن يألف المكان . هكذا تدخل بنا خطوة خطوة فى تلافيف روحها ونبض ألمها ومسرى شرايينها وتأرجحها بين اليقين والشك حتى نجد أنفسنا أخيرا جزءا لا يتجزأ من انتصارها الأخير .. الانتصار على النفس، الانتصار على الخوف .. الانتصار على الضعف .. والانتصار على قناعات كثيرة كنا نعيش فى وهمها، وكأن بيانها الأخير ضد الموت كان صرخة انتصار باسمنا . هل قصدت نعمات البحيرى أن تفعل هذا بنا؟ لا أستطيع أن أتكهن بالجواب ولكن الأكيد أنها كتبت يومياتها بصدق، والصدق هو كلمة السر للنفاذ إلى وجدان المتلقى. ■

العرب فى برلين

تمثل هذه الدراسة عرضا مرحليا لتاريخ العرب ببرلين منذ القدم من عام ٩٠٠ م إلى العصر الحديث مرورا بالحربين العالميتين، واتحاد الألمانيتين.

أول العرب الذين قدموا إلى برلين هو إبراهيم بن يعقوب اليهودى الأصل، كانت زيارته وقتها فى عهد الحكم الثانى ملك الأندلس، وهى زيارة دبلوماسية إلى بلاط الملك الألمانى Otto الأول، وتجارية تهمه كفرد. وقد امتدت أواصر العلاقات السياسية والاقتصادية بين الدولتين كتبادل متزن لا سيما فى عهد السلطان الحكم الثالث. إن تمثيل إبراهيم بن يعقوب لبلاط الأندلس فى أوروبا هو إشارة واضحة للتسامح والانسجام السلمى بين الأجناس فى عهود الملوك العرب كالحاكم الثانى.

تجول إبراهيم بن يعقوب فى رحلاته من فرنسا إلى هولندا وبلجيكا ومن ثم إلى برلين وبولندا، فسجل هذا الدبلوماسى ورجل الأعمال مذكرات ختم جزءا منها بوصف براندنبورغ. انصرمت مئات الأعوام، قرابة ٩٠٠ سنة، بعد هذه الزيارة دون أن يذكر للعرب . على وجه الدقة . رحلة جديدة إلى برلين، إلى أن أطلت الإمبراطورية العثمانية، مثابرة بتحديها للغرب، فكانت تجهز وترسل البعثات التعليمية إلى أوروبا لتلقى العلوم لا سيما العسكرية منها لأجل تأهيلها على البقاء كقوة عالمية منافسة لإمبراطوريات ذلك العهد، وقتئذ اشتهر محمد على باشا حاكم مصر بحبه للعلم وبعثه للطلاب وراء الحدود للتحصيل العلمى، والتقنى ودراسة اللغات والعلوم العسكرية، إلا أن ألمانيا لم تحظ باهتمامه فكان يوفد المبعوثين إلى فرنسا وإنجلترا، على النقيض من عباس الأول الذى بعث فى عام ١٨٤٩ طلبة لدراسة الطب فى ميونخ جنوب ألمانيا. وإلى برلين قدم أول سبعة طلاب مصريين فى عام ١٨٥٣ م، كان من بينهم حامد أمين، الذى سرح من وظيفته من قبل الإنجليز لاشتراكه فى ثورة أحمد عرابى. توالت رحلات الرحالة فيما بعد إلى برلين، غير أن كتاباتهم كانت كتقارير خاطفة باستثناء سالم بطرس اللبنانى الأصل، الذى زار برلين فى عام ١٨٥٥ ضمن رحلاته إلى فرنسا، والنمسا والمجر، فكان بذلك ثانى رحالة متمرس بعد إبراهيم بن يعقوب، كتب بموضوعية عن برلين بالرغم من إعجابه بها ووصفه لقصر Wilhelm الأول، والحدائق العامة إلا أنه كان يفضل مدينة Potsdamm على برلين كما يبدو فى وصفه. تمثل القيصرية فى ألمانيا فى القرن التاسع عشر عهد تحد، واستكشاف لأصقاع العالم، وحروب داخلية مع دول الجوار لا سيما مع فرنسا عام ١٨٧٠، التى كان ضمن صفوف جنودها الجنود الجزائريون، الأمر الذى أثار انتباه الأديب أحمد فارس الشدياق لكتابة كتاب بموازرتهم نشر عام ١٨٧٢ فى إسطنبول. وكأسرى حرب اقتيد بعض هؤلاء الجنود إلى ألمانيا، حيث يسمق إلى اليوم نصب تذكارى لهم بمقبرة Carnison البرلينية.

على مدى ٤٠ عاما فى الفترة من ١٨٧٥ ـ ١٩١٥ م توالت هجرات العرب من رحالة، وأساتذة لغات إلى برلين، فكان صالح نخلة امتدادا لبطرس فى وصفه لبرلين، كما أنه تميز عن سابقه بوصف المعابد اليهودية وغيرها من المنشآت حتى أنه خضع تحت وطأة الوصف إلى تسمية برلين بأجمل مدن العالم.

رغم عمارة هذه المدينة كان يستغرب نخلة من قلة سكانها. الأمر الذى نفاه من بعده أمين بكرى، إذ وصف برلين بثالث أضخم مدن أوروبا، رغم أن تعداد سكانها لم يتجاوز المليون ونصف المليون نسمة. اهتم أمين بكرى بوصف المنشآت التقنية لا سيما القطارات، وشبكة المواصلات بشكل عام. تحولت مرحلة الرحلات إلى انفتاح بين الشعوب والتعرف على المنظومات الاجتماعية واللغات فى فترة أطول من سابقتها.

استوطن حسن توفيق ببرلين ونشر كتبا عنها بالقاهرة، وعين كمحاضر للغة (العربية باللهجة المصرية) بمعهد اللغات الشرقية sos التابع لـ Friedrich .W وهو اليوم جامعة Humboldt، التى أسست فى بادئ الأمر لتدريس اللغات الشرقية: العربية، التركية والهندية إلى جانب اللغة الصينية، كهدف استعمارى للتعرف على بيئة ومنظومة المجتمعات تلك. وبتقدم الأعوام تحول هذا التوجه الاستعمارى إلى غاية تعليمية، وثقافية تصبو إلى تداخل الثقافات، وتقريب المجتمعات.

من الأسماء التى اشتهرت فى تدريس اللغة العربية والترجمة: حسن توفيق، أمين مريص، ومحمد بو سلحام، وغيرهم.

ومن المراحل اللافتة للنظر، والمأساوية فى تاريخ العرب ببرلين الموشحة ببشاعة الاستعمار والرحلات الاستكشافية فى الشرق عرض العرب والأفارقة وغيرهم من الجنسيات الأخرى فى Zoologischer Garten وراء واجهات زجاجية، كأى معروضات للتفرج عليها، والتمعن فى تفاصيلها.

أحضر Heinrich Moller تاجر الحيوانات، العملاق المصرى حسن على (٢.٤٠ متر) من واحة سيوة فى إحدى رحلاته ليعرض أمام الجمهور الألمانى والمارة. فكان يكره على الوقوف للتفرج على قامته الضخمة، ويستغرب من هيئته. عانى حسن ما عانى من حبس فى غرفة ضيقة، وإكراه واتهام بالكسل، وهو فى حقيقة الأمر. كان مريضا للغاية بالتهاب الرئة، العظام، تورم المفاصل. كان الألمان وقتها يقيمون العلاقة بالعرب وفق منظور ملتبس، حينا يرون فيهم التخلف والتملق، وحينا آخر يعجبون بحضارتهم أيما إعجاب.

لم يصمت مصطفى كامل، الذى كان وقتها ببرلين، عن الأذى الذى كان يحيق بالمصريين والعرب عموما، فنادى علنا فى الصحف «الألمانية» بأن أبناء موطنه ليسوا سلعة تعرض، ولا هم بحاشية مستسلمة. إلى جانب مهمته الاجتماعية هذه، أخذ مصطفى كامل يدعو فى خطابه السياسى إلى استقلال مصر من ربقة الاستعمار الإنجليزى وناشد القيصر الألمانى بمشاركة ألمانيا لدعم مصر للتخلص من أكبال الاستعمار. دعا مصطفى كامل من قبل بباريس إلى تحرير مصر بموازرة الفرنسيين إلا أن دعوته لم تجد صدى إلى أن توفى عام ١٩٠٨. كان «مصطفى كامل» يؤمن بما جاء فى خطبة Wilhelm الثانى بدمشق عندما قال «بأن ألمانيا ستظل فى كل عهد قيصريته . صديقة للعرب».

رغم اعتقاد الألمان، وقتها، بأن وقوف ألمانيا فى وجه الإنجليز لا يعنى بالدرجة الأولى مصلحة مصر، مثلما يعنى مصلحتها كاستعمار بديل، وتمكين وتأمين مصالحها إلا أن وجهة نظرهم السائدة كانت تعتقد فى أن مصر «قضية داخلية» تخص إنجلترا، فرد مصطفى كامل قائلا «بأن مصر قضية عالمية ...». وواصل محمد لبيب محرم، الذى تزوج سيدة ألمانية، كفاح صديقه مصطفى كامل، فظل يدعو إلى اشتراك الحلف الألمانى ـ العثمانى، لا سيما الحلف الأول منهما لتحرير مصر. فى دعوته هذه استقطب محمد لبيب محرم الطلبة المصريين فى برلين، وكون أول تجمع / تنظيم عربى فى ألمانيا. فى عام ١٩١٣ توفى هذا الثائر. وعقب وفاته نشبت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٥ دعا السلطان العثمانى إلى توحيد صفوف المسلمين والعرب للوقوف ضد الاستعمار الإنجليزى، وتشجيع ما يسمى بالقمة الوسطى ألمانيا / روسيا / النمسا للتدخل من أجل تحرير الشرق المسلم. كان فى ذلك سانحة ذهبية لممثلى التنظيمات السياسية لا سيما من دول المغرب العربى المستعمر، فقدموا من تركيا وسويسرا إلى برلين للانضمام إلى تنظيم برلين. ارتسم مصطلح الحرب المقدسة / الجهاد كمعلم مميز، حينما نادى به منصور رفعت عام ١٩١٤، بعد أن طرد من سويسرا لنشاطه الوطنى السياسى المتطرف، إذ كان يدعو وقتها إلى تحرير مصر بعيدا عن تدخل أى قوة خارجية، لأن أبناء مصر كفيلون وحدهم بتحرير موطنهم من ربقة الاستعمار الإنجليزى. بمثل هذه الآراء حفلت الصحافة الألمانية وقتها، بل ودعا منصور رفعت فى حديثه مع الدبلوماسيين الألمان إلى زحف ألمانيا إلى قناة السويس لموازرة المصريين. كتب ذلك فى الصحف الألمانية وأذيع فى الأنباء، وفى احتفال بفندق Adlon ببرلين بمناسبة تأسيس جمعية مصرية وطنية، على صعيد آخر دعا عبد العزيز جاويش إلى موقف سياسى مغاير، ينشد

أحضر Heinrich Moller تاجر الحيوانات، العملاق المصرى حسن على (٢,٤٠ متر) من واحة سيوة فى إحدى رحلاته ليعرض أمام الجمهور الألمانى والمارة

Araber in Berlin
(العرب فى برلين)
Frank Gesemann
Gerhard Hopp
هارون الصويص

وقوف الألمان والعثمانيين لتحرير مصر، كما أنه أنشأ مع رفاقه صحيفة «العالم الإسلامي»، التي كانت تحرر في برلين، وتصبو إلى كسب الألمان كصديق للإسلام. احتفل بهذه المناسبة في فندق Esplander ببرلين. انضم إلى هذا التوجه السياسي الشيخ صالح الشريف التونسي، ومحمد باشا نجل البطل عبد القادر الجزائري، وأفراد آخرون. اتسعت الدعوة إلى تحرير مصر لتشمل دول المغرب العربي وليبيا والسودان. لكي لا يتعلق زمام الأمر الداخلي ببرلين في يد السلطة الألمانية، وظفت القيصرية الألمانية مكتب أنباء الشرق Nfo ومعهد اللغات الشرقية SOS وشخصيات ألمانية مثل Moffenheim وعربا من المغرب العربي المستعمر لمراقبة وتقييم المعلومات والأنباء والترجمات والمخطوطات.

وفقد السياسيون العرب، وتنظيماتهم ببرلين، الآمال في التعاون، والمصلحة المشتركة مع الحلف العثماني الألماني، بعد أن خسر هذا الحلف حرب قنال السويس في عام ١٩١٦ . ظل منصور رفعت وصالح الشريف التونسي على ولائهم للحلف السابق، واحتدت مطالبهم تجاهه، حيث طالب منصور رفعت، الذي كان يرأس «منتدى الوطنيين المصريين» في صحيفة «vossischer» بتدخل القيصرية الألمانية لمنع تنصيب الأسر العثمانية المالكة على عرش مصر من جديد، لأنها. وفقا لنظره. هي السبب الحقيقي لتأخر، وجهل الشعوب العربية المستعمرة من قبلهم. وجد هذا الرأي قبولا، وتأييدا من محمد فريد الذي خلف مصطفى كامل في رئاسة الحزب. وكان وقتها (عام ١٩١٧) في برلين، بعد أن قدم من المنفى السويسري، فكتب في صحيفة «الصليب» بأنه في حال انتصار مصر، بمؤازرة القمة الوسطى، ستتعهد بالواجبات، والمصالح المشتركة بين الجهتين. أثنى الأمير شكيب أرسلان على هذا التصريح وطالب العثمانيين بالتوقف عن ملاحقة السياسيين العرب، في بلادهم وخارجها، وبمعاملة تليق بهم. حين انعقد مؤتمر الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية في أوسلو، تجمع العرب ببرلين بقيادة محمد فريد، وصالح شريف التونسي في مظاهرة ضخمة طالبوا فيها بحق تقرير المصير، الأمر الذي زاد قلق الحكومة الألمانية. لم يكتف محمد فريد بهذا التجمع، فبعث تلغرافا إلى الاتحاد السوفيتي حيث المؤتمر الاشتراكي المنعقد وقتها، وبعد عام أرسل إلى لينين نفسه مناشدا إياه بالتدخل لإجلاء الاستعمار الإنجليزي عن مصر. سدى كانت دعوة محمد فريد والتونسي عبر الصحف، والأوراق الطائرة، والمنشورات، لحث الألمان بالتحرك لمواجهة الاستعمار الإنجليزي. في عام ١٩٢٠ توفي التونسي في المنفى السويسري، وتوفي بعده صديقه محمد باشا الحمبا، الذي دفن في برلين، كما توفي قبله بعام محمد فريد، ودفن ٢٥٠ جنديا عربيا معتقلا بمعسكر الهلال، في مقبرة Zehrendorf في ضاحية Wünsdorf حيث المسجد العربي القديم.

الإعـــلام المـــوجـــه

بحلول العهد النازي عام ١٩٣٩ بألمانيا، انقطعت في البدء العلاقة الدبلوماسية بين ألمانيا وحكومات مصر والعراق، واستجوب العرب المقيمين ببرلين في مخابر البوليس، وكان من ضمن المستجوبين الأساتذة العاملون بمعهد اللغات الشرقية، والمعاهد الإسلامية، والغرفة التجارية المصرية بألمانيا . التي كان يمثلها عزيز قطة، المقلد من قبل هتلر بـ «الصليب الفخري» الذي شك في ولائه للنازية فيما بعد، فنفى إلى Tirol تحت رقابة العسكر.

صرح هتلر بأنه يجب استخدام العرب كأهداف سياسية لألمانيا، فأنشأ إذاعة ببرلين في مارس ١٩٤١، فكان يونس بحري العراقي يقوم بتقديم البرامج، واشتهر بتحيته «حي على العرب». كان ثمة عرب آخرون يعملون معه بهذه الإذاعة التي كانت تبث خارج ألمانيا . بباريس والمغرب واليونان وتشمل كلا من الأدب وموسيقى وآيات قرآنية. تولى مراقبة هذه الإذاعة قسم مراقبة البرامج المدعوم من الخارجية الألمانية، مستعينا ببعض الشخصيات العربية (كعبد الحليم النجار، ومحمد الصافي).

لم ينحصر عمل هؤلاء في مراقبة الإذاعة أعلاه، فكانوا أيضا يروجون لتوزيع المنشورات والدعاية الموجهة.

في Friedrich Str. أُنشئت «وكالة أنباء الشرق» التي كانت تقيم بنشاطها الموجه المعلومات المبثوثة والمكتوبة، داخل ألمانيا وخارجها، حيث تفد المعلومات تلغرافيا من صوفيا واسطنبول. ترأس عفيف الطيبي هذه الوكالة، فيما أسند لـ «جلال» رئاسة تحرير بريد الشرق. كان أغلب العرب الذين يشغلون القطاع الإعلامي الموجه لصالح ألمانيا، من الطلبة الوافدين من فرنسا وسوريا وفلسطين والعراق. بعد هزيمة حركة الكيلاني بالعراق كان يحلم هؤلاء بمؤازرة ألمانيا لتحرير مواطنهم المحتلة، بناء على تصريح في ديسمبر ١٩٤٠ بأن ألمانيا ستقف جنبا إلى جنب مع العرب لتحرير بلادهم.

كان هؤلاء الوافدون الجدد طبيعة عملهم «الاستخباري» في الإعلام الألماني: كحرب وثأر من الغرب الاستعماري، بعد أن ذهبت كارثة الحرب العالمية الأولى بآبائهم وأبناء مواطنهم.

بحلول الحرب العالمية الثانية، بارح معظم العرب والأجانب برلين إلا عوائل قلة، منها عائلة محمد سليمان . تميزت هذه العائلة بتغلبها وصمودها في وجه تقلبات النظم الألمانية، من قيصرية إلى جمهورية فايمر، والـ SS، واتحاد الألمانيتين، هذا إلى جانب الحربين العالميتين (الأولى والثانية) . قدم محمد سليمان. كرجل أعمال إلى ألمانيا عام ١٩٠٠، واستطاع في الفترة بين ١٩١٥ - ١٩٢٣ أن يحظى بنجاح متميز في مسيرته كرجل أعمال، إذ كان يمتلك ملهى ليلي (كباريه) ومسرحا في الـ Kaisergalerie، تزوج محمد سليمان السيدة M. Westphal، وأنجب منها إناثا وذكورا، تزوجوا فيما بعد بشخصيات متميزة، أوروبية الثقافة والأصل، رغم اعتناق أفراد هذه العائلة للإسلام إلا أنهم ظلوا ينفتحون على المجتمعات الأجنبية، ويحتفلون بأعياد مسيحية، دونما تزمت أو إحساس بتنكر للإسلام. في عام ١٩٠٦ افتتح محمد سليمان سينما أفلام صامتة بـ Friedrichhain، كما انه كان يملك إلى جانب السينما مسرحا بعد الحرب العالمية. أما أخوه عبد العزيز فافتتح مدرسة لتعليم الرقص بـ Kurfürstendamm في ثلاثينيات هذا القرن. بعد وفاة محمد سليمان المبكرة، كانت زوجته تدير عدة «سينمات»، في كل الحقبات السياسية السابقة بألمانيا، إلى أن صودر جزء من منشآتهم في عهد حكومة ألمانيا الشرقية، وأفل عهد السينما الصامتة في الستينيات.

يمثل العرب إلى جانب الجالية التركية والبولندية أكبر جالية أجنبية ببرلين حالياً.

ينتمي أفراد الجالية العربية ببرلين إلى حضارة عربية واحدة، بمعتقدات دينية مختلفة على النقيض من أفراد الجالية التركية ببرلين، الذين قدموا إلى ألمانيا «كيد عاملة» بعد الحرب العالمية الثانية.

وَفَدَ معظم العرب إلى برلين كلاجئين . لا سيما من دول الشام . أما البقية منهم فللدراسة والتجارة أو بعقود عمل تجارية موقعة بين ألمانيا ودولهم كالمغاربة والتونسيين. يبلغ عدد العرب ببرلين حوالي ٣٥٠٠٠، من بينهم نخبة كالكتاب والصحفيين والفنانين والأطباء والباحثين والفرق الموسيقية والعازفين، هذا إلى جانب المنشآت (كالاتحادات الثقافية والاجتماعية والتجارية ودور الاستشارة للمواطنين واللاجئين، والمساجد والمطاعم، ودور النشر والطباعة والأندية الرياضية، ومراكز للمرأة والأطفال.) التي تأسست في غضون إقامتهم ببرلين، وجزء منها أقامه الألمان كالمتحف المصري والنوبي والشرقي إذاعة عربية...

يمثـــــل العـــــرب
إلـــى جـــانب الجاليـــــة
الـتـركـيــة والــبــولــنــديــة أكــبــر
جـــاليـــة أجـنبيـــــة
بـبــــرلــيـن حـــــاليـــا

مؤلفو الدراسة:

- بروفيسور هوب : Hopp أستاذ بكلية الاجتماع والعلوم الإسلامية بجامعتي برلين الحرة وهمبولدن.
- د/ جيزمان : باحث اجتماعي، مختص بهجرة الأجانب واستقطابهم في المجتمع الألماني.
- هارون الصويص : مدير القسم العربي بإذاعة الثقافات العديدة Multi Kulti ببرلين.

عرض:

أمير حمد (برلين)

إصـــــــدارات جــــــديـــدة

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

عهد الشيطان

توفيق الحكيم

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١١٣صفحة



عُرف توفيق الحكيم بأنه أبو المسرح المصرى الحديث، وقد أبدع الحكيم كثيراً من الأعمال المسرحية الخالدة التى لم يكتب لها أن تمثل على خشبة المسرح، والتى اصطلح على تسميتها بالمسرح الذهنى، وهى تسمية لم تلق ترحيباً كبيراً بين المسرحيين الذين تساءلوا: كيف يكون المسرح ذهنياً، وكثيرون من الجيل الجديد لم يتح لهم الاطلاع على هذه الأعمال وغيرها، فقد نفدت ولم يعد طبعها، وهذه هى أهمية هذا المشروع الذى تضطلع به «دار الشروق»، والذى يعيد نشر أعمال توفيق الحكيم جميعها المسرحية والقصصية.

وهذه المجموعة من القصص يسميها المؤلف القصص الفلسفية، لأنها تبحث فى الأسئلة الكبرى وإن بطريقة فنية، مرة من خلال السرد، وأخرى من خلال الحوار، فهو مرة يستعيد حكاية فاوست مع الشيطان، والمساومة التى جرت بينهما، أن يعطيه الشيطان الشباب ويأخذ نفسه، وتخيل نفسه يعيش اللحظة ذاتها ويساوم الشيطان، وكان موضوع المساومة هذه المرة هو المعرفة، فقد راح يلتهم الكتاب التهاماً وينهل من المعرفة فى كل الفروع، لكنه حين نظر فى المرآة هاله منظر التجاعيد فى وجهه، ودلالات الشيب التى رسمت خيوطاً واضحة حول عينيه وفوق جبهته وفى شعر رأسه، فما تمالك نفسه إلا أن صاح: الشباب الشباب، لقد أخذ الشباب.

وفى قصتيه «مع النوم» و«راديوم السعادة»، يشير إلى أن الفنان يحتاج إلى قدر محدد من السعادة يعينه على الإبداع والعمل، فلا يجوز أن تصيبه تخمة من السعادة وإلا تعطلت ملكاته الإبداعية، ها هو الراوى يقول فى ختام «راديوم السعادة»: «عند ذلك فهمت أن السعادة التى تلزم لنا نحن الفنانين لنقوم بالأعمال الكبار ينبغى أن تكون بمقدار، مقدار صغير ثمين مثل الراديوم، فإذا انغمرنا فى حوض من هذه المادة السحرية فإنها تنقلب فى نظرنا ماء قراحاً لا فعل له ولا أثر».

وفى قصة «عدو إبليس»، يتخيل حواراً يدور بين عزرائيل وإبليس فى أعقاب وفاة النبى محمد صلى الله عليه وسلم، وما بين سعادة إبليس بانقطاع الصلة بين السماء والأرض بوفاة خاتم الأنبياء، وحزن عزرائيل على رحيل النبى الكريم، يدور الحوار بين الاثنين عما سيكون عليه حال المسلمين بعد وفاة نبيهم، ويستحضر الحوار ما قاله عمر بن الخطاب وبعض المسلمين الذين لم يصدقوا وفاة الرسول الكريم، ثم ما قاله أبو بكر الصديق والعباس عم الرسول، وما كان لكلامهما من أثر فى وأد الفتنة فى مهدها، لينتهى الحوار بين عزرائيل وإبليس بقول عزرائيل: ماذا تقول الآن؟ أغرب عن هذا المكان، لقد ظهر الإسلام وتألق روح هذا الدين.

بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة فى الاقتراب من القضايا الفكرية الكبرى، ناقش توفيق الحكيم أعقد الموضوعات.

قبل أن نكره باولو كويلهو

جيهان عمر

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠٧، ٨٣صفحة



هذا هو الديوان الثانى للشاعرة بعد ديوانها الأول «أقدام خفيفة»، والذى لاقى ترحيباً نقدياً ومغامرة من شعراء الجيل الجديد، وقد وصف قصائده الناقد المغربى الدكتور محمد برادة بأنها «تتميز بحساسية مرهفة وكلمات تتسلل إلى الأعماق، إلى حيث تختبئ أحزاننا القديمة والجديدة لتجعلها تطفو على السطح، بل ولتبددها فى آن»، ووصفت الكاتبة صافى ناز كاظم الشاعرة بأنها «لا تتساءل ولا تتعجب، إنها حزن مستقر بأقدام خفيفة».

وفى هذا الديوان، تواصل الشاعرة عزفها على الوتر الإنسانى عبر ثلاثين قصيدة قصيرة، هى من تفاصيل الحياة الإنسانية بعلاقاتها البسيطة والمعقدة معاً، مسحات من الحزن الشفيف والتساؤل المعجز، الذى لا يبحث عن يقين بقدر ما يشير إلى مواطن الدهشة بين العادى والمألوف فى سلوكنا اليومى، نقرأ فى «علاقة حميمة»: ذات مساء/ اصطدم بسعادتى/ أزاحها/ وجد حزناً/ أبعده/ فوجئ بثورة/ أخمدها/ وجد يقيناً/ داعبه/ فظهرت عجوز نائمة/ غطاها بردائه/ قائلاً/ تصبحين على خير.

نقرأ أيضاً فى «دور الدمية»: فى مثل عمرى/ كانت تجر خلفها خمسة أطفال/ والصغيرة لا ترى أمامها/ سوى غابة من السيقان/ كانت أنا/ وكان أمراً عبثياً/ أن أبحث عن أشيائى المفقودة/ فى فوضى الغرف/ المعبأة ببطولاتهم الوهمية/ كان يجب أن أرضى بدور الدمية/ التى يقذفون بها فى الهواء/ فتصدر ضحكات/ قصيرة/ متكررة/ بريئة/ أو تبدو كذلك.

على هذا النحو تمضى قصائد الديوان، احتفاء بالتفاصيل، باليومى والآنى دون التمحك فى قضايا كبرى، لكن هذا اليومى والآنى هو ذاته، الذى يصوغ معانى حياتنا كلها.

كان زمان يا مان

سمير الجمل

القاهرة: كتاب اليوم، ٢٠٠٧، ١٤٢صفحة



بأسلوب ساخر يتناول المؤلف العلاقة بين الرجل والمرأة فى العصر الحديث، يحاول الرجل أن يسترجع ذكريات الذكورية الأولى، أيام الحريم والحرملك، الزوجات الأربع والجوارى الحسناوات عن اليمين وعن الشمال صوته المدوى الذى يصدع فى أنحاء البيت فيهز أركانه وترتعد فرائص من فيه، لكن المؤلف يعيد قارئه الذكر إلى أرض الواقع قائلاً له بصراحة ساخرة قاسية: كان زمان يا مان.

فى الكتاب نلتقى بتصورات ساخرة كاريكاتورية لنساء من زماننا: كونداليزا رايس ومارلين مونرو ونزوبيا وانجيلينا جولى وفيفى عبده وغيرهن، وستسمع رأياً فى نوال السعداوى لا يخلو من سخرية، حين جلس المؤلف وزوجته يستمعان إليها فى حوار تليفزيونى وهى تساوى بين القرآن والروايات، بل وتفضل الروايات أحياناً عليه، ويصفها المؤلف بأنها «لاسعة»، وحين صرخت زوجته فى فزع: يخرب بيتها هى بتقول إيه، قال لها بهدوء: ليس على الملسوعة من حرج فإن الرد عليها خسارة والاستماع إليها خسارة أكبر وقد أعطيناها أكثر من حجمها، ويهزأ من هذا الاهتمام المبالغ فيه حين تعرضت نانسى عجرم للسرقة فى شرم الشيخ، ويتخيل أن مجلساً أعلى للحرامية انعقد وأصدر بياناً يستنكر فيه سرقة نانسى شكلاً وموضوعاً، ثم ظهرت الحقيقة واتضح أن الحرامية من روسيا، وعلى قرر الحرامية سرقة بيت الرئيس بوتين فى عز الضهر الأحمر.

تربية العنصرية فى المناهج الإسرائيلية

صفا محمود عبدالعال

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧، ٢٣٠صفحة



تكاد موضوعات المناهج الإسرائيلية أن تكون مرآة لبشاعة العنصرية نحو الحقوق العربية، وهى تعكس مقولة هيرتزل «إذا حصلت يوماً على مدينة القدس وكنت ما أزال حياً، فلن أتوانى لحظة عن إزالة كل شىء ليس مقدساً فيها لدى اليهود، وسوف أدمر كل الآثار التى مرت عليها قرون». كان هيرتزل يقصد الآثار الإسلامية والمسيحية حسبما يقول شيخ التربويين الدكتور حامد عمار فى تقديمه للكتاب، الذى يعرض نصوصاً مما يدرسه تلاميذ المرحلة الابتدائية فى المدارس الإسرائيلية فى كتب التاريخ والجغرافيا، وجميعها تشير إلى الشعارات التى قامت عليها دولة إسرائيل العنصرية مثل السلام المسلح، القوة فوق الحق، الحزام الأمنى، الجدار العازل، الحقوق المقدسة للشعب الإسرائيلى وغيرها.

وقد استقت المؤلفة هذه النصوص من نحو ستة عشر كتاباً من كتب التعليم الإسرائيلية، الذى يستهدف تغذية التلاميذ فى هذه المرحلة المبكرة من العمر على المفاهيم والمبادئ التى قامت عليها دولة إسرائيل، وهى مبادئ سياسية عنصرية تم تلوينها بمقولات دينية حتى تكتسب قداسة ما فى عقول متلقيها، ومنها الادعاء بأن أرض فلسطين كانت منذ أقدم العصور أرض إسرائيل، وأن أورشليم كانت عاصمتها التى اختارها الرب لتكون مقراً للشعب اليهودى بعد الشتات.

وتشير المؤلفة من واقع تحليلها لهذه النصوص التى أوردت أصولها العبرية ثم قامت بترجمتها وتحليلها، إلى أن حدود الوطن الإسرائيلى مغيبة، وأنه يمتد من فلسطين إلى سوريا ولبنان ومصر والأردن والعراق، تحت ادعاءات ومزاعم بحقوق تاريخية، وهى مزاعم يتم بثها بالحاح داخل عقول التلاميذ، حتى يشب هذا النشء وقد ارتبط بالأرض وبالدفاع عنها

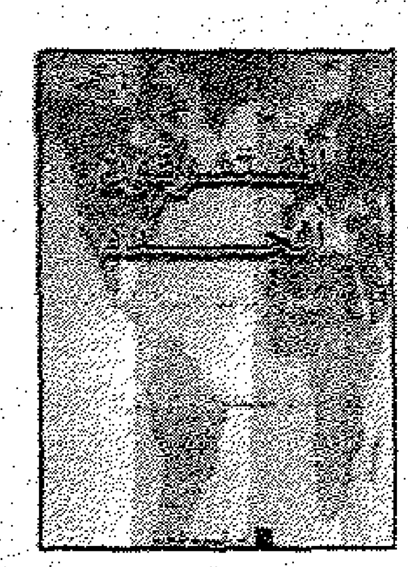
ومواجهة ما يحيط به من عداء عربي، وهي واحدة من المهام الرئيسية لنظام التعليم في إسرائيل الساعي إلى زراعة بذور الخوف من الآخرين في عقول الصغار، وترسيخ عناصر الكراهية والحقد في وجدانهم، وهي واحدة من الآليات التربوية المهمة التي تشكل بنية التوظيف الاجتماعي للمؤسسات الاستيطانية في إسرائيل بشكل عام.

وتشير المؤلفة بوجه خاص إلى كتاب أرض الوطن بجزءيه الأول والثاني، والذي تراه أخطر هذه الكتب جميعاً في ترسيخ الفكرة العنصرية للدولة الإسرائيلية، ولأنه كذلك، فإنه يدرس للطلاب على مدار عدة سنوات دراسية، كما أنه يدرس خارج قاعات الدرس النظامي، وفي الدراما التليفزيونية، وفي السياق ذاته فإن المناهج الدراسية الإسرائيلية كما تشير إلى ذلك النماذج التي قامت المؤلفة بتحليلها، تثير الرغبة في الانقياد للحرب باعتبارها الوسيلة الوحيدة أمام النشء للحصول على حقوقهم «المشروعة»، ودفاعاً عن أرض الآباء والأجداد.

المستشرقون الجدد

مصطفى عبدالغني

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧، ١٧٤ صفحة



المستشرقون الجدد هم الآن خبراء، يقومون بنقل تحليلاتهم ودوافعهم الممتزجة بهذا التحليل إلى صانعي السياسات في الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص، في الكونجرس والأعضاء التنفيذيين في الوزارات السيادية بهدف معلن هو التصدي للإرهاب والذي يخفي هدفاً حقيقياً هو تأكيد دور الإمبريالية الجديدة عبر مشروع الشرق الأوسط الجديد والدعوة إلى الديمقراطية وحقوق الإنسان.

هذه النخبة الجديدة يطلق عليها في مراكز البحوث الأمريكية Think Tanks وهي التي استبدلت فيها النخبة من المستشرقين القدامى التقليديين، بتلك التي تؤثر في اتخاذ القرارات داخل الولايات المتحدة الأمريكية بوصفهم خبراء.

ويشير المؤلف إلى أن هذه المراكز وهؤلاء الخبراء، تزايدت الحاجة إليهم وتعاظم دورهم على هذا النحو الذي يشير إليه بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وبعد غزو العراق على وجه الخصوص، ويشير كذلك إلى أن الممول الرئيسي لمراكز الأبحاث تلك هو الشركات العملاقة التي يقارب إنتاجها نحو ٢٥٪ من الإنتاج العالمي، ومنها جنرال موتورز ووال مارت وإكسون موبيل وفورد وديملر كرايسلر، وهي شركات يتجاوز ناتجها الناتج القومي لـ ١٨٢ دولة في العالم، هذه الشركات هي طليعة القوى الصانعة للعولمة، وهي الأسخى تبرعاً وتمويلاً لمرشحي الرئاسة الأمريكية ولمراكز الأبحاث وبيوت الخبرة السياسية والاستراتيجية، وقد باتت بيوت الخبرة السياسية تلك هي الكيانات الأكثر فاعلية في صنع السياسة الأمريكية، ومنها معهد بروكنجز، ومجلس العلاقات الخارجية، ومؤسسة هيرتاج، وأمريكان إنتربرايز، وهدسون انستيتيوت، ومركز بيكر للسياسة العامة، ومؤسسة راند، ومعهد الشرق الأوسط، ومعهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، ومعهد هوفر، ومشروع القرن العشرين.

عبر ما تنشره هذه المراكز من تقارير، وعبر ما يبثه خبراؤها في وسائل الإعلام المختلفة، يتابع المؤلف ويحلل مقولات المستشرقين الجدد.

عالم المتاحف

عصمت داوستاشي

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٧، ١٧٥ صفحة



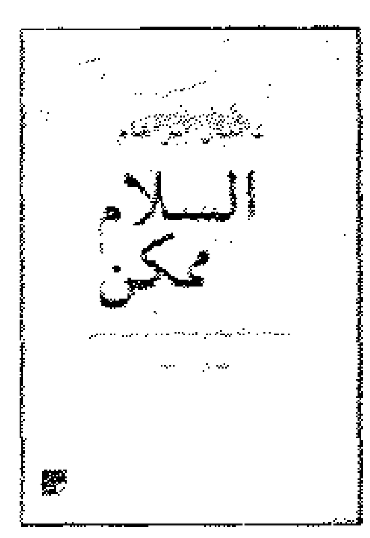
تتعدد الكنوز المتحفية في مصر، وربما كان أكبرها وأهمها، هو المتحف الذي يتم إنشاؤه الآن تحت اسم «المتحف المصري الكبير»، والذي سيضم ١٠٠ ألف قطعة آثار من تاريخ مصر الممتد عبر قرون عديدة، والذي سيقام في سفح أهرامات الجيزة، والذي تم نقل تمثال رمسيس الثاني من ميدان رمسيس إليه، كما سيتم إنشاء متحف الحضارة الجديد بالقاهرة كأضخم متحف حضارة في العالم، وبين المشاريع المتحفية الجديدة في مصر، متحف للآثار الغارقة بمنطقة الميناء الشرقي بالإسكندرية أمام مكتبة الإسكندرية، وسيكون أول متحف في مصر يقام تحت سطح البحر، حيث سيتجول الزائر داخل أنابيب شفافة أو ينظر من قاع زجاجي لسفينة مجهزة بتجهيزات خاصة على هذه الآثار الغارقة للإسكندرية القديمة، كما سيضاف إلى هذه المتاحف الجديدة، متحف للروائي العالمي نجيب محفوظ يجمع تراثه الروائي والشخصي، ويشهد تنوع المتاحف في مصر على تنوع حضاراتها وفنونها، وبينها المتحف المصري «الانتكخانة»، المتحف الإسلامي، المتحف القبطي، المتحف اليوناني الروماني، متحف النوبة بأسوان، متحف جزيرة فيلة، متحف الأقصر، وهناك أيضاً المتحف الحربي بالقاهرة ومتحف دنشواي ومتحف المركبات، ومتاحف الفنون الجميلة، ومنها متحف محمد محمود خليل ومتحف مختار ومتحف ناجي ومتحف الفنون الجميلة بالإسكندرية.

المؤلف وهو فنان تشكيلي سكندري يجول في عدد من هذه المتاحف شارحاً أساليب العرض فيها ومحتوياتها مثل المتحف المصري بالقاهرة والمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية، ومتحف الفن المصري الحديث وآثار مدينة رشيد، إلى جانب مجموعة أخرى من الدراسات ذات العلاقة بالمتاحف، ضمن سلسلة تراثنا المتحفي.

السلام ممكن

دانيال إبراهام

رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، ٢٠٠٧، ١٧٠ صفحة



قام المؤلف يرافقه عضو الكونجرس الأمريكي أوينز بأكثر من ٦٠ رحلة إلى الشرق الأوسط بين الأعوام ١٩٨٨ و٢٠٠٢، حيث قابل عدداً كبيراً من القادة العرب بينهم الرئيس حسني مبارك والرئيس السوري حافظ الأسد والملك عبدالله بن عبدالعزيز ملك السعودية وكان وقتها ولياً للعهد وملك الأردن الراحل حسين والملك الحالي عبدالله، والرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات والحالي محمود عباس «أبومازن» وغيرهم، وتكونت لديه قناعة مفادها أن السلام ممكن بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وقد سعى من جانبه إلى تدبير لقاءات من خلف الكواليس بين أطراف الصراع، العرب والإسرائيليين، حاثاً هؤلاء القادة على التركيز على ما يحتاجونه من السلام وليس فقط ما يريدونه.

وفي المقدمة التي كتبها أنطوان شلحت مدير مركز مدار، إشارة إلى الاختلاف مع كثير مما ذهب إليه المؤلف، لكن نشر الكتاب برغم أنه يحمل وجهة نظر خاصة للقاءات التي عقدها المؤلف مع الشخصيات العربية والإسرائيلية، يأتي بهدف تعريض القارئ العربي لمختلف القراءات عن الواقع الإسرائيلي، وهي هنا وجهة نظر واحد من الشخصيات الفاعلة في الجالية اليهودية الأمريكية، وهي جالية ذات تأثير مهم على السياسة الإسرائيلية وعلى سياسة الإدارة الأمريكية خصوصاً تجاه قضية النزاع العربي الإسرائيلي ونزاعات منطقة الشرق الأوسط على وجه العموم.

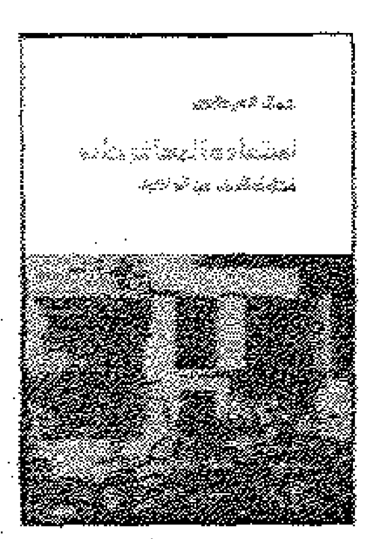
ويشير شلحت على وجه الخصوص إلى ما يبذله المؤلف في سبيل تقنين مواصفات السلام تحت شعار ما يحتاجه الفلسطينيون والعرب وليس ما يريدونه وكأنهما معنيان متصادمان، كما أن تصور إبراهام عن السلام الممكن لا يبعد كثيراً عن التصور التقليدي المستجد بعد اتفاق أوسلو، ويعني العودة إلى حدود ١٩٦٧ مع بعض التعديلات دون حق العودة، وتقسيم القدس حسب التعداد السكاني، فضلاً عن تأكيده على أهمية التفوق العسكري الإسرائيلي على الدول العربية جميعاً.

مع الوضع في الاعتبار هذه الملاحظات، يصبح بالإمكان قراءة كتاب إبراهام وحصيلة حواراته مع قادة عرب وإسرائيليين.

استعادة المسافرخانة

جمال الغيطاني

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١١٦ صفحة



في عام ١٩٨٨ احترقت المسافرخانة، تلك التي بناها محمود محرم شهبندر تجار القاهرة قبل قرنين تقريباً، وفيها ولد الخديو إسماعيل، وفيها عاش ومر عشرات، بل مئات من الناس الذين بقي بعضهم في الذاكرة فيما تلاشى آخرون، والتي يرتبط المؤلف معها بذكريات الطفولة الأولى، حيث كان يقيم في درب الطبلاوي وكان باب المسافرخانة مفتوحاً على الدرب من ناحية قصر الشوق.

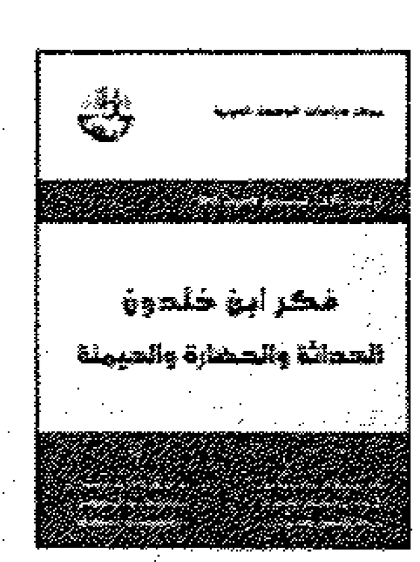
وحين احترقت المسافرخانة بيد الإهمال الآثمة، شعر المؤلف أن جزءاً عزيزاً من ذكرياته وذاكرة القاهرة القديمة قد احترق، ومن ثم، بدأ في استعادة المسافرخانة في رحلة صوفية ومعمارية وأدبية، هو لا يستعيدها فقط كبناء ومعمار مميز، وإنما أيضاً بشر ومهن وعلاقات شكلت طبيعتها الفريدة وسط القاهرة القديمة، لهذا يعمد الغيطاني الذي عرف بولعه بالتراث وبمصر العتيقة، وهو يحدثك عن السمات المعمارية والفنية للمبنى: ملقف الهواء في الأعلى، قاعة المجد، أكبر قاعات القصر، السقف بما احتواه من نقوش وزخارف، الأرضية بوصفها متمماً للسقف في الأعلى، القبة الخشبية وتواجهها النافورة في مركز الأرضية، الفتحات والنوافذ والمنمنمات، يعمد إلى أن يتداخل هذا كله مع صورة عم مصطفى نقاش النحاس في خان الخليلي الذي عاش

تسعين عاماً ينقش النحاس، وقصائد الشعر التى تزين الجدران والتى اختيرت بعناية بين درر الشعر العربى، وأصوات الباعة الذين عرفت لهم مواعيد محددة حسب نوع البضاعة التى يبيعونها، كل ذلك فى تناغم لا يعرف التنافر، هكذا تستدعيه الذاكرة التى تعيد ترتيب الأشياء وصياغتها فى علاقاتها المتشابكة كما تراها بعين البصيرة، لا كما هى فى الواقع.

وإضافة إلى ذلك، يقدم المؤلف بحثاً لطيفاً مبسطاً فى فنون العمارة والزخرفة الإسلامية، وتمايزاتها عن مثيلاتها الأوروبية، خصوصاً أن مرجعيتها هى القرآن الكريم وآياته، لذا يشير المؤلف إلى معنى أن تتواجد آيات القرآن الكريم فى العمارة الإسلامية عادة فى الأعلى، قرب السقف، حيث تتطلع العين إلى السمو، إلى السماء، إلى الخالق سبحانه وتعالى بالدعاء والرجاء، ثمة إشارة أيضاً إلى أبواب البنايات الإسلامية: دائماً فوقها ما يبعث الطمأنينة فى نفس الزائر، تطالعنا آية من القرآن الكريم: ادخلوها بسلام آمنين، أو دعاء: يا مفتح الأبواب افتح لنا خير باب. هذه سمة مميزة للعمارة الإسلامية «التى تتخذ من القرآن الكريم مثالاً ومرجعية أولى، ولذا فإنها تعتبر المدخل موازياً، مقتدياً بالبسملة التى تضفى سكينة وراحة على روح الإنسان»، كما أن الأبواب فى العمارة الإسلامية مزدوجة، ليست وظيفتها الصد والمنع، وإنما أيضاً الترحيب والطمأنة، فأنت تدخل من باب رئيسى يفضى بك إلى الداخل، ثم إلى اليسار حيث باب آخر يؤدى إلى فراغات القصر، وهكذا كان الوضع فى كل بيوت القاهرة القديمة، وكما يقول المؤلف، فإن الانتقال بين البابين يشبه تلك الوقفة الفاصلة بين البسملة وبدء تلاوة الآيات. هكذا حاول الغيطانى أن يستعيد المسافرخانة.

فكر ابن خلدون

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧، ١٤٢صفحة



لايزال بعض الموسوعات الفلسفية - العربية - «على قلتها» والغربية «على كثرتها» - يُغفل إفراد مادة لابن خلدون، وبعض هذا الإغفال يبرر بأن ابن خلدون هو بالدرجة الأولى عالم الاجتماع الأول أو مؤسس علم الاجتماع وبالدرجة الثانية مؤرخ للحضارة.

وعلى سبيل المثال فإنه عندما كتب الراحل الدكتور عبدالرحمن بدوى موسوعته للفلسفة - التى نشرها فى عام ١٩٨٤ - لم يجد حرجاً فى أن تصدر من دون مادة باسم ابن خلدون. لكنه لم يلبث - عندما أصدر ملحقاً لهذه الموسوعة فى عام ١٩٩٦ - أى بعد ١٢ عاماً - أن أفرد لابن خلدون تسع صفحات كاملة تساوى عدد الصفحات التى خص بها مادة «التصوف الإسلامى» فى هذا الملحق.

ابن خلدون عاد منذ سنوات يطل فى الموسوعات الفلسفية وفى كتب الفلسفة، ولم يكن ذلك لمجرد الاحتفاء به فى الذكرى الستمائة لوفاته (التى حانت فى عام ٢٠٠٦).

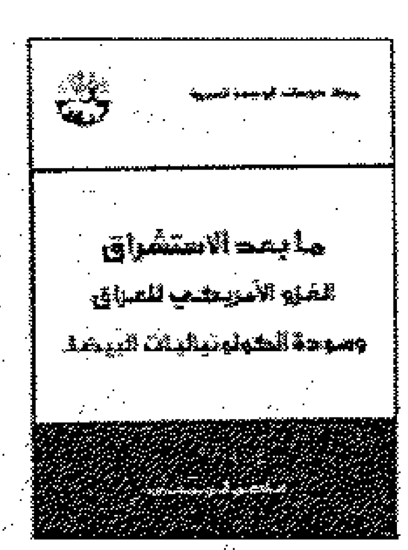
وكما يشهد هذا الكتاب فى هذه الطبعة من «سلسلة كتب المستقبل العربى»، فإن ابن خلدون يعود - ليس فقط من باب الفلسفة الذى أوصده بعضهم فى وجهه - إنما يعود أيضاً من باب المعاصرة.

نحن فى هذا الكتاب أمام ابن خلدون فيلسوفاً.. ومعاصراً. يطل كمشارك فى قضايا الفلسفة كأنه معاصر لنا. وهذه سمة المفكرين الذين يتجدد فكرهم، بل يولد من جديد كلما بدا أن غبار الزمن سينهال عليه ويدفنه. هو فيلسوف فى تناوله «العلمى» للتاريخ وفيلسوف فى تناوله «الديالكتيكى» للحضارة، حينما لم تكن أى من فلسفة التاريخ أو فلسفة الحضارة قد ولدت بعد بالمعنى المعاصر لأى منهما».

ما بعد الاستشراق

فاضل الربيعى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧، ٣٠٤صفحات



إذا كان «الاستشراق» الكلاسيكى يرتبط بصورة ما من الصور، ببزوغ عصر الاستعمار القديم فى الشرق، فإن (ما بعد الاستشراق) يرتبط، بصور متنوعة لا حصر لها، ببزوغ عصر استعمارى جديد تنبئ به سلسلة من الزلازل والمتغيرات، تكاد رجاتها الأولى تسمع فى كل أرجاء الوطن العربى والعالم الإسلامى.

لقد كشف غزو العراق.. المدى الذى بلغته «شرقنة» الشرق - أى الطريقة التى تم فيها تخيل الشرق وإنشاء صور خيالية عنه - تماماً، كما كشف عن القدر المفرط من القسوة والعنف حيال أى بلد يفكر مجرد تفكير بالدفاع عن استقلاله ومصالحه الوطنية. وفى الغالب الأعم، سوف يصبح العنف متلازماً مع نشر صور وحشية «للآخر».. بحيث يؤدى ذلك تلقائياً إلى معاملته كمتمرد، أو «مارق على إرادة المجتمع الدولى». وهذا هو الوضع الذى وجد العراق نفسه فيه طوال أكثر من عقدين من الزمن. ومع الغزو الأمريكى للعراق يكون الغرب بأسره، لا الولايات المتحدة وحدها وحسب، قد تعرف إلى الشرق القديم نفسه من جديد، ولكن هذه المرة بواسطة أدوات جديدة من العنف تخطت كل نتائج الكولونياليات القديمة وتقاليدها.

الوادى المقدس

محمد كامل حسين

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٧١صفحة



الكتاب الأشهر للدكتور محمد كامل حسين هو «قرية ظالمة»، وفيه تجسيد لحياة السيد المسيح عليه السلام وما لاقاه من أذى على أيدى اليهود الذين تعاملوا بغلظة وسخرية مع دعوته إلى التسامح والمحبة والتآخى بين الناس، لكن للرجل كتابات أخرى أقل شهرة وإن كانت على الدرجة نفسها من الأهمية بينها وحدة المعرفة، قوم لا يتطهرون، الذكر الحكيم، اللغة العربية المعاصرة، التحليل البيولوجى للتاريخ، والمؤلف الذى عاش فى الفترة من ١٩٠١ وحتى ١٩٧٧، كان طبيباً بارعاً، ويمكن اعتباره من رواد جراحة العظام فى مصر، ونال جائزة الدولة فى العلوم عام ١٩٦٧، وقبلها جائزة الدولة فى الآداب، فأصبح بذلك أول مصرى يجمع بين جائزتى الدولة فى الآداب والعلوم.

والفكرة الأساسية التى يطرحها المفكر الكبير فى هذا الكتاب هى أن أساس الدين سيكولوجى، أما أساس الأخلاق فهو فسيولوجى، وهو يتساءل قبل الولوج إلى شرح مفهومه لفكرة التطهر وأهميتها للإنسان: إذا كانت الأديان تنبع من أصل فطرى واحد، وإذا كانت غايتها واحدة ووسيلتها واحدة، وإذا كان الحق فيها كلها قائماً، ففيم اختلافها وتطاحن أهلها وتقاتل المؤمنين بها، ويجيب بأن الخلاف بين أهل الأديان فى حقيقته هو اختلاف فى التركيب السيكولوجى للناس، وتختلف مظاهر التدين باختلاف موقفنا من القوة العليا التى يهتدى بها المؤمنون بالغيب، أى تختلف باختلاف موقفنا من الله، الذى لا يكون إلا حباً أو خوفاً أو أملاً، وفى النفس المؤمنة شىء من هذه الأمور الثلاثة وإن اختلفت درجاتها.

وفى شرحه لفكرة التطهر التى تستحوذ على جل الكتاب يشير إلى أن كل مؤمن بالله سواء كان مسلماً أو مسيحياً أو حتى يتبع واحداً من المذاهب داخل الديانتين يتطهر بطريقته النابعة من طبيعته النفسية، والتى تجعله أقرب إلى أصحاب ديانة أخرى حتى دون أن يقصد، فبعض المسلمين أو المسيحيين هم «موسويون»، أى أنهم يميلون إلى التطهر وتطهير الناس من الذنوب بالقوة، كما كان نبى الله موسى يفعل، ويرون أن من واجبهم حمل الناس على العقيدة التى يرونها صحيحة ولو بالقتل أو بالتعذيب، كما كانت حالة الخوارج على سبيل المثال الذين يراهم المؤلف موسويين، يؤمنون بالعدل مهما كان فى تطبيقه من قسوة، ولو خالفوا فى ذلك روح الدين، وبين المسلمين «عيسويون» فى مزاجهم النفسى كالشيعة، الذين يشعرون أنهم بحاجة نفسية إلى شهيد يقدسونه، يعتقدون أنه مات فى سبيلهم، فيحبونه ويتعلقون بمن يحبونه.

على هذا النحو يدرس المؤلف تاريخ التطهر الإنسانى باعتباره وحدة متكاملة وكلاً متناسقاً مهما بدا من اختلافات بين أبناء الديانات، وهو يرى فى التطهر ما يعين الإنسان على حل مشاكل التوفيق بين حياته وضميره وعقيدته، وهى المشكلة الأزلية التى يعانيها الإنسان منذ ميلاده وحتى وفاته، وأثره فى نفس الإنسان كبير جداً، فهو برأيه قانون النفس البشرية الأكبر «لا تطمئن إذا أغفلته، ولا تستقر إذا حادت عنه، فهو أصل من أصول كيانها السليم».

الإمام المراغى

رجاء النقاش

القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٧ - ١٠٢ صفحة



يعيد هذا الكتاب الاعتبار لواحد من شيوخ الأزهر الكبار، والذى تولى مشيخة الأزهر الشريف مرتين، استمرت إحداهما نحو عشر سنوات فى عهد الملك فاروق، من ١٩٣٥ حتى وفاته فى ٢٢ أغسطس ١٩٤٥، فيما لم يمكث فى الثانية أكثر من أربعة عشر شهراً فى عهد الملك فؤاد، منذ سبتمبر ١٩٢٨.

ألصقت بالرجل تهم عديدة منها أنه كان عميلاً للإنجليز وكذا للملك فؤاد ومن بعده ابنه الملك فاروق، وأنه كان مهادناً داعياً إلى الاعتدال فى زمن استوجب التشدد دفاعاً عن استقلال الوطن.

أما اعتداله وميله إلى الوسطية والتدرج، فلا يرى فيه المؤلف ما يشين، بل يراه ميزة كبيرة مكّنته من تنفيذ مخططه فى تطوير الأزهر والارتقاء به.

ولم يكن المراغى يوماً عميلاً

إصدارات جديدة

للإنجليز، فهو الذي وقف مؤازرا لثورة المصريين في عام ١٩١٩ حين كان قاضيا للقضاة في السودان وجمع أكثر من ستة آلاف جنيه دعما للثوار أرسلها إلى مصر، وحين عنفه الحاكم الإنجليزي على هذا العمل واعتبره سلوكا معاديا رد عليه المراغي بكل قوة وبدوافع وطنية حقيقية.

وفيما يتعلق بالملك فؤاد فإن استقالة المراغي بعد ١٤ شهرا فقط من توليه مشيخة الأزهر في عهده جاء بعد رفض الملك مشروع المراغي لإصلاح الأزهر الشريف، أما فاروق فقد اصطدم به المراغي عدة مرات يورد بعضها المؤلف، بل إنه كثيرا ما ألمح إلى استهتاره وفساده وسعى إلى جذبه إلى طريق الصواب حتى يمكنه أن يواصل مشروعه في تطوير الأزهر، ويدلل المؤلف على صدق تحليله بقوله إن الملك فاروق لم يتبد فساده إلا بعد وفاة الشيخ المراغي في عام ١٩٤٥، فيما كان يتمتع بشعبية كبيرة حين كان المراغي إلى جانبه.

من طيوب الذاكرة

رياض نعسان أغا
القاهرة: المكتب المصري للمطبوعات، ٢٠٠٧، ٢٩٢صفحة

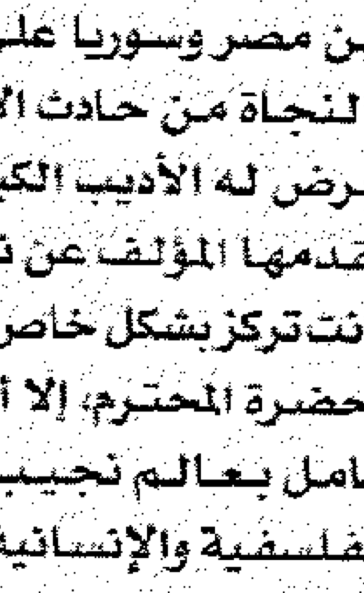


تقدم هذه المجموعة من المقالات والدراسات المبسطة نموذجا للكتابة الثقافية بامتياز، وهي ترتحل في بستان الفكر والأدب العربي شرقا وغربا، قديمه وحديثه، فهو يكتب مثلا عن السياسة في الشعر، متنقلا بين زهير بن أبي سلمى وبشار بن برد وأبو نواس والنابغة الذبياني وجرير والفرزدق وسواهم، كاشفا عن المغزى السياسي في قصائدهم وأبعاده، فالسياسة هي محور شعر زهير بن أبي سلمى، وهو أول من عُرف له شعر يستنكر الحروب استنادا إلى موقف إنساني عقلاني، داعيا إلى السلام، وكانت السياسة هي التي قتلت طرفة بن العبد، فقد أفاق على الدنيا فتى فإذا قرابته يستبيحون حقوقه، فسعى إلى نصرة على قومه جاءت عليه بالويل، وقد دس خصوم النابغة على شعره فأثاروا الملك عليه، وأوقعوا بينهما، واستمر الحال هكذا مع ظهور الإسلام، ومع الفتنة الكبرى، دخلت السياسة إلى القصيدة من كل باب، ولم تكن النقائض بين جرير والفرزدق برأي المؤلف، إلا نوع من الملهاة لصرف الناس عن شعر المواقف الذي طرحه الشريف الرضي والكميت وقطري بن الفجاءة وسواهم من كبار شعراء السياسة، حتى وصلنا إلى شاعر السياسة والحب نزار قباني كما يسميه المؤلف، فقد كان نزار الشاعر العربي الوحيد الذي تجرأ على الحديث بلسان المرأة، وهو الذي جعل من الحب قضية كبرى.. «حين أزاح الستار عن حقيقة المعاناة التي يئن منها المجتمع» حتى إذا قرأ الناس قصيدتيه الشهيرتين «خبز وحشيش وقمر» و«هوامش على دفتر النكسة» رأوا فيه شاعرا من طراز سياسي رفيع، يعبر بالقدرة ذاتها التي عبر بها عن أعماق المرأة، عن أحزان الأمة كلها.

بالكتاب دراسات مهمة أخرى عن شعراء آخرين مثل عمر أبو ريشة ومحمد مهدي الجواهري وتوفيق زياد وفدوى طوقان وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم والبارودي وسليمان العيسى وأدونيس وغيرهم، كما أن به دراسات عن الروائي السوري الأشهر حنا مينا وعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، وعن الدور المهم الذي لعبه قاسم أمين في قضية تحرير المرأة، ومقالا مهما عن المفكر الفلسطيني الراحل إدوارد سعيد، ودراسات أخرى عن ابن خلدون وابن النفيس وابن طفيل، ويحظى عميد الرواية العربية نجيب محفوظ باهتمام خاص من جانب المؤلف الذي يشغل الآن موقع وزير الثقافة في سوريا، فقد زاره ليقدم له تهنئة الرئيس حافظ الأسد عقب حصول محفوظ على نوبل في ١٩٨٨، وقتها كان المؤلف مستشارا سياسيا للرئيس الأسد ولم تكن العلاقة بين مصر وسوريا على ما يرام، ثم مهنئا بالنجاة من حادث الاغتيال الآثم الذي تعرض له الأديب الكبير، والدراسات التي يقدمها المؤلف عن نجيب محفوظ وإن كانت تركز بشكل خاص على روايتي الطريق وحضرة المحترم، إلا أنها تكشف عن وعي كامل بعالم نجيب محفوظ وروافده الفلسفية والإنسانية، وهو ما يتبدى في تحليله الدقيق لشخصية بطل رواية «الطريق» صابر، الباحث عن أبيه سيد الرحيمي، وهي الرواية التي جسدت بالرمز حالة التيه والضياع التي عاني منها المجتمع العربي كله، في مرحلة انعطافية من مسيرته.

صنعة لطافة

صافي ناز كاظم
القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٧، ٢١٨صفحة



هذا كتاب عن رائدات النهضة والعمل النسوي في مصر، لكنك لن تجد فيه مثلا هدى شعراوي، أو سيزا نبراوي، ولن تحتاج إلى جهد كبير حتى تعرف السبب، بعد سطور من قراءتك دراسة المؤلفة عن أم الجيل - كما تسميها - نبوية موسى، إذ زاملت نبوية موسى هدى شعراوي وسيزا نبراوي إلى مؤتمر النساء الدولي الذي عقد في روما ١٩٢٣م.. لكنها عند عودتها معهما لم تلق بزيها الإسلامي على الأرض ولم تدسه بقدميها كما فعلت هدى وسيزا، بل ظلت متمسكة به إلى لحظة وفاتها.

لكنك ستجد أسماء لرائدات في مجالات عديدة، مجهولات للعامة، ولا يحفل الإعلام بذكرهن، لأنهن بطبيعتهن آثرن العمل في صمت، برغم أن ما قدمنه من إنجازات في المجالات اللائي تخصصن بها يشير إلى جهودهن الجبارة.

كما أشرنا فإن نبوية موسى بنظر المؤلفة هي أم الجيل، الرائدة التربوية التي كانت لها بصمة واضحة في الدفاع عن حق المرأة في التعليم والعمل، كما أنها ترجمت كفاحها عمليا من خلال مدارس «بنات الأشراف» التي تخرجت فيها آلاف البنات ممن واصلن المسيرة.

ستجد أيضا دراسة عن جميلة صبري التي أسهمت بنصيب وافر في تأسيس جمعية ترقية الفتاة بالإسكندرية، كما أنها من خلال كتاباتها ومشاركاتها في العديد من الجمعيات الأهلية النسائية، لعبت دورا مهما في هذا الإطار.

دراسة أخرى عن الدكتورة معصومة كاظم، شقيقة المؤلفة، وهي واحدة من رائدات علم الرياضيات ومناهج تدريسها، وصاحبة إسهام رائع في هذا المجال.

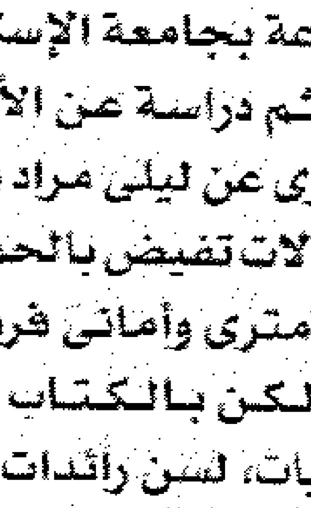
دراسة أخرى عن الدكتورة عفت بدر رائدة علم الوراثة، التي تخصصت في الهندسة الوراثية وحصلت على الدكتوراة فيها من أمريكا بعد أن تخرجت في كلية الزراعة بجامعة الإسكندرية.

ثم دراسة عن الأديبة زينب صادق وأخرى عن ليلى مراد وثالثة عن مي زيادة، ومقالات تفيض بالحميمية والامتنان عن وداد متري وأماني فريد وأليفة رفعت.

لكن بالكتاب دراسات عن نساء أخريات، لسن رائدات ولا زعيمات، لكنهن بعطائهن يستحققن أن تجمعهن الصفحات جنبا إلى جنب رائدات العمل الن[illegible]ائي، مثلا مقالة عن الشهيدة توحة و[illegible]احة شريفة فاضل وأولجا الخياطة لرشيد.

الاستبداد من الخلافة للرئاسة

محسن عبدالعزيز
القاهرة: الدار للطباعة والنشر، ٢٠٠٧، ٢٨٦صفحة



بدأت المسألة السياسية في التاريخ الإسلامي فور وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم في اجتماع سقيفة بني ساعدة، حيث تبدت بوضوح العصبية والتحزب للقبلية والجماعة، وهو ميراث جاهلي حذر منه القرآن الكريم بنص صريح «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» لكنها السياسة التي تدير الرءوس وتحجب الحقوق لحساب المصالح الصغيرة، وبعد سنوات قلائل من احتواء الفتنة التي كان يمكن أن تتفشى في اجتماع السقيفة بين المهاجرين والأنصار، كانت الفتنة الكبرى التي بدت بوادرها في خلافة عثمان بن عفان، والتي استمرت بعده في خلافة علي بن أبي طالب، والذي كان عليه أن يواجه الخوارج من ناحية وأطماع بني أمية من ناحية ثانية، فلما انتهى الأمر بانتصار معاوية بن أبي سفيان عقب واقعة التحكيم الشهيرة، آلت الأمور إلى بني أمته وتحولت الخلافة من شورى بين المسلمين إلى ملك عضوض يورثه الآباء للأبناء، ولم يعدم الخلفاء بين القضاة ورجال الدين والشعراء من يزين لهم سوء أعمالهم وانقضاضهم على الدولة واستحلالهم أموال المسلمين وحقهم في اختيار ولاتهم بتأويلات معوجة ومغرضة حصدوا مقابلها عطايا ومعيشة آمنة في كنف السلطان، وهو ما دفع الإمام الفقيه الحسن البصري إلى القول: أفسد هذه الأمة اثنان عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف، والمغيرة بن شعبة حين أشار على معاوية بالبيعة ليزيد، ولولا ذلك لكانت شورى إلى يوم القيامة.

يتابع المؤلف تاريخ الاستبداد في العصر الأموي، مشيرا بتفصيل واضح إلى رجالات عصور الاستبداد تلك من نوعية عبدالله بن مروان الذي أوصى ابنه الوليد بالحجاج بن يوسف الثقفي، وهو أشهر الطغاة - أو أدواتهم - في عمر الدولة الأموية، فقد قال عبدالملك لولده وهو على فراش الموت: أوصيك بالحجاج خيرا وإذا مت فشمر والبس جلد نمر وضع سيفك على عاتقك، ومن أبدى ذات نفسه لك اضرب عنقه ومن سكت مات بدائه.

لكن المؤلف مع ذلك يشير إلى فترات من الراحة والعدل - الراحة من الاستبداد - والمستبدين، مثلت استثناءات في التاريخ الإسلامي كله، مثل تلك السنوات التي حكم فيها الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز، والتي كانت بمثابة صفحات بيضاء في كتاب الاستبداد الأسود، فإذا المسلمون يبتلون بعده بيزيد بن عبدالملك ثم هشام بن عبدالملك ثم الوليد بن يزيد وغيرهم ممن يسميهم المؤلف خلفاء الجواري والشذوذ ليسلمونا إلى الدولة العباسية وخلفائها الذين يسميهم خلفاء الحضارة والاستبداد، ويستعرض المؤلف في هذا الإطار محنة المفكرين وأصحاب الرؤى المستقلة وما عانوه في ظل دولة الاستبداد، وصولا إلى الدولة الفاطمية، فالأيوبية، ثم دولة المماليك والعثمانيين، وأثناء سرده

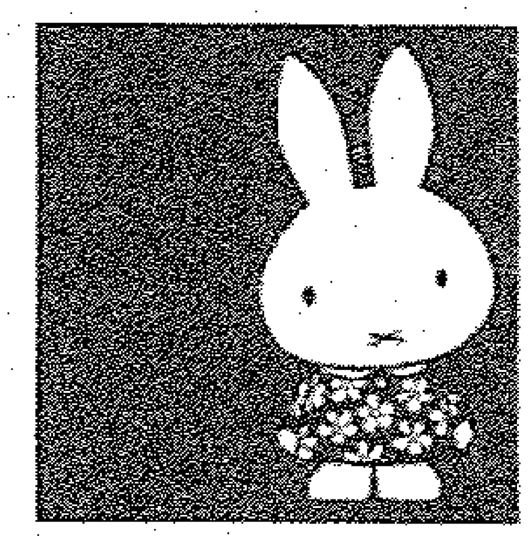
لهذه المسيرة، يلقى بإسقاطات على عصرنا الراهن، مشيراً إلى صور من فساد الاستبداد في السلطة والصحافة معاً.

■

سلسلة كتب ميفي المصورة

دك برونا

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧



هذه هي النسخة العربية من سلسلة كتب ميفي المصورة للأطفال في سن ما قبل المدرسة (من الثانية إلى السادسة)، للفنان العالمي دك برونا، والتي حققت نجاحاً غير مسبوق في مختلف دول العالم منذ بداية صدورها في عام ١٩٥٥م.

سلسلة قصص ميفي بطلتها أرنوبة بيضاء صغيرة تمر بمواقف وأحداث مختلفة تساعد الطفل على فهم العوالم والأحداث من حوله بطريقة بسيطة.

القصص مكتوبة بلغة عربية سلسة بها سجع خفيف تناسب الأطفال في سن ما قبل المدرسة أو حديثي تعلم القراءة، فهي تعتمد على كلمات سهلة ولا تستخدم علامات الترقيم؛ بالإضافة إلى كونها قصصاً مصورة ذات رسوم بسيطة وواضحة تجذب الأطفال وتساعدهم على التخيل.

والفنان الهولندي دك برونا الذي يبلغ من العمر ٨٠ عاماً، بدأ الرسم في عام ١٩٤٠ وحقق نجاحاً مع الأطفال والكبار حتى إنه أصبح يضاف إلى قائمة الفنانين الهولنديين العظام مثل رمبرانت، وموندريان، وفان جوخ.

قام برونا بإنتاج أكثر من مائة كتاب مصور وأكثر من ألفي غلاف لكتب أخرى، وهو الأب الروحي للعديد من شخصيات الأطفال.

كما حصد بأعماله العديد من الجوائز في هذا المجال، حيث تتميز أعماله بالخطوط الواضحة البسيطة التي تناسب كتب الأطفال المصورة.

في حين يتطلب العمر الذي تخاطبه سلسلة كتب ميفي مميزات خاصة في توعية الكتب التي تقدم له، فإن شخصية ميفي، بخطوطها الواضحة البسيطة وألوانها المميزة وشكلها المحبب، نجحت في أن تصبح نجمة في عالم كتب الأطفال حتى إنها مثلت ظاهرة فريدة في ارتباط الأطفال بها وحبهم لها، خاصة مع ندرة الكتب الموجهة إلى هذه المرحلة السنية.

سلسلة ميفي ترجمت إلى أكثر من ٤٠ لغة وباعت أكثر من ٨٥ مليون نسخة حول العالم. وقد أصدرت دار الشروق حتى الآن ست قصص جميلة من سلسلة ميفي وهي:

- ميفي في حديقة الحيوان.
- بيت ميفي.
- الطفل الجديد.
- عيد ميلاد ميفي.
- ميفي في المدرسة.
- ميفي تبكي.

ومن خلال الكلمات البسيطة والرسوم ذات الخطوط الواضحة والألوان المميزة يتعرف الطفل حديث التعلم على أشكال الحروف واستخدامات الجمل، فضلاً عن العلاقة التي تنشأ بينه وبين الأشياء، عبر ارتباطه بشخصية ميفي المحببة والأدوات التي تستخدمها.

نقرأ مثلاً: ميفي عندها مائدة صغيرة، وطبق صغير لها وحدها، وعندما تأكل إفطارها، تستعمل ميفي ملعقتها، وهذا أيضاً كوب ميفي، إنه كوب مفيد وعجيب، له يد في كل جانب، لتمسكه وهي تشرب الحليب.

■

دوريات

دبي الثقافية

دبي: الصدى للصحافة والنشر



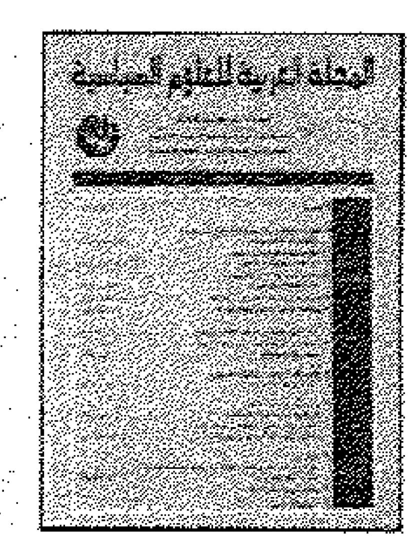
في البانوراما موضوعان، أحدهما عن مدينة إب اليمنية وهي مدينة تتميز بطابع جمالي خاص ويعود تاريخ إنشائها إلى ألفي عام والمدهش أن كثيرا من بناياتها ومناظرها الطبيعية بقيت على حالها برغم هذا التاريخ الطويل، الموضوع الثاني عن عاصمة جنوب أفريقيا «جوهانسبرج» والتي يطلق عليها أهلها عدة تسميات، فهي جوبيرج أو جوزي أو جي إتش بي، وهي المدينة الأفريقية الوحيدة المعترف بها دوليا كمدينة عالمية.

ويواصل الناقد رجاء النقاش في هذا العدد حديثه عن الأديب عادل كامل وثلاثيته الرائعة ملك من شعاع ومليم الأكبر وويك عنتر، وجميعها صدرت بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٢ وبعدها اتخذ عادل كامل الذي كان صديقا لنجيب محفوظ ومواكبا له في الإبداع، قرارا بالتوقف نهائيا عن الكتابة.

■

المجلة العربية للعلوم السياسية

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية



يتضمن العدد افتتاحية كتبها الدكتور علي الدين هلال، ومحورا حول السياسة الخارجية يشتمل على عدة مساهمات: مصادر القوة العربية والسياسة الخارجية الأمريكية لأحمد سليم البرصان، مقاربة أولية للاتجاهات المستقبلية في العلاقات العربية الأوروبية لمحمد صالح المسفر، محددات السياسة الخارجية الصينية تجاه منطقة الخليج العربي لمحمد بن هويدن، المساومة في السياسة الخارجية التركية لمحمود سالم السامرائي، العلاقات العراقية الألمانية وآفاق تطورها لخلود محمد خميس.

كما يتضمن دراستين: الأولى بعنوان الإسلام في دساتير دول مجلس التعاون الخليجي والثانية بعنوان العلاقة بين الدولة والمجتمع في البلاد العربية.

أما باب آراء فيكتب فيه محمد محمود الإمام تحت عنوان: أهم التطورات الإقليمية والعالمية والقطرية خلال العقود الثلاثة الماضية، وفي باب كتب مراجعتان: الأولى لرضوان زيادة حول كتاب «روايتان أمريكيتان مختلفتان عن المفاوضات العربية الإسرائيلية»، والثانية لوليد خالد أحمد حسن حول كتاب «إشكالية الشرعية في الأنظمة السياسية العربية» مع إشارة إلى تجربة الجزائر لخميس حزام والي.

■

أوراق إسرائيلية

رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية



هذا العدد هو ترجمة لنشرة صدرت عن مركز بيجن - السادات للدراسات الاستراتيجية تحت عنوان «إسرائيل في الفضاء - جوانب استراتيجية» في عام ٢٠٠٦، ضمت بين دفتيها المحاضرات التي ألقيت خلال يوم دراسي تحت هذا العنوان، وقد شكل هذا اليوم محاولة غير مسبوقة لتسليط الضوء على أنشطة الفضاء الإسرائيلية.

وقد ركز بعض المحاضرين على البعد المعنوي لأنشطة إسرائيل في الفضاء، والمقصود هو البعد الذي يؤطر الدول التي لديها أنشطة متشعبة في الفضاء في عداد الدول المتقدمة، لكن يبقى الأهم هو ما لهذه الأنشطة من أبعاد عسكرية واستراتيجية، مع مراعاة أن الخوض في هذه الأبعاد تحده قيود أمنية صارمة.

■

المحيط الثقافي

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة

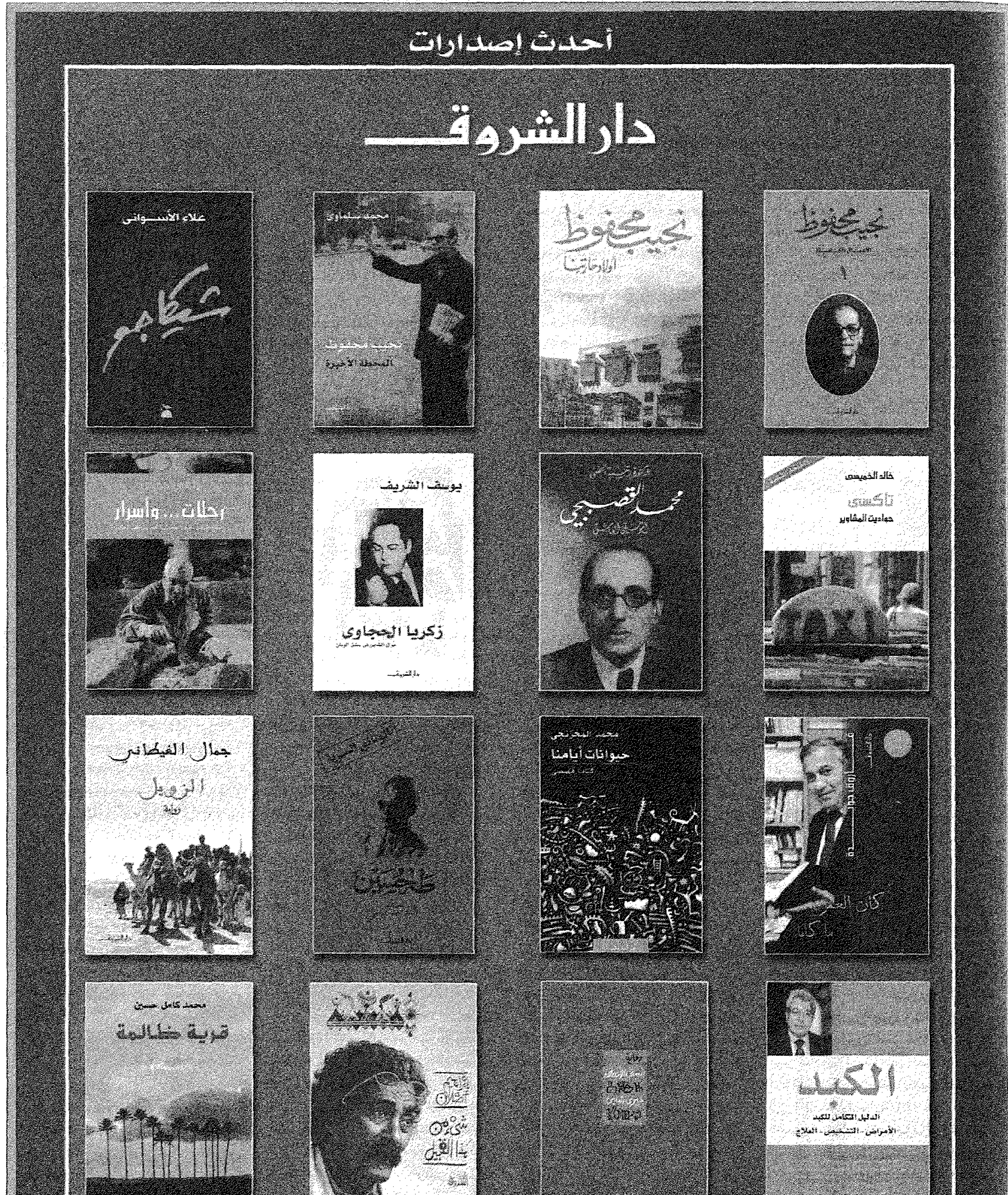


يتضمن العدد حوارا مطولا مع الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة السابق الدكتور جابر عصفور، يجيب فيه على أسئلة عديدة عن الإرهاب والتطرف والإسلام السياسي وإشكاليات النقد العربي المعاصر وأكثر الشخصيات التي أثرت في تكوينه الفكري والأدبي.

أما ملف العدد فهو عن الاستراتيجية الأمريكية الجديدة والتي جاءت تحت عنوان «إعادة التوجه».

بالعدد أيضا دراسة عن بنات الليل في السينما المصرية.

في باب المتابعات قراءات نقدية لرواية جميل عطية إبراهيم الأخيرة «شهرزاد على بحيرة جنيف»، وقراءة جديدة لأدب إحسان عبد القدوس يقدمها نبيل فرج، إضافة إلى إبداعات شعرية وقصصية.



أحدث إصدارات
دار الشروق
علاء الأسواني
شيكاجو
نجيب محفوظ
أولاد حارتنا
يوسف الشريف
زكريا الحجاوي
محمد القصبجي
خالد الخميسي
تاكسي
حواديت المشاوير
رحلات... وأسرار
جمال الغيطاني
الزويل
رواية
حيوانات أيامنا
محمد كامل حسين
قرية ظالمة
الكبد
الدليل المتكامل للكبد
الأمراض - التشخيص - العلاج
القاهرة: ١ ميدان طلعت حرب - وسط البلد ت: ٣٩٣٠٦٤٣ - ٣٩١٢٤٨٠
مدينة نصر: ٨ سيبويه المصرى - رابعة العدوية ت: ٤٠٢٣٣٩٩
الجيزة: مبنى فرست مول - ٣٥ شارع الجيزة أمام حديقة الحيوان ت: ٥٧٣٥٠٣٥ - ٥٦٨٥١٨٧
www.shorouk.com e-mail: bookstores@shorouk.com

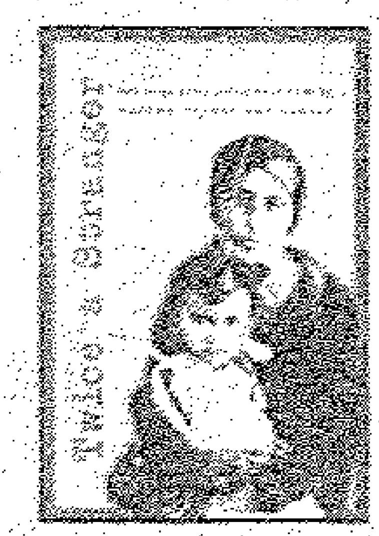
الاصدارات المختارة فى هذا العدد من القائمة التى يعدها كتاب دورية Foriegn Affairs شهريا والاختيارات من شهور فبراير ومارس وأبريل ٢٠٠٧

Twice a Stranger: The Mass Expulsion that Forged Modern Greece and Turkey

(غريب مرتين: النفى الجماعى الذى شكل اليونان وتركيا الحديثتين)

Druce Clark

Harvard University Press: $29.95, 304pp., 2006



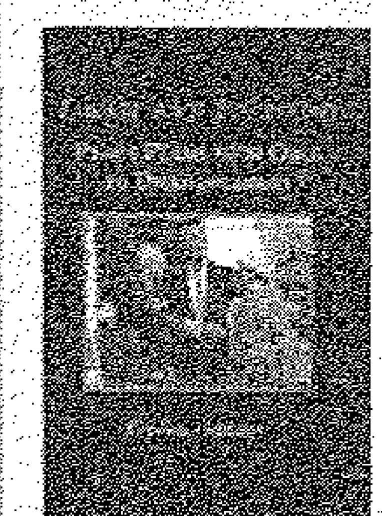
مرت جميع الدول تقريبا بتغير كبير فى حدودها فى بدايات القرن وخاصة بعد كل من الحربيين العالميتين. إلا أن هذه التغيرات كان لها تأثير أكثر درامية فى دول البلقان والمنطقة المحيطة بهم بسبب تعدد الأعراق واختلاطهم. عام ١٩٢٣ تحديدا انتهت حرب شديدة الدموية بين تركيا واليونان وعقد فى نهايتها اتفاق لتبادل السكان، حيث ينتقل أكثر من مليون مسيحى أرثوذكسى تركى إلى اليونان وينتقل حوالى نصف مليون يونانى مسلم إلى تركيا. يجمع الكاتب شهادات شفوية ممن بقى على قيد الحياة من هؤلاء المهاجرين كما يستعين بوثائق وأعمال مؤرخين من تلك البلدان كما يستخدم مواد أرشيفية تم الكشف عنها مؤخرا. وعبر تلك المصادر يروى الكاتب وجهة النظر الدبلوماسية والإنسانية فى تلك القصة. ويفسر هذا التاريخ الصلة المبهمة بين اليونان وتركيا حيث إن من المعروف أن العلاقة بين البلدين غير ودية بالمرة وإن كانت تمتلئ بالمشتركات والصلات الثقافية والمعنوية غير المفهومة لمن هم من خارج نطاق المنطقة. مع محاولات تركيا الانضمام إلى الاتحاد الأوروبى ومع العلاقة الخلافية بين الإسلام والغرب فى الوقت الحالى يأتى هذا الكتاب ليكشف جزءا من خلفيات الوضع لا يأتى ذكره كثيرا.

Israel and Palestine: Peace Plans and Proposals from Oslo to Disengagment

(إسرائيل وفلسطين: خطط وعروض السلام من أوسلو إلى فض الاشتباك)

Galia Golan

Markus Wiener Publishers: $29.95, 208pp., 2006



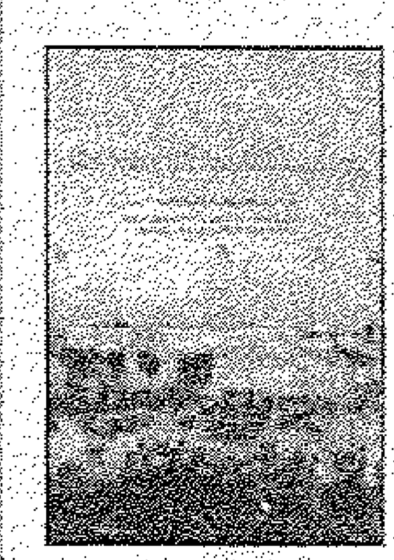
مع كل التطورات فى الشرق الأوسط تبقى القضية الفلسطينية هى القضية المحورية فى المنطقة. وبعد مرور ١٤ عاما على اتفاقيات أوسلو التى تم توقيعها بين الإسرائيليين والفلسطينيين عام ١٩٩٣ أصبح العدد الكبير من الخطط والخطط البديلة والاتفاقيات الفرعية التى تهدف إلى الوصول إلى حل لتلك القضية متشعبة بحيث كان لابد من كتاب واحد يجمعها معا كى يتمكن الفرد من دراستها بشكل كامل. يتوقف الكتاب عند الانسحاب الإسرائيلى من غزة ويدرس إمكانية تحقق سلام فى ظل الأحداث الممتدة عبر تلك المرحلة. وتحلل الكاتبة الشئون المهمة والحساسة عبر تلك الفترة مثل قضية اللاجئين منذ العام ١٩٤٨ فى ظل التطورات السياسية عبر المراحل المذكورة فى الكتاب ومنها صعود شارون والانتفاضة الفلسطينية. وترى الكاتبة، وهى إسرائيلية، إن الجانب المشرق فى تلك المحادثات كان إرساء حدود العام ١٩٦٧ كأساس للمفاوضات وإن كانت تتحدث عن خلل خطير فى ميزان القوى بين الطرفين الأساسيين وحالة شديدة من انعدام الثقة بينهما. كما أنها ترى أن من أهم المعوقات لتلك العملية هى الاحتلال الإسرائيلى نفسه وما تسميه الإرهاب الفلسطينى. يتضمن الكتاب خرائط مهمة وملاحق تحوى النصوص الكاملة لاتفاقيات مختلفة.

Reviving the Invisible Hand: The Case for Classical Liberalisim in the Twenty First Century

(إحياء اليد الخفية: دفاعا عن الليبرالية الكلاسيكية فى القرن الواحد والعشرين)

Deepak Lal

Princeton University Press: $18.95, 334pp., 2006



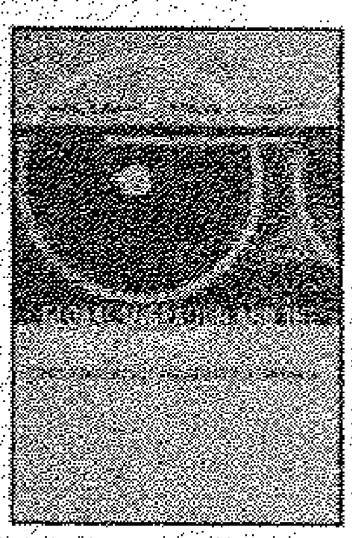
يعتبر هذا الكتاب دعوة للعودة إلى الليبرالية الكلاسيكية بعيدا عن أى تدخل من الحكومات أو المنظمات الدولية. يرى الكاتب أن هناك يدا خفية لحركة التجارة بمقدورها وحدها أن تنظم حركة التجارة وتعيد نوعا من النظام المتوازن للعالم. ويتطرق الكاتب فى رؤيته إلى أن المحاولات الحكومية لتنظيم الأسواق تمنع التقدم الاقتصادى وتهدد الاستقرار. ولا يكتفى الكاتب بالدفاع عن العولمة ولكنه يقدم ما يراه حلولا وأجوبة على مخاوف الحركات المناهضة للعولمة الاقتصادية. فهو يلجأ إلى منهج متعدد المجالات ويرى من خلاله أن هناك نوعين من مناهضى العولمة. النوع الأول هو المدافعون عن الوطنية الثقافية وهم لا يعارضون الرأسمالية وإنما التغريب والنوع الثانى على النقيض لا يعارض الغرب ولكنه يعارض الرأسمالية. وهو يقول إن الرأسمالية لا تعنى بالضرورة التشبه بالغرب ويرى أن اليابان والصين والهند أدلة على رأيه. أما عن النوع الثانى فهو يرى أنهم أكثر معارضة لتحلل القيم فى مجتمعاتهم عن معارضتهم الحقيقية للأدوات الرأسمالية. ويتبنى الكاتب موقفا شديد التطرف حيث لا يكتفى بالمطالبة بإلغاء المنظمات الدولية ولكنه أيضا يبدى تأييده لعمالة الأطفال فى بلدان العالم الثالث.

Global Migration and the World Economy: Two Centuries of Policy and Performance

(الهجرة العالمية والاقتصاد الدولى: قرنان من السياسات والأداءات)

Timothy J. Hatton & Jeffery G. Williamson

The MIT Press: $50.00, 448pp., 2006



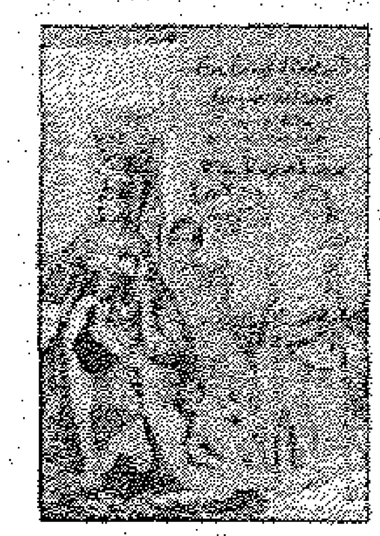
يشترك فى هذا العمل كاتبان متخصصان فى الاقتصاد والتاريخ مما يمنحه نظرة شاملة لموضوعه وهو الهجرة فى القرنين الماضيين. وقد بدأت الهجرة على نطاق واسع فى القرن التاسع عشر مع تطور وسائل المواصلات وزيادة التطور الصناعى اللذين سمحا مجتمعين للأفراد بالسفر إلى بلاد بعيدة بحثا عن حياة أفضل. ويرى الكاتبان أنه فى الوقت الحالى لا توجد قرية فى أى مكان من آسيا أو أفريقيا أو أمريكا اللاتينية لم تصل إليها منظمة التنمية والتعاون الاقتصادى. يركز الكاتبان على مرحلتين مهمتين فى تاريخ الهجرات عموما وهما الفترة ما بين عام ١٨٢٠ وحتى بداية الحرب العالمية الأولى والفترة الثانية أتت فى الخمسينيات من القرن العشرين. فيما بين هاتين الفترتين أتت الحربان العالميتان وفترة الركود الكبيرة التى أتت فى المنتصف، كما أن تلك الفترة شهدت تحديدا لأعداد المهاجرين التى من الممكن استقبالها. والكتاب يتبنى وجهة نظر غربية بشكل واضح فهناك تجاهل لأكبر موجة هجرة قسرية عبر التاريخ وهى التى تزامنت مع تجارة العبيد ثبتت عدد سكان أفريقيا لعقود طويلة بشكل متناقض مع الطبيعة. يركز الكتاب فى ثلثه الأخير على أنماط الهجرة الحالية ويناقش كيفية استفادة واضعى السياسات من الدراسة المتأنية للمسألة من وجهة النظر التاريخية.

Ends of British Imperialism: The Scramble for Empire, Suez and Decolonization

(غايات الامبريالية البريطانية، الصراع من أجل الإمبراطورية والسويس والتحرر)

Wm Roger Louis

I.B. Tauris: $25.00, 1082pp., 2007



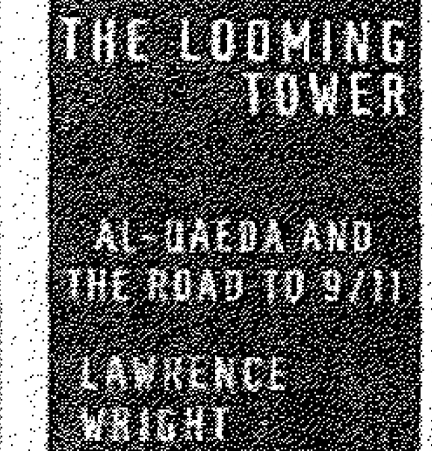
تعقد منذ فترة العديد من المقارنات بين الإمبراطورية البريطانية فى أواخر أيامها وبين والوضع الحالى للولايات المتحدة الأمريكية. لذا كان من الطبيعى أن يظهر على هذه القائمة كتاب عن تاريخ الإمبراطورية البريطانية. يتابع الكاتب تاريخ التوسع الإمبريالى البريطانى منذ قمته فى نهاية القرن التاسع عشر إلى التوسعات فى القارة الأفريقية إلى التاريخ الصاخب إبان الحرب العالمية الثانية فى جنوب شرق آسيا ثم الانهيار مع بداية حركات التحرر الوطنى والتى بلغت قمتها فى حرب العام ١٩٥٦ التى كانت الهزيمة السياسية لبريطانيا فيها هى العلامة التى يتم التأريخ فيها لنهاية الإمبراطورية البريطانية. ولا يكتفى الكتاب بسرد هذا التاريخ ولكنه يفحص القرارات والسياسات التى أدت إلى النهوض بالإمبراطورية ثم أفولها. هو بحث تاريخى مهم ولكنه لا يخلو من متعة فى القراءة.

The Looming Tower: Al Qaeda and the Road to 9/11

(الأبراج المشيدة: القاعدة والطريق إلى ١١ سبتمبر)

Lawrence Wright

Knopf: $27.95, 480pp., 2006



يرى مؤلف هذا الكتاب أن الحركات الإسلامية المسلحة، برغم عمليات العنف والاغتيال التى قامت بها منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية إلا أنها لم تستطع أن تفرض نظام حكم إسلامى على أى دولة فى المنطقة. ومع أن العديد من الإسلاميين قد دافعوا عن أفغانستان ضد الغزو السوفيتى عام ١٩٧٩ إلا أنهم عادوا فيما بعد لبلادهم ليصعدوا عملياتهم ضد الحكومات المحلية. أما القاعدة وهو التنظيم الذى أنشأه أسامة بن لادن فى أفغانستان عام ١٩٨٨ فقد سلك منهجا مختلفا بإلقائه اللوم على الولايات المتحدة فيما يخص مشاكل العالم الإسلامى. ويرى المؤلف أن أسامة بن لادن أقل ثراء مما يتصور أغلب الناس وإن مهاراته الحقيقية تكمن فى قدراته التنظيمية وموهبته فى العلاقات العامة. وبعد عشر سنوات على إنشاء التنظيم قام بن لادن بتفجير سفارات للولايات المتحدة فى أفريقيا كما قام بتفجير المدمرة كول. مفتتحا بذلك الأبواب التى تدفق منها المتطوعون والأموال. ولكنه يرى أن الإرهاب الذى يرجع مسئوليته لبن لادن عمل غير متقن وأنه قد ترك العديد من الأدلة التى أثارت شكوك وكالة الاستخبارات المركزية والمباحث الفدرالية ووكالة الأمن القومى. ويرى الكاتب أن حادثة ١١ سبتمبر كان من الممكن تفاديها فى حالة تعاون جميع تلك الهيئات.

The Shia Revival: How Conflict Within Islam will Shape the future

(الصحوة الشيعية: كيف سيشكل الصراع داخل الإسلام المستقبل)

Vali Nasr

W.W. Norton: $14.95, 240pp., 2007



مع الحرب فى العراق والنجاحات التى حققتها المقاومة اللبنانية والتهديدات الموجهة ضد إيران صعد إلى السطح الخلاف الدائم فى الشرق الأوسط بين السنة والشيعة. وتنتشر آراء مدعومة بالكثير من الأدلة أن هذا الصعود الجديد لصراع شديد القدم تحركه القوى الإمبريالية الجديدة فى المنطقة وخاصة الولايات المتحدة لتسهيل سيطرتها على المقدرات والأوضاع. هذا الكتاب يتوجه للقارئ الأجنبى الذى لا يتعرض للكثير من الأخبار والإيضاح حول هذا الشقاق وتحديدا كما يتجسد فى العراق.

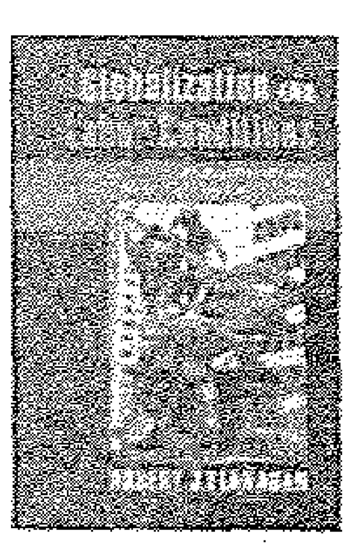
ويبدأ الكتاب بدراسة تاريخية حول ظهور المذهب الشيعى والسياسات المرتبطة به على الصعيدين السياسى والفقهى وموقعه من الأغلبية السنية. ويرى الكاتب أن الهلال الشيعى الذى يبدأ فى لبنان وسوريا مرورا بالخليج والعراق وإيران والذى ينتهى فى باكستان والهند أكتسب قوة جديدة بعد سقوط صدام حسين، حيث إن الروابط التى تتخطى عوامل اللغة والسياسة تزداد متانة مما يبدو أنه سيساهم فى رسم خريطة جديدة للشرق الأوسط.

Globalization and Labour Conditions

(العولمة وأحوال العمال)

Robert J. Flanagan

Oxford University Press: $28.95, 304pp., 2006



توجد ثلاثة مكونات أساسية للعولمة الاقتصادية وتتمثل فى الشركات متعددة الجنسيات والتجارة الدولية وهجرة العمالة.

ومن المؤكد أن لتلك العوامل الثلاثة تأثيرا أساسيا على أشكال وظروف وطبيعة الطبقات العاملة فى البلدان المختلفة. ولا يقتصر تأثير تلك العوامل على الطبقات العاملة من حيث فرص العمل فقط وإنما يصل التأثير إلى حقوق العمال وظروف العمل عبر القرن العشرين.

ولا يكتفى الكاتب بتحليل الظواهر التاريخية بشكل مجرد بل يجمع فى الكتاب العديد من الجداول التى توضح وجهة نظره بالأرقام والإحصائيات.

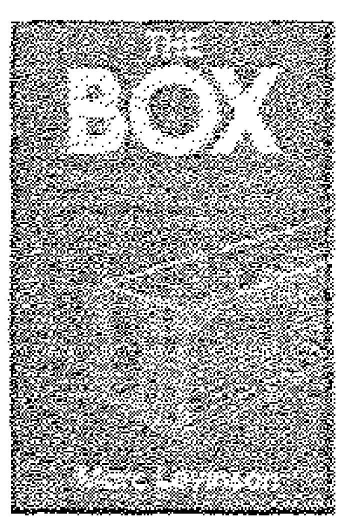
ويتناقش الكاتب مع العديد من الآراء التى ترى أن أحوال الطبقات العاملة فى تدهور منذ انتشار العولمة الرأسمالية وإن كان يرى أن العوامل الثلاثة التى يبنى تحليله على أساسها قد ساهمت فى تحسين ظروف العمال وازدياد حقوقهم.

The Box: How the Shipping Container Made the World Smaller and the World Economy Bigger

(الصندوق: كيف جعلت حاويات الشحن العالم أصغر والاقتصاد العالمى أكبر)

Marc Levinsion

Pinceton Press: $24.95, 390pp., 2006



مع تطور وسائل النقل وبالذات السفن نشطت جدا حركة التجارة فى الصادرات والواردات ومعها ظهرت الحاويات.

ويتساءل الكاتب نفسه، ما الذى يستدعى كتابة كتاب كامل عن الحاويات، ويجيب الكاتب إن الحاوية فى حد ذاتها ليست هى المهمة ويقول ساخرا إنها تملك نفس جاذبية العلبة المصنوعة من الصفيح.

ولكن الكاتب لا يتعامل مع الحاويات على أنها وسائل لنقل البضائع أو تعليبها ولكن على أنها تطور تاريخى له وقعه على العمال والمستهلكين فى جميع أنحاء العالم. يتتبع الكتاب الموانئ القديمة والتى أغلقت حتى يصل إلى آسيا التى أصبحت المصدر الأساسى للبضائع الرخيصة والتى يتم شحنها منطقيا فى حاويات شديدة الضخامة.

وينقسم الكتاب إلى فصول حسب الموضوع مما يسهل البحث عن نقاط محددة كما أن لغته ليست جافة كما هو متوقع من الكتب الأكاديمية ولكنه يناقش تطورات الاقتصاد من زاوية جديدة إلى حد كبير.

رسائل

من قارئ إلى مجلته

■■ بداية.. أنا لست بكاتب ولا يحزنون... أنا والحمد لله قارئ فقط...

قبل الخوض فى مسألة العدد المائة من العزيزة وجهات نظر... اسمحوا لى بأن أقدم تهانى إلى القراء الذين كان من حظهم - والحظوظ نادرة فى هذا الزمان - أن يكونوا من بين من عرفوا هذه المجلة «المختلفة» التى عرفت طريقها إلى هذا القارئ «المختلف» بدوره، كما يقول شعارها «الحاسم».

...

وبعدها...

نشد على الأيدى الصديقة من رواد القلم فى «الثقافة... والسياسة... والفكر».. ثم لكل أولئك الذين يقفون بالفكر والجهود وراء إخراج العدد الشهرى من الحبيبة «وجهات نظر». وصولاً بها إلى بلاد بعيدة حيث نحن والآخرون من العشاق فى انتظارها. رغم تطفيف مسئولى الاشتراكات والتوزيع، الذين يبطئ بهم الشعور بالزمن والوقت فتأتينا تمشى الهوينا، وما قرأوا قول المتنبى قبل عصر «الإنترنت» بقرون:

قواف إذا سرن عن مقولى
قفزن الجبالا وخضن البحارا

نعم سادتى...

فما بين المجلة والقارئ علاقات وشيجة، وصلات قوية. ينميها نوع من الحوار المتصل فيما يمكن أن يوصف: حقوقكم علينا وواجباتنا نحوكم.. أو العكس. ليس بالمعنى القانونى والحرفى، وإنما بالمعنى الروحى وأصوليات قواعد الالتزام: من عيار الأخذ دون تبعية.. والعطاء دون إملاء. باختصار كالعنصر المشع... وكفى.

وهاك مثال...

«عندما لا تنشر جريدة الإندبندنت مقالاً للكاتب الإنجليزى الفذ روبرت فيسك «Robert Fisk» فى إحدى طبعاتها التى توزع فى الـ «وست إند»، ثم نتبين أنه ظهر فى طبعة أخرى. نجرى اتصالاً هاتفياً احتجاجياً بإدارة التحرير: «لماذا هناك وليس هنا؟؟»... لتأتينا الإجابة بالاعتذار، والاستجابة فوراً بإرسال المقال إلكترونياً... ومن ثم من العدد الكامل (النسخة المطبوعة) صباح اليوم التالى!!

هكذا... العلاقة ما بين القارئ والناشر تتم بها عمليات «التناغم والانسجام».

وعليه... بهذا المفهوم المشترك... اسمحوا لنا أن نقدم وجهة نظرنا... فى «وجهات نظركم» على جزءين:

الأول: وقفات عند المائة الأولى



العدد 1



العدد 100

وقفات عند مائة.. فائتة ونظرات إلى مائة.. قادمة

والثانى: نظرات إلى المائة الثانية نأمل من الثانية أن تكون صدى عميقا... ورنينا للأولى.

وجهة نظرنا فى المائة الفائتة...

أولاً... هل يمكن تقليل حجم المجلة قليلاً إلى أصغر، كالتى كانت عليها مجلة «الفكر المعاصر» التى كانت تصدر من القاهرة فى ستينيات القرن الماضى؟؟ تيسيراً لسهولة الإمساك بأطرافها.. ثم أرشفتها قائمة، وليست نائمة كما يحدث الآن بالحجم الحالى. حتى يمكن الرجوع للأعداد السابقة فى وقت أقصر؟؟؟

نرجو أن يكون ذلك محل دراسة بانعكاساته على تكلفة الورق والطباعة والمسائل المتعلقة بالنواحى الفنية. ولكم فى الدوريات العالمية الشبيه سوابق.. ومرجعيات.. ومقارنات.

ثانياً... عمود «كتاب العدد» الموجود على الصفحة الثالثة من كل عدد: هم أنفسهم المذكورون تحت خانة «محتويات العدد». فلماذا لا ينقل الكتّاب كل على حدة تحت مقاله المنشور، مع كتابة نبذة قصيرة عن من هو؟؟... مثلاً خيرى منصور فى عدد مارس: «كاتب عربى»... هل من الممكن أن يذهب خيرى إلى آخر سطور مقاله بصفحة ٩ من العدد، مع إضافة سطرين أو ثلاثة نبذة عن حياته الفكرية... ألا يكون ذلك أفضل وأعم فائدة للقارئ؟؟

هكذا تفعل الكثير من المجلات العالمية والتى غالباً ما تضيف حتى عنوان بريده الإلكترونى للتعليق المباشر معه من غير سدود ولا حدود ولا «فلاتر». فإذا ما خلت الصفحة الثالثة بهذا الانتقال والتعديل. تكون الخانة الفاضية أولى ببيان ضاف عن موقع «وجهات نظر» الإلكترونى على «الإنترنت» الذى نتوقع منه أن يكون على شكل يليق بـ «وجهات نظر». ولا يقل بحال عن مواقع الإنترنت الخاصة بالصحف والمجلات المحترمة المشابهة.

ثالثاً... القارئ يحتاج إلى التعرف على تعبيرات إنجليزية، دخلت بالطول والعرض عالم السياسة. مثل "Spinning, Cynical, Rendition & Philanthropy etc" فهل من عمود صغير يقوم على «تعريب» ولو كلمة بكل عدد.. تضاف فيها إلى لغتنا الجميلة بعض تعابير السحرة والساحر.

ما هى نظراتنا إلى مائة قادمة..

وسط حالة اليأس.. الدفاع والاعتذار.. تقطع الأطراف وتمزق الأوصال.. حيث يهلك حرثنا ونسلنا.. وينشر على أرضنا القتل والفساد والتدمير.. أثارت المائة الأولى.. الآمال العراض فى الإصلاح والتطوير وأن النصر حتماً قريب.

جاءتنا المائة الأولى بصفحاتها الـ «اثنتين وثمانين» من كل عدد من «وجهات نظر» بالآمال والفجر الجديد.. بالمعرفة والاستنارة وتوسيع المدارك. جذباً للاهتمام وتفجيراً للطاقات واستنهاضاً للهمم. وأنه ومهما طال ليل الحصار، فلا بد أن تلد هذه الأمة «زهير بن أبى أمية المخزومى». نعم زهيرا آخر ليمزق صحيفة مقاطعة (مثلاً فلسطين) كما مزق «زهير» بالأمس الأول صحيفة بنى هاشم رافعاً صوته: «يا أهل مكة.. أنأكل الطعام ونلبس الثياب.. وبنو هاشم هلكى.. لا يباع ولا يبتاع منهم؟؟؟... إلى آخر القصة...» فمصير كل «عمرو بن هشام» فى التاريخ واحد...

سأختار نماذج من كتّاب وكتابات المئوية الأولى، أثارت قضايا استراتيجية كبيرة فى «السياسة.. والثقافة.. والفكر».. فما هى آفاق انعكاساتها على المئوية القادمة... وهل لها آثار مستقبلية على عملية الإصلاح «Reform»... والتطوير «Development».

هل المئوية الأولى مدخل بعمق للمئوية الثانية؟؟ وما هو صداها وقوة دفعها إلى عالم العدل والحق والجمال؟؟؟

هاكم منصات انطلاق لرؤى مستقبلية:

١. «تحصيل وتحصين أسباب الأمن والقوة على تنوع مجالاتها»: هيكل... فبراير ٢٠٠٣م

٢. «بعدما فقدت الجيوش التقليدية قيمتها... يصبح ضرورياً إعداد النفس لمواجهة من نوع آخر»: يحيى الرخاوى... يوليو ٢٠٠٣م.

٣. «من يملك خبزه يواجه الكثير من المشاكل... أما من لا يملكه فلن تكون أمامه سوى مشكلة واحدة»: أحمد مستجير... مارس ٢٠٠٤م.

٤ ـ «قراءة: أوراق اللعب»: أيمن الصياد... مايو ٢٠٠٤م

٥. «الحركة فى المكان» أيمن الصياد... سبتمبر ٢٠٠٥م

٦. «أدى ظهور شبكة المعلومات العالمية «الإنترنت» إلى حدوث ثورة فى مفهوم الزمان والمكان»: معتز خورشيد... يوليو ٢٠٠٦م

٧. «سقوط أقنعة الزيف والخديعة والادعاء»: سلامة أحمد سلامة... سبتمبر ٢٠٠٦م

هل ستلقى المئوية القادمة... المزيد من الضوء والأضواء؟؟؟... لماذا... وكيف...

نحن...

. فى حالة انكماش؟

. حالة دفاع؟؟

. حالة اعتذار؟؟؟

هذا هو العدد «المائة» من «وجهات نظر».

وهذه رسالة أو بالأحرى «وجهة نظر» لقارئ كريم، فيها تاريخ وتأريخ.. وآمال وأمنيات.. وتوقعات هي حق لكل قارئ عند مطبوعته. فيها - للمناسبة - تحية تقدير تفرض بالضرورة - في المقابل - عرفاناً واحساساً واجباً بالمسئولية.

المحـــرر

باختصار: حالة تخبط "State of Confusion". ثم كيف الخروج من القبلية السياسية والفكرية.. والتشرذم في الدين والأخلاق.. لا نقرأ المفكر الصيني "Sun Tsu" ولا نفهم «كلاوز فيتز». ولا نتعلم مجاناً من التاريخ القريب في تجربة حياة شاهد عصره (الأستاذ هيكل).. عجزنا عن كشف هؤلاء الأشباح الذين يقودوننا من وراء الكواليس. حجيجاً إلى من «نال من بوش نظرة ساعة، نال السرور ونال كل مرام»... فهل كان هيكل على شاشة الجزيرة دورياً يؤذن بالخطة ألفا في مالطا؟؟؟

هل تأتينا المئوية الثانية بشيء من:

التربية والتعليم:

ليس من الناحية الإحصائية بقدر ما هو من الناحية التطبيقية... مثلاً:

- جامعة هارفارد: التي تبحث الآن عن تعاون وثيق مع الخليج.. ميزانيتها تفوق الـ ٢٨ بليون دولار.
- أربع جامعات بريطانية تفوق ميزانياتها الـ ٥ مليارات جنيه استرليني.
- أكسفورد: افتتحت لها فرعاً في الهند.. نعم الهند.
- نحن لا زلنا تقليدياً في مجالات الطب والهندسة والقانون. أما مجالات العلوم: كالمناعة والجينات والفيزياء والذرة. فرحم الله الأجداد. فهي لآخرين.. حضورهم يسجل ويثبت غيابنا عند جائزة نوبل.

الزراعـــة:

كيف تأهلت دولة كندا «٢٥ مليون نسمة» لتكون عضواً في نادي الأغنياء السبعة: ذوات متوسط عدد السكان ٧٥ مليون نسمة أي «بنسبة واحد إلى ثلاثة». كندا التي كادت أن تطعم كل سكان العالم الثالث. المضحك أن وزراء زراعة دول الكوميسا.. اجتمعوا في الخرطوم قبل أسابيع بحثاً في تطوير التسويق..! ماذا تسوقون بربكم.. أليس حرياً بكم أن تنتجوا أولاً؟! أليست هذه مايقولون عنها.. "Politics of Food" ...

المائة وشئون الدفاع:

هل ستبحث لنا مجلتكم في مئويتها الثانية شئوننا الدفاعية وقواتنا العسكرية؟؟

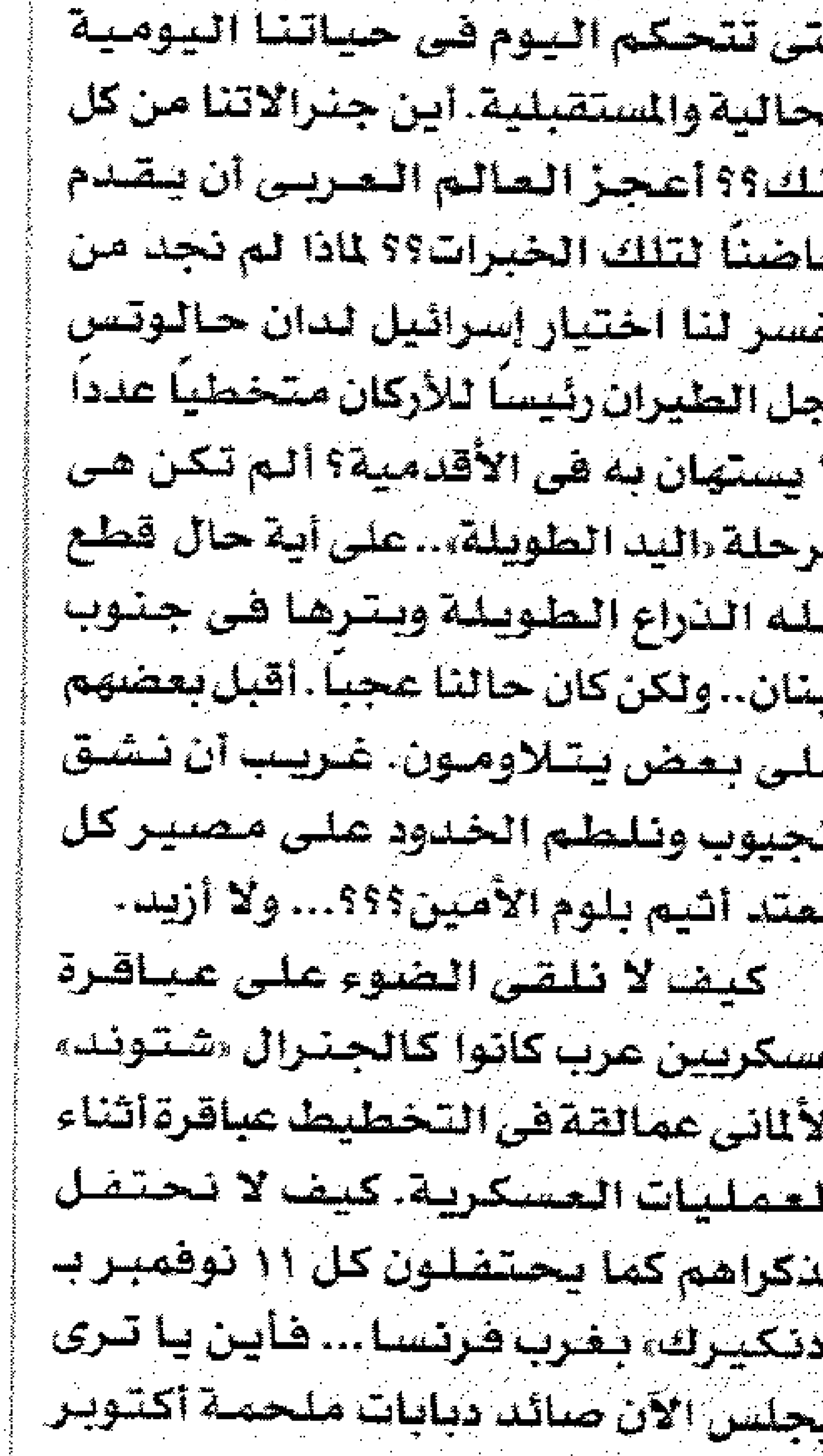
هل فتح أحد من قبل ملف ضباطنا وجنرالاتنا الذين أحيلوا إلى التقاعد في سنين مبكرة من أعمارهم... أين هم الآن؟؟؟

لماذا يبدأ عسكرهم هم حياة مثيرة وخطيرة في مجالات الدفاع و الأمن القومي كباحثي تخطيط لمشروعات التحكم والسيطرة في شتى مناطق العالم جيوبولوتيكياً. عند مراكز البحث الاستراتيجي بمدارسها الأمريكية والغربية. يفدون إليها كأساتذة وخبراء. الأمثلة أكثر من أن تعد: كالجنرال موشي يالون رئيس أركان الجيش الإسرائيلي السابق، والدكتور جك فرايليش نائب مستشار الأمن القومي السابق لإسرائيل.. وغيرهم.. وغيرهم جنرالات الجيوش الغربية. سنداً لتلك السياسات الأمنية التي تتحكم اليوم في حياتنا اليومية الحالية والمستقبلية. أين جنرالاتنا من كل ذلك؟؟ أعجز العالم العربي أن يقدم حاضناً لتلك الخبرات؟؟ لماذا لم نجد من يفسر لنا اختيار إسرائيل لدان حالوتس رجل الطيران رئيساً للأركان متخطياً عدداً لا يستهان به في الأقدمية؟ ألم تكن هي مرحلة «اليد الطويلة».. على أية حال قطع الله الذراع الطويلة وبترها في جنوب لبنان.. ولكن كان حالنا عجباً. أقبل بعضهم على بعض يتلاومون. غريب أن نشق الجيوب ونلطم الخدود على مصير كل معتد أثيم بلوم الأمين؟؟؟... ولا أزيد.

كيف لا نلقي الضوء على عباقرة عسكريين عرب كانوا كالجنرال «شتوند» الألماني عمالقة في التخطيط عباقرة أثناء العمليات العسكرية. كيف لا نحتفل بذكراهم كما يحتفلون كل ١١ نوفمبر بـ «دنكيرك» بغرب فرنسا... فأين يا ترى يجلس الآن صائد دبابات ملحمة أكتوبر ٧٣... هل نذكره؟؟؟ (محمد عبدالعاطي صائد الدبابات توفي بعد طول معاناة مع مرض البلهارسيا نهاية ٢٠٠١. المحرر)

عندما.. حرمنا من مذكراتهم وتجاربهم بدعوى أسرار الدولة. وعندهم: كل الأسرار متاحة حتى بنطلون رئيس الوزراء البريطاني «توني بلير» وجد نصيبه في مذكرات سفيره السابق في واشنطن السير «كريستوفر ماير» أين نحن من كل ذلك؟

العـــدد 10



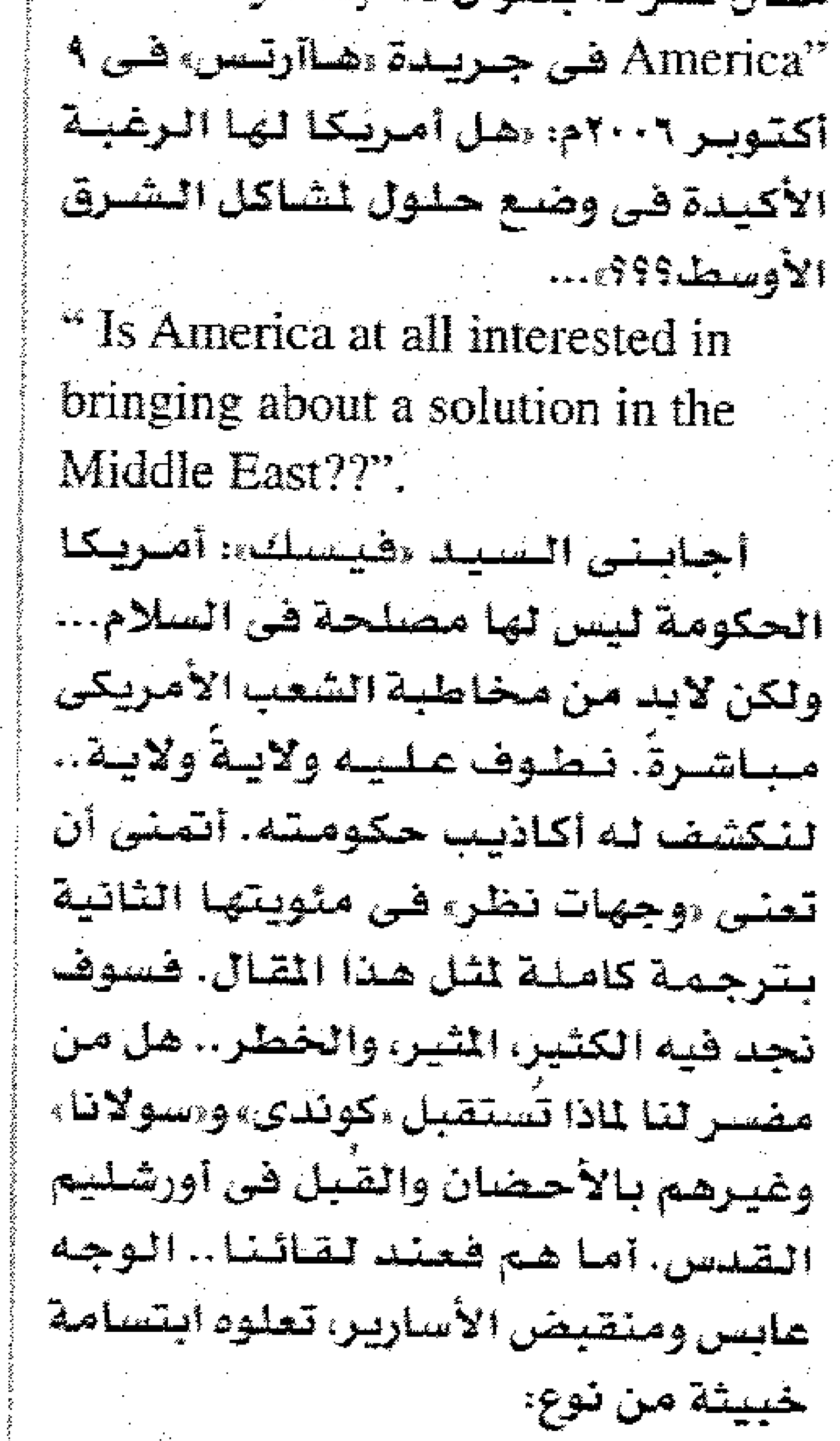
المائة وأمريكا والسياسة الخارجية:

في لقاء مع السيد «روبرت فيسك» أكتوبر الماضي: استعرت سؤالاً من الصحفي الإسرائيلي «جدعون ليفي» من مقال نُشر له بعنوان " The Mystery of America" في جريدة «هاآرتس» في ٩ أكتوبر ٢٠٠٦م: «هل أمريكا لها الرغبة الأكيدة في وضع حلول لمشاكل الشرق الأوسط؟؟؟»...

" Is America at all interested in bringing about a solution in the Middle East??".

أجابني السيد «فيسك»: أمريكا الحكومة ليس لها مصلحة في السلام... ولكن لابد من مخاطبة الشعب الأمريكي مباشرة. تطوف عليه ولاية ولاية.. لنكشف له أكاذيب حكومته. أتمنى أن تعنى «وجهات نظر» في مئويتها الثانية بترجمة كاملة لمثل هذا المقال. فسوف نجد فيه الكثير، المثير، والخطر.. هل من مفسر لنا لماذا تُستقبل «كوندي» و«سولانا» وغيرهم بالأحضان والقُبل في أورشليم القدس. أما هم فعند لقائنا.. الوجه عابس ومنقبض الأسارير، تعلوه ابتسامة خبيثة من نوع:

العـــدد 20



«أريك الرضا وإن أخفت النفس خافية».

لاحظوا «كوندي» كيف «صلت» بوزراء الخارجية. ثم أكلت الطعام مع مديري المخابرات. عسى ولعل... فالهوى غلاب. كل مصادر الأخبار وهي متاحة على «الإنترنت» مثال www.leap/europe 2020 تؤكد أن إظهار الحديث عن السلام... هو من ترتيبات الحرب ضد إيران...

" Players pretend to prepare peace because they want war".

هل تعرفون «قصة الطاحونة» التي اكتسحتها السيول في إحدى قرى كردفان بغرب السودان؟ عاد المهندس الذي حوصر بسؤال واحد «ماذا فعلت في الطاحونة؟» فقال: لم نجد أرضاً.. فركبنا الطاحونة فوق شجرة التبلدي... قالوا له: ما معقول!! قال: اسألوا ابني خير شاهد... فماذا قال ابن العشرة أعوام من العمر. «صحيح أنني لم أر الطاحونة... ولكني رأيت الناس حاملين الدقيق»... سنجد الدقيق عند النشطاء والوسطاء الذين سعوا ليل نهار لإطلاق سراح البحارة البريطانيين الخمسة عشر. وليتهم فعلوها مع الـ ١٠ آلاف فلسطيني وغيرهم من المنسيين في جوانتانامو والمخطوفين إلى أماكن مجهولة من العالم. ناسين أن حقائق القوة على الأرض هي التي أطلقت الدبلوماسي الإيراني جلال شرفي... وتعهدت ألا ترتكب حماقة في أمثال السيد محمد جعفري نائب رئيس مجلس الأمن القومي الإيراني... أو الجنرال مينوجهار فروزندا مدير مخابرات الحرس الثوري... فهل فهمنا قواعد اللعبة!!! أذكر هنا درساً بليغاً من ممثل كوريا الشمالية في الأمم المتحدة... عندما سأله مراسل الـ «نيوزويك»... لماذا لا تقبلون بالتفتيش؟؟؟... فرد الكوري:

" Today you come and ask for inspection, tomorrow you will come and ask us to take our pants off "

أعتذر عن الترجمة فلكل مقام مقال... وآه من شكوى الجريح إلى الغربان والرخم...

المائة الثانية وجيوش الاحتلال المقنعة:

أجندة ما نتوقعه كقراء من «وجهات نظر» في مئويتها الثانية مازالت مزدحمة. منها أيضاً: كيف ستكون السياسة الخارجية لأي بلد عربي أو إسلامي أو أفريقي مستقلة

أمام جيوش الاحتلال الجديدة أمثال ما يسمى بالمنظمات غير الحكومية أو منظمات المجتمع المدنى (غير المحايدة) وتلك الكلمة الزائفة التى تسمى «المجتمع الدولى». هذا غير الجرأة الوقحة لفيتو الكونجرس الأمريكى على سياسات أى دولة مخالفة لهم مما جعل السيد «مهاتير محمد» يقول ساخراً: لا داعى لأى برلمان لنا طالما هنالك الكونجرس الأمريكى بلجانه المختلفة يملك هذا الحق المقدس... كأنما لم تكفنا «فيتوهات» مجلس أمنهم... إنه حقا «مجتمع دولى» غريب. لا يصدق أى أحد منا طالما كذبه المذكورون أعلاه ولو أقسم يميناً مغلظاً وعلى الكتب الأربعة. هل تسمعون (جيداً) CNN وSky و Fox و BBC ... أعرفتم لماذا لم ننصف صوت العرب وضيعنا أحمد سعيد. دروعنا التى أغرقناها مع السفينة «ليبرتى»... التى لا زال أسر بحارتها يطالبون فى المحاكم الأمريكية بفك طلاسم أسرارها الخبيثة؟

المائة الثانية والدولار المترنح:

قالوا - والعهدة على الراوى - إن السبب الرئيسى لحرب العراق هو محاولة صدام حسين الخروج من بيت طاعة الدولار إلى حسابات البرميل البترولى باليورو. ومقدمات الحرب ضد إيران هى نفسها بالخروج إلى بورصة البترول باليورو. وما الملف النووى إلا ذريعة. فأزمة الثقة فى الدولار تؤكدها أزمة توازن ميزان المدفوعات الأمريكى لصالح الصين بـ ٢٠٠ بليون دولار أمريكى ثم إرهاصات ضرب إيران. ثم أزمة القيادة الأمريكية فى التعامل مع العرب والمسلمين. كل ذلك من شأنه أن يأخذ الدولار إلى هاوية السقوط.. وما توقف نشر الـ «M3» وهو بيان «المطبوع» من عملة الدولار مما يجعل العالم يعيش فى ضبابية وغموض من اتجاهات وتوقعات سعره... أصبح بعده الدولار ملجأ غير آمن وفق الحسابات المالية الدولية المعقدة والتى أساسها الرهان. فهل نحن على أبواب أزمة أخرى من انهيار كامل شبيه بثلاثينيات القرن الماضى؟ وأين أموال العرب وثرواتهم من الحديث الهامس فى دوائر القرار السياسى والمالى الغربى عن استبدال الدولار الحالى بدولار ذهبى؟ فهل ننتظر قدومه على أسنة الخلافات التى صدروها لنا من مذهبية وسياسية وعرقية وهلم جرا... فحتى متى يطالبوننا بتثبيت أسعار الدرهم والريال حفاظاً على توازن السوق العالمية دون الأخذ فى الاعتبار معدلات القوى الشرائية للدولار... أحلال عليهم تضخمه وحرام علينا من كل عملة؟

المائة الثانية وملف نهر النيل...

هل نعيد مقولة الأستاذ هيكل؟؟ «انتبهوا لما يجرى فى السودان»... المياه وحربها القادمة... وهل ستنجح اجتماعات وزراء دول حوض النيل العشرة التى ظلت تنعقد منذ عام ١٩٩٩م والتى سوف تختتم مداولاتها فى مايو مع عددكم المائة . هل ستنجح فى النهاية فى إقامة هيئة مشتركة للدول العشر للاتفاق على الاستغلال المتكافئ لمياه النيل لصالح شعوبها جمعاء دون إحداث أضرار وبالتالى تسهم فى معالجة النزاع الذى ظل يدور بين دول المنبع ودول المصب طيلة العقود الماضية وبالتالى ينحسر شبح التهديد بحرب مياه النيل. وهل تكون السيطرة على مصر بغير السيطرة على نيلها؟

المائة الثانية والموسيقى العربية...

انتبه ملحنونا ومؤلفونا الموسيقيون إلى وجدان هذه الأمة منذ زمن قديم... أين الملحن العظيم «محمود الشريف» أحد أميز الباقة يكفيه أنه اعتذر للدكتور محمد عبدالقادر حاتم متعه الله بالصحة والعافية عن قبول «شقة ع النيل»... حسب تعليمات الريس.. مفضلاً البقاء بـ «حى عابدين» مصدر وحيه وجذور إلهامه... قولوا لنا من هو محموووود؟؟؟ من أنشدنا «الله للمظلوم خير مؤيد».. وأين الشاعر... وأين... وأين... وهل ستذكرنا المئوية الثانية بالفنان على إسماعيل. وما أدراك من فرقة رضا؟ لنقف بتختنا الشرقى وموسيقانا العربية فى وجه هذا السخف والغزو الثقافى الذى يطبق على الأنفاس قبل الأذن والقلب بمسميات الأغنية الشبابية والـ «فيديو كليب». عجباً. فالموسيقار السير «إدورد إلقار» الذى ولد قبل مائة وخمسين عاماً مازالت صورته تحتل موقعها من العملة الإنجليزية فئة الـ « ٢٠ جنيهاً استرلينياً»... فقط نريد لهؤلاء صوراً على صفحات «وجهات نظر»...

الختـــام...

كل هذه الآمال العريضة فى المئوية القادمة... تحتاج... لجهود فكرى وفنى كبير... مدعوماً بإمكانيات مالية محترمة ومقدرة... فكيف السبيل إلى ذلك؟؟؟

أولاً: بزيادة انتشار المجلة بأرقام طموحة. تقوم على خطة إعلامية «وإعلانية» كبيرة. وزيارات ميدانية لمواقع التوزيع المستهدفة والدوائر ذات الاهتمام من «أكاديمية» وثقافية. والعمل على استقطاب مشتركين جدد بأسعار جاذبة "Introductory Offers" حبذا لو كانت مبنية على "Aggressive Sales Policy" ... وأرجوكم انظروا بعيداً (خارج الحدود التقليدية للعالم العربى) فالعرب باتوا فى كل مكان.. وأكاد أجزم... أن هناك مراكز كثيرة من العالم... عطشى للمجلة...

ثانياً: زيادة السعر الحالى للمجلة... الزيادات المحلية والعالمية... للتضخم... لا يتبعها زيادة فى سعر المجلة فكل الوسائط الإعلامية فى زيادة مستمرة... ما يسمى... Value for Money

ثالثاً: وهو الأهم...

إعادة ترتيب الوضع الإدارى للاشتراكات والتوزيع.. بشكل يضمن عدم تأخر وصول المعشوقة إلى عشيقها.

سادتى...

هل يعلم ذوو الشأن أنه فى منتصف أربعينيات القرن الماضى.. كانت كل الدوريات المصرية... تأخذ طريقها بالقطار والبواخر.. ثم القطار والعربات.. لتصل إلى مدينة القضارف بشرق السودان عند مكتبة «حنّا تسفاى»... وأيضاً إلى مدينة الأبيض بغرب السودان لمكتبة الفاتح النور مكتبة كردفان. لتباع رسالة الزيات بـ ٢٠ مليما.. نعم والله.. ورغم المشوار تصل فى مواعيد مضبوطة. فكيف لنا أن ننتظر أربعة أسابيع لتصل بالطائرة؟ لخاطرنا.. أوصوا بنا اشتراكات الأهرام والقومية للتوزيع. هل تتذكرون مقال الدكتور يحيى الرخاوى «نوفمبر ٢٠٠٣».كيف؟؟ نعم كيف وزع من كتاب «هارى بوتر» فى ٢٤ ساعة ٦ ملايين نسخة؟؟؟

تركت استقطاب الدعم... بجذب رءوس الأموال العربية لدائرة النشر لتقديركم... فهى مسألة لا يتخذ فيها القرار بسهولة فى عالمنا العربى. ولكن... عندهم (أو عندنا بحكم الإقامة) فى غرب أوروبا.. لا يضير الأخوان باركليز أن يدفعوا ملايين الاسترلينيات فى شراء الـ «ديلى تيلغراف». وتلك قصة أخرى.. تدخل رءوس الأموال. ولكنها تظل بعيدة عن «قلم التحرير». فلكل حدود. مرحلة نحتاجها ونصبو إليها بشدة. أعرفتم لماذا ترك «مايكل قريد» الـ «BBC» إلى الـ «ITV» بصفقة قُدرت بـ «خمسة ملايين جنيه استرلينى؟»... هذا هو عالم اليوم... يحترم:

لسان من أراد فصاحةً وسيوف من أراد قتالا...

خواطر... من أجل المئوية القادمة...

حاولنا... فيها الاجتهاد... بالإحاطة...

أرجو أن تكون إضافة... لمزيد من النجاح والتوفيق...

ولكم سادتى....

أجمل المنى...

مخلصكم

عبدالرحمن عبدالقادر

قارئ

لندن فى ١٥ أبريل ٢٠٠٧م

العـــدد 30



العـــدد 50

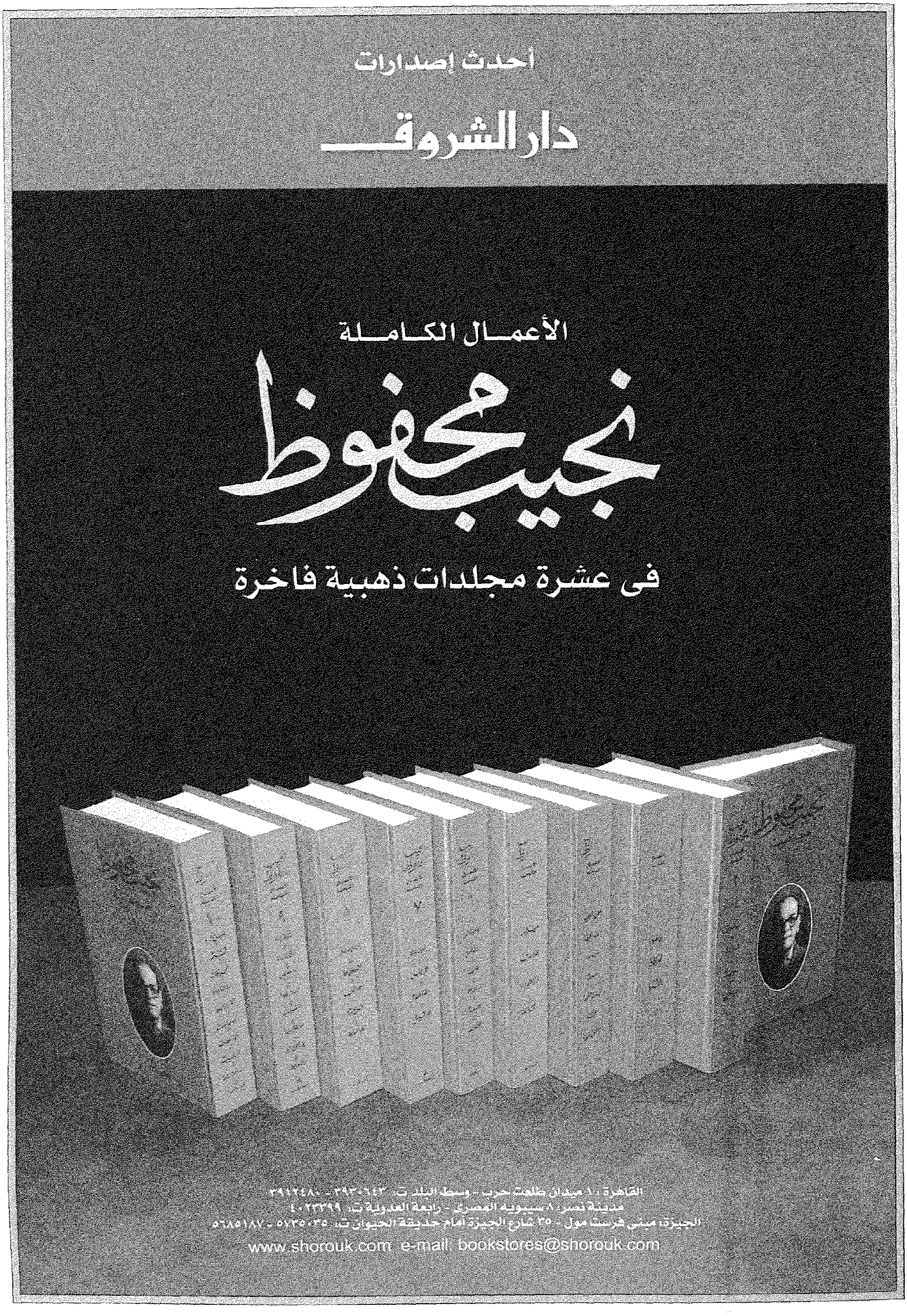


العـــدد 70



العـــدد 90




أحدث إصدارات
دار الشروق
الأعمال الكاملة
نجيب محفوظ
فى عشرة مجلدات ذهبية فاخرة
القاهرة: ١٠ ميدان طلعت حرب - وسط البلد ت: ٣٩٣٠٦٤٣ - ٣٩١٢٤٨٠
مدينة نصر: ٨ سيبويه المصرى - رابعة العدوية ت: ٤٠٢٣٣٩٩
الجيزة: مبنى فرست مول - ٣٥ شارع الجيزة أمام حديقة الحيوان ت: ٥٧٣٥٠٣٥ - ٥٦٨٥١٨٧
www.shorouk.com e-mail: bookstores@shorouk.com